جامع المسائل العقدية

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

دار اللؤلؤة

الجزء الأول

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} (آل عمران: ١٠٢).

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} (النساء: ١).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} (الأحزاب: ٧٠، ٧١).

*** أما بعد:**

فلما كان توضيح العقيدة الصحيحة والدعوة إليها هو أهم الأمور وآكد الواجبات؛ لأنها الأساس الذي تنبني عليه صحة الأعمال وقبولها؛ كان اهتمام الرسل صلوات الله وسلامه عليهم واهتمام أتباعهم بإصلاح العقيدة أولًا عما يناقضها أو ينقصها، وكان نصيب هذا الجانب من سور القرآن وآياته النصيب الأوفر، وكان نصيبه من دعوة الرسول ﷺ واهتمامه النصيب الأكبر.

وقد أولى علماء هذه الأمة هذا الجانب قدرًا كبيرًا من جهودهم وجهادهم وتعليمهم وتأليفهم؛ حتى شغلت كتب العقيدة حيزًا كبيرًا من المكتبة الإسلامية، وصار لها الصدراة بين محتوياتها.

وقد أحببت أن أسهم بجهدي القليل في هذا العمل الجليل؛ بكتاب "جامع المسائل العقدية"، فجمعت فيه معظم مسائل العقيدة من كتب أئمة الدين وعلماء أهل السنة والجماعة من الصدر الأول حتى العصر الحاضر.

فما كان فيه من حقّ وصواب فمن الله وحده {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} (البقرة: ٢٥٥)، {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ} (النساء: ١١٣)، وما كان فيه من تقصير وخطأ فمن نفسي والشَّيطان، وأستغفر الله.

فلله الحمد والشكر والمنَّة، والثَّناء الحسن، على فضله، وتيسيره، وإعانته، وتوفيقه

والحمد لله أولا وآخرًا.

إن تجد عيبًا فسدَّ الخللا جلَّ من لا عيبَ فيه وعلا

فأسألك اللهم أن تجعل عملي في هذا الكتاب من الجهاد في سبيلك، وأن تجعله من موازيني وصحائفي يوم العرض عليك، وبيض به وجهي يوم تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف وتسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

كتبه

محمد بن نصر أبي جبل

(باب تعريف العقيدة)

العقيدة في اللغة: من العَقْدِ؛ وهو الرَّبطُ، والإبرامُ، والإحكامُ، والتَّوثقُ، والشَدُّ بقوه، والتماسُك، والمراصةُ، والإثباتُ؛ ومنه اليقين والجزم.

وهو يدل على الشدة والوثوق، ومنه: عقد الشيء يعقده عقدا وانعقد وتعقد، والمعاقد: هي مواضع العقد، والعقدة: القلادة، والعقد: الخيط ينظم فيه الخرز وجمعه عقود، ويقال: اعتقد الدر والخرز وغيره وغيره: إذا اتخذ منه عقدا، وعقدت الحبل اعقده عقدا وقد انعقد، ومعقد الحبل مثل مجلس، وهو موضع عقده يقال له: عقده، وجمعها عقد، لأنها تمسكه وتوثقه، ومنه قوله تعالى: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}: أي السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن فيها[١].

هذا هو أصل العقد: وهو أنه نقيض الحل، وهو وصل الشيء بغيره كما تعقد الحبل بالحبل، ثم استعمل في جميع أنواع العقود في المعاني والأجسام٣، فمن استعمالاته في المعاني أن يقال: عقد العهد واليمين يعقدهما عقدا وعقدهما: أي أكدهما، ومنه قوله تعالى: {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُم} وقرئ بالتشديد ومعناه التوكيد والتغليظ كقوله تعالى: {وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا}، ومنه قول الحطيئة:

قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم ... شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا[٢]

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٤/ ٨٧ ولسان العرب ٣/ ٤١٣.

(٢) العناج خيط أو سير يشد في أسفل الدلو ثم في عروقها أو في إحدى آذانها، فإذا انقطع الحبل أمسك العناج الدلو أن تقع في البئر، والكرب: حبل يشد على عراقي الدلو ثم يثنى ثم يثلث والجمع أكراب.

فجعلوا العناج والكرب مثلين لتأكيد الوفاء بالعهد[١].

والمعاقدة: المعاهدة، وفي قراءة ابن عباس: {وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ}، وكقوله تعالى: {وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ الأَيْمَانَ}، ويجوز أن تقرأ بالتخفيف.

ثم أطلق العقد على العهد وجمعه عقود، وهي أوكد العهود، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}، فإذا قلت: عاقدت فلانا وعقدت عليه، فتأويله: عاهدته وألزمته ذلك باستيثاق.

كذلك استعمل العقد في البيع والنكاح وغيره فيقال: عقد البيع وعقد النكاح، وعقدته: أي إبرامه وإحكامه ووجوبه، ومنه: اعتقد الأمر: أي صدقه، واعتقد الأخاء: ثبت، واعتقد كذا: عقدت عليه القلب والضمير، حتى قيل: العقيدة: هي ما يدين الإنسان به[٢].

ومن استعمالاته في الأجسام كأن نقول: اعتقد الشيء: أي صلب، وعقد العسل: أي اشتد، وإذا أطبق الوادي على قوم فأهلكهم يقال: عقد عليهم، وعقد الحبل أو الخيط: إذا شده.

إذن فلفظ العقد أصل وضعه: نقيض الحل، قال في تاج العروس عند لفظ عقد: "والذي صرح به أئمة الاشتقاق: أن أصل العقد نقيض الحل، ثم استعمل في جميع أنواع العقود في البيوعات وغيرها، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم".

والمعتقد: مصدر ميمي بمعنى الاعتقاد: أي ما يعتقده الإنسان.

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٢٧.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٨٨/ ٤ والمصباح المنير ٢/ ٧١.

بناء على ما تقدم في كلمة عقد واشتقاقها، يتبين لنا أن كلمة العقيدة لغة: فعيلة، من عقد بمعنى معقودة "أي بمعنى اسم المفعول" فهي تطلق لغة على الأمر الذي يعتقده الإنسان ويعقد عليه قلبه وضميره، بحيث يصير عنده حكمًا لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، فاعتقد كذا بقلبه: أي صار له عقيدة؛ لأنه لما كان العقد لغة: هو الجمع بين أطراف الشيء، فكأن المعتقد قد جمع أطراف قلبه وعقد ضميره على معتقده فأحكم وثاقه بالأدلة القاطعة لديه والبراهين التي قامت على معتقده حتى يكون لانعقاد القلب عليه أثر ظاهر من الإذعان والخضوع له، فأشبهت العقيدة العهد المشدود والعروة الوثقى لاستقرارها في القلب ورسوخها في الأعماق[1].

وكلمة العقيدة لم ترد في القرآن الكريم وإنما وردت مادتها فقط في مثل قوله تعالى {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا} (النساء:٣٣)، وقوله تعالى: {وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} (البقرة:٢٣٥).

والعَقْد نقيض الحل، ويقال: عَقَده يعقِده عَقْدا، ومنه عُقْدَة اليمين والنكاح، قال اللّه تبارك وتعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ} المائدة: الآية، ٨٩. والعقيدة: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، والعقيدة في الدِّين ما يُقْصَدُ به الاعتقاد دون العمل؛ كعقيدة وجود

(١) المصباح المينر ٢/ ٧١.

اللّه وبعث الرسل. والجمع: عقائد.

وخلاصته: ما عقد الإنسانُ عليه قلبه جازما به؛ فهو عقيدة؛ سواءٌ أكان حقا، أَم باطلا.

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ٤/ ٨٦، ٨٧: عقد: العين والقاف والدال أصل واحد يدل على شد وشدة وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها. ومن ذلك: عقد البناء، والجمع: أعقاد وعقود. . . وعقدت الحبل أعقده عقدا، وقد انعقد، وتلك هي العقدة. . وعاقدته مثل: عاهدته، وهو العقد والجمع: عقود اليمين، ومنه قول الله تعالى: {أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: ١].

والعقد: عقد اليمين، ومنه قوله تعالى: {وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ} [المائدة: ٨٩].

وعقدة النكاح وكل شيء: وجوبه وإبرامه. والعقد في البيع: إيجابه. . . وعقد قلبه على كذا فلا ينزع عنه. واعتقد الشيء: صلب، واعتقد الإخاء: ثبت. . .[١]

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات (ص٣٤١): العقد: الجمع بين أطراف الشيء، ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء[٢]، ثم يستعار ذلك للمعاني نحو: عقد البيع والعهد وغيرهما، فيقال: عاقدته وعقدته، وتعاقدنا وعقدت يمينه. . . .

وقال الفيومي في المصباح المنير ٢/ ٤٢١: اعتقدت كذا: عقدت عليه

---

(١) انظر مادة عقد في لسان العرب: ٣/ ٢٩٦-٣٠٠، الصحاح: ٢/ ٥١٠، ٥١١، أساس البلاغة: ٢/ ١٣١، ١٣٢، تهذيب الأسماء واللغات: ٣/ ٢٧، ٢٨، الكليات: ١/ ٢٤١.

(٢) عقد البناء: ألصق بعض حجارته ببعض بما يمسكها، فأحكم إلصاقها.

القلب والضمير، حتى قيل: العقيدة: ما يدين الإنسان به. وله عقيدة حسنة: سالمة من الشك.

ومن هذه النصوص نلاحظ أن مدار كلمة عقد على الوثوق والثبات والصلابة في الشيء.

ومن هنا جاء تعريف العقيدة والاعتقاد، كما في المعجم الوسيط: ٢/ ٦١٤ حيث قال: العقيدة: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، والعقيدة في الدين: ما يقصد به الاعتقاد دون العمل، كعقيدة وجود الله وبعث الرسل، والجمع: عقائد.

فالعقيدة: هي الأمور التي يجب أن يُصَدِّقَ بها القلب، وتطمئن إِليها النفس، حتى تكون يقينا ثابتا لا يمازجها ريب، ولا يخالطها شك.

أَي: الإِيمان الجازم الذي لا يتطرَّق إِليه شك لدى معتقده، ويجب أَن يكون مطابقا للواقع، لا يقبل شكا ولا ظنا؛ فإِن لم يصل العلم إِلى درجة اليقين الجازم لا يُسَمى عقيدة. وسمي عقيدة؛ لأَنَّ الإِنسان يعقد عليه قلبَه.

والعقيدة الإِسلاميَّة: هي الإِيمان الجازم بربوبية اللّه تعالى وأُلوهيته وأَسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وسائر ما ثَبَتَ من أُمور الغيب، وأصول الدِّين، وما أَجمع عليه السَّلف الصَّالح، والتسليم التام للّه تعالى في الأَمر، والحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم.

والعقيدة الإِسلاميَّة: إِذا أُطلقت فهي عقيدة أَهل السُّنَّة والجماعة؛ لأَنَّها هي الإِسلام الذي ارتضاه اللّه دينا لعباده، وهي عقيدة القرون الثلاثة المفضَّلة من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإِحسان.

وللعقيدة الإِسلامية:

أَسماء أُخرى عند أَهل السُّنَّة والجماعة؛ تُرادِفُها، وتَدلُّ عليها، منها: التوحيد، السُّنَة، أُصُول الدَين، الفقه الأكبر، الشريعة، الإِيمان. هذه أَشهر إِطلاقات أَهل السُّنَّة على علم العقيدة.

وقال العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (١/ ١٦٩): العقيدة: هي كل ما يتعلق بعالم الغيب مما لا يرتبط به حكم عملي.

مسألة: ذكر أسماء علم العقيدة

للعقيدة أسماء منها: التوحيد، والسنة، وأصول الدين، والفقه الأكبر، والشريعة، والإيمان.

أولا: العقيدة: مرت كلمة عقيدة بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وهي دور الموسوعية في المعنى وعدم الاختصاص، وهو المعنى اللغوي، فهي في اللغة تطلق ويراد بها:

العزم المؤكد - الجمع - النية - التوثيق للعقود - ما يدين به الإنسان سواء كان حقا أو باطلا.

المرحلة الثانية: وهي دور الفعل القلبي، وفيه تبرز العقيدة كمعنى يقوم بقلب العبد، وهو أخص من المرحلة قبله، ويعبر عنه بالمعنى المصدري وهو بهذا الاعتبار: الإيمان الذي لا يحتمل النقيض.

المرحلة الثالثة: وهي الدور الذي نضجت فيه العقيدة، وأصبحت علما ولقبا على قضايا معينة، وهو دور الاستقرار وهو المعبر عنه: العلم بالأحكام الشرعية العقدية المكتسب من الأدلة اليقينية ورد الشبهات وقوادح الأدلة الخلافية.

ومن المؤلفات التي حملت اسم العقيدة أو الاعتقاد ومن ذلك: كتاب (عقيدة السلف أصحاب الحديث) للصابوني (ت: ٤٤٩هـ). و (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) للالكائي (ت: ٤١٨هـ). و (الاعتقاد) للبيهقي (ت: ٤٥٨هـ).

ثانيا: التوحيد: قد مرت كلمة توحيد بنفس الأدوار التي مرت بها كلمة عقيدة، فهي في الدور اللغوي مشتقة من وحد يوحد توحيدا فهي مصدر للفعل وحد بمعنى جعله واحدا ثم نقل عن هذا المعنى إلى معنى الفرد المتميز عن غيره، لأن كون الله واحدا ليس بجعل جاعل، وعلى هذا فالواحد هو المنفرد بخصائصه عما سواه. ومن هذا المعنى قولهم: واحد زمانه أي: فردا فيه إما علما أو عقلا وكرما ونحو ذلك.

وفي الدور المصدري أو اعتباره فعلا من أفعال القلب: هو إفراد الله بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات والأفعال.

وفي الدور الأخير وهو دور الاستقلال صارت فيه كلمة التوحيد تدل على العلم المسمى بها وهي بهذا الاعتبار: العلم الذي يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية.

ومن المؤلفات في العقيدة والتي حملت اسم التوحيد: كتاب (التوحيد في الجامع الصحيح) للبخاري، (ت: ٢٥٦هـ) وكتاب (التوحيد وإثبات صفات الرب) لابن خزيمة (ت: ٣١١هـ). وكتاب (اعتقاد التوحيد) لأبي عبدالله محمد بن خفيف (ت: ٣٧١هـ). وكتاب (التوحيد) لابن منده (ت: ٣٥٩هـ). وكتاب (التوحيد) للإمام محمد بن عبدالوهاب (ت: ١١١٥هـ).

ثالثا: السنة: تعدد معناها بحسب الاصطلاحات، فكل أهل علم إسلامي

اصطلحوا على دلالة متناسبة وطبيعة هذه العلوم.

فعلماء الحديث السنة عندهم: ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف.

وعند علماء أصول الفقه: هي ما أمر به الشارع لا على سبيل الإلزام.

وعند علماء الفقه: هو ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه.

وعند علماء العقيدة الصحيحة ملحوظة فيها أن السنة من مصادر التلقي للعقيدة الصحيحة وطريق من طرق إثباتها. ولذا جعل بعض السلف السنة هي الاتباع، وجعلها بعضهم الإسلام، والقولان غير متنافرين ولا متعارضين لأن الإسلام هو تعبير عن العقيدة الصحيحة، والاتباع يعبر عن طريق التلقي ومنهجه.

فصار معنى السنة هو اتباع العقيدة الصحيحة الثابتة بالكتاب والسنة وممن استعمل هذا اللفظ في هذا المعنى الإمام أحمد بن حنبل في كتابه (السنة) فقد ضمنه العقيدة الصحيحة الثابتة بنقل العدول عن الرسول ﷺ وأصحابه، وكذا فعل عبد الله بن الإمام أحمد في كتابه (السنة) ومنه أيضا كتاب (السنة) لابن أبي عاصم.

رابعا: أصول الدين: وهو مركب من مضاف ومضاف إليه، فهو مركب إضافي، ولا يمكن منطقيا أن نتوصل إلى معنى المركب إلا عن طريق تحليل أجزائه المركب منها، وهي (أصول) و(دين).

فأصول جمع أصل وهو لغة ما يبنى عليه غيره كأساس المنزل.

واصطلاحا: ما له فرع.

والدين لغة: هو الذل والخضوع، وشرعا: هو امتثال المأمور واجتناب

المحظور، أو طاعة الله ورسوله. فيكون المعنى المركب -أصول الدين – هو المبادئ العامة والقواعد الكلية الكبرى التي بها تتحقق طاعة الله ورسوله والاستسلام لأمره ونهيه.

وهذا المعنى لا يراد به إلا علم العقيدة والتوحيد.

وقد ألف بعض العلماء كتبا في الاعتقاد تحمل اسم أصول الدين: مثل كتاب (أصول الدين) للبغدادي (ت: ٤٢٩هـ). و (الشرح والإبانة عن أصول الديانة) لابن بطة (ت: ٣٧٨هـ). و (الإبانة عن أصول الديانة) للأشعري (ت: ٣٢٤هـ).

خامسا: الفقه الأكبر: الفقه في اللغة هو الفهم، وأضيف إلى الأكبر لإخراج الفقه وهو علم الحلال والحرام وعلم الفروع، وهو اصطلاح عرف في القرن الثاني الهجري حيث أطلق على الكتاب الذي نسب للإمام أبي حنيفة الذب جمع فيه جملة من اعتقادات السلف فسمي (بالفقه الأكبر) إشارة إلى أنه أعظم ما في شريعة الإسلام ولا يتحقق هذا اللقب إلا على علم العقيدة.

سادسا: الشريعة: أطلقت الشريعة وبإطلاق أخص كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ على: (العقائد التي يعتقدها أهل السنة من الإيمان، مثل اعتقادهم أن الإيمان قول وعمل، وأن الله موصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق. . . . . إلخ)[1].

والشريعة هنا كالسنة، فقد يراد بها ما سنه الله وشرعه من العقائد، وقد يراد بها ما سنه وشرعه من العمل، وقد يراد بها كلاهما.

وقد ألف بعض العلماء كتبا في الاعتقاد تحمل اسم الشريعة، ومن أولها: (الشريعة) لأبي بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ. و (الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٣٠٧-٣٠٦).

الفرق المذمومة) لابن بطة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

سابعا: الإيمان: صنف السلف كتبا باسم الإيمان بحثت قضايا التوحيد ومسائل الاعتقاد جميعا ومن أولها:

- (كتاب الإيمان ومعالمه وسننه واستكمال درجاته) للإمام أبي عبيد القاسم ابن سلام البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- (كتاب الإيمان) للحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شبة العبسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- (كتاب الإيمان) للحافظ محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أما أسماء علم العقيدة المشتهرة عند غير أهل السنة فمنها:

أولا: علم الكلام: هو علم يقتدر به على المخاصمة في العقائد والمناظرة فيها بإيراد الحجج والشبه ودفع إيرادات الخصوم فهو باختصار علم الجدل العقدي المذموم شرعا فهو مراء متعلق بإظهار المذاهب والانتصار لها.

الفرق بين علم التوحيد وعلم الكلام

ويتبين من الأمور التالية:

- علم التوحيد يعتمد على الكتاب والسنة وإجماع السلف والمعقول الصحيح المستند إليها.

أما علم الكلام فهو علم يعتمد على الألفاظ المنطقية والأقيسة الكلامية فهو متأثر بعوامل خارجية عن دلالة الكتاب والسنة.

- علم التوحيد علم شرعي لا بدعة فيه وعلم الكلام علم مبتدع لم يعرفه الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

- علم التوحيد لا يشتمل على أي لفظ بدعي ولا مصطلح فلسفي أما علم

الكلام فإنه يشتمل على كثير من الألفاظ البدعية والمصطلحات المنطقية والآراء الفلسفية.

- أصل علم التوحيد موجود في العصور المفضلة القرون الثلاثة وأما علم الكلام فليس كذلك بل هو علم حادث نتيجة مؤثرات خارجية بسبب ترجمة كتب المنطق والفلسفة.

- آثار علم التوحيد محمودة وأما آثار علم الكلام فهي مذمومة.

- إن علم التوحيد أداة للمحق على المبطل وذلك بإظهاره لباطله وأما علم الكلام فهو أداة للمحق والمبطل وهو إلى المبطل أقرب.

وإطلاق علم الكلام يعرف عند سائر الفرق المتكلمة، كالمعتزلة والأشاعرة، ومن يسلك سبيلهم، وهو لا يجوز لأن علم الكلام حادث مبتدع، ويقوم على التقول على الله بغير علم، ويخالف منهج السلف في تقرير العقائد. ومن ذلك: (شرح المقاصد في علم الكلام) للتفتازاني (ت:٧٩١هـ).

ثانيا: الفلسفة: يطلق علم الفلسفة على علم العقيدة عند الفلاسفة ومن سلك سبيلهم، وهو إطلاق لا يجوز في العقيدة لأن الفلسفة مبناها على الأوهام والعقليات الخيالية، والتصورات الخرافية عن أمور الغيب المحجوبة.

ثالثا: التصوف: تطلق كلمة تصوف على العقيدة عند بعض المتصوفة والفلاسفة، والمستشرقين ومن نحا نحوهم، وهو إطلاق مبتدع لأنه ينبني على اعتبار شطحات المتصوفة ومزاعمهم وخرافاتهم في العقيدة.

رابعا: الإلهيات: وتطلق كلمة الإلهيات على العقيدة عند أهل الكلام والفلاسفة والمستشرقين وأتباعهم وغيرهم، وهو خطأ، لأن المقصود بها عندهم فلسفات الفلاسفة، وكلام المتكلمين والملاحدة فيما يتعلق بالله تعالى.

خامسا: ما وراء الطبيعة: أو (الميتافيزيقيا) كما يسميها الفلاسفة والكتاب الغربيون ومن نحا نحوهم، وهي قريبة من معنى الإلهيات. ويطلق الناس على ما يؤمنون به ويعتنقونه من مبادئ وأفكار (عقائد) وإن كانت باطلة أو لا تستند إلى دليل عقلي ولا نقلي، فإن للعقيدة مفهوما صحيحا هو الحق، وهو عقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من الكتاب والسنة الثابتة، وإجماع السلف الصالح.

(باب أهمية الدعوة للعقيدة)

لما كان توضيح العقيدة الصحيحة والدعوة إليها هو أهم الأمور وآكد الواجبات؛ لأنها الأساس الذي تنبني عليه صحة الأعمال وقبولها؛ كان اهتمام الرسل صلوات الله وسلامه عليهم واهتمام أتباعهم بإصلاح العقيدة أولًا عما يناقضها أو ينقصها، وكان نصيب هذا الجانب من سور القرآن وآياته النصيب الأوفر، وكان نصيبه من دعوة الرسول ﷺ واهتمامه النصيب الأكبر؛ فقد مكث ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التوحيد وإصلاح العقيدة، ولما فتح الله عليه مكة؛ كان أول ما بدأ به هدم الأصنام والقضاء عليها، والأمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

قال العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (١/ ١٦٩): أنا رأيي أنه لا بد من الدندنة حول العقيدة في العالم الإسلامي كُلِه، وقصور العالم الإسلامي كله انصرافه عن العقيدة وعن تبيينها للناس، وأكبر دليل أن أحزابًا إسلامية معروفة كثرة عددِها وطول أمدها في التحزب يرون أن الاشتغال بالدعوة وبتصحيح الأفكار هذا خطأ، ولنا تجارب مؤسفة جدًا، ومنذ ثلاثين سنة وأنا في المدينة جمعنا مجلس كهذا المجلس تمامًا، -لكن كنا جالسين جلسة عربية على

الأرض- وأنا كان جلوسي محل الأخ هذا منير، يعني آخر واحد، دخل رجل خطيب مصقع ورئيس حزب إسلامي معروف في بعض البلاد، فسلم وبدأ يصافح، لاحظت ملامح وجهه تمعرت كما جاء في الحديث، السبب أن أحدًا لم يقم له، ولا شك أن هذا أمر غير معتاد في مثل هذه الاجتماعات، وبالنسبة لداخل له مركزه الاجتماعي، حتى وصل إلي وأنا آخر الجالسين هناك عند الباب تمامًا، قلت له: يا أستاذ كما يقولون عندنا في الشام: عزيز بدون قيام؛ لأني أنا شعرت أنه صار في نفسه شيء من عدم قيام هؤلاء الناس له، هو ما كاد يسمع هذه الكلمة إلا انفجر، وقال: يا أستاذ نحن الآن نريد أن ننشغل بهذه الجزيئات وكذا وكذا. . وهو بيهدر كما يقولون في اللغة العربية: هدير. . . خطيب هو، ولازم نكون كلمة واحدة، ونحن الآن نعيش مع البعثيين والشوعيين و. . إلى آخره، فتركته حتى انتهى، قلت: يا أستاذ! هل يكفي ما سمعت منك أنه يكفينا الاجتماع على لا إله إلا الله ولو بدون فهم؟! قال: ولو بدون فهم. ما رأيك؟! رئيس حزب إسلامي! وأنا أعرف أن هذه الأحزاب تعيش على هذا الأصل، يكتفون من عامة المسلمين أن يقولوا لا إله إلا الله ولو لم يفهموا أن هذه الشهادة أو هذه الكلمة الطيبة تستلزم الكفر بالطاغوت، لكن ليس الكفر بالطاغوت فقط بالمعنى العصري اليوم؛ لأنه هذا أيضًا من مصائب العصر الحاضر، كثير من الشباب المسلم الآن: الطاغوت هو الحاكم الذي يحكم بغير ما أنزل الله، بينما هناك طواغيت متنوعة، هذه النذور وهذه الأيمان وهذه الدعوات التي توجه إلى غير الله ﷻ، هذه تنافي كلمة لا إله إلا الله بالنسبة لمن يفهم أن لا إله إلا الله يعني توحيد الألوهية وتوحيد العبادة، هذا العالم الإسلامي يعيش على هذا، ولذلك فعلى دعاة الإسلاميين حقًا أن يجمعوا ليس

فقط في الأسلوب الحسن الذي دندنت حوله؛ بل ومعه العلم الصحيح بالكتاب والسنة، وهذا ما هو العالم الإسلامي بحاجة إليه.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (١/ ١٧٠): إذا اختلف المسلمون في العقيدة فهم سيختلفون فيما دون العقيدة من باب أولى، والخلاف في العقيدة هو الذي يضر، والخلاف في الفروع هو الذي لا يضر إذا ما الإنسان أخلص لاتباع الحق حيثما كان، فترك جماهير الدعاة الإسلاميين اليوم في كل البلاد الإسلامية الاهتمام بنشر العقيدة الصحيحة بين الشعوب، هذا قصور من العلماء كلهم، فيجب الاهتمام بهذه الناحية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (١/ ١٨٣): بارك الله فيك يا شيخنا! في عندي سؤال ثمة له علاقة، يعني: هو منهجي أيضًا في تتمة البحث لكن ما هو في الجانب الفقهي، لكن في الجانب العقائدي. . من المعلوم أن الدعوة السلفية كذلك فيما تدعو إليه كما تدعو إلى تحكيم الكتاب والسنة في فهم السلف الصالح في المسائل العملية والعبادات وغيرها، فهي كذلك تدعو إلى تحكيم الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح وما عرف بالعقيدة السلفية وتعلمها والحرص عليها؛ لأن البدء بالإيمان بالله تبارك وتعالى واليوم الآخر هو من مهمات الإسلام؟

الشيخ: حق.

مداخلة: ولكن هناك شبهات ثلاث هي في الحقيقة تدور حول نقطة واحدة فلذلك أنا أذكر الشبهات الثلاث وهي يعني: حرصًا على الوقت أجمعها الثلاث شبهات ثم بعد ذلك يكون الرد على ما شئتم.

فيقولون الشبهة الأولى: يقال: أنه لازم من دراسة العقيدة ما يصح به الإيمان

وهذا من الممكن تعلمه في دقائق معدودة.

الشبهة الثانية: يقولون: إن دراسة العقيدة على وجه التفصيل ولا سيما في أبواب الردود على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم، (تدخل) الناس فيما لم يوجب الله ﷻ عليهم معرفته ويعرضهم للافتتان في دينهم، كما أن تدريس العقيدة مفصلة يوقع الناس في الحيرة والتذبذب.

الشبهة الثالثة: اتهام العلماء السلفيين بأنهم يدندنون حول مسائل الشرك والتوحيد دون أن يدخلوا في بحث ما تحتاج إليه الأمة من تحكيم الشريعة ومصارعة الطواغيت وإنكار المنكر، ومن غير أن ينقلوا الدعوة إلى واقع عملي تطبيقي.

يعني: هي ثلاث شبهات لكن في الحقيقة كلها مؤداها عدم دراسة العقيدة وعدم الحرص على (التوسع فيها).

الشيخ: أما الشبهة الأولى فهي كأخرياتها وكأخواتها شنشنة نعرفها من أقدم الذي يقول: أن العقيدة يمكن تلقيها في دقائق نسأل هذا القائل: ما هي هذه العقيدة التي يمكن أن يتلقاها المسلم في دقائق هل يعني هو أن يتلقى العقيدة مجملًا في دقائق أم تفصيليًا في دقائق؟ إن قال مجملًا نحن نقول: ممكن هذا إجمالًا كما هو في حديث: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه إلى آخره»(١) أما إن قال أيضًا يمكن تلقي العقيدة تفصيليًا في دقائق، فنحن سنقول له أولًا: هل تعني العرب أم تعني العجم، فمن قوله: أعني العرب، أليس كذلك؟ أنت شاعر بقى بالمشكلة انصب حالًا حالك، يعني: مدافعًا عنهم، أو معبرًا عن شبهاتهم، فسنقول له: إن كنت تقصد العرب فقط، فهذه أول خطيئة؛ لأنك تعلم أن

(١) صحيح البخاري (رقم٥٠) وصحيح مسلم (رقم١٠٢).

الإسلام لم يرسل إلى العرب خاصة، وإنما أرسل إلى الناس كافة.

ثم نقول ثانيًا: هل تعني العرب الأقحاح الذين يفهمون اللغة العربية لغة القرآن الكريم دون أن يتعلموا؟ فإن قال: نعم، نقول أيضًا جهلت؛ لأن العرب دخلتهم العجمة وأصبح من يعيش في عقر البلاد العربية لا يستطيع أن يفهم القرآن وهو نزل بلغة العرب إلا بدراسة مقدمات لغوية وعلوم يسمونها اصطلاحًا بعلوم الآلة ونحو ذلك، حينئذ نتوصل إلى القول بأن هذا العالم الذي يريد أن يعلم الناس العقيدة التي جاءت بالكتاب والسنة هل هو يعيش في جو يشبه الجو الأول السلفي الأول الذي يمثل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مع أصحابه، أم هو يعيش في أجواء من التفرق الفكري والتفسخ الأخلاقي والسلوكي؟ أظن أيضًا سيكون جوابه إن شاء الله على الحق إنه يقول: لا. هو يعيش الآن في جو يختلف كل الاختلاف عن الجو السابق.

إذًا: هذا الذي يقول: إنه ممكن فهم العقيدة على الوجه التفصيلي الذي جاء به الكتاب والسنة في دقائق فإنما هو يعيش في خيال، ثم نحن نجعله تحت أمر واقع، أعطني نشوف العقيدة في دقائق، هب لي أنا رجل بدوي جاي من الصحراء أريد أن أتعلم العقيدة الإسلامية ما هي؟

مداخلة: قائل هذا القول يربط بين العقيدة وبين ما تصح به العقيدة فيقول: إن الإنسان حين يطالب بالإسلام، إنما يؤمر بمعرفة الله ﷻ معرفة عامة، وبأن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن يؤمن بما عَرَّف به -صلى الله عليه وآله وسلم- الإيمان، أو كما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-. . .

الشيخ: هذا يعود إلى كلامي السابق إجمالًا.

مداخلة: نعم.

الشيخ: طيب! لكن هو لا يؤمن معنا بأنه يجب بعد ذلك أن يتعلم الإسلام تفصيليًا على اعتبار أن العلم ينقسم إلى قسمين علم عيني وعلم كفائي، وهذا ما أظن أحدًا ينكره، الآن هو يتكلم عن الرجل انظر الآن ضلال هؤلاء الناس اللي بيعيشوا بالأحلام، بيتصوروا أولًا إنه مجتمعنا هو مجتمع الرسول ﷺ، ثانيًا بيتصور كل مسلم: مسلم ابن مسلم ابن مسلم الله أعلم وين ينتهي، بيتصور أنه اليوم أسلم، يا أخي فيه فرق بين اللي دخل في الإسلام حديثًا، وبين اللي عايش في مجتمع إسلامي فهذا يختلف عن الأول تمامًا، رجل كافر يريد أن يسلم (ماذا سنقول له) نقول: اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، صار مسلمًا بشهادة الحديث صحيح، «فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»(١).

(. . . انقطاع. . .)

لا يتعلم لا العقيدة بتفاصيلها ولا العبادة بتفاصيلها ما أظن يصل الجهل إلى الاعتراف بمثل هذا الإسلام المجمل، لا بد أن يقول: لا؛ يجب عليه فيما بعد أن مثلًا يتعلم كيفية الطهارة، كيفية الصلاة، كيفية الصيام مثلًا إذا جاء شهر رمضان إلى آخره، هذه التفاصيل لا بد أن يتعلمها ليتم إسلامه، تُرَى الإيمان أليس كذلك، هذا الإيمان المجمل الذي نقلته عنهم، أليس هو وبكتبه وبرسله إجمالًا، ترى! إذا جاء التفصيل ماذا يقولون عنه، إذا جاءه التفصيل يجب الإيمان به أم لا؟

مداخلة: لا شك أنه يجب الإيمان به.

الشيخ: نعم.

(١) صحيح البخاري (رقم ٢٥) وصحيح مسلم (رقم١٣٥).

مداخلة: يجب الإيمان به إذا جاءه التفصيل.

الشيخ: هو هكذا، هل يتصور أنهم يقولون لا.

مداخلة: هم لا يقولون، لا، ما ذكرتم يا شيخ، لكن هم وقعوا في الجزء الذي ذكرته أنهم وقعوا في الجهل المطبق، حيث إنهم. . .

الشيخ: هذا هو لذلك فنحن يجب أن نكون وهم أن يكونوا معنا في الواقع، واقعنا الآن والحقيقة هذا الذي بيجعل نحن دعوتنا ليست بالسهلة، الناس اليوم يفهمون إنه ممكن الإنسان يعرف الإسلام كله في جلسة واحدة؛ لأنه بيجيبوا لك مثال الأعرابي، هل علي غيرهم قال: «لا إلا أن تتطوع»[(١)]. لك يا أخي هذاك إسلام لسه ما كمل، جاء من البداوة يريد أن يسلم، لكن لسه الإسلام ينزل بأحكامه وبجهاده وبكذا وبكذا إلى آخره، فنحن الآن لا يجب علينا، بل لا يجوز لنا أن نرجع قهقرى نحن من كمل لنا هذا الإسلام جملة وتفصيلًا، فإذا ما وقع المسلم في مثل هذا الجو المختلف فيه أشد الاختلاف، وكما ذكرنا آنفًا مع الدكتور ثلاثة وسبعين فرقة لا ينجو منها إلا فرقة واحدة، قالوا: من يا رسول الله قال: «هي التي على ما أنا عليه وأصحابي»[(٢)] نحن الآن ألسنا يجب علينا وعليهم هؤلاء السائلين الشاكين المغتابين أليس من الواجب عليهم أن يحرصوا أن يكونوا من الفرقة الناجية؟ لا شك أنه سيكون جوابهم نعم، يا أخي أنت لست الآن في زمن الرسول تجي تجلس مع الرسول وتسمع الحكم منه مباشرة، بينك وبين الرسول أربعة عشر قرنًا، وفيه أمامك في طريقك عثرات وعثرات سوف يجيك حديث، بل سوف تجيك آية، لو كنت بين يدي الرسول يكفيك المؤنة،

(١) البخاري (رقم٤٦) ومسلم (رقم١٠٩).

(٢) صحيح الجامع (رقم٥٣٤٣).

إذا أشكل عليك معناها مثل ما وقع بالنسبة لبعض الصحابة حينما أشكل عليهم آية: {وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} (الأنعام:٨٢) تذكرون الآية والحديث؟ قالوا: إذًا أينا ليس ذاك الرجل الذي ظلم نفسه، قال: ليس ذاك، ألم تقرأوا قول الله تبارك وتعالى: {يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[1] (لقمان:١٣) فأزال الرسول عليه السلام هذه الشبهة من أذهانهم فأنت أيها المسلم في القرن الرابع عشر في أول الخامس عشر لست في صحبة الرسول حتى إذا عليك يجي يعطيك الجواب وتسلم تسليمًا أمامك هذه المسافات الطويلة، بدك تعرف هذا الحديث صحيح ولا مو صحيح؟ بدك تعرف هذا الحكم هل أخذ من كتاب أم من السنة؟ أم الإجماع عليه بيصير فيه خلاف تارة في تصحيحه وفي تضعيفه، أم من القياس، ثم هذا القياس، هل هو قياس جلي أم هو قياس خفي؟ الآن وضْعنا غير ذاك الوضع يا مساكين، فهم اللي جاهلين بهذا العلم بيستسهلوا الأمر وبيقول لك: ممكن العقيدة واحد يتعلمها في دقائق معدودة.

ولذلك فنحن الحقيقة يجب أن نمضي قُدُمًا في طريقنا الشاق الطويل المديد، وأنا أقول في بعض الكلمات لما أذكر عليه السلام حينما كان جالسًا بين أصحابه فتلا قوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} (الأنعام:١٥٣) جاء الحديث مصورًا في بعض كتب الحديث بأن الخط المستقيم طويل، والخطوط التي حوله خطوط قصيرة[2]، أنا أفهم من هذا الحديث غير ما نطق به الرسول أكثر مما نطق به الرسول، أي: أفهم الشيء الذي نطق به الرسول زائد ما أشار إليه الرسول بهذا الرسم الرائع

(١) البخاري (رقم٣٢) ومسلم (رقم٣٤٢).
(٢) صحيح سنن ابن ماجه (رقم١١).

البديع الخط المستقيم هو الصراط، والخطوط القصيرة هي التي على رأسه، على كل خط منها شيطان يدعو الناس إليه، هذا الشيطان، وأنا سمعت هذا بأذني هاتين من بعض من يزعمون أنهم يدعون إلى الإسلام، ويريدون أن يقيموا دولة الإسلام عن طريقة القفز إلى رأس الأهرام بخطوة واحدة، بيقولوا: والله أنتم دعوتكم الحقيقة صحيحة، لكن يا أخي شوف طريق طويلة شاق، متى بدنا نصل لإقامة الدولة المسلمة والمجتمع الإسلامي؟؛ أنا بقول الرسول رسم هذا الخط ردًّا على هؤلاء، بيقول لهم: شوفوا هذا الخط الطويل حف بالمكاره، شوفوا هذه الخطوط القصيرة حفت بالشهوات، فهم يريدون أن يصلوا بالطرق القصيرة هذه ولن يصلوا أبدًا، وتجربة هذا العصر من طوائف من الجماعات الإسلامية أكبر دليل على أن على رأس كل طريق شيطانًا عمليًا يدعو الناس إليه فيخرجون عن الخط المستقيم، ونحن علينا أن نبقى في هذا الخط المستقيم، ولا يضيرنا ولا يهمنا أن الناس يقولون: هذا خط طويل وشاق و. . و. . إلى آخره، وبهذه المناسبة يعجبني كلام ذلك الشاعر العربي الجاهلي وأتمنى أنه يكون في المسلمين من يكون تفكيرهم في الإسلام كتفكيره في جاهليته، هو ذلك امرؤ القيس الذي قال:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنَّا لاحقين بقيصر

فقلت له لا تبكِ عينك إنما ... نحاول ملكًا أو نموت فنعذر

شو علينا نحن إذا استمررنا نمشي في الصراط المستقيم، وما وصلنا لإقامة الدولة المسلمة، هذا العالم الإسلامي صار له قرون يتخبط في البعد عن الكتاب والسنة، فإذا نحن أخذنا الصراط المستقيم ومشينا خطوات قليلة، وين لنوصل؟ مش مهم أن نصل، المهم أن نمشي في الخط المستقيم، ذلك الجاهلي فهم

الحقيقة الواقعية العلمية وإن كان هدفه أيش، هدفه الدنيا هدفه الملك، لكن يقول: نحاول ملكًا أو نموت فنعذر، ونحن هكذا مع ربنا تبارك وتعالى نحاول أن نعيد الحياة الإسلامية وأن نقيم الدولة المسلمة بعد محاولة إعادة الحياة الإسلامية فإن وصلنا فبها، وإن لم نصل فلسنا مكلفين؛ لأن الأمر كله بيد الله تبارك وتعالى، كلنا نحن مكلفين أن نمشي سويًا على صراط مستقيم.

لذلك هذه الأسئلة هذه الشبهات في الواقع هي جايه بسبب انحرافهم عن الخط المستقيم إلى خط من هذه الخطوط القصيرة التي تخرج بأصحابها عن الخط المستقيم.اهـ.

وقال العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (١/ ٣٣٨): أما الشيء الذي يدعى إليه، ويجب على الدعاة أن يوضحوه للناس، كما أوضحه الرسل عليهم الصلاة والسلام فهو الدعوة إلى صراط الله المستقيم، وهو الإسلام وهو دين الله الحق، هذا هو محل الدعوة كما قال سبحانه: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ} فسبيل الله جل وعلا: هو الإسلام، وهو الصراط المستقيم، وهو دين الله الذي بعث به نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام، هذا هو الذي تجب الدعوة إليه، لا إلى مذهب فلان ولا إلى رأي فلان، ولكن إلى دين الله، إلى صراط الله المستقيم، الذي بعث الله به نبيه وخليله محمدا عليه الصلاة والسلام، وهو ما دل عليه القرآن العظيم، والسنة المطهرة الثابتة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وعلى رأس ذلك الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، إلى الإخلاص لله وتوحيده بالعبادة، والإيمان به وبرسله، والإيمان باليوم الآخر، وبكل ما أخبر الله به ورسوله هذا هو أساس الصراط المستقيم، وهو الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ومعنى ذلك الدعوة إلى توحيد الله والإخلاص له،

والإيمان به وبرسله عليهم الصلاة والسلام، ويدخل في ذلك الدعوة إلى الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسله، مما كان وما يكون من أمر الآخرة، وأمر آخر الزمان وغير ذلك، ويدخل في ذلك أيضا الدعوة إلى ما أوجب الله من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت إلى غير ذلك، ويدخل أيضا في ذلك الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ بما شرع الله في الطهارة والصلاة والمعاملات، والنكاح والطلاق والجنايات. . . . . الخ.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢٦/ ١٥٧): كان عندي رغبة شديدة في طلب العلم منذ سنوات عديدة ولكن حال بيني وبين هذه الرغبة طلب المعاش الذي كان يستغرق النهار كله، والآن لقد من الله علي بدخل يغنيني عن العمل، فهل لي أن أتفرغ للعلم مع أن عمري قد وصل الثلاثين سنة؟.

فأجاب: نقول: تفرغ للعلم ولو بلغت ثلاثين سنة، ألم تعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يرسلون إلا إذا بلغوا أربعين سنة، فلا يخذلنك الشيطان، ويقول: تجاوزت الحد، بل اطلب العلم ولو كان لك ثلاثون سنة؛ فنحث أخانا الذي من عليه الله بالمال أن يبدأ بطلب العلم، ولكني أنصح ألا يجلس عند عالم دون أن يعرف عقيدته؛ لأن العقيدة مهمة، فقد يحضر عند مدرس عقيدته فاسدة

لكن الله أعطاه بيانا وفصاحة فيسحر الناس ببيانه وفصاحته كما جاء في الحديث: "إن من البيان لسحرا".

فأقول اختر العالم المعروف بسلامة العقيدة أولا.

وثانيا: المعروف بسلامة مقصده، فلا يقصد الرياء والفخر والعلو على

الناس.

وثالثا: سلامة منهجه؛ لأن بعض العلماء عقيدته سليمة وإرادته سليمة فلا يريد العلو ولا الاستكبار لكن منهجه رديء يتكلم في عيوب غيره، ولا يتكلم في عيوبه.

فتجده مثلا: يتكلم في العلماء، أو يتكلم في الأمراء أو يتكلم في ولاة الأمر، ولاشك أننا الآن في زمن بعيد عن عهد النبوة، فبيننا وبين عهد النبوة أربعة عشر قرنا، ولولا أن الله ﷻ حمى هذا

الدين الإسلامي لانتكست الأمة كما انتكست الأمم، لكن لا تزال طائفة من أمة محمد ﷺ على الحق.

فأقول: إن البعض فيه رداة في المنهج فتجده مسلطا على الكلام في أعراض العلماء، أو في أعراض الأمراء، كأنه موكل بتتبع عورات العلماء وعورات الأمراء.

ونحن لا نشك أن العلماء لهم أخطاء، وأنه ليس كل واحد منهم معصوما، لكن إذا أخطأ العالم الذي يقتدى به فعلينا أن ننصحه فيما بيننا وبينه دون أن ننشر مساوئه؛ لأنك إذا نشرت مساوئ العالم

أسأت إليه شخصيا، وأسات إلى الشريعة التي يحملها؛ لأن الناس إذا قلت ثقتهم في العالم لا يكون لقوله بينهم قيمة؛ فتهدم شريعة من الشرائع تأتي على لسان هذا العالم، فمن كان حقيقة ناصحا فإنه يناصح العالم فيما بينه وبين العالم، وليخاطبه بأدب واحترام. وليقل للعالم: يا حضرة الشيخ قلت: كذا وكذا وأنا أعرف خلاف ما قلتم فما هو الصواب؟

وكذلك نقول مع الأمراء، فالأمراء منذ عهد بعيد جدا وهم يخطئون فخلفاء

بني أمية، وخلفاء بني العباس، وغيرهم يخطئون، لكن تجد أئمة المسلمين يحذرون ما حذر منه النبي ﷺ من نشر مساوئ الأمراء والتمرد عليهم، ولكن البعض يكون عنده غيرة شديدة، فيصب غيرته على الأمراء، فيتكلم فيهم حتى يؤدي ذلك إلى التمرد على الحكام؛ بل وإلى الخروج عليهم، ويحصل في هذا مفاسد عظيمة، بحجة نصرة الإسلام، ونصر الإسلام واجب على كل مسلم؛ لكن بالحكمة والموعظة الحسنة والرفق واللين وابتدائهم بالتي هي أحسن، أما نشر معايب الولاة فهذا يحصل فيه شر كثير، فكم من نفوس أزهقت بهذه الحجة؛ فأقول لطالب العلم الذي يريد أن يطلب العلم: اختر من يعرف بسلامة العقيدة، وحسن القصد، وسلامة المنهج، وإذا اخترت مثل هذا العالم فإنه يرجى لك النجاح بإذن الله وتوفيقه.اهـ.

وقال الدكتور الفوزان في الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (ص١٣): اعلموا وفقني الله وإياكم أنه يجب على كل مسلم أن يتعلم العقيدة الإسلامية؛ ليعرف معناها وما تقوم عليه، ثم يعرف ما يضادها ويبطلها أو ينقصها من الشرك الأكبر والأصغر:

قال الله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلاّ الله وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ}.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ: (باب العلم قبل القول والعمل)، واستشهد بهذه الآية الكريمة.

قال الحافظ ابن حجر: "قال ابن المنير: أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل؛ فلا يعتبران إلا به؛ فهو متقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل. . . " انتهى.

ومن هنا اتجهت همم أهل العلم إلى تعلم أحكام العقيدة وتعليمها، واعتبروا

ذلك من أوليات العلوم، وألفوا فيها مؤلفات خاصة فصلوا فيها أحكامها وما يجب فيها، وبينوا ما يفسدها أو ينقضها من الشركيات والخرافات والبدع.

وهذا هو معنى لا إله إلا الله؛ فليست مجرد كلمة تقال باللسان، بل لها مدلول ومعنى ومقتضى، تجب معرفتها كلها، والعمل بها ظاهرًا وباطنا، ولها منقضات ومنقصات، ولا يتضح ذلك إلا بالتعلم، ولهذا؛ يجب أن يكون لعلم العقيدة الصدارة بين المقررات الدراسية في مختلف المراحل، وأن تعطى من الحصص اليومية العدد الكافي، ويختار لها المدرسون الأكفاء، وأن يركز عليها في النجاح والرسوب؛ خلاف ما عليه غالب واقع الدراسات المنهجية اليوم؛ فإن علم العقيدة في الغالب لا يحظى بالاهتمام في تلك الدراسات، ومما يخشى من ورائه أن ينشأ جيل يجهل العقيدة الصحيحة، فيستسيغ الشركيات والبدع والخرافات، ويعتبرها من العقيدة؛ لأنه وجد الناس عليها، ولم يعرف بطلانها.

ومن هنا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "يوشك أن تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية".

هذا؛ ويجب اختيار الكتب الصحيحة السليمة، التي ألفت على مذهب السلف الصالح وأهل السنة والجماعة، والمطابقة للكتاب والسنة؛ فتقرر على الطلاب، وتستبعد الكتب المخالفة لمنهج السلف؛ ككتب الأشاعرة والمعتزلة والجهمية وسائر الفرق الضالة عن منهج السلف.

وإلى جانب الدراسة النظامية يجب أن يكون هناك دروس تعقد في المساجد، تدرس فيها العقيدة السلفية بالدرجة الأولى، وتقرأ فيها المتون والشروح؛ ليستفيد منها الطلاب وكل من حضر، ويكون هناك مختصرات مبسطة تلقى للعامة، وبذلك تنتشر العقيدة الإسلامية، إلى جانب ما يذاع في

البرامج الدينية بواسطة الإذاعة، ويكون هناك برنامج مستمر تذاع من خلاله أحكام العقيدة الإسلامية.

ثم يجب أن يكون هناك اهتمام خاص بالعقيدة من جانب الأفراد؛ فيكون للمسلم مطالعات في كتب العقيدة، والتعرف على ما ألف فيها على منهج السلف، وما ألف على منهج المخالفين لهم، حتى يكون المسلم على بصيرة من أمره، وحتى يستطيع رد الشبه الموجهة إلى عقيدة أهل السنة.

أيها المسلم: إنك حينما تتأمل القرآن الكريم؛ تجد فيه كثيرًا من الآيات والسور تهتم بأمر العقيدة، بل إن السور المكية تكاد تكون مختصة ببيان العقيدة الإسلامية ورد الشبهات الموجهة إليها. خذ مثلًا سورة الفاتحة:

قال الإمام العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : "اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن؛ فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي: (الله)، و(الرب)، و(الرحمن)، وبنيت السورة على الإليهة والربوبية والرحمة: ف {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} مبني على الإلهية، و{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم يتعلق بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة؛ فهو المحمود في إلهيته وربوبيته ورحمته، والثناء والحمد كمالان لجده، وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم، إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل، كل هذا تحت قوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة. . . " ثم بينها رحمة الله بكلام مطول مفيد.

إلى أن قال: "فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم؛ ف {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} توحيد، {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} توحيد، {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} الذين فارقوا التوحيد).

وقال: "وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته، وهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وتوحيده وحده لا شرك له، وخلع ما يعبد من دونه؛ فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته؛ فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، وهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما فعل بهم في العقبى من العذاب؛ فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد. . . . " انتهى.

ومع اهتمام القرآن بشأن العقيدة الإسلامية؛ فإن أكثر الذين يقرؤونه لا يفهمون العقيدة فهما صحيحا، فصاروا يخلطون ويغلطون فيها؛ لأنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم، ولا يقرؤون القران بتدبر؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

* الدعوة إلى العقيدة الإسلامية: يجب على المسلم بعدما يمن الله عليه بمعرفة هذه العقيدة والتمسك بها أن يدعو الناس إليها لإخراجهم بها من الظلمات إلى النور؛ كما قال تعالى-: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

والدعوة إلى العقيدة الإسلامية هي فاتحة دعوة الرسل جميعا؛ فلم يكونوا يبدؤون بشيء قبلها؛ كما قال الله تعالى عنهم: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}.

وكل رسول يقول لقومه أول ما يدعوهم: {اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} كما قالها نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وسائر عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

فيجب على من عرف هذه العقيدة وعمل بها أن لا يقتصر على نفسه، بل يدعو الناس إليها بالحكمة والموعظة الحسنة، كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم.

وإن الدعوة إلى هذه العقيدة هو الأساس والمنطلق؛ فلا يدعى إلى شيء قبلها من فعل الواجبات وترك المحرمات حتى تقوم هذه العقيدة وتتحقق؛ لأنها هي الأساس المصحح لجميع الأعمال، وبدونها لا تصح الأعمال ولا تقبل ولا يثاب عليها.

ومن المعلوم بداهة أن أي بناء لا يقوم ولا يستقيم إلا بعد إقامة أساسه، ولهذا كان الرسل يهتمون بها قبل كل شيء، وكان النبي (عندما يبعث الدعاة يوصيهم بالبداءة بالعدوة إلى تصحيح العقيدة؛ فعن ابن عباس - رضي الله عنهما، أن رسول الله (لما بعث معاذًا إلى اليمن؛ قال له: "إنك تأتي قوما من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله " وفي رواية: إلى أن يوحداو الله، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في

كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فإياك وكرائم أموالهم، وتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" رواه البجاري ومسلم.

فمن هذا الحديث الشريف، ومن استقراء دعوة الرسل في القرآن، ومن استقراء سيرة الرسول ﷺ، يؤخذ الدعوة إلى الله، وأن أول ما يدعى الناس إليه هو العقيدة، المتمثلة بعبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه؛ كما هو معنى لا إله إلا الله.

وقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة بعد البعثة، يدعو الناس إلى تصحيح العقيدة؛ بعبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، قبل أن يأمر بالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وترك المحرمات من الربا والزنا والخمر والميسر.

وهذا ما يدلنا دلالة واضحة على خطأ بعض الجماعات المعاصرة التي تنتمي للدعوة، وهي لا تهتم بالعقيدة، وإنما تركز على أمور جانبية أخلاقية وسلوكية، وهي ترى كثيرًا من الناس يمارسون الشرك الأكبر حول الأضرحة المبنية على القبور في بعض ديار الإسلام، ولا تنكر ذلك، ولا تنهى عنه؛ لا في كلمة، ولا في محاضرة، ولا في مؤلف؛ إلا قليلًا، بل قد يكون بين صفوف تلك الجماعات من يمارس الشرك والتصوف المنحرف ولا ينهونه ولا ينبهونه، مع أن البداءة بدعوة هؤلاء وإصلاح عقيدتهم أولى من دعوة الملاحدة والكفار المصرحين بكفرهم؛ لأن الملاحدة والكفار مصرحون بكفرهم، ومقرون أن ما هم عليه مخالف لما جاءت به الرسل، أما أولئك القبوريون والمتصوفة

المنحرفون، فيظنون أنهم مسلمون، وأن ما هم عليه هو الإسلام، فيغترون ويغرون غيرهم.

والله جل وعلا أمرنا بالبداءة بالكفار الأقربين، وقال تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ الْمُتَّقِينَ}، فما لم تصف صفوف المسمين من الدخيل؛ فإنهم لن يستطيعوا الصمود في وجه عدوهم.

ويحكى أن قبوريا رأى رجلًا يعبد صنما أمامه، فأنكر عليه القبوري، فقال له عابد الصنم: أنت تعبد مخلوقا غائبا عنك، وأنا أعبد مخلوقا ماثلًا أمامي؛ فأينا أعجب؟ فانخصم القبوري.

هذا؛ وإن كان كل منهما مشركا ضالا لأنه يعبد ما لا يملك ضرًا ولا نفعا؛ إلا أن القبوري أغرق في الضلال وأبلغ في طلب المحال.

فيجب على الدعاة إلى الله أن يركزوا على جانب العقيدة أكثر من غيرها، ويقبلوا على دراستها وتفهمها أولًا، ثم يعلموها لغيرهم، ويدعوا إليها من انحرف عنها أو أخل بها؛ قال الله تعالى لنبيه: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

قال الإمام ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية الكريمة: (يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: {قُلْ} يا محمد. {هَذِهِ} الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان، والانتهاء إلى طاعته، وترك معصيته. {سَبِيلِي} وطريقتي ودعوتي {أَدْعُو إِلَى الله} تعالى وحده لا شريك له. {عَلَى بَصِيرَةٍ} بذلك ويقين علم مني. {أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي}؛ أي: ويدعو إليه على بصيرة أيضا من اتبعني وصدقني وآمن بي.

{وَسُبْحَانَ اللهِ}؛ يقول له تعالى ذكره: وقل تنزيها لله تعالى وتعظيما له من أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه في سلطانه. {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}؛ يقول: "وأنا بري من أهل الشرك به، لست منهم، ولا مني" انتهى كلام ابن جرير.

فالآية الكريمة تدل على أهمية معرفة العقيدة الإسلامية والدعوة إليها، وأن أتباع الرسول (هم من اقتدى به في ذلك، واتصف بالصفتين؛ العلم بالعقيدة والدعوة إليها، وأن من لم يتعلم أحكام العقيدة ويهتم بها ويدع إليها؛ فليس من أتباع الرسول على الحقيقة، وإن كان من أتباعه على سبيل الانتساب والدعوى.

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في معنى قوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}

"ذكر سبحانه مراتب الدعوة، وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو: فإنه إما أن يكون طالبا للحق، مؤثرًا له على غيره إذا عرفه؛ فهذا يدعى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة وجدال. وإما أن يكون مشتغلًا بضد الحق، لكن لو عرفه؛ آثره واتبعه؛ فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب.

وإما أن يكون معاندًا معارضا؛ فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع، وإلا؛ انتقل معه إلى غير الجدال إن أمكن. . . " انتهى كلام ابن القيم.

وبهذا تبين منهج الدعوة وما ينبغي فيها، وتبين خطأ ما تنتهجه بعض الجماعات إلى المنتهمية إلى الدعوة، وهي تخالف المنهاج السليم الذي بينه الله ورسوله.اهـ.

مسألة

كثير من الجماعات الحزبية المعاصرة، والتي تنطلق في دعواتها من منطلق

حزبي ضيق. الأمر الذي بعد بهم عن منهج السلف الصالح، إذ أن هذه الجماعات لم تؤسس بناء دعوتها على توحيد الباري جل وعلا، والعقيدة السلفية الصافية من الشوائب.

فإن من تأثر بتلك الدعوات إن كان من أهل العقيدة أصلًا لا يكون ولاؤه لها، ولا يكون فكره متفقًا معها، بسبب سيطرة هذه المناهج على أفكاره، حتى ماتت العقيدة في نفسه، فأصبح لا يدعو لها، وإن كان يعتقدها، لكنه بعد عنها تحت تأثير المنهج الحزبي، لأنه يوالي، ويعادي على ذلك الفكر الضيق، الذي بني على غير أسس سليمة، فلا يكون للعقيدة مكان ولا مجال في التطبيق العملي، ولا تعطي ثمراتها الطيبة اليانعة، فهي لا تفيد معتقدها، لأنها قد فقدت روحها، فأصبحت، بلا روح كالجذوة التي استترت وانغمرت تحت الرماد.

وخطورة هذه الأمر لا تقل عن الجهل بالعقيدة، فإن من يعرف العقيدة ولا يدعو إليها، هو كالجاهل بها سواء بسواء. وهؤلاء إنما أصيبوا بالخرس عن الدعوة إلى العقيدة بدعوى أن ذلك يفرق الأمة، ويمزق كيانها ، لأنهم يريدون أن يجمعوا تحت لوائهم من هب ودب، لا فرق في ذلك عندهم بين ملتزم بالعقيدة الصحيحة وغيره.

إذ أن الهدف الذي يقصدونه هو مجرد الجمع دون تمييز، وهذا منهج بلا شك سينتهي بأصحابه إلى الفشل الذريع، نظرًا لكونه قد بني على غير أسس سليمة، وذلك أن أصحاب هذا المسلك أتوا من عدم الفهم، والإدراك الصحيح حيث لم يفرقوا في الدعوة بين الأصول، والفروع.

فتراهم يبدءون بالدعوة إلى بعض الفروع، ويزعمون أنه متى أقيم هذا الفرع، فإنه سوف يوجد الأصل تلقائيًا، ولذا نرى كثيرًا منهم يهتمون بالجانب

السياسي، بدعوى أنه متى وجدت الدولة التي ينشدونها عند ذلك تصلح العقيدة وغيرها، مما فسد من أحوال المسلمين، وهذه تصور غير صحيح، لأن صاحب هذا التصور ذكر شيئًا، وغابت عنه أشياء.

هذا على فرض أن صاحب هذا الفكر حسن النية، بيد أننا نشك في حسن نية كثير منهم، فقد اتضح أن بعضًا ممن ينتمي إلى هذه الأحزاب لا همَّ له إلا تحقيق هدف سياسي وهو الحصول على منصب معين، وإنما يموِّه بذلك على أولئك الذين لا رسوخ لهم في فهم العقيدة مستغلًا عواطفهم نحوها، ولكنه ينوي خلاف ذلك لأنه ليس من أهل العقيدة ، ولا أدل على ذلك من كونه يدعي أن الدعوة إلى العقيدة تفرق الأمة كما أسلفنا.اهـ.

وقال العلامة صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية: المقصود أن المسائل المشتبهة قد تشتبه على الخيار، فطالب العلم الذي يرغب في سلامة دينه يعتمد ما كانت عليه الجماعة ولا يخالف ما كانت عليه جماعة المسلمين.

وهذا من أعظم فوائد طلب العلم، أن المرء يعلم ما به السلامة له في دينه، ويكون مع الفرقة الناجية يوم القيامة، "كلها في النار إلا واحدة" قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال "هي الجماعة".

وهذا مما يرغب كل واحد منكم في طلب علم العقيدة لأن معه سلامة القلب ومعه سلامة العمل ومعه سلامة الخروج بيقين عن الفرق الضالة والالتزام بطريق الجماعة.

فهذه الكلمة كلمة عظيمة (ولا نخالف جماعة المسلمين.) يعني في اعتقادهم ولا في أقوالهم، وكذلك لا نترك جماعة المسلمين في أبدانهم لأن هذا من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة الذين تابعوا الكتاب والسنة ولم يخرجوا عن ذلك أعان الله الجميع على كل خير.

مسألة: شبهات وردود

من تأمل في واقع معظم المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وجد أن معظم المخالفات الكبرى قد شاعت فيها، وانتشرت بين أهلها إلا من رحم الله تعالى، ومن ذلك: الشرك الأكبر، من عبادة غير الله، وذلك بالسجود لغيره قصدا، وتقديم النذور والقرابين للمقبورين، وتعظيم القبور والعكوف عندها، وكذلك: الشرك الأصغر، وأنواع البدع، وكبائر المعاصي والآثام، واتباع أكثر الناس سنن من كان قبلهم في غير الحق، وسلوكهم سبيلهم حذو القذة بالقذة.

ويكاد يكون محل اتفاق عند المشتغلين بالدعوة إلى الله تعالى على بصيرة أن سبب انتشار الشرك ووسائله والبدع بأنواعها وتأصلها في المجتمعات المسلمة هو التقصير العظيم من قبل الدعاة إلى الله في تقرير مسائل العقيدة، والدعوة إلى التوحيد، والاهتمام والانشغال بأشياء تأتي دون ذلك من جهة الترتيب والأولوية، والإغراق في الأمور السياسية التي استولت على القلوب، وأدى الاهتمام بها من قبل كثير من الدعاة إلى التقصير في الجانب العظيم من الدين.

والأهم من ذلك رسوخ بعض الشبه الإبليسية والدسائس الشيطانية في نفوس كثير من المتصدرين للدعوة إلى الله تعالى، والتي ساهمت وبشكل كبير في إضعاف هذا الجانب العظيم، مما جعل بعضهم يَزهدُ، ويُزهدُ في الاعتناء بهذا الجانب المهم، وهذه الشبه ليس لها أساس متين، ولا بنيان رصين، بل لا تعدو أن تكون طنين ذباب، أو صرير باب، يردده كثير من الناس.

فمن هذه الشبه:

أ- دعوى بعضهم: أن هذا الزمان يختلف عن زمان النبي ﷺ، وأنه لا يوجد

ما يمكن أن يركز عليه في الدعوة إلى الله من الأمور الشركية والقضايا العقدية.

ب- ومن ذلك أيضا: أن الحديث عن العقيدة ومحاربة الشرك وجعلها من أولويات الدعوة يثير مشاعر الكثيرين من المسلمين، ممن أَلِفوا البدع والوقوع في الشركيات، فتكون المصلحة في تركه، وذلك لغرض الاجتماع، وعدم الافتراق.

ج- ويقول آخرون: إن الحديث عن العقيدة في مثل هذا الوقت لا تجد من يسمع له، وذلك لانشغال المسلمين بما يفعله عدوهم من الكيد والمكر والعدوان، فيحتاجون إلى التركيز على الجوانب السياسية لمواجهة العدو، فهي من أولى المهمات في الوقت الراهن، وتبقى قضية تصحيح العقيدة راجعة إلى ظرفها.

ونحو هذه الشبه التي يُدرك فسادها ووهاؤها بمقدمات العقول قبل أواخرها.

وفي حقيقة الأمر أنه ما وقعت الفتنة، ولا حصلت الفرقة، ولا تشرذم المسلمون طرائق، وتمزقوا حذائق؛ إلا بسبب إهمال الدعاة والعلماء لجانب العقيدة، فإنا لله وإنا إليه راجعون!!

وما برزت الطفيليات المذهبية على السطح من اشتراكية وشيوعية ورأسمالية وقومية وغيرها كثير، وأُشرب حبها كثير من المسلمين إلا بسبب إهمال الحديث عن العقيدة.

وما استنكر الناسُ بعض مسائل التوحيد، وعسرت على كثير من المسلمين السنن، وما نجمت البدعة، ولا شُيدت القباب والأضرحة إلا بسبب ترك الحديث عن العقيدة، والتي هي قطب رحى الأعمال، ومدار القبول، يقول الله

تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}.

وقال تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}.

وما تسلط العدو، ولا انقلب حال الدهر، ولا سُلب المسلمون عادة الظهور والقهر، وما بدل الله حالنا إلى ما نحن عليه؛ إلا بسبب ضياع العقيدة والتوحيد من نفوس المسلمين وواقعهم، وقيام رموز الوثنية، وانتشار المعالم الشركية، وغربة التوحيد وأهله.

فليكن الداعية إلى الله تعالى على حذر من التلبيسات الباطلة والشبه الباهتة، فنحن كما أننا مأمورون باتباع النبي ﷺ في العقيدة والعبادة والسلوك، بل وفي قضايانا الاجتماعية، كذلك يجب علينا متابعته ﷺ في منهجه في الدعوة إلى الله تعالى، وطريقته في التبليغ، وأن نبدأ بما بدأ به، وأن نركز على ما ركز عليه، وألا نجعل من منهج الدعوة إلى الله تعالى محلا للاجتهاد والأخذ والرد، ونُحدث لهذه الدعوة أصولا وقوانين جديدة من عند أنفسنا لم تثبت عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه رضوان الله تعالى عليهم، فنجعل من أمر التوحيد مثلا والدعوة إليه أمرا ثانويا فرعيا، ونزعم أن المصلحة تقتضي ذلك.

إن المصلحة الحقيقية كامنة في اتباعه ﷺ قال الله تعالى: {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}.

وإن تأخر النصر على المسلمين، أو عدم استجابة المدعوين، أو مرور المسلمين بظرف ما، لا يسوغ أبدا إحداث أمر يخالف ما عليه الرسول ﷺ فقضية هداية التوفيق، أو نزول النصر والفتح، أو غير ذلك ليست إلينا، فنحن مأمورون بإحسان الطريق فقط، والنتائج ليست إلينا، ولا بأيدينا، إنما هي بيد الله

تعالى القائل: {قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}.

وبسبب عدم فهم هذه القضية حق الفهم تفرق الناس طرفين ووسط، فذهب فريق إلى التواكل، وعدم العمل، والاتكاء على كلمة صدق وحق، ولكن أرادوا بها باطلًا، وهي أن الهداية بيد الله تعالى، وأنه مهما عملنا فمن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا، وهذا خلل كبير، وصاحبه على خطر عظيم، خاصة إذا كان ممن عناهم أمر الدعوة والتبليغ، فيخشى أن يضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ويلعنهم كما لعن من كان قبلهم.

يقول تعالى لنبيه ﷺ {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}.

ويقول تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

ويقول تعالى واصفا حال هذه الأمة: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ}.

والفريق الآخر ذهب إلى استنفار جميع ما يمكن من وسائل وأساليب في سبيل الوصول إلى الغاية، بغض النظر عن حِل الوسيلة أو عدم جوازها، وهم يسيرون على قاعدة الغاية تبرر الوسيلة، سواء قالوها بألسنتهم أو ترجمتها أفعالهم، ولذلك تجد هذا الصنف كثير التخبط والتقلب والترحل في أمور الدنيا والدين، ويغلب على من سلك هذا السبيل الطيش، والعجلة، والتهور، والمغامرة.

وهذا الفكر ينزع في الغالب إلى التسخط على الناس، ورميهم بالعظائم؛ كتكفيرهم وإخراجهم من الملة لاعتقادهم وجوب استجابة الناس لكل ما

يدعون إليه، ولزوم امتثالهم للنصيحة، وهذا ليس من منهج أهل السنَّة والجماعة.

يقول ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأخلاق والسير (ص٤٤): "... ولا تنصح على شرط القبول منك، فإن تعديت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح، وطالب طاعة وملك لا مؤدي حق أمانة وأخوة، وليس هذا حكم العقل، ولا حكم الصداقة، ولكن حكم الأمير مع رعيته، والسيد مع عبده".

وقد يحصل منهم أيضا جناية على الدين وأحكامه، وأيضا جناية على المسلمين، وذلك باستعمالهم وسائل غير مشروعة، قد تعود بالضرر على المسلمين أفرادا أم جماعات.

وأما الوسط فهم أهل الحق والصواب الذين يعتقدون أن هداية التوفيق بيد الله تعالى، ولكن ذلك لا يمنعهم من العمل والدعوة والتبليغ، بل يتفانون فيهما، ويبذلون أقصى ما يمكنهم، ولكن وفق المنهج الشرعي الذي جاء به نبينا محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

وأهل هذا المنهج هم نتاج البيئة العلمية النظيفة التي لم تكدرها بدعة ولا خرافة، ولم يَشُبها شيء من هوى النفوس، المقتدون بالعلماء الربانيين، السائرون على طريقة السلف الصالح، رضوان الله عليهم أجمعين، ولذلك تجدهم من أكثر الناس ثباتا، وألينهم عريكة، وأوسعهم أفقا، وفي التاريخ القريب والبعيد خير شاهد على ما أقول.

وفي الفتن تجد هذا الصنف على طول الزمان من أوفق الناس تعاملا معها، وإعمالا لقواعد المصالح والمفاسد، وفهما للوسائل والمقاصد، فدعوتهم كشجرة أصلها ثابت، وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

فعلى الداعية إلى الله تعالى الانقياد التام، والتسليم الكامل للنبي ﷺ، وتقديم قوله ومنهجه ورأيه على قول كل أحد من البشر، وأن يجعل هواه تبعا لما جاء عن النبي ﷺ، يقول الله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}.

فإذا وفق الله الداعية، ونال نصيبا وافرا من هذا العلم العظيم، فعليه أن يكثر من الحديث عن أمور العقيدة، والتوحيد، والنهي عن الشرك ووسائله، والكفر وذرائعه، تأسيا بالأنبياء عليهم السلام، وسيرًا على طريقة السلف الصالح، وأن يجعلها أهم مهماته، وأولى بداياته، فإن هذه هي وظيفة الأنبياء والمرسلين -كما تقدم- وأتباعهم إلى يوم القيامة، وليحذر أشد الحذر من إغفال الكلام عن الشرك، ووسائله، والخرافة، وخصال الجاهلية الباقية في الأمة، والتي تقل في وقت، وتكثر في آخر، وغيرها من القوادح، والانشغال بما هو من نتائجها.

وعليه، إن وُفِّق للتصنيف أيضا أن يشتغل بالكتابة، والرد على المناوئين لهذه العقيدة، والمخالفين لها من أهل الأهواء والبدع من سائر الطوائف، وتفنيد شبههم، والرد على افتراءاتهم في النصوص الشرعية، وتلبيساتهم الكلامية والعقلية، وذلك باستخدام الوسائل الممكنة والمتاحة لإيصال الحق وتبليغه ودفع الباطل وتبكيته.

وقد يكون من الواجب على الداعية مطالعة الردود السلفية التي كتبها علماء السنة على أهل البدع في القديم والحديث، للدُربة أولا، وللوقوف على ما لا يمكن أن يجده الداعية في كثير من الكتب من الأدلة السمعية والعقلية.

(باب بيان بطلان مصطلح حرية الإعتقاد)

الحرية في الإسلام لها مفهوم مغاير من حيث الجوهر والتفاصيل عن مفهوم

الحرية الغربية، فالحرية في النظام الإسلامي منبثقة من العبودية الكاملة لله ﷻ، على حين أن الحرية في الفكر الغربي منبثقة من اللاعبودية لله سبحانه وتعالى.

فالإنسان في الإسلام عبد لله ومخلوق له، ومن يعتنق عقيدة الإسلام، فقد ارتضى لنفسه أن يكون عبدا لله وان يكون أساس حياته قائما على التقيد بأوامر الله ونواهيه، فالأصل عند المسلم هو التقيد بالأحكام الشرعية، وسلوكه في الحياة مرتبط بخطاب الشارع له من أوامر ونواه.

وأساس الحرية في النظام الغربي هي أن الإنسان هو سيد هذا الكون وهو بالتالي (خالق) نظمه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والسلوكية، وبالتالي فلا دور للدين ولا لأحكامه في حياته، فالدين مفصول عن الحياة، وهو مجرد علاقة وجدانية بين الإنسان والإله. وإذا كان الأساس الذي انبثقت عنه الحرية متباينا بهذه الحدية فلا عجب أن يختلفا في التفاصيل. وإذا كانت الحرية الغربية مطلقة إلا من القوانين والأنظمة والتشريعات التي يتواضع عليها البشر فان الحرية في الإسلام مقيدة بالأحكام الشرعية من أوامر ونواه إلهية.

فالحرية المطلقة من كل قيد هي كذبة كبرى لا وجود لها في عالم الواقع. فأي مجتمع لا ينفك عن وجود قوانين وأنظمة وتشريعات يلزم بها أفراده ويعاقب الخارج عنها، والفرق بين المجتمع الإسلامي وغيره أن دستوره وقوانينه مستمدة من الله وقوانين هؤلاء هي أهواؤهم وشهواتهم التي تواطأوا عليها.

فمن يطالب بعد هذا بالحرية المطلقة أو بالحرية بمفهومها الغربي، فانه يحاول إلباس الإسلام ثوبا ليس من صنعه ولا من مقاسه، وهي محاولة تهجين فاشلة لأنها تناقض منطق الأشياء، فالعقيدة الإسلامية لا تفرز ما يناقضها ولا ما ينفيها.

وجريا على سنة الله تعالى أن يكون لكل زمان قضاياه وإشكالياته الفكرية

والاجتماعية، فقد نبتت نابتة في هذا الزمان أخذت على عاتقها إعادة قراءة وتفسير النصوص الشرعية من القرآن والسنة حسب ما تمليه عليها عقولها وأهواؤها، دون تقيد بالضوابط والقيود والشروط التي اجتمعت عليها الأمة وعلماؤها، وارتضوها خلفا بعد سلف، بل تفلتوا حتى من عقال اللغة ودلالاتها ومنطقها الذي تواتر عن العرب قبل الإسلام. مما يجعل الباحث حائرا بل ساخرا من الاجتهادات والتأويلات الفجة التي خرج بها هؤلاء القوم.

"إن من أخطر القضايا التي تطرح نفسها على الدعاة والمفكرين المسلمين بحق هذه الأيام هي محاولة خصوم الفكر الإسلامي التشكيك في المسلمات، وبذل الجهد في تحويل (اليقينيات) إلى (ظنيات) و(القطعيات) إلى (محتملات) قابلة للأخذ والرد والجذب والشد، والقيل والقال.

وحسبهم الوصول إلى هذه النتيجة (زحزحة الثوابت) أو مناطحتها بغية (تذويبها) حتى لا تقف سدا منيعا أمام الذين يريدون أن يهدموا حصون الأمة أو على الأقل: يخترقوا أسوارها".

هذا وإن الانحراف في فهم العقيدة يعد أكثر خطرا من غيره، ولقد كان هذا الانحراف أساس كل الانحرافات الفكرية التي تلت في حياة المسلمين. ولا أكون مبالغا إذا قلت إن ما يعانيه المسلمون من ضعف عام في كل جوانب الحياة إنما يرجع إلى سوء فهم للعقيدة.

ولقد حذرنا الله تبارك وتعالى من الاختلاف في أصل الدين لأنه يقود صاحبه إلى الكفر الصريح {... وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ (*) مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} (الروم/ ٣١-٣٢)، وحذرنا من هذه الفرقة والاختلاف رسولنا ﷺ بقوله {والذي نفس محمد بيده لتفترقن

أمتي على ثلاث وسبعين فرقة فواحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار}[(١)] وما ذلك إلا لخطورة الاختلاف في أصل الدين.

وما يقوم به كثير ممن ينتسبون إلى عالم الفكر والثقافة هذه الأيام من إعادة صياغة لمفاهيم الدين والعقيدة هو عين التبديد لا التجديد وهو جوهر الابتداع لا الإبداع.

ذلك أن التجديد في العقيدة يقتصر على التنقية والتصفية، أي تنقية العقيدة وتصفيتها مما شابها وداخلها من أوهام الناس وأباطيلهم وبدعهم وخرافاتهم وتأويلاتهم، كما تعني تصحيح فهم المسلمين لها كما فهمها سلفهم الأول، وإبراز دور التوحيد وأثره في إشعال جذوة النفوس بالإخلاص والمراقبة وحثها على الجهاد والنهوض بدورها.

ولا يعني تجديد العقيدة بحال، إضافة مفاهيم جديدة أو تغيير مفاهيمها الأصلية لأن العقيدة لا تقبل جديدا بهذا المعنى، وليست هي محل اجتهاد ونظر.

وقد خرج علينا نفر جديد من الكتاب والمفكرين بمفهوم جديد للإيمان والإسلام والعمل الصالح، ومضمون تلك الدعاوى أن لا تفاضل بين الناس مهما اختلفت أديانهم ومعتقداتهم، فلا أفضلية ولا تميز للمسلم على اليهودي أو النصراني أو المجوسي أو المشرك أو الصابئ لمجرد كونه مسلما. فهذا الإسلام "مجرد لافتة" لا تنفعه ولا تكفيه وإنما التمييز هو بالعمل الصالح أولا وأخيرا!.

والطريق إلى السماء ليس حكرا على نفر من الناس، والجنة ليست وقفا على من يسمون أنفسهم بالمسلمين، ولا يعقل أن يحابي الله من يسمي نفسه مسلما ويفضله على من يسميه يهوديا أو نصرانيا بمجرد "اللقب" لأن الجميع

---

(١) حديث صحيح سيأتي تخريجه بتوسع.

أمام الله سواء، ومن يؤمن من تلك الطوائف بالله واليوم الآخر فله أجره عند ربه ولا خوف عليه ولا حزن، وأنساب الشعوب وما تدين به من دين وما تتخذه من كل ذلك لا أثر له في رضا الله ولا غضبه، والناس في منطقة الشرق الأوسط. كلهم موحدون بطريقة أو بأخرى، لأنه حتى الأقانيم الثلاثة في الفكر المسيحي تختم باله واحد، حتى الفراعنة في مصر القديمة كانوا موحدين لأن الآلهة وإن كانت متعددة ظاهرا كان لها إله كبير.

وأصحاب هذه الدعاوى والأقوال هم الكاتب الصحفي فهمي هويدي، ومنهم المنسوب للمشيخة محمود أبو رية صاحب الهجوم المعروف على السنة ومصنفاتها، والشيخ عبد العزيز جاويش من رواد الإصلاح والدكتور عبد العزيز كامل، والدكتور محمد عمارة الذي ينعت دوما " بالمفكر الإسلامي الكبير"، والمستشار محمد سعيد عشماوي، وروجيه جارودي وسيأتي تفصيل قوله، والدكتور مصطفى محمود الطبيب المعروف.

وأما الدليل على إسلام تلك الطوائف ودخولها في مسمى " المسلمين " عند هؤلاء، وان ما تقوم به من أعمال وهي على عقائدها هو من العمل الصالح فقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة / ٤١) حيث وعد الله بالأجر والمثوبة كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ولو بقي على يهوديته أو نصرانيته.

كما يدل له عموم قوله تعالى {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} (النساء/ ١٢٤) وعموم قوله تعالى {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن

يعمل مثقال ذرة شرا يره} بدون تفصيل ما إذا كان على ملة محمد ﷺ أم على ملة أخرى.

ودليل آخر يضاف - بزعمهم- إلى الأدلة السابقة قوله تعالى {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ} (آل عمران / ٨٥).

فقالوا المراد بالإسلام أصل التسليم والانقياد الذي كان عليه الأنبياء جميعهم من لدن نوح حتى محمد صلى الله عليهم ومنهم بالطبع موسى وعيسى فأتباعهم مسلمون أيضا.

ويتساءل أبو رية متعجبا - في مناظرة مع بعض المشايخ - كيف يعقل أن يدخل أديسون مخترع الكهرباء النار بعد أن أضاء العالم كله حتى مساجدنا وبيوتنا.

وعلى منواله يتهكم فهمي هويدي ويتعجب كيف يدعو أحد الخطباء على اليهود والنصارى بالتدمير وتفريق الشمل وسجاد المسجد مصنوع في ألمانيا والمكيفات في أمريكا ومكبرات الصوت في هولندا. . . الخ، هذه الترهات.

وسيذكر الرد على هذه التأويلات الباطلة في النقاط التالية:

أولا:- اليهود والنصارى كفار بنصوص لا تحصر

وهذه الدعاوى وان كانت من التهافت بدرك لا تحتاج معه إلى نقد ونقض، إذ أن كفر اليهود والنصارى وكل من لا يدين بالإسلام المنزل على محمد ﷺ من الأمور البدهية المعلومة من الدين بالضرورة، ومع ذلك فلا أرى بأسا في ردها لشيوعها بين فئة من الكاتبين.

فمعلوم أن لفظ "الإسلام" إذا أطلق فإنما يراد به ما أنزل على محمد ﷺ،

وأن لفظ:مسلم "إذا أطلق انصرف إلى من اتبع ملة محمد ﷺ دون سائر الأديان والملل.

وخير من عرّف الإسلام والإيمان هو رسول الله ﷺ لما سأله جبريل فأخبره بأن الإسلام هو أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والحديث معروف.

أما الآية التي استدلوا بها وهي قوله تعالى {إن الذين آمنوا والذين هادوا} ... فقال ابن كثير في تفسيرها " ... نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فان له جزاء الحسنى، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه ... إلى ان قال: نزلت في أصحاب سلمان الفارسي بينما هو يحدث النبيﷺ إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم فقال: كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك ستبعث نبيا، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبي الله ﷺ: يا سلمان هم من أهل النار " فاشتد ذلك على سلمان فأنزل الله هذه الآية. فكان إيمان اليهود: أنه من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى عليه السلام حتى جاء عيسى، فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكا، وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنا مقبولا منه حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتبع محمدا ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكا.

ثم قال ابن كثير: وهذا لا ينافي ما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في

هذه الآية قال: فأنزل الله بعد ذلك {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} -أي أنها منسوخة- فان هذا الذي قاله ابن عباس إخبار عن انه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملا إلا ما كان موافقا لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه الله بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة".

فالآية محكمة لا منسوخة، ومعناها أن عمل هؤلاء الأقوام يعتبر صالحا ومقبولا بشروط قبل بعثة محمد ﷺ، فأما بعد بعثته ﷺ فلا يقبل عمل ولا يكون صالحا إلا أن يكون خالصا صوابا، أما إخلاصه فبأن يقصد به وجه الله وحده لا شريك له، وأما صوابه فبأن يوافق شريعة محمد ﷺ.

وقال في موضع آخر في تفسير الآية التي تشبهها في سورة المائدة وهي قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} (المائدة / ٦٩)، قال: والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله واليوم الآخر وهو الميعاد والجزاء

ويوم الدين وعملت عملا صالحا، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقا للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها إلى جميع الثقلين، فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم ولا هم يحزنون.

ومن الآيات الصريحة في كفر اليهود والنصارى قوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ}

(البقرة / ٩١) وهذا نص على أن إيمانهم بما أنزل الله من قبل كان إيمانا مزعوما لا صحة له، وهو نص أيضا على تكفير من لم يؤمن منهم بما أنزل الله

بعد ذلك على محمد ﷺ.

وقال تعالى {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ(*) قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (آل عمران/ ٩٨-٩٩). وهو نص في الحكم على أهل الكتاب بأنهم كافرون.

وإن الذي أوقع هويدي وأمثاله في هذا الفهم الخاطئ هو القراءة التجزيئية للقرآن الكريم، أو ما دعاه بعضهم "بالقراءة العضينية" التي تلتفت إلى بعض النصوص، وتهمل بعضها الآخر تماما كما كان يفعل أهل الكتاب، الذين عاب الله عليهم هذا المسلك، الذي يفتقر إلى العلمية والموضوعية

التي يحرص هؤلاء على التزيي بها {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (البقرة / ٨٥). وقد

حكم الله على أصحاب هذا النهج بأنهم هم الكافرون حقا {وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا (*) أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} (النساء/ ١٥٠-١٥١) وكان

الواجب عليهم رد المجمل إلى المفسر، والاستعانة بسبب النزول في فهمها وتفسيرها، والاسترشاد بأقوال المفسرين. قبل طردها على عمومها وكأنه لم ينزل في اليهود والنصارى إلا تلك الآيات التي استشهدوا بها.

ولقد بين القرآن الكريم أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويتبعون الحق هم من آمنوا بما أنزل على محمد ﷺ، وأما من لم يؤمن بما نزل عليه ﷺ فهو من الكافرين، ومن أهل الباطل وعمله ليس عملا صالحا، بل هباءً منثورًا،

وفي ضلال مبين، قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(*) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} (محمد / ١-٣).

كما بين تعالى أن فلاح أهل الكتاب من اليهود والنصارى لا يكون إلا باتباع الرسول ﷺ {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ} (الأعراف/ ١٥٧). فكيف يستحل هويدي لنفسه بعد كل هذه الآيات البينات أن يقول " أن الله لا يحابي من يسمي نفسه مسلما ويفضله على من يسميها يهوديا أو نصرانيا بمجرد اللقب. وأي عمل صالح يبقى لأهل الكتاب - وقد ثبت كفرهم - بعد قول الله تعالى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (النور/ ٣٩) وبعد قوله تعالى {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ} (إبراهيم/ ١٨)، وبعد قوله تعالى عن أعمال الكفار {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} (الفرقان/ ٢٣).

لا يصح هذا في الأفهام إلا إذا كان الإيمان والإسلام والاعتقاد مجرد ألقاب ولافتات وشعارات كما قال.

وأما المؤمنون من أهل الكتاب فهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ وبما أنزل عليه {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ(*) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ

إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (المائدة / ٨٢ - ٨٣) وقال تعالى {لَكِنْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا} (النساء / ١٦٢).

وكيف يكونون مسلمين مؤمنين، والله يخاطبهم بأن يؤمنوا بما أنزل على محمد حتى يكونوا من المؤمنين {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا} (النساء / ٤٧).

وكيف يوصفون بالإيمان والإسلام وقد نص القرآن على تحريفهم كلام الله من بعد مواضعه، وبعد قول اليهود عزير بن الله وبعد قول النصارى المسيح ابن الله وأنه - تعالى الله عما يقولون - ثالث ثلاثة وأنه هو المسيح ابن مريم، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الله فقير وهم أغنياء، وأن يد الله مغلولة، وبعد أن شهد عليهم القرآن بقتل الأنبياء؟

أفبعد هذا الكفر المركب يكونون من أهل الجنة لأنهم اخترعوا الكهرباء وصنعوا لنا السجاد والمكيفات؟!.

لو أن هؤلاء " المجتهدين " قد قالوها صراحة من البداية: لا نؤمن بمرجعية القرآن والسنة. والبشر كلهم أخوة في الإنسانية لأراحوا واستراحوا - على الأقل في الدنيا -أما أن ينكروا الشمس في رابعة النهار، فذلك ما يخرجهم ليس من دائرة المسلمين فحسب بل من دائرة العقلاء الأسوياء.

وقد صح في الحديث عن رسول الله ﷺ قوله {والذي نفسي بيده لا يسمع

بي رجل من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بي إلا كان من أهل النار} .

قال الألباني: "والحديث نص في أن من سمع بالنبيﷺ وما أرسل به، وبلغه على الوجه الذي أنزله الله عليه، ثم لم يؤمن به ﷺ، أن مصيره إلى النار ولا فرق في ذلك بين يهودي أو نصراني أو مجوسي أو لا ديني "

وقد يقول قائل أن هذه القضية - كفر اليهود والنصارى وكونهم من أهل النار - هي من أبين البينات وأوضح الواضحات، ولا تحتاج إلى حشد الأدلة والبراهين.

نعم إن كفر اليهود والنصارى من أوضح الواضحات بالنسبة لأي مسلم عنده ذرة من علم الإسلام، ومما أجمعت عليه الأمة على اختلاف مذاهبها وطوائفها، طوال العصور، لم يخالف في ذلك سني ولا شيعي ولا معتزلي ولا خارجي.

وكل طوائف الأمة الموجودة اليوم من أهل السنة والزيدية والجعفرية والإباضية، لا يشكون في كفر اليهود والنصارى، وكل من لا يؤمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، فهذا من المسلمات الدينية المتفق عليها نظرا وعملا بل هي من (من المعلوم من الدين من الضرورة) أي مما يتفق على معرفته الخاص والعام، ولا يحتاج إلى إقامة دليل جزئي للبرهنة على صحته.

وسر ذلك: أن كفر اليهود والنصارى لا يدل عليه آية أو آيتان، بل عشرات الآيات من كتاب الله تعالى، وعشرات الأحاديث عن رسول الله ﷺ".

ثانيا: التحذير من الإيمان الإبراهيمي، والحوار بين الأديان، وخطورة الدعوة إليهما.

قد نشطت هذه الدعوة - إيمان اليهود والنصارى - في الآونة الأخيرة تحت لافتات وشعارات مختلفة منها: شعار الحوار بين الأديان و"الأديان التوحيدية الثلاث" أو "الديانة الإبراهيمية" ومقولة أبناء إبراهيم" وممن حملوا لواء هذه الدعوة -كما ذكرت- المفكر "المسلم"[1] الفرنسي الأصل روجيه جارودي.

---

(١) واسلامه مجرد دعوى سوقها على المسلمين وانطلت عليهم ليسهل عليه دس السم في الدسم.

قال العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٩/ ١٩٣): الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد كثر في الآونة الأخيرة في الصحف، والمجلات، الكلام عن الرجل المسمى (روجيه جارودي) الشيوعي الفرنسي، الذي ادعى أنه دخل الإسلام عن اقتناع ومحبة، ففرح بذلك بعض المسلمين، وأظهروا حفاوة به وأكرموه ومنحوه الثقة، وجعلوه عضوا في المجلس الأعلى العالمي للمساجد في رابطة العالم الإسلامي، وصار يحضر الندوات واللقاءات التي تعقد في العالم الإسلامي عن الإسلام متحدثا ومناظرا. ثم لم يلبث أن تكشفت حقيقته، وافتضح أمره، وبان ما كان يخفيه في صدره من حقد على الإسلام والمسلمين، وأنه لم يزل على كفره وإلحاده، فانضم إلى أشكاله من المنافقين الذين قال الله فيهم: {وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} وآخر ما نشر عنه الحوار الذي أجرته معه مجلة المجلة في عددها (٨٣٩) حيث جاء فيه أنه لم يتخل عن اعتقاداته الخاصة، وأنه لم يعتنق الإسلام الذي عليه المسلمون، وإنما اعتنق إسلاما آخر تخيله بذهنه، زعم أنه خليط من الأديان: اليهودية والنصرانية، ومن الإسلام الذي تخيله هو لا الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمدا ﷺ وقال: إن هذا الإسلام المزعوم هو دين إبراهيم عليه السلام، فإبراهيم بزعمه هو أول المسلمين، فالإسلام بدأ من عهد إبراهيم قال: ولم يكن إبراهيم يهوديا، ولا مسيحيا، ولا مسلما بالإسلام التاريخي للكلمة أي الذي عليه المسلمون اليوم. وكذب في ذلك، فإن الإسلام الذي هو توحيد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه هو موجود من قبل إبراهيم من عهد آدم ونوح والنبيين من بعده وهو دين جميع الرسل. وهو الذي بعث الله به نبيه محمدا ﷺ كما قال تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} وهو دين المسلمين =

اليوم من أتباع محمد ﷺ قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ} وقال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} وقال تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ولم يكن دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليطا من الحق والباطل كما زعم هذا الضال بل كان دينه التوحيد الخالص لله ﷻ والبراءة من الشرك وأهله قال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ} وهو الدين الذي بعث الله به محمدا ﷺ، ويرى هذا الضال أن البراءة من الكفر والشرك وما عليه اليهود والنصارى من الوثنيات والتحريفات الباطلة دين تفرقة؛ لأن الإسلام في مخيلته معناه التوحيد والتقارب بين المسلمين، وغير المسلمين، يريد إسلاما يجمع بين المتناقضات والمتضادات ويكفر المسلمين الذين يخالفونه في ذلك.

ويرى أيضا أن سنة الرسول ﷺ وأن الفقه الإسلامي المستنبط من الكتاب والسنة انتهت صلاحيتهما في هذا الزمان؛ لأنهما كانا لزمان معين، وأنه يجب إحداث فقه جديد وهذا معناه ترك دين الرسول ﷺ لأنه لا يصلح لهذا الزمان وإحداث دين جديد وهذا كفر بعموم رسالة الرسول لكل زمان ومكان، ولكل جيل، ولكل البشرية إلى أن تقوم الساعة، وكفر بختم الرسالة بمحمد ﷺ خاتم النبيين، وكفر بصلاحية رسالته لكل زمان ومكان، وهذا كفر صريح، وقول قبيح مناقض لقول الله سبحانه: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} وقوله سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} وقوله ﷻ: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} وقوله سبحانه: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}

وقول النبي ﷺ: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» متفق على صحته. «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار» أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وقد أجمع العلماء رحمهم الله من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم إجماعا قطعيا على أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ هو رسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن وهو خاتم النبيين لا نبي بعده.

=

ثم يتناول هذا الملحد الركن الثاني من أركان الإسلام الخمسة وهو الصلوات الخمس الثابت بالكتاب والسنة والمعلوم من الدين بالضرورة، فيرى أن الصلوات ثلاث صلوات في اليوم والليلة لا خمس صلوات ويزعم أن هذا هو ما يدل عليه القرآن.

وهذا القول الباطل بل الكفر الصريح ناتج عن كفره بالسنة التي بينت الأوامر التي جاءت في القرآن ومن ذلك الصلوات، فقد بينت السنة الصحيحة المتواترة أنها خمس صلوات في اليوم والليلة وأجمع المسلمين على ذلك. ثم بين هذا الضال الصلاة التي يعنيها، وأنها ليست الحركات التي هي عبارة عن القيام والقراءة والركوع والسجود، وإنما هي التفكير العميق في الذات الإلهية، وذلك يستغرق عنده ساعات الليل والنهار الأربع والعشرين ساعة. وهذه صلاة الباطنية الملاحدة لا صلاة الأنبياء وأتباعهم، وهذا القول كفر صريح وردة عن الإسلام عند جميع أهل العلم.

ثم تناول الركن الرابع من أركان الإسلام وهو الصيام وقال: إنه ليس هو الامتناع عن الأكل والشرب وإنما هو معاني الصيام وأهدافه، ثم إنه أعفى سكان المناطق القطبية من الصيام؛ لأنه لا يمكن تطبيقه في مناطقهم لأنه ليس عندهم طلوع فجر ولا غروب شمس وهذا تكذيب لله ولرسوله ولإجماع المسلمين في أن الصيام ترك الأكل والشرب وسائر المفطرات قال تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} وقال النبي ﷺ: «إن بلالا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم » متفق على صحته.

فمن أعظم منافيات الصيام الأكل والشرب وأما الاقتصار على معاني الصيام وأهدافه، فليس صياما شرعيا، وإنما هو صيام الباطنية الذين يقولون: الصيام هو كتم الأسرار، وهذا إلحاد في دين الله ﷻ، وكذلك لا يعفى أحد من الصيام في جميع أقطار الأرض لأن أحكام الشريعة عامة للبشرية أينما كانت وإنما يصوم المسلم حسب استطاعته. وكيفية صيام أهل المناطق القطبية قد بحثها علماء المسلمين قديما وحديثا وقرروا فيها رأيهم حسب ما ظهر من أدلة الكتاب والسنة.

ثم إن هذا الملحد يجهل علماء المسلمين فيقول: قد عملت معهم عندما كنت عضوا في المجلس الأعلى العالمي للمساجد واكتشفت أنهم أناس جهلة، بل إنهم من أجهل الناس إطلاقا يرددون بطرق آلية الأحاديث النبوية وآراء فقهاء القرون الوسطى التي حفظوها عن ظهر قلب، ولا أعتقد أن لدي استعدادا للتعاون مع هؤلاء بشأن أي

=

=

موضوع كان، بسبب الانطباعات السيئة التي تركوها في ذهني.
هذا شعوره نحو علماء الإسلام الذين اغتر الكثير منهم به وأحسنوا به الظن وأكرموه وأشركوه معهم في مؤتمراتهم وندواتهم. وإنها لموعظة للعلماء أن لا يتسرعوا بمنح الثقة لكل من تظاهر بالإسلام خصوصا من أمثال جارودي ممن عرفوا بالإلحاد والزندقة والشيوعية قبل ادعاء الإسلام حتى يتثبتوا في شأنه.
ومن كفر جارودي الصريح أنه يدعو إلى تعطيل حد السرقة وتغيير مقادير المواريث، فيرى أن قطع يد السارق اليوم غير مناسب، وهذا اتهام للإسلام بالقصور وعدم صلاحيته لكل زمان ومكان. بل هو وصف لله سبحانه بالجهل، وأنه لا يعلم ما يجد في المستقبل وما يناسبه من العقوبة فإن الله سبحانه أمر بقطع يد السارق والسارقة جزاء بما كسبا ثم ختم الآية بقوله سبحانه: {وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}
فهو سبحانه يشرع لكل ذنب من العقوبة ما يناسبه ويمنع وقوعه في كل زمان ومكان ثم يقول: لو كنت قاضيا وجاءني أخ وأخت يتنازعان في قضية ميراث لأعطيت البنت ضعف ما أعطي الذكر، وهذا مصادم لقول الله تعالى في شأن الإخوة في آخر سورة النساء: {وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} ولقوله تعالى في أول السورة: {يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} فهو اعتراض على الله في حكمه وكفى بذلك كفرا وإلحادا.
ثم يدعو علماء الإسلام أن يتمردوا على شرع الله كما تمرد المسيحيون على البابا وثاروا في وجه الكنيسة، فهو يسوي بين الدين الحق الذي هو دين الإسلام ودين الكفر الذي هو دين البابوات ورجال الكنيسة المغير لشرع الله.
وأخيرا فإن روجيه جارودي لا يحكم عليه بأنه مرتد عن دين الإسلام كما توهمه بعضهم، وإنما هو كافر أصلي لم يدخل في الإسلام كما اعترف هو بذلك حيث يقول: (انتهيت إلى الإسلام دون التخلي عن اعتقاداتي الخاصة وقناعاتي الفكرية).
إن دين الإسلام لا يجتمع مع القناعات الإلحادية، ولا يجتمع مع اليهودية والنصرانية؛ لأنهما ديانتان محرفتان ومنسوختان بدين الإسلام الذي بعث الله به نبيه محمدا ﷺ، وأمره أن يقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد

=

=

من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار » أخرجه مسلم في صحيحه كما تقدم، وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » وبذلك يعلم أنه لا يسع أحدا من هذه الأمة جنها وإنسها إلا اتباع محمد ﷺ ولا يقبل الله من أحد بعد بعثته إلا دينه، ودينه هو الإسلام وهو صالح لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة قال الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} وقال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ} وقال سبحانه: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَام دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} وتقدم قوله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار".

وذلك أن الله سبحانه أخذ الميثاق على الأنبياء كلهم من أولهم إلى آخرهم بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وعموم رسالته، وأنه لو بعث وأحد منهم حي وجب عليه اتباعه وطاعته ومناصرته وهذا الحكم يتناول أتباعهم أيضا، فإن من زعم أنه يتبع موسى وعيسى يجب عليه أن يؤمن بمحمد ﷺ بعدما بعثه الله ويتبعه لأن رسالته ختمت الرسالات وشريعته نسخت الشرائع، ولم يبق دين مقبول عند الله سوى الدين الذي بعثه الله به كما قال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} وهذا الحكم واجب على جميع المكلفين من الجن والإنس إلى يوم القيامة، كما تقدم ذلك في قوله سبحانه آمرا نبيه محمدا ﷺ أن يقول للناس: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} الآية من سورة الأعراف. وتقدم قوله سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} وقوله ﷻ: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} وقول النبي ﷺ: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » متفق على صحته، وقوله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار". والآيات القرآنية والأحاديث

=

وملخص هذه الفكرة أن الإسلام هو دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإبراهيم هو أبو الأنبياء: محمد وموسى وعيسى، ولذلك فالديانات السماوية الثلاثة لها جذر واحد وأصل مشترك يجمعها وهو توحيد الله ﷻ، فعلى أصحاب هذه الديانات أن يتعايشوا معا بسلام، لكونهم ينحدرون من أصل واحد نسبا ودينا.

أي أنه تجب الدعوة إلى إيجاد صيغة توفيقية لإنهاء الصراع بين المسلمين واليهود على أرض فلسطين وهذه الدعوى - أبناء إبراهيم - التي طالما دعا إليها كثير من الملوك والزعماء.

وفي كتابه " الإسلام الحي " فقد دعا إلى ضرورة بلورة مفهوم جديد للإسلام لا يقف عند حدود الإسلام " المعروف " وضوابطه، وإنما إسلام عصري، إسلام القرن العشرين، إسلام ينفتح على الديانات كلها حتى البوذية والهندوسية " ويستوعبها " و" يحتويها"، وليس هذا فحسب بل ينفتح حتى على المذاهب الوضعية من الشيوعية والعلمانية وغيرها.

وقد ذهب إلى أن الله أرسل النبي محمدا ﷺ "ليؤكد" الرسالات السابقة عليه وليتممها ويطهرها من التشوهات التي لحقت بها عبر التاريخ، وان إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- هو أبو "جميع المؤمنين" ومن أن الرسالة الأساسية والكونية للإسلام تقوم على سمو الله ووحدانيته وعلى وحدة جميع البشر، وأن

=

النبوية في هذا المعنى كثيرة، وأسأل الله سبحانه بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أن يصلح أحوال المسلمين جميعا، وأن يثبتنا وإياهم على دينه، وأن يمنحنا جميعا الفقه فيه والاستقامة عليه، وأن يعيذنا وجميع المسلمين من شر أعداء الله ومكائدهم كالجارودي وأشباهه من سائر الملحدين والكافرين، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

محتوى سورة الإخلاص يتطابق تماما مع محتوى مقولة النصارى في التثليث، ومن دعوته للحوار بين الأديان الأخرى انطلاقا من القواعد "المشتركة" التي هي أصل الرسالات "المقدسة" وهي توحيد الله وذلك من أجل انتشار جديد للإسلام. فهذا هو الإسلام المنفتح، والذي كان موجودا ومزدهرا في الأندلس، والذي استوعب اليهود والنصارى في بوتقته، هذا الإسلام دمره الفقهاء الذين استنجدوا بالقوى الأجنبية -المرابطين- لمقاومة النصارى، والفقهاء أساءوا إلى الرسالة الكونية للقرآن- والتي تستوعب أهل الأديان والملل -وقلدوا " قسما "من أقسام الأمة الإسلامية- يقصد العرب.

والإسلام " المعروف " هو مجرد تقاليد وفلكلور للعرب -قسم من أقسام الأمة الإسلامية- ولا يمثل الرسالة القرآنية.

ويدعو إلى العثور على نقطة "التقاء" التقاليد الروحية الثلاثة للإيمان الإبراهيمي: اليهودية، المسيحية، الإسلام.

ومما قاله المترجم د. محمد مهدي الصدر في تلخيصه لمحتوى كتاب جارودي (الإسلام في الغرب) أنه يقوم على أمور منها:

١ . وحدة الأديان السماوية والثقافات "الحقة": أي أن كل الأديان السماوية هي وحدة متكاملة، لا تنفصم عراها ولا تتناقض؛ لأنها رسالات منبعها واحد، وكل الأنبياء والمرسلين بدءا بإبراهيم ومرورا بعيسى وموسى وانتهاء بمحمد - صلوات الله عليهم- هم رسل الله الواحد. وقد جاء محمد "ليؤكد" الرسالة السماوية وينفي عنها التحريفات التاريخية وليتمها، وقد أنجبت هذه الأديان ثقافات خالدة تندرج في هذا الخط الرسالي ذاته. ويمكن اعتبارها -هي الأخرى- ثقافات مترابطة يكمل بعضها بعضا من حيث أنها جميعا تصدر عن

التصور ذاته للعالم والإنسان.

٢. إن الله سبحانه وتعالى واحد أحد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. والديانات الإبراهيمية الثلاث: الإسلام والمسيحية واليهودية، هي أديان سماوية موحِّدة".

هذه هي دعاوى وطروحات دعاة "الدين الملفق" بلسان كبيرهم جارودي وقد خالفت هذه الدعوات قطعيات الإسلام في الأمور التالية:

- دعوته إلى بلورة مفهوم جديد للإسلام يحتوي الأديان والمذاهب كلها.

- رفضه " للإسلام المعروف واعتباره إياه تقاليد وفلكلورا خاصا بالعرب.

- وصفه لرسالة محمد ﷺ بأنها "مؤكدة " و"ومتممة" للرسالات السابقة وفي هذا إنكار لهيمنتها ونسخها للشرائع السابقة.

- اعتباره اليهود والنصارى "مؤمنين".

- إن محتوى سورة الإخلاص يطابق مفهوم التثليث.

- إن الرسالة الإسلامية تقوم على وحدة جميع البشر، وفي هذا مساواة للكافرين بالمسلمين وإلغاء للفروق العقائدية.

- اعتباره الرسالات السماوية "مقدسة" على ما هي عليه - وموحدة.

- انطلاقه من مفهوم قطري قومي للإسلام حين جعل المسلمين خارج حدود الأندلس قوى أجنبية.

إن فكرة الحوار بين الأديان التي يروج لها اليوم هي فكرة غربية خبيثة دخيلة لا أصل لها في الإسلام، لأنها تدعو إلى إيجاد قواسم مشتركة بين الأديان، بل تدعو إلى إيجاد دين جديد ملفق، يعتنقه المسلمون بدلا من الإسلام، لأن أصحاب الفكرة والداعين لها هم من الكفار الغربيين.

وكان من أهم توصيات المؤتمرات التي عقدت باسم الحوار بين الديان والحضارات وبين الإسلام وأوروبا ما يلي:

- إيجاد معان وأبعاد جديدة لكلمات الكفر والإلحاد والشرك، والإيمان والإسلام والاعتدال والتطرف، والأصولية، بحيث لا تكون تلك الكلمات عامل تفرقة بين أصحاب الأديان.

- إيجاد جوامع مشتركة بين الأديان الثلاثة، تشمل العقيدة والأخلاق والثقافة، والتأكيد على المشترك الإيجابي بين الأديان والحضارات، لأن جميع أهل الكتاب مؤمنون، يعبدون الله.

وهم في ذلك يهدفون إلى صبغ العالم بصبغة الحضارة الرأسمالية، ومحو الثقافة الإسلامية الأصيلة، وتجريد الإسلام من أهم خصائصه التي تميزه عن سائر الأديان. كما يهدفون من وراء ذلك إلى صياغة شخصية المسلم صياغة جديدة، وإفساد ذوقه وزرع معايير جديدة للأفكار والأشياء.

وباختصار، أن هذا الحوار الذي يرعاه الكفار وبعض المضبوعين من علماء المسلمين القصد منه إيجاد دين جديد للمسلمين مبني على عقيدة فصل الدين عن الحياة، فيه التشريع للبشر بدل أن يكون لله تعالى خالق البشر.

ولم يذهب بعض الباحثين بعيدا حين أكد أن خلفية هذه الدعوات ماسونية، تهدف إلى تغيير عقيدة المسلمين في اليهود والنصارى وكتبهم، من اجل الاعتراف بهم كاتباع أديان سماوية، وتهدف إلى تذويب المسلمين في غيرهم، كما بينوا، أنها دعوة نشأت في أحضان التبشير والاستعمار. وما قيل في إبطال دعوى إسلام اليهود والنصارى يقال في إبطال الدعوة إلى "وحدة الأديان". وقد صدر في هذه الدعوة فتوى من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة

العربية السعودية رأيت أن اجعلها كخلاصة لهذا المبحث:

أولا: أن من أصول الاعتقاد في الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة، والتي أجمع عليها المسلمون، أنه لا يوجد على وجه الأرض دين حق سوى دين الإسلام، وانه خاتمة الأديان وناسخ لجميع ما قبله من الأديان والملل والشرائع.

ثانيا: ومن أصول الاعتقاد في الإسلام أن كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) هو آخر كتب الله نزولا وعهدا برب العالمين، وانه ناسخ لكل كتاب أنزل من قبل من التوراة والإنجيل وغيرها،

ومهيمن عليها قال تعالى {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ} (المائدة/ ٤٨).

ثالثا: يجب الإيمان بان (التوراة والإنجيل) قد نسخا بالقرآن الكريم، وانه قد لحقها التحريف والتبديل بالزيادة والنقصان، كما جاء بيان ذلك في آيات من كتاب الله الكريم منها قوله تعالى

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} (المائدة / ١٣). ولهذا فما كان منها صحيحا فهو منسوخ بالإسلام، وما سوى ذلك فهو محرف ومبدل، وقد ثبت عن النبي ﷺ انه غضب حين رأى مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة منها شيء من التوراة، وقال عليه الصلاة والسلام {أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ ألم آت بها بيضاء نقية؟ ولو كان أخي موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي}.

رابعا: ومن أصول الاعتقاد في الإسلام أن نبينا ورسولنا محمدا ﷺ هو

خاتم الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} (الأحزاب / ٤٠) ونبي الله عيسى إذا نزل في آخر الزمان يكون تابعا لمحمد ﷺ، كما أن من أصول الاعتقاد أن بعثة محمد ﷺ عامة للناس أجمعين قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} (سبأ / ٢٨).

خامسا: ومن أصول الإسلام أنه يجب اعتقاد كفر كل من لم يدخل في الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم وتسميته كافرا، وأنه عدو لله ورسوله والمؤمنين، وأنه من أهل النار كما قال تعالى {لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ} (البينة/ ١) وقال جل وعلا {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} (البينة/ ٦)

وغيرها من الآيات - ولهذا فمن لم يكفر اليهود والنصارى فهو كافر طردا للقاعدة الشرعية "من لم يكفر الكافر فهو كافر".

سادسا: وأمام هذه الأصول الاعتقادية والحقائق الشرعية فان الدعوة إلى "وحدة الأديان" والتقارب بينها، وصهرها في قالب واحد دعوة خبيثة ماكرة، والغرض منها خلط الحق بالباطل وهدم

الإسلام وتقويض دعائمه وجر أهله إلى ردة شاملة، ومصداق ذلك في قوله تعالى {وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا} (البقرة/ ٢١٧) وقوله: -جل وعلا- {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} (النساء/ ٨٩).

سابعا: وإن من آثار هذه الدعوة الآثمة إلغاء الفوارق بين الإسلام والكفر،

والحق والباطل، والمعروف والمنكر، وكسر حاجز النفرة بين المسلمين والكافرين، فلا ولاء ولا براء، ولا جهاد ولا قتال لإعلاء كلمة الله في الأرض.

ثامنا: إن الدعوة إلى وحدة الأديان " إن صدرت من مسلم تعتبر ردة صريحة عن دين الإسلام، لأنها تصطدم مع أصول الاعتقاد، فترضى بالكفر بالله ﷻ، وتبطل صدق القرآن، ونسخه لجميع ما قبله من الشرائع والأديان، وبناء على ذلك فهي فكرة مرفوضة شرعا محرمة قطعا بجميع أدلة التشريع في الإسلام من قرآن وسنة وإجماع.

ومما يجب أن يعلم أن دعوة الكفار بعامة، وأهل الكتاب بخاصة إلى الإسلام واجبة على المسلمين بالنصوص الصريحة من الكتاب والسنة، ولكن لا يكون إلا بطريق البيان والمجادلة بالتي هي أحسن، وعدم التنازل عن شيء من شرائع الإسلام: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (آل عمران/ ٦٤).

أما مجادلتهم واللقاء معهم ومحاورتهم لأجل النزول عند رغباتهم وتحقيق أهدافهم ونقض عرى الإسلام ومعاقد الإيمان فهذا باطل يأباه الله ورسوله والمؤمنون {وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ} (المائدة/ ٤٩).

وقد سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (١/ ٣١١- ٣١٣): إذا كان الإسلام قد أقر حرية العقيدة فلماذا يحارب الارتداد والوثنية والإلحاد؟.

فأجاب: الإسلام لا يقر حرية العقيدة. الإسلام يأمر بالعقيدة الصالحة ويلزم بها ويفرضها على الناس، ولا يجعلها حرة يختار الإنسان ما شاء من الأديان،

فالقول بأن الإسلام يجيز حرية العقيدة هذا غلط.

الإسلام يوجب توحيد الله والإخلاص له سبحانه وتعالى، والالتزام بدينه والدخول في الإسلام، والبعد عما حرم الله، وأعظم الواجبات وأهمها: توحيد الله والإخلاص له، وأعظم المعاصي وأعظم الذنوب: الشرك بالله ﷻ، وفعل ما يكفر العبد من سائر أنواع الإلحاد، فالله سبحانه يقول: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) النساء/ ٣٦، ويقول سبحانه: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) الإسراء/ ٢٣، ويقول سبحانه: (إياك نعبد وإياك نستعين) الفاتحة/ ٥، ويقول ﷻ: (فاعبد الله مخلصا له الدين) الزمر/ ٢، ويقول سبحانه: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) البينة/ ٥.

ويقول النبي ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله) متفق على صحته.

فبين ﷻ وبين الرسول ﷺ وجوب العقيدة ووجوب الالتزام بشرع الله، وأن لا حرية للإنسان في هذا، فليس له أن يختار دينا آخر، وليس له أن يعتنق ما حرم الله، وليس له أن يدع ما أوجب الله عليه، بل يلزمه ويفترض عليه أن يستقيم على دين الله وهو الإسلام، وأن يوحد الله بالعبادة، وألا يعبد معه سواه سبحانه وتعالى، وأن يؤمن برسوله محمد عليه الصلاة والسلام، وأن يستقيم على شريعته، ويوالي على هذا ويعادي على هذا، وأن يقيم الصلاة كما أمر الله، وأن يؤدي الزكاة كما أمر الله، وأن يصوم كما أمر الله، ويحج كما أمر الله.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: (أن تجعل لله ندا وهو خلقك) قال: قلت: ثم أي؟ قال: (أن تقتل

ولدك مخافة أن يطعم معك) قال: قلت: ثم أي؟ قال: (أن تزاني حليلة جارك)، فأنزل الله في هذا قوله سبحانه: (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا * إلا من تاب) الفرقان/ ٦٨ - ٧٠.

فدل ذلك على أن توحيد الله والإخلاص له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتحريم القتل وتحريم الزنا - أمر مفترض لابد منه، وليس لأحد أن يشرك بالله، وليس له أن يزني، وليس له أن يسرق، وليس له أن يقتل نفسا بغير حق، وليس له أن يشرب الخمر، وليس له أن يدع الصلاة، وليس له أن يدع الزكاة وعنده مال الزكاة، وليس له أن يدع الصيام وهو قادر على صيام رمضان إلا في السفر والمرض، وليس له أن يترك الحج وهو قادر على أن يحج مرة في العمر، إلى غير ذلك.

فلا حرية في الإسلام في ذلك، بل يجب أن يلتزم الإنسان العقيدة الصحيحة ويدع ما حرم الله، نعم، له حرية في الأمور المباحة التي أباحها الله له، له حرية في الأمور المستحبة التي لا تجب، فلو شاء تركها لا بأس، والمباح إن شاء فعله الإنسان وإن شاء تركه، أما ما أوجب الله عليه فيلزمه فعله، وما حرمه الله عليه فيلزمه تركه، وليس له أن يعتنق الشيوعية أو النصرانية أو اليهودية أو الوثنية أو المجوسية، ليس له ذلك بل متى اعتنق اليهودية أو اليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو الشيوعية صار كافرا حلال الدم والمال، ويجب أن يستتاب، يستتيبه ولي الأمر المسلم الذي هو في بلده، فإن تاب ورجع إلى الحق وإلا قتله؛ لأن النبي ﷺ قال: (من بدل دينه فاقتلوه) رواه البخاري في الصحيح.

فمن بدل دينه دين الإسلام بالكفر يجب أن يقتل إذا لم يتب، فبهذا يعلم أنه

ليس للمسلم حرية أن يترك الحق وأن يأخذ بالباطل أبدا، بل يلزمه الاستقامة على الحق ويلزمه ترك الباطل، وعليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينصح لله ويدعو إلى الله ﷻ، وأن يحذر ما حرم الله عليه، وأن يدعو الناس إلى ترك ما حرم الله عليهم، كل هذا أمر مفترض حس الطاقة. انتهى.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٦/ ٢١٩): يقول بعض الزملاء: من لم يدخل الإسلام يعتبر حرا لا يكره على الإسلام ويستدل بقوله تعالى: (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) يونس / ٩٩، وقوله تعالى: (لا إكراه في الدين) البقرة / ٢٥٦، فما رأي سماحتكم في هذا؟.

فأجاب: هاتان الآيتان الكريمتان والآيات الأخرى التي في معناهما بين العلماء أنها في حق من تؤخذ منهم الجزية كاليهود والنصارى والمجوس، لا يكرهون، بل يخيرون بين الإسلام وبين بذل الجزية.

وقال آخرون من أهل العلم: إنها كانت في أول الأمر ثم نسخت بأمر الله سبحانه بالقتال والجهاد، فمن أبى الدخول في الإسلام وجب جهاده مع القدرة حتى يدخل في الإسلام أو يؤدي الجزية إن كان من أهلها، فالواجب إلزام الكفار بالإسلام إذا كانوا لا تؤخذ منهم الجزية؛ لأن إسلامهم فيه سعادتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة، فإلزام الإنسان بالحق الذي فيه الهدى والسعادة خير له من الباطل، كما يلزم الإنسان بالحق الذي عليه لبني آدم ولو بالسجن أو بالضرب، فإلزام الكفار بتوحيد الله والدخول في دين الإسلام أولى وأوجب؛ لأن فيه سعادتهم في العاجل والآجل إلا إذا كانوا من أهل الكتاب كاليهود والنصارى أو المجوس، فهذه الطوائف الثلاث جاء الشرع بأنهم يخيرون. فإما أن يدخلوا في الإسلام وإما أن يبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وذهب بعض أهل العلم إلى إلحاق غيرهم بهم في التخيير بين الإسلام والجزية، والأرجح أنه لا يلحق بهم غيرهم، بل هؤلاء الطوائف الثلاث هم الذين يخيرون؛ لأن الرسول قاتل الكفار في الجزيرة ولم يقبل منهم إلا الإسلام، قال تعالى: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) - التوبة / ٥ -، ولم يقل: أو أدوا الجزية، فاليهود والنصارى والمجوس يطالبون بالإسلام، فإن أبوا فالجزية، فإن أبوا وجب على أهل الإسلام قتالهم، إن استطاعوا ذلك، يقول ﷻ: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) - التوبة / ٢٩ -.

ولم يثبت عن النبي أنه أخذ الجزية من المجوس، ولم يثبت عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه رضي الله عنهم أنهم أخذوا الجزية من غير الطوائف الثلاث المذكورة، والأصل في هذا قوله تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) - الأنفال / ٣٩ -، وقوله سبحانه: (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) - التوبة / ٥ - وهذه الآية تسمى آية السيف.

وهي وأمثالها هي الناسخة للآيات التي فيها عدم الإكراه على الإسلام.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٣٣/ ٩٩): نسمع ونقرأ كلمة "حرية الفكر"، وهي دعوة إلى حرية الاعتقاد، فما تعليقكم على ذلك؟.

فأجاب: "تعليقنا على ذلك أن الذي يجيز أن يكون الإنسان حر الاعتقاد، يعتقد ما شاء من الأديان، فإنه كافر؛ لأن كل من اعتقد أن أحدا يسوغ له أن

يتدين بغير دين محمد ﷺ، فإنه كافر بالله ﷻ يستتاب، فإن تاب وإلا وجب قتله.

والأديان ليست أفكارا، ولكنها وحي من الله ﷻ ينزله على رسله، ليسير عباده عليه، وهذه الكلمة - أعني كلمة فكر - التي يقصد بها الدين: يجب أن تحذف من قواميس الكتب الإسلامية، لأنها تؤدي إلى هذا المعنى الفاسد، وهو أن يقال عن الإسلام: فكر، والنصرانية فكر، واليهودية فكر - وأعني بالنصرانية التي يسميها أهلها بالمسيحية - فيؤدي إلى أن تكون هذه الشرائع مجرد أفكار أرضية يعتنقها من شاء من الناس، والواقع أن الأديان السماوية أديان سماوية من عند الله ﷻ، يعتقدها الإنسان على أنها وحي من الله، تعبد بها عباده، ولا يجوز أن يطلق عليها "فكر".

وخلاصة الجواب: وخلاصة الجواب: أن من اعتقد أنه يجوز لأحد أن يتدين بما شاء، وأنه حر فيما يتدين به، فإنه كافر بالله ﷻ؛ لأن الله تعالى يقول: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) آل عمران/ ٨٥، ويقول: (إن الدين عند الله الإسلام) آل عمران/ ١٩.

فلا يجوز لأحد أن يعتقد أن دينا سوى الإسلام جائز، يجوز للإنسان أن يتعبد به، بل إذا اعتقد هذا فقد صرح أهل العلم بأنه كافر كفرا مخرجا عن الملة " انتهى.

(باب افتراق الأمة)

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أنه قام فينا فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال (ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في

الجنة، وهي الجماعة)[١].

(١) أخرجه الترمذى (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ١٢٨، ١٢٩)، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (٨٥)، والآجري في الأربعين (رقم ١٣)، والمروزي في السنة (٥٩)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ٢٦٢)، واللالكائي في شرح أصول أهل السنة (رقم ١٤٧)، وابن بطة في الإبانة (١/ ٣٦٨ - ٣٦٩/ رقم ٢٦٤)، وقوام السنة في الحجة (١/ ١٠٦)، وعبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق (٥ - ٦) والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث مفسر غريب، لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه". قلت إسناده ضعيف، فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، ضعيف في حفظه؛ إلا أن الحديث صحيح لطرقه وشواهده، وقد صححه ابن العربي في احكام القرآن (٣/ ٤٣٢)، وابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٥)، وابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٤١٠)، والشاطبي في الاعتصام (٢/ ٢٥٢)، وحسنه الجوزقاني في الأباطيل (١/ ٤٦٥)، وحسنه أيضا العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣/ ١٩٩)، والعلامة الألباني في الصحيحة (٢٠٤)، وقواه الشيخ مشهور في تحقيق إعلام الموقعين (٥/ ٢٦٨).

(تنبيه) قال العلامة الألباني في الصحيحة تحت الحديث رقم (٢٠٤): وقد حاول بعض ذوي الأهواء من المعاصرين تضعيف هذا الحديث الصحيح، والغرض الآن إتمام الكلام على هذا اللفظ الصحيح، فقد تبين بوضوح أن الحديث ثابت لا شك فيه، ولذلك تتابع العلماء خلفا عن سلف على الاحتجاج به حتى قال الحاكم في أول كتابه "المستدرك": "إنه حديث كبير في الأصول " ولا أعلم أحدا قد طعن فيه، إلا بعض من لا يعتد بتفرده وشذوذه، أمثال الكوثري الذي سبق أن أشرنا إلى شيء من تنطعه وتحامله على الطريق الأولى لهذا الحديث، التي ليس فيها الزيادة المتقدمة: "كلها في النار"، جاهلا بل متجاهلا حديث معاوية وأنس على كثرة طرقه عن أنس كما رأيت. و ليته لم يقتصر على ذلك إذن لما التفتنا إليه كثيرا، ولكنه دعم رأيه بالنقل عن بعض الأفاضل، ألا وهو العلامة ابن الوزير اليمني، وذكر أنه قال في كتابه: "العواصم والقواصم " ما نصه: "إياك أن تغتر بزيادة " كلها في النار إلا واحدة " فإنها زيادة فاسدة، ولا يبعد أن تكون من دسيس الملاحدة. و قد قال ابن حزم: إن هذا الحديث لا يصح". وقد وقفت على هذا التضعيف منذ سنوات. ثم أوقفني بعض الطلاب في " الجامعة الإسلامية " على قول الشوكاني في تفسيره فتح القدير (٢/ ٥٦): "قال ابن كثير في =

=

تفسيره: وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين، مروي من طرق عديدة، قد ذكرناها في موضع آخر. انتهى. قلت: أما زيادة كونها في النار إلا واحدة " فقد ضعفها جماعة من المحدثين (!)، بل قال ابن حزم: إنها موضوعة". ولا أدري من الذين أشار إليهم بقوله: "جماعة. . . " فإني لا أعلم أحدا من المحدثين المتقدمين ضعف هذه الزيادة، بل إن الجماعة قد صححوها وقد سبق ذكر أسمائهم، وأما ابن حزم فلا أدري أين ذكر ذلك، وأول ما يتبادر للذهن أنه في كتابه " الفصل في الملل والنحل " وقد رجعت إليه، وقلبت مظانه فلم أعثر عليه ثم إن النقل عنه مختلف، فابن الوزير قال عنه: "لا يصح"، والشوكاني قال عنه: "إنها موضوعة"، وشتان بين النقلين كما لا يخفى، فإن صح ذلك عن ابن حزم، فهو مردود من وجهين:

الأول: أن النقد العلمي الحديثي قد دل على صحة هذه الزيادة، فلا عبرة بقول من ضعفها.

والآخر: أن الذين صححوها أكثر وأعلم بالحديث من ابن حزم، لاسيما وهو معروف عند أهل العلم بتشدده في النقد، فلا ينبغي أن يحتج به إذا تفرد عند عدم المخالفة فكيف إذا خالف؟ ! وأما ابن الوزير، فكلامه الذي نقله الكوثري يشعر بأنه لم يطعن في الزيادة من جهة إسنادها، بل من حيث معناها، وما كان كذلك فلا ينبغي الجزم بفساد المعنى لإمكان توجيهه وجهة صالحة ينتفي به الفساد الذي ادعاه. و كيف يستطاع الجزم بفساد معنى حديث تلقاه كبار الأئمة والعلماء من مختلف الطبقات بالقبول وصرحوا بصحته، هذا يكاد يكون مستحيلا ! وإن مما يؤيد ما ذكرته أمرين:

الأول: أن ابن الوزير في كتاب آخر له قد صحح حديث معاوية هذا، ألا وهو كتابه القيم: "الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم " فقد عقد فيه فصلا خاصا في الصحابة الذين طعن فيهم الشيعة وردوا أحاديثهم، ومنهم معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فسرد ما له من الأحاديث في كتب السنة مع الشواهد من طريق جماعة آخرين من الصحابة لم تطعن فيه الشيعة، فكان هذا الحديث منها !

الأمر الآخر: أن بعض المحققين من العلماء اليمانيين ممن نقطع أنه وقف على كتب ابن الوزير، ألا وهو الشيخ صالح المقبلي، قد تكلم على هذا الحديث بكلام جيد من جهة ثبوته ومعناه، وقد ذكر فيه أن بعضهم ضعف هذا الحديث فكأنه يشير بذلك إلى ابن الوزير. و أنت إذا تأملت كلامه وجدته يشير إلى أن التضعيف لم يكن من جهة

=

=

السند، وإنما من قبل استشكال معناه، وأرى أن أنقل خلاصة كلامه المشار إليه لما فيه من الفوائد. قال رحمه الله تعالى في العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ (ص ٤١٤): "حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، رواياته كثيرة يشد بعضها بعضا بحيث لا يبقى ريبة في حاصل معناها. (ثم ذكر حديث معاوية هذا، وحديث ابن عمرو بن العاص الذي أشار إليه الحافظ العراقي وحسنه الترمذي ثم قال:) والإشكال في قوله: "كلها في النار إلا ملة"، فمن المعلوم أنهم خير الأمم، وأن المرجو أن يكونوا نصف أهل الجنة، مع أنهم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود حسبما صرحت به الأحاديث، فكيف يتمشى هذا؟ فبعض الناس تكلم في ضعف هذه الجملة، وقال: هي زيادة غير ثابتة. و بعضهم تأول الكلام. قال:

ومن المعلوم أن ليس المراد من الفرقة الناجية أن لا يقع منها أدنى اختلاف، فإن ذلك قد كان في فضلاء الصحابة. إنما الكلام في مخالفة تصير صاحبها فرقة مستقلة ابتدعها. وإذا حققت ذلك فهذه البدع الواقعة في مهمات المسائل، وفيما يترتب عليه عظائم المفاسد لا تكاد تنحصر، ولكنها لم تخص معينا من هذه الفرق التي قد تحزبت والتأم بعضهم إلى قوم وخالف آخرون بحسب مسائل عديدة.

ثم أجاب عن الإشكال بما خلاصته: "إن الناس عامة وخاصة، فالعامة آخرهم كأولهم، كالنساء والعبيد والفلاحين والسوقة ونحوهم ممن ليس من أمر الخاصة في شيء، فلا شك في براءة آخرهم من الابتداع كأولهم. وأما الخاصة، فمنهم مبتدع اخترع البدعة وجعلها نصب عينيه، وبلغ في تقويتها كل مبلغ، وجعلها أصلا يرد إليها صرائح الكتاب والسنة، ثم تبعه أقوام من نمطه في الفقه والتعصب، وربما جددوا بدعته وفرعوا عليها وحملوه ما لم يتحمله، ولكنه إمامهم المقدم وهؤلاء هم المبتدعة حقا، وهو شيء كبير (تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا)، كنفي حكمة الله تعالى، ونفي إقداره المكلف، وككونه يكلف ما لا يطاق، ويفعل سائر القبائح ولا تقبح منه، وأخواتهن ! ومنها ما هو دون ذلك، وحقائقها جميعها عند الله تعالى، ولا ندري بأيها يصير صاحبها من إحدى الثلاث وسبعين فرقة.

ومن الناس من تبع هؤلاء وناصرهم وقوى سوادهم بالتدريس والتصنيف، ولكنه عند نفسه راجع إلى الحق، وقد دس في تلك الأبحاث نقوضها في مواضع لكن على وجه خفي، ولعله تخيل مصلحة دنيئة، أو عظم عليه انحطاط نفسه وإيذاؤهم له في عرضه

=

=

وربما بلغت الأذية إلى نفسه. وعلى الجملة فالرجل قد عرف الحق من الباطل، وتخبط في تصرفاته، وحسابه على الله سبحانه، إما أن يحشره مع من أحب بظاهر حاله، أو يقبل عذره، وما تكاد تجد أحدا من هؤلاء النظار إلا قد فعل ذلك، لكن شرهم والله كثير، فلربما لم يقع خبرهم بمكان، وذلك لأنه لا يفطن لتلك اللمحة الخفية التي دسوها إلا الأذكياء المحيطون بالبحث، وقد أغناهم الله بعلمهم عن تلك اللمحة، وليس بكبير فائدة أن يعلموا أن الرجل كان يعلم الحق ويخفيه. و الله المستعان. ومن الناس من ليس من أهل التحقيق، ولا هيء للهجوم على الحقائق، وقد تدرب في كلام الناس، وعرف أوائل الأبحاث، وحفظ كثيرا من غثاء ما حصلوه ولكن أرواح الأبحاث بينه وبينها حائل. و قد يكون ذلك لقصور الهمة والاكتفاء الرضا عن السلف لوقعهم في النفوس. و هؤلاء هم الأكثرون عددا، والأرذلون قدرا، فإنهم لم يحظوا بخصيصة الخاصة، ولا أدركوا سلامة العامة. فالقسم الأول من الخاصة مبتدعة قطعا. و الثاني ظاهره الابتداع، والثالث له حكم الابتداع.

ومن الخاصة قسم رابع ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، أقبلوا على الكتاب والسنة وساروا بسيرها، وسكتوا عما سكتا عنه، وأقدموا وأحجموا بهما وتركوا تكلف مالا يعنيهم، وكان تهمهم السلامة، وحياة السنة آثر عندهم من حياة نفوسهم، وقرة عين أحدهم تلاوة كتاب الله تعالى، وفهم معانيه على السليقة العربية والتفسيرات المروية، ومعرفة ثبوت حديث نبوي لفظا وحكما.

فهؤلاء هم السنية حقا، وهم الفرقة الناجية، وإليهم العامة بأسرهم، ومن شاء ربك من أقسام الخاصة الثلاثة المذكورين، بحسب علمه بقدر بدعتهم ونياتهم، إذا حققت جميع ما ذكرنا لك، لم يلزمك السؤال المحذور وهو الهلاك على معظم الأمة، لأن الأكثر عددا هم العامة قديما وحديثا، وكذلك الخاصة في الأعصار المتقدمة، ولعل القسمين الأوسطين، وكذا من خفت بدعته من الأول، تنقذهم رحمة ربك من النظام في سلك الابتداع بحسب المجازاة الأخروية، ورحمة ربك أوسع لكل مسلم، لكنا تكلمنا على مقتضى الحديث ومصداقه، وأن أفراد الفرق المبتدعة وإن كثرت الفرق فلعله لا يكون مجموع أفرادهم جزءا من ألف جزء من سائر المسلمين: فتأمل هذا تسلم من اعتقاد مناقضة الحديث لأحاديث فضائل الأمة المرحومة". قلت: وهذا آخر كلام الشيخ المقبلي رَحِمَهُ اللهُ، وهو كلام متين يدل على علم الرجل وفضله ودقة نظره، ومنه تعلم

=

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع فتاواه (٣/ ٣٤٥-٣٥٨): عن قوله ﷺ " تفترق أمتي ثلاثة وسبعين فرقة". ما الفرق؟ وما معتقد كل فرقة من هذه الصنوف؟.

فأجاب: الحمد لله الحديث صحيح مشهور في السنن والمساند؛ كسنن أبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم، ولفظه: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة). وفي لفظ: (على ثلاث وسبعين ملة) وفي رواية قالوا: يا رسول الله، من الفرقة الناجية؟ قال: (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي). وفي رواية قال: (هي الجماعة، يد الله على الجماعة).

ولهذا وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة، وهم الجمهور

=

سلامة الحديث من الإشكال الذي أظن أنه عمدة ابن الوزير رَحِمَهُ اللَّهُ في إعلاله إياه. و الحمد لله على أن وفقنا للإبانة عن صحة هذا الحديث من حيث إسناده، وإزالة الشبهة عنه من حيث متنه. و هو الموفق لا إله إلا هو. ثم وقفت على كلام لأحد الكتاب في العصر الحاضر ينكر في كتابه "أدب الجاحظ" (ص ٩٠) صحة هذا الحديث للدفاع عن شيخه الجاحظ ! فهو يقول: "ولو صح هذا الحديث لكان نكبة كبرى على جمهور الأمة الإسلامية. إذ يسجل على أغلبيتها
الخلود في الجحيم ولو صح هذا الحديث لما قام أبو بكر في وجه مانعي الزكاة معتبرا إياهم في حالة ردة. . . " إلى آخر كلامه الذي يغني حكايته عن تكلف الرد عليه، لوضوح بطلانه لاسيما بعد قراءة كلام الشيخ المقبلي المتقدم. على أن قوله "الخلود في الجحيم" ليس له أصل في الحديث، وإنما أورده الكاتب المشار إليه من عند نفسه ليتخذ ذلك ذريعة للطعن في الحديث. و هو سالم من ذلك كله كما بينا والحمد لله على توفيقه.

الأكبر، والسواد الأعظم.

وأما الفرق الباقية، فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريبًا من مبلغ الفرقة الناجية، فضلا عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة. وشعار هذه الفرق مفارقة الكتاب والسنة والإجماع. فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة.

وأما تعيين هذه الفرق، فقد صنف الناس فيهم مصنفات، وذكروهم في كتب المقالات، لكن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة. . . [هنا كلمة لم تظهر بالأصل] هي إحدى الثنتين والسبعين لابد له من دليل، فإن الله حرم القول بلا علم عمومًا، وحرم القول عليه بلا علم خصوصًا، فقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلًا طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٦٨، ١٦٩]، وقال تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا} [الإسراء: ٣٦]، وأيضًا، فكثير من الناس يخبر عن هذه الفرق بحكم الظن والهوى، فيجعل طائفته والمنتسبة إلى متبوعه الموالية له هم أهل السنة والجماعة، ويجعل من خالفها أهل البدع، وهذا ضلال مبين، فإن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ. .

فمن جعل شخصًا من الأشخاص غير رسول الله ﷺ من أحبه ووافقه كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة والفرقة - كما يوجد ذلك في الطوائف من اتباع أئمة في الكلام في الدين وغير ذلك - كان من أهل البدع والضلال والتفرق.

وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة، الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزًا بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعًا لها، تصديقًا وعملا وحبًا وموالاة لمن والاها، ومعاداة لمن عادها، الذين يروون المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة، فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم، وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول بل يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه.

وما تنازع فيه الناس من مسائل الصفات والقدر والوعيد والأسماء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك يردونه إلى الله ورسوله، ويفسرون الألفاظ المجملة التي تنازع فيها أهل التفرق والاختلاف، فما كان من معانيها موافقًا للكتاب والسنة أثبتوه، وما كان منها مخالفًا للكتاب والسنة أبطلوه، ولا يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، فإن اتباع الظن جهل، واتباع هوى النفس بغير هدى من الله ظلم.

وجماع الشر الجهل والظلم، قال الله تعالى: {وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} إلى آخر السورة [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]. وذكر التوبة لعلمه سبحانه وتعالى أنه لابد لكل إنسان من أن يكون فيه جهل وظلم، ثم يتوب الله

على من يشاء، فلا يزال العبد المؤمن دائمًا يتبين له من الحق ما كان جاهلًا به، ويرجع عن عمل كان ظالمًا فيه.

وأدناه ظلمه لنفسه، كما قال تعالى: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ} [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الحديد: ٩]، وقال تعالى: {الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [إبراهيم: ١].

ومما ينبغي أيضًا أن يعرف: أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات، منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة.

ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه، فيكون محمودًا فيما رده من الباطل وقاله من الحق، لكن يكون قد جاوز العدل في رده بحيث جحد بعض الحق وقال بعض الباطل، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها، ورد بالباطل باطلًا بباطل أخف منه، وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة.

ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولا يفارقون به جماعة المسلمين، يوالون عليه ويعادون، كان من نوع الخطأ. والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك.

ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها، لهم مقالات قالوها باجتهاد، وهي تخالف ما ثبت في الكتاب والسنة، بخلاف من والى موافقه وعادي مخالفه وفرق بين جماعة المسلمين، وكفر وفسق مخالفه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات، واستحل قتال مخالفه دون موافقه فهؤلاء من

أهل التفرق والاختلافات.

ولهذا كان أول من فارق جماعة المسلمين من أهل البدع [الخوارج] المارقون. وقد صح الحديث في الخوارج عن النبي ﷺ من عشرة أوجه خرجها مسلم في صحيحه، وخرج البخاري منها غير وجه.

وقد قاتلهم أصحاب النبي ﷺ مع أمير المؤمنين على بن أبي طالب، فلم يختلفوا في قتالهم كما اختلفوا في قتال الفتنة يوم الجمل وصفين؛ إذ كانوا في ذلك ثلاثة أصناف: صنف قاتلوا مع هؤلاء، وصنف قاتلوا مع هؤلاء، وصنف أمسكوا عن القتال وقعدوا، وجاءت النصوص بترجيح هذه الحال.

فالخوارج لما فارقوا جماعة المسلمين وكفّروهم واستحلوا قتالهم، جاءت السنة بما جاء فيهم، كقول النبي ﷺ: (يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة).

وقد كان أولهم خرج على عهد رسول الله ﷺ، فلما رأى قِسْمَة النبي ﷺ قال: يامحمد، اعدل؛ فإنك لم تعدل، فقال له النبي ﷺ: (لقد خبت وخسرت إن لم أعدل) فقال له بعض أصحابه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: (إنه يخرج من ضئضئ هذا أقوام يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم) الحديث.

فكان مبدأ البدع هو الطعن في السنة بالظن والهوى، كما طعن إبليس في أمر ربه برأيه وهواه.

وأما تعيين الفرق الهالكة فأقدم من بلغنا أنه تكلم في تضليلهم يوسف بن

أسباط، ثم عبد الله بن المبارك -وهما إمامان جليلان من أجلاء أئمة المسلمين- قالا: أصول البدع أربعة: الروافض، والخوارج، والقدرية، والمرجئة.

فقيل لابن المبارك: والجهمية؟ فأجاب بأن أولئك ليسوا من أمة محمد. وكان يقول: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية. وهذا الذي قاله اتبعه عليه طائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم، قالوا: إن الجهمية كفار فلا يدخلون في الاثنتين والسبعين فرقة، كما لا يدخل فيهم المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، وهم الزنادقة.

وقال آخرون من أصحاب أحمد وغيرهم: بل الجهمية داخلون في الاثنتين والسبعين فرقة، وجعلوا أصول البدع خمسة، فعلى قول هؤلاء: يكون كل طائفة من [المبتدعة الخمسة] اثنا عشر فرقة، وعلى قول الأولين: يكون كل طائفة من [المبتدعة الأربعة] ثمانية عشر فرقة.

وهذا يبني على أصل آخر، وهو: تكفير أهل البدع. فمن أخرج الجهمية منهم لم يكفرهم؛ فإنه لا يكفر سائر أهل البدع، بل يجعلهم من أهل الوعيد بمنزلة الفساق والعصاة، ويجعل قوله: (هم في النار) مثل ما جاء في سائر الذنوب، مثل أكل مال اليتيم وغيره، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء: ١٠]، ومن أدخلهم فيهم فهم على قولين:

منهم من يكفرهم كلهم، وهذا إنما قاله بعض المستأخرين المنتسبين إلى الأئمة أو المتكلمين.

وأما السلف والأئمة فلم يتنازعوا في عدم تكفير [المرجئة] و[الشيعة]

المفضلة ونحو ذلك، ولم تختلف نصوص أحمد في أنه لا يكفر هؤلاء، وإن كان من أصحابه من حكى في تكفير جميع أهل البدع - من هؤلاء وغيرهم - خلافًا عنه، أو في مذهبه، حتى أطلق بعضهم تخليد هؤلاء وغيرهم. وهذا غلط على مذهبه، وعلى الشريعة.

ومنهم من لم يكفر أحدًا من هؤلاء إلحاقًا لأهل البدع بأهل المعاصي، قالوا: فكما أن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم لا يكفرون أحدًا بذنب، فكذلك لا يكفرون أحدًا ببدعة.

والمأثور عن السلف والأئمة إطلاق أقوال بتكفير [الجهمية المحضة]، الذين ينكرون الصفات، وحقيقة قولهم أن الله لا يتكلم ولا يرى، ولا يباين الخلق، ولا له علم ولا قدرة، ولا سمع ولا بصر ولا حياة، بل القرآن مخلوق، وأهل الجنة لايرونه كما لا يراه أهل النار، وأمثال هذه المقالات.

وأما الخوارج والروافض، ففي تكفيرهم نزاع وتردد عن أحمد وغيره.

وأما القدرية الذين ينفون الكتابة والعلم فكفروهم، ولم يكفروا من أثبت العلم ولم يثبت خلق الأفعال.

وفصل الخطاب في هذا الباب بذكر أصلين

أحدهما: أن يعلم أن الكافر في نفس الأمر من أهل الصلاة لا يكون إلا منافقًا؛ فإن الله منذ بعث محمدًا ﷺ، وأنزل عليه القرآن، وهاجر إلى المدينة، صار الناس ثلاثة أصناف: مؤمن به، وكافر به مظهر الكفر، ومنافق مستخف بالكفر؛ ولهذا ذكر الله هذه الأصناف الثلاثة في أول سورة البقرة، ذكر أربع آيات في نعت المؤمنين، وآيتين في الكفار، وبضع عشرة آية في المنافقين.

وقد ذكر الله الكفار والمنافقين في غير موضع من القرآن، كقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ

الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} [الأحزاب: ١]، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء: ١٤٠]، وقوله: {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الحديد: ١٥]، وعطفهم على الكفار ليميزهم عنهم بإظهار الإسلام، وإلا فهم في الباطن شر من الكفار، كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النساء: ١٤٥]، وكما قال: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة: ٨٤]، وكما قال: {قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة: ٥٣، ٥٤].

وإذا كان كذلك، فأهل البدع فيهم المنافق الزنديق فهذا كافر، ويكثر مثل هذا في الرافضة والجهمية، فإن رؤساءهم كانوا منافقين زنادقة. وأول من ابتدع الرفض كان منافقًا. وكذلك التجهم فإن أصله زندقة ونفاق؛ ولهذا كان الزنادقة المنافقون من القرامطة الباطنية المتفلسفة وأمثالهم يميلون إلى الرافضة والجهمية لقربهم منهم.

ومن أهل البدع من يكون فيه إيمان باطنًا وظاهرًا، لكن فيه جهل وظلم حتى أخطأ ما أخطأ من السنة، فهذا ليس بكافر ولا منافق، ثم قد يكون منه عدوان وظلم يكون به فاسقًا أو عاصيًا، وقد يكون مخطئًا متأولا مغفورًا له خطؤه، وقد يكون مع ذلك معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، فهذا أحد الأصلين.

والأصل الثاني: أن المقالة تكون كفرًا، كجحد وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج، وتحليل الزنا والخمر والميسر ونكاح ذوات المحارم، ثم

القائل بها قد يكون بحيث لم يبلغه الخطاب، وكذا لا يكفر به جاحده، كمن هو حديث عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه شرائع الإسلام، فهذا لا يحكم بكفره بجحد شيء مما أنزل على الرسول إذا لم يعلم أنه أنزل على الرسول، ومقالات الجهمية هي من هذا النوع؛ فإنها جحد لما هو الرب تعالى عليه، ولما أنزل الله على رسوله.

وتغلظ مقالاتهم من ثلاثة أوجه

أحدها: أن النصوص المخالفة لقولهم في الكتاب والسنة والإجماع كثيرة جدًا مشهورة وإنما يردونها بالتحريف.

الثاني: أن حقيقة قولهم تعطيل الصانع، وإن كان منهم من لا يعلم أن قولهم مستلزم تعطيل الصانع. فكما أن أصل الإيمان الإقرار بالله، فأصل الكفر الإنكار لله.

الثالث: أنهم يخالفون ما اتفقت عليه الملل كلها وأهل الفطر السليمة كلها، لكن مع هذا قد يخفى كثير من مقالاتهم على كثير من أهل الإيمان، حتى يظن أن الحق معهم، لما يوردونه من الشبهات. ويكون أولئك المؤمنون مؤمنين بالله ورسوله باطنًا وظاهرًا، وإنما التبس عليهم واشتبه هذا كما التبس على غيرهم من أصناف المبتدعة، فهؤلاء ليسوا كفارًا قطعًا، بل قد يكون منهم الفاسق والعاصي، وقد يكون منهم المخطئ المغفور له، وقد يكون معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه به من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه.

وأصل قول أهل السنة الذي فارقوا به الخوارج والجهمية والمعتزلة والمرجئة: أن الإيمان يتفاضل ويتبعض، كما قال النبي ﷺ: (يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان) وحينئذ فتتفاضل ولاية الله وتتبعض بحسب

ذلك.

وإذا عرف أصل البدع فأصل قول الخوارج أنهم يكفرون بالذنب، ويعتقدون ذنبًا ما ليس بذنب، ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب - وإن كانت متواترة - ويكفرون من خالفهم، ويستحلون منه لارتداده عندهم ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي، كما قال النبي ﷺ فيهم: (يقتلون أهل الإسلام وَيَدعون أهل الأوثان). ولهذا كفروا عثمان وعليا وشيعتهما، وكفروا أهل صفين - الطائفتين - في نحو ذلك من المقالات الخبيثة.

وأصل قول الرافضة: أن النبي ﷺ نص على عَلِيٍّ نصًا قاطعًا للعذر، وأنه إمام معصوم، ومن خالفه كفر، وأن المهاجرين والأنصار كتموا النص وكفروا بالإمام المعصوم، واتبعوا أهواءهم وبدلوا الدين، وغيروا الشريعة، وظلموا واعتدوا، بل كفروا إلا نفرًا قليلًا: إما بضعة عشر أو أكثر، ثم يقولون: إن أبا بكر وعمر ونحوهما ما زالا منافقين. وقد يقولون: بل آمنوا ثم كفروا.

وأكثرهم يكفر من خالف قولهم، ويسمون أنفسهم المؤمنين، ومن خالفهم كفارًا، ويجعلون مدائن الإسلام التي لا تظهر فيها أقوالهم دار ردة، أسوأ حالًا من مدائن المشركين والنصارى؛ ولهذا يوالون اليهود والنصارى والمشركين على بعض جمهور المسلمين. ومعاداتهم ومحاربتهم، كما عرف من موالاتهم الكفار المشركين على جمهور المسلمين، ومن موالاتهم الإفرنج النصارى على جمهور المسلمين، ومن موالاتهم اليهود على جمهور المسلمين.

ومنهم ظهرت أمهات الزندقة والنفاق، كزندقة القرامطة الباطنية وأمثالهم، ولا ريب أنهم أبعد طوائف المبتدعة عن الكتاب والسنة؛ ولهذا كانوا هم المشهورين عند العامة بالمخالفة للسنة، فجمهور العامة لا تعرف ضد السني

إلا الرافضي، فإذا قال أحدهم: أنا سني، فإنما معناه: لست رافضيًا.

ولا ريب أنهم شر من الخوارج، لكن الخوارج كان لهم في مبدأ الإسلام سيف على أهل الجماعة، وموالاتهم الكفار أعظم من سيوف الخوارج، فإن القرامطة والإسماعيلية ونحوهم من أهل المحاربة لأهل الجماعة، وهم منتسبون إليهم، وأما الخوارج فهم معروفون بالصدق، والروافض معروفون بالكذب. والخوارج مرقوا من الإسلام، وهؤلاء نابذوا الإسلام.

وأما القدرية المحضة، فهم خير من هؤلاء بكثير، وأقرب إلى الكتاب والسنة، لكن المعتزلة وغيرهم من القدرية هم جهمية أيضًا، وقد يكفرون من خالفهم، ويستحلون دماء المسلمين فيقربون من أولئك.

وأما المرجئة، فليسوا من هذه البدع المغلظة، بل قد دخل في قولهم طوائف من أهل الفقه والعبادة، وما كانوا يُعَدُّون إلا من أهل السنة، حتى تغلظ أمرهم بما زادوه من الأقوال المغلظة.

ولما كان قد نسب إلى الإرجاء والتفضيل قوم مشاهير متبعون، تكلم أئمة السنة المشاهير في ذم المرجئة المفضلة تنفيرًا عن مقالتهم، كقول سفيان الثوري: من قَدَّم عليًا على أبي بكر والشيخين فقد أزرى (أي: حطَّ من شأنهم) بالمهاجرين والأنصار، وما أرى يصعد له إلى الله عمل مع ذلك. أو نحو هذا القول. قاله لما نسب إلى تقديم على بعض أئمة الكوفيين. وكذلك قول أيوب السختياني: من قدم عليا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، قاله لما بلغه ذلك عن بعض أئمة الكوفيين. وقد روى أنه رجع عن ذلك، وكذلك قول الثوري ومالك والشافعي وغيرهم في ذم المرجئة لما نسب إلى الإرجاء بعض المشهورين.

وكلام الإمام أحمد في هذا الباب جار على كلام من تقدم من أئمة الهدى، ليس له قول ابتدعه ولكن أظهر السنة وبينها، وذب عنها وبين حال مخالفيها وجاهد عليها، وصبر على الأذى فيها لما أظهرت الأهواء والبدع، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] فالصبر واليقين بهما تنال الإمامة في الدين، فلما قام بذلك قرنت باسمه من الإمامة في السنة ما شهر به وصار متبوعًا لمن بعده، كما كان تابعًا لمن قبله.

وإلا فالسنة هي ما تَلَقَّاه الصحابة عن رسول الله ﷺ، وتلقاه عنهم التابعون ثم تابعوهم إلى يوم القيامة، وإن كان بعض الأئمة بها أعلم وعليها أصبر. والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم، والله أعلم. انتهى كلام شيخ الإسلام.

مسألة: فى تعيين هذه الفرق. وهى مسألة -كما قال الطرطوشى- طاشت فيها أحلام الخلق، فكثير ممن تقدم وتأخر من العلماء عينوها، لكن فى الطوائف التى خالفت فى مسائل العقائد، فمنهم من عد أصولها ثمانية، فقال: كبار الفرق الإسلامية ثمانية: المعتزلة، والشيعة، والخوارج، والمرجئة، والنجارية، والجبرية، والمشبهة، والناجية. فإن كان رسول الله ﷺ أراد بتفرُّق أمته أصول العقائد التى تجرى مجرى الأجناس للأنواع، والمعاقد للفروع، لعلهم -والعلم عند الله- ما بلغوا هذا العدد إلى الآن، غير أن الزمان باق والتكليف قائم والخطرات متوقعة، وهل قرن أو عصر يخلو إلا وتحدث فيه البدع؟!

وإن كان أراد بالتفرق كل بدعة حدثت فى دين الإسلام مما لا يلائم أصول الإسلام ولا تقبلها قواعده، من غير التفات إلى التقسيم الذى ذكرنا، كانت البدع أنواعًا لأجناس، أو كانت متغايرة الأصول والمباني.

فهذا هو الذى أراده عليه السلام -والعلم عند الله-، فقد وجد من ذلك عدد كثير

من اثنتين وسبعين. ووجه صحيح الحديث على هذا أن يخرج من الحساب غلاة أهل البدع، ولا يعدون من الأمة ولا فى أهل القبلة، كنفاة الأعراض من القدرية -لأنه لا طريق إلى معرفة حدوث العالم وإثبات الصانع إلا بثبوت الأعراض- وكالحلولية، والنصيرية، وأشباههم من الغلاة.

هذا ما قال الطرطوشى رحمه الله تعالى، وهو حسن من التقرير، غير أنه يبقى للنظر فى كلامه مجالان:

(أحدهما): أن ما اختار من أنه ليس المراد الأجناس، فإن كان مراده مجرد أعيان البدع، وقد ارتضى اعتبار البدع القولية والعملية، فمشكل، لأنا إذا اعتبرنا كل بدعة دقت أو جلت، فكل من ابتدع (بدعة) كيف كانت لزم أن يكون هو ومن تابعه عليها فرقة، فلا تقف فى مئة ولا مئتين، فضلًا عن وقوعها فى اثنتين وسبعين، فإن البدع -كما قال- لا تزال تحدث مع مرور الأزمنة إلى قيام الساعة.

وقد مرَّ من النقل ما يشعر بهذا المعنى، وهو قول ابن عباس: ما من عام إلا والناس يحيون فيه بدعة ويميتون فيه سنة، حتى تحيا البدع وتموت السنن.

وهذا موجود فى الواقع، فإن البدع قد نشأت إلى الآن، ولا تزال تكثر، وإن فرضنا إزالة بدع الزائغين فى العقائد كلها، لكان الذى يبقى أكثر من اثنتين وسبعين، فما قاله -والله أعلم- غير مخلِّص.

(والثانى): أن حاصل كلامه أن هذه الفرق لم تتعيَّن بعد، بخلاف القول المتقدم، وهو أصح فى النظر، لأن ذلك التعيين ليس عليه دليل، والعقل لا يقتضيه.

فالأولى ما قاله من عدم التعيين، وإن سلمنا (أن) الدليل قام له على ذلك، فلا ينبغى التعيين. أما أولًا: فإن الشريعة قد فهمنا منها أنها تشير إلى أوصافهم

من غير تصريح ليحذر منها، ويبقى الأمر فى تعيين الداخلين فى مقتضى الحديث مرجئ، وإنما ورد التعيين فى النادر، كما قال عليه الصلاة والسلام فى الخوارج: (إن من ضئضىء هذا قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم. .) الحديث، مع أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يعرِّف أنهم ممن شملهم حديث الفرق.

وأما الثانية: فلأن عدم التعيين هو الذى ينبغى أن يلتزم، ليكون سترًا على الأمة كما سترت عليهم قبائحهم فلم يفضحوا فى الدنيا بها فى الغالب. وأمرنا بالستر على المذنبين ما لم تبد لنا صفحة الخلاف.

وأيضًا، فللستر حكمة أخرى، وهى أنها لو أظهرت مع أن أصحابها من الأمة، لكان فى ذلك داع إلى الفرقة وعدم الألفة التى أمر الله ورسوله بها، حيث قال: {واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا} ، وقال: {فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم}، وقال: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات}.

فإذا كان من مقتضى العادة أن التعريف بهم على التعيين يورث العداوة بينهم والفرقة، لزم من ذلك أن يكون منهيًا عنه، إلا أن تكون البدعة فاحشة جدًا، كبدعة الخوارج، وذكرهم بعلامتهم، حتى يعرفوا، ويلحق بذلك ما هو مثله فى الشناعة أو قريب منه بحسب نظر المجتهد، وما عدا ذلك، فالسكون عنه أولى.

فمن هنا لا ينبغى للراسخ فى العلم أن يقول: هؤلاء الفرق هم بنو فلان وبنو فلان! وإن كان يعرِّف بعلامتهم بحسب اجتهاده، اللهم إلا فى موطنين:

(**أحدهما**): حيث نبه الشرع على تعيينهم، كالخوارج، فإنه ظهر من استقرائه أنهم متمكنون تحت حديث الفرق، ويجرى مجراهم من سلك سبيلهم، فإن أقرب الناس إليهم شيعة المهدى المغربى، فإنه ظهر فيهم الأمران اللذان عرف النبى ﷺ بهما فى الخوارج، من أنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، وأنهم

يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان.

(والثانى): حيث تكون الفرقة تدعو إلى ضلالتها وتزيينها فى قلوب العوام ومن لا علم عنده، فإن ضرر هؤلاء على المسلمين كضرر إبليس، وهم من شياطين الإنس، فلا بد من التصريح بأنهم من أهل البدعة والضلالة، ونسبتهم إلى الفرق إذا قامت له الشواهد على أنهم منهم، كما اشتهر عن عمرو بن عبيد وغيره.

فإذا فقد الأمران، فلا ينبغى أن يُذْكَرُوا ولا أن يُعَيَّنُوا وإن وُجِدُوا، لأن ذلك أول مثير للشر وإلقاء العداوة والبغضاء، ومتى حصل باليد منهم أحد، ذاكره برفق، ولم ير أنه خارج من السنة، بل يريه أنه مخالف للدليل الشرعى، وأن الصواب الموافق للسنة كذا وكذا، فإن فعل ذلك من غير تعصب ولا إظهار غلبة، فهو أنجح وأنفع، وبهذه الطريقة دُعِى الخلق أولًا إلى الله تعالى، حتى إذا عاندوا وأشاعوا الخلاف وأظهروا الفرقة، قوبلوا بحسب ذلك.

قال أبو حامد الغزالى فى بعض كتبه: أكثر الجهالات إنما رسخت فى قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق، أظهروا الحق فى معرض التحدى والإذلال، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء، فثارت من بواطنهم دواعى المعاندة والمخالفة، ورسخت فى قلوبهم الاعتقادات الباطلة، وتعذر على العلماء المتلطِّفين محوها مع ظهور فسادها، حتى انتهى التعصب بطائفة إلى أن اعتقدوا أن الحروف التى نطقوا بها فى الحال بعد السكوت عنها طول العمر قديمة، ولولا استيلاء الشيطان بواسطة العناد والتعصب للأهواء، لما وجد مثل هذا الاعتقاد مستقرًا فى قلب مجنون، فضلًا عن قلب عاقل.

هذا ما قال، وهو الحق الذى تشهد له العوائد الجارية، فالواجب تسكين

الثائرة ما قدر على ذلك، والله أعلم.

وقفة حول الفرق وتحديدها وتعدادها: اختلف أهل العلم قديمًا وحديثًا فى الفرق الثنتين والسبعين الهالكة من هى؟ ومن يدخل فيها من الفرق التى ظهرت ومن يخرج؟ وهل يمكن تعيينها نوعيًا وعدديًا وإحصاؤها على سبيل الحصر والتحديد؟

أما الفرقة الناجية فليست محل خلاف بين أهل العلم المعتبرين، لأن تعيينها بالوصف قاطع لا شك فيه، وبَيِّنٌ لا لبس فيه إلا لمن عميت بصيرته، فلا حيلة فيه. فالفرقة الناجية وصفها الرسول ﷺ بأنها: من كان على ما عليه الرسول ﷺ وأصحابه، وما كان عليه ﷺ وأصحابه، معلوم منقول مأثور مسطور، وهو السنة وسبيل المؤمنين، وقد تكفل الله تعالى ببقائه وحفظه وبقاء طائفة من الأمة عليه، ظاهرة بالحق، قائمة بالدين، والحمد لله.

وقبل أن أعرض أقوال أهل العلم، وشبهات أهل الأهواء ومزاعمهم أشير إلى ما تقرر عند جمهور السلف وهو: أن وقوع الافتراق فى الأمة أمر ثابت قطعًا فى القرآن والسنة، والواقع يشهد له.

أن الرسول ﷺ صح عنه أن عدد الفرق الهالكة: ثنتين وسبعين، والناجية واحدة.

أنه ﷺ، بين أن الفرقة الناجية هم أهل السنة حيث كانوا على ما وصف، أى على ما كان عليه هو ﷺ وأصحابه.

أن الفرق الهالكة من أهل الوعيد بالنار لكن ليسوا من المخلدين فى النار إن دخلوها.

أن من الفرق من يخرج عن مسمى جميع الفرق، لخروجهم من الملة

أصلًا، وليسوا من عداد المسلمين كغلاة الجهمية، وغلاة الرافضة، والباطنية، والفلاسفة الخالصة، وأهل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

أن تحديد الفرق الثنتين والسبعين على سبيل التعيين، وتوزيع الأعداد تحديدًا على أصول الفرق الكبرى أمر غيبى لا دليل عليه، وكذلك تسميتها من باب الأولى، لأن الافتراق يزداد، والأهواء والبدع تتجدد، وتنبعث فى كل عصر، وإلى قيام الساعة، والله أعلم.

أصول الفرق الهالكة عند بعض العلماء وإخراجهم الجهمية الخالصة من الثنتين والسبعين: لقد اجتهد بعض الأئمة فى تعيين أصول الفرق الهالكة، وتقسيم عددها على أصول الفرق الكبرى فى زمانهم.

قال حفص بن حميد: "قلت لعبد الله بن المبارك: على كم افترقت هذه الأمة؟ فقال: الأصل أربع فرق: هم الشيعة، والحرورية، والقدرية، والمرجئة، فافترقت الشيعة على اثنتين وعشرين فرقة، وافترقت الحرورية على إحدى وعشرين فرقة، وافترقت القدرية على ست عشرة فرقة، وافترقت المرجئة على ثلاث عشرة فرقة. قال: قلت يا أبا عبد الرحمن لم أسمعك تذكر الجهمية، قال: إنما سألتنى عن فرق المسلمين".

ويرى أكثر أهل العلم أن الجهمية الخالصة خارجة من عداد الفرق لأنها كفرت بالتعطيل، وكذلك الباطنية وملاحدة الفلاسفة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولهذا قال عبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط وغيرهما: أصول البدع أربعة: الشيعة، والخوارج، والقدرية، والمرجئة. قالوا: والجهمية ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة.

وكذلك ذكر أبو عبد الله بن حامد عن أصحاب أحمد فى ذلك قولين، هذا

أحدهما، وهذا أرادوا به التجهم المحض، الذى كان عليه جهم نفسه، ومتبعوه عليه، وهو نفى الأسماء مع نفى الصفات، بحيث لا يسمى الله بشىء من أسمائه الحسنى، ولا يسميه شيئًا ولا موجودًا ولا غير ذلك".

وقال أيضًا: "وشر منه نفاة الأسماء والصفات، وهم الملاحدة من الفلاسفة والقرامطة، ولهذا كان هؤلاء عند الأئمة قاطبة ملاحدة منافقين، بل فيهم من الكفر الباطن ما هو أعظم من كفر اليهود والنصارى، وهؤلاء لا ريب أنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة، وإذا أظهروا الإسلام فغايتهم أن يكونوا منافقين: كالمنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وأولئك كانوا أقرب إلى الإسلام من هؤلاء، فإنهم كانوا يلتزمون شرائع الإسلام الظاهرة، وهؤلاء قد يقولون برفعها فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة، لكن قد يقال: إن أولئك كانوا قد قامت عليهم الحجة بالرسالة أكثر من هؤلاء".

وقال أيضًا: "والجهمية عند كثير من السلف، مثل: عبد الله بن المبارك، ويوسف بن أسباط، وطائفة من أصحاب الإمام أحمد، وغيرهم، ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة التى افترقت عليها هذه الأمة، بل أصول هذه عند هؤلاء هم: الخوارج، والشيعة، والمرجئة، والقدرية، وهذا المأثور عن أحمد، وهو المأثور عن عامة أئمة السنة والحديث، أنهم كانوا يقولون: من قال القرآن مخلوق: فهو كافر، ومن قال: إن الله لا يرى فى الآخرة: فهو كافر، ونحو ذلك".

تحديد الفرق الثنتين والسبعين الهالكة وتسميتها غير ممكن: لقد حاول بعض العلماء ومؤلفو كتب المقالات تسمية الفرق الثنتين والسبعين وتحديدها عدديًا، وتوزيع ذلك على أصول الفرق الكبرى، وممن فعل ذلك الإمام عبد الله بن المبارك، ويوسف بن أسباط، وأبو حاتم الرازى، والملطى فى التنبيه،

والبغدادى فى الفَرق بين الفِرق، وابن الجوزى فى تلبيس إبليس، والشهرستانى فى الملل والنحل، والسكسكى فى الرهان، والعراقى فى الفرق المفترقة "الفرق وأصناف الكفرة"، وكل ذلك اجتهاد من هؤلاء لا يسنده دليل، لا سيما وأن المسألة غيبية، فإن النبى، ﷺ، حينما أخبر لم يتجاوز ذلك العدد، وقد أطلق المكان والزمان، فيبقى احتمال خروج الفرق إلى قيام الساعة، وعلى هذا فلا يستطيع أحد أن يحدد هذه الفرق على سبيل الجزم، لأن الأمر غيبى، والله أعلم.

وأما دعوى كل فرقة أنها الناجية مردودة بالنصوص: أما ما تتنازعه الفرق من أن كل واحدة تدعى أنها الناجية، فإنه محسوم برده إلى كتاب الله وسنة رسوله، ﷺ، أما الكتاب فمثل قوله تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} . فاتباع الرسول، ﷺ، هو الميزان، أما دعوى أهل الأهواء أنهم متبعون للرسول، ﷺ، فهى مردودة بعرض أصولهم على السنة ومنهج السلف، فمن كان على سبيل السلف ونهجهم فهو المحق، ومن خالف السنة وهدى السلف ونهجهم فهو صاحب هوى، ولا تسلم له دعواه، بل ترد[1].

(باب التعريف بأهل السنة والجماعة)

يحسن بنا أولاً أن نعرف بمذهب السلف، وهو مذهب أهل السنة والجماعة[2]، وأهل الحديث والأثر.

---

(١) انظر كتاب أصول وتاريخ الفرق (١/ ٥٨-٦٥).

(٢) لقب أهل السنة ظهر في أواخر أيام الصحابة رضي الله عنهم وإن كان المذهب قديما فهو مذهب النبي ﷺ وأصحابه، يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: في تفسير قوله تعالى: {يوم تبيض وجوه وتسود وجوه} : "فأما الذين ابيضت وجوههم فأهل السنة والجماعة وأولوا العلم، وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والضلال " أخرجه اللاكائي (١/ ٧١) برقم (٧٤) لكن في إسناده مجاشع بن عمرو قال عنه البخاري منكر مجهول.
=

=

وقال مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ١٥): (حدثنا أبو جعفر محمد بن الصباح حدثنا إسماعيل بن زكرياء عن عاصم الأحول عن ابن سيرين قال لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم)

قال أبو محمد بن حزم: (وأهل السنة الذين نذكرهم أهل الحق ومن عداهم فأهل البدعة فإنهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رَحِمَهُمُ اللَّهُ عليهم ثم أصحاب الحديث ومن إتبعهم من الفقهاء جيلا فجيلا إلى يومنا هذا أومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم) الفصل (٢/ ١١٣)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فلفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى ويقول إن القرآن غير مخلوق وإن الله يرى في الآخرة ويثبت القدر وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة) منهاج السنة النبوية (١/ ٢٠٤) يؤيد ذلك الكتب التي ألفت في السنة كالسنة للإمام أحمد عبد الله بن أحمد والسنة للخلال والسنة لأبي داود والسنة لابن أبي عاصم والسنة لابن أبي حاتم والسنة لأبي بكر بن ا لأثرم والسنة لابن خزيمة والسنة للالكائي وغيرها، وقد تلقب بعض علماء الإسلام بلقب إمام أهل السنة كالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومذهب أهل السنة هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه لكن التسمية بأهل السنة ظهرت في مقابلة البدع والأهواء قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم ومن خالف ذلك كان مبتدعا عند أهل السنة والجماعة فإنهم متفقون على أن إجماع الصحابة حجة ومتنازعون في إجماع من بعدهم وأحمد بن حنبل وإن كان قد اشتهر بإمامة السنة والصبر في المحنة فليس ذلك لأنه انفرد بقول أو ابتدع قولا بل لأن السنة التي كانت موجودة معروفة قبله علمها ودعا إليها وصبر على من امتحنه ليفارقها وكان الأئمة قبله قد ماتوا قبل المحنة فلما وقعت محنة الجهمية نفاة الصفات في أوائل المائة الثالثة على عهد المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق ودعوا الناس إلى التجهم وإبطال صفات الله تعالى وهو المذهب الذي ذهب إليه متأخروا الرافضة وكانوا قد أدخلوا معهم من أدخلوه من ولاة الأمور فلم يوافقهم أهل

=

=

السنة والجماعة حتى تهددوا بعضهم بالقتل وقيدوا بعضهم وعاقبوهم وأخذوهم بالرهبة والرغبة وثبت الإمام أحمد بن حنبل على ذلك الأمر حتى حبسوه مدة ثم طلبوا أصحابهم لمناظرته فانقطعوا معه في المناظرة يوما بعد يوم ولم يأتوا بما يوجب موافقته لهم بل بين خطأهم فيما ذكروه من الأدلة وكانوا قد طلبوا له أئمة الكلام من أهل البصرة وغيرهم مثل أبي عيسى محمد بن عيسى برغوث صاحب حسين النجار وأمثاله ولم تكن المناظرة مع المعتزلة فقط بل كانت مع جنس الجهمية من المعتزلة والنجارية والضرارية وأنواع المرجئة فكل معتزلي جهمي وليس كل جهمي معتزليا لكن جهم أشد تعطيلا لأنه ينفى الأسماء والصفات والمعتزلة تنفى الصفات دون الأسماء وبشر المريسى كان من المرجئة لم يكن من المعتزلة بل كان من كبار الجهمية) منهاج السنة (٢/ ٤٨٢).

قال سفيان بن عيينه: (السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئا فقد ترك السنة:

اثبات القدر وتقديم أبي بكر وعمر والحوض والشفاعة والميزان والصراط والإيمان قول وعمل، والقرآن كلام الله وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٥٥-١٥٦).

وقال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم وترك البدع وكل بدعة فهي ضلالة وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء وترك المراء والجدال والخصومات في الدين والسنة عندنا آثار رسول الله ﷺ والسنة تفسر القرآن وهي دلائل القرآن وليس في السنة قياس ولا تضرب لها الامثال ولا تدرك بالعقول ولا الأهواء إنما هي الاتباع وترك الهوى ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقلها ويؤمن بها لم يكن من أهلها الإيمان بالقدر خيره وشره والتصديق بالاحاديث فيه والايمان بها لا يقال لم ولا كيف إنما هو التصديق بها والإيمان بها ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله فقد كفى ذلك وأحكم له فعليه الإيمان به والتسليم له مثل حديث الصادق والمصدوق وما كان مثله في القدر ومثل أحاديث الرؤية كلها وإن نبت عن الاسماع واستوحش منها المستمع فإنما عليه الإيمان بها وان لا يرد منها جزءا واحدا وغيرها من الاحاديث المأثورات عن الثقات لا يخاصم أحدا ولا يناظره ولا يتعلم الجدل فإن الكلام في القدر والرؤية والقرآن وغيرها

=

أولا: السلف:

قال ابن فارس في معجم مقاييس(٣/ ٩٥): "سلف": السين واللام والفاء أصل يدل على تقدم وسبق، من ذلك السلف الذين مضوا، والقوم السلاف: المتقدمون.اهـ.

هذا هو أصل هذه الكلمة لغويا، ولذا قال في العباب الزاخر في حرف الفاء، مادة: "سلف" : "وسلف يسلف سلفا- بالتحريك- مثال طلب يطلب طلبا أي: مضى قال الله تعالى: {فَلَهُ مَا سَلَفَ} [البقرة: ٢٧٥]، والقوم السلاف:

=

من السنن مكروه منهي عنه ولا يكون صاحبه إن اصاب بكلامه السنة من أهل السنة حتى يدع الجدل ويسلم ويؤمن بالآثار والقرآن كلام الله وليس بمخلوق ولا تضعف أن تقول ليس بمخلوق فإن كلام الله منه وليس منه شيء مخلوق وإياك ومناظرة من أحدث فيه ومن قال باللفظ وغيره ومن وقف فيه فقال لا أدري مخلوق أو ليس بمخلوق وإنما هو كلام الله وليس بمخلوق والايمان بالرؤية يوم القيامة كما روي عن النبي ﷺ من الأحاديث الصحاح. . . .) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٥٦ – ١٦٤).

وروى اللالكائي (١/ ١٨٣) عن سهل بن عبدالله التستري: (قيل له متى يعلم الرجل أنه على السنة والجماعة؟ قال إذا عرف من نفسه عشر خصال: لا يترك الجماعة ولا يسب أصحاب النبي ﷺ ولا يخرج على هذه الأمة بالسيف ولا يكذب بالقدر ولا يشك في الايمان ولا يماري في الدين ولا يترك الصلاة على من يموت من أهل القبلة بالذنب ولا يترك المسح على الخفين ولا يترك الجماعة خلف كل وال جار أو عدل).

وقال أيوب السختياني رَحِمَهُ اللَّهُ: (إني أخبر بموت الرجل من أهل السنة وكأني أفقد بعض أعضائي) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ٦٠ – ٦١).

وقال الثوري (استوصوا بأهل السنة خيرا فإنهم غرباء) وقال: (ما أقل أهل السنة والجماعة) شرح آصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٦٤).

والنصوص عن السلف بذكر هذا اللقب كثيرة توجد في مظانها من كتب العقيدة والمقصود أن هذا اللقب معروف عند السلف.

المتقدمون، وسلف الرجل: آباؤه المتقدمون، والجمع أسلاف وسلاف"، ثم نقل عن أبي عبيد الهروي معاني السلف ومنها: القرض، والسلم، ثم قال: "وللسلف معنيان آخران: أحدهما كل عمل صالح قدمه العبد أو فرط فرط له، والسلف من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك".اهـ.

وهذان المعنيان ذكرهما أهل غريب الحديث، ففي مشارق الأنوار (٢/ ٢١٩): "والسلف: كل عمل صاع تقدم للعبد، ومنه قوله في الدعاء للطفل: (اجعله لنا فرطا وسلفا)[١] أي خيرا متقدما نجده في الآخرة، والسلف أيضا: من تقدمك من آبائك وقرابتك.اهـ. ، ومثله في النهاية(٢/ ٣٩٠)، ومجمع بحار الأنوار (٣/ ١٠٠).

ويشهد للمعنى الأخير: من تقدمك من آبائك وقرابتك، حديث فاطمة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها (. . . ولا أراني إلا قد حضر أجلي وأنك أول أهلي لحوقا بى، ونعم السلف أنا لك)[٢]، أي المتقدم. وكذا لما ماتت ابنته قال: (الحقي بسلفنا الصالح الخير، عثمان بن مظعون)[٣]، ومنه الدعاء لأهل القبور: (أنتم

---

(١) هذا الأثر مروى عن الحسن، وقد علقه البخارى في صحيحه: باب الجنائز- باب قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة (فتح الباري: ٣/ ٢٠٣)، وذكره البخارى قبل حديث رقم (١٣٢٥) - وقد وصله ابن حجر كا في تغليق التعليق (٢/ ٤٨٣-٤٨٤) - وقد روى مسلم لفظة (فرطا وسلفا) من حديث آخر مرفوع ونصه: "إن اللة تعالى (ذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبها قبلها فجحله لها فرطا وسلفا بين يديها٠٠٠) (مسلم، كتاب الفضائل: باب إذا أراد اللة رحمة أمة قبض نبها قبلها، ورقمه: ٢٢٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٧، رقم ٢١٢٧)، والطيالسي (٢٦٩٤)، وابن سعد (٣/ ٣٩٨)، والطبراني (٨٣١٧)، وأبو نعيم (١/ ١٠٥)، والحاكم (٣/ ١٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والحديث قال عنه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٧٠): غير قوي، وله ما يدل =

سلفنا ونحن بالأثر)[1]، أي: المتقدمون.

=

على معناه، ويشهد له بالصحة، وقال الهيثمي (٣/ ١٧): فيه علي بن زيد، وفيه كلام، وهو موثق، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٢/ ٤٩٥): فيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير (٢٩٢١)، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٣٣٦١)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤/ ٣١): إسناده ضعيف، علي بن زيد -وهو ابن جدعان- ضعيف، ويوسف بن مهران، قال الميموني عن أحمد: لا يعرف، ولا أعرف أحدا روى عنه إلا ابن جدعان، وقال أبو داود: ليس يروي عن يوسف بن مهران إلا علي بن زيد، وقال أبو زرعة: ثقة، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ويذاكر به، وقال في "التقريب": وليس هو يوسف بن ماهك ذاك ثقة، وهذا لم يرو عنه إلا ابن جدعان وهو لين الحديث. (تنبيه) قول العلامة أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح متعقب بما تقدم.

(١) أخرجه الترمذى (٣/ ٣٦٩، رقم ١٠٥٣)، والطبرانى (١٢/ ١٠٧ رقم ١٢٦١٣)، والضياء (٩/ ٥٤١، رقم ٥٣٢) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال: السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن على الاثر) والحديث قال عنه العلامة الألباني في أحكام الجنائز (ص١٩٧): وقال الترمذي: (حسن غريب). قلت: في سنده قابوس بن أبي ظبيان قال النسائي: (ليس بالقوي). وقال ابن حبان: (ردئ الحفظ، ينفرد عن أبيه بما لا أصل له). قلت: وهذا من روايته عن أبيه، فلا يحتج به، ولعل تحسين الترمذي لحديثه هذا إنما هو باعتبار شواهده، فإن معناه ثابت في الاحاديث الصحيحة وقد مضى قريبا ذكر قسم طيب منها، إلا أن قوله: (فأقبل عليهم بوجهه) منكر لتفرد هذا الضيف به. إذا عرفت هذا، فقد قال الشيخ علي القاري في (مرقاة المفاتيح) (٢/ ٤٠٧): (فيه دلالة على أن المستحب في حال السلام على الميت أن يكون وجهه لوجه الميت وأن يستمر كذلك في الدعاء أيضا، وعليه عمل عامة المسلمين، خلافا لما قاله ابن حجر من أن السنة عندنا أنه في حالة الدعاء يستقبل القبلة كما علم من أحاديث أخر في مطلق الدعاء). قلت: وفي هذا الاستدلال نظر ظاهر، إذ ليس في الحديث إلا إقباله ﷺ بوجهه على القبور، وأما الاقبال على وجوه الموتى، فشئ آخر وهو يحتاج إلى نص آخر غير هذا، وهو مما لا أعرفه.

=

ونستخلص من هذا أن من معاني السلف: التقدم والسبق سواء كان بالعمل الصالح، أو من تقدم من الآباء وذوي القرابة وغيرهم، ومن هذا المعنى سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح.

ولما حدث الافتراق ونشأت البدع بدأ يتحدد مصطلح السلف في عرف المتأخرين بأنهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان. وسيأتي مزيد إيضاح ومناقشة لهذا بعد التعريف بالمصطلحات المرادفة لمصطلح: "السلف"، مثل: أهل السنة، والجماعة، وأهل الحديث، والأثر، لأن هذه المصطلحات اشتهرت وكثر استعمالها، وخاصة في مجال أصول العقائد.

ثانيا: أهل السنة:

السنة لغة: السيرة والطريقة، قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (٣/ ٦٠-٦١): "سن ": السين والنون أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة، والأصل قولهم: سننت الماء على وجهي أسنه سنا، إذا

=

فالحق أن الحديث لو ثبت سنده لكان دليلا واضحا على أن المار بالقبور يستقبلها بوجهه حين السلام عليها والدعاء لها، كيفما كان الاستقبال، وحسبما يتفق دون قصد لوجوه الموتى، أما والسند ضعيف كما سبق بيانه فلا يصلح للاستدلال به أصلا. ولا ينافي ما تقدم عن الامام مالك من عدم مشروعية استقبال الحجرة عند الدعاء الحكاية التي جاء فيها أن مالكا لما سأله المنصور العباسي عن استقبال الحجرة، أمره بذلك، وقال: هو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم، لانها حكاية باطلة، مكذوبة على مالك، وليس لها إسناد معروف، ثم هي خلاف الثابت المنقول عنه بأسانيد الثقات في كتب أصحابه كما ذكره إسماعيل في إسحاق القاضي وغيره. ومثلها ما ذكروا عنه أنه سئل عن أقوام يطيلون القيام مستقبلي الحجرة يدعون لانفسهم فأنكر مالك ذلك، وذكر أنه فمن البدع التي لم يفعلها الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وقال (لا يصلح آخر هذه الامة إلا ما أصلح أولها).

أرسلت إرسالا. . . . ، ومما اشتق منه السنة، وهى السيرة، وسنة رسول الله ﷺ سيرته.اهـ.

فالسنة هي الطريقة، محمودة كانت أو مذمومة، وهي مأخوذة من السنن وهو الطريق، ومنه الحديث: (من سن في الاسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)[(١)]، يقول ابن الأثير في النهاية (٢/ ٢٢٣): "وقد تكرر في الحديث ذكر " السنة " وما تصرف منها، والأصل فيها الطريقة والسيرة.اهـ.

وفي الحديث: (لتتبعن سنن من كان قبلكم)[(٢)]، أي طريقهم، وقولهم: (هي السنة)[(٣)] أى الطريقة التي سنها النبي عليه الصلاة والسلام وأمر بها، ولذلك صار لفظ السنة يطلق على ما كان محمودا فيقال: فلان من أهل السنة، معناه، من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة.

أما السنة في الاصطلاح فلها عدة إطلاقات:

أ- ففى اصطلاح المحدثين: عرفها ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٤٥) بأنها: "ما جاء عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريره وما هم بفعله".اهـ.

وعرفها البعض بأنها: "كل ما أثر عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خلقية أو خلقية، أو سيرة، سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها"، فهي بهذا مرادفة للحديث.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧).

(٢) أخرجه البخارى (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٣) ترد كثيرا على لسان الصحابة والتابعين، انظر مثلا: صحيح مسلم، كتاب المساجد- باب جواز الاقعاء على العقبير، ورقمه (٥٣٦).

ب- وفي اصطلاح علماء أصول الفقه يطلق لفظ السنة على ما جاء منقولا عن النبي ﷺ على الخصوص، مما لم ينص عليه في الكتاب العزيز، بل إن ما نص عليه من جهته عليه الصلاة والسلام، كان بيانا لما في الكتاب أولا"، فهي مختصة بما صدر عن النبي ﷺ من غير القرآن مما يصلح أن يكون دليلا شرعيا.

ج- وفي اصطلاح الفقهاء فهي: ما ثبت عن النبى ﷺ ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب. فهى مرادفة للمندوب.

د- وقد تطلق السنة على كل ما دل عليه دليل شرعي، سواء كان ذلك في الكتاب العزيز أو مأثورا عن النبى ﷺ، أو اجتهد فيه الصحابة كجمع المصحف، وتدوين الدواوين. . . ، ودخول ما اجتهد فيه الصحابة يدل عليه حديث: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين)(١)، وقول على في الخمر:

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجة (٤٢)، والدارمي (٩٥)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد: (١/ ٧٤ - ٧٥)، والآجري في الشريعة (ص٤٦ - ٤٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٧ - ١٩)، وأبو عبيد في الخطب والمواعظ، والحاكم (١/ ٩٥)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٠٥)، وابن وضاح في البدع (ص٢٣، ٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٢٠، ٢٢١ و١٠/ ١١٤، ١١٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٦٩)، والهروي في ذم الكلام (٦٩/ ١ - ٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤)، وفي الإعتقاد (ص١١٣)، والخطيب في الموضح (٢/ ٤٢٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١١/ ٢٣٥/ ١) والحديث صححه الترمذي، وصححه البزار كما في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٢٤)، وحسنه البغوي في شرح السنة، وقال أبو نعيم في المستخرج على صحيح مسلم: حديث جيد من صحيح حديث الشاميين كما في جامع العلوم والحكم (ص٢٢٦)، وصححه ابن حبان والحاكم، وقال الجوزقاني في الأباطيل والمناكير (١/ ٤٧٢): صحيح ثابت مشهور، وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٦٤): ثابت صحيح، وقال شيخ الاسلام الانصاري هو أجود حديث في أهل الشام وأحسنه كما في تحفة الطالب (٤٦)، =

(جلد النبي ﷺ أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وجلد عمر ثمانين، وكل سنة)[١].

هـ- كما تطلق السنة في مقابل البدعة كما في الموافقات (٤/ ٣): " فيقال: فلان على سنة، إذا عمل على وفق ما عمل عليه السلام، كان ذلك مما نص عليه الكتاب أو لا".اهـ.

هذه أهم إطلاقات السنة عند العلماء[٢]، والذي يهمنا هنا اصطلاح "السنة" حينما يقال: "أهل السنة" في مجال العقائد، خاصة لما حدث الافتراق في الأمة الإسلامية. قال ابن رجب كما في كشف الكربة (ص: ١٩-٢٠): "وعن سفيان الثوري قال: "استوصوا بأهل السنة خيرا فإنهم غرباء"، ومراد هؤلاء الأئمة

=

وصححه الضياء المقدسي في جزء في اتباع السنن واجتناب البدع (رقم ٢)، وصححه شيخ الإسلام في الإقتضاء (٢/ ٨٣)، وحسنه المصنف هنا، وجوده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٣١٣)، وقال العراقي في الباعث على الخلاص (رقم ١): صحيح مشهور، وقال ابن كثير في تحفة الطالب (رقم ٤٦): وصححه أيضا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، والدغولي، وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة وانظر الصحيحة (٩٣٧)، وحسنه الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٥/ ٢٤ - ٢٥)، وصححه الحويني في تخريج فضائل القرآن (ص٦٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: حديث صحيح ورجاله ثقات.

(١) أخرجه مسلم (١٧٠٧).

(٢) يطلق لفظ: "أهل السنة " في مقابل الرافضة، كما أن الرافضة يعنون به من عداهم، يقول ابن تيمية في منهاج السنة (٢/ ١٦٣): "فلفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة فلا يدخل فيه الا من يثبت الصفات لله تعالى. . . . وهذا الرافضي- يعني المصنف- جعل أهل السنة بالاصطلاح الأول وهو اصطلاح العامة: كل من ليس يرافضي قالوا: هو من أهل السنة".

بالسنة طريقة النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه، السالمة من الشبهات والشهوات، ولهذا كان الفضيل بن عياض يقول: "أهل السنة من عرف ما يدخل في بطنه من حلال"، وذلك لأن أكل الحلال من أعظم خصال السنة التى كان عليها النبي ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم. ثم صار في عرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم: السنة عبارة عما سلم من الشبهات في الاعتقادات خاصة في مسائل الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وكذلك في مسائل القدر، وفضائل الصحابة، وصنفوا في هذا العلم تصانيف وسموها كتب السنة، وإنما خصوا هذا العلم باسم السنة لأن خطره عظيم، والمخالف فيه على شفا هلكة، وأما السنة الكاملة فهي الطريقة السالمة من الشبهات والشهوات".اهـ .

وهذا الذي ذكره ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ استقر عليه مصطلح أهل السنة، ولذلك لما وصل السمعاني في الأنساب (٧/ ١٧٥) إلى ذكر من نسب إلى السنة فقيل: "السني" قال: "السني: بضم السين المهملة، وتشديد النون المكسورة، هذه النسبة إلى السنة التي هي ضد البدعة، ولما كثر أهل البدع خصوا بها جماعة بهذا الانتساب".اهـ.

ولما سأل عمر بن عبد العزيز رجل عن القدر أجابه بجواب طويل أوله: (أما بعد، أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإنها لك- بإذن اللهـ عصمة. . .)[1] فأمره وهو يجيبه عن موضوع القدر وما أحدث

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦١٢)، وأحمد في الزهد (ص٣٦٠)، والأجري في الشريعة (٢٣٣)، وابن وضاح في البدع (ص٣٠/ ٣١) وقال العلامة الألباني في صحيح أبي داود: صحيح =

فيه أهل البدع- بلزوم السنة وأن فيها وحدها العصمة من الانحراف.

ثالثا: الجماعة:

يقال: "أهل السنة والجماعة"، وقد ورد الأمر بلزوم الجماعة في عدة أحاديث، منها ما رواه ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (خطب بالجابية، فقال: قام فينا رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقامي فيكم فقال: "استوصوا بأصحابي خيرا، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب، حتى إن الرجل ليبتدىء بالشهادة قبل أن يسألها، فمن أراد منكم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد)[1]، وفي بعض روايات حديث

=

مقطوع، يعني صحيح من قول عمر بن عبد العزيز.

(١) أخرجه الشافعى (١/ ٢٤٤)، والطيالسى (ص ٧، رقم ٣١)، والحميدى (١/ ١٩، رقم ٣٢)، وأحمد (١/ ١٨، رقم ١١٤)، وأبو عبيد في الخطب والمواعظ (١٣٣)، والحارث كما بغية الباحث (٢/ ٦٣٥، رقم ٦٠٧)، وعبد بن حميد (ص ٣٧، رقم ٢٣)، والترمذى (٤/ ٤٦٥، رقم ٢١٦٥)، وأبو يعلى (١/ ١٣١، رقم ١٤١)، والبزار (١٦٦)، والنسائى فى الكبرى (٥/ ٣٨٨، رقم ٩٢٢٥)، وابن حبان (١٦/ ٢٣٩، رقم ٧٢٥)، والدارقطنى فى العلل (٢/ ٦٥، رقم ١١١)، والحاكم (١/ ١٩٧، رقم ٣٨٧)، والبيهقى (٧/ ٩١، رقم ١٣٢٩٩) وغيرهم والحديث قال عنه أبو زرعة الرازي، وأبو حاتم الرازي: هذا خطأ، رواه ابن الهاد، عن عبد الله بن دينار، عن الزهري، عن السائب بن يزيد، أن عمر أخذ من الخيل الزكاة، كما في علل ابن أبي حاتم (٣/ ١٦٣)، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال ابن العربي في العارضة (٥/ ٢٦): حسن صحيح، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال ابن كثير في إرشاد الفقيه (٢/ ٤٠١): له طرق أخر وهو حديث مشهور جدا، وقال ابن حجر في تخريج المشكاة (٥/ ٣٨٨): إسناده صحيح، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٤٣٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١/ ٢٦٩): إسناده صحيح، وصححه بمجموع طرقه العلامة مقبل في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (ص٣٢٤ - ٣٢٥) فقال:

=

الافتراق (أن الفرقة الناجية: الجماعة)[(١)]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول ﷺ (الصلاة المكتوبة إلى الصلاة المكتوبة التي بعدها كفارة لما بينهما، قال: والجمعة إلى الجمعة، والشهر إلى الشهر- يعني رمضان إلى رمضان كفارة لما

=

إذا نظرت إلى سند الحديث وجدته كما يقول الحاكم والترمذي رحمهما الله ولكن الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ يقول في التاريخ (١/ ١٢٠) في ترجمة محمد بن سوقه، وقال ابن المبارك اخبرنا محمد بن سوقة عن ابن دينار عن ابن عمر عن عمر عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال خير الناس قرنى بطوله، وقال لنا عبد الله بن صالح حدثنى الليث قال حدثنى يزيد بن الهاد عن ابن دينار عن ابن شهاب أن عمر عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، نحوه، وقال بعضهم عن ابن دينار عن أبى صالح، وحديث ابن الهاد اصح، وهو مرسل بإرساله اصح.اهـ. وقد رواه ابن ماجه (٢/ ٧٩١) من حديث عبدالملك بن عمير، عن جابر بن سمرة، وقد اضطرب فيه عبدالملك بن عمير كما في "العلل" للدارقطني، وهو ثقة تغير حفظه ربما دلس، فلعل هذا الحديث مما تغير حفظه فيه، ويراجع ما كتبته في تخريج أحاديث "الرسالة الوازعة للمعتدين عن سب صحابة سيد المرسلين" فإن الظاهر أن الحديث بمجموع طرقه صحيح والله أعلم، وتعليل الحديث من طريق أو الطريقين لا يعني أنه معل من جميع طرقه، إلا إذا جزم حافظ من الحفاظ أنه لا يصح بوجه من الوجوه.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٢، رقم ١٦٩٧٩)، وأبو داود (٤/ ١٩٨، رقم ٤٥٩٧)، والدارمى (٢/ ٣١٤، رقم ٢٥١٨)، وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٧، رقم ٢)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٣١ - ٣٣٢) و(٣/ ٣٨٨)، والطبرانى (١٩/ ٣٧٧، رقم ٨٨٥)، والحاكم (١/ ٢١٨، رقم ٤٤٣) والبيهقي في الدلائل (٦/ ٥٤٢) واللالكائي في أصول الاعتقاد (١٥٠) والحديث قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٢٧): إسناده حسن، وحسنه العلامة الألباني في صحيح أبي داود، وصححه لغيره في ظلال الجنة (٦٥)، وقال الشيخ مقبل في صحيح دلائل النبوة (٥٧٧): حسن لغيره، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٨/ ١٣٥): إسناده حسن، وحديث افتراق الأمة منه صحيح بشواهده.

بينهما- قال: ثم قال بعد ذلك: إلا من ثلاث- قال: فعرفت أن ذلك لأمر حدث- إلا من الاشراك بالله، ونكث الصفقة، وترك السنة، قال: أما نكث الصفقة أن تبايع رجلا ثم تخالف إليه تقاتله بسيفك، وأما ترك السنة فالخروج من الجماعة)[١].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: (من رأى من أميره شيئا فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية)[٢]، وغيرها من

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٩)، وإسحاق بن راهوية (٤٣٥)، والحارث بن أبي أسامة، (٦٠٥- بغية)، والحاكم (٤/ ٢٥٩)، والبيهقي في الشعب (٣٦٢٠) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٥/ ٥٩): إسناده ضعيف، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٦/ ٥٣٣): إسناده صحيح، على ما أعلوه به من علة لا تثب على النقد، كما سنبين، إن شاء الله. . . ثم قال الشيخ ما معناه: وبالنسبة لرواية الإمام أحمد والتي فيها زيادة راو مبهم، فقد خالف فيها يزيد بن هارون كلا من هشيم بن بشير وإسحاق بن يوسف حيث روياها عن العوام بن حوشب متصلة بدون زيادة الرجل المبهم، وهذا هو الراجح، والله أعلم. وذلك لما يلي: أولا: أن هشيما أحفظ من يزيد بن هارون، كما قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١٩/ ١١٦): "سئل أبي عن هشيم، ويزيد بن هارون؟ فقال: هشيم أحفظهما". وثانيا: أن إسحاق بن يوسف، وهو ثقة كما في التقريب (١٠٤: ٣٩٦)، تابع هشيما على رواية الوصل بدون الزيادة. وثالثا: أن يزيد بن هارون قد روى الحديث متصلا بدون هذه الزيادة -كما سبق- عند الحاكم.اهـ. وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٢/ ٣٠): صحيح دون قوله: "إلا من ثلاث. . . " إلى آخر الحديث، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن السائب -وهو الكندي الكوفي- فمن رجال مسلم، إلا أنه قد روي عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب كما سيأتي عند المصنف برقم (١٠٥٧٦) بزيادة رجل مبهم من الأنصار بين عبد الله بن السائب وبين أبي هريرة، قال الدارقطني في "العلل" ٣/ ورقة ٢٠٢: وقول يزيد أشبه بالصواب.

(٢) أخرجه البخارى (٧٠٥٤، ٧١٤٣)، ورواه مسلم (١٨٤٩).

الأحاديث التي وردت بالأمر بلزوم الجماعة، والنهي عن الخروج عليها.

وقد اختلف العلماء في المقصود بالجماعة على أقوال أهمها:

١ - أن الجماعة هم الصحابة دون من بعدهم، " فإنهم الذين أقاموا عماد الدين، وأرسوا أوتاده، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أبدا"، وهذا القول مروى عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ فمما روى عنه أنه قال: (سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها تصديق بكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها مهتدى، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى وصلاه جهنم وساءت مصيرا)[١]، قال مالك: (فأعجبني عزم عمر على ذلك)، فعلى هذا القول فلفظ الجماعة مطابق للرواية الأخرى لحديث الافتراق حيث قال: (وتفترق أمتي على ثلاث وسبعبن ملة كلهم في النار الا ملة واحدة قالوا: ومن هي يارسول الله؟، قال: ما أنا عليه وأصحابي)[٢]، والصحابة لهم خصوصيات كثيرة، فهم الذين شاهدوا

(١) قال الشيخ مشهور في الموفقات (٤/ ٤٦١): أخرجه -من طرق- الآجري في الشريعة (ص٤٨، ٦٥، ٣٠٦)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٨٦، ومن طريقه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٩٤/ رقم ١٣٤)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٧٣)، وابن بطة في الإبانة (١/ ٣٥٢-٣٥٣/ رقم ٢٣٠، ٢٣١)، وابن عبد البر في الجامع (٢/ ١١٧٦/ رقم ٢٣٢٦)، والهروي في ذم الكلام (ص١٠٧، ١٩٩)، والمروزي في السنة (٣١)، وابن الجوزي في سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز (٨٤) وهو صحيح. . . وكان مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يعجبه هذا الأثر، ويستدل به على المبتدعة، قال القاضي عياض في ترتيب المدارك (١/ ١٧٢ - ط بيروت): "قال مطرف: سمعت مالكا إذا ذكر عنده فلان من أهل الزيغ والأهواء يقول: قال عمر بن عبد العزيز "وذكره"، قال: "وكان مالك إذا حدث بها ارتج سرورًا.

(٢) تقدم تخريجه قريبا، وهو صحيح.

التنزيل، - وسمعوا من الرسول، فلهم من العلم والفضل، والاقتداء ما ليس لغيرهم ممن جاء بعدهم.

٢- وقيل: إن الجماعة هم أهل الحديث، أو أهل العلم[1] المجتهدون " لأن الله جعلهم حجة على الخلق، والناس تبع لهم في أمر الدين"، وهذا رأى الإمام البخاري قال كما في الفتح (١٣/ ٣١٦): "باب {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة:١٤٣]، وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم"، وهو رأى الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه قال عن الجماعة كما في شرف أصحاب الحديث (ص٢٥): "إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم؟"، وهو رأي الترمذي الذي قال في سننه (٤/ ٤٦٥): "وتفسر الجماعة عند أهل العلم: هم أهل الفقه والعلم والحديث"، وهو أيضا رأي ابن المبارك وعلي بن المديني، وأحمد بن سنان الذي قال كما في شرف أصحاب الحديث (ص٢٥): "هم أهل العلم وأصحاب الآثار".

فعلى هذا القول فالجماعة هم أهل السنة العالمون المجتهدون، فيخرج منهم المبتدعة، - والعامة المقلدة تبع لعلمائهم.

٣- وقيل: إن الجماعة هم السواد الأعظم، وعليه رواية الافتراق التي أخبر النبي ﷺ فيها (أن الفرقة الناجية هم السواد الأعظم)[2]، قال في النهاية

---

(١) يلاحظ أن بعض العلماء عبر عن الحديث بالعلم، فالخطيب البغدادى سمى كتابه: تقييد العلم، واين عبد البر سمى كتابه:: جامع بيان العلم وفضله، وقصدهم الحديث.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي شيبة (١٥/ ٣٠٧-٣٠٨)، والحارث بن أبي أسامة (٧٠٦ - زوائده)، وابن أبي عاصم في "السنة" (٦٨)، ومحمد بن نصر المروزي في "السنة" (٥٥)، والطبراني في "الكبير" (٨٠٣٥، ٨٠٥١ - ٨٠٥٤)، واللالكائي في "شرح أصول الاعتقاد" (١٥١، ١٥٢)، والبيهقي (٨/ ١٨٨) والحديث قال عنه العلامة الألباني في =

(٦/ ٤١٩): "عليكم بالسواد الأعظم: أى جملة الناس ومعظمهم، الذين يجتمعون على طاعة السلطان وسلوك النهج القويم"، قال عبد اللة مسعود ﵁ في إحدى خطبه: (يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة، فإنهما السبيل في الأصل الى حبل الله الذى أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة)[1]، وقال أبو غالب كما في الاعتصام (٢/ ٢٦٠): "إن السواد الأعظم هم الناجون من الفرق، فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق، ومن خالفهم مات ميتة جاهلية سواء خالفهم في شىء من الشريعة أو في إمامهم وسلطانهم فهو مخالف! للحق"، وقال أبو مسعود الأنصاري ﵁ حين خرج ونزل في طريق

=

ظلال الجنة (١/ ٢٨): إسناده ضعيف قطن بن عبدالله أبو مري أورده ابن أبي حاتم براوية محمد بن مهران الجمال أيضا عنه ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا فهو مجهول الحال وسائر الرواة ثقات على ضعف يسير في أبي غالب فهو حسن الحديث والحديث قال الهيثمي في المجمع رواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه وفيه ابو غالب وثقه ابن معين وغيره وبقية رجال الإسناد ثقات وكذلك أحد إسنادي الكبير قلت فإن كان الحديث عندهما من غير طريق القطن هذا فهو حسن والله أعلم.اهـ. وقال الشيخ مشهور في كتابه السلفيون وقضية فلسطين: قلت: أبو غالب البصري حزوّر البصري، صاحب أبي أمامة، ضعيف، يعتبر به في الشواهد والمتابعات، وقد تابعه: صفوان بن سُلَيم -وهو ثقة-، عند أحمد في المسند (٥/ ٢٦٩)، وابنه عبد الله في السنة (رقم ١٥٤٦) وسنده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٧/ ٦): إسناده حسن في الشواهد.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٧٥-٧٦)، واللالكائي في شرح أصول السنة (١/ ١٠٨)، والآجري في الشريعة (١/ ٢٦، رقم ١٧)، وابن بطة في الإبانة (١/ ٢٩٧) والأثر صححه الحاكم، وأقره الذهبي، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٥٨٣٨): هذا مع وقفه فيه مجالد بن سعيد؛ وليس بالقوي، كما في التقريب، قلت لكن تابعه أبو خالد عند الطبري واللالكائي، وتابعه أبو حصين عند الحاكم فينجبر بهما.

القادسية وقال له أصحابه: اعهد إلينا، فإن الناس قد وقعوا في الفتنة فلا ندري أنلقاك بعد اليوم أم لا. فقال: (اتقوا الله واصبروا حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر، وعليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمته على الضلالة)[(١)]، يقول الشاطبي في الاعتصام (٢/ ٢٦١) معقبا: فعلى هذا القول يدخل في الجماعة مجتهدو الأمة وعلماؤها، وأهل الشريعة العاملون بها، ومن سواهم داخلون في حكمهم لأنهم تابعون لهم ومقتدون بهم، فكل من خرج عن جماعتهم فهم الذين شذوا وهم نهبة الشيطان، ويدخل في هؤلاء جميع أهل البدع؟ لأنهم مخالفون لمن تقدم من الأمة، لم يدخلوا في سوادهم بحال".اهـ.

وقال الآجري في الشريعة (ص: ٤٤): "فمن أراد الله تعالى به خيرا فتح له باب الدعاء، والتجأ إلى مولاه الكريم وخاف على دينه، وحفظ لسانه، وعرف زمانه، ولزم الحجة الواضحة السواد الأعظم. . . ".

٤- وقيل: إن الجماعة هم جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر من أمور الشرع سواء في أمور الأحكام أو المعتقدات، يقول الكرماني في شرحه على البخاري (٢٥/ ٧٥): "يلزم على المكلف متابعة حكم الجماعة والاعتصام به، وهو اتفاق المجتهدين من الأمة في عصر على أمر ديني. فهذا القول يفسر الجماعة بأهل الإجماع، ولذا فهو قريب من القول الثاني.

٥- إن الجماعة: هم جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، وهذا رأي الطبري الذي ذكر الأقوال السابقة، ثم قال كما في الفتح (١٣/ ٣٧): "والصواب

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٩٤٦١)، والحاكم (٨٥٤٥)، وبنحوه في السنة لابن أبي عاصم (٨٥)، وقال الألباني: إسناده جيد موقوف، رجاله رجال الشيخين، والحديث رواه الطبراني في الكبير (١٧ ٢٣٩-٢٤٠)، من طريقين أحدهما رجاله ثقات، كما في المجمع (٥ ٢١٩).

أن المراد من الخبر لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره، فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة، قال: وفي الحديث أنه متى لم يكن للناس إمام فافترق الناس أحزابا فلا يتبع أحدا في الفرقة ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك خشية من الوقوع في الشر، وعلى ذلك يتنزل ما جاء في سائر الأحاديث، وبه يجمع بين ما ظاهره الاختلاف منها.اهـ.

وفي حديث عرفجة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند مسلم (١٨٥٢) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان)، فأمر عليه الصلاة والسلام بلزومه، ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم.

قال الطبري: فهذا معنى الأمر بلزوم الجماعة.

قال الطبري: فهذا معنى الأمر بلزوم الجماعة.

قال: وأما الجماعة التي إذا اجتمعت على الرضى بتقديم أمير، كان المفارق لها ميتا ميتة جاهلية، فهي الجماعة التي وصفها أبو مسعود الأنصاري، وهم معظم الناس وكافتهم من أهل العلم والدين وغيرهم، وهو السواد الأعظم.

قال: وقد بين ذلك عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فروي عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قال عمر -حين طُعن- لصهيب: صَلِّ بالناس ثلاثا وليدخل عليَّ عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، وليدخل ابن عمر في جانب البيت، وليس له من الأمر شيء، فقم يا صهيب على رءوسهم بالسيف فإن بايع خمسة ونكص واحد فاجلد رأسه السيف، وإن بايع أربعة ونكص رجلان فاجلد رءوسهما حتى يستوثقوا على رجل.

قال: فالجماعة التي أمر رسول ﷺ بلزومها وسمى المنفرد عنها مفارقا لها

نظير الجماعة التي أوجب عمر الخلافة لمن اجتمعت عليه وأمر صهيبا بضرب رأس المنفرد عنهم بالسيف، فهم في معنى كثرة العدد المجتمع على بيعته، وقلة العدد المنفرد عنهم.

قال: أما الخبر الذي ذكر فيه: "أن لا تجتمع الأمة على ضلالة" فمعناه: أن لا يجمعهم على إضلال الحق فيما نابهم من أمر دينهم حتى يضل جمعهم عن العلم ويخطئوه، وذلك لا يكون في الأمة(١).

هذه أهم الأقوال في الجماعة.

قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الواسطية (ص٤٥): وتحقيق المقام أن الأقوال الثلاثة الأُوَلْ:

* وهي القول بأن الجماعة هم السواد الأعظم.
* أو أن الجماعة هم أهل العلم والحديث والأثر.
* أو أن الجماعة هم صحابة رسول ﷺ.

هذه الأقوال متقاربة وهي من اختلاف التنوع لأن الجماعة الذين هم السواد الأعظم كما فسرها ابن مسعود وأبو مسعود رضي الله عنهما هذا يعنون به صحابة رسول الله ﷺ. و من فسرها - وهم أكثر أهل العلم - بأن الجماعة هم أهل العلم والأثر والحديث هؤلاء لأنهم تمسكوا بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، والجماعة المراد بها أصحاب رسول ﷺ.

فتحصل إذن أن هذه الأقوال الثلاثة ترجع إلى معنىً واحد وأن أهل السنة والجماعة هم الذين تابعوا صحابة رسول الله صلى عليه وسلم وتابعوا أهل العلم والحديث والأثر في أمورهم.

---

(١) الاعتصام (٢/ ٢٦٠-٢٦٥) باختصار يسير.

أما قول ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى فهذا صحيح وهو أن الجماعة هم عصبة المؤمنين الذين اجتمعوا على الإمام الحق وتبيان ذلك -مما يبين حصيلة هذا الكلام ويقرره أتم تقريرٍ وأوضح تقرير- أن الجماعة مقابلة للفرقة والافتراق يقابله الاجتماع. وقد ذكر الخطابي رحمه الله تعالى في كتابه (العزلة) كلمة فائقة فيها تحرير هذا المقام، قال إن الافتراق ينقسم إلى افتراق في الآراء والأديان.

وافتراق في الاجتماع والأبدان أو بالأشخاص والأديان.

افتراق تارةً يكون في الآراء والأديان وتارةً يكون في الأشخاص والأبدان.

هكذا قال وهذا كلامٌ دقيقٌ متين. قال والاجتماع يكون اجتماع بمقابل ذلك بالآراء والأديان ويكون اجتماع بالأشخاص الأبدان. والاجتماع في الأشخاص والأبدان هذا ينقسم إلى آخر ما يحصله كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ. نأخذ من هذا أنه لفهم معنى الجماعة فهمًا دقيقًا لأنه ينبني على هذا فهم معنى أهل السنة والجماعة حتى لا يُدخل فيهم من ليس منهم، تحريره أن الجماعة تطلق باعتبارين:

*جماعةٌ باعتبار العقائد والأديان، باعتبار الآراء والأديان.

فإذا نظرت إلى هذا المعنى في الاجتماع فإنه مأمورٌ به.

والاجتماع على الآراء والأديان، الأقوال في الدين وعلى الأحكام وعلى العقائد وعلى المنهج ونحو ذلك فهذا لا بد أن يكون له مرجع، ومرجعه في فهم نصوص الكتاب والسنة هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبهذا يلتقي هذا الفهم مع أقوال أهل العلم الذين قالوا إن الجماعة هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعلى هذا فالذين أخذوا بما قالته الصحابة وما بينته الصحابة من أحكام الشرع من الأحكام الخبرية -يعني من العقائد-

فإنه على الحق وهو الذي لم يكن مع الفرق التي فارقت الجماعة. وهؤلاء الذين هم مع صحابة رسول الله صلى عليه وسلم هم مع السواد الأعظم قبل أن يفسد السواد الأعظم.

ومعلومٌ أنه لا يحتج بالسواد الأعظم في كل حال وإنما السواد الأعظم الذي يحتج به هو السواد الأعظم لصحابة رسول الله ﷺ هذه مسألةٌ في غاية الأهمية إذ الاحتجاج بالسواد الأعظم إنما يراد به السواد الأعظم للمهتدين وهم صحابة رسول ﷺ ومن تابعهم في أمور الدين. فصار إذن هاهنا قولان رجعا إلى هذا المعنى، كذلك من قال إن الجماعة هم أهل العلم والحديث والأثر ومن سار على نهجهم من الفقهاء وأهل اللغة ونحو ذلك هؤلاء إنما أخذوا بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم وساروا على ما قرروه فإذن هم مع الجماعة قبل أن تفسد الجماعة ومع السواد الأعظم قبل أن يتفرق الناس عنه. لهذا جاء ما جاء في أن الجماعة ما كان على الحق وإن كنت وحدك.

الجماعة ما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد الجماعة كما قاله طائفة من علماء السلف وهذا يريدون به ما كان عليه صحابة رسول ﷺ قبل أن يفسد الناس لأنه حصلت فتن وحصلت للناس أمورٌ منكرة وافتراءٌ في الدين.

فكيف تُضبَط هذه المسألة وهي أعظم المسائل التي هي مسألة الاعتقاد وما يجب اعتقاده وما ينهج بالحياة.

قال أهل العلم إن الجماعة يعني التي من تمسك بها فهو على الجماعة ومن حاد عنها فهو من أهل الفرقة قالوا هم صحابة رسول الله صلى عليه وسلم وهذا ظاهرٌ كما ترى.

❊ المعنى الثاني للاجتماع اجتماعٌ بالأبدان – اجتماع في الأشخاص

والأبدان - كما عُبِرَ عنه وهذا هو الذي فهمه ابن جرير الطبري -رحمه الله تعالى-. ولا شك أن هذا مأمورٌ به في نصوصٍ كثيرة: النبي ﷺ أمر بالجماعة بهذا المعنى - الاجتماع على الإمام - وعدم التفرق عليه وترك الخروج عليه والبعد عن الفتن التي تفرق المؤمنين، وهذا مما تميز به صحابة رسول ﷺ وتميز به أهل السنة في كل عصر. فنظَرَ ابن جرير رحمه الله تعالى في هذا المعنى إلى ما فعله الإمام أحمد رحمه الله تعالى مع ما حصل من المأمون والمتوكل والواثق فإنه لم ينزع يدًا من طاعة لأنه رأى أن الاجتماع إنما يحصل بذلك فأخذ بما جاء في النصوص بهذا المعنى وهكذا أهل السنة والجماعة هم على هذين الأمرين.

فإذن أهل السنة والجماعة تحصل على أن معنى الجماعة- وإن تعددت الأقوال - فإن هذه الأقوال كاختلاف التنوع لأن جميعها صحيح دلت عليه نصوص الشرع.

فباجتماع هذه الأقوال يحصل لنا المعنى الصحيح لأهل السنة والجماعة.

فغلط من غلط في معنى أهل السنة والجماعة فأدخل في أهل السنة والجماعة بعض الفرق الضالة كالأشاعرة والماتريدية.

ومن أمثال من غلط من المتقدمين السَفَّاريني في شرحه (لوامع الأنوار البهية) فقال أهل السنة والجماعة ثلاث فرق:

* الأولى الأثرية أتباع الأثر.
* والثانية الأشعرية أتباع أبي الحسن الأشعري.
* والثالثة الماتريدية أتباع أبي منصور الماتريدي.

وإذا كان كذلك فإنه على هذا الكلام إن الأشعرية والماتريدية وأهل الأثر

هم جميعاً من الجماعة.

وهذا باطل لأن أهل الأثر هم الذين تمسكوا بما كانت عليه الجماعة وأما الأشاعرة والماتريدية فإنهم يقولون قولتهم المشهورة يقولون كلام السلف أسلم ولكن كلام الخلف أعلم وأحكم. وهذا لا شك أنه فيه افتراق وفرقة وخلافٌ واختلاف عما كانت عليه الجماعة قبل أن يَذِرَ نجم الابتداع في هذه الأمة.

فإذن هذا الكلام من الكلام الذي هو غلط على أهل السنة والجماعة ولم يقل به أحد أئمة أهل السنة الذين يفهمون كلام أهل السنة وكلام المخالفين.

فإذن أهل السنة والجماعة فرقةٌ واحدة طائفةٌ واحدة لا غير وهم الذين يعتقدون هذا الاعتقاد الذي سيبينه المصنف -رحمه الله تعالى- في هذا الكتاب.اهـ. كلام الشيخ صالح.

رابعا: أهل الحديث تقدم في القول الثاني من الأقوال في المقصود بالجماعة: أنهم أهل الحديث، وأن هذا قال به جماعة من أهل العلم كالبخاري والإمام أحمد، والترمذي، وابن المبارك، وابن المديني، وأحمد بن سنان، وغيرهم. ولذلك صار عند كثير من العلماء أن الفرقة الناجية والتي يجب السير على منهاجها هم أهل الحديث. ولذلك فسنعرف بهم هنا:

الحديث في اللغة ضد القديم، وفي الاصطلاح: عرفه بعضهم بأنه: "ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلقي أو خلقي"

وعلم الحديث قسمان

١- علم الحديث رواية: وهو: "علم يشتمل على أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، وصفاته، وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها".

٢- علم الحديث دراية: وهو: "علم بقوانين يعرف بها أحوال السند

والمتن"، وهو ما يعرف بمصطلح الحديث.

واذا قيل: "أهل الحديث " فالمقصود بهم الذين يعنون بحديث رسول ﷺ رواية ودراية، ولكن لابد لهؤلاء- حتى يكونوا من أهل الحديث حقا- أن يكونوا عالمين وعاملين، وأن يكونوا مطبقين لما يتعلمونه، متبعين للسنة مجانبين للبدعة، وبهذه الأمور يتميزون عن أهل الأهواء، أما إذا كانوا لا يعملون بعلمهم- كا يحدث من بعض من ينتسب إلى الحديث- فقد اشتد نكير العلماء على مثل هؤلاء. وقد روى عن هارون الرشيد كما في شرف أصحاب الحديث (ص: ٥٥) أنه قال: "طلبت أربعة فوجدتها في أربعة: طلبت الكفر فوجدته في الجهمية، وطلبت الكلام والشغب فوجدته في المعتزلة، وطلبت الكذب فوجدته عند الرافضة، وطلبت الحق فوجدته مع أصحاب الحديث" ويروى الخطيب في المصدر السابق (ص: ٥٦) عن أحمد بن سنان قال: "كان الوليد الكرابيسى خالي، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه: تعلمون أحدا أعلم بالكلام مني؟ قالوا: لا، قال: فتتهموني؟، قالوا: لا، قال: فإني أوصيكم أتقبلون؟، قالوا: نعم، قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإني رأيت الحق معهم. . . ".

فأهل الحديث مرادف لأهل السنة، يقول اللالكائي في شرح أصول السنة (١/ ٢٢): "فلم نجد في كتاب الله وسنة رسوله وآثار صحابته إلا الحث على الاتباع، وذم التكلف والاختراع، فمن اقتصر على هذه الآثار كان من المتبعين، وكان أولاهم بهذا الاسم، وأحقهم بهذا الوسم، وأخلصهم بهذا الرسم " أصحاب الحديث " لاختصاصهم برسول ﷺ واتباعهم لقوله، وطول ملازمتهم له، وتحملهم علمه. . . "، ثم يعلل وجه تسميتهم بأهل الحديث بأن اسمهم مأخوذ من الكتاب والسنة لاتباعهم ما فيهما، فهم حملة القرآن وأهله وقراؤه

وحفظته، وهم نقلة حديث رسول ﷺ وحملته.

هذه تعريفات للمصطلحات التي تطلق على السلف، أصحاب المذهب الحق، والمنهج الحق، وهى كلها تدل على معنى واحد، ولذلك يمكن أن يفسر بعضها بما تدل عليه معاني البعض الآخر، فهم الجماعة، وهم أهل السنة، وهم أيضا أهل الحديث، وهم الطائفة المنصورة التى قال فيها رسول الله ﷺ (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس)[1] وفي لفظ (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)[2].

المبحث الثاني:

من المقصود بالسلف؟ ونشأة التسمية بأهل السنة والجماعة.

من المقصود بالسلف؟

لقد تنوعت الآراء والمذاهب حول المقصود بمذهب السلف، وعلى من ينطبق وصف "السلف" الذين يجب اتباع مذهبهم والسير على منهاجهم، والسبب أن كل فئة تنطلق من وضعها الخاص بها وتدعى أن ما معها هو المذهب الحق؟ لذلك نجد هذه الفئة تحدد المقصود بالسلف بما يتم مع ما عندها من أصول عقائدية، أو منهج ارتضته للوصول إلى ما يجب اعتقاده.

١- فأحيانا يتجه البعض من أهل الزيغ- من المحدثين- إلى حصر مذهب السلف بفترة معينة لا يتعداها، ثم يزعم أن الفكر الإسلامي قد تطور بعد ذلك

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٢٠) عن ثوبان رضي الله عنه، ورواه البخارى عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه (٢٦٤٠).

على يد رجاله، وهذا التطور لا ينحصر عنده في نطاق فئة معينة، وإنما كل ما ظهر من الآراء والفرق منتسبا بعمومه إلى الإسلام فهو جزء منه، ولو خالف ما كان عليه السلف في المنهج والفهم والاعتقاد، وعلى هذا فالمعتزلة والرافضة بل والجهمية والباطنية هم نتاج مذهب السلف بعد تطويره وبعثه، وتجريده من ثوبه التقليدي البسيط إلى لباس العقل الفلسفى والتأويل الكلامي والباطني.

ولذلك فكثيرا ما يزعم بعض هؤلاء أن عقيدتهم هي التعبير الصحيح عن مذهب السلف، وأن مذهب السلف- بشكله المعروف- إنما ناسب الزمن الذي نشأ فيه، وأن رجاله الأوائل لو عاشوا إلى الزمن الذي بعدهم لطوروه إلى المستوى الذي وجد عليه فيما بعد.

٢- وبعضهم يفهم أن السلف نصيون، يعتمدون على النصوص فقط، أما العقل فلا يعتمد عليه في شيء أبدا، فهم يسلمون فقط لظاهر النصوص دون فهم لها، ويكلون علمها- معانيها وكيفيتها- إلى الله تعالى، ولذلك فقد شغلوا أنفسهم بما يرون أنه أنفع، من العبادة والجهاد في سبيل الله، وإقراء القرآن، ونقل الحديث وروايته.

والعجيب أن مفهوم هؤلاء عن السلف ومنهجهم منتشر بين جمهرة كبيرة من العلماء الذين نحوا منحى كلاميا- في عقائدهم أو في كتبهم حول العقيدة- وأيضا من الذين كتبوا حول الفلسفة وعلم الكلام، أو أية قضية من قضاياه، ولذلك انتشرت بين هؤلاء -جميعا عبارة: أن مذهب السلف هو التفويض، أو عبارة بعض السلف: "أمروها كا جاءت"، أو أن مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم.

أما العقل عند السلف- على رأي هؤلاء- فلا يعتمد عليه مطلقا، ولا أدري

ما يصنع هؤلاء بالدلائل العقلية التى جاء بها القرآن والسنة، والتى استخدمها علماء السلف في العصر الأول؟.

ويعلل هؤلاء نشوء ما يسمى بمذهب "الخلف" أو "علم الكلام" بأنه لما كثرت الشبهات التي تثار ضد العقيدة الإسلامية، رأى علماء الإسلام أنه لا يكفى للرد عليها وإبطالها وحماية الناس- وخاصة العامة منهم- من شرورها وآثارها لا يكفي في ذلك الاعتماد على مذهب السلف النصي، فنشأ علم الكلام بمباحثه العقلية والكلامية ليرد الشبهات ويثبت العقيدة ويظهر الحجاج لها في أجواء سادت فيها مذاهب الفلاسفة والجهمية والمعتزلة والقرامطة.

فهل فهم هؤلاء لمذهب السلف كان صحيحا؟ حين قصروه على الإيمان بالنصوص والتسليم دون فهم أو اقتناع؟.

٣- وتأتي فئة أخرى تزعم أن ما نشأ من الدراسات العقلية في علم الكلام لم ينشأ من المؤثرات الخارجية والشبهات التى أثارها أعداء العقيدة- وإن كان قد تطور بسببها- وإنما نشأ من مذهب السلف نفسه وأن بواكير الفلسفة الاسلامية وعلم الكلام إنما جاءت من القرآن الكريم، ففيه المجادلة للمخالفين من أهل الديانات الأخرى وغيرهم، وفيه ذكر الحكمة التي كانت معروفة عند العرب وكان يفتخر بأصحابها، وأن ما نشأ من البحث حول الاجتهاد في الأحكام الشرعية، وذلك بما يسمى بأصول الفقه إنما هو بداية ظهور الاتجاه العقلي عند المسلمين، فالذي يفهم من هذا أن السلف- رحمهم الله تعالى- كانوا يحترمون النصوص، ولكن من خلال منظار عقلي استخدموه ونشأ على أثره علم الكلام، فكيف يصح هذا على إطلاقه مع ما هو متواتر عن السلف من الإيمان والتسليم والثقة المطلقة بما جاءت به النصوص، وأن هذه الثقة توجد على أتمها حين ترد

على النفس أو يورد بعض الناس- شبهات أو وساوس حولها؟.

٤- وإذا كانت الآراء السابقة تنحو منحى خاصا في فهم المقصود بمذهب السلف، فإن هناك اتجاها آخر يزعم أصحابه أن مذهب السلف يشتمل على عدة اتجاهات وتيارات، وأن هذه التيارات وإن تباينت في المنهج- إلأ أنها تلتقى في أنها قامت ونشأت على يد علماء الإسلام ممن هم من أهل الدين والفضل والعلم بالأحكام، يقول ابن السبكي في شرح عقيدة ابن الحاجب كما في إشارات المرام للبياضي- الحاشية- (ص: ٢٩٨): "اعلم أن أهل السنة والجماعة كلهم قد اتفقوا على معتقد واحد فيما يجب ويجوز ويستحيل وإن اختلفوا في الطرق والمبادى الموصلة لذلك، وبالجملة فهم بالاستقراء ثلاث طوائف:

الأولى: أهل الحديث، ومعتمد مبادئهم الأدلة السمعية: الكتاب والسنة والإجماع.

الثانية: أهل النظر العقلي، وهم الأشعرية والحنفية، وشيخ الأشعرية أبو الحسمن الأشعري، وشيخ الحنفية: أبو منصور الماتريدي، وهم متفقون في المبادئ السمعية فيما يدرك العقل جوازه فقط، والعقلية والسمعية في غيرها، واتفقوا في جميع المطالب الاعتقادية إلا في مسائل.

الثالثة: أهل الوجدان والكشف، وهم الصوفية، ومبادئهم مبادئ أهل النظر والحديث في البداية والكشف والإلهام في النهاية".اهـ.

فهكذا يخلط بين اتجاه أهل الحديث، والاتجاه التأويلي للأشعرية والماتريدية، واتجاه الكشف عند المتصوفة ليصبح كل اتجاه منها هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وهذه الاتجاهات والآراء حول تحديد المقصود بالسلف نشأ الخطأ في كل واحد منها من جهة أنه لم ينطلق أصحابها من منطلق شرعي واضح، مبني على الكتاب والسنة اللذين أمرا بالاتباع ونهيا عن الابتداع، وحددا معالم المنهج والطريق الذي يجب السير فيه، ومن ثم يجب اتباع من سار على هذا الطريق المستقيم.

ومما ينبغي ملاحظته أنا إذا أردنا أن نبين القول الصحيح في تحديد من هم الذين يصدق علهم اسم السلف، تبرز بعض الملاحظات والاعتراضات:

أ- فمثلا: حين نقول: إن السلف هم الصحابة والتابعون والتابعون لهم للحديث الوارد: (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم. .)[1]، يرد الاعتراض بأن التفرق والاختلاف نشأ في عهد هؤلاء، فالخوارج والشيعة والقدرية وجدوا في عهد الصحابة، وكذا بقية الفرق بعد هؤلاء بقليل، فهل وجود هؤلاء في هذه الفترة الزمنية التى هي خير القرون يعطيهم صفة السلفية المفضلة؟، وإذا كان الجواب قطعا بالنفي فلابد من التقييد لمثل هذا الاطلاق في تحديد من هم السلف بحيث لا يقتصر على التحديد الزمني فقط.

ب- وكذلك حينما يقال: إن السلف هم الذين يعتمدون في أقوالهم على الكتاب والسنة، يبرز اعتراض خلاصته: من الذي يعتمد عليه في فهم الكتاب والسنة؟ خاصة وأن الفرق كلها تدعي الاعتماد على القرآن والسنة؟، فالإطلاق هكذا يحتاج إلى بيان وإيضاح.

ج- وكذلك حين يحصر البعض مذهب السلف! بالأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، فمن كان قبل هؤلاء من الصحابة والتابعين

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٥١)، ومسلم برقم (٢٥٣٥).

أليسوا أوفى بوصف السلف!؟. لذلك لابد من التحديد الدقيق للتعريف بالسلف بحيث يشمل:

أولا: التحديد الزمني: ليشمل الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان، وهذا لبيان المنطلق والبداية لمذهب السلف، وفائدة هذا التحديد الرجوع إلى أقوال رجال هذا الزمن وإلى فهمهم عند الاختلاف الذي قد ينشأ فيمن بعدهم. وهذه مسألة مهمة جدا؟ إذ الخلاف الحاصل بعد القرون المفضلة بين من يتمسك بمذهب السلف ومن عداهم من أهل الأهواء والبدع لا يمكن حسمه إلا بالاتفاق على مثل هذا التحديد التاريخي ليحتكم إلى إجماعهم- إذا أجمعوا- أو أقوالهم، أو فهمهم للنصوص.

ولا يعني هذا حصر مذهب السلف في هؤلاء، لأن كل من قال بقولهم فهو على السلف وإن تأخر.

ثانيا: ثم يأتي بعد ذلك بيان أن الفهم والمنطلق يجب أن يكون بما يوافق الكتاب والسنة، فمن ابتدع في أمر من الأمور واتخذ لبدعته منهاجا خاصا، لا يكون قوله قولا للسلف، ولو كان هذا في القرون الأولى، لأن وجوده في هذا الزمن لا يكفي للحكم عليه بأنه سائر على مذهب السلف.

ثالثا: بعد ظهور الافتراق يصبح مدلول " السلف " منطبقا على من حافظ " على العقيدة والمنهج الإسلامي، طبقا لفهم الأوائل الذين تلقفوه جيلا بعد جيل"، فمن سار على طريقة الصدر الأول من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، الذين اتبعوا ولم يبتدعوا فهو سائر على مذهب السلف، وهو أيضا بالنسبة لمن بعده من السلف.

والخلاصة أن مصطلح السلف صار له مدلولان:

* مدلول خاص: وهذا ينطق على مذهب الصحابة والتابعين، والتابعين لهم بإحسان، ممن لم يبتدعوا، وهذا فيه حصر تاريخي.

* ومدلول أعم: يشمل ما بعد هذه القرون المفضلة، وهذا شامل لكل من سار على طريقة ومنهج خير القرون، والتزم النصوص والفهم الذي فهموه.

مسألة: نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة

إذا كان مذهب أهل السنة والجماعة هو ما كان عليه رسول ﷺ وأصحابه[1]، فإطلاق القول بنشأة أهل السنة كما يقال نشأة المعتزلة، الجهمية أو نشأة الرافضة؟ لا معنى له؟ لأنه واضح تمام الوضوح، ولذلك آثرنا أن يكون العنوان: نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة كمصطلح عليهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٢/ ٤٨٢): "ومذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم، معروف، قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعا عند أهل السنة والجماعة فإنهم متفقون على أن إجماع الصحابة حجة، ومتنازعون في إجماع من بعدهم".اهـ.

والمتتبع لنشأة التسمية بأهل السنة يلاحظ أنها ربطت بالإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وليس ذلك لأن الإمام أحمد هو الذي أنشأه، وإنما لأنه هو الإمام الذي امتحن فيه فصبر فصار إماما من أئمة أهل السنة يقول شيخ الاسلام ابن تيمية بعد الكلام السابق: "وأحمد بن حنبل وإن كان قد اشتهر بإمامة السنة والصبر في

---

(١) قال العلامة الألباني في التعليق على متن الطحاوية (ص١٠٨): هي "أي الجماعة": ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهي الفرقة الناجية، وهي طائفة أهل الحديث ومن اتبع سبيلهم من أتباع المذاهب وغيرهم.

المحنة، فليس ذلك لأنه انفرد بقول أو ابتدع قولا، بل لأن السنة التي كانت موجودة معروفة قبله علمها ودعا إليها، وصبر على من امتحنه ليفارقها، وكان الأئمة قبله قد ماتوا قبل المحنة، فلما وقعت محنة الجهمية نفاة الصفات في أوائل المئة الثالثة- عهد المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق- ودعوا الناس إلى التجهم وإبطال صفات الله تعالى، وهو المذهب الذى ذهب إليه متأخرو الرافضة، وكانوا قد أدخلوا معهم من أدخلوه من ولاة الأمور، فلم يوافقهم أهل السنة حتى تهددوا بعضهم بالقتل، وقيدوا بعضهم، وعاقبوهم، وأخذوهم بالرغبة والرهبة، وثبت الإمام أحمد على ذلك الأمر حتى حبسوه مدة، ثم طلبوا أصحابهم لمناظرته، فانقطعوا معه في المناظرة يوما بعد يوم. . . -وذكر المحنة- ثم قال: "ثم صارت هذه الأمور سببا في البحث عن مسائل الصفات وما فيها من النصوص والأدلة والشبهات من جانبي المثبتة والنفاة، وصنف الناس في ذلك مصنفات، وأحمد وغيره من علماء السنة والحديث ما زالوا يعرفون فساد مذهب الروافض والخوارج والقدرية والجهمية والمرجئة، ولكن بسبب المحنة كثر الكلام، ورفع الله قدر هذا الإمام، فصار إمامًا من أئمة السنة، وعلما من أعلامها، لقيامه بإعلامها وإظهارها، واطلاعه على نصوصها وآثارها، وبيانه لخفي أسرارها، لا لأنه أحدث مقالة أو ابتدع رأيا، ولهذا قال بعض شيوخ المغرب: المذهب لمالك والشافعي، والظهور لأحمد، يعني أن مذاهب الأئمة في الأصول مذهب واحد، وهو كما قال"[1].

فمن هذا النص يتبين أن مذهب أهل السنة والجماعة امتداد لما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، فإذا ما قام إمام من الأئمة في زمن البدع بالدعوة إلى

(١) منهاج السنة (٢/ ٤٨٢ - ٤٨٦).

العقت ة السليمة وإلى منهج أهل السنة، ومحاربة ما يخالفها فهذا الإمام لم يأت بجديد، وإنما جدد ما اندرس من مذهب أهل السنة وأحيا ما مات منه، وإلا فالعقيدة لم تتغير، فإذا ما نسب - في بعض الأزمان أو الأمكنة - مذهب أهل السنة إلى عا لم من العلماء، أو مجدد من المجددين فلأنه دعا اليه لا لأنه ابتدعه أو اخترعه.

ومما سبق يتبين أن طرح النشأة لمذهب أهل السنة ينبغي أن ينصب على التسمية، أما النشأة ذاتها فواضحة لأنها كانت مع مجيء الإسلام الذي وضح وكمل أتم كمال وأبينه في عهد الرسول ﷺ فمن جاء بعده إذا قيل عنه: إنه إمام أهل السنة- في زمنه أو بعد زمنه فلأنه دعا إلى الأصول الأولى لمذهب أهل السنة وجدد ما اندرس منها.

وبدء التسمية مرتبط بنشأة الفرق؟ لأن من الطبيعي أن يتميز أهل السنة عن بقية أهل الأهواء من أهل الفرق الذين انحرفوا عن المنهج السوي والذين ابتدعوا أقوالا وآراء مخالفة لما كان عليه أهل الصدر الأول.

والكلام حول بدء الفتنة ونشوء الفرق يطول، ولكن نشير إلى لمحات في هذا الأمر لنصل إلى حقيقة تميز أهل السنة عن غيرهم:

١- من المعلوم أن الفتنة وقعت في آخر عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان من آثارها استشهاده، ثم نشأت على أثر ذلك الفرق، وكان أول بدعة نشأت بدعة الخوارج والروافض، فالخوارج كفروا عليا رضي الله عنه وخرجوا عليه، والروافض ادعوا إمامته وعصمته، أو نبوته أو إلهيته، ثم بعد ذلك أخذت البدع تتوالى في الظهور ف-" لما كان في آخر عصر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك حدثت بدعة المرجئة والقدرية، ثم لما كان في أول عصر التابعين- في أواخر

الخلافة الأموية- حدثت بدعة الجهمية والمشبهة والممثلة، ولم يكن على عهد الصحابة شيء من ذلك".

٢- كانت بدعتا الروافض والخوارج- من أول البدع ظهورا- كما سبق- وكانتا من المعالم الرئيسة في تميز أهل السنة والجماعة أو أهل الحديث:

١- ففي أجواء هذه الفتنة بدأ المسلمون يعنون بالبحث عن الإسناد، والكلام في الرجال، وذلك لأن السلف خافوا من الكذب على رسول الله ﷺ، خاصة وأن دواعي ذلك موجودة في مثل هذه الظروف، فقد روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال: (لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم)[1]، وابن سيرين كان يقول كمفي الكفاية (ص١٦٢): "إن هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم".

وهنا بدأ التميز لأهل السنة والجماعة، وذلك بتمييز من تقبل روايته ممن لا تقبل؟ فمن كان من أهل السنة والاتباع، ولم يقل بقول طائفة من الطوائف المنحرفة بل ثبت على الهدى الصحيح، هدي الصحابة والتابعين، فهذا له تميز عند علماء الحديث، وروايته مقبولة- مع الاعتراف بتفاوت الرجال الذين لهم هذه الصفة من ناحية الحفظ والضبط- وأما من كان من أهل البدعة فروايته مردودة إلا بشروط دقيقة[2].

---

(١) أخرجه مسلم مقدمة صحيحه (ص: ١٥)، والدارمي في سننه (١/ ١١٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٧٨)، والرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص٢٠٨-٢٠٩)، والخطيب في الكفاية (ص. ١٢٢) وإسناده حسن.

(٢) اختلف العلماء في الرواية عن المبتدعة كالمرجئة والقدرية والخوارج والرافضة وغيرهم، وفي الاحتجاج بما يروونه على أقوال:

=

=

القول الأول: يرى جماعة من أهل العلم أن رواية أهل البدع لا تقبل مطلقا وذلك لأنهم إما كفار، وإما فساق بما ذهبوا إليه، وكل من الكافر والفاسق مردود الرواية، وقد روي هذا القول عن الإمام مالك، والقاضي أبي بكر الباقلاني، واختاره الآمدي، وجزم به ابن الحاجب.

واحتج لهذا الرأي بأن في الرواية عن المبتدع ترويجا لأمره، وتنويها بذكره.

وقد رد الحافظ ابن الصلاح هذا الرأي وقال: إنه مباعد للشائع عن أئمة الحديث، فإن كتبهم طافحة بالرواية عن المبتدعة.

القول الثاني: يرى جماعة من أهل النقل والمتكلمين أن أخبار أهل الأهواء كلها مقبولة، سواء كانوا فساقا أو كفارا بالتأويل.

واختار هذا القول أبو الحسين البصري معللا بأن الظن بصدقه غير زائل، وهذا القول أضعف الأقوال.

قال الحافظ ابن حجر: التحقيق أن لا يرد كل مكفر ببدعته، لأن كل طائفة تدعي أن مخالفيها مبتدعة، وقد تبالغ فتكفر مخالفيها، فلو أخذ ذلك على الإطلاق لاستلزم تكفير جميع الطوائف.

القول الثالث: يرى بعض أهل العلم التفصيل: فإن كانت صغرى، كالتشيع بلا غلو ولا تحرف، قبلت مروياته، وبه قال الذهبي وعلل قوله بأنه لو ردت مرويات هذا النوع، لذهب جملة من الآثار النبوية وفيه مفسدة بينة، لأن هذا النوع كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق.

وقال: وإن كانت البدعة كبرى كالرفض الكامل، والغلو فيه، والحط على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما والدعاء إلى ذلك، فهذا النوع لا يحتج بهم ولا كرامة.

أن البدعة لا تؤثر على الراوي. إذا ثبت أنه حافظ ضابط وصادق ليس بكاذب، وهذا قول جمهور النقاد، جمهور المتقدمين وعلى رأسهم" الإمام علي ابن المديني ويحيى بن معين ويحيى بن سعيد القطان وغيرهم، وعلى هذا المذهب البخاري ومسلم والترمذي والنسائي" وغيرهم من أهل العلم بالحديث.

القول الرابع: تفصيل أيضا: إن كان داعية إلى مذهبه لم يقبل، وإلا قُبل إن لم يرو ما يقوي بدعته، وهو مذهب أكثر العلماء، ونسبه الخطيب للإمام أحمد بن حنبل، ورجحه ابن الصلاح، وقد نقل الشافعي أن جمهور المحدثين يقول برد رواية الرافضي الداعية

=

=

ولو كان صدوقًا، وهو مذهب مالك وأبي حنيفة أيضًا. وقد ذكر الخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي" (١/ ١٣٧): عدة آثار عن السلف في ذلك في باب «في ترك السماع من أهل الأهواء والبدع».

ونقل ابن حِبّان الإجماع على عدم الاحتجاج بالمبتدع الداعية (فيما يروج بدعته) عن كل من يُعْتَد بقوله في الجرح والتعديل. فقال في كتابه المجروحين (٣/ ٦٤): «الداعية إلى البدع، لا يجوز أن يُحتَجّ به عند أئمتنا قاطبةً. لا أعلم بينهم فيه خلافًا». وقال الحاكم في معرفة علوم الحديث (ص١٥): «ومما يحتاج إليه طالب الحديث في زماننا هذا: أن يبحث عن أحوال المحدث أولًا: هل يعتقد الشريعة في التوحيد؟ وهل يُلزم نفسه طاعة الأنبياء والرسل صلى الله عليهم فيما أوحي إليهم ووضعوا من الشرع؟ ثم يتأمل حاله: هل هو صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه؟ فإن الداعي إلى البدعة لا يُكتب عنه ولا كرامة، لإجماع جماعة من أئمة المسلمين على تركه». فقد نقل الإجماع كذلك على ترك المبتدع الداعية لبدعته.

والإمام مسلم موافقٌ نظريًا لهذا الإجماع إذ قال في مقدّمة صحيحه: «واعلم وفقك الله أنّ الواجب على كُلِّ أحدٍ عَرَفَ التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها وثِقات الناقلين لها من المتهمين: أن لا يروي منها إلا ما عرف صحة مخارجه والستارة في ناقليه، وأن يتقي منها ما كان منها عن أهل التهم والمعاندين من أهل البدع».

وقد نصّ الإمام الجوزجاني على هذا المنهج بنفسه، فقال في كتابه "أحوال الرجال" (ص٣٢): «ومنهم زائغٌ عن الحقّ، صدوق اللهجة، قد جرى في الناس حديثه: إذ كان مخذولًا في بدعته، مأمونًا في روايته، فهؤلاء عندي ليس فيهم حيلة إلا أن يؤخذ من حديثهم ما يُعرف، إذا لم يُقَوِّ به بدعته، فيُتَّهم عند ذلك». وهذا المذهب هو ما عليه جمهور المحدثين من أهل السنة والجماعة. وقد نقل ابن حجر هذه العبارة مُقِرًا لها في لسان الميزان (١/ ١١).

لكن يضعف هذا الرأي عند البعض رواية البخاري عن عمران بن حطان الذي قال فيه المبرد: كان عمران رأس القعدية من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم. وقال ابن حجر: إنه كان داعية إلى مذهبه.

ويضعفه أيضا رواية الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة: عن عدي بن ثابت عن زر قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنّه لعهد

=

=
النبي الأمّي ﷺ) إليّ أنّ لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق. وعدي بن ثابت: ثقة رمي بالتشيّع.
ويضعفه أيضا رواية أحمد والبخاري ومسلم عن قيس بن أبي حازم أن عمرو بن العاص قال: سمعت النبي ﷺ) جهارًا غير سرّ يقول: إنّ آل أبي (قال عمرو في كتاب محمد بن جعفر بياض) ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله وصالح المؤمنين وقيس بن أبي حازم قد نسب إلى النّصب
القول الخامس: تفصيل أيضا: وهو إن كان المبتدع يستحل الكذب لنصرة مذهبه لم يقبل، وإلا قبل، لأن اعتقاد حرمة الكذب يمنع من الإقدام عليه فيحصل صدقة، وممن قال بهذا القول الإمام الشافعي، وحكاه الخطيب عن ابن أبي ليلى وسفيان الثوري، وأبي يوسف القاضي. ونسبه الحاكم لأكثر أئمة الحديث وقال الفخر الرازي: إنه الحق.
لكن قال الشيخ أحمد شاكر: وهذا المذهب فيه نظر، لأن من عرف بالكذب ولو مرة واحدة لا تقبل روايته، فأولى أن ترد رواية من يستحل الكذب.
القول السادس: أن البدعة لا تؤثر على الراوي. إذا ثبت أنه حافظ ضابط وصادق ليس بكاذب، ونقله بعضهم عن جمهور النقاد، وجمهور المتقدمين وعلى رأسهم" الإمام علي ابن المديني ويحيى بن معين ويحيى بن سعيد القطان وغيرهم، وعلى هذا المذهب البخاري ومسلم والترمذي والنسائي" وغيرهم من أهل العلم بالحديث، وهذا النقل يخالف النقل عن الجمهور في التفريق بين أن يكون داعية أو لا، قال الذهبي في في السير (٧/ ١٥٤): هذه مسألة كبيرة وهى القدري والمعتزلي والجهمي والرافضي، إذا علم صدقه في الحديث وتقواه، ولم يكن داعيا إلى بدعته فالذي عليه أكثر العلماء قبول روايته والعمل بحديثه، وترددوا في الداعية هل يؤخذ عنه؟ فذهب كثير من الحفاظ إلى تجنب حديثه وهجرانه. وقال بعضهم: إذا علمنا صدقه وكان داعية ووجدنا عنده سنة تفرد بها فكيف يسوغ لنا ترك تلك السنة؟ فجميع تصرفات أئمة الحديث تؤذن بأن المبتدع إذا لم تبح بدعته خروجه عن دائرة الإسلام، ولم تبح دمه فإن قبول ما رواه سائغ وهذه المسألة لم تتبرهن لي كما ينبغي، الذي اتضح لي منها أن من دخل في بدعة ولم يعد من رؤوسها ولاأمعن فيها يقبل حديثه. . . قال الذهبي في الميزان (١/ ٥) في ترجمة أبان بن تغلب: شيعي جلد لكنه صدوق فلنا صدقه وعليه بدعته.
(تنبيه) ورد في أثناء التعليق اسم فرقة من الخوارج وهم القعدية، والقعدية: هم الذين
=

ومما يلاحظ أن الكذب قد اشتهر عند الرافضة، ولذلك قال عنهم الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: "لم أر من أهل الأهواء أشهد بالزور من الرافضة" وقال يزيد بن هارون: "يكتب عن كل مبتدع- إذا لم يكن داعية- إلا الرافضة فإنهم يكذبون"، ولما وقعت فتنة المختار الشيعي[١]، اشتهر في زمنه الكذب ووضع الحديث على رسول الله ﷺ، ولهذا روى الإمام أحمد عن جابر بن نوح عن الأعمش عن إبراهيم [النخعي] قال: "إنما سئل عن الإسناد أيام المختار"، والمختار نفسه كان يأمر بأن توضع له الأحاديث المكذوبة، فقد أمر رجلا من أصحاب الحديث قائلا: "ضع لي حديثا عن النبي ﷺ أني كائن بعده خليفة"، فرفض الرجل[٢]، بل أمر محمد بن عمار بن ياسر أن يحدث عن أبيه بحديث كذب فأبى فقتله[٣]. ولذلك فشا الكذب في عهده، كما روى شريك عن أبي إسحاق: سمعت خزيمة بن نصر العبسى- أيام المختار- وهم يقولون ما يقولون من

=

يزينون الخروج على الأئمة ولا يباشرون ذلك، والقعدية: فرقة من الخوارج، فلا يظن ظانًا أن الخوارج هم الذين يخرجون بالسيف لقتال الحاكم فقط؛ فتنبه!!! بل القعدية غالبًا أخطر من الخوارج الذين يخرجون أنفسهم؛ إذ أن الكلام وشحن القلوب وإثارة العامة على ولاة الأمر له أبلغ الأثر في النفوس وخاصة إذا خرج من رجل بليغ متكلم يخدع الناس بلسانه وتلبسه بالسّنة.

(١) من العجيب أن هذا الكذاب كان أول أمره ناصبيا، فأبغضته الشيعة، ثم تشيع. انظر ترجمته في: البداية والنهاية (٨/ ٢٨٩-٢٩٢)، وانظر سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٨)، وميزان الاعتدال (٤/ ٨٠)، وكان المختار يزعم أنه يوحي إليه. انظر: المسند للإمام أحمد (٥/ ٢٢٣-٢٢٤) قتل المختار سنة: ٦٧ هـ.

(٢) التاريخ الكبير للبخاري (٨/ ٤٣٤- ٤٣٥)، والصغير (١/ ٤٧)، والموضوعات لابن الجوزي (١/ ٣٩).

(٣) الجامع للخطيب (١/ ١٣١)، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٨/ ٤٣).

الكذب- وكان من أصحاب علي- قال: "ما لهم قاتلهم الله، أي عصابة شانوا وأي حديث أفسدوا". وإذا كان الرافضة أهل كذب فقد ضموا إليه الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ ورميهم بالكفر والردة إلا أعدادا قليلة.

وليس الغرض استقصاء هذه الأمور- فالموضوع فيها طويل- ولكن نشير هنا إلى أن تميز أهل السنة واكب ظهور الرافضة من جهتين:

الأول: انتشار الكذب عندهم[1]، مما أثار علماء السنة للبحث عن الرجال والأسانيد، فبدأ بتميز أهل الحديث عن غيرهم، وسبق أن ذكرنا أقوال العلماء بأن الفرقة الناجية هم أهل الحديث.

الثانية: طعنهم في الصحابة، ونشوء البدع وكثرتها لديهم، حتى أصبح شعار " أهل السنة " كثيرا ما يستعمل في مقابل الرافضة، وسفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسر موافقة السنة بتقدمة الشيخين أبو بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[2].

٢- وفي مقابل فتنة الروافض جاءت فتنة الخوارج، والذي يلاحظ أن الخوارج اشتهر عنهم الصدق، ولعل مرد ذلك اعتقادهم أن مرتكب الكبيرة كافر، والكذب كبيرة من الكبائر، ولهذا روي عن أبي داود سليمان بن الأشعث

---

(١) بل الكذب أحد أصولهم وذلك بما يسمى " التقية "! عندهم.

(٢) شرح السنة للالكائي (١/ ١٥٢)، ومما يلاحظ أن سفيان الثورى في اعتقاده هذا الذى سأله عنه شعيب بن حرب- لما ذكر بعض أمور الاعتقاد التى تميز أهل السنة ذكر مسألة المسح على الخفين وعدم الجهر بالبسملة- مع أن مسألة الجهر بالبسملة من المسائل الفرعية التي وقع فيها الخلاف بين أهل السنة. وقد علل ذلك ابن تيمية في منهاج السنة (٢/ ١٨٤) ط مكتبة الرياض الحديثة، بقوله: "حتى أن سفيان الثورى وغيره من الأئمة يذكرون في عقائدهم ترك الجهر بالبسملة، لأنه كان عندهم من شعار الرافضة؟ يذكرون المسح على الخفين لأن تركه عندهم من شعار الرافضة. . ".

أنه قال: "ليس في أصحاب الأهواء أصح حديثا من الخوارج "[١]. ولذلك روى البخاري وغيره عن دعاتهم، ولكن صدقهم وحماستهم لم يكن حائلا دون أن تكون فتنتهم وضلالهم شديدة الوطأة على المسلمين، لأنهم كفروا من عداهم، ولم يكتفوا بذلك، بل ميزوا صفوفهم عن صفوف غيرهم من المسلمين، وحاربوا وقاتلوا، فصارت بدعتهم وانحرافهم أشد من غيرها، ولذلك قاتلهم علي رضي الله عنه وأجمع الصحابة على قتالهم.

فالخوارج خرجوا على الجماعة الذين لهم إمام شرعي، ومع ظهور فتنة هؤلاء برز أهل السنة بحرصهم على الجماعة وعدم الخروج على الإمام الشرعي ولو كان جائرا وصاروا يذكرون هذا الاعتقاد ويدعون إليه ويحذرون من مخالفته، وحرص المسلمون على الجماعة ونبذ الفرقة، ولما اجتمعوا على معاوية رضى الله عنه عام إحدى وأربعين بعد تنازل الحسن رضى الله عنه سموا هذا العام عام الجماعة. فظهور بدعة الخوارج ميزت أهل السنة من جانبين:

الأول: خروج الخوارج عن المذهب الحق بالتكفير لمن عداهم من المسلمين، ولا شك أن هذه بدعة شنيعة، وقد حرص المسلمون على الرد على أصحابها، وتحذير الناس أشد التحذير منهم÷ وصار من معالم مذهب أهل

---

(١) الكفاية (ص:١٧٢ - ١٧٣) هندية - ولكن وردت روايات أن الخوارج ربما يضعون الأحاديث، فقد روى عن أحد شيوخهم أنه قال: "إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإنا كنا إذا هوينا أمرا صيرناه حديثا". رواه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص: ٤١٥-٤١٦)، والخطيب في الكفاية (ص:١٦٣) هندية، وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٨-٣٩)، وانظر مناقشة الموضوع بشكل موسع في كتاب: "الوضع في الحديث (١/ ٢٢٩-٢٣٨)، حيث رجح الدكتور عمر فلاتة في رسالته هذه أن الخوارج ليس لهم دور في الوضع في الحديث.

السنة عدم التكفير لمرتكب الكبيرة.

والثاني: خروجهم على الجماعة وعلى الإمام الشرعي وقتالهم للمسلمين بناء على أصل مذهبهم التكفير، وقد قابل أهل السنة هذا بمقاتلتهم حتى يقضي عليهم أو يكفوا شرهم وبالتحذير منهم وإعلان وجوب اتباع النصوص التي حذرت من الخروج على أئمة المسلمين وإن جاروا وظلموا، ولذا كان أحد المعاني المهمة للجماعة أنها الجماعة الذين اجتمعوا على أمير.

٣- وبعد ظهور فتنة الروافض والخوارج أخذت بقية البدع تظهر بين المسلمين كبدعة القدر، والإرجاء، والتجهم، فقاومها أهل السنة وحذروا منها ومن أصحابها، حتى صار أهل البدع نشازا في المجتمع الإسلامي يأوي إليهم ويسمع أقوالهم إما أهل الزندقة والنفاق، ممن يكيدون لهذا الدين في الخفاء، وإما أصحاب الإيمان الضعيف ممن تؤثر فيهم وتستهويهم هذه البدع وما فيها من آراء وأفكار جديدة على المسلمين، أما السواد الأعظم من المسلمين فإنهم يتبعون علماء الآفاق من أهل السنة في كل مكان.

وحذر علماء أهل السنة من أصحاب الأهواء، حتى كان الحسن يقول: "لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم"، ولما جاءه رجل فقال: "يا أبا سعيد أني أريد أن أخاصمك"، فقال الحسن: "إليك عني فإني قد عرفت ديني، وإنما يخاصمك الشاك في دينه". واستمر تحذير العلماء من أهل الكلام والبدع، وصار مذهب أهل السنة متميزا بالاتباع والسير على منهاج الصحابة رضي الله عنهم مع البعد عن أهل البدع والإنكار عليهم فصار لقب أهل السنة مقابل: أهل البدع والأهواء والكلام.

ولما وقعت محنة القول بخلق القرآن وصار للمعتزلة دولة وصولة امتحن أهل

السنة وثبت الله الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ فصار وقوفه وثباته مثالًا شامخًا للثبات على مذهب أهل السنة في مقابل أهل البدعة، فصار الإمام أحمد إمام أهل السنة لذلك.

هذه خطوط عريضة لعلها تكون قد أوضحت كيف نشأت التسمية بأهل السنة والجماعة، أو أهل الحديث، وإن ذلك كان مع ظهور البدع ونشوء الفرق، وما صاحب ذلك من الاستهانة بحديث رسول الله ﷺ، وبنقلته من الصحابة، فبدأ أهل السنة يعلنون تميزهم من خلال:

١- العناية بالحديث رواية ودراية، والكلام في الرجال، والسبب في ذلك نشوء الكذب مع كثرة أهل الأهواء.

٢- المحافظة على السنة وعلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، من غير ابتداع في الدين أو اتباع لأهل الأهواء والكلام المذموم على اختلاف مذاهبهم وأقوالهم.

٣- المحافظة على الجماعة التي تعني الاتباع والسير على المنهج الحق، وتعني أيضًا المحافظة على وحدة الأمة وعدم الخروج على الجماعة التي لها إمام شرعي.

أما التحديد الدقيق لنشأة التسمية بأهل السنة والجماعة، وربط ذلك بزمن محدد أو بعلم من أعلام أهل السنة، أو نشوء فرقة من الفرق، فلا أظن أن ذلك ممكن إلا من خلال خطوط عريضة كما أسلفنا والله أعلم[(١)].

(باب متفرقات)

مسألة

قال العلامة العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٣/ ٦٠): ذكر الصابوني

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (ص٢١-٤٩).

في مقاله الثاني أن أهل السنة اشتهروا بمذهبين اثنين أحدهما مذهب السلف والآخر مذهب الخلف. . . إلخ.

والجواب أن يقال: هذا غلط بين لم يسبقه إليه أحد فيما أعلم فإن مذهب أهل السنة واحد فقط وهو ما درج عليه أصحاب رسول الله وأتباعهم بإحسان وهو إثبات أسماء الله وصفاته وإمرارها كما جاءت، والإيمان بأنها حق وأن الله سبحانه موصوف بها على الوجه الذي يليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ولا تأويل لها عن ظاهرها ولا تفويض، بل يؤمنون بأن معانيها معلومة وأنها حقا لائقة بالله سبحانه وتعالى لا يشابه خلقه في شيء منها، ومذهب الخلف بخلاف ذلك كما يعلم ذلك من قرأ كلام هؤلاء وكلام هؤلاء.

ثم ذكر أن أهل السنة يفوضون علم معاني الصفات إلى الله وكرر ذلك في غير موضع وقد أخطأ في ذلك ونسب إليهم ما هم براء منه كما تقدم بيان ذلك فيما نقلناه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن جمع من أهل السنة - رحمة الله عليهم - وإنما يفوض أهل السنة إلى الله سبحانه علم الكيفية لا علم المعاني كما سبق إيضاح ذلك.

أهل السنة لا ينفون عن الله إلا ما نفاه عن نفسه:

٩- ثم ذكر الصابوني -هداه الله- تنزيه الله سبحانه عن الجسم والحدقة والصماخ واللسان والحنجرة، وهذا ليس بمذهب أهل السنة بل هو من أقوال أهل الكلام المذموم وتكلفهم، فإن أهل السنة لا ينفون عن الله إلا ما نفاه عن نفسه أو نفاه رسوله ﷺ ولا يثبتون له إلا ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ، ولم يرد في النصوص نفي هذه الأمور ولا إثباتها فالواجب الكف عنها وعدم التعرض لها لا بنفي ولا إثبات، ويغني عن ذلك قول أهل السنة في إثبات صفات

الله وأسمائه أنه لا يشابه فيها خلقه وأنه سبحانه لا ند له ولا كفو له. قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث.

وهذا هو معنى كلام غيره من أئمة السنة وأما ما وقع في كلام البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الاعتقاد» من هذه الأمور فهو مما دخل عليه من كلام المتكلمين وتكلفهم، فراج عليه واعتقد صحته، والحق أنه من كلام أهل البدع لا من كلام أهل السنة. أهل السنة يثبتون لله عَزَّوَجَلَّ ما أثبته لنفسه دون أن يشبهوه بخلقه

١٠ - ثم قال الصابوني في مقاله الثاني ما نصه: «أما ما يتخيله بعض الجهلة من أدعياء العلم اليوم الذين يصورون الله بصورة غريبة عجيبة ويجعلون الله تعالى كأنه جسم مركب من أعضاء وحواس له وجه ويدان وعينان وله ساق وأصابع وهو يمشي وينزل ويهرول، ويقولون في تقرير هذه الصفات أن الله يجلس كما يجلس الواحد على السرير وينزل كما ينزل أحدنا على الدرج - يريد بزعمه أن يقرر مذهب السلف الصالح للتلاميذ ويثبت لهم حقيقة معنى الاستواء والنزول وأنه جلوس حس لا كما يتأوله المؤولون، فهذا والعياذ بالله عين الضلالة لأنه شبه وجسم وهو كمن فر من حفرة صغيرة ليقع في هوة عميقة يتحطم فيها ويهوي فيها إلى مكان سحيق».اهـ. .

وأقول: أن الأخ الصابوني -هداه الله- قد جمع في هذا الكلام حقا وباطلا يعلمه كل صاحب سنة. وإليك أيها القارئ المؤمن التفصيل في ذلك:

أما الوجه واليدان والعينان والساق والأصابع فقد ثبتت في النصوص من الكتاب والسنة الصحيحة وقال بها أهل السنة والجماعة وأثبتوها لله سبحانه على الوجه اللائق به سبحانه، وهكذا النزول والهرولة جاءت بها الأحاديث

الصحيحة ونطق بها الرسول ﷺ وأثبتها لربه ﷻ على الوجه اللائق به سبحانه من غير مشابهة لخلقه ولا يعلم كيفية هذه الصفات إلا هو سبحانه، فإنكار الصابوني هذه الصفات إنكار على النبي ﷺ، بل إنكار على الله ﷻ لأنه سبحانه ذكر بعضها في كتابه العزيز وأوحى البعض الآخر لنبيه ﷺ، فإنه ﷺ لا ينطق عن الهوى وإنما يخبر عن الله سبحانه بما أوحى إليه، فالصابوني -هداه الله- تارة يقول إنه يلتزم بمذهب أهل السنة وتارة يناقضه ويخالفه، فإنا لله وإنا إليه راجعون ونسأل الله لنا وله الهداية والرجوع إلى الحق. وأما قوله: ويقولون في تقرير هذه الصفات إن الله يجلس كما يجلس الواحد على السرير وينزل كما ينزل أحدنا على الدرج... إلخ. فهذا القول أهل السنة براء منه بل هو من كلام المشبهة الذين كفرهم السلف الصالح وأنكروا مقالتهم لكونها مصادمة لقول الله ﷻ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} وما جاء في معناها من الآيات، فلا يجوز لأحد أن يخلط بين كلام أهل الحق من أهل السنة وكلام أهل الباطل من المشبهة وغيرهم ولا يميز بينهما، بل الواجب التفصيل والتمييز.

الأشعري والماتوريدي ليس أول من رد شبهات أهل الزيغ..

١١ - ثم زعم الصابوني في مقاله الثالث أن أول من كتب في أصول الدين ورد شبهات أهل الزيغ والضلال أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتوريدي.

وهذا جزم غير صحيح فقد سبقهما في ذلك الإمام أبو حنيفة رحمه الله والإمام عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون والإمام مالك رحمه الله والإمام أحمد بن حنبل والإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة والإمام عثمان ابن سعيد الدارمي في الرد على المريسي والإمام عبد العزيز الكناني صاحب الحيدة

وغيرهم ممن لا يحصى. مذهب أهل السنة واحد وهو أسلم وأعلم وأحكم:

١٢ - ثم كرر الصابوني -هداه الله- في مقاله الثالث قوله: «إن السلف لهم مذهبان مذهب أهل التفويض ومذهب أهل التأويل» إلى آخر ما قال إلى أن قال: «إن بعضهم يفضل مذهب السلف ويقول إنه أسلم والبعض الآخر يفضل مذهب الخلف ويقول هو أحكم».اهـ. .

والجواب: أن هذا التقسيم باطل كما تقدم، وليس للسلف إلا مذهب واحد هو مذهب أهل السنة والجماعة وهم الصحابة رضي الله عنهم وأتباعهم بإحسان وهو الأسلم والأعلم والأحكم، أما المذهب الثاني فهو مذهب الخلف المذموم. وهو مذهب أهل التأويل والتحريف والتكلف ولا يلزم من ذم مذهب الخلف والتحذير منه القول بتكفيرهم، فإن التكفير له حكم آخر يبنى على معرفة قول الشخص وما لديه من الباطل ومدى مخالفته للحق، فلا يجوز أن يقال أنه يلزم من ذم مذهب الخلف أو الإنكار على الأشاعرة ما وقعوا فيه من تأويل الصفات وتحريفها إلا صفات قليلة استثنوها القول بتكفيرهم، وإنما المقصود بيان مخالفتهم لأهل السنة في ذلك وبطلان ما ذهب إليه الخلف من التأويل وبيان أن الصواب هو مذهب السلف الصالح وهم أهل السنة والجماعة في إمرار آيات الصفات وأحاديثها وإثبات ما دلت عليه من الأسماء والصفات على الوجه اللائق بالله سبحانه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تأويل ولا تكييف ولا تمثيل كما سبق ذكر ذلك غير مرة، والله المستعان. ثم ذكر كلام البيهقي هنا وقد تقدم ما فيه وأنه رحمه الله دخلت عليه ألفاظ من ألفاظ أهل البدع فراجت عليه وظنها صوابا فأدخلها في كتابه، وهو من جملة الذين خاضوا في الكلام وعلق باعتقاده بعض ما فيه من الشر، سامحه الله وعفى عنه. كما نبه على ما يدل على ذلك

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتاوى جـ ٦ ص ٥٣.

أهل السنة لا يؤولون الصفات ولكن يجمعون النصوص ويفسرون بعضها ببعض.

١٣ - ثم قال الصابوني في مقاله الثالث ما نصه «ولا يظن أحد أننا نفضل مذهب الخلف على مذهب السلف، ولسنا على الرأي الذي يقوله علماء الكلام: مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أحكم، بل نقول عن إيمان ويقين أن مذهب السلف هو الأسلم وهو الأحكم فلا نحاول أن نؤول صفات الخالق جل وعلا بل نؤمن بها كما جاءت ونقر بها كما وردت مع نفي التشبيه والتجسيم». ثم استشهد بقول بعض الشعراء:

إن المفوض سالم   مما تكلفه المؤول

إلى أن قال: «وإذا كان من أول الصفات ضال فسنضلل السلف الصالح جميعا لأنهم أولوا قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ قالوا: معهم بعلمه لا بذاته، وأولوا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ قالوا: معية علم لئلا تتعدد الذات. وسنحكم بضلال الحافظ ابن كثير لأنه قال في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ملائكتنا أقرب إليه منكم ولكن لا ترونهم. كما أول قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ قال: المراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، والحلول والاتحاد منفي بالإجماع تعالى الله وتقدس». وقال: «بل نقول إنه يتعين التأويل أحيانا كما في الحديث الصحيح: «الحجر الأسود يمين الله في أرضه» وكما قال عن سفينة نوح ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ .اهـ .

والجواب أن يقال: قد أحسنت في اختيار مذهب السلف الصالح واعتقاد أنه الأسلم والأحكم والأعلم، ولكنك لم تثبت عليه بل تارة تختار مذهب التأويل وتارة تختار مذهب التفويض، والواجب على المؤمن الثبات على الحق وعدم التحول عنه، وما ذكرته عن السلف من تفسير قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ} بالعلم ليس بتأويل ولكنه هو معنى آيات المعية عند أهل السنة والجماعة. كما حكى الإمام أبو عمر بن عبد البر وأبو عمر الطلمنكي إجماع أهل السنة على ذلك، وذلك لأن النصوص من الكتاب والسنة الدالة على علوه وفوقيته وتنزيهه سبحانه عن الحلول والاتحاد تقتضي ذلك، ومن تأمل الآيات الواردة في ذلك علم أنها تدل على أن المراد بالمعية العلم بأحوال عباده واطلاعه على شئونهم مع دلالة المعية الخاصة على كلاءته ورعايته وحفظه ونصره لأنبيائه وأوليائه. مع علمه واطلاعه على أحوالهم، والعرب الذين نزل عليهم الكتاب وجاءت السنة بلغتهم يعلمون ذلك ولا يشتبه عليهم، ولهذا لم يسألوا النبي ﷺ عن معاني هذه الآيات لظهورها لهم، أما النصوص الأخرى فلا تحتاج إلى تأويل لأن المعنى فيها ظاهر مثل قوله سبحانه: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} و{وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} و{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} فلا يدور بخلد أحد أن السفينة تجري بعين الله ولا أن محمدا عليه الصلاة والسلام في عين الله وإنما المراد بذلك أن السفينة تجري برعاية الله وعنايته وتسخيره لها وحفظه لها، وأن محمدا ﷺ تحت رعاية مولاه وعنايته وحفظه وكلاءته، وهكذا قوله في حق موسى: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} أي تحت رعايتي وحفظي وهكذا حديث: «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» يفسره قوله في الرواية الأخرى «فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي» ولا يظن من له أدنى بصيرة ممن يعرف اللغة

العربية أن المراد بذلك أن الله سبحانه هو سمع الإنسان وبصره وهو يده ورجله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وإنما أراد من ذلك سبحانه بيان توفيقه لأوليائه وتسديده لهم في حواسهم وحركاتهم بسبب طاعتهم له وقيامهم بحقه وهكذا الأحاديث الأخرى، وأما حديث (الحجر يمين الله) فهو حديث ضعيف والصواب وقفه على ابن عباس ومعناه ظاهر سواء كان مرفوعا أو موقوفا، وقد قال في نفس الحديث: (فكأنما صافح الله وقبل يمينه) فدل على أن الحجر ليس هو يمين الله وإنما شبه مستلمه ومقبله بمن صافح الله وقبل يمينه ترغيبا في استلامه وتقبيله، وهكذا قول الله سبحانه في الحديث الصحيح لعبده: «مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني » قد بين في الحديث ما يدل على معناه حيث قال سبحانه: «أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، ولو أطعمته لوجدت ذلك عندي » فعلم بذلك أن الله سبحانه لم يمرض ولم يجع وإنما أراد سبحانه من ذلك حث العباد على عيادة المريض وإطعام الجائع.

وأما قوله سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ فقد فسره جماعة بقرب الملائكة لأن قربهم من العبد حين يتلقى المتلقيان وحين الموت كان بأمره سبحانه وتقديره ورعايته لعباده، وفسره آخرون بأنه قربه سبحانه بعلمه وقدرته وإحاطته بعباده كالمعية وكقربه من عابديه وسائليه مع علوه وفوقيته سبحانه وليس المراد الحلول ولا الاتحاد، تعالى الله عن ذلك وتقدس لأن الأدلة القطعية من الكتاب والسنة تدل على أنه سبحانه فوق العرش بائن من خلقه عال عليهم وعلمه في كل مكان. فمن تدبر النصوص من الكتاب والسنة وفسر بعضها ببعض اتضح له المعنى ولم يحتج إلى التأويل، وقد اختار أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره القول الثاني في سورة

ق والقول الأول في سورة الواقعة. وقد أنكر أهل السنة على من تأول نصوص الصفات وبدعوه لما يترتب على تأويلها من أنواع الباطل وتحريف الكلم عن مواضعه وتجريد الرب سبحانه من صفات الكمال وسوء الظن به، وأنه خاطب عباده بما ظاهره تشبيه وتمثيل وأن المراد غيره. وهذا هو التأويل المذموم وهذا هو الذي سلكه أهل الكلام وأنكره عليهم أهل السنة وضللوهم في ذلك، لكونهم أولوا النصوص عن ظاهرها وصرفوها عن الحق الذي دلت عليه بلا حجة ولا برهان من كتاب ولا سنة، بل بمقتضى عقولهم وآرائهم التي لم ينزل الله بها من حجة ولا قام عليها برهان. وقد ألزموهم فيما أثبتوا نظير ما فروا منه فيما تأولوه وهو لازم لهم بلا شك، ولا يسلم من التناقض واللوازم الباطلة إلا من أثبت ما أثبته الله ورسوله ونفى ما نفاه الله ورسوله وهم أهل السنة والجماعة، والله المستعان.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر (٣/ ٧٣): ذكر الصابوني في مقاله السادس الذي بدأه بقوله: (هذا بيان للناس. إن التأويل لبعض آيات وأحاديث الصفات لا يخرج المسلم عن جماعة أهل السنة فمنه ما هو خطأ ومنه ما هو صواب، وهناك آيات صريحة في التأويل أولها الصحابة والتابعون وعلماء السلف وما يتجرأ أحد أن ينسبهم إلى الضلال أو يخرجهم عن أهل السنة والجماعة، ثم ضرب لذلك أمثلة منها قوله تعالى: {نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ} ومنها ما ذكره سبحانه من استهزائه بالمسهزئين وسخريته من الساخرين بالمؤمنين ومكره بالماكرين، وكذلك أيضا الحديث الصحيح عن قول الله عَزَّوَجَلَّ: «مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني » إلى أن قال. . إذن ليس الأمر كما يظن البعض أن مذهب السلف ليس فيه تأويل مطلقا بل مذهب السلف هو تأويل ما لا بد من تأويله).اهـ .

والجواب أن يقال: هذا الكلام فيه تفصيل وفيه حق وباطل، فقوله: (إن التأويل لبعض الصفات لا يخرج المسلم عن جماعة أهل السنة) صحيح في الجملة فالمتأول لبعض الصفات كالأشاعرة لا يخرج بذلك عن جماعة المسلمين ولا عن جماعة أهل السنة في غير الصفات، ولكنه لا يدخل في جماعة أهل السنة عند ذكر إثباتهم للصفات وإنكارهم للتأويل، فالأشاعرة وأشباههم لا يدخلون في أهل السنة في إثبات الصفات لكونهم قد خالفوهم في ذلك وسلكوا غير منهجهم وذلك يقتضي الإنكار عليهم وبيان خطئهم في التأويل، وأن ذلك خلاف منهج أهل السنة والجماعة كما تقدم بيانه في أول هذه التنبيهات، كما أنه لا مانع أن يقال إن الأشاعرة ليسوا من أهل السنة في باب الأسماء والصفات وإن كانوا منهم في الأبواب الأخرى حتى يعلم الناظر في مذهبهم أنهم قد أخطأوا في تأويل بعض الصفات وخالفوا أصحاب النبي ﷺ وأتباعهم بإحسان في هذه المسألة تحقيقا للحق وإنكارا للباطل وإنزالا لكل من أهل السنة والأشاعرة في منزلته التي هو عليها.

وسئل رحمه الله كما في نفس المصدر (٥/ ٤٢٦): هل تجوز الصلاة خلف صاحب عقيدة مخالفة لأهل السنة والجماعة كالأشعري مثلا؟.

فأجاب: الأقرب -والله أعلم- أن كل من نحكم بإسلامه يصح أن نصلي خلفه ومن لا فلا، وهذا قول جماعة من أهل العلم وهو الأصوب. وأما من قال: إنها لا تصح خلف العاصي، فقوله هذا مرجوح، بدليل أن النبي ﷺ رخص في الصلاة خلف الأمراء، والأمراء منهم الكثير من العصاة، وابن عمر وأنس وجماعة صلوا خلف الحجاج وهو من أظلم الناس.

والحاصل أن الصلاة تصح خلف مبتدع بدعة لا تخرجه عن الإسلام، أو

فاسق فسقا ظاهرا لا يخرجه من الإسلام. لكن ينبغي أن يولي صاحب السنة، وهكذا الجماعة إذا كانوا مجتمعين في محل يقدمون أفضلهم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر (٢٨/ ٤٧): هناك من يحذر من كتب الإمام النووي وابن حجر رحمهما الله تعالى، ويقول: إنهما ليسا من أهل السنة والجماعة، فما الصحيح في ذلك؟.

فأجاب: لهم أشياء غلطوا فيها في الصفات، ابن حجر والنووي وجماعة آخرون، لهم أشياء غلطوا فيها، ليسوا فيها من أهل السنة، وهم من أهل السنة فيما سلموا فيه ولم يحرفوه هم وأمثالهم ممن غلط.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر (٢٨/ ٥٠): بعض الناس ينكرون الانتساب إلى أهل السنة والجماعة، ويقولون: كل يدعي ذلك، ولكن الأولى أن ينتسب إلى السلف؟.

فأجاب: السلف هم أهل السنة والجماعة. الانتساب إليهم لا بأس، بل حق وأنه من المؤمنين، ومن أتباع أهل السنة والجماعة، من أتباع الصحابة، ومن المؤمنين بالله واليوم الآخر، ينتسب إلى أهل الحق لا ينتسب إلى أهل الباطل، يجاهد نفسه على الصدق، وألا تكون دعوى، يجاهد نفسه حتى يصدق.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر (٢٨/ ٥٧): أخ يسأل عن بعض الجماعات الإسلامية، مثل جماعة التبليغ وجماعة الإخوان المسلمين، ويقول: هل هؤلاء من أهل السنة والجماعة؟.

فأجاب: كلهم عندهم نقص، جماعة التبليغ وجماعة الإخوان المسلمين، يجب أن يحاسبوا أنفسهم وأن يستقيموا على الحق، وأن ينفذوا ما دل عليه الكتاب والسنة، في توحيد الله والإخلاص له، والإيمان به واتباع شريعته، وعلى

الإخوان المسلمين وفقهم الله أن يحاسبوا أنفسهم وأن يحكموا شرع الله فيما بينهم، وأن يستقيموا على دين الله: قولا وعملا وعقيدة، وأن يحذروا مخالفة أمره أينما كانوا، وعلى جماعة التبليغ أيضا أن يحذروا ما كان يفعله أسلافهم من تعظيم القبور، والبناء عليها أو جعلها في المساجد أو دعائها والاستغاثة بها، كل هذا من المنكرات، والاستغاثة بها من الشرك الأكبر، فعليهم أن يحذروا ذلك، لهم نشاط في الدعوة إلى الله، وكثير منهم ينفع الله به الناس، لكن عند أسلافهم عقيدة غير صالحة، فيجب على الخلف أن يتطهروا منها، وأن يحذروا العقيدة الرديئة وأن يستقيموا على توحيد الله حتى ينفع الله بهم وبجهادهم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر (٢٨/ ٢٥٤): ما حكم تبديع جملة من أئمة أهل السنة بحجة أنهم أخطأوا في العقيدة مثل النووي وابن حجر وغيرهما؟.

فأجاب: من أخطأ لا يؤخذ بخطئه، الخطأ مردود مثل ما قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: "ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر " يعني النبي ﷺ، وكل عالم يخطئ ويصيب، فيؤخذ صوابه ويترك خطؤه، وإذا كان من أهل العقيدة السلفية ووقع في بعض الأغلاط، فيترك الغلط ولا يخرج بهذا من العقيدة السلفية إذا كان معروفا باتباع السلف، ولكن تقع منه بعض الأغلاط في بعض شروح الحديث أو في بعض الكلمات التي تصدر منه فلا يقبل الخطأ ولا يتبع فيه، وهكذا جميع الأئمة إذا أخطأ الشافعي أو أبو حنيفة أو مالك أو أحمد أو الثوري أو الأوزاعي أو غيرهم، يؤخذ الصواب ويترك الخطأ، والخطأ ما خالف الدليل الشرعي، وهو ما قاله الله ورسوله، فلا يؤخذ أحد من الناس إلا بخطأ يخالف الدليل، والواجب اتباع الحق، قال الله تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى

فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} .

وقد أجمع العلماء على أن كل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، فالواجب اتباع ما جاء به وقبوله، وعدم رد شيء مما جاء به عليه الصلاة والسلام؛ للآية الكريمة المذكورة، وما جاء في معناها؛ ولقوله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} .

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر (٢٨/ ٢٥٦): هل الأشاعرة من أهل السنة والجماعة أم لا؟ وهل نحكم عليهم من المذهب أم كفار؟.

فأجاب: الأشاعرة من أهل السنة في غالب الأمور، ولكنهم ليسوا منهم في تأويل الصفات، وليسوا بكفار بل فيهم الأئمة والعلماء والأخيار، ولكنهم غلطوا في تأويل بعض الصفات، فهم خالفوا أهل السنة في مسائل؛ منها تأويل غالب الصفات، وقد أخطأوا في تأويلها، والذي عليه أهل السنة والجماعة إمرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ولا تحريف ولا تشبيه، وتمر كما جاءت مع الإيمان بأنها حق، وأنها صفات ثابتة لله سبحانه على الوجه اللائق به عَزَّ وَجَلَّ، لا يشابه فيها خلقه سبحانه وتعالى، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} وقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} .

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر (٢٨/ ٢٦٠): ما الفرق بين أهل السنة والجماعة والشيعة؟.

فأجاب: هناك فرق بينهم، فالله ما جعل الناس سواء، لا يستوي الذين يعملون الصالحات والذين يعملون السيئات، وما يستوي الأبرار والفجار.

يجب التفريق بين الكفار والمسلمين وبين الشيعة وغيرهم، الشيعة مبتدعة وهم أقسام كثيرة: فيهم الرافضي، وفيهم النصيري، وفيهم الإسماعيلي، وفيهم أصناف أخرى وهم طبقات وأقسام، منهم عبدة أهل البيت يعبدون أهل البيت يدعونهم من دون الله يستغيثون بهم، كالرافضة والنصيرية وأشباههم، هؤلاء كفار. نسأل الله العافية.

مسألة

سئل العلامة الألباني كما في جامع تراثه في الأحداث والمنهج (٢/ ٦): هناك الآن من أصبح يقول أيضًا شيئًا جديدًا غير كلمة المسلمين، يقول الآن نقول أهل السنة والجماعة، فهل يرد عليهم البحث السابق؟

الشيخ: قد أوردناه على الدكتور ناصر العمر، قد أوردنا عليه هذا الاعتراض، قلت له السنة والجماعة كلمة مطاطة يدخل فيها الماتريدية والأشاعرة وأهل الحديث، وأنتم تقولون بأن هؤلاء عندهم انحراف في العقيدة فيما يتعلق بالصفات الإلهية، فلذلك لا يجوز في رأينا استعمال هذه الكلمة. . نفس الكلام الذي حكيناه هنا آنفًا مع شيء من الإيجاز هناك، لكننا وأنا لاحظت هذا الاستعمال في أكثر من موطن من كتب إخواننا هؤلاء، وخاصة في مجلة السنة التي ينشرها محمد سرور وشعرت بأن هناك إشعارًا بتمييع الدعوة السلفية القائمة على أساس الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، وإدخال كل الطوائف المسلمة على الأقل من المذاهب الأربعة في دائرة أهل السنة والجماعة، فقلنا لهم لا، هذه الكلمة يدخل فيها من يخالفنا في عقيدتنا السلفية، فنفس الكلام الذي سمعته وسجل آنفًا يرد على هذه الكلمة، أي: لا يكفي أن نقول مسلم، لا يكفي أن نقول مسلم على الكتاب والسنة، لا يكفي أن يكون

مسلمًا على منهج أهل السنة والجماعة، لا يكفي هذا؛ لأنه كما يقولون:

وكل يدعي وصلًا بليلى وليلى لا تقر لهم بذاك

وأذكر جيدًا أنني قلت في بعض المجالس ولعل منها مجلسي مع الأستاذ عبد الحليم المصري الذي سبق الإشارة إلى مناقشتي إياه، قلت لذلك لا تجد في كل الطوائف الموجودة حتى ممن ينتمون إلى أهل السنة والجماعة يجرؤون على أن يقولون أنا سلفي، بل أن يقولوا على منهج السلف الصالح، يأبون علينا هذا، يقولون كتاب وسنة؛ لأنهم أنا أعتقد هذه العقيدة ولعله لأول مرة أفصح بها، كما أنه لا يكفي الاعتماد على القرآن؛ لأن السنة مبينة للقرآن، كذلك لا يكفي في آخر الزمان أن نعتمد على الكتاب والسنة؛ لأنهم منهج السلف يبين الكتاب والسنة أيضًا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٨): شيخنا: الأستاذ مازن قال كلمة: لا يرى تسمية الأخوة والجماعات بالسلفية أو الصوفية أو إلى آخره، فيعني أبى كلمة سلفية، فقلنا هذه بدها موضوع طويل لكن. .

الشيخ: هي بدها محاضرة.

مداخلة: . . . صحيح بس مختصرة.

الشيخ: وهو كمان بيقول: مو هيك بالضبط، فخلينا نسمع منه.

الملقي: هو الحقيقة، مع أنه معذرة أنا مستعجل يعني بس بقعد. . . أطول فترة ممكنة، لكن حقيقة هو القصد في الموضوع كان إيش هو جاء عرضًا قضية أن يقال على فلان إنه سلفي أو أخ مسلم أو تحريري أو صوفي هذا هو الذي أنا اعترضت عليه، قل: قال أحد الأخوة عند نص كذا، قلت له: يا سيدي أنا مش شيخ، أنا رجل -إن شاء الله- طالب علم، وأنا رجل مسلم -إن شاء الله-؛ لأنه

النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال؛ لأنه رب العالمين قال: {صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً} [البقرة: ١٣٨].

الشيخ: نعم.

الملقي: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ} [الحج: ٧٨]، فإحنا -إن شاء الله- إحنا مسلمين، ومش بالضرورة إحنا نُسَمِّ نفسنا بسمة معينة ضيقة وإنه إحنا مسلمين ونسأل الله القبول.

الشيخ: ما بيمشي الحال يا أستاذ.

الملقي: نعم.

الشيخ: ما بيمشي الحال. هذا الكلام سمعناه لا بد بقى أنته عند علم بواحد اسمه عبد الحليم صاحب كتاب: تحرير المرأة.

الملقي: نعم، عبد الحليم أبو شقة.

الشيخ: أبو شقة، صاحب ثلاث مجلدات.

الشيخ: هذا تلميذنا أولًا، هو كان من الذين هربوا من ظلم عبد الناصر إلى سوريا، وحضر دروسنا وأخذ مبادئ سلفية لا بأس بها، لكن بعدين فرقت الدنيا بيننا وبينه وأنا في دمشق سافر إلى الكويت، وفتح هناك مكتبة نشر أظن اسمها: دار القلم.

الملقي: نعم.

الشيخ: المهم ففوجئت بأنه أرسل إلي ثلاثة أجزاء من هذا الكتاب، وأنا باعتبار زمن المعرفة به أولًا بعيد، ثانيًا لا أحفظ الأسماء كما ينبغي، مين هذا المؤلف، ما تذكرته، وإذا بيجيني خطاب منه، أو هاتف، بيقول: أنا أريد أن أزورك لآخذ رأيك في الكتاب الذي أرسلته إليك. أيّ كتاب؟ بيسميه، هو أنت

عبد الحليم؟ قال: نعم، أهلًا وسهلًا، إلى آخره، أطول فيه. . . . وانته مستعجل، جاء وجلس عندي أسبوعًا كاملًا، وتبين له أن كتابه قائم على غير منهج علمي، ويظهر لك هذا أنه عَدَّل كثيرًا من آرائه، ثم من آخر ذلك أنه رجل قدم منحة لطالب يعمل على حسابه عندي ليتعلم العلم الحديثي، وما كان هذا إلا أثر المناقشات التي جرت بيني وبينه.

الشاهد أنا فهمت يعني فوتوغرافيته فلما ذكر لما سألته إذا قيل لك ما مذهبك؟ قال: مسلم، قلت له: يكفي هذا؟ قال نعم، هيك الله سمانا بالمسلمين في الآية الكريمة، قلت له: يا أخي هذا جواب سليم لو كنا في العهد الأول، قبل انتشار هذه الفرق، فالآن لو سألنا أي مسلم من الفرق الأخرى التي نختلف معها بعضها جذريًا في العقيدة، وبعضها دون ذلك، لو سألنا أي فرد من هؤلاء شو مذهبك، ما رح يختلف جوابه عن جوابك انته، كل واحد سيقول أنا مسلم، طيب، فإذًا أنا أريد أن أعرف أنت مسلم ويمكن الدرزي كمان عندنا في سوريا لو سألناه بيقول: أنا مسلم، العلوي بيقول: أنا مسلم فضلًا عن الرافضي، فضلًا عن الشيعي، فضلًا عن الزيدي، كل هؤلاء يقولون: مسلم، إذًا هذا ما يكفي يا أخي اليوم، قال اقتنع بهذا، قال: إذًا أنا بقول أنا مسلم على الكتاب والسنة، قلت له: -أيضًا- هذا لا يكفي، قال: لم؟ قلت: هل تجد واحدًا من هؤلاء الذين ضربنا بهم مثلًا آنفًا أنهم كلهم بيقولوا: مسلم، إذا سألناه شو مذهبك؟ بيقول: مسلم، بيقول: أنا مسلم لست على الكتاب والسنة، لا بد ما يقول على الكتاب والسنة، ما يكفي هذا يا أستاذ، قال: إذًا، قلت، ودخلت معه في بحث طويل لبيان أهمية الضميمة هذه، ولعلك سمعت شريطًا أو أكثر أننا نتبنى الكتاب والسنة على منهج السلف الصالح، صح.

الملقي: سمعت. . .

الشيخ: آه جميل جدًا، فشو رأيك انته، يكفي الإنسان اليوم المسلم العالم باللغة وأساليبها وآدابها وو إلى آخره أن يفهم الكتاب والسنة فقط دون الرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح الذين باشروا تطبيق هذين الأصلين عمليًا، وتلقوه من الرسول عليه السلام مطبقًا، قال: ما يكفي إلا على منهج السلف الصالح، جميل جدًا، الآن سألناك أول سؤال: ما مذهبك؟ قلت: مسلم، ما مشي الحال، سألناك سؤال قلت: مسلم على الكتاب والسنة، ما مشي الحال، سألناك ثالثًا؛ إذًا مسلم على الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، كل ما واحد بده يسألك سؤال بدك تعمل له محاضرة في الجواب، قلت له: أنا مسلم على الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح، شو رأيك نختصرها لغة إنته أعلم مني في اللغة.

مداخلة:. . .

الشيخ: لا عفوًا أنا أنا بحكي معه مو معك، انته يمكن يجي دورك، خبر حالك، ههههه

مداخلة: ههه

الشيخ: فالمهم انته أعلم مني باللغة؛ لماذا؟ لأني ألباني، والعرق دساس، ولو أنه تعربت.

مداخلة: انته البركة

الشيخ: المهم، إذا أردنا نعبر عن مسلم على الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح بكلمة سلفي، شو رأيك؟

الملقي: صحيح، أنا بوقف. . . إلى جانبك وبقولك: آه، لكن، باعتقادي الأولانية أفضل، لأن أول ما ينصرف ذهن الإنسان كلمة سلفي إلى أشياء كثيرة،

قد يَسُر بعضها، وفي بعضها قد لا يَسُر، من بعض الممارسات إنه، يعني لا يخفاك. .

الشيخ: هاه.

الملقي: بعض الممارسات اللي هي فيها نوع من الشدة وأحيانًا قد تصل إلى الغلظة.

الشيخ: احفظ كلامك، وإذا قلت مسلم، ما بينصرف شيعي رافضي درزي علوي إسماعيلي إلى آخره.

الملقي: من الممكن أن يصرف.

الشيخ: طيب.

الملقي: لكن أنا يعني أنا -إن شاء الله- بكون اتبعت الآية الكريمة: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ} [الحج: ٧٨].

الشيخ: لا اسمح لي لا لا، لا لا أخي ما اتبعت الآية؛ لأنه الآية تعني مسلم بالمسلم الصحيح، ما اتبعت الآية؛ لأنه انته بتعرف أنه من القواعد الإسلامية أن تُكَلِّم الناس على قدر عقولهم، صح. فالآن انته لما بتقول أنا مسلم، من الذي يفهم منك هذه المحاضرة اللي عملناها على هذا التسلسل، من الذي يفهم إنه مسلم بالمعنى الصحيح، لا أحد يفهم منك هذا إطلاقًا، ولذلك فالمحاذير التي أنت ذكرتها آنفًا وقد تكون صحيحة وقد تكون غير صحيحة؛ لأنه قولك إنه بالله في عندهن شدة قد يكون هذا أولًا بالنسبة لبعض الأفراد وليس كمنهج علمي.

الملقي: لا مش منهج علمي.

الشيخ: كمنهج عقدي. إذًا دعك والأفراد نحن عم نتكلم عن المناهج فلما بنقول شيعي، ما بنقول والله متشدد ولا متسامح ولا متساهل، على كل الفرق

الأخرى مش هذا موضوعنا، موضوعنا أن نضع اسم عَلَم يُعَبِّر عن مذهب هذا الإنسان الذي يدين الله به، أما والله متساهل متشدد، أنا. . . . مسلم أليس الصحابة كلهم مسلمين، طبعًا الجواب، لكن كان فيهم من سرق كان فيهم من زنى، لكن هل هذا يسوغ له أن يقول: أنا لست مسلم، لا هو مسلم ومؤمن بالله ورسوله كمنهج، لكن قد يخالف منهجه أحيانًا ما فينا معصوم، فنحن -بارك الله فيك- نتكلم الآن عن كلمة تُعَبِّر عن عقيدتنا وعن فكرنا ومنطلقنا في حياتنا فيما يتعلق بشوؤن ديننا الذي نعبد الله به، أما والله فلان متشدد، فقد يقابل متشدد بآخر بالتعبير السوري، ما أدري ماذا تقولون أنتم: مشلط.

مداخلة: عندنا نفسها.

الشيخ: كمان عندكم العبارة نفسها هه، يقابل متساهل مَشلط، لكن هذا مذهب، لا هذا تصرف شخص أو أشخاص أو أو إلى آخره، لذلك -بارك الله فيك- وأنت مستعجل وأنا مستعجل معك من أجلك، أنا مستعجل معك من أجلك.

الملقي: الله يجزيك الخير.

الشيخ: لكن أريد أن تفكر في هذه الكلمة الموجزة حتى ما تظل متعصب لكلمة مسلم وأنت تعلم أنه لا أحد يفهم منك الذي تريده، لا أحد يفهم منك الذي تريده أبدًا، فإذًا كلم الناس بقدر عقولهم، هلا انته عايش مع هادونه هالخنازير هدونه اليهود ورضي الله عن السيدة عائشة لما دخل ذلك اليهود قال: السام عليك يا رسول الله، قلت: وعليك السام والغضب إخوة القردة والخنازير، هادونه اللي انته ابتليت بالحياة بينهم وفي أرضك هاه، هادونه إذا قلت لهم وهنه ما يعرفون عنك شيء: أنا مسلم؛ عرفوك من أنت، فإذًا عرِّف الناس كلّم الناس بقدر عقولهم، هذا أولى، أما نتمسك أنا والله مسلم معنى

مسلم في العهد الأول غير معنى مسلم اليوم تمامًا، انته بتعرف في مسلمين يسمون اليوم بالقرآنيين، صح؟

الملقي: ينكرون السنة.

الشيخ: ينكرون السنة، طيب هذا بيقول لك: مسلم، وانته تشترك معه في القول مسلم؛ إذًا تريد أن أفهمك أنك قرآني، ما تريد هذا، إذًا أفهمني ما أنت، قل لي: سلفي، وبارك الله لك في سلفيتك. وهاه وأهلًا وسهلًا.

الملقي: الله يجزيك الخير.

الشيخ: وإياك -إن شاء الله-.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٥): أيهما أولى بالاستعمال دائمًا لفظ أهل السنة أم لفظ السلف.

الشيخ: السلف.

مداخلة: طيب هنا البعض يقول إن لفظ السلف ما جاء لفظه إلا متأخر يعني هم يقيسوا بأنه متأخر من عهد ابن تيمية وجاي، أما اللفظ اللي دارج استعماله من قِدَم لفظ أهل السنة والجماعة.

الشيخ: متى تاريخه هذا.

مداخلة: والله ما.

الشيخ: وقف حمار الشيخ عند العقبة.

مداخلة: ههههه.

مداخلة: والله أنا سألت عن الأولى متى تاريخ لفظ السلف، فقالوا ما يعرف إلا من زمان ابن تيمية.

الشيخ: إيه، أنت تحيَّزت مع أولئك على هؤلاء، لِمَ لم تسأل أيضًا، كما

سألت عن هذه؟

مداخلة: فاتني يا شيخ.

مداخلة: هههه.

الشيخ: ههه.

مداخلة: بس بيصير تجاوبني يعني. . . .

الشيخ: أقول لك: علمي والله أعلم بطبيعة الحال أن كلًا من الاستعمالين حادث.

مداخلة: حادث؟

الشيخ: هاه، ولكن هذا الحدوث ليس له علاقة بالإحداث، أي ليس له علاقة بالبدعة، وإنما علاقته بالعرف، فكلمة أهل السنة والجماعة كانت ولا تزال تعني طوائف من الناس، أما لفظة السلف والسلفي أو السلفيين فإنما تعني طائفة من الناس إلى هنا مفهوم الكلام.

مداخلة: جدًا.

الشيخ: طيب، ولا شك أن الطائفة المنصورة والفرقة الناجية هي فرقة أو طائفة واحدة، أما أهل السنة في اصطلاح الذين يستعملون هذه اللفظة فهي طوائف وجماعات عديدة، وأول ما يتبادر عند الذين يستعملون هذه الكلمة إلى ما قبل العهد الحاضر الآن إنما هم الأشاعرة والماتريدية، هم أهل السنة والجماعة، فإذا قرأتم في كتب العقائد التي تعرف بعلم الكلام مثل مثلًا الجوهرة وشروحها وحواشيها ونحو ذلك فستعلمون ونحمد الله أنكم لا تعلمون أن المقصود بهذه الكلمة هم أولئك الأشاعرة والماتريدية، الذي ألحظه الآن أن هذه الكلمة تستعمل ككلمة سياسية لاصطياد بعض الناس بالألفاظ المعسولة،

ولتكثير الجماعة الداعية، ولو كانت دعوتهم يغلب عليها الصواب على الخطأ، لكن طعموها طعموها بألفاظ وأساليب سياسية، ولذلك فالذي بدا لي والله أعلم، وبناء على ما بدا لي اقترحت على بعضهم ترك هذا الاستعمال أهل السنة والجماعة؛ لأنهم حينما يطلقونها فجماهير المسلمين اليوم حتى لو حصرناهم في من يسمونهم بأهل السنة والجماعة؛ لأن المقصود بهذا الاسم هو مثلًا خلاف الشيعة خلاف الخوارج الإباضية المعتزلة إلى آخره، أما الأشاعرة والماتريدية فهو أول ما يدخلون في هذا الاسم. نعم.

مداخلة: إذًا.

الشيخ: فحينما يستعمله، أو يستعمل هذا اللفظ بعض الدعاة اليوم ولو كانوا على المنهج السلفي فإنما يستعملونه سياسة والدعوة السلفية دعوة كالإسلام واضح بَيِّن، كما قال عليه الصلام: «ليلها كنهارها لا يضل» أو «لا يزيغ عنها إلا هالك»؛ ولذلك فالدعوة السياسية تناسبها الألفاظ السياسية التي ترضي كل الناس، سواء كانوا معهم أو عليهم، أما دعوة الحق فلا تعرف إلا أسلوبًا واحدًا وواضحًا كالشمس في رابعة النهار، وأكبر دليل على هذا: إذا قلت أنا أدعوا إلى منهج السلف الصالح وأنا سلفي بناءً على ذلك لم يقبل منك، وإذا قلت: أنا من أهل السنة والجماعة قُبِل منك، لماذا؟ لأن هذا الاصطلاح شامل، وهذه دعوة ولا مؤاخذة وما هي من الغيبة بصلة أو نسب هذه دعوة الإخوان المسلمين مثلًا الذين يجمعون السلفية والخلفية، والصوفية والشيعية وو إلى آخره.

مداخلة: على ذلك يا شيخ أن الاستعمال. . . أهل السنة والجماعة ليس دقيقًا.

الشيخ: كيف؟

الملقي: على ذلك استعمال.

الشيخ: لا ليست دقيقة بل هي مطَّاطة.

مداخلة: الله يجزيك الخير، الله يجزيك الخير يا شيخنا.

الشيخ: وإياك.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٤٧): يزعم بعض المنتسبين للعمل ويقول: بأن السلفية ليس لها أصل وكذلك يقول بأن الذي يتلفظ ويقول بأني سلفي فهذه الكلمة بدعة، فنود من شيخنا الرد على هؤلاء. .

الشيخ: أنا أعتقد أن الذي يقول هذه المقولة هو أولًا يُنكر حقيقة لغوية؛ لأن كلمة السلف معروفة في لغة العرب وفي لغة الشرع فأقول من الناحية اللغوية فالأمر لا يحتاج إلى بيان، يكفي أنها لفظة عربية النصوص اللغوية مشحونة بالتلفظ بها، لكننا مما نراه أهم من ذلك هو لفت نظر ذلك المُنْكر والمُدّعي بأن هذه اللفظة بدعة أن نُذَكِّره ببعض ما جاء في بعض الأحاديث النبوية مما صح عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال في مرض موته للسيدة فاطمة رضي الله تعالى عنها قال لها: وإنكِ أول أهلي لحوقًا بي ونعم السلف أنا لكِ، إن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يعزيها به عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول لها إنه سيموت قبلها وأنها ستلحق به عمّا قريب، وقد كان ذلك كما هو معلوم في التاريخ، فقد ماتت رضي الله تعالى عنها بعد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بنحو ستة أشهر، فإذا كان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يحدث عن نفسه بأنه نعم السلف لابنته فاطمة حيث يتقدمها وفاة وموتًا، فهو عليه الصلاة والسلام هو سلفنا في هذه الدعوة ولا شك، وأما استعمال العلماء لكلمة السلف فأكثر مما أن يمكن أن يتحدث الإنسان أو أن يحصي ذلك، وحسب المسلم البصير في

دينه أن يتذكر ما ينشده علماء السلف والمتّبعين للسلف الصالح حينما يقولون في احتجاجهم في محاربة كل بدعة حدثت من بعدهم ألا وهو قولهم:

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

لذلك أنا أقول إن الذي يُنكر هذه اللفظة من الناحية الشرعية وينكرها أيضًا من الناحية النسبية، فلا يجوز للمسلم أن يقول أنا سلفي كأنه يقول لا يجوز أن يقول المسلم أنا متبع للسلف الصالح فيما كانوا عليه من عقيدة ومن عبادة ومن سلوك، ولا شك أن مثل هذا الإنكار لو أنه كان يعي ما يقول لكن نجد له عذرًا في أنه لا يعي ما يقول، لو كان يعي ما يقول فمعنى ذلك أنه التبرؤ عن الإسلام الصحيح الذي كان عليه سلفنا الصالح، وأُذكر على ضوء هذا الحديث الذي قلناه آنفًا وهو في صحيح مسلم من قوله -صلى الله عليه وآله وسلم- للسيدة فاطمة: ونعم السلف أنا لكِ.

أنا أُذَكِّر هؤلاء الذين ينكرون هذه النسبة بأن التبرؤ من السلف معناه التبرؤ ممن جاء بدعوة السلف، معناه التبرؤ من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ لأنه هو على رأس السلف الصالح، ومما يشير إلى هذه الحقيقة الحديث المعروف في الصحيحين وفي غيرهما بل أعتقد ببحثي الخاص أنه حديث متواتر صحة ألا وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. . » ولا شك أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هو على رأس هذا القرن، وقد جاءت أيضًا إشارة إلى أنه كذلك حيث بعث في أول القرن الأول، فإذا كان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على رأس السلف الصالح فكيف يُعقل لمن يدري ما يتكلم وما يقول أن الانتساب إلى السلف، وأن هذه اللفظة لفظة السلف هذه بدعة في الإسلام. . ! أنا أعتقد أن هؤلاء هم في غفلة

ساهون لغة وشرعًا، فإن السلف الصالح لا يمكن لمسلم أن يتبرأ من الانتساب إليهم، بينما لو تبرأ من أي نسبة أخرى لم يمكن لأحد من أهل العلم أن يُنسب إلى كفر فيما إذا تبرأ من غير السلف، أما إذا تبرأ أن ينتسب إلى السلف فلا شك أنه يكون غير مسلم؛ لأنه تبرأ من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي هو على رأس السلف.

هذا ما نقوله بالنسبة لهذه الكلمة، لكني أتساءل في نفسي هذا الذي أُشير إليه بأنه أنكر هذه النسبة أو بدّع هذه الكلمة ترى ألا ينتسب هو إلى مذهب من المذاهب سواء كان هذا المذهب متعلقًا في العقيدة أو كان متعلقًا بالفقه؟ يغلب على ظني أنه لا بد أن يكون منتسبًا إلى مذهب من هذه المذاهب التي تتعلق إما بالعقيدة أو الفقه، فإما أن يكون ماتريديًا وإما أن يكون أشعريًا وإما أن يكون من أهل الحديث وكما يعبّرون اليوم من أهل السنة والجماعة، وإما أن يكون خارجيًا أو معتزليًا أو أو. .

إلى آخرهم، ليس لنا الآن علاقة بالمذاهب الأخرى التي لا تدخل في مسمى أهل السنة والجماعة، فقد عرفنا في اصطلاح المتأخرين أن المقصود بأهل السنة والجماعة أول ما يتبادر أو أول ما يقصدون بهذه الجملة هم الأشاعرة والماتريدية، ثم قد يدخلون في أهل السنة والجماعة أهل الحديث، وقد لا يدخلونهم، فعلى كل حال الذي ينكر هذه النسبة فإلى ما هو ينتسب، لا بد من أن ينتسب إلى اصطلاح من هذه الاصطلاحات، إما أن يقول أنا من أهل السنة والجماعة وإما أن يقول أنا من الأشاعرة أو الماتريدية، وهذا أسوأ وأسوأ بكثير؛ لأن الذي ينتسب إلى المذهب الأشعري ينتسب إلى شخص غير معصوم، والذي ينتسب إلى الماتريدي كذلك ينتسب إلى شخص غير معصوم، وقل

كذلك بالنسبة للمذاهب الفقهية الأربعة فضلًا عن المذاهب الأخرى الخارجة عن مذهب أهل السنة والجماعة، فكل هذه الانتسابات تنتسب إلى أفراد هم غير معصومين بلا شك، فكل هذه الانتسابات تنتسب إلى أفراد وإن كانوا من العلماء أصابوا أم أخطؤوا فهم أفراد ليسوا بمعصومين، فليت شعري هل أنكروا مثل هذه الانتسابات، لو أنهم أنكروها لأصابوا؛ لأنها انتسابات إلى أفراد غير معصومين، وليس الأمر كذلك بالنسبة لمن ينتسب إلى السلف الصالح فإنما ينتسب إلى العصمة، ذلك لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد ذكر من علامات الفرقة الناجية أنها التي تتمسك على ما كان عليه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وما كان عليه أصحابه، فهؤلاء هم السلف، فمن تمسك بهم كان يقينًا على هدى من ربهم، ومن انتسب إليهم فهذه النسبة تشرّف المنتسب إليها وتيسر له سبيل أن يكون من الفرقة الناجية وليس كذلك من ينتسب إلى أي نسبة أخرى؛ لأنها لا تعدو أحد أمرين: إما انتساب إلى شخص غير معصوم، أو إلى أشخاص يتّبعون منهج هذا الشخص الذي هو غير معصوم، فلا عصمة هنا بينما العصمة قائمة بالنسبة لأصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الذين أمرنا بأن نتمسك

بسنته عليه السلام وسنة أصحابه من بعده، لذلك أعتقد أن الشخص المُرْمَى إليه ينبغي أن يتراجع فورًا عن أن يتلفظ بمثل هذه الكلمة.

وأنا كنت سمعت شريطًا لبعض الدعاة المعاصرين اليوم وأظنه على منهج الكتاب والسنة ولكنه لم يؤت فقهًا في الكتاب والسنة، فسمعت في الشريط أمرًا غريبًا أن من يصر على الانتساب هذه النسبة أنه يستتاب فإن تاب وإلا قُتل، واحتج بعبارة نقلها عن ابن تيمية رحمه الله، وتلك العبارة في واد وفهمه هو أو فتواه

في واد آخر.

الشاهد نحن إنما نُصِرّ ونُلِح أن يكون فهمنا للكتاب والسنة على منهج السلف الصالح لكي نكون في عصمة من أن نميل يمينًا أو يسارًا وأن ننحرف بفهم لنا شخصي ليس هناك ما يدل عليه من كتاب الله ومن سنة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم-، هذا ما يحضرني جوابًا عن هذا السؤال، وأسأل الله ﷻ أن يهدي به من كان شاردًا عنه.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٩٢): ترددت كلمة الوهابية في كلام أخونا الشيخ أبو أحمد جزاه الله خير، فحبذا لو تُوضَّح فإنها كلمة يعتريها كثير من كلام، والناس ما بيعرفوها على حقيقتها هل هي فعلًا كما ذكر أو أيش المقصود بالوهابية ونسبة لأيش حتى تتضح الصورة وجزاكم الله خيرًا؟

الشيخ: حسن سؤال طيب الواقع أن هذه اللفظة الوهابية هي خطأ لغة وخطأ عرفًا، أما اللغة فالوهابية نسبةً إلى الوهَّاب، والوهَّاب اسم من أسماء الله وهاب، والذين ينتسبون إلى هذا الوهاب فهم الوهابيون، فهذه النسبة إذا أخذناها من الناحية العربية هي نسبة تشريف، فلان وهابي يعني منسوب إلى الوهاب، وهو الله تبارك وتعالى، والوهابيون هون منسوبون لمن ينسب بهذه النسبة، فالمقصود بكلمة الوهابيين كما لا يخفى على الجميع هم النجديون والنجديون ليس فيهم من ينتمي إلى هذا الاسم مع أنه خلاف ما يستعمل هو اسم تشريف وهابي وليس اسم ذم وتقبيح، لكن من حكمة الله ﷻ ليظهر خطأ المفترين على المسلمين ينسبون هؤلاء الناس النجديين إلى كونهم وهابيين بزعم أن هذه النسبة إلى إمام لهم.

وإمام النجديين وفي جانب من الشريعة وليس في كل الشريعة إنما هو محمد

بن عبد الوهاب، وليس الوهاب لأن الوهاب هو الله تبارك وتعالى، عبد الوهاب هو والد محمد الذي جدد لهم دعوة التوحيد، فلو نُسب منتسب ما إلى عبد الوهاب لم تكن النسبة إليه وهابي فهي خطأ مزدوج لأن الذي جدد لهم دعوة التوحيد هو محمد بن عبد الوهاب، وليس والده عبد الوهاب، ثم النسبة إلى عبد الوهاب ليس وهابيًا وإنما هو ممكن يقال عبدلي أو نحو ذلك فهذا خطأ من حيث التعبير اللغوي، ومن حيث كما قلنا من حيث الواقع، فليس هناك من ينتمي إلى هذا الاسم الوهابية إطلاقًا، بينما الفرق الموجودة قديمًا وحديثًا كلها حينما تنسب إلى نسبة تعترف بهذه النسبة كالشيعة والزيدية والإباضية ونحو ذلك، ولكن لا يوجد على وجه الأرض الإسلامية أبدًا رجل يقول أنا وهابي، والسبب ما ذكرناه آنفًا من ناحيتين: ناحية اللغة العربية، والناحية الواقعية، لكن هذه الكلمة مع الأسف شاعت وأذيعت بين عامة المسلمين في زمن أواخر دولة الأتراك وقصدوا بذلك تنفير المسلمين جميعًا عن الدعوة التي سميت بالدعوة الوهابية، علمًا أن هذه الدعوة الوهابية ليس فيها إلا الدعوة إلى توحيد الله ﷻ بالمعنى الجامع لكلمة التوحيد، وهذا في الواقع مما يمتاز به النجديون على كل الجماعات والطوائف والفرق الإسلامية في كل بلاد الدنيا منذ أن جاء محمد بن عبد الوهاب حتى هذه الساعة، ذلك لأنهم يفهمون التوحيد بالمعنى الأعم والأشمل والصحيح، بينما كثير من المسلمين الآخرين يفهمونه بمعنى ضيق جدًا، ذلك أن التوحيد الذي أنزل الله ﷻ به الكتب وبعث به الرسل يعني أمورًا ثلاثة الأمر الأول: إنما هو توحيد الربوبية، ومعنى ذلك أنه لا رب إلا الله، وأن الله هو الذي تفرد بخلق السموات والأرض، كما هو معروف بإجماع كل من يؤمن بالله على اختلاف كل الملل، لكن الفرق بين الدعوة الإسلامية الحقة

والتي جاءت بهذا التوحيد الذي أحيى معناه الصحيح محمد بن عبد الوهاب هنا تختلف الدعوة الإسلامية هذه الحقة عن اليهودية والنصرانية فهي بالإضافة إلى أنها توجب على كل مسلم أن يعتقد بأنه لا خالق إلا الله، فهي توجب عليه في الوقت نفسه أن لا تعبد مع هذا الخالق سواه، ولذلك فعلماء المسلمين متفقون جميعًا أن معنى لا إله إلا الله لا يساوي لا رب إلا الله وإنما هذه الكلمة الطيبة لا إله إلا الله، تعني معنى أوسع من معنى لا رب إلا الله، ذلك أنها تعني لا معبود بحق في الوجود إلا الله تبارك وتعالى فهذه الكلمة الطيبة التي هي مفتاح الجنة كما جاء في بعض الآثار، وبها ينجو المسلم من الخلود في النار كما تواترت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- جمعت بين التوحيدين توحيد الربوبية، أي: لا خالق مع الله، لا رب مع الله سواه، وتوحيد الإلوهية، ويعبر عن هذا التوحيد أحيانًا بتوحيد العبادة أي أن يُعْبَد الله وحده لا شريك له، فإذا فسر مفسر ما هذه الكلمة الطيبة لا إله إلا الله بمعنى لا رب إلا الله لم يكن موحدًا، هذه نقطة الفصل بين المسلمين حقًا وبين الآخرين، المسلم يوحد الله ﷻ في ذاته، ويوحده في عبادته، بينما الاخرون من اليهود والنصارى يوحدونه في ذاته إلا من ضل منهم ضلالًا بعيدًا، ولكنهم يعبدون معه سواه، لهذا يجب على المسلمين جميعًا أن يعرفوا أولًا هذا المعنى الحقيقي لكلمة لا إله إلا الله، وأنها لا تعني لا رب إلا الله فقط، وإنما تعني إضافة على ذلك أنه لا معبود مع الله أيضًا بحق، وكلمة بحق هي احتراز من إنكار أن هناك معبودات في الأرض قديمًا وحديثًا يعبد من دون الله تبارك وتعالى، فلا يجوز أن يقال لا معبود إلا الله لأن المعبودات كثيرة وكثيرة جدًا، لكن إنما يصح التفسير بقيد (بحق) لا معبود بحق في الوجود إلا الله تبارك وتعالى، وإلا قد عُبِدَت اللات

والعزى وعبدت الطواغيت حتى الآن فكيف يستطيع المسلم أن يقول لا معبود إلا الله، لأن المعبودات موجودة بكثرة ولكنها بالباطل والمعبود بحق إنما هو الله تبارك وتعالى.

كذلك بالإضافة إلى هذين النوعين من التوحيدين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة أو الألوهية هناك توحيد ثالث، به يتم التوحيد، وبه تقبل شهادة الموحد لا إله إلا الله، وإلا فهي مردودة عليه، ما هو هذا التوحيد الثالث: توحيد الله في صفاته، فكما أنه ﷻ واحد في ذاته، وواحد في ألوهيته، فهو واحد أيضًا في صفاته لذلك قال تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشُّورى: ١١] هذه الدعوة التي جاء بها محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-، وعرفها السلف الصالح، والأئمة جميعًا، ولكن خلف من بعدهم خلف ليسوا فقط أضاعوا الصلاة بل وأضاعوا التوحيد لأنهم فهموا هذه الكلمة الطيبة بالمعنى الأول الضيق لا إله إلا الله: لا رب إلا الله، ونحن نرى رسائل في العصر الحاضر مؤلفة ومطبوعة وفسرت هذه الكلمة الطيبة بهذا التوحيد الوحيد فقط وهو لا إله إلا الله أي لا رب إلا الله هذا لا يجوز للمسلم أن يفهم هذه الكلمة الطيبة بهذا المعنى الضيق.

لذلك كان من آثار ذلك لما أخلوا جماهير المسلمين وبخاصة عامتهم لما أخلوا بفهم هذه الكلمة الطيبة أخلوا عمليًا في تطبيقها فهم يعبدون مع الله آلهة أخرى وهم لا يشعرون، وهذه من أكبر المصائب التي حلت في المسلمين، والسبب في ذلك يعود إلى أمرين إثنين ذكرنا أنفًا أحدهما: أنهم لم يفهموا من كلمة التوحيد توحيد الله في العبادة، والأمر الآخر أنهم لم يفهموا معنى العبادة، فإذا قلت لإنسان أن تعبد مع الله آلهة أخرى، قال لك: لا أنا لا أعبد إلا الله، أنا لا

أصلي إلا لله ﷻ، نقول إلى هنا نحن معك أنت لا تصلي إلا لله ﷻ ولكن ألست تدعو غير الله عند الشدة فتقول يا سيدي أحمد، يا سيدي بدوي، يا سيدي شعيب، يا كذا، يا كذا، هذا هو عبادة الله، أو هذا من عبادة الله تبارك، وتعالى والله ﷻ قد أنزل علينا كتابًا كريمًا، وافتتحه بسورةٍ هي سورة الفاتحة، وفيها يقول المسلم مخاطبًا ربه ﷻ في كل ركعة من صلواته {إياك نعبد وإياك نستعين} فأنت تعبد الله وحده لا شريك له، لكنك تستعين بغيره، هذه الاستعانة سواءً علينا سميناها استعانة، وهي تسمية صحيحة، أو سميناها استغاثة، وهي أيضًا تسمية صحيحة، أو سميناها توسلًا، وهي تسمية خاطئة، هذه الأسماء تدل على مسمى واحد، بعض هذه الأسماء صحيح كالاستغاثة والاستعانة، وبعضها توسل، هذا تسمية الاستعانة بغير الله والتوسل بغير الله توسلًا من باب قوله عليه السلام في غير هذه المناسبة (يسمونها بغير اسمها).

فقول القائل: يا رسول الله أغثني زعموا أن هذا توسل، لا هذا دعاء لغير الله، وهذا استعانة بغير الله، وهذا إشراك بتوحيد العبودية، لأن الذي ينادي غير الله خاصة في الشدائد فقد عبده من دون الله ﷻ، ومن الدليل على ذلك وهو مذكور في القرآن وفي السنة قول الله ﷻ {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ} تدعون، ما قال تعبدون، لكن الحقيقة أن هذه الآية تعني تدعون أي تعبدون، فسواء قلت يعبدون غير الله، أو يدعون غير الله، فكلا التعبيرين يؤدي إلى حقيقة واحدة، وهي أنهم يستعينون بغير الله ﷻ، وهذا إخلال بتوحيد الإلوهية، وليس إخلالًا بتوحيد الربوبية، ولذلك من لا يعرف هذا التفصيل الذي جاء في الكتاب والسنة وجرى على ذلك سلف الأمة إلى ما قبل قرون قليلة، ثم انحرف الخط على بعض المسلمين ففهموا لا إله إلا الله بمعنى لا رب إلا الله، وهذا المعنى ما

كفر به المشركون بل كانوا يؤمنون به، لكنهم كفروا بهذا المعنى الصحيح الذي جهله كثير من المسلمين ألا وهو توحيد الألوهية أو توحيد العبودية أو العبادة.

في سورة من القرآن {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} إذًا المشركون يؤمنون بتوحيد الربوبية، لا يعتقدون بأن هناك كما هو دين المجوس بأن هناك خالقًا للخير وخالقًا للشر مثلًا، وإنما يعتقدون أن الخالق هو الله وحده لا شريك له، إذًا من أين جاء شركهم؟ ولماذا قاتلوا نبيهم إذا دعاهم إلى لا إله إلا الله مع ذلك يستكبرون كما قال في القرآن الكريم {إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ} وقالوا {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} إذًا مفهوم لفظة الإله عند العرب في الجاهلية غير مفهوم الرب لأنهم كانوا يؤمنون بأنه لا رب إلا الله أي لا خالق ولا مربي ولا رازق إلا الله، أما الإله فهو الذي لا يخضع إلا له تبارك وتعالى، وهم كانوا يخضعون لغير الله من الأوثان والأصنام المعروفة في التاريخ، ولذلك كان من غرائب شرك المشركين قبيل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام أنهم كانوا يطوفون حول الكعبة ويقولون في تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكًا تملكه وما ملك، شريك تملكه وما ملك، لماذا؟ لأنهم يعتقدون أن لا خالق مع الله لكن جعلوا لله شركاء أي يعبدونهم من دون الله تبارك وتعالى، كما في الآية التي كان في مطلع كلمة الأخ محمد {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} [الزُّمر: ٣] فهذه الآية صريحة بأن الهدف الأساسي عند المشركين هو الله ومع ذلك فهم يعبدون معه سواه لكن إذا سئلوا لماذا تعبدون هؤلاء قالوا {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} [الزُّمر: ٣].

فهذه حقيقة مؤسفة جدًا أنهم يؤمنون بأن الله واحد لا شريك له، ومع ذلك

جعلوا له شركاء في ماذا جعلوا له شركاء؟ في العبادة.

ولذلك يجب أن نتنبه لأمر في ظني أن كثيرًا من الناس غفلوا عنه {فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أيش معنى أندادًا؟ أندادًا في الخلق، أندادًا في الرزق، أندادًا في الإحياء والإماتة؟. . لا، وإنما أندادًا في العبادة، وهذا هو كان شرك المشركين في الجاهلية، وهذا بحث طويل، والغرض منه التنبيه إلى أن النجديين هؤلاء ينبزون بلقب الوهابية هذه نسبة كما ذكرنا خطأ، وإنما هم أرادوا أن ينسبوهم إلى محمد بن عبد الوهاب، ومحمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ لم يأت بشيء جديد مطلقًا، وإنما هو من المجددين الذين ذكرهم الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح «إن الله يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة» المجددون كما يذكر الإمام السيوطي وغيره لا ينبغي أن نتصور أن المجدد يكون واحدًا في كل عصر، وإنما يمكن أن يكون هناك مجددون في كل عصر، مجددون كثيرون، لكن لكل منهم اختصاصه في التجديد فمجدد في التوحيد، مجدد في الحديث، مجدد في التفسير، وفي اللغة، وفي كل شيء تعلق بإحياء فرض كفاية لفهم الإسلام فهمًا صحيحًا، والغرض أن محمد بن عبد الوهاب جدد التوحيد الذي لا تزال آثار الإخلال به مع الأسف الشديد في كل البلاد الإسلامية إلا هذه البلاد النجدية بفضل دعوة محمد بن عبد الوهاب، ولا أقول بفضل الدعوة الوهابية، علمًا أن تلك البلاد قبل محمد بن عبد الوهاب كان شأنها شأن البلاد الأخرى وأظن أنه لا يخفى على الحاضرين جميعًا ما يوجد في مصر من مقابر الحسين مثلًا أو السيدة زينب وما يقع في تلك الأمكنة من الوثنيات والشركيات التي تنافي لا إله إلا الله من الطواف حول قبور هؤلاء الأولياء والصالحين من أهل البيت وغيرهم، والاستغاثة بهم،

وطلب المدد منهم، مثل هذا يوجد في هذه البلاد، وفي سوريا، وفي أكثر البلاد الإسلامية، ما هو السبب؟ السبب تقصير علماء المسلمين ببيان دعوة التوحيد دعوة الحق التي جاءت في

الكتاب والسنة وماتت هذه الدعوة في كثير من البلاد الإسلامية ثم جددها محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، فمحمد بن عبد الوهاب ليس له جهد بارز سوى هذه الناحية وكفى له بذلك فضلًا؛ لأن البلاد النجدية كانت كالبلاد المصرية والسورية ونحو ذلك من حيث انتشار الآثار الوثنية وعبادة القبور والاستغاثة بها من دون الله عَزَّ وَجَلَّ، أما البلاد حتى الآن مع الأسف مع أنه بدأت الحركة الإسلامية الصحيحة في تلك البلاد تضعف رويدًا رويدًا، لكن لن تجد هناك يعني وثنية تذكر، حتى ولا رفع القبر من على وجه الأرض، لا يوجد هذا الشيء إطلاقًا، بينما إذا طُفْتَ البلاد الإسلامية كلها فأنت واجد فيها من المخالفات الشيء الكثير، أرونا بلدًا لا يوجد فيها مسجد فيه قبر مع شدة تحذير الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ للمسلمين أن يتخذوا مساجد على القبور كما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ «لعنة الله على اليهود والنصارى، أو لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» والأحاديث في هذا كثيرة أكثر من عشرة أحاديث، ومنها ما يتعلق بالأمة الإسلامية قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون قبور أنبياءهم مساجد» فعندكم مثلًا المقام المعروف بسيدي شعيب، وهناك مسجد يقصد للصلاة فيه من أجل أيش؟ سيدي شعيب وعندنا مقام أخر أسمه يوشع، نعم؟

مداخلة: أبو عبيدة

الشيخ: لا أقول، هنا يوشع غير أبو عبيدة أيضًا هذه في الأغوار إلى آخره،

كل هذه المقامات بنيت على قبور مزعومة إن كانت هذه القبورة حقيقة لمن نسبت إليه من الصحابة أو الأنبياء فالأمر أشكل؛ لأنه مخالفة صريحة لمثل هذه الأحاديث التي تنهى عن بناء المساجد على القبور.

لماذا هذا النهي؟ ولماذا هذا اللعن الشديد في سبيل المحافظة على التوحيد؟ ذلك لأنه وجود قبر في المسجد مدعاة إلى أن يُدْعَى من دون الله تبارك وتعالى، كم وكم من أناس نراهم يقفون خاشعين متبتلين يدعون -هم صحيح أنهم يدعون الله ﷿- ولكن يتوسلون بهذا الميت، فمحمد بن عبد الوهاب خلاصة القول بناء على سؤال الأستاذ علي هنا هو مجدد لدعوة التوحيد وهذا أمر لا يمكن إنكاره أبدًا؛ لأنه كما قيل:

هذه آثارنا تدل علينا ... فانظرو بعدنا إلى الأثار

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٠٠): أحد الناس يسأل فيقول: نسمع كثيرًا عن الوهابية، ونسمع أنهم يكرهون الصلاة على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولا يزورون قبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ويقول بعض المشايخ: أن الرسول تنبأ عنهم حينما قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «نجد قرن الشيطان» فما هو جوابكم على هذا الكلام؟

الشيخ: الحقيقة أن هذا السؤال مع الأسف الشديد راسخ أثره في كثير من المسلمين، والوازع عليه قديمًا هي السياسة، لكن هذه السياسة قد مضى زمنها وانقضى؛ لأنها كانت سياسة من دولة الأتراك، ولا أطيل في هذا إنما هي لفتة نظر فقط كانت سياسة من دول الأتراك يوم خرج رجل من أهل العلم والإصلاح وهو المسمى بمحمد بن عبد الوهاب في بعض البلاد النجدية، يدعو من حوله إلى الإخلاص الذي أشرنا إليه آنفًا في عبادة الله وحده، فلا يشرك معه غيره، ومن

ذلك مثلًا مما هو لا يزال مع الأسف الشديد آثاره لا تزال قائمة في بعض البلاد الإسلامية خلافًا لذلك الإقليم الذي خرج فيه ذلك المصلح محمد بن عبد الوهاب، هذا الإقليم إلى الآن والحمد لله لا يوجد فيه نوع من الشرك بينما ذلك يوجد في كثير من البلاد الإسلامية المصرية الأردنية السورية، فضلًا عن البلاد الأعجمية، فضلًا عن إيران وما خبر الخميني ووفاته والإعلان عن اتخاذ قبره كعبة يحج إليها الإيرانيون ما ذلك الخبر عنكم ببعيد، هذا الرجل لما خرج ودعا إلى عبادة الله ﷻ وحده اتفق لحكمة يريدها الله ﷻ أنه كان هناك أمير من أمراء نجد وهو سعود جد العائلة القائمة الآن، فتعاون الشيخ مع الأمير تعاون العلم مع السيف، وأخذوا ينشرون التوحيد دعوة التوحيد في بلاد نجد، فيدعون الناس تارة بالكلام وتارة بالسنان، من أجاب للكلام فهذا هو المطلوب، وإلا لم يأت إلا بالقوة، فانتشرت هذه الدعوة حتى وصلت إلى بعض البلاد الأخرى، علمًا أنه البلاد النجدية وسائر البلاد الإسلامية من حولها من العراق ومن الأردن كانت كلها محكومة بحكم الأتراك، الخلافة المتوارثة، فلما بدأ اسم هذا الرجل بعلمه، وذلك الأمير بإدارته ينتشر وينتشر خشي الأتراك أن تظهر هناك في العالم الإسلامي دولة تناهض دولة الأتراك، فأرادوا أن يقضوا عليها وهي لا تزال في عقر دارها بإشاعة الإشاعة الباطلة عنهم والكاذبة والمفتراة مما جاء في السؤال أو غير ذلك مما نسمعه كثيرًا وكثيرًا.

فأنا قلت آنفًا: أن السبب الأساسي سياسي وهذا هو، لكن السياسي هذا قضي عليه، ولسنا الآن في بحث تاريخي، لكن السبب الآخر هو جهل الناس، جهل الناس بحقيقة هذه الدعوة، وهذا الجهل يذكرني بقصة كنت قرأتها في بعض المجلات، أن رجلين وهما يتناقشان في الطريق حول دعوة محمد بن عبد

الوهاب التي يسمونها بالوهابية، لو كان الناس يفكرون فيما به يتكلمون لكانت هذه النسبة وحدها مذكرة لهم بخطئهم فيما يقولون، لأن لفظة الوهابية إذا أردنا أن ننظر إلى اشتقاقها وإلى أي شيء كانت نسبتها الوهابية نسبة للوهاب، ومن هو الوهاب؟ هو الله تبارك وتعالى، إذًا: بالنسبة للوهابية هذا أمر يشرف ولا يسقط، لكن قام مثلما يقولوا عندنا في سوريا في آذانهم شيء. . . مثل البعبع، شيء مخيف جدًا، الوهابية ما يعتقدوا بالرسول، ما يؤمنوا إلا بالله، ذكرني هذا البحث بأولئك الاثنين وهما يتناقشان.

وإذا وهما يتناقشان ويدعي الجاهل أنه هؤلاء ما يعتقدوا إلا بالله وبس أما محمد رسول الله لا يعتقدوا، ما يقولوا إلا لا إله إلا الله، وعندنا في الشام القصة باعتبارها شامية لازم نروي لكم إياها باللغة الشامية، بيقولوا: مرت سيارة القنصل أو سفير السعودي في ذلك البلد، وإذا العلم تبع السيارة يرفرف بصورة واضحة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، يا جماعة! اتقوا الله كيف تقولوا في هؤلاء الناس ما يؤمنوا إلا بالله وعلمهم هو العلم الوحيد في الدنيا الذي يكتب عليه إشارة التوحيد الذي قال عليه السلام فيها: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم، وحسابهم على الله»، كيف تقولوا: هؤلاء الجماعة تفتروا عليهم وهذا علمهم المرفوع ينبئ عما في صدورهم من الإيمان؟

هذا شيء، الشيء الأكبر والأهم هذا علم، ممكن أن يقال علم مزور دعاية مغرضة. . إلخ، لكن ما بالهم حتى اليوم يحجون كل يوم بأمان واطمئنان لم يكن ذلك يَحْظَوْن به في زمن الأتراك الذين أشاعوا عنهم تلك الفرية الكاذبة، أنتم تعلمون أن في كثير من السنين بالنسبة لآبائنا فضلًا عن أجدادنا كان لابد أن

يصاحب كل قافلة حجاج من أي بلد جماعة مقاتلة مستعدون للمحافظة على هذه القافلة من الحجاج من قطاع الطرق، يا سبحان الله! هذا الشيء مر وانقضى، بأي سياسة؟ بالسياسة التي يسمونها بالسياسة الوهابية حتى هذه الساعة، فإذا افترضنا أن هذا العلم الذي يلوح بالإيمان الصحيح والتوحيد الصحيح المقرون بالإيمان بأن محمدًا رسول الله زور وبهتان، ألا ترونهم في المساجد هناك يعبدون الله ويؤذن المؤذن كما يؤذن في كل البلاد، اللهم إلا الزيادة التي تذكر في البلاد الأخرى في مقدمة الأذان ومؤخرة الأذان، فلا يقال هناك اتباعًا منهم للسنة، لا إنكارًا لكون الرسول عليه السلام هو رسول الإسلام ورسول الأنام جميعًا في كل زمان وفي كل مكان، وإنما اتباع للسلف، وكما قيل:

وكل خير في اتباع من سلف   وكل شر في ابتداع من خلف

فإلى الآن يحج الناس ويسمعون هذا الأذان بالشهادة لله بالوحدانية، وللنبي بالرسالة، ثم يصلون صلاتنا، ويذكرون الرسول عليه السلام كلما ذكر يصلون عليه ربما أكثر من أولئك الناس الذين يقولون عنهم: هؤلاء وهابية ما يحبوا الرسول، ما يصلوا على الرسول، يا جماعة! اتقوا هذه فرية يبطلها واقع هؤلاء الجماعة، بحيث لا يمكن أن يقال: هؤلاء في بلادهم يداهنون الساكنين خارج بلادهم، إنما هذا نابع من قلوبهم الإيمان بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والسير على منهاج رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بدون زيادة، ولا أقول: دون نقص، لأن هذا النقص بطبيعة الإنسان لا يستطيع الإنسان أن ينهض، لكن من حيث العقيدة دون زيادة أو نقصان، من حيث العبادة دون زيادة قد يكون هناك نقصان، مثلًا بعضهم قد لا يقوم الليل والناس نيام، هذا نقص، لكن هذا نقص لا يخدش في عقيدته، لا يخدش في إسلامه، فهذه الكلمة حتى اليوم فيها اتهام

للجماعة بما هم بريئين منه كما يقال براءة الذئب من دم ابن يعقوب، وحسبنا يا أبا يحيى.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢١٣): شيخنا! ما هي حقيقة الدعوة السلفية؛ لأن كثيرًا من الناس يطيرون هذه المقالة أنهم لا يهتمون إلا بالجزئيات الفرعية، كمثل القبض بعد الركوع، أو النزول باليدين، أو بالركبتين أو القنوت بالفجر من عدمه، ويتركون الرد على الشيوعيين والعلمانيين والمذاهب الهدامة، فيقولون إن معركة السلفيين إنما هي المسلمين بخلاف غيرهم، كمعركتهم مع أعداء المسلمين؟

الشيخ: جوابي على هذه الشبهة أنها شنشنة نعرفها من أخزم، إن هؤلاء الذين يتهموننا؛ لأننا لا نبحث، ولا ندعو إلا حول هذه المسائل التي ضربوا بها مثلًا، وهذا في حقيقته يعود إلى أمر من أمرين اثنين لا ثالث لهما، إما أن يكون الجهل بواقع الدعوة الإسلامية السلفية من جهة، والدعوة المتعلقة بأهل الدعوة إلى الدعوة السلفية من جهة أخرى، أو أن يعود الأمر إلى تجاهلهم لحقيقة الدعوة والدعاة، فهو إما جهلًا، وإما تجاهلًا بهذا الواقع الحسن، الواجب على كل مسلم أن يكون على بصيرة منه، وكما يقال في مثل هذه المناسبة، وأحلاهما مر.

أنا أقول كلمة صريحة، نحن لا نرد على الشيوعيين ولا على الدهرين؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ حينما أرسل نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم-، بل والرسل من قبله مبشرين ومنذرين، لم يعنوا العناية التي يعنى بها هؤلاء الذين ينقمون على الدعوة السلفية ما ينقمون، من عدم تعرضهم للشيوعية وأمثالها، ذلك باتباعنا لدعوة نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم-، حيث وأنه كانت دعوته في أول

منطلقها: {أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦]، فالآن هؤلاء الذين يتهموننا بهذه التهمه لا شك أنهم يعلمون أن الدعوة السلفية أول ما تبدأ إنما تبدأ بمعالجة العقيدة، وتصحيح مفهوم الناس للتوحيد بأنواعه الثلاثة التي أصبح الأطفال في مدارسهم يعرفونها على الوجه الصحيح الذي جاء في الكتاب والسنة، خيرًا مما يعرفه هؤلاء الدعاة الذين يزعمون أنهم حملوا راية الرد على الشيوعيين وعلى الملاحدة.

نحن في اعتقادنا أن هؤلاء الدعاة الذين يردون على الشيوعيين وأمثالهم، أول ما يردون عليهم ما يتعلق بتوحيد الربوبية، أما ما يتبع توحيد الربوبية من توحيد الإلوهية وتوحيد الصفات، هذا التوحيد الذي لا يتم علم القائل لا إله إلا الله إلا بأن يعرف أولًا ما هو الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلوهية وتوحيد الأسماء والصفات، لا بد أن يعرف الفرق بين ذلك كله، ثم أن يقترن معه الإيمان الجازم به عملًا بقول الله تبارك وتعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ} [محمد: ١٩]، فمن كان مشتغلًا دهرًا طويلًا بدعوة جماهير المسلمين إلى معرفة حقيقة (لا إله إلا الله)، وأنه لا معبود في الوجود بحق إلا الله تبارك وتعالى، فكيف يصح لمن كان مؤمنًا حقًا ويخشى ربه ﷻ فلا يفتري على المؤمنين، ولا يتهمهم بانشغالهم عن العقائد بالفرعيات كما يقولون.

أولئك الناس الذين يشتغلون بالرد على الشيوعيين ما يَرُدُّون انطلاقًا من دراسة الكتاب والسنة، وإنما ينطلقون من دراسة الفقه، ولا أقول مبدئيًا الرأي، أي أنهم يحكمون عقولهم التي تستند إجمالًا على الإسلام، ولكنهم لم يعرفوا الإسلام على حقيقته كما أنزله الله ﷻ في كتابه وفي سنة نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم-، نحن نعلم من واقع دراسة العلم أن أي طالب علم يدرس العلم على

المنهج العلمي، إنما يبدأ بما هو الأهم كما قيل: العلم إن طلبته كثير. . . والعمر عن تحصيله قصير فقدم الأهم منه فالأهم.

هل الأهم للمسلم أن يعنى بغيره من المشركين أمثال الشيوعيين والدهريين، أم يبدأ بنفسه فيصلحها وذلك بأن يحملها على اتباع الكتاب والسنة في العقيدة قبل كل شيء، ثم في العبادات وفي الأخلاق وفي السلوك، التهمة تنعكس عليهم تمامًا، ويصدق عليهم حينئذ قول من قال في قديم الأمثال: (رمتني بدائها وانسلت)، فإننا إذا سألنا هؤلاء الذين يزعمون ويتفاخرون بأنهم يردون على الشيوعيين وعلى الملاحدة والدهريين، إذا سألناهم عن التوحيد، بل عن معنى (تعلم أنه لا إله إلا الله)، لحاروا في الجواب ولم يعلموا الجواب الصحيح في ذلك، وهذا في الواقع يشمل كثيرًا من الإسلاميين، الذين ينتمون إلى بعض المذاهب المتبعة منذ القديم، مع أولئك الذين يتفاخرون بردهم على الشيوعيين، توحيد الأسماء والصفات هم أبعد الناس معرفة به، ولذلك فطالما ناقشنا كثيرًا منهم بما جاء في الكتاب والسنة من الآيات والأحاديث الكريمة فيما يقولونه بألسنتهم في سجودهم، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، مع الأسف، يقولون معنا في السجود: سبحان ربي الأعلى، يكررونها في كل سجدة ثلاث مرات، وفي كل ركعات الصلاة، فإذا ما سألتهم السؤال الذي توارثناه عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، حينما سأل الجارية يمتحنها عن إيمانها: أين الله؟ فأجابت: في السماء.

إذا وجهنا هذه السؤال إلى هؤلاء الذين يتهمون الأبرياء بما ليس فيهم هذا السؤال: أين الله؟ دارت أعينهم في محاجرهم حيرة وضلالًا وبعضهم يزداد ضلالًا فيقول: هذا السؤال لا يجوز في الإسلام، وهم يعلمون أو لا يعلمون والله

يعلم بما في قلوبهم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الذي سن للمسلمين حقًا هذا السؤال لمعرفة الإيمان المنجي عند الله من الإيمان الذي لا ينجي، يعلمون أو لا يعلمون، لكننا بفضل الله ﷻ لقد تلقينا هذا الحديث الذي فيه هذا الحديث أو هذا السؤال عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من طرق أئمة أهل الحديث كالإمام مسلم في «صحيحه»، ومن قبله الإمام مالك في «موطئه»، ثم الإمام أحمد في «مسنده»، وغيرهم من أئمة السنة فقد رووا حديث الجارية فهو حديث معروف، ولا أريد الخروج عن السؤال. . . بتمامه، لكن الشاهد أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما سألها: أين الله؟ قالت: في السماء. قال لها: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، فالتفت عليه الصلاة والسلام إلى سيدها وقال له: اعتقها؛ فإنها مؤمنة.

فاعتبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- جوابها بقولها أن الله في السماء دليلًا على إيمانها، فماذا نقول بإيمان هؤلاء الذين يتهمون الأبرياء، ثم يريدون أن يهدوا من أذل الله من الشيوعيين والدهريين وأمثالهم، وهم لو هدوهم لما اهتدوا إلى أكثر من أن الله موجود، أي: ما استطاعوا أن يثبتوا لهم إلا ما كان المشركون في الجاهلية الأولى وفي كل جاهلية، وفي كل عصر ومكان، يعتقدونه ألا وهو وجود الله تبارك وتعالى، أما هذا الواجب الوجود كما يقول بعض العلماء، أي هذا الله ﷻ ما الذي يليق به؟ وما يجب على كل مسلم أن يعتقده في ذات الله تبارك وتعالى؟ فهذا شيء لا يعلمونه بل يزيدون على ذلك فينكرون من يؤمن بما جاء في الكتاب والسنة.

قد ذكرنا ما أكثركم يعلم ذلك أننا إذا وجهنا السؤال النبوي: أين الله؟ أنكروا هذا السؤال، وبالتالي ما يحسنون الجواب، بل يكون جوابهم هو الاشتراك مع

كل المؤمنين بالتوحيد الأول توحيد الربوبية يكون جوابهم؛ لأنهم لم يهدوا بالله ﷻ بكتابه وسنة نبيه لا يغنيهم شيء؛ ذلك لأن جوابهم يكون: الله في كل مكان، الله في كل الوجود، فهل يستطيع هؤلاء أن يدعوا الكفار إلى التوحيد الذي أمر الله ﷻ محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ} [محمد: ١٩]، ونحن نعلم جميعًا أن فاقد الشيء لا يعطيه، فلو أننا فرضنا فرضًا مستحيلًا أن هؤلاء الذين يهتمون كل الاهتمام بغيرهم، وينسون أنفسهم أنهم استطاعوا أن يجعلوا الشيوعيين يؤمنون بالإسلام، لكننا لو سألنا هؤلاء الذين اهتدوا على يد من هدوهم إلى الإسلام، ما هو التوحيد الذي فهمتموه، عاد جوابي السابق: فاقد الشيء لا يعطيه.

فإذًا: هم في الواقع يخالفون مبادئ في القرآن الكريم منها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة: ١٠٥]، فنقول لهؤلاء الذين ينكرون علينا ويتهموننا بما ليس فينا، هل فهمتم حق لا إله إلا الله وحق محمد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، إن فعلتم ذلك فلا باس أن تدعو الناس إلى ما هداكم الله إليه، أما أن تظلوا دهرًا طويلًا لا تفهمون كلمة التوحيد إلا بالمعنى الذي كان يفهمه أهل الجاهلية الأولى حينما يقولون: لا رب إلا الله، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} [لقمان: ٢٥].

فإذًا: هم لا ينقمون على المسلمين أنهم يؤمنون بوجود الله، بل هم يشتركون معهم، لكن يختلفون عنهم؛ لأنهم يعبدون مع الله آلهة أخرى، ترى هل يفهم هؤلاء المتهمون للسلفيين بما ليس فيهم، هل يفهمون معنى هذا التوحيد، وهو لا إله إلا الله وأنه لا معبود بحق في الوجود إلا الله. . . إلى اليوم لا

يعرف معنى العبادة، ما هي العبادة التي إذا توجه بها المسلم إلى غير الله ﷻ، أشرك بالله ولم ينفعه شيء ما قوله لا إله إلا الله.

أنا أعلم أن بعض الشيوخ في دمشق الشام ألفوا رسالة عنوانها: لا إله إلا الله، فلما جاء إلى تفسيرها قال: لا رب إلا الله، فماذا صنع هذا المسلم الذي يزعم أنه مسلم، أنه فسر كلمة التوحيد، بمعنى توحيد الربوبية فقط، هذا التوحيد الذي كان يؤمن به المشركون، ولكنهم أعني المشركين، كانوا إذا قيل لا إله إلا الله يستكبرون، هؤلاء المشركين الذين سمعتم آنفًا إنهم إذا سئلوا: من خلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله، هؤلاء إذًا في الوقت نفسه إذا سمعوا الرسول عليه السلام يدعوهم إلى لا إله إلا الله يستكبرون عن هذه الكلمة، ويسخرون من الداعي إليها، لماذا؟

من عجائب الأمور أن أولئك المشركين في ضلالهم، في شركهم، كانوا يعرفون معنى لا إله إلا الله حقًا، ولذلك كانوا يفرون من هذا المعنى الصحيح، ويستكبرون عن أن يقولوا لا إله إلا الله؛ لأنها تعني شيئًا آخر أكثر مما كان أولئك المشركون عليه، وهو أن يعبدوا الله، هذا المعنى الآخر أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، كانوا يستنكرون ذلك، ويقولون كما حكى القرآن الكريم: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥].

نحن نجد العالم الإسلامي اليوم مع الأسف الشديد غريقًا في شرك العبادة أو شرك الإلوهية، وشرك الأسماء والصفات، فهم يقولون لا إله إلا الله، ولكنهم العالم الإسلامي اليوم الذي انشغل عنه أولئك الدعاة الإسلاميين زعموا، والذين يتهمون الدعاة السلفيين بأنهم يشتغلون بالأمور التي يسمونها التافهة كبعض الأمثلة التي جاء ذكرها في السؤال، العالم الإسلامي اليوم غرق في

الجاهلية التي كان عليها المشركون، الذين بعث إليهم الرسول ﷺ فهم لجهلهم بالإسلام، ولجهلهم بحقيقة لا إله إلا الله يظنون أن المسلمين على خير، فلذلك فهم ينصرفون عنهم إلى أولئك المشركين ولا نعيد الشيوعيين وأمثالهم؛ لأن المسلمين على خير، مع أن كثيرًا من البلاد الإسلامية ليس فقط، بعض أو كثير من البلاد الأعجمية بل وبعض البلاد العربية لا يزال الشرك يعمل عمله فيها، وهم يصلون ويصومون، ويشهدون أن لا إله إلا الله، فلماذا ترك أولئك الدعاة هؤلاء الإخوان المسلمين الذين هم إخوانهم بحكم قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: ١٠]، لماذا تركوهم في ضلالهم ليس في الأمور الثانوية بل في أصل العقيدة، وهي التوحيد؛ ذلك لأنهم لا يعرفون التوحيد، ويفهمون التوحيد كمفهوم العامة، وأن العامي الذي يصلي ويصوم إذا طاف حول القبور أو نذر لها النذور أو دعاها من دون الله تبارك وتعالى، هذا في زعم الدعاة المشار إليهم لا ينافي قوله: لا إله إلا الله، ولذلك تركوا عامة المسلمين، بل وفيهم بعض الخاصة في ضلالهم يعمهون، ثم توجهوا إلى دعوة وإرشاد وهداية مَنْ؟ الذين لا يؤمنون بالله، ولو على إيمان المشركين كالدهريين مثلًا، وتركوا الناس الذي يعيشون بينهم وهم يذكرون بشهادة أن لا إله إلا الله، عمليًا يؤمنون قولًا، ويكفرون عمليًا، ذلك لأن المشركين كانوا أفهم بهذه الكلمة، ولذلك قالوا: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥]، أما

هؤلاء المتأخرون أو هؤلاء الدعاة المزعومون هؤلاء لم يفهموا أن من تمام هذا التوحيد، توحيد العبادة، وأن ذلك يستلزم ألا يعبد إلا الله، لا بالتوجه إلى قبر ولي ولا بمناداته ولا بالاستغاثة به ونحو ذلك.

فلجهلهم بحقيقة الإسلام انصرفوا عما نحن متوجهون إليه بفضل الله ورحمته إلى الاشتغال بالآخرين، بدعوتهم إلى الإيمان لا يسمن ولا يغني من جوع.

لو أنهم آمنوا بدعوة هؤلاء الدعاة؛ لأن هؤلاء الدعاة أنفسهم ليسوا على معرفة بالإيمان المنجي عند الله تبارك وتعالى، هذا أولًا: وخلاصة ذلك أنها تهمة صريحة فظيعة، حينما يتجاهلون دعوة الحق، دعوة لا إله إلا الله، وبيانًا لكل المسلمين بحقائقها التي أجمع عليها علماء السلف، يتجاهلون هذه الحقائق، ويتهمون السلفيين أنهم لا يفعلون ولا يدعون الناس إلا إلى رفع اليدين وتحريك الإصبع، ونحو ذلك من السنن.

ثانيًا: لقد قررنا أكثر من مرة تبعًا لأئمتنا سابقًا ولاحقًا أن القرآن الكريم لا يمكن فهمه إلا على ضوء السنة، بقول الله ﷻ، مخاطبًا نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم-: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: ٤٤]، فنقول لهؤلاء الدعاة زعموا هل أنتم معنا؛ لأنه لا يمكن فهم الكتاب إلا من طريق السنة المحمدية في ظني أنهم سيكون جوابهم بالموافقة ولو قولًا.

ولسنا مكلفين أن نصل إلى ما في قلوبهم، حينئذ نقول لهم: وهل تعلمون أن السنة قد دخل فيها ما ليس منها؟ إن أجابوا أيضًا بالإيجاب، قلنا فهل من العلم الضروري تصفية هذه السنة، مما دخل فيها أم تصفية هذه السنة، إنما هو من توافه الأمور أيضًا، ومن الشيء الذي هو نافلة، أم هو من الواجبات الذي لا يمكن فهم القرآن إلا بهذه التصفية لهذه السنة، فإن وافقوا معنا وظني أنهم لا سبيل لهم إلا أن يوفقوا معنا، وحينئذ نقول لهم: هل فعلتم معنا شيئًا في هذا الصدد، بل هل باستطاعتكم أن تعملوا شيئًا من تصفية السنة وتمييز صحيحها من ضعيفها؟ إن قالوا نعم، قلنا لهم: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، ولسنا

بحاجه إلى أن نطالبهم بالبراهين، فإن كتبهم التي يؤلفونها في الرد على الكفار بعامة في كثيرًا من الأحيان نجد فيها تفاسير لآيات على خلاف ما جاء التفسير المأثور، وكثيرًا ما نرى أن فيها أحاديث لا صحة لها، لا سنام ولا خطام.

نحن لا نريد أن نقول أنه يجب على كل الجماعات الإسلامية أن يعملوا وأن يقوموا جميعًا بواجب تصفية السنة مما دخل فيها، لكني أريد أن أذكر هؤلاء بمثل قوله تعالى: {وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة: ٨]، هم يعلمون أن الذين يقومون بتصفية العقيدة مما دخل فيها من الشركيات والوثنيات هم السلفيون هم أنصار السنة، هم أهل الحديث هم الطائفة أسماء تتعدد بسبب اختلاف البلاد والمسمى واحد، الذين يقومون بتصفية العقيدة مما دخل فيها مما ليس منها، إنما هم السلفيون الذين اتهموهم بأنهم يشتغلون بتوافه الأمور.

كذلك هم يعلمون يقينًا أن الذين يقومون بتصفية السنة مما دخل فيها من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، والتي كثيرًا من هذه الأحاديث كان الواضعون لها بعض الفرق التي أرادت الكيد للإسلام والمسلمين، وأرادوا صرفهم عن الدين باسم الدين، فوضعوا تلك الأحاديث الضعيفة والموضوعة فهم يعلمون حقًا أن الذين يقومون بهذه التصفية أيضًا هم السلفيون، وليس أولئك الدعاة الذين زعموا، الذين يهتمون بالرد على الشيوعيين وأمثالهم، ثم من هم الذين يهتمون بتصحيح عبادات المسلمين من صلاة وصيام وحج وعمرة، ومعرفة بالزكاة ونصبها وشروطها ونحو ذلك، لا ينهض بذلك إلا من جمع بين الكتاب والسنة الصحيحة.

لا شك أن اتهام السلفيين بما سبق من بعض الأمثلة هذا المجتمع المبارك

في هذه البلاد المقدسة، فعلًا أكبر دليل على أن السلفيين بُرءاء براءة الذئب من دم ابن يعقوب من تلك التهمة؛ لأن المفروض أننا نحن والحمد لله أن نكون على كلمة سواء، أن نعرف التوحيد ونعرف الصلاة ونعرف الحج ونحو ذلك، ومع ذلك فقد تكلمنا في مجالس عديدة ليس في الطهارة وليس في رفع اليدين والقبض ونحو ذلك، وإنما تكلمنا في كثير من الأحيان في أصول تتعلق بالقواعد الإسلامية التي يجهلها أولئك الناس لعلي بهذه الكلمة أجبت عن السؤال أو بقي شيء فيه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٣٧٤): يسأل بعض الناس عن كثرة الأحزاب الإسلامية الموجودة على الساحة، وهل هي تصب في بوتقة واحدة؟ وما حكمها الشرعي؟

الشيخ: مع الأسف الجواب لا، الأحزاب الموجودة اليوم أو الجماعات القائمة على الأرض الإسلامية تتعدد مناهجها وتختلف نظمها اختلافًا كبيرًا، وحسبكم حينما تسمعون جمع الحزب أحزاب، حينما تسمعون لفظة الأحزاب، وتضطرون أن تسألوا مثل هذا السؤال الذي فيه هذه اللفظة لفظة الأحزاب، حسبكم أن تلاحظوا معي هذه اللفظة لتعلموا أن ذلك ليس على منهج الإسلام الذي قال ربنا عَزَّ وَجَلَّ في القرآن، من جهة قال: {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [الروم: ٣١ - ٣٢]، وقال في آية أخرى منبهًا أن حزبًا واحدًا هو الذي يكون الحزب الناجح والحزب الفالح، أعني بذلك قوله تبارك وتعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣]، فالأحزاب كثيرة والسبل عديدة.

فالآية الأولى كالآية الأخرى يلتقيان في ذم التعدد الحزبي والتعدد الطرقي، ويبين في كل منهما ربنا ﷻ بصراحة ما بعدها صراحة أن الطريق الموصل إلى الله ﷻ إنما هو طريق واحدة أو طريق واحد، ولقد زاد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كغالب عادته مع كثير من آيات ربه، لقد زاد بيانًا تلك الآية والآية الأخرى بمثل قوله -صلى الله عليه وآله وسلم- وقد كان جالسًا بين أصحابه، كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ذات يوم جالسًا بين أصحابه جلسته المعروفة الدالة على تواضعه، كان جالسًا على الأرض، فخط عليها خطًا مستقيمًا، وخط حول هذا الخط المستقيم خطوطًا قصيرة، خط مستقيم وعلى جانبي الخط المستقيم خطوط قصيرة، ثم قرأ الآية الثانية فقال: {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣]، ثم قال وهو يمر إصبعه الشريفة على الخط المستقيم: هذا صراط الله وهذه طرق وعلى كل رأس طريق منها شيطان يدعو الناس إليه.

أما الحديث الآخر الذي في ظني لا يخلو واحد منكم إلا وقد قرأه أو طرق سمعه مرارًا وتكرارًا، ألا وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: هي الجماعة»، وفي رواية أخرى المفسرة للرواية الأولى، «قال: هي التي تكون على ما أنا عليه وأصحابي».

فهذا الحديث أيضًا يؤكد أن النجاة لا تكون بالتفرق والتحزب إلى أحزاب وشيع وطرق شتى، وإنما بالانتماء إلى طريق واحدة وبسلوك طريقًا واحدًا ألا وهو طريق محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وفي ظني أن هذه حقيقة لا يماري ولا يجادل فيها من كان أوتي شيئًا من العلم ولو كان قليلًا؛ لأننا لم نذكر إلا كلامًا لله ﷻ أو حديثًا صحيحًا للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأي شيء بعد ذلك إنما يكون مما لا قيمة له إطلاقًا، لمثل قوله تبارك وتعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ} [النساء: ٨٠]، ومثل قوله ﷻ: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: ٥٩].

فإذا كنا قد رجعنا إلى الكتاب والسنة في الإجابة عن ذلك السؤال المتعلق بتعدد الأحزاب والجماعات، وكان الكتاب والسنة صريحين في ذم التحزب وفي ذم التفرق، فلا شك حينذاك أنه لا يبقى هناك إلا طريق واحدة وإلا حزب واحد وهو الذي أثنى الله ﷻ عليه في آية معروفة في القرآن الكريم: {فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: ٥٦].

ولكن من الواجب أن يعرف كل مسلم راغب أن يكون من هذا الحزب الذي شهد الله ﷻ له بالفلاح، وذلك يعني الفلاح في الدنيا والآخرة معًا، من كان حريصًا على أن يكون من ذلك الحزب فلا يمكنه أن يحقق ذلك في نفسه إلا إذا عرف علامة هذا الحزب ونظامه ومنهجه، إذا كان الطريق الموصل إلى تحقيق هذا الحزب واحدًا فلا بد أيضًا كذلك أن يكون المنهج واحدًا، فإذا تعددت المناهج لتلك الجماعات أو الطوائف أو الأحزاب فلا شك أن التعدد لهذه المناهج فرع لتعدد الأحزاب والجماعات، وما بني على خطأ أو ضلال لا شك أنه يكون كذلك ضلالًا، وكما قيل قديمًا: وهل يستقيم الظل والعود أعوج.

أقول: قد يتساءل البعض: فما هي علامة الفرقة الناجية التي جعلها الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- بصريح ذلك الحديث وبتفسيره للآية جعلها

الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- بصريح ذلك الحديث وبتفسيره للآية: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام: ١٥٣]، وخط خطًا واحدًا وخط من حوله تلك الخطوط العريضة الكثيرة القصيرة، ما علامة هذا السبيل وهذا الطريق الذي يكون صاحبه من الفرقة الناجية؟

الجواب كما سمعتم في الحديث: حينما قال عليه الصلاة والسلام أن من بين تلك الفرق الثلاثة والسبعين فقط فرقة واحدة ناجية، ووصفها: بأنها التي تكون على ما كان عليه الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- وما كان عليه أصحابه.

في هذا الحديث نحن ننبه لأمر هام طالما غفل عنه كل الدعاة الإسلاميين الموجودين اليوم حتى وبعضهم مع هذا المنهج الصحيح وهو الكتاب والسنة، في هؤلاء من لا يتنبه لهذا الذي ذكره الرسول عليه السلام في الحديث عطفًا على قوله: «ما أنا عليه»، ما اقتصر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على قوله في وصف الفرقة الناجية: ما أنا عليه، ولو أنه اقتصر على هذا لكان كافيًا؛ لأن ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الهدى والنور، كما تسمعون في خطبة الحاجة: «وخير الهدى هدى محمد» -صلى الله عليه وآله وسلم-، إذًا لماذا ذكر عليه الصلاة والسلام وعطف على قوله: «ما أنا عليه» فقال: «وأصحابي»؟

هذا العطف مما يعطف عليه كثير من الدعاة، ولو كانوا معنا على منهج الكتاب والسنة؛ فلذلك فقد جريت على الدندنة والتطواف دائمًا وأبدًا حول هذه الجملة المعطوفة: «وأصحابي» لأهميتها، أهميتها من ناحيتين: الأولى: من حيث أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد أوتي جوامع الكلم، وأنه لا ينطق كما قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣ - ٤]، فإذا كان لا يتكلم إلا بالوحي، وهذا طبعًا فيما يتعلق بالأحكام الدينية، وإذا كان قد أوتي جوامع

الكلم، فلماذا لم يقتصر على قوله: «ما أنا عليه» بل زاد وعطف على هذا فقال: «وأصحابي»، علمًا أن الصحابة ما جاءوا بدين من عند أنفسهم وإنما أخلصوا في اتباعهم لنبيهم -صلى الله عليه وآله وسلم-؟

السبب في ذلك هام جدًا: وهو أن ما كان عليه الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو الذي يسمى بالسنة، السنة التي جاء ذكرها في أكثر من حديث واحد، من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث الرهط الذين سألوا نساء النبي عن عبادته عن صيامه وقيامه وإتيانه لنسائه، والقصة معروفة، ولا أريد أن أطيل أكثر مما يقتضيه الوقت جوابًا عن هذا السؤال، وإلا فهذا الحديث وحده يستحق محاضرة كاملة لا أقل من ساعة من الزمن، حسبي فيه أو منه أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال في آخر الحديث المعروف بحديث الرهط بعد أن ذكر قوله عليه السلام: «أما إني أخشاكم لله، وأتقاكم لله، أما إني أصوم وأفطر، وأقوم الليل وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»، سنته -صلى الله عليه وآله وسلم- لا تعني المعنى الاصطلاحي عند الفقهاء الذي يعني بالسنة ما ليس بفريضة، لا يعني الرسول عليه السلام في أي حديث ذكر فيه لفظة السنة معنى السنة المصطلحة عليها في فروع الفقه، حيث يقولون مثلًا: فرائض الصلاة، سنن الصلاة، ويعرفون السنة: ما يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها، ليس هذا المعنى هو المقصود في مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»، وإنما المقصود به: المنهج والنظام والطريق الذي سار عليه الرسول عليه السلام منذ بدئه بالدعوة إلى الله إلى آخر رمق من حياته، هذا النظام وهذا المنطلق وهذا الطريق الذي سار عليه الرسول عليه السلام هو المقصود بالسنة فيما إذا ذكر في حديث من أحاديث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ومن الواضح أن السنة بهذا

المعنى المقصود من حديث الرسول عليه السلام يعني الإسلام كلًا لا يتجزأ، سواء بفرائضه أو بسننه أو بمستحباته أو مندوباته أو مباحاته، سواء في أسلوب الدعوة أو في جوهر الدعوة، هذا هو معنى السنة: «فمن رغب عن سنتي فليس مني».

من ذلك حديث العرباض بن سارية الذي أيضًا أظن أنكم جميعًا قرأتموه أو سمعتموه على الأقل، وهو الذي قال فيه العرباض بن سارية: «وعظنا الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم- موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: أوصنا يا رسول الله، قال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن ولي عبد حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي. . » إلى آخر الحديث، وهو معروف إن شاء الله، فهل يعني رسولنا صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحديث: «فعليكم بسنتي» يعني مثلًا: السنن القبلية والبعدية في الصلوات الخمس وغير ذلك؟

الجواب: لا، هذا جزء مما يعنيه عليه السلام بلفظة السنة كلما ذكرها في حديث من أحاديثه عليه السلام، جزء والكل كما ذكرنا، المنهج والطريق الذي سار عليه الرسول عليه السلام.

مسألة

سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٣٧): من هم أهل السنة والجماعة؟.

فأجاب: أهل السنة والجماعة هم الذين تمسكوا بالسنة، واجتمعوا عليها، ولم يلتفتوا إلى سواها، لا في الأمور العلمية العقدية، ولا في الأمور العملية الحكمية، ولهذا سموا أهل السنة، لأنهم متمسكون بها، وسموا أهل الجماعة، لأنهم مجتمعون عليها.

وإذا تأملت أحوال أهل البدعة وجدتهم مختلفين فيما هم عليه من المنهاج العقدي أو العملي، مما يدل على أنهم بعيدون عن السنة بقدر ما أحدثوا من البدعة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (١/ ٣٧): عن افتراق أمة النبي محمد ﷺ، بعد وفاته؟.

فأجاب: أخبر النبي، ﷺ، فيما صح عنه أن «اليهود افترقوا على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، وهذه الفرق كلها في النار إلا واحدة، وهي ما كان على مثل ما كان عليه النبي، ﷺ، وأصحابه، » وهذه الفرقة هي الفرقة الناجية التي نجت في الدنيا من البدع، وتنجو في الآخرة من النار، وهي الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة التي لا تزال ظاهرة قائمة بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذه الفرق الثلاث والسبعون التي واحدة منها على الحق والباقي على الباطل، قد حاول بعض الناس أن يعددها، وشعب أهل البدع إلى خمس شعب، وجعل من كل شعبة فروعا ليصلوا إلى هذا العدد الذي عينه النبي، ﷺ، ورأى بعض الناس أن الأولى الكف عن التعداد لأن هذه الفرق ليست وحدها هي التي ضلت بل قد ضل أناس ضلالا أكثر مما كانت عليه من قبل، وحدثت بعد أن حصرت هذه الفرق باثنتين وسبعين فرقة، وقالوا: إن هذا العدد لا ينتهي ولا يمكن العلم بانتهائه إلا في آخر الزمان عند قيام الساعة، فالأولى أن نجمل ما أجمله النبي، ﷺ، ونقول: إن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، ثم نقول: كل من خالف ما كان عليه النبي، ﷺ، وأصحابه فهو داخل في هذه الفرق، وقد يكون الرسول، ﷺ، أشار إلى أصول لم نعلم منها

الآن إلا ما يبلغ العشرة وقد يكون أشار إلى أصول تتضمن فروعا كما ذهب إليه بعض الناس فالعلم عند الله ﷻ.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (١/ ٣٨): عن أبرز خصائص الفرقة الناجية؟ وهل النقص من هذه الخصائص يخرج الإنسان من الفرقة الناجية؟.

فأجاب: أبرز الخصائص للفرقة الناجية هي التمسك بما كان عليه النبي، ﷺ، في العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملة، هذه الأمور الأربعة تجد الفرقة الناجية بارزة فيها:

ففي العقيدة تجدها متمسكة بما دل عليه كتاب الله، وسنة رسوله، ﷺ، من التوحيد الخالص في ألوهية الله، وربوبيته، وأسمائه وصفاته.

وفي العبادات تجد هذه الفرقة متميزة في تمسكها التام وتطبيقها لما كان عليه النبي، ﷺ، في العبادات في أجناسها، وصفاتها، وأقدارها، وأزمنتها، وأمكنتها، وأسبابها، فلا تجد عندهم ابتداعا في دين الله، بل هم متأدبون غاية الأدب مع الله ورسوله لا يتقدمون بين يدي الله ورسوله في إدخال شيء من العبادات لم يأذن به الله.

وفي الأخلاق تجدهم كذلك متميزين عن غيرهم بحسن الأخلاق كمحبة الخير للمسلمين، وانشراح الصدر، وطلاقة الوجه، وحسن المنطق والكرم والشجاعة إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق ومحاسنها.

وفي المعاملات تجدهم يعاملون الناس بالصدق، والبيان اللذين أشار إليهما النبي، ﷺ، في قوله: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما».

والنقص من هذه الخصائص لا يخرج الإنسان عن كونه من الفرقة الناجية

لكن لكل درجات مما عملوا، والنقص في جانب التوحيد ربما يخرجه عن الفرقة الناجية مثل الإخلال بالإخلاص، وكذلك في البدع ربما يأتي ببدع تخرجه عن كونه من الفرقة الناجية.

أما في مسألة الأخلاق والمعاملات فلا يخرج الإخلال بهما من هذه الفرقة وإن كان ذلك ينقص مرتبته.

وقد نحتاج إلى تفصيل في مسألة الأخلاق فإن من أهم ما يكون من الأخلاق اجتماع الكلمة، والاتفاق على الحق الذي أوصانا به الله تعالى في قوله: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه} .

وأخبر أن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا أن محمدا، ﷺ، بريء منهم فقال الله ﷻ: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء} . فاتفاق الكلمة وائتلاف القلوب من أبرز خصائص الفرقة الناجية -أهل السنة والجماعة- فهم إذا حصل بينهم خلاف ناشئ عن الاجتهاد في الأمور الاجتهادية لا يحمل بعضهم على بعض حقدا، ولا عداوة، ولا بغضاء بل يعتقدون أنهم إخوة حتى وإن حصل بينهم هذا الخلاف، حتى إن الواحد منهم ليصلي خلف من يرى أنه ليس على وضوء ويرى الإمام أنه على وضوء، مثل أن الواحد منهم يصلي خلف شخص أكل لحم إبل، وهذا الإمام يرى أنه لا ينقض الوضوء، والمأموم يرى أنه ينقض الوضوء فيرى أن الصلاة خلف ذلك الإمام صحيحة، وإن كان هو لو صلاها بنفسه لرأى أن صلاته غير صحيحة، كل هذا لأنهم يرون أن الخلاف الناشئ عن اجتهاد فيما يسوغ فيه الاجتهاد ليس في الحقيقة بخلاف؛ لأن كل واحد من المختلفين قد تبع ما يجب عليه اتباعه من

الدليل الذي لا يجوز له العدول عنه، فهم يرون أن أخاهم إذا خالفهم في عمل ما اتباعا للدليل هو في الحقيقة قد وافقهم؛ لأنهم هم يدعون إلى اتباع الدليل أينما كان، فإذا خالفهم موافقة لدليل عنده، فهو في الحقيقة قد وافقهم؛ لأنه تمشى على ما يدعون إليه ويهدون إليه من تحكيم كتاب الله وسنة رسول الله، ﷺ، ولا يخفى على كثير من أهل العلم ما حصل من الخلاف بين الصحابة في مثل هذه الأمور، حتى في عهد النبي، ﷺ، ولم يعنف أحدا منهم، فإنه عليه الصلاة والسلام لما رجع من غزوة الأحزاب وجاءه جبريل وأشار إليه أن يخرج إلى بني قريظة الذين نقضوا العهد فندب النبي، ﷺ، أصحابه فقال: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة». فخرجوا من المدينة إلى بني قريظة وأرهقتهم صلاة العصر فمنهم من أخر صلاة العصر حتى وصل إلى بني قريظة بعد خروج الوقت لأن النبي، ﷺ، قال: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة». ومنهم من صلى الصلاة في وقتها، وقال: إن الرسول، ﷺ، أراد منا المبادرة إلى الخروج ولم يرد منا أن نؤخر الصلاة عن وقتها - وهؤلاء هم المصيبون - ولكن مع ذلك لم يعنف النبي، ﷺ، أحدا من الطائفتين، ولم يحمل كل واحد على الآخر عداوة، أو بغضاء بسبب اختلافهم في فهم هذا النص، لذلك أرى أن الواجب على المسلمين الذين ينتسبون إلى السنة أن يكونوا أمة واحدة، وأن لا يحصل بينهم تحزب، هذا ينتمي إلى طائفة، والآخر إلى طائفة أخرى، والثالث إلى طائفة ثالثة، وهكذا، بحيث يتناحرون فيما بينهم بأسنة الألسن، ويتعادون ويتباغضون من أجل اختلاف يسوغ فيه الاجتهاد، ولا حاجة إلى أن أخص كل طائفة بعينها، ولكن العاقل يفهم ويتبين له الأمر.

فأرى أنه يجب على أهل السنة والجماعة أن يتحدوا حتى وإن اختلفوا فيما

يختلفون فيه فيما تقتضيه النصوص حسب أفهامهم فإن هذا أمر فيه سعة ولله الحمد، والمهم ائتلاف القلوب واتحاد الكلمة ولا ريب أن أعداء المسلمين يحبون من المسلمين أن يتفرقوا سواء كانوا أعداء يصرحون بالعداوة، أو أعداء يتظاهرون بالولاية للمسلمين، أو للإسلام وهم ليسوا كذلك، فالواجب أن نتميز بهذه الميزة التي هي ميزة للطائفة الناجية وهي الاتفاق على كلمة واحدة.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في نفس المصدر (١/ ١١٥): عما يتعلمه طلبة المدارس في بعض البلاد الإسلامية من أن مذهب أهل السنة هو " الإيمان بأسماء الله تعالى، وصفاته، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل". وهل تقسيم أهل السنة إلى قسمين: مدرسة ابن تيمية وتلاميذه، ومدرسة الأشاعرة والماتريدية تقسيم صحيح؟ وما موقف المسلم من العلماء المئولين؟.

فأجاب: لا شك أن ما يتعلمه الطلبة في المدارس من أن مذهب أهل السنة هو: (الإيمان بأسماء الله تعالى، وصفاته، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل)، هو المطابق للواقع بالنسبة لمذهب أهل السنة، كما تشهد بذلك كتبهم المطولة والمختصرة، وهو الحق الموافق لما جاء في الكتاب والسنة، وأقوال السلف، وهو مقتضى النظر الصحيح، والعقل الصريح، ولسنا بصدد سرد أفراد الأدلة في ذلك، لعدم طلبه في السؤال، وإنما نجيب على ما طلب وهو تقسيم أهل السنة إلى طائفتين في مدرستين:

إحداهما: مدرسة ابن تيمية وتلاميذه، المانعين لصرف النصوص عن ظواهرها.

الثانية: مدرسة الأشاعرة والماتريدية، الموجبين لصرفها عن ظواهرها في أسماء الله وصفاته.

فنقول: من المعلوم أن بين هاتين المدرستين اختلافا بينا في المنهاج فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، فالمدرسة الأولى يقرر معلموها وجوب إبقاء النصوص على ظواهرها فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، مع نفي ما يجب نفيه عن الله تعالى، من التمثيل أو التكييف، والمدرسة الثانية يقرر معلموها وجوب صرف النصوص عن ظواهرها فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته.

وهذان المنهاجان متغايران تماما، ويظهر تغايرهما بالمثال التالي:

قال الله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}. وقال فيما حكاه عن معاتبة إبليس حين أبى أن يسجد لآدم بأمر الله: {يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}. فقد اختلف معلمو المدرستين في المراد باليدين اللتين أثبتهما الله تعالى لنفسه.

فقال أهل المدرسة الأولى: يجب إبقاء معناهما على ظاهره، وإثبات يدين حقيقيتين لله تعالى، على وجه يليق به.

وقال أهل المدرسة الثانية: يجب صرف معناهما عن ظاهره، ويحرم إثبات يدين حقيقيتين لله تعالى، ثم اختلفوا في المراد بهما هل هو القوة، أو النعمة.

وبهذا المثال يتبين أن منهاجي أهل المدرستين مختلفان متغايران، ولا يمكن بعد هذا التغاير أن يجتمعا في وصف واحد، هو " أهل السنة".

إذن فلا بد أن يختص وصف أهل السنة بأحدهما دون الآخر، فلنحكم بينهما بالعدل، ولنعرضهما على ميزان القسط وهو كتاب الله تعالى، وسنة رسوله، ﷺ، وكلام الصحابة، والتابعين لهم بإحسان من سلف الأمة وأئمتها. وليس في هذا الميزان ما يدل بأي وجه من وجوه الدلالة، المطابقة، أو التضمن، أو الالتزام صريحا أو إشارة على ما ذهب إليه أهل المدرسة الثانية، بل في هذا

الميزان ما يدل دلالة صريحة، أو ظاهرة، أو إشارية على ما ذهب إليه أهل المدرسة الأولى، وعلى هذا فيتعين أن يكون وصف أهل السنة خاصا بهم لا يشاركهم فيه أهل المدرسة الثانية؛ لأن الحكم بمشاركتهم إياهم جور، وجمع بين الضدين، والجور ممتنع شرعا، والجمع بين الضدين ممتنع عقلا.... الخ.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر (١٧/ ٢١٥): ما حكم دفن غير أهل السنة مع أهل السنة في مقبرة واحدة؟.

فأجاب: إذا كان صاحب البدعة كافرًا ببدعته فإنه لا يجوز أن يدفن في مقابر المسلمين، لأن الكفار يجب أن تكون مقابرهم منفردة عن المسلمين، وأما إذا كان لا يكفر ببدعته فلا بأس أن يدفن مع المسلمين.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في فتاوى نور على الدرب: من هي الطائفة المنصورة؟ وكيف تُعرف؟.

فأجاب: الطائفة المنصورة هم أهل السنة والجماعة، وهم الفرقة الناجية، وهم الذين كانوا على مثل ما عليه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه عقيدةً وقولًا وفعلًا. ففي العقيدة: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، يؤمنون بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه، يؤمنون بأن الله تعالى هو الحق وأن ما يدعى من دونه هو الباطل، يؤمنون بكل ما سمى الله به نفسه أو ما سماه به رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يؤمنون بكل ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، يؤمنون كذلك بملائكة الله تعالى على ما جاء في الكتاب والسنة، وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر والقدر خيره وشره، يتعبدون لله تعالى بما شرع، لا يبتدعون في دين الله تعالى ما

لم يشرع، يعتقدون أن كل بدعة في دين الله تعالى ضلالة، مخلصون لله تعالى في عباداتهم؛ لأنهم أمروا بذلك: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ). لا يبتدعون في دين الله ما ليس منه، لا في العقيدة ولا في الأعمال القولية أو الفعلية، بل هم مخلصون لله، متبعون لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، هؤلاء هم الفرقة الناجية، وهم الطائفة المنصورة، وهم أهل السنة والجماعة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: ما أهمية الجماعة في الإسلام؟ وهل يشترط على المسلم أن ينتمي إلى جماعةٍ معينة؟.

فأجاب: نعم الجماعة في الإسلام هي الاجتماع على شريعة الله عَزَّ وَجَلَّ التي قال فيها الرسول عليه الصلاة والسلام: (لا تزال طائفةٌ من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك). هذه هي الجماعة التي يجب على الإنسان أن ينتمي إليها، أما الجماعة الحزبية التي لا تريد إلا انتصار رأيها، سواء كان بحق أم بباطل، فإنه لا يجوز الانتماء إليها؛ لأن ذلك متضمنٌ البراءة من الجماعة الإسلامية، والولاية للجماعة الحزبية التي فيها التفرق والاختلاف، وقد قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ). وقال تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ). وقال تعالى: (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ). وقال تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ). وهذه الجماعات الإسلامية التي تنتمي إلى الإسلام وهدفها انتصار الإسلام يجب

عليها أن لا تتفرق، يجب عليها أن تنحصر في طائفةٍ واحدة، طائفة الجماعة التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه، كما أخبر بذلك النبي ﷺ حين قال: (ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي). وهذه الجماعات فرقت الأمة وشتتهم، وألقت بينهم العداوة، حتى صار الواحد منهم ينظر إلى الثاني نظر العدو البعيد، مع أن الكل منهم مسلم ينتمي إلى الإسلام ويريد أن ينتصر الإسلام به، ولكن أنى وقد تفرقوا هذا التفرق، وتمزقوا هذا التمزق؟ فالذي ينبغي أن أوجه إخواني إليه من هذا المنبر منبر نور على الدرب من إذاعة المملكة العربية السعودية أن يجتمعوا على الحق؟ وأن يجتنبوا أوجه الاختلاف بينهم، فيزيلوها بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. والحقيقة أن هذا التفرق أصبح فريسته هذا الوعي الذي نشاهده في الشباب الإسلامي، فإن هذا الشباب بتفرق هذه الجماعات صار كل طائفةٍ منهم تنتمي إلى جماعة، صار كل واحدٍ منهم ينتمي إلى جماعة من هذه الجماعات، وتفرقوا وصار بعضهم يسب بعضًا ويطعن في بعض، وهذه ضربةٌ قاسية قاصمةٌ للظهر إلى هذه الصحوة التي بدأت ولله الحمد تظهر آثارها في شباب المسلمين. المهم أنني أنا أنصح بعدم التفرق ولو في ضمن هذه الجماعات، وأرى أن تكون الأمة الإسلامية أمةً واحدة، لا تختلف ولا تتسمى كل واحدةٍ منهم باسم ترى أنها ندٌ للجماعات الأخرى.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: وجدت في تفسير ابن كثير حديثًا يقول فيه الرسول ﷺ ما معناه: (ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة). فهل هذا الحديث صحيح؟ وما هي الفرق الضالة من هذه الفرقة الناجية؟.

فأجاب: هذا الحديث صحيح، بكثرة طرقه، وتلقي الأمة له بالقبول، فإن العلماء قبلوه وأثبتوه حتى في بعض كتب العقائد، وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام أن الفرقة الناجية هي الجماعة الذين اجتمعوا على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من عقيدة وقول وعمل، فمن التزم ما كان عليه رسول الله ﷺ من العقائد الصحيحة السليمة والأقوال والأفعال المشروعة فإن ذلك هو الفرقة الناجية، ولا يختص ذلك بزمان ولا بمكان، بل كل من التزم هدي الرسول عليه الصلاة والسلام ظاهرًا وباطنًا فهو من هذه الجماعة الناجية، وهي ناجية في الدنيا من البدع والمخالفات، وناجية في الآخرة من النار.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: ماالمقصود بالسلف؟.

فأجاب: السلف معناه المتقدمون، فكل متقدم على غيره فهو سلف له، ولكن إذا أطلق لفظ السلف فالمراد به القرون الثلاثة المفضلة: الصحابة، والتابعون، وتابعوهم، هؤلاء هم السلف الصالح، ومن كان بعدهم وسار على منهاجهم فإنه مثلهم على طريقة السلف، وإن كان متأخرًا عنهم في الزمن؛ لأن السلفية تطلق على المنهاج الذي سلكه السلف الصالح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (إن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة). وفي لفظ: (من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي). وبناء على ذلك تكون السلفية هنا مقيدة بالمعنى، فكل من كان على منهاج الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان فهو سلفي وإن كان في عصرنا، هذا وهو القرن الرابع عشر بعد الهجرة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: ما المراد بالتوسط في الدين أو الوسطية؟.

فأجاب: التوسط في الدين أو الوسطية أن يكون الإنسان بين الغالي والجافي، وهذا يدخل في الأمور العلمية العقدية، وفي الأمور العملية التعبدية. فمثلًا في الأمور العقدية انقسم الناس فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته إلى ثلاثة أقسام: طرفان ووسط طرفٌ، غلا في التنزيه فنفى عن الله ما سمى ووصف به نفسه، وقسمٌ غلا في الإثبات فأثبت لله ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، لكن باعتقاد المماثلة، وقسمٌ وسط أثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، لكن بدون اعتقاد المماثلة، بل باعتقاد المخالفة، وأن الله تعالى لا يماثله شيءٌ من مخلوقاته. مثال الأول الذين غلوا في التنزيه الذين يقولون: إن الله تعالى لا يوصف إلا بصفاتٍ معينة حددوها، وادعوا أن العقل دل عليها، وأن ما سواها لا يثبت؛ لأن العقل بزعمهم لم يدل عليها، فمثلًا أثبتوا صفة الإرادة لله وقالوا: إن الله تعالى مريد، لكنهم نفوا صفة الرحمة عنه وقالوا: معنى الرحمة الإحسان أو إرادة الإحسان، وليست وصفًا في الله ﷻ، فتجد هؤلاء أخطؤوا حيث نفوا ما وصف الله به نفسه، بل نفوا ما كانت دلالة العقل فيه أظهر من دلالة العقل على ما أثبتوه، فإن إثباتهم للإرادة بالطريق العقلي أنهم قالوا: إن تخصيص المخلوقات بما تختص به مثل: هذه سماء وهذا أرض وهذه بعير وهذه فرس وهذا ذكر وهذه أنثى، هذا التخصيص يدل على إرادة الخالق أنه أراد أن يكون الشيء على هذا فكان. فنقول لهم: إن دلالة نعم الله ﷻ ودفع نقمه تدل على الرحمة أكثر مما يدل التخصيص على الإرادة، ولكن مع ذلك نفوا الرحمة وأثبتوا الإرادة، بناءً على شبهةٍ عرضت لهم. القسم الثاني الذين غلوا في الإثبات وهم أهل التمثيل، قالوا: نثبت لله ﷻ الصفات، لكن على وجهٍ مماثل للمخلوق، وهؤلاء ضلوا وغفلوا عن قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

والقسم الثالث الوسط قالوا: نثبت لله كل ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو فيما صح عن رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، مع اعتقاد عدم المماثلة، وأن ما يثبت للخالق من ذلك مخالفٌ لما يثبت للمخلوق، فإن ما يثبت للخالق أكمل وأعلى، كما قال تعالى: (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). هذا في العقيدة، كذلك أيضًا في الأعمال البدنية: من الناس من يغلو فيزيد ويشدد على نفسه، ومن الناس من يتهاون ويفرط فيضيع شيئًا كثيرا، وخير الأمور الوسط. والوسط الضابط فيه: ما جاءت به الشريعة فهو وسط، وما خالف الشريعة فليس بوسط، بل هو مائل إما للإفراط وإما إلى التفريط. وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في العقيدة الواسطية خمسة أصول، بين فيها رحمه الله أن أهل السنة فيها وسطٌ بين طوائف المبتدعة، فيا حبذا لو أن السائل رجع إليها؛ لما فيها من الفائدة.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق: ما حكم من قال بأن الخوض في مسائل العقيدة والتوحيد والمناقشات العلمية يسبب الفرقة وضياع الجهد والفكر والدعوة؟ وجهونا في ضوء هذا السؤال؟.

فأجاب: التعمق في السؤال فيما يتعلق بالعقيدة ليس هو من طريق السلف، بل كانوا يحذرون منه غاية التحذير؛ لأن أمور العقيدة أمورٌ غيبية يجب أن يتلقاها الإنسان بالتسليم، دون الخوض في كيفياتها وحقيقتها، ولهذا لما سأل رجلٌ الإمام مالكًا رحمه الله عن قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى): كيف استوى؟ فأطرق مالكٌ رحمه الله برأسه حتى علاه الرحض- أي: حتى علاه العرق- ثم رفع رأسه فقال: (يا هذا! الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا)، ثم أمر به فأخرج من المسجد مسجد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم. وأما البحث عن معاني

أسماء الله تعالى وصفاته وإثباتها على الوجه اللائق به جل وعلا من غير تكييفٍ ولا تمثيل فهذا حق، وهذا منهج السلف الصالح ﭫ، هذه هي القاعدة والجادة فيما يتعلق بالعقيدة، ولكن إذا ابتليت بشخص أرغمك على أن تبحث معه وله اصطلاحات خاصة، فعليك أن تبين الحق، وأن لا تسكت أو تسكته إلا إذا علمنا أنه معاند، فلنا أن نسكته حتى يعرف قدر نفسه.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: ما السبب في وجود عقيدة صحيحة وعقيدة خاطئة؟.

فأجاب: هذا سؤالٌ عجيب! يعني إذًا قل: ما السبب في وجود مؤمنين وكافرين؟ ما السبب في وجود فاسقين ومعتدلين؟ ونقول: السبب في ذلك أن هذه حكمة الله ﷻ، كما قال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ). وقال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً). أي: على دينٍ واحد وعقيدة واحدة، ولكن: (وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ). ولولا هذا الاختلاف لكان خلق الجنة والنار عبثًا؛ لأن النار تحتاج إلى أهل والجنة تحتاج إلى أهل، فلا بد من الاختلاف. لكن ينبغي أن يقول: ما هو الضابط في العقيدة الصحيحة وفي العقيدة الفاسدة؟ وجوابنا على هذا أن نقول: ما كان موافقًا لما كان عليه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه فهو عقيدةٌ صحيحة، وما كان مخالفًا لهم فهو عقيدةٌ فاسدة، وكذلك يقال في الأعمال البدنية: ما كان موافقًا لما كان عليه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه فهو عملٌ صالح، وما لم يكن كذلك فهو عملٌ فاسد، وهذا هو الذي ينبغي أن نسأل عنه، وينبغي أن نبحث: هل نحن في عقيدتنا، هل نحن في أعمالنا موافقون لما كان عليه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه

أم مخالفون؟!!.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: في بعض البلاد الإسلامية يدرس تاريخ الإسلام بطريقة غير صحيحة، مما يؤدي إلى بغض بعض الصحابة رضوان الله عليهم، نرجو التوضيح خاصة عن موقف بعض المعارك؟.

فأجاب: ما قاله السائل صحيح، فإن التاريخ في الحقيقة يزوّر ويشوّه حسب ما تكون الدولة، فهو خاضع مع الأسف للدولة بحيث توجهه حيث ما تريد، وخاضع كذلك لبعض الأفكار التي تجترئ على الكذب وتستسيغه في جانب ما تدعو إليه وتهدف إليه، ولذلك نرى في كثير من كتب التاريخ أشياء مشوهة إن كان صدقًا، وكثيرًا وكثيرًا مزورة مكذوبة، لاسيما فيما جرى بين الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ مما هم فيه معذورون؛ لأنهم مجتهدون، ومن أصاب منهم له أجران، ومن أخطأ فله أجر، وخطؤه مغفور. فيجب على المرء أن يحذر من مثل هذه الكتب المزورة أو المشوهة بزيادة أو نقص، لاسيما إذا كان يشعر بأن هذا الكتاب مثلًا يسيء إلى الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في تشويه حياتهم ومجتمعاتهم؛ لأن القدح في الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ليس قدحًا في الصحابة أنفسهم فقط، بل هو قدح فيهم وقدح في رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقدح في الشريعة، وقدح في الله سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا صار القدح في الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كان ذلك قدحًا في الشريعة؛ لأنهم هم وسيلة النقل، هم الذين نقلوها إلينا، فإذا كانوا محل قدح وعيب فكيف نثق بالشريعة التي بين أيدينا وهي جاءت عن طريقهم؟ وإذا كان قدحًا في الصحابة صار قدحًا في النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم أصحابه وأحبابه وناصروه على أعدائه، والقدح في الصاحب قدح في المصحوب، وإذا كان القدح في الصحابة صار قدحًا في الله عَزَّ وَجَلَّ، فكيف يقال: إن الله تعالى اختار لنبيه -وهو أفضل خلقه- مثل هؤلاء الأصحاب الذين هم محل

القدح والسب والعيب؟ إذًا فالقدح في الصحابة قدح في الله وفي رسوله وفي شريعته، والأمر أمر عظيم، وكتب التاريخ قد يكون بعضها متناولًا لهذا الأمر مما يكون دالًا على القدح في الصحابة إما تصريحًا وإما تلميحًا، فليحذر المؤمن من مثل هذه التواريخ التي تضله. والله المستعان.

(باب الحض على لزوم السنة واتباع الأئمة)

مسائل في الباب: مسألة: حكم القياس في العقائد

قال الشيخ أحمد بن يحيى النجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إرشاد الساري في شرح السنة للبربهاري (ص٣٦): قوله (اعلم رحمك الله أنَّه ليس في السنَّة قياسٌ ولا تضرب لها الأمثال، ولا تتبع فيها الأهواء بل هو التصديق بآثار رسول الله ﷺ بلا كيف) إنَّ هذا الكلام ينطبق على السنن الواردة في العقائد، أمَّا غير العقائد من الأحكام الفرعية، فهذه قد حصل فيها الإختلاف، وبنيت عليها الأقيسة، وهذا مدوَّنٌ في كتب الفقه، وأصول الفقه، ولكنَّ المراد بهذا الكلام ما ورد في العقائد من آيات الصفات، وأحاديثها الصحيحة، فهذه يجب الأخذ بها، وإمرارها كما جاءت مع اعتقاد معناها الذي تقتضيه في اللغة العربية ولايقال لـمَ كان كذا وكذا؟ وكيف كان كذا وكذا؟ وقد أنكر الإمام مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على من قال: أرأيت قول الله تعالى الرحمن على العرش استوى كيف استوى؟ فأطرق الإمام مالك وعلته الرَّحُضاء -أي العرق- ثمَّ رفع رأسه، فقال: الإستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأنت رجل سوء أخرجوه، فأمر به فأخرج.اهـ.

ومن قال بالقياس في العقائد الخوارج، فضلوا وأضلوا، ومن أمثلة ذلك عندهم أن إبليس -لعنه الله- كان عارفا بالله، ولما عصى صار كافرا، فكذلك الإنسان إذا عرف الله وعصاه يصير كافرا، لا فاسقا كما يقول المعتزلة، ولا مؤمنا

عاصيا كما يقول أهل السنة.

وقد أخرج الإمام ابن منده في كتاب التوحيد (٣/ ٣٠٤-٣٠٦): بإسناده عن أبي يوسف القاضي أنه قال:« ليس التوحيد بالقياس؛ ألم تسمع إلى قول الله ﷻ في الآيات التي يصف بها نفسه أنه عالم، قادر، قوي، ولم يقل: إني قادر عالم لعلة كذا، أقدر بسبب كذا أعلم وبهذا المعنى أملك، فلذلك لايجوز القياس في التوحيد ولايعرف إلا بأسمائه، ولا يوصف إلا بصفاته. . » إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ:« فقد أمرنا الله أن نوحّده وليس التوحيد بالقياس، لأن القياس يكون في شيء له شبه ومثل، فالله تعالى وتقدس لاشبه له ولامثل له، تبارك الله أحسن الخالقين»، ثم قال: «وكيف يدرك التوحيد بالقياس وهو خالق الخلق بخلاف الخلق؟ ليس كمثله شيء تبارك وتعالى، وقد أمرك الله ﷻ أن تؤمن بكل ماأتى به نبيّه ﷺ فقال: {ياأيها الناس إنّي رسول الله إليكم جميعًا الذي له ملك السموات والأرض لاإله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلكم تهتدون} [الأعراف:١٥٨]، فقد أمرك الله ﷻ بأن تكون تابعًا سامعًا مطيعًا، ولو يوسع على الأمة التماس التوحيد وابتغاء الإيمان برأيه وقياسه وهواه إذًا لضلوا، ألم تسمع إلى قول الله ﷻ: {ولو اتّبع الحقُّ أهواءَهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن} [المؤمنون:٧١] فافهم مافسر به ذلك»اهـ..

وقال أبوالحسن القابسي كما في الفتح (١١/ ٢٢٠): أسماء الله وصفاته لا تعلم إلا بالتوقيف من الكتاب والسنة أو الإجماع، ولا يدخل فيها بالقياس.اهـ.

وقال البغدادي في الفرق بين الفرق (١/ ٣٢٦): ولا يجوز اطلاق اسم عليه من طريق القياس وهذا خلاف قول المعتزلة البصرية في اجازتها اطلاق الاسماء عليه بالقياس وقد افرط الجبائي في هذا الباب حتى سمى الله مطيعا لعبده اذا

اعطاه مراده وسماه محبلا للنساء اذا خلق فيهن الحبل وضللته الامة في هذه الجسارة التى تورثه الخسارة.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في أول رسالة العقيدة الواسطية:« ولايقاس بخلقه سبحانه فإنه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه».اهـ.

مسألة: القياس الوحيد المستعمل في العقيده هو قياس الأولى

للمخلوق صفات كمال وهي من الله فمعطي الكمال أولى يسمى بقياس الأولوية وذلك أن القياس ثلاثة أنواع كما ذكرها العلامة العثيمين في شرح الواسطية (١/ ٩٨) بقوله: القياس ينقسم إلى ثلاثة أقسام: قياس شمول، وقياس تمثيل، وقياس أولوية فهو سبحانه وتعالى لا يقاس بخلقه قياس تمثيل ولا قياس شمول.

١ – قياس الشمول: هو ما يعرف عندنا بالعام الشامل لجميع أفراده بحيث يكون كل فرد منه داخلًا في مسمى ذلك اللفظ ومعناه فمثلًا إذا قلنا الحياة فإنه لا تقاس حياة الله تعالى بحياة الخلق لأن الكل يشمله اسم " حي".

٢– قياس تمثيل: بمعنى أن نجعل ما يثبت للخالق مثل ما يثبت للمخلوق.

٣– قياس الأولوية: وهذا يقول العلماء أنه مستعمل في حق الله لقوله تعالى: "ولله المثل الأعلى} [النحل: ٦٠] بمعنى كل صفة كمال فلله تعالى أعلاها السمع والبصر والعلم والقدرة والحياة والحكمة وما أشبهها موجودة في المخلوقات لكن لله أعلاها وأكملها ولهذا أحيانًا نستدل بالدلالة العقلية من زاوية القياس بالأولى فمثلًا نقول: العلو صفة كمال في المخلوق فإذا كان صفة كمال في المخلوق فهو في الخالق من باب أولى وهذا دائمًا نجده في كلام

العلماء.

إذًا: يمتنع القياس بين الله وبين الخلق للتباين بينهما وإذا كنا في الأحكام لا نقيس الواجب على الجائز أو الجائز على الواجب ففي باب الصفات بين الخالق والمخلوق من باب أولى. لو قال لك قائل: الله موجود والإنسان موجود وقال وجود الله كوجود الإنسان بالقياس فنقول لا يصح لأن وجود الخالق واجب ووجود الإنسان ممكن.

فلو قال: أقيس سمع الخالق على سمع المخلوق نقول: لا يمكن، سمع الخالق واجب لا يعتريه نقص وهو شامل لكل شيء وسمع الإنسان ممكن إذ يجوز أن يولد الإنسان أصم والمولود سميعًا يلحقه نقص السمع وسمعه محدود إذًا: لا يمكن أن يقاس الله بخلقه فكل صفات الله لا يمكن أن تقاس بصفات خلقه لظهور التباين العظيم بين الخالق وبين المخلوق.اهـ.

وقال ابن القيم في مفتاح دار السعادة (٢/ ٤٧٥): كل كمال ثبت للمخلوق غير مستلزم للنقص فخالقه ومعطيه إياه أحق بالاتصاف به وكل نقص في المخلوق فالخالق أحق بالتنزه عنه كالكذب والظلم والسفه والعيب بل يجب تنزيه الرب تعالى عن النقائص والعيوب مطلقًا وإن لم يتنزه عنها بعض المخلوقين.اهـ.

ويعبر عن هذه القاعدة بأكثر من صيغة:

- **الأولى**: أن يقال: إذا كانت نفس المخلوق وهو محدثة ناقصة متصفة بأنها حية عالمة قادرة سميعة بصيرة فإن الرب المعبود الأول والآخر والظاهر والباطن أولى بأن يكون حيًا عالمًا قادرًا سميعًا بصيرًا.

- **الثانية**: أن يقال: إذا كان سلب الصفات مثل الحياة والعلم والسمع

والبصر يعتبر نقصًا في المخلوق المحدث فلأن يعتبر ذلك نقصًا في الخالق أولى.

- **الثالثة**: أن يقال: إذا كانت الغفلة عيبًا ونقصًا في المخلوق المربوب الناقص بذاته فلأن تكون نقصًا في حق الخالق المدبر الغني بذاته أولى.

بقى أن نذكر أمرًا مهمًا في هذه القاعدة وهو أنه يشترط في الكمال الثابت بقياس الأولى:

١- كونه كمالًا وجوديًا إذ لا كمال في العدم المحض.

٢- كونه ممكن الوجود في خارج الذهن إذ ما ليس كذلك فهو في حكم العدم إذ المجردات العقلية لا وجود لها في الخارج.

٣- أن يكون لا نقص فيه بوجه من الوجوه فإن كان فيه نقص لم ينسب إلى رب العالمين كالنوم والأكل فإنه كمال في الإنسان لكنه لا ينسب إلى الله لما يستلزمه من عدم كمال الحياة.

٤- أن يكون غير مسلتزم للعدم فإن استلزمه لم يوصف به كالنوم فإنه مستلزم لعدم الحياة.اهـ. من القواعد الكلية للأسماء والصفات للبريكان.

وقال شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهمية (٢|٥٣٦): والأقيسة العقلية وهي الأمثال المضروبة كالتي تسمى أقيسة منطقية وبراهين عقلية، ونحو ذلك استعمل سلف الأمة وأئمتها منها في حق الله سبحانه وتعالى ما هو الواجب وهو ما يتضمن نفيًا وإثباتًا بطريق الأولى لأن الله تعالى وغيره لا يكونان متماثلين في شيء من الأشياء لا في نفي ولا في إثبات بل ما كان من الإثبات الذي ثبت لله تعالى ولغيره؛ فإنه لا يكون إلا حقا متضمنا مدحا وثناء وكمالا، والله أحق به ليس هو فيه مماثلًا لغيره، وما كان من النفي الذي ينفي عن الله وعن غيره؛ فإنه

لا يكون إلا نفي عيب ونقص، والله سبحانه أحق بنفي العيوب والنقائص عنه من المخلوق فهذه الأقيسة العادلة والطريقة العقلية السلفية الشرعية الكاملة، فأما ما يفعله طوائف من أهل الكلام من إدخال الخالق والمخلوقات تحت قياس أو تمثيل يتساويان فيه؛ فهذا من الشرك والعدل بالله، وهو من الظلم، وهو ضرب الأمثال لله، وهو من القياس والكلام الذي ذمه السلف وعابوه، ولهذا ظن طوائف من عامة أهل الحديث والفقه والتصوف أنه لا يتكلم في أصول الدين، ولا يتكلم في باب الصفات بالقياس العقلي، وأن ذلك بدعة، وهو من الكلام الذي ذمه السلف، وكان هذا مما أطمع الأولين فيهم لما رأوهم ممسكين عن هذا كله إما عجزًا أو جهلًا.

وإما لاعتقاد أن ذلك بدعة وليس من الدين وقال لهم الأولون: ردكم أيضًا علينا بدعة؛ فإن السلف والأئمة لم يردوا مثل ما رددتم، وصار أولئك يقولون عن هؤلاء إنهم ينكرون العقليات، وأنهم لا يقولون بالمعقول، واتفق أولئك المتكلمون مع طوائف من المشركين والصابئين والمجوس وغيرهم من الفلاسفة الروم والهند والفرس وغيرهم على ما جعلوه معقولًا يقيسون فيه الحق تارة والباطل أخرى، وحصل من هؤلاء تفريط وعدوان، ومن هؤلاء تفريط وعدوان أوجب تفرقًا واختلافًا بين الأمة ليس هذا موضعه، ودين الإسلام هو الوسط وهو الحق والعدل وهو متضمن لما يستحق أن يكون معقولًا ولما ينبغي عقله وعلمه ومنزه عن الجهل والضلال والعجز وغير ذلك مما دخل فيه أهل الانحراف فسلك الإمام أحمد وغيره مع الاستدلال بالنصوص وبالإجماع مسلك الاستدلال بالفطرة والأقيسة العقلية الصحيحة المتضمنة للأولى، وذلك أن النجاسات مما أمر الشارع باجتنابها والتنزه عنها،

وتوعد على ذلك بالعقاب كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: تنزهوا عن البول فإن عامة عذاب القبر منه.

وهذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام، وهي مما فطرت القلوب على كراهتها والنفور عنها واستحسان مجانبتها لكونها خبيثة؛ فإذا كان العبد المخلوق الموصوف بما شاء الله من النقص والعيب الذي يجب تنزيه الرب عنه لا يجوز أن يكون حيث تكون النجاسات، ولا أن يباشرها ويلاصقها لغير حاجة، وإذا كان لحاجة يجب تطهيرها ثم إنه في حال صلاته لربه يجب عليه التطهير؛ فإذا أوجب الرب على عبده في حال مناجاته أن يتطهر له وينزه عن النجاسة كان تنزيه الرب وتقديسه عن النجاسة أعظم وأكثر للعلم بأن الرب أحق بالتنزيه عن كل ما ينزه عن غيره.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في نفس المصدر (٢/ ٥٤٣): ثم احتج الإمام أحمد بحجة أخرى من الأقيسة العقلية قال: فمن ذلك: قال الإمام أحمد: "ووجدنا كل شيء أسفل منه مذمومًا يقول الله جل ثناؤه: {إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار} وقال: {وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلها تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين}".اهـ.

وهذه الحجة من باب (قياس الأولى) وهو أن السفل مذموم في المخلوق حيث جعل الله أعداءه في أسفل سافلين وذلك مستقر في فطر العباد، حتى إن أتباع المضلين طلبوا أن يجعلوهم تحت أقدامهم ليكونوا من الأسفلين وإذا كان هذا مما ينزه ويقدس عنه المخلوق ويوصف به المذموم المعيب من المخلوق فالرب تعالى أحق أن ينزه ويقدس عن أن يكون في السفل أو يكون موصوفًا بالسفل هو أو شيء منه أو يدخل ذلك في صفاته بوجه من الوجوه بل هو العلي

الأعلى بكل وجه.اهـ.

وذكر شيخ الإسلام في كتابه المذكور أمثلة أخرى مهمة على هذه القاعدة وأتى بفوائد تستحق الرحلة إليها إلى أبعد مكان فلتطلب من مكانها. المجلى في شرح القواعد المثلى (ص١٧٧-١٨٠).

المسألة الثانية: إن الإسلام كرم العقل وجعله أكبر المعاني قدرًا وأعظم الحواس نفعًا فإن به يتميز عن البهيمة ويعرف حقائق المعلومات ويهتدي إلى مصالحه ويتقي ما يضره ويدخل به في التكليف وهو شرط في ثبوت الولايات وصحة التصرفات وأداء العبادات، ولكن الإسلام بعد هذا التكريم كله وذلك الاهتمام قد حدد للعقل مجالاته التي يخوض فيها حتى لا يضل، وفي هذا تكريم له أيضًا لأنه محدود الطاقات والملكات فلا يستطيع أن يدرك كل الحقائق مهما أوتي من قدرة وطاقة على الاستيعاب والإدراك، لذا فإنه سيظل بعيدًا عن متناول كثير من الحقائق وإذا ما حاول الخوض فيها التبست عليه الأمور وتخبط في الظلمات وفي هذا مدعاة لوقوعه في كثير من الأخطاء وركوبة متن العديد من الأخطار.

فأمر الإسلام العقل بالاستسلام والامتثال للأمر الشرعي الصريح حتى ولو لم يدرك الحكمة، وقد كانت أول معصية لله ارتكبت بسبب عدم هذا الامتثال فحينما أمر الله سبحانه وتعالى إبليس بالسجود لآدم عليه السلام استكبر وعصى واستبد برأيه فقارن بين خلقه وخلق آدم عليه السلام (قال أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين) فلم يمتثل للأمر طلبًا للسبب الذي يسجد لأجله الفاضل للمفضول حسب رأيه، فلما لم يدرك عقله السبب رفض الامتثال فكانت المعصية وكانت العقوبة.

لذا منع الإسلام العقل من الخوض فيما لا يدركه ولا يكون في متناول إدراكه كالذات الإلهية والأرواح في ماهيتها ونحو ذلك فقال عليه الصلاة والسلام (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله)[1]، وقال ﷺ (يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك، فليستعذ بالله ولينته)[2]، وعن الروح قال تعالى: (يسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) فصرف الجواب عن ماهيتها لأنه ليس من شؤون العقل السؤال عنها ولا من مداركه وكذلك الجنة ونعيمها والنار وجحيمها وكيفية ذلك وغيرها من المغيبات التي ليست في متناول العقل ومداركه).

ويقول الشيخ ناصر العقل -حفظه الله-: قيمة العقل في الإسلام: قد يتبادر لأذهان البعض، عند ما يقرأ مثل هذا البحث، في ذم الاتجاهات العقلية - أن الإسلام، يمقت العقل والفكر، أو يستنقص منهما ويهضمهما قيمتهما، وأننا إنما نذم أصحاب الاتجاهات والفرق العقلية لمجرد أنهم استعملوا عقولهم، التي وهبهم الله.

والحق: أن الأمر ليس كذلك، لأن الإسلام بحق قد رفع قيمة العقل وأعلى من شأنه، وجعل التعقل والتفكير فريضة إسلامية، يلزم كل مسلم أن يؤديها

---

١ ورد هذا المعنى في عدة أحاديث لا يخلوا أي منها من مقال، قال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ١٥٩) بعد أن ذكر من أخرج الحديث: وأسانيدها ضعيفة، لكن اجتماعها يكتسب قوة، والمعنى صحيح، ففي "صحيح مسلم (٢/ ١٥٣) عن أبي هريرة مرفوعا (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله)، وقال العلامة الألباني في الصحيحة (١٧٨٨): وبالجملة فالحديث بمجموع طرقه حسن عندي والله أعلم.

٢ أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حقها، وجعل العقل هو مناط التكليف، ونعى على أولئك الذي لم يستعملوا عقولهم في معرفة الحق والهداية، فهلكوا. (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقًا لأصحاب السعير).

وإذا كان العقل هو وسيلة النظر، ووسيلة التفكير والتدبر، فقد جعل الله ذلك كله واجبًا، مفروضًا على كل إنسان ومن تركه فهو آثم لا محالة قال تعالى: (فسيروا في الأرض فانظروا)، وقد وردت في مواضع كثيرة.

وقال تعالى في ذم الذين لا يعقلون: (وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون).

وقد ورد هذا التوبيخ (أفلا تعقلون) في القرآن أكثر من أربع عشرة مرة.

وقال تعالى: (إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون)، وقد وردت في القرآن (لعلكم تعقلون) أكثر من سبع مرات، وقال تعالى: (ولقد أضل منكم جبلًا كثيرًا أفلم تكونوا تعقلون)، وقال تعالى: (كذلك نفصل الآيات لقومٍ يعقلون)، وإذا كان العقل وسيلة النظر والاعتبار فقد قال تعالى: (فاعتبروا يا أُولي الأبصار)، وقال تعالى (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض)، وكذلك الأمر بالتفكر، قال تعالى: (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون)، (قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون)، (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جِنّة)، (أولم يتفكروا في أنفسهم). وقد ذكر التفكر في القرآن في أكثر من سبعة عشر موضعًا، وقد ذم الله أولئك الذين يتابعون آباءهم دون تعقل ولا تفكير فقال (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون)،

وقال تعالى (إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يُهرعون).

والإسلام إنما كرّم الإنسان وفضله على سائر المخلوقات بل جعله سيد الكون بالعقل، وبالعقل سخّر له ما في السماوات وما في الأرض وجعله خليفة فيها يعمرها، فهل يبقى بعد ذلك شك عند أحد في أن الإسلام يحترم العقل ويقدره كل التقدير؟ ثم إن الإسلام عندما حظر على العقل التفكر في ذات الله تعالى، والخوض في أمور الغيب، وألزمه بالتسليم والتوقف عند كل ما ورد عن الله تعالى ورسولهﷺ، مما يتعلق بذات الله وأسمائه وصفاته، وما يتعلق بالغيب كله- إنما فعل ذلك إشفاقًا على هذا العقل الكريم من العماية في متاهات المجهول.

ثم إن الإسلام في الوقت نفسه فتح للعقل البشري مجالات الانطلاق الواسع في حدود الواقع في حياته هو والمخلوقات من حوله، بل وفي الأرض كلها والسماء، وهذا الكون الرحب الواسع الفسيح، فللعقل البشري أن يبدع، وأن ينظر ويحكم، وأن يتفكر ويعتبر ما وسعه الإبداع والنظر والتفكر والاعتبار، عليه أن يفعل ذلك كله، وله مع ذلك عليه الأجر والمثوبة إذا هو امتثل أمر الله.

أما الغيب والتفكر في ذات الله، بأكثر مما ورد عن الله، فإنه ليس بمقدور العقل، وليس من وظيفته أن يفعل ذلك، وإن فعل ذلك خرج عن نطاق الواجب عليه، ولن يعود عليه فعله إلا بالحرج والعنت العقلي والنفسي، والخروج عن نطاق مصلحة الإنسان في معاشه ومعاده.

والعقلية الحديثة، هي التي دعت أتباعها إلى الخوص في أمور الغيب ومعارضة أمر الله، ولم تسلّم بما جاء عن الله تعالى، مما هو خارج عن نطاق العقل، وأقحمته فيما لا طاقة له به، ونحن نذمها من هذا الوجه.

فإن مُقْتَضى الإيمان بالغيب:- التسليم لله فيه، بما ورد في كتابه وسنة رسوله

ﷺ.

والإنسان في هذا العصر أكثر العصور تقدمًا في الكشوف والاختراعات- أعلن عجزه وقصوره عن إدراك أكثر حقائق الكون وكُنْهِ طاقاته، حتى تلك الأشياء التي يمارسها ويعيشها ويوميًا، إن العقل يجهل نفسه، ويجهل الروح التي تُمدّه بالحياة بأمر الله (وفي أنفسكم أفلا تبصرون).

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا).

فإكرامًا لهذا الإنسان، وإشفاقًا عليه، وعلى عقله المحدود، من التشرد والتبدد والتيه، وإشفاقًا عليه بعد ذلك من الضلال والهلاك، وسوء العاقبة، أراحه الله من الخوض في الغيب بعقله؛ فجاءه الوحي يخبره عما فيه صلاحه من أصول العقيدة السليمة، ومسائل الغيب، ورسم له سبيل الخير والسعادة في الدنيا، وأطلق لعقله فيما عدا ذلك الحرية كل الحرية.

فقد فتح الإسلام للعقل من مجالات البحث والفكر والتأمل والنظر في ملكوت السماء والأرض، ما يكفي لانشغال العقل، وإشباع رغبة التطلع والإنتاج المفطورة فيه.

ويقول الشيخ عبد الرحمن الزنيدي - حفظه الله -: (لعل من أبرز السمات التي امتاز بها الدين الإسلامي عن سائر المذاهب والأديان الأخرى، هو ذلك المقام السامي الذي وضع الإسلام العقل الإنساني فيه والدور الجليل الذي أناطه به، والآفاق الواسعة التي فتحها أمامه، بشكل لم تصل المذاهب البشرية إليه حتى تلك المذاهب التي تنادي بأنها حررت العقل البشري، وأطلقته من آساره، واحتكمت إليه، هي في الحقيقة التي سخرت منه، واستهانت به، فمن

جانب دفعته إلى الإيغال في مجالات ليست من اختصاصه فتاه فيها وضل. ومن جانب آخر تجد هذه المجتمعات العلمانية - التي تدعى أنها تحكم العقل في أمورها- قد نبذته وراءها ظهريًا، فأحكامه وتقريراته في جانب وواقعها في جانب آخر، فالعقل يحكم بأن الخمر والزنا ضار ومفسد للجنس البشري والواقع يبيحها، بل ويحببها، والعقل يقول إن المرأة تختلف عن الرجل والواقع يقول يجب أن نجعلها كالرجل تمامًا. . . ، فأي إهانة للعقل بعد هذا، ونعود لنقول إن أبعاد تلك المنزلة التي جعلها الإسلام للعقل تتلخص فيما يأتي:

تعظيم الإسلام لعمل العقل في سبيل الوصول إلى الحقائق بطرق شتى منها:

الثناء على أصحاب العقل الذين يستعملونه في الحكم على الأشياء والتعامل معها: فالله سبحانه يخاطب أصحاب العقول حينما يذكر أحكامه لأنهم هم الذين يفهمون أنها أحكام عدل وحق (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون).

وكذلك حينما يأمر بشيء فإنه يخصهم بالخطاب لأنهم يسارعون إلى امتثال أمر الله، والنهوض به، يقول سبحانه (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب)، فقد خص أولي الألباب بعد حث جميع العباد على التقوى.

ومدحهم بأنهم هم الذين يتذكرون موجبات الهدى، ودلائله، وينتفعون بها خلاف اللاهين الغافلين، يقول سبحانه (وما يذكر إلا أولوا الألباب)، وأثنى عليهم بأنهم هم الذين يعتبرون بقصص التاريخ وحوادث الحياة فيتخذون منها عبرة (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)، وقال سبحانه بعد قصة لوط وقومه (ولقد تركنا منها آية لقوم يعقلون).

مسألة: المحكم والمتشابه

مسألة المحكم والمتشابه مسألة طويلة الذيول متشبعة الأجزاء، وحتى تفهمها فهما جليا نفصل القول فيها في فروع:

(الفرع الأول)

اعلم رحمنا الله وإياك وجعلك مباركا حيثما كنت أن الله تعالى وصف كتابه بأنه محكم كله وذلك في قوله تعالى " الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " ووصفه جميعا بأنه متشابه، كما قال تعالى " الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله " فهذا الإحكام يسميه أهل العلم بالإحكام العام والتشابه هذا كذلك يقول فيه أهل العلم إنه التشابه العام، ولا تنافي بين هذين الوصفين، لأن القرآن الكريم كله محكم وكله متشابه، والإحكام العام هو بعينه التشابه العام ومعناهما :- أي أن القرآن محكم كله في ألفاظه ومعانيه، فهو يصدق بعضه بعضا، ويؤيد بعضه بعضا، فأمثاله وقصصه كلها يصدق بعضها بعضا، فلا اختلاف بينها، ولا تناقض ولا تنافي، فلا يخبر في مكان ثم ينقض خبره في مكان، ولا يحكم في مكان ويأمر بضده في مكان، وأحكامه كلها عدل وحكمة وخير وبر ومصالح، فهو محكم في إتقانه وبلاغته وإعجازه، ومتقن كله في ألفاظه ودلالاته، فأوامره تتشابه في أنها كلها جاءت لتقرير المصالح وتكميلها، ونواهيه كلها جاءت لتعطيل المفاسد وتقليلها، فليس فيه شيء يعاب، فهو أحسن الحديث وأصدق الحديث، وهو الذي يهدي للتي هي أقوم، فبشاراته كلها تبعث في النفوس الراحة والعزيمة على مواصلة المسيرة في التمسك بطريق الحق والهدى، وإنذاراته كلها تبعث في القلب الخوف والوجل، وتزجر النفوس عن التمادي في طريق الضلال والرضى به، فكل بشاراته تتشابه

في تحقيق مقصود الرجاء، وكل إنذاراته تتشابه في تحقيق مقصود الخوف، فيبقى العبد دائرا في سيره إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، وجمع البابين مع بعضهما البعض يتشابهان في تحقيق مقصود الخشية، لأن الخشية مزيج بين الخوف والرجاء، فالتشابه العام ثمرة من ثمرات الإحكام العام، ولأنه محكم الإحكام الكامل المطلق، فقد أعجز البلغاء الفصحاء أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، لأنه كلام الله تعالى منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، فالتشابه العام هو الإحكام العام، وهذا متفق عليه لم ينازع فيه عالم ممن له قدم صدق في الأمة، فالقرآن محكم كله في ألفاظه ومعانيه فهو غاية في البلاغة والإعجاز، ومتشابه بمعنى أنه يشبه بعضه بعضا في الإعجاز والصدق والبيان والعدل هذا محصل ما ذكره أهل العلم في مسألة الإحكام العام والتشابه العام، والله أعلم.

(الفرع الثاني)

واعلم رحمك الله تعالى وجعلك مباركا حيثما كنت أن القرآن موصوف كذلك بأن بعضه محكم وبعضه متشابه، وهذا يسميه الأصوليون رحمهم الله تعالى (التشابه الخاص والإحكام الخاص) وقد ورد فيه قوله تعالى " هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات " وقد اختلف أهل العلم في معنى هذا الإحكام وهذا التشابه على أقوال كثيرة، وأصح هذه الأقوال عندي -والله أعلم- أن المحكم الخاص هو ما اتضح معناه وعرف المراد منه، وتحدد المقصود منه، والمتشابه هو ما لم يعرف المراد منه ولم يتضح المقصود منه ولم تتحدد معالمه، وقد يطلق السلف الإحكام الخاص ويريدون به ما قابل المنسوخ، فيقولون (هذه الآية محكمة غير منسوخة، وهو

من الإحكام الخاص أيضا، والمشهور عند المتأخرين من الأصوليين هو أن المحكم ما اتضح معناه والمتشابه ما خفي معناه ولم يتضح، وعلى ذلك سوف نسير إن شاء الله تعالى، والله أعلم[١].

---

(١) قال الشاطبي في الموافقات (٣/ ٥٠-٥٩): "المحكم يطلق بإطلاقين عام وخاص. فأما الخاص فالذي يراد به خلاف المنسوخ". ثم قال: "وأما العام فالذي يُعنى به البيّن الواضح الذي لا يفتقر في بيان معناه إلى غيره. فالمتشابه بالإطلاق الأول هو المنسوخ، وبالإطلاق الثاني الذي لا يتبين المراد به من لفظه كان مما يدرك مثله بالبحث والنظر أم لا".

والمعنى المراد هنا هو الثاني، أي أن المحكم هو البيّن الواضح، والمتشابه هو الذي لا يتبين المراد به من لفظه. قال: "وإذا تؤمِّل هذا الإطلاق وُجد المنسوخ والمجمل والظاهر والعام والمطلق قبل معرفة مبيِّناتها داخلة تحت معنى المتشابه، كما أن الناسخ وما ثبت حكمه والمبيّن والمؤوّل والمخصَّص والمقيّد داخله تحت معنى المحكم".

ويُبيِّن الشاطبي أن أكثر أحكام الشريعة محكم. وأن التشابه قليل يقول: "التشابه قد علم أنه واقع في الشرعيات لكن النظر في مقدار الواقع منه هل هو قليل أم كثير، والثابت من ذلك القلة لا الكثرة". وقال: "لولا أن الدليل أثبت أن فيه متشابهًا لم يصح القول به".

ويرد الشاطبي القول بأن المتشابه في الشريعة كثير بناء على أن فيها المنسوخ والمجمل والعام والمطلق، وهو كثير الوقوع في الشريعة، يرده بناء على أن الناسخ مع المنسوخ والبيان مع المجمل والمخصص مع العام والمقيد مع المطلق، كل ذلك بيان، يقول: "وعلى ذلك يدل قول ابن عباس: "لا عام إلا مخصص"، فأي تشابه فيه وقد حصل بيانه، ومثله سائر الأنواع. وإنما يكون متشابهًا عند عدم بيانه". ويقول: "وإذا ثبت هذا فالبيان مقترن بالمبين، فإذا أخذ المبين من غير بيان صار متشابهًا، وليس بمتشابه في نفسه شرعًا".

ويقسم الشاطبي التشابه في النصوص إلى قسمين: حقيقي وإضافي. وثم قسم ثالث لا يرجع إلى النصوص وإنما إلى المناط. يقول: "التشابه الواقع في الشريعة على ضربين: أحدهما حقيقي والآخر إضافي، وهذا فيما يختص بها في نفسها. وثم ضرب آخر راجع إلى المناط الذي تتنزل عليه الأحكام، فالأول هو المراد بالآية، ومعناه راجع إلى أنه لم =

(الفرع الثالث)

اعلم أرشدك الله لطاعته ورزقك الفهم والعلم أن التشابه الخاص نسبي عرضي فقولنا (نسبي) أي أنه يختلف اختلافا كبيرا باعتبار الأفراد على حسب رسوخهم في العلم ودرايتهم بالكتاب والسنة، وعلى اختلاف فهمهم في الأدلة، فما يكون متشابها خفيا في حق فلان قد يكون من أوضح الواضحات في حق

=

يُجعل لنا سبيل إلى فهم معناه ولا نُصب لنا دليل على المراد منه". ثم قال في الثاني وهو الإضافي: "قد حصل بيانه في نفس الأمر ولكن الناظر قصر في الاجتهاد أو زاغ عن طريق البيان اتباعًا للهوى فلا يصح أن ينسب الاشتباه إلى الأدلة، وإنما ينسب إلى الناظرين التقصير أو الجهل". أما القسم الثالث فقال فيه: "وأما الثالث فالتشابه ليس بعائد على الأدلة وإنما هو عائد على مناط الأدلة فالنهي عن أكل الميتة واضح، والإذن في أكل الذكية كذلك. فإذا اختلطت الميتة بالذكية حصل الاشتباه في المأكول لا في الدليل على تحليله أو تحريمه".

والتشابه لا يقع في الكليات لأن هذه معان قطعية.

ومن أمثلة التشابه الحقيقي: "كمسائل الاستواء والنزول والضحك واليد والقدم وأشباه ذلك". فنحن لا نعلم كيفيات هذه الصفات، ولا سبيل لنا إلى معرفة ذلك، لذا هي من المتشابه الحقيقي.

إذا كان التشابه حقيقيًا فلا يصح تأويله. وابتغاء تأويله هو عمل الزائغين. أما إذا كان إضافيًا فينبغي تأويله. يقول: "تسليط التأويل على التشابه فيه تفصيل فلا يخلو أن يكون من المتشابه الحقيقي أومن الإضافي. فإن كان من الإضافي فلا بد منه إذا تعيّن بالدليل كما يُبيَّن العام بالخاص والمطلق بالمقيد والضروري بالحاجي وما أشبه ذلك لأن مجموعهما هو المحكم، وقد مر بيانه. وأما إن كان من الحقيقي فغير لازم تأويله".

وقال: "وأيضًا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المقتدين بهم لم يعرضوا لهذه الأشياء ولا تكلموا فيها بما يقتضي تعيين تأويل من غير دليل، وهم الأسوة والقدوة وإلى ذلك فالآية مشيرة إلى ذلك بقوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} الآية".اهـ. بتصرف.

غيره، فيكون هذا الأمر من المتشابه في حق فرد دون فرد على اختلافهم في علمهم وفهمهم، لأن الناس يتفاوتون في الفهم، فمنهم من أوتي فهما تصدر عنه الأمة، ومنهم من لم يؤت من الفهم إلا بعضه، ولذلك فالآية الواحدة قد لا يستطيع البعض أن لا يستخرج منها إلا وجها واحدا، بينما يستخرج الآخر منها مائة وجه، وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فهذا معنى قولنا (نسبي) أي أنه يختلف بين الأشخاص على حسب قدرهم في العلم وفهمهم، وتوفيق الله تعالى لفهم كتابه، وأما قولنا:- (عرضي) أي أنه ليس بذاتي، ولكنه عارض يزول بالتعلم، فتكون الآية مما يخفى معناها على البعض، ثم يطلب علمها عند العارفين به فيزول عنه الجهل بها، وتكون من المحكم في حقه، ولو كان التشابه ذاتي لما انفك عنها الخفاء مطلقا، لكنه عرضي ولذلك زال بالتعلم، فتحصل لنا من ذلك أن التشابه النسبي تشابه نسبي عرضي، فانتبه لهذا بارك الله فيك لأنه مهم في هذا الباب، والله أعلم.

(تنبيه) يتلخص مما سبق أن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من حيث الإحكام وعدمه على ثلاثة أقسام: منها ما هو محكم حقيقي. ومنها ما هو متشابه حقيقي. ومنها ما هو محكم إضافي. . ويقال له أيضا متشابه إضافي.

المحكم الحقيقي هو: الذي لا يحتاج لغيره لبيان معناه، وهو الغالب الأعم.

والمتشابه الحقيقي: هو الذي لا يتضح معناه ولا بغيره، مثل كيفية صفات الله، وكذا كيفية بعض الأمور الغيبية، وهو قليل جدا في القرآن الكريم، ولا ينبني عليه حكم شرعي، فقط يطلب فيه التسليم بأنه من عند الله.

والمتشابه الإضافي أو المحكم الإضافي: هو الذي يحتاج لغيره لبيان معناه،

مثل المطلق مع مقيده، والعام مع مخصصه، والمنسوخ مع ناسخة، وهكذا، فهو وحده متشابه، وحين ينضم إليه غيره يصير محكما.

قال العلامة العثيمين في القول المفيد (٢/ ١٩٥): المحكم الذي اتضح معناه وتبين، والمتشابه هو الذي يخفى معناه، فلا يعلمه الناس، وهذا إذا جمع بين المحكم والمتشابه، وأما إذا ذكر المحكم مفردا دون المتشابه؛ فمعناه المتقن الذي ليس فيه خلل: لا كذب في أخباره، ولا جور في أحكامه، قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}، [الأنعام: من الآية١١٥]، وقد ذكر الله الإحكام في القرآن دون المتشابه، وذلك مثل قوله تعالى: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}، [يونس:١]، وقال تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُه}، [هود: من الآية١].

وإذا ذكر المتشابه دون المحكم؛ صار المعنى أنه يشبه بعضه بعضا في جودته وكماله، ويصدق بعضه بعضا ولا يتناقض، قال تعالى: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ}، [الزمر: من الآية٢٣]، والتشابه نوعان: تشابه نسبي، وتشابه مطلق.

والفرق بينهما: أن المطلق يخفى على كل أحد، والنسبي يخفى على أحد دون أحد، وبناء على هذا التقسيم ينبني الوقف في قوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}، [آل عمران: من الآية٧]؛ فعلى الوقف على "إلا الله" يكون المراد بالمتشابه المتشابه المطلق، وعلى الوصل {إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}، يكون المراد بالمتشابه المتشابه النسبي.

وللسلف في ذلك قولان:

القول الأول: الوقف على "إلا الله"، وعليه أكثر السلف، وعلى هذا؛

فالمراد بالمتشابه المتشابه المطلق الذي لا يعلمه إلا الله، وذلك مثل كيفية وحقائق صفات الله، وحقائق ما أخبر الله به من نعيم الجنة وعذاب النار، قال الله تعالى في نعيم الجنة: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}، [السجدة: من الآية١٧]؛ أي: لا تعلم حقائق ذلك، ولذلك قال ابن عباس: "ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء".

والقول الثاني: الوصل؛ فيقرأ: {إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}، وعلى هذا؛ فالمراد بالمتشابه المتشابه النسبي، وهذا يعلمه الراسخون في العلم ويكون عند غيرهم متشابها، ولهذا يروى عن ابن عباس؛ أنه قال: "أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله"٢، ولم يقل هذا مدحا لنفسه أو ثناء عليها، ولكن ليعلم الناس أنه ليس في كتاب الله شيء لا يعرف معناه؛ فالقرآن معانيه كلها بينة، لكن بعض القرآن يشتبه على ناس دون آخرين، حتى العلماء الراسخون في العلم يختلفون في معنى القرآن، وهذا يدل على أنه خفي عليبعضهم، والصواب بلا شك مع أحدهم؛ إذا كان اختلافهم اختلاف تضاد لا تنوع، أما إذا كانت الآية تحتمل المعنيين جميعا، بلا منافاة ولا مرجح لأحدهما؛ فإنها تحمل عليهما جميعا.

وبعض أهل العلم يظنون أن في القرآن ما لا يمكن الوصول إلى معناه؛ فيكون من المتشابه المطلق، ويحملون آيات الصفات على ذلك، وهذا من الخطأ العظيم؛ إذ ليس من المعقول أن يقول تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}، [صّ: من الآية٢٩]، ثم تستثنى آيات الصفات وهي أعظم وأشرف موضوعا وأكثر من آيات الأحكام، ولو قلنا بهذا القول؛ لكان مقتضاه أن أشرف ما في القرآن موضوعا يكون خفيا، ويكون معنى قوله تعالى: {لِيَدَّبَّرُوا

آيَاتِهِ﴾، أي: آيات الأحكام فقط، وهذا غير معقول، بل جميع القرآن يفهم معناه؛ إذ لا يمكن أن تكون هذه الأمة من رسول الله ﷺ إلى آخرها لا تفهم معنى القرآن، وعلى رأيهم يكون الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وجميع الصحابة يقرءون آيات الصفات وهم لا يفهمون معناها، بل هي عندهم بمنزلة الحروف الهجائية أ، ب، ت. . . والصواب أنه ليس في القرآن شيء متشابه على جميع الناس من حيث المعنى، ولكن الخطأ في الفهم. فقد يقصر الفهم عن إدراك المعنى أو يفهمه على معنى خطأ، وأما بالنسبة للحقائق، فما أخبر الله به من أمر الغيب، فمتشابه على جميع الناس.

(الفرع الرابع)

اعلم رحمك الله تعالى وجعلك من أهل السنة أن الواجب على كل أحد أن يعمل بما استبان له، وأن يؤمن بما اشتبه عليه، وأن يرد المتشابه للمحكم، ويأخذ من المحكم ما يفسر به المتشابه، حتى تتفق دلالته مع دلالة المحكم، وتتوافق النصوص، ويصدق بعضها بعضا، لأن كلها من عند الله تعالى، وما كان من عند الله تعالى فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهذه طريقة سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة السلف المعتد بأقوالهم في الأمة فالقاعدة عند السلف هي وجوب رد المتشابه إلى المحكم، حتى تتفق دلالته مع المحكم، فيجعلون المحكم هو الأصل الذي يجب اتباعه واعتماده، وأما المتشابه فهم يردونه للمحكم، فإن بان واتضح وإلا فيكلون علمه إلى الله تعالى مع الإيمان به ويقولون:- آمنا به كل من عند ربنا، كما أوضح الله تعالى هذه الطريقة الراسخة المنجية في قوله تعالى " هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في

قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا" فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين اعتمدوا طريقة الراسخين في العلم في كل المسائل، فإياك ثم إياك أيها المسلم أن تجعل المتشابه مكدرا لصفو المحكم، وأن تعارض المحكم به، وأن تقدمه عليه وأن تبتلي الناس به، وأن تجعله حاكما على النصوص المحكمة، فإن هذه الطريقة زيغ وضلال ومفضية إلى إنكار ما هو ثابت، وإثبات ما هو منفي، وإبطال ما هو حق، وإحقاق ما هو باطل وأنا أضرب لك أمثلة على أن تقديم المتشابه على المحكم باب من أبواب الشر والفساد في العقيدة والعمل:

فمن ذلك:- استدلال الجهمية النفاة بقوله تعالى " هل تعلم له سميا " على نفي الصفات والأسماء عن الله تعالى، وبقوله " ليس كمثله شيء " وبقوله " قل هو الله أحد " فعمد الجهمية إلى هذه النصوص المحكمة وحملوها من أوجه الإشكال ما لا تحتمله، وحرفوا معانيها وتنكبوا عن صراط دلالتها الصحيحة إلى دلالات غريبة على اللسان العربي، فتوصلوا إلى فهم هذه الآيات بالطرق الفلسفية الضالة المعوجة، وبالقواعد المنطقية المخالفة للمنقول والمناقضة للمعقول، حتى صارت عندهم هذه الآيات من قبيل المتشابه، ففهموا منها فهما غريبا جعلوه هو العمدة الذي تقاس عليه آيات الأسماء والصفات، وأهملوا بسبب هذا الفهم المغلوط المنكوس الآيات الكثيرة المتواترة المحكمة الواردة في إثبات الأسماء والصفات، فوقعوا فيها تحريفا وتعطيلا، وإنكارا وتكذيبا، بسبب الدلالة المتشابهة في الآيات السابقة، وتالله إن هذه الآيات لا تفيد إلا أن الله تعالى ليس كمثله شيء ولا سمي له في ذاته ولا في صفاته ولا في أسمائه ولا

في أفعاله، جل وعلا، لكن انظر كيف ضربوا دلالة القرآن بعضه ببعض بسبب اعتمادهم على المتشابه وإعراضهم عن المحكم، فيأتون إلى قوله تعالى "الرحمن على العرش استوى" وهي محكمة فيقولون:- لا تجوز نسبة الاستواء إلى الله تعالى لأنه ليس كمثله شيء، ولا سمي له، وهو الله الأحد، فيجعلون الدلالة التي فهموها من هذه الآيات الثلاث مكدرة لصفو الآيات المحكمة الكثيرة التي امتلأ بها القرآن، وقررتها السنة الصحيحة، وتالله لقد أفسدوا في الدين أيما إفساد، وفتحوا الباب لأعداء الملة على مصراعيه، وساموا العقيدة الصحيحة في مؤلفاتهم وتقريراتهم سوم العذاب، فالنصوص التي تثبت لله تعالى صفات الكمال من العلم والقدرة والإرادة والحياة والكلام والسمع والبصر والوجه واليدين والغضب والرضا والفرح والضحك والرحمة والحكمة ونحوها من صفات الكمال الثابتة، كل ذلك محكم لا اشتباه فيه باعتبار المعنى، قد ثبتت بها الأدلة الصحيحة التي لا مطعن فيها ولا وفي دلالتها، وكذلك الأدلة الواردة في شأن صفات الأفعال كالمجيء والإتيان والنزول للسماء الدنيا ونحو ذلك، كل ذلك مما لا يحتمل إلا الحق، لا يحتمل غيره أبدا، فهو محكم في معناه ومحكم في دلالته ويفهم منه أهل العقول السليمة الفهم السليم المؤيد بفهم سلف الأمة وأئمتها، فأهمل الجهمية ذلك كله، وأنكروه وحرفوه وعطلوه، بسبب دلالة فهموها من قوله " ليس كمثله شيء" فهذا هو شأن أعداء الدين والملة، أنهم يقبلون إقبال الشره على الدلالة المتشابهة الخفية ويجعلها هي العمدة وينزل الأدلة المحكمة الواضحة التي لا خفاء فيها على هذه الدلالة المجملة المحتملة المتشابهة، وناهيك عن النتائج الفاسدة التي تصدر من هذه العملية الباطلة الشيطانية البدعية، والله المستعان، وحق من يفعل

ذلك أن ينصح ويوعظ ويعلم، فإن استجاب فالحمد لله، وإلا فلا بد من عقوبته وزجره الزجر الكبير الذي يردعه وأمثاله عن مثل هذه الفهم الفاسد.

ومنها:- وهو من العجب العجاب، ما يستدل به بعض النصارى على المسلمين من تعدد الإله إلى ثلاثة آلهة، الأب والابن وروح القدس، بقوله تعالى " إنا " بصيغة الجمع أو بقوله " نحن " أو بقوله " أنزلنا " ونحو ذلك مما يخبر به عن نفسه بنون الجمع، وهذا هو الكفر بعينه والضلال برمته والحمق والجهل بعروقه وحذافيره، أين هذه الآيات وما في معناها من قوله تعالى " فاعلم أنه لا إله إلا الله " ومن قوله تعالى " وإلهكم إله واحد " ومن قوله تعالى " وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون " ومن قوله تعالى " وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء " ومن قوله تعالى " شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم " والآيات في هذا المعنى كثيرة، فتركوا ذلك كله وأهملوه، ووضعوه جانبا واعتمدوا الدلالة المتشابهة في إخبار الله تعالى عن نفسه بضمير الجمع، فبالله عليك هل هذا من العدل؟ مع أن (النون) الواردة فيما يخبر به الرب جل وعلا عن نفسه إنما هي (نون) المعظم نفسه، وليست هي نون الجمع، وهو أسلوب عربي تعرفه العرب في كلامها، ولكنها العقول الفاسدة والأفهام العفنة النتنة، والنفوس التي عشعشت فيها الشياطين، فإنا لله وإنا إليه راجعون فانظر - رعاك الله تعالى - كيف يؤدي تقديم المتشابه على المحكم، فهذه نتائجه وهذه آثاره وسوف ترى من ذلك أكثر إن عشت، لأنه من يعش منا فسيرى اختلافا كثيرا، فنسأل الله تعالى أن نموت على الإسلام والإيمان والسنة.

ومنها:- اعتماد الرافضة على المتشابه في قوله تعالى " وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا " على أن الصحابة كانوا يؤذون النبي ﷺ، فنزل فيهم القرآن وأن منهم من كان عازما على الزواج ببعض نسائه إن مات، فيجعلون ذلك من القوادح في الصحابة ومن الأسباب التي ينالون بها منهم، ونسوا قوله تعالى " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا منهم مغفرة وأجرا عظيما" وقوله تعالى " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم" وقوله تعالى " لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة" وقوله تعالى "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا" وقوله ﷺ " خير الناس قرني " والنصوص في ذلك لا تكاد تحصر، وكلها مثبتة لعدالة الصحابة، وأنهم قوم ثقات عدول أثبات، لا كان ولا يكون مثلهم في علمهم ودينهم وأخلاقهم ومحبتهم لله ولرسوله ﷺ، وأنهم أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا، وأشدهم تمسكا بالشرع، وأعظمهم غيرة على محارم الله تعالى، فمن بالله عليك كالصحابة في دينهم وفضلهم وسابقتهم ونصرتهم لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام؟ لكن الرافضة - لعنهم الله تعالى - أهملوا ذلك كله وهو من المحكم الواضح وأقبلت قلوبهم على الدلالات المحتملة المتشابهة، فجعلوا المتشابه هو الحاكم

على المحكم وجعلوا المحكم في قفص الاتهام حتى تثبت براءته، ألا فشاهت وجوه المبتدعة المعاندين للشرع.

ومنها:- ما حكاه ابن القيم في الإعلام بقوله (ردهم - أي الجهمية - المعلوم المحكم بالضرورة أن الرسل جاءوا به من إثبات علو الله على خلقه واستوائه على عرشه بمتشابه قول الله تعالى " وهو معكم أينما كنتم" وقوله "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" وقوله "ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا " ونحو ذلك، ثم تحيلوا وتمحلوا حتى ردوا نصوص العلو والفوقية بمتشابهه، قلت: ـ مع أن علو الله تعالى من أكثر الصفات التي وردت بإثباتها الأدلة على أوجه مختلفة كما شرحنا ذلك في موضع آخر.

ومنها:- إن القدرية قد فهموا من قوله تعالى " وما ربك بظلام للعبيد " ومن قوله " ولا يظلم ربك أحدا " أن الله تعالى لا يمكن أن يخلق فعل العبد، إذ كيف يخلق فعل العبد ثم يعاقبه عليه، هذا من الظلم فجعلوا ذلك الفهم من الآية حاكما على جميع النصوص التي فيها عموم خلق الله تعالى لكل شيء، وأن الأشياء إنما تكون بقدر الله تعالى، فجعلوا تلك الدلالة المتشابهة من الآية هي المقدمة على النصوص المحكمة المتواترة من أنه تعالى خالق كل شيء، كقوله تعالى " الله خالق كل شيء" وقوله تعالى " وما تشاءون إلا أن يشاء الله " وغير ذلك من النصوص المحكمة القاطعة في دلالاتها من أن فعل العبد مخلوق لله تعالى، وأن العبد لا يريد إلا ما يشاء الله، وما فهموا أن الإرادة قسمان:- إرادة كونية قدرية، وإرادة شرعية أمرية دينية، تمسكا منهم بالمتشابه وإهمالا منهم للمحكم الصريح، وأما أهل السنة فإنهم جمعوا بين الأمرين، ووحدوا بين

الدلالتين فقالوا:- إن أفعال العباد داخلة تحت عموم خلق الله تعالى، فالله تعالى هو الذي خلق العباد وخلق أفعالهم، لكنها تنسب إلى العبد باعتبار أنه هو الذي باشر فعلها، فأفعال العباد تنسب إلى الله تعالى خلقا وإيجادا، وتنسب إلى العباد تحصيلا واكتسابا، فالآيات أصلا ليس بينها أي نوع من أنواع التعارض - حاشا وكلا - ولكن القدرية حملوها ما لا تحتمل من الدلالات المتشابهة الخفية المنكوسة، وجعلوا تلك الدلالات هي الحاكمة على النصوص القاطعة المحكمة، فجاءوا بتلك الخرافات والهذيان الذي أوجب لهم الخروج عن دائرة الحق إلى دائرة الكفر والبدعة والزندقة، ولو أنهم وقفوا عند المحكم، واعتمدوه وردوا دلالة المتشابه له لما وقعوا في مثل ذلك، ولكنه قدر الله تعالى، ومن يضلل الله فما له من هاد والله المستعان.

ومنها:- رد الجبرية النصوص المحكمة في إثبات كون العبد قادرا ومختارا وفاعلا بمشيئته بالمتشابه في قوله " وما تشاءون إلا أن يشاء الله" وقوله "وما يذكرون إلا أن يشاء الله" وقوله "ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم " وأمثال ذلك، ثم استخرجوا لتلك النصوص من الاحتمالات التي يقطع السامع أن المتكلم لم يردها، ما صيروها به من متشابهة، أفاده العلامة ابن القيم، أي أنهم فهموا من نسبة المشيئة لله تعالى أن العبد لا قدرة له ولا اختيار ولا مشيئة، فنفوا عنه مطلق المشيئة، فهو مجبور على فعله لا قدرة له فيه ولا حيلة ولا اختيار، بل هو كالمدفوع دفعا إليه، فاعتمدوا تلك الدلالة التي فهموها، وجعلوها هي الحاكمة على النصوص الكثيرة المتواترة من نسبة الأفعال إلى العباد، كقوله تعالى " وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم" وقوله "كل نفس بما كسبت رهينة" وقوله "ذلك بما قدمت أيديكم " والنصوص التي فيها نسبة

الخير والشر والكسب والفعل إلى العبد لا تكاد تحصر كثرة، وكلها تدل الدلالة المحكمة القطعية على أن العبد هو الفاعل وأن له إرادة ومشيئة، لكن الجبرية لم تحتمل عقولهم ذلك، ووقفوا عند المتشابه المحتمل وردوا الدلالة الصريحة المحكمة، كما هو حال أهل البدع والأهواء، فحرموا بذلك التوفيق للحق، وزاغت قلوبهم عن الهدى كما قال تعالى " فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم " وأما أهل الحق والهدى فإنهم جمعوا بين الآيات ووحدوا بين الدلالات، وقدموا المحكم على المتشابه، فقالوا:- إن العبد له قدرة ومشيئة واختيار، وأن له عقلا يميز به بين النافع والضار والحق والباطل والهدى والضلال، وأنه يقدم على فعله الاختياري بقدرته وإرادته، لكن هذه القدرة والمشيئة والاختيار ليست مطلقة، بل هي مقيدة بمشيئة الله تعالى وإرادته، فصار أهل السنة والجماعة بذلك المذهب وسطا بين طرفين فالقدرية أعطوا العبد القدرة المطلقة والمشيئة المطلقة والإرادة المطلقة، والجبرية نفوا عن العبد مطلق القدرة ومطلق المشيئة ومطلق الاختيار، وأما أهل السنة فإنهم لم يعطوه القدرة المطلقة والمشيئة المطلقة والاختيار المطلق، ولم يسلبوه مطلق القدرة ولا مطلق الاختيار ولا مطلق المشيئة، أي أن العبد عنده قدرة لكنها خاضعة وتابعة لقدرة الله تعالى، وعنده مشيئة لكنها خاضعة وتابعة لمشيئة الله تعالى، وعنده اختيار لكنه خاضع وتابع لاختيار الله تعالى، فهذا هو الحق المتوافق مع الكتاب والسنة ومذهب سلف الأمة، وما وفق أهل السنة لذلك الحق إلا لأنهم قدموا المحكم على المتشابه فالله الله بهذه الطريقة الراسخة، فإنها الطريق التي ترضي الله تعالى من فوق سبع سماوات.

ومنها:- لقد أثبت النص القاطع أمر الشفاعة يوم القيامة، فوردت بذلك

النصوص الصريحة المحكمة التي لا تدع مجلا للشلك ولا للاحتمال في عدم ثبوتها، فأثبت النص منها الشفاعة العظمى والشفاعة في أهل الكبائر، والشفاعة في أهل الجنة ليدخلوا الجنة، وشفاعة التخفيف في أبي طالب، والشفاعة في رفعة الدرجات، وكل ذلك ثابت بالأدلة الصحيحة الصريحة، لا سيما الشفاعة في أهل الكبائر، فإن النصوص الواردة فيها قد بلغت مبلغ التواتر، كما نص على ذلك الناظم في قوله في سرد بعض المتواترات: مما تواتر حديث " من كذب " و"من بنى لله بيتا واحتسب " و(رؤية) (شفاعة) (والحوض) و(مسح خفين)، فنصوص إثبات الشفاعة نصوص محكمة قطعية الدلالة، قطعية الثبوت، ولكن أبي المعتزلة والخوارج ذلك، وما قبلوه، بل ردوه واتهموه، بسبب قوله تعالى " فما تنفعهم شفاعة الشافعين " وفهموا من ذلك نفي الشفاعة عن كل أحد، وأن هذا النص باق على عمومه، لم يخص منه أحد فاعتمدوا هذه الدلالة المتشابهة، وجعلوها حاكمة على النصوص القطعية المتواترة، وردوا المحكم إلى المتشابه، وأبطلوا دلالة المحكم وكفروا به، محافظة منهم على تلك الدلالة التي فهموها من النص العام، فأدى بهم ذلك إلى نفي أمر الشفاعة عن أهل الكبائر يوم القيامة، وهذا من أثر تقديم المتشابه على المحكم، وأما أهل السنة والجماعة - رحم الله أمواتهم وثبت أحياءهم - فإنهم قالوا:- إن قوله تعالى " فما تنفعهم شفاعة الشافعين " إنما هي في حق الكفار الذين ماتوا على الكفر والشرك، أو نقول:- إنها من العام المخصوص فالأصل عدم الشفاعة، وأنها لا تنفع إلا من أثبت الدليل الصحيح الصريح أنها تنفعه، فيخرج من ورد فيه الدليل من النص العام، لأن المتقرر في قواعد الأصول أن الخاص مقدم على العام، ولكن أهل الباطل عاندوا في ذلك، واستمروا على غيهم وضلالهم، تعصبا

وجحدا للحق، والمقصود:- أن الوعيدية من الخوارج والمعتزلة إنما وقعوا في رد الأدلة الصحيحة في أمر الشفاعة لأنهم قدموا المتشابه على المحكم، وأن أهل السنة إنما وفقوا في ذلك للحق لأنهم قدموا المحكم على المتشابه، وردوا دلالة المتشابه إلى المحكم، فالله الله يا طلب العلم باعتماد ذلك، والله أعلم.

ومنها:- لقد أتبث النص القاطع المحكم الأفعال الاختيارية في حق الله تعالى، وقيامها به، فالله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد جل وعلا، فالفعل الاختياري ثابت في حقه تعالى، كما قال تعالى "كل يوم هو في شأن" وقوله "فسيرى الله عملكم" وقوله "وغضب الله عليهم" وقوله "رضي الله عنهم" وقوله "هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام" وقوله "وجاء ربك والملك صفا" وقوله "فلما تجلى ربه للجبل" وقوله "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا" وقوله "إن الله يفعل ما يريد" وقوله "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها" وقوله ﷺ " ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر الحديث " ونحو ذلك من النصوص المثبتة لفعله جل وعلا، فالله تعالى يفعل ما يشاء وقال أهل السنة بذلك كله، مع الإيمان بأن فعله يقال فيه ما يقال في سائر صفاته جل وعلا، فالله تعالى له ذات لا تماثل الذوات، وله صفات لا تماثل الصفات، وله أفعال لا تماثل أفعال العباد فليس كمثل الله تعالى شيء لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله جل وعلا وتبارك وتقدس، فالنصوص المحكمة المتواترة أثبتت قيام الأفعال الاختيارية به جل وعلا، لكن أبى أهل البدع ذلك، ورفضوه أيما رفض، بل وكفروا من قال بذلك، ووصفوه بالأوصاف القبيحة المستهجنة المنكرة، استدلالا بقوله تعالى " لا أحب الآفلين " والأفول عندهم محصور في الحركة

أي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد استدل على بطلان إلهية الكوكب بأنه أفل -أي تحرك عن مكانه- فقالوا:- فبما أنه استدل على بطلان إلهيته بالحركة، فهذا دليل على أن الله تعالى لا يقوم به فعل، ولا يصدر منه شيء من الأفعال، فانظر إلى مبلغ الحمق والجهل الذي بلغ بهؤلاء القوم الذين يدعون أن طريقتهم أعلم وأحكم من طريقة سلف الأمة وأئمتها، وتالله إن طريقة البهيمة أعلم وأحكم من طريقة هؤلاء المتهوكين، لأنها لم تتدخل فيما لا شأن لها به، فيا أيها الناس، أين عقول هؤلاء البقر؟ الذين ينكرون كل هذه النصوص المحكمة القطعية المتواترة، من أجل شيء فهموه من نص يحتمل عدة احتمالات، فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا، وتالله إن هم إلا كالأنعام بل هو أضل سبيلا، فجعلوا تلك الدلالة المتشابهة حاكمة على تلك النصوص المحكمة القطعية في ثبوتها ودلالتها، فحرفوها عن مدلولاتها الصحيحة، وحملوها ما لا تحتمل من المعاني الغريبة الباطلة، وتعسفوا في إنكار معانيها الصحيحة، لأنهم فهموا من قوله " لا أحب الآفلين " معنى واحدا، فأنزلوا على هذا المعنى كل النصوص التي تفيد قيام الأفعال الاختيارية في حق الرب جل وعلا، تقديما منهم للمتشابه على المحكم، وردا لدلالة المحكم من أجل مراعاة دلالة المتشابه فانظر كيف أنكروا نصوصا كثيرة بسبب تقديم المتشابه على المحكم، مع أن الأفول لا يأتي بمعنى الحركة في كلام العرب، بل الأفول هنا يراد به الغياب، فقوله " فلما أفل " أي غاب، والرب لا يغيب عنه أمر الخلق، بل لا بد وأن يكون الرب مطلعا على خلقه، وعالما بأمورهم لا يخفى عليه شيء منها كبر أو صغر، وذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له، كما قال تعالى " إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء" وقوله "ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن"

وقوله "وهو معكم أينما كنتم" وقوله "ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " والآيات في هذا المعنى كثيرة، ومن العجائب أن العرب قالت:- إن الأفول يأتي بمعنى نقصان العقل، فتقول العرب:- المأفول وهو على وزن:- مأفون، أي الناقص في عقله، أفاده ابن منظور في لسان العرب، وهؤلاء الحمقى ما وقعوا في رد النصوص المتواترة المثبتة لقيام الأفعال الاختيارية في حق الرب جل وعلا استدلالا بأفول القمر والكوكب والشمس إلا لبغيهم وعنادهم، وهو بعينه دليلنا على أفول عقولهم وغيابها عن معرفة الحق لنقصها وامتلائها من نجاسة التقعيد الفلسفي الكفري الباطل، المناقض للمعقول والمصادم للمنقول، والمقصود أن المبتدعة أنكروا دلالة النصوص المحكمة وقدموا عليها الدلالة المحتملة المتشابهة، وأما أهل السنة فإنهم اعتمدوا على الدلالة المحكمة، وردوا الدلالة المتشابهة إليها والله أعلم.

ومنها:- انعقد إجماع أهل السنة والجماعة - رحمهم الله تعالى - على أنه جل وعلا يرى رؤية حقيقية في الآخرة على ما يريده جل وعلا من كيفيتها، فالرؤية في الآخرة من المسائل المتفق عليها ومستند هذا الإجماع القرآن والسنة، قال تعالى " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " وقد ورد في تفسيرها أنها رؤية الله تبارك وتعالى، وقال تعالى " وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة " وقد تواترت أدلة السنة في ذلك، فالأدلة في إثبات الرؤية محكمة متواترة قطعية الدلالة قطعية الثبوت، لا ينازع فيها أحد من أهل السنة، ولكن أبى ذلك أهل البدع والضلال، وردوه وحاربوه، ووصفوا من أثبته بأنه مجسم حشوي، ولم يأبهوا بتلك الأدلة المتواترة، ولم ينظروا فيها، بل حرفوها وأخرجوها عن

دلالاتها الصحيحة، وحملوها من المعاني الباطلة الغريبة عن لسان العرب، وكل ذلك بسبب الدلالة المتشابهة في قوله تعالى " لن تراني" وقوله تعالى " لا تدركه الأبصار " ففهموا من هاتين الآيتين بأنه تعالى لا يمكن أن يرى، فجعلوا تلك الدلالة المتشابهة هي الأصل، وحقها الاعتماد، وأما الأدلة المتواترة في إثبات الرؤية فحقها التحريف والتعطيل والجحد والإنكار، فأدى بهم ذلك إلى إنكار رؤية الرب جل وعلا يوم القيامة، فانظر كيف وصلت بهم الحال إلى تعطيل عشرات النصوص المتواترة بسبب تقديم المحتمل المتشابه على الدلالة المحكمة القطعية، وأما أهل السنة فإنهم قد اعتمدوا على المحكم وردوا المتشابه إلى المحكم فاتفقت الأدلة وتآلفت، وقال أهل السنة:- إن نفي الرؤية في قوله " لن تراني " إنما هو نفي لها في الدنيا فقط، ونحن نقول بذلك فالله تعالى لا يرى ولن يرى في الدنيا، والخلاف الآن إنما هو في الرؤية يوم القيامة، وأما قوله تعالى " لا تدركه الأبصار " فإنه ليس نفيا للرؤية، وإنما هو نفي للإدراك فقط، فالأعين إذا رأت ربها تعالى يوم القيامة، فإنها لا تحيط به رؤية، فالرؤية شيء والإدراك شيء آخر، فأنت ترى السماء لكن هل تحيط برؤيتها كلها؟ وأنت ترى الأرض لكن هل تحيط برؤيتها كلها؟ بالطبع:- لا فالسماء ترى ولا يحاط بها، والأرض ترى ولا يحاط بها، فالله تعالى يرى في الآخرة ولا يحاط به فقوله تعالى " لا تدركه الأبصار " إنما هو نفي للإدراك وليس نفيا للرؤية، بل إن نفي الإدراك يتضمن إثبات الرؤية، ولو تدبرت ذلك لرأيته صحيحا، والمراد:- أن أهل البدع قدموا دلالة المتشابه على المحكم، فوقعوا في رد الأدلة الصحيحة المتواترة القطعية، وأما أهل السنة فإنهم قدموا المحكم على المحتمل، فاتزن قولهم، وصار وسطا بين طرفين وهدى بين ضلالتين، ذلك لأن الصوفية الغلاة

يعتقدون أن الله تعالى يرى في الدنيا رؤية حقيقية فضلا عن رؤيته في الآخرة، بينما ذهب أهل البدع من المعتزلة والجهمية والأشاعرة ومن نحا نحوهم إلى أنه جل وعلا لا يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأما أهل الحق فإنهم توسطوا بين المذهبين فقالوا: ـ إنه جل وعلا لا يرى في الدنيا، وإنما يرى في الآخرة، فالحق معهم، ولا يخرج البتة عنهم، ونحن نقول بما قالوا، والله ربنا يتولانا وإياك لما فيه صلاح الدين والدنيا.

ومنها:- قال ابن القيم رحمه الله تعالى (المثال التاسع:- رد النصوص الصحيحة الصريحة الكثيرة الدالة على ثبوت الأسباب شرعا وقدرا كقوله " بما كنتم تعملون " " بما كنتم تكسبون " "بما قدمت أيديكم " "بما قدمت يداك " " بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون" " ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة " " ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم " " ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا" وقوله "يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام" " يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا" وقوله "ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد" وقوله "فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات" وقوله "فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب" وقوله "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم" وقوله في العسل " فيه شفاء للناس" وقوله في القرآن " وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين " إلى أضعاف أضعاف ذلك من النصوص المثبتة للسبب، فردوا ذلك كله بالمتشابه من قوله " هل من خالق غير الله" وقوله "فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى " وقول النبي ﷺ " ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم " ونحو ذلك، وقوله "إني لا أعطي أحدا ولا أمنعه" وقوله للذي سأله عن العزل عن أمته

" اعزل عنها وسيأتيها ما قدر لها" وقوله "لا عدوى ولا طيرة" وقوله "فمن أعدى الأول" وقوله "أرأيت إن منع الله الثمرة " ولم يقل:- منعها البرد أو الآفة التي تصيب الثمار، ونحو ذلك من المتشابه الذي إنما يدل على أن مالك السبب وخالقه يتصرف فيه بأن يسلبه سببيته إن شاء ويبقيها عليه إن شاء، كما سلب النار قوة الإحراق على الخليل، ويالله العجب، أترى من أثبت الأسباب وقال إن الله خالقها قد أثبت خالقا غير الله؟ أما قوله " فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى " فغاب عنهم فقه الآية وفهمها، والآية من أكبر معجزات النبي ﷺ، والخطاب بها خاص بأهل بدر وكذلك القبضة التي رمى بها النبي ﷺ، فأوصلها الله تعالى إلى جميع وجوه المشركين، وذلك خارج عن قدرته ﷺ، وهو الرمي الذي نفاه عنه، وأثبت له الرمي الذي هو في محل قدرته وهو الخذف، وكذلك القتل الذي نفاه عنهم، هو قتل لم تباشره أيديهم، وإنما باشرته أيدي الملائكة، فكان أحدهم يشتد في أثر الفارس، وإذا برأسه قد وقع أمامه من ضربة الملك، ولو كان المراد ما فهمه هؤلاء الذين لا فقه لهم في فهم النصوص لم يكن فرق بين ذلك وبين كل قتل وكل فعل من شرب أو زنا أو سرقة أو ظلم، لأن الله تعالى خالق الجميع وكلام الله ينزه عن هذا وكذلك قوله " ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم " لم يرد أن الله حملهم بالقدر وإنما كان النبي ﷺ متصرفا بأن الله منفذا له، فالله سبحانه أمره بحملهم فنفذ أوامره، فكأن الله هو الذي حملهم، وهذا معنى قوله " والله إني لا أعطي أحدا شيئا ولا أمنعه" ولهذا قال " وإنما أنا قاسم " والله سبحانه هو المعطي على لسانه وهو يقسم ما يقسمه بأمره وكذلك قوله في العزل " فسيأتيها ما قدر لها " ليس فيه إسقاط الأسباب، فإن الله سبحانه إذا قدر خلق الولد، سبق من الماء ما يخلق منه الولد،

ولو كان أقل شيء، فليس من كل الماء يكون الولد ولكن أين في السنة أن الوطء لا تأثير له في الولد البتة، وليس سببا له، وأن الزوج أو السيد إن وطئ أو لم يطأ فكلا الأمرين بالنسبة إلى حصول الولد وعدمه على حد سواء، كما يقوله منكرو الأسباب، وكذلك قوله " لا عدوى ولا طيرة " لو كان المراد به نفي السبب كما زعمتم لم يدل على نفي كل سبب، وإنما غايته أن هذين الأمرين ليسا من أسباب الشر، كيف والحديث لا يدل على ذلك، وإنما ينفي ما كان المشركون يثبتون من سببية مستمرة على طريقة واحدة لا يمكن إبطالها، ولا صرفها عن محلها ولا معارضتها بما هو أقوى منها، لا كما يقوله من قصر علمه:- إنهم كانوا يرون ذلك فاعلا مستقلا بنفسه، فالناس في الأسباب لهم ثلاث طرق:- إبطالها بالكلية وإثباتها على وجه لا يتغير ولا يقبل سلب سببيتها، ولا معارضتها بمثلها، أو أقوى منها، كما يقوله الطبائعية والمنجمون والدهرية، والثالث:- ما جاءت به الرسل ودل عليه الحس والعقل والفطرة:- إثباتها أسبابا، وجواز وقوع سلب سببيتها عنها إذا شاء الله تعالى ودفعها بأمور أخرى نظيرها أو أقوى منها، مع بقاء مقتضى السببية فيها، كما تصرف كثير من أسباب الشر بالتوكل والدعاء والصدقة والذكر والاستغفار والعتق والصلة، وتصرف كثير من أسباب الخير بعد انعقادها بضد ذلك، فلله كم من خير انعقد سببه ثم صرف عن العبد بأسباب أحدثها منعت حصوله وهو يشاهد السبب حتى كأنه أخذ باليد وكم من شر انعقد سببه ثم صرف عن العبد بأسباب أحدثها منعت حصوله، ومن لا فقه له في هذه المسألة فلا انتفاع له بنفسه ولا بعلمه، والله المستعان وعليه التكلان)اهـ. كلامه البديع رحمه الله تعالى، وأحببت أن أنقله مع ما فيه من الطول لأهميته ولخطورة هذه المسألة، والخلاصة من هذا الفرع:- أن الأدلة المثبتة لتأثير

الأسباب كثيرة جدا تفوق الحصر، ولكن المبتدعة عطلوها بسبب بعض الدلالات المتشابهة المحتملة، فقدموا المتشابه على المحكم كعادتهم في مخالفة الحق، وأما أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى فإنهم قالوا:- إن الأسباب مؤثرة لكن لا بذاتها، بل بجعل الله تعالى لها مؤثرة، فجمعوا بين الأدلة، ولم يطرحوا شيئا منها وذلك ببركة هذه القاعدة الطيبة التي تنص على وجوب تقديم المحكم على المتشابه. والله أعلم، انظر تعريف الطلاب بأصول الفقه في سؤال وجواب سؤال رقم (٩٥).

مسألة: عنوان الفلاح اتباع السنة بفهم سلف الأمة

قال الله ﷻ: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) [النساء: ١١٥].

قال عمر بن عبد العزيز: (سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها من عمل بها مهتد، ومن انتصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا)(١).

(١) قال الشيخ مشهور في الموفقات (٤/ ٤٦١): أخرجه -من طرق- الآجري في الشريعة (ص٤٨، ٦٥، ٣٠٦)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٨٦)، ومن طريقه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٩٤/ رقم ١٣٤)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٧٣)، وابن بطة في الإبانة (١/ ٣٥٢-٣٥٣/ رقم ٢٣٠، ٢٣١)، وابن عبد البر في الجامع (٢/ ١١٧٦/ رقم ٢٣٢٦)، والهروي في ذم الكلام (ص١٠٧، ١٩٩)، والمروزي في السنة (٣١)، وابن الجوزي في سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز (٨٤) وهو صحيح. . . وكان مالك رحمه الله يعجبه هذا الأثر، ويستدل به على المبتدعة، قال القاضي عياض في ترتيب المدارك (١/ ١٧٢ - ط بيروت): "قال مطرف: سمعت =

وكتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر، فكتب: أما بعد، أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة رسوله ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإنها لك -بإذن الله- عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها، فإن السنة إنما سنها من قد علم ما في خلافه من الخطا والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم: إنما حدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مقصر، وما فوقهم من محسر، وقد قصر قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم، كتبت تسال عن الإقرار بالقدر، فعلى الخبير -بإذن الله- وقعت، ما أعلم ما أحدث الناس من محدثة، ولا ابتدعوا من بدعة هي أبين أثرا ولا أثبت أمرا من الإقرار بالقدر، لقد كان ذكره في الجاهلية الجهلاء، يتكلمون به في كلامهم وفي شعرهم، يعزون به أنفسهم على ما فاتهم، ثم لم يزده الإسلام بعد إلا شدة، ولقد ذكره رسول الله -ﷺ- في غير حديث ولا حديثين، وقد سمعه منه المسلمون، فتكلموا به في حياته وبعد وفاته، يقينا وتسليما لربهم، وتضعيفا لأنفسهم، أن يكون شيء لم يحط به علمه، ولم يحصه كتابه، ولم يمض فيه قدره، وإنه لمع ذلك في محكم كتابه: لمنه اقتبسوه، ومنه

=

مالكا إذا ذكر عنده فلان من أهل الزيغ والأهواء يقول: قال عمر بن عبد العزيز "وذكره"، قال: "وكان مالك إذا حدث بها ارتج سرورًا.

تعلموه، ولئن قلتم: لم أنزل الله آية كذا؟ ولم قال كذا؟ لقد قرؤوا منه ما قرأتم، وعلموا من تأويله ما جهلتم، وقالوا بعد ذلك: كله بكتاب وقدر، وكتبت الشقاوة، وما يقدر يكن، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا نملك لأنفسنا ضرا ولا نفعا، ثم رغبوا بعد ذلك ورهبوا[١].اهـ.

وعن ابن الماجشون، قال: سمعت مالكا يقول: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة؛ فقد زعم أن محمدا صلى الله عليه وعلى آله وسلم خان الرسالة؛ لأن الله يقول: {اليوم أكملت لكم دينكم} فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا»[٢].اهـ.

وقال ابن حبان في مقدمة صحيحه (١/ ١٠٢): وإن في لزوم سنته: تمام السلامة، وجماع الكرامة، لا تطفأ سرجها، ولا تدحض حججها، من لزمها عصم، ومن خالفها ندم؛ إذ هي الحصن الحصين والركن الركين، الذي بان فضله ومتن حبله، ومن تمسك به ساد، ومن رام خلافه باد، فالمتعلقون به أهل السعادة في الآجل، والمغبطون بين الأنام في العاجل.اهـ.

وقال البربهاري في شرح السنة (ص١): اعلم أن الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام، ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر، فمن السنة لزوم الجماعة ومن رغب

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦١٢)، وأحمد في الزهد (ص٣٦٠)، والأجري في الشريعة (٢٣٣)، وابن وضاح في البدع (ص٣٠/ ٣١) وقال العلامة الألباني في صحيح أبي داود: صحيح مقطوع، يعني صحيح من قول عمر بن عبد العزيز.

(٢) روى هذا القول عن الإمام مالك تلميذه ابن الماجشون كما في الاعتصام ١/ ٤٩، وقال أبو إسحاق الشاطبي الأندلسي المالكي في الموضع السابق من الاعتصام: "فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إن الشريعة لم تتم، وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها؛ لأنه لو كان معتقدًا لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع ولا استدرك عليها".

غير الجماعة وفارقها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وكان ضالا مضلا».

وقال: «واعلم رحمك الله أنه لا يتم إسلام عبد حتى يكون متبعا مصدقا مسلما فمن زعم أنه قد بقي شيء من أمر الإسلام لم يكفوناه أصحاب رسول الله ﷺ فقد كذبهم وكفى بهذا فرقة وطعنا عليهم، قال ابن مسعود: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».اهـ.

وقال ابن بطه في الإبانة الكبرى (١/ ٣٦٤): فقد ذكرت في هذا الباب ما قاله المصطفى ﷺ، وأمر به أصحابه، والتابعين بعدهم بإحسان من لزوم السنة، واتباع الآثار ما فيه بلاغ، وكفاية لمن شرح الله صدره ووفقه لقبوله، فإن الله ﷻ ضمن لمن أطاع الله ورسوله خير الدنيا، والآخرة، فإنه قال: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا} [النساء: ٦٩] وتوعد من خالف ذلك وعدل عنه بما نستجير بالله منه ونعوذ به ممن كان موصوفا به فإنه قال: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} [النساء: ١١٥]، فرحم الله عبدا لزم الحذر واقتفى الأثر، ولزم الجادة الواضحة، وعدل عن البدعة الفاضحة.اهـ.

وقال أبو القاسم الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (٢/ ٥٠٩): لا نعارض سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمعقول؛ لأن الدين إنما هو الانقياد والتسليم دون الرد إلى ما يوجبه العقل، لأن العقل ما يؤدي إلى قبول السنة، فأما ما يؤدي إلى إبطالها فهو جهل لا عقل.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٤/ ٧): في بيان وجوب إتباع مذهب السلف: «وما أحسن ما جاء عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة أنه

قال: عليك بلزوم السنة، فإنها لك بإذن الله عصمة، فإن السنة إنما جعلت ليستن بها ويقتصر عليها، وإنما سنها من قد علم ما في خلافها من الزلل والخطأ والحمق والتعمق، فارض لنفسك بما رضوا به لأنفسهم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، ولهم كانوا على كشفها أقوى، وبتفصيلها لو كان فيها أحرى، وإنهم لهم السابقون، وقد بلغهم عن نبيهم ما يجري من الاختلاف بعد القرون الثلاثة، فلئن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم حدث حدث بعدهم، فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، واختار ما نحته فكره على ما تلقوه عن نبيهم، وتلقاه عنهم من تبعهم بإحسان، ولقد وصفوا منه ما يكفي، وتكلموا منه بما يشفي، فمن دونهم مقصر، ومن فوقهم مفرط، لقد قصر دونهم أناس فجفوا، وطمح آخرون فغلوا، وإنهم فيما ذلك لعلى هدى مستقيم.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٤٦٨): ومن أحالك على غير «أخبرنا» و«حدثنا» فقد أحالك: إما على خيال صوفي أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي، فليس بعد القرآن و«أخبرنا» و«حدثنا» إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين وخيالات المتصوفين وقياس المتفلسفين، ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة، فهي من طرق الجحيم والشيطان الرجيم.اهـ.

قال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين أيضا (٢/ ٣٨٧): فرأس الأدب معه -أي النبي صلى الله عليه وآله وسلم-: كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه معقولا، أو يحمله شبهة أو شكا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده

بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل. فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلامة أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرفه عن مواضعه، وسمى تحريفه تأويلا وحملا، فقال: نؤوله ونحمله، فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب على الإطلاق -ما خلا الشرك بالله- خير له من أن يلقاه بهذه الحال. . . ومن الأدب معه: ألا يستشكل قوله بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه. ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا، نعم هو مجهول وعن الصواب معزول، ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه وهو عين الجرأة.اهـ.

وقال الذهبي في السير (١٩/ ١٤٢): ينبغي للمسلم أن يستعيذ من الفتن، ولا يشغب بذكر غريب المذاهب لا في الأصول ولا في الفروع، فما رأيت الحركة في ذلك تحصل خيرا، بل تثير شرا وعداوة، ومقتا للصلحاء والعباد من الفريقين، فتمسك بالسنة، والزم الصمت، ولا تخض فيما لا يعنيك، وما أشكل عليك فرده إلى الله ورسوله وقف وقل: «الله ورسوله أعلم.اهـ.

وقال الذهبي في السير أيضا (١٩/ ٤٣٠): نسأل الله علما نافعا، تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن، وفسره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قولا وعملا، ولم يأت نهي عنه، قال عليه السلام: «من رغب عن سنتي فليس مني»،

فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله وبإدمان النظر في «الصحيحين» و«سنن النسائي»، و«رياض النواوي» و«أذكاره»، تفلح وتنجح، وإياك وآراء الفلاسفة ووظائف أهل الرياضات، وجوع الرهبان وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات، فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة. فوا غوثاه بالله، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم.اهـ.

وقال الشاطبي في الاعتصام (٢/ ٢٥٢): إن الصحابة كانوا مقتدين بنبيهم صلى الله عليه وآله وسلم مهتدين بهديه، وقد جاء مدحهم في القرآن الكريم، وأثنى على متبوعهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما كان خلقه صلى الله عليه وآله وسلم القرآن، فقال تعالى:؟وإنك لعلى خلق عظيم؟ [القلم: ٤]، فالقرآن إنما هو المتبوع على الحقيقة، وجاءت السنة مبينة له، فالمتبع للسنة متبع للقرآن. الصحابة كانوا أولى الناس بذلك، فكل من اقتدى بهم فهو من الفرقة الناجية الداخلة للجنة بفضل الله، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام «ما أنا عليه وأصحابي» فالكتاب والسنة هو الطريق المستقيم، وما سواهما من الإجماع وغيره فناشئ عنهما.اهـ.

وقال العلامة ابن باز في مجموع فتواه (٢٥/ ٣٠): قد أجمع العلماء قديما وحديثا على أن الأصول المعتبرة في إثبات الأحكام وبيان الحلال والحرام في كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم سنة رسول الله – عليه الصلاة والسلام – الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ثم إجماع علماء الأمة. واختلف العلماء في أصول أخرى أهمها: القياس، وجمهور أهل العلم على أنه حجة إذا استوفى شروطه المعتبرة، والأدلة على هذه الأصول أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر.

ثم قال الشيخ: أما الأصل الثاني: من الأصول الثلاثة المجمع عليها فهو ما صح عن رسول الله ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريره، ولم يزل أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن بعدهم يؤمنون بهذا الأصل الأصيل ويحتجون به ويعلمونه الأمة، وقد ألفوا في ذلك المؤلفات الكثيرة وأوضحوا ذلك في كتب أصول الفقه والمصطلح، والأدلة على ذلك لا تحصى كثرة؛ فمن ذلك ما جاء في كتاب الله العزيز من الأمر باتباعه وطاعته وذلك موجه إلى أهل عصره ومن بعدهم؛ لأنه رسول الله إلى الجميع، ولأنهم مأمورون باتباعه وطاعته حتى تقوم الساعة؛ ولأنه - عليه الصلاة والسلام - هو المفسر لكتاب الله والمبين لما أجمل فيه بأقواله وأفعاله وتقريره.

ولولا السنة لم يعرف المسلمون عدد ركعات الصلوات وصفاتها وما يجب فيها، ولم يعرفوا تفصيل أحكام الصيام والزكاة والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يعرفوا تفاصيل أحكام المعاملات والمحرمات وما أوجب الله بها من حدود وعقوبات. ومما ورد في ذلك من الآيات قوله تعالى في سورة آل عمران: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، وقوله تعالى في سورة النساء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَاوِيلًا}، وقال تعالى في سورة النساء أيضا: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}، وكيف يمكن طاعته، ورد ما تنازع فيه الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله إذا كانت سنته لا يحتج بها، أو كانت غير محفوظة؟ وعلى هذا القول يكون الله قد أحال عباده إلى شيء لا وجود له، وهذا من أبطل الباطل ومن

أعظم الكفر بالله وسوء الظن به.

وقال ﷻ في سورة النحل: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}؛ وقال أيضا في آية أخرى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، فكيف يكل الله سبحانه إلى رسوله ﷺ تبيين المنزل إليهم، وسنته لا وجود لها أو لا حجة فيها، ومثل ذلك قوله تعالى في سورة النور: {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}، وقال تعالى في السورة نفسها: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، وقال في سورة الأعراف: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، وفي هذه الآيات الدلالة الواضحة على أن الهداية والرحمة في اتباعه - عليه الصلاة والسلام -، وكيف يمكن ذلك مع عدم العمل بسنته أو القول بأنه لا صحة لها أو لا يعتمد عليها؟ فقال ﷻ في سورة النور: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وقال في سورة الحشر: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}، والآيات في هذا المعنى كثيرة وكلها تدل على وجوب طاعته - عليه الصلاة والسلام - واتباع ما جاء به كما سبقت الأدلة على وجوب اتباع كتاب الله والتمسك به وطاعة أوامره ونواهيه، وهما أصلان متلازمان من جحد واحدا منهما فقد جحد الآخر وكذب به وذلك كفر وضلال وخروج عن دائرة الإسلام بإجماع أهل العلم والإيمان، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ في وجوب طاعته واتباع ما جاء به

وتحريم معصيته، وذلك في حق من كان في عصره، وفي حق من يأتي بعده إلى يوم القيامة، ومن ذلك ما ثبت عنه في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله»، وفي صحيح البخاري عنه ﵁ أن النبي ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قيل يا رسول الله: ومن يأبى، قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». وخرج أحمد وأبو داود والحاكم بإسناد صحيح عن المقدام بن معدي كرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه».

وخرج أبو داود وابن ماجه بسند صحيح: عن ابن أبي رافع عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا ندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه».

وعن الحسن بن جابر قال: سمعت المقدام بن معدي كرب ﵁ يقول: حرم رسول الله ﷺ يوم خيبر أشياء ثم قال: «يوشك أحدكم أن يكذبني وهو متكئ يحدث بحديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا إن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله» أخرجه الحاكم والترمذي، وابن ماجه بإسناد صحيح. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأنه كان يوصي أصحابه في خطبته أن يبلغ شاهدهم غائبهم ويقول لهم: «رب مبلغ أوعى من سامع»، ومن ذلك ما في الصحيحين أن النبي ﷺ لما خطب الناس في حجة الوداع في يوم عرفة وفي يوم النحر قال لهم: «فليبلغ الشاهد الغائب فرب من يبلغه أوعى له ممن سمعه»،

فلولا أن سنته حجة على من سمعها وعلى من بلغته، ولولا أنها باقية إلى يوم القيامة لم يأمرهم بتبليغها. فعلم بذلك أن الحجة بالسنة قائمة على من سمعها من فيه - عليه الصلاة والسلام - وعلى من نقلت إليه بالأسانيد الصحيحة.

وقد حفظ أصحاب رسول الله ﷺ سنته - عليه الصلاة والسلام - القولية والفعلية وبلغوها من بعدهم من التابعين ثم بلغها التابعون من بعدهم. وهكذا نقلها العلماء الثقات جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن، وجمعوها في كتبهم وأوضحوا صحيحها من سقيمها، ووضعوا لمعرفة ذلك قواعد وضوابط معلومة بينهم يعلم بها صحيح السنة من ضعيفها، وقد تداول أهل العلم كتب السنة من الصحيحين وغيرهما وحفظوها حفظا تاما، كما حفظ الله كتابه العزيز من عبث العابثين وإلحاد الملحدين وتحريف المبطلين؛ تحقيقا لما دل عليه قوله سبحانه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، ولا شك أن سنة رسول الله ﷺ وحي منزل فقد حفظها الله كما حفظ كتابه، وقيض الله لها علماء نقادا ينفون عنها تحريف المبطلين وتأويل الجاهلين، ويذبون عنها كل ما ألصقه بها الجاهلون والكذابون والملحدون؛ لأن الله سبحانه جعلها تفسيرا لكتابه الكريم وبيانا لما أجمل فيه من الأحكام وضمنها أحكاما أخرى لم ينص عليها الكتاب العزيز، كتفصيل أحكام الرضاع وبعض أحكام المواريث وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها إلى غير ذلك من الأحكام التي جاءت بها السنة الصحيحة ولم تذكر في كتاب الله العزيز. ونذكر بعض ما ورد عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل العلم في تعظيم السنة ووجوب العمل بها.

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ وارتد من ارتد من العرب، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة

والزكاة، فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كيف تقاتلهم وقد قال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله إذا قالوها عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها» فقال أبو بكر الصديق: أليست الزكاة من حقها والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فما هو إلا أن عرفت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق. وقد تابعه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على ذلك فقاتلوا أهل الردة، حتى ردوهم إلى الإسلام وقتلوا من أصر على ردته، وفي هذه القصة أوضح دليل على تعظيم السنة ووجوب العمل بها.

وجاءت الجدة إلى الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تسأله ميراثها، فقال لها: ليس لك في كتاب الله شيء، ولا أعلم أن رسول الله ﷺ قضى لك بشيء، وسأسأل الناس، ثم سأل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحابة فشهد عنده بعضهم بأن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس فقضى لها بذلك، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوصي عماله أن يقضوا بين الناس بكتاب الله، فإن لم يجدوا القضية في كتاب الله فبسنة رسول الله ﷺ، ولما أشكل عليه حكم إملاص المرأة وهو إسقاطها جنينا ميتا بسبب تعدي أحد عليها، سأل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن ذلك، شهد عنده محمد بن سلمة والمغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بأن النبي قضى في ذلك بغرة عبد أو أمة، فقضى بذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولما أشكل على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حكم اعتداد المرأة في بيتها بعد وفاة زوجها، وأخبرته فريعة بنت مالك بن سنان أخت أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ أمرها بعد وفاة زوجها أن تمكث في بيته حتى يبلغ الكتاب أجله، قضى بذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهكذا قضى بالسنة في إقامة حد الشرب على الوليد بن عقبة، ولما بلغ عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينهى عن متعة الحج، أهل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالحج والعمرة جميعا، وقال:

لا أدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد من الناس، ولما احتج بعض الناس على ابن عباس رضي الله عنهما في متعة الحج بقول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في تحبيذ إفراد الحج قال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر.

فإذا كان من خالف السنة لقول أبي بكر وعمر تخشى عليه العقوبة فكيف بحال من خالفها لقول من دونهما أو لمجرد رأيه واجتهاده.

ولما نازع بعض الناس عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في بعض السنة، قال له عبد الله: هل نحن مأمورون باتباع النبي ﷺ أم باتباع عمر؟ ولما قال رجل لعمران بن حصين رضي الله عنهما: حدثنا عن كتاب الله وهو يحدثهم عن السنة غضب رضي الله عنه وقال: إن السنة هي تفسير كتاب الله ولولا السنة لم نعرف أن الظهر أربع، والمغرب ثلاث، والفجر ركعتان ولم نعرف تفصيل أحكام الزكاة، إلى غير ذلك مما جاءت به السنة في تفصيل الأحكام.

والقضايا عن الصحابة رضي الله عنهم في تعظيم السنة ووجوب العمل بها والتحذير من مخالفتها كثيرة جدا. ومن ذلك أيضا أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لما حدث بقوله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» قال بعض أبنائه: والله لنمنعهن، فغضب عليه عبد الله وسبه سبا شديدا وقال: أقول قال رسول الله وتقول: والله لنمنعهن.

ولما رأى عبد الله بن المغفل المزني رضي الله عنه وهو من أصحاب رسول الله ﷺ بعض أقاربه يخذف نهاه عن ذلك، وقال له: «إن النبي ﷺ نهى عن الخذف وقال: إنه لا يصيب صيدا ولا ينكأ عدوا، ولكنه يكسر السن ويفقأ العين»، ثم رواه بعد ذلك يخذف فقال: والله لا كلمتك أبدا، أخبرك أن رسول الله ﷺ ينهى

عن الخذف ثم تعود، وأخرج البيهقي عن أيوب السختياني التابعي الجليل أنه قال: إذا حدث الرجل بسنة فقال: دعنا من هذا، وأنبئنا عن القرآن فاعلم أنه ضال، وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : السنة قاضية على الكتاب ولم يجئ الكتاب قاضيا على السنة، ومعنى ذلك: أن السنة جاءت لبيان ما أجمل في الكتاب، أو تقييد ما أطلقه، أو بأحكام لم تذكر في الكتاب، كما في قول الله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وسبق قوله ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»، وأخرج البيهقي عن عامر الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال لبعض الناس: إنما هلكتم في حين تركتم الآثار يعني بذلك: الأحاديث الصحيحة.

وأخرج البيهقي أيضا عن الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال لبعض أصحابه: إذا بلغك عن رسول الله حديث فإياك أن تقول بغيره، فإن رسول الله ﷺ كان مبلغا عن الله تعالى.

وأخرج البيهقي عن الإمام الجليل سفيان بن سعيد الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: إنما العلم كله العلم بالآثار. وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر، وأشار إلى قبر رسول الله ﷺ، وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ : إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : متى رويت عن رسول الله ﷺ حديثا فلم آخذ به فأشهدكم أن عقلي قد ذهب. وقال أيضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ : إذا قلت قولا وجاء الحديث عن رسول الله ﷺ بخلافه فاضربوا بقولي الحائط. وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبعض أصحابه: لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي وخذ من حيث أخذنا. وقال أيضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته عن رسول الله ﷺ يذهبون إلى رأي سفيان، والله سبحانه

يقول: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ثم قال: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك لعله إذا رد بعض قوله - عليه الصلاة والسلام - أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

وأخرج البيهقي عن مجاهد بن جبر التابعي الجليل أنه قال في قوله سبحانه: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ}، قال: الرد إلى الله، الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول الرد إلى السنة.

وأخرج البيهقي عن الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: كان من مضى من علمائنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة، وقال موفق الدين ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه روضة الناظر في بيان أصول الأحكام ما نصه: والأصل الثاني من الأدلة سنة رسول الله ﷺ، وقول رسول الله ﷺ حجة؛ لدلالة المعجزة على صدقه وأمر الله بطاعته وتحذيره من مخالفة أمره. انتهى المقصود.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائنا من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» أي: فليخش وليحذر من خالف شريعة الرسول باطنا أو ظاهرا {أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} أي: في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة، {أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي: في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك، كما روى الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما

أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، قال: فذلك مثلي ومثلكم أنا اخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبوني وتقتحمون فيها» أخرجاه من حديث عبد الرزاق. وقال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالته المسماة: (مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة) ما نصه: اعلموا رحمكم الله أن من أنكر أن كون حديث النبي ﷺ قولا كان أو فعلا بشرطه المعروف في الأصول حجة كفر، وخرج عن دائرة الإسلام وحشر مع اليهود والنصارى أو مع من شاء الله من فرق الكفرة. انتهى المقصود.

والآثار عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل العلم في تعظيم السنة ووجوب العمل بها والتحذير من مخالفتها كثيرة جدا، وأرجو أن يكون فيما ذكرناه من الآيات والأحاديث والآثار كفاية ومقنع لطالب الحق، ونسأل الله لنا ولجميع المسلمين التوفيق لما يرضيه والسلامة من أسباب غضبه، وأن يهدينا جميعا صراطه المستقيم إنه سميع قريب، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان.اهـ. كلام العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال الشيخ مقبل في رسالة ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر:

فصل: الإنكار على من رد السّنن بالرأي والاستحسان

قال الله سبحانه: {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتّبعون أهواءهم} وقد ذكرت في "شرعية الصلاة بالنعال" جملة من هذا، فأنا أنقلها هنا لمناسبتها أيضًا هنا وأزيد مايسر الله.

الحديث الأول: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله

وسلم قضى في امرأتين من هذيل اقتتلتا، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فأصاب بطنها وهي حامل فقتلت ولدها الّذي في بطنها، فاختصموا إلى النّبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقضى أنّ دية ما في بطنها غرّة، عبد أو أمة، فقال وليّ المرأة الّتي غرمت: كيف أغرم يا رسول الله من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهلّ، فمثل ذلك يطلّ، فقال النّبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (إنّما هذا من إخوان الكهّان). رواه البخاري: (ج١٢ ص٣٢٨). ومسلم: (ج١١ ص١٧٧)، وفيه زيادة قوله: (إنّما هذا من إخوان الكهّان من أجل سجعه الّذي سجع). وأخرجه أبوداود: (ج٤ ص٣١٨). والنسائي: (ج٨ ص٤٣). وابن ماجة: (ج٢ ص٨٨٢).

الحديث الثاني: عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنّ امرأةً قتلت ضرّتها بعمود فسطاط، فأتي فيه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقضى على عاقلتها بالدّية، وكانت حاملًا، فقضى في الجنين بغرّة، فقال بعض عصبتها: أندي من لا طعم ولا شرب، ولا صاح فاستهلّ، ومثل ذلك يطلّ، قال: فقال: (سجع كسجع الأعراب). رواه مسلم (ج١١ ص١٧٩). والنسائي (ج٨ ص٤٤)، فأنت ترى أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنكر عليه معارضته لحديثه برأيه وقال: (إنّما هذا من إخوان الكهّان) من أجل سجعه.

الحديث الثالث: عن عبدالله بن أبي مليكة قال: كاد الخيّران أن يهلكا، أبوبكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، رفعا أصواتهما عند النّبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر -قال نافع: لا أحفظ اسمه- فقال أبوبكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك،

فأنزل الله سبحانه: {يا أيّها الّذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم} الآية. قال ابن الزّبير: فما كان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد هذه الآية حتّى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه -يعني- أبا بكر. أخرجه البخاري (ج١٠ ص٢١٢، ٢١٤) وفيه رواية ابن أبي مليكة عن عبدالله بن الزبير (ج١٧ ص٣٩). وأخرجه الترمذي (ج٤ ص١٨٥) وعنده تصريح عبدالله بن أبي مليكة أن عبدالله بن الزبير حدثه به، وأحمد (ج٤ ص٦)، والطبري (ج٢٦ ص١١٩) وفيه قول نافع: حدثني ابن أبي مليكة عن ابن الزبير، فعلم اتصال الحديث كما أشار إليه الحافظ في "الفتح" (ج١٠ ص٢١٢).

الحديث الرابع: عن عائشة رَضِوَاللَّهُعَنهَا أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال في مرضه: (مروا أبابكْر فيصلّ بالنّاس قالت عائشة: فقلت: إنّ أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع النّاس من البكاء، فمر عمر فليصلّ. فقال: مروا أبابكر فلْيصلّ بالنّاس قالت عائشة فقلت لحفْصة قولي إنّ أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع النّاس من البكاء، فمر عمر فليصلّ بالنّاس، ففعلت حفصة، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إنّكنّ لأنتنّ صواحب يوسف، مروا أبابكر فليصلّ بالنّاس قالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيرًا.؟

رواه البخاري (ج١٧ ص٣٩). ومسلم (ج٥ ص١٤٠، ١٤١).

الحديث الخامس: عن عبدالله بن عمر رَضِوَاللَّهُعَنهُمَا قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: (إنّ الله لا ينْزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعًا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهّال يستفتون فيفتون برأيهم، فيضلّون ويضلّون».

رواه البخاري (ج١٧ ص٤٥) ومسلم واللفظ للبخاري.

الحديث السادس: قال مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ج٣ ص١٥٩٩): حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة حدثنا زيد بن الحباب عن عكرمة بن عمار حدثني إياس بن سلمة بن الأكوع أنّ أباه حدّثه أنّ رجلًا أكل عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشماله، فقال: كل بيمينك قال لا أستطيع قال لا استطعت، ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه.

الحديث السابع: قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ج١٠ ص١٢١): حدثنا إسحاق حدثنا خالد ابن عبدالله عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم دخل على رجل يعوده، فقال: لا بأس طهور إن شاء الله فقال: كلا بل هي حمّى تفور، على شيخ كبير، حتى تزيره القبور. قال النّبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: فنعم إذًا.

فصل آثار عن السلف

وأما الاثار عن السلف رحمهم الله، فأكثر من أن تحصر، ولكن أشير إلى بعضها:

الأثر الأول: عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لو كان الدّين بالرّأي لكان أسفل الخفّ أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يمسح على ظاهر خفّيه. رواه أبوداود (ج١ ص٦٣) ورجاله رجال الصحيح، إلا عبد خير، وهو ثقة كما في "التقريب"، وقال الحافظ ابن حجر في "بلوغ المرام": إنّ سنده حسن، وقال في "التلخيص": رواه أبوداود وإسناده صحيح.

الأثر الثاني: الحديث عن عبدالله بن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنّكم قال: فقال بلال بن عبدالله: والله لنمنعهنّ، قال: فأقبل عليه عبدالله فسبّه سبًّا سيّئًا ما سمعته

سبّه مثله، وقال: أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتقول: والله لنمنعهنّ.

رواه مسلم (ج٤ ص١٦١). وفي "جامع بيان العلم وفضله" (ج٢ ص١٣٩) للحافظ ابن عبد البر أنه قال له: لعنك الله، لعنك الله. أقول: رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أمر أن لا يمنعن، وقام مغضبًا.

الأثر الثالث: عن عبدالله بن المغفل أنّه رأى رجلًا يخذف فقال له: لا تخذف، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم نهى عن الخذف، أو كان يكره الخذف، وقال: إنّه لا يصاد به صيد، ولا ينكى به عدوّ، ولكنّها قد تكسر السّنّ وتفقأ العين، ثمّ رآه بعد ذلك يخذف، فقال له أحدّثك عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنّه ينهى عن الخذف، وأنت تخذف، لا أكلّمك كذا وكذا. رواه البخاري (ج١٢ ص٢٦). ومسلم (ج١٣ ص١٠٥، ١٠٦) وفيه: لا أكلمك أبدًا.

الأثر الرابع: عن أبي قتادة تميم بن نذير العدوي أنّه قال: كنّا عند عمران بن حصين في رهط، وفينا بشير بن كعب فحدّث عمران يومئذ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: الحياء خير كلّه، فقال بشير بن كعب: إنّا لنجد في بعض الكتب: أنّ منه سكينةً ووقارًا ومنه ضعف. فغضب عمران حتّى احمرّت عيناه، وقال: ألا أراني أحدّثك عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتعارض فيه، قال: فأعاد عمران الحديث، قال: فأعاد بشير، فغضب عمران، قال: فما زلنا نقول فيه: إنّه منّا يا أبا نجيد، إنّه لا بأس به. رواه مسلم (ج٢ ص٧) وأحمد (ج٤ ص٤٢٧، ٤٣٦، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٥)، والطيالسي (ج٢ ص٤١).

الأثر الخامس: عن ابن أبي مليكة أن عروة بن الزبير قال لابن عباس:

أضللت الناس، قال وما ذاك يا عريّة؟ قال: تأمر بالعمرة في هؤلاء العشر وليستْ فيهنّ عمرة فقال: أولا تسأل أمّك عن ذلك؟ فقال عروة: فإنّ أبابكر وعمر لم يفعلا ذلك، فقال ابن عبّاس: هذا الّذي أهلككم والله ما أرى إلاّ سيعذّبكم، إنّي أحدّثكم عن النّبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتجيئوني بأبي بكر وعمر. . . رواه أحمد (ج١ ص٣٣٧). وإسحاق بن راهويه كما في "المطالب العالية" (ج١ ص٣٦٠) وفيه: نجيئكم برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتجيئوني بأبي بكر وعمر؟. والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (ج١ ص ١٤٥)، والسياق له، وابن حزم في "حجة الوداع" ص (٢٦٨، ٢٦٩) من طرق إلى ابن عباس. وابن عبدالبر في "جامع بيان العلم وفضله" (ج٢ ص٢٣٩، ٢٤٠).

الأثر السادس: قال الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (ج١ ص١٥٠): أنا محمد بن أحمد بن رزق أنا عثمان بن أحمد الدقاق أنا محمد بن إسماعيل الرقي أنا الربيع بن سليمان قال: سمعت الشّافعي وسأله رجل عن مسألة فقال: يروى فيها كذا وكذا عن النّبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال له السّائل: يا أبا عبدالله ما تقول فيه؟ فرأيت الشّافعي أرعد وانتفض، فقال: ما هذا، أيّ أرض تقلّني وأيّ سماء تظلني؟ إذا رويت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حديثًا فلم أقلْ به، نعم على السّمع والبصر، نعم على السّمع والبصر.

وقال: أنا الربيع قال: سمعت الشّافعي وقد روى حديثًا وقال له بعض من حضر: تأخذ بهذا؟ فقال: إذا رويت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حديثًا صحيحًا فلم آخذْ به، فأنا أشهدكم أنّ عقلي قد ذهب، ومدّ يديه. وأخرج الأثرين: الحافظ البيهقي في "مناقب الشافعي" (ج١ ص٤٧٤، ٤٧٥)، وأبونعيم في "الحلية" (ج٩ ص١٠٦).

الأثر السابع: قال الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ في "التوحيد" ص (١١٣): حدثنا الحسن بن محمد الزعفراني وعلي بن الحسين ويحيى بن حكيم قالوا ثنا معاذ بن معاذ العنبري قال ثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في قوله: {فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكًّا} قال بأصبعه هكذا: وأشار بالخنصر من الظفر يمسكه بالإبهام، قال: فقال حميد لثابت: يا أبا محمد دع هذا، ما تريد؟ قال: فضرب ثابت منكب حميد وقال: ومن أنت يا حميد؟ وما أنت يا حميد؟ حدثني به أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتقول أنت: دع هذا. هذا لفظه.

حدثنا يحيى بن حكيم والزعفراني وعلي بن الحسين عن معاذ بن معاذ عن حماد بن سلمة.

قال علي ثنا ثابت البناني عن أنس عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقال الزعفراني: عن ثابت البناني عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في قوله: {فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكًّا} قال: هكذا، ووصف معاذ أنه أخرج أول المفصل من خنصره فقال له حميد: يا أبا محمد ما تريد إلى هذا؟ فضرب صدره ضربةً شديدةً وقال: فمن أنت؟ ما تريد إلى هذا؟. غير أن الزعفراني قال هكذا: ووضع إبْهامه اليسرى على طرف خنصره الأيسر على العقد الأول.

حدثنا عبدالوارث بن عبدالصمد قال ثنا أبي ثنا حماد بن سلمة قال ثنا ثابت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (لمّا تجلّى ربّه للجبل) رفع خنصره وقبض على مفصل منها «فانساخ الجبل» فقال له

حميد: أتحدث بهذا؟ فقال: حدثنا أنس عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتقول: لا تحدث به. هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

الأثر الثامن: قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ (ج٣ ص٦٤٨): حدثنا أبوكريب أخبرنا وكيع عن هشام الدستوائي عن قتادة عن أبي حسان الأعرج عن ابن عباس أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قلّد نعلين وأشعر الهدي في الشّقّ الأيمن بذي الحليفة، وأماط عنه الدّم. قال: وفي الباب عن المسور بن مخرمة، قال أبوعيسى: حديث ابن عبّاس حديث حسن صحيح، وأبوحسّان الأعرج اسمه مسلم، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وغيرهم يرون الإشعار، وهو قول الثّوريّ والشّافعيّ وأحمد وإسحق.

قال: سمعت يوسف بن عيسى يقول: سمعت وكيعًا يقول حين روى هذا الحديث قال: لا تنظروا إلى قول أهل الرّأي في هذا، فإنّ الإشعار سنّة وقولهم بدعة، قال: وسمعت أبا السّائب يقول: كنّا عند وكيع فقال لرجل عنده ممّن ينظر في الرّأي: أشعر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ويقول أبوحنيفة: هو مثلة. قال الرّجل فإنّه قد روي عن إبراهيم النّخعيّ أنّه قال: الإشعار مثلة. قال: فرأيت وكيعًا غضب غضبًا شديدًا، وقال: أقول لك قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتقول: قال إبراهيم: ما أحقّك بأن تحبس ثمّ لا تخرج حتّى تنْزع عن قولك هذا.

الأثر التاسع: قال الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ (ج١ ص١١٨): أخبرنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن سلمة عن يعلى بن حكيم عن سعيد بن جبير أنّه حدّث يومًا بحديث عن النّبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال رجل: في كتاب الله ما يخالف هذا، قال: ألا أراني أحدّثك عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم

وتعرّض فيه بكتاب الله، كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أعلم بكتاب الله منك. هذا الأثر صحيح.

الأثر العاشر: قال الإمام الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الشريعة" ص (٥٦): حدثنا أيضًا الفريابي حدثني إبراهيم بن المنذر الحزامي قال حدثنا معن بن عيسى قال: انصرف مالك بن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يومًا من المسجد وهو متكئ على يدي، فلحقه رجل يقال له: أبوالحورية كان يتّهم بالإرجاء، فقال: ياعبدالله اسمع منّي شيئًا أكلمك به وأحاجك به وأخبرك برأي، قال: فإنْ غلبتني؟ قال: إن غلبتك اتبعتني. قال: فإن جاء رجل آخر فكلّمنا فغلبنا؟ قال: نتّبعه. فقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا عبدالله بعث الله عَزَّ وَجَلَّ محمّدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم بدين واحد، وأراك تنتقل من دين إلى دين، قال عمر بن عبدالعزيز: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التّنقل. أثر مالك صحيح، وما ذكره عن عمر بن عبدالعزيز، منقطع، لكن الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد رواه قبل هذا الأثر بالسند الصحيح، فقال: وحدثنا الفريابي قال حدثنا قتيبة بن سعيد قال حدثنا حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد قال: إن عمر بن عبدالعزيز قال: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل.

وقال الإمام أبوبكر الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "شرف أصحاب الحديث" ص: أخبرنا أبوسعيد محمد بن موسى بن الفضل بن شاذان الصيرفي بنيسابور، قال حدثنا أبوالعباس محمد بن يعقوب الأصم قال حدثنا محمد بن إسحاق الصغاني قال حدثنا إسحاق بن عيسى قال سمعت مالك بن أنس يعيب الجدال في الدين، ويقول: كلما جاءنا رجل أجدل من رجل أرادنا أن نردّ ما جاء به جبريل إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم. هذا الأثر صحيح.

وقال الإمام أبوعمر بن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع بيان العلم وفضله" (ج٢ ص١٧٦): وذكر الطبري في كتاب "تهذيب الآثار" له حدثنا الحسن ابن الصباح البزار قال حدثني إسحاق بن إبراهيم الحنيني قال: قال مالك: قبض رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقد تمّ هذا الأمر واستكمل، فإنما ينبغي أن نتّبع آثار رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا يتبع الرأي، فإنه متى اتّبع الرأي جاء رجل آخر أقوى في الرأي منك، فاتبعته فأنت كلما جاء رجل عليك اتبعته، أرى هذا لا يتم. الأثر ضعيف جدًا بهذا السند، إسحاق بن إبراهيم الحنيني الجرح فيه مفسّر، قال النسائي: ليس بثقة، وقال البخاري: فيه نظر، لكن الأثر ثابت بالطريقين المتقدمين، والله أعلم.

الأثر الحادي عشر: قال عبدالله بن أحمد في كتاب "السنة" ص (٣٨): حدثني إسحاق بن بهلول الأنباري سمعت وكيعًا يقول: من رد حديث إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن جرير عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلّم في الرؤية فاحسبوه من الجهميّة. وأخرجه البخاري في "خلق أفعال العباد" معلقًا ص (١٨): وفيه: فهو جهمي فاحذروه. وإسحاق بن بهلول شيخ عبدالله بن أحمد ترجمه الخطيب في "التاريخ" (ج٦ ص٣٦٦) وقال: كان ثقةً، ونقل عن ابن أبي حاتم أنه سأل أباه عنه فقال: صدوق.

الأثر الثاني عشر: قال الإمام الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ في "الشريعة" ص (٢٢٧): وأخبرنا الفريابي قال سمعت أبا حفص عمرو بن علي قال سمعت معاذ بن معاذ وذكر قصة عمرو بن عبيد إن كانت {تبّت يدا أبي لهب} في اللوح المحفوظ فما على أبي لهب من لوم. قال أبوحفص: فذكرته لوكيع بن الجراح، فقال: من قال بهذا، يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه. هذا الأثر صحيح.

الأثر الثالث عشر: قال الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ في "الشريعة": حدثنا الفريابي قال حدثنا العباس ابن الوليد بن مزيد قال أخبرني أبي قال سمعت الأوزاعي يقول: عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس وإياك وآراء الرّجال، وإن تزخرفوا لك بالقول. هذا الأثر صحيح.

الأثر الرابع عشر: إنكار ابن أبي شيبة على أبي حنيفة في رده بعض الأحاديث بالرأي، فقد عقد في "مصنفه" (ج١٤ ص١٤٨) كتابًا فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "كتاب الرد على أبي حنيفة":

هذا ما خالف به أبوحنيفة الأثر الذي جاء عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم ذكر إلى ص (٢٨٢)، تشتمل على نحو خمسة وثمانين وأربعمائة بين حديث وأثر، فجزى الله سلفنا الصالح الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم.

الأثر الخامس عشر: قال ابن حزم في كتابه "إحكام الأحكام" (ج١ ص٨٩): وقد ذكر محمد ابن نصر المروزي أن إسحاق بن راهويه كان يقول: من بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم خبر يقرّ بصحّته ثم ردّه بغير تقيّة، فهو كافر.

الأثر السادس عشر: قال الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ (ج١ ص٦٠): أخبرنا محمد بن يوسف حدثنا مالك هو ابن مغول قال: قال لي الشعبي: ما حدّثوك هؤلاء عن رسول الله فخذْ به، وما قالوه برأيهم فألقه في الحشّ. هذا الأثر صحيح.

الأثر السابع عشر: ونقل القاضي أبوالحسين محمد بن أبي يعلى في "طبقات الحنابلة" في ترجمة إبراهيم بن أحمد بن شاقلا (ج٢ ص١٣٥) أنه قال: ومن خالف الأخبار التى نقلها العدل عن العدل موصولة بلا قطع في

سندها ولا جرح في ناقليها وتجرأ على ردّها فقد تهجّم على رد الإسلام، لأن الإسلام منقول إلينا بمثل ما ذكرت.

وقال ص (١٣٨) لخصمه: أنت تتكلم على المسلمين فتحشوا أسماعهم بمثل كلام الكلبي الكذاب، فيما يخبر عن مراد الله تعالى من الأمم الخالية التي لم يشاهدها، فلا يكون عندك هذيان ثم تجيء إلى مثل إبراهيم النخعي عن علقمة عن عبدالله -حديث الحبر- فتقول: هذا هذيان، وهذا قول من تقلده خرج عندي من الدين وسلك سبيل غير المسلمين.اهـ.

الأثر الثامن عشر: قال الحسن بن علي البربهاري في "شرح كتاب السنة" له ص (١١٣): وإذا سمعت الرجل يطعن على الأثر أو يرد الآثار، أو يريد غير الآثار فاتّهمه على الإسلام، ولا تشك أنه صاحب هوى مبتدع.

وقال أيضًا ص (١١٩): وإذا سمعت الرجل تأتيه بالأثر فلا يريده ويريد القرآن، فلا تشك أنه رجل قد احتوى على الزندقة فقمْ من عنده وودّعه.

وقال أيضًا ص (١٢٨): ولا يحل لرجل أن يقول: فلان صاحب سنة، حتى يعلم أنه قد اجتمعت فيه خصال السنة، فلا يقال: صاحب سنة حتى تجتمع فيه السنة كلها.اهـ.

الأثر التاسع عشر: وقال الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (ج١ ص١٥٢): ولعمري إن السنن ووجوه الحق لتأتي كثيرًا على خلاف الرأي ومجانبته خلافًا بعيدًا، فما يرى المسلمون بدًا من اتّباعها والانقياد لها، ولمثل ذلك ورع أهل العلم والدين فكفهم عن الرأي ودلهم على عوره وغوره أنه يأتي الحق على خلافه في وجوه متعددة، من ذلك: أن قطع أصابع اليد، مثل قطع اليد من المنكب، أي ذلك أصيب ففيه ستة الآف.

ومن ذلك: أن قطع الرجل في قلة ضررها مثل قطع الرجل من الورك، أي ذلك أصيب ففيه ستة الآف.

ومن ذلك: أن في العينين إذا فقئتا مثل مافي قطع أشراف الأذنين في قلة ضررها، أي ذلك أصيب ففيه اثنا عشر ألفًا.

ومن ذلك: أن في شجتين موضحتين صغيرتين مائتي دينار، وما بينهما صحيح، فإن جرح ما بينهما حتى تقام إحداهما إلى الأخرى، كان أعظم للجرح بكثير، ولم يكن فيها حينئذ إلا خمسون دينارًا.

ومن ذلك: أنّ المرأة الحائض تقضي الصيام، ولا تقضي الصلاة.

ومن ذلك: رجلان: قطعت أذنا أحدهما جميعًا، يكون له اثنا عشر ألفًا، وقتل الآخر فذهبت أذناه وعيناه ويداه ورجلاه وذهبت نفسه، ليس ذلك إلا اثنا عشر ألفًا، مثل ذلك الذي لم يصب إلا شراف أذنيه.

في أشباه هذا غير واحد فهل وجد المسلمون بدًا من لزوم هذا؟ وأي هذه الوجوه يستقيم على الرأي أو يخرج في التفكير؟ إلى آخر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وفي كتاب أبي محمد بن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ "الإحكام في أصول الأحكام" من هذا الكثير الطيب فأنصح مريد الحق بقراءته.اهـ. كرم العلامة الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(**تنبيه**): قال العلامة الألباني في تحذير الساجد (ص٤٤): إن من الواجب على أهل العلم أن ينتبهوا للمعاني الحديثة التي طرأت على الألفاظ العربية التي تحمل معاني خاصة معروفة عند العرب هي غير هذه المعاني الحديثة، لأن القرآن نزل بلغة العرب فيجب أن تفهم مفرداته وجمله في حدود ما كان يفهم العرب الذين أنزل عليهم القرآن ولا يجوز أن تفسر بهذه المعاني الاصطلاحية الطارئة التي اصطلح عليها المتأخرون، وإلا وقع المفسر بهذه المعاني في الخطأ

والتقول على الله ورسوله من حيث لا يشعر وقد قدمت مثالًا على ذلك لفظ (الكراهة)، وإليك مثالا آخر لفظ (السنة):. فإنه في اللغة الطريقة وهذا يشمل كل ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الهدى والنور فرضًا كان أو نفلًا وأما اصطلاحا فهو خاص بما ليس فرضًا من هديه صلى الله عليه وآله وسلم فلا يجوز أن يفسر بهذا المعنى الاصطلاحي لفظ (السنة) الذي ورد في بعض الأحاديث الكريمة كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: "... وعليكم بسنتي. .." وقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-". . . فمن رغب عن سنتي فليس مني»، ومثله الحديث الذي يورده بعض المشايخ المتأخرين في الحض على التمسك بالسنة بمعناها الاصطلاحي وهو: «من ترك سنتي لم تنله شفاعتي» فأخطأوا مرتين:

الأولى: نسبتهم الحديث إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولا أصل له فيما نعلم.

الثانية: تفسيرهم للسنة بالمعنى الاصطلاحي غفلة منهم عن معناها الشرعي، وما أكثر ما يخطئ الناس فيما نحن فيه بسبب مثل هذه الغفلة!

ولهذا أكثر ما نبه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهم الله على ذلك، وأمروا في تفسير الألفاظ الشرعية بالرجوع إلى اللغة لا العرف وهذا في الحقيقة أصل لما يسمونه اليوم بـ «الدراسة التاريخية للألفاظ» ويحسن بنا أن نشير إلى أن من أهم أغراض مجمع اللغة العربية في الجمهورية العربية المتحدة في مصر «وضع معجم تاريخي للغة العربية، ونشر بحوث دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وما طرأ على مدلولاتها من تغيير» كما جاء في الفقرة الثانية من المادة الثانية من القانون ذي الرقم (٤٣٤) (١٩٥٥) الخاص بشأن تنظيم مجمع اللغة

العربية (انظر مجلة المجتمع (٨ ص٥). فعسى أن يقوم المجمع بهذا العمل العظيم ويعهد به إلى أيد عربية مسلمة فإن أهل مكة أدرى بشعابها وصاحب الدار أدرى بما فيها وبذلك يسلم هذا المشروع من كيد المستشرقين ومكر المستعمرين!.

مسألة

الآيات الدالة على وجوب اتباع النبي ﷺ وطاعته والتحذير من مخالفته كثيرة؛ منها: قول الله تعالى: "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين" [المائدة:٩٢]، وقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر" [النساء:٥٩] وقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم"الآية، [لأنفال: ٢٤]، وقوله تعالى: "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا" الآية، [الحشر:٧] وقوله تعالى: "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم" الآية، [النور:٦٣]، قال ابن كثير: أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأفعاله فما وافقها قبل وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان، وقال عند تفسير [أن تصيبهم فتنة] أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة، تفسير ابن كثير (٥/ ١٣٠) وقوله تعالى: "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما" [النساء:٦٥]، وقوله تعالى: "وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما" الآية، [النساء: ١١٣] والحكمة: السنة.

وقوله تعالى: "لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين" [آل عمران:١٦٤]، والحكمة السنة، وقوله تعالى: "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم" [آل عمران:٣١]، قال ابن كثير - رحمه الله تعالى -: هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية بأنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشريعة المحمدية والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله.اهـ . من تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩)، وقوله تعالى: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا" [الأحزاب:٢١] قال الترمذي: الأسوة الحسنة في الرسول ﷺ الاقتداء به، والاتباع لسنته، وترك مخالفته في قوله أو فعله، وقال تعالى: "من يطع الرسول فقد أطاع الله" الآية، [النساء:٨٠].

ومن السنة: قوله ﷺ: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله)[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠، رقم ١٧٢١٣)، وأبو داود (٤/ ٢٠٠، رقم ٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجة (١٢)، وابن زنجويه في الأموال (٦٢٠)، والطحاوي في المشكل (٤/ ٢٠٩)، والآجري في الشريعة (ص٥١)، وابن حبان (١٢)، والدارقطني (٤/ ٢٨٧)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٣٣٢)، وفي الدلائل (٦/ ٥٤٩)، والسمعاني في أدب الإملاء (ص٣)، والهروي في ذم الكلام (ص٧٢)، والطبراني (٢٠/ ٢٨٣، رقم ٦٧٠)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٨٩)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ١٥٠)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٨٩) والحديث صححه ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى، وصححه الفيروزآبادي في سفر السعادة (ص٣٥٥)، وقال الذهبي في المهذب: إسناده قوي، وقال ابن حجر في موافقة الخبر الخبر: حسن صحيح، وصححه العلامة الألباني في =

وقال الأوزاعي عن حسان بن عطية -وهو من ثقات التابعين- قال (كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة كما ينزل بالقرآن)[1].

ويتعذر العمل بالقرآن وحده في جملة من الأحكام كبيان كيفية الصلاة وعدد ركعاتها وأوقاتها وبيان نصاب الزكاة في قوله تعالى: "وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة"الآية، [البقرة: ٤٣] وبيان ما المراد بالحج والعمرة وشروطهما في قوله تعالى: "وأتموا الحج والعمرة لله" الآية، [البقرة: ١٩٦]، وبيان ما هي السرقة الموجبة للقطع وما نصابها وما هو موضع القطع في قوله تعالى: "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله"الآية [المائدة: ٣٨].

وأخيرا فإن حجية السنة الثابتة عن النبي ﷺ مما علم من الدين بالضرورة لتظاهر الأدلة على ذلك وهو مرتبط بأصول العقيدة وهي الترجمة الحقيقية للإيمان برسالة محمد ﷺ ولم يقع في ذلك نزاع بين المسلمين ممن يعتد بهم لأن الأمر من المسلمات الأساسية والبديهية.

=

المشكاة (١٦٣)، وفي صحيح أبي داود، وقال الشيخ مقبل في رسالة ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر (ص٣٤): حسن لغيره، وصححه الحويني في تحقيق تفسير ابن كثير (١/ ١١١ - ١١٢)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن أبي عروف الجرشي فمن رجال أبي داود والنسائي وهو ثقة، وقال الشيخ مشهور في طبعته (٤/ ٨٣): إسناده صحيح.

(١) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ١٥٣، رقم ٥٨٨)، وأبو داود في كتاب المراسيل برقم (٥٣٦)، والمروزي في كتاب السنة (ص ١٣ رقم، ١٠٢) و(ص ١١١ رقم، ٤٠٢)، والخطيب في الكفاية (ص ١٥)، والفقيه والمتفقه (١/ ٩١) وعزاه الحافظ في الفتح (١٣/ ٢٩١) إلى البيهقي، وقال الحافظ: إسناده صحيح، وقال العلامة الألباني في تحقيق كتاب الإيمان لابن أبي شيبة (ص٣٧): رواه الدارمي بسند صحيح عن حسان بن عطية فهو مرسل.

قال الإمام الشافعي كما في جماع العلم (ص١١، ١٢): لم أسمع أحدا نسبه الناس أو نسب نفسه إلى علم يخالف في أن فرض الله ﷻ اتباع أمر رسول الله ﷺ، والتسليم لحكمه، بأن الله ﷻ لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه، وأنه لا يلزم قول أحد بكل حال إلا بكتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وأن ما سواهما تبع لهما، وأن فرض الله علينا وعلى من بعدنا ومن قبلنا في قبول الخبر عن رسول الله ﷺ واحد، لا يختلف في أن الفرض والواجب قبول الخبر عن رسول الله ﷺ، إلا فرقة سأصف قولها إن شاء الله تعالى".اهـ.

وقال أيوب السختياني: "إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا، وأنبئنا عن القرآن فاعلم أنه ضال مضل".اهـ.

وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٩٠، ١٩١): "وقد أمر الله جل وعز بطاعته - أي: الرسول ﷺ - واتباعه أمرًا مطلقًا مجملًا، لم يقيد بشيء، كما أمرنا باتباع كتاب الله ولم يقل: وافق كتاب الله، كما قال بعض أهل الزيغ.

قال عبد الرحمن بن مهدي: الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث، يعني: ما رُوي عنه ﷺ أنه قال: «ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فإن وافق كتاب الله فأنا قلته، وإن خالف كتاب الله فلم أقله، وإنما أنا موافق كتاب الله وبه هداني الله».

وهذه الألفاظ لا تصح عنه ﷺ عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه.

وقد عارض هذا الحديث قوم، من أهل العلم وقالوا: نحن نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شيء ونعتمد على ذلك، قالوا: فلما عرضناه على كتاب الله وجدناه مخالفًا لكتاب الله؛ لأنا لم نجد في كتاب الله ألا يقبل من

حديث رسول الله ﷺ إلا ما وافق كتاب الله، بل وجدنا كتاب الله يطلق التأسي به والأمر بطاعته، ويحذر المخالفة عن أمره جملة على كل حال".اهـ.

وقال ابن حزم في الإحكام (١/ ٨٧): "لما بينا أن القرآن هو الأصل المرجوع إليه في الشرائع نظرنا فوجدنا فيه إيجاب طاعة رسول الله ﷺ، ووجدناه ﷻ يقول فيه واصفا لرسوله ﷺ: "وما ينطق عن الهوى* إن هو إلا وحي يوحى" [النجم: ٣-٤] فصح لنا بذلك أن الوحي ينقسم من الله ﷻ إلى رسوله ﷺ إلى قسمين: القرآن والسنة.

فلا يسع مسلما أن يرجع عند التنازع إلى غير الله والسنة أو يرفض حكمهما، فإن فعل بعد قيام الحجة عليه فهو فاسق، وأما إن كان مستحلا للخروج عن أمرهما فهو كافر بالإجماع.اهـ..

وقال ابن حزم في الإحكام أيضا(١/ ٩٥): "قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الحجر/ ٩

وقال تعالى: (قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون) الأنبياء/ ٤٥

فأخبر تعالى أن كلام نبيه ﷺ كله وحي، والوحي بلا خلاف ذكر، والذكر محفوظ بنص القرآن، فصح بذلك أن كلامه ﷺ كله محفوظ بحفظ الله ﷻ، مضمون لنا أنه لا يضيع منه شيء، إذ ما حفظ الله تعالى فهو باليقين لا سبيل إلى أن يضيع منه شي، فهو منقول إلينا كله، فلله الحجة علينا أبدا".اهـ. .

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٠): وكذلك إذا قلنا: الكتاب والسنة والإجماع فمدلول الثلاثة واحد فإن كل ما في الكتاب فالرسول ﷺ موافق له والأمة مجمعة عليه من حيث الجملة فليس في المؤمنين إلا من يوجب

اتباع الكتاب وكذلك كل ما سنه الرسول ﷺ فالقرآن يأمر باتباعه فيه والمؤمنون مجمعون على ذلك. وكذلك كل ما أجمع عليه المسلمون فإنه لا يكون إلا حقا موافقا لما في الكتاب والسنة؛ لكن المسلمون يتلقون دينهم كله عن الرسول ﷺ وأما الرسول ﷺ فينزل عليه وحي القرآن ووحي آخر هو الحكمة كما قال ﷺ {ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه} . وقال حسان بن عطية: {كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن. } فليس كل ما جاءت به السنة يجب أن يكون مفسرا في القرآن؛ بخلاف ما يقوله أهل الإجماع؛ فإنه لا بد أن يدل عليه الكتاب والسنة فإن الرسول ﷺ هو الواسطة بينهم وبين الله في أمره ونهيه وتحليله وتحريمه.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في إعلام الموقعين (٢/ ٣٠٧، ٣٠٨): بعد أن ذكر أقسام السنة مع القرآن.

"فما كان منها زائدًا على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ تجب طاعته فيه، ولا تحل معصيته.

وليس هذا تقديمًا لها على كتاب الله؛ بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله، ولو كان رسول الله ﷺ لا يُطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى، وسقطت طاعته المختصة به، وإنه إذا لم تجب طاعته إلا فيما وافق القرآن لا فيما زاد عليه لم يكن له طاعة خاصة تختص به، وقد قال الله تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ} [النساء: ٨٠].

وكيف يمكن أحدًا من أهل العلم ألا يقبل حديثًا زائدًا على كتاب الله فلا يقبل حديث تحريم المرأة على عمتها ولا على خالتها، ولا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحرم من النسب.اهـ.

قال السيوطي في "مفتاح الجنة" (ص/ ٥): اعلموا رحمكم الله أن من أنكر كون حديث النبي ﷺ قولا كان أو فعلا بشرطه المعروف في الأصول حجة كفر وخرج عن دائرة الإسلام وحشر مع اليهود والنصارى أو مع من شاء الله من فرق الكفرة.اهـ.

وقال الشوكاني في إرشاد الفحول (ص٣٣): اعلم أنه قد اتفق من يعتد به من أهل العلم أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال، وتحريم الحرام". . . . ثم قال: "والحاصل أن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية لا يخالف في ذلك إلا مَنْ لا حَظَّ له في دين الإسلام.اهـ. وانظر رسالة وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفر من أنكرها، للعلامة ابن باز.

(باب مصادر التلقي عند أهل السنة)

العقيدة لها مصدران أساسيان، هما: كتاب الله تعالى (القرآن الكريم). وما صح من سنة رسول الله ﷺ. فالرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. وإجماع السلف الصالح: مصدر مبناه على الكتاب والسنة.

أما الفطرة والعقل السليم فهما مؤيدان يوافقان الكتاب والسنة، ويدركان أصول الاعتقاد على الإجمال لا على التفصيل، فالعقل والفطرة يدركان وجود الله وعظمته، وضرورة طاعته وعبادته، واتصافه بصفات العظمة والجلال على وجه العموم. كما أن العقل والفطرة السليمين يدركان ضرورة النبوات وإرسال الرسل، وضرورة البعث والجزاء على الأعمال، كذلك، على الإجمال لا على التفصيل.

أما هذه الأمور وسائر أمور الغيب، فلا سبيل إلى إدراك شيء منها على

التفصيل إلا عن طريق الكتاب والسنة (الوحي)، وإلا لما كانت غيبا وتعارض النص الصريح من الكتاب والسنة مع العقل الصحيح (السليم) غير متصور أصلا، بل هو مستحيل، فإذا جاء ما يوهم ذلك فإن الوحي مقدم ومحكم. لأنه صادر عن المعصوم ﷺ والعقل لا عصمة له، بل هو نظر البشر الناقص. وهو معرض للوهم والخطأ والنسيان والهوى والجهل والعجز، فهو قطعا ناقص.

وإن صحائح المنقول تشمل الكتاب العزيز والسنة الصحيحة، قال تعالى: ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء [النحل:٨٩]، والعقيدة في الله تعالى من أهم ما بين الله في كتابه، قال سبحانه: إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم [الإسراء: ٩]، وأهم ذلك العقيدة في الله وفي أنبيائه ورسالاته والغيب وما يحويه.

وعن السنة قال تعالى: وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى [النجم: ٣ - ٤]، وفي الحديث عنه ﷺ: (قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)[1].

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجة (٤٢، ٤٣)، والدارمي (٩٥)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد: (١/ ٧٤ - ٧٥)، والآجري في الشريعة (ص٤٦ - ٤٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٧ - ١٩)، وأبو عبيد في الخطب والمواعظ، والحاكم (١/ ٩٥)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٠٥)، وابن وضاح في البدع (ص٢٣، ٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٢٠، ٢٢١ و١٠/ ١١٤، ١١٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٦٩)، والهروي في ذم الكلام (٦٩/ ١ - ٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤)، وفي الإعتقاد (ص١١٣)، والخطيب في الموضح (٢/ ٤٢٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١١/ ٢٣٥/ ١) وغيرهم من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، والحديث صححه الترمذي، وصححه البزار كما في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٢٤)، وحسنه البغوي في شرح السنة، وقال أبو نعيم في =

وبيان مسائل الاعتقاد من أول وأولى ما علمه النبي ﷺ للأمة في نصوص السنة، وهو ﷺ أنصح الأمة وأفصحها، وأحرصها على أمانة البلاغ والرسالة، لهذا كانت نصوص السنة مع الكتاب هي معول السلف ومعتمدهم في الاستدلال على مسائل الاعتقاد.

قال شيخ الإسلام عن أهل السنة: هم أهل الكتاب والسنة؛ لأنهم يؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، ويتبعون آثاره ﷺ باطنا وظاهرا[(١)].

وقال الإمام البربهاري: واعلم أنه من قال في دين الله برأيه وقياسه وتأوله من غير حجة من السنة والجماعة، فقد قال على الله ما لا يعلم، ومن قال على الله ما لا يعلم فهو من المتكلفين. والحق ما جاء من عند الله ﷻ، والسنة ما سنه رسول

=

المستخرج على صحيح مسلم: حديث جيد من صحيح حديث الشاميين كما في جامع العلوم والحكم (ص٢٢٦)، وصححه ابن حبان والحاكم، وقال الجوزقاني في الأباطيل والمناكير (١/ ٤٧٢): صحيح ثابت مشهور، وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٦٤): ثابت صحيح، وقال شيخ الاسلام الانصاري هو أجود حديث في أهل الشام وأحسنه كما في تحفة الطالب (٤٦)، وصححه الضياء المقدسي في جزء في اتباع السنن واجتناب البدع (رقم ٢)، وصححه شيخ الإسلام في الإقتضاء (٢/ ٨٣)، وحسنه المصنف هنا، وجوده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٣١٣)، وقال العراقي في الباعث على الخلاص (رقم ١): صحيح مشهور، وقال ابن كثير في تحفة الطالب (رقم ٤٦): وصححه أيضا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، والدغولي، وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة وانظر الصحيحة (٩٣٧)، وحسنه الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٥/ ٢٤ - ٢٥)، وصححه الحويني في تخريج فضائل القرآن (ص٦٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: حديث صحيح ورجاله ثقات.

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/ ١٥٧).

الله ﷺ، والجماعة ما اجتمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان. ومن اقتصر على سنة رسول الله ﷺ فلج على أهل البدعة كلهم، واستراح بدنه، وسلم له دينه إن شاء الله، لأن رسول الله ﷺ قال: (ستفترق أمتي)، وبين لنا رسول الله ﷺ الفرقة الناجية منها فقال: (ما أنا عليه وأصحابي)[(١)]، فهذا هو الشفاء والبيان، والأمر الواضح، والمنار المستقيم[(٢)].

وأهل السنة لا يستدلون بالقرآن دون السنة؛ بل بالسنة والقرآن، ولا يكمل دين العبد إلا بالإيمان بما فيهما؛ لأنهما مما أوتيه الرسول ﷺ، قال: ﷺ: (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه)[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ١٢٨، ١٢٩)، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (٨٥)، والآجري في الأربعين (رقم ١٣)، والمروزي في السنة (٥٩)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ٢٦٢)، واللالكائي في شرح أصول أهل السنة (رقم ١٤٧)، وابن بطة في الإبانة (١/ ٣٦٨ - ٣٦٩/ رقم ٢٦٤)، وقوام السنة في الحجة (١/ ١٠٦)، وعبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق (٥ - ٦) والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث مفسر غريب، لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه". قلت إسناده ضعيف، فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، ضعيف في حفظه؛ إلا أن الحديث صحيح لطرقه وشواهده، وقد صححه ابن العربي في احكام القرآن (٣/ ٤٣٢)، وابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٥)، وابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٤١٠)، والشاطبي في الاعتصام (٢/ ٢٥٢)، وحسنه الجوزقاني في الأباطيل (١/ ٤٦٥)، وحسنه أيضا العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣/ ١٩٩)، والعلامة الألباني في الصحيحة (٢٠٤).

(٢) شرح السنة للبربهاري (ص٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، وأبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجة (١٢)، وابن زنجويه في الأموال (٦٢٠)، والطحاوي في المشكل (٤/ ٢٠٩)، والآجري في الشريعة (ص ٥١)، وابن حبان (١٢)، والدارقطني (٤/ ٢٨٧)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٣٣٢)، والسمعاني في أدب الإملاء (ص ٣)، والهروي في ذم الكلام (ص ٧٢)، =

والإجماع مصدر من مصادر الأدلة الاعتقادية؛ لأنه يستند في حقيقته إلى الوحي المعصوم من كتاب وسنة، وأكثر مسائل الاعتقاد محل إجماع بين الصحابة والسلف الصالح، ولا تجتمع الأمة في أمور العقيدة ولا غيرها على ضلالة وباطل. (فالإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمدون عليه في العلم والدين، والإجماع الذي ينضبط ما كان عليه السلف الصالح؛ إذ بعدهم كثر الخلاف وانتشرت الأمة)[1] وعلى هذا فإجماع السلف الصالح في أمور الاعتقاد حجة شرعية ملزمة لمن جاء بعدهم، وهو إجماع معصوم، ولا تجوز مخالفته، (فدين المسلمين مبني على اتباع كتاب الله وسنة نبيه وما اتفقت عليه الأمة، فهذه الثلاثة أصول معصومة)[2].

قال العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (١/ ٢٣١): إن أي حزب وليس فقط أعني حزب التحرير، من دون الأحزاب الإسلامية، أو التكتلات الإسلامية، أو التجمعات الإسلامية، أي جماعة من هذه الجماعات لم تقم

=

والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٨٩)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ١٥٠) وغيرهم، والحديث صححه ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى، وصححه الفيروزآبادي في سفر السعادة (ص ٣٥٥)، وقال الذهبي في المهذب: إسناده قوي، وقال ابن حجر في موافقة الخبر الخبر: حسن صحيح، وصححه العلامة الألباني في المشكاة (١٦٣)، وفي صحيح أبي داود، وقال العلامة الوادعي في رسالة ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر (ص ٣٤): حسن لغيره، وصححه الحويني في تحقيق تفسير ابن كثير (١/ ١١١ - ١١٢)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن أبي عروف الجرشي فمن رجال أبي داود والنسائي وهو ثقة، وقال الشيخ مشهور في تعليقه على إعلام الموقعين (٤/ ٨٣): إسناده صحيح.

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/ ١٥٧).

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠/ ١٦٤).

جماعتها ولم تقم أحزابها على كتاب الله وعلى سنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- زيادة على المصدرين المذكورين، أقول: وعلى منهج السلف الصالح، أي حزب لا يقوم على الكتاب السنة ومنهج السلف الصالح فهو بلا شك ستكون عاقبة أمره خسرًا، وأنه مهما كان مخلصًا في دعوته، وبحثي أو جوابي هذا إنما هو عن هذه الجماعات الإسلامية التي يفترض أن تكون مخلصة لدين الله ﷻ وناصحة للأمة كما جاء في الحديث الصحيح ألا وهو قوله: -صلى الله عليه وآله وسلم-: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة، . قالوا: لمن يا رسول الله؟. قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». فإذا لم تكن دعوة أي حزب من هذه الأحزاب قائمة على الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح فسوف لا يجنون من دعوتهم إلا خسارًا، ذلك لأن الأمر كما قال ربنا ﷻ في القرآن الكريم: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} (العنكبوت: ٦٩).

فمن كان جهاده لله، وعلى كتاب الله وعلى سنة رسول الله، وعلى منهج السلف الصالح فهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم قول الله ﷻ: {إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ} (محمد: ٧). أكرر على مسامعكم هذا الأصل العظيم الذي لا بد لكل جماعة مسلمة أن تقوم دعوتها عليه: الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح.

إذا كان الأمر كذلك فأنا أقول بناء على معرفتي بكل الجماعات والأحزاب القائمة اليوم على الأرض الإسلامية: أنهم جميعًا إلا جماعة واحدة، ولا أقول: إلا حزبا واحدا؛ لأن هذه الجماعة لا تتحزب، ولا تتكتل ولا تتعصب إلا للأصل المذكور أنفا، ألا وهو: كتاب الله وسنة رسول الله، ومنهج السلف

الصالح.

فأنا أعرف جيدا أنه سوى هذه الجماعة لا تدعو إلى هذا الأصل الذي وضحته آنفًا، وكررته مرارا وتكرارا على مسامعكم، وإنما يعودون إلى الكتاب والسنة فقط، ولا يقرنون إلى الكتاب والسنة قولنا السابق ذكره: وعلى منهج السلف الصالح.

وحينئذ سيتبين لكم أهمية هذا القيد الثالث؛ وعلى منهج السلف الصالح، سيتبين لكن حيث واقع الجماعات الإسلامية بل الفرق الإسلامية من يوم بدأ يمد رقبته، أو يظهر قرنه بين الجماعات الإسلامية الأولى: أي من يوم خرجت الخوارج على أمير المؤمنين: على بن أبي طالب، ومن يوم الجعد الذي دعا بدعوة المعتزلة، والذين جاءوا من بعده مقلدين له في الاعتزال، إلى غير ذلك من الفرق المعروفة أسماؤها قديما، والتي تتجدد مسمياتها حديثا بأسماء حديثة.

هذه الفرق كلها سواء ما كان منها قديمًا أو حديثًا، لا يوجد فيها فرقة تقول وتعلن: أننا لسنا على الكتاب والسنة، كل هذه الفرق -على ما بينها من اختلاف-، سواء كان هذا الاختلاف في العقائد والأصول أو كان هذا الاختلاف في الأحكام والفروع، هؤلاء المتفرقون في دينهم كلهم يقولون، كما نقول نحن الكتاب والسنة، ولكنهم يفترقون عنا فلا يقولون قولتنا: الذي هي تمام دعوتنا: وعلى منهج السلف الصالح.

إذن ما الذي يحكم بين هذه الفرق وكلها تنتمي وعلى الأقل كلاما ودعوة إلى الكتاب والسنة؟.

ما هو الحكم الفصل بين هؤلاء الذين يقولون كلمة واحدة؟.

الجواب: على منهج السلف الصالح.

هنا كما يقال في العصر الحاضر: سؤال يطرح نفسه بالنسبة لبعض الناس وهو: من أين جئنا بهذه الضميمة: وعلى منهج السف الصالح؟

جئنا بها من كتاب الله ومن حديث رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ومما جرى عليه أئمة السلف المتبعين من جماهير أهل السنة والجماعة كما يقولون اليوم.

أول ذلك قوله تبارك وتعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} (النساء:١١٥).

فأنتم تسمعون قوله ﷻ في هذه الآية: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ}. فلو أن الله ﷻ لم يذكر: {وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} لو أن الآية كانت: ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا على دعوة أولئك الفرق القديمة والحديثة، لا يخسرون شيئا لو لم تكن هذه الجملة الطيبة في الآية الكريمة ألا وهو قوله تعالى: {وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ}؛ لأنهم يقولون: نحن على الكتاب والسنة، هذه القولة يجب تحقيقها با تباع الكتاب والسنة تحقيقا شاملا أولا ومطبقا عمليًا ثانيًا.

مثلا قوله ﷻ المعروف لدى علماء المسلمين: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} (النساء: ٥٩). المقلدة من العالم الإسلامي كله إذا دعوا إلى الله ورسوله، إلى كتاب الله وحديث رسوله، قالوا: لا، نحن نتبع مذهبنا، هذا يقول مذهبي حنفي، وهذا شافعي الخ.

فهل هؤلاء الذين أقاموا تقليدهم للأئمة مقام اتباعهم لكتاب الله ولسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قد طبقوا هذه الآية الكريمة التي ذكرتها أخيرا: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ} (النساء: ٥٩)؟

الجواب: لم يفعلوا شيئًا من ذلك إذن لم يفدهم قولهم: نحن على الكتاب والسنة؛ لأنهم لا يطبقون عمليا الكتاب والسنة، هذا مثال أريد به تقريب الموضوع الأول؛ لان هذا المثال أقصد به المقلدة.

أما البحث الأول فإنما أقصد به الدعاة الإسلاميين الذين يفترض فيهم ألا يكونوا من المقلدين، من الذين يؤثرون أقوال الأئمة غير المعصومين على أقوال الله ورسوله المعصوم.

فإذا كان الأمر إذن يعود على العقيدة والعقيدة تؤخذ من الكتاب والسنة وما كان عليه السلف؛ لأن هذا السلف هو المقصود بالآية الأولى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} (النساء: ١١٥) فيتبع غير سبيل المؤمنين لم يذكر الله عز وجل هذه الجملة في منتصف هذه الآية عبثًا؛ وإنما ليؤصل بها أصلا، ويُقعِّد بها قاعدة وهي: أنه لا يجوز لنا أن نتكل في فهم كتاب ربنا وسنة نبينا على عقولنا المتأخرة زمنًا، والمختلفة فهمًا، وإنما يكون المسلمون متبعين للكتاب والسنة تأصيلا وتقعيدًا إذا أضافوا إلى الكتاب السنة: وما كان عليه السلف الصالح، لأن هذه الآية تضمنت النص: أنه يجب علينا ألا نخالف الرسول، وألا نشاقق الرسول، كما تضمنت ألا نخالف وألا نتبع غير سبيل المؤمنين ومعنى كل من القيد الأول في هذه الآية والقيد الآخر: أنه يجب علينا اتباع الرسول عليه السلام وترك مشاقته، كما يجب علينا اتباع سبيل المؤمنين، وعدم مخالفته.

من هنا نقول، من هنا أولًا نقول: بأن على كل حزب أو جماعة إسلامية أن تصحح أصل منطلقها وهو: أن يعتمد على الكتاب والسنة وعلى ما كان عليه السلف الصالح، هذا القيد لا يتبناه حزب التحرير فكرًا ولا الإخوان المسلمين ولا أمثالهم من الأحزاب الكثيرة وإنما نعني الأحزاب الإسلامية، أما التي أعلنت محاربة الإسلام كالبعثية والشيوعية فليس لنا معهم الكلام الآن.

فالشاهد هذا الأصل الثالث: اتباع سبيل المؤمنين، حزب التحرير لا يتبناه، كذلك كل الأحزاب الأخرى.

إذا كان الأمر كذلك، فينبغي على كل مسلم ومسلمة أن يعلم أن الخط إذا اعوجّ من رأسه فكلما مضى قدما يمشى فإنما يزداد انحرافًا وابتعادًا من الخط المستقيم الذي قال عنه رب العالمين في القرآن الكريم: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} (الأنعام: ١٥٣).

هذه الآية الكريمة صريحة الدلالة، قطعية الدلالة كما يحب وكما يلهج حزب التحرير من بين الأحزاب الإسلامية الأخرى في دعوتهم وفي رسائلهم ومحاضراتهم هذه الآية قطعية الدلالة؛ لأنها تقول: إن السبيل الموصل إلى الله هو واحد وأن السبل الأخرى هي، التي تبعد المسلمين عن سبيل الله؛ {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} (الأنعام: ١٥٣).

وقد زاد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- هذه الآية بيانًا وتوضيحًا كما هو سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- دائما وأبدا، كما ذكر الله - عز وجل - في القرآن الكريم حين خاطب نبيه بقوله: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} (النحل: ٤٤).

فسنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هي البيان الكامل للقرآن، والقرآن هو الأصل، هو الدستور للإسلام، وأما السنة فهي المبينة المؤصلة للقرآن: أي بلا تشبيه وإنما من باب التقريب: القرآن بالنسبة للنظم الأرضية كالدستور فيها، والسنة بالنسبة لهذه القوانين الأرضية كالقانون الموضح للدستور.

لذلك كان من المتفق عليه بين المسلمين قاطبةً: أنه لا يمكن فهم القرآن إلا ببيان الرسول عليه الصلاة والسلام وهذا أمر مجمع عليه، لكن الشيء الذي اختلف المسلمون عليه واختلفت آثارهم من بعد ذلك هو أن كل الفرق الضالة القديمة لم ترفع رأسها إلى هذا القيد الثالث وهو: اتباع السلف الصالح، فخالفوا بذلك الآية التي ذكرتها آنفا مرارًا وتكرارًا، ثم خالفوا سبيل الله، لأن سبيل الله واحد وهو: ما جاء ذكره في الآية السابقة: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} (الأنعام: ١٥٣).

قلت: إن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد زاد هذه الآية بيانًا حينما روى عنه أحد أصحابه عليه السلام المشهورين بالفقه ألا وهو عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه حيث قال: خط رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يوما خطًا مستقيما على الأرض، ثم خطَّ حول هذا

الخط خطوط قصيرة، ثم مد أصبعه الكريمة على الخط المستقيم وقرأ الآية السابقة: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} (الأنعام:١٥٣).

قال عليه السلام وهو يمر بأصبعه على الخط المستقيم: «هذا صراط الله» ثم أشار على الخطوط القصيرة من حوله فقال: «وهذه طرق، وعلى رأس كل طريق منها شيطان يدعو الناس إليه». إذن هذا الحديث أيضا يفسره حديث آخر، وهذا

الحديث الآخر وحديث الخط يعتبر من الموضحات لآية سبيل المؤمنين.

ذاك الحديث والذي رواه أهل السنن كأبي داود والترمذي وأمثالهما من أئمة الحديث من طرق عديدة عن جماعة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كأبي هريرة ومعاوية وأنس بين مالك وغيرهم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: هي ما أنا عليه وأصحابي». هذا الحديث يوضح لنا سبيل المؤمنين المذكور في الآية، من هم المؤمنون فيها؟ هم الذين ذكرهم الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ في حديث الفرق حينما سئل عن الفرقة الناجية، عن منهجها، عن صفتها، عن منطلقها.

فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ ما أنا عليه وأصحابي، ما أنا عليه وأصحابي، فأرجو الانتباه، لأن جواب الرسول عليه الصلاة والسلام إن لم يكن وحيا من الله، فهو تفسير من رسول الله لسبيل المؤمنين المذكور في قول الله عَزَّ وَجَلَّ الذي رويته مرارًا آنفًا.

حيث إن الله عَزَّ وَجَلَّ ذكر الرسول في الآية وذكر سبيل المؤمنين، هكذا الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ جعل علامة الفرقة الناجية التي ليست من تلك الفرق الاثنين والسبعين من الفرق الضالة جعل علامتها: أنها تكون على ما عليه الرسول وأصحابه، فنجد في هذا الحديث ما وجدنا في الآية، كما أن الآية لم تقصر على ذكر الرسول فقط، كذلك الحديث لم يقصر على ذكر الرسول فقط، وإنما ذكرت الآية سبيل المؤمنين كذلك ذكر الحديث أصحاب النبي الكريم، فالتقى الحديث مع القرآن؛ لهذا قال عليه الصلاة والسلام: «تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يراد علي الحوض».

كثير من الفرق القديمة والحديثة لا تنتبه لهذا القيد المذكور في الآية وفي هذا الحديث، حديث الفرق الضالة، حيث جعل من صفة الفرقة الناجية، بل علامة الفرقة الناجية: أنها تكون على ما كان عليه الرسول وأصحابه أيضًا.

مثل هذا الحديث تقريبًا حديث العرباض بن سارية، وهو من أصحاب النبي من أهل الصُفَّة الذين كانوا فقراء يلزمون المسجد، ويلزمون حلقات الرسول عليه السلام وتلقى العلم من كتاب الله ومن فم رسول الله غضًا طريا، قال العرباض هذا: وعظنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون.

فقلنا: أوصنا يا رسول الله قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن ولى عليكم عبد حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي

وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كلَّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

الشاهد من هذا الحديث: أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يقتصر على حض المسلمين حينما يختلفون قال عليه السلام «إنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا».

لذا أجاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما هو أسلوب الحكيم، ومن أحكم منه من بعد أحكم الحاكمين؟

لا أحد في البشر أحكم من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ولذلك فحينما قال: «وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرا» أجاب عن سؤال مفروض؛ فماذا نفعل يا رسول الله قال: «فعليكم بسنتي؟ ولم يكتف عليه السلام بأمر

الذين يعيشون في وقت الاختلاف كوقتنا هذا، «لم يكتف بقوله: «عليكم بسنتي» فقط، وإنما عطف على ذلك فقال. «وسنة الخلفاء الراشدين».

إذن ليضم المسلم الناصح لنفسه في عقيدته أنه يجب الرجوع إلى الكتاب والسنة وإلى سبيل المؤمنين بدلالة الآية وحديث الفرق وحديث العرباض بن سارية.

هذه حقيقة مع الأسف الشديد يغفل عنها كل الأحزاب الإسلامية وبخاصة منها حزب التحرير الذي يتميز عن أي حزب إسلامي آخر أنه يقيم للعقل البشري وزنًا أكثر مما أقامه الإسلام له، نحن نعلم يقينًا أن الله ﷻ حينما يكلم الناس بكلامه إنما يخاطب العقلاء، ويخاطب العلماء، ويخاطب الذين يتفكرون، ولكننا نعلم أن العقل البشري مختلف، فالعقل عقلان: عقل مسلم وعقل كافر.

هذا العقل الكافر ليس عقلًا، فقد يكون ذكاء ولكن لا يكون عقلًا، لأن العقل في أصل اللغة العربية هو الذي يعقل صاحبه، ويربطه ويقيده أن ينفلت يمينا وشمالا، ولا يمكن للعقل ألا ينفلت يمينًا وشمالًا؛ إلا إذا اتَّبع كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ ولذلك حكى الله ﷻ عن الكفار والمشركين حينما يعترفون بحقيقة أمرهم: أنهم حينما كانوا كما قال الله ﷻ في القرآن الكريم: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} (الروم:٧).

يعترفون أنهم حينما كانوا عارفين بأمور الدنيا أنهم لم يكونوا عقلاء، ذلك هو قولهم فيما حكاه ربنا عنهم: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك:١٠). إذن هناك عقلان: عقل حقيقي وعقل مجازي.

العقل الحقيقي: هو العقل المسلم الذي آمن بالله ورسوله، أما العقل المجازي: فهو عقل الكفار؛ لذلك قال تعالى في القرآن كما سمعتم آنفا عنهم: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك:١٠).

وقال بصورة عامة عن الكفار: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا} (الأعراف: ١٧٩).

فإذن هم لهم قلوب، ولكنهم لا يعقلون بها، لا يفهمون بها الحق.

إذا عرفنا هذه الحقيقة وهي حقيقة ما أظن أنه يختلف فيها اثنان، وينتطح فيها عنزان؛ لأنها صريحة في القرآن وفي أحاديث الرسول عليه السلام لكني أريد

أن أتوصل من هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى التي هي نقطة البحث في هذه اللحظة مني.

إذا كان عقل الكافر ليس عقلا، فعقل المسلم ينقسم أيضا إلى قسمين: عقل عالم وعقل جاهل.

فالعقل المسلم الجاهل لا يمكن أن يكون مساويًا في عقله وفي فهمه لعقل العالم، لا يستويان مثلا أبدًا.

لذلك قال تعالى: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} (العنكبوت:٤٣).

إذن: لا يجوز للمسلم الحق، المؤمن بالله ورسوله حقًا أن يحكم عقله، وإنما يخضِع عقله لما قال الله وقال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

من هنا نضع نقطة في دعوة حزب التحرير: أنهم تأثروا بالمعتزلة في منطلقهم في طريق الإيمان، وطريق الإيمان هو عنوان لهم في بعض كتبهم التي ألفها رئيسهم: تقي الدين النبهاني رحمه الله وأنا لقيته أكثر من مرة وأنا عارف به تمامًا، وعارف بما عليه حزب التحرير كأحسن ما تكون المعرفة؛ ولذلك فأنا أتكلم إن

شاء الله عن علم بما عليه تقوم دعوتهم، فهذا أول نقطة تؤخذ عليهم: أنهم جعلوا للعقل مزية أكثر مما ينبغي.

أُكرِّر على مسامعكن ما قلته آنفًا؛ أنا لا أنفى أن العقل له قيمته لما سبق ذكره، لكن ليس للعقل أن يحكم على الكتاب والسنة، وإنما العقل يخضع لحكم الكتاب والسنة وما عليه ألا أن يفهم ما جاء في الكتاب وفي السنة.

من هنا انحرف المعتزلة قديما؛ فأنكروا حقائق شرعية كثيرة، وكثيرة جدا؛ بسبب أنهم سلطوا عقولهم على نصوص الكتاب السنة فحرفوها، وبدلوا فيها وغيروا، وبتعبير علماء السلف: عطلوا نصوص الكتاب والسنة.

هذه النقطة أريد أن ألفت نظركن إليها وهي: أنه ينبغي إخضاع العقل المسلم لنص الكتاب والسنة بعد فهم الكتاب والسنة.

من هنا انحرف المعتزلة قديما، فأنكروا حقائق شرعية كثيرة، وكثيرة جدا؛ بسبب أنهم سلطوا عقولهم على نصوص الكتاب والسنة فحرفوها، وبدلوا فيها وغيروا، وبتعبير علماء السلف: عطلوا نصوص الكتاب السنة.

هذه نقطة أريد أن ألفت نظركن إليها وهي: أنه ينبغي إخضاع العقل المسلم لنص الكتاب والسنة بعد فهم الكتاب السنة. فالحكم هو الله ورسول الله، وليس الحاكم عقل البشر لما ذكرنا: أن عقل البشر يختلف من عقل مسلم وعقل كافر، ثم عقل المسلم يختلف من عقل مسلم جاهل ومن عقل مسلم عاقل، فليس فهم المسلم العالم كفهم المسلم الجاهل، لذلك قال تعالى، ولا بأس من التكرار؛ لأنني أعلم أن هذا الموضوع قليلا ما يطرق مسامع الملايين المملينة من المسلمين، من الرجال فضلًا عن المخدرات من النساء، ولذلك فأنا مضطر إلى أن أكرر هذه النقاط وهذه الأدلة {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ}

(العنكبوت:٤٣).

هنا نحن نقف قليلًا: من هم العالمون؟ أهم العلماء الكفار؟ لا. لا نقيم لهم وزنًا؛ لما ذكرناه آنفًا أنهم ليسوا عقلاء، والحقيقة أنهم أذكياء لأنهم اخترعوا وابتدعوا وو. . إلخ. ، وارتقوا في الحضارة المادية المعروفة لدى الجميع.

كذلك عقل المسلمين، هذا العقل في كل أفرادهم ليس سواء، فلا يستوي عقل العالم مع عقل الجاهل، وسأقول شيئًا آخر: لا يستوي عقل العالم العامل بعلمه مع عقل العالم اللا عامل بعلمه، لا يستوون مثلا إطلاقًا.

لذلك فانحرفت المعتزلة في كثير من الأصول التي وضعوها مخالفين فيها طريقة الشرع: كتابا وسنة ومنهج السلف الصالح، هذه هي النقطة الأولى: اعتماد حزب التحرير على العقل أكثر مما ينبغي.

النقطة الثانية وهي تتفرع في ظني من النقطة الأولى: لقد قسموا نصوص الكتاب والسنة إلى قسمين من حيث روايتها ومن حيث دلالتها.

أما من حيث روايتها: فقالوا: الرواية قطعية الثبوت وقد تكون ظنية الثبوت.

أما الدلالة فكذلك، قد تكون قطعية الدلالة وقد تكون ظنية الدلالة.

لا نناقش في هذا الاصطلاح، فإن الأمر كما قيل: لكل قوم أن يصطلحوا على ما شاءوا، لكننا نناقش فيما إذا رتبوا على هذا الاصطلاح مفارقات تخالف ما كان عليه المسلمون الأولون.

ومن هنا يظهر لكم أهمية سبيل المؤمنين، لأنها قيد من أن ينفلت العالم المسلم فضلا عن الجاهل المسلم أن ينفلت من نص الكتاب والسنة برجوعه إلى مثل هذا الاصطلاح الذي لا يجوز أن يكون له الثمرة التالية وهي: إنهم قد رتبوا من ذلك الاصطلاح بالقطعي والظني الذي يشمل الرواية والدراية رتبوا

على ذلك ما يلي:

فقالوا: إذا جاء في القرآن الكريم وهو بلا شك في الاصطلاح السابق ذكره: قطعي الثبوت، إذا جاء نص ليس بقطعي الدلالة، فليس يجب على المسلم أن يأخذ بما فيه من المعنى، لأنه ظني الثبوت، فلا يجوز له أن يبنى عقيدة على نص قطعي الثبوت لكنه ظني الدلالة.

وكذلك العكس عندهم تمامًا: إذا جاء الدليل قطعي الدلالة لكن ليس قطعي الثبوت فأيضًا لا يأخذون منه عقيدة.

ومن هنا جاءوا بعقيدة لا يعرفها السلف الصالح، ووضعوا اصطلاحا لهم وكتبهم معروفة وأعني الآن بكتبهم: القديمة؛ لأنهم قد أجروا فيها تعديلًا، وأنا من أعرف الناس بهذا التعديل، لكنه في الواقع تعديل شكلي، وهو لو سُلِّم به فإنما يدل أن القوم كانوا حتى في عقيدتهم مضطربين؛ حيث قالوا: العقيدة لا تثبت إلا بدليل قطعي الثبوت قطعي الدلالة؛ فأقاموا عليها عقيدتهم وهي: أن الحديث الصحيح رواية والقطعي الدلالة لا يؤخذ منه العقيدة.

فقلنا لهم فيما ناقشناهم وجادلناهم: من أين لكم هذه القاعدة: وهي قاعدة تتضمن عقيدةً، فمن أين جئتم بهذه العقيدة؟ ما الدليل على أنه لا يجوز للمسلم أن يبني عقيدته على حديث صحيح لكن ليس بطريق التواتر الذي يقيد القطع قطعي الدلالة؟ من أين جئتم بهذا؟

فاضطربوا هنا في الجواب، والبحث هنا طويل، وطويل جدا، واستدلوا بمثل قوله تعالى: {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا} (النجم:٢٨).

هنا البحث الآن يخرجنا عما نحن في صدده من بيان ما نعرفه عن حزب

التحرير، لأن مناقشة هذه القاعدة وبيان ما عليها من اعتراضات، وأنها أقيمت على دليل كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء.

ولذلك نكتفي الآن ببيان أن هذه العقيدة: أي أن المسلم لا يجوز له أن يتبنى عقيدة من حديث صحيح، من حديث صحيح لكن لم تصدق عليها فلسفة: قطعي الثبوت، فهو ليس قطعي الثبوت، لكنه قطعي الدلالة، من أين جاءوا بهذا؟. لا دليل عليه، لا من الكتاب ولا من السنة، ولاما كان عليه السلف، بل ما كان عليه السلف ينقض هذا الذي تبناه بعض الخلف، منهم المعتزلة قديمًا، وأتباعهم اليوم في هذه العقيدة وهم حزب التحرير.

أقول الآن شيئًا ولعله نمر مرًّا سريعا حتى نتابع الحديث؛ كلنا يعلم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حينما أرسله الله ﷻ بشيرًا ونذيرًا، وقال له: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} (المائدة:٦٧) كان تبليغه عليه الصلاة والسلام رسالته إلى الناس تارةً بشخصه حينما كان يحضر ندواتهم ومجتمعاتهم فيخاطبهم مباشرة، وتارة يرسل رسولا من طرفه يدعو المشركين إلى اتباع دعوة النبي الكريم، وتارة يرسل خطابا كما هو معلوم من السيرة إلى هرقل ملك الروم وإلى كسرى ملك فارس وإلى و. . و. . الخ أمراء العرب كما هو مشروح في كتب السيرة النبوية.

ومن ذلك أنه أرسل إلى اليمن معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري وعليًّا بن أبي طالب، وأرسل إلى الروم دحية الكلبي و. . . وإلخ.

هؤلاء كانوا أفرادا لا يمثلون، أولا يمثل خبرهم الخبر القطعي؛ لأنهم أفراد فمعاذ في مكان، وأبو موسى في مكان وعلى في مكان، وقد يختلف أيضا الزمان، كما اختلف المكان.

وهناك حديث في الصحيحين. . . بالسند الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما أرسل معاذ على اليمن، قال له: «ليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله».

فَمَنْ مِن المسلمين يشك بأن هذه الشهادة هي الأصل الأول من الإسلام؟ أي هو العقيدة الأولى الذي ينبني عليها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله فإذا معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذهب وحده مبلغًا وداعيًا المسلمين - عفوًا- وداعيا المشركين أن يؤمنوا بدين الإسلام.

ترى هل قامت الحجة بمعاذ بن جبل حينما دعاهم إلى الإسلام، ويقول لهم: أن الرسول يأمركم بأن تصلوا خمس صلوات في كل يوم وليلة، وهذه الصلاة ركعتان، وتلك ثلاث، والبقية أربع، إلى آخر ما هنالك من تفصيلات معروفة اليوم لدينا والحمد لله؟

ويأمرهم بالزكاة، وذكر لهم تفاصيل أحكام الزكاة: ما يتعلق بالفضة، ما يتعلق بالذهب، ما يتعلق بالثمار ما يتعلق بالخضار، ما يتعلق بالأبقار والجمال، و. . والخ؟

هل قامت حجة الإسلام على أولئك المشركين بمعاذ وحده؟ علي مذهب حزب التحرير مع الأسف لا لم تقم الحجة؛ لأنه فرد يجوز عليه كما يقولون هم يجوز عليه الكذب وإذا قلنا: لا، الكذب بعيد عنهم، فلا أقل أن يقال: يجوز عليهم الخطأ والنسيان.

فإذن جاءوا بفلسفة: أن الحديث الصحيح لا يجوز أن نأخذ منه عقيدة إسلامية.

إذن اليمانيون حينما دعاهم معاذ إلى الإسلام، وبلا شك أول ما دعاهم

دعاهم إلى العقيدة، إذن لم تقم حجة الله على اليمانيين الذين كان منهم الوثنيون وكان منهم صليبيون، وكان منهم من المجوس، لم تقم حجة الله عليهم في العقائد.

أما في الأحكام يقولون حزب التحرير كما يقول عامة المسلمين: نعم حديث الآحاد تثبت به الأحكام الشرعية، أما العقائد الإسلامية فلا تثبت بحديث الآحاد، هذا معاذ يمثل عقيدة الآحاد في الإسلام كله، أصولًا وفروعًا، عقائد وأحكامًا، فمن أين جاءوا بهذا التفصيل؟.

{إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} (النجم: ٢٣).

وأُنهي الكلمة المتعلقة بحديث الآحاد، التي ضرب بها حزب التحرير عشرات الأحاديث الصحيحة بحجة: أن هذا والله حديث آحاد لا تقوم به حجة في العقيدة فذكر بعضهم النكتة التالية: زعموا أن أحد الدعاة من حزب التحرير ذهب إلى اليابان وألقى عليهم بعض المحاضرات ومنها: طريق الإيمان وفي هذا الطريق: أن حديث الآحاد لا تثبت به عقيدة، وكان هناك في الحاضرين شاب عاقل حقا كيس فطن، قال له: يا أستاذ، أنت جئت داعية هنا في بلاد اليابان، بلاد الكفر والشرك كما تقول، تدعوهم إلى الإسلام وتقول: إن الإسلام يقول: إن العقيدة لا تثبت بخبر الآحاد، وأنت تقول لنا: أن من العقيدة ألا تأخذوا العقيدة من الفرد الواحد، أنت الآن تدعونا إلى الإسلام وأنت وحدك، فينبغي عليك بناءً على فلسفتك هذه: أن تعود أدراجك إلى بلدك، وأن تأتي بالعشرات من أمثالك من المسلمين الذين يقولون بقولك، فيصبح خبرك حينئذ خبراً متواترًا.

فأسقط في يد المحاضر، وهذا مثال من الأمثلة الكثيرة التي تدل على سوء

عاقبة مخالفة منهج السلف الصالح.

من ذلك أن المسلمين يعلمون، وأعني منهم طلاب العلم، وأرجو أن تكون السامعات لهذا الكلام منهن، لقد جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «إذا جلس أحدكم في التشهد الآخر فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال».

هنا الحديث حديث آحاد، لكنه من الأحاديث العجيبة الغريبة بالنسبة لفلسفة حزب التحرير، إنه من جهة يتضمن حكمًا شرعيًا، والحكم الشرعي عندهم يثبت بحديث الآحاد، فإذن بالنظر إلى هذا الجانب من الحديث يجب الأخذ به، لأنه حكم شرعي، قال: عليه السلام: «فليستعذ بالله من أربع في التشهد الأخير».

ومن جهة أخرى يتضمن عقيدة وهي أن هناك في القبر عذاب، وأن هناك فتنة الدجال، فهم لا يؤمنون بعذاب القبر، ولا يؤمنون بفتنة الدجال الأكبر الذي حدث عنه الرسول عليه السلام بأحاديث كثيرة منها: قوله عليه السلام: «ما بين خلق آدم والساعة فتنة أضر على أمتي من فتنة المسيح الدجال».

هم لا يؤمنون بهذا الدجال؛ لأنه بزعمهم حديث غير متواتر.

فنحن نقول لهم الآن: ماذا تفعلون بحديث أبي هريرة؟ إنه من جهة يتضمن حكمًا شرعيًا، فعليكم أن تقولوا في آخر الصلاة: وأعوذ بك من عذاب القبر، لكن هل تستعيذ من عذاب القبر وأنت لا تؤمن بعذاب القبر؟ نقيضان لا يجتمعان.

فجاءونا، بمخلص، حيلة من الحيل التي ينهى الله المسلمين عنها، ماذا؟ قالوا: نحن نصدق بعذاب القبر ولا نؤمن به، نصدق بعذاب القبر ولا نؤمن به.

فلسفة عجيبة غريبة، ما الذي يحملهم؟ جاءوا بفلسفة أولى فتسلسلت معهم إلى فلسفات أخيرة كثيرة، خرجوا بها عن الصراط السوي، الذي كان عليه أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-. الآن أمضي والحديث كما قلت: طويل الذيل؛ لأبين أن من دعوة حزب التحرير التي يدندنون حولها: أنهم يريدون أن يقيموا حكم الله في الأرض.

نحن أولا نلفت النظر إلى أنهم ليسوا منفردين بهذه الدعوة، فكل الجماعات الإسلامية والأحزاب الإسلامية تنتهي كلها إلى هذه الغاية: أي يريدون أن يقيموا حكم الله في الأرض، فهم ليسوا منفردين.

جاءني سؤال الآن وأنا كنت أن أؤجل الأسئلة إلى ما بعد، لأن هذا السؤال قد يقطع علي سلسلة أفكاري، ومع ذلك فأنا لا أخيب السائل؛ فأجيب عن السؤال هو: السؤال: يقولون: إن هناك رواية تقول: لما سئل الرسول عن الفرقة الناجية، أجاب الرسول بأنها الجماعة.

نعم هذه الرواية صحيحة ونؤمن بها، ولكن هذه الرواية: الجماعة، مفسرة بالرواية التي ذكرناها؛ لأننا لو ذكرنا لفظة الجماعة، أي هذه الروية التي جاء السؤال عنها أخيرًا؛ لوجب علينا أن نشرحها بالشرح الذي سبق ذكره آنفًا.

نُنهي إذن هذه الجلسة بالإجابة عن السؤال الأخير.

وأقول: هنا روايتان اثنتان، لما سئل الرسول عليه السلام عن الفرقة الناجية، أجاب بروايتين اثنتين.

الأولى: هي التي ذكرتها آنفًا: «ما أنا عليه وأصحابي». والأخرى هي التي

جاء السؤال عنها: قال: «هي الجماعة».

لكن أشعر بأن السائلة كأنها تتوهم بناء على ما قرأت من كتابات

حزب التحرير أن هذه الرواية: رواية الجماعة تخالف الروية التي أدرت

الحديث حولها. فأقول لها ولتقريب هذا الجواب النافي: أنه لا اختلاف بين الروايتين، افترض الآن أن الرواية الأولى وهي: «ما أنا عليه وأصحابي».

لا أصل لها إطلاقًا، وإنما الرواية هي: الجماعة فسنقول: من هي الجماعة؟ من هي الجماعة اليوم يا أم المؤمنين؟ أهم حزب التحرير؟ أهم الإخوان المسلمين؟ أهم جماعة التبليغ؟.

الجواب:

وكل يدّعي وصلا بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاك

الجماعة كما صح عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: من كان الحق معه ولو كان فردًا واحدًا.

حينما بعث الله ﷻ الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين، كانوا أفرادًا، وكانوا هم الجماعة، كان إبراهيم أمة وحده، فمن اتبع هذا الأمة: أي الجماعة: وهو في الحقيقة واحد في ذاته لكن هو الجماعة في دعوته، من سار على وتيرته، وسار مثل مسيرته فهو الجماعة ولو كان فردًا واحدًا.

فالآن على افتراض أن الرواية الأولى في وصف الفرقة الناجية لا وجود لها إطلاقًا، الجماعة هذه هي سبيل المؤمنين، الجماعة هذه هي جماعة الخلفاء الراشدين.

فحديث العرباض بن سارية ما فيها روايتان حتى يقال أو يشكك فيها كما قد يمكن أن يراد التشكيك في رواية: «ما أنا عليه وأصحابي»، الجماعة إذن هي

سبيل المؤمنين التي شرحتها آنفا كتابًا وحديثًا، فماذا يضرنا إذا فسّرنا الجماعة هنا بالرواية الأولى: «ما أنا عليه وأصحابي»؟ لأن أصحابه عليه السلام هم المؤمنون الذين أوعد المخالفون بأن لهم جهنم في الآية التي بدأت الاستدلال بها، أنه لا يجوز الاعتماد فقط على الكتاب والسنة؛ بل ولا بد من إضافة: سبيل المؤمنين المذكور في الآية الكريمة.

فمن فسر الجماعة في حديث الفرقة الناجية بأنه طائفته فقط دون أن يأتي بالأدلة من الكتاب والسنة على ذلك: أنه على ما كان عليه المؤمنون الأولون؛ فيكون قد حمل الحديث: حديث الجماعة على غير المحمل الصحيح، وحينئذ يكون تأول هذا الحديث غير صحيح.

وأختم كلمتي هذه بمناقشة جرت بين أحد السلفيين وآخر من الإسلاميين، ممن يدعو إلى الكتاب والسنة، ولكن لم يكن متنبها لهذه الضميمة التي لا تستقيم دعوة الأحزاب الإسلامية إلا بتبنيها فكرا أولا، وتطبيقها عمليا ثانيا، وهي: اتباع سبيل المؤمنين.

قلت له: هذا جواب قاصر.

قال: لمَ؟

قلت: لأن كل مسلم مهما كان منحرفا أو مستقيما يقول: أنا مسلم.

مثلا: نبدأ بالأهون فالأهون.

إذا سئل الحنفي: ما مذهبك ولا يريد أن يحشر نفسه في مناقشة، يقول: أنا مذهبي مسلم، والشافعي كمان يقول: أنا مسلم، و. . . و. . . الخ.

لكن الحنفي يقول: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، الشافعي يقول: الإيمان يزيد وينقص. . . إلخ.

إذن جوابك: بأنك مسلم، وجواب ذاك بأنه مسلم، لا يحدد مذهبك تمامًا، فَفَهِم فقال: أقول حينئذ أنا مسلم على الكتاب والسنة.

قلت له: كذلك كل مسلم حتى الأمثلة التي ضربتها لك آنفا هل هناك حنفي يقول: أنا مسلم لست على الكتاب والسنة؟.

هل هناك شافعي يقول: لست على الكتاب والسنة؟

سأقول لك: هل هناك إباضي من الخوارج الموجودين اليوم في الأرض الإسلامية يقول: أنا لست على الكتاب والسنة؟

بل هل هناك شيعي، هل هناك رافضي يقول: أنا لست على الكتاب والسنة؟

كلهم يقولون نحن على الكتاب والسنة؟

هذا ما سبق بيانه آنفا.

كل المسلمين مهما كان الخلاف بينهم شديدًا وكثيرًا، كلهم يقول: على الكتاب والسنة، ولكن لا أحد منهم يقول: وعلى منهج السلف الصالح إلا الذين ينتمون إلى منهج السلف الصالح، ونقول إذا ما سئلنا: أنا سلفي انتهى الأمر؛ لأنه معنى سلفي: على الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح.

فلما بينت له هذا، قلت له: لا يكفي أن تقول: أنا مسلم على الكتاب والسنة؛ لأن كل الطوائف والجماعات يقولون: على الكتاب والسنة.

قال: أقول إذن: أنا على الكتاب والسنة لأنه آمن معي بعد مثل هذه المحاضرة، بل محاضرات قال: إذن أنا أقول: أنا على الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح.

وقلت وأنا أعرف أنه أديب من الأدباء وكاتب من الكُتاب ألا تجد في لغتك العربية التي تأدبت بها، وتكلمت بها، وتكتب بها، ألا تدلك لفظة تختصر جوابك

هذا: أنا مسلم على الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح؟

فَصَمَت. قلت يعني إذا قلنا: أنا سلفي ألا يؤدي عبارتك الطويلة: أنا على الكتاب والسنة؟

فأجاب بالإيجاب. هذه هي حقيقة الدعوة السلفية، وتلك هي مخالفات حزب التحرير، وكل الجماعات القائمة وإنما نحن دائرتنا أوسع من أي دائرة يتبناها أي حزب على وجه الأرض.

أنا عارف من حزب التحرير أنه من نظامه: إذا تبنى فرد من أفراده رأيا يخالف رأيه: أي الرأي الذي يتبناه الحزب يُفْصَل، ويقال له: لست منا.

نحن لا نقول هكذا، أنا أعرف مثلا أن من أفكار حزب التحرير أن المرأة لها حق أن تَنتخِب وأن تُنتخب، فلن تجد تحريريًا منهم من الكُتاب: أن المرأة ليس لها مجال للتدخل في هذه الأمور التي تسمى اليوم: بالسياسة.

لها أن تتعلم ما يناسب أنوثتها، ما يناسب رقتها ولطفها إلى آخره.

أما أن تَنتخِب وتُنتخب لو تبنى شخص من حزب التحرير هذا الرأي يخالف فيه حزب التحرير فسوف يُفصَل، أما نحن فنقبل حزب التحرير، والإخوان المسلمين، وجماعة التبليغ، ولكن على أساس: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ} (آل عمران:٦٤).

فنحن ندعو كل مسلم إلى أن يتبنى هذا الأصل، ثم يتفرع عليه فروع كثيرة، وكثيرة جدًا.

حينئذ يصبحون معنا، قد يختلفون معنا في التطبيق، لأن التطبيق يحتاج إلى علم، ونحن نقول: إن العلم بالكتاب والسنة مع الأسف الشديد لا يعتني

الجماعات الإسلامية به، ومع ذلك فهم يريدون أن يقيموا دولة الإسلام على الجهل بالإسلام.

فنقول: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا} (الأحزاب:٢١). فرسول الله -ﷺ- بدأ بتعليم الناس، وبدعوتهم إلى العقيدة أولا، ثم إلى العبادات وتحسين السلوك ثانيًا، وهكذا ينبغي أن يعيد التاريخ نفسه.

وبهذا القدر كفاية والحمد لله رب العالمين.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في الحديث حجة بنفسه (ص٣٤ - ٣٥): هذه النصوص المتقدمة من الكتاب والسنة كما أنها دلت دلالة قاطعة على وجوب اتباع السنة اتباعًا مطلقًا في كل ما جاء به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأن من لم يرض بالتحاكم إليها والخضوع لها فليس مؤمنًا، فإني أريد أن ألفت نظركم إلى أنها تدل بعموماتها وإطلاقاتها على أمرين آخرين هامين أيضًا:

الأول: أنها تشمل كل من بلغته الدعوة إلى يوم القيامة، وذلك صريح في قوله تعالى: {لأنذركم به ومن بلغ}، وقوله: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا} وفسره -صلى الله عليه وآله وسلم- بقوله في حديث:

«. . . وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة» متفق عليه، وقوله: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا كان من أهل النار» رواه مسلم وابن منده وغيرهما " الصحيحة" (١٥٧).

والثاني: أنها تشمل كل أمر من أمور الدين، لا فرق بين ما كان منه عقيدة علمية، أو حكمًا عمليًا، أو غير ذلك، فكما كان يجب على كل صحابي أن يؤمن

بذلك كله حين يبلغه من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أو من صحابي آخر عنه كان يجب كذلك على التابعي حين يبلغه عن الصحابي، فكما لا يجوز للصحابي مثلاً أن يرد حديث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إذا كان في العقيدة بحجة أنه خبر آحاد سمعه عن صحابي مثله عنه -صلى الله عليه وآله وسلم-، فكذلك لا يجوز لمن بعده أن يرده بالحجة نفسها مادام أن المخبر به ثقة عنده، وهكذا ينبغي أن يستمر الأمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد كان الأمر كذلك في عهد التابعين والأئمة المجتهدين كما سيأتي النص بذلك عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٣٣): عن أصول أهل السنة والجماعة في العقيدة وغيرها من أمور الدين؟.

فأجاب: قاعدة أهل السنة والجماعة في العقائد وغيرها من أمور الدين، هو التمسك التام بكتاب الله وسنة رسوله، ﷺ، وما عليه الخلفاء الراشدون من هدي وسنة، لقول الله تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}. ولقوله تعالى: {من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا}. ولقول الله تعالى: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}. وهذا وإن كان في قسمة الغنائم فهو في الأمور الشرعية من باب أولى، ولأن النبي، ﷺ، كان يخطب الناس يوم الجمعة، فيقول: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، صلى الله عليه «وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

ولقوله، ﷺ، : «عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل

محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة». والنصوص في هذا كثيرة، فطريق أهل السنة والجماعة ومنهاجهم هو التمسك التام بكتاب الله وسنة رسوله، ﷺ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، ومن ذلك أنهم يقيمون الدين ولا يتفرقون فيه امتثالا لقول الله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه}. وهم وإن حصل بينهم من الخلاف ما يحصل مما للاجتهاد فيه مساغ، فإن هذا الخلاف لا يؤدي إلى اختلاف قلوبهم بل تجدهم متآلفين متحابين، وإن حصل منهم هذا الاختلاف الذي طريقه الاجتهاد.

(باب هل الآثار الموقوفة على الصحابة في العقيدة لها حكم الرفع)

سئل العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (١/ ٣٠٨): السائل: السؤال قد سألتك إياه في التلفون، الذي هو قلت لك حديث: (العرش مطوق بحية، والوحي ينزل بالسلاسل) ذكرت لي أني أرجع أرى هل

هو حديث. . . . في «مختصر العلو» أنت قلت: حديث عبد الله بن عمرو أو

قال حديث عبد الله بن عمر، وعلقت عليه فقلت: وإسناده صحيح عن عبد الله بن عمرو، وقلت: إسناده صحيح، فهل هو في حكم المرفوع إلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بهذا الإسناد؟

الشيخ: ما عندي جواب غير ما سمعته، إن كان مصرحًا برفعه فهو كذلك، وإن كان غير مصرح فهو موقوف.

مداخلة: لا ما هو مصرح فهل يعني إذا كان موقوفًا كيف النظر إلى الحديث، هل نقول: أن العرش مطوق بحية؟

الشيخ: لا، ما نقول، وأظن أجبتكم يوم كان الجواب، يعني: لك، هو كان

جوابًا متكررًا لغيرك؛ أقوال الصحابة إذا صحت عنهم لِتكون في منزلة الأحاديث المرفوعة إلى الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ يجب أن تكون أولًا: مما لا يقال بالرأي وبالاجتهاد، هذه النقطة بالذات هناك مجال للاختلاف بين العلماء والفقهاء في بعض ما يتفرع من هذا الشرط، وهو أن يكون قول الصحابي أو الحديث الموقوف على الصحابي مما لا يقال بالرأي، ممكن يصير فيه اختلاف، مثلًا: إذا جاء حديثٌ ما فيه النهي عن شيء، هل هذا في حكم المرفوع أم لا، فمن يظن أن النهي عن الشيء لا يمكن أن يكون بالاجتهاد يقول: حكمه حكم المرفوع، ومن يظن مثلي أنا أنه يمكن للصحابي ولمن جاء من بعدهم من الأئمة أن يجتهد وينهى عن شيء ويكون في اجتهاده مخطئًا فيجب إذًا: أن يكون الحديث الموقوف على الصحابي الذي يراد أن نقول: إنه في حكم المرفوع يجب أنه لا يحيط به أي شك في أنه في حكم المرفوع، ومتى يكون ذلك؟ حين لا مجال أن يقال بمجرد الرأي والاجتهاد، هذا الشرط الأول.

والشرط الثاني، أو قبل ما أقول الشرط الثاني: الشرط الأول يعود في الحقيقة إلى أمر غيبي، وهو من معانيه التحريم والتحليل، لكن هذا الأمر الغيبي ينقسم قسمين: قسم يتعلق بالشريعة الإسلامية، وقسم يتعلق بما قبل الشريعة من الشرائع المنسوخة، فلكي يكون الحديث الموقوف في حكم المرفوع ينبغي أن يكون متعلقًا بالشريعة الإسلامية وليس متعلقًا بما قبلها، لماذا؟

هنا بيت القصيد، لأنه يمكن أن يكون من الإسرائيليات، والتاريخ الذي يتعلق بما قبل الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ... معناه من بدء الخلق إلى ما قبل الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ وبعثته هو من هذا القبيل.

فإذا جاءنا حديث يتحدث عما في السماوات من عجائب ومخلوقات، وهو

لا يمكن أن يقال جزمًا بالرأي والاجتهاد فيتبادر إلى الذهن إذًا هذا في حكم المرفوع، لكن لا، ممكن أن يكون هذا من الإسرائيليات التي تلقاها هذا الصحابي من بعض الذين أسلموا من اليهود والنصارى، ولذلك فينبغي أن يكون الحديث الموقوف والذي يراد أن نجعله في حكم المرفوع ما يوحي بأنه ليس له علاقة بالشرائع السابقة.

فهذا الحديث عن عبد الله بن عمرو يمكن أن يكون من الأمور الإسرائيلية التي تتحدث عما في السماء من العجائب، ومن خلق الملائكة، لكن الذي ثابت. . . الآن عكس ذاك تمامًا، يشعر الإنسان فورًا أن هذا لا يمكن أن يكون من الإسرائيليات، فهو إذًا موقوف في حكم المرفوع ولا مناص، ما هو؟

الحديث المعروف والمروي عن ابن عباس بالسند الصحيح، قال رضي الله عنه: نزل القرآن إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل أنجمًا حسب الحوادث، فهو إذًا: يتحدث عن القرآن وليس عن التوراة والإنجيل، فلو كان حديثه هذا الموقوف عن التوراة والإنجيل ورد الاحتمال السابق، فيقال: لا نستطيع أن نقول هو في حكم المرفوع، لكن ما دام يتعلق بالقرآن وأحكام القرآن وكل ما يتعلق به لا يمكن أن يتحدث عنه بشيء غيبي إلا ويكون الراوي قد تلقاه من الرسول عليه السلام، لأنه كون القرآن نزل جملة هذا غيب من أين يعرف ابن عباس تلقاه من بعض الإسرائيليات هذا مستحيل، ونزل إلى بيت العزة في السماء الدنيا تفصيل دقيق [لا يمكن] للعقل البشري أن يصل إليه، لذلك هذا الحديث يتعامل العلماء معه كما لو كان قد صرح ابن عباس فيه برفعه إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

باختصار: إن الأحاديث الموقوفة ليس من السهل أبدًا أن يحكم عليها

بحكم المرفوع إلا بدراسة دقيقة ودقيقة جدًا، وذلك لا يستطيعه إلا كبار أهل العلم.

سؤال: جزاك الله خير يا شيخنا.

الشيخ: وإياك بارك الله فيك.

مداخلة: هذه فائدة فريدة عضوا عليها بالنواجذ والأضراس والثنايا.

الشيخ: جزاك الله خيرًا.

(تنبيه) قال العلامة صالح آل الشيخ في شرح كتاب أصول الإيمان: عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله جهدت الأنفس وضاعت العيال، ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق لنا ربّك فإنا نستشفع بك على الله وبالله عليك فقال رسول الله ﷺ: "ويحك أتدري ما تقول؟ وسبَّح رسول الله ﷺ فما زال يسبِّح حتى عُرِف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال: "ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحدٍ من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ويحك أتدري ما الله؟ إن عرشه على سماواته لهكذا وقال بأصابعه مثل القبة عليه وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب). رواه أحمد وأبو داود.

هذا الحديث إسناده فيه ضعف قد تكلم عليه عدد من أهل العلم لكن ما زال علماء السنة يتتابعون على إيراده فما خلا مصنف في السنة من إيراد هذا الحديث وذلك لدلالته على أمرين معروفين في كلام أهل السنة:

الأول: علو الله جل وعلا. وهذا أمر متواتر وأدلته كثيرة في الكتاب والسنة.

الثاني: أن العرش فوق السماوات. وهذا أيضًا ثابت عندهم وأن العرش ليس في داخل السماوات، وهذا فيه رد على من زعم من الفلاسفة أو المعتزلة أو

غيرهم أن العرش له صفة أخرى وهذا فيه أيضًا تنبيه على أن العرش له أركان لأنه قال: (وعلى سماواته لهكذا وقال بأصابعه. . .) فيه رد على بعض الطوائف الضالة في هذا الباب.

المقصود أن الحديث أهل السنة متفقون بلا خلاف بينهم على إيراده في الأدلة وضعف إسناده لا يعني عدم إيراده في ذلك لأنه اشتمل على أمرين وقد تقدما.

والأمر الثالث الذي اشتمل عليه هذا الحديث: أن العرش يئط وهذا لم يأتي إلا في هذا الحديث وقد أيد من حيث المعنى من قوله جل وعلا: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ)(الشورى: من الآية٥)، ويدل عليه أيضا قوله جل وعلا: (السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا)(المزمل:١٨)، لهذا يورد أهل السنة بالاتفاق هذا الحديث ولا ينظرون إلى ما في إسناده من الضعف.

جاء كلام للمتأخرين أن الحديث الضعيف لا يعمل به في باب العقائد ولا يعمل به في الفقه، أما السلف والأئمة فمنهجهم:

أن الحديث الضعيف لا يستدل به في أصل من الأصول، بل إما في تأييده أو فرع من الفروع، ونص عبارة شيخ الإسلام قال: (أهل الحديث لا يستدلون بحديث ضعيف في أصل من الأصول بل إما في تأييده أو في فرع من الفروع) يعني: أن أهل الحديث يستدلون بالحديث الضعيف في الفقهيات وهذا منهج معروف، فالأئمة مالك والشافعي وأحمد ومن صنف في السنن يحتجون بأحاديث ضعيفة على السنة لأن الحديث الضعيف عندهم خير من الرأي وأما في العقيدة فإذا كان الحديث الضعيف أصلًا لم ترد العقيدة إلا في هذا الحديث فإنه لا يعتمد عليه، لأنه لا يستدل بحديث في أصل من الأصول وتبنى عليه

عقيدة بل لا بد أن يكون الحديث صحيحًا وفي الحسن خلاف والصواب أن الحسن مثل الحديث الصحيح في الاحتجاج به.

والقسم الثاني: أن يورد الحديث الضعيف في تأييد ما دلت عليه النصوص وفي الشواهد، فهذا كل عمل أئمة السنة على ذلك. فلو نظرت في كتاب العرش لبن أبي شيبة لوجدت أن ثلثه أسانيده صحيحة والباقي وهو أكثر من ستين إسناد ضعيفة لكن لأنها في أصل ثابت استدل به وهذا عندهم له أيضًا أصل وهو: أن الحديث إذا كان ضعيفًا واشتمل على أشياء منها ما يؤيد الأصل ومنها ما هو جديد فإنهم يستدلون به في التأييد لما ثبت في الأصل وأما ما انفرد به الحديث الضعيف من الاعتقاد أو من الأمر الغيبي فإنهم لا يثبتونه. مثل هذا الحديث فإنه اشتمل على أشياء ثابتة مؤيدة للنصوص فلا بأس بإيراده وما دل عليه، واشتمل على ذكر الأطيط وهو لم يرد إلا في هذا لذلك نقول: نحن لا نثبت الأطيط لأجل أنه ما ورد إلا في هذا الحديث ونجعل الأطيط في معنى قول الله جل وعلا: (السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ)(المزمل: من الآية١٨) ومعنى قول الله جل وعلا: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)(الشورى:٥).

المتأخرون وخاصة لما نشأت مدرسة أهل الحديث في الهند في القرن الثالث عشر بالغوا في نفي الاستدلال بالحديث الضعيف ثم ورد هذا إلى البلاد الإسلامية الأخرى وكثر حتى ظُنَّ أن هذا هو المنهج الصحيح هذا ليس بمنهج وهو مخالف لطريقة أهل العلم المتقدمة وطريقتهم هي ما ذكرت لك من التفصيل فينتبه لهذا ويعتبر منهج حتى ما يضلل المتأخرون أئمتهم وسابقيهم هذا بلاء، لأجل هذا الأصل الذي ليس بأصل وهو أنهم قالوا: لا يحتج

بالحديث الضعيف، ظن الظان أن معناه: أن الحديث الضعيف كالموضوع لا قيمة له ألبتة، والاستشهاد به أو الاستدلال به دليل ضعف المتكلم علميًا إلى آخره، هذا ليس بجيد، نعم ينبغي على من استشهد بحديث ضعيف أن يبين ضعفه إذا كان ضعفه غير محتمل يعني: لا يقرب من التحسين وأشباه ذلك فيبين ضعفه ثم يذكر ما فيه من الفوائد حسب القواعد التي ذكرت لك.

أنت لو رأيت كتب أهل العلم لوجدت أنهم يستشهدون بأحاديث كما ذكرنا لك، اعتبر هذا أو استقرأ هذا بما في كتب أهل الحديث المتقدمة والمتوسطة إلى قرابة هذه الأزمان لوجدت هذا هو المنهج الذي عندهم كتب التفسير كتب الحديث كتب الرقائق كلها على هذا المنوال.

(باب وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة)

ذهب جمهور العلماء من السلف الصالح - الصحابة والتابعين وأصحاب الحديث والفقه والأصول- إلى أن خبر الواحد حجة في الأحكام والعقائد، يلزم من بلغه العمل به إذا توافرت فيه شروط الحديث المقبول الخمسة المتفق عليها: اتصال السند، عدالة الراوي، وضبطه، وعدم الشذوذ، وعدم العلة، ما لم يكن منسوخًا أو مرجوحًا.

قال الإمام الشافعي: "لو جاز لأحد من الناس أن يقول في علم الخاصة: أجمع المسلمون قديمًا وحديثًا على تثبيت خبر الآحاد والانتهاء إليه بأنه لم يعلم من فقهاء المسلمين أحد إلاَّ قد أثبته جاز لي، ولكن أقول: لم أحفظ عن فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا في تثبيت خبر الواحد بما وصفت بأن ذلك موجود على كلِّهم"[١].

---

(١) الرسالة ص ٤٥٧.

وبوَّب البخاري لذلك فقال: ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق، وذكر فيه خمسة عشر حديثًا.

قال الحافظ ابن حجر: "المراد بالإجازة: جواز العمل به والقول بأنه حجة، وقصد بالترجمة الرد على من يقول: إن خبر الواحد لا يحتج به إلاَّ إذا رواه أكثر من شخص واحد يصير كالشهادة ويلزم منه الرد على من شرط أربعة أو أكثر "[١].

وقال ابن بطال: انعقد الإجماع على القول بالعمل بأخبار الآحاد "[٢].

وقال الإمام أبو محمد بن حزم: "قال أبو سليمان، والحسين بن علي الكرابيسي، والحارث بن أسد المحاسبي وغيرهم: إن خبر الواحد العدل عن مثله إلى رسول الله ﷺ يوجب العلم والعمل معًا وبهذا نقول".

وقال أيضًا: "القرآن والخبر الصحيح بعضها مضاف إلى بعض، وهما شيء واحد في أنهما من عند الله، فمن جاءه خبر عن رسول الله يقرُّ أنه صحيح وأن الحجة تقوم بمثله، أو قد صحح مثل ذلك الخبر في مكان آخر ثم ترك مثله في هذا المكان لقياس أولقول فلان وفلان فقد خالف الله وأمر رسوله"[٣].

وقال الخطيب البغدادي: "وعلى العمل بخبر الواحد كافة التابعين ومن بعدهم من الفقهاء في سائر أمصار المسلمين إلى وقتنا هذا، ولم يبلغنا عن أحد منهم إنكار لذلك ولا اعتراض عليه، فثبت أن من دين جميعهم وجوبه، إذ لو كان فيهم من كان لا يرى العمل به لنقل إلينا الخبر عنه بمذهبه فيه "[٤].

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٢٣٣.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٣٢١.

(٣) الإحكام ١/ ٩٨، ١٠٢، ١٠٨ بتصر

(٤) الكفاية ص ٧٢.

وقال ابن عبد البر: "وكلهم يرون خبر الواحد العدل في الاعتقادات، ويعادي ويوالي عليها، ويجعلها شرعًا وحكمًا ودينًا في معتقده، على ذلك جماعة أهل السنة ولهم في الأحكام ما ذكرناه "[١].

وقال: "خبر الآحاد الثقات الأثبات المتصل الإسناد يوجب العمل عند جماعة علماء الأمة الذين هم الحجة والقدوة "[٢].

وقال ابن دحية: "وعلى قبول خبر الواحد الصحابة والتابعون وفقهاء المسلمين وجماعة أهل السنة، يؤمنون بخبر الواحد ويدينون به في الاعتقاد"[٣].

وهو ما رجحه الحافظ ابن الصلاح في مقدمة علوم الحديث قال - بعد ذكره لأقسام الصحيح -: "وهذا القسم جميعه مقطوع بصحته، والعلم اليقيني النظري واقع به، خلافًا لمن نفى ذلك".

وتعقبه الإمام النووي فقال: "خالفه المحققون والأكثرون"[٤].

قلتُ: ولم أجد من وافق الإمام النووي على هذا القول، بل إنه قال في "شرحه لصحيح مسلم"[٥]: "الذي عليه جماهير المسلمين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من المحدثين والفقهاء وأصحاب الأصول: أن خبر الواحد الثقة حجة من حجج الشرع يلزم العمل بها، ويفيد الظن ولا يفيد العلم، وأن وجوب العمل به عرفناه بالشرع لا بالعقل. . . ".

وقال ابن كثير "ت ٧٧٤ هـ": - بعد كلام ابن الصلاح -: "وهذا جيد وأنا

---

(١) التمهيد ١/ ٣٤.

(٢) جامع بيان العلم ٢/ ٣٤.

(٣) الابتهاج في أحاديث المنهاج ص ٧٨.

(٤) التقريب ص ١٤.

(٥) شرح صحيح مسلم ١/ ١٣١.

مع ابن الصلاح فيما عول عليه وأرشد إليه، ثم وقفت على كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية مضمونه: نقل القطع بالحديث الذي تلقته الأمة بالقبول عن جماعات من الأئمة، منهم: القاضي عبدالوهاب المالكي(١)، والشيخ أبو حامد الإسفراييني(٢)، والقاضي أبو الطيب الطبري(٣)، والشيخ أبو إسحاق الشيرازي من الشافعية، وابن حامد(٤) وأبو يعلى بن الفراء، وأبو الخطاب(٥) وابن الزعفراني(٦) وأمثالهم من الحنابلة، وشمس الأئمة السرخسي من الحنفية. . . ".

وقال أيضًا: "وهو قول أكثر أهل الكلام من الأشعرية وغيرهم كأبي إسحاق الإسفراييني(٧) وابن فورك، وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ومذهب السلف عامة"[(١)].

قال ابن كثير: "وهو معنى ما ذكره ابن الصلاح استنباطًا فوافق فيه هؤلاء الأئمة الأربعة "[(٢)].

وقال ابن القيم:: "ومعلوم مشهور استدلال أهل السنة بالأحاديث ورجوعهم إليها، فهذا إجماع منهم على القبول بأخبار الآحاد، وكذلك أجمع أهل الإسلام متقدموهم ومتأخروهم على رواية الأحاديث في صفات الله تعالى ومسائل القدر والرؤية وأصول الإيمان والشفاعة وإخراج الموحدين من المذنبين من النار. . . وهذه الأشياء، علمية لا عملية، وإنما تروى لوقوع العلم للسامع بها، فإذا قلنا خبر الواحد لا يجوز أن يوجب العلم حملنا أمر الأمة في نقل هذه الأخبار على الخطأ، وجعلناهم لاغين هازلين مشتغلين بما لا يفيد

---

(١) انظر الفتاوى ١٨/ ٤٠.

(٢) الباعث الحثيث ١/ ١٢٧.

أحدًا شيئًا ولا ينفعه، ويصير كأنهم قد دونوا في أمور الدين ما لا يجوز الرجوع إليه والاعتماد عليه"(١).

وقال أيضًا: "إن هذه الأخبار لو لم تفد اليقين فإن الظن الغالب حاصل منها، ولا يمتنع إثبات الأسماء والصفات بها كما لا يمتنع إثبات الأحكام الطلبية بها في الفرق بين باب الطلب وباب الخبر بحيث يحتج بها في أحدهما دون الآخر، وهذا التفريق باطل بإجماع الأمة؛ فإنها لم تزل تحتج بهذه الأحاديث العملية التي تتضمن الخبر عن الله بأنه شَرَعَ كذا وأوجبه ورضيه دينًا، فشرعه ودينه راجع إلى أسمائه وصفاته، ولم تزل الصحابة والتابعون وتابعوهم من أهل الحديث والسنة يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام، ولم ينقل عن أحد منهم البتة أنه يجوِّز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الأخبار عن الله وأسمائه وصفاته، فأين سلف المفرقين بين البابين؟! نعم سلفهم بعض متأخري المتكلمين الذين لا عناية لهم بما جاء في الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، ويحيلون على آراء المتكلمين وقواعد المتكلفين فهم الذين يعرف عنهم التفريق بين الأمرين. . . "(٢).

وقال أيضًا: "والذي ندين به ولا يسعنا غيره: أن الحديث إذا صح عن رسول الله ﷺ ولم يصح عنه حديث آخر بنسخه، أن الفرض علينا وعلى الأمة الأخذ بحديثه وترك ما خالفه، ولا نتركه لخلاف أحد كائنا من كان لا راويه ولا غيره"(٣).

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة ١/ ٣٣٢.
(٢) مختصر الصواعق المرسلة ١/ ٤١٢.
(٣) إعلام الموقعين ٤/ ٤٠٨.

وقال الحافظ ابن حجر: يقبل خبر الواحد وإن كان امرأة[١].

وقال أيضًا: "قبول خبر الواحد ووجوب العمل به ونسخ ما تقرر بطريق العلم به"[٢].

ونقل عن الإمام ابن دقيق العيد "ت ٧٠٢هـ قوله: "المراد بالاستدلال به على قبول خبر الواحد مع كونه خبر واحد أنه صورة من الصور التي تدل، وهي كثيرة"[٣].

وقال أبو الحسنات اللكنوي "ت ١٣٠٤هـ": - عن حكم العمل بحديث الآحاد-: "وحكمه أنه يجب العمل به مالم يكن مخالفًا للكتاب والسنة. . . وهو الصحيح المختار عند الجمهور"[٤].

وقال الشيخ محمد الخضري: "تواتر عن الصحابة في وقائع لا تحصى العمل بخبر الواحد، ومجموع هذه الوقائع تفيد إجماعهم على إيجاب العمل بأخبار الآحاد، وكثيرًا ما كانوا يتركون آراءهم التي ظنوها باجتهادهم إذا روي لهم خبر عن رسول الله ﷺ"[٥].

وقال أحمد شاكر: "والحق الذي ترجحه الأدلة الصحيحة ما ذهب إليه ابن حزم ومن قال بقوله: من أن الحديث الصحيح يفيد العلم القطعي، سواء أكان في أحد الصحيحين أم في غيرهما، وهذا العلم اليقيني علم نظري برهاني، وهذا العلم يبدو ظاهرًا لكل من تبحر في علم من العلوم، وتيقنت نفسه بنظرياته

---

(١) فتح الباري ١/ ٣٠٨.
(٢) فتح الباري ١/ ٣٠٨.
(٣) فتح الباري ١/ ٣٨١.
(٤) ظفر الأماني ص ٦١.
(٥) أصول الفقه ص ٢٨٠.

واطمأن قلبه.... ودع عنك تفريق المتكلمين في اصطلاحاتهم بين العلم والظن فإنما يريدون بهما معنى آخر غير ما نريد، ومنه زعمهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، إنكارًا لما يشعر به كل واحد من الناس من اليقين بالشيء ثم ازدياد هذا اليقين"(١).

وقال العلامة الألباني في الحديث حجة بنفسه (ص٥٣ - ٥٩): من الأدلة على وجوب الأخذ بخبر الواحد في العقيدة:

الدليل الأول: قوله تعالى: {وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون}.

فقد حض الله تبارك وتعالى المؤمنين على أن ينفر طائفة منهم إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ليتعلموا منه دينهم ويتفقهوا فيه. ولا شك أن ذلك ليس خاصًا بما يسمى بالفروع والأحكام بل هو أعم. بل المقطوع به أن يبدأ المعلم بما هو الأهم فالأهم تعليمًا وتعلمًا، ومما لا ريب فيه أن العقائد أهم من الأحكام، ومن أجل ذلك زعم الزاعمون أن العقائد لا تثبت بحديث الآحاد، فيبطل ذلك عليهم هذه الآية الكريمة، فإن الله تعالى كم حض فيها الطائفة على التعلم والتفقه عقيدةً وأحكامًا حضهم على أن ينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما تعلموه من العقائد والأحكام، و"الطائفة" في لغة العرب تقع على الواحد فما فوق. فلولا أن الحجة تقوم بحديث الآحاد عقيدة وحكمًا لما حض الله تعالى الطائفة على التبليغ حضًا عامًا، معللًا ذلك بقوله: {لعلهم يحذرون} الصريح في أن العلم يحصل بإنذار الطائفة، فإنه كقوله تعالى في آياته الشرعية

---

(١) الباعث الحثيث ١/ ١٢٥.

والكونية: {لعلهم يتفكرون}، {لعلهم يعقلون}، {لعلهم يهتدون}، فالآية نص في أن خبر الآحاد حجة في التبليغ عقيدة وأحكامًا.

الدليل الثاني: قوله تعالى: {ولا تقف ما ليس لك به علم} أي لا تتبعه، ولا تعمل به، ومن المعلوم أن المسلمين لم يزالوا من عهد الصحابة يَقْفُون أخبار الآحاد، ويعملون بها، ويثبتون بها الأمور الغيبية، والحقائق الإعتقادية مثل بدء الخلق وأشراط الساعة، بل ويثبتون بها لله تعالى الصفات، فلو كانت لا تفيد علما، ولا تثبت عقيدة لكان الصحابة والتابعون وتابعوهم وأئمة الإسلام كلهم قد قفوا ما ليس لهم به علم، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى في (مختصر الصواعق- ٢/ ٣٩٦) وهذا مما لا يقوله مسلم.

الدليل الثالث: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} وفي القراءة الأخرى "فتثبتوا"، فإنها تدل على أن العدل إذا جاء بخبر ما فالحجة قائمة به، وأنه لا يجب التثبت بل يؤخذ به حالًا، ولذلك قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في "الإعلام" (٢/ ٣٩٤):

"وهذا يدل على الجزم بقبول خبر الواحد وأنه لا يحتاج إلى التثبت، ولو كان خبره لا يفيد العلم لأمر بالتثبت حتى يحصل العلم.

ومما يدل عليه أيضًا أن السلف الصالح وأئمة الإسلام لم يزالوا يقولون: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كذا، وفعل كذا وأمر بكذا، ونهى عن كذا، وهذا معلوم في كلامهم بالضرورة، وفي "صحيح البخاري": قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في عدة مواضع، وكثير من أحاديث الصحابة يقول فيها أحدهم: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وإنما سمعه من صحابي غيره، وهذه شهادة من القائل، وجزم على رسول الله -صلى الله عليه

وآله وسلم- بما نسب إليه من قول أو فعل، فلو كان خبر الواحد لا يفيد العلم لكان شاهدًا على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بغير علم".

الدليل الرابع: سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأصحابه تدل على الأخذ بخبر الآحاد: إن السنة العملية التي جرى عليها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأصحابه في حياته وبعد وفاته تدل أيضًا دلالة قاطعة على عدم التفريق بين حديث الآحاد في العقيدة والأحكام، وأنه حجة قائمة في كل ذلك، وأنا ذاكر الآن بإذن الله بعض ما وقفت عليه من الأحاديث الصحيحة، قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى في "صحيحه" - ٨/ ١٣٢):

" باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام، وقول الله تعالى: {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون} ويسمى الرجل طائفة لقوله تعالى: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا} فلو اقتتل رجلان دخلا في معنى الآية، وقوله تعالى: (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وكيف بعث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أمراءه واحدًا بعد واحد، فإن سها أحد منهم رد إلى السنة".

ثم ساق الإمام البخاري أحاديث مستدلًا بها على ما ذكر من إجازة خبر الواحد، والمراد بها جواز العمل والقول بأنه حجة فأسوق بعضًا منها:

الأول: عن مالك بن الحويرث قال: "أتينا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ونحن شببه (١) متقاربون، فأقمنا عنده نحوًا من عشرين ليلة، وكان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- رحيمًا رفيقًا، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا، أو قد اشتقنا سألنا عمن تركنا بعدنا، فأخبرناه، قال: ارجعوا إلى أهليكم،

فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم، وصلوا كما رأيتموني أصلي " فقد أمر -صلى الله عليه وآله وسلم- كل واحد من هؤلاء الشببة أن يعلم كل واحد منهم أهله، والتعليم يعم العقيدة، بل هي أول ما يدخل في العموم فلو لم يكن خبر الآحاد تقوم به الحجة لم يكن لهذا الأمر معنى.

الثاني: عن أنس بن مالك: أن أهل اليمن قدموا على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فقالوا: إبعث معنا رجلا يعلمنا السنة والإسلام. قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمين هذه الأمة «أخرجه مسلم (٧/ ٢٩) ورواه البخاري مختصرًا.

قلت: فلو لم تقم الحجة بخبر الواحد لم يبعث إليهم أبا عبيدة وحده، وكذلك يقال في بعثه -صلى الله عليه وآله وسلم- إليهم في نوبات مختلفة، أو إلى بلاد منها متفرقة غيره من الصحابة رضي الله عنهم كعلي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري، وأحاديثهم في "الصحيحين" وغيرهما، ومما لا ريب فيه أن هؤلاء كانوا يعلمون الذين أرسلوا إليهم العقائد في جملة ما يعلمونهم، فلو لم تكن الحجة قائمة بهم عليهم لم يبعثهم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أفردًا، لأنه عبث يتنزه عنه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهذا معنى قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في "الرسالة" (ص٤١٢): "وهو -صلى الله عليه وآله وسلم- لا يبعث بأمره، إلا والحجة للمبعوث إليهم وعليهم قائمة بقبول خبره عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وقد كان قادرًا على أن يبعث إليهم فيشافههم، أو يبعث إليهم عددًا، فبعث واحدًا يعرفونه بالصدق".

الثالث: عن عبد الله بن عمر قال: "بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ

جاءهم آت، فقال إن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة " رواه البخاري ومسلم.

فهذا نص على أن الصحابة رضي الله عنهم قبلوا خبر الواحد في نسخ ما كان مقطوعًا عندهم من وجوب استقبال بيت المقدس، فتركوا ذلك واستقبلوا الكعبة لخبره، فلولا أنه حجة عندهم ما خالفوا به المقطوع عندهم من القبلة الأولى. قال ابن القيم: "ولم ينكر عليهم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، بل شكروا على ذلك".

الرابع: عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفًا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله، أخبرني أبي بن كعب قال: خطبنا رسول الله، ثم ذكر حديث موسى والخضر بشيء يدل على أن موسى عليه السلام صاحب الخضر. أخرجه الشيخان مطولًا، والشافعي هكذا مختصرًا (٤٤٢/ ١٢١٩): وقال الشافعي: يثبت العقيدة بخبر الواحد: "فابن عباس مع فقهه وورعه يثبت خبر أبي بن كعب عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- حتى يكذب به امرءًا من المسلمين، إذ حدثه أبي بن كعب عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بما فيه دلالة على أن موسى بني إسرائيل صاحب الخضر".

قلت: وهذا القول من الإمام الشافعي رحمه الله دليل على أنه لا يرى التفريق بين العقيدة والعمل في الاحتجاج بخبر الآحاد، لأن كون موسى عليه السلام

هو صاحب الخضر عليه السلام هي مسألة علمية وليست حكمًا عمليًا كما هو مبين، ويؤيد ذلك أن الإمام رحمه الله تعالى عقد فصلًا هامًا في "الرسالة"

تحت عنوان "الحجة في تثبيت خبر الواحد" وساق تحته أدلة كثيرة من الكتاب والسنة، (ص٤٠١ - ٤٥٣) وهي أدلة مطلقة، أو عامة، تشمل بإطلاقها وعمومها أن خبر الواحد حجة في العقيدة أيضًا، وكذلك كلامه عليها عام أيضًا، وختم هذا البحث بقوله: "وفي تثبيت خبر الواحد أحاديث يكفي بعض هذا منها، ولم يزل سبيل سلفنا والقرون بعدهم إلى من شاهدنا هذه (١) السبيل.

وكذلك حكى لنا عمن حكى لنا عنه من أهل العلم بالبلدان". وهذا عام أيضًا.

وكذلك قوله (ص٤٥٧): "ولو جاز لأحد من الناس أن يقول في علم الخاصة: أجمع المسلمون قديمًا وحديثًا على تثبيت خبر الواحد والإنتهاء إليه بأنه لم يعلم من فقهاء المسلمين أحد إلا وقد ثبته جاز لي، ولكن أقول: لم أحفظ عن فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا في تثبيت خبر الواحد".

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة (ص٣): ظهرت عند بعض علماء المسلمين منذ قرون طويلة فكرة خاطئة، ورأي خطير، وذلك هو قولهم: إن حديث الآحاد ليس بحجة في العقائد الإسلامية، وإن كان حجة في الأحكام الشرعية، وقد أخذ بهذا الرأي عدد من علماء الأصول المتأخرين، وتبناه حديثًا طائفة من الكُتاب والدعاة المسلمين، حتى صار عند بعضهم أمرًا بدهيًّا لا يحتمل البحث والنقاش! وغلا بعضهم فقال: إنه لا يجوز أن تُبنى عليه عقيدة أصلًا، ومن فعل ذلك فهو فاسق وآثم!!

وقد كتب في الرد على هذا الرأي الشاذ كثير من علماء الإسلام والحديث قديمًا وحديثًا، ومن أهم الردود ما كتبه العلامة الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه "الصواعق المرسلة" والإمام الكبير ابن حزم رحمه الله تعالى في كتابه

القيم "الإحكام في أصول الأحكام".

وقال رَحِمَهُ اللهُ في وجوب الأخذ بحديث الآحاد (ص٧ - ٤٥): ذهب بعضهم إلى أنه لا تثبت العقيدة إلا بالدليل القطعي، بالآية أو الحديث المتواتر تواترًا حقيقيًا، إن كان هذا الدليل لا يحتمل التأويل، وادعى أن هذا مما اتُفِق عليه عند علماء الأصول، وأن أحاديث الآحاد لا تفيد العلم (١)، وأنها لا تثبت بها عقيدة (٢)!

وأقول: إن هذا القول وإن كنا نعلم أنه قد قال به بعض المتقدمين من علماء الكلام، فإنه منقوض من وجوه عديدة:

الوجه الأول: أنه قول مبتدع محدث، لا أصل له في الشريعة الإسلامية الغراء، وهو غريب عن هدي الكتاب وتوجيهات السنة، ولم يعرفه السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم، ولم ينقل عن أحد منهم، بل ولا خطر لهم على بال! ومن المعلوم المقرر في الدين الحنيف: أن كل أمر مبتدع من أمور الدين باطل مردود، لا يجوز قبوله بحال.

الوجه الثاني: أن هذا القول يتضمن عقيدةً تستلزم رد مئات الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولم لمجرد كونها في العقيدة، وهذه العقيدة: هي أن أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة، وإذا كان الأمر كذلك عند هؤلاء المتكلمين وأتباعهم، فنحن نخاطبهم بما يعتقدونه، فنقول لهم:

أين الدليل القاطع على صحة هذه العقيدة لديكم من آية أو حديث متواتر: قطعي الثبوت قطعي الدلالة أيضًا، بحيث إنه لا يحتمل التأويل؟

الوجه الثالث: أن هذا القول مخالف لجميع أدلة الكتاب والسنة التي نحتج

نحن وإياهم جميعًا بها على وجوب الأخذ بحديث الآحاد في الأحكام الشرعية، وذلك لعمومها وشمولها لما جاء به رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عن ربه، سواء كان عقيدة أو حكمًا.

الوجه الرابع: أن القول المذكور ليس فقط لم يَقُلْ به الصحابة، بل هو مخالف لما كانوا عليه رضي الله عنهم، فإننا على يقين أنهم كانوا يجزمون بكل ما يحدث به أحدهم عن حديث عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولم يقل أحد منهم لمن حدثه عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: خبرك خبر واحد لا يفيد العلم حتى يتواتر.

الوجه الخامس: قال الله تعالى: {يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) (المائدة:٦٧)، وقال: {وما على الرسول إلا البلاغ المبين} (النور:٥٤)، وقال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «بلغوا عني» متفق عليه، وقال لأصحابه في الجمع الأعظم يوم عرفة: «أنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، رواه مسلم.

ومعلوم أن البلاغ: هو الذي تقوم به الحجة على المبلَّغ، ويحصل به العلم، فلو كان خبر الواحد لا يحصل به العلم لم يقع به التبليغ الذي تقوم به حجة الله على العبد، فإن الحجة إنما تقوم بما يحصل به العلم، وقد كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يرسل الواحد من أصحابه يبلِّغ عنه، فتقوم الحجة على من بلغه، وكذلك قامت حجته علينا بما بلغنا العدولُ الثقات من أقواله وأفعاله وسنته، ولو لم يفد العلم، لم تقم علينا بذلك حجة، ولا على من بلغه واحد أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة أو دون عدد التواتر، وهذا من أبطل الباطل.

الوجه السادس: أننا نعلم يقينًا أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان

يبعث أفرادًا من الصحابة إلى مختلف البلاد ليعلِّموا الناس دينهم، كما أرسل عليًا ومعاذًا وأبا موسى إلى اليمن في نوبات مختلفة، ونعلم يقينًا أيضًا أن أهم شيء في الدين إنما هو العقيدة، فهي أول شيء كان أولئك الرسل يدعون الناس إليه، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لمعاذ: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ﷷ» وفي رواية: «فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله»، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات. . . .) الحديث متفق عليه، واللفظ لمسلم.

فقد أمره -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يبلغهم قبل كل شيء عقيدة التوحيد، وأن يعرفهم بالله ﷷ، وما يجب له وما ينزه عنه، فإذا عرفوه تعالى بلغهم ما فرض الله عليهم، وذلك ما فعله معاذ يقينًا، فهو دليل قاطع على أن العقيدة تثبت بخبر الواحد، وتقوم به الحجة على الناس، ولولا ذلك لما اكتفى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بإرسال معاذ وحده وهذا بين ظاهر، والحمد لله.

الوجه السابع: أن القول المذكور يستلزم تفاوت المسلمين فيما يجب عليهم اعتقاده، مع بلوغ الخبر إليهم جميعًا، وهذا باطل أيضًا.

الوجه الثامن: ومِن لوازمه -أيضًا- إبطال الأخذ بالحديث مطلقًا في العقيدة من بعد الصحابة الذين سمعوه منه -صلى الله عليه وآله وسلم- مباشرة، وهذا كالذي قبله في البطلان، بل أظهر.

الوجه التاسع: إذا كان من الواجب قبول قول المحدث الواحد في الحديث: إنه متواتر، وهو يستلزم الأخذ به في العقيدة، فكذلك يجب الأخذ بحديث كل محدث ثقة، وإثبات العقيدة به، ولا فرق.

والتعليل باحتمال أن يكون وَهِمَ أو نسي أو كَذب في واقع الأمر -وإن كان ظاهره الثقة والعدالة- يقال مثله في المختص الذي قال بتواتر الحديث، ولا فرق أيضًا، فإما أن يصدق كل منهما فيما أخبر به، وإما أن لا يصدقا! والثاني باطل، فثبت الأول، وهو المراد.

الوجه العاشر: أن التصديق في مبدأ الأمر -وإن كان اختياريًا- ولذلك يقال للإنسان: صدِّق أو لا تُصدق-، ولكن المصدِّق حين يثق بالراوي يجد نفسه مقسورة على تصديقه، بحيث إنه لا يمكنه أن يكذبه أو يشك في خبره، كما يجد ذلك كل واحد منا مع صديقه الذي يثق به.

وحينئذٍ فتكليف المصَدِّقِ بوجوب تصديق الراوي الذي يثق به في الأحكام دون العقيدة هو أشبه شيء بالقول بـ: (تكليف ما لا يطاق).

الوجه الحادي عشر: أن التفريق بين العقيدة والأحكام العملية، وإيجاب الأخذ بحديث الآحاد في هذه دون تلك إنما بني على أساس أن العقيدة لا يقترن معها عمل، والأحكام العملية لا يقترن معها عقيدة، وكلا الأمرين باطل!

الوجه الثاني عشر: أن القائلين بهذه العقيدة الباطلة لو قيل لهم: إن العكس هو الصواب، لما استطاعوا رده، فإنه من الممكن أن يقال: لما كان كل من العقيدة والعمل يتضمن أحدهما الآخر، فالعقيدة يقترن معها عمل، والعمل يقترن معه عقيدة على ما سبق بيانه آنفًا، ولكن بينهما فرقًا واضحًا من حيث أن الأول إنما هو متعلق بشخص المؤمن، ولا ارتباط له بالمجتمع، بخلاف العمل، فإنه مرتبط بالمجتمع الذي يحيا فيه المؤمن ارتباطًا وثيقًا، فيه تستحل الفروج المحرمة في الأصل، وتستباح الأموال والنفوس، فالأمور العملية من هذه الوجهة أخطر من الأمور الاعتقادية.

الوجه الثالث عشر: أن طرد قولهم بهذه العقيدة، وتبنيها دائمًا، يستلزم تعطيل العمل بحديث الآحاد في الأحكام العملية أيضًا، وهذا باطل لا يقولون هم أيضًا به، وما لزم منه باطل فهو باطل.

الوجه الرابع عشر: أن دعوى اتفاق الأصوليين على ذلك القول دعوى باطلة، وجرأة زائدة، فإن الاختلاف معروف في كتب الأصول وغيرها، وبعض الكُتاب اليوم إنما قلد في ذلك بعض المعاصرين الذي لا يتثبتون فيما ينقلون، وإلا فكيف يصح الاتفاق المذكور، وقد نص على أن خبر الواحد يفيد العلم: الإمام مالك والشافعي، وأصحاب أبي حنيفة، وداود بن علي وأصحابه، كابن حزم، ونص عليه الحسين بن علي الكرابيسي، والحارث بن أسد المحاسبي؟!

الوجه الخامس عشر: هب جدلًا أن الاتفاق المزعوم صحيح، ولكنه ليس على إطلاقه عند الأصوليين، بل هو مقيد بما إذا لم يكن هناك ما يشهد له.

الوجه السادس عشر: على أن هذا الاختلاف مسبوق بانعقاد الإجماع المعلوم المتيقن على قبول هذه الأحاديث، وإثبات صفات الرب تعالى والأمور العلمية الغيبية بها. قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

"فهذا لا يشك فيه من له خبرة بالمنقول، فإن الصحابة هم الذين رووا هذه الأحاديث، وتلقاها بعضهم عن بعض بالقبول، ولم ينكرها أحد منهم على من رواها، ثم تلقاها عنهم جميع التابعين من أولهم إلى آخرهم، ومن سمعها منهم تلقاها بالقبول والتصديق لهم، ومن لم يسمعها منهم تلقاها عن التابعين كذلك، وكذلك تابع التابعين مع التابعين، هذا أمر يعلمه ضرورة أهل الحديث، كما يعلمون عدالة الصحابة وصدقهم وأمانتهم ونقلهم ذلك عن نبيهم -صلى الله عليه وآله وسلم- كنقلهم الوضوء والغسل من الجنابة، وأعداد الصلوات

وأوقاتها، ونقل الأذان والتشهد والجمعة والعيدين، فإن الذين نقلوا هذا هم الذين نقلوا أحاديث الصفات، فإن جاز عليهم الخطأ والكذب في نقلها، جاز عليهم ذلك في نقل غيرها مما ذكرناه، وحينئذٍ فلا وثوق لنا بشيء نقل لنا عن نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- البتة، وهذا انسلاخ من الدين والعلم والعقل، على أن كثيرًا من القادحين في دين الإسلام قد طردوه، وقالوا: لا وثوق لنا بشيء البتة، (قال): فهؤلاء أعطوا الانسلاخ من السنة والدين حقه، وطردوا كفرهم وخلعوا ربقة الإسلام من أعناقهم، وتقسمت الفرق قولهم هذا في رد الحديث".

ثم ذكر أكثر من عشر طوائف وما أنكروه من السنة، وهم ما بين مستقل من ذلك، ومستكثر، ومنهم المفرقون بين أحاديث الأحكام وأحاديث الصفات، الوجه السادس عشر: على أن هذا الاختلاف مسبوق بانعقاد الإجماع المعلوم المتيقن على قبول هذه الأحاديث، وإثبات صفات الرب تعالى والأمور العلمية الغيبية بها. قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

"فهذا لا يشك فيه من له خبرة بالمنقول، فإن الصحابة هم الذين رووا هذه الأحاديث، وتلقاها بعضهم عن بعض بالقبول، ولم ينكرها أحد منهم على من رواها، ثم تلقاها عنهم جميع التابعين من أولهم إلى آخرهم، ومن سمعها منهم تلقاها بالقبول والتصديق لهم، ومن لم يسمعها منهم تلقاها عن التابعين كذلك، وكذلك تابع التابعين مع التابعين، هذا أمر يعلمه ضرورة أهل الحديث، كما يعلمون عدالة الصحابة وصدقهم وأمانتهم ونقلهم ذلك عن نبيهم -صلى الله عليه وآله وسلم- كنقلهم الوضوء والغسل من الجنابة، وأعداد الصلوات وأوقاتها، ونقل الأذان والتشهد والجمعة والعيدين، فإن الذين نقلوا هذا هم الذين نقلوا أحاديث الصفات، فإن جاز عليهم الخطأ والكذب في نقلها، جاز

عليهم ذلك في نقل غيرها مما ذكرناه، وحينئذٍ فلا وثوق لنا بشيء نقل لنا عن نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- البتة، وهذا انسلاخ من الدين والعلم والعقل، على أن كثيرًا من القادحين في دين الإسلام قد طردوه، وقالوا: لا وثوق لنا بشيء البتة، (قال): فهؤلاء أعطوا الانسلاخ من السنة والدين حقه، وطردوا كفرهم وخلعوا ربقة الإسلام من أعناقهم، وتقسمت الفرق قولهم هذا في رد الحديث".

ثم ذكر أكثر من عشر طوائف وما أنكروه من السنة، وهم ما بين مستقل من ذلك، ومستكثر، ومنهم المفرقون بين أحاديث الأحكام وأحاديث الصفات، أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قِراهُ» رواه أبو داود (٢/ ٥٠٥).

أقول: إن الذين يتبنون هذا القول الباطل يشاركون هؤلاء الضلال في قسم كبير من ضلالهم، وهو الاكتفاء بالقرآن فيما يتعلق بالعقيدة، وهذا -وإن كان لأول وهلة يبدو أنه يخالف قولهم المشار إليه؛ لأنهم يثبتون العقيدة بالحديث المتواتر-، فإنه في الحقيقة لا يخالفه إلا في اللفظ لا المعنى.

والتحقيق: أن ذلك نظري بالنسبة إليهم غير عملي، وإلا فليدلنا هؤلاء الذين يتبنون هذا القول على عقيدة واحدة يعتقدونها بناءً على حديث متواتر، فإني شخصيًا لا أظن أن أحدًا من علماء الكلام يثبت عقيدة بحديث متواتر؛ لأنهم من أجهل الناس بالأحاديث وطرقها، وأزهد الناس في الاشتغال بها وتطلبها، كما سبق بيانه، ولذلك نراهم يحكمون على كثير من الأحاديث بأنها أخبار آحاد، وهي عند أهل العلم بالحديث متواترة!.اهـ. باختصار شديد.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في حديث الآحاد حجة بنفسه (ص٦٢ - ٦٨): ينبغي أن يعلم أن [القول بأن خبر الآحاد لا يفيد إلا الظن الراجح] ليس مسلمًا على إطلاقه، بل فيه تفصيل مذكور في موضعه، والذي يهمنا ذكره الآن هو أن خبر الآحاد يفيد

العلم واليقين في كثير من الأحيان، من ذلك الأحاديث التي تلقتها الأمة بالقبول، ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما مما لم ينتقد عليهما فإنه مقطوع بصحته، والعلم اليقيني النظري حاصل به، كما جزم به الإمام ابن الصلاح في كتابه "علوم الحديث" (ص٢٨ - ٢٩) ونصره الحافظ بن كثير في "مختصره" ومن قبله شيخ الإسلام ابن تيمية، وتبعه العلامة ابن قيم الجوزية في "مختصر الصواعق" (٢/ ٣٨٣)، ومثل له بعدة أحاديث، منها حديث عمر:» إنما الأعمال بالنيات «وحديث:» إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل"، وحديث ابن عمر:» فرض رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- صلاة الفطر في رمضان على الصغير والكبير والذكر والأنثى «وأمثال ذلك، قال ابن القيم (٢/ ٣٧٣): "قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فهذا يفيد العلم اليقيني عند جماهير أمة محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- من الأولين والآخرين، أما السلف، فلم يكن بينهم في ذلك نزاع، وأما الخلف فهذا مذهب الفقهاء الكبار من أصحاب الأئمة الأربعة، والمسألة منقولة في كتب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، مثل السرخسي وأبي بكر الرازي من الحنفية، والشيخ أبي حامد وأبي الطيب والشيخ أبي إسحاق من الشافعية، وابن خويز منداد وغيره من المالكية، ومثل القاضي أبي يعلى وابن أبي موسى وأبي الخطاب وغيرهم من الحنبلية، ومثل أبي إسحاق الإسفرائيني وابن فورك وأبي إسحاق النظام من المتكلمين، وذكره ابن الصلاح وصححه واختاره، ولكنه لم يعلم كثرة القائلين به ليتقوى بهم، وإنما قاله بموجب الحجة الصحيحة وظن من اعترض عليه من المشايخ الذين لهم علم ودين، وليس لهم بهذا الباب خبرة تامة: أن هذا الذي قاله أبو عمرو بن الصلاح انفرد به عن الجمهور! وعذرهم

أنهم يرجعون في هذه المسائل إلى ما يجدونه من كلام ابن الحاجب، وإن ارتفعوا درجة صعدوا إلى السيف الآمدي، وإلى ابن الخطيب، فإن علا سندهم صعدوا إلى الغزالي والجويني والباقلاني. (قال): وجميع أهل الحديث على ما ذكره الشيخ أبو عمرو، والحجة على قول الجمهور: أن تلقي الأمة للخبر تصديقًا وعملًا، إجماع منهم والأمة لا تجتمع على ضلالة، كما لو اجتمعت على موجب عموم، أو مطلق أو اسم حقيقة، أو على موجب قياس، فإنها لا تجتمع على خطأ وإن كان الواحد منهم لو جرد النظر إليه لم يؤمن عليه الخطأ، فإن العصمة تثبت بالنسبة إلا جماعية، كما أن خبر التواتر يجوز الخطأ والكذب على واحد واحد من المخبرين بمفرده، ولا يجوز على المجموع، والأمة معصومة من الخطأ في روايتها ورأيها، (قال): والآحاد في هذا الباب قد تكون ظنونًا بشروطها، فإذا قويت صارت علومًا، وإذا وضعت صارت أوهامًا وخيالات فاسدة. (قال):

واعلم أن جمهور أحاديث البخاري ومسلم من هذا الباب كما ذكره الشيخ أبو عمرو، ومن قبله العلماء كالحافظ أبي طاهر السلفي وغيره، فإن ما تلقاه أهل الحديث وعلماؤه بالقبول والتصديق فهو محصل للعلم، مفيد لليقين، ولا عبرة بمن عداهم من المتكلمين والأصوليين، فإن الإعتبار في الإجماع على كل أمر من الأمور الدينية بأهل العلم به دون غيرهم، كما لم يعتبر في الإجماع على الأحكام الشرعية إلا العلماء بها، دون المتكلمين والنحاة والأطباء، وكذلك لا يعتبر في الإجماع على صدق الحديث وعدم صدقه إلا أهل العلم بالحديث وطرقه وعلله، وهم علماء الحديث، العالمون بأحوال نبيهم، الضابطون لأقواله وأفعاله، المعتنون بها أشد من عناية المقلدين لأقوال متبوعيهم، فكما أن العلم

بالتواتر ينقسم إلى عام وخاص، فيتواتر عند الخاصة ما لا يكون معلومًا لغيرهم، فضلًا أن يتواتر عندهم، فأهل الحديث لشدة عنايتهم بسنة نبيهم، وضبطهم لأقواله وأفعاله وأحواله يعلمون من ذلك علمًا لا يشكون فيه مما لا شعور لغيرهم به البتة".

فساد قياس الخبر الشرعي على الأخبار الأخرى في إفادة العلم

قال ابن القيم رحمه الله تعالى (٢/ ٣٦٨): "وإنما أتى منكر إفادة خبر الواحد العلم من جهة القياس الفاسد فإنه قاس المخبر عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بشرع عام للأمة، أو بصفة من صفات الرب تعالى على خبر الشاهد على قضية معينة، ويا بعد ما بينهما ! فإن المخبر عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لو قدر أنه كذب عمدًا أو خطأ، ولم يظهر ما يدل على كذبه لزم من ذلك إضلال الخلق، إذ الكلام في الخبر الذي تلقته الأمة بالقبول، وعملت بموجبه، وأثبتت به صفات الرب وأفعاله، فإن ما يجب قبوله شرعًا من الأخبار لا يكون باطلا في نفس الأمر، لاسيما إذا قبلته الأمة كلهم وهكذا يجب أن يقال في كل دليل يجب اتباعه شرعًا، لا يكون إلا حقًا، فيكون مدلوله ثابتًا في نفس الأمر، هذا فيما يخبر به عن شرع الرب تعالى وأسمائه وصفاته، بخلاف الشهادة المعينة على مشهود عليه معين، فهذه قد لا يكون مقتضاها ثابتًا في نفس الأمر.

وسر المسألة أنه لا يجوز أن يكون الخبر الذي تعبد الله به الأمة وتعرف به إليهم على لسان رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- في إثبات أسمائه وصفاته كذبًا وباطلًا في نفس الأمر، فإنه من حجج الله على عباده، وحجج الله لا تكون كذبًا وباطلا، بل لا تكون إلا حقًا في نفس الأمر، ولا يجوز أن تتكافأ أدلة الحق

والباطل، ولا يجوز أن يكون الكذب على الله وشرعه ودينه مشتبهًا بالوحي الذي أنزله على رسوله، وتعبد به خلقه، بحيث لا يتميز هذا عن هذا، فإن الفرق بين الحق والباطل، والصدق والكذب، ووحي الشيطان، ووحي الملك عن الله، أظهر من أن يشبه أحدهما بالآخر، ألا وقد جعل الله على الحق نورًا كنور الشمس يظهر للبصائر المستنيرة، وألبس الباطل ظلمة كظلمة الليل.

وليس بمستنكر أن يشتبه الليل بالنهار على أعمى البصر، كما يشتبه الحق بالباطل على أعمى البصيرة، قال معاذ بن جبل في قضيته (!) " تلق الحق ممن قاله، فإن على الحق نورًا " ولكن لما أظلمت القلوب، وعميت البصائر بالإعراض عما جاء به الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-، وازدادت الظلمة باكتفائها بآراء الرجال التبس عليها الحق بالباطل، فجوزت على أحاديثه -صلى الله عليه وآله وسلم- الصحيحة التي رواها أعدل الأمة وأصدقها أن تكون كذبًا، وجوزت على الأحاديث الباطلة المكذوبة المختلقة التي توافق أهواءها أن تكون صدقًا فاحتجت بها!

قال (٢/ ٣٧٩): وإنما المتكلمون أهل ظلم وجهل، يقيسون خبر الصديق والفاروق وأبي بن كعب بأخبار آحاد الناس، مع ظهور الفرق المبين بين المخبرين، فمن أظلم ممن سوى بين خبر الواحد من الصحابة وخبر الواحد من الناس في عدم إفادة العلم؟ وهذا بمنزلة من سوى بينهم في العلم والدين والفضل.

قال (٢/ ٣٧٩): سبب ادعائهم (عدم إفادة حديث الآحاد العلم) هو جهلهم بالسنة:

فإذا قالوا: أخباره -صلى الله عليه وآله وسلم- وأحاديثه الصحيحة لا تفيد

العلم، فهم مخبرون عن أنفسهم أنهم لم يستفيدوا منها العلم، فهم صادقون فيما يخبرون به عن أنفسهم، كاذبون في إخبارهم أنها لا تفيد العلم لأهل الحديث والسنة. (وقال ٢/ ٤٣٢) إذ لم يحصل لهم من الطرق التي استفاد بها العلم أهل السنة ما حصل لهم، فقولهم: لم نستفد بها العلم لم يلزم منه النفي العام على ذلك، (وهذا) بمنزلة الاستدلال على أن الواجد للشيء العالم به غير واجد له، ولا عالم به! فهو كمن يجد من نفسه وجعًا أو لذة أو حبًا أو بغضًا، فينتصب له من يستدل على أنه غير وجع ولا متألم ولا محب ولا مبغض، ويكثر له من الشبه التي غايتها أني لم أجد ما وجدته، ولو كان حقًا لاشتركت أنا وأنت فيه! وهذا عين الباطل، وما أحسن ما قيل: أقول للائم المهُدى ملامته. . . ذق الهوى فإن استطعت الملام لُمِ فيقال له: اصرف عنايتك إلى ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- واحرص عليه، وتتبعه واجمعه، و(الزم) معرفة أحوال نقلته وسيرتهم، وأعرض عما سواه، واجعله غاية طلبك، ونهاية قصدك، بل احرص عليه حرص أتباع المذاهب على معرفة مذاهب أئمتهم، بحيث حصل لهم العلم الضروري بأنها مذاهبهم وأقوالهم، ولو أنكر ذلك عليهم منكر لسخروا منه، وحينئذ تعلم: هل تفيد أخبار رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- العلم أو لا تفيده، فأما مع إعراضك عنها، وعن طلبها فهي لا تفيدك علمًا، ولو قلت: لا تفيدك أيضًا ظنًا لكنت مخبراً بحصتك ونصيبك منها !".

وقال رَحِمَهُ اللهُ في المصدر السابق (ص٦٠ - ٦٢): أدلة الكتاب والسنة، وعمل الصحابة، وأقوال العلماء تدل دلالة قاطعة على. . . وجوب الأخذ بحديث الآحاد في كل أبواب الشريعة، سواء كان في الاعتقاديات أو العمليات، وأن التفريق بينهما، بدعة لا يعرفها السلف، ولذلك قال العلامة ابن القيم رحمه الله

تعالى (٣/ ٤١٢):

" وهذا التفريق باطل بإجماع الأمة، فإنها لم تزل تحتج بهذه الأحاديث في الخبريات العلميات "يعني العقيدة"، كما تحتج بها في الطلبيات العمليات، ولا سيما والأحكام العملية تتضمن الخبر عن الله بأنه شرع كذا وأوجبه ورضيه دينًا، فشرعه ودينه راجع إلى أسمائه وصفاته، ولم تزل الصحابة والتابعون وتابعوهم وأهل الحديث والسنة يحتجون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام، ولم ينقل عن أحد منهم البتة أنه جوز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الأخبار عن الله وأسمائه وصفاته، فأين سلف المفرقين بين البابين؟! نعم سلفهم بعض متأخري المتكلمين الذين لا عناية لهم بما جاء عن الله ورسوله وأصحابه، بل يصدون القلوب عن الاهتداء في هذا الباب بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة، ويحيلون على آراء المتكلمين، وقواعد المتكلفين، فهم الذين يعرف عنهم التفريق بين الأمرين... وادعوا الإجماع على هذا التفريق، ولا يحفظ ما جعلوه إجماعًا عن إمام من أئمة المسلمين، ولا عن أحد من الصحابة والتابعين... فنطالبهم بفرق صحيح بين ما يجوز إثباته بخبر الواحد من الدين، وما لا يجوز، ولا يجدون إلى الفرق سبيلا إلا بدعاوى باطلة... كقول بعضهم: الأصوليات هي المسائل العلميات، والفروعيات هي المسائل العملية (وهذا تفريق باطل أيضًا، فإن المطلوب من العمليات) (١) أمران: العلم والعمل، والمطلوب من العلميات العلم والعمل أيضًا، وهو حب القلب وبغضه، وحبه للحق الذي دلت عليه وتضمنته، وبغضه للباطل الذي يخالفها، فليس العمل مقصورًا على عمل الجوارح، بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح، وأعمال الجوارح تبع، فكل مسألة علمية، فإنه يتبعها إيمان

القلب وتصديقه وحبه، بل هو أصل العمل، وهذا مما غفل عنه كثير من المتكلمين في مسائل الإيمان، حيث ظنوا أنه مجرد التصديق دون الأعمال! وهذا من أقبح الغلط وأعظمه، فإن كثيرًا من الكفار كانوا جازمين بصدق النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- غير شاكين فيه، غير أنه لم يقترن بذلك التصديق عمل القلب، من حب ما جاء به والرضا به وإرادته، والموالاة والمعاداة عليه، فلا تهمل هذا الموضع فإنه مهم جدًا، به تعرف حقيقة الإيمان.

فالمسائل العلمية عملية، والمسائل العملية علمية، فإن الشارع لم يكتف من المكلفين في العمليات بمجرد العمل دون العلم، ولا في العمليات بمجرد العلم دون العمل".

فتحرر من كلام ابن القيم رحمه الله تعالى أن التفريق المذكور مع كونه باطلًا بالإجماع لمخالفته ما جرى عليه السلف، وتظاهر الأدلة المتقدمة على مخالفته، فهو باطل أيضًا من جهة تصور المفرقين عدم وجوب اقتران العلم بالعمل، والعمل بالعلم، وهذه نقطة هامة جدًا تساعد المؤمن على تفهم الموضوع جيدًا، والإيمان ببطلان التفريق المذكور يقينًا.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٣١): عمن يرى أن أحاديث الآحاد لا تثبت بها العقيدة؟.

فأجاب: جوابنا على من يرى أن أحاديث الآحاد لا تثبت بها العقيدة لأنها تفيد الظن، والظن لا تبنى عليه العقيدة أن نقول:

هذا رأي غير صواب لأنه مبني على غير صواب وذلك من عدة وجوه:

١ - القول بأن حديث الآحاد لا يفيد إلا الظن ليس على إطلاقه، بل في أخبار الآحاد ما يفيد اليقين إذا دلت القرائن على صدقه، كما إذا تلقته الأمة بالقبول مثل حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه «إنما الأعمال بالنيات» فإنه خبر

آحاد ومع ذلك فإننا نعلم أن النبي، ﷺ، قاله وهذا ما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ ابن حجر وغيرهما.

٢- أن النبي، ﷺ، يرسل الآحاد بأصول العقيدة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإرساله حجة ملزمة، كما بعث معاذا إلى اليمن واعتبر بعثه حجة ملزمة لأهل اليمن بقبوله.

٣- إذا قلنا بأن العقيدة لا تثبت بأخبار الآحاد أمكن أن يقال: والأحكام العملية لا تثبت بأخبار الآحاد؛ لأن الأحكام العملية يصحبها عقيدة أن الله تعالى أمر بهذا أو نهى عن هذا، وإذا قبل هذا القول تعطل كثير من أحكام الشريعة، وإذا رد هذا القول فليرد القول بأن العقيدة لا تثبت بخبر الآحاد إذ لا فرق كما بينا.

٤- أن الله تعالى أمر بالرجوع إلى قول أهل العلم لمن كان جاهلا فيما هو من أعظم مسائل العقيدة وهي الرسالة. فقال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر}. وهذا يشمل سؤال الواحد والمتعدد.

والحاصل أن خبر الآحاد إذا دلت القرائن على صدقه أفاد العلم وثبتت به الأحكام العملية والعلمية، ولا دليل على التفريق بينهما، ومن نسب إلى أحد من الأئمة التفريق بينهما فعليه إثبات ذلك بالسند الصحيح عنه، ثم بيان دليله المستند إليه.اهـ.

وقال الدكتور ربيع بن هادي المدخلي حفظه الله في كتابه حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام:

الفصل الثالث

ذكر ضلالات وشبه أهل الأهواء حول السنة قديمًا ودحضها

لأهل الأهواء من المتكلمين وغيرهم شبه أثاروها ضدّ سنّة رسول الله ﷺ، وتهمًا وجهوها ضد أصحاب رسول الله ﷺ وضد أئمة الحديث، فتصدى لأباطيلهم وشبهاتهم وطعونهم عددٌ من أئمة الإسلام: كالإمام الشافعي، والإمام أحمد، وابن قتيبة، وعثمان بن سعيد الدارمي، وغيرهم.

ولقد رأيت الإمام ابن قتيبة أطال النفس في تصديه لهم، ونصّ على عدد من رؤوس أهل الضلال، وفنّد مطاعنهم؛ فآثرت أن أقدم للقراء بعض جهاده رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه "تأويل مختلف الحديث"

قال[١] رَحِمَهُ اللَّهُ "بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد: أسعدك الله تعالى بطاعته، وحاطك بكلاءته، ووفقك للحق برحمته، وجعلك من أهله، فإنك كتبت إليّ تعلمني ما وقفت عليه من ثلب أهل الكلام أهل الحديث وامتهانهم وإسهابهم في الكتب بذمهم ورميهم بحمل الكذب ورواية المتناقض حتى وقع الاختلاف وكثرت النحل وتقطعت العصم وتعادى المسلمون وأكفر بعضهم بعضًا وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث، فالخوارج تحتج برواياتهم " ضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أبيدوا خضراءهم"[٢].

و" لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم خلاف من خالفهم". و "من قتل دون ماله فهو شهيد".

والقاعد يحتج برواياتهم" عليكم بالجماعة فإن يد الله عَزَّ وَجَلَّ عليها".

و"من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه".

---

(١) (ص:٣).

(٢) ضعيف، انظر: السلسلة الضعيفة للألباني، حديث (١٦٤٣).

و"اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي مجدّع الأطراف"[(١)].

ثم ساق عددًا من الروايات الباطلة والروايات الصحيحة التي يرون أنها متناقضة، ويطعنون بالجميع في أصحاب رسول الله ﷺ وفي أهل الحديث، وفي هذا دلالة على ضلالهم وجهلهم، فالصحيح من الروايات غير متناقض، والباطل منها إنما هو من افتراءات أهل الأهواء، وقد بيّن ذلك أهل الحديث فلا وجه للطعن عليهم". ثم قال مبينًا حال أهل الكلام: "(باب ذكر أصحاب الكلام وأصحاب الرأي).

١- قال أبو محمد: "وقد تدبرت -رحمك الله- مقالة أهل الكلام فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون، ويفتنون الناس بما يأتون، ويبصرون القذى في عيون الناس، وعيونهم تطرف على الأجذاع، ويتهمون غيرهم في النقل، ولا يتهمون آراءهم في التأويل.

ومعاني الكتاب والحديث، وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة، لا يدرك بالطفرة والتولد والعرض والجوهر والكيفية والكمية والأينية[(٢)].

ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما؛ وضح لهم المنهج، واتسع لهم المخرج.

ولكن يمنع من ذلك طلب الرياسة، وحب الأتباع، واعتقاد الإخوان بالمقالات والناس أسراب طير يتبع بعضها بعضًا.

ولو ظهر لهم من يدعي النبوة -مع معرفتهم بأن رسول الله ﷺ خاتم

(١) هذه الأحاديث صحيحة، لكن القوم لم يفقهوها.

(٢) هذه ألفاظ يستعملها المتكلمون يخالفون بها نصوص الكتاب والسنة وما عليه السلف الصالح ولا سيما في أبواب صفات الله ﷻ.

الأنبياء، أو من يدعي الربوبية- لوجد على ذلك أتباعًا وأشياعًا.

وقد كان يجب -مع ما يدعونه من معرفة القياس وإعداد آلات النظر- أن لا يختلفوا كما لا يختلف الحساب والمساح والمهندسون؛ لأن آلتهم لا تدل إلا على عدد واحد، وإلا على شكل واحد، وكما لا يختلف حذاق الأطباء في الماء وفي نبض العروق.

لأن الأوائل قد وقفوهم من ذلك على أمر واحد فما بالهم أكثر الناس اختلافًا، لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد في الدين.

فـ"أبو الهذيل العلاف" يخالف "النظَّام" و"النجار" يخالفهما و"هشام بن الحكم" يخالفهم، وكذلك "ثمامة"، و"مويس"، و"هاشم الأوقص"، و"عبيدالله ابن الحسن"، و"بكر العمى"، و"حفص"، و"قبّة"، وفلان وفلان.

ليس منهم واحد إلا وله مذهب في الدين، يدان برأيه، وله عليه تبع"[1].

٢- قال أبو محمد: "لو كان اختلافهم في الفروع والسنن، لاتسع لهم العذر عندنا، وإن كان لا عذر لهم، مع ما يدعونه لأنفسهم كما اتسع لأهل الفقه، ووقعت لهم الأسوة بهم.

ولكن اختلافهم، في التوحيد، وفي صفات الله تعالى، وفي قدرته، وفي نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار، وعذاب البرزخ، وفي اللوح، وفي غير ذلك من الأمور التي لا يعلمها نبيّ إلا بوحي من الله تعالى.

ولن يعدم هذا من رد مثل هذه الأصول إلى استحسانه ونظره وما أوجبه القياس عنده، لاختلاف الناس في عقولهم وإراداتهم واختياراتهم.

فإنك لا تكاد ترى رجلين متفقين، حتى يكون كل واحد منهما، يختار ما

---

(١) (ص:١٤-١٥).

يختاره الآخر، ويرذل ما يرذله الآخر، إلا من جهة التقليد"[١].

٣- "ولو أردنا - رحمك الله - أن ننتقل عن أصحاب الحديث ونرغب عنهم إلى أصحاب الكلام، ونرغب فيهم، لخرجنا من اجتماع إلى تشتت، وعن نظام إلى تفرق، وعن أُنس إلى وحشة، وعن اتفاق إلى اختلاف، لأن أصحاب الحديث كلهم مجمعون على أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لا يكون.

وعلى أنه خالق الخير والشر، وعلى أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وعلى أن الله تعالى يرى يوم القيامة، وعلى تقديم الشيخين، وعلى الإيمان بعذاب القبر، لا يختلفون في هذه الأصول، ومن فارقهم في شيء منها، نابذوه وباغضوه وبدعوه وهجروه.

وإنما اختلفوا في اللفظ بالقرآن، لغموض وقع في ذلك وكلهم مجمعون على أن القرآن بكل حال -مقروءًا ومكتوبًا، ومسموعًا، ومحفوظًا- غيرُ مخلوق فهذا الإجماع"[٢].

٤- "فإذا نحن أتينا أصحاب الكلام، لما يزعمون أنهم عليه من معرفة القياس، وحسن النظر، وكمال الإرادة، وأردنا أن نتعلق بشيء من مذاهبهم، ونعتقد شيئًا من نحلهم، وجدنا النظام شاطرًا من الشطار، يغدو على سكر، ويروح على سكر، ويبيت على جرائرها، ويدخل في الأدناس، ويرتكب الفواحش، والشائنات وهو القائل.

ما زلتُ آخذُ رُوح الزِق في وأستبيحُ دمًا من غير مجرُوح

(١) (ص:١٥).
(٢) (ص:١٦).

حتى انثنيتُ ولي روحان في جسم بلا ... والزقُّ مُطرحُ جسم بلا

ثم ذكر من ضلالاته قوله: يجوز أن يجمع المسلمون جميعًا على الخطأ، وأنه طعن في حديث: " بعثت إلى الناس كافة"، وادعى أن كل نبي كذلك.

وحكى عنه أقوالًا باطلة في الطلاق والظهار والوضوء والطعن في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت بالتناقض في أقوال افتراها عليهم، والطعن في عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وتكذيبه في حديث انشقاق القمر وحديث خلق الجنين في بطن أمه. . . "[٢]، وفيه: "إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها".

كما طعن في حذيفة رضي الله عنه، وأبي هريرة رضي الله عنه، وأن عمر وعثمان وعليًا وعائشة قد كذبوه.

وقد تابعه في الطعن في أبي هريرة أحمد أمين وأبو رية كافأهما الله بما يستحقان، وقد رد ابن قتيبة هذه الطعون[٣].

ثم ذكر بكرًا صاحب الطائفة البكرية، وذكر من أقواله: أن من سرق حبة خردل ثم مات غير تائب فهو في النار مخلد فيها أبدًا مع اليهود والنصارى، وذكر بعض ضلالاته ثم ناقشه فيها[٤]، وذكر هشام بن الحكم وأنه كان رافضيًا

---

(١) (ص:١٧-١٨).

(٢) ومن المؤسف أن محمدًا الغزالي المعاصر قد تابعه في الطعن في ابن مسعود وتكذيبه في هاتين القضيتين، وطعن في عبدالله بن عمرو بن العاص ومعاوية رضي الله عنهما كما شارك في الطعن في أهل الحديث وكثير من الأحاديث النبوية.

(٣) انظر: (ص:١٨-٤٣).

(٤) (ص: ٤٦).

غاليًا وأنه غال في الجبر. وذكر له شناعات أخرى[١].

ثم قال: "ثم نصير إلى ثمامة فنجده من رقة الدين وتنقص الإسلام والاستهزاء به وإرساله لسانه على ما لا يكون على مثله رجل يعرف الله تعالى ويؤمن به.

ومن المحفوظ عنه المشهور أنه رأى قومًا يتعادون يوم الجمعة إلى المسجد لخوفهم فوت الصلاة، فقال: انظروا إلى البقر انظروا إلى الحمير، ثم قال لرجل من إخوانه: ما صنع هذا العربي بالناس"[٢]، يعني: رسول الله ﷺ فالرجل شعوبي حاقد على الإسلام ونبي الإسلام.

ثم ذكر محمد بن الجهم البرمكي، وذكر اشتغاله بكتب أرسطاليس في الكون والفساد والكيان وحدود المنطق بها يقطع دهره في ذلك. ويعارض رسول الله في عدد من الأحاديث فيقول بخلافها عمدًا وعنادًا[٣].

ثم ذكر الجاحظ وتلاعبه إلى أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتج لفضل السودان علي البيضان.

وتجده مرة يحتج للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة، ومرة يفضل عليًا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ومرة يؤخره. ويعمل كتابًا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فإذا صار إلى الرد عليهم تجوز في الحجة كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين.

وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث، يريد بذلك استمالة الأحداث،

---

(١) (ص:٤٨-٤٩).
(٢) (ص: ٤٩).
(٣) (ص: ٤٩-٥٠).

وشراب النبيذ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم، كذكره كبد الحوت، وقرن الشيطان، وذكر الحجر الأسود، وأنه كان أبيض فسوده المشركون، وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا، وذكر له مساوئ أخرى.

ثم قال: "وهو مع هذا من أكذب الأمة، وأوضعهم لحديث، وأنصرهم لباطل[(١)]".

ثم قال: "وبلغني أن من أصحاب الكلام من يرى الخمر غير محرمة، وأن الله تعالى إنما نهى عنها على جهة التأديب كما قال تعالى: (وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) (الإسراء: ٢٩).

ومنهم من يرى نكاح تسع، ومنهم من يرى شحم الخنزير وجلده حلالًا ومنهم من يقول: إن الله لا يعلم شيئًا حتى يكون، ولا يخلق شيئًا حتى يتحرى، وذكر لهم آراء فاسدة، منها: اختلافهم في ثبوت الخبر إلى أقوال، منها أنه يثبت بعشرين رجلًا، ومنها أنه يثبت بسبعين بناء على استدلالات عجيبة ثم رد عليهم ردًا علميًا جيدًا.

وذكر لهم تفاسير للقرآن عجيبة يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم.

وذكر أنه أعجب من تفسيرهم تفسير الرافضة وما يدعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر، وفسّر الجفر بأنه جلد جفر ادّعوا أنه كتب لهم فيه الإمام كل ما يحتاجون إلى علمه وكل ما يكون إلى يوم القيامة.

وقولهم في قول الله ﷻ: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) (النمل: ١٦). إنّه الإمام ورث علم النبي ﷺ، وقوله ﷻ: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) (البقرة: ٦٧)،

(١) (ص: ٥٩ - ٦٠).

إنّها عائشة، وقوله: (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا) (البقرة: ٧٣)، إنّه طلحة والزبير.

وقولهم في الخمر والميسر: إنهما أبو بكر وعمر.

والجبت والطاغوت: إنهما معاوية وعمرو"، ثم قال: "مع عجائب أرغب عن ذكرها".

ثم ذكر بعض فرقهم، ثم قال: "ولا نعلم في أهل البدع والأهواء أحد ادّعى الربوبية لبشر غيرهم وذكر أن ابن سبأ فعل ذلك"[١].

ذكر هذه الفرق ورؤسها ليبين ضلالهم ومنها طعنهم في سنة رسول الله وأصحابه وقد ناقش ضلالاتهم خلال هذه الصفحات وفيما بقي من كتابه رحمه الله، وقد ورثهم أقوام في هذه الضلالات سيأتي ذكر بعضهم ومناقشتهم إن شاء الله.

ثمّ ذكر أهل الحديث وفضائلهم فقال: "فأما أصحاب الحديث، فإنهم التمسوا الحق من جهته وتتبعوه من مظانّه، وتقربوا من الله باتباعهم سنن رسول الله ﷺ وطلبهم لآثاره وأخباره برًا وبحرًا وشرقًا وغربًا يرحل الواحد منهم راجلًا مقويًا[٢] في طلب الخبر الواحد أو السنة الواحدة حتى يأخذها من الناقل لها مشافهة، ثم لم يزالوا في التنقير عن الأخبار والبحث لها حتى فهموا صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، وعرفوا من خالفها من الفقهاء إلى الرأي"[٣].

ثم ضرب عددًا من الأمثلة لأحاديث موضوعة كيف ردوها ونصوا على واضعيها، وذكر أحاديث صحيحة كشف وجوه إشكالها وبين مخارجها على

---

(١) (ص: ٦٠- ٧٣).

(٢) المقوي، هو: الذي لا زاد معه. [انظر مختار الصحاح، مادّة قوي].

(٣) (ص: ٧٣ – ٧٤).

طريق أهل العلم الراسخين.

ثم واصل بحثه في رد الأباطيل وبيان مخارج الأحاديث وصحة معانيها وردًا لمطاعن الزنادقة والمنحرفين عن النهج القويم، ومنها أحاديث باطلة تعلق بها أبو رية وأمثاله للطعن في السنة، ومنها أحاديث صحيحة هوش عليها النظام وأمثاله.

وقد تصدى للرد على هؤلاء المرجفين على سنة رسول الله ﷺ الإمام الشافعي في كتابه "الرسالة" تحت عنوان "الحجة في تثبيت خبر الواحد" ذكر فيه حججًا كثيرة توجب قبول خبر الواحد العدل، ثم قال -رحمه الله تعالى-: "وفي تثبيت خبر الواحد أحاديث يكفي بعض هذا منها، ولم يزل سبيل سلفنا والقرون بعدهم إلى من شاهدنا هذه السبيل، وكذلك حكي لنا عمن حكي لنا عنه من أهل العلم بالبلدان وذكر أهل المدينة، ومنهم: سعيد بن المسيب وعروة والقاسم بن محمد وعدد آخرين منهم.

وذكر من أهل مكة: عطاء، وطاووسًا، ومجاهدًا، وابن أبي مليكة، وعكرمة ابن خالد.

ومن أهل اليمن: وهب بن منبه، ومكحولًا، وعبد الرحمن بن غنم بالشام، والحسن، وابن سيرين بالبصرة.

وعلقمة والأسود والشعبي بالكوفة، ومحدثي الناس وأعلامهم بالأمصار كلهم يحفظ عنه تثبيت خبر الواحد عن رسول الله ﷺ والانتهاء إليه والإفتاء به، ويقبله كل واحد منهم عمن فوقه ويقبله عنه من تحته.

ولو جاز لأحد من الناس أن يقول في علم الخاصة: أجمع المسلمون قديمًا وحديثًا على تثبيت خبر الواحد والانتهاء إليه بأنه لم يعلم من فقهاء المسلمين

أحد إلا وقد ثبته جاز لي.

ولكن أقول: لم أحفظ عن فقهاء المسلمين أنهم اختلفوا في تثبيت خبر الواحد"[١].

وفي كتاب "جُمّاع العلم"[٢] حيث ناظر رؤوس منكري السنة بحضور عدد من هذه الفئة الضالّة التي ترد الأخبار كلّها فدحض أباطيلهم وشبهاتهم بردود قوية وحجج دامغة تبين منزلة الرسول الكريم ومنزلة سنته ﷺ وتدحض أباطيل هؤلاء المرجفين المعارضين وتثبت حجية السنة النبوية.

كما ناقش في كتابه "جُمّاع العلم"[٣] -أيضًا- فئة أخرى ترد أخبار الآحاد بحجج بيّنة واضحة قويّة.

كما تصدى لهم الإمام عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه "الرد على بشر المريسي"[٤]، فقد ضمَّن هذا الكتاب الردّ على تحريفهم وتعطيلهم لصفات الله كاستواء الله على عرشه وتأويل الوجه واليدين والسمع والبصر وإنكار رؤية الله في الآخرة.

ثم دلف إلى الحثّ على طلب الحديث، والرد على من زعم أنه لم يكتب على عهد النبي ﷺ وأصحابه، والذب عن الصحابة وأصحاب الحديث وأهل السنة وفضّلهم على غيرهم، والذب عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والذب عن معاوية وعبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

والذابون عن السنة والصحابة وأهل الحديث لا يحصون في قديم الزمان

---

(١) الرسالة (ص:٤٥٣-٤٥٨)

(٢) (ص:٤-١٩).

(٣) (ص:٢٠-٥٧).

(٤) (ص:١٢٧-١٤٠)

وحديثه وإنما نذكر في هذا البحث من ذلك ما يتيسر لنا ذكره.

كما نذكر من خصوم السنة وأهلها ما يتيسر لنا ذكره مع دحض أباطيلهم وجهالاتهم.

الفصل الرابع

ذكر شبهات أهل الأهواء حول السنة في العصر الحاضر ودحضها.

وفي القرن الرابع عشر استفحلت الفتنة ضد الشريعة الإسلامية كتابًا وسنة، وأقول: كتابًا وسنة؛ لأنّ الطعن في السنة طعن في القرآن. على أيدي أناس ينتمون إلى الإسلام.

وجاءت فتنتهم امتدادًا للفتن السابقة ومبنية على شبهاتها، وانتشرت الفتنة في الشرق والغرب على أيدي بعض أعداء الإسلام من المستشرقين أحيانًا، وعلى أيدي أناس ينتسبون إلى الإسلام في الغالب، ويرجع هذا البلاء في نظري إلى مدرستين يجمعهما عصر واحد وهدف واحد كان من ورائها الاستعمار الصليبي.

إحداهما: مدرسة أحمد خان الهندي مؤسس جامعة عليكره.

لقد تأثر هذا الرجل بالحضارة الغربية تأثرًا عميقًا فدفعه ذلك إلى الدعوة بحماس إلى تقليدها، وإلى تفسير الإسلام والقرآن بما يطابقها ويطابق هوى الغربيين، بل أرى أنه إلى جانب هذا كان متأثرًا بفكر الباطنية يظهر ذلك في تفسيره وكتاباته. لقد نسب إليه أنه أنكر الجنة والنار.

وقال عن الملائكة بأنها: "القوى المدبرة للعالم التي يمكن السيطرة عليها أو هي القوى التي في مقدور الإنسان تسخيرها"(١).

---

(١) مقالات سرسيد (٢/ ٢٢٠)، كل ما عزوته إلى المقالات فهو نقل عن كتاب القرآنيون =

وقال عن الجن بأنهم: " سكان الغابات والصحاري من البشر "[١].

ومثل تأويله الشيطان: بأنه القوى العدائية التي لا يملك الإنسان السيطرة عليها[٢].

بل أنكر الأحاديث الثابتة التي تدل على أنهم خلقوا من نار، وأنها تتحرك بالإرادة وتتشكل بأشكال مختلفة[٣].

هذا ما نقله عنه الشيخ محمد إسماعيل السلفي في كتابه "مقالات سرسيد"، وأضيف أن إنكاره هذا لم يتوقف عند إنكار السنة بل تجاوزه إلى إنكار الآيات القرآنية المصرحة بأن الله خلق الجان من مارج من نار.

قال تعالى: (خَلَقَ الإِنسان مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّار * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ) (الرحمن: ١٤-١٥).

وقال تعالى: (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ) (الحجر:٢٧).

وقال تعالى لإبليس حين أبى أن يسجد لآدم: (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)(الأعراف:١٢).

والجنّ ذرية إبليس، قال تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) (الكهف:٥٠).

ولقد جره تهوره في إنكار المغيبات وإنكار المعجزات إلى إنكار ما صرح به

=

لخادم حسين من (ص١٠٢-١٠٦).

(١) في كتابه الجن والجان (ص:٥)، نقلًا عن كتاب القرآنيون وشبهاتهم للأستاذ خادم حسين (ص: ١٠٢).

(٢) مقالات سرسيد (١/ ٢١٩).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٥٢)

القرآن الكريم، كإنكاره إلقاء إبراهيم- عليه الصلاة السلام- في النار، وإنكاره ولادة عيسى -عليه الصلاة السلام- من غير أب، والتقام الحوت ليونس -عليه الصلاة والسلام-.

فمثل هذا الرجل الذي جمع بين العقلية الغربية والباطنية لا يستغرب منه أن يتناول السنة بالطرق الباطنية، أو ينكرها، أو يضع لتأويلها وإنكارها القواعد والمناهج الفاسدة المشككة فيها.

انظر إليه يقول: "بعد وفاة النبي ﷺ ظلت الروايات تتناقل على الألسنة إلى عهد التصنيف في الكتب المعتمدة غير أننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن الهيئة التي دونت بها كتب الأحاديث تلك التي كان مبناها روايات الذاكرة. . بينما البعد الزمني كفيل بمزج الزائد بها وإضافة الجديد إليها"[(١)].

ويؤكد تشكيكه في السنة ورواتها بقوله: "بأن مادون في هذه الكتب من الأحاديث إنما هي ألفاظ للرواة ولا نعرف ما بين الأصلي-الصادر من شفتيه عليه الصلاة والسلام- والمعبر به من وفاق وخلاف، وليس من العجب أن يخطئ أحد الرواة في فهم الحديث مما يكون سببًا في ضياع المفهوم الصحيح"[(٢)].

ويقول: "وإنَّا لا ندري عن الأحاديث التي وثقت، أَوُجِّهَت الجهود إليها من حيث المضمون والمحتوى أم لا؟، وأي السبل سلكت في ذلك؟. "[(٣)].

وجهل هذا الرجل أو تجاهل ما كان يتمتع به الصحابة والتابعون وأئمة

---

(١) مقالات (٢/ ٢٣).

(٢) مقالات (١/ ٤٩).

(٣) مقالات (١/ ٢٣).

الحديث وحفاظه من الأمانة والعدالة والحفظ المذهل وجهل أو تجاهل العناية التي لا نظير لها في أمة من الأمم بسنة رسول الله ﷺ حفظًا ومراعاة لألفاظها ومعانيها.

وإذا كان لا يدري هل الجهود قد وجهت إلى الأحاديث من حيث المضمون والمعنى أو لا، ولا يدري أي السبل التي سلكت في ذلك؛ فكل هذا راجع إلى جهله أو سوء قصده، وتاريخ أئمة الحديث وواقعهم يشهدان أن جهودهم العظيمة كانت موجهة إلى الأسانيد وإلى ألفاظ الحديث ومعانيه بدقة بالغة لا تجد لها نظيرًا.

ومن المستنكر المستفظع لدى العقلاء أن يأتي إنسان جاهل بعلم من العلوم أو صناعة من الصناعات الدنيوية فيضع لها قوانين وشروطًا يمليها على كبار خبرائها وعباقرتها ظانًا أنه قد أَتى بما لم تستطعه الأوائل، وظانًا أنّ أهل تلك العلوم قد قصرت مداركهم عن الشروط والقوانين التي عن طريقها يتقنون علومهم وصناعاتهم ويحفظونها من الخلل والضياع.

فلو جاء هذا المسكين إلى كبار المتخصصين في الطب أو الهندسة أو علماء الذرة، أو جاء أعجمي لا يعرف العربية إلى فطاحل علوم النحو والتصريف والبلاغة بأنواعها يقترح عليهم ضوابط وقواعد لعلومهم فهل سيقابل بالتقدير والاحترام؟.

وما مصير العلوم الشرعية والدنيوية لو قبلوا من الجهلة والموسوسين ما يتخيلونه من المقترحات والشروط عليهم؟

إنه الهدم كما يريد هذا الرجل وأمثاله لسنة رسول الله ﷺ بل للقرآن نفسه.

يقول أحمد خان: " والمعيار السليم لقبولها: هو أن ينظر إلى المروي

بمنظار القرآن فما وافقه أخذناه وما لم يوافقه نبذناه. . ، وإن نسب شيء من ذلك إلى الرسول ﷺ فيجب فيه توفر شروط ثلاثة:

١ - أن يكون الحديث المروي قول الرسول ﷺ بالجزم واليقين.

٢ - أن توجد شهادة تثبت أن الكلمات التي أتى بها الراوي هي الكلمات النبوية بعينها.

٣- أن لا يكون للكلمات التي أتى بها الرواة معان سوى ما ذكره الشرَّاح.

فإن تخلف أحد هذه الشروط الثلاثة لم يصح نسبة القول إلى الرسول ﷺ أو أنه حديث من أحاديثه"(١).

والجواب أن يقال:

أولًا: إذا تحقق الشرط الأول على ما فيه من بلاء فيكون اشتراط الأخيرين من الهذيان يقصد بهما التهويل.

لقد وضع علماء الحديث شروطًا حيث قالوا في تعريف الحديث الصحيح: " هو رواية عدل تام الضبط متصل السند غير معل ولا شاذ"، ولهم بحوث عميقة في رد الروايات المردودة -ومنها المكذوب المفترى على رسول الله ﷺ- كفيلة بحفظ السنة وحمايتها من الدخيل والكذب والأخطاء والأوهام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معرفة الموضوع المختلق المصنوع، وعلى ذلك شواهد كثيرة:

منها:

١ - إقرار واضعه على نفسه قالًا أو حالًا.

٢- ومن ذلك ركاكة ألفاظه وفساد معناه.

---

(١) مقالات (١/ ٤٠).

٣- أو مجازفة فاحشة.

٤- أو مخالفة للكتاب والسنة الصحيحة.

فلا تجوز روايته لأحد من الناس إلاَّ على سبيل القدح فيه ليحذره الناس ومن يغترّ به من الجهلة والعوام والرعاع"[١].

ثم قال: " والواضعون أقسام كثيرة:

منهم زنادقة ، ومنهم متعبدون يحسبون أنهم يحسنون صنعًا. . . إلخ "[٢].

وقد بين الحافظ ابن حجر الدوافع إلى الكذب على رسول الله ﷺ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

" والحامل للواضع على الوضع:

١- إما عدم الدين، كالزنادقة.

٢- أو غلبة الجهل، كبعض المتعبدين.

٣- أو فرط العصبية، كبعض المقلدين.

٤- أو اتّباع هوى بعض الرؤساء.

٥- أو الإغراب لقصد الاشتهار"[٢].

وهناك أسباب آخرى يطعن بها في الرواة تضمن التعريف السابق الإشارة إليها؛ منها ما يتعلق بالعدالة، ومنها ما يتعلق بالضبط.

فالمتعلق بالعدالة، مثل: الكذب وتهمة الراوي به والفسق والجهالة والبدعة.

والمتعلق بالضبط، مثل: فحش الغلط أو الغفلة أو وهم الراوي أو مخالفته

(١، ٢) مختصر ابن كثير لمقدمة ابن الصلاح (ص:٧٨) تعليق الشيخ أحمد شاكر.

(٢) نزهة النظر (ص:٤٥)نشر مكتبة طيبة.

للثقات أو سوء الحفظ.

وهناك شروط تتعلق بالإسناد، حيث اشترط فيه المحدثون الاتصال بعد اشتراطهم للعدالة والضبط في الرواة.

ولقد اشترط المحدثون لصحة الرواية اتصال الإسناد من أوله إلى آخره، فإذا حصل سقط راو في إسناد في أي موضع منه لا يقبل المتن الذي جاء عن طريق هذا الإسناد الذي حصل فيه السقط، فما وقع السقط من آخره -بأن سقط منه الصحابي بين رسول الله ﷺ والراوي عنه- سمي: مرسلًا.

وإن كان السقط من أوله من بعض المصنفين سمي: معلقًا.

وإن كان السقط في أثناء الإسناد فإن كان الساقط واحدًا سمي: منقطعًا، وإن كان باثنين فصاعدًا على التوالي سمي: معضلًا، ويلحق بذلك التدليس، وهو: أن يروي الراوي عن شيخ قد سمع منه ما لم يسمعه منه موهمًا أنه قد سمعه من شيخه.

والإرسال الخفي، وهو: أن يروي الراوي عن شيخ عاصره ولم يلقه، وهناك أمور أخرى روعيت بدقة ودراسات طويلة ودقيقه جدًا لحماية سنة رسول الله ﷺ من تسلل الكذب وتطرق الخلل إليها من أي ناحية من النواحي، ولا يتسع المقام لذكرها وموضعها كتب علوم الحديث.

وهي أحوط وأشد حماية وضبطًا ودفعًا للدخيل على سنة رسول الله ﷺ مما يضعه الجاهلون المغرضون من الشروط.

ولأئمة الحديث من الإدراك والوعي وقوة التمييز بين الحق والباطل، وما يصح نسبته إلى رسول الله وما لا يصح ما يبهر العقول.

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تقدمة كتاب "الجرح

والتعديل"[(١)]:

" سمعت أبي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: جاءني رجل من جلة أصحاب الرأي من أهل الفهم منهم، ومعه دفتر فعرضه علي فقلت في بعضها: هذا حديث خطأ قد دخل لصاحبه حديث في حديث، وقلت في بعضه: هذا حديث باطل، وقلت في بعضه: هذا حديث منكر، وقلت في بعضه: هذا حديث كذب، وسائر ذلك أحاديث صحاح.

فقال لي: من أين علمت أن هذا خطأ، وأن هذا باطل، وأن هذا كذب؟ أخبرك راوي هذا الكتاب بأني غلطت وأني كذبت في حديث كذا؟ فقلت: لا، ما أدري هذا الجزء من رواية من هو؟ غير أني أعلم أن هذا خطأ، وأن هذا الحديث باطل، وأن هذا الحديث كذب، فقال تدعي الغيب؟ قال: قلت: ما هذا ادعاء الغيب قال: فما الدليل على ما تقول؟ قلت: سل عما قلت من يحسن مثل ما أحسن، فإن اتفقنا علمت أنا لم نجازف ولم نقله إلا بفهم. قال: من هو الذي يحسن مثل ما تحسن؟ قلت: أبو زرعة، قال: ويقول أبو زرعة مثل ما قلت؟ قلت: نعم، قال: هذا عجب، فأخذ فكتب في كاغد ألفاظي في تلك الأحاديث ثم رجع إلي وقد كتب ألفاظ ما تكلم به أبو زرعة في تلك الأحاديث، فما قلت أنه باطل قال أبو زرعة: هو كذب، قلت: الكذب والباطل واحد، وما قلت أنه كذب قال أبو زرعة: هو باطل، وما قلت أنه منكر قال: هو منكر، كما قلت، وما قلت أنه صحاح قال أبو زرعة: صحاح، فقال: ما أعجب هذا، تتفقان من غير مواطأة فيما بينكما، فقلت فقد ذلك[(٢)] أنا لم نجازف وإنما قلناه بعلم ومعرفة قد أوتينا،

(١) (ص: ٣٤٩-٣٥١).

(٢) لعله: بان لك.

والدليل على صحة ما نقوله بأن دينارًا نبهرجًا[١] يحمل إلى الناقد فيقول: هذا دينار نبهرج، ويقول لدينار: هو جيد، فإن قيل له من أين قلت أن هذا نبهرج؟ هل كنت حاضرًا حين بهرج هذا الدينار؟ قال: لا، فإن قيل له: فأخبرك الرجل الذي بهرجه أني بهرجت هذا الدينار؟ قال: لا، قيل فمن أين قلت أن هذا نبهرج؟

قال: علمًا رزقت، وكذلك نحن رزقنا معرفة ذلك، قلت له فتحمل فص ياقوت إلى واحد من البصراء من الجوهريين فيقول: هذا زجاج، ويقول لمثله: هذا ياقوت، فإن قيل له: من أين علمت أن هذا زجاج وأن هذا ياقوت؟

هل حضرت الموضع الذي صنع فيه هذا الزجاج؟ قال: لا، قيل له: فهل أعلمك الذي صاغه بأنه صاغ هذا زجاجًا؟ قال: لا، قال: فمن أين علمت؟ قال: هذا علم رزقت؛ وكذلك نحن رزقنا علمًا لا يتهيأ لنا أن نخبرك كيف علمنا بأن هذا الحديث كذب وهذا حديث منكر إلا بما نعرفه.

قال أبو محمد: تعرف جودة الدينار بالقياس إلى غيره فإن تخلف عنه في الحمرة والصفاء علم أنه مغشوش، ويعلم جنس الجوهر بالقياس إلى غيره فإن خالفه في الماء والصلابة علم أنه زجاج، ويقاس صحة الحديث بعدالة ناقليه، وأن يكون كلامًا يصلح أن يكون من كلام النبوة، ويعلم سقمه وإنكاره بتفرد من لم تصح عدالته بروايته والله أعلم".

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فكل حديث رأيته يخالف المعقول أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع، فلا تتكلف اعتباره"[٢].

---

(١) الظاهر " بهرجًا ".

(٢) الموضوعات (١/ ١٠٦).

قال: "واعلم أن حديث[١] المنكر يقشعر له جلد طالب العلم منه وقلبه في الغالب "[٢].

وقال الإمام ابن القيم في كتابه "المنار المنيف في الصحيح والضعيف[٣]": "فصل: وسئلت هل يمكن معرفة الحديث الموضوع بضابط، من غير أن ينظر في سنده؟.

فهذا سؤال عظيم القدر، وإنما يعلم ذلك من تضلع من معرفة السنن الصحيحة واختلطت بلحمه ودمه، وصار له فيها ملكة، وصار له اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار، ومعرفة سيرة رسول الله ﷺ وهديه، فيما يأمر به وينهى عنه، ويخبر عنه، ويدعو إليه ويحبه ويكرهه، ويشرعه للأمة بحيث كأنه مخالط للرسول ﷺ، كواحد من أصحابه.

فمثل هذا يعرف من أحوال الرسول ﷺ وهديه وكلامه، وما يجوز أن يخبر به وما لا يجوز، مالا يعرفه غيره.

وهذا شأن كل متبع من متبوعه، فإن للأخص به، الحريص على تتبع أقواله وأفعاله من العلم بها، والتمييز بين ما يصح أن ينسب إليه، ومالا يصح، ما ليس لمن لا يكون كذلك، وهذا شأن المقلدين مع أئمتهم، يعرفون أقوالهم ونصوصهم ومذاهبهم -والله أعلم-".

ثم ضرب عددًا من الأمثلة مما لا يصح نسبته إلى رسول الله ﷺ، ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: "والأحاديث الموضوعة عليها ظلمة وركاكة ومجازفات باردة تنادي

---

(١) الظاهر أنه "الحديث".

(٢) الموضوعات (١/ ١٠٣).

(٣) (ص: ٤٣-٤٤).

(٤) (ص: ٥٠).

على وضعها واختلاقها على رسول الله ﷺ، مثل حديث:

"من صلى الضحى كذا وكذا ركعة أعطي ثواب سبعين نبيًا".

وكأن هذا الكذاب الخبيث لم يعلم أن غير النبي لو صلى عمر نوح عليه السلام لم يعط ثواب نبي واحد.

ثم قال رحمه الله: فصل: "ونحن ننبه على أمور كلية يعرف بها كون الحديث موضوعًا.

فمنها:

١- اشتماله على مثل هذه المجازفات التي لا يقول مثلها رسول الله ﷺ وضرب لذلك مثالًا[1].

٢- قال: "ومنها: تكذيب الحس له كحديث:

"الباذنجان لما أكل له"، و"الباذنجان شفاء لكل داء" قبح الله واضعهما فإن هذا لو قاله يوحنس أمهر الأطباء لسخر الناس منه. . . الخ".

وضرب عددًا من الأمثلة لهذا النوع.

ثم قال رحمه الله : "فصل:

٣- ومنها: "سماجة الحديث وكونه مما يسخر منه، كحديث: "لو كان الأرز رجلًا لكان حليمًا ما أكله جائع إلا أشبعه "؛ فهذا من السمج البارد الذي يصان عنه كلام العقلاء، فضلًا عن كلام سيد الأنبياء.

وحديث: "الجوز دواء والجبن داء، فإذا صار في الجوف صار شفاءً"، فلعن الله واضعه على رسول الله ﷺ[2]".

---

(١) (ص: ٥٠).

(٢) (ص: ٥٤).

ثم ذكر أمثلة متعددة لهذا النوع.

٤- ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فصل:

ومنها: "مناقضة الحديث لما جاءت به السنة الصريحة مناقضة بينة، فكل حديث يشتمل على فساد، أو ظلم، أو عبث، أو مدح باطل، أو ذم حق، أو نحو ذلك فرسول الله ﷺ منه بريئ.

ومن هذا الباب:

أحاديث مدح من اسمه محمد أو أحمد وأن كل من تسمى بهذه الأسماء لا يدخل النار.

وهذا مناقض لما هو معلوم من دينه ﷺ: أن النار لا يجار منها بالأسماء والألقاب، وإنما النجاة منها بالإيمان والأعمال الصالحة. . . [(١)]".

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فصل:

٥- ومنها: "أن يدعي على النبي ﷺ أنه فعل فعلًا ظاهرًا بمحضر من الصحابة كلهم وأنهم اتفقوا على كتمانه، ولم ينقلوه كما يزعم أكذب الطوائف وضرب لذلك، بحديث الوصية لعلي وأن الشمس ردت له بعد العصر والناس يشاهدونها[(٢)]".

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فصل".

٦- ومنها: أن يكون الحديث باطلًا في نفسه، فيدل بطلانه على أنه ليس من كلام الرسول ﷺ.

وضرب لذلك عددًا من الأمثلة منها:

(١) (ص: ٥٦-٥٧).

(٢) (ص: ٥٧).

حديث المجرة التي في السماء من عرق الأفعى التي تحت العرش". [١]

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "فصل:

٧- ومنها: أن يكون كلامه لا يشبه كلام الأنبياء فضلًا عن كلام رسول الله ﷺ الذي هو وحي يوحى. . . بل لا يشبه كلام الصحابة". [٢]

ثم ضرب لذلك عددًا من الأمثلة.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "فصل:

٨- ومنها: أن يكون في الحديث تاريخ كذا وكذا مثل قوله:

إذا كان سنة كذا وقع كيت وكيت".

وضرب لذلك مثالًا ثم قال: "وأحاديث هذا الباب كلها كذب مفترى". [٣]

ثم قال: فصل:

٩- ومنها: أن يكون الحديث بوصف الأطباء والطرقية أشبه وأليق كحديث " الهريسة تشد الظهر". [٤] ثم ذكر أمثلة أخرى.

ثم قال: فصل:

١٠- ومنها: أحاديث العقل كلها كذب كقوله لما خلق الله العقل قال له أقبل. . . الخ ثم نقل عن الدارقطني: أن كتاب العقل وضعه أربعة فذكرهم منهم ميسرة بن عبد ربه.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ : فصل:

١١- ومنها: الأحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته كلها كذب ولا يصح

---

(١) (ص ٥٩).

(٢) (ص ٦١).

(٣) (ص: ٦٣-٦٤).

(٤) (ص: ٦٤).

في حياته حديث واحد وساق في ذلك أقوال بعض الأئمة وحججهم من الكتاب والسنة ومن المعقول من عشرة أوجه[١].

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فصل:

١٢- أن يكون الحديث مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه كحديث عوج بن عنق الطويل الذي قصد واضعه الطعن في أخبار الأنبياء[٢]".

ثم بين بطلانه بالأدلة من وجوه، ثم ضرب أمثلة أخرى لهذا النوع، ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فصل:

١٣- ومنها: مخالفة الحديث صريح القرآن.

كحديث مقدار الدنيا: "وأنها سبعة آلاف سنة ونحن في الألف السابعة".

ثم قال: "وهذا من أبين الكذب لأنه لو كان صحيحًا لكان كل أحد عالمًا أنه قد بقي للقيامة من وقتنا هذا مئتان وإحدى وخمسين سنة".

وساق الأدلة من القرآن والسنة على بطلان هذا الحديث.

أقول: ومما يؤكد كذب هذا الحديث أن هذه الأمة قد تجاوزت الألف السابعة بأربع وعشرين وأربعمائة سنة.

وساق رَحِمَهُ ٱللَّهُ كذبات أخرى تجاوزتها اختصارًا.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فصل:

١٤- ومنها: ما يقترن بالحديث من القرائن التي يعلم بها أنه باطل، مثل: حديث وضع الجزية عن أهل خيبر"، ثم قال: "وهذا كذب من عدة وجوه[٣]"،

---

(١) (ص: ٦٧-٧٦).

(٢) (ص: ٧٦-٧٩).

(٣) (ص ١٠٢-١٠٥).

وساق عشرة أوجه.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ : "فصل: في ذكر جوامع وضوابط كلية في هذا الباب[(١)]".

وساق عددًا من هذه الجوامع والضوابط مقرونة بأمثلتها إلى آخر كتابه[(٢)] تركتها لأن المجال لا يتسع لها.

فهل يعرف هؤلاء الجهال المغرضون هذه الضوابط والأصول التي حافظت على سنة رسول الله ﷺ بحيث لا يفلت منها حديث مكذوب أو حديث فيه خطأ ولو كلمة واحدة؟، وهل عرفوا مدى العبقرية التي حباها الله لأئمة الحديث النقاد الصيارفة الذين أعدهم الله أيما إعداد لحماية السنة والحفاظ عليها وفاءً بما وعد من حفظه وحيه وذكره؟ وهل عرف الجهلة المغرضون مدى الجهل الذي يتخبطون فيه ومدى الحماقات التي ارتكبوها، ومنها: التطاول على سنة رسول الله ورجالها الأفذاذ؟ وهل أدركوا أن الله لهم بالمرصاد، وأنه سيفضحهم ويرد كيدهم خاسئًا؟.

نعود هنا إلى فتنة أحمد خان وما ترتب عليها ونشأ عنها.

قال العلامة المجاهد المحدث الشيخ ثناء الله الأمرتسرى رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: "ما أشأم ذلك اليوم الذي خرج فيه صوت عليكرة المخالف لجميع الأمة الإسلامية الداعي إلى اعتماد القرآن وحده في الدين، وأن السنة لا تكون دليلًا شرعيًا، فأثر هذا الصوت على الحافظ محب الحق عظيم أبادي في بتنه (بالهند)، كما أثر على عبد الله جكرالوي في لاهور تأثيرًا عظيمًا"، يعني بالرجلين المذكورين

---

(١) (ص ١٠٦).

(٢) (ص: ١٥٥).

(٣) مجلة أهل الحديث ص ٣ عدد مارس ١٩٤٨م نقلًا عن كتاب القرآنيون وشبهاتهم حول السنة.

مؤسسي دعوة القرآنيين.

والجكرالوي هذا قد ترجم له الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسني في كتابه "نزهة الخواطر"(١).

ومن ترجمته قوله: "الذي دعا الناس إلى مذهب جديد سماهم أَهلَ الذكر دعاهم إلى القرآن وأنكر الأحاديث قاطبة، وصنف الرسائل في ذلك، وقال إن الناس افتروا على النبي ﷺ، ورووا عنه الأحاديث وما كان ينبغي له أن يقول ويفعل شيئًا ليس له ذكر في القرآن.

وأما ما ورد في القرآن (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) (النساء:٥٩)، والمراد به القرآن فليس القرآن والرسول شيئين متغايرين يجب اتباع كل واحد منهما على حدة.

فالمراد بالرسول في قوله تعالى: (قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ) (النساء:١٧٠).

وقوله تعالى: (أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)(النساء: ٥٩).

وقوله: (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ) (النور: ٤٨).

وقوله: (مَا حرّمَ اللهُ وَرَسُولُه) (التوبة:٢٩).

وقوله: (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ) (آل عمران:٣١).

وغيرها من الآيات الكريمة القرآن"(٢).

وهذه زندقة واضحة تجاوزت زندقة الباطنية، وإسقاط للرسول الكريم ﷺ.

وللقرآنيين زعماء آخرون، مثل: الخواجة أحمد الدين، والحافظ محمد

---

(١) (٨/ ٢٨٩-٢٩١).

(٢) كذا وواضح أن كلمة (في) أقحمت خطأ.

أسلم، وغلام أحمد برويز، ولهم تلاعب بدين الله وشعائره لا يتسع المقام لذكره، وقد تولى نقاشهم علماء الهند وباكستان، وبينوا كفرهم وزندقتهم، وأنهم ليسوا من هذه الأمة المحمدية.

وفتنتهم امتداد لفتنة أحمد خان وللحركات الباطنية، كما أن لها تعلق بتأويلات وآراء الجهمية والمعتزلة والروافض والفرق التي تابعتها في هذه الآراء والتأويلات، مما يحتم على المسلمين رفض هذه الآراء والتأويلات التي تفتح الباب للزنادقة لهدم الإسلام وتقويض مقوماته وأركانه والتلاعب بشعائره، والعودة إلى الإسلام الفطري الخالص من الشوائب والبعيد كل البعد عن هذه الآراء المنحرفة والتأويلات الباطلة.

أقول: يجب رفض هذه التأويلات والآراء المنحرفة؛ لأنني رأيت لهذه الفرقة الملحدة شبهًا من بينها شبه موروثة عن المعتزلة والخوارج والروافض، كالقول بأن أخبار الآحاد تفيد الظن، وأنها تحتمل الصدق والكذب.

قال أحد زعمائهم وهو الحافظ محمد أسلم:

" لا تتجاوز السنة مرحلة أخبار الآحاد طبقًا للأصول التي أقرها المحدثون، ولا تبلغ رواية من رواياتها إلى التواتر المفيد للعلم واليقين"(١).

ويقول: "كما أن تمحيصها بعلم الجرح والتعديل قياسي مبناه التخمين والظن. . فليست السنة ظنية وحدها بل معيار فحصها ظني أيضًا"(٢).

ألا يكفي هذا زاجرًا لمن عنده احترام لسنة رسول الله ﷺ وغيرة عليها عن

(١) سيأتي الرد على هذا في الرد على القائلين بأن أخبار الآحاد تفيد الظن.

(٢) مجلة أهل الحديث (ص: ٩) عدد ٣ ابريل ١٩٣٦م وتعليمات قرآن (ص: ٢): ويقول بمثله برويز ومحب الحق، انظر: "مقام حديث " (ص: ٣٧) وبلاغ الحق (ص: ١١٥)"، نقلًا عن صاحب كتاب القرآنيون (ص: ٢٥٣).

التعلق بهذا الأصل الفاسد، وألا يكفيه دافعًا لمحاربته ورفضه، ثم السير على منهاج السلف وفي ركاب أهل السنة والحديث الذين رفضوه وحاربوه من فجر التاريخ.

ثانيًا: مدرسة جمال الدين الأفغاني أو الإيراني المتوفى سنة ١٣١٤هـ.

فإن على هذا الرجل مآخذ كبيرة وقوية منها:

١ - أنه كان متهمًا بالماسونية بل كان أحد كبار أعضاء الماسون وقدمت الأدلة على هذه الاتهامات، من مكاتبته لأعضائها وطلبه الانضمام إليها واستمراره فيها(١).

٢- الدعوة إلى التفرنج باسم التجديد.

٣- الدعوة إلى التحرر والانحلال من القيود الشرعية.

٤- الدعوة إلى توحيد الأديان الثلاثة: الإسلام، واليهودية، والنصرانية.

٥- الدعوة إلى وحدة الشرق بما فيه من ملل.

٦- الدعوة إلى القومية.

٧- الدعوة إلى الاشتراكية.

٨- الدعوة إلى الوطنية.

٩- الدعوة إلى السفور.

١٠ - القول بوحدة الوجود.

أما موقفه من السنة، فيوضحه قوله:

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني لمحمد المخزومي (ص: ٢٠)، وكتاب جمال الدين الأفغاني لعبد الرحمن الرافعي (ص: ٤٦).
وانظر منهج المدرسة العقلية للدكتور فهد بن عبدالرحمن الرومي (ص: ٩٥-١٢٣) وقد قدم في هذه الصحائف من مكاتباته ومكاتبات أصدقائه ما يدينه بالماسونية الغليظة.

أ- "فالتواتر والإجماع وأعمال النبي ﷺ المتواترة إلى اليوم هي السنة الصحيحة التي تدخل في مفهوم القرآن وحده والدعوة إلى القرآن وحده".

وهذا القول هو الذي تراجع إليه محمد توفيق صدقي مع الشك في صدق هذا التراجع.

ب- " القرآن القرآن وإني لآسف إذ دفن المسلمون بين دفتيه الكنوز وطفقوا في فيافي الجهل يفتشون عن الفقر المدقع "(١).

ولا أدري ما هي هذه الكنوز التي دفنها المسلمون وطفقوا يفتشون في فيافي الجهل عن الفقر المدقع طوال أربعة عشرة قرنًا حتى جاء الأفغاني فاكتشفها أهي تفسيرات الباطنية؟! أم هي تأويلاته لنصوص القرآن لمطابقة سياسة الغرب واكتشافاته وتقاليده الفاسدة؟!.

وقال جمال الدين الأفغاني: " قرأت في القرآن أمرًا تغلغل في فهمه روحي وتنبهت إليه بكليتي وهو (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. .) (البقرة:٣٠)، فاندهشت الملائكة لهذا النبأ ولهذه المشيئة الربانية إذ علمت أن ذلك الخليفة سيكون الإنسان، وأن ذلك الإنسان – الخليفة- سيصدر منه موبقات وسيئات، أعظمها وأهمها أنه (يسفك الدماء) (البقرة:٣٠)، فقالت بملء الحرية المتناسبة مع الملأ الأعلى وعالم الأنوار والأرواح الذي لا يصح أن يكون هناك شيء من رياء ونفاق (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) (البقرة:٣٠)، ووقفت الملائكة عند هذا الحد من الطعن في الإنسان ولم تذكر باقي السيئات من أعماله إذ رأتها لغوًا بالنسبة لهذين الوصمين الفساد وسفك

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني محمد المخزومي (ص:٩٩)، بواسطة المدرسة العقلية (ص: ٧٦).

الدماء".

ثم يمضي في التفسير على هذا المنوال إلى أن يقول: " وبأبسط المعاني إن الله تعالى أفهم الملائكة أنكم علمتم ما في خليفتي في الأرض وهو الإنسان من الاستعداد لعمل الفساد وسفك الدماء، وجهلتم ما أعددته لصونه وصرفه عن الإتيان بالنقيصتين المذكورتين ألا وهو العلم فقال: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(البقرة:٣١)".

وهذا تفسير ديمقراطي، كأن الملائكة حزب معارض.

ويفسر آيات أخرى فيقول: " غضب سليمان عليه السلام على الهدهد إذ تفقده ولم يجده فلما حضر قال: (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ) (النمل:٢٢)، غير ملفق ولا مشوب بالكذب كما تفعل أكثر الجواسيس مع الملوك والحكام (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) (النمل:٢٣)، ثم يقول بعد ذلك(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ) (النمل:٢٤)، " ثم يقول بعد ذلك: "فلما جاء الكتاب إلى ملكة سبأ جمعت فورًا مجلس الأمة (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ) (النمل:٣٢)، وبعد أن تداول مجلس الأمة – الوزراء اليوم مثلًا- واستخرجوا إحصاءً من سجلاتهم بما عندهم من المعدات الحربية أعلنوا للملكة وأنبؤوها أنه في إمكانهم محاربة سليمان بما توفر لديهم من القوة إذا هي وافقت على إعلان الحرب (قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ) (النمل:٣٣)"، ثم مضى بعد يقول: " فرد سليمان الهدية وتحفز لإخراج الملكة وقومها أذلة بالحرب وأراد أن يريها ما لديه من القوى وما تسخر

له من الريح يمتطيها وتجري بأمره -طيارات مثلًا- وسرعة نقل الأخبار والأشياء -التلغراف اللاسلكي مثلًا-".

وكان يشطح في تفسيره فيفسر الربا المحرم في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً) (آل عمران: ١٣٠)، بـ"جواز أكل الربا المعقول الذي لا يثقل كاهل المدين ولا يتجاوز في برهة من الزمن رأس المال ويصير أضعافًا مضاعفة".

ويفسر (جدّ) في قوله تعالى: (وأنه تعالى جدُّ ربِّنَا) (الجنّ:٣) "بالعرش" "لأنَّ جدّ معرب كدّ، ومعناه العرش بالفارسية أو الهندية"، وهذا تفسير باطل إذ يصير المعنى "وأنه تعالى عرش ربنا".

ويفسر (فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) (النساء:٣) بأنه " قيد من خاف أن لا يعدل بالمرأة الواحدة وترك لمن يخشى أن لا يعدل -حتى مع المرأة الواحدة- عدم الزواج وهذا ما يستنتجه العقل مادام يحمله العاقل ويقول به الحق والعدل".

ويفسر الأمور الغيبية من غير نص فيقول (وترى الأرض بارزة) (الكهف:٤٧): "أي خارجة عن محورها غير راضخة للنظام الشمسي، وإذا ما حصل ذلك فلا شك يختلف ما عرف من الجهات اليوم فيصير الغرب شرقًا والجنوب شمالًا، وبذلك الخروج عن النظام الشمسي وما يحدث من الزلزال العظيم، لا شك تتبعثر الأرض لبعدها عن المركز، وتنسف الجبال نسفًا، وتتحول براكين هائلة، وبالنتيجة تخرب الكرة الأرضية ويعمها الفناء بما فيها من الحيوان وتقوم القيامة والله أعلم"[1].

---

(١) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير (ص: ٨٧-٩٠).

وهذا تفسير باطل، فمصير الأرض والسموات والجبال والشمس والقمر والكواكب مصير واحد تحدث عنه القرآن في عدد من سوره من ذلك قول الله تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) (الإنفطار:١-٥).

وقوله تعالى: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ). إلى قوله: (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) (التكوير:١- ١٤).

وقال تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ) إلى قوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) (الحاقة:١٣- ١٨).

فمصير هذا الكون واحد والنهاية واحدة، فلماذا لا يتحدث الأفغاني إلا عن مصير الأرض فقط مفصولة عن الكون وبحديث يختلف عن حديث القرآن والإسلام والمسلمين؟!.

ولماذا يتحدث على الطريقة الغربية لا على الطريقة الإسلامية المستمدة من القرآن -الذي يرى أنه وحده كتاب الهداية- فلماذا لا يهتدي به؟!.

وهل يرى أزلية أو أبدية الكون فلا يلحقه التغير الذي تحدث عنه القرآن وآمن به المؤمنون؟!.

قال محمد حميد الله في مجلة الفكر الإسلامي- بيروت السنة الثانية العدد الثاني في مقال" صلات آرنست رينان مع جمال الدين الأفغاني العبارات الآتية: "عند قراءة المحاضرة (يعني: محاضرة رينان التي يرد عليها الأفغاني) لا يقدر الإنسان على منع نفسه من التساؤل:- أن أصل تلك العوائق هل هو من دين

المسلمين أو من خصائص الملل التي أكرهت بالسيف على قبول ذلك الدين".

ومنها: "وفي الحقيقة إن الدين الإسلامي حاول خنق العلم وسد جميع التطور، ولذلك نجح في سد الحركات الفكرية والفلسفية وطرد الأذهان عن طلب الحقيقة العلمية".

ومنها: "كان هذا صحيحًا أن دين المسلمين يعوق من تطور العلم، فهل يقدر أحد على أن يدعي أن هذه الطائفة سوف لا تزول يومًا؟ ففيم يختلف دين المسلمين في هذا من سائر الأديان؟ إن جميع الأديان لا سماحة عندها أبدًا كل واحد حسب شاكلته، إن المجتمع النصراني الذي تحرر واستقل الآن يتقدم بادي الرأي سريعًا في سبيل التقدم والعلوم بينما المجتمع الإسلامي لم يتحرر إلى الآن من تسلط الدين".

ومنها: "لا شك عندما سار الإسلام في البلاد التي تملكها باستعمال الجبر والقهر ما هو معروف نقل إليها لغته وعاداته ومعتقداته وهذه البلاد لم تستطع إلى الآن من الخلاص من مخالبه".

ومنها: ". . . ولماذا لم يزل العلم العربي مغطى بالظلمات العميقة؟ في هذه الناحية تظهر مسؤولية الدين الإسلامي كاملة. ومن الظاهر أن هذا الدين حيثما حل حاول خنق العلوم".

هذه النصوص نقلها الأستاذ محمد حميد الله من جريدة "جورنال ديه ديبا" الفرنسية المؤرخة في ١٨ مايو١٨٨٣ "[(١)].

فإن صحت عنه فإنما تدل على حقده الخطير على الإسلام وظلمه الكبير له بتصويره في هذه الصورة الشوهاء التي لا يفتريها ألد الأعداء لهذا الدين العظيم

(١) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير (ص: ١٦٠).

الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وأعتقها من الأغلال والآصار التي ضربها عليها محرفو الأديان وفتح الآفاق أمام العقول والمدارك.

ج- ومن أقواله الخطيرة التي خاطب بها أتباعه في مصر قوله: "إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد وربيتم بحجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين تسومكم حكوماتكم الحيف والجور، وتنزل بكم الخسف والذل، وأنتم صابرون بل راضون، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عروق جباهكم بالمقرعة والسوط".

إلى أن قال: "وأنتم ضاحكون، تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد، والمماليك، ثم الفرنسيين والمماليك والعلويين كلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ويهيض عظامكم بأداة عسفه وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت، انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار ثيبة ومشاهد سيون وحصون دمياط شاهدة بمنعة أجدادكم.

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إنّ التشبه بالرشيد فلاح"(١).

انظر كيف اعتبر الفتح الإسلامي دخول مستعمرين مستبدين لا يفرق بينه وبين الاستعباد والاستبداد اليوناني والروماني إلخ.

وانظر كيف يشيد بحضارة الفراعنة ويحض المصريين على الاعتزاز بها، ورؤية الفلاح والرشد في التشبه بهم.

إنّه لا يستغرب مثل هذا المكر والموقف من الإسلام من رجل فيلسوف رافضي ماسوني، وإنما المستغرب أن يكون له أتباع في بلاد الإسلام من مفكرين

---

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث (ص: ٧٢-٧٣)، والإستاذ الإمام (ص:٤٦-٤٧).

ومفسرين يعظمونه ويسيرون على منواله إن لم يكن في كل شيء ففي أصول ومناهج أثخنت في الإسلام والمسلمين.

موقفه من السنة:

يرى هذا الرجل -إن صدق في قوله- أن سبب الهداية هو القرآن وحده وهو وحده العمدة فيقول[١]: "القرآن وحده سبب الهداية، أما ما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطهم ونظرياتهم، فينبغي ألا نعول عليه كوحي وإنما نستأنس به كرأي، ولا نحمله على أكفنا مع القرآن في الدعوة إليه وإرشاد الأمم إلى تعاليمه، لصعوبة ذلك وتعسره وإضاعة الوقت في عرضه، ألسنا مكلفين بالدعوة إلى الإسلام وحمل الأمم على قبوله؟ وهل تمكن الدعوة من دون ترجمة تعاليم الإسلام إلى لغة الأقوام الذين ندعوهم؟

هل في طاقة سكان البرازيل -مثلًا- إذا أردنا دعوتهم إلى الإسلام أن يفهموا كنه الإسلام من ترجمة علماء الإسلام وآرائهم المتشعبة في تفسير القرآن والحديث؟

ألق نظرك على فهرست أحد الكتب الدينية الكبرى، وتأمل فيها ما الذي يمكن عرضه والدعوة إليه من أحكامه وتعاليمه وما لا يمكن تجد أن ما لا يمكن العمل به ولا الدعوة إليه ولا تطبيق مفاصلة أصبح عبئًا يجب الاستغناء عنه بما يمكن والممكن هو ما في القرآن وحده"[٢].

أقول:

أ- وهذا فيه صرف الناس عن السنة النبوية التي لا يفهم كثير من نصوص

---

(١) جمال الدين الأفغاني لعبدالقادر المغربي بواسطة المدرسة العقلية (ص: ٨٦).
(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين للشيخ مصطفى صبري (١/ ٢٨١).

القرآن ولا يمكن تطبيقها إلا بالسنة المبينة لمجملاته والمخصصة لعموماته والمقيدة لمطلقاته والمتحدثة عن كثير مما سكت عنه القرآن، كما هو إلغاءٌ لتفسير أئمة الإسلام، ومن سار على نهجهم من أعلام الأمة في فهم القرآن ومعرفة معانيه ومقاصده ومراميه.

ب- إن الرجل يريد أن يفك ارتباط المسلمين بسنة نبيهم ﷺ وتراث سلفهم الصالح ثم ربطهم بضلالاته وخرافاته بما فيها من إلحاد وهدم للإسلام تلك الطوام التي أسلفنا الإشارة إليها قريبًا.

هذا هو مغزى هذا الرجل ومن وراءه من الاستعماريين والماسونيين، وبهذا القول أخذ منكرو السنة النبوية ومنهم محمد توفيق صدقي في أول أمره حيث كتب مقالًا أو مقالين تحت عنوان "الإسلام هو القرآن وحده".

وحامل لواء هذه المدرسة ومرسخ جذورها هو محمد عبده المصري الذي ضخمه النافخون في كير هذه الفتنة الكبيرة فسموه بالأستاذ الإمام فإنّ له مقالات تدل على فساد عقيدته وقبح منهجه، فمنها -على سبيل المثال- قوله:

" نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها وهي هذه الأمة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنًا، دعوناهم إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمّة له بالقول والفعل، جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والنّاس كلّهم له عبيد أي عبيد"(١).

أقول: سبحان الله!! دخلت مصر في الإسلام في مطالع القرن الأول الهجري

(١) تاريخ الأستاذ الإمام لمحمد رشيد رضا (١/ ١٢).

ونعمت به طوال أربعة عشر قرنًا، فلم تعرف طوال هذه الفترة ولم يخطر ببال علمائها ومفكريها وطلاب العلم حتى العوام حقها على الحاكم حتى جاء محمد عبده وعرفها هذا الحق!!، لعل هذا الحق الذي عرفه محمد عبده من غير الإسلام أليس الإسلام قد عرف الأمة حقها على الحاكم وحق الحاكم عليها وحقوق المسلمين بعضهم على بعض وحقوق سائر البشر بل حقوق البهائم والطيور؟، إن هذا الكلام يلتقي مع كلام شيخه جمال الدين الأفغاني.

" إنكم معشر المصريين نشأتم في الاستعباد وربيتم بحجر الاستبداد. . الخ"، وهي دعوة ماسونية حملت على عاتقها الدعوة إلى القوميات ومنها الفرعونية.

٢- ومنها قوله: "إن خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه، ونحن الآن مبينون -بعون الله- ماهيّة هذا الوطن وبعض ما يجب على ذويه"(١)، ثم قام ببيان ذلك بطريقة ليست من الإسلام في شيء.

إنّ الإسلام هو الذي يحارب النزاع والخلاف بين أهله، أما القومية والوطنية فلم تمنع النزاع والخلاف بين أهلها في يوم من الأيام لا في غابر التاريخ ولا في حاضره.

ثم أين وضع هذا الرجل الإسلام حينما دعا إلى هذه الوحدة بين طوائف المسلمين واليهود والنصارى والأغلبية فيها للمسلمين؟.

ومن كوارثه المزلزلة للإسلام وأهله: دعوته إلى التقريب بين الأديان السماوية، فبعد عودته من فرنسا إلى بيروت أنشأ جمعية سياسية دينية سرية هدفها التقريب بين الأديان الثلاثة السماوية (الإسلام واليهودية والنصرانية)

---

(١) تاريخ الإستاذ الإمام لمحمد رشيد رضا (٢/ ١٩٤).

وإزالة الشقاق من بين أهلها، والتعاون على إزالة ضغط أوربا عن الشرقيين، ولا سيما المسلمين منهم وتعريف الإفرنج بحقيقة الإسلام وحقيته من أقرب الطرق.

واشترك معه في تأسيس هذه الجمعية: ميرزا باقر، وبيرزادة، وعارف أبو تراب، وجمال بك نجل رامز بك التركي قاضي بيروت، ثم انضم إليها مؤيد الملك أحد وزراء إيران، وحسن خان مستشار السفارة الإيرانية بالآستانة، والقس إسحاق طيلر، وجي دبليو لنتر وشمعون مويال وبعض الإنكليز، واليهود.

وكان الشيخ محمد عبده صاحب الرأي الأول في موضوعها ونظامها، وميرزا باقر هو الناموس (السكرتير) العام لها وهو إيراني تنصر وصار مبشرًا نصرانيًا وتسمى بميرزا يوحنا ثم عاد إلى الإسلام كما يزعم.

ودعا أعضاؤها إلى فكرتهم في صحفهم ورسائلهم.

ولا ندري إلى أي إسلام يدعى الإفرنج؟ أهو الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ الذي أدان اليهود والنصارى وعقائدهم بالكفر والشرك؟ أم المزيج المركب من الرفض والماسونية وغيرها من الضلالات التي تحملها هذه الجمعية؟!!.

وهذا الشيخ محمد عبده يكتب رسالة إلى القس إسحاق طيلر يقول فيها: "كتابي إلى الملهم بالحق الناطق بالصدق حضرة القس المحترم إسحاق طيلر أيده الله في مقصده ووفاه المذخور من موعده"، إلى أن قال: ". . . ونستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل فتهزم له ظلمات الغفلة فتصبح الملتان العظيمتان: المسيحية والإسلام وقد تعرفت كل منهما إلى الأخرى، وتصافحتا مصافحة الوداد وتعانقتا معانقة الألفة، فتغمد عند ذلك

سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملتين"[١].

ويقول أيضًا: " وإنا لنرى التوراة والإنجيل والقرآن ستصبح كتبًا متوافقة، وصحفًا متصادقة يدرسها أبناء الملتين ويوقرها أصحاب الدينين فيتم نور الله في أرضه، ويظهر دينه الحق على الدين كله"[٢].

أقول: (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (التوبة: ٣٢-٣٣).

لقد أمر الله بجهاد اليهود والنصارى الأمر الذي يريد محمد عبده إبطاله ونص في هذه الآيات على كفرهم وشركهم.

ومن أسباب كفرهم وشركهم أن اليهود قالوا: عزير ابن الله، وأن النصارى قالوا: المسيح ابن الله أو هو الله أو ثالث ثلاثة، وأضافوا إلى هذا الكفر والشرك بأن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله.

وأنهم أعداء الله وأعداء الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ ومن هذا المنطلق يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ليعيشوا هم والإنسانية جميعًا في ظلمات الجهل والكفر حسدًا وبغيًا على محمد ﷺ ورسالته وأمته.

ويأبى الله إلا أن يتم نوره ذلكم النور الذي لا يوجد إلا في الإسلام ولو جاء موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء والرسل فلا يسعهم إلا اتباع خاتم النبيين محمد ﷺ يأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون وفي طليعتهم اليهود

(١) تاريخ الأستاذ الإمام للسيد رشيد رضا (١/ ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢٨)، وانظر: المدرسة العقلية (ص:١٣٧-١٣٨).

(٢) الأعمال الكاملة لمحمد عبده جمع وتحقيق محمد عمارة (٢/ ٣٦٣) بواسطة منهج المدرسة العقلية (ص: ١٣٨).

والنصارى الذين يتخبطون في ظلمات الكفر والشرك والجهل والضلال ولقد حصر الهدى ودين الحق في الإسلام وحده وحصر فيه نور الله ويأبى إلا أن يظهر الإسلام على الأديان كلها، لكن محمد عبده يرى ضد ذلك يرى أنه لا يتم نور الله إلا باجتماع الأديان الثلاثة؛ وكفى بما يراه ضلالًا ومصادمة واضحة لما قرره القرآن والسنة في نصوص كثيرة لا يتسع المقام لسردها وإجماع المسلمين، ومنها قول الله تعالى: (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (البقرة:١٣٥). فلقد أبطلوا أسباب الهداية من الكتابين بتحريفهم وكفرهم وجرأتهم على هذا التحريف.

وأخيرًا يقول الله تعالى: (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) (البقرة: ١٢٠).

قال فهد بن عبد الرحمن الرومي:

"نشر محمد أحمد خلف الله كتابه "الفن القصصي في القرآن الكريم"، زعم فيه أن ورود الخبر في القرآن لا يقتضي وقوعه وأنه يذكر أشياء وهي لم تقع، ويخشى على القرآن من مقارنة أخباره بحقائق التاريخ.

وقال: إنا لا نتحرج من القول بأن القرآن أساطير.

وعندما رفضت جامعة فؤاد هذه الرسالة دافع عنها أمين الخولي المشرف على الرسالة قائلًا: "إنها ترفض اليوم ما كان يقرره الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ اثنين وأربعين عامًا "[1].

---

(١) منهج المدرسة العقلية ص (١٦٥-١٦٦) وأحال على (ص: ١٨٠) من الفن القصصي في القرآن الكريم لمحمد أحمد خلف الله وعلى (ص:ح) من مقدمة هذا الكتاب.

وهذا أمر ينطوي على كفر غليظ فإن ثبت هذا عن الشيخ محمد عبده فإنها لطامة كبرى تدل على كيد كبير للإسلام وتكذيب للقرآن نفسه ونرجو أن يكون هذا افتراءًا عليه.

وفي خطاب له يخاطب فيه شيخه جمال الدين يقول:

" نحن الآن على سنتك القويمة لا نقطع رأس الدين إلا بسيف الدين ولهذا لو رأيتنا لرأيت زهادًا عبادًا ركعًا سجدًا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون"

تساءل بعض النقاد[1] فقال: هل هي دعوة باطنية يخفيها الرجلان ويسعيان تحت ستارة الدين و" بسيف الدين نقطع رأس الدين وقيامهم بالصلاة أمام الناس هل هو سعي إلى القبض على سيف الدين؟ ثم تركهم للصلاة بعض الأحيان هل هو تنفيس " لضيق العيش وعودتهم إليها حينًا لأجل" فسحة الأمل".

موقفه من أخبار الآحاد:

قال أبو رية: "قال الأستاذ الإمام محمد عبده- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -[2]: "إن المسلمين ليس لهم إمام في هذا العصر غير القرآن، وإن الإسلام الصحيح هو ما كان عليه الصدر الأول قبل ظهور الفتن".

وقال رحمه الله تعالى: " لا يمكن لهذه الأمة أن تقوم ما دامت هذه الكتب فيها (يعني: الكتب التي تدرس في الأزهر وأمثالها، كما ذكره بالهامش) ولن تقوم إلا بالروح التي كانت في القرن الأول وهو (القرآن) وكل ما عداه فهو

---

(١) هو فهد بن عبدالرحمن الرومي وحق له ذلك.

(٢) أضواء على السنّة (ص:٣٧٨-٣٧٩)، الطبعة الخامسة، دار المعارف.

حجاب قائم بينه وبين العلم والعمل"[١].

فإن صح هذا النقل من أبي رية -ولا يستبعد من محمد عبده- فإنه قد سار على منهج أستاذه جمال الدين الأفغاني، ويخفف من وطأة هذا القول -شيئًا ما- ما قاله في كتابه المسمى بـ"رسالة التوحيد" تحت عنوان: "التصديق بما جاء به النبي ﷺ"، حيث قال: "بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بيّنا وأنه إنما يخبر عن الله تعالى؛ فلا ريب أنه يجب تصديق خبره والإيمان بما جاء به.

ونعني بما جاء به ما صرح به الكتاب وما تواتر الخبر به تواترًا صحيحًا مستوفيًا لشرائطه، وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة في أمر محسوس، ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث، ونعيم في جنة، وعذاب في نار، وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف؛ ويجب أن يقتصر في الاعتقاد على ما هو صريح، ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني"[٢].

فترى في كلامه هذا:

١- أنه لا يلزم الناس من تصديق ما جاء به الرسول ﷺ إلا بما صرح به الكتاب العزيز والخبر المتواتر من السنة.

٢- وأنه يجب أن يقتصر في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر، ولا تجوز الزيادة في الاعتقاد على ما هو قطعي بظني.

ومقتضى هذا:

١- أن يعمد من شاء من أهل الأهواء إلى تحريف نصوص القرآن والسنة

---

(١) أضواء على السنة (ص:٣٧٩).

(٢) رسالة التوحيد ص (١٥٧).

المتواترة أو تأويلها بحجة أنها غير صريحة في دلالاتها وإن كانت قطعية الثبوت وهذا أمر واقع.

٢- وأن يعمد أهل الأهواء إلى الأحاديث الصحيحة المتلقاة بالقبول من الأمة بما في ذلك أخبار الصحيحين فيدفعوا في نحورها ولا يحتجوا بها في أبواب الاعتقاد لأنها غير قطعية الثبوت وإنما هي من الظنيات، وما كان كذلك فلا يجوز أن يبنى عليه الاعتقاد ولا الإيمان بالغيبيات.

ومن هنا يقول محمد عبده: " وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهي عن مشابهة المخلوقين، فإن ورد ما يوهم ظاهره ذلك في المتواتر وجب صرفه عن الظاهر.

إما بالتسليم لله في العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة[1]".

وأنت ترى أنه لا يسلّم بظاهر المتواتر، فهذا هو موقفه من السنة: لا يجب على عموم النّاس التصديق بكل حديث صح عن النبي ﷺ بل بما تواتر عنه، وأنه يقتصر في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر، وباب التأويل والتحريف مفتوح ودعاوى عدم الصراحة سهلة جدًا لمن يريد الخروج عن معتقدات السلف الصالح إلى معتقدات أهل الأهواء.

ويقول: " أما أخبار الآحاد فإنما يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها.

أما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرضت له شبهة في صحته وهو ليس من المتواتر فلا يطعن في إيمانه عدم التصديق به، والأصل في جميع ذلك أن من

---

(١) رسالة التوحيد (ص:١٥٨).

أنكر شيئًا وهو يعلم أن النبي ﷺ حدث به أو قرره فقد طعن في صدق الرسالة وكذب بها"[١].

١ - أنه إذا بلغته أخبار الآحاد ولم يصدق بصحتها -ولو كانت مما قرر صحتها أئمة الحديث والسنة وسلموا بها ودانوا بما فيها من عقائد وعمل- فإن عدم تصديق هذا المتحرر لا يطعن في إيمانه، وله الحق أن يردها ويكذب بها، ولو كانت في الصحيحين وتلقتها الأمة بالقبول، وله ردها عند عارض أي شبهة فلا يلزمه النظر إلى الأسانيد ولا التقيد بها مهما بلغت من الصحة وتوفرت لصحتها الشروط فعقول العقلانيين فوق كل اعتبار.

ثم قال: "ويلحق به من أهمل العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة وهو في الكتاب وقليل من السنة في العمل"[٢].

إلى أن قال: "والأصل في ذلك أن الإيمان هو اليقين في الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد في ذلك إلا احترام ما جاء به على ألسنة الرسل"[٣]. يعني: لا حرج على من أهمل غير المتواتر من السنن القولية والعملية والتقريرية مهما بلغت من الصحة وتلقتها الأمة بالقبول سواء تعلقت بالعقائد أو الأعمال.

ومعلوم أن هذا الصنف ينكر المتواترات ويردها بدعوى أنها أخبار آحاد مثل: نزول عيسى[٤]، وخروج المهدي، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج

---

(١) رسالة التوحيد (ص: ١٥٨).

(٢) رسالة التوحيد (ص: ١٥٨).

(٣) رسالة التوحيد (ص: ١٥٨).

(٤) انظر كتاب "التصريح بما تواتر في نزول المسيح" لأنوار شاه الكشميري حيث ساق أكثر من سبعين حديثًا في نزول عيسى -عليه الصلاة والسلام-.

الدجال[١]، وأحاديث فتنة القبر وعذابه، وأحاديث الشفاعة، وأحاديث رؤية الله في الدار الآخرة، إلى عقائد أخرى ثبتت بالتواتر فردت أحاديثها بحجة أنها أخبار آحاد.

ثم قال: " ومن اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هي عليه في ظاهر القول وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع اعتقاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد بحيث لا ينقص تأويله شيئًا من قيمة الوعد والوعيد ولا ينقص شيئًا من بناء الشرعية في التكليف كان مؤمنًا حقًا[٢]، وإن كان لا يصح اتخاذه قدوة في تأويله فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها إلى ما تبلغه طاقة العامة"[٣].

ونرى هنا أنه يقصر الاعتقاد على الكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع فلا ندري أهذا سهو منه عن السنة المتواترة أم هو مغازلة لمنكري السنة وتلويح لهم بتأييد مذهبهم؟!.

ونرى أنه يعطي الحرية الكاملة للعقلانيين وغيرهم أن يفهموا القرآن كل

---

(١) انظر كتاب" قصة المسيح الدجال ونزول عيسى –عليه الصلاة والسلام– وقتله إياه"، للمحدث الألباني، وقد تناول في مقدمته محمد عبده ورشيد رضا باللوم على تأويل أحاديث نزول عيسى وخروج الدجال، كما تناول بعض طلاب الأزهر، انظر (ص:١٢-١٣).

(٢) أرى أن هذا غلو في الإرجاء فالمؤمنون حقًا هم الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا والمؤمنون حقًا الذين يؤمنون بكل ما ثبت عن نبيهم ﷺ ويبنون عليه عقائدهم وأعمالهم.

(٣) انظر هذه الأحاديث المتواترة في هذه الأمور العقدية كتاب "نظم المتناثر من الحديث المتواتر" للكتاني (ص: ٨٢، ٨٤، ١١٤، ١٣٢، ١٣٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٩).

على حسب عقله دون التفات إلى بيان الرسول ﷺ وما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من بيان وعقيدة.

ويرى أنه مؤمن حقًا إذا آمن بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد بحيث لا ينقص تأويله شيئًا من قيمة الوعد والوعيد فلا يضره بعد ذلك أن ينكر معجزات الرسول ﷺ ومنها الإسراء والمعراج وانشقاق القمر ولا تفسير الملائكة بأنها نوازع الخير في أنفسنا أو تفسير الشياطين بأنها نوازع الشر إلى آخر التأويلات الباطنية المعروفة التي تعبث بنصوص القرآن وتنكر السنة أو تعبث بتأويلها.

فقد سئل محمد عبده عن المسيح الدجال وقتل عيسى له فقال: "إن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها".

وأن القرآن أعظم هاد إلى هذه الحكم والأسرار وسنة رسول الله مبينة لذلك، فلا حاجة للبشر إلى الإصلاح وراء الرجوع إلى ذلك، وقال بعد أن حكى الخلاف في تفسير قول الله تعالى لعيسى عليه السلام (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) (آل عمران:٥٥). مرجحًا أن الوفاة هي وفاة موت وأن الرفع إنما كان لروحه قال: ولصاحب هذه الطريقة في حديث الرفع والنزول في آخر الزمان تخريجان:

أحدهما: أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي لأنه من أمور الغيب والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي؛ لأن المطلوب فيها اليقين وليس في الباب حديث متواتر.

وثانيهما: تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على

الناس، وهو ما غلب على تعاليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها وهو حكمتها وما شرعت لأجله، فالمسيح عليه السلام لم يأت اليهود بشريعة جديدة، ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر ألفاظ شريعة موسى عليه السلام ويوقفهم على فقهها والمراد منها ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحري كمال الآداب.

أي ولما كان أصحاب الشريعة الأخيرة، قد جمدوا على ظواهر ألفاظها بل وألفاظ من كتب فيها معبراً عن رأيه وفهمه، وكان ذلك مزهقًا لروحها ذاهبًا بحكمتها كان لابد لهم من إصلاح عيسوي يبين لهم أسرار الشريعة وروح الدين وأدبه الحقيقي.

وكل ذلك مطوي في القرآن الذي حجبوا عنه بالتقليد الذي هو آفة الحق وعدو الدين في كل زمان.

فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية، لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر.

قال رشيد رضا:

" هذا ما قاله الأستاذ الإمام في الدرس مع بسط وإيضاح، ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في ذلك تأباه. ولأهل هذا التأويل أن يقولوا: إن هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث والناقل للمعنى ينقل ما فهمه "[(١)].

١ - ونقول: إن أحاديث نزول عيسى في آخر الزمان وقتله للدجال والحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم متواترة وليست بأخبار آحاد -كما يدعي محمد عبده- ولو

(١) تفسير المنار (٣/ ٣١٦-٣١٧).

كانت آحادًا فيكفيها أنها في الصحيحين اللذين تلقتهما الأمة بالقبول وهذا التلقي يفيد العلم.

٢- هل يعجز محمد ﷺ عن التعبير الذي ادعاه محمد عبده حتى يذهب فيحدث عنه على طريقة الألغاز والأحاجي حاشاه ﷺ أن يستخدم هذا الأسلوب.

٣-كلام محمد عبده هنا عن فهم الأمة للقرآن فيه استخفاف بتراث الأمة العظيم من تفسير وفقه وشروح حديث رسول الله ﷺ. وأنه تعبير عن آرائهم وفهمهم وأن هذا الفقه والفهم قد أزهق روح الشريعة وذهب بحكمتها. ولعله يريد بالإصلاح الذي لا بد منه إصلاحه هو وشيخه الأفغاني ومدرستهما وقد عرف القارئ نبذة من هذا الإصلاح الذي يحق لمن يعرف الإسلام أن يقول: إن إصلاحكم المزعوم هو المزهق لروح الإسلام بعد التهوين من شأن نصوصه وبعد تأويلاتها الفاسدة التي هي أشبه بتأويل الباطنية.

٤- لم يكتف محمد رشيد رضا بنقل هذا الكلام الباطل فذهب يلقن الطاعنين في السنة بقوله:

" ولأهل هذا التأويل أن يقولوا: إن هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث والناقل للمعنى ينقل بفهمه.

وهذا طعن ماكر في السنة ونقلتها الأمناء وإهدار لأمانتهم وحفاظهم على السنة المحمدية بطرق محكمة لم تعهدها البشرية طوال تاريخها، وتشكيك في السنة متواترها وآحادها، وتلقين لأعداء السنة أن يتخذوا هذه المقولة الباطلة سلاحًا لمحاربة السنة وأهلها، وقد اتخذوها فعلًا سلاحًا، ولكن الله يرد أسلحتهم الفاسدة في نحورهم بنضال أهل السنة وحججهم الساطعة وبراهينهم القاطعة.

وفعلًا فلقد نقل أبو رية عن رشيد رضا كلامًا في الطعن في رواية من اشتهر بالصدق والضبط ومنهم بعض الصحابة كأبي هريرة وابن عباس وأنها ترد بالطعن فيها أو بالتأويل ومن ضمن هذا الكلام قوله:

" وإما بتأويل الحديث بأنه مروي بالمعنى وأن بعض رواته لم يفهم المراد فعبر بما فهمه. . . . ".

فرد عليه العلامة الشيخ عبد الرحمن المعلمي في كتابه "الأنوار الكاشفة"[(١)] باثني عشرة مؤاخذة، قال في العاشرة:

" إن هذا الطعن يترتب عليه من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله تعالى وهي المكيدة التي مرت الإشارة إليها (ص:٢٠١) وإيضاحها قبل ذلك، وكل من التأويل ولو مستكرها والوقف أسلم من هذا الطعن، ولو غير السيد رشيد رضا قاله لذكرت قصة المرأة التي اشتكى طفلها، ولم تعلم ما شكواه غير أنها نظرت إلى يافوخه يضطرب كما هو شأن الأطفال، فأخذت سكينًا وبطت يافوخه كما يصنع بالدمل. . . إلى آخر ما جرى " أي: أن في كلام محمد رشيد رضا هذا قتل للشريعة الإسلامية كما قتلت هذه المرأة ابنها.

وبعد فلقد فتح جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده باب فتنة عظيمة ومحنة كبيرة على الإسلام كتابًا وسنةً وتراثًا إسلاميًا، وخلَّفا مدرسة فكرية عقلانية جمعت بين ضلال الفرق القديمة من روافض ومعتزلة وجهمية، ومن تحريفات وتأويلات باطلة، ومن طعون في السنة وحملتها بدءًا بالصحابة وانتهاء بأهل الحديث والفقه والتفسير وبين حملات أعداء الإسلام المستشرقين والمستعمرين على الإسلام والمسلمين.

---

(١) (ص: ٢٩٥-٢٩٨).

ومن هذه المدرسة:

١- محمد توفيق صدقي في مقالات نشرتها مجلة المنار في عدد من مجلداتها.

٢- وأحمد أمين في "فجر الإسلام وظهره".

٣- ومحمود أبو رية في كتابه "أضواء على السنة".

٤- ومحمود شلتوت في كتابه "الإسلام عقيدة وشريعة".

وقد تناول هؤلاء السنة بسوء على تفاوت بينهم، وقد تصدى للرد عليهم ودحض شبهاتهم وأباطيلهم عدد من العلماء.

ومن هؤلاء العلماء الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي في كتابه "الأنوار الكاشفة".

والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في كتابه "ظلمات أبي رية".

والشيخ محمد أبو شهبة في كتابه "الدفاع عن السنة".

وكل هؤلاء قد ردوا على أبي رية وتوسعوا في ردودهم على هذا الضال المفتري ولا سيما على الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه، وبينوا -أيضًا- ما وقع فيه من التناقضات والكذب الكثير والخيانات والنقول الكاذبة عن أعداء الصحابة رضي الله عنهم، واحتجاجه بالروايات الواهية والموضوعة، واعترافه بالمتواتر ثم تشكيكه فيه إلى آخر مخازيه.

هذا مع تبجحه بالغيرة على السنة النبوية والدفاع عنها وعما يشينها وقد بين الشيخ المعلمي زيف هذه الدعوى وأمثالها.

وأما أحمد أمين فقد رد عليه الدكتور مصطفى السباعي كما ناقش أبا رية في طعنه على أبي هريرة.

وأما محمود شلتوت فقد رد على تشويشه على السنة الشيخ عبد الله بن علي بن يابس في كتابه "إعلام الأنام بمخالفة شيخ الأزهر شلتوت للإسلام"، كما رد عليه مخالفات أخرى في الكتاب المذكور.

ولقد آثرت في هذا البحث أن أركز على شبهات محمد توفيق صدقي لأسباب:

١ - أن هؤلاء المذكورين من المدافعين عن السنة والذين انتشرت مؤلفاتهم في أوساط طلاب العلم لم يتعرضوا لنقد هذا الرجل.

٢ - أن الدكتور السباعي من بين هؤلاء قد تعرض لنقد أربع شبهات من شبهات محمد توفيق ولعله لم يقف على كل شبهاته.

٣- هناك عالمان ناقشا محمد توفيق ولم تنشر ردودهما وهما الشيخ طه البشري أحد علماء الأزهر، والثاني الشيخ صالح بن علي بن ناصر اليافعي، نشرت ردودهما في أعداد من مجلة المنار ولم يستوفيا مناقشة شبهات هذا الرجل حسب اطلاعي.

٤ - أن شبهات محمد توفيق صدقي يشاركه في كثير منها أحمد أمين وأبو رية وغيرهما فالرد عليه رد عليهم -أيضًا- وعلى غيرهم من الطاعنين في السنة النبوية.

محمد توفيق صدقي، هذا الرجل من أشد الناس إنكارًا للسنة وطعنا فيها وهو ثمرة لدعوة الشيخ محمد عبده وشيخه الأفغاني ومنهجهما العقلاني الذي عانى منه الإسلام والمسلمون.

لقد أبدى هذا الرجل صفحته وكشف عن قناعه فكتب مقالات في الطعن في سنة رسول الله وردها، نشرها في مجلة المنار وغيرها.

ومن هذه المقالات التي نشرتها هذه المجلة[١] مقالة بعنوان: "الإسلام هو القرآن وحده"، قال في طليعة هذا المقال: " هذا عنوان مقال لي جديد أريد أن أفصح فيه عن رأي أبديه لعلماء المسلمين المحققين منهم لا المقلدين، حتى إذا ما كنت مخطئًا أرشدوني، وإذا ما كنت مصيبًا أيدوني، وبشيء من علمهم أمدوني.

فإني لست ممن يهوى الإقامة على الضلال، ولا ممن يلتذ بحديث مع الجهال، فلذا أجهد النفس في تحقيق الحق وتمحيصه والإسراع إليه راجيًا من الله التوفيق للهداية إلى أقوم طريق"[٢].

فأقول:

لا خلاف بين أحد من المسلمين في أن متن القرآن الشريف مقطوع به؛ لأنه منقول عن النبي ﷺ باللفظ بدون زيادة ولا نقصان ومكتوب في عصره بأمر منه ﷺ، بخلاف الأحاديث النبوية فلم يكتب منها شيء مطلقًا[٣] إلا بعد عهده بمدة تكفي لأن يحصل فيها من التلاعب والفساد ما قد حصل[٤]؛ من ذلك نعلم أن النبي ﷺ لم يرد أن يبلغ عنه للعالمين شيء بالكتابة[٥] سوى القرآن الشريف الذي تكفل الله تعالى بحفظه في قوله جل شأنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

(١) المنار (٩/ ٥١٥).

(٢) لقد حلى نفسه بهذه الصورة الجميلة وما أبعده عنها فلو كان كذلك لما وقع في هذه المهواة، ولرجع= عن هذا المنهج المهلك بعد أن رد عليه الشيخان طه البشري وصالح اليافعي، لكنه تمادى وتمادى وعاند كشأن أهل الباطل والأهواء في كل زمان ومكان.

(٣) هذه مجازفة كبيرة فقد كتب الكثير منها في عهد رسول الله ﷺ كما سيأتي بيانه.

(٤) سبحان الله ! خير أمة أخرجت للناس تتلاعب بنصوص نبيها؟!.

(٥) هذه مجازفة كبيرة فالرسول ﷺ يريد البلاغ عنه بالكتابة والحفظ الأمين.

لَحَافِظُونَ) (الحجر:٩).

ثم قام بالرد على محمد توفيق صدقي الشيخ طه البشري أحد علماء الأزهر في مقال ضاف نشرته مجلة المنار[١] تحت عنوان:

"أصول الإسلام الكتاب والسنة والإجماع والقياس" ناقشه مناقشة جيدة إلا أنه مع الأسف جاراه في أن أخبار الآحاد تفيد الظن.

ثم رد الدكتور محمد توفيق صدقي على الشيخ طه البشري بجواب أصر فيه على رأيه بل زاده تأكيدًا بإيراد شبه جديدة لم يذكرها في مقاله الأول، صدر هذا المقال في المنار -أيضًا-[٢].

فتعقب صاحب المنار الشيخ محمد رشيد رضا بتعليق وصل فيه إلى القول بأن الدين اللازم هو القرآن والمتواتر من السنة العملية، وأورد شبهًا على السنن القولية.

فكان في موقفه هذا فيما يبدو ما حمل الدكتور محمد توفيق صدقي على التظاهر بالتراجع[٣] إلى ما قرره الشيخ محمد رشيد رضا، وهذا التراجع يظهر منه أنّه مصطنع، وأنّه لم يستفد شيئًا من انتقاد الشيخ طه البشري، ولذا نراه استمر في محاربة السنة مما ألجأ العلامة السلفي الشيخ صالح بن علي اليافعي أن يقول: "وقوله هذا -وإن كان أهون من قوله السابق- ومآله وحقيقته بعد التزامه ثم تطبيقه على ما في نفس الأمر الواقع هو حقيقة قوله الأول من رد أكثر السنن الفعلية، بل لا يبعد إذا قلنا كلها"[٤].

(١) المجلد (٩/ ٦٩٩، ٧١١).
(٢) المجلد (٩/ ٩٠٦-٩٢٥).
(٣) المجلد (١٠/ ١٤٠).
(٤) المجلد (١١/ ١٤٢).

كما ألجأه إلى أن يرد عليه في عدد من المقالات نشرتها مجلة المنار قال في إحداها:

"قال الدكتور محمد توفيق صدقي: "أنا لا أنكر ما للأحاديث من الفوائد، ثم قال: ولكن ذلك لا يوجب العمل بها على المسلمين ولا يلحقها بالقرآن الشريف.

الدين الذي يكفر منكره شيئان: القرآن وما تواتر من السنة""[1].

ثم أجابه الشيخ صالح بن علي اليافعي بقوله: "ونقول:

١ - إن الله جل شأنه أرسل رسلًا أوجب على عباده تصديقهم واتباعهم في كل ما أرسلوا به وليس من شرط الرسول أن يأتي بكتاب من عند الله.

وبعبارة أخرى: لم يقل أحد من العقلاء بعد ثبوت رسالته أنه يجب على الله أن ينزل عليه كتابًا يقرؤه أو كلامًا يتلوه بلفظه.

بل عرَّفوا الرسول بأنه بشر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه سواء كان التبليغ والبيان بالقول أم الفعل.

على أن القول مقدم على الفعل، ومعرفة الشرع بالقول أكثر منه بالفعل.

والله جل شأنه لم يخصص طريقًا ولا طرقًا معينة لحملة الشرائع في تبليغها إلى من نأى وبعد مكانًا أو زمانًا، ولم يذكر في موضع ما من أي كتاب من كتبه أن من رد ما بلغه من الدين بغير تواتر معذور، ولم يقل ذلك أحد من رسله أو ممن يعول عليه من أتباعهم، بل لم يشترط ذلك أحد من البشر في شئون دنياهم الاجتماعية.

وإنما مدار ذلك- والله أعلم- هو حصول التصديق بالنسبة إلى خصوص

---

(١) المنار (١١/ ٣٧١).

من بلغه خبر ولم يقصر في البحث عن صحته وصدقه فحين تصديقه لا يجوز له رده، وهذا هو الذي دل الشرع والعقل عليه، وعليه اتفق أهل الملل قاطبة.

٢- بعث الله رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس عليه حجة، وهو لا يأمر بالمحال ولا يكلف نفسًا إلا وسعها، فلو أوجب على الأمم تبليغ كل مسألة من شرعه بالتواتر وعلى المبلغين رد غير التواتر لكان ذلك تكليف ما لا يطاق، مستلزمًا لملاشاة الأديان، ومعطلًا لسائر المواصلات ومعاملات بني الإنسان، والله منزه عن إرادة ذلك فبطل اشتراط التواتر لنقل مسائل الدين.

٣- دل القرآن على أن من جاءته الحجة عن الله بتوسط رسله وردها جحدًا أو مكابرة، أو بما شاكل ذلك وداناه، فقد كفر بالله وبرسله واستحق العقاب وشديد العذاب. . . والحق أن من أنكر ما عرف وجوبه من دين الإسلام وصار ذلك معلومًا له ولو بخبر الآحاد كفر، وكذلك من أنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة ولم يكن قريب عهد بالإسلام أو نشأ بعيدًا عن العلماء كفر، وإن لم يكن منقولًا بالتواتر المعروف عن التواترية، ونحن لا ننكر أن بعض أنواع التواتر يفيد العلم ولكن ننكر انحصار العلم الخبري فيه، أو فيما باشر الشخص سماعه، كما أنا لا نسلم أن ما هو متواتر عند أناس يلزم أن يسلم تواتره الآخرون"[1].

واستمر الدكتور محمد صدقي في نشر أفكاره المسمومة حول السنة القولية ودلالتها والجدال بالباطل وقذف الشبه المضلة التي تؤدي إلى الانسلاخ من الدين كما قال العلامة اليافعي.

(باب باب حكم من ينكر خبر الآحاد)

---

(١) المنار (١١/ ٣٧١-٣٧٢) وأورد اليافعي حججًا أخرى لم ننقلها خشية التطويل.

سئل العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (١/ ٣٨٢): ما حكم الأشخاص الذين ينكرون أحاديث الآحاد على الرغم من إقامة الحجة عليهم، هل هم فساق أو ضالين أو كفرة؟

الشيخ: لا شك أن كل مسلم يتبنى مذهبًا له أو منهجًا أو سبيلًا أو طريقًا لم يكن عليه سلفنا الصالح، الذي يعني صحابة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، والتابعين لهم، وأتباع التابعين، لا شك أن هذا المسلم الذي يخالف هؤلاء يعيش في ضلال مبين، ثم هذا الضلال الذي لا نشك في أنه واقع فيه ومتلبس له من قمة رأسه إلى أخمص قدمه قد يكون يورده موارد الكفر والخروج من الملة؛ ذلك لأن الله ﷻ قال في صريح القرآن الكريم: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} (النساء:١١٥)، فالذين يتفلسفون بفلسفة إنكار حديث الآحاد، هؤلاء يخالفون سبيل المؤمنين، وقد ذكرنا أكثر من مرة: أن هدي السلف الصالح وتبليغهم لدعوة الإسلام، حتى شملت قسمًا كبيرًا من أقطار الدنيا، إنما كان ذلك بنقل الآحاد والأفراد في دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، من أشهر ذلك مما هو معروف في السيرة النبوية وفي التاريخ الإسلامي الأول، أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يرسل الشخص الواحد يدعو القبيلة الواحدة إلى الدخول في الإسلام، فيأمرهم بأن يوحدوا الله وحده لا شريك له، وإذا استجابوا أن يصلوا وأن يصوموا وأن يزكوا. . وو إلى آخره، كيف انتشر الإسلام بهؤلاء الأفراد؟ وهكذا استمر انتشار الإسلام حتى شمل كثيرًا من البلاد، حتى البلاد التي هي في وسط البحار كأستراليا مثلًا وأمثالها؛ بسبب: أن مسلمًا يسافر في سبيل التجارة فينزل في بلد ما طرقته قدمه من قبل

فيقول لهم: الإسلام كذا وكذا وكذا، فيدخل الناس في دين الله أفواجًا بخبر الواحد؛ ولذلك فهؤلاء الذين يستهينون بخبر الواحد ويقولون: أن خبر الواحد لا تثبت به عقيدة، يخالفون سبيل المؤمنين، بل سبيل سيد المؤمنين الذي كان أرسل معاذًا وأرسل عليًا وأرسل أبا موسى الأشعري دعاة إلى الإسلام في اليمن، ودحية الكلبي إلى بلاد سوريا إلى الروم. . وهكذا، هؤلاء الدعاة الأولين معروفين في التاريخ الإسلامي كانوا أفرادًا، فكيف يقال: أن حديث الآحاد لا تثبت به عقيدة؟!

نحن لنا والحمد لله رسالتان تعالج هذه القضية معالجة علمية وعقلية شرعية، ليس عقل فلتان، عقل شرعي مأخوذ من الكتاب ومن السنة، وكل ما خرج عن الكتاب والسنة. . فصدقوا حينما قالوا: ليس عقلًا؛ لأن الله ﷻ حينما ذكر الكفار وهم في عذاب النار حكى عنهم أنهم قالوا: {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك:١٠)، فإذًا من هو العاقل؟

هو الذي يُحكم الشرع على عقله؛ لأن هذا العقل كما قلنا العقل المطلق موزع في البشر، ليس معروفًا محدودًا بشخص، لو قيل: عقل الرسول المعصوم على الرأس والعين، هذا مرجع، لكن عقل البشر الضائع الفلتان الذي لا حدود له هذا من تمام الضلال حينما تبنوا ما أداه عقلهم المجرد عن انطباع الكتاب والسنة إلى أن يقولوا: أن حديث الآحاد لا تثبت به عقيدة.

وأنا أضرب لكم مثلًا يحمل في طواياه نكتتين، وكيف يظهر، وما هو الموقف هؤلاء الناس الذين حكموا عقولهم على نصوص نبيهم -صلى الله عليه وآله وسلم-.

لقد قال -صلى الله عليه وآله وسلم- في حديث البخاري ومسلم: «إذا

جلس أحدكم في التشهد الأخير فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»، هذا حديث آحاد يؤخذ عندهم في الأحكام، لا يؤخذ به في العقيدة، لكن هذا الحديث يتضمن أمرين: يتضمن حكمًا، ويتضمن عقيدة، الحكم: «فليستعذ بالله من أربع»، العقيدة: عذاب القبر، العقيدة: المسيح الدجال في آخر الزمان، وكيفما يستطيع هذا أن يستعيذ بشيء لا يؤمن به؟ لا يستطيع، إذًا هو في حيص بيص، وكيفما مال فهو في ضلال، إن أخذ بالحديث؛ لأن فيه حكم شرعي، وهذا واجبه، لكنه لم يأخذ بما فيه من عقيدة وهو الإيمان بعذاب القبر وبالمسيح الدجال في آخر الزمان.

فإذًا: في أثناء تطبيقه لهذا الحكم هو مخالف لعقيدته، وهذا من الضلال المبين.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (١/ ٣٨٥): ما الضابط في تكفير المستهزئ بالسنة أهو العلم بكونها سنة أم غير ذلك.

الشيخ: لا شك أنه لا يجوز تكفير مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا وهو يعلم أن الذي ينكره هو ثابت في السنة، أما إذا كان جاهلًا فينبغي أن يُعَلَّم بدل أن يكفر، فمن أنكر شيئًا يؤمن بثبوته في السنة ومع ذلك فهو أنكره هذا بلا شك كافر يحل دمه.

وهذا الجواب يجرنا إلى مسالة خلافية منذ قديم ألا وهي أن كثير من العلماء المتأخرين يقسمون الحديث النبوي من حيث وروده إلينا إلى قسمين حديث متواتر، وحديث آحاد، ويبنون على ذلك أنهم يقولون من أنكر حديث التواتر فهو كافر، ومن أنكر حديث الآحاد فليس بكافر، أنا أعتقد أن هذا

الجواب التفصيلي قائم على تفصيل السابق للحديث المتواتر وحديث الآحاد، وكلٌّ من التفصيلين لا أصل له في الشرع، من حيث الواقع في حديث متواتر وفي حديث آحاد؛ لأن التواتر والآحاد هو طريقة وصول الحديث إلى فرد من الأفراد، لكن هذا ليس من طبيعة الحديث، لأن الحديث هو ما صدر من فم الرسول عليه السلام وليس من القرآن، فالتفصيل السابق بالتفريق بين من أنكر حديث التواتر فهو كافر، ومن أنكر حديث الآحاد فهو فاسق، هذا ليس دقيقًا؛ إنما الصحيح أن يقال: كل من أنكر حديثًا يعتقد أن الرسول قاله فهو كافر سواء كان هذا الحديث عند زيد من الناس متواتر أو آحاد، المهم أن الشخص الذي أنكر الحديث يعتقد أن النبي عليه السلام قاله مع ذلك بيقول لك: هذا الحديث لا يمكن أن يُقبل لأنه ما يدخل في العقل إلى آخر الفلسفة العصرية المعروفة اليوم أما كونه حديث متواتر أو حديث آحاد فهذا التفصيل لا يمكن أن يعرفه إلا في المليون واحد من المسلمين، وبالكاد أن يوجد هذا الواحد في المليون، ولذلك أنا اعتقد أن من الدسائس التي أدخلت في الإسلام بسوء نيه أو بحسن قصد لكن على كل حال هذا دخيل في الإسلام، ألا وهو التفريق بين الحديث الحديث الآحاد وحديث التواتر، ثم ربط نتيجة تختلف واحدة عن الأخرى باختلاف كون الحديث متواترًا أو آحادًا.

ذكرنا آنفًا من جملة. . . النتيجة أن من أنكر حديث التواتر فهو كافر، هو حديث متواتر عند أهل العلم، نرجع لنفس المعنى السابق، لنأتي بمثال آخر فيما بعد حديث متواتر عند أهل العلم لكن ملايين المسلمين ما عندهم خَبَرُهُ هذا الحديث، فواحد سمع به قال: هذا مش معقول مش مقبول، لكن ما عنده علم بأن هذا حديثًا قاله الرسول لكن أهل العلم يقولون حديث متواتر، وعلى عكس

ذلك هو يعلم هو حديث ثابت عن الرسول لكن مو متواتر مع ذلك هو بينكره، الأول ما يكفر، والآخر بيكفر.

نتيجةٌ أخرى نتجت من التفريق بين حديث الآحاد وحديث التواتر؛ حديث الآحاد يؤخذ فيه بالأحكام دون العقيدة، حديث التواتر لا يجوز الأخذ به في العقيدة أو على الأقل لا يجب الأخذ به في العقيدة فرقوا بين حديث الآحاد فيؤخذ به في الأحكام ليس في العقيدة، أما العقيدة فلا بد أن يكون الحديث فيها - أيش؟ - متواتر هذا الكلام من العجائب أنه يقرره بعض العلماء قديمًا وحديثًا؛ لو سئل هذا العالم الحديث صحيح ولّا ضعيف؟ ما بيعرف فضلًا أن يعرف إذا قيل له هذا متواتر وإلا آحاد، (سيقول لك) شو بيعرفني هذه ما هي شغلتي؛ (إذًا كيف) قدرت تفرق بين الحديث الآحاد وحديث التواتر، ورتبت على ذلك أنه من ينكر حديث الآحاد في العقيدة لا ضير عليه لأن العقيدة لا تثبت إلا بحديث التواتر.

مع الأسف الشديد حزب التحرير وقع في هذه الطابوسة بالتعبير السوري يعني في هذا المطب في هذه الحفرة، فقال أول ما نشأ حزب التحرير: لا يجوز أخذ حديث الآحاد في العقيدة، وبعدين صار مناقشات بينهم وبين بعض أفراد من أهل السنة عدلوا عبارتهم؛ كانت سابقًا: لا يجوز الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة، فحولوها إلى لا يجب، كانوا من قبل في العبارة السابقة: لا يجوز؛ يعني: أن الحزبي التحريري حرام عليه أن يعتقد بحديث آحاد، لكن لما عدلوا العبارة أعطوه فسحة شويه، لا يجب عليك؛ فأنت حر بقى تأخذ بهذا الحديث ولّا ما تأخذ ما في مانع، في الأول: لا يجوز، وجرى طبعاً مناقشات كثيرة هناك في دمشق وغير دمشق من سوريا بيني وبينهم، فاضطروا أن يعدلوا هذه العبارة

وكان من جملة ما قلت لهم: يا جماعة أنتم عندما تقولون لا يجوز الأخذ بحديث الآلحاد في العقيدة معناه أنكم لا عقيده عندكم قائمة على السنة، لا يوجد هناك عقيدة تعتقدونها مأخوذة من السنة من الحديث؛ لماذا؟ لأنكم تشترطون أن يكون متواترًا، لكن هذا الحديث المتواتر في واقعه عند أهل العلم هو مجهول عند غير أهل العلم، ونُعَدِّل العبارة فنقول هذا الحديث عند أهل الاختصاص في الحديث وما أقلهم وخاصة في هذا الزمان يكون متواترًا، لكن عند عامة العلماء فضلًا عن عامة المسلمين ما عندهم خبر إلا أنه حديث آحاد، ولذلك فسوف لا تقيمون عقيدة على حديث ولو كان متواترًا عند أهل العلم؛ لماذا؟ لأنه سيعود إليكم حديث آحاد.

كنت ضربت لهم مثلًا قلت لهم: شيخكم الشيخ تقي الدين النبهاني نفترضه بأنه أعلم أهل الزمان في الحديث -وهو ليس كذلك لكن نفترض كذلك-، بحث في حديثٍ ما بحثًا هو شأنه لأنه متخصص فخرج معه أنه حديث مثلًا مثلًا: «اتقوا البول فإن عامة عذاب القبر منه» (١)، ثبت لديه مثلًا أن هذا الحديث حديث متواتر،

إذًا هو تضمن: إن في عذاب قبر؛ هم لا يؤمنون بعذاب القبر؛ لأن ما في بالقرآن زعموا.

الآن شيخكم يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «اتقوا البول فإن عامة عذاب القبر منه»، حديث متواتر عندي، أنت يا حزبي هل عندك متواتر؟ لا، ليه؟ لأن التواتر يشترط عند أهل العلم أن يتسلسل في كل طبقة؛ يعني حديث رواه أبو بكر الصديق وحده رواه عنه مليون شخص هذا حديث آحاد، مليون من الصحابة رووا حديثًا نقله إلينا واحد هذا حديث آحاد؛ إذًا لازم

هذا التواتر، نخفف العدد أشوية لا يكون خياليًا يكون واقعيًا؛ حديث رواه عشرة من الصحابة، وعنه عشرة من التابعين، وعنه عشرة من أتباع التابعين، وهكذا إلى أن سُطِّر هذا الحديث في عشرات كتب السنة بهذا التسلسل؛ عشرة من الصحابة، عشرة من التابعين إلى آخره، يجيء تقي الدين النبهاني وجد لهذا الحديث عشرة طرق صار عنده قناعة يقينية أن هذا الحديث قطعي قاله الرسول عليه السلام، وهذا واقع لكن حينما يقوله لحزبه: هذا الحديث المتواتر، فكل حزبي يصبح عنده الحديث حديث آحاد ليه؟ لأن الذي نقل له التواتر هو واحد انتبَهَ الحزبي، يمكن يقول: هذا حديث متواتر عندي- عند حزب التحرير-، وهذا لا وجود له عنده ولاعند غيره من الأحزاب، في عندهم عشرة من المتخصصين في علم الحديث؛ الشيخ تقي الدين والشيخ أحمد ومحمد وعبد الرحيم وعبد الرحمن إلى آخرة عشرة، كل واحد بحث في هذا الحديث ووجده متواترًا، العشرة هذول يعلنون على الملأ- حزب التحرير- أن الحديث الفلاني حديث متواتر، حينئذ يصبح هذا الحديث عند كل الأفراد حديثًا متواترًا ليش؟! لأن الذي نقل التواتر هو متواتر هو عشرة أشخاص، لكن هذا لا وجود له هذا لا وجود له.

ولذلك أنا قلت لهذه الجماعة: أنتم لا يمكن أن تجدوا حديثًا متواترًا؟ مرة من المرات صارت مجادلة بيني وبينهم [قلت] يا جماعة أنا شايف كتبكم ممتلئة بالأحاديث الضعيفة والتي لا أصل لها إلى آخره قالوا: نستعين بأمثالك قلت لهم ما شاء الله. . . بدكم تستعينون برجال من خارج حزبكم؟! لازم العلم ينبع منكم ويرجع على غيركم إلى آخره، فقلت لهم افترضوا أنه أنا هذا الحديث ثبت لدي بطريق التواتر، قلنا لكم حديث عذاب القبر متواتر، هذا ما أفاد التواتر

عندكم؛ لأن أنا شخص واحد لابد أن يجيب لكم من أطراف العالم الإسلامي علماء متخصصون في علم الحديث يقولون نفس القول هذا بأن حديث عذاب القبر متواتر وهذا غير واقع، لذلك لا يمكن أن أتصور أنكم تؤمنون بعقيدة نابعة من حديث متواتر؛ لأن هذا التواتر لا وجود له، مش عندكم كأفراد من حزب التحرير؛ عند شيخهم الكبير تقي الدين؛ لأنه هو كأي قارئ يقرأ في كتاب يقرأ أن هذا حديث آحاد أو حديث تواتر لكن ما صار متواترًا عنده؛ لأنه قراه بدلالة شخص واحد، وهذا يختلف اختلافًا كبيرا في الحكم على الحديث بالتواتر.

في البحوث الفقهية علماء الأحناف عندهم فلسفة أخرى تتعلق بالفقه، علماء الكلام جاؤوا بالفلسفة السابقة حديث الآحاد لا تؤخذ منه عقيدة، لكن فقهاء الحنفية أيش قالوا؟ قالوا حديث الآحاد لا يجوز تخصيص القرآن به، تخصيص القرآن لا يجوز؛ لأن القرآن متواتر، وحديث الآحاد غير متواتر وبهذا الجواب يعطلون عشرات الأحكام الشرعية الثابتة في السنة الصحيحة، من ذلك مثلًا يختلفون مع جماهير الفقهاء في حكم قراءة الفاتحة؛ الجماهير يقولون: بأنها ركن من أركان الصلاة، وهم يقولون: لا هذا واجب وليس بفرض، فضلًا عن أن يكون ركنًا لا تصح الصلاة إلا به، طيب الحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»؟! يقولون هذا حديث آحاد والقرآن يقول {فاقرؤوا ما تيسر من القرآن} وهذا نص عام {ما تيسر من القرآن} لا يجوز تخصيصه بحديث الآحاد: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». . . .

ونشوف إمام المحدثين البخاري مؤلف رسالة للقراءة «جزء في القراءة» اسم الرسالة، فإذا به في أول الرسالة يقول تواتر لدينا أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» (كيف) بتقولوا يافقهاء

يا حنفيون تقولون هذا الحديث حديث آحاد؟! هذا إمام المحدثين بيقول إنه حديث متواتر عندنا وهذا صحيح هذا الكلام، لكن صحيح عند البخاري لكن مو صحيح عند الفقهاء؛ لأنه هذا الحديث ما جاء عندهم بطريق التواتر الذي بيجيء عن اليقين، لكن هذه فلسفة دخيلة في الإسلام التفريق بين حديث وحديث؛ ما دام كلًا منهما حديث صحيح ثابت؛ لكن واحد جاء من طريق ثاني جاء من طريقين وثاني جاء من ثلاثة من عشرة إلى آخره، وكل واحد من هذا الأنواع له اسم خاص عند المحدثين: حديث مشهور، حديث مستفيض، حديث متواتر، هذه اصطلاحات للكشف عن طريقة وصول الحديث إلينا، لكن ليس المقصود من هذا الاصطلاحات أن نعطل العمل بالحديث لأنه هو في منزلة كذا، وليس في منزلة كذا، لهذا لا يجوز إلا أن نأخذ الحديث عن الرسول عليه السلام مجرد أن يكون صحيحًا أما متواتر وآحاد فهذه قضية نسبية أولًا بصورة عامة، وثانيًا هي نسبية بالنسبة لأهل العلم، أما جماهير الناس لا علم عندهم.

فالتكفير إذًا ليس متعلقًا بطريقة وصول الحديث إلى منكر الحديث هل آحاد أم هو تواتر، ولا هو بطريقة وصول الحديث إلى غير المنكر، فقد يكون عند غير المنكر متواتر، وهو ما عنده خبر بهذا الحديث، كما ذكرنا آنفًا، لكن الحديث عند جميع العلماء غير متواتر لكنه صحيح، والذي أنكره أيضًا يعتقد أنه صحيح، مع ذلك ينكره فهو كافر.

إذًا قضية التكفير لا تتعلق بما قام في نفس المكفِّر، وإنما ما قام في نفس المكفَّر؛ فإن كان المكفَّر يعتقد بأن هذا الحديث صح عن الرسول مع ذلك ينكره فلا شك بأنه يكفر بذلك، وإن قال- وإن كان لاهيًا- هذا الحديث والله أنا أستبعد صحته عن الرسول والله يعلم من قلبه أنه لا ينافق، يقول ما في قلبه؛ هذا

لا يكفر عند رب العالمين، لكنه إذا كان يعلم أن هذا الحديث قاله الرسول لكن ظهر بيقول أنا أشك في أن الرسول قال هذا، فهو عند الله كافر؛ لأنه في قرارة قلبه يؤمن بأن النبي عليه السلام قد قال هذا الحديث مع ذلك ينكره.

فإذًا التكفير لا يجوز أن يحكم به بالنسبة لما قام في نفس المكفِّر وإنما لما قام في نفس المكفَّر، واضح إن شاء الله.

السائل: واضح [لكن الفرق] بين المنكر والمستهزئ.

الشيخ: ما في فرق الذي يستهزئ بحديث يؤمن بأن الرسول قاله مثل ذاك الذي أنكر فهما سواء.

(باب هل يؤخذ بالحديث الحسن لغيره في أبواب العقيدة)

سئل العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (١/ ٣٧٠): الحديث الحسن لغيره هل يؤخذ في باب العقائد؟

الشيخ: الذي أعتقده أن التفريق بين حديث ثابت في مرتبة ما وحديث آخر أعلى ثبوتًا منه بين العقائد وبين الأحكام هذه بدعة لا يعرفها علماء المسلمين الأولين، واضح إلى هنا؟ وعلى هذا إذا كان الحديث الحسن يثبت به حكم شرعي فيثبت به عقيدة كذلك، بل أنا أقول شيئًا ما أظن أنكم قرأتموه، وقد حاججت جماعة هناك في دمشق الشام ممن شوشوا أذهان المسلمين اليوم بهذا النقل الذي نقلوه وطرحوه كأنه عقيدة لا شية فيها ولا عيب عليها، وهي: أن حديث الآحاد لا تثبت به العقائد، قلت لهم: يرد عليهم شيئان لا خلاص لكم منهما:

الشيء الأول: هو أنكم لا تتبنون عقيدة من حديث مهما كان شأن هذا الحديث قوةً وصحةً حتى لو كان متواترًا، قالوا: كيف ذاك؟ قلت: وهذه حقيقة

يعرفها كل طلاب العلم المبتدئين في علم الحديث: أن كون الحديث أو كون حديث ما متواترًا فإنما ذلك أمر نسبي، أي: هو متواتر بالنسبة لمن تتبع طرق الحديث فحصل القناعة في القلب أن هذا حديث متواتر يستحيل أن يكون كذبًا، لكن هل كل حافظ ولا أقول: كل مسلم، هل كل حافظ ضروري أو لزامًا عليه أن يكون حديث ما ثبت عند حافظ ما بأنه متواتر لزام على الحافظ الآخر أن يكون أيضًا عنده متواترًا؟ ليس الأمر بواجب، واضح هذا.

ومعلوم في تعريف الحديث المتواتر: أنه يشترط في تواتره أن يستمر التواتر من الطبقة الأولى إلى الثانية إلى أن تصل إلى الذي يقول: بأنه حديث متواتر، ماشي هذا الكلام؟ فإذا انقطع التواتر في طبقة ما هل يظل الحديث متواترًا؟ الجواب: لا، أنا أقول الآن: الإمام البخاري قال في حديث ما: إنه متواتر وهنا ناهية الدقة في الموضوع، هل هو عندي أنا متواتر؟ الإمام البخاري حكم على حديث ما بأنه متواتر هل هو عندي متواتر؟ هذا سؤال امتحان؟

مداخلة: ليس بالضرورة.

الشيخ: ليس بالضرورة، يحتمل؟

مداخلة: يحتمل أن يكون وألا يكون. .

مداخلة: لا يحتمل.

مداخلة: يحتمل أن يكون عندك متواترًا ويحتمل ألا يكون.

الشيخ: لا، إذًا: جوابك صحيح وجوابه صحيح، لكن لربط أحدهما بالآخر أقول: إذا قال الإمام البخاري في حديث ما: إنه حديث متواتر، وأنا لم أقف على هذا الحديث إلا من طريق واحدة، هل يكون عندي والحالة هذه متواترًا؟

مداخلة: لا يكون.

الشيخ: فيها شك هذه؟

مداخلة: لا.

الشيخ: هنا لا يرد الاحتمال السابق، لكن أنا بسبب نظرتك إلى أنني ممكن أن يكون أنا بحثت ما وجدت هذا التواتر كلامك صحيح، لكن في الصورة التي عرضتها آنفًا فجوابه صحيح، الآن عند من ليس عنده خبر الحديث إطلاقًا وقال البخاري فيه إنه متواتر، فبالأولى ألا يكون عنده متواترًا.

قلنا لذلك الحزب: افترضوا أن رئيسكم هو علامة الزمان في الحديث أو بخاري الحديث، قال لكم: الحديث الفلاني هو متواتر، أأصبح عندكم متواترًا؟ الجواب: لا، فانقطعت السلسلة، متى يصبح عندكم متواترًا؟ إذا كان عندكم أئمة في الحديث عشرة عشرين على حسب اختلافهم في عدد التواتر، ثم اتصلتم أنتم مع هذا العدد حينذاك يعود الحديث بالنسبة إليكم متواترًا، وما دام أن الواقع خلاف ذلك، والفرضية أن رئيسكم هو الذي حكم على هذا الحديث بالتواتر، حينئذٍ هذا الحديث يصبح عندكم آحادًا؛ ذلك لأن الذي نقل إليكم خبر تواتر الحديث عنده هو فرد، وعلى هذا قلت لهم: إنكم لا تتبنون عقيدة من حديث صحيح، واضح هذا؟ هذه النقطة الأولى. . .

النقطة الثانية: وهي التي اقتضاها البحث السابق أن نقول: كل حديث يحمل حكمًا فهو ينطوي تحته على عقيدة، وإذا فصلت العقيدة عن هذا الحكم أذهبت قيمة هذا الحكم من الناحية الشرعية، واضح هذا أيضًا؟ بمعنى: إذا جاءك أمر من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- مؤكد بأنه على الوجوب أو على الاستحباب، أو جاءك نهي مؤكد أنه للتحريم أو للتنزيه، ذاك الأمر أو هذا النهي إذا فصلت عنها اعتقادك من أن الأمر يفيد الوجوب أو الاستحباب، إذا فصلت

اعتقادك عن هذا لم يبق للحكم أثر ما في نفسك، فكذلك بالنسبة للنواهي، واضح هذا أيضًا؟.

إذًا: نستنتج مما سبق أن الحكم لو كان التفصيل السابق الذي ذهب إليه بعض علماء الكلام قديمًا وتبناه بعض المعاصرين حديثًا، لو كان هذا التفريق له وجاهة بين العقائد وبين الأحكام لكان وضعه في الأحكام أولى من العقيدة؛ لأن الحكم قلنا وهذا واضح جدًا يحمل عقيدة فإذا رفعنا العقيدة منه لم يبق له أي تأثير.

إذا عرفنا هذا كله رجعنا إلى سؤالك في الحديث الحسن، فالحديث الحسن إما أن يقال: يثبت به حكم شرعي أو لا يثبت، فإذا كان من المعروف عند جماهير العلماء أنه يثبت فإذًا هو تضمن عقيدة فلا بد من الأخذ به؛ لأنه حكم ولا يضرنا بعد ذلك أن فيه عقيدة؛ لأن هذا أمر شبه متفق عليه في الحديث الحسن، أما الحديث الصحيح فما في إشكال أنه يجب العمل به في الأحكام، وإذا عرفنا ما سبق من البيان فالعمل بالحديث الحسن يتضمن حكمًا ومعنى هذا: أنه إذا جاء خبر لا يتضمن حكمًا لكن يتضمن عقيدة ولكن إسناده حسن وجب الأخذ به كما وجب الأخذ به في الحكم؛ لأنه حكم زائد عقيدة.

ومما يتفرع من هذا الكلام هو في اعتقادي شيء هام؛ لأنه لا يوجد مسطورًا فيما علمت، ما قلته أيضًا لأولئك الحزبيين: هأنتم تفرقون عمليًا بين حديث الآحاد في العقيدة وحديث الآحاد في الأحكام، فماذا تفعلون إذا جاء حديث يحمل في طواياه عقيدة من جهة، وحكمًا من جهة؟ ولو أنه عندنا كما بينا لا فرق بين حديث فيه حكم أو حديث فيه عقيدة، فمن كان فيه حكم أو من كان فيه حكم ففيه عقيدة، لكن حسب فلسفتهم الخاصة قلت لهم: ما موقفكم؟ حاروا

في السؤال فطلبوا المثال، قلت لهم مثلًا: قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح في البخاري وغيره: «إذا جلس أحدكم في التشهد الأخير فليستعذ بالله من أربع: يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر. . » وبقية الحديث معروف، هم أعرفهم لا يؤمنون بعذاب القبر؛ لأنهم بزعمهم عذاب القبر أحاديثه لم تبلغ مبلغ التواتر.

إذًا: لا يجوز الاعتقاد به، قلنا لهم: الآن أمركم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بغض النظر الأمر للوجوب أو الاستحباب، أمركم رسول الله أن تستعيذوا من أربع منها: عذاب القبر فإن قلتم: هذا حديث أحكام يجب الأخذ به ناقضتم قوله: هذا حديث آحاد لا يجوز الأخذ به في العقيدة؛ لأن عذاب القبر عقيدة، فماذا تفعلون؟ أتأتمرون بأمره عليه السلام كحكم شرعي أم ترجعون إلى فلسفتكم أن العقيدة لا تثبت بحديث آحاد وهذا حديث آحاد فلا نأخذ به؟ سواء قلتم هذا أو قلتم هذا خالفتم عقيدتكم، نحن لا نقول: خالفتم الشرع، هم مخالفون للشرع، لكن

خالفوا عقيدتهم بسبب تفريقهم بين حديث الآحاد في الأحكام وحديث الآحاد في العقيدة.

هذا ما عندنا حول هذه المسألة الطريفة.

مداخلة: سأل الأخ عن الحسن لغيره، كذلك ما ذكرته هو ينطبق. .

الشيخ: هو كذلك.

(باب دور العقل عند أهل السنة)

العقل مصدر من مصادر المعرفة الدينية، إلا أنه ليس مصدرا مستقلا؛ بل يحتاج إلى تنبيه الشرع، وإرشاده إلى الأدلة؛ لأن الاعتماد على محض العقل،

سبيل للتفرق والتنازع[١]، فالعقل لن يهتدي إلا بالوحي، والوحي لا يلغي العقل.

وقد رفع الوحي من قيمة العقل وحث على التعقل، وأثنى على العقلاء، قال تعالى: فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب [الزمر: ١٧ - ١٨].

والنصوص الشرعية قد جاءت متضمنة الأدلة العقلية صافية من كل كدر، فما على العقل إلا فهمها وإدراكها، فمن ذلك: قوله تعالى: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون [الأنبياء: ٢٢].

وقال سبحانه: أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون [الطور:٣٥]. وقال جل وعلا: ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا [سورة النساء: ٨٢]. وخوض العقل في أمور الإلهيات باستقلال عن الوحي مظنة الهلاك وسبيل الضلال.

يقول ابن رشد الفيلسوف -وهو ممن خاض بالعقل في مسائل الاعتقاد وطالت تجربته-: لم يقل أحد من الناس في العلوم الإلهية قولا يعتد به، وليس يعصم أحد من الخطأ إلا من عصمه الله تعالى بأمر إلهي خارج عن طبيعة الإنسان، وهم الأنبياء[٢]. والمقارنة بين طريقة الوحي وطرق الفلاسفة والمتكلمين في بحث أمور العقيدة هي مقارنة بين الصواب والخطأ، والصحيح والفاسد، والنافع والضار.

يقول الرازي - بعد طول بحث -: ولقد اختبرت الطرق الكلامية،

(١) إيثار الحق على الخلق لابن الوزير (ص ١٣).
(٢) تهافت التهافت لابن رشد (٢/ ٥٤٧).

والمناهج الفلسفية، فما رأيت فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن. وقال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. . ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[١].

فميزان صحة المعقولات هي الموافقة للكتاب والسنة. قال في (الحجة): وأما أهل الحق فجعلوا الكتاب والسنة أمامهم، وطلبوا الدين من قبلهما، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم عرضوه على الكتاب والسنة، فإن وجدوه موافقا لهما قبلوه، وشكروا الله حيث أراهم ذلك ووفقهم عليه، وإن وجدوه مخالفا لهم تركوا ما وقع لهم، وأقبلوا على الكتاب والسنة، ورجعوا بالتهمة على أنفسهم[٢]. والعقل قد يهتدي بنفسه إلى مسائل الاعتقاد الكبار على سبيل الإجمال، كإثبات وجود الله مع ثبوت ذلك في الفطرة أولا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: واعلم أن عامة مسائل أصول الدين الكبار مما يعلم بالعقل[٣]. أما مسائل العقيدة التفصيلية مما يتعلق بذات الله تعالى وصفاته ورسوله وأنبيائه، وما يجب لهم وما يستحيل، فما كانت العقول لتدركها لولا مجيء الوحي.

قال أبو القاسم إسماعيل الأصبهاني: ولأن العقل لا مجال له في إدراك الدين بكماله، وبالعلم يدرك بكماله[٤] ويقصد بالعلم الوحي.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تحسبن أن العقول لو تركت وعلومها التي

---

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز (١/ ٢٤٤).
(٢) الحجة في بيان المحجة لأبي القاسم إسماعيل الأصبهاني (٢/ ٢٢٤).
(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/ ٢٢٩ - ٢٣٠).
(٤) الحجة في بيان المحجة لأبي القاسم إسماعيل الأصبهاني (٢/ ٥٠٤).

تستفيدها بمجرد النظر، عرفت الله معرفة مفصلة بصفاته وأسمائه على وجه اليقين[١].

وقال اللالكائي رَحِمَهُ اللَّهُ: سياق ما يدل من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وما روي عن رسول الله ﷺ، على أن وجوب معرفة الله تعالى وصفاته بالسمع لا بالعقل، قال الله تعالى يخاطب نبيه ﷺ بلفظ خاص والمراد به العام: فاعلم أنه لا إله إلا الله [محمد: ١٩]، وقال تبارك وتعالى: وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون [الأنبياء: ٢٥]، فأخبر الله نبيه ﷺ في هذه الآية أن بالسمع والوحي عرف الأنبياء قبله التوحيد. . .

وكذلك وجوب معرفة الرسل بالسمع، قال الله تبارك وتعالى: قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون [الأعراف: ١٥٨]. . فدل على أن معرفة الله والرسل بالسمع كما أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة[٢].

ثم إن كثيرا من مسائل الاعتقاد بعد معرفتها والعلم بها لا تدرك العقول حقيقتها وكيفيتها، وذلك كصفات الله تعالى وأفعاله، وحقائق ما ورد من أمور اليوم الآخر من الغيبيات التي لا يحيلها أو يردها العقل، ولا يوجبها أو يطلبها.

(ولهذا ضرب الله تعالى الأمثال في القرآن الكريم لتقرير مسائل الغيب، تنبيها للعقول على إمكان وجودها، فاستدل على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، وعلى خلق الإنسان بخلق السماوات والأرض وهي أعظم وأبلغ في القدرة،

---

(١) الصارم المسلول لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٤٥٩).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢/ ١٩٣- ١٩٦).

وعلى البعث بعد الموت بإحياء الأرض الميتة بعد إنزال الماء عليها)[(١)].

قال السفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ: لو كانت العقول مستقلة بمعرفة الحق وأحكامه، لكانت الحجة قائمة على الناس قبل بعث الرسل وإنزال الكتب، واللازم باطل بالنص: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا [الإسراء: ١٥]، فكذا الملزوم[(٢)].

وأخيرا: فإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح؛ فالأول خلق الله تعالى والثاني أمره، ولا يتخالفان؛ لأن مصدرهما واحد وهو الحق سبحانه: ألا له الخلق والأمر [الأعراف: ٥٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وليس في الكتاب والسنة وإجماع الأمة شيء يخالف العقل الصريح؛ لأن ما خالف العقل الصريح باطل، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلا، فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة)[(٣)].

ولذا قال الإمام محمد بن شهاب الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: (من الله عَزَّ وَجَلَّ العلم، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم)[(٤)]، (وما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل، وهو أن العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد؛ بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامي يمكنه أن يصير عالما، ولا يمكن للعالم أن يصير نبيا رسولا[(٥)].

---

(١) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة لعثمان حسن (١/ ١٧٨).

(٢) لوامع الأنوار للسفاريني (١/ ١٠٥).

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٤٩٠).

(٤) السنة للخلال (٣/ ٥٧٩)، وفتح الباري لابن حجر (١٣/ ٥٠٤).

(٥) شرح الطحاوية لابن أبي العز (١/ ٢٣١)، وانظر علم العقيدة عند أهل السنة =

وقد سئل العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (١/ ٤٤٤): بعضهم يقولون: يجب معرفة الله بالعقل أولًا، وجعل علم الكلام طريقة لدراسة العقيدة؟

الشيخ: أي نعم، أيضًا نحن نقول: قولكم هذا لا بد له من دليل من كتاب الله ومن حديث رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، ولا سبيل لهم إلى ذلك البتة.

ثانيًا: لا شك أنه لا يمكن أن يخالفوا في أن العقول مختلفة كل الاختلاف، أي: عقول اليهود غير عقول النصارى، وعقول اليهود والنصارى غير عقول المسلمين، وعقول المسلمين الصالحين غير عقول المسلمين الطالحين، وعقول المسلمين الصالحين العلماء منهم غير عقول المسلمين الجاهلين منهم. . وهكذا، فهناك نسب كبيرة كثيرة جدًا متفاوتة، فأي عقل ينبغي أن يفهم به وأن يعرف به ربنا تبارك وتعالى، هذا كلام نستطيع أن نقول ما يخرج من إنسان عاقل على أي نوع قيل في هذا العقل. . مثلًا جاء مسلم كافر جاهل. . إلى آخره.

ثالثًا: ولعله يكون أخيرًا-: لو كان يكفي العقل في معرفة الله ﷻ ما هذا الاختلاف الشديد، كان إرسال الرسل من رب العالمين الحكيم العليم وإنزال الكتب عبثًا وسبحانه تعالى عما يشركون، ثم لم يكن هناك حاجة إلى مثل قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥)، فإذا كان العقل هو الذي ينبغي أن يحكم في معرفة الخالق، ونحن نرى العقول مختلفة أشد الاختلاف في معرفة الخالق، وفي ما يليق به وما ينبغي أن ينزه عنه، العقول

=

والجماعة (ص١٩٣).

مختلفة، فيا ترى: ما هو الدليل على إصابة عقل دون عقل إن لم نرجع في ذلك إلى كتاب الله وإلى حديث رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

والآن بدا لي شيء رابع، وأنا أقول أيضًا لعله أخيرًا: الشيء الرابع هذا هو: إذا كانت العقول مختلفة، فلا مجال لترجيح عقل على عقل، أو رأي على رأي، لكن الله ﷻ حينما أنزل الكتاب عصمة للناس وصفه بقوله تعالى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا} (النساء:٨٢)، فنحن إذًا نجد هذا الاختلاف الكثير فيما إذا رجعنا إلى العقول، هذا الاختلاف الكثير لن يجمع المسلمين إلا على الخطأ الذي يزعم أنه الخطأ المجمع عليه خير من الصواب المختلف فيه، فسوف لا يجمعهم على خطأ ولا على صواب؛ لأنه ليس فيه برهان من الله تبارك وتعالى؛ لأن المرجع هو العقل، والعقل هذا مضطرب ومختلف، لكن الله ﷻ حينما أحالنا حين تنازعنا واختلفنا إلى مثل قوله ﷻ: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ} (النساء:٥٩)، أحالنا إلى مرجع لا اضطراب فيه كما سمعنا آنفًا من قوله تعالى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا} (النساء:٨٢)، فالرجوع إلى العقل رجوع إلى أمر مضطرب لا ضابط له، والواقع يؤكد ذلك؛ لأن هذه الفرق الإسلامية ما ضلت إلا بسبب تحكيمها لعقولها وإعراضها عن كتاب ربها وسنة نبيها -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في المصدر السابق (١/ ٤٤٨): ليضم المسلم الناصح لنفسه في عقيدته أنه يجب الرجوع إلى الكتاب والسنة وإلى سبيل المؤمنين بدلالة الآية وحديث الفرق وحديث العرباض بن سارية.

هذه حقيقة مع الأسف الشديد يغفل عنها كل الأحزاب الإسلامية وبخاصة

منها حزب التحرير الذي يتميز عن أي حزب إسلامي آخر أنه يقيم للعقل البشري وزنًا أكثر مما أقامه الإسلام له، نحن نعلم يقينًا أن الله ﷻ حينما يكلم الناس بكلامه إنما يخاطب العقلاء، ويخاطب العلماء، ويخاطب الذين يتفكرون، ولكننا نعلم أن العقل البشري مختلف، فالعقل عقلان: عقل مسلم وعقل كافر.

هذا العقل الكافر ليس عقلًا، فقد يكون ذكاء ولكن لا يكون عقلًا، لأن العقل في أصل اللغة العربية هو الذي يعقل صاحبه، ويربطه ويقيده أن ينفلت يمينا وشمالا، ولا يمكن العقل ألا ينفلت يمينا وشمالا إلا إذا اتبع كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ ولذلك حكى الله ﷻ عن الكفار والمشركين حينما يعترفون بحقيقة أمرهم: أنهم حينما كانوا كما قال الله ﷻ في القرآن الكريم: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} (الروم:٧).

يعترفون أنهم حينما كانوا عارفين بأمور الدنيا أنهم لم يكونوا عقلاء، ذلك هو قولهم فيما حكاه ربنا عنهم: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك:١٠). إذن هناك عقلان: عقل حقيقي وعقل مجازي.

العقل الحقيقي: هو العقل المسلم الذي آمن بالله ورسوله، أما العقل المجازي: فهو عقل الكفار؛ لذلك قال تعالى في القرآن كما سمعتم آنفا عنهم: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك:١٠).

وقال بصورة عامة عن الكفار: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا} (الأعراف: ١٧٩).

فإذن هم لهم قلوب، ولكنهم لا يعقلون بها، لا يفهمون بها الحق.

إذا عرفنا هذه الحقيقة وهي حقيقة ما أظن أنه يختلف فيها اثنان، وينتطح فيها عنزان؛ لأنها صريحة في القرآن وفي أحاديث الرسول عليه السلام لكنني أريد أن أتوصل من هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى التي هي نقطة البحث في هذه اللحظة مني.

إذا كان عقل الكافر ليس عقلا، فعقل المسلم ينقسم أيضا إلى قسمين: عقل عالم وعقل جاهل.

فالعقل المسلم الجاهل لا يمكن أن يكون مساويًا في عقله وفي فهمه لعقل العالم، لا يستويان مثلا أبدًا.

لذلك قال تعالى: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} (العنكبوت:٤٣).

إذن لا يجوز للمسلم الحق المؤمن بالله ورسوله حقًا أن يحكم عقله، وإنما يخضع عقله لما قال الله وقال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

من هنا نضع نقطة في دعوة حزب التحرير: أنهم تأثروا بالمعتزلة في منطلقهم في طريق الإيمان، وطريق الإيمان هو عنوان لهم في بعض كتبهم التي ألفها رئيسهم: تقي الدين النبهاني رحمه الله وأنا لقيته أكثر من مرة وأنا عارف به تمامًا، وعارف بما عليه حزب التحرير كأحسن ما تكون المعرفة؛ ولذلك فأنا أتكلم إن شاء الله عن علم بما عليه تقوم دعوتهم، فهذا أول نقطة تؤخذ عليهم: أنهم جعلوا للعقل مزية أكثر مما ينبغي.

أُكرر على مسامعكن ما قلته آنفًا؛ أنا لا أنفي أن العقل له قيمته لما سبق ذكره، لكن ليس للعقل أن يحكم على الكتاب والسنة وإنما العقل يخضع لحكم الكتاب والسنة وما عليه إلا أن يفهم ما جاء في الكتاب وفي السنة.

من هنا انحرف المعتزلة قديما؛ فأنكروا حقائق شرعية كثيرة، وكثيرة جدا؛

بسبب أنهم سلطوا عقولهم على نصوص الكتاب السنة فحرفوها، وبدلوا فيها وغيروا، وبتعبير علماء السلف: عطلوا نصوص الكتاب والسنة.

هذه النقطة أريد أن ألفت نظركن إليها وهي: أنه ينبغي إخضاع العقل المسلم لنص الكتاب والسنة بعد فهم الكتاب والسنة. من هنا انحرف المعتزلة قديما، فأنكروا حقائق شرعية كثيرة، وكثيرة جدا؛ بسبب أنهم سلطوا عقولهم على نصوص الكتاب والسنة فحرفوها، وبدلوا فيها وغيروا، وبتعبير علماء السلف: عطلوا نصوص الكتاب السنة.

هذه نقطة أريد أن ألفت نظركن إليها وهي: أنه ينبغي إخضاع العقل المسلم لنص الكتاب والسنة بعد فهم الكتاب السنة. فالحكم هو الله ورسول الله، وليس الحاكم عقل البشر لما ذكرنا: أن عقل البشر يختلف من عقل مسلم وعقل كافر، ثم عقل المسلم يختلف من عقل مسلم جاهل ومن عقل مسلم عاقل، فليس فهم المسلم العالم كفهم المسلم الجاهل، لذلك قال تعالى، ولا بأس من التكرار؛ لأنني أعلم أن هذا الموضوع قليلا ما يطرق مسامع الملايين المملينة من المسلمين، من الرجال فضلًا عن المخدرات من النساء، ولذلك فأنا مضطر إلى أن أكرر هذه النقاط وهذه الأدلة {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ} (العنكبوت:٤٣).

هنا نحن نقف قليلًا: من هم العالمون؟ أهم العلماء الكفار؟ لا. لا نقيم لهم وزنًا؛ لما ذكرناه آنفًا أنهم ليسوا عقلاء، والحقيقة أنهم أذكياء لأنهم اخترعوا وابتدعوا وو. . إلخ. ، وارتقوا في الحضارة المادية المعروفة لدى الجميع.

كذلك عقل المسلمين، هذا العقل في كل أفرادهم ليس سواء، فلا يستوي عقل العالم مع عقل الجاهل، وسأقول شيئًا آخر: لا يستوي عقل العالم العامل

بعلمه مع عقل العالم اللا عامل بعلمه، لا يستوون مثلا إطلاقًا.

لذلك فانحرفت المعتزلة في كثير من الأصول التي وضعوها مخالفين فيها طريقة الشرع: كتابا وسنة ومنهج السلف الصالح.

(تنبيه): إن الإسلام كرم العقل وجعله أكبر المعاني قدرًا وأعظم الحواس نفعًا فإن به يتميز من البهيمة ويعرف حقائق المعلومات ويهتدي إلى مصالحه ويتقي ما يضره ويدخل به في التكليف وهو شرط في ثبوت الولايات وصحة التصرفات وأداء العبادات،

ولكن الإسلام بعد هذا التكريم كله وذلك الاهتمام قد حدد للعقل مجالاته التي يخوض فيها حتى لا يضل، وفي هذا تكريم له أيضًا لأنه محدود الطاقات والملكات فلا يستطيع أن يدرك كل الحقائق مهما أوتي من قدرة وطاقة على الاستيعاب والإدراك، لذا فإنه سيظل بعيدًا عن متناول كثير من الحقائق وإذا ما حاول الخوض فيها التبست عليه الأمور وتخبط في الظلمات وفي هذا مدعاة لوقوعه في كثير من الأخطاء وركوبة متن العديد من الأخطار.

فأمر الإسلام العقل بالاستسلام والامتثال للأمر الشرعي الصريح حتى ولو لم يدرك الحكمة، وقد كانت أول معصية لله ارتكبت بسبب عدم هذا الامتثال فحينما أمر الله سبحانه وتعالى إبليس بالسجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ استكبر وعصى واستبد برأيه فقارن بين خلقه وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ (قال أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين) فلم يمتثل للأمر طلبًا للسبب الذي يسجد لأجله الفاضل للمفضول حسب رأيه، فلما لم يدرك عقله السبب رفض الامتثال فكانت المعصية وكانت العقوبة.

لذا منع الإسلام العقل من الخوض فيما لا يدركه ولا يكون في متناول

إدراكه كالذات الإلهية والأرواح في ماهيتها ونحو ذلك فقال عليه الصلاة والسلام (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله)، وقال ﷺ (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل آمنت بالله ورسله)، وعن الروح قال تعالى: (يسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) فصرف الجواب عن ماهيتها لأنه ليس من شؤون العقل السؤال عنها ولا من مداركه وكذلك الجنة ونعيمها والنار وجحيمها وكيفية ذلك وغيرها من المغيبات التي ليست في متناول العقل ومداركه).

ويقول الشيخ ناصر العقل -حفظه الله-: قيمة العقل في الإسلام: قد يتبادر لأذهان البعض، عند ما يقرأ مثل هذا البحث، في ذم الاتجاهات العقلية - أن الإسلام، يمقت العقل والفكر، أو يستنقص منهما ويهضمهما قيمتهما، وأننا إنما نذم أصحاب الاتجاهات والفرق العقلية لمجرد أنهم استعملوا عقولهم، التي وهبهم الله.

والحق: أن الأمر ليس كذلك، لأن الإسلام بحق قد رفع قيمة العقل وأعلى من شأنه، وجعل التعقل والتفكير فريضة إسلامية، يلزم كل مسلم أن يؤديها حقها، وجعل العقل هو مناط التكليف، ونعى على أولئك الذي لم يستعملوا عقولهم في معرفة الحق والهداية، فهلكوا. (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقًا لأصحاب السعير).

وإذا كان العقل هو وسيلة النظر، ووسيلة التفكير والتدبر، فقد جعل الله ذلك كله واجبًا، مفروضًا على كل إنسان ومن تركه فهو آثم لا محالة قال تعالى: (فسيروا في الأرض فانظروا)، وقد وردت في مواضع كثيرة.

وقال تعالى في ذم الذين لا يعقلون: (وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف

الليل والنهار أفلا تعقلون).

وقد ورد هذا التوبيخ (أفلا تعقلون) في القرآن أكثر من أربع عشرة مرة.

وقال تعالى: (إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون)، وقد وردت في القرآن (لعلكم تعقلون) أكثر من سبع مرات، وقال تعالى: (ولقد أضل منكم جبلًا كثيرًا أفلم تكونوا تعقلون)، وقال تعالى: (كذلك نفصل الآيات لقومٍ يعقلون)، وإذا كان العقل وسيلة النظر والاعتبار فقد قال تعالى: (فاعتبروا يا أولي الأبصار)، وقال تعالى (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض)، وكذلك الأمر بالتفكر، قال تعالى: (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون)، (قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون)، (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جِنّة)، (أولم يتفكروا في أنفسهم).

وقد ذكر التفكر في القرآن في أكثر من سبعة عشر موضعًا، وقد ذم الله أولئك الذين يتابعون آباءهم دون تعقل ولا تفكير فقال (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون)،

وقال تعالى (إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يُهرعون).

والإسلام إنما كرّم الإنسان وفضله على سائر المخلوقات بل جعله سيد الكون بالعقل، وبالعقل سخّر له ما في السماوات وما في الأرض وجعله خليفة فيها يعمرها، فهل يبقى بعد ذلك شك عند أحد في أن الإسلام يحترم العقل ويقدره كل التقدير؟ ثم إن الإسلام عندما حظر على العقل التفكر في ذات الله تعالى، والخوض في أمور الغيب، وألزمه بالتسليم والتوقف عند كل ما ورد عن الله تعالى ورسوله ﷺ، مما يتعلق بذات الله وأسمائه وصفاته، وما يتعلق بالغيب كله- إنما فعل ذلك إشفاقًا على هذا العقل الكريم من العماية في متاهات

المجهول.

ثم إن الإسلام في الوقت نفسه فتح للعقل البشري مجالات الانطلاق الواسع في حدود الواقع في حياته هو والمخلوقات من حوله، بل وفي الأرض كلها والسماء، وهذا الكون الرحب الواسع الفسيح، فللعقل البشري أن يبدع، وأن ينظر ويحكم، وأن يتفكر ويعتبر ما وسعه الإبداع والنظر والتفكر والاعتبار، عليه أن يفعل ذلك كله، وله مع ذلك عليه الأجر والمثوبة إذا هو امتثل أمر الله.

أما الغيب والتفكر في ذات الله، بأكثر مما ورد عن الله، فإنه ليس بمقدور العقل، وليس من وظيفته أن يفعل ذلك، وإن فعل ذلك خرج عن نطاق الواجب عليه، ولن يعود عليه فعله إلا بالحرج والعنت العقلي والنفسي، والخروج عن نطاق مصلحة الإنسان في معاشه ومعاده.

والعقلية الحديثة، هي التي دعت أتباعها إلى الخوص في أمور الغيب ومعارضة أمر الله، ولم تسلّم بما جاء عن الله تعالى، مما هو خارج عن نطاق العقل، وأقحمته فيما لا طاقة له به، ونحن نذمها من هذا الوجه.

فإن مُقْتَضى الإيمان بالغيب:- التسليم لله فيه، بما ورد في كتابه وسنة رسوله ﷺ.

والإنسان في هذا العصر أكثر العصور تقدمًا في الكشوف والاختراعات- أعلن عجزه وقصوره عن إدراك أكثر حقائق الكون وكُنْهِ طاقاته، حتى تلك الأشياء التي يمارسها ويعيشها ويوميًا، إن العقل يجهل نفسه، ويجهل الروح التي تُمدّه بالحياة بأمر الله (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)، (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا).

فإكرامًا لهذا الإنسان، وإشفاقًا عليه، وعلى عقله المحدود، من التشرد

والتبدد والتيه، وإشفاقًا عليه بعد ذلك من الضلال والهلاك، وسوء العاقبة، أراحه الله من الخوض في الغيب بعقله؛ فجاءه الوحي يخبره عما فيه صلاحه من أصول العقيدة السليمة، ومسائل الغيب، ورسم له سبيل الخير والسعادة في الدنيا، وأطلق لعقله فيما عدا ذلك الحرية كل الحرية.

فقد فتح الإسلام للعقل من مجالات البحث والفكر والتأمل والنظر في ملكوت السماء والأرض، ما يكفي لانشغال العقل، وإشباع رغبة التطلع والإنتاج المفطورة فيه.

ويقول الشيخ عبد الرحمن الزنيدي – حفظه الله –: «لعل من أبرز السمات التي امتاز بها الدين الإسلامي عن سائر المذاهب والأديان الأخرى، هو ذلك المقام السامي الذي وضع الإسلام العقل الإنساني فيه والدور الجليل الذي أناطه به، والآفاق الواسعة التي فتحها أمامه، بشكل لم تصل المذاهب البشرية إليه حتى تلك المذاهب التي تنادي بأنها حررت العقل البشري، وأطلقته من آساره، واحتكمت إليه، هي في الحقيقة التي سخرت منه، واستهانت به، فمن جانب دفعته إلى الإيغال في مجالات ليست من اختصاصه فتاه فيها وضل.

ومن جانب آخر تجد هذه المجتمعات العلمانية – التي تدعى أنها تحكم العقل في أمورها– قد نبذته وراءها ظهريًا، فأحكامه وتقريراته في جانب وواقعها في جانب آخر، فالعقل يحكم بأن الخمر والزنا ضار ومفسد للجنس البشري والواقع يبيحها، بل ويحببها، والعقل يقول إن المرأة تختلف عن الرجل والواقع يقول يجب أن نجعلها كالرجل تمامًا. . . ، فأي إهانة للعقل بعد هذا، ونعود لنقول إن أبعاد تلك المنزلة التي جعلها الإسلام للعقل تتلخص فيما يأتي:

تعظيم الإسلام لعمل العقل في سبيل الوصول إلى الحقائق بطرق شتى منها:

الثناء على أصحاب العقل الذين يستعملونه في الحكم على الأشياء والتعامل معها: فالله سبحانه يخاطب أصحاب العقول حينما يذكر أحكامه؛ لأنهم هم الذين يفهمون أنها أحكام عدل وحق: (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون).

وكذلك حينما يأمر بشيء فإنه يخصهم بالخطاب لأنهم يسارعون إلى امتثال أمر الله، والنهوض به، يقول سبحانه (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب)، فقد خص أولي الألباب بعد حث جميع العباد على التقوى.

ومدحهم بأنهم هم الذين يتذكرون موجبات الهدى، ودلائله، وينتفعون بها خلاف اللاهين الغافلين، يقول سبحانه (وما يذكر إلا أولوا الألباب)، وأثنى عليهم بأنهم هم الذين يعتبرون بقصص التاريخ وحوادث الحياة فيتخذون منها عبرة (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)، وقال سبحانه بعد قصة لوط وقومه (ولقد تركنا منها آية لقوم يعقلون).

(باب كل مولود يولد على الفطرة)

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: {فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم} [الروم: ٣٠])[1].

الفطرة هي خلق الخليقة على قبول الإسلام والتهيؤ للتوحيد، أو هي الإسلام والدين القيم.

قال تعالى: فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، مسلم (٢٦٥٨).

تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون [الروم: ٣٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره[١].

قال شيخ الإسلام: فالحنفية من موجبات الفطرة ومقتضياتها، والحب لله، والخضوع له، والإخلاص له هو أصل أعمال الحنيفية[٢].

وقوله تعالى: لا تبديل لخلق الله معناه: أن الله ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة.

وفي الحديث الصحيح: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء؟)[٣].

فمعنى خلق المولود على الفطرة هو: أن الطفل خلق سليما من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه[٤]، والفطرة قبول الإسلام، فهي كالأرض الخصبة القابلة، والوحي كالغيث النازل من السماء، ما إن ينزل عليها حتى تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج.

والفطرة السوية تقبل الإسلام وتهتدي إلى وجود الخالق بما أودع الله الخلائق من قوانين كلية، تظهر آثارها في الطفل الناشئ الذي لم يتعلم أو يتكلم، فهو يدرك أن الحادث لابد له من محدث، وأن الجزء دون الكل، وأنه يستحيل الجمع بين المتناقضين، وهذا من أوائل العقل وبواكيره، وقلوب بني آدم

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٤٣٣).

(٢) درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ٤٥١).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨). من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. واللفظ للبخاري.

(٤) مجموعة الرسائل الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٣٣٣ - ٣٣٤).

مفطورة على قبول الإسلام وإدراك الحق، ولولا هذا الاستعداد ما أفاد النظر ولا البرهان، شأنها في ذلك شأن الأبدان، فطرها الله تعالى قابلة للانتفاع والاغتذاء بالطعام والشراب، ولولا هذا الاستعداد لما حصل انتفاع.

والفطرة السوية تهدي العبد إلى أصول التوحيد والإيمان، وجمهرة أهل العلم من أهل السنة وغيرهم على فطرية الإيمان، وليس يحتاج العبد لتحصيله من أصله إلى استدلال أو برهان، فضلا عن أن يشك ويخرج من ثوب اليقين والإذعان، (والقلوب مفطورة على الإقرار به سبحانه أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل: أفي الله شك فاطر السماوات والأرض [إبراهيم: ١٠][١].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإقرار والاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس، وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة[٢].

ويقول: إن أصل العلم الإلهي فطري ضروري، وإنه أشد رسوخا في النفوس من مبدأ العلم الرياضي، كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين، ومبدأ العلم الطبيعي كقولنا: إن الجسم لا يكون في مكانين؛ لأن هذه المعارف أسماء قد تعرض عنها أكثر الفطر، وأما العلم الإلهي فما يتصور أن تعرض عنه فطرة[٣].

والفطرة تدل على اتصاف الخالق بالصفات العلى والكمال المطلق، فهي تدرك أن من يخلق لا يكون كمن لا يخلق، قال تعالى: أفمن يخلق كمن لا

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ٣٨).
(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٦/ ٣٢٨).
(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ١٥ – ١٦).

يخلق أفلا تذكرون [النحل: ١٧].

فالخالق لهذا الكون لا يستوي مع غيره، في صفاته وأفعاله وذاته، فهي تدرك علو الصفات، كما تدرك علو الذات، فإنه ما قال عارف مؤمن قط: يا الله، إلا وجد في نفسه ضرورة بطلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، لا يجادل في ذلك مجادل.

والفطرة وإن غشيتها غاشية الإلحاد؛ تهتدي إلى تفرده تعالى بالألوهية يظهر ذلك في أوقات الشدة والمحنة، فإن القلب يفزع إلى خالقه، ويلجأ إلى بارئه عند حلول الحوادث العظام والخطوب الجسام، قال تعالى: وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه [الإسراء: ٦٧].

"والإسلام بعقائده وأحكامه موافق للفطرة لا يعارضها؛ بل كلما كانت العقائد والأحكام بعيدة عن الإسلام، كانت معارضة للفطرة الصحيحة مضادة لها، ففي الفطرة محبة العدل وإيثاره، وبغض الظلم والنفار منه، واستقباح إرادة الشر لذاته، لكن تفاصيل ذلك إنما تعلم من جهة الرسل، فالطفل عند أول تميزه إذا ضرب من خلفه التفت لعلمه أن تلك الضربة لابد لها من ضارب، فإذا شعر به بكى، حتى يقتص له منه، فيسكن ويهدأ، فهذا إقرار في الفطرة بالخالق، وهو التوحيد، وبالعدل الذي هو شرعة الرب تعالى)[1].

والعقل والفطرة وإن كانا من دلائل التوحيد، إلا أنه لا تقوم الحجة على بني آدم إلا بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وقطع العذر، قال تعالى: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا [الإسراء: ١٥]، فلا عذاب إلا بعد إرسال الرسل، وقطع العذر، وإقامة الحجة، وقالت المعتزلة في الآية: رسولا أي: العقل، وهو تحريف

---

(١) إيثار الحق على الخلق لابن الوزير (ص ٢٤٠).

للكلم عن مواضعه، بدلالة قول الله تعالى: وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم [الأنبياء: ٧].

وهو سبحانه ما أهلك من قبلنا من الأمم إلا بعد إرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم، قال تعالى: وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون [الشعراء: ٢٠٨]، وقال سبحانه: وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون [القصص: ٥٩].

فإن قيل: إذا كان وجود الله وتعظيمه مركوزا في الفطر، والعقول تستدل على ذلك، فعلام توقف التكليف على مجيء الرسول، وإنزال الكتاب؟

فيقال: إن إثبات كون الفطرة هي الإسلام، لا يقتضي خلق علم ضروري في نفس الإنسان، يجعله عالما بالعقيدة وأصولها، ونواقضها، قال تعالى: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا [النحل: ٧٨]. كما أن الله تعالى تكرما منه لا يعاقب قبل بلوغ الحجة الرسالية ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون [الأنعام: ١٣١]؛ بل تمتنع المؤاخذة حتى يبعث إليهم الرسول، ومن حكمة ذلك أن معرفة الله وإثبات وجوده المركوز في الفطر والعقول إجمالي لا تفصيلي، فالعقل لا يهتدي لكل كمالات الله تعالى، ولا يهتدي إلى كل ما يرضيه من الأقوال والأفعال، فلابد له من وحي يهديه ويرشده ويبين له معاقد الحل والحرمة في أفعال المكلفين، كما أن العقل والفطرة لا يدلان على عقوبة الآخرة لمن قصر في ذلك، فجاء الرسول ببيان ثواب التوحيد، وعقوبة الشرك في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكان الناس في لبس عظيم فجاءوا بالبيان فأظهروه

وكان الناس في جهل عظيم فجاءوا باليقين فأذهبوه

وكان الناس في كفر عظيم فجاءوا بالرشاد فأبطلوه

وأخيرا فإنه لا تعارض ولا تناقض -بحمد الله- بين فطر الخلائق على الإسلام وبين عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر؛ لأن الله تعالى (وإن خلقه مولودا سليما، فقد قدر عليه ما سيكون بعد ذلك من تغييره، وعلم ذلك)[1].

قال الأتيوبي في البحر المحيط الثجاج (٤١/ ٤٩١): (المسألة الرابعة): في اختلاف أهل العلم في معنى "الفطرة" المذكورة في هذا الحديث: اعلم: أنه قد اختلف السلف في المراد بها على أقوال كثيرة:

أحدهما: أن المراد: الخلقة، فإن الفطر بمعنى الخلق، والمراد: الخلقة المعروفة الأولى المخالفة لخلق البهائم؛ أي: على خلقة يعرف بها ربه، إذا بلغ مبلغ المعرفة، ذكره ابن عبد البر عن جماعة من أهل الفقه والنظر، قال: أنكروا أن يفطر المولود على كفر، أو إيمان، وإنما يعتقد ذلك بعد البلوغ إذا ميز، ولو فطر في أول أمره على شيء ما انتقل عنه، وقد نجدهم يؤمنون، ثم يكفرون، ومحال أن يعقل الطفل حال ولادته كفرا أو إيمانا، والله تعالى يقول: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا} [النحل: ٧٨]، فمن لا يعلم شيئا استحال منه الكفر والإيمان، قال ابن عبد البر: هذا القول أصح ما قيل في ذلك.

القول الثاني: أن المراد هنا: الإسلام، حكاه ابن عبد البر عن أبي هريرة، والزهري، وغيرهما، وقال هؤلاء: هذا هو المعروف عند عامة السلف، من أهل العلم بالتأويل، فقد أجمعوا في قول الله تعالى: {فطرت الله التي فطر الناس عليها} [الروم: ٣٠] أنها دين الإسلام، واحتجوا بقول أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في هذا

---

(١) علم العقيدة عند أهل السنة والجماعة (ص١٩٨).

الحديث: اقرءوا إن شئتم: {فطرت الله التي فطر الناس عليها}، واحتجوا بقوله في حديث عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين"، ثم رده ابن عبد البر بأن الإسلام مستحيل من الطفل، وقرر المازري ذلك بأن المراد بالفطرة: ما أخذ عليهم في صلب آدم يوم: {ألست بربكم}، وأن الولادة تقع عليها، حتى يقع التعبير بالأبوين، وقرره أبو العباس القرطبي بأن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما

خلق أعينهم، وأسماعهم قابلة للمرئيات، والمسموعات، فما دامت على ذلك القبول، وعلى تلك الأهلية، أدركت الحق، ودين الإسلام، وصحح هذا أبو العباس القرطبي بقوله في رواية مسلم: "على هذه الملة"، وهي إشارة إلى ملة الإسلام، قال: وقد جاء ذلك مصرحا به في "صحيح مسلم": "وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم. . . " الحديث.

وفي معنى ذلك قول النووي: الأصح أن معناه: أن كل مولود يولد متهيأ للإسلام، فمن كان أبواه، أو أحدهما مسلما استمر على الإسلام في أحكام الآخرة والدنيا، وإن كان أبواه كافرين جرى عليه حكمهما، فيتبعهما في أحكام الدنيا، وهذا معنى: "يهودانه، وينصرانه"؛ أي: يحكم له بحكمهما في الدنيا، فإن بلغ استمر عليه حكم الكفر، ودينهما، فإن سبقت له سعادة أسلم، وإلا مات على كفره. انتهى[(١)].

القول الثالث: أن المراد: البداءة التي ابتدأهم عليها؛ أي: على ما فطر الله عليه خلقه، من أنه ابتدأهم للحياة، والموت، والشقاء، والسعادة، قال محمد بن

---

(١) شرح النووي ١٦/ ٢٠٨.

نصر المروزي: وهذا المذهب سببه ما حكاه أبو عبيد، عن عبد الله بن المبارك، أنه سئل عن قول النبي ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة"، فقال: يفسره الحديث الآخر حين سئل عن أطفال المشركين، فقال: "الله أعلم بما كانوا عاملين"، قال: وقد كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول، ثم تركه، وقال ابنه عبد الله ما رسمه مالك في "الموطإ"، وذكره في أبواب القدر فيه من الآثار ما يدل على أن مذهبه في ذلك نحو هذا القول.

القول الرابع: أن معناه: أن الله تعالى قد فطرهم على الإنكار، والمعرفة، وعلى الكفر، والإيمان، فأخذ من ذرية آدم عليه السلام الميثاق حين خلقهم، فقال: {ألست بربكم} قالوا جميعا: {بلى}، فأما أهل السعادة، فقالوا: بلى على معرفة له طوعا من قلوبهم، وأما أهل الشقاوة، فقالوا: بلى كرها، لا طوعا، قال محمد بن نصر المروزي: وسمعت إسحاق بن راهويه يذهب إلى هذا المعنى، واحتج بقول أبي هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إن شئتم: {فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله} قال إسحاق: يقول: لا تبديل لخلقته التي جبل عليها ولد آدم كلهم؛ يعني: من الكفر والايمان، والمعرفة والإنكار، قال: واحتج له بقوله تعالى: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم} الآية، قال إسحاق: أجمع أهل العلم إنها الأرواح قبل

الأجساد، واحتج لهذا أيضا بحديث أبي بن كعب - رضي الله عنه عند مسلم- في قصة الغلام الذي قتله الخضر، وأنه طبع كافرا، وبحديث عائشة - رضي الله عنها -، وقوله ﷺ لها: "أو لا تدرين أن الله خلق الجنة، وخلق النار، فخلق لهذه أهلا، ولهذه أهلا؟".

قال إسحاق: فهذا الأصل الذي يعتمد عليه أهل العلم، قال ابن عبد البر: إن

أراد هؤلاء أن الله خلق الأطفال، وأخرجهم من بطون أمهاتهم ليعرف منهم العارف، ويعترف، فيؤمن، وينكر منهم المنكر، فيكفر، كما سبق له القضاء، وذلك في حين يصح منهم فيه الإيمان والكفر، فذلك ما قلنا، وإن أرادوا أن الطفل يولد عارفا مقرا مؤمنا وعارفا جاحدا كافرا في حين ولادته، فهذا يكذبه العيان والعقل، قال: وقول إسحاق في هذا الباب لا يرضاه الحذاق الفهماء من أهل السنة، وإنما هو قول المجبرة.

القول الخامس: أن معناه: ما أخذ الله من ذرية آدم من الميثاق قبل أن يخرجوا إلى الدنيا يوم استخرج ذرية آدم من ظهره، فخاطبهم: {ألست بربكم قالوا بلى} فأقروا له جميعا بالربوبية عن معرفة منهم به، ثم أخرجهم من أصلاب آبائهم، مخلوقين، مطبوعين على تلك المعرفة، وذلك الإقرار، قالوا: وليست تلك المعرفة بإيمان، ولا ذلك الإقرار بإيمان، ولكنه إقرار من الطبيعة للرب فطرة ألزمها قلوبهم، ثم أرسل إليهم الرسل، فدعوهم إلى الاعتراف له بالربوبية، فمنهم من أنكر بعد المعرفة؛ لأنه لم يكن الله ليدعو خلقه إلى الإيمان به، وهو لم يعرفهم نفسه، رواه أبو داود في "سننه" عن حماد بن سلمة أنه سئل عن هذا الحديث فقال: هذا عندنا حيث أخذ الله عليهم العهد في

أصلاب آبائهم، حين قال: {ألست بربكم قالوا بلى}.

القول السادس: أن المراد بالفطرة: ما يقلب الله قلوب الخلق إليه بما يريد، فقد يكفر العبد، ثم يؤمن، فيموت مؤمنا، وقد يؤمن، ثم يكفر، فيموت كافرا، وقد يكفر، ثم لا يزال على كفره، حتى يموت عليه، وقد يكون مؤمنا، حتى يموت على الإيمان، فالفطرة عند هؤلاء ما قدره الله على عباده من أول أحوالهم إليآخرها، سواء كانت حالة واحدة لا تنتقل، أو حالا بعد حال، قال ابن عبد البر:

وهذا وإن كان صحيحا في الأصل، فإنه أضعف الأقاويل من جهة اللغة في معنى الفطرة، حكاها كلها ابن عبد البر وغيره.

القول السابع: أن المراد بالفطرة: ملة أبيه؛ أي: دينه؛ بمعنى: أن له حكمه، حكاه القاضي عياض، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: سألت محمد بن الحسن عن هذا الحديث، فقال: كان هذا في أول الإسلام قبل أن تنزل الفرائض، وقبل الأمر بالجهاد، قال أبو عبيد: كأنه يعني: أنه لو كان يولد على الفطرة، ثم مات قبل أن يهوداه أبواه، أو ينصرانه، لم يرثهما، ولم يرثاه؛ لأنه مسلم، وهما كافران، ولما جاز أن يسبى، فلما فرضت الفرائض، وتقررت السنن على خلاف ذلك علم أنه يولد على دينهما. انتهى.

وهذا يوافق القول الثاني أن المراد بالفطرة: الإسلام لله، وجعله منسوخا لما ذكره، والحق أنه لا يحتاج فيه إلى دعوى النسخ؛ لأنه وإن كان معناه الولادة على الإسلام، فقد أخبر في بقيته أن أبويه يهودانه، وينصرانه؛ أي: يثبت له حكمهما بطريق التبعية، فالحكم بإسلامه هو الباطن، ويهوديته، أو نصرانيته هو في الظاهر.

وقال ابن عبد البر: أظن محمد بن الحسن حاد عن الجواب فيه لإشكاله

عليه، أو لجهله به، أو لكراهة الخوض في ذلك، قال: وقوله: إن ذلك كان قبل الأمر بالجهاد، فليس كما قال؛ لأن في حديث الأسود بن سريع ما يبين أن ذلك كان بعد الأمر بالجهاد، وهو حديث صحيح، ثم روى عن الأسود بن سريع قال: قال رسول الله ﷺ: "ما بال قوم بلغوا في القتل حتى قتلوا الولدان؟ " فقال رجل: أو ليس أبناؤهم أولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: "أو ليس خياركم أولاد المشركين؟ إنه ليس من مولود، إلا وهو يولد على الفطرة، فيعبر

عنه لسانه، ويهوده أبواه، أو ينصرانه"، ذكر هذا كله ولي الدين العراقي.

قال الجامع عفا الله عنه: عندي أرجح الأقوال هو القول الثاني، وهو أن المراد بالفطرة هو الإسلام، وقد تقدم أنه هو المعروف عند عامة السلف، وصححه النووي، والقرطبي، قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والأصح أن معنى قوله: "يولد على الفطرة" أن كل مولود يولد متهيئا للإسلام، فمن كان أبواه، أو أحدهما مسلما استمر على الإسلام في أحكام الآخرة والدنيا، وإن كان أبواه كافرين جرى عليه حكمهما في أحكام الدنيا، وهذا معنى: "يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه"؛ أي: يحكم له بحكمهما في الدنيا، فإن بلغ استمر عليه حكم الكفر ودينهما، فإن كانت سبقت له سعادة أسلم، وإلا مات على كفره، وإن مات قبل بلوغه فالأصح أنه من أهل الجنة.

والجواب عن حديث: "الله أعلم بما كانوا عاملين" أنه ليس فيه تصريح بأنهم في النار، وحقيقة لفظه: "الله أعلم بما كانوا يعملون" لو بلغوا، ولم يبلغوا؛ إذ التكليف لا يكون إلا بالبلوغ. وأما غلام الخضر، فيجب تأويله قطعا؛ لأن أبويه كانا مؤمنين، فيكون هو مسلما، فيتأول على أن معناه: أن الله أعلم أنه لو بلغ لكان كافرا، لا أنه كافر في الحال، ولا يجري عليه في الحال أحكام الكفار، والله أعلم. انتهى.

والحاصل: أن أرجح الأقوال هو القول بأن الفطرة هي الإسلام، وبقوي ذلك رواية مسلم بعد هذا بلفظ: "ما من مولود يولد إلا وهو على هذه الملة"، فإنه صريح في كون معنى الفطرة هو الإسلام، ويقويه أيضا ما سيأتي لمسلم في "كتاب صفة الجنة" من حديث عياض بن حمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الطويل، وفيه: "وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم المشياطين، فاجتالتهم عن دينهم. . ."

الحديث، فهو أيضا صريح في أنهم فطروا على هذه الملة، وهي الإسلام، فتأمله بالإمعان، والله تعالى ولي التوفيق.

(باب حكم الأخذ من التوراة أو الإنجيل)

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: "أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا، ما وسعه إلا أن يتبعني)[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧، رقم ١٥١٩٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٦٤٢١)، وأبو عبيد في غريب الحديث (٣/ ٢٨ - ٢٩)، والدارمي (٤٣٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٥/ ٢)، والبزار (١٢٤ - كشف الأستار)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٧)، والبغوي في شرح السنة (١٢٦)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ٤٢)، والهروي في ذم الكلام (٤/ ٦٧ - ٢)، والضياء المقدسي في المنتقى من مسموعاته بمرو (٣٣/ ٢) والحديث صححه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٢٢)، وقال عنه ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٢٧٦): إسناده على شرط مسلم، وقال المعلمي في الأنوار الكاشفة (١٢٢) هذا من رواية مجالد عن الشعبي عن جابر ومجالد ليس بالقوي، وقال العلامة الألباني في الإرواء (١٥٨٩) وهذا سند فيه ضعف من أجل مجالد وهو ابن سعيد الهمداني قال الحافظ في التقريب: ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره، وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٢٨٤): رواه أحمد وابن أبى شيبة والبزار ورجاله موثقون إلا أن في مجالد ضعفا، قلت (الكلام للألباني): لكن الحديث قوي فإن له شواهد كثيرة أذكر بعضها، ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بعض شواهده، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده ضعيف لضعف مجالد: وهو ابن سعيد، ونقل ابن حجر في ترجمة عبد الله بن ثابت من الإصابة (٤/ ٣٠) عن البخاري أنه قال: قال مجالد عن الشعبي عن جابر: إن عمر أتى بكتاب، ولا يصح. قلنا: وقوله: "ولا يصح" لم يرد في المطبوع من التاريخ الكبير للبخاري (٥/ ٣٩).

قوله (أمتهوكون) أي متحيرون في الإسلام، لا تعرفون دينكم حتى تأخذوه من غير =

أولا: نحن نؤمن بالكتب التي أنزلها على أنبيائه ورسله إجمالا، قال تعالى: {مَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (البقرة: ٢٨٥).

والإيمان بالكتب ركن من أركان الإيمان فقد قال ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» أخرجه مسلم.

ونؤمن بالكتب التي أخبرنا الله بها كالتوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، والإنجيل أنزله الله على عيسى عليه السلام والزبور أنزل على داود عليه السلام ونحو ذلك، فمن كذب بالكتب إجمالًا أو كذب بأحدها فهو كافر لأنه مكذب لكتاب الله تعالى.

ثانيًا: القرآن هو كتاب الله تعالى الذي أنزله وحيًا على النبي محمد ﷺ وهو

=

كتابكم ونبيكم (أنتم) للتأكيد (كما تهوكت اليهود والنصارى) أي كتحيرهم حيث نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واتبعوا أهوائهم ورهبانهم وأحبارهم. (لقد جئتكم بها) أي بالملة الحنيفية بقرينة الكلام (بيضاء) أي واضحة، حال من ضمير "بها". (نقية) صفة "بيضا" أي ظاهرة صافية خالصة، خالية عن الشرك والشبهة. وقيل: المراد بها أنها مصونة عن التبديل والتحريف والإصرار والأغلال، خالية عن التكاليف الشاقة، وأشار بذلك إلى أنه أتى بالأعلى والأفضل، واستبدال الأدنى بالأعلى مظنة التحير. وقال الطيبي: "بيضاء نقيه" حالّان مترادفان من الضمير المفسر بالملة - انتهى. وإنما أنكر عليهم؛ لأن طلبهم يشعر بأنهم اعتقدوا نقصان ما أتى به النبي ﷺ. (ولو كان موسى حيًا) الخ. أي إذا كانت هذه حالة موسى فيكف بكم؟ وأنتم تطلبون من هؤلاء المحرفين ما تنتفعون به. (ما وسعه) أي ما جاز له (إلا اتباعي) في الأقوال والأفعال فكيف يجوز لكم أن تطلبوا فائدة من قومه مع وجودي. مرعاة المفاتيح (١/ ٢٨٢).

آخر الكتب، وقد نسخ الله به ما سبق من الكتب التي أنزلها سبحانه وتعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ} (المائدة: ٤٨).

ثالثًا: هذه الكتب الموجودة الآن بين أيدي اليهود والنصارى؛ أو ما يسمى بالكتاب المقدس بزعمهم؛ فهي محرفة؛ ومبدلة؛ وطالها من العبث والتحريف والزيادة والنقصان؛ وشتى أشكال التغيير والنسيان؛ قال تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} (المائدة:١٣).

وقال تعالى: {وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا} (المائدة:٤١).

ويستدل لذلك بما رواه البخاري (٣٦٣٥) ومسلم (١٦٩٩) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْيَهُودَ جَاؤُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟ فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ؛ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ؛ فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا؛ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ: ارْفَعْ يَدَكَ؛ فَرَفَعَ يَدَهُ؛ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ فَقَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ".

رابعًا: أما عن حكم القراءة في التوراة أو الإنجيل الموجود بأيدي اليهود أو النصارى فلا يجوز إلا للمصلحة أو الضرورة؛ فمن تصدر للرد على شبهات النصارى أو تفنيد عقائدهم أو دعوتهم فيجوز له ذلك إن كان مؤهلًا لهذه

المهمة ومسلحًا بالعلم والعقيدة الإسلامية الصحيحة؛ أما ما عدا ذلك فيحرم الاطلاع فيها أو قراءتها لحديث جابر رضي الله عنه المتقدم في أول الباب.

وقد سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٣٢): هل يجوز للمسلم أن يقتني الإنجيل ليعرف كلام الله لعبده ورسوله عيسى عليه الصلاة والسلام؟.

فأجاب: لا يجوز اقتناء شيء من الكتب السابقة على القرآن من إنجيل أو توراة أو غيرهما لسببين:

السبب الأول: أن كل ما كان نافعا فيها فقد بينه الله - سبحانه وتعالى - في القرآن الكريم.

السبب الثاني: أن في القرآن ما يغني عن كل هذه الكتب لقوله تعالى: {نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه} . وقوله تعالى: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله} . فإن ما في الكتب السابقة من خير موجود في القرآن.

أما قول السائل إنه يريد أن يعرف كلام الله لعبده ورسوله عيسى، فإن النافع منه لنا قد قصه الله في القرآن فلا حاجة للبحث في غيره، وأيضا فالإنجيل الموجود الآن محرف، والدليل على ذلك أنها أربعة أناجيل يخالف بعضها بعضا وليست إنجيلا واحدا، إذن فلا يعتمد عليه.

أما طالب العلم الذي لديه علم يتمكن به من معرفة الحق من الباطل فلا مانع من معرفته لها لرد ما فيها من الباطل وإقامة الحجة على معتنقيها.

(باب أول الواجبات)

من المتقرر اتفاق العلماء على بدعية الطريقة التي سلكها المتكلمون في

إثبات وجود الله تعالى، وأن هذه الطريقة فيها فساد كثير في وسائلها ومقاصدها، فأما وسائلها فمع صعوبتها ففيها خطورة ومزلات عظيمة، وأما مقاصدها فغايتها إثبات وجود الخالق جل وعلا وتدبيره لهذا الكون وهذا الأمر قد فطر الناس عليه، فوجود الخالق ﷻ أظهر من كل شيء على الإطلاق، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده، فما ينكره إلا مكابر بلسانه، وأما قلبه وعقله وفطرته فكلها تكذبه[1].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، من جعل هذه الطريقة المعتاضة المبتدعة أحد الطرق الموصلة إلى معرفة الله ﷻ، حتى زعم المتكلمون أن من لم يعرفها، ويستدل بها على وجود الله تعالى لا يقبل ولا يصح إيمانه.

ومن ثم أوجبوا على المكلف الاستدلال بها لمعرفة الخالق جل وعلا، إذ إن أول واجب على المكلف عندهم النظر، أو القصد إلى النظر المفضي -في نظرهم- إلى قيام الاستدلال وصحة البرهان.

يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي: (إن سأل سائل فقال: ما أول ما أوجب الله عليك؟ فقل النظر المؤدي إلى معرفة الله تعالى؛ لأنه تعالى لا يعرف ضرورة ولا بالمشاهدة، فيجب أن نعرفه بالتفكير والنظر)[2].

ويقول عبد القاهر البغدادي: (الصحيح عندنا قول من يقول: إن أول الواجبات على المكلف النظر والاستدلال المؤديات إلى المعرفة بالله تعالى وبصفاته وتوحيده وعدله وحكمته، ثم النظر والاستدلال المؤديان إلى جواز

---

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١/ ٢١٢).

(٢) المحيط بالتكليف للقاضي عبد الجبار (ص: ٢٦)، وشرح الأصول الخمسة له (ص: ٧٠، ٧٦).

إرسال الرسل منه، وجواز تكليف العباد ما شاء، ثم النظر المؤدي إلى وجوب الإرسال والتكليف منه، ثم النظر المؤدي إلى تفصيل أركان الشريعة، ثم العمل بما يلزمه منها على شروطه)[١].

ويقول الجويني: (أول ما يجب على العاقل البالغ - باستكمال سن البلوغ أو الحلم شرعا - القصد إلى النظر الصحيح المفضي إلى العلم بحدوث العالم..)[٢].

بل وذكر حكم من مات قبل أن يكتسب معرفة الله تعالى عن النظر والاستدلال قائلا: (فمن اخترمته المنية قبل أن ينظر وله زمن يسع النظر المؤدي إلى معرفة الله تعالى ولم ينظر مع ارتفاع الموانع، ومات بعد زمان الإنكار فهو ملحق بالكفر، وأما لو أمضى من أول الحال قدرا من الزمان يسع بعض النظر لكنه قصر في النظر ثم مات قبل مضي الزمان الذي يسع في مثله النظر الكامل فإن الأصح في ذلك، الحكم بكفره لموته غير عالم مع بدء التقصير منه فليلحق بالكفرة[٣].

وقد اعتبر السنوسي النظر والاستدلال بالأقيسة المنطقية شرطا للدخول في الإسلام، ومن عاند في أدائه وجب استخراجه منه بالسيف إلى أن يموت[٤].

وهكذا أضاف المتكلمون إلى بدعتهم السابقة بدعة أخرى، رتبوا عليها أحكام شنيعة تقشعر منها الجلود، كتسميتهم من لم يتبع هذه الطريقة مقلدا محكوما عليه بالكفر والخسران أو الفسق، فيلزم من قولهم هذا أنهم هم

(١) أصول الدين للبغدادي (ص: ٧٥).
(٢) الشامل للجويني (ص: ٢٦).
(٣) الشامل للجويني (ص: ٣٢، ٣٣).
(٤) شرح أم البراهين للسنوسي (ص: ١٦، ١٧).

المؤمنون الناجون فقط دون سواهم، ويكون العوام - وهم أكثر المسلمين - ليسوا بمؤمنين ولا ناجين من النار، بل حتى العلماء الذين لم يسلكوا مسالكهم ويتبعوا طريقتهم! وفي هذا تحجير لواسع، وتضييق لرحمة الله، وابتداع لقول لم يسبقوا إليه.

وعلى كل حال؛ فإن القول الحق في هذه المسألة، والذي تشهد له النصوص، وعليه اتفاق السلف والأئمة - كما حكاه شيخ الإسلام عنهم في أكثر من موضع - هو أن أول واجب على المكلف الشهادتان.

وقد حكى انعقاد الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم - رحمهم الله تعالى - وفي ذلك إبطال لما ذهب إليه المتكلمون في هذه المسألة، وأحد أوجه الرد عليهم وتزيف لقولهم، ودحض لشبهتهم، وتخطئة لمنهجهم وطريقتهم.

نص ما حكاه شيخ الإسلام من الإجماع: بين رَحِمَهُ اللَّهُ أن معرفة الله والإقرار به لا يقف على هذه الطرق المذمومة عند السلف، بل بعض هذه الطرق لا تفيد عندهم المعرفة فضلا عن أن يكون الله لا يقر به مقر ولا يعرفه عارف إلا بهذه الطريقة المذمومة والتي أوجبها المتكلمون على المكلف للدخول في الإسلام حيث يقول: (بل قد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن معرفة الله والإقرار به لا يقف على هذه الطرق التي يذكرها أهل طريقة النظر؛ بل بعض هذه الطرق لا تفيد عندهم المعرفة فضلا عن أن يكون الله لا يقر به مقر ولا يعرفه عارف إلا بالطريقة المشهورة له من إثبات حدوث العالم بحدوث صفاته مع دعواهم أن الله لا يعرف إلا بهذه الطريقة)[١].

---

(١) النقض (٢/ ٤٧٣).

وقال أيضا: (وليس هذا قول أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، ولا قاله أحد من الأنبياء والمرسلين، ولا هو قول كل المتكلمين ولا غالبهم، بل هذا قول محدث في الإسلام ابتدعه متكلموا المعتزلة ونحوهم من المتكلمين الذين اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمهم)[١].

وحكى اتفاق السلف - رحمهم الله تعالى - على تخطئة المتكلمين في إيجابهم هذا النظر المعين على المكلف لتحصيل المعرفة، وإيقافهم المعرفة عليه بقوله: (والمقصود هنا أن هؤلاء الذين قالوا: معرفة الرب لا تحصل إلا بالنظر، ثم قالوا: لا تحصل إلا بهذا النظر، هم من أهل الكلام - الجهمية القدرية ومن تبعهم - وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وجمهور العلماء من المتكلمين وغيرهم، على خطأ هؤلاء في إيجابهم هذا النظر المعين، وفي دعواهم أن المعرفة موقوفة عليه. إذ قد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أنه لم يوجب هذا على الأمة ولا أمرهم به، بل ولا سلكه هو ولا أحد من سلف الأمة في تحصيل هذه المعرفة)[٢].

وقال بعد ذكره لأقوال المتكلمين ومن تبعهم في إيجاب هذا النظر: (كلها غلط مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة، بل وباطلة في العقل أيضا)[٣].

وأوضح اللوازم الفاسدة من إيقاف المتكلمون معرفة الله تعالى وتحصيلها على هذا النظر المعين من الالتزام بالقول بعدم معرفة الصحابة والتابعين وأئمة

(١) النقض (٢/ ٤٧٣).
(٢) المجموع (١٦/ ٣٣٠).
(٣) المجموع (١٦/ ٣٣٢).

المسلمين بالله، والإيمان به، ولا شك أن هذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين، وفي ذلك يقول: (إن هذا الدليل لم يستدل به أحد من الصحابة والتابعين ولا من أئمة المسلمين، فلو كانت معرفة الرب ﷻ والإيمان به موقوفة عليه للزم أنهم كانوا غير عارفين بالله ولا مؤمنين به، وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين)[١].

وإذا كان قول المتكلمين بأن أول واجب على المكلف النظر المعين - المستفاد من دليل الأعراض وحدوث الأجسام - فاسد مطرح مذموم عند السلف، فما هو القول الصحيح الذي اتفق عليه السلف والأئمة، وتؤيده النصوص والأدلة؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية مجيبا عن هذا السؤال: (والمقصود هنا أن السلف والأئمة متفقون على أن أول ما يؤمر به العباد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقب البلوغ)[٢].

وبين أن (الشهادة تتضمن الإقرار بالصانع تعالى وبرسوله، وأما مجرد الإقرار بالصانع دون الإتيان بالشهادتين فهذا لا يصير به الرجل مؤمنا، بل ولا يصير مؤمنا بأن يعلم أنه رب كل شيء حتى يشهد أن لا إله إلا الله، ولا يصير مؤمنا بذلك حتى يشهد أن محمدا رسول الله ﷺ)[٣].

وقال - في معرض نقده لمن أوجب النظر على المكلف، وجعله أول الواجبات -: (والنبي ﷺ لم يدع أحدا من الخلق إلى النظر ابتداء، ولا إلى

---

(١) النقض (١/ ٦١٩).

(٢) الدرء (٨/ ١١)، وانظر النقض (٨/ ٨).

(٣) النقض (٨/ ١١، ١٢).

مجرد إثبات الصانع، بل أول ما دعاهم إليه الشهادتان، وبذلك أمر أصحابه)[١].

وقال أيضا - بعد أن ساق جملة من الأحاديث الدالة على أن أول ما يدعى إليه الشهادتان وكذلك الأمر بقتال الناس حتى يأتوا بالشهادتين -: (وهذا مما اتفق عليه أئمة الدين، وعلماء المسلمين، فإنهم مجمعون على ما علم بالاضطرار من دين الرسول، أن كل كافر فإنه يدعى إلى الشهادتين، سواء كان معطلا، أو مشركا، أو كتابيا، وبذلك يصير الكافر مسلما، ولا يصير مسلما بدون ذلك)[٢].

وقال أيضا: (أجمع المسلمون على أن الكافر إذا أراد أن يسلم يكتفى منه بالإقرار بالشهادتين)[٣].

وقال كذلك: (وقد اتفق المسلمون على أنه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر)[٤].

وقال في موضع آخر: (فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين)[٥].

ذكر من حكى الإجماع أو نص على المسألة ممن سبق شيخ الإسلام:

جاءت هذه المسألة نتيجة للمسألة السابقة والتي أكثر أهل الكلام الاشتغال بها، فأحدثوا في دين الله ما لم يأذن به، ولم يرد عن رسول الله ﷺ ولم يكن عليه سلفنا الصالح.

وقد اشتد نكير أهل العلم - رحمهم الله تعالى - على كلتا المسألتين،

---

(١) النقض (٨/ ٦).

(٢) النقض (٨/ ٧).

(٣) الدرء (٧/ ٤٣٧).

(٤) المجموع (٧/ ٣٠٢).

(٥) المجموع (٧/ ٦٠٩).

ووسموا أهلها بالابتداع والضلال، وبينوا فساد ما ذهبوا إليه، وحذروا من مغبة ما يؤول إليه. وقد استعرضنا جملة من أقوال أهل العلم - رحمهم الله تعالى - عند الحديث عن المسألة الأولى.

استدلالهم بدليل الأعراض وحدوث الأجسام، وها نحن نذكر جملة أخرى تنضاف إلى ما سبق لتكون موضحة لموقف أهل العلم - رحمهم الله تعالى - من المسألة الأصل وما نمى عنها.

فقد حكى الإمام أبو بكر بن المنذر الإجماع على أن الكافر إذا أقر بالشهادتين وتبرأ من كل دين خالف دين الإسلام وهو بالغ صحيح يعقل أنه يصير بذلك مسلما حيث قال: (أجمع كل من أحفظ عنه على أن الكافر إذا قال لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق، وأبرأ من كل دين خالف الإسلام وهو بالغ صحيح يعقل، أنه مسلم)[1].

فانظر كيف تجرأ هؤلاء المتكلمون على خرق هذا الإجماع وإطراحه، ولا غرو في ذلك فإن هؤلاء ليس لهم خبرة بأقوال الصحابة والتابعين وأقوال أئمة المسلمين في مسائل أصول الدين، بل إنما يعرفون أقوال الجهمية والمعتزلة ونحوهم من أهل الكلام المحدث وهؤلاء كلهم مبتدعه عند سلف الأمة وأئمتها[2].

ولهذا تجد في كتب أهل الكلام ما يدل على غاية الجهل بما قاله الرسول والصحابة والتابعون وأئمة الإسلام مما يوجب أن يقال: كأن هؤلاء نشأوا في غير ديار الإسلام ولا ريب أنهم نشأوا بين من لم يعرف العلوم الإسلامية حتى

---

(١) الإجماع لابن المنذر (ص: ١٥٤).
(٢) الصفدية (٢/ ٢٦٨).

صار المعروف عندهم منكرا والمنكر معروفا ولبسهم فتن ربي فيها الصغير وهرم فيها الكبير، وبدلت السنة بالبدعة والحق بالباطل[١].

فمع وضوح هذا الإجماع وصراحته، إلا أنا نجد الجويني والإيجي يدعيان الإجماع على أن أول واجب على المكلف النظر أو القصد إلى النظر المؤدي إلى معرفة الله!

وبطلان هذا الإجماع المدعى ظاهر لكل من له من العلم أدنى نظر، إذ إن فيه مخالفة لصحيح المنقول ولإجماع من يعتد بإجماعه من أهل العلم، وحاشا أن تجتمع الأمة على أمر مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول فإن هذا ضلال، والأمة لا تجتمع على ضلال.

ثم إن بعض المتكلمين أيضا قد خالفوا الجويني والإيجي في هذا الإجماع وقالوا بخلافه فكيف يدعيان الإجماع على ذلك إذن؟!

واسمع إلى ما قاله أبو جعفر السمناني وهو من رؤوس الأشاعرة عن هذه المسألة: (إن هذه المسألة بقيت في مقالة الأشعري من مسائل المعتزلة وتفرع عليها أن الواجب على كل أحد معرفة الله بالأدلة الدالة عليه، وأنه لا يكفي التقليد في ذلك)[٢].

وقد استنكر ابن حزم على من جعل النظر والاستدلال أول الواجبات، وسمى من خالف هذه الطريقة مقلدا لا يقبل إيمانه بقوله: (. . . إن الرسول ﷺ منذ بعث لم يزل يدعو الناس الجم الغفير إلى الإيمان بالله تعالى وبما أتى به،

(١) النقض (٢/ ٤٨٢).
(٢) نقله عنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٣٦١)، ونقله أيضا شيخ الإسلام في الدرء (٧/ ٤٠٧) بتصرف.

ويقاتل من أهل الأرض من قاتله، ويستحل سفك دمائهم، وسبي نسائهم وأولادهم، وأخذ أموالهم متقربا إلى الله تعالى بذلك، وأخذ الجزية وإصغاره.

ويقبل ممن آمن به ويحرم ماله ودمه وأهله وولده، ويحكم له بحكم الإسلام، وفيهم المرأة البدوية، والراعي، والراعية، والفلاح الصحراوي الوحشي، والزنجي المسبي، والزنجية المجلوبة، والرومية، والجاهل، والضعيف في فهمه فما منهم أحد ولا غيرهم قال له عليه السلام: إني لا أقبل إسلامك ولا يصح لك دين حتى تستدل على صحة ما أدعوك إليه. . . ثم جرى على هذه الطريقة جميع الصحابة رضي الله عنهم أولهم عن آخرهم، ولا يختلف أحد في هذا الأمر.

ثم جميع أهل الأرض إلى يومنا هذا ومن المحال الممتنع عند أهل الإسلام أن يكون عليه السلام يغفل أن يبين للناس ما لا يصلح لأحد الإسلام إلا به، ثم تتفق على إغفال ذلك أو تعمد عدم ذكره جميع أهل الإسلام وتنبه له هؤلاء الأشقياء!.

ومن ظن أنه وقع في الدين على ما لم يقع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر بلا خلاف فصح أن هذه المقالة خرق للإجماع، وخلاف لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وجميع أهل الإسلام قاطبة)[1].

وقال ابن عبد البر: (إنه من نظر إلى إسلام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وسعد وعبد الرحمن وسائر المهاجرين والأنصار وجميع الوفود الذين دخلوا في دين الله أفواجا علم أن الله عز وجل لم يعرفه واحد منهم إلا بتصديق النبيين بأعلام النبوة ودلائل الرسالة، لا من قبل حركة ولا من باب الكل والبعض، ولا من باب كان ويكون، ولو كان النظر في الحركة والسكون عليهم واجبا، وفي

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٤/ ٧٥ - ٧٦).

الجسم ونفيه والتشبيه ونفيه لازما ما أضاعوه، ولو أضاعوا الواجب ما نطق القرآن بتزكيتهم وتقديمهم، ولا أطنب في مدحهم وتعظيمهم، ولو كان ذلك من عملهم مشهورا أو من أخلاقهم معروفا لاستفاض عنهم ولشهروا به كما شهروا بالقرآن والروايات)[١].

وممن نص على مخالفة المتكلمين فيما أوجبوه على المكلف لإجماع المسلمين أبو المظفر السمعاني حيث يقول: (فإنهم - أي أهل الكلام - قالوا: أول ما يجب على الإنسان النظر المؤدي إلى معرفة الباري ﷻ وهذا قول مخترع لم يسبقهم إليه أحد من السلف وأئمة الدين، ولو أنك تدبرت جميع أقوالهم وكتبهم لم تجد هذا في شيء منها منقولا من النبي ﷺ ولا من أصحابه وكذلك من التابعين بعدهم.

وكيف يجوز أن يخفى عليهم أول الفرائض وهم صدر هذه الأمة والسفراء بيننا وبين رسول الله؟!.

هذا وقد تواترت الأخبار أن النبي ﷺ كان يدعو الكفار إلى الإسلام والشهادتين. . . ولم يرو أنه دعاهم إلى النظر والاستدلال، وإنما يكون حكم الكافر في الشرع أن يدعى إلى الإسلام فإن أبى وسأل النظرة والإمهال أن لا يجاب إلى ذلك. . .

ولا يجوز على طريقهم الإقدام على هذا الكافر بالقتل والسبي إلا بعد أن يذكر له هذا ويمهل لأن النظر والاستدلال لا يكون إلا بمهلة وخصوصا إذا طلب الكافر ذلك، وربما لا يتفق النظر والاستدلال في مدة يسيرة فيحتاج إلى إمهال الكفار مدة طويلة تأتي على سنين، ليتمكنوا من النظر على التمام والكمال

---

(١) التمهيد (٧/ ١٥٢).

وهو خلاف إجماع المسلمين)[١].

ومن عاب على المتكلمين إيجابهم النظر على المكلف أبو حامد الغزالي بقوله: (من أشد الناس غلوا وإسرافا طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لم يعرف الكلام معرفتنا ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتها التي حررناها كافر.

فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولا، وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين، ثم جعلوا ما تواتر من السنة ثانيا، إذ ظهر من عصر الرسول ﷺ وعصر الصحابة حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب كانوا مشتغلين بعبادة الوثن ولم يشتغلوا بتعليم الدليل، ولو اشتغلوا به لم يفهموه، ومن ظن أن مدرك الإيمان بالكلام والأدلة المحررة والتقسيمات المرتبة فقد أبعد. . .

وليت شعري متى نقل عن الرسول ﷺ وعن الصحابة إحضار أعرابي أسلم وقولهم له: الدليل على أن العالم حادث، أن لا يخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث. . . وعد النبي ﷺ أن من تكلم بكلمة التوحيد أجرى عليه أحكام المسلمين، فثبت بهذا أن مأخذ التكفير من الشرع لا من العقل، إذ الحكم بإباحة الدم، والخلود في النار شرعي لا عقلي خلافا لما ظنه بعض الناس)[٢].

ونص عبد القادر الجيلاني على أن أول ما يجب على من أراد الدخول في دين الإسلام التلفظ بالشهادتين، والبراءة من كل دين يخالفه حيث قال: (الذي

---

(١) الانتصار لأصحاب الحديث للسمعاني (ص: ٦١، ٦٢، ٦٣).

(٢) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي (ص: ١٣٤ - ٢٠٢).

يجب على من يريد الدخول في دين الإسلام أولا أن يتلفظ بالشهادتين لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويتبرأ من كل دين غير دين الإسلام، ويعتقد بقلبه وحدانية الله تعالى)[١].

وقال ابن الصلاح - في معرض كلامه على حديث ضمام بن ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: صدق» ثم قال ﷺ في آخر الحديث: «لئن صدق ليدخلن الجنة)[٢].

وفي الحديث دلالة على صحة ما ذهب إليه الأئمة العلماء في أن العوام المقلدين مؤمنون، وأنه يكتفي منهم بمجرد اعتقادهم الحق جزما من غير شك وتزلزل، خلافا لمن أنكر ذلك من المعتزلة.

وبين وجه الدلالة من الحديث أنه ﷺ قرر ضماما على ما اعتمد عليه في تعرف رسالته وصدقه ﷺ من مناشدته ومجرد إخباره إياه بذلك، ولم ينكر عليه ذلك قائلا له: أن الواجب عليك أن تستدرك ذلك من النظر في معجزاتي، والاستدلال بالأدلة القطعية التي تفيدك العلم[٣].

مستند الإجماع: من تأمل نصوص الكتاب والسنة وجدها حافلة بذكر الأمر الذي بعث الله عَزَّ وَجَلَّ من أجله المرسلين، واجتمعت عليه كلمتهم أجمعين، فكان ذلك الأمر هو أوجب الواجبات، أول الفرائض والمطلوبات والذي شغل حيزا من حياتهم، بل كل حياتهم لتبليغه والدعوة إليه، فكان وظيفتهم والحكمة من بعثتهم، ألا وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، لا كما زعم المتكلمون أنه

---

(١) الغنية الجيلاني (١/ ٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط لابن الصلاح (ص: ١٤٢ - ١٤٤).

النظر المؤدي إلى معرفة الباري؛ فدونك الأدلة على ذلك، من الكتاب والسنة:

فمن الكتاب: قول الله تعالى: ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت [النحل: ٣٦].

وقوله تعالى: وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون [الأنبياء: ٢٥]. ونظائرهما كثير.

ووجه الدلالة من هاتين الآيتين ظاهر وصريح في أن الرسل إنما بعثوا لأمر الناس بعبادة الله ودعوتهم إلى ذلك، بل دلت الآية على حصر مهمتهم ووظيفتهم في ذلك، ولو كان النظر أوجب الواجبات وأولها، لنبه عليه الشارع الحكيم، ولكان على رأس الاهتمام من الأنبياء والمرسلين، ولما لم يكن كذلك تبين بطلان ما ذهب إليه المتكلمون، وفساد طريقتهم ومسلكهم.

وأما السنة: فقد أخرج البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ (لما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى نحو أهل اليمن قال له إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى)[١].

وفي رواية: (ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله)[٢].

وعن سهل بن سعد: (أن رسول الله ﷺ أعطى الراية عليا رضي الله عنه يوم خيبر، فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام. . .)[٣].

ووجه الدلالة من الحديثين بينة؛ إذ لو كان النظر إلى معرفة الله تعالى واجبا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

كما يدعي المتكلمون لأمر ﷺ بالدعوة إليه أولا، ولما قدم عليها غيره، ومن ثم تظهر مخالفة المتكلمين لما جاء به رسول الله ﷺ.

ومن الأدلة أيضا ما أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)[١].

ووجه الدلالة ظاهر بين؛ إذ إن الرسول ﷺ علق كفه عن قتال الناس على شرط به يعصم المرء دمه وماله، ألا وهو التلفظ بالشهادتين، بخلاف ما سلكه المتكلمون من الحكم بسفك دم من لم يعرف الله تعالى بالطرق والأقيسة العقلية التي ابتدعوها.

فالرسول ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله عز وجل وقبل إسلام من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهؤلاء المتكلمون يدعون الناس إلى الاستدلال والدخول في الإسلام بهذه الطريقة المبتدعة ويجعلونه أول واجب على المكلف ومن لم يعرف أو عاند في تركه حكم بكفره وسفك دمه، فتأمل ما بين المنهجين من البون الشاسع والفرق الكبير[٢].

وقال الأتيوبي في البحر المحيط الثجاج (١/ ١٣٣): (اعلم): أن هذا الحديث (..... الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا"، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره"، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: "أن تعبد

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٢) المسائل العقدية التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع (ص ٢٦٠).

الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...) أصل عظيم، ودليل عميم، يقطع دابر أهل الأهواء المضلة، وأرباب السفه والذلة من المعتزلة، والمتكلمين الذين هم أذناب الفلاسفة الجهلة، أرباب الغواية السفلة، الذين لا يرون المؤمن مؤمنا إلا الذي آمن بالقواعد التي أسسوها، ودسوها بين أهل الإسلام، وأوهموا أنها المعنية بنصوص الكتاب والسنة، وأن من لم يسلك سبيلها فقد ضل ضلالا بعيدا، وهذا زور وبهتان، وكذب وافتراء على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، وقد قام المحققون من المتقدمين والمتأخرين من أهل السنة بتفنيد آرائهم الزائفة، ودحض حججهم الكاسفة، وألقموهم الحجر الجلمود، ونبزوهم بأنهم أهل الضلال والجحود، وأنا أذكر - بعون الله تعالى - خلاصة أقوالهم، ولباب أفهامهم التي دل عليها الكتاب وصحاح السنة، وعرفها وحققها العقلاء، وإن جحدها ونبذها الجهلاء - اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، آمين -.

قال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى: مذهب السلف وأئمة الفتوى من الخلف، أن من صدق بهذه الأمور تصديقا جزما، لا ريب فيه ولا تردد، ولا توقف، كان مؤمنا حقيقة، وسواء كان ذلك عن براهين ناصعة، أو عن اعتقادات جازمة، على هذا انقرضت الأعصار الكريمة، وبهذا صرحت فتاوى أئمة الهدى المستقيمة، حتى حدثت مذاهب المعتزلة المبتدعة، فقالوا: إنه لا يصح الإيمان الشرعي إلا بعد الإحاطة بالبراهين العقلية والسمعية، وحصول العلم بنتائجها ومطالبها، ومن لم يحصل إيمانه كذلك فليس بمؤمن، ولا يجزئ إيمانه بغير ذلك، وتبعهم على ذلك جماعة من متكلمي أصحابنا، كالقاضي أبي بكر، وأبي إسحاق الإسفراييني، وأبي المعالي في أول قوليه، والأول هو الصحيح؛ إذ

المطلوب من المكلفين ما يقال عليه: إيمان، كقوله تعالى: {آمنوا بالله ورسوله} [النساء: ١٣٦]، {ومن لم يؤمن بالله ورسوله} [الفتح: ١٣]، والإيمان هو التصديق لغة وشرعا، فمن صدق بذلك كله، ولم يجوز نقيض شيء من ذلك، فقد عمل بمقتضى ما أمره الله تعالى به على نحو ما أمره الله تعالى، ومن كان كذلك، فقد تفصى عن عهدة الخطاب؛ إذ قد عمل بمقتضى السنة والكتاب؛ ولأن رسول الله ﷺ وأصحابه بعده حكموا بصحة إيمان كل من آمن وصدق بما ذكرناه، ولم يفرقوا بين من آمن عن برهان، أو غيره؛ ولأنهم لم يأمروا أجلاف العرب بترديد النظر، ولا سألوهم عن أدلة تصديقهم، ولا أرجأوا إيمانهم حتى ينظروا، وتحاشوا عن إطلاق الكفر على أحد منهم، بل سموهم المؤمنين، والمسلمين، وأجروا عليهم أحكام الإيمان والإسلام؛ ولأن البراهين التي حررها المتكلمون، ورتبها الجدليون، إنما أحدثها المتأخرون، ولم يخض في شيء تلك الأساليب السلف الماضون، فمن المحال والهذيان أن يشترط في صحة الإيمان ما لم يكن معروفا ولا معمولا به لأهل ذلك الزمان؟ وهم من هم؟ فهما عن الله تعالى، وأخذا عن رسول الله ﷺ، وتبليغا لشريعته، وبيانا لسنته وطريقته. انتهى كلام القرطبي رحمه الله تعالى، وهو نفيس جدا[١].

وقد ذكر الحافظ رحمه الله تعالى في "الفتح" عند شرح حديث بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن، فقال عند قوله: "فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله، فإذا عرفوا ذلك. . . " الحديث، ما نصه: وقد تمسك به من قال: أول واجب المعرفة، كإمام الحرمين، واستدل بأنه لا يتأتى الإتيان بشيء من المأمورات على قصد الامتثال، ولا الانكفاف عن شيء من المنهيات على قصد الانزجار،

---

(١) "المفهم" ١/ ١٤٥ - ١٤٦.

إلا بعد معرفة الآمر والناهي.

واعترض عليه بأن المعرفة لا تتأتى إلا بالنظر والاستدلال، وهو مقدمة الواجب، فيجب، فيكون أول واجب النظر، وذهب إلى هذا طائفة كابن فورك.

وتعقب بأن النظر ذو أجزاء، يترتب بعضا على بعض، فيكون أول واجب جزأ من النظر، وهو محكي عن القاضي أبي بكر بن الطيب، وعن الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني: أول واجب القصد إلى النظر، وجمع بعضهم بين هذه الأقوال، بأن من قال: أول واجب المعرفة، أراد طلبا وتكليفا، ومن قال: النظر، أو القصد أراد امتثالا؛ لأنه يسلم أنه وسيلة إلى تحصيل المعرفة، فيدل ذلك على سبق وجوب المعرفة.

قال: وقد ذكرت في "كتاب الإيمان" من أعرض عن هذا من أصله، وتمسك بقوله تعالى: {فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها} [الروم: ٣٠]، وحديث: "كل مولود يولد على الفطرة. . . "، فإن ظاهر الآية والحديث أن المعرفة حاصلة بأصل الفطرة، وأن الخروج عن ذلك يطرأ على الشخص؛ لقوله ﷺ: "فأبواه يهودانه، وينصرانه".

وقد وافق أبو جعفر السمناني، وهو من رؤوس الأشاعرة على هذا، وقال: إن هذه المسألة بقيت في مقالة الأشعري، من مسائل المعتزلة، وتفرع عليها أن الواجب على كل أحد معرفة الله بالأدلة الدالة عليه، وأنه لا يكفي التقليد في ذلك. انتهى.

قال: وقرأت في جزء من كلام شيخ شيخنا الحافظ صلاح الدين العلائي ما ملخصه: إن هذه المسألة مما تناقضت فيها المذاهب، وتباينت بين مفرط، ومفرط، ومتوسط:

فالطرف الأول: قول من قال: يكفي التقليد المحض في إثبات وجود الله تعالى، ونفي الشريك عنه، وممن نسب إليه إطلاق ذلك عبيد الله بن الحسن العنبري، وجماعة من الحنابلة، والظاهرية، ومنهم من بالغ، فحرم النظر في الأدلة، واستند إلى ما ثبت عن الأئمة الكبار، من ذم الكلام كما سيأتي بيانه.

قال الجامع عفا الله تعالى عنه: هذا المذهب هو الحق الذي كان عليه السلف الصالح، كما سبق في كلام القرطبي، ويأتي أيضا، فليس فيه تفريط، كما يدل عليه كلام العلائي هذا، فتبصر بالإنصاف، ولا تتهور بتقليد ذوي الاعتساف، ونسأل الله تعالى أن يهدينا إلى سواء السبيل.

قال: والطرف الثاني: قول من وقف صحة إيمان كل أحد على معرفة الأدلة، من علم الكلام، ونسب ذلك لأبي إسحاق الإسفراييني، وقال الغزالي: أسرفت طائفة، فكفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية، بالأدلة التي حرروها، فهو كافر، فضيقوا رحمة الله الواسعة، وجعلوا الجنة مختصة بشرذمة يسيرة من المتكلمين، وذكر نحوه أبو المظفر ابن السمعاني، وأطال في الرد على قائله، ونقل عن أكثر أئمة الفتوى أنهم قالوا: لا يجوز أن تكلف العوام اعتقاد الأصول بدلائلها؛ لأن في ذلك من المشقة أشد من المشقة في تعلم الفروع الفقهية.

قال: وأما المذهب المتوسط، فذكره، وسأذكره ملخصا بعد هذا.

وقال القرطبي في "المفهم" في شرح حديث: "أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم"، وهو في أوائل "كتاب العلم" من "صحيح مسلم": هذا الشخص الذي يبغضه الله، هو الذي يقصد بخصومته مدافعة الحق، ورده بالأوجه الفاسدة، والشبه الموهمة، وأشد ذلك الخصومة في أصول الدين، كما يقع لأكثر

المتكلمين، المعرضين عن الطرق التي أرشد إليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وسلف أمته، إلى طرق مبتدعة، واصطلاحات مخترعة، وقوانين جدلية، وأمور صناعية، مدار أكثرها على آراء سوفسطائية، أو مناقضات لفظية، ينشأ بسببها على الآخذ فيها شبه، ربما يعجز عنها، وشكوك يذهب الإيمان معها، وأحسنهم انفصالا عنها أجدلهم، لا أعلمهم، فكم من عالم بفساد الشبهة، لا يقوى على حلها، وكم من منفصل عنها، لا يدرك حقيقة علمها، ثم إن هؤلاء المتكلمين قد ارتكبوا أنواعا من المحال، لا يرتضيها البله ولا الأطفال، لما بحثوا عن تحيز الجواهر، والأكوان، والأحوال، ثم إنهم أخذوا يبحثون فيما أمسك عنه السلف الصالح، ولم يوجد عنهم بحث واضح، وهو كيفية تعلقات صفات الله تعالى، وتعديدها، واتحادها في نفسها، وهل هي الذات أو غيرها؟ وفي الكلام، هل هو متحد، أو منقسم؟ وعلى الثاني، هل ينقسم بالنوع، أو الوصف؟ وكيف تعلق في الأزل بالمأمور، مع كونه حادثا؟ ثم إذا انعدم المأمور، فهل يبقى ذلك التعلق؟ وهل الأمر لزيد بالصلاة مثلا، هو نفس الأمر لعمرو بالزكاة؟ إلى غير ذلك من الأبحاث المبتدعة، التي لم يأمر الشارع بالبحث عنها، وسكت عنها الصحابة رضي الله عنهم ومن سلك سبيلهم، بل نهوا عن الخوض فيها؛ لعلمهم بأنه بحث عن كيفية ما لا تعلم كيفيته بالعقل، لكون العقول لها حد تقف عنده، وهو العجز عن التكييف، لا يتعداه، ولا فرق بين البحث عن كيفية الذات، وكيفية الصفات، ولذلك قال العليم الخبير: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: ١١]، ومن توقف في هذا، فليعلم أنه إذا كان حجب عن كيفية نفسه مع وجودها، وعن كيفية إدراك ما يدرك به، فهو عن إدراك غيره أعجز.

وغاية علم العلماء، وإدراك عقول الفضلاء، أن يقطعوا بوجود فاعل لهذه

المصنوعات، منزه عن الشبيه، مقدس عن النظير، متصف بصفات الكمال.

ثم متى ثبت النقل أخبرنا الصادقون عنه بشيء من أوصافه وأسمائه قبلناه واعتقدناه، وما لم يتعرضوا له، سكتنا عنه، وتركنا الخوض فيه، وهذه طريقة السلف، وما سواها مهاو وتلف، ويكفي في الردع عن الخوض في طرق المتكلمين، ما قد ورد في ذلك عن الأئمة المتقدمين، فمن ذلك قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: من جعل دينه غرضا للخصومات، أكثر الشغل، والدين قد فرغ منه، ليس بأمر يؤتكف على النظر فيه. وقال مالك بن أنس رحمه الله تعالى: ليس هذا الجدال من الدين في شيء، وقال: كان يقال: لا تمكن زائغ القلب من أذنك، فإنك لا تدري ما يعلق من ذلك. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في علم الكلام، وإذا سمعت من يقول: الاسم هو المسمى، أو غير المسمى، فاشهد أنه من أهل الكلام، ولا دين له. قال: وحكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأخذ في الكلام. وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: لا يفلح صاحب الكلام أبدا، علماء الكلام زنادقة. وقال ابن عقيل: قال بعض أصحابنا: أنا أقطع أن الصحابة ﵃ ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر، فبئسما رأيته. قال: وقد أفضى هذا الكلام بأهله إلى الشكوك، وبكثير منهم إلى الإلحاد، وببعضهم إلى التهاون بوظائف العبادات، وسبب ذلك إعراضهم عن نصوص الشارع، وتطلبهم حقائق الأمور من غيره، وليس في قوة العقل ما يدرك ما في نصوص الشارع من الحكم التي استأثر بها، ولو لم يكن في الجدال إلا أن

النبي ﷺ قد أخبر أنه الضلال، كما قال فيما خرجه الترمذي: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل"، وقال: إنه صحيح[١].

قال: وقد رجع كثير من أئمة المتكلمين عن الكلام، بعد انقضاء أعمار مديدة، وآماد بعيدة، لما لطف الله تعالى بهم، وأظهر لهم آياته، وباطن برهانه، فمنهم: إمام المتكلمين أبو المعالي إمام الحرمين (ت ٤٧٨ هـ)، فقد حكى عنه الثقات أنه قال: لقد خليت أهل الإسلام وعلومهم، وركبت البحر الأعظم، وغصت في كل شيء، نهى عنه أهل العلم رغبة في طلب الحق، وهربا من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، وأختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص، والويل لابن الجويني.

وفي رواية عنه أنه قال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فيما نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالوليل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال: عقيدة عجائز نيسابور.

وقال لأصحابه عند موته: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنه يبلغ بي ما بلغت، ما تشاغلت به[٢].

وقال أحمد بن سنان: كان الوليد بن أبان الكرابيسي خالي، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه: تعلمون أحدا أعلم مني؟ قالوا: لا، قال: فتتهموني؟ قالوا: لا، قال: فإني أوصيكم، أفتقبلون؟ قالوا: نعم، قال: عليكم بما عليه أصحاب

---

(١) وقال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى: حسن. انظر: "صحيح الجامع الصغير" ٢/ ٩٨٤.

(٢) راجع: "مجموع الفتاوى" ٤/ ٧٣.

الحديث، فإني رأيت الحق معهم.

وقال أبو الوفاء ابن عقيل: لقد بالغت في الأصول طول عمري، ثم عدت القهقرى إلى مذهب المكتب.

وهذا الشهرستاني، صاحب "نهاية الإقدام في علم الكلام" وصف حاله فيما وصل إليه من علم الكلام، وما ناله، فتمثل بما قاله [من الطويل]:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وصيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارع سن نادم

ثم قال: عليكم بدين العجائز، فإنه أسنى الجوائز.

ولقد أجاد الإمام الصنعاني محمد بن إسماعيل صاحب "سبل السلام" رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث رد عليه فقال [من الطويل]:

لعلك أهملت الطواف بمعهد الر رسول ومن والاه من كل عالم
فما حار من يهدي بهدي محمد ولست تراه قارعا سن نادم(١)

قال الجامع عفا الله عنه: لو قال: ووالله أهملت إلخ، لكان أولى من "لعلك" كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

وهذا أبو حامد الغزالي مع فرط ذكائه وتألهه، ومعرفته بالكلام والفلسفة، وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف، ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف والحيرة، ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث، وصنف "إلجام العوام عن علم الكلام"(٢).

وقال الفخر الرازي في كتابه الذي صنفه في أقسام اللذات، وقد ذكر أنواعها

---

(١) ديوان الصنعاني ص ٣٤٥.
(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ٧٢.

وأن أشرفها لذة العلم والمعرفة، وأشرف العلوم العلم الإلهي لشرف معلومه، وشدة الحاجة إليه، وأنه على ثلاثة أقسام: العلم بالذات، وعليه عقدة، وهي أن الوجود هل هو الماهية، أو زائد عليها، والعلم بالصفات، وعليه عقدة، وهي أن الصفات هل هي أمور وجودية زائدة على ذات الموصوف، أم ليست بزائدة على الذات؟ والعلم بالأفعال، وعليه عقدة، وهي هل الفعل مقارن للفاعل، أو متراخ عنه؟ ثم قال: ومن الذي وصل إلى هذا الباب، أو ذاق من هذا الشراب؟ ثم أنشد [من الطويل]:

نهاية أقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فماتوا والجبال جبال

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات قوله ﷻ: {الرحمن على العرش استوى (٥)} [طه: ٥]، و{إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه} [فاطر: ١٠]، واقرأ في النفي قوله: {ليس كمثله شيء} [الشورى: ١١]، {ولا يحيطون به علما} [طه: ١١٠]، و{هل تعلم له سميا} [مريم: ٦٥]، ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله بعد نقل كلام الرازي هذا ما نصه: فليتأمل اللبيب ما في كلام هذا الفاضل من العبر، فإنه لم يأت في المتأخرين من حصل من العلوم العقلية ما حصله، ووقف على نهاية أقدام العقلاء، وغايات مباحث الفضلاء، وضرب بعضها ببعض، ومخضها أشد المخض، فما رآها تشفي علة

داء الجهالة، ولا تروي غلة ظمإ الشوق والطلب، وأنها لم تحل عنه عقدة واحدة من هذه العقد الثلاث التي عقدها أرباب المعقولات على قافية القلب، فلم يستيقظ لمعرفة ذات الله ولا صفاته ولا أفعاله، وصدق والله، فإنه شاك في ذات رب العالمين هل له ماهية غير الوجود المطلق يختص بها أم ماهيته نفس وجوده الواجب؟ ومات ولم تنحل له عقدتها، وشاك في صفاته، هل هي أمور وجودية، أم نسب إضافية عدمية؟ ومات ولم تنحل له عقدتها، وشاك في أفعاله، هل هي مقارنة له أزلا وأبدا لم تزل معه أم الفعل متأخر عنه تأخرا لا نهاية لأمده، فصار فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا؟ ومات ولم تنحل له عقدتها، فننظر في كتبه الكلامية قول المتكلمين، وفي كتبه الفلسفية قول الفلاسفة، وفي كتبه التي خلط فيها بين الطريقتين يضرب أقوال هؤلاء بهؤلاء، وهؤلاء بهؤلاء، ويجلس بينهم حائرا، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وكذلك أفضل أهل زمانه ابن أبي الحديد[1]، فإنه مع بحثه ونظره وتصديه للرد على الرازي حتى يقول في قصيدة له [من الطويل]:

وحقك لو أدخلتني النار قلت للـ ... ـذين بها قد كنت ممن أحبه

وأفنيت عمري في فنون دقيقة ... وما بغيتي إلا رضاه وقربه

أما قلتم من كان فينا مجاهدا ... سيكرم مثواه ويعذب شربه

---

(١) هو عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين المدائني، أبو حامد المعروف بابن أبي الحديد، ولد سنة (٥٨٦ هـ) في المدائن، وهومن غلاة الشيعة، وأعيان المعتزلة، كاتب شاعر، له كتب، منها: "شرح نهج البلاغة"، و"السبع العلويات"، و"شرح الآيات البينات" للفخر الرازي، توفي ببغداد سنة (٦٥٦ هـ). راجع "البداية والنهاية" ١٣/ ١٩٠، و"فوات الوفيات" ١/ ٢٤٨ - ٢٥٠، و"الأعلام" ٣/ ٢٨٩.

أما رد شك ابن الخطيب وزيفه وتمويهه في الدين إذ حل خطبه

يعترف بأن المعقولات لم تعطه إلا حيرة، وأنه لم يصل منها إلى يقين، ولا علم حيث يقول [من المديد]:

فيك يا أغلوطة الفكر ضاع دهري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر
قاتل الله الأولى زعموا أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا خارج عن قوة البشر

وقال بعض الطالبين من المتأخرين، وقد سافر في طلب ربه على هذه الطريق فلم يزدد إلا حيرة وبعدا من مطلبه حتى قيض الله له من أخذ بيده، وسلك به على الطريق التي سلك عليها الرسل وأتباعهم، فجعل يهتف بصوته لأصحابه هلموا فهذه والله الطريق، وهذه أعلام مكة والمدينة، وهذه آثار القوم لم تنسخها الرياح، ولم تزلها الأهوية، ثم قال [من الطويل]:

وكنت وصحبي في ظلام من الدجى نسير على غير الطريق ولا ندري
وكنا حيارى في القفار ولم يكن دليل لنا نرجوا الخلاص من القفر
ظمـاء إلى ورد يبل غليلنا وقد قطع الأعناق منا لظى الحر
فما هو إلا أن تبدى لناظري سنا بارق يبدو كخيط من الفجر
فقلت لصحبي هل ترون الذي أرى فقالوا اتئد ذاك السراب الذي يجري
فخلفتهم خلفي وأقبلت نحوه فأوردني عين الحياة لدى البحر
فناديت أصحابي فما سمعوا الندا ولو سمعوه ما استجابوا إلى الحشر

فهذا اعتراف هؤلاء الفضلاء في آخر سيرهم بما أفادتهم الأدلة العقلية من ضد اليقين، ومن الحيرة والشك، فمن الذي شكا من القرآن والسنة، والأدلة

اللفظية هذه الشكاية؟ ومن الذي ذكر أنها حيرته ولم تهده؟ أو ليس بها هدى الله أنبياءه ورسله وخيرة خلقه؟ قال تعالى لأكمل خلقه وأوفرهم عقلا: {قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي} الآية [سبأ: ٥٠].

فهذا أكمل الخلق عقلا صلوات الله وسلامه عليه يخبر أن اهتداءه بالأدلة اللفظية التي أوحاها الله إليه، وهؤلاء المتهوكون المتحيرون يقولون: إنها لا تفيد يقينا ولا علما، ولا هدى، وهذا موضع المثل المشهور: "رمتني بدائها وانسلت". انتهى كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، وهو شاف كاف لمن أراد الهدى والرشاد، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولو لم يكن في الكلام شيء يذم به إلا مسألتان، هما من مبادئه، لكان حقيقا بالذم، وجديرا بالذكر:

[**إحداهما**]: قول طائفة منهم: إن أول الواجبات الشك في الله تعالى؛ إذ هو اللازم عن وجوب النظر، أو القصد إلى النظر، وإليه أشار الإمام بقوله: ركبت البحر.

[**والثانية**]: قول جماعة منهم إن من لم يعرف الله تعالى بالطرق التي طرقوها، والأبحاث التي حرروها، فلا يصح إيمانه، وهو كافر، فيلزمهم على هذا تكفير أكثر المسلمين، من السلف الماضين، وأئمة المسلمين، وأن من يبدأ بتكفيره أبيه وأسلافه، حتى لقد أورد على بعضهم أن هذا يلزم منه تكفير أبيك وأسلافك وجيرانك، فقال: لا تشنع علي بكثرة أهل النار. قال: وقد رد بعض من لم يقل بهاتين المسألتين من المتكلمين على من قال بهما، بطريق من النظر والاستدلال؛

---

(١) "الصواعق المرسلة" ١/ ١٦٥ - ١٧٠.

بناء منهم على أن هاتين المسألتين نظريتان، وهذا خطأ فاحش، فالكل يخطئون: الطائفة الأولى بأصل القول بالمسألتين، والثانية بتسليم أن فسادها ليس بضروري، ومن شك في تكفير من قال: إن الشك في الله تعالى واجب، وأن معظم الصحابة والمسلمين كفار، فهو كافر شرعا، أو مختل العقل وضعا، إذ كل واحدة منهما معلومة الفساد بالضرورة الشرعية الحاصلة بالأخبار المتواترة القطعية، وإن لم يكن كذلك، فلا ضروري يصار إليه في الشرعيات، ولا العقليات، عصمنا الله تعالى من بدع المبتدعين، وسلك بنا طرق السلف الماضين.

وإنما طولت في هذه المسألة الأنفاس لما قد شاع من هذه البدع في الناس، ولأنه قد اغتر كثير من الجهال بزخرف تلك الأقوال، وقد بذلت ما وجب علي من النصيحة، والله تعالى يتولى إصلاح القلوب الجريحة. انتهى كلام القرطبي رحمه الله تعالى، وهو بحث نفيس، وتحقيق أنيس[1].

وقال الآمدي في "أبكار الأفكار": ذهب أبو هاشم من المعتزلة، إلى أن من لا يعرف الله بالدليل، فهو كافر؛ لأن ضد المعرفة النكرة، والنكرة كفر، قال: وأصحابنا مجمعون على خلافه، وإنما اختلفوا فيما إذا كان الاعتقاد موافقا، لكن عن غير دليل، فمنهم من قال: إن صاحبه مؤمن عاص بترك النظر الواجب، ومنهم من اكتفى بمجرد الاعتقاد الموافق، وإن لم يكن عن دليل، وسماه علما، وعلى هذا فلا يلزم من حصول المعرفة بهذا الطريق، وجوب النظر، وقال غيره: من منع التقليد، وأوجب الاستدلال، لم يرد التعمق في طرق المتكلمين، بل اكتفى بما لا يخلو عنه من نشأ بين المسلمين، من الاستدلال بالمصنوع على الصانع، وغايته أنه يحصل في الذهن، مقدمات ضرورية، تتألف تألفا صحيحا، وتنتج العلم، لكنه

(١) "المفهم" ٦/ ٦٩٠ - ٦٩٤، ببعض تغيير من "الفتح".

لو سئل كيف حصل له ذلك: ما اهتدى للتعبير به، وقيل: الأصل في هذا كله المنع من التقليد، في أصول الدين، وقد انفصل بعض الأئمة عن ذلك، بأن المراد بالتقليد أخذ قول الغير بغير حجة، ومن قامت عليه حجة بثبوت النبوة، حتى حصل له القطع بها، فمهما سمعه من النبي ﷺ، كان مقطوعا عنده بصدقه، فإذا اعتقده لم يكن مقلدا؛ لأنه لم يأخذ بقول غيره بغير حجة، وهذا مستند السلف قاطبة، في الأخذ بما ثبت عندهم من آيات القرآن، وأحاديث النبي ﷺ، فيما يتعلق بهذا الباب، فآمنوا بالمحكم من ذلك، وفوضوا أمر المتشابه منه إلى ربهم، وإنما قال من قال: إن مذهب الخلف أحكم بالنسبة إلى الرد على من لم يثبت النبوة، فيحتاج من يريد رجوعه إلى الحق أن يقيم عليه الأدلة إلى أن يذعن فيسلم، أو يعاند فيهلك، بخلاف المؤمن، فإنه لا يحتاج في أصل إيمانه إلى ذلك، وليس سبب الأول إلا جعل الأصل عدم الإيمان، فلزم إيجاب النظر المؤدي إلى المعرفة، وإلا فطريق السلف أسهل من هذا، كما تقدم إيضاحه من الرجوع إلى ما دلت عليه النصوص، حتى يحتاج إلى ما ذكر من إقامة الحجة على من ليس بمؤمن، فاختلط الأمر على من اشترط ذلك، والله المستعان.

قال الجامع عفا الله تعالى عنه: رد من لم يثبت النبوة لا يكون بما سلكه المتكلمون من النظر، وإنما يكون بما جاء عن رسول الله ﷺ، واقتدى به في ذلك أصحابه رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان، من إقامة الحجة على من لم يثبت نبوته ﷺ، فليس هذا النفي جديدا في الأمة، وإنما هو من أول ما جاء الإسلام، فقد قال الله تعالى: {ويقول الذين كفروا لست مرسلا} الآية [الرعد: ٤٣]، وقال تعالى: {وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا (٤١)} الآية [الفرقان: ٤١]، إلى غير ذلك من الآيات، فالطريق الذي سلكه ﷺ

في إقناع هؤلاء ونحوهم، وإلزامهم الحجج القاهرة لهم، هو الطريق الصحيح، وأما طريق المتكلمين، فضلال مبين، فتنبه لهذا هداني الله وإياك إلى الصراط المستقيم.

واحتج بعض من أوجب الاستدلال، باتفاقهم على ذم التقليد، وذكروا الآيات، والأحاديث الواردة في ذم التقليد، وبأن كل أحد قبل الاستدلال، لا يدري أي الأمرين هو الهدى؟ وبأن كل ما لا يصح إلا بالدليل، فهو دعوى لا يعمل بها، وبأن العلم اعتقاد الشيء على ما هو عليه، من ضرورة، أو استدلال، وكل ما لم يكن علما فهو جهل، ومن لم يكن عالما فهو ضال.

والجواب عن الأول أن المذموم من التقليد أخذ قول الغير بغير حجة، وهذا ليس منه حكم رسول الله ﷺ، فإن الله أوجب اتباعه في كل ما يقول، وليس العمل فيما أمر به، أو نهى عنه داخلا تحت التقليد المذموم اتفاقا، وأما من دونه، ممن اتبعه في قول قاله، واعتقد أنه لو لم يقله لم يقل هو به، فهو المقلد المذموم، بخلاف ما لو اعتقد ذلك في خبر الله تعالى ورسوله ﷺ، فإنه يكون ممدوحا.

وأما احتجاجهم بأن أحدا لا يدري قبل الاستدلال، أي الأمرين هو الهدى، فليس بمسلم، بل من الناس من تطمئن نفسه، وينشرح صدره للإسلام من أول وهلة، ومنهم من يتوقف على الاستدلال، فالذي ذكروه هم أهل الشق الثاني، فيجب عليه النظر ليقي نفسه النار؛ لقوله تعالى: {قوا أنفسكم وأهليكم نارا} [التحريم: ٦]، ويجب على كل من استرشده أن يرشده، ويبرهن له الحق، وعلى هذا مضى السلف الصالح، من عهد النبي ﷺ وبعده.

وأما من استقرت نفسه إلى تصديق الرسول، ولم تنازعه نفسه إلى طلب

دليل، توفيقا من الله وتيسيرا، فهم الذين قال الله في حقهم: {ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم} الآية [الحجرات: ٧]، وقال: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام} الآية [الأنعام: ١٢٥]، وليس هؤلاء مقلدين لآبائهم، ولا لرؤسائهم، لأنهم لو كفر آباؤهم، أو رؤساؤهم لم يتابعوهم، بل يجدون النفرة عن كل من سمعوا عنه ما يخالف الشريعة، وأما الآيات والأحاديث، فإنما وردت في حق الكفار، الذين اتبعوا من نهوا عن اتباعه، وتركوا اتباع من أمروا باتباعه، وإنما كلفهم الله الإتيان ببرهان على دعواهم، بخلاف المؤمنين، فلم يرد قط أنه أسقط اتباعهم حتى يأتوا بالبرهان، وكل من خالف الله ورسوله، فلا برهان له أصلا، وإنما كلف الإتيان بالبرهان، تبكيتا وتعجيزا، وأما من اتبع الرسول ﷺ فيما جاء به، فقد اتبع الحق الذي أمر به، وقامت البراهين على صحته، سواء علم هو بتوجيه ذلك البرهان، أم لا.

وقول من قال منهم: إن الله ذكر الاستدلال، وأمر به مسلم، لكن هو فعل حسن مندوب لكل من أطاقه، وواجب على كل من لم تسكن نفسه إلى التصديق، كما تقدم تقريره. وبالله التوفيق.

وقال غيره: قول من قال: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أحكم، ليس بمستقيم؛ لأنه ظن أن طريقة السلف مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث، من غير فقه في ذلك، وأن طريقة الخلف، هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها، بأنواع المجازات، فجمع هذا القائل بين الجهل بطريقة السلف، والدعوى في طريقة الخلف، وليس الأمر كما ظن، بل السلف في غاية المعرفة بما يليق بالله تعالى، وفي غاية التعظيم له، والخضوع لأمره، والتسليم لمراده، وليس من سلك طريق الخلف واثقا بأن الذي يتأوله هو المراد، ولا يمكنه

القطع بصحة تأويله، وأما قولهم في العلم، فزادوا في التعريف: عن ضرورة، أو استدلال، وتعريف العلم انتهى عند قوله: "عليه"، فإن أبوا إلا الزيادة، فليزدادوا: "عن تيسير الله له ذلك، وخلقه ذلك المعتقد في قلبه"، وإلا فالذي زادوه هو محل النزاع، فلا دلالة فيه، وبالله التوفيق.

وقال أبو المظفر بن السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تعقب بعض أهل الكلام قول من قال: إن السلف من الصحابة والتابعين، لم يعتنوا بإيراد دلائل العقل في التوحيد، بأنهم لم يشتغلوا بالتعريفات في أحكام الحوادث، وقد قبل الفقهاء ذلك، واستحسنوه، فدونوه في كتبهم، فكذلك علم الكلام، ويمتاز علم الكلام، بأنه يتضمن الرد على الملحدين، وأهل الأهواء، وبه تزول الشبهة عن أهل الزيغ، ويثبت اليقين لأهل الحق، وقد علم الكل أن الكتاب لم تعلم حقيته، والنبي ﷺ لم يثبت صدقه، إلا بأدلة العقل.

وأجاب: أما أولا، فإن الشارع والسلف الصالح نهوا عن الابتداع، وأمروا بالاتباع، وصح عن السلف أنهم نهوا عن علم الكلام، وعدوه ذريعة للشك والارتياب، وأما الفروع فلم يثبت عن أحد منهم النهي عنها، إلا من ترك النص الصحيح، وقدم عليه القياس، وأما من اتبع النص، وقاس عليه، فلا يحفظ عن أحد من أئمة السلف إنكار ذلك؛ لأن الحوادث في المعاملات لا تنقضي، وبالناس حاجة إلى معرفة الحكم، فمن ثم تواردوا على استحباب الاشتغال بذلك، بخلاف علم الكلام.

وأما ثانيا: فإن الدين كمل؛ لقوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم} [المائدة: ٣]، فإذا كان أكمله وأتمه، وتلقاه الصحابة عن النبي ﷺ، واعتقده من تلقى عنهم، واطمأنت به نفوسهم، فأي حاجة بهم إلى تحكيم العقول، والرجوع

إلى قضاياها، وجعلها أصلا، والنصوص الصحيحة الصريحة تعرض عليها، فتارة يعمل بمضمونها، وتارة تحرف عن مواضعها؛ لتوافق العقول، وإذا كان الدين قد كمل فلا تكون الزيادة فيه إلا نقصانا في المعنى، مثل زيادة أصبع في اليد، فإنها تنقص قيمة العبد الذي يقع به ذلك.

وقد توسط بعض المتكلمين، فقال: لا يكفي التقليد، بل لا بد من دليل ينشرح به الصدر، وتحصل به الطمأنينة العلمية، ولا يشترط أن يكون بطريق الصناعة الكلامية، بل يكفي في حق كل أحد بحسب ما يقتضيه فهمه. انتهى.

والذي تقدم ذكره من تقليد النصوص، كاف في هذا القدر.

وقال بعضهم: المطلوب من كل أحد التصديق الجزمي، الذي لا ريب معه بوجود الله تعالى، والإيمان برسله، وبما جاؤوا به، كيفما حصل، وبأي طريق إليه يوصل، ولو كان عن تقليد محض، إذا سلم من التزلزل.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا الذي عليه أئمة الفتوى، ومن قبلهم من أئمة السلف، واحتج بعضهم بما تقدم من القول في أصل الفطرة، وبما تواتر عن النبي ﷺ، ثم الصحابة أنهم حكموا بإسلام من أسلم من جفاة العرب، ممن كان يعبد الأوثان، فقبلوا منهم الإقرار بالشهادتين، والتزام أحكام الإسلام، من غير إلزام بتعلم الأدلة، وإن كان كثير منهم إنما أسلم لوجود دليل ما، فأسلم بسبب وضوحه له، فالكثير منهم قد أسلموا طوعا من غير تقدم استدلال، بل بمجرد ما كان عندهم من أخبار أهل الكتاب، بأن نبيا سيبعث، وينتصر على من خالفه، فلما ظهرت لهم العلامات في محمد ﷺ، بادروا إلى الإسلام، وصدقوه في كل شيء قاله ودعاهم إليه، من الصلاة، والزكاة، وغيرهما، وكثير منهم كان يؤذن له في الرجوع إلى معاشه، من رعاية الغنم وغيرها، وكانت أنوار النبوة وبركاتها

تشملهم، فلا يزالون يزدادون إيمانا ويقينا.

وقال أبو المظفر ابن السمعاني أيضا ما ملخصه: إن العقل لا يوجب شيئا، ولا يحرم شيئا، ولا حظ له في شيء من ذلك، ولو لم يرد الشرع بحكم، ما وجب على أحد شيء؛ لقوله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} [الإسراء: ١٥]، وقوله: {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [النساء: ١٦٥]، وغير ذلك من الآيات، فمن زعم أن دعوة رسول الله ﷺ، إنما كانت لبيان الفروع، لزمه أن يجعل العقل هو الداعي إلى الله دون الرسول، ويلزمه أن وجود الرسول وعدمه بالنسبة إلى الدعاء إلى الله سواء، وكفى بهذا ضلالا، ونحن لا ننكر أن العقل يرشد إلى التوحيد، وإنما ننكر أنه يستقل بإيجاب ذلك، حتى لا يصح إسلام إلا بطريقه، مع قطع النظر عن السمعيات؛ لكون ذلك خلاف ما دلت عليه آيات الكتاب، والأحاديث الصحيحة، التي تواترت، ولو بالطريق المعنوي، ولو كان كما يقول أولئك، لبطلت السمعيات، التي لا مجال للعقل فيها، أو أكثرها، بل يجب الإيمان بما ثبت من السمعيات، فإن عقلناه فبتوفيق الله، وإلا اكتفينا باعتقاد حقيته، على وفق مراد الله سبحانه وتعالى. انتهى.

ويؤيد كلامه ما أخرجه أبو داود، عن ابن عباس، أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: أنشدك الله، آلله أرسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأن ندع اللات والعزى، قال: نعم، فأسلم، وأصله في "الصحيحين" في قصة ضمام بن ثعلبة، وفي حديث عمرو بن عبسة عند مسلم أنه أتى النبي ﷺ فقال: ما أنت؟ قال: "نبي الله"، قلت: آلله أرسلك؟ قال: "نعم"، قلت: بأي شيء؟ قال: "أوحد الله لا أشرك به شيئا. . . " الحديث، وفي حديث أسامة بن زيد، في قصة قتله الذي قال: لا إله إلا

الله، فأنكر عليه النبي ﷺ، وحديث المقداد في معناه، وكلاهما في "الصحيح"، وفي كتب النبي ﷺ إلى هرقل وكسرى، وغيرهما من الملوك، يدعوهم إلى التوحيد، إلى غير ذلك من الأخبار المتواترة التواتر المعنوي، الدال على أنه ﷺ لم يزد في دعائه المشركين، على أن يؤمنوا بالله وحده، ويصدقوه فيما جاء به عنه، فمن فعل ذلك قبل منه، سواء كان إذعانه عن تقدم نظر، أم لا، ومن توقف منهم، نبهه حينئذ على النظر، أو أقام عليه الحجة إلى أن يذعن أو يستمر على عناده.

وقال البيهقي في "كتاب الاعتقاد": سلك بعض أئمتنا في إثبات الصانع، وحدوث العالم طريق الاستدلال، بمعجزات الرسالة، فإنها أصل في وجوب قبول ما دعا إليه النبي ﷺ، وعلى هذا الوجه وقع إيمان الذين استجابوا للرسل، ثم ذكر قصة النجاشي، وقول جعفر بن أبي طالب له: بعث الله إلينا رسولا، نعرف صدقه، فدعانا إلى الله، وتلا علينا تنزيلا من الله، لا يشبهه شيء، فصدقناه، وعرفنا أن الذي جاء به الحق. . . الحديث بطوله، وقد أخرجه ابن خزيمة في "كتاب الزكاة" من "صحيحه" من رواية ابن إسحاق، وحاله معروفة، وحديثه في درجة الحسن.

قال البيهقي: فاستدلوا بإعجاز القرآن على صدق النبي، فآمنوا بما جاء به، من إثبات الصانع، ووحدانيته، وحدوث العالم، وغير ذلك، مما جاء به الرسول ﷺ في القرآن وغيره، واكتفاء غالب من أسلم بمثل ذلك مشهور في الأخبار، فوجب تصديقه في كل شيء ثبت عنه بطريق السمع، ولا يكون ذلك تقليدا، بل هو اتباع. والله أعلم.

وقد استدل من اشترط النظر بالآيات، والأحاديث الواردة في ذلك، ولا

حجة فيها؛ لأن من لم يشترط النظر لم ينكر أصل النظر، وإنما أنكر توقف الإيمان على وجود النظر، بالطرق الكلامية، إذ لا يلزم من الترغيب في النظر، جعله شرطا.

واستدل بعضهم بأن التقليد لا يفيد العلم، إذ لو أفاده لكان العلم حاصلا، لمن قلد في قدم العالم، ولمن قلد في حدوثه، وهو محال لإفضائه إلى الجمع بين النقيضين، وهذا إنما يتأتى في تقليد غير النبي ﷺ، وأما تقليده ﷺ، فيما أخبر به عن ربه، فلا يتناقض أصلا.

واعتذر بعضهم عن اكتفاء النبي ﷺ، والصحابة بإسلام من أسلم من الأعراب، من غير نظر، بأن ذلك كان لضرورة المبادئ، وأما بعد تقرر الإسلام، وشهرته، فيجب العمل بالأدلة، ولا يخفى ضعف هذا الاعتذار.

والعجب أن من اشترط ذلك من أهل الكلام، ينكرون التقليد، وهم أول داع إليه، حتى استقر في الأذهان، أن من أنكر قاعدة من القواعد التي أصلوها، فهو مبتدع، ولو لم يفهمها، ولم يعرف مأخذها، وهذا هو محض التقليد، فآل أمرهم إلى تكفير من قلد الرسول عليه الصلاة والسلام، في معرفة الله تعالى، والقول بإيمان من قلدهم، وكفى بهذا ضلالا، وما مثلهم إلا كما قال بعض السلف: إنهم كمثل قوم كانوا سفرا، فوقعوا في فلاة، ليس فيها ما يقوم به البدن، من المأكول والمشروب، ورأوا فيها طرقا شتى، فانقسموا قسمين: فقسم وجدوا من قال لهم: أنا عارف بهذه الطرق، وطريق النجاة منها واحدة، فاتبعوني فيها، تنجوا، فتبعوه فنجوا، وتخلفت عنه طائفة، فأقاموا، إلى أن وقفوا على أمارة ظهر لهم أن في العمل بها النجاة، فعملوا بها فنجوا، وقسم هجموا بغير مرشد ولا أمارة فهلكوا، فليس نجاة من اتبع المرشد بدون نجاة من أخذ بالأمارة، إن لم تكن

أولى منها.

قال الحافظ: ونقلت من جزء الحافظ صلاح الدين العلائي: يمكن أن يفصل، فيقال: من لا له أهلية لفهم شيء من الأدلة أصلا، وحصل له اليقين التام بالمطلوب، إما بنشأته على ذلك، أو لنور يقذفه الله في قلبه، فإنه يكتفى منه بذلك، ومن فيه أهلية لفهم الأدلة، لم يكتف منه إلا بالإيمان عن دليل، ومع ذلك فدليل كل أحد بحسبه، وتكفي الأدلة المجملة، التي تحصل بأدنى نظر، ومن حصلت عنده شبهة وجب عليه التعلم إلى أن تزول عنه، قال فبهذا يحصل الجمع بين كلام الطائفة المتوسطة.

قال الجامع عفا الله تعالى عنه: هذا الجمع لا حاجة لنا إليه أصلا؛ لأن إيجاب النظر على أي أحد قول بلا دليل، فتنبه.

قال: وأما من غلا، فقال: لا يكفي إيمان المقلد، فلا يلتفت إليه، لما يلزم منه من القول بعدم إيمان أكثر المسلمين، وكذا من غلا أيضا، فقال: لا يجوز النظر في الأدلة؛ لما يلزم منه من أن أكابر السلف لم يكونوا من أهل النظر. انتهى ملخصا(١).

قال الجامع عفا الله تعالى عنه: قوله: "لما يلزم منه من أن أكابر السلف إلخ": هذا هو الواقع، فلم ينقل من الصحابة، فمن بعدهم أنهم استعملوا شيئا من أدلة المتكلمين، فمن ادعى ذلك فقد افترى عليهم، بل السلف الذين حدث في عصرهم علم الكلام، كالشافعي، وأحمد، وغيرهما قد أنكروه، وحرموه، ونفروا الناس عنه، فأين السلف الذين تعلموا علم الكلام، فكانوا من أهل النظر، حاشا وكلا، ثم حاشا وكلا.

---

(١) راجع: "فتح" ١٤/ ٢٩٦ - ٣٠٣.

والحاصل أن الحق الذي لا محيد عنه، ولا يجوز لأحد أن يخالفه، أن الإيمان هو معرفة الله تعالى، ومعرفة رسوله ﷺ عن طريق النقل، لا عن طريق علم الكلام، فمن أبي هذا فهو ضال مضل، اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، {ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب (٨)} [آل عمران: ٨].

هذا ما أردت نقله من كلام المحققين، وإنما أطلت في النقول؛ لما رأيت من انهماك كثير ممن ينتسب إلى العلم بتصويب آراء الخلف المخالفة لهدي رسول الله ﷺ الذي أتى ليهدي الناس إلى ربهم بأقوم طريق وأحسنه، وأبينه وأسهله وأيسره، وما ذاك إلا لبعدهم عما كان عليه السلف من التحذير عن بدع المتكلمين، وحثهم الناس بالتمسك بهدي الكتاب والسنة الذي بهما الكفاية في هداية الخلق أجمعين، رزقنا الله تعالى التمسك بهما، والاكتفاء بهديهما، إنه سميع قريب مجيب الدعوات، والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

(باب مباحث التوحيد)

التوحيد في اللغة: مشتق من وحد الشيء إذا جعله واحدا، فهو مصدر وحد يوحد، أي: جعل الشيء واحدا.

وفي الشرع: إفراد الله - سبحانه - بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات القول.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه: لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال

الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض، ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها، ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: (إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)[١]. . . وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث، التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة! وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأول بعضهم الدخول بالخلود وقال: المعنى لا يدخلها خالدا، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة. فإن الشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، لأن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار.

بل لا بد من قول القلب، وقول اللسان.

وقول القلب: يتضمن من معرفتها والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمنته من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب علما ومعرفة ويقينا وحالا: ما يوجب تحريم قائلها على النار.

وتأمل حديث البطاقة[٢] التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلا،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣). من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم (١/ ٧١٠)، والبيهقي فى الشعب (١/ ٢٦٤) والحديث حسنه الترمذي، وحسنه البغوي في شرح السنة (٧/ ٤٩٠)، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه الشيخ أحمد شاكر =

كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، . . . ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل هو أنه حصل له ما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات.

وتأمل أيضا ما قام بقلب قاتل المائة[١] من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق - الموت - عن السير إلى القرية فجعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت، لأن ذلك كان أمرا آخر، وإيمانا آخر ولذلك ألحق بأهل القرية الصالحة. وقريب من هذا ما قام بقلب البغي[٢] التي رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش، يأكل الثرى فقام بقلبها ذلك الوقت مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر وملء الماء في خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف وحملها خفها بفيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكورا. فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها[٣].

وقد ورد في صحيح مسلم قوله ﷺ (من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من

=

في تحقيق المسند، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٣٥)، وصححه العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (١/ ٤٣٦ - ٤٣٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ٥٧١): إسناده قوي رجاله ثقات.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦). من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥)، واللفظ له. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (١/ ٣٣٠ - ٣٣٢) بتصرف بسيط.

دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله)[١].

وقد يفرق بين التوحيد والعقيدة اصطلاحا باعتبار أن علم التوحيد هو العلم الذي يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بالأدلة المرضية، وأن علم العقيدة يزيد عليه برد الشبهات وقوادح الأدلة الخلافية، فيجتمعان في معرفة الحق بدليله، وتكون العقيدة أعم موضوعا من التوحيد لأنها تقرر الحق بدليله وترد الشبهات وقوادح الأدلة وتناقش الديانات والفرق، وقد جرى السلف على تسمية كتبهم في التوحيد والإيمان بكتب العقيدة، كما فعل أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (عقيدة السلف أصحاب الحديث) والإمام اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)

(باب أنواع التوحيد)

تنوعت عبارات علماء أهل السنة في التعبير عن أنواع التوحيد، ولكنها مع ذلك التنوع متفقة في المضمون، ولعل السبب في ذلك هو أن تلك التقسيمات مأخوذ من استقراء النصوص، ولم ينص عليها باللفظ مباشرة، ولذلك فمن العلماء[٢] من قسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، هي:

١- توحيد الربوبية.

٢- توحيد الأسماء والصفات.

٣- توحيد الألوهية.

ومن العلماء من قسم التوحيد إلى قسمين، وهذا هو الأغلب في كلام أهل

---

(١) أخرجه (٢٣). من حديث طارق بن أشيم الأشجعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) طريق الهجرتين (ص:٣٠)، وشرح الطحاوية (ص:٧٦)، ولوامع الأنوار للسفاريني (١/ ١٢٨)، وتيسير العزيز الحميد (ص: ١٧ - ١٩).

العلم المتقدمين لأنهم يجمعون بين توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وذلك بالنظر إلى أنهما يشكلان بمجموعهما جانب العلم بالله ومعرفته ﷻ، فجمعوا بينهما لذلك، بينما توحيد الألوهية يشكل جانب العمل لله.

وتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام راجع إلى اعتبار متعلق التوحيد، وتقسيمه إلى قسمين راجع إلى اعتبار ما يجب على الموحد.

فمن العلماء من يقول: التوحيد قسمان(١):

القسم الأول: توحيد المعرفة والإثبات

ويريد به توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وسمي بتوحيد المعرفة؛ لأن معرفة الله ﷻ إنما تكون بمعرفة أسمائه، وصفاته، وأفعاله.

والإثبات: أي إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات والأفعال.

القسم الثاني: توحيد القصد والطلب:

ويراد به الألوهية، وسمي بتوحيد القصد والطلب، لأن العبد يتوجه بقلبه ولسانه وجوارحه بالعبادة لله وحده رغبة ورهبة، ويقصد بذلك وجه الله، وابتغاء مرضاته.

ومن العلماء من يقسم التوحيد إلى قسمين هما(٢):

القسم الأول: التوحيد العلمي الخبري:

والمقصود به توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وسمي بالتوحيد العلمي: لأنه يعتني بجانب معرفة الله، فالعلمي أي (العلم

---

(١) ممن ذكر ذلك ابن القيم في كتابه مدارج السالكين (٣/ ٤٤٩).

(٢) ممن ذكر ذلك ابن القيم في كتابه مدارج السالكين (٣/ ٤٥٠)، وابن تيمية في الصفدية (٢/ ٢٢٨).

بالله).

والخبري: لأنه يتوقف على الخبر أي: (الكتاب والسنة).

القسم الثاني: التوحيد الإرادي الطلبي

والمقصود به توحيد الألوهية، وسمي بالتوحيد الإرادي لأن العبد له في العبادات إرادة، فهو إما أن يقوم بتلك العبادة أو لا يقوم بها، وسمي بالطلبي؛ لأن العبد يطلب بتلك العبادات وجه الله ويقصده عز وجل بذلك.

ومن العلماء من يقسم التوحيد إلى قسمين فيقول[1]:

القسم الأول: التوحيد القولي

والمراد به توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وسمي بالقولي لأنه في مقابل توحيد الألوهية الذي يشكل الجانب العلمي من التوحيد، وأما هذا الجانب فهو مختص بالجانب القولي العلمي.

القسم الثاني: التوحيد العملي

والمراد به توحيد الألوهية، وسمي بالعملي؛ لأنه يشمل كلا من عمل القلب، وعمل اللسان، وعمل الجوارح التي تشكل بمجموعها جانب العمل من التوحيد، فالتوحيد له جانبان: جانب تصديقي علمي، وجانب انقيادي عملي.

ومن العلماء من يقسم التوحيد إلى قسمين فيقول:

القسم الأول: توحيد السيادة

ويعنى بذلك توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وسمي بذلك لأن تفرد الله بأفعاله وأسمائه وصفاته يوجب له السيادة المطلقة، والتصرف التام

---

(١) ممن ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية: انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٦٧).

في هذا الكون خلقا، ورزقا، وإحياء، وإماتة، وتصرفا وتدبيرا، سبحانه وتعالى. فمن واجب الموحد أن يفرد الله بذلك.

والقسم الثاني: توحيد العبادة: المراد به توحيد الألوهية، وتسميته بذلك واضحة لا تحتاج إلى مزيد تفصيل.

مسألة: مشروعية هذا التقسيم

قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في أضواء البيان[١]: (وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته.

الثاني: توحيده جل وعلا في عبوديته.

النوع الثالث: توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاته).

وقال الشيخ بكر أبو زيد حفظه الله: (هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرره الزبيدي في تاج العروس، وشيخنا الشنقيطي في (أضواء البيان) وآخرين رحم الله الجميع، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كل فن، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء[٢].

وهذا التقسيم موجود مع بداية التصنيف والتدوين لمسائل العقيدة ومن

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤١٠).

(٢) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير للعلامة بكر أبو زيد (١٣٣ حاشية رقم ٢ ضمن الردود ط ١/ ١٤١٤ دار العاصمة - الرياض).

الأدلة على ذلك بعض النصوص الواردة عن السلف في بيان ذلك:

النص الأول: للإمام أبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري حيث قال في كتابه (الإبانة) ما نصه: (. . . وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته ليكون بذلك مباينا لمذاهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعا.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته ليكون مباينا بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث: أن يعتقده موصوفا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفا بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه. .[1] وكلامه هذا صريح في أن أصل الإيمان بالله وتوحيده مبني على هذه الأمور الثلاثة فسمى الأول اعتقاد الربانية والثاني اعتقاد الوحدانية والثالث اعتقاد اتصافه بالصفات العلى اللازمة لكمال الله سبحانه وتعالى.

والنص الثاني: للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث فصل وبوب في كتابه القيم: (كتاب التوحيد) في الأقسام الثلاثة للتوحيد فمن تبويباته:

١ – ذكر ما وصف الله عَزَّ وَجَلَّ به نفسه ودل على وحدانيته عَزَّ وَجَلَّ وأنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

٢ – ذكر معرفة بدأ الخلق.

٣ – ذكر معرفة أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ الحسنة التي تسمى بها وأظهرها لعباده

---

(١) الإبانة (٢/ ١٧٢ – ١٧٣).

للمعرفة والدعاء والذكر - وأبواب أخرى كثيرة فمن أراد الوقوف عليها فليرجع إلى الكتاب المذكور.

ولذلك وصف الكتاب ومباحثه محققه الدكتور علي الفقيهي بقوله: (قسم المؤلف التوحيد إلى أربعة أقسام حيث جعل أسماء الله الحسنى قسما مستقلا ثم أتبعها بالصفات، وأقسام التوحيد الذي ذكرها هي:

الوحدانية في الربوبية.

توحيد الألوهية وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.

توحيد أسماء الله الحسنى.

الصفات)[(١)(٢)].

وقد سبق هذين الإمامين إمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تصنيف كتاب مستقل في توحيد المعرفة والإثبات وسماه كتاب (التوحيد وإثبات صفات الرب عَزَّوَجَلَّ).

وسبق الجميع الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تصنيف كتاب التوحيد في الرد على الجهمية ضمن كتابه الجامع الصحيح المعروف بصحيح الإمام البخاري.

ومما يدل على أن لفظ التوحيد واعتبار أقسامه أمر متعاهد عليه عند السلف قديما افتتاح الإمام الطحاوي عقيدته بقوله: نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له. . ولا شيء مثله ولا شيء يعجزه ولا إله غيره. .

---

(١) التوحيد ابن مندة (١/ ٣٣) تحقيق علي بن ناصر الفقيهي ط الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية.

(٢) انظر في ذلك: القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد، عبد الرزاق البدر، دار ابن عفان.

ثم قال: (له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق)[1].

وقد سئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٦/ ٢١٥): عن هذا التقسيم ومشروعيته فأجاب بما يلي: الحمد لله، فهذا التقسيم مأخوذ من الاستقراء والتأمل لأن العلماء لما استقرؤوا ما جاءت به النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ظهر لهم هذا، وزاد بعضهم نوعا رابعا هو توحيد المتابعة، وهذا كله بالاستقراء

فلا شك أن من تدبر القرآن الكريم وجد فيه آيات تأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وهذا هو توحيد الألوهية، ووجد آيات تدل على أن الله هو الخلاق وأنه الرزاق وأنه مدبر الأمور، وهذا هو توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون ولم يدخلهم في الإسلام، كما يجد آيات أخرى تدل على أن له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأنه لا شبيه له ولا كفو له، وهذا هو توحيد الأسماء والصفات الذي أنكره المبتدعة من الجهمية والمعتزلة والمشبهة، ومن سلك سبيلهم.

ويجد آيات تدل على وجوب اتباع الرسول ﷺ ورفض ما خالف شرعه، وهذا هو توحيد المتابعة، فهذا التقسيم قد علم بالاستقراء وتتبع الآيات ودراسة السنة، ومن ذلك:

قول الله سبحانه: إياك نعبد وإياك نستعين [الفاتحة: ٤]

وقوله ﷻ: يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون [البقرة: ٢١]

وقوله جل وتعالى: وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم [البقرة:

(١) العقيدة الطحاوية بشرح ابن أبي العز (٩٢).

١٦٣]

وقوله سبحانه: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين [الذاريات: ٥٦ - ٥٧]

وقوله سبحانه: إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين [الأعراف: ٥٤]

وقال سبحانه: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [الشورى: ١١]

وقال ﷻ: قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد [الإخلاص: ١ - ٤]

وقال جل شأنه: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم [آل عمران: ٣١].

وقال سبحانه: قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين [النور: ٥٤] والآيات الدالة على ما ذكر من التقسيم كثيرة.

ومن الأحاديث: قول النبي ﷺ في حديث معاذ رضي الله عنه المتفق على صحته: (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا)(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام: (من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار)(٢).

وقوله لجبريل عليه السلام لما سأله عن الإسلام قال: (أن تعبد الله ولا تشرك به

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٩٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة. . .) الحديث[١].

وقوله ﷺ: (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصا الله)[٢].

وقوله عليه الصلاة والسلام: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قيل يا رسول الله ومن يأبى؟ قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)[٣] والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: الإله هو المعبود المطاع فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب المخضوع له غاية الخضوع.

وقال: فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه وتنيب إليه في شدائدها وتدعوه في مهماتها وتتوكل عليه في مصالحها وتلجأ إليه وتطمئن بذكره وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا لله وحده، ولهذا كانت لا إله إلا الله أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته، فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله.

نسأل الله أن يوفق المسلمين جميعا من حكام ومحكومين للفقه في دينه والثبات عليه والنصح لله ولعباده، والحذر مما يخالف ذلك، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مسألة: العلاقة بين هذه الأقسام للتوحيد

هذه الأقسام تشكل بمجموعها جانب الإيمان بالله الذي نسميه التوحيد، فلا يكمل لأحد توحيده إلا باجتماع أنواع التوحيد الثلاثة، فهي متكافلة متلازمة، يكمل بعضها بعضا، ولا يمكن الاستغناء ببعضها عن الآخر، فلا ينفع توحيد الربوبية بدون توحيد الألوهية، وكذلك لا يصح ولا يقوم توحيد الألوهية بدون توحيد الربوبية، وكذلك توحيد الله في ربوبيته وألوهيته لا يستقيم بدون توحيد الله في أسمائه وصفاته، فالخلل والانحراف في أي نوع منها هو خلل في التوحيد كله. (فمعرفة الله لا تكون بدون عبادته، والعبادة لا تكون بدون معرفة الله، فهما متلازمان)[١].

وقد أوضح بعض أهل العلم هذه العلاقة بقوله: (هي علاقة تلازم وتضمن وشمول).

فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية.

وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية.

وتوحيد الأسماء والصفات شامل للنوعين معا.

بيان ذلك: أن من أقر بتوحيد الربوبية وعلم أن الله سبحانه هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته لزمه من ذلك الإقرار أن يفرد الله بالعبادة وحده سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يصلح أن يعبد إلا من كان ربا خالقا مالكا مدبرا، وما دام كله لله وحده وجب أن يكون هو المعبود وحده.

ولهذا جرت سنة القرآن الكريم على سوق آيات الربوبية مقرونة بآيات الدعوة إلى توحيد الألوهية، ومن أمثلة ذلك:

---

(١) تحذير أهل الإيمان (١/ ١٤٠) (ضمن مجموعة الرسائل المنيرية).

قوله تعالى: يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون [البقرة: ٢١].

وأما توحيد الألوهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية؛ لأن من عبد الله ولم يشرك به شيئا فهذا يدل ضمنا على أنه قد اعتقد بأن الله هو ربه ومالكه الذي لا رب غيره.

وهذا أمر يشاهده الموحد من نفسه، فكونه قد أفرد الله بالعبادة ولم يصرف شيئا منها لغير الله، ما هو إلا لإقراره بتوحيد الربوبية، وأنه لا رب، ولا مالك، ولا متصرف إلا الله وحده.

وأما توحيد الأسماء والصفات فهو شامل للنوعين معا، وذلك لأنه يقوم على إفراد الله تعالى بكل ما له من الأسماء الحسنى، والصفات العلى التي لا تنبغي إلا له سبحانه وتعالى، والتي من جملتها: الرب - الخالق - الرازق - الملك، وهذا هو توحيد الربوبية.

ومن جملتها: الله - الغفور - الرحيم - التواب، وهذا هو توحيد الألوهية[(١)].

فائدة: القرآن كله دعوة للتوحيد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (كل سورة في القرآن هي متضمنة للتوحيد، بل نقول قولا كليا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه.

فإن القرآن:

(١) الكواشف الجلية عن معاني الواسطية للشيخ عبد العزيز السلمان (ص: ٤٢١ - ٤٢٢).

١ - إما خبر عن الله وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري.

٢- وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي.

٣- وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته.

٤- وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده.

٥- وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم توحيده.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم)[1].

(باب الرد على من أنكر تقسيم التوحيد)

قال الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر في القول في السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد:

أولا: قال الكاتب -وهو حسن بن علي السقاف- في الصفحة الثالثة: "فهذا جزء لطيف ومنار منيف أثبت فيه إبطال التثليث في تقسيم التوحيد إلى توحيد ألوهية وتوحيد ربوبية وتوحيد أسماء وصفات ...".

قلت: إنَّ التثليث عقيدة نصرانية خبيثة تقوم على أساس جعل الآلهة ثلاثة وهم: الأب والابن وروح القدس، وقد كفَّرهم الله بها في محكم تنزيله حيث قال

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٤٩ - ٤٥٠).

سبحانه وتعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَنَّ الذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

أما تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، أو إلى قسمين: توحيد معرفة وإثبات وهو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد إرادة وطلب وهو توحيد الألوهية، فهذه عقيدة المسلمين قاطبة، المؤمنين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ سوى المبتدعة الضُّلاَّل.

والمراد بتوحيد الربوبية: الاعتقاد الجازم بأنَّ الله وحده الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لشئون خلقه كلها لا شريك له في ذلك.

والمراد بتوحيد الألوهية: إفراد الله وحده بالخضوع والذل والمحبة والخشوع وسائر أنواع العبادة لا شريك له.

والمراد بتوحيد الأسماء والصفات: الإيمان الجازم بأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، وإثباتها دون تحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل.

ولكلِّ قسم من هذه الأقسام الثلاثة ضدٌّ؛ "فإذا عرفت أن توحيد الربوبية هو الإقرار بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المحي المميت المدبر لجميع الأمور المتصرف في كل مخلوقاته لا شريك له في ملكه، فضد ذلك هو اعتقاد العبد وجود متصرف مع الله غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ. وإذا عرفت أنَّ توحيد الأسماء والصفات هو أن يدعى الله تعالى بما سمى به نفسه ويوصف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله محمد ﷺ وينفى عنه التشبيه والتمثيل، فضد ذلك شيئان ويعمهما اسم الإلحاد:

أحدهما: نفي ذلك عن الله ﷻ وتعطيله عن صفات كماله ونعوت جلاله الثابتة بالكتاب والسنة.

ثانيهما: تشبيه صفات الله تعالى بصفات خلقه وقد قال تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، وقال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}، وإذا عرفت أن توحيد الإلهية هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة ونفي العبادة عن كل ما سوى الله تبارك وتعالى فضد ذلك هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ﷻ، وهذا هو الغالب على عامة المشركين وفيه الخصومة بين جميع الرسل وأممها".

وهذه الأقسام الثلاثة للتوحيد لها دلائل كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ

فمن أدلة توحيد الربوبية قول الله تعالى: {الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، وقوله: {أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، وقوله: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ}، وقوله: {قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}، وقوله: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، وقوله: {اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَي كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}، وغيرها من الآيات.

ومن أدلة توحيد الألوهية قوله تعالى: {الحَمْدُ للهِ}؛ لأنَّ الله معناه المألوه المعبود، وقوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وقوله: {يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَكُمْ وَالذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، وقوله: {فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ

لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، وقوله: {قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِن دُونِهِ}، وقوله: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ}، وغيرها من الآيات.

ومن أدلة توحيد الأسماء والصفات قوله تعالى: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، وقوله: {قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَآءُ الحُسْنَى}، وقوله: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}، وقوله: {اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَآءُ الحُسْنَى}، وقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، وآخر سورة الحشر، وغيرها من الآيات.

ومن الآيات التي جمعت أقسام التوحيد الثلاثة قول الله تبارك وتعالى في سورة مريم: {رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}.

يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللهُ مبينًا دلالة الآية على ذلك: "... اشتملت [أي الآية] على أصول عظيمة على توحيد الربوبية وأنَّه تعالى ربُّ كلِّ شيء وخالقُهُ ورازقُهُ ومدبِّره، وعلى توحيد الألوهية والعبادة وأنَّه تعالى الإله المعبود وعلى أنَّ ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده ولهذا أتى فيه بالفاء في قوله: {فَاعْبُدْهُ} الدالة على السبب أي فكما أنَّه ربُّ كلِّ شيء فليكن هو المعبود حقًّا فاعبده ومنه: الاصطبار لعبادته تعالى وهو جهاد النفس وتمرينها وحملها على عبادة الله تعالى فيدخل في هذا أعلى أنواع الصبر وهو الصبر على الواجبات والمستحبات والصبر عن المحرمات والمكروهات، بل يدخل في ذلك الصبر على البليات فإنَّ الصبر عليها وعدم تسخطها والرضى عن الله بها من أعظم العبادات الداخلة في قوله: {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}، واشتملت على

أنَّ الله تعالى كامل الأسماء والصفات عظيم النعوت جليل القدر وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سمي، بل قد تفرَّد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات"(١).

وفي بيان دلالة القرآن على أنواع التوحيد يقول العلاَّمة ابن القيم بعد أن ذكر أنَّ كلَّ طائفة تسمي باطلهم توحيدًا: "وأمَّا التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه، فوراء ذلك كله، وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات وتوحيد في المطلب والقصد.

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وعلوّه فوق سمواته على عرشه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جدّ الإفصاح. كما في أول سورة الحديد وسورة طه وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة {قُلْ يَأَيُّهَا الكَافِرُونَ}، وقوله: {قُلْ يَأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} الآية، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وأول سورة يونس ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولًا كليًّا: إنَّ كلَّ آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه؛ فإنَّ القرآن إمَّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإمَّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كلِّ ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإمَّا أمرٌ ونهيٌ وإلزامٌ بطاعته في نهيه

---

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ٤٤، ٤٥).

وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإمَّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإمَّا خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد(١).

فالقرآن كلُّه في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، ف {الْحَمْدُ للهِ} توحيد، {رَبِّ الْعَالَمِينَ} توحيد، {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} توحيد، {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} توحيد، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} توحيد، {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} توحيد، {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، الذين أنعم الله عليهم، {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّين} الذين فارقوا التوحيد. . . "(٢).

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد دلَّ استقراء القرآن العظيم على أنَّ توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فِطَرُ العقلاء، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ. . . }، وقال: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}.

---

(١) قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة كتابه القيّم "إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات" (ص:): "واعلم أنَّ إيراد الآيات القرآنية على إثبات كلِّ مقصد من هذه المقاصد، وإثبات اتفاق الشرائع عليها، لا يحتاج إليه من يقرأ القرآن العظيم؛ فإنَّه إذا أخذ المصحف الكريم وقف على ذلك في أيّ موضع شاء، ومن أيِّ مكان أحبَّ، وفي أيّ محل منه أراد، ووجده مشحونًا به من فاتحته إلى خاتمته".

(٢) مدارج السالكين (/ ٤٤٩، ٤٥٠).

وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} تجاهلٌ من عارفٍ أنَّه عبدٌ مربوبٌ؛ بدليل قوله تعالى: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَآءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ. . . } الآية، وقوله: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}، وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله؛ كما قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ}، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًا.

الثاني: توحيده جلَّ وعلا في عبادته. وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى "لا إله إلا الله" وهي متركبة من نفي وإثبات؛ فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جلَّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام. وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم {أَجَعَلَ الأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}.

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد قوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ. . . } الآية، وقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} الآية، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّه لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ}، وقوله: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ}، وقوله: {قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ}، فقد أمر في هذه الآية الكريمة أن يقول: إنَّما أوحي إليه محصور في هذا النوع من التوحيد؛ لشمول كلمة "لا إله إلا الله" لجميع ما جاء في الكتب؛ لأنَّها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده. فيشمل

ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة.

النوع الثالث: توحيده جلَّ وعلا في أسمائه وصفاته. وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:

الأول: تنزيه الله جلَّ وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم؛ كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه؛ أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله؛ كما قال بعد قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}: {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}، مع قطع الطمع عن إدراك كيفيَّة الاتصاف، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}، وقد قدمنا هذا المبحث مستوفى موضحًا بالآيات القرآنية في سورة الأعراف.

ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جلَّ وعلا على وجوب توحيده في عبادته؛ ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبيَّة باستفهام التقرير. فإذا أقرُّوا بربوبيته احتج بها عليهم على أنَّه هو المستحق لأنْ يعبد وحده. ووبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنَّه هو الربّ وحده؛ لأنَّ من اعترف بأنَّه الرب وحده لزمه الاعتراف بأنَّه هو المستحق لأن يُعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ} إلى قوله: {فَسَيَقُولُونَ اللهُ}: فلما أقروا بربوبيته وبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره بقوله: {فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}.

ومنها قوله تعالى: {قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ

لله}، فلما اعترفوا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: {قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ}، ثم قال: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ سَيَقُولُونَ للهِ}، فلما أقرُّوا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: {قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}، ثم قال: {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ للهِ} فلما أقرُّوا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: {قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}.

ومنها قوله تعالى: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ}، فلما صح الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: {قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا}.

ومنها قوله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، فلما صحَّ إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: {فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}.

ومنها قوله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، فلما صحَّ اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: {فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}، وقوله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ}، فلما صحَّ إقرارهم وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: {قُلِ الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}، وقوله: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، فلما صح اعترافهم وبخهم الله منكرًا عليهم بقوله: {قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}، وقوله تعالى: {ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا}، ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره: هو أنَّ القادر على خلق السموات والأرض وما ذكر معها خير من جماد لا يقدر على شيء. فلما تعيَّن اعترافهم وبخهم منكرًا

عليهم بقوله: {أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}، ثم قال تعالى: {أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا}، ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله. فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: {أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}، ثم قال جلَّ وعلا: {أَمَّن يُّجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأَرْضِ}، ولا شك أنَّ الجواب كما قبله. فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: {أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ}، ثم قال تعالى: {أَمَّن يَّهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُّرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ}، ولا شك أنَّ الجواب كما قبله. فلما تعين إقرارهم بذلك وبخهم منكرًا عليهم بقوله: {أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، ثم قال جلَّ وعلا: {أَمَّن يَّبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَّرْزُقُكُم مِّنَّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ}، ولا شك أنَّ الجواب كما قبله. فلما تعين الاعتراف وبخهم منكرًا عليهم بقوله: {أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، وقوله: {اللهُ الذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَّفْعَلُ مِن ذَالِكُم مِّن شَيْءٍ}، ولا شك أنَّ الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا، أي ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل شيئًا من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء. فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

والآيات بنحو هذا كثيرة جدًا. ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع: أنَّ كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهاماتُ تقريرٍ، يراد منها أنَّهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأنَّ المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة؛ نحو قوله تعالى: {أَفِي اللهِ شَكٌّ}، وقوله: {قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي

رَبًّا} وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار؛ لأنَّ استقراء القرآن دلَّ على أنَّ الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار؛ لأنَّهم لا ينكرون الربوبية، كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه.

والكلام على أقسام التوحيد ستجده إن شاء الله في مواضع كثيرة من

هذا الكتاب المبارك، بحسب المناسبات في الآيات التي نتكلم على بيانها بآيات أخر"[(١)]اهـ. كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ. وقد نقلت كلامه بطوله لأهميته، وقد نبَّه فيه رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنَّ أقسام التوحيد الثلاثة مأخوذة بالاستقراء لنصوص القرآن الكريم، وبهذا يعلم أن هذا التقسيم من الحقائق الشرعية المستمدة من كتاب الله تعالى، وليس أمرًا اصطلاحيًا أنشأه بعض العلماء[(٢)].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١١١-٤١٤).

(٢) وبهذا يعلم فساد ما قرره مؤلف كتاب "الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر" د. صلاح الصاوي حيث يقول (ص:): "فإنَّ هذا التقسيم اصطلاحي، الهدف منه تقريب القضية وتنظيم دراستها، كما اصطلح أهل العلم على أسماء اصطلاحية للعلوم. . . وعلى هذا فلا مشاحة في الاصطلاح، وليست هناك حدود فاصلة بين ما يدخل في توحيد الربوبية، وبين ما يدخل في توحيد الألوهية، وبين ما يدخل في توحيد الأسماء والصفات، بل إنَّ هذا التقسيم ابتداءً على هذا النحو لم يرد به فيما نعلم آية محكمة أو سنَّة متبعة، والعبرة كما يقولون بالمقاصد والمعاني، وليس بالألفاظ والمباني، هذا وإن كان تتابع أهل العلم على استخدام هذا التقسيم واستقراره عبر قرون طويلة يجعله جزءًا من التراث السلفي، فينبغي قبوله على أن لا يكون في ذاته معقد ولاء وبراء".

فجعل أصلحه الله هذا التقسيم تقسيمًا اصطلاحيًا، وليس حقيقة شرعية مأخوذة بالتتبع والاستقراء لنصوص الكتاب والسنة، بل تمادى في الباطل عند ما قال: "وليست هناك حدود فاصلة بين ما يدخل في توحيد الربوبية، وبين ما يدخل في توحيد الألوهية، وبين ما يدخل في توحيد الأسماء والصفات".

وإني لأعجب غاية العجب كيف يقول هذا من يتصدى لتوجيه مسيرة العمل الإسلامي =

قال الشيخ العلامة بكر أبو زيد حفظه الله: "هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما، وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرره الزبيدي في تاج العروس وشيخنا الشنقيطي في أضواء البيان في آخرين رحم الله الجميع، وهو استقراء تامٌّ لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كلِّ فنٍّ، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء"[(١)].

وما يؤمن بالتوحيد من لم يؤمن بهذه الأقسام الثلاثة المستمدة من نصوص الشرع، إذ التوحيد المطلوب شرعًا هو الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ومن لم يأت بهذا جميعه فليس موحدًا.

بل إنَّ كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" التي هي أصل الدين وأساسه قد دلت على أقسام التوحيد الثلاثة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وشهادة أن لا إله إلا الله فيها الإلهيات، وهي الأصول الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد

=

المعاصر، مع أنَّه في نفسه كما يصرح هنا لا يعرف حدودًا فاصلة بين أنواع التوحيد الثلاثة. وأيّ جناية على مسيرة العمل الإسلامي أشدّ من أن ينشر بين أهل الإسلام أنَّ أقسام التوحيد ليست من الثوابت، وليست من الأمور التي يعقد عليها الولاء والبراء، وأنَّها لم يرد بها آية محكمة أو سنَّة متبعة، وأنَّه ليس هناك حدود فاصلة بين هذه الأقسام، وأنَّها أمور اصطلح عليها بعض أهل العلم ولا مشاحة في الاصطلاح.

أليس في هذا خلخلة للصف وتوهين للاعتقاد وتقليل من شأن التوحيد فالله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل، وفي الكتاب المذكور أخطاء عديدة من هذا الجنس ليس هذا موطن بيانها.

(١) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير (ص: ٣٠).

الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل وما أنزل إليهم، وهي الأصول الكبار التي دلت عليها وشهدت بها العقول والفطر".

وأما وجه دلالة هذه الكلمة العظيمة على أقسام التوحيد الثلاثة فظاهر تمامًا لمن تأملها: فقد دلت على إثبات العبادة لله ونفيها عمن سواه، كما دلت أيضًا على توحيد الربوبية فإنَّ العاجز لا يصلح أن يكون إلهًا، ودلت على توحيد الأسماء والصفات فإنَّ مسلوب الأسماء والصفات ليس بشيء بل هو عدم محض، كما قال بعض العلماء: المشبه يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا، والموحد يعبد إله الأرض والسماء[1].

إذا تبين هذا وتقرر فليعلم أنَّ جعل الكاتب في كلامه المتقدم وفي طرَّة كتابه هذا من قبيل التثليث في التوحيد والعقيدة الإسلامية قولٌ في غاية الخبث والضلال والانحراف، حيث جعل العقيدة المستمدة من الكتاب والسنة مثل عقيدة النصارى المنحرفة الضالة. وقائل هذه المقالة الجائرة حقيق بأن يقطع لسانه ويكسر بنانه ويستتاب من مقالته هذه الشوهاء وضلالته العمياء. ثم ماذا سيقول الكاتب عن الآيات التي دلت على تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أنواع وتحدثت عن كل نوع على حدة. هل سيقول إنَّها دلت على التثليث. أو سيضيف إليها قيودات واستدراكات من عنده. ثم ماذا على من استدل بالقرآن في تقسيم التوحيد؟ لا ينكر هذا الأصل العظيم الثابت في القرآن والسنة إلا ضال منحرف.

---

(١) انظر: التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية للشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد (ص٩) ونص شيخ الإسلام نقلته عنه.

ثانيا: قال الكاتب في الصفحة الثالثة: "... وخصوصًا أنَّ هذا التقسيم لايعرف عند السلف البتة وإنما اخترع هذا التقسيم وانتشر بعد القرن السابع الهجري".

وقال في الصفحة السادسة: "ولم يذكر الله تعالى في كتابه ولا النبي ﷺ في سنته[1] أنَّ التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية وتوحيد أسماء وصفات، بل لم ينطق بهذا التقسيم أحد من الصحابة بل ولا أحد من التابعين، بل ولا أحد من السلف الصالح رضي الله عن الجميع بل إنَّ هذا التقسيم بدعة خلفية مذمومة حدثت في القرن الثامن الهجري، أي بعد زمن النبي ﷺ بنحو ثمانمائة سنة ولم يقل بهذا التقسيم أحد من قبل...".

وقال ص ٠: "ابن تيمية الذي اخترع تقسيم التوحيد إلى ألوهية وربوبية..".

قلت: أما الأدلة من الكتاب والسنة على هذا التقسيم فهي كثيرة لا تحصر يعرفها من لديه أدنى إلمام بنصوص الكتاب والسنة، بل إن من يحفظ فاتحة الكتاب[2] وسورة الناس يجد فيهما ما يشفي ويكفي من وضوح دلالة ونصوع برهان على هذا التقسيم، بل هو أكبر الحقائق الشرعية المقررة في الكتاب والسنة، وقد تقدم قريبًا شيء من أدلة القرآن الكريم على هذا التقسيم، وهذا لا يكابر فيه إلا ضالٌّ منحرفٌ لوضوحه وجلائه.

وأما قول الكاتب إنَّ هذا التقسيم اخترعه ابن تيمية، ولم يقل به أحد من السلف الصالح، ولم يوجد إلا في القرن الثامن الهجري فهذا دليل على قصور

---

(١) ونظير هذا قول الصاوي فيما تقدم: "بل إنَّ هذا التقسيم ابتداءً على هذا النحو لم يرد به فيما نعلم آية محكمة أو سنَّة متبعة...".

(٢) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٤) وما بعدها قوله: فصل في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة.

علمه وقلة خبرته ومعرفته بكتب السلف الصالح إذ هي مليئة بالتصريح تارة والإشارة تارة إلى هذه الأقسام، ولو ذهبت أنقل كل ما أعلمه من أقوالهم في ذلك لطال المقام، لكن حسبي أن أورد هنا بعض النقول ونزرًا يسيرًا من النصوص المشتملة على ذكر أقسام التوحيد الثلاثة لبعض الأئمة الذين كانوا قبل شيخ الإسلام ابن تيمية ليظهر كذب الكاتب وليبين جهله.

النص الأول: للإمام أبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري المتوفى سنة هـ.

فقد قال رَحِمَهُ اللهُ في كتابه "الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة" ما نصه: ". . . وذلك أنَّ أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته ليكون بذلك مباينًا لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعًا.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته ليكون مباينًا بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث: أن يعتقده موصوفًا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفًا بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه.

إذ قد علمنا أنَّ كثيرًا ممن يقر به ويوحده بالقول المطلق قد يلحد في صفاته فيكون إلحاده في صفاته قادحًا في توحيده.

ولأنَّا نجد الله تعالى قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة من هذه الثلاث والإيمان بها.

فأمَّا دعاؤه إياهم إلى الإقرار بربانيته ووحدانيته فلسنا نذكر هذا هاهنا لطوله

وسعة الكلام فيه، ولأنَّ الجهمي يدعي لنفسه الإقرار بهما وإن كان جحده للصفات قد أبطل دعواه لهما. . . "(١).

ثم أخذ يورد ما يدل على بطلان قول الجهمية في نفي الصفات. فهذا نص في غاية الوضوح في ذكر أقسام التوحيد الثلاثة.

وتأمل قول ابن بطة: "لأنَّ الجهمي يدعي لنفسه الإقرار بهما. . . " أي الربوبية والألوهية وإنما جحد توحيد الأسماء والصفات خلاف هذا المبطل الذي جحد وأنكر تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام وجعله من قبيل التثليث في العقيدة الإسلامية فكان بذلك الجهمية دونه في الضلال.

وتأمل قول ابن بطة: "ولأنَّا نجد الله قد خاطب عباده بدعائهم إلى اعتقاد كل واحدة من هذه الثلاثة والإيمان بها" ففيه أبلغ رد على الكاتب في قوله: "ولم يذكر الله في كتابه ولا النبي ﷺ في سنته أنَّ التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام. . . ".

وتأمل قوله في بداية كلامه: "وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء. . . " فنص رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أنَّ أقسام التوحيد الثلاثة هي أصل الإيمان الذي يجب على الخلق اعتقاده مع إثبات الإيمان بالله، ومعنى ذلك أنَّه لا إيمان لمن لم يأت بهذه الأمور الثلاثة ولا توحيد، إذ الإيمان والتوحيد هو إفراد الله وحده بهذه الأمور الثلاثة فمن لم يأت بتوحيد الربوبية فهو معطِّل للخالق مشرك في ربوبية الله، ومن لم يأت بتوحيد الألوهية فهو مشرك في ألوهية الله وعبادته كالمشركين عبدة الأصنام، ومن لم يأت بتوحيد الأسماء والصفات فهو كافر ملحد في أسماء الله وصفاته.

فكيف يقول مسلم عاقل إنَّ هذه الأمور لا أصل لها ولا أساس، ولا وجود

---

(١) الإبانة لابن بطة (٦٩٣) من النسخة الخطية، وفي مختصره (ق ١٥٠).

لها في الكتاب والسنة، فاللهم غفرًا.

النص الثاني: للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن يحيى بن مندة المتوفى سنة هـ.

ففي كتابه "كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته على الاتفاق والتفرد" ذكر أقسام التوحيد واستعرض كثيرًا من أدلتها في الكتاب والسنة بشرح وبسط لا مزيد عليه.

فمن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الربوبية ما يلي:

* ذِكْرُ ما وصف الله ﷻ به نفسه ودلَّ على وحدانيته ﷻ وأنَّه أحدٌ صمدٌ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

* ذكر معرفة بدء الخلق.

* ذكر ما يدل على أنَّ خلق العرش تقدم على خلق الأشياء.

* ذكر ما يدل على أنَّ الله قدر مقادير كل شيء قبل خلق الخلق.

* ذكر ما يستدل به أولو الألباب من الآيات الواضحة التي جعلها الله ﷻ دليلًا لعباده من خلقه على معرفته ووحدانيته من انتظام صنعته وبدائع حكمته في خلق السموات والأرض. . .

* ذكر ما بدأ الله ﷻ من الآيات الواضحة الدالة على وحدانيته.

* ذكر الآيات المتفقة المنتظمة الدالة على توحيد الله ﷻ في صفة خلق السموات التي ذكرها في كتابه وبينها على لسان رسوله ﷺ تنبيهًا لخلقه. ثم ذكر أبوابًا أخرى.

ومن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الألوهية ما يلي:

* ذكر معرفة أسماء الله ﷻ الحسنة التي تسمى بها وأظهرها لعباده للمعرفة

والدعاء والذكر.

* ذكر معرفة اسم الله الأكبر الذي تسمى به وشرفه على الأذكار كلها.

وذكر تحت هذا الباب ما يلي:

أ أقول النبي ﷺ: "أمرت أن أدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله".

ب قول النبي ﷺ: "بني الإسلام على شهادة أن لا إله إلا الله".

ج قول النبي ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت".

د قول النبي ﷺ لرجل: "قل ربي الله ثم استقم".

هـ قول النبي ﷺ لرجل: "الله يمنعني منك".

وقول النبي ﷺ "من كان حالفًا فليحلف بالله عز وجل ومن حلف بغير الله فقد أشرك".

ز قول النبي ﷺ: "اذكروا الله على جميع الأمور"، قال تعالى: {اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا}.

وذكر أمورًا أخرى كثيرة متعلقة بتوحيد الألوهية.

ومن الأبواب التي عقدها وهي متعلقة بتوحيد الأسماء والصفات ما يلي:

ذكر معرفة صفات الله عز وجل التي وصف بها نفسه وأنزل بها كتابه وأخبر بها الرسول ﷺ على سبيل الوصف لربه عز وجل مبينًا ذلك لأمته.

وذكر أبوابًا أخرى كثيرة في توحيد الأسماء والصفات، وكان قبل هذا ذكر جملة كبيرة من أسماء الله الحسنى.

قال شيخنا الدكتور علي بن ناصر فقيهي في مقدمة تحقيقه لكتاب ابن منده المتقدم: "ومؤلف هذا الكتاب عاش في القرن الرابع الهجري (٠-هـ) وقد

اشتمل كتابه على أقسام التوحيد التي ورد ذكرها في كتاب الله تعالى توحيد الربوبية توحيد الألوهية توحيد الأسماء والصفات فبدأ بقسم الوحدانية في الربوبية مستدلًا به على توحيد الله في الألوهية، ثم ذكر عنوانًا لتوحيد الأسماء ومنه دخل في توحيد الألوهية وذلك من الفصل الثاني والأربعين إلى الفصل الخمسين، ثم عاد لتكميل أسماء الله تعالى، ثم اتبعه بتوحيد الصفات حيث بحثه مستقلًا عن أسماء الله ﷻ، ثم عاد إلى توحيد الربوبية بالتصريح بذلك في آخر الكتاب ولم يخرج في استدلاله على ذلك عن كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ وأقوال السلف كما يجد ذلك القارئ في الكتاب.

وهذا التقسيم الذي شمله هذا الكتاب، ردٌّ على أبي حامد بن مرزوق الذي يقول في كتابه المسمى "التوسل بالنبي وجهالة الوهابيين": إنَّ تقسيم التوحيد إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية والقول بأنَّ المشركين كانوا مؤمنين بالأول دون الثاني ولم يدخلهم في الإسلام أنَّ ذلك بدعة ابتدعها ابن تيمية وقلده فيها محمد بن عبد الوهاب. . . "[1].

قلت: فلعل الكاتب تلقف فريته هذه من أبي حامد بن مرزوق، ونقلها عنه، فإنَّ أهل الأهواء يتوارثون بدعهم، كما يتوارث أهل السنة الحقَّ من مشكاة النبوة، ولكن فرق بين الإرثين:

شتان بين الوارثين وبين مو ... رثيهما وسهام ذي سهمان

النص الثالث: لإمام قبل هذين الإمامين وهو الإمام القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الكوفي صاحب أبي حنيفة المتوفى سنة هـ.

---

(١) انظر مقدمة كتاب التوحيد لابن مندة (١/ ٢٧-٢٨)، وانظر أيضًا ما ذكره شيخنا حفظه الله في وصف الكتاب ومباحثه (١/ ٣٣-٤٢).

فقد قال ابن مندة في كتابه التوحيد: أخبرنا محمد بن أبي جعفر السرخسي ثنا محمد بن سلمة البلخي ثنا بشر بن الوليد القاضي عن أبي يوسف القاضي أنَّه قال: "ليس التوحيد بالقياس ألم تسمع إلى قول الله ﷻ في الآيات التي يصف بها نفسه أنَّه عالم قادر قوي مالك ولم يقل: إني عالم قادر لعلةٍ كذا أقدر، بسبب كذا أعلم، وبهذا المعنى أملك، فلذلك لا يجوز القياس في التوحيد، ولا يعرف إلا بأسمائه، ولا يوصف إلا بصفاته، وقد قال الله تعالى في كتابه: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الذِي خَلَقَكُمْ وَالذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} الآية، وقال: {أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ}، وقال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ التِّي تَجْرِي فِي البَحْرِ} الآية.

قال أبو يوسف: لم يقل الله: انظر كيف أنا العالم وكيف أنا القادر وكيف أنا الخالق، ولكن قال: انظر كيف خلقت ثم قال: {وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ}، وقال: {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ} أي: تعلم أن هذه الأشياء لها ربٌّ يقلبها ويبديها ويعيدها وأنك مكون ولك من كونك. وإنما دل الله ﷻ خلقه بخلقه ليعرفوا أنَّ لهم ربًا يعبدوه ويطيعوه ويوحدوه، ليعلموا أنه مكونهم، لا هم كانوا، ثم تسمى فقال: أنا الرحمن وأنا الرحيم وأنا الخالق وأنا القادر وأنا المالك، أي: هذا الذي كونكم يسمى المالك القادر الله الرحمن الرحيم بها يوصف.

ثم قال أبو يوسف: يُعرف الله بآياته وبخلقه ويوصف بصفاته ويسمَّى بأسمائه كما وصف في كتابه، وبما أدَّى إلى الخلق رسوله.

ثم قال أبو يوسف: إن الله ﷻ خلقك وجعل فيك آلات وجوارح عجز بعض جوارحك عن بعض وهو ينقلك من حال إلى حال لتعرف أنَّ لك ربًا

وجعل فيك نفسك عليك حجة بمعرفته تتعرف بخلقه، ثم وصف نفسه فقال: أنا الرب وأنا الرحمن وأنا الله وأنا القادر وأنا المالك فهو يوصف بصفاته ويسمى بأسمائه، قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَآءُ الحُسْنَى}، وقال: {وَلِلَّهِ الأَسْمَآءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}، وقال: {لَهُ الأَسْمَآءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الْحَكِيمُ}، فقد أمرنا الله أن نوحده، وليس التوحيد بالقياس؛ لأنَّ القياس يكون في شيء له شبه ومثل، فالله تعالى وتقدس لا شبه له ولا مثل له تبارك الله أحسن الخالقين.

ثم قال: وكيف يدرك التوحيد بالقياس وهو خالق الخلق بخلاف الخلق ليس كمثله شيء تبارك وتعالى. وقد أمرك الله ﷻ أن تؤمن بكلِّ ما أتى به نبيه ﷺ فقال: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، فقد أمرك الله ﷻ بأن تكون تابعًا سامعًا مطيعًا ولو يوسّع على الأمة التماس التوحيد وابتغاء الإيمان برأيه وقياسه وهواه إذًا لضلوا، ألم تسمع إلى قول الله ﷻ: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}، فافهم ما فسر به ذلك"[١].

ورواه أيضًا الإمام الحافظ قوام السنة أبو القاسم إسماعيل التيمي الأصبهاني المتوفى سنة هـ في كتابه "الحجة في بيان المحجة وشرح التوحيد ومذهب أهل السنة" ولأهميته عنده خصه بفصل مستقل فقال: "فصل في النهي عن طلب

---

(١) التوحيد لابن مندة (٣/ ٣٠٤-٣٠٦).

كيفية صفات الله ﷻ" وذكره بإسناده من طريق السرخسي به[١].

وأثر أبي يوسف هذا الذي رواه هذان الإمامان عظيم القدر مشتمل على أقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

قال شيخنا الدكتور علي فقيهي في التعليق على هذا الأثر: ". . . وقد ذكر أبو يوسف كلامًا نفيسًا في باب التوحيد هو ظاهر في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات. فذكر أنَّ التوحيد لا يكون بالقياس، مبينًا أنَّ القياس لا يكون إلا إذا وجدت علة حيث قال: ألم تسمع إلى قول الله ﷻ في الآيات التي يصف بها نفسه أنَّه عالم قادر قوي ولم يقل إني قادر عالم لعلة كذا، أو أقدر بسبب كذا، قال: ولذلك لا يجوز القياس في التوحيد، ولا يعرف الله إلا بأسمائه، ولا يوصف إلا بصفاته، ثم ذكر أدلة ذلك، ثم قال: لم يقل الله انظر كيف أنا العالم وكيف أنا القادر، وإنما قال: انظر كيف خلقت. . . الخ إنما ذكره رحمه الله لا يحتاج لبيان فراجعه تجد فيه الردَّ على الملحدين في الربوبية وفي الأسماء والصفات مستدلًا بذلك على توحيد العبادة والطاعة لله وحده"[٢].

قلت: فهذه ثلاثة نصوص عن ثلاثة أئمة ماتوا قبل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٣]، الأولان منهم ماتا في القرن الرابع الهجري والثالث وهو أبو يوسف مات في القرن الثاني الهجري، وروى أثره التيمي وقد مات في القرن السادس

---

(١) انظر: الحجة للتيمي (١/ ١١١-١١٣).

(٢) انظر هامش كتاب التوحيد لابن مندة (٣/ ٣١٠).

(٣) وسيأتي قريبًا ذكر نص الإمام الطحاوي صاحب العقيدة الطحاوية في ذكر أقسام التوحيد الثلاثة، وقد توفي رحمه الله في أول القرن الرابع سنة هـ، وكذلك نص الإمام أبي حنيفة في ذلك، ونصوص أخرى.

وهي مشتملة على أقسام التوحيد الثلاثة بغاية الجلاء والوضوح فعلى مرِّ القرون أهل السنة والجماعة متتابعون على هذا التقسيم ليس بينهم خلاف فيه، ولا ينكر ذلك إلا مبتدع ضال منحرف.

وليت شعري ماذا سيقول الكاتب وأسلافه أمام هذه النصوص الواضحة الجلية عن أهل السنة والجماعة في تقسيم التوحيد؟ هل سيقول عن هؤلاء الأئمة "إنهم تبعوا ابن تيمية في مذهبه الباطل"؟! كما قد قال مثل ذلك بعض الجهلة مثله وقد أورد عليه نص من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: "ابن تيمية وهابي"!! وما ولد ابن عبد الوهاب إلا من بعده بقرون، فالله المستعان.

ثالثا: قال الكاتب في الصفحة الثالثة: "فاعلم أنَّ تقسيم التوحيد إلى هذه الأقسام الثلاث تقسيم غير صحيح تكلم به بعض متأخري المصنفين منهم صاحب شرح العقيدة الطحاوية ابن أبي العزِّ المنسوب للحنفية خطأ الذي ردَّ على صاحب الكتاب الأصلي الإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي رحمه الله تعالى أثناء شرحه على كتابه متن الطحاوية في التوحيد فزيف ابن أبي العزِّ بعض كلام أبي جعفر الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وظهر بثوب الدعوة إلى مذهب السلف الصالح فخالف حقيقة صريح الكتاب والسنة والإجماع وعقيدة أهل السنة والجماعة الواردة في كلام الإمام أبي جعفر الطحاوي. . . ".

وكرر مثل هذا الكلام ص ٦، وص ١٢، وص٤٥، وص: ٦٠، وكثيرًا ما يكرر ما يذكره لأغراض لعل منها تسمين الكتاب ونفخه كيفما اتفق.

وأقول:

أولًا: أمَّا قول الكاتب عن تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام بأنَّه تقسيم غير

صحيح، فهذا كلام من يهرف بما لا يعرف، ويتكلم بما لا يعلم وهو من القول على الله بلا علم في أصلِ الأصول وأعظم الأركان توحيد الله، وصغار تلاميذ أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان يعلمون صحة هذا التقسيم وأدلته من الكتاب والسنة، وقد سبق أن أوردت شيئًا منها فيما تقدم، والكاتب فيما ذكر يكشف عن قلة علمه وقصور فهمه في أظهر الأمور وأبينها.

ثانيًا: أما قوله: "تكلم به بعض متأخري المصنفين" فقد سبق نقض ذلك وبيان عدم صحته فيما تقدم، لكن أضيف هنا نصين آخرين لإمامين مشهورين الأول للإمام أبي حنيفة والثاني للإمام أبي جعفر الطحاوي رحمهما الله، وفيهما ذكر أقسام التوحيد الثلاثة كقول أهل السنة والجماعة سواء.

قال الإمام أبو حنيفة في كتابه الفقه الأبسط (ص٥١): "والله يدعى من أعلى لا من أسفل؛ لأنَّ الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء".

فقوله: "يدعى من أعلى لا من أسفل ..." فيه إثبات العلو لله، وهو من توحيد الأسماء والصفات، وفيه رد على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية وغيرهم من نفاة العلو.

وقوله: "من وصف الربوبية" فيه إثبات توحيد الربوبية.

وقوله: "والألوهية" فيه إثبات توحيد الألوهية.

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي (ته) في مقدمة متنه في العقيدة المشهور بالطحاوية: "نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره ...".

فقوله: "إن الله واحد لا شريك له" شامل لأقسام التوحيد الثلاثة، فهو سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيته، وواحد لا شريك له في ألوهيته، وواحد لا

شريك له في أسمائه وصفاته.

وقوله: "ولا شي مثله" هذا من توحيد الأسماء والصفات.

وقوله: "ولا شيء يعجزه" هذا من توحيد الربوبية.

وقوله: "ولا إله غيره" هذا من توحيد الألوهية.

فهذه أقسام التوحيد الثلاثة صريحة واضحة في نصي هذين الإمامين رحمهما الله.

وذكر الطحاوي في مقدمة متنه المذكور أنَّه مشتمل على: "بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، رضوان الله عليهم أجمعين، وما يعتقدون من أصل الدين، ويدينون به رب العالمين".

وقد قال الكاتب في الصفحة الثانية عشر: "اعلم أنَّ متن الطحاوية وهو الكتاب الذي صنفه أبو جعفر الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب صحيح مستقيم من أحسن كتب العقيدة التي تمثل اعتقاد السلف الصالح، ولأنَّه أعني الطحاوي ذكر في مقدمة ذلك الكتاب أنَّه عقيدة الإمام الأعظم أبي حنيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وصاحبيه محمد بن الحسن والقاضي أبي يوسف رحمهما الله تعالى ...".

فنقول له: إنَّ جميع هؤلاء الأئمة المذكورين قائلون بتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، موافقون لأهل السنة والجماعة فيه، فابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تبعٌ للجميع في ذلك، ولم يأت ببدع من الأمر كما زعمت وادَّعيت. فهؤلاء هم سلف ابن أبي العزِّ وأئمته في هذا التقسيم، فمن من السلف قال بإنكاره، سمهم لنا، ولن تجد أحدًا من السلف ينكر هذا التقسيم ولو بحثت في كتب أهل العلم ما حييت،

بل ستجد النصوص الكثيرة عنهم في ذكر هذا التقسيم اتباعًا للكتاب والسنة ولزومًا لما جاء فيهما، فهم يتبعون ولا يبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ومخالفوهم هم أهل البدع والأهواء، المشاقون لله ولرسوله، المتبعون غير سبيل المؤمنين.

وأيضًا من العلماء الذين جاء عنهم ذكر هذه الأقسام الإمام ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) في تفسيره في مواطن عديدة، والقرطبي في تفسيره في مواطن عديدة، وابن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ) في مقدمة كتابه "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء" حيث يقول: "الحمد لله المتفرد بوحدانية الألوهية، المتعزز بعظمة الربوبية، القائم على نفوس العالم بآجالها، والعالم بتقلبها وأحوالها، المانّ عليهم بتواتر آلائه، المتفضل عليهم بسوابغ نعمائه، الذي أنشأ الخلق حين أراد بلا معين ولا مشير، وخلق البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير فمضت فيهم بقدرته مشيئته، ونفذت فيهم بعزته إرادته. . . ".

فذكر الأقسام الثلاثة الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

وابن أبي زيد القيرواني المالكي (ت ٣٨٦هـ) في مقدمة عقيدته حيث قال: "من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له ولا نظير ولا ولد له ولا والد له، ولا صاحبة له ولا شريك له، ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انقضاء لا يبلغ كنه صفته الواصفون ولا يحيط بأمره المتفكرون ... إلى أن قال: ... تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنًا، خالقًا لكل شيء، ألا هو رب العباد ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم وآجالهم ...".

فذكر الأقسام الثلاثة.

وأبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي في مقدمة كتابه "سراج الملوك" (١/ ٧) حيث قال: "وأشهد له بالربوبيَّة والوحدانية، وبما شهد به لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والنعوت الأوفى".

فذكر الأقسام الثلاثة، والنقول في هذا كثيرة.

ثالثًا: وأمَّا قول الكاتب عن ابن أبي العزِّ إنَّه منسوب للحنفية خطأ فقد قاله جزافًا دون بحث أو تحقيق كما هي عادته، إذ لو طالع كتب التراجم في ترجمة ابن أبي العز لوجدها مليئة بما يبين كذبه وجهله، ومما جاء في كتب التراجم ويدل على حنفية ابن أبي العز ما يلي:

أ- كونه ينتمي لأسرة تتزعم المذهب الحنفي في دمشق فأبوه هو القاضي علاء الدين علي بن أبي العز الحنفي المتوفى سنة هـ خطيب جامع الأمزم ونائب الحكم القاضي عماد الدين الطرسوسي، وجده هو القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي العز أحد مشايخ الحنفية حكم نيابة نحوًا من عشرين سنة وهو أول من خطب بجامع الأمزم ودرَّس بالمعظمية واليغمورية والقليجية، وأبو جده هو محمد بن أبي العز صالح بن أبي العز الأوزعي، وكان المدرس الرابع بالمرشدية، ومن أولاد عمومته القاضي صدر الدين سليمان بن أبي العز أحد من انتهت إليه رياسة المذهب الحنفي في زمانه، والمفتي محمد بن سليمان بن أبي العز كان من كبار الحنفية، وعلى بن يوسف بن محمد بن سليمان بن أبي العز كان فقيهًا حنفيًا، فهو نشأ في كنف أسرة جميع أفرادها ينتحلون مذهب أبي حنيفة.

ب- كونه ولي التدريس بالمدارس الخاصة بالحنفيَّة، فقد درَّس بالقيمازية سنة (٧٤٨هـ) ودرَّس بالمدرسة الركنية سنة (٧٧٧هـ) ودرَّس بالعزية البرانية

سنة (٧٨٤هـ) ودرَّس بالجوهرية، وجميع هذه من مدارس الحنفية.

ج- كونه ولي قضاء الحنفية، وذلك آخر سنة (٧٧٦هـ) نيابة عن ابن عمه نجم الدين الذي نقل إلى قضاء مصر في شهر محرم سنة (٧٧٧هـ) ثم إنَّ نجم الدين استعفى من القضاء بعد مائة يوم، فنقل إلى دمشق، وولى مكانه ابن أبي العز شارح الطحاوية قضاء الحنفية بمصر في جمادى الآخرة من هذه السنة فباشر القضاء نحو شهرين ثم استعفى فأعفي وعاد إلى دمشق على وظائفه في القيمازية والجوهرية والخطابة.

د- من مؤلفاته "التنبيه على مشكلات الهداية" ذكره السخاوي وغيره، وكتاب الهداية من الكتب المعتمدة عند الحنفيَّة لمؤلفه علي بن أبي بكر الفرغاني المرغيناني الحنفي المتوفى سنة ٥٩٣هـ.

إلا أنه لم يكن متعصبًا للمذهب، ومن مؤلفاته القيمة في ذلك كتابه "الاتباع" "وهو رد على الرسالة التي أَلَّفها معاصره أكمل الدين محمد بن محمود بن أحمد الحنفي المتوفى سنة هـ، ورجح فيه تقليد مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وحض على ذلك وقد وجد فيها ابن أبي العز مواضع مشكلة فأحب أن ينبه عليها خوفًا من التفرق المنهي عنه واتباع الهوى المردي، وقد كان موفقًا كل التوفيق في هذا الرد، فإنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ نهج نهجًا علميًا ينبئ عن أدب جم، وقوة حجة، واتساع دائرة، وبراءة من التعصب المذموم، ورغبة ملحة في جمع القلوب، وإزالة العوائق".

والمقصود مما تقدم التنبيه على كذب الكاتب في دعواه أن ابن أبي العز منسوب إلى الحنفية خطًا.

رابعًا: وأما قول الكاتب عن ابن أبي العز إنه زيَّف كلام الإمام الطحاوي

وظهر بثوب الدعوة إلى مذهب أهل السنة والجماعة. فهذا من البهت والكذب، يُقصد من ورائه تزهيد الناس في هذا الكتاب العظيم والمؤلف القيم الذي لا نظير له في بابه، والذي هو بحق يدل على غزارة علم مصنفه، وسعة اطلاعه وحسن وصفاء عقيدته، وسلامة سلوكه ومنهجه، وقد عمَّ بحمد الله نفعه، وذاع صيته، وعظمت فائدته، وانتفع به خلق لا يحصون، ولعل ذلك يرجع إلى نصح مؤلفه وحسن قصده والله أعلم.

وقد سار في كتابه على نهج أهل السنة والجماعة ومشى على منوالهم، وأهل السنة والجماعة يعظمون الحق ويقدمونه على أقوال الرجال، ولا يقبلون من القول إلا ما وافق الكتاب والسنة وما سوى ذلك ردُّوه أيًّا كان قائله فالحق هو المعظَّم والمقدَّم عندهم "وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ".

وعليه فابن أبي العز لم يخطئ الطحاوي ولم يزيف كلامه كما زعم الكاتب، وإنما ذكر الحق والصواب في أمور قليلة يرى أنَّ الطحاوي أخطأ فيها، وليس هو بالمعصوم فهو بشر يخطئ ويصيب، ومن ذلك تنبيهه على الحق والصواب في تعريف الإيمان، وكذلك تنبيهه على قول الطحاوي: "وأهله في أصله سواء" وغير ذلك في مسائل يسيرة، وهذا عند المصنفين من أهل العلم يعد منقبة لابن أبي العز حيث لم يتعصب لقول إمامه بل تحرَّى الحق وقرر الصواب وإن كان مخالفًا لقول إمامه، وهذا عين العدل والإنصاف.

رابعا: نقل الكاتب ص: عن ملا علي القاري في كتابه شرح الفقه الأكبر (ص) أنه قال في شارح الطحاوية ابن أبي العز بأنه: "صاحب مذهب باطل، تابع لطائفة من المبتدعة".

قلت:

أولًا: لم يقل شارح الفقه الأكبر ملا علي القاري هذا الذي ذكره الكاتب، بل إنني وجدته في شرحه للفقه الأكبر ينقل في مواطن كثيرة عنه، وانظر على سبيل المثال الصفحات التالية (٣٠، ٣٢، ٣٩، ٥٧،٦٩ ، ١٣٠،١٣٦ ، ١٤٠، ١٥٢، ١٥٧) من شرح الفقه الأكبر.

لكن نظرًا لكون ملا علي القاري سار في عقيدته على طريقة الماتريدية في نفي العلو لعلوق شبههم به، فخالف بذلك أهل السنة والجماعة المثبتين لعلو الله على خلقه، ولهم على ذلك مئات الأدلة من الكتاب والسنة والعقل والنظر السليم[1] وليس هذا موضع بسطها، أقول: لما خالف القاري أهل السنة في ذلك قال معترضًا على شارح الطحاوية ابن أبي العز ما نصه "والحاصل أنَّ الشارح يقول بعلو المكان مع نفي التشبيه وتبع فيه طائفة من أهل البدعة".

قلت: بل تبع في ذلك أهل السنة والجماعة قاطبة.

ثم قال القاري بعد هذا بأسطر "... ومن الغريب أنَّه استدل على مذهبه الباطل (أي: في العلو) برفع الأيدي في الدعاء وهو مردود".

قلت: بل هو عين الصواب كما لا يخفى على كل صاحب سنة، والباطلُ ما سوى ذلك وهو قول أهل البدع.

وعلى كلٍّ فالكاتب لفقَّ من النصين المتقدمين كلامًا نسبه للقاري وهو أنَّه قال عن شارح الطحاوية بأنَّه "صاحب مذهب باطل، تابع لطائفة من المبتدعة" وجعل الكلام بين قوسين مؤكدًا أنَّ الكلام منقول من مصدره بالنص. وبالمقارنة بين ما نقله الكاتب هنا وبين ما ذكر القاري في كتابه شرح الفقه الأكبر

---

(١) انظرها مبسوطة في الحموية لابن تيمية، والعلو لابن قدامة، والعلو للذهبي، واجتماع الجيوش الإسلامية، وغيرها من كتب أهل السنة.

يتبين أنَّ الكاتب ملفِّقٌ مزوِّرٌ إذ كلام القاري خاص بمسألة العلو وهو مخطئ في ذلك، والكلام الذي أورده الكاتب عام مطلق، وفرق بين الأمرين كما لا يخفى.

ثانيًا: ومِمَّا يدلك أنَّ الكاتب محرِّف مزوِّر أنَّه لما احتاج إلى كلام القاري في الرد على ابن أبي العز في مسألة العلو نقل كلام القاري المتقدم نصًّا دون تحريف، وذلك في صفحة ٦٠ من كتابه حيث قال: "وقال الإمام المحدث ملا على القاري في شرح الفقه الأكبر مشنِّعًا على ابن أبي العز هذا شارح الطحاوية ومشوِّهها ما نصه (ص:١٧٢): "والحاصل أنَّ الشارح يقول بعلو المكان مع نفي التشبيه وتبع فيه طائفة من أهل البدع" ... الخ اه. فانظره.

وقال العلامة القاري أيضًا صحيفة ١٧٢: "ومن الغريب أنه استدل على مذهبه الباطل برفع الأيدي في الدعاء إلى السماء".اهـ. كلام الكاتب.

فقارن بين نقل الكاتب هنا، وبين نقله المتقدم، والإحالة في النقلين إلى صفحة واحدة يظهر لك كذب الكاتب وتلفيقه وغشه وتزويره، وقد قيل: "إن كنت كذوبًا فكن ذكورًا".

ثالثًا: نقول للكاتب إنَّ ملا علي القاري الذي نقلت قدحه في ابن أبي العز هو نفسه يقول بتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام في كتابه الذي نقلت منه نفسه، ففي شرح الفقه الأكبر ص: (٩، ١٠) يقول ملا علي القاري ما نصه: "أقول: فابتداء كلامه سبحانه وتعالى في الفاتحة بالحمد لله رب العالمين يشير إلى تقرير توحيد الربوبية المترتب عليه توحيد الألوهية المقتضي من الخلق تحقيق العبودية، وهو ما يجب على العبد أولًا من معرفة الله سبحانه وتعالى، والحاصل أنَّه يلزم من توحيد العبودية توحيد الربوبية دون العكس في القضية لقوله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، وقوله سبحانه وتعالى حكاية

عنهم {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، بل غالب سور القرآن وآياته متضمنة لنوعي التوحيد، بل القرآن من أوله إلى آخره في بيانهما وتحقيق شأنهما، فإن القرآن إمَّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإمَّا دعوته إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإمَّا أمر ونهي وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإمَّا خبر عن إكرامه لأهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في العقبى، فهو جزاء توحيده، وإمَّا خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب والسلاسل والأغلال فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كلّه في التوحيد وحقوق أهله وثنائهم، وفي شأن ذمِّ الشرك وعقوق أهله وجزائهم، ف {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} توحيد، {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} توحيد، {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} توحيد، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} توحيد، {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، {صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّين} الذين فارقوا التوحيد عنادًا وجهلًا وإفسادًا، وكذا السنة تأتي مبينة ومقررة لما دلَّ عليه القرآن، فلم يحوجنا ربنا سبحانه وتعالى إلى رأي فلان وذوق فلان ووجد فلان في أصول ديننا، ولذا نجد من خالف الكتاب والسنة مختلفين مضطربين بل قال الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا}، فلا نحتاج في تكمليه إلى أمر خارج عن الكتاب والسنة. . . ".اهـ. .

وقول القاري: "بل غالب سور القرآن. . . " إلى قوله: ". . . الذين فارقوا التوحيد" منقول نصًّا من كتاب مدارج السالكين للإمام العلامة ابن القيم (/ ٠)

وسبق أن نقلت نص كلام ابن القيم بتمامه من المدارج فيما تقدم.

وعليه فنقول للكاتب هل ترى أيضًا أن ملا علي القاري "صاحب مذهب باطل تابع لطائفة من المبتدعة"؟! وهل يشمله تنديدك لأنَّه سار على نهج شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم في هذا التقسيم؟!.

رابعًا: ولئن قلت جدلًا إنَّ الجميع قد تأثروا بهذه المدرسة (وأنعم بها من مدرسة) فما أنت قائل في الإمام أبي حنيفة وصاحبه القاضي أبي يوسف والإمام أبي جعفر الطحاوي رحمهم الله. وقد نقلت نصوصهم فيما تقدم، وفيها ذكر أقسام التوحيد الثلاثة؟! وجميع هؤلاء من أئمة الحنفيَّة وقد قالوا بالحق ونطقوا بالصواب واعتمدوا في ذلك على الكتاب والسنة ولم يلتفتوا إلى "رأي فلان وذوق فلان ووجد فلان في أصول الدين". فما أنت قائل؟

خامسًا: ونقول للكاتب أيضًا إنَّ المتكلمين الذين تعتزي إليهم وتنافح عنهم هم أنفسهم يقسمون التوحيد إلى ثلاثة أقسام. قال شيخ الإسلام: "فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع، فيقولون: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له"[1].

وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام عنهم موجود في كتبهم، يقول الشهرستاني: "وأمَّا التوحيد فقد قال أهل السنة وجميع الصفاتية: إن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له، وواحد في أفعاله لا شريك له"[2].

وتأمل كيف جعل هذه الأمور هي غاية التوحيد، وهذا من طريقة المتكلمين

---

(١) الفتاوى (١/ ٩٨).

(٢) الملل والنحل (١/ ٤٢).

فهم يقررون العقائد الفاسدة والآراء الكاسدة ثم ينسبون ذلك إلى الحق والسنة، فمراده بأهل السنة الأشاعرة، إذ أهل السنة الذين هم أهلها وأحق بها لم يفه أحد منهم بهذا الكلام المذكور.

وقال البيجوري وهو من المتكلمين: "ويجب في حقه تعالى الوحدانية في الذات وفي الصفات وفي الأفعال؛ ومعنى الوحدانية في الذات أنها ليست مركبة من أجزاء متعددة، ومعنى الوحدانية في الصفات أنه تعالى ليس له صفتان فأكثر من جنس واحد كقدرتين وهكذا، وليس لغيره صفة تشابه صفته تعالى، ومعنى الوحدانية في الأفعال أنَّه ليس لغيره فعل من الأفعال، وضدها التعدد"[١].

ثم إنَّ تقسيم هؤلاء المذكور ينطوي على أمور باطلة كثيرة ليس هذا موضع بيانها، لكن منها على سبيل المثال:

أ- إدخالهم نفي الصفات تحت قولهم "ولا شبيه له في صفاته" فصار عندهم مَن يقول: إنَّ لله علمًا وقدرة، أو أنَّه يُرى في الآخرة، أو أنَّ القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، أو أنَّ له وجهًا وسمعًا وبصرًا وغير ذلك من الصفات، مشبِّهًا ليس بِموحِّد!!.

قال ابن عبد البَر: "ويزعمون أنَّ من أقرَّ بها مشبه، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود"[٢].

ب- إدخالهم تحت قولهم: "هو واحد في ذاته لا قسيم له" نفي علو الله على عرشه، ومباينته لخلقه، وامتيازه عنهم، ونحو ذلك من المعاني المستلزمة لنفيه وتعطيله، ويجعلون ذلك من التوحيد، وغاية هذا التوحيد أنَّه ليس فوق

---

(١) رسالة في علم التوحيد "ضمن مجموع مهمات المتون!! " (ص٤٠).
(٢) التمهيد (٧/ ١٤٥).

العرش إلهٌ يُعبد ولا ربٌّ يُصلى له ويسجد!!

ج- إهمالهم في هذا التقسيم لذكر توحيد الألوهية والدعوة إلى إخلاص الدين لله وإفراده وحده بجميع أنواع العبادة، الذي هو زبدة دعوة الرسل وروحها، فهذا النوع من التوحيد لا ذكر له عندهم البتة.

د- أشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث وهو توحيد الأفعال، وهو أنَّ خالق العالم واحد، ويظنون أنَّ هذا التوحيد المطلوب، ومن المعلوم أنَّ المشركين لو أقروا بذلك كله لم يخرجوا من الشرك الذي وصفهم الله به في القرآن وقاتلهم عليه الرسول ﷺ ما لم يأتوا بتوحيد الألوهية هذا مع ما في تقسيمهم من أمور باطلة وعقائد منحرفة فاسدة سبق الإشارة إلى بعضها[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والمقصود هنا أنَّ "التوحيد" الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله وهو المذكور في الكتاب والسنة وهو المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام ليس هو هذه الأمور الثلاثة التي ذكرها هؤلاء المتكلمون، وإن كان فيها ما هو داخل في التوحيد الذي جاء به الرسول، فهم مع زعمهم أنهم "الموحدون" ليس توحيدهم التوحيد الذي ذكر الله ورسوله؛ بل التوحيد الذي يدعون الاختصاص به باطل في الشرع والعقل واللغة؛ وذلك أنَّ توحيد الرسل والمؤمنين هو عبادة الله وحده، فمن عبد الله وحده لم يشرك به شيئًا فقد وحده، ومن عبد من دونه شيئًا من الأشياء فهو مشرك به ليس بموحد مخلص له الدين، وإن كان مع ذلك قائلًا بهذه المقالات التي زعموا أنها التوحيد ..."[2].

---

(١) وانظرها في الفتاوى لابن تيمية (٣/ ٩٧ ، ١٠١).

(٢) نقض التأسيس (١/ ٤٧٨).

فنقول للكاتب: هؤلاء من تدافع عنهم قد قسموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام بلا مستند من الشرع مع ما اشتمل عليه تقسيمهم من أمور باطلة سبق التنبيه على بعضها، فهل تعد تقسيمهم هذا تثليثًا في التوحيد كما عددت تقسيم أهل السنة والجماعة للتوحيد تثليثًا مع أنَّ أهل السنة والجماعة مستندهم في ذلك الشرع، وهؤلاء لا مستند لهم سوى الهوى والعقل؟ وهل يشملهم تنديدك؟

أم أنَّك تنطلق في أحكامك من الهوى المجرد والشنآن والجور.

سادسًا: نقول لهذا الكاتب إنَّ أساس شبهة منكري تقسيم التوحيد ومنهم هذا الكاتب هي عين شبهة منكري أسماء الله وصفاته كالجهمية وغيرهم، حيث يدَّعون أنَّه يلزم من إثبات الأسماء والصفات تعدد القدماء(١)، حتى إن جهمًا شيخ القوم نقل عنه أنَّه قال: "لو قلت إنَّ لله تسعة وتسعين اسمًا لعبدت تسعة وتسعين إلهًا"(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجواب على هذه الشبهة: "فانظر إلى هذا التدليس والتلبيس الذي يُوهم السامع أنَّهم أثبتوا قدماء مع الله تعالى، إنَّما أثبتوا قديمًا واحدًا بصفاته، وصفاتُه داخلةٌ في مسمى اسمه، كما أنَّهم إنَّما أثبتوا إلهًا واحدًا ولَم يجعلوا كلَّ صفةٍ من صفاته إلهًا، بل هو الإله الواحد بجميع أسمائه وصفاته، وهذا بعينه متلقى من عُبَّاد الأصنام المشركين بالله تعالى المُكذِّبين لرسوله حيث قالوا: يدعو محمدٌ إلى إله واحد، ثم يقول: يا الله يا سميع يا بصير، فيدعو آلهةً متعدِّدة، فأنزل الله: {قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَآءُ الحُسْنَى}، فأيُّ اسمٍ دعوتموه به فإنَّما دَعَوْتُم المُسمَّى بذلك

---

(١) انظر في إبطال هذه الشبهة: الفتاوى لابن تيمية (٣/ ٢٣، ٢٤ و٦/ ١٠٩).

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣٧٨).

الاسم، فأخبر سبحانه أنَّه إله واحدٌ وإن تعدَّدت أسماؤه الحُسنى المشتقَّة من صفاته، ولهذا كانت حسنى. . . "[١].

وعلى كلٍّ فلا نعلم فرقًا بين قول جهم هذا، وبين قول تلاميذه من الجهمية المعاصرين الذين يزعمون أنَّه يلزم من إثبات الألوهية والربوبية والأسماء والصفات التعدد في التوحيد، فالشبهة واحدة، والتآخي ظاهر.

خامسا: قال الكاتب في الصفحة السادسة: "ولا بد أن نبطل هذا التقسيم للتوحيد في هذه المقدمة الصغيرة المتواضعة باختصار تلخيصًا للبحث الذي تحويه هذه الرسالة التي سنسلك فيها طريقة خير الكلام ما قلَّ ودلَّ فنقول وبالله تعالى التوفيق".

قلت: بنى الكاتب إنكاره لتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام على أمور أربعة ذكرها في أوائل رسالته تلو كلامه المتقدم[٢]، وكل أمر من هذه الأمور التي ذكر ينم عن جهل الكاتب وقلة علمه وقصور فهمه لنصوص الشرع في أعظم الأمور وأهمها وأجلِّها قدرًا وهو توحيد الله. ولئن كان الجهل قد بلغ بالكاتب هذا المبلغ في هذا الباب العظيم والركن المتين الذي لا يجهله صبية المسلمين فكيف الحال به إذن في أمور الدين الأخرى ومسائله العديدة؟!

وقد قال أهل العلم: "إنَّما يؤتى الرجل من سوء فهمه أو من سوء قصده أو من كليهما، فإذا اجتمعا كمل نصيبه من الضلال"[٣].

وسوء فهم هذا الرجل ظاهر من كتابه بلا امتراء، وأما سوء قصده فإن ما

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص:١١١).
(٢) وسيأتي ذكرها والرد عليها.
(٣) مختصر الصواعق المرسلة (ص:٤١٥).

اشتمل عليه كتابه من الكذب والغش والتدليس والتزوير على أهل العلم وغير ذلك أكبر مؤشرات إلى سوء القصد وأوضح دلالات عليه، والله من وراء كلِّ قائلٍ وقصده.

سادسا: قال الكاتب في الصفحة السادسة: "أولًا: لا يعرف في الشرع إطلاق اسم موحد على من كفر ولو بجزء من العقيدة الإسلامية وذلك بنص الكتاب والسنة، بل لا يجوز أن نقوِّل الشرع ما لم يقل ولم يَرِد، فلا يحل لنا أن نطلق على من كان يقر بوجود الله ويدرك أنَّه هو الإله المستحق للعبادة دون أن يذعن ويدخل في هذا الدين بأنَّه موحد. بل نطلق عليه أنَّه كافر، بدليل قول الله تعالى: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}.

فقد وصفهم الله تعالى بالكذب والكفر، بل وصفهم بصيغة مبالغة وهي (كفَّار) كما تقول: ضارب وضرَّاب.

فكيف يقال إنَّهم موحدون توحيد ربوبية والله تعالى وصفهم بالكفر صراحة؟ !!".

قلت: لم يصف أحد من أهل العلم من جاء بتوحيد الربوبية بأنَّه موحد هكذا على الإطلاق، وإنَّما يُوصف بالموحد عندهم من جاء بالتوحيد بأقسامه الثلاثة. وإنَّما يأتي في كلام أهل العلم عمن أثبت ربوبية الله وأنَّه وحده الخالق الرازق المالك المدبر لا شريك له ثم لم يفرده بالعبادة بأنَّه مقر بتوحيد الربوبية أو معترف بتوحيد الربوبية أو نحو ذلك، ولا يرون أنَّ هذا ينجيه من عذاب الله أو يخرجه من وصف الكفر.

قال شيخ الإسلام: "فأمَّا توحيد الربوبية الذي أقرَّ به الخلق وقرَّره أهل

الكلام فلا يكفي وحده، بل هو من الحجة عليهم"[(١)].

وقال ابن القيم: "وأمَّا توحيد الربوبية الذي أقرَّ به المسلم والكافر وقرره أهل الكلام في كتبهم فلا يكفي وحده، بل هو الحجة عليهم كما بين ذلك سبحانه في كتابه في عدة مواضع ..."[(٢)].

وقال الصنعاني في مقدمة كتابه تطهير الاعتقاد: "الحمد لله الذي لا يقبل توحيد ربوبيته من العباد حتى يفردوه بتوحيد العبادة كل الإفراد، فلا يتخذون له ندًّا ولا يدعون معه أحدًا ولا يتوكلون إلا عليه. . . ". وقول أهل العلم هذا أعني وصفهم لمن أثبت ربوبية الله وأنَّه الخالق الرزاق. . . الخ بأنَّه مقر بتوحيد الربوبية وإن كان مشركًا في العبادة قولٌ مطابق لما جاء في القرآن الكريم.

قال الله تعالى: {فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}.

قال ابن عباس: "أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنَّه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أنَّ الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه".

وقال قتادة: "أي تعلمون أنَّ الله خلقكم وخلق السموات والأرض ثم تجعلون له أندادًا".

وقال ابن جرير". . . ولكن الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه عنها أنَّها كانت تقر بالوحدانية غير أنَّها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها فقال جلَّ ثناؤه: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، وقال: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

(١) الفتاوى (١/ ٢٣).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٤٧).

وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} ".

وقال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}.

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: "يقول تعالى ذكره: وما يقر أكثر هؤلاء الذين وصف عَجَّلَ صفتهم بقوله: {وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُم عَنْهَا مُّعْرِضُونَ} بالله أنَّه خالقه ورازقه وخالق كل شيء إلا وهم به مشركون في عبادتهم الأوثان والأصنام واتخاذهم من دونه أربابًا وزعمهم أنَّ له ولدًا تعالى الله عما يقولون وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. . . ".

فروى عن ابن عباس أنَّه قال: "من إيمانهم إذا قيل لهم من خلق السماء، ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله وهم مشركون".

وعن عكرمة أنَّه قال: "تسألهم من خلقهم ومن خلق السموات والأرض فيقولون الله فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره".

وعن مجاهد قال: "إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره".

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: "ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله ويعرف أنَّ الله ربه، وأنَّ الله خالقه ورازقه وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: {أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ}، قد عرف أنَّهم يعبدون رب العالمين.

مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك إلا وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك، المشركون كانوا يقولون هذا".

ومِمَّا يدل على ما ذكره ابن زيد رَحِمَهُ اللهُ لفظةُ (شريك) في تلبيتهم فالشريك هو

المساوي، والمشركون يؤمنون بأنَّ الله هو الخالق الرازق المالك ويعبدونه، ويعبدون معه غيره فهذا شركهم كما في تلبيتهم التي أورد نصها ابن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولفظ الشريك يشعر بالإقرار بالله تعالى"(١).

قلت: هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ عند أهل العلم من الصحابة والتابعين وأتباعهم، أما الكاتب فقد حرَّف هذه الآية تحريفًا مشينًا وغيَّر معناها المراد حسب هواه وبدعته.

فقال ص: "وأمَّا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، فمعناه: وما يؤمن أكثرهم بالله في إقرارهم بوجود الخالق عند إقامة الحجة والبرهان عليهم تكذبه قلوبهم ويكذبه واقعهم، فإيمانهم أمامكم عند إقامة الحجة والبرهان على وجود الله تعالى بألسنتهم غير معتبر ولا مقبول عند الله تعالى. . . ".

قلت: فهذا تحريف سمج وتأويل باطل لهذه الآية الكريمة مخالف لما أجمع عليه المفسرون الذين نقلنا كلام بعضهم قريبًا، ترده نصوص كثيرة في كتاب الله فيها الإخبار عن اعتراف المشركين بوجود الله وأنَّه الخالق الرازق المدبر وقد تقدم شيء منها، ويرده تفسير الصحابة والتابعين لهذه الآية وقد تقدم.

والذي حمل الكاتب إلى تأويل هذه الآية هذا التأويل الباطل، هو اعتقاده أنَّ المشركين لم يكونوا يقرون بوجود الله أصلًا، وقد صرح الكاتب بذلك في مواضع من كتابه، ومن ذلك قوله ص: "لأنهم [أي المشركون] ما كانوا يقرون بوجود الخالق خلافًا لمن زعم أنَّهم كانوا موحدين توحيد ربوبية. . . ".

---

(١) تطهير الاعتقاد (ص:٣١).

وحسبك بمثل هذا الكلام دلالة على إغراق الرجل في العمى والجهل، إذ الكتاب العزيز مليء بالنصوص الدالة على اعتراف المشركين بربوبية الله وإيمانهم بها وأنَّه الخالق الرازق المدبر، فكيف بوجوده، ومع ذلك يقرر الكاتب هذا التقرير الفاسد.

وقد أورد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى: {الحَمْدُ للهِ الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}، أنَّه قال: "يريد عدلوا بي من خلقي الحجارة والأصنام بعد أن أقرّوا بنعمتي وربوبيتي"(١).

ومن أمثلة اعتراف المشركين بربوبية الله غير ما تقدم:

قول زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فلا تكتمنَّ الله ما في نفوسكم ... ليخفى فمهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم حساب أو يعجل فينقم

قال ابن كثير وقد أورد هذين البيتين:

"فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة"(٢).

قال ابن جرير: "وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهلاء:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ... ألا قضب الرحمن ربي يمينها

وقال سلامة بن جندل الطهوي:

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/ ٢٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٨).

عجلـتم علينـا عجلتينـا علـيكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق"[(١)].

والشواهد على هذا كثيرة، ومع ذلك فهم مشركون لأنهم يعبدون مع الله غيره.

ويقول الكاتب في الصفحة العاشرة في إنكار اعتراف المشركين بوجود الله: "بل بلغ من كفرهم ما أخبر الله تعالى عنهم في كتابه العزيز إذ قال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا}، فهل هؤلاء يقولون بوجود الرحمن الرحيم؟!!.

قلت: وهذا الكاتب يكتب حسب هواه دون رجوع إلى كلام أهل العلم أو استفادة من تفسيرهم وهذا من أسباب ضلاله وانحرافه.

يقول ابن جرير في تفسيره: "وقد زعم بعض أهل الغبا أنَّ العرب كانت لا تعرف الرحمن، ولم يكن ذلك في لغتها، ولذلك قال المشركون للنبي ﷺ وما الرحمن، أنسجد لما تأمرنا؟ إنكارًا منهم لهذا الاسم، كأنَّه كان محالًا عنده أن ينكر أهل الشرك ما كانوا عالمين بصحته أو كأنَّه لم يتل من كتاب قول {الذِينَءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ} يعني محمدًا، {كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ}، وهم مع ذلك به مكذبون ولنبوته جاحدون فيعلم بذلك أنَّهم قد كانوا يدافعون حقيقة ما قد ثبت عندهم صحته واستحكمت لديهم معرفته. . . "، ثم أورد البيتين السابقين.

وقال ابن كثير: "وقد زعم بعضهم أنَّ العرب لا تعرف الرحمن حتى ردَّ الله عليهم ذلك بقوله: {قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَآءُ الحُسْنَى}، ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعليٍّ:

---

(١) تفسير ابن جرير (١/ ٥٨).

اكتب: {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، فقالوا: "لا نعرف الرحمن ولا الرحيم"، رواه البخاري، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، وقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا}.

والظاهر أنَّ إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم، فإنَّه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن...".

قلت: والكاتب ليس ينكر معرفة المشركين ب "الرحمن" فيكون من أولئك الذين وصفهم ابن جرير بالغباء، وإنَّما ينكر ما هو أعظم من ذلك وهو اعترافهم بوجود الله أصلًا فكذب القرآن والواقع، ولست أدري إذًا بما يوصف.

سابعا: قال الكاتب في الصفحة السابعة: "ثانيًا: هؤلاء الكفار الذي كانوا يقولون فيما وصفهم الله تعالى بقوله: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} والذين يقولون: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، ما كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وما كانوا يقرون بوجود الله، ولذلك أدلة سأوردها الآن إن شاء الله تعالى، وإنما قالوا ذلك عند محاججة النبي ﷺ ومجادلته إياهم التي تثبت وجود الله تعالى وتبطل إلهية ما يعبدون من دونه...".

قلت: هذه مكابرة من الكاتب، ودعوى لا خطام لها ولا زمام، وقد ذكرت فيما سبق من الأدلة وأقوال أهل العلم ما يكفي في بيان كذب دعواه، لكن أذكر هنا تفسير أهل العلم للآيتين اللتين ذكرهما الكاتب آنفًا،

ثم تعسف في فهمهما فقال: "إنما قالوا ذلك عند محاججة النبي ﷺ ومجادلته إياهم. . . "، أي: أنَّهم لا يعترفون بوجود الله وإنَّما قالوا ذلك

محاججة ومجادلة!!.

يقول ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ الآيات: "يقول تعالى مقررًا أنَّه لا إله إلا هو، لأنَّ المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون أنَّه المستقل بخلق السموات والأرض

والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار، وأنَّه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلا منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر. فذكر أنَّه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها. فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنَّه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيرًا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك كما كانوا يقولون في تلبيتهم: "لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما الربوبية فكانوا مقرين بها، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾، وقال: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ للهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾، وما اعتقد أحد منهم قط أنَّ الأصنام هي التي تنزل الغيث وترزق العالم وتدبره، وإنَّما كان شركهم كما ذكرنا اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله"(١).

وقال المقريزي: "ولا ريب أنَّ توحيد الربوبية لم ينكره المشركون بل أقروا

---

(١) الفتاوى (١/ ٩١-٩٢).

بأنَّه سبحانه وحده خالقهم وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنَّما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة"(١).

وقال الإمام الصنعاني: "الأصل الرابع: أنَّ المشركين الذين بعث الله الرسل إليهم مقرون أنَّ الله خالقهم {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، وأنَّه هو الذي خلق السموات والأرض {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}، وأنَّه الرزاق الذي يخرج الحيَّ من الميت، ويخرج الميت من الحيّ، وأنَّه الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، وأنَّه الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}، {قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}..."(٢).

فهذا بعض كلام أهل العلم في معنى قوله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ} ونحوها من الآيات، وفيه أبلغ رد على الكاتب في دعواه أنَّهم إنَّما ذكروا ذلك على سبيل المحاججة.

وأما قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَي اللهِ زُلْفَى}، فيقول ابن كثير في معنى هذه الآية: "ثم أخبر تعالى عن عبَّاد الأصنام

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص٨).

(٢) تطهير الاعتقاد (ص٣٢).

من المشركين أنَّهم يقولون {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، أي: إنَّما يحملهم على عبادتهم لهم أنَّهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلًا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا، فأمَّا المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به، قال قتادة والسديّ ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: {إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، أي: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة.

ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: "لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك تملك وما ملك"[1].

قلت: ففي هذا أبلغ ردٍّ على الكاتب في دعواه أنَّ المشركين لم يكونوا مقرين بأنَّ الخالق الرازق هو الله. ثم إنَّه لم يذكر دليلًا على دعواه هذه إلا قوله: "... ولو كانوا مقرين بأنَّ الله سبحانه وتعالى هو خالق السموات والأرض وما فيهنَّ لما ذكر لهم تلك الآيات الآمرة بالتفكر في الإبل كيف خلقت وفي الجبال كيف نصبت وفي الأرض كيف سطحت وفي السماء كيف رفعت".

قلت: وجواب هذا أنَّ المقصود بذلك هو التفكر الحامل على إفراده بالعبادة لا على إثبات الخالق لأنَّ هذا معلوم لهم ولأنَّه لا يكفي، وقد تقدم في كلام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ قوله: "فإذا كان الأمر كذلك [أي: أن الله الخالق الرازق المدبر] فلم يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنَّه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيرًا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية" وهو كثير في القرآن كما ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ، ومن ذلك قوله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}، وقوله: {يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٧٥).

خَلَقَكُمْ وَالذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}، أي: فلا تجعلوا شركاء مع الله في العبادة وأنتم تعلمون أنَّه لا خالق لكم غير الله، وقد مضى تفسير ابن عباس وغيره للآية بهذا.

فتذكير الله في القرآن بآياته وأمره بتدبرها له دلالته، إذ هذا النظر والتدبر مستلزم إفراده بالعبادة وإخلاص الدين له لمن عقل، فكما أنَّه لا شريك له في الملك والخلق وهذا متقرر عند كل أحد إلا من شاء الله فكذلك لا شريك له في الطاعة والعبادة.

قال شيخ الإسلام: ". . . ولهذا إنما بُعث الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، الذي هو المقصود المستلزم للإقرار بالربوبية، وقد أخبر عنهم أنَّهم {لَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، وأنَّهم إذا مسَّهم الضر ضلَّ من يدعون إلا إيَّاه، وقال: {وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، فأخبر أنَّهم مقرون بربوبيته وأنَّهم مخلصون له الدين إذا مسَّهم الضر، في دعائهم واستعانتهم ثم يعرضون عن عبادته في حال حصول أغراضهم. . . "[1].

ثم قال الكاتب بعد كلامه المتقدم: "فقولهم عند سؤال النبي لهم وقت إلزامهم الحجة في المناظرة: من خلق السموات والأرض؟! فيقولن الله، وقولهم: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} ما هو إلا كذبٌ وكفرٌ بنص القرآن الكريم، حيث قال الله تعالى في آخر الآية {إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} كما قال سبحانه: {يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ} . . . ".

قلت: وهذا خلط عجيب وجهل مركَّب؛ إذ عدَّ اعتراف المشركين بوجود

---

(١) الفتاوى (١٤/ ١٤، ١٥).

الله نوعًا من الكفر بينما هو من التوحيد الواجب، وقد سَمَّاه الله إيمانًا فقال: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ}، لكن لم يك ينفعهم ولم يخرجهم من وصف الكفر لكونهم عبدوا مع الله غيره لهذا يقول شيخ الإسلام: ". . . فلا ريب أنَّه [أي: اعتراف المشركين بأنَّ الخالق الله] من التوحيد الواجب، وهو الإقرار بأنَّ خالق العالم واحد، لكنه هو بعض الواجب، وليس هو الواجب الذي به يخرج الإنسان من الإشراك إلى التوحيد، بل المشركون الذين سماهم الله ورسوله مشركين، وأخبرت الرسل أنَّ الله لا يغفر لهم، كانوا مقرين بأنَّ الله خالق كلِّ شيء فهذا أصل عظيم يجب على كل أحد أن يعرفه، فإنَّه يُعرف به التوحيد الذي هو رأس الدين وأصله"(١).

فاعتراف المشركين بأنَّ الله الخالق الرازق المدبر كلّ ذلك من الإيمان المأمور به شرعًا إلا أنَّه لا ينفعهم ما لم يأتوا معه بلازمه توحيد الإلهية، ولذا وصفوا في القرآن والسنة بأنَّهم كفَّار مشركون فوصفهم بالكفر في القرآن ليس لإقرارهم بربوبية الله كما فهم الكاتب وإنَّما هو لشركهم في عبادة الله وعدم إخلاصهم الدين له، "مع أنَّ الشرك في الربوبية لازم لهم في جهة إشراكهم في الإلهية وكذا في الأسماء والصفات، إذ أنواع التوحيد متلازمة لا ينفك نوع منها عن الآخر، وهكذا أضدادها فمن ضاد نوعًا من أنواع التوحيد بشيء من الشرك فقد أشرك في الباقي، مثال ذلك في هذا الزمن عبَّاد القبور إذا قال أحدهم: يا شيخ فلان لذلك المقبور أغثني أو افعل لي كذا ونحو ذلك يناديه من مسافة بعيدة وهو مع ذلك تحت التراب وقد صار ترابًا.

فدعاؤه إيَّاه عبادة صرفها له من دون الله لأنَّ الدعاء مخ العبادة، فهذا شرك

(١) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٧٨).

في الإلهية، وسؤاله إياه تلك الحاجة من جلب خير أو دفع ضر أو رد غائب أو شفاء مريض أو نحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله معتقدًا أنَّه قادر على ذلك هذا شرك في الربوبية حيث اعتقد أنَّه متصرف مع الله تعالى في ملكوته. ثم إنَّه لم يدعه هذا الدعاء إلا مع اعتقاده أنَّه يسمعه على البعد والقرب في أيّ وقت كان وفي أيّ مكان ويصرحون بذلك، وهذا شرك في الأسماء والصفات حيث أثبت له سمعًا محيطًا بجميع المسموعات لا يحجبه قرب ولا بعد، فاستلزم هذا الشرك في الإلهية الشرك في الربوبية والأسماء والصفات"(١).

ثمَّ إنَّ الكاتب بل والمتكلمين عمومًا لا يولون توحيد الإلهية الذي أنكره المشركون أيّ اهتمام، وإن تكلموا فيه تكلموا بجهل، وأدخلوا فيه ما هو نقيضه وضده.

وعلى سبيل المثال يقول الكاتب ص٢٥: "وأمَّا الدعاء فليس جميعه عبادة إلا إذا دعونا من نعتقد فيه صفات الربوبية أو صفة واحد منها".

ويقول ص٢٦: "وإنما يكون الدعاء عبادة إذا كان لله أو لمن يعتقد الداعي أن للمدعوّ صفة من صفات الربوبية".

ويقول ص٢٧: "فاتضح أنَّ مجرد النداء أو الاستغاثة أو الاستعانة أو الخوف أو الرجاء أو التوسل أو التذلل لا يسمى عبادة".

ويقول ص٢٨: "وملخص ما مرَّ أنَّ العبادة في اللغة هي مطلق الطاعة والخضوع لأيّ أحد كان بخلاف العبادة في اصطلاح الشرع فهي غاية التذلل والخضوع لمن يعتقد الخاضع له بعض صفات الربوبية، فإذا فهمت ذلك علمت يقينًا أنَّ من أطاع أحدًا وخضع له لا لاعتقاده أنَّ له بعض صفات الربوبية

---

(١) معارج القبول للشيخ حافظ حكمي (١/ ٤٣٥).

لا يسمى عابدًا له شرعًا. . . ".

وعلى هذا النهج ذكر أمورًا كثيرة.

ومن يوازن بين أقوال الكاتب هذه وبين قول الخميني داعية الرفض في كتابه "كشف الأسرار" (ص:٤٩) حيث قال: "وبعد أن تبين أنَّ الشرك هو طلب الشيء من غير رب العالمين على أساس كونه إلهًا فإنَّ ما دون ذلك ليس بالشرك، ولا فرق في ذلك بين حيٍّ وميِّت، فطلب الحاجة من الحجر أو الصخر ليس شركًا..." يجد أنَّ القولين كما قال الشاعر:

رضيعي لبان ثدي أمٍّ تقاسما … بأسحم داج عوض لا نتفرق

وأقول: يالله للعجب لا يكون صرف العبادة لغير الله شركًا حتى يعتقد العابد فيمن عبده أنَّ له شيئًا من صفات الربوبية، وأمَّا من دعا غير الله أو استغاث بغير الله أو استعان بغير الله أو رجا غير الله أو خاف غير الله من قبر أو شجر أو حجر فإنَّ ذلك لا يكون شركًا ما لم يعتقد العابد فيها أنَّ لها شيئًا من صفات الربوبية، وعلى هذا فقول النبي ﷺ: "من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النَّار" ينقصه هذا القيد "وهو أن يعتقد في المدعو شيئًا من صفات الربوبية"!!.

وهل أهل العلم من الصحابة والتابعين وأتباعهم لم يفطنوا لهذا القيد ولا عرفوه حتى جاء هذا الكاتب وأمثاله في القرن الرابع عشر فنبهوا عليه "لقد جئتم ببدعة ظلمًا، أو فقتم أصحاب محمد علمًا"! فسبحان الله هدى من شاء إلى الحق بفضله وخذل من شاء من الخلق بعدله، له الحكمة البالغة.

وعلى كلٍّ فهذه الدعوى التي ادَّعاها الكاتب وانتصر لها هي دعوى كاذبة مناقضة لأصول الدين ومخالفة لأسسه وقواعده، ومضادة لأدلة الكتاب والسنَّة؛ فإنَّ نصوص القرآن الكريم المشتملة على الدعوة إلى إخلاص الدين لله وإفراده

وحده بجميع أنواع العبادة وهي كثيرة جدًا فيها أبلغ رد على الكاتب في دعواه المتقدمة.

ومن ذلك قول الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالذِينَءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ}.

ففي هذه الآية "يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا أندادًا، أي: أمثالًا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضدَّ له ولا ندَّ له، ولا شريك معه، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أيّ الذنب أعظم؟ قال: "أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك". وقوله: {وَالذِينَءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ} ولحبهم لله وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئًا، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه"[(١)].

فالعبادة بأنواعها حقٌّ خالصٌ لله لا يجوز صرفها لغيره سواء اعتقد العابدُ في معبوده أنَّه ربٌّ أو لم يعتقد، وهذا أمرٌ معلومٌ من الدين بالضرورة.

قال شيخ الإسلام: "فإنَّ المسلمين متفقون على ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام أنَّ العبد لا يجوز أن يعبد ولا يدعو ولا يستغيث ولا يتوكل إلا على الله، وأنَّ من عبد ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا أو دعاه أو استغاث به فهو مشرك، فلا يجوز عند أحد من المسلمين أن يقول القائل يا جبرائيل أو يا ميكائيل أو يا إبراهيم أو يا موسى أو يا رسول الله اغفر لي أو ارحمني أو ارزقني أو انصرني أو أغثني أو أجرني من عدوي أو نحو ذلك، بل هذا كله من خصائص الإلهية وهذه

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٩١).

مسألة شريفة معروفة قد بينها العلماء. . . "[١].

وأمَّا القيد الذي وضعه الكاتب فلا أصل له ولا أساس، فإنَّ المشركين زمن النبي ﷺ لم يكونوا يعتقدون في آلهتهم أنَّها تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت أو تدبر الأمر، بل كانوا يعتقدون أنَّ ذلك من خصائص الله كما سبق إيراد النصوص بذلك، وإنَّما كان شركهم في دعوتها وعبادتها من دون الله بحجة أنَّها تقربهم إلى الله زلفى.

قال شيخ الإسلام: "وكانوا [أي: المشركون] معترفين بأنَّ آلهتهم لم تشارك الله في خلق السماوات والأرض، ولا خلق شيء، بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط. كما قال تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلآءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ}. . . "[٢]، وذكر نصوصًا أخرى.

يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمهم الله في إبطال هذه الشبهة: "والشرك جعل شريكٍ لله تعالى فيما يستحقه، ويختص به من العبادة الباطنة والظاهرة، كالحب، والخضوع، والتعظيم، والخوف، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والنسك، والطاعة، ونحو ذلك من العبادات. فمتى أشرك مع الله غيره في شيء من ذلك فهو مشرك بربه قد عدل به سواه وجعل له ندًّا من خلقه، ولا يشترط في ذلك أن يعتقد له شركة في الربوبية، أو استقلالًا بشيء منها.

والعجب كل العجب أنَّ مثل هؤلاء يقرؤون كتاب الله، ويتعبدون بتلاوته، وربما عرفوا شيئًا من قواعد العربية، وهم في هذا الباب من أضلِّ خلق الله

---

(١) الفتاوى (١/ ٢٧٢).

(٢) الفتاوى (٧/ ٧٩).

وأبعدهم عن فهم وحيه وتنزيله"(١).

وبهذا يعلم فساد قول الكاتب، وأنَّه فتحٌ لباب الشرك على مصراعيه عياذًا بالله من سخطه وأليم عقابه.

ولست هنا بصدد جمع النصوص الواردة في الكتاب والسنة، المبطلة للشرك بجميع أنواعه، سواءً في الدعاء أو في غيره، وليس في شيء منها ذكرٌ لهذا القيد الذي أورده الكاتب، لكن لا بأس من إيراد دليل واحد منها وصفه بعض محققي أهل العلم بأنَّ فيه قطعًا لشجرة الشرك من عروقها، ألا وهو قول الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}، ففي هذا النص الكريم اجتثاث لشجرة الشرك، وقطع لها من أصولها، وإبطال لكل أساس يتعلق به من يدعون غير الله، إذ من يدعو غير الله أيًا كان هذا الغير سواء كان ملكًا مقربًا، أو نبيًا مرسلًا، أو وليًّا، أو شجرًا، أو حجرًا، أو غير ذلك مطالَبٌ أن يثبت فيمن يدعوه أحد أمور أربعة فإن أثبتها أو شيئًا منها وهيهات حُقَّ له دعاؤه، وإلا فدعاؤه باطل وضلال، وهي شروط مهمة لا بدَّ من توفرها في المدعو حتى يقدر على إجابة من دعاه:

الأول: الملك، فنفاه الله بقوله: {لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ}.

الثاني: إذا لم يكن مالكًا فيكون شريكًا للمالك، فنفاه بقوله: {وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ}.

---

(١) تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جريس (ص:٥٩).

الثالث: إذا لم يكن مالكًا ولا شريكًا للمالك، فيكون عونًا ووزيرًا له، فنفاه بقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

الرابع: إذا لم يكن مالكًا ولا شريكًا للمالك ولا عونًا، فيكون شفيعًا، فنفى سبحانه وتعالى الشفاعة عنده إلا بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع ابتداء فيشفع[1].

فبِنَفْيِ هذه الأمور بطلت دعوة غير الله، وقد نفيت نفيًا مرتبًا من الأعلى إلى ما دونه، وهي عامة في كلّ المدعوين من دون الله كما هو ظاهر من السياق الكريم، والآيات في هذا المعنى كثيرة، ولكن يأبى دعاة الباطل وأنصار الضلال إلا الصدود عن الحق المبين إلى شبهات ما أنزل الله بها من سلطان، لا ينشأ عنها إلا الهضم لحق الربوبية، والتنقص لعظمة الألوهية، وسوء الظنّ بخالق هذه الأكوان.

ثامنا: قال الكاتب في الصفحة التاسعة: "ثالثًا: أنَّ أولئك الكفار اشتهر عنهم أنَّهم كانوا يعبدون الأصنام ويحجون لها ويتقربون إليها ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾، بل واشتهر عنهم أنَّهم كانوا يقولون: ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر، قال الله تعالى مخبرًا لنا عنهم ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾. بل قال للنبي ﷺ أحدهم ﴿مَن يُّحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، فردَّ الله عليه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، فهل يجوز لنا بعد هذا أن نصف من لا يقر بأنَّ الله خالق ومحيي بأنَّه موحد توحيد ربوبية، والله تعالى يقول عنه: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ !. . . ".

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٩٠).

قلت: واشتهر عنهم أيضًا أنَّهم يقولون {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، وقد سبق بيان تفسير هذه الآية بنقل كلام أهل العلم فيها حيث قال ابن كثير: "فعبدوا تلك الصور تنزيلًا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا، فأمَّا المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به".

وسبق ذكر نصوص كثيرة من القرآن فيها دلالة على اعترافهم بأنَّ الخالق الرازق المدبر هو الله، وسبق ذكر تلبيتهم في الحج، وشيء من أشعارهم الدالة على اعترافهم بوجود الله.

وأمَّا البعث والمعاد فكان أكثرهم منكرين له غير مؤمنين به، وذِكْرُ هذا والرد عليهم فيه جاء في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، لكنْ فرقٌ بين إنكارهم البعث والمعاد وبين إنكار وجود الله وأنَّه الخالق الرازق، فالأول ينكره المشركون، ولا يؤمنون به كما هو صريح نص القرآن الكريم، والثاني يؤمن به المشركون ولا ينكرونه كما هو صريح نص القرآن الكريم، والأدلة على هذا كثيرة وقد تقدم شيء منها، وقد تقدم في كلام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ جمعه بين الأمرين: إثبات أنَّ المشركين يعترفون بوجود الله وأنَّه الخالق الرازق مع إثبات إنكارهم البعث والمعاد.

وعلى هذا فالاستدلال بالنصوص المثبتة لإنكار المشركين للبعث والمعاد على أنَّهم ينكرون وجود الخالق الرازق خلطٌ بيِّنٌ، وغلطٌ ظاهرٌ، إذ لا تلازم بين إنكار البعث وإنكار الربوبية.

ثم هنا أمر لا بد من تقريره وإيضاحه وهو أنَّ قول أهل العلم عن المشركين بأنَّهم يعترفون بتوحيد الربوبية ليس المراد به أنَّهم اعترفوا بهذا القسم من

التوحيد على التمام والكمال، فهذا لا يقول به أحد من أهل العلم، وإنَّما مرادهم تقرير ما ثبت في القرآن عن المشركين من اعترافهم بالخالق الرازق المدبر لشئون الخلق، فهذا من صفات الربوبية وخصائصها وقد آمن واعترف به المشركون، ثم هذا أيضًا ليس حكمًا عامًا مطردًا على جميع المشركين إذ منهم من وجد عنده حتى الشرك في الربوبية، ومنهم من آمن ببعض خصائص الربوبية دون بعض، ومنهم من كان يؤمن إضافة إلى إيمانه بوجود الله الخالق الرازق بالمعاد وبعث الأبدان والحساب، كما قال زهير:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر . . . ليوم حساب أو يعجل فينقم

وبعضهم يؤمن إضافة إلى إيمانه بوجود الله الخالق الرازق بالقدر كما قال عنترة:

يا عبل أين من المنية مهرب إن كان ربي في السماء قضاها

ولهذا يقول المقريزي: ". . . فأبان سبحانه بذلك أنَّ المشركين إنَّما كانوا يتوقفون في إثبات توحيد الإلهية لا توحيد الربوبية، على أنَّ منهم من أشرك في الربوبية كما يأتي بعد ذلك إن شاء الله"(١)

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "والمقصود أنَّ كثيرًا من أهل الشرك والضلال قد يضيف وجود بعض الممكنات أو حدوث بعض الحوادث إلى غير الله، وكل من قال هذا لزمه حدوث الحادث بلا سبب، وهم مع شركهم وما يلزمهم من نوع تعطيل في الربوبية لا يثبتون مع الله شريكًا مساويًا له في أفعاله ولا في صفاته"(٢)

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص٩).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٤٧).

وقبل الرد عليه في هذا لا بد من تقرير قاعدة لإزالة لبس قد يقع وهي: أنَّ أسماء الله أعلامٌ وأوصافٌ(١)، فهي باعتبار دلالتها على الذات أعلامٌ، وباعتبار دلالتها على المعاني أوصافٌ، وهي بالاعتبار الأول مترادفةٌ؛ لدلالتها على مسمّى واحد وهو الله ﷻ، وبالاعتبار الثاني متباينةٌ؛ لدلالة كل واحد منها على معناه الخاص، فالرب الخالق العليم السميع البصير الأحد الصمد كلها أسماءٌ لمسمّى واحدٍ وهو الله سبحانه وتعالى، لكن معنى الرب غير معنى السميع، ومعنى السميع غير معنى البصير، ومعنى البصير غير معنى الأحد، وهذا أمرٌ ظاهرٌ لا خفاء فيه، وهو خلاف قول المعتزلة القائلين بأنَّ أسماء الله أعلامٌ محضةٌ لا تدل على معانٍ.

والكاتب حيث قال: "الإله هو الرب، والرب هو الإله" لم يقصد بهذا الترادف من حيث دلالةُ الاسمين على مسمّى واحدٍ وهو الله، وإنَّما قصد بقوله: "الإله هو الرب" أي: بمعنى الربّ، "والرب هو الإله" أي: بمعنى الإله كما هو ظاهر من سياقه.

ولا ريب أنَّ هذا جهلٌ مركبٌ إذ لم يميز بين معنى الإله ومعنى الرب، ولم يعنِّ نفسه بمطالعة كتب اللغة وكلام أهل العلم ليظهر له الفرق، وإنَّما كتب ما كتب من بنات رأسه ونسج خياله، وإلا فكُتب اللغة مطبقةٌ على أنَّ الرب بمعنى المالك الذي له الربوبية على جميع الخلق لا شريك له، وأمَّا الإله فهو المعبود، من التأله وهو التعبد.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (١/ ١٦٢)، والقواعد المثلى للشيخ محمد العثيمين رحمه الله (ص: ٨، ٩).

فالرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها.

والإله هو الذي يؤله فيعبد محبةً وإنابةً وإجلالًا وإكرامًا، والرب إذا ذكر وحده دخل فيه الإله، والإله إذا أفرد دخل فيه الرب، وإذا اجتمعا افترقا فصار لكل منهما معنى خاصٌ، وإذا افترقا اجتمعا.

قال شيخ الإسلام: "المقصود هنا بيان حال العبد المحض لله الذي يعبده ويستعينه فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية، وإن كانت الإلهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلهية، فإنَّ أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران كما في قوله {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَـهِ النَّاسِ}، وفي قوله: {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالِمِينَ}، فجمع بين الاسمين اسم الإله واسم الرب فإنَّ الإله هو المعبود الذي يستحق أن يعبد، والرب هو الذي يربي عبده فيدبره.

ولهذا كانت العبادة متعلقةً باسمه الله، والسؤال متعلقًا باسمه الرب، فإنَّ العبادة هي الغاية التي لها خلق الخلق، والإلهية هي الغاية، والربوبية تتضمن خلق الخلق وإنشاءهم فهو متضمن ابتداء حالهم، والمصلي إذا قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية على الوسيلة التي هي البداية، فالعبادة غاية مقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، تلك حكمة وهذا سبب"[(١)].

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: "فاعلم أنَّ الربوبية والألوهية يجتمعان ويفترقان؛ كما في قوله: {أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ}، وكما يقال رب العالمين، وإله المرسلين، وعند الإفراد يجتمعان، **كما في قول**

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٢٨٣-٢٨٤).

القائل: من ربك. مثاله الفقير والمسكين نوعان في قوله: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَاكِينِ} ، ونوع واحد في قوله: "افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم"، إذا ثبت هذا فقول الملكين للرجل في القبر: من ربك؟ معناه من إلهك؛ لأنَّ الربوبية التي أقرَّ بها المشركون ما يمتحن أحد بها، وكذلك قوله: {الذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ} ، وقوله: {قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً} ، وقوله: {إِنَّ الذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} فالربوبية في هذا هي الألوهية، ليست قسيمةً لها كما تكون قسيمةً لها عند الاقتران، فينبغي التفطن لهذه المسألة"[1].

ثم قال الكاتب ص٣١ عقب كلامه السابق: "وبالجملة فقد أومأ القرآن الكريم والسنة المستفيضة إلى تلازم توحيد الربوبية والألوهية، وإنَّ ذلك مما قرره رب العالمين، واكتفى سبحانه من عباده بأحدهما عن صاحبه لوجود هذا التلازم، وكذلك اكتفى به الملائكة المقربون عند السؤال، وفهم الناس هذا التلازم حتى الفراعنة الكافرون بداهة، ولم يقل أحد من السلف ولا من الصحابة ولا من التابعين بالفرق وأنَّ هناك توحيد ألوهية يغاير توحيد الربوبية ولم ينقل ذلك التفريق عن واحد منهم فضلاً عن نقله من الكتاب، أو السنة، حتى ابتدع وتكلم بذلك بعض أهل القرن الثامن الهجري، ولا عبرة بذلك قطعًا فما هذا

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٧٢، ٧٣) .

وانظر كتاب عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي للشيخ صالح العبود، الفصل الثالث من الباب الأول "عقيدة الشيخ في التوحيد" (ص:٢٩٥ وما بعدها) .

الهذيان بهذا التقسيم الذي يفتريه أولئك المبتدعة الخراصون!!. . . ".

قلت: قوله بالتلازم بين الاسمين معناه اعترافه أنَّهما ليسا شيئًا واحدًا فقد تناقض في كلامه؛ لأنَّه يقرر كما سبق أنَّ توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية، وفي الوقت نفسه يقرر أنَّهما متلازمان، والتلازم لا يقال بين الشيء ونفسه، وإنَّما يقال بين الشيء وغيره، وعلى كلٍّ فقد سبق أن رددت عليه في غلطه وجهله هذا بما يكفي من الأدلة وأقوال أهل العلم أهل السنة والجماعة، لكن أسأل الكاتب هنا من هم المبتدعة الخراصون الذين يهذون بهذا التقسيم؟

أهم الإمامُ أبو حنيفة، والقاضي أبو يوسف، والطحاوي، وابن جرير الطبري، وابن بطة، وابن مندة، وأبو إسماعيل التيمي، وابن حبان، وابن أبي زيد القيرواني، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، والذهبي، والصنعاني، والشوكاني، والمقريزي، وابن أبي العز، ومحمد بن عبد الوهاب، وجميع تلاميذهم، وملا علي القاري؟!

فجميع هؤلاء وغيرهم من أهل العلم قائلون بهذا التقسيم، وهو صريح كتاب الله كما أسلفنا، وهو قول أهل السنة والجماعة قاطبة، فمن أهل الهذيان الذين يهرفون بما لا يعرفون المبتدعة الخراصون؟! سبحانك ربي هذا بهتان عظيم.

تاسعا: قال الكاتب في الصفحة العاشرة: "رابعًا: ابن تيمية الذي اخترع تقسيم التوحيد إلى ألوهية وربوبية يقول: إنَّ المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية وأنَّ المسلمين الذين يخالفونه في آرائه كذلك وحدوا ربوبية ولم يوحدوا ألوهية، فهو يكفرهم بذلك، وهذا مراده من التقسيم".

وقال قبل هذا في الصفحة السادسة: "والهدف من هذا التقسيم عند من قال به هو تشبيه المؤمنين الذين لا يسيرون على منهج المتمسلفين بالكفار، بل تكفيرهم بدعوى أنَّهم وحدوا توحيد ربوبية كسائر الكفار، ولم يوحّدوا توحيد ألوهية، وهو توحيد العبادة بزعمهم، وبذلك كفَّروا المتوسلين بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو بالأولياء وكفَّروا أيضًا كثيرًا ممن يخالفهم في أمور كثيرة يرون الصواب أو الحق على خلافها، وكل ذلك سببه ذلك الحراني".

قلت: قد ذكرت فيما سبق ما يدل على كذب الكاتب في دعواه أنَّ هذا التقسيم من اختراع شيخ الإسلام ابن تيمية، ونقلت بعض النقول عن أهل العلم من أهل السنة والجماعة الدالة على أنَّ هذا القول هو قول أهل السنة والجماعة قبل ابن تيمية وبعده وفي زمانه، وذكرت من الأدلة على صحة هذا التقسيم ما يكفي ولله الحمد.

وأمَّا رمي الكاتب لشيخ الإسلام ابن تيمية بأنَّه يكفِّر المسلمين فهذا ناتج عن حقده على شيخ الإسلام ابن تيمية، ولهذا تجده يتباكى لتسميته بشيخ الإسلام، ويظهر الضجر من ذلك، بل ويدعو النائم ليستيقظ وأولي البصر أن يتدبر في هذه "العظيمة"!!.

فيقول ص ٢٠: "حيثما ذكر [أي: الشيخ الدويش] ابن تيمية وصفه بشيخ الإسلام دون باقي العلماء، فليتدبر أولو الأبصار وليستيقظ النائمون"!!

مع أنَّ هذا كذب على الشيخ الدويش رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ففي كتابه المورد الزلال الذي يعنيه الكاتب قد ذكر غير ابن تيمية بوصف شيخ الإسلام وبوصف الإمام، وبوصف إمام الأئمة، في مواضع عديدة كما يعلم ذلك من قرأ كتابه كاملًا.

وعلى كلٍّ فابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان من أورع الناس في مسألة التكفير وأكثرهم

نهيًا عنه، وله فيها ضوابط وقواعد مستمدة من كتاب الله تعالى، ولم يكن يكفِّر أحدًا بهواه كما هو شأن المبتدعة الضلال، بل يكفِّر من كفَّره الكتاب والسنة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا مع أنِّي دائمًا ومن جالسني يعلم ذلك مني أنِّي من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب معيَّن إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنَّه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة وفاسقًا أخرى وعاصيًا أخرى، وإنِّي أقرر أنَّ الله قد غفر لهذه الأمة خطأها وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية.

وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية. .

وكنت أبين لهم أنَّما نقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضًا حقٌّ، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين، وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار وهي مسألة الوعيد فإنَّ نصوص القرآن في الوعيد مطلقة كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا} الآية وكذلك سائر ما ورد: من فعل كذا فله كذا فإنَّ هذه مطلقة عامة.

وهي بمنزلة قول من قال من السلف من قال كذا فهو كذا. ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه بتوبة، أو حسنات ماحية، أو مصائب مكفرة، أو شفاعة مقبولة.

والتكفير هو من الوعيد. فإنَّه وإن كان القول تكذيبًا لما قاله الرسول ﷺ لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك

النصوص أو سمعها ولم تثبت عنده أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها وإن كان مخطئًا.

وكنت دائمًا أذكر الحديث الذي في الصحيحين في الرجل الذي قال: "إذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في اليم، فو الله لإن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا من العالمين.

ففعلوا به ذلك فقال الله له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك، فغفر له".

فهذا رجل شكَّ في قدرة الله، وفي إعادته إذا ذُري، بل اعتقد أنَّه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلًا لا يعلم ذلك، وكان مؤمنًا يخاف الله أن يعاقبه فغفر له بذلك، والمتأول من أهل الاجتهاد الحريص على متابعة الرسول ﷺ أولى بالمغفرة من مثل هذا"[١].

فانظر إلى شدة تحريه ودقة كلامه في هذه المسألة، وشدة ورعه وعدله فيها، والنقول عنه في مثل ما تقدم كثيرة جدًا يعلمها من يطالع كتبه ومؤلفاته، ولولا خشية الإطالة لنقلت منها الكثير. ومع ذلك لم يسلم رَحِمَهُ اللَّهُ من هذا الكاتب وأمثاله ممن يلمزونه بأنَّه يكفِّر المسلمين، وأحسب أنَّ الأمر من قبيل ما قيل: "رمتني بدائها وانسلت" إذ أهل البدع هم المتسرعون في التكفير، وهم الذين يكفرون بأهوائهم، وما كلام الكوثري شيخ هذا الكاتب في تكفير شيخ الإسلام وغيره من أهل السنة عنك ببعيد.

فالكوثري الذي يطيب للكاتب وصفه ب (الإمام المحدث عليه الرحمة والرضوان) بينما هو في الواقع المبتدع الضال عليه من الله ما يستحق، يقول في

(١) الفتاوى (٣/ ٢٢٩-٢٣١).

ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "صار كفره مجمعًا عليه" ويقول: "وقع الاتفاق على تضليله وتبديعه وزندقته" ويقول: "ليس من الفرق الثلاث والسبعين"(١).

ويقول في ابن القيم: "كافر أو حمار"، "حمار أو تيس" "الملحد" "الخبيث" "الملعون" "بلغ في كفره مبلغًا لا يجوز السكوت عليه"(٢).

ولو أخذت أنقل أقوال الكوثري وطعونه ولعنه وتكفيره لهذين الإمامين وغيرهما من أئمة المسلمين لاستغرق النقل عشرات الصفحات، وحسبك أنَّك لا تكاد تقرأ صفحة من كتابه تبديد الظلام إلا وجدتَها منتنةً من كثرة ما فيها من سبٍّ ولعنٍ وتكفيرٍ لأئمة الهدى وأعلام السلف وعلماء السنة.

فمن الذي يكفِّر المسلمين وعلماءهم أيها الكاتب المفتون {نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، وأمَّا تكفير من جحد توحيد الإلهية فليس محل نزاع، لأنَّه دين المشركين كما ذكره الله عنهم في القرآن: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُواءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ} وغير ذلك من الآيات.

والكاتب بقوله فيما سبق "والهدف من هذا التقسيم ... الخ" كشف عن مقصوده ومراده بإنكار تقسيم التوحيد، وهو الدفاع عن الذين يتعلقون بالأنبياء والأولياء بدعائهم وطلبهم باسم التوسل، وقد مرَّ معنا قوله: "إنَّ مجرد النداء أو الاستغاثة أو الاستعانة أو الخوف أو الرجاء أو التوسل أو التذلل لا يسمَّى عبادة" وقوله: "وإنَّما يكون الدعاء عبادة إذا كان لله أو لمن يعتقد الداعي أنَّ للمدعو صفة من صفات الربوبية"، وانظر بسط الأجوبة في ردِّ شُبَهِ هؤلاء وكشف ضلالهم في كتاب "قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة" لشيخ الإسلام

(١) انظر: تبديد الظلام للكوثري (ص٨١، ١٥٦، ١٦٧).
(٢) انظر: تبديد الظلام للكوثري (ص٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ١٨٢).

ابن تيمية وكتاب "كشف الشبهات" لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وغيرهما من كتب أهل العلم.

عاشرا: قال الكاتب في الصفة الرابعة عشر: "وابن تيمية يقول كما هو ثابت عنه في كتبه وكما هو مشهور: "لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه" فنقول له: إذا كنت لا تصف الله إلا بما وصف به نفسه فلماذا تثبت استقرار الله تعالى عمَّا تقول على ظهر بعوضة وتُجوِّزه، هل هذا هو توحيد الأسماء والصفات أيها الشيخ الحراني؟! وهل هذا مما وصف الله به نفسه؟!.

قال ابن تيمية في كتابه "التأسيس في رد أساس التقديس" (/): "ولو قد شاء الله لاستقر على ظهر بعوضةٍ فاستقلت به بقدرته ولطف ربوبيته فكيف على عرش عظيم".اهـ. .

فهل من التوحيد الخالص أيها الشيخ الحراني ويا من تتعصبون لآرائه الشاذة أن تجوزوا استقرار رب العالمين سبحانه وتعالى عما تصفون على ظهر ذبابة أو بعوضة؟! ولقد استحيى عُباد الأوثان والمشركون أن يصفوا آلهتهم بذلك!!".

وأعاد مثل هذا الكلام ص ٤٣:.

قلت: هذا الذي ذكره الكاتب ونسبه إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد نسبه من قبله لشيخ الإسلام شيخُه الأول الكوثري[١] فأخذه هذا التلميذ عنه وورثه منه، وهو في الحقيقة توارث للكذب والإفك على أئمة المسلمين وعلماء السنة إذ لم يقل شيخ الإسلام ابن تيمية ذلك، وإنَّما وردت هذه العبارة ضمن كلام طويل نقله شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام الحافظ أبي سعيد الدارمي في

(١) انظر: السيف الصقيل (ص١١٥).

مناقشته وردوده على بشر المريسيّ العنيد الذي زعم أنَّ الله ليس فوق العرش بقياس فاسد ذكره حيث قاس الله بالعرش ومقداره ووزنه.

وأنا أنقل هنا كلام الدارمي بطوله ليعلم تمويه الكاتب وشيخه وكذبهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال عثمان بن سعيد الدارمي في نقضه على المريسيّ وصاحبه: وأعجب من هذا قياسك الله بقياس العرش ومقداره ووزنه من صغير أو كبير، وزعمت كالصبيان العميان إنَّ الله أكبر من العرش أو أصغر منه أو مثله، فإن كان الله أصغر فقد صيَّرتم العرش أعظم منه، وإن كان أكبر من العرش فقد ادعيتم فيه فضلًا عن العرش، وإن كان مثله فإنَّه إذا ضمَّ إلى العرش السماوات والأرض كانت أكبر، مع خرافات تكلم بها، وترهات يلعب بها، وضلالات يضل بها، ولو كان من يعلم لله لقطع قشرة لسانه، والخيبة لقومٍ هذا فقيههم والمنظور إليه مع التميز كله وهذا النظر، وكل هذه الجهالات والضلالات. فيقال لهذا البقباق النفاج: إنَّ الله أعظم من كلِّ شيء وأكبر من كلِّ خلق، ولم يحمله العرش عظمًا ولا قوة، ولا حملة العرش حملوه بقوتهم ولا استقلوا بعرشه ولكنهم حملوه بقدرته.

وقد بلغنا أنَّهم حين حملوا العرش وفوقه الجبَّار في عزته وبهائه ضعفوا عن حمله واستكانوا وجثوا على ركبهم حتى لقنوا: "لا حول ولا قوة إلا بالله" فاستقلوا به بقدرة الله وإرادته ولولا ذلك ما استقل به العرش ولا الحملة ولا السموات والأرض ولا من فيهنَّ، ولو قد شاء لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته ولطف ربوبيته، فكيف على عرش عظيم أكبر من السماوات والأرض، وكيف تنكر أيها النفاج أنَّ عرشه يقله والعرش أكبر من السموات السبع والأرضين السبع، ولو كان العرش في السماوات والأرضين ما وسعته،

ولكنه فوق السماء السابعة.

فكيف تنكر هذا وأنت تزعم أنَّ الله في الأرض في جميع أمكنتها والأرض دون العرش في العظمة والسعة، فكيف تقله الأرض في دعواك ولا يقله العرش الذي هو أعظم منها وأوسع، وأدخل هذا القياس الذي أدخلت علينا في عظم العرش وصغره وكبره على نفسك وعلى أصحابك في الأرض وصغرها حتى تستدل على جهلك وتفطن لما يورد عليك حصائد لسانك، فإنَّك لا تحتج بشيء إلا هو راجع عليك وآخذ بحلقك".

وهذا النص موجود بتمامه في ردّ الإمام الدارمي على بشر المريسي صفحة (٨٥ ، ٨٦)، وقد أشار محقق كتاب نقض التأسيس في الهامش إلى مكان النص من كتاب الدارمي. ومع هذا لم يتورع هذا الكاتب ومن قبله شيخه الكوثري من نسبة هذا الكلام لشيخ الإسلام على وجه مبتور مختزل مظهرين الشناعة عليه، فجمعا بين الكذب والتزوير.

وقد علم مما تقدم ما يلي:

أ- أن النصَّ المذكور ليس من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية كما زعمه الكاتب ومن قبله شيخه الكوثري، وظهر كذبهما عليه رَحِمَهُ اللَّهُ.

ب- أنَّ الكاتب وشيخه ذكرا النص مختزلًا، ولم يذكراه بتمامه ليتبين مراد الإمام الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ منه.

ج- تبيَّن أنَّ الكلام جاء في مقام مناظرة وإلزام للخصم، وليس في مقام تقرير وتأصيل عقيدة، ومن المعلوم المتقرر أنَّ عقيدة العالم لا تؤخذ من مناظرته، إذ يذكر العالم في مناظرته أمورًا لا يقصد منها إلا قطع المخاصم وإفساد حجته.

وبهذا تعلم أنَّ قول الكاتب " فهل من التوحيد الخالص أيها الشيخ الحراني

ويا من تتعصبون لآرائه الشاذة أن تجوزوا استقرار رب العالمين سبحانه وتعالى عما تصفون على ظهر ذبابة أو بعوضة" ما هو إلا تهويش من غشوم جهول، لا مستند له إلا الكذب والتزوير وسوء الظنِّ، فالله حسيبه وحسيب شيخه من قبله، ولهما من الله ما يستحقان.

: قال الكاتب ص: "وهل من توحيد الأسماء والصفات إثبات الحركة لله تعالى كما يقول ابن تيمية في كتابه "موافقة صريح المعقول" (/) على هامش منهاج السنة وقد نسب ذلك لأهل الحديث والسلف زورًا؟!!

وأين وصف الله تعالى نفسه في كتابه بلفظ الحركة؟!".

قلت: ليس في الصفحة المشار إليها شيء مما ذكره الكاتب، ولم يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتبه إثبات الحركة لله، ولم ينسب ذلك لأهل الحديث والسلف كما ادعى ذلك الكاتب كذبًا وزورًا، فحار الكذب عليه ورجع إليه.

أمَّا شيخ الإسلام ابن تيمية فقوله في هذه الألفاظ التي لم ترد في الكتاب أو السنة معلوم ظاهر، وقد أوضحه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مواطن عديدة من مؤلفاته.

ومن ذلك قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص، فيثبت ما أثبت الله ورسوله باللفظ الذي أثبته وينفى ما نفاه الله ورسوله كما نفاه... "[1].

قال الكاتب ص: "وابن تيمية يقول في كتاب التأسيس (/ ٠): "وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قول أحد من سلف الأمة وأئمتها أنَّه ليس بجسم وأنَّ صفاته ليست أجسامًا وأعراضًا".اهـ. ".

---

(١) الفتاوى (١٦/ ٤٢٣-٤٢٤).

قلت: ليس هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنَّما هو قول متكلمة أهل الإثبات القائلين بأنَّ الله جسم لا كالأجسام حكاه عنهم شيخ الإسلام في معرض ذكره الأقوال في لفظ الجسم وغيره من الألفاظ الاصطلاحية، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ثم المتكلمون من أهل الإثبات لما ناظروا المعتزلة تنازعوا في الألفاظ الاصطلاحية فقال قوم:. . . إلى أن قال: قالوا: وهذا مِمَّا لا يمكن النزاع فيه إذا فهم المعنى المراد بذلك، لكن أي محذور في ذلك، وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قول أحد من سلف الأمة وأئمتها أنَّه ليس بجسم وأنَّ صفاته ليست أجسامًا وأعراضًا؟! فنفي المعاني الثابتة بالشرع والعقل بنفي ألفاظ لم ينف معناها شرع ولا عقل جهلٌ وضلالٌ، قال: وكذلك فالعقل. . . ".

فهو هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحكي قول هؤلاء، فجاء هذا الكاتب واقتطع من هذا النص بعضه ونسبه لشيخ الإسلام ابن تيمية كذبًا وزورًا، فنعوذ بالله من هذه الصفاقة في الكذب والوقاحة في الغش والتزوير، ونسأله العفو والعافية.

أمَّا معتقد شيخ الإسلام في لفظ الجسم فقد أوضحه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل الكلام الذي نقله الكاتب بخمسة عشر سطرًا فقط!!

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ١٠٠): "وتحرير الأمر أن يقال: الوجه السابع والسبعون: أنَّ لفظ الجسم والعرض والمتحيز ونحو ذلك ألفاظ اصطلاحية، وقد قدمنا غير مرَّة أنَّ السلف والأئمة لم يتكلموا في ذلك في حق الله لا بنفي ولا بإثبات، بل بدَّعوا أهل الكلام بذلك وذموهم غاية الذم. . . ".

فهذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وقوله في هذه المسألة، ومع هذا أهمله الكاتب وتركه، وتجاوزه إلى كلام في الموضع نفسه ليس له ونسبه إليه، وحقًّا لا

ينقضي العجب من هذه الجرأة السافرة على الكذب والخيانة والغش والتدليس والتزوير، ثم مع احتراف الكاتب لهذه الأمور يرمي بكل وقاحة في كتابه السلفيين بأنَّهم محرفون محترفون!!.

فمن المحرف المحترف إن كنت ذا عقل؟!.

١٣- قال الكاتب ص ١٦ ، ١٧ : عن ابن القيم: "ويثبت في كتابه الصواعق المرسلة أنَّ لله ساقين، وأنَّه إذا لم يذكر الله في كتابه إلا ساقًا واحدة فهذا لا ينفي أنَّه ليس له ساق أخرى فيقول ما نصه: "هب أنَّه سبحانه أخبر أنَّه يكشف عن ساق واحدة هي صفة، فمن أين في ظاهر القرآن أنَّه ليس له سبحانه إلا تلك الصفة الواحدة؟ وأنت لو سمعت قائلًا يقول: كشفت عن عيني وأبديت عن ركبتي وعن ساقي هل يفهم منه أنَّه ليس إلا ذلك الواحد فقط".اهـ .

فانظر إلى هذا التجسيم الصريح وإلى هذا الهراء والهذيان. . . إلى أن قال: فخذ مجدك في التجسيم يا ابن القيم!! ولا يهمنك المعارضون من أهل السنة الذين تلقبهم بالجهمية والمعطلة!!".

قلت:

أولًا: لكلام ابن القيّم تتمة مهمة أهملها الكاتب لحاجة في نفسه، يقول ابن القيم تلو ما وقف عنده الكاتب في النقل عنه "... فلو قال ذلك أحد لم يكن هذا ظاهر كلامه، فكيف يكون ظاهر أفصح الكلام وأبينه ذلك" وهذه التتمة موضحة لمراد ابن القيم من قوله، وقد حذفها الكاتب ليوهم القارئَ أنَّ ابن القيم مجسِّم وحاشاه.

ومراد ابن القيّم من كلامه ظاهر، حيث يقصد أن الله خاطبنا في كتابه بكلام عربيٍّ بيِّن يفهم حسبما تقتضيه لغة العرب التي خوطبنا في القرآن بها.

ثانيًا: ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الكلام ضمن أحد عشر وجهًا ردَّ بها على الجهميّ القائل: "ورد في القرآن ذكر الوجه والأعين والعين الواحدة وذكر الجنب الواحد وذكر الساق الواحد وذكر الأيدي وذكر اليدين واليد الواحدة، فلو أخذنا بالظاهر لزمنا إثبات شخص له وجه، وعلى ذلك الوجه أعين وله جنب واحد، وعليه أيد كثيرة، وله ساق واحد ولا نرى في الدنيا شخصًا أقبح صورة من هذه الصورة المتخيلة.

قال السنيّ المعظم حرمات الله تعالى: قد ادعيت أيها الجهمي أنَّ ظاهر القرآن الذي هو حجة الله على عباده، والذي هو خير الكلام وأصدقه وأحسنه وأفصحه، وهو الذي هدى الله به عباده وجعله شفاء لما في الصدور وهدىً ورحمة للمؤمنين، ولم ينزل كتابًا من السماء أهدى منه ولا أحسن ولا أكمل، فانتهكت حرمته وعظمته ونسبته إلى أقبح النقص والعيب. . . ".

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحد عشر وجهًا عظيمة في الرد على هذا الجهميّ الخبيث، فجاء هذا الكاتب إلى أحد هذه الأوجه وأخذ بعضه وشنع على ابن القيم به منحازًا إلى صف الجهمية منتصرًا لهم.

وأقول له: لو أكملت نصرتك لهم بذكر بقية الوجوه التي أوردها ابن القيم وناقشتها وجهًا وجهًا إن كنت تقدر.

١٤- قال الكاتب ص ١٧: "وابن القيم متعصب لذلك وسائر على قاعدة شيخه الحراني التي أسسها له في كتابه التأسيس (١/ ١٠٩) حيث قال هناك: "وإذا كان كذلك فاسم المشبهة ليس له ذكر بذم في الكتاب والسنة ولا كلام أحد من الصحابة والتابعين".اهـ. ".

قلت: لم ينته كلام شيخ الإسلام ابن تيمية كما زعمت أيُّها الملبس بل قال

بعده مباشرة"... ولكن تكلم طائفة من السلف مثل عبد الرحمن بن مهدي ويزيد بن هارون وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية ونعيم بن حماد وغيرهم بذم المشبهة، وبينوا المشبهة الذين ذموهم أنَّهم يمثلون صفات الله بصفات خلقه".

وكتب ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مملوءة بذم المشبهة الممثلة، ومع ذلك يأبى هذا المبطل إلا رميه بالتشبيه والتمثيل.

ورحم الله الإمام ابن القيم إذ يقول: "ونعلم قبل المطالبة أنَّ كلَّ الجهميين على وجه الأرض لو اجتمعوا لما أجابوا عنه بغير المكابرة والتشنيع على أهل الإثبات بالتجسيم والسبِّ هذه وظيفة كل مبطل قامت عليه حجة الله تعالى"[1].

قلت: صدقت رحمك الله فلم نجدهم يفعلون غير هذا، وما هذا الكاتب إلا شاهد من مئات الشواهد على ما تقول.

١٥- قال الكاتب ص١٧: "وقد أثبت ابن القيم أيضًا جنبًا لله تعالى عما يقول!! واستنبط ذلك من قوله تعالى {يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ} ففي الصواعق المرسلة (/ ٠) ومختصر الصواعق للموصلي (١/ ٢٥٠) ما نصه: "هب أنَّ القرآن دلَّ على إثبات جنب هو صفة، فمن أين لك ظاهره أو باطنه على أنَّه جنب واحد وشقٌّ واحد؟ ومعلوم أنَّ إطلاق مثل هذا لا يدل على أنَّه شق واحد، كما قال النبي ﷺ لعمران بن حصين "صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب" وهذا لا يدل على أنَّه ليس للمرء إلا جنب واحد".اهـ.

قلت: وهل يصح قياس الله سبحانه وتعالى بعمران بن حصين وتشبيهه به؟!

---

(١) مختصر الصواعق (ص٣٢).

وهل يقول أحد من الموحدين أنَّ لله جنبًا؟!.

والله ما الإتيان بمثل هذا الكلام إلا رجوع للوثنية الأولى ف {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} !!!!".

قلت: ما أعظم جرأتك على التدليس والتلبيس والكذب، فإنَّ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أجل قدرًا وأرفع مكانة وأنبل منزلة من هذا الذي بهته به.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "السادس: أن يقال: من أين في ظاهر القرآن إثبات جنب واحد هو صفة لله؟ ومن المعلوم أن هذا لا يثبته أحد من بني آدم، وأعظم الناس إثباتًا للصفات هم أهل السنة والحديث لايثبتون أنَّ لله تعالى جنبًا واحدًا ولا ساقًا واحدًا.

قال عثمان بن سعيد الدارمي في نقضه على المريسي: وادعاء المعارض زورًا على قوم أنَّهم يقولون في تفسير قوله تعالى: {يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ}، أنَّهم يعنون بذلك الجنب هو العضو، وليس ذلك على ما يتوهمونه.

قال الدارمي: فيقال لهذا المعارض: ما أرخص الكذب عندك وأخفه على لسانك، فإن كنت صادقًا في دعواك فأشر بها إلى أحد من بني آدم قاله،

وإلاَّ فلم تشنع بالكذب على قوم هم أعلم بهذا التفسير منك وأبصر بتأويل كتاب الله منك ومن إمامك، إنَّما تفسيرها عندهم: تحسر الكفار على ما فرطوا في الإيمان والفضائل التي تدعو إلى ذات الله واختاروا عليها الكفر والسخرية، فمن أنبأك أنَّهم قالوا: جنب من الجنوب؟ فإنَّه لا يجهل هذا المعنى كثير من عوام المسلمين فضلًا عن علمائهم. وقد قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الكذب مجانب للإيمان"، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لا يجوز من الكذب جدٌّ ولا هزلٌ"، وقال الشعبي: "من كان كذَّابًا فهو منافق"، والتفريط فعل أو ترك فعل، وهذا لا

يكون قائمًا بذات الله لا بجنب ولا غيره بل يكون منفصلا[1] عن الله تعالى، وهو معلوم بالحس والمشاهدة".

ثم قال ابن القيم "السابع: أن يقال: هب أنَّ القرآن دلَّ على إثبات جنب هو صفة. . . " على وجه المجادلة للخصم والإلزام في مقام المناظرة. والكاتب اكتفى بنقل كلام ابن القيم هذا وترك ما قبله مما يوضح مراده ويبيّن مقصوده.

قلت: فيالله ما أعظم تشابه قلوب القوم وتعانق أهوائهم فالدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول للجهمي المعارض الذي ادعى على قوم أنَّهم يفسرون {فِي جَنبِ اللهِ} بالجنب الذي هو العضو، يقول له: ما أرخص الكذب عندك وأخفه على لسانك فإن كنت صادقًا في دعواك فأشر بها إلى أحد من بني آدم، وإلا فلم تشنع بالكذب على قوم هم أعلم بهذا التفسير منك، ثم ينقل معنى الآية عند أهل العلم بأنَّ المراد: ما فرطوا في الإيمان والفضائل، ويقول: لايجهل هذا المعنى كثير من عوام المسلمين فضلًا عن علمائهم، ثم يورد آثارًا عن السلف في التحذير من الكذب، وأنَّه مجانب للإيمان، وأنَّه صفة المنافقين، ولا يجوز منه جد ولا هزل، كل ذلك ذكره الدارمي ونقله ابن القيم بتمامه معتقدًا له مستشهدًا به وهو في نفس الصحيفة التي نقل منها الكاتب، فيتعامى عن ذلك كله، ويدعي أن ابن القيم يثبت الجنب صفة لله ويرجع بالأمة إلى الوثنية الأولى.

فنقول له مثل ما قاله الإمام الدارمي لسلفه: ما أرخص الكذب عندك وأخفه على لسانك فإنَّ معنى قوله: {فِي جَنبِ اللهِ}، أي: في دين الله أو في حق الله، وهذا معنى لا يجهله كثير من عوام المسلمين فضلًا عن الإمام العلامة المحقق

---

(١) تنبيه: وقع في مختصر الصواعق "بل لا يكون منفصلًا" وهو خطأ، والصواب المثبت كما هو في الصواعق الأصل والنسخة الخطية للمختصر.

ابن القيم رحمه الله تعالى.

ونقول للكاتب: ألم يردعك عن الكذب ما قرأته في الصحيفة نفسها: من قول أبي بكر رضي الله عنه: "الكذب مجانب للإيمان"، وقول ابن مسعود رضي الله عنه: "لا يجوز من الكذب جدٌّ ولا هزلٌ"، وقول الشعبي: "من كان كذَّابًا فهو منافق"، ألم يردعك ذلك كله عن الكذب فإنَّ فيه أعظم رادع، أم أنَّ الطبع غالب.

١٦- قال الكاتب ص١٨: "وإمام ابن تيمية وقدوته في هذه الطامات هو أبو يعلى الحنبلي الذي كان يقول: "ألزموني ما شئتم إلا اللحية والعورة" أي في صفات الله تعالى!! كما نقل ذلك ابن العربي المالكي في كتابه العواصم (٢/ ٢٨٣) وهذا هو توحيد الأسماء والصفات الذي يريدونه والذي يحاولون إثباته".

قلت: حسيبك الله على ما تقول، فشيخ الإسلام رحمه الله يقول في هذا الذي بهته به ورميته به ما نصه: "وقد صنف القاضي أبو يعلى كتابه في إبطال التأويل ردًّا لكتاب ابن فورك، وهو وإن كان أسند الأحاديث التي ذكرها وذكر من رواها ففيها عدة أحاديث موضوعة كحديث الرؤية عيانًا ليلة المعراج ونحوه وفيها أشياء عن بعض السلف رواها بعض الناس مرفوعة، كحديث قعود الرسول ﷺ على العرش رواه بعض الناس من طرق كثيرة مرفوعة وهي كلها موضوعة، وإنَّما الثابت أنَّه عن مجاهد وغيره من السلف، وكان السلف والأئمة يروونه ولا ينكرونه، ويتلقونه بالقبول.

وقد يقال: إنَّ مثل هذا لا يقال إلا توقيفًا، لكن لا بد من الفرق بين ما ثبت من ألفاظ الرسول وما ثبت من كلام غيره، سواء كان من المقبول أو المردود.

ولهذا وغيره تكلم رزق الله التميمي وغيره من أصحاب أحمد في تصنيف

القاضي أبي يعلى لهذا الكتاب بكلام غليظ وشنع عليه أعداؤه بأشياء هو منها بريء كما ذكر هو ذلك في آخر الكتاب.

وما نقله عنه أبو بكر ابن العربي في العواصم كذب عليه عن مجهول لم يذكره أبو بكر، وهو من الكذب عليه، مع أنَّ هؤلاء وإن كانوا نقلوا عنه ما هو كذب عليه ففي كلامه ما هو مردود نقلًا وتوجيهًا، وفي كلامه من التناقض من جنس ما يوجد في كلام الأشعري والقاضي أبي بكر الباقلاني وأبي المعالي وأمثالهم ممن يوافق النفاة على نفيهم، ويشارك أهل الإثبات على وجه يقول الجمهور: إنَّه جمع بين النقيضين"[1].

قلت: وبهذا النقل يتبين كذب الكاتب وبهته وافتراؤه على شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، والأمر لا يحتاج إلى إيضاح فشيخ الإسلام ابن تيمية لم يوافق أبا يعلى في كلِّ ما قال وبيَّن كذب ما نقله ابن العربي ولم يكن أبو يعلى إمامًا لشيخ الإسلام كما قال الكاتب.

وأمَّا القاضي أبو يعلي رَحِمَهُ اللَّهُ فقد قال في آخر كتابه "إبطال التأويلات" في دفاعه عن نفسه ما رمي به من تجسيم وتشبيه وغير ذلك ما نصه: ". . . ثم لم يكفهم ما أضافوه إلينا من الكذب والبهتان، حتى رمونا بالتجسيم والتشبيه والكفر لأجل ما رويناه من الصفات التي جاء بها القرآن والأخبار، والله تعالى يقول: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَّعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَي صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}، فكيف يجوز أن نكفر ونحن نحتج بكتاب الله وسنة رسول الله، ولكن نعتصم بالله كما أمرنا الله تعالى لنهتدي إلى الصراط المستقيم، ومع هذا فلم يخل الله جل ثناؤه كل عالم في عصره من جاهل يبغي

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٣٧-٢٣٨).

عليه بحسده وشره ليبلو بذلك شكره وصبره، ويعظم بذلك ثوابه وأجره. وقد قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ}، وقال تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}، وقال تعالى: {وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}، وقال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}، وقال النبي ﷺ: "لو أنَّ مؤمنًا على قصبة في البحر لقيَّض الله له منافقًا يؤذيه"، وقال الشاعر:

وإذا أتتك مذمَّتي من ناقص... فهي الشهادة لي بأنِّي فاضل

وقال رجل لأحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ يا أبا عبد الله: قالوا: إنَّ عندك كتاب زندقة، فقال: لا يحرز المؤمنَ إلا قبرُه...".

وذكر القاضي كلامًا طويلًا ثم قال: "... فمن روى عنَّا خلاف ذلك أو أضاف إلينا سواه أو نحلنا في ذلك قولًا غيره فهو كاذب مفتري متخرص معتدي يبوء بسخط الله وعليه غضب الله ولعنته في الدارين... "[1].

قال الكاتب ص: "(تنبيه مهم جدًا) ومِمَّا يدل على أنَّ هؤلاء المتسلفين أتباع ابن تيمية وابن القيم مجسمة أيضًا يسيرون على نفس نهج شيخهما، مؤلفاتهم المطبوعة والتي تثبت ذلك، منها كتاب طبع حديثًا لمتسلف وهابي يدعى (عبد الله بن محمد الدويش) اسم الكتاب (المورد الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال) يسفه فيه الشيخ (سيد قطب) ويصفه بالابتداع وأنَّه جهمي أشعري معتزلي وإليك بعض ما يقول هذا المتمسلف:

---

(١) إبطال التأويلات لأخبار الصفات (ق٣٩٠، ق٣٩٢).

١- يقول ص: ١٠ ما نصه: "فقد عاب سيد قطب قول أهل السنة والجماعة، وهذا هو مسلك أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وسيجيء من كلامه ما يبين أنَّه سلك مسلكهم".اهـ. ".

قلت: نص كلام الشيخ العلامة عبد الله الدويش رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو قوله بعد أن ذكر تفسير أهل السنة للاستواء بالعلو والارتفاع". . . فمن ردَّ هذا أو عابه فقد عاب قول أهل السنة والجماعة وهذا هو دأب أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهم. وسيجيء من كلامه ما يبين أنَّه سلك مسلكهم".

فحذف الكاتب أول كلام الشيخ وهو عام كما ترى ثم أضاف إليه من كيسه بين شرطتين سيد قطب إمعانًا منه في التحريف، وهذا كذب فاضح، ففرق بين نص الشيخ الدويش رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبين النص الذي أورده هذا المزور.

وسيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ له في كتابه الظلال أمور عديدة متعلقة بالصفات وغيرها خالف فيها منهج أهل السنة والجماعة وسلك فيها طريقة المتكلِّمين، وقد نبَّه على ذلك غير واحد من أهل العلم، منهم العلامة الدويش رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه "المورد. . . " الذي شرق منه هذا الكاتب وغيره.

بل إنَّ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أقرَّ على نفسه بأنَّه قد وقع في مثل هذه الأخطاء، وسلك مسالك المتكلِّمين في كتابه الظلال وغيره من كتبه، ووعد بإعادة النَّظر فيها وتدارك ذلك في الطبعات الأخرى، إلاَّ أنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ مات ولَم يتيسَّر له ذلك.

ففي ظلال القرآن (٦/ ٣٧٣١) انتقد سيد قطب طريقة مَن يريدون فهم القرآن على ضوء مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة كما هو الشأن عند أئمة الكلام الباطل ثم "يؤولون نصوصه هذه لتُوائم مقررات سابقة في عقولهم، وتصورات سابقة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود"، ثم علَّق

على هذا في الهامش بقوله:

"وما أبرئ نفسي أنَّني فيما سبق من مؤلفاتي وفي الأجزاء الأولى من هذه الظلال قد انسقت إلى شيء من هذا، وأرجو أن أتداركه في الطبعة الثانية إذا وفَّق الله، وما أقرره هنا هو ما أعتقده الحقَّ بهداية من الله". اه.

فنسأل الله أن يغفر لسيد قطب أخطاءَه التي أقرَّ بها ووعد بتلافيها، وأن يهدي أتباعَه للبُعد عنها والحذر من الوقوع فيها، إنَّه سميعٌ مجيب.

وعلى كلٍّ فسيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ أقرَّ على نفسه بهذه الأخطاء ووعد خيرًا، والعلماء الناصحون حذَّروا الناسَ من هذه الأخطاء وأرادوا بذلك خيرًا، وأمَّا هذا الدَّعِي وأمثاله فلم ينصحوا لا لسيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ ولا لعموم المسلمين، والله وحده المستعان لا شريك له.

١٨- قال الكاتب ص ١٩، ٢٠: "- ويقول ص: (١٩) [أي الدويش] ما نصه: "وأقول: قوله سيد قطب في التوجه إلى الله الذي لا يتحيز في مكان هذا قول أهل البدع كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة، وأما أهل السنة والجماعة فلا يصفون الله إلا بما وصف به نفسه. . . ". ثم قال بعد ذلك بخمسة أسطر في نفس الصحيفة ذامًّا أهل البدع بنظره ما نصه: "ومقصودهم بها نفي الصفات كالجسم والتحيز. . . ".اهـ. فهو يرى تبعًا لابن تيمية وابن القيم أنَّ من صفات الله تعالى الجسم والتحيز، وأنَّ الشيخ سيد قطب والأشاعرة الذين ينزهون الله عن التحيز والمكان ويقولون {لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ}، مبتدعة جهميون، فالله حسيبه وحسيب هذه الطائفة".

قلت: لقد بتر الكاتب كلام الشيخ العلامة الدويش رَحِمَهُ اللَّهُ وهذا من عادة أهل البدع والأهواء ليتوصل من ذلك إلى تقرير أنَّ الشيخ يثبت الجسم والحيز لله

ويعدها من صفاته، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يقل ذلك ولا يقصده بل ولا يقول به كما يعلم ذلك من قراءة كلامه بتمامه.

ونص كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو: "أقول: قوله في التوجه إلى الله الذي لا يتحيز في مكان هذا قول أهل البدع كالجهمية والمعتزلة وأما أهل السنة والجماعة فلا يصفون الله إلا بما وصف به نفسه وبما وصفه رسوله ﷺ لا يتجاوزون القرآن والحديث فيثبون علو الرب عَزَّ وَجَلَّ واستواءه على عرشه كما قال تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}، وقال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، وأما أهل البدع فلا يثبتون ما ورد أو يثبتون بعض الصفات دون بعض، ويبتدعون ألفاظًا موهمة يظن الظانّ أنَّهم ينزهون الرب عَزَّ وَجَلَّ بها عن النقائص والعيوب ومقصودهم بها نفي الصفات كالجسم والتحيز والجوهر والعرض، قال شيخ الإسلام تقي الدين بعد كلام له في الردِّ على من قال إنَّه ليس بجسم ولا بجوهر ولا عرض قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فهذه الألفاظ لا يطلق إثباتها ولا نفيها كلفظ الجوهر والجسم والحيز ونحو ذلك من الألفاظ. . . ".

هذا نص كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن يقرأ كلامه يعلم أنَّ مراده بذكر الجسم والحيز والعرض التمثيل للألفاظ الموهمة التي يظن الظانّ أنَّ أهل البدع يقصدون بنفيها تنزيه الله عن النقائص والعيوب، فجاء هذا المزور وبتر كلام الشيخ وأخذ آخره ليوهم القارئ أنَّ الشيخ يمثل بالجسم والجوهر لصفات الله الثابتة له، ولهذا قال المزور بعد هذا النقل المبتور: "فهو يرى تبعًا لابن تيمية وابن القيم أنَّ من صفات الله تعالى الجسم والحيز".

مع أنَّ الشيخ الدويش رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما تقدم نقل تلو النص الذي ذكره الكاتب عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هذه الألفاظ لا يطلق إثباتها ولا نفيها على الله،

وهذا هو معتقد شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أئمة أهل السنة في مثل هذه الألفاظ الموهمة، لا يرون إطلاق إثباتها ولا إطلاق نفيها لكونها لم ترد ولكونها محتملة.

ورغم وقوف الكاتب على ذلك إلا أنَّه لم يرض لنفسه غير الكذب والتزوير.

١٩- قال الكاتب ص٣٣: "... لذلك قال الله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}، معناه كما قال القرطبي في التفسير (١٣/ ١٦١): "أي كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي، معناه: أنَّهم يقولون ذلك بألسنتهم فقط عند إقامة الحجج عليهم وهم في الحقيقة لا يقولون بذلك"...".

قلت: لما لم يجد الكاتب أحدًا من أهل العلم يوافقه في قوله: إنَّ المشركين لا يؤمنون بوجود الله، وأنَّهم إنَّما قالوا ذلك عند إقامة الحجج عليهم وهم في الحقيقة لا يقولون بذلك، لما لم يجد أحدًا يوافقه في ذلك اضطر إلى التزوير.

فقال: كما قال القرطبي في التفسير (١٣/ ١٦١): "أي كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي، معناه: أنَّهم يقولون ذلك بألسنتهم فقط عند إقامة الحجج عليهم وهم في الحقيقة لا يقولون بذلك".

فجعل من قوله "أي كيف يكفرون..."، إلى قوله: "... لا يقولون بذلك" بين علامتي التنصيص ليوهم أنَّ الجميع من قول القرطبي، بينما كلام القرطبي في الحقيقة ينتهي عند قوله: "... عن عبادتي"، والباقي من كلام الكاتب، وزور مع هذا تزويرًا آخر فحذف كلامًا للقرطبي قبل هذا فيه التنصيص على اعتراف المشركين بأنَّ الله تعالى "خالق هذه الأشياء".

بل إنَّ القرطبي يصرح بالفرق بين الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية فقد نقل عنه صاحب تيسير العزيز الحميد أنَّه قال: "أصل الشرك المحرم اعتقاد شريك لله تعالى في الإلهية وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية، ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل، وهو قول من قال: إنَّ موجودًا ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يعتقد كونه إلهًا"(١).

٢٠- قال الكاتب ص٣٧: "اعلم يرحمك الله تعالى أنَّ أهل السنة والجماعة بما فيهم الأشاعرة والماتريدية يثبتون لله من الصفات ما أثبت لنفسه، وما يشوشه المجسمة عليهم من أنهم معطلة وجهمية تشويش فارغ لا قيمة له بعد التمحيص العلمي والتدقيق".

قلت: مراده بالمجسمة أهل السنة والجماعة، فهم الذين يرمون الأشاعرة والماتريدية وغيرهم من أهل الكلام بأنهم معطلة فيما ينكرونه من صفات الله تعالى.

فالأشاعرة وكذا الماتريدية ينفون عن الله كثيرًا من صفات كماله الثابتة في الكتاب والسنة مثل الاستواء والنزول والمجيء والغضب والرضا... وغيرها فهذه صفات أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ، ونفاها هؤلاء عنه، خلافًا لما ادعاه الكاتب أنَّهم يثبتون لله من الصفات ما أثبت لنفسه.

وجَعْلُ الكاتبِ الأشاعرة والماتريدية من أهل السنة والجماعة، غلط ظاهر إذ هم من أهل البدع والأهواء، وأمَّا أهل السنة والجماعة فهم المتمسكون بها

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص:٤٤)، ثم وجدته في تفسير القرطبي (٥/ ١١٨).
وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (١/ ٧٢): "فالله اسمٌ للموجود الحق الجامع لصفات الإلهيَّة، المنعوت بنعوت الربوبية، المتفرِّد بالوجود الحقيقي لا إله إلاَّ هو سبحانه"، وهذا صريح في الفرق.

والدائرون معها نفيًا وإثباتًا.

فإنَّ المراد بالسنة الطريقة المحمدية التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام وتابعوهم بإحسان قبل ظهور البدع وفشوها، فمن تأثر بشيء من الأهواء واستمسك بها لم يصح إطلاق هذا اللقب الجليل عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأئمة السنة ليسوا مثل أئمة البدعة، فإنَّ أئمة السنة تضاف السنة إليهم لأنَّهم مظاهر بهم ظهرت، وأئمة البدعة تضاف إليهم لأنَّهم مصادر عنهم صدرت. . . "(١).

وبهذا يعلم من هم أهل السنة ومن أهل البدعة.

٢١- قال الكاتب ص٣٨: "والضحك كذلك لا يليق أن يطلق حقيقة على الله، وإنما يطلق على سبيل المجاز، وتأويله عند أهل العلم الرضا أو الرحمة، فإذا ورد في حديث أنَّ الله يضحك إلى فلان فالمراد به أنَّه يرضى عنه ويرحمه، وهكذا".

قلت: شيخ الكاتب في هذا التأويل الباطل هو بشر بن غياث المريسي، وقد نقض أقواله الإمامُ الدارمي في رده الشهير عليه، ولهذا فإني أقتصر هنا على ذكر ردِّ الإمام الدارمي على بشر المريسي في هذه المسألة ليكون الرد على الشيخ ردًّا على التلميذ.

قال الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فادعى المعارض في تفسيره أن ضحك الرب رضاه ورحمته ... وذكر أمورًا ثم قال: وأمَّا قولك إنَّ ضحكه رضاه ورحمته فقد صدقت في بعض، لأنَّه لا يضحك لأحد إلا عن رضى، فيجتمع منه الضحك والرضا، ولا يصرفه إلا عن عدو، وأنت تنفي الضحك عن الله وتثبت له الرضا

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٥، ٦)

وحده. . . إلى أن قال: وحدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو يعلى أخبرنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن حدس عن أبي رزين العقيلي عن رسول الله ﷺ قال: "ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَره. قال أبو رزين: أيضحك الرب يا رسول الله؟ قال: نعم. قال: لن نعدم من رب يضحك خيرًا".

فهذا حديثك أيها المعارض الذي رويته وثبَّته وفسرته، وأقررت أنَّ النبي ﷺ قد قاله، ففي نفس حديثك هذا ما ينقض دعواك وهو قول أبي رزين للنبي ﷺ "أيضحك الرب؟ " ولو كان تفسير الضحك الرضى والرحمة والصفح عن الذنوب فقط كان أبو رزين في دعواك إذن جاهلًا أن لا يعلم أنَّ ربه يرحم ويرضى ويغفر الذنوب؟ بل هو كافر في دعواك، إذ لم يعرف الله بالرضى والرحمة والمغفرة. وقد قرأ القرآن وسمع ما ذكر الله فيه من رحمته ومغفرته وصفحه عن الذنوب ما كان له فيه مندوحة عن سؤال النبي ﷺ: أيغفر ربنا ويرحم؟ إنَّما سأله عما لا يعلم لا عن علم ما علم وآمن به قبل. وقرأ القرآن فوجد فيه ذكره ولم يجد فيه ذكر الضحك. فلما أخبره النبي ﷺ أنَّه يضحك قال: "لن نعدم من رب يضحك خيرًا" ولو كان على تأويلك لاستحال أن يقول أبو رزين للنبي ﷺ: لن نعدم من رب يرحم ويرضى ويغفر خيرًا. لما أنَّه قد آمن وقرأ قبل في كتابه: {إِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} فاعقله. وما أراك تعقله"[1].

قلت: ولست أدري أيضًا هل التلميذ يعقله أو لا؟ وما أراه يعقله.

٢٢- قال الكاتب ص٣٨: "روى الإمام البيهقي في كتاب الأسماء والصفات (ص:٢٩٨) أنَّ الإمام البخاري رحمه الله تعالى أوَّل الضحك بالرحمة، وهذا نهج السلف والمحدثين، والبخاري بلا شك من أئمة المحدثين،

(١) رد الإمام الدارمي على بشر (ص١٧٤-١٧٨).

ومن أهل القرون الثلاث، قرون السلف المشهود لها بالخيرية".

قلت: حاشاهم، فتأويل النصوص وصرفها عن ظواهرها ليس من نهجهم، بل هم يمرون النصوص كما جاءت ولا يحرفون ولا يمثلون ولا يعطلون ولا يكيفون.

وهذا الذي ذكره البيهقي أنَّ البخاري أوَّل الضحك بالرحمة، لا وجود له في نسخ صحيح البخاري الموجودة بين أيدينا، والحديث الذي ذكر البيهقي أنَّ البخاري أوَّل عنده الضحك بالرحمة مُخرج في صحيح البخاري في موضعين منه، ولم يذكر عند شيء منهما هذا التأويل الباطل، وقد نص الحافظ في الفتح (٨/ ٦٣٢) على عدم وجود هذا التأويل في النسخ التي اطلع عليها من صحيح البخاري وهو من هو في العناية بالصحيح وسعة الاطلاع على نسخه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولم أر ذلك في النسخ التي وقعت لنا من البخاري".

وعليه فلا عبرة بذكر بعض المؤولة هذا القول منسوبًا للبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا عبرة بالدعاوى إذا لم يقم عليها بينات.

٢٣- قال الكاتب ص ٤٠: "والصواب أنَّ السلف بما فيهم الصحابة والتابعون كانوا يؤولون كثيرًا من الألفاظ التي لا يراد منها إثبات صفات لله تعالى، وتفسير الإمام الحافظ ابن جرير السلفي (توفي ٠هـ) أكبر برهان على ذلك فقد أورد الحافظ ابن جرير الطبري في تفسيره وروى بأسانيده عن سيدنا ابن عباس تأويل (الساق) الواردة في قول الله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} بالشدة؛ لأنَّ العرب تقول: كشفت الحرب عن ساقها أي اشتدت".

قلت: قول الكاتب عن الصحابة والتابعين أنَّهم يؤولون كذبٌ عليهم، وتقوُّلٌ عليهم بلا علم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأمَّا الذي أقوله الآن وأكتبه وإن كنت لم أكتبه فيما تقدم من أجوبتي وإنما أقوله في كثير من المجالس إنَّ جميع ما في القرآن من آيات الصفات فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها.

وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة وما رووه من الحديث، ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير، فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنَّه تأول شيئًا من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف، بل عنهم من تقرير ذلك وتثبيته، وبيان أنَّ ذلك من صفات الله ما يخالف كلام المتأولين ما لا يحصيه إلا الله، وكذلك فيما يذكرونه آثرين وذاكرين عنهم شيء كثير.

وتمام هذا أنِّي لم أجدهم تنازعوا إلاَّ في مثل قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ}، فروي عن ابن عباس وطائفة أنَّ المراد به الشدة، إن الله يكشف عن الشدة في الآخرة، وعن أبي سعيد وطائفة أنَّهم عدوها في الصفات للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين.

ولا ريب أنَّ ظاهر القرآن [لا] يدل على أنَّ هذه من الصفات فإنَّه قال: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله، ولم يقل عن ساقه، فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنَّه من الصفات إلا بدليل آخر، ومثل هذا ليس بتأويل، إنَّما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف، ولكن كثير من هؤلاء يجعلون اللفظ على ما ليس مدلولًا له، ثم يريدون صرفه عنه، ويجعلون هذا تأويلًا، وهذا خطأ من وجهين كما قدمناه غير مرة".

٢٤- قال الكاتب ص١٤١: "أوَّل الإمام أحمد قوله تعالى: {وَجَآءَ رَبُّكَ}، أنه جاء ثوابه كما ثبت عنه بإسناد صحيح، انظر البداية والنهاية لابن كثير

(١٠/ ٣٢٧).

قلت: هذا التأويل الذي ذكره الكاتب ثبوته عن الإمام أحمد محل بحث ونظر "بل الذي يعلم من حيث الجملة أنَّ الإمام أحمد والأئمة الكبار الذين لهم في الأمة لسان صدق عام لم يتنازعوا في شيء من هذا الباب"[(١)]، وهو مخالف للنصوص الكثيرة المنقولة عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منع التأويل ورده، ويكفيك في هذا كتابه "الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله".

وهذا القول المنقول عن الإمام أحمد رواه عنه حنبل في كتاب المحنة، وفي الإجابة عن هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "هذا الذي ذكره القاضي وغيره أنَّ حنبلًا نقله عن أحمد في كتاب المحنة أنَّه قال ذلك في المناظرة لهم يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله "تجيء البقرة وآل عمران" قالوا: والمجيء لا يكون إلا لمخلوق، فعارضهم أحمد بقوله: {وَجَآءَ رَبُّكَ}، {أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ}، وقال: المراد بقوله "تجيء البقرة وآل عمران" ثوابهما، كما في قوله: {وَجَآءَ رَبُّكَ} أمره وقدرته.

وقد اختلف أصحاب أحمد فيما نقله حنبل، فإنَّه لا ريب خلاف النصوص المتواترة عن أحمد في منعه من تأويل هذا، وتأويل النزول، والاستواء ونحو ذلك من الأفعال.

ولهم ثلاثة أقوال: قيل: إنَّ هذا غلط من حنبل، انفرد به دون الذين ذكروا عنه المناظرة مثل صالح وعبد الله والمروذي وغيرهم، فإنَّهم لم يذكروا هذا، وحنبل ينفرد بروايات يغلطه فيها طائفة كالخلال وصاحبه، قال أبو إسحاق بن

(١) الفتاوى لابن تيمية (١٢/ ٤١٧).

شاقلا: هذا غلط من حنبل ولا شك فيه.

وكذلك نقل عن مالك رواية أنَّه تأول "ينزل إلى السماء الدنيا" أنه ينزل أمره، لكن هذا من رواية حبيب كاتبه وهو كذَّاب باتفاقهم، وقد رويت من وجه آخر لكن الإسناد مجهول.

والقول الثاني: قال طائفة من أصحاب أحمد: هذا قاله إلزامًا للخصم على مذهبه لأنَّهم في يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله "تأتي البقرة وآل عمران" أجابهم بأن معناه: يأتي ثواب البقرة وآل عمران كقوله: {أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ}، أي أمره وقدرته على تأويلهم، لا أنَّه يقول بذلك، فإنَّ مذهبه ترك التأويل.

والقول الثالث: أنَّهم جعلوا هذا رواية عن أحمد، وقد يختلف كلام الأئمة في مسائل مثل هذه، لكن الصحيح المشهور عنه ردّ التأويل.

وقد ذكر الروايتين ابن الزاغوني وغيره، وذكر أن ترك التأويل هي الرواية المشهورة المعمول عليها عند عامة المشايخ من أصحابنا"[١].

٢٥- قال الكاتب ص٤٢: "... يثبت [أي: ابن تيمية] لله سبحانه صفات بأحاديث موضوعة أو إسرائيليات من ذلك أنَّه أثبت أنَّ الله يتكلم بصوت يشبه صوت الرعد"، وأحال في الهامش إلى كتاب موافقة صريح المعقول المطبوع على هامش منهاج السنة (٢/ ١٥١).

قلت: حاشا ابن تيمية وغيره من أهل السنة والجماعة أن يثبتوا شيئًا من العقيدة بأحاديث موضوعة أو إسرائيليات، بل هذا من دأب أهل البدع المخلطين المموهين.

يقول إمام الأئمة ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ في كتابه العظيم التوحيد: "وقد أعلمت ما

---

(١) الفتاوى (١٦/ ٤٠٤، ٤٠٦)، وانظر أيضًا: مختصر الصواعق (ص:٤٠٦).

لا أحصي من مرة أني لا أستحل أن أمَوِّه على طلاب العلم بالاحتجاج بالخبر الواهي، وإني خائف من خالقي جل وعلا إذا موهت على طلاب العلم بالاحتجاج بالأخبار الواهية وإن كانت الأخبار حجة لمذهبي"[١].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر الحديث الذي رواه ابن ماجة في سننه من حديث عبد السلام بن صالح أنَّ النبي ﷺ قال: "الإيمان معرفة بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأركان"، وفيه حجة لقول أهل السنة في الإيمان وردٌّ على المرجئة، يقول ابن القيم عند هذا الحديث: "في الحق ما يغني عن الباطل، ولو كنا ممن يحتج بالباطل ويستحله لروجنا هذا الحديث وذكرنا بعض من أثنى على عبد السلام، ولكن نعوذ بالله من هذه الطريقة، كما نعوذ به من طريقة تضعيف الحديث الثابت وتعليله إذا خالف قول إمام معين، وبالله التوفيق"[٢].

وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يرى جواز الاحتجاج بالأحاديث الضعيفة فضلًا عن الأحاديث الموضوعة التي بهته الكاتب بالاحتجاج بها، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا يجوز أن يعتمد في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة ولا حسنة"[٣]، ويقول: "والأحاديث التي تروى في هذا الباب وهو السؤال بنفس المخلوقين هي من الأحاديث الضعيفة الواهية بل الموضوعة، ولا يوجد في أئمة الإسلام من احتج بها ولا اعتمد عليها"[٤]، وفي شأن الإسرائيليات يقول: ". . . فأمَّا أن يثبت شرعًا لنا بمجرد الإسرائيليات التي لم تثبت فهذا لا يقوله

---

(١) التوحيد (ص: ٢١٥).
(٢) تهذيب سنن أبي داود (٧/ ٥٩).
(٣) الفتاوى (١/ ٢٥٠).
(٤) الفتاوى (١/ ٢٥٢).

عالم"[١].

وأعود لكلام الكاتب السابق وهو قوله في شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: "ويثبت لله سبحانه صفات بأحاديث موضوعة أو إسرائيليات من ذلك أنَّه أثبت أنَّ الله يتكلم بصوت يشبه صوت الرعد".

فأقول: لقد اشتمل قول الكاتب هذا الذي لا يتجاوز سطرين على عدة كذبات على شيخ الإسلام وهذا بيانها:

الأولى: قوله عن شيخ الإسلام إنَّه يثبت الصفات بالأحاديث الموضوعة والإسرائيليات، وهذا كذب ظاهر على شيخ الإسلام لا يخفى على كل طالب علم قرأ كتبه، وتحذيرُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الاستشهاد والاحتجاج بالأحاديث الموضوعة والإسرائيليات أشهر من أن يذكر، وقد قدمنا شيئًا من ذلك. فهاتان كذبتان على شيخ الإسلام:

الأولى: زعمه أنَّ شيخ الإسلام يحتج في الصفات بالأحاديث الموضوعة.

الثانية: زعمه أنَّه يحتج فيها بالإسرائيليات.

الكذبة الثالثة: تمثيله لإثبات شيخ الإسلام الصفات بالأحاديث الموضوعة بما ذكره عنه "أنَّ الله يتكلم بصوت يشبه صوت الرعد" فهذه الكلمة لم ترد في حديث وإنَّما وردت في أثر، وقد نصَّ شيخ الإسلام في الصفحة نفسها على أنَّه أثر، فهذه كذبة ثالثة على شيخ الإسلام.

الرابعة: أنَّ الأثر المشار إليه ضعيف وليس موضوعًا كما يوهمه سياق الكاتب.

الخامسة: أنَّ النص بتمامه الذي ورد فيه هذا الأثر ليس لشيخ الإسلام، بل

---

(١) الفتاوى (١/ ٢٥١).

جاء عنده ضمن نقل طويل عن كتاب الرد على الجهمية للإمام أحمد، وهو في الكتاب المذكور (ص:)، وهذا أمر أخفاه الكاتب، لأنَّه قصد بذلك التشنيع على شيخ الإسلام ابن تيمية، فهذه كذبة خامسة.

السادسة: قوله عن شيخ الإسلام أنه أثبت من هذا النص أن الله يتكلم بصوت يشبه صوت الرعد، فهذا كذب عليه؛ لأنه إنما أورد النص بتمامه للرد على من ينكر أنَّ الله يتكلم كيف شاء، وهذا الأمر قد دلت عليه نصوص كثيرة في الكتاب والسنة، ولهذا قال شيخ الإسلام عقبه: "فقد ذكر أحمد في هذا الكلام أنَّ الله يتكلم كيف شاء، وذكر ما استشهد به من الأثر أن الله كلم موسى عيه السلام ... الخ".

قلت: فهذه ست كذبات وقع فيها الكاتب في هذا الكلام الذي لا يتجاوز سطرين، ولو محص هذا الكلام أكثر قد يتبين فيه كذبات أخر؟ ! وإذا كان في هذين السطرين بلغ به الكذب هذا المبلغ فما بالك إذًا بكتابه كاملًا الذي يحوي ستين صفحة في كل صفحة عشرون سطرًا تقريبًا؟!!

وأقول للكاتب: حسيبك الله ترمي غيرك بالكذب وأنت فارس ميدانه، وابن بجدته؟!!

٢٦- قال الكاتب ص٤٤: "وتتميمًا للبحث لا بد من أن نتكلم عن أصل أكبر فرقة قديمة من فرق المجسمة هي الكرامية وبيان بعض آرائها في الصفات التي توافق ما يدعو إليه ابن تيمية وأتباعه، وخصوصًا أنَّ ابن تيمية يثني عليها في منهاج السنة (١/ ١٨١) ويعتبرها من أكابر نظار المسلمين".

قلت: عبارة شيخ الإسلام ابن تيمية التي يشير إليها الكاتب، هي قول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في منهاج السنة (١/ ١٨١/): "ومنهم من قال بل لا يزال قابلًا

للانقسام [أي: الجوهر الفرد] إلى أن يصغر فيستحيل مع تمييز بعضه عن بعض كما قال ذلك من قال من الكرامية وغيرهم من نظار المسلمين، وهو قول من قاله من أساطين الفلاسفة مع قول بعضهم إنَّه مركب من المادة والصورة، وبعض المصنفين في الكلام يجعل إثبات الجوهر الفرد هو قول المسلمين وأنَّ نفيه هو قول الملحدين، وهذا لأنَّ هؤلاء لم يعرفوا من الأقوال المنسوبة إلى المسلمين إلا ما وجدوه في كتب شيوخهم أهل الكلام المحدث في الدين الذي ذمَّه السلف والأئمة، كقول أبي يوسف من طلب العلم بالكلام تزندق. وقول الشافعي: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام. وكقول أحمد بن حنبل: علماء الكلام زنادقة. وقوله: ما ارتدى أحد بالكلام فأفلح. وأمثال ذلك.

وإلا فالقول بأنَّ الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة قول لا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا من بعدهم من الأئمة المعروفين".

قلت: فتأمل كلام شيخ الإسلام ابن تيمية بتمامه، ثم انظر ما فهمه هذا الكاتب منه، تجد أنَّه اجتمع له في ذلك سوء الفهم مع سوء القصد، فشيخ الإسلام ابن تيمية لم يثن في هذا النص على الكرامية بل قرن قولهم بقول الفلاسفة، ونقل آثارًا في ذم الكلام وأهله، وبيَّن أنَّ القول الذي قالوه لا يعرف عند أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من بعدهم من الأئمة المعروفين.

وعلى العموم فموقف شيخ الإسلام ابن تيمية من الكرامية معروف قد بينه

في غير موضع من كتبه، فيذكر عنهم أنَّهم وافقوا أهل الحديث في أمور وخالفوهم في أمور أخرى، فهم يحمدون فيما وافقوا فيه الحق ويذمون فيما فارقوا فيه الحق.

٢٧- قال الكاتب في هامش ص: "بل صرح بذلك أي بصفة السكوت ابن تيمية إمامه" انظر الموافقة على هامش منهاجه (٢/ ٣٨).

وكان الكاتب قبل ذلك ذكر في المتن أنَّ ابن أبي العز يفهم من كلامه ذلك!! حيث قال: "وهو المفهوم من كلام فضيلة الشارح! ومن اللازم القريب لكلامه"!!.

قلت: لم يصرح شيخ الإسلام ابن تيمية بذلك كما ادعى الكاتب، والموضع المشار إليه جاء ضمن نقل مطول أورده شيخ الإسلام وهو لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الملقب بشيخ الإسلام في كتابه مناقب أحمد بن حنبل.

فقول الكاتب "بل صرح بذلك. . . الخ" كذب صراح على شيخ الإسلام وقد نقل شيخ الإسلام في كتابه المذكور بعد صفحات قليلة من هذا الموضع عن أبي النصر السجزي أنَّه قال: "ومنع كثير من أهل العلم إطلاق السكوت عليه، ومن أهل الأثر من جوز إطلاق السكوت عليه لوروده في الحديث وقال معناه: تركه التوبيخ والتقرير والمحاسبة اليوم، وسيأتي يوم يقرر فيه ويحاسب ويوبخ فذلك الترك معنى السكوت، قال والأصل الذي يجب أن يعلم أنَّ اتفاق جميع التسميات لا يوجب اتفاق المسمين بها"[1].

(١) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول بهامش منهاج السنة (/).
قلت: قول السجزي: "والأصل الذي يجب أن يعلم أن اتفاق جميع التسميات لا =

٢٨- قال الكاتب في هامش ص٥٢: "... فشرح العقيدة الطحاوية هي تلخيص ل "منهاج السنة" ول "موافقة صريح المعقول" للشيخ الحراني!! ولذلك يركزون عليها ويحرصون على نشرها".

قلت: يقول الكاتب ذلك لامتلائه غلًا وحقدًا وغيظًا على هذين الإمامين اللذين أحيا الله بهما الدين ونصر بهما السنة وقمع بهما دابر المفسدين.

وقول الكاتب عن شرح العقيدة الطحاوية بأنَّه تلخيص لمنهاج السنة ولموافقة صريح المعقول جهل من الكاتب وكذب يعلمه كل من يقرأ الكتب الثلاثة المذكورة.

وابن أبي العز ينقل في كتابه عن كتب كثيرة عن الصحيحين والسنن والمسانيد وعن غيرها من كتب أهل السنة والجماعة مرتبًا شرحه حسب ترتيب المتن المشروح.

٢٩- قال الكاتب ص٥٨: "... ولذلك صرح أهل السنة والجماعة بأن الله سبحانه لا يوصف بأنه خارج العالم ولا داخله...".

قلت: حاشا أهل السنة والجماعة من ذلك، وحاشاهم أن يكون الباطل معتقدهم والضلال قولهم.

وهذه دعوى يدعيها أهل البدع عامة في القديم والحديث، يقررون العقائد المنحرفة والآراء الزائفة والنحل الباطلة ثم ينسبون ذلك كذبًا وزورًا إلى أهل

=

يوجب اتفاق المسمين بها" هو في الحقيقة قاعدة متينة وأصل عظيم في باب الصفات يدفع به شبهة المعطلة نفاة الصفات: "أنَّ إثبات الصفات يقتضي التشبيه" وقد أوضح شيخ الإسلام هذه القاعدة وضرب لها الأمثلة في أول كتابه التدمرية فليراجع.
وانظر في الكلام على وصف الله بالسكوت الوارد في الأحاديث وبيان المراد به الفتاوى لابن تيمية (٦/ ١٧٨-١٧٩).

السنة والجماعة.

قال أبو المظفر السمعاني فيما نقله عنه التيمي في الحجة (٢/ ٢٢٣-٢٢٥):

"إنَّ كل فريق من المبتدعة إنَّما يدعي أنَّ الذي يعتقده هو ما كان عليه رسول الله ﷺ؛ لأنَّهم كلهم مدعون شريعة الإسلام ملتزمون في الظاهر شعائرها، يرون أنَّ ما جاء به محمد ﷺ [هو الحق] غير أنَّ الطرق تفرقت بهم بعد ذلك، وأحدثوا في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله، فزعم كل فريق أنَّه هو المتمسك بشريعة الإسلام، وأنَّ الحق الذي قام به رسول الله ﷺ هو الذي يعتقده وينتحله، غير أنَّ الله أبى أن يكون الحق والعقيدة الصحيحة إلا مع أهل الحديث والآثار؛ لأنَّهم أخذوا دينهم، وعقائدهم خلفًا عن سلف وقرنًا عن قرن، إلى أن انتهوا إلى التابعين، وأخذه التابعون من أصحاب رسول الله ﷺ، وأخذه أصحاب رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ، ولا طريق إلى معرفة ما دعا إليه رسول الله ﷺ الناس من الدين المستقيم، والصراط القويم، إلا هذا الطريق الذي سلكه أصحاب الحديث، وأما سائر الفرق فطلبوا الدين لا بطريقه؛ لأنَّهم رجعوا إلى معقولهم وخواطرهم وآرائهم، فطلبوا الدين من قبله، فإذا سمعوا شيئًا من الكتاب والسنة عرضوه على معيار عقولهم فإن استقام قبلوه، وإن لم يستقم في ميزان عقولهم ردوه، فإن اضطروا إلى قبوله حرَّفوه بالتأويلات البعيدة والمعاني المستكرهة، فحادوا عن الحق وزاغوا عنه ونبذوا الدين وراء ظهورهم وجعلوا السنة تحت أقدامهم تعالى الله عما يصفون.

وأمَّا أهل الحق فجعلوا الكتاب والسنة إمامهم، وطلبوا الدين من قبلهما، وما وقع لهما من معقولهم وخواطرهم عرضوه على الكتاب والسنة فإن وجدوه موافقًا لهما قبلوه، وشكروا الله حيث أراهم ذلك ووفقهم إليه، وإن وجدوه

مخالفًا لهما تركوا ما وقع لهم وأقبلوا على الكتاب والسنة ورجعوا بالتهمة على أنفسهم، فإنَّ الكتاب والسنة لا يهديان إلا إلى الحق، ورأي الإنسان قد يرى الحق وقد يرى الباطل، وهذا معنى قول أبي سليمان الداراني وهو واحد زمانه في المعرفة: ما حدثتني نفسي بشيء إلا طلبت منها شاهدين من الكتاب والسنة، فإن أتى بهما وإلا رددته في نحره، أو كلام هذا معناه.

ومما يدل على أنَّ أهل الحديث هم على الحق أنَّك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلى آخرهم قديمهم وحديثهم مع اختلاف بلدانهم وزمانهم وتباعد ما بينهم في الديار وسكون كل واحد منهم قطرًا من الأقطار، وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة، ونمط واحد يجرون فيه على طريقة لا يحيدون عنها ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد ونقلهم واحد، لا ترى بينهم اختلافًا ولا تفرقًا في شيء ما وإن قلَّ، بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنَّه جاء من قلب واحد، وجرى على لسان واحد، وهل على الحق دليل أبين من هذا؟ قال الله تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا}، وقال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا}.

وأما إذا نظرت إلى أهل الأهواء والبدع رأيتهم متفرقين مختلفين أو شيعًا وأحزابًا لا تكاد تجد اثنين منهم على طريقة واحدة في الاعتقاد، يبدِّع بعضهم بعضًا، بل يرتقون إلى التكفير يكفر الابن أباه، والرجل أخاه، والجار جاره، تراهم أبدًا في تنازع وتباغض واختلاف، تنقضي أعمارهم ولم تتفق كلماتهم {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ}. . . ".

قلت: وقد نقلت هذا النص على طوله ليعلم طالب الحق من هم أهل السنة

والجماعة وما هو نعتهم وما حليتهم، وليعلم من هم أهل البدعة وما هو نعتهم وصفتهم ليميز الخبيث من الطيب، والباطل من الحق، والغث من السمين فإنَّ الأدعياء كثيرون.

وليس أحد من أهل الأهواء والبدع يقول قولًا أو يرى رأيًا إلا ويدعي أنَّه هو الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ ومن ذلك قول الكاتب المتقدم: ". . . ولذلك صرح أهل السنة والجماعة بأنَّ الله سبحانه لا يوصف بأنه خارج العالم ولا داخله. . . "(١).

فنقول له: سمِّ لنا مَن صرح بذلك من أهل السنة والجماعة فكتبهم موجودة وأقوالهم محفوظة وآثارهم منشورة، إذ لم يصرح بما ذكرت إلا الجهمية المعطلة أتباع الجهم بن صفوان الذين تتابعت أقوال أهل السنة والجماعة في تبديعهم وتضليلهم.

أمَّا أهل السنة والجماعة فقد صرحوا بما ثبت في الكتاب والسنة من علو الله على خلقه، وفوقيته، واستوائه على عرشه، وأنَّه في السماء ونحو ذلك مما ورد في الكتاب والسنة.

والذي ذكره الكاتب ومن قبله جهم ومن تبعه أمرٌ لا يجوز وصف الله به، إذ من قال إنَّ ربه ليس فوق ولا تحت ولا عن يمين العالم ولا عن شماله ولا داخله ولا خارجه ولا متصلًا به ولا منفصلًا عنه فقد وصفه بالعدم بل ليس

---

(١) وقد وقفت مؤخرًا على رسالة لهذا الكاتب أسماها: "حسن المحاججة في بيان أنَّ الله لا داخل العالم ولا خارجه" قرر فيها عقيدة الجهمية في هذا الباب وانتصر لها ودافع عنها، إلا أنَّه لم يجرؤ على وضع اسمه على طرَّة الكتاب بل وضع عليها اسمًا مستعارًا موهمًا بذلك أنَّه لغيره، وفي آخر الكتاب عند ذكر آثار مؤلف هذه الرسالة أوردوا مؤلفات المردود عليه الذي هو صاحب هذا التنديد.

هناك وصف للعدم أبلغ من هذا الوصف الذي وصف به هؤلاء الجهمية ربهم، ومن هنا قال من قال من أهل السنة "والمعطل يعبد عدمًا".

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: ". . . إنَّ من تأول سائر الصفات، وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام، أداه ذلك السلب إلى تعطيل الرب، وأن يشابه المعدوم، كما نقل عن حماد بن زيد أنَّه قال: "مثل الجهمية كقوم قالوا: في دارنا نخلة، قيل: لها سعف؟ قالوا: لا، قيل: فلها كرب؟ قالوا: لا، قيل: لها رطب وقنو؟ قالوا: لا، قيل: فلها ساق؟ قالوا: لا، قيل: فما في داركم نخلة".

قلت: القائل الذهبي كذلك هؤلاء النفاة قالوا: إلهنا الله تعالى، هو لا في زمان ولا في مكان، ولا يُرى ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يتكلم، ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يريد، ولا، ولا. . . وقالوا: سبحان المنزه عن الصفات!

بل نقول: سبحان الله العلي العظيم السميع البصير المريد، الذي كلَّم موسى تكليمًا، واتخذ إبراهيم خليلًا، ويُرى في الآخرة، المتصف بما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، المنزَّه عن سمات المخلوقين، وعن جحد الجاحدين {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} "[1].اهـ.

٣٠- ذكر الكاتب في نهاية كتابه: مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة فبلغ عدَّة ما ذكره "ثلاثة وخمسين كتابًا" ثم قال بعد سردها: "وهناك مؤلفات ورسائل لم تكمل بعد نذكر أسماءها في المطبوعات الجديدة إن شاء الله تعالى".

قلت: لئن كانت هذه الكتب المذكورة منسوجة على منوال هذا الكتاب مبنية على ما بني عليه من الكذب والغش والتدليس والتزوير والقول بلا علم والظلم والجور وغمط الحقوق والتعالم، وأحسبها كذلك فـ"كل إناء بالذي

---

(١) مختصر العلو للذهبي اختصار العلامة الألباني حفظه الله (ص:٢٦٩).

فيه ينضح" "وكل ينفق مما عنده" فيا هول مصيبة الكاتب ويا عظم محنته.

والله يقول: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ}.

هذا إن كان هو مؤلف هذه الكتب؛ إذ يذكر بعض طلبة العلم الثقات أنه لا يحسن التأليف والكتابة ولا يصمد عند البحث والمناقشة لقصور علمه وقلة فهمه، فإن كان الأمر كذلك فإنَّ المصيبة عليه أعظم إذ كيف رضي بأن يجعل اسمه مطيةً لتلك النفايات.

نسأل الله السلامة والعافية في الدين والدنيا، وأن يعيذنا والمسلمين من غوائل البدع وشرور أهلها بمنه وكرمه. والحمد لله وحده لا شريك له، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

الفهرس

❊ ❊ ❊

جامع المسائل العقدية

تأليف
محمد بن نصر أبي جبل

دار اللؤلؤة

الجزء الثاني

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(باب قواعد في الرد على المخالفين)

القاعدة الأولى: إن كنت ناقلاً فالصحة، أو مدعياً فالدليل

كل دعوى لابد من إقامة الدليل عليها، وإلا كانت مجرد دعوى خلية عن البرهان، والدليل إما أن يكون نقليًا أو عقليًا، والمطلوب في النقلي تحرير صحته، وفي العقلي إظهار صراحته وبيان حجته:

قال تعالى: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ١١١] فهذا عام في كل دعوى، لابد من تصديقها بالدليل.

وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأحقاف: ٤] فطالبهم أولا بالطريق العقلي، وثانيا بالطريق السمعي[١]. قال ابن تيمية: (فالكتاب هو الكتاب - أي جنس الكتب المنزلة من عند الله - والأثارة كما قال من قال من السلف: هي الرواية والإسناد. وقالوا: هي الخط أيضًا، إذ الرواية والإسناد يكتب بالخط، وذلك لأن الأثارة من الأثر، فالعلم الذي يقوله من يقبل قوله يؤثر بالإسناد، ويقيد ذلك بالخط، فيكون ذلك كله من آثاره)[٢].

ومن هنا قال علماء أدب البحث والمناظرة:

(إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مدعيًا فالدليل)[٣].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٩٥).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٥٧، ٥٨)، وانظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٥٨، ٢٥٩) طبعة الشعب.

(٣) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني =

ولهذا تجد كثيرًا من أهل البدع يستدل على بدعته، بنقل ضعيف، أو موضوع، أو دلالة ضعيفة، أو بعقل فاسد.

فالشيعة الرافضة يكثر عندهم الاستدلال بالنقول الموضوعة والضعيفة، وكذلك الدلالة الضعيفة، ويشاركهم في ذلك طوائف من المتصوفة.

أما أهل الفلسفة والكلام فيكثر عندهم الاستدلال بالأقيسة العقلية الفاسدة، أو الاحتمالات والتجويزات(١).

القاعدة الثانية

موافقة النصوص لفظًا ومعنى أولى من موافقتها في المعنى دون اللفظ

وذلك أن متابعة الكتاب والسنة في اللفظ والمعنى أكمل وأتم من متابعتها في المعنى دون اللفظ؛ فالرسول ﷺ علم البراء بن عازب كلمات يقولهن إذا أخذ مضجعه، وفيها... آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت قال البراء: (فرددتهن لأستذكرهن فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت. قال - أي النبي ﷺ - قل آمنت بنبيك الذي أرسلت)(٢) تحقيقًا لكمال الموافقة، في اللفظ والمعنى.

ولهذا منع جمع من العلماء نقل حديث الرسول ﷺ بالمعنى، ومن أجازه اشترط أن يكون الناقل عاقلًا عالمًا بما يحيل المعنى من اللفظ، مدركًا لأساليب العرب حتى يستبين الفروق(٣).

=

(ص: ٣٦٨، ٣٨١) دار القلم الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م دمشق - بيروت.

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٢، ٢٩)، وتحريم النظر لابن قدامة (ص: ٣٠، ٣١)، وشرف أصحاب الحديث للبغدادي (ص: ٥٥)، برقم: ١١٠، (ص: ٧٨) برقم: ١٦٧.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠) واللفظ لمسلم.

(٣) الرسالة للشافعي (ص: ٣٧٠، ٣٧١).

فالناس في موافقة الكتاب والسنة أقسام:

الأول: من يوافقهما لفظًا ومعنى، وهذا أسعد الناس بالحق.

الثاني: من يوافقهما في المعنى دون اللفظ، كمن يتكلم في المعاني الشرعية الصحيحة بألفاظ غير شرعية، وهذا كالألفاظ المجملة والتي تحتمل حقًا وباطلًا، كمن يتكلم في نفي الجهة عن الله تعالى قاصدًا نفي الجهة المخلوقة، أو ينفي الحيز والمكان المخلوقين وغير ذلك من الألفاظ التي لم ترد لا في الكتاب ولا في السنة، بل تحتمل معاني صحيحة وأخرى فاسدة، فإذا عرف مراد صاحبها وكان موافقًا للمعنى الصحيح، قبل مراده، ومنع من التكلم باللفظ المجمل، وعلم الألفاظ الشرعية في ذلك. وكذلك يدخل فيهم من نفى ظاهر نصوص الصفات قاصدًا نفي المعنى الظاهر المختص بالمخلوق، فنفيه صحيح، لكن ظاهر النصوص لم يدل على باطل، حتى يستوجب هذا النفي، وإنما نفى هذا ما توهمه أنه ظاهر النص، وإن لم يكن كذلك في نفس الأمر.

الثالث: من يوافق الكتاب والسنة في اللفظ دون المعنى، وهؤلاء كطوائف الباطنية وغيرهم ممن يعبرون عن عقائدهم الفاسدة بألفاظ شرعية، فالصلاة عندهم كشف أسرارهم، والصيام كتمانها، والحج القصد إلى شيوخهم، ونحو ذلك[١].

الرابع: من يخالف الكتاب والسنة لفظًا ومعنى، وهؤلاء أشقى الطوائف، وهم من الكفرة والملاحدة ونحوهم.

القاعدة الثالثة: لا ينبغي بتر الدليل، والاستدلال بجزئه

وهذا هو شأن أهل الابتداع حتى يجدوا من الكلمات الشرعية ما يسوغ لهم بدعتهم، ويجعلها تروج عند ضعفاء المسلمين:

---

(١) الإقحام لأفئدة الباطنية الطغام للعلوي (ص: ٧١) وما بعدها.

قال محمد بن كعب القرظي رحمه الله تعالى في الرد على القدرية: (... وإنهم أتموا آية من كتاب الله ﷻ ولكنهم يأخذون بأولها ويتركون آخرها، والذي نفسي بيده لإبليس أعلم بالله ﷻ، يعلم من أغواه، وهم يزعمون أنهم يغوون أنفسهم ويرشدونها)[١].

ولما احتج غيلان الدمشقي أمام عمر بن عبد العزيز على مقالته في القدر بقوله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: ٢ - ٣] قال له عمر: (أقرا آخر السورة: وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الإنسان: ٣٠، ٣١] ثم قال عمر: وما تقول يا غيلان، قال: أقول: قد كنت أعمى فبصرتني، وأصم فأسمعتني، وضالًا فهديتني...) فتاب، ثم رجع إلى مقالته في عهد هشام بن عبد الملك؛ فصلبه[٢].

القاعدة الرابعة: الحق يقبل من أي جهة جاء

الحق يقبل لكونه موافقًا للدليل، فلا أثر للمتكلم به في قبوله أو رفضه، ولهذا كان أهل السنة يقبلون ما عند جميع الطوائف من الحق، ويردون ما عندها من الباطل، بغض النظر عن الموالي منها أو المعادي:

قال تعالى: {فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: ٢١٣] وفي دعاء النبي ﷺ: (... اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)[٣]. قال ابن القيم رحمه الله: (فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث

---

(١) الشريعة للآجري (ص: ٢٢٢).

(٢) الشريعة للآجري (ص: ٢٢٨).

(٣) رواه مسلم (٧٧٠). من حديث عائشة رضي الله عنها.

كان ومع من كان، ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، ورد الباطل مع من كان ولو كان مع من يحبه ويواليه، فهو ممن هدى الله لما اختلف فيه من الحق)[١].

وقال تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى...} [المائدة: ٨] ومن العدل فيهم قبول ما عندهم من الحق.

وهكذا أدبنا القرآن الكريم حين ساق كلام بلقيس - وقت كفرها- ثم وافقها عليه، قال تعالى - حكاية عنها-: (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) قال الله تعالى: وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [النمل: ٣٤].

ولما دل الشيطان أبا هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى آية الكرسي لتكون له حرزًا من الشيطان، وذلك مقابل فكه من الأسر، قال له النبي ﷺ: (صدقك وهو كذوب)[٢].

وكان معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: (اقبلوا الحق من كل من جاء به، وإن كان كافرًا - أو قال فاجرًا- واحذروا زيغة الحكيم، قالوا: كيف نعلم أن الكافر يقول كلمة الحق؟ قال: إن على الحق نورًا)[٣].

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٥١٦).

(٢) رواه البخاري (٢٣١١).

(٣) أخرجه من طرق أبو داود (٤٦١١)، وعبد الرزاق (٢٠٧٥٠)، والدارمي (١/ ٥٩، رقم ٢٠٥)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٢٢٢، ٣٢٠ - ٣٢٢، ٧١٩)، والآجري في الشريعة (ص٤٧، ٤٨)، والفريابي في صفة المنافق (ص٥٨ - ٥٩، رقم ٤١، ٤٢)، والحاكم (٤/ ٤٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٣٣)، واللالكائي في شرح أصول السنة (١/ ٨٩، رقم ١١٧)، والأصبهاني في الحجة (ص٢٣٧)، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص٢٦)، وابن بطة في الإبانة (١/ ٢٢/ ٢)، والبيهقي في المدخل (رقم٨٣٤)، وابن عبد البر في الجامع (٢/ ٩٨١/ رقم ١٧٨١)، والمزي في تهذيب الكمال (٣٢/ ٢١٩) والأثر قال عنه العلامة الألباني في صحيح أبي داود (٣/ ٨٧٢): صحيح الإسناد موقوف، وكذا قال الشيخ مشهور في تعليقه على الموافقات (٥/ ١٣٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٧/ ٢١): أثر إسناده صحيح.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية - مبينًا منهجه في التعامل مع المخالفين له من أهل الكلام وغيرهم-: (وليس كل من ذكرنا شيئًا من قوله - من المتكلمين وغيرهم - يقول بجميع ما نقوله في هذا الباب وغيره، ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به)(١).

القاعدة الخامسة: الحق لا يعرف بالرجال اعرف الحق تعرف رجاله

الحق ما وافق الدليل من غير التفات إلى كثرة المقبلين، أو قلة المعرضين، فالحق لا يوزن بالرجال، وإنما يوزن الرجال بالحق، ومجرد نفور النافرين، أو محبة الموافقين لا يدل على صحة قول أو فساده، بل كل قول يحتج له خلا قول النبي ﷺ فإنه يحتج به(٢)، ومن المعلوم أنه لا يوجد أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولًا عامًّا، يتعمد مخالفة النبي ﷺ في شيء من سنته، لا دقيق ولا جليل، بل هم متفقون اتفاقًا يقينيًا على وجوب متابعته، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويرد، إلا الرسول ﷺ، وذلك لأجل ثبوت العصمة للشارع وحده، أما غيره فيعتريه من نقص العلم والفهم ما يستوجب عرض قوله على الشرع طلبًا للإجازة والتزكية.

القاعدة السادسة: حكم كلام غير الشارع

ما يقوله سائر الناس من الكلام في المطالب الشرعية لابد من عرضه على الكتاب والسنة، فإن وافق الكتاب والسنة فهو حق يقبل، وإن خالفهما فهو باطل يرد، وإن احتمل الجهتين:

فإما أن يعرف مراد المتكلم فيحكم له أو عليه بحسب المراد، وإما أن لا يعرف مراده، فينظر في سيرته - سيرة المتكلم- فإن كانت حسنة حمل كلامه

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٥/ ١٠١).

(٢) نقض المنطق (ص: ١٥٤)، والقواعد المثلى للعثيمين (ص: ٨٦).

على الوجه الحسن؛ {وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ} [الأعراف: ٥٨] وإن كانت سيرته سيئة حمل كلامه على الوجه السيء {وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا} [الأعراف: ٥٨].

أما إذا عرف مراده لكن لم يعرف: هل جاء الشرع بتصديقه أو بتكذيبه؛ فإنه يمسك عنه ولا يتكلم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول ﷺ[(١)].

واعتصامًا بهذه القاعدة شرح ابن القيم رحمه الله كتاب منازل السائرين للشيخ الهروي في كتابه القيم: (مدارج السالكين)، فقبل من كلام الشيخ ما أسنده الدليل، ورد منه ما خالفه الدليل، وحمل على أحسن المحامل ما احتمل وجوهًا، إحسانًا للظن بشيخ الإسلام الهروي[(٢)].

القاعدة السابعة: السكوت عما سكت الله عنه ورسوله

كل مسألة من مسائل الشريعة - ولاسيما مسائل الاعتقاد - لا يحكم فيها، نفيًا أو إثباتًا إلا بدليل، فما ورد الدليل بإثباته أثبتناه، وما ورد بنفيه نفيناه، وما لم يرد بإثباته ولا بنفيه دليل توقفنا، ولم نحكم فيه بشيء؛ لا إثباتًا ولا نفيًا، ولا يعني هذا أن المسألة خلية عن الدليل، بل قد يكون عليها دليل، لكن لا نعلمه، فالواجب علينا التوقف: إما مطلقًا أو لحين وجدان الدليل:

قال تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا} [الإسراء: ٣٦] قال قتادة: (لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله)[(٣)].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/ ١٤٥، ١٤٦، ١٧/ ٣٥٥)، وشرح الطحاوية (ص: ١٦١).
(٢) مقدمة مدارج السالكين لمحمد حامد الفقي (ص: ت - ث).
(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٧٢) (طبعة الشعب).

وقال ﷺ: (إن الله ﷻ فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم حرمات فلا تنتهكوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان، فلا تبحثوا عنها)[١].

قال ابن تيمية: (الأقسام ثلاثة: ما علم ثبوته أثبت، وما علم انتفاؤه نفي، وما لم يعلم نفيه ولا إثباته سكت عنه، هذا هو الواجب، والسكوت عن الشيء غير الجزم بنفيه أو ثبوته)[٢].

القاعدة الثامنة: الامتناع عن مناظرة أهل السفسطة

إذا وضح الحق وبان لم يبق للمعارضة العلمية ولا العملية محل، فإن الأمم كلهم متفقون على أن المناظرة إذا انتهت إلى مقدمات معروفة، بينة بنفسها، ضرورية، وجحدها الخصم كان سوفسطائيًا؛ فلا ينبغي مناظرته بعد ذلك، قال تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: ٢٩] وقال تعالى: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ...} [الأنفال: ٦] فكل من جادل في الحق بعد وضوحه وبيانه فقد غالط شرعًا وعقلًا[٣]. قال المزني رحمه الله: (وحق المناظرة أن يراد بها الله ﷻ، وأن يقبل منها ما يتبين)[٤].

---

(١) أخرجه الدارقطني (٤/ ١٨٣) (٤٢)، والطبراني (٢٢/ ٢٢١)، والحاكم (٤/ ١٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٢). من حديث أبي ثعلبة الخشني. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٤١٧: رواه الطبراني في الكبير وهو هكذا في هذه الرواية وكأن بعض الرواة ظن أن هذا معنى وسكت فرواها كذلك والله أعلم، ورجاله رجال الصحيح. وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٧٨) وصححه. وقال الألباني في شرح العقيدة الطحاوية (ص٣٣٨): حسن لغيره.

(٢) مجموعة تفسير ابن تيمية (ص: ٣٥١، ٣٥٢).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ١٧٤)، والقواعد الحسان للسعدي (ص: ١٥٨، ١٥٩).

(٤) جامع بيان العلم (٢/ ١٣٢).

ولهذا كان من الأسئلة ما ليس له جواب غير السكوت والانتهاء كما قال النبي ﷺ: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته)[١]. فإن كل نظر لابد له من ضرورة يستند إليها، فإذا احتاجت الضرورة إلى استدلال ونظر، أدى ذلك إلى التسلسل وهو باطل.

القاعدة التاسعة: الباطل لا يرد بالباطل بل بالحق

السلف والأئمة يذمون ما كان من الكلام والعقليات باطلًا، وإن قصد به نصر الكتاب والسنة، فيذمون من قابل بدعة ببدعة، وفاسدًا بفاسد[٢]. فالباطل يرد بالحق المحض، والبدعة ترد بالسنة الصحيحة:

قال الخلال: (أخبرنا أبو بكر المروذي، قال: كتب إلى عبد الوهاب في أمر حسين بن خلف البحتري العكبري، وقال: إنه قد تنزه عن ميراث أبيه، فقال رجل قدري: إن الله لم يجبر العباد على المعاصي، فرد عليه أحمد بن رجاء فقال: إن الله جبر العباد، أراد بذلك إثبات القدر. فوضع أحمد بن علي كتابًا يحتج فيه، فأدخلته على أبي عبد الله، فأخبرته بالقصة، فقال: ويضع كتابًا؟ وأنكر أبو عبد الله عليهما جميعًا: على ابن رجاء حين قال: جبر العباد، وعلى القدري الذي قال: لم يجبر العباد، وأنكر على أحمد بن علي وضعه الكتاب واحتجاجه، وأمر بهجرانه بوضعه الكتاب، وقال لي: يجب على ابن رجاء أن يستغفر ربه لما قال: جبر العباد، فقلت لأبي عبد الله: فما الجواب في هذه المسألة؟ قال: يُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء [فاطر: ٨])[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ١٦٥).

(٣) السنة للخلال (ص: ٥٥٢) برقم: ٩٥٢، والأعلام المذكورون في القصة - خلا عبد الوهاب- لم أجد من ترجم لهم.

وهذا الفخر الرازي يرد على النصارى قولهم في إلهة عيسى بأن الإله لا يكون جسمًا، ولا متحيزًا، ولا عرضًا[١]، ومعلوم أن هذه الألفاظ لم ترد لا في الكتاب، ولا في السنة، ولا في كلام سلف الأمة وأئمتها، بل هي ألفاظ محدثة مبتدعة، فيكون قد رد باطلهم بنحوه.

وفي باب الصفات رقى المعتزلة ونحوهم - للرد على الشبهة - سلم النفي والتعطيل، قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: (وتعمق آخرون في النظر وزعموا أنهم يريدون تصحيح التوحيد بنفي التشبيه عن الخالق، فأبطلوا الصفات، مثل: الحلم والقدرة والجلال والعفو وأشباه ذلك...)[٢].

وأراد بعض مثبتة القدر الرد على نفاته، فأنكروا فعل العبد واختياره. والشيعة أرادوا الإنكار على الخوارج الذين كفروا عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوقعوا في سائر الصحابة - عدا آل البيت- تكفيرًا وتفسيقًا، وقالوا: لا ولاء إلا ببراء.

وهكذا، فمن لم يعتصم بالكتاب والسنة في مناظراته لم يسلم من مثل هذه البدع.

القاعدة العاشرة: عدم العلم بالدليل ليس علمًا بالعدم

كثير من المتناظرين قد يجعل عمدته في نفي وجود أمر ما، عدم علمه بالدليل على وجوده، والأصل أن عدم العلم بالدليل ليس علمًا بالعدم،، وعدم الوجدان ليس نفيًا للوجود، فكما أن الإثبات يحتاج إلى دليل، فكذلك النفي يحتاج إلى دليل، وإلا فما لم يعلم وجوده بدليل معين، قد يكون معلومًا بأدلة أخرى، فمثلًا: عدم الدليل العقلي على وجود أمر ما، لا يعني عدم وجوده، لأنه قد يكون ثابتًا بالدليل السمعي، أو غيره.

---

(١) مناظرة في الرد على النصارى للرازي (ص: ٢٢)

(٢) اختلاف اللفظ (ص: ٢٣).

فالدليل يجب فيه الطرد لا العكس، بمعنى أنه يلزم من وجوده الوجود، ولا يلزم من عدمه العدم، أي عدم المدلول عليه، قال تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ [يونس: ٣٩] فهذا نعي على كل من كذب بما قصر عنه علمه.

فمن نفى كثيرًا من الغيبيات كالصفات، والقدر، والملائكة، والجن، وأحوال البرزخ، والمعاد، لعدم قيام دليل الحس والمشاهدة، أو دليل العقل - كما يزعم - كان غالطًا، لأنه أخبر عن نفسه، ولا يمنع أن يكون غيره قد قام عنده دليل العقل، أو دليل السمع، أو دليل المشاهدة كما وقع ذلك للرسول ﷺ في مشاهدة الجن والملائكة وأحوال البرزخ والمعاد[١].

وقد رد الفخر الرازي على النصارى دعواهم إلهية عيسى عليه السلام لظهور الخوارق على يديه، بأن عدم ظهور هذه الخوارق في حق غيره لا يلزم منه عدم إلهية ذلك الغير، بل غاية ما هناك أنه لم يوجد هذا الدليل المعين، وعليه، فيجوز - كما هو لازم قولهم - حلول الله تعالى في كل مخلوق من مخلوقاته، إذ لا دليل على اختصاص عيسى عليه السلام بذلك، لأنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول[٢].

ويستثنى من هذه القاعدة ما إذا كان وجود المدلول مستلزمًا لوجود الدليل، وقد علم عدم الدليل، فيقع العلم بعدم المدلول المستلزم لدليله، لأن عدم اللازم دليل على عدم الملزوم، مثاله:

قد ثبت توافر الدواعي على نقل كتاب الله تعالى ودينه، فإنه لا يجوز على

(١) مجموعة تفسير ابن تيمية (ص: ٣٥٠- ٣٥١)، والرد على المنطقيين (ص: ١٠٠)، ورفع الملام (ص: ٧٣).
(٢) مناظرة في الرد على النصارى (ص: ٢٦ - ٢٧).

الأمة كتمان ما يحتاج الناس إلى نقله، فلما لم ينقل ما يحتاجون إليه في أمر دينهم نقلًا عامًا، علمنا يقينًا عدم ذلك، نحو سورة زائدة، أو صلاة سادسة ونحو ذلك[١].

القاعدة الحادية عشرة: في لازم المذهب

أولًا: ينبغي أن يعلم أن اللازم من قول الله تعالى، وقول رسوله ﷺ إذا صح أن يكون لازمًا فهو حق، يثبت ويحكم به؛ لأن كلام الله ورسوله حق، ولازم الحق حق؛ ولأن الله تعالى عالم بما يكون لازمًا من كلامه وكلام رسوله، فيكون مرادًا[٢].

وكذلك قول الإنسان إما أن يكون موافقًا للكتاب والسنة فيكون حقًا، ولازمه حقًا، وإما أن يكون مخالفًا للكتاب والسنة فيكون باطلًا ولازمه باطلًا[٣].

ثانيًا: اللازم من قول العالم له ثلاث حالات[٤]:

الحالة الأولى: أن يذكر له لازم قوله فليتزمه، مثل أن يقول لمن يثبت وزن الأعمال في الآخرة: يلزمك القول بجواز وزن الأعراض. فيقول المثبت: نعم التزم به، لأن أحوال الآخرة تختلف عن أحوال الدنيا، والله تعالى على كل شيء قدير، ثم إنه قد وجد في زماننا هذا موازين للحرارة، والبرودة، والإضاءة، ونحو

---

(١) رفع الملام (ص: ٧٣، ٧٤).

(٢) القواعد المثلى للعثيمين (ص: ١١، ١٢).

(٣) القواعد النورانية لابن تيمية (ص: ١٢٨). تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية الطبعة الأولى ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م القاهرة.

(٤) القواعد النورانية (ص: ١٢٨، ١٢٩) ومجموع فتاوى ابن تيمية (٢٠/ ٢١٧، ٣٥/ ٢٨٨)، وطريق الهجرتين لابن القيم (ص: ٢٣٧، ٢٣٨)، والقواعد المثلى للعثيمين (ص: ١٢، ١٣).

ذلك من الأعراض.

وهذا اللازم يجوز إضافته إليه إذا علم منه أنه لا يمنعه.

الحالة الثانية: أن يذكر له لازم قوله، فيمنع التلازم بينه وبين قوله، مثل أن يقول نافي الصفات لمن يثبتها، يلزمك أن يكون الله تعالى مشابهًا للخلق في صفاته، فيقول المثبت: لا يلزم ذلك؛ لأننا عندما أضفنا الصفات إلى الخالق سبحانه قطعنا توهم الاشتراك والمشابهة، كما أنك أيها النافي للصفات، تثبت ذاتًا لله تعالى وتمنع أن يكون الله مشابها للخلق في ذاته، فقل ذلك أيضًا في الصفات إذ لا فرق بينهما.

وهذا اللازم لا يجوز إضافته إليه بعد أن بين هو وجه امتناع التلازم بين قوله وبين ما أضيف إليه.

الحالة الثالثة: أن يكون اللازم مسكوتًا عنه فلا يذكر بالتزام ولا منع، فهذا حكمه أن لا ينسب إليه، لأنه إذا ذكر له اللازم: فقد يلتزمه، وقد يمنع التلازم، وقد يتبين له وجه الحق فيرجع عن اللازم والملزوم جميعًا. ولأجل هذه الاحتمالات فلا ينبغي إضافة اللازم إليه ولا سيما أن الإنسان بشر وتعتريه حالات نفسية وخارجية توجب له الذهول عن اللازم؛ فقد يغفل، أو يسهو، أو ينغلق فكره، أو يقول القول في مضايق المناظرات من غير تدبر في لوازمه، ونحو ذلك.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولو كان لازم المذهب مذهبًا للزم تكفير كل من قال عن الاستواء أو غيره من الصفات إنه مجاز ليس بحقيقة؛ فإن لازم هذا القول يقتضي أن لا يكون شيء من أسمائه أو صفاته حقيقة)[(١)].

لكن قد تذكر اللوازم الباطلة - لاسيما عند المناظرة- لإظهار شناعة

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٠/ ٢١٧).

المذهب الباطل (الملزوم)، لأن العاقل إذا نبه إلى ما يلزم قوله من اللوازم الفاسدة، فقد ينتبه ويرجع عن قوله.

وأهل البدع - لاضطرابهم وتناقضهم- قد يفر الواحد منهم من اللازم الحق ليقع في اللازم الباطل، وهو يظن في ذلك السلامة: كالقدري يفر من لازم كون الله يضل من يشاء، فيقع في لازم كونه يقع في ملكه ما لا يشاء، وكذلك منكر الصفات يفر من التشبيه - بزعمه- فيقع في التعطيل، والذي قد يقوده إلى التعطيل الكامل فلا يعرف إلها موجودًا معبودًا!.

القاعدة الثانية عشرة: الاستدلال بالدليل المتفق عليه على المسألة المتنازع فيها

الخصمان إما أن يتفقا على أصل يرجعان إليه أم لا، فإن لم يتفقا على شيء، لم تقع بمناظرتهما فائدة، وإذا كانت الدعوى لابد لها من دليل، وكان الدليل عند الخصم متنازعًا فيه، ليس عنده بدليل، صار الإتيان به عبثًا، لا يفيد فائدة ولا يحصل مقصودًا، إذ مقصود المناظرة رد الخصم إلى الصواب بطريق يعرفه، فلابد من الرجوع إلى دليل يعرفه الخصم السائل، معرفة الخصم المستدل:

ولهذا كان الرجوع عند المسلمين إلى الكتاب والسنة، لاتفاقهم عليهما، وكان المرجوع إليه عند التنازع مع غير المسلمين ما يسلم به الكفار، كما قال تعالى: - في محاجة الكفار-: {قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [المؤمنون: ٨٤ - ٩٠][(١)].

---

(١) الموافقات (٤/ ٣٣٥).

القاعدة الثالثة عشرة: الجمع بين المتماثلات والتفريق بين المختلفات

وهي خاصة العقل الصحيح، وصفة الفطرة السليمة، وعليها قامت أحكام الشرع، فالشيء يعطى حكم نظيره، وينفى عنه حكم مخالفه، ولا يجوز العكس بحال: وهو أن يفرق بين متماثلين أو يجمع بين مختلفين:

قال الله تعالى في ذم اليهود: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [البقرة: ٨٥] وذلك أنهم أغفلوا حكم التوراة في سفك الدماء وإخراج أنفسهم من ديارهم، وأقاموه - أي حكم التوراة- في مفاداة الأسرى[١] وكان الواجب عليهم إقامته في شأنهم كله.

وقال تعالى: في شأنهم أيضًا: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ} [البقرة: ٩١] فكفروا برسالة محمد ﷺ مع ما فيها من التصديق لما معهم من التوراة والإنجيل، والجميع يخرج من مشكاة واحدة؛ فكان الكفر ببعض ذلك كفرًا بالجميع وجحدًا له[٢].

هذا في جانب التفريق بين المتماثلات، أما في جانب الجمع بين المختلفات، فقد قاس اليهود الرب - جل جلاله- على المخلوق الضعيف القاصر، فوصفوه سبحانه بصفات المخلوقين، فقالوا: {يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ} [المائدة: ٦٤] وقالوا: {إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [ال عمران: ١٨١] وقالوا: {عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ} [التوبة: ٣٠] وفيه إثبات الصاحبة والولد وهي من صفات المخلوقات، ويشركهم في ذلك النصارى القائلون: {المَسِيحُ ابْنُ اللهِ} [التوبة: ٣٠].

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٤/ ١٤٣، ١٤٤) وتفسير ابن كثير (١/ ١٧٣، ١٧٤) (طبعة الشعب).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٨٠) (طبعة الشعب).

فكل من فرق بين متماثلين، أو جمع بين مختلفين من مبتدعة المسلمين يكون فيه شبه من اليهود والنصارى، وهم إمامه وسلفه في ذلك:

فنفاة الصفات: بعضها أو جميعها، أو الصفات دون الأسماء، أو الصفات والأسماء جميعًا، فرقوا بين المتماثلات، إذ القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر نفيًا وإثباتًا، وكذلك القول في الصفات كالقول في الأسماء، وكذلك القول في الصفات والأسماء فرع عن القول في الذات(١).

وهم أيضًا قد جمعوا بين المختلفات، لأنهم لم يعتقدوا التعطيل إلا بعد أن قامت عندهم شبهة التشبيه، ولهذا كان كل معطل مشبهًا.

ونفاة القدر فرقوا بين المتشابهات والمتماثلات من وجه؛ حيث اعتمدوا النصوص التي تثبت قدرة العبد ومشيئته، وأنكروا النصوص التي تثبت قدرة الخالق، ومشيئته، وخلقه، وسابق علمه، وجمعوا بين المختلفات من وجه؛ حيث قاسوا المخلوق بالخالق، وجعلوهما سواء فيما يجوز، ويجب، ويمتنع. قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ألا ترى أن أهل القدر حين نظروا في قدر الله الذي هو سره بآرائهم، وحملوه على مقاييسهم؛ أرتهم أنفسهم قياسًا على ما جعل في تركيب المخلوق من معرفة العدل من الخلق على الخلق، أن يجعلوا ذلك حكمًا بين الله وبين العبد، فقالوا بالتخلية والإهمال، وجعلوا العباد فاعلين لما لا يشاء، وقادرين على ما لا يريد، كأنهم لم يسمعوا بإجماع الناس على: ما يشاء الله كان وما لا يشاء لا يكون)(٢).

والوعيدية من الخوارج والمعتزلة فرقوا بين نصوص الوعيد فآمنوا بها، وبين نصوص الوعد فكفروا بها، والجميع يخرج من مشكاة واحدة، وفي

---

(١) راجع في ذلك: الرسالة التدمرية (ص: ٢١) وما بعدها.

(٢) اختلاف اللفظ (ص: ١٢، ١٣).

المقابل المرجئة آمنوا بنصوص الوعد، وكفروا بنصوص الوعيد.

والشيعة فرقوا بين الصحابة رضوان الله عليهم، فتولوا آل البيت منهم وعادوا غيرهم، والواجب موالاتهم جميعًا. وجمعوا بين الرسول ﷺ وبين غيره في إثبات العصمة، حيث ساقوها في أئمتهم، والواجب التفريق في ذلك بين الرسل وغيرهم من الناس.

وممن خالف هذه القاعدة أيضًا من فرق بين الكتاب والسنة فاعتمد الكتاب دون السنة، وكذلك من فرق بين نصوص الأحكام فاعتمدها، وبين نصوص العقائد فأعرض عنها بتأويل أو تفويض، أو تكذيب إن كانت أحاديث آحاد، وكذلك من فرق بين السنة والمتواترة وسنة الآحاد في باب العقائد أو الأحكام.

فكل هؤلاء واقعون في التناقض والاضطراب، والواجب عليهم الجمع بين المتماثلات، والتفريق بين المختلفات حتى يسلموا مما هم فيه.

القاعدة الرابعة عشرة: المعارضة الصحيحة هي التي يمكن طردها

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ٢٥٨].

فلما سوى الملحد نفسه بالله تعالى في ادعاء الإحياء والإماتة طالبه إبراهيم بطرد المساواة، وهي أن من حقوق الربوبية التصرف في الكون، وفي كواكبه وأجرامه، ومن ذلك أن الله تعالى يسير الشمس من المشرق على المغرب، فإن كنت صادقًا في ادعاء المساواة لله تعالى في الإحياء والإماتة، فأعكس حركة هذه الشمس، واجعلها تسير من المغرب إلى المشرق، {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا

يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[1].

وكذلك يقال مثلًا لنفاة بعض الصفات بقصد التنزيه، اطردوا حجتكم وانفوا سائر الصفات، بل وسائر الأسماء، حتى صفة الوجود؛ لأن المخلوق يتصف بها، فمن طرد منهم لم يبق عنده إله يعبد، ولا رب يصلي له ويسجد، ومن فرق بقي في التناقض، والسعيد من أثبت الصفات جميعًا مع نفي التشبيه والمماثلة بين الخالق والمخلوق في شيء منها.

القاعدة الخامسة عشرة: في مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم الخاص

إذا تكلم المخالف باصطلاحه الخاص الذي اصطلحه مخالفًا به ما عليه الشرع من الألفاظ؛ فقد يعبر عن المعاني التي أثبتها الشرع بعبارات أخرى ليست فيه، أو أنها فيه لكن جاءت بمعان أخر، بل قد يكون معناها المعروف في لغة العرب التي نزل بها القرآن منتفيًا باطلًا نفاه الشرع والعقل[2]: كلفظ التوحيد عند الطوائف المنحرفة:

فالتوحيد عند الفلاسفة يعنون به إثبات الوجود المطلق، مجردًا عن الماهية والصفة.

وعند الاتحادية وأصحاب وحدة الوجود: أن الرب تعالى هو عين كل موجود.

وعند الجهمية: التوحيد هو إنكار صفة العلو لله تعالى، والكلام، والسمع، والبصر، وغير ذلك من الصفات التي ثبتت بالسمع ودل عليها العقل.

وعند القدرية: إنكار قدر الله وعموم مشيئته في الكائنات وقدرته عليها.

ويدخل في ذلك أيضًا نحو التكلم بالألفاظ المجملة كلفظ الجهة، والحيز

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٣) (طبعة الشعب)، ومختصر الصواعق (١/ ١٠٩).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٣).

والمكان، والجسم وغير ذلك.

فيبقى المخاطب لهم والراد عليهم مترددًا بين أمور:

الأول: أن يخاطبهم بغير اصطلاحهم، بل بالألفاظ والمعاني الشرعية، فحينئذ قد يقولون: إنا لا نفهم ما قيل لنا، أو أن المخاطب لنا والراد علينا لم يفهم قولنا ومرادنا، ويلبسون على الناس، بأن الذي عنيناه بكلامنا حق معلوم بالعقل أو بالذوق، وأنه موافق للشرع.

الثاني: أن يخاطبهم بلغتهم واصطلاحهم - وقد يكون ذلك مخالفًا لألفاظ القرآن في الظاهر - فحينئذ قد ينسبون المخاطب لهم إلى أنه أطلق تلك الألفاظ التي تحتمل حقًا وباطلًا، وأوهموا الجهال باصطلاحهم الخاص.

الثالث: أن يمتنع عن موافقتهم في التكلم بها نفيًا وإثباتًا، بل يستفصل عن مرادهم: فإن أرادوا بهذه الألفاظ حقًا قبل، وإن أرادوا باطلًا رد، وهنا قد ينسبونه إلى العجز والانقطاع[1]:

فحينئذ تختلف المصلحة؛ فيختار المخاطب لهم، الأسلوب الأمثل في مخاطبتهم والرد عليهم، وذلك بحسب ما يقتضيه المقام[2]:

فإن كانوا في مقام دعوة الناس إلى قولهم وإلزامهم به أمكن أن يقال لهم: لا يجب على أحد أن يجيب داعيًا إلا إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه، ولا له دعوة الناس إلى ذلك.

ومثل هذا فعله شيوخ السنة بين يدى ولاة الأمور في مناظراتهم لرؤوس

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٣، ٢٢٩).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٩) وما بعدها.

المعتزلة والجهمية[١].

أما إن كان المخالف معارضًا للشرع بما يذكره، أو كان غير ملتزم بالشريعة: فهؤلاء لابد في مخاطبتهم من الكلام على المعاني التي يدعونها: إما بألفاظهم، وإما بألفاظ يوافقون على أنها تقوم مقام ألفاظهم، وإن أمكن نقل معانيهم إلى العبارة الشرعية كان حسنًا، وإن لم يمكن مخاطبتهم إلا بلغتهم، فبيان ضلالهم، ودفع صيالهم عن الإسلام بلغتهم، أولى من الإمساك عن ذلك لأجل مجرد اللفظ:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك، وكانت المعاني صحيحة، كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم، فإن هذا جائز حسن للحاجة...)[٢].

فمخاطبة أهل الاصطلاح بلغتهم واصطلاحهم يفيد من وجوه:

الأول: أنهم يفهمون الحجة.

الثاني: أن ذلك أبلغ في الرد عليهم، وكسرهم.

الثالث: بيان تمكن أهل الحق من معاني مسائلهم وعرضها بأي أسلوب يقتضيه الموقف.

وقد استعمل شيخ الإسلام هذا الأسلوب في كثير من مصنفاته التي فيها الرد على أهل البدع والفلسفة، مثل كتاب درء التعارض، والرد على المنطقيين، وكذلك رأيت الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستخدم المنطق في الرد على من يؤمنون به، وذلك في تفسيره أضواء البيان[٣].

---

(١) انظر مثالا لذلك: الاعتصام (١/ ٢٤٣، ٢٤٤)، والشريعة (ص: ٦٢ - ٦٤).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٤٣).

(٣) انظر: مثلا أضواء البيان (٤/ ١٤٨ - ١٥٠).

القاعدة السادسة عشرة: التوقف عند الإيهام، والاستفصال عند الإجمال

إذا أورد المنازع لفظًا مجملًا يحتمل حقًا وباطلًا، لم يكن لنا إثبات اللفظ أو نفيه، بل الواجب التوقف، وليس ذلك لخلو النقيضين عن الحق، ولا لقصور أو تقصير في بيان الحق، ولكن لأن اللفظ مجمل، والعبارة موهمة مشتملة على الحق والباطل، ففي إثباتها إثبات الحق والباطل، وفي نفيها نفي الحق والباطل، فالواجب الامتناع عن كلا الإطلاقين، ثم الاستفسار عن مراد صاحبها بها فإن أراد بها حقًا قبل، وإن أراد بها باطلًا رد[١].

وبعد اختيار المعنى الصحيح المراد من العبارة الموهمة، يمنع من إطلاقها ويركب للمعنى لفظه الشرعي، حتى ينتفي عنه الإيهام والإجمال:

مثال ذلك: لفظ الجهة لله تعالى[٢]:

فلو سأل سائل: هل تثبتون لله تعالى الجهة؟

الجواب: لفظ الجهة لم يرد في الكتاب ولا في السنة، لا إثباتًا ولا نفيًا وهو لفظ مجمل محتمل، ويغني عنه ما ثبت في الكتاب والسنة من أن الله تعالى في السماء.

أما الجهة فقد يراد بها جهة سفل، أو جهة علو تحيط بالله تعالى، أو جهة علو لا تحيط به:

أما المعنى الأول فباطل، لمنافاته العلو لله تعالى الثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

والثاني باطل أيضًا لأن الله تعالى أعظم من أن يحيط به شيء من مخلوقاته.

وأما المعنى الثالث: فحق يجب إثباته وقبوله، لأن الله تعالى هو العلي الأعلى، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٧٦)، ومجموع تفسير ابن تيمية (ص: ٣٥٢).

(٢) القواعد المثلى للعثيمين (ص: ٣١).

يقول طاش كبرى زاده في أصول المناظرة[١]:

وليجتنب فيها عن الإطناب ثم عن الإيجاز والخطاب
إلى رفيع القدر والمهابة وعن كلام شابه الغرابة
ومجمل من غير أن يفصلا كذا تعرض لما لا مدخلا

ولهذا يوجد كثيرا في كلام السلف النهي عن إطلاق النفي أو الإثبات في مثل هذه المواطن:

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إذا سأل الجهمي فقال: أخبرونا عن القرآن، هو الله أو غير الله؟ قيل له: وإن الله جل ثناؤه لم يقل في القرآن: إن القرآن أنا ولم يقل: غيري، وقال: هو كلامي، فسميناه باسم سماه الله به، فقلنا: كلام الله، فمن سمى القرآن باسم سماه الله به كان من المهتدين، ومن سماه باسم غيره كان من الضالين)[٢].

وفي كتاب السنة للخلال[٣]: سئل الزبيدي والأوزاعي عن الجبر، فقال الزبيدي: (أمر الله أعظم، وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل، ولكن يقضي ويقدر، ويخلق ويجبل عبده على ما أحبه).

وقال الأوزاعي: (ما أعرف للجبر أصلًا من القرآن ولا السنة، فأهاب أن أقول ذلك، ولكن القضاء، والقدر، والخلق، والجبل، فهذا يعرف في القرآن

---

(١) علم البحث والمناظرة رسالة للعلامة أبي الخير عصام الدين أحمد بن مصطفى المشهور بطاش كبرى زاده (ص: ٤٢) بتحقيق: أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، مطبعة الجبلاوي، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ، مصر.

(٢) الرد على الجهمية للإمام أحمد (ص: ٧٣) (ضمن عقائد السلف للنشار).

(٣) (ص: ٥٥٥) برقم: ٩٣٢، وقد نقل ابن تيمية هذا النص في درء التعارض (١/ ٦٦)، والفتاوى (٥/ ٤٣٠، ٨/ ١٠٤- ١٠٥).

والحديث عن رسول الله ﷺ).

قال ابن تيمية: (فهذان الجوابان اللذان ذكرهما هذان الإمامان في عصر تابعي التابعين من أحسن الأجوبة... وجواب الأوزاعي أقوم من جواب الزبيدي لأن الزبيدي نفى الجبر، والأوزاعي منع إطلاقه، إذ هذا اللفظ قد يحتمل معنى صحيحًا، فنفيه قد يقتضي نفي الحق والباطل)[١] وكذلك إثباته قد يقتضي إثبات الحق والباطل، والصواب الإعراض عنه، أو التفصيل في الجواب.

ومثال آخر لمنهج السلف في هذه المسألة، ما أورده الإمام الذهبي في كتاب (العلو)[٢] من كلام أبي بكر محمد بن الحسن الحصري القيرواني الذي ساق أقوال جماعة من العلماء في مسألة الاستواء، ثم قال: (وهذا هو الصحيح الذي أقول به من غير تحديد، ولا تمكن في مكان، ولا كون فيه ولا مماسة).

قال الذهبي معلقًا على ذلك: (سلب هذه الأشياء وإثباتها مداره على النقل، فلو ورد شيء بذلك نطقنا به، وإلا فالسكوت والكف أشبه بشمائل السلف)[٣].

القاعدة السابعة عشرة: طالب الحق يستفيد من رد أهل البدع، بعضهم على بعض

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: (من المعلوم أن كل مبطل أنكر على خصمه شيئًا من الباطل قد شاركه في بعضه أو في نظيره فإنه لا يتمكن من دحض حجته وكسر باطله؛ لأن خصمه تسلط عليه بمثل ما سلط هو به عليه، وهذا شأن أهل الأهواء مع بعضهم بعضًا، ولهذا كان عامة ما يأتون به أبدًا يناقض بعضهم بعضًا، ويكسر

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٦٧ - ٦٩).
(٢) (ص: ١٥٨).
(٣) (ص: ١٥٨).
(٤) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٥٢، ٤٥٢).

أقوال بعضهم بعض، وفي هذا منفعة جليلة لطالب الحق، فإنه يكتفي بإبطال كل فرقة لقول الفرقة الأخرى..).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمناظرة تارة تكون بين الحق والباطل، وتارة بين القولين الباطلين لتبيين بطلانهما، أو بطلان أحدهما، أو كون أحدهما أشد بطلانًا من الآخر، فإن هذا ينتفع به كثيرًا من أقوال أهل الكلام والفلسفة وأمثالهم، ممن يقول أحدهم القول الفاسد وينكر على منازعه ما هو أقرب منه إلى الصواب، فيبين أن قول منازعه أحق بالصحة إن كان قوله صحيحًا، وأن قوله أحق بالفساد إن كان قول منازعه فاسدًا، لتنقطع بذلك حجة الباطل، فإن هذا أمر مهم، إذ كان المبطلون يعارضون نصوص الكتاب والسنة بأقوالهم، فإن بيان فسادها أحد ركني الحق وأحد المطلوبين، فإن هؤلاء لو تركوا نصوص الأنبياء لهدت وكفت، ولكن صالوا عليها صول المحاربين لله ولرسوله، فإذا دفع صيالهم وبين ضلالهم كان ذلك من أعظم الجهاد في سبيل الله)[١].

مثال ذلك[٢]: إذا استدل متأول الصفات على منكر المعاد وحشر الأجساد بنصوص الوحي، أبدا لها منكر المعاد تأويلات تخالف ظاهرها، وقال للمستدل بها: تأولت أنا هذه النصوص (نصوص المعاد) كما تأولت أنت نصوص الصفات، ولاسيما أنها أكثر وأصرح، فإذا تطرق التأويل إليها، فهو إلى ما دونها أقرب تطرقًا. ولا نجاة من هذا التناقض إلا بالإيمان بجميع النصوص، وإجرائها على ظاهرها، ومنع التأويل.

القاعدة الثامنة عشرة: القطعية والظنية من الأمور النسبية الإضافية

كون العلم - أو الدليل- بديهيًا أو نظريًا، قطعيًا أو ظنيًا، هو من الأمور

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٤/ ٢٠٦)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٣١٤).
(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٥٣، ٤٥٤).

النسبية الإضافية التي تختلف باختلاف المدرك المستدل فقد يكون قطعيًا عند زيد، ما لا يعرفه غيره إلا بالنظر، ومن اعتقد أن القطع والظن صفة لازمة للدليل بحيث يشترك في ذلك جميع الناس فقد غلط وخالف الواقع والحس..[(١)].

وعليه، فمن أنكر بعض الأحاديث بحجة أنها ظنية، فهذا إخبار منه عن حاله، إذ لم يحصل له من الطرق ما يفيده العلم والقطع، ولا يلزم من ذلك النفي العام، حتى يكون غيره من أهل الحديث والسنة لم يحصل له العلم والقطع بمدلول تلك الأحاديث:

فيقال للمنكر: اصرف عنايتك إلى ما جاء به الرسول، واحرص عليه وتتبعه واجمعه، واعرف أحوال نقلته وسيرتهم، واجعل ذلك غاية طلبك ونهاية قصدك حتى يحصل لك من العلم اليقيني ما حصل لغيرك، أما مع إعراضك عنه وعن طلبه، فلو قلت: إنه لا يفيدك ظنًّا فضلًا عن اليقين، كنت صادقًا في الإخبار عن نفسك، وعن حظك ونصيبك منها[(٢)].

وما يذكره كثير من أهل الكلام من وجوب القطع في المسائل الخبرية والتي قد يسمونها مسائل الأصول، وقد يوجبون القطع فيها على كل أحد، فهذا الإطلاق والتعميم ليس بصحيح، بل هو خطأ مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، بل ما أوجب الله فيه العلم واليقين وجب فيه ذلك، كما في قوله تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٩٨]، وقوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ} [محمد: ١٩] وأما ما تنازع فيه الناس من المسائل الدقيقة والتي قد تكون مشتبهة عند كثير منهم، لا يقدر الواحد منهم فيها على دليل يفيد اليقين، لا شرعي ولا غيره، لم يجب على

---

(١) الرد على المنطقيين (ص: ١٣)، ومختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٤٣٢).
(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٤٣٢ - ٤٣٣).

مثل هذا في ذلك ما لا يقدر عليه، وليس عليه أن يترك ما يقدر عليه من اعتقاد قول غالب على ظنه، لعجزه عن تمام اليقين، بل ذلك هو الذي يقدر عليه، ولاسيما إذا كان موافقا للحق، فالاعتقاد المطابق للحق ينفع صاحبه ويثاب عليه، ويسقط به الفرض، إذا لم يقدر على أكثر منه.

ثم إن هؤلاء المتكلمين من أبعد الناس عما أوجبوه، بل تجدهم يحتجون بما هو أقرب إلى الأغلوطات منه إلى الظنيات فضلًا عن القطعيات، بل تجد الواحد منهم كثيرًا ما يقطع بصحة حجة في موضع، ويقطع ببطلانها في موضع آخر، بل منهم من عامة كلامه كذلك(١).

القاعدة التاسعة عشرة: الاصطلاحات الحادثة لا تغير من الحقائق شيئًا

قد يستخدم المبتدعة بعض الألفاظ الحسنة يصفون بها ما هم عليه من العقائد الفاسدة، رجاء قبولها عند ضعفاء الناس وشيوعها بينهم، ويستخدمون في حق منازعيهم من أهل السنة الألفاظ الذميمة والألقاب الشنيعة تنفيرًا منهم، وتحقيرًا لعلومهم(٢):

فأهل الكلام يسمون ما عندهم من الكلام عقليات، وقطعيات، ويقينيات، ويسمون ما عند غيرهم من العلوم: ظواهر وظنيات.

ومحرفو الكلم عن مواضعه يسمون تحريفهم تأويلًا ليروج ويقبل، وقد عرفنا أن التأويل في استعمال القرآن هو العاقبة التي يؤول إليها الأمر، وفي عرف السلف: تفسير كلام وشرح معناه.

والمعطلة للصفات، يسمون نفي الصفات تنزيهًا وتقديسًا وتوحيدًا، ويسمون إثباتها: تجسيمًا وتشبيهًا وحشوًا، ويلقبون مثبتيها: بالمجسمة،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٥٢، ٥٣).

(٢) مختصر الصواعق (١/ ٨٧ - ٨٩)، والغنية لعبد القادر الجيلاني (١/ ١٧).

والمشبهة، والحشوية.

والمتصوفة يسمون خيالاتهم الشيطانية: حقائق ومعارف يقينية، وقد يسمونها توحيدًا، ويسمون ما عند أهل السنة: ظواهر، ورسومًا، وعوائق، وحجبًا.

وكل هذه الاصطلاحات لا ينبغي أن تغير من الحقائق شيئًا.

القاعدة العشرون: الحيدة عن الجواب ضرب من الانقطاع

الحيدة: جواب السائل بغير ما سأل عنه، كأن يقول لك قائل: من أين جئت؟ فتقول له: حضرت الآن. فهذا ليس جوابه: ومثال الحيدة في كتاب الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه: قال تعالى: {إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ} [الشعراء: ٧٠ - ٧٣] فصاروا بين أمرين: أن يقولوا بالإيجاب، وليس لهم حجة على ذلك إلا مجرد الدعوى، أو يقولوا بالنفي فتظهر حجة إبراهيم عليهم، فلما أدركوا أن أيا من الأمرين لا يصلح جوابًا يخلصهم، حادوا عن الجواب فـ: {قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} [الشعراء: ٧٤] وهذا ليس جواب إبراهيم عليه السلام، وإنما حيدة وانقطاع[(١)].

ومن أمثلة حيدة أهل البدع ما أجاب به بشر المريسي عبد العزيز المكي حين سأله: هل لله علم؟ فقال بشر: الله لا يجهل[(٢)]، لأنه أدرك إن هو أجاب بالإثبات فقد أبطل حجته في كون القرآن مخلوقًا، لأنه لا يستطيع أن يقول: علم الله مخلوق، والقرآن من علم الله.

وإن أجاب بالنفي كان ذلك منه تكذيبًا صريحًا بنصوص التنزيل، فحاد عن

---

(١) الحيدة (ص: ٣٢ - ٣٣).

(٢) الحيدة (ص: ٣١ - ٣٦).

الجواب لئلا يلزمه أحد الوجهين. فشهد المأمون عليه بالانقطاع[١].

مسألة: خصائص منهج أهل السنة والجماعة في تقرير مسائل الاعتقاد

امتازت مناهج أهل السنة والجماعة في تقرير مسائل الدين أصوله وفروعه بخصائص جعلتها أكثر موافقة للحق وإصابة له، نذكر في هذا الموقع، طرفا منها:

أولا: وحدة المصدر:

وهو أن السلف لا يتلقون أمور دينهم إلا عن مشكاة النبوة، لا عقل ولا ذوق ولا كشف، بل هذه إن صحت كانت معضدة لحجة السمع (الكتاب والسنة) فكيف بمن عارض بها دلائل الكتاب والسنة، وأكثرها جهالات وخيالات فاسدة. وبهذا نفهم كيف أن الرسول ﷺ أنكر على عمر بن الخطاب رضي الله عنه النظر في صحيفة من التوراة، وهو الكتاب المنزل من السماء، وإن شابه التحريف فهو أفضل من كثير من الأقيسة العقلية، والخيالات الصوفية[٢]:

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن ثابت أنه قال: (جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ فقال عمر: رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا، قال: فسري عن النبي ﷺ، ثم قال: (والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم

(١) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد (٢/ ٦٨٩).

(٢) اعتقادات المسلمين والمشركين للرازي (٧٢) التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي محمد الكلاباذي (٢١) بتحقيق د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه) ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م القاهرة (بدون رقم الطبعة)، مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ١٨).

حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين)[١]. وفي رواية (... أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية... والذي نفسي بيده لو أن موسى ﷺ كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني)[٢]...

فهذا موسى عليه السلام لو قدر وجوده بعد بعثة محمد ﷺ ما جاز لأحد متابعته وترك ما عليه النبي ﷺ، بل ما جاز له - أي موسى- ترك متابعة النبي ﷺ فكيف تتلقى أمور الديانة - أصولها وفروعها- عن عقل أو ذوق أو وجد أو نحو ذلك؟

قال ابن عبد البر رحمه الله: (ليس في الاعتقاد كله، في صفات الله وأسمائه، إلا ما جاء منصوصا في كتاب الله، أو صح عن رسول الله ﷺ، أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له ولا يناظر فيه)[٣].

ثانيا: منهج توقيفي:

فهو منهج يقوم على التسليم المطلق لنصوص الكتاب والسنة، لا يردون منها شيئا، ولا يعارضونها بشيء، لا بعقل، ولا ذوق، ولا منام، ولا غير ذلك، بل يقفون حيث تقف بهم النصوص، ولا يتجاوزونها إلى إعمال رأي أو قياس أو ذوق.. ملتزمين قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الحجرات: ١] وقال الربيع بن خثيم رحمه الله: "يا عبد الله، ما علمك الله في كتابه من علم فأحمد الله، وما استأثر عليك به من علم فكله إلى عالمه، لا تتكلف، فإن الله يقول لنبيه: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: ٨٦][٤] وقال الأوزاعي رحمه الله: (كان مكحول

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧).

(٤) الاعتصام للشاطبي (٢/ ٣٣٦) وانظر جامع بيان العلم لابن عبد البر (٢/ ١١٨).

والزهري يقولان: أمروا هذه الأحاديث كما جاءت ولا تناظروا فيها)[١] يعني أحاديث الصفات.

أما غير أهل السنة فقد أصلوا لأنفسهم قواعد، حاكموا إليها النصوص، فما وافق منها تلك القواعد قالوا به معضدين لا محتجين، وما خالف ردوه: إما بتضعيف - إن كان حديثا- أو تأويل، وإن أحسنوا المعاملة فوضوا العلم به وعزلوه عن سلطان الحكم والاحتجاج، حتى أحدثوا في دين الله تعالى من المقالات الشنيعة ما ضاهوا، أو سبقوا به اليهود والنصارى وعباد الأصنام.

قال يونس بن عبد الأعلى: (سمعت الشافعي، يوم ناظره حفص الفرد، قال لي: يا أبا موسى... لقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه)[٢] وقال ابن عيينة: (سمعت من جابر الجعفي كلاما خشيت أن يقع علي وعليه البيت)[٣].

ثالثا: تجنب الجدل والخصومات في الدين:

وبناء على ما سبق كان للسلف موقف واضح وصريح من الجدل والخصومات في مسائل الاعتقاد، حتى عدوا الكلام والتمحل فيها من البدع، التي شددوا النكير على مقترفيها، وقصة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع صبيغ بن عسل مشهورة معروفة:

وهي (أن صبيغا قدم المدينة وكانت عنده كتب، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فبعث إليه، وقد أعد له عراجين النخل، فلما دخل عليه جلس، فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله صبيغ، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنا عبد الله عمر، ثم أهوى إليه فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال

(١) الاعتصام للشاطبي (٢/ ٣٣٦) وانظر جامع بيان العلم لابن عبد البر (٢/ ١١٨).
(٢) جامع بيان العلم لابن عبد البر (٢/ ١١٦).
(٣) جامع بيان العلم لابن عبد البر (٢/ ١١٦).

يضربه حتى شجه، فجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنت أجد في رأسي)[١].

وقال مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه، وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر، وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله، وفي الله عَزَّ وَجَلَّ، فالسكوت أحب إلي، لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في دين الله إلا فيما تحته عمل)[٢] قال أبو عمر بن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: (والذي قاله مالك رَحِمَهُ اللَّهُ عليه جماعة العلماء قديما وحديثا، من أهل الحديث، والفتوى، وإنما خالف ذلك أهل البدع: المعتزلة وسائر الفرق، وأما الجماعة فعلى ما قال مالك)[٣] وذلك فيما لم تكن هناك ضرورة، كرد باطل أو خوف من ضلالة أن تعم، فالواجب بيان الحق ودفع الباطل على ما أشار إليه ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ[٤].

رابعا: اتفاق السلف في مسائل العقيدة:

لقد كان من ثمرة صحة المنهج، وصدق قضاياه: أن يتفق أهل السنة على مسائل الاعتقاد مع اختلاف أعصارهم، وتباعد أمصارهم.

يقول الإمام الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومما يدل على أن أهل الحديث هم أهل الحق أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلى آخرهم، قديمهم وحديثهم، مع اختلاف بلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كل

---

(١) الشريعة للآجري (٧٣) سنن الدارمي (١/ ٥٥) شرح أصول السنة- اللالكائي (٤/ ٦٣٤) عقيدة السلف وأصحاب الحديث للإمام أبي إسماعيل عبد الرحمن بن إسماعيل الصابوني (٥١) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٠) الإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٤٥٨).

(٢) جامع بيان العلم (٢/ ١١٦).

(٣) جامع بيان العلم (٢/ ١١٦).

(٤) جامع بيان العلم (٢/ ١١٦) وانظر: الشريعة للآجري (٦٢).

واحد منهم قطرا من الأقطار؛ وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة ونمط واحد، يجرون على طريقة لا يحيدون عنها، ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد، ونقلهم واحد، لا ترى فيهم اختلافا، ولا تفرقا في شئ ما وإن قل، بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم، وجدته كأنه جاء عن قلب واحد، وجرى على لسان واحد، وهل على الحق دليل أبين من هذا؟)[١].

ولقد بين النبي ﷺ أن هذه الأمة ستفترق - أسوة باليهود والنصارى - إلى ثلاث وسبعين فرقة، وأن جميعها في النار، خلا واحدة هي الناجية، وهي الجماعة، وهي الفرقة المنصورة، وأن سبب نجاتها هو التزامها بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من أمور الديانة: علما وعملا.

وقد أفتى أهل العلم بأن الفرقة الناجية والطائفة المنصورة هم أصحاب الحديث، حتى قال الإمام أحمد رحمه الله: (إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم)[٢]. وروي نحوه عن يزيد بن هارون، وأحمد بن سنان، وعلي بن المديني، والإمام البخاري رحمهم الله)[٣].

وأهل الحديث والسنة: هم الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ؛ فهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزا بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها، وأهل معرفة بمعانيها، وهم أيضا أعظم الناس اتباعا لها: تصديقا وعملا وحبا، وموالاة لمن والاها، ومعاداة لمن عاداها، الذين يردون المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة؛ فلا

---

(١) الحجة في بيان المحجة.

(٢) رواه عنه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (٢٥)، برقم ٤٢، ص: ٢٧ برقم: ٤٨.

(٣) شرف أصحاب الحديث (ص ٢٦) برقم: ٤٦، ٤٧، وص ٢٧ برقم: ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١.

ينصبون مقالة - عن رأي أو ذوق - ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم، إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول ﷺ، بل يجعلون ما بعث به من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه.

وما تنازع فيه الناس من مسائل الصفات والقدر والوعيد والأسماء والأحكام، ومسائل المعاد وحشر الأجساد وغير ذلك، يردونه إلى الله ورسوله، فما كان من معانيها موافقا للكتاب والسنة أثبتوه، وما كان منها مخالفا للكتاب والسنة أبطلوه، ولا يتبعون الظن وما تهوى الأنفس؛ فإن اتباع الظن جهل، واتباع هوى النفس بغير هدى من الله ظلم[١].

وعليه، فما عدا طائفة أهل الحديث هم أهل أهواء وبدع وتفرق، محكوم على جملتهم بمخالفة الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق:

قال أبو عمر بن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: (أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام: أهل بدع وزيغ، ولا يعدون عند الجميع - في جميع الأمصار - في طبقات العلماء، وإنما العلماء: أهل الأثر والتفقه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم)[٢].

وقال هارون الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ: (طلبت أربعة فوجدتها في أربعة: طلبت الكفر فوجدته في الجهمية، وطلبت الكلام، والشغب فوجدته في المعتزلة، وطلبت الكذب فوجدته عند الرافضة، وطلبت الحق فوجدته مع أصحاب الحديث)[٣].

وقال رجل للحسن بن زياد اللؤلؤي في زفر بن هذيل: (أكان ينظر في

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٣٤٧).
(٢) جامع بيان العلم (٢/ ١١٧).
(٣) شرف أصحاب الحديث (ص ٥٥) برقم: ١١٠.

الكلام؟ فقال: سبحان الله! ما أحمقك! ما أدركت مشيختنا: زفر، وأبا يوسف، وأبا حنيفة، ومن جالسنا وأخذنا عنهم يهمهم غير الفقه والاقتداء بمن تقدمهم)[١].

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا تجوز الإجارات في شيء من كتب الأهواء والبدع والتنجيم، وذكر كتبا، ثم قال: وكتب أهل الأهواء والبدع عند أصحابنا هي كتب أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم، وتفسخ الإجارة في ذلك)[٢].

وقال ابن خويز منداد - من أئمة المالكية-: (أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع: أشعريا كان، أو غير أشعري، ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبدا، ويهجر ويؤدب على بدعته، فإن تمادى عليه استتيب منها)[٣].

وقال يونس بن عبد الأعلى: (سمعت الشافعي - يوم ناظره حفص الفرد - قال لي: يا أبا موسى لأن يلقى الله عَزَّ وَجَلَّ العبد بكل ذنب ما خلا الشرك، خير من أن يلقاه بشيء من الكلام، لقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه)[٤].

وأيضا - قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويحملوا على الإبل، ويطاف بهم في العشائر والقبائل؛ فينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام)[٥].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: (إنه لا يفلح صاحب كلام أبدا، ولا تكاد ترى أحدا

---

(١) جامع بيان العلم (٢/ ١١٧).
(٢) جامع بيان العلم (٢/ ١١٧).
(٣) جامع بيان العلم (٢/ ١١٧).
(٤) جامع بيان العلم (٢/ ١١٦).
(٥) شرف أصحاب الحديث (ص ٧٨) برقم: ١٦٨ وتحريم النظر ص: ١٧.

نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل)[١].

وقال أبو محمد بن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: (.. فلم يسع مسلما يقر بالتوحيد أن يرجع عند التنازع إلى غير القرآن والخبر عن رسول الله ﷺ، ولا أن يأبى عما وجد فيهما، فإن فعل ذلك بعد قيام الحجة عليه فهو فاسق، وأما من فعله مستحلا للخروج عن أمرهما، وموجبا لطاعة أحد دونهما فهو كافر لا شك عندنا في ذلك)[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ - في موضع آخر- عقب قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا} [النساء: ٦١] قال: (فليتق الله - الذي إليه المعاد - امرؤ على نفسه، ولتوجل نفسه عند قراءة هذه الآية، وليشتد إشفاقه من أن يكون مختارا للدخول تحت هذه الصفة المذكورة المذمومة الموبقة الموجبة للنار، فإن من ناظر خصمه في مسألة من مسائل الديانة وأحكامها التي أمرنا بالتفقه فيها، فدعاه خصمه إلى ما أنزل الله تعالى وإلى كلام الرسول فصده عنهما، ودعاه إلى قياس، أو إلى قول فلان وفلان، فليعلم أن الله ﷻ قد سماه منافقا. نعوذ بالله من هذه المنزلة المهلكة)[٣].

(باب حكم تعلم علم التوحيد)

(ينبغي أن يعلم أن حكم العلم كحكم معلومه، فإن كان المعلوم فرضا أو سنة فعلمه كذلك، إذا توقف حصول المعلوم على تعلم ذلك العلم)[٤].

والصواب أن تعلم علم التوحيد منه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض

---

(١) جامع بيان العلم (٢/ ١١٦) وتحريم النظر ص: ١٧.

(٢) الإحكام (١/ ١١٠).

(٣) الإحكام (١/ ١١٣).

(٤) ترتيب العلوم للمرعشي (ص: ٩٠).

كفاية، وهذا شأن العلوم الشرعية عامة.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أجمع العلماء أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية، إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وطلب العلم الشرعي فرض على الكفاية إلا فيما يتعين، مثل طلب كل واحد علم ما أمره به وما نهاه عنه، فإن هذا فرض على الأعيان)[٢].

وإن أعظم ما أمر الله به هو التوحيد، قال تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم [محمد: ١٩] وقال سبحانه: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه} [الإسراء: ٢٣]، وفي حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا)[٣] وفي حديث معاذ الآخر قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)[٤].

قال الإمام ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اعلم أن التوحيد هو أول دعوة الرسل وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عَزَّ وَجَلَّ... ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر[٥]، ولا

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (ص: ١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٢٨، ٣٢٩)، (٢٨/ ٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩) بلفظ: فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله. من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) الإنصاف للباقلاني (ص: ٢٢).

القصد إلى النظر[(١)]، ولا الشك[(٢)]، فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، فهو أول واجب وآخر واجب)[(٣)].

قال الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح منظومته[(٤)]:

أول واجب على العبيد معرفة الرحمن بالتوحيد

إذ هو من كل الأوامر أعظم وهو نوعان أيا من يفهم

ومما يدل على أنه آخر واجب، حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله)[(٥)] وفي الصحيح من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله، دخل الجنة)[(٦)].

فتعلم فرض العين من علم التوحيد هو أول الواجبات وأولاها وأفرضها على المكلفين أجمعين.

وفرض العين منه هو: ما تصح به عقيدة المسلم في ربه، من حيث ما يجوز ويجب ويمتنع في حق الله تعالى، ذاتًا وأسماء وأفعالًا وصفات، على وجه الإجمال، وهذا ما يسميه بعض العلماء بالإيمان المجمل أو الإجمالي أو مطلق الإيمان.

وهو ما يسأل عنه جميع الخلق؛ لما روي عن أنس بن مالك وابن عمر ومجاهد في قوله عَزَّ وَجَلَّ: {فوربك لنسألنهم أجمعين} [الحجر: ٩٢] قالوا: (عن لا

---

(١) الإرشاد للجويني (ص: ٣).

(٢) الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١/ ٢١ - ٢٣).

(٤) معارج القبول (١/ ٢٩).

(٥) أخرجه مسلم (٩١٧).

(٦) أخرجه مسلم (٢٦).

إله إلا الله)[١].

وأما فرض الكفاية من علم التوحيد، فما زاد على ذلك من التفصيل والتدليل والتعليل، وتحصيل القدرة على رد الشبهات وقوادح الأدلة، وإلزام المعاندين وإفحام المخالفين، وهذا ما يسمى بالإيمان التفصيلي، وهو المقدور على إثباته بالأدلة وحل ودفع الشبه الواردة عليه، وهو من أجل فروض الكفايات في علوم الإسلام؛ لأنه ينفي تأويل المبطلين وانتحال الغالين، فلا يجوز أن يخلو الزمان ممن يقوم بهذا الفرض الكفائي المهم، إذ لا شك أن حفظ عقائد الناس أكثر أهمية من حفظ أبدانهم وأموالهم وأعراضهم.

واختصارا فإن حكم الشارع في تعلم علم التوحيد أنه فرض عين على كل مكلف، من ذكر وأنثى وذلك بالأدلة الإجمالية وأما بالأدلة التفصيلية ففرض على الكفاية. ويشترط للتكليف بالتوحيد أربعة شروط، وهي: العقل، والبلوغ، وسلامة حاستي السمع أو البصر، وبلوغ الدعوة[٢].

ويشترط للتكليف بالتوحيد أربعة شروط، وهي:

أولًا: العقل: ويسمى بالعقل الغريزي أو الطبعي، فإذا غاب تمامًا أو زال بالكلية، فقد أصبح الإنسان غير مكلف، وإذا أخذ الله ما وهب أسقط ما أوجب، وفي الحديث: (رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم)[٣].

---

(١) أخرجه البخاري معلقا قبل حديث (٢٦) قائلا: وقال عدة من أهل العلم...، قال ابن حجر في تغليق التعليق (٢/ ٢٨): قلت: روي ذلك عن أنس، ومجاهد، وابن عمر وغيرهم. وقال الدارقطني في العلل (١٢/ ٢٠): ورفعه غير صحيح، وانظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٥٠)، الدعاء للطبراني (ص: ٤٣٨ - ٤٣٩).

(٢) علم العقيدة عند أهل السنة والجماعة (ص ١٦٣).

(٣) روي من حديث عائشة، وعلي بن أبي طالب، وأبي قتاده الأنصاري، أبي هريرة، =

فالعقل الطبعي الموهوب هو شرط التكليف، ولكن لما كان التكليف لا يناط بكل مقدار من العقل، وإنما هناك درجة من العقل إذا بلغها الصبي كان مكلفًا، ولما كان من الصعب معرفة بلوغ الصبي تلك المرتبة التي هي مناط التكليف، فقد أقام الشارع البلوغ - كوصف ظاهر منضبط- دليلًا على اكتمال القدر المطلوب من العقل للتكليف.

ثانيًا: البلوغ: ويقصد به انتهاء حد الصغر، وانتقال الصبي من حالة الطفولة إلى حالة الرجولة، وعنده يتم التكليف ويجري القلم، ويدرك الصغير قضاياه المصيرية، ويفكر بجدية في إجابات الأسئلة الضرورية، فإذا مات الصبي قبل البلوغ، فقد مات مرفوعًا عنه القلم وناجيًا عند الله تعالى إذا كان من أبناء المسلمين وأطفال الكفار في الجنة أيضا أو يمتحنوا، وسيأتي لهم بحث مستقل موسع.

ثالثًا: سلامة الحواس: الحواس خمس وهي: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وهي تنقل إلى الأذهان ما تستطيع الإحساس به، "وهذه الحواس لا تستقل بإدراك المعاني والحقائق دون مساعدة العقل، فالعقل هو الذي يترجم هذه المحسوسات إلى معان، ودليل ذلك قوله {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ} {البقرة: ١٧١}، حيث شبه الله الكافرين بالبهائم التي يناديها الراعي، فالبهائم تسمع الصوت، لكن لعدم المقدرة العقلية التي تمكنها من التمييز بين الأصوات ومعرفتها، فإن الأصوات عندها سواء، لا تحمل إليها شيئًا من المعاني المعينة".

=

وثوبان، وابن عباس، وشداد بن أوس، وعن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ، ولا تخلو أسانيدها من مقال، ولكنه بمجموع طرقه وشواهده صحيح وانظر نصب الراية (٢/ ٢٣٤)، والتلخيص (١/ ١٨٣، رقم ٢٦٣)، والإرواء (٢/ ٤، رقم ٢٩٧).

وأهم الحواس للتكليف حاسة السمع، فإن فقدت قبل حصول العلم فقد انسدت منافذ المعرفة الصحيحة، وامتنع بلوغ الدعوة وقيام الحجة على وجهها التام - وإن أمكن نوع معرفة بالإشارة والكتابة ونحو ذلك-، فعن الأسود بن سريع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أربعة يحتجون يوم القيامة"، وذكر منهم: "أصم لا يسمع شيئًا..، فأما الأصم فيقول: رب قد جاء الإسلام ولا أسمع شيئًا..، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها كانت عليهم بردًا وسلامًا"، وفي رواية أبي هريرة: "فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن لم يدخلها يسحب إليها".

فلا حساب ولا عذاب إلا بعد قيام الحجة الرسالية وقطع العذر على أكمل وجه، قال تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} {الاسراء: ١٥}، وقال: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} {النساء: ١٦٥}.

الدعوة وقيام الحجة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

- **أهل القبلة**: وهم الذين بلغتهم دعوة الرسول فآمنوا وشهدوا بالتوحيد، وماتوا على ذلك، قال النووي رحمه الله: "اتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين على أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القبلة، ولا يخلد في النار، لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقادًا جازمًا خاليًا من الشكوك، ونطق بالشهادتين"، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة"، وقال: "ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، إلا حرمه الله على النار".

- أهل الفترة: وهم كل من لم تبلغه دعوة الرسل، ولم تقم عليه الحجة..

فمن لم تبلغه دعوة الرسول مطلقًا ومات على الشرك فهو معذور في الدنيا، ممتحن في الآخرة - على الراجح- بنار يؤمر باقتحامها، فمن أطاع في الآخرة فإنه من أهل الطاعة في الدنيا لو جاءته الرسالة، ومن عصى في الآخرة فإنه من أهل الكفر في الدنيا لو جاءته الرسالة، وهذا مذهب السلف وعامة أهل السنة، كما نقله ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه طريق الهجرتين.

قال الدكتور الفوزان في شرح القواعد الأربع (ص٣٣): المسألة الأولى: خطر الجهل بالتوحيد، فإن من كان يجهل التوحيد حريّ أن يقع في الشرك وهو لا يدري، ومن هنا يجب تعلُّم التوحيد، وتعلم ما يضاده من الشرك حتى يكون الإنسان على بصيرة لئلا يؤتى من جهله، لا سيما إذا رأى من يفعل ذلك فحسبه حقًا بسبب جهله، ففيه: خطر الجهل، لا سيّما في أمور العقيدة.

مسألة:

أهم مؤلفات علماء السنة في بيان العقيدة السلفية والرد على المخالفين

قد ألّف علماء السلف في بيان عقيدتهم وإيضاحها والرد على المخالفين، المؤلفات الكثيرة مدعومة بنصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة وهي من الكثرة بحيث لا يكاد أحد يستطيع حصرها.

ومن أجلّ علماء السلف ومؤلفيهم الإمام المبجل أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ وله مؤلفات في بيان عقيدة السلف والذب عنها، منها ما دونه بنفسه ومنها ما دونه تلامذته في مؤلفاتهم. ومن كتبه في الحديث المسند وقد جمع فيه أحاديث كثيرة بيّن فيها عقيدة السلف ضمن تلك الأحاديث التي أوردها، وكتب في بيان العقيدة الكتب الآتية:

(السنة)، (الإيمان)، (الرد على الزنادقة)، (فضائل الصحابة).

ومنهم الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ وقد أودع في (صحيحه) كثيرًا من بيان عقيدة

السلف وكذا كتابه (خلق أفعال العباد) و(الأدب المفرد) ومنهم الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ وقد أودع في (صحيحه) أيضًا كثيرًا من أبواب العقيدة، ومنهم:

ابن ماجه في (سننه).

أبو بكر بن الأثرم في كتابه (السنة).

عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتابه (الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية).

عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه (الرد على الجهمية) وكتابه (الرد على بشر المريسي).

ابن أبي عاصم في كتابه (السنة).

عبد الله ابن الإمام أحمد في كتابه (السنة).

محمد بن نصر المروزي في كتابه (السنة).

الإمام الطبري في كتابه (صريح السنة).

الخلال في كتابه (السنة).

ابن خزيمة في كتابه (التوحيد وإثبات صفات الرب عَزَّ وَجَلَّ).

الطحاوي في كتابه (العقيدة الطحاوية).

الأشعري بعد رجوعه إلى مذهب السلف في كتابه (الإبانة عن أصول الديانة) والمقالات.

عبد الرحمن بن أبي حاتم في كتابه (الرد على الجهمية).

الحسن بن علي البربهاري في كتابه (السنة).

الآجري في كتابه (الشريعة) وكتابه (التصديق بالنظر إلى الله تعالى).

أبو حمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصفهاني في كتابه (العظمة).

الدارقطني في كتابه (أحاديث النزول) كتاب (الصفات).

ابن بطه - عبيد الله بن محمد بن حمدان بن بطة العكبري في كتابه (الإبانة - الصغرى والكبرى).

ابن منده أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده في كتابه (الرد على الجهمية)، (الإيمان)، (التوحيد) بتحقيق د. علي ناصر فقيهي.

ابن أبي زمنين في كتابه (أصول السنة).

اللالكائي أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي في كتابه (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) بتحقيق زميلي د. أحمد سعد حمدان الغامدي.

قوّام السنة أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصفهاني في كتابه (الحجة في بيان المحجة) بتحقيق الزميل د. محمد ربيع ود. محمد أبو رحيم.

أبو المظفر السمعاني في (تفسيره).

الإمام مالك.

ربيعة الرأي.

سفيان الثوري.

شيخ الإسلام ابن تيمية صاحب الباع الطويل في بيان عقيدة السلف وكتبه كثيرة مشهورة وقد احتوت الفتاوي على كثير منها.

ابن قيم الجوزية وله عدة مؤلفات مشهورة.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ وأهم مؤلفاته كتاب (التوحيد) المتداول بين طلبة العلم وكتاب (كشف الشبهات) وغيرهما من الرسائل التي كتبها وكذا الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفي عصرنا الحاضر كتب كثير من الفضلاء في بيان السنة والرد على

المخالفين مثل العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكذا العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكذا العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وما ذكر سابقًا فإنما هو من باب التمثيل إذ أن حصر كتب السلف يكاد أن يكون مستحيلًا جمعه في هذه العجالة فالمكتبة الإسلامية ثرية بمؤلفات متنوعة بين الضخم والمختصر والنثر والنظم والأسئلة والأجوبة ولا يزال الخير في أهل السنة إن شاء الله إلى قيام الساعة كما أخبر بذلك المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

رحم الله جميع علماء السلف ونفع بمؤلفاتهم جميع أهل الأرض إنه على كل شيء قدير.

(باب فضل علم التوحيد)

إذا كانت العلوم الشرعية كلها فاضلة لتعلقها بالوحي المطهر؛ فإن علم التوحيد في الذروة من هذا الفضل العميم، حيث حاز الشرف الكامل دون غيره من العلوم، وذلك يظهر بالنظر إلى جهات ثلاث: موضوعه، ومعلومه، والحاجة إليه.

فضله من جهة موضوعه: من المتقرر أن المتعلق يشرف بشرف المتعلق، فالتوحيد يتعلق بأشرف ذات، وأكمل موصوف، بالله الحي القيوم، المتفرد بصفات الجلال والجمال والكمال، ونعوت الكبرياء والعزة؛ لذا كان علم التوحيد أشرف العلوم موضوعا ومعلوما، وكيف لا يكون كذلك وموضوعه رب العالمين، وصفوة خلق الله أجمعين، ومآل العباد إما إلى جحيم أو إلى نعيم، ولأجل هذا سماه بعض السلف الفقه الأكبر.

وتحقيق التوحيد هو أشرف الأعمال مطلقا... وسئل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي العمل أفضل؟ فقال: (إيمان بالله ورسوله)[١].

---

(١) رواه البخاري (١٥١٩)، ومسلم (٨٣). من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهو موضوع دعوة رسل الله أجمعين، قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجميع الرسل إنما دعوا إلى إياك نعبد وإياك نستعين} [الفاتحة: ٥]، فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته من أولهم إلى آخرهم، فقال نوح لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره} [الأعراف: ٥٩]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم، قال الله تعالى: ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: ٣٦][1].

والله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لأجل إقامة التوحيد بين العبيد، قال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: ٣٦]، وله خلق الجن والإنس، قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: ٥٦]، أي: يوحدون..، فأهم ما على العبد معرفته هو التوحيد، وذلك قبل معرفة العبادات كلها حتى الصلاة.

فضله من جهة معلومه: إن معلوم علم التوحيد هو مراد الله الشرعي، الدال عليه وحيه وكلامه الجامع للعقائد الحقة، كالأحكام الاعتقادية المتعلقة بالإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر والبعث بعد الموت.

ومراد الله تعالى يجمع أمورا ثلاثة، وتترتب عليه أمور ثلاثة، فهو يجمع أن الله تعالى أراده وأحبه فأمر به، ويترتب على كونه أمر به أن يثيب فاعله، ويعاقب تاركه، وأن ينهي عن مخالفته، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فالأمر بالتوحيد نهي عن الشرك ولابد.

قال تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} [المائدة: ٣]، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (قد عرفنا ذلك اليوم والمكان

---

(١) التنبيهات السنية على شرح الواسطية لعبد العزيز الرشيد (ص ٣٣).

الذي نزلت فيه على النبي، وهو قائم بعرفة يوم جمعة)[١].

فاجتمع لدى نزولها ثلاثة مناسبات لا تجتمع بعد ذلك أبدا:

عيد وعيد وعيد صرن مجتمعة وجه الحبيب ويوم العيد والجمعة

فنزلت في عيد المسلمين الأسبوعي، وهو يوم الجمعة، الذي وافق عيد الحجاج، وهو يوم عرفة، وهو اليوم الذي حضره النبي ﷺ مع أمته حاجا، واجتمع بهم اجتماعه الأكبر والأخير.

ومعلوم علم التوحيد هو الأحكام الاعتقادية المكتسبة من الأدلة المرضية، من كتاب ناطق وسنة ماضية.

وقطب رحى القرآن العظيم من فاتحته إلى خاتمته في تقرير معلوم التوحيد. يقول الشيخ صديق حسن خان رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم أن فاتحة الكتاب العزيز التي يكررها كل مسلم في كل صلاة مرات، ويفتتح بها التالي لكتاب الله والمتعلم له، فيها الإرشاد إلى إخلاص التوحيد في ثلاثين موضعا[٢].

والتوحيد هو فاتحة القرآن العظيم وهو خاتمته، فهو فاتحة القرآن كما في أول سورة الفاتحة: {الحمد لله رب العالمين} [الفاتحة: ٢]، وهو في خاتمة القرآن العظيم {قل أعوذ برب الناس} [الناس: ١][٣].

فالقرآن من فاتحته إلى خاتمته في تقرير التوحيد بأنواعه، أو في بيان حقوق التوحيد ومقتضياته ومكملاته، أو في البشارة بعاقبة الموحدين في الدنيا والآخرة، أو في النذارة بعقوبة المشركين والمعاندين في الدارين، ثم إن حياة النبي ﷺ ودعوته في بيان القرآن بيانا عمليا تحققت فيها معاني التوحيد،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧). من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) الدين الخالص للشيخ صديق حسن خان (١/ ٩).
(٣) حكم الانتماء للشيخ بكر أبو زيد (ص٥٨).

وحسمت فيه مواد الشرك على الوجه الأتم الأكمل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد كان النبي ﷺ يحقق هذا التوحيد لأمته ويحسم عنهم مواد الشرك، إذ هذا تحقيق قولنا: لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب لكمال المحبة والتعظيم، والإجلال والإكرام، والرجاء والخوف[١].

فضله من جهة الحاجة إليه:

وأما فضل علم التوحيد باعتبار الحاجة إليه، فيظهر ذلك بالنظر إلى جملة أمور، منها:

أن الله تعالى طلبه، وأمر به كل مكلف، وأثنى على أهله، ومدح من توسل به إليه، ووعدهم أجرا عظيما.

قال تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله [محمد: ١٩]، وقال عز من قائل: وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء} [البينة: ٥].

وقال سبحانه وتعالى: {قولوا آمنا بالله ومآ أنزل إلينا} [البقرة: ١٣٦].

وقال سبحانه: {أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى} [الرعد: ١٩].

وقال ﷻ: {قد أفلح المؤمنون} [المؤمنون: ١]، وقال تقدست أسماؤه: {ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار إلى قوله: فاستجاب لهم ربهم} [ال عمران: ١٩٣ - ١٩٥].

وقال ﷻ: {وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما} [النساء: ١٤٦].

ومنها أن عقيدة التوحيد هي الحق الذي أرسلت من أجله جميع الرسل.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٣٦).

قال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: ٣٦].

وقال سبحانه: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: ٢٥].

وهي حق الله على عباده كما في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا)[1].

وهي ملة أبينا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ التي أمرنا الله باتباعها، قال تعالى: {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} [النحل: ١٢٣]، وهي أيضا دعوته عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى على لسانه: واجنبني وبني أن نعبد الأصنام [إبراهيم: ٣٥].

ومنها أن الله تعالى جعل الإيمان شرطا لقبول العمل الصالح وانتفاع العبد به في الدنيا والآخرة. قال تعالى: {فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون} [الأنبياء: ٩٤]. وقال سبحانه: ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا} [الإسراء: ١٩].

فإذا جاء العبد بغير الإيمان فقد خسر جميع عمله الصالح، قال تعالى: {ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين} [الزمر: ٦٥].

ومنها أن سعادة البشرية في الدنيا متوقفة على علم التوحيد، فحاجة العبد إليه فوق كل حاجة، وضرورته إليه فوق كل ضرورة، فلا راحة ولا طمأنينة ولا سعادة إلا بأن يعرف العبد ربه بأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة صحيحة، صادقة ناصحة، وهي جهة الوحي.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٦٧)، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب، فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها، مات قلبه موتا لا ترجى الحياة معه أبدا، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبدا(١).

ولهذا سمى الله تعالى غير الموحد ميتا حقيقة، قال تعالى: {فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون} [الروم: ٥٢ - ٥٣].

فمقابلة الموتى بالسامعين تدل على أن الموتى هم المشركون والكافرون، وهذا تفسير جمهور السلف(٢).

وقيل المراد بالموتى: موتى الأبدان، فنفي السماع يعني نفي الاهتداء، فكما قيل إن الميت يسمع ولا يمتثل، فهؤلاء الأحياء من الكفار حين يسمعون القرآن كالموتى حقيقة حين يسمعون فلا يمتثلون ولا ينتفعون.

ومما يشهد لهذين المعنيين أن الله تعالى سمى ما أنزله على رسوله ﷺ روحا لتوقف الحياة الحقيقية عليه، وسماه نورا لتوقف الهداية عليه، وسماه شفاء لأنه دواء للنفوس من عللها.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور، والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، فكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها، فهو في ظلمة وهو من الأموات.

قال تعالى: {أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٦ - ٩٧).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ١٢)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٣٢).

كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتا في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات.

وسمى الله تعالى الرسالة روحا، والروح إذا عدمت فقد فقدت الحياة، قال الله تعالى: وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا [سورة الشورى: ٥٢](١).

قال السعدي في القول السديد في مقاصد التوحيد (ص٢٤) ومن أعظم فضائله: أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها، وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

ومن فضائله: أنه يسهل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات، فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي، لما يخشى من سخطه وعقابه.

ومنها: أن التوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين.

ومنها: أنه يخفف عن العبد المكاره ويهون عليه الآلام.

فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان، يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة.

ومن أعظم فضائله: أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٣ - ٩٤).

ويكون مع ذلك متألها متعبدا لله، لا يرجو سواه ولا يخشى إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء: أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققا كاملا بالإخلاص التام، فإنه يصير القليل من عمله كثيرا، وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب، ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد بحيث لا تقابلها السماوات والأرض وعمارها من جميع خلق الله، كما في

حديث أبي سعيد المذكور في الترجمة، وفي حديث البطاقة التي فيها لا إله إلا الله التي وزنت تسعة وتسعين سجلا من الذنوب، كل سجل يبلغ مد البصر، وذلك لكمال إخلاص قائلها، وكم ممن يقولها لا تبلغ هذا المبلغ؛ لأنه لم يكن في قلبه من التوحيد والإخلاص الكامل مثل ولا قريب مما قام بقلب هذا العبد.

ومن فضائل التوحيد: أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدنيا، والعز والشرف وحصول الهداية والتيسير لليسرى وإصلاح الأحوال والتسديد في الأقوال والأفعال.

ومنها: أن الله يدفع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه والطمأنينة بذكره، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة والله أعلم.

(باب متفرقات)

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (١/ ٣٤): السائل يقول: بأن اسم العقيدة ليس صحيحا وليس له أصل وإنما الصحيح أن يقول الإنسان: اسم الإيمان بدل العقيدة فهل هذا صحيح؟.

فأجاب: ليس بصحيح، بل درج العلماء على أنهم يسمون ما يتعلق

بالقلوب: عقيدة. وما يتعلق بالتوحيد والصفات: عقيدة؛ يعتقدها في قلبه: يعني: يعقد عليها قلبه، يعتقد عليها قلبه. فلا بأس بالتسمية، ولا حرج فيها؛ أن يقال: عقيدة فلان عقيدة أهل السنة والجماعة. وهو ما يعتقدونه ويؤمنون به، وهو يسمى عقيدة؛ لأنهم يعتقدونه ويجزمون به، ويقولون به فلهذا سمي عقيدة من عقد القلب عليه وإيمانه به.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣٥): كيف يصحح المسلم العقيدة الإسلامية، وكيف يحافظ عليها؟.

فأجاب: يتفقه في الدين، ويتبصر ويتعلم؛ حتى يعلم العقيدة، ويحافظ عليها، يسأل أهل العلم، وإن كان طالب علم يتأمل القرآن والسنة، حتى يعرف العقيدة الصحيحة التي دل عليها القرآن ويتمسك بها، ويستقيم عليها، وإذا كان عنده إشكال يسأل أهل العلم الذين يثق فيهم ويطمئن إليهم عما أشكل عليه؛ حتى يكون على بصيرة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣٥): أرشدني - وفقكم الله - عن أصح كتاب في العقيدة الإسلامية الصحيحة؟.

فأجاب: أصح كتاب وأشرف كتاب وأعظم كتاب في العقيدة وفي غيرها هو كتاب الله القرآن، هذا أعظم كتاب وأشرف كتاب، وأصدق كتاب؛ وهو كتاب الله؛ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. فالوصية لك أيها السائل، ولكل مسلم ولكل مسلمة التمسك بكتاب الله، والعناية بكتاب الله، والإكثار من تلاوته، وتدبر معانيه، والحرص على حفظ ما تيسر منه، فهو الكتاب العظيم المنزل الذي نزله الله على عباده؛ ليحفظوه ويستقيموا عليه ويعملوا به، وفيه الحق الواضح والهدى المستبين؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}، وقال سبحانه: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} {لَا

يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} وقال سبحانه: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}.

فالوصية: العناية بهذا الكتاب العظيم، والإكثار من تلاوته، وتدبر معانيه، والمذاكرة فيه مع زملائك ومع إخوانك، ومراجعة كتب التفسير المأمونة؛ مثل: كتاب أضواء البيان، وتفسير البغوي، وتفسير ابن كثير رحمة الله عليهم، وأشباههم من أئمة الهدى؛ لأنهم أوضحوا معاني الآيات، وأوردوا ما جاء فيها من الأحاديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام. فعليك يا أخي أن تقبل على كتاب الله، وأن تعتني بكتاب الله، ثم سنة الرسول ﷺ ففيها الهدى والنور أيضا: صحيح البخاري، صحيح مسلم، وبقية الكتب الستة، وهكذا كتب أخرى، التي فيها بيان للحق: كموطأ مالك رحمه الله، وسنن الدارمي رحمه الله، وصحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان، والحاكم، وغيرها من الكتب التي فيها الخير الكثير. وإذا كنت من أهل العلم بالحديث، أمكنك أن تميز بين الصحيح والسقيم من الأحاديث التي في الكتب المذكورة، ما عدا الصحيحين فإنهما قد تلقتهما الأمة بالقبول، وأجمعت على ذلك، فعليك أن تسير على نهج الأخيار من أئمة الحديث وأئمة السنة، فالصحيحان كل أحاديثهما معتمدة، وهي محل اعتماد أهل السنة والجماعة، وقد تلقتهما الأمة بالقبول، فعض عليهما بالنواجذ، وتمسك بهما مع كتاب الله سبحانه، وهكذا بقية الكتب الستة، وما ذكرنا من الكتب، عليك بها والاستقامة على ما فيها، وما وجد فيها من ضعيف فقد بينه أهل العلم، وأوضحوا أسباب ضعفه.

أما الكتب المؤلفة في العقائد فهي كثيرة؛ من أحسنها كتاب التوحيد لابن خزيمة، وكتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل، ومنهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية، للرد على المعتزلة وأهل البدع، وكتاب زاد المعاد لابن القيم، فيه

خير كثير من جهة العقيدة والأحكام، واجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم، للرد على أهل البدع، الصواعق المرسلة لابن القيم، للرد على أهل البدع، والعقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية؛ كتاب مختصر عظيم مفيد على طريقة أهل السنة والجماعة، أوصي بحفظه، وأن يحفظه طالب العلم؛ لما فيه من الخير العظيم، ولما فيه من بيان عظيم عن مذهب أهل السنة والجماعة، وله أيضا كتاب الرسالة الحموية؛ أجاب فيه على أهل حماة في أسئلتهم فيما يتعلق بالصفات والأسماء والعقيدة، وهو أيضا جواب عظيم ومفيد، وهكذا له رسالة أخرى سماها: التدمرية؛ عندما جاء أهل تدمر، وهي رسالة عظيمة أيضا في بيان العقيدة الصحيحة، وهكذا عقيدة الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولها شرح عظيم للإمام العز، شرح جيد، وهي جيدة في نفسها، مفيدة سوى كلمات يسيرة نبه عليها الشارح، وهي عقيدة مهمة ولها شرح عظيم مفيد، وهكذا كتاب التوحيد، لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمة الله عليه، كتاب طيب مهم، والثلاثة الأصول له رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ إجابة مختصرة، وهكذا كشف الشبهات له أيضا، رسالة مختصرة مفيدة في العقيدة، وهكذا فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، لحفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهو كتاب مفيد وعظيم، وهكذا شرح هذا الكتاب ومؤلفه الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب فسماه: تيسير العزيز الحميد لشرح كتاب التوحيد، وهو كتاب مفيد عظيم.

فهذه الكتب وأشباهها من الكتب الطيبة المؤلفة في العقيدة، وهي مفيدة وننصح بمراجعتها، والاستفادة منها، لكن أعود وأبين أن أعظم كتاب، وأشرف كتاب، وأصدق كتاب؛ هو كتاب الله سبحانه وتعالى؛ فيه الكفاية العظيمة لمن استشفى به ولمن استند عليه. كان السلف الصالح ليس عندهم هذه الكتب

الجديدة، وإنما عندهم كتاب الله، وعندهم سنة الرسول ﷺ، وكفتهم والحمد لله؛ عند الصحابة والتابعين القرآن العظيم وأحاديث النبي ﷺ، ففيهما الكفاية والهدى، ولكن لا مانع من الاستعانة بكتب أهل العلم، المعروفين بالخير مثل ما تقدم، لا مانع من الاستعانة بكتبهم والاستفادة منها، ودعوة الناس إلى الاستفادة منها؛ لأن بعض الناس قد لا يثق بفهمه، من الكتاب والسنة ولا يطمئن إلى فهمه. فإذا استعان بكتب أهل العلم المعروفين؛ ووافق ما عندهم ما فهمه من الكتاب والسنة؛ ازداد نورا، وازداد بصيرة؛ واطمأن قلبه؛ والله ولي التوفيق.

مسألة

قال العلامة الألباني في رسالة التوحيد أولًا: يجب العناية والاهتمام بالتوحيد أولًا كما هو منهج الأنبياء والرسل عليهم السلام:

بالإضافة لما ورد في السؤال- السابق ذكره آنفًا- من سوء واقع المسلمين، نقول: إن هذا الواقع الأليم ليس شرًا مما كان عليه واقع العرب في الجاهلية حينما بعث إليهم نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- ؛لوجود الرسالة بيننا، وكمالها، ووجود الطائفة الظاهرة على الحق، والتي تهدي به، وتدعو الناس للإسلام الصحيح: عقيدة، وعبادة، وسلوكًا، ومنهجًا، ولا شك بأن واقع أولئك العرب في عصر الجاهلية مماثل لما عليه كثير من طوائف المسلمين اليوم!.

بناء على ذلك نقول: العلاج هو ذاك العلاج، والدواء هو ذاك الدواء، فبمثل ما عالج النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- تلك الجاهلية الأولى، فعلى الدعاة الإسلاميين اليوم- جميعهم- أن يعالجوا سوء الفهم لمعنى «لا إله إلا الله»، ويعالجوا واقعهم الأليم بذاك العلاج والدواء نفسه. ومعنى هذا واضح جدًا؛ إذا تدبرنا قول الله ﷻ {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا} (الأحزاب: ٢١).

فرسولنا -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الأسوة الحسنة في معالجة مشاكل المسلمين في عالمنا المعاصر وفي كل وقت وحين، ويقتضي ذلك منا أن نبدأ بما بدأ به نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو إصلاح ما فسد من عقائد المسلمين أولًا، ومن عباداتهم ثانيًا، ومن سلوكهم ثالثًا.

ولست أعني من هذا الترتيب فصل الأمر الأول بدءًا بالأهم ثم المهم، ثم ما دونه! وإنما أريد أن يهتم بذلك المسلمون اهتماما شديدًا كبيرًا، وأعني بالمسلمين بطبيعة الأمر الدعاة، ولعل الأصح أن نقول: العلماء منهم؛ لأن الدعاة اليوم- مع الأسف الشديد- يدخل فيهم كل مسلم ولو كان على فقر مدقع من العلم، فصاروا يعدون أنفسهم دعاة إلى الإسلام، وإذا تذكرنا تلك القاعدة المعروفة- لا أقول: عند العلماء فقط بل عند العقلاء جميعًا- تلك القاعدة التي تقول: «فاقد الشيء لا يعطيه»؛ فإننا نعلم اليوم بأن هناك طائفة كبيرة جدًا يعدون بالملايين من المسلمين تنصرف الأنظار إليهم حين يطلق لفظة: الدعاة. وأعني بهم: جماعة الدعوة، أو: جماعة التبليغ «ومع ذلك فأكثرهم كما قال الله ﷻ: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} (لأعراف: ١٨٧).

ومعلوم من طريقة دعوتهم أنهم قد أعرضوا بالكلية عن الاهتمام بالأصل الأول- أو بالأمر الأهم- من الأمور التي ذكرت آنفًا، وأعني: العقيدة والعبادة والسلوك، وأعرضوا عن الإصلاح الذي بدأ به الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- بل بدأ به كل الأنبياء، وقد بينه الله تعالى بقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} (النحل: ٣٦). فهم لا يعنون بهذا الأصل الأصيل والركن الأول من أركان الإسلام- كما هو معلوم لدى المسلمين جميعًا- هذا الأصل الذي قام يدعو إليه أول رسول من الرسل الكرام

ألا وهو نوح -صلى الله عليه وآله وسلم- قرابة ألف سنة، والجميع يعلم أن الشرائع السابقة لم يكن فيها من التفصيل لأحكام العبادات والمعاملات ما هو معروف في ديننا هذا لأنه الدين الخاتم للشرائع والأديان، ومع ذلك فقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يصرف وقته وجل اهتمامه للدعوة إلى التوحيد، ومع ذلك أعرض قومه عن دعوته كما بين الله ﷻ ذلك في محكم التنزيل {وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} (نوح: ٢٣).

فهذا يدل دلالة قاطعة على أن أهم شيء ينبغي على الدعاة إلى «الإسلام الحق» الاهتمام به دائمًا هو الدعوة إلى التوحيد وهو معنى قوله- تبارك وتعالى-: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ} (محمد: ١٩).

هكذا كانت سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عملًا وتعليمًا.

أما فعله: فلا يحتاج إلى بحث، لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في العهد المكي إنما كان فعله ودعوته محصورة في الغالب في دعوة قومه إلى عبادة الله لا شريك له.

أما تعليمًا: ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الوارد في الصحيحين أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عندما أرسل معاذًا إلى اليمن قال له: «ليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوك لذلك... »[1]. إلخ الحديث. وهو معلوم ومشهور إن شاء الله تعالى.

إذًا، قد أمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أصحابه أن يبدؤوا بما بدأ به وهو الدعوة إلى التوحيد، ولا شك أن هناك فرقًا كبيرًا جدًا بين أولئك العرب

---

(١) حديث صحيح: رواه البخاري (١٣٩٥) وفي غير موضع، ومسلم (١٩)، وأبو داود (١٥٨٤)، والترمذي (٦٢٥)، كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

المشركين- من حيث إنهم كانوا يفهمون ما يقال لهم بلغتهم-، وبين أغلب العرب المسلمين اليوم الذين ليسوا بحاجة أن يُدْعَوْا إلى أن يقولوا: لا إله إلا الله؛ لأنهم قائلون بها على اختلاف مذاهبهم وطرائقهم وعقائدهم، فكلهم يقولون: لا إله إلا الله، لكنهم في الواقع بحاجة أن يفهموا- أكثر- معنى هذه الكلمة الطيبة، وهذا الفرق فرق جوهري- جدًا- بين العرب الأولين الذين كانوا إذا دعاهم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يقولوا: لا إله إلا الله يستكبرون، كما هو مبين في صريح القرآن العظيم[١] لماذا يستكبرون؟؛ لأنهم يفهمون أن معنى هذه الكلمة أن لا يتخذوا مع الله أندادًا وألا يعبدوا إلا الله، وهم كانوا يعبدون غيره، فهم ينادون غير الله ويستغيثون بغير الله؛ فضلًا عن النذر لغير الله، والتوسل بغير الله، والذبح لغيره والتحاكم لسواه... إلخ.

هذه الوسائل الشركية الوثنية المعروفة التي كانوا يفعلونها، ومع ذلك كانوا يعلمون أن من لوازم هذه الكلمة الطيبة- لا إله إلا الله- من حيث اللغة العربية أن يتبرؤوا من كل هذه الأمور؛ لمنافاتها لمعنى «لا إله إلا الله».

غالب المسلمين اليوم لا يفقهون معنى لا إله إلا الله فهمًا جيدًا:

أما غالب المسلمين اليوم الذين يشهدون بأن «لا إله إلا الله» فهم لا يفقهون معناها جيدًا، بل لعلهم يفهمون معناها فهمًا معكوسًا ومقلوبًا تمامًا؛ أضرب لذلك مثلًا: بعضهم[٢] ألّف رسالة في معنى «لا إله إلا الله» ففسرها: «لا رب إلا الله!!» وهذا المعنى هو الذي كان المشركون يؤمنون به وكانوا عليه، ومع ذلك

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة الصافات: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ. وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} (الصافات: ٣٥ - ٣٦).

(٢) هو الشيخ محمد الهاشمي، أحد شيوخ الصوفية «الطريقة الشاذلية» في سوريا من نحو ٥٠ سنة.

لم ينفعهم إيمانهم هذا، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} (لقمان: ٢٥).

فالمشركون كانوا يؤمنون بأن لهذا الكون خالقًا لا شريك له، ولكنهم كانوا يجعلون مع الله أندادًا وشركاء في عبادته، فهم يؤمنون بأن الرب واحد ولكن يعتقدون بأن المعبودات كثيرة، ولذلك رد الله تعالى- هذا الاعتقاد- الذي سماه عبادة لغيره من دونه بقوله تعالى: {... وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى... } (الزمر: ٣). لقد كان المشركون يعلمون أن قول: «لا إله إلا الله» يلزم له التبرؤ من عبادة ما دون الله ﷻ، أما غالب المسلمين اليوم؛ فقد فسروا هذه الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» بـ: «لا رب إلا الله!!» فإذا قال المسلم: لا إله إلا الله»، وعبد مع الله غيره؛ فهو والمشركون سواء، عقيدة، وإن كان ظاهره الإسلام؛ لأنه يقول لفظة: لا إله إلا الله فهو بهذه العبارة مسلم لفظيًا ظاهرًا، وهذا مما يوجب علينا جميعًا- بصفتنا دعاة إلى الإسلام- الدعوة إلى التوحيد وإقامة الحجة على من جهل معنى «لا إله إلا الله» وهو واقع في خلافها؛ بخلاف المشرك؛ لأنه يأبى أن يقول: «لا إله إلا الله» فهو ليس مسلمًا لا ظاهرًا ولا باطنًا فأما جماهير المسلمين اليوم هم مسلمون؛ لأن الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى»[1].

لذلك، فإني أقول كلمة- وهي نادرة الصدور مني-، وهي: إن واقع كثير من المسلمين اليوم شر مما كان عليه عامة العرب في الجاهلية الأولى من حيث سوء الفهم لمعنى هذه الكلمة الطيبة؛ لأن المشركين العرب كانوا يفهمون،

(١) حديث صحيح: رواه البخاري (٢٥) وفي غير موضع، ومسلم (٢٢)، وغيرهم، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولكنهم لا يؤمنون، أما غالب المسلمين اليوم، فإنهم يقولون ما لا يعتقدون، يقولون: لا إله إلا الله، ولا يؤمنون حقًا بمعناها[(١)]، لذلك فأنا أعتقد أن أول واجب على الدعاة المسلمين حقًا هو أن يدندنوا حول هذه الكلمة وحول بيان معناها بتلخيص، ثم بتفصيل لوازم هذه الكلمة الطيبة بالإخلاص لله ﷻ في العبادات بكل أنواعها، لأن الله ﷻ لما حكى عن المشركين قوله: {... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى...} (الزمر: ٣)، جعل كل عبادة توجه لغير الله كفرًا بالكلمة الطيبة: لا إله إلا الله؛ لهذا؛ أنا أقول اليوم: لا فائدة مطلقًا من تكتيل المسلمين ومن تجميعهم، ثم تركهم في ضلالهم دون فهم هذه الكلمة الطيبة، وهذا لا يفيدهم في الدنيا قبل الآخرة! نحن نعلم قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه حرم الله بدنه على النار» وفي رواية أخري: «دخل الجنة»[(٢)]. فيمكن ضمان دخول الجنة لمن قالها مخلصًا حتى لو كان بعد لأيٍ وعذاب يمس القائل، والمعتقد الاعتقاد الصحيح لهذه الكلمة، فإنه قد يعذب بناءً على ما ارتكب واجترح من المعاصي والآثام، ولكن سيكون مصيره في النهاية دخول الجنة، وعلى العكس من ذلك؛ من قال هذه الكلمة الطيبة بلسانه، ولما يدخل الإيمان إلى قلبه؛ فذلك لا يفيده شيئًا في الآخرة، قد يفيده في الدنيا النجاة من القتال ومن القتل إذا كان للمسلمين قوة وسلطان، وأما في الآخرة فلا يفيد شيئًا إلا إذا كان قائلًا لها وهو فاهم معناها أولًا، ومعتقدًا لهذا المعنى ثانيًا؛ لأن الفهم وحده لا يكفي إلا إذا اقترن مع الفهم

---

(١) يعبدون القبور، ويذبحون لغير الله، ويدعون الأموات، وهذا واقع وحقيقة ما تعتقده الرافضة، والصوفية، وأصحاب الطرق، فالحج إلى القبور وبناء المشاهد الشركية والطواف عليها والاستغاثة بالصالحين والحلف بهم عقائد ثابتة عندهم.

(٢) حديث صحيح: رواه أحمد (٥/ ٢٣٦)، وابن حبان زوائد، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٣٣٥٥).

الإيمان بهذا المفهوم، وهذه النقطة؛ أظن أن أكثر الناس عنها غافلون! وهي: لا يلزم من الفهم الإيمان بل لا بد أن يقترن كل من الأمرين مع الآخر حتى يكون مؤمنًا، ذلك لأن كثيرًا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يعرفون أن محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- رسول صادق فيما يدعيه من الرسالة والنبوة، ولكن مع هذه المعرفة التي شهد لهم بها ربنا ﷻ حين قال: {...يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ...} (البقرة: ١٤٦).

ومع ذلك هذه المعرفة ما أغنت عنهم من الله شيئًا لماذا؟ لأنهم لم يصدقوه فيما يدعيه من النبوة والرسالة، ولذلك فإن الإيمان تسبقه المعرفة ولا تكفي وحدها، بل لا بد أن يقترن مع المعرفة الإيمان والإذعان، لأن المولى ﷻ يقول في محكم التنزيل: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ... } (محمد: ١٩).

وعلى هذا، فإذا قال المسلم: لا إله إلا الله بلسانه؛ فعليه أن يضم إلى ذلك معرفة هذه الكلمة بإيجاز ثم بالتفصيل، فإذا عرف وصدق وآمن؛ فهو الذي يصدق عليه تلك الأحاديث التي ذكرت بعضها آنفًا، ومنها قوله -صلى الله عليه وآله وسلم- مشيرًا إلى شيء من التفصيل الذي ذكرته آنفًا: «من قال: لا إله إلا الله، نفعته يومًا من دهره».

أي كانت هذه الكلمة الطيبة بعد معرفة معناها منجية له من الخلود في النار- وهذا أكرره لكي يرسخ في الأذهان- وقد لا يكون قد قام بمقتضاها من كمال العمل الصالح والانتهاء عن المعاصي، ولكنه سلم من الشرك الأكبر وقام بما يقتضيه ويستلزمه شروط الإيمان من الأعمال القلبية- والظاهرية حسب اجتهاد بعض أهل العلم وفيه تفصيل ليس هذا محل بسطه- [1]؛ وهو تحت المشيئة، وقد يدخل النار جزاء ما ارتكب أو فعل من المعاصي أو أخل ببعض الواجبات،

---

(١) هذه عقيدة السلف الصالح، وهي الحد الفاصل بيننا وبين الخوارج والمرجئة.

ثم تنجيه هذه الكلمة الطيبة أو يعفو الله عنه بفضل منه وكرمه، وهذا معنى قوله -صلى الله عليه وآله وسلم- المتقدم ذكره: «من قال: لا إله إلا الله، نفعته يومًا من دهره»، أما من قالها بلسانه ولم يفقه معناها، أو فقه معناها ولكنه لم يؤمن بهذا المعنى؛ فهذا لا ينفعه قوله: لا إله إلا الله، إلا في العاجلة إذا كان يعيش في ظل الحكم الإسلامي وليس في الآجلة.

لذلك لا بد من التركيز على الدعوة إلى التوحيد في كل مجتمع أو تكتل إسلامي يسعى- حقيقة وحثيثًا- إلى ما تدندن به كل الجماعات الإسلامية أو جلها، وهو تحقيق المجتمع الإسلامي وإقامة الدولة المسلمة التي تحكم بما أنزل الله على أي أرض لا تحكم بما أنزل الله، هذه الجماعات أو هذه الطوائف لا يمكنها أن تحقق هذه الغاية- التي أجمعوا على تحقيقها وعلى السعي- حثيثًا إلى جعلها حقيقة واقعية- إلا بالبدء بما بدأ به الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- .

وجوب الاهتمام بالعقيدة لا يعنى إهمال باقي الشرع من عبادات وسلوك ومعاملات وأخلاق:

وأعيد التنبيه بأنني لا أعنى الكلام في بيان الأهم فالمهم وما دونه على أن يقتصر الدعاة فقط على الدعوة إلى هذه الكلمة الطيبة وفهم معناها، بعد أن أتم الله ﻷ علينا النعمة بإكماله لدينه! بل لا بد لهؤلاء الدعاة أن يحملوا الإسلام كُلًا لا يتجزأ، وأنا حين أقول هذا- بعد ذلك البيان الذي خلاصته: أن يهتم الدعاة الإسلاميون حقًا بأهم ما جاء به الإسلام، وهو تفهيم المسلمين العقيدة الصحيحة النابعة من الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله»، أريد أن استرعي النظر إلى أن هذا البيان لا يعني أن يفهم المسلم فقط أن معنى: «لا إله إلا الله»، هو لا معبود بحق في الوجود إلا الله فقط! بل هذا يستلزم أيضًا أن يفهم العبادات التي

ينبغي أن يعبد ربنا ﷻ بها، ولا يوجه شيء منها لعبد من عباد الله تبارك وتعالى، فهذا التفصيل لا بد أن يقترن بيانه أيضًا بذلك المعنى الموجز للكلمة الطيبة، ويحسن أن أضرب مثلًا- أو أكثر من مثل، حسبما يبدو لي- لأن البيان الإجمالي لا يكفي.

أقول: إن كثيرًا من المسلمين الموحدين حقًا والذين لا يوجهون عبادة من العبادات إلى غير الله ﷻ، ذهنهم خال من كثير من الأفكار والعقائد الصحيحة التي جاء ذكرها في الكتاب والسنة، فكثير من هؤلاء الموحدين يمرون على كثير من الآيات وبعض الأحاديث التي تتضمن عقيدة وهم غير منتبهين إلى ما تضمنته، مع أنها من تمام الإيمان بالله ﷻ، خذوا مثلًا عقيدة الإيمان بعلو الله ﷻ، على ما خلقه، أنا أعرف بالتجربة أن كثيرًا من إخواننا الموحدين السلفيين يعتقدون معنا بأن الله ﷻ على العرش استوى دون تأويل، ودون تكييف، ولكنهم حين يأتيهم معتزليون عصريون، أو جهميون عصريون، أو ماتريدي أو أشعري ويلقي إليه شبهة قائمة على ظاهر آية لا يفهم معناها الموسوِس ولا الموسْوَس إليه، فيحار في عقيدته، ويضل عنها بعيدًا، لماذا؟ لأنه لم يتلق العقيدة الصحيحة من كل الجوانب التي تعرض لبيانها كتاب ربنا ﷻوحديث نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-، فحينما يقول المعتزلي المعاصر: الله ﷻيقول: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ... } (الملك: الآيتان ١٥ - ١٦).وأنتم تقولون: إن الله في السماء، وهذا معناه أنكم جعلتم معبودكم في ظرف هو السماء المخلوقة!! فإنه يلقى شبهة على من أمامه.

بيان عدم وضوح العقيدة الصحيحة ولوازمها في أذهان الكثيرين:

أريد من هذا المثال أن أبين أن عقيدة التوحيد بكل لوازمها ومتطلباتها ليست واضحة للأسف في أذهان كثير ممن آمنوا بالعقيدة السلفية نفسها، فضلًا

عن الآخرين الذين اتبعوا العقائد الأشعرية أو الماتريدية أو الجهمية في مثل هذه المسألة، فأنا أرمي بهذا المثال إلى أن المسألة ليست بهذا اليسر الذي يصوره اليوم بعض الدعاة الذين يلتقون معنا في الدعوة إلى الكتاب والسنة، إن الأمر ليس بالسهولة التي يدعيها بعضهم، والسبب ما سبق بيانه من الفرق بين جاهلية المشركين الأولين حينما كانوا يدعون ليقولوا: لا إله إلا الله فيأبون؛ لأنهم يفهمون معنى هذه الكلمة الطيبة، وبين أكثر المسلمين المعاصرين اليوم حينما يقولون هذه الكلمة؛ ولكنهم لا يفهمون معناها الصحيح، هذا الفرق الجوهري هو الآن متحقق في مثل هذه العقيدة، وأعني بها علو الله ﷻ على مخلوقاته كلها، فهذا يحتاج إلى بيان، ولا يكفي أن يعتقد المسلم {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه: ٥). «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[١]. دون أن يعرف أن كلمة «في» التي وردت في هذا الحديث ليست ظرفية، وهي مثل «في» التي وردت في قوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ...} (الملك: الآيتان ١٥ - ١٦)؛ لأن «في» هنا بمعنى «على» والدليل على ذلك كثير وكثير جدًا؛ فمن ذلك: الحديث السابق المتداول بين ألسنة الناس، وهو بمجموع طرقه - والحمد لله- صحيح، ومعنى [قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-]: «ارحموا من في الأرض» لا يعني الحشرات والديدان التي هي في داخل الأرض! وإنما من على الأرض؛ من إنسان وحيوان، وهذا مطابق لقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-:"... يرحمكم من في السماء»، أي: على السماء، فمثل هذا التفصيل لا بد للمستجيبين لدعوة الحق أن يكونوا على بينة منه، ويقرب هذا: حديث الجارية وهي راعية غنم، وهو مشهور معروف، وإنما أذكر الشاهد منه؛ حينما سألها

(١) «السلسلة الصحيحة» (٩٢٥).

رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «أين الله؟» قالت له: في السماء[1]. لو سألت اليوم كبار شيوخ الأزهر- مثلًا- أين الله؟ لقالوا لك: في كل مكان! بينما الجارية أجابت بأنه في السماء، وأقرها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، لماذا؟؛ لأنها أجابت على الفطرة، وكانت تعيش بما يمكن أن نسميه بتعبيرنا العصري» بيئة سلفية «لم تتلوث بأي بيئة سيئة- بالتعبير العام- ؛ لأنها تخرجت كما يقولون اليوم- من مدرسة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- هذه المدرسة لم تكن خاصة ببعض الرجال ولا ببعض النساء، وإنما كانت مشاعة بين الناس وتضم الرجال والنساء وتعم المجتمع بأكمله، ولذلك عرفت راعية الغنم العقيدة لأنها لم تتلوث بأي بيئة سيئة؛ عرفت العقيدة الصحيحة التي جاءت في الكتاب والسنة وهو مالم يعرفه كثير ممن يدعي العلم بالكتاب والسنة، فلا يعرف أين ربه! مع أنه مذكور في الكتاب والسنة، واليوم أقول: لا يوجد شيء من هذا البيان وهذا الوضوح بين المسلمين بحيث لو سألت - لا أقول: راعية غنم- بل راعي أمة أو جماعة؛ فإنه قد يحار في الجواب كما يحار الكثيرون اليوم إلا من رحم الله وقليل ما هم!!!.

الدعوة إلى العقيدة الصحيحة تحتاج إلى بذل جهد عظيم ومستمر:

فإذًا، فالدعوة إلى التوحيد وتثبيتها في قلوب الناس تقتضي منا ألا نمر بالآيات دون تفصيل كما في العهد الأول؛ لأنهم- أولًا- كانوا يفهمون العبارات العربية بيسر، وثانيًا لأنه لم يكن هناك انحراف وزيغ في العقيدة نبع من الفلسفة وعلم الكلام، فقام ما يعارض العقيدة السليمة، فأوضاعنا اليوم تختلف تمامًا عما كان عليه المسلمون الأوائل، فلا يجوز أن نتوهم بأن الدعوة إلى العقيدة الصحيحة هي اليوم من اليسر كما كان الحال في العهد الأول، وأقرب هذا في

(١) أخرجه مسلم (رقم٥٣٧).

مثل لا يختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان- إن شاء الله تعالى-:

من اليسر المعروف حينئذ أن الصحابي يسمع الحديث من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم- مباشرة ثم التابعي يسمع الحديث من الصحابي مباشرة... وهكذا نقف عند القرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية، ونسأل: هل كان هناك شيء اسمه علم الحديث؟

الجواب: لا، وهل كان هناك شيء اسمه علم الجرح والتعديل؟ الجواب: لا، أما الآن فهذان العلمان لا بد منهما لطالب العلم، وهما من فروض الكفاية؛ وذلك لكي يتمكن العالم اليوم من معرفة الحديث إن كان صحيحًا أو ضعيفًا، فالأمر لم يعد ميسرًا سهلًا كما كان ذلك ميسرًا للصحابي، لأن الصحابي كان يتلقى الحديث من الصحابة الذين زكوا بشهادة الله ﷻ لهم.... إلخ. فما كان يومئذ ميسورًا ليس ميسورًا اليوم من حيث صفاء العلم وثقة مصادر التلقي، لهذا لا بد من ملاحظة هذا الأمر والاهتمام به كما ينبغي مما يتناسب مع المشاكل المحيطة بنا اليوم بصفتنا مسلمين، والتي لم تحط بالمسلمين الأولين من حيث التلوث العقدي الذي سبب إشكالات وأوجد شبهات من أهل البدع المنحرفين عن العقيدة الصحيحة منهج الحق تحت مسميات كثيرة، ومنها الدعوة إلى الكتاب والسنة فقط! كما يزعم ذلك ويدعيه المنتسبون إلى علم الكلام.

ويحسن بنا هنا أن نذكر بعض ما جاء في الأحاديث الصحيحة في ذلك ومنها: أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما ذكر الغرباء في بعض تلك الأحاديث، قال: «للواحد منهم خمسون من الأجر»، قالوا: منا يا رسول الله أو منهم؟ قال: «منكم»[(١)].

وهذا من نتائج الغربة الشديدة للإسلام اليوم التي لم تكن في الزمن الأول،

(١) «السلسلة الصحيحة» (٤٩٤).

ولا شك أن غربة الزمن الأول كانت بين شرك صريح وتوحيد خال من كل شائبة، بين كفر بواح وإيمان صادق، أما الآن فالمشكلة بين المسلمين أنفسهم فأكثرهم توحيده مليء بالشوائب، ويوجه العبادات إلى غير الله ويدعي الإيمان؛ هذه القضية ينبغي الانتباه لها أولًا، وثانيًا: لا ينبغي أن يقول بعض الناس: إننا لا بد لنا من الانتقال إلى مرحلة أخرى غير مرحلة التوحيد وهي العمل السياسي!! لأن الإسلام دعوته دعوة حق أولًا، فلا ينبغي أن نقول: نحن عرب والقرآن نزل بلغتنا، مع تذكيرنا أن العرب اليوم عكس الأعاجم الذين استعربوا، بسبب بعدهم عن لغتهم، وهذا ما أبعدهم عن كتاب ربهم وسنة نبيهم، فهب أننا- نحن العرب- قد فهمنا الإسلام فهمًا صحيحًا، فليس من الواجب علينا بأن نعمل عملًا سياسيًا، ونحرك الناس تحريكًا سياسيًا، ونشغلهم بالسياسة عما يجب عليهم الاشتغال به، في فهم الإسلام: في العقيدة، والعبادة، والمعاملة والسلوك!! فأنا لا أعتقد أن هناك شعبًا يعد بالملايين قد فهم الإسلام فهمًا صحيحًا - أعني: العقيدة، والعبادة، والسلوك - وربي عليها.

أساس التغيير هو منهج التصفية والتربية

ولذلك نحن ندندن أبدًا ونركز دائمًا حول النقطتين الأساسيتين اللتين هما قاعدة التغيير الحق، وهما: التصفية والتربية، فلا بد من الأمرين معًا؛ التصفية والتربية، فإن كان هناك نوع من التصفية في بلد فهو في العقيدة، وهذا- بحد ذاته- يعتبر عملًا كبيرًا وعظيمًا أن يحدث في جزء من المجتمع الإسلامي الكبير- أعني: شعبًا من الشعوب-، أما العبادة فتحتاج إلى أن تتخلص من المذهبية الضيقة، والعمل على الرجوع إلى السنة الصحيحة، فقد يكون هناك علماء أجلاء فهموا الإسلام فهمًا صحيحًا من كل الجوانب، لكني لا أعتقد أن فردًا أو اثنين، أو ثلاثة، أو عشرة، أو عشرين يمكنهم أن يقوموا بواجب التصفية، تصفية

الإسلام من كل ما دخل فيه؛ سواء في العقيدة، أو العبادة، أو السلوك، إنه لا يستطيع أن ينهض بهذا الواجب أفراد قليلون يقومون بتصفية ما علق به من كل دخيل ويربوا من حولهم تربية صحيحة سليمة، فالتصفية والتربية الآن مفقودتان.

ولذلك سيكون للتحرك السياسي في أي مجتمع إسلامي لا يحكم بالشرع آثار سيئة قبل تحقيق هاتين القضيتين الهامتين، أما النصيحة فهي تحل محل التحرك السياسي في أي بلد يحكم بالشرع من خلال المشورة أو من خلال إبدائها بالتي هي أحسن بالضوابط الشرعية بعيدًا عن لغة الإلزام أو التشهير، فالبلاغ يقيم الحجة ويبرئ الذمة.

ومن النصح أيضًا، أن نشغل الناس فيما ينفعهم؛ بتصحيح العقيدة، والعبادة، والسلوك، والمعاملات.

وقد يظن بعضهم أننا نريد تحقيق التربية والتصفية في المجتمع الإسلامي كله! هذا ما لا نفكر فيه ولا نحلم به في المنام؛ لأن هذا تحقيقه مستحيل؛ ولأن الله ﷻ يقول في القرآن الكريم {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} (هود: ١١٨).

وهؤلاء لا يتحقق فيهم قول ربنا تعالى هذا إلا إذا فهموا الإسلام فهمًا صحيحًا وربوا أنفسهم وأهليهم ومن كان حولهم على هذا الإسلام الصحيح.

من يشتغل بالعمل السياسي؟ ومتى؟

فالاشتغال الآن بالعمل السياسي مشغلة! مع أننا لا ننكره، إلا أننا نؤمن بالتسلسل الشرعي المنطقي في آن واحد، نبدأ بالعقيدة، ونثني بالعبادة ثم بالسلوك؛ تصحيحًا وتربية ثم لا بد أن يأتي يوم ندخل فيه في مرحلة السياسة بمفهومها الشرعي؛ لأن السياسة معناها: إدارة شؤون الأمة، من الذي يدير

شؤون الأمة؟ ليس زيدًا، وبكرًا، وعمرًا؛ ممن يؤسس حزبًا أو يترأس حركة، أو يوجه جماعة!! هذا الأمر خاص بولي الأمر؛ الذي يبايع من قبل المسلمين، هذا هو الذي يجب عليه معرفة سياسة الواقع وإدارته، فإذا كان المسلمون غير متحدين - كحالنا اليوم - فيتولى ذلك كل ولي أمر حسب حدود سلطاته، أما أن نشغل أنفسنا في أمور لو افترضنا أننا عرفناها حق المعرفة فلا تنفعنا معرفتنا هذه؛ لأننا لا نتمكن من إدارتها، ولأننا لا نملك القرار لإدارة الأمة، وهذا وحده عبث لا طائل تحته، ولنضرب مثلًا الحروب القائمة ضد المسلمين في كثير من بلاد الإسلام هل يفيد أن نشعل حماسة المسلمين تجاهها ونحن لا نملك الجهاد الواجب إدارته من إمام مسؤول عقدت له البيعة؟! لا فائدة من هذا العمل، ولا نقول: إنه ليس بواجب! ولكننا نقول: إنه أمر سابق لأوانه، ولذلك فعلينا أن نشغل أنفسنا وأن نشغل غيرنا ممن ندعوهم إلى دعوتنا؛ بتفهيمهم الإسلام الصحيح، وتربيتهم تربية صحيحة، أما أن نشغلهم بأمور حماسية وعاطفية، فذلك مما سيصرفهم عن التمكن في فهم الدعوة التي يجب أن يقوم بها كل مكلف من المسلمين؛ كتصحيح العقيدة، وتصحيح العبادة، وتصحيح السلوك، وهي من الفروض العينية التي لا يعذر المقصر فيها، وأما الأمور الأخرى فبعضها يكون من الأمور الكفائية، كمثل ما يسمى اليوم بـ «فقه الواقع» والاشتغال بالعمل السياسي الذي هو من مسئولية من لهم الحل والعقد، الذين بإمكانهم أن يستفيدوا من ذلك عمليًا، أما أن يعرفه بعض الأفراد الذين ليس بأيديهم حل ولا عقد ويشغلوا جمهور الناس بالمهم عن الأهم، فذلك مما صرفهم عن المعرفة الصحيحة! وهذا مما نلمسه لمس اليد في كثير من مناهج الأحزاب والجماعات الإسلامية اليوم، حيث نعرف أن بعضهم انصرف عن تعليم الشباب المسلم المتكتل والملتف حول هؤلاء الدعاة من أجل أن يتعلم

ويفهم العقيدة الصحيحة، والعبادة الصحيحة، والسلوك الصحيح، وإذا ببعض هؤلاء الدعاة ينشغلون بالعمل السياسي ومحاولة الدخول في البرلمانات التي تحكم بغير ما أنزل الله! فصرفهم هذا عن الأهم واشتغلوا بما ليس مهماً في هذه الظروف القائمة الآن.

أما ما جاء في السؤال عن كيفية براءة ذمة المسلم أو مساهمته في تغيير هذا الواقع الأليم؛ فنقول: كل من المسلمين بحسبه، العالم منهم يجب عليه ما لا يجب على غير العالم، وكما أذكر في مثل هذه المناسبة: أن الله ﷻ قد أكمل النعمة بكتابه، وجعله دستورًا للمؤمنين به، من ذلك أن الله تعالى قال: {... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} (الانبياء: ٧) فالله سبحانه وتعالى قد جعل المجتمع الإسلامي قسمين: عالمًا، وغير عالم، وأوجب على كل منهما مالم يوجبه على الآخر، فعلى الذين ليسوا بعلماء أن يسألوا أهل العلم، وعلى العلماء أن يجيبوهم عما سئلوا عنه، فالواجبات- من هذا المنطلق- تختلف باختلاف الأشخاص، فالعالم اليوم عليه أن يدعوا إلى دعوة الحق في حدود الاستطاعة، وغير العالم عليه أن يسأل عما يهمه بحق نفسه أو من كان راعيًا؛ كزوجة أو ولد أو نحوه، فإذا قام المسلم - من كلا الفريقين- بما يستطيع؛ فقد نجا، لأن الله ﷻ يقول: {لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} (البقرة: ٢٨٦).

نحن- مع الأسف نعيش في مأساة ألمت بالمسلمين، لا يعرف التاريخ لها مثيلًا، وهو تداعي الكفار على المسلمين، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في مثل حديثه المعروف والصحيح: «تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «لا، أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله الرهبة من صدور عدوكم لكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن»، قالوا: وما الوهن يارسول الله؟ قال: «حب

الدنيا وكراهية الموت»[١].

فواجب العلماء إذًا، أن يجاهدوا في التصفية والتربية، وذلك بتعليم المسلمين التوحيد الصحيح وتصحيح العقائد والعبادات، والسلوك، كل حسب طاقته وفي البلاد التي يعيش فيها، لأنهم لا يستطيعون القيام بجهاد اليهود في صف واحد ماداموا كحالنا اليوم، متفرقين، لا يجمعهم بلد واحد ولا صف واحد، فإنهم لا يستطيعون القيام بمثل هذا الجهاد لصد الأعداء الذين تداعوا عليهم، ولكن عليهم أن يتخذوا كل وسيلة شرعية بإمكانهم أن يتخذوها، لأننا لا نملك القدرة المادية، ولو استطعنا، فإننا لا نستطيع أن نتحرك فعلًا، لأن هناك حكومات وقيادات وحكامًا في كثير من بلاد المسلمين يتبنون سياسات لا تتفق مع السياسة الشرعية مع الأسف الشديد لكننا نستطيع أن نحقق- بإذن الله تعالى _ هذين الأمرين العظيمين اللذين ذكرتهما آنفًا وهما التصفية والتربية، وحينما يقوم الدعاة المسلمون بهذا الواجب المهم جدًا في بلد لا يتبنى سياسة لا تتفق مع السياسة الشرعية، ويجتمعون على هذا الأساس، فأنا أعتقد- يومئذ- أنه سيصدق عليهم قول الله ﷻ: {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللهِ} (الروم: ٤- ٥).

الواجب على كل مسلم أن يطبق حكم الله في شئون حياته كلها فيما يستطيعه: إذًا، واجب كل مسلم أن يعمل ما باستطاعته، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وليس هناك تلازم بين إقامة التوحيد الصحيح والعبادة الصحيحة، وبين إقامة الدولة الإسلامية في البلاد التي لا تحكم بما أنزل الله، لأن أول ما يُحكم بما أنزل الله - فيه- هو إقامة التوحيد، وهناك- بلا شك- أمور خاصة وقعت في بعض العصور وهي أن تكون العزلة خيرًا من المخالطة، فيعتزل المسلم في

(١) «السلسة الصحيحة» (٩٥٨).

شعب من الشعاب ويعبد ربه، ويكف من شر الناس إليه، وشره إليهم، هذا الأمر قد جاءت فيه أحاديث جدًا وإن كان الأصل كما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»[1]. فالدولة المسلمة- بلا شك- وسيلة لإقامة حكم الله في الأرض، وليست غاية بحد ذاتها.

ومن عجائب بعض الدعاة أنهم يهتمون بما لا يستطيعون القيام به من الأمور، ويدعون ما هو واجب عليهم وميسور! وذلك بمجاهدة أنفسهم كما قال ذلك الداعية المسلم؛ الذي أوصى أتباعه بقوله: «أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم لكم في أرضكم».

ومع ذلك فنحن نجد كثيرًا من أتباعه يخالفون ذلك، جاعلين جل دعوتهم إلى إفراد الله عزوجل بالحكم، ويعبرون عن ذلك بالعبارة المعروفة: «الحاكمية لله». ولا شك بأن الحكم لله وحده ولا شريك له في ذلك ولا في غيره، ولكنهم؛ منهم من يقلد مذهبًا من المذاهب الأربعة، ثم يقول- عندما تأتيه السنة الصريحة الصحيحة-: هذا خلاف مذهبي! فأين الحكم بما أنزل الله في اتباع السنة؟!.

ومنهم من تجده يعبد الله على الطرق الصوفية! فأين الحكم بما أنزل الله بالتوحيد؟! فهم يطالبون غيرهم بما لا يطالبون به أنفسهم، إن من السهل جدًا أن تطبق الحكم بما أنزل الله في عقيدتك، في عبادتك، في سلوكك، في دارك، في تربية أبنائك، في بيعك، في شرائك، بينما من الصعب جدًا، أن تجبر أو تزيل ذلك الحاكم الذي يحكم في كثير من أحكامه بغير ما أنزل الله، فلماذا تترك الميسَّر إلى المعسَّر؟!.

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (رقم٩٣٩).

هذا يدل على أحد شيئين: إما أن يكون هناك سوء تربية، وسوء توجيه. وإما أن يكون هناك سوء عقيدة تدفعهم وتصرفهم إلى الاهتمام بما لا يستطيعون تحقيقه عن الاهتمام بما هو داخل في استطاعتهم، فأما اليوم فلا أرى إلا الاشتغال كل الاشتغال بالتصفية والتربية ودعوة الناس إلى صحيح العقيدة والعبادة، كل في حدود استطاعته، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد عليه وآله وسلم.اهـ.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في موسوعته العقدية (٢/ ٨٤): فضيلة الوالد حفظك الله! ما هو ردكم على من يقول: أن الدعوة إلى التوحيد والعقيدة الصحيحة ومنهج السلف يفرِّق الناس وجزاك الله خيرًا؟.

الشيخ: الله أكبر! وهل من يقول في هذا الزمان: أن الدعوة إلى التوحيد والدعوة إلى كتاب الله وسنة رسول الله ومنهج السلف الصالح يفرق الأمة سبحان الله! ذلك القول هو الضلال البعيد، هذا السؤال يذكرني بحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه في حديث لا أستحضر لفظه الآن وإنما فيه أن من أسماء النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: المفرِّق[1]، وهذا بلا شك قد تستغربونه من أسماء النبي: أحمد ومحمد والماحي، ونحو ذلك مما هو وارد في الحديث الصحيح، لكن حديث في صحيح البخاري فيه أن من أسماءه عليه الصلاة والسلام: المفرق، تُرى! لماذا كان هذا الاسم من أسمائه -صلى الله عليه وآله وسلم- ؟ ذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل، والقرآن من أسمائه: الفرقان يفرق من تمسك به واهتدى به بين الحق والباطل، يهدي إلى صراط مستقيم، ومن دعا إليه فهو أيضًا مفرق، فرسول الله بحق مفرق، ثم من تمام هذا الاسم أو من لوازمه أن نتيجة الدعوة إلى الحق والتفريق بينه وبين الباطل هو

(١) لم أجده، ولعل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وهم في ذلك.

التفريق من نتائج ذلك حتمًا والتاريخ الأول يؤكد ذلك أن يفرق بين الرجل وابنه.. بين الزوجة وزوجها لماذا؟ لأن الزوجة أسلمت وبقي زوجها على الكفر فأوجب عليها الإسلام أن تفارقه، أسلم الابن ففارق أباه بل وربما قتله إذا لقيه في المعركة وهكذا، فأين هؤلاء الذين يقولون: إن الدعوة إلى الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح يفرق الأمة سبحان الله! كأنهم يتجاهلون الحديث الذي ذكرناه قبل صلاة المغرب وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» إلى آخر الحديث.

فالفُرقة قائمة وموجودة فما حلها وما الخلاص منها وما النجاة من هذه الفُرقة؟ أليس هو قال الله قال رسول الله؟! أليس هو اتباع سبيل المؤمنين كما قال رب العالمين في القرآن الكريم: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} (النساء: ١١٥) هذا أمر واضح لا يحتاج إلى زيادة بيان، لكني أقول جدلًا: إذا تركنا لا سمح الله الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح؛ لأنه بزعمهم يفرق الأمة، فما الذي يجمع الأمة ليت شعري؟ ما الذي يجمعها إذا تركنا الكتاب والسنة، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حينما بعث في قومه العرب فكلنا يعلم أنهم كانوا مستعبدين من فارس والروم فما الذي جعلهم أعزاء ومتسلطين على الأمم التي هي أقوى منهم ماديَّة؟ أليس أن الله جمعهم على كلمة سواء هي: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فنصرهم الله بسبب ذلك، فكيف يقول هؤلاء أن هذه الدعوة تفرق؟ فما هو الدليل؟ لا أعتقد إلا أنهم يريدون خلاف ما يظهرون، يريدون القضاء على دعوة الإسلام الصحيحة وإقامة إسلام إما أن يكون إسلامًا أوروبيًّا أو إسلامًا أمريكيًا أو إسلامًا خلفيًا كل هذا وهذا لا

يقربنا إلى الله زلفى إلا كما سمعتم في الآية السابقة: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} (الأنعام: ١٥٣) ومن هذه السبل من يقول هذه الكلمة الباطلة التي هي الكفر بعينه، وقد شهد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على أمثال هؤلاء بالحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن الله لا ينتزع العلم انتزاعًا من صدور العلماء ولكنه يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبقي عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» فهؤلاء الناس الذين يفتون الناس بمثل هذه الكلمات هم الذين عناهم الرسول عليه السلام بقوله: «اتخذ الناس رؤوسًا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» نسأل الله تبارك وتعالى أن يلهمنا العلم النافع، وليس هو إلا العلم بالكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح، ثم أن يقوينا ويساعدنا على العمل به إنه سميع مجيب.اهـ.

مسألة

سئل العلامة العثيمين كما في فتاوى نور على الدرب: قرأت في كتاب بأن أهل التوحيد لايخلدون في النار، فمن هم أهل التوحيد؟.

فأجاب: أهل التوحيد الذين عبدوا الله تعالى وحده، الذين عبدوا الله تعالى وحده أي: قاموا بالعبادة مخلصين بها لله، متبعين فيها لرسول الله ﷺ، هؤلاء هم أهل التوحيد، ولا يختصون بطائفةٍ دون أخرى، في أي بلادٍ كان الإنسان، ومن أي قبيلةٍ كان، ومن أي جنسٍ كان، إذا قام بعبادة الله عز وجل وحده، متبعًا في ذلك رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فهو من أهل الجنة.

وسئل رحمه الله كما في نفس المصدر السابق: ما هي أنواع التوحيد وشروط

كلمة التوحيد؟.

فأجاب: أما بالنسبة لسؤال السائل عن كلمة التوحيد: فكلمة التوحيد هي لا إله إلا الله، أي: لا معبود حق إلا الله، وهذه تتضمن شيئين مهمين: الشيء الأول: نفي الألوهية الحقة عما سوى الله ﷻ، فإنه لا إله إلا الله ﷻ. والثاني: إثبات الألوهية الحق لله ﷻ، وبهذا تم الإخلاص في هذه الكلمة العظيمة التي هي باب الدخول في الإسلام، ولهذا من قال: لا إله إلا الله، فقد عصم دمه وماله. وفي الصحيح أن أسامة بن زيد رضي الله عنه لحق رجلًا مشركًا هرب منه، فلما أحاط به قال الرجل المشرك: لا إله إلا الله. فقتله أسامة بعد أن قال لا إله إلا الله. فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال له: (أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟ قال: يا رسول الله إنما قالها تعوذًا. يعني: ليعتصم بها من القتل وليست عن إخلاص، فجعل النبي ﷺ يكررها، حتى قال أسامة: (حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت بعد). فهذا أهم شيء في كلمة الإخلاص. ومنها- يعني: من شروط قبولها- أن يكون الإنسان قد قالها عن يقين، أي: قالها متيقنًا لا مترددًا ولا مقلدًا، بل متيقنًا أنه لا إله حق إلا الله تبارك وتعالى، ولها مكملات بعضها على سبيل الوجوب وبعضها على سبيل الاستحباب، معلومة في كتب أهل العلم.

وسئل رحمه الله كما في نفس المصدر السابق: ما أقسام التوحيد مفصلة؟ لأننا في زمن كثرت فيه الشركيات، فنشاهد أناسًا يذبحون عند الأضرحة ويطوفون بها ويتقربون إليها؟.

فأجاب: سؤال الأخ عن التوحيد وأقسامه سؤال مهم؛ لأن التوحيد هو الذي بعثت به الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم قال الله تبارك وتعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ). والرسل حكى الله عنهم على وجه التفصيل أنهم كانوا يقولون لأقوامهم: (اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

غَيْرُهُ). والنبي عليه الصلاة والسلام جاء بتحقيق هذا التوحيد تحقيقًا تامًّا يمنع العبد من الإشراك بالله الشرك الصغير والكبير، وقد ذكر أهل العلم رحمهم الله أن أقسام التوحيد ثلاثة، وذلك بالتتبع والاستقراء، أولها: توحيد الربوبية، والثاني: توحيد الألوهية، والثالث: توحيد الأسماء والصفات، وقد اجتمعت الثلاثة في آية واحدة من كتاب الله في قوله تعالى: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) فقوله تعالى (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) هذا توحيد الربوبية، وقوله: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) هذا توحيد الألوهية، وقوله تعالى: (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) هذا توحيد الأسماء والصفات، أي لا تعلم له سميًّا أي: مساميا يضاهيه ويماثله ﷻ. أقسام التوحيد ثلاثة:

القسم الأول: توحيد الربوبية، وهو إفراد الله ﷻ في الخلق والملك والتدبير، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبر إلا الله، لا أحد يقوم بهذا على وجه الإطلاق والعموم والشمول إلا الله رب العالمين، فهو المتفرد بالخلق، المتفرد بالملك، المتفرد بالتدبير، قال الله ﷻ: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ). فالآية هذه فيها حصر الخلق والأمر في الله وحده، وذلك بتقديم الخبر (له) على المبتدأ (الخلق)، وتقديم ماحقه التأخير يفيد الحصر، كما قرر ذلك علماء البلاغة، فالخلق كله له، والأمر كله له ﷻ، لا يشركه أحد، قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ. إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ). وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ. وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ). فبين الله ﷻ أن هؤلا السفهاء الذين

يشركون، الذين اتخذهم عبادهم شفعاء عند الله، شركاء مع الله، لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض على وجه الاستقلال بها دون الله، ما لهم فيهما من شرك، أي: لا يملكون شركة مع الله ﷻ، فليسوا مستقلين في شيء، وليسوا شركاء مع الله في شيء، (وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ) يعني: ما لله أحد من هؤلاء يساعده ويعينه ﷻ، بل هو مستغنٍ عن جميع خلقه، (وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) وذلك لكمال سلطانه وعظيم ملكه ﷻ، لا أحد يشفع عنده يتوسط بشيء لأحد من خير أو دفع ضرر إلا بإذنه ﷻ، وفي هذا قطع لجميع ما يتعلق به المشركون الذين يدعون أنهم يعبدون هذه الأصنام، يتخذونها شفعاء عند الله، قال: (وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) ومن المعلوم أن الله لن يأذن لهذه الأصنام أن تشفع، ولا يأذن لأحد أن يشفع لعابد هذه الأصنام، قال الله تبارك وتعالى: (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى). وقال تعالى: {وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى). وحينئذٍ تنقطع كل الآمال التي يتعلق بها هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله غيره، يرجونه نفعًا أو دفع ضرر، فإن ذلك لا ينفعه، قال الله تعالى: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ). إذًا توحيد الربوبية إفراد الله ﷻ بأمور ثلاثة: بالخلق والملك والتدبير، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبر إلا الله. وما يوجد من المخلوق من صنع الأشياء، وما يوجد من المخلوق من الملك، وما يوجد للمخلوق من التدبير، فكله تدبير ناقص، وهم أيضًا غير مستقلين به، بل ذلك من خلق الله ﷻ، أما المنفرد بذلك على وجه الاستقلال فهو الله سبحانه وتعالى، فللمخلوق خلق وإيجاد، لكنه ليس كخلق الله، فالله تعالى موجد الأشياء من العدم، والمخلوق

لا يستطيع أن يوجد الشيء من العدم، وإنما يستطيع أن يركب شيئًا مع شيء،أو يغير صورة شيء إلى شيء، كما لو غير النجار الخشبة إلى باب، والحداد الصفائح الحديد إلى أبواب وما أشبه ذلك، لكنه لن يخلق هذه المادة، قال الله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ. مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ). كذلك الإنسان له ملك، قال الله تعالى: (إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ). وقال الله تعالى: (أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَه). ولكن هذا الملك ملك مقيد محدود ليس بشامل، وليس للإنسان فيه مطلق التصرف، بل هو محدود، فما بيدي من الملك ليس لك، وما بيدك من الملك ليس لي، ثم إنه ملك محدود لا تستطيع أن تتصرف فيه إلا على حسب ما جاءت به الشريعة. وكذلك للإنسان تدبير: يدبر مملوكه، ويدبر زوجته، يدبر أهله، لكنه تدبير ناقص ليس بشامل، ولا للإنسان فيه مطلق الحرية، وبهذا عرفنا أن المنفرد بالخلق والمنفرد بالملك والمنفرد بالتدبير هو الله ﷻ وحده. هذا قسم من أقسام التوحيد، وهذا التوحيد لم ينكره المشركون الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل كانوا يقرون به غاية الإقرار، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ). وقال: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ). وهكذا الآيات الكثيرة كلها تدل على أن المشركين الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستباح دماءهم وأموالهم ونساءهم وذريتهم كانوا يقرون بهذا التوحيد، لكن ذلك لم ينفعهم؛ لأنهم مشركون في توحيد الألوهية، توحيد العبادة الذي هو حق الله الخاص له، وهو:

القسم الثاني: توحيد الألوهية، المستفاد من قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ

قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) والألوهية مبنية على شيئين، بل العبادة مبنية على شيئين: المحبة والتعظيم، فبالمحبة يكون الرجاء وفعل الأوامر، طلبًا للوصول إلى محبة الله ﷻ وثوابه، والتعظيم- وهو الأساس الثاني للعبادة- به يترك الإنسان المناهي التي نهى الله عنها؛ لأنه بتعظيمه لله يترك مناهيه ويخاف من عقابه. ثم إن العبادة لها شرطان: الشرط الأول: الإخلاص لله، والثاني: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فللعبادة إذًا ركنان ولها شرطان، أما ركناها فالمحبة والتعظيم وهما الأساس، وأما شرطاها فهما الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ودليل ذلك قوله تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ). وقوله تعالى في الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه). ودليل المتابعة قوله تبارك وتعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد). وقال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد). أي: مردود على صاحبه؛ لأنه لم تتحقق فيه المتابعة. وإذا نظرنا إلى حال كثير من المسلمين اليوم وجدنا أنهم ليسوا على توحيد خالص في باب الألوهية والعبودية: فمنهم من يعبد القبور، ومنهم من يعبد الأولياء، ومنهم من يطوف بالقبور رجاءً لنفعها ودفعها للضرر، ومنهم من يُؤلِّه الحكام ويجعلهم في منزلة الألوهية، يطيعهم فيما حرم الله فيستحله وفيما أحل الله فيحرمه، وهذا هو اتخاذهم أربابًا، قال الله تبارك وتعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ). ويروى عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله إنا

لسنا نعبدهم. قال: (أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال: بلى. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتلك عبادتهم). وهذا القسم من التوحيد هو الذي خالف فيه المشركون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنكروا عليه، وقالوا فيه: (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ). وسبحان الله أن يكون التوحيد عجابًا، وأن يكون شركه صوابًا. فالعجب العجاب الذي لا ينقضي هو أن يشرك هؤلاء بالله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ولا يستجيب لهم إلى يوم القيامة، وقد استباح النبي صلى الله عليه وآله وسلم دماء هؤلاء المشركين ونساءهم وذرياتهم وأموالهم وقاتلهم على ذلك أشد المقاتلة، حتى يعبدوا الله ﷻ أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

أما القسم الثالث فهو توحيد الأسماء والصفات، وهو إفراد الله ﷻ بأسمائه وصفاته، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه، ونفي ما نفى الله عن نفسه، والسكوت عما سكت الله عنه ورسوله، إثباتًا بلا تمثيل، ونفيًا بلا تعطيل. وهذا هو الذي انقسمت فيه الأمة الإسلامية إلى أقسام متعددة: فمنهم السلف، وهم فقط أهل السنة والجماعة الذين أثبتوا لله ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، إثباتًا بلا تمثيل، ونفوا ما نفى الله عن نفسه نفيًا بلا تعطيل، وسكتوا عما سكت الله عنه ورسوله. فمن ذلك أنهم أثبتوا لله كل ما وصف به نفسه، كل صفة أثبتها لنفسه: من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام والعزة والحكمة والرحمة والعجب والضحك، وأثبتوا لله الوجه واليدين والعينين، وأثبتوا لله القدم والساق، وكذلك كل ما وصف الله به نفسه أثبتوه لله ﷻ لكن بلا تمثيل، يثبتون هذا ويقولون: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرِ). فيقولون: لله يد ولكن ليستا كأيدينا، وجه لكن ليس كوجوهنا، عينان لكن ليست كأعيننا، وهكذا بقية الصفات.

ويقولون أيضًا: إن الله استوى على العرش، علا عليه علوًّا يليق بجلاله ﷻ، لكن ليس كاستوائنا نحن على السرير أو على الدابة أو على الفلك؛ لا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرِ﴾. هذا هو مذهب السلف: إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، ونفي ما نفى الله عن نفسه من الأسماء والصفات، والسكوت عما سكت عنه. وبعد ذلك تنازع الناس تنازعًا طويلًا عريضًا لا ينبني على أصل، لا من المعقول ولا من المنقول: فأثبت قوم الأسماء، وأثبتوا من الصفات صفات قليلة، وليس على الوجه الذي يثبته عليه أهل السنة والجماعة، بل يخالفونه في كيفية هذا الإثبات. وأثبت قوم الأسماء، ونفوا الصفات كلها، أو إلا الحياة والعلم والقدرة. ونفى قوم الأسماء والصفات، ونفى قوم الإثبات والنفي، واضطربوا في ذلك اضطرابًا كثيرًا. لكن من هؤلاء من تصل بدعته إلى حد الكفر المخرج من الملة، ومنهم من دون ذلك، ولكن الحق فيما ذهب إليه السلف، وهم أهل السنة والجماعة: إثبات كل صفة أثبتها الله لنفسه بدون تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، ونفي كل صفة نفاها الله عن نفسه، والسكوت عما سكت الله عنه، وهذه الطريقة السليمة الثابتة سمعًا وعقلًا وفطرةً. وللناس في هذا كتب ورسائل معلومة، ومن أحسن ما رأيته تقريبًا لهذا الأصل العظيم ما كتبه شيخ الإسلام، ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكتبه تليمذه ابن القيم، فإنهما كتبا في هذا الباب كتابات عظيمة مفيدة، ما رأيت أحدًا كتب مثل كتابتهما، وغالب من يكتب في هذا الباب تجدهم يقلد بعضهم بعضًا، ولهم مقلدون لا يخرجون عن كلامهم ولو تبين الحق، والحقيقة أن الواجب على المرء أن يتبع ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله سلم، وأنه ليس بمعذور إذا خالف ذلك من أجل قول فلان وفلان، قد يخطئ فلان وفلان من المتبوعين خطًا يعذر فيه، لكن التابع الذي تبين له الحق لا يعذر في

اتباعه لهؤلاء الذين أخطؤوا. وإنني من هذا المنبر منبر نور على الدرب في إذاعة المملكة العربية السعودية أدعو جميع إخواني الذين درسوا في هذا العلم علم التوحيد علم العقائد، أدعوهم إلى تقوى الله ﷻ، وأن يسلكوا ما سلكه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من الخلفاء الراشدين وغيرهم في هذا الباب العظيم الخطير؛ لأن هذا الباب مبناه على الخبر المحض، ليس للعقول فيه مجال إلا على سبيل الإجمال، فإن العقول تهتدي إجمالًا إلى أن الله موصوف بصفات الكمال، منزه عن كل نقص وعيب، ولكن لا تدرك هذا على وجه التفصيل، وإنما يؤخذ ذلك من الكتاب والسنة، وإذا كان هذا هو الواقع، وأن ما يتعلق بصفات الله وأسمائه خبر محض، فإنه يجب علينا أن لا نحيد عن ما جاء به الكتاب والسنة قيد أنملة، ولا سمك شعرة، بل يجب علينا قبول ما جاء به الكتاب والسنة من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل. ولقد رأينا أن الذين يحيدون عن هذه السبيل ويتخبطون خبط عشواء في بعض أسماء الله وصفاته، رأينا أنهم يضلون كثيرًا، ويؤدي بهم الحال إلى الشرك وإلى الحيرة، كما نقل ذلك عن كثيرٍ من زعمائهم، حتى إن الفخر الرازي وهو من رؤسائهم قال فيما نقل عنه، إما منشدًا وإما ناظمًا:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال: (لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تروي غليلًا ولا تشفي عليلًا، وجدت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ). وأقرأ في النفي: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)، (وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا). ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل

معرفتي). ويقول الآخر:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعًا كف حائر على ذقن أو قارعًا سن نادم

وهذا يدل على أن هؤلاء المتكلمين الذين ذهبوا يحكمون على الله تعالى بعقولهم فيما يصفونه به كانوا في حيرة شديدة، وأن من بلغ منهم الغاية في علم الكلام رجع إلى الحق، وهو ما كان عليه سلف هذه الأمة: من إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ونفي ما نفى الله عنه أو ما نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، والسكوت عن ما لم يرد به إثبات ولا نفي، وهذا هو الأدب مع الله ورسوله، فعلينا جميعًا أن نتوب إلى الله عز وجل، وأن نرجع إلى منهج سلفنا الصالح في هذا الباب العظيم الخطير. ونسأل الله لنا ولإخواننا السلامة والتوفيق لمنهج السلف الصالح، وأن يتوفانا على ما يحبه ويرضاه، إنه جواد كريم.

وسئل رحمه الله كما في نفس المصدر السابق: هل الإيمان هو التوحيد؟.

فأجاب: الإيمان والتوحيد شيئان متغايران وشيئان متفقان، فالتوحيد هو إفراد الله عز وجل بما يستحقه ويختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: إن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات. وإن هذه الأقسام جاءت في قوله تعالى: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا). فقوله: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) يعني توحيد الربوبية، وقوله: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) يعني توحيد الألوهية، وقوله: (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) يعني توحيد الأسماء والصفات. وهذا التقسيم للإيمان في الواقع؛ لأن الإيمان بالله عز وجل يتضمن الإيمان بربوبيته

وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعلى هذا فالموحد لله مؤمن به، والمؤمن بالله موحد له، لكن قد يحصل خلل في التوحيد أو في الإيمان فينقصان، ولهذا كان القول الراجح أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد وينقص في حقيقته وفي آثاره ومقتضياته: فالإنسان يجد من قلبه أحيانًا طمأنينة بالغة، كأنما يشاهد الغائب الذي كان يؤمن به، وأحيانًا يحصل له شيء من قلة هذا اليقين الكامل، وإذا شيءت أن تعرف أن اليقين يتفاوت فاقرأ قول الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. كما أنه أيضًا يزيد بآثاره ومقتضياته: فإن الإنسان كلما ازداد عملًا صالحًا ازداد إيمانه، حتى يكون من المؤمنين الخلص.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق: كيف يحقق المسلم التوحيد؟.

فأجاب: يحقق التوحيد بالإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ، وأن تكون عبادته لله تعالى وحده لا يرائي فيها ولا يحابي فيها، وإنما يعبد الله مخلصًا له الدين، هذا بالنسبة للعبادة. كذلك أيضًا بالنسبة للربوبية: لا يعتمد إلا على الله، ولا يستعين إلا بالله، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لابن عمه وهو عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك). وعليه أن يسأل الله دائمًا الثبات على الحق وعلى التوحيد، فإن كثيرًا من الناس وإن كان معه أصل التوحيد لكن يكون هناك أشياء منقصة، وأضرب لك مثلًا شائعًا عند الناس يتهاونون به، وهو الاعتماد على الأسباب، فإن من المعلوم أن الله سبحانه وتعالى قدر للأشياء أسبابًا: فالمرض قدر الله للشفاء منه أسبابًا، والجهل قدر الله

تعالى للتخلص منه أسبابًا، الأولاد قدر الله لهم أسبابًا، وهلم جرًّا. فبعض الناس يعتمد على السبب: فتجده إذا مرض يتعلق قلبه تعلقًا كليًا بالمستشفى وأطبائه، ويذهب وكأن الشفاء بأيديهم، وينسى أن الله سبحانه وتعالى جعل هؤلاء أسبابًا قد تنفع وقد لا تنفع، فإن نفعت فبفضل الله وتقديره، وإن لم تنفع فبعدل الله وتقديره، فلا ينبغي بل لا يجوز أن ينسى الإنسان المتسبب ويتفكر للسبب، نعم نحن لا ننكر أن السبب له تأثير في المسبب، لكن هذا التأثير إنما كان بإذن الله ﷻ، كما قال الله تبارك وتعالى في السحرة: (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) قال (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ). فالمهم أن تحقيق التوحيد هو تعلق القلب بالله تبارك وتعالى خوفًا وطمعًا، وتخصيص العبادة له وحده.

(باب الإيمان بوجود الله)

يعتبر الإيمان بوجود الله تعالى أصل الأصول في الدين، وهذا الإيمان أمر فطري في البشر جميعًا، إذ كل إنسان يقر بوجود الله تعالى - منذ عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والعقل البشري يدرك هذه الحقيقة الجلية، بما أودع الله فيه من ضرورة يحس بها، دون أن يكون بحاجة إلى منهج مرسوم يسلكه للتعرف على خالقه، بارئه ومكونه، موجده من العدم، وميسر رزقه وتقلبه في هذه الحياة، إذ كانت الإشارات التي تشير إلى الله أكثر من أن تحصى، إنها تنبعث من كل موجود، من النبتة الصغيرة الملتصقة بالأرض، إلى النخلة الباسقة الذاهبة في السماء ومن النمل يدب على الأرض إلى النسور المحلقة في الفضاء.

بل من كل كائن في الأرض، إلى كل كوكب ونجم في السماء، كل هذه المخلوقات تشير إلى هذه الحقيقة، إشارة ضرورة لازمة، وحتمية مطلقة، فهي من الأمور القطعية، التي تضافرت الأدلة الحسية على إثباتها، يشهد لذلك قول

ذلك الأعرابي: "البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، أفلا تدل على الصانع الخبير؟.

فوجود الله تعالى أمر فطري، مغروز في النفس البشرية؛ فعندما خلق الله تعالى آدم عليه السلام أخذ منه، ومن ذريته، الشهادة على أنه ربهم ومعبودهم الحق فقال سبحانه وتعالى: وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون} [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

وقد كانت دعوة الأنبياء جميعا تنبثق من هذا الأصل الفطري العظيم؛ وهو الإيمان بالله تعالى؛ والدعوة لتوحيده في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، فما أثر عن أمة من الأمم إنكارها لوجود الله تعالى، إلا ما نسب إلى فرعون، والدهرية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨): (وأشهر من عرف تجاهله، وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقنا به في الباطن؛ كما قال له موسى: لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا} [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى عنه وعن قومه: وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا} [النمل: ١٤])[1].

ونص شيخ الإسلام في موضع آخر على أن فرعون كان معترفا بالله في الباطن، فقال: (وفرعون لم يقل هذا لعدم معرفته في الباطن بالخالق، ولكن

---

(١) ردء تعارض العقل والنقل (٨/ ٣٨) ت د. محمد رشاد سالم - ط١ - ١٤٠١ - جامعة الإمام محمد بن سعود، وانظر.. أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية (ص: ١٧) ت الألباني ط الأزهر.

أظهر خلاف ما في نفسه؛ كما قال تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا} [النمل: ١٤].

وأما الدهرية فهم لم ينكروا وجود الله تعالى؛ كما قال الشهرستاني (ت ٥٤٨): (أما تعطيل العالم عن الصانع العليم، القادر الحكيم، فلست أراها مقالة، ولا عرفت عليها صاحب مقالة، إلا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية أنهم قالوا: كان العالم في الأزل أجزاء مبثوثة، تتحرك على غير استقامة، فاصطكت اتفافا؛ فحصل العالم بشكله الذي تراه عليه، ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر وجود الصانع؛ بل هو يعترف بالصانع، لكنه يحيل سبب وجود العالم على البحث والاتفاق؛ احترازا عن التعليل)[١].

ومما يجب العلم به أن هذا المصطلح - أي (وجود الله تعالى) أو (إثبات الصانع)، أو (إثبات واجب الوجود)، وغيرها - هي مصطلحات مبتدعة، برزت في الوسط الإسلامي، مع ظهور فرق الابتداع، واختلاط المسلمين بأهل الشك والريب، من أهل البلاد المفتوحة، فما كانت البيئة الإسلامية تعرف مثل هذه المصطلحات المحدثة.

ولعل مثل هذه المقالات روجها زنادقة البلاد المفتوحة؛ حقدا وحسدا على هذا الدين وأهله، عندما هالهم سرعة انتشاره وتقبله من أهل تلك البلاد، فعكف هؤلاء الزنادقة وغيرهم من القادة الدينيين على تأليف المقالات المنحرفة وزرع الشبه والريب بين المسلمين الجدد.

ومما يوضح هذا التعليل أن بلاد فارس والعراق وغيرها قد تعرضت إلى هجمات فكرية عنيفة من الصابئة ودهاقنة الفرق يعاونهم اليهود والنصارى، والسمنية الهنود، الذين كانوا يطوفون في البلاد الإسلامية ويزرعون الشبه

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام (ص: ١٢٣ - ١٢٤) ت- الفرد جيوم - لندن ١٩٣٤.

والشكوك، ولا شك أن هذه الجماعات قد نشأت ونظمت نفسها، وبدأت عملها في القرن الأول الهجري.

ومن أمثلة ذلك ما روي أن مجموعة من الملاحدة سألوا[١]: (ما الدلالة على وجود الصانع، فقال لهم: دعوني فخاطري مشغول بأمر غريب، قالوا: ما هو؟ قال: بلغني أن في دجلة سفينة عظيمة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة؛ وهي ذاهبة وراجعة من غير أحد يحركها ولا يقوم عليها، فقالوا له: أمجنون أنت؟ قال وما ذاك؟ قالوا: أهذا يصدقه عاقل؟ فقال: فكيف صدقت عقولكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع والأصناف العجيبة وهذا الفلك الدوار السيار يجري وتحدث هذه الحوادث بغير محدث وتتحرك هذه المتحركات بغير محرم؟ فرجعوا على أنفسهم بالملام)[٢].

ومنها أيضا أولئك السمنية الهنود الذين جادلوا الجهم بن صفوان (ت ١٢٨هـ) في الإله المعبود فتحير الجهم، ولم يدر ما يجيب وتوقف عن الصلاة أربعين يوما حتى يتبين له ما يعبد بزعمه، ثم أحدثت هذه المجادلة الانحراف الكبير في عقلية الجهم؛ مما حدا به إلى نفي الصفات، وفتح بابا كبيرا من أبواب الشر في عقيدة الأمة[٣].

فهذه الموجات الإلحادية التي غزت العالم الإسلامي في مراحل تكونه الأولى كانت من أهم الأسباب التي فتحت باب الجدل في وجود الله تعالى، وفي أسمائه وصفاته، على تلك الطريقة المبتدعة المذمومة، التي خالفت ما جاء به

---

(١) نسب شارح الطحاوية هذه الحادثة لأبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ وأن الملاحدة سألوه هو (ص: ٢٣) في حين نسبها ابن تيمية إلى بعض أهل العلم. درء تعارض (٣/ ١٢٦).

(٢) درء التعارض (٣/ ١٢٧).

(٣) عقائد السلف الإمام أحمد بن حنبل الرد على الزنادقة (ص: ٦٥) ت - النشار وطالبي ط منشأة المعارف الإسكندرية - ١٩٧١م.

الكتاب والسنة من تقرير هذه المسائل بالطريقة السهلة الميسرة المقبولة.

وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية على أن أصول هذه المقالات المبتدعة هم الجهمية وغيرهم من فرق الابتداع، فقال: (إذا كانت معرفته والإقرار به ثابتا في كل فطرة، فكيف ينكر ذلك كثير من النظار؛ نظار المسلمين وغيرهم، وهم يدعون أنهم يقيمون الأدلة العقلية على المطالب الإلهية، فيقال لهم... أول من عرف في الإسلام بإنكار هذه المعرفة - هم أهل الكلام؛ الذين اتفق السلف على ذمهم، من الجهمية، والقدرية، وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف، وأجهلهم، ولكن انتشر كثير من أصولهم في المتأخرين؛ الذين يوافقون السلف على كثير مما خالفهم سلفهم الجهمية، فصار بعض الناس يظن أن هذا قول صدر في الأصل عن علماء مسلمين، وليس كذلك إنما صدر أولا عمن ذمه أئمة الدين، وعلماء المسلمين)[1].

وتبعا لهذا الانحراف... في تقرير وجود الله تعالى عند الجهمية، والمبتدعة اتسع انحراف المتكلمين من المعتزلة وغيرهم، فاشترطوا النظر والاستدلال، والشك لحصول العلم بالصانع بزعمهم، وقد فند شيخ الإسلام هذا الزعم الباطل، فقال: (ليس هذا قول أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، ولا قاله أحد من الأنبياء والمرسلين، ولا هو قول المتكلمين، ولا غالبهم، بل هذا قول محدث في الإسلام، ابتدعه متكلمو المعتزلة، ونحوهم من المتكلمين الذين اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمهم، وقد نازعهم في ذلك طوائف من المتكلمين من المرجئة، والشيعة، وغيرهم، وقالوا: بل الإقرار بالصانع فطري ضروري بديهي، لا يجب أن يتوقف على النظر والاستدلال... بل قد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن معرفة الله،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٣١).

والإقرار به لا يقف على هذه الطرق التي يذكرها أهل النظر)[(١)].

وقد سئل علماء اللجنة الدائمة (٣/ ١٩٠): لم أجد في أسماء الله وصفاته اسم (الموجود) وإنما وجدت اسم (الواجد) وعلمت في اللغة أن الموجود على وزن مفعول ولا بد أن يكون لكل موجود موجد كما أن لكل مفعول فاعل، ومحال أن يوجد لله موجد. ورأيت أن الواجد يشبه اسم الخالق والموجود يشبه اسم المخلوق، وكما أن لكل موجود موجد فلكل مخلوق خالق، فهل لي بعد ذلك أن أصف الله بأنه موجود؟.

فأجابوا: وجود الله معلوم من الدين بالضرورة، وهو صفة لله بإجماع المسلمين، بل صفة لله عند جميع العقلاء حتى المشركين لا ينازع في ذلك إلا ملحد دهري. ولا يلزم من إثبات الوجود صفة لله أن يكون له موجد؛ لأن الوجود نوعان:

الأول: وجود ذاتي وهو ما كان وجوده ثابتا له في نفسه لا مكسوبا له من غيره، وهذا هو وجود الله سبحانه وصفاته، فإن وجوده لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} .

الثاني وجود حادث وهو ما كان حادثا بعد عدم فهذا الذي لا بد له من موجد يوجده وخالق يحدثه وهو الله سبحانه، قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} وقال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} {أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} وعلى هذا يوصف الله تعالى بأنه موجود ويخبر عنه بذلك في الكلام فيقال الله موجود، وليس الوجود اسما، بل صفة.اهـ.

---

(١) نقض تأسيس الجهمية (٥/ ٤٧٣) - بتصرف - ت عبد الرحمن بن محمد العاصي وولده، وانظر مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥٠) ونسبة هذه الطرق إلى المبتدعة والجهمية.

وقال **العلامة** العثيمين في شرح العقيدة السفارينية (ص١٢٨): معرفة الله قسمان:

١- معرفة وجود ومعاني، وهذا هو المطلوب منا.

٢- ومعرفة كنه وحقيقة، وهذا غير مطلوب منا لأنه مستحيل.

يعني: لو قال قائل: تعرف الله مثلا: تعرف حقيقة ذاته وحقيقة صفاته؟ لكان الجواب: لا، لا نعلم ذلك وليس مطلوب منا والوصول إلى ذلك مستحيل، فالمطلوب إذن معرفة الذات بالوجود ومعرفة الصفات بالمعاني، أما معرفة الكنه والحقيقة فهذا مما لا يعلمه إلا الله ﷻ، فصار قول المؤلف في معرفة الله لا بد فيه من هذا التسديد، قوله: (أول واجب على العبيد): أول واجب على الإنسان أن يعرف الله، وقالوا: المراد أول واجب لذاته، وأما أول واجب لغيره فهو النظر والتدبر الموصل إلى معرفة الله، فالعلماء قالوا: أول ما يجب على الإنسان أن ينظر فإذا نظر وصل إلى غاية وهي المعرفة فيكون النظر أول واجب لغيره، والمعرفة أول واجب لذاته، وقال بعض أهل العلم: إن النظر لا يجب لا لغيره ولا لذاته، لأن معرفة الله ﷻ معلومة بالفطرة، والإنسان مجبول عليها ولا يجهل الله ﷻ إلا من اجتالته الشياطين ولو رجع الإنسان إلى فطرته لعرف الله دون أن ينظر أو يفكر، قالوا: ودليل ذلك قوله ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة)[1] وقوله سبحانه في الحديث القدسي: (إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين)[2] فصار الصارف عن مقتضى الفطرة حادث وارد على فطرة سليمة، فأول ما يولد الإنسان يولد على الفطرة ولو ترك ونفسه في أرض برية ما عبد غير الله، ولو عاش في بيئة مسلمة ما عبد غير الله، وحينئذ تكون

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

عبادته لله، إذا عاش في بيئة مسلمة يكون المقوم لها شيئين: وهما الفطرة والبيئة، لكن إذا عاش في بيئة كافرة فإنه حينئذ يحدث عليه هذا المانع لفطرته من الاستقامة، لقوله ﷺ: (فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)(١)، إذن معرفة الله ﷻ لا تحتاج إلى نظر في الأصل، ولهذا عوام المسلمين الآن هل هم فكروا ونظروا في الآيات الكونية والآيات الشرعية حتى عرفوا الله أم عرفوه بمقتضى الفطرة؟ ولا شك أن للبيئة تأثيرا، ما نظروا بل إن بعض الناس - والعياذ بالله - إذا نظر وأمعن ودقق وتعمق وتنطع ربما يهلك، كما قال ﷺ: (هلك المتنطعون هلك المتنطعون هلك المتنطعون)(٢)،فالصحيح: إذن ما قاله المؤلف أن: أول واجب: معرفة الله، أما النظر: فلا نقول: إنه واجب، نعم لو فرض أن الإنسان احتاج إلى النظر فحينئذ يجب عليه النظر لو كان إيمانه فيه شيء من الضعف يحتاج إلى التقوية فحينئذ لا بد أن ينظر، ولهذا قال تعالى: {أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون} [الأعراف: ١٨٥] وقال: أفلم يدبروا القول} [المؤمنون: ٦٨] وقال تعالى: {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته [ص: ٢٩] فإذا وجد الإنسان في إيمانه ضعفا حينئذ يجب أن ينظر، لكن لا ينظر هذا الناظر من زاوية الجدل والمعارضات والإيرادات، لأنه إن نظر من هذه الزاوية يكون مآله الضياع والهلاك يورد عليه الشيطان من الإيرادات ما يجعله يقف حيران، ولكن ينظر من زاوية الوصول إلى الحقيقة، فمثلا: نظر إلى الشمس هذا المخلوق الكبير الوهاج لا يقول من الذي خلقه؟ خلقه الله ﷻ، فيقول: من الذي خلق الله؟ لا، يقول خلقه الله ويسكت، لأن الرسول عليه

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الصلاة والسلام أمرنا أن ننتهي إذا قال لنا الشيطان من خلق الله؟ لنقطع التسلسل، الحاصل: أن النظر لا يحتاج إليه الإنسان إلا للضرورة كالدواء لضعف الإيمان وإلا فمعرفة الله مركوزة بالفطر، وقول المؤلف: (معرفة الإله بالتسديد): أي بالصواب، لكن ما هو الطريق إلى معرفة الله ﷻ؟ الطريق: قلنا بالفطرة قبل كل شيء، فالإنسان مفطور على معرفة ربه تعالى وأن له خالق، وإن كان لا يهتدي إلى معرفة صفات الخالق على التفصيل ولكن يعرف أن له خالقا كامل من كل وجه، ومن الطرق التي توصل إلى معرفة الله: العقل، الأمور العقلية فإن العقل يهتدي إلى معرفة الله بالنظر إلى ذاته - هذا إذا كان القلب سليما من الشبهات - فينظر إلى ما بالناس من نعمة فيستدل به على وجود المنعم، لأنه لولا وجود المنعم ما وجدت النعم وعلى رحمته فلولاه ما وجدت ينظر إلى إمهال الله ﷻ للعاصين فيستدل به على حلم الله ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة [فاطر: ٤٥] لأن أكثر الناس على الكفر، فلو أراد الله أن يؤاخذه - أن يؤاخذهم على أعمالهم - ما ترك على ظهرها من دابة، ننظر في السماوات والأرض فنستدل به على عظم الله فإن عظم المخلوق يدل على عظم الخالق،، وهكذا، نعرف الله تعالى بإجابة الدعاء، فنعرف بهذا وجود الله وقدرته ورحمته وصدقه ﷻ، ادعوني أستجب لكم [غافر: ٦٠] أخذ الله للكافرين بالنكبات والهزائم تدل على أن الله شديد العقاب، وأنه من المجرمين منتقم، ونصر الله لأوليائه تدل على أن الله ينصر من شاء.

(باب تعطيل التوحيد)

أ- التعطيل لغة مأخوذ من مادة (عطل)

قال ابن فارس: (عطل) العين والطاء واللام أصل صحيح واحد يدل على خلوٍّ وفراغ. تقول عطّلت الدارُ، ودار معطلة. ومتى تركت الإبل بلا راع فقد

عطِّلت. وكذلك البئر إذا لم تُورَدْ ولم يُستق منها. قال الله تبارك وتعالى: {وَبِئْر مُعَطَّلَة} . وقال تعالى: {وَإِذَاْ العِشَارُ عُطِّلَتْ} . وكل شيء خلا من حافظ فقد عطل. من ذلك تعطيل الثغور وما أشبهها. ومن هذا الباب العَطَل وهو العُطُول، يقال امرأة عاطل، إذا كانت لا حلي لها، والجمع عواطل. وقوس عُطُلٌ: لا وتر عليها. وخيل أعطال: لا قلائد لها[1].

وقال الخليل بن أحمد: (امرأة عاطل بغير هاء: لا حليّ عليها وقوس عُطُل: لا وتر عليها. والأعطال من الخيل التي لا أرسان عليها. وإذا ترك الثغر بلا حام يحميه فقد عطل. والمواشي إذا أهملت بلا راع فقد عطلت، وكذلك الرعية إذا لم يكن لها والٍ يسوسها فهم معطلون، وقد عطلوا: أي أهملوا. وبئر معطلة لا يستقى منها ولا ينتفع بمائها. وتعطيل الحدود ألا تقام على من وجبت عليه، وعطلت الغلات والمزارع إذا لم تعمر ولم تحرث. وسمعت العرب تقول فلان ذو عطلة إذا لم تكن له صنعة يمارسها. ودلو عَطِلَة إذا تَقَطع وذَمُها فتعطلت من الاستقاء بها)[2].

وقال ابن سيده: (التعطيل: التَّفريغ، وعطّل الدار: أخلاها. وكل ما ترك ضياعًا مُعَطَّلٌ ومُعْطَل)[3].

فمن خلال هذه النقول عن بعض كبار أئمة اللغة يتضح لك أن مدار كلمة التعطيل في اللغة على الخلو والفراغ والترك. وهذا ما فسر به بعض السلف قوله تعالى: {وَبِئْر مُعَطَّلَة} .

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٤/ ٣٥١.

(٢) تهذيب اللغة ٢/ ١٦٥.

(٣) المحكم ١/ ٣٣٨، ٣٣٩.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: "التي تركت"[١]

وقال قتادة: "أعطلها أهلها، وتركوها"[٢].

وكذا قوله تعالى: {وإذا العشار عطلت} قال أبي بن كعب: "إذا أهملها أهلها[٣]. وقال مجاهد: "سيبت وتركت".[٤]

وهذه المعاني اللغوية للتعطيل هي المستعملة في الاصطلاح كما سيأتي.

ب- التعطيل إصطلاحًا:

يختلف تعريف التعطيل باختلاف صوره فهناك:

١- التعطيل المحض أو الكلي: وهو إنكار الخالق وإنكار كلامه ودينه، وإنكار عبادته وشرائعه.

قال ابن القيم: (وأهل التعطيل المحض عطلوا الشرائع وعطلوا المصنوع عن الصانع وعطلوا الصانع عن صفات كماله، وعطلوا العالم عن الحق الذي خلق له وبه، فعطلوه عن مبدئه ومعاده وعن فاعله وغايته)[٥].

وأهل هذا التعطيل هم الملاحدة الدهرية الطبائعية الذين ينكرون ما سوى هذا الوجود الذي يشاهده الناس ويحسونه، وهو وجود الأفلاك وما فيها[٦] وقالوا: "إن العالم دائم لم يزل ولا يزال، ولا يتغير ولا يضمحل، وإن الأشياء ليس لها أول البتة[٧].

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ١٨٠.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ١٨٠.

(٣) تفسير الطبري ٣٠/ ٦٦.

(٤) تفسير الطبري ٣٠/ ٦٦.

(٥) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٦٨.

(٦) درء تعارض العقل والنقل ٥/ ١٦٨.

(٧) إغاثة اللهفان ٢/ ٢٥٦.

٢- أما تعطيل الأسماء والصفات: فهو نفي الصفات الإلهية عن الله وإنكار قيامها بذاته أو إنكار بعضها[١].

أو: نفي الأسماء والصفات أو بعضها.

فتوحيد الأسماء والصفات له ضدان هما:

١- التعطيل. **٢**- التمثيل.

فمن نفى صفات الرب ﷻ وعطلها، فقد كذب تعطيله توحيده. ومن شبهه بخلقه ومثله بهم، فقد كذب تشبيهه وتمثيله توحيده.[٢].

والتعطيل في هذا الباب على قسمين:

القسم الأول: التعطيل المحض التام أو الكلي، وهو الذي عليه الجهمية والفلاسفة من إنكار جميع الأسماء والصفات.

والقسم الثاني: التعطيل الجزئي وهو نوعان:

النوع الأول: إثبات الأسماء ونفي الصفات وهو الذي عليه المعتزلة ومن وافقهم.

النوع الثاني: نفي بعض الصفات دون بعض وهو الذي عليه الكلابية والأشاعرة والماتريدية.

والتعطيل هنا في هذا الباب يدخل فيه تعطيل الباري سبحانه وتعالى عن أسمائه وصفاته.

ويدخل فيه أيضًا تعطيل نصوص الأسماء والصفات الذي هو إنكار حقائقها وما دلت عليه وما تضمنته من المعاني.

٣- تعطيل النبوات: وهو إنكار النبوات، كما هو حال البراهمة القائلين

---

(١) الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ص٨٧.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية ص٣٦.

بحدوث العالم المثبتين للصانع ولكنهم ينكرون النبوات أصلًا. فالخلاف مع الخارجين عن الملة على ثلاثة أضرب:

١- الخلاف مع المنكرين للصانع والقائلين بقدم العالم.

٢- وخلاف مع القائلين بحدوث العالم المثبتين للصانع المنكرين للنبوات أصلًا كالبراهمة.

٣- خلاف مع القائلين ببعض النبوات المنكرين لنبوة محمد ﷺ[1].

قال ابن حزم: (ذهبت البراهمة وهم قبيلة بالهند فيهم أشراف الهند وهم يقولون بالتوحيد على نحو قولنا إلا أنهم أنكروا النبوات)[2].

مسألة: أنواع التعطيل في توحيد الله

ينقسم التعطيل في باب التوحيد إلى ثلاثة أقسام هي:

١- التعطيل في توحيد الربوبية

٢- التعطيل في توحيد الألوهية

٣- التعطيل في توحيد الأسماء والصفات.

فالتوحيد كما هو معلوم ضده الشرك، والشرك والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك، لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك مقرًا بالخالق سبحانه وصفاته ولكنه عطل حق التوحيد، وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل[3].

أما القسم الأول: فهو تعطيل توحيد الربوبية

والمقصود به إنكار وجود الخالق سبحانه وتعالى ومن صور هذا القسم

---

(١) نقض تأسيس الجهمية ١/ ١٤٠.

(٢) الفصل ١/ ٦٩.

(٣) الجواب الكافي ص١٥٣.

وأمثلته:

١- شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته، وإنه لم يكن معدومًا أصلًا، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها يسمونها بالعقول والنفوس[١].

٢- شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ومخلوق، ولا هاهنا شيئان، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه[٢].

٣- شرك فرعون إذ قال: {وَمَا رَبُّ العَالَمِين} وقال تعالى مخبرًا عنه أنه قال لهامان {وقَالَ فِرْعَون يَا هَامَان ابن لِي صرْحًا لَعَلي أبلُغ الأَسْبَابَ أسبابَ السَّمَاوَاتِ فأطَّلعَ إلَى إلهِ مُوسَى وَإني لأَظنُّهُ كَاذبًا}.

القسم الثاني: التعطيل في توحيد الألوهية.

قال ابن القيم في تعريفه هو: تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد[٣].

(ومن صوره ما يفعله بعض غلاة المتصوفة من إسقاط العبادات عنهم وعن أتباعهم، وزعمهم أن الكمال في فناء العبد عن حظوظه - أي الفناء في توحيد الربوبية- حيث يعلنون أن العارف الذي يشهد هذا المقام "لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة" ويجعلون هذا غاية العرفان)[٤].

القسم الثالث: التعطيل في توحيد الأسماء والصفات.

وهو نفي أسماء الله وصفاته أو بعضها. ومن صوره ما يعتقده غلاة الجهمية

---

(١) الجواب الكافي ص١٥٣.

(٢) الجواب الكافي ص١٥٣.

(٣) الجواب الكافي (ص١٥٣).

(٤) التصوف وابن تيمية للدكتور مصطفى حلمي ص٣٩٠.

والقرامطة الذين لم يثبتوا لله اسمًا ولا صفة، فعطلوا أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله، بل جعلوا المخلوق أكمل منه إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها[١].

(باب مباحث توحيد الربوبية)

الرب مصدر أريد به اسم الفاعل - أي أنه راب، قال الراغب الأصفهاني: (الرب مصدر مستعار للفاعل)[٢].

قال ابن الأنباري: (الرب: ينقسم إلى ثلاثة أقسام: يكون الرب: المالك، ويكون الرب: السيد المطاع...، والرب: المصلح..). فهذه ثلاثة أصول ترجع إليها معاني كلمة الرب.

فالأصل الأول: بمعنى المالك والصاحب، ومن هذا المعنى قول الرسول ﷺ في ضالة الإبل (فذرها حتى يلقاها ربها)[٣].

والأصل الثاني: بمعنى السيد المطاع، قل الطبري: (وأما تأويل قوله: (رب) فإن الرب في كلام العرب متصرف على معان: فالسيد المطاع فيها يدعى ربا، ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة العامر:

وأهلكن يوما رب كندة وابنه   ورب معد بين خبت وعرعر

يعني رب كندة: سيد كندة[٤] اهـ.

ومن هذا المعنى قول الرسول ﷺ في حديث أشراط الساعة: (أن تلد الأمة ربها) أي سيدها - وهذا لفظ البخاري.

---

(١) الجواب لكافي ص١٥٣.

(٢) المفردات للراغب (ص: ٣٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٩١) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

(٤) تفسير الطبري (١/ ١٤١).

وأما الأصل الثالث: فبمعنى المصلح للشيء المدبر له، ولذلك قال بعض أهل العلم باشتقاق كلمة الرب من التربية. قال الراغب: (الرب في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام)[١].

وقال الطبري بعد أن ذكر المعاني الثلاثة لكلمة (الرب) قال: (وقد يتصرف معنى الرب في وجوه غير ذلك، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة)[٢].

قال ابن جرير في معنى اسم (الرب) لله سبحانه وتعالى: (فربنا جل ثناؤه: السيد الذي لا شبه له، ولا مثل في سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر)[٣].

ولا تستعمل كلمة (الرب) في حق المخلوق إلا مضافة فيقال: رب الدار ورب المال.

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ: (ولا يقال للمخلوق: هذا (الرب) معرفا بالألف واللام كما يقال لله، إنما يقال رب كذا فيعرف بالإضافة لأن الله مالك كل شيء، فإذا قيل: (الرب) دلت الألف واللام على معنى العموم، وإذا قيل لمخلوق: رب كذا ورب كذا نسب إلى شيء خاص لأنه لا يملك شيئا غيره)[٤].

وعلى هذا إذا ذكر اسم الرب معرفا فلا يطلق إلا على الله تعالى، وزاد الراغب أن كلمة (رب) غير مضافة ولا معرفة لا تطلق إلا على الله فقال[٥]: (ولا يقال الرب مطلقا إلا الله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات نحو قوله تعالى: له بلدة طيبة ورب غفور.) اهـ، وقال ابن الأثير أيضا: (ولا يطلق غير مضاف إلا

---

(١) المفردات (ص: ٣٣٦).
(٢) تفسير الطبري (١/ ١٤٢).
(٣) تفسير الطبري (١/ ١٤٢)، وانظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٩).
(٤) تفسير غريب القرآن (ص: ٩).
(٥) المفردات (ص: ٣٣٦).

على الله تعالى)[١].

وأما كلمة (رب) بالإضافة فتقال لله ولغيره بحسب الإضافة فمن الأول قوله تعالى: الحمد لله رب العالمين، ومن الثاني اذكرني عند ربك [يوسف: ٤٢] في قول يوسف عليه السلام لأحد صاحبيه في السجن[٢].

ومصدر رب يرب الربوبية والربابة، إلا أن الربابة لا تقال في الله، وإنما في غيره، قال الراغب: (والربوبية مصدر يقال في الله عز وجل، والربابة تقال في غيره)[٣].

أما تعريف توحيد الربوبية اصطلاحا: فهو الإقرار الجازم بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه، وخالقه، ومدبره، والمتصرف فيه، لم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، ولا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، ولا مضاد له (ولا مماثل له)، (ولا سمي له)، ولا منازع في شيء من معاني ربوبيته ومقتضيات أسمائه وصفاته[٤].

ومنهم من عرفه بأنه: الاعتقاد بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لكل شيء وحده لا شريك له[٥].

وهو يشتمل على ما يلي:

١ - الإيمان بوجود الله تعالى.

٢ - الإقرار بأن الله تعالى خالق كل شيء، ومالكه، ورازقه، وأنه المحيي، المميت، النافع، الضار، المتفرد بإجابة الدعاء، الذي له الأمر كله، وبيده الخير

---

(١) النهاية في غريب الحديث (٢/ ١٧٩).

(٢) المفردات للراغب (ص: ٣٣٦) والنهاية في غريب الحديث (٢/ ١٧٩).

(٣) المفردات للراغب (ص: ٣٣٦).

(٤) أعلام السنة المنشورة، لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، لحافظ بن أحمد الحكمي (ص٣٠).

(٥) مجموعة التوحيد (١/ ٥).

كله، القادر على ما يشاء، المقدر لجميع الأمور، المتصرف فيها، المدبر لها، ليس له في ذلك كله شريك[١].

وقد تكاثرت الأدلة في القرآن والسنة في إثبات الربوبية لله تعالى، فكل نص ورد فيه اسم (الرب) أو ذكر فيه خصيصة من خصائص الربوبية، كالخلق، والرزق، والملك، والتقدير، والتدبير، وغيرها فهو من أدلة الربوبية، كقوله تعالى: الحمد لله رب العالمين} [الفاتحة: ٢]، وكقوله سبحانه: ألا له الخلق والأمر} [الأعراف: ٥٤]، وكقوله جل وعلا: قل من بيده ملكوت كل شيء} [المؤمنون: ٨٨][٢]، والملكوت: الملك.

وقد أمر الله العباد بالنظر والتفكر في آيات الله الظاهرة من المخلوقات العلوية والسفلية، ليستدلوا بها على ربوبيته سبحانه وتعالى.

فالرب هو المالك كما قال تعالى: {هو الله الذي لا إله إلا هو الملك} [الحشر: ٢٣] ويقول: ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما} [المائدة: ١٧]، وقال: فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون [يس: ٨٣].

والرب هو الخالق البارئ المصور كما قال عن نفسه: هو الله الخالق البارئ المصور} [الحشر: ٢٤]، فلا خالق سواه، وهو الذي برأ الخلق فأوجدهم بقدرته المصور خلقه كيف شاء وكيف يشاء[٣].

والرب هو المبدئ والمعيد كما قال: وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده} [الروم: ٢٧]، فهو الذي ابتدأ الأشياء كلها فأوجدها، إذ هو الأول الذي ليس

---

(١) شرح الطحاوية (ص: ٢٥)، مدارج السالكين باب التوحيد (١/ ٣٣-٤٦، ٣/ ٤٦٨)، تيسير العزيز الحميد (ص: ١٧)، القول السديد (ص: ١٨)، معارج القبول (١/ ٩٩).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٦٨ - ٤٦٩)، شرح الطحاوية (ص: ٤٢ - ٤٣)، المدخل لدراسة العقيدة (ص: ١٠٢).

(٣) تفسير الطبري (٢٣/ ٣٠٥).

قبله شيء، ثم هو يعيدها سبحانه.

والرب هو المحيي والمميت، الذي أحيا بأن خلق فيهم الحياة، والذي خلق الموت كما خلق الحياة. كما قال تعالى: {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا} [الملك: ٢] ويقول: لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين} [الدخان: ٨].

والرب هو النافع الضار، قال تعالى: {وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا [يونس: ٢١] وقال: قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا} [الفتح: ١١].

والرب هو المعطي المانع كما قال تعالى: {ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده [فاطر: ٢]، وقال الرسول ﷺ في دعائه بعد الفراغ من الصلاة: (اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت)[1].

والرب هو المدبر لأمر هذا الكون كما قال: ثم استوى على العرش يدبر الأمر [يونس: ٣٦]. وقال: ومن يدبر الأمر فسيقولون الله [يونس: ٣١]، وقال يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون} [الرعد: ٢].

والرب هو الخالق الرازق القوي القدير كما قال تعالى: {قل الله خالق كل شيء} [الرعد: ١٦]، وقال هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض [فاطر: ٩] وقال: إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} [الذاريات: ٥٨]، وقال: إن الله على كل شيء قدير} [البقرة: ٢٠][2].

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) تسهيل العقيدة الإسلامية (ص ٤١)، ومنهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى (١/ ٢٢٧).

فإذا أقر العبد بانفراد الرب تبارك وتعالى بالخالق والحكم، وشهد بذلك، فإن ذلك يقوده إلى تحقيق توحيد الإلهية، فإن الأمرين متلازمان، فمن أقر لله بالربوبية لزمه أن يقر له بالإلهية: (فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية، ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية، كما يدعو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر، ويحتج عليهم به، ويقررهم به، ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية)[1].

وبيان ذلك أن من أثبت لله خصائص الربوبية.... من الخلق، والإحياء، والإماتة، والنفع، والضر، والإسعاد، والإشقاء - استسلم لله تعالى في كل شيء، فيعلم أن ما أصابه فمن الله ولم يكن ليخطئه، وأنه إذا دخل الجنة فبتوفيق الله وفضله، وإذا دخل النار فبحكمته وعدله، وكل ذلك قدره الله تعالى، فإذا علم ذلك، لجأ إلى خالقه ليستعين به في جلب المنافع ودفع المضار، وليستهديه الصراط المستقيم، فيورث ذلك محبة عظيمة في قلب العبد لربه تعالى، فيقدم محاب ربه على كل شيء، ويورثه ذلك الخوف من الله وتعظيمه وتوقيره: (فهذه علامة توحيد الإلهية في هذا القلب، والباب الذي دخل إليه منه: توحيد الربوبية، أي: باب توحيد الإلهية: هو توحيد الربوبية)[2].

وبهذا التقديم تظهر أهمية الإقرار بالربوبية لله تعالى، وهذه المعرفة فطرية في قلوب بني آدم..... إلا أن أكثر الناس الذين وقعوا في الشرك إنما وقعوا فيه لإتيانهم بما يناقض توحيد الإلهية، لذلك جاءتهم الرسل بالدعوة إلى هذا النوع من التوحيد - أعني توحيد الإلهية - وإذا أقر الإنسان لله بالربوبية ولم يوحده في عبوديته ما نفعه إقراره هذا - لذلك يقول الله جل وعلا: {وما يؤمن أكثرهم بالله

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤١٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤١٣).

إلا وهم مشركون} [يوسف: ١٠٦]، قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: (إيمانهم قولهم: الله خالقنا، ويرزقنا، ويميتنا، فهذا إيمان، مع شرك عبادتهم غيره).

(باب الإقرار بتوحيد بالربوبية وحده لا يكفي)

توحيد الربوبية حق، وأمره عظيم، ولا يصح إيمان العبد إذا لم يؤمن به، ولكن هذا النوع من أنواع التوحيد ليس هو الغايةَ التي جاءت بها الرسل، وأنزلت من أجلها الكتب، وليس الغايةَ التي من جاء بها فقد جاء بالتوحيد وكماله؛ ذلك أن الله أمر بعبادته التي هي كمال النفوس وصلاحها وغايتها، ولم يقتصد على مجرد الإقرار به كما هو غاية الطريقة الكلامية.

أضف إلى ذلك أن المشركين كانوا مقرين به كما مر، ومع ذلك لم يدخلهم في الإسلام؛ لأن الإقرار بتوحيد الربوبية لا يكفي وحده، بل لا بد من توحيد الألوهية.

ثم إن توحيد الربوبية مركوز في الفطر كلها، فلو كان هو الغاية لما كان هناك حاجة من إرسال الرسل وإنزال الكتب.

قال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في فتح المجيد (ص١١): إن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وكانوا مع هذا مشركين قال تعالى: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون [يوسف: ١٠٦] قالت طائفة من السلف: تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله وهم مع هذا يعبدون غيره قال تعالى: {قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون} [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩] فليس

كل من أقر بأن الله تعالى رب كل شيء وخالقه يكون عابدا له دون ما سواه داعيا له دون ما سواه راجيا له خائفا منه دون ما سواه يوالي فيه ويعادي فيه ويطيع رسله ويأمر بما أمر به وينهى عما نهى عنه وعامة المشركين أقروا بأن الله خالق كل شيء وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به وجعلوا له أندادا قال تعالى: {أم اتخذوا من دون الله شفعآء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون} [الزمر: ٤٣ - ٤٤] وقال تعالى: {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون [يونس: ١٨] وقال تعالى: {ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون} [الأنعام: ٩٤] وقال تعالى: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا} [البقرة: ١٦٥] ولهذا كان أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها ويصوم وينسك لها ويتقرب إليها ثم يقول: إن هذا ليس بشرك إنما الشرك إذا اعتقدت أنها المدبرة لي فإذا جعلتها سببا وواسطة لم أكن مشركا ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك.اهـ.

فإذا أقر العبد لله تعالى بالربوبية، فإن إقراره هذا يقتضي أمورا لابد منها، فإن لم يلتزم هذه المقتضيات ما نفعه إقراره بالربوبية لله، فهذه المقتضيات هي:

الأول منها: (ألا يعتقد العبد نفعا ولا ضرا ولا حركة ولا سكونا ولا بسطا ولا خفضا ولا رفعا ولا إعطاء ولا منعا ولا إحياء ولا إماتة ولا تدبيرا ولا تصريفا إلا والله سبحانه وتعالى هو فاعله وخالقه لا يشركه في ذلك ولا يملك واحد منه شيئا) وقد دخل في هذا: الإيمان بالقضاء والقدر...

الثاني: إثبات رب مباين للعالم، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن الربوبية المحضه

تقتضي مباينة الرب للعالم بالذات كما باينهم بالربوبية وبالصفات والأفعال، فمن لم يثبت ربا مباينا للعالم فما أثبت ربا)[١] وهذا قاله عند تفسير قول الله تعالى: الحمد لله رب العالمين، والعالم هو كل ما سوى الله تعالى.

الثالث: أن يتوصل العبد بالإقرار بالربوبية إلى الإقرار بالألوهية فيجردها لله تعالى فلا يصرف أي نوع من أنواع العبادات لغير الله تبارك وتعالى.اهـ.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في موسوعته العقدية (٢/ ٧٠): عمن يُعَرِّفُ «لا إله إلا الله» بـ «لا رب إلا الله» هل هذا التعريف ينفعه.

فأجاب: كلا لا ينفعهم؛ لأن هذه العقيدة ليست كافية؛ لأن الكفار الذين عادوا الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقاتلوه، واضطروه للخروج من بلده والهجرة إلى المدينة المنورة كانوا يعتقدون هذه العقيدة، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} (لقمان: ٢٥). فآيات كثيرة في القرآن الكريم تبين أن المشركين كانوا أولًا يؤمنون بوجود الله وثانيًا لا يجعلون شريكًا لله في ذاته، فلا يعتقدون أن هناك خالقًا معه، نافعًا معه، ضارًا معه، بل كانوا يعتقدون أن الأمر كله بيده تبارك وتعالى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الله عَزَّ وَجَلَّ لما أرسل الرسل وأنزل الكتب، لم يفعل ذلك لكي يدعو الناس إلى الاعتقاد بوجود الله وبأنه هو الضار النافع، وأنه لا شريك له في شيء من ذلك، ما بعثهم ولا أنزل الكتب من أجل هذا؛ لأن هذا أمر مفطور في الناس حتى المشركين، ولذلك صرحت الآية الكريمة أن المشركين إذا سئلوا: {أَإِلهٌ مَعَ اللهِ}، فرقوا بين الإله وبين الرب، فهم يشركون في الألوهية ولا يشركون في الربوبية، يعتقدون بأن الله هو رب العالمين وحده لا شريك له، وأنهم إذا وقعوا في مصيبة أو في بلية تضرعوا إلى الله والتجؤوا إليه؛ لما وقر في نفوسهم من أن الله هو الضار وهو النافع، فهم كانوا

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٤).

يؤمنون بما كان يسمى عند العلماء بتوحيد الربوبية، لكن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لدعوة هؤلاء الناس جميعًا إلى عبادته وحده لا شريك له، ليس إلى اعتقاد أنه واحد في ذاته، وأنه لا خالق معه، لاحظ الاعتقاد كانوا يؤمنون به بصريح القرآن الكريم، وإنما الذين كانوا يكفرون به أن هناك أشخاصًا مخلوقين ويستحقون أن يعبدوا مع الله تبارك وتعالى، وهذا صريح في القرآن، حيث قال ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ} (الأعراف: ١٩٤)، الذين تدعونهم في الشدة هم عباد أمثالكم.

{إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} (فاطر: ١٤)؛ لأنهم يعتقدون أنهم عبيد، ولذلك قال ﷻ في الآية الأخرى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} (الزمر: ٣).

هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء إذا سئلوا: لماذا تعبدونهم من دون الله، قالوا: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}.

إذًا: هم يؤمنون بأن المعبود الحق هو واحد لا شريك له في العبادة، ولكنهم من ضلالهم أنهم اتخذوا من بعض الصالحين أولياء يعبدونهم، يتوجهون إليهم بالدعاء والاستغاثة والركوع والسجود، لماذا؟

هم أجابوا بأنفسهم وألسنتهم: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}.

فإذًا: المشركون الذين كانوا في عهد الرسول عليه السلام ما كان الخلاف بينهم وبين الرسول هو في أن الخالق واحد والرازق واحد، والمحيي واحد، والمميت واحد، هذا كانوا يؤمنون به، ولكن الخلاف كان في أنهم عبدوا غير الله ﷻ، خضعوا لغير الله ﷻ، فأشركوا مع الله في العبادة، وليس في الربوبية، ولذلك وصل ضلال هؤلاء المشركين إلى أنهم كانوا إذا طافوا بالبيت وهذا الطواف ورثوه من أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم دخلهم الشرك، فكان قائلهم

يقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا تملكه أنت وما ملك.

لك شريك لكن هذا الشريك هو مملوك لك، وما معه أيضًا مملوك لك.

إذًا: فالمشركون كفروا بتوحيد الألوهية، بتوحيد العبادة وليس بتوحيد الربوبية، ولهذا في القرآن الكريم: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ} (الصافات: ٣٥)، أما الآية السابقة: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} (لقمان: ٢٥)،... قالوا: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} (ص: ٥).

الشاهد أن الآية الأولى صريحة بأن المشركين يؤمنون بربوبية الله وحده لا شريك له، الآية الثانية صريحة بأنهم ينكرون أن يكون الإله واحد، ما معنى الإله إذًا؟

الإله: هو المعبود، فلما كان الرسول يدعوهم إلى أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، كانوا ينكرون ذلك ويقولون: {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} (ص: ٥).

وفي الآية الأخرى: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ} (الصافات: ٣٥)، كيف يستكبرون وهم في الآية الأخرى ربنا يخبر عنهم: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} (لقمان: ٢٥).

معنى ذلك أن الربوبية شيء، والألوهية شيء آخر.

الرب واحد باتفاق البشر جميعًا حتى المشركين الذين قاتلوا الرسول عليه السلام وعادوه كما ذكرنا، أما الإله فمتعدد عندهم، ولذلك استنكروا على الرسول عليه السلام حينما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والعبادة أنواع وأقسام، وأعظم عبادة تتجلى فيها حاجة الإنسان وعبوديته لله عز وجل هو الدعاء، ولذلك قال عليه السلام في الحديث الصحيح: «الدعاء هو العبادة»، ثم تلا قوله تعالى: {وَقَالَ

رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} (غافر: ٦٠).

إذًا: المشركون، هذه نقطة مع الأسف كثير من الخواص المسلمين اليوم لم يتنبهوا لها، وهو التفريق بين الربوبية وبين الألوهية، فالمشركون كانوا يؤمنون بوحدانية الله في الربوبية، ولكنهم كانوا يكفرون بوحدانية الله في العبادة والألوهية، ولذلك كانوا يقولون بأن لله شريكًا لكن هذا الشريك مملوك لله وما يملكه هذا الشريك، وعلى هذا فمعنى: لا إله إلا الله، لا يجوز تفسيره بمعنى: لا رب إلا الله، هذا اعتقاد المشركين لا يكفي، وإنما لا إله إلا الله، معنى هذه الكلمة التي جاءت في القرآن مأمور بها عليه السلام والمقصودين أمته: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} (محمد: ١٩)، معنى هذا، فاعلم أنه لا معبود بحق في الوجود إلا الله.

ليس لا رب إلا الله، لا رب إلا الله، المشركون يؤمنون بهذا، يعني الخالق والرازق والمحيي والمميت، المشركون يعتقدون بأنه واحد لا شريك له، لكنهم يجعلون له شريكًا في العبادة.

من هنا لا يجوز للمسلم أولًا أن يفهم هذه الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله) بمعنى لا رب إلا الله، لأنه تعطيل لمعنى الألوهية والعبادة لله عز وجل وحده.

ثانيًا: إذا فهم المسلم هذه الكلمة الطيبة أن المعنى لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق في الوجود إلا الله، فلا يجوز له أن ينقض هذه العقيدة، عقيدة التوحيد في عبادة الله وحده لا شريك له عمليًا، كثير من المسلمين اليوم يدعون في الشدائد غير الله، كما كان المشركون يفعلون تمامًا، فهذا ينادي البدوي، وهذا ينادي، عبد القادر الجيلاني، وهذا ينادي الشاذلي،... إلى آخره.

كل هؤلاء الأشخاص يُعْبَدُون اليوم من كثير من المسلمين بسبب جهلهم

معنى هذه الكلمة لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق في الوجود إلا الله، ولهذا كان أول ما دعا إليه الرسول عليه السلام هو هذه الكلمة الطيبة، كما قال -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث الصحيح: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم عند الله».

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله» لا يعني: أن لا رب، وإنما يعني أن لا معبود بحق إلا الله، فمن اعتقد أن لا معبود بحق إلا الله آمن بأن الرب واحد لا شريك له، لكن من آمن بأن الرب واحد لا شريك له بذاته، قد يكفر بالعبودية، بعبادة الله وحده لا شريك له، لأنه من عبادة الله الدعاء، فإذا دعا غير الله فقد اتخذه إلهًا من دون الله تبارك وتعالى.

(باب أدلة أثبات الربوبية)

الدليل الأول: دلالة الفطرة.

الفطرة في اللغة: فعلها ثلاثي وهو فطر، والحالة منه: الفطرة كالجلسة، وهي بمعنى الخلقة.

قال ابن فارس عن أصل هذه الكلمة (... أصل صحيح يدل على فتح شيء وإبرازه، ومنه الفطرة: وهي الخلقة)[1].

وأتى بالفتح قبل الإبراز لأنه سبب من أسبابه.

وفي اللسان: والفطرة تعني: الابتداء والاختراع[2].

والأمر ظاهر في أنه لا خلاف بين هذه المعاني الثلاثة، الخلقة، والابتداء،

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٥١٠) - مادة (فطر).

(٢) لسان العرب (٥/ ٥٨)، مادة (فطر)، والأصل أنه لابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤٥٧).

والاختراع.

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تعريفها: (هي الخلقة التي خلق الله عباده عليها وجعلهم مفطورين عليها وعلى محبة الخير وإيثاره وكراهية الشر ودفعه، وفطرهم حنفاء مستعدين لقبول الخير والإخلاص لله والتقرب إليه)(١).

ودليل الفطرة راسخ في نفوس البشر إلا ما غير منها، والدليل إذا كان راسخا في النفس يكونه قويا لا يحتاج الشخص معه إلى استدلال، ولهذا فهو أصل لكل الأدلة الأخرى الدالة على الإقرار بوجود الرب سبحانه، فهي مؤيدة له ومثبتة للإقرار. ولتقرير أصل هذا الدليل إليك بعض الأدلة الدالة على ذلك:

١ - لجوء الإنسان وفزعه إلى خالقه سبحانه، سواء كان هذا الإنسان موحدا أو مشركا عند الشدة والحاجة.

فإن بني آدم جميعا يشعرون بحاجتهم وفقرهم، وهذا الشعور أمر ضروري فطري، إذ الفقر وصف ذاتي لهم، فإذا ألمت بالإنسان - حتى المشرك - مصيبة قد تؤدي به إلى الهلاك فزع إلى خالقه سبحانه والتجأ إليه وحده واستغنى به ولم يستغن عنه، وشعور هذا الإنسان بحاجته وفقره إلى ربه تابع لشعوره بوجوده وإقراره، فإنه لا يتصور أن يشعر الإنسان بحاجته وفقره إلى خالقه إلا إذا شعر بوجوده، وإذا كان شعوره بحاجته وفقره إلى ربه أمرا ضروريا لا يمكنه دفعه، فشعوره بالإقرار به أولى أن يكون ضروريا(٢).

قال الله تعالى: وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قآئما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون [يونس: ١٢].

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص: ٦٤).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٥٣٢ - ٥٣٣).

وقال تعالى: {وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا} [الإسراء: ٦٧].

وقال تعالى: {وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار} [الزمر: ٨].

فرجوع الإنسان وإنابته إلى ربه عند الشدائد دليل على أنه يقر بفطرته بخالقه وربه سبحانه، وهكذا كل إنسان إذا رجع إلى نفسه أدنى رجوع عرف افتقاره إلى الباري سبحانه في تكوينه في رحم أمه وحفظه له، وعرف كذلك افتقاره إليه في بقائه وتقلبه في أحواله كلها، وتبقى هذه المعرفة في نفسه قوية لأن الحاجة استلزمتها، فتكون أوضح من الأدلة الكلية مثل افتقار كل حادث إلى محدث[1].

٢- ورود التكليف بتوحيد العبادة أولا:

لقد تقدم ذكر الأدلة الدالة على أن أول ما يكلف به المكلف: عبادة الله جل وعلا ومما يؤكد تلك الحقيقة هو أن الله تعالى نص على محل النزاع بين الرسل وأقوامهم بقوله: وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا} [الإسراء: ٤٦]. أي أنهم يولون مدبرين عند طلب عبادة الله وحده دون غيره، ويوضحه كذلك قوله: ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير [غافر: ١٢].

ولذلك بعث الله رسله بالتوحيد وترك الشرك فقال: وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: ٢٥].

وعلى هذا يكون تقرير هذه الحجة بأمرين:

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٤٨ - ٤٩). ودرء تعارض العقل والنقل (٣/ ١٢٦). ودلائل التوحيد للقاسمي (ص: ١٩١ - ١٩٢).

الأول: لو لم يكن الإقرار بالله تعالى وبربوبيته فطريا لدعاهم إليه أولا - إذ الأمر بتوحيده في عبادته فرع الإقرار به وبربوبيته فيكون بعده[١].

الثاني: لو لم يكن الإقرار بالله تعالى وبربوبيته فطريا لساغ لمعارضي الرسل عند دعوتهم لهم بقول الله تعالى: فاعبدون أن يقولوا: نحن لم نعرفه أصلا فكيف يأمرنا، فلما لم يحدث ذلك دل على أن المعرفة كانت مستقرة في فطرهم[٢].

ويؤيده الدليل الثالث الذي سيأتي ذكره إن شاء الله. ولم يعرف من ينكر وجوده من أقوام الرسل إلا ما كان من فرعون، ومع هذا فإنكاره كان تظاهرا ولم يكن باطنا كما قال تعالى: {قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصآئر} [الإسراء: ١٠٢] وقال: وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا} [النمل: ١٤].

٣- إلزام المشركين بتوحيد الربوبية ليقروا بتوحيد الألوهية[٣]:

..... ووجه الدلالة: إن المشركين لو لم يكونوا مقرين بربوبية الله تعالى لما قررهم به، ولهذا كانت تقول الرسل لقومها: أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى [إبراهيم: ١٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فدل ذلك على أنه ليس في الله شك عند الخلق المخاطبين، وهذا يبين أنهم مفطورون على الإقرار)[٤].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ١٣٠ - ٨/ ٤٩١).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٤٠).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٧٩).

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٤١).

٤- التصريح بأن الفطرة مقتضية للإقرار بالرب وتوحيده وحبه في الأدلة السمعية:

قال رسول الله ﷺ (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه)[١] والصوب أن الفطرة هنا هي فطرة الإسلام، وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة والقبول للعقائد الصحيحة، وليس المراد أن الإنسان حين يخرج من بطن أمه يعلم هذا الدين موحدا لله فإن الله تعالى يقول: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا} [النحل: ٧٨] وإنما المراد أن فطرته مقتضية وموجبة لدين الإسلام ولمعرفة الخالق والإقرار به ومحبته. ومقتضيات هذه الفطرة وموجباتها تحصل شيئا بعد شيء وذلك بحسب كمال الفطرة وسلامتها من الموانع[٢].

والأدلة القاضية بصحة هذا التفسير كثيرة منها:

أولا: ورود روايات لهذا الحديث تفسر الفطرة منها قوله ﷺ: (على هذه الملة)[٣].

ثانيا: إن الصحابة فهموا من الحديث أن المراد بالفطرة: الإسلام، ولذلك سألوا الرسول ﷺ عقب ذلك عن أطفال المشركين لوجود ما يغير تلك الفطرة السليمة وإلا لما سألوا عنهم وأيضا فإن أبا هريرة رضي الله عنه تلا قوله تعالى: فطرة الله التي فطر الناس عليها} [الروم: ٣٠] عقب هذا الحديث. مما يدل أنه فهم أن المراد من الفطرة: الإسلام.

ثالثا: إن هذا الحديث يؤيده ظاهر القرآن، وهو قوله تعالى: فأقم وجهك

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٣٨٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها} [الروم: ٣٠] فقد عم الله كل الناس بهذه الفطرة في قوله الناس وأضافها إليه إضافة مدح لا إضافة ذم لأنها منصوبة على المصدرية التي دل عليها الفعل أقم فيكون المعنى: إن إقامة الوجه للدين حنيفا هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها[1]. وتفسير الآية بهذا المعنى منقول عن عامة السلف[2].

رابعا: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه (خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين...)[3] والحنيفية: الإسلام.

خامسا: لم يذكر النبي ﷺ لموجب الفطرة ومقتضاها شرطا، بل ذكر ما يمنع موجبها حيث قال: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه)[4] ومع ذلك لم يذكر عند تغيرها بمؤثر خارجي: أو يسلمانه، مما يدل على أن المراد بالفطرة معرفة الله والإقرار به، بمعنى أن ذلك هو مقتضى فطرتهم، وأن حصولها لا يتوقف على وجود شرط وإنما على انتفاء الموانع[5].

٥- برهان عقلي:

وهو أنه إذا فرض جدلا أن معرفة الله تعالى نظرية وطلب إقامة الأدلة على الإقرار به وبربوبيته، فإنه لابد من وجود علوم ضرورية فطرية أولية تنتهي إليها العلوم النظرية، ولا يمكن إثباتها بعلوم نظرية كذلك لما يلزم من الدور القبلي

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٣٧٢).

(٢) تفسير الطبري (٢٠/ ٩٧).

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥) بلفظ: وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم. من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٥٤).

والتسلسل في المؤثرات. وهذه العلوم الضرورية شرط وجودها صحة الفطرة وسلامتها، فبالفطرة السليمة مع حسن النظر يحصل المطلوب من العلم[(١)].

ويوضح هذا أن الذي يستدل لإثبات الرب سبحانه لابد أن ينقدح في نفسه أن الدليل الذي يستدل به هو بعينه يؤدي إلى مطلوبه الذي شعر به أولا، فهاهنا أمران: الشعور بمطلوبه، والدليل المؤدي إليه[(٢)]، وبهذا يتضح أنه لولا ما في القلوب من الاستعداد لمعرفة الحقائق لما قام نظر ولا استدلال[(٣)]، والحقيقة المطلوبة هنا: معرفة وجود الله. ويوضحه كذلك: أن مجرد التعليم والتحضيض لا يحصل به العلم والإرادة لولا وجود قوة في النفس قابلة لذلك التعليم وتلك الإرادة، فإن البهائم والجمادات لو علمت وحضضت بوسائل تعليمية كالتي لبني آدم لما حصل لها ما يحصل لبني آدم مع أن الوسائل متفقة، مما يدل على أن القوابل مختلفة، والقابل هو مقتضى الفطرة.

اعتراضات على دليل الفطرة:

الاعتراض الأول: لو كانت المعرفة فطرية فكيف أثر عن بعض الخلق إنكار وجود الله تعالى؟

والجواب: أولا: إن الإقرار بالخالق يكون فطريا في حق من سلمت فطرته، كما هو نص الحديث السابق.

ثانيا: إن من أثر عنه إنكار الخالق في البشر قليلون جدا مقارنة مع من يثبت وجوده، وهم على قسمين:

قسم ينكره ظاهرا فقط كما تقدم في شأن فرعون.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٠٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٤٨).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٦٢).

قسم آخر هو في الحقيقة معترف في قرارة نفسه بوجود مدبر وصانع، ويحيل ذلك إلى الطبيعة أو غيرها!. مما يدل على وجود علوم أولية فطرية، وإنما حصل ما حصل بسبب المؤثر الخارجي.

الاعتراض الثاني(١): لو كانت معرفته فطرية ضرورية فكيف ينكر ذلك كثير من النظار ويدعون أنهم يقيمون الأدلة على وجوده؟

والجواب: أولا: إن من أنكر هذه المعرفة الفطرية الضرورية هم أهل الكلام المذموم الذين ذمهم السلف، ولم يؤثر هذا الإنكار عن علماء المسلمين، بل إنهم نصوا على خلاف هذا كما صح عن الإمام الزهري(٢)، فهؤلاء المتكلمون تأثروا بمؤثر خارجي.

ثانيا: إن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والإرادات وغيرها من الصفات ما لا يعلم أنه قائم بنفسه. فهاهنا أمور وهي: علم الإنسان بعلم ما، وعلمه بأنه يعلم هذا العلم، وطلبه الدليل على هذا العلم، وكل إنسان يشعر من نفسه الفرق بين هذه الأمور، فالعلم بشيء قد يكون قائما بإنسان وإن كان غائبا عنه علمه بأنه يعلم ذلك الشيء، ولكن إذا ذكر له تذكر، وأحس من نفسه بالمعرفة. وقد تقدم أنه لولا وجود علوم ضرورية فطرية لما صح نظر ولا استدلال ولا تم وقام.

الاعتراض الثالث(٣): قالوا: إن المعرفة لا تحصل مبتدأة في النفس، بل لابد لها من طريق.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٦/ ٣٤٠).

(٢) فتح الباري (٣/ ٢٤٨)، والحديث رواه البخاري (١٣٥٨) وقال: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب قال ابن شهاب: (يصلى على كل مولود متوفى وإن كان لغية من أجل أنه ولد على فطرة الإسلام يدعي أبواه الإسلام أو أبوه خاصة وإن كانت أمه على غير الإسلام إذا استهل صارخا يصلي عليه ولا يصلى على من لا يستهل من أجل أنه سقط...).

(٣) انظر: هذا الاعتراض والجواب عنه في درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٣٧).

الجواب: **أولا**: إن هذا من موارد النزاع وهو هل المعرفة نظرية أو فطرية، وعليه فلا يصلح إيرادها قضية مسلما بها، وقد دللنا سابقا على صحة القول بأنها فطرية.

ثانيا: أن يقابل هذا القول بالمعارضة فيقال: إنها قد تحصل في النفس مبتدأة ولا يمكنهم حينئذ أن يقيموا دليلا على نفي ذلك، وإن أقاموه فباستقراء يكون إما فاسدا وإما ناقصا.

ثالثا: إن أهل الكلام أثبتوا علوما ضرورية، منها علم الإنسان بوجود نفسه، فإذا كان هذا ضروريا، فالعلم بربوبية الخالق أولى أن يكون ضروريا في حق من سلمت فطرته، وإن زعم المتكلم أن ذلك يحتاج إلى طريق(١).

الدليل الثاني: دلالة الحس.

قال العلامة العثيمين في شرح العقيدة الواسطية (١/ ٥٦): وأما دلالة الحس على وجود الله، فإن الإنسان يدعو الله ﷻ، يقول: يا رب! ويدعو بالشيء، ثم يستجاب له فيه، وهذه دلالة حسية، هو نفسه لم يدع إلا الله، واستجاب الله له، رأى ذلك رأي العين وكذلك نحن نسمع عمن سبق وعمن في عصرنا، أن الله استجاب لهم فالأعرابي الذي دخل والرسول ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة قال: هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا قال أنس: والله، ما في السماء من سحاب ولا قزعة (أي: قطعة سحاب) وما بيننا وبين سلع (جبل في المدينة تأتي من جهته السحب) من بيت ولا دار وبعد دعاء الرسول ﷺ فورا خرجت سحابة مثل الترس، وارتفعت في السماء وانتشرت ورعدت، وبرقت، ونزل المطر، فما نزل الرسول ﷺ إلا والمطر يتحادر من لحيته عليه الصلاة والسلام وهذا أمر واقع يدل على وجود الخالق دلالة حسية وفي القرآن كثير من

---

(١) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى (١/ ٢٣٢).

هذا، مثل: وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له} [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤] وغير ذلك من الآيات.

الدليل الثالث: دلالة الآيات الكونية.

قال العلامة العثيمين في العقيدة السفارينية (ص٤٥): دليل الخلق والحدوث:

كل حادث لا بد له من محدث ولا محدث للحوادث إلا الله ﷻ، والحقيقة أن دلالة الحوادث على المحدث دلالة حسية عقلية:

أما كونها حسية: فلأنها مشاهدة بالحس.

وأما كونها عقلية: فلأن العقل يدل على أن كل حادث لا بد له من محدث.

ولهذا سئل أعرابي: بم عرفت ربك؟ فقال: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدل على السميع البصير؟ الجواب: بلى، هذا أعرابي استدل على أن هذه الحوادث العظيمة تدل على خالق عظيم ﷻ، هو السميع البصير، فالحوادث دليل على وجود المحدث، ثم كل حادث منها يدل على صفة مناسبة غير الوجود، فنزول المطر يدل لا شك على وجود الخالق ويدل على رحمته وهذه دلالة غير الدلالة على الوجود، وجود الجدب والخوف والحروب تدل على وجود الخالق وتدل على غضب الله ﷻ وانتقامه، فكل حادث فله دلالتان:

دلالة كلية عامة: تشترك فيها جميع الحوادث وهي وجود الخالق وجود المحدث.

ودلالة خاصة: في كل حادث بما يختص به كدلالة الغيث على الرحمة ودلالة الجدب على الغضب وهكذا.

وهناك دلالة أخرى: النوازل التي تنزل لسبب دالة على وجود الخالق، مثل:

دعاء الله ﷻ ثم استجابته للدعاء دليل على وجوده، وهذه وإن كانت من باب دلالة الحادث على المحدث لكنها أخص، لما دعا النبي ﷺ الله أن يغيث الخلق قال: (اللهم أغثنا اللهم أغثنا) ثم نشأ السحاب وأمطر قبل أن ينزل من المنبر، هذا حديث أنس (١) يدل على وجود الخالق وهذا أخص من دلالة العموم.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في العقيدة الواسطية (١/ ١٢٤): ومن أمثلة الآيات القرآنية التي تتحدث عن الدلائل الكونية المتعلقة بالخلق والتكوين قوله - تعالى -: ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون [فصلت: ٣٧] ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون} [الروم: ٢٠] ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون} [الروم: ٢٢ - ٢٥]، فهذه الآيات كونية وإن شئت، فقل: كونية قدرية، وكانت آية لله، لأنه لا يستطيع الخلق أن يفعلوها، فمثلا: لا يستطيع أحد أن يخلق مثل الشمس والقمر، ولا يستطيع أن يأتي بالليل إذا جاء النهار، ولا بالنهار إذا جاء الليل، فهذه الآيات كونية.

الدليل الرابع: دلالة الشرع.

هذه الطريقة قد تبدو غريبة خاصة على علماء الكلام، ولكن سيتم بيان وجه دلالتها على وجود الله تعالى بما يزيل غرابتها إن شاء الله. وقد سلك بعض العلماء هذه الطريقة كالقاضي أبي يعلى في كتابه: (عيون المسائل) وأبي بكر

البيهقي في كتابه (الاعتقاد) والخطابي في رسالة: (الغنية عن الكلام) وأشار شيخ الإسلام إلى صحتها وشرعيتها إذا حررت[١]. وقال ابن القيم: (وهذه الطريق من أقوى الطرق وأصحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله. وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل، ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله آيات بينات)[٢].

وبيان هذه الطريق من وجهين:

الوجه الأول: الآيات والبراهين - وهي المعجزات.

الوجه الثاني: العلوم والأحكام المتضمنة لمصالح الخلق التي جاءوا بها.

الوجه الأول: الآيات والبراهين - وهي المعجزات:

بين الله تعالى في كتابه العزيز أنه أرسل رسله بالوحي وأيدهم بالآيات تصديقا لهم فقال: لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب} [الحديد: ٢٥] وقال: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر} [النحل: ٤٣ - ٤٤] وقال الرسول ﷺ (ما من الأنبياء من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[٣] وسماها الله تعالى برهانا كذلك، فقال عن آيتي العصا واليد اللتين أرسل بهما موسى عليه السلام: فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه} [القصص: ٣٢].

فسماها الله تعالى آية وبرهانا وبينة، وذلك لقوة دلالتها على المطلوب، وأنه

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٣٧٩).

(٢) الصواعق المرسلة لابن القيم (٣/ ١١٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بمجرد حدوثها يحصل العلم الضروري، فهي من جنس الآيات من دلالتها على المراد، بل هي أقوى لغرابتها وعظمتها.

ومن المعلوم أن الرسول إذا جاء قومه وادعى أنه رسول الله يوحى إليه بأنه لا إله إلا الله، أيده الله وصدقه بآية، فههنا أمور:

الأول: دعواه أنه رسول.

الثاني: أن الله هو الذي أرسله سواء كان المخاطب يقر بوجوده أو لا يقر.

الثالث: أنه مرسل لدعوة الناس إلى إفراد الله بالألوهية.

فإذا جاء الرسول بآية وهي العلامة التي تدل على صدقه ثبتت الرسالة وكذلك الربوبية ضمنا، وذلك لأنها حدث من جنس لا يقدر على مثله البشر وحصلت عند دعوى الرسول الرسالة، كيف وإذا انضم إلى ذلك ما عرف من أحوال الأنبياء وصدقهم وما حصل لهم ولأتباعهم من التأييد والنصر، ولأعدائهم من الهلاك والخسران... ولذلك فليس بلازم أن تتقدم معرفة العبد بوجود الله تعالى على حصول الآية والمعجزة ومن ثم تقرر النبوة، لأنها... من جنس الآيات المخلوقة المحدثة التي لابد لها من محدث أحدثها[1].

ويمكن الاستدلال لها بما حدث بين موسى عليه السلام وفرعون، كما قص الله تعالى ذلك في القرآن فقال آمرا موسى وهارون عليهما السلام: فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٤١).

لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين} [الشعراء: ١٦ - ٣٣].

ومعلوم أن فرعون قد ادعى أنه ربهم الأعلى فقال أنا ربكم الأعلى} [النازعات: ٢٤].

فهو وإن كان يتظاهر بذلك إلا أنه في باطنه يقر بربوبية الله على خلقه. كما قال الله عنه ومن حوله من الملأ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا} [النمل: ١٤]. والآيات ساقها الله تعالى للرد عليه في هذه الدعوى التي تظاهر بها، ولذلك لما حاجه موسى عليه السلام بالآيات الظاهرة قال له: قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين} [الشعراء: ٢٩] فأصر على موقفه وعناده - فدعاه موسى عليه السلام لبرهانين عظيمين وهما قلب العصا ثعبانا وإخراج اليد بيضاء بعد ضمها فلو كان ذلك لا يدل على مطلوب موسى عليه السلام وإبطال دعوى فرعون لما دعاه إليه موسى عليه السلام، بل إنه سماه مبينا فقال: قال أولو جئتك بشيء مبين} [الشعراء: ٣٠].

فتقرر من هذا النص أنه يمكن إثبات ربوبية الله ووجوده بالآيات المعجزات وإن لم يكن المخاطب مقرا بذلك ومن ثم يقوم لله بالعبادة.

وأما إن كان المخاطب مقرا بوجود الله بفطرته التي لم تتغير فإنه بالآية والمعجزة تتقرر عنده النبوة والوحدانية في الإلهية كما قال الله تعالى: أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو

فهل أنتم مسلمون [هود: ١٣ - ١٤]، فهذا نص واضح على أنه بالآية - وهي هنا معجزة القرآن - تثبت وتتقرر الرسالة والوحدانية ضرورة[(١)] ومعلوم أن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، فإذا ثبت الأول ثبت الثاني تضمنا، ضرورة ثبوت المتضمن بثبوت المتضمن. فثبت أنه يمكن إثبات الربوبية بآيات الأنبياء.

الوجه الثاني: العلوم والأحكام المتضمنة لمصالح الخلق التي جاءوا بها:

أولا: العلوم:

فالرسل جميعا اتفقوا على الإخبار بأشياء معينة - يقطع المرء بأنهم لم يتواطؤا عليها ومن ذلك: دعوتهم جميعا إلى عبادة إله واحد، وكذلك بشارة موسى وعيسى برسالة رسولنا محمد عليهم الصلاة والسلام من غير تواطؤ منهم على بعد في الأزمنة والأمكنة، فكان ذلك على الوجه الذي بشرا به.

والرسول ﷺ قد أخبر بأخبار الأمم الماضين مع القطع بأنه كان يعيش في أمة أمية، وكذلك قد أخبر بأمور تحصل في المستقبل، وقد حصلت، منها ما هو في القرآن، ومنها ما هو في السنة، فمما ورد في القرآن قوله تعالى: الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين} [الروم: ١- ٤] فكان كما أخبر، ومما ورد في السنة: (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده)[(٢)] وقوله: (خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء)[(٣)] وكانت خلافة

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٨)، ومسلم (٢٩١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٠)، والطيالسى (١١٠٧)، ونعيم بن حماد فى الفتن (٢٤٩)، وأبو داود (٤٦٤٦)، والترمذى (٢٢٢٦)، والنسائى فى الكبرى (٨١٥٥)، والبزار (٣٨٢٨، ٣٨٢٩)، وابن حبان (٦٩٤٣)، والحاكم (٣/ ١٤٥) وغيرهم، والحديث قال عنه العلامة الألباني في الصحيحة (٤٥٩) وجملة القول أن الحديث حسن من طريق =

أبي بكر رضي الله عنه سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر رضي الله عنه: عشر سنين ونصفا، وخلافة عثمان رضي الله عنه اثنتي عشرة سنة، وخلافة علي رضي الله عنه أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن رضي الله عنه ستة أشهر، ثم نشأ الملك وكان معاوية رضي الله عنه أول ملوك المسلمين وهو أفضلهم[1]، فكان الأمر كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

والأخبار في هذا كثيرة جدا يحصل بمجموعها القطع والعلم الضروري، فيدل ذلك على صدقه في الرسالة وعلى وجود الخالق سبحانه، لأنه هو الذي أطلعه على ذلك إذ أنه لا يعقل أبدا أن يتحدث الإنسان ويخبر بأشياء ويصدق فيها دائما دون تردد، ودون أن يجرب عليه كذب، إلا إذا كان موحى إليه، وأن الذي أوحى إليه هو الذي بيده الأمور وتتطابق أخباره مع قدره، وهذا ظاهر.

ثانيا: الأحكام المتضمنة لمصالح الخلق:

فقد تضمنت شريعة النبي صلى الله عليه وسلم أمورا عظيمة، يقطع الإنسان أنها لا يمكن أن تكون إلا من خالق عليم حكيم، فالشريعة جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها ودرء المفاسد وتقليلها، وهذا واضح جدا في الضروريات الخمس: الدين، والعقل والنفس، والمال، والعرض. ويراجع في هذا الكتب التي بحث فيها عن

=

سعيد بن جمهان، صحيح بهذين الشاهدين، لاسيما وقد قواه من سبق ذكرهم، وهاك أسماءهم: الإمام أحمد والترمذي وابن جرير الطبري وابن أبي عاصم وابن حبان والحاكم وابن تيمية والذهبي والعسقلاني، أقول (أي الألباني): لقد أفضت في بيان صحة هذا الحديث على النهج العلمي الصحيح وذكر من صححه من أهل العلم العارفين به، لأني رأيت بعض المتأخرين ممن ليس له قدم راسخة فيه ذهب إلى تضعيفه ا. هـ وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٤٤٠)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٦/ ٢٤٨): إسناده حسن.

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٥٤٥).

حكمة التشريع ومقاصد الشريعة الإسلامية[١].

الدليل الخامس: دلالة العقل.

فأما دلالة العقل، فنقول: هل وجود هذه الكائنات بنفسها، أو وجدت هكذا صدفة؟ فإن قلت: وجدت بنفسها، فمستحيل عقلا ما دامت هي معدومة؟ كيف تكون موجودة وهي معدومة؟! المعدوم ليس بشيء حتى يوجد، إذا لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها وإن قلت: وجدت صدفة، فنقول: هذا يستحيل أيضا، فأنت أيها الجاحد، هل ما أنتج من الطائرات والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها، هل وجد هذا صدفة؟! فيقول: لا يمكن أن يكون فكذلك هذه الأطيار والجبال والشمس والقمر والنجوم والشجر والجمر والرمال والبحار وغير ذلك لا يمكن أن توجد صدفة أبدا ويقال: إن طائفة من السمنية جاءوا إلى أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهم من أهل الهند، فناظروه في إثبات الخالق عَزَّ وَجَلَّ، وكان أبو حنيفة من أذكى العلماء فوعدهم أن يأتوا بعد يوم أو يومين، فجاءوا، قالوا: ماذا قلت؟ قال أنا أفكر في سفينة مملوءة من البضائع والأرزاق جاءت تشق عباب الماء حتى أرست في الميناء ونزلت الحمولة وذهبت، وليس فيها قائد ولا حمالون قالوا: تفكر بهذا؟! قال: نعم قالوا: إذا ليس لك عقل! هل يعقل أن سفينة تأتي بدون قائد وتنزل وتنصرف؟! هذا ليس معقول! قال: كيف لا تعقلون هذا، وتعقلون أن هذه السماوات والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس كلها بدون صانع؟ فعرفوا أن الرجل خاطبهم بعقولهم، وعجزوا عن جوابه هذا أو معناه وقيل لأعرابي من البادية: بم عرفت ربك؟ فقال: الأثر يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على السميع البصير؟ ولهذا قال

(١) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى (١/ ٢٩١).

الله ﷻ: أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} [الطور: ٣٥] فحينئذ يكون العقل دالا دلالة قطعية على وجود الله شرح العقيدة الواسطية لمحمد بن صالح بن عثيمين ١/ ٥٦

نعم إن العقل دال على وجود الله تعالى، وانفراده بالربوبية، وكمال قدرته على الخلق وسيطرته عليهم، وذلك عن طريق النظر والتفكر في آيات الله الدالة عليه. وللنظر في آيات الله والاستدلال بها على ربوبيته طرق كثيرة بحسب تنوع الآيات وأشهرها طريقان:

الطريق الأول: النظر في آيات الله في خلق النفس البشرية وهو ما يعرف بـ (دلالة الأنفس)، فالنفس آية من آيات الله العظيمة الدالة على تفرد الله وحده بالربوبية لا شريك له، كما قال تعالى: {وفي أنفسكم أفلا تبصرون} [الذاريات: ٢١]، وقال تعالى: {ونفس وما سواها} [الشمس: ٧]، ولهذا لو أن الإنسان أمعن النظر في نفسه وما فيها من عجائب صنع الله لأرشده ذلك إلى أن له ربا خالقا حكيما خبيرا؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن يخلق النطفة التي كان منها؟ أو أن يحولها إلى علقة، أو يحول العلقة إلى مضغة، أو يحول المضغة عظاما، أو يكسو العظام لحما؟

الطريق الثاني: النظر في آيات الله في خلق الكون وهو ما يعرف بـ (دلالة الآفاق)، وهذه كذلك آية من آيات الله العظيمة الدالة على ربوبيته، قال الله تعالى: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد [فصلت: ٥٣].

ومن تأمل الآفاق وما في هذا الكون من سماء وأرض، وما اشتملت عليه السماء من نجوم، وكواكب، وشمس، وقمر، وما اشتملت عليه الأرض من جبال، وأشجار، وبحار، وأنهار، وما يكتنف ذلك من ليل ونهار وتسيير هذا

الكون كله بهذا النظام الدقيق؛ دله ذلك على أن هناك خالقا لهذا الكون، موجدا له مدبرا لشؤونه، وكلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع الكائنات علم أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب براهين ودلالات على جميع ما أخبر به الله عن نفسه، وأدلة على وحدانيته[١].

مسألة: مسلك القرآن في إثبات الربوبية

لم تكن مسألة إثبات وجود الله تعالى هدفا أساسيا من الأهداف، وذلك لأن الإقرار بوجود الله أمر فطري فطر الله عليه الخلق. والله سبحانه أبين وأظهر من أن يجهل فيطلب الدليل على وجوده.

وقد وجد قليل من الناس سابقا ممن ينكر وجود الله تعالى إما مكابرة وعنادا كفرعون، أو لتغير الفطرة بسبب خارجي.

واليوم وإن كان قد كثر القائلون بعدم وجود الخالق إلا أنهم قليل جدا إلى جنب من يقر بوجوده، وهم مع ذلك يحيلون خلقهم إلى الطبيعة!.

وللسبب المذكور سابقا نجد أن الاستدلال على وجود الله تعالى في القرآن لم يكن مقصودا أصالة، وإنما يمكن أن يستنتج ذلك استنتاجا.

ومع ذلك لم يكتف القرآن الكريم باستثارة الفطرة المقرة بوجود الله تعالى، بل حفل بالأدلة العظيمة، والآيات الباهرة الدالة على وجوده، وعظمته سبحانه وتعالى، فكل ما في هذا الوجود من خلق وعناية بهذا الكون، وتسييره، على أكمل نظام، وحكمة هو دلالة صادقة على وجود الله تعالى المدبر لهذا الكون.

وذلك لأن الأدلة على وجوده، وعظمته تعزز مكنون الفطرة، وتزيدها يقينا واستقامة، والأدلة يحتاج إليها أيضا من فسدت فطرته، حيث يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (الإقرار بالخالق وكماله، كما يكون فطريا ضروريا في حق

(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص١٢).

من سلمت فطرته، وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة، وقد يحتاج إلى الأدلة عليه كثير من الناس، عند تغير الفطرة، وأحوال تعرض لها)[١].

وعندما ظهرت الجهمية ومن تابعهم من فرق الابتداع، لم يأتوا بطرق مفيدة وصائبة في معرفة الخالق- سبحانه وتعالى - بل عقدوا الطرق السهلة وأطالوها، وغاية ما عندهم من الطرق هو الاستدلال بحدوث الحوادث على محدث موجد لها، وقد اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذه الطريقة جزء من الطريقة القرآنية فقال: (هذه الطريقة جزء من الطريقة المذكورة، وهي التي جاءت بها الرسل، وكان عليها سلف الأمة وأئمتها، وجماهير العقلاء من الأولين؛ فإن الله يذكر في آياته ما يحدثه في العالم من السحاب، والمطر، والنبات، والحيوان، وغير ذلك من الحوادث، ويذكر في آياته خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، ونحو ذلك)[٢].

وقد أثبت الواقع الذي عاشه الصحابة - رضوان الله عليهم - أن الأدلة القرآنية يحتاج إليها من تعرضت فطرته لأحوال من الشرك والكفر، فتأتي هذه الأدلة لتنبيه الفطرة، وإيقاظها من انحرافاتها، فعن محمد، ت: ٩٨هـ- ابن جبير، ت: ٥٩هـ- ابن مطعم عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (قدمت على النبي ﷺ في فداء الأسرى، فاضطجعت في المسجد بعد العصر، وقد أصابني الكرى، فنمت، فأقيمت صلاة المغرب، فقمت فزعا بقراءة النبي ﷺ في المغرب {والطور وكتاب مسطور} [الطور: ١ - ٢] فاستمعت قراءته حتى خرجت من المسجد، فكان يومئذ أول ما دخل الإسلام قلبي)[٣].

---

(١) (مجموعة الفتاوى (٦/ ٧٣).

(٢) درء تعارض العقل (٣/ ٨٣).

(٣) أخرجه ابن عساكر كما في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (ص: ٧٥٦). وانظر: =

وفي البخاري قال جبير بن معطم ﵁: (سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون} [الطور: ٣٥ - ٣٧]، كاد قلبي أن يطير)[١].

قال الإمام الخطابي: (كأنه انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها، ومعرفته بما تضمنته ففهم الحجة، فاستدركها بلطيف طبعه)[٢].

إن الأثر الذي أحدثته هذه الآيات القرآنية بقلب هذه الصحابي الجليل، وكانت سببا من أسباب إسلامه وإيمانه، تبين لنا مدى أثر الأدلة القرآنية في إحياء الفطرة ومعالجتها من ظلمات الشرك، والكفر، ولقد سمع القرآن الكريم الجمهرة الكبيرة من العرب، وغيرهم منذ بدء الإسلام وإلى يومنا هذا وعجائبه لا تنقضي، وأدلته العظيمة ما زالت سببا كبيرا في دخول الناس أفواجا في هذا الدين[٣].

المسلك الأول: الإلزام والرد على من انحرفت فطرهم.

فمن الإلزام قوله تعالى: أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} [الطور: ٣٥].

والذين انحرفت فطرهم هم الذين أنكروا الخالق تبارك وتعالى فقال الله عنهم وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر} [الجاثية: ٢٤] فأنكروا البعث وأنكروا أن يكون لهم رب يفنيهم، فرد الله عليهم

=

تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٠/ ٧). ورواه بنحوه البخاري (٤٨٥٤).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٤).

(٢) فتح الباري (٨/ ٦٠٣).

(٣) العقيدة الإسلامية وجهود علماء السلف في تقريرها (ص: ٢٨ - ٣١).

بقوله: وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون} [الجاثية: ٢٤] أي ليس لهم علم يقين يدل على صحة قولهم، سواء كان هذا العلم خبرا، أو كان حجة وبرهانا عقليا، ثم بين الله أنهم في اعتقادهم الذي نطقوا به بألسنتهم شاكون ومرتابون، وهذا أمر واضح لاتباعهم الظن[١].

ومن أوجه الرد على من انحرفت فطرهم: ما جاء عن فرعون الذي كان يقول لقومه: ما علمت لكم من إله غيري} [القصص: ٣٨] فتابعه قومه على ذلك كما قال تعالى: {فاستخف قومه فأطاعوه} [الزخرف: ٥٤] فسأل فرعون موسى فقال: وما رب العالمين} [الشعراء: ٢٣] أي من هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف)[٢].

وذلك رد على من قال: إن فرعون سأل عن ماهية الرب، وهذا غلط لأنه كان منكرا جاحدا ولم يكن مقرا حتى يسأل عن الماهية، ويبينه قوله تعالى: قال فمن ربكما يا موسى [طه: ٤٩] وهنا أجاب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما سأله عن رب العالمين: قال رب السماوات والأرض وما بينهما أي خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وهو الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب، والعالم السفلي وما فيه من عجائب المخلوقات كالجبال والبحار والأشجار، وهذا الرد على فرعون واضح، لأنه لا يمكن أن يدعي ملكه لكل هذه الأشياء، وإنما كان له نوع ملك وهو محدود على مصر، فعندما سمع هذه الحجة التفت إلى من حوله من الملأ قائلا ألا تستمعون على سبيل التهكم. ثم زاد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحجج فقال: ربكم ورب آبائكم الأولين. أي خالقكم وخالق

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٨٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ٣٣٢).

آبائكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه، فكيف تصح منه دعوى الربوبية إذا؟ فما كان من فرعون إلا أن وصف موسى بالجنون فقال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون إمعانا في تضليل قومه، فأجاب موسى بقوله: رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون أي هو الذي جعل المشرق مشرقا تطلع منه الشمس والكواكب، والمغرب تغرب فيه الشمس والكواكب بنظام دقيق لا يتغير على حسب تقديره، وتقرير الحجة: إن كان فرعون صادقا في دعواه الربوبية فليعكس الأمر، فغلب وانقطع فعدل إلى استعمال قوته وسلطانه إلى آخر القصة[1].

المسلك الثاني: ذكر الآيات الدالة على الربوبية.

وهي العلامات المخلوقة المحكمة الإتقان:

فدلالتها من جهة أنها مخلوقة محدثة، ومن جهة إحكامها وإتقانها، قال الله تعالى: وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون} [الذاريات: ٢٠ - ٢١]. فلينظر الإنسان إلى آثار قدرة الله فيه والتدبير منذ أن كان نطفة في رحم أمه، ثم تنقله من طور إلى آخر إلى خروجه إلى الدنيا وله من الأعضاء والحواس مما يظهر آثار الإحكام الإلهي.

وهكذا إذا نظر الإنسان في أمر هذا العالم وما فيه من السير الدقيق المنظم البديع، فإنه يحصل له العلم بأن له خالقا خلقه بعلم وحكمة.

قوله تعالى: {الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دآئبين وسخر لكم الليل والنهار} [إبراهيم: ٣٢ - ٣٣].

---

(١) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى (١/ ٢٧٦).

قال الحافظ ابن رجب: (وأخبر سبحانه وتعالى أنه إنما خلق السموات والأرض ونزل الأمر لنعلم بذلك قدرته وعلمه، فيكون دليلا على معرفته ومعرفة صفاته، كما قال تعالى: {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق: ١٢][(١)].اهـ. منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى لخالد بن عبد اللطيف - ١/ ٢٧٨

ومن الأدلة الشرعية على توحيد الربوبية: ... قوله تعالى: {الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور} [الأنعام: ١]

قوله تعالى: {الحمد لله رب العالمين} [الفاتحة: ١].

قوله تعالى: قل من رب السماوات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار} [الرعد: ١٦].

وقوله تعالى: {الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون} [الروم: ٤٠].

وقوله تعالى: {هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه} [لقمان: ١١].

وقوله تعالى: {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون} [الطور: ٣٥ - ٣٦].

وقوله تعالى: {رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته

(١) شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم (ص: ٤٠).

هل تعلم له سميا} [مريم: ٦٥].

طريقة القرآن في الاستدلال على توحيد الربوبية:

سلك القرآن عددا من الأساليب... منها:

أولا: الاستدلال باستحالة صدور الوجود من عدم كما في قوله تعالى: أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون} [الطور: ٣٥ - ٣٦].

وصورة هذا الدليل في الآية:

إما أن يكونوا خلقوا أنفسهم وهذا باطل لأنه يلزم منه الدور وهو باطل حيث يترتب كل من الفرضين على الآخر فكونهم خلقوا أنفسهم يستلزم وجودهم قبل الخلق إذ لا يصدر الوجود من العدم ضرورة، إذ لا معنى للعدم إلا عدم الوجود ولا معنى للوجود إلا كون الشيء ليس بمعدوم.

وإما يكونوا لا خالق لهم أصلا فيكون العدم هو الذي أوجدهم وهذا باطل إذ لا معنى للعدم إلا عدم الوجود فيلزم من قولهم بهذا الفرض الجمع بين النقيضين وهو كون الشيء موجودا معدوما والوجود والعدم نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ولا يمكن أن ينشأ واحد منهما من الآخر.

والفرض الثالث أن يكون لهم خالق هو الله سبحانه وتعالى.

ثانيا: الاستدلال بما في العالم من التغير المانع من قدمه إذ التغير علامة الحدوث والخلق فلابد إذا له من خالق ويدل عليه قوله تعالى: والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه [فاطر: ١١].

وقوله تعالى: ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من

يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} [النور: ٤٣ - ٤٤].

ثالثا: إن الكون ممكن الوجود وما كان كذلك فهو مخلوق لا يمكن أن يكون واجب الوجود لأن إمكان العدم عليه والوجود ينفي وجوبه. ويدل عليه قوله تعالى: ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد [إبراهيم: ١٩]

رابعا: أن الكون وجد على سبيل الإتقان مما يمنع كونه وجد من غير موجد ويدل عليه قوله تعالى: الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسأ وهو حسير} [الملك: ٣ - ٤].

خامسا: إبطال الشرك في الربوبية كما في قوله تعالى: ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض} [المؤمنون: ١٩].

وصورة الدليل في الآية هو: (إن الإله الحق لا بد أن يكون خالقا فاعلا يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه لكان له خلق وفعل وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة بل إن قدر على قهر ذلك الشريك والتفرد بالملك والألوهية دونه فعل وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه وإذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه فلابد من أحد ثلاثة أمور:

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.

وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يتصرفون

فيه.

فالفرض الأول غير ممكن إذ لا بد أن تبين أثار فعله في الكون. والفرض الثاني ممتنع ضرورة اختلال الكون نتيجة العلو وتضارب الإرادات، والثالث هو الحق وهو كون الرب هو الإله الواحد)[1].

(باب الشرك في الربوبية)

الشرك في الربوبية هو اعتقاد متصرف مع الله ﷻ في أي شيء من تدبير الكون، من إيجاد أو إعدام، أو إحياء أو إماتة، جلب خير أو دفع شر، أو غير ذلك من معاني الربوبية، أو اعتقاد منازع له في شيء من مقتضيات أسمائه وصفاته كعلم الغيب وكالعظمة والكبرياء ونحو ذلك وقال الله تعالى: مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ [فاطر: ٢ - ٣] الآيات، وقال تعالى: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ} [يونس: ١٠٧] الآية، وقال تعالى: {قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} [الزمر: ٣٨].

وقال تبارك وتعالى: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ} [الأنعام: ٥٩] الآيات، وقال تعالى: {قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ} [النمل: ٦٥] الآية، وقال تعالى: {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء} [البقرة: ٢٥٥] وقال النبي ﷺ: (يقول الله تعالى: العظمة إزاري، الكبرياء

---

(١) شرح الطحاوية (ص: ٢٦، ٢٧) الأسئلة والأجوبة الأصولية (ص: ٢٠٦، ٢٠٧).

ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما أسكنته ناري)[1] ....وهو

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٤)، وهناد في الزهد (٢/ ٤٢١، رقم ٨٢٥)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجه (٤١٧٤)، وابن حبان (٥٦٧١) والحديث صححه ابن حبان، وابن رجب في التخويف من النار (٢٥٧)، والسيوطي في الجامع الصغير (٦٠٣٣)، وصححه أيضا العلامة الألباني في الصحيحة (٥٤١)، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٤/ ٤٧٣)، وأخرجه مسلم (٢٦٢٠) ولفظه (العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته).

(فائدة): قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في الصفدية (٢/ ٣٣٨): فإن من أسمائه وصفاته ما يحمد العبد على الاتصاف به: كالعلم، والرحمة، والحكمة، وغير ذلك، ومنها ما يذم على الاتصاف به: كالإلهية، والتجبر، والتكبر، وللعبد من الصفات التي يحمد عليها ويؤمر بها ما يمنع اتصاف الرب به: كالعبودية، والافتقار، والحاجة، والسؤال، ونحو ذلك، وهو في كل ذلك كماله في عبادته لله وحده، وغاية كماله أن يكون الله هو معبوده.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في شرح الرياض (٣/ ٥٥٣): هذا من الأحاديث التي تمر كما جاءت عن النبي ﷺ، ولا يتعرض لمعناها بتحريف أو تكييف، وإنما يُقال هكذا قال الله تعالى فيما رواه النبي ﷺ عنه، فمن نازع الله في عزته وأراد أن يتخذ سلطانًا كسلطان الله، أو نازع الله في كبريائه وتكبر على عباد الله، فإن الله يعذبه، يعذبه على ما صنع ونازع الله تعالى فيما يختص به.اهـ.

وقال الشيخ الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ١٦٢): ووصف الله تعالى بأن العظمة إزاره، والكبرياء رداؤه، كسائر صفاته، تثبت على ما يليق به، ويجب أن يؤمن بها على ما أفاده النص دون تحريف ولا تعطيل.

أما اللجنة الدائمة فسئلت (٢/ ٣٩٩) عن: حديث أبي هريرة مرفوعا عند مسلم: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار». فكيف ينبغي أن نفهم هذا الحديث، وهل يجوز إضافة (الإزار) و(الرداء) إلى الله مطلقا، وهل يلزم الصيرورة إلى التأويل فيه؟

فأجابت: قال الخطابي رحمه الله تعالى في شرحه لـ (سنن أبي داود): معنى الحديث: أن الكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه، اختص بهما لا يشركه أحد فيهما، ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما؛ لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل، وضرب الرداء والإزار مثلا في ذلك، يقول- والله أعلم- كما لا يشرك الإنسان في ردائه وإزاره أحد، فكذلك لا
=

في الصحيح[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١/ ٩٢): ... إن الرب سبحانه هو الملك المدبر، المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، المعز المذل، فمن شهد أن المعطي أو المانع، أو الضار أو النافع، أو المعز أو المذل غيره، فقد أشرك بربوبيته.

وقال في موضع آخر: (فأما الأول - الشرك في الربوبية - فهو إثبات فاعل مستقل غير الله، كمن يجعل الحيوان مستقلًا بإحداث فعله، ويجعل الكواكب، أو الأجسام الطبيعية، أو العقول، أو النفوس، أو الملائكة، أو غير ذلك مستقلًا بشيء من الأحداث، فهؤلاء حقيقة قولهم: تعطيل الحوادث عن الفاعل...)[٢].

أو بعبارة مختصرة يقال: من أشرك مع الله غيره في خصائص الربوبية أو أنكر شيئًا منها، أو شبهه بغيره، أو شبه غيره به، يعد مشركًا بالله، سواء كان في ذاته، أو أفعاله، أو أوصافه.

وهذا الشرك ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفورًا[٣].

(باب أنواع الشرك في الربوبية)

النوع الأول: شرك التعطيل؛ وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون إذ قال: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، وقال تعالى مخبرًا عنه ما قال لهامان: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي

=

يشركني في الكبرياء والعظمة مخلوق. والله أعلم. انتهى كلامه. قلت والصواب ما تقدم عن الغنيمان والعثيمين.

(١) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة (ص ٣٠).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٧/ ٣٩٠).

(٣) «الجواب الكافي» (ص: ٣٠٩).

لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا}.

وإنما قلنا لهذا التعطيل بأنه شرك؛ لأن الشرك والتعطيل متلازمان، فكل معطل مشرك، وكل مشرك معطل[١]، لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك مقرًا بالخالق سبحانه وصفاته، ولكنه عطل حق التوحيد. وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل، وهو على ثلاثة أقسام:

١ - تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدومًا أصلًا، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها يسمونها بالعقول والنفوس[٢]، ومنه الإلحاد بإنكار الخالق للكون.

٢ - تعطيل الصانع -سبحانه- عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه، وأوصافه، وأفعاله، ومن هذا الشرك من عطل أسماء الرب تعالى، وأوصافه، وأفعاله من غلاة الجهمية، والقرامطة، فلم يثبتوا له اسمًا ولا صفة، بل جعلوا المخلوق أكمل منه؛ إذ كمال الذات بأسمائه وصفاته.

ويدخل في ذلك شرك منكري الرسالة للرسل، وشرك منكري القدر، وشرك التشريع والتحليل والتحريم من غير الله.

٣ - تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد، ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون: ما ثم خالق ومخلوق، ولا هاهنا شيئان، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه.

النوع الثاني: شرك الأنداد من غير تعطيل: وهو من جعل مع الله إلهًا آخر، ولم يعطل أسماءه وصفاته وربوبيته، ومن ذلك:

---

(١) «الجواب الكافي» (ص: ٣١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٨٦).

١- شرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة، فجعلوا المسيح إلهًا، وأمه إلهًا.

٢- شرك المجوس[1]: القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة.

٣- شرك القدرية[2]: القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه، وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته، ولهذا كانوا أشباه المجوس.

٤- شرك الذي حاج إبراهيم في ربه: إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ} [البقرة: ٢٥٨]، فهذا جعل نفسه ندًا لله تعالى، يحيى ويميت بزعمه، كما يحيى الله ويميت، فألزمه إبراهيم أن طرد قولك أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي بها الله منها، وليس هذا انتقالًا كما زعم بعض أهل الجدل، بل إلزامًا على طرد الدليل إن كان حقًا.

٥- شرك فرعون حينما قال: مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: ٣٨]، وقوله تعالى حكاية عن قول قومه له: وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [الأعراف: ١٢٧]، كما هو في بعض القراءات.

٦- وأيضًا من هذا النوع شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات، ويجعلها أربابًا مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.

٧- ومن هذا النوع: شرك من أسند النعمة إلى غير الله، قال تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً.

٨- ومن هذا شرك عباد الشمس، وعباد النار، وغيرهم، فمن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة، ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة، ومنهم

(١) «الملل والنحل» (٢/ ٧٣)، و«الفرق بين الفرق» (ص: ٢٧٦).

(٢) «الفرق بين الفرق» (ص: ١٨ - ٢٠)، و«تذهيب تهذيب الكمال» (ص: ٣٨٣).

من يزعم أنه إله من جملة الآلهة، وأنه إذا خصه بعبادته، والتبتل إليه، والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به، ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه إلى المعبود الذي هو فوقه، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه وتعالى!! فتارة تكثر الآلهة والوسائط وتارة تقل[(١)].

فيستنتج مما سبق أن هذا القسم من الشرك ينقسم قسمين:

١- نوع في توحيد الربوبية، ويكون من وجهين:

أ- بالتعطيل، وذلك:

إما بالإلحاد، كقول فرعون: وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ٢٣]، ويدخل فيه الشيوعية، والاشتراكية، والقومية، وغيرها من الاتجاهات الهدامة التي تجددت.

وإما بتعطيل المصنوع عن صانعه: كالقول بقدم العالم.

وإما بتعطيل معاملة الصانع عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد: كالقول بوحدة الوجود.

وإما تعطيل الصانع عن أفعاله: كمنكري إرسال الرسل، ومنكري القدر، ومنكري البعث والنشور، وغيرها.

ب- بالأنداد، وذلك:

إما بدعوى التصرف في الكون من الغير كمشركي قوم إبراهيم الصابئة، والمتصوفة القائلين بالغوث، والقطب، والأوتاد، والأبدال وتصرفهم كما يدعون.

وإما بإعطاء السلطة لأحد غير الله في التحليل والتحريم، كما كان في النصارى، وفي بعض حكام هذه الأمة، والقوانين الوضعية وغيرها.

---

(١) «الجواب الكافي» (ص: ٣١٤١)، بتصرف يسير.

وإما بدعوى التأثير في الكون من النجوم والهياكل، كالصابئة من قوم إبراهيم، أو الأولياء، أو التمائم والأحجبة.

٢- نوع في توحيد الأسماء والصفات، وذلك من وجهين أيضًا:

أ- بالتعطيل: وذلك بتعطيل الصانع عن كماله المقدس: كالجهمية الغلاة، والقرامطة الذين أنكروا أسماء الله ﷻ وصفاته.

ب- بالأنداد:

١- إثبات صفات الصانع للمخلوقين: وذلك؛ بالتمثيل في أسمائه أو صفاته، كالشرك في علم الباري المحيط، ويدخل في ذلك: التنجيم، والعرافة، والكهانة، وادعاء علم المغيبات لأحد غير الله، وكالشرك في قدرة الله الكاملة، وذلك بادعاء التصرف للغير في ملكوت الله، وخوف الضرر أو التماس النفع من الغير، أو بالاستغاثة من الغير، أو تسمية غيره غوثًا، أو بالسحر والتسحر وغيرها.

٢- أو بإثبات صفات المخلوق للصانع جل وعلا: كاليهود المغضوب عليهم الذين شبهوا الله بصفات المخلوقين، وهكذا النصارى في قولهم بالنبوة والأبوة وما إلى ذلك من صفات المخلوقات لله جل وعلا، ويدخل في هذا النوع كل من شبه الله بخلقه ومثله بهم من هذه الأمة.

وكل هذه الأنواع السالفة الذكر يعتبر من الشرك الأكبر، وينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفورًا باتفاق العلماء[١].

مسألة: الفرق التي أشركت بالربوبية[٢].

---

(١) «الجواب الكافي» (ص: ٣٠٩- ٣١٤)، وانظر الشرك في القديم والحديث (١/ ١٤٢).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، (ص: ٢٤- ٢٦).

١ - المجوس: (الأصلية) قالوا بالأصلين: النور والظلمة، وقالوا: إن النور أزلي، والظلمة محدثة.

٢ - الثنوية: (أصحاب الاثنين الأزليين): الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس الذين قالوا بحدوث الظلام، لكن قالوا باختلافهما في الجوهر، والطبع، والفعل، والخبر، والمكان، والأجناس، والأبدان، والأرواح، ولم يقولوا بتماثلهما في الصفات والأفعال، كما ترى، وإن قالوا بتساويهما في القدم.

٣- المانوية: (أصحاب ماني بن فاتك): قالوا: إن العالم مصنوع من أصلين قديمين، ولكن قالوا باختلافهما في النفس، والصورة، والفعل، التدبير.

٤ - النصارى: (القائلون بالتثليث): فالنصارى لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضها عن بعض، بل هم متفقون على أنه صانع واحد يقولون: باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد، ويقولون: واحد بالذات ثلاثة بالأقنوم. أما الأقانيم فإنهم عجزوا عن تفسيرها.

وقولهم هذا متناقض أيما تناقض، وتصوره كاف في رده، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهذا قال طائفة من العقلاء: إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى، وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا، بل تكلموا بجهل، وجمعوا في كلامهم بين النقيضين، ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولًا.

وقال آخر: لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولًا، وامرأته قولًا آخر، وابنه قولًا ثالثًا)[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض رده عليهم: (أما خبر ما عندكم أنتم فلا نعلم

---

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لابن تيمية (٢/ ١٥٥).

أمة أشد اختلافًا في معبودها منكم؛ فلو سألت الرجل، وامرأته، وابنته، وأمه، وأباه، عن دينهم لأجابك كل منهم بغير جواب الآخر)[١].

بل قيل فيهم: (لو توجهت إلى أي نصراني على وجه الأرض، وطلبت منه أن يصور لك حقيقة دينه، وما يعتقده في طبيعة المسيح تصويرًا دقيقًا - لما استطاع ذلك)[٢].

هذا وقد بين الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) ما عندهم من التناقض، وكذلك الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (محاضرات في النصرانية).

٥- القدرية: هم في الحقيقة مشركون في الربوبية، وهذا لازم لمذهبهم؛ لأنهم يرون أن الإنسان خالق لفعله، فهم أثبتوا لكل أحد من الناس خلق فعله.

والخلق إنما هو مما اختص الله به، قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصَّافَّات: ٩٦].

وأفعال العباد لا يخرجها شيء من عموم خلقه ﷻ[٣].

٦- الفلاسفة الدهرية: في قولهم في حركة الأفلاك بأنها تسعة، وأن التاسع منها وهو الأطلس يحرك الأفلاك كلها، فجعلوه مبدأ الحوادث، وزعموا أن الله يحدث ما يقدره في الأرض.

٧- عبدة الأصنام من مشركي العرب وغيرهم: ممن كانوا يعتقدون أن الأصنام تضر وتنفع، فيتقربون إليها، وينذرون لها، ويتبركون بها.

٨- غلاة الصوفية: لغلوهم في الأولياء، وزعمهم أنهم يضرون، وينفعون،

---

(١) «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» لابن القيم، (ص: ٣٢١).

(٢) «ما يجب أن يعرفه المسلم عن حقائق النصرانية والتبشير» لإبراهيم الجيهان (ص: ١٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٥٨)، و«الإيمان بالقضاء والقدر» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص: ١٧٣ - ١٧٤).

ويتصرفون في الأكوان، ويعلمون الغيب، ولقولهم بوحدة الوجود، وربوبية كل شيء[(١)].

٩- الشيعة: لقولهم بأن الدنيا والآخرة للإمام، يتصرف بهما كيف يشاء، وأن تراب الحسين شفاء من كل داء، وأمان من كل خوف، ولقولهم: إن أئمتهم يعلمون الغيب، ويعلمون متى يموتون، ولا يموتون إلا بإذنهم.

وهذا باطل، وبطلانه لا يحتاج إلى دليل، بل إن فساده يغني عن إفساده[(٢)].

١٠- النصيرية: لقولهم بألوهية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبأنه المتصرف بالكون، لوصفهم إياه بأوصاف لا يجوز أن يوصف بها أحد إلا الله عز وجل مع اختلاف أقوالهم في هذا؛ فبعضهم يقول: إنه يسكن في الشمس ويسمون بـ: الشمسية.

وبعضهم يقولون: إنه يسكن في القمر، ويسمون بـ: القمرية.

وبعضهم يقولون: إنه يسكن في السحاب، ولذا إذا رأوا السحاب قالوا: السلام عليك يا أمير النحل[(٣)].

١١- الدروز: لقولهم بألوهية الحاكم بأمر الله العبيدي، وغلوهم فيه، ووصفه بأوصاف لا تليق إلا بالله وحده، كقولهم عنه: (إنه يعلم خائنة الأعين

---

(١) «هذه هي الصوفية» لعبد الرحمن الوكيل، (ص: ٣٥ - ٣٨ و١٣٣).

(٢) «الخطوط العريضة» لمحب الدين الخطيب، تحقيق: محمد مال الله (ص: ٦٩)، وانظر «مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة»، د. ناصر القفاري، (١/ ٢٩٠)، و«الشيعة والسنة لإحسان إلهي ظهير» (ص: ٦٦).

(٣) «الحركات الباطنية في العالم الإسلامي»، د. محمد بن أحمد الخطيب، (ص: ٣٤١)، و«دراسات في الفرق» لصابر طعمية، (ص: ٤٢)، و«النصيرية» د. سهير الفيل (ص: ٩٣ - ١٠٣)، و«الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية» لسليمان الأذني، و«رسالة النصيرية في كتاب رسائل في الأديان والفرق والمذاهب» لمحمد بن إبراهيم الحمد.

وما تخفي الصدور)[١].

١٢- من يعتقدون تأثير النجوم، والكواكب، والأسماء: وذلك كحال الذين يتتبعون الأبراج ويقولون - رجمًا بالغيب- إذا ولد فلان في البرج الفلاني، أو الشهر الفلاني، أو اليوم الفلاني، أو كان اسمه يبدأ بحرف كذا أو كذا - فسيصيبه كذا وكذا، ويضعون عليها دعايات تقول: من شهر ميلادك تعرف حظك، أو من اسمك تعرف حظك.

كل ذلك شرك في الربوبية؛ لأنه ادعاء لعلم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله وحده لا شريك له.

١٣- القانونيون: الذين يصدون ويصدفون عن شرع الله، والذين يشرعون للناس االقوانين الوضعية، التي هي من نحاتة أفكارهم، وزبالة أذهانهم فهؤلاء محاربون لله، منازعون له في ربوبيته وحكمه وشرعه[٢].

(باب مظاهر الشرك في توحيد الربوبية)

يضاد توحيد الربوبية الإلحاد، وإنكار وجوب الرب عَزَّ وَجَلَّ.

ويضاده - أيضا- اعتقاد متصرف مع الله عَزَّ وَجَلَّ في أي شيء؛ من تدبير الكون، من إيجاد، أو إعدام، أو إحياء، أو إماتة، أو جلب خير، أو دفع شر، أو غير ذلك من معاني الربوبية، أو اعتقاد منازع له في شيء من مقتضيات أسمائه وصفاته، كعلم الغيب، أو كالعظمة، والكبرياء، ونحو ذلك.

ولم ينكر توحيد الربوبية أحد من البشر إلا طائفة من الشذاذ، المكابرين، المعاندين، المنكرين لما هو متقرر في فطرهم؛ فإنكارهم إنما كان بألسنتهم مع

---

(١) «عقيدة الدروز، عرض ونقض» د. محمد بن أحمد الخطيب (ص: ١١٧)، وانظر «الحركات الباطنية» (ص: ٢٣٣ - ٢٣٨).

(٢) «رسالة تحكيم القوانين» لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

اعترافهم بذلك في قرارة أنفسهم.

ومن أشهر من عرف بذلك فرعون؛ الذي قال لقومه - كما أخبر الله عنه-: {أنا ربكم الأعلى} [النازعات: ٢٤] وقال: {ما علمت لكم من إله غيري} [القصص: ٣٨].

وكلامه هذا مجرد دعوى لم يقم عليها بينة، ولا دليل، بل كان هو نفسه غير مؤمن بما يقول.

قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا} [الإسراء: ١٠٢].

وأخبر عز وجل وهو العليم بذات الصدور - أن كلام فرعون ودعواه لم يكن عن عقيدة ويقين، وإنما هو مكابرة وعناد، قال تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا} [النمل: ١٤].

وممن أنكر ذلك - أيضا- الشيوعيون، فلقد أنكروا ربوبية الله، بل أنكروا وجوده - سبحانه وتعالى- بناءا على عقيدتهم الخبيثة الفاجرة التي تقوم على الكفر بالغيب، والإيمان بالمادة وحدها.

وهم في الحقيقة لم يزيدوا على أن سموا الله بغير اسمه، بحيث ألهوا الطبيعة، ونعتوها بنعوت الكمال التي لا تليق بأحد إلا الله عز وجل فقالوا: الطبيعة حكيمة، الطبيعة تخلق، إلى غير ذلك.

وكلامهم هذا باطل متهافت، بل إن أصحاب هذا المبدأ انشقوا على أنفسهم، ولعن بعضهم بعضا، وكفر بعضهم ببعض.

وتوحيد الربوبية لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل عليهم السلام فيما حكى الله عنهم: {قالت

رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض} [إبراهيم: ١٠].... ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال، فإن الثنوية من المجوس والمانوية القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما متفقون على أن النور أفضل من الظلمة، وهو الإله المحمود، وأن الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون في الظلمة: هل هي قديمة أو محدثة؟، فلم يثبتوا ربين متماثلين.

وأما النصارى القائلون بالتثليث، فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل هم متفقون على أن صانع العالم واحد، ويقولون: باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد...

والمشركون من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السماوات والأرض واحد، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله} [لقمان: ٢٥]، وقوله: {قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون} [المؤمنون: ٨٤ - ٨٥][(١)].

فلا شك أن الإيمان بالله وحده لا شريك له، وأنه وحده المستحق للربوبية أمر فطر عليه الناس وهم في عالم الذر، كما قال تعالى: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون} [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (... دل على أن الفطرة التي فطروا عليها من

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٥ - ٢٩) بتصرف يسير.

التوحيد)[(١)].

ومما يدل على هذا قوله ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[(٢)]. قال ابن أبي العز رحمه الله: (لا يقال: إن معناه يولد ساذجا لا يعرف توحيدا ولا شركا، كما قال بعضهم)[(٣)].

ومنه قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: (خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين...)[(٤)].

وبناء على ما سبق من الأدلة الشرعية والأدلة الواقعية على أن الناس فطروا على توحيد الرب عز وجل، أمكن القول أن الحجة على وحدانية الرب تبارك وتعالى وتفرده بالخلق قد قامت عليهم، وهي حجة مستقلة على من أنكر ربوبية الله تعالى أو أشرك معه فيها غيره معه أو دونه، أو ادعى الجهل بها.

ولكن من رحمة الله بخلقه لما وقع الناس في شيء من الشرك بالله في ربوبيته وغيروا فطرهم، أرسل لهم الرسل تذكرهم بما في فطرهم، وتأمرهم بما هو مقتضى هذه الفطرة. قال ابن أبي العز رحمه الله: (فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجودا في الناس، بين القرآن بطلانه، كما في قوله تعالى: ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض} [المؤمنون: ٩١][(٥)].

وفي هذا المعنى قوله تعالى: أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون}

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) بلفظ: «وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم». من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٨ - ٣٩

[النحل: ١٧]، وقوله تعالى: قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا} [الإسراء: ٤٢].

فقضية توحيد الربوبية التي جعل الله ﷻ الإقرار بها مركوزا في الفطر، وبعد ما أرسلت الرسل بزيادة بيانها والدعوة إلى عبادة الله وحده التي هي مقتضى الإقرار بتوحيد الربوبية، فهذه القضية أصبحت من بديهيات العقائد المعلومة لجميع الناس، لا عذر لأحد في إنكارها بدعوى الجهل أو الشبهة أو غيرها من الدعاوى؛ لأن إنكار ذلك يناقض الفطرة التي فطر الله الناس عليها ونصب الأدلة الباهرة عليها.

ولهذا فإذا أردنا تحديد مناط قيام الحجة على الناس في قضية توحيد الربوبية، فإننا نأخذ بعين الاعتبار بديهية المسألة وأنها فطرية، ولذلك جاءت الأدلة الشرعية للتذكير بهذه العقيدة الفطرية، وكذلك أدلة الخلق المنصوبة الدالة على وحدانية الخالق المدبر سبحانه وتعالى.

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله معلقا على آية الإشهاد في سورة الأعراف: (ولما كانت هذه آية الأعراف في سورة مكية، ذكر فيها الميثاق والإشهاد العام لجميع المكلفين ممن أقر بربوبيته ووحدانيته وبطلان الشرك. وهو ميثاق وإشهاد تقوم عليهم الحجة وينقطع به العذر، وتحل به العقوبة ويستحق بمخالفته الإهلاك، فلابد أن يكونوا ذاكرين له عارفين به، وذلك ما فطرهم عليه من الإقرار بربوبيته وأنه ربهم وفاطرهم، وأنهم مخلوقون مربوبون. ثم أرسل إليهم رسله يذكرونهم بما في فطرهم وعقولهم، ويعرفونهم حقه عليهم وأمره ونهيه ووعده ووعيده)[١].

وقال الشيخ الحكمي رحمه الله مبينا أنواع المواثيق التي أخذها الله ﷻ على بني آدم حتى يتحدد مناط قيام الحجة على الإنسان، قال: (... هذه المواثيق كلها

(١) الروح (٢/ ٥٥٥).

ثابتة بالكتاب والسنة:

الأول: الميثاق الذي أخذه الله تعالى عليهم حين أخرجهم من ظهر أبيهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى الآيات... وهو الذي قاله جمهور المفسرين رحمهم الله في هذه الآيات، وهو نص الأحاديث الثابتة في الصحيحين وغيرهما.

الميثاق الثاني: ميثاق الفطرة، وهو أنه تبارك وتعالى فطرهم شاهدين بما أخذه عليهم في الميثاق الأول، كما قال تعالى: {فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله} [الروم: ٣٠]...

الميثاق الثالث: هو ما جاءت به الرسل وأنزلت به الكتب تجديدا للميثاق الأول وتذكيرا به رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما} [النساء: ١٦٥].

فمن أدرك هذا الميثاق وهو باق على فطرته وهي شاهدة بما ثبت في الميثاق الأول، فإنه يقبل ذلك من أول مرة ولا يتوقف؛ لأنه جاء موافقا لما في فطرته وما جبله الله عليه، فيزداد بذلك يقينه ويقوى إيمانه، فلا يتلعثم ولا يتردد. ومن أدركه وقد تغيرت فطرته عما جبله الله من الإقرار بما ثبت في الميثاق الأول بأن كان قد اجتالته الشياطين عن دينه وهوده أبواه أو نصراه أو مجساه، فهذا إن تداركه الله تعالى برحمته فرجع إلى فطرته وصدق بما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، نفعه الميثاق الأول والثاني. وإن كذب بهذا الميثاق، كان مكذبا بالأول، فلم ينفعه إقراره به يوم أخذه الله عليه، حيث قال (بلى) جوابا لقوله تعالى: ألست بربكم} [الأعراف: ١٧٢]، وقامت عليه حجة الله وغلبت عليه الشقاوة وحق عليه العذاب. ومن يهن الله فما له من مكرم، إن الله يفعل ما يشاء.

ومن لم يدرك هذا الميثاق بأن مات صغيرا قبل التكليف، مات على الميثاق

الأول على الفطرة، فإن كان من أولاد المسلمين، فهم مع آبائهم. وإن كان من أولاد المشركين، فالله أعلم بما كان عاملا لو أدركه، كما في الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال ﷺ: (الله تعالى إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين)[١].

فتوحيد الربوبية قامت به الحجة القاطعة للعذر، ولهذا كان زبدة الرسالة المحمدية هي الدعوة إلى لازم هذا التوحيد وهو توحيد الألوهية، وهو عبادة الله وحده دون شريك، إذ انحراف الناس غالبا ما يكون في هذا النوع من التوحيد، ولهذا احتاجوا على مدى التاريخ البشري إلى الرسل التي تدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده دون شريك، قال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: ٥٦].

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: (وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف. ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد، وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا في غاية التوحيد. فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزهه عن كل ما ينزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحدا حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده. فيقر بأن الله وحده هو المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك)[٢].

والخلاصة أنه لما كان المشركون مقرين بتوحيد الربوبية بل وببعض

(١) معارج القبول (١/ ٤٠ – ٤٢).
(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص: ١٦).

تفاصيله، فالأولى والأحرى أن يكون المسلمون كذلك، فلا يتوقع إذن من مسلم أن يجهل هذا التوحيد أو تشتبه عليه بعض تفاصيله، فضلا عن أن ينكر شيئا من خصائص الرب عَزَّوَجَلَّ كالتفرد بالوحدانية والخلق والتدبير، أو ينسبه جل وعلا إلى نقص، كأن ينسب له الولد أو الصاحبة أو اللغوب أو غيرها من النقائص - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا-، أو أن يسب الله تعالى.. فهذا كله مما لا يتصور ورود الجهل فيه على أحد من المسلمين، لذلك إذا صدر من أحد شيء من هذه الكفريات، فإنه يكفر ولا يعذر بأي عذر كان جهل أو غيره. لكن أن يقع منهم الجهل بتوحيد الألوهية، فهذا وارد بل واقع، وهو أمر خطير جدا، لذلك يجب أن نرى حدود ما يعذر به المسلم إذا وقع فيما يخالف توحيد الألوهية[١].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في خاتمة كتابه الإغاثة: وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم كما... كان في قوم نوح عليه الصلاة والسلام ولهذا لعن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتخذين على القبور المساجد والسرج ونهى عن الصلاة إلى القبور وسأل ربه سبحانه وتعالى أن لا يجعل قبره وثنا يعبد ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيدا وقال: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وأمر بتسوية القبور وطمس التماثيل، قال فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كله إما جهلا وإما عنادا لأهل التوحيد ولم يضرهم ذلك شيئا وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين وأما خواصهم فإنهم اتخذوها بزعمهم على صور الكواكب المؤثرة في العالم عندهم وجعلوا لها بيوتا وسدنة وحجابا وحجا

---

(١) الجهل بمسائل الاعتقاد وحكمه (ص ١٢٦).

وقربانا ولم يزل هذا في الدنيا قديما وحديثا فمنها بيت على رأس جبل بأصبهان كانت به أصنام أخرجها بعض ملوك المجوس وجعله بيت نار ومنها بيت ثان وثالث ورابع بصنعاء بناه بعض المشركون على اسم الزهرة فخربه عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومنها بيت بناه قابوس الملك المشرك بالهند قال يحيى بن بشر إن شريعة الهند وضعها لهم رجل يقال له برهمن ووضع لهم أصناما وجعل أعظم بيوتها بيتا بمدينة من مدائن السند وجعل فيه صنمهم الأعظم وزعم أنه بصورة الهيولي الأكبر وفتحت هذه المدينة في أيام الحجاج واسمها الملتان إلى أن قال رحمه الله تعالى وأصل هذا المذهب من مشركي الصابئة وهم قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذين ناظرهم في بطلان الشرك وكسر حجتهم بعلمه وآلهتهم بيده فطلبوا تحريقه وهذا مذهب قديم في العالم وأهله طوائف شتى فمنهم من عباد الشمس زعموا أنها ملك من الملائكة لها نفس وعقل وهي أصل نور القمر والكواكب وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها وهي عندهم ملك الفلك يستحق التعظيم والسجود والدعاء ومن شريعتهم في عبادتها أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهر على نوع النار وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع وله سدنة وقوام وحجبة يأتون البيت ويصلون فيه ثلاث مرات في اليوم ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعون ويستسقون به وهم إذا طلعت الشمس سجدوا كلهم وإذا غربت وإذا توسطت الفلك ولهذا يقارفها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة لتقع عبادتهم وسجودهم له ولهذا نهى النبي ﷺ عن تحري الصلاة في هذه الأوقات قطعا لمشابهة الكفار ظاهرا وسدا لذريعة الشرك وعبادة الأصنام

قلت وقد ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ عبادة الشمس عن أهل سبأ من أرض اليمن في عهد بلقيس كما حكى قول الهدهد حيث قال: {وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ

مِنْ دُونِ اللهِ} [النمل: ٢٤] إلى آخر الآيات وهداها الله تعالى إلى الإسلام على يد نبيه سليمان عليه الصلاة والسلام حيث قال: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لله رَبِّ العَالَمِينَ} [النمل: ٤٤].

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى (فصل) وطائفة أخرى اتخذت للقمر صنما وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة وإليه تدبير هذا العالم السفلي ومن شريعة عباده أنهم اتخذوا لهم صنما على شكل عجل ويجره أربعة وبيد الصنم جوهرة ويعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياما معلومة من كل شهر ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والفرح والسرور فإذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه ومنهم من يعبد أصناما اتخذوها على صور الكواكب وروحانياتها بزعمهم وبنوا لها هياكل ومتعبدات لكل كوكب منها هيكل يخصه وصنم يخصه وعبادة تخصه ومتى أردت الوقوف على هذا فانظر في كتاب (السر المكتوم في مخاطبة النجوم) المنسوب لابن خطيب الري تعرف عبادة الأصنام وكيفية تلك العبادة وشرائطها وكل هؤلاء مرجعهم إلى عبادة الأصنام فإنهم لا تستمر لهم طريق إلا بشخص خاص على شكل خاص ينظرون إليه ويعكفون عليه ومن هنا اتخذ أصحاب الروحانيات والكواكب أصناما زعموا أنها على صورها فوضع الصنم إنما كان في الأصل على شكل معبود غائب فجعلوا الصنم على شكله وهيأته وصورته ليكون نائبا منابه وقائما مقامه وإلا فمن المعلوم أن عاقلا لا ينحت خشبة أو حجرا بيده ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده.

ومن أسباب عبادتها أيضا أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات وتدلهم على بعض ما يخفى عليهم وهم لا يشاهدون الشيطان فجهلتهم وسقطهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم المخاطب، وعقلاؤهم

يقولون إن تلك روحانيات الأصنام وبعضهم يقول إنها الملائكة وبعضهم يقول إنها هي العقول المجردة وبعضهم يقول هي روحانيات الأجرام العلوية وكثير منهم لا يسأل عما عهد بل إذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه إلها ولا يسأل عما وراء ذلك وبالجملة فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان ولم يتخلص منها إلا الحنفاء أتباع ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعبادتها في الأرض من قبل نوح عليه الصلاة والسلام كما تقدم وهياكلها ووقوفها وسدنتها وحجابها والكتب المصنفة في شرائع عبادتها طبق الأرض قال إمام الحنفاء وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ [إبراهيم: ٣٥ - ٣٦] والأمم التي أهلكها الله تعالى بأنواع الهلاك كلهم يعبدون الأصنام كما قص الله ﷻ ذلك عنهم في القرآن وأنجى الرسل وأتباعهم من الموحدين ويكفي في معرفة كثرتهم وأنهم أكثر أهل الأرض ما صح عن النبي ﷺ أن «بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون» (١)، وقد قال الله تعالى: فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا} [الإسراء: ٨٩] وقال الله تعالى: وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ} [الأنعام: ١١٦] وقال الله تعالى: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [يوسف: ١٠٣] وقال الله تعالى: وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٠٢] ولو لم تكن الفتنة بعبادة الأصنام عظيمة لما أقدم عبادها على بذل نفوسهم وأموالهم وأبنائهم دونها فهم يشاهدون مصارع إخوانهم وما حل بهم ولا يزيدهم ذلك إلا حبا لها وتعظيما ويوصي بعضهم بعضا بالصبر عليها وتحمل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها وهم يسمعون أخبار الأمم التي فتنت بعبادتها وما حل بهم من عاجل العقوبات ولا يثنيهم ذلك عن عبادتها ففتنة عبادة الأصنام أشد من فتنة عشق الصور وفتنة الفجور بها والعاشق لا يثنيه عن مراده خشية عقوبة في الدنيا ولا في الآخرة وهو

يشاهد ما يحل بأصحاب ذلك من الآلام والعقوبات والضرب والحبس والنكال والفقر غير ما أعد الله له في الآخرة وفي البرزخ ولا يزيده ذلك إلا إقداما وحرصا على الوصول والظفر بحاجته فهكذا الفتنة بعبادة الأصنام وأشد فإن تأله القلوب لها أعظم من تألهها للصور التي يريد منها الفاحشة بكثير والقرآن بل وسائر الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها مصرحة ببطلان هذا الدين وكفر أهله وأنهم أعداء الله وأعداء رسله وأنهم أولياء الشيطان وعباده وأنهم هم أهل النار الذين لا يخرجون منها وهم الذين حلت بهم المثلات ونزلت بهم العقوبات وأن الله سبحانه بريء منهم هو وجميع رسله وملائكته وأنه سبحانه لا يغفر لهم ولا يقبل لهم عملا وهذا معلوم بالضرورة من الدين الحنيف وقد أباح الله ﷻ لرسوله وأتباعه من الحنفاء دماء هؤلاء وأموالهم ونساءهم وأبناءهم وأمرهم بتطهير الأرض منهم حيث وجدوا وذمهم بسائر أنواع الذم وتوعدهم بأعظم أنواع العقوبة فهؤلاء في شق ورسل الله في شق[1].

(ومن أعمال أهل الشرك) التي لا يفعلها غيرهم ولا تليق إلا بعقولهم السخيفة، وأفئدتهم الضعيفة، وقلوبهم المطبوع عليها، وأبصارهم المغشي عليها (ما) أي الذي (لم يأذن الله) ﷻ في كتابه ولا سنة نبيه (بأن يعظما) بألف الإطلاق، وأن ومدخولها في تأويل مصدر أي لم يأذن الله بتعظيمه ذلك التعظيم الذي منحه إياه من لم يفرق بين حق الله تعالى وحقوق عباده من النبيين والأولياء وغيرهم، بل لم يفرق بين أولياء الله وأعدائه ولا بين طاعته ومعصيته، فيتخذ من دون الله أندادًا وهو يرى أن ذلك الذي فعله قربة وطاعة لله وأن الله يحب ذلك ويرضاه، ويكذِّب الرسل ويدَّعي أنه من أتباعهم، ويوالي أعداء الله وهو يظنهم أولياؤه، كفعل اليهود والنصارى يجاهرون الله بالمعاصي ويكذبون

---

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول بتصرف (ص٥٨٤).

كتابه ويغيرونه ويبدلونه ويحرفون الكلم عن مواضعه ويقتلون الأنبياء بغير الحق وينسبون لله سبحانه وتعالى الولد ويفعلون الأفاعيل ويقولون نحن أبناء الله وأحباؤه، وهم البُغَضَاء إلى الله وأعداؤه وسبب هذا كله - في الأمم الأولى والأخرى - هو الإعراض عن الشريعة وعدم الاهتمام لمعرفة ما احتوت عليه الكتب من البشارة والنذارة والأمر والنهي والحلال والحرام والوعد والوعيد، ومعرفة ما يجب لله على عباده فعله وما يجب تركه (كمن يَلُذ ببقعة) أي يعوذ بها ويختلف إليها ويتبرك بها ولو بعبادة الله تعالى عندها، وتقدم تقييد ذلك بما لم يأذن به الله، فيخرج بهذا القيد ما أذن الله تعالى بتعظيمه كتعظيم بيته الحرام بالحج إليه وتعظيم شعائر الله من المشاعر والمواقف وغيرها، فإن ذلك تعظيم لله ﷻ الذي أمر بذلك لا لتلك البقعة ذاتها كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما استلم الحجر الأسود: (أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك) (١)، وكذلك التعظيم أيضًا نفسه إنَّما أردنا منع تعظيم لم يأذن الله به لا المأذون فيه، فإن الله تعالى قد أمر بتعظيم الرسل بأن يطاعوا فلا يعصوا ويحبوا ويتبعوا، وأن طاعة الرسول هي طاعة الله ﷻ ومعصيته معصية الله ﷻ، فهذا تعظيم لا يتم الإيمان إلا به إذ هو عين تعظيم الله تعالى، فإنهم إنما عُظموا لأجل عظمة المرسل سبحانه وتعالى وأُحبوا لأجله واتُّبعوا على شرعه، فعاد ذلك إلى تعظيم الله ﷻ، فلو أن أحدًا عظم رسولًا من الرسل بما لم يأذن الله به ورفعه فوق منزلته التي أنزله الله ﷻ وغلا فيه حتى اعتقد فيه شيئًا من الإلهية لانعكس الأمر وصار عين التنقص والاستهانة بالله وبرسله كفعل اليهود والنصارى الذي ذكر الله ﷻ عنهم من غلوهم في الأنبياء والصالحين كعيسى وعزير، فكذبوا بالكتاب وتنقصوا الرب ﷻ بنسبة الولد إليه وغير ذلك وكذبوا الرسول في قوله: إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا

[مريم: ٣٠] فصار ذلك التعظيم في اعتقادهم هو عين التنقص والشتم، سبحان الله عما يصفون، وسلام على المرسلين (أو حجر، أو قبر ميت، أو ببعض الشجر) أو غير ذلك من العيون ونحوها ولو بعبادة الله عندها فإن ذلك ذريعة إلى عبادتها ذاتها كما فعل إبليس لعنه الله بقوم نوح حيث أشار عليهم بتصوير صالحيهم ثم بالعكوف على قبورهم وصورهم وعبادة الله عندها إلى أن أشار عليهم بعبادتها ذاتها من دون الله تعالى فعبدوها، (متخذًا لذلك المكان) من القبور والأشجار والعيون والبقاع وغيرها (عيدًا) أي ينتابها ويعتاد الاختلاف إليها (كفعل عابدي الأوثان) في تعظيمهم أوثانهم واعتيادهم إليها، ولذا سمى النبي ﷺ العكوف على الأشجار وتعليق الأسلحة بها على جهة التعظيم (تألهًا)، كما في الترمذي عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عليها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون لتركبن سنن من قبلكم» ولقد عمت البلوى بذلك وطمت في كل زمان ومكان حتى في هذه الأمة لاسيما زماننا هذا، ما من قبر ولا بقعة يذكر لها شيء من الفضائل ولو كذبًا إلا وقد اعتادوا الاختلاف إليها والتبرك بها حتى جعلوا لها أوقاتًا معلومة يفوت عيدهم بفواتها ويرون من أعظم الخسارات أن يفوت الرجلَ ذلك العيد المعلوم وآل بهم الأمر إلى أن صنفوا في أحكام حجهم إليها كتبًا سموها مناسك حج المشاهد ومن أخل بشيء منها فهو عندهم أعظم جرمًا ممن أخل بشيء من مناسك الحج إلى بيت الله الحرام، وجعلوا لها طوافًا معلومًا كالطواف بالبيت الحرام، وشرعوا تقبيلها كما

يقبِّل الحجر الأسود حتى قالوا إن زحمت فاستلم بمحجن أو أشر إليه، قياسًا على فعل النبي ﷺ بالحجر الأسود، وشرعوا لها نذورًا من المواشي والنقود، ووقفوا عليها الوقوف من العقارات والحرث وغيرها وغير ذلك من شرائعهم الشيطانية، وقواعدهم الوثنية[1].

(باب بدعية طريقة المتكلمين في الاستدلال على وجود الخالق)

إن الإيمان به تعالى والإقرار بوجوده أمر فطرت عليه القلوب، أعظم من فطرتها على الإقرار بغيره من الموجودات، فهو سبحانه أبين وأظهر من أن يجهل، فيطلب الدليل على وجوده.

يقول الحافظ العلامة ابن القيم: "سمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟ وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من جود النهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما"[2].

لذلك لم يكن إثبات وجود الله تبارك وتعالى من حيث هو موجود من الأهداف القرآنية، ولم يكن ذلك هدفا من أهداف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ، ولهذا قالت الرسل لأممهم: {أفي الله شك} [إبراهيم: ١٠]. إلا أن القرآن الكريم لم يتجاهل هذه القضية بل نبه إليها، وأشار إلى دلائلها؛ إذ الفطر قد تتغير وتفسد، والإيمان واليقين قد يضعف، فأقام الله عز وجل من الدلائل الباهرة، والبراهين القاطعة ما يبهر العقول، ويقود

---

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول (ص٦٤).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٦٠).

القلوب إلى التسليم والانقياد، فكل شيء يدل على وجود الله تعالى؛ إذ ما من شيء إلا وهو أثر من آثار قدرته سبحانه، وما ثم إلا خالق ومخلوق، والمخلوق يدل على خالقه فطرة وبداهة، إذ ما من أثر إلا وله مؤثر، كما اشتهر في قول الأعرابي الذي سئل: كيف عرفت ربك؟ فقال - بفطرته السليمة - البعرة تدل على البعير؛ والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، أرض ذات فجاج، وجبال وبحار وأنهار، أفلا تدل على السميع البصير؟[(١)].

فهذه المسألة - مع منتهى وضوحها وجلائها - تخبط الناس فيها خبط عشواء، وأكثروا فيها القيل والقال، واشتد بينهم النزاع، وطال الجدال.

ويعتبر المتكلمون أكثر من اشتغل بتقرير وجود الخالق ﷻ والاستدلال له، غير أنهم لم يسيروا في ذلك على منهج الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، وإنما أتوا بطريقة مخترعة مستمدة من الفلسفة والمنطق اليوناني، فترتب على ذلك مفاسد عديدة في أبواب الاعتقاد. سلك المتكلمون في الاستدلال على إثبات وجود الله تعالى، طريقة مبتدعة، مذمومة في الشرع، كما أنها مخطرة، مخوفة في العقل، ألا وهي ما يسمونه (دليل الأعراض وحدوث الأجسام).

واعتمدوا فيما نهجوه على الجواهر والأعراض[(٢)] وما يتعلق بها من الإمكان أو الحدوث أو غير ذلك مما ذكروه، لكون العالم مؤلفا من أجزاء حادثة، والمؤلف من أجزاء حادثة حادث، والحادث جائز الوجود؛ إذ يجوز تقديره عدما قبل الوجود، فلما اختص العالم بالوجود الممكن بدلا عن العدم الجائز احتاج إلى موجد وافتقر إلى صانع وهو الله تعالى[(٣)].

---

(١) ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان لابن الوزير (ص: ٨٣).
(٢) الإرشاد للجويني (ص: ٣٩)، والتعريفات للجرجاني (ص: ٧٩)، (ص: ١٤٩).
(٣) انظر على سبيل المثال المختصر في أصول الدين لعبد الجبار (ص: ١٧٢ - ١٧٣)، =

قال الإيجي: "قد علمت أن العالم إما جوهر أو عرض، قد يستدل على إثبات الصانع بكل واحد منهما إما بإمكانه أو بحدوثه، بناء على أن علة الحاجة عندهم إما الحدوث وحده أو الإمكان مع الحدوث شرطا أو شطرا فهذه وجوه أربعة:

الأول: الاستدلال بحدوث الجواهر، قيل: هذه طريقة الخليل صلوات الرحمن وسلامه عليه، حيث قال: قال لا أحب الآفلين} [الأنعام: ٧٦]، وهو أن العالم الجوهري أي المتحيز بالذات حادث كما مر، وكل حادث فله محدث كما تشهد بذلك بديهة العقل[١].

وأما إدعاؤهم أن طريقتهم في الاستدلال على وجود الله تعالى بدليل الجواهر والأعراض الدال على حدوث العالم هي طريقة إبراهيم الخليل فيما حكى الله عنه في قوله: فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال {لا أحب الآفلين} [الأنعام: ٧٦] فادعاء باطل مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول وللغة العربية التي نزل بها القرآن واستدلال في غير محله، فإن أحدا من سلف الأمة وأئمتها أهل العلم والإيمان لم يقل بذلك، كما ذكر الإمام الدارمي، وغيره من علماء أهل السنة؛ بل وبينوا أن هذا من التفاسير المبتدعة[٢].

وقد فسر أئمة المفسرين: الأفول بـ (المغيب)[٣]. وكذا فسره أهل اللغة

=

التوحيد للماتريدي (ص: ١٢٩، ٢٣١، ٢٣٣)، والإرشاد للجويني (ص: ٣٩)، وتهافت الفلاسفة للغزالي (ص: ٣٩) ونهاية الإقدام للشهرستاني (ص: ٥ - ٦)، المحصل للرازي (ص: ١٤٧)، التمهيد للباقلاني (ص: ٣٧).

(١) شرح المواقف، ومعه شرح الجرجاني (٢/ ٢ - ٣) وما بعدها.

(٢) رد الإمام الدارمي على بشر المريسي (ص: ٥٥)، ودرء التعارض لابن تيمية (١/ ٣١٤).

(٣) تفسير الطبري (٥/ ٢٤٦)، وتفسير البغوي (٢/ ٩٠)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٥٦).

وغريب القرآن بذلك[١].

ثم إن إبراهيم عليه السلام لم يكن يقصد الاستدلال بمجرد الحركة على نفي الربوبية، ولو كان يقصد ذلك لكفاه تحرك هذه الكواكب من مشرقها إلى مغربها دليلا على ما أراد، وإنما استدل بأفولها ومغيبها عن عين عابديها على عدم استحقاقها للعبادة، لأن الذي يستحق العبادة لا ينبغي أن يغيب عن عين عابدة لحظة واحدة، وهذه الكواكب لا تملك لنفسها أن تمنعها من الإحتجاب والمغيب عن أعين عابديها فلا تصلح أن تكون آلهة تعبد من دون الله.

فهذه طريقة إبراهيم عليه السلام في نفي ألوهية الكواكب، وهذا هو مقصوده مما يناقض ما ذهب إليه المتكلمون في تأويلهم الأفول بالحركة والتغير واستدلالهم بذلك لتقرير منهجهم العقلي في إثبات وجود الله المبني على دليل الإمكان والوجوب أو الجواهر والأعراض[٢].

وهكذا نجد المتكلمين يستدلون على حدوث العالم بحدوث الأعراض التي هي صفات الأجسام القائمة بها إما الأكوان وإما غيرها، وتقرير المقدمات التي يحتاج إليها هذا الدليل من إثبات الأعراض التي هي الصفات أولا، أو إثبات بعضها كالأكوان التي هي الحركة والسكون والاجتماع والافتراق، وإثبات حدوثها ثانيا، بإبطال ظهورها بعد الكون وإبطال انتقالها من محل إلى محل ثم إثبات امتناع خلو الجسم ثالثا، إما عن كل جنس من أجناس الأعراض

(١) الصحاح للجوهري (٤/ ٦٢٣)، ومعجم مقاييس اللغة العربية لابن فارس (١/ ١١٩)، ولسان العرب لابن منظور (١١/ ١٨) (مادة: الأفل) والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٢٣).

(٢) درء التعارض (١/ ٣١٤ - ٣١٥)، (٨/ ٣٥٥ - ٣٥٦)، (٩/ ٨٢ - ٨٤)، ومنهاج السنة (١/ ٤٤ - ١٤٥)، (٢/ ١٤١ - ١٤٣)، والرد على المنطقيين (ص: ٣٠٤ - ٣٠٥)، وبغية المرتاد (ص: ٣٦٠ - ٣٧٤).

بإثبات أن الجسم قابل لها، وأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده، وإما عن الأكوان وإثبات امتناع حوادث لا أول لها رابعا، وهو مبني على مقدمتين:

أحدهما: أن الجسم لا يخلو عن الأعراض التي هي الصفات.

والثانية: أن ما لا يخلو عن الصفات التي هي الأعراض فهو محدث؛ لأن الصفات التي هي الأعراض لا تكون إلا محدثة، وقد يفرضون ذلك في بعض الصفات التي هي الأعراض كالأكوان، وما لا يخلو عن جنس الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا تتناهى[1].

ومن خلال ما سبق عرضه لا يخالج أحدا شك في صعوبة هذا الدليل، وشدة غموضه وتعقيده، واشتماله على مقدمات عسيرة عويصة، مما لا يؤمن معه على سالكه ومقتفيه التعثر وسوء المغبة وبعد التيه، فهي كما قيل: لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل.

وليعلم أن الاستدلال بحدوث أشياء وتغيرها وتحولها من حال إلى حال في حد ذاته استدلال صحيح، نبه عليه القرآن الكريم وأشار إليه في أكثر من موضع، غير أن الأمر الذي هو محل النقد في هذا الدليل هو طريقتهم في إثبات حدوث العالم، ومن ثم زعمهم أن طريقتهم تلك هي طريقة إبراهيم الخليل عليه السلام.

وعلى كل، فقد اشتد نكير أهل العلم من أهل السنة والجماعة، بل وحتى المحققين من المتكلمين على مسلك هذه الطريقة، وحصر الدليل على إثبات وجود الله تعالى فيها.

نص ما حكاه شيخ الإسلام من الإجماع: ناقش شيخ الإسلام استدلال المتكلمين بهذا الدليل في كثير من رسائله ومؤلفاته، وأوضح بطلان هذا الدليل بالمنقول والمعقول، وكان من جملة ما استدل به على بطلانه، واحتج به اتفاق

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٠٣ - ٣٠٤).

السلف - رحمهم الله-، وانعقاد إجماعهم على بدعية هذه الطريقة التي سلكها المتكلمون في إثبات الصانع، وذمهم لها، حيث قال: (المقصود هنا أن كثيرا من أهل النظر صار ما يوجبونه من النظر والاستدلال ويجعلونه أصل الدين والإيمان هو هذه الطريقة المبتدعة في الشرع المخالفة للعقل الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمها وذم أهلها)[١].

وقال أيضا: (ولكن الاستدلال على ذلك بالطريقة الجهمية المعتزلة، طريقة الأعراض والحركة والسكون، التي مبناها على أن الأجسام محدثة لكونها لا تخلو عن الحوادث، وامتناع حوادث لا أول لها، طريقة مبتدعة في الشرع باتفاق أهل العلم بالسنة، وطريقة مخوفة في العقل، بل مذمومة عند طوائف كثيرة)[٢].

وذكر (أن هذا الدليل لم يستدل به أحد من الصحابة والتابعين ولا من أئمة المسلمين، فلو كانت معرفة الرب ﷻ والإيمان به موقوفة عليه للزم أنهم كانوا غير عارفين بالله ولا مؤمنين به، وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين؛ بل إن الأنبياء والمرسلين لم يأمروا واحدا بسلوك هذا السبيل، فلو كانت المعرفة موقوفة عليه وهي واجبة لكان واجبا، وإن كانت مستحبة كان مستحبا، ولو كان واجبا أو مستحبا لشرعه رسول الله ﷺ، ولو كان مشروعا لنقلته الصحابة)[٣].

قال: (الإقرار بالصانع فطري ضروري بديهي لا يجب أن يتوقف على النظر والاستدلال؛ بل قد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن معرفة الله والإقرار به لا يقف على هذه الطرق التي ذكرها أهل طريقة النظر)[٤].

---

(١) النبوات (ص: ٨٥).
(٢) منهاج السنة النبوية (١/ ٣٠٣).
(٣) نقض التأسيس (١/ ٦١٩).
(٤) نقض التأسيس (٢/ ٤٧٣).

وقال أيضا: (أن أصل المعرفة والإقرار بالصانع لا يقف على النظر والاستدلال؛ بل يحصل بديهة وضرورة؛ ولهذا يقر بالصانع جميع الأمم مع عظيم شركهم وكفرهم وأنهم لا يسلكون من هذه الطرق المشهورة عند النظار مثل الاستدلال بالحدوث على المحدث، وبالإمكان على الواجب)(١).

ونقل كلاما لأبي الحسن الأشعري ضمنه اتفاق السلف على الاستغناء عن هذه الطريقة، وأقره على ذلك(٢).

وبين (أن طريقة الاستدلال بما يشاهد حدوثه قد جاء به القرآن، واتفق عليها السلف والأئمة، ولكن تمشيا مع الضرورة والحس، ولا يحتاج مع ذلك إلى إقامة دليل على حدوث ما يحدث من الأعيان، بل يستدل بذلك على وجود المحدث تعالى)(٣).

وفي ذلك يقول: (طريقة الاستدلال بما يشاهد حدوثه جاء بها القرآن، واتفق عليها السلف والأئمة)(٤).

ذكر من حكى الإجماع أو نص على المسألة ممن سبق شيخ الإسلام: (لقد أنكر أهل العلم - رحمهم الله- على المتكلمين سلوكهم هذه المسالك المعقدة، فوسموهم بالبدعة والضلالة، وبينوا فساد طريقتهم عقلا، وتحريمها شرعا، وأقوال أهل العلم - رحمهم الله- في بيان عظم خطر هذه الطريقة وصعوبتها كثيرة، ومن ذلك إجابة أبي حنيفة حينما سأله السائل عما أحدثه الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: مقالات الفلاسفة، عليك

(١) نقض التأسيس (٢/ ٤٧٣).
(٢) درء التعارض (٧/ ٢٢٤).
(٣) درء التعارض (٧/ ٢٢٣).
(٤) درء التعارض (٥/ ٢٩٤).

بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة؛ فإنها بدعة)[(١)].

وقد سئل القاضي ابن سريج عن التوحيد، فذكر توحيد المسلمين، وقال: (وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض في الجواهر والأعراض، وإنما بعث النبي ﷺ بإنكار ذلك)[(٢)].

وعقب شيخ الإسلام على هذا القول بقوله: (ولم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين، فإنهما لم يكونا قد أحدثا في زمنه، وإنما أراد إنكار ما يعنى بها من المعاني الباطلة؛ فإنه أول من أحدثهما الجهمية والمعتزلة)[(٣)].

ويقول أبو الحسن الأشعري: (وإذا ثبت بالآيات صدقه ﷺ، فقد علم صحة كل ما أخبر به النبي ﷺ عنه، وصارت أخباره عليه السلام أدلة على صحة سائر ما دعانا إليه من الأمور الغائبة عن حواسنا وصفات فعله، وصار خبره عليه السلام عن ذلك سبيلا إلى إدراكه، وطريقا إلى العلم بحقيقته، وكان ما يستدل به من أخباره عليه السلام على ذلك أوضح دلالة من دلالة الأعراض التي اعتمد على الاستدلال بها الفلاسفة، ومن اتبعها من القدرية، وأهل البدع المنحرفين عن الرسل عليهم السلام)[(٤)].

وبين صعوبة هذا الدليل، وشدة خفائه، وكثرة مقدماته، وأشار إلى أن السلف الصالح ومن تبعهم من الخلف قد عدلوا عن هذه الطرق المعقدة الغامضة. وأعرضوا عما صارت إليه الفلاسفة ومن اتبعهم من القدرية وغيرهم من أهل البدع من الاستدلال بذلك، لاستغنائهم بالأدلة الواضحة في ذلك

---

(١) ذكره ابن قدامة المقدسي في ذم التأويل (ص: ٣٢، ٣٣).

(٢) نقله عنه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٠٥).

(٣) نقله عنه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٠٥).

(٤) رسالة إلى أهل الثغر (ص: ١٨٤، ١٨٥).

عنه[١].

وممن قرر اتصاف هذه الطريقة بالاعوجاج والخطورة، ووجود الغنية فيما استدل به السلف - رحمهم الله- ؛ لما فيه من الوضوح والسلامة أبو سليمان الخطابي حيث قال: (فإن قال هؤلاء القوم: فإنكم قد أنكرتم الكلام، ومنعتم استعمال أدلة العقول، فما الذي تعتمدون عليه في صحة أصول دينكم؟ ومن أي طريق تتوصلون إلى معرفة حقائقها؟ وقد علمتم أن الكتاب لم يعلم حقه، وأن الرسول لم يثبت صدقه إلا بأدلة العقول، وأنتم قد نفيتموها؟!.

قلنا: إننا لا ننكر أدلة العقول والتوصل بها إلى المعارف، ولكننا لا نذهب في استعمالها إلى الطريقة التي سلكتموها في الاستدلال بالأعراض وتعلقها بالجواهر، وانقلابها فيها على حدوث العالم وإثبات الصانع، ونرغب إلى ما هو أوضح بيانا وافصح برهانا... - إلى أن قال - فأما مثبتوا النبوات فقد أغناهم الله تعالى عن ذلك، وكفاهم كلفة المؤونة في ركوب هذه الطريقة المنعرجة التي لا يؤمن العنت على راكبها، والابتداع والانقطاع على سالكها)[٢].

وقال - بعد ما ذكر جملة من الأدلة على إثبات الصانع ﷻ ومال إلى الأدلة الشرعية منها -: (وقد أبى متكلموا زماننا هذا، إلا الاستدلال بالأعراض وتعلقها بالجواهر وانقلابها فيها، وزعموا أنه لا دلالة أقوى من ذلك ولا أصح منه. ونحن وإن كنا لا ننكر الاستدلال بهذا النوع من الدلالة، فإن الذي نختاره ونؤثره هو ما قدمنا ذكره؛ لأنه أدلة اعتبار وطريق السلف من علماء أمتنا، وإنما

(١) رسالة إلى أهل الثغر (ص: ١٨٦ - ١٩١).

(٢) الغنية عن الكلام وأهله للخطابي نقلا عن نقض التأسيس (١/ ٢٥٤)، ودرء التعارض (٧/ ٢٩٢ - ٢٩٤).

سلك المتكلمون في الاستدلال بالأعراض مذهب الفلاسفة وأخذوه عنهم)[(١)].

وقد تنبه أبو حامد الغزالي إلى بدعية هذا الدليل، وأنه ليس من طريقة الرسول ﷺ، ولا صحابته رضوان الله عليهم، فأعلن ذلك رغم سلوكه له حيث يقول: (فليت شعري متى نقل عن رسول الله ﷺ، أو عن الصحابة رضي الله عنهم إحضار أعرابي أسلم، وقوله له: الدليل على أن العالم حادث: أنه لا يخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث)[(٢)].

أما أبو الحسن الآمدي - فقد قلل من شأن هذا الدليل، فقال بعد أن نقله بطوله: (وهو عند التحقيق سراب غير حقيقة)[(٣)].

وكذا يرى ابن رشد الحفيد عدم صحة هذا الدليل، أو جدواه، ويرى أن في غيره من الطرق الشرعية غنية عنه، ويظهر ذلك بوضوح من خلال نقده لطريقة الأشعرية في إثبات وجود الخالق بهذا الدليل حيث قال: (وطريقتهم التي سلكوا في بيان حدوث الجزء الذي لا يتجزأ، وهو الذي يسمونه الجوهر الفرد: طريقة معتاضة، تذهب عن كثير من أهل الرياضة في صناعة الجدل، فضلا عن الجمهور، ومع ذلك فهي طريقة غير برهانية، ولا مفضية بيقين إلى وجود الباري)[(٤)].

واستدل ابن عبد البر على فساد هذه الطريقة وبدعيتها، بعدم سلوك الصحابة لها، مع ما نطق به القرآن من تزكيتهم وتقديمهم، والإطناب في مدحهم وتعظيمهم، فلو كانت هذه الطريقة لديهم مشهورة، أو من أخلاقهم معروفة

---

(١) كتاب شعار الدين للخطابي، نقلا عن نقض التأسيس (١/ ٢٤٩ - ٢٥٠)، ودرء التعارض (٧/ ٢٩٤).

(٢) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي (ص: ١٢٧، ٢٠٢، ٢٠٣).

(٣) غاية المرام في علم الكلام للآمدي (ص: ٢٦٠).

(٤) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد (ض: ٤٣).

لاستفاض عنهم النقل، ولتواترت بها الرواية والخبر، وفي ذلك يقول: (ولو كان النظر في الحركة والسكون عليهم واجبا، وفي الجسم ونفيه، والتشبيه ونفيه لازما، ما أضاعوه، ولو أضاعوا الواجب ما نطق القرآن بتزكيتهم وتقديمهم، ولا أطنب في مدحهم وتعظيمهم. ولو كان ذلك من علمهم مشهورا، أو من أخلاقهم معروفا لاستفاض عنهم، ولشهروا به كما شهروا بالقرآن والروايات)(١).

وبنحو ما استدل به ابن عبد البر استدل أبو المظفر السمعاني حيث يقول: (وقد علمنا أن النبي ﷺ لم يدعهم في هذه الأمور إلى الاستدلال بالأعراض والجواهر وذكر ماهيتهما، ولا يمكن لأحد من الناس أن يروي في ذلك عنه ولا عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم من هذا النمط حرفا واحدا فما فوقه، لا في طريق تواتر ولا آحاد، فعلمنا أنهم ذهبوا خلاف مذهب هؤلاء وسلكوا غير طريقهم، وأن هذا طريق محدث مخترع لم يكن عليه رسول الله ﷺ، ولا أصحابه رضي الله عنهم، وسلوكه يعود عليهم بالطعن والقدح ونسبتهم إلى الجهل وقلة العلم في الدين واشتباه الطريق عليهم)(٢).

وما أصدق عبارة ابن عقيل في هذه القضية: (أنا أقطع أن الصحابة ماتوا ولم يعرفوا لا الجوهر ولا العرض. فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن. وإن رأيت طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت)(٣).

وأشار العمراني إلى تصريح العلماء بتحريم الكلام، وبدعية هذا الطريق بقوله: (قد صرح العلماء من أهل الحديث والفقهاء المشهورون بتحريم الكلام، وقالوا هو محدث وبدعة في الدين، وقالوا لو كان طريقا صحيحا لمعرفة

---

(١) التمهيد لابن عبد البر (٧/ ١٥٢).
(٢) الانتصار لأهل الحديث للسمعاني (ص: ٦٩، ٧٠، ٧١).
(٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص: ٨٥).

الله سبحانه لنبه الله سبحانه في القرآن ولأمر النبي ﷺ به وتكلمت به الصحابة رضي الله عنهم. وقد علم النبي ﷺ أصحابه الاستنجاء ودلهم على جميع الأحكام فلو كان الكلام من مهمات الدين لنبه النبي ﷺ عليه)[١].

مستند الإجماع: استند العلماء في إجماعهم في هذه المسألة على ما ورد من نصوص كثيرة في الكتاب والسنة من النهي عن الابتداع في الدين، ولا سيما في مسألة مهمة كهذه، تتعلق بعقيدة المسلم وأصل دينه.

فقد تتبع أهل العلم آي الكتاب، وكلام رب الأرباب، وسنة رسول الله ﷺ ما تواتر منها وما كان من أحاديث الآحاد، وأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم من الأئمة المتبوعين، فلم يقفوا على حرف واحد يدل على تلك الطريقة المذمومة، فانعقد على الحكم ببدعيتها إجماعهم، واتفقت على ذم أهلها أقوالهم.

وإنما جاء التنبيه على دلالة الخلق والإبداع في القرآن الكريم في عدة مواضع كقوله تعالى: أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون} [الطور: ٣٥ - ٣٦]، وقوله تعالى: أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا [مريم: ٦٧]، وقوله تعالى: وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا [مريم: ٩].

والمتأمل في كتاب الله يجده مملوءا بالآيات التي تدعو الإنسان إلى النظر والتفكر تلك الدلائل القاطعة المبثوثة في الآفاق وفي الأنفس، لا النظر الذي سلكه المتكلمون في استدلالهم بدليل الأعراض وحدوث الأجسام.

فالاستدلال بالآيات الكونية وما هو مشاهد ومحسوس وما تدل عليه الضرورة والفطر والحس منهج قويم من مناهج أهل السنة والجماعة، فقد عقد

---

(١) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار للعمراني (١/ ١٢٩).

أهل العلم - رحمهم الله تعالى - فصولا كثيرة في كتبهم ساقوا تحتها عددا كبيرا من الآيات والأحاديث وأقوال السلف للدلالة على وحدانية الله ﷻ بدليل خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والجبال والهواء والماء وخلق الإنسان وانتقاله من طور النطفة إلى العلقة ثم المضغة ثم العظام ثم إنشائه خلقا آخر.

ولعل من أبلغ الأدلة الحاثة على الاستدلال بما هو مشاهد ومحسوس من الآيات الكونية المبثوثة في الآفاق وفي الأنفس قول الله تعالى: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد} [فصلت: ٥٣].

وقوله تعالى: {وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون} [الذاريات: ٢٠ - ٢١].

وعلى كل؛ فلم يرد في كتاب الله ولا سنة رسول الله ولا أقوال السلف الصالح ما يشير إلى مسلك المتكلمين في هذه المسألة، بل جاء التحذير منه والحكم ببدعيته، واشتد نكير أهل العلم على من سكله وقرره[1].

قال شيخ الإسلام اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨٥٤): ومن أهل الكلام: من أطال نظره في تقرير هذا التوحيد- توحيد الربوبية-: إما بدليل أن الاشتراك يوجب نقص القدرة وفوات الكمال، وبأن استقلال كل من الفاعلين بالمفعول محال، وإما بغير ذلك من الدلائل، ويظن أنه بذلك قرر الوحدانية وأثبت أنه لا إله إلا هو، وأن الإلهية هي: القدرة على الاختراع أو نحو ذلك، فإذا ثبت أنه لا يقدر على الاختراع إلا الله، وأنه لا شريك له في الخلق، كان هذا معنى قولنا: لا إله إلا الله، ولم يعلم أن مشركي العرب كانوا مقرين بهذا التوحيد، كما قال

---

(١) المسائل العقدية التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع (ص: ٢٣٧).

تعالى: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله} [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: {قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون الآيات، وقال تعالى وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون} [يوسف: ١٠٦] قال ابن عباس وغيره: (تسألهم: من خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم مع ذلك يعبدون غيره) وهذا التوحيد هو من التوحيد الواجب، لكن لا يحصل به الواجب، ولا يخلص بمجرده عن الإشراك الذي هو أكبر الكبائر، الذي لا يغفره الله، بل لا بد أن يخلص لله الدين، فلا يعبد إلا إياه، فيكون دينه كله لله.

(باب ذكر بعض منكري الربوبية)

مسألة: الإلحاد

الإلحاد هو: مذهب فلسفي يقوم على فكرة عدمية أساسها إنكار وجود الله الخالق سبحانه وتعالى، فيدّعي الملحدون بأن الكون وجد بلا خالق وأن المادة أزلية أبدية، وهي الخالق والمخلوق في نفس الوقت. ومما لا شك فيه أن كثيرًا من دول العالم الغربي والشرقي تعاني من نزعة إلحادية عارمة جسدتها الشيوعية المنهارة والعلمانية المخادعة.

والمراد بالإلحاد الذي نحن بصدد دراسته. كل فكر يتعلق بإنكار وجود خالق هذا الكون سبحانه وتعالى. سواء أكان عند المتقدمين من الدهرية أو عند من جاء بعدهم من الشيوعيين الماركسيين بمعنى أن وصف الإلحاد يشمل كل من لم يؤمن بالله تعالى ويزعم أن الكون وجد بذاته في الأزل نتيجة تفاعلات جاءت عن طريق الصدفة دون تحديد وقت لها واعتقاد أن ما وصل إليه الإنسان منذ أن وجد وعلى امتداد التاريخ من أحوال في كل شؤونه إنما وجد عن طريق التطور لا أن هناك قوة إلهية تدبره وتتصرف فيه.

ولا ريب أن الإلحاد فكرة شيطانية باطلة لا يقبلها عقل ولا منطق غذاها اليهود لتحطيم حضارات وأديان العالم كلهم لإقامة حكمهم في الأرض كلها كما دونوه في كتبهم. وقد يسأل سائل فيقول وما مصلحة اليهود من وراء ظهور الإلحاد؟، والجواب هو إضافة إلى ما سبق فإن اليهود يبغضون ديانات العالم كله، والعالم يبغضون ديانة اليهود فإذا تمكن اليهود من إبعاد الناس عن حضاراتهم ودياناتهم واستبدلوا عن ذلك بالإلحاد فإنه سيسهل حينئذ أن يتقارب اليهود مع غيرهم وسيسهل قيادتهم أيضا إلى تحقيق المخططات اليهودية التي تنتظر التنفيذ.

ولم يكن أحد من البشر منذ أن أوجدهم الله تعالى مستيقنا حقيقة إنكار وجود الله تعالى ولم يظهر في شكل مذهب أو دول. وإنما كان ظهوره في شكل نزعات لبعض الأشرار الشواذ إلى أن ظهرت الفلسفة الإلحادية الحديثة المنحرفة على يدي "ماركس" ورفاقه من اليهود الماسون الذين كانوا وراء إشعال هذه الفتنة الإلحادية لمآرب سياسية {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل: ١٤].

وقد علا شأن الإلحاد في عهد "ماركس" وعهد من جاء بعده علوا كبيرا إلى عهد آخر رئيس لما كان يسمى بالإتحاد السوفيتي، وهو "ميخائيل جورباتشوف" فأراد الله ﷻ أن يظهر كذب الملاحدة فإذا بالشيوعية - التي تمثل قمة الإلحاد تموت في عقر دارها - وإذا بالشعوب المقهورة تعود إلى الاحتفال والإحتفاء بالأديان وتعلن ما كانت تخفيه من حب الله وأنبيائه ورسله ورجعوا إلى المساجد والكنائس وسائر المعابد معلنين رفضهم الفكر المادي الإلحادي وفي بعض تلك الدول التي كانت تعلن الشيوعية والإلحاد شنقوا تماثيل بعض أقطاب الإلحاد الشيوعي تشفيا منهم. مما يدل دلالة صريحة على أن فكرة

الإلحاد فكرة طارئة سخيفة لا مكان لها إلا في قلوب فئة من شواذ الناس ماتت نفوسهم وانحرفت فطرهم وكابروا عقولهم ومن الغريب أن يسند الملاحدة إلحادهم إلى العلم - وهو كذب مبين- كما سيتبين ذلك من خلال هذه الدراسة إن شاء الله تعالى.

أقسام الإلحاد

ينقسم الإلحاد إلى قسمين هما: الإلحاد القديم، والإلحاد الحديث. فما حقيقة كل منهما وما الفرق بينهما؟

عرفنا مما سبق أن الإلحاد كان له وجود في أكثر من مكان في الأرض بعد الانحراف الذي أصاب البشرية وينبغي أن ندرك أن بين الإلحاد القديم والإلحاد الحديث فرقا ظاهرا وذلك يتبين من خلال ما يأتي:

١ - إن الإلحاد بمعنى إنكار وجود الله تعالى أصلا لم يكن ظاهرة منتشرة في القديم وإنما كان شائعا الشرك مع الله تعالى تحت حجج مختلفة مع اعترافهم بوجود الله تعالى وأنه الخالق المدبر وقد أثبت الله تعالى ذلك في كتابه فقال عن إقرارهم بخلق الله للكون: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [العنكبوت: ٦١]

وقال تعالى عن إقرارهم بإنزال المطر من عند الله: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ} [العنكبوت: ٦٣].

وقال تعالى عن إقرارهم بأن الرزق كله من الله، وأن أعضاء الإنسان هي من خلق الله، وأن الحياة والموت بيد الله، وأن التدبير كله لله: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}

[يونس: ٣١] {قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]، وهكذا يتبين من تلك الآيات البينات أن الإلحاد في الزمن القديم إنما كان في إشراكهم مع الله آلهة أخرى من صنعهم يتقربون بها إلى الله بزعمهم وهذا هو الشرك في توحيد الربوبية الذي لا يدخل الشخص به وحده في الإسلام والإيمان ما لم يضم إليه توحيد الألوهية.

٢- وأما الذين أسندوا كل شيء إلى الدهر فهم قلة قليلة جدا بالنسبة لغيرهم ممن يؤمنون بالله تعالى وقد أخبر الله عنهم في كتابه الكريم.

٣- أما الإلحاد المادي الحديث فقد قام على إنكار وجود الله أصلا وقد زعم أهله أنهم وصلوا إليه عن طريق العلم والبحث المحسوس وعن طريق التجربة والدراسة وزعموا أن الدين لا يوصل إلى ذلك وسنرد هذه الكذبة وسخافتها ونبين أنه لا تناقض بين العلم والدين وبين الإيمان بالله وأن العلم يدعو إلى الإيمان بوجود الله تعالى في أكمل صوره كما سيأتي دراسته في الشيوعية.

وهكذا يتضح أنه مع القول بوجود عبادة المادة في كل زمان وفي كل مكان إلا أن تلك المادة كانت سطحية بدائية وأن أوروبا حينما أخذت الإلحاد تميزت بتفصيل وتقنين وتنظيم ودراسة هذا الاتجاه المادي الملحد وأحلته محل الدين ومحل الإله بطريقة سافرة مقننة وهي نقلة لم تكن فيما مضى قبلهم.

أسباب ظهور الإلحاد

لظهور الإلحاد أسباب كثيرة كغيره من الظواهر الأخرى ولا شك أن أكبر

الأسباب هو إغواء إبليس لمن اتبعه فقد أقسم على أن يبعد الناس عن ربهم ويغويهم عن اتباع أمره وشرعه ﷻ ثم انضافت إلى ذلك أسباب أخرى هي من صنع الإنسان كالرغبة الجامحة عند البعض في الانفلات التام عن الدين وأوامره ونواهيه لتحقيق رغباته الشهوانية المختلفة وبعض تلك الأسباب يعود إلى أمور سياسية كحب اليهود السيطرة على العالم. وبعضها يعود إلى طغيان الديانات المحرفة وعلى رأسها النصرانية التي هي صورة عن الوثنية حيث جاءت بأفكار لا يقبلها عقل ولا يقرها منطق وفوق ذلك طغيان الرهبان والبابوات الذين وصلوا إلى حد لا يطاق من إذلال الناس واستعبادهم مما جعلها أغلالا يتمنى أصحابها الخروج عنها إلى أي وجهة تكون فتلقفهم الملاحدة فأخرجوهم من الرمضاء إلى النار.

وبعض تلك الأسباب يعود إلى ظهور مذاهب فكرية كانت هي الأخرى كابوسا ثقيلا جعل الناس يلهثون إلى التشبث بأي حركة أو فكر كالرأسمالية التي أشعلت في النفوس حب الأنانية والجشع المادي والحقد والبغضاء مما سهل الأمر على الملاحدة للوصول إلى قلوب الناس والتضليل عليهم بأن في النظام الإلحادي الجديد كل ما يتمنوه من السعادة والعيش الرغيد وقد قيل:

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

وكان هذا الحال في الوقت الذي عم الجهل بالله تعالى وبدينه القويم وكان للأحوال الاقتصادية التي يمر بها الناس نصيب الأسد في تقبل الناس للإلحاد حيث انعدمت في المذهب الرأسمالي ونظام الإقطاع وسيطرة البابوات والأباطرة صفة الرحمة والعطف على الفقراء فازداد الأغنياء غنى وازداد الفقراء فقرا وذلا.

فاستغل الملاحدة تلك الأوضاع للتأثير على الناس بأن الأمر موكول إلى

تصرفات الناس وليس هناك إله مدبر له فازداد نشاط دعاة الإلحاد وأظهروا أنفسهم بمظهر المنقذ للفقراء والساهر على مصالحهم والمهتم بمشاكلهم والمتصدي للقضاء على كل الأنظمة الفاسدة والطبقات المتجبرة وبعد أن قوي أمر الملاحدة واستولوا على الحكم في روسيا وغيرها وجهوا مدافعهم وبنادقهم إلى صدر كل من يأبى الدخول في ملتهم فأثخنوا في الأرض وأدخلوا شعوبهم في الإلحاد راغبين وراهبين.

ومما ساعد على انتشار الإلحاد أيضا ما وصل إليه الملاحدة من اكتشافات علمية هائلة مكنهم الله منها استدراجا لهم وإقامة للحجة عليهم على ضوء قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: ٥٣]، فكلما تم لهم اكتشاف جديد فسروه على أنه من بركة تركه للإله وللدين وانطلاقهم أحرارا من ذلك فاغتر بهم كثير من الجهال وظنوا أن ذلك صحيحا وأن هذه الحياة التي يعيشها العالم اليوم من تقدم مادي وصناعات مختلفة وانفتاح تام على الشهوات والمتع المختلفة إنما هي دليل في نظر من لا يعرفون الدين الصحيح على أن الإنسان هو مالك هذا الكون وحده وهو الذي ينظم حياته كما يريد.

ولم يترك دعاة الإلحاد أي فرصة لأتباعهم لالتقاط أنفاسهم ومدارسة أوضاعهم والتفكر الصحيح في خلق هذا الكون وما فيه من العجائب التي تنطق بوجود الخلاق العظيم لهذا الكون، وقد قيل إن أحد الملحدين تحدى أي مؤمن بالله يناظره فانبرى له أحد المؤمنين واتفقوا على تحديد موعد للمناظرة وحينما جاء وقت المناظرة تأخر المؤمن من الوصول ففرح الملحد وأخذ يصول ويجول ويتحدى وبعد وقت حضر المؤمن بعد أن انكسرت قلوب المؤمنين وملأها الهم والغم فسأله الملحد لماذا تأخرت عن الوصول فقال له

إن بيني وبينكم هذا البحر ولم أجد سفينة وبينما أنا كذلك إذ نبتت شجرة في البحر وامتدت أغصانها وجذوعها وكبرت ثم تكسرت بعض أجزائها لتصنع منها قاربا حملني إليكم فقال الملحد هذا كلام لا يعقل فقال له المؤمن إذا كنتم لا تصدقون بوجود قارب صغير بدون موجد فكيف تصدقون بوجود هذا الكون وما فيه دون موجد؟!!، ثم قال المؤمن للملحد: أنت بلا عقل فقال الملحد: بلى إن لي عقلا فقال له المؤمن أين هو منك قال لا أدري. فقال المؤمن: شيء في جسمك تؤمن به ولا تراه ولا تريد أن تؤمن بالله حتى تراه فانقطع الملحد.

أما بالنسبة لظهور الإلحاد في ديار المسلمين فإنه يعود كذلك إلى أسباب كثيرة من أهمها حالة الانبهار بظهور هذه الماديات التي ظهرت على أيدي غير المؤمنين بالله تعالى وما أصاب قلوب ضعفاء الإيمان من انبهار تام برونق تلك الحضارة الزائفة الزائلة التي أخبر الله عنها بقوله: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٧]، وانساق المنهزمون المغرمون بتلك الحضارة إلى التصديق بأن لا وجود لأي مدبر للعالم غير العالم نفسه خصوصا وأن المغلوب دائما يقلد الغالب ويجب أن يتظاهر بصفاته ليجبر النقص الذي يحس به أمامه. وكان الأحرى بهؤلاء المنهزمين أن يعتزوا بدينهم ويضاعفوا الجهد والعمل ليستغنوا عن منة الملاحدة عليهم وحينما رأوا ما هم عليه من الضعف والاستخذاء أمام ما تنتجه المصانع الكافرة ألقوا باللوم على الإسلام فعل العاجز المنقطع أو الغريق الذي يمسك بكل حبل وجهلوا أو تجاهلوا أن الإسلام يأمر بالقوة والعمل بما لا يدانيه أي فكر أو مذهب والآيات في كتاب الله تعالى والأحاديث في سنة المصطفى ﷺ على هذا أشهر من أن تذكر.

وعلى كل حال فقد ظهر الإلحاد بشكله الجديد المدروس المنظم كبديل

لكل الأديان وزعماؤه هم البديل الجديد عن الأنبياء والرسل والمتمسكون بالإلحاد هم المتطورون المتقدمون والتاركين له هم الرجعيون المتخلفون وللباطل صولة ثم يضمحل فبعد تلك السنوات العجاف التي قوي فيها شأن الإلحاد والملحدين ظهرت الحقيقة للعيان وإذا بالإلحاد والملحدين ما هم إلا سماسرة اليهودية العالمية وأنهم يهدفون إلى استحمار العالم ومحو أخلاق الجوييم وتحطيم حضاراتهم وإبطال دياناتهم وكشأن كل المذاهب الباطلة والأفكار الجاهلية بدأ الموت يدب في جسم هذا الإلحاد البغيض وإذا بالناس يكتشفون زيف أقاويله وأفانين خدعة فبدؤوا يهربون منه زرافات ووحدانا وعرف الناس أن الإلحاد هو الذي سبب لهم الشقاء والفقر وتزايد الأحقاد والقلق والاضطراب وأنه هو الذي سهل للمجرمين طرق الإجرام وظهور الفتن والضلال إذ ليس فيه ثواب ولا عقاب في الآخرة ولا رب يجازي المجرمين بعذابه والمطيعين بثوابه فما الذي يمنع المجرم من تنفيذ جريمته وما الذي يجعل قلب الغني يشفق على الفقير وما الذي يمنع السارق والغشاش والخائن ومدمن المخدرات ما الذي يمنع هؤلاء من تحقيق رغباتهم. وللقارئ عظة مما يقع في العالم الملحد من أنواع الجرائم والظلم في جو مشحون بالتوترات والهموم قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [طه: ١٢٤].

وإذا كانت المظالم والأنانيات وحب الشهوات وغيرها تحصل بين المؤمنين بالله تعالى فما هو الظن بالمجتمعات التي لا تؤمن بالله ربا ولا بالإسلام دينا ولا بمحمد ﷺ رسولا، ولا ضمير حي يذكرها بما للآخرين من حقوق ما هو الظن بتلك المجتمعات الذين هم كالأنعام أو أضل الذين لا يعيشون في بيئات أسرية متحابة يعرف بعضهم للبعض الآخر ما له من حقوق

صلة الرحم وحفظ الأنساب وتقوية المودة فيما بينهم. فأين الأولاد بعد أن ابتلعتهم دور الحضانات الحكومية، وأين الأزواج بعد أن تفرق الجميع في كل اتجاه تلبية لحاجاتهم المعيشية واللهو أيضا، وأين بقية الأقارب وقد تكفل الإلحاد بمحاربة أي وجود لذلك، وأين تلاحم المجتمع كله بعد أن تعهد الملاحدة بتفريق المجتمعات وضرب بعضهم بالبعض الآخر عن طريق الجاسوسية الهائلة إلى حد أن أي شخص لا يأمن الآخر بأي حال فأصبحت المجتمعات الإلحادية تعيش فيما بينها كما تعيش قطعان الذئاب أو السمك في البحر وعلى المسلمين أن يأخذوا العظة بغيرهم وأن يفروا من تلك الأفكار وصداقات زعماء تلك المجتمعات كما يفر الصحيح من المجذوم، بل وأشد، وأن يرجعوا إلى الله تعالى ويبتهلوا إليه أن لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا.

والإلحاد بدعة جديدة لم توجد في القديم إلا في النادر في بعض الأمم والأفراد.

يعد أتباع العلمانية هم المؤسسون الحقيقيين للإلحاد، ومن هؤلاء: أتباع الشيوعية والوجودية والداروينية.

الحركة الصهيونية أرادت نشر الإلحاد في الأرض فنشرت العلمانية لإفساد أمم الأرض بالإلحاد والمادية المفرطة والانسلاخ من كل الضوابط التشريعية والأخلاقية كي تهدم هذه الأمم نفسها بنفسها، وعندما يخلو الجو لليهود يستطيعون حكم العالم.

نشر اليهود نظريات ماركس في الاقتصاد والتفسير المادي للتاريخ ونظريات فرويد في علم النفس ونظرية دارون في أصل الأنواع ونظريات دور كايم في علم الاجتماع، وكل هذه النظريات من أسس الإلحاد في العالم.

أما انتشار الحركات الإلحادية بين المسلمين في الوقت الحاضر، فقد بدأت بعد سقوط الخلافة الإسلامية.

صدر كتاب في تركيا عنوانه: مصطفى كمال للكاتب قابيل آدم يتضمن مطاعن قبيحة في الأديان وبخاصة الدين الإسلامي. وفيه دعوة صريحة للإلحاد بالدين وإشادة بالعقلية الأوروبية.

إسماعيل أحمد أدهم. حاول نشر الإلحاد في مصر، وألف رسالة بعنوان لماذا أنا ملحد؟ وطبعها بمطبعة التعاون بالإسكندرية حوالي سنة ١٩٢٦م.

إسماعيل مظهر أصدر في سنة ١٩٢٨م مجلة العصور في مصر، وكانت قبل توبته تدعو للإلحاد والطعن في العرب والعروبة طعنًا قبيحًا. معيدًا تاريخ الشعوبية، ومتهمًا العقلية العربية بالجمود والانحطاط، ومشيدًا بأمجاد بني إسرائيل ونشاطهم وتفوقهم واجتهادهم.

أسست في مصر سنة ١٩٢٨م جماعة لنشر الإلحاد تحت شعار الأدب واتخذت دار العصور مقرًا لها واسمها رابطة الأدب الجديد وكان أمين سرها كامل كيلاني.. وقد تاب إلى الله بعد ذلك.

من أعلام الإلحاد في العالم:

أتباع الشيوعية: ويتقدمهم كارل ماركس ١٨١٨- ١٨٨٣م اليهودي الألماني. وإنجلز عالم الاجتماع الألماني والفيلسوف السياسي الذي التقى بماركس في إنجلترا وأصدرا سويًا المانيفستو أو البيان الشيوعي سنة ١٨٢٠- ١٨٩٥م.

أتباع الوجودية: ويتقدمهم:

جان بول سارتر، وسيمون دوبرفوار، والبير كامي، وأتباع الداروينية،

ومن الفلاسفة والأدباء:

نيتشه/ فيلسوف ألماني، برتراند راسل ١٨٧٢- ١٩٧٠م فيلسوف إنكليزي، هيجل ١٧٧٠ - ١٨٣١م فيلسوف ألماني قامت فلسفته على دراسة التاريخ، هربرت سبنسر ١٨٢٠ - ١٩٠٣م إنكليزي كتب في الفلسفة وعلم النفس والأخلاق، فولتير ١٦٩٤ - ١٧٧٨م أديب فرنسي.

في سنة ١٩٣٠م ألف إسماعيل مظهر حزب الفلاح ليكون منبرًا للشيوعية والاشتراكية. وقد تاب إسماعيل إلى الله بعد أن تعدى مرحلة الشباب وأصبح يكتب عن مزايا الإسلام.

ومن الشعراء الملاحدة الذين كانوا ينشرون في مجلة العصور.

الشاعر عبد اللطيف ثابت الذي كان يشكك في الأديان في شعره..

والشاعر الزهاوي يعد عميد الشعراء المشككين في عصره.

وقد نشأ الإلحاد الحديث مع العقلانية والشيوعية والوجودية.

وقد نشر اليهود الإلحاد في الأرض، مستغلين حماقات الكنيسة ومحاربتها للعلم، فجاءوا بثورة العلم ضد الكنيسة، وبالثورة الفرنسية والداروينية والفرويدية، وبهذه الدعوات الهدامة للدين والأخلاق تفشى الإلحاد في الغرب، والهدف الشرير لليهودية العالمية الآن هو إزالة كل دين على الأرض ليبقى اليهود وحدهم أصحاب الدين!!

هل يلتقي الإسلام مع الأنظمة الإلحادية؟

لقد زعم بعض الجهال أن بين الإسلام والأنظمة الإلحادية - الاشتراكية والشيوعية- تطابقا في أمور كثيرة خصوصا الاشتراكية حتى تجرأ بعضهم فرفع شعار "اشتراكية الإسلام " زاعما أنه لا تعارض في هذه الاشتراكية التي ألصقوها بالإسلام. وبين الإسلام وتعاليمه المشرقة إما جهلا وإما خداعا وتمويها - وهو الأغلب- .

بل وبعضهم ينسبون هذه الاشتراكية الإلحادية إلى الصحابي الجليل أبي ذر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ ظلما ومنكرا من القول وزورا.

والأدهى أيضا أنهم أخذوا يتكلفون الأدلة التي يزعمون أن الدين والإلحاد الشيوعي بينهما اتفاقات في أشياء كثيرة، وأن التقارب بينهما في الإمكان، يحدوهم في ذلك حبهم للإلحاد ورغبتهم في تقريبه إلى المسلمين خديعة ومكرا منهم بأهل الدين {وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ} [فاطر: ٤٣] وسبب ذلك ما وجدوه من التشابه الظاهري في بعض الجزئيات فيما جاء به الدين الإسلامي وفيما جاء به الملاحدة متناسين أنه لا يمكن في بداهة العقول أن يجتمع الليل والنهار في وقت واحد وأن بين الإسلام والإلحاد الشيوعي الماركسي الاشتراكي من البعد أكثر مما بين السماء والأرض بل إن القول بالتقارب بينهما جريمة كبرى وافتراء عظيم فالإسلام له نظام وعقيدة ومعاملات تختلف تماما عن النظام الجاهلي الماركسي وغيره في العقيدة وفي السلوك وفي كل شيء وأن ما وجد من التشابه بين الإسلام والإلحاد ما هو إلا مثل التشابه في الأسماء بين المخلوقات حين يقال رأس الإنسان ورأس الجمل أو الكلب أو الجبل، أو التشابه بين الأسماء الموجودة في الجنة مما أخبر الله به وبين الأسماء الموجودة في الدنيا ثم كيف يتفق دين يؤمن بإله واحد يستحق العبودية وحده لا شريك له ويوجب التحاكم إلى شرعه وحده. ويجعل الناس في درجة واحدة أمام الخالق العظيم لا يتفاضلون عنده إلا بالتقوى كيف يتفق هذا مع دين لا يؤمن بإله واحد بل بآلهة عدة يعبد الناس فيه بعضهم بعضا ويشرع بعضهم للبعض الآخر، دين يجعل الظلم عدلا والحاكم ربا.

أليس التوافق مستحيلا بعد وجود هذا التباين وغيره؟ بلى إنه من أشد وأعظم المستحيلات على الإطلاق بل لا ينبغي التفكير في هذا لأنه من وساوس

الشيطان فإنه لا يتفق دين يجعل الإنسان مادة مثله مثل سائر الجمادات لا قيمة له ودين يجعل الإنسان مستخلفا في الأرض وكل ما فيها مسخر له وهو أكرم كل الموجودات على ظهر الأرض مميز بالعقل والتفكير وعناية الله به: {فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء: ٧٨].

وقد انتشر الإلحاد أولًا في أوروبا، وانتقل بعد ذلك إلى أمريكا.. وبقاع من العالم.

وعندما حكمت الشيوعية في ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي قبل انهياره وتفككه، فرضت الإلحاد فرضًا على شعوبه.. وأنشأت له مدارس وجمعيات.

وحاولت الشيوعية نشره في شتى أنحاء العالم عن طريق أحزابها. وإن سقوط الشيوعية في الوقت الحاضر ينبئ عن قرب سقوط الإلحاد - بإذن الله تعالى.

يوجد الآن في الهند جمعية تسمى جمعية النشر الإلحادية، وهي حديثة التكوين وتركز نشاطها في المناطق الإسلامية، ويرأسها جوزيف إيدا مارك، وكان مسيحيًّا من خطباء التنصير، ومعلمًا في إحدى مدارس الأحد، وعضوًا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وقد ألف في عام ١٩٥٣م كتابًا يدعى: إنما عيسى بشر فغضبت عليه الكنيسة وطردته فتزوج بامرأة هندوكية وبدأ نشاطه الإلحادي، وأصدر مجلة إلحادية باسم إيسكرا أي شرارة النار. ولما توقفت عمل مراسلًا لمجلة كيالا شبدم أي صوت كيالا الأسبوعية. وقد نال جائزة الإلحاد العالمية عام ١٩٧٨م ويعتبر أول من نالها في آسيا.

مسألة: الشيوعية

الشيوعية مذهب فكري يقوم على الإلحاد وأن المادة هي أساس كل شيء ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي. ظهرت في ألمانيا على يد

ماركس وإنجلز، وتجسدت في الثورة البلشفية التي ظهرت في روسيا سنة ١٩١٧م بتخطيط من اليهود، وتوسعت على حساب غيرها بالحديد والنار. وقد تضرر المسلمون منها كثيرًا، وهناك شعوب محيت بسببها من التاريخ، ولكن الشيوعية أصبحت الآن في ذمة التاريخ، بعد أن تخلى عنها الاتحاد السوفيتي، الذي تفكك بدوره إلى دول مستقلة، تخلت كلها عن الماركسية، واعتبرتها نظرية غير قابلة للتطبيق. وقد ذكر في الموسوعة العربية الميسرة: "أن الشيوعية مصطلح يصعب تحديد معناه"، وبعد أن ذكرت تلك الموسوعة أن الشيوعية نظام اجتماعي تكون فيه الملكية في يد المجتمع قالت: "والشيوعية بهذا المعنى قديمة قدم المجتمع نفسه". وهذا كذب محض فإن هذا التعبير من الدسائس التي احتوت عليها هذه الموسوعة متأثرة بما لفقه زعماء الشيوعية من أن المجتمعات في القديم كانت بدائية وكانت الملكية فيها مشاعة بين الجميع في شكل اكتفاء ذاتي يتقاسم أفراده السلع والخدمات نظرا لظروفهم الخاصة القاسية التي تحتم عليهم ذلك كما هو الحال على الخصوص في المجتمعات التي تعيش على قنص الحيوان، بزعمهم.

لقد قامت الشيوعية الماركسية كالمارد الجبار تريد أن تقيم مجدا زائفا على أنقاض الديانات الإلهية كلها وإحلال الديانات الوضعية البشرية مكانها شعارهم "لا إله والحياة مادة" هدفهم هدم الأديان وإعلاء اليهودية، ومع أن شعارهم " لا إله " فهو شعار كاذب فقد أحل طغاة الشيوعية أنفسهم محل الإله العظيم وأحلوا تعاليمهم الإلحادية محل الدين وقوانينهم محل الشريعة فقد احتوت الشيوعية على جميع نواحي الحياة من ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية بل وكل ناحية في حياة البشر بدلا عن الإله وعن الأديان وكافة النظم البشرية.

وإذا كانت السمة الظاهرة للناس أن الشيوعية لا شأن لها بأية ناحية غير الناحية الاقتصادية وأن مهمتها خدمة الشعوب لكي تعيش في جنة عالية قطوفها دانية إذا طبقوا التعاليم الماركسية الجهنمية التي زعم أقطابها أن البشر سيعيشونها في يوم ما وسيحكمون أنفسهم بأنفسهم، لا عداوة، ولا فقر، ولا جهل.. إلخ فإن هذه السمة الظاهرة هي ترهات الشيوعية وخدعها التي نجحت على كثير من البشر فأصبحوا ضحايا خاسرة للشيوعية ومبادئها الجوفاء.

ولقد تظاهرت الشيوعية بذلك لتعمل في الخفاء وبعيدا عن الأنظار لما قامت من أجله من تحقيق أحلام اليهود وليس تحقيق أحلام الفقراء فزعموا للناس أنهم ركبوا كل صعب وذلول للاهتمام بالنواحي الاقتصادية أولا وأخيرا وأن كل ما يصدر عن هذا الفكر من سلوك وتقنين إنما هو تابع لتحقيق هذا الجانب لا غيره وسيتبين إن شاء الله أثناء الرد عليهم أن هذا الزعم أصبح سرابا كاذبا وهباء في مهب الريح ويعبرون عن هذه الظاهرة بالمادة، التي صارت هي المعبود والنظام والتاريخ وأقطاب الشيوعية كما هو معروف كانوا نصارى في الأساس وأغلبهم يهود وقد وصفوا نظريتهم الإلحادية " بالمادية " وجعلوها محور كل شيء في الوجود والتاريخ أقاموه على " التفسير المادي للتاريخ " فكل مظاهرهم إنما هي تابعة لتصورهم المادي كما أن مظاهر الفرويدية كلها متوجهة نحو الجنس وكلتا النظريتين موجهتين بدقة من قبل الماسونية اليهودية للقضاء على كل ما عند الجوييم - كما يسميهم اليهود - ليصبحوا حميرا لشعب الله المختار كما تمنيهم بذلك تعاليم التوراة المحرفة والتلمود الجهنمي المملوء حقدا على جميع البشر ما عدا اليهود.

وكان "ماركس" قد تضلع من دراسة الحضارة الإغريقية الرومانية في الوقت الذي كانت فيه تعاليم المسيحية المحرفة تتهاوى إلى الحضيض وتداس تحت

أقدام أولئك الذين خرجوا عن طغيانها الذي لا حد له وعن صلاحيات البابوات ورجال الدين التي لا نهاية لها وفي الوقت الذي نشط فيه دهاة الماسونية ومنهم كارل ماركس لتحطيم كل حضارات العالم وإقامة هيكل سليمان الذي هو نصب أعين اليهود كلهم.

ظهرت الماركسية لتجعل الإنسان هو مصدر كل سلوك ومعرفة هو الإله المشرع وهو الخالق المبدع وهو كل شيء وليس وراءه أي شيء فلا وجود للإله الذي مارس طغاة الكنيسة كل جبروتهم باسمه ولا أديان تضطهد اليهودية واليهود ولا حياة أخرى هي مصدر الخلاص إذا كان الشخص يملك صك غفران عن البابا، بل الإنسان هو الإله والدنيا هي غاية الإنسان عليها ليسعد أو يشقى ولا عبرة بما قالته الأديان الإلهية من وجود قوة أخرى غير الإنسان أو حياة أخرى غير هذه الحياة، بل إن ما وراء الطبيعة من المغيبات إن هو إلا سراب يجب أن يختفي أمام الحضارة اللادينية العاتية عالم المحسوسات التي لا تؤمن الشيوعية الملحدة إلا به وحده معللة لوجود هذا الكون ونشأته. ونشأة التدين عند الإنسان بخرافات كاذبة خيالية لا يسندها عقل ولا منطق، الكون تجمع من ذرات والإنسان أصله قرد.. الخ.

ومن العجيب أنهم يسمون هذه التخيلات المفتراة على البشرية التي تنافي ما أكرمهم به الله من حفظ ورعاية ومعرفة بأمور دينهم ودنياهم العجيبة، أنهم يسمونها حقائق ويدافعون عنها كأنهم عايشوها من أول يوم عرفت فيه البشرية ومن كذبهم في هذا فإن نبزه بالرجعية والتخلف أمر جاهز في قواميسهم التي لا تتورع عن هدر أعراض الناس ودماءهم {أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} [الزخرف: ١٩].

وهو رجم بالغيب وظلم للبشرية وتصديق لأقوال الكذابين أمثال

"ماركس"، و"دارون"، و"فرويد" وغيرهم من أشرار البشر الحاقدين.

وقد ساعد على تعميق الإلحاد الشيوعي تلك النظريات الكثيرة والشبه التي سموها حقائق لمعرفة هذا الكون وقيامه على القوانين التي عرفت أخيرا مثل قانون الجاذبية الذي أرسى كل شيء في الوجود في مكانه وقانون تجمع أجزاء المادة التي انفجر عنها هذا الكون وغير ذلك مما زعموه مؤيدا لنظريتهم الملحدة فحجبت تلك المفاهيم - الخاطئة للشيوعية والنصرانية - العقل عن التعلق بموجد لهذا الكون، وأن مجرد التفكير فيه يعد رجعية ولهذا - كما سمعنا - أن الروس قتلوا العائدين من سطح القمر في أول رحلة فضائية لأنهم أيقنوا أن لهذا الكون موجدا وما إن أطل القرن التاسع عشر الميلادي إلا وقد ظهر قرن الشيطان وساد القول بسيادة الطبيعة على الدين والعقل فهي الحاكم المطلق والإله الذي لا ينازع وقد تولى كبرها "أوجست كونت"، و"فرباخ"، و"ماركس"، و"انجلا" بدافع قوي من الحقد الشديد على رجال الدين الكنسي الذي يمثل حسب تعليلهم قوة ما وراء الطبيعة من الأمور المغيبة والروحية التي اعتبروها وهما وخداعا لا حقيقة له لعدم اندراجها تحت قوة الإحساس والإدراك المباشر وأن الالتجاء إلى ذلك الغيب إنما نتج عن الوراثة والبيئة والحياة الاجتماعية في تلك الأزمان المختلفة بزعم دعاة الإلحاد.

ولقد ظلت الشيوعية قرابة سبعين عاما في صولة وجولة قوية مزبدة يحسب لها حسابها إلى أن أذن الله بزوال قوتها بقدرته وحده إذ ما كان أحد يفكر في النيل منها، فإذا بها يأتيها حتفها بظلفها على يد آخر زعيم لما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي وهو " ميخائيل جورباتشوف " وأفل نجمها وجبروتها وثارت الشعوب واقتصوا من كل الظالمين.

والآن وبعد أن تبين المصير النهائي للماركسية الشيوعية أقول: إنه من

الغريب جدا أن تموت الشيوعية في عقر دارها - الاتحاد السوفيتي سابقا - وأن تكشف الشعوب أن هذا المذهب فاشل باطل لا يجر إلى خير، بل إلى الخراب والدمار وإثارة البغضاء وانتشار البطالة والفواحش، وأن الجنة الأرضية التي وعد بها "كارل ماركس" إن هي إلا سراب خادع وآمال كاذبة وأن تعاليمه إن هي إلا جحيم لا يطاق وتعاسة وشقاء. وأن الشعوب كانوا يساقون إلى الموت وهم ينظرون طائعين أو مكرهين وإن في التخلص من هذا المذهب راحة لا تعدلها راحة وفوزا لا يعدله فوز فهبت تلك الشعوب المظلومة لتنفض عنها غبار تلك السنين العجاف ثم داسوا مبادئ "ماركس" ونظرياته تحت نعالهم ويتنفسوا الصعداء وبعضهم قام بشنق تمثال بعض طغاة الشيوعية القدماء وبعض الحكماء الحاليين وقالوا: لا رجعة للشيوعية هنا.

أقول من الغريب أن يحصل هذا وأكثر منه في تلك البلدان التي ذاقت مرارة التعاليم الشيوعية وفرحت بانقشاعها عنها ثم تقوم بعض الأحزاب في البلدان العربية الإسلامية بالمناداة باعتمادها كحزب شيوعي شرعي وأين الشرع من تعاليم "ماركس" ثم تقوم بعض الحكومات باعتماد تلك الأحزاب والترخيص لهم بدخول المجالس النيابية والبرلمانية وما إلى ذلك كما سمعته من دولة إسلامية عربية في إذاعتهم المسموعة. إن الأمر يدعو إلى العجب - قبح الله تلك الأحزاب وقبح الله من يسمح لهم- {أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩].

ولقد قيل في المثل: العاقل من اتعظ بغيره"، فلماذا لا يتعظ هؤلاء بمن قد ذاق الحياة الشيوعية البائسة وضاق بها ذرعا أليس لهؤلاء قلوب يعقلون بها وأعين ينظرون بها وآذان يسمعون بها فيكفون عن التعلق بالشيوعية الحمراء وبتقديس زعمائها الذين لا يساوون قيمة نعالهم.

إن الأمر واضح وجلي ولولا أن مؤامرة جديدة أيضا تهدد العالم في ثوب جديد وبأسلوب جديد قد يشعر الناس به وقد لا يشعرون. وما أكثر النكبات التي يدبرها شياطين الإنس والجن للمغلوبين على أمرهم تحت مختلف الشعارات البراقة الخادعة من دعاة الماسونية اليهودية العالمية الحاقدة على الجوييم وما يمتلكونه من حضارات وقيم ومرور الأيام والليالي كفيلة بإيضاح كل ما يبيتون والله لهم بالمرصاد.

مسألة: الداروينية

تنتسب الحركة الفكرية الداروينية إلى الباحث الإنجليزي شارلز داروين الذي نشر كتابه أصل الأنواع سنة ١٨٥٩م الذي طرح فيه نظريته في النشوء والارتقاء مما زعزع القيم الدينية، وترك آثارًا سلبية على الفكر العالمي.

وشارلز داروين: صاحب هذه المدرسة ولد في ١٢ فبراير ١٨٠٩م وهو باحث إنجليزي نشر في سنة ١٨٥٩م كتابه أصل الأنواع، وقد ناقش فيه نظريته في النشوء والارتقاء معتبراً أصل الحياة خلية كانت في مستنقع آسن قبل ملايين السنين. وقد تطورت هذه الخلية ومرت بمراحل منها، مرحلة القرد، انتهاء بالإنسان، وهو بذلك ينسف الفكرة الدينية التي تجعل الإنسان منتسبًا إلى آدم وحواء ابتداء.

- آرثر كيت: دارويني متعصب، يعترف بأن هذه النظرية لا تزال حتى الآن بدون براهين فيضطر إلى كتابتها من جديد وهو يقول: "إن نظرية النشوء والارتقاء لا زالت بدون براهين، وستظل كذلك، والسبب الوحيد في أننا نؤمن بها هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا غير وارد على الإطلاق".

- جليان هكسلي: دارويني ملحد، ظهر في القرن العشرين، وهو الذي يقول

عن النظرية:

- "هكذا يضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد للمخلوقات كما تقول الأديان".

- "من المسلَّم به أن الإنسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطة أو الفأر".

- ويزعم أن الإنسان قد اختلق فكرة الله إبان عصر عجزه وجهله، أما الآن فقد تعلم وسيطر على الطبيعة بنفسه، ولم يعد بحاجة إليه، فهو العابد والمعبود في آنٍ واحد.

- يقول: "بعد نظرية داروين لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانًا".

ليكونت دي نوى: من أشهر التطوريين المحدثين، وهو في الحقيقة صاحب نظرية تطورية مستقلة.

د. هـ. سكوت: دارويني شديد التعصب، يقول: "إن نظرية النشوء جاءت لتبقى، ولا يمكن أن نتخلى عنها حتى لو أصبحت عملًا من أعمال الاعتقاد".

برتراند راسل: فيلسوف ملحد، يشيد بالأثر الدارويني مركزًا على الناحية الميكانيكية في النظرية، فيقول: "إن الذي فعله جاليليو ونيوتن من أجل الفلك فعله داروين من أجل علم الحياة".

ونظرية داروين: تدور هذه النظرية حول عدة أفكار وافتراضات هي:

- تفترض النظرية تطور الحياة في الكائنات العضوية من السهولة وعدم التعقيد إلى الدقة والتعقيد.

- تتدرج هذه الكائنات من الأحط إلى الأرقى.

- الطبيعة وهبت الأنواع القوية عوامل البقاء والنمو والتكيف مع البيئة

لتصارع الكوارث وتتدرج في سلم الرقي مما يؤدي إلى تحسن نوعي مستمر ينتج عنه أنواع راقية جديدة كالقرد، وأنواع أرقى تتجلى في الإنسان، بينما نجد أن الطبيعة قد سلبت تلك القدرة من الأنواع الضعيفة فتعثرت وسقطت وزالت. وقد استمد داروين نظريته هذه من قانون الانتقاء الطبيعي لمالتوس.

- الفروق الفردية داخل النوع الواحد تنتج أنواعًا جديدة مع مرور الأحقاب الطويلة.

- الطبيعة تعطي وتحرم بدون خطة مرسومة، بل خبط عشواء، وخط التطور ذاته متعرج ومضطرب لا يسير على قاعدة مطردة منطقية.

- النظرية في جوهرها فرضية بيولوجية أبعد ما تكون عن النظريات الفلسفية.

- تقوم النظرية على أصلين كل منهما مستقل عن الآخر:

١- المخلوقات الحية وجدت في مراحل تاريخية متدرجة ولم توجد دفعة واحدة وهذا الأصل من الممكن البرهنة عليه.

٢- هذه المخلوقات متسلسلة وراثيًّا ينتج بعضها عن بعض بطريقة التعاقب خلال عملية التطور البطيئة الطويلة. وهذا الأصل لم يتمكنوا من البرهنة عليه حتى الآن لوجود حلقة أو حلقات مفقودة في سلسلة التطور الذي يزعمونه.

- تفترض النظرية أن كل مرحلة من مراحل التطور أعقبت التي قبلها بطريقة حتمية، أي أن العوامل الخارجية هي التي تحدد نوعية هذه المرحلة، أما خط سيرها ذاته بمراحله جميعها فهو خط مضطرب لا يسعى إلى غاية مرسومة أو هدف بعيد لأن الطبيعة التي أوجدته غير عاقلة ولا واعية، بل إنها تخبط خبط عشواء.

الآثار التي تركتها النظرية:

- قبل ظهور النظرية كان الناس يدعون إلى حرية الاعتقاد بسبب الثورة الفرنسية، ولكنهم بعدها أعلنوا إلحادهم الذي انتشر بطريقة عجيبة وانتقل من أوروبا إلى بقاع العالم.

- لم يعد هناك أي معنى لمدلول كلمة: آدم، وحواء، الجنة، الشجرة التي أكل منها آدم وحواء، الخطيئة (حسب اعتقاد النصارى بأن المسيح قد صلب ليخلص البشرية من أغلال الخطيئة الموروثة التي ظلت ترزح تحتها من وقت آدم إلى حين صلبه).

- سيطرة الأفكار المادية على عقول الطبقة المثقفة وأوحت كذلك بمادية الإنسان وخضوعه لقوانين المادة.

- تخلت جموع غفيرة من الناس عن إيمانها بالله تخليًّا تامًّا أو شبه تام.

- عبادة الطبيعة، فقد قال داروين: "الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق". ولكن لم يبين ما هي الطبيعة وما الفرق بين الاعتقاد بوجود الله الخالق ووجود الطبيعة؟

وقال: إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت.

- لم يعد هناك جدوى من البحث في الغاية والهدف من وجود الإنسان لأن داروين قد جعل بين الإنسان والقرد نسبًا، بل زعم أن الجد الحقيقي للإنسان هو خلية صغيرة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين.

- أهملت العلوم الغربية بجملتها فكرة الغائية بحجة أنها لا تهم الباحث العلمي ولا تقع في دائرة علمه.

- استبد بالناس شعور باليأس والقنوط والضياع وظهرت أجيال حائرة مضطربة ذات خواء روحي، حتى أن القرد - جدهم المزعوم - أسعد حالًا من كثير منهم.

- طغت على الحياة فوضى عقائدية، وأصبح هذا العصر عصر القلق والضياع.

كانت نظرية داروين إيذانًا لميلاد نظرية فرويد في التحليل النفسي، ونظرية برجسون في الروحية الحديثة، ونظرية سارتر في الوجودية، ونظرية ماركس في المادية، وقد استفادت هذه النظريات جميعًا من الأساس الذي وضعه داروين واعتمدت عليه في منطلقاتها وتفسيراتها للإنسان والحياة والسلوك.

(فكرة التطور) أوحت بحيوانية الإنسان، و(تفسير عملية التطور) أوحت بماديته.

نظرية التطور البيولوجية انتقلت لتكون فكرة فلسفية داعية إلى التطور المطلق في كل شيء، تطور لا غاية له ولا حدود، وانعكس ذلك على الدين والقيم والتقاليد، وساد الاعتقاد بأن كل عقيدة أو نظام أو خلق هو أفضل وأكمل من غيره، مادام تاليًا له في الوجود الزمني.

استمد ماركس من نظرية داروين مادية الإنسان وجعل مطلبه في الحياة ينحصر في الحصول على (الغذاء والسكن والجنس) مهملًا بذلك جميع العوامل الروحية لديه.

استمد فرويد من نظرية داروين حيوانية الإنسان فالإنسان عنده حيوان جنسي، لا يملك إلا الانصياع لأوامر الغريزة وإلا وقع فريسة الكبت المدمر للأعصاب.

استمد دور كايم من نظرية داروين حيوانية الإنسان وماديته وجمع بينهما بنظرية العقل الجمعي.

استفاد برتراند راسل من ذلك بتفسيره لتطور الأخلاق الذي تطور عنده من المحرم (التابو) إلى أخلاق الطاعة الإلهية ومن ثم إلى أخلاق المجتمع

العلمي.

والتطور عند فرويد أصبح مفسِّرًا للدين تفسيرًا جنسيًّا: "الدين هو الشعور بالندم من قتل الأولاد لأبيهم الذي حرمهم من الاستمتاع بأمهم ثم صار عبادة للأب، ثم عبادة الطوطم، ثم عبادة القوى الخفية في صورة الدين السماوي، وكل الأدوار تنبع وترتكز على عقدة أوديب".

دور اليهود والقوى الهدامة في نشر هذه النظرية:

لم يكن داروين يهوديًّا، بل كان نصرانيًّا، ولكن اليهود والقوى الهدامة وجدوا في هذه النظرية ضالتهم المنشودة فعملوا على استغلالهم لتحطيم القيم في حياة الناس.

- تقول بروتوكولات حكماء صهيون: "لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ولاحظوا هنا أن نجاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي سيكون واضحًا لنا على التأكيد".

نقدها

- نقدها آغاسيرز في إنجلترا، وأوين في أمريكا: "إن الأفكار الداروينية مجرد خُرافة علمية وأنها سوف تنسى بسرعة". ونقدها كذلك العالم الفلكي هرشل ومعظم أساتذة الجامعات في القرن الماضي.

- كريسي موريسون: "إن القائلين بنظرية التطور لم يكونوا يعلمون شيئًا عن وحدات الوراثة (الجينات) وقد وقفوا في مكانهم حيث يبدأ التطور حقًا، أعني عند الخلية".

- أنتوني ستاندن صاحب كتاب العلم بقرة مقدسة يناقش الحلقة المفقودة وهي ثغرة عجز الداروينيون عن سدها فيقول: "إنه لأقرب من الحقيقة أن

تقول: إن جزءً كبيرًا من السلسلة مفقودة وليس حلقة واحدة، بل إننا لنشك في وجود السلسلة ذاتها".

- ستيوارت تشيس: "أيد علماء الأحياء جزئيًّا قصة آدم وحواء كما ترويها الأديان، وأن الفكرة صحيحة في مجملها".

- أوستن كلارك: "لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيًا من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيرها، إن كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة متميزة، لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة وفي نفس الشكل الذي تراه عليه الآن".

- أبطل باستور أسطورة التوالد الذاتي، وكانت أبحاثه ضربة قاسية لنظرية داروين.

الداروينية الحديثة

- اضطرب أصحاب الداروينية الحديثة أمام النقد العلمي الذي وجه إلى النظرية، ولم يستطيعوا أمام ضعفها إلا أن يخرجوا بأفكار جديدة تدعيمًا لها وتدليلًا على تعصبهم الشديد حيالها فأجروا سلسلة من التبديلات منها:

- إقرارهم بأن قانون الارتقاء الطبيعي قاصر عن تفسير عملية التطور واستبدلوا به قانونًا جديدًا أسموه قانون التحولات المفاجئة أو الطفرات، وخرجوا بفكرة المصادفة.

- أرغموا على الاعتراف بأن هناك أصولًا عدة تفرعت عنها كل الأنواع وليس أصلًا واحدًا كما كان سائدًا في الاعتقاد.

- أجبروا على الإقرار بتفرد الإنسان بيولوجيًا رغم التشابه الظاهري بينه وبين القرد، وهي النقطة التي سقط منها داروين ومعاصروه.

- كل ما جاء به أصحاب الداروينية الحديثة ما هو إلا أفكار ونظريات هزيلة

أعجز من أن نستطيع تفسير النظام الحياتي والكوني الذي يسير بدقة متناهية بتدبير الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى).

ولقد عرفت هذه الفكرة قبل داروين، وقد لاحظ العلماء أن الأنواع المتأخرة في الظهور أكثر رقيًا من الأنواع المتقدمة ومن هؤلاء: رأي باكنسون، لينو.

قالوا: "بأن التطور خطة مرسومة فيها رحمة للعالمين"، ولكن نظريتهم وصفت بأنها لاهوتية فنسيت داخل معامل الأحياء.

استوحى داروين نظريته من علم دراسة السكان، ومن نظرية مالتوس بالذات، فقد استفاد من قانونه في الانتخاب أو الانتقاء الذي يدور حول إفناء الطبيعة للضعفاء لمصلحة الأقوياء.

استفاد من أبحاث ليل الجيولوجية حيث تمكن من صياغة نظرية ميكانيكية للتطور.

صادفت هذه النظرية جوًا مناسبًا إذ كان ميلادها بعد زوال سلطان الكنيسة والدين، وبعد الثورة الفرنسية والثورة الصناعية حيث كانت النفوس مهيأة لتفسير الحياة تفسيرًا ماديًا بحتًا، ومستعدة لتقبل أي طرح فكري يقودها إلى مزيد من الإلحاد والبعد عن التفسيرات اللاهوتية، مصيبة كانت أم مخطئة.

مسألة: الوجودية.

الوجودية رأي فلسفي قديم، والتفكير فيها كان قديمًا عبر العصور الغابرة الممتدة في رحاب الزمن، فكانت في حياة البشرية يقظات وجودية، تهتف بأن الإنسان هو المشكلة الأساسية التى يجب أن يكون له أولوية الصدارة في الفكر الإنساني، وأن هذا الفكر يخطىء خطًا كبيرًا عندما يمنح الأولوية في بحثه للفكرة المجردة، أو لبيان وجود العالم وتعليله، كما حدث في دولة اليونان قديمًا، وفي

إبان عصر النهضة في أوربا حديثًا.

ومن أول هذه اليقظات الوجودية ما ينسب إلى سقراط؛ وذلك بمعارضته فلاسفة اليونان ممن كانوا يوجهون جُل اهتمامهم في البحث عن أصل المادة، أو في طبيعة الكون؛ حيث قعَّد لهم قاعدته المشهورة عندما قال: اعرف نفسك بنفسك.

ومن بعد سقراط كان (الرواقيون) الذين فرضوا سيادة النفس، ومواجهة المصير على الإنسان الإغريقي الذي تجلد لتلاعب (السوفسطائيين) ولن يتراجع عن ما وطَّن نفسه عليه من البحث عن طبيعة النفس أمام المجادلات العقلية التي لاتكاد تكل أو تمل.

ولقد جاءت الرسالات السماوية التي كرمت الإنسان، ووضعت له منهج حياته، وأوقفتهُ على حقيقة ذاته، فانصرفت البشرية إلى شرع الله، تهذب به سلوكها، وتنظم به حياتها، إلا من صُد عن ذلك السبيل.

ولما جاء الإسلام وجدت البشرية في كتابه (القرآن) منهجًا متكاملًا عن النفس وطبائعها، والنفس وخصائصها، والنفس المطمئنة، والنفس المؤمنة، والنفس اللوامة، والنفس الأوابة، والنفس الأمارة بالسوء، ولم يهمل الإسلام العلاج إذا مرضت.

قال الله ﷻ: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [الشمس: ٧ - ٨].

وقال: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً} [الفجر: ٢٧ - ٢٨].

وقال: {لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة: ١ - ٢].

وقال- على لسان امرأة العزيز-: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ

إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي} [يوسف: ٥٣].

والنفس - كما يقرر الإمام ابن القيم-: قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة. بل في اليوم الواحد، والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا، والحكم للغالب من أحوالها؛ فكونها مطمئنةً وصفُ مدحٍ لها، وكونُها أمارةً بالسوء وصف ذمٍّ لها، وكونها لوامةً ينقسم إلى المدح والذم بحسب ما تلوم عليه..ويقرر أن النفس إذا سكنت إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه - فهي مطمئنة.

ولكن هذا لا يمنع من ضلال بعض البشر، ونفورهم من هدي الشرائع؛ حيث تظهر بين الفينة والأخرى دعواتٌ إلى التفلت والانحلال؛ فمرة تحمل اسم المانوية وتدعو الناس إلى الرهبنة والخلاص من هذه الدنيا، وتدين بالولاء لإلهين، وتصدق ببعض الرسل وتكفر ببعضهم الآخر، ومرة باسم المزدكية، ومرة باسم الباطنية، إلى غيرها من الدعاوى الهدامة.

حتى أتى عصر النهضة وتخلص فيه رجال الفكر من سلطان الكنيسة، وتحرروا من ربقة الدين أيضًا وجاء بعض المفكرين كديكارت حيث جاء ليرفع قيمة العقل، ويقوض سلطان الكنيسة، ويطالب بتحكيم المنطق، ويرفض زيف المزيفين.

ثم جاء (بسكال) ورفض أصول المذهب الديكارتي الذي عني فيه بالعلم، ولم يهتم بمصير الإنسان وحياته وموته إلا قليلًا.

ويمكن الجزم بأن (بسكال) هو الذي رسم طريق الوجودية الحديثة، وخطط معالمها، ووضع الخطوط العريضة لهياكل نماذجها.

ثم جاء (سورين كيركجورد) الذي يعده رجال الفكر في الغرب الأب الرسمي لمدرسة الوجودية.

وقد كان متأثرًا بالمبادئ النصرانية وعلى الأخص البروتستانتية، ولكنه مع هذا ظل مجهولًا نحو مائة سنة؛ إذ لم تُتَرْجَمْ آراؤه إلى الألمانية إلا في أوائل القرن العشرين، ولم يعرف في فرنسا إلا في عصر الاضطراب الذي حدث في الحربين العالميتين، ومن ثم تضافرت آراؤه مع كوارث الحرب، وآثارها في النفوس على ترعرع الوجودية وتفتيحها، خصوصًا في ألمانيا وفرنسا.

وفي روسيا ظهر (بيردیائيف) و(شيستوف) و(سولوفييف) حيث ارتموا في أحضان الوجودية لأسباب منها: تَحَكُّمُ البابويةِ، وفَرْضُ الآراءِ التي لاتتفق مع العقل، إلى غير ذلك.

ثم جاء بعد ذلك (جان بول سارتر) الذي يعد زعيم الوجودية في العصر الحديث، وهو أكثر الوجوديين شهرة ودعاية، فهو القدوة للمخدوعين بهذا الاتجاه.

ولو استعرضنا حياة بعض رجال الوجودية لوجدنا أن العامل الأساسي لاندفاعهم في هذا الطريق هو تحكم رجال الكنيسة وطغيانهم.

والوجودية دعوة قديمة، تظهر في صور براقة، ويستعمل في الدعاية لها كافة الوسائل.

وحيث وجَدْتَ فكرًا يهدف إلى هدم الدين، أو الأخلاق، أو النظم الاجتماعية أو السياسية الصالحة - فابحث عن الأصابع اليهودية تجدْها وراءه.

وسارتر واحد من قافلة اليهود، الذين حملوا على عواتقهم رسالة تضليل الناس، وإغوائهم على منهج إبليس؛ لتحقيق أهداف اليهود العالمية، التي رسمتها بروتوكولات أحبارهم الذين مردوا على كل إثم وشر وتضليل. وأهداف سارتر لا تخرج عن أهداف فرويد، ودوركايم وبرجسون.

ومن الأهداف التي قامت لأجلها الوجودية ما يلي:

١- تحطيم القيم والأخلاق، والخروج على المبادئ والتمرد على المسلمات والثوابت.

٢- إشاعة الرذيلة والإباحية بين الشباب والشابات.

٣- رد الناس عن أديانهم أوتشكيكهم في عقائدهم.

٤- السخرية من دعوة الرسل.

مسألة: الاشتراكية

قامت الاشتراكية في القرن التاسع عشر الميلادي في البداية بسبب النزاع المرير بين العمال وأصحاب العمل في طلب العمال زيادة أجورهم وامتناع أصحاب العمل في الوقت الذي كان أصحاب العمل يستغلون العمال أسوأ استغلال دون رحمة بهم ثم ظهرت الآلات الصناعية الحديثة فإذا بأصحاب العمل يفضلونها على الأيدي العاملة لوفرة إنتاجها وقلة ما تحتاج إليه من العمال لتشغيلها فاستغنى أصحاب العمل عن كثير من العمال فنشأت البطالة ومشاكلها العديدة ومن هنا نشأت فكرة التوجه بالمطالبة بإصلاح هذه الأحوال الاقتصادية المضطربة والحد من التنافس بين الناس في الاستئثار بالمال وجمعه الذي يسبب الصراع بينهم وكان هذا في الوقت الذي أفلس فيه الدين النصراني عن حل أي مشكلة من هذا النوع بل كان عاملا قويا في ظهور اللادينية والمذاهب المنحرفة المختلفة التي قامت من أول يوم على محاربة كل الأوضاع السيئة التي كانت قائمة واستبدالها بأنظمة جديدة تكفل للناس حقوقهم وحرية معيشتهم وكان من بين تلك الأفكار ظاهرة القول بالاشتراكية ومحاربة الملكية الفردية وما جاء بعدها من أهوال الشيوعية.

والواقع أن الاشتراكية أقبح مذهب عرفته البشرية وأشدها شرا على الإطلاق فقد ذهب ضحية تطبيقها مئات الملايين قتلا وجوعا وتشريدا في

أوروبا البعيدة عن أراضي المسلمين وعن عقائدهم وتاريخ حضارتهم أيدتها اليهودية العالمية وبذلت كل ما استطاعته لتأييدها وتقوية نفوذ أتباعها لما عرفوه من عواقبها الوخيمة على الجوييم وتم لهم ذلك وانتشر هذا الفكر الذي يجعل الخراب والدمار وظل سنوات عديدة في أوج قوته إلى أن أذن الله في إذلاله وإذلال أتباعه فخرج عنه الكثير ممن أنعم الله عليهم بالعقل والتفكير السليم وداسوه بأقدامهم وتنفسوا الصعداء وهالهم ما كانوا فيه من الغبن الفاحش أيام جثومه على صدورهم وتيقنوا أنه مذهب جهنمي صاغه شياطين الإنس والجن بمباركة إبليس اللعين لهم على يد انجز وكارل ماركس ومن جاء بعدهما مثل لينين وستالين إلى أن بدأ عهد جورباتشوف برئاسة ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي ومن الغريب والعجيب والهول الشديد أن بعض البشر ممن هم أشباه القردة والخنازير لا يزالون ينادون به ويتبجحون بأنهم فرسان الاشتراكية لعنها الله ولعنهم وأركسهم في جهنم جميعا {أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩].

وإذا كان لأهل أوروبا ظروفهم التي أنتجت الدعوة إلى الاشتراكية في القرن التاسع عشر الميلادي وما بعده فما بال الدول والشعوب التي تدعي الإسلام وأنه دستورهم، ما بالهم دخلوا تحت هذا اللواء الأحمر الذي يشير دائما إلى سفك الدماء وما هي الظروف التي ألجأتهم إلى المناداة بالاشتراكية الماركسية ألم يجدوا في الإسلام ما يسعدهم؟ بلى ولكنهم ما طبقوه إن لم نقل ما عرفوه أساسا. ويطول عتاب هؤلاء وخصامهم ولكن لا يمكن إغفال فريتهم الكبيرة التي تدل على مدى خبثهم وجهلهم، تلك الفرية التي ظهرت تنادي بأن الاشتراكية أساسها إسلامي وأنها تسير جنبا إلى جنب مع التعاليم الإسلامية بل وإن واضع أساسها في الإسلام - ليس هو كارل ماركس اليهودي الحاقد - بل

إنه أبو ذر الغفاري وأم المؤمنين خديجة بنت خويلد التي سميت عندهم " أم الاشتراكية". بل وفي خطاب ألقاه جمال عبد الناصر زعم فيه بكل وقاحة أن النبي محمد ﷺ هو إمام الاشتراكيين. سبحان الله ما أعظم حلمه فأين الرسول ﷺ وأين أم المؤمنين خديجة وأين أبو ذر الغفاري وأين الاشتراكية؟ إنها كذبة تكاد تهد الجبال وخدعة مكشوفة قبيحة أراد أصحابها تحبيب الوجه الكالح للاشتراكية إلى قلوب المسلمين لأنهم أرادوا وقد وقعوا فيها واصطلوا بنارها أن يجروا غيرهم إليها.

وما أشبه حالهم بحال الثعلب الذي قطع ذيله فجاء إلى بقية الثعالب يحبب إليهم أن يقطعوا ذيولهم لينعموا بالخفة والرشاقة!!.

مسألة: معنى الاشتراكية

اختلف دعاة الاشتراكية فيما بينهم وافترقوا إلى أحزاب في مفهومهم للاشتراكية وفي المقصود بها، إلى حد أنه بلغت معانيها المائتين في بريطانيا وحدها. وهذا يذكرنا بقول الأعرابي حينما سمع أسماء القط الكثيرة فقال: "قبحه الله ما أقل نفعه وما أكثر أسمائه" وأقول لك قبل أن أذكر أهم التعريفات لها لا يهولنك كثرة تلك الاختلافات فإن مصبها في النهاية واحد هو الإلحاد والتشريع للبشر من دون الله تعالى " تعددت الأسباب والموت واحد"، وإذا رجعنا بمعنى الاشتراكية إلى ما قبل " كارل ماركس " فإننا نجدها قد ظهرت في أماكن مختلفة في دعوات إلى إلغاء الملكية الفردية وإلى نبذ التقاليد والأعراف وشيوعية الأموال والنساء بين الجميع ويطلق على هذه الاشتراكية اسم الاشتراكية القديمة قبل مرحلة ظهور النظام الرأسمالي الذي يناقض الاشتراكية تماما في تقديس الملكية الفردية والأنانيات الأخرى التي تميز بها، بل وقبل ظهور الإسلام بمئات السنين على عهد "أفلاطون"... فإطلاق الاشتراكية على

الإسلام أوعلى العرب حين يقال الاشتراكية الإسلامية أو الاشتراكية العربية كذب محض، لأن الإسلام لم يقر الاشتراكية مع أنها كانت موجودة في صور شتى قبل الإسلام ومع ذلك لم يختر الله أن تكون ضمن تعاليم الإسلام لأنها تعاليم جاهلية والإسلام بريء من الجاهلية وأفكارها سواء ظهرت قبله أم بعده. وكذلك قولهم الاشتراكية العربية إن هو إلا كذب محض على العربية وعلى العرب الذين ما كانوا يعرفونها أو يتحدثون عنها لا في شعرهم ولا في نثرهم ومفاهيمها كلها غير مفاهيم الاشتراكية ونشأتها ليست في بلادهم فبأي حق تنسب إليهم؟ لولا إرادة الخداع والتضليل. وكذلك نسبتها إلى العلم هي نسبة زور وافتراء فقد قامت على التخمينات الماركسية وعلى التنبؤ بأمور كثيرة ظهر أنها كذب ولم تتحقق فنسبتها إلى العلم ظلم للعلم وأي ظلم؟ والإسلام والعرب والعلم والعقول السليمة كلها لا تعارض البيع والشراء والربح والملكية الفردية التي تحاربها الاشتراكية على أساس أن الربح ينتج عن الملكية الفردية وهي ممنوعة في الاشتراكية فمتى نادى الإسلام أو العرب أو العلم بذلك؟! وقد أحل الله البيع وحرم الربا.

مسألة: أقسام الاشتراكية

الاشتراكية كلمة بغيضة مهما قسمها زعماؤها ومهما تفننوا في خداع الناس في مفاهيمها المختلفة فهي على كل حال مذهب غريب على الناس وعلى أديانهم نشأ في أوروبا إثر أوضاع مختلفة وقد قسم بعض الباحثين الاشتراكية إلى قسمين:

- الاشتراكية الماركسية.
- الاشتراكية الفابية.

والذي نحن بصدد دراسته هو مذهب الاشتراكية الماركسية التي تنتسب

إلى "كارل ماركس" والتي هي المقدمة الأولى للشيوعية الحمراء، أما الفرق بين الاشتراكيتين فيظهر من خلال ما يلي:

- الاشتراكية الماركسية نسبة إلى "كارل ماركس" بينما الاشتراكية الفابية نسبة إلى أحد قواد الرومان واسمه "فابيوس".

- الاشتراكية الماركسية تميل إلى العنف والثورة، بينما الاشتراكية الفابية تميل إلى الإصلاح وإلى سعادة الناس كما يزعمون وإلى التدرج في التطور ولو أدى ذلك إلى تأخر تطبيق الاشتراكية زمنا طويلا.

- إن الاشتراكية الماركسية تبطل الملكية الفردية وتحاربها، بينما الاشتراكية الفابية تعترف بالملكية العامة ولا تجيز تأميم الأرض دون مقابل وأن الملكية الخاصة يمكن تحويلها إلى ملكية الدولة بالطرق المشروعة. - خالف الفابيون آراء ماركس في نظرته إلى المجتمعات من أنها قائمة على الصراع الطبقي وقالوا بأن الصراع الطبقي ليس حتميا ولا ضرورة إليه لقيام حكومة العمال كما هو مذهب ماركس بل إن الدولة عند الفابيين ليس المقصود بها تسلط فئة على أخرى - كما يرى ماركس - وإنما الدولة عندهم هي قوة في صالح الجميع وأن التغيير الثوري العنيف الذي يراه ماركس فاشل في تحقيق السعادة للشعوب.

مسألة: هل الاشتراكية هي الشيوعية؟

اختلفت وجهات نظر الباحثين - فيما يظهر من كتاباتهم - حول العلاقة بين الاشتراكية والشيوعية وفيما يلي أذكر بين يدي القارئ حاصل ما قيل حول هذه العلاقة. ١ - لا فرق بين الاشتراكية والشيوعية بل هما اسمان لمسمى واحد وعن تعليل التسمية بالاشتراكية بدلا عن التسمية بالشيوعية يقال: إن الشيوعية من بعد ماركس اشتهرت بأنها شيوعية "مزدك"، فنفر منها الناس، ومن هنا صارت كلمة الاشتراكية أقل استنكارا لهذا جعلت البذرة الأولى لشجرة

الشيوعية الخالصة وإلا فالشيوعية والاشتراكية اسمان لمسمى واحد".٢ - إن الاشتراكية ترمي في النهاية إلى الشيوع وأن الفرق بينهما يكمن في الناحية العلمية، فالشيوعية ترى أن جميع الثروات الاجتماعية مجموع يستهلك الفرد منه بقدر ما يسد جميع حاجاته وليس فقط بقدر ما يناسب خدماته، على أن هذا الحق في الاستهلاك يتوقف عند الشيوعيين على واجب الإنتاج والعمل فمن لا يعمل لا يأكل على حد قولهم، وهي ما يعبر عنها بقولهم "من كل طبقا لكفايته ولكل طبقا لحاجته" أما الاشتراكية فتتفق مع الشيوعية في وجوب إنشاء المجموع العام من الثروات ولكنها تخالفها في طريقة التوزيع فتسمح لكل فرد من الثمرات العامة بما يناسب عمله وجهوده لا بما يناسب حاجته " ولهذا يذهب بعض الباحثين إلى أنه لا فرق بين الشيوعية والاشتراكية، "من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته".

٣- إن بين الاشتراكية والشيوعية من جهة وبين الفاشستية من جهة أخرى شبها قويا من حيث أن الاشتراكية والشيوعية ترميان كلتاهما إلى تقوية قبضة الدولة في توجيه الإنتاج والقضاء على حرية الفرد وكذا النظام الفاشستي وكلها صور من صور الديكتاتورية. ٤ - اعتبر " لينين " الاشتراكية هي المرحلة التي تسبق الشيوعية مباشرة فهي مقدمة أو تمهيد لها معتبرا أن الاشتراكية مرحلة أولى بينما الشيوعية هي المرحلة الأخيرة العليا.٥ - إن الاشتراكية تختلف عن الشيوعية، ولكن ما معنى هذا التفريق إذا عرفنا أن "ماركس" هو الذي أنشأها وسماها أيضا الاشتراكية العلمية حتى تتميز عن الاشتراكية الخيالية التي أنشاها " سان سيمون"، و"لويس" ورفاقهما والتي لم يرتضيها "ماركس" حيث اعتبر اشتراكيته مرحلة حتمية لا تقبل الرفض لأنها نتيجة مضادة للرأسمالية التي تنبأ بأنها ستنتهي وتحل اشتراكيته محلها وأن الدول الكثيرة مثل بريطانيا وغيرها

ستعود حتما إلى الأخذ باشتراكيته وستموت الأنظمة الرأسمالية فيها فكانت النتيجة على حد قول الشاعر:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا ... أبشر بطول سلامة يا مربع

فقد احتضرت الاشتراكية في الشرق في الوقت الذي انتعشت فيه الرأسمالية في الغرب، وكذلك ظن "ماركس" ورفاقه الأغبياء.

مسألة: مزاعم الاشتراكيين ودعاياتهم

للاشتراكيين على اختلاف مفاهيمهم للاشتراكية قاسم مشترك يتفقون عليه في مغالطاتهم وخدعهم للناس وتحبيب الاشتراكية إليهم وقد تبدو الأمور التي يدعون إليها أنها فرصة ثمينة لإسعاد البشرية ولكنها سحابة صيف أو فقاقيع منفوخة بالهواء لقد انكشف زيفها واضمحل بريقها بعد التجارب المريرة التي مرت بالبشرية منذ تأسيسها إذ نقلتهم من سيء إلى أسوأ ومن طبقات متآلفة إلى طبقات متصارعة ومن فقر وغنى إلى فقر مدقع، وخلاصة تلك المزاعم تتمثل فيما يلي:

١- المساواة الاقتصادية بين جميع الأفراد بلا تمييز بينهم في القومية أو الجنس أو السن.

٢- محو استغلال الفرد أو الجماعة أو الدولة للفرد.

٣- إلغاء الملكية الفردية للأرض بما عليها وما فيها من كنوز وثروات وجعلها بيد الدولة فقط يسمح بتحقيق العدالة في التوزيع بين الجميع.

٤- منح الحق لكل إنسان أن يستخدم كل وسائل الإنتاج علمية أو فنية.

٥- قيام الدولة الاشتراكية ذاتها لتتحول إدارة الجهود والإنتاج الفردية إلى إدارة موحدة وتصبح الدولة هي المالكة الوحيدة لجميع الثروات ووسائل الإنتاج وجميع المرافق الاقتصادية الأخرى وتتولى استثمارها، وبالتالي تحصل

السعادة المنشودة.

تلك هي أهم الأمور التي تدور حول مفاهيم الاشتراكية وتحبيبها إلى الناس.

أما المساواة الاقتصادية بين جميع الأفراد فقد حققها الاشتراكيون ولكن على الجانب الآخر فقد استطاعوا أن يساووا بين الناس في الفقر ولكنهم لم يستطيعوا أن يساووا بينهم في الغنى لأن الهدم دائما أسهل من البناء وحال الشعوب السوفياتية بعد انجلاء غمة الاشتراكية عنهم أقوى شاهد على ذلك.

أما محو استغلال الفرد من قبل الأفراد الآخرين أو الجماعة أو الدولة فهي كذبة واضحة حيث أن الدولة استغلت الأفراد من اللحم إلى العظم حتى أصبح الفرد مثله مثل أي قطعة استهلاكية وأي استغلال أقوى من أن الفرد لا يأكل أي وجبة إلا ببطاقة ولا يملك سكنا ولا غيره إلا مع الجماعة بل وقد يقتل بكل بساطة أمام زملائه إذا اتضح قصوره في العمل.

وكذا إلغاء الملكية الفردية للأرض نعم حققتها الاشتراكية حتى أصبح الناس كلهم لا يملكون شيئا وأصبحت الأرض ومن عليها من شجر وبشر ملكا للدولة وهو ما كان عليه الحال زمن الإقطاع تماما.

وأما منح الحق لكل إنسان أن يستخدم كل وسائل الانتاج علمية أو فنية فنعم ولكن عمله ليس له إنما هو يعمل كما تعمل الآلة بلا كلل ولا ملل لحساب الدولة التي أممت كل شيء وسدت كل باب للملكية الفردية، وما دام المصب واحد فلا يضر اختلاف المجاري أو على حد ما قاله الخليفة العباسي للسحابة: "أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك".

٦- ومن أكبر مزاعمهم قولهم أن الاشتراكية إنما قامت في رد فعل ضد الرأسمالية إثر ظهور الثورة الصناعية التي أسهمت في شقاء العمال والكادحين

حيث أدت إلى زيادة ساعات العمل وانخفاض الأجور مما تسبب في إلحاق كوارث بالعمال وخيمة وأنه لم يكن لهم مخرج من تلك الأوضاع ولا منقذ غير الانضواء تحت راية الاشتراكية الماركسية ونبذ النظام الرأسمالي الذي لا يرحم الفقراء ولا يعترف بحقوقهم ولكن وضع دعاة الاشتراكية هذا يصدق عليهم المثل القائل " إذا كان بيتك من زجاج لا تراجم الناس " إذ بإمكان أي رأسمالي أن يقول للاشتراكيين ألم تروا حال العمال والكادحين لديكم ومدى البؤس والشقاء الذي حل بهم؟ إضافة إلى أنكم حولتم العامل من إنسانيته إلى أن جعلتموه قطعة من أدوات الإنتاج لا قيمة له إلا من خلال سلوكه وعمله مع المجموعة.

فظهر أن النظامين معا جائرين ظالمين لا خير فيهما ولا رحمة حقيقية فيهما على الفقراء.

(باب متفرقات)

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٢٨/ ١٨٦): الشيوعيون والملاحدة في عصرنا ينكرون وجود الله، ألا يعتبر هذا إنكارا لتوحيد الربوبية، خلاف ما قاله بعض أهل العلم، بأن أحدا من الكفار لم ينكر توحيد الربوبية؟.

فأجاب: ذكر العلماء أن توحيد الربوبية أمر معترف به عند الأمم، وإنما أنكره شواذ من الناس لا عبرة بهم، منهم المجوس حيث قالوا: إن هناك إلهين: النور والظلمة، وأن النور أعظم من الظلمة، وأنه خلق الخير، وأن الظلمة خالقة الشر، وأما إنكار الآلهة بالكلية فهذا قد قاله مكابرة فرعون، وهكذا الفلاسفة الأقدمون.

والملاحدة معروفون بأنهم يرون الأفلاك آلهة، وأن لها حركتها المعروفة، لكن جمهور المشركين وعامتهم يقرون بالرب، وأن هناك ربا خلق ورزق وهو

في العلو، وإنما تقربوا إليه بما فعلوا من الشركيات.

وكفار قريش أنكروا المعاد، وهم يقرون بأن الله ربهم وخالقهم، ولكنهم أشركوا في العبادة وأنكروا المعاد، وقالوا: {مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا}، وأنكروا الجنة والنار، فبعث الله محمدا ﷺ إليهم وإلى غيرهم من الجن والإنس بإرشادهم إلى الحق، وإنكار ما هم عليه من الباطل، فاتبعه من أراد الله له السعادة، وكفر به الأكثرون كغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}، وقال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢٨/ ٢٧٤): من المعروف أن بعض الناس يظنون بأن أصلهم حيوان لموافقتهم النظرية الغربية، فما رأيكم في ذلك؟

فأجاب: نظرية دارون تقول: الإنسان أصله قرد، وإن ابن آدم حيوان ينطق وكلنا حيوان، فالله خلق لابن آدم حياة وجعل له عقلا ونطقا، ولكن هذه النظرية الخبيثة باطلة بإجماع أهل العلم، فالقردة أمة من الأمم، والكلاب أمة من الأمم، والخنازير أمة من الأمم، والقطط أمة من الأمم، وهكذا الأسود والنمور والفهود وغيرهما، أما الإنسان فهو حيوان مستقل ناطق عاقل، خلقه الله من ماء مهين، وأبونا آدم - عليه الصلاة والسلام- خلقه الله من طين، فهو حيوان مستقل وأمة من الأمم قائمة وهم بنو آدم، والجن أيضا أمة قائمة خلقوا من مارج من نار، وكل نوع من الحيوان أمة قائمة حتى النمل أمة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في فتاوى نور على الدرب (١/ ٦٥): لقد أصبح من المتعارف عليه وشائع على ألسنة الناس، وكأنما هو شيء بديهي أن الدنيا بما فيها خلقت لأجل رسول الله ﷺ، ولولاه لم تكن ولم تخلق ولم توجد. نرجو من

فضيلة الشيخ الإجابة على سؤالي مع الدليل، إن كان كما قيل، وجزاكم الله خيرا؟

فأجاب: هذا من كلام بعض العامة الذين لا يعرفون ولا يفهمون، قول بعض الناس: إن الدنيا خلقت من أجل محمد ولولا محمد ما خلقت الدنيا ولا خلق الناس هذا باطل ولا أصل له، وهذا كلام فاسد، والله خلق الدنيا ليعرف ويعلم وجوده سبحانه وتعالى، وليعبد جل وعلا، خلق الدنيا وخلق الخلق ليعرف بأسمائه وصفاته، وبفضله وعلمه، وليعبد وحده لا شريك له ويطاع سبحانه وتعالى، لا من أجل محمد، ولا من أجل نوح، ولا موسى، ولا عيسى، ولا غيرهم من الأنبياء، بل خلق الله الخلق ليعبد وحده لا شريك له. خلق الله الدنيا وسائر الخلق ليعبد ويعظم ويعلم أنه على كل شيء قدير، وأنه هو القادر على كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، كما قال سبحانه وتعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} فبين سبحانه أنه خلقهم ليعبدوه، لا من أجل محمد عليه الصلاة والسلام، ومحمد من جملتهم خلق ليعبد ربه، يقول سبحانه: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}، وقال سبحانه وتعالى في سورة الطلاق: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}، وقال سبحانه: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا}.

والله جل وعلا خلق الخلق ليعبد، خلقه للحق وبالحق ليعبد ويطاع ويعظم، وليعلم أنه على كل شيء قدير، وأن كل شيء من شأنه سبحانه وتعالى.

فأيها السائل، هذه الأشياء التي سمعتها باطلة لا أساس لها، لم يخلق الله الخلق، لا الجن، ولا الإنس، ولا السماء، ولا الأرض، وغير ذلك لم يخلق ذلك من أجل محمد عليه الصلاة والسلام، ولا لغيره من الرسل، وإنما خلق الخلق أو خلق الدنيا ليعبد وحده لا شريك له، وليعرف بأسمائه وصفاته. هذا

هو الحق، وهذا الذي دلت عليه الأدلة، وإن كان محمد عليه الصلاة والسلام هو أشرف الناس، وهو أفضل الناس عليه الصلاة والسلام وهو خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم، لكن الله خلقه ليعبد ربه، وخلق الناس ليعبدوا ربهم سبحانه وتعالى، ما خلقهم من أجل محمد، وإن كان أفضل الناس، فافهم هذا وبلغه لغيرك أيها السائل؛ لأن هذه مسألة مهمة، وقد وقع فيها من ينتسب إلى العلم، من الجهلة ومن الغلاة، الذين ليس عندهم من العلم الحقيقي نصيب، وهذا يشبه على العامة الذين ليس عندهم علم، أما أهل العلم والبصائر فهم يعلمون أن هذا باطل، وأن الله سبحانه خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، وليعرف بأسمائه وصفاته وأنه الحكيم العليم، وأنه السميع المجيب، وأنه العليم القادر على كل شيء سبحانه وتعالى، وأنه الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه وتعالى.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٨٣): دائما اقرأ وأسمع أن الإنسان قد كان قردا في البداية، ثم مر بمراحل وتحول إلى الإنسان العادي المعروف اليوم هل هذا من المعقول أم لا؟ وهل عناصر القرد، أي عناصر تكوين جسمه هي نفس العناصر المكونة لجسم الإنسان؟ أفيدونا جزاكم الله خيرا؟..

فأجاب: هذا القول الذي ذكره السائل قول منكر وباطل ومخالف لكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولإجماع سلف الأمة. وقد اشتهر هذا القول عن المدعو (داروين) وهو كاذب فيما قال. بل أصل الإنسان هو الإنسان على حاله المعروف؛ ليس أصله قردا ولا غير قرد، بل هو إنسان سوي عاقل خلقه الله من الطين من التراب؛ وهو أبونا آدم عليه الصلاة والسلام، خلقه الله من تراب كما قال الله جل وعلا: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ}. فهو مخلوق من هذا التراب خلقه الله على صورته، طوله ستون ذراعا في السماء

ثم لا يزال الخلق ينقص حتى الآن، فهو مخلوق على الصفة التي نشاهدها، فأولاده كأبيهم مخلوقون على خلقة أبيهم، لهم أسماع ولهم أبصار ولهم عقول ولهم القامة التي تعرف لهم الآن، يقومون على أرجلهم ويتكلمون ويسمعون ويبصرون ويأخذون بأيديهم ويعطون، وليسوا على شكل القردة، وليس تكوينهم تكوين قردة، بل لهم تكوين خاص، وللقردة تكوين خاص، وهكذا كل أمة، فالقردة أمة مستقلة، والخنازير أمة مستقلة، وهكذا الكلاب والحمير، وهكذا القطط وهكذا غيرها أمم، كما قال الله ﷻ: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} . هذه الأمم كلها تحشر إلى الله، تجمع يوم القيامة ويقتص لبعضها من بعض، ثم يقال لها: كوني ترابا فتكون ترابا، ما عدا الجن والإنس، فلهما شأن آخر يحاسبون ويجزون بأعمالهم، فمن أطاع ربه فإلى الجنة، ومن كفر به فإلى النار، أما هذه الحيوانات الأخرى فهي أمم مستقلة فالقردة أمة مستقلة، لها خلقتها ونشأتها وخصائصها، والخنازير كذلك والكلاب كذلك، والحمر كذلك والإبل كذلك والبقر كذلك، والغنم كذلك وهكذا كل أمة من الأمم لها خلقتها، وميزتها التي أنشأها الله عليها سبحانه، وهو الحكيم العليم وهو أبصر بدقائق أمرها؛ ودقائق تكوينها هو أبصر بهذا سبحانه وتعالى، لكن يجب أن يؤمن العبد أن خلق آدم غير خلق القردة، وأن أصل آدم هو أصله الذي هو عليه الآن وليس أصله قردا ولا غيره؛ بل هو إنسان سوي على خلقته المشاهدة، فالقول إن أصله قرد قول منكر، قول باطل، بل لو قيل بكفر صاحبه لكان وجيها، فالأظهر والله أعلم أن من قاله مع علمه بما جاء به الشرع أنه يكون كافرا؛ لأنه مكذب لله ورسوله ومكذب لكتاب الله في خلق آدم.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٨٥): سمعت من بعض الناس أنه

كان يوجد قبل آدم إنسان بدائي واختفى قبل ظهور آدم، فهل هذا صحيح؟.

فأجاب: ليس لهذا أصل، بل هذا من الخرافات؛ ليس قبل آدم إنسان آخر.

مسألة

قال العلامة الألباني في تحقيق الآيات البينات في عدم سماع الأموات (ص١٥٠ - ١٥١): نقل الآلوسي في "الآيات البينات" عن البيضاوي أنه حمل آية الميثاق على التمثيل لا الحقيقة وذلك في تفسيره.

وهو [أي تفسير البيضاوي] المعروف بـ " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " (٣/ ٣٣) قال في معنى الآية: "نَزَّل تمكين بني آدم من العلم بربوبيته بنصب الدلائل وخلق الاستعداد فيهم وتمكنهم من معرفتها والإقرار بها منزلة الإشهاد والاعتراف تمثيلًا وتخييلًا فلا قول ثَم ولا شهادة حقيقة". وقد تعقبه جماعة منهم العلامة علي القاري في " المرقاة " فقال (١/ ١٤٠):

وفيه أن هذا يرجع إلى مذهب المعتزلة، ومنهم الخطيب الكازروني في حاشيته عليه رد عليه تأويله المذكور بكلام قوي، ومما قاله: "إن الواجب على المفسر المحقق أن لا يفسر القرآن برأيه إذا وجد نقلًا معتمدًا عن السلف فكيف بالنص القاطع من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ؟"، فراجعه فإنه مهم.

ومنهم الإمام الشوكاني في " فتح القدير " (٢/ ٢٥٠ - ٢٥٢).وصديق حسن خان في " فتح البيان " (٣/ ٤٠٤ - ٤٠٩) وكتابه " الدين الخالص " (١/ ٣٩١).و" أضواء البيان " (٢/ ٣٣٥ - ٣٣٨) للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمهم الله تعالى.

[ثم ذكر الآلوسي في نفس السياق تفسير والده "روح المعاني"، فعلق الألباني قائلًا]:

ورَدَّ فيه [أي رَدَّ الآلوسي الأب في تفسيره] تأويل البيضاوي المذكور وقال:

"يأبى عنه كل الإباء حديث ابن عباس [هو حديث" إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بـ: (نعمان) يوم عرفة وأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلًا قال: «ألست بربكم قالوا: بلى»". قال الألباني: وهو حديث صحيح بل هو متواتر المعنى كما بينته في " الصحيحة " (١٦٢٣)].

ثم ذكر أن المعتزلة ينكرون أخذ الميثاق التالي المشار إليه في الأخبار ويقولون: إنه من جملة الآحاد فلا يلزمنا أن نترك ظاهر الكتاب، وطعنوا في صحتها بمقدمات عقلية مبنية على قواعد فلسفية على ما هو دأبهم في أمثال هذه المطالب، ثم سرد كلماتهم في ذلك وردها كلها.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في الصحيحة (٤/ ١٥٨، ١٦٣): قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بـ(نعمان) - يعني عرفة- فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلًا قال: {ألست بربكم قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أوتقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون}».

أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢) وابن جرير في "التفسير" (١٥٣٣٨) وابن أبي عاصم في "السنة" (١٧/ ١) والحاكم (٢/ ٥٤٤) والبيهقي في "الأسماء والصفات" (ص ٣٢٦- ٣٢٧) كلهم من طريق الحسين بن محمد المروذي حدثنا جرير بن حازم عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: فذكره. قال الحاكم: "صحيح الإسناد".ووافقه الذهبي.

قلت: وحقهما أن يقيداه بأنه على شرط مسلم، فإن كلثوم بن جبر من رجاله وسائرهم من رجال الشيخين. وتابعه وهب بن جرير حدثنا أبي به دون ذكر "

نعمان" وقال أيضا: "صحيح الإسناد، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر". ووافقه الذهبي أيضا. وأما ابن كثير فتعقبه بقوله في " التفسير " (٢/ ٢٦٢): "هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فوقفه. وكذا رواه إسماعيل بن علية ووكيع عن ربيعة بن كلثوم ابن جبر عن أبيه به، وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابت وعلي بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وكذا رواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس، فهذا أكثر وأثبت. والله أعلم".

قلت: هو كما قال رحمه الله تعالى، ولكن ذلك لا يعني أن الحديث لا يصح مرفوعا وذلك لأن الموقوف في حكم المرفوع، لسببين: الأول: أنه في تفسير القرآن، وما كان كذلك فهو في حكم المرفوع، ولذلك اشترط الحاكم في كتابه " المستدرك " أن يخرج فيه التفاسير عن الصحابة كما ذكر ذلك فيه (١/ ٥٥).

الآخر: أن له شواهد مرفوعة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن جمع من الصحابة، وهم عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو وأبو هريرة وأبو أمامة وهشام بن حكيم أو عبد الرحمن بن قتادة السلمي على خلاف عنهما- ومعاوية بن أبي سفيان وأبو الدرداء وأبو موسى، وهي إن كان غالبها لا تخلوا أسانيدها من مقال، فإن بعضها يقوي بعضا، بل قال الشيخ صالح المقبلي في " الأبحاث المسددة ": "ولا يبعد دعوى التواتر المعنوي في الأحاديث والروايات في ذلك"، ولاسيما وقد تلقاها أو تلقى ما اتفقت عليه من إخراج الذرية من ظهر آدم وإشهادهم على أنفسهم، السلف الصالح من الصحابة والتابعين دون اختلاف بينهم، منهم عبد الله ابن عمرو وعبد الله بن مسعود، وناس من الصحابة، وأبي بن كعب وسلمان الفارسي ومحمد بن كعب والضحاك بن مزاحم والحسن البصري وقتادة وفاطمة بنت الحسين وأبو جعفر الباقر

وغيرهم، وقد أخرج هذه الآثار الموقوفة وتلك الأحاديث المرفوعة الحافظ السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ١٤١ - ١٤٥)، وأخرج بعضها الشوكاني في "فتح القدير" (٢/ ٢١٥ - ٢٥٢) ومن قبله الحافظ ابن كثير في " تفسيره (٢/ ٢٦١ - ١٦٤) وخرَّجت أنا حديث عمر في " الضعيفة " (٣٠٧٠) وصححته لغيره في " تخريج شرح الطحاوية " (٢٦٦) وحديث أبي هريرة في تخريج السنة لابن أبي عاصم (٢٠٤ و٢٠٥ - بتحقيقي) وصححته أيضا هناك (ص ٢٦٧) وفي الباب عن أبي الدرداء مرفوعا، وقد سبق برقم (٤٩) وعن أنس، وسبق برقم (١٧٢) وهو متفق عليه، فهو أصحها وفيه: "إن الله تعالى يقول للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا؟ فيقول: نعم. فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي".

إذا عرف هذا فمن العجيب قول الحافظ ابن كثير عقب الأحاديث والآثار التي سبقت الإشارة إلى أنه أخرجها: "فهذه الأحاديث دالة على أن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عمرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم".

قلت: وليس الأمر كما نفى، بل الإشهاد وارد في كثير من تلك الأحاديث: الأول: حديث أنس هذا، ففيه كما رأيت قول الله تعالى: "قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا".قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري " (٦/ ٢٨٤): "فيه إشارة إلى قوله تعالى: {وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم... } الآية.

قلت: ولفظ حديث ابن عمرو الذي أعله ابن كثير بالوقف إنما هو: أخذ من ظهره..."، فأي فرق بينه وبين لفظ حديث أنس الصحيح؟!

الثاني: حديث عمر بلفظ: «ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية...".

الثالث: حديث أبي هريرة الصحيح: «... مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة...".

الرابع: حديث هشام بن حكيم: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم...".

الخامس: حديث أبي أمامة: «لما خلق الله الخلق وقضى القضية، أخذ أهل اليمين بيمينه، وأهل الشمال بشماله، فقال: ... ألست بربكم، قالوا: بلى...".

ففي ذلك رد على قول ابن القيم أيضا في كتاب " الروح " (ص ١٦١) بعد أن سرد طائفة من الأحاديث المتقدمة: "وأما مخاطبتهم واستنطاقهم وإقرارهم له بالربوبية وشهادتهم على أنفسهم بالعبودية- فمن قال من السلف فإنما هو بناء منه على فهم الآية، والآية لم تدل على هذا بل دلت على خلافه".

وقد أفاض جدًا في تفسير الآية وتأويلها تأويلا ينافي ظاهرها بل ويعطل دلالتها أشبه ما يكون بصنيع المعطلة لآيات وأحاديث الصفات حين يتأولونها، وهذا خلاف مذهب ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ الذي تعلمناه منه ومن شيخه ابن تيمية، فلا أدري لماذا خرج

عنه هنا لاسيما وقد نقل (ص ١٦٣) عن ابن الأنباري أنه قال: "مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وصلب أولاده وهم في صور الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبل عقلا حين خوطب، وكما فعل ذلك للبعير لما سجد،

والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت". كما نقل أيضا عن إسحاق بن راهويه: "وأجمع أهل العلم أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، وأنه استنطقهم وأشهدهم".

قلت: وفي كلام ابن الأنباري إشارة لطيفة إلى طريقة الجمع بين الآية والحديث وهو قوله: "إن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده". وإليه ذهب الفخر الرازي في " تفسيره " (٤/ ٣٢٣) وأيده العلامة ملا على القاري في " مرقاة المفاتيح " (١/ ١٤٠ - ١٤١) وقال عقب كلام الفخر: "قال بعض المحققين: إن بني آدم من ظهره، فكل ما أخرج من ظهورهم فيما لا يزال إلى يوم القيامة هم الذين أخرجهم الله تعالى في الأزل من صلب آدم، وأخذ منهم الميثاق الأزلي ليعرف منه أن النسل المخرج فيما لا يزال من أصلاب بنيه هو المخرج في الأزل من صلبه، وأخذ منهم الميثاق الأول، وهو المقالي الأزلي، كما أخذ منهم فيما لا يزال بالتدريج حين أخرجوا الميثاق الثاني، وهو الحالي الإنزالي.

والحاصل أن الله تعالى لما كان له ميثاقان مع بني آدم أحدهما تهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الحاملة على الاعتراف الحالي، وثانيهما المقالي الذي لا يهتدي إليه العقل، بل يتوقف على توقيف واقف على أحوال العباد من الأزل إلى الأبد، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أراد عليه الصلاة والسلام أن يعلم الأمة ويخبرهم أن وراء الميثاق الذي يهتدون إليه بعقولهم ميثاقًا آخر أزليًا فقال (ما) قال من مسح ظهر آدم في الأزل وإخراج ذريته وأخذه الميثاق عليهم وبهذا يزول كثير من الإشكالات، فتأمل فيها حق التأمل".

وجملة القول أن الحديث صحيح، بل هو متواتر المعنى كما سبق، وأنه لا تعارض بينه وبين آية أخذ الميثاق، فالواجب ضمه إليها، وأخذ الحقيقة من

مجموعها وقد تجلت لك إن شاء الله مما نقلته لك من كلام العلماء، وبذلك ننجو من مشكلتين بل مفسدتين كبيرتين:

الأولى: رد الحديث بزعم معارضته للآية.

والأخرى: تأويلها تأويلًا يبطل معناها، أشبه ما يكون بتأويل المبتدعة.

والمعتزلة. كيف لا وهم أنفسهم الذين أنكروا حقيقة الأخذ والإشهاد والقول المذكور فيها بدعوى أنها خرجت مخرج التمثيل! وقد عز علي كثيرًا أن يتبعهم في ذلك مثل ابن القيم وابن كثير، خلافًا للمعهود منهم من الرد على المبتدعة ما هو هو دون ذلك من التأويل. والعصمة لله وحده.

ثم إنه ليلوح لي أننا وإن كنا لا نتذكر جميعا ذلك الميثاق الرباني وقد بين العلماء سبب ذلك- فإن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والتي تشهد فعلًا بأن الله هو الرب وحده لا شريك له، إنما هي أثر ذلك الميثاق، وكأن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أشار إلى ذلك حين روى عن الأسود بن سريع مرفوعا: "ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة..."

الحديث، قال الحسن عقبه: "ولقد قال الله ذلك في كتابه: [وإذ أخذ ربك...] الآية".أخرجه ابن جرير (١٥٣٥٣)، ويؤيده أن الحسن من القائلين بأخذ الميثاق الوارد في الأحاديث، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وعليه فلا يصح أن يقال: إن الحسن البصري مع الخلف القائلين بأن المراد بالإشهاد المذكور في الآية إنما هو فطرهم على التوحيد، كما صنع ابن كثير. والله أعلم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في موسوعته العقدية (٢/ ١٩٣): عن فتواه الخاصة بالخميني. فأجاب: الفتوى خلاصتها: أنه وقفنا على عبارات للخميني أنه يقول: كذا وكذا، أربع خمس عبارات، فهذه العبارات هي الكفر بعينه، وكل من يقول بهذا الكلام فهو كافر أو يكفر، وشرحنا هنا في الأسباب المقتضية لهذا

الحكم، وبلا شك أنه نفس الكلمات عندما يقرأها مسلم مهما كان الثقافة الإسلامية ضحلة فهو لا يشك في أن هذا الكلام كفر.

من ذلك مثلًا أنه يقول في بعض كتبه: بأن أئمة أهل البيت هم من المنزلة عند الله تبارك وتعالى فوق منزلة الملائكة والرسل والأنبياء، ومن ذلك أنه يقول: أن مصحف فاطمة أظن مذكور هذا في الأشياء.. مصحف فاطمة هو المصحف الكامل، أما المصحف المتداول اليوم بين الأئمة فهو جزء من ذاك المصحف، وهذا كفر لقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: ٩) وهكذا أربع خمس عبارات نقلت من كتبه.. كتب الخميني نفسه، هذه الأشياء خطيرة جدًا وكتابه الذي أصدره: «فوائد الثورة الإيرانية» هذه وهي: الكتاب المعروف: «بالحكومة الإسلامية»، لا أدري رأيتم هذا الكتيب الصغير؟

مداخلة: لا.

الشيخ: لم تروه،، في هذا الكتيب الصغير الذي سماه: الثورة الإسلامية أو: الحكومة الإسلامية مع أن هذا الكتاب هو كتاب دعاية، والمفروض عند كل الناس المسلمين والكافرين أن أي كتاب سياسي لا يحسن بالكاتب أن ينشر في هذا الكتاب العقائد التي يعلم أن الخصوم سوف ينكرونها ويبادرون إلى عدم الاستجابة لمضمون الكتاب بصورة عامة، ومع أن الشيعة يوجد عندهم عقيدة يساعدهم أوسع ما تكون المساعدة في سلوك هذا السبيل السياسي وهو: كتمان عقائدهم عن الناس؛ لأنه يوجد لديهم شيء يسمى: بالتقية، لا بد أنك سمعت عن التقية شيء، فالأمر عندهم في موضوع التقية خطير جدًا بحيث أنه لا يمكن لإنسان يعرف أن عندهم التقية أن يركن إليهم؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وهذا دين عندهم، فهو إذا قال لك عن شيء وهو يعلم أنه كاذب لا يستوحش من هذا الكلام إطلاقًا؛ لأن هكذا دينه الذي منه التقية يأمره بذلك.

فمع كون عندهم هذه التقية التي تسوغ لهم أن يقولوا ما شاؤوا، وعلى العكس أكثر من ذلك أن يكتموا عن الناس عقائدهم، لكن الله ﷻ لحكمته البالغة ألهم هذا الرجل الخميني في كتيبه المشار إليه آنفًا: الحكومة الإسلامية أن يبيح عن بعض العقائد مع أنه كتاب دعوة وسياسة، منها: ما ذكرته آنفًا من تعظيمه لأهل البيت أكثر من الملائكة والأنبياء والرسل.

ومن ذلك وهذه كفرية أخرى، وهي: أنهم يعني: أهل البيت يعلمون كل حركة تقع في الكون ما من ذرة تقع في الكون إلا وهم على علم بها، مع أن أهل البيت ماتوا وصاروا ترابًا مهما كان شأنهم، فجعلوهم شركاء في العلم مع الله ﷻ، يعني: أشياء غريبة جدًا، فربنا تبارك وتعالى ليقيم الحجة على من قد يغتر بدعاياتهم يعني: سَخَّرَ هذا الإنسان أن يضع في هذا الكتيب الذي هو كتاب دعاية العقيدتين الوافدتين، واحدة منها تكفي لتحذير الناس من الاغترار بما سموه بالثورة الإسلامية.

ومع الأسف يعني: لما قامت هذه الثورة اغتر بها بعض الشخصيات الإسلامية ويمكن ذهبوا إليهم، فمنهم من رجع وقد تبين له الحق، ومنهم من لا يزال إلى الآن يدعو إلى دعوتهم.

مسألة

سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٦٨): كيف نوفق بين علم الأطباء الآن بذكورة الجنين وأنوثته، وقوله تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ}، وما جاء في تفسير ابن جرير عن مجاهد أن رجلا سأل النبي، ﷺ، عما تلد امرأته، فأنزل الله الآية وما جاء عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟ وما المخصص لعموم قوله تعالى: {مَا فِي الْأَرْحَامِ} ؟.

فأجاب: قبل أن أتكلم عن هذه المسألة أحب أن أبين أنه لا يمكن أن

يتعارض صريح القرآن الكريم مع الواقع أبدا، وأنه إذا ظهر في الواقع ما ظاهره المعارضة، فإما أن يكون الواقع مجرد دعوى لا حقيقة له، وإما أن يكون القرآن الكريم غير صريح في معارضته؛ لأن صريح القرآن الكريم وحقيقة الواقع كلاهما قطعي، ولا يمكن تعارض القطعيين أبدا.

فإذا تبين ذلك فقد قيل: إنهم الآن توصلوا بواسطة الآلات الدقيقة للكشف عما في الأرحام، والعلم بكونه أنثى أو ذكرا فإن كان ما قيل باطلا فلا كلام، وإن كان صدقا فإنه لا يعارض الآية، حيث إن الآية تدل على أمر غيبي هو متعلق علم الله تعالى في هذه الأمور الخمسة، والأمور الغيبية في حال الجنين هي: مقدار مدته في بطن أمه، وحياته، وعمله، ورزقه، وشقاوته أو سعادته، وكونه ذكرا أم أنثى، قبل أن يخلَّق، أما بعد أن يخلق، فليس العلم بذكورته أو أنوثته من علم الغيب، لأنه بتخليقه صار من علم الشهادة، إلا أنه مستتر في الظلمات الثلاثة، التي لو أزيلت لتبين أمره، ولا يبعد أن يكون فيما خلق الله تعالى من الأشعة أشعة قوية تخترق هذه الظلمات حتى يتبين الجنين ذكرا أم أنثى. وليس في الآية تصريح بذكر العلم بالذكورة والأنوثة، وكذلك لم تأت السنة بذلك.

وأما ما نقله السائل عن ابن جرير عن مجاهد أن رجلا سأل النبي، ﷺ، عما تلد امرأته، فأنزل الله الآية. فالمنقول هذا منقطع لأن مجاهدا رَحِمَهُ اللَّهُ من التابعين.

وأما تفسير قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ فيمكن أن يحمل على أن اختصاص الله تعالى بعلمه ذلك إذا كان لم يخلق، أما بعد أن يخلَّق فقد يعلمه غيره. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير آية لقمان: وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء من خلقه.اهـ.

وأما سؤالكم عن المخصص لعموم قوله تعالى: {مَا فِي الْأَرْحَامِ}. فنقول:

إن كانت الآية تتناول الذكورة والأنوثة بعد التخليق فالمخصص الحس والواقع، وقد ذكر علماء الأصول أن المخصصات لعموم الكتاب والسنة إما النص، أو الإجماع، أو القياس، أو الحس، أو العقل، وكلامهم في ذلك معروف.

وإذا كانت الآية لا تتناول ما بعد التخليق وإنما يراد بها ما قبله، فليس فيها ما يعارض ما قيل من العلم بذكورة الجنين وأنوثته.

والحمد لله أنه لم يوجد ولن يوجد في الواقع ما يخالف صريح القرآن الكريم، وما طعن فيه أعداء المسلمين على القرآن الكريم من حدوث أمور ظاهرها معارضة القرآن الكريم فإنما ذلك لقصور فهمهم لكتاب الله تعالى، أو تقصيرهم في ذلك لسوء نيتهم، ولكن عند أهل الدين والعلم من البحث والوصول إلى الحقيقة ما يدحض شبهة هؤلاء ولله الحمد والمنة. والناس في هذه المسألة طرفان ووسط:

فطرف تمسك بظاهر القرآن الكريم الذي ليس بصريح، وأنكر خلافه من كل أمر واقع متيقن، فجلب بذلك الطعن إلى نفسه في قصوره أو تقصيره، أو الطعن في القرآن الكريم حيث كان في نظره مخالفا للواقع المتيقن.

وطرف أعرض عما دل عليه القرآن الكريم وأخذ بالأمور المادية المحضة، فكان بذلك من الملحدين.

وأما الوسط فأخذوا بدلالة القرآن الكريم وصدقوا بالواقع، وعلموا أنَّ كلاًّ منهما حق، ولا يمكن أن يناقض صريح القرآن الكريم أمرا معلوما بالعيان، فجمعوا بين العمل بالمنقول والمعقول، وسلمت بذلك أديانهم وعقولهم، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وفقنا الله وإخواننا المؤمنين لذلك، وجعلنا هداة مهتدين، وقادة مصلحين،

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٧٠): عن دوران الأرض؟ ودوران الشمس حول الأرض؟ وما توجيهكم لمن أسند إليه تدريس مادة الجغرافيا وفيها أن تعاقب الليل والنهار بسبب دوران الأرض حول الشمس؟.

فأجاب: خلاصة رأينا حول دوران الأرض أنه من الأمور التي لم يرد فيها نفي ولا إثبات لا في الكتاب ولا في السنة، وذلك لأن قوله تعالى: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ}. ليس بصريح في دورانها، وإن كان بعض الناس قد استدل بها عليه محتجا بأن قوله: {أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ} يدل على أن للأرض حركة، لولا هذه الرواسي لاضطربت بمن عليها.

وقوله: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا} ليس بصريح في انتفاء دورانها، لأنها إذا كانت محفوظة من الميدان في دورانها بما ألقى الله فيها من الرواسي صارت قرارا، وإن كانت تدور.

أما رأينا حول دوران الشمس على الأرض الذي يحصل به تعاقب الليل والنهار، فإننا مستمسكون بظاهر الكتاب والسنة من أن الشمس تدور على الأرض دورانا يحصل به تعاقب الليل والنهار، حتى يقوم دليل قطعي يكون لنا حجة بصرف ظاهر الكتاب والسنة إليه - وأنى ذلك - فالواجب على المؤمن أن يستمسك بظاهر القرآن الكريم والسنة في هذه الأمور وغيرها.

ومن الأدلة على أن الشمس تدور على الأرض دورانا يحصل به تعاقب الليل والنهار، قوله تعالى: {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ}. فهذه أربعة أفعال أسندت إلى الشمس (طلعت)، (تزاور)، (غربت)، (تقرضهم). ولو كان تعاقب الليل والنهار بدوران الأرض لقال: وترى الشمس إذا تبين سطح الأرض إليها تزاور

كهفهم عنها أو نحو ذلك، وثبت «عن النبي، ﷺ، أنه قال لأبي ذر حين غربت الشمس: "أتدري أين تذهب؟ " فقال: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنها تذهب وتسجد تحت العرش وتستأذن فيؤذن لها، وأنها تستأذن فلا يؤذن لها ويقال: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها".» ففي هذا إسناد الذهاب والرجوع والطلوع إليها وهو ظاهر في أن الليل والنهار يكون بدوران الشمس على الأرض.

وأما ما ذكره علماء الفلك العصريون، فإنه لم يصل عندنا إلى حدّ اليقين فلا ندع من أجله ظاهر كتاب ربّنا وسنة نبينا.

ونقول لمن أسند إليه تدريس مادة الجغرافيا يبين للطلبة أن القرآن الكريم والسنة كلاهما يدل بظاهره على أن تعاقب الليل والنهار، إنما يكون بدوران الشمس على الأرض لا بالعكس.

فإذا قال الطالب: أيهما نأخذ به أظاهر الكتاب والسنة أم ما يدعيه هؤلاء الذين يزعمون أن هذه من الأمور اليقينيات؟

فجوابه: أنا نأخذ بظاهر الكتاب والسنة؛ لأن القرآن الكريم كلام الله تعالى الذي هو خالق الكون كله، والعالم بكل ما فيه من أعيان وأحوال، وحركة وسكون، وكلامه تعالى أصدق الكلام وأبينه، وهو -سبحانه- أنزل الكتاب تبيانا لكل شيء، وأخبر -سبحانه- أنه يبين لعباده لئلا يضلوا، وأما السنة فهي كلام رسول رب العالمين، وهو أعلم الخلق بأحكام ربه وأفعاله، ولا ينطق بمثل هذه الأمور إلا بوحي من الله ﷻ لأنه لا مجال لتلقيها من غير الوحي. وفي ظني - والله أعلم - أنه سيجئ الوقت الذي تتحطم فيه فكرة علماء الفلك العصريين كما تحطمت فكرة داروين حول نشأة الإنسان.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٧٣): عن دوران الشمس حول

الأرض؟.

فأجاب: ظاهر الأدلة الشرعية تثبت أن الشمس هي التي تدور على الأرض، وبدورتها يحصل تعاقب الليل والنهار على سطح الأرض وليس لنا أن نتجاوز ظاهر هذه الأدلة إلا بدليل أقوى من ذلك يسوغ لنا تأويلها عن ظاهرها. ومن الأدلة على أن الشمس تدور على الأرض دورانا يحصل به تعاقب الليل والنهار ما يلي: ١- قال الله تعالى عن إبراهيم في محاجته لمن حاجه في ربه: {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ}. فكون الشمس يؤتى بها من المشرق دليل ظاهر على أنها التي تدور على الأرض.

٢- وقال أيضا عن إبراهيم: {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}. فجعل الأفول من الشمس لا عنها ولو كانت الأرض التي تدور لقال: "فلما أفل عنها".

٣- قال تعالى: {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ}. فجعل الازورار والقرض من الشمس وهو دليل على أن الحركة منها ولو كانت من الأرض لقال يزاور كهفهم عنها، كما أن إضافة الطلوع والغروب إلى الشمس يدل على أنها هي التي تدور وإن كانت دلالتها أقل من دلالة قوله: (تزاور)، (تقرضهم).

٤- وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يدورون في فلكة كفلكة المغزل. اشتهر ذلك عنه.

٥- وقال تعالى: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا}. فجعل الليل طالبا للنهار، والطالب مندفع لاحق، ومن المعلوم أن الليل والنهار تابعان للشمس.

٦- وقال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ

وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} . فقوله: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ} أي يديره عليه ككور العمامة دليل على أن الدوران من الليل والنهار على الأرض، ولو كانت الأرض التي تدور عليهما لقال: "يكور الأرض على الليل والنهار". وفي قوله: {كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} المبين لما سبقه دليل على أن الشمس والقمر يجريان جريا حسياً مكانيا لأن تسخير المتحرك بحركته أظهر من تسخير الثابت الذي لا يتحرك.

٧- وقال تعالى: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} . ومعنى (تلاها) أتى بعدها وهو دليل على سيرهما ودورانهما على الأرض، ولو كانت الأرض التي تدور عليهما لم يكن القمر تاليا للشمس بل كان تاليا لها أحيانا وتالية له أحيانا لأن الشمس أرفع منه والاستدلال بهذه الآية يحتاج إلى تأمل.

٨- وقال تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} . فإضافة الجريان إلى الشمس وجعله تقديرا من ذي عزة وعلم يدل على أنه جريان حقيقي بتقدير بالغ، بحيث يترتب عليه اختلاف الليل والنهار والفصول. وتقدير القمر منازل يدل على تنقله فيها ولو كانت الأرض التي تدور لكان تقدير المنازل لها من القمر لا للقمر. ونفي إدراك الشمس للقمر وسبق الليل للنهار يدل على حركة اندفاع من الشمس والقمر والليل والنهار.

٩- «وقال النبي، ﷺ، لأبي ذر رضي الله عنه وقد غربت الشمس: "أتدري أين تذهب؟ " قال: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنها تذهب فتسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، فيوشك أن تستأذن فلا يؤذن لها فيقال لها ارجعي من حيث

جئت فتطلع من مغربها".» أو كما قال، ﷺ. متفق عليه. فقوله: «ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها» ظاهر جدا في أنها تدور على الأرض وبدورانها يحصل الطلوع والغروب.

١٠ - الأحاديث الكثيرة في إضافة الطلوع والغروب والزوال إلى الشمس فإنها ظاهرة في وقوع ذلك منها لا من الأرض عليها.

ولعل هناك أدلة أخرى لم تحضرني الآن ولكن فيما ذكرت فتح باب وهو كاف فيما أقصد. والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في فتاوى نور على الدرب: ما رأيكم في نشرة الأحوال الجوية، وكل التنبؤات الجوية التي نسمعها يوميًا في نشرات الراديو وفقكم الله؟.

فأجاب: إن نزول المطر من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، قال الله تعالى: (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ). فمن ادعى علم الغيب فيما ينزل من المطر في المستقبل فإنه كافر؛ لأنه مكذب لقول الله تعالى: (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ). وأما من أخبر بنزول مطر، أو توقع نزول مطر في المستقبل، بناءً على ما تقتضيه الآلات الدقيقة التي تقاس بها أحوال الجو، فيعلم الخبيرون بذلك أن الجو مهيأ لسقوط الأمطار؛ فإن هذا ليس من علم الغيب، بل هو مستند إلى أمر محسوس، والشيء المستند إلى أمر محسوس لا يقال: إنه من علم الغيب، والتنبؤات التي تقال في الإذاعات من هذا الباب وليست من باب علم الغيب، ولذلك هم يستنتجونها بواسطة الآلات الدقيقة التي تضبط حالات الجو، وليسوا مثلًا يخبرونك بأنه سينزل مطر بعد كذا سنة وبمقدار معين؛ لأن هذه الآلات لم تصل بعد إلى حدٍ تدرك به ماذا يكون من حوادث الجو، بل هي محصورة في ساعات معينة، ثم قد تخطئ

أحيانًا وقد تصيب، أما علم الغيب فهو الذي يستند إلى مجرد العلم فقط بدون وسيلة محسوسة، وهذا لا يعلمه إلا الله ﷻ. وبهذه المناسبة أود أن أقول: إنه يجب أن يعلم بأن ما جاء في كتاب الله أو فيما صح عن رسوله ﷺ من الأمور الإخبارية فإنه لا يمكن أبدًا أن يُكَذِّبها الواقع؛ لأن الواقع أمر يقيني، وما جاء به كتاب الله أو ما صح عن رسوله ﷺ فهو أيضًا أمر يقيني، إذا كانت دلالاته على مدلوله غير محتملة، ولا يمكن التعارض بين يقينيين؛ لأن اليقيني قطعي ولا تعارض بين قطعيين. وعلى هذا فإذا وجدنا آيةً في كتاب الله ظاهرها كذا ولكن الواقع يخالف الظاهر فيما يبدو لنا، فإنه يجب أن نعرف أن هذا الظاهر ليس هو ما أراده الله ﷻ؛ لأنه لا يمكن أبدًا أن يكون الواقع المحسوس مكذبًا للقرآن أبدًا، بل إن القرآن نزل من عند الله ﷻ، وهو العليم الخبير الصادق فيما يقول، فبعض الناس يظن أن هذه التنبؤات مخالفة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾. والحقيقة أنها لا تعارضها؛ لأنه كما أشرنا إليه إنما يعارضها لو كانوا يحكمون بهذه الأمور بمجرد العلم، ولكنهم هم يحكمونها بواسطة آلات محسوسة يتبين بها حال الجو، وهل هو مهيأ للأمطار أو ليس بمهيأ. ومثل هذا ما نُقل أخيرًا من كونهم يعلمون ما في الأرحام من ذكر أو أنثى، يعرفون أنه ذكر أو أنه أنثى، فإن بعض الناس يظن أنه معارض لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾. وفي الحقيقة أنه إذا ثبت ذلك فإنه لا يعارض هذه الآية؛ لأن قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ ما اسم موصول يقتضي العموم، وهو شامل لكل ما يتعلق بهذا الجنين، ومن المعلوم أن أحدًا لا يستطيع أن يدعي أنه يعلم أن هذا الجنين سيخرج حيًا أو ميتًا، أو أنه إذا خرج حيًا سيبقى مدة طويلة أو يموت بعد زمن قصير، أو أن هذا الجنين إذا خرج إلى الدنيا وعاش هل يكون غنيًا أو فقيرًا، وهل يكون صالحًا أو فاسدًا، وهل هو شقي أو

سعيد، ثم لا يدعي أحد أن يعلم هل هو ذكر أو أنثى قبل أن يُخلَّق وتتبين ذكورته وأنوثته. فمتعلق العلم بما في الأرحام ليس خاصًا بالذكورة والأنوثة بعد أن يُخلَّق الجنين في بطن أمه؛ لأنه إذا خُلِّق فإنه يمكن أن يعلم به الملك الذي يوكّل بالأرحام يقول: أذكر أو أنثى؟ ويعلم أنه ذكر أو أنثى. فتبين بهذا أن ما ذكر إذا صح أنهم استطاعوا أن يعرفوا كون الجنين ذكرًا أم أنثى، فإنه لا يعارض الآية؛ لسعة متعلق علم ما في الأرحام؛ لأنه ليس خاصًا بكونه ذكرًا أو أنثى.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: نرى في الآونة الأخيرة ما شاع عن حقيقة تحديد نوع المولود ذكر أم أنثى، وبهذا نسأل توصل علماء الطب في أمريكا واليابان إلى ذلك، فهل هذا حرام؟ وما علاقة الآية الكريمة التي يقول الله فيها عَزَّ وَجَلَّ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً * ألم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) ؟.

فأجاب: هذا السؤال الذي ذكره السائل يحتمل أن يريد بقوله: نوع الذكورة والأنوثة، أي: العلم بأن هذا ذكر أو أنثى. ويحتمل أن يكون مراده تحديد نوع الذكورة والأنوثة، أي: العلم بأن هذا ذكر وأنثى، أن يجعلوا هذه الأنثى ذكرًا، أو أن يجعلوا الذكر أنثى. أما الأول- وهو: العلم بأن الجنين ذكر أو أنثى- فهذا كما قاله السائل، قد اشتهر أنهم يعلمون ذلك، وهذا العلم لا ينافي ما جاءت به النصوص من كون الله سبحانه وتعالى يعلم ما في الأرحام، فإن الله تعالى يعلم ما في الأرحام بلا شك، ولا ينافي علمه بذلك أن يكون أحدٌ من خلقه يعلمه، فالله يعلم وكذلك غيره يعلم. لكن المعلوم الذي يتعلق بالجنين ينقسم إلى قسمين: قسم محسوس يمكن للخلق أن يعلموا به، كالذكورة والأنوثة، والكبر والصغر، واللون، وما أشبه ذلك، فهذا يكون معلومًا عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ويكون معلومًا عند من

يتوصل إلى علمه بالوسائل الحديثة، ولا منافاة بين الأمرين. وأما المعلوم الثاني للجنين فهو المعلوم الذي ليس بمحسوس يدرك، وهو علم ماذا سيكون مآل هذا الجنين: هل يخرج حيًا أو ميتًا؟ وإذا خرج حيًا هل يبقى طويلًا في الدنيا أو لا؟ وإذا بقي فهل يكون عمله صالحًا أم سيئا؟ وإذا بقي أيضًا فهل يكون رزقه واسعًا أو ضيقًا؟ وما أشبه ذلك من المعلومات الخفية التي ليست بحسية، فهذا النوع من العلوم المتعلقة بالجنين هذا لا يعلمه إلا الله، ولا يستطيع أحد أن يعلمه، ومن ادعى علمه فهو كاذب، ومن صدقه في ذلك فقد كذب قول الله ﷻ: (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا الله). أما الاحتمال الثاني ما يحمله سؤال السائل أنهم توصلوا إلى أن يجعلوا الذكر أنثى أو الأنثى ذكرًا، فهذا لا يمكن؛ لأن هذا يتعلق بخلق الله ﷻ، وهو الذي بيده التذكير والتأنيث، فلا يمكن لأحد من المخلوقين أن يجعل ما قدره الله ذكرًا أنثى، ولا يمكن أن يجعل ما قدره الله أنثى ذكرًا، يقول الله ﷻ: (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ). وكذلك الآية التي ساقها السائل: (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى). فالذي أقوله الآن: إن هذا أمر غير ممكن، وكما أنهم لا يستطيعون أن يجعلوا الذكر المولود أنثى والأنثى المولودة ذكرًا، فكذلك لا يمكنهم أن يجعلوا الجنين الذي قدره الله ذكرًا أن يجعلوه أنثى أو العكس، هذا ما أعتقده في هذه المسألة.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق: هل صحيح أن للأرض حركتين أم لا؟ وهل في ذلك آيات تدل على ذلك أم العكس؟ ثم أفيدوني أين توجد الجنة والنار؟ وهل هناك آيات دالة على ذلك؟.

فأجاب: إن البحث في هذا من فضول العلم، وليس من الأمور العقدية التي يجب على الإنسان أن يحققها ويعمل بما تقتضيه الأدلة، ولهذا لم يبين هذا الأمر في القرآن الكريم على وجهٍ صريح لا يحتمل الجدل، فمن الناس من يقول: إن للأرض حركتين: حركة تختلف بها الفصول، وحركة أخرى يختلف بها الليل والنهار، ويقول: إن قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يدل على ذلك، ووجه الدلالة عنده أن نفي المَيَدان دليلٌ على أصل الحركة، إذ لو لم يكن أصل الحركة موجودًا لكان نفي الميدان لغوًا من القول لا فائدة منه، ويقول: إن هذا دالٌّ على كمال قدرة الله، أن تكون هذه الأرض- وهي هذا الجرم الكبير- تتحرك بدون أن تميد بالناس وتضطرب، مع أن الله ﷻ إذا شاء حركها فحصلت الزلازل والخسوفات. ومن العلماء من يقول: الأرض لا تتحرك، بل هي ثابتة؛ لقوله تبارك وتعالى: ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب. ولقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾. ولأن الله تعالى جعل الأرض قرارًا يقر الناس عليه، وهذا ينافي أن تكون لها حركة. وأيًا كان هذا أو هذا فإن إشغال النفس بمثل ذلك ليس فيه كبير فائدة، فيقال: إن كانت تتحرك وهي في هذا القرار التام فهذا دليلٌ على تمام قدرة الله ﷻ، وإن كانت لا تتحرك فالله تعالى هو الذي خلقها وجعلها ساكنةً لا تتحرك، لكن الشيء الذي أرى أنه لا بد منه هو أن نعتقد أن الشمس هي التي تدور على الأرض، وهي التي يكون بها اختلاف الليل والنهار؛ لأن الله تعالى أضاف الطلوع والغروب إلى الشمس، فقال ﷻ: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾. فهذه أربعة أفعال أضيفت كلها إلى الشمس: إذا طلعت، وإذا غربت، تزاور، تقرض، كلها أفعال أضيفت إلى الشمس، والأصل أن الفعل لا

يضاف إلا إلى فاعله أو من قام به، أي: من قام به هذا الفعل، فلا يقال: مات زيدٌ ويراد مات عمرو، ولا يقال: قام زيدٌ ويراد قام عمرو، فإذا قال الله: (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ) فليس المعنى أن الأرض دارت حتى رأينا الشمس؛ لأنه لو كانت الأرض هي التي تدور وطلوع الشمس يختلف باختلاف الدوران ما قيل: إن الشمس طلعت، بل يقال: نحن طلعنا على الشمس، أو: الأرض طلعت على الشمس. وكذلك قال الله تبارك وتعالى في قصة سليمان: (إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ) أي: الشمس (بِالْحِجَابِ) ولم يقل: حتى توارى عنها بالحجاب. وقال النبي عليه الصلاة والسلام لأبي ذر عند غروب الشمس: (أتدري أين تذهب) ؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: (فإنها تذهب فتسجد تحت العرش). فأضاف الذهاب إلى الشمس. فظاهر القرآن والسنة أن اختلاف الليل والنهار يكون بدوران الشمس على الأرض، وهذا هو الذي يجب أن نعتقده، ما لم يوجد دليلٌ حسيٌ قاطع يسوغ لنا أن نصرف النصوص عن ظواهرها إلى ما يوافق هذا النص القاطع، وذلك لأن الأصل في أخبار الله ورسوله أن تكون على ظاهرها، حتى يقوم دليل قاطع على صرفها عن ظاهرها؛ لأننا يوم القيامة سنسأل عما تقتضيه هذه النصوص بحسب الظاهر، والواجب علينا أن نعتقد ظاهرها، إلا إذا وجد دليلٌ قاطع يسوغ لنا أن نصرفها عن هذا الظاهر، هذا هو الجواب عن السؤال الأول. وأما قوله: أفيدوني أين توجد الجنة والنار؟ فالجواب عليه أن نقول: الجنة في أعلى عليين، والنار في سجين، وسجين في الأرض السفلى، كما جاء في الحديث: (الميت إذا احتضر يقول الله تعالى: اكتبوا كتاب عبدي في سجين في الأرض السفلى). وأما الجنة فإنها فوق في أعلى عليين، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام (أن عرش الرب جل وعلا هو سقف جنة الفردوس). جعلنا الله تعالى من أهلها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: يا فضيلة الشيخ تعلمون وفقكم الله أن الملاحدة منذ زمن قديم يبثون شبهاتهم حول الإسلام، ويدعون لأفكارهم الفاسدة، ومن تلك الأفكار أن الكون أوجد نفسه، ثم ما زال يتطور حتى كان كما هو عليه الآن، واستدلوا على هذا بالميكروبات والطفيليات التي تتكون في الأشياء المتعفنة من غير أصل لها، فبماذا نرد على هذه الطائفة لدحض حجتهم الزائفة وشبهاتهم الباطلة؟ جزاكم الله خيرًا..

فأجاب: نرد على هؤلاء بما ذكره الله تعالى في سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ﴾. فنسألهم أولًا: هل هم موجودون بعد العدم، أو موجودون في الأزل وإلى الأبد؟ والجواب بلا شك أن يقولوا: نحن موجودون بعد العدم، كما قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾. فإذا قالوا: نحن موجودون بعد العدم، قلنا: من أوجدكم؟ أوجدكم أبوكم أو أمكم أو وجدتم هكذا بلا موجد؟ سيقولون: لم يوجدنا أبونا ولا أمنا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُون * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِيءكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ﴾. إذا قالوا: وجدنا من غير موجد، نقول: هذا مستحيل في العقل؛ لأنه ما من حادث إلا وله محدث، وحينئذٍ يتعين أن يكون حدوثهم بمحدث، وهو الله عَزَّ وَجَلَّ الواجب الوجود. وكذلك يقال في السماوات والأرض: نقول: من أوجد السماوات والأرض؟ هو الله عَزَّ وَجَلَّ، لكن السماوات والأرض كانت ماءً تحت العرش، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾. فخلق الله عَزَّ وَجَلَّ السماوات والأرض من هذا الماء، قال الله

تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) أي: فصلنا ما بينهما (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ). فهذا جواب على هؤلاء الملاحدة، فإن أَبَوا إلا ما كانوا عليه فهم مكابرون، ويحق عليهم قول الله تعالى في آل فرعون: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا).

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: عرفنا من القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى (اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ). ولكن أريد أن أعرف منكم ما البعد بين كل سماء؟ وهل هناك سمك لكل سماء؟ أفيدونا بذلك مأجورين؟.

فأجاب: الجواب على ذلك أن السماوات كما ذكر السائل سبع، جعلهنّ الله تعالى طباقًا، وجعل بينهن مسافات، ويدل لذلك حديث المعراج الثابت في الصحيحين وغيرهما: (أن جبريل عليه الصلاة والسلام جعل يعرج بالنبي ﷺ من سماء إلى سماء، ويستفتح عند دخول كل سماء، حتى انتهى به إلى السماء السابعة، وبلغ ﷺ موضعًا سمع فيه صريف الأقلام، ووصل إلى سدرة المنتهى). وكذلك الأَرَاضون هي سبع، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: (اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ). والمثلية هنا ليست في الصفة؛ لأن ذلك من المعلوم بالضرورة، ولكنها مثلية في العدد، ويؤيد ذلك ما ثبت في الصحيحين في قول الرسول عليه الصلاة والسلام: (من اقتطع شبرًا من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين). وهذا يدل على أن الأرضين متطابقة أيضًا، وأن بعضها تحت بعض. وأما بُعْد ما بين كل سماء والأخرى: فقد ورد في ذلك حديث عن رسول الله ﷺ: (أن بعد ما بين سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، وأن كثافة كل سماء مسيرة خمسمائة عام). والعلم عند الله تبارك وتعالى.

(باب مباحث توحيد الألوهية)

(باب تعريف توحيد الألوهية)

الألوهية هي مصدر أله يأله، قال الجوهري: (أله - بالفتح - إلاهة، أي عبد عبادة، ومنه قرأ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ويذرك وآلهتك} [الأعراف: ١٢٧] بكسر الهمزة قال وعبادتك وكان يقول: إن فرعون كان يعبد في الأرض ومنه قولنا: (الله) وأصله: (إله) على فعال بمعنى مفعول أي معبود، كقولنا: إمام فعال: لأنه مفعول أي مؤتم به)[١].

وعلى هذا فإن الألوهية صفة لله تعالى تعني استحقاقه جل وعلا للعبادة بما له من الأسماء والصفات والمحامد العظيمة[٢].

قال ابن سيده: (والإلهة والألوهة والألوهية العبادة) وأما الألوهية التي جاءت هذه الكلمة لإثبات استحقاق الله وحده لها فهي من مجموع كلام أهل اللغة أيضا فزع القلب إلى الله، وسكونه إليه، واتجاهه إليه لشدة محبته له، وافتقاره إليه ويجمعهما كون الله هو الغاية والمراد والمقصود مطلقا.

يقول ابن الأثير: أصله من أله يأله إذا تحير، يريد: إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمه إليها أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد.

ويقول أبو الهيثم: (الله: أصله إله ولا يكون إلها حتى يكون معبودا، وحتى يكون لعابده خالقا ورازقا ومدبرا وعليه مقتدرا وأصل إله ولاه فقلبت الواو همزة ومعنى ولاه أن الخلق إليه يؤلهون في حوائجهم ويفزعون إليه فيما ينوبهم

---

(١) الصحاح للجوهري (٦/ ٢٢٢٣) مادة (أله)، وانظر تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج (ص: ٢٦).

(٢) شرح الواسطية لابن عثيمين (ص: ١١).

كما يوله طفل إلى أمه)، ويقول الإمام ابن القيم: اسم الله دال على كونه مألوها معبودا تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضوعا وفزعا إليه في الحوائج والنوائب[(١)].

واختلفوا في كونه مشتقا أو لا، فذهب الخليل وسيبويه وجماعة من أئمة اللغة والشافعي والخطابي وإمام الحرمين ومن وافقهم إلى عدم اشتقاقه لأن الألف واللام فيه لازمة فتقول يا الله ولا تقول يا الرحمن، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام وقال آخرون إنه مشتق، واختلفوا في اشتقاقه إلى أقوال أقواها أنه مشتق من أله يأله إلهة، فأصل الاسم الإله فحذفت الهمزة وأدغمت اللام الأولى في الثانية وجوبا فقيل الله، ومن أقوى الأدلة عليه قوله تعالى: وهو الله في السماوات وفي الأرض} [الأنعام: ٣] مع قوله تعالى: وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله} [الزخرف: ٨٤] ومعناه ذو الألوهية التي لا تنبغي إلا له، ومعنى أله يأله إلاهة عبد يعبد عبادة فالله المألوه أي المعبود ولهذا الاسم خصائص لا يحصيها إلا الله ﷻ، وقيل إنه هو الاسم الأعظم معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول لحافظ بن أحمد الحكمي – ص٧٦

وقال الشيخ محمد خليل هراس في شرحه للعقيدة الواسطية: واسم الجلالة؛ قيل: إنه اسم جامد غير مشتق؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادة له، فهو كسائر الأعلام المحضة، التي لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها والصحيح أنه مشتق واختلف في مبدأ اشتقاقه، فقيل: من أله يأله ألوهة وإلهة وألوهية؛ بمعنى: عبد عبادة

---

(١) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى (١/ ٥٤)، وضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة (ص٣٧).

وقيل: من أله - بكسر اللام - يأله - بفتحها - ألها؛ إذا تحير والصحيح الأول، فهو إله؛ بمعنى مألوه؛ أي: معبود وعلى القول بالاشتقاق يكون وصفا في الأصل، ولكن غلبت عليه العلمية، فتجري عليه بقية الأسماء أخبارا وأوصافا؛ يقال: الله رحمن رحيم سميع عليم؛ كما يقال: الله الرحمن الرحيم إلخ[١].

تعريف توحيد الألوهية

المراد بتوحيد الألوهية: إفراد الله جل وعلا بالتعبد في جميع أنواع العبادات[٢]، ويعبر بعض أهل العلم بالعبادة بدل التعبد، ولا فرق، إذ مراده بالعبادة معناها المصدري وهو التعبد. والتعبد له ركنان وشرطان لصحته، أما الركنان: فغاية الخضوع والتذلل لله، وكمال المحبة له. وأما الشرطان: فمعرفة المعبود - وهو الله سبحانه وتعالى -، ومعرفة دينه الشرعي الجزائي، والمقصود بالعبادات: ما يتعبد به لله تعالى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، ولها شرطان: المتابعة فيها - أي أن تكون وفق ما جاء به الرسول ﷺ، والصدق والإخلاص لله جل وعلا فيها.

وهذا هو معنى شهادة ألا إله إلا الله - وتمام تحقيقها بشهادة أن محمدا رسول الله ﷺ.

ومما يوضح أن التعريف السابق هو تعريف لشهادة ألا إله إلا الله قول الله تعالى: {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون} [الزخرف: ٢٦ - ٢٨] قال ابن جرير: وقوله: {وجعلها كلمة باقية في عقبه} يقول تعالى ذكره: وجعل قوله

---

(١) شرح العقيدة الواسطية لمحمد بن خليل هراس (ص٤٥).

(٢) رسالة في معنى العبادة لأبي بطين ضمن مجموعة التوحيد (١/ ١٧٠).

إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني وهو قول لا إله إلا الله: كلمة باقية في عقبه، وهم ذريته، فلم يزل في ذريته من يقول ذلك من بعده)[١].

وكلمات السلف كلها تدور حول هذا المعنى فمنهم من فسر الكلمة بشهادة ألا إله إلا الله ومنهم من فسرها بالإسلام[٢].

ولا خلاف بين القولين، إذ الإسلام هو الاستسلام لله بالعبودية، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد شيئا سواه، وهذا هو معنى لا إله إلا الله المتركبة من النفي والإثبات؛ نفي عبادة ما سوى الله، وإثبات العبادة لله وحده، وهذان هما النفي والإثبات نفسهما الواردان في الآية براء مما تعبدون إلا الذي فطرني.

ويؤكد صحة هذا التفسير أن إبراهيم عليه السلام جعل الكلمة في بنيه بأمرين: الدعاء والوصية[٣] أما الدعاء - ففي قوله: واجنبني وبني أن نعبد الأصنام [إبراهيم: ٣٥] فهذا تبري من عبادة ما سوى الله تعالى، وهذا يستلزم إفراد الله جل وعلا وحده بالعبادة - ولذلك كان من دعائه: ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك} [البقرة: ١٢٨] وأما الوصية ففي قوله: إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} [البقرة: ١٣١ - ١٣٢] فبين الله تعالى أن إبراهيم عليه السلام وصى بنيه بالإسلام، وكذلك يعقوب عليه السلام وصى بها بنيه وعهدوا بها إلى أولادهم من بعدهم، ثم إن الله بين صيغة هذه الوصية بقوله: أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٥٨٩).
(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٥٨٩ - ٥٩٠)
(٣) أضواء البيان (٧/ ٢٣١).

له مسلمون} [البقرة: ١٣٣].

فهذا نص في أن الوصية هي الإسلام وهي قولهم: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق وبه يظهر ظهورا جليا أن الكلمة هي الإسلام - أي الاستسلام لله بالعبودية - وقد لخص ذلك ابن جرير الطبري بقوله (وهي الإسلام الذي أمر به نبيه ﷺ وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله وخضوع القلب والجوارح له)(١).

فتوحيد الألوهية: هو إفراد الله بالعبادة(٢)، ويسمى باعتبار إضافته إلى الله تعالى بـ: (توحيد الألوهية)، ويسمى باعتبار إضافته إلى الخلق بـ (توحيد العبادة)، و(توحيد العبودية) و(توحيد الله بأفعال العباد)، و(توحيد العمل)، و(توحيد القصد)، و(توحيد الإرادة والطلب)، لأنه مبني على إخلاص القصد في جميع العبادات، بإرادة وجه الله تعالى(٣).

وهذا التوحيد من أجله خلق الله الجن والإنس، كما قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: ٥٦]، ومن أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، كما قال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: ٢٥]، وهو أول دعوة الرسل وآخرها، كما قال سبحانه: ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: ٣٦]، ومن أجله قامت الخصومة بين الأنبياء وأممهم،

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٩٣ - ٩٤).

(٢) تطهير الاعتقاد للصنعاني: الأصل الثالث (ص: ١٣)، الدرر السنية (٢/ ٢٩١)، وينظر شرح الطحاوية (ص: ٢٤).

(٣) شرح الطحاوية (ص: ٢٤)، مجموعة التوحيد (١/ ٦)، الدرر السنية (٢/ ٢٥٠، ٣٠٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٢)، القول السديد (ص: ١٩)، القواعد الحسان (ص: ١٩٢)، الحق الواضح المبين (ص: ٥٧)، القول المفيد (١/ ٩).

وبين أتباع الأنبياء من أهل التوحيد وبين أهل الشرك وأهل البدع والخرافات، ومن أجله جردت سيوف الجهاد في سبيل الله، وهو أول الدين وآخره، بل هو حقيقة دين الإسلام[١]، وهو يتضمن أنواع التوحيد.

فتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية ولتوحيد الأسماء والصفات[٢]، فإن من عبد الله تعالى وحده، وآمن بأنه المستحق وحده للعبادة، دل ذلك على أنه مؤمن بربوبيته وبأسمائه وصفاته، لأنه لم يفعل ذلك إلا لأنه يعتقد بأن الله تعالى وحده هو المتفضل عليه وعلى جميع عباده بالخلق، والرزق، والتدبير، وغير ذلك من خصائص الربوبية، وأنه تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلا، التي تدل على أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

ومع أهمية هذا التوحيد فقد جحده أكثر الخلق، فأنكروا أن يكون الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وعبدوا غيره معه.

قال العلامة المجتهد محمد بن إسماعيل الصنعاني: (اعلم أن الله تعالى بعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى آخرهم يدعون العباد إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، لا إلى إثبات أنه خلقهم ونحوه، إذ هم مقرون بذلك، كما قررناه وكررناه، ولذا قالوا: أجئتنا لنعبد الله وحده} [الأعراف: ٧٠] أي لنفرده بالعبادة، ونخصه بها من دون آلهتنا؟... فعبدوا مع الله غيره، وأشركوا معه سواه، واتخذوا له أندادا)[٣].

---

(١) شرح الطحاوية (ص: ٢١ - ٢٤ - ٢٩)، تطهير الاعتقاد للصنعاني (ص: ٢٠)، تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٠- ٢١)، الدر النضيد للشوكاني (ص: ٦٥)، قرة عيون الموحدين لعبد الرحمن بن حسن (ص: ٤)، معارج القبول (٢/ ٤٠٢ - ٤١٠).

(٢) شرح الطحاوية (ص: ٢٩ - ٣٢ - ٤١)، تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٣)، قرة عيون الموحدين (ص: ٥).

(٣) تطهير الاعتقاد (ص: ١٢، ٢٠)، وينظر قرة عيون الموحدين (ص: ٤)، منهج أهل =

(باب منزلة توحيد الألوهية)

إن التوحيد هو إفراد الله جل وعلا بالتعبد في جميع أنواع العبادات وهذا هو تحقيق كلمة لا إله إلا الله ولا تصح إلا بالمتابعة وهي شهادة أن محمدا رسول الله ﷺ. والذي عليه أهل السنة والجماعة أن أول واجب هو الشهادتان، كما حكى عنهم ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: (إن السلف والأئمة متفقون على أن أول ما يؤمر به العباد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقب البلوغ)(١).

والأدلة على أن أول الواجبات هو عبادة الله بما شرع يمكن تلخيصها في أربعة أدلة عامة:

الدليل الأول: هو أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد الله جلا وعلا وإخلاص العبادة له كما قال الله تعالى: ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: ٣٦]، وقال: وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: ٢٥]. ولقد وردت آيات كثيرة تبين أن آحاد الرسل يأتون قومهم فيقولون لهم: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

ويتضح هذا الدليل بالعلم بأمرين وهما:

الأمر الأول: إن الأصل في بني آدم التوحيد وكان ذلك مدة عشرة قرون بين آدم ونوح عليهما السلام، فقد كانوا على التوحيد ثم نشأ فيهم الشرك - ثم إن الأصل في بني آدم: الإقرار بالله.

الأمر الثاني: معرفة الشرك الذي وقعوا فيه وهو الشرك في الألوهية.

=

السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى (١/ ٧٥)، وتسهيل العقيدة الإسلامية (ص٣٥).

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ١١). وانظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٧٥).

فإذا علم الأمران، وهما: أن الأصل في بني آدم توحيد الله بعبادته، وأن الشرك الذي وقعوا فيه هو الشرك في العبادة لا إنكار وجود الله وتفرده بالخلق والرزق، علم أن الرسل جاءوا بدعوة الناس إلى عبادة الله وحده وترك عبادة غيره، فيعلم من هذا أن أول واجب على المكلف هو توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له خاصة وأن الأدلة دالة على أن كل مولود يولد على الفطرة. فيبقى بعد ذلك أن من لم يقر بوجود الله عليه أن يقر أولا ليتوصل بإقراره هذا إلى عبادة الله فيكون وجوب إقراره وسيلة لواجب مقصود وهو إفراد الله بالعبادة، إذ الإقرار وحده لا يكفي.

الدليل الثاني: إن الغاية من خلق الإنسان هي العبادة. كما قال الله جل وعلا: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات: ٥٦] فقد بين الله جل وعلا أنه خلق الناس لهذه الغاية وهي عبادته، وبين سبحانه أنه فطر الناس على الإقرار به ولذلك فإنه أول ما يأمرهم يأمرهم بعبادته كما قال: يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون} [البقرة: ٢١].

الدليل الثالث: وهو كما قال أبو المظفر بن السمعاني: (تواترت الأخبار أن النبي ﷺ كان يدعو الكفار إلى الإسلام والشهادتين)[(١)].

ومن ذلك قول الرسول ﷺ لمعاذ رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن: (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله)[(٢)]. وقوله: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله)[(٣)]. وقد كان الرسول ﷺ

(١) مختصر الانتصار لأهل الحديث - ضمن صون المنطق والكلام للسيوطي (ص: ١٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩) بلفظ: عبادة الله بدلا من شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله.

(٣) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

عند بيعة الرجال والنساء أول ما يبدأ به في البيعة قوله: (بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا)[١].

الدليل الرابع: الإجماع: وهذا الإجماع حكاه ابن المنذر بقوله: (أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم أن الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد حق، وأبرأ إلى الله من كل دين يخالف دين الإسلام، وهو بالغ صحيح يعقل: أنه مسلم)[٢].

وقد ذكر أبو المظفر بن السمعاني أن القول بأن أول الواجبات هو النظر قول مبتدع لم يكن معروفا عند الصحابة ولا التابعين، إذ لو كان معروفا لنقلوه لنا لشدة اهتمامهم بهذا الدين، كيف والمدعى أنه أول الواجبات! - وإنما المعروف أنهم كانوا يدعون إلى الإسلام، وهم الذين نقلوا طريقة الرسول ﷺ في دعوته، مما يدل على أن المستقر عندهم هو أن أول شيء يدعى إليه الكافر هو الشهادتان - وهما أول واجب[٣].

وقد حكى هذا الاتفاق شيخ الإسلام ابن تيمية كما تقدم النقل عنه وحكاه كذلك تلميذه ابن القيم فقال: (وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد دخل في الإسلام)[٤].

وهذا يدل على أنه أول الواجبات، ولو أتى بغير الشهادتين ما اعتبر ذلك.

ومن المعلوم أن الشهادة تتضمن الإقرار بالله تعالى وبرسوله ﷺ، فكل من شهد لله تعالى بالألوهية فشهادته فرع إقراره بوجوده وربوبيته، ولكن إذا وجد

(١) أخرجه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
(٢) نقله عنه شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٧)
(٣) انظر: مختصر كتابه الانتصار لأهل الحديث ضمن صون المنطق والكلام (ص: ١٧١ - ١٧٢).
(٤) مدارج السالكين (٣/ ٤٢١).

من لم يقر بالله لتغير فطرته فهذا يجب عليه النظر أولا، لأنه وسيلة لإقراره لله تعالى بالعبودية، فوجوب مثل هذه الحالة يعتبر من وجوب الوسائل التي تؤدي إلى الغاية[١].

فإن المعرفة بوجود الله جل وعلا لا تكفي العبد، بل ولا حتى إيمانه بأن الله هو الرب الخالق حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ[٢]. منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى لخالد عبد اللطيف- ١/ ٨٦

وقال العلامة الحكمي- رحمه الله تعالى- في شرح قوله في منظومة (سلم الوصول):

وهو الذي به الإله أرسلا... رسله يدعون إليه أولا.

يقول: (وهو) أي توحيد الإلهية (الذي به الإله) ﷻ (أرسل رسله) من أولهم إلى آخرهم (يدعون إليه أولا) قبل كل أمر يدعو إلى شيء قبله، فهم وإن اختلفت شرائعهم في تحديد بعض العبادات والحلال والحرام لم يختلفوا في الأصل الذي هو إفراد الله سبحانه بتلك العبادات افترقت أو اتفقت، لا يشرك معه فيها غيره. كما قال رسول الله ﷺ: (نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد)[٣] وقد أخبر الله ﷻ عن اتفاق دعوة رسله إجمالا وتفصيلا ف قال تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه} [الشورى: ١٣] وهؤلاء هم

(١) انظر هذا في معرض الرد على الأشعرية في مسألة أول واجب على المكلف (ص: ٣٢٣ - ٣٢٤).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/ ١١ - ١٢)، ومنهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى (١/ ٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أولو العزم من الرسل: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا محمد ﷺ وكذلك بقية الرسل، وقال تعالى: {واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى: {وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: ٢٥] وقال الله تعالى: ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: ٣٦] وقال الله تعالى: إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما} [النساء: ١٦ - ١٦٥] وفي الصحيح عن المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (قال سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: تعجبون من غيرة سعد، والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين. ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة)[1].

وأما مقامات التفصيل ف قال تعالى: {ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} [الأعراف: ٥٩] إلى آخر الآيات، وقال تعالى: {وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون} [الأعراف: ٦٥] إلى آخر الآيات وقال تعالى: {إلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

غيره} [الأعراف: ٧٣] إلى آخر الآيات، وقال الله تعالى: وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره} [الأعراف: ٨٥] إلى آخر الآيات، وقال الله تعالى: وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون} [الأنعام: ٧٤ - ٧٨]. وهذا في مقام مناظرته عليه الصلاة والسلام لعباد الكواكب على سبيل الاستدراج أو التوبيخ ليبين لهم سخافتهم وجهلهم وضعف عقولهم في عبادتهم هذه الكواكب المخلوقة لحكمة الله ﷻ المسخرة بقدرته وغفلتهم عن خالقها ومسخرها والمتصرف فيها وتركهم عبادته أو إشراكهم معه فيها غيره ﷻ فلما أقام عليهم الحجة: قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين وحآجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} [الأنعام: ٧٨ - ٨٢] أي الذين آمنوا يعني صدقوا ووحدوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أي شرك إذ هو الظلم الذي لا يغفره الله ﷻ، وفي الصحيح: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون قال أصحاب النبي ﷺ: أينا لم يظلم نفسه؟ فأنزل الله تعالى: إن الشرك لظلم

عظيم [لقمان: ١٣])[١] فالذين آمنوا الإيمان التام الذي لم تشبه شوائب الشرك الأكبر المنافي لجميعه، ولا الشرك الأصغر المنافي لكماله، ولا معاصي الله المحبطة ثمراته من الطاعات، فأولئك لهم الأمن التام من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، والاهتداء التام في الدنيا والآخرة.

وبحسب ما ينقص من الإيمان ينقص من الأمن والاهتداء، وباجتناب المعاصي يحصل تمامها. ثم قال تعالى: {وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم} [الأنعام: ٨٣] وقال تعالى: {ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون} [الأنبياء: ٥١ - ٦٧] إلى آخر الآيات، وقال تعالى: {واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٣٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين} [الشعراء: ٦٩ - ٨٢] وقال تعالى: {وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين فأقبلوا إليه يزفون قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم} [الصافات: ٨٣ - ٩٧] إلى آخر الآيات.

وقال تعالى: {واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا [مريم: ٤١ - ٤٥].

فبين لأبيه أن آلهته لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ولا تقدر على جلب خير ولا دفع شر ولا تغني عنه شيئا. فتبين بذلك أن عبادة مثل هذا جهل وضلال. ثم بين له أن عنده دواء ذلك الداء، والهدى من ذلك الضلال ف قال تعالى: {إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا وبين أن فعله ذلك عبادة للشيطان، موجب لعذاب الرحمن وولاية الشيطان، عياذا بالله من ذلك. وقال تعالى: {وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه

ترجعون} [العنكبوت: ١٥ - ١٧] إلى آخر الآيات. وقال تعالى: {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون} [الزخرف: ٢٦ - ٢٨] وقال تعالى عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم [يوسف: ٣٧ - ٤٠] الآيات وغيرها. وكذلك قص الله تعالى علينا عن جميع الرسل من نوح إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ف قال تعالى: {ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون [إبراهيم: ٩ - ١٢] الآيات. ولو ذهبنا نذكر قصص الرسل ومحاورتهم مع قومهم وعواقب ذلك لطال الفصل. وأما نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرته في قومه وصبره على أذاهم وما جرى له معهم فأجلى من الشمس في نحر الظهيرة، والقرآن كله من فاتحته إلى خاتمته في شأن ذلك.اهـ.

(باب ذكر أدلة توحيد الألوهية)

أولا: إلزام المشركين باعترافهم بتوحيد الربوبية ليقروا بتوحيد الألوهية الذي ينكرونه

فإنه قد تكرر في القرآن بيان أن الخالق هو الذي يستحق أن يعبد، وأن المتفرد بالنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يستحق أن يعبد دون ما سواه. فظهر من هذا أن هذا النوع من الأدلة يكون في مسألتين:

المسألة الأولى: العلم بأن الله هو المنفرد بالخلق والتدبير[1].

المسألة الثانية: العلم بأنه المنفرد بهبة النعم الظاهرة والباطنة[2]:

قال الله تعالى: يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون} [البقرة: ٢١ - ٢٢].

قال عكرمة (نهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئا وأن يعبدوا غيره أو يتخذوا له ندا وعدلا في الطاعة فقال: كما لا شريك لي في خلقكم وفي رزقكم الذي أرزقكم وملكي إياكم ونعمتي التي أنعمتها عليكم فكذلك فأفردوا لي الطاعة وأخلصوا لي العبادة ولا تجعلوا لي شريكا وندا من خلقي فإنكم تعلمون أن كل نعمة عليكم مني)[3].

فقد بين الله تعالى استحقاقه للعبادة لأنه هو الخالق والرازق - وأمرهم أمر إيجاب بقوله: اعبدوا ربكم. وقال الله تعالى: قل أغير الله أتخذ وليا فاطر

---

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن للسعدي (ص: ١٩٣).

(٢) القواعد الحسان لتفسير القرآن للسعدي (ص: ١٩٣ - ١٩٤)، وتفسير السعدي (١/ ٢٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٣٦٩ - ٣٧٠)

السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير} [الأنعام: ١٤ - ١٨].

ففي هذه الآيات تقرير التوحيد لله تعالى؛ فالاستفهام في قوله تعالى أغير الله إنكاري، أي كيف أتخذ وليا غير الله فأطيعه وأعبده والله هو خالق السموات والأرض الذي يرزق الخلق ولا يحتاج إليهم فهو الغني عن كل ما سواه فلذلك أمره الله بعبادته وحده ونهاه عن الشرك. ثم بين الله تعالى أن الثواب والعقاب بيده، وبين تعالى أنه على كل شيء قدير ولا يعجزه شيء وهو المتصرف وحده فله القدرة الكاملة والعزة الظاهرة - فإذا كان ذلك كذلك كيف لا تخلص له العبادة(١)!.

وقال تعالى: {بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل} [الأنعام: ١٠١ - ١٠٢] وفيها أن الخالق والوكيل على كل شيء بحفظه ورزقه وتصريفه هو الذي يستحق أن يعبد - قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه لهم: أيها الجاهلون: إنه لا شيء له الألوهية والعبادة إلا الذي خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم، فإنه لا ينبغي أن تكون عبادتكم وعبادة جميع من في السموات والأرض إلا له خالصة بغير شريك تشركونه فيها. فإنه خالق كل شيء وبارئه وصانعه، وحق على المصنوع أن يفرد

(١) تفسير الطبري (١١/ ٢٨٧ - ٢٨٨)، وتفسير السعدي (٢/ ١٧٧).

صانعه بالعبادة)[١].

هذا وقد كان المشركون يقرون بتوحيد الربوبية - ولذلك قال الله جل وعلا عنهم وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون [يوسف: ١٠٦] قال عكرمة مولى ابن عباس في تفسير الآية السابقة: (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولون الله فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره)[٢].

ومثل هذا التفسير منقول عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره[٣].

ولذلك فإن الله قررهم بهذا النوع من التوحيد - أي إذا كنتم أيها المشركون تقرون لله بأنه خالق كل شيء ورازقه فعليكم أن تقروا كذلك لله تعالى بالألوهية وحده وتتقوه ولا تعبدوا غيره. قال الله تعالى: قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون [يونس: ٣١ - ٣٢].

قال ابن جرير عند قوله أفلا تتقون: (أفلا تخافون عقاب الله على شرككم وادعائكم ربا غير من هذه الصفة صفته، وعبادتكم معه من لا يرزقكم شيئا ولا يملك لكم ضرا ولا نفعا؟)[٤].

وقال تعالى: {قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون

(١) تفسير الطبري (١٢/ ١٢ - ١٣).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٢٨٦).
(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٢٨٨).
(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٨٤).

أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

فهذه الآيات جاءت بعد أن ذكر الله إهلاكه لفرعون وقومه وذهاب ملك سبأ وإهلاك ثمود قوم صالح عليه السلام وإهلاك قوم لوط عليه السلام ووجه المناسبة كما قال ابن جرير رحمه الله: (قل يا محمد لهؤلاء الذين زينا لهم أعمالهم من قومك فهم يعمهون: آلله الذي أنعم على أوليائه هذه النعم التي قصها عليكم في هذه السورة، وأهلك أعداءه بالذي أهلكهم به من صنوف العذاب التي ذكرها لكم فيها خير أما تشركون من أوثانكم التي لا تنفعكم ولا تضركم ولا تدفع عن أنفسها ولا عن أوليائها سوءا ولا تجلب إليها ولا إليهم نفعا؟ يقول: إن هذا الأمر لا يشكل على من له عقل، فكيف تستجيزون أن تشركوا عبادة من لا نفع عنده لكم ولا دفع ضر عنكم في عبادة من بيده النفع والضر وله كل شيء؟ ثم ابتدأ تعالى ذكره تعديد نعمه عليهم)[1]. ثم ذكر الآيات وتفسيرها.

وقد بين الله تعالى خصائص ربوبيته في هذه الآيات الدالة على أنه المعبود وحده - وأن ما سواه لا يستحق شيئا من العبادة، فإنه كلما ذكر شيئا من خصائصه قال: أإله مع الله أي يقدر على ذلك أو يفعله؟

والجواب: لا. وإذا كان كذلك كان هو المستحق لأن يعبد وحده، ولذلك نص الله على ذلك بقوله تعالى الله عما يشركون بعد أن ابتدأ الآيات بقوله: آلله

(١) تفسير الطبري (١٩/ ٤٨٣).

خير أما يشركون ثم بين تعالى عجز كل من يدعي شيئا من خصائص ربوبيته لغيره تعالى فقال آمرا نبيه ﷺ بأن يخاطبهم بصيغة التعجيز: قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

وبعد هذا التقرير يظهر جليا أن التوكل والاستعانة ونحوها إنما تكون بالله رب الأرض والسموات الذي بيده الأمر كله - وهذا هو الذي تقتضيه الفطرة السليمة - فإن الذي خلق وقدر وهدى والذي بيده ملكوت كل شيء هو الذي يتوكل عليه ويستعان به وحده - وأن الذي أنعم على الحق بأنواع النعم التي لا تعد ولا تحصى كما قال الله تعالى: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} [النحل: ١٨] هو الذي يشكر ويحب لما أنعم به وهو الذي يرجى ويرغب إليه وحده(١).

ثانيا: بيان حال الآلهة التي تعبد دون الله في الدنيا والآخرة بصفة تقرر عدم استحقاقها للعبادة.

وهذا النوع من الأدلة يبين الله جل وعلا فيه أن ما دونه مخلوق مربوب له وأنهم لا يخلقون شيئا ولا يملكون شيئا، ومن كانت هذه صفته فإنه لا يستحق العبادة أبدا، ويبين الله تعالى عدم نفع ما يعبد من دونه من المخلوقات في الدنيا ولا في الآخرة، ليؤكد أنها لا تستحق العبادة، ويمكن حصر هذا النوع من الأدلة في ثلاثة مسائل:

المسألة الأولى: معرفة ما يعبد من دون الله من المخلوقات وبيان نقصها من جميع الوجوه.

المسألة الثانية: تعجيز المسئولين من دون الله.

المسألة الثالثة: الإخبار عن التعادي الحاصل بعد البعث.

(١) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله (١/ ١٠٧).

المسألة الأولى

معرفة ما يعبد من دون الله من المخلوقات وبيان نقصها من جميع الوجوه[١]:

قال الله تعالى: {واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا} [الفرقان: ٣].

ففي هذه الآية تقريع للمشركين بعبادتهم ما دون الله وتنبيه لهم على موضع خطأ فعلهم ببيان أن آلهتهم التي يعبدونها لا تخلق شيئا بل هي مخلوقة ومع ذلك فهي لا تملك دفع ضر عن نفسها ولا جلب منفعة إليها ولا تملك إماتة ولا إحياء ولا بعثا - فهذه هي صفتها فهي لا تستحق العبادة[٢].

وقد ذكر الله تعالى هذه الآيات بعد قوله: تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا الفرقان: ١ - ٢.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فأفردوا أيها الناس لربكم الذي نزل الفرقان على عبده محمد نبيه ﷺ الألوهة وأخلصوا له العبادة دون كل ما تعبدون من دونه من الآلهة والأصنام والملائكة والجن والإنس، فإن كل ذلك خلقه وفي ملكه، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو ملك جميع ذلك)[٣].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله عند قوله تعالى: الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم

---

(١) القواعد الحسان (ص: ١٧، ١٩٤).

(٢) تفسير الطبري (١٩/ ٢٣٧).

(٣) تفسير الطبري (١٩/ ٢٣٦).

من شيء} [الروم: ٤٠] قال: ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا، أي: ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرا عليهم بقوله: سبحانه وتعالى عما يشركون)(١).

ومن الآيات التي تبين ضعف ما يعبد من دون الله وأنه لا يخلق شيئا فلا يستحق أن يعبد قوله تعالى: قل هل من شركآئكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون [يونس: ٣١].

ومنها قوله تعالى: يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز} [الحج: ٧٣ - ٧٤].

واتضح من هذه الآية أن من يعبد شيئا مع الله لا يكون قد قدر الله تعالى حق قدره. وفي هذا الدلالة الواضحة على أن الله تعالى ذكر من الحجج الدالة على توحيده وصرف العبادة إليه وحده لا شريك له: أن غيره لا يخلق شيئا وأنه ضعيف مربوب لله فوجب ألا يصرف إليه شيء من العبادة.

المسألة الثانية: تعجيز المسئولين من دون الله

وهذه المسألة وإن كانت داخلة في عموم المسألة قبلها إلا أنه قد ورد إفرادها بالذكر في القرآن الكريم - وترد كذلك مرتبطة مع تلك المسألة.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا} [الإسراء: ٥٦] وفي هذه الآية تعجيز للمدعوين من دون الله سواء كانوا ملائكة أو جنا أو إنسا أو أصناما أو غير ذلك إذا أراد الله

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤١٣).

إنزال ضر أن يدفعوه أو يحولوه إلى نفع أو يحولوا الضر إلى آخرين ولا شك أن المدعوين من دون الله عاجزون عن ذلك إذ المقدر هو الله تعالى، فلا يقدر أحد أن يغير ما قدره الله. وبهذا يعلم أن أولئك لا يجوز صرف شيء من العبادة إليهم إذ المستحق لأن يعبد هو الذي لا يعجزه شيء وهو الله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك أن الله تعالى قد ذكر عجائب قدرته في خلق الإنسان والبحار وما يستخرج منها وما يجري فيها من الفلك وخلقه الليل والنهار والشمس والقمر وجريان ذلك بنظام دقيق محكم - فبعد أن ذكر ذلك قال: ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير [فاطر: ١٣ - ١٤] ففي هذه الآية بيان لعجز من يدعى من دون الله إما لعدم سماعه أصلا أو لعدم استجابته إن سمع الدعاء. وهذا يدل على عدم استحقاق غير الله للعبادة.

وقد يذكر الله تعالى أن التعجيز يقع في الآخرة أيضا، فمن ذلك قول الله تعالى: {ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا} [الكهف: ٥٢]. وقوله تعالى: {وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون} [القصص: ٦٤].

ومن الآيات الجامعة في هذا الباب قول الله تعالى: {قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} [سبأ: ٢٢ - ٢٣] ففي هذه الآية يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ادعوا الذين زعمتموهم شركاء لله ليجلبوا لكم نفعا أو يدفعوا عنكم ضرا فإنهم لا

يستطيعون ذلك وهذا يفيد عدم استحقاقهم للعبادة[١] ثم بين الله تعالى عجز المدعوين من دونه بقوله: {لا يملكون...} الآية - وفي هذا يقول ابن القيم: (فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو لم يرج منه منفعة لم يتعلق قلبه به، وحينئذ فلابد أن يكون المعبود مالكا للأسباب التي ينفع بها عباده، أو شريكا لمالكها أو ظهيرا أو وزيرا ومعاونا له أو وجيها ذا حرمة وقدر يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده، فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السموات والأرض، فقد يقول المشرك: هي شريكة لمالك الحق فنفى شركتها له، فيقول إلا الشفاعة، فنفاها عن آلهتهم وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع، فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه، كما يكون في حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها، وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغني بذاته عن كل ما سواه فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه!)[٢].

ومن الأحاديث في هذا الباب قول الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما (يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٢٩٩ - ٢٣٠).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦١ - ٤٦٢)

الصحف)[(١)].

ففي هذه الوصية الأمر بالاستعانة بالله وحده وسؤاله وحده، ثم ذكر أصلا عظيما عليه مدار الوصية وهو تقدير الله ﷻ للأشياء كلها قال ابن رجب: (واعلم أن مدار جميع هذه الوصية على هذا الأصل، وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه وراجع إليه، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع، المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه ﷻ وإفراده بالطاعة، وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار، ولهذا ذم الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئا، فمن علم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع غير الله، أوجب له

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣)، والعقيلي (٣/ ١٧٨)، وابن (٨/ ٣٣٠)، والحاكم (٣/ ٦٢٣)، واللالكائي في شرح أصول السنة (٤/ ٦١٤)، وابن بطة (٢/ ٢٠٠)، والبيهقي في الإعتقاد (ص ٥٨) والضياء في المختارة (١٠/ ٢٣) والحديث قال عنه ابن عدي: غير محفوظ، وقال العقيلي: وهذا المتن يروى عن بن عباس وغيره عن النبي ﷺ بأسانيد لينة، وقال ابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ (٤/ ١٩٠٩) فيه نوفل بن سليمان يحدث بأحاديث غير محفوظة ويشبه أن يكون ضعيفا قاله ابن عدي، وخالفهم غيرهم فصححه الترمذي، وقال شيخ الإسلام في التوسل والوسيلة (٥٢) معروف مشهور، وصححه عبدالحق الإشبيلي في الأحكام الصغرى (٣/ ٣٣٣)، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٤٥٩) حسن جيد، وحسنه ابن حجر في موافقة الخبر الخبر (١/ ٣٢٧)، وقال السخاوي في المقاصد (١٨٨) حسن وله شاهد، وحسنه العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٦٦)، وصححه العلامة الألباني في المشكاة (٥٢٣٢)، وكذا صححه الشيخ شاكر في تحقيق المسند، وصححه أيضا الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند، وصححه لغيره العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٦٩٩).

ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعا، وأن يتقي سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعا، وإفراده بالاستعانة به والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد ونسيانه في الرخاء ودعاء من يرجون نفعه من دونه - قال الله ﷻ: قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون} [الزمر: ٣٨])[1].

المسألة الثالثة: الإخبار عن التعادي الحاصل بعد البعث

وهذا من تمام عدم نفع ما يعبد من دون الله، وفيه حسم لمادة الشرك بالله إذ أنه مع عدم نفعه يضر صاحبه في الآخرة، فإن من يعبد غير الله تعالى يتبرأ منه معبوده يوم القيامة وينقلب ضدا له وتنقطع بينهما أسباب المودة مع استحكام العداوة ولعن بعضهم بعضا، ومن الآيات في هذا الباب قول الله تعالى: {ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون} [القصص: ٦٢ - ٦٤].

ومنها قول الله تعالى: {والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير [فاطر: ١٣ - ١٤].

ومنها قول الله تعالى: {ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (١/ ٤٨٤ - ٤٨٥).

إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين} [الأحقاف: ٥ - ٦] ومنها قول الله تعالى: {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا [مريم: ٨١ - ٨٢].

ومنها قول الله تعالى: {ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون} [الأنعام: ٩٤].

ومن ذلك ما قاله الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين} [العنكبوت: ٢٥].

فالآيات السابقة أفادت عدم نفع ما يعبد من دون الله، بل أفادت وقوع العداوة والبغضاء مما يدل على بطلان عبادتها، وأن المستحق لأن يعبد هو الله وحده لا شريك له[١].

ثالثا: تذكير المشركين بما يكمن في نفوسهم من التوحيد وأنه لا حجة ولا برهان لهم في شركهم

فهذا النوع فيه مسألتان:

المسألة الأولى: تذكير المشركين بما يكمن في نفوسهم من التوحيد.

المسألة الثانية: بيان أنه لا حجة للمشركين ولا برهان لهم في شركهم.

أما المسألة الأولى: وهي تذكير المشركين بما يكمن في نفوسهم من التوحيد[٢]:

---

(١) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله (١/ ١١٣).

(٢) رسالة الشرك ومظاهره (ص: ١٩٤).

فهذا يحدث في أوقات الشدة، فإن المشركين كانوا إذا ركبوا في الفلك واشتدت الرياح هيجانا وتلاطمت الأمواج وأوشكوا على الغرق أيقنوا أنه لا ينجيهم إلا الله، فعند ذلك يتركون أصنامهم ويلتجئون إلى الله وحده، فيحتج الله عليهم بأنه يجب أن يفردوه بالدعاء وحده في السراء والضراء. فمن الآيات في هذا الباب قوله تعالى: هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون [يونس: ٢٢ - ٢٣].

ومنها قوله تعالى: قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون} [الأنعام: ٦٣ - ٦٤] ومنها قوله تعالى: وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار} [الزمر: ٨].

ومنها قول الله تعالى: {وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا} [الإسراء: ٦٧].

قال الشيخ محمد الأمين: (لا يخفى على الناظر في هذه الآية الكريمة أن الله ذم الكفار وعاتبهم بأنهم في وقت الشدائد والأهوال خاصة يخلصون العبادة له وحده ولا يصرفون شيئا من حقه لمخلوق، وفي وقت الأمن والعافية يشركون به غيره في حقوقه الواجبة له وحده التي هي عبادته وحده في جميع أنواع العبادة

ويعلم من ذلك أن بعض جهلة المتسمين بالإسلام أسوأ حالا من عبدة الأوثان فإنهم إذا دهمتهم الشدائد وغشيتهم الأهوال والكروب التجأوا إلى غير الله ممن يعتقدون فيه الصلاح، في الوقت الذي يخلص فيه الكفار العبادة لله، مع أن الله جل وعلا أوضح في غير موضع أن إجابة المضطر وإنجاءه من الكرب من حقوقه التي لا يشاركه فيها غيره...)[١].

وقال الشوكاني في تفسير آية يونس المتقدمة: (وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد... وبيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة وما يشابهها، فيا عجبا لما حدث في الإسلام من طوائف يعتقدون في الأموات، فإذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ولم يخلصوا لله كما فعله المشركون!)[٢].

فإذا صفا الفكر واستيقظت الفطرة أيقن الإنسان أنه لا يعبد إلا الله وحده في جميع أنواع العبادات، وبمثل هذا كان قد أسلم عكرمة بن أبي جهل فقد روى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ما حاصله: (أن النبي ﷺ لما أهدر يوم الفتح دم جماعة منهم عكرمة بن أبي جهل هرب من مكة وركب البحر، فأصابهم عاصف فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا - فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عهدا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدا حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفوا كريما فجاء فأسلم)[٣].

(١) أضواء البيان (٣/ ٦١٤ - ٦١٥).

(٢) فتح القدير (٢/ ٤٣٥).

(٣) أخرجه النسائي (٧/ ١٠٥). وسكت عنه عبد الحق الإشبيلي في الأحكام الصغرى (٥٤٩)، وصححه ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ١١٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٧١): رجاله ثقات. وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن النسائي (٤٠٧٨).

وأما المسألة الثانية: وهي أنه لا حجة للمشركين ولا برهان لهم في الشرك[(١)]: فهذا نوع من الأدلة العامة التي تبطل على المشركين عبادتهم لغير الله وتلزمهم بإفراد العبادة لله جل وعلا. فإن المشركين قد طولبوا بإقامة الدليل والبرهان على شركهم فعجزوا عن ذلك. وأخبر الله أنهم إنما يستندون في ذلك على تقليد آبائهم الضالين ويتبعون الظن الذي لا يدل على الحق بأي حال. ثم إن الله تعالى يخاطب المشركين بأسلوب فيه ترهيب عسى أن يعودوا إلى صوابهم. فيخبرهم أنهم سيسألون الحجة والبرهان على شركهم يوم القيامة فيعجزون هناك، ويعلمون علم اليقين أنهم كانوا على باطل ويندمون على شركهم وتعنتهم ولات حين مندم.

فمن الآيات الدالة على أنه لا حجة للمشركين في شركهم سوى الظن: قول الله تعالى: {ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون [يونس: ٦٦] قال الحافظ ابن كثير: (ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئا ولا ضرا ولا نفعا ولا دليل لهم على عبادتهم بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم)[(٢)].

ومن هذه الآيات ما قصه الله عن أصحاب الكهف فقال: هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا} [الكهف: ١٥] قال ابن جرير في قوله: لولا يأتون عليهم بسلطان بين} [الكهف: ١٥]: (هلا يأتون على عبادتهم إياها بحجة بينة) وقال الشيخ محمد الأمين: (لولا في الآية الكريمة للتحضيض، وهو الطلب بحث وشدة، والمراد

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٣٠ - ٣٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٤).

بهذا الطلب التعجيز لأنه من المعلوم أنه لا يقدر أحد أن يأتي بسلطان بين على جواز عبادة غير الله تعالى، والمراد بالسلطان البين: الحجة الواضحة)[1].

ومن الآيات كذلك قول الله تعالى: {ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير} [الحج: ٧١] ومن الآيات كذلك قول الله تعالى: {وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون} [الزخرف: ٢٠ - ٢٣].

فهذه الآيات فيها بيان أن المشركين احتجوا بباطل من القول على زعمهم صحة عبادتهم غير الله، واستندوا في ذلك إلى أمرين، الأول بمشيئة الرحمن فكان بقاؤهم على الشرك - على زعمهم - مما يرضاه الله، وظنوا أن عدم أخذهم بالعذاب دليل على رضى الله عليهم - والأمر الثاني هو استنادهم على تقليد آبائهم وكل ذلك من الخرص والظن، فدل ذلك على بطلان عبادتهم غير الله، فلزم من هذا إفراد الله جل وعلا بالعبادة وحده لا شريك له.

ومن الآيات كذلك قول الله تعالى: {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين} [الأحقاف: ٤] فإن الله تعالى طالب المشركين في هذه الآية بالدليل السمعي والعقلي على صحة عبادتهم غير الله[2].

وهما حجتان قاطعتان وبرهانان ساطعان إن وجدا، وإلا، فإن الدليل العقلي

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٣١).

(٢) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٥).

يدل على أن الذي خلق هو الذي يعبد لا المخلوق المربوب ولذلك قال: أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ثم طالبهم بالدليل السمعي النقلي: ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم وكل ذلك للتعجيز - ولا يستطيعون إثبات شيء من ذلك - فدل على بطلان عبادتهم غير الله، وأن الواجب هو إفراد الله جل وعلا بالعبادة[1].

ثم إن الله تعالى بين أنه سيسأل المشركين حجتهم يوم القيامة، ولن يجدوهم في وقت هم أشد حاجة لعذر يعتذرون به، فقال الله تعالى: {ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون} [القصص: ٧٤ - ٧٥].

قال مجاهد في قوله: فقلنا هاتوا برهانكم قال: (حجتكم لما كنتم تعبدون وتقولون)[2].

فعلم مما تقدم أن من الأدلة الدالة على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة والكفر بالطواغيت هو ما أقامه الله من الحجة على استحقاقه للعبادة، ثم بيانه فساد عمل المشركين باتباعهم للظن وعدم إقامتهم للحجة الساطعة على عبادة آلهتهم التي يعبدونها، وهذا النوع من الاستدلال هو من نوع الإبطال المستلزم لصحة نقيض ما أبطل، أي إذا بطلت عبادة غير الله بما تقدم من الأدلة الدالة على ضعف غير الله وعجزه، وبما ثبت من عدم نفع غيره، بل ثبت ضرره على عابده، كان نقيض هذا هو الحق، وهو ترك عبادة غير الله وإفراد الله وحده

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٩٢).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٦١٤).

بالعبادة، إذ هو وحده المتصف بالصفات التي بها تستحق العبادة[١].

رابعا: بيان أن الحكم لله وحده شرعا وجزاء:

من أنواع الأدلة لتقرير توحيد الألوهية بيان أن الحكم لله تعالى دون سواه. وحكمه تعالى شامل للحكم الشرعي الأمري، والحكم الجزائي القضائي وهذا من ربوبية الله تعالى، فإنه جل وعلا قد حكم شرعا فأمر أن تكون العبادة له وحده دون سواه، ونهى عن عبادة غيره، وبين بطلان عمل المشركين وصحة عمل الموحدين، وقد بين الله حكمه الجزائي القضائي من نصره لأوليائه الموحدين في الدنيا وإثابتهم في الآخرة، وعذابه الدنيوي والأخروي لأعدائه المشركين به، وكل ذلك للتنفير من عبادة غيره وإفراده وحده بالعبادة. فتبين من هذا العرض أن هذا النوع شامل لمسائل:

المسألة الأولى[٢]: من حكم الله الشرعي: الأمر بعبادته وحده لا شريك له، وتوجيه المشركين إلى سؤاله وحده.

المسألة الثانية[٣]: ومن حكمه الشرعي: حكمه ببطلان عمل المشركين وصلاح عمل الموحدين.

المسألة الثالثة: ومن حكمه الجزائي: إثابته لأوليائه الموحدين ونصرهم في الدنيا والآخرة، وحكمه بنقيض ذلك على المشركين.

أما المسألة الأولى: وهي الأمر بعبادة الله جل وعلا وتوجيه المشركين إلى سؤاله وحده، فإن الله تعالى قد قال: إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون [يوسف: ٤٠].

---

(١) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله (١/ ١٢٢).

(٢) القواعد الحسان للسعدي (ص: ١٨) ورسالة الشرك ومظاهره (ص: ١٩٥).

(٣) القواعد الحسان (ص: ١٧).

وقال الله تعالى: {وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون} [القصص: ٦٨ - ٧٠].

فبين الله تعالى أن له الخلق والاختيار، فهو يخلق ما يشاء، ويختار ما يشاء، ولا أحد يشاركه في ذلك، ولذلك نزه نفسه عن شرك المشركين[١] ثم بين الله تعالى انفراده بالحكم، وهو شامل لكل قضاء يقضيه (فالحلال ما أحله تعالى والحرام ما حرمه والدين ما شرعه والقضاء ما قضاه)[٢].

وإن مما قضاه الله تعالى وصية وأمرا: عبادته وحده لا شريك له كما قال: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه} [الإسراء: ٢٣].

وإن الله تعالى وجه المشركين إلى إخلاص الدعاء له وحده فقال تعالى: {وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون} [الأعراف: ٢٨ - ٢٩].

وقد بين لهم الله تعالى بطلان دعائهم غير الله بأوجه كثيرة كعجز من يدعونه وأنه مربوب مخلوق لا يملك شيئا... وإن الله تعالى أمر كل الناس بدعائه وحده لا شريك له وترك الإفساد في الأرض بالشرك وغيره فقال: ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمت الله قريب من المحسنين} [الأعراف: ٥٥ - ٥٦].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٧).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٨٢).

المسألة الثانية: ومن حكمه الشرعي حكمه ببطلان عمل المشركين وصلاح عمل الموحدين:

فمن حكم الله الشرعي حكمه بصلاح عمل الموحدين وحسنه وذلك يوجب تقديمه على كل عمل، فمن الآيات في هذا الباب قول الله تعالى: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا} [النساء: ١٢٥] قال ابن جرير: (وهذا قضاء من الله جل ثناؤه للإسلام وأهله بالفضل على سائر الملل غيره وأهلها)[١].

وقال الله تعالى: {ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ولا تستوي الحسنة ولا السيئة... [فصلت: ٣٣ - ٣٤] أي أنه لا أحد أحسن قولا ممن آمن بالله ودعا إلى الإيمان به واستسلم لشرع الله فقام بأمره واجتنب نهيه، ثم بين الله حكمه الشرعي بعدم تساوي الحسنة والسيئة. والأظهر في الكلمتين - أي الحسنة والسيئة - العموم كما قال ابن جرير: (ولا يستوي الإيمان بالله والعمل بطاعته والشرك به والعمل بمعصيته)[٢].

وقد حكم الله بضلال المشركين وعملهم، فبين أنه لا أضل من المشركين ولا ضلال أبعد من ضلال عملهم، فهذا حكم شرعي يوجب ترك الشرك فقال: ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا} [النساء: ١١٦].

المسألة الثالثة: ومن حكمه الجزائي: إثابته لأوليائه الموحدين ونصرهم في الدنيا والآخرة، وحكمه بنقيض ذلك على المشركين:

فإن الله تعالى قد حكى عن إهلاكه للمشركين المكذبين للرسل وإنجائه

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢٥٠).

(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٤٧١).

لأوليائه الموحدين من الرسل وأتباعهم، وأبقى لنا وسائل لنتعرف على صدق ذلك بما نراه ونسمعه بطرق قطعية، ثم يذكر أن في ذلك آية، أي علامة على صحة استحقاقه للعبادة وأن عبادة غيره باطلة لا نفع فيها بل فيها ضرر.

فمن ذلك قول الله تعالى: {وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم} [العنكبوت: ٣٨] فقال تفصيلا عن ثمود: ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون} [النمل: ٤٥ - ٤٦] (إلى أن قال عنهم) فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون} [النمل: ٥١ - ٥٣].

وقد قص الله ﷻ في سورة الشعراء قصص الرسل مع أقوامهم، وأنهم جاءوهم بالتوحيد، فيقع التكذيب من أكثر الناس، فينزل الله عليهم عذابه بسبب ذلك ويذكر إنجاءه للموحدين ثم يقول: إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: ٨ - ٩] والآية: العلامة، أي علامة على صحة استحقاقه العبادة وبطلان عبادة غيره.

وهذا الذي ذكره الله من تعذيب المشركين به وإنجاء الموحدين كله في الدنيا.

وأما في الآخرة فالنصوص كثيرة جدا فمنها قول الله تعالى: {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار} [المائدة: ٧٢]. وقال تعالى: {ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا} [الإسراء: ٣٩] وفي الموحدين يقول رسول الله ﷺ (من لقي الله لا يشرك به شيئا

دخل الجنة)[1].

خامسا: إجماع الكتب السماوية على استحقاق الله للعبادة وحده:

فإن الرسل جميعهم قد جاءوا بإخلاص الدين كله لله واتفقوا على ذلك، وهذه حجة برهانية في أن الله هو المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له وأنه لا منازع له في ذلك، ولذلك يطالب المشركين بأن يذكروا ما عندهم من براهين توجب العبادة لغير الله سواء كانت سمعية أو عقلية، فلم يستطيعوا إثبات ذلك...

أما الآيات في هذه المسألة فمنها قول الله تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: ٣٦] وقال: واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى: {أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: ٢١ - ٢٥].

وهذا يوضح بطلان ما عليه المشركون من الشرك بالله تعالى، فإنه لا مستند لهم في إشراكهم بالله غيره من دليل سمعي ولا عقلي، بل الأدلة كلها السمعية والعقلية على خلاف افترائهم وزعمهم، فالذي خلق هو الذي يعبد وهو الذي يشكر على ما أنعم، وهو الآمر الناهي فيلتزم أمره ونهيه - وذلك الذي اتفقت عليه الرسل، فالرسل كلهم على تباعدهم في الأزمنة والأمكنة مع كمال صدقهم

(١) أخرجه البخاري (١٢٩) من حديث أنس رضي الله عنه. وأخرجه مسلم (٩٣). من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

وظهور الآيات والبراهين الدالة على صدقهم، اتفقوا على وجوب عبادة الله وحده وتحريم الشرك به، فآيات الرسل دالة على صحة دعواهم النبوة والرسالة وعلى وحدانية الله، قال الله تعالى مبينا معجزة القرآن ودلالتها: أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون [هود: ١٣ - ١٤] فبين الله أنه بالمعجزة تثبت الرسالة والوحدانية. واتفاق الرسل على هذا المبدأ دليل آخر على وجوب عبادة الله وحده وترك عبادة غيره(١).

سادسا: دلالة العقل والنقل على توحيد الألوهية

وجه دلالة العقل على ذلك هو العلم بحسن التوحيد وقبح الشرك، فالعقل يدرك حسن عبادة الله الذي خلق فأحسن خلقه مع اتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص، فهو المحسن إلى خلقه بأنواع النعم والمتفضل عليهم بأنواع الفضائل، فكل ذلك يدل على حسن عبادته رغبة فيما عنده من الخير، والعقل كذلك يدرك قبح عبادة غير الله، إذ كل من هو دون الله مخلوق مربوب فقير إلى ربه، لا يملك شيئا، فكيف يعطى شيئا لا يستحقه ويساوى بالخالق المنعم!، خاصة وأن النفوس مفطورة على الإقرار بالله والميل إلى ما ينفع ويرجى نفعه. وأما السمع فإنه دال على... حسن التوحيد وقبح الشرك ويزيد على دلالة العقل: بإثبات العقاب على ترك التوحيد والثواب على تحقيقه. وأدلة القرآن دالة على أن العقل يعلم حسن التوحيد وقبح الشرك دون إثبات الجزاء، فمن ذلك:

الأول: أنه قد ورد في القرآن ضرب الأمثلة على بطلان الشرك وهي مقاييس

---

(١) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى (١/ ١٣٤).

عقلية، فلو لم يكن العقل مدركا لقبحه وحسن التوحيد لما ضرب الله هذه الأمثلة ولاكتفى بالأمر بتوحيده والنهي عن الشرك به.

ومن الآيات الواردة بضرب الأمثلة قول الله تعالى: {ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم} [النحل: ٧٥ - ٧٦]، ففيها مثلان؛

فالمثل الأول: مثل الكافر والمؤمن - والثاني: مثل ضربه الله ليبين عدم استحقاق غيره للعبادة بضعفه وعدم قدرته، وعدم فهمه وعقله. وأما الله سبحانه فهو الذي يأمر بالعدل وهو التوحيد[١].

وقال تعالى: {ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون} [الزمر: ٢٩] وهذا مثل ضربه الله للمشرك الذي يعبد آلهة شتى، وللموحد الذي يعبد إلها واحدا وهو الله لينبه على قبح الشرك وحسن التوحيد[٢].

الثاني: ما أقامه الله من الأدلة العقلية لاستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له كتفرده بالخلق والتدبير والرزق... وعدم استحقاق غيره لذلك.

فلو لم يكن فيما أقامه من أدلة عقلية فائدة لاكتفى بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك دون أن يلزمهم باعترافهم بتوحيد الربوبية ليقروا بتوحيد الألوهية.... وما أبقاه الله من أدلة عقلية يراها ويسمعها الناس تدل على قبح

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ١٤/ ١٥٠ - ١٥١) وتفسير البغوي (٥/ ٣٣).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٥٣).

الشرك من إهلاكه عادا وثمود وإنجائه للموحدين: كما قال: وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم} [العنكبوت: ٣٨]. وما ذكره بعد إهلاكه للمشركين وإنجائه للموحدين بقوله: إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم} [الشعراء: ٨ - ٩] والآية هي العلامة الدالة على ما هي علامة له، فهذا الخبر متضمن لدليل عقلي وهو: لو كان ما عليه المشركون صحيحا لما أهلكهم الله، ولو كانت عبادة الآلهة التي عبدت دون الله صحيحة لنفعت أصحابها بكف العذاب ودفعه. وقال الله تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين} [الصافات: ٨٧ - ٨٦] أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون} [الصافات: ٩٥ - ٩٦] فخطاب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه خطاب عقلي وهو: ما ظنكم بربكم إذا لقيتموه يوم القيامة وقد عبدتم غيره أن يفعل بكم، وما ظنكم به من ظن السوء حتى عبدتم غيره! مع أن الأصنام التي عبدوها لم تدفع عن نفسها ضرا إذ قام بتحطيمها، وهي كذلك مخلوقة مربوبة مثل من يعبدها بل أقل شأنا! فكيف يستقيم عقل من يعبدها!.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فهذا كله يبين قبح ما كانوا عليه قبل النهي. فلولا أن حسن التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له وقبح الشرك ثابت في نفس الأمر معلوم بالعقل لم يخاطبهم بهذا إذ كانوا لم يفعلوا شيئا يذمون عليه)[1].

ويؤكد هذا ما جاء في استعمال القرآن بعد ضرب الأمثلة وإقامة الأدلة من مخاطبة العقول بقوله: كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون وهذه الآية جاءت بعد مثل ضربه الله عَزَّ وَجَلَّ ليبين أنه أولى بالتنزيه عن الشركاء من الأسياد من البشر في عدم رضاهم بمشاركة مماليكهم لهم في حقهم فقال: ضرب لكم مثلا من

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٨١ - ٦٨٢).

أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون} [الروم: ٢٨].

الثالث: مطالبة الله المشركين بالدليل العقلي والسمعي على شركهم:

وفي ذلك يقول الله تعالى: {قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين} [الأحقاف: ٤] قال ابن القيم: (فطالبهم بالدليل السمعي والعقلي)[١].

فمطالبته إياهم بالدليل العقلي وهو في قوله: أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات دليل على أن العقل يعلم بطلان صرف شيء من العبادة لغير الله، إذ العابد إنما يرجو ممن يعبده نفعا أو دفع ضر عنه - والذي لا يخلق ولا يملك شيئا لا استقلالا ولا شركة ضعيف فقير عاجز لا يغني شيئا فلم يستحق أن يعبد.

وأما العقاب على ترك التوحيد فهذا لا يكون إلا بعد ورود الشرع - كما قال ابن القيم: (إن العقاب على ترك هذا الواجب يتأخر إلى حين ورود الشرع كما دل عليه قوله تعالى: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} [الإسراء: ١٥] وقوله: كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا..} [الملك: ٨ - ٩] وقوله: وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون} [القصص: ٥٩] وقوله: ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون} [الأنعام: ١٣١] فهذا يدل على أنهم ظالمون قبل إرسال الرسل وأنه لا

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٥).

يهلكهم بهذا الظلم قبل إقامة الحجة عليهم)[١] وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فينبغي أن يعلم أن استحقاق العباد للعذاب بالشرك فما دونه مشروط ببلاغ الرسالة في أصل الدين وفروعه)[٢].

سابعا: دلالة توحيد الربوبية على توحيد الألوهية

فهي دلالة التزام؛ لأنه خارج عن معناه مثل دلالة التوبة على التائب فالتوبة غير التائب دلالة الوالد على الولد، فالولد غير الوالد شيء خارج عنه، فتوحيد الربوبية غير توحيد الألوهية.

فدلالة توحيد الربوبية على دلالة توحيد الألوهية دلالة التزام هو شيء خارج عن معناه. أما دلالة الألوهية على الربوبية فهي دلالة تضمن لأنه في ظل الألوهية توحيد الربوبية، هذه الثلاث دلالات تسمى دلالة التضمن، ودلالة الالتزام، ودلالة المطابقة.

فدلالة الالتزام دلالة الشيء على خارج معناه كدلالة توحيد الربوبية على توحيد الألوهية، ودلالة التضمن هي دلالة الشيء على جزء من معناه كدلالة توحيد الألوهية على توحيد الربوبية، ودلالة المطابقة: دلالة الشيء على جميع معناه كدلالة الألوهية على الربوبية والألوهية.

(باب خطر الجهل بتوحيد الألوهية)

إن توحيد الربوبية الذي أقر به الخلق لا يكفي وحده، بل هو من الحجة عليهم، فلا بد من الإقرار بتوحيد الألوهية الذي هو إفراد الله تعالى بالعبادة الخالصة. وهو معنى (لا إله إلا الله)، (إذ الإله: هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالًا وإكرامًا... ولهذا كانت "لا إله الله أحسن الحسنات، وكان التوحيد

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٥٣ - ٤٥٤).

(٢) قاعدة في المحبة لشيخ الإسلام ضمن جامع الرسائل (٢/ ٢٩٣).

بقول (لا إله إلا الله) رأس الأمر)[١]. وهذا هو حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: (أتدري ما حق الله على عباده؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقهم أن لا يعذبهم)[٢].

ولهذا التوحيد لوازم ظاهرة وباطنة، وهي من أوامر الله تعالى للمؤمنين به الموحدين، وهي قبل ذلك من موجبات العبودية لله الواحد القهار الذي له صفات الكمال والجلال، كما قال الله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء} [ال عمران: ٢٦]، وقال تعالى: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ} [الأنعام: ١٧]، وقال تعالى: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: {قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ} [الزمر: ٣٨]، وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ [سبأ: ٢٢ - ٢٣]، وقال تعالى: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: ٨٨]، وقال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٢ - ٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).

الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: ٥].

(ونظائر هذا في القرآن كثير، وكذلك في الأحاديث، وكذلك في إجماع الأمة، لا سيما أهل العلم والإيمان منهم، فإنه عندهم قطب رحى الدين، كما هو الواقع)[١].

لذلك وجب على الإنسان المؤمن الموحد من أعمال القلب ومن أعمال الجوارح ما يحقق به حقيقة التوحيد لله ﷻ، وما يحقق به حقيقة العبودية في نفسه، فيحقق في نفسه تعظيم الرب جل وعلا ومحبته، ورجاءه والخوف منه، والرضا به والتسليم له، والطاعة له والانقياد عملًا بالقلب والجوارح معًا.

ومن أهم الأعمال القلبية التي يتحقق بها كمال التوحيد الرضا (وقد جاء هذا الرضا بأنواعه مبينا في سورة الأنعام التي هي سورة التوحيد العظمى، فقد اشتملت على ثلاثة أنواع من الرضا هي جماع التوحيد كله:

١- الرضا بالله ربا لا شريك له في التقرب والتأله والتعبد: قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: ١٦٤].

٢- الرضا بالله حكما لا شريك له في التشريع والطاعة: أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا} [الأنعام: ١١٤].

٣- الرضا بالله وليا لا شريك له في محبته وموالاته: قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [الأنعام: ١٤].

ولهذا قال النبي ﷺ: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا)[٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: (من قال حين يسمع النداء:

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٣٤) من حديث العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولًا، غفرت له ذنوبه)(١).

واللوازم الظاهرة التي يتحقق بها التوحيد تتلخص في أتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، وتحقيق ذلك بأتباع الرسول ﷺ والالتزام بالشريعة. وهذا هو مقتضى الشهادتين (لا إله إلا الله، محمد رسول الله).

ومما يلي مقام الرضا من أعمال القلوب، مقام الصدق والإخلاص (وهذان عملان قلبيان من أعظم أعمال القلوب وأهم أصول الإيمان. فأما الصدق، فهو الفرقان بين الإيمان والنفاق، وأما الإخلاص، فهو الفرقان بين التوحيد والشرك - في قول القلب واعتقاده، أو في إرادته ونيته - والأعمال - التي رأسها وأعظمها شهادة أن (لا إله إلا الله) - لا تقبل إلا بتحقق الصدق والإخلاص...

وأكذب الله المنافقين في دعوى الإيمان وقول الشهادة؛ لانتفاء الصدق، فقال: إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [المنافقون: ١]...

كما أبطل سبحانه زعم أهل الكتاب والمشركين أن دينهم هو الحق بانتفاء الإخلاص، فقال: لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البينة: ١] إلى أن يقول وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: ٥]، وقال تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١]...

فعلى محك الصدق والإخلاص بطلت أكثر دعاوي العابدين وهلك أكثر الثقلين، فالصدق يخرج كل من عبد مع الله غيره، أو أراد غيره معه في عمل من

(١) أخرجه مسلم (٣٨٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

أعمال العبادة، كما في الحديث الصحيح: قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[(١)].

والمنافي لهذا التوحيد هو الشرك بالله تعالى، وهو صور كثيرة واقعة في حياة الناس اليوم لأسباب كثيرة، منها قلة الدعاة إلى توحيد الله تعالى بالعبادة والطاعة، ومنها إعراض الناس عن تعلم أحكام الدين اشتغالا منهم بالدنيا والشهوات، ومنها الجهل المتفشي في كثير من أقطار المسلمين وخاصة الجهل بالدين الصحيح، وإلا، فعلم الضلالة والبدع منتشر وله مؤسسات وهيئات تقوم عليه وترعاه وتنشره بين المسلمين.

والذي يهمنا من هذه الأسباب الجهل الذي أدى بالناس إلى التفريط في حق خالقهم عليهم، فوقعوا في المخالفات التي تنافي توحيد الألوهية بالكلية أو تنافي بعض تفاصيل هذا التوحيد. فما هي حدود العذر بالجهل فيما يتعلق بتوحيد الألوهية؟.

الحكم في هذه المسألة ينبني على جملة من القواعد

١- تحديد أبرز الصور التي تنافي توحيد الألوهية.

٢- إذا قلنا: إنه لا تكفير ولا عقاب إلا بعد قيام الحجة، فلابد من تحديد مناط قيام الحجة في هذه المسألة ونحن نحاول تطبيق هذه القاعدة على الواقع.

٣- تحديد دائرة ما يعذر به في هذه المسألة وما لا يعذر.

تحديد أبرز الصور التي تنافي توحيد الألوهية:

- عدم إفراد الله تعالى بالعبادة، كمن أظهر الإيمان نفاقًا أو صلى أو ذبح لغير الله أو دعا أو استغاث بغيره، أو أطاع مخلوقًا في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل، ومنهم أهل الكتاب والمشركون الذين اتخذوا من دون الله

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أولياء من الأنبياء أو غيرهم، وعبدوهم زاعمين أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، ومن هؤلاء أيضا غلاة القبوريين المنتسبون للإسلام ممن يستغيثون بالأموات ويطلبون منهم قضاء الحاجات ويتقربون إليهم بالذبح، ثم يزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك معهم ليقربوهم إلى الله زلفى.

- الاعتراض والكراهية لما أنزل الله بعضه أو كله، وهذا مما وقعت فيه الأمة كليا أو جزئيا، فوقع فيها الاعتراض على توحيد المعرفة والإثبات، والاعتراض على الأمر الشرعي بالتحليل والتحريم، والاعتراض على أمره الكوني. فاعترض كثير منهم على صفاته وشريعته وقضائه وقدره.

(باب بم يثبت عقد الإسلام)

المقصود بعقد الإسلام هو أصل الدين، أي القدر الشرعي الذي متى ما التزمه المكلف نجا به من الكفر، وكذلك نجا به من الخلود في النار إذا مات على ذلك. فبه يصير الكافر مسلمًا، والعدو وليًا، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال. كما يترتب على الإقرار بهذا الأصل الدخول في مسمى أهل القبلة، واستحقاق ما لهم من حقوق، ووجوب ما عليهم من واجبات.

ويتحقق أصل الدين بالإقرار المجمل بكل ما صح به الخبر عن النبي ﷺ تصديقًا وانقيادًا. وهذا المعنى تعبر عنه الشهادتان؛ ولهذا جعلهما الله تبارك وتعالى باب الدخول إلى الإسلام، وجعل النطق بهما هو مناط عصمة الدماء والأموال والأعراض.

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فمن قال: لا إله إلا الله، عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها، وحسابه على الله عز وجل)[1]. وفي رواية: (... حتى يشهدوا أن لا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، وأخرجهمسلم (٢١).

إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به)[١]. وفي رواية له أيضا من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم الله دمه وماله، وحسابه على الله ﷻ)[٢].

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن المعلوم بالضرورة أن النبي ﷺ كان يقبل من كل من جاءه يريد الدخول في الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلما. فقد أنكر على أسامه بن زيد قتله لمن قال: لا إله إلا الله لما رفع عليه السيف، واشتد نكيره عليه. ولم يكن النبي ﷺ يشترط على من جاءه يريد الإسلام، أن يلتزم الصلاة والزكاة)[٣].

فالشهادة لله بالوحدانية تعني الإقرار المجمل بالتوحيد، والبراءة المطلقة من الشرك، والشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة تعني الإقرار المجمل بكل ما جاء به ﷺ من عند الله تصديقا وانقيادا.

وهذا كان منهج رسول الله ﷺ في قبول من كان يأتيه من الكفار يريد الإسلام، كما جاء في الأحاديث المتقدمة، وكما جاء في كلام الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ، وهكذا كان أمره لرسله إلى القبائل والملوك وأهل الكتاب، وكذلك إذا بعث السرايا أن يدعوا إلى توحيد الله ويقاتلوا عليه.

عن أبي معبد مولى ابن عباس قال: سمعت ابن عباس يقول: (لما بعث النبي ﷺ معاذ إلى نحو أهل اليمن، قال له: إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى عبادة الله...)[٤] الحديث؛ وفي رواية:

---

(١) أخرجه مسلم (٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣).

(٣) جامع العلوم والحكم (ص: ٨٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

(ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله)[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ويفتح الله عليه... فدعا عليا، فبعثه فقال: اذهب فقاتل، حتى يفتح الله عليك، ولا تلتفت. فمشى ساعة - أو قال: قليلا -، ثم وقف ولم يلتفت، فقال: يا رسول الله، علام أقاتل الناس؟، قال: قاتلوهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك، منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله)[(٢)].

وبناء على ما سبق، فإن وصف المسلم لا يثبت للمكلف على الحقيقة التي يصير بها مسلما عند الله إلا بأمرين:

الأول: تحقق هذا الأصل في القلب.

الثاني: النطق باللسان بالبراءة من الشرك والالتزام بالتوحيد، وهذا في حالة الخلو من الموانع والأعذار الشرعية المعتبرة كالبكم والإكراه.

فهذا القدر - وهو أصل الدين - إذا ما تحقق ولم ينقض بقول أو عمل أو اعتقاد، فقد نجا صاحبه من الكفر، ومن الخلود في النار، وهذا ما أطلق عليه شيخ الإسلام ابن تيمية اسم (الإيمان المجمل)، حيث قال: (فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر، أو ولدوا على الإسلام، والتزموا شرائعه، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله، فهم مسلمون، ومعهم إيمان مجمل. ولكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئًا فشيئًا إن أعطاهم الله ذلك)[(٣)].

وعلى هذا، فإن نفي الإيمان المجمل معناه نفي مطلق الإيمان، وسقوط

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٠٥).

(٣) الإيمان (ص: ٢٥٧) - تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني- .

صاحبه في الكفر الأكبر الناقل عن الملة، ويتحقق هذا بانتفاء أو نقض أحد عناصره من التصديق أو الانقياد أو الإقرار.

ومن خلال ما سبق بيانه، يتبين لنا جليا أن أول واجب على المكلف هو: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، لا كما يقول أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية أن أول ما يجب على العبد النظر في الأدلة العقلية على وجود الله تعالى، أو القصد إلى النظر أو غيره[١].

قال الحافظ ابن حجر: (قال القرطبي: لو لم يكن في (علم) الكلام إلا مسألتان، هما من مبادئه، لكان حقيقا بالذم.

إحداهما: قول بعضهم: إن أول واجب الشك؛ إذ هو اللازم لوجوب النظر، أو القصد إلى النظر.

والثانية: قول جماعة منهم: من لم يعرف الله بالطرق التي رتبها أهل الكلام، لم يصح إيمانه.

والقائل بهاتين المسألتين كافر؛ لجعله الشك في الله تعالى واجبا، ومعظم المسلمين كفارًا، حتى يدخل في عموم كلامه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وهذا معلوم الفساد من الدين بالضرورة)[٢].

والخلاصة: أن هذا الالتزام المجمل هو الذي يتوقف على تحقيقه ثبوت عقد الإسلام، فلا يكون المرء مسلما إلا باستيفائه. كما أنه شرط في صحة الأعمال وقبولها، فهو سابق على غيره من التكاليف.

أما الالتزام بباقي الواجبات، فإنه يأتي بعد تحقيق هذا الأصل، فإن حصل التزام وعمل، استلزم ذلك بقاء وصف الإسلام واستمراره، وهذا مصداق أمر

---

(١) إتحاف المريد بجوهرة التوحيد لعبد السلام اللقاني (ص: ٤٢).
(٢) فتاح الباري (١٣/ ٣٥٠).

النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن أن يدعو إلى الشهادتين، فمن أطاعه على ذلك، أعلمه بالصلاة ثم الزكاة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الكافر إذا أسلم وقلنا له: قد وجبت عليك الصلاة، فإنه يلتزمها وينويها؛ لاستشعاره لها جملة ولم يعلم صفتها، بل كل من آمن بالرسول ﷺ إيمانا راسخا، فإن إيمانه متضمن لتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، وإن لم يعلم ولم يقصد أنواع الأخبار والأعمال. ثم عند العلم بالتفصيل، إما أن يصدق ويطيع، فيصير من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أو يخالف ذلك، فيصير إما منافقا، وإما عاصيا فاسقا، أو غير ذلك[(١)]).

والثمرة النهائية التي نستخلصها من هذا المبحث هو: أنه لا عذر لأحد بالجهل في هذا الأصل، فمن لم يتحقق لديه، لم يكن مسلما، دون اعتبار لعلم أو لجهل. فإن هذا مما انعقد به الإجماع بقين المسلمين بكفر كل من لم يدن بدين الإسلام. فكل من لم يشهد لله بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بالرسالة، فهو كافر بلا نزاع، سواء كان يهوديا أو نصرانيا أو وثنيا أو غيره.

أما ما كان من نزاع في بعض هذه الطوائف ممن لم تبلغهم نذارة ولم يصلهم بلاغ، فهو فيما يتعلق بأحكام الآخرة، هل يخلدون في النار لكفرهم، أو يعفى عنهم؛ لعدم بلوغ الحجة إليهم، أم يمتحنون في عرصات يوم القيامة؟. أما في الدنيا فهم كفار بلا نزاع[(٢)].

(باب معنى شهادة لا إله إلا الله)

إن كلمة التوحيد- لا إله إلا الله- هي أساس الدين، وحصنه الحصين، وطريقه القويم، وصراطه المستقيم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٦/ ٢٧ - ٢٨).

(٢) الجهل بمسائل الاعتقاد وحكمه (ص ٥٣).

ولهذه الكلمة المكانةُ العظمى في دين الإسلام؛ فهي أول ركن من أركان الإسلام، وأعلى شعبة من شعب الإيمان، وهي أول واجب على المكلف، وآخر واجب عليه، وقبول الأعمال متوقف على النطق بها، والعمل بمقتضاها.

أما معناها الحق الذي لا ينبغي العدول عنه فهو: لا معبود حق إلا الله.

ولا يجوز لنا أن نقول: إن معناها لا خالق إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، أو لا موجود إلا الله، وذلك لأمور منها:

١- أن كلمة إله عند العرب فِعالٌ بمعنى مفعول، كغِراس بمعنى مغروس، وفِراش بمعنى مفروش، وكتاب بمعنى مكتوب؛ فإله: فِعال بمعنى مفعول: أي مألوه، والتأله في لغة العرب معناه التنسك والتعبد، فمعنى مألوه: معبود ومنه قول رؤبة بن العجاج:

لله در الغانيات المده سبحن واسترجعن من تألهي[1].

وقد سمَّت العرب الشمس لما عبدوها إلهةً، وقالت مية بنت أم عتبة ابن الحرث:

تروَّحنا من اللعباء عصرًا فأعجلنا الإلهة أن تؤوبا[2].

٢- أن كفار قريش والمشركين في الجاهلية لا ينكرون أنه لا خالق إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، قال تعالى في شأنهم: [وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ] (لقمان: ٢٥).

وأشعارهم مليئة بالإقرار بهذا الأمر، أعني توحيد الربوبية، ومن ذلك قول زهير ابن أبي سلمى:

فلا تكتُمُن الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم

(١) لسان العرب ١٣/ ٤٩٦.

(٢) لسان العرب ١٣/ ٤٦٩.

يُـؤخر فيُوضَـعْ في كتـاب فيُـدَّخَر ليـوم الحـساب أو يعجـل فينـتقم[١]

ومنه قول حاتم الطائي:

أمـا والـذي لا يعلـم الـسر غيـره ويحيي العظام البيض وهي رميم[٢]

٣- أن كفار قريش لما قال لهم الرسول" قولوا: لا إله إلا الله قالوا كما أخبر الله تعالى عنهم [أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ] (ص: ٥).

فما الذي فهمه كفار قريش عندما أمرهم النبي"أن يقولوا لا إله إلا الله ؟ هل فهموا من لا إله إلا الله أن معناها لا خالق أو لا قادر على الاختراع إلا الله ؟.

الجواب لا؛ لأنهم لا ينكرون ذلك، إنما أنكروا أن تكون العبادة كلها لله وحده لا شريك له، إذًا فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود حق إلا الله، وتُقَدَّر كلمة حق لأن المعبودات كثيرة، ولكن المعبود الحق هو الله وحده لا شريك له.

قال تعالى: [ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ] (الحج: ٦٢).

للشهادة ركنان

١- نفي في قوله (لا إله).

٢- إثبات في قوله (إلا الله).

ف: (لا إله) نفت الألوهية عن كل ما سوى الله، و: (إلا الله) أثبتت الألوهية لله وحده لا شريك له.

وهذا الأسلوب يعرف بأسلوب القصر، وهو أسلوب عربي معروف، وجملة القصر في قوة جملتين، إحداهما مثبتة، والأخرى منفية.

وهذا الأسلوب من أقوى الأساليب التي يؤتى بها لتمكين الكلام وتقريره في

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٢٥.

(٢) شرح ديوان حاتم الطائي، ص٤٧.

الذهن؛ لدفع ما فيه من إنكار أو شك.

وطريقُ القصر في كلمة التوحيد: النفي والاستثناء.

ولا إله إلا الله في قوة قوله تعالى [إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ] (الفاتحة: ٥)، وقوله: [قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا] (الملك: ٢٩).

فطريق القصر في الآيتين تقديم ما حقه التأخير؛ ففي آية الفاتحة قدم المفعول به (إياك) على الفعل (نعبد).

وفي آية الملك قدم الجار والمجرور (وعليه) على الفعل (توكلنا).

هل يكفي مجرد النطق بـ: لا إله إلا الله[1].

كما مر بنا أن معنى الشهادة هو لا معبود حق إلا الله، فلا يعبد إلا الله، ولا يجوز أن يُصرف أيُّ نوع من أنواع العبادة لغير الله؛ فمن قال هذه الكلمة عالمًا بمعناها، عاملًا بمقتضاها؛ من نفي الشرك، وإثبات الوحدانية، مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته والعمل به ؟ فهو المسلم حقًا، ومن عمل بها من غير اعتقاد فهو المنافق، ومن عمل بخلافها من الشرك فهو المشرك الكافر وإن قالها بلسانه.

فضائل: لا إله إلا الله[2].

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٧٤_٨٠.

(٢) انظر: كلمة الإخلاص لابن رجب الحنبلي حققه بشير محمد عيون، وانظر إلى كتاب التوحيد للإمام المُجدد محمد بن عبدالوهاب خصوصًا باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، وباب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، وانظر إلى شرح هذين البابين في تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبدالله وفتح المجيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن والقول السديد لابن سعدي وغيرها من الشروح، وانظر إلى كتاب معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي في الحديث عن فضائل كلمة الشهادة الجزء =

لقد اجتمع لكلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) فضائل جمة، وثمرات عديدة، ولكثرة فضائلها كثرت أسماؤها، وما ذلك إلا لعظم ما تحمله تلك الكلمة في طياتها من عمق في المعنى والمدلول، فشأنها عظيم، ونفعها عميم، وفضائلها يقصر دونها الحصر والعد.

غير أن هذه الفضائل لا تنفع قائلها بمجرد النطق بها فقط، ولا تتحقق إلا لمن قالها مؤمنًا بها، عاملًا بمقتضاها.

وفيما يلي ذكر لبعض ما هو مثبوت في كتب أهل العلم في فضل تلك الكلمة، وبيان أهميتها.

١- أنها أعظم نعمة أنعم الله بها ﷻ على عباده؛ حيث هداهم إليها؛ ولهذا ذكرها في سورة النحل، التي هي سورة النِّعم، فقدمها على كل نعمة فقال: [يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ] (النحل: ٢).

٢- وهي العروة الوثقى: [....فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] (البقرة: ٢٥٦).

قاله سعيد بن جبير والضحاك.

٣- وهي العهد الذي ذكره الله ﷻ إذ يقول: [لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا] (مريم: ٨٧).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العهد شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة إلا بالله، ولا يرجو إلا الله ﷻ[1].

٤- وهي الحسنى التي ذكرها الله في قوله: [فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥)

=

الأول.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٥٣.

وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى] (الليل: ٥- ٧).

قاله أبو عبدالرحمن السلمي، والضحاك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(١)].

٥- وهي كلمة الحق كما في قوله تعالى: [إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] (الزخرف: ٨٦).

٦- وهي كلمة التقوى التي ذكرها الله في قوله: [وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا] (الفتح: ٢٦).

٧- وهي القول الثابت، قال تعالى: [يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ] (إبراهيم: ٢٧).

٨- وهي الكلمة الطيبة المضروبة مثلًا في قوله تعالى: [أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ] (إبراهيم: ٢٤).

فأصلها ثابت في قلب المؤمن، وفرعها- في العمل الصالح- صاعدٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فالكلمة الطيبة هي كلمة الإخلاص والشجرة الطيبة هي النخلة.

وقد شبه الله- سبحانه وتعالى- كلمة الإخلاص بالنخلة لأمور منها:

أ- أن النخلة لابد لها من ثلاثة أشياء: عرقٍ راسخ، وأصلٍ قائم، وفرعٍ عالٍ.

كذلك الإيمان لابد له من ثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح.

ب- أن النخلة لا تنبت في كل أرض، كذلك كلمة التوحيد لا تستقر في كل قلب، بل في قلب المؤمن فقط.

ج- أن النخلة عرقها ثابت بالأرض، وفرعها مرتفع، كذلك كلمة التوحيد

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥١٩.

أصلُها ثابت في قلب المؤمن، فإذا تكلم بها وعمل بمقتضاها عرجت فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله ﷻ.

قال تعالى: [إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ] (فاطر: ١٠).

د- أن النخلة يؤكل ثمرها ليلًا ونهارًا، صيفًا وشتاءً، إما تمرًا، أو بسرًا، أو رطبًا.

كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار، وآخره، وبركة إيمانه لا تنقطع أبدًا، بل تصل إليه في كل وقت(١).

٩- وهي سبيل الفوز بالجنة، والنجاة من النار [...فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ] (آل عمران: ١٨٥).

وكما في الحديث المتفق عليه من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق- أدخله الله الجنة على ما كان من العمل(٢).

١٠- أنها سبب مانع للخلود في النار لمن استحق دخولها؛ كما في حديث الشفاعة أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه مثقال ذرة من إيمان(٣).

فأهل لا إله إلا الله وإن دخلوها بتقصيرهم في حقوقها فإنهم لابد أن يخرجوا منها كما في الصحيحين: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرَّةٍ من

---

(١) تفسير البغوي معالم التنزيل ٤/ ٢٤٧.

(٢) أخرجه البخاري ٤/ ١٣٩، ومسلم ١/ ٥٧.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٦٠) ومسلم (١٨٣).

خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذَرَّة من خير[١].

١١- أن من قالها يبتغي بذلك وجه الله- فإن الله يحرمه على النار، كما في حديث عتبان المتفق عليه فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله[٢].

١٢- ولأجلها خلقت الجن والإنس: قال الله ﷻ: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ] (الذاريات: ٥٦).

١٣- وهي سبيل السعادة في الدارين: قال الله ﷻ: [الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ] (الأنعام: ٨٢).

١٤- وهي أول واجب على المكلف: قال": أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله[٣].

١٥- وهي آخر واجب على المكلف: فمن كانت آخر كلامه من الدنيا- دخل الجنة كما جاء في حديث معاذ من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤) ومسلم (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري ١/ ١١٠ ومسلم ١/ ٦١.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٥) ومسلم (٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (٣٦/ ٤٤٣ - الرسالة)، وأبو داود (٣١١٦)، والبزار (٢٦٢٦)، والشاشي في مسنده (١٣٧٢) و(١٣٧٣)، والطبراني في الكبير (٢٠/ رقم ٢٢١)، وفي الدعاء (١٤٧١)، والحاكم (١/ ٣٥١) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال ابن العربي في عارضة الأحوذي (٢/ ٣٦٩): ثابت صحيح من طرق كثيرة، وقال النووي في المجموع (٥/ ١١٠): إسناده حسن، وقال ابن الملقن في البدر المنير (٥/ ١٨٩): صحيح، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع، وصححه العدوي في تعليقه على المنتخب (١/ ١٤٨)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٦/ ٤٤٣): حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، صالح بن أبي عريب روى عنه جمع، وذكره =

١٦- وهي التي لأجلها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ] (الأنبياء: ٢٥).

١٧- وهي مفتاح دعوة الرسل: فالرسل- عليهم السلام- دعوا إليها جميعًا، فكلهم يقول لقومه[اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ] (الأعراف: ٧٣).

١٨- وهي أفضل الحسنات: قال أبو ذرقلت يا رسول الله: علمني عملًا يقربني من الجنة ويباعدني من النار قال: إذا عملت سيئة فاعمل حسنة فإنها عشر أمثالها.

قال: قلت يا رسول الله: أمِنَ الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال: هي أفضل الحسنات[١].

١٩- وهي الحسنة: قال الله تعالى [مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا] (الأنعام: ١٦٠) ؛ إذ هي أفضل الحسنات كما مر.

٢٠- وهي أفضل ما ذكر الله به ﷿: كما قال النبي": أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له[٢].

=

ابن حبان في "الثقات".

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٦٩)، وفي الزهد (٢٧)، وهناد في الزهد (١٠٧١)، والطبري تفسيره (٨/ ٨١)، وابن أبي حاتم (١٢١٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٠٢) وغيرهم، والحديث قال عنه الهيثمى (١٠/ ٨١): رجاله ثقات، إلا أن شمر بن عطية حدث به عن أشياخه عن أبى ذر، ولم يسم أحدا منهم، وصححه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة (١٣٧٣)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لجهالة أشياخ شمر بن عطية.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٠)، والترمذي (٣٥٨٥)، والفاكهي في أخبار مكة (٢٧٥٩)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٠٣)، والرافعي في التدوين (٢/ ١٦٨)، والبيهقي في الشعب (٣٧٦٧) والحديث قال عنه النووي فى الأذكار (١/ ١٤٧): ضعف الترمذى إسناده

=

٢١- وهي أثقل شيء في الميزان: كما في المسند عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي "أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع، والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله"(١).

=

وأقره، ونقل المنذري في الترغيب (٢/ ٤١٩) عن الترمذي أنه قال: حديث حسن غريب، وزيادة لفظ: "حسن" لعله من اختلاف نسخ الترمذي كما نص عليه علماء المصطلح، فيكون قد حسنه بشواهده، لأنه ضعفه هنا بحماد بن أبي حميد، وقال الحافظ في التلخيص (٣/ ٢١٩) رواه مالك في الموطأ من حديث طلحة بن عبد الله بن كريز بفتح الكاف مرسلا، وروي عن مالك، موصولا ذكره البيهقي وضعفه، وكذا ابن عبد البر في التمهيد، وله طريق أخرى موصولة، رواه أحمد والترمذي من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده بلفظ: {خير الدعاء دعاء يوم عرفة} .- الحديث - وفي إسناده حماد بن أبي حميد وهو ضعيف، ورواه العقيلي في الضعفاء من حديث نافع، عن ابن عمر بلفظ: {أفضل دعائي ودعاء الأنبياء قبلي عشية عرفة، لا إله إلا الله} . - الحديث - وفي إسناده فرج بن فضالة وهو ضعيف جدا، قال البخاري: منكر الحديث، ورواه الطبراني في المناسك من حديث علي نحو هذا، وفي إسناده قيس بن الربيع ا. هـ وقال الشيخ ناصر في الصحيحة (١٥٠٣) وجملة القول: أن الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد والله أعلم، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ٥٤٨): حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف محمد بن أبي حميد، وهو الأنصاري الزرقي، الملقب بحماد.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٥)، والحاكم (١/ ٤٨ - ٤٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٨٦) عن عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ورواه الطبراني والبزار (٣٠٦٩) كشف عن عبدالله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو خطاء والصواب عبد الله بن عمرو بن العاص كما رجحه ابن كثير في تفسيره، والشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند والحديث قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١١٢): إسناده صحيح، وقال العراقي في المغني: إسناده

=

٢٢- وهي تطيش بسجلات الذنوب، وترجح بصحائفها، وتثقل الميزان، كما في حديث صاحب البطاقة: قال رسول الله": إن الله سيخلِّصُ رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فَيَحْشُرُ عليه تسعة وتسعين سجلًا، كل سجلٍّ مثل مدِّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: أَفَلَكَ عذر ؟ فيقول: لا يا ربِّ فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنةً؛ فإنه لا ظلم اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: أحضر وزنك فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال: إنك لا تُظْلم.

قال: فتوضع السجلات في كفةٍ، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء[(١)].

٢٣- وهي أعلى شعب الإيمان: وذلك لما ورد في الصحيحين عن أبي هريرةقال: قال رسول الله ": الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة

=

صحيح، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٩ - ٢٢٠): ورجال أحمد ثقات، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٠/ ٨٧): إسناده صحيح، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٣٤)، وقال العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٣/ ٤٤٠ - ٤٤١) هذا حديث صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ١٥١): إسناده صحيح.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم (١/ ٧١٠)، والبيهقى فى الشعب (١/ ٢٦٤) والحديث حسنه الترمذي، وحسنه البغوي في شرح السنة (٧/ ٤٩٠)، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند، وكذا صححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٣٥)، وصححه أيضا العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (١/ ٤٣٦ - ٤٣٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ٥٧١): إسناده قوي رجاله ثقات.

فأفضلها قول لا إله إلا الله[١].

٢٤- وهي أفضل الأعمال والأذكار، وأكثرها تضعيفًا، وتعدل عتق الرقاب، وتكون حرزًا من الشيطان: كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرةعن النبي "أنه قال: من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة- كانت له عَدْل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه[٢].

وفي الصحيحين أيضًا عن أبي أيوب الأنصاريعن النبي": من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرار كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل[٣].

٢٥- أنها تفتح لقائلها أبواب الجنة الثمانية: كما جاء في صحيح مسلم: ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ- أو فيسبغ- الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبدالله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء[٤].

٢٦- وهي التي يكون السؤال عنها يوم القيامة: قال تعالى: [فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ] (الحجر: ٩٢، ٩٣)، وقال تعالى [فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ] (الأعراف: ٦).

٢٧- وهي المثل الأعلى: الذي ذكره الله عَزَّ وَجَلَّ في قوله: [... وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٨)، ومسلم (٣٥).
(٢) أخرجه البخاري (٧/ ١٦٧)، ومسلم (٢٦٩١).
(٣) أخرجه البخاري (٧/ ١٦٧)، ومسلم (٢٦٩٣).
(٤) أخرجه مسلم (٢٣٤).

فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ] (الروم: ٢٧).

فالمثل الأعلى هو الوصف الكامل، وأعظم وصف لله هو أنه لا إله إلا هو؛ كما جاء ذلك في آية الكرسي: [اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ] (البقرة: ٢٥٥).

٢٨- وفي شأنها تكون السعادة والشقاوة.

٢٩- وبها تؤخذ الكتب باليمين أو الشمال.

٣٠- ولأجلها يفرّق بين القريب والقريب [لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ] (المجادلة: ٢٢).

٣١- ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار.

٣٢- وهي أصل الدين، وأساسه، ورأس أمره، وساق شجرته، وعمود فسطاطه، وبقية الأركان والفرائض متفرعة عنها، متشعبة منها، مكملات لها، مقيدة بالتزام معناها، والعمل بمقتضاها.

٣٣- وهي الأمان من وحشة القبور، وهول المحشر.

٣٤- أن قبول الأعمال متوقف عليها وعلى تحقيقها.

٣٥- وهي أعظم سبب للتحرر من رق المخلوقين: فلا يتعلق العبد بهم، ولا يخافهم ولا يرجوهم، ولا يعمل لأجله.

وهذا هو العز الحقيقي، والشرف العالي، الذي به يتم فلاحه، ويتحقق نجاحه.

٣٦- وهي أصل كل خير ديني أو دنيوي: [تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ] (إبراهيم: ٢٥).

٣٧- وهي سبب لصفاء النفس، والبعد عن الأثرة: قال تعالى في وصف أهلها: [وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ] (الحشر: ٩).

٣٨- وهي أعظم سبب لتحرير العقل من الخرافات والأوهام والأباطيل.

٣٩- وهي كلمة السواء: قال تعالى: [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا] (آل عمران: ٦٤).

٤٠- وهي سبب للشجاعة والإقدام: فكلما ازداد الإنسان علمًا بها، وعملًا بمقتضاها- ازداد بذلك شجاعة وإقدامًا في الحق.

ولا أدل على ذلك من حال الأنبياء- صلوات الله عليهم وسلامه- وكذلك حال أتباعهم من الصديقين، والشهداء، والصالحين، والمجاهدين في كل زمان ومكان.

٤١- أنها أعظم سبب لعلو الهمة: فأعلى الهمم الوصولُ إلى رضا الله ودخول الجنة.

وصاحبها القائم بها أعظَمُ همِّه هو ذلك الأمر.

٤٢- وهي أعظم مصدر للعزة والكرامة: قال تعالى: [...وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ] (المنافقون: ٨).

٤٣- وهي الصدق: كما في قوله تعالى: [وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ] (الزمر: ٣٣).

٤٤- وهي التي لأجلها جردت سيوف الجهاد: قال تعالى: [وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ] (الأنفال: ٣٩).

٤٥- وهي مشتملة على نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة.

٤٦- تفريج الكربات: فمن فضائلها أنها السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة، ودفع عقوبتهما، ولذا لما كان يونس عليه السلام في بطن الحوت، [...فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ] (الأنبياء: ٨٧) - استجاب الله له وفرج كربته.

٤٧- أنها أعظم سبب لحسن الخلق: ولين الجانب، وكرم النفس، والارتفاع عن الدنايا، ومحقرات الأمور.

٤٨- أنها هي كلمة التوحيد: والتوحيد هو السبب الأعظم لنيل رض- ا الله وثوابه قال تعالى: [وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ] (البقرة: ١٦٣).

٤٩- أن أسعد الناس بشفاعة محمد"من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه: فعن أبي هريرةعن النبي"قوله: أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه[1].

٥٠- أن من كَمُلَ التوحيد في قلبه، وعرف معنى الشهادة، وعمل بمقتضاها- سهل عليه فعل الخيرات، وترك المنكرات، وهانت عليه المصيبات؛ فالمخلص لله تخف عليه الطاعات؛ لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي؛ لما يخشى من سخطه وأليم عقابه، ويتسلى عند المصائب؛ لعلمه أنها من عند الله، وكل ما يصيبه من الله فهو خير له في دينه ودنياه، علم حكمة ذلك أم لم يعلم.

٥١- أنها إذا اكتملت المعرفة بها، والعمل بمقتضاها حبب الله لصاحبها الإيمان، وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين.

٥٢- أن التوحيد إذا كمل وتم في القلب، وتحقق تحققًا كاملًا بالإخلاص التام- صار القليل من عمله كثيرًا، وتضاعفت أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب.

٥٣- أن الله تكفل لأهلها بالفتح والنصر في الدنيا، والعز والشرف وحصول

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩).

الهداية والتيسير لليسرى، وإصلاح الأحوال والتسديد في الأقوال والأفعال.

٥٤- أن الله يدفع عن أهلها شرور الدنيا والآخرة: قال تعالى: [إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا] (الحج: ٣٨).

٥٥- وهي حبل الله المتين: قال تعالى: [وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا] (آل عمران: ١٠٣).

٥٦- الحياة الطيبة: فالحياة الطيبة إنما هي لأهل الإيمان والتوحيد الخالص.

قال ﷻ: [مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً] (النحل: ٩٧).

وقال تعالى: [وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا] (النور: ٥٥).

٥٧- حصول البشرى عند الممات: فمن فضائلها أن من استقام عليها تحصل له البشرى عند الممات.

قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ] (فصلت: ٣٠).

٥٨- وهي شعار المؤمنين الموحدين: فهم أهل لا إله إلا الله.

٥٩- وهي الرابطة بين المؤمنين: فبمجرد الإيمان بها ينتسب الإنسان إلى أشرف نسب؛ فيصبح إبراهيم عليه السلام أباك، وأزواجُ النبي أمهاتِك، وباقي المؤمنين إخوةً لك.

قال تعالى: [... مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ] (الحج: ٧٨).

وقال: [النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ] (الأحزاب:

٦)، وقال: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ] (الحجرات: ١٠).

٦٠- وهي سبب استغفار الملائكة: فالملائكة تستغفر للمؤمنين- أهل لا إله إلا الله- قال تعالى: [وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا] (غافر: ٧).

٦١- وهي سبب استغفار المؤمنين: قال تعالى: [فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ] (محمد: ١٩).

فكل مؤمن يستغفر للمؤمنين ينالك أيها الموحد نصيب من بركة ذلك الاستغفار.

٦٢- وهي كلمة الإخلاص: لأن عمل القلب هو الأصل.

٦٣- وهي كلمة الإحسان: قال تعالى: [هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ] (الرحمن: ٦٠) قال تعالى [لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ] (يونس: ٢٦).

يعني قالوا لا إله إلا الله[١].

٦٤- وهي دعوة الحق: قال تعالى: [لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ] (الرعد: ١٤).

قال ابن عباس: هي لا إله إلا الله[٢].

وتقديم الخبر يفيد الحصر أي لا يقال لا إله إلا الله إلا في حقه تعالى .

٦٥- وهي كلمة العدل: التي قال تعالى: [إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ] (النحل: ٩٠).

قال ابن عباس: العدل شهادة أن لا إله إلا الله[٣].

٦٦- وهي الطيب من القول: قال تعالى: [وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنْ الْقَوْلِ] (الحج: ٢٤).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٨٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٦٥.

أي هدوا إلى كل طيب، فلا أطيب ولا أطهر من هذه الكلمة.

٦٧- وهي الكلمة الباقية: فالتوحيد لا يزول بكل معصية، ولكن كل معصية تزول بسبب التوحيد وتفنى، قال تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ] (الزخرف: ٢٦- ٢٨).

فذكرها ﷻبعد ذكر معنى الشهادة فقوله: [بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ] بمعنى لا إله،} [الاَّ الَّذِي فَطَرَنِي] بمعنى إلا الله.

٦٨- وهي كلمة الله العليا: قال تعالى: [... وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا] (التوبة: ٤٠).

فكلمة الله عليا على الدوام؛ ولهذا لم يعطفها على ما قبلها.

٦٩- وهي النجاة: كما في قول مؤمن آل فرعون [وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ] (غافر: ٤١).

والنجاة هي لا إله إلا الله، ولا تكون النجاة إلا بها.

٧٠- وهي كلمة الاستقامة: [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا] (فصلت: ٣٠).

٧١- وهي سبب الاجتماع والألفة: فكلمة التوحيد هي أساس توحيد الكلمة، ولا يكون الاجتماع إلا عليها، فلقد امتن الله على المؤمنين بها، فجمع بها شملهم بعد الشتات، ولَمَّ شعثهم بعد التفرق.

قال تعالى: [وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا] (آل عمران: ١٠٣).

٧٢- وهي القول السديد: كما في قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا] (الأحزاب: ٧٠).

٧٣- وهي البرُّ: قال تعالى: [لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ] (البقرة: ١٧٧).

٧٤- وهي الدين: كما قال تعالى } [الا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ] (الزمر: ٣) فَحُصِرَ الخضوع لله، ودل على أنه لا إله سواه، ولا معبود إلا إياه.

٧٥- وهي الصراط المستقيم: قال تعالى: [اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ] (الفاتحة: ٦).

وقال: [وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ] (الأنعام: ٥٣) وقال: [وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] (الشورى: ٥٢).

٧٦- وهي سبب النصر على الأعداء: قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (الأنفال: ٤٥)، ولا إله إلا الله أعظم ذكر.

٧٧- وهي سبب التمكين في الأرض: قال تعالى: [وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ] (النور: ٥٥).

٧٨- وهي سبب للرفعة والعلو: فلقد عز بها بلال الحبشي وسلمان الفارسي رضي الله عنهما، وذل بسبب تركها أشراف قريش.

لقد رفع الإسلام سلمان فارس كما وضع الكفر الشريف أبا لهب

٧٩- وهي سبب لعصمة الدماء والأموال: قال": أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام(١)".

٨٠- وهي كلمة الشهادة: قال تعالى: [شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ

(١) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٠).

وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (آل عمران: ١٨).

٨١- وهي المعروف الأكبر: قال تعالى: [وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ] (آل عمران: ١٠٤).

فالتوحيد هو المعروف الأكبر، كما أن الشرك هو المنكر الأكبر.

٨٢- وهي أول شيء يدعى إليه: كما في حديث معاذعندما بعثه الرسول "إلى اليمن فقال: فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله[1]".

٨٣- وهي ملة أبينا إبراهيم - عليه السلام - : قال تعالى: [مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمينَ] (الحج: ٧٨).

٨٤- وهي الزكاة: قال تعالى: [وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ] (فصلت: ٦، ٧).

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان: قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم هي التوحيد؛ شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب؛ فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته وإثبات إلهيته -سبحانه- وهو أصل كل زكاء ونماء[2].

٨٥- وبسببها تبيض وجوه وتسود وجوه: فتبيض وجوه أهلها أهل الطاعة والإيمان، وتسود وجوه أعدائها من أهل الكفر والعصيان، قال تعالى: [يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوه] (آل عمران: ١٠٦).

هذا فيض من غيض من فضائلها وثمراتها العظيمة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩).

(٢) إغاثة اللهفان (ص٥٦).

شروط لا إله إلا الله[١]

ذكر العلماء لكلمة الإخلاص شروطًا سبعة، لا تصح إلا إذا اجتمعت، واستكملها العبد، والتزمها بدون مناقضة لشيء منها.

وليس المرادُ من ذلك عدَّ ألفاظِها وحِفْظَهَا؛ فكم من عامي اجتمعت فيه، والتزمها ولو قيل له عَدِّدْها لم يحسن ذلك.

وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيرًا فيما يناقضها.

وهذه الشروط مأخوذة بالتتبع والاستقراء، وقد نظمها الشيخ حافظ الحكمي بقوله:

العلمُ واليقينُ والقبولُ ... والانقياد فادر ما أقول

والصدق والإخلاص والمحبة ... وفقك الله لما أحبه[٢]

ونظمها بعضهم بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ... محبة وانقياد والقبول لها

وأضاف بعضهم شرطًا ثامنًا ونظمه بقوله:

وزيد ثامنُها الكفران منك بما ... سوى الإله من الأوثان قد ألها

---

(١) انظر: شروح كتاب التوحيد تيسير العزيز الحميد وفتح المجيد وحاشية ابن قاسم في شرح باب تفسير شهادة أن لا إله إلا الله وانظر معارج القبول للشيخ حافظ الحكمي ص٢٧٣_٢٨٤، والشهادتان للشيخ عبدالله بن جبرين ص٧٧_٨٥، والأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة للشيخ عبدالرحمن الدوسري ص٢٤_٢٦، ولا إله إلا الله محمد رسول الله تفسير وتوضيح للدكتور الشريف حمدان بن راجح الهجادي ص٣٦_٤٠ ومختصر معارج القبول لهشام آل عقدة ص٩٩_١٠٢، وغيرها من الكتب التي تكلمت على ذلك خصوصًا كتب أئمة الدعوة.

(٢) منظومة سلم الوصول إلى علم الأصول ص٢٣.

وهذا الشرط مأخوذ من قوله: "من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه"[١].

هذه هي الشروط السبعة مع زيادة الشرط الثامن على وجه الإجمال، وإليك تفصيلها:

١- العلم: والمراد به العلم بمعناها نفيًا وإثباتًا، وما تستلزمه من عمل، فإذا علم العبد أن الله ﷻ هو المعبود وحده، وأن عبادة غيره باطلة، وعمل بمقتضى ذلك العلم- فهو عالم بمعناها.

وضد العلم الجهل؛ بحيث لا يعلم وجوب إفراد الله بالعبادة، كأن يرى جواز عبادة غير الله مع الله.

قال تعالى: [فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ] (محمد: ١٩).

وقال: [... إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] (الزخرف: ٨٦).

أي من شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم.

وقال تعالى: [شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (آل عمران: ١٨).

وقال تعالى: [... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ] (الزمر: ٩).

وقال: [... إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ] (فاطر: ٢٨).

وقال: [وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ] (العنكبوت: ٤٣).

وفي الصحيح، عن عثمان قال: قال رسول الله: «من مات وهو يعلم أنه لا إله

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣)

إلا الله دخل الجنة»[١].

٢- اليقين: وهو أن ينطق بالشهادة عن يقين يطمئن إليه قلبه، دون تسرب شيء من الشكوك التي يبذرها شياطين الجن والإنس، بل يقولها موقنًا بمدلولها يقينًا جازمًا.

فلابد لمن أتى بها أن يوقن بقلبه، ويعتقد صحة ما يقوله من أحقية إلهية الله تعالى وبطلان إلهية من عداه، وأنه لا يجوز أن يُصرف لغيره شيءٌ من أنواع التأله والتعبد.

فإن شك في شهادته، أو توقف في بطلان عبادة غير الله؛ كأن يقول: أجزم بألوهية الله، ولكنني متردد ببطلان إلهية غيره- بطلت شهادتُه ولم تنفعه.

قال تعالى مثنيًا على المؤمنين: [وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ] (البقرة: ٤).

وقد مدح الله المؤمنينأيضًابقوله: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا] (الحجرات: ١٥).

وذم المنافقين بقوله: [... وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ] (التوبة: ٤٥).

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرةقال: قال رسول الله": أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة[٢].

وعنهأن النبي"قال: من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٢١٨.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٢٢٤.

مستيقنًا بها قلبه- فبشِّرْهُ بالجنة[١].

٣- القبول: والقبول يعني أن يقبل كل ما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، فيصدق بالأخبار، ويطيع الأوامر، ويؤمن بكل ما جاء عن الله وعن رسوله"، ويقبل ذلك كله، ولا يرد منه شيئًا، ولا يجني على النصوص بالتأويل الفاسد، والتحريف الذي نهى الله عنه، بل يصدق الخبر، ويمتثل الأمر، ويقبل كل ما جاءت به هذه الكلمة واقتضته بكل رضا، وطمأنينة، وانشراح صدر.

قال تعالى واصفًا المؤمنين بامتثالهم، وقبولهم، وعدم ردهم: [آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ] (البقرة: ٢٨٥)، وقال تعالى: [قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا] (البقرة: ١٣٦).

وضد القبول: الرد، فإن هناك من يعلم معنى الشهادة ويوقن بمدلولها، ولكنه يردها كبرًا وحسدًا.

وهذه حال علماء اليهود والنصارى كما قال تعالى عنهم: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] (البقرة: ١٤٦).

وقال تعالى [... حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ] (البقرة: ١٠٩).

وكذلك كان المشركون يعرفون معنى لا إله إلا الله، وصدق رسالة محمد"ولكنهم يستكبرون عن قبول الحق كما قال تعالى عنهم: [إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ] (الصافات: ٣٥).

وقال تعالى عنهم: [... فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ

---

(١) مسلم ١/ ٢٣٧.

يَجْحَدُونَ] (الأنعام: ٣٣).

وكذلك كان شأن فرعون مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

ويدخل في الرد وعدم القبول من يعترض على بعض الأحكام الشرعية، أو الحدود التي حدها الله عَزَّ وَجَلَّ كالذين يعترضون على حد السرقة، أو الزنا، أو على تعدد الزوجات، أو المواريث، وما إلى ذلك، فهذا كله داخل في الرد وعدم القبول؛ لأن الله يقول [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً] (البقرة: ٢٠٨).

ويقول: [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ] (الأحزاب: ٣٦).

ويدخل في الردأيضًامن يعطل أسماء الله وصفاته، أو يمثلها بصفات المخلوقين.

٤- الانقياد: وذلك بأن ينقاد لما دلت عليه كلمة الإخلاص.

ولعل الفرق بين الانقياد والقبول أن القبول إظهار صحة معنى ذلك بالقول.

أما الانقياد فهو الاتباع بالأفعال، ويلزم منهما جميعًا الاتباع.

فالانقياد هو الاستسلام، والإذعان، وعدم التعقب لشيء من أحكام الله.

قال تعالى: [وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ] (الزمر: ٥٤).

وقال [وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ] (النساء: ١٢٥).

وقال: [وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى] (لقمان: ٢٢).

وقال تعالى مثنيًا على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ [إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ] (البقرة: ١٣١).

ومن الانقيادأيضًاأن ينقاد العبد لما جاء به النبي "رضًا، وعملًا دون تعقب أو

زيادة أو نقصان.

قال تعالى: [فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] (النساء: ٦٥).

وإذا علم أحد معنى لا إله إلا الله، وأيقن بها، وقبلها، ولكنه لم ينقد لها، ولم يعمل بمقتضاها- فإن ذلك لا ينفعه، كما هي حال أبي طالب، فهو يعلم أن دين محمد حق، بل إنه ينطق بذلك ويعترف، حيث يقول مدافعًا عن الرسول":

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك لا عليك غضاضة ... وافرح وقر بذلك منك عيونا

ولقد علمت بأن دينَ محمدٍ ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامةُ أو حِذارُ مسبةٍ ... لوجدتني سمحا بذلك مبينا

فما الذي نقص أبا طالب ؟ الذي نقصه هو الإذعان والاستسلام.

وكذلك الحال بالنسبة لبعض المستشرقين؛ فهم يعجبون بالإسلام، ويوقنون بصحته ويعترفون بذلك، وتجد بعض المسلمين يهشون لذلك الإطراء، ويطربون لهؤلاء القوم، ويصفونهم بالموضوعية والتجرد.

ولكن إعجابَهم ويقينَهم واعترافَهم لا يكفي، بل لابد من الانقياد.

ومن عدم الانقياد ترك التحاكم لشريعة الله ﷻواستبدالها بالقوانين الوضعية، الفرنسية، والإنجليزية، والسويسرية وغيرها.

٥- الصدق: وهو الصدق مع الله، وذلك بأن يكون العبد صادقًا في إيمانه، صادقًا في عقيدته.

ومتى كان ذلك فإنه سيكون مصدقًا لما جاء في كتاب ربه، وسنة نبيه".

فالصدق أساس الأقوال، ومن الصدق أن يصدق في دعوته، وأن يبذل الجهد في طاعة ربه، وحفظ حدوده، قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ

وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ] (التوبة: ١١٩).

وقال في وصف الصحابة: [... رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ] (الأحزاب: ٢٣).

وقال: [وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ] (الزمر: ٣٣).

وقد ورد اشتراط الصدق في الحديث الصحيح حيث قال": من قال: لا إله إلا الله صادقا بها دخل الجنة[1].

وضد الصدق الكذب، فإن كان العبد كاذبًا في إيمانه فإنه لا يعد مؤمنًا، بل هو منافق؛ وإن نطق بالشهادة بلسانه، وحاله هذه أشد من حال الكافر الذي يظهر كفره.

فإن قال الشهادة بلسانه وأنكر مدلولها بقلبه فإن هذه الشهادة لا تنجيه، بل يدخل في عداد المنافقين، الذين ذكر الله عنهم أنهم قالوا [... نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ] (المنافقون: ١). فرد الله عليهم تلك الدعوى بقوله: [وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ] (المنافقون: ١).

وقال تعالى أيضًا في شأن هؤلاء: [وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ] (البقرة: ٨).

وقال: [وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ] (البقرة: ٢٠٤).

والأدلة في ذلك كثيرة جدًا وهي مبسوطة في أوائل سورة البقرة، وفي سورة التوبة أيضًا وغيرها.

فإذا قامت أعمال الإنسان واعتقاداته على عقيدة سليمة كان الإيمان قويًا سليمًا، وبالتالي يكون العمل مقبولًا بإذن الله، والعكس بالعكس.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٦) وهو حديث صحيح.

ثم إن الناس يتفاوتون في الصدق تفاوتًا عظيمًا.

ومما ينافي الصدق في الشهادة تكذيب ما جاء به الرسول"أو تكذيب بعض ما جاء به؛ لأن الله -سبحانه- أمرنا بطاعة الرسول وتصديقه، وقرن ذلك بطاعته قال تعالى: [مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ] (النساء: ٨٠).

وقد يلتبس على بعض الناس الأمر في موضوع اليقين والصدق، لذا يقال: إن اليقين أعم من التصديق، وعلى ذلك يكون كلُّ موقن مصدقًا، وليس كل مصدق موقنًا؛ أي بينهما عموم وخصوص كما يقول أهل الأصول؛ أي أن الموقن قد مر بمرحلة التصديق.

٦- الإخلاص: وهو تصفية الإنسان عمله بصالح النية من جميع شوائب الشرك.

وذلك بأن تصدر منه جميع الأقوال والأفعال خالصة لوجه الله، وابتغاء مرضاته، ليس فيها شائبة رياء، أو سمعة، أو قصد نفع، أو غرض شخصي، أو شهوة ظاهرة أو خفية، أو أن يندفع للعمل لمحبة شخص، أو مذهب، أو مبدأ، أو حزب يستسلم له بغير هدى من الله.

والإخلاص كذلك مهم في الدعوة إلى الله تعالى فلا يجعل دعوته حرفة لكسب الأموال، أو وسيلة للتقرب إلى غير الله، أو الوصول للجاه والسلطان.

بل لابد أن يكون مبتغيًا بدعوته وجه الله والدار الآخرة، ولا يلتفت بقلبه إلى أحد من الخلق يريد منه جزاءً أو شكورًا.

والقرآن والسنة حافلان بذكر الإخلاص، والحث عليه، والتحذير من ضده، ومن ذلك قوله تعالى: [أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ] (الزمر: ٣)، وقوله: [وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ] (البينة: ٥)، وقوله: [قُلْ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي] (الزمر: ١٤).

وعن أبي هريرةعن النبي قوله: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه[١]».

وفي الصحيحين من حديث عتبان فإن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله[٢].

ويدخل في ذلك الإخلاصُ في اتباع محمد"وذلك بالاقتصار على سنته وتحكيمه، وترك البدع، والمخالفات، ونبذ ما يخالف شرعه من التحاكم إلى ما وضعه البشر من عادات، وقوانين؛ فإن رضيها أو حكم بها لم يكن من المخلصين.

وضد الإخلاص الشرك، والرياء، وابتغاء غير وجه الله.

فإن فقد العبد أصل الإخلاص فإن الشهادة لا تنفعه أبدًا، قال تعالى: [وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا] (الفرقان: ٢٣).

فلا ينفعه حينئذ أي عمل يعمله؛ لأنه فقد الأصل، قال تعالى: [إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا] (النساء: ٤٨).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله": قال الله- تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه[٣].

وإن فقد الإخلاص في عمل من الأعمال ذهب أجر ذلك العمل.

وبالجملة فالإخلاص هو تصفية العمل من كل شوب؛ بحيث لا يمازجه ما يشوبه من شوائب الشرك أو إرادة النفس: إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩).

(٢) أخرجه البخاري ١/ ١١٠ ومسلم ١/ ٦١.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٩٨٥).

طلب مدحهم والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم أو محبتهم، أو خدمتهم، إلى غير ذلك من الشوائب التي عَقْدُ متفرقها إرادةُ ما سوى الله بالعمل.

فمدار الإخلاص على أن يكون الباعث على العمل أولًا امتثال أمر الله.

ولا حرج بعد هذا على من يطمح إلى شيء آخر، كالفوز بنعيم الآخرة، أو النجاة من أليم عذابها.

بل لا يذهب بالإخلاص بعد ابتغاء وجه الله أن يخطر في بال العبد أن للعمل الصالح آثارًا في هذه الحياة، كطمأنينة النفس، وأمنها من المخاوف، وصيانتها من مواقف الهوان، إلى غير هذا من الخيرات التي تعقب العمل الصالح، ويزداد به إقبال النفوس على الطاعات قوة على قوة.

٧- المحبة: أي المحبة لهذه الكلمة العظيمة، ولما دلت عليه واقتضته، فيحب الله ورسوله"ويقدم محبتهما على كل محبة، ويقوم بشروط المحبة ولوازمها، فيحب الله محبة مقرونة بالإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، فيحب ما يحبه الله من الأمكنة؛ كمكة المكرمة، والمدينة المنورة، والمساجد- عمومًا-، والأزمنة؛ كرمضان، وعشر ذي الحجة، وغيرها، وما يحبه من الأشخاص كالأنبياء، والرسل، والملائكة، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وما يحبه من الأفعال كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والأقوال كالذكر وقراءة القرآن.

ومن المحبةأيضًاتقديم محبوبات الله على محبوبات النفس وشهواتها ورغباتها، وذلك لأن النار حفت بالشهوات، والجنة حفت بالمكاره.

ومن لوازم تلك المحبة أن يكره ما يكرهه الله ورسوله؛ فيكره الكفار، ويبغضهم، ويعاديهم، ويكره الكفر، والفسوق، والعصيان.

قال تعالى [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ] (المائدة: ٥٤).

وقال: [لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ] (المجادلة: ٢٢).

وقال تعالى: [قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ] (التوبة: ٢٤).

وقال": ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله رسوله أحب إليه مما سواهما الحديث[١].

وعلامة هذه المحبة الانقياد لشرع الله واتباع محمد"قال تعالى: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ] (آل عمران: ٣١).

وضد المحبة الكراهية لهذه الكلمة، ولما دلت عليه وما اقتضه، أو محبة غير الله مع الله.

قال تعالى: [ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ] (محمد: ٩).

وقال الله تعالى: [وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ] (البقرة: ١٦٥).

فهؤلاء الذين بَيَّن الله- جل وعلا- شأنهم في هذه الآية يحبون الله، ولكنهم يحبون معه غيره مثل محبته على أحد التفسيرين، ومع ذلك سماهم الله ظالمين،

(١) أخرجه البخاري (١٦).

والظلم هنا بمعنى الشرك بدليل قوله تعالى في الآية التي تليها: [وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ] (البقرة: ١٦٧).

فإذا كان هذا هو شأن من أحب الله، وأحب معه غيره مثل حبه- فكيف بمن أحب غير الله أكثر من حبه لله ؟ وكيف بمن أحب غير الله ولم يحب الله- سبحانه وتعالى- ؟.

بل كيف بمن أحب غير الله، وكره الله، وحارب الله- سبحانه وتعالى- ؟ !.

ومما ينافي المحبةأيضًابغض الرسول"أو بغض ما جاء به الرسول، أو بغض بعض ما جاء به- عليه الصلاة والسلام- .

ومما ينافيها موالاة أعداء الله من اليهود، والنصارى، وسائر الكفار والمشركين.

ومما ينافيهاأيضًامعاداة أولياء الله المؤمنين، ومما ينافي كمالها المعاصي والذنوب.

(باب تعريف العبادة)

العبادة هي: الطاعة مع الخضوع - قال الراغب: (العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل)[1].

وقال الزجاج (ومعنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع)[2] وقال الجوهري (أصل العبودية: الخضوع والتذلل)[3].

ومن التعريف اللغوي السابق يمكن أن يقال عن العبادة الشرعية إنها: الانقياد والخضوع لله تعالى على وجه التقرب إليه بما شرع مع المحبة.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (ص: ٥٤٢).

(٢) لسان العرب (٣/ ٢٧٣)، مادة: (عبد).

(٣) لسان العرب (٣/ ٢٧١)، مادة: (عبد).

وقد عرفها ابن تيمية - رحمه الله تعالى- بقوله: العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦] وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٥٩] وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ} [النحل: ٣٦] وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: {إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٩٢] كما قال في الآية الأخرى: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: ٥١] وجعل ذلك لازما لرسوله إلى الموت قال: وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٩] وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه ف قال تعالى: {وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: ١٩] وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ} [الأعراف: ٢٠٦] وذم المستكبرين عنها بقوله: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [غافر: ٦٠] ونعت صفوة خلقه بالعبودية له ف قال تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} [الإنسان: ٦] وقال: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: ٦٣] الآيات ولما قال الشيطان: قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [الأعراف: ١٦] قال الله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الحجر: ٤٢] وقال في وصف الملائكة بذلك: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء: ٢٦] إلى قوله: وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء: ٢٨] وقال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا [مريم: ٨٨] وقال تعالى عن المسيح الذي ادعيت فيه الإلهية والنبوة: إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} [الزخرف: ٥٩] ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى)(١).

مسألة: إطلاقات العبادة

للعبادة معان بحسب ما تتعلق به، وبحسب كونها مصدرًا أو اسمًا، وبحسب المتوجه بها إليه، وبحسب ما يلاحظ فيها من حق، فهذه أربعة إطلاقات:

الإطلاق الأول: إطلاقات العبادة بحسب ما تتعلق به:

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

فالعبادة من حيث تعلقها بعموم الخلق وخصوصهم تنقسم إلى عبادة عامة كونية وإلى خاصة شرعية[١].

فالعبادة العامة: هي عبادة القهر والملك وهي تشمل أهل السموات والأرض كلهم مؤمنهم وكافرهم، فالجميع عبيد مربوبون لله قال الله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا [مريم: ٨٨ - ٩٣] وقد ذكر ابن القيم أن هذا النوع يأتي على خمسة أوجه وهي:

١- إما منكرًا كما في الآية المذكورة سابقًا.

٢- أو معرفًا باللام، كقوله تعالى: وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ [غافر: ٣١].

٣- أو مقيدًا بإشارة أو نحوها، كقوله تعالى: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ} [الفرقان: ١٧].

٤- أو أن يذكروا في عموم عباده فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر، كقوله تعالى: أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الزمر: ٤٦].

٥- أن يذكروا موصوفين بفعلهم كقوله تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ} [الزمر: ٥٣].

وهذا المثال المذكور في الوجه الخامس لا يسلم من اعتراض كما قال ابن القيم نفسه: (وقد قال: إنما سماهم عباده إذا لم يقنطوا من رحمته وأنابوا إليه واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة)[٢].

وأما العبادة الخاصة الشرعية، فهي عبادة الطاعة والخضوع والذل والمحبة

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ١٢٥).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٢٧).

الاختيارية، وهي خاصة لمن وفقه الله من المكلفين من الأنبياء والمرسلين وعامة المؤمنين بهم.

ومن الآيات الواردة فيها قول الله تعالى: {يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ} [الزخرف: ٦٨] وقوله: فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} [الزمر: ١٧ - ١٨] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

الإطلاق الثاني: إطلاقات العبادة بحسب الاسمية والمصدرية:

فالعبادة باعتبارها مصدرًا تعني التعبد، وهو فعل العابد وتعريفها: (التذلل لله محبة وتعظيمًا بفعل أوامره واجتناب نواهيه على الوجه الذي جاءت به شرائعه)[١].

وأما باعتبارها اسمًا، فهي تعني: المتعبد[٢] به وتعريفها: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة)[٣].

ومن التعريف المذكور في معنى العبادة باعتبارها اسمًا يتضح أن للعبادة أربع مراتب وهي: قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح، وهذا معنى قوله: (من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة) وقد فصل ابن القيم هذه المراتب فقال: (قول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله، وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك والدعوة إليه والذب عنه وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره وتبليغ أوامره.

---

(١) هذا التعريف للعلامة العثيمين في المجموع الثمين من فتاويه (٢/ ٢٥).

(٢) انظر: تقريب التدمرية لابن عثيمين (ص: ١٢٩).

(٣) هذا التعريف لشيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة العبودية ضمن مجموعة التوحيد (٢/ ٤٥٤).

وعمل القلب: كالمحبة له والتوكل عليه والإنابة إليه والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره وعن نواهيه وعلى أقداره والرضى به عنه، والموالاة فيه والمعاداة فيه، والذل له، والخضوع، والإخبات إليه والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب، التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك)[١].

فظهر من هذا أن جميع أمور الديانة من الاعتقادات والإرادات والأقوال والأعمال داخلة في مسمى العبادة.

ولما جهل كثير من المتأخرين حقيقة العبادة على الوجه المذكور أعلاه كان من الأفضل زيادة البيان لبعض أنواع العبادة بذكر أمثلة لها - خاصة المتنازع فيها - مع نقل أقوال الأئمة الأعلام وبيانهم أنها من العبادة وأن صرفها لغير الله لا يجوز.

ومن هذه الأمثلة: الاستعاذة والاستغاثة والحلف.

فالاستعاذة: طلب العوذ - وهي الالتجاء إلى الله تعالى من الشر لإزالته أو دفعه[٢]. والاستغاثة: طلب الغوث، وهي: إزالة الشدة، كالاستنصار وهو طلب النصر. ولا خلاف في أنه تجوز الاستغاثة بالمخلوق فيما كان قادرًا عليه من الأمور[٣] ومنه قول الله تعالى: {وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ}

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٢٠ - ١٢١). وانظر: تطهير الاعتقاد (ص: ١١).
(٢) انظر: فتح المجيد (ص: ١٧٣).
(٣) انظر: فتح المجيد (ص: ١٧٦)، والدر النضيد للشوكاني (ص: ١٤٤).

[الأنفال: ٧٢] وقوله: فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ} [القصص: ١٥]. وأما ما لا يقدر عليه إلا الله كغفران الذنوب وإنزال الرزق وكل ما هو من خصائص الربوبية فلا يستغاث فيه إلا بالله جل وعلا. قال الله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} [الأنفال: ٩]. وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ [فاطر: ٣].

والاستعاذة والاستغاثة نوعان من أنواع الدعاء - والدعاء عبادة كما أخبر الرسول ﷺ بقوله: (الدعاء هو العبادة)[١] ثم تلا قول الله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ [غافر: ٦٠]، ومن أقوال أهل العلم في أن الدعاء عبادة: (قال نعيم بن حماد في كتابه (الرد على الجهمية): دلت هذه الأحاديث على أن القرآن غير مخلوق، إذ لو كان مخلوقًا لم يستعذ بها، إذ لا يستعاذ بمخلوق، قال الله تعالى: {فَاسْتَعِذْ بِاللهِ} [الأعراف: ٢٠٠] وقال النبي ﷺ: (وإذا استعذت

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧١)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢١)، والبخارى فى الأدب المفرد (٧١٤)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذى (٢٩٦٩)، والنسائى فى الكبرى (١١٤٦٤)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وابن حبان (٨٩٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٩)، والطبراني في الدعاء (٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ١٢٠)، وأبو عمرو بن منده في الفوائد (٣٥)، والحاكم (١/ ٦٦٧)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢/ ٣٧)، والطبرانى فى الصغير (١٠٤١)، والقضاعى في مسند الشهاب (١/ ٥١، رقم ٢٩) كلهم من حديث النعمان بن بشير رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه البغوي في شرح السنة (٣/ ١٥٨)، وقال النووي: أسانيده صحيحة كما في الفيض، وقال الحافظ في الفتح (١/ ٤٩): إسناده جيد، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٧)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١١٧٧)، وصححه العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٩٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٠/ ٢٩٨): إسناده صحيح.

فاستعذ بالله)[١].

وهذا الكلام ساقه نعيم بن حماد ليدلل على أن القرآن غير مخلوق، وحجته في ذلك ما ورد في الاستعاذة بكلمات الله وأسمائه الحسنى، فلو كانت مخلوقة لم جازت الاستعاذة بها وهذا يؤكد أن هذه المسألة - وهي عدم جواز الاستعاذة بغير الله- كانت معلومة عند الموافق والمخالف، وإلا لما أوردها عليهم.

ونظير هذا الاستدلال وهذا القول: قول ابن خزيمة: فإنه قال: (أفليس العلم محيطًا يا ذوي الحجا أنه غير جائز أن يأمر النبي ﷺ بالتعوذ بخلق الله من شر خلقه؟ هل سمعتم عالمًا يجيز أن يقول الداعي: أعوذ بالكعبة من شر خلق الله؟ أو يجيز أن يقول الداعي: أعوذ بالصفا والمروة، أعوذ بعرفات ومنى من شر ما خلق الله؟ هذا لا يقوله ولا يجيز القول به مسلم يعرف دين الله، محال أن يستعيذ مسلم بخلق الله من شر خلقه)[٢].

وقد أورد الإمام البخاري في كتابه الصحيح باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها ضمن كتاب التوحيد، ثم ساق فيه تسعة أحاديث، ومقصوده بهذه الترجمة: إثبات أن أسماء الله تعالى غير مخلوقة، لأنه قد وردت الاستعاذة بها والسؤال بها، لأن المخلوق لا يستعاذ به ولا يسأل به.

ويؤكد صحة هذا المعنى الذي تدل عليه ترجمته هو أنه أورد في الباب تسعة أحاديث وتاسعها لفظه: (لا تحلفوا بآبائكم ومن كان حالفًا فليحلف بالله)[٣] وقد قال في كتابه خلق أفعال العباد[٤]: (وليس لأحد أن يحلف بالخواتيم والدراهم البيض وألواح الصبيان التي يكتبونها ثم يمحونها مرة بعد مرة، وإن

(١) لم أجده ولعل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقصد حديث (... وإذا استعنت فاستعن بالله..).
(٢) التوحيد لابن خزيمة (١/ ٤٠١ - ٤٠٢).
(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠١). من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا
(٤) خلق أفعال العباد (ص: ١٥٩).

حلف فلا يمين عليه لقول الله ﷻ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا} [البقرة: ٢٢]).

فهذا نص واضح من الإمام البخاري يفيد أن الحلف بغير الله يعتبر شركًا، وإيراده حديث الأمر بالحلف بالله وحده في باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها يدل على أنه يرى عدم جواز السؤال والاستعاذة بغير الله تعالى، وهذا واضح.

والإطلاق الثالث للعبادة

هو باعتبار المتوجه بها إليه: فمن توجه بعبادته لله تعالى كانت هذه العبادة توحيدًا، ومن توجه بها إلى غير الله كانت شركًا، فعن الثاني يقول الله جل وعلا فيمن دعا غيره: ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ [فاطر: ١٣ - ١٤] فدعاؤهم لغير الله عبادة لهم، وسماها الله تعالى شركًا، وهكذا كل عبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج وغير ذلك إذا توجه بها صاحبها إلى الله تعالى كان ذلك توحيدًا، وإذا صرفها إلى غير الله تعالى كانت شركًا.

الإطلاق الرابع للعبادة: باعتبار ما يُلاحظ فيها من حق: فإن العبادة قد تطلق على معنى أخص وهو ما يقابل المعاملات، ولذلك فإن الفقهاء في كتب الفقه يدرجون أبوابًا في قسم العبادات وهي: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وما عداها في باب المعاملات وهذا لا يعني أن العبادات منحصرة في المذكورات فقط بل تشمل غيرها، بل إن المعاملات نفسها داخلة في مسمى العبادة العام وذلك من جهة التزامها وفق الشرع[1].

والذي يستحق العبادة هو الله جل وعلا وحده دون غيره، فإن العبادة لا

---

(١) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى (١/ ٥٦).

تكون إلا للخالق المنعم.... قال الله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] وهذا أسلوب يفيد الحصر والاختصاص[١]، ومعنى هذه الآية مركب من أمرين: نفي وإثبات، فالنفي: خلع جميع المعبودات بغير حق في جميع أنواع العبادات. والإثبات: إفراد الله تعالى وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع، فقوله: إِيَّاكَ يفيد الحصر: أي لا أحدًا سواك، وهذا هو النفي، أما الإثبات ففي قوله: نعبد أي وحدك، وهذا المعنى يستفاد من آيات كثيرة في القرآن، منها قوله تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦] وقوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ} [البقرة: ٢١] فهذا إثبات، ثم ذكر النفي في آخر الآية التالية: فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢] ومنها قوله: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} [البقرة: ٢٥٦]. فالنفي في قوله: (فمن يكفر) والإثبات في قوله: (ويؤمن بالله)[٢].

ومن الآيات الدالة على استحقاق الله للعبادة وحده دون ما سواه قول الله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [الزخرف: ٨٧] والمعنى كما قال ابن جرير: (فأي وجه يصرفون عن عبادة الذي خلقهم ويحرمون إصابة الحق في عبادته!)[٣].

وبالجملة فإن العبادة: (لا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى)[٤].

(١) شرح الكوكب المنير (٣/ ٥٢١)، وأضواء البيان (١/ ٤١ - ٤٢).
(٢) أضواء البيان (١/ ٤١ - ٤٢).
(٣) تفسير الطبري (٢١/ ٦٥٥).
(٤) مفردات ألفاظ القرآن للراغب (ص: ٥٤٢).

وأما سببها الذي تستحق به فهو الاتصاف بصفات الكمال والتنزه عن النقص فالله هو الخالق لجميع الخلق والمسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، وكلهم مفتقرون إليه ويرغبون نعمته وفضله، فالحاجة والرغبة في نعمته وفضله يبعثان على الانقياد لله والخضوع له[1] وبه يعلم أن العبادة: (لا تستحق إلا بغاية الإنعام)[2] وقال ابن كثير (إنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره، ولهذا قال: فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢])[3].

فلما كان هو المالك المتصرف في الأمور كيف شاء، كان له سبحانه أن يأمر بما يشاء وينهى، وإنه سبحانه قد أمر بعبادته وحده لا شريك له ونهى عن عبادة غيره.

ويدل على صحة ما ذكرته من السبب الذي تستحق به العبادة ما يذكره الله تعالى من أدلة دالة على استحقاقه وحده العبادة دون غيره، ومن ذلك: بيان أنه الخالق الرازق المنعم، وبيان أن غيره عاجز ضعيف لا يملك شيئًا، وبيان أن الأمر كله له شرعًا وجزاءً... وبهذا يتضح سبب وقوع بعض الناس في الشرك بالله تعالى، وذلك لظنهم أن غير الله تعالى يكون منعمًا بشيء استقلالًا أو له تأثير في التصرف ونحو ذلك فيقع في تعظيمه والخوف منه ورهبته ورجائه، وتلك هي عبادته.

والأدلة الدالة على استحقاق الله تعالى العبادة والسبب الذي استحق به العبادة كثيرة، وسأكتفي بذكر دليلين فقط- الأول: في أفضل سورة في القرآن،

---

(١) رسالة الشرك ومظاهره (ص: ٨٨).
(٢) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري (ص: ٢١٥).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٥٧).

والثاني: في أعظم آية في القرآن.

فالدليل الأول وهو سورة الفاتحة: فإن قول الله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] جاء بعد آيات تضمنت الحمد لله والثناء الحسن له، وأنه رب العالمين المنعم عليهم بأنواع النعم التي لا تحصى، وأنه الرحمن الرحيم بعباده، والمجازي لهم يوم الدين، فمجيء تلك الآية بعد هذه الآيات يدل على أن ما ذكر قبلها سبب في استحقاق الله جل وعلا للعبادة وحده دون سواه، فإنه قد حمد نفسه بما له من الصفات العظيمة، وبين أنه رب العالمين أي سيدهم وخالقهم ومربيهم ومدبر أمرهم، فله أن يأمرهم بما يشاء، وبين أنه الرحمن الرحيم، فهذان اسمان يبعثان على الرغبة فيما عند الله، ويدفعان توهم بعض المشركين من أنه لا يمكن التقرب إلى الله إلا بواسطة لكثرة الذنوب والمعاصي، ثم بين ملكه ليوم الدين فيبعث هذا على عبادة الله وحده لأنه هو المجازي وحده، وهو الذي يملك الشفاعة ولا يشفع عنده أحد إلا بعد إذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له.

وأما الدليل الثاني وهو: آية الكرسي التي هي أعظم آية في القرآن - فإن فيها بيان استحقاق الله تعالى وحده للعبادة والسبب الذي استحق به العبادة - وبيان ذلك: أن الله تعالى بدأها بأنه هو المستحق للعبادة فقال: اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ثم ذكر بعد ذلك من الصفات ما يدل على أنه بها قد استحق العبادة فقال: الْحَيُّ الْقَيُّومُ فالحي اسم دال على حياة الله الكاملة المقتضية كمال علمه وعزته وقدرته وغير ذلك من صفاته الذاتية، والْقَيُّومُ اسم دال على قيام الله بنفسه وقيامه بخلق الموجودات وإحكامها ورزقها وتدبيرها ثم قال: لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ فنفى هذه النقائص ليؤكد كمال ما ذكره من اسميه الْحَيُّ الْقَيُّومُ هذا يقتضي الاعتماد على الله جل وعلا وحده كما قال: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وقال:

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ} [الرعد: ٣٣] والمعنى كما قال ابن جرير: (أفالرب الذي هو دائم لا يبيد ولا يهلك قائم بحفظ أرزاق جميع الخلق، متضمن لها، عالم بهم وبما يكسبونه من الأعمال، رقيب عليهم لا يعزب عنه شيء أينما كانوا كمن هو هالك بائد لا يسمع ولا يبصر ولا يفهم شيئًا ولا يدفع عن نفسه ولا عمن يعبده ضرا ولا يجلب إليهما نفعًا كلاهما سواء؟!)(١)، والمقصود هنا ذم من أشرك بالله غيره وهو يعلم أن غيره لا يستحق العبادة، وقد بين الله أنه هو وحده المستحق للعبادة بما ذكره من صفاته سبحانه. ثم بين الله ملكه لكل شيء في آية الكرسي فقال: لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ قال ابن جرير: (وإنما يعني بذلك أنه لا تنبغي العبادة لشيء سواه، لأن المملوك إنما هو طوع يد مالكه وليس له خدمة غيره إلا بأمره)(٢).

ثم قال الله تعالى بعدها مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ وفيه رد على زعم المشركين بعد إقرارهم ما تقدم في أول آية الكرسي من أن الله هو الخالق والمالك فزعموا: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣] فبين الله تعالى أنه لا يشفع عنده أحد لأحد إلا بعد تخليته إياه من العذاب وإذنه بالشفاعة لمن يشفع له من رسله وأوليائه وأهل طاعته ثم قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ والمقصود بيان وجوب إخلاص الدين لله تعالى الذي هو محيط بكل شيء علمًا. ثم بين الله تعالى أن ما سواه لا يعلم شيئًا إلا إذا شاء تعليمه فقال: وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء والمقصود بيان أن العبادة لا

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٢).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٣٩٥).

تنبغي لمن كان جاهلًا[١]. وهكذا سياق الآية إلى آخرها...

وعليه فإنه يعلم مما تقدم أن لاستحقاق الله وحده العبادة دون سواه سببين:

الأول: اتصاف الله جل وعلا بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص، ومن صفاته: إنعامه وإفضاله على خلقه الباعثان على الرغبة فيما عند الله والقيام بعبادته وشكره، والخوف منه.

الثاني: أمره الشرعي، فالله جل وعلا له الملك وله الأمر فهو مالك لخلقه يتصرف فيهم بأمره، وقد أمرهم بعبادته وترك عبادة غيره[٢].

(باب من قال لا إله إلا الله دخل الجنة)

قال العلامة الحكمي في معارج القبول (ص٥٢٨): المطلب الثالث: أقوال العلماء في المراد من الأحاديث الواردة في فضل كلمة التوحيد

اعلم أن الأحاديث الدالة على أن الشهادتين سبب دخول الجنة والنجاة من النار لا تناقض بينها وبين أحاديث الوعيد التي فيها: من فعل ذنب كذا فالجنة عليه حرام، أو لا يدخل الجنة من فعل كذا، لإمكان الجمع بين النصوص بأنها جنان كثيرة كما أخبر النبي ﷺ وبأن أهل الجنة أيضا متفاوتون في دخول الجنة في السبق وارتفاع المنازل، فيكون فاعل الذنب لا يدخل الجنة التي أعدت لمن لم يرتكبه، أو لا يدخلها في الوقت الذي يدخل فيه من لم يرتكب ذلك الذنب، وهذا واضح مفهوم للعارف بلغة العرب وكذلك لا تناقض بين الأحاديث التي فيها تحريم أهل هاتين الشهادتين على النار وبين الأحاديث التي فيها إخراجهم منها بعد أن صاروا حمما لإمكان الجمع بأن تحريم من يدخلها بذنبه من أهل التوحيد بأن تحريمه عليها يكون بعد خروجه منها برحمة الله ثم بشفاعة

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ١٥).

(٢) منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى (١/ ٦٩).

الشافعين، ثم يغتسلون في نهر الحياة ويدخلون الجنة، فحينئذ قد حرموا عليها فلا تمسهم بعد ذلك أو يكون المراد أنهم يحرمون مطلقا على النار التي أعدت للكافرين التي لا يخرج منها من دخلها، وهي ما عدا الطبقة العليا من النار التي يدخلها بعض عصاة أهل التوحيد ممن شاء الله تعالى عقابه وتطهيره بها على قدر ذنبه، ثم يخرجون فلا يبقى فيها أحد وهذه إشارة كافية في هذا الموضع،... وقد ذكر الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى في هذا الباب كلاما حسنا بعد سياقه حديث معاذ وحديث عتبان وحديث أبي ذر وحديث عبادة... وأحاديث هذا الباب نوعان: أحدهما ما فيه أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة ولم يحجب عنها، وهذا ظاهر، فإن النار لا يخلد فيها أحد من أهل التوحيد الخالص، بل يدخل الجنة ولا يحجب عنها إذا طهر من ذنوبه بالنار، وقد يعفو الله عنه فيدخله الجنة بلا عقاب قبل وحديث أبي ذر معناه أن الزنا والسرقة لا يمنعان دخول الجنة مع التوحيد، وهذا حق لا مرية فيه، وليس فيه أن لا يعذب عليها مع التوحيد، وفي مسند البزار عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (من قال لا إله إلا الله نفعته يوما من الدهر يصيبه قبل ذلك ما أصابه) الثاني فيه أنه يحرم على النار، وقد حمله بعضهم على الخلود فيها أو على ما يخلد فيها أهلها وهي ما عدا الدرك الأعلى من النار، فإن الدرك الأعلى يدخله كثير من عصاة الموحدين بذنوبهم ثم يخرجون بشفاعة الشافعين وبرحمة أرحم الراحمين وفي الصحيحين: (إن الله تعالى يقول: وعزتي وجلالي لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله).

وقالت طائفة من العلماء: المراد من هذه الأحاديث أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومقتض لذلك، ولكن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه أو لوجود مانع، وهذا قول الحسن ووهب بن منبه وهو أظهر وقال

الحسن للفرزدق وهو يدفن امرأته: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة قال الحسن: نعم العدة، لكن للا إله إلا الله شروطا، فإياك وقذف المحصنات وقيل للحسن: إن أناسا يقولون من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك وهذا الحديث: (إن مفتاح الجنة لا إله إلا الله) أخرجه الإمام أحمد بإسناد منقطع عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا سألك أهل اليمن عن مفتاح الجنة فقل: لا إله إلا الله) ويدل على هذا كون النبي ﷺ رتب دخول الجنة على الأعمال الصالحة في كثير من النصوص، وكما في الصحيحين عن أبي أيوب أن رجلا قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة قال: (تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه (أن رجلا قال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة قال: تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان فقال الرجل: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئا ولا أنقص منه، فقال رسول الله ﷺ: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا) وفي المسند عن بشير بن الخصاصية قال: (أتيت النبي ﷺ لأبايعه، فاشترط علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن أقيم الصلاة وأن أوتي الزكاة وأحج حجة الإسلام وأن أصوم رمضان وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت: يا رسول الله، أما اثنتين فوالله ما أطيقها، الجهاد والصدقة، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها وقال: فلا جهاد ولا صدقة! فبم تدخل الجنة إذا؟ قلت: أبايعك، فبايعته عليهن كلهن) ففي الحديث أن الجهاد والصدقة شرط في دخول الجنة

مع حصول التوحيد والصلاة والصيام والحج ونظير هذا أن النبي ﷺ قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ) ففهم عمر وجماعة من الصحابة أن من أتى الشهادتين امتنع من عقوبة الدنيا بمجرد ذلك، فتوقفوا عن قتال مانعي الزكاة، وفهم الصديق رضي الله عنه أنه لا يمتنع قتاله إلا بأداء حقوقها لقوله ﷺ: (فإذا فعلوا ذلك منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) وقال: الزكاة حق المال وهذا الذي فهمه الصديق رضي الله عنه قد رواه عن النبي ﷺ صريحا غير واحد من الصحابة، منهم ابن عمر وأنس وغيرهما رضي الله عنهم، وأنه قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) ودل على ذلك قوله تعالى: فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ} [التوبة: ٥] الآية ولا تثبت إلا بأداء الفرائض مع التوحيد، ولما قرر أبو بكر رضي الله عنه هذا للصحابة رجعوا إلى قوله ورأوه صوابا، فإذا علم أن عقوبة الدنيا لا ترتفع عمن أدى الشهادتين مطلقا، بل يعاقب بإخلاله بحق من حقوق الإسلام، فكذلك عقوبة الآخرة وقد ذهب طائفة إلى أن هذه الأحاديث المذكورة أولا وما في معناها كانت قبل نزول الفرائض والحدود، منهم الزهري والثوري وغيرهما، وهذا بعيد جدا، فإن كثيرا منها كانت بالمدينة بعد نزول الفرائض والحدود، وفي بعضها أنه كان في غزوة تبوك وهي في آخر حياة الرسول ﷺ، وهؤلاء منهم من يقول: هذه الأحاديث منسوخة، ومنهم من يقول هي محكمة ولكن ضم إليها شرائط، ويلتفت هذا إلى أن زيادة النص هل هي نسخ أم لا؟ والخلاف في ذلك بين الأصوليين مشهور، وقد صرح الثوري بأنها منسوخة، وأنه نسختها الفرائض والحدود وقد يكون مرادهم بالنسخ البيان والإيضاح، فإن السلف كانوا يطلقون النسخ على مثل ذلك كثيرا ويكون مرادهم أن آيات الفرائض والحدود تبين توقف دخول أهل

الجنة والنجاة من النار على فعل الفرائض واجتناب المحارم فصارت النصوص منسوخة أي مبينة مفسرة، ونصوص الحدود والفرائض ناسخة أي مفسرة لمعنى تلك النصوص موضحة لها وقالت طائفة تلك النصوص المطلقة قد جاءت مقيدة في أحاديث أخرى، ففي بعضها: (من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة) وفي بعضها (مستيقنا)،... وفي بعضها: (يقولها من قلبه)، وهذا كله إشارة إلى عمل القلب وتحققه بمعنى الشهادتين، فتحققه بمعنى شهادة أن لا إله إلا الله أن لا يأله قلبه غير الله حبا ورجاء وخوفا وطمعا وتوكلا واستعانة وخضوعا وإنابة وطلبا وتحققه بشهادة أن محمدا رسول الله ﷺ أن لا يعبد بغير ما شرعه على لسان نبيه محمد ﷺ... وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه أن قول العبد (لا إله إلا الله) يقتضي أن لا إله غير الله، والإله الذي يطاع ولا يعصى هيبة وإجلالا ومحبة وخوفا ورجاء وتوكلا عليه وسؤالا منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله لغير الله ﷻ، فمن أشرك مخلوقا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحا في إخلاصه في قوله لا إله إلا الله ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من المعاصي التي منشأها من طاعة غير الله ﷻ أو خوفه أو رجائه أو التوكل عليه أو العمل، كما ورد إطلاق الكفر والشرك على الربا وعلى الحلف بغير الله ﷻ وعلى التوكل على غير الله والاعتماد عليه وعلى من سوى بين الله وبين المخلوق في المشيئة مثل أن يقول ما شاء الله وشاء فلان، وكذا قوله: مالي إلا الله وأنت، وكذلك ما يقدح في التوحيد وتفرد الله بالنفع والضر كالطيرة والرقى المكروهة وإتيان الكهان وتصديقهم بما يقولون وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه قادح في تمام التوحيد وكماله، ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشأها من هوى النفس أنها كفر وشرك كقتال المسلم ومن أتى حائضا أو امرأة في دبرها ومن

شرب الخمر في المرة الرابعة وإن كان ذلك لا يخرجه من الملة بالكلية، ولهذا قال السلف: كفر دون كفر، وشرك دون شرك، وقد ورد إطلاق الإله على الهوى المتبع قال تعالى: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الفرقان: ٤٣] قال الحسن رحمه الله تعالى: {هو الذي لا يهوى شيئا إلا ركبه، وقال قتادة: هو الذي كلما هوى شيئا ركبه وكلما اشتهى شيئا أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع... ويشهد لهذا الحديث الصحيح عن النبي ﷺ (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش)، فدل هذا على أن من أحب شيئا وأطاعه وكان من غاية قصده ومطلوبه، ووالى لأجله وعادى لأجله، فهو عبده، وكان ذلك الشيء معبوده وإلهه ويدل عليه أيضا أن الله تعالى سمى طاعة الشيطان في معصيته عبادة للشيطان كما قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [يس: ٦٠] وقال تعالى حاكيا عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: {يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} [مريم: ٤٤] فمن لم يتحقق بعبودية الرحمن وطاعته فإنه يعبد الشيطان بطاعته، ولم يخلص من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن وهم الذين قال فيهم: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر: ٤٢] فهم الذين حققوا قول لا إله إلا الله وأخلصوا في قولها وصدقوا قولهم بفعلهم فلم يلتفتوا إلى غير الله محبة ورجاء وخشية وطاعة وتوكلا، وهم الذين صدقوا في قول لا إله إلا الله، وهم عباد الله حقا فأما من قال لا إله إلا الله بلسانه ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته فقد كذب قوله فعله، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ} [القصص: ٥٠] {وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ} [ص: ٢٦] ثم قال رحمه الله تعالى: {فيا هذا كن

عبدا لله لا عبدا للهوى، فإن الهوى يهوي بصاحبه في النار ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، (تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار) والله لا ينجو غدا من عذاب الله إلا من حقق عبودية الله وحده ولم يلتفت إلى شيء من الأغيار، من علم أن إلهه ومعبوده فرد فليفرده بالعبودية ولا يشرك بعبادة ربه أحدا.اهـ.

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (١٣١٤) تحت الحديث " أبشروا وبشروا الناس من قال لا إله إلا الله صادقا بها دخل الجنة " وفي الباب عن معاذ ابن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو الآتي بعده، وفيه: "قلت: أفلا أبشرهم يا رسول الله ؟ قال: دعهم يعملوا". وقد أخرجه البخاري (١/ ١٩٩ - فتح) ومسلم (١/ ٤٥) وغيرهما من حديث أنس أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعاذ رديفه على الرحل قال: يا معاذ... " الحديث وفيه: "أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال: إذا يتكلوا. وأخبر بها معاذ عند موته تأثما". وأخرجه أحمد (٥/ ٢٢٨ و٢٢٩ و٢٣٠ و٢٣٢ و٢٣٦) من طرق عن معاذ قال في أحدها: "أخبركم بشيء سمعته من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يمنعني أن أحدثكموه إلا أن تتكلوا، سمعته يقول: "من شهد أن لا إله إلا الله مخلصا من قلبه، أو يقينا من قلبه لم يدخل النار، أو دخل الجنة. وقال مرة: دخل الجنة ولم تمسه النار". وإسناده صحيح على شرط الشيخين. وقد ترجم البخاري رَحِمَهُ اللهُ لحديث معاذ بقوله: "باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا، وقال علي: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله". ثم ساق إسناده بذلك وزاد آدم بن أبي إياس في " كتاب العلم " له: "ودعوا ما ينكرون". أي ما يشتبه عليهم فهمه. ومثله قول ابن مسعود: "ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة". رواه مسلم (١/ ٩). قال الحافظ: "وممن كره التحديث ببعض دون بعض

أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب. ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرابين وأن المراد ما يقع من الفتن. ونحوه عن حذيفة. وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي. وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب. والله أعلم". هذا وقد اختلفوا في تأويل حديث الباب وما في معناه من تحريم النار على من قال لا إله إلا الله على أقوال كثيرة ذكر بعضها المنذري في " الترغيب " (٢/ ٢٣٨) وترى سائرها في " الفتح". والذي تطمئن إليه النفس وينشرح له الصدر وبه تجتمع الأدلة ولا تتعارض، أن تحمل على أحوال ثلاثة

الأولى: من قام بلوازم الشهادتين من التزام الفرائض والابتعاد عن الحرمات، فالحديث حينئذ على ظاهره، فهو يدخل الجنة وتحرم عليه النار مطلقا.

الثانية: أن يموت عليها، وقد قام بالأركان الخمسة ولكنه ربما تهاون ببعض الواجبات وارتكب بعض المحرمات، فهذا ممن يدخل في مشيئة الله ويغفر له كما في الحديث الآتي بعد هذا وغيره من الأحاديث المكفرات المعروفة.

الثالثة: كالذي قبله ولكنه لم يقم بحقها ولم تحجزه عن محارم الله كما في حديث أبي ذر المتفق عليه: "وإن زنى وإن سرق... " الحديث، ثم هو إلى ذلك لم يعمل من الأعمال ما يستحق به مغفرة الله، فهذا إنما تحرم عليه النار التي وجبت على الكفار، فهو وإن دخلها، فلا يخلد معهم فيها بل يخرج منها بالشفاعة أو غيرها ثم يدخل الجنة ولابد، وهذا صريح في قوله ﷺ: "من قال لا

إله إلا الله نفعته يوما من دهره، يصيبه قبل ذلك ما أصابه". وهو حديث صحيح كما سيأتي في تحقيقه إن شاء الله برقم (١٩٣٢). والله سبحانه وتعالى أعلم، انتهى.

(باب شهادة أن محمداً رسول الله)

الشهادة بأن محمدًا رسول الله تتضمن تصديقه في كل ما أخبر وطاعته في كل ما أمر فما أثبته وجب إثباته وما نفاه وجب نفيه كما يجب على الخلق أن يثبتوا ما أثبته الرسول لربه من الأسماء والصفات وينفوا عنه ما نفاه عنه من مماثلة المخلوقات فيخلصون من التعطيل والتمثيل ويكونون على خير عقيدة في إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل وعليهم أن يفعلوا ما أمرهم به وأن ينتهوا عما نهاهم عنه ويحللوا ما أحله ويحرموا ما حرمه فلا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله ولهذا ذم الله المشركين في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما لكونهم حرموا ما لم يحرمه الله ولكونهم شرعوا دينا لم يأذن به الله كما في قوله تعالى: وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا} [الأنعام: ١٣٦] إلى آخر السورة وما ذكر الله في صدر سورة الأعراف وكذلك قوله تعالى: أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ} [الشورى: ٢١] وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا} [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦] فأخبره أنه أرسله داعيا إليه بإذنه فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع والشرك بدعة والمبتدع يؤول إلى الشرك ولم يوجد مبتدع إلا وفيه نوع من الشرك كما قال تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة ٣١] وكان من شركهم أنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم وقد قال

تعالى: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩] فقرن بعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر أنهم لا يحرمون ما حرمه الله ورسوله ولا يدينون دين الحق والمؤمنون صدقوا الرسول فيما أخبر به عن الله وعن اليوم الآخر فآمنوا بالله واليوم الآخر وأطاعوه فيما أمر ونهى وحلل وحرم فحرموا ما حرم الله ورسوله ودانوا دين الحق فإن الله بعث الرسول يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث فأمرهم بكل معروف ونهاهم عن كل منكر وأحل لهم كل طيب وحرم عليهم كل خبيث[١].

و(معنى شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع)[٢].

وهذه الشهادة هي الشطر الثاني من الركن الأول من أركان الإسلام الخمسة، كما أن الإيمان بالنبي ﷺ داخل في الركن الرابع من أركان الإيمان الستة، ويشهد لذلك حديث جبريل المشهور.

ويلاحظ أننا عرّفنا الشهادة والإيمان به بتعريف واحد، وهذا الأمر يصح في حالة الإفراد..... أما في حالة الاقتران فالإيمان به يختص بتصديق القلب وإقراره، والشهادة يراد بها نطق اللسان واعترافه، ويجب تحقيق هذه الشهادة معرفة وإقرارًا، وانقيادًا وطاعة[٣].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨٤٢).
(٢) الأصول الثلاثة للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص ٩) ضمن مجموعة الرسائل المفيدة.
(٣) زاد المعاد (١/ ٣٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما الإيمان بالرسول فهو المهم، إذ لا يتم الإيمان بالله بدون الإيمان به، ولا تحصل النجاة والسعادة بدونه، إذ هو الطريق إلى الله سبحانه، ولهذا كان ركنا الإسلام: - أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله-)[١].

مسألة: تعريف الإيمان بالنبي ﷺ

(الإيمان بالرسول: هو تصديقه، وطاعته، واتباع شريعته)[٢] وهذه الأمور هي الركائز التي يقوم عليها الإيمان بالنبي ﷺ، وعن بيان هذه الأمور المطلوبة عند الإيمان بالنبي ﷺ قال العلماء:

أ- أما تصديقه ﷺ فيتعلق به أمران عظيمان:

أحدهما: إثبات نبوته وصدقه فيما بلغه عن الله، وهذا مختص به ﷺ[٣].

ويندرج تحت هذا الإثبات والتصديق عدة أمور منها:

١- الإيمان بعموم رسالته إلى كافة الثقلين إنسهم وجنهم.

٢- الإيمان بكونه خاتم النبين، ورسالته خاتمة الرسالات.

٣- الإيمان بكون رسالته ناسخة لما قبلها من الشرائع.

٤- الإيمان بأنه ﷺ قد بلغ الرسالة وأكملها، وأدى الأمانة، ونصح لأمته حتى تركهم على البيضاء ليلها كنهارها.

٥- الإيمان بعصمته ﷺ.

٦- الإيمان بماله من حقوق خلاف ما تقدم ذكره، كمحبته وتعظيمه ﷺ.

الثاني: (تصديقه فيما جاء به، وأن ما جاء به من عند الله حق يجب اتباعه.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (ص: ٩٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩١).

وهذا يجب عليه ﷺ وعلى كل أحد)[(١)].

فيجب تصديق النبي ﷺ جميع ما أخبر به عن الله ﷻ، من أنباء ما قد سبق، وأخبار ما سيأتي، وفيما أحل من حلال، وحرّم من حرام، والإيمان بأن ذلك كله من عند الله ﷻ، قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣ - ٤].

قال شارح العقيدة الطحاوية: (يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيمانًا عامًا مجملًا، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول ﷺ على التفصيل فرض على الكفاية)[(٢)].

ب- طاعته واتباع شريعته: إن الإيمان بالرسول ﷺ كما يتضمن تصديقه فيما جاء به فهو يتضمن كذلك العزم على العمل بما جاء به، وهذه هي الركيزة الثانية من ركائز الإيمان به ﷺ.

وهي تعني: الانقياد له ﷺ وذلك بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وزجر امتثالًا لقوله تعالى: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧]. فيجب على الخلق اتباع شريعته، والالتزام بسنته، مع الرضا بما قضاه والتسليم له، والاعتقاد الجازم أن طاعته هي طاعة لله، وأن معصيته معصية لله، لأنه هو الواسطة بين الله وبين الثقلين في التبليغ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (يجب على الخلق الإقرار[(٣)] بما جاء به النبي ﷺ، فما جاء به القرآن العزيز أو السنة المعلومة وجب على الخلق الإقرار به

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩١).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٦٦).

(٣) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان معنى الإقرار: (إن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو الانقياد). مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٨، ٦٣٩).

جملة وتفصيلًا عند العلم بالتفصيل، فلا يكون الرجل مؤمنًا حتى يقر بما جاء به النبي ﷺ، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فمن شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فإن هذا حقيقة الشهادة بالرسالة)[١].

مسألة: المعنى الصحيح لمحبة النبي ﷺ وانقسام الناس فيها

اعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أوجب لنبينا ﷺ على القلب واللسان والجوارح حقوقًا زائدة على مجرد التصديق بنبوته، كما أوجب سبحانه على خلقه من العبادات على القلب، واللسان، والجوارح أمورًا زائدة على مجرد التصديق به سبحانه. وحرم سبحانه لحرمة رسوله - مما يباح أن يفعل مع غيره - أمورًا زائدة على مجرد التكذيب بنبوته.

فمن تلك الحقوق حقه ﷺ بأن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه وولده وجميع الخلق كما دلت على ذلك الأدلة من القرآن والسنة[٢] والتي سيأتي ذكرها. (فحب النبي ﷺ من أعظم واجبات الدين)[٣].

فهذه المحبة الواجبة له ﷺ هي من محبة الله، فهي حب لله وفي الله، ذلك لأن محبة الله توجب محبة ما يحبه الله، والله يحب نبيه وخليله ﷺ، فوجب بذلك محبته حقًا، فهي متفرعة عن محبة الله وتابعة لها، واقتران ذكرها مع محبة الله في القرآن والسنة إنما هو للتنبيه على أهميتها وعظم منزلتها.

وبمقتضى هذه المحبة يجب موافقة الرسول ﷺ في حب ما يحبه، وكره ما يكرهه، أي بتحقيق المتابعة له فيحب بقلبه ما أحب الرسول، ويكره ما كرهه

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٤)، وحقوق النبي ﷺ على أمته (١/ ٣٤).
(٢) الصارم المسلول (ص ٤٢٠، ٤٢١) بتصرف يسير.
(٣) الرد على الأخنائي (ص: ٢٣١).

الرسول، ويرضى بما يرضى الرسول، ويسخط ما يسخط الرسول، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض.

وقد انقسم الناس في فهمهم لهذه المحبة إلى ثلاثة أقسام هي:

القسم الأول: أهل الإفراط.

القسم الثاني: أهل التفريط.

القسم الثالث: الذين توسطوا بين الإفراط والتفريط.

أما أصحاب القسم الأول: فهم الذين بالغوا في محبته بابتداعهم أمورًا لم يشرعها الله ورسوله ﷺ، ظنًا منهم أن فعل هذه الأمور هو علامة المحبة وبرهانها.

ومن تلك الأمور احتفالهم بمولده، ومبالغتهم في مدحه، وإيصاله إلى أمور لا تنبغي إلا لله تعالى ومن ذلك قول قائلهم:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم[1]

وقوله:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

فإذا كانت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ، ومن بعض علومه علم اللوح والقلم لأن (من) للتبعيض، فماذا للخالق جل وعلا؟

إضافة إلى صرف بعض أنواع العبادة له كالدعاء، والتوسل، والاستشفاع، والحلف به، والطواف، والتمسح بالحجرة التي فيها قبره ﷺ إلى غير ذلك من البدعيَّات والشركيَّات التي تفعل بدعوى المحبة للرسول ﷺ، وهي أمور لم

(١) ديوان البوصيري (ص: ٢٣٨).

يشرعها الله ورسوله ﷺ ولم يفعلها الصحابة رضوان الله عليهم الذين عرفوا بإجلالهم وتقديرهم ومحبتهم لرسول الله ﷺ، وإضافة إلى ذلك فإن ما يقوم به هؤلاء هي أمور مخالفة لما جاء به الشارع، بل هي أمور قد حذر الشارع من فعلها، ولقد صار حظ أكثر أصحاب هذا القسم منه ﷺ مدحه بالأشعار والقصائد المقترنة بالغلو والإطراء الزائد الذي حذر منه الشارع الكريم، مع عصيانهم له في كثير من أمره ونهيه، فتجد هذا النوع من أعصى الخلق له صلوات الله عليه وسلامه[1].

فيا ترى أي محبة هذه التي يخالف أصحابها شرع نبيهم، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، فكرهوا ما أحب الله ورسوله، وأحبوا ما كرهه الله ورسوله. فكيف تكون لهؤلاء محبة وهم قد ابتدعوا ما ابتدعوه من أمور لم تشرع في الدين، ونعلم أن رسول الله ﷺ قد تبرأ ممن ابتدع في هذا الدين فقال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[2].

والذي يجب على أمثال هؤلاء أن يعلموا أن محبة الرسول وتعظيمه إنما تكون بتصديقه فيما أخبر به عن الله، وطاعته فيما أمر به، ومتابعته، ومحبته وموالاته، لا بالتكذيب بما أرسل به، والإشراك به والغلو فيه، فهذا لا يعدو كونه كفرًا به، وطعنًا فيما جاء به ومعاداة له[3].

كما يجب عليهم أن يفرقوا بين الحقوق التي يختص بها الله وحده، وبين الحقوق التي له ولرسله، والحقوق التي يختص بها الرسول، فقد ميز سبحانه بين ذلك في مثل قوله وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفتح: ٩]،

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٨٦).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).
(٣) الرد على الأخنائي (ص: ٢٤، ٢٥) بتصرف.

فالتعزير والتوقير للرسول والتسبيح بكرة وأصيلًا لله، وكما قال: وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ، فالطاعة لله ولرسوله، والخشية والتقوى لله وحده وكما يقول المرسلون: أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ [نوح: ٣].

فعلى هؤلاء أن يعلموا أن محبة الرسول ﷺ لا تنال بدعائه والاستغاثة به، فتلك أمور صرفها لغير الله يعد شركًا مع الله، فالله وحده هو الذي يدعى، ويستغاث به، فهو رب العالمين، وخالق كل شيء، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وهو القريب الذي يجيب الداع إذا دعاه، وهو سميع الدعاء سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا...

أما أصحاب القسم الثاني: فهم أهل التفريط الذين قصروا في تحقيق هذا المقام فلم يراعوا حقه ﷺ في وجوب تقديم محبته على محبة النفس والأهل والمال. كما لم يراعوا ماله من حقوق أخرى كتعزيره، وتوقيره، وإجلاله، وطاعته، واتباع سنته، والصلاة والسلام عليه، إلى غير ذلك من الحقوق العظيمة الواجبة له. والسبب في ذلك يعود إلى إحدى الأمور التالية أو إليها جميعًا وهي:

أولًا: إعراض هؤلاء عن سنة نبيهم ﷺ وعن اتباع شرعه بسبب ما هم عليه من المعاصي، وإسرافهم في تقديم شهوات أنفسهم وأهوائهم على ما جاء في الشرع من الأوامر والنواهي.

ثانيًا: اعتقاد الكثير أن مجرد التصديق يكفي في تحقيق الإيمان، وأن هذا هو القدر الواجب عليهم، ولذا تراهم يكتفون بالتصديق بنبوة محمد ﷺ، دون تحقيق المتابعة له، وهذا هو حال أهل الإرجاء الذين يؤخرون العمل عن مسمى الإيمان، ويقولون إن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، أو تصديق القلب

وإقرار اللسان، وما أكثرهم في زماننا هذا.

ثالثًا: جهل الكثير منهم بأمور دينهم بما فيها الحقوق الواجبة له ﷺ، والتي من ضمنها محبته ﷺ، فكثير من الناس -ولا حول ولا قوة إلا بالله- ليس لهم من الإسلام إلا اسمه وليس لهم من الدين إلا رسمه.

فالواجب على هؤلاء أن يعودوا إلى رشدهم، وأن يقلعوا عن غيهم، وما هم عليه من المعاصي والذنوب التي هي سبب نقصان إيمانهم، وضعف محبتهم، وبعدهم عما يقربهم إلى الله تعالى.

كما يجب عليهم أن يعلموا أن مجرد التصديق لا يسمى إيمانًا بل الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بطاعة الرحمن، وينقص بطاعة الشيطان، فليس لأحد أن يخرج العمل عن مسمى الإيمان، فلذلك يجب على كل من يؤمن بالله ورسوله أن يطيع الله ورسوله، ويتبع ما أنزل الله من الشرع على رسوله ﷺ، فبذلك يحصل الإيمان، فإن الاتباع هو ميزان الإيمان، فبحسب اتباع المرء يكون إيمانه، فمتى ما قوي اتباعه قوي إيمانه والعكس بالعكس.

كما يجب عليهم معرفة أمور دينهم وبخاصة الواجب منها، والتي من ضمنها معرفة ما للمصطفى ﷺ من الحقوق الواجبة، فلقد ذم الله تبارك وتعالى أولئك النفر الذين لم يعرفوا ما للنبي ﷺ من حق في عدم رفع الصوت عند مخاطبته أو مناداته، ووصفهم الله بأنهم لا يعقلون قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ} [الحجرات: ٤]، وفي السورة نفسها أثنى على الذين عرفوا حق المصطفى ﷺ ف قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات: ٣]، والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩]. وليعلم هؤلاء أنه لا يتحقق لهم إيمان ولا محبة إلا باتباعهم للمصطفى ﷺ، واقتدائهم بسنته، والسير على نهجه وهداه.

أما القسم الثالث: فهم الذين توسطوا بين الطرفين السابقين أهل الإفراط وأهل التفريط. فأصحاب هذا القسم هم السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم، الذين آمنوا بوجوب هذه المحبة حكمًا، وقاموا بمقتضاها اعتقادًا وقولًا وعملًا. فأحبوا النبي ﷺ فوق محبة النفس، والولد، والأهل، وجميع الخلق امتثالًا لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، فجعلوه أولى بهم من أنفسهم تصديقًا لقوله تعالى: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [الأحزاب: ٦]، وأيقنوا بوجوب أن يوقى بالأنفس والأموال طاعة لقوله تعالى: مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ} [التوبة: ١٢٠]. وقاموا بمقتضى هذه المحبة اعتقادًا وقولًا وعملًا بحسب ما أوجب الله لنبيه ﷺ من حقوق على القلب واللسان والجوارح من غير إفراط ولا تفريط. فآمنوا وصدقوا بنبوته ورسالته وما جاء به من ربه ﷻ. وقاموا- بحسب استطاعتهم- بما يلزم من طاعته، والانقياد لأمره، والتأسي بفعله، والاقتداء بسنته، إلى غير ذلك مما يعد من لوازم الإيمان برسالته.

قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧] وامتثلوا لما أمر به سبحانه وتعالى من حقوق زائدة على مجرد التصديق بنبوَّته وما يدخل في لوازم رسالته.

فمن ذلك امتثالهم لأمره سبحانه بالصلاة عليه والتسليم قال تعالى: {إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٥٦]. وما أمر به سبحانه من تعزيره وتوقيره قال تعالى: {وَتُوَقِّرُوهُ

وَتُسَبِّحُوهُ. فتعزيره يكون بنصره، وتأييده، ومنعه من كل ما يؤذيه ﷺ.

وتوقيره: يكون بإجلاله وإكرامه، وأن يعامل بالتشريف، والتكريم، والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار[1].

ويدخل في ذلك مخاطبته بما يليق قال تعالى: {لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا.

وحرمة التقدم بين يديه بالكلام حتى يأذن، وحرمة رفع الصوت فوق صوته وأن يجهر له بالكلام كما يجهر الرجل للرجل قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات: ١ - ٣].

فقاموا بهذه الأمور امتثالًا وطاعة لأمر الله تبارك وتعالى، وأدوا ما فرض عليهم من الحقوق الأخرى التي يطول ذكرها.... وهم مع قيامهم بهذه الأمور لم يتجاوزوا ما أمروا به، فلم يغالوا ولم يبالغوا كما فعل أهل الإفراط الذين وصفوا النبي ﷺ بأمور لا تنبغي لغير الله كعلم الغيب، وصرفوا له أمورًا لا يجوز صرفها لغير الله كدعائه، والسجود له، والاستغاثة به والطواف بقبره.

بل هم مؤمنون بأن ما أكرم الله به نبيه ﷺ من النبوة، والرسالة، والرفعة، وعظم القدر، وشرف المنزلة، كل ذلك لا يوجب خروجه عن بشريته وعبوديته لله قال تعالى: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا} [الإسراء: ٩٣].

واعتقدوا أنه ليس من المحبة في شيء الغلو في حقه وقدره ووصفه بأمور قد

---

(١) الصارم المسلول (ص: ٤٢٢).

اختص الله بها وحده، بل علموا أن في هذا مخالفة ومضادة لتلك المحبة، ومناقضة لما أمر به سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقوله لأمته: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النمل: ٦٥].

وقال تعالى: {قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [الأعراف: ١٨٨].

فكل غلو في حقه ﷺ ليس من محبته في شيء بل يعد مخالفة لما أمر به فيجب الابتعاد عن ذلك والحذر من عقوبته قال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ كما يعد مشاقة للرسول ﷺ. قال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ١١٥]، ولذا فإنه يجب الحذر من حال الغلاة الذين غلوا في حق النبي ﷺ بما ابتدعوه من الأمور التي لم يشرعها الله في كتابه أو على لسان رسوله، بل حذر الله ورسوله منها.

وقد يظن البعض بأن السير على منهج أهل التوسط فيه انتقاص من قدر النبي ﷺ وغمط لحقه، والأمر على عكس ما يظنون فالذي يعتقده السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين أن الحق الواجب أن يثنى على النبي ﷺ بما هو أهل له من الخصائص الثابتة له التي خصه الله بها، والفضائل العظيمة التي شرفه بها، والصفات الحقيقية والخلقية التي كان عليها، وذلك للتعرف وتعريف الناس بفضله ومكانته وعظيم قدره عند الله وعند خلقه حتى يتأسى ويقتدى به في أقواله وأفعاله، فهو الأسوة والقدوة عليه أفضل الصلاة والتسليم قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١].

فمن صميم المحبة له ﷺ الاشتغال بمعرفة سيرته بقصد التأسي والاقتداء بما كان عليه من كريم الخصال، ومحاسن الأفعال والأقوال. وكذا معرفة شمائله، ودلائل نبوته التي تعمق إيمان المسلم بصدق نبوته، وتزيد في محبته وتعظيمه ﷺ. ولقد اهتم السلف بهذه الجوانب وأولوها رعايتهم واهتمامهم، فاعتنوا بتأليف المؤلفات التي أوضحت هذه الجوانب وأبرزتها، فقد ألفت لهذا الغرض كتب الشمائل التي اعتنت بذكر صفاته وأحواله في عباداته، وخلقه، وهديه، ومعاملاته[١]، كما ألفت كتب الدلائل التي اعتنت بدلائل وعلامات نبوته ﷺ[٢].

هذا بالإضافة إلى ما كتب في الفضائل والخصائص التي كانت للنبي ﷺ. كما اعتنوا بأصل هذه الجوانب جميعها ألا وهو سيرته الشريفة ﷺ، فقد ألفت لهذا الغرض المؤلفات التي اعتنت بحياته منذ ولادته إلى وفاته، وضمت في جوانب ذلك الحديث عن نشأته، وبعثته، وما حدث له من الأمور قبل الهجرة وبعدها، وما كان من أمر دعوته، وغزواته، وسراياه، وما يتعلق بهذه الجوانب وغيرها مما هو داخل في سيرته[٣]. فقد دونت هذه الجوانب جميعها وخدمت بقصد أن يتأسى الناس به ﷺ، وأن يتعرفوا على كمال ذاته ﷺ وما تميز به من صفات، وتفرد به من أخلاق، لتزيد تلك المعرفة من محبتهم له، وتنميتها في قلوبهم، ولتبعث في نفوسهم تعظيمه وإجلاله.

وبهذا يعلم أن أهل التوسط لم ينتقصوا من قدره ﷺ، بل حفظوا وحافظوا على كل ما من شأنه أن يضمن استمرارية محبة الأمة وتعظيمها له.

---

(١) من تلك الكتب: كتاب الشمائل للترمذي، وكتاب الشمائل لابن كثير.
(٢) منها: كتاب دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، وكتاب دلائل النبوة للبيهقي.
(٣) ومن أشمل الكتب التي تحدثت عن سيرته ﷺ كتاب السيرة لابن كثير.

فهذه حال أهل التوسط وهذا هو منهجهم، فمن أراد أن يسير على النهج القويم، ويسلك الصراط المستقيم فعليه بسبيل أهل الإيمان وطريقهم، ألا وهو الكتاب والسنة، فذاك طريق الحق، والحق أحق أن يتبع.

وهذا منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين، فقد كانت محبتهم للنبي ﷺ تحكمها قواعد الكتاب والسنة، فما أمر به الشارع ائتمروا به، وما نهى عنه الشارع انتهوا عنه، ولم يحكموا في هذه المحبة عواطفهم وأهواءهم كما فعل أهل الإفراط الذين زلت بهم أقدامهم بسبب غلوهم في حقه، ذاك الغلو الذي دفعهم إليه تحكيم أهوائهم، وهو غلو ما أنزل الله به من سلطان، بل إن نصوص الشرع تنص على تحريمه، وإنه ليصدق وصف أهل الإفراط بقوله تعالى: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص: ٥٠].

فخلاصة القول في هذا الجانب أن المفهوم الصحيح لمحبته ﷺ يتمثل في ذلك المفهوم الذي كان عليه سلف الأمة وأئمتها من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، ومن سار على نهجهم وسلك سبيلهم. ذلك المفهوم المستمد من آيات القرآن ونصوص السنة والذي لم يخرج عنهما قيد أنملة[(١)].

وقد يظن البعض من الناس أن له الحق في التعبير عن محبته للنبي ﷺ بما يراه ويستحسنه من الأمور، من غير أن يراعي في ذلك قواعد الشرع وأصوله، وهذا الصنف من الناس تراه منساقًا مع عواطفه، جاعلًا لها حق التشريع في هذا الدين. فتراه يغلو في حق النبي ﷺ حتى كمل به إلى بعض مراتب الألوهية. وتراه يبتدع في دين الله أمورًا تصل إلى حد العظائم. وتراه يقدم على الشركيات والكفريات. وكل ذلك بدعوى محبة النبي ﷺ ولقد حكم الله ﷻ بالضلال على

(١) حقوق النبي ﷺ على أمته (١/ ٢٨٩).

هذا الصنف ف قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ} [القصص: ٥٠].

فالمتبعون لعواطفهم وأهوائهم المحكمون لها، لابد وأن يكونوا نابذين لهدي الله المتمثل في الكتاب والسنة، واللذين يشتملان على قواعد هذا الدين وأصوله والتي من ضمنها تحريم الابتداع في الدين والإحداث فيه، وتحريم الغلو بشتى مظاهره وأشكاله، وتحريم الشرك بمختلف صوره وألوانه.

ولذلك حكم الله بضلالهم وغوايتهم، وبعدهم عن الصراط المستقيم. فحري بأمثال هؤلاء أن يقلعوا عن غيهم، وأن يحكموا في عواطفهم كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ.

فمحبة النبي ﷺ من الدين، وتحقيقها يكون عن طريق ما شرع في هذا الدين، لا عن طريق البدع وما تهواه النفوس، فالبدع قد حذرنا نبينا ﷺ منها بقوله: (اكم ومحدثات الأمور)[1] وهذا الحديث يعني في هذا المقام أن ليس

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجة (٤٢)، والدارمي (٩٥)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد: (١/ ٧٤ - ٧٥)، والآجري في الشريعة (ص ٤٦ - ٤٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٧ - ١٩)، وأبو عبيد في الخطب والمواعظ، والحاكم (١/ ٩٥)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٠٥)، وابن وضاح في البدع (ص ٢٣، ٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٢٠، ٢٢١ و١٠/ ١١٤، ١١٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٦٩)، والهروي في ذم الكلام (٦٩/ ١ - ٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤)، وفي الإعتقاد (ص ١١٣)، والخطيب في الموضح (٢/ ٤٢٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١١/ ٢٣٥/ ١) وغيرهم، والحديث صححه الترمذي، وصححه البزار كما في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٢٤)، وحسنه البغوي في شرح السنة، وقال أبو نعيم في المستخرج على صحيح مسلم: حديث جيد من صحيح حديث الشاميين كما في جامع العلوم والحكم (ص ٢٢٦)، وصححه ابن حبان والحاكم، وقال الجوزقاني في الأباطيل والمناكير (١/ ٤٧٢): =

لأحد الحق في التعبير عن محبة النبي ﷺ إلا بما جاء به النبي ﷺ، فعلى المسلم أن يدرك هذا الأمر، وليحذر من سبل أهل الضلال والانحراف.

قال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣].

وإن الناظر في أحوال أولئك المفتونين بالبدع تحت دعوى محبة النبي ﷺ يجد أنهم قد رغبوا في تلك الأمور المبتدعة لأنها أمور لا مشقة فيها على النفس، فجعلوها بدلًا مما يجب عليهم من الأعمال والطاعات التي تشق على نفوسهم الضعيفة المريضة، فالمحبة عند هؤلاء تنحصر في مظاهر التعظيم اللساني المليء بالغلو والشرك، والمقترن بالاجتماع على موائد الطعام والذي لا يخلو في بعض الأحيان من المنكرات والمحرمات.

ويحق للمرء أن يتساءل: أي محبة هذه التي تجيز لهؤلاء أن يبتدعوا في دين الله بزيادة أو نقص، أو تغيير أو تبديل؟ لاشك أن فعل هذه الأمور يناقض المحبة ويضادها جملة وتفصيلًا، ولا عذر لفاعلها فيما أقدم عليه وإن كان فعل

=

صحيح ثابت مشهور، وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٦٤): ثابت صحيح، وقال شيخ الاسلام الانصاري هو أجود حديث في أهل الشام وأحسنه كما في تحفة الطالب (٤٦)، وصححه الضياء المقدسي في جزء في اتباع السنن واجتناب البدع (رقم ٢)، وصححه شيخ الإسلام هنا، وجوده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص ٣١٣)، وقال العراقي في الباعث على الخلاص (رقم ١): صحيح مشهور، وقال ابن كثير في تحفة الطالب (رقم ٤٦): وصححه أيضا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، والدغولي، وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة وانظر الصحيحة (٩٣٧)، وحسنه الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٥/ ٢٤ - ٢٥)، وصححه الحويني في تخريج فضائل القرآن (ص ٦٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: حديث صحيح ورجاله ثقات.

ذلك بحسن نية، فحسن النية لا يبيح الابتداع في الدين، فلقد كان جل ما أحدث أهل الملل قبلنا من التغيير في دينهم عن حسن نية، فمازالوا على حالهم تلك حتى صارت أديانهم على غير ما جاءت به رسلهم.

ومما يؤسف له أن كثيرًا من الناس يتمسك بتلك البدع تقليدًا لمشائخه أو عشيرته أو أهل بلده. إلى غير ذلك من العصبيات الجاهلية التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي أعمت بصائر الكثير منهم وأضلتهم عن سبيل الله.

ولقد كان من الحري بهؤلاء أن يقتدوا بصحابة رسول الله ﷺ، الذين كانوا أشد الأمة محبة للنبي ﷺ، وأشدهم تعظيما له، وكانوا أحرص الناس على الخير ممن جاء بعدهم، والذين بذلوا أنفسهم وأموالهم في هذا السبيل. فلقد كان من سنن الصحابة رضوان الله عليهم حرصهم على اتباع النبي ﷺ لأنهم يؤمنون بأن منشأ محبته وثباتها وقوتها إنما يكون بمتابعته ﷺ في أقواله، وأفعاله، وسلوكه، وتصرفاته.

كما أنهم يؤمنون بأن الابتداع في الدين يضاد تلك المحبة وينافيها ولذلك لم يعهد عنهم أنهم ابتدعوا أشياء من عند أنفسهم لإظهار محبتهم للنبي ﷺ كما ابتدع المتأخرون ما ابتدعوه من البدع تحت ستار المحبة والتعظيم له ﷺ. فإذا كان هذا هو شأن الصحابة فيما أثر عنهم من الآثار وهم المشهود لهم بأنهم أشد الأمة وأفضلها محبة وتعظيمًا للنبي ﷺ، أفلا يسع من جاء بعدهم ما وسعهم، فيتركوا تلك الأمور المبتدعة التي أحدثت من بعدهم، والتي لم يأذن بها الله ولم تكن من هدي رسول الله ﷺ، ولا من عمل أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم، ومن لم يتسع له ما اتسع للصحابة رضي الله عنهم، فلا وسع الله عليه في الدنيا ولا في الآخرة.

فعن قتادة قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: (من كان منكم متأسيًا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها

تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)[١].

مسألة: وجوب توقيره وتعظيمه ﷺ

إن تعظيم النبي ﷺ، وإجلاله، وتوقيره، شعبة عظيمة من شعب الإيمان، وهذه الشعبة غير شعبة المحبة بل إن منزلتها ورتبتها فوق منزلة ورتبة المحبة. ذلك لأنه ليس كل محب معظمًا، ألا ترى أن الوالد يحب ولده ولكن حبه إياه يدعوه إلى تكريمه ولا يدعوه إلى تعظيمه.

والولد يحب والده فيجمع له بين التكريم والتعظيم. والسيد قد يحب مماليكه، ولكنه لا يعظمهم. والمماليك يحبون ساداتهم ويعظمونهم.

فعلمنا بذلك أن التعظيم رتبته فوق رتبة المحبة.

فمن حق النبي ﷺ على أمته أن يهاب ويعظم ويوقر ويجل أكثر من كل ولد لوالده، ومن كل عبد لسيده، فهذا حق من حقوقه الواجبة له مما يزيد على لوازم الرسالة، وهو ما أمر الله به في كتابه العزيز قال تعالى: {لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح: ٩].

وقال تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ١٥٧].

فأبان أن حق الرسول ﷺ في أمته أن يكون معزرًا موقرًا مهيبًا. وأخبر سبحانه أن الفلاح إنما يكون لمن جمع بين الإيمان به وتعزيره، ولا خلاف في أن التعزير هاهنا التعظيم.

وفي الجمع الحاصل في الآيتين بين الإيمان به وتعظيمه، تنبيه وإرشاد إلى أن

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٩).

القيام بحقوقه ﷺ يعد من الإيمان الواجب الذي لا يتم إيمان العبد إلا به. قال الحليمي: (فمعلوم أن حقوق رسول الله ﷺ أجل، وأعظم، وأكرم، وألزم لنا، وأوجب علينا من حقوق السادات على مماليكهم، والآباء على أولادهم، لأن الله تعالى أنقذنا به من النار في الآخرة، وعصم به لنا أرواحنا، وأبداننا، وأعراضنا، وأموالنا، وأهلينا، وأولادنا في العاجلة، فهدانا به لما إذا أطعناه فيه أدانا إلى جنات النعيم. فأية نعمة توازي هذه النعم، وأية منة تداني هذه المنن. ثم إنه جل ثناؤه ألزمنا طاعته، وتوعدنا على معصيته بالنار. ووعدنا باتباعه الجنة. فأي رتبة تضاهي هذه الرتبة، وأي درجة تساوي في العلا هذه الدرجة. فحق علينا أن نحبه، ونجله، ونعظمه، ونهابه أكثر من إجلال كل عبد سيده، وكل ولد والده. وبمثل هذا نطق القرآن، ووردت أوامر الله جل ثناؤه).

ففي القرآن الكريم آيات كثيرة جاء فيها التأكيد على هذا الحق من حقوقه ﷺ وبخاصة في جوانب معينة من جوانب تعظيمه ومن تلك الآيات ما يلي:

١- قوله تعالى: لَاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} [النور: ٦٣] (ففي هذه الآية نهي من الله أن يدعوا رسول الله ﷺ بغلظ وجفاء، وأمر لهم أن يدعوه بلين وتواضع).

وروى الطبري بسنده عن مجاهد في تفسيرها فقال: (أمرهم أن يدعوه يا رسول الله في لين وتواضع، ولا يقولوا: يا محمد، في تجهم).

وعن قتادة قال: (أمرهم أن يفخموه ويشرفوه).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها: (خص الله نبيه في هذه الآية بالمخاطبة بما يليق به، فنهى أن يقولوا: يا محمد، أو يا أحمد، أو يا أبا القاسم، ولكن يقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وكيف لا يخاطبونه بذلك، والله سبحانه أكرمه في مخاطبته إياه بما لم يكرم به أحدًا من الأنبياء، فلم يدعه باسمه في

القرآن قط، بل يقول {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا} [الأحزاب: ٢٨] {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ} [الأحزاب: ٥٠] {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ} [الأحزاب: ١] {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: ٤٥] {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} [الطلاق: ١] {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ} [التحريم: ١] {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [المائدة: ٦٧] {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ} [المزمل: ١ – ٢] {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ} [المدثر: ١ – ٢] {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ} [الأنفال: ٦٤].

مع أنه سبحانه قال: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ} [البقرة: ٣٥] {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ} [البقرة: ٣٣] {يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ [هود: ٤٦] يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا [هود: ٧٦] {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ} [الأعراف: ١٤٤] {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ} [ص: ٢٦] {يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ} [المائدة: ١١٠].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: (وإذا كنا في باب العبارة عن النبي ﷺ علينا أن نفرق بين مخاطبته والإخبار عنه. فإذا خاطبناه كان علينا أن نتأدب بآداب الله تعالى حيث قال: {لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} [النور: ٦٣] فلا تقول يا محمد، يا أحمد، كما يدعو بعضنا بعضًا بل نقول: يا رسول الله، يا نبي الله. والله سبحانه وتعالى خاطب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم فقال: {يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة: ٣٥] {يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ} [هود: ٤٨] {يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ} [طه: ١١ – ١٢] {يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [ال عمران: ٥٥].

ولما خاطبه ﷺ قال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} [الأنفال: ٦٤] {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا

يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} [المائدة: ٤١] {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} [المائدة: ٦٧] {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} [المزمل: ١] {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} [المدثر: ١٠] فنحن أحق أن نتأدب في دعائه وخطابه.

وأما إذا كنا في مقام الإخبار عنه قلنا: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله) وقلنا: محمد رسول الله وخاتم النبيين، فنخبر عنه باسمه كما أخبر الله سبحانه لما أخبر عنه ﷺ {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠] وقال: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا} [الفتح: ٢٩] وقال: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [ال عمران: ١٤٤] وقال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ [محمد: ٢].

فالفرق بين مقام المخاطبة ومقام الإخبار فرق ثابت بالشرع والعقل.

٢- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحجرات: ١ - ٥] فهذه الآيات اشتملت على جملة من الآداب التي أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يجب أن يعاملوا به الرسول ﷺ من التوقير، والاحترام، والتبجيل، والإعظام وهذه الآداب هي:

أولًا: أنه حرم التقدم بين يديه بالكلام حتى يأذن، ف قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

قال ابن كثير في معناها: (أي لا تسارعوا في الأشياء بين يديه أي: قبله، بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين بعثه إلى اليمن: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله تعالى. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فإن لم تجد؟ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما يرضي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقدم بين يدي الله ورسوله).

وقال الحليمي عند تعليقه على هذه الآية: (والمعنى لا تقدموا قولًا أو فعلًا بين يدي قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفعله فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر دين أو دنيا، بل أخروا أقوالكم وأفعالكم إلى أن يأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك بما يراه، فإنكم إذا قدمتم بين يديه كنتم مقدمين بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ، إذ كان رسوله لا يقضي إلا عنه، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي احذروا عقابه بتقديمكم بين يدي رسول الله ومعاملته بما يوهم الاستخفاف به، ومخالفة شيء مما يأمركم به عن الله بوحي متلو أو بوحي غير متلو ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لما تقدمونه بين يدي رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو تأتونه اقتداء به واتباعًا له، عليم بما يكون منكم من إجلاله أو خلاف ذلك، فهو يجزيكم بما سمعه ويعلمه منكم).

ولقد تأدب الصحابة مع ربهم ومع رسولهم، فما عاد بعد نزول هذه الآية مقترح منهم يقترح على الله ورسوله، وما عاد واحد منهم يدلي برأي لم يطلب منه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدلي به، وما عاد أحد يقضي برأيه في أمر أو حكم إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حتى كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألهم عن اليوم الذي هم فيه، والمكان الذي هم

فيه، وهم يعلمونه حق العلم، فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم: الله ورسوله أعلم. خشية أن يكون في قولهم تقدم بين يدي الله ورسوله. ومن ذلك ما جاء في حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ- سأل في حجة الوداع: أي شهر هذا؟.. قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أن سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى. قال: فأي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس البلدة؟ قلنا بلى. قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس يوم النحر؟ قلنا بلى... الحديث. فهذه صورة من الأدب، ومن التحرج، ومن التقوى التي انتهى إليها الصحابة بعد سماعهم ذلك النداء، وذلك التوجيه، وتلك الإشارة إلى التقوى، تقوى الله السميع العليم.

ثانيًا: أنه حرم رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ وأن يجهر له بالكلام كما يجهر الرجل للرجل، وهذا من باب الأدب مع النبي ﷺ في الحديث والخطاب، ومن التوقير الذي يجب له، ذلك التوقير الذي ينعكس على نبرات أصوات الصحابة ليتميز بذلك شخص الرسول ﷺ بينهم ويميز مجلسه فيهم، ف قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: ٢].

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: (هذا أدب ثانٍ أدب الله تعالى به المؤمنين، أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته، وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فعن ابن أبي مليكة قال: (كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخي بن مجاشع، وأشار

الآخر برجل آخر، قال نافع لا أحفظ اسمه فقال أبو بكر لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ الآية) قال ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فما كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه يعني أبا بكر).

فقد نهى الله عَزَّ وَجَلَّ عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا).

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام، لأنه محترم حيًّا وفي قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دائمًا.

ثم نهي عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبة من عداه، بل يخاطب بسكينة، ووقار، وتعظيم، ولهذا قال تبارك وتعالى: وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ كما قال: لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالًا يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض.

ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك، وأرشد إليه

ورغب فيه فقال: إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى أي أخلصها لها، وجعلها أهلًا ومحلًا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ.

وجاء في الكشاف عند تفسير هذه الآيات قوله: (أعاد النداء عليهم- أي في قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك هممهم لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم، وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله ﷺ من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم.

وذلك لأن في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يألو عملًا بما يحدوه عليه، وارتداعًا بما يصده عنه، وانتهاء إلى كل خير.

والمراد بقوله: لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عاليًا لكلامكم، وجهره باهرًا لجهركم، حتى تكون ميزته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق. غير خاف، لا أن تغمروا صوته بلغطكم، وتبهروا منطقه بصخبكم.

وبقوله وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ أنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول البين المقرب من الهمس، الذي لا يضاهي الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم، عاملين بقوله عز شأنه: وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وليس الغرض من رفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به

الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر، والمخاطبون مؤمنون وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء، ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه، ورده إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير. ولم يتناول النهي أيضًا رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ وهو ما كان منهم في حرب، أو مجادلة معاند، أو إرهاب عدو أو ما أشبهه، فلم ينهوا عن الجهر مطلقًا حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مقيد بصفة أعلى، الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم، وهو الخلو عن مراعاة أبهة النبوة، وجلالة مقدارها، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها).

(ومن البداهة أن هذه الآيات وأمثالها في تأديب الأمة وتعليمها إنما جاءت بأسلوبها المعجز لتفخيم شأن النبي ﷺ وإظهار رفعة قدره المنيف، وسمو منزلته ﷺ فوق كل منزلة أحد من الخلق، وهي مسوقة في مواضعها من القرآن الكريم لتعليم الأمة أفرادًا وجماعات الأدب الأكمل مع النبي ﷺ في كل ما يتصل بمخاطبته والتحدث إليه، والإصغاء إلى حديثه، ومجالسته حتى يستشعر المؤمن بقلبه وروحه وكافة إحساساته ومشاعره ما أوجبه الله تعالى من توقيره ﷺ توقيرًا يجلي رفيع قدره، وعظيم مقامه، ويظهر تشريف الله تعالى له بما ميزه به على سائر الخلق، وقد اتفق أهل العلم من أئمة أعلام الأمة على أن حرمته ﷺ بعد وفاته كحرمته في حياته).

ثالثًا: أن الله تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه فقال: أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ، ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال: وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ أي: لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة، فكره إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب

والتوقير اللائق بشخص النبي ﷺ، ولكن لهم ما يجب عليهم وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم، وحبب إليهم التوبة والإنابة، ورغبهم في المغفرة والرحمة.

قال الحليمي: (في هذه الآية يسلي الله نبيه ﷺ بما أخبره من أن الذين يصيحون خارج منزله ولا يصبرون حتى يخرج إليهم إنما حملهم على ذاك جهلهم وقلة عقلهم وأكثرهم لا يهتدون إلى ما يلزمهم من تعظيمك في حال مخاطبتك).

٣- وقال تعالى: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ} [التوبة: ١٢٠].

قال الحليمي: (فأعلمهم أن نفس الرسول ﷺ أكرم، وأشرف، وأزكى، وأجمل من أنفسهم، فلا يسعهم من ذلك أن يصرفوا أنفسهم عما لا يصرف نفسه عنه، فيتخلفوا عنه إذا خرج لجهاد أعداء الله معتذرين من شدة حر، أو طول طريق، أو عوز ماء، أو قلة زاد، بل يلزمهم متابعته ومشايعته على أي حال رضيها لنفسه، وفي هذا أعظم البيان لمن عقل، وأبين الدلالة على وجوب تعظيمه وإجلاله وتوقيره).

٤- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [الأحزاب: ٥٣].

فنهاهم سبحانه وتعالى عن أن يعاملوا رسول الله ﷺ بالتوسع في الانبساط والاسترسال كما يعامل من لا يهاب ولا يتقى، فيدخل بيته بغير إذنه إذا دعاهم إلى طعام لم ينضج، وأحاطوا به منتظرين إدراكه، وإذا حضر الطعام ودخلوا

وطعموا لزموا مجالسهم مستأنسين بالمحادثة، وأخبرهم أن ذلك منهي عنه، إذ كان النبي ﷺ قد تأذى منه ويستحى أن يكلمهم، كما أدبهم فيما ينبغي عليهم تجاه معاملتهم مع أزواجه ﷺ، وهذا كله مما يدل على ماله ﷺ من التعظيم، والاحترام.

٥- وقد جاء بعد هذه الآيات الأمر بالصلاة والسلام عليه ﷺ حيث قال تعالى: {إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٥٦].

ووجه إيصال هذه الآية بما قبلها هو أنه لما كان من الواجب على المكلفين تعظيم النبي ﷺ برفع الأذى عنه، وإظهار شرفه وكرامته، فذكر الله تعالى القسم الأول- أي رفع الأذى- في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ} [الأحزاب: ٥٣] إلى آخرها وذكر القسم الثاني- أي إظهار شرفه وكرامته- في هذه الآية الثانية، وبدأ بالأول لأن دفع المفاسد أهم.

وأيضًا لما أرشد الله تعالى المؤمنين إلى تعظيمه ﷺ بتعلم سلوك طريق الأدب معه في أشياء كثيرة تتعلق بحياته وموته إظهارًا لشرفه، وتعظيمًا له، عقبه بما يدل على أنه تعالى أيضًا معظم لشأنه أيضًا، وكذلك ملائكته المقربون حملة العرش وحفظته، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وفيه بيان لمنقبة عظيمة له ﷺ، فإن الملك قد يأمر بإكرام شخص ولا يكون عنده بمكان، فأزيل هذا التوهم، وبين أنه أكرم الخلق على ربه تعالى.

٦- وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [الأحزاب: ٥٧ - ٥٨]

فالله تعالى من تعظيمه لنبيه ﷺ حفظ له كرامته، وصان له حقه، ففرق بين

أذاه وأذى المؤمنين، فأوجب على من آذى النبي ﷺ اللعن والطرد من رحمته، وهذا حكم على من آذاه بالكفر، وفي الآخرة له العذاب المهين ومصيره إلى جهنم وبئس المصير. بينما حكم على من آذى المؤمنين بالبهتان والإثم، والفرق بين الحكمين ناتج عن الفرق بين حق النبي ﷺ وحق غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في استدلاله بهذه الآية على وجوب قتل من آذى النبي ﷺ: (ودلالتها من وجوه:

أحدها: أنه قرن أذاه بأذاه كما قرن طاعته بطاعته، فمن آذاه فقد آذى الله تعالى، وقد جاء ذلك منصوصًا عنه، ومن آذى الله فهو كافر حلال الدم. بين ذلك أن الله تعالى جعل محبة الله ورسوله، وإرضاء الله ورسوله، وطاعة الله ورسوله شيئًا واحدًا ف قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة: ٢٤] وقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ} [ال عمران: ١٣٢] في مواضع متعددة، وقال تعالى: {وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} [التوبة: ٦٢] فوحد الضمير، وفي ذلك إشارة إلى أن إرضاء الله إرضاء للرسول، وإرضاء الرسول فيه إرضاء لله، وقال أيضًا: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ} [الفتح: ١٠] وقال أيضًا: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُول }[الأنفال: ١]

وجعل شقاق الله ورسوله، ومحادة الله ورسوله، وأذى الله ورسوله، ومعصية الله ورسوله شيئًا واحدًا، فقال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ} [الأنفال: ١٣] وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ} [المجادلة: ٢٠] وقال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ} [التوبة: ٦٣] وقال: {وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ} [النساء: ١٤].

وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين، وأن جهة حرمة الله تعالى ورسوله جهة واحدة، فمن آذى الرسول فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة الرسول، ليس لأحد منهم طريق غيره، ولا سبب سواه، وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه، وإخباره وبيانه، فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور.

وثانيها: أنه فرق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين والمؤمنات، فجعل على هذا أنه قد احتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا وجعل على ذلك اللعنة في الدنيا والآخرة وأعد له العذاب المهين، ومعلوم أن أذى المؤمنين قد يكون من كبائر الإثم وفيه الجلد، وليس فوق ذلك إلا الكفر والقتل.

الثالث: أنه ذكر أنه لعنهم في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابًا مهينًا، واللعن: الإبعاد عن الرحمة، ومن طرده عن رحمته في الدنيا والآخرة لا يكون إلا كافرًا، فإن المؤمن يقرب إليها بعض الأوقات ولا يكون مباح الدم، لأن حقن الدم رحمة عظيمة من الله، فلا تثبت في حقه...).

ومما يوضح ذلك أن سب النبي ﷺ قد تعلق به عدة حقوق: أ- حق الله سبحانه من حيث كفر برسوله، وعادى أفضل أوليائه وبارزه بالمحاربة، ومن حيث طعن في كتابه ودينه، فإن صحتهما موقوفة على صحة الرسالة، ومن حيث طعن في ألوهيته، فإن الطعن في الرسول طعن في المرسِل، وتكذيبه تكذيب لله تبارك وتعالى وإنكار لكلامه وأمره وخبره وكثير من صفاته.

ب- وتعلق به حق جميع المؤمنين من هذه الأمة ومن غيرها من الأمم، فإن جميع المؤمنين مؤمنون به خصوصًا أمته، فإن قيام أمر دنياهم ودينهم وآخرتهم به، بل عامة الخير الذي يصيبهم في الدنيا والآخرة بوساطته وسفارته، فالسب له أعظم عندهم من سب أنفسهم، وآبائهم، وأبنائهم، وسب جميعهم، كما أنه

أحب إليهم من أنفسهم، وأولادهم، وآبائهم، والناس أجمعين.

ج- وتعلق به حق رسول الله كلها من حيث خصوص نفسه، فإن الإنسان تؤذيه الوقيعة في عرضه أكثر مما يؤذيه أخذ ماله، وأكثر مما يؤذيه الضرب، بل ربما كانت عنده أعظم من الجرح ونحوه، خصوصًا من يجب عليه أن يظهر للناس كمال عرضه، وعلو قدره لينتفعوا بذلك في الدنيا والآخرة.

٧- وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة: ١٠٤].

قال بعض المفسرين: هي لغة كانت في الأنصار، نهوا عن قولها تعظيمًا للنبي ﷺ وتبجيلًا له، لأن معناها ارعنا نرعك، فنهوا عن قولها، إذ مقتضاها كأنهم لا يرعونه إلا برعايته لهم، بل حقه أن يرعى على كل حال.

وقيل: كانت اليهود تعرض بها للنبي ﷺ بالرعونة، فنهي المسلمون عن قولها قطعًا للذريعة، ومنعًا للتشبه بهم في قولها لمشاركة اللفظة، وقيل غير هذا.

٨- وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا} [الأحزاب: ٥٣].

ففي هذه الآية حرم الله على الأمة أن تنكح أزواجه من بعده لأن ذلك يؤذيه، وجعله عظيمًا عند الله تعظيمًا لحرمته ﷺ، فحرم تعالى على الأمة ما هو مباح أن يعامل به بعضهم بعضًا، وذلك تمييزًا لنبيه ﷺ وتعظيمًا لشأنه. وقد ذكر أن هذه الآية نزلت لما قال بعض الناس: لو قد توفي رسول الله ﷺ تزوجت عائشة.

ولو أن أحدًا أقدم على هذا الأمر فنكح أزواجه أو سراريه لكانت عقوبته في الشرع هي القتل جزاء له بما انتهك من حرمته، والدليل على ذلك ما رواه مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلًا كان يتهم بأم ولد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لعلي اذهب فاضرب عنقه فأتاه علي فإذا هو في ركي يتبرد فيها،

فقال له علي أخرج فناوله يده فأخرجه فإذا هو مجبوب ليس له ذكر فكف علي عنه، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه لمجبوب ما له ذكر.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (فهذا الرجل أمر النبي ﷺ بضرب عنقه لما قد استحل من حرمته، ولم يأمر بإقامة حد الزنا، لأن إقامة حد الزنا ليس هو ضرب الرقبة، بل إن كان محصنًا رجم، وان كان غير محصن جلد، ولا يقام عليه الحد إلا بأربعة شهداء أو بالإقرار المعتبر، فلما أمر النبي ﷺ بضرب عنقه من غير تفصيل بين أن يكون محصنًا أو غير محصن علم أن قتله لما انتهكه من حرمته... فلما تبين أنه كان مجبوبًا علم أن المفسدة مأمونة منه...).

وبالإضافة إلى ما تقدم، فقد أوجب الله على الأمة احترام أزواج النبي ﷺ وجعلهن أمهات في التحريم والاحترام.

فقال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ} [الأحزاب: ٦] ففي هذه الآية رفع الله مقام أزواج النبي ﷺ وبوأهن منزلة عالية، وهي منزلة الأمومة لجميع المؤمنين، وفي ذلك من الحرمة والاحترام، والتوقير، والإكرام، والإعظام ما يوجب على كل مسلم أن يحفظ لهن هذا الحق ويؤديه على الوجه المطلوب منه شرعًا.

وهذه المنزلة لأمهات المؤمنين هي من التشريف والتعظيم الذي أعطاه الله للنبي ﷺ.

٩- وقال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ

تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٢ - ٦٣].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين منهج تعظيم قدر النبي ﷺ، وبيان ما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمنين في جميع أمورهم التي تربطهم به ﷺ نبيًا ورسولًا، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق، وخلع عليه جلابيب حرصه عليهم، وعزة عنتهم عليه.... وجاء في (الكشاف) عند تفسير هذه الآيات: (أراد الله ﷻ أن يريهم عظيم الجناية في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه، إذا كانوا معه على أمر جامع فجعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبرًا عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين، ثم عقبه بما يزيده توكيدًا وتشديدًا حيث أعاده على أسلوب آخر وهو قوله: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ} [النور: ٦٢] وضمنه شيئًا آخر، وهو أنه جعل الاستئذان كالمصدق بصحة الإيمان، وعرض بالمنافقين وتسللهم لواذًا).

وبهذه النصوص يتبين للمسلم أن حقوق رسول الله ﷺ أجل، وأعظم، وأكرم، وألزم لنا وأوجب علينا من حقوق السادات على مماليكهم، والآباء على أولادهم، لأن الله تعالى أنقذنا به من النار في الآخرة، وعصم به لنا أرواحنا، وأبداننا، وأعراضنا، وأموالنا، وأهلينا، وأولادنا في العاجلة، فهدانا به لأمر إذا أطعناه فيه أدانا إلى جنات النعيم، فأية نعمة توازي هذه النعم، وأية منة تداني هذه المنن. ثم إنه جل ثناؤه ألزمنا طاعته، وتوعدنا على معصيته بالنار، ووعدنا باتباعه الجنة، فأي رتبة تضاهي هذه الرتبة، وأي درجة تساوي في العلا هذه الدرجة.

فحق علينا إذًا أن نحبه، ونجله، ونعظمه، ونهابه، فبهذا نكون من المفلحين: {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ١٥٧] فالآية بينت أن الفلاح إنما يكون لمن جمع إلى الإيمان به تعزيره، ولا خلاف أن التعزير هنا التعظيم، فلقد سجل الله في هذه الآية الفلاح بأسلوب الحصر للذين تأدبوا بهذا الأدب القرآني الرفيع.

وكما قال تعالى في الإنافة بمقامه الأشرف، وبيان حقه على كل مؤمن ومؤمنة: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} [الفتح: ٨ - ٩].

وقد ذهب علماء السلف إلى أن الضمير في قوله جل شأنه: وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ راجع إلى رسول الله ﷺ ومعناه: تعظموا رسول الله ﷺ وتفخموه في أدب المخاطبة والتحدث إليه ومجالسته. قال ابن تيمية: (فالتسبيح لله وحده، والتعزير والتوقير للرسول، والإيمان بالله ورسوله).

فهذه الآيات وغيرها نزلت لتبين مقام شرف رسول الله ﷺ وعظيم منزلته عند ربه، مما يوجب على المؤمنين برسالته أن يكونوا في مخاطباتهم معه على سنن الإجلال والتعظيم[1].

مسألة: نواقض الإيمان بالنبي ﷺ

إن مما ينبغي معرفته بعد توضيح معنى الإيمان بالنبي ﷺ، وتبيين شروط الشهادة ومراتبها، أن تعرف نواقض هذا الأمر ومبطلاته حتى يحترز المسلم من الوقوع فيها، فعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني...)[2] الحديث.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ

---

(١) حقوق النبي ﷺ على أمته (٢/ ٤٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

في الإسلام من لا يعرف الجاهلية)[١].

ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أعظم هذه الأمة إيمانًا لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير، وبغضهم للشر، لما علموه من حسن حال الإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي.

ولمعرفة نواقض الإيمان به ﷺ نقول:

لما كان الإيمان به ﷺ يعني تصديقه وتصديق ما جاء به ﷺ، والانقياد له، فإن الطعن في أحد هذين الأمرين ينافي الإيمان ويناقضه. فالنواقض على هذا الاعتبار يمكن تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: الطعن في شخص الرسول ﷺ.

القسم الثاني: الطعن فيما أخبر به الرسول ﷺ مما هو معلوم من الدين بالضرورة، إما بإنكاره أو بانتقاصه.

القسم الأول: الطعن في شخص الرسول ﷺ:

ومما يدخل تحت هذا القسم نسبة أي شيء للرسول عليه الصلاة والسلام مما يتنافى مع اصطفاء الله له لتبليغ دينه إلى عباده، فيكفر كل من طعن في صدق الرسول ﷺ، أو أمانته، أو عفته، أو صلاح عقله ونحو ذلك.

كما يكفر من سب الرسول ﷺ، أو عابه، أو ألحق به نقصًا في نفسه، أو نسبه، أو دينه، أو خصلة من خصاله، أو عرّض به، أو شبهه بشيء على طريق السب له أو الإزراء عليه، أو التصغير لشأنه، أو الغض منه أو العيب له، فهو ساب له، والحكم فيه حكم الساب يقتل كفرًا، وكذلك من لعنه، أو دعا عليه، أو تمنى مضرة له، أو نسب إليه مالا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام، وهُجر ومنكر من القول وزور، أو عيره بشيء مما

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٩٠).

جرى من البلاء والمحنة عليه، أو تنقصه ببعض العوارض البشرية الجائزة المعهودة لديه[١].

فالساب إن كان مسلمًا فإنه يكفر ويقتل بغير خلاف، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم.

وإن كان ذميًا فإنه يقتل أيضًا في مذهب مالك وأهل المدينة، وهو مذهب أحمد وفقهاء الحديث، وهو المنصوص عن الشافعي نفسه كما حكاه غير واحد[٢].

وهذا الحكم على الساب والمستهزئ، يستوي فيه الجاد والهازل بدليل قوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ، لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

وهذا نص في أن الاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله كفر، (فالسب المقصود بطريق الأولى)، وقد دلت هذه الآية على أن كل من تنقص رسول الله ﷺ جادًا أو هازلًا فقد كفر.

وقد رُوي عن رجال من أهل العلم منهم ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد ابن أسلم، وقتادة -دخل حديث بعضهم في بعض- أنه قال رجل من المنافقين في غزوة تبوك: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء، فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك رجل منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد

---

(١) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٩٣٢).

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ٤، ٨) بتصرف.

ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نلعب ونتحدث حديث الركب، نقطع به عناء الطريق.

قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة لتنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ما يلتفت إليه، ولا يزيده عليه(١)(٢).

فهؤلاء لما تنقصوا النبي ﷺ حيث عابوه والعلماء من أصحابه، واستهانوا بخبره أخبر الله أنهم كفروا بذلك وإن قالوه استهزاء فكيف بما هو أغلظ من ذلك؟(٣).

ومن الأدلة على كفر الطاعن في شخص الرسول ﷺ قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} [الأحزاب: ٥٧].

واللعن: الإبعاد عن الرحمة، ومن طرده عن رحمته في الدنيا والآخرة لا يكون إلا كافرًا(٤).

وفي هذه الآية قرن الله بين أذى النبي ﷺ وأذاه، كما قرن في آيات أخر بين طاعته وطاعة نبيه، وفى هذا وغيره بيان لتلازم الحقين، وأن جهة حرمة الله تعالى ورسوله جهة واحدة، فمن آذى الرسول فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة النبي ﷺ، وليس لأحد منهم

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٣١٣) بلفظ مقارب. قال الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول (١٢٢): رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد فلم يخرج له مسلم إلا في الشواهد وله شاهد بسند حسن.

(٣) الصارم المسلول (ص: ٣١ - ٣٣).

(٤) الصارم المسلول (ص: ٤١).

طريق غيره، ولا سبب سواه، وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه، وإخباره وبيانه، فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور[١].

ومن الأدلة الواردة في السنة حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله، فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟، قال: نعم...) الحديث[٢]. فعلم من هذا الحديث أن من آذى الله ورسوله كان حقه أن يقتل كما قتل كعب بن الأشرف، والأدلة من الكتاب والسنة على هذه المسألة كثيرة ولا مجال لاستيعابها هنا.

- الإجماع: وقد أجمعت الأمة على قتل منتقصه من المسلمين وسابه، وكذلك حكى غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره.

وقال الإمام إسحاق بن راهوية أحد الأئمة الأعلام: (أجمع المسلمون على أن من سب الله، أو سب رسوله صلى الله عليه وسلم، أو دفع شيئًا مما أنزل الله عز وجل، أو قتل نبيًا من أنبياء الله عز وجل أنه كافر بذلك وإن كان مقرًا بكل ما أنزل إليه). وقال الخطابي: (لا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف في وجوب قتله). وقال محمد بن سحنون: أجمع العلماء على أن شاتم النبي صلى الله عليه وسلم والمتنقص له كافر، والوعيد جاء عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر[٣].

ومن المعلوم أن سب النبي صلى الله عليه وسلم تعلق به عدة حقوق:

١- حق الله سبحانه:

من حيث كفر برسوله، وعادى أفضل أوليائه، وبارزه بالمحاربة، ومن حيث

---

(١) الصارم المسلول (ص: ٤٠ - ٤١) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٣٧).

(٣) الصارم المسلول (ص: ٣ - ٤).

طعن في كتابه ودينه، فإن صحتهما موقوفة على صحة الرسالة، ومن حيث طعن في ألوهيته، فإن الطعن في الرسول طعن في المرسل، وتكذيبه تكذيب لله تبارك وتعالى، وإنكار لكلامه، وأمره، وخبره، وكثير من صفاته.

٢- وتعلق حق جميع المؤمنين:

من هذه الأمة ومن غيرها من الأمم به، فإن جميع المؤمنين مؤمنون به خصوصًا أمته فإن قيام أمر دنياهم ودينهم وآخرتهم به، بل عامة الخير الذي يصيبهم في الدنيا والآخرة بواسطته وسفارته، فالسب له أعظم عندهم من سب أنفسهم، وآبائهم، وأبنائهم، وسب جميعهم، كما أنه أحب إليهم من أنفسهم، وأولادهم، وآبائهم، والناس أجمعين.

٣- وتعلق حق رسول الله ﷺ به:

من حيث خصوص نفسه، فإن الإنسان تؤذيه الوقيعة في عرضه أكثر مما يؤذيه أخذ ماله، وأكثر مما يؤذيه الضرب، بل ربما كانت عنده أعظم من الجرح ونحوه، خصوصًا من يجب عليه أن يظهر للناس كمال عرضه وعلو قدره لينتفعوا بذلك في الدنيا والآخرة، فإن هتك عرضه وعلو قدره قد يكون أعظم عنده من قتله، فإن قتله لا يقدح عند الناس في نبوته ورسالته وعلو قدره كما أن موته لا يقدح في ذلك، بخلاف الوقيعة في عرضه فإنها قد تؤثر في نفوس بعض الناس من النفرة عنه، وسوء الظن به ما يفسد عليهم إيمانهم، ويوجب لهم خسارة الدنيا والآخرة...»[1].

وبهذا يعلم أن السب فيه من الأذى لله ولرسوله ولعباده المؤمنين ما ليس في غيره من الأمور كالكفر والمحاربة.

وبما تقدم ذكره من الأدلة يتضح انتقاض إيمان من طعن في شخص الرسول

(١) الصارم المسلول (ص: ٢٩٣ - ٢٩٤).

ﷺ بسب، أو استهزاء، أو انتقاص سواء كان في ذلك جادًا أو هازلًا.

ويستثنى من ذلك المكره بدليل قوله تعالى: {إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ} [النحل: ١٠٦] فالآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهًا وجاء معتذرًا إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية، وروى أن مما قاله أنه سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله ما تركت حتى سببتك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنًا بالإيمان، فقال: إن عادوا فعد)[1]. وفي ذلك أنزل الله: {إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}، ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى، كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل...[2].

القسم الثاني: من نواقض الإيمان بالنبي ﷺ:

الطعن فيما أخبر به الرسول لا- مما هو معلوم من الدين بالضرورة- إما بإنكاره أو انتقاصه.

فإذا اجتمعت الشروط التالية في المنكر وهي:

أ- أن يكون ذلك الأمر المنغص من الأمور التي أجمعت عليها الأمة، وأن يكون من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة: أي أن يكون علمه منتشرًا

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٧) والبيهقي (٨/ ٢٠٨، ٢٠٩). قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وقال ابن كثير في إرشاد الفقيه (٢/ ٢٩٥): إسناده صحيح وزاد بعضهم وفي هذا أنزلت: من كفر بالله من بعد إيمانه.. الآية. وقال الحافظ في الدراية (٢/ ١٩٧): إسناده صحيح إن كان محمد بن عمار سمعه من أبيه. وقال الألباني في فقه السيرة (١٠٣): في ثبوت هذا السياق نظر وعلته الإرسال.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٧، ٥٨٨) بتصرف.

كالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، وعموم رسالته[١].

ب- أن لا يكون المنكر حديث عهد بالإسلام لا يعرف حدوده، فهذا إذا أنكر شيئًا من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة جهلًا به فإنه لا يكفر[٢].

ج- أن لا يكون المُنكِر مكرهًا على ذلك، فإن المكره له حكم آخر كما قدمنا ذلك.

والمُنكِر في هذه الحالة يحكم بكفره وانتقاض إيمانه. والمنتقص لأمور الدين إذا كان غير مكره فإنه يكفر سواء كان جادًا في ذلك أم هازلًا.

والأمثلة على هذا القسم كثيرة جدًا نذكر منها على سبيل المثال ما يختص بجانب الإيمان برسالة النبي ﷺ.

أولًا: أن يعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، وأن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون القانون الوضعي على حكم الشرع، ويصفون الشريعة الإسلامية بالقصور والرجعية وعدم مسايرة التطور، وهذا من أعظم المناقضة لشهادة أن محمدًا رسول الله.

ثانيًا: من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به فهو كافر[٣].

ثالثًا: اعتقاد الإنسان أنه يسعه الخروج عن شريعة النبي ﷺ. ولهذا الأمر صورتان:

الأولى: أن لا يرى وجوب تصديق الرسول ﷺ ولا وجوب طاعته فيما أمر به، وإن اعتقد مع ذلك أن الرسول ﷺ عظيم القدر علمًا وعملًا، وأنه يجوز تصديقه وطاعته، ولكنه يقول إنه لا يضر اختلاف الملل إذا كان المعبود واحدًا،

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ٢٠٥).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ٢٠٥).

(٣) الجامع الفريد: (رسالة نواقض الإسلام) للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ٢٨٢).

ويرى أنه تحصل النجاة والسعادة بمتابعة الرسول وبغير متابعته، وهذا هو قول الفلاسفة الصابئة، وهذا القول لا ريب في كفر صاحبه، فمن نواقض الإسلام أن يعتقد الإنسان عدم كفر المشركين، ويرى صحة مذهبهم، أو يشك في كفرهم.

وهذا القول هو الذي ينادي به في وقتنا الحاضر من يدعون إلى وحدة الأديان، ويروج لهم في ذلك الماسونية اليهودية.

الثانية: من يرى طلب العلم بالله من غير خبره، أو العمل لله من غير أمره، وهؤلاء وإن كانوا يعتقدون أنه يجب تصديق الرسول أو تجب طاعته، لكنهم في سلوكهم العلمي والعملي غير سالكين هذا المسلك، بل يسلكون مسلكًا آخر إما من جهة القياس والنظر، وإما من جهة الذوق والوجدان، وإما من جهة التقليد، وما جاء عن الرسول إما أن يعرضوا عنه وإما أن يردوه إلى ما سلكوه.

وإضافة إلى هذه النواقض فإن الإيمان بالنبي ﷺ ينتقض أيضا بالنواقض العامة الأخرى للإسلام[1].

(باب متفرقات)

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (١/ ٥٠): هل مجرد التلفظ بالشهادتين يعصم الإنسان ويعصم دمه وماله، وإذا انتفى عنه العلم بمدلول (لا إله إلا الله) وهو يردده ليل نهار هل تكفيه؟ وهل تدخله الجنة وتنجيه من النار؟.

فأجاب: لفظ (لا إله إلا الله) ولفظ شهادة (أن محمدا رسول الله) هاتان الشهادتان هما أصل الدين، هما أساس الملة، فمن أتى بهما وهو لا يقولهما قبل ذلك عصم دمه وماله وحكم بإسلامه، ثم ينظر ويعلم ويفقه، فإن قبل الحق واستقام عرف صدقه، وإن أبى واستمر على كفره وشركه وعبادته الأصنام

---

(١) حقوق النبي ﷺ على أمته (١/ ٤٨).

والأشجار والأحجار وأصحاب القبور، أو استمر على استهزائه بالدين أو سبه للدين أو غير هذا من نواقض الإسلام لم تنفعه هذه الشهادة، يكون مرتدا، يحكم بإسلامه أولا، ثم بمجيئه بما يخالف الإسلام بما يوجب الردة يحكم بردته؛ كما قال النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» فالشخص إذا نطق بالشهادتين وهو لا ينطق بهما سابقا حكم بإسلامه كما كان في عهد النبي ﷺ، وكما بينه الرسول ﷺ بالأحاديث الصحيحة من حديث أسامة وفي غيره من حديث ابن عمر وحديث أبي هريرة وغير ذلك، يقول عليه الصلاة والسلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» وفي لفظ آخر: «إلا بحق الإسلام".

فالمقصود أنه إذا أتى بحق الشهادة فإنه يعصم دمه وماله إذا كان لم يأت بهما قبل ذلك، ثم ينظر في أمره، فإن استقام على دين الله صار له حكم المسلمين، وإن أبى وبقي على كفره وضلاله لم تنفعه الشهادة بمجرد القول، فالمنافقون يقولونها وهم في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم قالوها ولم يعملوا بها؛ كفروا بها، كذبوا الله ورسوله، أو شكوا في دين الله، وهكذا الذين قال الله سبحانه فيهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

هناك أناس أظهروا الإسلام وشاركوا المسلمين في أعمالهم، ولكن ظهر منهم الاستهزاء بالرسول وبالإسلام، فلهذا أنزل الله في حقهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

وقد أجمع العلماء على أن من أتى بناقض من نواقض الإسلام يحكم عليه بذلك الناقض وإن قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وإن صلى وصام؛ لأن هذه الشهادة تنفع إذا أدى حقها، أما إذا ضيع حقها لم تنفع قائلها، والله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ٥٦): هل الإنسان الذي لم يصل أبدا في حياته، ثم وفق إلى التلفظ بالشهادتين قبل وفاته، هل يصبح هذا مسلما، ويعامل في الآخرة معاملة المسلمين؛ ويحشر مع المسلمين؟.

فأجاب: إذا كان أتى بها توبة ودخولا في الإسلام، يمحو الله بها ما مضى، إذا كان لا يقولها سابقا ثم جاء بها تائبا موحدا مخلصا لله، عارفا لمعناها، وترك الشرك، وترك المعاصي، والعزم على ترك الجميع، فهذا معناه توبة يمحو الله بها ما سلف، أما إذا كان يقولها كالعادة ما تنفعه، إذا كان مات على الشرك، هو يقولها في حياته وعند وفاته إذا كان يقولها وهو يعبد القبور ويستغيث بالأموات، ويأتي المعاصي، لم يقلها عن توبة وعن رجوع، فهي مثل قوله لها في حياته وصحته، لا تؤثر شيئا، كالمنافقين يقولونها وهم على كفرهم ونفاقهم؛ ومثل عباد القبور اليوم يقولونها في المجالس وفي المكان وهم يعبدون أصحاب القبور، يستغيثون بهم وينذرون لهم، ويذبحون لهم كعباد البدوي، وعباد الحسين، وعباد الشيخ عبد القادر، وعباد غيرهم.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ٦٧): هل هناك من يدخل الجنة بغير حساب؟.

فأجاب: نعم، أخبر عنه النبي ﷺ حين قال: «عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجلان، والنبي وليس معه أحد حتى قال في آخره إنه: أبلغ أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفا بغير حساب ولا عذاب فسأله

الصحابة عنهم فقال: هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون".

والمقصود من هذا: أن المؤمن الذي استقام على أمر الله وترك محارم الله ومات على الاستقامة فإنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، ومنهم هؤلاء الذين أخبر عنهم ﷺ " لا يسترقون " يعني: لا يطلبون من الناس أن يرقوهم، يعني: لا يطلبون الرقية، أما كونهم يرقون غيرهم فلا بأس؛ لأنه محسن، الراقي محسن إذا رقى غيره، ودعا له بالعافية والشفاء هذا محسن. في الحديث الصحيح: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه».

أما الاسترقاء فهو طلب الرقية، وهو أن يقول: يا فلان اقرأ علي. ترك هذا أفضل، إلا من حاجة، إذا كان هناك حاجة فلا بأس أن يطلب الرقية، وقد ثبت عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال لها: «استرقي من كذا » فأمرها بالاسترقاء، كما أمر أسماء بنت عميس أن تسترقي لأولاد جعفر لما أصابتهم العين، قال عليه الصلاة والسلام: «لا رقية إلا من عين أو حمة » فالاسترقاء عند الحاجة لا بأس به، لكن تركه أفضل إذا تيسر علاج آخر، وهكذا الكي تركه أفضل إذا تيسر علاج آخر؛ لقوله ﷺ: «الشفاء في ثلاث: كية نار، أو شربة عسل، أو شرطة محجم، وما أحب أن أكتوي».

وفي اللفظ الآخر قال: «وأنا أنهى أمتي عن الكي». فدل ذلك على أن الكي ينبغي أن يكون هو آخر الطب عند الحاجة إليه، فإذا تيسر أن يكتفى بغيره من الأدوية فهو أولى، وقد ثبت عنه ﷺ أنه كوى بعض أصحابه عليه الصلاة والسلام، فإذا دعت الحاجة إلى الكي فلا كراهة، وإن استغنى عنه بدواء آخر مثل شربة عسل أو شرطة محجم، يعني الحجامة أو قراءة أو دواء آخر، كان أفضل من الكي، فالمقصود أن قوله ﷺ: «لا يسترقون ولا يكتوون » لا يدل

على التحريم وإنما يدل على أن هذا هو الأفضل، عدم الاسترقاء يعني عدم طلب الرقية وعدم الكي، هذا هو الأفضل، ومتى دعت الحاجة إلى الاسترقاء أو الكي فلا حرج ولا كراهة في ذلك.

«ولا يتطيرون»: التطير هو التشاؤم بالمرئيات أو المسموعات، والتطير الشرك من عمل الجاهلية، فهؤلاء السبعون يتركون ما حرم الله عليهم من الطيرة وما كره لهم من الاسترقاء والكي عند عدم الحاجة إليه، وعلى ربهم يتوكلون، يتركون ذلك ثقة بالله واعتمادا عليه وطلبا لمرضاته، والمعنى أنهم استقاموا على طاعة الله، وتركوا ما حرم الله، وتركوا بعض ما أباح الله، إذا كان غيره أفضل منه، كالاسترقاء والكي يرجون ثواب الله ويخافون عقابه، ويتقربون إليه بما هو أحب إليه سبحانه وتعالى عن توكل وعن ثقة به، واعتماد عليه سبحانه وتعالى.

وجاء في الرواية الأخرى، «أن الله زاده مع كل ألف سبعين ألفا". وفي بعض الروايات الأخرى: «وثلاث حثيات من حثيات ربي ﷻ» وهذه الحثيات لا يعلم مقدارها إلا الله سبحانه وتعالى، والجامع في هذا أن كل مؤمن استقام على أمر الله وعلى ترك محارم الله ووقف عند حدود الله هو داخل في السبعين، داخل في حكمهم بأنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

مسألة

قال العلامة الألباني في أصل صفة الصلاة (٣/ ٨٨١ – ٨٨٣): اعلم أن هذه الشهادة «أي شهادة أن محمدًا عبد الله ورسوله» قد جمعت له -صلى الله عليه وآله وسلم- صفتين لا يتم إيمان المرء به -صلى الله عليه وآله وسلم- إلا إذا تحقق بمعناهما.

الأولى: كونه -صلى الله عليه وآله وسلم- عبدًا لله تعالى، كغيره من عباده تعالى، فهو مثلهم من هذه الناحية، كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} .

وقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إنما أنا بشر مثلكم؛ أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني». وقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «لا تطروني كما أَطْرَتِ النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد. فقولوا: عبد الله ورسوله».

ولذلك فلا يجوز لمسلم يشهد هذه الشهادة أن ينزله -صلى الله عليه وآله وسلم- منزلة فوق التي أنزله الله تعالى فيها؛ فإن ذلك مما لا يرضاه -صلى الله عليه وآله وسلم- ، كما قال في الحديث: «أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله! ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ». ولا أن يمدحه إلا بما مدحه الله به، أو بما صحت به الأحاديث والأخبار، فَمَدْحُهُ -صلى الله عليه وآله وسلم- بمثل قول بعضهم:

فإن من جودك الدنيا وضَرّتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فهذا القول مما يتنافى مع الشهادة بالعبودية لمحمد -صلى الله عليه وآله وسلم- ، وهو القائل- كما حكاه الله تعالى في القرآن الكريم-: {وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ}. وهو القائل للجارية التي كنت تندب من قتل يوم [بدر]، ثم قالت: وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «لا تقولي هكذا، وقولي كما كنت تقولين».

ولذلك قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حديث لها في «الصحيحين»: «ومن حدثكم أن محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يعلم ما في غد؛ فقد أعظم على الله الفرية».

فإذا كان هذا شأن من قال عنه -صلى الله عليه وآله وسلم-: إنه يعلم ما في غد؛ فما بال من يقول: إنَّ من بعض علومه علمَ اللوح والقلم؟! فلا جَرَم أن حَذَّرَنا -صلى الله عليه وآله وسلم- من الغلو في مدحه وتعظيمه؛ فإنه سبب هلاك الأمم قبلنا كما قال -صلى الله عليه وآله وسلم-:

«إياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك الذين من قبلكم غلوهم في دينهم».

وأما الصفة الأخرى: فهي كونه -صلى الله عليه وآله وسلم- رسولاً اصطفاه الله تعالى، وخصه بالوحي وأطلعه على بعض المغيبات، وذلك يستلزم الإيمان بكل ما قاله -صلى الله عليه وآله وسلم- ، وصح عنه من التشريعات والأخبار بالمغيبات، سواء كان ذلك موافقًا لعقلك، أو بعيدًا عن فهمك وعقلك، يجب الإيمان بذلك كله، فمن لم يكن هذا موقفه معه -صلى الله عليه وآله وسلم- ؛ فهو لم يؤمن حق الإيمان بأن محمداً رسول الله، فما تنفعه هذه الشهادة، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، وذلك ما يفيد قوله تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} ولا شك أن إيمانك وتصديقك بما جاء به محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- من الأمور التشريعية والغيبية- ولو كانت بعيدة عن متناول عقلك- ؛ إنما هو من الإيمان بالغيب الذي هو من صفات المتقين في القرآن: {ألم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} (البقرة: ١ - ٣). فقف أيها المؤمن عند نص الشارع الحكيم، ولا تُغالِ فيه، ولا تفرط؛ بل وسطًا بين ذلك، لتكون من الناجين عند رب العالمين.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في موسوعته العقدية (٢/ ١٢٧): يا شيخ! هل في فرق كبير بين: لا معبود بحق إلا الله، ولا معبود بحق "في الوجود إلا الله"؟

الشيخ: ما في فرق؛ لأن الوجود هو هذا الخلق الذي خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ بقدرته، لا فرق لكن الفرق البعيد هو بين عبارة: لا معبود بحق إلا الله، وبين: لا معبود إلا الله، هذا الفرق، أما قضية ذكرنا: "في الوجود" أو ما ذكرناها فهذا لا يترتب من

ورائه شيء، لكن بعض المؤلفين..

أنا قرأت رسالة هناك في دمشق لأحد مشايخ الطريقة الشاذلية واسمه: الشيخ محمد المغربي، كما قرأت رسالة أخرى لبعض جماعة التبليغ فسر هذه الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله: بلا معبود إلا الله، وهذا هو القول بوحدة الوجود؛ لأن كل المعبودات اليوم تعبد من دون الله تبارك وتعالى، فإذا أطلق عليها: لا معبود إلا الله، فمعنى ذلك: أن هذه المعبودات هي الله، أما حينما يقول المسلم كما قال أهل العلم: لا معبود بحق إلا الله فحينئذٍ نفى الآلهة التي تعبد من دون الله وهذا معنى قوله: لا إله إلا الله، فأثبتوا بكلمة التوحيد توحيد الربوبية، هذا التوحيد الذي لا بد منه لكل مؤمن حقًّا لكنه وحده لا ينجي من الشرك والكفر؛ لأن المشركين كانوا يعتقدون أنه لا خالق إلا الله.. لا رازق إلا الله، ولذلك حكى الله ﷻ عنهم قوله: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} (لقمان: ٢٥) لكن في آية أخرى: {إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ} (الصافات: ٣٥) لماذا؟ لأن في هذه الكلمة الطيبة نفي كل معبوداتهم إلا الله تبارك وتعالى، ولذلك أنكروا توحيد الألوهية فكفروا بالله ﷻ.

وقال رحمه الله في الصحيحة (٣/ ٣٠٠ - ٣٠٢): قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا، يصلي الصلوات الخمس ويصوم رمضان

غفر له». قلت: أفلا أبشرهم يا رسول الله؟ قال: «دعهم يعملوا».

قلت: وفي الحديث دلالة ظاهرة على أن المسلم لا يستحق مغفرة الله إلا إذا لقى الله ﷻ ولم يشرك به شيئًا، ذلك لأن الشرك أكبر الكبائر كما هو معروف في الأحاديث الصحيحة. ومن هنا يظهر لنا ضلال أولئك الذين يعيشون معنا ويصلون صلاتنا ويصومون صيامنا، و.... ولكنهم يواقعون أنواعًا من

الشركيات والوثنيات كالاستغاثة بالموتى من الأولياء والصالحين ودعائهم في الشدائد من دون الله والذبح لهم والنذر لهم ويظنون أنهم بذلك يقربونهم إلى الله زلفى، هيهات هيهات. {ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار} !

فعلى كل من كان مبتلى بشيء من ذلك من إخواننا المسلمين أن يبادروا فيتوبوا إلى رب العالمين ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم النافع المستقى من الكتاب والسنة.

وهو مبثوث في كتب علمائنا رحمهم الله تعالى، وبخاصة منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ومن نحا نحوهم وسار سبيلهم، ولا يصدنهم عن ذلك بعض من يوحي إليهم من الموسوسين بأن هذه الشركيات إنما هي قربات وتوسلات، فإن شأنهم في ذلك شأن من أخبر عنهم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ممن يستحلون بعض المحرمات بقوله "يسمونها بغير اسمها".

هذه نصيحة أوجهها إلى من يهمه أمر آخرته من إخواننا المسلمين المضلَّلين، قبل أن يأتي يوم يحق فيه قول رب العالمين في بعض عباده الأبعدين: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا} .

وقال رَحِمَهُ اللهُ في الصحيحة أيضا (١/ ١/ ٥٥، ٥٧ - ٥٨): قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار».

في هذا الحديث فائدة هامة أغفلتها عامة كتب الفقه، ألا وهي مشروعية تبشير الكافر بالنار إذا مُرَّ بقبره، ولا يخفى ما في هذا التشريع من إيقاظ المؤمن وتذكيره بخطورة جرم هذا الكافر حيث ارتكب ذنبًا عظيمًا تهون ذنوب الدنيا كلها تجاهه ولو اجتمعت، وهو الكفر بالله عَزَّ وَجَلَّ والإشراك به، الذي أبان الله تعالى عن شدة مقته إياه حين استثناه من المغفرة فقال: {إن الله لا يغفر أن يشرك به،

ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، ولهذا قال -صلى الله عليه وآله وسلم-:

«أكبر الكبائر أن تجعل لله ندا وقد خلقك» متفق عليه. وإن الجهل بهذه الفائدة مما أودى ببعض المسلمين إلى الوقوع في خلاف ما أراد الشارع الحكيم منها، فإننا نعلم أن كثيرًا من المسلمين يأتون بلاد الكفر لقضاء بعض المصالح الخاصة أو العامة، فلا يكتفون بذلك حتى يقصدوا زيارة بعض قبور من يسمونهم بعظماء الرجال من الكفار ويضعون على قبورهم الأزهار والأكاليل ويقفون أمامها خاشعين محزونين، مما يشعر برضاهم عنهم وعدم مقتهم إياهم، مع أن الأسوة الحسنة بالأنبياء عليهم السلام تقضي خلاف ذلك كما في هذا الحديث الصحيح واسمع قول الله ﷻ: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءآؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا.. } الآية، هذا موقفهم منهم وهم أحياء فكيف وهم أموات؟!.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم (ص ٦-٨): لابد لي من أن أحذر من بعض المعاصي التي يكثر ابتلاء الناس بها، ويُحرِمون بالحج ولا يشعرون إطلاقًا بأن عليهم الاقلاع عنها، ذلك لجهلهم وغلبة الغفلة عليهم، وتقليدهم لآبائهم.

١ - الشرك بالله ﷻ:

فإن من أكبر المصائب التي أصيب بها بعض المسلمين جهلهم بحقيقة الشرك الذي هو أكبر الكبائر، ومن صفته أنه يحبط الأعمال:

{لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} (محمد: ٦٥). فقد رأينا كثيرًا من الحجاج يقعون في الشرك وهم في بيت الله الحرام، وفي مسجد النبي عليه الصلاة والسلام، يتركون دعاء الله والاستغاثة به، إلى الاستعانة بالأنبياء والصالحين

ويحلفون بهم، ويدعونهم من دون الله ﷻ، والله ﷻ يقول: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ. إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} (فاطر: ١٤). والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا، وفي هذه كفاية لمن فتح قلبه للهداية. إذ ليس الغرض الآن البحث العلمي في هذه المسألة، وإنما هو التذكير فقط.

فليت شعري ماذا يستفيد هؤلاء من حجهم إلى بيت الله الحرام، إذا كانوا يصرّون على مثل هذا الشرك، ويغيرون اسمه، فيسمونه: توسلًا، وشفعًا، وواسطة! أليست هذه الوساطة هي التي ادعاها المشركون من قبل يبررون بها شركهم وعبادتهم لغيره تبارك وتعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} (الزُّمر: ٣). فيا أيها الحاج، قبل أن تعزم على الحج، يجب عليك وجوبًا عينيًا أن تبادر إلى معرفة التوحيد الخالص وما ينافيه من الشرك، وذلك بدراسة كتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم-، فإن من تمسك بهما نجا، ومن حاد عنهما ضل. والله المستعان.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في التعليق على متن الطحاوية (ص٧ - ١٠): إن نفي الشريك عن الله تعالى لا يتم إلا بنفي ثلاثة أنواع من الشرك:

الأول: الشرك في الربوبية وذلك بأن يعتقد أن مع الله خالقا آخر - سبحانه وتعالى - كما هو اعتقاد المجوس القائلين بأن للشر خالقا غير الله سبحانه، وهذا النوع في هذه الأمة قليل والحمد لله وإن كان قريبا منه قول المعتزلة: إن الشر إنما هو من خلق الإنسان، وإلى ذلك الإشارة بقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «القدرية مجوس هذه الأمة... » الحديث، وهو مخرج في مصادر عدة عندي أشرت إليها في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» رقم (٤٣١٨).

الثاني: الشرك في الألوهية أو العبودية، وهو أن يعبد مع الله غيره من الأنبياء

والصالحين، كالاستغاثة بهم، وندائهم عند الشدائد، ونحو ذلك، وهذا مع الأسف في هذه الأمة كثير، ويحمل وزره الأكبر أولئك المشايخ الذين يؤيدون هذا النوع من الشرك باسم التوسل «يسمونها بغير اسمها».

الثالث: الشرك في الصفات، وذلك بأن يصف بعض خلقه تعالى ببعض الصفات الخاصة به عَزَّوَجَلَّ، كعلم الغيب مثلًا، وهذا النوع منتشر في كثير من الصوفية ومن تأثر بهم مثل قول بعضهم في مدحه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-:

فإن من جودك الدنيا وضرتها... ومن علومك علم اللوح والقلم ومن هنا جاء ضلال بعض الدجالين، يزعمون أنهم يرون رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- اليوم يقظة، ويسألونه عما خفي عليهم من بواطن نفوس من يخالطونهم، ويريدون تأميرهم في بعض شؤونهم، ورسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ما كان ليعلم مثل ذلك في حال حياته {ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء} (الأعراف: ١٨٨) فكيف يعلم ذلك بعد وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى؟

هذه الأنواع الثلاثة من الشرك؛ من نفاها عن الله في توحيده إياه، فوحده في ذاته، وفي عبادته، وفي صفاته، فهو الموحد الذي تشمله كل الفضائل الخاصة بالموحدين.

ومن أخل بشيء منه، فهو الذي يتوجه إليه مثل قوله تعالى: {لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين} (الزمر: ٦٥).

فاحفظ هذا فإنه أهم شيء في العقيدة، فلا جرم أن المصنف [أي الطحاوي في عقيدته] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ به، ومن شاء التفصيل فعليه بشرح هذا الكتاب [أي الطحاوية] وكتب شيوخ الإسلام ابن تيمة، وابن القيم، وابن عبد الوهاب،

وغيرهم ممن حذا حذوهم واتبع سبيلهم {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} (الحشر: ١٠).

مسألة

سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٧٧): عن الشهادتين؟.

فأجاب: الشهادتان " شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله " هما مفتاح الإسلام ولا يمكن الدخول إلى الإسلام إلا بهما، ولهذا أمر النبي ﷺ، معاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن أن يكون أول ما يدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

فأما الكلمة الأولى: "شهادة أن لا إله إلا الله " فأن يعترف الإنسان بلسانه وقلبه بأنه لا معبود حق إلا الله عز وجل لأن إله بمعنى مألوه والتأله التعبد. والمعنى أنه لا معبود حق إلا الله وحده، وهذه الجملة مشتملة على نفي وإثبات، أما النفي فهو "لا إله" وأما الإثبات ففي "إلا الله" والله "لفظ الجلالة" بدل من خبر "لا" المحذوف، والتقدير "لا إله حق إلا الله" فهو إقرار باللسان بعد أن آمن به القلب بأنه لا معبود حق إلا الله عز وجل وهذا يتضمن إخلاص العبادة لله وحده ونفي العبادة عما سواه.

وبتقديرنا الخبر بهذه الكلمة "حق" يتبين الجواب عن الإشكال الذي يورده كثير من الناس وهو: كيف تقولون لا إله إلا الله مع أن هناك آلهة تعبد من دون الله وقد سماها الله تعالى آلهة وسماها عابدها آلهة؟ قال الله -تبارك وتعالى-: {فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ}. وقال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ}.

وقال تعالى: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ}. وقوله: {لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا}. فكيف يمكن أن نقول لا إله إلا الله مع ثبوت الألوهية لغير الله عز وجل ؟ وكيف

يمكن أن نثبت الألوهية لغير الله ﷻ والرسل يقولون لأقوامهم: {اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} ؟

والجواب على هذا الإشكال يتبين بتقدير الخبر في لا إله إلا الله فنقول: هذه الآلهة التي تعبد من دون الله هي آلهة، لكنها آلهة باطلة ليست آلهة حقة وليس لها من حق الألوهية شيء، ويدل لذلك قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} . ويدل لذلك أيضا قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} . وقوله تعالى عن يوسف، عليه الصلاة والسلام: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} . إذن فمعنى " لا إله إلا الله " لا معبود حق إلا الله ﷻ، فأما المعبودات سواه فإن ألوهيتها التي يزعمها عابدها ليست حقيقية، أي ألوهية باطلة، بل الألوهية الحق هي ألوهية الله ﷻ .

أما معنى شهادة " أن محمدا رسول الله " فهو الإقرار باللسان والإيمان بالقلب بأن محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي، ﷺ، رسول الله ﷻ إلى جميع الخلق من الجن والإنس كما قال الله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} . وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} . ومقتضى هذه الشهادة أن تصدق رسول الله، ﷺ، فيما أخبر، وأن تمتثل أمره فيما أمر، وأن تجتنب ما عنه نهى وزجر، وأن لا تعبد الله إلا بما شرع، ومقتضى هذه الشهادة أيضا أن لا تعتقد أن لرسول الله، ﷺ، حقًا في الربوبية

وتصريف الكون، أو حقا في العبادة، بل هو، ﷺ، عبد لا يعبد، ورسول لا يكذب، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا من النفع أو الضر إلا ما شاء الله كما قال الله تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ}. فهو عبد مأمور يتبع ما أمر به، وقال الله تعالى: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا}. وقال -سبحانه-: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

فهذا معنى شهادة (أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله).

وبهذا المعنى تعلم أنه لا يستحق العبادة لا رسول الله، ﷺ، ولا من دونه من المخلوقين، وأن العبادة ليست إلا لله تعالى وحده {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}. وأن حقه، ﷺ، أن تنزله المنزلة التي أنزله الله تعالى إياها وهو أنه عبد الله ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٨٢): كيف كانت " لا إله إلا الله " مشتملة على جميع أنواع التوحيد؟.

فأجاب: هي تشمل جميع أنواع التوحيد كلها، إما بالتضمن، وإما بالالتزام، وذلك أن قول القائل: "أشهد أن لا إله إلا الله " يتبادر إلى الذهن أن المراد بها توحيد العبادة - الذي يسمى توحيد الألوهية - وهو متضمن لتوحيد الربوبية؛ لأن كل من عبد الله وحده، فإنه لن يعبده حتى يكون مقرا له بالربوبية، وكذلك متضمن لتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن الإنسان لا يعبد إلا من علم أنه مستحق للعبادة، لما له من الأسماء والصفات، ولهذا قال إبراهيم لأبيه: {يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ

مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} . فتوحيد العبادة متضمن لتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٨٣): عن قول بعض الناس إن معنى " لا إله إلا الله " إخراج اليقين الفاسد على الأشياء وإدخال اليقين الصادق على الله، أنه هو الضار والنافع والمحيي والمميت، وكل شيء لا يضر ولا ينفع وأن الله هو الذي وضع فيه الضر والنفع؟.

فأجاب: قول هذا القائل قول ناقص، فإن هذا معنى من معاني "لا إله إلا الله" ومعناها الحقيقي الذي دعا إليه رسول الله، ﷺ، وكفر به المشركون أنه لا معبود بحق إلا الله، فالإله بمعنى مفعول، وتأتي فِعال بمعنى مفعول وهذا كثير، ومنه فراش بمعنى مفروش، وبناء بمعنى مبني، وغراس بمعنى مغروس، فإله بمعنى مألوه، أي الذي تألهه القلوب وتحبه وتعظمه ولا يستحق هذا حقًّا إلا الله. فهذا معنى لا إله إلا الله.

وقد قسم العلماء التوحيد إلى أقسام ثلاثة: ربوبية، وألوهية، وأسماء وصفات، فتوحيد الربوبية هو إفراد الله -سبحانه- بالخلق والملك والتدبير، وتوحيد الألوهية هو إفراد الله -سبحانه- بالعبادة، وتوحيد الأسماء والصفات هو إفراد الله بما يجب له من الأسماء والصفات بأن نثبتها لله تعالى على وجه الحقيقة من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

وقد يقول البعض: إن هذا التقسيم للتوحيد بدعة. ولكن نقول: بتتبع النصوص الواردة في التوحيد وجدناها لا تخرج عن هذه الأقسام الثلاثة، والاستدلال المبني على التتبع والاستقراء ثابت حتى في القرآن، كما في قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} . والجواب: لا هذا ولا هذا. ولهذا قال تعالى: {كَلَّا

سَنكْتُبُ مَا يَقُولُ} .

وبعض المتكلمين قالوا: التوحيد أن تؤمن أن الله واحد في أفعاله لا شريك له، واحد في ذاته لا جزء له، واحد في صفاته لا شبيه له، وهذا تقسيم قاصر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٨٤): عن أول واجب على الخلق؟.

فأجاب: أول واجب على الخلق هو أول ما يدعى الخلق إليه، وقد بينه النبي، ﷺ، لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بعثه لليمن فقال له: «إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله». فهذا أول واجب على العباد أن يوحدوا الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن يشهدوا لرسوله، ﷺ، بالرسالة. وبتوحيد الله عَزَّ وَجَلَّ والشهادة لرسوله، ﷺ، يتحقق الإخلاص، والمتابعة اللذان هما شرط لقبول كل عبادة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٩٠): هل يجوز للإنسان أن يدعو على نفسه بالموت؟.

فأجاب: دعاء الإنسان على نفسه بالموت حرام ولا يجوز لأن النبي، ﷺ، يقول: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به». فعلى الإنسان أن يصبر ويحتسب وأن يسأل الله الهداية والثبات، وإذا كان مصابا بضر فليسأل الله العافية فإن الأمر كله لله. والله ولي التوفيق.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٩١): عن الجمع بين قول النبي، ﷺ: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة وليعظم الرغبة فإن الله لا مكره له» وقوله: «ذهب الظمأ وابتلّت العروق وثبت الأجر إن شاء الله» ؟.

فأجاب: الحديث الأول صحيح، وفي لفظ: «إن الله لا يتعاظمه شيء

أعطاه». وهذه الصيغة التي نهى عنها رسول الله: «اللهم اغفر لي إن شئت» تشعر بمعان فاسدة:

منها أن أحدا يكره الله، ومنها أن مغفرة الله ورحمته أمر عظيم لا يعطيه الله لك، ولذلك قال: «فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه». وأنت لو سألت رجلا من الناس فقلت: أعطني مليون ريال إن شئت. فهذا يتعاظمه ولذلك قلت له: إن شئت. وكذلك فهو مشعر بأنك مستغن عن عطية المسئول فإن أعطاك وإلا فلا يهمك، ولهذا نهى رسول الله، ﷺ، عن قول «إن شئت».

أما ما جاء في الحديث الثاني من قول «إن شاء الله» فهي أخف وقعا من قول إن شئت؛ لأن القائل قد يريد بها التبرك لا التعليق.

فوجه الجمع أن التعبير بإن شاء الله أهون من إن شئت.

ويرد على ذلك أن هذا يفيد أن قول إن شاء الله منهي عنه لكن دون قول إن شئت. فكيف يكون منهيا عنه ثم يقوله النبي، ﷺ، كما في الحديث الثاني الذي ذكره السائل؟ وإن كان فيه نظر من حيث الصحة، لكن ثبت في الحديث الصحيح «أن النبي، ﷺ، كان إذا عاد مريضا يقول: "لا بأس طهور إن شاء الله". وهذه الجملة وإن كانت خبرية فمعناها طلبي. والجواب أن هذه الجملة مبنية على الرجاء لأن يكون المرض طهورا من الذنب وهذا كما في حديث: «وثبت الأجر إن شاء الله». فهو على الرجاء.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٩٢): ما المراد بقول النبي، ﷺ: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة» ؟؟

فأجاب: اختلف في المراد به على قولين:

القول الأول: أن المراد لا تسألوا أحدا من المخلوقين بوجه الله فإذا أردت أن تسأل أحدا من المخلوقين لا تسأله بوجه الله، لأنه لا يسأل بوجه الله إلا

الجنة، والخلق لا يقدرون على إعطاء الجنة، فإذا لا يسألون بوجه الله مطلقا.

القول الثاني: أنك إذا سألت الله فإن كان الجنة وما يستلزم دخولها فاسأل بوجه الله، وإن كان من أمور الدنيا فلا تسأل بوجه الله، فأمور الآخرة تسأل بوجه الله كقولك مثلا: أسألك بوجهك أن تنجيني من النار". والنبي، ﷺ، استعاذ بوجه الله لما نزل قوله تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ} قال: أعوذ بوجهك {أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} قال: أعوذ بوجهك {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} قال: هذه أهون أو أيسر».

ولو قيل: إنه يحتمل المعنيين جميعا، لكان له وجه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٠١): هل يجوز للإنسان أن يستعيذ بكلمات الله؟.

فأجاب: نعم، يجوز ذلك لأن كلمات الله من صفاته، ولهذا استدل العلماء بقول النبي، ﷺ: «من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك». استدلوا بهذا الحديث على أن كلام الله من صفاته غير مخلوق لأن الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز، ولو كانت الكلمات مخلوقة ما أرشد النبي، ﷺ، إلى الاستعاذة بها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٠١): هل اتخاذ الأسباب ينافي التوكل؟ فبعض الناس إبان حرب الخليج اتخذ الأسباب وبعضهم تركها وقال: إنه متوكل على الله؟.

فأجاب: الواجب على المؤمن أن يعلق قلبه على الله عَزَّ وَجَلَّ وأن يصدق الاعتماد عليه في جلب المنافع ودفع المضار فإن الله وحده هو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله كما قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ

بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وقال موسى لقومه: ﴿يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾. فالواجب على المؤمن أن يعتمد على ربه رب السماوات والأرض ويحسن الظن به.

ولكن يفعل الأسباب الشرعية والقدرية الحسية التي أمر الله تعالى بها؛ لأن أخذ الأسباب الجالبة للخير المانعة من الشر من الإيمان بالله تعالى وحكمته ولا تنافي التوكل، فها هو سيد المتوكلين محمد، رسول الله، ﷺ، كان يتخذ الأسباب الشرعية والقدرية فكان يعوذ نفسه عند النوم بالإخلاص والمعوذتين، وكان يلبس الدروع في الحروب، وخندق على المدينة حين اجتمع أحزاب الشرك حولها حماية لها، وقد جعل الله تعالى ما يتقي به العبد شرور الحروب من نعمه التي يستحق الشكر عليها فقال عن نبيه داود: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾. وأمر الله داود أن يجيد صنعها ويجعلها سابغة لأنها تكون أقوى في التحصين.

وعلى هذا فإن أهل البلاد القريبة من مواقع الحرب التي يخشى أن يصيبها من آثاره ليس عليهم حرج في الاحتياط باستعمال الكمامات المانعة من تسرب الغازات المهلكة إلى أبدانهم، والتحصينات المانعة من تسربه إلى بيوتهم؛ لأن هذا من الأسباب الواقية من الشر المحصنة من البأس، ولا حرج عليهم أن يدخروا لأنفسهم من الأطعمة وغيرها ما يخافون أن يحتاجوا إليه فلا يجدوه، وكلما قويت الخشية من ذلك كان طلب الاحتياط أقوى. ولكن يجب أن يكون اعتمادهم على الله ﷻ فيستعملوا هذه الأسباب بمقتضى شرع الله وحكمته على

أنها أسباب أذن الله لهم فيها لا على أنها الأصل في جلب المنافع ودفع المضار، وأن يشكروا الله تعالى حيث يسر لهم مثل هذه الأسباب وأذن لهم بها.

والله أسأل أن يقينا جميعا أسباب الفتن والهلاك، وأن يحقق لنا ولإخواننا قوة الإيمان به والتوكل عليه والأخذ بالأسباب التي أذن بها على الوجه الذي يرضى به عنا إنه جواد كريم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١١٠): عن حكم لبس السوار لعلاج الروماتيزم؟

فأجاب: اعلم أن الدواء سبب للشفاء، والمسبب هو الله تعالى فلا سبب إلا ما جعله الله تعالى سببا، والأسباب التي جعلها الله تعالى أسبابا نوعان:

النوع الأول: أسباب شرعية كالقرآن الكريم والدعاء كما «قال النبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في سورة الفاتحة: "وما يدريك أنها رقية؟»، وكما كان النبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يرقي المرضى بالدعاء لهم فيشفي الله تعالى بدعائه من أراد شفاءه به.

النوع الثاني: أسباب حسية كالأدوية المادية المعلومة عن طريق الشرع كالعسل، أو عن طريق التجارب مثل كثير من الأدوية وهذا النوع لا بد أن يكون تأثيره عن طريق المباشرة لا عن طريق الوهم والخيال، فإذا ثبت تأثيره بطريق مباشر محسوس صح أن يتخذ دواء يحصل به الشفاء بإذن الله تعالى أما إذا كان مجرد أوهام وخيالات يتوهمها المريض فتحصل له الراحة النفسية بناء على ذلك الوهم والخيال ويهون عليه المرض وربما ينبسط السرور النفسي على المرض فيزول، فهذا لا يجوز الاعتماد عليه ولا إثبات كونه دواء؛ لئلا ينساب الإنسان وراء الأوهام والخيالات، ولهذا نُهي عن لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع المرض أو دفعه؛ لأن ذلك ليس سببا شرعيا ولا حسيا، وما لم يثبت كونه سببا شرعيا ولا حسيا لم يجز أن يجعل سببا فإن جعله سببا نوع من

منازعة الله تعالى في ملكه وإشراك به حيث شارك الله تعالى في وضع الأسباب لمسبباتها، وقد ترجم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ لهذه المسألة في كتاب التوحيد بقوله: "باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لدفع البلاء أو رفعه".

وما أظن السوار الذي أعطاه الصيدلي لصاحب الروماتيزم الذي ذكر في السؤال إلا من هذا النوع، إذ ليس ذلك السوار سببا شرعيا ولا حسيا تعلم مباشرته لمرض الروماتيزم حتى يبرئه فلا ينبغي للمصاب أن يستعمل ذلك السوار حتى يعلم وجه كونه سببا، والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في فتاوى نور على الدرب: ما هي شروط لا إله إلا الله وضحها لنا يا شيخ.

فأجاب: لا تحتاج إلى شروط توضح واضحة بنفسها لا إله إلا الله يعني لا معبود حق إلا الله يجب أن يشهد الإنسان بذلك بقلبه ولسانه وجوارحه. فبقلبه يعتقد اعتقادًا جازمًا أنه لا معبود حق إلا الله، وأن جميع ما يعبد من دون الله فهو باطل، كما قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} (الحج: ٦٢). ثانيًا: أن يقول ذلك بلسانه ما دام قادرًا على النطق؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: (حتى يشهدوا ألا إله إلا الله). فلابد من النطق لمن كان قادرًا عليه، أما الأخرس فيكتفى باعتقاد قلبه. ثالثا: لابد من تحقيق هذه الكلمة، وذلك بالعمل بمقتضاها، بأن لا يعبد إلا الله، وأن لا يصرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله، فمن أشرك بالله ولو شركًا أصغر فإنه لم يحقق معنى قول: لا إله إلا الله، ومن تابع غير الرسول عليه الصلاة والسلام مع مخالفته للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإنه لم يحقق معنى لا إله إلا الله، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يكتفي

بقول: لا إله إلا الله، حتى فيما يظن الإنسان أنه قالها غير مخلص بها، لحق أسامة بن زيد بن حارثة رجلًا مشركًا، فلما أدركه قال الرجل: لا إله إلا الله، فظن أسامة أنه قال ذلك خوفًا من القتل، فقتله، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لأسامة: (أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله) ؟ قال يا رسول الله إنما قالها تعوذًا! فجعل يكرر الرسول ﷺ ويقول: (ما تفعل بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة) ؟ يقول: حتى تمنيت أنني لم أكن أسلمت من قبل. فلهذا نقول: لابد من النطق بها باللسان، والعمل بمقتضاها بالأركان، والاعتقاد بمعناها ومدلولها في الجنان، أي: في القلب.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: ما هي شروط كلمة التوحيد لا إله إلا الله؟.

فأجاب: كلمة التوحيد لا إله إلا الله أولًا لا بد أن نعرف ما معناها؟ معناها: لا معبود حقٌ إلا الله، هذا معناها، فكل ما عبد من دون الله من ملكٍ ونبيٍ وولي وشجرٍ وحجر وشمسٍ وقمر فهو باطل؛ لقوله تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ). هذا معنى هذه الكلمة العظيمة، وهي مبنية على ركنين: نفي وإثبات، نفي الألوهية عما سوى الله، وإثباتها لله، وبهذا يتحقق التوحيد، أي: باجتماع النفي والإثبات يتحقق التوحيد، ووجه ذلك أن النفي المحض الذي لا يقترن بإثبات نفيٌ محض فهو عدم وأن الإثبات المحض الذي لا يقترن بالنفي إثباتٌ لا يمنع المشاركة، فلا يتحقق التوحيد إلا بإثبات ونفي: نفي الحكم عما سوى من أثبت له، وإثباته لمن أثبت له، وهذان الركنان هما الأصل. أما شروطها: فلا بد أن تكون صادرةً عن يقين وعلم، يقين لا شك معه، وعلمٍ لا جهل معه، ولا بد لها من شروطٍ لاستمرارها: كالعمل بمقتضاها حسب ما تقتضيه الشريعة، وأما مجرد القول

باللسان بدون اعتقادٍ وإيقان فإن ذلك لا ينفع، فنشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: كيف يكون المسلم محققًا لشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قولًا وعملًا واعتقادًا بحيث يضمن لنفسه النجاة من الخلود في النار؟ وجهونا في ضوء هذا السؤال؟.

فأجاب: تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله: أن يفهم الإنسان معناها أولًا ثم يعمل بمقتضى هذا العلم، فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود حق إلا الله، وليس معناها لا إله موجود إلا الله، بل المعنى: لا إله حق إلا الله؛ لأن من المخلوق ما عبد من دون الله وسمي إلهًا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾. وقال المشركون: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾. لكن هذه الآلهة ليست حقًّا، بل هي باطل؛ لقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾. وإذا كان لا معبود حق إلا الله وجب على الإنسان أن يجعل العبادة كلها عقيدة وقولًا وعملًا لله تعالى وحده، وإذا كان هذا معنى لا إله إلا الله فلا يمكن أن يحققها الإنسان حتى يعمل بمقتضاها، بمعنى: أن لا يعبد إلا الله، فلا يتذلل ولا يخضع لأحد على وجه التعبد والتقرب والإنابة إلا لله عَزَّ وَجَلَّ، ومقتضى هذا أيضًا أن لا يعبد الله إلا بما شرع؛ لأن الله هو الإله الحق، وما سواه فهو الباطل، وعلى هذا فلا يعبد الله إلا بما شرع على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام. ولا بد أيضًا لتحقيق شهادة أن لا اله إلا الله من أن يكفر بما سوى الله عَزَّ وَجَلَّ من الآلهة، حتى يتحقق له الاستمساك بالعروة الوثقى قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾. وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّاغُوتَ﴾. فلابد لتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله من اجتناب الطاغوت، وهو: كل ما عبد من دون الله ﷻ، أو تحكم إليه من دون الله.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: هل من قال: لا إله إلا الله، بدون أن يعمل أي عمل يدخل الجنة؟ أي: قالها بلسانه؛ لأنه يوجد حديث فيما معناه يقول: (وعزتي وجلالي لأُخْرِجَنَّ من النار كل من قال: لا إله إلا الله). والله أعلم، ولكم جزيل الشكر؟

فأجاب: كلمة لا إله إلا الله كلمة عظيمة، لو وزنت بها السماوات والأرض لرجحت بهن. ومعناها: لا معبود حق إلا الله، فكل ما يعبد من دون الله فهو باطل؛ لقول الله تعالى: ﴿(ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ). والعبادة لا تختص بالركوع أو السجود، يعني: أن الإنسان قد يعبد غير الله دون أن يركع له ويسجد، ولكن يقدم محبته على محبة الله، وتعظيمه على تعظيم الله، ويكون قوله أعظم في قلبه من قول الله، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش). فَجَعَلَ للدينار عبدًا، وللدرهم عبدًا، وللخميلة عبدًا، وللخميصة عبدًا، الخميلة: الفراش، والخميصة: الكساء، مع أن هؤلاء لا يعبدون الدرهم والدينار، لا يركعون له ولا يسجدون له، لكنهم يعظمونه أكثر من تعظيم الله ﷻ، وإلى هذا يشير قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ). فهذه الكلمة كلمة عظيمة، فيها البراءة من كل شرك، وإخلاص الألوهية والعبادة لله ﷻ، فلو قالها بلسانه وقلبه فهو الذي قالها حقًا، ولهذا قال أبو هريرة: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: (من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه).

وقال في حديث عتبان بن مالك- أعني: النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قال-: (إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)، فلا بد من الإخلاص. وأمَّا مَنْ قالها بلسانه دون أن يوقن بها قلبه فإنها لا تنفعه؛ لأن المنافقين يذكرون الله ويقولون: لا إله إلا الله، كما قال تعالى: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا}. ويشهدون للنبي ﷺ بالرسالة، كما قال تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}. فلن تنفعهم شهادة أن لا إله إلا الله ولا شهادة أن محمدًا رسول الله؛ لأنهم لم يقولوا ذلك عن قلب وإخلاص. فمن قال هذه الكلمة دون إخلاص فإنها لا تنفعه، ولا تزيده من الله تعالى إلا بعدًا. فنسأل الله لنا ولإخواننا المسلمين الإيقان بها والعمل بمقتضاها، إنه على كل شيء قدير.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: الذي ينطق بالشهادة قبل موته هل يدخل في قول الرسول ﷺ: (من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة) ؟.

فأجاب: إذا قال: لا إله إلا الله، عند موته موقنًا بها قلبه فإنه يدخل في الحديث، ولكن ليعلم أن النصوص العامة فيما يدخل الجنة أو يدخل النار لا تطبق على شخصٍ بعينه إلا بدليل، فمثلًا: (من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة). إذا علمنا أن هذا الرجل كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله فنحن نقول: يرجى أن يكون من أهل الجنة، فالمعين لا تجزم له وإنما قل: يرجى إذا كان في خير، أو يخشى إذا كان في شر؛ لأنه يفرق بين العموم والخصوص، نحن نشهد ونعلم ونوقن بأن كل مؤمنٍ في الجنة، فهل نشهد لكل مؤمن بعينه أنه في الجنة؟ فالجواب: لا، لكننا إذا علمنا أنه مؤمن نرجو له أن

يكون داخلًا في الجنة، نؤمن بأن الله تعالى يحب المؤمنين ويحب المحسنين، فلو رأينا رجلًا يحسن ورأينا رجلًا مؤمنًا يقوم بالواجبات ويترك المحرمات فهل نشهد أن الله يحبه؟ فالجواب: لا؛ لأن التعيين غير التعميم، ولكن نقول: نشهد لكل مؤمن أن الله يحبه، ونرجو أن يكون هذا الرجل بعينه ممن يحبه الله ﷻ. وقد أشار البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه إلى نحو هذا فقال: (بابٌ: لا يقال فلان شهيد). وإن كان قتل في سبيل الله فلا تقل: إنه شهيد، واستدل لذلك بقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (ما من مكلومٍ يكلم في سبيل الله- والله أعلم بمن يكلم في سبيله- إلا إذا كان يوم القيامة جاء وجرحه يثعب دمًا، اللون لون الدم، والريح ريح المسك). فقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (والله أعلم بمن يكلم في سبيله) إشارة إلى أنك لا تشهد للشخص المعين، بل قل: الله أعلم. وخطب أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: إنكم تقولون: فلان شهيد فلان شهيد، وما أدراك لعله فعل كذا وكذا؟ ولكن قولوا: من مات في سبيل الله أو قتل فهو شهيد، ففرق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين التعيين والتعميم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: أخبركم أني قرأت في كتاب رياض الصالحين عن الإمام المحدث الحافظ محيي الدين أبي زكريا بن شرف النووي أحاديث كثيرة، ومنها يقول: قال رسول الله ﷺ: (من قال في آخر حياته- يعني: عند موته، من قال-: لا إله إلا الله دخل الجنة). (ومن مات له ثلاثة أولاد أو أقل قبل البلوغ دخل الجنة). (ومن كان له أربع بنات ورباهن على تربية الإسلام دخل الجنة). (ومن مات له ولد في السن الصغير وقال: الحمد لله عند موته بني له بيت في الجنة). وقال رسول الله ﷺ: (من صام يومًا في سبيل الله إلا أبعد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا)، وقال رسول الله ﷺ في باب يقال له: باب الريان: (يدخل منه الصائمون). فإذا كان ذلك من الأحاديث الصحيحة، فما بال آكل

الربا والزاني والقاتل والسارق والكذاب؟ أفتوني بهذه المسألة؛ لأنني في حيرة جزاكم الله عني خير الجزاء؟.

فأجاب: هذا السؤال مهم، وهو موضع إشكال كما ذكره الأخ الكاتب؛ لأن ما ذكره من الأحاديث التي ترتب دخول الجنة على هذه الأعمال يعارضها أحاديث كثيرة تدل على دخول النار لمن عمل أعمالًا أخرى، مع قيام صاحبها بهذه الأعمال الموجبة لدخول الجنة، فجوابنا على هذا وأمثاله من الأحاديث، بل من النصوص، سواء من القرآن أو من السنة أن يقال: إن ذكر بعض الأعمال التي تكون سببًا لدخول الجنة ما هو إلا ذكر للسبب، وكذلك ذكر بعض الأحاديث التي ذكر فيها أن بعض الأعمال سبب لدخول النار ما هو إلا ذكر للسبب فقط، ومن المعلوم أن الأحكام لا تتم إلا بتوفر أسبابها وشروطها وانتفاء موانعها، فهذه الأعمال المذكورة هي سبب لدخول الجنة، لكن هذا السبب قد يكون له موانع، فمثلًا: (من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة). هذا إذا قالها على سبيل اليقين والصدق، فإذا قالها على سبيل النفاق- وهو بعيد أن يقولها على سبيل النفاق في هذه الحال- فإنها لا تنفعه،وهكذا: (من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحلم كانوا سترًا له من النار). هذا سبب من الأسباب، من أسباب وقاية النار، لكن قد يكون هناك موانع تمنع نفوذ هذا السبب، وهي الأعمال التي تكون سببًا لدخول النار، وإن هذه الموانع وتلك الأسباب تتعارضان، ويكون الحكم لأقواهما، فالقاعدة إذًا أن ما ذكر من الأعمال مرتبًا عليه دخول الجنة ليس على إطلاقه، بل هو مقيد بالنصوص الأخرى التي تفيد أن هذا لابد له من انتفاء الموانع، فلنضرب مثلًا أن رجلًا من الناس كافر ومات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحلم وصبر، فهل نقول: إن هذا الكافر يدخل الجنة ولا يدخل النار؟ فالجواب لا، كذلك أيضًا في آكل الربا، وكذلك في آكل مال

اليتيم، وكذلك في قتل النفس وغيرها، مما وردت فيه العقوبة بالنار، هذا أيضًا مقيد بما إذا لم يوجد أسباب أو موانع قوية تمنع من نفوذ هذا الوعيد، فإذا وجدت موانع تمنع من نفوذ هذا الوعيد فإنها تمنع منه؛ لأن القاعدة كما أسلفنا هي: أن الأمور لا تتم إلا بتوفر أسبابها وشروطها، وانتفاء موانعها.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: تقول هذه السائلة بأنه كانت لي أمنية أرجو أن تتحقق من الله عَزَّوَجَلَّ، وقد نذرت لها العديد من النذور لتتحقق، وكنت أذهب إلى مساجد أولياء الله الصالحين وأنذر هناك، كذلك وبعد تحقق هذه الأمنية قمت بالوفاء بما أتذكر من هذه النذور، ولكن كان هناك العديد من النذور نسيتها نظرًا لطول المدة على هذه النذور، فأرجو من فضيلتكم توضيح هل تسقط هذه النذور التي نسيتها أم ماذا أفعل؟ جزاكم الله خيرًا.

فأجاب: نقول في الجواب على هذا السؤال المهم: أولا: كونها تنذر لله عَزَّوَجَلَّ ليحصل مقصودها هذا خطأ عظيم؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن النذر وقال: (إنه لا يأتي بخير). فليس النذر هو الذي يجلب الخير للإنسان، ولا النذر هو الذي يدفع الشر، إذا قضى الله قضاءً فلا مرد له لا بالنذر ولا غيره، ولهذا جاء في حديث آخر: (أن النذر لا يرد القضاء). فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يظن الظان إذا نذر شيئًا وحصل مقصوده أن هذا من أجل النذر؛ لأن النذر مكروه منهي عنه، والمكروه لا يكون وسيلة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وكيف تتوسل إلى الله بما نهى عنه رسول الله؟ هذا فيه مضادة؟ إنما يتوسل الإنسان إلى الله بما يحب- أي: بما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ- حتى يحصل للمتوسل ما يحب. ثانيًا: كونها تذهب إلى مساجد الأولياء والصالحين، أفهم من هذا أن هناك مساجد مبنية على قبور الأولياء والصالحين، وهذه المساجد التي تبنى على قبور الأولياء والصالحين ليست مكان عبادة ولا قربة، والصلاة فيها لا تصح، ويجب أن تهدم؛ لأن النبي

ﷺ نهى عن البناء على القبور وقال: (لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). والواجب على ولاة الأمور في البلاد التي فيها مساجد مبنية على القبور، الواجب أن يهدموها إذا كانوا ناصحين لله ورسوله وكتابه والمسلمين، أما إذا كانت المساجد سابقة على القبور ودفن الميت في المسجد؛ فإن الواجب نبشه؛ لأن المسجد لم يبنَ على أنه مقبرة، بني للصلاة والذكر وقراءة القرآن، فالواجب نبش هذا القبر، وإخراج الميت منه، ودفنه مع الناس، ولا يجوز إقرار القبر في المسجد. فإن قال قائل: كيف تقول هذا وقبر النبي ﷺ في مسجده؟ الآن المسجد محيط به من كل جانب ومازال المسلمون يشاهدون هذا؟ فالجواب: أن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، وقبر النبي عليه الصلاة والسلام لم يبن عليه المسجد، ولم يدفن الرسول في المسجد، فالنبي ﷺ لم يدفن في المسجد، والمسجد لم يبن على قبره، المسجد كان قديمًا بناه الرسول عليه الصلاة والسلام من حين قدم المدينة مهاجرًا، والنبي ﷺ لم يقبر فيه، وإنما قبر في بيته في حجرة عائشة رَضِوَاللَّهُعَنْهَا، ثم لما احتاج المسلمون إلى توسعة المسجد وسعوه، فدخلت فيه بيوت أزواج النبي ﷺ، وكان من جملتها بيت عائشة، لكنه بيت مستقل، لم ينو المسلمون حين وسعوا المسجد أن يكون من المسجد، فهو حجرة في مسجد، قائمة قبل بناء المسجد- أعني: الزيادة في المسجد- ثم إنه زيد فيه أن طوق بثلاثة جدران، فهو بناء مستقل سابق على هذه الزيادة، وحين زادوها كانوا يعتقدون أن هذا بناء منفصل عن المسجد متميز بجدرانه، فليس مثل الذي يؤتى بالميت ويدفن في جانب المسجد، أو يبنى المسجد على القبر، وحينئذٍ لا حجة فيه لأصحاب المساجد التي بنيت على القبور أو التي قبر فيها الأموات إطلاقًا، وما الاحتجاج بهذا إلا شبهة يلقيها أهل الأهواء على البسطاء من الناس؛ ليتخذوا منها وسيلة إلى تبرير مواقفهم في

المساجد المبنية على قبورهم، وما أكثر الأمور المتشابهات- بل التي يجعلها ملبسوها متشابهات- من أجل أن يضلوا بها عباد الله، هاتان مسألتان مهمتان في الجواب على هذا السؤال. أما المسألة الثالثة، وهي: أنها لا تعلم أن النذور التي نذرت قد وفت بها جميعا، فلا يجب عليها إلا ما علمته؛ لأن الأصل براءة الذمة، فما علمته من النذور وجب عليها الوفاء به، وما لم تعلمه فإنه لا يجب عليها؛ لأن الأصل براءة الذمة إلا بيقين. ولكنني أكرر النهي عن النذر، سواء كان نذرًا مطلقًا أو معلقًا بشرط، أكرر ذلك لأن النبي ﷺ نهى عن النذر وقال: (إنه لا يأتي بخير). هكذا كلام الرسول عليه الصلاة والسلام: لا يأتي بخير، لا يرد قضاءً، ولا يرفع بلاءً، وإنما يكلف الإنسان، ويلزمه ما ليس بلازم له، وما هو بعافية منه، سواء كان هذا النذر معلقًا بشرط، مثل أن يقول: إن شفى الله مريضي فلله علي كذا وكذا، أو غير معلق مثل أن يقول: لله علي نذر أن أصوم من كل شهر عشرة أيام مثلًا، فالبعد البعد عن النذر، نسأل الله السلامة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: كيف يكون المؤمن بين الرجاء والخوف؟ وإذا كان عند الإنسان خوف كثير، وأنا أعلم بأن فضل الله عَزَّ وَجَلَّ على عباده كبير، وأن رحمته سبقت غضبه، فأنا دائمًا خائفة جدًّا لتقصيري، وأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يمن علينا وعليكم بعفوه وفضله، وجهونا في ضوء هذا السؤال؟.

فأجاب: المؤمن يجب أن يسير إلى الله تبارك وتعالى بين الخوف والرجاء كجناحي طائر، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه. فالإنسان إذا رأى ذنوبه وما حصل منه من التقصير في حقوق الله عَزَّ وَجَلَّ وحقوق العباد خاف، وإذا تأمل فضل الله تعالى وسعة رحمته وعفوه طمع ورجع، وعليه فينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا؛ لأنه إن غلب عليه الرجاء يخشى عليه من الأمن من مكر الله، وإن غلب عليه الخوف خشي

عليه أن يقنط من رحمة الله، وكلاهما محظور، وقد قال الله تعالى عن أوليائه وأنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾. ومن العلماء من قال: إن فعل الطاعات فليغلب جانب الرجاء والقبول، وأن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملًا؛ وإن فعل المحرمات غلب الخوف، وخاف أن تناله سيئاته بعقوبات حاضرة ومستقبلة. وقال آخرون من أهل العلم: ينبغي في حال الصحة أن يغلب جانب الخوف؛ ليحمله ذلك على فعل الواجبات وترك المحرمات، وفي حال المرض المدنف الذي يخشى أن يلاقي ربه به يغلب جانب الرجاء، من أجل أن يموت وهو يحسن الظن بالله ﷻ. وعلى كل حال يجب على الإنسان أن لا يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله، أو الرجاء حتى يأمن من مكر الله، وليكن سائرًا إلى ربه بين هذا وهذا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: اشرحوا لنا حسن الظن بالله؟.

فأجاب: حسن الظن بالله أن الإنسان إذا عمل عملًا صالحًا يحسن الظن بربه أنه سيقبل منه، إذا دعا الله ﷻ يحسن الظن بالله أنه سيقبل منه دعاءه ويستجيب له إذا أذنب ذنبًا ثم تاب إلى الله ورجع من ذلك الذنب يحسن الظن بالله أنه سيقبل توبته، إذا أجرى الله تعالى في الكون مصائب يحسن الظن بالله، وأنه جل وعلا إنما أحدث هذه المصائب لحكم عظيمة بالغة، يحسن الظن بالله في كل ما يقدره الله ﷻ في هذا الكون، وفي كل ما شرعه الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأنه خير ومصلحة للخلق، وإن كان بعض الناس لا يدرك هذه المصلحة، ولا يدرك تلك الحكمة مما شرع، ولكن علينا جميعًا التسليم بقضاء الله تعالى شرعًا وقدرًا، وأن نحسن به الظن؛ لأنه سبحانه وتعالى أهل الثناء والمجد.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: ما حقيقة التوكل على الله؟ أرجو بهذا إفادة؟.

فأجاب: حقيقة التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ تفويض أمرك إلى الله، كما قال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ﴾. أن يفوض الإنسان أمره إلى الله، ويصدق في الاعتماد عليه في جلب المنافع ودفع المضار، ويثق في الله عَزَّ وَجَلَّ وبوعده، ويفعل الأسباب الشرعية والحسية التي أمر الله بها، هذا هو التوكل. وأنت إذا اعتمدت على ربك على هذا الوصف فإن الله تعالى حسبك وكافيك؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾. ونحن نقر بذلك- أي: بالتوكل على الله، أو بما يتضمنه- في كل صلاة، نحن نقول في كل صلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. والاستعانة تستلزم تفويض الأمر إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنه ليس لنا حول ولا قوة ولا قدرة على العبادة إلا بمعونة الله، ولكن لا بد من فعل الأسباب الموصلة إلى المقصود، شرعيةً كانت أم حسية. فمن قال: أنا أعتمد على الله وأتوكل عليه في حصول الولد، ولم يتزوج كان كاذبًا في توكله، لا بد أن يتزوج، والزواج هو الوسيلة الشرعية لحصول الولد. ومن قال: أنا أعتمد على الله، وألقى نفسه في النار، أو ألقى نفسه في اليم وهو لا يعرف السباحة، نقول: أنت كاذب، لا بد أن تفعل الأسباب الواقية من النار أو من الغرق. ولهذا كان سيد المتوكلين محمدٌ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كان يأخذ بالأسباب الحسية مع صدق توكله على الله، فكان عليه الصلاة والسلام في الحرب يلبس الدرع، والدرع عبارة عن درع من حديد يقي السهام والحراب، وربما لبس درعين زيادةً في الوقاية، كما فعل ذلك يوم أحد. فلا بد من فعل الأسباب النافعة، شرعية كانت أم قدرية حسية، من أجل أن يحصل لك المقصود في اعتمادك على الله عَزَّ وَجَلَّ.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: كيف يكون الإنسان متوكلًا على الله؟.

فأجاب: يكون الإنسان متوكلًا على الله بأن يصدق الاعتماد على ربه عَزَّ وَجَلَّ، حيث يعلم أنه سبحانه وتعالى هو الذي بيده الخير، وهو الذي يدبر الأمور، ولقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس: (يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك). فبهذه العقيدة يكون الإنسان معتمدًا على ربه جل وعلا، لا يلتفت إلى من سواه. ولكن حقيقة التوكل لا تنافي فعل الأسباب التي جعلها الله تعالى سببًا، بل إن فعل الأسباب التي جعلها الله تعالى سببًا، هو من تمام التوكل، سواء كانت شرعية أم حسية ومن تمام الإيمان بحكمة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الله تعالى قد جعل لكل شيء سببًا. وهذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو سيد المتوكلين- كان يلبس الدروع في الحرب، ويتوقى البرد، ويأكل ويشرب لإبقاء حياته ونمو جسمه، وفي أحد ظاهر بين درعين- أي: لبس درعين- فهؤلاء الذين يزعمون أن حقيقة التوكل بترك الأسباب والاعتماد على الله عَزَّ وَجَلَّ هم في الواقع مخطئون، فإن الذي أمر بالتوكل عليه له الحكمة البالغة في تقديره وفي شرعه، قد جعل للأمور سببًا تحصل به، ولهذا لو قال قائل: أنا سأتوكل على الله تعالى في حصول الرزق، وسأبقى في بيتي لا أبحث عن الرزق. قلنا إن هذا ليس بصحيح، وليس توكلًا حقيقيًّا، فإن الذي أمرك بالتوكل عليه هو الذي قال: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ). ولو قال قائل: أنا سأتوكل في حصول الولد أو في حصول الزوجة، ولم يشرع في طلب الزوجة وخطبتها، لعده الناس سفيهًا، ولكان فعله هذا منافيًا لما تقتضيه حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ. ولو أن أحدًا أكل

السم وقال: إني أتوكل على الله تعالى في أن لا يضرني هذا السم، لكان هذا غير متوكل حقيقة؛ لأن الذي أمرنا بالتوكل عليه سبحانه وتعالى هو الذي قال لنا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾. والمهم أن فعل الأسباب التي جعلها الله تعالى أسبابًا لا ينافي كمال التوكل، بل هو من كماله، وأن التعرض للمهلكات لا يعد هذا من توكل الإنسان على الله، بل هو خلاف ما أمر الله ﷻ به.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: قال أهل العلم: إن الدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء عبادة ودعاء مسألة، ماذا يقصد بكل منهما؟.

فأجاب: يريد العلماء رحمهم الله بتقسيم الدعاء إلى قسمين: دعاء مسألة ودعاء عبادة، ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. فدعاء المسألة: أن تسأل الله تعالى حاجاتك، بأن تقول: رب اغفر لي وارحمني وارزقني وعافني واجبرني وما أشبه ذلك. ودعاء العبادة: أن تتعبد لله تبارك وتعالى بما شرع، تصلى وتزكي وتصوم وتحج وتفعل الخير؛ لأن هذا الذي يتعبد لله ما قصد إلا رضوان الله وثوابه، فهو داع لله تعالى بلسان الحال له لا بلسان المقال. على أن بعض هذه العبادات التي يتعبد بها تتضمن دعاء المسألة، كالصلاة مثلًا، ففي الصلاة يقول المصلى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهذا دعاء مسألة. ويقول: رب اغفر لي وهذا دعاء مسألة، ويقول: السلام عليك أيها النبي، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، اللهم صل على محمد، اللهم بارك على محمد، أعوذ بالله من عذاب جهنم، وهذا كله دعاء مسألة. فالفرق بينهما إذًا: أن دعاء المسألة أن يسأل الله تعالى شيئًا مباشرة، سواء سأله حصول مطلوب أو سأله النجاة من مرهوب. ودعاء العبادة أن يتعبد لله تعالى بما شرع، رجاء ثوابه جل

وعلا، وخوفًا من عقابه، هذا هو معنى تقسيم أهل العلم رحمهم الله. وقد علمنا أن الدعاء نفسه عبادة، كما تدل عليه الآية التي تلوتها، وهي قوله تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) ولم يقل: عن دعائي، وهذا يدل على أن الدعاء عبادة. وقال الله تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا). ودعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى يتضمن سؤاله بها، مثل: يا غفور اغفر لي، يا رحيم ارحمني، ويتضمن التعبد لله تعالى بمقتضاه: فإذا علمنا أنه غفور عملنا ما يكون سببًا للمغفرة، علمنا أنه رحيم عملنا ما يكون سببًا للرحمة، وإذا علمنا أنه رزاق عملنا ما يكون سببًا للرزق، وهلم جرًّا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: مجموعة من الناس طلبوا مني أن أشتري لهم من الأماكن المقدسة حاجات، مثل سجادة وكفن وحناء ومصحف؟.

فأجاب: أما السجادات: فإن كانوا أوصوك بها لأن السجادات تتوفر في ذلك المكان أكثر من غيره، وقد تكون أرخص، فلا حرج؛ وأما إذا كان الاعتقاد أن السجادات التي تُشترى من هناك لها مزية على غيرها في الفضل، فليس بصحيح، ولا تشتريها لهم بناءً على هذا الاعتقاد. وأما الكفن أيضًا: فإنه ليس بمشروع أن يشتري الإنسان كفنه من تلك المواضع، ولا أن يغسله بماء زمزم؛ لأن ذلك ليس واردًا عن النبي عليه الصلاة والسلام ولا عن أصحابه، وإنما يتبرك بالكفن فيما ورد به النص، وهو ما ثبت به الحديث عن النبي ﷺ أنه أهديت إليه جبة، فسأله إياها رجل من الصحابة، فلاذ الناس به وقالوا: كيف تسأل النبي ﷺ ذلك، وقد علمت أنه لا يرد سائلًا؟ فقال: إني أريد أن تكون كفني، فصارت كفنه، وكذلك أيضًا طلب عبد الله بن عبد الله بن أبي من النبي

ﷺ أن يكفن أباه عبد الله بن أبي بقميص الرسول عليه الصلاة والسلام ففعل، فهذه الأكفان التي كانت من لباس الرسول عليه الصلاة والسلام لا بأس أن يتبرك بها الإنسان، وأما كونها من مكة أو من المدينة فهذا لا أصل للتبرك به.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: ما الحكم في تعليق التمائم؟.

فأجاب: التمائم لا يخلو إما أن تكون من القرآن أو من غيره، فإن كانت من القرآن ففيها خلافٌ بين أهل العلم من السلف والخلف، فمن العلماء من يقول: إن تعليقها جائز ولا بأس به، وربما يستدل بقوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ ويجعل هذا من بركة القرآن أن الله تعالى يرفع به العين والشر ممن علقه. وقال بعض أهل العلم من السلف والخلف: إن تعليقه محرم، وذلك لأن مثل هذه الأمور لا يجوز إثباتها إلا بدليلٍ من الكتاب والسنة، وليس في الكتاب والسنة دليلٌ على أن تعليق القرآن يكون نافعًا لصاحبه، وإنما ينفع من يقرؤه، وقد قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾. فنيل البركة من القرآن إنما يكون على حسب ما جاءت به الشريعة، وهذا القول هو القول الراجح أنه لا يجوز أن تعلق التمائم من القرآن على الصدر، ولا أن تجعل تحت الوسادة وما أشبه ذلك، ومن أراد أن يستشفي بالقرآن فليستشفِ به على حسب ما جاءت به السنة وأما إذا كانت التمائم من غير القرآن من طلاسم لا يدرى ما معناه، أو كتابة كالنقوش لا تقرأ وما أشبهها فإنها محرمة، محرمة بلا شك، ولا يجوز للمرء أن يعلقها بأي وجهٍ من الوجوه؛ لأنها قد تكون أسماء شياطين، أو أسماء عفاريت من الجن أو ما أشبه ذلك، والشيء الذي لا تدري معناه لا يجوز لك أن تتناوله وتستعمله في مثل هذا الأمور.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: ماحكم وضع القرآن في السيارة حفظًا

من العين؟.

فأجاب: لايجوز هذا ولا ينفع؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه أنه يتحصن بالقرآن على هذا الوجه، وما يتوهمه بعض الناس فهو لأنه تخيّل أنّ هذا نافع، فظن أنّ انتفاء الشر والعين عن سيارته بواسطة وضع المصحف فيها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: في بلدنا دارج وضع الحجاب، إما لغرض الحفظ من العين، أو للحماية من إطلاق الرصاص، أي: لا يصيب الشخص أيُّ أذى من إطلاق النار عليه بحمد الله ولبسه للحجاب، أو يوضع في غرض تهدئة الطفل الذي يبكي كثيرًا. ولكن رأيي - والله أعلم- هو أنه خرافة أو بدعة، وأستند على قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾. ولكن في بعض الأحيان بعض الناس يقولون: إن الحجاب الذي يحتوي على بعض آيات من القرآن أو أدعية من أدعية الرسول الكريم ﷺ عبارة عن رقية مكتوبة؛ لأن الرقى هي تؤدي إلى شفائها، فما رأي الشرع في نظركم في هذه المسألة؟.

فأجاب: يريد السائل بالحجاب التميمة التي تعلق على الإنسان في عنقه، أو يجعلونها في جيبه، أو يجعلونها تحت وسادته إذا نام. وهذه التمائم تكون على وجهين: الوجه الأول: أن يكتب فيها ما لا يعلم ولا يدرى معناه، فإن هذه لا تحل ولا تجوز؛ لأنه لا يدرى ما الذي تشتمل عليه: أهو شرك، أم أسماء للشياطين، أو لمردة الجن، أو ما أشبه ذلك من الأشياء المحرمة؟ فهذه لا تجوز قطعًا. وأما الوجه الثاني: فهو التمائم التي يكتب فيها شيء من القرآن على وجه واضح بيِّن يقرأ، أو شيء من الأدعية الواردة عن النبي ﷺ، وهذه فيها خلاف بين العلماء، فمنهم من أجازها ومنهم من منعها، والصواب مع من منعها وأنها لا تجوز؛ لأن الاستشفاء بالقرآن إنما يجوز على الوجه الوارد عن النبي ﷺ،

وذلك بقراءته على المريض مباشرة، وبعض السلف يجوِّز أن يكتب القرآن في إناء بزعفران أو نحوه، ويصب عليه الماء ويحرك حتى يصطبغ الماء بهذا اللون المكتوب به القرآن، ثم يشرب. وعلى هذا فنقول: إن تعليق التمائم واصطحابها في الجيب ووضعها تحت الوسادة لا يجوز مطلقًا، سواء كانت من القرآن أو غيره، ولكن يقرأ على المريض بالآيات التي يرقى بها للمرضى. وأما قول السائل: أرى أن هذا لا يفيد؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾. فإن الآية لا تدل على منع هذا الحجاب أو هذه التميمة إذا صح أنها سبب شرعي؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ يشمل ما كشفه الله سبحانه وتعالى بسبب غير معلوم لنا، وما كشفه بسبب معلوم، لكن لا بد أن يكون هذا السبب معلومًا عن طريق الشرع، أو عن طريق الحس والتجربة.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق: انتشرت عندنا ظاهرة الأحراز التي يعلقها الشباب والشابات على صدورهم، وهذه الأحراز مكتوبة من مشايخ يقولون بأنها تحفظ من العين. فما حكم الشرع في نظركم في مثل هذه؟.

فأجاب: الجواب على هذا السؤال: أنه يجب أن نعلم أن الأسباب التي تجلب الخير أو تدفع الشر لابد أن تكون متلقاة من الشرع؛ لأن مثل هذا الأمر- أعني: جلب الخير أو دفع الشر- لا يكون إلا بتقدير الله عَزَّ وَجَلَّ، فلابد أن نسلك الطريق الذي جعله الله سبحانه وتعالى طريقًا يوصل إلى ذلك، أما مجرد الأوهام التي لا تبنى على أصل شرعي فإنها أوهام لا حقيقة، لها قد يتأثر الإنسان منها نفسيًا لاعتقاده فيها ما يعتقد، وإن كان في الحقيقة خلاف ذلك. وتعليق الأحراز على الصدور لا يخلو من حالين: الحال الأولى: أن تكون طلاسم أوحروف مقطعة لا يعلم لها معنى، فهذه محرمة بلا شك، وربما يكتب عليها أسماء الشياطين من الجن ولا يعلم حاملها ذلك، وعلى هذا فيكون

تعليقها نوعًا من الشرك، وإذا اعتقد معلقها أنها تنفع أو تضر بدون قدر الله ﷻ كان مشركًا شركًا أكبر، وأما إذا كان يعتقد أن النافع والضار هو الله ولكن هي وسيلة، فهي شرك أصغر؛ لأن الله تعالى لم يجعل هذا سببًا يندفع به الشر أو يحصل به الخير. أما الثاني: فأن تكون هذه الأحراز مكتوبة بحروف معلومة من القرآن أو من صحيح السنة، فهذه موضع خلاف بين العلماء، فمنهم من يرى أنها لا بأس بها، مستدلًا بعموم قوله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا). ومنهم من يرى منعها وأنها من الشرك الأصغر، مستدلًا بعموم الأحاديث الدالة على أن التمائم شرك. والذي ينبغي للمؤمن أن يتجنبه، وذلك لأن أقل ما فيها أنه لم يرد فيها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما يدل على الجواز، والأصل في مثل هذه الأمور المنع حتى يقوم دليل على الجواز. ثم إن الإنسان إذا تعلق بها أعرض عن ما ينبغي أن يقوم به من الأوراد القولية التي جاءت بها الشريعة، مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم في آية الكرسي: (إن من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح). وقوله في الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة: (من قرأهما في ليلة كفتاه). وكذلك قوله في المعوذتين. المهم أن هذه الأحراز توجب غفلة الإنسان عن ما ينبغي أن يقوم به من الأوراد الشرعية القولية، وعلى هذا فإن نصيحتي لهؤلاء وأمثالهم أن يَدَعوا هذه الأحراز، وأن يقوموا بما جاءت به السنة من الأوراد القولية، إما من الكتاب وإما من السنة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: البعض من الناس يكتب سور القرآن الكريم ويعلق ذلك على الأطفال، مثل المعوذتين وسورة الإخلاص، يقصد بأنها تحميه من العين، وتجلب له النفع والهداية. فهل هذا عمل صحيح؟ أرجو بهذا إفادة مأجورين؟.

فأجاب: تعليق الآيات على صدور الصبيان منهيٌ عنه؛ لأنه داخلٌ في التمائم في عمومها، إذ إن الأحاديث الواردة في ذلك لم تستثن شيئًا مما يعلق، ثم إن فيه عرضة بامتهانه؛ لأن الصبي لا يحترز من وقوع الأذى على هذا الذي علق عليه من القرآن، وربما يتلطخ بشيء نجس، وربما يدخل به بيت الخلاء وما أشبه ذلك، فلهذا ينهى عن هذا العمل، ويقال: إذا أردت أن تعوذ أبناءك بشيء فعوذهم بالقراءة عليهم. ومن العلماء من رخص في تعليق المكتوب من القرآن على المريض للاستشفاء به. واستدل بعموم قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾. والاحتياط أن لا يفعل ذلك، لا لدفع البلاء كما ذكره السائل، ولا لرفعه كما أشرنا إليه، وليكن مستعملًا لما جاءت به السنة من تعويذ الإنسان بالقراءة، والقراءة على المريض كذلك بما جاءت به السنة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: نعلم أنه روي عن النبي ﷺ أنه صلى بأصحابه صلاة الصبح في الحديبية على إثر سماء نزلت في الليل، فلما سلم أقبل على أصحابه وقال لهم: أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (إنه قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فمن قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فقد أصبح وهو مؤمن بي وكافر بالكوكب، ومن قال: مطرنا بنوء كذا، فهو مؤمن بالكوكب وكافر بي). وفي هذا الزمن يقولون: إن الأمطار تتبخر، أو هي نتيجة تبخر البحار والمحيطات إلى غير ذلك، فمن اطلع على حقيقة ذلك؟ وهل هذا الاعتقاد جائز؟ وما الدليل من الكتاب والسنة على هذا القول؟.

فأجاب: قول السائل: نعلم أنه روي عن النبي ﷺ، الصواب أن يقال: إنه ثبت عن النبي ﷺ؛ لأن قول: روي عن الرسول معناه تضعيف الحديث، والحديث ثابت، وهو أن الرسول عليه الصلاة والسلام صلى بأصحابه صلاة

الصبح على إثر مطر نزل، فلما أنهى صلاته أقبل عليهم وقال: (هل تدرون ماذا قال ربكم) ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب). من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فهو مؤمن بالله؛ لأنه اعترف لله بالفضل، وأن هذا المطر من آثار فضله ورحمته تبارك وتعالى، وهذا هو الواجب على كل مسلم أن يضيف النعم إلى بارئها ومسديها وهو الله تبارك وتعالى، ولا حرج أن يضيفها إلى سببها الثابت شرعًا أو حسًا إلا أنه إذا أضافها إلى سببها الثابت حسًا أو شرعًا، فإنه لا يضيفها إلى السبب مقرونًا مع الله ﷻ بالواو، وإنما يضيفها إلى سببها مقرونًا مع الله تعالى بثم، أو إلى سببها وحده. فلو أن شخصًا أنقذ غريقًا من غرق فهنا لا يخلو من حالات:

الأولى: أن يقول: أنقذني الله تعالى على يد فلان، وهذا أفضل الأحوال.

الثانية: أن يقول: أنقذني الله ثم فلان، وهذه جائزة، وهي دون الأولى.

الثالثة: أن يقول: أنقذني فلان، ويعتقد أنه سبب محض، وأن الأمر كله إلى الله ﷻ، وهذه جائزة، ويدل لجوازها أن النبي ﷺ لما أخبر عن عمه أبي طالب أنه كان في ضحضاح من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه- والعياذ بالله- قال النبي عليه الصلاة والسلام: (ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار). الرابعة: أن يقول: أنقذني الله وفلان، وهذا لا يجوز؛ لأنه أشرك سببًا مع الله بحرف يقتضي التسوية وهو الواو، ودليل ذلك أن النبي ﷺ قال له رجل: ما شاء الله وشيءت. فقال النبي ﷺ: (أجعلتني لله ندًا؟ بل ما شاء الله وحده). فالمطر النازل لاشك أنه بفضل الله ورحمته وبتقديره ﷻ وقضائه، ولكن الله تعالى جعل له أسبابًا، كما أشار الله إليه بقوله: (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا). قال:

(يُرْسِلُ) (فَتُثِيرُ) أضاف الإثارة إلى السحاب؛ لأنها سبب هذه الإثارة، فتثير سحابًا فيبسطه في السماء كيف يشاء، فلا بأس بإضافة الشيء إلى سببه مع اعتقاد أنه سبب محض، وأن خالق السبب هو الله ﷻ. وأما قول الرسول عليه الصلاة والسلام عن الله تبارك وتعالى: (أن من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فهوكافر بي مؤمن بالكوكب، فهذا لأنهم أضافوا الشيء إلى سبب غير صحيح؛ لأن النوء ليس سببًا للمطر، فالنوء الذي هو الكوكب ليس هو الذي يجلب المطر، ولا علاقة له به، ولذلك أحيانًا تكثر الأمطار في نوء من الأنواء في سنة وتقل في سنة أخرى وتعدم في سنة ثالثة، وربما يكون العكس فالأنواء ليس لها تأثير في نزول المطر ولهذا كانت إضافة المطر إليها نوعًا من الشرك فإن اعتقد أن النوء يحدث المطر بنفسه بدون الله فذلك شرك في الربوبية، شرك أكبر مخرج عن الملة، فهذا وجه قوله تبارك وتعالى فيما رواه عنه نبيه محمد ﷺ: (من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب). وأما ما اشتهر من أن الأمطار تكون بسبب تبخر البحار ونحو ذلك: فهذا إن صح فإنه لا ينافي ما ذكره الله تعالى في القرآن، إذ من الجائز أن يكون هذا البخار تثيره الريح حتى يصعد في جو السماء، ثم يبسطه الله تعالى في السماء كيف يشاء، ثم ينزل به المطر، وهذه مسألة ترجع إلى أهل العلم بهذا الشأن، فإذا ثبت ذلك فإنا نقول: هذا البخار الذي تصاعد من البحار الذي خلقه هو الله، والذي جعله يتصاعد في الجو حتى يمطر هو الله ﷻ، ولا ينافي ذلك ما جاء في القرآن إذا صح علميًا. والله أعلم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: إن بعض الناس يقومون بالذهاب إلى البئر التي تقع على طريق المدينة المنورة، ومثلها العين التي تقع في تهامة، لقصد طلب الشفاء من بعض الأمراض، والشافي هو الله سبحانه وتعالى، وأنه عند العودة من هناك يخبروننا بأنهم قد شُفي البعض منهم من بعض الأمراض التي

بهم، مثل أمراض كثيرة والأمراض الصعبة، فما رأيكم في صحة ما يذكرون عند اعتقادهم بأن الاغتسال من ذلك الماء يشفي المرضى والله يحفظكم؟.

فأجاب: رأينا في هذا أنه إذا ثبت أن لهذا الماء تأثيرًا حسيًا في إزالة الأمراض فإنه لا بأس من قصده والاستشفاء به، وذلك لأن الطب على نوعين: أحدهما: ما ثبت به الشرع، فهذا مقبول بكل حال ولا يسأل عنه، إنَّما يسأل عن هل هذا الذي ثبت بالشرع أنه دواء هل يكون دواء لهذا المرض المعين؟ لأنه ليس كل ما كان دواء لمرض يكون دواء لكل مرض. القسم الثاني من أقسام الطب: شيء لم يثبت به الشرع لكنه ثبت بالتجارب، وهذا كثير جدًا من الأدوية المستعملة قديمًا وحديثًا، فإذا ثبت بالاستعمال والتجارب أن هذا له تأثير حسي في إزالة المرض فإنه لا بأس باستعماله، وكثير من الأدوية التي يتداوى بها الناس اليوم إنما عُلمت منافعها بالتجارب؛ لأنه لم ينزل فيها شرع. فالمهم أن ما أشار إليه السائل من هذه المياه، إذا ثبت بالتجارب أن لها تأثيرًا في بعض الأمراض، فإنه لا بأس بالاستشفاء بها والذهاب إليها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: أرى بعض الناس عندنا عندما يريدون الاحتفاظ بطعام إلى وقت آخر يضعون تمرة على غطاء الإناء الذي فيه الطعام، يزعمون أنها تحفظه من كل سوء كالحشرات ونحوها. فهل في فعلهم هذا ما يناقض التوحيد؟.

فأجاب: هذا الفعل- وهو: وضع التمر على الطعام لئلا تصيبه الحشرات، هذا- لا أصل له، ولا أعلم له أصلًا من الشرع، ولا أصلًا من الواقع، فإن الحشرات تأتي إلى ما يلائمها، فمنها ما يلائمها التمر وتأتي حوله، بل تأكل منه أيضًا، ومنها ما يلائمها الدسم فتأتي إليه وتطعم منه، ولا أصل لهذا الذي يفعل. وإذا لم يكن له أصل من الشرع ولا من الواقع فإنه لا ينبغي للإنسان أن يفعله؛

لأنه مبني على مجرد أوهام وخيالات لا حقيقة لها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: في أيام التشريق ونحن نذهب من منى إلى الجمرات ونعود إليها نجد بعض الأفريقيين يجلسون على الطرقات، ويبيعون أكياسًا مثل الحبال، وهي من الجلد الملون، ومختومة من جميع أطرافها، وفيها شيء لا نعلمه، ويقولون: فيها شفاء من أمراض عدة وتقي الإنسان: فاللون الأسود عن الجان مثلًا، واللون الأحمر عن الجلجان، واللون الأصفر عن ذات الصفراء، واللون كذا يشفي من المرض كذا، ويقول: ضع هذا في حقيبتك أو في منزلك فيفيدك. فما حكم شراء مثل هذه الأمور؟ وما حكم بيعها؟.

فأجاب: حكم شرائها لا يجوز، واعتقاد أن فيها هذا النفع الذي يقال لا يجوز أيضًا؛ لأن هذا لا دليل عليه، وأما بيعها فلا يجوز أيضًا، وينبغي لكم- بل يجب عليكم- إذا رأيتم مثل هذا أن تخبروا السلطات عن هذا الأمر، حتى يمنعوهم من أكل أموال الناس بالباطل؛ لأن التكسب بمثل هذه الأمور من أكل أموال الناس بالباطل، والواجب منعه وتأديب فاعله.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: نرى كثيرًا ما توضع لافتات ولوحات، سواء كانت من الورق أو القماش أو اللوحات الخشبية، ومكتوب عليها جميعًا آيات قرآنية، وتوضع على أبواب المساجد والعمائر والشوارع العامة، مما يعرض كلام الله سبحانه وتعالى للإهانة لا سمح الله، بسبب سقوط هذه اللوحات على الطرق والمحلات القذرة. نرجو التوجيه من فضيلتكم بشأن هذا الموضوع المهم لحماية كلام الله من التعرض للخطأ؟.

فأجاب: هذا الأمر الذي أشار إليه السائل- وهو: تعليق الآيات القرآنية على الجدران وأبواب المساجد وما أشبهها- هو من الأمور المحدثة التي لم تكن

معروفة في عهد السلف الصالح الذين هم خير القرون، كما ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم). ولو كان هذا من الأمور المحبوبة لله ﷻ لشرعه الله تعالى على لسان رسوله ﷺ؛ لأن كل ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم فهو مشروع على لسان الرسول ﷺ، ولو كان هذا من الخير لكان أولئك السلف الصالح أسبق إليه منا ومع هذا فإننا نقول لهؤلاء الذين يعلقون هذه الآيات: ماذا تقصدون من هذا التعليق؟ أتقصدون بذلك احترام كلام الله ﷻ؟ فإن قالوا: نعم. قلنا: لسنا والله أشد احترامًا لكتاب الله سبحانه وتعالى من أصحاب النبي ﷺ، ومع ذلك لم يعلقوا شيئًا من آيات الله على جدرانهم أو جدران مساجدهم. وإن قالوا: نريد بذلك التذكير والموعظة. قلنا: لننظر إلى الواقع، فهل أحد من الناس الذين يشاهدون هذه الآيات المعلقة يتعظ بما فيها؟ قد يكون ذلك ولكنه نادر جدًا، وأكثر ما يلفت النظر في هذه الآيات المكتوبة حسن الخط، أو ما يحيط بها من البراويز والزخارف، أو ما أشبه ذلك وهو نادر جدًا أن يرفع الإنسان رأسه إليها ليقرأها فيتعظ بما فيها. وإن قالوا: نريد التبرك بها. فيقال: ليس هذا طريق التبرك، والقرآن كله مبارك، لكنه بتلاوته وتفقد معانيه والعمل به، لا بأن يعلق على الجدران ويكون كالمتاحف. وإن قالوا: أردنا بذلك الحماية والوِرد. قلنا: ليس هذا طريق الحماية والوِرد، فإن الأوراد التي تكون من القرآن إنما تنفع صاحبها إذا قرأها، كما في قوله ﷺ فيمن قرأ آية الكرسي في ليلة: (لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح). ومع هذا فإن بعض المجالس – أو كثيرًا من المجالس – التي تكتب فيها الآيات قد يكون فيها اللغو، بل قد يكون فيها الكلام المحرم، أو الأغاني المحرمة، وفي ذلك من امتهان القرآن المعنوي ما هو ظاهر. ثم إن الامتهان الحسي الذي أشار إليه السائل – بأن هذه الأوراق قد

تتساقط في الأسواق وعلى القاذورات، وتوطأ بالأقدام- هو أمر آخر أيضًا مما ينبغي أن ينزه عنه، بل مما يجب أن ينزه عنه كلام الله ﷻ. والخلاصة: أن تعليق هذه الآيات إلى الإثم أقرب منه إلى الأجر، وسلوك طريق السلامة أولى بالمؤمن وأجدر. على أنني أيضًا رأيت بعض الناس يكتب هذه الآيات بحروف أشبه ما تكون مزخرفة، حتى إني رأيت من كتب بعض الآيات على صورة طائر أو حيوان، أو رَجُلٍ جالسٍ جلوس التشهد في الصلاة أو ما أشبه ذلك، فيكتبون هذه الآيات على وجه محرم، على وجه التصوير الذي لعن النبي ﷺ فاعله. ثم إن العلماء رحمهم الله اختلفوا هل يجوز أن ترسم الآيات برسم على غير الرسم العثماني أو لا يجوز؟ اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال: منهم من قال: يجوز مطلقًا أن ترسم على القاعدة المعروفة في كل زمان ومكان بحسبه، ما دامت بالحروف العربية. ومنهم من يقول: إنه لا يجوز مطلقًا، بل الواجب أن ترسم الآيات القرآنية بالرسم العثماني فقط. ومنهم من يقول: إنه يجوز أن ترسم بالقاعدة المعروفة في كل زمان ومكان بحسبه للصبيان؛ لتمرينهم على أن ينطقوا بالقرآن على الوجه السليم، بخلاف رسمه للعقلاء الكبار فيكون بالرسم العثماني. وأما أن يرسم على وجه الزركشة والنقوش، أو صور الحيوان، فلا شك في تحريمه، فعلى المؤمن أن يكون معظمًا لكتاب الله ﷻ محترمًا له، وإذا أراد أن يأتي بشيء على صورة زركشة ونقوش فليأتِ بألفاظ أُخر من الحِكم المشهورة بين الناس وما أشبه ذلك، وأما أن يجعل ذلك في كتاب الله ﷻ، فيتخذ الحروف القرآنية صورًا للنقوش والزخارف، أو ما هو أقبح من ذلك بأن يتخذها صورًا للحيوان أو للإنسان، فإن هذا قبيح محرم. والله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: اعتاد بعض المزارعين عندنا حينما تثمر مزارعهم ويكثر ورود الطير عليها مما يتلف المحصول عليهم، اعتادوا أن

يذهبوا إلى أحد أهل القرية ليعمل لهم ويكتب ورقة تحمي زراعتهم من الطير، بشرط أن يأخذ منهم ربع جوال من المحصول. فهل هذا العمل جائز شرعًا أم لا؟.

فأجاب: هذا العمل ليس بجائز شرعًا، وذلك لأنه لا يمكن أن تكون هذه الورقة تطرد الطيور عن المزارع، فإن هذا ليس معلومًا بالحس، وليس هو أيضًا معلومًا بالشرع، وكل سبب ليس معلومًا بالحس ولا بالشرع فإن اتخاذه محرم، فلا يجوز أن يعملوا هذا العمل، وإنما عليهم أن يكافحوا هذه الطيور التي تنقص محاصيلهم، يكافحوها بالوسائل المعتادة التي يعرفها الناس، دون هذه الأمور التي لا يعلم لها سبب حسي ولا شرعي.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: ما المقصود بالتطير؟ وما حكمه؟.

فأجاب: التطير هو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو زمان أو مكان، وأصله من الطير، وكانت العرب في الجاهلية تتشاءم: يزجرون الطير، فإذا طار واتجه إلى جهةٍ ما، تطيروا، حتى إنه ربما كان إنسان قد ربط متاعه وأناخ راحلته يريد السفر، فيتطير، فإذا جنح الطير إلى جهةٍ ما ترك السفر وقال: هذا سفر شر. هذا هو الأصل في معنى التطير، ولهذا يجب على الإنسان إذا حدث في قلبه التشاؤم أن يتوكل على الله وأن يعتمد عليه، وأن لا يبالي بهذه الأوهام التي يجرها الشيطان إلى العبد ليكدر عليه صفوه، فقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر). وقال: (ليس منا من تطير أو تطير له، أو سحر أو سحر له).

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: كيف نوفق بين قوله ﷺ: (لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر). وبين قوله: (فر من المجذوم فرارك من الأسد)؟.

فأجاب: التوفيق بينهما أن قوله ﷺ: (لا عدوى،ولا طيرة) نفي لما كان يعتقده أهل الجاهلية بأن الأمراض تعدي بنفسها، بحيث ينتقل المرض من المريض إلى السليم بنفسه حتمًا، فنفى رسول الله ﷺ ذلك، وبين أن العدوى لا تكون إلابإذن الله سبحانه وتعالى، أي: إن هذا النفي يتضمن أن العدوى لا تكون إلا من الله ﷻ، ولهذا أورد على النبي ﷺ لما حدث بهذا الحديث أن الرجل يأتي إبله السليمة بعير أجرب فتجرب الإبل، فقال النبي ﷺ ردًا على هذا الإيراد: (فمن أعدى الأول) ؟ أي: من جعل في الأول المرض؟ هل هناك مريض أعداه؟ والجواب: لا، ولكن الذي جعل فيه المرض هو الله، فالذي جعل المرض ابتداءً في المريض الأول هو الذي يجعل المرض ثانية في المريض الثاني بواسطة العدوى. وعلى هذا فيكون معنى الحديث (لا عدوى) أي: بنفسها، ولكن ذلك بتقدير الله ﷻ الذي جعل لكل شيء سببًا، ومن أسباب المرض اختلاط المريض بالسليم، ولهذا قال: (فر من المجذوم فرارك من الأسد) ؛ لأن اختلاطك به قد يكون سببًا للعدوى، فينتقل المرض من المجذوم إليك إذا اختلطت به، ولهذا قال: (فر من المجذوم فرارك من الأسد). فيكون الحديث الثاني فيه الأمر بتجنب أسباب المرض وهي مخالطة المريض، ولهذا جاء في الحديث: (لا يورد ممرض على مصح).

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: نحن نسكن في منزل منذ أربع سنوات، ومنذ نزلنا هذا المنزل ونحن نمر بحالات سيئة جدًّا: من مرض لأفراد الأسرة، ولما نملكه من بهائم، فلم تعد تتكاثر، فلا نسل منها ولا لبن فيها ولا فائدة، مما جعلنا نتشاءم من هذا المنزل، فهل يجوز لنا ذلك؟ وهل لو خرجنا منه وانتقلنا إلى منزل آخر لهذا السبب، هل نأثم بذلك أم لا؟.

فأجاب: ربما يكون بعض المنازل، أو بعض المركبات، أو بعض الزوجات

مشؤومًا، يجعل الله سبحانه وتعالى - بحكمته - مع مصاحبته إما ضررًا، أو فوات منفعة، أو نحو ذلك. وعلى هذا فلا بأس أن تبيعوا هذا البيت وتنتقلوا إلى بيت غيره، ولعل الله سبحانه وتعالى أن يجعل لكم الخير فيما تنتقلون إليه. وقد ورد عن النبي صلى الله وسلم أنه قال: (الشؤم في ثلاث، وذكر منها الدار).

فضيلة الشيخ: ما هي الثلاث التي فيها الشؤم؟

فأجاب رحمه الله تعالى: {هي الدار والمرأة والفرس، يعني: بعض المركبات قد يكون فيه شؤم، بعض الزوجات يكون فيه شؤم، بعض البيوت يكون فيه شؤم، فإذا رأيت ذلك فاعلم أنه بتقدير الله ﷻ، وأن الله سبحانه وتعالى بحكمته قدر ذلك لتنتقل إلى محل آخر.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: بعض الناس إذا اشترى سيارة ثم حصل لها عدة صدمات قال: هذه السيارة منحوسة، فيقوم ببيعها فهل هذا من التشاؤم في محله؟ أرجو الإفادة؟.

فأجاب: صحيح أن بعض الناس يجد في بعض ماله من بركة فينتفع به كثيرًا ويوقى الآفات، سواء كان في السيارة أو في البيت أو في غير ذلك، وربما يجد منه خلاف هذا، ربما يكون هذا الشيء كثير الآفات مقلقًا له لا ينشرح صدره له، فإذا وجد ذلك في بعض ماله فلا حرج عليه أن يبيعه ليتخلص من آفاته، وكم من إنسان حصل له مثل هذا، أي: اشترى سيارة فصارت كثيرة الآفات من صدمات أو غيرها، فيبيعها ثم يشتري أخرى، فيجد منها الراحة والبركة وقلة الآفات، ولا يعد هذا من باب التشاؤم، بل هو من باب التخلص من آفات هذا الشيء وخسارته التي يخسرها عليه، ولا يعد هذا من باب التطير.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: يوجد أناس في بلد غير بلدنا وقريتنا يتشاءمون برجل منهم، إذا قَبّلهم يقولون: يصيبهم مصيبة. فما حكم هؤلاء

وفقكم الله؟.

فأجاب: هؤلاء لا يجوز لهم هذا التشاؤم؛ لأن النبي ﷺ نهى عن الطيرة وقال: (ليس منا من تطير أو تُطِير له، أو سَحَر أو سُحِر له). فلا يجوز لأحد أن يتشاءم بشخص، وهذا على عكس التفاؤل، فإن التفاؤل مطلوب، كون الإنسان يتفاءل يكون مطلوبًا في حقه، وأما التشاؤم الذي يُدخِل على الإنسان الحزن والهم والغم فإن ذلك ليس من أعمال المسلمين، فلا يجوز للمرء أن يتطير بأحد.

(باب مباحث توحيد الأسماء والصفات)

(باب تعريف توحيد الأسماء والصفات)

توحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى الواردة في القرآن والسنة، والإيمان بمعانيها وأحكامها.

شرح مفردات التعريف

أولًا: (إفراد الله): هذا معنى كلمة (التوحيد)، فأصل هذه الكلمة من (وحد) فيقال: وحد يوحد توحيدًا: أي جعله واحدًا.

ومادة (وحد) في اللغة مصدرها على انفراد الشيء.

فإذا قلت: توحيد الله بأسمائه: فالمعنى إفراد الله بأسمائه.

ثانيا: (بأسمائه الحسنى): (بأسمائه): الاسم في اللغة: هو اللفظ الموضوع لمعنى تعيينًا أو تمييزًا. أو الاسم: ما دل على الذات وما قام بها من الصفات.

ومن أسماء الله تعالى: {الله - الرحمن - الرحيم - الغفور - العزيز - القدير - السميع - البصير - البارئ...

(الحسنى): هذا وصف لأسماء الله، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم.

١- المواضع التي ورد فيها:

ورد هذا الوصف لأسماء الله ﷻ في أربعة مواضع من كتاب الله ﷻ، وهذه المواضع هي:

أ- قال تعالى: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٨٠].

ب- قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى} [الإسراء: ١١٠]

ج- قال تعالى: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى [طه: ٨].

د- قال تعالى: {هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى} [الحشر: ٢٤].

٢- تصريفها: حسنى على وزن (فعلى) تأنيث أفعل التفضيل، فحسنى تأنيث أحسن، ككبرى تأنيث أكبر، وصغرى تأنيث أصغر، ولذلك يخطئ من يقول إنها تأنيث حسن؛ لأن تأنيث (حسن) (حسنة)، ومن أجل ذلك لا يصح أن نقول: إن أسماء الله حسنة، والصواب هو أن نقول: إن أسماء الله حسنى ما وصفها الله بذلك.

٣- معناها: معنى حسنى: المفضلة على الحسنة، أي البالغة في الحسن غايته.

المعنى العام للآية: وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى: لله أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها.

٥- الحكم المستفاد: يجب الإيمان بهذا الوصف الذي أخبر الله به عن أسمائه وذلك بالاعتقاد الجازم أن أسماء الله هي أحسن الأسماء، وأتمها، وأكملها معنى، وفي هذا الوصف أحكام أخرى مستفادة...

ثالثًا: (وصفاته العلى):

(وصفاته): الصفة هي: ما قام بالذات مما يميزها عن غيرها من أمور ذاتية أو معنوية أو فعلية.

ومن صفات الله عز وجل:

الذاتية: اليدان - الوجه - العينان - الأصابع.

المعنوية: العلم - القدرة - الحياة - الإرادة.

الفعلية: النزول - الاستواء - الخلق - الرزق.

(العُلَى): قال تعالى: {لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآَخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} [النحل: ٦٠].

وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} [الرُّوم: ٢٧]........

٢- تصريفها: (الأعلى) صيغة أفعل التفضيل، أي أعلى من غيره[١].

٣- معنى الآية: قال القرطبي: وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى: أي الوصف الأعلى[٢].

وقال ابن كثير: وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى وهو كل صفة كمال؛ وكل كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصًا بوجه[٣].

٤- الحكم المستفاد: يجب الإيمان بما أخبر الله به عن نفسه، وذلك بالاعتقاد الجازم بأن كل ما أخبر الله به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ من الصفات هي صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، فهو سبحانه المستحق للكمال المُطلق من جميع الوجوه.

قال الإمام ابن القيم: (المثل الأعلى يتضمن ثبوت الصفات العليا لله

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ١١٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/ ١٠٤).

سبحانه، ووجودها العلمي، والخبر عنها، وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بها...)[١].

رابعًا: الواردة في القرآن والسنة

أي يجب الوقوف في أسماء الله وصفاته على ما جاءت به نصوص القرآن والسنة لا نزيد على ذلك ولا ننقص منه.

فلا نسمي أو نصف الله بما لم يسم أو يصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

وذلك لأنه لا طريق إلى معرفة أسماء الله وصفاته إلا من طريق واحد هو طريق الخبر - أي الكتاب والسنة - .

فلو قال شخص: لله سمع بلا أذنين.

وقال آخر: لله سمع بأذنين.

لحكمنا بخطأ الاثنين؛ لأنه لم يأت ذكر الأذنين في النصوص لا نفيًا ولا إثباتًا، والحق هو أن يقال: لله سمع يليق بجلاله كما جاءت بذلك النصوص، وقد نهانا الله أن نتكلم بغير علم، ف قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦] وبالتالي لا يجوز الإثبات أو النفي إلا بالنص.

قال الإمام أحمد (ت ٢٤١) رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو ووصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والسنة)[٢].

وقال ابن عبد البر (ت ٤٦٣) رَحِمَهُ اللَّهُ: (ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصًا في كتاب الله، أو صح عن رسول الله ﷺ، أو

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣٤) بتصرف.

(٢) الفتوى الحموية (ص: ٦١)، دار فجر التراث.

أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له ولا يناظر فيه)[١].

خامسًا: والإيمان بمعانيها وأحكامها: أي الإيمان بما تضمنته من المعاني، وبما ترتب عليها من مقتضيات وأحكام.

وهذا ما جاء الأمر به والحث عليه في القرآن والسنة.

فمن القرآن: قوله تعالى: وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠]، والشاهد من الآية قوله: (فادعوه بها).

ووجه الاستشهاد: أن الله يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها، فالدعاء بها يتناول:

دعاء المسألة: كقولك: ربي ارزقني.

ودعاء الثناء: كقولك: سبحان الله.

ودعاء التعبد: كالركوع والسجود[٢].

ومن السنة: قوله ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحد، من أحصاها دخل الجنة) متفق عليه.

الشاهد من الحديث: قوله ﷺ: (من أحصاها).

ووجه الاستشهاد: أن معنى أحصاها: أي حفظها ألفاظًا، وفهم معانيها ومدلولاتها، وعمل بمقتضياتها وأحكامها.

فالعلم بأسماء الله وصفاته، واعتقاد تسمي الله واتصافه بها هو من العبادة، وإدراك القلب لمعانيها، وما تضمنته من الأحكام والمقتضيات، واستشعاره وتجاوبه لذلك بالقدر الذي يؤدي إلى سلامة تفكيره واستقامة سلوكه، هو عبادة

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (ص: ٩٦).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٢٠).

أيضًا.

فأهل السنة يؤمنون بما دلت عليه أسماء الله وصفاته من المعاني، وبما يترتب عليها من مقتضيات وأحكام، بخلاف أهل الباطل الذين أنكروا ذلك وعطلوه.

فأهل السنة يؤمنون بأن كل اسم من أسماء الله يدل على معنى الذي نسميه (الصفة)، فلذلك كان لزامًا على من يؤمن بأسماء الله تعالى أن يراعي الأمور التالية:

أولًا: الإيمان بثبوت ذلك الاسم لله ﷻ.

ثانيًا: الإيمان بما دل عليه الاسم من المعنى أي (الصفة).

ثالثًا: الإيمان بما يتعلق به من الآثار والحكم والمقتضى.

مثال ذلك: (السميع).

اسم من أسماء الله الحسنى، فلابد من الإيمان به من:

١- إثبات اسم (السميع) باعتباره اسمًا من أسماء الله الحسنى.

٢- إثبات (السمع) صفة له.

٣- إثبات الحكم (أي الفعل) وهو أن الله يسمع السر والنجوى.

وإثبات المقتضى والأثر: وهو وجوب خشية الله، ومراقبته، وخوفه، والحياء منه ﷻ.

قال ابن القيم رحمه الله: (كل اسم من أسمائه ﷻ له تعبد مختص به علمًا ومعرفة وحالًا:

علمًا ومعرفة: أي إن من علم أن الله مسمى بهذا الاسم وعرف ما يتضمنه من الصفة ثم اعتقد ذلك فهذه عبادة.

وحالًا: أي إن لكل اسم من أسماء الله مدلولًا خاصًا وتأثيرًا معينًا في القلب

والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما يتضمنه واستشعر ذلك، تجاوب مع هذه المعاني، وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه)[١].

وكذلك الشأن في صفات الله ﷻ، فلابد من الإيمان بمعانيها وأحكامها، فهذه عقيدة أهل السنة، بخلاف عقيدة المعطلة الذين نفوا ما دلت عليه تلك الصفات من المعاني، وتلاعبوا بتلك المعاني فحرفوها وبدلوها.

فأهل السنة يرون أنه لزامًا على من أراد إثبات الصفات والإيمان بأنها صفات كمال تثبت لله حقيقة - أن يراعي الأمور التالية:

١- إثبات تلك الصفة فلا يعاملها بالنفي والإنكار.

٢- أن لا يتعدى بها اسمها الخاص الذي سماها الله به، بل يحترم الاسم كما يحترم الصفة، فلا يعطل الصفة ولا يغير اسمها ويعيرها اسمًا آخر، كما تسمي المعطلة سمعه وبصره وكلامه (أعراضًا).

ويسمون وجهه ويديه وقدمه (جوارح وأبعاضًا).

ويسمون علوه على خلقه واستواءه على عرشه (تحيزًا).

٣- عدم تشبيهها بما للمخلوق، فإن الله سبحانه (ليس كمثله شيء) لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

٤- اليأس من إدراك كنهها وكيفياتها، فالعقل قد يئس من تعرف كنه الصفة وكيفيتها، فإنه لا يعلم كيف الله إلا الله، وهذا معنى قول أهل السنة: (بلا كيف): أي بلا كيف يعقله البشر، فإن من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته كيف تعرف كيفية نعوته وصفاته؟ ولا يقدح في الإيمان بها، ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك[٢].

٥- تحقيق المقتضى والأثر لتلك الصفات، فلكل صفة عبودية خاصة هي من

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٢٠).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٥٨ - ٣٥٩) بتصرف يسير.

موجباتها ومقتضياتها - أعني من موجبات العلم بها، والتحقق بمعرفتها - فعلم العبد بتفرد الرب بالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، يثمر له عبودية (التوكل).

وعلم العبد بجلال الله وعظمته وعزه، يثمر له الخضوع، والاستكانة، والمحبة[١].

(باب تعريف الصفات الإلهية وبيان أقسامها)

مسألة: تعريف الصفات: حدود الأشياء وتفسيرها الذي يوضحها، تتقدم أحكامها، فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها. فمن حكم على أمر من الأمور- قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصورًا يميزه عن غيره - أخطأ خطًا فاحشًا[٢].

فلابد عند الحكم على الشيء من أن يكون مسبوقًا بتصور ماهية المحكوم عليه والمحكوم به، فإن كل تصديق بشيء لابد أن يكون مسبوقًا بتصور[٣].

والغرض من وضع الحدود والتعريفات هو التمييز بين المحدود وبين غيره من جهة

وكذلك فإن من وظيفته تفصيل ما دل عليه الاسم بالإجمال، فالحدود والتعريفات تساعد على تصور حقيقة المحدود، ولذلك كان من شرطها أن تكون جامعة مانعة

فلابد أن يكون الحد جامعًا حتى يتصور السامع حقيقة المحدود، ولابد كذلك أن يكون مانعًا ليتميز المحدود عن غيره[٤].

---

(١) معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات (ص ٢٩).

(٢) انظر التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ص ٧.

(٣) التصور: إدراك المفردات، كإدراك لفظ (محمد) وكذلك إدراك لفظ (رسول)
وأما التصديق: فهو إدراك نسبة الرسالة لمحمد وتصديقك لهذه النسبة

(٤) درء تعارض العقل والنقل ٣/ ٣١٩، ٣٢٠ (بتصرف).

ومن هذا المنطلق لابد من تعريف للصفات يساعد على تصور مضمون هذا اللفظ من جهة ويحدد الفروق بين الصفة والاسم من جهة، وبين الصفة والخبر من جهة أخرى؛ كما يحدد الفرق بين ما يضاف إلى الله إضافة صفة وما يضاف إلى الله إضافة تشريف وتكريم والتعريف الذي سأذكره هاهنا هو تعريف الصفات الثبوتية، وأما تعريف الصفات السلبية (أي المنفية) فسيأتي عند ذكر أقسام الصفات

ضابط الصفات: هي ما قام بالذات الإلهية مما يميزها عن غيرها، ووردت به نصوص الكتاب والسنة

شرح مفردات التعريف: أ- "ما قام بالذات" يخرج من هذا التقييد ما كان من إضافة المُلْك والتشريف، إذ الإضافة إلى الله نوعان: **النوع الأول**: إضافة مُلْك وتشريف وضابطها: كل ما يضاف إلى الله ويكون عينًا قائمة بنفسها، أو حالًا في ذلك القائم بنفسه

ومثال ما يضاف ويكون عينًا قائمة بنفسها قوله تعالى: **{نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا}**

ومثال ما يكون حالًا في ذلك القائم بنفسه قوله تعالى: **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}** فهذا لا يكون صفة لأن الصفة قائمة بالموصوف

النوع الثاني: إضافة الصفة إلى الله وضابطها: ما كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به(١) وهي المقصودة هنا

فالله لا يتصف إلا بما قام به لا بما يخلقه في غيره، وهذا حقيقة الصفة، فإن كل موصوف لا يوصف إلا بما قام به لا بما هو مباين له، صفة لغيره(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما إضافة الوصف إلى الله فتعريفها: ما كان

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٥٢

(٢) مجموع الفتاوى ٦/ ٣١٨.

صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به"[١] أي قبل الإضافة والتخصيص

ومن فوائد هذا التقييد الرد على زعم الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم الذين زعموا أن الصفة هي مجرد قول الواصف[٢]، فزعموا أن إضافة الصفات هي إضافة وصف من غير قيام معنى به[٣] وهذا باطل، فإن حقيقة الصفة هي ما قام بالموصوف، فإن كل موصوف لا يوصف إلا بما قام به لا بما هو مباين له[٤]. أ- **"بالذات الإلهية"** لفظ "الذات" في أصل اللغة تأنيث ذو، وهذا اللفظ لا يستعمل إلا فيما كان مضافًا إلى غيره كأسماء الأجناس، ويتوصلون به إلى الوصف بذلك فيقال: فلان ذو علم وذو مال وشرف

وحيث جاء لفظ ذو في القرآن أو لغة العرب وكذا لفظ "ذات" لم يجيء مقرونا إلا بالإضافة كقوله: **{فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ}** وقوله: **{عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}**، وقول خُبيب رضي الله عنه الذي في صحيح البخاري

وذلك في ذات الإله وإن يشأ … يبارك على أوصال شلو ممزع[٥]

فاسم الذات في كلام النبي ﷺ، والصحابة، والعربية المحضة بهذا المعنى.

ثم أطلقه المتكلمون وغيرهم على النَّفْس، فإنهم لما وجدوا الله في القرآن قال: **{تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}**، **{وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه}** وصفوها فقالوا: نفس ذات علم، وقدرة، ورحمة، ومشيئة، ونحو ذلك. ثم حذفوا الموصوف وعرفوا الصفة فقالوا: الذات. وهي كلمة مولدة ليست من

---

(١) رسالة العقل والروح مطبوعة ضمن الرسائل المنيرية ٢/ ٣٨، ٣٩

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٦/ ٣١٨، ٣٤١

(٣) انظر مجموع الفتاوى ٦/ ١٤٧، ١٤٨

(٤) انظر مجموع الفتاوى ٦/ ٣١٨

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله عز وجل ح ٧٤٠٢

العربية العرباء

فهذا لفظ يقتضي وجود صفات تضاف الذات إليها[١]، فأطلق بإزاء النفس[٢].

ب ـ **"مما يميزها عن غيرها"** في هذا إشارة إلى وظيفة الصفة، فالله ﷻ وصف نفسه بصفات كثيرة، تَعَرَّفَ بها إلى عباده، وهذه الصفات هي التي تميز الخالق ﷻ عما سواه وتُظْهِرُ للعباد كمال الرب ﷻ وعظمة شأنه، وجلال قدرته، وتزيد العبد معرفة بالله ﷻ، ولا شك أن حاجة الناس إلى معرفة ربهم هي أعظم الحاجات، ولذلك تَعَرَّفَ الله لعباده بصفاته، ليكون ذكرهم له أعظم وأكثر، "وكلما كانت حاجة الناس إلى معرفة الشيء وذكره أشد وأكثر، كانت معرفتهم به وذكرهم له أعظم وأكثر، وكانت طرق معرفته أكثر وأظهر، وكانت الأسماء المعرِّفة له أكثر، وكانت على معانيه أدل"[٣].

وهذا الشأن حاصل في باب أسماء الله وصفاته، فالله هو أجل معلوم وأعظمه وأكبره. ولذلك كان العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأشرفها وأعظمها، فمن عرف الله عرف ما سواه ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل، فالعلم بالله أصل كل علم وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح به، فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته[٤].

وعلى أساس العلم الصحيح بالله وأسمائه وصفاته يقوم الإيمان الصحيح

---

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ٩٨، ٣٤١ (بتصرف)

(٢) وانظر درء تعارض العقل والنقل ٤/ ١٤٠، ١٤١

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٣/ ٣٣٠.

(٤) مفتاح دار السعادة ١/ ٨٦

والتوحيد الخالص، وتنبني مطالب الرسالة جميعها

فالمعرفة لله تَلْزَمُ العبد المؤمن لينعقد بها أصل الإيمان ولتجعله في سلامة من الكفر والشرك المخرجين من الإيمان

جـ - "ووردت به نصوص الكتاب والسنة" أي يجب الوقوف في هذا الباب على ما جاءت به نصوص الكتاب والسنة الصحيحة، فلا نثبت لله تعالى من الصفات إلا ما دل الكتاب والسنة على ثبوته

قال الإمام أحمد: "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يُتَجاوز القرآن والحديث" (١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، وبما وصفه به السابقون الأولون لا يُتَجاوز القرآن والحديث" (٢).

ولدلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفات ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: التصريح بالصفة

كالعزة في قوله تعالى: **{فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا}**.

وقوله ﷺ: "أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت"

والقوة في قوله تعالى: **{أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}**.

والرحمة في قوله تعالى: **{وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ}**.

واليدين في قوله تعالى: **{بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}**.

والبطش في قوله تعالى: **{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ}**.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إضافة الصفة إلى الموصوف كقوله تعالى:

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/ ٢٦

(٢) الفتوى الحموية ص ٦١.

{ولا يحيطون بشيء من علمه}، وقوله: **{إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ}**، وفي حديث الاستخارة "اللهم إني أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك"٩، وفي الحديث الآخر "اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق"١٠، فهذا في الإضافة الاسمية

وأما بصيغة الفعل فكقوله: **{عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ}**، وقوله **{عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ}** أما الخبر الذي هو جملة اسمية فمثل قوله تعالى: **{وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**١٣، وقوله تعالى: **{وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**١٤.

وذلك لأن الكلام الذي توصف به الذوات: ١- إما جملة

٢- أو مفرد فالجملة إما اسمية: كقوله تعالى: **{وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**

أو فعلية: كقوله: **{عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوه}**

أما المفرد فلا بد فيه من:

١ـ إضافة الصفة لفظًا أو معنى كقوله: **{بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ}** وقوله: **{هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّة}**

٢ـ أو إضافة الموصوف كقوله: **{ذُو الْقُوَّة}** **الوجه الثاني: تضمن الاسم للصفة**

فمن الأمور المتقررة في عقيدة أهل السنة والجماعة أن أسماء الله الحسنى متضمنة للصفات، فكل اسم يدل على معنى من صفاته ليس هو المعنى الذي دل عليه الاسم الآخر

فالعزيز متضمن لصفة العزة وهو مشتق منها

والخالق متضمن لصفة الخلق وهو مشتق منها

والرحيم متضمن لصفة الرحمة وهو مشتق منها

فأسماء الله مشتقة من صفاته

وترجع أسماء الله الحسنى من حيث معانيها إلى أحد الأمور التالية: ١- إلى صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

٢- ما يرجع إلى أفعاله: كالخالق، والرازق، والبارئ، والمصور.

٣- ما يرجع إلى التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتًا إذ لا كمال في العدم المحض: كالقدوس، والسلام، والأحد.

٤- ما دل على جملة أوصاف عديدة ولم يختص بصفة معينة بل هو دال على معنى مفرد نحو: المجيد، العظيم، الصمد (١).

الوجه الثالث: التصريح بفعل أو وصف دال عليها أي ما فيها معنى الصفة والفعل مثل قوله تعالى: **{وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}** (الآية ١٦٤ من سورة النساء) وقوله تعالى: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}**. وقوله تعالى: **{إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}**.

وقوله تعالى: **{فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}** وقوله تعالى: **{وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ}** وقوله تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ}** وقوله تعالى: **{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}**. وقوله تعالى: **{وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ}**. وقوله تعالى: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}**.

وقوله تعالى: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}**. وقوله تعالى: **{وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}**.

وبما تقدم من شرح لمفردات التعريف أرى أنه هذا التعريف هو المناسب لتعريف الصفات والله أعلم.

مسألة: الفرق بين الوصف والصفة.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٥٩، ١٦٠ (بتصرف)

كل واحد من لفظ "الوصف" و"الصفة" مصدر في الأصل كـ "الوعد – والعِدَة" و"الوزن– والزِنة" (١)، فالصفة: مصدر وصفتُ الشيء أصفه صفة ٢).

والوصف والصفة:

١– تارة يراد به: الكلام الذي يوصف به الموصوف، مثاله: قول الصحابي في {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}: أحبها لأنها صفة الرحمن (٣).

٢– وتارة يراد به: المعاني التي دل عليها الكلام كالعلم والقدرة، والجهمية والمعتزلة وغيرهم تنكر هذا ويقولون: إنما الصفات مجرد العبارة التي يعبر بها عن الموصوف، فقالوا: إن إضافة الصفات إلى الله من إضافة وصف من غير قيام معنى به (٤).

والكلابية ومن اتبعهم من الصفاتية قد يفرقون بين الوصف والصفة، فيجعلون الوصف: هو القول، والصفة: المعنى القائم بالموصوف (٥).

فأدخلوا في الوصف (الذي هو القول عندهم) صفات الأفعال حتى ينفوا قيامها بالذات

وأدخلوا في الصفة (التي هي المعنى القائم بالذات) ما أثبتوه من الصفات كصفات المعاني السبعة (العلم، الحياة، القدرة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام) ليتأتى لهم على هذا التقسيم اعتبار بعض الصفات قائمًا بالذات، وبعضها غير

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٣٥

(٢) – مجموع الفتاوى ٦/ ٣٤٠

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، ح ٧٣٧٥ ولفظ البخاري " فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها".

(٤) مجموع الفتاوى ٦/ ١٤٧– ١٤٨

(٥) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٣٥. ٦/ ٣٤١.التمهيد للباقلاني (ص ٢٤٤– ٢٤٥).

قائم بها، فأرادوا بذلك نفي صفات الأفعال واعتبروها نسبًا وإضافات لا تقوم بالذات

قال ابن القيم في الرد على زعمهم هذا:

سيم هذا مقتضى البرهان فالحق أن الوصف ليس بمورد التق

بالذات التي للواحد الرحمن بل مورد التقسيم ما قد قام

فهـذي قـسمة التبيـان م الفعـل فهما إذا نوعان أوصاف وأفعال فالوصف

بالموصوف بالبرهان بالأفعال يستدعي قيا

أن بين دينك قط من فرقان كالوصف بالمعنى سوى الأفعال ما

فالحق أن مورد القسمة هو نفس ما يقوم بالذات، فيقال إن ما يقوم بالذات ويكون وصفًا لها، إما أن يكون: ١- صفة معنى لازمًا للذات. ٢ـ وإما أن يكون صفة فعل

والوصف بالفعل يستدعي قيام الفعل بالموصوف، كالوصف بالمعنى سواء بسواء

فإذا كان وصفه سبحانه بأنه عليم، قدير، حي،... الخ، يقتضي قيام العلم والقدرة والحياة به.

فكذلك وصفه بأنه خالق أو رازق أو مقدم أو مؤخر يقتضي قيام هذه الأفعال من الخلق والرزق والتقديم والتأخير ونحوها به [١].

"ومن قال الصفات تنقسم إلى صفات ذاتية وفعلية، ولم يجعل الأفعال تقوم به، فكلامه فيه تلبيس، فإنه سبحانه لا يوصف بشييء لا يقوم به

وإن سلم أنه يتصف بما لا يقوم به فهذا هو أصل الجهمية الذين يصفونه بمخلوقاته ويقولون: إنه متكلم مريد وراض وغضبان ومحب ومبغض وراحم

---

(١) انظر شرح القصيدة النونية للهراس ٢/ ١٢١

للمخلوقات يخلقها منفصلة عنه لا بأمور تقوم بذاته"(١).

مسألة: **التعريف بالنوعين: يجب التفريق بين نوعين من الإضافة وردا في النصوص هما:**

الأول: إضافة ملك.

الثاني: إضافة وصف.

١- أما إضافة الملك فتعريفها: هي كل ما يضاف إلى الله ويكون عينًا قائمة بنفسها، أو حالًا في ذلك القائم بنفسه ومن أمثلتها:

١- قوله تعالى: **{نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا}**، فإضافة الناقة إلى الله هنا من إضافة الملك والتشريف فالناقة عين قائمة بنفسها.

٢- قوله تعالى: **{فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا}**، فالروح هنا هو جبريل عليه السلام.

٣- قوله تعالى: **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}**.

٤- وقوله تعالى: **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}**.

٥- وقوله تعالى: **{وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}**.

٦- وقوله تعالى: **{مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُول}**.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن المضاف إن كان شيئا قائمًا بنفسه أو حالًا في ذلك القائم بنفسه، فهذا لا يكون صفة لله، لأن الصفة قائمة بالموصوف

فالأعيان التي خلقها الله قائمة بأنفسها، وصفاتها القائمة بها تمتنع أن تكون

(١) شرح العقيدة الأصفهانية ص٦٣

صفات لله، فإضافتها إليه تتضمن كونها مخلوقة مملوكة، لكن أضيفت لنوع من الاختصاص المقتضي للإضافة لا لكونها صفة، والروح الذي هو جبريل من هذا الباب، كما أن الكعبة والناقة من هذا الباب، ومال الله من هذا الباب، وروح بني آدم من هذا" (١).

وأما إضافة الوصف إلى الله فتعريفها: ما كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به(٢).

فإذا كان المضاف إليه لا يقوم بنفسه، بل لا يكون إلا صفة كالعلم، والقدرة، والكلام، والرضا، والغضب، فهذا لا يكون إلا إضافة صفة إليه فتكون قائمة به سبحانه (٣).

ومن أمثلة هذا القسم: قوله تعالى: **﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ﴾**، فالكلام لا يقوم بنفسه إلا بالمتكلم فإضافته إلى المتكلم إضافة صفة إلى موصوفها

وقوله تعالى: **﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾**، فإضافة العلم إلى الله إضافة صفة إلى موصوفها.

وفي الحديث: "اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك" (٤)، فعلمه صفة قائمة به وقدرته صفة قائمة به

وفي الحديث: "أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك" (٥)

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٥١

(٢) رسالة العقل والروح (مطبوعة ضمن الرسائل المنبرية ٢/ ٣٨،٣٩)

(٣) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٥٢

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، ح ١١٦٢

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٣٥٢

فرضاه وسخطه قائم به، وكذلك عفوه وعقوبته.

وأما أثر ذلك وهو ما يحصل للعبد من النعمة واندفاع النقمة فذلك مخلوق منفصل عنه ليس صفة له (١).

تنبيه: وقد يعبر بلفظ المصدر عن المفعول به فيسمى المعلوم علمًا والمقدور قدرة والمأمور أمرًا والمخلوق بالكلمة كلمة فيكون ذلك مخلوقًا ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: **{أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ}** والمراد بالأمر هنا المخلوق المكوَّن بالأمر

وقوله تعالى: **{إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}**

وقوله تعالى: **{إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ}** فإذا قيل المسيح "كلمة الله" فمعناه المخلوق بالكلمة،إذ المسيح نفسه ليس كلامًا (٢.).

وكقوله في الحديث الصحيح للجنة: "أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي" كما قال للنار: "أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها" (٣).

فالرحمة هنا عين قائمة بنفسها لا يمكن أن تكون صفة لغيرها (٤.).

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٥٢

(٢) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٥٢

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: {وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} ح ٤٨٥

وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٨/ ١٥١، طبعة دار المعرفة

(٤) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٥٢

مسألة: أقوال العلماء في تقرير المسألة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ما ذكر في القرآن أنه منه أو أضيف إليه، فإن كان عينا قائمة بنفسها، أو أمرًا قائمًا بتلك العين كان مخلوقا. كقوله في عيسى: **{وَرُوحٌ مِنْهُ}** وقوله تعالى: **{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ}** وقوله تعالى: **{وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ}**.

وأما ما كان صفة لا تقوم بنفسها، ولم يذكر لها محل غير الله كان صفة له، فكالقول، والعلم، والأمر إذا أريد به المصدر كان المصدر من هذا الباب كقوله تعالى: **{أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}** وإذا أريد به المخلوق المكون بالأمر كان من الأول كقوله تعالى: **{أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ}**، وبهذا يفرق بين كلام الله سبحانه، وعلم الله، وبين عبد الله وبيت الله وناقة الله وقوله: **{فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}** وهذا أمر معقول في الخطاب، فإذا قلت علم فلان وكلامه ومشيئته لم يكن شيئا بائنًا عنه، والسبب في ذلك أن هذه الأمور صفات لما تقوم به، فإذا أضيفت إليه كان ذلك إضافة صفة لموصوف، إذ لو قامت بغيره لكانت صفة لذلك الغير لا لغيره"

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "إضافة الروح إلى الله إضافة ملك لا إضافة وصف، إذ كل ما يضاف إلى الله: إن كان عينًا قائمة بنفسها فهو ملك له، وإن كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به فهو صفة لله

ومن أمثلة القسم الأول: قوله تعالى: **{نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا}**

وقوله تعالى: **{فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا}** وهو جبريل **{فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا}** وكقوله تعالى: **{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا}**

وقال تعالى عن آدم: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}

ومن أمثلة القسم الثاني: كقولنا علم الله، وكلام الله، وقدرة الله، وحياة الله، وأمر الله

ولكن قد يعبر بلفظ المصدر عن المفعول به فيسمى المعلوم علما، والمقدور قدرة، والمأمور أمرًا، والمخلوق بالكلمة كلمة، فيكون ذلك مخلوقا كقوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ}.

وكقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}

وكقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ}

وكقوله في الحديث الصحيح للجنة "أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي" كما قال للنار: "أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها""" (١).

وقال السفاريني: "ومما ينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان: الأول: صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم، والقدرة، والكلام، والسمع، والبصر فهذه إضافة صفة إلى موصوف بها فالعلم والقدرة... الخ صفات له تعالى غير مخلوقة، وكذا وجهه ويده ونحو ذلك من الصفات الخبرية والذاتية وكذا الفعلية من التكوين والمحبة والرضا ونحوها، في مذهب السلف

الثاني: إضافة أعيان منفصلة كبيت الله، وناقة الله، وعبد الله، ورسول الله، وكذلك روح الله، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه لكنها تقتضي تخصيصًا أو تشريفًا يتميز به المضاف إليه عن غيره "كبيت الله" وإن

---

(١) رسالة العقل والروح لشيخ الإسلام ابن تيمية مطبوعة ضمن الرسائل المنبرية ٢/ ٣٨

كانت كل البيوت لله ملكًا له، وكذلك "ناقة الله" والنوق كلها ملكه وخلقه، ولكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته، حيث تقتضي خلقه وإيجاده

فالإضافة العامة تقتضي الخلق والإيجاد، والخاصة تقتضي الاختيار **{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}**، فإضافة الروح إليه تعالى من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة، ولا من باب إضافة الصفات، فتأمل هذا الموضع فإنه نفيس (١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والله أخبر في الكتاب بأنه ... منه ومجرور بمن نوعان
عينٌ ووصفٌ قائم بالعين فالأعيـ ... ـان خَلْقُ الخالق الرحمان
والوصف بالمجرور قام لأنه ... أولى به في عرفِ كل لسان
ونظير ذا أيضًا سواء ما يضاف ... إليه من صفة ومن أعيان
فإضافة الأوصاف ثابتة لمن ... قامت به كإرادة الرحمان
وإضافة الأعيان ثابتة له ... مُلْكا وخَلْقًا ما هما سِيَّان
فانظر إلى بيت الإله وعلمه ... لَمَّا أضيفا كيف يفترقان
وكلامه كحياته وكعلمه ... في ذي الإضافة إذ هما وصفان
لَكِنَّ ناقته وبيت إلهنا ... فكعبده أيضًا هما ذاتان
فانظر إلى الجهمي لما فاته الحـ ... ـق المبين الواضح التبيان
كان الجميع لديه بابًا واحدًا ... والصبح لاح لمن له عينان (٢).

---

(١) لوامع الأنوار البهية ٢/ ٣٦، ٣٧. وانظر كتاب الروح لابن القيم ٢/ ٥٢٥، ومختصر الصواعق ٢/ ٢٢٠- ٢٢١ والكواشف الجلية عن معاني الواسطية ص ٢٤٢- ٢٤٣.

(٢) شرح القصيدة النونية ١/ ١٣٨.

قال الشيخ الدكتور محمد خليل هراس في شرح هذه الأبيات: "يريد المؤلف في هذا الفصل أن يفرق بين ما كان من الأعيان مخبرًا عنه أنه من الله؛ وبين ما كان من الأوصاف كذلك. وأن يفرق أيضًا بين ما كان من الأعيان مضافًا إلى الله، وبين ما كان من الأوصاف كذلك

فالمخبر عنه بأنه من الله على نوعين لأنه: إما أن يكون عينًا من الأعيان أو وصفًا قائمًا بالعين.

فإن كان عينًا فمعنى كونه من الله أنه هو خالقه سبحانه كما في قوله تعالى: **{مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ}**، وقوله: **{قُل كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ}**، وقوله: **{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ}**، وقوله تعالى عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: **{إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ}** والآيات كثيرة في هذا الباب

وإن كان وصفًا فمعنى كونه من الله أنه صفة له كما في قوله تعالى: **{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَق}**،وقوله تعالى: **{تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}**، وقوله تعالى: **{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}** ومعنى قول المؤلف: "والوصف بالمجرور قام" يعني أن ما أخبر عنه بمن إن كان وصفًا فهو قائم بالمجرور بها لأنه أحق به في عرف أهل اللغات جميعًا

ومثل ذلك تمامًا يقال فيما يضاف إلى الله عَزَّ وَجَلَّ

فإن كان عينًا مثل بيت الله، وناقة الله، وعباد الرحمن، فنسبته إليه ثابتة خلقًا وملكًا، وتكون إضافته للاختصاص والتشريف

وأما إن كان وصفًا كعلم الله، وقدرته، وإرادته، وكلامه، وحياته، فهذه الإضافة تقتضي قيامها بالله وأنه موصوف بها

وتدبر هذا الفرق بين قولك بيت الله، وعلم الله، فإن كُلًا منهما يضاف إلى

الله، ولكن لما كانت إضافة الأول إضافة ذات دلت على أنه مخلوق

ولما كانت إضافة الثاني إضافة معنى دلت على أنه صفة للمضاف إليه

ولهذا لما اهتدى السلف لهذا الفرق هُدُوا إلى الصراط المستقيم، ولما ضل عنه الجهمي الزائغ جعل الجميع بابًا واحدًا، ولم يفرق بين الأوصاف والأعيان، فوقع في الضلال والبهتان" (١.).

مسألة: موقف المخالفين من المسألة.

موقف الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم: ينكر الجهمية والمعتزلة صفات الله ﷻ ولذلك فهم لا يعترفون بالقسم الثاني من أقسام الإضافة إلى الله الذي هو إضافة الصفة إلى الموصوف

فالمعتزلة يرون امتناع قيام الصفات به، لاعتقادهم أن الصفات أعراض، وأن قيام العرض به يقتضي حدوثه، فردوا جميع ما يضاف إلى الله إلى إضافة خلق، أو إضافة وصف من غير قيام معنى به (٢ لأنهم يقولون إنما الصفات مجرد) العبارة التي يعبر بها عن الموصوف، وينفون أن يكون لله وصف قائم به علم أو قدرة أو إرادة أو كلام [٣].

موقف الكلابية ومن اتبعهم من الصفاتية: يفرقون بين الوصف والصفة

فيجعلون الوصف: هو القول

ويجعلون الصفة: المعنى القائم بالموصوف [٤].

فقالوا: إن الوصف الذي هو القول يراد به الأفعال، وزعموا أنها لا تقوم به،

---

(١) شرح القصيدة النونية ١/ ١٣٨- ١٣٩ (بتصرف يسير).

(٢) مجموع الفتاوى ٦/ ١٤٧، ١٤٨

(٣) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٣٥

(٤) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٣٥.

والصفة: هي الصفات اللازمة القائمة بالذات

فظنوا أن هناك نوعين مختلفين من الصفات:

أحدهما: قائم بالذات لازم لها، كصفات المعاني السبعة التي هي العلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام

والثاني: صفات أفعال لا تقوم عندهم بالذات، بل هي نسب إضافية عدمية تنشأ من إضافة المفعول لفاعله، ولا يعقل لها وجود إلا بتلك الإضافة، فوجودها أمر سلبي، وليس لها وجود في نفسها، فليس ثمت عندهم موجود إلا المفعولات، وأما الأفعال فنسب وإضافات (١).

مسألة: العلاقة بين الأبواب الثلاثة

أولًا: يجب أن يُعْلَم أن توحيد الأسماء والصفات يشتمل على ثلاثة أبواب:

الباب الأول: باب الأسماء

الباب الثاني: باب الصفات

الباب الثالث: باب الإخبار

فنحن إذا وقفنا وقفةَ تأمل عند نصوص الكتاب والسنة الواردة في هذا الشأن نجد الحقائق التالية: أن الله أطلق على نفسه أسماء كـ (السَّميع) و(البصير)، وأوصافًا كـ (السمع) و(البصر)، وهكذا أخبر عن نفسه بأفعالها فقال: **{قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}** [المجادلة ١]، وقال تعالى: **{وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}** [ال عمران ١٥]. فاستعملها في تصاريفها المتنوعة، مما يدل على أن مثل ذلك يجوز إطلاقه عليه في أي صورة ورد

وأطلق على نفسه أفعالًا كـ (الصُّنع) و(الصِّبغة) و(الفعل) ونحوها. قال تعالى: **{صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}** [النمل ٨٨]، وقال تعالى: **{صِبْغَةَ اللهِ**

---

(١) شرح القصيدة النونية للهراس ٢/ ١٢٠.

وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً} [البقرة ١٣٨] وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [هود ١٠٧]، لكنه لم يَتَسَمَّ ولم يصف نفسه بها ولكن أخبر بها عن نفسه، ممَّا يدل على أنَّها تخالف الأوَّل في الحكم فوجب الوقوف فيها على ما ورد

ووصف نفسه بأفعال في سياق المدح كـ (يريد) و(يشاء) فقال جلَّ شأنه: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ} [الأنعام ١٢٥] وقال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير ٢٩] إلا أنه لم يشتق له منها أسماء فدل على أن هذا النوع مخالف للقسمين الأولين، فوجب رده إلى الكتاب والسنة وذلك بالوقوف حيث أوقفنا الله ورسوله ﷺ

ووصف نفسه بأفعال أخرى على سبيل المقابلة بالعقاب والجزاء ف قال تعالى: {يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُم} [النساء ١٤٢] وقال تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ} [الأنفال ٣٠]. ولم يشتق منها أسماء له تعالى فدل ذلك على أن مثل هذه الأفعال لها حكمٌ خاصٌ فوجب الوقوف على ما ورد

فهذه الحقائق السابقة قررت عند العلماء النتائج التالية:

١ـ أن النصوص جاءت بثلاثة أبواب هي (باب الأسماء) و(باب الصفات) و(باب الإخبار)

٢ـ أن باب الأسماء هو أخص تلك الأبواب، فما صح اسمًا صحَّ صفة وصحَّ خبرًا وليس العكس

٣ـ باب الصفات أوسع من باب الأسماء، فما صحَّ صفة فليس شرطًا أن يصحَّ اسمًا، فقد يصحُّ وقد لا يصح، مع أن الأسماء جميعها مشتقة من صفاته.

٤ـ أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، فالله يُخْبَرُ عنه بالاسم وبالصفة وبما ليس باسم ولا صفة كألفاظ (الشيء) و(الموجود) و(القائم بنفسه) و(المعلوم)، فإنه يخبر بهذه الألفاظ عنه

ولا تدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا،

إن باب الأسماء والصفات توقيفيان.

فالأصل في إثبات الأسماء والصفات أو نفيهما عن الله تعالى هو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فما ورد إثباته من الأسماء والصفات في القرآن والسنة الصحيحة فيجب إثباته، وما ورد نفيه فيهما فيجب نفيه وأما ما لم يرد إثباته ونفيه فلا يصح استعماله في باب الأسماء والصفات إطلاقًا (١).

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"**لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والسنة"

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: **"**وطريقة سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ" (٢).

أما باب الإخبار فالسلف لهم فيه قولان: القول الأول: أن باب الإخبار توقيفي، فإن الله لا يُخْبَرُ عنه إلا بما ورد به النص، وهذا يشمل الأسماء والصفات، وما ليس باسم ولا صفة مما ورد به النص كـ (الشيء) و(الصنع) ونحوها

وأما مالم يرد به النص فإنهم يمنعون استعماله (٣).

القول الثاني: إن باب الإخبار لا يشترط فيه التوقيف، فما يدخل في الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كـ (الشيء) و(الموجود) و(القائم بنفسه)، فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا،

---

(١) رسالة في العقل والروح لشيخ الإسلام ابن تيمية، مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (٢/ ٤٦- ٤٧)

(٢) منهاج السنة (٢/ ٥٢٣)

(٣) انظر رسالة في العقل والروح (٢/ ٤٦- ٤٧).

فالإخبار عنه قد يكون باسم حسن، أو باسم ليس بسيِّئ، أي باسم لا ينافي الحسن، ولا يجب أن يكون حسنًا، ولا يجوز أن يخبر عن الله باسم سيِّئ (١).فيخبر عن الله بما لم يرد إثباته ونفيه بشرط أن يستفصل عن مراد المتكلم فيه، فإن أراد به حَقًّا يليق بالله تعالى فهو مقبول، وإن أراد به معنى لا يليق بالله ﷻ وجب رده (٢.).

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٦١)، مجموع الفتاوى (٦/ ١٤٢- ١٤٣)

(٢) رسالة في العقل والروح (٢/ ٤٦- ٤٧).

مسألة: الألفاظ المجملة وحكم دخولها في باب الصفات وموقف أهل السنة من استعمالها

يمكن تقسيم الألفاظ المجملة - أي التي لم يرد استعمالها في النصوص- على النحو التالي: أولًا: ألفاظ ورد استعمالها ابتداءً في بعض كلام السلف

ومن أمثلة ذلك لفظ (الذات) و(بائن)

وهذه الألفاظ تحمل معاني صحيحة دلت عليها النصوص

وهذا النوع من الألفاظ يجيز جمهور أهل السنة استعمالها

وهناك من يمنع ذلك بحجة أن باب الإخبار توقيفي كسائر الأبواب

والصواب أنه ما دام المعنى المقصود من ذلك اللفظ يوافق ما دلت عليه النصوص، واستعمل اللفظ لتأكيد ذلك فلا مانع

كقول أهل السنة: "إن الله استوى على العرش بذاته"

فلفظة (بذاته) مراد بها أن الله مستو على العرش حقيقة وأن الاستواء صفة له

وكقولهم: "إن الله عالٍ على خلقه بائن منهم"

فلفظة (بائن) يراد بها إثبات العلو حقيقة، والرد على زعم من قال إن الله في كل مكان بذاته

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والمقصود هنا أن الأئمة الكبار كانوا يمنعون من إطلاق الألفاظ المبتدعة المجملة، لما فيها من لبس الحق بالباطل، مع ما تُوقعه من الاشتباه والاختلاف والفتنة، بخلاف الألفاظ المأثورة، والألفاظ التي بينت معانيها، فإن ما كان مأثورًا حصلت به الألفة، وما كان معروفًا حصلت به المعرفة" (١).

وقال أيضًا: "فطريقة السلف والأئمة أنهم يراعون المعاني الصحيحة

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٧١)

المعلومة بالشرع والعقل

ويراعون أيضًا الألفاظ الشرعية، فيعبرون بها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا

ومن تكلم بما فيه معنى باطل يخالف الكتاب والسنة ردوا عليه

ومن تكلم بلفظ مبتدع يحتمل حقًا وباطلًا نسبوه إلى البدعة، وقالوا إنما قابل البدعة ببدعة ورد باطلًا بباطل" [١].

فيستفاد من كلام شيخ الإسلام المتقدم أن الألفاظ على أربعة أقسام:

القسم الأول: الألفاظ المأثورة وهي التي وردت بها النصوص

القسم الثاني: الألفاظ المعروفة وهي التي بُيِّنَت معانيها

القسم الثالث: الألفاظ المبتدعة التي تدل على معنى باطل

القسم الرابع: الألفاظ المبتدعة التي تحتمل الحق والباطل

فلفظ (الذات) و(بائن) هي من القسم الثاني

وهذه الألفاظ كما أسلفنا إنما تستعمل في باب الإخبار ولا تستعمل في باب الأسماء والصفات، ولذلك لما اعترض الخطابي على استعمالها بقوله: "وزعم بعضهم أنه جائز أن يقال له تعالى حد لا كالحدود كما نقول يد لا كالأيدي فيقال له: إنما أُحوِجْنَا إلى أن نقول يد لا كالأيدي لأن اليد قد جاء ذكرها في القرآن وفي السنة فلزم قبولها ولم يجز رَدُّها. فأين ذكر الحد في الكتاب والسنة حتى نقول حد لا كالحدود، كما نقول يد لا كالأيدي؟! [٢].

فرد شيخ الإسلام ابن تيمية على قول الخطابي من وجوه منها: "أن هذا الكلام الذي ذكره إنما يتوجه لو قالوا: إن له صفة هي الحد، كما توهمه هذا الراد عليهم. وهذا لم يقله أحد، ولا يقوله عاقل؛ فإن هذا الكلام لا حقيقة له إذ

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٥٤).

(٢) نقض تأسيس الجهمية (١/ ٤٤٢)

ليس في الصفات التي يوصف بها شيء من الموصوفات - كما وصف باليد والعلم- صفة معينة يقال لها الحد، وإنما الحد ما يتميز به الشيء عن غيره من صفته وقدره" [(١)].

فأهل السنة لم يثبتوا بهذه الألفاظ صفة زائدة على ما في الكتاب والسنة، بل بينوا بها ما عطله المبطلون من وجود الرب تعالى ومباينته من خلقه وثبوت حقيقته" [(٢)].

ثانيًا: ألفاظ ورد استعمالها في كلام بعض السلف تارة لإثباتها وتارة لنفيها

ومن أمثلة ذلك: لفظ (الحد) ولفظ (المماسة)، فإطلاق السلف لها ليس من باب الصفات وإنما هو من باب الإخبار، ولهم في حال الإثبات والنفي توجيه ليس هذا محل بسطه

ثالثًا: ألفاظ ورد استعمالها في كلام بعض السلف وفي كلام خصومهم

ومن أمثلة ذلك: لفظة (الجهة)

رابعًا: ألفاظ ورد استعمالها في كلام الخصوم ولم يرد استعمالها في كلام السلف.

ومن أمثلة ذلك: لفظ (الجسم) و(الحيز) و(واجب الوجود) و(الجوهر) و(العرض)

وأما النوعان الثالث والرابع فالجواب عن ذلك أن نقول الأصل في هذا الباب أن الألفاظ نوعان: النوع الأول: نوع مذكور في كتاب الله وسنة رسوله وكلام أهل الإجماع، فهذا يجب اعتبار معناه، وتعليق الحكم به، فإن كان المذكور به مدحًا استحق صاحبه المدح، وإن كان ذمًا استحق الذم، وإن أثبت

---

(١) نقض تأسيس الجهمية (١/ ٤٤٢- ٤٤٣)

(٢) نقض تأسيس الجهمية (١/ ٤٤٥).

شيئا وجب إثباته، وإن نفى شيئا وجب نفيه، لأن كلام الله حق، وكلام رسوله حق، وكلام أهل الإجماع حق

وهذا كقوله تعالى: **{قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}** [الإخلاص ١- ٤]، وقوله تعالى: **{هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ}** [الحشر ٢٢- ٢٣]، ونحو ذلك من أسماء الله وصفاته

وكذلك قوله تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** [الشورى ١١]، وقوله تعالى: **{لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ}** [الأنعام ١٠٣]، وقوله تعالى: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [القيامة ٢٢- ٢٣]، وأمثال ذلك مما ذكره الله تعالى ورسوله ﷺ، فهذا كله حق.

النوع الثاني: الألفاظ التي ليس لها أصل في الشرع.

فتلك لا يجوز تعليق المدح والذم والإثبات والنفي على معناها، إلا أن يبين أنه يوافق الشرع، والألفاظ التي تعارض بها النصوص هي من هذا الضرب،كلفظ (الجسم) و(الحيز) و(الجهة) و(الجوهر) و(العرض) [(١)]. فإن).هذه الألفاظ يدخلون في مسماها الذي ينفونه أمورًا مما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله، فيدخلون فيها نفي علمه وقدرته وكلامه، ويقولون إن القرآن مخلوق، ولم يتكلم الله به، وينفون رؤيته لأن رؤيته على اصطلاحهم لا تكون إلا لمتحيز في جهة وهو جسم، ثم يقولون: والله منزه عن ذلك فلا تجوز رؤيته. وكذلك يقولون إن المتكلم لا يكون إلا جسمًا متحيزًا، والله ليس بجسم متحيز فلا يكون متكلمًا، ويقولون: لو كان فوق العرش لكان جسمًا متحيزًا، والله ليس

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٤١- ٢٤١)

بجسم متحيز، فلا يكون متكلمًا فوق العرش وأمثال ذلك (١).

الموقف من هذا النوع: "إذا كانت هذه الألفاظ مجملة - كما ذُكر - فالمخاطب لهم إما: ١ - أن يفصل لهم ويقول: ما تريدون بهذه الألفاظ؟ فإن فسروها بالمعنى الذي يوافق القرآن قُبلت. وإن فسروها بخلاف ذلك رُدَّت.

٢ - وأما أن يمتنع عن موافقتهم في التكلم بهذه الألفاظ نفيًا وإثباتًا. ولكن يلاحظ

أن الإنسان إذا امتنع عن التكلم بها معهم فقد ينسبونه إلى الجهل والانقطاع

وأن الإنسان إذا تكلم بها معهم نسبوه إلى أنه أطلق تلك الألفاظ التي تحتمل حقًا وباطلًا، وأوهموا الجهال باصطلاحهم أن إطلاق تلك الألفاظ يتناول المعاني الباطلة التي ينزه الله عنها" (٢).

ولعل الراجح في المسألة أن الأمر يختلف باختلاف المَصْلَحَةِ.

١ - فإن كان الخصم في مقام دعوة الناس إلى قوله وإلزام الناس بها أمكن أن يقال له: لا يجب على أحد أن يجيب داعيًا إلا إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه، ولا له دعوة الناس إلى ذلك، ولو قدر أن ذلك المعنى حق، هذه الطريق تكون أصلح إذا لَبَّسَ مُلَبِّسٌ منهم على ولاة الأمور، وأدخلوه في بدعتهم، كما فعلت الجهمية بمن لبسوا عليه من الخلفاء حتى أدخلوه في بدعتهم من القول بخلق القرآن وغير ذلك، فكان من أحسن مناظرتهم أن يقال: إئتونا بكتاب أو سنة حتى نجيبكم إلى ذلك وإلا فلسنا نجيبكم إلى ما لم يدل عليه الكتاب والسنة، هذا لأن الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء، وإذا ردوا إلى

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٨).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٩).

عقولهم فلكل واحد منهم عقل، وهؤلاء المختلفون يدعي أحدهم أن العقل أدَّاه إلى علم ضروري ينازعه فيه الآخر، فلهذا لا يجوز أن يجعل الحاكم بين الأمة في موارد النزاع إلا الكتاب والسنة، هذا ناظر الإمام أحمد الجهمية لما دعوه إلى المحنة، وصار يطالبهم بدلالة الكتاب والسنة على قولهم، لما ذكروا حججهم كقوله تعالى: **{خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}** [الأنعام ١٠٢]، وقوله: **{مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ}** [الأنبياء ٢]، وقول النبي ﷺ: "تجيء البقرة وآل عمران"، وأمثال ذلك من الأحاديث.

أجابهم عن هذه الحجج بما بين به أنها لا تدل على مطلوبهم

ولما قالوا: ما تقول في القرآن أهو الله أو غير الله؟ عارضهم بالعلم فقال: ما تقولون في العلم أهو الله أو غير الله؟ ولما ناظره أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث - وكان من أحذقهم بالكلام- ألزمه التجسيم، وأنه إذا أثبت لله كلامًا غير مخلوق لزم أن يكون جسمًا

فأجابه الإمام أحمد: بأن هذا اللفظ لا يُدرى مقصود المتكلم به، وليس له أصل في الكتاب والسنة والإجماع، فليس لأحد أن يلزم الناس أن ينطقوا به ولا بمدلوله

وأخبره أني أقول: هو أحد، صمد،لم يلد ولم يلد، ولم يكن له كفوًا أحد، فبين أني لا أقول هو جسم ولا ليس بجسم، لأن كلا الأمرين بدعة محدثة في الإسلام، فليست هذه من الحجج الشرعية التي يجب على الناس إجابة من دعا إلى موجبها، فإن الناس إنما عليهم إجابة الرسول فيما دعاهم إليه وإجابة من دعاهم إليه رسول الله ﷺ، لا إجابة من دعاهم إلى قول مبتدع، ومقصود المتكلم بها مجمل لا يُعرف إلا بعد الاستفصال والاستفسار، فلا هي معروفة في الشرع، ولا معروفة بالعقل إن لم يستفسر المتكلم بها، فهذه المناظرة ونحوها

هي التي تصلح إذا كان المناظر داعيًا.

٢- وأما إذا كان المناظر معارضًا للشرع بما يذكره، أو ممن لايمكن أن يرد إلى الشريعة

مثل من لا يلتزم الإسلام ويدعو الناس إلى ما يزعمه من العقليات أو ممن يدَّعي أن الشرع خاطب الجمهور، وأن المعقول الصريح يدل على باطن يخالف الشرع، ونحو ذلك.

أو كان الرجل ممن عرضت له شبهة من كلام هؤلاء، فهؤلاء لابد في مخاطبتهم من الكلام على المعاني التي يدعونها إما:

١- بألفاظهم.

٢- وإما بألفاظ يوافقون على أنها تقوم مقام ألفاظهم، وحينئذ يقال لهم الكلام إما: أ- أن يكون في الألفاظ.

ب- وإما أن يكون في المعاني.

جـ- وإما أن يكون فيهما.

فإن كان الكلام في المعاني المجردة من غير تقييد بلفظ كما تسلكه المتفلسفة ونحوهم ممن لا يتقيد في أسماء الله وصفاته بالشرائع بل يسميه علة وعاشقًا ومعشوقًا ونحو ذلك

فهؤلاء إن أمكن نقل معانيهم إلى العبارة الشرعية كان حسنًا، وإن لم يمكن مخاطبتهم إلا بلغتهم، فبيان ضلالهم ودفع صيالهم عن الإسلام بلغتهم أولى من الإمساك عن ذلك لأجل مجرد اللفظ. كما لو جاء جيش كفار ولا يمكن دفع شرهم عن المسلمين إلا بلبس ثيابهم، فدفعهم بلبس ثيابهم خير من ترك الكفار يجولون في خلال الديار خوفًا من التشبه بهم في الثياب، وأما إذا كان الكلام مع من قد يتقيد بالشريعة

فإنه يقال له: إطلاق هذه الألفاظ نفيًا وإثباتًا بدعة، وفي كل منها تلبيس وإيهام، فلابد من الاستفسار والاستفصال؛ أو الامتناع عن إطلاق كلا الأمرين في النفي والإثبات.

وقد ظن طائفة من الناس أن ذم السلف والأئمة للكلام إنما لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المحدثة كلفظ (الجوهر) و(الجسم) و(العرض)، وقالوا: إن مثل هذا لا يقتضي الذم، كما لو أحدث الناس آنية يحتاجون إليها، أو سلاحًا يحتاجون إليه لمقاتلة العدو، وقد ذكر هذا صاحب الإحياء وغيره

وليس الأمر كذلك: بل ذمهم للكلام لفساد معناه أعظم من ذمهم لحدوث الألفاظ، فذموه لاشتماله على معان باطلة مخالفة للكتاب والسنة، ومخالفته للعقل الصريح، ولكن علامة بطلانها مخالفتها للكتاب والسنة، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل قطعًا. ثم من الناس من يعلم بطلانه بعقله، ومنهم من لا يعلم ذلك

وأيضًا: فإن المناظرة بالألفاظ المحدثة المجملة المبتدعة المحتملة للحق والباطل إذا أثبتها أحد المتناظرين ونفاها الآخر كان كلاهما مخطئًا، وأكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، وفي ذلك من فساد العقل والدين ما لا يعلمه إلا الله

فإذا رد الناس ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة فالمعاني الصحيحة ثابتة فيهما، والمحق يمكنه بيان ما يقوله من الحق بالكتاب والسنة (١).

تنوعت تقسيمات أهل السنة للصفات وذلك بحسب الاعتبارات التي يرجع لها كل تقسيم، ومن تلك التقسيمات مايلي:

الأول: أقسام الصفات عمومًا: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الصفات

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٨- ٢٣٣).

نوعان: أحدهما: صفات نقص؛ فهذه يجب تنزيه الله عنها مطلقًا؛ كالموت، والعجز، والجهل

والثاني: صفات كمال؛ فهذه يمتنع أن يماثله فيها شيء" [١].

وتنقسم الصفات باعتبار ورودها في النصوص إلى قسمين:

١- صفات ثبوتية.

٢- صفات سلبية (أي منفية) **القسم الأول: الصفات الثبوتية وتعريفها**: هي ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

والصفات الثبوتية كثيرة جدًا منها: العلم - والحياة - والعزة - والقدرة - والحكمة - والكبرياء - والقوة - والاستواء - والنزول - والمجيء، وغيرها

والصفات الثبوتية صفات مدح وكمال، فكلما كثرت وتنوعت دلالتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية (٢.).

إضافة إلى أن معرفة الله الأصل فيها صفات الإثبات والسلب تابع ومقصوده تكميل الإثبات، بل كل تنزيه مدح به الرب ففيه إثبات [٣].

القسم الثاني: الصفات السلبية وتعريفها: هي ما نفاه الله سبحانه عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ

والصفات المنفية كلها صفات نقص في حقه

ومن أمثلتها: النوم - الموت - الجهل - النسيان - العجز - التعب - الظلم

---

(١) الصفدية ١/ ١٠٢

(٢) القواعد المثلى ص٢٤ (بتصرف).

(٣) مجموع الفتاوى ١٧/ ١١٢ (بتصرف)

فيجب نفيها عن الله ﷻ مع إثبات أن الله موصوف بكمال ضدها (١).

وتجدر الإشارة هنا إلى الأمور التالية: **الأمر الأول**: أن معرفة الله ليست بمعرفة صفات السلب، بل الأصل فيها صفات الإثبات، والسلب تابع ومقصوده تكميل الإثبات (٢. "فإن السلب لا يراد لذاته، وإنما يقصد لما يتضمن°).من إثبات الكمال، فكل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من صفات النقص فإنه متضمن للمدح والثناء على الله بضد ذلك النقص من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة" (٣).

الأمر الثاني: أن صفات التنزيه يجمعها معنيان: الأول: نفي النقائص عنه، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال.

الثاني: إثبات أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة له

الأمر الثالث: الصفات السلبية تذكر غالبًا في الأحوال التالية: **الأولى**: بيان عموم كماله: كما في قوله تعالى: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** (الآية ١١ من سورة الشورى)

وقوله تعالى: **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾** (الآية ٤ من سورة الإخلاص)

والثانية: نفي ما ادعاه في حقه الكاذبون كما في قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾**(الآيات ٨٨ إلى ٩٢ من سورة مريم)

والثالثة: دفع توهم نقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر المعين كما في قوله

---

(١) القواعد المثلى ص ٢٣- ٢٤

(٢) مجموع الفتاوى ١٧/ ١١٢

(٣) شرح القصيدة النونية للهراس ٢/ ٥٥.

تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ}" [١].

الأمر الرابع: أن الصفات السلبية إنما تكون كمالًا إذا تضمنت أمورًا وجودية [٢].

فلا يوصف الرب من الأمور السلبية إلا بما يتضمن أمورًا وجودية، وإلا فالعدم المحض لا كمال فيه

فينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتًا، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء فهو كما قيل ليس بشيء فضلا عن أن يكون مدحًا وكمالًا

لأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع؛ والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال، ولهذا كان عامة ما يصف الله به نفسه من النفي متضمنًا لإثبات مدح

كقوله تعالى: {اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ} فنفي السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام

وكذلك قوله: {وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا} أي لا يكرثه ولا يثقله، وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها؛ بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة، فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته

وكذلك قوله: {لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْض} فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض

وكذلك قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} فإن نفي مس اللغوب - الذي هو التعب والإعياء- دل على

(١) القواعد المثلى ص ٢٤

(٢) مجموع الفتاوى ١٧/ ١٤٤.

كمال قدرته ونهاية القوة بخلاف المخلوق الذي يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه

وكذلك قوله: {**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**} إنما نفى الإدراك الذي هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء، ولم ينف مجرد الرؤية، لأن المعدوم لا يرى، وليس في كونه لا يرى مدح، إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحًا، وإنما المدح في كونه لا يحاط به وإن رؤي، كما أنه لا يحاط به وإن علم، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علمًا، فكذلك إذا رؤي لا يحاط به رؤية، فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحًا وصفة كمال، وكان ذلك دليلًا على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفي لا يستلزم ثبوتًا هو مما لم يصف به نفسه" (١).

ثم إن النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه، فيه إساءة أدب مع الله سبحانه، فإنك لو قلت لسلطان: أنت لست بزبال ولا كسَّاح ولا حجام ولا حائك لأدبك على هذا الوصف وإن كنت صادقًا، وإنما تكون مادحًا إذا أجملت النفي فقلت: أنت لست مثل أحد من رعيتك، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل، فإن أجملت في النفي أجملت في الأدب (٢).

فأهل الكلام المذموم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل فيقولون: ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض إلى آخر تلك السلوب الكثيرة التي تمجها الأسماع وتأنف من ذكرها النفوس والتي تتنافى مع تقدير الله تعالى حق قدره (٣).

---

(١) الرسالة التدمرية ص ٢١- ٢٣

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٠٨- ١١٠

(٣) الصفات الإلهية ص ٢٠٢.

الأمر الخامس: أن الرسل عليهم صلوات الله جاءوا بإثبات مفصل ونفي مجمل

والمعطلة ناقضوهم فجاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل

فإن الرسل أخبرت كما أخبر الله في كتابه الذي بعث به رسوله أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه حكيم عزيز، غفور ودود، وأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأنه كلم موسى تكليمًا، وتجلى للجبل فجعله دكًا، وأنه أنزل على عبده الكتاب، إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته

وقال في النفي: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}**، **{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}**، **{هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}**

وهؤلاء الملاحدة جاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل، فقالوا في النفي: ليس بكذا ولا كذا، فلا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء، ولا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة، ولا له كلام يقوم به، ولا له حياة، ولا علم، ولا قدرة، ولا غير ذلك، ولا يشار إليه ولا يتعين، ولا هو مباين للعالم ولا حال فيه، ولا داخله، ولا خارجه، إلى أمثال العبارات السلبية التي لا تنطبق إلا على المعدوم

ثم قالوا في الإثبات هو وجود مطلق، أو وجود مقيد بالأمور السلبية (١).

وبذلك عكسوا منهج القرآن والسنة، فأكثروا من وصف الله تعالى بالأمور السلبية التي لم يرد بها النص، وأفرطوا في ذلك إفراطًا عجيبًا، بينما أنكر بعضهم جميع الصفات الثبوتية، والبعض الآخر لم يثبت سوى القليل منها

الأمر السادس: للتفريق بين الصفات السلبية التي ورد بها النص والصفات السلبية التي أحدثها المعطلة النفاة نقول: إن الصفات السلبية التي ورد بها النص

---

(١) الصفدية ١/ ١١٦.

متضمنة لثبوت كمال الضد كما تقدم شرح ذلك

وأما الصفات السلبية التي هي من نسج المعطلة واختراعهم فلا تتضمن ثبوت كمال الضد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "كل تنزيه مدح فيه الرب ففيه إثبات، فلهذا كان قول (سبحان الله) متضمنًا تنزيه الرب وتعظيمه، ففيها تنزيهه من العيوب والنقائص، وفيها تعظيمه سبحانه وتعالى" (١).

فالذين لا يصفونه إلا بالسلوب لم يثبتوا في الحقيقة إلهًا محمودًا، بل ولا موجودًا

وكذلك من شاركهم في بعض ذلك، كالذين قالوا لا يتكلم، ولا يُرى، أو ليس فوق العالم، أو لم يستو على العرش، ويقولون: ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا مباين للعالم ولا مجانب له

إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعدوم، وليس هي صفة مستلزمة صفة ثبوت

فقولهم إنه لا يتكلم، أو لا ينزل، ليس في ذلك صفة مدح، بل هذه الصفات فيها تشبيه له بالمنقوصات أو المعدومات (٢).

الأمر السابع: إن سلب النقائص والعيوب عن الله نوعان: النوع الأول: سلب لمتصل "وضابطه: نفي كل ما يناقض صفة من صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ، كنفي الموت المنافي للحياة، والعجز المنافي للقدرة، والسنة والنوم المنافي لكمال القيومية، والظلم المنافي للعدل، والإكراه المنافي للاختيار، والذل المنافي للعزة..." الخ

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧/ ١١٢

(٢) الرسالة التدمرية ص٢٣.

النوع الثاني: سلب لمنفصل.

وضابطه: تنزيه الله سبحانه عن أن يشاركه أحد من خلقه في شيء من خصائصه التي لا تنبغي إلا له

وذلك كنفي الشريك له في ربوبيته، فإنه منفرد بتمام الملك والقوة والتدبير

وكنفي الشريك له في أُلوهيته، فهو وحده الذي يجب أن يؤلهه الخلق ويفردوه بكل أنواع العبادة والتعظيم

وكنفي الشريك له في أسمائه الحسنى وصفاته العليا فليس لغيره من المخلوقين شركة معه سبحانه في شيء منها

وكذلك نفي الظهير الذي يظاهره أو يعاونه في خلق شيء أو تدبيره، لكمال قدرته وسعة علمه ونفوذ مشيئته، وغيره من المخلوقين عاجز فقير لا حول له ولا قوة إلا بالله، فالشريك والظهير منفيان عنه بإطلاق

وكذلك ينفى عنه سبحانه اتخاذ الصاحبة والولد الذي نسبه إليه النصارى عابدو الصلبان، والصابئة الذين يقولون إن الملائكة بنات الله

قال تعالى: **﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾** (١).

الثاني: أقسام الصفات الثبوتية.

أ ـ تنقسم الصفات الثبوتية من جهة تعلقها بالله إلى قسمين (٢).

القسم الأول: الصفات الذاتية.

القسم الثاني: الصفات الفعلية.

وكلا النوعين يجتمعان في أنهما صفات له تعالى أزلًا وأبدًا، لم يزل متصفًا

(١) انظر: شرح القصيدة النونية للهراس ٢/ ٥٦- ٥٨.

(٢) انظر الكواشف الجلية ص ٤٢٩

بهما ماضيًا ومستقبلًا لائقان بجلال رب العالمين [١].

أما القسم الأول: الصفات الذاتية فضابطها: هي التي لا تنفك عن الذات [٢].

أو: التي لم يزل ولا يزال الله متصفًا بها

أو: الملازمة لذات الله تعالى. [٣].

ومنها: الوجه - اليدين - العينين [٤] - الأصابع - القَدَم - العلم - الحياة - القدرة - العزة - الحكمة.

القسم الثاني: الصفات الفعلية.

وضابطها: هي التي تنفك عن الذات.

أو: التي تتعلق بالمشيئة والقدرة [٥].

ومنها: الاستواء - المجيء - الإتيان - النزول - الخلق - الرزق - الإحسان - العدل

فالفرق بين القسمين: أن الصفات الذاتية لا تنفك عن الذات، أما الصفات الفعلية يمكن أن تنفك عن الذات على معنى أن الله إذا شاء لم يفعلها

ولكن مع ذلك فإن كلا النوعين يجتمعان في أنهما صفات لله تعالى أزلًا وأبدًا لم يزل ولا يزال متصفًا بهما ماضيًا ومستقبلًا لائقان بجلال الله ﷻ [٦].

وتنقسم الصفات الفعلية من جهة تعلقها بمتعلقها إلى قسمين: متعدية: وهي ما تعدت لمفعولها بلا حرف جرّ مثل: خلق، ورزق، وهدى، وأضل،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٧

(٢) الكواشف الجلية ص ٤٢٩

(٣) التعريفات للجرجاني ص١٣٣

(٤) مجموع الفتاوى ٦/ ٦٨.

(٥) التعريفات للجرجاني ص ١٣٣

(٦) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٧

ونحوها

لازمة: وهي ما تتعدى لمفعولها بحرف جر كالإستواء والمجيء والإتيان والنزول ونحوها.

وإنما قسمت كذلك نظرًا للإستعمال القرآني من جهة ولكونها في اللغة كذلك (١)، قال ابن القيم: "فأفعاله نوعان: لازمة، ومتعدية كما دلت النصوص التي هي أكثر من أن تحصر على النوعين" (٢)، وقال رَحِمَهُ اللهُ: "المجيء والإتيان والذهاب والهبوط هذه من أنواع الفعل اللازم القائم به، كما أن الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، والقبض، والبسط أنواع الفعل المتعدي وهو سبحانه موصوف بالنوعين وقد يجمعهما كقوله: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}**" (٣ ٤).

مواقف الطوائف من الصفات الذاتية والفعلية:

١ - **موقف أهل السنة والجماعة** أثبت أهل السنة جميع الصفات الذاتية منها والفعلية، وأثبتوا أن الله متصف بذلك أزلًا، وأن الصفات الناشئة عن الأفعال موصوف بها في القدم، وإن كانت المفعولات محدثة (٥).

٢ - **موقف المعتزلة ومن وافقهم** أثبتوا الذات مجردة عن الصفات، وزعموا أن الله لا يقوم به صفة ولا أمر يتعلق بمشيئته واختياره وهو قولهم: لا تحله الأعراض ولا الحوادث

وبذلك نفوا قيام الصفات الذاتية والفعلية بالله تعالى، وجعلوا إضافة

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ٥، ٢٣٣/ ٥١٨. التنبيهات السنية ص٦٩

(٢) مختصر الصواعق ٢/ ٢٢٩.

(٣) الآية (٤) من سورة الحديد

(٤) مختصر الصواعق (٢/ ٢٥٤) بتصرف يسير

(٥) مجموع الفتاوى ٦/ ١٤٩، ٥٢٠، ٥٢٥

الصفات إلى الله تعالى إما من باب إضافة الملك والتشريف أو من إضافة وصف (أي القول) من غير قيام معنى به [١].

٣. موقف المتأخرين من الأشاعرة ومعهم الماتريدية: نفوا جميع الصفات ما عدا الصفات السبع وهي: (العلم - الحياة - القدرة - الإرادة - السمع - البصر - الكلام). وزاد الباقلاني وإمام الحرمين من الأشاعرة صفة ثامنة هي: (الإدراك) (٢. وزاد الماتريدية صفة (التكوين) ٣).

٣. موقف الكلابية ومن وافقهم من قدماء الأشاعرة وغيرهم: يثبتون الصفات الذاتية وينفون الأفعال الاختيارية، ولم يثبتوا لله أفعالًا تقوم به تتعلق بمشيئته وقدرته، بل ولا غير الأفعال مما يتعلق بمشيئته وقدرته (٤ كالمحبة).

٥. موقف الكرامية ومن وافقهم: يثبتون الصفات بما فيها أن الله تقوم به الأمور التي تتعلق بمشيئته وقدرته، ولكن ذلك عندهم حادث بعد أن لم يكن، وأنه يصير موصوفًا بما يحدث بقدرته ومشيئته بعد أن لم يكن كذلك، وقالوا: لا يجوز أن تتعاقب عليه الحوادث. ففرقوا في الحوادث بين تجددها ولزومها، فقالوا بنفي لزومها دون حدوثها [٥].

---

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ١٤٧، ١٤٨، ٥٢٠، ٥٢١. منهاج السنة ١/ ٤٢٣.

(٢) تحفة المريد ص ٧٦

(٣) تحفة المريد ص ٧٥
وانظر: إشارات المرام ص ١٠٧، ١١٤، وجامع المتون ص ١٢٠٨، ونظم الفرائد ص ٢٤

(٤) مجموع الفتاوى ٦/ ٥٢٠
منهاج السنة ١/ ٤٢٣- ٤٢٤

(٥) مجموع الفتاوى ٦/ ٥٢٤، ٥٢٥

ب - ويمكن تقسيم الصفات الثبوتية كذلك إلى قسمين (١): **القسم الأول: الصفات اللازمة** وتعريفها: هي الصفات اللازمة للموصوف لا تفارقه إلا بعدم ذاته. أو بعبارة أخرى: هي الصفات التي لا تنفك عن الذات وتنقسم إلى قسمين:

الصفات الذاتية (٢): وهي التي لا يمكن تصور الذات مع تصور عدمه.

ومنها: الوجه - اليد - الأصبع - العين - القدم.

الصفات المعنوية: وهي ما يمكن تصور الذات مع تصور عدمها.

ومنها: الحياة - العلم - القدرة - العزة - العظمة - الكبرياء - الملك - الحكمة - السمع - البصر.

القسم الثاني: الصفات العارضة أو الصفات الاختيارية وتعريفها: هي الصفات التي يمكن مفارقتها له مع بقاء الذات.

أو: الصفات التي تنفك عن الذات.

أو: الصفات التي تتعلق بالمشيئة والقدرة

وهي إما من باب الأفعال: كالاستواء، والاتيان، والمجيء، والنزول

وإما من باب الأقوال والكلمات: التكليم والنداء، والمناجاة، والقول

وإما من باب الأحوال: كالفرح، والغضب، والرضا، والضحك [٣].

فكل ما كان بعد عدمه فإنما يكون بمشيئة الله وقدرته، وهذا ضابط ما يدخل في الصفات الاختيارية [٤].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٣/ ٣٢١- ٣٢٤
الرد على المنطقيين ص ٨٠.

(٢) ليس المقصود بالذاتية ما يلزم الذات، إذ الجميع لازم الذات

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٤/ ٢٣ "بتصرف"

(٤) مجموع الفتاوى ٦/ ٢٤٤ "بتصرف"

الصفات الاختيارية: وضابطها: هي الأمور التي يتصف بها الرب ﷻ، فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته (١).

والصفات الاختيارية أعم من الصفات الفعلية، لأنها تشمل بعض الصفات الذاتية التي لها تعلق بالمشيئة، مثل: الكلام، السمع، البصر، الإرادة، المحبة، الرضا، الرحمة، الغضب، السخط

كما أنها - أي الصفات الاختيارية- تشمل الصفات الفعلية غير الذاتية

مثل: الخلق، الإحسان، العدل، وهذه فعلية متعدية

ومثل: الاستواء، المجيء، الإتيان، النزول، وهذه فعلية لازمة

فالكلام (صفةُ ذاتٍ وفعلٍ) فهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته كلامًا قائمًا بذاته

وكل ما كان بعد عدمه، فإنما يكون بمشيئة الله وقدرته [٢]، وما تعلق بالمشيئة مما يتصف به الرب فهو من الصفات الاختيارية [٣]، والصفات الصادرة عن الأفعال موصوف بها في القدم، ولم تتغير ذاته من أفعاله، ولم يكتسب عن أفعاله صفات كمال، فهو سبحانه لم يزل كريمًا خالقًا

ومن معتقد أهل السنة والجماعة إثبات قيام جميع هذه الصفات بالذات، خلافًا لقول الكلابية والأشاعرة والماتريدية.

فهذا نوع من تقسيمات الصفات يفصل بين عقيدة أهل السنة من جهة وعقيدة الصفاتية من أهل الكلام وهم (الكلابية، والأشاعرة، والماتريدية) من جهة أخرى.

---

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ٢١٧.

(٢) مجموع الفتاوى ٦/ ٢١٩

(٣) مجموع الفتاوى ٦/ ٢٤٤.

فالكلابية وقدماء الأشاعرة يثبتون الصفات ما عدا صفات الأفعال الاختيارية فإنهم ينفون كونها صفات قائمة بالله.

والمتأخرون من الأشاعرة والماتريدية ينفون الصفات الذاتية والاختيارية ويثبتون سبعًا من الصفات المعنوية هي (العلم - الحياة - القدرة - الإرادة - السمع - البصر - الكلام)

ثالثًا: تنقسم الصفات من حيث أدلة ثبوتها إلى قسمين: **القسم الأول: الصفات الشرعية العقلية** وضابطها: هي التي يشترك في إثباتها الدليل الشرعي السمعي والدليل العقلي، والفطرة السليمة

وهي أكثر صفات الرب تعالى، بل أغلب الصفات الثبوتية يشترك فيها الدليلان السمعي والعقلي [(١)] وإن كان الأصل في ثبوتها الدليل الشرعي

ومنها: العلم، السمع، البصر، العلو، القدرة، الإرادة، الخلق، الحياة

وسميت "شرعية عقلية" شرعية: لأن الشرع دل عليها أو أرشد إليها

وعقلية: لأنها تعلم صحتها بالعقل ولا يقال إنها لم تعلم إلا بمجرد الخبر

فإذا أخبر الله بالشيء، ودل عليه بالدلالات العقلية صار مدلولا عليه بخبره، ومدلولا عليه بدليل العقل الذي يعلم به، فيصير ثابتًا بالسمع والعقل، وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تسمى الدلالة الشرعية [(٢)].

القسم الثاني: **الصفات الخبرية وتسمى النقلية والسمعية** وضابطها: هي التي لا سبيل إلى إثباتها إلا بطريق السمع والخبر عن الله أو عن رسوله الأمين عليه الصلاة والتسليم [(٣)].

---

(١) الصفات الإلهية في الكتاب والسنة في ضوء الإثبات والتنزيه ص٢٠٧

(٢) مجموع الفتاوى ٦/ ٧١، ٧٢

(٣) الصفات الإلهية ص ٢٠٧.

ومنها: الوجه - اليد - العين - الرضا - الفرح - الغضب - القَدَم - الاستواء - النزول - المجيء - الضحك.

وهي تنقسم إلى قسمين:

١ - صفات ذاتية مثل: الوجه - اليد - العين - القَدَم.

٢ - صفات فعلية مثل: النزول - الاستواء - الغضب - الفرح - الضحك

مسألة: **أقسام الصفات عند من ينكر جميع الصفات الثبوتية:**

وهم الفلاسفة بشتى أصنافهم، والجهمية، والمعتزلة ومن وافقهم كالزيدية، والرافضة الإمامية، والنجارية، والضرارية، والإباضية، وابن حزم، وهؤلاء ليس عندهم تقسيم للصفات الثبوتية، لأنهم لا يثبتونها أصلًا فضلًا عن كونهم يقسمونها. أما في جانب النفي ـ عند من يقول به منهم فإن ابن سينا [(١)] وهو من الفلاسفة الإسماعيلية الباطنية يجعل الصفات إما سلبية محضة وإما إضافية محضة وإما مؤلفة من سلب وإضافة والسلوب والإضافات لا توجب كثرة في الذات [(٢)].

١ - صفات سلبية محضة: وهذا النوع إذا وصف به واجب الوجود ـ على حد تعبيرهم ـ، أفاد أن المقصود به نفس وجوده مع سلب ما يؤدي إليه عنه، وهو ما يستلزمه مفهوم واجب الوجود[(٣)].

فإذا قيل جوهر: لم يعن به إلا هذا الوجود الواجب مع سلب الكون في موضع عنه

---

(١) انظر كتاب: علاقة صفات الله تعالى بالذات لراجح الكردي ص ١١٩- ١٢٠ ط دار العدوي، عمان، الأردن

(٢) انظر: نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ص ١٨٢

(٣) الجانب الإلهي لمحمد البهي ٢/ ٥٤٨

وإذا قيل واحد: لم يعن به إلا الوجود الواجب وسلب الشريك عنه أو سلب الكثرة من كل وجه

وإذا قيل قديم: لم يعن به إلا هذا الوجود الواجب مع سلب العدم عنه أولًا

وإذا قيل باق: لم يعن به إلا هذا الوجود الواجب مع سلب العدم عنه آخرًا(١).

٢- **صفات إضافية محضة**: وضابطها: هي الأمور المتضايفة التي لا يعقل الواحد منها إلا بتعقل مقابله(٢).

ومن أمثلتها: كونه أولًا مبدأ، خالقًا، قديرًا، مريدًا، صانعًا، مبدعًا، حكيمًا، جوادًا، كريمًا(٣).

"مثلًا صفة كونه (أولًا): هي نفس وجود واجب الوجود لكن مع الوجود إضافة إذا نسب الله تعالى إلى الموجودات غيره، أي لم يعن إلا إضافة هذا الوجود الواجب إلى الكل

وكونه تعالى (مبدأ): إضافة له إلى معلوماته بمعنى إشارة إلى وجوده وإلى أن وجود غيره إنما هو منه.

وصفة كونه (خالقًا): هي نفس وجود الله تعالى مع إضافة لأن علة الإيجاد

---

(١) علاقة صفات الله تعالى بذاته ص ١٢١

(٢) التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية ١/ ٤٤. أي هي عبارة عن ماهيتين تَعَقُّل كل واحدة لا يتم إلا مع تعقل الأخرى، كالأبوة والبنوة ونحو ذلك، ومن خواص الإضافة أنه إذا عرف أحد المضافين عرف الآخر أيضاَ

انظر: المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين ص ١١٢، الفتاوى ١٧/ ١٤٨- ١٥٠، المواقف في علم الكلام ص ١٧٩- ١٨٠، المعجم الفلسفي ص ١٥

(٣) انظر: نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ص ١٨١.

هي علم واجب الوجود أو تعقله للنظام الفائض منه على مقتضى علمه"(١).

٣- صفات مركبة من سلب وإضافة: وهذا النوع من الصفات إذا وصف به واجب الوجود أفاد أن ذلك له على وجه السلب وعلى وجه النسبة والإضافة أيضا، وهو ما يستتبعه الاعتقاد بأنه خالق ومدبر للكون

فإذا قيل واجب الوجود: أي موجود لا علة له وهذا سلب، وهو علة لغيره وهذه إضافة فالسلب والإضافة مجتمعان معًا

وإذا قيل خالق: فهم منه أن وجوده شريف يفيض عنه وجود الكل فيضًا لازمًا، وأن وجود غيره حاصل منه بالتبع

وإذا قيل عالم: فهم أنه لا يعلم ذاته ما لم يعلم أنه مبدأ للكل

وإذا قيل جواد: فهم أنه لا ينحو غرضا لذاته وهذا سلب، وأنه يفيض الجود على غيره لأنه مبدأ لكل جود(٢).

قال الشهرستاني: "قالت الفلاسفة: واجب الوجود بذاته لن يتصور إلا واحدًا من كل وجه فلا صفة ولا حال ولا اعتبار ولا حيث ولا وجه لذات واجب الوجود بحيث يكون أحد الوجهين والاعتبارين غير الآخر بذاته، أو يدل لفظ على شيء هو غير الآخر بذاته ولا يجوز أن يكون نوع واجب الوجود لغير ذاته لأن وجود نوعه له لعينه ولا يشاركه شيء ما صفة أو موصوفًا في واجب الوجود والأزلية ولا ينقسم هو ولا يتكثر لا بالكم ولا بالمباديء المقومة ولا بأجزاء الحقيقة والحد. ثم له صفات سلبية: مثل تقدسه عن الكثرة من كل وجه،

---

(١) علاقة صفات الله تعالى بذاته ص١٢٠

(٢) علاقة صفات الله تعالى بذاته ص ١٢١ - ١٢٢، وانظر: نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ص ١٨٢.

فيسمى لذلك واحدًا حقًا أحدًا صمدًا[١].

ومثل تنزهه عن المادة وتجرده عن طبيعة الإمكان والعدم، ويسمى ذلك عقلًا وواجبًا. وله صفات إضافية: مثل كونه صانعًا مبدعًا حكيمًا قديرًا جوادًا كريمًا وصفات مركبة من سلب وإضافة: مثل (كونه مريدًا): أي هو مع عقليته ووجوبه بذاته مبدأ لنظام الخير كله من غير كراهية لما يصدر عنه؛ (وجوادًا) أي هو بهذه الصفة وزيادة سلب أي لا ينحو غرضًا لذاته وأولًا: أي هو مسلوب عنه الحدوث مع إضافة وجود الكل إليه

وصفاته عندهم إما سلبية محضة، وإما إضافية محضة، وإما مؤلفة من سلب وإضافة، والسلوب والإضافات لاتوجب كثرة في الذات"[٢].

مسألة: أقسام الصفات عند من يثبت بعض الصفات وينكر بعضها.

وهم الكلابية والأشاعرة والماتريدية، ويسمون الصفاتية وهم في تقسيم الصفات على قسمين:

١ - **الكلابية وقدماء الأشاعرة** وهؤلاء يتفقون مع أهل السنة في تقسيم الصفات عمومًا إلى قسمين: القسم الأول: الصفات الذاتية

القسم الثاني: الصفات الفعلية. وكذا في تقسيمها من حيث أدلة إثباتها حيث يقسمونها إلى قسمين: القسم الأول: الصفات العقلية. القسم الثاني: الصفات السمعية. لكنهم يختلفون مع أهل السنة فيما يثبتونه وطريقة إثباتهم.

---

(١) استدل الفلاسفة باسمه تعالى (الأحد)، واسمه (الصمد) على نفي الصفات عنه جل وعلا، واستدلالهم هذا باطل، وهو يدل على نقيض قولهم، فإن اسم (الصمد) يدل على استحقاق الله تعالى لجميع صفات الكمال، واسم (الأحد) يدل على نفي المشاركة والمماثلة، انظر مجموع الفتاوى ١٧/ ١٠٧، ١٠/ ٥٤، شرح حديث النزول ص ٧٤، منهاج السنة ٢/ ١٨٦ - ١٨٧، ٥٢٩ - ٥٣٠

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام ص ١٨١

٢ ـ **الأشاعرة المتأخرون والماتريدية** المعروف عن متأخري الأشاعرة والماتريدية من أهل الكلام تقسيمهم الصفات إلى أربعة أقسام:

١- صفات المعاني. ٢- الصفات المعنوية

٣- الصفات السلبية. ٤- الصفة النفسية

القسم الأول: صفات المعاني.

وضابطها في اصطلاحهم هي: ما دل على معنى وجودي قائم بالذات ولم يقر هؤلاء إلا بسبع منها هي، الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام. ونفوا ما عداها من صفات المعاني كالرأفة والرحمة والحلم[1].

وهي القدر الذي عند هؤلاء من الإثبات، أما الأقسام الثلاثة الباقية ليس فيها إثبات على الحقيقة

القسم الثاني: **الصفات المعنوية** وضابطها: هي الأحكام الثابتة للموصوف بها معللة بعلل قائمة بالموصوف وهي كونه (حيًا، عليمًا، قديرًا، مريدًا، سميعًا، بصيرًا، متكلمًا) وهذا العد لا وجه له لأنه في الحقيقة تكرار لصفات المعاني المتقدم ذكرها

ثم إن من عدها من هؤلاء عدوها بناءً على ما يسمونه الحالة المعنوية التي يزعمون أنها واسطة ثبوتية لا معدومة ولا موجودة[2].

والتحقيق أن هذا خرافة وخيال. وأن العقل الصحيح لا يجعل بين الشيء ونقيضه واسطة البتة فكل ما ليس بموجود فهو معدوم قطعًا، وكل ما ليس

---

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص٥)

(٢) تحفة المريد (ص٧٧)

بمعدوم فهو موجود قطعًا ولا واسطة البتة كما هو معروف عند العقلاء[١].

القسم الثالث: الصفات السلبية: وضابطها عندهم: ما دل على سلب ما لا يليق بالله عن الله من غير أن يدل على معنى وجودي قائم بالذات

والذين قالوا هذا جعلوا الصفات السلبية خمسًا لا سادس لها[٢] وهي عندهم: القِدَمُ، البقاء، والمخالفة للحوادث، والوحدانية، والغنى المطلق الذي يسمونه القيام بالنفس الذي يعنون به الاستغناء عن المخصص والمحل[٣].

وعلى ضابطهم الذي ذكروه فإن هذه الخمس لا تتضمن معنى وجوديًا. وإنما تتضمن أمرًا سلبيًا فعلى سبيل المثال: القدم: المقصود بها نفي الحدوث

والبقاء: المقصود بها نفي الفناء

والوحدانية: المقصود بها نفي النظير المساوي له

والقيام بالنفس: عدم افتقاره للمحل وعدم افتقاره للمخصص: أي الموجد

القسم الرابع: الصفة النفسية وضابطها هي: كل صفة إثبات لنفس لازمة ما بقيت النفس غير معللة بعلل قائمة بالموصوف.

وهي عندهم صفة واحدة هي: الوجود. وهي عندهم لا تدل على شيء زائد على الذات

يقول شارح جوهرة التوحيد: "واعلم أن الوجود صفة نفسية وإنما نسبت للنفس أي الذات، لأنها لا تتعقل إلا بها فلا تتعقل نفس إلا بوجودها، والمراد بالصفة النفسية: صفة ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد

---

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص١٠)

(٢) يرى بعضهم أنها ليست منحصرة في هذه الخمسة، إلا أن ما عداها راجع إليها ولو بالالتزام، أو أن هذه مهماتها. انظر تحفة المريد (ص٥٤).

(٣) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص٨).

عليها

فقولنا: "صفة" كالجنس

وقولنا: "ثبوتية" يخرج السلبية كالقدم والبقاء.

وقولنا: "يدل الوصف بها على نفس الذات" معناه أنها لا تدل على شيء زائد على الذات.

وقولنا: "دون معنى زائد عليها" تفسير مراد لقولنا (على نفس الذات) ويخرج بذلك المعاني لأنها لا تدل على معنى زائد على الذات، وكذلك (المعنوية) فإنها تستلزم المعاني فهي تدل على معنى زائد على الذات لاستلزامها المعاني"(١).

وبهذا يعلم أنه ليس عند هؤلاء من الإثبات إلا الصفات السبع التي يسمونها صفات المعاني وهي، الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام وما عداها من الصفات الثبوتية لا يثبتونها ولهم في نصوصها أحد طريقين إما التأويل أو التفويض وفي هذا يقول قائلهم: أَوِّلْهُ أو فَوِّضْ ورم تنزيها(٢) وكل نص أوهم التشبيها فنصوص الصفات التي وردت في إثبات ما عدا الصفات السبع التي يثبتونها، يسمونها نصوصًا موهمة للتشبيه، فهم يصرفونها عن ظاهرها، ولكنهم تارة يعينون المراد كقولهم استوى: استولى، واليد: بمعنى النعمة والقدرة؛ وتارة يفوضون فلا يحددون المعنى المراد ويكلون علم ذلك إلى الله ﷻ. ولكنهم يتفقون على نفي الصفة لأن ناظمهم يقول: "ورم تنزيهًا" وشارح الجوهرة يقول: "أو فوض" أي بعد التأويل الإجمالي الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره، فبعد هذا التأويل فوض المراد من النص الموهم إليه

(١) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد (ص٥٤)

(٢) المصدر السابق (ص٩١)

تعالى[١].

فهم بذلك متفقون على نفي تلك الصفات، ويخيرون في تحديد المعنى المراد أو السكوت عن ذلك

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأبو المعالي وأتباعه نفوا هذه الصفات – أي الصفات الخبرية– موافقة للمعتزلة والجهمية. ثم لهم قولان: أحدهما: تأويل نصوصها، وهو أول قولي أبي المعالي، كما ذكره في الإرشاد.

والثاني: تفويض معانيها إلى الرب، وهو آخر قولي أبي المعالي كما ذكره في "الرسالة النظامية" وذكر ما يدل على أن السلف كانوا مجمعين على أن التأويل ليس بسائغ ولا واجب، ثم هؤلاء منهم من ينفيها ويقول: إن العقل الصريح نفى هذه الصفات. ومنهم من يقف ويقول: ليس لنا دليل سمعي ولا عقلي، لا على إثباتها ولا على نفيها، وهي طريقة الرازي والآمدي"[٢].

وقال العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه أضواء البيان: "اعلم أن المتكلمين قسموا صفاته جلا وعلا إلى ستة أقسام:

١ـ صفة نفسية.

٢ـ صفة سلبية.

٣ـ صفة معنى.

٤ـ صفة معنوية.

٥ـ صفة فعلية.

٦ـ صفة جامعة مثل العلو والعظمة مثلًا.

والصفة الإضافية هي تتداخل مع الفعلية، لأن كل صفة فعلية من مادة

---

(١) تحفة المريد (ص٩١).

(٢) درء تعارض العقل والنقل(٥/ ٢٤٩).

متعدية إلى المفعول كالخلق والإحياء والإماتة فهي صفة إضافية، وليست كل صفة إضافية فعلية، فبينهما عموم وخصوص من وجه، يجتمعان في نحو الخلق والإحياء والإماتة

وتتفرد الفعلية في نحو الإستواء وتتفرد الإضافية في نحو كونه تعالى موجود قبل كل شيء، وأنه فوق كل شيء، لأن القَبْلِيَّةَ والفوقيَّةَ من الصفات الإضافية وليستا من صفات الأفعال"(١).

(باب عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته إجمالا)

أهل السنة والجماعة: يعرفون ربهم بصفاته الواردة في القرآن والسنة، ويصفون ربهم بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ويثبتون لله ما أثبته لنفسه من غير تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل، ولا تحريف، وقاعدتهم في كل ذلك قول الله تبارك وتعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى: ١١] وقوله: وَلِلَّهِ الأسماء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٨٠] وأهل السنة والجماعة: لا يحددون كيفية صفات الله - جل وعلا - لأنه تبارك وتعالى لم يخبر عن الكيفية، ولأنه لا أحد أعلم من الله سبحانه بنفسه، قال تعالى: {قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللهُ} [البقرة: ١٤٠] وقال تعالى: {فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [النحل: ٧٤] ولا أحد أعلم بالله من رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذي قال الله تبارك وتعالى في حقه: وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٤] وأهل السنة والجماعة: يؤمنون أن الله -

---

(١) أضواء البيان ٢/ ٣٠٦.

سبحانه وتعالى - هو الأول ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، كما قال سبحانه: هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد: ٣] وكما أن ذاته - سبحانه وتعالى - لا تشبه الذوات، فكذلك صفاته لا تشبه الصفات؛ لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفء له ولا ند له، ولا يقاس بخلقه؛ فيثبتون لله ما أثبته لنفسه إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل؛ فحين يثبتون لله ما أثبته لنفسه لا يمثلون، وإذا نزهوه لا يعطلون الصفات التي وصف نفسه بها، وأنه تعالى محيط بكل شيء، وخالق كل شيء، ورازق كل حي، قال الله تعالى: {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: ١٤] وقال: إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: ٥٨] ويؤمنون بأن الله تعالى استوى على العرش فوق سبع سموات بائن من خلقه، أحاط بكل شيء علمًا، كما أخبر عن نفسه في كتابه العزيز في سبع آيات كريمات بلا تكييف قال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه: ٥] وقال: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤] وقال: أَأَمِنتُم مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: ١٧] وقال: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ [فاطر: ١٠] وقال: يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ} [النحل: ٥٠] وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟)(١).

وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بأن الكرسي والعرش حق قال تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥] والعرش لا يقدر قدره إلا الله، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبو سعيد الخدري رضي الله عنه.

في فلاة وسع السماوات والأرض، والله مستغن عن العرش والكرسي، ولم يستو على العرش لاحتياجه إليه؛ بل لحكمة يعلمها، وهو منزه عن أن يحتاج إلى العرش أو ما دونه، فشأن الله تبارك وتعالى أعظم من ذلك؛ بل العرش والكرسي محمولان بقدرته وسلطانه وأن الله تعالى خلق آدم - عليه السلام - بيديه، وأن كلتا يديه يمين ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء كما وصف نفسه سبحانه فقال: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء} [المائدة: ٦٤] وقال: مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ وأهل السنة والجماعة: يثبتون لله سمعًا، وبصرًا، وعلمًا، وقدرة، وقوة، وعزًا، وكلامًا وحياة، وقدمًا وساقًا، ويدًا، ومعية وغيرها من صفاته عز وجل التي وصف بها نفسه في كتابه العزيز، وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بكيفية يعلمها الله ولا نعلمها؛ لأنه تعالى لم يخبرنا عن الكيفية، قال تعالى: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى [طه: ٤٦] وقال: وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [التحريم: ٢] وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: ١٦٤] وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٧] رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [البينة: ٨] يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤] فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ} [الزخرف: ٥٥] يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ} [القلم: ٤٢] اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥] غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ} [المجادلة: ١٤] وغيرها من آيات الصفات وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم، ويزورونه، ويكلمهم ويكلمونه، قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٣] وسوف يرونه كما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته، كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (إنكم سترون

ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته)[١] وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل نزولًا حقيقيًا يليق بجلاله وعظمته قال النبي ﷺ: (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر؛ فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له؟)[٢].

ويؤمنون بأنه تعالى يجيء يوم الميعاد للفصل بين العباد، مجيئًا حقيقيًا يليق بجلاله، قال سبحانه وتعالى: كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: ٢١ - ٢٢] وقوله: هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ} [البقرة: ٢١٠] فمنهج أهل السنة والجماعة في كل ذلك الإيمان الكامل بما أخبر به الله تعالى، وأخبر به رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم والتسليم به؛ كما قال الإمام الزهري رحمه الله تعالى: {من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم وكما قال الإمام سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: {(كل ما وصف الله تعالى به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره لا كيف، ولا مثل) وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: {(آمنت بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله) وقال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس عن هذه الأحاديث في الصفات والرؤية، فقالوا: (أمروها كما جاءت بلا كيف) وقال الإمام مالك بن أنس -إمام دار الهجرة- رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إياكم والبدع قيل:

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة - يعني البدر- فقال: (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته،...)

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ..

وما البدع؟ قال: أهل البدع هم الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسأله رجل عن قوله تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالًا، وأمر به أن يخرج من المجلس وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: {لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء؛ بل يصفه بما وصف به نفسه، ولا يقول فيه برأيه شيئًا؛ تبارك الله تعالى رب العالمين ولما سئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن صفة النزول، فقال: ينزل بلا كيف. وقال الحافظ الإمام نعيم بن حماد الخزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيها وقال بعض السلف: قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم لذا فإنه من سلك مسلك السلف في الحديث عن ذات الله تعالى وصفاته، يكون ملتزمًا بمنهج القرآن في أسماء الله وصفاته سواء كان السالك في عصر السلف، أو في العصور المتأخرة وكل من خالف السلف في منهجهم؛ فلا يكون ملتزمًا بمنهج القرآن، وإن كان موجودًا في عصر السلف، وبين أظهر الصحابة والتابعين.

فالرب - سبحانه وتعالى- له ماهية وحقيقة وقدر لكن لا يعلمها إلا هو وله كيفية لا يعلمها إلا هو، وله صفات لا يعلم كيفيتها إلا هو هذا هو الصواب والحق الذي تدل عليه العقول والفطرة السليمة والنصوص الصريحة، وقال بعض المعتزلة الرب لا ماهية له ولا كيفية، وقال بعضهم له ماهية ونفى القدر وهذا فيه متناقضان، أحدهما ينقض الأخر، وقال بعضهم له ماهية، لكن لا كيفية له، هذه كلها أقوال باطلة والصواب القول الأول أن الرب له حقيقة وله ماهية وله قدر وله كيفية، لكن لا يعلمها إلا الله وله صفات لا يعلم كيفيتها إلا الله.

وقد انعقد الاتفاق أن لله تعالى ذاتًا لا تماثل الذوات وأن إثباتنا للذات إثبات وجود لا إثبات تكييف فهاهنا ثلاثة أمور:

الأول: أن لله ذاتًا.

الثاني: أنها لا تماثل الذوات.

الثالث: أن إثبات الذات إنما هو إثبات وجود لا إثبات تكييف.

وهذه الأمور الثلاثة تفيدنا عدة أمور لازمة ولا يعارض فيها إلا المعاند.

الأمر الأول: إذا كنا نؤمن بأن لله ذاتًا فلابد لزامًا أن نؤمن أن لهذه الذات صفات ذلك لأنه لا يتصور ذات بلا صفات فمن أثبت الذات وأنكر الصفات فقد كابر المعقولات وخالف المحسوسات وعارض المنقولات المسلمات لأن نفي الصفات يستلزم نفي الذات، وليس هناك ذات مطلقة عن الصفات أي ذات بلا صفات هذا إنما يكون في ذهن الأحمق الأخرق الذي لا يفقه ولو ادعى أنه من العقلاء فالدعاوى لابد لإثباتها من البينة ولذلك فإن قول بعض المبتدعة بنفي النقيضين مفضي إلى نفي الذات أصلًا ونفي الذات حقيقته نفي وجود الله تعالى وهذا كفر أكبر مخرج عن الملة بالكلية بل هو أعظم كفرًا من كفر المشركين فإن المشركين كانوا يعتقدون أن الله تعالى هو الخالق الرازق المحي المميت وإنما كانوا يشركون في توحيد العبادة ولكن هؤلاء القرامطة الغلاة ينفون عن الله تعالى النقيضين فيقولون لا حي ولا ميت ولا سميع ولا أصم ولا متكلم ولا أخرس ولا فوق ولا محايث ولا تحت ولا داخل العالم ولا خارجه وهكذا وقولهم هذا يستلزم نفي الوجود أصلًا لأن هذه صفات المعدوم الممتنع فانظر كيف تجر البدع أصحابها إلى هذه المهاوي العقيمة والحفر العميقة التي لا مخرج لهم منها إلا بالتوبة النصوح والرجوع إلى مذهب السلف والمقصود أن الإنسان إذا اعتقد أن لله ذاتًا فلابد لزامًا أن يؤمن أن له صفات لأنه لا تكون

الذات إلا بصفات بل إن الذات هي مجموع الصفات والله المستعان.

الأمر الثاني: إذا كنا نؤمن بأن ذات الله تعالى لا يماثلها شيء من الذوات فلابد لزامًا أيضًا أن نعتقد أن صفات هذه الذات لا يماثلها شيء من الصفات ذلك لأن اختلاف الذوات يؤدي إلى اختلاف الصفات فما تقوله في الذات فقله في الصفات لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فلا يمكن أبدًا ولا يتصور أصلًا أن تختلف الذوات وتتفق الصفات فإذا كنا نؤمن أن لله ذات تخصه لا تماثل شيئًا من الذوات فيجب علينا أيضًا أن نؤمن أن لله صفاتًا تخصه لا تماثل الصفات وأي عاقل في الدنيا يقول: إن ذات الله كذاتي؟ هذا ما لم نسمعه ولم نقرأه أبدًا، فالخلاف بين أهل القبلة ليس في الذات وإنما الخلاف وقع في الصفات بل حتى الممثلة يؤمنون أن الله تعالى له ذات ليست كالذوات ولكنهم يقولون له صفات كالصفات وهذا تناقض صريح وتهافت واضح لا ترضاه العقول السليمة والفطر المستقيمة فضلًا عن النقول الصحيحة الصريحة، ولذلك فيقال للمثل: هل أنت تقر بأن لله ذات؟ فسيقول: نعم فقل له: إن الكلام في الصفات كالكلام في الذات فإذا كانت ذاته جل وعلا لا يماثلها شيء من الذوات فيلزمك - إن كنت عاقلًا تدري ما تقول - أن تكون صفات هذه الذات لا يماثلها شيء من الصفات فإنك ترى صفات الفيل تختلف عن صفات الجمل وسبب ذلك اختلاف ذاتيهما، فاختلاف ذاتيهما أدى إلى اختلاف صفتيهما، وصفات زيد تختلف عن صفات عمرو وسبب ذلك اختلاف ذاتيهما فاختلاف ذاتيهما أدى إلى اختلاف صفتيهما، وصفات الفرس تختلف عن صفات الذباب وسبب ذلك اختلاف ذاتيهما، فاختلاف ذاتيهما أدى إلى اختلاف الصفات فيما بينهما مع أنهما يجمعهما وصف أنها مخلوقة فكيف بالله عليك لا يكون ذلك لازمًا فيما بين الخالق الكامل من كل وجه وبين المخلوق

الضعيف من كل وجه؟ هذا مالا يكون أبدًا، بل الذي ندين الله تعالى به ونعتقده بقلوبنا ونقوله بألسنتنا وندرسه لتلاميذنا أن لله صفاته الخاصة به كما أن له ذاته الخاصة به، ذلك لأن الكلام في الصفات فرع من الكلام في الذات، والله المستعان.

الأمر الثالث: إذا كنا نؤمن أن إثباتنا لذات الله تعالى إنما هو إثبات وجود لا إثبات تكييف فكذلك نقوله في صفات هذه الذات، أن إثباتنا لصفات هذه الذات أيضا هو إثبات وجود لا إثبات تكييف، لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فنحن إذا قلنا: إن لله ذات فكلامنا هذا يفيد إثبات وجود هذه الصفات على ما يليق بجلاله وعظمته، لأن الكلام فيهما - أي الذات والصفات - واحد لا يختلف ومتفق لا يفترق، فما تقوله في ذات الله تعالى قله في صفاته، ولا نعني بذلك أن ذات الله تعالى أو صفاته لا كيفية لها في الحقيقة والواقع - حاشا وكلا - ونعوذ بالله من ذلك، بل المنفي هنا إنما هو علمنا بهذه الكيفية، أي الكيفية المزعومة لأنه لا يعلم كيف ذات الله ولا كيف صفاته لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلًا عن من دونهم من الأولياء والصالحين، فلا يعلم كيف الله إلا الله جل وعلا، فقول أهل السنة (من غير تكييف) أي من غير حكاية لكيفية شيء من هذه الصفات، وقولهم (بلا كيف) أي من غير ادعاء علم شيء من كيفية الصفات فلا ندخل في هذا الباب متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا بل الأمر مبناه على التسليم {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} والمقصود أنه كما أن إثباتنا لذات الله تعالى إثبات وجود لا إثبات تكييف فكذلك إثباتنا لصفاته جل وعلا أيضًا إثبات وجود لا إثبات تكييف لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات والله المستعان.

فنحن معاشر أهل السنة ننظر إلى ذات الله وصفاته باعتبارين: - باعتبار

معانيها اللغوية، وباعتبار كيفياتها على ما هي عليه في الواقع، فأما نصوص الصفات باعتبار معانيها اللغوية فهي محكمة، بل هي من أعلى درجات المحكم لأن معناها متضح وجهه في اللغة وليس بخاف، فأهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى يعلمون معاني الصفات، وذلك لأن الله تعالى قد خاطبنا في القرآن بلسان عربي مبين، فكان الواجب علينا هو حمل هذه الألفاظ على معانيها المتقررة في هذا اللسان العربي، ولأن الله تعالى إنما أنزل كتابه هدى مبين للناس وهذا يفيدك أنه لم يخاطبنا بهذه الألفاظ العربية إلا وهو يريد منا عين معانيها المتقررة في هذا اللسان العربي، لأنه لو خاطبنا بلفظ وأراد منا خلاف معناه المتقرر في لغة العرب لكان ذلك إلغازا وتعمية وإضلالا، وقد قلنا إن هذا مناف لمقصود إنزال القرآن، فالله ما أنزل كتابه إلا لهداية الخلق إليه ودلالتهم عليه، وتبصيرهم بطرق الخير والبر والإحسان التي توصلهم إلى جنة عرضها السموات والأرض، فكان الواجب علينا أن نعتقد أن كل لفظة في هذا القرآن فالواجب فيها أن نحملها على معناها المعهود في هذا اللسان، وهذا متفق عليه بين أهل السنة رحم الله أمواتهم وثبت أحياءهم، ومن نسب إلى أهل السنة أنهم لا يعلمون المعاني فقد كذب عليهم في هذه النسبة، فهذا بالنبسة للمعاني، وأما الكيفيات، فلا والله الذي لا إله غيره، نحن لا نعلمها ولا يمكن لنا العلم بها في هذه الدنيا، ولا طريق إلى العلم بها أصلا، بل هي مما استأثر الله تعالى بعلمه وحده لا شريك له في ذلك، فلا يعلم كيفية صفاته جل وعلا إلا هو جل وعلا، والواجب على العبد أن يمسك لسانه ويقطع الطمع في التعرف على كيفية شيء من صفات الله تعالى، مع اعتقاده الجازم بأن صفات الله تعالى لها كيفيات، وهذا لا شك فيه، وإنما المنفي هو علمنا بهذه الكيفيات، فالكيفية مما أخفاه الله عنا ولم يطلعنا عليه، ولا طريق أصلا للعلم به، وذلك لأن أهل العلم رحمهم

الله تعالى قرروا أن الكيفية لا تعرف إلا بثلاث طرق، الأول: - رؤية الشيء، والله تعالى لا يرى في الدنيا بعيني اليقظة، وهذا متفق عليه بين أهل العلم، الثاني: - رؤية نظيره ومثيله وهذا منتف عن الله تعالى، لأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ولم يكن له كفوا أحد، ولا سمي له جل وعلا، الثالث: - أن يخبرك الصادق ﷺ عن كيفية صفته، وهذا منتف أيضا، فإن النبي ﷺ قد أخبرنا أن لربنا حياة وعلوا واستواء ولم يخبرنا عن كيفية شيء من ذلك، وأخبرنا أن له وجها ويدا ورجلا وأصابع ورحمة ورضا وغضبا ولم يخبرنا عن كيفية شيء من ذلك، وهكذا القول في سائر صفات الرب جل وعلا، فوجب الوقوف حيث وقف النص، لا ندخل في هذا الباب متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، ولا نقول إلا " آمنا به كل من عند ربنا " فحيث انتفت طرق العلم بالكيفية في حق صفات الله تعالى فاعلم أنه لا يمكننا أبدا أن نتعرف على هذه الكيفية، بل لا يجوز لنا أن نطلق العنان لعقولنا القاصرة للبحث في هذا الأمر، لأنه أمر غيبي لا مدخل للعقول فيه، وليس إداركه مما يدخل تحت طاقة العقل ومدركاته فحيث كان معنى الصفات واضحا جليا، قلنا (إن معانيها من قبيل المحكم) وحيث كانت كيفياتها مما أخفاه الله تعالى عنا، قلنا (إنها متشابهة باعتبار الكيفيات) فأهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى وسط في هذا الباب الخطير بين فرقتين ضالتين: - بين من يزعم أنه لا يعلم معاني الصفات فضلا عن كيفياتها، وبين من يزعم أنه يعلم معانيها وكيفياتها، فالفرقة الأولى قالوا (نصوص الصفات كلها من المتشابه الخفي) والفرقة الثانية قالوا (نصوص الصفات كلها من الواضح الجلي) وأما أهل السنة فتوسطوا وقالوا (إن نصوص الصفات من الواضح الجلي في معانيها، ومن المتشابه الخفي في كيفياتها) وهذا هو الحق الذي ندين الله به.

وقد يشكل على البعض كون الله سمى نفسه بصفات وسمى عباده بنظير ذلك، فيتردد عند ذلك هل يثبت تلك الصفات لله حقيقة أم لا؟.

اعلم وفقني الله وإياك أن الألفاظ منها:

١- ما هو مترادف: هو ما اختلف لفظه واتحد معناه. مثال ذلك: الليث- الأسد- أسامة- الغضنفر، هذه ألفاظ مختلفة والمسمى بها واحد، فتسمى الألفاظ المترادفة.

٢- ما هو مشترك: وهو ما اتحد لفظه واختلف معناه. مثال ذلك: لفظ: "العين ": فهي تطلق على العين الباصرة- والعين الجارية- والجاسوس- والحسد، فاللفظ واحد والمعاني مختلفة، وهذه تسمى الألفاظ المشتركة.

٣- ما هو متباين: وهو ما اختلف لفظه ومعناه: مثال ذلك: السماء والأرض- والجنة والنار، فلكل لفظ من هذه الألفاظ معنى يختلف عن الآخر، فهذه تسمى الألفاظ المتباينة.

٤- ما هو متواطيء: وهو ما اتفق لفظه ومعناه، وهو نوعان:

الأول: التواطؤ المطلق: وذلك إذا كان المعنى متساويًا في الجميع. مثاله: لفظ "الرجل" يقال: زيد رجل وعمر رجل، فالمعنى متساو في الجميع.

الثاني: التواطؤ المشكِّك: وذلك إذا كان المعنى متفاوتا متفاضلًا، وسمي بالمشكك لتشكك السامع هل هذا اللفظ من قبيل المتواطيء أم من المشترك؟.

مثاله: لفظ " النور" فيقال: نور الشمس ونور السراج، فالمعنى في الاثنين واحد، ولكن هناك تفاوت وتفاضل، فشتان بين نور الشمس ونور السراج، فالأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد هي من الألفاظ المتواطئة التواطؤ المشكك، فالحق فيها هو أن يقال إنه بالنسبة للأسماء والصفات التي تطلق على الله وعلى العباد كالحي، والسميع، والبصير، والعليم، والقدير، والحياة، والسمع،

والبصر، والعلم ونحوها هي حقيقة في الرب وحقيقة في العبد. ولكن للرب تعالى منها ما يليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به، وذلك لأن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاثة اعتبارات:

الاعتبار الأول: اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد.

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا إلى الرب مختصًّا به.

الاعتبار الثالث: اعتباره مضافًا إلى العبد كل مقيدًا به.

فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به، وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات.

والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات، والعليم والقدير وسائر الأسماء.

فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها فإثباتها للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل يثبت له على وجه لايماثله فيه خلقه ولا يشابههم، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه وجحد صفات كماله، ومن أثبته على وجه لا يماثل فيه خلقه به، كما يليق بجلاله وعظمته فقد بريء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك، وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم علوَّه من احتياجه إلى ما هو عال عليه وكونه محمولًا به، مفتقرًا إليه، محاطا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى، وما لزم الصفة من جهة

اختصاصه تعالى بها فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم، وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق.

فهناك فرق بين نفي المعنى مطلقا ونفي تمام المعنى وبعبارة أخرى فرق بين فهم المعنى والإدراك والإحاطة لتمام المعنى.

فالسلف يثبتون الجزء المفهوم من معنى اللفظ في لغة العرب، والناس في التعامل مع نصوص الصفات ثلاثة أقسام:

١- من لا يثبت أي معنى للفظة أي أنها لفظة مجهولة بالنسبة لنا كالحروف المقطعة طس كهيعص وهكذا وهم المفوضة ومنهم من يجريها على ظاهرها لكن يقول لا يعلم تأويلها إلا الله فهو يؤول إلى نفي المعنى وهذا هو الذي أنكره ابن عقيل على شيخه أبي يعلى وكلا النوعين تفويض معنى.

٢- من يثبت معنى الصفة لكن يفوض كنه وحقيقة الصفة وهم السلف.

٣- من يثبت معنى الصفة ويثبت الكيفية والكنه فيقول هي كصفات المخلوقين وهؤلا هم الممثلة المجسمة.

فأصبح الأمر فيه ثلاث درجات:

إما لا معنى مطلقًا وإما القدر المفهوم من اللفظ دون الكيفية والكنه وإما المعنى والكيفية ونقرب هذا المعنى بمثال في المخلوقات:

نعيم الجنة: أخبر الله تعالى أن في الجنة ملابس ومآكل ومشارب لكن حقائق هذه الأشياء لا تعلم حقيقتها وكيفيتها بالنسبة لنا وإن كنا نعلم جزءا من معاني هذا النعيم فالرمان مثلا نعلم أنه طعام ويؤكل ونوع من الفاكهة وليس هو لباس أو مركب أو لفظ مجهول لكنا لا نعلم حقيقة لونه وحجمه وطعمه ورائحته كما نعلم أنه ليس كرمان الدنيا لأن نعيم الجنة فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر لكن على قول المفوضة الرمان لا يعرف معناه فقد يكون مأكولا وقد يكون مشروبا وقد يكون مركوبا فمعناه مجهول.

وكذا إذا قلنا في المخلوقين يد فهي عند المخلوقين جزء وبعض من الجسم وهي الجزء المعروف منه فهذا القدر معروف لمعنى لفظة يد لكنها تختلف في حقيقتها من يد الفيل والأسد والطير والباعوضة تختلف في الحجم والشكل واللون ونحو ذلك فهذا معنى كلمة تفويض.

لكن في باب الصفات ولله المثل الأعلى فهو تبارك وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لا تطلق هذه الألفاظ التي أحدثها المتكلمون كأجزاء وأبعاض لكن أهل السنة يطلقون عليها أعيان في مقابل صفات المعاني فاليد والوجه والقدم والأصبع يسمونها صفات أعيان.

فإذا أحطت بهذه القاعدة خبراً وعقلتها كما ينبغي خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين: آفة التعطيل وآفة التشبيه.

فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم، فخلصت من التشبيه، فتدبر هذا الموضع واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب.

قال شيخ الإسلام في التدمرية (ص ٨ - ١٢): "سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء، وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره، وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم، توافق تلك الأسماء إذا قطعت من الإضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما واتحاده - عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص- اتفاقهما، ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص فضلًا

عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص. فقد سمى الله نفسه حيًّا فقال: {اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}.

وسمى بعض عباده حيًّا فقال: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}. وليس هذا الحي مثل هذا الحي، لأن قوله: "الحي" اسم لله مختص به، وقوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} اسم للحي المخلوق مختص به، وإنما يتفقان إذا أطلقا وجردا عن التخصيص، ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج، ولكن العقل يفهم من المطلق قدرًا مشتركًا بين المسميين، وعند الاختصاص: يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق، ولابد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته، يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق. وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى، وكذلك سمى الله نفسه: {عَلِيمًا حَكِيمًا} وسمى بعض عباده حليمًا {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ}، يعني إسماعيل، وسمى آخر عليمًا، فقال: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ} يعني إسحاق، وليس العليم كالعليم، ولا الحليم كالحليم. وسمى نفسه سميعًا بصيرًا {إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} وسمى بعض عباده سميعًا بصيرًا فقال: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} وليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير...". (وكذلك سمى صفاته بأسماء، وسمى صفات عباده بنظير ذلك، فقال: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}، {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ}، وقال: {إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}، {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً}، وسمى صفة المخلوق علمًا وقوة: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}، {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}، وقال: {فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}، وقال: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا

وَشَيْبَة}، وقال: {وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ}، وليس العليم كالعلم ولا القوة كالقوة.

ووصف نفسه بأنه استوى على عرشه، فذكر ذلك في سبعة مواضع من كتابه أنه استوى على العرش، ووصف بعض خلقه بالاستواء على غيره في مثل قوله: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِه}، وقوله: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ}.

وقوله: {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}، وليس الاستواء كالاستواء. ووصف نفسه ببسط اليدين فقال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاء}.

ووصف بعض خلقه ببسط اليد في قوله: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}، وليس اليد كاليد، ولا البسط كالبسط، وإذا كان المراد بالبسط الإعطاء والجود فليس إعطاء الله كإعطاء خلقه، ولا جوده كجودهم، ونظائر هذا كثيرة، فلا بد من إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفي ماثلته لخلقه.

فمن قال: ليس لله علم، ولا قوة، ولا رحمة، ولا كلام، ولا يحب، ولا يرضى، ولا نادى، ولا ناجى، ولا استوى- كان معطلًا جاحدًا ممثلًا له بالمعدومات والجمادات.

ومن قال: له علم كعلمي أو قوة كقوتي، أو حب كحبي، أو رضاء كرضائي، أو يدان كيداي، أو استواء كاستوائي- كان مشبهًا ممثلًا لله بالحيوانات، بل لا بد من إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل) انتهى من التدمرية بتصرف.

وقال العلامة العثيمين في تقريب التدميريه (ص ٨٧): وبهذا علم أنه لا يصح الاعتماد في ضابط النفي على مجرد نفي التشبيه وذلك لوجهين:

الأول: أنه إن أريد بالنفي نفي التشابه المطلق أي: نفي التساوي من كل وجه بين الخالق والمخلوق فإن هذا لغو من القول إذ لم يقل أحد بتساوي الخالق والمخلوق من كل وجه، بحيث يثبت لأحدهما من الجائز والممتنع والواجب

ما يثبت للآخر، ولا يمكن أن يقوله عاقل يتصور ما يقول، فإنه مما يعلم بضرورة العقل وبداهة الحس انتفاؤه، وإذا كان كذلك لم يكن لنفيه فائدة.

وإن أريد بالنفي مطلق التشابه، فهذا النفي لا يصح إذ ما من شيئين إلا وبينهما قدر مشترك يشتركان فيه، وقدر مختص يتميز به كل واحد عن الآخر، فيشتبهان من وجه، ويفترقان من وجه.

فالحياة - مثلًا - وصف مشترك بين الخالق والمخلوق، قال الله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ} [الفرقان: ٥٨]. وقال: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} [الروم: ١٩]. لكن حياة الخالق تختص به فهي حياة كاملة من جميع الوجوه لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، بخلاف حياة المخلوق فإنها حياة ناقصة مسبوقة بعدم متلوة بفناء قال الله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْأِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]. فالقدر المشترك - وهو مطلق الحياة - كلي لا يختص بأحدهما دون الآخر، لكن ما يختص به كل واحد ويتميز به لم يقع فيه اشتراك، وحينئذ لا محذور من الاشتراك في هذا المعنى الكلي، وإنما المحذور أن يجعل أحدهما مشاركًا للآخر فيما يختص به. ثم إن إرادة ذلك - أعني: نفي مطلق التشابه - تستلزم التعطيل المحض، لأنه إذا نفي عن الله تعالى صفة الوجود مثلًا - بحجة أن للمخلوق صفة وجود فإثباتها للخالق يستلزم التشبيه على هذا التقدير - لزم على نفيه أن يكون الخالق معدومًا، ثم يلزمه على هذا اللازم الفاسد أن يقع في تشبيه آخر وهو تشبيه الخالق بالمعدوم لاشتراكهما في صفة العدم فيلزمه - على قاعدته - تشبيه بالمعدوم. فإن نفى عنه الوجود والعدم وقع في تشبيه ثالث أشد وهو تشبيه بالممتنعات؛ لأن الوجود والعدم نقيضان يمتنع انتفاؤهما كما يمتنع اجتماعهما.

فإن قال قائل: إن الشيء إذا شارك غيره من وجه جاز عليه من ذلك الوجه ما يجوز على الآخر، وامتنع عليه ما يمتنع، ووجب له ما يجب؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: المنع، فيقال لا يلزم من اشتراك الخالق والمخلوق في أصل الصفة أن يتماثلا فيه فيما يجوز ويمتنع ويجب، لأن مطلق المشاركة لا يستلزم المماثلة.

الثاني: التسليم، فيقال هب أن الأمر كذلك ولكن إذا كان ذلك القدر المشترك لا يستلزم إثبات ما يمتنع على الرب سبحانه، ولا نفي ما يستحقه لم يكن ممتنعًا، فإذا اشتركا في صفة الوجود، والحياة، والعلم، والقدرة، واختص كل موصوف بما يستحقه ويليق به كان اشتراكهما في ذلك أمرًا ممكنًا لا محذور فيه أصلًا، بل إثبات هذا من لوازم الوجود، فإن كل موجودين لابد بينهما من مثل هذا، ومن نفاه لزمه تعطيل وجود كل موجود، لأن نفي القدر المشترك يلزم منه التعطيل العام.

وهذا الموضع من فهمه فهمًا جيدًا وتدبره زالت عنه عامة الشبهات وانكشف له غلط كثير من الأذكياء في هذا المقام.

فمعتقد أهل السنة في أسماء الله وصفاته هو: أنهم يؤمنون بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة إثباتًا ونفيًا، فهم بذلك:

١- يسمون الله بما سمى به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، لا يزيدون على ذلك ولا ينقصون منه.

٢- ويثبتون لله ﷻ ويصفونه بما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

٣- وينفون عن الله ما نفاه عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله محمد

ﷺ، مع اعتقاد أن الله موصوف بكمال ضد ذلك الأمر المنفي.

فأهل السنة سلكوا في هذا الباب منهج القرآن والسنة الصحيحة فكل اسم أو صفة لله سبحانه وردت في الكتاب والسنة الصحيحة فهي من قبيل الإثبات فيجب بذلك إثباتها.

وأما النفي فهو أن ينفى عن الله ﷻ كل ما يضاد كماله من أنواع العيوب والنقائص، مع وجوب اعتقاد ثبوت كمال ضد ذلك المنفي.

قال الإمام أحمد رحمه الله: "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والسنة".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وطريقة سلف الأمة وأئمتها: أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات، قال تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** فهذا رد على الممثلة **{وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** رد على المعطلة.

فقولهم في الصفات مبني على أصلين:

أحدهما: أن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات النقص مطلقًا كالسنة والنوم والعجز والجهل وغير ذلك.

والثاني: أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها على وجه الاختصاص بما له من الصفات، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات"[1].

ومن النصوص التي توضح ذلك ما يلي:

أ- قوله تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**. ففي مقام النفي:

---

(١) منهاج السنة ٢/ ٥٢٣

{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}. وفي مقام ا لإثبات: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

ب- قوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ}. ففي مقام الإثبات: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ}. وفي مقام النفي: {الَّذِي لا يَمُوتُ}.

ج- قوله تعالى: {اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ}. ففي مقام الإثبات: {اللهُ}، و{الْحَيُّ الْقَيُّومُ} وفي مقام النفي: {لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، و{لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ}.

وأما من السنة، ففي مقام الإثبات قوله ﷺ: "ينزل ربنا عز وجل حين يبقى ثلث الليل الآخر إلى سماء الدنيا"(١)، متفق عليه.

وقوله ﷺ: "لما قضى الله عز وجل الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش أن رحمتي غلبت غضبي"(٢)، متفق عليه.

وفي مقام النفي قوله ﷺ: "أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا"(٣).

وقوله ﷺ: "إن الله تعالى ليس بأعور"(٤).

وقوله ﷺ: "إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام"(٥).

أولًا: شرح قول أهل السنة: "من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل".

توحيد الأسماء والصفات له ضدان هما

١- التعطيل.

---

(١) البخاري ٣/ ٢٢٩، ومسلم ١/ ٥٢١ ح١٦٨

(٢) البخاري ٦/ ٢٨٧، ح١٩٤، ومسلم ٤/ ٢١٠٧ ح١٤

(٣) البخاري ١٣/ ٣٧٢ ح ٧٣٨٦

(٤) متفق عليه، البخار ١٣/ ٩٠، ومسلم ١٨/ ٥٩

(٥) مسلم في صحيحه ١/ ١١١

٢- التشبيه والتمثيل.

فمن نفى صفات الرب ﷻ وعطلها، فقد كذب تعطيله توحيده.

ومن شبهه بخلقه ومثله بهم، فقد كذب تشبيهه وتمثيله توحيده[١].

أولًا: معنى قولهم: "من غير تحريف ولا تعطيل":

هذه العبارة فيها تمييز لعقيدة أهل السنة عن عقيدة أهل التعطيل:

أ- معنى التحريف وبيان أنواعه:

١- معنى التحريف:

التحريف لغة: التغيير والتبديل والإمالة.

فهو في الأصل مأخوذ من قولهم: حرفت الشيء عن وجهه إذا أملته وغيرته.

والتحريف شرعًا: الميل بالنصوص عما هي عليه، إما بالطعن فيها، أو بإخراجها عن حقائقها مع الإقرار بلفظها.

أو نقول بعبارة مختصرة: هو العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره[٢].

والتحريف في باب الأسماء والصفات: هو تغيير ألفاظ نصوص الأسماء والصفات أو معانيها عن مراد الله بها.

٢- أنواع التحريف:

التحريف نوعان:

النوع الأول: تحريف اللفظ:

وتعريفه: هو العدول باللفظ عن جهته إلى غيرها، وله أربع صور:

١- الزيادة في اللفظ.

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٣٦

(٢) الصواعق المرسلة ١/ ٢١٥

٢- النقصان في اللفظ.

٣- تغيير حركة إعرابية.

٤- تغيير حركة غير إعرابية.

ومن أمثلة تحريف اللفظ:

المثال الأول: تحريف إعراب قوله تعالى: {وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} من الرفع إلى النصب، وقال: {وَكَلَّمَ اللهُ} أي موسى كلم الله، ولم يكلمه الله، ولما حرفها بعض الجهمية هذا التحريف قال له بعض أهل التوحيد: فكيف تصنع بقوله: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} فبهت المحرف.

مثال آخر: إن بعض المعطلة سأل بعض أئمة العربية: هل يمكن أن يقرأ العرش بالرفع في قوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} وقصد بهذا التحريف أن يكون الاستواء صفة للمخلوق لا للخالق[1].

النوع الثاني: تحريف المعنى:

وتعريفه: هو صرف اللفظ عن معناه الصحيح إلى غيره مع بقاء صورة اللفظ[2]. أو نقول: تعريفه: هو العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته، وإعطاء اللفظ معنى لفظ آخر بقدر ما مشترك بينهما.

وهذا النوع هو الذي جال فيه أهل الكلام من المعطلة وصالوا وتوسعوا وسموه تأويلًا، وهو اصطلاح فاسد حادث لم يعهد به استعمال في اللغة[3].

ومن أمثلة تحريف المعنى:

كقول المعطلة في معنى استوى: استولى في قوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ

---

(١) الصواعق المرسلة ١/ ٢١٨

(٢) الصواعق المنزلة ١/ ٢٠١

(٣) مختصر الصواعق ٢/ ١٤٧

اسْتَوَى}.

وفي معنى اليد في قوله تعالى: **{بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}** النعمة والقدرة.

وفي معنى المجيء في قوله تعالى: **{وَجَاءَ رَبُّكَ}** وجاء أمر ربك.

وقد ذكر الله التحريف وذمه حيث ذكره، وهو مأخوذ في الأصل عن اليهود، فهم الراسخون فيه، وهم شيوخ المحرفين وسلفهم، فإنهم حرفوا كثيرًا من ألفاظ التوراة وما غلبوا عن تحريف لفظه حرفوا معناه، ولهذا وصفوا بالتحريف في القرآن دون غيرهم من الأمم.

وقد درج على آثارهم الرافضة، فهم أشبه بهم من القذة بالقذة، وكذلك الجهمية، فإنهم سلكوا في تحريف النصوص مسالك إخوانهم في اليهود[1].

وأصحاب تحريف الألفاظ شر من أصحاب تحريف المعنى من وجه.

وأصحاب تحريف المعنى شر من أصحاب تحريف اللفظ من وجه.

فأصحاب تحريف اللفظ عدلوا باللفظ والمعنى جميعًا عما هما عليه فأفسدوا اللفظ والمعنى، بينما أصحاب تحريف المعنى أفسدوا المعنى وتركوا اللفظ على حاله فكانوا خيرًا من أولئك من هذا الوجه.

فأصحاب تحريف اللفظ لما أرادوا المعنى الباطل حرفوا له لفظًا يصلح له لئلا يتنافر اللفظ والمعنى، بحيث إذا أطلق ذلك اللفظ المحرف فهم منه المعنى المحرف، فإنهم رأوا أن العدول بالمعنى عن وجهه وحقيقته مع بقاء اللفظ على حاله مما لا سبيل إليه، فبدأوا بتحريف اللفظ ليستقيم لهم حكمهم على المعنى الذي قصدوا[2].

وأما كون أصحاب تحريف المعنى شرا من أصحاب تحريف اللفظ من

(١) الصواعق المرسلة ١/ ٢١٥- ٢١٦

(٢) مختصر الصواعق ٢/ ١٤٧، ١٤٨

وجه، فلأن تحريف المعنى هو الأكثر استعمالا عند أصحاب التحريف، ولأنه أسهل رواجا وسوقًا عند الجهلة والعوام من الناس، فيفتتن به من ليس لديه زاد من العلم الصحيح المعتمد على الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة.

ب- معنى التعطيل:

التعطيل لغة: مأخوذ من "العطل": الذي هو الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ} أي أهملها أهلها وتركوا وردها(١).

والتعطيل في جانب الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه، وهو المتمثل فيمن ينكر وجود خالق لهذا الكون، وهو قول الدهرية الملاحدة.

القسم الثاني: تعطيل عبادته ﷻ، أي ما يجب له ﷻ على عباده من حقيقة التوحيد وإفراده بالعبادة، وهو المتمثل في أهل الشرك الذين صرفوا شيئا من العبادة لغير الله ﷻ.

القسم الثالث: تعطيل الله سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله(٢).

وهذا القسم الثالث هو الذي نقصده هنا.

فالمراد بالتعطيل في باب الأسماء والصفات هو: نفي الأسماء والصفات أو بعضها وسلبها عن الله.

أو نقول: هو نفي الصفات الإلهية، وإنكار قيامها بذات الله تعالى(٣).

وقد وقع في التحريف والتعطيل طوائف، يجمعهم أهل العلم تحت

---

(١) شرح الواسطية ص ٢٠

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص١٥٣

(٣) شرح الواسطية ص٢٠

مسمى "المعطلة".

وينقسم المعطلة إلى قسمين رئيسيين هما:

القسم الأول: الفلاسفة، وهم صنفان:

الصنف الأول: أهل الفلسفة البحتة.

الصنف الثاني: أهل الفلسفة الباطنية، وهي نوعان:

أ- رافضية. ب- صوفية.

والقسم الثاني من المعطلة هم: أهل الكلام. وهم خمسة أصناف:

١- الجهمية. ٢- المعتزلة. ٣- الكلابية.

٤- الأشاعرة. ٥- الماتريدية.

ثانيا: معنى قولهم: "من غير تكييف ولاتمثيل":

هذه العبارة فيها تمييز لعقيدة أهل السنة عن عقيدة المشبهة، "فالتكييف" هو: جعل الشيء على حقيقة معينة من غير أن يقيدها بمماثل[١].

مثال ذلك: قول الهشامية عن الله: "طوله كعرضه "[٢]. أو قولهم: "طوله طول سبعة أشبار بشبر نفسه"، وعلى هذا التعريف يكون هناك فرق بين التكييف والتمثيل.

فالتكييف: ليس فيه تقيد بمماثل، وأما التمثيل فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين.

ولعل الصواب أن التكييف أعم من التمثيل.

فكل تمثيل تكييف، لأن من مثل صفات الخالق بصفات المخلوقين فقد كيف تلك الصفة أي جعل لها حقيقة معينة مشاهدة.

---

(١) القواعد المثلى ص٢٧

(٢) مقالات الإسلاميين ص ٣١

وليس كل تكييف تمثيلًا، لأن من التكييف ما ليس فيه تمثيل بصفات المخلوقين، كقولهم: طوله كعرضه.

ومعنى قول أهل السنة: "من غير تكييف" أي من غير كيف يعقله البشر، وليس المراد من قولهم: "من غير تكييف" أنهم ينفون الكيف مطلقًا، فإن كل شيء لابد أن يكون على كيفية ما، ولكن المراد أنهم ينفون علمهم بالكيف، إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه(١).

فمن المعلوم أنه لا علم لنا بكيفية صفاته ﷻ، لأنه تعالى أخبرنا عن الصفات ولم يخبرنا عن كيفيتها، فيكون تعمقنا في أمر الكيفية قفوًا لما ليس لنا به علم، وقولًا بما لا يمكننا الإحاطة به.

وقد أخذ العلماء من قول الإمام مالك: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة" قاعدة ساروا عليها في هذا الباب.

"ولا تمثيل": المثيل لغة: هو الند والنظير.

والتمثيل: هو الاعتقاد في صفات الخالق، أنها مثل صفات المخلوقين.

وهو قول الممثل: له يد كيدي وسمع كسمعي، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

والتمثيل والتشبيه هنا بمعنى واحد، وإن كان هناك فرق بينهما في أصل اللغة(٢).

فالمماثلة: هي مساواة الشيء لغيره من كل وجه.

والمشابهة: هي مساواة الشيء لغيره في أكثر الوجوه.

ولكن التعبير هنا بنفي "التمثيل" أولى لموافقة لفظ القرآن.

---

(١) شرح العقيدة الواسطية ص ٢١

(٢) القواعد المثلى ص ٢٧

في قوله تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}**.

وقوله تعالى: **{فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ}**.

وقد وقع في التمثيل والتكييف "المشبهة" الذين بالغوا في إثبات الصفات إلى درجة تشبيه الخالق بالمخلوق.

وقد وقع في التمثيل كل من:

١- الكرامية: أتباع محمد بن كرام السجستاني، وهم طوائف يبلغ عددهم اثنتي عشرة فرقة، وأصولها ستة هي:

١- العابدية. ٢ – النونية. ٣ – الزرينية.

٤- الإسحاقية. ٥- الواحدية. ٦- الهيصمية.

٢- الهشامية الرافضية الإمامية، وهم أصحاب: هشام بن الحكم الرافضي.

وأحيانًا تنسب إلى: هشام بن سالم الجواليقي، وكلاهما من الإمامية المشبهة، والجدير بالذكر أن الرافضة الإمامية كان ينتشر فيهم التشبيه وهذا في أوائلهم[1].

وأما الرافضة الإمامية في الوقت الراهن، فعلى عقيدة المعتزلة في مسائل الصفات، وكذلك "الزيدية" من الشيعة.

ثالثا: "كل معطل ممثل، وكل ممثل معطل" فكل واحد من فريق التعطيل والتمثيل جامع بين التعطيل والتمثيل.

١- بيان جمع المعطلة بين التعطيل والتمثيل:

أما تمثيل المعطلة: فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات.

فهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته، بالمفهوم من أسماء

---

(١) شرح الأصفهانية ص ٦٥

خلقه وصفاتهم.

وتعطيل المعطلة: في نفيهم لما يستحقه الله تعالى من الأسماء والصفات اللائقة به سبحانه.

وبذلك جمعوا بين التعطيل والتمثيل: مثلوا أولًا، وعطلوا آخرًا.

وامتاز أهل التعطيل عن أهل التمثيل بنفيهم المعاني الصحيحة للصفات.

مثال لجمع المعطلة بين التعطيل والتمثيل:

نصوص الاستواء، كقوله تعالى: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}**.

فإن المعطل يقول: لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساويًا، وكل ذلك من المحال، ونحو ذلك من الكلام. فهذا المعطل لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأي جسم كان على أي جسم كان، وهذا اللازم الذي جاء به المعطل تابع لهذا المفهوم.

وكان الواجب عليه أن يثبت لله استواء يليق بجلاله ويختص به، فلا يلزمه شيء من اللوازم الباطلة التي هي من لوازم المخلوقات، ويجب نفيها في حق الله.

فأهل التعطيل وقعوا في أربعة محاذير:

الأول: كونهم مثلوا ما فهموه من النصوص بصفات المخلوقين، وظنوا أن مدلول النصوص هو التمثيل.

الثاني: أنهم عطلوا النصوص عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله.

الثالث: أنهم بنفي تلك الصفات صاروا معطلين لما يستحقه الرب من صفات الكمال.

الرابع: أنهم وصفوا الرب بنقيض تلك الصفات، من صفات الأموات والجمادات والمعدومات(١).

---

(١) الرسالة التدمرية ٧٩- ٨٠

٢- بيان جمع أهل التمثيل بين التعطيل، والتمثيل[١]:

أما تعطيل الممثل فمن وجوه ثلاثة:

أحدها: أنه عطل نفس النص الذي أثبت الصفة، حيث صرفه عن مقتضى ما يدل عليه، فإن النص دال على إثبات صفة تليق بالله لا على مشابهة الله لخلقه.

الثاني: أنه إذا مثل الله بخلقه فقد عطله عن كماله الواجب، حيث شبه الرب الكامل بالمخلوق الناقص.

الثالث: أنه إذا مثل الله بخلقه فقد عطل كل نص يدل على نفي مشابهة الله لخلقه، مثل قوله تعالى: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**، وقوله: **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾**.

أما تمثيل أهل التمثيل: فإنهم يقولون: إن الله ﷻ لا يخاطبنا إلا بما نعقل، فإذا كان مستويًا على العرش فهو كاستواء الإنسان على السرير، إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا، فامتاز هؤلاء الممثلة بإثبات استواء هو من خصائص المخلوقين، كما امتاز المعطلة بتعطيل كل اسم للاستواء الحقيقي.

والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير ونحو ذلك، ولا يجوز أن يثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقدرتهم، فكذلك هو سبحانه فوق العرش ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق وملزوماتها.

(فقد هدى الله أصحاب سواء السبيل للطريقة المثلى فأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات، ونفوا عنه مماثلة المخلوقات، فكان مذهبهم مذهبا بين مذهبين وهديا بين ضلالتين.

فقالوا: نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير

---

(١) انظر: الفتوى الحموية ص٦٢- ٦٣ ط: دار فجر للتراث

تحريف ولا تعطيل، ومن غير تمثيل ولا تكييف.

بل طريقتنا إثبات حقائق الأسماء والصفات، ونفي مشابهة المخلوقات، فلا نعطل ولا نؤول ولا نمثل ولا نجهل.

ولا نقول: ليس له يدان، ولا وجه، ولا سمع، ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا استوى على عرشه.

ولا نقول: له يدان كأيدي المخلوقين، ووجه كوجوههم وسمع وبصر وحياة وقدرة واستواء، كأسماعهم وأبصارهم وقدرتهم واستوائهم.

بل نقول: له ذات حقيقة ليست كذوات المخلوقين.

وله صفات حقيقة ليست كصفات المخلوقين.

وكذلك قولنا: في وجهه تبارك وتعالى، ويديه، وسمعه، وبصره، وكلامه، واستوائه.

ولا يمنعنا ذلك أن نفهم المراد من تلك، الصفات وحقائقها، كما لم يمنع ذلك من أثبت لله شيئا من صفات الكمال من فهم معنى الصفة وتحقيقها، فإن من أثبت له سبحانه السمع والبصر أثبتهما حقيقة وفهم معناهما، فهكذا سائر الصفات المقدسة، يجب أن تجري هذا المجرى، وإن كان لا سبيل لنا إلى معرفة كنهها وكيفيتها، فإن الله سبحانه لم يكلف العباد ذلك، ولا أراده منهم، ولم يجعل لهم إليه سبيلا)[١].

المبحث الثالث

الأسس التي قام عليها معتقد أهل السنة في باب الأسماء والصفات

ارتكز معتقد أهل السنة في باب أسماء الله وصفاته على ثلاثة أسس رئيسية، هي[٢]:

---

(١) الصواعق المرسلة ٢/ ٤٢٥ - ٤٢٧

(٢) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص ٢٥

الأساس الأول: الإيمان بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته إثباتًا ونفيًا.

الأساس الثاني: تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين.

الأساس الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله بتلك الصفات.

وهذه الأسس الثلاثة هي التي تفضل وتميز عقيدة أهل السنة في هذا الباب عن عقيدة أهل التعطيل (من الفلاسفة وأهل الكلام) من جهة.

وعن عقيدة أهل التمثيل (من الكرامية والهشامية وغيرهم) من جهة أخرى.

فالأساس الأول: فيه تمييز لعقيدة أهل، السنة عن عقيدة المعطلة، فأهل السنة يجعلون الأصل في إثبات الأسماء والصفات أو نفيها عن الله تعالى هو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولا يتجاوزونها، فما ورد إثباته من الأسماء والصفات في القرآن والسنة الصحيحة فيجب إثباته، وما ورد نفيه فيهما فيجب نفيه.

(وأما ما لم يرد إثباته ونفيه فلا يصح استعماله في باب الأسماء وباب الصفات إطلاقًا، وأما في باب الأخبار فمن السلف من يمنع ذلك، ومنهم من يجيزه بشرط أن يستفصل عن مراد المتكلم فيه، فإن أراد به حقًّا يليق بالله تعالى فهو مقبول، وإن أراد به معنى لا يليق بالله عر وجل وجب رده)[1].

ومجمل القول إن في الأمر ثلاثة أبواب:

١- باب الأسماء: وهذا يجب الاعتماد فيه على الكتاب والسنة فقط.

٢- باب الصفات: وهذا كذلك يجب الاعتماد فيه على الكتاب والسنة فقط.

٣- باب الأخبار: وهذا لا يشترط فيه ورود النص الشرعي، ولكن يشترط

(١) رسالة في العقل والروح ٢/ ٤٦- ٤٧ لابن تيمية (ضمن مجموعة الرسائل المنيرية)

أن يكون معنى اللفظ المستعمل ليس بسيء.

أما أهل التعطيل: فقد جعلوا "العقل" وحده هو أصل علمهم، فالشبه العقلية هي الأصول الكلية الأولية عندهم، وهي التي تثبت وتنفي، ثم يعرضون الكتاب والسنة على تلك الشبه العقلية، فإن وافقتها قبلت اعتضادًا لا اعتمادًا، وإن عارضتها ردت تلك النصوص الشرعية وطرحت، وفي هذا يقول قائلهم: (كل ما ورد السمع به ينظر فإن كان العقل مجوزا له وجب التصديق به..

وأما ما قضى العقل باستحالته فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يتصور أن يشمل السمع على قاطع مخالف للمعقول.

وظواهر أحاديث التشبيه- يعني بها أحاديث الصفات- أكثرها غير صحيحة، والصحيح منها ليس بقاطع، بل هو قابل للتأويل)(١).

فهذا النقل يبين لك مدى تقديم هؤلاء لشبههم العقلية وتعصبهم لها، وكيف أنهم يجعلونها هي الأصول والسمع معروضا عليها، فما أجازته عقولهم قبلوه، وما لم تجزه عقولهم شككوا فيه وانتقصوه، ومن ثم سعوا في تأويله وتحريفه، ومن يلقي نظرةً على كتب الأشاعرة مثلًا يجد أن القوم يقسمون أبواب العقيدة إلى إلهيات- ونبوَّات- وسمعيات، وهم في باب الإلهيات والنبوات لا يقبلون نصوص الكتاب والسنة، ولذلك لن تجد في هذين البابين إلا الشبه العقلية المركبة وفق القواعد المنطقية، ويا عجبا أنأخذ ديننا من كلام الله ورسوله، أم من ملاحدة اليونان وتلاميذهم!

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي ص ١٣٢- ١٣٣. وقال في كتابه المستصفى ٢/ ١٣٧- ١٣٨: "كل ما دل العقل فيه على أحد الجانبين فليس للتعارض فيه مجال، إذ الأدلة العقلية يستعجل نسخها وتكاذبها، فإن ورد دليل سمعي على خلاف العقل، فإما أن لا يكون متواترًا فيعلم أنه غير صحيح، وإما أن يكون متواترًا فيكون مؤولًا ولا يكون متعارضًا"

وأما باب السمعيات- أي البعث والحشر والجنة والنار والوعد والوعيد- فهم يقبلون فيه النصوص الشرعية، وبالتالي سموا هذا الباب بالسمعيات. في مقابل باب الإلهيات والنبوات، إذ إنهم يعتمدون فيهما على العقليات، وهؤلاء شابهوا حال من قال الله تعالى فيهم: **{أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}**(١).

وأما الأساس الثاني: وهو تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، ففيه تمييز لعقيدة أهل السنة عن عقيدة المعطلة من جهة، وعن عقيدة المشبهة من جهة أخرى.

فأهل السنة: يعتقدون أن ما اتصف الله به من الصفات لا يماثله فيها أحد من خلقه، فالله ﷻ قد أخبرنا بذلك بنص كتابه العزيز حيث قال: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**(٢)، فإذا ورد النص بصفة من صفات الله تعالى في الكتاب أو السنة فيجب الإيمان به والاعتقاد الجازم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والشرف والعلو مما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فالشر كل الشر في عدم تعظيم الله، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فعلى القلب المؤمن المصدق بصفات الله التي تمدح بها أو أثنى عليه بها نبيه ﷺ، أن يكون معظمًا لله جل وعلا غير متنجس بأقذار التشبيه، لتكون أرض قلبه طيبة طاهرة قابلة للإيمان بالصفات على أساس التنزيه، أخذا بقوله تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**(٣).

---

(١) الآية ٨٥ من سورة البقرة

(٢) الآية ١١ من سورة لشورى

(٣) انظر: منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص ٢١- ٢٢

أما أهل التعطيل: فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات التي لا وجود لها إلا في أفهامهم الفاسدة، فعقيدة هؤلاء المعطلة جمعت بين التمثيل والتعطيل، وهذا الشر إنما جاء من تنجس قلوبهم وتدنسها بأقذار التشبيه، فإذا سمعوا صفة من صفات الكمال التي أثنى الله بها على نفسه كاستوائه على عرشه ومجيئه يوم القيامة وغير ذلك من صفات الجلال والكمال، فإن أول ما يخطر في أذهانهم أن هذه الصفة تشبه صفات الخلق، فيتلطخ القلب بأقذار التشبيه لم يقدر الله حق قدره ولم يعظم الله حق عظمته حيث سبق إلى ذهنه أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فيكون أولًا نجس القلب بأقذار التشبيه ثم دعاه ذلك إلى أن ينفي صفة الخالق جلَّ وعلا عنه بادعاء أنها تشبه صفات المخلوق، فيكون فيها أولًا مشبهًا، وثانيًا معطلًا ضالًا ابتداءً وانتهاءً متهجمًا على رب العالمين ينفي صفاته عنه بادعاء أن تلك الصفة لا تليق(١).

وأما عقيدة أهل التمثيل: فهي تقوم على دعواهم أن الله ﷻ لا يخاطبنا إلا بما نعقل، فإذا أخبرنا عن اليد فنحن لا نعقل إلا هذه اليد الجارحة، فشبهوا صفات الخالق بصفات المخلوقين، فقالوا: له يد كيدي، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وأمَّا العارفون به، المصدقون لرسله، المقرون بكماله فهم يثبتون لله جميع صفاته، وينفون عنه مشابهة المخلوقات، فيجمعون بين الإثبات ونفي التشبيه، وبين التنزيه وعدم التعطيل، فمذهبهم حسنة بين سيئتين، وهدًى بين ضلالتين.

وأما الأساس الثالث: ففيه تمييز لعقيدة أهل السنة عن عقيدة المشبهة، فأهل السنة يفوضون علم كيفية اتصاف الباري ﷻ بتلك الصفات إلى الله ﷻ،

---

(١) انظر: منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص ١٩- ٢٠

فلا علم للبشر بكيفية ذات الله- تبارك وتعالى (ولا تفسير كنه شيء من صفات ربنا تعالى كأن يقال استوى على هيئة كذا، وكل من تجرأ على شيء من ذلك فقوله من الغلو في الدين والافتراء على الله ﷻ، واعتقاد ما لم يأذن به الله ولا يليق بجلاله وعظمته ولم ينطق به كتاب ولا سنة، ولو كان ذلك مطلوبًا من العباد في الشريعة لبينه الله تعالى ورسوله ﷺ، فهو لم يدع ما بالمسلمين إليه حاجة إلا بينه ووضحه، والعباد لا يعلمون عن الله تعالى إلا ما علمهم كما قال تعالى: {**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**}فليؤمن العبد بما علمه الله تعالى وليقف معه، وليمسك عما جهله وليكل معناه إلى عالمه)(١).

وأما المشبهة فقد تعمقوا في شأن كيفيات صفات الله وتقولوا على الله بغير علم، فقالوا: له بصر كبصري، ويد كيدي،، وقدم كقدمي، تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

توضيح الأسس الثلاثة

١ - الأساس الأول: الإيمان بما وردت به نصوص القرآن والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته إثباتا ونفيا.

وهذا الأساس لابد فيه من مراعاة ما يلي:

أولًا: إن طلب العلم في المطالب الإلهية إنما يكون عن طريق الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة.

فالذي يجب اعتقاده هو أن معرفة هذا النوع من أنواع التوحيد تتوقف على دراسة الكتاب والسنة، لأن هذا التوحيد يتطلب، أسماء وصفات معينة، وهذه لا سبيل إلى معرفتها والحصول عليها إلا من طريق الكتاب والسنة (فنحن نؤمن بالله تعالى وبما أخبر به عن نفسه سبحانه على ألسنة رسله من أسمائه الحسنى

---

(١) انظر: معارج القبول ١/ ٣٢٦- ٣٢٧

وصفاته العلى بلا تكييف ولا تمثيل، وننفي عنه ما نفاه عن نفسه مما لا يليق بجلاله وعظمته، فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا وأبين دليلًا من غيره)[١]، ولذلك كان معتقد أهل السنة هو الإيمان بما سمى ووصف الله به نفسه إثباتًا ونفيًا، لأنه لا يسمي الله أعلم بالله من الله، قال تعالى: {**أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ**}، وقال تعالى: {**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا**}، وقال تعالى: {**وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**}، وقال تعالى: {**فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**}، فالله ﷻ، هو الذي سمى ووصف نفسه بما جاء في نص كلامه الذي هو القرآن.

ولا يسمي ويصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ، الذي قال الله في حقه: {**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**}، ولقد جاءت رسالة النبي ﷺ بإثبات الصفات إثباتًا مفصلًا على وجه ثلجت به الصدور واطمأنت به القلوب، واستقر الإيمان في نصابه، وفصلت ذلك أعظم من تفصيل الأمر والنهي، وقررته أكمل تقرير في أبلغ لفظ، ولذلك كان لزامًا على كل مسلم أن يؤمن بأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان.

ثانيًا: تقديم الشرع على العقل، فالأصل في الدين الاتباع والمعقول تبع. فمعتقد أهل السنة في هذا الباب وفي غيره من أبواب العقائد والأحكام أن العقل المجرد ليس له إثبات شيء من العقائد والأحكام، وإنما المرجع في ذلك إلى القرآن والسنة.

فالعقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه الله تعالى من الأسماء والصفات فوجب الوقوف في ذلك على النص، لأن العقل يقصر عن إدراك حقيقة المغيبات حتى وإن كانت تلك المغيبات أقرب شيء إليه، فهو قاصر عن أن يحيط علمًا بحقيقة روحه التي بين جنبيه لما أخفى الله أمرها عنه، قال تعالى: {**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ**

---

(١) معارج القبول ١/ ٣٣٠- ٣٣١

الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}، فإذا كان الإنسان يجهل أمر روحه فكيف يحيط علمًا بذات الله وما يصلح وما لا يصلح لذاته من الأسماء والصفات، والله قد أخفى عن الخلق كيفية ذاته؟!.

(ونحن إذا تدبرنا عامة ما جاء في أمر الدين من ذكر صفات الله، وما تعبد الناس باعتقاده من ذكر عذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، والحوض، والميزان، والصراط، وصفة الجنة وصفة النار، وجدناها أمورًا لا ندرك حقائقها بعقولنا، وإنما ورد الأمر بقبولها والإيمان بها، فإذا سمعنا شيئا من أمور الدين، وعقلناه، وفهمناه، فلله الحمد في ذلك، والشكر ومنه التوفيق، وما لم يمكنَّا إدراكه ولم تبلغه عقولنا آمنا به، وصدقناه، واعتقدنا أن هذا من قبل ربوبيته وقدرته، واكتفينا في ذلك بعلمه، ومشيئته، قال تعالى: **{وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}**)[١].

(واعلم أن فصل ما بيننا وبين المعطلة هو "مسألة العقل"، فإنهم أسسوا دينهم على المعقول، وجعلوا الاتباع والمأثور تبعًا للمعقول.

وأما أهل السنة فقالوا: الأصل في الدين الإتباع، والمعقول تبع، ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي، وعن الأنبياء، ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء)[٢].

فالتقرير بأن النقل مقدم على العقل لا ينبغي أن يفهم منه أن أهل السنة ينكرون العقل والتوصل به إلى المعارف والتفكير به في خلق السموات والأرض، وفي الآيات الكونية الكثيرة، فأهل السنة لا ينكرون استعمال العقل، ولكتهم توسطوا في شأن "العقل" بين طائفتين ضلتا في هذا الباب، هما:

أهل الكلام: الذين يجعلون العقل وحده أصل علمهم، ويفردونه،

---

(١) الحجة في بيان المحجة ١/ ٣٢١ بتصرف

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٢٠

ويجعلون الإيمان والقرآن تابعين له، والمعقولات عندهم هي الأصول الكلية الأولية، المستغنية بنفسها عن الإيمان والقرآن.

فهؤلاء جعلوا عقولهم هي التي تثبت وتنفي والسمع معروضا عليها، فإن وافقها قيل اعتضادًا لا اعتمادًا، وإن عارضها رُدَّ وطُرِحَ، وهذا من أعظم أسباب الضلال التي دخلت على هذه الأمة.

وأهل التصوف: الذين يذمون العقل ويعيبونه، ويرون أن الأحوال العالية، والمقامات الرفيعة، لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذب صريح العقل.

ويمدحون السكر والجنون والوله، وأمورًا من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز، كما يصدقون بأمور يعلم بالعقل الصريح بطلانها. وكلا الطرفين مذموم.

وأما أهل السنة: فيرون أن العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، لكنه ليس مستقلًا بذلك.

فالعقل غريزة في النفس، وقوة فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين.

فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن، كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس أو النار.

وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها.

وإن عزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أمورًا حيوانية.

فالأحوال الحاصلة، مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة، والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، ولم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه(١).

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٣٨- ٣٣٩ بتصرف

ثالثًا: الإيمان بما دلت عليه نصوص الأسماء والصفات من المعاني والأحكام.

فالسلف يؤمنون بأسماء الله وصفاته، وبما دلت عليه من المعاني والأحكام، أما كيفيتها فيفوضون علمها إلى الله.

وهم برآء مما اتهمهم به المعطلة الذين زعموا أن السلف يؤمنون، بألفاظ نصوص الأسماء والصفات، ويفوضون معانيها.

وهذا الزعم جهل على السلف، فإنهم كانوا أعظم الناس فهما وتدبرًا لآيات الكتاب وأحاديث النبي ﷺ، خاصة فيما يتعلق بمعرفة الله تعالى، فكانوا يدرون معاني ما يقرأون ويحملون من العلم، ولكنهم لم يكونوا يتكلفون الفهم للغيب المحجوب، فلم يكونوا يخوضون في كيفيات الصفات شأن أهل الكلام والبدع، فإنهم حين خاضوا في ذات الله وصفاته وقعوا في التأويل والتعطيل، وإنما ألجأهم إلى ذلك، الضيق الذي دخل عليهم بسبب التشبيه، فأرادوا الفرار منه فوقعوا في التعطيل،، ولم يقع تعطيل إلا بتشبيه، ولو أنهم نزهوا الله تعالى ابتداء عن مشابهة الخلق، وأثبتوا الصفة مع نفي المماثلة لسلموا ونجوا، ولوافقوا اعتقاد السلف ولبان لهم أن السلف لم يكونوا حملة أسفار لا يدرون ما فيها.

ومن تدبر كلام أئمة السلف المشاهير في هذا الباب علم أنهم كانوا أدق الناس نظرًا، وأعلم الناس في هذا الباب، وأن الذين خالفوهم لم يفهموا حقيقة أقوال السلف والأئمة، ولذلك صار أولئك الذين خالفوا مختلفين في الكتاب، مخالفين للكتاب، وقد قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**﴾.

ومن له اطلاع على أقوال الأسف المدونة في كتب العقيدة والتفسير والحديث عند الحديث عن نصوص الصفات يعلم أن السلف تكلموا في معاني

الصفات وبينوها ولم يسكتوا عنها، وهذه الأقوال هي أكبر شاهد على فهم السلف لمعاني الصفات وإيمانهم بها.

رابعًا: رفض التحريف والتعطيل لنصوص الأسماء والصفات.

فالسلف يعتقدون أن الواجب في نصوص القرآن والسنة بما في ذلك نصوص الأسماء والصفات هو إجراؤها على ظاهرها، وذلك بأن تُفهتم وفق ما يقتضيه اللسان العربي، وأن لا يتعرض لها بتحريف أو تعطيل كما فعل المعطلة، الذين تلاعبوا بظواهر النصوص ! لمجرد أنها خالفت باطلهم ومناهجهم الفاسدة(١).

فنصوص الصفات ألفاظ شرعية يجب أن تحفظ لها حرمتها، وذلك بأن نفهمها وفق مراد الشارع، فلا نتلاعب بمعانيها لنصرفها عن مراد الشارع.

فمن الأصول الكلية عند السلف أن الألفاظ الشرعية لها حرمتها، ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد الله ورسوله بها ليثبت ما أثبته الله ورسوله من المعاني، وينفى ما نفاه الله ورسوله من المعاني(٢).

وبحمد الله وفضله نجد أن نصوص الصفات الواردة في القرآن والسنة هي من الوضوح والكثرة بمكان، بحيث يستحيل تأويلها والتلاعب بنصوصها، فلقد جاءت رسالة النبي ﷺ بإثبات الصفات إثباتًا مفصَّلًا على وجه أزال الشبهة وكشف الغطاء، وحصل به العلم اليقيني، ورفع الشك والريب، فثلجت به الصدور، واطمأنت به القلوب، واستقر الإيمان في نصابه، فلقد فصلت رسالة نبينا محمد ﷺ الأسماء والصفات والأفعال أعظم من تفصيل الأمر والنهي، وقررت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٢/ ٣٠١

(٢) مجموع الفتاوى ١٢/ ١١٣- ١١٤ بتصرف

فالمطلع على نصوص القرآن والسنة الخبير بهما، لا يزيده تحريف المعطلة لتلك النصوص إلا احتقارًا لهم، ويقينًا بفساد معتقدهم وبطلانه.

ولا تروج تحريفات المعطلة إلا على الجاهل بمعرفة تلك النصوص قليل البضاعة فيها، فهذا الصنف! أتي من جهة جهله لا من قلة النصوص الواردة في هذا الباب، والله أعلم.

وأما الأساس الثاني وهو

تنزيه الله جل وعلا أن يماثل شيء من صفاته شيئا من صفات المخلوقين

فتوضيحه يكون وفق ما يلي:

أولًا: ا لأدلة الشرعية الواردة في تنزيه، الله عن مشابهة المخلوقين:

١- قال تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}**.

٢- وقال تعالى.: **{فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ}**.

٣- وقال تعالى: **{وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}**.

٤- وقال تعالى: **{وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}**.

٥- وقال تعالى: **{هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}**.

٦- وقال تعالى: **{قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}**.

٧- وقال تعالى: **{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}**.

وجه دلالة الآيات:

١- قوله ﷻ: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}**: دليل على أن الله منزه عن أن يكون له مثل في شيء مما يوصف به من صفات كماله[1].

والآية في تفسيرها وجهان:

الأول: أن يكون معناه: ليس هو كشيء، وأدخل "المثل "في الكلام توكيدًا

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦/ ٩٨

للكلام.

والثاني: أن يكون معناها: ليس مثله شيء، فتكون "الكاف" هي المدخلة في الكلام توكيدًا[١] وهذا وجه قوي حسن وهو الأظهر[٢].

وقد اتفق أهل السنة على أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله[٣].

٢- وقوله تعالى: **{فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ}**:

قال ابن جرير الطبري في تفسيرها: "فلا تمثلوا لله الأمثال، ولا تشبهوا له الأشباه، فإنه لا مثل ولا شبه"[٤].

وقال ابن كثير: "أي لا تجعلوا له أندادًا وأشباهًا وأمثالًا"[٥].

٣- وقوله تعالى: **{لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}**.

٤- وقوله تعالى: **{وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**.

(فالله تعالى وصف نفسه بأن له المثل الأعلى، وهو الكمال المطلق، المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية، التي كلّما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان بها أكمل وأعلى من غيره.

ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى أكثر وأكمل، كان له المثل الأعلى وكان أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق

---

(١) تفسير الطبري ٢٥/ ١٢- ١٣

(٢) شرح الطحاوية ص ١٤٦

(٣) شرح الطحاوية ص ٩٩

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ١٤٨

(٥) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٨

اثنان، لأنهما إن تكافآ من كل وجه، لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ، فالموصوف به أحدهما وحده، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير، وهذا برهان قاطع على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة)(١).

٥- وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: روي عن ابن عباس في تفسيرها قوله: هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهًا(٢).

وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن جريج وغيرهم(٣).

٦- وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾: فالأحد يقتضي أنه لا مثل له ولا نظير.

٧- وكذا قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فالوحدانية تقتضي الكمال، والشركة تقتضي النقص(٤).

ثانيًا: دلالة العقل على بطلان.شبيه صفات الخالق بصفات المخلوقين:

١- القول في الصفات كالقول في الذات، فإن الله ليس كمثله شي لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل صفات سائر الذوات(٥).

فقد علم بالضرورة أن بين الخالق والمخلوق تباينًا في الذات، وهذا يستلزم أن يكون بينهما تباين في الصفات، لأن صفة كل موصوف تليق به كما هو ظاهر من صفات المخلوقين المتباينة في الذوات، فقوة البعير مثلاً غير قوة الذرة، فإذا

---

(١) الصواعق المنزلة ٣/ ١٠٣٢، وشرح الطحاوية ص ١٤٤

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ١٠٦

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ١٠٦، وتفسير ابن كثير ٣/ ١٣١

(٤) مجموع الفتاوى ١٦/ ٩٩

(٥) لرسالة التدمرية ص ٤٣

ظهر التباين بين المخلوقات مع اشتراكهما في الإمكان والحدوث، فظهور التباين بينهما وبين الخالق أجلى وأقوى[١].

وبهذا نعلم أن الله لا مثل له، ولا تضرب له الأمثال، التي فيها مماثلة لخلقه، بل له المثل الأعلى.

٢- أن يقال: كيف يكون الرب الخالق الكامل من جميع الوجوه مشابهًا في صفاته للمخلوق المربوب الناقص المفتقر إلى من يكمله، وهل اعتقاد ذلك إلا تنقص لحق الخالق، فإن تشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصًا[٢].

٣- (إذا كان المخلوق منزهًا عن مماثلة المخلوق، مع الموافقة في الاسم، فالخالق أولى أن ينزه عن مماثلة المخلوق وإن حصلت موافقة في الاسم)[٣].

(فإن الله سبحانه وتعالى أخبرنا عما في الجنة من المخلوقات، من أصناف المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والمساكن، فأخبرنا أن فيها لبنًا وعسلًا وخمرًا وماءً ولحمًا وفاكهةً وحريرًا وذهبًا وفضةً وحورًا وقصورًا.

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء".

فإذا كانت تلك الحقائق التي أخبر الله عنها، هي موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا، وليست مماثلة لها بل بينهما من التباين ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فالخالق سبحانه وتعالى أعظم مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق، ومباينته لمخلوقاته أعظم من مباينة موجود الآخرة لموجود الدنيا، إذ المخلوق أقرب إلى المخلوق الموافق له في الاسم من الخالق إلى المخلوق،

---

(١) القواعد المثلى ص ٢٦

(٢) القواعد المثلى ص ٢٦

(٣) الرسالة التدمرية ص ٥٠

وهذا بين واضح[١].

ثالثًا: الاتفاق في الاسم لا يلزم منه تماثل المسمى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الله سبحانه وتعالى سمى نفسه وصفاته بأسماء وسمى بها بعض المخلوقات.

فسمى نفسه حيًّا عليمًا سميعًا بصيرًا عزيزًا جبارًا متكبرًا ملكًا رؤوفًا رحيمًا.

وسمَّى بعض عباده عليمًا، وبعضهم حليمًا، وبعضهم رؤوفًا رحيمًا، وبعضهم سميعًا بصيرًا، وبعضهم ملكًا، وبعضهم عزيزًا، وبعضهم جبارًا متكبرًا.

ومعلوم أنه ليس العليم كالعليم، ولا الحليم كالحليم، ولا السميع كالسميع، وهكذا في سائر أسماء الله.

قال سبحانه وتعالى: **{إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}**. وقال: **{وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}**.

وقال: **{إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}**، وقال: **{فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ}**. وقال: **{إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ}**. وقال: **{بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ}**. وقال. **{إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}**.

وقال تعالى: **{فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}**.

وكذلك سائر ما ذكر، لكن الإنسان يعتبر بما عرفه على ما لم يعرفه، ولولا ذلك لانسدت عليه طرق المعارف للأمور الغائبة، فإن الإنسان يعلم أنه حي عليم قدير سميع بصير متكلم فيتوصل بذلك إلى أن يفهم ما أخبر الله به عن نفسه من أنه حي عليم قدير سميع بصير، فإنه لولا تصوره لهذه المعاني من نفسه ونظره إليها لم يمكن أن يفهم ما غاب عنه، كما أنه لولا تصوره لما في الدنيا من العسل واللبن والماء والخمر والحرير والذهب والفضة لما أمكنه أن يتصور ما

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧

أخبر به من ذلك من الغيب، لكن لا يلزم أن يكون الغيب مثل الشهادة، فقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء"، فإن هذه الحقائق التي أخبر بها أنها في الجنة ليست مماثلة لهذه الموجودات في الدنيا بحيث يجوز على هذه ما يجوز على تلك، ويجب لها ما يجب لها، ويمتنع ما يمتنع عليها، ويكون مادتها مادتها ويستحيل استحالتها، فإنا نعلم أن ماء الجنة لا يفسد ولا يأسن، ولبنها لا يتغير طعمه، وخمرها لا يصدع شاربها ولا ينزف عقله، فإن ماءها ليس نابعًا من تراب ولا نازلًا من سحاب مثل ما في الدنيا، ولبنها ليس مخلوقًا من أنعام كما في الدنيا وأمثال ذلك.

فإذا كان المخلوق يوافق ذلك المخلوق في الاسم وبينهما قدر مشترك وتشابه فعلم به معنى ما خوطبنا به، مع أن الحقيقة ليست مثل الحقيقة.

فالخالق جل جلاله أبعد عن مماثلة مخلوقاته مما في الجنة لما في الدنيا، فإذا وصف نفسه بأنه حي عليم سميع بصير قدير لم يلزم أن يكون مماثلًا لخلقه، إذ كان بعدها عن مماثلة خلقه أعظم من بعد مماثلة كل مخلوق لكل مخلوق، وكل واحد من صغار الحيوان له حياة وقوة وعمل وليست مماثلة للملائكة المخلوقين، فكيف يماثل رب العالمين شيئًا من المخلوقين"[1].

رابعًا: توضيح المسألة من جهة اللغة ثم الشرع

يشكل على البعض كون الله سمى نفسه بصفات وسمى عباده بنظير ذلك، فيتردد عند ذلك هل يثبت تلك الصفات لله حقيقة أم لا؟.

فمن أجل توضيح هذه المسألة أقول: اعلم وفقك الله أن الألفاظ منها:

١- ما هو مترادف: هو ما اختلف لفظه واتحد معناه.

---

(١) رسالة في العقل والروح لابن تيمية ٢/ ٤٢- ٤٣ (مطبوعة ضمن المجموعة المنيرية) بتصرف

مثال ذلك: الليث- الأسد- أسامة- الغضنفر.

هذه ألفاظ مختلفة والمسمى بها واحد، فتسمى الألفاظ المترادفة.

٢- ما هو مشترك: وهو ما اتحد لفظه واختلف معناه.

مثال ذلك: لفظ: "العين ":

فهي تطلق على العين الباصرة- والعين الجارية- والجاسوس- والحسد. فاللفظ واحد والمعاني مختلفة، وهذه تسمى الألفاظ المشتركة.

٣- ما هو متباين: وهو ما اختلف لفظه ومعناه:

مثال ذلك: السماء والأرض- والجنة والنار.

فلكل لفظ من هذه الألفاظ معنى يختلف عن الآخر، فهذه تسمى الألفاظ المتباينة.

٤- ما هو متواطيء: وهو ما اتفق لفظه ومعناه، وهو نوعان:

الأول: التواطؤ المطلق: وذلك إذا كان المعنى متساويًا في الجميع.

مثاله: لفظ "الرجل" يقال: زيد رجل وعمر رجل، فالمعنى متساو في الجميع.

الثاني: التواطؤ المشكِّك: وذلك إذا كان المعنى متفاوتا متفاضلًا، وسمي بالمشكك لتشكك السامع هل هذا اللفظ من قبيل المتواطيء أم من المشترك؟.

مثاله: لفظ " النور" فيقال: نور الشمس ونور السراج، فالمعنى في الاثنين واحد، ولكن هناك تفاوت وتفاضل، فشتان بين نور الشمس ونور السراج(١).

فالأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد هي من الألفاظ المتواطئة التواطؤ المشكك، فالحق فيها هو أن يقال إنه بالنسبة للأسماء والصفات التي تطلق على الله وعلى العباد كالحي، والسميع، والبصير، والعليم، والقدير، والحياة،

---

(١) التحفة المهدية ٢٠٩ بتصرف

والسمع، والبصر، والعلم ونحوها هي حقيقة في الرب وحقيقة في العبد.

ولكن للرب تعالى منها ما يليق بجلاله.

وللعبد منها ما يليق به.

وذلك لأن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاثة اعتبارات:

الاعتبار الأول: اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد.

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا إلى الرب مختصًّا به.

الاعتبار الثالث: اعتباره مضافًا إلى العبد كل مقيدًا به.

فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به.

وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات.

والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات.

والعليم والقدير وسائر الأسماء.

فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها فإثباتها للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل يثبت له على وجه لايماثله فيه خلقه ولا يشابههم.

فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه وجحد صفات كماله، ومن أثبته على وجه لا يماثل فيه خلقه به، كما يليق بجلاله وعظمته فقد بريء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك، وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم علوَّه من

احتياجه إلى ما هو عال عليه وكونه محمولًا به، مفتقرًا إليه، محاطا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى.

وما لزم الصفة من جهة اختصاصه تعالى بها فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم، وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق.

فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرًا وعقلتها كما ينبغي خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين:

١- آفة التعطيل. ٢- وآفة التشبيه.

فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم، فخلصت من التشبيه، فتدبر هذا الموضع واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب)[1].

ومن كلام شيخ الإسلام في هذا الموضوع قوله: "سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء، وكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره".

وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم، توافق تلك الأسماء إذا قطعت من الإضافة والتخصيص.

ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتماثل مسماهما واتحاده - عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص- اتفاقهما، ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص فضلًا عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص.

فقد سمى الله نفسه حيًّا فقال: **{اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}**.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٦٤، ١٦٦

وسمى بعض عباده حيًّا فقال: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}.

وليس هذا الحي مثل هذا الحي.

لأن قوله: "الحي" اسم لله مختص به.

وقوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} اسم للحي المخلوق مختص به.

وإنما يتفقان إذا أطلقا وجردا عن التخصيص، ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج، ولكن العقل يفهم من المطلق قدرًا مشتركًا بين المسميين.

وعند الاختصاص: يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق.

ولابد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته.

يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق.

وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى.

وكذلك سمى الله نفسه: {عَلِيمًا حَكِيمًا} وسمى بعض عباده حليمًا {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ}، يعني إسماعيل، وسمى آخر عليمًا، فقال: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} يعني إسحاق، وليس العليم كالعليم، ولا الحليم كالحليم.

وسمى نفسه سميعًا بصيرًا {إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} وسمى بعض عباده سميعًا بصيرًا فقال: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} وليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير...".

(وكذلك سمى صفاته بأسماء، وسمى صفات عباده بنظير ذلك، فقال: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}، {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ}، وقال: {إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}، {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً}، وسمى

صفة المخلوق علمًا وقوة: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}، {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}، وقال: {فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}، وقال: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً}، وقال: {وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ}، وليس العليم كالعلم ولا القوة كالقوة.

ووصف نفسه بأنه استوى على عرشه، فذكر ذلك في سبعة مواضع من كتابه أنه استوى على العرش.

ووصف بعض خلقه بالاستواء على غيره في مثل قوله: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ}، وقوله: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ}.

قوله: {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}، وليس الاستواء كالاستواء.

ووصف نفسه ببسط اليدين فقال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}.

ووصف بعض خلقه ببسط اليد في قوله: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}، وليس اليد كاليد، ولا البسط كالبسط، وإذا كان المراد بالبسط الإعطاء والجود فليس إعطاء الله كإعطاء خلقه، ولا جوده كجودهم، ونظائر هذا كثيرة.

فلا بد من إثبات ما أثبته الله لنفسه ونفي ماثلته لخلقه.

فمن قال: ليس لله علم، ولا قوة، ولا رحمة، ولا كلام، ولا يحب، ولا يرضى، ولا نادى، ولا ناجى، ولا استوى- كان معطلًا جاحدًا ممثلًا له بالمعدومات والجمادات.

ومن قال: له علم كعلمي أو قوة كقوتي، أو حب كحبي، أو رضاء كرضائي، أو يدان كيداي، أو استواء كاستوائي- كان مشبهًا ممثلًا لله بالحيوانات، بل لا بد من إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل)[1]

---

(١) الرسالة التدمرية ص ٨- ١٢ بتصرف

خامسًا: فصل ما بين معتقد أهل السنة في هذا الأساس ومعتقد أهل التعطيل وأهل التمثيل

قال شارح الطحاوية: "اتفق أهل السنة على أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

ولكن لفظ "التشبيه" قد صار في كلام الناس لفظًا مجملًا يراد به:

١- المعنى الصحيح: من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته، وهذا ما دل عليه القرآن، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فهذا رد على الممثلة المشبهة.

فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوقين فهو المشبه المبطل المذموم، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى في كفرهم.

٢- المعنى المردود: أن يراد به أنه لا يثبت لله شيء من الصفات فلا يقال: له قدرة، ولا علم، ولا حياة، لأن العبد موصوف بهذه الصفات ولازم هذا القول إنه لا يقال له: حي، عليم، قدير، لأن العبد يسمى بهذه الأسماء، وكذلك كلامه وسمعه وبصره وإرادته وغير ذلك[1].

وأصل الخطأ والغلط توهمهم أن هذه الأسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتا في هذا المعين وهذا المعين، وليس كذلك، فإن ما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقًا كليًّا، بل لا يوجد إلا معينًا مختصًّا.

وهذه الأسماء إذا سُمي الله بها كان مسمَّاها معينا مختصا به.

فإذا سُمي بها العبد كان مسماها مختصًّا به.

فوجود الله وحياته لا يشاركه فيها غيره، بل وجود هذا الموجود المعين لا

---

(١) شرح الطحاوية ص ٩٩ بتصرف

يشركه فيه غيره، فكيف بوجود الخالق؟

وبهذا ومثله يتبين لك أن المشبهة أخذوا هذا المعنى فزادوا فيه على الحق فضلوا.

وأن المعطلة أخذوا نفى المماثلة بوجه من الوجوه وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا.

وأن كتاب الله دل على الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصحيحة، وهو الحق المعتدل الذي لا انحراف فيه[(١)].

الأساس الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله بصفاته

وتوضيح هذا الأساس يتم بما يلي:

أولًا: إن الله لم يطلع الخلق على ذاته ولم يكلفهم معرفة ذاته.

لم يشأ الله ﷻ أن يجعل للعباد من سبيل إلى معرفة كيفية وكنه صفاته، فقد سد سبحانه الطرق الموصلة إلى ذلك، فهو من جهة لم يطلع الخلق على ذاته، فهذا باب موصود إلى قيام الساعة كما جاء في الحديث: "تعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا".

ومن جهة ثانية لم يخبرنا الله ﷻ بكيفية وكنه صفاته في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، فما وردت به النصوص إنما هو إثبات وجود لتلك الصفات لا إثبات كيفية.

ومن جهة ثالثة فإن الله لم يكلف العباد معرفة كيفية صفاته، ولم يتعبدهم بذلك ولا أراده منهم، بل قصرهم على الإيمان بما أخبرهم به، فالواجب عليهم أن يؤمنوا الإيمان الصحيح بما كلفوا به، وأن لا يتجاوزوا حدود ذلك.

وقد ورد النص في وجوب قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية صفات الله،

---

(١) شرح الطحاوية ص ١٠٤ بتصرف

فإدراك ذلك مستحيل، قال تعالى: {**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**}.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إدراك حقيقة الكيفية مستحيل، وهذا ما نص عليه في هذه الآية من سورة طه، فقوله: {**يُحِيطُونَ بِهِ**} فعل مضارع منفي، والفعل الصناعي الذي يسمى (بالفعل المضارع، وفعل الأمر، والفعل الماضي) ينحل عند النحويين عن مصدر وزمن، فالمصدر كامن في مفهومه إجماعًا، فيحيطون في مفهومها (الإحاطة) فيتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل فيكون معه كالنكرة المبنية على الفتح، فيصير المعنى: لا إحاطة للعلم البشري برب السموات والأرض، فينفى جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها، فالإحاطة المسندة منفية (للخلق) عن رب العالمين"[(١)].

ثانيًا: قصور العقل عن معرفة كيفية صفات الله.

إن على العقل أن ييأس من تعرف كنه الصفات وكيفياتها لعجزه عن معرفة ذلك، لأن الشيء لا تعرف كيفية صفاته إلا بعد العلم بكيفية ذاته، أو العلم بنظيره المساوي له، أو بالخبر الصادق، وكل هذه الطرق منتفية في كيفية صفات الله، فوجب بطلان تكييفها.

وعلم الإنسان محدود كما أخبر الله بذلك، حيث قال: {**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**}، وقال تعالى: {**وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**}.

وإذا كانت نفس الإنسان التي هي أقرب الأشياء إليه بل هي هويته، لا يعرف الإنسان كيفيتها ولا يحيط علمًا بحقيقتها، فالخالق جل جلاله أولى أن لا يعلم العبد كيفيته ولا يحيط علمًا بحقيقته[(٢)].

---

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص ٢٤

(٢) رسالة في الحقل والروح لابن تيمية ٢/ ٤٤ "مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل =

وقد أدب الله عباده المؤمنين ووجههم بأن لا يخوضوا في أمور لا علم لهم بها، فقال: **{وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا}**.

وقال تعالى: **{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}**.

ومن المعلوم أنه لا علم لنا بكيفية صفاته ﷻ، لأنه تعالى أخبرنا عنها، ولم يخبرنا عن كيفيتها، فيكون تعمقنا، في أمر الكيفية قفوًا لما ليس لنا به علم، وقولًا بما لا يمكننا الإحاطة به، ومخالفة لما نهانا الله وحذرنا منه، وحرمه علينا.

فيجب الكف عن التكييف تقديرًا بالجنان أو تقريرًا باللسان، أو تحريرًا بالبنان، لأن أية كيفية تقدرها الأذهان فالله أعظم وأجل من ذلك، ثم هي في الوقت ذاته ستكون كذبًا، لأنه لا علم لقائلها بذلك[١]. ولهذا نقل أصحاب المقالات عن بعض المشبهة - الذين خاضوا في كيفية صفات الله- أنه قال في ربه في عام واحد خمسة أقاويل[٢]، وصدق الله إذ قال في كتابه العزيز: **{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا}**.

فعلى المسلم أن يحذر من التكييف أو محاولته، فإن من فعل ذلك فقد وقع في مفاوز لا يستطيع الخلاص منها، فالخوض في ذلك هو مما يلقيه الشيطان في القلوب، وهو نزغة من نزغاته، فلذلك يجب على المؤمن أن يلجأ إلى ربه ويستعيذ به من نزغات الشيطان، قال تعالى: **{وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ**

=
المنيرية"

(١) القواعد المثلى ص ٢٧- ٢٨

(٢) مقالات الإسلاميين ص ٣٣

فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

ثالثًا: معنى قول السلف: "بلا كيف".

إن معنى قول السلف "بلا كيف" أي بلا كيف يعقله البشر، فليس المراد من قولهم "بلا كيف" هو نفي الكيف مطلقًا، فإن كل شيء لابد أن يكون على كيفية ما، ولكن المراد هو نفي العلم بالكيف، إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه(١)، فهذا مما استأثر الله بعلمه فلا سبيل إلى الوصول إليه، فكما أن ذات الله لا يمكن للبشر معرفة كيفيتها، فكذلك صفاته سبحانه لا نعلم كيفيتها. ولهذا لما سئل الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ فقيل له: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** كيف استوى؟

قال رَحِمَهُ اللهُ: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ثم قال للسائل: وما أراك إلا رجل سوء، وأمر بإخراجه من مجلسه.

وقد روى عن شيخه ربيعة بن عبد الرحمن قوله: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول" أي لا تعقله العقول ولا تحيط به.

وهذا يقال في سائر الصفات، وقد مشى أهل العلم على هذا الميزان واعتبروا ذلك قاعدة من قواعد الصفات.

فقول الإمام مالك (الاستواء معلوم): أي معلوم المعنى في لغة العرب، فاستوى هنا عديت بعلى فهي هنا بمعنى علا وارتفع، وهكذا الأمر في سائر نصوص الصفات، فإن معانيها معروفة في لغة العرب، وليست مجهولة.

(والكيف مجهول): أي مع إثباتهم لمعنى الاستواء واعتقادهم بأن الله مستوٍ على عرشه ومرتفع عليه، إلا أنهم يكلون علم كيفية ذلك الاستواء إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، لأنه مما استأثر الله بعلمه.

---

(١) شرح العقيدة الواسطية للهراس

(والإيمان به واجب): أي الإيمان باستواء الله على عرشه حقيقة واجب لوروده في النصوص الشرعية.

(والسؤال عنه بدعة): أي السؤال عن كيفية الاستواء، لأن السائل قال: كيف استوى؟

رابعًا: عدم معرفة الكيفية لا يقدح في الإيمان بالصفات ومعرفة معانيها.

إن عدم العلم بكيفية صفات الله لا يقدح في الإيمان بتلك الصفات ومعرفة معانيها، لأن الكيفية وراء ذلك، فالسلف يثبتون لله ما أثبته لنفسه من صفات الكمال ويفهمون معاني تلك الصفات، ويفسرونها، فإذا أثبتوا لله السمع والبصر أثبتوهما حقيقية وفهموا معناهما، وهكذا سائر الصفات يجب أن تجري هذا المجرى، وإن كان لا سبيل لنا إلى معرفة كنهها وكيفيتها، فإن الله سبحانه لم يكلف العباد ذلك ولا أراده منهم ولم يجعل لهم إليه سبيلًا.

وكثير من المخلوقات لم يجعل الله للعباد سبيلًا إلى معرفة كنهها وكيفيتها، فهذه أرواح الخلائق التي هي أدنى إليهم من كل دان قد حجب عنهم معرفة كنهها وكيفيتها، وقد أخبرنا الله عن تفاصيل يوم القيامة وما في الجنة والنار، فقامت حقائق ذلك في قلوب أهل الإيمان وشاهدته عقولهم ولم يعرفوا كيفيته وكنهه، فلا يشك المسلمون أن في الجنة أنهارًا من خمر وأنهارًا من عسل، ولكن لا يعرفون كنه ذلك ومادته وكيفيته كما قال ابن عباس: "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء".

فكذا الأسماء والصفات لا يمنع انتفاء نظيرها في الدنيا من فهم معانيها وحقائقها والإيمان بذلك واعتقاد اتصاف الله بها[1].

(١) مدارج السالكين ٣/ ٣٥٨

فإيماننا صحيح بحق ما كلفنا به، وإن لم نعرف حقيقة ماهيته وكيفيته، والله أعلم.

وهذه الأسس الثلاثة يجب الأخذ بها جميعًا، ولا يجوز الإخلال بشيء منها، فهذا ما كان عليه معتقد السلف من هذه الأمة ومن سار على نهجهم.

وهم بهذا توسطوا في هذا الباب بين طائفتين ضلتا في هذا الباب هما:

١- المعطلة. ٢- المشبهة.

فمعتقد السلف هو الإثبات بلا تشبيه، والتنزيه بلا تعطيل، فهم لا ينفون عن الله ما سمى أو وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، فيعطلوا أسماءه الحسنى وصفاته العلى ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويلحدوا في أسمائه وآياته كما فعل المعطلة، كما أنهم لا يشبهون صفات الله بصفات خلقه كما فعل المشبهة.

(باب دلالات الأسماء والصفات ومعانيها)

الاسم: (هو ما دل على معنى في نفسه)، و(أسماء الأشياء هي الألفاظ الدالة عليها)، (وقيل: الاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل).

الصفة: (هي الاسم الدال على بعض أحوال الذات وهي الأمارة اللازمة بذات الموصوف الذي يُعرف بها)، (وهي ما وقع الوصف مشتقًا منها، وهو دالٌ عليها، وذلك مثل العلم والقدرة ونحوه).

وقال ابن فارس: (الصفة: الأمارة اللازمة للشيء)، وقال: (النعت: وصفك الشيء بما فيه من حسن).

الفرق بين الاسم والصفة

سُئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالسعودية عن الفرق بين

الاسم والصفة؟ فأجابت بما يلي:

(أسماء الله كل ما دل على ذات الله مع صفات الكمال القائمة به؛ مثل: القادر، العليم، الحكيم، السميع، البصير؛ فإن هذه الأسماء دلَّت على ذات الله، وعلى ما قام بها من العلم والحكمة والسمع والبصر، أما الصفات؛ فهي نعوت الكمال القائمة بالذات؛ كالعلم والحكمة والسمع والبصر؛ فالاسم دل على أمرين، والصفة دلت على أمر واحد، ويقال: الاسم متضمن للصفة، والصفة مستلزمة للاسم).

ولمعرفة ما يُميِّز الاسم عن الصفة، والصفة عن الاسم أمور، منها:

أولًا: (أن الأسماء يشتق منها صفات، أما الصفات؛ فلا يشتق منها أسماء، فنشتق من أسماء الله الرحيم والقادر والعظيم، صفات الرحمة والقدرة والعظمة، لكن لا نشتق من صفات الإرادة والمجيء والمكر اسم المريد والجائي والماكر)

فأسماؤه سبحانه وتعالى أوصاف

كما قال ابن القيم في (النونية):

أسماؤُهُ أَوْصافُ مَدْحٍ كُلُّها ... مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِّلَتْ لِمَعانِ

ثانيًا: (أن الاسم لا يُشتق من أفعال الله؛ فلا نشتق من كونه يحب ويكره ويغضب اسم المحب والكاره والغاضب، أما صفاته؛ فتشتق من أفعاله فنثبت له صفة المحبة والكره والغضب ونحوها من تلك الأفعال، لذلك قيل: باب الصفات أوسع من باب الأسماء).

ثالثًا: أن أسماء الله ﷻ وصفاته تشترك في الاستعاذة بها والحلف بها، لكن تختلف في التعبد والدعاء، فيتعبد الله بأسمائه، فنقول: عبدالكريم، وعبد الرحمن، وعبد العزيز، لكن لا يُتعبد بصفاته؛ فلا نقول: عبد الكرم، وعبد

الرحمة، وعبد العزة؛ كما أنه يُدعى اللهُ بأسمائه، فنقول: يا رحيم! ارحمنا، ويا كريم! أكرمنا، ويا لطيف! ألطف بنا، لكن لا ندعو صفاته فنقول: يا رحمة الله! ارحمينا، أو: يا كرم الله! أو: يا لطف الله! ذلك أن الصفة ليست هي الموصوف؛ فالرحمة ليست هي الله، بل هي صفةٌ لله، وكذلك العزة، وغيرها؛ فهذه صفات لله، وليست هي الله، ولا يجوز التعبد إلا لله، ولا يجوز دعاء إلا الله؛ لقوله تعالى: {يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ [غافر: ٦٠] وغيرها من الآيات

(باب عقيدة الأئمة الأربعة في الأسماء والصفات)

أولا: الإمام أبو حنيفة النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١) قال الإمام أبو حنيفة: لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف، وهو قول أهل السنة والجماعة، وهو يغضب ويرضى ولا يقال: غضبه عقوبته، ورضاه ثوابه. ونصفه كما وصف نفسه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولك يكن له كفوا أحد، حي قادر سميع بصير عالم، يد الله فوق أيديهم، ليست كأيدي خلقه، ووجهه ليس كوجوه خلقه.} [الفقه الأبسط ص٥٦]

٢) قال الإمام أبو حنيفة: وله يد ووجه ونفس كما ذكره الله تعالى في القرآن، فما ذكره الله تعالى في القرآن، من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال: إن يده قدرته أو نعمته؛ لأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال...} [الفقه الأكبر ص٣٠٢]

٣) قال البزدوي: العلم نوعان علم التوحيد والصفات، وعلم الشرائع والأحكام. والأصل في النوع الأول هو التمسك بالكتاب والسنة ومجانبة الهوى والبدعة ولزوم طريق السنة والجماعة، وهو الذي عليه أدركنا مشايخنا وكان

على ذلك سلفنا أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد وعامة أصحابهم. وقد صنف أبو حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذلك كتاب الفقه الأكبر، وذكر فيه إثبات الصفات وإثبات تقدير الخير والشر من الله. [أصول البزدوي ص٣، كشف الأسرار عن أصول البزدوي ج١ ص٧، ٨]

٤) قال الإمام أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء، بل يصفه بما وصف به نفسه، ولا يقول فيه برأيه شيئا تبارك الله تعالى رب العالمين. [شرح العقيدة الطحاوية ج٢ ص٤٢٧ تحقيق د. التركي وجلاء العينين ص٣٦٨]

٥) سئل الإمام أبو حنيفة عن النزول الإلهي، فقال: ينزل بلا كيف. [عقيدة السلف أصحاب الحديث ص٤٢، الأسماء والصفات للبيهقي ص٤٥٦، وسكت عليه الكوثري، شرح الطحاوية ص٢٤٥، شرح الفقه الأكبر للقاري ص٦٠].

٦) قال الملا على القاري بعد ذكره قول الإمام مالك: "الاستواء معلوم والكيف مجهول...": اختاره إمامنا الأعظم - أي أبو حنيفة - وكذا كل ما ورد من الآيات والأحاديث المتشابهات من ذكر اليد والعين والوجه ونحوها من الصفات. فمعاني الصفات كلها معلومة وأما كيفيتها فغير معقولة؛ إذ تعقل الكيف فرع العلم لكيفية الذات وكنهها. فإذا كان ذلك غير معلوم؛ فكيف يعقل لهم كيفية الصفات. والعصمة النافعة من هذا الباب أن يصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل يثبت له الأسماء والصفات وينفي عنه مشابهة المخلوقات، فيكون إثباتك منزها عن التشبيه، ونفيك منزها عن التعطيل. فمن نفى حقيقة الاستواء فهو معطل ومن شبهه باستواء المخلوقات على المخلوق فهو مشبه، ومن قال

استواء ليس كمثله شيء فهو الموحد المنزه. [مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج٨ ص٢٥١]

٧) قال الإمام أبو حنيفة: ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته لأن فيه إبطال صفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال.} [الفقه الأكبر ص٣٠٢]

٨) قال الإمام أبو حنيفة: وهو يغضب ويرضى ولا يقال غضبه عقوبته ورضاه ثوابه.} [الفقه الأبسط ص٥٦، وسكت عليه محقق الكتاب الكوثري]

٩) قال الألوسي الحنفي: أنت تعلم أن طريقة كثير من العلماء الأعلام وأساطين الإسلام الإمساك عن التأويل مطلقا مع نفي التشبيه والتجسيم. منهم الإمام أبو حنيفة، والإمام مالك، والإمام أحمد، والإمام الشافعي، ومحمد بن الحسن، وسعد بن معاذ المروزي، وعبد الله بن المبارك، وأبو معاذ خالد بن سليمان صاحب سفيان الثوري، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن إسماعيل البخاري، والترمذي، وأبو داود السجستاني.. [روح المعاني ج٦ ص١٥٦]

١٠) قال الإمام أبو حنيفة: ولا يشبه شيئا من الأشياء من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه، لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته...} [الفقه الأكبر ص٣٠١]

١١) قال الإمام أبو حنيفة: وصفاته بخلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويسمع لا كسمعنا، ويتكلم لا ككلامنا...} [الفقه الأكبر ص٣٠٢]

١٢) قال الإمام أبو حنيفة: لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين.} [الفقه الأبسط ص٥٦]

١٣) قال الإمام أبو حنيفة: وصفاته الذاتية والفعلية: أما الذاتية فالحياة والقدرة والعلم والكلام والسمع والبصر والإرادة، وأما الفعلية فالتخليق والترزيق والإنشاء والإبداع والصنع وغير ذلك من صفات الفعل لم يزل ولا

يزال بأسمائه وصفاته.} [الفقه الأكبر ص٣٠١]

١٤) قال الإمام أبو حنيفة: ولم يزل فاعلا بفعله، والفعل صفة في الأزل، والفاعل هو الله تعالى، والفعل صفة في الأزل والمفعول مخلوق وفعل الله تعالى غير مخلوق.} [الفقه الأكبر ص٣٠١]

١٥) قال الإمام أبو حنيفة: من قال لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقد كفر، وكذا من قال إنه على العرش، ولا أدري العرش أفي السماء أم في الأرض.} [الفقه الأبسط ص٤٩، مجموع الفتاوى لابن تيمية ج٥ ص٤٨، اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٣٩، العلو للذهبي ص١٠١، ١٠٢، العلو لابن قدامة ص١١٦، شرح الطحاوية لابن أبي العز ص٣٠١]

١٦) قال الإمام أبو حنيفة للمرأة التي سألته أين إلهك الذي تعبده؟ قال: إن الله سبحانه وتعالى في السماء دون الأرض، فقال رجل: أرأيت قول الله تعالى: {وهو معكم} [سورة الحديد: الآية ٤] قال: هو كما تكتب للرجل إني معك وأنت غائب عنه.} [الأسماء والصفات ص٤٢٩]

١٧) قال الإمام أبو حنيفة: والقرآن غير مخلوق.} [الفقه الأكبر ص٣٠١]

١٨) قال الإمام أبو حنيفة: ونقر بأن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق.} [الجواهر المنفية في شرح وصية الإمام ص١٠]

١٩) قال الإمام أبو حنيفة: ونقر بأن الله تعالى على العرش استوى من غير أن يكون له حاجة. [شرح الوصية ص١٠]

ثانيا: الإمام مالك رضي الله عنه.

١) سئل مالك عن الكلام والتوحيد؛ فقال مالك: محال أن يظن بالنبي ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء، ولم يعلمهم التوحيد، والتوحيد ما قاله النبي - ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. فما عصم به المال والدم حقيقة

التوحيد. [ذم الكلام ق - ٢١٠]

٢) عن وليد بن مسلم قال: سألت مالكا، والثوري، والأوزاعي، والليث بن سعد عن الأخبار في الصفات؛ فقالوا أمروها كما جاءت.} [الصفات للدارقطني ص٧٥، الشريعة للآجري ص٣١٤، الأعتقاد للبيهقي ص١١٨، التمهيد لابن عبد البر ج٧ ص١٤٩]

٣) قال ابن عبد البر: سئل مالك أيرى الله يوم القيامة؟ فقال: نعم يقول الله ﷻ: {وجوه يومئذ ناضرة {٢٢} إلى ربها ناظرة} [سورة القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] وقال لقوم آخرين: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} [سورة المطففين: الآية ١٥].} [الانتقاء ص٣٦]

٤) عن ابن نافع، وأشهب، وأحدهما قال: يزيد على الآخر: يا أبا عبد الله: {وجوه يومئذ ناضرة {٢٢} إلى ربها ناظرة} [سورة القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣]، ينظرون إلى الله؟ قال: نعم بأعينهم هاتين؛ فقلت له: فإن قوما يقولون: لا ينظر إلى الله، إن {ناظرة} بمعنى منتظرة الثواب. قال: كذبوا بل ينظر إلى الله أما سمعت قول موسى عليه السلام: {رب أرني أنظر إليك} [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] أفترى موسى سأل ربه محالا؟ فقال الله: {لن تراني} [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] أي في الدنيا لأنها دار فناء ولا ينظر ما يبقى بما يفنى فإذا صاروا إلى دار البقاء نظروا بما يبقى إلى ما يبقى وقال الله: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} [سورة المطففين: الآية ١٥]. [ترتيب المدارك للقاضي عياض ج٢ ص٤٢]

٥) عن جعفر بن عبد الله قال: كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله، {الرحمن على العرش استوى} [سورة طه: الآية ٥] كيف استوى؟ فما وجد - جاء في لسان العرب ج٣ ص٤٤٦: وجد عليه في الغضب يجد وجدا

وموجدة ووجدانا غضب، وفي حديث الإيمان، إني سائلك فلا تجد علي أي لا تغضب من سؤالي - مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض، وجعل ينكت بعود في يده علاه الرحضاء - يعني العرق - ثم رفع رأسه ورمى بالعود، وقال: الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأخرج.} [الحلية لابي نعيم ج٦ ص٣٢٥، عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ص١٧-١٨، التمهيد ج٧ ص١٥١، الأسماء والصفات للبيهقي ص٤٠٧، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ج١٣ ص٤٠٦، ٤٠٧: إسناده جيد. وصححه الذهبي في العلو ص١٠٣]

٦) عن يحيى بن الربيع قال: كنت عند مالك ابن أنس، ودخل عليه رجل فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول فيمن يقول القرآن مخلوق؟ فقال مالك: زنديق فاقتلوه. فقال: يا أبا عبد الله، إنما أحكي كلاما سمعته. فقال: لم أسمعه من أحد، إنما سمعته منك، وعظم هذا القول.} [الحلية لابي نعيم ج٦ ص٣٢٥، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ج١ ص٢٤٩، ترتيب المدارك للقاضي عياض ج٢ ص٤٤]

٧) عن عبد الله بن نافع قال: كان مالك بن أنس يقول: من قال القرآن مخلوق، يوجع ضربا، ويحبس حتى يتوب.} [الانتقاء ص٣٥]

٨) عن عبد الله بن نافع قال: قال مالك: الله في السماء، وعلمه في كل مكان. [مسائل الإمام أحمد لأبي داود ص٢٦٣، السنة لعبد الله بن أحمد ص١١ (الطبعة القديمة)، التمهيد لابن عبد البر ج٧ ص١٣٨]

ثالثا: الإمام الشافعي رضي الله عنه.

١) عن الربيع بن سليمان قال: قال الشافعي: من حلف بالله، أو باسم من

أسمائه، فحنث؛ فعليه الكفارة. ومن حلف بشيء غير الله، مثل أن يقول الرجل: والكعبة، وأبي، وكذا وكذا ما كان، فحنث؛ فلا كفارة عليه. ومثل ذلك قوله: لعمري.. لا كفارة عليه. ويمين بغير الله فهي مكروهة، منهي عنها من قبل قول الرسول - ﷺ: إن الله ﷻ نهاكم أن تحلفوا بأبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليسكت. [مناقب الشافعي ج١ ص٤٠٥] وعلل الشافعي ذلك بأن أسماء الله غير مخلوقة؛ فمن حلف باسم الله، فحنث؛ فعليه الكفارة. [آداب الشافعي لابن أبي حاتم ص١٩٣، الحلية لابي نعيم ج٩ ص١١٢، السنن الكبرى للبيهقي ج١٠ ص٢٨، الأسماء والصفات للبيهقي ص٢٥٥، ٢٥٦، شرح السنة للبغوي ج١ ص١٨٨، والعلو للذهبي ص١٢١، ومختصره للألباني ص٧٧]

٢) عن الشافعي أنه قال: القول في السنة التي أنا عليها، ورأيت أصحابنا عليها، أهل الحديث الذين رأيتهم، وأخذت عنهم مثل سفيان، ومالك، وغيرهما: الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن الله تعالى على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء، وأن الله تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كيف شاء. [اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٦٥، إثبات صفة العلو ص١٢٤، مجموع الفتاوى ج٤ ص١٨١ - ١٨٣، والعلو للذهبي ص١٢٠، ومختصره للألباني ص١٧٦]

٣) عن المزني قال: قلت إن كان أحد يخرج ما في ضميري، وما تعلق به خاطري من أمر التوحيد؛ فالشافعي، فصرت إليه وهو في مسجد مصر، فلما جثوت بين يديه، قلت: هجس في ضميري مسألة في التوحيد، فعلمت أن أحدا لا يعلم علمك، فما الذي عندك؟ فغضب ثم قال: أتدري أين أنت؟ قلت: نعم. قال: هذا الموضع الذي أغرق الله فيه فرعون، أبلغك أن رسول الله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك؟ قلت: لا، قال: هل تكلم فيه الصحابة؟ قلت: لا، قال:

أتدري كم نجما في السماء؟ قلت: لا، قال: فكوكب منها تعرف جنسه، طلوعه، أفوله، مم خلق؟ قلت: لا، قال: فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه تتكلم في علم خالقه؟ ثم سألني عن مسألة في الوضوء فأخطأت فيها، ففرعها على أربعة أوجه، فلم أصب في شيء منه، فقال: شيء تحتاج إليه في اليوم خمس مرات؛ تدع علمه وتتكلف علم الخالق إذا هجس في ضميرك ذلك. فارجع إلى قول الله تعالى: {وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم {١٦٣} إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع} [سورة البقرة: الآيتان ١٦٣، ١٦٤] فاستدل بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلف على ما لم يبلغه عقلك. [سير أعلام النبلاء ج١٠ ص٣١]

٤) عن يونس بن عبد الأعلى، قال: سمعت الشافعي يقول: إذا سمعت الرجل يقول الاسم غير المسمى، أو الشيء غير الشيء، فاشهد عليه بالزندقة.} [الانتقاء ص٧٩، مجموع الفتاوى ج٦ ص١٨٧]

٥) قال الشافعي في كتابه الرسالة: والحمد لله... الذي هو كما وصف به نفسه، وفوق ما يصفه به خلقه.} [الرسالة ص٧، ٨]

٦) عن الشافعي إنه قال: نثبت هذه الصفات التي جاء بها القرآن، ووردت بها السنة، وننفي التشبيه عنه، كما نفى عن نفسه، فقال: {ليس كمثله شيء} [سورة الشورى: الآية ١١]} [السير للذهبي ج٢٠ ص٣٤١]

٧) عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول في قول الله ﷻ: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} [سورة المطففين: الآية ١٥] أعلمنا بذلك أن ثم قوما غير محجوبين، ينظرون إليه، لا يضامون في رؤيته.} [الانتقاء ص٧٩]

٨) عن الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد ابن إدريس الشافعي، جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قوله تعالى: {كلا إنهم عن ربهم يومئذ

لمحجوبون} [سورة المطففين: الآية ١٥] قال الشافعي: فلما حجبوا هؤلاء في السخط؛ كان هذا دليلا على أنه يرنه في الرضا. قال الربيع: قلت يا أبا عبد الله وبه تقول؟ قال: نعم به أدين الله. [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ج٢ ص٥٠٦]

٩) عن الجارودي قال: ذكر عند الشافعي، إبراهيم بن إسماعيل بن علية [قال عنه الذهبي: جهمي هالك كان يناظر ويقول بخلق القرآن. ميزان الاعتدال ج١ ص٢٠، وانظر ترجمته في لسان الميزان ج١ ص٣٤، ٣٥] فقال: أنا مخالف له في كل شيء، وفي قوله لا إله إلا الله، لست أقول كما يقول. أنا أقول: لا إله إلا الله الذي كلم موسى عليه السلام تكليما من وراء حجاب، وذاك يقول لا إله إلا الله الذي خلق كلاما أسمعه موسى من وراء حجاب.} [الانتقاء ص٧٩، والقصة ذكرها الحافظ عن مناقب الشافعي للبيهقي، اللسان ج١ ص٣٥]

١٠) عن الربيع بن سليمان، قال الشافعي: من قال القرآن مخلوق؛ فهو كافر. [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ج١ ص٢٥٢]

١١) عن أبي محمد الزبيري قال: قال رجل للشافعي، أخبرني عن القرآن خالق هو؟ قال الشافعي: اللهم لا، قال: فمخلوق؟ قال الشافعي: اللهم لا. قال: فغير مخلوق؟ قال الشافعي: اللهم نعم، قال: فما الدليل على أنه غير مخلوق؟ فرفع الشافعي رأسه وقال: تقر بأن القرآن كلام الله؟ قال: نعم. قال الشافعي: سبقت في هذه الكلمة، قال الله تعالى ذكره: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله} [سورة التوبة: الآية ٦] {وكلم الله موسى تكليما} [سورة النساء: الآية ١٦٤] قال الشافعي: فتقر بأن الله كان، وكان كلامه؟ أو كان الله، ولم يكن كلامه؟ فقال الرجل: بل كان الله، وكان كلامه. قال: فتبسم الشافعي وقال: يا كوفيون إنكم لتأتوني بعظيم من القول إذا كنتم تقرون بأن الله

كان قبل القبل، وكان كلامه. فمن أين لكم الكلام: إن الكلام الله، أو سوى الله، أو غير الله، أو دون الله؟ قال: فسكت الرجل وخرج. [مناقب الشافعي ج١ ص٤٠٧، ٤٠٨]

١٢) وفي جزء الاعتقاد المنسوب للشافعي - من رواية أبي طالب العشاري - ما نصه قال: وقد سئل عن صفات الله ﷻ، وما ينبغي أن يؤمن به، فقال: لله تبارك وتعالى أسماء وصفات، جاء بها كتابه وخبر بها نبيه ﷺ أمته، لا يسع أحدا من خلق الله ﷻ قامت لديه الحجة أن القرآن نزل به، وصح عنده قول النبي ﷺ فيما روى عنه، العدل خلافه، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه، فهو كافر بالله ﷻ. فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر؛ فمعذور بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل، ولا بالدراية والفكر. ونحو ذلك إخبار الله عو وجل أنه سميع وأن لد يدين بقوله ﷻ: {بل يداه مبسوطتان} [سورة المائدة: الآية ٦٤] وأن له يمينا بقوله ﷻ: {والسماوات مطويات بيمينه} [سورة الزمر: الآية ٦٧] وأن له وجها بقوله ﷻ: {كل شيء هالك إلا وجهه} [سورة القصص: الآية ٨٨] وقوله: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} [سورة الرحمن: الآية ٢٧] وأن له قدما بقوله - ﷺ: "حتى يضع الرب ﷻ فيها قدمه." يعني جهنم؛ لقوله ﷺ للذي قتل في سبيل الله ﷻ أنه: "لقي الله ﷻ وهو يضحك إليه." وأنه يهبط كل ليلة إلى السماء الدنيا، بخبر رسول الله ﷺ بذلك، وأنه ليس بأعور لقوله النبي ﷺ إذ ذكر الدجال فقال: "إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور"، وأن المؤمنين يرون ربهم ﷻ يوم القيامة بأبصارهم كما يرون القمر ليلة البدر، وأن له إصبعا بقوله - ﷺ: "ما من قلب إلا هو بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ" وإن هذه المعاني التي وصف الله ﷻ بها نفسه، ووصفه بها رسول الله ﷺ لا تدرك حقيقتها تلك بالفكر والدراية، ولا يكفر بجهلها أحد إلا بعد انتهاء الخبر

إليه به، وإن كان الوارد بذلك خبرا يقول في الفهم مقام المشاهدة في السماع؛ وجبت الدينونة على سامعه بحقيقته والشهادة عليه، كما عاين وسمع من رسول الله - ﷺ، ولكن نثبت هذه الصفات، وننفي التشبيه كما نفى ذلك عن نفسه تعالى ذكره فقال: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [سورة الشورى: الآية ١١]... آخر الاعتقاد. [ذم التأويل لابن قدامة ص١٢٤، الطبقات لابن أبي يعلى ج١ ص٢٨٣، اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٦٥، السير للذهبي ج١٠ ص٧٩]

رابعا: الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

١) إن الإمام أحمد سئل عن التوكل، فقال: قطع الاستشراف بالإياس من الخلق. [طبقات الحنابلة ج١ ص٤١٦]

٢) قال الإمام أحمد: لم يزل الله عَزَّ وَجَلَّ متكلما، والقرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، غير مخلوق، وعلى كل جهة، ولا يوصف الله بشيء أكثر مما وصف به نفسه، عَزَّ وَجَلَّ. [كتاب المحنة لحنبل ص٦٨]

٣) عن أبي بكر المروذي قال: سألت أحمد بن حنبل عن الأحاديث التي تردها الجهمية في الصفات والرؤية والإسراء وقصة العرش فصححها، وقال: تلقتها الأمة بالقبول وتمر الأخبار كما جاءت. [مناقب الشافعي لابن أبي حاتم ص١٨٢]

٤) قال عبد الله بن أحمد: إن أحمد قال: من زعم أن الله لا يتكلم فهو كافر، إلا أننا نروي هذه الأحاديث كما جاءت. [طبقات الحنابلة ج١ ص٥٦]

٥) عن حنبل أنه سأل الإمام أحمد عن الرؤية فقال: أحاديث صحاح، نؤمن بها، ونقر، وكل ما روي عن النبي ﷺ بأسانيد جيدة نؤمن به ونقر. [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ج٢ ص٥٠٧، السنة ص٧١]

٦) أورد ابن الجوزي في المناقب كتاب أحمد بن حنبل لمسدد وفيه: صفوا الله بما وصف به نفسه، وانفوا عن الله ما نفاه عن نفسه... [سير أعلام النبلاء ج١٠ ص٥٩١، تهذيب التهذيب ج١٠ ص١٠٧]

٧) قال الإمام أحمد: وزعم - جهم بن صفوان - أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه، أو حدث عنه رسوله كان كافرا وكان من المشبهة. [مناقب الإمام أحمد ص٢٢١]

٨) قال الإمام أحمد: نحن نؤمن بأن الله على العرش، كيف شاء، وكما شاء، بلا حد، ولا صفة يبلغها واصف أو يحده أحد؛ فصفات الله منه وله، وهو كما وصف نفسه، لا تدركه الأبصار. [درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ج٢ ص٣٠]

٩) قال الإمام أحمد: من زعم أن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر مكذب بالقرآن. [طبقات الحنابلة ج١ ص٥٩، ١٤٥]

١٠) عن عبد الله بن أحمد، قال: سألت أبي عن قوم يقولون: لما كلم الله موسى، لم يتكلم بصوت فقال أبي: تكلم الله بصوت، وهذه الأحاديث نرويها كما جاءت. [طبقات الحنابلة ج١ ص١٨٥]

١١) عن عبدوس بن مالك العطار، قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: ... والقرآن كلام الله، وليس بمخلوق، ولا تضعف أن تقول ليس بمخلوق؛ فإن كلام الله منه، وليس منه شيء مخلوق. [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ج١ ص١٥٧.

* * *

الفهرس

❊ ❊ ❊

جامع المسائل العقدية

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

دار اللؤلؤة

الجزء الثالث

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(باب إثبات صفة المعية)

مسألة: ذكر آيات المعية

وردت صفة المعية في القرآن لمعنيين هما:

المعنى الأول: المعية العامة

وقد وردت في مواضع من القرآن الكريم وهي:

الموضع الأول: في سورة الحديد (الآية ٤) قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

الموضع الثاني: في سورة المجادلة (الآية ٧) قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

الموضع الثالث: في سورة النساء (الآية ١٠٨) قال تعالى: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا}

وهذا النوع من أنواع المعية المراد به أن الله مع جميع الخلق بعلمه فهو مطلع على خلقه شهيد عليهم وعالم بهم؛ وسميت عامة لأنها تعم جميع الخلق.

المعنى الثاني: المعية الخاصة

وقد وردت في القرآن الكريم في مواطن كثيرة أورد منها على سبيل المثال لا الحصر الآيات التالية: قال تعالى: {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}

الآية (١٢٨) من سورة النحل.وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} الآية (١٥٣) من سورة البقرة.وقال تعالى: {ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا} الآية (٤٠) من سورة التوبة. وهذه هي معية الإطلاع والنصرة والتأييد، وسميت خاصة لأنها تخص أنبياء الله وأولياءه دون غيرهم من الخلق.

ومما ورد في السنة بهذا الخصوص حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني"[1].

وبناءً على هذا التقسيم للمعية الوارد في النصوص، نص عدد من أهل العلم على ذلك في كتبهم وممن ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال: "ولفظ (مع) جائت في القرآن عامة وخاصة، فالعامة في هذه الآية (يقصد آية الحديد) وفي آية المجادلة فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم، ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان الثوري وأحمد بن حبل: هو معهم بعلمه.

وأما "المعية الخاصة" ففي قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} وقوله تعالى لموسى: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} وقال تعالى: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا} يعني النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه.فهو مع موسى وهارون دون فرعون، ومع محمد وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه. ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين"[2]

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:"... فمعية الله تعالى مع عبده نوعان عامة وخاصة وقد اشتمل القرآن على النوعين وليس ذلك بطريق الاشتراك اللفظي

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) .

(٢) مجموع الفتاوى ١١/ ٢٤٩-٢٥٠.

بل حقيقتها ما تقدم من الصحبة اللائقة"[١].

وقال في موضع آخر:"... فمن المعية الخاصة قوله: {إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}، {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}، {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}، {لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا}، ومن العامة {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}، وقوله: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} الآية"[٢].

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ: "ومعيته مع أهل طاعته خاصة فهو سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

فالمعية العامة تقتضي التحذير من علمه واطلاعه وقدرته وبطشه وانتقامه.

والمعية الخاصة تقتضي حسن الظن بإجابته ورضاه وحفظه وصيانته"[٣].

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ في شرح حديث "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني".

قال: "فيه تصريح بأن الله تعالى مع عباده عند ذكرهم له، ومن مقتضى ذلك أن ينظر إليه برحمته، ويمده بتوفيقه وتسديده، فإن قلت: هو مع جميع عباده كما قال سبحانه وتعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}، وقوله جلّ ذكره {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} الآية.

قلت: هذه معية عامة، وتلك معية خاصة حاصلة للذاكر على الخصوص بعد دخوله مع أهل المعية العامة، وذلك يقتضي مزيد العناية ووفور الإكرام له

---

(١) مختصر الصواعق ٢/ ٢٦٦.

(٢) مختصر الصواعق ٢/ ٢٦٦-٢٦٧.

(٣) فتح الباري لابن رجب ٢/ ٣٣٤.

والتفضل عليه، ومن هذه المعية الخاصة ما ورد في كتابه العزيز من كونه مع الصابرين، وكونه مع الذين اتقوا، وما ورد هذا المورد في الكتاب العزيز أو السنة، فلا منافاة بين إثبات المعية الخاصة وإثبات المعية العامة"[١].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ: "معية الله التي ذكرها في كتابه نوعان:

معية العلم والاحاطة وهي المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.

ومعية خاصة، وهي معيته مع خواص خلقه، بالنصرة والعطف والتأييد"[٢].

هذه بعض النقول أوردتها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر لأثبات أصالة هذا التقسيم وأخذ المحققين من العلماء به وهناك نقول أخرى عن جمع أخر من العلماء كلهم قالوا بهذا التقسيم للمعية تركتها خشية الإطالة وإنما أردت بهذا التنبيه على ورود هذا التقسيم في كلام أهل العلم.

مسألة: أقوال السلف في تفسير آيات المعية العامة

تتابع أهل السنة قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل على تفسير آيات المعية بأنها معية العلم والاطلاع، والنقول التي سأوردها في هذه المسألة شملت عددا من أعلام الأمة وأئمتها بما في ذلك القرون المفضلة، وأئمة الفقه والحديث والتفسير.

فكيف تطيب نفس مسلم إلى ترك أقوال هؤلاء إلى قول من يحتج بقوله.

وقد نقل غير واحد من أهل العلم إجماع علماء السلف على تفسيرهم لآيات المعية العامة بأن المراد بها معية العلم، وسأورد لك هنا ما وقفت عليه

---

(١) تحفة الذاكرين ص ١١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ١٤.

من آثار في تفسير تلك الآيات ليتضح لك حقيقة قولهم في المسألة.

والمقصود من إيراد هذا الكمِّ الكبير من الآثار هو تفنيد تلك الدعوى التي تمسك بها المخالفون لاعتقاد السلف في هذه المسألة ومسألة العلو ـ التي لها ارتباط وثيق بمسألة المعية ـ فأوردوا حولها دعوى هي أوهى من بيت العنكبوت، وهي زعمهم أن أيات المعية العامة المراد بها أن الله معنا بذاته في كل مكان تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرا.

وسيجد القارئ لهذا المطلب أن تفسيرهم ذاك لم يقل به أحد من السلف ولا الأئمة المعتبرين، بل ولا حتى جمع من قدماء الأشاعرة وعلى رأسهم أبو الحسن الأشعري الذي ينتسبون إليه، فالأشعري وقدماء أصحابه وافقوا السلف في تفسيرهم لآيات المعية العامة بأنها معية العلم والاطلاع.

فأصحاب هذه الدعوى مخصومون بما سنورده من آثار من أوجه عديدة.

منها أن هذا المدعي إن كان حمله تعصبه لمذهب معين أوطائفة معينة على ماقال، مثل أن ينتسب إلى أحد المذاهب الأربعة، أو العقيدة الأشعرية، فإن كان ممن ينتسب إلى أحد من أصحاب المذاهب الفقهية المتعارف عليها بين المسلمين فسيجد من النقول عن أولئك الأئمة وكبار تلاميذهم والعلماء المنتسبين إليهم ما يثبت له أنه مخالف لهم في الاعتقاد وإن كان يزعم أنه من أتباعهم في الفروع الفقهية، ومن ثَمَّ يدرك حقيقة الانفصال الواقع بين أئمة المذاهب الفقهية وتلاميذهم والأئمة المبرزين في مذاهبهم وبين المتأخرين ممن يزعمون أنهم من أتباعهم في الأساس وهوالمعتقد الذي هو أهم بكثير من تقليدهم في الفروع الفقهية فأين هذا الاتباع المزعوم؟!! ولو أن هؤلاء تجردوا من التعصب والهوى ونظروا بعين الحق والإنصاف لعلموا يقينا أنهم مخالفون

لهم لا أتباعا لهم.

وإن كان هذا المتعصب ينتسب إلى الأشعرية، فسيدرك من خلال ماأوردناه من آثار عن متقدمي الأشاعرة، أنهم لايوافقون المتأخرين على دعواهم، وأن تلك الدعوى إنما هي عقيدة باطلة تلقاها المتأخرون ـ الذين كانوا جهمية خلّص في هذا الباب ـ عن قدماء الجهمية والمعتزلة

فبعد ذلك لا تبقى حجة أو بالأحرى دعوى لمدع في التفسير الباطل الذي ذهبوا إليه وهذا أوان الشروع في إيراد الآثار وأولها:

١ - قول ابن عباس رضي الله عنه

أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} قال: "عالم بكم أينما كنتم"(١).

٢ - قول الضحاك بن مزاحم رحمه الله (بعد المائة)

عن مقاتل بن حيان عن الضحاك في قوله عز وجل: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ} قال: "هو فوق العرش وعلمه معهم أينما كانوا."(٢).

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧١.

(٢) ووصله كل من أحمد في السنة (ص٧١). وعنه أبو داود في المسائل (ص٢٦٣). وابن أبي حاتم كما في مجموع الفتاوى (٥/ ٤٩٥). وابن جرير في تفسيره (٢٨/ ١٢-١٣). وعبد الله بن أحمد في السنة ١/ ٣٠٤ رقم ٥٩٢، ورقم ٥٩٥. والآجري في الشريعة (٣/ ١٠٧٩، رقم٦٥٥). وابن بطة في الإبانة (-تتمة الرد على الجهمية-) (٣/ ١٥٢-١٥٣، برقم١٠٩). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٠٠، برقم٦٧٠) عن مقاتل. وابن أبي يعلى في الطبقات (١/ ٢٥٢). والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٤١-٣٤٢، رقم٩٠٩). وأورده ابن عبد البر في التمهيد ٧/ ١٣٩. وأورده ابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص١١٣). وابن تيمية في شرح حديث النزول (ص١٢٦).
=

٣- قول مقاتل بن حيان رحمه الله (قبل ١٥٠ هـ)

قال في قوله تعالى: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} قال: "هو على العرش ولا يخل شيء من علمه"(١).

٤- قول أبي حنيفة رحمه الله (١٥٠ هـ)

قال نعيم بن حماد: سمعت نوح بن أبي مريم يقول: كنا عند أبي حنيفة رحمه الله أول ما ظهر،(أي أمر الجهم بن صفوان) إذ جاءته امرأة من ترمذ كانت تجالس جهما، فدخلت الكوفة، فأظنني أقل ما رأيت عليها عشرة ألاف من الناس، تدعو إلى رأيها، فقيل لها إن رجلا هاهنا قد نظر في المعقول يقال له أبو حنيفة، فأتته وقالت: أنت الذي تعلم الناس المسائل وقد تركت دينك، أين إلهك الذي تعبده؟ فسكت عنها، ثم مكث سبعة أيام لا يجيبها، ثم خرج إلينا وقد وضعكتابا أن الله في السماء دون الأرض، فقال له رجل: أرأيت قول الله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ} قال: "هو كما تكتب إلى الرجل إني معك وأنت غائب عنه"(٢).

=

وأورده الذهبي في العلو (ص٩٨-٩٩) وقال: (أخرجه أبو أحمد العسال، وأبو عبد الله بن بطة، وأبو عمر بن عبد البر بإسناد جيد، ومقاتل ثقة إمام) اهـ، وفي العرش ٢/ ١٥٥ رقم ١٣٦، ١٣٧.

وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٣١، وص٢٥٧)، وأورده أيضًا كما في مختصر الصواعق (٢/ ١١٢) وقال: (وصح عن الضحاك).

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٠٠، برقم٦٧٠). وأورده الذهبي في العلو (ص١٠٢)، وفي الأربعين (ص٦٤، برقم٤٧)، وفي العرش ٢/ ١٨٤ رقم ١٥٩، ٢/ ١٩١ رقم ١٦٥.

(٢) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٨٣). وأورده الذهبي في العلو (ص١٠١)، وفي العرش ٢/ ١٧٤ رقم١٥١. وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٣٧-١٣٨)، وإسناده ضعيف جدا لأن نوح ابن أبي مريم كذاب

=

٥- قول سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٦١ هـ)

عن معدان، قال سألت سفيان الثوري عن قول الله عَزَّوَجَلَّ: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} قال: "علمه"[١].

٦- قول الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٧٩ هـ)

قال عبد الله بن أحمد حدثني أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال حدثنا سريج بن النعمان أخبرني عبد الله بن نافع قال: كان مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: "من قال القرآن مخلوق يوجع ضربًا ويحبس حتى يموت"، وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الله عَزَّوَجَلَّ في السماء، وعلمه في كل مكان" وتلا هذه الآية {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ} وعظم عليه الكلام في هذا واستشنعه[٢].

=

وضاع.

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص٨) . وأخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (١/ ٣٠٦-٣٠٧، ح٥٩٧) . والآجري في الشريعة (٣/ ١٠٧٨، برقم٦٥٤) . وابن بطة في الإبانة (-تتمة الرد على الجهمية -)، (٣/ ١٥٤-١٥٥، ح١١١) . واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٠١، ح٦٧٢) . والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٤١، رقم٩٠٨) . وابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٣٩) و(٧/ ١٤٢) . وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص١١٥-١١٦، برقم٩٤)، و(ص١١٣، برقم٨٩) .
وأورده الذهبي في العلو (ص١٠٣)، وفي الأربعين (ص٦٣-٦٤، برقم٤٦)، وفي سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٧٤)، وفي العرش ٢/ ١٨٣ رقم ١٥٨.

(٢) أخرجه أبو داود في مسائل الإمام أحمد (ص٢٦٣)، ط: دار المعرفة. وأخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (١/ ١٠٦-١٠٧، برقم١١، و١/ ٢٨٠، برقم٥٣٢) . والآجري في الشريعة (٣/ ١٠٧٦-١٠٧٧، برقم٦٥٢-٦٥٣) . وابن بطة في الإبانة (-تتمة الرد على الجهمية-)، (٣/ ١٥٣، ح١١٠) . وابن منده في التوحيد (٣/ ٣٠٧، برقم٨٩٣) .
واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٠١) .
وابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٣٨) . والقاضي عياض في ترتيب المدارك (٢/ ٤٣) .
=

٧- قول نعيم بن حماد الخزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٢٨ هـ)

قال أحمد بن منصور الرمادي سمعت نعيم بن حماد الخزاعي في قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ} : "أنه لا يخفى عليه خافية بعلمه، ألا ترى قوله: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} الآية، أراد أنه لا يخفى عليه خافية".

٨- قول علي بن المديني (٢٣٤ هـ)

سئل عن قوله تعالى: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} فقال: اقرأ ما قبله {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ}[1].

٩- قول إسحاق بن راهويه (٢٣٨ هـ)

قال حرب بن إسماعيل: قلت لإسحاق بن راهويه في قول الله {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} كيف تقول فيه؟ قال: "حيث ما كنت فهو أقرب إليك من حبل الوريد، وهو بائن من خلقه"[2].

=

وأورده ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ١٨٣)، وفي درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٦٢) ،وقال: (كل هذه الأسانيد صحيحة) وأورده الذهبي في العلو (ص١٠٣)، وفي سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠١)، وأورده في الأربعين في صفات رب العالمين (ص٥٩، برقم٣٩) و(ص٦٣، برقم٤٥)، وفي العرش ٢/ ١٧٨ رقم ١٥٥. وأورده ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢/ ٢١٣) وقال: (ذكره الطلمنكي وابن عبد البر وعبد الله بن أحمد وغيرهم) وصححه الألباني في مختصر العلو (ص١٤٠) .

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة (تتمة الرد على الجهمية)، (٣/ ١٤٦، برقم١٠٦) . وأورده الذهبي في العلو (ص١٢٦)، وفي سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦١١)، وفي الأربعين في صفات رب العالمين(ص٦٤، برقم٤٨)، وفي العرش ٢/ ٢٣٨ رقم ٢٠٨. وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٢١) . وقال الألباني في مختصر العلو (ص١٨٤): (السند صحيح) .

(٢) أورده الذهبي في العلو، انظر المختصر ص ١٨٨-١٨٩. وأورده ابن القيم في اجتماع

=

١٠- قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٤١ هـ)

قال أبو طالب سألت أحمد بن حنبل عن رجل قال: إن الله معنا، وتلا {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} . قال: "قد تجهم هذا، يأخذون بآخر الآية، ويدعون أولها هلا قرأت عليه {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ} فالعلم معهم، وقال في سورة (ق) {وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} فعلمه معهم"[١].

قال المروزي: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل، إن رجلا قال: أقول كما قال الله {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} ، أقول هذا ولا أجاوزه إلى غيره. فقال أبو عبد الله: "هذا كلام الجهمية". قلت: فكيف نقول؟ قال: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ}

علمه في كل مكان وعلمه معهم" ثم قال: "أول الآية يدل على أنه علمه"[٢].

قال حنبل: قلت لأبي عبد الله ما معنى قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ} ، و{مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} ؟. قال: "علمه محيط بالكل، وربنا على العرش بلا

=

الجيوش ص ٢٣٤.

(١) أورده ابن بطة في الإبانة (تتمة الرد على الجهمية)، (٣/ ١٦١، برقم١١٨) . أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء (١١/ ٣٧٠)، وفي العرش ٢/ ٢٤٥ رقم ٢١٧. وأورده في العلو (ص١٣١) وعزاه للخلال في السنة. وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٢٦)، وقال الألباني في مختصر العلو (١٩١، ح٢٣٣): (قلت: وأخرجه الهروي أيضا في ذم الكلام (٦/ ١٢٠/ ١) عن حرب به نحوه) .

(٢) رواه ابن بطة في الإبانة (تتمة الرد على الجهمية)، (٣/ ١٥٩-١٦٠، برقم١١٦) . وأورده بنحوه القاضي في إبطال التأويلات (٢/ ٢٨٩، برقم٢٨٦) . وأورده الذهبي في العلو (ص١٣٠)، وفي الأربعين (ص٦٤-٦٥، برقم٤٩) . وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٠٠-٢٠١) .

حد ولا صفة"[١].

قال أحمد بن جعفر الفارسي الإصطخري: قال أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل: "هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المتمسكين بعروقها، المعروفين بها المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها، فهو مبتدع خارج من الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق".

ثم ساق الإمام أحمد أقوالهم في العقيدة إلى أن قال: "وخلق سبع سموات بعضها فوق بعض، وسبع أراضين بعضها أسفل من بعض، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، والماء فوق السماء العليا السابعة، وعرش الرحمن عز وجل فوق الماء، والله عز وجل على العرش، والكرسي موضع قدميه، وهو يعلم ما في السموات والأرضين السبع وما بينهما، وما تحت الثرى، وما في قعر البحار، ومنبت كل شعرة وشجرة، وكل زرع وكل نبات، ومسقط كل ورقة، وعددكل كلمة، وعدد الحصى والرمل والتراب، ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم، ويعلم كل شيء، وهو على العرش فوق السماء السابعة، ودونه حجب من نور ونار وظلمة وما هو أعلم به.

فإن احتج مبتدع ومخالف بقول الله عز وجل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ

---

(١) رواه ابن بطة في الإبانة (تتمة الرد على الجهمية)، (٣/ ١٦٠-١٦١، برقم١١٧)، وأورده الذهبي في العلو (ص١٣٠)، وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٠١).

الْوَرِيدِ} وبقوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}

وبقوله: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} إلى قوله: {إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} ونحو هذا من متشابه القرآن فقل: إنما يعني بذلك العلم، لأن الله تعالى على العرش فوق السماء السابعة العليا ويعلم ذلك كله وهو بائن من خلقه لا يخلو من علمه مكان"[١].

١١- قول عبد الله بن مسلم بن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٧٦ هـ)

قال الإمام أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتاب "تأويل مختلف الحديث" له: "نحن نقول في قوله: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} إنه معهم يعلم ما هم عليه، كما تقول للرجل وجّهته إلى بلد شاسع، احذر التقصير فإني معك، تريد أنه لا يخفى عليَّ تقصيرك، وكيف يسوغ لأحد أن يقول: إنه سبحانه بكل مكان على الحلول فيه مع قوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ومع قوله: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} كيف يصعد إليه شيء هو معه، وكيف تعرج الملائكة إليه وهي معه، ولولا أن هؤلاء رجعوا إلى فطرهم، وما ركبت عليه خِلَقُهم من معرفة الخالق لعلموا أن الله هو العلي وهو الأعلى، وأن الأيدي ترتفع بالدعاء إليه، والأمم كلها عجميها وعربيها، تقول: إن الله في

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٠٢، برقم٦٧٥).
وأورده ابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص١١٦، برقم٩٥). وأورده الذهبي في العلو (ص١٣٠)، وفي الأربعين في صفات رب العالمين (ص٦٥، برقم ٥٠)، وفي العرش ٢/ ٢٤٥ رقم ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠وأورده ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ٤٩٦).
وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٢٠٠) وعزاه للالكائي.
وانظر مختصر الصواعق (٢/ ٢١٣)، وقال ابن القيم: (أراد أحمد بنفي الصفة نفي الكيفية والتشبيه، وبنفي الحد حد يدركه العباد ويحدونه) وانظر في مسألة الحد نقض تأسيس الجهمية (٢/ ١٦٢).

السماء. ما تركت على فطرها"[١].

١٢- قول الإمام الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٨٠ هـ)

قال في كتابه "الرد على الجهمية" باب -استواء الرب تبارك وتعالى على العرش، وارتفاعه إلى السماء وبينونته من الخلق-:

"فاحتج بعضهم فيه بكلمة زندقة استوحش من ذكرها وتستر آخر من زندقة صاحبه فقال: قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} قلنا: هذه الآية لنا عليكم لا لكم، إنما يعني أنه حاضر كل نجوى، ومع كل أحد من فوق العرش بعلمه، لأن علمه بهم محيط، وبصره فيهم نافذ، لا يحجبه شيء عن علمه وبصره، ولا يتوارون منه بشيء، وهو بكماله فوق العرش بائن من خلقه {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}، أقرب إلى أحدهم من فوق العرش من حبل الوريد، قادر على أن يكون له ذلك، لأنه لا يبعد عن شيء ولا يخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض، فهو كذلك رابعهم، وخامسهم، وسادسهم، لا أنه معهم بنفسه في الأرض كما ادعيتم، وكذلك فسرته العلماء.."[٢].

١٣- قول محمد بن عثمان بن أبي شيبة رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٩٧ هـ)

وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة، في كتاب "العرش" له: "ذكروا أن الجهمية يقولون: إن ليس بين الله وبين خلقه حجاب، وأنكروا العرش، وأن

---

(١) انظر كتاب تأويل مختلف الحديث (ص١٨٢-١٨٣) . والعرش للذهبي ٢/ ٢٧١ رقم ٢٣٦.

(٢) الرد على الجهمية ص ٢٦٨-٢٦٩ (ضمن عقائد السلف) .

يكون الله فوقه، وقالوا إنه في كل مكان" وذكر أشياء إلى أن قال: "فسرت العلماء {وَهُوَ مَعَكُمْ} يعني بعلمه، توافرت الأخبار أن الله خلق العرش فاستوى عليه بذاته فهو فوق العرش بذاته، متخلصا من خلقه بائنا منهم"(١).

١٤- قول محمد بن جرير الطبري رحمه الله (٣١٠ هـ)

قال في تفسير قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}: "يقول: هو شاهد لكم أيها الناس أينما كنتم، يعلمكم ويعلم أعمالكم ومتقلبكم ومثواكم، وهو على عرشه فوق سبع سمواته"(٢).

وقال في تفسير قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ...} الآية: "وعنى بقوله: {هُوَ رَابِعُهُمْ} بمعنى مشاهدهم بعلمه وهو على عرشه"(٣).

١٥- قول أبي الحسن الأشعري رحمه الله (٣٢٤ هـ)

قال في "رسالة إلى أهل الثغر""... وأنه يعلم السر وأخفى من السر، ولا يغيب عنه شيء في السموات والأرض حتى كأنه حاضر مع كل شيء، وقد دل الله عز وجل على ذلك في قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} وفسَّر ذلك أهل العلم بالتأويل أن علمه محيط بهم حيث كانوا"(٤).

١٦- قول أبي بكر الآجري رحمه الله (٣٦٠ هـ)

---

(١) انظر العرش لابن أبي شيبة.ص (٢٧٦-٢٩٢) وأورده الذهبي في العرش ٢/ ٢٦٤ رقم ٢٣٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٧/ ٢١٦

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢٨/ ١٢.

(٤) انظر رسالة إلى أهل الثغر ص ٢٣٤

قال الإمام أبو بكر الآجري الحافظ، في كتاب "الشريعة" له: - باب في التحذير من مذهب الحلولية -: "الذي يذهب إليه أهل العلم، أن الله ﷻ على عرشه، فوق سمواته، وعلمه محيط بكل شيء، قد أحاط علمه بجميع ما خلق في السموات العلى، وبجميع ما في سبع أراضين، يرفع إليه أعمال العباد.

فإن قال قائل: إيش يكون معنى قوله: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} الآية التي احتجوا بها؟. قيل له: علمه، والله ﷻ على عرشه، وعلمه محيط بهم، كذا فسره أهل العلم، والآية يدل أولها وآخرها على أنه العلم، وهو على عرشه، فهذا قول المسلمين"(١).

١٧ - قول ابن بطة العكبري(٢) رَحِمَهُ اللهُ (٣٨٧ هـ)

قال الإمام الزاهد أبو عبد الله بن بطة العكبري، في كتاب "الإبانة": - باب الإيمان بأن الله على عرشه، بائن من خلقه، وعلمه محيط بخلقه - أجمع المسلمون من الصحابة والتابعين، أن الله على عرشه، فوق سمواته، بائن من خلقه(٣).

فأما قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ}، فهو كما قالت العلماء: علمه.

وأما قوله: {وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} معناه: أنه هو الله في

---

(١) انظر الشريعة للآجري (٣/ ١٠٧٥-١٠٧٦) وانظر مختصر الصواعق (٢/ ٢١٤) وأورده الذهبي في العرش ٢/ ٣٠٩ رقم ٢٥٢.

(٢) عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العكبري أبو عبد الله، ابن بطة الحنبلي مصنف كتاب الإبانة المشهور، إمام قدوة عابد، فقيه محدث، مات سنة (٣٨٧هـ) وله أربع وثمانون سنة. طبقات الحنابلة (٢/ ١١٤)، السير (١٦/ ٥٢٩).

(٣) انظر الإبانة (تتمة الرد على الجهمية)، (٣/ ١٣٦)، وانظر مختصر الصواعق (٢/ ٢١٤).

السموات، وهو الله في الأرض، وتصديقه في كتاب الله ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، واحتج الجهمي بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، فقال: إن الله معنا وفينا، وقد فسر العلماء أن ذلك علمه، ثم قال في آخرها ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾"[١]

١٨- قول الثعلبي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٢٧ هـ)

قال في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾: "في العلم"[٢]

١٩- قول الإمام أبي عمر الطلمنكي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٢٩ هـ)

قال في كتابه "الوصول إلى علم الأصول": "وأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ونحو ذلك من القرآن أن ذلك علمه، وأن الله فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء"[٣]

٢٠- قول أبي زكريا يحي بن عمار رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٤٢ هـ)

قال الإمام أبو زكريا يحي بن عمار السجستاني، في رسالته: "لا نقول كما قال الجهمية، إنه مداخل للأمكنة، وممازج لكل شيء ولا نعلم أين هو؛ بل هو بذاته على العرش، وعلمه محيط بكل شيء، وعلمه، وسمعه، وبصره، وقدرته، مدركة لكل شيء، وهو معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

---

(١) انظر كتاب الإبانة (تتمة الرد على الجهمية)، (٣/ ١٤٣-١٤٥)، وأورده الذهبي في العرش ٢/ ٣٢٥ رقم ٢٥٩.

(٢) أورده الذهبي في كتاب العرش ٢/ ٣٦٨ برقم ٢٨١ وعزاه لتفسير الثعلبي المسمى الكشف والبيان في تفسير القرآن وهو مخطوط

(٣) انظر: تلبيس الجهمية لابن تيمية ٢/ ٣٨، ودرء تعارض العقل والنقل ٦/ ٢٥٠-٢٥١. والعلو للذهبي ٢٦٤، وإجتماع الجيوش الإسلامية ص ١٤٢.

بَصِيرٌ}، وهو بذاته على عرشه كما قال سبحانه وكما قال نبيه ﷺ"[١].

٢١- قول البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٥٨ هـ)

قال الإمام أبو بكر بن الحسين البيهقي في كتاب "الاعتقاد": "وفي كثير من الآيات دلالة على إبطال قول من زعم من الجهمية أن الله بذاته في كل مكان. وقوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} إنما أراد به بعلمه لا بذاته"[٢]

٢٢- قول الإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٦٣ هـ)

قال: "وأما احتجاجهم بقوله عَزَّوَجَلَّ: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ} الآية، فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية، لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حملت عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الآية: هو على العرش، وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله"[٣].

٢٣- قول البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ (٥١٠ هـ)

قال في قوله: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} "في العلم"[٤].

٢٤- قول قوّام السنة أبي القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ (٥٣٥ هـ)

قال: "فإن قيل: قد تأولتم قوله عَزَّوَجَلَّ: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} وحملتموه على العلم. قلنا: ما تأولنا ذلك، وإنما الآية دلت على أن المراد بذلك العلم،

---

(١) أورده ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ١٩١)، وأورده الذهبي في العلو (١٧٧-١٧٨)، وفي كتاب العرش ٢/ ٣٤٨ رقم ٢٦٦. وأورده ابن القيم مختصرا في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٧٩).

(٢) الإعتقاد للبيهقي (ص١١٢-١١٥). وأورده الذهبي في العلو (ص ١٨٤ـ١٨٥). وفي العرش ٢/ ٣٥٥ رقم ٢٧١.

التمهيد (٧/ ١٣٨-١٣٩) والذهبي في العرش ٢/ ٣٥٦ رقم ٢٧٢.

(٤) تفسير البغوي (٤/ ٣٠٧). وأورده الذهبي في العرش" ٢/ ٣٦٨ رقم ٢٨٠/ ٥.

لأنه قال في آخرها {نَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}"[١]

٢٥- قول أبي محمد اليمني رَحِمَهُ اللهُ (من علماء القرن السادس الهجري)

قال رَحِمَهُ اللهُ: "وربما نقول ثاني اثنين وثالث ثلاثة ورابع أربعة وأكثر من ذلك، بمعنى العلم والحفظ لا بمعنى الشريك لأنه يقول وقوله الحق {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} أي عليم بهم وحفيظ لهم أينما كانوا، لا بمعنى التشريك"[٢] .

٢٦- قول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ (٧٧٤ هـ)

قال في تفسير قوله تعالى: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ...} الآية: أي مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسله أيضًا مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه له كما قال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} . ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن مراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك في إرادة ذلك"[٣].

٢٧- قول الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ (١٢٥٠هـ)

قال في تفسير قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} : "أي بقدرته وسلطانه وعلمه"[٤].

وقال في تفسير قوله تعالى: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ} الآية: "مستأنفة

---

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة ٢/ ٢٩١.

(٢) عقائد الثلاث وسبعين فرقة ٢/ ٥٢٣-٥٢٤.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٣٢٢.

(٤) انظر: فتح القدير ٥/ ١٦٦.

لتقرير سمو علمه وإحاطته بكل المعلومات... ومعنى {أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} إحاطة علمه بكل تناج يكون منهم في أي مكان من الأمكنة"(١).

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح حديث "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني"(٢).

قال: "فيه تصريح بأن الله تعالى مع عباده عند ذكرهم له، ومن مقتضى ذلك أن ينظر إليه برحمته، ويمده بتوفيقه وتسديده، فإن قلت: هو مع جميع عباده كما قال سبحانه وتعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}، وقوله جلّ ذكره {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} الآية.

قلت: هذه معية عامة، وتلك معية خاصة حاصلة للذاكر على الخصوص بعد دخوله مع أهل المعية العامة، وذلك يقتضي مزيد العناية ووفور الاكرام له والتفضل عليه، ومن هذه المعية الخاصة ما ورد في كتابه العزيز من كونه مع الصابرين، وكونه مع الذين اتقوا، وما ورد هذا المورد في الكتاب العزيز أو السنة، فلا منافاة بين إثبات المعية الخاصة وإثبات المعية العامة"(٣).

مما يؤكد تفسير السلف لآيات المعية العامة بأنها معية العلم والاطلاع ما ورد عنهم من أقوال جمعوا فيها بين إثبات معية العلم وإثبات صفة العلو لله عَزَّ وَجَلَّ فبينوا بذلك عدم التعارض بين نصوص المعية والنصوص التي جاء فيها إثبات علو الله سبحانه على خلقه.

ودعوى التعارض بين نصوص المعية ونصوص العلو، من الشبه التي

---

(١) انظر: فتح القدير ٥/ ١٨٧

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تحفة الذاكرين ص ١١.

تمسَّك بها المبتدعة أيضًا في هذا الباب، فبإيراد هذه الآثار عن سلف الأمة من الصحابة ومن بعدهم ـ والذين أمرنا بالتزام فهمهم ـ تزول أي دعوى للتعارض بين نصوص القرآن والسنة. فيما جاء فيهما من إثبات العلو الله ﷻ على خلقه وما جاء فيهما من إثبات معية الله لخلقه بعلمه.

وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه النقول تبطل وبشكل صريح دعوى القائلين بالمعية الذاتية، فدعواهم لا مستند لها من الكتاب أو السنة أو قول أحد من سلف الأمة وأئمتها

وإليك الآثار الواردة في ذلك مرتبة ترتيبًا زمانيًا .

١ – قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "ما بين السماء القصوى والكرسي خمسمائة عام، ويبن الكرسي والماء كذلك، والعرش فوق الماء والله فوق العرش، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم"[(١)]

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٣٩٥ـ٣٩٦، ح ٦٥٩) والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٨٦ـ١٨٧) .والدارمي في الرد على الجهمية (ص٢٧٥ –ضمن عقائد السلف–) . وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٢–٢٤٣، ح١٤٩) . والطبراني في الكبير (٩/ ٢٢٨) . وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٨٨–٦٨٩، ح٢٧٩) . وابن عبد البر في التمهيد (٧/) . وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص١٠٤–١٠٥، ح٧٥) . وأورده الذهبي في العلو (ص٦٤)، وعزاه لعبد الله بن الإمام أحمد في السنة، وأبي بكر بن المنذر، وأبي أحمد العسال، وأبي القاسم الطبراني، وأبي الشيخ، واللالكائي، وأبي عمر الطلمنكي، وأبي عمر بن عبد البر، وقال: (وإسناده صحيح) . وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٢٢)، وفي مختصر الصواعق (٢/ ٢١٠) . وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٨٦)، وعزاه للطبراني وقال: (رجاله رجال الصحيح) .

٢- قول كعب الأحبار رَحِمَهُ اللَّهُ

قال: "قال الله في التوراة: أنا الله فوق عبادي، وعرشي فوق خلقي، وأنا على عرشي، أدبر أمر عبادي، ولا يخفى علي شيء في السماء، ولا في الأرض"(١).

٣- قول عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ (١٨١ هـ)

ثبت عن علي بن الحسن بن شقيق، شيخ البخاري، قال: قلت لعبد الله ابن المبارك كيف نعرف ربنا؟ قال: "في السماء السابعة على عرشه".

وفي لفظ "على السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية إنه هاهنا في الأرض".

وقال أيضًا: سألت ابن المبارك: كيف ينبغي لنا أن نعرف ربنا؟. قال: "على السماء السابعة، على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية إنه هاهنا في الأرض"(٢).

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٢٥-٦٢٦، ح٢٤٤) . وابن بطة في الإبانة -الرد على الجهمية-، (٣/ ١٨٥-١٨٦، برقم١٣٧) . وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٧) . وأورده القاضي أبو يعلى في إبطال التأويلات (ق١٤٩/ ب) وعزاه لابن بطة في الإبانة. وأورده الجيلاني في الغنية لطالبي طريق الحق (١/ ٥٧) . وأورده الذهبي في العلو (ص٩٢)، وقال: (رواته ثقات)، وفي الأربعين (ص٤٥)، وفي العرش ٢/ ١٤٣ رقم ١٢١. وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٢٩، و٢٦٠)، وقال قبله: (وروى أبو نعيم بإسناد صحيح عن كعب) وذكره. وأورده ابن القيم كذلك كما في مختصر الصواعق (٢/ ٣٧٣) وعزاه لأبي الشيخ وابن بطة وغيرهما بإسناد صحيح. وصححه الألباني في مختصر العلو (ص١٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص٨)، والدارمي في الرد على المريسي (ص١٠٣)، والرد على الجهمية (ص٥٠) . وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة (١/ ١١١، ح٢٢)، و(١/ ١٧٤-١٧٥، ح٢١٦) . وابن بطة في الإبانة (٣/ ١٥٥-١٥٦، ح١١٢) . وابن منده في التوحيد (٣/ ٣٠٨، برقم٨٩٩) . والصابوني في عقيدة السلف

=

٤- قول أبي يوسف صاحب أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨٢ هـ)

جاء بشر بن الوليد إلى أبي يوسف فقال له: "تنهاني عن الكلام وبشر المريسي، وعلي الأحول، وفلان يتكلمون، فقال: وما يقولون؟ قال: يقولون: إن الله في كل مكان. فبعث أبو يوسف فقال: علي بهم، فانتهوا إليهم، وقد قام بشر، فجيء بعلي الأحول والشيخ -يعني الآخر-، فنظر أبو يوسف إلى الشيخ وقال: لو أن فيك موضع أدب لأوجعتك، فأمر به إلى الحبس، وضرب عليا الأحول وطوَّف به"(١).

=

(ص٢٠، برقم٢٨) . والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٣٦، رقم٩٠٣) . وابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٤٢) . وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص١١٧-١١٨، ح٩٩، ١٠٠) . وأورده ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٦٤)، وعزاه للبخاري في خلق أفعال العباد. وأورده كذلك في الفتوى الحموية (ص٩١) وقال: (وروى عبد الله بن الإمام أحمد وغيره بأسانيد صحيحة عن ابن المبارك)، وأورده في نقض تأسيس الجهمية (٢/ ٥٢٥) . وأورده الذهبي في العلو (ص١١٠)، وفي سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٢)، وفي الأربعين في صفات رب العالمين (ص٤٠، برقم١٠) وفي العرش ٢/ ١٨٧ رقم ١٦١، ١٦٢ وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٣٤-١٣٥) وقال: (روى الدارمي، والحاكم والبيهقي، وغيرهم، بأصح إسناد إلى علي بن الحسين بن شقيق) وذكره، وفي (ص٢١٣-٢١٤) وقال: (وقد صح عنه صحة قريبة من التواتر)، وعزاه للبيهقي، والحاكم، والدارمي. وأورده أيضًا كما في مختصر الصواعق (٢/ ٢١٢) .

(١) أورد القصة ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ٤٥)، وفي نقض تأسيس الجهمية (٢/ ٥٢٥-٥٢٦)، وعزاها لابن أبي حاتم في كتاب الرد على الجهمية، وساق الأثر بسنده. وأوردها الذهبي في العلو (ص١١٢) . وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٢٢)، وقال: (وهي قصة مشهورة ذكرها عبد الرحمن بن أبي حاتم) . وأوردها أيضًا كما في مختصر الصواعق (٢/ ٢١٢) وقال: (وبشر لم ينكر أن الله أفضل من العرش، وإنما أنكر ما أنكرته المعطلة أن ذاته تعالى فوق العرش) . وأوردها شارح =

٥- قول علي بن عاصم الواسطي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٠١هـ)

قال يحي بن علي بن عاصم: "كنت عند أبي، فاستأذن عليه المريسي، فقلت له: يأبه مثل هذا يدخل عليك! فقال: وماله؟؛ قلت: إنه يقول إن القرآن مخلوق، ويزعم أن الله معه في الأرض، وكلاما ذكرته، فما رأيته اشتد عليه مثل ما اشتد عليه في القرآن أنه مخلوق، وأنه معه في الأرض"(١).

٦- قول أصبغ بن الفرج المالكي(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٢٥ هـ)

"وهو مستو على عرشه وبكل مكان علمه وإحاطته"(٣)

٧- قول بشر الحافي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٢٧ هـ)

"والإيمان بأن الله على عرشه كما شاء، وأنه عالم بكل مكان، وأن الله يقول، ويخلق، فقوله كن ليس بمخلوق"(٤).

٨- قول حماد بن هنَّاد رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٣٠ هـ)

=

الطحاوية (ص٣٢٣).

(١) أورده الذهبي في العلو (ص١١٦)، وفي العرش وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢١٦-٢١٧) وعزاه لابن أبي حاتم.

(١) أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع،،فقيه من كبار المالكية بمصر، قال ابن الماجشون: (ما أخرجت مصر مثل أصبغ وكان كاتب ابن وهب)، توفي سنة (٢٢٥هـ). وفيات الأعيان ١/ ٧٩، الأعلام ١/ ٣٣٣.

(٢) انظر: إجتماع الجيوش الإسلامية ص ١٤٢. تهذيب سنن أبي داود ٧/ ١٠٢.

سنة سبع وعشرين ومائتين، وله خمس وسبعون سنة. تاريخ بغداد (٧/ ٦٧)، السير (١٠/ ٤٦٩).

(٤) هكذا أورده الذهبي في العلو، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية، وقال محققه: (لم أقف على ترجمته بهذا الإسم، فلعلها محرفة عن محمد بن سعيد بن هنَّاد البوشنجي، وترجمته في الأنساب ٢/ ٢٥٩، والكاشف ٣/ ٤٢.

قال: "هذا ما رأينا عليه أهل الأمصار وما دلت عليه مذاهبهم فيه، وإيضاح مناهج العلماء وطرق الفقهاء، وصفة السنة وأهلها أن الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه وعلمه وقدرته وسلطانه بكل مكان"(١).

٩- قول أحمد بن نصر الخزاعي الشهيد رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٣١ هـ)

قال إبراهيم الحربي فيما صح عنه: قال أحمد بن نصر وسئل عن علم الله فقال: "علم الله معنا وهو على عرشه"(٢).

١٠- قول الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٤١ هـ)

قال يوسف بن موسى القطان: وقيل لأبي عبد الله: الله فوق السماء السابعة على عرشه، بائن من خلقه، وعلمه وقدرته بكل مكان. قال: "نعم"(٣).

قال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب "الرد على الجهمية" مما جمعه ورواه عبد الله ابنه عنه: "باب بيان ما أنكرت الجهمية أن يكون الله على العرش، قلت لهم: أنكرتم أن يكون الله على العرش، وقد قال {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}؟

فقالوا: هو تحت الأرض السابعة، كما هو على العرش، وفي السموات والأرض.

---

(١) انظر العلو للذهبي ص ١٥١ وإجتماع الجيوش الإسلامية ص٢٤٢.

(٢) أورده الذهبي في العلو ص ١٢٨.

(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة (تتمة الرد على الجهمية)، (٣/ ١٥٩، ح١١٥). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٠١-٤٠٢، برقم٦٧٤)، وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (١/ ٤٢١).

وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص١١٦، برقم٩٦)، والذهبي في العلو (١٣٠).، وفي العرش (٢/ ٢٤٨، برقم ٢٢١) وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٠٠) وعزاه للخلال في كتاب السنة له.

فقلنا: قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظمة الرب شيء، أجسامكم وأجوافكم والأماكن القذرة ليس فيها من عظمته شيء، وقد أخبرنا ﷻ أنه في السماء فقال تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}، {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}، {بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ}، {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ}، فقد أخبرنا سبحانه أنه في السماء"(١).

١١- قول الحارث بن أسد المحاسبي(٢) (٢٤٣هـ)

قال: "وأما قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} {إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} هذا يوجب أنه فوق العرش فوق الأشياء كلها متنزه عن الدخول في خلقه لايخفى عليه منهم خافية لأنه أبان في هذه الآيات أنه أراد أنه بنفسه فوق عباده؛ لأنه قال: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ} يعني فوق العرش، والعرش على السماء لأن من قد كان فوق كل شيء على السماء، في السماء وقد قال {فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ} يعني علي الأرض لايريد الدخول في جوفها...."(٣)

---

(١) انظر الرد على الجهمية للإمام أحمد بن حنبل (ص٩٢-٩٣، -ضمن عقائد السلف). وأورده الذهبي في العرش (٢/ ٢٥٠ـ٢٥١ برقم ٢٢٤) وأورده ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٠١-٢٠٢).

(٢) الحارث بن أسد المحاسبي البغدادي أبو عبد الله عاش في بغداد اشتهر بالتصوف وألف فيه كتبا أشهرها الرعاية لحقوق الله ورسالة المسترشدين توفي سنة ٢٤٣ هـ تاريخ بغداد ٨/ ٢١١ السير ١٢/ ١١٠.

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٥ / ٦٩) واجتماع الجيوش الإسلامية ص٢٧٢.

١٢- قول عبد الوهاب بن الحكم الورَّاق (٢٥١هـ)

قال عبد الوهاب بن عبد الحكم الوراق لما روى حديث ابن عباس » ما بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعة ألاف نور، وهو فوق ذلك قال: "من زعم أن الله ههنا فهو جهمي خبيث، إن الله فوق العرش، وعلمه محيط بالدنيا والآخرة"[١].

١٣- قول يحي بن معاذ الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٥٨هـ)

قال: "الله تعالى على العرش، بائن من الخلق، قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، ولا يشك في هذه المقالة إلا جهمي رديء ضليل هالك مرتاب، يمزج الله بخلقه ويخلط الذات بالأقذار والأنتان"[٢]

١٤- قول محمد بن يحي الذهلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٥٨هـ)

سئل محمد بن يحي عن حديث عبد الله بن معاوية عن النبي ﷺ: "ليعلم العبد أن الله معه حيث ما كان"[٣]، فقال: "يريد أن الله علمه محيط بكل مكان والله على العرش"[٤].

١٥- قول المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٦٤هـ)

قال"الحمد لله أحق من ذكر وأولى من شكر... إلى أن قال.. علا على

---

(١) أورده الذهبي في العلو (ص١٤٢)، وفي العرش" ٢/ ٢٥٣ رقم ٢٢٦. وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٣٢)، وقال: (صح ذلك عنه، حكاه عنه محمد بن أحمد بن عثمان -يعني الذهبي- في رسالته الفوقية وقال: ثقة حافظ، روى عنه أبو داود والترمذي والنسائي، مات سنة خمسين ومائتين) اهـ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٥/ ٤٩ واجتماع الجيوش الإسلامية ص٢٧٠.

(٣) رواه الطبراني في الصغير ص ١١٥، وقال الألباني: (إسناده صحيح)، انظر: سلسة الأحاديث الصحيحة رقم (١٠٤٦).

(٤) أورده الذهبي في العلو ص ١٣٦.

عرشه في مجده بذاته، وهو دان بعلمه من خلقه، أحاط علمه بالأمور..."[١].

١٦- قول أبي حاتم الرازي (٢٧٧هـ)، وأبي زرعة الرازي (٢٦٤هـ) - رحمهما الله-.

قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سألت أبا حاتم وأبا زرعة الرازيين رحمهما الله عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك، فقالا: "أدركنا العلماء في جميع الأمصار، حجازًا، وعراقًا، ومصرًا، وشامًا، ويمنًا، وكان من مذهبهم أن الله على عرشه بائن من خلقه كما وصف نفسه بلا كيف، أحاط بكل شيء علمًا"[٢].

١٧- عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٨٠هـ)

قال في كتابه "النقض على بشر المريسي": "قد اتفقت الكلمة من المسلمين، أن الله بكماله فوق عرشه، فوق سمواته"[٣].

---

(١) انظر: شرح السنة. للمزني ص٧٥ شرح العقيدة الواسطية ص١٣٤. والأربعين في صفات رب العالمين رقم ٥١. ومختصر الصواعق ٢/ ٢٦٢-٢٧٩.

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٧٦-١٧٩، برقم٣٢١)، وقد ذكر الاعتقاد بتمامه والنص المذكور هنا تجده في (ص١٧٧) .والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٣/ ٨٤) بالسند المذكور هنا، وأخرجه في العلو (ص١٣٧-١٣٨) وقد ساقها بأسانيد ثلاثة، وأخرجه في العرش ٢/ ٢٥٧ رقم ٢٢٨. وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص١٢٥، برقم١١٠)، وأورده ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٧) قال الألباني في مختصر العلو (ص٢٠٤-٢٠٥): (قلت: هذا صحيح ثابت عن أبي زرعة وأبي حاتم رحمة الله عليهما...) إلى أن قال: (ورسالة بن أبي حاتم محفوظة في المجموع (١١) في الظاهرية في آخر كتاب (زهد الثمانية من التابعين) وقد طبعت ضمن " روائع التراث " تحقيق محمد عزيز شمس، ونشرته الدار السلفية بالهند. انظر (ص١٩-٢٦) .

(٣) انظر الرد على بشر المريسي (ص٤٠٨ -ضمن عقائد السلف -)، أورده الذهبي في =

وقال أيضًا في موضع آخر من الكتاب: "وقال أهل السنة: إن الله بكماله فوق عرشه، يعلم ويسمع من فوق العرش، لا يخفى عليه خافية من خلقه، ولا يحجبهم عنه شيء"(١).

١٨- قول زكريا بن يحي الساجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٠٧هـ)

قال: "القول في السنة التي رأيت عليها أصحابنا أهل الحديث، إن الله تعالى على عرشه، في سمائه، يقرب من خلقه كيف شاء"(٢).

١٩- قول الحسن بن علي بن خلف البربهاري(٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٢٩ هـ)

"وهو جل ثناؤه واحد ليس كمثله شئ وهو السميع البصير، ربنا أول بلا متى وآخر بلا منتهى، يعلم السر وأخفى، وعلى عرشه استوى، وعلمه بكل مكان، لايخلو من علمه مكان"(٤).

٢٠- قول علي بن مهدي الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ

=

السير (١٣/ ٣٢٥)،

وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٢٨)، انظر مختصر الصواعق (٢/ ٢١٣).

(١) انظر الرد على بشر المريسي (ص٤٣٨ -ضمن عقائد السلف -) مع تقديم وتأخير وانظر: "الرد على الجهمية" ص ٢٦٨ (ضمن عقائد السلف) والعرش للذهبي ٢/ ٢٦٠ رقم ٢٣٠.

(٢) أورده ابن تيمية في نقض تأسيس الجهمية (٢/ ٥٢٧ـ٥٢٨) والذهبي في العلو (ص١٥٠) وفي العرش (٢/ ٢٧٨ رقم ٢٤٠) وابن القيم في اجتماع الجيوش الأسلامية (ص ٢٤٥ـ٢٤٦)

(٣) الحسن بن علي بن خلف، البربهاري، الإمام، الحافظ، رأس الحنابلة في بغداد، وكان معروفًا بشدته في السنة، توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة (٣٢٩ هـ) .طبقات الحنابلة ٢/ ١٨-٤٥.

(٤) انظر: شرح السنة للبربهاري ص ٧١.

قيل لعلي بن مهدي ما تقولون في قوله: {وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ}؟، قال: "إن بعض القراء يجعل الوقف {فِي السَّمَاوَاتِ}، ثم يبتديء {وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ}، وكيف ما كان، ولو أن قائلًا قال: فلان بالشام والعراق ملك، يدل على أن ملكه بالشام والعراق لا أن ذاته فيهما"(١).

٢١- قول ابن أبي زيد القيرواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٨٦هـ)

قال الإمام أبو محمد بن أبي زيد المالكي المغربي في رسالته في مذهب مالك، أولها: "وأنه فوق عرشه المجيد بذاته، وأنه في كل مكان بعلمه"(٢).

وقال في كتابه المفرد في السنة: "وأنه فوق سمواته على عرشه دون أرضه وأنه في كل مكان بعلمه"(٣).

٢٢- قول محمد بن عبد الله ابن أبي زمنين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٩٩هـ)

قال محمد بن عبد الله "ومن قول أهل السنة إن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق العرش واختصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق ثم استوى عليه كيف شاء كما أخبر عن نفسه في قوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}... فسبحان من بعد فلا

---

(١) أورد هذا الكلام ابن تيمية في نقض تأسيس الجهمية (٢/ ٣٣٥-٣٣٧) الذهبي في العرش ٢/ ٣٢٢ رقم ٢٥٦.

(٢) انظر رسالة القيرواني (ص٤)، باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات، ط: مطبعة مصطفى الحلبي، الطبعة الثانية (١٣٦٨هـ)، وأورده ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ١٨٩).

أورده الذهبي في العلو (ص١٧١)، وفي العرش ٢/ ٣٤١ رقم ٢٦٣. وأورده ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢/ ١٣٤) وقال: (فصرح به أبو محمد بن أبي زيد في ثلاثة مواضع من كتبه أشهرها الرسالة، وفي كتاب جامع النوادر، وفي كتاب الآداب)،

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ١٥١.

يرى، وقرب بعلمه وقدرته فسمع النجوى"[١].

٢٣- قول أبي بكر الباقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٠٣هـ)

قال أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني في كتاب "الإبانة": فإن قيل: هل تقولون إنه في كل مكان؟؛ قيل له: معاذ الله، بل هو مستو على عرشه، كما أخبر في كتابه وقال {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، وقال {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}، وقال: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ}، ولو كان في كل مكان، لكان في بطن الإنسان، وفمه، والحشوش، ولوجب أن يزيد بزيادات الأماكن، إذا خلق منها ما لم يكن، ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض، وإلى خلفنا، وإلى يميننا، وشمالنا، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله"[٢].

٢٤- قول أبي بكر محمد بن موهب المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٠٦ هـ)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:"... فلذلك قال الشيخ أبو محمد[٣]: "إنه فوق عرشه" ثم بين أن علوه فوق عرشه، إنما هو بذاته، لأنه تعالى بائن عن جميع خلقه بلا كيف، وهو في كل مكان بعلمه لا بذاته"[٤].

٢٥- قول اللالكائي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤١٨هـ)

قال الإمام أبو القاسم هبة الله بن الحسن الشافعي، في كتاب شرح أصول السنة له: "سياق ما روي في قوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، وأن الله على عرشه في السماء، قال عَزَّ وَجَلَّ: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}، وقال {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي

---

(١) رياض الجنة بتخريج أصول السنة ص ٨٨.

(٢) هذا الكلام ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ٩٨-٩٩)، وقد نقله الذهبي في العرش ٢/ ٣٣٨ رقم ٢٦١. ومختصرًا في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٥٨-٥٥٩).

(٣) يريد الإمام أبا محمد بن أبي زيد القيرواني، وذلك في شرحه على الرسالة.

(٤) أورده الذهبي في العلو ص ١٩٢، بن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص ١٥٦.

السَّمَاءِ}، وقال {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}، قال: فدلت هذه الآيات أنه في السماء وعلمه محيط بكل مكان"(١).

٢٦- قول معمر بن أحمد الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٢٨هـ)

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالته إلى بعض أصحابه: "وأن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل والإستواء معقول والكيف مجهول وأنه عَزَّ وَجَلَّ بائن من خلقه والخلق بائنون منه بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة"(٢)

٢٧- قول أبي نصر السجزي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٤٤هـ)

قال الإمام أبو نصر السجزي الحافظ، في كتاب "الإبانة" له: "وأئمتنا الثوري، ومالك، وابن عيينة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وابن المبارك، وفضيل بن عياض، وأحمد، وإسحاق، متفقون على أن الله فوق عرشه بذاته، وأن علمه بكل مكان"(٣).

٢٨- قول أبي إسماعيل الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٨١هـ)

قال الإمام أبو إسماعيل الأنصاري في كتاب "الصفات" له: - باب اثبات استواء الله على عرشه فوق السماء السابعة، بائنًا من خلقه، من الكتاب والسنة -

---

(١) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٣٨٧-٣٨٨) . وأورده الذهبي في العرش ٢/ ٣٤٤ رقم ٢٦٤.

(٢) أورده ابن تيمية في الفتاوى ٥/ ٦١ . والذهبي في العلو ص ٢٦٢ . وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٢٧٦ .

(٣) أورده ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٥٠)، وفي نقض تأسيس الجهمية (٢/ ٣٨، ٤١٦-٤١٧)، وفي مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٠)، والذهبي في العلو (ص١٧٢)، وفي سير أعلام النبلاء (١٧/ ٦٥٦)، وفي كتاب العرش" ٢/ ٣٤٢ رقم ٢٦٣/ ٣، و٢/ ٣٥٣ رقم ٢٧٠ . وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٤٦)، وأورده أيضًا كما في مختصر الصواعق (٢/ ٢١٤) .

. فذكر رحمه الله دلالات ذلك من الكتاب والسنة -إلى أن قال-: "في أخبار شتى أن الله عز وجل في السماء السابعة على العرش بنفسه، وهو ينظر كيف تعملون، علمه، وقدرته، واستماعه، ونظره، ورحمته، في كل مكان"[١].

٢٩- قول أبي الحسن الكرجي رحمه الله (٤٩١هـ)

قال الإمام أبو الحسن الكرجي في عقيدته المعروفة التي أولها:

محاسن جسمي بدلت بالمعايب وشيب فَوْدي شيب وصل الحبائب

إلى أن قال:

وأفضل زاد في المعاد عقيدة على منهج في الصدق والصبر لاحب

عقائدهم أن الإله بذاته على عرشه مع علمه بالغوائب

وأن استواء الرب يعقل كونه ويجهل فيه الكيف جهل الشهارب[٢]

٣٠- قول عبد القادر الجيلي رحمه الله (٥٦١ هـ)

قال الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الجيلي، في كتاب "الغنية" له: "وهو بجهة العلو مستو على العرش، محتو على الملك، محيط علمه بالأشياء، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}، {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان، بل يقال إنه في السماء على العرش كما قال {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وأنه استواء الذات على العرش، وكونه سبحانه وتعالى على العرش مذكور في كل كتاب

---

(١) أورده الذهبي في العلو (ص١٨٩). وفي العرش ٢/ ٣٦٥ رقم ٢٧٩.

(٢) أورده الذهبي في العرش ٢/ ٣٦٨ رقم ٢٨٢.

أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف"[١].

٣١- قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (٧٢٨ هـ)

"... وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله: الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه، عليٌّ على خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا، يعلم ما هم عاملون كما جمع بين ذلك في قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} "[٢].

٣٢- قول محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي رحمه الله (٧٤٨ هـ)

صنف الإمام الذهبي كتاب العلو وكتاب العرش في إثبات علو الله على عرشه، وأنه مع خلقه بعلمه، وساق فيه الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل العلم إلى قريب من زمانه، وحكى الإجماع عن كثير منهم على أن الله تعالى فوق عرشه، ومع الخلق بعلمه. ومما قاله في أثناء كتابه العلو "ويدل على أن الباري تبارك وتعالى عالٍ على الأشياء، فوق عرشه المجيد، غير حالٍ بالأمكنة قوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} "[٣].

---

(١) انظر كتاب الغنية لطالبي طريق الحق لعبد القادر الجيلاني (١/ ٥٤-٥٧)، ط: الحلبي، وطبقات الحنابلة (١/ ٢٩٦) . ومجموع الفتاوى ()، ٥/ ٨٥) . والعلو للذهبي (ص١٩٣) . والعرش ٢/ ٣٦٩ رقم ٢٨٢.
واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٧٧) .

(٢) انظر: المجموع ٣/ ١٤٢.

(٣) انظر: العلو ص٨٣.

٣٣- قول الإمام شمس الدين ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٥١ هـ)

صنف الإمام ابن القيم كتابه إجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية لبيان مسألة علو الله على عرشه ومعيته لخلقه، فساق الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أكابر العلماء إلى قريب من زمانه، وحكى الإجماع عن كثير منهم على ذلك، كما اشتمل كتابه الصواعق المرسلة، وقصيدته الكافية الشافية على فصول كثيرة في تقرير هذه المسألة.

٣٤- قول ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٩٥ هـ)

وقد ردّ ابن رجب رحمه الله تعالى على الذين فسروا المعية بتفسير لا يليق بالله عَزَّ وَجَلَّ وهم الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان، وهم الحلولية من الجهمية ومن نحا نحوهم.

فقال رحمه الله تعالى: "ولم يكن أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفهمون من هذه النصوص غير المعنى الصحيح المراد بها، يستفيدون بذلك معرفة عظمة الله وجلاله واطلاعه على عباده وإحاطته بهم وقربه من عابديه وإجابته لدعائهم، فيزدادون به خشية لله وتعظيمًا وإجلالًا ومهابة ومراقبة واستحياء ويعبدونه كأنهم يرونه، ثم حدث بعدهم من قل ورعه وانتكس فهمه وقصده، وضعفت عظمة الله وهيبته في صدره وأراد أن يرى الناس امتيازه عليهم بدقة الفهم وقوة النظر، فزعم أن هذه النصوص تدل على أن الله بذاته في كل مكان كما حكى ذلك طوائف من الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم، تعالى عما يقولون علوًا كبيرًا.

وهذا شئ ما خطر لمن كان قبلهم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهؤلاء ممن يتبع ما

تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وقد حذر النبي ﷺ منهم في حديث عائشة المتفق عليه.

وتعلقوا أيضًا بما فهموه بفهمهم القاصر مع قصدهم الفاسد بآيات في كتاب الله تعالى مثل قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} وقوله: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ}

فقال من قال من علماء السلف حينئذ إنما أراد أنه معهم بعلمه وقصدوا بذلك إبطال ما قال أولئك مما لم يكن أحد قبلهم قاله ولا فهمه من القرآن.

وحكى ابن عبد البر وغيره إجماع العلماء من الصحابة والتابعين في تأويل قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} أن المراد علمه، وكل هذا قصدوا به رد قول من قال إنه تعالى بذاته في كل مكان"[1].

٣٥- قول صديق حسن خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٠٧ هـ)

"وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وهذه سنة رسول الله ﷺ، وهذا كلام الصحابة والتابعين، وسائر الأئمة، قد دل ذلك بما هو نص أو ظاهرٌ، في أن الله سبحانه فوق العرش، فوق السموات، استوى على عرشه، بائن من خلقه،... وهو معهم أينما كانوا. قال نعيم بن حماد لما سئل عن معنى هذه الآية {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} معناها: (أنه لا يخفى عليه خافية بعلمه) وليس معناه أنه مختلط بالخلق، فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق... -إلى أن قال-:... فكل ما في الكتاب والسنة من الادلة الدالة على قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه عليٌّ في دنوِّه وقريب في عُلوِّه، والأحاديث الواردة في ذلك

(١) فتح الباري لابن رجب ٢/ ٣٣١-٣٣٢.

كثيرة جدًا."[١].

مسألة: أقوال الناس في صفة المعية

من المعلوم أن لمسألة المعية اتصالها الوثيق بمسألة العلو، فما نشأ من أقوال في مسألة العلو ترتب عليها في المقابل أقوال من جنسها في مسألة المعية.

وقد افترق الناس في هذا المقام على أربعة أقوال هي:

القول الأول: قول أهل السنة والجماعة

يقولون: إن الله فوق سمواته، عالٍ على خلقه، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه؛ كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

القول الثاني: قول معطلة الجهمية ونفاتهم.

وهم الذين يقولون: لا هو داخل العالم ولا خارجه، ولا فوقه ولا تحته، ولا مباين له، ولا محايث له؛ وهم بقولهم هذا قد نفوا الوصفين المتقابلين اللذين لا يخلو موجود منهما[٢]، وبالغوا في نفي التشبيه؛ حتى أدى بهم ذلك إلى نفي وجوده بالكلية، وذلك خشية منهم أن يشبهوه، فهم قالوا بهذه المقالة هربًا منهم -على حد زعمهم- من إثبات الجهة، والمكان، والحيِّز؛ فإن فيها كما يدَّعون تجسيمًا، وهو تشبيه، فقالوا: يلزمنا في الوجود ما يلزم مثبتي الصفات، فنحن نسد الباب بالكلية.

وقد استند أصحاب هذا القول في قولهم هذا على حجج، زعموا أنها عقلية، أسسوها وابتدعوها وجعلوها مقدمة على كل نص، وليس لهؤلاء أي دليل من القرآن أو السنة على صحة قولهم هذا، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -

---

(١) قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر لصديق حسن خان ص ٥٠-٥١.
(٢) مجموع الفتاوى ٥ / ١٢٢

رَحِمَهُ اللَّهُ-: "وجميع أهل البدع قد يتمسكون بنصوص، كالخوارج، والشيعة، والقدرية، والمرجئة، وغيرهم، إلا الجهمية، فإنهم ليس معهم عن الأنبياء كلمة واحدة توافق ما يقولونه في النفي"(١).

القول الثالث: قول حلولية الجهمية

وهم الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان.

وهذا قول النجارية(٢)، وكثير من الجهمية عبَّادهم، وصوفيتهم، وعوامهم.

ويقولون: إنه عين وجود المخلوقات. كما يقوله أهل وحدة الوجود القائلون بأن الوجود واحد، ومن يكون قوله مركبًا من الحلول والاتحاد.

وهم يحتجون بنصوص المعية والقرب ويتأولون نصوص العلو والاستواء، وكل نص يحتجون به حجة عليهم(٣).

القول الرابع: قول طوائف من أهل الكلام والتصوف

ويقولون إن الله بذاته فوق العرش وهو بذاته في كل مكان وهؤلاء يقولون: إنا نقر بهذه النصوص ولا نصرف واحدًا منها عن ظاهره؛ وهذا قول طوائف ذكرهم الأشعري في مقالات الإسلاميين، وهو موجود في كلام طائفة من السَّالمية والصوفية، ويشبه هذا ما في كلام أبي طالب المكي، وابن برجان

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/ ١٢٢.

(٢) هم أتباع حسين بن محمد بن عبد الله بن النجار، وقد كان أكثر معتزلة الري ومن حولها على مذهبه، وقد نقل الشهرستاني في "الملل والنحل" (١/ ١١٣، ١١٤) عن الكعبي قوله: (إن النجار كان يقول: إن البارئ بكل مكان وجودًا، لا على معنى العلم والقدرة).

انظر: مقالات الإسلاميين ١/ ١٣٥-١٣٧، ٢٨٣-٢٨٥، والفرق بين الفرق ص١٢٦، ١٢٧، وأصول الدين للبغدادي ص٣٣٤، والتبصير في الدين ص١٠١، ١٠٢، ١٠٣.

(٣) مجموع الفتاوى ٥ / ١٢٣.

وغيرهما، مع ما في كلام أكثرهم من التناقض.

وهذا الصنف وإن كان أقرب إلى التمسك بالنصوص، وأبعد عن مخالفتها من الصنفين الثاني والثالث، فإن الصنف الثاني لم يتبع شيئًا من النصوص بل خالفها كلها. والصنف الثالث ترك النصوص الكثيرة المحكمة المبينة وتعلق بنصوص قليلة اشتبهت عليه معانيها.

وأما هذا الصنف، فيقول أنا اتبعت النصوص كلها؛ لكنه غالط أيضًا؛ فكل من قال: إن الله بذاته في كل مكان، فهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده؛ ولصريح المعقول والأدلة الكثيرة.

وهؤلاء يقولون أقوالًا متناقضة، يقولون: إنه فوق العرش. ويقولون: نصيب العرش منه كنصيب قلب العارف؛ كما يذكر مثل ذلك أبو طالب وغيره ومعلوم أن قلب العارف نصيبه منه المعرفة والإيمان؛ وما يتبع ذلك.

فإن قالوا: إن العرش كذلك، نقضوا قولهم: إنه نفسه فوق العرش. وإن قالوا بحلوله بذاته في قلوب العارفين؛ كان ذلك قولًا بالحلول خاصة.

وقد وقع طائفة من الصوفية -حتى صاحب منازل السائرين في توحيده المذكور في آخر المنازل- في مثل هذا الحلول[1].

وبناءً على هذه الأقوال اختلفت مواقف الناس في صفة المعية على النحو التالي:

القول الأول: قول أهل السنة والجماعة

أثبتوا علو الله على خلقه وأنه مستو على عرشه بائن من خلقه وهم بائنون

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٥/ ١٢٤-١٢٦.

منه

وقالوا إن معية الله المقصود منها أن الله عالم بخلقه مطلع عليهم لا يخفى عليه شيء من أمرهم.

"وهم بهذا أثبتوا وآمنوا بجميع ما جاء به الكتاب والسنة، من غير تحريف للكلم عن مواضعه، أثبتوا أن الله فوق سمواته على عرشه؛ بائن من خلقه وهم بائنون منه.

وهو أيضًا مع العباد عمومًا بعلمه، ومع أنبيائه وأوليائه بالنصر والتأييد والكفاية، وهو أيضًا قريب مجيب؛ ففي آية النجوى دلالة على أنه عالم بهم"[1].

وقد رد أهل السنة على زعم من قال إن المراد بها معية الذات وأبطلوا هذا الزعم من وجوه عديدة منها:

أولًا: أن نصوص المعية الواردة في القرآن والسنة دل سياقها على أن المقصود بها معية العلم والإطلاع أو النصرة والتأييد.

ثانيا: أن كلمة (مع) في حال إطلاقها تفيد مطلق المصاحبة ثم إن سياق الكلام يحدد نوع المصاحبة، ونصوص المعية حددت نوعين من المصاحبة هما:

١- معية العلم.

٢- معية النصرة والتأييد.

ثالثًا: إن جميع علماء السلف وأئمة السنة الذين نقل عنهم تفسير آيات المعية لم يفسروها بمعية الذات فهذا التفسير لم ينقل إلا عن المبتدعة من أهل الكلام.

---

(١) مجموع الفتاوى ٥/ ١٢٦.

رابعًا: النصوص الشرعية في إثبات علو الله واستوائه على عرشه كثيرة جدًا وتشهد بفساد زعم من قال إن المقصود بالمعية معية الذات.

القول الثاني: من نفى عن الله الوصفين المتقابلين

وهؤلاء يقولون: ليس فوق العالم شيء، ولا فوق العرش شيء، ويقولون: ليس هو داخلا فيه (أي العالم) ولا خارجًا عنه، ولا حالًا فيه، وليس في مكان من الأمكنة.

وهذا قول الجهمية والمعتزلة وطوائف من متأخري الأشعرية، والفلاسفة النفاة، والقرامطة الباطنية[١].

وهؤلاء لما نفوا عن الله تبارك وتعالى الوصفين جميعًا فقالوا إنه لا داخل العالم ولا خارجه وشبهوه بالتالي بالمعدوم لم يكن لهم قول معين في صفة المعية لأن مذهبهم قائم على نفي جميع الصفات عن الله ﷻ

القول الثالث: من فسر المعية بالمعية الذاتية وقال: بأن الله بذاته في كل مكان

وهم حلولية الجهمية واحتجوا لقولهم هذا بنصوص "المعية" و"القرب" الواردة في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، وقوله تعالى: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ}، وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

---

(١) انظر: نقض تأسيس الجهمية ١/ ٦، ٧، مختصر الصواعق ١/ ٢٣٧، الاقتصاد في الاعتقاد ص٣٤، تأويل مشكل الحديث ص٦٣، ٦٤، مجموع الفتاوى ٢/ ٢٩٧-٢٩٨ (٥/ ١٢٢-١٢٤).

وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، وقوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا}، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الأِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}، وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}، وقوله تعالى: {وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ}.

وقد زعم حلولية الجهمية أن المراد بهذه النصوص معية الذات وقرب الذات، فلذلك قالوا: إن الله بذاته في كل مكان.

الرد عليهم

قد أبطل علماء السلف زعم هؤلاء الجهمية واستدلالهم بهذه الآيات وبينوا أن كل نص يحتجون به هو في الحقيقة حجة عليهم، فنصوص المعية التي استدلوا بها لا تدل بأي حال من الأحوال على ما زعمه هؤلاء، وذلك لأن كلمة (مع) في لغة العرب لا تقتضي أن يكون أحد الشيئين مختلطًا بالآخر، وهي إذا اطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى.

ولفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع واقتضت في كل موضع أمورًا لم تقتضها في الموضع الآخر، وذلك بحسب اختلاف دلالتها في كل موضع وهي قد وردت في القرآن بمعنيين هما:

المعنى الأول: المعية العامة

والمراد بها أن الله معنا بعلمه، فهو مطلع على خلقه شهيد عليهم، ومهيمن

وعالم بهم، وهذه المعية هي المرادة بقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

فالله سبحانه وتعالى قد افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم ولذلك أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم تفسير القرآن على أن تفسير الآية هو أنه معهم بعلمه، وقد نقل هذا الإجماع ابن عبد البر(١)، وأبو عمرو الطلمنكي، وابن تيمية(٢)، وابن القيم(٣).

وعلى هذا فلا حجة للمخالفين في ظاهر هذه الآية.

وكذلك أيضًا ما جاء في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

فظاهر الآية دال على أن المراد بهذه المعية هو علم الله تبارك وتعالى واطلاعه على خلقه، فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية بأنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا، فجمع تعالى في هذه الآية بين العلو والمعية، فليس بين الاثنين تناقض البتة، وهو كقوله ﷺ في حديث الأوعال: "والله فوق العرش يعلم ما أنتم عليه"(٤).

---

(١) التمهيد (٧/ ١٣٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٣)، و(٥/ ٥١٩)، و(١١/ ٢٤٩-٢٥٠).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٤٤).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٦)، وأبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجة (١٩٣)، وابن طهمان في مشيخته (١٨)، ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة في العرش =

المعنى الثاني: المعية الخاصة

وهي معية الاطلاع والنصرة والتأييد، وسميت خاصة لأنها تخص أنبياء الله وأولياءه مثل قوله تعالى: {ذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا}، وقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}.

فهذه المعية على ظاهرها وحكمها في هذه المواطن النصر والتأييد.

=

(١٠)، وأبو يعلى (١٢/ ٧٥)، والحاكم (٢/ ٣١٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٣)، وابن عدى (٧/ ٢٠٠ ترجمة ٢١٠٤ يحيى بن العلاء الرازى)، وابن خزيمة في التوحيد (ص٦٨)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص١٩)، والآجري في الشريعة (ص٢٩٢ - ٢٩٣)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٣٨٩ - ٣٩٠)، والجورقاني في الأباطيل والمناكير (١/ ٧٧ - ٧٨)، والحاكم (٢/ ٥٠١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٤٢ - ١٤٣) وغيرهم، والحديث حسنه الترمذي، وصححه ابن خزيمة والحاكم، وقال ابن القيم في إجتماع الجيوش فيما يأتي: حديث صحيح، وصححه الجوزقاني في الأباطيل (١/ ٧٩)، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٣/ ١٩٢) حيث قال: (إن هذا الحديث قد رواه إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد الذي اشترط فيه أنه لا يحتج فيه إلا بما نقله العدل عن العدل موصولا إلى النبي ﷺ، والإثبات مقدم على النفي، والبخاري إنما نفى معرفة سماعه من الأحنف ولم ينف معرفة الناس بهذا، فإذا عرف غيره كإمام الأئمة ابن خزيمة ما ثبت به الإسناد، كانت معرفته وإثباته مقدما على نفي غيره وعدم معرفته، وحسنه الذهبي في العرش (٢٤) وله فيه اجتهاد آخر، قلت الصواب أن الحديث ضعيف، فقد ضعفه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٨٤) ونقل عن البخاري تضعيفه للحديث، وقال ابن عدي في الكامل (٩/ ٢٧) غير محفوظ، وضعفه ابن القيسراني في الذخيرة (٤/ ١٨٦٨)، وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٣)، وأشار المزي إلى ضعفه في التهذيب (١٠/ ٣٩١)، وكذا الذهبي في العلو (٦٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند إسناده ضعيف جدا، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (١٢٤٧) وله هناك بحث ماتع فانظره غي مأمور، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣/ ٢٩٣): إسناده ضعيف جدا.

ولفظ المعية على كلا الاستعمالين ليس مقتضاه أن تكون ذات الرب ﷻ مختلطة بالخلق، ولو كان معنى المعية أنه بذاته في كل مكان لتناقض الخبر العام والخبر الخاص، ولكن المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك(١).

وأما استدلالهم بقوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الأِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}، فقد أجاب عنه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: (إن هذه الآية لا تخلو إما أن يراد بها قربه سبحانه أو قرب ملائكته كما قد اختلف الناس في ذلك

فإن أريد بها قرب الملائكة: فدليل ذلك من الآية قوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} ففسر ذلك القرب الذي هو حين يتلقى المتلقيان، فيكون الله سبحانه قد أخبر بعلمه هو سبحانه بما في نفس الإنسان، {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} وأخبر بقرب الملائكة الكرام الكاتبين منه، {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} وعلى هذا التفسير تكون هذه الآية مثل قوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}.

أما إذا كان المراد بالقرب في الآية قربه سبحانه، فإن ظاهر السياق في الآية دل على أن المراد بقربه هنا قربه بعلمه، وذلك لورود لفظ العلم في سياق الآية {وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ})(٢).

وأما استدلالهم بقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ}، فمعنى الآية: أي هو إله من في السموات وإله من في الأرض، قال ابن عبد البر:

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٥٠)، و(٥/ ١٠٤).
(٢) الفتاوى (٦/ ١٩-٢٠).

"فوجب حمل هذه الآية على المعنى الصحيح المجتمع عليه، وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء، وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض، وكذلك قال أهل العلم بالتفسير"(١).

وقال الآجري: "وقوله ﷻ: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ} فمعناه: أنه جل ذكره إله من في السموات وإله من في الأرض، وهو الإله يعبد في السموات، وهو الإله يعبد في الأرض، هكذا فسره العلماء"(٢).

وروى الآجري بسنده في تفسيره هذه الآية عن قتادة قوله: "هو إله يعبد في السماء، وإله يعبد في الأرض"(٣).

وأما استدلالهم بقوله تعالى: {وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} فقد فسرها أئمة العلم كالإمام أحمد وغيره أنه المعبود في السموات والأرض(٤).

وقال الآجري: "وعند أهل العلم من أهل الحق {وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} هو كما قال الحق {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ} فما جاءت به السنن أن الله ﷻ على عرشه، وعلمه محيط بجميع خلقه، يعلم ما يسرون وما يعلنون، ويعلم الجهر من القول ويعلم ما يكتمون"(٥)

مع العلم أن هؤلاء الذين زعموا أن الله في كل مكان يقول أكثرهم بضد ذلك، فهم في حال نظرهم في الشبه الكلامية يقولون إن الله لا داخل العالم ولا

---

(١) التمهيد (٧/ ١٣٤).

(٢) الشريعة (ص٢٩٧).

(٣) الشريعة (ص٢٩٨).

(٤) الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد (ص٩٢-٩٣)، ومجموع الفتاوى (١١/ ٢٥٠).

(٥) الشريعة

خارجه ولا فوقه ولا تحته.كما هو قول أصحاب المذهب الأول، وفي تعبدهم يقولون هو في كل مكان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكثير منهم يجمع بين القولين؛ ففي حال نظره وبحثه يقول بسلب الوصفين المتقابلين كليهما، فيقول: لا هو داخل العالم ولا خارجه، وفي حال تعبده وتألهه يقول: بأنه في كل مكان لا يخلو منه شئ"(١).

وقال أيضًا: "وجماع الأمر في ذلك أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه، وقصد اتباع الحق، وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في أسماء الله وآياته.

ولا يحسب الحاسب أن شيئًا من ذلك يناقض بعضه بعضًا ألبتة؛ مثل أن يقول قائل: ما في الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه الظاهر من قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}

وقوله ﷺ: "إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قبل وجهه"(٢) ونحو ذلك فإن هذا غلط.

وذلك أن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة، كما جمع الله بينهما في قوله سبحانه {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا، كما قال النبي ﷺ

---

(١) نقض تأسيس الجهمية ١/ ٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ص ٢٣٨ كتاب العمل في الصلاة باب ما يجوز من البصاق والنفخ في الصلاة رقم ١٢١٣ (ط دار السلام) ومسلم في صحيحه ٥/ ٣٨ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب النهي عن البصاق في المسجدفي الصلاة وغيرها.

في حديث الأوعال: "والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه"[١][٢].

وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس في اللغة ظاهرها إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسةأو محاذاة عن يمين أو شمال؛ فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى. فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا. ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك؛ وإن كان فوق رأسك. فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة.

ثم هذه (المعية) تختلف أحكامها بحسب الموارد فلما قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} إلى قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم؛ شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم. وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته.

وكذلك في قوله: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ} إلى قوله: {هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} الآية.

ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار {لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا} كان هذا أيضا حقا على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع، والنصر والتأييد.

وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} كذلك قوله لموسى وهارون {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} هنا المعية على ظاهرها، وحكمها في هذه المواطن النصر والتأييد.

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) انظر مختصر الصواعق ٢/ ٢٦٦-٢٦٧.

وقد يدخل على الصبي من يخيفه فيبكى فيشرف عليه أبوه من فوق السقف فيقول: لا تخف؛ أنا معك أوأنا هنا، أو أنا حاضر ونحو ذلك. ينبهه على المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه؛ ففرق بين المعية ومقتضاها؛ وربما صار مقتضاها من معناها؛ فيختلف باختلاف المواضع[(١)].

فلفظ (المعية) قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع، يقتضي في كل موضع أمورًا لا يقتضيها في الموضع الآخر؛ فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها -وإن امتاز كل موضع بخاصية- فعلى التقدير ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب ﷻ مختلطة بالخلق. حتى يقال قد صرفت عن ظاهرها[(٢)].

ونظيرها من بعض الوجوه (الربوبية، والعبودية) فإنهما وإن اشتركتا في أصل الربوبية والعبودية فلما قال {رَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} كانت ربوبية موسى وهارون لها اختصاص زائد على الربوبية العامة للخلق، فإن من أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطى غيره فقد ربه ورباه ربوبية وتربية أكمل من غيره.

وكذلك قوله: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} و{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا}.

فإن العبد تارة يعنى به المعبد فيعم الخلق، كما في قوله: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}، وتارة يعني به العابد فيخص؛ ثم يختلفون، فمن كان أعبد علما وحالا كانت عبوديته أكمل، فكانت الإضافة في حقه أكمل، مع أنها حقيقة في جميع المواضع.

---

(١) انظر مختصر الصواعق ٢/ ٢٦٥.

(٢) انظر مختصر الصواعق ٢/ ٢٦٦.

ومثل هذه الألفاظ يسميها بعض الناس (مشككة) لتشكك المستمع فيها، هل هي من قبيل الأسماء المتواطئة أو من قبيل المشتركة في اللفظ فقط، والمحققون يعلمون أنها ليست خارجة عن جنس المتواطئة؛ إذ واضع اللغة إنما وضع اللفظ بإزاء القدر المشترك، وإن كانت نوعا مختصًا من المتواطئة فلا بأس بتخصيصها بلفظ.

ومن علم أن (المعية) تضاف إلى نوع من أنواع المخلوقات -كإضافة الربوبية مثلًا- وأن الاستواء على الشيء ليس إلا للعرش، وأن الله يوصف بالعلو والفوقية الحقيقية، ولا يوصف بالسفول ولا بالتحتية قط، لا حقيقة ولا مجازًا علم أن القرآن على ماهو عليه من غير تحريف.

ثم من توهم أن يكون الله في السماء بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه فهو كاذب -إن نقله عن غيره- وضال -إن اعتقده في ربه- وما سمعنا أحدًا يفهم هذا من اللفظ، ولا رأينا أحدًا نقله عن واحد، ولو سئل سائر المسلمين هل تفهمون من قول الله ورسوله "إن الله في السماء" أن السماء تحويه لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا"[(١)].

القول الرابع: وهو قول من يقول أن الله بذاته فوق العرش وهو بذاته في كل مكان

وهذا هو قول جماعة من أهل الكلام والتصوف كأبي معاذ التومنى[(٢)]، وزهير الأثري[(٣)]، وأصحابهما[(١)]، وهو موجود في كلام السالمية[(٢)] كأبي طالب

(١) مجموع الفتاوى ٥/ ١٠٢-١٠٦،وانظر أيضا نفس المرجع ٣/ ١٤٢.

(٢) أبو معاذ التومني من أئمة المرجئة ورأس فرقة التومنية منها.

انظر ترجمته ومذهبه في مقالات الأشعري (١/ ٢٠٤، ٣٢٦)، (٢/ ٢٣٢)، والملل والنحل (١/ ١٢٨).

(٣) زهير الأثري، ولم أقف على ترجمته، وقد تكلم الأشعري عن آرائه بالتفصيل في =

المكي[٣] وأتباعه كأبي الحكم برجان[٤] وأمثاله ما يشير إلى نحو هذا، كما يوجد في كلامهم ما يناقض هذا[٥] فهم يقولون بأن الله في كل مكان، وإنه مع ذلك مستو على عرشه وإنه يرى بالأبصار بلا كيف، وإنه موجود الذات بكل مكان، وأنه ليس بجسم ولا محدود ولا يجوز عليه الحلول ولا المماسة، ويزعمون أنه يجيء يوم القيامة كما قال تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ}[٦]، وقولهم هذا يشبه قول بعض

=

المقالات (١/ ٣٢٦).

(١) انظر نقض التأسيس الجهمية (١/ ٦)، والفتاوى (٢/ ٢٩٩)، ومقالات الإسلاميين (١/ ٣٢٦).

(٢) هم أتباع أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سالم المتوفى سنة (٢٩٧هـ) وابنه الحسن أحمد بن محمد بن سالم المتوفى سنة (٣٥٠هـ)، وقد تتلمذ أحمد بن محمد بن سالم على سهل بن عبد الله التستري، ويجمع السالمية بين كلام أهل السنة وكلام المعتزلة مع ميل إلى التشبيه ونزعة صوفية اتحادية، انظر شذرات الذهب (٣/ ٣٦)، وطبقات الصوفية (ص٤١٤-٤١٦)، والفرق بين الفرق (ص١٥٧-٢٠٢).

(٣) أبو طالب، محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، صوفي نشأ واشتهر بمكة، وهو صاحب كتاب "قوت القلوب" في التصوف وهو من أكبر رجال السالمية، قال عنه الخطيب البغدادي: (ذكر فيه أشياء مستشنعة في الصفات)، توفي سنة (٣٨٦هـ).

انظر ترجمته في تاريخ بغداد (٣/ ٨٩)، وميزان الاعتدال (٣/ ٦٥٥)، ولسان الميزان (٥/ ٣٠٠).

(٤) أبو الحكم، عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد اللخمي الإشبيلي، متصوف، توفي سنة (٥٣٦هـ) بمراكش.

انظر ترجمته في لسان الميزان (٤/ ١٣-١٤)، فوات الوفيات (١/ ٥٦٩)، الاعلام (٤/ ١٢٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٩).

(٦) الفجر ٢٢

مثبتة الجسم الذين يقولون إنه لا نهاية له[1].

والفرق بين هذا القول وقول الجهمية: بأن الله في كل مكان هو أن هؤلاء يثبتون العلو ونوعا من الحلول، أما الجهمية فلا يثبتون العلو على مقصود هؤلاء من الاستواء على العرش والمباينة.

ويزعم أصحاب هذا القول أنهم بقولهم هذا قد اتبعوا النصوص كلها سواء كانت نصوص علو أو معية أو قرب.

الرد عليهم: إنهم بقولهم هذا جمعوا بين كلام أهل السنة وكلام الجهمية، ولذلك كان قولهم ظاهر الخطأ وغاية في التناقض.

أما بيان خطئه فهو يكمن في أن كل من قال بأن الله بذاته في كل مكان فهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الامة وأئمتها مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده، ولصريح المعقول وللأدلة الكثيرة، فالقرآن الكريم مملوء بالآيات التي تنص على علو الله بذاته فوق خلقه واستوائه على عرشه وبينونته من خلقه، كما أن السنة قد تحدثت عن هذا المعنى في كثير من الأحاديث، كقصة المعراج وصعود الملائكة ونزولها من عند الله وعروج الروح إليه واستوائه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا، فكل هذه الأدلة تبين بطلان هذا القول ومخالفته.

وأما استدلال هؤلاء بنصوص المعية والقرب، فقد بينا خطأ هذا الاستدلال وبطلانه عند الرد على مذهب حلولية الجهمية، وقد بينا أنه ليس للمخالفين أي متمسك في جعلها لمعية الذات أو قرب الذات.

أما بيان تناقض هذا القول: فهو واضح من أقوالهم، فإنهم يجمعون بين أقوال متناقضة، فتارة يقولون إنه بذاته فوق العرش، وتارة يقولون إنه فوق

---

(١) نقض تأسيس الجهمية (٢/ ٦) .

العرش ونصيب العرش فيه كنصيب قلب العارف -كما يذكر ذلك أبو طالب المكي وغيره-، ومعلوم أن قلب العارف نصيبه منه المعرفة والإيمان وما يتبع ذلك، فإن قالوا: إن العرش كذلك فقد نقضوا قولهم بأنه بنفسه فوق العرش.

وإن قالوا بحلول ذاته في قلوب العارفين، كان ذلك قولا بالحلول الخاص، وهذا ما وقع فيه طائفة من الصوفية ومنهم صاحب منازل السائرين[١].

(باب إثبات صفة العلو والإستواء)

اعلم -وفقنا الله وإياك لما يرضيه من القول والنية والعمل، وأعاذنا وإياك من الزيغ والزلل - أن صالح السلف، وخيار الخلف، وسادة الأئمة، وعلماء الأمة، اتفقت أقوالهم، وتطابقت آراؤهم على أن الله موصوف بصفات الكمال، ونعوت الجلال، التي جاء بها الكتاب والسنة؛ يثبتون لله ما أثبته لنفسه المقدسة، وما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تمثيل، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تشبيه؛ ولا يبتدعون لله وصفا لم يرد به كتاب ولا سنة.

فإن الله تعالى: أعظم، وأجل، وأكبر، وأعلى، وأكمل في صدور أوليائه المؤمنين، من أن يتجاسروا على وصفه، ونعته، بمجرد عقولهم وآرائهم، وخيالات أوهامهم.

فآمنوا بما قال الله سبحانه في كتابه، وصح عن نبيه، وأمروه كما ورد من غير تعرض لكيفية، أو اعتقاد شبهة أو مثلية، أو تأويل يؤدي إلى تعطيل[٢]، ووسعتهم السنة المحمدية، والطريقة المرضية، ولم يتعدوها إلى البدعة المردية الردية، فحازوا بذلك الرتبة السنية، والمنزلة العلية[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٢-١٣١) . وانظر كتاب الآثار المروية في صفة المعية.
(٢) الاقتصاد في الاعتقاد (ص٧٨ - ٨٢) .
(٣) الاقتصاد في الاعتقاد (ص٨٠) .

ومن الصفات العظيمة الثابتة في الكتاب والسنة: «صفة العلو والفوقية»، والأدلة على إثباتها كثيرة ومتنوعة.

فيؤمن أهل السنة بعلو الله على خلقه واستوائه على عرشه، وأنه بائن من خلقه وهم بائنون منه.

وقد وافقهم على قولهم في إثبات العلو عامة الصفاتية، كأبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وأتباعه، وأبي العباس القلانسي، وأبي الحسن الأشعري والمتقدمين من أصحابه، وهو قول الكرامية ومتقدمي الشيعة الإمامية(١).

وقد استدل أهل السنة والجماعة على إثبات صفة العلو بالقرآن، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

والأدلة كثيرة تجل عن الحصر نذكر منها على سبيل المثال:

أحدها: التصريح بالفوقية مقرونا بأداة «من» المعينة للفوقية بالذات

قال الله سبحانه وتعالى: {يخافون ربهم من فوقهم} [النحل: ٥٠].

قال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأعلمنا الجليل جل وعلا في هذه الآية أن ربنا فوق ملائكته، وفوق ما في السماوات وما في الأرض من دابة، وأعلمنا أن ملائكته يخافون ربهم الذي فوقهم(٢).

الثاني: ذكرها مجردة عن الأداة

قال الله سبحانه وتعالى: {وهو القاهر فوق عباده} [الأنعام: ١٨].

وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لما حكم سعد بن معاذ في بني قريظة أن يقتل من جرت عليه الموس، وأن تقسم أموالهم وذراريهم، فقال رسول الله

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٧)، ونقض تأسيس الجهمية (١/ ١٢٧، ٢/ ١٤).
(٢) التوحيد (ص١١١) لابن خزيمة.

ﷺ: «لقد حكم فيهم اليوم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سماوات»[(١)].

الثالث: التصريح بالعروج إليه سبحانه وتعالى

قال الله سبحانه وتعالى: {يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه} [السجدة: ٥]، وقال ﷻ: {من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه} [المعارج:٣ - ٤].

قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: يقال: ذي المعارج: الملائكة تعرج إلى الله [(٢)].

وقال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: يقول تعالى ذكره: تصعد الملائكة والروح -وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ - إليه يعني: إلى الله جل وعز، والهاء في قوله «إليه» عائدة على اسم الله[(٣)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بهم - فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون»[(٤)].

قال ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ: وفي الخبر ما بان وثبت وصح أن الله ﷻ في السماء، وأن الملائكة تصعد إليه من الدنيا، لا كما زعمت الجهمية[(٥)] المعطلة[(١)].

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ٦٢ - ٦٣) (٨٢٢٣) وغيره، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٤٢٦) تعليقا مجزوما به.

(٣) جامع البيان (م١٤/ ج٢٩/ ص٨٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٥) و(٣٢٢٣) و(٧٤٢٩) و(٧٤٨٦)، ومسلم (٦٣٢).

(٥) قال الحافظ الذهبي في «تاريخ الاسلام» (ص٦٨)، حوادث ووفيات ١٢١هـ ١٤٠هـ: «كان الناس في عافية وسلامة فطرة حتى نبغ جهم فتكلم في الباري تعالى وفي صفاته بخلاف ما أتت به الرسل، وأنزلت به الكتب، نسأل الله السلامة في الدين».

الرابع: التصريح بالصعود إليه سبحانه وتعالى

قال الله سبحانه وتعالى: {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه} [فاطر: ١٠].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى ذكره: إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه عليه»[٢].

وقال صديق حسن خان رَحِمَهُ اللَّهُ -في الآية-: وفيه دليل على علوه تعالى فوق الخلق وكونه بائنا عنه بذاته الكريمة، كما تدل له الآيات الأخرى الصريحة والأحاديث المستفيضة الصحيحة[٣].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وإليه يصعد كل قول طيب   وإليه يرفع سعي ذي الشكران[٤]

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه سبحانه وتعالى

قال الله سبحانه وتعالى: {بل رفعه الله إليه} [النساء: ١٥٨]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: {إني متوفيك ورافعك إلي} [آل عمران: ٥٥].

السادس: التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتا وقدرا وقهرا

قال سبحانه وتعالى: {وهو العلي العظيم} [البقرة: ٢٥٥]. {وهو العلي الكبير} [سبأ: ٢٣]. {عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال} [الرعد: ٩].

=

(١) التوحيد (ص٣٨١) لابن خزيمة.

(٢) جامع البيان (م١٢/ ج٢٢/ ص١٤٤).

(٣) فتح البيان (١١/ ٢٢٧).

(٤) الكافية الشافية (ص٥٤).

{سبح اسم ربك الأعلى} [الأعلى: ١]. {سبحانه وتعالى عما يشركون} [يونس: ١٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: تعالى: الذي هو دال على كمال العلو ونهايته(١).

وفسر الطبري (العلي): بالعلو والارتفاع(٢).

وقال ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ: الأعلى: مفهوم في اللغة أنه أعلى كل شيء، وفوق كل شيء. والله قد وصف نفسه في غير موضع من تنزيله، وأعلمنا أنه العلي العظيم. أفليس العلي -يا ذوي الحجى- ما يكون عاليا؟!(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وله العلو من الوجوه جميعها ... ذاتا وقهرا مع علو الشان

لكن نفاة علوه سلبوه إكـ ... ـمال العلو فصار ذا نقصان

حاشاه من إفك النفاة وسلبهم ... فله الكمال المطلق الرباني(٤)

فعلو الذات: هو أنه مستو على عرشه، فوق جميع خلقه، مباين لهم، وهو مع هذا مطلع على أحوالهم، مشاهد لهم، مدبر لأمورهم الظاهرة والباطنة، متكلم بأحكامه القدرية وتدبيراته الكونية وبأحكامه الشرعية.

وأما علو القدر: فهو أن صفاته كلها صفات كمال، وله من كل وصف ونعت أكمله وغايته.

وأما علو القهر: فهو قهره تعالى لجميع المخلوقات، فالعالم العلوي

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤١١) [مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة، الطبعة الأولى].

(٢) جامع البيان (م٣/ ج٢/ ص١٩) و(م١٣/ ج٢٥/ ص٥٩).

(٣) التوحيد (ص١١٢).

(٤) الكافية الشافية (ص١٠٤).

والسفلي كلهم خاضعون لعظمته مفتقرون إليه في كل شؤونهم[١].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه سبحانه وتعالى

قال الله ﷻ: {تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم} [الزمر: ١]. {تنزيل من الرحمان الرحيم} [فصلت: ٢]. {تنزيل من حكيم حميد} [فصلت: ٤٢] {تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين} [السجدة: ٢]. {والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق} [الأنعام: ١١٤]. {تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم} [غافر: ٢]. {تنزيل من رب العالمين} [الواقعة: ٨٠]. {قل نزله روح القدس من ربك} [النحل: ١٠٢].

وأفاد كونه تنزيلا من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين:

(أحدهما): أنه المتكلم، وأنه منه نزل، ومنه بدأ وهو الذي تكلم به.

(والثاني): علو الله سبحانه فوق خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول، وتعرفه الفطر: هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل. والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم، وتشهد به عقولهم.

قال ابن القيم رحمه الله:

والله أخبرنا بأن كتابه ... تنزيله بالحق والبرهان

أيكون تنزيلا وليس كلام من ... فوق العباد أذاك ذو إمكان

أيكون تنزيلا من الرحمن والر ... حمن ليس مباين الأكوان[٢]

الثامن:

---

(١) توضيح الكافية الشافية (ص١٨٠ - ١٨١)، طبعة أضواء السلف.

(٢) الكافية الشافية (ص١٠٩ - ١١٠).

التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده، وأن بعضها أقرب إليه من بعض

قال سبحانه وتعالى: {فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون} [فصلت: ٣٨]. {وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون} [الأنبياء: ١٩]. {رب ابن لي عندك بيتا في الجنة} [التحريم: ١١]. {إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر} [القمر: ٥٤ – ٥٥]. {وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم} [يونس: ٢١]. {إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون} [الأعراف: ٢٠٦].

فدلت هذه الآية على أن الذين عنده هم قريبون إليه و«لو كان موجب العندية معنى عاما، كدخولهم تحت قدرته ومشيئته وأمثال ذلك: لكان كل مخلوق عنده؛ ولم يكن أحد مستكبرا عن عبادته، بل مسبحا له ساجدا، وقد قال تعالى: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} [غافر: ٦٠] وهو سبحانه وصف الملائكة بذلك ردا على الكفار المستكبرين عن عبادته»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

لو لم يكن سبحانه فوق الورى ... كانوا جميعا عند ذي السلطان

ويكون عند الله إبليس وجبـ ... ـريل هما في العند مستويان(٢)

وقال تعالى: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون} [آل عمران: ١٦٩].

قال مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ: سألنا عبد الله عن هذه الآية: {ولا تحسبن الذين قتلوا في

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٦٥ – ١٦٦).

(٢) الكافية الشافية (ص١١٢).

سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون} [آل عمران: ١٦٩]. قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال -يعني: النبي ﷺ-: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئا؟»(١).

وقال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فكل من له فهم بلغة العرب، يعلم أن اطلاعه إلى الشيء لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل. ولو كان كما زعمت الجهمية أن الله مع الإنسان وأسفل منه، وفي الأرض السابعة السفلى كما هو في السماء السابعة، لم يكن لقوله: «فيطلع إليهم ربك اطلاعة» معنى(٢).

التاسع: التصريح بأنه تعالى في السماء

قال الله سبحانه وتعالى: {أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير} [الملك: ١٦ - ١٧].

والمراد بقوله عَزَّوَجَلَّ: {من في السماء} [الملك: ١٦]: الله عَزَّوَجَلَّ(٣)، لقوله سبحانه وتعالى: {أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا} [الإسراء: ٦٨]، ولقوله عَزَّوَجَلَّ: {أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون} [النحل: ٤٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولقد أتى في سورة الملك التي ... تنجي لقارئها من النيران

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

(٢) التوحيد (ص٣٨١).

(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ٧)، طبعة دار الفكر - بيروت.

نصان أن الله فوق سمائه عند المحرف ما هما نصان[1]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله: {أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور} [الملك: ١٦]، من توهم أن مقتضى هذه الآية أن يكون الله في داخل السموات فهو جاهل بالاتفاق، وإن كنا إذا قلنا: إن الشمس والقمر في السماء يقتضي ذلك، فإن حرف «في» متعلق بما قبله وما بعده فهو بحسب المضاف والمضاف إليه.

فلو قال قائل: العرش في السماء أم في الأرض؟ لقيل: في السماء. ولو قيل: الجنة في السماء أم في الأرض؟ لقيل: الجنة في السماء، ولا يلزم من ذلك أن يكون العرش داخل السموات بل ولا الجنة.

فهذه الجنة سقفها الذي هو العرش فوق الأفلاك مع أن الجنة في السماء، والسماء يراد به العلو.

ولما كان قد استقر في نفوس المخاطبين أن الله هو العلي الأعلى وأنه فوق كل شيء كان المفهوم من قوله: «من في السماء»، أنه في العلو وأنه فوق كل شيء.

وإذا قيل: «العلو» فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلها هو في السماء، ولا يقتضي هذا أن يكون هناك ظرف وجودي يحيط به، إذ ليس فوق العالم شيء موجود إلا الله، كما لو قيل: إن العرش في السماء فإنه لا يقتضي أن يكون العرش في شيء آخر موجود مخلوق.

وإذا قدر أن السماء المراد بها الأفلاك، كان المراد أنه عليها كما قال: {ولأصلبنكم في جذوع النخل} [طه: ٧١]، وقال: {فسيروا في الأرض} [آل

(١) الكافية الشافية (ص١٤٠).

عمران: ١٣٧] {فسيحوا في الأرض} [التوبة: ٢]. ويقال: فلان في الجبل وفي السطح، وإن كان على أعلى شيء فيه[١].

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكونه عَزَّ وَجَلَّ في السماء متواتر عن رسول الله ﷺ تواترا لفظيا[٢].

العاشر: شهادته ﷺ التي هي أصدق شهادة عند الله وملائكته وجميع المؤمنين لمن قال: «إن ربه في السماء» بالإيمان، وشهد عليه أفراخ جهم بالكفر.

وصرح الشافعي بأن هذا الذي وصفته من أن ربها في السماء إيمان، فقال في كتابه[٣] في «باب عتق الرقبة المؤمنة»، وذكر حديث الأمة السوداء التي سودت وجوه الجهمية، وبيضت وجوه المحمدية، فلما وصفت الإيمان قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»، وهي إنما وصفت كون ربها في السماء، وأن محمدا عبده ورسوله، فقرنت بينهما في الذكر، فجعل الصادق المصدوق مجموعهما هو الإيمان[٤].

قال شيخ الاسلام الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإنما احتج الشافعي - رحمة الله عليه - على المخالفين ... بهذا الخبر لاعتقاده أن الله سبحانه فوق خلقه وفوق سبع سمواته على عرشه كما هو معتقد المسلمين أهل السنة والجماعة سلفهم وخلفهم، إذ كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يروي خبراً صحيحا لا يقول به[٥].

وقال الحافظ إسماعيل بن محمد التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فحكم النبي ﷺ بإيمانها

---

(١) الرسالة التدمرية (ص٨٥ - ٨٩)، تحقيق محمد بن عودة السعوي.

(٢) الأربعين في صفات رب العالمين (ص٥٣-٥٤) للذهبي، طبعة مكتبة العلوم والحكم، المدينة النبوية، الأولى.

(٣) الأم (٥/ ٢٩٨).

(٤) إعلام الموقعين (٢/ ٣١٦).

(٥) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص٤٣).

حين قالت: إن الله في السماء، وتحكم الجهمية بكفر من يقول ذلك[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واذكر شهادته لمن قد قال ربـ ـي في السما بحقيقة الإيمان

وشهادة العدل المعطل للذي قد قال ذا بحقيقة الكفران

واحكم بأيهما تشاء وإنني لأراك تقبل شاهد البطلان

إن كنت من أتباع جهم صاحب التـ ـعطيل والبهتان والعدوان[٢]

الحادي عشر: التصريح بالاستواء مقرونا بأداة «على» مختصا بالعرش - الذي هو أعلى المخلوقات وأنزهها وأطهرها وأنورها وأشرفها ذاتا وقدرا وأوسعها - مصاحبا في الأكثر لأداة «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة.

قال سبحانه وتعالى - ومن أصدق من الله حديثا؟ -: {ثم استوى على العرش} [السجدة: ٤][٣].

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/ ١١٥).

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (ص١٤٣).

(٣) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مدارج السالكين» (١/ ٤٢ - ٤٣): «الرحمن: الذي الرحمة وصفه. والرحيم: الراحم لعباده. ولهذا يقول تعالى: {وكان بالمؤمنين رحيما} [الأحزاب: ٤٣] {إنه بهم رؤوف رحيم} [التوبة: ١١٧]، ولم يجيء رحمن بعباده، ولا رحمن بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به. ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلئ غضبا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن مليء بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول. ولهذا يقرن استواؤه على العرش بهذا الاسم كثيرا فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات، وقد وسعها. والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء} [الأعراف: ١٥٦]، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك وسعت رحمته كل شيء. وفي الصحيح من =

وقال سبحانه وتعالى في وصف كتابه العزيز: {تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى الرحمان على العرش استوى} [طه: ٤ - ٥].

وقد فسر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ الاستواء: بالعلو والارتفاع(١).

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «استوى: علا على العرش»(٢).

وقال سفيان الثوري: كنت عند ربيعة بن أبي عبد الرحمن فسأله رجل فقال: {الرحمان على العرش استوى} [طه: ٥]، كيف استوى؟ فقال: «الاستواء غير مجهول، الكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق»(٣).

وقال رجل للإمام مالك: يا أبا عبد الله: {الرحمان على العرش استوى} [طه: ٥]، كيف استوى؟ قال: «الكيف غير معقول، الاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني أخاف أن تكون ضالا، وأمر به فأخرج»(٤).

=

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش. إن رحمتي تغلب غضبي».
فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله: {الرحمان على العرش استوى} [طه: ٥]، وقوله: {ثم استوى على العرش الرحمان فاسأل به خبيرا} [الفرقان: ٥٩]، ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى».

(١) جامع البيان (١/ ١٩١).

(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٤١٤) معلقا، وصحح إسناده ابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/ ٣٤٥٥).

(٣) أخرجه الذهبي في «العلو» (ص٩١١)، وصححه.

(٤) أخرجه الذهبي في «العلو» (ص٩٥٤) وقال: «هذا ثابت عن مالك».

قال الإمام الذهبي معقبا: «هذا ثابت عن مالك، وهو قول أهل السنة قاطبة: أن كيفية الاستواء لا نعقلها، بل نجهلها، وأن استواءه معلوم كما أخبر في كتابه، وأنه كما يليق به، لا نتعمق ولا نتحذلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفيا ولا إثباتا، بل نسكت ونقف كما وقف السلف، ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة، والتابعون، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه، ونعلم يقينا مع ذلك أن الله جل جلاله لا مثل له في صفاته، ولا في استوائه، ولا في نزوله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا»(١).

وقال بشر بن عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٧هـ): «سمعت غير واحد من المفسرين يقولون: {الرحمان على العرش استوى} [طه: ٥]، على العرش ارتفع»(٢).

وقال يزيد بن هارون رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٦هـ) وقيل له: من الجهمية؟ قال: «من زعم أن {الرحمان على العرش استوى} [طه: ٥] على خلاف ما يقر في قلوب العامة فهو جهمي»(٣).

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ معقبا: «(يقر): مخفف، و(العامة): مراده بهم جمهور الأمة وأهل العلم، والذي وقر في قلوبهم من الآية هو ما دل عليه الخطاب مع يقينهم بأن المستوي ليس كمثله شيء. هذا الذي وقر في فطرهم السليمة، وأذهانهم الصحيحة، ولو كان له معنى وراء ذلك، لتفوهوا به ولما أهملوه، ولو تأول أحد منهم الاستواء، لتوفرت الهمم على نقله، ولو نقل لاشتهر. فإن كان في بعض جهلة الأغبياء من يفهم من الاستواء ما يوجب نقصا

---

(١) العلو (ص٩٥٤).

(٢) أخرجه الذهبي في العلو (ص١٠١١)، وقال الألباني في «مختصر العلو» (ص١٦٠): «وهذا إسناد صحيح مسلسل بالثقات الحفاظ».

(٣) أخرجه أبو داود في «المسائل» (ص٢٦٨) بسند جيد.

أو قياسا للشاهد على الغائب؛ وللمخلوق على الخالق، فهذا نادر، فمن نطق بذلك زجر وعلم، وما أظن أن أحدا من العامة يقر في نفسه ذلك، والله أعلم»[(١)].

وقال إمام الأئمة ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ (٣١١هـ): «فنحن نؤمن بخبر الله جل وعلا أن خالقنا مستو على عرشه، لا نبدل كلام الله ولا نقول قولا غير الذي قيل لنا، كما قالت المعطلة والجهمية: إنه استولى على عرشه لا استوى، فبدلوا قولا غير الذي قيل لهم كفعل اليهود لما أمروا أن يقولوا: حطة، فقالوا: حنطة، مخالفين لأمر الله جل وعلا، كذلك الجهمية»[(٢)].

وقال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أشار تعالى في سورة الفرقان أن وصف الله بالاستواء صادر عن خبير بالله وبصفاته، عالم بما يليق به، وبما لا يليق وذلك في قوله تعالى: {الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمان فاسأل به خبيرا} [الفرقان: ٥٩].

فتأمل قوله: {فاسأل به خبيرا} [الفرقان: ٥٩]، بعد قوله: {ثم استوى على العرش الرحمان} [الفرقان: ٥٩]، تعلم أن من وصف الرحمن بالاستواء على العرش خبير بالرحمن وبصفاته لا يخفى عليه اللائق من الصفات وغير اللائق. فالذي نبأنا بأنه استوى على عرشه هو العليم الخبير الذي هو الرحمن، وقد قال تعالى: {ولا ينبئك مثل خبير} [فاطر: ١٤].

وبذلك تعلم أن من يدعي أن الاستواء يستلزم التشبيه، وأنه غير لائق غير خبير، نعم والله هو غير خبير»[(٣)].

---

(١) العلو (٢/ ١٠٣١).
(٢) كتاب التوحيد (ص١٠١)، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.
(٣) أضواء البيان (٧/ ٤٦٨).

الثاني عشر: الإشارة إليه سبحانه وتعالى حسا إلى العلو

وهي واقعة على أعلى جزء من الكون، وتقع على عظمة الإله، على ما يليق به.

فلقد أشار النبي ﷺ - الذي هو أعلم بالله وبما يجب له، ويمتنع عليه من جميع البشر - إلى الله سبحانه وتعالى لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله، في اليوم الأعظم، في المكان الأعظم، قال لهم: «وأنتم تسألون عني، فماذا أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت[١]. فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء، رافعا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء، قائلا: «اللهم اشهد»[٢]. فكأنا نشاهد تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله، وذلك اللسان الكريم وهو يقول لمن رفع أصبعه إليه: «اللهم اشهد»، تحقيقا لإثبات صفة العلو، وأن الرب الذي استشهده فوق العالم مستو على عرشه، ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين، وأدى رسالة ربه كما أمر، ونصح أمته غاية النصيحة، فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه وإيضاحه إلى تنطع المتنطعين، وحذلقة المتحذلقين! والحمد لله رب العالمين[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والله أكبر من أشار رسوله ... حقا إليه بأصبع وبنان

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصواعق» (ص٧٣٣ - ٧٣٤): «فلو لم يكن قد عرف المسلمون وتيقنوا ما أرسل به، وحصل لهم منه العلم اليقين، لم يكن قد حصل منه البلاغ المبين، ولما رفع الله عنه اللوم، ولما شهد له أعقل الأمة بأنه قد بلغ وبين. وغاية ما عند النفاة أنه بلغهم ألفاظا لا تفيدهم علما ولا يقينا، وأحالهم في طلب العلم واليقين على عقولهم، ونظرهم وأبحاثهم، لا على ما أوحي إليه، وهذا معلوم البطلان بالضرورة».

(٢) قطعة من حديث جابر المطول في حجة النبي ﷺ، أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) شرح الطحاوية (٢/ ٣٨٤ - ٣٨٥).

في مجمع الحق العظيم بموقف ... دون المعرف موقف الغفران
من قال منكم من أشار بأصبع ... قطعت فعند الله يجتمعان[١]

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولقد أشار رسوله في مجمع الـ ... ـحج العظيم بموقف الغفران
نحو السماء بأصبع قد كرمت ... مستشهدا للواحد الرحمن
يا رب فاشهد أنني بلغتهم ... ويشير نحوهم لقصد بيان
فغدا البنان مرفعا ومصوبا ... صلى عليك الله ذو الغفران
أديت ثم نصحت إذ بلغتنا ... حق البلاغ الواجب الشكران[٢]

الثالث عشر: التصريح برفع الأيدي والأبصار إليه سبحانه وتعالى

والأحاديث في ذلك كثيرة ومعلومة.

الرابع عشر: النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى من الكتاب والسنة، وإخبار النبي ﷺ أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر[٣] ليلة البدر ليس دونه سحاب، ولا يرونه إلا من فوقهم[٤].

وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين، «وأجلها قدرا، وأعلاها

---

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (ص٣٣٥).
(٢) الكافية الشافية (ص١١٣).
(٣) وجوه الشبه بين رؤية الله ورؤية الشمس والقمر:
أ - أنها رؤية من أسفل إلى أعلى.
ب - أنها واضحة جلية.
ج - أنها بصرية عيانية.
د - أنها رؤية بلا إحاطة.
(٤) شرح الطحاوية (٢/ ٣٨٦).

خطرا، وأقرها لعيون أهل السنة والجماعة، وأشدها على أهل البدعة والفرقة، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، وجميع الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام على تتابع القرون، وأنكرها أهل البدع المارقون، والجهمية المتهوكون، والفرعونية المعطلون، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون، وبحبائل الشيطان متمسكون، ومن حبل الله منقطعون، وعلى مسبة أصحاب رسول الله ﷺ عاكفون، وللسنة وأهلها محاربون، ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون، وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون»(١).

وقال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أحاديث رؤية الله في الآخرة متواترة، والقرآن مصدق لها»(٢).

الخامس عشر: التصريح بنزوله سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا

السادس عشر: إخباره ﷺ أنه تردد بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبين ربه ليلة المعراج بسبب الصلاة، فيصعد إلى ربه، ثم يعود إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عدة مرات(٣).

السابع عشر: النصوص الواردة في ذكر العرش وصفته وإضافته غالبا إلى خالقه تبارك وتعالى وأنه تعالى فوقه.

الثامن عشر: إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى، فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السماوات.

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص٣٦١)، طبعة مؤسسة الرسالة.
(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٥٥).
(٣) شرح الطحاوية (ص٢٨٧).

قال الله سبحانه وتعالى: {وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب} {أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا} [غافر: ٣٦ - ٣٧].

ففي هذه الآية بيان بين، ودلالة ظاهرة، على أن موسى قد كان أعلم فرعون أن ربه - جل وعلا - أعلى وفوق، فمن أجل ذلك أمر ببناء الصرح، ورام الاطلاع إليه، واتهم موسى بالكذب في ذلك. والجهمية لا تعلم أن الله فوقها بوجود ذاته فهم أعجز فهما من فرعون[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فكذب فرعون موسى في إخباره إياه بأن ربه فوق السماء. وعند الجهمية: لا فرق بين الإخبار بذلك، وبين الإخبار بأنه يأكل ويشرب، وعلى زعمهم يكون فرعون قد نزه الرب عما لا يليق به، وكذب موسى في إخباره بذلك إذ من قال عندهم: إن ربه فوق السموات فهو كاذب. فهم في هذا التكذيب موافقون لفرعون، مخالفون لموسى ولجميع الأنبياء، ولذلك سماهم أئمة السنة فرعونية، قالوا: وهم شر من الجهمية؛ فإن الجهمية يقولون: إن الله في كل مكان بذاته، وهؤلاء عطلوه بالكلية، وأوقعوا عليه الوصف المطابق للعدم المحض. فأي طائفة من طوائف بني آدم أثبتت الصانع على أي وجه كان قولهم خيرا من قولهم»[2].

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «والمخالف في هذه المسألة قد أنكر هذا يزعم أن موسى كاذب في هذا بطريق القطع واليقين، مع مخالفته لرب العالمين، وتخطئته

---

(١) انظر: تفسير الآية في «جامع البيان» (م١٢/ ج٢٤/ ص٨٢ - ٨٣)، والرد على الجهمية (ص٢١) للدارمي، والتمهيد (٧/ ١٣٣)، والإبانة (ص١٠٦)، والحجة في بيان المحجة (٢/ ١١٥)، والتوحيد (ص١١٤ - ١١٥) لابن خزيمة.

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٣١٧).

لنبيه الصادق الأمين، وتركه منهج الصحابة والتابعين، والأئمة السالفين، وسائر الخلق أجمعين. ونسأل الله تعالى أن يعصمنا من البدع برحمته، ويوفقنا لاتباع سنته»[١].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: {ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا} [غافر: ٣٦ - ٣٧]: «فهذا صريح في تكذيبه لموسى في قوله إن الله فوق السماوات والخلق كلهم، وتبع فرعون على قوله هذا جميع «الجهمية الفرعونية»، ورموا ببلائهم «أهل السنة والجماعة» وقالوا: إن مذهبهم مذهب فرعون الذي اعتقد علو الله على خلقه، وهذا من العجائب وقلب الحقائق[٢]. ومن المعلوم أن «الجهمية» أولى بفرعون في هذه الحالة، لأنه قالها إنكارا، وهو نفس مذهب «الجهمية»، فإنهم أنكروا كلام الله وعلوه على خلقه، كما أنكر فرعون ذلك بتكذيبه لرسالة موسى ولعلو الله، وليس بينهم فرق، إلا أن فرعون صرح بالإنكار وهم موهوا العبارات وزخرفوا الألفاظ، وقبحوا الحسن وحسنوا القبيح، وسموا أنفسهم أهل الحق، وسموا غيرهم أهل الباطل، فانخدعوا لهذه الزخارف وخدعوا غيرهم»[٣].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

ومن المصائب قولهم إن اعتقاد ... الفوق من فرعون ذي الكفران
فإذا اعتقدتم هذا فأشياع له ... أنتم وذا من أعظم البهتان
فاسمع إذا من ذا الذي أولى بفر ... عون المعطل جاحد الرحمن

---

(١) إثبات صفة العلو (ص٦٥).
(٢) توضيح الكافية الشافية (ص١٠٧).
(٣) توضيح الكافية الشافية (ص١١٨).

وانظر إلى ما جاء في القصص التي تحكي مقال إمامهم ببيان
والله قد جعل الضلالة قدوة بأئمة تدعو إلى النيران
فإمام كل معطل في نفيه فرعون مع نمرود مع هامان
طلب الصعود إلى السماء مكذبا موسى ورام الصرح بالبنيان
بل قال موسى كاذب في زعمه فوق السماء الرب ذو السلطان
فابنوا لي الصرح الرفيع لعلني أرقى إليه بحيلة الإنسان
وأظن موسى كاذبا في قوله الله فوق العرش ذو السلطان
وكذاك كذبه بأن إلهه ناداه بالتكليم دون عيان
هو أنكر التكليم والفوقية الـ ـعليا كقول الجهم ذي صفوان
فمن الذي أولى بفرعون إذا منا ومنكم بعد ذا التبيان(١)

أما الأدلة العقلية فهي كثيرة وسأورد ههنا ثلاثة منها

الدليل الأول: قول الإمام أحمد رحمه الله تعالى: "إذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله تعالى حين زعم أنه في كل مكان ولا يكون في مكان دون مكان فقل له: أليس كان الله ولا شيء؟

فسيقول: نعم.

فقل له: حين خلق الشيء هل خلقه في نفسه؟ أم خارجًا عن نفسه؟

فإنه يصير إلى ثلاثة أقوال:

واحد منها: إن زعم أن الله خلق الخلق في نفسه، كفر حين زعم أنه خلق الجن والشياطين وإبليس في نفسه.

---

(١) الكافية الشافية (ص١٣٠ - ١٣١).

وإن قال: خلقهم خارجا عن نفسه ثم دخل فيهم، كان هذا أيضًا كفر حين زعم أنه في كل مكان وحش قذر رديء.

وإن قال: خلقهم خارجًا عن نفسه ثم لم يدخل فيهم، رجع عن قوله كله أجمع"(١)

الدليل الثاني: قول ابن القيم: "إن كل من أقر بوجود رب للعالم مدبرله، لزمه الإقرار بمباينته لخلقه وعلوه عليهم.

فمن أقر بالرب، فإما أن يقر بأن له ذاتًا وماهية مخصوصة أو لا؟

فإن لم يقر بذلك، لم يقر بالرب، فإن ربًا لا ذات له ولا ماهية له هو والعدم سواء، وإن أقر بأن له ذاتًا مخصوصة وماهية، فإما أن يقر بتعينها أو يقول إنها غير معينة؟

فإن قيل إنها غير معينة كانت خيالًا في الذهن لا في الخارج، فإنه لا يوجد في الخارج إلا معينًا، لا سيما وتلك الذات أولى من تعيين كل معين فإنه يستحيل وقوع الشركة فيها، وأن يوجد لها نظير، فتعيين ذاته سبحانه واجب.

وإذا أقر بأنها معينة لا كلية، والعالم مشهود معين لا كلي، لزم قطعًا مباينة أحد المتعينين للآخر، فإنه إذا لم يباينه لم يعقل تميزه عنه وتعينه.

فإن قيل: هو يتعين بكونه لا داخلًا فيه ولا خارجًا عنه.

قيل: هذا -والله أعلم- حقيقة قولكم، وهو عين المحال، وهو تصريح منكم بأنه لا ذات له ولا ماهية تخصه، فإنه لو كان له ماهية يختص بها لكان تعينها لماهيته وذاته المخصوصة، وأنتم إنما جعلتم تعيينه أمرًا عدميًا محضًا ونفيًا صرفًا وهو كونه لا داخل العالم ولا خارجا عنه، وهذا التعيين لا يقتضي

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية (ص٩٥-٩٦) .

وجوده مما به يصح على العدم المحض.

وأيضًا فالعدم المحض لا يعين المتعين، فإنه لاشيء وإنما يعينه ذاته المخصوصة وصفاته، فلزم قطعًا من إثبات ذاته تعيين تلك الذات، ومن تعيينها مباينتها للمخلوقات، ومن المباينة العلو عليها لما تقدم من تقريره"[١].

الدليل الثالث: أنه قد ثبت بصريح المعقول أن الأمرين المتقابلين إذا كان أحدهما صفة كمال والآخر صفة نقص، فإن الله يوصف بالكمال منهما دون النقص، فلما تقابل الموت والحياة، وصف بالحياة دون الموت، ولما تقابل العلم والجهل، وصف بالعلم دون الجهل، ولما تقابل القدرة والعجز، وصف بالقدرة دون العجز، ولما تقابل المباينة للعالم والمداخلة له، وصف بالمباينة دون المداخلة، وإذا كان مع المباينة لا يخلو إما أن يكون عاليًا على العالم أو مسامتا له، وجب أن يوصف بالعلو دون المسامتة، فضلًا عن السفول.

والمنازع يسلم أنه موصوف بعلو المكانة وعلو القهر، وعلو القهر، وعلو المكانة معناه أنه أكمل من العالم، وعلو القهر مضمونه أنه قادر على العالم، فإذا كان مباينًا للعالم كان من تمام علوه أن يكون فوق العالم، ولا محاذيًا له ولا سافلا عنه.

ولما كان العلو صفة كمال، وكان ذلك من لوازم ذاته، فلا يكون مع وجود غيره إلا عاليًا عليه، ولا يكون قط غير عالٍ عليه[٢].

وبهذه النماذج التي أوردناها عن الأدلة العقلية يتضح لنا مدى دلالة المعقول الصريح على إثبات علو الله ومباينته لخلقه وكذلك مدى مخالفة أقوال

---

(١) مختصر الصواعق (١/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٥-٦).

المعطلة والحلولية لصريح المعقول وصحيح المنقول.

أما دليل الفطرة: فمن المعلوم أن الفطرة السليمة قد جبلت على الاعتراف بعلو الله سبحانه وتعالى، ويظهر هذا الأمر عندما يجد الإنسان نفسه مضطرًا إلى أن يقصد جهة العلو ولو بالقلب حين الدعاء، وهذا الأمر لا يستطيع الإنسان دفعه عن نفسه فضلًا عن أن يرد على قائله وينكر هذا الأمر عليه.

ومن أجل ذلك لم يجد الجويني -إمام الحرمين- جوابًا حين سأله الهمداني محتجًا عليه بها، فقد ذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس الاستاذ أبا المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين، وهو يتكلم في نفي صفة العلو ويقول: "كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان". فقال الشيخ أبو جعفر: "يا أستاذ دعنا من ذكر العرش -يعني لأن ذلك إنما جاء في السمع- أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط: يا الله، إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف تدفع هذه الضرورة على قلوبنا؟

قال: فلطم أبو المعالي على رأسه، وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني"[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "علو الخالق على المخلوق وأنه فوق العالم، أمر مستقر في فطر العباد، معلوم لهم بالضرورة، كما اتفق عليه جميع الأمم، إقرارًا بذلك، وتصديقًا من غير أن يتواطؤا على ذلك ويتشاعروا، وهم يخبرون عن أنفسهم أنهم يجدون التصديق بذلك في فطرهم.

وكذلك هم عندما يضطرون إلى قصد الله وإرادته، مثل قصده عند الدعاء

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٤، ٦١)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص٣٢٥-٣٢٦).

والمسألة، يضطرون إلى توجه قلوبهم إلى العلو، فكما أنهم مضطرون إلى أن يوجهوا قلوبهم إلى العلو إليه، لا يجدون في قلوبهم توجهًا إلى جهة أخرى، ولا استواء الجهات كلها عندها وخلو القلب عن قصد جهة من الجهات بل يجدون قلوبهم مضطرة إلى أن تقصد جهة علوهم دون غيرها من الجهات.

فهذا يتضمن بيان اضطرارهم إلى قصده في العلو وتوجههم عند دعائه إلى العلو، كما يتضمن فطرتهم على الإقرار بأنه في العلو والتصديق بذلك"[(١)].

المبحث الثاني: أقوال المخالفين

القول الأول: قول المعطلة من الفلاسفة[(٢)]، والجهمية[(٣)]، والمعتزلة[(٤)]، ومتأخري الأشاعرة[(٥)]، والقرامطة الباطنية[(٦)].

وهؤلاء جميعًا ينفون علو الله وارتفاعه فوق خلقه، وكل ذلك تحت دعوى التوحيد والتنزيه ونفي التشبيه، فهم يزعمون أن إثبات العلو لله تعالى فيه إثبات للجهة، والمحايثة، والحد، والحركة، والانتقال، وهذه الأمور على زعمهم تستلزم الجسمية، والأجسام حادثة، والله منزه عن الحوادث فمن أجل ذلك نفوا العلو، وأولوا النصوص الثابتة فيه بأن المراد بها علو القهر والغلبة.

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٥) بتصرف.

(٢) النجاة لابن سينا (ص٣٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٧-٢٩٨)، (٥/ ١٢٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٧-٢٩٨)، (٥/ ١٢٢).

(٥) تأويل مشكل الحديث لابن فورك (ص٦٣)، الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (٢٩، ٣٤).

(٦) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ١٧٨)، والقرامطة من الباطنية وهم ينتسبون إلى حمدان بن الأشعث الذي كان يلقب بقرمط لقرمطة في خطه أو خَطْوِه، انظر الفرق بين الفرق (٢٨١، ٢٩٣)، المنتظم لابن الجوزي (٥/ ١١٠، ١١١).

وقد انقسم الجهمية المعطلة النافون لعلو الله إلى فريقين في هذه المسألة:

الفريق الأول: وهم الذين يقولون أن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته ولا هو مباين له ولا محايث له.

وهذا القول هو ما يذهب إليه النظار والمتكلمون من هؤلاء المعطلة[١]، وهم بقولهم هذا قد نفوا الوصفين المتقابلين اللذين لا يخلو موجود منهما، وذلك خشية منهم أن يشبهوا، فهم قالوا بهذه المقالة هربًا منهم -على حد زعمهم- من إثبات الجهة والمكان والحيز، لأن فيها كما يدعون تجسيمًا وهو تشبيه، فقالوا: يلزمنا في الوجود ما يلزم مثبتي الصفات فنحن نسد الباب بالكلية.

وقد استند أصحاب هذا القول في قولهم هذا على حجج زعموا أنها عقلية أسسوها وابتدعوها وجعلوها مقدمة كل نص، وليس لهؤلاء أي دليل من القرآن أو السنة على صحة قولهم هذا. وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "وجميع أهل البدع قد يتمسكون بنصوص، كالخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة وغيرهم إلا الجهمية، فإنهم ليس معهم عن الأنبياء كلمة واحدة توافق ما يقولونه في النفي"[٢].

وسنأتي بعد ذكر القول الثاني إلى ذكر بعض تلك الحجج التي زعمها هؤلاء.

القول الثاني: وهم الذين يقولون بأن الله بذاته في كل مكان.

وهذا القول هو ما يذهب إليه النجارية[٣]، وكثير من الجهمية وبخاصة

(١) الرسالة الأضحوية (نقلا عن مختصر الصواعق ١/ ٢٣٧)، والاقتصاد في الاعتقاد (ص٣٤)، تأويل مشكل الحديث (ص٦٣-٦٤)، مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٧-٢٩٨، ٥/ ١٢٢-١٢٤)، نقض التأسيس (١/ ٦-٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٢).

(٣) هم أتباع حسين بن محمد بن عبد الله بن النجار، وقد كان أكثر معتزلة الري ومن حولها =

عبادهم وصوفيتهم وعوامهم وأهل المعرفة والتحقيق منهم[(١)].

ويحتج هؤلاء ببعض الحجج العقلية المزعومة بالإضافة إلى بعض الآيات القرآنية الدالة على المعية والقرب.

وقد يجمع كثير من هؤلاء المعطلة بين القولين، فهو في حالة نظره وبحثه يقول بسلب الوصفين المتقابلين كليهما، فيقول لا هو داخل العالم ولا خارجه.

وفي حالة تعبده وتألهه يقول بأنه في كل مكان ولا يخلو منه شيء[(٢)].

شبهة المعطلة العقلية: إن جل ما اعتمد عليه هؤلاء المعطلة من أدلة على نفي صفة العلو وغيرها من الصفات إنما هو عبارة عن حجج عقلية مزعومة ومبتدعة بناها هؤلاء المعطلة على أصول فلسفية كانوا قد تأثروا بها، وليس لهؤلاء المعطلة في نفيهم هذا أساس من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ.

وقد جعل هؤلاء المعطلة لتلك الحجج حكم الأمر المحكم الذي يجب اتباعه واعتقاد موجبه والتسليم به، وقد بلغ من تقديسهم لها أنهم جعلوها مقدمة على الكتاب والسنة فإذا ورد النص من الكتاب أو السنة عرضوه على تلك الأسس العقلية، فإن وافقها احتجوا به اعتضادا لا اعتمادا، وإن خالفها فهم يحرفون الكلم عن مواضعه فيؤولون نصوص القرآن ويطعنون في نصوص السنة، وكل ذلك تحت دعوى التنزيه والتوحيد ونفي التشبيه.

=

على مذهبه، وقد نقل الشهرستاني في الملل والنحل (١/ ١١٣-١١٤) عن الكعبي قوله: (إن النجار كان يقول: إن الباري بكل مكان وجودا لا معنى العلم والقدرة). وانظر مقالات الإسلاميين (١/ ١٣٥-١٣٧، ٢٨٣-٢٨٥)، والفرق بين الفرق (١٢٦-١٢٧)، وأصول الدين للبغدادي (ص٣٣٤)، والتبصير في الدين (١٠١، ١٠٢، ١٠٣).

(١) انظر نقض التأسيس(١/ ٧).

(٢) انظر نقض التأسيس(١/ ٧).

وقد أفرط هؤلاء المعطلة في هذا الجانب -أي جانب نفي التشبيه- فجعلوا من قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى ١١] جنة يتترسون بها لنفي علو الله سبحانه فوق عرشه وتكليمه لرسله وإثبات صفات كماله، وغير ذلك مما أخبر الله به عن نفسه، أو أخبر به رسوله ﷺ، حتى إنه قد آل ببعض هؤلاء المعطلة إلى نفي ذاته خشية التشبيه فقالوا: هو وجود محض لا ماهية له، ونفى آخرون وجوده بالكلية خشية التشبيه -على حد زعمهم- حيث قالوا: يلزمنا في الوجود ما يلزم مثبتي الصفات والكلام والعلو فنحن نسد الباب بالكلية[١].

وسوف نتعرض في هذا البحث لبعض أسس تلك الشبه العقلية المزعومة التي جعلها هؤلاء المعطلة مستندا لهم في نفي صفة العلو وغيرها من الصفات، ونبين ما فيها من مخالفة لكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ مع بيان ما في تلك الأسس من تناقض وبخاصة من الناحية العقلية.

ونظرًا لتعدد مذاهب المعطلة واختلاف بعضها عن بعض في القول والرأي، فسوف نعرض شبهة كل فرقة من الفرق السابقة الذكر على حدة فنبدأ أولًا بـ:

١- شبهة الفلاسفة[٢]:

الفلاسفة ينفون صفة العلو وباقي صفات الباري ﷻ -كما سبق أن ذكرنا- تحت دعوى التوحيد والتنزيه عن مشابهة المخلوقين، فابن سينا يقول: "إن واجب الوجود بذاته واحد بسيط لا تكثر فيه بوجه من الوجوه، فهو ليس بجسم، ولا صورة جسم، ولا مادة معقولة لصورة معقولة، ولا صورة معقولة في مادة معقولة، ولا له قسمة في الكلم ولا في المبادىء المقومة له، ولا في قول الشارح

(١) مختصر الصواعق (١/ ٢٨٥).
(٢) أقصد بهم فلاسفة المسلمين كابن سينا والفارابي.

ولا غير ذلك مما ينافي وحدة واجب الوجود وبساطته المطلقة"[١].

والمتأمل لهذه العبارات التي أوردها ابن سينا يعرف أنها إنما هي مجرد اصطلاحات اصطلحها هو وأمثاله من الفلاسفة الذين تأثروا بفلسفة اليونان، فجعلوا من تلك العبارات المبتدعة ما أسموه بالتوحيد، وادعوا أن ما تضمنته هو التنزيه، مع أنها في الحقيقة متضمنة لنفي جميع الصفات بما فيها العلو والاستواء.

فقوله: (إن واجب الوجود بذاته واحد بسيط لا تكثر فيه بوجه من الوجوه) يعني به أنه ليس لله تعالى صفة ولا قدر، لأن ذلك على رأيه يستلزم التجسيم والتجزئة والتركيب فيلزم نفيه، لأنه يلزم من ذلك الحدوث والافتقار وذلك ينافي واجب الوجود.

فابن سينا وأمثاله من الفلاسفة يعتمدون في نفي الصفات على حجة التركيب والتي هي: (أنه لو كان له صفة لكان مركبًا، والمركب يفتقر إلى جزئيه، وجزءاه غيره، والمفتقر إلى غيره لا يكون واجبًا بنفسه) وهم بهذا الكلام تجدهم قد نفوا صفات الباري جميعها.

ولو توقفنا عند العبارة السابقة وهي قوله: (أن واجب الوجود بذاته واحد بسيط ...) من أجل بيان ما فيها من مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وحتى مخالفتها للعقل الذي يقدمه هؤلاء على كل شيء. لوجدنا هذه العبارة هي تفسير للواحد بما لا أصل له في الكتاب أو السنة، بل هو تفسير باطل شرعًا وعقلًا ولغة.

أما في اللغة: فإن أهل اللغة مطبقون على أن هذا القول ليس هو معنى

---

(١) النجاة لابن سينا (ص٣٧).

الواحد في اللغة، إذ القرآن ونحوه من الكلام العربي متطابق على ما هو معلوم بالاضطرار في لغة العرب وسائر اللغات أنهم يصفون كثيرًا من المخلوقات بأنه واحد ويكون ذلك جسمًا، إذ المخلوقات إما أجسام وإما أعراض عند من يجعلها غيرها أو زائدة عليها.

وإذا كان أهل اللغة متفقين على تسمية الجسم الواحد واحدًا، امتنع أن يكون في اللغة معنى الواحد الذي لا ينقسم إذا أريد بذلك أنه ليس بجسم وأنه لا يشار إلى شيء منه دون شيء، ولا يوجد في اللغة اسم الواحد إلاّ على ذي صفة ومقدار لقوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء ١]، ومعلوم أن النفس الواحدة المراد بها هنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحواء خلقت من ضلع آدم، فمن جسده خلقت لا من روحه حتى لا يقول القائل: الوحدة هي باعتبار النفس الناطقة التي لا تركيب فيها، وإذا كانت حواء خلقت من جسد آدم، وجسد آدم جسم من الأجسام التي سماها الله نفسًا واحدة علم أن الجسم قد يوصف بالوحدة. وأبلغ من ذلك ما ذكره الإمام أحمد وغيره من قوله تعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} [المدثر ١١]، فإن الوحيد مبالغة في الواحد فإذا وصف البشر الواحد بأنه وحيد في صفة فإنه واحد من باب أولى، ومع هذا فهو جسم من الأجسام.

وأما في العقل: فإن الواحد الذي وصفوه يقول لهم فيه أكثر العقلاء وأهل الفطر السليمة إنه أمر لا يعقل، ولا له وجود في الخارج، وإنما هو أمر مقدر في الذهن، فليس في الخارج شيء موجود لا يكون له صفات ولا قدر ولا يتميز من شيء عن شيء بحيث يمكن أن يرى ولا يدرك ولا يحاط به وإن سماه المسمى جسمًا.

وأما في الشرع: فنقول: إن مقصود المسلمين أن الأسماء المذكورة في القرآن والسنة وكلام المؤمنين المتفق عليه بمدح أو ذم، تعرف مسميات تلك الأسماء حتى يعطوها حقها، ومن المعلوم بالاضطرار أن اسم (الواحد) في كلام الله لم يقصد به سلب الصفات وسلب إدراكه بالحواس ولا نفي الحد والقدر ونحو ذلك من المعاني التي ابتدعها هؤلاء[1].

وأما حجة التركيب التي اعتمد عليها هؤلاء الفلاسفة في نفي الصفات وهي قولهم: (إنه لو كان صفة لكان مركبا والمركب يفتقر إلى جزئيه وجزءاه غيره، والمفتقر إلى غيره لا يكون واجبًا بنفسه) فهي تتكون من ألفاظ مجملة بمعنى أن كل لفظة منها تحتمل عدة معان فلا بد من توضيح المراد من كل لفظ أولًا حتى يتكلم فيه.

فلفظ (المركب) مثلًا: قد يراد به ما ركبه غيره، أو ما كان مفترقًا فاجتمع، أو ما يقبل التفريق، والله منزه عن هذه المعاني باتفاق.

وأما الذات الموصوفة بصفاتها اللازمة لها فإذا سميتم هذا تركيبًا كان ذلك اصطلاحًا لكم، وليس هو المفهوم من لفظ المركب ولن تستطيعوا أيها الفلاسفة إقامة الدليل على نفيه.

وأما قولهم: (لكان مركبًا) فإن أرادوا لكان غيره ركبه، أو لكان مجتمعًا بعد افتراقه، أو لكان قابلًا للتفريق. فاللازم باطل فإن الكلام إنما هو في الصفات اللازمة للموصوف الذي يمتنع وجوده بدونها.

وإن أراد بالمركب الموصوف أو ما يشبه ذلك فلِم قالوا أن ذلك يمتنع؟!

وأما قولهم (والمركب مفتقر إلى غيره) فالجواب عنه: أما المركب بالتفسير

---

(١) انظر نقض التأسيس (١/ ٤٨٢، ٤٨٤، ٤٨٨).

الأول فهو مفتقر إلى ما يباينه وهذا ممتنع على الله تعالى.

وأما الموصوف بصفات الكمال اللازمة لذاته الذي سميتموه أنتم مركبًا فليس في اتصافه هذا ما يوجب كونه مفتقرًا إلى مباين له.

وإن قالوا: هي غيره وهو لا يوجد إلا بها وهذا افتقار إليها، قيل لهم: إن أرادوا بقولهم هي غيره أنها مباينة له فذلك باطل. وإن أرادوا أنها ليست إياه، قيل لهم: إذا لم تكن الصفة هي الموصوف فأي محذور في هذا.

وإذا قالوا: هو مفتقر إليها، قيل: أتريدون بالافتقار أنه مفتقر إلى فاعل يفعله أو محل يقبله؟ أم تريدون أنه مستلزم لها فلا يكون موجودًا إلا وهو متصف بها؟

أما الثاني فأي محذور فيه؟ وأما الأول فباطل إذ الصفة اللازمة للموصوف لا يكون فاعلًا لها[1].

أما قولهم: (أنه لو كان صفة لكان مركبًا والمركب مفتقر إلى جزئيه)، فهذا القول لا يتم إلا عند من يثبت الجوهر الفرد، أما نفاته فعندهم أن الجسم في نفسه واحد بسيط ليس مركبًا من الجواهر المنفردة.

وهذه المسألة خلافية قد توقف فيها أذكى المتأخرين من الأشعرية وإمامهم أبو المعالي الجوني وكذلك أذكى متأخري المعتزلة أبو الحسين البصري وكذلك الرازي فهي مقدمة ممنوعة لا تصلح دليلا لوجود النزاع فيها حتى بين الفلاسفة أنفسهم[2].

٢- شبهة المعتزلة

وأما شبهة المعتزلة التي اعتمدوا عليها في نفي صفات الباري عَزَّوَجَلَّ بما فيها

---

(١) انظر منهاج السنة (١/ ١٨٨-١٩٠) بتصرف.

(٢) نقض التأسيس (١/ ٤٩٥-٤٩٦).

صفة العلو فهي ما تسمى بطريقة الأعراض، ذلك أنهم يزعمون أن الصفات إنما هي أعراض، والأعراض لا تقوم إلا بجسم، والأجسام حادثة، والله منزه عن الحوادث، ومن أجل ذلك كان قول المعتزلة في الله: إنه قديم واحد ليس معه في القدم غيره، فلو قامت به الصفات لكان معه غيره[١] ولكان جسمًا إذ إن ثبوت الصفات يقتضي كثرة وتعددًا في ذاته ويقتضي أنه جسم وذلك خلاف التوحيد.

فهم يزعمون أن توحيد الله وتنزيهه متوقف على أنه ليس بجسم، وكونه ليس بجسم موقوف على عدم قيام الأعراض والحوادث به التي هي الصفات والأفعال، ونفي ذلك عندهم موقوف على ما يدل عليه حدوث الأجسام، والذي دلهم على حدوث الأجسام أنها لا تخلو من الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث لا يسبقها، وما لا يسبق الحوادث فهو حادث.

ويزعمون أيضًا أن الأجسام لا تخلو من الأعراض، والأعراض لا تبقى زمانين فهي حادثة، فإذا لم تخل الأجسام منها لزم حدوثها.

ويزعمون أيضًا أن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة، والمركب مفتقر إلى جزئيه وجزءاه غيره، وما افتقر إلى غيره لم يكن إلا حادثًا مخلوقًا، فالأجسام متماثلة فكل ما صح على بعضها صح على جميعها، وقد صح على بعضها التحليل والتركيب والاجتماع والافتراق فيجب أن يصح على

---

(١) بالإضافة إلى زعم المعتزلة أن الصفات لا تقوم إلا بأجسام، فهم أيضًا يزعمون أن في إثبات الصفات قول بكثرة وتعدد ذات الله، لأنهم يقولون: (إن من أثبت لله صفة أزلية قديمة فقد أثبت إلهين)، كما اعتقدوا أن الصفات لو شاركته في القدم لشاركته في الألوهية.

انظر الملل للشهرستاني (١/ ٤٤-٤٦)، مقالات الإسلاميين (١/ ٢٤٥)، منهاج السنة (٢/ ١٦٩).

جميعها[١].

والمعتزلة يقولون أننا بهذا الطريق أثبتنا حدوث العالم ونفي كون الصانع جسمًا وإمكان المعاد.

الرد عليهم: مما تقدم نعلم أن المعتزلة إنما بنوا دليلهم في نفي الصفات على أن القديم لا يكون محلا للصفات والحركات فلا يكون جسمًا ولا محيزًا لأن الصفات أعراض وهم يستدلون على حدوث الجسم بحدوث الأعراض والحركات، وأن الجسم لا يخلو منها، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث.

فهم بهذا القول نفوا صفات الباري وجعلوا نفيها يتوقف عليه ثبوت الصانع وحدوث العالم، فإذا جاء في القرآن والسنة ما يدل على إثبات الصفات لم يمكن القول بموجبه.

والمتدبر لحجج المعتزلة يرى فيها الأمور التالية:

أولًا: أنهم يستدلون لأقوالهم بعبارات مبتدعة وفيها الكثير من الاشتباه والإجمال، وذلك كلفظ العرش والجسم والحيز والمركب وغير ذلك، فهم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ليخدعوا به جهال الناس بما يشبهون عليهم، وهذه الألفاظ المجملة تتضمن معاني باطلة ومعاني أخرى صحيحة فهم بهذا ينفون كلا المعنيين الحق والباطل.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللَّهُ- ما في هذه الألفاظ من معانٍ، وما تدل عليه من عبارات[٢]، وكيف استعملها هؤلاء المعطلة في نفي صفات الباري

---

(١) انظر مختصر الصواعق (١/ ٢٥٤).

(٢) انظر شرح ابن تيمية لهذه العبارات في نقض التأسيس الجهمية (١/ ٥٠٤، ٥١١)، وفي مجموع الفتاوى (٥/ ٤١٨-٤٣٠).

ﷻ حيث ادعوا أن هذه الأمور من مستلزمات الجسمية، والله منزه من ذلك، وقد بين شيخ الإسلام أن استعمال هذه الألفاظ نفيًا وإثباتًا لم يرد عن السلف ولا جاء به أثر صحيح ولم يستعملها الأقدمون بالمعنى الاصطلاحي الذي اتفق عليه هؤلاء، بل جميعهم معترفون بأن العلو صفة كمال كما أن السفل صفة نقص، وما ثبت لله من العلو فهو العلو المناسب لكمال ذاته المنزهة عن اعتبارات المحدثين ومماثلتهم.

ومعلوم أن القول بأن العلو يستلزم هذه المعاني المبهمة إنما هو مأخوذ من قياس الغائب على الشاهد، ومحاولة تطبيق الاعتبارات الإنسانية على الصفات الإلهية، وهذا قياس خاطئ إذ ليس معنى كونه في السماء أن السماء تحويه وتحيط به وتحصره، أو هي محل وظرف له، بل هو سبحانه محيط بكل شيء وسع كرسيه السموات والأرض، وهو فوق كل شيء وعالٍ على كل شيء[1].

ثانيا: أن ما استدل به المعتزلة لا أصل له من الكتاب أو السنة بل هو مأخوذ من كلام الفلاسفة الذين يزعمون أن للعالم صانعًا ليس بعالم ولا قادر ولا حي[2].

كما أن مذهب المعتزلة في الذات قريب من مذهب اليونان القائلين بأن ذات الله واحدة لا كثرة فيها بوجه من الوجوه[3].

ثالثًا: أن أصل هذه القاعدة التي اعتمد عليها المعتزلة في نفي الصفات إنما هي مأخوذة من قولهم في دليل حدوث العالم[4] الذي أثبتوا فيه حدوث العالم

---

(١) انظر كتاب موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من قضية التأويل (٣٨١-٣٨٥).

(٢) مقالات الإسلاميين (٢/ ١٧٧)، وموقف المعتزلة من السنة النبوية (٥٣).

(٣) موقف المعتزلة من السنة النبوية (٥٣).

(٤) انظر الكلام على دليل حدوث العالم في مجموع الفتاوى (١٣/ ١٥٣).

بحدوث الأجسام. وهذا الدليل قد بين الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر: أنه دليل محرم في شرائع الأنبياء، ولم يستدل به أحد من الرسل ولا أتباعهم[١]، فهي بهذا طريق يحرم سلوكها لما فيها من الخطر والتطويل وما يلزم عليها من لوازم باطلة لأنها مستلزمة لنفي الصانع بالكلية، وهي مستلزمة لنفي صفاته ونفي أفعاله ونفي المبدأ والمعاد، فهذه الطريق لا تتم إلا بنفي سمع الرب وبصره وقدرته وحياته وإرادته وكلامه فضلًا عن نفي علوه على خلقه ونفي الصفات الخبرية من أولها إلى آخرها، فلو صحت هذه الطريقة لنفت الصانع وأفعاله وصفاته وكلامه وخلقه للعالم وتدبيره له.

وما يثبته أصحاب هذه الطريقة من ذلك لا حقيقة له بل هو لفظ لا معنى له، وأن الله بذاته في كل مكان، وقال إخوانهم إنه ليس داخل العالم ولا خارج العالم، وقالوا بخلق القرآن إلى غير ذلك من اللوازم الباطلة[٢].

٣- شبه متأخري الأشاعرة

وهم أيضًا ينفون صفة العلو لأنها من الصفات الخبرية[٣]، ومعلوم أن مذهب متأخري الأشاعرة في الصفات أنهم يثبتون سبع صفات فقط وهي ما يسمونها بصفات المعاني وهي العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام، وهم يثبتون لهذه الصفات أربعة أحكام هي:

١- أن هذه الصفات ليست هي الذات بل زائدة عليها فصانع العالم عندهم

---

(١) انظر كتاب رسالة إلى أهل الثغر (ص١٦٤-١٧٢) تحقيق عبد الله شاكر الجنيدي، رسالة ماجستير من قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية.

(٢) مختصر الصواعق (١/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ودرء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٨-٤٠).

(٣) الصفات الخبرية وتسمى الصفات السمعية وهي: ما كان الدليل عليها مجرد خبر الرسول دون استناد إلى نظر عقلي كالاستواء والنزول والمجيء وغير ذلك.

عالم بعلم وحي بحياة وقادر وهكذا.

٢- أن هذه الصفات كلها قائمة بذات الله تعالى ولا يجوز أن يقوم شيء منها بغير ذاته لأن الدليل دل على أنه متصف بها ولا معنى لاتصافه بها إلا قيامها بذاته، حتى لو قلنا: إنه عالم كان هو بعينه مفهوم قولنا قام بذاته علم، فلا تكون الصفة لشيء إلا إذا قامت به لا بغيره.

٣- أن هذه الصفات كلها قديمة لأنها إن كانت حادثة كان القديم محلًا للحوادث وهذا محال، أو متصف بصفة لا تقوم به وذلك أظهر استحالة.

٤- أن الأسماء المشتقة لله تعالى من هذه الصفات السبع صادقة عليه أزلًا وأبدًا فهو في القدم كان حيًا قادرًا عليمًا سميعًا بصيرًا متكلمًا[١].

فهم على قولهم هذا لا يثبتون سوى هذه الصفات السبع فقط لأنها قديمة. أما باقي الصفات التي يسمونها الصفات الخبرية فهم ينفونها جميعها، بدعوى تنزيه ذات الله عن الحوادث.

ومتأخرو الأشاعرة هؤلاء وإن كانوا يخالفون المعتزلة في جعلهم الصفة غير الذات كما في الحكم الأول فيثبتون الصفات القديمة من هذا الباب، إلا أنهم قد وافقوا المعتزلة في دليلهم المسمى بدليل نفي الحوادث فنفوا باقي الصفات الأخرى، ذلك لأن قولهم في الحكم الثالث من الأحكام الأربعة التي أوردناها إنها لو كانت حادثة لكان القديم محلا للحوادث، هو بعينه ما استدل به المعتزلة على نفي الصفات[٢].

ويقول متأخرو الأشاعرة في دليلهم العقلي على نفي العلو إن إثبات العلو

---

(١) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص٨٤-١٠١)، بتصرف.

(٢) مختصر الصواعق (١/ ٢٥٥) .

يقتضي إثبات الجهة وإثبات الجهة يقتضي كونه جسمًا، وكونه جسمًا يقتضي كونه مركبًا، والمركب مفتقر إلى جزئيه، والمفتقر إلى جزئيه لا يكون إلا حادثا والله سبحانه منزه عن الحوادث[(١)].

فعلى قولهم هذا يكونون هم والمعتزلة على دليل واحد، وقد سبق أن ذكرنا الرد على المعتزلة فيكون الرد على هؤلاء من جنس الرد على أولئك، ويضاف إلى ذلك أن القول في الصفات التي نفاها هؤلاء هو كالقول في الصفات التي أثبتوها، فإن كان هذا تجسيمًا وقولا باطلًا فهذا كذلك.

وإن قالوا: إن إثباتها على الوجه الذي يليق بالرب.

قيل لهم: وكذلك هذا.

فإن قالوا: نحن نثبت تلك الصفات وننفي التجسيم.

قيل لهم: وهذا كذلك، فليس لكم أن تفرقوا بين المتماثلين[(٢)].

٤- شبه النفاة السمعية في نفي صفة العلو

لقد سبق وأن ذكرنا أن المعطلة قد انقسموا في هذه المسألة إلى فريقين:

فأما الفريق الأول: وهم القائلون بأن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته وهؤلاء كما سبق أن ذكرنا ليس لهم دليل واحد من الكتاب أو السنة.

وأما الفريق الثاني: وهم القائلون بأن الله بذاته في كل مكان فقد احتجوا لقولهم هذا بنصوص "المعية" و"القرب" الواردة في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى

---

(١) نقض التأسيس (١/ ٥٠٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٦٥) .

ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة ٧]، وقوله تعالى: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ} [النساء ١٠٨]، وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد ٤]، وقوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا} [التوبة ٤٠]، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق ١٦]، وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ} [الزخرف ٨٤]، وقوله تعالى: {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} [الأنعام٣].

وقد زعم حلولية الجهمية أن المراد بهذه النصوص معية الذات وقرب الذات، فلذلك قالوا: إن الله بذاته في كل مكان.

الرد عليهم: قد أبطل علماء السلف زعم هؤلاء الجهمية واستدلالهم بهذه الآيات ويبينوا أن كل نص يحتجون به هو في الحقيقة حجة عليهم، فنصوص المعية التي استدلوا بها لا تدل بأي حال من الأحوال على ما زعمه هؤلاء، وذلك لأن كلمة (مع) في لغة العرب لا تقتضي أن يكون أحد الشيئين مختلطًا بالآخر، وهي إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى.

ولفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع واقتضت في كل

موضع أمورًا لم تقتضها في الموضع الآخر، وذلك بحسب اختلاف دلالتها في كل موضع وهي قد وردت في القرآن بمعنيين هما:

المعنى الأول: المعية العامة

والمراد بها أن الله معنا بعلمه، فهو مطلع على خلقه شهيد عليهم، ومهيمن وعالم بهم، وهذه المعية هي المرادة بقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

فالله سبحانه وتعالى قد افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم ولذلك أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم تفسير القرآن على أن تفسير الآية هو أنه معهم بعلمه، وقد نقل هذا الإجماع ابن عبد البر(١)، وأبو عمرو الطلمنكي، وابن تيمية(٢)، وابن القيم(٣).

وعلى هذا فلا حجة للمخالفين في ظاهر هذه الآية.

وكذلك أيضًا ما جاء في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

فظاهر الآية دال على أن المراد بهذه المعية هو علم الله تبارك وتعالى واطلاعه على خلقه، فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية بأنه فوق العرش يعلم كل

---

(١) التمهيد (٧/ ١٣٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٣)، و(٥/ ٥١٩)، و(١١/ ٢٤٩-٢٥٠).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٤٤).

شيء، وهو معنا أينما كنا، فجمع تعالى في هذه الآية بين العلو والمعية، فليس بين الاثنين تناقض البتة، وهو كقوله ﷺ في حديث الأوعال: "والله فوق العرش يعلم ما أنتم عليه".

المعنى الثاني: المعية الخاصة

وهي معية الاطلاع والنصرة والتأييد، وسميت خاصة لأنها تخص أنبياء الله وأولياءه مثل قوله تعالى: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا}، وقوله تعالى: {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [النحل ١٢٨].

فهذه المعية على ظاهرها وحكمها في هذه المواطن النصر والتأييد.

ولفظ المعية على كلا الاستعمالين ليس مقتضاه أن تكون ذات الرب ﷻ مختلطة بالخلق، ولو كان معنى المعية أنه بذاته في كل مكان لتناقض الخبر العام والخبر الخاص، ولكن المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك(١).

وأما استدلالهم بقوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}، فقد أجاب عنه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: "إن هذه الآية لا تخلوا من أن يراد بها قربه سبحانه أو قرب ملائكته كما قد اختلف الناس في ذلك.

فإن أريد بها قرب الملائكة: فدليل ذلك من الآية قوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} ففسر ذلك القرب الذي هو حين يتلقى المتلقيان، فيكون الله سبحانه قد أخبر بعلمه هو سبحانه بما في نفس الإنسان، {وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ} وأخبر بقرب الملائكة الكرام الكاتبين منه، {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} وعلى هذا

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٥٠)، و(٥/ ١٠٤).

التفسير تكون هذه الآية مثل قوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف ٨٠].

أما إذا كان المراد بالقرب في الآية قربه سبحانه، فإن ظاهر السياق في الآية دل على أن المراد بقربه هنا قربه بعلمه، وذلك لورود لفظ العلم في سياق الآية {وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}"(١).

وأما استدلالهم بقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ}، فمعنى الآية: أي هو إله من في السموات وإله من في الأرض.

قال ابن عبد البر: "فوجب حمل هذه الآية على المعنى الصحيح المجتمع عليه، وذلك أنه في السماء إله معبود من أهل السماء، وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض، وكذلك قال أهل العلم بالتفسير"(٢).

وقال الآجري: "وقوله ﷻ: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ} فمعناه: أنه جل ذكره إله من في السموات وإله من في الأرض، وهو الإله يعبد في السموات، وهو الإله يعبد في الأرض، هكذا فسره العلماء"(٣).

وروى الآجري بسنده في تفسيره هذه الآية عن قتادة قوله: "هو إله يعبد في السماء، وإله يعبد في الأرض"(٤).

وأما استدلالهم بقوله تعالى: {هُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} فقد فسرها أئمة العلم كالإمام أحمد وغيره أنه المعبود في السموات والأرض(٥).

(١) الفتاوى (٦/ ١٩-٢٠).
(٢) التمهيد (٧/ ١٣٤).
(٣) الشريعة (٣/ ١١٠٤).
(٤) الشريعة (٣/ ١١٠٤-١١٠٥).
(٥) الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد (ص٩٢-٩٣)، ومجموع الفتاوى =

وقال الآجري: "وعند أهل العلم من أهل الحق {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُم وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} هو كما قال الحق {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ} فما جاءت به السنن أن الله ﷻ على عرشه، وعلمه محيط بجميع خلقه، يعلم ما تسرون وما تعلنون، ويعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون"[١].

القول الثاني

وهو قول من يقول: إن الله بذاته فوق العرش وهو بذاته في كل مكان.

هذا قول جماعة من أهل الكلام والتصوف كأبي معاذ التومنى[٢]، وزهير الأثري[٣]، وأصحابهما[٤]، وهو موجود في كلام السالمية[٥]،كأبي طالب المكي وأتباعه كأبي الحكم برجان وأمثاله ما يشير إلى نحو هذا. كما يوجد في كلامهم ما يناقض هذا[٦] فهم يقولون بأن الله في كل مكان، وأنه مع ذلك مستو على

=

(١١/ ٢٥٠).

(١) الشريعة (٣/ ١١٠٤).

(٢) أبو معاذ التومني من أئمة المرجئة ورأس فرقة التومنية منها. انظر ترجمته ومذهبه في مقالات الأشعري (١/ ٢٠٤، ٣٢٦) ،(٢/ ٢٣٢)، والملل والنحل (١/ ١٢٨).

(٣) زهير الأثري، لم أقف على ترجمته، وقد تكلم الأشعري عن آرائه بالتفصيل في المقالات (١/ ٣٢٦).

(٤) انظر نقض تأسيس الجهمية (١/ ٦)، والفتاوى (٢/ ٢٩٩)، ومقالات الإسلاميين (١/ ٣٢٦).

(٥) هم أتباع أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سالم المتوفى سنة (٢٩٧هـ) وابنه أبي الحسن أحمد بن محمد بن سالم المتوفى سنة (٣٥٠هـ)، وقد تتلمذ أحمد بن محمد بن سالم على سهل بن عبد الله التستري، ويجمع السالمية بين كلام أهل السنة وكلام المعتزلة مع ميل إلى التشبيه ونزعة صوفية اتحادية. انظر شذرات الذهب (٣/ ٣٦)، وطبقات الصوفية (ص٤١٤-٤١٦)، والفرق بين الفرق (ص١٥٧-٢٠٢).

(٦) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٩٩).

عرشه وأنه يرى بالأبصار بلا كيف، وأنه موجود الذات بكل مكان، وأنه ليس بجسم ولا محدود ولا يجوز عليه الحلول ولا المماسة، ويزعمون أنه يجيء يوم القيامة كما قال تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ} [الفجر ٢٢]، وقولهم هذا يشبه قول بعض مثبتة الجسم الذين يقولون إنه لا نهاية له(١).

والفرق بين هذا القول وقول الجهمية: بأن الله في كل مكان هو أن هؤلاء يثبتون العلو ونوعا من الحلول، أما الجهمية فلا يثبتون العلو على مقصود هؤلاء من الاستواء على العرش والمباينة.

ويزعم أصحاب هذا القول أنهم بقولهم هذا قد اتبعوا النصوص كلها سواء كانت نصوص علو أو معية أو قرب.

الرد عليهم

إنهم بقولهم هذا جمعوا بين كلام أهل السنة وكلام الجهمية، ولذلك كان قولهم ظاهر الخطأ وغاية في التناقض.

أما بيان خطئه فيكمن في أن كل من قال بأن الله بذاته في كل مكان فهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده، ولصريح المعقول وللأدلة الكثيرة، فالقرآن الكريم مملوء بالآيات التي تنص على علو الله بذاته فوق خلقه واستوائه على عرشه وبينونته من خلقه، كما أن السنة قد تحدثت عن هذا المعنى في كثير من الأحاديث، كقصة المعراج وصعود الملائكة ونزولها من عند الله وعروج الروح إليه واستوائه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا، فكل هذه الأدلة تبين بطلان هذا القول ومخالفته.

وأما استدلال هؤلاء بنصوص المعية والقرب، فقد بينا خطأ هذا الاستدلال

---

(١) نقض تأسيس الجهمية (٢/ ٦) .

وبطلانه عند الرد على الأدلة السمعية لمذهب الجهمية، وقد بينا أنه ليس للمخالفين أي متمسك في جعلها لمعية الذات أو قرب الذات.

أما بيان تناقض هذا القول: فهو واضح من أقوالهم، فهم يجمعون بين أقوال متناقضة، فهم تارة يقولون إنه بذاته فوق العرش، وتارة يقولون إنه فوق العرش ونصيب العرش فيه كنصيب قلب العارف -كما يذكر ذلك أبو طالب المكي وغيره-، ومعلوم أن قلب العارف نصيبه منه المعرفة والإيمان وما يتبع ذلك.

فإن قالوا: إن العرش كذلك، فقد نقضوا قولهم بأنه بنفسه فوق العرش.

وإن قالوا بحلول ذاته في قلوب العارفين، كان ذلك قولا بالحلول الخاص، وهذا ما وقع فيه طائفة من الصوفية ومنهم صاحب منازل السائرين[(١)].

الفصل الثاني

الأقوال في صفة الاستواء

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مذهب السلف في الاستواء.

المبحث الثاني: أقوال المخالفين.

المبحث الأول: مذهب السلف في الاستواء

والمقصود بالسلف هم الصحابة والتابعون ومن سار على نهجهم.

ولقد كان قولهم في الاستواء كقولهم في سائر صفات الله فهم وسط بين طائفتين هم المعطلة والمشبهة.

فهم لا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، ولا ذاته بذوات خلقه كما يفعل المشبهة.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٢-١٣١).

وكذلك لا ينفون عن الله ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ، فيعطلون أسماءه وصفاته، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويلحدون في أسمائه وآياته كما فعل المعطلة.

بل كان مذهبهم في سائر الصفات -بما في ذلك الاستواء- أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه محمد ﷺ نفيًا وإثباتًا.

وطريقتهم في الإثبات أنهم يثبتون ما أثبته الله من الصفات من غير تكييف لها، ولا تحريف، ولا تمثيل، ولا تعطيل.

وطريقتهم في النفي أنهم ينفون عن الله ما نفاه عن نفسه مع إثبات كمال ضد ذلك المنفي.

فطريقة السلف هي إثبات أسماء الله وصفاته مع نفي مماثلة المخلوقين، إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى ١١]، ففي قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} رد للتشبيه والتمثيل، وفي قوله: {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} رد للإلحاد والتعطيل(١).

ولقد كانت هذه طريقة السلف في جميع الصفات دون تفريق بين صفة وصفة، وفي ذلك يقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى: "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والسنة"(٢).

وبناءًا على هذه القاعدة كان مذهب السلف في صفة الاستواء أنهم يثبتون استواء الله على عرشه استواءًا يليق بجلاله وعظمته، ويناسب كبريائه، وهو بائن

---

(١) انظر الرسالة التدمرية (ص٤-٧)، المطبعة السلفية، الفتوى الحموية الكبرى (١٦-١٧)، المطبعة السلفية.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦).

من خلقه وخلقه بائنون منه.

فالاستواء صفة ثابتة في القرآن والسنة وقد أجمع سلف الأمة على إثباتها.

وذكر صفة الاستواء جاء في سبعة مواضع من القرآن الكريم، وسيأتي ذكرها كما أن السنة مليئة بالأحاديث الثابتة الصحيحة الدالة على علو الله واستوائه على عرشه.

والسلف يقولون إن معنى هذا الاستواء الوارد في الكتاب والسنة معلوم في اللغة العربية، كما قال ربيعة بن عبد الرحمن، والإمام مالك: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

فقولهم: (الاستواء معلوم): أي أن معنى الاستواء معلوم في اللغة، وهو ههنا بمعنى العلو والارتفاع.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله بلغتهم وأنزل به كلامه نوعان: مطلق، ومقيد.

فالمطلق: ما لم يوصل معناه بحرف مثل قوله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى} [القصص ١٤]، وهذا معناه: كمل وتم، ويقال: استوى النبات، واستوى الطعام.

وأما المقيد فثلاثة أضرب:

أحدها: مقيد "بإلى" كقوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}، واستوى فلان إلى السطح وإلى الغرفة، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى المعدى بإلى في موضعين من كتابه، الأول في سورة البقرة في قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} [البقرة ٢٩]، والثاني في سورة فصلت {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} [فصلت ١١]، وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع

السلف.

الثاني: المقيد "بعلى" كقوله تعالى: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} [الزخرف ١٣]، وقوله: {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ} [هود ٤٤]، وقوله: {فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ} [الفتح ٢٩]، وهذا أيضًا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون "بواو مع" التي تعدى الفعل إلى المفعول معه نحو استوى الماء والخشبة، بمعنى ساواها وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم"(١).

ومما يؤكد أيضًا أن السلف يعلمون معنى الاستواء قول ابن عبد البر: "والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه".

قال أبو عبيدة في قوله: {اسْتَوَى} قال: علا، قال: وتقول العرب: استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت، وقال غيره: استوى أي انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد، والاستواء الاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا الله ﷻ فقال: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ}، وقال: {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}، وقال: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ} [المؤمنون ٢٨].

وقال الشاعر:

فأوردتهم ماء بضبضاء قفرة ... وقد حلق النجم اليماني فاستوى

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد: استولى؛ لأن النجم لا يستولي.

وقد ذكر النضر بن شميل -وكان ثقة مأمونًا جليلًا في علم الديانة واللغة-

---

(١) انظر مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٢٦-١٢٧).

قال: "حدثني الخليل -وحسبك بالخليل- قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فسلمنا فرد علينا السلام وقال لنا: استووا فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال؟ فقال لنا أعرابي إلى جنبه: إنه أمركم أن ترتفعوا، قال الخليل: هو من قول الله ﷻ: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَان} فصعدنا إليه"[(١)].

وقال ابن القيم: "إن ظاهر الاستواء وحقيقته هو العلو والارتفاع كما نص عليه جميع أهل اللغة والتفسير المقبول"[(٢)].

ولما كان هذا هو معنى الاستواء في لغة العرب فقد تكلم السلف والمفسرون بهذا المعنى عند تفسير هذه الآية، فقد روي عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْش} قال: علا على العرش[(٣)].

وقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن أبي العالية في تفسير الآية السابقة الذكر قال: ارتفع[(٤)].

وقد روي عن الحسن البصري والربيع بن أنس مثله[(٥)].

وقد روى اللالكائي بسنده عن بشر بن عمر قال: "سمعت غير واحد من المفسرين يقولون: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، قال: على العرش استوى: ارتفع"[(٦)].

---

(١) التمهيد (٧/ ١٣١-١٣٢).
(٢) انظر مختصر الصواعق (٢/ ١٤٥).
(٣) انظر فتح الباري (١٣/ ٤٠٣).
(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٥١٩).
(٥) مجموع الفتاوى (٥/ ٥١٩).
(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٣٩٧).

وفي هذا التفسير لمعنى الاستواء من قبل السلف رد على من زعم أن مذهب السلف هو التقيد باللفظ مع تفويض المعنى المراد، وأنهم كانوا لا يفسرون الاستواء ولا يتكلمون فيه، فمن خلال ما تقدم من الأقوال التي نقلت عن السلف يتضح كذب هؤلاء وزيف ادعائهم.

ومما ينبغي معرفته أن السلف مع إثباتهم لمعنى الاستواء واعتقادهم بأن الله مستو على عرشه ومرتفع عليه، إلا أنهم يكلون علم كيفية ذلك الاستواء إلى الله ﷻ لأن أمره هو مما استأثر الله بعلمه. وفي ذلك يقول القرطبي: "ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته كما قال الإمام مالك: (الاستواء معلوم -يعني في اللغة- والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة")[1].

وقال ابن القيم: "إن العقل قد يئس من تعرف كنه صفات الله وكيفيتها، فإنه لا يعلم كيف الله إلا الله. وهذا معنى قول السلف (بلا كيف)، أي: بلا كيف يعقله البشر، فإنه من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته، كيف تعرف كيفية نعوته وصفاته؟ ولا يقدح ذلك في الإيمان بها، ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك. كما أنا نعرف معاني ما أخبر الله به من حقائق ما في اليوم الآخر، ولا نعرف كيفيتها مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق، فعجزنا من معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم"[2].

المبحث الثاني: أقوال المخالفين

الفريق الأول: نفاة الاستواء

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٥٩).

سبق أن ذكرنا أن المعطلة من الفلاسفة، والجهمية، والأشاعرة، والماتريدية، على الرغم من أن لكل واحد منهم منهجًا مستقلًا في مسألة الصفات يتفقون جميعًا على إنكار الصفات الاختيارية بما فيها صفة الاستواء، ويذهبون إلى تأويل الآيات القرآنية الواردة في إثباتها إلى ما أدت إليه عقولهم من المعاني الفاسدة التي يزعمون أن في ذلك تنزيهًا لله عن مشابهة المخلوقين.

وإن سبب ذلك التأويل الباطل هو اعتقاد هؤلاء المعطلة أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها النصوص، وذلك بسبب الشبهات الفاسدة التي شاركوا فيها إخوانهم من الفلاسفة، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر -وكان مع ذلك لابد للنصوص من معنى- بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى، وهي التي يسميها هؤلاء المعطلة طريقة السلف، وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع من التكلف، وهي التي يسمونها طريقة الخلف.

وبهذا يتبين لنا أن هذا الباطل الذي ذهب إليه هؤلاء المعطلة إنما هو مركب من فساد العقل والكفر بالسمع، وذلك لأنهم إنما اعتمدوا في نفي تلك الصفات على شبه عقلية ظنوها بينات وهي في الحقيقة شبهات.

وبناء على المسلك الثاني الذي سلكه هؤلاء المعطلة من تأويل تلك النصوص، فقد تعددت أقوالهم واختلفت في المعنى الذي يجب أن يؤول إليه لفظ الاستواء الوارد في الآيات إلى عدة أقوال منها:

القول الأول

من هؤلاء المعطلة من يؤول معنى الاستواء في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} على الاستيلاء والقهر والغلبة.

وهذا القول يذهب إليه كثير من الجهمية[١]، والمعتزلة[٢]، والحرورية[٣]، وكثير من متأخري الأشاعرة[٤]، كسيف الدين الآمدي[٥]،والغزالي[٦]، والبغدادي[٧]، وغيرهم.

وقد استدل هؤلاء المعطلة على صحة زعمهم هذا بأن تأويل الاستواء بالاستيلاء أمر مشهور في لغة العرب من ذلك:

قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ولا دم مهراق

وقال الآخر:

هما استويا بفضلهما جميعًا ... على عرش الملوك بغير زور

وقال الآخر:

فلما علونا واستوينا عليهم ... تركناهم صرعى لنسر كاسر

وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر -رحمه الله تعالى- أن بعضهم قد احتج بما رواه عبد الله بن داود الواسطي عن إبراهيم بن عبد الصمد عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، قال: "استولى على جميع بريته فلا يخلو منه مكان"[٨].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٥/ ٩٦)، ومختصر الصواعق (٢/ ١٤٤).

(٢) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار (١/ ٧٣، ٣٥١).

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٥/ ٦٦)، ومختصر الصواعق (٢/ ١٤٤).

(٤) انظر تحفة المريد على شرح جوهرة التوحيد (ص٥٤).

(٥) انظر غاية المرام (ص١٤١).

(٦) انظر الاقتصاد في الاعتقاد (ص١٠٤).

(٧) شرح الأصول الخمسة (ص٢٢٦).

(٨) التمهيد (٧/ ١٣٢). وقد أجاب ابن عبد البر على استدلالهم هذا بقوله: (إن هذا =

ومن هؤلاء المعطلة من يبقي كلمة العرش الواردة في الآية على معناها الحقيقي الثابت، ويقول إنما خصص العرش بالذكر من بين جميع المخلوقات لكونه أعظم المخلوقات وأرفعها وأوسطها فخصص بالذكر تنبيهًا على ما دونه.

ومنهم من يؤول العرش الوارد في الآية بمعنى الملك[١]، ويزعم أن معنى الآية استولى واستعلى على الملك، ويقول أصحاب هذا القول إن الله قد عبر بالعرش كناية على الملك، لأنه يخاطب الناس على الوجه الذي ألفوه من ملوكهم، واستقر في قلوبهم، ذلك أن العرش في كلامهم هو السرير الذي يجلس عليه الملوك، فجعل العرش كناية عن نفس الملك. ويستدل هؤلاء بأن هذا الأمر مشهور في اللغة، وكذلك بقوله تعالى في سورة يونس {ثُم اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ}، فقالوا: إن قوله يدبر الأمر جرى مجرى التفسير لقوله: {اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ}[٢].

الرد عليهم

لقد أجمع السلف على أن هذا التأويل الذي ذهب إليه هؤلاء الجهمية، والمعتزلة، والخوارج، ومتأخرو الأشاعرة، هو تأويل باطل ترده نصوص القرآن والسنة وإجماع الأمة، وهو قول لا أصل له في لغة العرب، بل هو تفسير لكلام

=

الحديث منكر على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ونقلته مجهولون وضعفاء، فأما عبد الله بن داود الواسطي وعبد الوهاب بن مجاهد فضعيفان، وإبراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف، وهم لا يقبلون أخبار الآحاد العدول، فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا الحديث لو عقلوا وأنصفوا).اهـ.

(١) انظر شرح الأصول الخمسة (ص٢٢٦)، تفسير الرازي (١٤/ ١٥)، وأصول الدين للبغدادي (ص١١٢).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ١١٥).

الله بالرأي المجرد، لم يذهب إليه صاحب ولا تابع، ولا قاله إمام من أئمة المسلمين، ولا أحد من أهل التفسير الذين يحكون قول السلف.

ولبيان فساد هذا القول على وجه التفصيل نقول

أولًا: أنه من المعلوم أن لفظ الاستواء قد ورد في القرآن الكريم في سبعة مواضع، وهذه المواضع جميعها قد اطرد فيها لفظ الاستواء دون الاستيلاء، وكذلك الأمر بالنسبة لما ورد في السنة، فلو كان معناه استولى -كما يزعم هؤلاء- لكان استعماله في أكثر موارده كذلك، فإذا جاء في موضع أو موضعين بلفظ استوى حمل على معنى استولى لأنه المألوف المعهود.

أما أن يُؤتى إلى لفظ قد اطرد استعماله في جميع موارده على معنى واحد فيدعى صرفه في الجميع إلى معنى لم يعهد استعماله فيه، فهذا أمر في غاية الفساد ولم يقصده ويفعله من قصد البيان، هذا لو لم يكن في السياق ما يأبى حمله على غير معناه الذي اطرد استعماله فيه، فكيف وفي السياق ما يأبى ذلك[1].

ثانيًا: ومما يرد هذا التأويل الباطل أن كلمة استوى قد جاءت بعد "ثم" التي حقها الترتيب والمهلة، فلو كان المعنى القدرة على العرش والاستيلاء عليه لم يتأخر ذلك إلى ما بعد خلق السموات والأرض، فإن العرش كان موجودًا قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام كما ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: "إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء"[2].

---

(١) انظر مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٢٨-١٢٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر (٨/ ٥١).

وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}.

وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: "كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض"(١).

فالآيات والحديثان يدلان دلالة واضحة على أن العرش كان موجودًا قبل خلق السموات والأرض فكيف يجوز أن يكون غير قادر ولا مستولٍ على العرش إلى أن خلق السموات والأرض(٢).

ثالثًا: أن الاستيلاء سواء كان بمعنى القدرة أو القهر أو نحو ذلك عام في المخلوقات كالربوبية، والعرش وإن كان أعظم المخلوقات ونسبة الربوبية إليه لا تنفي نسبتها إلى غيره كما في قوله تعالى: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}، فلو كان استوى بمعنى استولى كما هو عام في المخلوقات كلها لجاز مع إضافته للعرش أن يقال: استوى على السماء وعلى الهواء وعلى البحار والأرض، وعليها ودونها ونحوها إذ هو مستو على العرش. فلما اتفق المسلمون على أن يقال: استوى على العرش، ولا يقال استوى على هذه الأشياء مع أنه يقال: استولى على العرش والأشياء، علم أن معنى استوى خاص بالعرش وليس عاما كعموم الأشياء(٣).

رابعًا: أنه إذا فسر الاستواء بالغلبة والقهر عاد معنى الآيات كلها إلى أن الله

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ١٤٥).

(٣) المصدر السابق (٥/ ١٤٤).

تعالى أعلم عباده بأنه خلق السموات والأرض ثم غلب على العرش بعد ذلك وقهره وحكم عليه! أفلا يستحي من الله من في قلبه أدنى وقار لله ولكلامه أن ينسب ذلك إليه وأنه أراد بقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}: أي اعلموا يا عبادي أني بعد فراغي من خلق السموات والأرض غلبت عرشي وقهرته واستوليت عليه[1].

خامسًا: إن ما يستند إليه هؤلاء المعطلة في زعمهم هذا من قولهم أن تفسير استوى باستولى أمر مشهور في اللغة، هو قول باطل مردود لأنه لم يثبت عند أحد من أهل اللغة أن لفظة استوى يصح استعمالها بمعنى استولى بل إن هذا القول منكر عند اللغويين.

فهذا ابن الأعرابي أحد علماء اللغة أتاه رجل فقال له: ما معنى قول الله ﷻ: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}؟ فقال: "هو كما أخبر ﷻ"، فقال: يا أبا عبد الله ليس هذا معناه، إنما معناه استولى، قال: "اسكت ما أنت وهذا، لا يقال استولى على الشيء إلا أن يكون له مضادًا فإذا غلب أحدهما قيل استولى، أما سمعت النابغة:

إلا لمثلك أو من أنت سابقة … سبق الجواد إذا استولى على الأمد[2]

"وقد سئل الخليل بن أحمد: هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى؟ فقال: (هذا ما لا تعرفه العرب ولا هو جائز في لغتها).

والخليل إمام في اللغة على ما عرف من حاله، فحينئذ حمله على ما لا

(١) مختصر الصواعق (٢/ ١٤٠-١٤١).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢/ ٣٩٩).

نعرف في اللغة هو قول باطل"[١].

وكذلك فإنه قد روي عن جماعة من أهل اللغة قالوا: لا يجوز استوى بمعنى استولى إلا في حق من كان عاجزًا ثم ظهر، والله سبحانه لا يعجزه شيء والعرش لا يغالبه في حال، فامتنع أن يكون بمعنى استولى.

وقد روي عن أبي العباس ثعلب أنه قال: "استوى: أقبل عليه وإن لم يكن معوجًا، {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء} [البقرة ٢٩]، و{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْش} :علا، واستوى الوجه: اتصل، واستوى القمر: امتلأ، واستوى زيد وعمرو: تشابها واستوى فعلاهما وإن لم تتشابه شخوصهما، هذا الذي نعرفه من كلام العرب"[٢].

فبما تقدم من أقوال علماء اللغة يتضح لنا فساد زعم هؤلاء المعطلة وكذب ادعائهم بأن هذا القول مشهور في اللغة.

وأما ما استدل به هؤلاء من أبيات، كقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ولا دم مهراق

وقول آخر:

هما استويا بفضلهما جميعًا   على عرش الملوك بغير زور

فهذان البيتان لم يثبت نقل صحيح على أنهما شعر عربي، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروهما.

قال ابن فارس: "هذان البيتان لا يعرف قائلهما"[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٤٤، ١٤٩).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢/ ٣٩٩-٤٠٠).
(٣) زاد المسير لابن الجوزي.

فهما على هذا بيتان مصنوعان، ومعلوم أنه لو احتج بحديث رسول الله ﷺ لاحتاج إلى صحته، فكيف ببيت من الشعر لا يعرف إسناده وقد طعن فيه أئمة اللغة.

قال أبو عمر بن عبد البر: "وأما ادعائهم المجاز في الاستواء وقولهم في تأويل استوى: استولى، فلا معنى له لأنه غير ظاهر في اللغة، ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة، والله لا يغالبه أحد ولا يعلوه أحد، وهو الواحد الصمد، ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله إلى الأشهر والأظهر من وجوهه ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم. ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبارات، وجل الله عز وجل أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطبتها، مما يصح معناه عند السامعين، والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه. قال أبو عبيدة في قوله تعالى: {اسْتَوَى} قال: وتقول العرب استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت، وقال غيره: استوى: أي انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد"[١].

وأما ما استدل به المعطلة من قول ابن عباس رضي الله عنهما فقد بين ابن عبد البر أنه مكذوب على ابن عباس ورواته مجهولون وضعفاء كما تقدم ذكره.

القول الثاني

أن معنى استوى: أقبل على خلق العرش وعمد إلى خلقه كقوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَان} [فصلت ١١]، أي عمد إلى خلق السماء.

---

(١) التمهيد (٧/ ١٣١).

وهذا هو قول بعض الجهمية[١]، وإليه ذهب الفراء، والأشعري، وابن الضرير، واختاره الثعلبي[٢].

الرد عليهم: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذا الوجه من أضعف الوجوه، فإنه قد أخبر أن العرش على الماء قبل خلق السموات والأرض.

وكذلك ثبت في صحيح البخاري عن عمران عن النبي ﷺ أنه قال: "كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ..." فإذا كان العرش مخلوقًا قبل خلق السموات والأرض، فكيف يكون استواؤه عمده إلى خلقه له؟!

هذا لو كان يعرف في اللغة أن استوى على كذا، بمعنى أنه عمد إلى فعله، فكيف إذا كان لا يعرف قط في اللغة لا حقيقة ولا مجازًا ولا في نظم ولا في نثر.

ومن قال استوى بمعنى عمد ذكره في قوله: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} لأنه عدى بحرف الغاية، كما يقال: عمدت إلى كذا وقصدت إلى كذا، ولا يقال عمدت على كذا ولا قصدت عليه، مع أن ما ذكر في تلك الآية لا يعرف في اللغة أيضًا ولا هو قول أحد من مفسري السلف بل المفسرون من السلف بخلاف ذلك"[٣].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: "إن قولهم هذا يتضمن أن يكون خلقه بعد خلق السموات والأرض، وهذا بخلاف إجماع الأمة، وخلاف ما دل عليه القرآن والسنة، وإن ادعى بعض الجهمية المتأخرين أنه خلق بعد خلق السموات والأرض وادعى الإجماع على ذلك، وليس العجيب من جهله، بل من إقدامه

---

(١) مختصر الصواعق (٢/ ١٢٦).
(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ٨-٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٢٠-٥٢١).

على حكاية الإجماع على ما لم يقله مسلم"[١].

القول الثالث

أن استوى بمعنى علا في هذه الآية، ولكن ليس المراد علو المسافة والمكان، وإنما المراد علو المكانة والقهر، وقد ذهب إلى هذا القول جماعة من الأشاعرة منهم أبو بكر بن فورك[٢]، وهم بهذا القول جعلوا الاستواء صفة ذات وليست صفة فعل.

الرد عليهم: أن الآيات والأحاديث قد أثبتت استواء الله على العرش حقيقة، ولو كان معنى الاستواء ههنا المراد به علو المكانة فإن الله لم يزل متعاليًا على الأشياء قبل خلق العرش، فلما أضاف الاستواء على العرش فيجب على ذلك أن يكون لهذا التخصيص فائدة[٣].

القول الرابع

وهو قول من يثبت الاستواء على أنه صفة للعرش وليس صفة لله تعالى

وأصحاب هذا القول يقولون: إن الاستواء فعل يفعله الرب في العرش بمعنى أنه يحدث في العرش قربًا فيصير مستويًا عليه من غير أن يقوم به -أي بالله- فعل اختياري.

وهذا القول هو ما يقول به ابن كلاب، والأشعري[٤]، وأئمة أصحابه

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٤٣).

(٢) كتاب مشكل الحديث لابن فورك (ص١٩٣)، والأسماء والصفات للبيهقي (ص٥١٨).

(٣) المعتمد في أصول الدين للقاضي أبي يعلى (ص٥٤).

(٤) هذا القول لأبي الحسن الأشعري قاله عندما كان على قول ابن كلاب من نفي الأفعال الاختيارية عن الله تعالى.

المتقدمين كالباقلاني وغيره، وهو أيضًا قول القلانسي، ومن وافق هؤلاء من أتباع الأئمة وغيرهم من أصحاب الإمام أحمد كالقاضي أبي يعلى وابن الزاغوني وابن عقيل في كثير من أقواله[١].

والسبب الذي جعل هؤلاء القوم يمنعون جعل الاستواء صفة لله تعالى هو قولهم بنفي قيام الأفعال الاختيارية بذاته سبحانه وتعالى ولذلك يجعلون أفعاله اللازمة لذاته -كالنزول والاستواء- كأفعاله المتعدية -كالخلق والإحسان-، وقولهم في نفي الأفعال الاختيارية راجع إلى قولهم في صفات الله.

وهم يقولون: "إن الله هو الموصوف بالصفات، لكن ليست الصفات أعراضًا، إذ هي قديمة أزلية"[٢].

وحجتهم في منع قيام الحوادث بذات الله تعالى أنهم يقولون: "إن كل ما صح قيامه بالباري تعالى فإما أن يكون صفة كمال أو لا يكون فإن كان صفة كمال استحال أن يكون حادثًا، وإلا كانت ذاته قبل اتصافه بتلك الصفة خالية من صفة الكمال، والخالي من الكمال الذي هو ممكن الاتصاف به ناقص، والنقص على الله محال بإجماع الأمة.

وإن لم يكن صفة كمال استحال اتصاف الباري بها لأن إجماع الأمة على أن صفات الباري بأسرها صفات كمال، فإثبات صفة لا من صفات الكمال خرق للإجماع وهو أمر غير جائز"[٣].

الرد عليهم: لقد اعتمد أصحاب هذا القول في منعهم كون الاستواء صفة لله

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٨٦، ٤٣٧، ٤٦٦)، (١٦/ ٣٩٣) الأسماء والصفات (٥١٧) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٦٤، ٦٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٦).
(٣) انظر كتاب ابن تيمية السلفي (ص١٣٠).

تعالى على حجة منع قيام الحوادث بذاته تعالى، وهي حجة واهية وقد رد عليها شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: "إن المقدمة التي اعتمد عليها هؤلاء وهي قولهم: إن الخالي من الكمال الذي يمكن الاتصاف به ناقص. فيقال لهم: معلوم أن الحوادث المتعاقبة لا يمكن الاتصاف بها في الأزل، كما لا يمكن وجودها في الأزل، وعلى هذا فالخلو عنه في الأزل لا يكون خلوًا عما يمكن الاتصاف به في الأزل.

ثم إنه لم يثبت امتناع ما ذكر من النقص بدليل عقلي ولا بنص من كتاب ولا سنة، بل بما ادعوه من إجماع، وإذًا فمعلوم أن المنازعين في اتصافه بذلك هم من أهل الإجماع فكيف يحتج بالإجماع في مسألة النزاع.

وقولهم بإجماع الأمة على أن صفاته صفات كمال، فإن قصد بذلك صفاته اللازمة لم يكن في هذا حجة لهم، وإن قصد بذلك ما يحدث بمشيئته وقدرته لم يكن هذا إجماعًا فإن أهل الكلام يقولون أن صفة الفعل ليست صفة كمال ولا نقص والله موصوف بها بعد أن لم يكن موصوفًا.

ثم إن هذا الإجماع الذي ادعوه حجة عليهم فإنا إذا عرضنا على العقول موجودين: أحدهما يمكنه أن يتكلم ويفعل بمشيئته كلامًا وفعلًا، والآخر لا يمكنه ذلك، بل لا يكون كلامه إلا غير مقدور ولا مراد أو يكون بائنًا عنه، لكانت العقول تقضي بأن الأول أكمل من الثاني.

وكذلك إذا عرضنا على العقول موجودين من المخلوقين أو مطلقًا أحدهما يقدر على الذهاب والمجيء والتصرف بنفسه والآخر لا يمكنه ذلك لكانت العقول تقضي بأن الأول أكمل، فنفس ما به يعلم أن اتصافه بالحياة والقدرة صفات كمال، به يعلم أن اتصافه بالأفعال والأقوال الاختيارية التي تقوم به

والتي يفعل بها المفعولات المباينة له صفات كمال"[١].

وكذلك مما يرد به على هذا القول ما قاله ابن القيم: "إنه لو كان الاستواء عائدًا على العرش لكانت القراءة برفع العرش، ولم تكن بخفضة، فلما كانت بخفض العرش دل على أن الاستواء عائد إلى الله تعالى"[٢].

الفريق الثاني: القول بالتفويض

ويذهب أصحاب هذا القول إلى إثبات لفظ الاستواء فقط مع التوقف في المعنى المراد، فهم يقولون: إن الاستواء ثابت في القرآن حيث إنه قد ورد في سبع آيات، وكذلك قد وردت به الأخبار الصحيحة وقبوله من جهة التوقف واجب، والبحث عنه وطلب الكيفية غير جائز وهو استواء لا نعلمه[٣].

وقد ذهب إلى هذا القول البيهقي في كتابه الاعتقاد[٤] وهو أحد قولي الرازي[٥].

وهؤلاء في الحقيقة ينفون صفة الاستواء ولكن يتوقفون في المعنى الذي على زعمهم يجب تأويل اللفظ إليه.

وقد زعم كثير من الأشاعرة أن القول بالتفويض هو قول السلف[٦].

ويستدلون على نسبة هذا القول إلى السلف بعبارات نقلت عن السلف ظنوا

---

(١) الموافقة بين صريح العقل وصحيح النقل (٢/ ٧٣-١٧٥)، ط: دار الكتب.

(٢) انظر اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٦٤-٦٥).

(٣) الاعتقاد للبيهقي (ص١١٥).

(٤) الاعتقاد للبيهقي (ص١١٥).

(٥) تلخيص المحصل (ص١١٤).

(٦) الاعتقاد للبيهقي (ص١١٧)، الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٦)، مناهل العرفان (٢/ ١٨٣-١٨٣)، تحفة المريد (ص٩١-٩٢)، شرح الخريدة البهية (ص٧٥)، الأسماء والصفات (ص٥١٧).

أنها ترمي إلى القول بالتفويض كقول الأوزاعي: "كنا والتابعون متوافرون نقول أن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته جل وعلا".

وقول ربيعة بن عبد الرحمن، والإمام مالك: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب".

والقول بالتفويض هو مقصود هؤلاء القوم في قولهم: (إن طريقة السلف أسلم)، حيث إنهم ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ} [البقرة ٧٨].

الرد عليهم

معلوم أن نسبة هذا القول إلى السلف إنما هي محض كذب وافتراء، ومن نسب هذا القول إلى السلف فإنما هو جاهل بطريقة السلف الذين لم يقولوا بهذا القول، ولم يرد عن واحد منهم أنه فوض معنى الاستواء، بل أن الوارد عنهم جميعًا أنهم يفسرون الاستواء بالمعنى المراد وهو العلو والارتفاع على العرش ويؤمنون بأن الله مستو على العرش حقيقة.

قال شيخ الإسلام: "وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف، أما في كثير من الصفات فقطعًا مثل أن الله فوق العرش فإن من تأمل كلام السلف المنقول عنهم علم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العرش حقيقة، وأنهم ما قصدوا خلاف هذا قط، وكثير منهم صرح في كثير من الصفات بمثل ذلك"[١].

---

(١) الفتوى الحموية (ص٦٤).

وقال في موضع آخر: "وقد فسر الإمام أحمد النصوص التي نسميها متشابهات فبين معانيها آية آية، وحديثًا حديثًا ولم يتوقف فيها هو والأئمة قبله مما يدل على أن التوقف عن بيان معاني آيات الصفات وصرف الألفاظ عن ظواهرها لم يكن مذهبًا لأهل السنة وهم أعرف بمذهب السلف، وإنما مذهب السلف إجراء معاني آيات الصفات على ظاهرها بإثبات الصفات له حقيقة، وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعاني لا تحرف ولا يلحد فيها"[١].

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "تنازع الناس في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفق الصحابة والتابعون على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنه والكيفية"[٢].

وأما بالنسبة إلى ما استدل به أصحاب هذا القول على أن القول بالتفويض هو مذهب السلف وذكرهم لقول الإمام مالك: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة)، فليس المراد ههنا تفويض معنى الاستواء ولا نفي حقيقة الصفة، ولو كان المراد الإيمان بمجرد اللفظ من غير فهم على ما يليق بالله لما قال: (الكيف مجهول)، لأنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى[٣].

والاستواء على هذا المعنى لا يكون معلوما بل هو مجهول بمنزلة حروف

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤١٤).
(٢) مختصر الصواعق (١/ ١٥).
(٣) الفتوى الحموية (ص٢٥).

المعجم، لكن الأمر على عكس ذلك، فنفى علم الكيفية؛ لأنه أثبت الصفة وأراد بقوله الاستواء معلوم معناه في اللغة التي نزل بها القرآن فعلى هذا يكون معلومًا في القرآن.

ومعلوم أن ادعاء هؤلاء أن مذهب السلف إنما هو القول بالتفويض سببه اعتقاد هؤلاء أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر -كان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى- فبقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع من التكلف. وهذا التردد هو الذي وقع فيه من قال بالتفويض من هؤلاء كالبيهقي والرازي، فهم لم يلتزموا بهذا القول مطلقًا بل غالبًا ما يخالفونه كما فعل الرازي في تأسيسه حيث جنح إلى التأويل وترك القول بالتفويض.

الفريق الثالث: قول المشبهة

والمقصود بهم الهشامية(١) من الروافض، والكرامية(٢)، وغيرهم.

وهؤلاء يثبتون استواء الله وارتفاعه فوق عرشه، إلا أنهم تعمقوا في الكلام على كيفية ذلك الاستواء.

فالهشامية مثلًا يقولون: إن الله تعالى مماس لعرشه لا يفضل منه شيء في

---

(١) هم أصحاب هشام بن عبد الحكم الرافضي من الإمامية، وتنسب إليه وإلى هشام بن سالم الجواليقي أحيانا، من الإمامية المشبهة.
انظر المقالات (١/ ٣١-٣٤)، الملل والنحل (١/ ١٤٤-١٤٧).

(٢) هم أصحاب محمد بن كرام وهم طوائف يبلغ عددهم اثنتي عشرة فرقة وأصولها ستة هي: العابدية، والنونية، والزرينية، والإسحاقية، والواحدية، وأقربهم الهيصمية.
انظر الملل والنحل (١/ ١٤٤-١٤٧).

العرش ولا يفضل عن العرش شيء منه[١].

وأما الكرامية فقد تعددت أقوالهم في كيفية استوائه

فمنهم من يقول: إنه على بعض أجزاء العرش.

ومنهم من يقول: إن العرش مكان له وإن العرش امتلأ به.

ومنهم من يقول: إنه لو خلق بازاء العرش عروشًا موازية لعرشه لصارت العروش كلها مكانًا له لأنه أكبر منها كلها.

ومنهم من يقول: إن بينه وبين العرش من البعد والمسافة ما لو قدر مشغولا بالجواهر لاتصلت به[٢].

وقول هؤلاء المشبهة إنما هو نتيجة لازمة لأقوالهم في صفات الله وكلامهم في ذاته.

فالهشامية يقولون: "إن الله جسم ذو أبعاض له قدر من الأقدار، ولكن لا يشبه شيئًا من المخلوقات، ولا يشبهه شيء".

ونقل عنهم أنهم قالوا إنه سبعة أشبار بشبر نفسه، وإن له مكانًا مخصوصًا ووجهة مخصوصة وإنه يتحرك وحركته فعله، وليست من مكان إلى مكان وهو متناه بالذات غير متناه بالقدرة، وإنه مماس لعرشه ولا يفضل منه شيء من العرش ولا يفضل عن العرش شيء منه"[٣].

وأما الكرامية فيقول ابن كرام: "إن معبوده مستقر على العرش استقرارًا وإنه بجهة فوقَ ذاتًا وإنه أُحدي الذات أُحدي الجوهر وإنه مماس للعرش من

---

(١) الملل والنحل (٢/ ٢٢).

(٢) الملل والنحل (١/ ١٤٤-١٤٧).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٢٢).

الصفحة العليا".

ولهم في معنى العظم خلاف فقال بعضهم: "إنه مع وحدته على جميع أجزاء العرش والعرش تحته وهو فوقه كله على الوجه الذي هو فوق جزء منه".

وقال بعضهم: "أنه يلاقى مع وحدته من جهة واحدة أكثر من واحد، وهو يلاقى جميع أجزاء العرش وهو العلي العظيم".

وقالت المهاجرية منهم: إنه لا يزيد على عرشه في جهة المماسة ولا يفضل منه شيء على العرش، وهذا يقتضي أن يكون عرضه كعرض العرش.

وصار المتأخرون منهم إلى أنه تعالى بجهة فوق وأنه محاذ للعرش"[١].

الرد عليهم: هذا القول للمشبهة يتضمن حقًا وباطلا

فالحق فيه هو: اعترافهم بعلو الله واستوائه على عرشه وأنه بائن من خلقه والخلق بائنون عنه.

وأما الباطل فهو: كلامهم في ذات الله والتعرض لكيفية استوائه، وهو كلام باطل وفاسد ليس لهم به دليل من القرآن أو السنة، بل هو قول على الله بغير علم فالله سبحانه وتعالى لم يطلعنا على كيفية ذاته فأنّى لنا أن نعلم كيفية صفاته، وأمر الكيفية هو مما استأثر الله بعلمه قال تعالى: {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء} [البقرة ٢٥٥].

ومما يدلنا على فساد هذا القول وعدم وجود دليل لأصحابه على ما يقولون هو اختلاف آرائهم وأقوالهم عند الحديث عن ذات الله وكيفية استواءه. فمن خلال عرض أقوالهم يتضح اختلافهم وتناقضهم، وما ذاك إلا لأنّهم يفترون على الله الكذب قال تعالى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا

(١) انظر كتاب التجسيم عند المسلمين (ص٢٠٥).

كَثِيرًا} [النساء ٨٢].

والسؤال الذي ينبغي أن يوجه إلى هؤلاء المشبهة في هذا المقام هو: أين الدليل من الكتاب أو السنة على ما تزعمون؟

والجواب معروف وهو أنه لا دليل لهم على ذلك لا من القرآن ولا من السنة.

ومما ينبغي معرفته أن الكلام على كيفية ذات الله أو كيفية استوائه أو غيرها من الصفات هو أمر غير جائز عند السلف ويحرم الخوض فيه بل يبدعون السائل عن ذلك، ولذلك بدع الإمام مالك السائل الذي سأله عن كيفية استواء الباري ﷻ، حيث قال له: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، وما أراك إلا رجل سوء، وأمر بإخراجه)، وما قاله الإمام مالك هو الذي جاءت به النصوص وهو الذي سار عليه السلف جميعًا.

مسألة: الكلام عن الحد

الحد في اللغة: الحاجز بين الشيئين، الذي يُمَيِّزُ بينهما، لئلا يختلط أحدهما بالآخر، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر، وهو مأخوذ من حد الشيء عن غيره يَحُدُّهُ حَدًّا إذا ميزه". كما في الصحاح للجوهري (٢/ ٤٦٢)، ولسان العرب (٣/ ١٤٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض تأسيس الجهمية (١/ ٤٤٣): "الحد ما يتميز به الشيء عن غيره من صفته وقدره".اهـ.

والأقوال في هذه المسألة على النحو التالي

القول الأول: قول من يقول هو فوق العرش ولا يوصف بالتناهي ولا بعدمه إذ لا يقبل واحدًا منهم فعندهم أن الله فوق العرش ولا يوصف بأن له قدرًا وهذا

يقوله بعض أهل الكلام والفقه والحديث والتصوف من الكلابية والكرامية والأشعرية ومن وافقهم من أتباع الأئمة من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم.

القول الثاني: قول من يقول هو غير متناه إما من جانب وإما من جميع الجوانب، وهذا يقوله أيضًا طوائف من أهل الكلام والفقهاء وغيرهم وحكاه الأشعري في المقالات عن الطوائف.

القول الثالث: قول السلف والأئمة وأهل الحديث والكلام والفقه والتصوف الذين يقولون: له حد لا يعلمه غيره. انظر درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٣٠٠ - ٣٠١).

من المعلوم أن إطلاق السلف للحد ليس من باب الصفات وإنما هو من باب الإخبار ولهم فيه استعمالان:

الاستعمال الأول: في حال الإثبات، ومن الآثار الواردة في ذلك ما رواه الخلال بسنده عن محمد بن إبراهيم القيسي، قال: "قلت لأحمد بن حنبل: يحكى عن ابن المبارك -وقيل له: كيف نعرف ربنا؟ - قال: في السماء السابعة على عرشه بحد. فقال أحمد: هكذا هو عندنا".

وعن حرب بن إسماعيل قال: "قلت لإسحاق -يعني ابن راهويه-: هو على العرش بحد؟ قال: نعم بحد".

وذكر عن ابن المبارك قال: "هو على عرشه بائن من خلقه بحد".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض تأسيس الجهمية (١/ ٣٩٧): "إن كثيرًا من أئمة السنة والحديث - كعثمان بن سعيد الدارمي، وعبد الله بن المبارك، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل، والخلال، وحرب الكرماني، وإسحاق بن

راهويه، وابن بطة، وأبي إسماعيل الأنصاري الهروي، وإبي القاسم ابن منده، وقوام السنة الأصبهاني، وإسماعيل بن الفضل التيمي، والقاضي أبي يعلى، وأبي الحسن بن الزاغوني، والحافظ أبي العلاء الهمداني، وغير هؤلاء- أو أكثرهم يقولون إنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه بحد".

الاستعمال الثاني: في حال النفي

قال حنبل: "قلت لأبي عبد الله: ما معنى قوله: {وَهُوَ مَعَكُم}، و{مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ}؟. قال: علمه محيط بالكل، وربنا على العرش بلا حد ولا صفة". وفي رسالة الإصطخري قال الإمام أحمد: "والله عَزَّ وَجَلَّ على عرشه ليس له حد، والله أعلم بحده".

توضيح المسألة

أما الاستعمال الأول: فهو استعماله في حال الإثبات.

فقد استعمل في مسألة إثبات علو الله على خلقه وتميزه وانفصاله عنهم وعدم اختلاطه بهم أو حلوله فيهم، فلما زعم الجهمية أن الخالق في كل مكان وأنه غير مباين لخلقه ولا متميز عنهم، قال بعض أئمة السلف: إن الله سبحانه عالٍ على خلقه، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، وذكروا الحد، لأن الجهمية زعموا أنه ليس له حد وما لا حد له لايباين المخلوقات ولا يكون فوق العالم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض تأسيس الجهمية (١/ ٤٤٢ - ٤٤٣): "ولما كان الجهمية يقولون ما مضمونه إن الخالق لا يتميز عن الخلق فيجحدون صفاته التي تميز بها، ويجحدون قَدْرَهُ؛ حتى يقول المعتزلة إذا عرفوا أنه حي، عالم، قدير: قد عرفنا حقيقته وماهيته، ويقولون إنه لا يباين غيره. بل إما أن يصفوه بصفة المعدوم؛ فيقولوا: لا داخل العالم ولا خارجه، ولا كذا ولا

كذا. أو يجعلوه حالًا في المخلوقات أو وجوده وجود المخلوقات. فبين ابن المبارك أن الرب سبحانه وتعالى على عرشه مباين لخلقه منفصل عنه، وذكر الحد. لأن الجهمية كانوا يقولون ليس له حد، وما لا حد له لا يباين المخلوقات ولا يكون فوق العالم لأن ذلك مستلزم للحد"ا. هـ.

وبناءً على ما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فقد أثبت السلف الحد لما في إثبات هذا اللفظ من رد على الجهمية فيما زعموا، ولما في معنى (الحد) من إثبات مباينة الله لخلقه، وعلوه عليهم، واستوائه على عرشه. وإن كان السلف يقولون إنه حد لا يعلمه إلا الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣٥) بعد أن نقل الآثار الواردة عن السلف في إثبات الحد: "فهذا وأمثاله مما نقل عن الأئمة، كما قد بسط في غير هذا الموضع، وبينوا أن ما أثبتوه له من الحد لا يعلمه غيره، كما قال مالك وربيعة وغيرهما: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، فبين أن كيفية استوائه مجهولة للعباد، فلم ينفوا ثبوت ذلك في نفس الأمر، ولكن نفوا علم الخلق به، وكذلك مثل هذا في كلام عبد العزيز بن عبد الله بن الماجشون وغير واحد من السلف، والأئمة ينفون علم الخلق بقدره وكيفيته"ا. هـ.

الاستعمال الثاني: استعماله في حال النفي. وذلك في مسألة نفي الإحاطة بالله علمًا وإدراكًا، فلا منازعة بين أهل السنة بأن الله تعالى غير مدرك الإحاطة، والخلق عاجزون عن الإحاطة به، فهم لا يستطيعون أن يحدوا الخالق جل وعلا، أو يُقَدِّرُوه، أو يبلغوا صفته، فمن نفى الحد على هذا المعنى فهو مصيب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض تأسيس الجهمية (٢/ ١٦٢): "المحفوظ عن السلف والأئمة إثبات حد لله في نفسه، وقد بينوا مع ذلك أن

العباد لا يحدونه ولا يدركونه، ولهذا لم يتناف كلامهم في ذلك كما يظنه بعض الناس، فإنهم نفوا أن يَحُد أحدٌ الله"ا. هـ.

وقال أيضًا في درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣٣): "وقوله بلا حد ولا صفة" نَفَى به إحاطة علم الخلق به، وأن يحدوه أو يصفوه على ما هو عليه، إلا بما أخبر عن نفسه، ليبين أن عقول الخلق لا تحيط بصفاته، كما قال الشافعي في خطبة الرسالة: "الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه، وفوق ما يصفه به خلقه" ولهذا قال أحمد: "لا تدركه الأبصار بحد ولا غاية" فنفى أن يدرك له حد أو غاية".اهـ.

وهذا المحفوظ عن السلف والأئمة من إثبات حد لله في نفسه قد بينوا مع ذلك أن العباد لا يحدونه ولا يدركونه؛ ولهذا لم يتناف كلامهم في ذلك كما يظنه بعض الناس، فإنهم نفوا أن يحد أحد الله كما ذكره حنبل عنه في كتاب السنة والمحنة.

وقد رواه الخلال في "كتاب السنة" أخبرني عبد الله بن حنبل حدثني حنبل بن إسحاق، قال: قال عمي: "نحن نؤمن بالله ﷻ على عرشه كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحده أحد، فصفات الله ﷻ منه وله، وهو كما وصف نفسه، لا تدركه الأبصار بحد ولا غاية، وهو يدرك الأبصار، وهو عالم الغيب والشهادة، علام الغيوب، ولا يدركه وصف واصف، وهو كما وصف نفسه، وليس من الله شيء محدود، ولا يبلغ علمه وقدرته أحد، غلب الأشياء كلها بعلمه وقدرته وسلطانه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وكان الله قبل أن يكون شيء، والله الأول، وهو الآخر، ولا يبلغ أحد حد صفاته، فالتسليم لأمر الله والرضا بقضائه، نسأل الله التوفيق والسداد، إنه على كل شيء قدير.

وذلك أن لفظ (الحد) عند كل من تكلم به يراد به شيئان:

يراد به حقيقة الشيء في نفسه، ويراد به الوجود العيني أو الوجود الذهني

فأخبر أبو عبد الله أنه على العرش بلا حد يحده أحد أو صفة يبلغها واصف، وأتبع ذلك بقوله: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} بحد ولا غاية، وهذا التفسير الصحيح للإدارك: أي لا تحيط الأبصار بحده ولا غايته؛ ثم قال: {وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} وهو عالم الغيب والشهادة، علام الغيوب، ليتبين أنه عالم بنفسه وبكل شيء.

وقال الخلال: "وأخبرني علي بن عيسى أن حنبلا حدثهم، قال: سألت أبا عبد الله عن الأحاديث التي تروى "أن الله تبارك وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا" و"أن الله يضع قدمه" وما أشبه هذه الأحاديث، فقال أبو عبد الله: نؤمن بها، ونصدق بها ولا كيف، ولا معنى، ولا نرد منها شيئًا، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق إذا كانت بأسانيد صحاح، ولا نرد على الله قوله، ولا يوصف بأكثر مما وصف به نفسه ولا حد ولا غاية، ليس كمثله شيء.

قال: وقال حنبل في موضع آخر قال: ليس كمثله شيء في ذاته، كما وصف به نفسه، فقد أجمل تبارك وتعالى بالصفة لنفسه فحد لنفسه صفة، ليس يشبهه شيء، فيعبد الله بصفاته غير محدودة ولا معلومة إلا بما وصف نفسه، قال تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير}.

قال: وقال حنبل في موضع آخر: قال: فهو سميع بصير بلا حد ولا تقدير، ولا يبلغ الواصفون صفته، وصفاته منه وله، ولا يتعدى القرآن والحديث، فنقول كما قال، ونصفه كما وصف نفسه، ولا يتعدى ذلك، ولا تبلغه صفة الواصفين، نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه، ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنعت، وما وصف به نفسه من كلام ونزول وخلوه بعبده يوم القيامة ووضعه

كنفه عليه، هذا كله يدل على أن الله يُرى في الآخرة، والتحديد في هذا بدعة، والتسليم لله بأمره بغير صفة ولا حد إلا ما وصف به نفسه، سميع بصير، لم يزل متكلمًا، عالمًا غفورًا، عالم الغيب والشهادة، علام الغيوب، فهذه صفات وصف بها نفسه لا تدفع ولا ترد، وهو على العرش بلا حد، كما قال {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} كيف شاء، المشيئة إليه ﷻ، والاستطاعة له {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وهو خالق كل شيء، وهو كما وصف نفسه، سميع بصير بلا حد ولا تقدير، قول إبراهيم لأبيه: {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ} فثبت أن الله سميع بصير صفاته منه، لا تعدى القرآن والحديث والخبر، يضحك الله ولا نعلم كيف ذلك إلا بتصديق الرسول ﷺ وتثبيت القرآن، ولا يصفه الواصفون، ولا يحده أحد، تعالى الله عما يقول الجهمية والمشبهة".

قال ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢/ ٢١٣): "أراد أحمد بنفي الصفة نفي الكيفية والتشبيه، وبنفي الحد حدًّا يدركه العباد ويحدونه".

(باب ذكر مسائل الإيمان بأن القرآن كلام الله)

مسائل في الباب

مسألة: المذاهب في مسمى الكلام ومن المتكلم؟

والمقصود مسمهما عند الإطلاق، ويلاحظ أن الخلاف في ذلك قد بنت عليه كل طائفة قولها في كلام الله تعالى، والأقوال في مسمى "الكلام" أربعة:

١- قيل هو اسم لمجرد الحروف، ومسماه هو اللفظ، وأما المعنى فليس جزء مسماه؛ بل هو مدلول مسماه، وهذا قول المعتزلة وغيرهم، فعندهم أن الكلام اسم للفظ بشرط دلالته على المعنى، ولذلك قالوا في كلام الله إنه مخلوق منفصل عن الله، لأن الكلام هو الألفاظ والحروف، وهذه لا يجوز أن

تقوم بالله فجعلوها مخلوقة منفصلة.

٢- وقيل: هو اسم لمجرد المعنى، فمسماه هو المعنى، وإطلاق الكلام على اللفظ والحروف مجاز، لأنه دال عليه، وهذا قول الكلابيةوالأشعرية الذين يقولون إن الكلام هو المعنى المدلول عليه باللفظ، ولقولهم هذا قالوا في كلام الله إنه معنى قائم بالنفس، ليس بحروف ولا أصوات، ثم قالوا عن القرآن المتلو إنه ليس كلام الله، بل هو حكاية أو عبارة عن كلام الله، لأن الكلام عندهم هو المعنى فقط، أما إطلاق اللفظ عليه فمجاز.

٣- وقيل: إن الكلام يطلق على كل من اللفظ والمعنى بطريق الاشتراك اللفظي. وهذا قول بعض متأخري الأشعرية لجأوا إليه كمخرج من التناقض الذي وقعوا فيه، ومن هؤلاء الجويني والرازي(١)، ويلاحظ أن التعبير بالمشترك اللفظي لا يقتضي أن يكون بينهما تقارب في المعنى، بل هما بمنزلة المشتري الذي يطلق على الكوكب وعلى المبتاع.

٤- وقيل: إن الكلام يتناول اللفظ والمعنى جميعا، كما يتناول لفظ الإنسان للروح والبدن جميعا، وهذا قول السلف والفقهاء والجمهور الذين يقولون إن الكلام اسم عام لهما جميعا، يتناولها عند الإطلاق وإن كان مع التقييد يراد به هذا تارة، وهذا تارة. ولقول السلف هنا في الكلام قالوا في كلام الله تعالى - من القرآن وغيره مما تكلم به - إنه شامل للفظ والمعنى، وإن القرآن حروفه ومعانيه

---

(١) هذا هو القول الثاني للأشاعرة بعد القول السابق، وقد ذكر شيخ الإسلام أن للأشاعرة قولا ثالثا يروى عن أبي الحسن وهو: أن اللفظ مجاز في كلام الله حقيقة في كلام الآدميين، لأن حروف الآدميين تقوم بهم، فلا يكون الكلام قائما بغير المتكلم، بخلاف الكلام القرآني فإنه لا يقوم عنده بالله، فيمتنع أن يكون كلامه. الإيمان (ص:١٦٢).

كلام الله تعالى[١].

أما أهم الأقوال في من "المتكلم" فثلاثة:

١- أحدها أن المتكلم من فعل الكلام، ولو كان منفصلا عنه، فعله في غيره، وهذا قول المعتزلة والجهمية، وهؤلاء يقولون: هو صفة فعل منفصل عن الموصوف لا صفة ذات، ولذلك أنكروا صفة الكلام الثابتة لله، وقالوا إن كلام الله مخلوق.

٢- أن المتكلم هو من قام به الكلام، ولو لم يكن بفعله، ولا هو بمشيئته وقدرته، وهذا قول الكلابية والأشعرية والسالمية وغيرهم فهؤلاء يقولون: هو صفة ذات لازمة للموصوف لا تتعلق بمشيئته ولا قدرته، ولذلك قالوا في كلام الله إنه المعنى النفسي القائم بالله، وإن الله لا يتكلم إذا شاء متى شاء، بل كلامه أزلي قائم به كحياته وعلمه.

٣- أن المتكلم من جمع الوصفين، فقام به الكلام وقدر عليه، فهو من تكلم بفعله ومشيئته وقدرته، وقام به الكلام، وهذا قول السلف وأكثر أهل الحديث وطوائف من المرجئة والكرامية والشيعة[٢].

والخلاف في هاتين المسألتين: "الكلام" و"المتكلم" يوضح كيف وقع الخلاف في المسألة الأصل "مسألة كلام الله تعالى". التي وقع فيها خلاف عريض بين الطوائف.

---

(١) انظر في هذه الأقوال: الإيمان (ص:١٦٢) ط المكتب الإسلامي، ودرء التعارض (٢/ ٣٢٩، ١٠/ ٢٢٢)، والاستقامة (١/ ٢١١)، ومسألة الأحرف -مجموع الفتاوى- (١٢/ ٦٧)، ومجموع الفتاوى (٦/ ٥٣٣).

(٢) انظر: منهاج السنة (٢/ ٢٩٤) - ط دار العروبة المحققة، ودرء التعارض (١٠/ ٢٢٢)، والتسعينية (ص:١٤٦)، وشرح الأصفهانية (ص:٦٧-٦٩) - ت مخلوف.

مسألة: المذاهب في كلام الله

الأقوال في كلام الله على وجه الإجمال ستة أو سبعة، وعلى وجه التفصيل عشرة أو تزيد، وأهم هذه الأقوال:

١- أن كلام الله ليس صفة قائمة به، ولا مخلوقا منفصلا عنه، بل هو ما يفيض على النفوس إما من العقل الفعال أو غيره، حسب نظريتهم في الخلق، حيث إنهم يزعمون أن الله لا تقوم به الصفات، وليس خالقا باختياره، وليس عالما بالجزيئات. وهذا قول الفلاسفة والصائبة ومن وافقهم. وهؤلاء ربما سموا هذا الفيض كلاما بلسان الحال، وربما قالوا: إن الله متكلم مجازا.

٢- قول من قد يوافق الفلاسفة في أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من العقل الفعال أو غيره، لكن يقولون إن هذا الفيض يكون للأنبياء والأولياء، ثم إذا غلب عليهم القول بالإتحاد ووحدة الوجود قالوا: كل كلام في الوجود هو كلام الله، سواء نثره ونظامه، حسنه وقبيحه - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا - وهذا قول غلاة الصوفية وفلاسفتهم[1].

٣- إن كلام الله مخلوق منفصل عنه، خلقه في غيره، وهذا قول المعتزلة والجهمية الذين ينفون أن تقوم بالله صفة من الصفات، لا حياة، ولا علم، ولا قدرة، ولا كلام.

٤- إن كلام الله معنى واحد قديم، قائم بذات الله أزلا وأبدا، هو الأمر بكل ما أمر الله به، والنهي عن كل ما نهي الله عنه، والخبر عن كل ما أخبر الله عنه، إن

(١) لم يفرد شيخ الإسلام مذهب الطائفة بقول مستقل، وإنما جعل مذهبهم مع مذهب الفلاسفة، وكأنه اعتبره حالة تمر على بعض غلاتهم، ولكنه أشار إلى مذهبهم بوضوح في مجموع الفتاوى (٦/ ٣١٦).

عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا، والأمر والنهي والخبر عندهم ليست أنواعا ينقسم الكلام إليها، وإنما هي صفات إضافية، كما يوصف الشخص الواحد بأنه ابن لزيد، وعم لعمرو، وخال برك. ويقول هؤلاء إن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وكلامه بغير حرف وصوت. وهذا قول ابن كلاب والأشعري ومن اتبعهم. ثم هؤلاء افترقوا:

أ- فمنهم من قال: إنه معنى واحد في الأزل، وإنه في الأزل أمر ونهي وخبر. وهذا قول الأشعري.

ب- ومنهم من قال: هو عدة معان: الأمر والنهي والخبر والاستخبار. وهذا قول ابن كلاب.

ت- ومنهم من قال: بل يصير أمرًا ونهيا عند وجود المأمور والنهي. وهو قول بعضهم[1].

٥- قول من يوافق الكلابية والأشعرية في أن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ولكنهم قالوا: القديم هو حروف، أو حروف وأصوات قديمة لازمة لذات الرب أزلا وأبدا، لا يتكلم بها بمشيئته وقدرته، ولا يتكلم بشيء بعد شيء. ولم يفرق هؤلاء بين جنس الحروف وجنس الكلام، وبين عين الحروف الأزلية، بل كله

(١) يعتبر مذهب ابن كلاب وأبي الحسن الأشعري وأتباعهم في كلام الله من المذاهب الجديدة التي لم يسبقوا إليها، ولذلك أصبحت هذه المسألة هي أخص مذهب الأشعري التي يكون الرجل بها مختصا بكونه أشعريا، أما سائر المسائل فليس لابن كلاب أو الأشعري بها اختصاص "بل ما قالا، قاله غيرهما، إما من أهل السنة والحديث، وإما من غيرهم، بخلاف ما قاله ابن كلاب في مسألة الكلام، وأتبعه عليه الأشعري، فإنه لم يسبق ابن كلاب إلى ذلك أحد، ولا وافقه عليه أحد من رؤوس الطوائف".

قديم أزلي، وليست الباء قبل السين ولا السين قبل الميم، وهذا قول السالمية ومن اتبعهم كابن الزاغوني وبعض أهل الحديث وغيرهم. ومن هؤلاء من يقول في الحروف: إن الترتيب يكون في ماهيتها لا في وجودها، كما أن من هؤلاء من يقول: إن ما يسمع من أصوات العباد بالقرآن أو بعضه هو الكلام القديم، وقد يصرحون بأنه صوت الله. وهذه أقوال باطلة ظاهرة الفساد.

٦- إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته بالقرآن العربي وغيره، وكلامه قائم به، لكنه حادث بذات الله، تكلم به بعد أن لم يكن متكلما، قالوا: ولم يكن يمكنه أن يتكلم بمشيئته في الأزل لامتناع حوادث لا أول لها، فيمتنع أن يكون كلامه قديما لامتناع كون المقدور قديما. وهؤلاء يقولون: إن الله يتكلم بحروف وأصوات. وهذا قول الكرامية والهشامية ومن وافقهم.

٧- "قول من يقولك كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته. ثم من هؤلاء من يقول: لم يزل ذلك حادثا في ذاته، كما يقوله أبو البركات صاحب المعتبر، ومنهم من لا يقول بذلك، وأبو عبد الله الرازي يقول بهذا القول في مثل المطالب العالية".

٨- "قول من يقول: كلامه يتضمن معنى قائما بذاته، وهو ما خلقه في غيره، ثم من هؤلاء من يقول في ذلك المعنى بقول ابن كلاب، وهذا قول أبي مصنور الماتريدي، ومنهم من يقول بقول المتفلسفة وهذا قول طائفة من الملاحدة الباطنية متشيعهم ومتصوفيهم.

٩- "قول من يقول: كلام الله مشترك بين المعنى القديم بالذات، وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات. وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه من متأخري الأشعرية"[١].

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٢٨١-٢٨٢).

١٠- قول أهل السنة والجماعة: وهو أن الله "لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء، وكيف شاء، بكلام يقوم به، وهو يتكلم بصوت يسمع، وإن نوع الكلام أزلي قديم، وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديما". فهم يقولون: "إن القرآن جميعه كلام الله، حروفه ومعانيه، ليس شيء من ذلك كلاما لغيره، ولكن أنزله على رسوله، وليس القرآن أسمًا لمجرد المعنى، ولا لمجرد الحرف، بل لمجموعهما، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط، ولا المعاني فقط، كما أن الإنسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح، ولا مجرد الجسد، بل مجموعهما وإن الله تعالى يتكلم بصوت كما جاءت به الأحاديث الصحاح، وليس ذلك كأصوات العباد، لا صوت القارئ ولا غيره، وإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته، فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوق، ولا معانيه تشبه معانيه، ولا حروفه يشبه حروفه، ولا صوت الرب يشبه صوت العبد، فمن شبه الله بخلقه فقد ألحد في أسمائه وآياته، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد ألحد في أسمائه وآياته".

هذه خلاصة الأقوال في كلام الله[1]، وبعضها -كما يلاحظ- قد يتشعب إلى

(١) انظر فيما سبق من الأقوال: الجواب الصحيح (٢/ ١٦٢-١٦٣، ٣/ ٩٤-١٠٣)، مسألة الأحرف - مجموع الفتاوى - (١٢/ ٤٢-٥٢)، والمسألة المصرية - مجموع الفتاوى (١٢/ ١٦٣-١٧٣)، ومنهاج السنة (٢/ ٢٧٨-٢٨٦) ط دار العروبة المحققة (٣/ ١٠٤-١٠٧) ط بولاق، درء التعارض (٢/ ٢٥٥)، شرح الأصفهانية (ص:٣٤١) ت العودة، جواب أهل العلم والإيمان - مجموع الفتاوى - (١٧/ ١٦٥-١٦٦)، والنبوات (ص:٢٠٢) ط دار الكتب العلمية، ومجموع الفتاوى (٩/ ٢٨٣-٢٨٥). وانظر: مختصر الصواعق (٢/ ٢٨٦-٢٩٣)، وشرح الطحاوية (ص:١٧٩-١٨٠) ط المكتب الإسلامية الرابعة، وقد اعتمد شارح الطحاوية في نقل الأقوال على ما في منهاج =

أقوال أخرى، كما هي سنة الله في الاختلاف والافتراق أنه لا يقف عند حد معين. انظر كتاب موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ١٢٥٤).

مسألة: القرآن الكريم عند أهل السنة

كلام الله تعالى ألفاظه وحروفه ومعانيه منه بدأ وإليه يعود تكلم الله تعالى به وسمعه منه جبريل ﻍ، وأنزله على محمد ﷺ.

قال سبحانه: (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين) الواقعة/ ٧٧ - ٨٠، وقال: (الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) السجدة/ ١، ٢، وقال: (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) الزمر/ ١.

وهو من جملة كلامه، الذي هو صفة من صفاته، فمن قال: مخلوق، فهو كافر، هذا ما يعتقده أهل السنة والجماعة، خلافا لما عليه أهل الزيغ والانحراف.

قال الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عقيدته المشهورة: "وأن القرآن كلام الله، منه بدأ بلا كيفية قولا، وأنزله على رسوله وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية. فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى: (سأصليه سقر) فلما أوعد الله بسقر لمن قال: (إن هذا إلا قول البشر) علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر " انتهى.

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن كلام الله سبحانه: القرآن العظيم، وهو كتاب

=

السنة (٢/ ٢٧٨-٢٨٦) . ط در العروبة، ت رشاد سالم.

الله المبين، وحبله المتين، وصراطه المستقيم، وتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين، بلسان عربي مبين، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهو سور محكمات، وآيات بينات، وحروف وكلمات، من قرأه فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات، له أول وآخر، وأجزاء وأبعاض، متلو بالألسنة، محفوظ في الصدور، مسموع بالآذان، مكتوب في المصاحف، فيه محكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، وخاص وعام، وأمر ونهي {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد} فصلت/ ٤٢، وقوله تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} الإسراء/ ٨٨. وهو هذا الكتاب العربي الذي قال فيه الذين كفروا: {لن نؤمن بهذا القرآن} سبأ / ٣١، وقال بعضهم: {إن هذا إلا قول البشر} المدثر/ ٢٥، فقال الله سبحانه: {سأصليه سقر} المدثر/ ٢٦ ... ولا خلاف بين المسلمين في أن من جحد من القرآن سورة أو آية أو كلمة أو حرفا متفقا عليه أنه كافر، وفي هذا حجة قاطعة على أنه حروف " انتهى "لمعة الاعتقاد" ص (٢٨ - ٢٢).

ومعنى قول أهل السنة: "منه بدأ ": أن الله تعالى تكلم به، فظهوره وابتداؤه من الله تعالى، ومعنى قولهم: "وإليه يعود ": أنه يرفع من الصدور والمصاحف في آخر الزمان، فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف كما جاء ذلك في عدة آثار، وللحافظ ضياء الدين المقدسي (ت: ٦٤٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة حول هذه المسألة، بعنوان: "اختصاص القرآن بالعود إلى الرحمن".

ولأهل البدع مقالات أخرى كثيرة مخالفة لما دل عليه صريح المعقول، وصحيح المنقول في هذا الباب، يمكن مراجعتها ومعرفة ردود أهل العلم عليها

في كتب أهل السنة المصنفة في هذا الباب، ومنها مصنفات خاصة بالرد على أهل البدع في صفة الكلام، مثل: البرهان في مسألة القرآن، وحكاية المناظرة في القرآن، كلاهما لموفق الدين ابن قدامة، صاحب المغني، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتب ورسائل عديدة فيما يتعلق بصفة الكلام من مسائل، فيمكن مراجعة المجلد الثاني عشر من مجموع فتاواه، ومن كتبه المهمة في ذلك كتاب التسعينية، رد على الأشاعرة بدعهم في صفة الكلام من نحو من تسعين وجها.

وأما المصنفات المعاصرة، فقد أفرد هذه المسألة بالتأليف الشيخ عبد الله الجديع في كتابه: العقيدة السلفية في كلام رب البرية، وهو كتاب نافع مفيد في بابه.

ثانيا: وصف القرآن بالقدم، أو وصف كلام الله تعالى بأنه قديم، يراد به معنيان:

الأول: أنه غير مخلوق، كما تقدم؛ وأن جنس الكلام، في حق الله تعالى، قديم، لم يزل متكلما، متى شاء، وكيف شاء، ويكلم من عباده من شاء. وهذا حق، وهذا هو مأخذ من أطلق "القدم" في حق القرآن، أو في حق كلام الله تعالى عامة، من أهل السنة، ومن هؤلاء: أبو القاسم اللالكائي في كتابه " شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة " قال (٢/ ٢٢٤): "سياق ما روي عن النبي ﷺ، مما يدل على أن القرآن من صفات الله القديمة".

ثم قال (٢/ ٢٢٧): "ما روي من إجماع الصحابة على أن القرآن غير مخلوق".

وممن أطلق ذلك أيضا: ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في لمعة الاعتقاد. قال (١٥): "ومن صفات الله تعالى أنه متكلم بكلام قديم يسمعه منه من شاء من خلقه، سمعه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منه من غير واسطة، وسمعه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومن أذن له من ملائكته

ورسله، وأنه سبحانه يكلم المؤمنين في الآخرة ويكلمونه، ويأذن لهم فيزورونه، قال الله تعالى: {وكلم الله موسى تكليما} [النساء: ١٦٤]، وقال سبحانه: {يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي} [الأعراف: ١٤٤]، وقال سبحانه: {منهم من كلم الله} [البقرة: ٢٥٣]، وقال سبحانه: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب} [الشورى: ٥١]، وقال سبحانه: {فلما أتاها نودي يا موسى} {إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى} [طه: ١١ - ١٢]، وقال سبحانه: {إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني} [طه: ١٤]، وغير جائز أن يقول هذا أحد غير الله ... " انتهى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "السلف قالوا: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق وقالوا لم يزل متكلما إذا شاء. فبينوا أن كلام الله قديم، أي: جنسه قديم لم يزل، ولم يقل أحد منهم: إن نفس الكلام المعين قديم، ولا قال أحد منهم القرآن قديم، بل قالوا: إنه كلام الله منزل غير مخلوق، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته، كان القرآن كلامه، وكان منزلا منه غير مخلوق، ولم يكن مع ذلك أزليا قديما بقدم الله، وإن كان الله لم يزل متكلما إذا شاء؛ فجنس كلامه قديم.

فمن فهم قول السلف وفرق بين هذه الأقوال زالت عنه الشبهات في هذه المسائل المعضلة التي اضطرب فيها أهل الأرض " انتهى مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٤).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضا**: "وكلام الله: تكلم الله به بنفسه، تكلم به باختياره وقدرته، ليس مخلوقا بائنا عنه. بل هو قائم بذاته، مع أنه تكلم به بقدرته ومشيئته، ليس قائما بدون قدرته ومشيئته، والسلف قالوا: لم يزل الله تعالى متكلما إذا شاء؛

فإذا قيل: كلام الله قديم؛ بمعنى أنه لم يصر متكلما بعد أن لم يكن متكلما، ولا كلامه مخلوق، ولا معنى واحد قديم قائم بذاته؛ بل لم يزل متكلما إذا شاء فهذا كلام صحيح.

ولم يقل أحد من السلف: إن نفس الكلام المعين قديم. وكانوا يقولون: القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، ولم يقل أحد منهم: إن القرآن قديم، ولا قالوا: إن كلامه معنى واحد قائم بذاته، ولا قالوا: إن حروف القرآن أو حروفه وأصواته قديمة أزلية قائمة بذات الله، وإن كان جنس الحروف لم يزل الله متكلما بها إذا شاء؛ بل قالوا: إن حروف القرآن غير مخلوقة وأنكروا على من قال: إن الله خلق الحروف " انتهى من الفتاوى (١٢/ ٥٦٦ - ٥٦٧).

والمعنى الثاني: أن القرآن معنى، أو معنى وحروف، تكلم الله بها في الأزل، ثم لم يتكلم بعدها، وهذا من بدع الأشاعرة ومن وافقهم من أهل الكلام، التي أرادوا بها الخروج من بدعة المعتزلة والجهمية القائلين بخلق القرآن.

فمن قال في القرآن، أو غيره من صفات الله تعالى وأفعاله الاختيارية: إنه قديم، وأراد ذلك فمراده باطل، ثم إن اللفظ الذي أطلقه مجمل غير مأثور.

ولأجل هذا الاحتمال الباطل الذي يحتمله إطلاق هذا اللفظ، ولأجل أنه غير مأثور، كان الراجح هنا ألا يطلق لفظ القدم على القرآن، بل يقال فيه ما قال السلف: القرآن كلام الله، غير مخلوق.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأتباع السلف يقولون: إن كلام الله قديم، أي: لم يزل متكلما إذا شاء، لا يقولون: إن نفس الكلمة المعينة قديمة كندائه لموسى ونحو ذلك، لكن هؤلاء [يعني: الأشاعرة ومن وافقهم] اعتقدوا أن القرآن وسائر كلام الله قديم العين، وأن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته. ثم اختلفوا:

فمنهم من قال: القديم هو معنى واحد، هو جميع معاني التوراة والإنجيل والقرآن؛ وأن التوراة إذا عبر عنها بالعربية صارت قرآنا، والقرآن إذا عبر عنه بالعبرية صار توراة: قالوا: والقرآن العربي لم يتكلم الله به، بل إما أن يكون خلقه في بعض الأجسام، وإما أن يكون أحدثه جبريل أو محمد؛ فيكون كلاما لذلك الرسول، ترجم به عن المعنى الواحد القائم بذات الرب، الذي هو جميع معاني الكلام.

ومنهم من قال: بل القرآن القديم هو حروف، أو حروف وأصوات، وهي قديمة أزلية قائمة بذات الرب أزلا وأبدا ...؛ إذا كلم موسى أو الملائكة أو العباد يوم القيامة فإنه لا يكلمه بكلام يتكلم به بمشيئته وقدرته حين يكلمه، ولكن يخلق له إدراكا يدرك ذلك الكلام القديم اللازم لذات الله أزلا وأبدا.

وعندهم لم يزل ولا يزال يقول: {يا آدم اسكن أنت وزوجك} و: {يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك} و{يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي} ونحو ذلك وقد بسط الكلام على هذه الأقوال وغيرها في مواضع.

والمقصود أن هذين القولين لا يقدر أحد أن ينقل واحدا منهما عن أحد من السلف؛ أعني الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين المشهورين بالعلم والدين، الذين لهم في الأمة لسان صدق، في زمن أحمد بن حنبل ولا زمن الشافعي ولا زمن أبي حنيفة ولا قبلهم. وأول من أحدث هذا الأصل هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب ... " الفتاوى (١٧/ ٨٥)

وعليه فمن قال: القرآن قديم، أو كلام الله قديم، وأراد المعنى الأول: أن القرآن، وسائر كلام الله تعالى، منزل من عنده غير مخلوق، ومع ذلك فهو متعلق بمشيئته واختياره، فمراده صحيح، وإن كان الأولى والأسلم في ذلك أن يقتصر

على الألفاظ الواردة عن السلف، السالمة من الإجمال واحتمال المعاني الباطلة.

وإن أراد المعنى الثاني ونفى أن يتعلق كلام الله تعالى بمشيئته واختياره، فمراده باطل، واللفظ الذي أطلقه ـ أيضا ـ مبتدع.

مسألة: الحرف والصوت

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٧٩): فصل الكلام في " القرآن والكلام " هل هو حرف وصوت أم ليس بحرف وصوت محدث: حدث في حدود المائة الثالثة وانتشر في المائة الرابعة؛ فإن أبا سعيد بن كلاب ثم أبا الحسن الأشعري ونحوهما لما ناظروا المعتزلة في إثبات الصفات وأن القرآن ليس بمخلوق ورأوا أن ذلك لا يتم إلا إذا كان القرآن قديما وأنه لا يمكن أن يكون قديما إلا أن يكون معنى قائما بنفس الله كعلمه وزادوا أن الله لا يتكلم بصوت ولا لغة لا قديم ولا غير قديم لما رأوه من امتناع قيام أمر حادث به وخالفوا في ذلك جمهور المسلمين: من أهل الحديث والفقه والكلام والتصوف وإن تنوعت مآخذهم فإن الآثار شاهدة بأن الله يتكلم بصوت. ولهذا جهم الإمام أحمد وغيره من أنكر ذلك. قال عبد الله بن أحمد: قلت لأبي: إن أقواما يقولون: إن الله لا يتكلم بصوت. فقال: هؤلاء جهمية؛ إنما يدورون على التعطيل وذكر حديث ابن مسعود وكذلك رواه غير واحد عن أحمد. وكذلك البخاري ترجم في صحيحه بابا في قوله: {حتى إذا فزع عن قلوبهم} بين فيه الحجة على أن الله يتكلم بصوت. وكذلك المصنفون في السنة من أئمة الحديث وهم كثير وكذلك أئمة الصوفية كالحارث المحاسبي وأبي الحسن بن سالم وغيرهما وكذلك الفقهاء من جميع الطوائف: المالكية والشافعية والحنفية

والحنبلية المصنفون في أصول الفقه ...اهـ.

وقال الشيخ الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٣٠٨): -ثبت في الصحيح قوله ﷺ-: (فيناديهم بصوت) والنداء لا يكون إلا بصوت، ولا يعرف الناس نداء بدون صوت، فذكر الصوت هنا لتأكيد النداء، وهذا في غاية الصراحة والوضوح في أن الله يتكلم بكلام يسمع منه تعالى، وأن له صوتا، ولكن صوته لا يشبه أصوات خلقه، ولهذا قال: (يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب) فهذه الصفة تختص بصوته تعالى، وأما أصوات خلقه فيسمعها القريب منها فقط، حسب قوة الصوت وضعفه، وقد كثرت النصوص المثبتة لذلك، منها ما ذكره البخاري رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب، ومنها ما ذكره الله تعالى في كتابه في أكثر من عشرة مواضع، بلفظ النداء الذي لا يكون إلا بصوت.

منها قوله تعالى: {وناداهما ربهما ألم أنهكما}.

وقوله: {وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا}.

وقوله: {وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين}.

وقوله سبحانه وتعالى: {فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين {٨} يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم} يعني: أن المنادي هو الله العزيز الحكيم.

وقوله تعالى: {فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين} أي: ناداه تعالى بهذا القول: (يا موسى إني أنا الله رب العالمين).

ومنها: قوله تعالى: {ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون}.

وقوله في السورة أيضا {ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون}

وقوله: {ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين}.

وقوله: {يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد}.

وقوله: {هل أتاك حديث موسى {١٥} إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى}

فهذه عشرة مواضع كلها صريحة في أن الله ينادي، منها ما وقع في الدنيا، ومنها ما سيقع يوم القيامة.

وليس مع من ينكر نداء الله، وأنه تعالى يسمع من يشاء من خلقه نداءه، إلا مجرد الوهم والقياس الفاسد، الناتج عن الأفكار المضللة. ....

قال الخلال: وأخبرنا المروذي: سمعت أبا عبد الله، وقيل له: إن عبد الوهاب قد تكلم، وقال: من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمي عدو الله، وعدو للإسلام: فتبسم أبو عبد الله، وقال: ما أحسن هذا، عافاه الله.

وقال الخلال في السنة: أخبرنا علي بن عيسى أن حنبلا حدثهم، قال: إن أبا عبد الله يقول: من زعم أن الله لم يكلم موسى، فقد كفر بالله، وكذب القرآن ورد على رسول الله ﷺ أمره، يستتاب من هذه المقالة، فإن تاب وإلا ضربت عنقه.

قال: وسمعت أبا عبد الله قال: {وكلم الله موسى تكليما} فأثبت الكلام لموسى كرامة منه لموسى، ثم قال يؤكد كلامه: {تكليما}

قلت لأبي عبد الله: الله ﷻ يكلم عبده يوم القيامة؟ قال: نعم، فمن يقضي بين الخلائق إلا الله ﷻ؟ يكلم عبده، ويسأله.

الله متكلم لم يزل يأمر بما يشاء، ويحكم، وليس له عدل ولا مثل، كيف شاء، وأنى شاء. أخبرنا محمد بن علي بن بحر، أن يعقوب بن بختان حدثهم، أن

أبا عبد الله سئل عمن زعم أن الله لم يتكلم بصوت، فقال: بلى، تكلم بصوت، وهذه الأحاديث كما جاءت نرويها، لكل حديث وجه، يريدون أن يموهوا على الناس، من زعم أن الله لم يكلم موسى فهو كافر.

مسألة: هل اللفظ هو الملفوظ؟ أم غيره

وقوع الإجمال في إطلاق القول: اللفظ هو الملفوظ، أو غيره، وكذلك: القراءة هي المقروء أو غيره، وكذلك: التلاوة هي المتلو، أو غيره، أعظم موارد اللبس في هذه القضية، وبيان ذلك كما يأتي: (اللفظ، القراءة، التلاوة) ألفاظ تطلق على المصدر الذي هو فعل اللافظ، والقارئ، والتالي، وكسبه الذي يكون بآلاته وجوارحه، ومنه صوته وحركة شفتيه.

وتطلق على المفعول، الذي وقع عليه فعل القارىء، وهو الملفوظ، المقروء، المتلو.

والأغلب استعمالها في المصادر في لغة العرب، لكنهم يستعملون المصدر بمعنى المفعول.

قال إمام العربية سيبويه في الكتاب (٤/ ٤٣، ٤٤): "وقد يجيء المصدر على المفعول، وذلك قولك: (لبن حلب) إنما تريد: محلوب، وكقولهم: (الخلق) إنما يريدون: المخلوق، ويقولون للدرهم: (ضرب الأمير) وإنما يريدون: مضروب الأمير". قال: "وربما وقع على الجميع".اهـ.

قلت: ومثاله قوله تعالى: {يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث} [الزمر: ٦] فالخلق هنا المصدر، وهو فعله تعالى، وقوله: {ولآمرنهم فليغيرن خلق الله} [النساء: ١١٩]، فالخلق هنا المخلوق، الذي هو مفعول الرب تعالى.

قال ابن قتيبة في الاختلاف في اللفظ (ص ٢٤٥- ضمن عقائد السلف): "القراءة قد تكون قرآنا، لأن السامع يسمع القراءة، وسامع القراءة سامع القرآن، وقال الله ﷻ: {فاستمعوا له} [الأعراف: ٢٠٤]، وقال: {حتى يسمع كلام الله} [التوبة: ٦]، قال: "والعرب تسمي القراءة قرآنا، قال الشاعر في عثمان بن عفان رضي الله عنه:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به ... يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

أي: تسبيحا وقراءة. وقال أبو عبيد: يقال قرأت قراءة، وقرآنا، بمعنى واحد.

فجعلها مصدرين لقرأت. وقال الله تعالى: {وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا} [الإسراء: ٧٨] أي: قراءة الفجر".اهـ.

وفي هذا جميعا كانت القراءة هي المقروء، وكذلك فإن القراءة عمل، يثاب عليها فاعلها، وكذا يقع المدح لقراءة قارىء، والذم لقراءة آخر، والمفاضلة بين قراءة قارىء وآخر، وفي هذا كانت القراءة فعل القارىء.

فلما كانت هذه الألفاظ تأتي بالمعنيين، بمعنى فعل اللافظ، والقارىء والتالي، وما وقع عليه فعله، وهو الملفوظ المقروء المتلو، منع الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة من إطلاق كلا اللفظين في كلام الله تعالى -كما سيأتي- فلا يقال: اللفظ هو الملفوظ، ولا يقال: غيره، وكذلك القراءة والتلاوة، لما في الإطلاق من إيهام معان فاسدة، فلو أطلق القول: (لفظي بالقرآن مخلوق) دخل في الإطلاق فعل اللافظ، وحركته، وصوته، وهو حق، ودخل الملفوظ الذي هو كلام الله المؤلف من الحروف المنطوقة المسموعة المفهومة، وهو باطل.

وهذا هو مراد من أطلق ذلك، لأن أول من أطلقه الجهمية القائلون بأن

القرآن مخلوق[١].

وإن أطلق القول: (لفظي بالقرآن غير مخلوق) دخل في الإطلاق أيضا فعل اللافظ، وهو باطل، فإن أفعال العباد جميعا مخلوقة لله تعالى، كما قال الله تعالى: {والله خلقكم وما تعملون} [الصافات: ٩٦] ودخل الملفوظ الذي هو كلام الله، وهو حق، فإن كلام الله تعالى غير مخلوق، حروفه ومعانيه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٠٦-٣٠٧): "واللفظ في الأصل: مصدر (لفظ، يلفظ، لفظا) وكذلك: التلاوة، والقراءة، لكن شاع استعمال ذلك في نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو، وهو المراد باللفظ في إطلاقهم، فإذا قيل: (لفظي، أو: اللفظ بالقرآن مخلوق) أشعر أن هذا القرآن الذي يقرؤه ويلفظ به مخلوق، وإذا قيل: (لفظي غير مخلوق) أشعر أن شيئا مما يضاف إليه غير مخلوق، وصوته وحركته مخلوقان، لكن كلام الله الذي يقرؤه غير مخلوق، والتلاوة قد يراد بها نفس الكلام الذي يتلى، وقد يراد بها نفس حركة العبد، وقد يراد بها مجموعهما، فإذا أريد بها الكلام نفسه الذي يتلى فالتلاوة هي المتلو، وإذا أريد بها حركة العبد فالتلاوة ليست هي المتلو، وإذا أريد بها المجموع فهي متناولة للفعل والكلام، فلا يطلق عليها أنها المتلو، ولا أنها غيره".اهـ.

قلت: ولذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق، فهو مبتدع، لا يكلم"[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٠٧).

(٢) رواه الخلال في "السنة" -كما في "مجموع الفتاوى" ١٢/ ٣٢٥- بسند صحيح عن أحمد. وكذا رواه ابن جرير في "صريح السنة" رقم (٣٢) -وعنه: اللالكائي في "السنة" ٢/ ٣٥٥- عن جماعة عن أحمد نحوه.

وقال عبد الله ابنه في السنة (١٨٦): وكان أبي رَحِمَهُ اللَّهُ يكره أن يتكلم في اللفظ بشيء، أو يقال: مخلوق، أو غير مخلوق.اهـ.

والمقصود هنا بيان عدم صحة إطلاق القول بخلق اللفظ وعدمه في كلام الله تعالى. العقيدة السلفية فى كلام رب البرية (ص٢٠٩).

(فرع): اللفظية: وهم الذين يقولون ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، أو لفظي بالقرآن مخلوق، وهؤلاء قسم من الجهمية ويقصدون بقولهم ألفاظنا مخلوقة يقصدون باللفظ الملفوظ أي القرآن ويقصدون باللفظ كلمات اللافظ أو المتكلم وهذه الطائفة نشأت في عصر المتوكل، لما انهزم الجهمية وأخمدت نارهم وانكسروا بعدما كانوا أعزة في عصر المأمون والواثق والمعتصم، فلما جاء المتوكل وبدأ يحارب الجهمية فبدأوا يتسترون بهذا القول، فبدل أن يقول القرآن مخلوق كما كانوا يصرحون في وقت عزتهم استبدلوها بعبارة لا تثير الناس وهي عبارة ملبسة وتحتمل حقًا وباطلًا، فقالوا ألفاظنا مخلوقة ويريدون بذلك القرآن.

فهذه المسألة حيدة من الجهمية القائلين بخلق القرآن إلى لفظ يوهم موافقتهم لأهل السنة، مع أنهم يريدون مذهبهم الباطل، فلبسوا بهذا على الناس، وفتحوا عليهم بابا جديدا من البدعة، فقالوا: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، وكان مبدأ ظهور هذه اللفظة والقول بها كما تقدم في عهد الإمام أحمد، حين ظهر الحق الذي أعلاه الله بأحمد بن حنبل ومن ثبت معه من إخوانه، وقويت شوكة أهله، ونصرهم الله، وخذل المبتدعة من الجهمية المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

وكان أول من عرف أنه قالها الحسين الكرابيسي.

قال الإمام إسماعيل بن الفضل الأصبهاني في كتاب الحجة (ق ٩٢/ ب):

"وأول من قال باللفظ، وقال: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة حسين الكرابيسي، فبدعه أحمد بن حنبل، ووافقه على تبديعه علماء الأمصار ..." .اهـ. ثم ساق أسماء جماعة من الأئمة والعلماء.

ووافقه عبد الله بن سعيد بن كلاب وداود الظاهري، وسبب ذلك ما ابتلوا به من علم الكلام المذموم، فوافقوا الجهمية في حقيقة قولهم.

ولما كان الإمام أحمد قد خبر باطل القوم، وعرف مداخله، لم يتردد في تضليلهم، وتبديعهم وتجهيمهم، ونقل عنه الثقات من أصحابه من ذلك ما فيه الكفاية والمقنع لمن نور الله قلبه بنور الهداية، وجنبه سبل الغواية.

فجاء من بعده أقوام غلطوا في معرفة حقيقة قوله، وذلك إما لخفاء نصوصه الصريحة عنهم وإما لهوى وبدعة فيهم، وإن وقع انتساب الكثير منهم للعلم والسنة.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: "افترقت الجهمية على ثلاث فرق: الذين يقولون: مخلوق، والذين شكوا، والذين قالوا: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة" .اهـ.

وقال أبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان كما في شرح أصول إعتقاد أهل السنة (١/ ١٧٩): "من قال لفظي بالقرآن مخلوق، فهو جهمي، أو القرآن بلفظي مخلوق فهو جهمي" .اهـ.

وقال حرب بن إسماعيل الكرماني كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/ ٣٥٣): "أن الحق والصواب الواضح المستقيم الذي أدركنا عليه أهل العلم: أن من زعم أن ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا مخلوقة، فهو جهمي مبتدع خبيث" .اهـ.

وقال ابن بطة في الإبانة الكبرى (٥/ ٣١٧): "واعلموا-رحمكم الله أن

صنفا من الجهمية اعتقدوا بمكر قلوبهم وخبث آرائهم وقبيح أهوائهم أن القرآن مخلوق، فكنوا عن ذلك ببدعة اخترعوها تمويها وبهرجة على العامة، ليخفي كفرهم، ويستغمض إلحادهم على من قل علمه وضعفت نحيزته، فقالوا: إن القرآن الذي تكلم الله به وقاله، فهو كلام الله غير مخلوق، وهذا الذي نتلوه ونقرؤه بألسنتنا ونكتبه في مصاحفنا ليس هو القرآن الذي هو كلام الله، هذا حكاية لذلك، فما نقرؤه نحن حكاية لذلك القرآن بألفاظنا نحن، وألفاظنا به مخلوقة، فدققوا في كفرهم، واحتالوا لإدخال الكفر على العامة بأغمض مسلك، وأدق مذهب، وأخفى وجه، فلم يخف ذلك بحمد الله ومنه وحسن توفيقه على جهابذة العلماء والنقاد والعقلاء، حتى بهرجوا ما دلسوا، وكشفوا. اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٢١): فقد أنكر بدعة اللفظية الذين يقولون: إن تلاوة القرآن وقراءته واللفظ به مخلوق أئمة زمانهم، جعلوهم من الجهمية وبينوا أن قولهم يقتضي القول بخلق القرآن، وفي كثير من كلامهم تكفيرهم، وكذلك من يقول: إن هذا القرآن ليس هو كلام الله وإنما هو حكاية عنه أو عبارة عنه، أو أنه ليس في المصحف والصدور إلا كما أن الله ورسوله في المصاحف والصدور ونحو ذلك، وهذا محفوظ عن الإمام أحمد، وإسحاق، وأبي عبيد، وأبي مصعب الزهري، وأبي ثور، وأبي الوليد الجارودي، ومحمد بن بشار، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي، ومحمد بن يحيى بن أبي عمرو العدني، ومحمد بن يحيى الذهلي، ومحمد بن أسلم الطوسي، وعدد كثير لا يحصيهم إلا الله من أئمة الإسلام وهداته[(١)]".

---

(١) مسألة: جملة اختلاف الناس في مسألة اللفظ.

=

=

حين ابتدع الجهمية -قاتلهم الله- القول بأن ألفاظ العباد بالقرآن مخلوقة، أوقع ذلك لبسا، جر بعض المنتسبين إلى السنة والحديث إلى الوقوع في بعض المحاذير، بل جر آخرين إلى موافقة الجهمية في حقيقة قولهم ومرادهم، وكانت مسألة اللفظ سترا يستتر به المنافقون من الجهمية، لما يخشون من فضيحة أهل الحق لهم حين يصرحون باعتقادهم، فيقولون: القرآن مخلوق.

وكان الناس قد افترقوا حين ظهرت هذه البدعة إلى أربع فرق:

الأولى: الجهمية القائلين بخلق القرآن، تستروا بالقول: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، ومرادهم: أن كلام الله مخلوق اعتقاد أسلافهم.

والثانية: طائفة شابهت الجهمية في بعض قولهم، وهم الكلابية -أتباع عبد الله بن كلاب- فأطلقوا القول كالجهمية: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، ومرادهم: أن القرآن العربي الذي نزل به جبريل، الذي هو الألفاظ المؤلفة من الحروف كالألف والباء والتاء مخلوق، وأن الله تعالى لم يتكلم بالحروف، إنما كلامه معنى مجرد عن الألفاظ وهذا قديم غير مخلوق، وهؤلاء هم المسمون بـ "اللفظية النافية".

والثالثة: طائفة من أهل الحديث، كأبي حاتم الرازي الحافظ، وأبي سعيد الأشج، وغيرهما، لما رأوا تضمن قول الجهمية والكلابية معنى باطلا، أرادوا الرد عليهم، فأطلقوا القول بضد مقالتهم، فقالوا. ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة.

ومرادهم: أن الألفاظ المؤلفة من الحروف، والتي هي القرآن العربي الذي نزل به جبريل عليه السلام من رب العالمين غير مخلوقة، لكن لما كان إطلاقهم موهما إدخال فعل العبد فيه والذي بيناه فيما مضى، وقع المحذور، فتبعتهم طائفة على مقالتهم وأدخلوا في إطلاقها صوت العبد بالقرآن وفعله، وربما توقف بعضهم في ذلك، ولهؤلاء هم المسمون بـ (اللفظية المثبتة) .

والرابعة: طائفة الأئمة الربانيين من أهل السنة والاتباع -كالإمامين أحمد والبخاري وأتباعهما- منعوا إطلاق القولين السابقين: اللفظ بالقرآن مخلوق، وغير مخلوق، وقالوا: القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله، بألفاظه ومعانيه، ليس هو كلامه بألفاظه دون معانيه، ولا بمعانيه دون ألفاظه، وأفعال العباد وأصواتهم مخلوقة، والعبد يقرأ القرآن، فالصوت صوت القارىء، والكلام كلام الباري.

هذه جملة مذاهب الناس حين ظهرت بدعة اللفظ.

=

=

مسألة: اللفظية النافية -كما سبق قريبا- هم القائلون: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) ويريدون: أن القرآن العربي مخلوق، وأن جبريل إنما نزل بقرآن مخلوق.

وهذا القول في الحقيقة هو قول الجهمية الذين أطلقوا أن القرآن مخلوق، فإن القرآن لا يعرف إلا أنه اسم للنظم العربي، والجهمية أطلقت القول بخلقه، وهؤلاء وافقوهم في كون القرآن العربي مخلوق النظم، لأنه مؤلف من الحروف، وما تألف من الحروف فهو مخلوق، لأن الحروف مخلوقة، والله لم يتكلم بها، إلا أنهم خالفوهم خلافا لفظيا في الحقيقة، وذلك أنهم ادعوا لله تعالى صفة الكلام، لكنهم قالوا: هو معنى أو معاني مجردة، ليست بحروف ولا أصوات، وهذا القول من أفسد المقالات، وسيأتي نقضه عليهم في الباب الثالث في الرد على الأشعرية.

وإنما وصفته بكونه (لفظيا) لأن القائلين به لم يثبتوا في الحقيقة لله تعالى صفة الكلام، وإنما افتروا صفة لا حقيقة لها، فنسبوها للرب تعالى، سموها صفة الكلام، وأبطلوا ما هو معلوم ضرورة في تفسير الكلام.

فلذا صح وصفهم بالجهمية.

وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ -فيما رواه ابنه صالح عنه في في المحنة (ص ٧٢): "افترقت الجهمية على ثلاث فرق: فرقة قالوا: القرآن مخلوق، وفرقة قالوا: كلام الله وتسكت، وفرقة قالوا: لفظنا بالقرآن مخلوق، قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه: {فأجره حتى يسمع كلام الله} [التوبة: ٦] فجبريل سمعه من الله، وسمعه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وسمعه أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النبي، فالقرآن كلام الله غير مخلوق".اهـ.

والنصوص عن الإمام أحمد في تبديعهم، بل وبعضها في تكفيرهم، متواترة،

وقد صرحت نصوص الإمام أحمد بتجهيم اللفظية، لأجل أنهم يعدون القرآن العربي، المسموع المقروء الملفوظ، المؤلف من الحروف والكلمات، والسور والآيات، مخلوقا، وقد بين أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك بقوله: "يزعمون أن جبريل، إنما جاء بشيء مخلوق" وهذا هو الفصل في مراد أحمد بتجهيم اللفظية.

ولم يجهم الإمام أحمد من أراد باللفظ فعل القارئ وصوته الذي هو مخلوق، ولذا أبان عن ذلك بقوله الذي رواه عنه ابنه عبد الله: "كل من يقصد إلى القرآن بلفظ، أو غير ذلك، يريد به مخلوق، فهو جهمي" وأبين منه قوله: "من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، يريد به القرآن، فهو كافر".اهـ. أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (ص٢٦٦)

=

=

والاعتقاد (ص١١٠) عن عبد الله، وإسناده صحيح.

فاحترز بقوله: "يريد به القرآن" عن تكفير من قال: "لفظي بالقرآن مخلوق" ويريد به حركته وصوته به، لا نفس الكلام الملفوظ المقروء، مع أن إطلاق هذا اللفظ فيه إيهام القول بخلق الملفوظ الذي هو كلام الله، فوجب الكف عنه كلية لأجل ذلك....

وقد وافق الإمام أحمد غيره من أئمة السنة في زمانه وبعده، في إنكار بدعة اللفظية النافية، فمنهم:

١ – إسحاق بن إبراهيم بن راهويه الإمام العلم: قال أبو داود السجستاني في مسائله (ص٢٧١): سمعت إسحاق بن إبراهيم سئل عن اللفظية؟ فبدعهم.

٢ – أبو جعفر أحمد بن صالح المصري الحافظ: قال أبو داود في مسائله (ص٢٧١): سمعت أحمد بن صالح ذكر اللفظية فقال: "هؤلاء أصحاب بدعة، ويدخل عليهم أكثر من البدعة".

٣ – أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري الفقيه القاضي: أتاه قوم فسألوه: إن قبلنا ببغداد رجلا يقول: لفظه بالقرآن مخلوق؟ فقال: "يا أهل العراق، ما يأتينا منكم هناه، ما ينبغي أن نتلقى وجوهكم إلا بالسيوف، هذا كلام نبطي خبيث". رواه ابن أبي حاتم – كما في "السنة" لابن الطبري ٢/ ٣٥٧ – بسند جيد عنه.

٤، ٥ – أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم، وأبو حاتم محمد بن إدريس الرازيان إماما الجرح والتعديل:

قالا: "من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، أو القرآن بلفظي مخلوق، فهو جهمي". رواه ابن الطبري في "السنة" ١/ ١٧٩ بسند صحيح عنهما.

٦ – حرب بن إسماعيل الكرماني (فقيه ثبت، من خيار تلاميذ أحمد).

قال: "إن الحق والصواب الواضح المستقيم الذي أدركنا عليه أهل العلم أن من زعم أن ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا، مخلوقة، فهو جهمي مبتدع خبيث". ذكره ابن أبي حاتم عنه – كما في "السنة" لابن الطبري (٢/ ٣٥٣).

وساق الإمام أبو القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/ ٣٤٩-٣٥٤) أكثر من خمسين نفسا متقاربي الطبقة، فيهم جمع من الأئمة المقتدى بهم أنهم قالوا: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو بمنزلة من قال: القرآن مخلوق،

=

=

وقالوا: هذه مقالتنا، وديننا الذي ندين الله به... ثم ساق نصوص بعض الأئمة، ثم قال: "فرجع كلام لهؤلاء الأئمة رضي الله عنهم في أن القرآن مسموع من الله على الحقيقة، وحين يقرأه القارىء فلا يكون من لفظ القارىء القرآن ككلام الآدميين حين يلفظ به فيكون مخلوقا، وكلام الله لا يشبه كلامهم لأنه غير مخلوق، فكذلك يخالفه في القراءة".اهـ.

قلت: وقد روي إنكار اعتقاد اللفظية عن إمام السنة محمد بن إدريس الشافعي، لكن بإسناد فيه نظر، ولا أحسب ذلك كان إلا في طبقة تلامذته، كالإمام أحمد وأقرانه من الأئمة، فأنكروه وشددوا فيه.

ولذا قال الإمام محمد بن جرير الطبري في صريح السنة (٣٠ - ٣٣): "وأما القول في ألفاظ العباد بالقرآن، فلا أثر نعلمه عن صحابي مضى، ولا عن تابعي قفا، إلا عمن في قوله الشفا والغناء، وفي اتباعه الرشد والهدى، ومن يقوم لدينا مقام الأئمة الأولى، أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل"... ثم قال: "ولا قول عندنا في ذلك يجوز أن نقوله غير قوله، إذ لم يكن لنا إمام نأتم به سواه، وفيه الكفاية والمقنع، وهو الإمام المتبع".اهـ.

وقال الآجري في الشريعة (ص٨٩): "احذروا رحمكم الله تعالى هؤلاء الذين يقولون لفظي بالقرآن مخلوق، هذا عند أحمد بن حنبل ومن كان على طريقته منكر عظيم، وقائل هذا مبتدع، يجتنب، ولا يكلم، ولا يجالس، ويحذر منه الناس".اهـ.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٢١): أنكر بدعة اللفظية الذين يقولون: إن تلاوة القرآن وقراءته واللفظ به مخلوق، أئمة زمانهم، جعلوهم من الجهمية، وبينوا أن قولهم يقتضي القول بخلق القرآن، وفي كثير من كلامهم تكفيرهم.اهـ.

مسألة: بيان غلط اللفظية النافية على الامامين أحمد والبخاري.

لقد عرفت حكم الإمام أحمد رحمه الله تعالى فيمن يقول: (لفظي بالقرآن مخلوق) وشرحت ذلك من وجوه كثيرة عنه، مما لا يدع مجالا للشك صحة قوله فيهم.

ولكن لما كان من أمره في الفتنة ما كان، مما رفع الله به شأنه، صار الانتساب إلى عقيدته سلامة، والحيد عنها بدعة، وعلامة السني اتباع عقيدة أحمد، وعلامة المبتدع تركها، لذا صار كل من أتى بعده من طوئف أهل القبلة يفخر بالانتساب إليه في الاعتقاد، ويعتصم به، وكل طائفة صارت تنسب إليه اعتقادها، وتقول. هو اعتقاد أحمد بن حنبل، فيروج ذلك عند من لا تمييز له ويقبله وينصره، ولكن الإنصاف في ذلك أن تقيم كل

=

=

طائفة حجتها على صحة دعواها، ولقد علمنا من سنة السلف الكرام رحمهم الله أن (الإسناد من الدين) فمن أسند فقد برئ، ومن لا فلا.

وليس يشك الناظر في كلام الإمام أحمد، والمتتبع لطريقته، أنه بريء من البدع وأهلها، فسائر هذه الطوائف التي تنتسب إليه تنصر عقائدها بأحمد، إما:

١ - بالكذب الصريح عليه.

٢ - أو بنقول عنه لا تثبت أسانيدها.

٣ - أو بنقول صحت عنه، ولكنها مجملة، لم يوفقوا للوصول إلى معرفة مراده منها.

سوى الطائفة المنصورة -إن شاء الله- أهل السنة والأثر، التي لا تعرف علم الكلام والبدع، المتنزهة عن الصفات السابقة التي يتصف بها المبتدعة، فلا تكذب عليه، ولا تحتج عنه إلا بما صح إسناده، وثبت، وظهرت الدلالة منه مفسرة لا لبس فيها ولا غموض، وذلك بجمع مقالات الإمام إلى بعضها، والتوفيق بين ما أشكل منها، وضمها إلى أقوال أسلافه وإخوانه من الأئمة الذين لم يعرفوا بالبدع، إن وجدت، ليصح لهم حينئذ القول: اعتقادنا هو اعتقاد أحمد بن حنبل، وهو اعتقاد السلف.

والمقصود هنا: أن اللفظية النافية انتسبوا إلى الإمام أحمد، ونقلوا عنه ما ظنوه موافقا لعقيدتهم، وتأولوا نصوصه الصريحة في إنكار مقالتهم على ما يوافق أهواءهم، ونصروا ذلك من وجوه:

الأول: رووا عنه أنه يقول: "لفظي بالقرآن مخلوق".

ولهذا ذكره البيهقي في اعتقاد الإمام أحمد كما في مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٦٤).

والثاني: رووا إنكاره القول: (لفظي بالقرآن غير مخلوق) في قصة أبي طالب وغيره.

وقد ساق البيهقي القصة في الأسماء والصفات (ص٢٦٦) من رواية فوران عن الإمام أحمد، وكذا قصة ابن شداد، ثم قال: "فهاتان الحكايتان تصرحان بأن أبا عبد الله أحمد ابن حنبل رضي الله عنه بريء مما خالف مذهب المحققين من أصحابنا، إلا أنه كان يستحب قلة الكلام في ذلك، وترك الخوض فيه، مع إنكار ما خالف مذهب الجماعة".اهـ.

قلت: أراد مذهب اللفظية، فإنه احتج بإنكار أحمد على أبي طالب وابن شداد بأنه كان على ضد قولهما، وأن الصواب عنده أن اللفظ بالقرآن مخلوق، فإن هذا هو قول من سماهم المحققين من أصحابهم، أمثال أبي الحسن الأشعري ومن تبعه كابن الباقلاني وابن فورك وغيرهم.

=

=

والثالث: تأولوا ما تواتر عنه من إنكاره على من قال: (لفظي بالقرآن مخلوق) على ثلاثة معان:

١ - لأنه قول محدث لم يتكلم به السلف.

٢ - أنه أراد به الجهمي المحض الذي يزعم أن القرآن الذي لم ينزل مخلوق.

وهذا قول البيهقي فيما حكاه عنه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٦٤) .

٣ - أن اللفظ معناه الطرح والرمي، ومنه قولك: (لفظت باللقمة) إذا طرحتها وألقيت بها، وهذا المعنى لا تجوز إضافته إلى القرآن.

وهذا قول أبي الحسن الأشعري وغيره كما في مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٦٢) .

والرابع: ربما احتج بعضهم بما رواه فوران قال: سألني الأثرم وأبو عبد الله المعيطي أن أطلب من أبي عبد الله خلوة،، فأسأله فيها عن أصحابنا الذين يفرقون بين اللفظ والمحكي، فسألته؟ فقال: "القرآن كيف تصرف في أقواله وأفعاله فغير مخلوق، فأما أفعالنا فمخلوقة" قلت: فاللفظية تعدهم يا أبا عبد الله في جملة الجهمية؟ فقال: "لا، الجهمية الذين قالوا: القرآن مخلوق" رواه الحاكم -كما في "سير أعلام النبلاء" ١١/ ٢٩١ - بسند صحيح.

ونحن نجيب -بتوفيق الله تعالى- عن جميع هذه الظنون، فنقول:

* أما الوجه الأول فهو خطأ ظاهر، وإفك بين على الإمام أحمد، يكذبه النقل المتواتر عنه من رواية خاصة أصحابه وأهل بيته، ولو كان ذلك من رواية ثقة معروف لكان خطأ بينا، إذ إنه يلزم من قبوله رد الأخبار الصحيحة المتواترة عنه بضد ذلك، وهذا لا يقوله عالم، ولا عجب فإن الأهواء تصنع بأهلها ما هو أعجب من ذلك.

* وأما الوجه الثاني فقد أجبت عنه في المبحث الآتي بعد هذا، وبينت أن سبب إنكار الإمام أحمد لإطلاق (لفظي بالقرآن غير مخلوق) يرجع لسببين:

- أحدهما: كونه بدعة محدثة لم يتكلم بها السلف.

- والثاني: لما يوهم من المعاني الباطلة، كإدخال فعل القارىء وصوته في ذلك.

ومذهب محققيهم (!) لم يقل به الإمام أحمد ولا ارتضاه، بل أنكره بأشد مما أنكر به قول أبي طالب الذي حكاه عنه، فإن ما حكاه أبو طالب من كون اللفظ بالقرآن غير مخلوق عده أحمد بدعة يهجر أصحابها، ولكن قول من وصفهم البيهقي بـ (المحققين) أنكره بأشد منه، وجهم القائلين به، إذ مقتضاه أن جبريل إنما جاء بشيء مخلوق، لأن

=

=

كلام الله عندهم معنى قائم به، ليس هو لغة عربية ولا غيرها، ولا هو حروفا ولا كلمات، وهذا اللفظ العربي عندهم عبارة عنه وهو مخلوق، وجبريل عليه السلام لم يأت بقرآن غير هذا العربي، فكان ما أتى به مخلوقا إذا على اعتقادهم، وارجع إلى نصوص الإمام أحمد في إنكار هذه الضلالة في المبحث الثاني من هذا الفصل، لتعلم أن هذه الطائفة التي حملت كلام أحمد على غير محامله قد حرمت التوفيق في فهم كلامه.

* وأما الوجه الثالث فإن جميع ما ذكروه تأويلات فاسدة.

- أما أولا فإنه حق في نفسه، ولكن ليس هو المراد، لأن مجرد كون القول به بدعة محدثة فإنه لا يستدعي تكفير القائل به، وهذا المعنى يتنزه عن مثله من دون الإمام أحمد علما وفهما ومعرفة، فكيف تصلح إضافته إليه رحمه الله وهو من أنزه الناس لسانا، وأصوبهم مقالا، بما آتاه الله من العلم والهدى؟

- وأما ثانيا فإنما أوقعهم في مثله اضطرارهم لتعليل ما وقعوا فيه من مخالفة عقيدة أحمد، وإلا فإن هذا التفسير يرده ظاهر قول أحمد رحمه الله، فإنه قد سبقت حكايتنا لقوله مفسرة لا يرد عليها مثل هذا الحمل الفاسد، من ذلك قوله: "هم شر من قول الجهمية، من زعم هذا فقد زعم أن جبريل جاء بمخلوق وأن النبي ﷺ تكلم بمخلوق" والذي جاء به جبريل وتكلم به محمد ﷺ هو هذا القرآن العربي المعلوم عند جميع المسلمين، لم يأت جبريل بقرآن سواه، ولم يتكلم الله بقرآن سواه، وأحمد رحمه الله إنما قال هذه المقالة وما يشبهها في الذين قالوا بخلق هذا القرآن العربي، لا فيمن قال: إن القرآن الذي لم ينزل مخلوق، فإنه ليس هناك قرآن لم ينزل، ولم تكن هناك جهمية يقولون: القرآن قرآنان، قرآن نزل، وآخر لم ينزل، وهما مخلوقان، ليحمل قول أحمد على أنه أرادهم، وإنما كانت الجهمية المحضة يقولون: ليس لله كلام، والله لا يتكلم، والقرآن مخلوق.

- وأما ثالثا ففساده ظاهر، فإنه لا يساعد على مثله ألفاظ الإمام في تجهيم اللفظية، ثم إن لفظ (اللفظ) إنما يراد به هنا النطق، لا لفظ اللقمة، وهو أبين من أن يخفى.

* وأما الوجه الرابع فإن (اللفظية) لفظ مجمل، يطلق على اللفظية النافية التي تقول: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) وعلى اللفظية المثبتة التي تقول: (ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة) وتعيين المراد إنما يكون بالدليل، فتأملنا حال اللفظية النافية هل هم المرادون بذلك أم لا؟ فوجدناهم غير مرادين لما يأتي:

١ - أن وصفهم بالجهمية متواتر عن الإمام أحمد -كما سبقت حكايته-.

=

=

٢ – أن أصحاب أحمد ليس فيهم من كان يقول: (لفظي بالقرآن مخلوق) وإنما فيهم من قال: (لفظي بالقرآن غير مخلوق) -كما سيأتي في المبحث الآتي في حكايته قصة أبي طالب وابن شداد- وقد أنكرها أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبدع أصحابها، ولم يجهمهم.

٣ – قال في الرواية: "القرآن كيف تصرف في أقواله وأفعاله فغير مخلوق، فأما أفعالنا فمخلوقة" واللفظية النافية عندهم القرآن غير المخلوق لا يتصرف في أقواله وأفعاله، وإنما هو معنى واحد قائم بذات الله، وأما القرآن الذي يتصرف في أقواله وأفعاله فهو مخلوق عندهم.

فبان بهذا أنه يعني اللفظية المثبتة القائلين: (لفظي بالقرآن غير مخلوق) فإنهم مع بدعتهم ليسوا جهمية.

• بيان غلطهم على الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

البخاري ذاك الإمام الذي لا يجهل فضله وقدره، أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل صاحب "الصحيح" أعظم كتاب على الإطلاق في سنة رسول الله ﷺ، تلقته الأمة من بعده بالقبول، وعولت عليه قبل سواه لمعرفة ما جاء به الرسول، رفع الله تعالى به للبخاري المنزلة العالية، فلا تكاد ترى مسلما يفهم لا يعلم فضل محمد بن إسماعيل بفضل "صحيحه" وكذلك هو الإمام المعتمد في الجرح والتعديل، ومعرفة الرجال والعلل، وكيف لا يكون كذلك وبأحمد وابن المديني وإسحاق تخرج؟

ولقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمام أهل السنة ورأس أهل الحديث بعد أحمد ابن حنبل، فإنه كان على أثره وطريقته، ما حاد عنه ولا زاد، ومن تأمل كتاب "التوحيد" من "الصحيح" و"خلق أفعال العباد" قامت له الحجة على صحة ما قلنا.

ولكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما آتاه الله تعالى من سعة العلم والمعرفة ما آتاه مما فاق به الأقران، وصار المشار إليه بالبنان، حمل عليه بعض أقرانه بسبب الحسد الممقوت، فحملوا كلامه ما لا يحتمل، وادعوا عليه إطلاق القول: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) وأشاعوا ذلك وأذاعوه في نيسابور وغيرها، لينفر عنه وعن الانتفاع به.

وكان حامل راية المنفرين عنه الإمام الحافظ محمد بن يحيى الذهلي، وكان من ثقات المحدثين وحفاظهم، أثنى عليه الأئمة وعدلوه وارتضوه، وكان صاحب سنة متبعا، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إلا أنه وقع في نفسه على البخاري، وزورت إليه المقالة عليه في مسألة اللفظ، فشدد على البخاري بسببها، مع أنه ارتضاه أول الأمر.

=

=

قال الحافظ أبو حامد الأعمشي (وكان ثقة ثبتا): رأيت محمد بن إسماعيل البخاري في جنازة أبي عثمان سعيد بن مروان، ومحمد بن يحيى يسأله عن الأسامي والكنى وعلل الحديث، ويمر فيه محمد بن إسماعيل مثل السهم كأنه يقرأ: {قل هو الله أحد} فما أتى على هذا شهر حتى قال محمد بن يحيى: ألا من يختلف إلى مجلسه لا يختلف إلينا، فإنهم كتبوا إلينا من بغداد: أنه تكلم في اللفظ، ونهيناه فلم ينته. فلا تقربوه، ومن يقربه؛ فلا يقربنا. فأقام محمد بن إسماعيل ها هنا مدة، وخرج إلى بخارى رواه الخطيب في "تاريخ بغداد" ٢/ ٣١ بسند صحيح.

قلت: كان البخاري رَحِمَهُ اللهُ يرى أن هذا مما أوقع فيه محمد بن يحيى الحسد في العلم، وذلك أن الله فتح عليه وآتاه ما لم يؤت الذهلي.

قال محمد بن شادل -وكان محدثا ثبتا-: لما وقع بين محمد بن يحيى والبخاري دخلت على البخاري فقلت: يا أبا عبد الله، أيش الحيلة لنا فيما بينك وبين محمد بن يحيى، كل من يختلف إليك يطرد؟

فقال: "كم يعتري محمد بن يحيى الحسد في العلم، والعلم رزق الله يعطيه من يشاء" فقلت: هذه المسألة التي تحكى عنك؟ قال: "يا بني، هذه مسألة مشؤومة، رأيت أحمد بن حنبل وما ناله في هذه المسألة، وجعلت على نفسي أن لا أتكلم فيها" أخرجه الحاكم -كما في "سير أعلام النبلاء" ١٢/ ٤٥٦ - ٤٥٧ - وسنده جيد.

قلت: البخاري رَحِمَهُ اللهُ نزيه اللسان، لا يرمي قرينه بداء الحسد بمجرد الظن من غير أن تحفه القرائن، ولكني أرى مع ذلك أن يكون النقل الذي بلغ الذهلي عن البخاري هو السبب الداعي للتنفير منه، وكان الأجدر بالإمام الذهلي أن يستثبت من البخاري نفسه، ولكن أبى الله أن يكون إلا ما أراد.

والتحقيق الذي يرتضيه كل منصف هوأن البخاري رَحِمَهُ اللهُ لم يقل بقول اللفظية، ولم ينطق بذلك لسانه، وإنما كان يقول ألفاظا يرد بسببها بعض الإيهام واللبس، ولكن من تأملها ثبت له صحة ما قلنا، فالمآخذ عليه في هذه القضية أربعة:

الأول: وقفه عن التصريح بتجهيم أو تبديع اللفظية القائلين:

(لفظي بالقرآن مخلوق) .

والثاني: جاء عنه قوله -وقد سئل عن اللفظ بالقرآن؟ -: "أفعالنا مخلوقة، وألفاظنا من أفعالنا" ففهم بعض من حضر مجلسه أنه يقول: "لفظي بالقرآن مخلوق" وأبى ذلك

=

=

آخرون.

والثالث: ما أشاعه عنه الذهلي من القول: "ألفاظنا بالقرآن مخلوقة".

والرابع: إطلاقه الفرق بين التلاوة والمتلو، والقراءة والمقروء.

فاستغل القائلون: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) ممن جاء بعده من الأشعرية وغيرهم هذه الأمور فقالوا: قول البخاري هو قولنا، فإنا نفرق ببن التلاوة والمتلو، فالتلاوة هذه الألفاظ العربية، والمتلو ما دلت عليه التلاوة، وهو عندهم كلام الله القائم بذاته الذي هو معنى مجرد.

وهذا من الزور والبهتان الذي لم يقل البخارى بشيء منه، وهوبريء منه بحمد الله، وإني ناقض بحول الله تعالى وقوته ما حرفوه من المعاني يسبب ما ذكرنا من المآخذ على البخاري.

* أما المأخذ الأول فهو غير قائم، لأن وقفه حين وقف لم يكن عن شك في بدعتهم، أو تردد في بطلان مذهبهم، وإنما كان ذلك اتقاء لما يحتمل وقوعه من الفتنة بسببها، ألا تراه احتج بأحمد رَحِمَهُ اللَّهُ؟ قال: "هذه مسألة مشؤومة، رأيت أحمد بن حنبل وما ناله في هذه المسألة، وجعلت على نفسي أن لا أتكلم فيها".

واكتفى ببيان الفرق بين أفعال العباد وكلام الله تعالى، وقال: إن أفعال العباد مخلوقة، وكلام الله القرآن وغيره غير مخلوق، وأبان عن هذا أحسن الإبانة في كتابه "خلق أفعال العباد".

* وأما المأخذ الثاني فإنه إيراد مشتبه، ونحن قد شرحنا فيما سبق أن (اللفظ) مطلقا، قد يراد به فعل العبد الذي هو حركته وصوته بالقرآن فهو حينئذ مخلوق، وقد يراد به كلام الله تعالى المسطور المقروء الذي هو الحروف العربية فهو حينئذ غير مخلوق.

والأئمة منعوا إطلاق اللفظ: (لفظي بالقرآن مخلوق) من غير تبيين المراد، لأن الجهمية ابتدعوا ذلك ليموهوا على الناس، ولم تكن حينئذ قد ظهرت بدعة القائلين: (لفظي بالقرآن مخلوق) وهم يريدون خلق القرآن العربي المؤلف من الحروف العربية، من الأشعرية وغيرهم.

فالبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المقالة أبان عن حقيقة قوله، بقوله: "أفعالنا مخلوقة، وألفاظنا من أفعالنا" عن مفارقته لاعتقاد الجهمية الباطل، وموافقته لأهل السنة، فإنه فسر ههنا مراده باللفظ وأنه إنما أراد فعل العبد، وهو مخلوق قطعا، وقد سبقت حكايتنا قول

=

=
الإمام أحمد: "من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، يريد به القرآن، فهو كافر" والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ لم يرد باللفظ القرآن، وإنما أراد فعل العبد، فغلط أناس في فهم مراده فافتروا عليه. مع أن الأولى والأحرى بالبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ ترك هذه اللفظة جملة، لأنها مما ترك السلف الكلام فيها، واكتفوا بالبيان: "أن أفعال العباد مخلوقة، والقرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف".

ولكن المقصود هنا بيان أن البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ لم يكن اعتقاده في اللفظ هو اعتقاد اللفظية الذين يعتقدون أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما جاء بكلام مخلوق، وهو هذا القرآن المؤلف من الحروف العربية، وأن الله تعالى لم يتكلم بالحروف.

* وأما المأخذ الثالث فهو مبني على خطأ على البخاري، عضده ما وقع في النفوس من الحسد في العلم -كما بينا-.

* وأما المأخذ الرابع فإن البخاري حين فرق بين التلاوة والمتلو، يعتقد أن التلاوة فعل العبد فقط، ولا يدخل فيها الكلام المؤلف من الحروف، والمتلو هو هذا القرآن العربي المبين الذي نزل به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على محمد ﷺ، خلافا لما يعتقده اللفظية الذين اعتصموا بقوله -من الأشعرية وغيرهم- فإن هؤلاء يدخلون القرآن العربي المفتتح بالفاتحة، والمختتم بالناس في التلاوة، والمتلو عندهم هو المعنى الذي وصفو بالنفسي، القائم بذات الله تعالى، وشتان ما بين المعنيين.

هذا مع أننا قد شرحنا فيما سلف أول هذا الباب عدم صحة إطلاق الفرق بين التلاوة والمتلو، أو التسوية بينهما، لأن كلا من الإطلاقين يجر إلى محاذير مرفوضة شرعا، وبينا أن تمييز القول في هذه القضية هو الجواب عن جميع ما أورد عليها من الإشكال.

فتبين إذا بهذا البيان براءة البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ مما نسبت إليه اللفظية النافية من الاعتقاد الباطل، وإني أورد عليهم قول البخاري نفسه في ذلك ليمحق باطلهم، قال رَحِمَهُ اللَّهُ في خلق أفعال العباد (ص٤٢) بعد أن أسند عن يحيى بن سعيد قوله: "ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة" قال البخاري: "حركاتهم، وأصواتهم، واكتسابهم، وكتابتهم، مخلوقة، فأما القرآن المتلو المبين، المثبت في المصحف، المسطور، المكتوب، الموعى في القلوب، فهو كلام الله، ليس بخلق".

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في خلق أفعال العباد (ص٨٧): "وقال الله ﷻ: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا}
=

=

ولكنه كلام الله تلفظ به العباد والملائكة".اهـ.

قلت: ولا يجهل مسلم يفهم أن المراد بالقرآن في هذه الآية هو القرآن العربي المعجز الذي أعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله، وهو نفسه الذي وصفه البخاري بأنه كلام الله، وهو نفسه الذي يتلفظ به العباد، والملائكة، فما أثبت للعباد والملائكة -وهم عامة من يعقل من خلق الله- إلا تلفظهم به الذي هو فعلهم: نطق ألسنتهم، وحركة شفاههم، أما القرآن المعجز فغير مقدور لهم أن يأتوا بمثله، وهذا كله خلاف دين اللفظية النافية، فإن هذا القرآن العربي المعجز في نظمه مخلوق النظم عندهم.

وقد أثبت البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه "خلق أفعال العباد" أن القرآن منزل غير مخلوق، وأنه من الله بدأ وإليه يعود، وأن الله تعالى يتكلم بصوت، إلى غير ذلك مما هو معتقد أهل الحق الذي فصلناه في الباب الأول، مما ترغم به أنوف اللفظية الأشعرية وغيرهم الذين يقول قائلهم من غير حياء ولا ورع: "كان البخاري ممن قال: لفظي بالقرآن مخلوق".

ومما يجدر التنبيه عليه أنه روي عن البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال للحافظ أبي عمرو أحمد بن نصر الخفاف: "يا أبا عمرو، احفظ ما أقول لك: من زعم من أهل نيسابور، وقومس، والري، وهمذان، وحلوان، وبغداد، والكوفة، والمدينة، ومكة، والبصرة، أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب، فإني لم أقل هذه المقالة، إلا أني قلت: أفعال العباد مخلوقة" رواه ابن الطبري في "السنة" ٢/ ٣٥٨ والخطيب "التاريخ" ٢/ ٣٢ وابن أبي يعلى في "طبقات الحنابلة" ١/ ٢٧٧ وهي قصة ضعيفة الإسناد جدا من أجل أبي صالح خلف بن محمد بن إسماعيل وهو الخيام البخاري، ضعيف جدا.

قلت: لكنني أعرضت عن الاحتجاج بها صفحا لعدم ثبوت إسنادها، وإن كانت قد احتج بها جماعة من الأئمة، وفيما حققناه كفاية لمن رزقه الله التجرد للحق.

مسألة: حكم اللفظية المثبتة.

اللفظية المثبتة -كما سبق في المبحث الأول- هم القائلون: (ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة) ويريدون بهذا الإطلاق اللفظ الذي هو كلام الله المؤلف من الحروف العربية، ويريدون به أيضا الرد على اللفظية النافية القائلين: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) .

ولكنهم حين أطلقوا هذه المقالة -مع صحة مرادهم- جاء من بعدهم أقوام وافقوهم في إطلاق اللفظ، وأدخلوا في ذلك فعل العبد وحركته وصوته، ومما أوقعهم في ذلك إطلاقهم القول: إن التلاوة هي المتلو، والقراءة هي المقروء، وقد بينا فيما سلف فساد

=

=

هذا الإطلاق.

فمنع الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ إطلاق هذا اللفظ: (ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة) لأمرين:

الأول: أنه لفظ مبتدع، لم يتكلم فيه السلف.

والثاني: لما يجر من الوقوع في المحذور، كما جر بعض من جاء بعد من أتباع هذه المقالة، فمنهم من توقف: هل يدخل في اللفظ صوت العبد وحركته؟ أم لا؟ وتجرأ آخرون فأدخلوا فعل العبد وحركته وصوته.

وهذا سياق لبعض ما تيسر الوقوف عليه من كلام إمام السنة أبي عبد الله أحمد بن حنبل في شأن هذه الطائفة.

١ - قد سبق عنه أنه كان يكره الكلام في اللفظ بإثبات أو نفي.

٢ - وقال أبو بكر بن زنجويه: سمعت أحمد بن حنبل يقول: "من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق، فهومبتدع لا يكلم" رواه الخلال في "السنة" كما في "مجموع الفتاوى" ١٢/ ٣٢٥ بسند صحيح عن أحمد.

وحكى نحو هذا الحافظ الإمام محمد بن جرير الطبري عن أحمد، وقال الإمام أبو عثمان الصابوني عقبه في رسالته في السنة (ص١٧): "وأما ما حكاه محمد بن جرير عن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أن من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع، فإنما أراد به أن السلف الصالحين من أهل السنة لم يتكلموا في باب اللفظ، ولم يحوجهم الحال إليه، وإنما حدث الكلام في اللفظ من أهل التعمق وذوي الحمق، الذين أتوا بالمحدثات، وبحثوا عما نهوا عنه من الضلالات وذميم المقالات، وخاضوا فيما لم يخض فيه السلف من علماء الإسلام، فقال الإمام أحمد: هذا القول في نفسه بدعة، ومن حق المتدين أن يدعه وكل بدعة مبتدعة، ولا يتفوه به ولا بمثله من البدع المبتدعة، ويقتصر على ما قاله السلف المتبعة: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولا يزيد عليه إلا تكفير من يقول بخلقه".اهـ.

٣ - وقال الإمام أبو بكر المروذي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال لي أبو عبد الله -يعني أحمد-: "قد غيض قلبي على ابن شداد" قلت: أي شيء حكى عنك؟ قال: "حكى عني في اللفظ" فبلغ ابن شداد أن أبا عبد الله قد أنكر عليه، فجاءنا حمدويه بن شداد بالرقعة فيها مسائل، فأدخلتها على أبي عبد الله، فنظر، فرأى فيها: إن لفظي بالقرآن غير مخلوق -مع مسائل فيها- فقال أبو عبد الله: "فيها كلام ما تكلمت به" فقام من الدهليز فدخل، فأخرج

=

=

المحبرة والقلم، وضرب أبو عبد الله على موضع: لفظي بالقرآن غير مخلوق، وكتب أبو عبد الله بخطه بين السطرين: "القرآن حيث تصرف غير مخلوق" وقال: "ما سمعت أحدا تكلم في هذا بشيء" وأنكر على من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق رواه الخلال في "السنة" عن المروذي به -كما في "مجموع الفتاوى" ١٢/ ٤٢٤ - ٤٢٥ - وروى هذه القصة أيضا أبو محمد فوران صاحب الإمام أحمد بنحوها، أخرج ذلك البيهقي في "الأسماء" ص: ٢٦٥ بسند صحيح.

قلت: حمدويه بن شداد هذا أحد أصحاب الإمام أحمد.

٤ - وقال صالح بن أحمد بن حنبل: تناهى إلي أن أبا طالب يحكي عن أبي أنه يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فأخبرت أبي بذلك، فقال: "من أخبرك؟ " فقلت: فلان، قال: "ابعث إلى أبي طالب" فوجهت إليه، فجاء، وجاء فوران، فقال له أبي: "أنا قلت [لك]: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ " وغضب، وجعل يرعد، فقال له: قرأت عليك: {قل هو الله أحد} فقلت لي: "هذا ليس بمخلوق" قال: "[فلم حكيت عني] أني قلت لك: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وبلغني أنك وضعت ذلك في كتابك، وكتبت به إلى قوم، فإن كان في كتابك فامحه أشد المحو، واكتب إلى القوم الذين كتبت إليهم: أني لم أقل لك هذا" وغضب، وأقبل عليه فقال: "تحكي عني ما لم أقل لك؟ " فجعل فوران يعتذر إليه، وانصرف من عنده وهو مرعوب، فعاد أبو طالب فذكر أنه قد حك ذلك من كتابه، وأنه كتب إلى القوم يخبرهم أنه وهم على أبي عبد الله في الحكاية. رواها صالح في "المحنة" ص: ٧٠ - ٧١ ومن طريقه ابن الجوزي في "المناقب" ص: ١٥٥، وذكرها شيخ الإسلام عن كتاب "المحنة" -كما في "مجموع الفتاوى" ١٢/ ٤٢٣ - ٤٢٤ - .

قلت: وهذه القصة صحيحة مشهورة عن الإمام أحمد، رواها عنه ابنه صالح، وأبو بكر المروذي، وفوران بن محمد، والثلاثة من خواص أصحابه، وكلهم شهدوا القصة.

رواية أبي بكر المروذي: قال رَحِمَهُ اللَّهُ: بلغ أبا عبد الله عن أبي طالب أنه كتب إلى أهل نصيبين أن لفظي بالقرآن غير مخلوق، قال أبو بكر: فجاءنا صالح بن أحمد، فقال: قوموا إلى أبي، فجئنا، فدخلنا على أبي عبد الله، فإذا هو غضبان شديد الغضب، قد تبين الغضب في وجهه، فقال: "اذهب فجئني بأبي طالب" فجئت به، فقعد بين يدي أبي عبد الله وهو يرعد، فقال: "كتبت إلى أهل نصيبين تخبرهم عني أني قلت: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ " فقال: إنما حكيت عن نفسي، قال: "فلا يحل هذا عنك ولا عن نفسي، فما

=

=

سمعت عالما قال هذا".

قال أبو عبد الله: "القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف".

فقيل لأبي طالب: اخرج وأخبر أن أبا عبد الله قد نهى أن يقال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فخرج أبو طالب فلقي جماعة من المحدثين فأخبرهم أن أبا عبد الله نهاه أن يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق. رواها الخلال في "السنة" عن المروذي به -كما في "مجموع الفتاوى" ١٢/ ٣٦٠ - ٣٦١ - .

رواية فوران بن محمد: قال رَحِمَهُ اللَّهُ: جاءني صالح -وأبو بكر المروذي عندي- فدعاني إلى أبي عبد الله، وقال: إنه قد بلغ أبي أن أبا طالب قد حكى عنه أنه يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فقمت إليه، فتبعني صالح، فدار صالح من بابه، فدخلنا على أبي عبد الله، فإذا أبو عبد الله غضبان شديد الغضب، بين الغضب في وجهه، فقال لأبي بكر: اذهب فجئني بأبي طالب، فجاء أبو طالب، وجعلت أسكن أبا عبد الله قبل مجيء أبي طالب، وأقول: له حرمة، فقعد بين يديه -وهو متغير اللون- فقال له أبو عبد الله: "حكيت عني أني قلت: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ " فقال: إنما حكيت عن نفسي، فقال. "لا تحك هذا عنك ولا عني، فما سمعت عالما يقول هذا" -أو العلماء، شك فوران- وقال له: "القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف"، فقلت لأبي طالب -وأبو عبد الله يسمع-: إن كنت حكيت هذا لأحد فاذهب حتى تخبره أن أبا عبد الله نهى عن هذا، فخرج أبو طالب فأخبر غير واحد بنهي أبي عبد الله، منهم: أبو بكر بن زنجويه، والفضل بن زياد القطان، وحمدان بن علي الوراق، وأبو عبيد، وأبو عامر، وكتب أبو طالب بخطه إلى أهل نصيبين بعد موت أبي عبد الله يخبرهم أن أبا عبد الله نهى أن يقال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، وجاءني أبو طالب بكتابه وقد ضرب على المسألة من كتابه، قال زكريا بن الفرج -راوي القصة عن فوران-: فمضيت إلى عبد الوهاب الوراق، فأخذ الرقعة فقرأها، فقال لي: من أخبرك بهذا عن أحمد؟ فقلت له: فوران بن محمد، فقال: الثقة المأمون على أحمد. قال زكريا: وكان قبل ذلك قد أخبر أبو بكر المروذي عبد الوهاب، فصار عند عبد الوهاب شاهدان. أخرج هذا السياق الخلال في "السنة" -كما في "مجموع الفتاوى" ١٢/ ٤٢٥ - ٤٢٦ - وزكريا بن الفرج هذا لم أعرفه، إلا أن البيهقي أخرج القصة في "الأسماء" ص: ٢٦٥ - ٢٦٦ من طريق أخرى عن فوران بإسناد صحيح، فزال ما يخشى.

=

=

قلت. فهذه الحكاية الصحيحة قاطعة في عدم قول الإمام أحمد بهذه المقالة، بل هي صريحة في كونه لم يتفوه بها، وإنما كان ما نقل عنه أبو طالب خطأ تأوله، فعنفه أحمد ونهاه عنه.

فكل ما ورد عنه من القول بها فإن هذه الحكاية تكذبه.

٥ - وقال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

"وقع عندي عن أحمد بن حنبل على اثنين وعشرين وجها، كلها يخالف بعضها بعضا، والصحيح عندي أنه قال: ما سمعت عالما يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق". ذكر هذا شيخ الإسلام، قال: ورأيت بخط القاضي أبي يعلى رَحِمَهُ اللَّهُ على ظهر كتاب "العدة" بخطه قال: نقلت من آخر كتاب "الرسالة" للبخاري في أن القراءة غير المقروء، فذكره.

قلت: فهذه النصوص التي ذكرت عن الإمام أحمد كافية في بيان اعتقاده في هذه القضية، فكما أنه أنكر بدعة اللفظية النافية أنكر كذلك بدعة اللفظية المثبتة، ولم يوافق أيا من الطائفتين على بدعتهم، وأولئك النافية جهمهم، وهؤلاء المثبتة بدعهم وأمر بهجرهم.

• بيان خطإ من أخطأ على الإمام أحمد في هذه المسألة:

ولكن أقواما من أهل السنة والحديث أرادوا رد بدعة اللفظية النافية القائلين: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) فقابلوهم بإطلاق الضد، فقالوا: (ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة) ولم يكن مرادهم إلا إثبات أن هذا القرآن العربي كلام الله غير مخلوق، لكنهم لم يتفطنوا لخطورة هذا الإطلاق، وكان حريا بهم أن يسلكوا مسلك الإمام أحمد في المنع من ذلك، وعدم رد البدعة ببدعة.

فلما وقع ذلك منهم، وفيهم أئمة أعلام، مثل: الحافظ الإمام أبي حاتم الرازي، تبعهم عليه طائفة من أهل السنة المعروفين بالانتساب إلى عقيدة الإمام أحمد، مثل: أبي عبد الله بن حامد، وأبي نصر السجزي، وأبي عبد الله بن منده، وآخرين سواهم، وظنوا أن هذا هو مذهب أحمد واعتقاده، بل إن منهم من كان يقطع بأنه اعتقاد أحمد وقوله المحقق الذي رجع إليه، واعتمدوا على نقول عنه في ذلك، وادعى بعضهم أن حكاية أبي طالب السابقة مكذوبة عليه كما في مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٠٧ - ٢٠٨، ٣٦١).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٠٨): "وليس الأمر كما قاله هؤلاء، فإن أعلم الناس بأحمد وأخص الناس وأصدق الناس في النقل عنه هم الذين رووا ذلك عنه، ولكن أهل خراسان لم يكن لهم من العلم بأقوال أحمد ما لأهل العراق الذين هم

=

=

أخص به".اهـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٦١) فيما احتجوا به من روايات عن أحمد أنه قال ذلك: "وهي روايات ضعيفة بأسانيد مجهولة، لا تعارض ما تواتر عنه عند خواص أصحابه وأهل بيته والعلماء الثقات، لا سيما وقد علم أنه في حياته خطأ أبا طالب في النقل عنه، حتى رده أحمد عن ذلك وغضب عليه غضبا شديدا".اهـ.

• ذكر ما جر إليه إطلاق هذا القول من البدع: الألفاظ المبتدعة لو كان المقصود منها حسنا فإنها لا تخلو من مفسدة شرعية، ولو لم يقع بسببها إلا الإحداث المذموم لكانت حرية بأن تنبذ وتترك، فكيف إذا كانت بابا لبدع أعظم منها، ولمفاسد أكبر منها، شأن هذه البدعة، فإنه كان من مقصود مبتدعها الرد على اللفظية الجهمية الذين أطلقوا القول: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) فقابلوا باطلهم بباطل، وبدعتهم ببدعة، ولقد كان يكفيهم ما كفى غيرهم من أئمة الهدى كالإمام أحمد وغيره، فيبطلوا البدعة بدلائل القرآن، ويكشفوا زيفها بواضح البيان، مع الاستغناء عن الألفاظ المحدثة، ولكنها زلة كانت، فالله المستعان.

وقد حدثت بسببها بدعتان شنيعتان، وقعتا من بعض الجهلة لا ممن ذكرنا من الأئمة:

البدعة الأولى: القول بأن فعل القارئ الذي هو صوته وحركته بالقراءة غير مخلوق، فجعلوا ذلك من كلام الله، وصوت القارئ هو صوت الله، وهذا ضلال مبين، وزيغ عن الصراط المستقيم، وهو باطل من وجوه كثيرة:

١ - أن أفعال العباد جميعا مخلوقة، وهي عقيدة السلف الكرام، قال الله تعالى: {والله خلقكم وما تعملون} [الصافات: ٩٦].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله يصنع كل صانع وصنعته" وتلا بعض الرواة عند ذلك: {والله خلقكم وما تعملون} وهو حديث صحيح.

قال إمام المحدثين الحجة الحافظ يحيى بن سعيد القطان رحمه الله: "ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون: "إن أفعال العباد مخلوقة". رواه البخاري في "خلق أفعال العباد" رقم (١٢٥) بسند صحيح عنه.

قال البخاري رحمه الله في خلق أفعال العباد رقم (١٢٦): "حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو المبين، المثبت في المصحف، المسطور، المكتوب، الموعى في القلوب، فهو كلام الله، ليس بخلق، قال الله: {بل هو آيات بينات

=

=

في صدور الذين أوتوا العلم} [العنكبوت: ٤٩]".اهـ.
وقال الإمام أبو عثمان الصابوني في رسالته في السنة (نص/ ١١٨): "ومن قول أهل السنة والجماعة في أكساب العباد أنها مخلوقة لله تعالى، لا يمترون فيه، ولا يعدون من أهل الهدى ودين الحق من ينكر هذا القول وينفيه".اهـ.
٢ - أن النبي ﷺ أضاف صوت القارئ وتحسينه إليه دون القرآن الذي هو كلام الله تعالى، وذلك في غير ما حديث عنه، من ذلك قوله ﷺ: "زينوا القرآن بأصواتكم"، وقوله ﷺ: "ما أذن الله لشيء، ما أذن لنبي حسن الصوت، يتغنى بالقرآن يجهر به"، ففرق النبي ﷺ بين صوت القارئ والقرآن المتلو الذي هو كلام الله، فأضاف الصوت إلى القارئ، لأنه من كسبه وعمله.
٣ - القارىء إنما يبلغ القرآن بصوته وحركة نفسه، فالكلام كلام الباري، والصوت صوت القارئ، وهذا المعنى متصور معقول في كل كلام، فلم لا يتصور في كلام الله تعالى؟ فإن المحدث إذا حدث بحديث النبي ﷺ: "من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"، فإن الكلام كلام النبي ﷺ بلا شك ولا ريب، والمحدث إنما بلغه بصوت نفسه، وحركة لسانه، ولا يقال: إن الصوت المسموع من المحدث هو صوت النبي ﷺ، ولو قال ذلك قائل لما كان معدودا في عقلاء بني آدم، فإذا كان هذا ظاهرا في كلام المخلوق، فأولى وأحرى أن يكون أظهر في كلام الله تعالى، ذلك لأن صفة المخلوق تشبه صفة مثله ومع ذلك أمكن التمييز فيها، وصفة الله لا تشبه صفة المخلوق فلم عسر التمييز فيها؟
ولقد أنكر الأئمة رحمهم الله هذه البدعة حين ظهرت، كالبخاري رحمه الله تعالى وغيره، وقد أخذ الإمام أبو بكر المروذى - أخص أصحاب الإمام أحمد به - أجوبة أئمة الإسلام وعلمائه في وقته، من أهل بغداد، والبصرة، والكوفة، والحرمين، والشام، وخراسان، وغيرهم من الأئمة في ذلك.
وقد ساق شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٢٢) جماعة منهم:
أبو بكر الأثرم، ومحمد بن بشار بندار، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي، ومحمد بن عبد الله المخرمي، والعباس بن محمد الدوري، وعبد الكريم بن الهيثم العاقولي، وأحمد بن سنان الواسطي، وعلي بن حرب الموصلي.
قلت: وهؤلاء جميعا من ثقات المحدثين وحفاظهم.

=

مسألة الواقفة سموا بذلك

لوقوفهم وإمساكهم عن إطلاق القول بخلق القرآن أو عدم خلقه. وهم ثلاثة أصناف

١ - صنف وقفوا شكًّا ولم يتبين لهم الأمر بزعمهم ويطلق عليهم شكّاك، وبعضهم بدع من خالفه. وقد أنكر السلف على هذا الصنف أشد النكير، وعدّوهم من الجهمية، فهذا إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل يقول وقد سئل عن الواقفة: "من كان منهم يخاصم ويعرف بالكلام فهو جهمي". انظر: السنّة / لعبد الله بن أحمد ص: ٣٦. ويقول في كتاب السنّة له ص: ٥١، ضمن مجموعة شذرات البلاتين: "وهم شرّ الأصناف وأخبثها، وقد عقد الإمام الدارمي بابًا في الاحتجاج عليهم في كتابه الردّ على الجهمية ص: ١٠٢ - ١٠٥، وقد نقل الإمام اللالكائي في (شرح اعتقاد أصول أهل السنّة ص: ٣٢١) عن

=

قال شيخ الإسلام: "ومن شاء الله تعالى من أئمة أهل السنة وأهل الحديث، من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وغيرهم، ينكرون على من يجعل لفظ العبد بالقرآن، أو صوته به، أو غير ذلك من صفات العباد المتعلقة بالقرآن غير مخلوقة، ويأمرون بعقوبته بالهجر وغيره".اهـ.

والبدعة الثانية: أن أقواما جعلوا كلام الله مجرد الحروف والأصوات، والمعاني ليست داخلة في ذلك. كما فيمجموع الفتاوى (١٢/ ٣٨١، ٣٨٣) .

وهذه البدعة ظاهرة الفساد، وقد بينت في الباب الأول ما فيه كفاية لإثبات كون الكلام اسما للفظ والمعنى جميعا، ليس اسما لواحد منهما دون الآخر. وربما نسب خصوم هذه الطائفة إليها أنها تقول بأن المداد الذي يكتب به كلام الله، والورق أو الجلد الذي يكتب فيه، أو ما في معنى هذا ليس مخلوقا، وهذا في الحقيقة قول لم يقل به أحد له مسكة من عقل، وربما وقع فيه بعض الجهال المتطرفين، وفساده أظهر من أن يستدل له. والله أعلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

انظر هذه المسائل في كتاب العقيدة السلفية فى كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية.

جماعة من أهل العلم كابن الماجشون وغيره أنهم قالوا: من وقف في القرآن بالشكّ فهو كافر.

٢- وصنف: سكتوا عن الخوض في ذلك مع اعتقادهم بأن القرآن كلام الله غير مخلوق تورعًا ورأوا أن من كان قبلهم من السّلف لم يتكلموا في ذلك، ولمثل هؤلاء يقول الإمام أحمد وقد سئل هل لهم رخصة أن يقول الرجل: كلام الله ثم يسكت فقال ولم يسكت؟ لولا ما وقع فيه الناس كان يسعه السكوت لكن حيث تكلموا فيما تكلموا لأي شيء لا يتكلمون. انظر: مسائل أحمد لأبي داود ٢٦٤، فكان الأولى أن يبينوا للناس ولا سيما إذا كانوا من أهل العلم والحديث، لأن الناس بهم يقتدون وإليهم ينظرون.

٣- وصنف جاهل: "وهذا عليه أن يسأل ليتعلم"، ويجمع كلّ هذه الأصناف ما رواه عبد الله بن أحمد في كتاب السّنّة ص: ٣٦: "سمعت أبي سئل عن الواقفة فقال أبي: "من كان منهم يخاصم ويعرف بالكلام فهو جهمي، ومن لم يكن يعرف بالكلام يجانب حتى يرجع، ومن لم يكن له علم يسأل حتى يتعلم".

مسألة: كلام الله من وراء حجاب بلا واسطة في الدنيا

هذه المَرتبة أعلى مَراتب التَّكليم وأشْرَفُها وأفضَلُها، قال تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ...} [البقرة: ٢٥٣].

وقد وقعَ هذا النوعُ لثلاثةٍ من الأنبياءِ فيما جاءَ به السَّمعُ، هم:

١- آدم عليه السلام: والدليل عليه قوله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ...} [البقرة: ٣٧]، ومن السُّنَّةِ: حديثُ أبي أمامَة رضي الله عنه أنَّ رجُلًا أتى النبيَّ ﷺ، قال

(يا نبيَّ الله، أنبيًّا كانَ آدم؟ قال: "نعَمْ، مكلَّمًا)[(١)].

٢- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: والأدلَّة عليه من الكتاب كثيرةٌ منها:

قَوْلُهُ تعالى: {وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: ١٦٤] وقَولُهُ تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: ١٤٣] وقَوْلُهُ تعالى: {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي} [الأعراف: ١٤٤].

ومن السُّنَّةِ: حديثُ عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إنَّ مُوسى قال: يا ربِّ أرِنا آدمَ الَّذي أخرجَنا ونفسَهُ من الجنَّةِ، فأراه الله آدم، فقال: أنتَ أبونَا آدمُ، فقال له آدمُ: نَعَمْ، قال: أنتَ الذي نَفَخَ الله فيكَ من رُوحِهِ وعلَّمَكَ الأسماءَ كلَّها، وأمَرَ الملائكةَ فَسَجَدوا لكَ؟ قال: نَعَمْ، قالَ: فما حملَكَ على أنْ أخرَجْتَنَا ونفسَكَ من الجنَّةِ؟ فقال له آدمُ: وَمَنْ أنْتَ؟ قال: أنَا مُوسى، قال: أنتَ نبيُّ بني إسرائيل الَّذي كَلَّمكَ الله من وَراءِ الحِجابِ، لم يَجْعَلْ بينَكَ وبينه رَسولًا من خَلْقِهِ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: أفما وَجَدْتَ أنَّ ذلك كانَ في كتابِ الله قبلَ أنْ أخْلَقَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فِيمَ تلومُني؟ في شَيْءٍ سَبَقَ من اللَّه تعالى فيه القضاءُ

---

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (رقم ٢٩٩)، وابن حبان رقم (٦١٩٠)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٣٩-١٤٠)، والأوسط (رقم ٤٠٥)، وفي الشاميين (٢٨٦١)، والحاكم (٢/ ٢٦٢)، وأبو جعفر الرزاز في مجلس من الأمالي (ق ١٧٨/ ١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٢٠٦)، وابن عساكر (٢/ ٣٢٥/ ب) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٠١): على شرط مسلم، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٩٦) و(٨/ ٢١٠): "رجاله رجال الصحيح" زاد في الموضع الثاني: "غير أحمد بن خليد الحلبي وهو ثقة"، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٦٦٨)، وخرجه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٤٧٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٦/ ٦٢٠): سنده صحيح.

قَبْلي؟ "قالَ رسولُ الله ﷺ عند ذلك: "فحَجَّ آدمُ مُوسى، فحَجَّ آدمُ مُوسى)(١)، وقد سمى الله تعالى هذا التَّكليم نِداء، كما قال: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: ١١ - ١٤]، وكَما قالَ سبحانه: {فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [النمل: ٨ - ٩] وكَما قال تعالى: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [القصص: ٣٠].

٣- نبيّنا محمد ﷺ: ووقعَ لَه ذلك في قِصة المِعراج عندَ سِدْرةِ المُنْتَهى. قال ﷺ: (فأوْحى الله إليَّ ما أوْحى، ففرَضَ على خَمْسينَ صلاةً في كلّ يومٍ وليلةٍ، فنزلتُ إلى موسى ﷺ فقَالَ: ما فَرَضَ ربُّكَ على أمَّتِك؟ قلتُ: خَمْسينَ صَلاةً، قالَ: ارْجِعْ إلى ربِّكَ فاسْألْهُ التَّخفيفَ، فإنَّ أمَّتَكَ لا يُطيقونَ ذلكَ، فإني قدْ بلَوْتُ بني إسْرائيلَ وخبَرْتُهم، قال: فرَجَعْتُ إلى رَبِّي، فقلتُ: يا ربّ، خَفِّفْ على أمَّتي، فحَطَّ عنِّي خمْسًا، فرَجَعْتُ إلى مُوسى فقلتُ. حَطَّ عنّي خَمْسًا، قال: إنَّ أمَّتَكَ لا يُطيقونَ ذلكَ، فارْجِعْ إلى ربِّكَ فاسألْهُ التَّخفيفَ، قالَ: فلَمْ أزَلْ أرجِعُ بينَ رَبِّي

---

(١) أخرجه عبد الله بن وهب في القدر (رقم ٣)، وأبو داود (٤/ ٢٢٦، رقم ٤٧٠٢)، وأبو يعلى رقم (٢٤٣)، وابن خزيمة في التوحيد (ص ٩٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ١٩٣) والحديث صححه ابن منده في الرد على الجهمية (٦٨)، وقال ابن عبد البر في الإستذكار (٧/ ٢٦١): حسن صحيح الألفاظ والسياقة، وصححه ابن تيمية في تلبيس الجهمية (٨/ ٩٣)، وقال العلامة الألباني في الصحيحة (١٧٠٢): هذا إسناد حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير هشام بن سعد وهو صدوق له أوهام، وقد حسنه ابن تيمية في أول رسالته في القدر، والحديث في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة مختصرا.

تباركَ وتعالى وبينَ موسى عليه السلام، حتى قال: يا محمَّدُ، إنَّهُنَّ خمسُ صَلَواتٍ كُلَّ يوم وليلةٍ، لكُلِّ صلاةٍ عشرٌ، فذلك خَمْسونَ صَلاةً، ومَنْ همَّ بحَسَنةٍ فلمْ يَعْمَلْها كُتِبَتْ له حسنةً، فإنْ عَمِلَها كُتِبَتْ له عَشْرًا، ومَنْ هَمَّ بسيِّئةٍ فلمْ يعمَلْها لمْ تُكْتَبْ شيئًا، فإن عَمِلَها كُتِبَتْ سيِّئةً واحدةً، قال: فنَزَلتُ حتى انتهَيْتُ إلى موسى ﷺ فأخبَرْتُهُ، فقالَ: ارجعْ إلى ربِّكَ فاسألْهُ التَّخفيف"، فقال رسول الله ﷺ: "فقلتُ: قَدْ رَجَعْتُ إلى رَبِّي حتَّى استحيَيْتُ منه)[1]. قلتُ: ولهذا التكليمُ هو المرادُ بقوله تعالى: {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [النجم: ١٠].

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٢/ ٣٢٠): إن الله كلم موسى وأمره بلا واسطة وكذلك كلم محمدا ﷺ وأمره ليلة المعراج وكذلك كلم آدم وأمره بلا واسطة وهي أوامر دينية شرعية.اهـ.

وسئلت اللجنة الدائمة (٣/ ٣٦٩): كثيرا ما نسمع ونقرأ أن الصلوات الخمس فرضت على النبي ﷺ بدون واسطة وذلك بعد ما عرج به عليه الصلاة والسلام إلى السموات، والذي أشكل علي وأريد من سماحتكم تبيينه وتوضيحه هو هل أن الله عز وجل كلم محمدا ﷺ مشافهة وبذلك تكون هذه تابعة لخصوصياته عليه السلام مشتركا فيها مع أخيه موسى عليه السلام، وأن كلام الله عز وجل في الدنيا ليس خاصا لموسى عليه السلام، أفتونا جزاكم الله عنا خيرا مرشدينا في ذلك إلى الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ؟

فأجابت: نعم، أحاديث المعراج صريحة بأن الله سبحانه كلم نبيه محمدا ﷺ، وبذلك يعلم أنه عليه الصلاة والسلام كليم الله كما أن موسى كليم الله وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.اهـ.

---

(١) متفق عليه من حديث أنس بن مالك، والسياق لمسلم (١٦٢).

وقال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٥/ ٤٠): ثبت أن الله كلم محمدًا، ﷺ ليلة المعراج.اهـ.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن هذا التكليم كان بواسطة جبريل، فقالوا: فأوحى إلى عبده بواسطة جبريل ما أوحى، أي: جبريل.

وهذا مردود، إذ الأصل عدم الحذف في الكلام، وظاهر الحديث أن الخطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ كان بغير واسطة، ومن قرائنه مراجعة النبي ﷺ ربه، وكذا يؤكده أن النبي ﷺ رفع إلى موضع لم يرفع إليه موسى عليه السلام الذي فضل بكلام الله، ولا إبراهيم عليه السلام الذي فضل بالخلة، فذلك مستوجب أن يكون فضله أعظم من فضل من دونه، فجدير به أن ينال درجات الفضل التي حصلها من دونه.

والذي ألجأ القائلين بهذا إلى هذه المقالة أنهم التزموا أنه ﷺ إن أثبت له تكليم الله تعالى إياه بغير واسطة، فإن ذلك يستجب رؤيته ﷺ لربه، والتحقيق الذي عليه جمهور أهل السنة أنه ﷺ لم ير ربه تعالى ليلة الإسراء.

والصواب أن هذا الذي التزموه ليس بلازم، لأن التكليم غير الرؤية، وهو ممكن الوقوع بخلاف الرؤية، وذلك من وراء حجاب، كما وقع لموسى عليه السلام، فإن موسى لم ير ربه، مع أنه كلمه وناداه.

وقد علمنا أن هذه المرتبة من التكليم أكمل المراتب وأعلاها، فهي فضل عظيم، ودرجة رفيعة، فحري أن تكون لسيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام. العقيدة السلفية فى كلام رب البرية (ص٩٩).

مسألة: تكليم الله في الآخرة لعباده

تكليمُ الله تعالى لعبادِه في الآخرةِ يَقَعُ منه إليهم من غير وسائط بينَه وبينَهم،

والمقصود به غيرُ المقصود بالتكليم في الدُّنيا، فإنَّ التكليمَ في الدُّنيا، إنَّما كانَ المرادُ بهِ تقويمَ السُّلوكِ إلى الدَّارِ الآخرةِ، وأمَّا وقوعهُ في الآخرةِ، فعلى أوجهٍ ثلاثةٍ:

الوجه الأول: للحساب والقضاء بين العباد في المحشر

وتستوي الخلائقُ في هذا التكليم إلاَّ أقوامًا شاءَ الله أن يَحْرِمَهم ذلك، تَنكيلًا وزيادةً في العذابِ.

ومن الدليل على ما ذكرنا:

١- قولُه تعالى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: ٦٥].

٢- وقوله تعالى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ} [فصلت: ٤٧].

٣- وحديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يقبض الله الأرض، ويطوي السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك؛ أين ملوك الأرض؟ " وفي لفظ: "يقبض الله الأرض يوم القيامة ...)[١].

٤- وحديث عدى بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة". وفي لفظ:"ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه)[٢].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٨١٢)، ومسلم برقم (٢٧٨٧).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٩)، ومسلم برقم (١٠١٦).

٥- وحديث عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (يحشر الله العباد -أو الناس- عراة غرلا بهما". قلنا: ما بهما؟ قال:

"ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد -أحسبه قال: كما يسمعه من قرب-: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة". قلت: وكيف؟ وإنما نأتي الله عراة بهما؟ قال: "بالحسنات والسيئات)[١].

٦- وحديث صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر (كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: "يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه عَزَّ وَجَلَّ، حتى يضع عليه كنفه[٢]، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول:

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥)، والبخاري في الادب المفرد (٩٧٠)، وفي خلق أفعال العباد (ص ٩٢)، والحاكم (٢/ ٤٧٥، رقم ٣٦٣٨)، والحارث بن أبي أسامة (٤٥-زوائد)، وابن أبي عاصم في السنة (٥١٤)، وفي الآحاد والمثاني (٢٠٣٤)، والخطيب البغدادي في الرحلة (٣١)، وفي الجامع لأخلاق الراوي (١٧٤٨)، والبيهقي مختصرا في الأسماء والصفات (ص ٧٨)، وابن عبد البر في بيان العلم (ص١٢٢)، والضياء (٩/ ٢٥ رقم ١٠) وغيرهم والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وحسنه الإمام ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٤٨٩)، وحسنه الحافظ في الفتح (١/ ١٧٤)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الأدب المفرد، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٥/ ٤٣٢): إسناده حسن، القاسم بن عبد الواحد المكي، سئل عنه أبو حاتم فقال: يكتب حديثه، ثم سئل: يحتج بحديثه؟ قال: يحتج بحديث سفيان، وشعبة. قلنا: وقد روى عنه جمع، وذكره ابن حبان في "الثقات". وقال الذهبي: وثق. قلنا: ولا نعلم فيه جرحا. وعبد الله بن محمد بن عقيل قال الحافظ في "التلخيص": أما إذا انفرد فيحسن، وأما إذا خالف فلا يقبل، وقال الذهبي في "الميزان": حديثه في مرتبة الحسن، قلنا: وقد توبع.

(٢) أي: ستره.

أي رب أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم: فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله)[1].

وأما الأدلة على حرمان أقوام من تكليم الله لهم

فمنها:

١- قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} [البقرة: ١٧٤ - ١٧٥].

٢- وقوله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران: ٧٧].

٣- حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل على ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع الإمام لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفى له، وإن لم يعطه لم يف له، ورجل بايع رجلا سلعة بعد العصر، فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا، فصدقه وهو على ذلك" . وفي لفظ للبخاري: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعة: لقد أعطى بها أكثر مما أعطي، وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال رجل مسلم، ورجل منع فضل مائه، فيقول الله يوم القيامة: اليوم أمنعك

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٤٤١)، ومسلم برقم (٢٧٦٨) .

فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك)[١].

٤- حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم"، قال: فقرأها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث مرار، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: المسبل إزاره، والمنان عطاءه، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)[٢].

٥- وحديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولاينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر)[٣].

وقد نقل الخلال في "كتاب السنة" من طريق حنبل بن إسحاق قال: قلت لأبي عبد الله -يعني أحمد بن حنبل-: الله عَزَّ وَجَلَّ يكلم عبده يوم القيامة؟ قال:

"نعم، فمن يقضي بين الخلائق إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، يكلم عبده ويسأله، الله متكلم، لم يزل الله يأمر بما يشاء ويحكم، وليس له عدل ولا مثل، كيف شاء، وأنى شاء[٤]".

قلت: وفيما سقته من الأدلة نص قاطع على صحة هذه العقيدة، وفي حرمان الله تعالى أقواما من تكليمه زيادة في العذاب دليل على إثباته لسواهم، وإلا فلا فائدة بتخصيص هذه الأصناف دون سائر من يحاسب بعدم التكليم.

والثاني: تكليمه تعالى لأهل الجنة نعمة منه وفضلا:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٣٦٩)، ومسلم برقم (١٠٨).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠٦).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٠٧).

(٤) نقله شيخ الإسلام في "درء التعارض" ٢/ ٣٧ - ٣٨. وقد رواه غلام الخلال في "كتاب السنة" ق ١٥٥/ ب.

ومن الدليل عليه: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يارب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا)[١].

قلت: قال البخاري رحمه الله: "باب كلام الرب مع أهل الجنة" وساق هذا الحديث.

الثالث: تكليمه تعالى لأهل النار توبيخا وتقريعا: ومِن الدَّليل عليه:

١- قولهُ تعالى: {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} [المؤمنون: ١٠٨ - ١١١].

٢- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

(يقول الله -تبارك وتعالى- لأهون أهل النار عذابا: لو كانت لك الدنيا، وما فيها أكنت مفتديا بها؟

فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا، وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك -أحسبه، قال: ولا أدخلك النار- فأبيت إلا الشرك)[٢].

قلت: وهذه الأوجه الثلاثة من التكليم لم يقع شيء منها بعد، وإنما دلت

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٤٩)، ومسلم برقم (٢٨٢٩).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٨)، ومسلم برقم (٢٨٠٥).

النصوص التي سقنا على الإخبار عن وقوعها، وإنما تقع بعد نهاية الدنيا يوم تقوم الساعة، وبعدئذ، خلافا للمبتدعة القائلين: إن الله قد تكلم بذلك منذ الأزل.

(فرع)

قد صح الخبر عن المعصوم ﷺ أن الله تعالى كلم الشهيد عبد الله ابن عمرو بن حرام، أحد شهداء أحد، كلمه كفاحا من غير حجاب.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: (لما قتل عبد الله بن عمرو بن حرام يوم أحد، لقيني رسول الله ﷺ، فقال: "يا جابر، ألا أخبرك ما قال الله لأبيك؟". وفي لفظ: "يا جابر، مالي أراك منكسرا؟". قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبي، وترك عيالا ودينا، قال: "أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟".

قال: بلى يا رسول الله، قال: "ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحا، فقال: يا عبدي، تمن علي أعطك، قال: يا رب، تحييني فأقتل فيك ثانية، فقال الرب سبحانه: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب فأبلغ من ورائي"، قال: فأنزل الله تعالى: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون} [آل عمران: ١٦٩])[1].

---

(١) أخرجه الترمذى (٥/ ٢٣٠ رقم ٣٠١٠)، وابن ماجه (١/ ٦٨ رقم ١٩٠)، وابن أبى عاصم (١/ ٢٦٧ رقم ٦٠٢)، والدارمي في الرد على الجهمية (رقم ١١٥، ٢٨٩)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٨٩٠)، وابن حبان (١٥/ ٤٩٠ رقم ٧٠٢٢)، والحاكم (٣/ ٢٢٣ رقم ٤٩١٤)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٩٨ - ٢٩٩)، والواحدي في أسباب النزول (ص١٢٤)، والبغوي في تفسيره (١/ ٤٤٦ -هامش الخازن)، والأصبهاني في الحجة (ق ٦٤/ أوق ١١٥/ أ) والحديث حسنه الترمذي، وصححه ابن خزيمة وابن حبان، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال ابن العربي في العارضة (٦/ ١١٩): حسن لم يصح، وحسنه المنذري في الترغيب، وقال ابن القيم في حادي الأرواح (ص٢٢٦):
=

قلت: وهذا تكليم على الحقيقة، بلا واسطة، ومواجهة بلا حجاب، ولهذا خصوصية لعبد الله رضي الله عنه فضلا منه تعالى ومنة لما ناله في سبيل الله، وإنما وقع في الحياة بعد الموت. انظر العقيدة السلفية فى كلام رب البرية (ص١٠٩).

مسألة: تفاضل كلام الله تعالى

كلمات الله تعالى لا نهاية لها، وهي باقية لا تنفد كما قال تعالى: {قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا} [الكهف: ١٠٩]، ومن كلماته تعالى: كتبه المنزلة، كالتوراة، والإنجيل، والقرآن، وكلماته التي يخلق بها الخلق، وكلماته التي كلم بها آدم، والتي كلم بها موسى، والتي كلم بها محمدا ﷺ، وكلماته التي يكلم بها عباده في المحشر، وفي الجنة، وكلماته التي يخاطب بها أهل النار توبيخا وتقريعا، وغير ذلك من كلامه تبارك وتعالى.

فكلامه تعالى متبعض متجزىء، فالتوراة بعض كلامه وجزء منه، والإنجيل كذلك، والقرآن كذلك، والقرآن أبعاض وأجزاء، وسور وآيات، وكلمات.

وجميع هذا من المسلمات المعلومة لدى الكافة، دل عليها الحس، والعقل، والشرع، وهي أجلى من أن تحتاج إلى ضرب الأمثلة، وسياق البراهين والأدلة، ولكن من رام الهدى باتباع الهوى فقد ضل السبيل.

فكلامه تعالى الذي هو أجزاء وأبعاض، بعضه أفضل من بعض، وليس ذلك من جهة المتكلم به وهو الله تعالى، وإنما هو من جهة ما تضمن من المعاني

=

إسناده صحيح، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٧٩٠٥)، وحسنه الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول (ص٦٤)، وقال الأرنؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان: إسناده جيد.

العظيمة، فإن كلام الله المتضمن للتوحيد والدعوة إليه، أفضل من كلامه المتضمن ذكر الحدود والقصاص ونحو ذلك، وما يخبر به عن نفسه وصفاته أعظم مما يخبر به عن بعض خلقه، وذلك لشرف الأول على الثاني.

وقد ورد في السنة الصحيحة ما يثبت ذلك ويوضحه ويجليه، فمن ذلك:

١- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال (كان النبي ﷺ في مسير له، فنزل ونزل رجل إلى جانبه، فالتفت إليه النبي ﷺ، فقال: "ألا أخبرك بأفضل القرآن؟". قال: فتلا عليه {الحمد لله رب العالمين})(١).

٢- وعن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: (كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله! إني كنت أصلي، فقال: "ألم يقل الله: {استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم} [الأنفال: ٢٤].

ثم قال لي: "لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد". ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: "لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن"؟ قال: "الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته)(٢).

٣- وعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: (يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟". قال: قلت: الله ورسوله أعلم.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٧٩٥٧، ١٠٤٩١)، وفي عمل اليوم والليلة رقم (٧٢٣)، وابن حبان (٣/ ٥١، رقم ٧٧٤)، والحاكم (١/ ٥٦٠)، والبيهقي، في ابشعب (٢٣٥٨ و٢٣٥٩)، والضياء (٥/ ٩٨، رقم ١٧١٨) والحديث صححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٤٩٩)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٤٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٤٧٤).

قال: "يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟". قال: قلت: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم ...} [البقرة: ٢٥٥] قال: فضرب في صدري، وقال: "والله، ليهنك العلم أبا المنذر)[١].

٤- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (أن رجلا سمع رجلا يقرأ: {قل هو الله أحد} يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له -وكأن الرجل يتقالها- فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن)[٢].

٥- وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: (كنت أقود برسول الله ﷺ في ناقته في السفر، فقال لي: "يا عقبة، ألا أعلمك خير سورتين قرئتا؟" فعلمني: {قل أعوذ برب الفلق} و{قل أعوذ برب الناس} قال: فلم يرني سررت بهما جدا، فلما نزل لصلاة الصبح صلى بهما صلاة الصبح للناس، فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة التفت إلي فقال: "يا عقبة كيف رأيت؟)[٣].

ويوجه شيخ الإسلام حديث فضل سورة الإخلاص في درء التعارض (٧/ ٢٧٢) فيقول: "وذلك أن القرآن إما خبر، وإما إنشاء، والخبر إما خبر عن الخالق، وإما عن المخلوق، فثلثه قصص، وثلثه أمر، وثلثه توحيد، فهي تعدل ثلث القرآن بهذا الاعتبار".اهـ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠١٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٣، رقم ١٧٤٣٠)، والنسائى (٨/ ٢٥٢، رقم ٥٤٣٦)، وأبو داود (٢/ ٧٣، رقم ١٤٦٢)، وابن خزيمة (١/ ٢٦٨، رقم ٥٣٥)، والطبرانى (١٧/ ٣٣٥، رقم ٩٢٦)، والحاكم (١/ ٣٦٦، رقم ٨٧٧)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢/ ٥١١، رقم ٢٥٦١) والحديث قال عنه ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٣٩٦): إسناده جيد، وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وقال العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٧٠٦): صحيح لشواهد.

قلت: فدلت هذه النصوص على تفضيل كلام الله بعضه على بعض، وذلك حسب ما يدل عليه من المعاني، وهو مذهب جمهور السلف وأهل السنة.

قال شيخ الإسلام في المصدر السابق: "والصواب الذي عليه جمهور السلف والأئمة أن بعض كلام الله أفضل من بعض، كما دل على ذلك الشرع والعقل".اهـ.

وقال شيخ الإسلام أيضا في مجموع الفتاوى (١٧/ ٨٩): فصل والنصوص والآثار في تفضيل كلام الله - بل وتفضيل بعض صفاته - على بعض متعددة . وقول القائل " صفات الله كلها فاضلة في غاية التمام والكمال ليس فيها نقص " كلام صحيح لكن توهمه أنه إذا كان بعضها أفضل من بعض كان المفضول معيبا منقوصا خطأ منه فإن النصوص تدل على أن بعض أسمائه أفضل من بعض ولهذا يقال دعا الله باسمه الأعظم . وتدل على أن بعض صفاته أفضل من بعض وبعض أفعاله أفضل من بعض ففي الآثار ذكر اسمه العظيم واسمه الأعظم واسمه الكبير والأكبر كما في السنن ورواه أحمد وابن حبان في صحيحه {عن ابن بريدة عن أبيه قال: دخلت مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلي يدعو: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب} . {وعن أنس قال: كنت جالسا مع رسول الله ﷺ في الحلقة ورجل قائم يصلي فلما ركع وسجد تشهد ودعا فقال في في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده لقد دعا باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب

وإذا سئل به أعطى} . وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال {إن الله كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي} وفي رواية {سبقت رحمتي غضبي} فوصف رحمته بأنها تغلب وتسبق غضبه وهذا يدل على فضل رحمته على غضبه من جهة سبقها وغلبتها وقد ثبت في صحيح مسلم {عن عائشة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في سجوده اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك} وروى الترمذي أنه كان يقول ذلك في وتره لكن هذا فيه نظر وقد ثبت في الصحيح والسنن والمساند من غير وجه الاستعاذة بكلماته التامات كقوله: {أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون} وفي صحيح مسلم عن خولة أنه قال ﷺ {من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامة لم يضره شيء حتى يرتحل منه} وفي الصحيح أنه قال لعثمان بن أبي العاص {قل: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر} ومعلوم أن المستعاذ به أفضل من المستعاذ منه فقد استعاذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته وأما استعاذته به منه فلا بد أن يكون باعتبار جهتين يستعيذ به باعتبار تلك الجهة ومنه باعتبار تلك الجهة ليتغاير المستعاذ به والمستعاذ منه إذ أن المستعاذ منه مخوف مرهوب منه والمستعاذ به مدعو مستجار به ملتجأ إليه والجهة الواحدة لا تكون مطلوبة مهروبا منها لكن باعتبار جهتين تصح كما في الحديث الذي في الصحيحين عن البراء بن عازب {أن النبي ﷺ علم رجلا أن يقول عند النوم اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك وفوضت أمري إليك رغبة ورهبة إليك لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت} فبين أنه لا ينجي منه إلا هو ولا

يلتجأ منه إلا إليه . وأعمل الفعل الثاني لما تنازع الفعلان في العمل ومعلوم أن جهة كونه منجيا غير جهة كونه منجيا منه وكذلك جهة كونه ملتجأ إليه غير كونه ملتجأ منه سواء قيل إن ذلك يتعلق بمفعولاته أو أفعاله القائمة به أو صفاته أو بذاته باعتبارين وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال {المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا} وقد جاء ذكر اليدين في عدة أحاديث ويذكر فيها أن كلتاهما يمين مع تفضيل اليمين . قال غير واحد من العلماء لما كانت صفات المخلوقين متضمنة للنقص فكانت يسار أحدهم ناقصة في القوة ناقصة في الفعل بحيث تفعل بمياسرها كل ما يذم - كما يباشر بيده اليسرى النجاسات والأقذار - بين النبي ﷺ أن كلتا يمين الرب مباركة ليس فيها نقص ولا عيب بوجه من الوجوه كما في صفات المخلوقين مع أن اليمين أفضلهما كما في حديث آدم قال {اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة} فإنه لا نقص في صفاته ولا ذم في أفعاله بل أفعاله كلها إما فضل وإما عدل وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال {يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه والقسط بيده الأخرى يرفع ويخفض} فبين ﷺ أن الفضل بيده اليمنى والعدل بيده الأخرى . ومعلوم أنه مع أن كلتا يديه يمين فالفضل أعلى من العدل وهو سبحانه كل رحمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ورحمته أفضل من نقمته ولهذا كان المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ولم يكونوا عن يده الأخرى وجعلهم عن يمين الرحمن تفضيل لهم كما فضل في القرآن أهل اليمين وأهل الميمنة على أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة وإن كانوا

إنما عذبهم بعدله وكذلك الأحاديث والآثار جاءت بأن أهل قبضة اليمين هم أهل السعادة وأهل القبضة الأخرى هم أهل الشقاوة ....اهـ.

وقال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (٨/ ١٣٢): وهذه الآية تسمى آية الكرسي، لأن فيها ذكر الكرسي: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [البقرة: ٢٥٥]، وهي أعظم آية في كتاب الله، والدليل على ذلك: «أن النبي ﷺ سأل أبي بن كعب، قال: "أي آية في كتاب الله أعظم؟ " فقال له: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} فضرب على صدره، وقال: "ليهنك العلم أبا المنذر» رواه مسلم.

يعني: أن النبي ﷺ أقره بأن هذه أعظم آية في كتاب الله، وأن هذا دليل على علم أُبَي في كتاب الله ﷻ.

وفي هذا الحديث دليل على أن القرآن يتفاضل، كما دل عليه أيضا حديث سورة الإخلاص، وهذا موضع يجب فيه التفصيل، فإننا نقول: أما باعتبار المتكلم به فإنه لا يتفاضل، لأن المتكلم به واحد وهو الله ﷻ، وأما باعتبار مدلولاته وموضوعاته فإنه يتفاضل، فسورة الإخلاص التي فيها الثناء على الله ﷻ بما تضمنته من الأسماء والصفات ليست كسورة المسد التي فيها بيان حال أبي لهب من حيث الموضوع كذلك، يتفاضل من حيث التأثير والقوة في الأسلوب، فإن من الآيات ما تجدها آية قصيرة لكن فيها ردع قوي للقلب وموعظة، وتجد آية أخرى أطول منها بكثير لكن لا تشتمل على ما تشتمل عليه الأولى، فمثلا قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ} [البقرة: ٢٨٢] . . إلخ، هذه آية موضوعها سهل، والبحث فيها في معاملات تجري بين الناس وليس فيها ذاك التأثير الذي يؤثره مثل قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ

وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥]، فهذه تحمل معاني عظيمة، فيها زجر وموعظة وترغيب وترهيب، ليست كآية الدين مثلا مع أن آية الدين أطول منها.

مسألة: هل الإيمان مخلوق.

هذه المسألة تفرعت عن مسألة خلق القرآن .. زمن محنة الجهمية والفتنة المشهورة فهي وليدة هذه الفتنة ومنها نشأ النزاع فيها هل الإيمان مخلوق أم لا؟ قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٦٥٥) لما سئل: هل الإيمان مخلوق أم غير مخلوق؟ ..

فأجاب: أن هذه المسألة نشأ النزاع فيها لما ظهرت محنة الجهمية في القرآن هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟ وهي محنة الإمام أحمد وغيره من علماء المسلمين، وقد جرت بها أمور يطول وصفها هنا، لكن لما ظهر القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأطفأ الله نار الجهمية المعطلة، صارت طائفة يقولون أن كلام الله الذي أنزله مخلوق، ويعبرون عن ذلك باللفظ، فصاروا يقولون ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، أو تلاوتنا أو قراءتنا مخلوقة، وليس مقصودهم مجرد كلامهم وحركاتهم بل يدخلون فيه نفس كلام الله الذي نقرؤه بأصواتنا وحركاتنا، وعارضهم طائفة أخرى فقالوا: ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة. فرد الإمام أحمد على الطائفتين وقال: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع. وتكلم الناس حينئذ بالإيمان فقالت طائفة: الإيمان مخلوق وأدرجوا في ذلك ما تكلم الله به من الإيمان مثل (قول لا إله إلا الله)، فصار مقتضى قولهم أن هذه الكلمة مخلوقة، ولم يتكلم الله بها، فبدع الإمام أحمد هؤلاء، وقال: قال النبي ﷺ (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها:

قول لا إله إلا الله) أفيكون قول لا إله إلا الله مخلوقا؟. ومراده أن من قال: إن ألفاظنا وتلاوتنا وقراءتنا للقرآن مخلوقة، كان مقتضى كلامه أن الله لم يتكلم بالقرآن الذي أنزله. وأن القرآن المنزل ليس هو كلام الله ...

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى (٧/ ٦٦٤): وإذا قال: الإيمان مخلوق أو غير مخلوق؟ قيل له: ما تريد (بالإيمان)؟ أتريد شيئا من صفات الله وكلامه، كقول (لا إله إلا الله) و(إيمانه) الذي دل عليه اسمه المؤمن، فهو غير مخلوق. أو تريد شيئا من أفعال العباد وصفاتهم فالعباد كلهم مخلوقون، وجميع أفعالهم وصفاتهم مخلوقة، ولا يكون للعبد المحدث المخلوق صفة قديمة غير مخلوقة، ولا يقول هذا من يتصور ما يقول، فإذا حصل الاستفسار والتفصيل ظهر الهدى وبان السبيل، وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، وأمثالها مما كثر فيه تنازع الناس بالنفي والإثبات إذا فصل فيها الخطاب، ظهر الخطأ من الصواب. والواجب على الخلق أن ما أثبته الكتاب والسنة أثبتوه، وما نفاه الكتاب والسنة نفوه، وما لم ينطق به الكتاب والسنة لا بنفي ولا إثبات استفصلوا فيه قول القائل: فمن أثبت ما أثبته الله ورسوله، فقد أصاب، ومن نفى ما نفاه الله ورسوله فقد أصاب، ومن أثبت ما نفاه الله أو نفى ما أثبته الله فقد لبس دين الحق بالباطل، فيجب أن يفصل ما في كلامه من حق أو باطل، فيتبع الحق ويترك الباطل، وكل من خالف الكتاب والسنة فإنه مخالف أيضا لصريح المعقول، فإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، كما أن المنقول عن الأنبياء عليهم السلام لا يخالف بعضه بعضا، ولكن كثيرا من الناس يظن تناقض ذلك، وهؤلاء من الذين اختلفوا في الكتاب ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]،

ونسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

قال الإمام أحمد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: من قال: الإيمان مخلوق كفر، ومن قال: غير مخلوق ابتدع. فقيل: بالوقف مطلقا، وقيل: أقواله قديمة وأفعاله مخلوقة. قال ابن حمدان في نهاية المبتدئين: وهو أصح، ونقله عن ابن أبي موسى وغيره. ونقل الإمام الحافظ ابن رجب في طبقات الأصحاب في ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي - قدس الله روحه - ما لفظه قال: روي عن إمامنا أحمد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنه قال: من قال: الإيمان مخلوق فهو كافر، ومن قال: قديم فهو مبتدع. قال الحافظ عبد الغني: وإنما كفر من قال بخلقه؛ لأن الصلاة من الإيمان، وهي تشتمل على قراءة وتسبيح وذكر الله عَزَّ وَجَلَّ ومن قال بخلق ذلك كفر، وتشتمل على قيام وقعود وحركة وسكون ومن قال بقدم ذلك ابتدع. انتهى بحروفه، والله تعالى الموفق[1].

(باب صفة النَّفَسُ)

عن سلمة بن نفيل السكوني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال وهو مُوَلٍّ ظهره إلى اليمن: (إني أجدُ نَفَسَ الرحمن من هنا)[2].

---

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية(١/ ٤٤٦).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٦٠ رقم ٦٣٥٨) من طريق إسماعيل بن عيَّاش عن الوليد بن عبد الرحمن، به. لكن تابع إسماعيلَ عبدُ الله بن سالم الحمصي، عن إبراهيم بن سليمان الأفطس، عن الوليد بن عبد الرحمن، به. أخرجه الطبراني (٧/ ٦٠/ رقم ٦٣٥٨)، والبزار في المسند (١٦٨٩-كشف الأستار)، والبخاري في (التاريخ الكبير) (١٩٩٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٠٩)، وإسنادهم صحيح، ورجاله ثقات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: (ألا إنَّ الإيمان يمان والحكمة يمانية، وأجد نَفَسَ ربكم من قبل اليمن)(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: (من نَفَّسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا؛ نَفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ...)(٢).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه موقوفًا عليه: (لا تسبوا الريح؛ فإنها من نَفَسِ الرحمن تبارك وتعالى)(٣).

النَّفَسُ (بالتحريك) عدها بعض أهل العلم صفةٌ فعليةٌ لله عز وجل؛ من التنفيس؛ كالفَرَج والتفريج، ثابتةٌ بالسنة الصحيحة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٤١) واللفظ له، والطبراني في مسند الشاميين (١٠٨٣)؛ من طريق حريز بن عثمان، عن شبيب أبي روح. وشبيب؛ ذكره ابن حبان في الثقات، وترجم له البخاري في التاريخ الكبير، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، ولم يذكرا فيه شيئًا، ووثقه الهيثمي في مجمع الزوائد، والحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب، وفي تهذيب التهذيب عن أبي عبيد الآجري عن أبي داود: شيوخ حريز كلهم ثقات اهـ، وشبيب من شيوخه، لكن للشيخ الألباني -رحمه الله- في السلسلة الضعيفة (٣/ ٢١٧) تحفظًا على شبيبٍ هذا، وحكم على زيادة (وأجد نَفَس ربكم من قبل اليمن) بالنكارة أو الشذوذ. قلت: لكن للحديث شاهدان من حديث سلمة بن نفيل، وقد تقدم، ومن حديث أبي بن كعب موقوفًا عليه، وسيأتي، ولذلك قال الحافظ العسقلاني في تخريج الكشاف (ص ١٨٩): رواه الطبراني في الأوسط ومسند الشاميين من طريق حريز عن عثمان عن شبيب أبي روح عن أبي هريرة به، في حديث أوله: الإيمان يمان، ولا بأس بإسناده، وله شاهد من حديث سلمة بن نفيل السكوني في مسند البزار والطبراني في الكبير والبيهقي في الأسماء، وفي إسناده إبراهيم بن سليمان الأفطس، قال البزار: إنه غير مشهور.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٥٢١/ رقم ٩٣٥و ٩٣٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢١٠) بإسناد صحيح؛ قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وقال الذهبي: على شرط البخاري.

قال الأزهري في تهذيب اللغة (١٣/ ٩) بعد أن ذكر حديث: (أجد نَفَسَ ربكم من قبل اليمن)؛ قال: (أجد تنفيس ربكم عنكم من جهة اليمن؛ لأنَّ الله جَلَّ وعَزَّ نصرهم بهم، وأيدهم برجالهم، وكذلك قوله: (الريح من نَفَس الرحمن)؛ أي: من تنفيس الله بها عن المكروبين، وتفريجه عن الملهوفين) اهـ.

وقال في القاموس المحيط: وفي قوله: (ولا تسبوا الريح؛ فإنها من نَفَسِ الرحمن)، و(أجد نَفَس ربكم من قبل اليمن)؛ اسم وضِع موضع المصدر الحقيقي، من نَفَّسَ تنفيسًا ونَفَساَ؛ أي: فَرَّجَ تفريجًا).

قال أبو يعلى الفراء في إبطال التأويلات (ص ٢٥٠) بعد ذكره حديث: (الريح من نَفَس الرحمن): اعلم أنَّ شيخنا أبا عبد الله ذكر هذا الحديث في كتابه، وامتنع أن يكون على ظاهره، في أنَّ الريح صفةٌ ترجع إلى الذات، والأمر على ما قاله، ويكون معناه أنَّ الريح مما يُفَرِّج الله ﷻ بها عن المكروب والمغموم؛ فيكون معنى النَّفَس معنى التنفيس، وذلك معروف في قولهم: نَفَّسْتُ عن فلان؛ أي: فَرَّجْتُ عنه، وكلمت زيدًا في التَّنفيس عن غريمه، ويقال: نفَّس الله عن فلان كربة؛ أي: فرَّج عنه، وروي في الخبر: (من نفَّس عن مكروب كُربة؛ نَفَّس الله عنه كربة يوم القيامة)، وروي في الخبر أنَّ اللهَ فَرَّجَ عن نبيِّه بالريح يوم الأحزاب، فقال سبحانه: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} [الأحزاب: ٩] .

وإنما وجب حمل هذا الخبر على هذا، ولم يجب تأويل غيره من الأخبار؛ لأنه قد روي في الخبر ما يدل على ذلك، وذلك أنَّه قال: (فإذا رأيتموها؛ فقولوا: اللهم إنا نسألك من خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، ونعوذ بك من شرَّها وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أرسلت به)، وهذا يقتضي أنَّ فيها شرًّا وأنها مرسلة، وهذه صفات المحدثات . اهـ.

وبنحو هذا الكلام قال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص٢٤٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦/ ٣٩٨) شارحًا لحديث: (إني لأجد نَفَسَ الرحمن من قبل اليمن): (فقوله: (من اليَمَن)؛ يبين مقصود الحديث؛ فإنه ليس لليمن اختصاص بصفات الله تعالى حتى يظن ذلك، ولكن منها جاء الذين يحبهم ويحبونه، الذين قال فيهم: {مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}، وقد روي أنه لما نزلت هذه الآية؛ سئل عن هؤلاء؟ فذكر أنهم قوم أبي موسى الأشعري، وجاءت الأحاديث الصحيحة مثل قوله: (أتاكم أهل اليمن؛ أرق قلوبًا، وألين أفئدة؛ الإيمان يمان، والحكمة يمانية)، وهؤلاء هم الذين قاتلوا أهل الردة، وفتحوا الأمصار؛ فبهم نفّس الرحمن عن المؤمنين الكربات.

وبنحوه قال العلامة العثيمين -رَحِمَهُ اللهُ- في القواعد المثلى (ص ٥٧).اهـ.

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٧/ ٢/ ١٠٩٩، ١١٠١ - ١١٠٢): عن حديث «إني أجد نفس الرحمن من هنا- يشير إلى اليمن». يبدو أن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يذهب إلى ثبوت الحديث، فقد رأيتهُ سُئل عن حديث: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض»، وعن هذا الحديث في "مجموع الفتاوى" (٦/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨)؟ فضعف الأول، دون هذا.... قلت: وعلى هذا المعنى فليس الحديث من أحاديث الصفات، ولذلك لم يورده الحافظ الذهبي في جملة أحاديثها في كتابه "العلو" الذي كنت اختصرته، وهو مطبوع، خلافًا للشيخ زاهد الكوثري الذي غمز من صحته كما تقدم مع الرد عليه، ولذلك كذَّب ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ما حكاه الغزالي عن بعض الحنابلة أن الإمام أحمد لم يتأول إلا ثلاثة أشياء؛ منها هذا الحديث، فقال (٥/ ٣٩٨): "فهذه الحكاية كذب على أحمد،

لم ينقلها أحد عنه بإسناد، ولا يُعرف أحد من أصحابه نقل ذلك عنه، وهذا الحنبلي مجهول لا يعرف "، ثم رأيت ابن الأثير قد أورد الحديث في مادة (نفس) من "النهاية "، وقال: "قيل: عنى به الأنصار؛ لأن الله نفَّس بهم الكُرَب عن المؤمنين، وهم يمانون؛ لأنهم من الأزد، قال الأزهري: (النفس) في الحديث اسم وضع موضع المصدر الحقيقي من: نَفَّس يُنَفِّس تنفيسًا ونفسًا)، كما يقال: (فرج يفرج تفريجًا وفرجًا)؛ كأنه قال: أجد تنفيس ربكم من قِبَل اليمن"..اهـ.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (٣/ ٢٣٤): تعلمنا في المدارس أن مذهب أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته هو الإيمان بها من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل وأن لا نصرف النصوص الواردة فيها عن ظواهرها ولكننا بعد ذلك التقينا بأناس زعموا لنا أن هناك مدرستين في مذهب أهل السنة والجماعة، المدرسة الأولى مدرسة ابن تيمية وتلاميذه رحمهم الله، والمدرسة الثانية مدرسة الأشاعرة، والذي تعلمناه هو ما ذكره ابن تيمية وتلاميذه أما بقية أهل السنة والجماعة من الأشاعرة والماتريدية وغيرهم فإنهم يرون أن لا مانع من تأويل صفات الله وأسمائه إذا لم يتعارض هذا التأويل مع نص شرعي ويحتجون لذلك بما قاله ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره في هذا الباب، بل إن إمام أهل السنة أحمد بن حنبل قد أول في بعض الصفات مثل قوله ﷺ "قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن » وقوله ﷺ « الحجر الأسود يمين الله في الأرض » وقوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} وغير ذلك.

والسؤال الآن: هل تقسيم أهل السنة والجماعة إلى طائفتين بهذا الشكل صحيح؟ وما هو رأيكم فيما ذكروه من جواز التأويل إذا لم يتعارض مع نص

شرعي، وما هو موقفنا من العلماء الذين أولوا في الصفات مثل ابن حجر والنووي وابن الجوزي وغيرهم هل نعتبرهم من أئمة أهل السنة والجماعة أم ماذا؟ وهل نقول: إنهم أخطأوا في تأويلاتهم أم كانوا ضالين في ذلك؟ ومن المعروف أن الأشاعرة يؤولون جميع الصفات ما عدا صفات المعاني السبعة فإذا وجد أحد العلماء يؤول صفتين أو ثلاثة هل يعتبر أشعريا؟

فأجابوا: أولا: دعوى أن الإمام أحمد أول بعض نصوص الصفات؛ كحديث قلوب « العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن »، وحديث « الحجر الأسود يمين الله في الأرض » الخ - دعوى غير صحيحة، قال الإمام أحمد بن تيمية: (وأما ما حكاه أبو حامد الغزالي عن بعض الحنبلية أن أحمد لم يتأول إلا ثلاثة أشياء: "الحجر الأسود يمين الله في الأرض" و"قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن" و"إني أجد نفس الرحمن من قبل اليمن" فهذه الحكاية كذب على أحمد، لم ينقلها أحد عنه بإسناد، ولا يعرف أحد من أصحابه نقل ذلك عنه، وهذا الحنبلي الذي ذكر عنه أبو حامد مجهول لا يعرف، لا علمه بما قال، ولا صدقه فيما قال). ا هـ. من ص ٣٩٨ من ج ٥ من [مجموع الفتاوى].

وبيان ذلك أن للتأويل ثلاثة معان: الأول: مآل الشيء وحقيقته التي يؤول إليها، كما في قوله تعالى عن يوسف عليه السلام: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ} أي حقيقتها التي آلت إليها وقوعا، وليس هذا مقصودا في النصوص المذكورة في السؤال الثاني التأويل بمعنى صرف الكلام عن معناه الظاهر المتبادر منه إلى معنى خفي بعيد لقرينة، وهذا المعنى هو المصطلح عليه عند علماء الكلام وأصول الفقه، وليس متحققا في النصوص المذكورة في السؤال، فإن ظاهرها مراد لم تصرف عنه؛ لأنه حق كما سيأتي شرحه في المعنى الأخير للتأويل الثالث

التأويل بمعنى التفسير وهو شرح معنى الكلام بما يدل عليه ظاهره ويتبادر إلى ذهن سامعه الخبير بلغة العرب وهو المقصود هنا، فإن جملة الحجر الأسود يمين الله في الأرض ليس ظاهرها أن الحجر صفة لله وأنه يمينه حتى يصرف عنه، بل معناه الظاهر منه أنه كيمينه بدليل بقية الأثر وهو جملة فمن صافحه فكأنما صافح الله، ومن قبله فكأنما قبل يمين الله فمن ضم أول الأثر إلى آخره تبين له أن ظاهره مراد لم يصرف عنه وأنه حق، وهذا ما يقوله أئمة السلف كالإمام أحمد وغيره منهم، وهو تأويل بمعنى التفسير لا بمعنى صرف الكلام عن ظاهره، كما زعمه المتأخرون، علما بأن ما ذكر لم يصح حديثا عن النبي ﷺ، بل هو أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكذا القول في حديث « قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن » فإن ظاهره لا يدل على مماسة ولا مداخلة وإنما يدل ظاهره على إثبات أصابع للرحمن حقيقة، وقلوب للعباد حقيقة، ويدل إسناد أحد ركني الجملة إلى الآخر على كمال قدرة الرحمن وكمال تصريفه لعباده كما يقال فلان وقف بين يدي الملك أو في قبضة يد الملك فإن ذلك لا يقتضي مماسة ولا مداخلة وإنما يدل ظاهره على وجود شخص وملك له يدان، ويدل ما في الكلام من إسناد على حضور شخص عند الملك وعلى تمكن الملك من تصريفه دون مماسة أو مداخلة، وكذا القول في قوله تعالى: {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} وقوله: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} وأمثال ذلك، ثانيا تقسيم أهل السنة والجماعة إلى طائفتين بهذا الشكل غير صحيح وبيانه أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أمة واحدة عقيدة وسياسة حتى إذا كانت خلافة عثمان رضي الله عنه بدرت بوادر الاختلاف في السياسة دون العقيدة، فلما قتل وبايع عليا جماعة وبايع معاوية آخرون رضي الله عنهم وكان ما بينهم من حروب سياسية خرجت عليهم طائفة فسميت الخوارج ولم

يختلفوا مع المسلمين في أصول الإيمان الستة ولا في الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام وإنما اختلفوا معهم في عقد الخلافة والتكفير بكبائر الذنوب والمسح على الرجلين في الوضوء وأمثال ذلك، ثم غلت طائفة من أصحاب علي فيه حتى عبده منهم من عبده فسموا الشيعة، ثم افترق كل من الخوارج والشيعة فرقا، ثم أنكر جماعة القدر، وكان ذلك آخر عصر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فسموا القدرية، ثم كان الجعد بن درهم فكان أول من أنكر صفات الله وتأول ما جاء فيها من نصوص الآيات والأحاديث على غير معانيها فقتله خالد القسري، وتبعه في إنكار ذلك وتأويله تلميذه الجهم بن صفوان واشتهر بذلك فنسبت إليه هذه المقالة الشنيعة، وعرف من قالوا بها بالجهمية، ثم ظهرت المعتزلة فتبعوا الجهمية في تأويل نصوص الصفات وسموه تنزيها، وتبعوا القدرية في إنكار القدر وسموه عدلا، وتبعوا الخوارج في الخروج على الولاة وسموه الأمر بالمعروف إلى غير ذلك من مقالاتهم، وقد نشأ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري على مذهبهم واعتقد مبادئهم ثم هداه الله إلى الحق فتاب من الاعتزال ولزم طريق أهل السنة والجماعة، واجتهد في الرد على من خالفهم في أصول الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، لكن بقيت فيه شوائب من مذهب المعتزلة كتأويل نصوص صفات الأفعال وتأثر بقول جهم بن صفوان في أفعال العباد، فقال بالجبر وسماه كسبا، وأمور أخرى تتبين لمن قرأ كتابه [الإبانة] الذي ألفه آخر حياته، كما يتبين مما كتبه عنه أصحابه الذين هم أعرف به من غيرهم وما كتبه عنه ابن تيمية في مؤلفاته رحمهم الله مما تقدم يتبين أن أهل السنة والجماعة حقا هم الذين اعتصموا بكتاب الله تعالى وسنة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عقائدهم وسائر أصول دينهم، ولم يعارضوا نصوصهما بالعقل أو الهوى، وتمسكوا بما كان عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

من دعائم الإيمان وأركان الإسلام فكانوا أئمة الهدى ومنار الحق ودعاة الخير والفلاح؛ كالحسن البصري وسعيد بن المسيب ومجاهد وأبي حنيفة ومالك والشافعي والأوزاعي وأحمد وإسحاق والبخاري ومن سلك سبيلهم والتزموا نهجهم عقيدة واستدلالا أما هؤلاء الذين خرجوا عنهم في مسائل من أصول الدين ففيهم من السنة بقدر ما بقي لديهم مما وافقوا فيه الصحابة رضي الله عنهم وأئمة الهدى من مسائل أصول الإسلام، وفيهم من البدع والخطأ بقدر ما خالفوهم فيه من ذلك قليلا كان أو كثيرا، وأقربهم إلى أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعري ومن تبعه عقيدة واستدلالا وبهذا يعرف أن ليس لأهل السنة والجماعة مدرستان، إنما هي مدرسة واحدة يقوم بنصرتها والدعوة إليها من سلك طريقهم، وابن تيمية ممن قام بذلك ووقف حياته عليه وليس هو الذي أنشأ هذه الطريقة، بل هو متبع لما كان عليه أئمة الهدى من الصحابة ومن تبعهم من علماء القرون الثلاثة التي شهد لها النبي صلى الله عليه وسلم بالخير وكذلك مناظروه إنما قاموا بنصر مذهب من قلدوه ممن انتسب إلى أهل السنة والجماعة كأبي الحسن الأشعري وأصحابه بعد أن رجع عن الاعتزال وسلك طريق أهل السنة إلا في قليل من المسائل ولذا كان أقرب إلى طريقة أهل السنة والجماعة من سائر الطوائف ثالثا من تأول من الأشعرية ونحوهم نصوص الأسماء والصفات إنما تأولها لمنافاتها الأدلة العقلية وبعض النصوص الشرعية في زعمه، وليس الأمر كذلك فإنها ليس فيها ما ينافي العقل الصريح وليس فيها ما ينافي النصوص فإن نصوص الشرع في أسماء الله وصفاته يصدق بعضها بعضا مع كثرتها في إثبات أسماء الله وصفاته على الحقيقة وتنزيهه سبحانه عن مشابهة خلقه رابعا موقفنا من أبي بكر الباقلاني والبيهقي وأبي الفرج بن الجوزي وأبي زكريا

النووي وابن حجر وأمثالهم ممن تأول بعض صفات الله تعالى أو فوضوا في أصل معناها - أنهم في نظرنا من كبار علماء المسلمين الذين نفع الله الأمة بعلمهم فرحمهم الله رحمة واسعة وجزاهم عنا خير الجزاء، وأنهم من أهل السنة فيما وافقوا فيه الصحابة رضي الله عنهم وأئمة السلف في القرون الثلاثة التي شهد لها النبي ﷺ بالخير، وأنهم أخطأوا فيما تأولوه من نصوص الصفات وخالفوا فيه سلف الأمة وأئمة السنة رحمهم الله سواء تأولوا الصفات الذاتية وصفات الأفعال أم بعض ذلك وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.

مسألة: النفخ أو النفس بالتحريك، كلاهما لا يثبت في حق الله على الراجح

قال ابن قتيبة في الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية لابن قتيبة (ص ٤٤): فنحن نؤمن بالنفخ وبالروح ولا نقول كيف. ذلك لأن الواجب علينا أن ننتهي في صفات الله حيث انتهى في صفته أو حيث انتهى رسوله ﷺ ولا نزيل اللفظ عما تعرفه العرب وتضعه عليه ونمسك عما سوى ذلك.اهـ. قال الإمام ابن القيم في كتاب الروح (ص١٥٤): فصل وأما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى ونفخت فيه من روحي فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته وصفات له غير مخلوقة وكذلك وجهه ويده سبحانه.

والثاني إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه لكنها إضافة تقتضي تخصيصا وتشريفا يتميز به المضاف عن غيره كبيت الله وإن كانت البيوت كلها

ملكا له وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكه وخلقه لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد والخاصة تقتضي الاختيار والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى وربك يخلق ما يشاء ويختار وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب إضافة الصفات فتأمل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس فإن قيل فما تقولون في قوله تعالى ونفخت فيه من روحي فأضاف النفخ إلى نفسه وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى كما في قوله خلقت بيدي ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك وقد قال تعالى فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فهو الذي سواه بيده وهو الذي نفخ فيه من روحه، قيل هذا الموضع الذي أوجب لهذه الطائفة أن قالت بقدم الروح وتوقف فيها آخرون ولم يفهموا مراد القرآن فأما الروح المضافة إلى الرب فهي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها وكان النفخ مضافا إلى الله أمرا وإذنا وإلى الرسول مباشرة، يبقى ها هنا أمران أحدهما أن يقال فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك وهو الذي ينفخ

الأرواح في سائر البشر فما وجه تسمية المسيح روح الله وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فما خاصية المسيح

الثاني أن يقال فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح هو الذي نفخها فيه بإذن الله كما نفخها في مريم أم الرب تعالى هو الذي نفخها بنفسه كما خلقه بيده قيل لعمر الله انهما سؤالان مهمان فأما الأول فالجواب عنه أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الله الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه وهو روح خاص من بين سائر الأرواح وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار فإن الله سبحانه وكل بالرحم ملكا ينفخ الروح في الجنين فيكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع فان نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن يكون هناك وطء وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم ولا كخلقة سائر النوع من أب وأم ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء خلق الله له بيده ونفخ فيه من روحه واسجاد ملائكته له وتعليمه أسماء كل شيء فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخا ونفخا ومنفوخا منه فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله فمنها سرت النفخة في طينة آدم والله تعالى هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح هذا هو الذي دل عليه النص وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده أن أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم عليها السلام فهذا يحتاج إلى دليل والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه

أن اليد غير مخلوقة والروح مخلوقة والخلق فعل من أفعال الرب وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغير المنفصلة عنه وهذا مما لا يحتاج إلى دليل وهذا بخلاف النفخ في فرج مريم فإنه مفعول من مفعولاته وأضافه إليه لأنه بإذنه وأمره فنفخه في آدم هل هو فعل له أو مفعول وعلى كل تقدير فالروح الذي نفخ منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة وهي مادة روح آدم فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد.اهـ. كلام ابن القيم.

فالروح كما تقدم ليست من صفات الله تعالى، بل هي خلق من مخلوقات الله تعالى. وأضيفت إلى الله تعالى في بعض النصوص إضافة ملك وتشريف، فالله خالقها ومالكها، يقبضها متى شاء، ويرسلها متى شاء.

فالقول في الروح، كالقول في (بيت الله) و(ناقة الله) و(عباد الله) و(رسول الله) فكل هذه مخلوقات أضيفت لله تعالى للتشريف والتكريم.

ومن النصوص التي أضيفت فيها الروح إلى الله: قوله تعالى: (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) السجدة/ ٩. وهذا في حق آدم عليه السلام.

وقال سبحانه وتعالى عن آدم أيضا: (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) الحجر/ ٢٩.

وقال تعالى: (فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا * قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) مريم/ ١٧ - ١٩.

فالروح هنا هو عبد الله ورسوله جبريل الذي أرسله إلى مريم. وقد أضافه الله إليه في قوله (روحنا) فالإضافة هنا للتكريم والتشريف، وهي إضافة مخلوق

إلى خالقه سبحانه وتعالى.

وفي حديث الشفاعة الطويل: (فيأتون موسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته) رواه البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "فليس في مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له، بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتفاق الخلق، كقوله تعالى (بيت الله) و(ناقة الله) و(عباد الله) بل وكذلك روح الله عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم. ولكن إذا أضيف إليه ما هو صفة له وليس بصفة لغيره مثل كلام الله وعلم الله ويد الله ونحو ذلك كان صفة له " انتهى من "الجواب الصحيح" (٤/ ٤١٤).

وهذه القاعدة ذكرها شيخ الإسلام في مواضع، وحاصلها أن المضاف إلى الله نوعان:

١- أعيان قائمة بذاتها، فهذه الإضافة للتشريف والتكريم، كبيت الله وناقة الله، وكذلك الروح، فإنها ليست صفة، بل هي عين قائمة بنفسها، ولهذا قال النبي ﷺ في حديث البراء بن عازب الطويل في وفاة الإنسان وخروج روحه: (فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء) (فيأخذها (يعني يأخذ ملك الموت الروح) فإذا أخذها لم يدعوها (يعني الملائكة) في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط) (ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال فيصعدون بها). انظر روايات الحديث في "أحكام الجنائز" للألباني (ص ١٩٨).

وقال ﷺ: (إن الروح إذا قبض تبعه البصر) رواه مسلم (٩٢٠) أي: إذا

خرجت الروح تبعها البصر ينظر إليها أين تذهب. فهذا كله يدل على أن الروح عين قائمة بنفسها.

٢- صفات لا تقوم بنفسها، بل لا بد لها من موصوف تقوم به، كالعلم والإرادة والقدرة، فإذا قيل: علم الله، وإرادة الله، فهذا من إضافة الصفة إلى الموصوف.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب "الروح": "المسألة السابعة عشرة: وهي هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة؟ ثم قال: فهذه مسألة زل فيها عالم، وضل فيها طوائف من بنى آدم، وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين، والصواب المستبين، فأجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث، وأن معاد الأبدان واقع، وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له" ثم نقل عن الحافظ محمد بن نصر المروزي قوله: "ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بنى آدم كلها مخلوقة لله، خلقها وأنشأها وكونها واخترعها ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه قال تعالى: (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه) الجاثية/ ١٣ " انتهى من "الروح" (ص١٤٤).

وربما أشكل على بعض الناس قوله سبحانه في شأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) النساء/ ١٧١ . فظنوا كما ظنت النصارى أن (من) للتبعيض، وأن الروح جزء من الله. والحق أن (من) هنا لابتداء الغاية، أي هذه الروح من عند الله، مبدأها

ومنشأها من الله تعالى، فهو الخالق لها، والمتصرف فيها.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "فقوله في الآية والحديث: (وروح منه) كقوله: (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه) أي من خلقه ومن عنده، وليست (من) للتبعيض كما تقوله النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة، بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى، وقد قال مجاهد في قوله: (وروح منه) أي ورسول منه، وقال غيره: ومحبة منه، والأظهر الأول، وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة. وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله: (هذه ناقة الله) الأعراف/ ٧٣، وفي قوله: (وطهر بيتي للطائفين) الحج/ ٢٦. وكما روي في الحديث الصحيح: (فأدخل على ربي في داره) أضافها إليه إضافة تشريف، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد" انتهى من "تفسير ابن كثير" (١/ ٧٨٤).

وقال البغوي في التفسير: وروح منه، هو روح كسائر الأرواح إلا أن الله تعالى أضافه إلى نفسه تشريفا .

وقيل: الروح هو النفخ الذي نفخه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في درع مريم فحملت بإذن الله تعالى، سمي النفخ روحا لأنه ريح يخرج من الروح وأضافه إلى نفسه لأنه كان بأمره.

وقيل: روح منه أي رحمة، فكان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رحمة لمن تبعه وآمن به.

وقيل: الروح: الوحي، أوحى إلى مريم بالبشارة، وإلى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنفخ، وإلى عيسى أن كن فكان، كما قال الله تعالى: ينزل الملائكة بالروح من أمره، يعني: بالوحي، وقيل: أراد بالروح جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، معناه: وكلمته ألقاها إلى مريم، وألقاها إليها أيضا روح منه بأمره وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال: تنزل الملائكة

والروح يعني: جبريل فيها، وقال: فأرسلنا إليها روحنا يعني: جبريل. اهـ

وقال الشوكاني في فتح القدير: قوله وروح منه أي: يرسل جبريل فنفخ في درع مريم فحملت بإذن الله، وهذه الإضافة للتفضيل، وإن كان جميع الأرواح من خلقه تعالى، وقيل: قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحا ويضاف إلى الله فيقال هذا روح من الله: أي من خلقه، كما يقال في النعمة إنها من الله وقيل روح منه أي: من خلقه كما قال تعالى وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه أي: من خلقه وقيل روح منه أي: رحمة منه، وقيل روح منه أي: برهان منه، وكان عيسى برهانا وحجة على قومه. وقوله منه متعلق بمحذوف وقع صفة لروح، أي: كائنة منه وجعلت الروح منه سبحانه وإن كانت بنفخ جبريل لكونه تعالى الآمر لجبريل بالنفخ. اهـ

وقال الألوسي في تفسيره: قيل الروح هنا بمعنى الرحمة كما في قوله تعالى: وأيدهم بروح منه على وجه وقيل: أريد بالروح الوحي الذي أوحى إلى مريم عليها السلام بالبشارة وقيل: جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شيء بغاية الطهارة والنظافة قالوا: إنه روح فلما كان عيسى عليه السلام متكونا من النفخ لا من النطفة وصف بالروح وقيل: أريد بالروح السر كما يقال: روح هذه المسألة كذا أى أنه عليه السلام سر من أسرار الله تعالى وآية من آياته سبحانه وقيل: المراد ذو روح على حذف المضاف أو استعمال الروح في معنى ذي الروح والإضافة إلى الله تعالى للتشريف... اهـ.

وقال الألوسي أيضا: حكي أن طبيبا نصرانيا حاذقا للرشيد ناظر على بن الحسين الواقدى المروزى ذات يوم فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى، وتلا هذه الآية: (إنما المسيح عيسى ابن مريم

رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) فقرأ الواقدي قوله تعالى: (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه) الجاثية/ ١٣. فقال: إذا يلزم أن يكون جميع الأشياء جزءا منه سبحانه وتعالى علوا كبيرا، فانقطع النصراني فأسلم، وفرح الرشيد فرحا شديدا".

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا حجة للنصارى على شيء مما زعموا في تشريف عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بنسبة الروح إليه؛ إذ لغيره عَلَيْهِ السَّلَامُ مشاركة له في ذلك، ففي إنجيل لوقا: قال يسوع لتلاميذه: إن أباكم السماوي يعطي روح القدس الذين يسألونه.

وفى إنجيل متى: إن يوحنا المعمداني امتلأ من روح القدس وهو في بطن أمه.

وفى التوراة: قال الله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: اختر سبعين من قومك حتى أفيض عليهم من الروح التي عليك. وفيها في حق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: يقول الملك: هل رأيتم مثل هذا الفتى الذي روح الله تعالى عَزَّ وَجَلَّ حال فيه. وفيها أيضا: إن روح الله تعالى حلت على دانيال. . . إلى غير ذلك " انتهى من "روح المعاني" (٦/ ٢٥).

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٣/ ١٠٤): عن قول من يقول: إن الإنسان يتكون من عنصرين عنصر من التراب وهو الجسد، وعنصر من الله وهو الروح؟

فأجاب: فأجاب بقوله: هذا الكلام يحتمل معنيين:

أحدهما: أن الروح جزء من الله.

والثاني: أن الروح من الله خلقًا.

وأظهرهما أنه أراد أن الروح جزء من الله؛ لأنه لو أراد أن الروح من الله خلقًا لم يكن بينها وبين الجسد فرق إذ الكل من الله تعالى خلقًا وإيجادًا.

والجواب على قوله: أن نقول: لا شك أن الله أضاف روح آدم إليه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ . وأضاف روح عيسى إليه فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ . وأضاف بعض مخلوقات أخرى إليه كقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ﴾ . وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ . وقوله عن رسوله صالح: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾ ولكن المضاف إلى الله نوعان:

أحدهما: ما يكون منفصلًا بائنًا عنه، قائمًا بنفسه أو قائمًا بغيره، فإضافته إلى الله تعالى إضافة خلق وتكوين، ولا يكون ذلك إلا فيما يقصد به تشريف المضاف أو بيان عظمة الله تعالى، لعظم المضاف، فهذا النوع لا يمكن أن يكون من ذات الله، ولا من صفاته، أما كونه لا يمكن أن يكون من ذات الله تعالى، فلأن ذات الله تعالى واحدة لا يمكن أن تتجزأ أو تتفرق، وأما كونه لا يمكن أن يكون من صفات الله فلأن الصفة معنى في الموصوف لا يمكن أن تنفصل عنه، كالحياة، والعلم، والقدرة، والقوة، والسمع، والبصر وغيرها. فإن هذه الصفات صفات لا تباين موصوفها، ومن هذا النوع إضافة الله تعالى روح آدم وعيسى إليه، وإضافة البيت وما في السماوات والأرض إليه، وإضافة الناقة إليه، فروح آدم، وعيسى قائمة بهما، وليست من ذات الله تعالى، ولا من صفاته قطعًا، والبيت وما في السماوات والأرض، والناقة أعيان قائمة بنفسها، وليست من ذات الله ولا من صفاته، وإذا كان لا يمكن لأحد أن يقول: إن بيت الله، وناقة الله من ذاته ولا من صفاته فكذلك الروح التي أضافها إليه ليست من ذاته ولا من صفاته، ولا فرق بينهما إذ الكل بائن منفصل عن الله ﷻ وكما أن البيت والناقة من الأجسام فكذلك الروح جسم تحل بدن الحي بإذن الله، يتوفاها الله حين

موتها، ويمسك التي قضى عليها الموت، ويتبعها بصر الميت حين تقبض، لكنها جسم من جنس آخر.

النوع الثاني: من المضاف إلى الله

ما لا يكون منفصلًا عن الله بل هو من صفاته الذاتية أو الفعلية، كوجهه، ويده، وسمعه، وبصره، واستوائه على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا، ونحو ذلك، فإضافته إلى الله تعالى من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، وليس من باب إضافة المخلوق والمملوك إلى مالكه وخالقه.

وقول المتكلم: "إن الروح من الله " يحتمل معنى آخر غير ما قلنا: إنه الأظهر، وهو أن البدن مادته معلومة، وهي التراب، أما الروح فمادتها غير معلومة، وهذا المعنى صحيح. كما قال الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} . وهذه - والله أعلم - من الحكمة في إضافتها إليه أنها أمر لا يمكن أن يصل إليه علم البشر بل هي مما استأثر الله بعلمه كسائر العلوم العظيمة الكثيرة التي لم نؤت منها إلا القليل، ولا نحيط بشيء من هذا القليل إلا بما شاء الله - تبارك وتعالى -.

فنسأل الله تعالى، أن يفتح علينا من رحمته وعلمه ما به صلاحنا، وفلاحنا في الدنيا والآخرة.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح (٤/ ٥٠): الوجه التاسع: قولهم: لأنه ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه، إن أرادوا بكلمته كلامه، وبروحه حياته، فهذه من صفات الله كعلمه وقدرته، فلم يعبر أحد من الأنبياء عن حياة الله بأنها روح الله، فمن حمل كلام أحد من الأنبياء بلفظ الروح أنه يراد به حياة الله فقد كذب عليه. ثم يقال: هذا كلامه وحياته من صفات الله كعلمه وقدرته، وحينئذ فالخالق هو الله

وحده، وصفاته داخلة في مسمى اسمه لا يحتاج أن تجعل معطوفة على اسمه بواو التشريك التي تؤذن أن لله شريكا في خلقه، فإن الله لا شريك له. ولهذا لما قال الله تعالى: "الله خالق كل شيء" دخل كل ما سواه في مخلوقاته، ولم تدخل صفاته كعلمه وقدرته ومشيئته وكلامه، لأن هذه داخلة في مسمى اسمه ليست أشياء مباينة له، بل أسماؤه الحسنى متناولة لذاته المقدسة المتصفة بهذه الصفات لا يجوز أن يراد بأسمائه ذاتا مجردة عن صفات الكمال، فإن تلك لا حقيقة لها، ويمتنع وجود ذات مجردة عن صفة فضلا عن وجود ذاته تعالى مجردة عن صفات كماله التي هي لازمة لذاته، فيمتنع تحقق ذاته دونها، ولهذا لا يقال: الله وعلمه خلق، والله وقدرته خلق. وإن أرادوا بكلمته وروحه المسيح أو شيئا اتحد بناسوت المسيح، فالمسيح عليه السلام كله مخلوق كسائر الرسل، والله وحده هو الخالق، وإن شئت قلت: إن أريد بالروح والكلمة ما هو صفة الله، فتلك داخلة في مسمى اسمه، وإن أريد ما ليس بصفة فذلك مخلوق له كالناسوت.

(باب صفة الوجة)

اعلم -حمني الله،وإياك-أن الوجه صفة ذاتية خبرية لله عز وجل ثابتة بالكتاب والسنة.

قال إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٥) بعد أن أورد جملة من الآيات تثبت صفة الوَجْه لله تعالىٰ: فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق والشام ومصر؛ مذهبنا: أنا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه، نقر بذلك بألسنتنا، ونصدق ذلك بقلوبنا؛ من غير أن نشبه وَجْه خالقنا بوَجْه أحد من المخلوقين، عز ربنا أن يشبه المخلوقين، وجل ربنا عن مقالة المعطلين.اهـ.

وقال الحافظ ابن منده في كتاب التوحيد (٣/ ٣٦): ومن صفات الله عز وجل

التي وصف بها نفسه قوله: {كل شيء هالك إلا وجهه}، وقال: {ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والإكرام}، وكان النبي ﷺ يستعيذ بوجه الله من النار والفتن كلها، ويسأل به.اهـ..

وقال ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة (ص٤٠٧-٤١٩): المثال الخامس: وجه الرب جل جلاله حيث ورد في الكتاب والسنة فليس بمجاز بل علىٰ حقيقته، واختلف المعطلون في جهة التجوز في هذا، فقالت طائفة: لفظ الوجه زائد، والتقدير ويبقىٰ ربك، إلا ابتغاء ربه الأعلىٰ، ويريدون ربهم.

وقالت فرقة أخرىٰ منهم: الوجه بمعنىٰ الذات، وهذا قول أولئك وإن اختلفوا في التعبير عنه، وقالت فرقة: ثوابه وجزاؤه، فجعله هؤلاء مخلوقا منفصلا، قالوا: لأن الذي يراد هو الثواب، وهذه أقوال نعوذ بوجه الله العظيم من أن يجعلنا من أهلها، قال عثمان بن سعيد الدارمي، وقد حكىٰ قول بشر المريسي أنه قال في قول النبي ﷺ: "«إذا قام العبد يصلي أقبل الله عليه بوجهه»" يحتمل أن يقبل الله عليه بنعمته وإحسانه وأفعاله وما أوجب للمصلي من الثواب، فقوله: {ويبقىٰ وجه ربك} [الرحمن: ٢٧] أي ما توجه به إلىٰ ربك من الأعمال الصالحة، وقوله: {فأينما تولوا فثم وجه الله} [البقرة: ١١٥] أي قبلة الله.

قال الدارمي: لما فرغ المريسي من إنكار اليدين ونفيهما عن الله أقبل علىٰ وجه الله ذي الجلال والإكرام لينفيه عنه كما نفىٰ عنه اليدين فلم يدع غاية في إنكار وجه الله، ذي الجلال والإكرام والجحود به حتىٰ ادعىٰ أن وجه الله الذي وصفه بأنه ذو الجلال والإكرام مخلوق؛ لأنه ادعىٰ أنه أعمال مخلوقة يتوجه بها إليه، وثواب وإنعام مخلوق يثبت به العامل، وزعم أنه قبلة الله، وقبلة الله لا شك مخلوقة. ثم ساق الكلام في الرد عليه.

والقول بأن لفظ الوجه مجاز باطل من وجوه: ثم ذكر ستة وعشرون وجها.اهـ.

وقال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٨/ ٢٣٧): والوجه: معناه معلوم، لكن كيفيته مجهولة، لا نعلم كيف وجه الله ﷻ، كسائر صفاته، لكننا نؤمن بأن له وجهًا موصوفًا بالجلال والإكرام، وموصوفًا بالبهاء والعظمة والنور العظيم، حتىٰ قال النبي عليه الصلاة والسلام: "حجابه النور، لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه". (سبحات وجهه)، يعني: بهاءه وعظمته وجلاله ونوره. (ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه): وبصره ينتهي إلىٰ كل شيء، وعليه، فلو كشف هذا الحجاب ـ حجاب النور عن وجهه ـ، لاحترق كل شيء. لهذا نقول: هذا الوجه وجه عظيم، لا يمكن أبدًا أن يماثل أوجه المخلوقات. وبناء علىٰ هذا نقول: من عقيدتنا أننا نثبت أن لله وجهًا حقيقة، ونأخذه من قوله: (ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والإكرام)، ونقول بأن هذا الوجه لا يماثل أوجه المخلوقين، لقوله تعالىٰ: (ليس كمثله شيء) [الشورىٰ: ١١]، ونجهل كيفية هذا الوجه، لقوله تعالىٰ: (ولا يحيطون به علمًا) [طه: ١١٠]. فإن حاول أحد أن يتصور هذه الكيفية بقلبه أو أن يتحدث عنها بلسانه، قلنا: إنك مبتدع ضال، قائل علىٰ الله مالا تعلم، وقد حرم الله علينا أن نقول عليه مالا نعلم، قال تعالىٰ: (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وأن تقولوا علىٰ الله مالا تعلمون) [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالىٰ: (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولًا) [الإسراء: ٣٦].

وانظر أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٣/ ٤١٢)، وتفسير الطبري

لقوله تعالىٰ: {ويبقىٰ وجه ربك}، وتفسير الآية نفسها من أضواء البيان.

(باب اطلاق النفس على الله)

وأهل السنة والجماعة يثبتون النَّفْس لله تعالى، ونَفْسُه هي ذاته ﷻ، وهي ثابتة بالكتاب والسنة.

الدليل من الكتاب:

١- قوله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ} [آل عمران: ٢٨، ٣٠].

٢- وقوله: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [المائدة: ١١٦]

٣- وقوله: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤].

الدليل من السنة:

١- الحديث المشهور: (يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي ...)[١].

٢- حديث عائشة رضي الله عنها: (... وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[٢].

٣- حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي...)[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٤/ ١٩٦) عن نَفْس الله: ونفسه هي ذاته المقدسة.

وقال أيضًا في مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٢ - ٢٩٣): ويراد بنَفْس الشيء ذاته وعينه؛ كما يقال: رأيت زيدًا نفسه وعينه، وقد قال تعالى: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}، وقال تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، وقال تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ}، وفي الحديث الصحيح؛ أنه قال لأم المؤمنين: (لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزن بما قلتيه لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله رضى نفسه، سبحان الله مداد كلماته)، وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ؛ ذكرته في ملأ خير منهم)؛ فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النَفْس عند جمهور العلماء: الله نفسه، التي هي ذاته، المتصفة بصفاته، ليس المراد بها ذاتًا منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة للذات، وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات، كما يظن طائفة أنها الذات المجردة عن الصفات، وكلا القولين خطأ.اهـ.

وفي (كتاب التوحيد) من صحيح البخاري: (باب: قول الله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ}، وقوله جل ذكره: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}).

وقال القاسمي في التفسير: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ} أي: ذاته المقدسة.

قال الشيخ عبد الله الغنيمان في الشرح (١/ ٢٤٩): المراد بالنَّفْسِ في هذا: اللهَ تعالى، المتصف بصفاته، ولا يقصد بذلك ذاتًا منفكة عن الصفات، كما لا يراد به صفة الذات كما قاله بعض الناس. اهـ

لكن من السلف من يعدُّ (النَّفْس) صفةً لله ﷻ، منهم الإمام ابن خزيمة في كتاب التوحيد؛ حيث قال في أوله (١/ ١١): فأول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا جل وعلا في كتابنا هذا: ذكر نفسه، جل ربنا عن أن تكون نَفْسُه كنَفْسِ خلقه، وعزَّ أن يكون عَدَمًا لا نَفْس له اهـ.

ومنهم عبد الغني المقدسي؛ قال: ومما نطق به القرآن وصحَّ به النقل من الصفات (النَّفْس)، ثم سرد بعض الآيات والأحاديث لإثبات ذلك. انظر: عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي (ص ٤٠). ومنهم البغوي.

وقال شيخ الإسلام درء التعارض (١٠/ ٣٠٨): "ومعلوم أن نفس الله، التي هي ذاته المقدسة، الموصوفة بصفات الكمال، ليست مثل نفس أحد من المخلوقين، وقد ذهب طائفة من المنتسبين إلى السنة، من أهل الحديث، وغيرهم، وفيهم طائفة من أصحاب الشافعي، وأحمد، وغيرهما، إلى أن النفس صفة من الصفات، والصواب أنها ليست صفة، بل نفس الله هي ذاته سبحانه، الموصوفة بصفاته سبحانه.اهـ.

ومن المتأخرين صديق حسن خان في قطف الثمر (ص ٦٥)؛ قال: ومما نطق بها القرآن وصحَّ بها النقل من الصفات: (النَّفْس)، لكنه في تفسير قوله تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ}، قال: أي: ذاته المقدسة. والله أعلم. كتاب صفات الله ﷻ(ص ٣٠٥ - ٣٠٧).

مسألة: معنى النفس

قال الخليل في العين (٧/ ٢٧٠ - ٢٧١): النَّفْس وجمعها النفوس لها معان: النفس الروح الذي به حياة الجسد، وكل إنسان نفس، حتى آدم - عليه السلام - ، الذكر والأنثى سواء. وكل شيء بعينه نفس، ورجل له نفْس أي خلق وجلادة وسخاء، والنَّفَس التنفس أي خروج النسيم من الجوف، وشربت الماء بنفس وثلاثة أنفاس، وكل مستراح منه نفَس، وشيء نفيس متنافس فيه، ونفست به علي نفسًا، ونفاسة، ضننت، ونَفُس الشيء نفاسة أي صار نفيسًا"ا. هـ

فالنفس في اللغة الروح، والنفس الدم، والجسد، والعين، ونفس الشيء عينه، وذاته، يؤكد به، يقال رأيت فلانًا نفسه، وجاءني بنفسه.

معنى النفس في الشرع: ورد لفظ النفس في كتاب الله تعالى في عدة مواضع، فورد بمعنى الروح كما في قوله تعالى: {أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ} [الأنعام - ٩٣]، فالنفس هنا بمعنى الروح، في أحد الأقوال، كما جاءت النفس بمعنى الذات، قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ} [البقرة - ٢٣٥]، وقال تعالى: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [المائدة - ١١٦]، وقال: {وَيُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ} [آل عمران - ٢٨]، فالنفس هنا بمعنى الذات، قال شيخ الإسلام درء التعارض (١٠/ ٣٠٨): "ومعلوم أن نفس الله، التي هي ذاته المقدسة، الموصوفة بصفات الكمال، ليست مثل نفس أحد من المخلوقين، وقد ذهب طائفة من المنتسبين إلى السنة، من أهل الحديث، وغيرهم، وفيهم طائفة من أصحاب الشافعي، وأحمد، وغيرهما، إلى أن النفس صفة من الصفات، والصواب أنها ليست صفة، بل نفس الله هي ذاته سبحانه، الموصوفة بصفاته سبحانه".اهـ.

وفي السنة ورد لفظ النفس كثيرًا بمعنى الذات، ومن ذلك قوله ﷺ: "من حلف على يمين الإسلام كاذبًا فهو كما قال، ومن قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة، وليس على رجل نذر في شيء لا يملكه".

كما ورد لفظ النفس بمعنى الروح، ومنه قوله ﷺ: "ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره؟ قالوا بلى، قال: "فذلك حين يتبع بصره نفسه".

كما جاءت النفس بمعنى العين، ففي الحديث أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: "يا محمد اشتكيت فقال: "نعم"، قال: "باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك".

قال النووي في المنهاج (١٤/ ١٧٠) "وقوله: "من شر كل نفس"، قيل

يحتمل أن المراد بالنفس نفس الآدمي، وقيل يحتمل أن المراد بها العين، فإن النفس تطلق على العين، ويقال رجل نفوس إذا كان يصيب الناس بعينه، كما قال في الرواية الأخرى "من شر كل ذي عين"، ويكون قوله "أو عين حاسد" من باب التوكيد بلفظ مختلف، أو شك من الراوي في لفظه والله أعلم".اهـ..

فالنفس في الشرع جاءت بمعانيها في اللغة.

معنى النفس في اصطلاح الفلاسفة:

يقول ابن سينا كما في كتاب الحدود ضمن كتاب المصطلح الفلسفي (ص٢٤١ - ٢٤٢): "النفس اسم مشترك، يقع على معنى يشترك فيه الإنسان، والحيوان، والنبات، وعلى معنى يشترك فيه الإنسان، والملائكة. فحد المعنى الأول أنه كمال جسم طبيعي، آلي، ذي حياة بالقوة. وحد النفس بالمعنى الآخر أنه جوهر غير جسم هو كمال محرك له بالاختيار، عن مبدأ نطقي - أي عقلي - بالفعل، أو بالقوة، والذي بالقوة هو فصل النفس الإنسانية، والذي بالفعل هو فصل، أو خاصة، للنفس الملاكية".اهـ..

ومن خلال هذا التعريف يتضح أن النفس عند الفلاسفة تطلق على أمرين:

"الجوهر المفارق عن المادة في ذاته دون فعله، وهو على قسمين: نفس فلكية، ونفس إنسانية.

وعلى ما ليس بمجرد بل قوة مادية، وهو على قسمين أيضًا: نفس نباتية، ونفس حيوانية"[1].

والنفس الكلية هي المعنى المقول على كثيرين مختلفين بالعدد في جواب ما هو، التي كل واحد منها نفس خاصة لشخص.

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون (٢/ ١٣٩٧).

ونفس الكل هي جملة الجواهر غير الجسمانية، التي هي كمالات مدبرة للأجسام السماوية، المحركة لها على سبيل الاختيار العقلي. ونفس الكل هو مبدأ قريب لوجود الأجسام الطبيعية، ومرتبته في نيل الوجود بعد مرتبة عقل الكل، ووجوده فائض عنه، وهي الملائكة السماوية.

ويوضح ذلك أن النفس الإنسانية، وهي التي يسمونها النفس الناطقة، مقارنة للمادة في أفعالها، يعني لا تفعل إلا إذا كانت في المادة، ولكنها مجردة عنها في ذاتها - كما يرون. وكذلك النفس الفلكية عندهم أنها مجردة عن المادة في ذاتها، ولكن لا تفعل إلا بواسطة أجسامها من الأفلاك، قالوا: كل نفس فإنما جعلت خاصة بجسم، بسبب أن فعلها بذلك الجسم وفيه. فالنفوس عند من يثبتها من المتفلسفة لا تفارق الأجسام، بل النفس عندهم لا بد أن تكون متعلقة بالجسم، تعلق التدبير والتصريف، وما دامت نفس الإنسان مدبرة لبدنه، سموها نفسًا، فإذا فارقت سموها عقلًا؛ لأن العقل عندهم هو المجرد عن المادة، وعن علائق المادة، وأما النفس فهي المتعلقة بالبدن، تعلق التدبير والتصريف، وقد تنازعوا في النفس الفلكية، هل هي جوهر، أو عرض؟ على قولين أحدهما: أنها أعراض قائمة بالفلك، كالقوة الشهوية، والغضبية، وهذا قول أكثر أتباع أرسطو، والثاني: أنها جواهر قائمة بأنفسها كالنفس الناطقة، وإليه يميل ابن سينا وغيره[١].

والمشهور عندهم أن النفوس الفلكية بعدد الأفلاك، فهي تسعة[٢].

والحق أن تلك الآراء التي قال بها الفلاسفة، في العقول، والنفوس، ما هي

---

(١) الصفدية (١/ ٣٤، ٢/ ٢٥٢ - ٢٥٣)، ودرء التعارض (١/ ٣٥)، ومجموع الفتاوى (٩/ ٢٧٣).

(٢) تهافت الفلاسفة (ص٧٠).

إلا امتداد للوثنية القديمة عند اليونان، والتي ترى أن الكواكب أجسام سماوية، وأن لها نفوسًا تحركها، وأن لحركاتها تأثيرًا في نفوسنا، وأجسامنا، وكل كوكب يعتبر إلهًا عندهم، ففلاسفة اليونان شرحوا تلك الوثنيات بطريقة فلسفية، تلقفها من بعدهم بعض المنتسبين للإسلام كابن سينا والفارابي وأمثالهم.

وقول الفلاسفة في النفوس باطل من وجوه عدة منها

أولًا: أن هذا التفسير للفظ النفس لم يرد في كتاب الله، ولا في سنة رسوله ﷺ، ولا في كلام الصحابة والتابعين، بل جاء لفظ النفس في الشرع بمعنى الروح، وبمعنى العين، والذات، ولم يرد إطلاق النفس على الملائكة فضلًا عن المعنى الذي ذكروه.

ثانيًا: قولهم بأن النفوس الفلكية هي التي تدبر الأجسام السماوية، وأنها مبدأ قريب للأجسام الطبيعية، قول فاسد، وهو من الشرك في الربوبية، إذ المتفرد بتدبير الخلق، وإيجادهم هو الله وحده.

ثالثًا: أنهم يقولون إن جميع الحوادث مستندة إلى حركة النفس الفلكية، ويقولون إن النفس الفلكية تعلم جزئيات حركات الفلك، بل ادعى ابن سينا ومن اتبعه أنها تعلم جميع الحوادث؛ لعلمها بأسبابها؛ لأن سببها هو الحركة الفلكية، واعتقادهم أن النفوس الفلكية عالمة بما يجري من حوادث قول باطل، فالنفوس الفلكية عندهم هي الملائكة، ولا تفعل إلا من خلال حلولها في الأفلاك السماوية، ومعلوم أن الملائكة خلق مسخر من خلق الله، وكل منهم موكل بعمل من الأعمال، وهي لا تعلم جميع ما يقع من حوادث بل لا تعلم إلا ما وكلت به.

رابعًا: قولهم في النفس الإنسانية أنها جوهر، غير جسم، وأنها مفارقة للمادة

في ذاتها، وأن النفس إذا فارقت البدن لا يتجدد لها حال من الأحوال، لا علوم ولا تصورات ولا سمع ولا بصر ولا إرادات ولا فرح وسرور، ولا غير ذلك مما قد يتجدد، ويحدث، بل تبقى عندهم على حال واحدة أزلًا وأبدًا، غير صحيح، وهو قول بغير علم، بل قد دلت الأدلة على أن النفس، وهي الروح، جسم حي خفيف متحرك يصعد وينزل ويُرى ويشار إليه، وأنها بعد مفارقتها البدن تكون إما معذبة، وإما منعمة، فهي تحس وتشعر بما يحدث لها بعد مفارقتها البدن.

خامسًا: أن قولهم بتولد النفوس عن الله شبيه بقول المشركين إن الملائكة بنات الله.

فقول الفلاسفة في النفوس مكمل لقولهم في العقول، وهو ظاهر البطلان، ومصدره وثني بعيد عن الإسلام[1].

(باب صفة اليدين)

اليدان صفةٌ ذاتيةٌ خبريَّةٌ لله ﷻ، نثبتها كما نثبت باقي صفاته تعالى؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، وهي ثابتةٌ بالكتاب والسنة.

الدليل من الكتاب:

١- قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: ٦٤].

٢- وقوله: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥].

الدليل من السنة:

١- حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: (إنَّ الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس

(١) الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية (ص٣٥٥).

من مغربها)[١].

٢- حديث الشفاعة، وفيه: (... فيأتونه فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر؛ خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه ...)[٢].

٣- حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك ...)[٣].

٤- حديث: (يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ... وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع)[٤].

قال إمام الأئمة ابن خزيمة في كتاب التوحيد (ص١٩٢): تدبروا يا أولي الألباب ما نقوله في هذا الباب، في ذكر اليدين: كنحو قولنا في ذكر الوجه، والعينين تستيقنوا بهداية الله إياكم، وشرحه جل وعلا صدوركم للإيمان بما قصه الله جل وعلا، في محكم تنزيله، وبينه على لسان نبيه ﷺ من صفات خالقنا عَزَّ وَجَلَّ، وتعلموا بتوفيق الله إياكم أن الحق والصواب والعدل في هذا الجنس مذهبنا مذهب أهل الآثار، ومتبعي السنن، وتقفوا على جهل من يسميهم مشبهة، إذ الجهمية المعطلة جاهلون بالتشبيه نحن نقول: لله جل وعلا يدان كما أعلمنا الخالق البارئ في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه المصطفى ﷺ، ونقول: كلتا يدي ربنا عَزَّ وَجَلَّ يمين، على ما أخبر النبي ﷺ، ونقول: إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقبض الأرض جميعا بإحدى يديه، ويطوي السماء بيده الأخرى، وكلتا يديه يمين، لا شمال فيهما، ونقول: من كان من بني آدم سليم الأعضاء والأركان، مستوي التركيب،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٤) أخرجه البخاري (٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣).

لا نقص في يديه، أقوى بني آدم، وأشدهم بطشا له يدان عاجز عن أن يقبض على قدر أقل من شعرة واحدة، من جزء من أجزاء كثيرة، على أرض واحدة من سبع أرضين؟ ولو أن جميع من خلقهم الله من بني آدم إلى وقتنا هذا، وقضى خلقهم إلى قيام الساعة لو اجتمعوا على معونة بعضهم بعضا، وحاولوا على قبض أرض واحدة من الأرضين السبع بأيديهم كانوا عاجزين عن ذلك غير مستطيعين له، وكذلك لو اجتمعوا جميعا على طي جزء من أجزاء سماء واحدة لم يقدروا على ذلك، ولم يستطيعوا، وكانوا عاجزين عنه، فكيف يكون - يا ذوي الحجا - من وصف يد خالقه بما بينا من القوة والأيدي، ووصف يد المخلوقين بالضعف والعجز مشبها يد الخالق بيد المخلوقين؟ أو كيف يكون مشبها من يثبت أصابع على ما بينه النبي المصطفى ﷺ للخالق البارئ؟ ونقول: إن الله جل وعلا يمسك السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، تمام الحديث ونقول: إن جميع بني آدم منذ خلق الله آدم إلى أن ينفخ في الصور لو اجتمعوا على إمساك جزء من أجزاء كثيرة من سماء من سماواته، أو أرض من أراضيه السبع بجميع أبدانهم كانوا غير قادرين على ذلك، ولا مستطيعين له، بل عاجزين عنه، فكيف يكون من يثبت لله ﷻ يدين على ما ثبته الله لنفسه، وأثبته له ﷺ مشبها يدي ربه بيدي بني آدم؟ نقول: لله يدان مبسوطتان، ينفق كيف يشاء بهما خلق الله آدم عليه السلام، وبيده كتب التوراة لموسى عليه السلام، ويداه قديمتان لم تزالا باقيتين، وأيدي المخلوقين محدثة غير قديمة، فانية غير باقية، بالية تصير ميتة، ثم رميما، ثم ينشئه الله خلقا آخر {تبارك الله أحسن الخالقين}، فأي تشبيه يلزم أصحابنا: - أيها العقلاء - إذا أثبتوا للخالق ما أثبته الخالق لنفسه، وأثبته له نبيه المصطفى ﷺ وقول هؤلاء المعطلة يوجب أن كل من يقرأ كتاب الله،

ويؤمن به إقرارا باللسان وتصديقا بالقلب فهو مشبه، لأن الله ما وصف نفسه في محكم تنزيله بزعم هذه الفرقة ومن وصف يد خالقه فهو: يشبه الخالق بالمخلوق، فيجب على قود مقالتهم: أن يكفر بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ عليهم لعائن الله؛ إذ هم كفار منكرون لجميع ما وصف الله به نفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ غير مقرين بشيء منه، ولا مصدقين بشيء منه نقول: لو شبه بعض الناس: يد قوي الساعدين شديد البطش، عالم بكثير من الصناعات، جيد الخط، سريع الكتابة، بيد ضعيف البطش، من الآدميين، خلو من الصناعات والمكاسب، أخرق، لا يحسن أن يخط بيده كلمة واحدة، أو شبه يد من ذكرنا أولا بالقوة والبطش الشديد، بيد صبي في المهد، أو كبير هرم، يرعش، لا يقدر على قبض، ولا بسط، ولا بطش أو نقول له: يدك شبيهة بيد قرد، أو خنزير، أو دب، أو كلب، أو غيرها من السباع، أما ما يقوله سامع هذه المقالة - إن كان من ذوي الحجا والنهى -: أخطأت يا جاهل التمثيل، ونكست التشبيه، ونطقت بالمحال من المقال، ليس كل ما وقع عليه اسم اليد جاز أن يشبه ويمثل إحدى اليدين بالأخرى، وكل عالم بلغة العرب، فالعلم عنده محيط: أن الاسم الواحد قد يقع على الشيئين مختلفي الصفة، متبايني المعاني، وإذا لم يجز إطلاق اسم التشبيه، إذا قال المرء لابن آدم، وللقرد يدان، وأيديهما مخلوقتان، فكيف يجوز أن يسمى مشبها من يقول لله يدان، على ما أعلم في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، ونقول: لبني آدم يدان، ونقول: ويدا الله بهما خلق آدم، وبيده كتب التوراة لموسى عليه السلام، ويداه مبسوطتان، ينفق كيف يشاء، وأيدي بني آدم مخلوقة على ما بينت وشرحت قبل: في باب الوجه والعينين، وفي هذا الباب وزعمت الجهمية المعطلة: أن

معنى قوله: {بل يداه مبسوطتان} [المائدة: ٦٤] أي نعمتاه، وهذا تبديل، لا تأويل، والدليل على نقص دعواهم هذه أن نعم الله كثيرة، لا يحصيها إلا الخالق البارئ، ولله يدان لا أكثر منهما، كما قال لإبليس عليه لعنة الله: {ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي} [ص: ٧٥]، فأعلمنا جل وعلا أنه خلق آدم بيديه، فمن زعم أنه خلق آدم بنعمته كان مبدلا لكلام الله، وقال الله ﷻ: {والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه}، أفلا يعقل أهل الإيمان أن الأرض جميعا لا تكون قبضة إحدى نعمتيه يوم القيامة، ولا أن السموات مطويات بالنعمة الأخرى ألا يعقل ذوو الحجا من المؤمنين أن هذه الدعوى التي يدعيها الجهمية جهل، أو تجاهل شر من الجهل، بل الأرض جميعا قبضة ربنا جل وعلا، فإحدى يديه يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه وهي: اليد الأخرى، وكلتا يدي ربنا يمين، لا شمال فيهما جل ربنا وعز أن يكون له يسار؛ إذ كون إحدى اليدين يسارا إنما يكون من علامات المخلوقين، جل ربنا وعز عن شبه خلقه، وافهم ما أقول من جهة اللغة تفهم وتستيقن أن الجهمية مبدلة لكتاب الله، لا متأولة قوله، بل يداه مبسوطتان، لو كان معنى اليد النعمة كما ادعت الجهمية لقرئت: بل يداه مبسوطة، أو منبسطة، لأن نعم الله أكثر من أن تحصى، ومحال أن تكون نعمة نعمتين لا أكثر فلما قال الله ﷻ: {بل يداه مبسوطتان} [المائدة: ٦٤]، كان العلم محيطا أنه ثبت لنفسه يدين لا أكثر منهما، وأعلم أنهما مبسوطتان ينفق كيف يشاء والآية دالة أيضا على أن ذكر اليد في هذه الآية ليس معناه النعمة، فقد حكى الله جل وعلا قول اليهود، فقال: {وقالت اليهود يد الله مغلولة} [المائدة: ٦٤]، فقال الله ﷻ ردا عليهم: {غلت أيديهم} [المائدة: ٦٤]، وقال: {بل يداه مبسوطتان} [المائدة: ٦٤]، وبيقين

يعلم كل مؤمن: أن الله لم يرد بقوله: {غلت أيديهم} [المائدة: ٦٤] أي غلت نعمهم، ولا اليهود أرادوا أن نعم الله مغلولة، وإنما رد الله عليهم مقالتهم، وكذبهم في قولهم {يد الله مغلولة} [المائدة: ٦٤] وأعلم المؤمنين أن يديه مبسوطتان، ينفق كيف يشاء، وقد قدمنا ذكر إنفاق الله ﷻ بيديه في خبر همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «يمين الله ملأى سحاء لا يغيضها نفقة» فأعلم النبي ﷺ أن الله ينفق بيمينه، وهما يداه التي أعلم الله أنه ينفق بهما كيف يشاء وزعم بعض الجهمية: أن معنى قوله: «خلق الله آدم بيديه» أي بقوته، فزعم أن اليد هي القوة، وهذا من التبديل أيضا، وهو جهل بلغة العرب، والقوة إنما تسمى الأيد بلغة العرب، لا اليد، فمن لا يفرق بين اليد والأيد فهو إلى التعليم والتسليم إلى الكتاتيب أحوج منه إلى الترؤس والمناظرة.اهـ.

وقال أبو بكر الإسماعيلي في اعتقاد أئمة الحديث (ص ٥١): وخلق آدم عليه السلام بيده، ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، بلا اعتقاد كيف يداه، إذ لم ينطق كتاب الله تعالى فيه بكيف.اهـ.

وقال أبو الحسن الأشعري في رسالة إلى أهل الثغر (ص ٢٢٥): (وأجمعوا على أنه ﷻ يسمع ويرى، وأنَّ له تعالى يدين مبسوطتين) اهـ.

وقال قَوَّام السُّنَّة الأصبهاني في الحجة (١/ ١٨٥): (فصل: في إثبات اليد لله تعالى صفة له)، ثم أورد بعض الآيات التي تدل على ذلك، ثم قال: (ذكر البيان من سنة النبي ﷺ على إثبات اليد موافقًا للتَنْزيل) ثم أورد أحاديث بسنده تدل على ذلك. اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٧١): ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مئة موضع ورودا

متنوعا متصرفا فيه، مقرونا بما يدل على أنها يد حقيقية؛ من الإمساك، والطي، والقبض، والبسط ... وأخذ الصدقة بيمينه ... وأنه يطوي السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ... اهـ.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٧٨): وسنذكر هنا إن شاء الله أن أئمة المتكلمين المشهورين رجعوا كلهم عن تأويل الصفات أما كبيرهم الذي هو أفضل المتكلمين المنتسبين غلى أبي الحسن الأشعري، وهو القاضي محمد بن الطيب المعروف بأبي بكر الباقلاني، فإنه كان يؤمن بالصفات على مذهب السلف ويمنع تأويلها منعًا باتًا، ويقول فيها بمثل ما قدمنا عن الأشعري. وسنذكر لك هنا بعض كلامه. قال الباقلاني المذكور في كتاب التمهيد ما نصه: باب في أن لله وجهًا ويدين، فإن قال قائل. فما الحجة في أن لله عز وجل وجهًا ويدين؟ قيل له قوله: {ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام} [الرحمن: ٢٧]. وقوله: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥]. فأثبت لنفسه وجهًا ويدين. ثم قال أيضا: واعلم أن إمام الحرمين، أبا المعالي الجويني، كان في زمانه من أعظم أئمة القائلين بالتأويل، وقد قرر التأويل وانتصر له في كتابه الإرشاد. ولكنه رجع عن ذلك في رسالته العقيدة النظامية ثم قال الشيخ رحمه الله: وكذلك أبو حامد الغزالي، كان في زمانه من أعظم القائلين بالتأويل ثم رجع عن ذلك، وبين أن الحق الذي لا شك فيه هو مذهب السلف. وقال في كتابه: إلجام العوام عن علم الكلام: اعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر، هو مذهب السلف أعني الصحابة والتابعين، ثم قال: إن البرهان الكلي على أن الحق في مذهب السلف وحده ينكشف بتسليم أربعة أصول مسلمة عند كل عاقل.

ثم بين أن الأول من تلك الأصول المذكورة أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أعرف الخلق

بصلاح أحوال العباد في دينهم ودنياهم.

الأصل الثاني: أنه بلغ كلما أوحى إليه من صلاح العباد في معادهم ومعاشهم، ولم يكتم منه شيئًا.

الأصل الثالث: أن أعرف الناس بمعاني كلام الله وأحراهم بالوقوف على أسراره هم أصحاب رسول الله ﷺ الذين لازموه وحضروا التنزيل وعرفوا التأويل.

والأصل الرابع: أن الصحابة رضي الله عنهم في طول عصرهم إلى آخر أعمارهم ما دعوا الخلق إلى التأويل، ولو كان التأويل من الدين أو علم الدين لأقبلوا عليه ليلًا ونهارًا ودعوا إليه أولادهم وأهلهم. ثم قال الغزالي: وبهذه الأصول الأربعة المسلمة عند كل مسلم نعلم بالقطع أن الحق ما قالوه والصواب ما رأوه.

مسألة: يؤمن أهل السنة والجماعة أنَّ لله عز وجل يدين وأنَّ إحدى يديه يَمِين فهل الأخرى توصف بالشِّمال؟ أم أنَّ كلتا يديه يَمِين

هذه مسألة خلافية وإذا كانت المسألة خلافية فلا ينبغي أن تكون المخالفة فيها مثارًا للنزاع واللجاج وممن أثبت الشمال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي، وأبو يعلى الفراء، ومحمد بن عبد الوهاب، وصديق حسن خان، ومحمد خليل هرَّاس، وعبدالله الغنيمان وغيرهم وممن قال كلتا يديه يمين الإمام أحمد وابن خزيمة، والبيهقي، والألباني وغيرهم وقد سئل العلامة الألباني -رحمه الله- في مجلة الأصالة (ع٤، ص ٦٨): كيف نوفِّق بين رواية: (بشماله) الواردة في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في صحيح مسلم وقوله ﷺ: (وكلتا يديه يَمِين)؟

فأجاب: لا تعارض بين الحديثين بادئ بدء؛ فقوله ﷺ: (... وكلتا يديه يَمِين): تأكيد لقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)

فهذا الوصف الذي أخبر به رسول الله ﷺ تأكيدٌ للتنْزيه، فيدُ الله ليست كيدِ البشر: شمال ويَمِين، ولكن كلتا يديه سبحانه يَمِين.

وأمر آخر؛ أنَّ رواية: (بشماله): شاذة؛ كما بيَّنتها في (تخريج المصطلحات الأربعة الواردة في القرآن) (رقم ١) للمودودي. ويؤكد هذا أنَّ أبا داود رواه وقال: (بيده الأخرى)، بدل: (بشماله)، وهو الموافق لقوله ﷺ: (وكلتا يديه يَمِين)، والله أعلم.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه عن: كيف نجمع بين قول النبي ﷺ: "المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين " وبين قوله ﷺ: "ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله"؟

فأجاب: كلمة " بشماله " اختلف فيها الرواة: فمنهم من أثبتها، ومنهم من أنكرها وقال لا تصح عن رسول الله ﷺ وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في صحيح مسلم أن الرسول ﷺ قال: "المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين". وهذا يقتضي أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال. ولكن قد روى مسلم في صحيحه إثبات الشمال لله تعالى فإذا كانت محفوظة فهي عندي لا تنافي "كلتا يديه يمين" لأن المعنى أن اليد الأخرى ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليد اليمنى، فقال: "كلتا يديه يمين " أي ليس فيهما نقص. فلما كان الوهم ربما يذهب إلى أن إثبات الشمال يعني النقص في هذه اليد دون الأخرى قال: "كلتا يديه يمين" ويؤيده قوله: "المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن" فإن المقصود بيان فضلهم ومرتبتهم وأنهم على يمين الرحمن سبحانه. وعلى كل فإن يديه سبحانه اثنتان بلا شك، وكل واحدة غير الأخرى وإذا وصفنا اليد الأخرى بالشمال فليس

المراد أنها أنقص من اليد اليمنى بل كلتا يديه يمين. والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن رسول الله ﷺ نؤمن بها، وإن لم تثبت فنقول: كلتا يديه يمين.

(باب صفة القبض والحثو)

القبض والطي صفتان فعليتان خبريتان لله ﷻ، ثابتتان بالكتاب والسنة، و(القابض) من أسماء الله تعالى.

قال الإمام ابن خزيمة في كتاب التوحيد (ص١٩٢): ... ونقول: إن الله ﷻ يقبض الأرض جميعا بإحدى يديه، ويطوي السماء بيده الأخرى، وكلتا يديه يمين، لا شمال فيهما.....اهـ.

وقال أبو يعلى الفراء في إبطال التأويلات (ص ١٦٨) بعد ذكر حديث: (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها...: اعلم أنه غير ممتنع إطلاق القبض عليه سبحانه، وإضافتها إلى الصفة التي هي اليد التي خلق بها آدم؛ لأنه مخلوق باليد من هذه القبضة، فدل على أنها قبضة باليد، وفي جواز إطلاق ذلك أنه ليس في ذلك ما يحيل صفاته ولا يخرجها عما تستحقه. اهـ.

وقال الشيخ عبد الله الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ١٤٠): قوله: (يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه): القبض: هو أخذ الشيء باليد وجمعه، والطي: هو ملاقاة الشيء بعضه على بعض وجمعه، وهو قريب من القبض. وهذا من صفات الله تعالى الاختيارية، التي تتعلق بمشيئته وإرادته، وهي ثابتة بآيات كثيرة وأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ، وهي مما يجب الإيمان به؛ لأن ذلك داخل في الإيمان بالله تعالى، ويحرم تأويلها المخرج لمعانيها عن ظاهرها، وقد دل على ثبوتها لله تعالى العقل أيضا؛ فإنه لا يمكن لمن نفاها إثبات أن الله هو الخالق لهذا الكون

المشاهد؛ لأن الفعل لابد له من فاعل، والفاعل لابد له من فعل، وليس هناك فعل معقول إلا ما قام بالفاعل، سواء كان لازما كالنزول والمجيء، أو متعديا كالقبض والطي؛ فحدوث ما يحدثه تعالى من المخلوقات تابع لما يفعله من أفعاله الاختيارية القائمة به تعالى؛ وهو تعالى حي قيوم، فعال لما يريد، فمن أنكر قيام الأفعال الاختيارية به تعالى فإن معنى ذلك أنه ينكر خلقه لهذا العالم المشاهد وغير المشاهد، وينكر قوله: {إنه على كل شيء قدير}؛ فالعقل دل على ما جاء به الشرع. وما صرح به في هذا الحديث من القبض والطي، قد جاء صريحا أيضا في كتاب الله تعالى؛ كما قال تعالى: {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون}، والأحاديث والآثار عن السلف في صريح الآية والحديث المذكور في الباب كثيرة وظاهرة جلية لا تحتمل تأويلا ولا تحتاج إلى تفسير، ولهذا صار تأويلها تحريفا وإلحادا فيها. اهـ.

مسألة: الحثو صفة فعلية خبرية ثابتة لله عز وجل بالسنة الصحيحة.

والدليل: حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعا: (وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفا، وثلاث حثيات من حثيات ربي). حديث صحيح، وحديث حديث عامر بن زيد البكالي عن عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا بغير حساب، ثم يتبع كل ألف سبعين ألفا، ثم يحثي بكفه ثلاث حثيات، فكبر عمر، وحديث أبي سعيد الأنماري الخير رضي الله عنه مرفوعا: (إن ربي وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا بغير حساب، ويشفع لكل ألف سبعين ألفا، ثم يحثي ربي ثلاث حثيات

بكفيه.

وقد أورد الدارمي في حديث عتبة وأبي سعيد في موطن الرد على المريسي في طعنه إثبات صفة اليد والكف لله ﷻ.

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٧/ ١٢٩) عند شرحه لحديث أبي أمامة المتقدم: (ثلاث حثيات)؛ بفتح الحاء والمثلثة، جمع حثية، والحثية والحثوة يستعمل فيما يعطيه الإنسان بكفيه دفعة واحدة من غير وزن وتقدير اهـ.

وقال ابن القيم - كما في مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٧١) -: ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مئة موضع ورودا متنوعا متصرفا فيه مقرونا بما يدل على أنها يد حقيقة من الإمساك والطي والقبض والبسط... والحثيات... .

(باب صفة الأصابع)

الأصابع صفة ذاتية خبرية ثابتة لله ﷻ بالسنة الصحيحة.

ومذاهب الناس في إثبات الأصابع على أقسام:

١- أهل السنة والجماعة وهم على إثبات الأصابع لله ﷻ.

٢- الذين يؤولون الأصابع كتأويل اليد، فيؤولونها بالقدرة والملك ... إلخ. وهذا مذهب الجهمية والمعتزلة ومتأخري الأشاعرة والماتريدية، ويضاف على ذلك آخرون أثبتوا اليدين كما مر معنا لكنهم أولوا الأصابع كالبيهقي وشيخه ابن فورك.

٣- من أنكر إثبات الأصابع لله ونفى صحة ورود ذلك كالخطابي، نقل ذلك عنه السفاريني في عقيدته لما تكلم عن صفة الأصابع لله ﷻ.

قال البغوي في شرح السنة (١/ ١٦٨) بعد ذكر الحديث السابق: والإصبع

المذكورة في الحديث صفة من صفات الله ﷻ، وكذلك

كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل من صفات الله تعالى؛ كالنفس، والوجه، والعين، واليد، والرجل، والإتيان، والمجيء، والنزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والضحك، والفرح. اهـ.

وقال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ٢٤٥): ونحن نقول: إنَّ هذا الحديث صحيح، وإن الذي ذهبوا إليه في تأويل الإصبع لا يشبه الحديث؛ لأنه عليه السلام قال في دعائه: (يا مقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك). فقالت له إحدى أزواجه: أوَ تخاف يا رسول الله على نفسك؟ فقال: (إنَّ قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله ﷻ)، فإن كان القلب عندهم بين نعمتين من نعم الله تعالى؛ فهو محفوظ بتينك النعمتين؛ فلأي شيء دعا بالتثبيت؟ ولِمَ احتج على المرأة التي قالت له: أتخاف على نفسك؟ بما يؤكد قولها؟ وكان ينبغي أن لا يخاف إذا كان القلب محروسًا بنعمتين. فإن قال لنا: ما الإصبع عندك ها هنا؟ قلنا: هو مثل قوله في الحديث الآخر: (يحمل الأرض على إصبع)، وكذا على إصبعين، ولا يجوز أن تكون الإصبع ها هنا نعمة، وكقوله (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) ولم يجز ذلك. ولا نقول: إصبعٌ كأصابعنا، ولا يدٌ كأيدينا، ولا قبضةٌ كقبضاتنا؛ لأن كل شيء منه ﷻ لا يشبه شيئًا منا.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (١/ ١١٩): وأما حديث: "إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء". فقد رواه مسلم في صحيحه في كتاب القدر في الباب الثالث منه، وليس فيه تأويل عند أهل السنة والجماعة حيث يؤمنون بما دل عليه من إثبات

الأصابع لله تعالى على الوجه اللائق به، ولا يلزم من كون قلوبنا بين أصبعين منها أن تماس القلب، فإن السحاب مسخر بين السماء والأرض ولا يمس السماء ولا الأرض، فكذلك قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ولا يستلزم ذلك المماسة.

(فرع)

في عدد الأصابع وهل يثبت لله عدد محدد للأصابع كما أثبتنا أن له يدان اثنتان؟ الذي ورد في حديث ابن مسعود (**جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع**... الحديث) خمسة أصابع، وفي حديث تقليب القلب ذكر إصبعين، فنثبت هذا العدد لأنه ورد. ونقول: "آمنا بما جاء عن الله على مراد الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله "، ونسكت عن تحديد ذلك، ونقول: الله أعلم. ويسعنا ما وسع من قبلنا من ترك تحديد العدد مع إثبات ما ورد.

قال العلامة العثيمين كما في فتاوى الحرم النبوي: ومنا الآن طلاب علم إذا مروا بصفة من صفات الله جعلوا يمزقونها، ليس ينكروها، لكن يتنطعون ويتعمقون فيها، حتى أصبحوا ممثلين للرب عز وجل بالخلق، يبحث معك، يقول: إن لله أصابع، حقًا أن لله أصابع؟ وما هي الأصابع؟ يقول لك: كم الأصابع؟ له أظفار؟ له فواصل؟ وما أشبه ذلك، هذا حرام، مسائل الصفات آمِن بها على ما جاءت ولا تسأل، إن سألت هلكت. وانظروا إلى الأئمة رحمهم الله! قال رجل للإمام مالك: يا أبا عبد الله ! الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه:٥] كيف استوى؟ سائل يسأل: كيف الاستواء؟ وما سأل عن المعنى، لو قال: ما معنى

استوى؟ أجيب، لكن: كيف استوى؟ وهل أنت مطالب بأن تسأل عن الكيفية؟ أبدًا، أطرق مالك رَحِمَهُ اللَّهُ وهو في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام برأسه حتى قام يتصبب عرقًا من ثقل السؤال على نفسه، ثم رفع رأسه وقال: يا هذا! الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. كلمات من نور -ما شاء الله- يوفق الله من يشاء، ويتفضل عليه بالكلمات التي تكون نبراسًا للمسلمين. يروي بعض العلماء هذا الكلام فيقول: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. لكن اللفظ ما سقناه أولًا. (الاستواء غير مجهول) وغير المجهول معناه معلوم. (والكيف غير معقول) يعني: أننا لا ندركه بعقولنا، وكيف ندرك كيفية صفة من صفات الله بالعقل والله عَزَّ وَجَلَّ يقول في الحس: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ [الأنعام:١٠٣]؟ ولذلك فكل ما بالحس سهل، حتى أبلد من في العالم يدرك بالحس، فالذي لا يدرك بالحس، بمعنى: لا تدركه الأبصار لا تحيط به، لا يدرك بالعقل، بمعنى: أننا لا نعلم كيفيات صفاته أبدًا. (والإيمان به واجب) الإيمان بالاستواء واجب؛ لأن الله تعالى أثبته لنفسه، وما أثبته لنفسه وجب علينا أن نسلم به وأن نثبته. (والسؤال عنه بدعة) السؤال عن ماذا؟ عن الكيفية، لا عن المعنى؛ لأن المعنى يقول: غير مجهول، أي: معروف، لكن السؤال عن الكيفية بدعة، ولماذا كان بدعة؟ نقول: كان بدعة لوجهين: الوجه الأول: أن الصحابة لم يسألوا عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونحن نعلم أن الصحابة أحرص منا على معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ، ويجيبهم من؟ الرسول عليه الصلاة والسلام الذي هو أعلم الخلق بالله، فالسبب والمقتضي موجود، وانتفاء المانع موجود، ومع ذلك ما سألوا الرسول؛ لأنهم يعلمون أن عقولنا أقصر وأحقر من أن تدرك كيفية صفة الله، آمنوا بالاستواء ولم

يسألوا عنه، وسبحان الله! الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يسألون عنه وأنت تأتي في آخر الزمان تسأل عنه؟! أأنت أعلم بالله منهم؟! أأنت أشد تعظيمًا لله منهم؟! أأنت أشد حبًا لله منهم؟! كلا. الوجه الثاني: أن السؤال عن كيفية صفات الله من سمات أهل البدع وعلاماتهم، فأهل البدع هم الذين يسألون عن الكيفيات ليحرجوا المثبتين، وتعرفون أن في الصدر الأول من هذه الأمة ولا زال خلاف في صفات الله، انقسم الناس فيها إلى ستة أقسام ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في آخر الفتوى الحموية، من شاء أن يرجع إليها فليرجع، لكن أهل البدع يأتون لأهل الإثبات فيقولون: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه:٥] كيف استوى؟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ [المائدة:٦٤] كيف اليدان؟ كيف البسط؟ لكي يتوقف الإنسان لأنه لا يعرف هذا، فيتوقف فيقال: إذًا ليس عندك علم، لست كفؤًا لأن تسأل عن صفات الله فيوقعونك في إحراج. ولكن ذكر بعض أهل السنة كلامًا جيدًا جدًا ومفحمًا، قال: إذا قال لك الجهمي: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فكيف ينزل؟ فقل له: إن الله أخبرنا أنه ينزل ولم يخبرنا كيف ينزل. سبحان الله! كلام مضبوط واضح: أخبرنا أنه ينزل ولم يخبرنا كيف ينزل، أخبرنا أن له يدين ولم يخبرنا كيف اليدان، أخبرنا أنه خلق آدم بيديه كما قال تعالى لإبليس: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ولكن لو جاء إنسان يسأل: كيف خلقه بيدين؟ يجب علينا أن نقول: إن الله أخبرنا أنه خلقه بيده، ولم يخبرنا كيف خلقه، ولا كيف يده، وهذه أمور غيبية يجب علينا أن نقتصر فيها على ما جاء به النص، ولهذا أسلم طريقة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته هي طريقة السلف الصالح، الذين هم أهل السنة والجماعة، أما غيرهم من الطرق فإنها كلها فاسدة، لما يلزم فيها من اللوازم الباطلة لو لم يكن فيها إلا مخالفة ظاهر الكتاب

والسنة ومخالفة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأن الصحابة مجمعون، على إثبات النصوص كما هي، فإذا قال قائل: ما دليلك على أنهم مجمعون على النصوص كما هي؟ قلنا: لأن القرآن نزل بلغة العرب، وأعرب العرب الصحابة، نزل القرآن بلغتهم، ولم يأت حرفٌ واحدٌ منهم يفسر القرآن بخلاف ظاهره فيما يتعلق بصفات الله، إذًا: فهم مجمعون عليها، ولا يحتاج أن نقول هذا النقل، ولعلنا توسعنا قليلًا ولا حرج إن شاء الله. إذًا: نقول: إن الله سبحانه وتعالى إذا فسر القرآن بشيء أخذنا به، وإذا فسره الرسول بشيء أخذنا به، وإذا فسره علماء الصحابة بشيء أخذنا به، وإذا فسره أئمة التابعين الذين تلقوا علم التفسير عن الصحابة أخذنا به، وما عدا ذلك فليس بحجة.

(باب صفة العلم)

العلم صفة ذاتية ثابتة لله عَزَّ وَجَلَّ بالكتاب والسنة، ومن أسمائه (العليم) .

اعلم رحمني الله وإياك أن العلم بأن الله تعالى يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، هو المرتبة الأولى من مراتب القدر، والأدلة النقلية والعقلية في إثبات صفة العلم لا تحصى، وقد قال تعالى في شأن من شك في صفة العلم (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) فهؤلاء حصل منهم شك في صفة العلم، فظنوا أن الله لا يعلم كثيرا من أعمالهم، فترتب على هذا الظن الفاسد والاعتقاد الباطل ترديهم في مهاوي الباطل وأودية الضلال، فكيف إذا بمن عنده شك في جميع الصفات أو غالبها؟!.

روى البخاري (٤٨١٦، ٤٨١٧، ٧٥٢١) ومسلم (٢٧٧٥) في صحيحيهما عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم) الآية: كان رجلان من قريش وختن لهما من ثقيف أو رجلان من ثقيف وختن لهما من قريش في بيت، فقال بعضهم: أترون أن الله يسمع حديثنا؟، قال بعضهم: يسمع بعضه، وقال بعضهم: لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله، فأنزلت: وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم)

وفي رواية، قال: (اجتمع عند البيت ثلاثة نفر، قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟، وقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا؟، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله ؟: ؟ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم).

مسألة: في حقيقة العلم في المستقبل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فصل في مسألة العلم: الناس المنتسبون إلى الإسلام في علم الله باعتبار تعلقه بالمستقبل على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يعلم المستقبلات بعلم قديم لازم لذاته ولا يتجدد له عند وجود المعلومات نعت ولا صفة وإنما يتجدد مجرد التعلق بين العلم والمعلوم وهذا قول طائفة من الصفاتية من الكلابية والأشعرية ومن وافقهم من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة وهو قول طوائف من المعتزلة وغيرهم من نفاة الصفات لكن هؤلاء يقولون يعلم المستقبلات ويتجدد التعلق بين العالم والمعلوم لا بين العلم والمعلوم، وقد تنازع الأولون هل له علم واحد أو علوم متعددة على قولين والأول قول

الأشعري وأكثر أصحابه والقاضي أبي يعلى وأتباعه ونحو هؤلاء والثاني قول أبي سهل الصعلوكي.

والقول الثاني: أنه لا يعلم المحدثات إلا بعد حدوثها وهذا أصل قول القدرية الذين يقولون لم يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها وأن الأمر أنف لم يسبق القد ربشقاوة ولا سعادة وهم غلاة القدرية الذين حدثوا في زمان ابن عمر وتبرأ منهم وقد نص الأئمة كمالك والشافعي وأحمد على تكفير قائل هذه المقالة .....

والقول الثالث: أنه يعلمها قبل حدوثها ويعلمها بعلم آخر حين وجودها وهذا قد حكاه المتكلمون كأبي المعالي عن جهم فقالوا إنه ذهب إلى إثبات علوم حادثة لله تعالى وقال البارىء عالم لنفسه وقد كان في الأزل عالما بنفسه وبما سيكون فإذا خلق العالم وتجددت المعلومات أحدث لنفسه علوما بها يعلم المعلومات الحادثة ثم العلوم تتعاقب حسب تعاقب المعلومات في وقوعها متقدمة عليها أي العلوم متقدمة على الحوادث وذكروا أنه قال إنها في غير محل نظير ما قالت المعتزلة البصرية في الإرادة، وهذا القول وإن كان قد احتج عليه بما في القرآن من قوله: {ليعلم} فتلك النصوص لا تدل على هذا القول، فإن هذا القول مضمونة تجدد علم قبل الحدوث والذي في القرآن إنما ذكروا دلالته على ما بعد الوجود وهذا قولان متغايران وإنما يحتج عليه بمثل قوله في حديث أبرص وأقرع وأعمى بدا الله أن يبتليهم وليس هذا بداء يخالف العلم القديم كما قاله بعض غلاة الرافضة وكذلك أبو الحسين البصري قال بإثبات علوم متجددة في ذات الله بحسب تجدد المعلومات وكذلك أبو البركات صاحب المعتبر الإمام في الفلسفة قال بتجدد علوم وإرادات له وذكر أن إلهيته

لهذا العالم لا تصح إلا مع هذا القول وكذلك أبو عبدالله الرازي يميل إلى هذا القول في المطالب العالية وغيره ...) رسالة في تحقيق علم الله (جامع الرسائل) (١/ ١٧٧ - ١٧٩).

وقال في درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢١٢) وإن أراد بذلك –أي ابن سينا– أنه يعلم الأشياء بعد وجودها فلا ريب أنه يعلم ما يكون قبل أن يكون ثم إذا كان: فهل يتجدد له علم آخر ؟ أم علمه به معدوما هو علمه به موجودا ؟ هذا فيه نزاع بين النظار وأي القولين كان صحيحا حصل به الجواب، وإذا قال قائل: القول الأول هو الذي يدل عليه صريح المعقول والثاني باطل والإشكال يلزم على الأول

قيل له: وإذا كان هو الذي يدل عليه صريح المعقول فهو الذي يدل عليه صحيح المنقول وعليه دل القرآن في أكثر من عشرة مواضع وهو الذي جاءت به الآثار عن السلف.اهـ.

وقال مجموع الفتاوى (٨/ ٤٩٦): وأما قوله تعالى: {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه} . وقوله: {لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا} ونحو ذلك فهذا هو العلم الذي يتعلق بالمعلوم بعد وجوده، وهو العلم الذي يترتب عليه المدح والذم والثواب والعقاب والأول هو العلم بأنه سيكون ومجرد ذلك العلم لا يترتب عليه مدح ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب فإن هذا إنما يكون بعد وجود الأفعال وقد روي عن ابن عباس أنه قال في هذا: لنرى، وكذلك المفسرون قالوا: لنعلمه موجودا بعد أن كنا نعلم أنه سيكون وهذا المتجدد فيه قولان مشهوران للنظار: منهم من يقول: المتجدد هو نسبة وإضافة بين العلم والمعلوم فقط وتلك نسبة عدمية

ومنهم من يقول: بل المتجدد علم بكون الشيء ووجوده وهذا العلم غير العلم بأنه سيكون وهذا كما في قوله: {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} فقد أخبر بتجدد الرؤية فقيل نسبة عدمية وقيل المتجدد أمر ثبوتي والكلام على القولين ومن قال هذا وهذا وحجج الفريقين قد بسطت في موضع آخر وعامة السلف وأئمة السنة والحديث على أن المتجدد أمر ثبوتي كما دل عليه النص وهذا مما هجر أحمد بن حنبل الحارث المحاسبي على نفيه فإنه كان يقول بقول ابن كلاب فر من تجدد أمر ثبوتي وقال بلوازم ذلك، فخالف من نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف ما أوجب ظهور بدعة اقتضت أن يهجره الإمام أحمد ويحذر منه وقد قيل: إن الحارث رجع عن ذلك والمتأخرون من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة على قولين: منهم من سلك طريقة ابن كلاب وأتباعه ومنهم من سلك طريقة أئمة السنة والحديث؛ وهذا مبسوط في موضعه والمقصود هنا: أن تقدم علم الله وكتابته لأعمال العباد حق والقول بحدوث ذلك قول مهجور كما قاله الناظم إن كان قد أراد ذلك وليس في ذلك ما ينافي أمر الله ونهيه فإن كونه خالقا لأفعال العباد لا ينافي الأمر والنهي فكيف العلم المتقدم وليس في ذلك ما يقتضي كون العبد مجبورا لا قدرة له ولا فعل كما تقوله الجهمية المجبرة.اهـ.

وقال مجموع الفتاوى أيضا (١٦/ ٣٠٤): ... ثم الكلام في علمه بما يفعله هل هو العلم المتقدم بما سيفعله وعلمه بأن قد فعله هل هو الأول فيه قولان معروفان والعقل والقرآن يدل - كذا في الأصل - على أنه قدر زائد كما قال {لنعلم} في بضعة عشر موضعا.اهـ.

ولتوضيح كلام شيخ الإسلام نقول: أن الأشاعرة وغيرهم من أهل البدع

يقولون بنفي حلول الحوادث بذات الله تعالى، أي نفي ما يتعلق بالله من الصفات الفعلية والاختيارية التي تقوم بذاته، وهذا قالوه بناء على دليل حدوث الأجسام، وأن ما حلت به الحوادث فهو حادث.

ثم إن الأشاعرة مع قولهم بهذا وتقريرهم له أثبتوا لله الصفات السبع، فوجدوا أن هذه الصفات- ما عدا صفة الحياة- يلزم من إثباتها حلول الحوادث بالله، لأنه مع وجود المخلوقات توجد معلومات ومرادات ومسموعات ومبصرات، ومقدرات، وكذا إذا كلم بعض رسله أو أوحى اليهم، وصلة هذه بالله تعالى.

يلزم منها ما يسمونه بحلول الحوادث بالله تعالى، لأن علم الله بالشيء بعد وجوده ليس هو نفس علمه قبل وجوده، لم يتجدد له فيه نعت ولا صفة، وإلا صار جهلا، وهكذا بقية الصفات.

فالأشاعرة حلوا هذه المعضلة-بزعمهم- بأن قالوا بأزلية هذه الصفات، وأنها لازمة لذات الله أزلا وأبدا، وقالوا إنه لا يتجدد لله عند وجود هذه الموجودات نعت ولا صفة، وإنما يتجدد مجرد التعلق بين العلم والمعلوم فقط.

وهؤلاء قد خالفوا المعقول والمنقول، لأن العلم بالشيء بعد وجوده ليس كالعلم به قبل وجوده، وقد ذكر الله تعالى علمه بما يكون في بضعة عشر موضعا، مع أنه تعالى قد أخبر أن علمه قد أحاط بكل شيء قبل كونه.

يقول شيخ الإسلام موضحا الخلاف في علم الله وتعلقه بالمستقبل: "الناس المنتسبون إلى الإسلام في علم الله باعتبار تعلقه بالمستقبل على ثلاثة أقوال:

وهذا قول طائفة من الصفاتية من الكلابية والأشعرية، ومن وافقهم من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وأبي

حنيفة، وهو قول طوائف من المعتزلة وغيرهم من نفاة الصفات، لكن هؤلاء يقولون: يعلم المستقبلات ويتجدد التعلق بين العالم والمعلوم، لا بين العلم والمعلوم.

وقد تنازع الأولون: هل له علم واحد أو علوم متعددة؟ على قولين:

والأول قول الأشعري وأكثر أصحابه، والقاضي أبي يعلى وأتباعه، ونحو هؤلاء.

والثاني قول أبي سهل الصعلوكي.

والقول الثاني: أنه لا يعلم المحدثات إلا بعد حدوثها، وهذا أصل قول القدرية الذين يقولون: لم يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها وأن الأمر أنف، لم يسبق القدر لا شقاوة ولا سعادة، وهم غلاة القدرية ... .

والقول الثالث: أنه يعلمها قبل حدوثها، ويعلمها بعلم آخر حين وجودها". وهذا قول السلف، وهو قول أبي البركات صاحب المعتبر من الفلاسفة، وقول الرازي في المطالب العالية، وهو مخالف لما ينسب إلى الجهم الذي يقول بتجدد علم قبل الحدوث، والذي في القرآن أن التجدد يكون بعد الوجو، يقول شيخ الإسلام: "لا ريب أنه يعلم ما يكون قبل أن يكون، ثم إذا كان: فهل يتجدد له علم آخر؟ أم علمه به معدوما هو علمه به موجودا؟

هذا فيه نزاع بين النظار" ثم قال عن القول الأول- وهو أنه يتجدد له علم آخر- "واذا كان هو الذي يدل عليه صريح المعقول، فهو الذي يدل عليه صحيح المنقول، وعليه دل القرآن في أكثر من عشر مواضع، وهو الذي جاءت به الآثار عن السلف " .

فقول الأشاعرة إنه لا يتجدد له عند وجود المعلومات نعت ولا صفة هذا

بناء على نفيهم لحلول الحوادث، لأنه يلزم من ذلك التغير في ذات الله، وقد ذكر شيخ الاسلام الرد على المنطقيين (ص٤٦٣): أن "التغير" من حجج الفلاسفة على نفي علم الله وأنهم قالوا: "العلم بالمتغيرات يستلزم أن يكون علمه بأن الشيء سيكون غير علمه بأنه قد كان، فيلزم أن يكون محلا للحوادث"، قال شيخ الإسلام: "وهم ليس لهم على نفي هذه اللوازم حجة أصلا- لا بينة ولا شبهة- وإنما نفوه لنفيهم الصفات، لا لأمر يختص بذلك" ثم قال: "بخلاف من نفي ذلك [أي التغير] من الكلابية ونحوهم، فإنهم لما اعتقدوا أن القديم لا تقوم به الحوادث قالوا:

لأنها لو قامت به لم يخل منها، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث"، ثم بين شيخ الاسلام أن الرازي والآمدي بينا فساد المقدمة الأولى- وهي أنه لو قامت به الحوادث لم يخل منها- وأن الفلاسفة وكثيرا من النظار منعوا المقدمة الثانية المبنية على منع حوادث لا أول لها، وقالوا إن القديم تحله الحوادث، وجوزوا حوادث لا أول لها.

أما شبهة التغير في مسألة العلم- التي جاء بها الفلاسفة- المبنية على المقدمتين السابقتين: ما قامت به الحوادث لم يخل منها- وما لم يخل من الحوادث فهو حادث- فللنظار في جوابها طريقان:

أحدهما: منع المقدمة الأولى بالنسبة للعلم وأنه لا يلزم منه حلول الحوادث، وهذا قول الأشاعرة الذين قالوا: "إن العلم بأن الشيء سيكون هو عين العلم بأنه قد كان، وأن المتجدد إنما هو نسبته بين المعلوم والعلم، لا أمر ثبوتي".

والثاني: منع المقدمة الثانية، وهي أن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث،

فهؤلاء قالوا: "لا محذور في هذا، وإنما المحذور في أن لا يعلم الشيء حتى يكون، فإن هذا يستلزم أنه لم يكن عالما، وأنه أحدث بلا علم، وهذا قول باطل"، وهذا قول هشام بن الحكم وابن كرام والرازي وطوائف غير هؤلاء.

ومما سبق يتبين حقيقة الخلاف، وعلاقته بمسألة حلول الحوادث التي جعل الأشاعرة منعها أحد أصولهم التي لا يتنازلون عنها، ومما سبق أيضا يتبين المذهب الحق في ذلك، وأن الله يعلم الشيء كائنا بعد وجوده مع علمه السابق به قبل وجوده، وأن علمه الثاني والأول ليس واحدا، وهذا هو الذي دل عليه القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: "وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ" [البقرة: ١٤٣] وقوله: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ" [آل عمران: ١٤٢]، وقوله: وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ" [آل عمران: ١٤٠]، وقوله: "وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ"- إلى قوله "وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ [العنكبوت: ٣-١١] وقوله: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ" [محمد: ٣١]، وغيرها.

يقول شيخ الإسلام حول هذه الآيات: "وعامة من يستشكل الآيات الواردة في هذا المعنى، كقوله: "إِلَّا لِنَعْلَمَ" و"حَتَّى نَعْلَمَ"، يتوهم أن هذا ينفي علمه السابق بأن سيكون، وهذا جهل؛ فإن القرآن قد أخبر بأنه يعلم ما سيكون في غير موضع، بل أبلغ من ذلك أنه قدر مقادير الخلائق كلها، وكتب ذلك قبل أن يخلقها، فقد علم ما سيخلقه علما مفصلا، وكتب ذلك، وأخبر بما أخبر به من ذلك قبل أن يكون، وقد أخبر بعلمه المتقدم على وجوه، ثم لما خلقه علمه كائنا

مع علمه الذي تقدم أنه سيكون، فهذا هو الكمال، وبذلك

جاء القرآن في غير موضع، بل وإثبات رؤية الرب له بعد وجوده، كما قال تعالى: "وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ" [التوبة: ١٠٥]، فأخبر أنه سيرى أعمالهم ... " .

ثم ذكر شيخ الإسلام أقوال المفسرين في قوله "إِلَّا لِنَعْلَمَ" [البقرة: ١٤٣] فقال: "وروى عن ابن عباس في قوله: "إِلَّا لِنَعْلَمَ" أي لنرى، وروى لنميز وهكذا قال عامة المفسرين: إلا لنرى ونميز، وكذلك قال جماعة من أهل العلم، قالوا: لنعلمه موجودا واقعا بعد أن كان قد علم أنه سيكون، ولفظ بعضهم قال: العلم على منزلتين: علم بالشيء قبل وجوده، وعلم به بعد وجوده، والحكم للعلم به بعد وجوده لأنه يوجب الثواب والعقاب، قال فمعنى قوله "إِلَّا لِنَعْلَمَ" أي لنعلم العلم الذي يستحق به العامل الثواب والعقاب، ولا ريب أنه كان عالما سبحانه بأنه سيكون، لكن لم يكن المعلوم قد وجد، وهذا كقوله: "قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ" [يونس: ١٨]، أي بما لم يوجد، فإنه لو وجد لعلمه، فعلمه بأنه موجود ووجوده متلازمان، يلزم من ثبوت أحدهما ثبوت الآخر، ومن انتفائه انتفاؤه".

فالعقل والقرآن يدلان على أن علمه تعالى بالشيء بعد فعله قدر زائد عن العلم الأول، وتسمية ذلك تغيرا أو حلولا لا يمنع من القول به ما دام دالا على الكمال لله تعالى من غير نقص، وما دامت أدلة الكتابه والسنة تعضده. موقف ابن تيمية من الأشاعرة (ص٣/ ١٠٥٣).

مسألة: في معنى قوله تعالى (إلا لنعلم) الوارد في أيات منها {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ} وقوله: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ

الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} ونحوهما.

وقال شيخ الإسلام في الرد على المنطقيين (٤٦٧): عامة من يستشكل الآيات الواردة في هذا المعنى كقوله: {إلا لنعلم} {حتى نعلم} يتوهم أن هذا ينفي علمه السابق بأن سيكون وهذا جهل فإن القرآن قد أخبر بأنه يعلم ما سيكون في غير موضع بل أبلغ من ذلك أنه قدر مقادير الخلائق كلها وكتب ذلك قبل أن يخلقها فقد علم ما سيخلقه علما مفصلا وكتب ذلك وأخبر بما أخبر به من ذلك قبل أن يكون وقد أخبر بعلمه المتقدم على وجوده ثم لما خلقه علمه كائنا مع علمه الذي تقدم أنه سيكون فهذا هو الكمال وبذلك جاء القران في غير موضع بل وبإثبات رؤية الرب له بعد وجوده كما قال تعالى: {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} التوبة فأخبر انه سيرى أعمالهم.

وقد دل الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ودلائل العقل على أنه سميع بصير والسمع والبصر لا يتعلق بالمعدوم فإذا خلق الأشياء رآها سبحانه وإذا دعاه عباده سمع دعاءهم وسمع نجواهم كما قال تعالى: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما} المجادلة أي تشتكي إليه وهو يسمع التحاور والتحاور تراجع الكلام بينها وبين الرسول قالت عائشة:سبحان الذي وسع سمعه الأصوات لقد كانت المجادلة تشتكي إلى النبي ﷺ في جانب البيت وإنه ليخفي على بعض كلامها فأنزل الله {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما} وكما قال تعالى لموسى وهارون {لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} طه وقال {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} الزخرف

وقد ذكر الله علمه بما سيكون بعد أن يكون في بضعة عشر موضعا في القران

مع إخباره في مواضع أكثر من ذلك انه يعلم ما يكون قبل أن يكون وقد اخبر في القرآن من المستقبلات التي لم تكن بعد بما شاء الله بل اخبر بذلك نبيه وغير نبيه ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء بل هو سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لو كان كيف كان يكون كقوله: {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه} الأنعام بل وقد يعلم بعض عباده بما شاء أن يعلمه من هذا وهذا وهذا {ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء}

قال تعالى: {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه} البقرة وقال {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جهدوا منكم ويعلم الصابرين} آل عمران وقوله: {وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين امنوا ويتخذ منكم شهداء} آل عمران وقوله: {وما أصابكم يوم التقي الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا} آل عمران وقوله: {أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة} التوبة وقوله: {ثم بعثناهم لنعلم أي الحز بين أحصى لما لبثوا أمدا} الكهف وقوله: {ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} إلى قوله: {وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين} العنكبوت وقوله: {ولنبلونكم حتى نعلم المجهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم} محمد وغير ذلك من المواضع.

روى عن ابن عباس في قوله: {إلا لنعلم} أي لنرى وروي لنميز وهكذا قال عامة المفسرين إلا لنرى ونميز وكذلك قال جماعة من أهل العلم قالوا لنعلمه موجودا واقعا بعد أن كان قد علم أنه سيكون.

ولفظ بعضهم قال: العلم على منزلتين علم بالشيء قبل وجوده وعلم به بعد

وجوده والحكم للعلم به بعد وجوده؛ لأنه يوجب الثواب والعقاب.

قال فمعنى قوله: {لنعلم} أي لنعلم العلم الذي يستحق به العامل الثواب والعقاب ولا ريب أنه كان عالما سبحانه بأنه سيكون لكن لم يكن المعلوم قد وجد وهذا كقوله: {قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض} يونس أي بما لم يوجد فإنه لو وجد لعلمه فعلمه بأنه موجود ووجوده متلازمان يلزم من ثبوت أحدهما ثبوت الآخر ومن انتفائه انتفاؤه والكلام على هذا مبسوط في موضع آخر.اهـ.

وقال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان: عند قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ} "معنى قوله تعالى: {إِلَّا لِنَعْلَمَ}؛ أي علما يترتب عليه الثواب والعقاب، فلا ينافي كونه عالما به قبل وقوعه. وقد أشار تعالى إلى أنه لايستفيد بالاختبار علما جديدا؛ لأنه عالم بما سيكون حيث قال تعالى: {وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ١؛ فقوله: {وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} بعد قوله: {وَلِيَبْتَلِيَ} دليل على أنه لايفيده الاختبار علما لم يكن يعلمه سبحانه وتعالى عن ذلك، بل هو تعالى عالم بكلّ ما سيعمله خلقه، وعالم بكلّ شيء قبل وقوعه، كما لاخلاف فيه بين المسلمين {لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ} الآية..اهـ.

وقال العلامة العثيمين في تفسير الكهف: وقوله: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا}، قد يقع فيه إشكال؟ هو: هل الله لا يعلم قبل ذلك؟

الجواب: لا، واعلم أن هذه العبارة يراد بها شيئان:

١- علم رؤية وظهور ومشاهدة، أي لنرى، ومعلوم أن علم ما سيكون ليس كعلم ما كان؛ لأن علم الله بالشيء قبل وقوعه علمٌ بأنه سيقع، ولكن بعد وقوعه علمٌ بأنه وقع.

٢- أن العلم الذي يترتب عليه الجزاء هو المراد، أي لنعلم علمًا يترتب عليه الجزاء وذلك كقوله تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ) (محمد: من الآية٣١) . قبل أن يبتلينا قد علم من هو المطيع ومن هو العاصي، ولكن هذا لا يترتب عليه لا الجزاء ولا الثواب، فصار المعنى لنعلم علم ظهور ومشاهدة وليس علم الظهور والمشاهدة كعلم ما سيكون، والثاني علمًا يترتب عليه الجزاء.

أما تحقق وقوع المعلوم بالنسبة لله فلا فرق بين ما علم أنه يقع وما علم أنه وقع، كلٌّ سواء، وأما بالنسبة لنا صحيح أنَّا نعلم ما سيقع في خبر الصادق لكن ليس علمنا بذلك كعلمنا به إذا شاهدناه بأعيننا، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: "ليس الخبر كالمعاينة".اهـ.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (ص٧٥): قال (خلق الخلق بعلمه) هو سبحانه خلق المخلوقات عالما بها غير جاهل بما هي عليه ومتى يؤول إليه أمرها، وأورد هذه الجملة الطحاوي مخالفا أهل الاعتزال الذين لا يجعلون العلم مصاحبا لصفات الله - ﷻ - ولأفعاله، وعلم الله سبحانه وتعالى صفة ملازمة، هو سبحانه وتعالى عالم بعلم، وخالق بعلم، وقادر بعلم، ورحيم بعلم، يرحم من يشاء عن علم، وهذا العلم صفته ﷻ الملازمة له لا تنفك عنه، وعلمه سبحانه أول، قبل خلق الخلق كان عالما، بما يصلح لهم وما تقتضيه حكمته فيهم.

لهذا قال (خلق الخلق بعلمه) ففي هذا رد على المعتزلة من جهة الصفات، وفيه رد أيضا على القدرية - أعني بهم الذين ينفون علم الله السابق، القدرية الغلاة نفاة القدر - الذين يقولون إن العلم حدث بعد وجود الأشياء فهو سبحانه علم بعد وقوع الأشياء، فخلق الخلق ففعل الناس فعلم ﷻ ذلك.

واستدلوا على هذه النحلة بقوله ﷻ {ليعلم الله من يخافه بالغيب} [المائدة:٩٤]، وبقوله ﷻ في تحويل القبلة {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه} [البقرة:١٤٣]، ونحو ذلك من الآيات التي فيها تعليل بعض الأحكام الكونية أو الأحكام الشرعية وحصول الأشياء بأن يعلم الله ﷻ ذلك.

قال ﷻ في هذه الآية {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم} .

فزعموا أن هذه الآيات وأشباه هذه الآيات تدل على أنه ﷻ لا يعلم الأشياء إلا بعد أن تقع.

وأهل السنة مثبتون لعلم الله ﷻ الكلي بالأشياء ولعلم الله ﷻ التفصيلي بأجزاء الأشياء وحوادثها المفردات.

وإذا علل شيء في القرآن أو في السنة لكي يعلم الله ﷻ ذلك الشيء فإن معناه عندهم - بما دلت عليه الأدلة - معناه حتى يظهر علم الله في الأشياء في هذه الأمور ليقع حسابه وليقع تعذيبه أو تنعيمه أو نحو ذلك، يعني إظهار ما تنقطع به الحجة.

فقوله سبحانه {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه} يعني إلا ليظهر علمنا فيمن اتبع الرسول ممن انقلب على عقبيه؛ لأن الله ﷻ لو آخذ العباد، وآخذهم وحاسبهم على علمه السابق

فيهم لكان لهم حجة، فهو سبحانه جعل هذه الأشياء مع علمه السابق بما سيفعله العباد لكي يظهر علمه فيهم.

فجاء إذا هنا (لكي) في قوله (لنعلم) حتى يظهر العلم فيكون ذلك حجة على الناس.

وهذا ظاهر بين أن علم الله سبحانه وتعالى للأشياء قبل وقوعها.

(باب صفة السمع)

اعلم رحمني الله وإياك أن السمع صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله ﷻ بالكتاب والسنة، و(السميع) من أسمائه تعالى، وهو سمع يليق بجلال الله وعظمته لا يماثل شيئًا من سمع المخلوقين، والاتفاق في الأسماء لا يستلزم الاتفاق في المسمى، والصفة تختلف كيفيتها باختلاف من أضيفت إليه، فإن أضيفت إلى الخالق صارت لائقة بجلاله وعز كبريائه وإن أضيفت إلى المخلوق صارت مناسبة لضعفه وعجزه وحاله ومجرد الاتفاق في الاسم الكلي المطلق لا يستلزم الاتفاق بعد الإضافة والتقييد والتخصيص فالله له السمع المطلق الشامل لكل مسموع، فلا يخفى على سمعه جل وعلا شيء في الأرض ولا في السماء، والجهر والنجوى عنده سواء جل وعز كما قال تعالى " أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون " وقال " إنني معكما أسمع وأرى " وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا " الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات " رواه البخاري تعليقًا، وفي الحديث " إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال .... الحديث متفق عليه .

قال البغوي في شرح السنة (٤/ ٤٨٤): قوله: (ما أَذِنَ الله لشيءٍ كأَذَنِه) يعني: ما استمع الله لشيء كاستماعه، والله لا يشغله سمع عن سمع، يقال: أَذِنْتُ

للشيء آذَنُ أَذَنًا بفتح الذال إذا سمعت له.اهـ.

وقال الخطابي في غريب الحديث (٣/ ٢٥٦): قوله (ما أَذِنَ الله لشيءٍ كأَذَنِه لنبي يتغنى بالقرآن) الألف والذال مفتوحتان، مصدر أَذِنْتُ للشيء أذنًا إذا استمعت له، ومن قال (كإذنه) فقد وهم.اهـ.

وقال الإسماعيلي في كتابه اعتقاد أئمة أهل الحديث (ص٥٥): ويثبتون أن له وجها وسمعا.اهـ.

وقال الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص٥): وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع والبصر . . .اهـ.

وقال الأشعري في رسالة الثغر (ص٦٦): وأجمعوا على أنه تعالى لم يزل موجودا حيًّا قادرا عالما مريدا سميعا بصيرا.اهـ.

وقال ابن كثير في فضائل القرآن (ص١١٤-١١٦) بعد أن أورد حديث: (لم يأذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن) قال: ومعناه أنَّ الله تعالى ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك، وهو سبحانه وتعالى يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم؛ كما قال تعالى: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيه) الآية، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ؛ كما دل عليه هذا الحديث العظيم، ومنهم من فسر الأَذَن ها هنا بالأمر، والأَوَّل أولى؛ لقوله (ما أَذِنَ الله لشيءٍ كأَذَنِه لنبي يتغنى بالقرآن) أي:

يجهر به، والأذَن: الاستماع؛ لدلالة السياق عليه.اهـ.

وقال الهرَّاس في شرحه للواسطية (ص١٢٠): أمَّا السَّمْعُ فقد عبَّرت عنه الآيات بكل صيغ الاشتقاق، وهي: سَمِعَ، ويَسْمَعُ، وسَمِيعٌ، وأسْمَعُ، فهو صفة حقيقية لله، يدرك بها الأصوات.

(تنبيه) سَمْعُه تعالى نوعان

النوع الأول: سَمْعُه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفيّة والجليّة، وإحاطته التامّة بها.

النوع الثاني: سَمْعُ الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}، وقول المصلي (سمع الله لمن حمده) أي استجاب.

مسألة: هل نثبت لله صفة الأذن؟

عن سليم بن جبير مولى أبي هريرة، قال: سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها} إلى قوله تعالى: {سميعا بصيرا} [النساء: ٥٨] ويقول: رأيت رسول الله ﷺ يضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه، قال أبو هريرة: رأيت رسول الله ﷺ ﷺ - يقرؤها ويضع إصبعيه، قال ابن يونس: قال المقرئ: يعني: أن الله سميع بصير، يعني: أن لله سمعا وبصرا، قال أبو داود: وهذا رد على الجهمية)[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٨)، وابن خزيمة في التوحيد (ص٤٢-٤٣)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٠)، وابن حبان (٢٦٥)، والطبراني في الأوسط (٩٣٣٤)، والحاكم (١/ ٢٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص١٧٩) والحديث صححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وقوى الحافظ إسناده في الفتح (١٣/ ٣٧٣)، وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود، وكذا صححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند =

هذا الحديث فيه رد على من زعم أنه سميع بصير بمعنى عليم، قال البيهقي في "الأسماء والصفات" ونقله الحافظ في "الفتح" ١٣/ ٣٧٣: والمراد بالإشارة المروية في هذا الخبر تحقيق الوصف لله عز وجل بالسمع والبصر، فأشار إلى محلي السمع والبصر منا، لإثبات صفة السمع والبصر لله تعالى، كما يقال: قبض فلان على مال فلان، ويثار باليد على معنى أنه حاز ماله، وأفاد هذا الخبر أنه سميع بصير له سمع وبصر لا معنى أنه عليم، إذ لو كان بمعنى العلم لأشار في تحقيقه إلى القلب؛ لأنه محل العلوم منا... وذكر نحوه الخطابي في "معالم السنن".اهـ.

اعلم رحمني الله وإياك أنه يجب الوقوف في أسماء الله وصفاته على ما جاءت به نصوص القرآن والسنة لا نزيد على ذلك ولا ننقص منه، فلا نسمي أو نصف الله بما لم يسم أو يصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

وذلك لأنه لا طريق إلى معرفة أسماء الله وصفاته إلا من طريق واحد هو طريق الخبر- أي الكتاب والسنة-.

فلو قال شخص: لله سمع بلا أذنين، وقال آخر: لله سمع بأذنين.

لحكمنا بخطأ الاثنين، لأنه لم يأت ذكر الأذنين في النصوص لا نفيًا ولا إثباتًا، والحق هو أن يقال: لله سمع يليق بجلاله كما جاءت بذلك النصوص، وقد نهانا الله أن نتكلم بغير علم، فقال تعالى: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا} ١ وبالتالي لا يجوز الإثبات أو النفي إلا بالنص.

قال الإمام أحمد كما في الفتوى الحموية (ص٦١): "لا يوصف الله إلا بما

=

مما ليس في الصحيحين (١٢٦٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٧/ ١١٠): إسناده صحيح.

وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والسنة".اهـ.

وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (ص٩٦): "ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصًا في كتاب الله، أو صح عن رسول الله ﷺ، أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له ولا يناظر فيه".اهـ.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعته في العقيدة (٦/ ٢٧١): أقول يا شيخ صفة الأذن لله ﷻ، موقف أهل السنة والجماعة منها؟

الشيخ: أنا ما أدري لماذا أنتم تخالفون السلف في مثل هذه الأسئلة، ما دام القاعدة نحن مؤمنون بها ومتفقون عليها، وهي: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} (الشورى:١١)، لماذا تسألون عن صفة السمع؟ لماذا؟

مداخلة: والله يا شيخ لأنه مر علي حديث أبو هريرة الذي أشار إلى أذنيه وبصره وكذا، وسمعت لأحد العلماء: بأن موقف أهل السنة والجماعة لا ينفون ولا يثبتون هذه الصفة صفة الأذن، فأحببت يعني أن أسمع رأيك.

الشيخ: لا يثبتون ولا ينفون بالرأي، أما ما أثبته النص فهم يثبتونه بدون تكييف، كما جاء أنه أشار ﵇ إلى العين، لكن لا يعني العين هذه كعين رب العالمين، لكنها صفة من صفاته تليق بعظمته وجلاله، فمثل هذه القضايا ما تحتاج أكثر من الإيمان بالنص بدون كيف، فالسلفيون والحمد لله مستريحون من هذه الحيثية، يعني: استراحوا من الإنكار خوفًا من الوقوع في التشبيه، واستراحوا من التشبيه عملًا بالتنزيه.

مداخلة: جزاك الله خيرًا.

الشيخ: تثبت ما أثبته وننفي ما نفاه، ننفى عنه المثلية وانتهى الأمر فإذا أثبت

له صفة أثبتناه، فإذا لم يثبت لا نثبت شيئًا من عقولنا.

مداخلة: ...

الشيخ: ولذلك أنا لا أرى التوسع في مثل هذه القضية، ولو أسئلة وأجوبة؛ لأن هذه الأسئلة والأجوبة جماهير الناس، خاصة الذين لم يُؤَسَّسوا على مبدأ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (الشورى:١١)، يبقى يعيشون في زيغ وفي انحراف.اهـ.

وقال العلامة العثيمين كما في فتاوى نور على الدرب: البعض من الدعاة يقولون بأنه لا ينبغي أن نعلم الناس مسائل توحيد الأسماء والصفات لأنها من المتشابه ولكن إذا حصل إشكال لهم في أي شيءٍ منها أي من الصفات بينا لهم ذلك فما رأي فضيلتكم بارك الله فيكم وفي علمكم؟

فأجاب: أقول: إن الناس في هذا الباب- أي: في باب أسماء الله وصفاته- ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: طرفان ووسط. فطرفٌ يقول مثلما قال هذا السائل عن شخصٍ آخر أنه يقول: لا تبينوا أسماء الله وصفاته؛ لأنها من المتشابه، ولكن إذا سألوا فأجيبوهم. وقسمٌ آخر طرفٌ آخر يقول: بينوا للناس أسماء الله وصفاته، ثم ما يتفرع على هذه الأسماء والصفات من الإشكالات أوردوه عليهم، أو تعمقوا في جانب الإثبات واذكروا كل شيء، حتى إن بعضهم يقول مثلًا: كم أصابع الله؟ كيف استوى على العرش؟ هل لله أذن؟ وما أشبه ذلك من الأمور التي يجب الإعراض عنها؛ لأنها لم تذكر في الكتاب ولا في السنة، ولو كان ذكرها مما تتوقف عليه العقيدة الصحيحة لكان الله يبينها لعباده: إما في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والقسم الثالث وسط يقول: علموا الناس ما يحتاجون إليه في هذا الباب، دون أن تتعمقوا

وتتكلفوا ما لستم مكلفين به. وهذا القول هو الصحيح، هو الراجح، أن نعلم الناس ما يحتاجون إليه، إلى معرفته في هذا الباب، وأن لا نتكلف علم، ما ليس لنا به علم، بل نعرض عنه. فمثلًا: إذا شاع في الناس مذهبٌ يخالف مذهب السلف، فلا بد أن نبين للناس مذهب السلف في هذا الباب، لو شاع في الناس أن اليدين اللتين أثبتهما الله لنفسه هما النعم، يجب علينا أن نبين أن هذا خطأ، وأن اليدين صفتان لله عَزَّوَجَلَّ، أثبتهما الله لنفسه، وبين جل وعلا أن يديه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أن الله يبسط يده بالليل ليتوب المسيء بالنهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب المسيء بالليل) . وأخبر أن يد الله ملأى سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه، وأجمع سلف الأمة على أنهما يدان حقيقيتان ثابتتان لله على وجهٍ يليق به، لكن لا تماثلان أيدي المخلوقين، حتى يزول عن الناس الاعتقاد الذي ليس بصحيح، وهو أنهما النعمتان، هذا لا بد منه. لكن إذا كنا في قومٍ لم يطرأ على بالهم هذا الشيء، ولو دخلنا معهم في مسائل تفصيلية لحصل لهم ارتداد، أو لدخلوا في أمورٍ يتنطعون فيها، فهنا نأخذ بما جاء عن السلف، وخاصةً عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (إنك لن تحدث حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) . وقال عليٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (حدث الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله) ؟ أما التعمق في الصفات، وطلب ما لا يمكن العلم به، فإن هذا من التكلف والبدعة، ولهذا لما قال رجلٌ للإمام مالك: يا أبا عبد الله: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) كيف استوى؟ وكان هذا سؤالًا عظيمًا وقع موقعه في الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، فأطرق برأسه وجعل يتصبب عرقًا، ثم رفع رأسه وقال: (يا هذا! الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال

عنه بدعة) يريد بذلك رَحِمَهُ اللَّهُ أن الاستواء غير مجهول، معروف استوى على كذا يعني: علا عليه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ يعني: علوت عليه وركبت فيه. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني: إذا علوتم عليه راكبين. فاستوى على العرش يعني: علا عليه علوًا يليق بجلاله وعظمته، هذا معنى قوله: الاستواء غير مجهول. والكيف غير معقول، لم يقل رَحِمَهُ اللَّهُ: الكيف غير موجود، بل قال: الكيف غير معقول، يعني: هناك كيفية استوى الله عليها لكن لا ندري، عقولنا لا تدرك ذلك، وشرعنا لم يأتِ بها، الكتاب والسنة ليس فيهما كيفية استواء الله على العرش، وعقولنا لا تدرك هذا، فانتفى عنها الدليلان العقلي والسمعي، فوجب السكوت، فإذا سئلنا: كيف استوى؟ قلنا: الله أعلم الإيمان به واجب أي بالاستواء واجبٌ على ما أراده الله عَزَّوَجَلَّ والسؤال عنه بدعة هذا محل الشاهد من كلامنا، هذا السؤال عن الكيفية بدعة، لماذا؟ لأن الصحابة- وهم أحرص منا على معرفة الله، وأحرص منا على العلم، وإذا سألوا سألوا من هو أعلم منا بالإجابة- لم يسألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يقولوا: يا رسول الله كيف استوى؟ مع أنهم يسألون عن أشياء أدق من هذا، لكنهم يعرفون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن مثل هذه الأمور لا يمكن العلم بها، لذلك لم يسألوا، وإلا فهم يسألون عما هو أدق، كما سنبين إن شاء. الله أيضًا السؤال عنه بدعة: من سمات أهل البدع؛ لأن أهل البدع هم الذين يحرجون أهل السنة في ذكر الكيفية، يقولون: كيف استوى؟ كيف ينزل إلى السماء الدنيا؟ يحرجونهم ليقولوا: استوى على الكيفية الفلانية، أو ينكروا الاستواء، أو يقولوا: نزل على الكيفية الفلانية، أو ينكروا النزول، فهو من سمات أهل البدع، السؤال عن كيفية

الصفات من سمات أهل البدع، ثم إن السؤال عن الكيفية- كيفية الصفات- من التنطع في دين الله، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: (هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون) . أو بما جاءت به النصوص من أمور الغيب، ولا تسأل عما وراء ما ذكر لك؛ لأنك لن تصل إلى شيء، وإذا سألت عما لم يذكر لك من أمور الغيب ربما تكون من الذين يسألون عن أشياء لا حاجة لهم بها، بل أنت منهم، وربما تقع في متاهات تعجز عن التخلص منها. وقولنا: إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يسألون عما دون ذلك، أستدل له بأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذكر أن الدجال يخرج ويمكث في الأرض أربعين يومًا: اليوم الأول كسنة كاملة، يعني: اثني عشر شهرًا، واليوم الثاني كشهر، واليوم الثالث كأسبوع، وبقية أيامه كأيامنا. فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما قال: يوم كسنة، قالوا: يا رسول الله! هذا اليوم الذي كسنة تكفينا فيه صلاةُ يوم واحد؟ قال: (لا، اقدروا له قدره) . فتجدهم أنهم سألوا عن هذا لأنهم مكلفون بالصلوات الخمس في أوقاتها المعلومة، وهذا اليوم سيكون طويلًا، سيكون اثني عشر شهرًا، هل تكفي فيه خمس صلوات؟ لذلك سألوا، فإذا كانوا لم يسألوا الرسول عليه الصلاة والسلام فيما يتعلق بصفات الله فإنهم خير سلفٍ لنا نقتدي بهم، ولا نسأل عن كيفية صفات الله، ولا نسأل أيضًا عما لم يبلغنا علمه من هذه الصفات ولا من غيرها من أمور الغيب، كل أمور الغيب الأدب فيها أن يقتصر الإنسان فيها على ما بلغه، وأن يسكت عما لم يبلغه لأنه لو كان في بيانه خيرٌ لبينه الله ورسوله. وأما قول السائل: لا تخبروا العوام بها؛ لأنها من المتشابه. فنقول له: يا أخي ماذا تريد بالمتشابه؟ إذا كانت صفات الله عَزَّ وَجَلَّ وكانت نصوصه الواردة فيها من المتشابه فماذا يبقى بيانًا؟ آيات الصفات من أبين الآيات، أحاديث الصفات من أبين الأحاديث، وليس

فيها ولله الحمد شك، كلها معناها معلوم، كلها معناها مفهوم بمقتضى اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن، وكيف ينزل الله علينا شيئًا يتعلق بأسمائه وصفاته ونحن نجهله ولا يمكننا الوصول إليه؟ هذا مستحيل فنقول: إن آيات الصفات وأحاديثها من المعلوم، وليست من المتشابه، فهل يشتبه على أحد قول الله تبارك وتعالى: (اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ) فلا يدري ما معنى خلق؟ هل يشتبه على أحد قول الله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) أن معناها نفي المماثلة وإثبات السمع والبصر؟ آيات الصفات وأحاديثها ليست من المتشابه، نعم إن أراد القائل بقوله: من المتشابه، يعني: من الذي يشتبه علينا إدراك كيفيته وحقيقته فهذا صحيح، نحن لا نعلم كيفية ما وصف الله به نفسه وكنهه، لكن معناه واضح، ولولا أن معناه واضح ما استطعنا أن ندعو الله بأسمائه، وقد قال الله تعالى: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) .
فالمهم أن هذه الكلمة التي أطلقها بعض العلماء على آيات الصفات وأحاديثه وقال: إنها من المتشابه، نقول له: إن أردت أنها من المتشابه معنىً فلا، وإن أردت أنها من المتشابه حقيقةً وكنهًا، وأننا لا ندرك كيفيتها ولا حقيقة كنهها فهذا حق، وليس بغريبٍ أن نعلم معنى الشيء ولا ندرك حقيقته وكيفيته، نحن نعلم معنى الروح التي بين جنبينا، والتي إذا انسلت من الجسد مات الإنسان، نعم نعلم هذا، لكن هل ندرك حقيقتها وكيفيتها؟ لا أبدًا، نحن نعلم ما ذكر الله عن الجنة بأن فيها من كل فاكهةٍ زوجين ونخلًا ورمانًا وما أشبه ذلك، ولكن هل نحن ندرك حقيقة ذلك وكنهه؟ لا؛ لأن الله يقول: (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . ويقول الله ﷻ في الحديث القدسي: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على

قلب بشر) . والمهم التنبيه على هذه العبارة المتداولة في كلمة المتشابه بالنسبة لأسماء الله وصفاته، حيث يتوصل بها أهل التعطيل إلى أن نسلك مسلكًا سيئًا في ذلك، بحيث نفوض العلم بمعنى أسماء الله وصفاته، كما زعم بعض المتأخرين أن مذهب السلف هو التفويض، أي: تفويض القول بأسماء الله وصفاته إلى الله، وألا نتكلم بشيءٍ من معناها، وهذا القول بالتفويض على هذا الوجه قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (إنه من شر أقوال أهل البدع والإلحاد) . أما تفويض الحقيقة والكنه فهذا شيء لا بد منه، ولا يضرنا إذا كنا نعلم المعنى، ولكن لا نعلم الكنه والحقيقة التي عليها هذا المسمى والموصوف.

(باب صفة البصر)

اعلم رحمني الله وإياك أن البصر صفةٌ من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ الذاتية الثابتة بالكتاب والسنة، و(البصير): اسم من أسمائه تعالى.

والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة كثيرة.

وأعلم أيضا أن الرؤية كالبصر صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ بالكتاب والسنة.

الدليل من الكتاب:

١- قوله تعالى: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦] .

٢- وقوله: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى} [العلق: ١٤] .

الدليل من السنة:

١- حديث جبريل المشهور وفيه: (... قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك ...)(١).

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم أيضًا (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- قول أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة أحد: ((... لئن الله أشهدني قتال المشركين؛ لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع))(١).

قال قَوَّامُ السُّنَّة الأصبهاني في الحجة (١/ ١٨١): (قال الله تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا}، وقال: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}، وقال: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}، وقال: {وَاصْبِرْ لِحُكمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}؛ فواجب على كل مؤمن أن يثبت من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ ما أثبته الله لنفسه، وليس بمؤمن من ينفي عن الله ما أثبته الله لنفسه في كتابه؛ فرؤية الخالق لا تكون كرؤية المخلوق، وسمع الخالق لا يكون كسمع المخلوق، قال الله تعالى: {فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}، وليس رؤية الله تعالى أعمال بني آدم كرؤية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين، وإن كان اسم الرؤية يقع على الجميع، وقال تعالى: {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ}، جل وتعالى عن أن يشبه صفة شيء من خلقه صفته، أو فعل أحد من خلقه فعله؛ فالله تعالى يرى ما تحت الثرى، وما تحت الأرض السابعة السفلى، وما في السماوات العلى، لا يغيب عن بصره شيء من ذلك ولا يخفي؛ يرى ما في جوف البحار ولججها كما يرى ما في السموات، وبنو آدم يرون ما قرب من أبصارهم، ولا تدرك أبصارهم ما يبعد منهم، لا يدرك بصر أحد من الآدميين ما يكون بينه وبينه حجاب، وقد تتفق الأسامي وتختلف المعاني اهـ.

(فرع): الفرق بين صفة البصر والنظر

النَّظَرُ صفةٌ فعليةٌ خبريَّةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ بالكتاب والسنة.

الدليل من الكتاب:

قوله تعالى: {وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [آل عمران: ٧٧]

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٥)، ورواه مسلم (١٩٠٣) بلفظ: (ليراني الله).

الدليل من السنة:

١- حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إنَّ الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[١]. رواه مسلم (٢٥٦٤).

٢- حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره بطرًا)[٢].

٣- حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم ...)[٣].

وجاء في عدة أحاديث: أن الله لا ينظر إلى من جر ثوبة خيلاء، وأنه لا ينظر إلى المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، وأنه لا ينظر إلى من منع ابن السبيل فضل الماء، ولا إلى رجل حلف على سلعة بعد العصر كاذبا، ولا إلى رجل بايع إماما فإن أعطاه وفي له وإن لم يعطه لم يف له، ولا إلى متبرئ من والديه راغب عنهما، ولا إلى متبرئ من ولده، ولا إلى رجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم، ولا إلى شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر، ولا إلى العاق لوالديه، ولا إلى المرأة المترجلة، ولا إلى الديوث.

فدلت الآية الكريمة والأحاديث الصحيحة على أن الله تعالى ينظر إلى من لم يتصف بشيء مما ذكر في الآية والأحاديث التي أشرنا إليها.

قال ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٩٠): النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه: فإن عدي بنفسه؛ فمعناه:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).
(٢) أخرجه البخاري (٥٧٨٨)، ومسلم (٢٠٨٧).
(٣) أخرجه مسلم (١٠٧).

التوقف والانتظار: {انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} [الحديد: ١٣] . وإن عدي بـ (في)؛ فمعناه: التفكر والاعتبار؛ كقوله: {أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [الأعراف: ١٨٥] . وإنْ عُدي بـ (إلى)؛ فمعناه: المعاينة بالأبصار؛ كقوله تعالى: {انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ} [الأنعام: ٩٩] اهـ.

وأنت ترى أنَّ النظر فيما سبق من أدلة متعدٍّ بـ (إلى)؛ فأهل السنة والجماعة يقولون: إنَّ الله ﷻ يرى ويبصر وينظر إلى ما يشاء بعينه سبحانه وتعالى؛ كما يليق بشأنه العظيم {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} .

الفرق بين صفة البصر والنظر هو أن البصر صفة ذات، أما النظر فهو صفة فعل، ومعلوم أن النظر يصدر من البصر، ولا يقال: إن النظر هو البصر، والبصر من الصفات الذاتية الأزلية التي لا تنفك عن رب العالمين جل وعلا، فهو بصفاته أزلي، وهو كذلك دائم بها، والنظر يتعلق بمشيئته، إذا شاء نظر إلينا، وإذا شاء أعرض عنا تعالى وتقدس.

(باب صفة العينين)

اعلم رحمني الله وإياك، أن الْعَيْنُ صفةٌ ذاتيةٌ خبريَّةٌ ثابتةٌ لله ﷻ بالكتاب والسنة، وأهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله يبصر بعين، كما يعتقدون أن، الله ﷻ له عينان تليقان به؛ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} .

أولا: الأدلة من كتاب الله ﷻ:

قال الله تعالى: "ولتصنع على عيني" [طه:٣٩]، وقال جل ثناؤه: "واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا" [الطور:٤٨]، وقال سبحانه: "تجري بأعيننا" [القمر:١٤].

ففي هذه الآيات الكريمات وغيرها كثير إضافة صفة العين لله ﷻ مفردة

ومجموعة؛ ففهم أهل السنة السنية من هذه الآيات وما شابهها أن لله تعالى عينين اثنتين، ولم يقل أحد من السلف أن لله سبحانه عينا واحدة، أو عدة أعين؛ فـ"ذكر العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة فقط؛ لأن المفرد المضاف يراد به أكثر من واحد؛ مثل قوله تعالى: "وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها"، فالمراد نعم الله المتنوعة التي لا تدخل تحت الحصر والعد. وقوله تعالى: "أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسآئكم" فالمراد بها جميع ليالي رمضان. ولو قال قائل: نظرت بعيني، أو وضعت المنظار على عيني. لا يكاد يخطر ببال أحد ممن سمع هذا الكلام أن هذا القائل ليست له إلا عين واحدة. هذا ما لا يخطر ببال أحد أبدا. قال الإمام ابن القيم: إذا أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهرا، أو مضمرا فالأحسن جمعها مشاكلة للفظ؛ كقوله تعالى: "تجري بأعيننا"، و"فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا"، وهذا نظير المشاكلة في لفظ اليد المضافة إلى المفرد؛ كقوله تعالى: "بيدك الخير"، و"بيده الملك". وإن أضيفت إلى جمع جمعت كقوله تعالى: "مما عملت أيدينا"."الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية" (ص٣١٧-٣١٨).

ومما يجدر التنبيه عليه في هذا الصدد ما وقع فيه ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الخطأ الجسيم في هذا الباب؛ إذ يقول في كتابه "المحلى" (١/ ٣٣): "وأن لله عَزَّ وَجَلَّ عزا وعزة، وجلالا وإكراما، ويدا ويدين وأيديا، ووجها، وعينا وأعينا".

فهذه زلة عظيمة من مثل هذا العالم، لا يتابع عليها، وما حمله على هذا إلا أنه من نفاة الصفات، مع تعظيمه غفر الله له للحديث والسنة، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في "منهاج السنة النبوية" (٢/ ٥٨٤).

ثانيا: الأدلة من السنة النبوية:

أخرج البخاري في "صحيحه" (٧٤٠٧) من حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: ذكر الدجال عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور ـ وأشار بيده إلى عينه ـ وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية".

فهذا الحديث وما جاء في معناه حجة لأهل الحق أهل السنة في إثبات العينين لله تبارك وتعالى وقد نصص على هذه العقيدة العلماء المتقدمين منهم والمتأخرين لا خلاف بينهم في ذلك؛ مثل: عثمان بن سعيد الدارمي، وإمام الإئمة أبو بكر بن خزيمة، وأبو إسماعيل الهروي، وابن قتيبة الدينوري، وأبو الحسن الأشعري، واللالكائي، وأبو عمرو الداني، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية، وغيرهم كثير.

قال العلامة العثيمين رحمه الله وقد سئل عن إثبات العينين لله ـ تعالى ـ، ودليل ذلك؟

فأجاب بقوله: الجواب على ذلك يتحرر في مقامين:

المقام الأول: أن لله تعالى عينين، فهذا هو المعروف عن أهل السنة والجماعة، ولم يصرح أحد منهم بخلافه فيما أعلم، وقد نقل ذلك عنهم أبو الحسن الأشعري في كتابه: "اختلاف المصلين ومقالات الإسلاميين". قال: "مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث" فذكر أشياء ثم قال: "وأن له عينين بلا كيف كما قال: "تجري بأعيننا" [القمر:١٤]". نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية (ص ٩٠/ ٥) من مجموع الفتاوى لابن قاسم، ونقل عنه أيضا مثله في (ص٩٢) عن كتابه: "اختلاف أهل القبلة في العرش". ونقل عنه أيضا مثله في (ص٩٤) عن كتابه: "الإبانة في أصول الديانة". وذكر له في هذا

الكتاب ترجمة باب بلفظ: "باب الكلام في الوجه، والعينين، والبصر، واليدين". ونقل شيخ الإسلام في هذه الفتوى (ص٩٩) عن الباقلاني في كتابه: "الإبانة". قوله: "صفات ذاته التي لم يزل ولا يزال متصفا بها هي الحياة والعلم"، إلى أن قال: "والعينان واليدان".

ونقل ابن القيم (ص ١١٨، ١١٩، ١٢٠) في كتابه: "اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية" عن أبي الحسن الأشعري، وعن الباقلاني في كتابيه: "الإبانة" و"التمهيد" مثل ما نقل عنه شيخ الإسلام، ونقل قبل ذلك في (ص١١٤) عن الأشعري في كتابه: "الإبانة" أنه ذكر ما خالفت به المعتزلة كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع الصحابة إلى أن قال: "وأنكروا أن يكون لله عينان مع قوله تعالى: "تجري بأعيننا" [القمر:١٤].

وقال الحافظ ابن خزيمة في "كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب" (ص٣٠): "بيان النبي ﷺ الذي جعله الله مبينا عنه في قوله ﷻ: "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم" [النحل:٤٤] فبين النبي ﷺ أن لله عينين، فكان بيانه موافقا لبيان محكم التنزيل، ثم ذكر الأدلة، ثم قال في (ص٣٥): "نحن نقول: لربنا الخالق عينان يبصر بهما ما تحت الثرى".

وقال في (ص ٥٥، ٥٦): "فتدبروا يا أولي الألباب ما نقوله في هذا الباب في ذكر اليدين؛ ليجري قولنا في ذكر الوجه والعينين تستيقنوا بهداية الله إياكم، وشرحه ـ جل وعلا صدوركم للإيمان بما قصه الله ﷻ في محكم تنزيله، وبينه على لسان نبيه ﷺ من صفات خالقنا ﷻ وتعلموا بتوفيق الله إياكم أن الحق والصواب والعدل في هذا الجنس مذهبا مذهب أهل الآثار ومتبعي السنن، وتقفوا على جهل من يسميهم مشبهة".اهـ.

فتبين بما نقلناه أن مقالة أهل السنة والحديث أن لله تعالى عينين تليقان بجلاله وعظمته لا تكيفان، ولا تشبهان أعين المخلوقين، لقوله تعالى: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" [الشورى:١١].

روى عثمان بن سعيد الدارمي (ص٤٧) من رده على المريسي بسنده عن أبي هريرة ﵁ قال: قرأ رسول الله ﷺ: "إن الله كان سميعا بصيرا". فوضع إصبعه الدعاء على عينيه، وإبهامه على أذنيه.

المقام الثاني: في ذكر الأدلة على إثبات العينين:

قال البخاري رحمه الله تعالى: باب قول الله تعالى: "ولتصنع على عيني" [طه:٣٩]. وقوله جل ذكره: "تجري بأعيننا" [القمر:١٤] ثم ساق بسنده حديث عبد الله بن عمر ﵄ قال: ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: "إنه لا يخفى عليكم أن الله ليس بأعور وأشار بيده إلى عينه وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية".

وقد استدل بحديث الدجال على أن لله تعالى عينين عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه: "الرد على بشر المريسي" الذي أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية. وقال: "إن فيهما من تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس في غيرهما" ـ يعني ـ هذا الكتاب وكتابه الثاني: "الرد على الجهمية".

قال الدارمي في الكتاب المذكور (ص ٤٣ ـ ط: أنصار السنة المحمدية)، بعد أن ساق آيتي صفة العينين: "ثم ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال: إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور. قال: والعور عند الناس ضد البصر، والأعور عندهم ضد البصير بالعينين".

وقال في (ص ٤٨): "ففي تأويل قول رسول الله ﷺ: "إن الله ليس بأعور"

بيان أنه بصير ذو عينين خلاف الأعور".

واستدل به أيضا الحافظ ابن خزيمة في "كتاب التوحيد" كما في (ص٣١) وما بعدها.

وقال الشيخ عبد الله الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٢٨٥): قوله: (إن الله ليس بأعور): هذه الجملة هي المقصودة من الحديث في هذا الباب؛ فهذا يدل على أن لله عينين حقيقة؛ لأن العور فقدُ أحد العينين أو ذهاب نورها . اهـ.

ووجه الاستدلال به ظاهر جدا؛ فإن النبي ﷺ أراد أن يبين لأمته شيئا مما ينتفي به الاشتباه عليهم في شأن الدجال في أمر محسوس، يتبين لذوي التفكير العالمين بالطرق العقلية وغيرهم، بذكر أن الدجال أعور العين، والرب سبحانه ليس بأعور، ولو كان لله تعالى أكثر من عينين لكان البيان به أولى لظهوره، وزيادة الثناء به على الله ـ تعالى ـ؛ فإن العين صفة كمال، فلو كان لله أكثر من اثنتين كان الثناء بذلك على الله أبلغ.

وتقرير ذلك أن يقال: ما زاد على العينين فإما أن يكون كمالا في حق الله تعالى أو نقصا، فإن كان نقصا فهو ممتنع على الله تعالى لامتناع صفات النقص في حقه، وإن كان كمالا فكيف يهمله النبي ﷺ ـ مع كونه أبلغ في الثناء على الله تعالى!! فلما لم يذكره النبي ﷺ علم أنه ليس بثابت لله ﷻ وهذا هو المطلوب.

فإن قيل: ترك ذكره من أجل بيان نقص الدجال بكونه أعور.

قلنا: يمكن أن يذكر مع بيان نقص الدجال فيجمع بين الأمرين حتى لا يفوت ذكر كمال صفة الله ﷻ.

واعلم أن النبي ﷺ ذكر هذه العلامة الحسية ليبين نقص الدجال، وأنه ليس

بصالح لأن يكون ربا، ولظهورها لجميع الناس لكونها علامة حسية بخلاف العلامات العقلية، فإنها قد تحتاج إلى مقدمات تخفى على كثير من الناس، لا سيما عند قوة الفتنة، واشتداد المحنة، كما في هذه الفتنة فتنة الدجال، وكان هذا من حسن تعليمه ﷺ حيث يعدل في بيانه إلى ما هو أظهر وأجلى مع وجود علامات أخرى.

وقد ذكر ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ في "كتاب التوحيد" (ص٣١) حديثا ساقه في ضمن الأدلة على أن النبي ﷺ بين أن لله تعالى عينين، فساقه بسنده إلى أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يقرأ قوله تعالى: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها" إلى قوله: "سميعا بصيرا" فيضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه. ويقول: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها ويضع أصبعيه.

وقد سبقت رواية الدارمي له بلفظ التثنية، وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح (ص٣٧٣/ ١٣ ـ ط: خطيب) أن البيهقي ذكر له شاهدا من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: "إن ربنا سميع بصير، وأشار إلى عينيه" وسنده حسن.اهـ..

وقد ذكر صاحب مختصر الصواعق (ص٣٥٩ ـ ط: الإمام)، قبيل المثال السادس حديثا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: "إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمن". الحديث لكنه لم يعزه، فلينظر في صحته.

وبهذا تبين وجوب اعتقاد أن لله تعالى عينين؛ لأنه مقتضى النص، وهو المنقول عن أهل السنة والحديث.

فإن قيل: ما تصنعون بقوله تعالى: "أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا". وقوله: "تجري بأعيننا" حيث ذكر الله تعالى العين بلفظ الجمع؟

قلنا: نتلقاها بالقبول والتسليم، ونقول: إن كان أقل الجمع اثنين كما قيل به إما مطلقا أو مع الدليل فلا إشكال لأن الجمع هنا قد دل الدليل على أن المراد به اثنتان فيكون المراد به ذلك، وإن كان أقل الجمع ثلاثة فإننا نقول جمع العين هنا كجمع اليد في قوله تعالى: "أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما". يراد به التعظيم والمطابقة بين المضاف والمضاف إليه، وهو ـ نا ـ المفيد للتعظيم دون حقيقة العدد، وحينئذ لا يصادم التثنية.

فإن قيل: فما تصنعون بقوله تعالى يخاطب موسى: "ولتصنع على عيني". حيث جاءت بالإفراد؟

قلنا: لا مصادمة بينها وبين التثنية، لأن المفرد المضاف لا يمنع التعدد فيما كان متعددا، ألا ترى إلى قوله تعالى: "وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها". وقوله تعالى: "واذكروا نعمة الله عليكم". فإن النعمة اسم مفرد، ومع ذلك فأفرادها لا تحصى.

وبهذا تبين ائتلاف النصوص واتفاقها وتلاؤمها، وأنها -ولله الحمد- كلها حق، وجاءت بالحق، لكنها تحتاج في بعض الأحيان إلى تأمل وتفكير بقصد حسن، وأداة تامة، بحيث يكون عند العبد صدق نية بطلب الحق، واستعداد تام لقبوله، وعلم بمدلولات الألفاظ، ومصادر الشرع وموارده، قال الله تعالى: "أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" [النساء:٨٢].

فحث على تدبر القرآن الكريم، وأشار إلى أنه بتدبره يزول عن العبد ما يجد في قلبه من الشبهات، حتى يتبين له أن القرآن حق يصدق بعضه بعضا. والله المستعان..اهـ. من مجموع فتاوى العثيمين (١/ ١٤٦ ـ ١٥٣).

قلت: الحديث الذي طلب الشيخ التحقق من صحته: "إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمن"، لا يصح، ولا تقوم به حجة؛ فانظر غير مأمور "السلسلة الضعيفة" (١٠٢٤) و(٤٣٩٩).

وقال العلامة العثيمين أيضا: "ونؤمن بأن لله تعالى عينين اثنتين حقيقيتين؛ لقوله تعالى: "واصنع الفلك بأعيننا ووحينا" [هود:٣٧]. وقال النبي ﷺ: "حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه".

وأجمع أهل السنة على أن العينين اثنتان؛ ويؤيده قول النبي ﷺ في الدجال: "إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور". "مجموع فتاوى ابن عثيمين" (٣/ ٢٣٤ - ٢٣٥).

وقال الإمام ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مذهب أهل السنة والجماعة أن لله عينين اثنتين، ينظر بهما حقيقة على الوجه اللائق به. وهما من الصفات الذاتية الثابتة بالكتاب، والسنة.

فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: "تجري بأعيننا" [القمر:١٤]. ومن أدلة السنة قول النبي ﷺ: "إن ربكم ليس بأعور "، " ينظر إليكم أزلين قنطين"، "حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه". فهما عينان حقيقيتان لا تشبهان أعين المخلوقين. "مجموع فتاوى ابن عثيمين" (٤/ ٥٨).

وسئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٢٨/ ٣٩٥): قال السلف: إن الله تعالى له عينان، ولكن في النص أحيانا يذكر الجمع وأحيانا يذكر المفرد، ولكننا نعرف أن الله تعالى له عينان فأين الدليل؟

فأجاب: الله سبحانه موصوف بأن له عينين، وأنه ليس بأعور خلافا للدجال

فإنه أعور العين اليمنى. والمثنى قد يطلق عليه الجمع باللغة العربية، كما قال سبحانه في سورة التحريم: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا}، والمراد: قلبكما.

فعبر عن المثنى بالجمع، وهكذا قوله سبحانه: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا} والمراد يداهما، وبذلك نزول الإشكال في قول الله سبحانه: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} وفي قوله ﷻ: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}، والله ولي التوفيق

وسئل العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ كما في موسوعة العلامة الألباني (٦/ ٣١٣):

سؤال: في صفة العين لله ﷻ ما ورد فيه النص ظاهر النصوص وصريح القرآن والسنة أن لله عين أو أعين؟

الشيخ: ظاهر السنة يعني أي حديث؟

السائل: أقصد القرآن.

الشيخ: القرآن: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} هذا لا يعني أن هناك أكثر من عينين لأنه الجمع إذا أطلق في كثير من الأحيان أقل الجمع اثنان هذا لا يعني أن له أكثر من عينين، لكن لما قلت السنة أحببت أن أعرف؛ لأن السنة دائما تكون مُكَمِّلة للقرآن وموضِّحة كما هو معلوم، أنا أعتقد أنه هذا رأي حادث يعني ليس من رأي السلف والمنقول في كتب التوحيد وفي كتب العقائد أن له عينين، وبعض العلماء القدامى يستدلون بحديث الدجال: «إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وأن أحدكم لا يرى ربه حتى يموت»، فليس عندنا نص صريح بأن له أكثر من عينين والمتوارث عن عقيدة السلف هو إثبات العينين على ظاهر حديث الدجال على كثرة طرقه الذي يتبادر من هذا الحديث، ولا يخطر في البال سواه أن الدجال إحدى عينيه طافية وهو أعور وإن ربكم ليس بأعور، معنى ذلك أن

الله ﷻ موصوف بالعينين وليس بالثلاثة ولا بأكثر لأن ما عندنا نص بالأكثر، وكما نقول دائما وأبدًا الأمور الغيبية وبخاصة ما يتعلق بغيب الغيوب وهو رب العالمين تبارك وتعالى لا ينبغي أن نصفه بالأقيسه ... أو ما شابه ذلك إنما بالشيء الذي جاءنا عن سلفنا الصالح وجاءت به الأحاديث.

وأنا ظننت لما ذكرتَ القرآن والسنة أن هناك ذكر بعضهم حديث فيه التصريح بأن له أكثر من عينين وهذا ما لا نعرفه ولذلك سارعت بالتعرف عليه لكن ما وجدنا شيء.

-**مداخلة:** طيب مثلا قول ابن القيم وغيره يقول عن العاصي سقط عن عين الله هل هذه الجملة فيها شيء؟

-**الشيخ:** ما فيها شيء هذا لأنه الآية السابقة {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} لا يقصد يعين المعنى الذي قد يتبادر لبعض الجهلة يعني أنت تحت رعايتنا وتحت إشرافنا، وليس المقصود يعني إلا هذا، فكلمة ابن القيم هو من هذا القبيل.

مداخلة: شيخ في قاعدة في الأسماء والصفات إنه تقول يد مثلا للإنسان أو نقول له يد طُولي هذا، يعني وإن كانت هذه لهجة تكون كناية أو كذا، ولكن هناك حقيقة يد فكذلك نقول عن الله ﷻ مثلا تجري بأعيننا وإن كانت هذه الصيغة قد يؤولها البعض ولكن أيضا تثبت من الناحية هذه.

الشيخ: لكن أنت لا تؤولها على حد تعبيرك؟

مداخلة: لا أيضًا تؤول.

الشيخ: لكن لا تسميها تأويلا هذا هو التفسير الذي بتقوله أنت صحيح لكن البحث هل هذا نص بأنه يعني أكثر من عينين ليس نص في ذلك لأن الجمع أقله اثنان.

مداخلة: أقصد يا شيخ من ناحية قوله تعالى بين يدي رحمته، والرحمة مالها يدين، قدم صدق والصدق ماله قدم هذه القاعدة ما انطبقت هنا؟

الشيخ: انطبقت في غيرها كيف الآية {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} (ص:٧٥). هذا يقبل التأويل.

مداخلة: لا أبدًا.

الشيخ: إذًا هذا يكفينا وأمثاله كثير وكثير جدًا.

مداخلة: هذه القاعدة صحيحة أم خاطئة؟

الشيخ: لا صحيحة لكن صحيحة بالنسبة لما ثبت لدينا أن الأصل ... ثابت في نصوص أخرى، لكن لما أتيت بقضية الرحمة وقدم صدق ونحو ذلك؛ هذه أمور معنوية لم يثبت لدينا سلف أن لها هذه الأعضاء التي ذكرت في هذا السياق، ففي فرق بين ما ثبت لله ﷻ من صفة ثم تأتي هذه الصفة بمعنى يسمونه مجازيا وهو ليس مجازًا لكن هو المعنى المقصود في ذلك المكان هو ما يسمونه بالتأويل ولذلك قلت لك {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} ليس تأويلا فصفة العين ثابتة لله ليس بمجرد هذه الآية وإنما بنصوص أخرى.

مداخلة: لا أنا أقصد القاعدة ولا أقصد الآية.

الشيخ: أنا أجبتك عن القاعدة أبين لك الفرق.

مداخلة: هذا يعني نرجع على المرجع ما نرجع للقاعدة نفسها.

الشيخ: لكن القاعدة تطبق في مكان ولا تطبق في مكان، هي قاعدة فيما ثبت يعني، مثلا كما قلت أنت يد الأمير طويلة نعلم نحن مسبقًا أن له يدًا، لكن المثالين الذي ذكرتهم أنت بالنسبة للريح بين يدي رحمته مش ثابت لدينا إن الرحمة لها يدان، فتطبق حيث ينبغي أن تطبق، ولا تطبق حينما لا يكون هناك

صفة ثابتة لهذه المعاني فالرحمة ما هي ذات.

مداخلة: شيخ أعلم عقلًا أن للأمير يد وأن الرحمة ليس لها يد، أم شرعًا؟

الشيخ: لا بالنسبة للإنسان تعرف عقلا ومشاهدة وبالنسبة لرب العالمين تعرف إيمانًا بالغيب وليس إلاَّ.اهـ.

قلت: ومن ينقل عن الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ خلاف هذه العقيدة السلفية إما مخطئ أو كاذب؛ فقد قال له قائل كما في شريط رقم (١٨٩) من "سلسلة الهدى والنور": "بلغنا أنك تقول أن لله عينا واحدة".

فقال الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن كان قد فصل عقيدة السلف في إثبات العينين الاثنتين لله سبحانه: "ظهرت الكذبة، لا، هذا كذب".

(**تنبيه**): سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ١٥٣): عما ذكره الرازي من أن ظاهر قوله تعالى: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} . يقتضي أن يكون موسى مستقرا على تلك العين لاصقا بها مستعليا عليها. وأن قوله تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} . يقتضي أن تكون آلة تلك الصنعة هي تلك العين؟

فأجاب: ما ذكره الرازي من أن ظاهر قوله تعالى: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} . يقتضي أن يكون موسى مستقرا على تلك العين لاصقا بها مستعليا عليها، وأن قوله تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} يقتضي أن تكون آلة تلك الصنعة هي تلك العين.

أقول: إن ادعاءه أن ذلك ظاهر الآيتين ادعاء باطل؛ لأن هذا المعنى الذي ادعى أنه ظاهر الكلام معنى باطل، لا يقوله عاقل، كما اعترف به هو، فإذا كان معنى باطلا لا يقوله عاقل، فكيف يسوغ لمؤمن بل لعاقل أن يقول: إن هذا ظاهر كلام الله تعالى؟!

إن من جوز أن يكون هذا ظاهر كلام الله ﷻ فقد قدح في الله ﷻ وفي كلامه الكريم، حيث جعل مدلوله معنى باطلا، لا يقوله العقلاء، وإذا تعذر أن يكون هذا المعنى الباطل ظاهر هذا الكلام تعين أن يكون ظاهره معنى آخر يليق بالله تعالى، وهو في الآية الأولى أن تربية موسى على عين الله تعالى، وينظر إليه بعينه، كما تقول: جرى هذا الشيء على عيني، أي حصل وأنا أشاهده وأراه بعيني.

والمعنى في الآية الثانية أن صنع نوح، عليه الصلاة والسلام، السفينة كان بعين الله تعالى، أي مصحوبا بعينه يراه الله تعالى بعينه، فيسدده ويصلح صنيعه، كما تقول: صنعت هذا بعيني، أي صنعته وأنا أرعاه بعيني، وإن كانت آلة الصنع اليد أو الآلة. وتقول: كتبته بعيني، أي كتبته وأنا أنظر إليه بعيني وإن كانت الكتابة باليد أو بالآلة.

وهذا التعبير لهذا المعنى تعبير عربي مشهور، والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فهو محمول على ما تقتضيه اللغة العربية، إلا أن يكون هناك حقيقة شرعية انتقل المعنى إليها كالصلاة والصيام ونحوها، فيحمل على الحقيقة الشرعية. وكتاب التأسيس الذي نقل السائل منه هذه الكلمات قد نقضه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فليت السائل يحصل على نسخة من نقضه.

(باب صفة صفة النور)

النور صفة ذاتية لله ﷻ ثابتة بالكتاب والسنة، وقد عد بعضهم (النور) من أسماء الله تعالى؛ كما سيأتي.

والأدلة من الكتاب والسنة ستأتي في أثناء البحث:

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في النونية (٢/ ١٠٥): (وَالنُّورُ مِنْ أَسْمائِهِ أَيْضًا

وَمِنْ أَوْصَافِهِ سُبْحَانَ ذِي البُرْهَانِ) قال الهرَّاس في الشرح: (ومن أسمائه سبحانه النور، وهو أيضًا صفة من صفاته، فيقال: الله نور، فيكون اسمًا مخبراً به على تأويله بالمشتق، ويقال: ذو نور، فيكون صفة؛ قال تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، وقال: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا}) .

وقال ابن القيم أيضا في مختصر الصواعق (ص٤١٩-٤٣١): المثال السادس: قوله تعالى: {الله نور السماوات والأرض} [النور: ٣٥] ومن أسمائه النور، وقالت المعطلة: ذلك مجاز، معناه منور السماوات والأرض بالنور المخلوق، قالوا: ويتعين المجاز لأن كل عاقل يعلم بالضرورة أن الله تعالى ليس هو هذا النور المنبسط على الجدران، ولا هو النور الفائض من جرم الشمس والقمر والنار، فإما أن يكون مجازه منور السماوات، أو هادي أهلها.

وبطلان هذا يتبين بوجوه: الأول: أن النور جاء في أسمائه تعالى، وهذا الاسم مما تلقته الأمة بالقبول وأثبتوه في أسمائه الحسنى.. الخ..اهـ.

وفي الصحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أنه ﷺ كان حين يستيقظ من الليل؛ يقول: ((اللهم لك الحمد؛ أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن))اهـ.

وقال الشيخ الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ١٧٠): قوله: "لك الحمد أنت نور السماوات والأرض" قال الحافظ في الفتح (٣/ ٤): أي منورهما، وبك يهتدي من فيهما.اهـ.

وقال القاضي عياض كما في المشارق (٢/ ٣١): "معناه: ذو النور، أي خالقه، وقيل: منور الدنيا بالشمس والقمر والنجوم، وقيل: منور قلوب عباده المؤمنين بالهداية والمعرفة".اهـ.

قلت: هذا تأويل باطل كما سيأتي بيان بطلانه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦/ ٣٧٩) في جواب من قال: إنه يجب تأويل قوله: "الله نور السماوات والأرض " قطعًا. قال: "لا نسلم أنه يجب تأويله، ولا نسلم أن ذلك لو وجب قطعي، بل جماهير المسلمين لا يتأولون هذا الاسم، وهذا مذهب السلفية وجمهور الصفاتية من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم، وهو قول أبي سعيد ابن كلاب، ورد على الجهمية تأويلهم " اسم النور" وكذا الأشعري".اهـ..

وقد نص الله تعالى في كتابه أنه نور السماوات والأرض، وزاد ذلك رسول الله ﷺ إيضاحًا وبيانًا، كما في هذا الحديث وغيره.

وقد أخبر تعالى: أن الأرض يوم القيامة تشرق بنوره، وصحت النصوص عن رسول الله ﷺ بأنه يحتجب بالنور، فإذا كانت الأرض تشرق من نوره، فهو جلا وعلا نور، كما قاله رسوله: "أنت نور السماوات والأرض".

وقال تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} وقال -تعالى-: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} .

وفي الحديث الذي رواه ابن إسحاق في السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال في دعائه: (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة) أخرجه ابن إسحاق في السيرة مطولا (١/ ٢٦٠-٢٦٢)، وعنه ابن هشام في السيرة (١/ ٤١٩)، والطبري في التاريخ: (٢/ ٣٤٤-٣٤٧)، وابن عدى في الكامل (٦/ ١١١، ترجمة ١٦٢٣ محمد بن إسحاق بن يسار)، والطبراني في الكبير (١٣/ ٧٣/ ١٨١)، وعنه الضياء في المختارة (٩/ ١٧٩، رقم ١٦٢)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٧٤) والحديث قال عنه ابن عدي: هذا حديث أبى صالح الراسبى لم نسمع أن أحدا

حدث بهذا الحديث غيره ولم نكتبه إلا عنه، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٥):رواه الطبراني وفيه ابن اسحق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات، وضعفه العلامة الألباني في فقه السيرة (١٢٤)، وفي الضعيفة (٢٩٣٣).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه) أخرجه الدارمي في الرد على بشر (ص٤٤٩)، وابن منده في الرد على الجهمية (ص٩٩)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٧٩، رقم ٨٨٨٦)، وأَبو الشَّيخ فِي العظمة، مخطوط (لوحة٣٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٣١١) والأثر إسناده ضعيف، لذا قال عنه البيهقي: هذا موقوف وراويه غير معروف، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٦٠): رواه الطبراني في الكبير وفيه أبو عبد السلام قال أبو حاتم: مجهول وقد ذكره ابن حبان في الثقات وعبد الله بن مكرز أو عبيد الله على الشك لم أر من ذكره.

وفي حديث أبي ذر في صحيح مسلم قال (سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نور أَنَّى أراه" وفي رواية "رأيت نورًا) .

وفي حديث أبي موسى في صحيح مسلم قال (قام فينا رسول الله بخمس كلمات، فقال: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه).

السبحات هي: نوره وبهاؤه وجلاله. فأخبر ﷺ أنه -تعالى احتجب عن المخلوقات بحجابه النور، وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، ومعلوم أن بصره لا يفوته شيء، ولا يستره ساتر، ولا يحول دونه حائل.

وفي الترمذي عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله خلق خلقه في ظلمة، وألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل) أخرجه مطولا ومختصرا أحمد (٢/ ١٧٦، رقم ٦٦٤٤)، والترمذى (٥/ ٢٦، رقم ٢٦٤٢)، والطيالسي (٢٩١)، والنسائي في المجتبى (٦٩٢)، وفي الكبرى (٧٧٢)، وابن ماجة (١٤٠٨)، وابن خزيمة (١٣٣٤)، وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ١٠٧، رقم ٢٤٣)، والبزار كما فى كشف الأستار (٣/ ٢١، رقم ٢١٤٥)، وابن حبان (١٦٣٣)، والحاكم (١/ ٣٠)، واللالكائي في شرح أصول السنة (١٠٧٧، ١٠٧٩)، والآجري في الشريعة (٢/ ٧٥٧)، والفريابي في القدر (رقم ٦٦ - ٧١)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ١٣٤، رقم ١٣٥)، والبيهقى في الكبرى (٩/ ٤، رقم ١٧٤٨٨)، وفي الأسماء والصفات (١/ ٢٠٣، رقم ٢٢٩) وغيرهم والحديث قال حسنه الترمذي، وقال عنه الحاكم صحيح قد تداوله الأئمة وقد احتجا بجميع رواته ثم لم يخرجاه ولا أعلم له علة، ووافقه الذهبي، وحسنه ابن العربي في العارضة (٥/ ٣١٦)، وصححه ابن القيم في المنار المنيف (٧٤)، وقال الهيثمى (٧/ ١٩٣): رجال أحد إسنادى أحمد ثقات، وقال المناوى في الفيض (٢/ ٢٣١): قال ابن حجر فى فتاويه: إسناد لا بأس به، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٩٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ٢٢٠): إسناده صحيح، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٧٩١)، وقال العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ٦٧٦): إسناده صحيح.

فقد جاءت النصوص "بتسمية الرب نورًا، وبأن له نورًا مضافًا إليه، وبأنه

نور السماوات والأرض، وبأن حجابه النور، فهذه أربعة أنواع:

فالأول: يطلق عليه تعالى اسمًا له، فإنه النور الهادي.

والثاني: يضاف إليه كما تضاف إليه حياته، وسمعه وبصره، وعزته وقدرته وعلمه، ومرة يضاف إلي وجهه الكريم، وأخرى يضاف إلى ذاته المقدسة: فإضافته إلى وجهه تعالى كقوله ﷺ: "أعوذ بنور وجهك" وقوله: "نور السماوات والأرض من نور وجهه".

وإضافته إلى ذاته المقدسة كقوله -تعالى-: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} .

وكما في حديث عبد الله بن عمرو: "أن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره" الحديث.

ويضاف نوره تعالى إلى السماوات والأرض، كقوله: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} .

وقوله في هذا الحديث: "أنت نور السماوات والأرض". وكذا حجابه النور كقوله: "حجابه النور - أو النار-" كما في حديث أبي موسى" اهـ من الصواعق ملخصًا (٣٥٩).

وقال تعالى: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} على القول بأن الضمير يعود إلى الله تعالى.

قال ابن القيم: "إضافة النور إلى الله -تعالى- على أحد وجهين:

إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله.

فالأول: كقوله ﷻ: {وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} فهذا يكون يوم القيامة، تشرق بنوره -تعالى- إذا جاء لفصل القضاء بين عباده.

ومنه قوله في الدعاء المشهور: "أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني، لا إله

إلا أنت".

وفي الأثر الآخر: "أعوذ بنور وجهك، الذي أشرقت له الظلمات".

فأخبر ﷺ أن الظلمات أشرقت لنور وجهه، كما أخبر الله تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

الوجه الثاني: ما ذكر في قوله -تعالى-: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ}، وقد اختلف على من يعود الضمير في {نوره}، فقيل: على محمد ﷺ وقيل: على المؤمن، والصحيح عوده على الله تعالى.

والمعنى: مثل نور الله في قلب عبده المؤمن، وأعظم عباده نصيبًا من هذا النور رسوله ﷺ.

فهذا النور يضاف إلى الله -تعالى- على أن معطيه لعبده، وواهبه، كما يضاف إلى العبد؛ لأنه محله وقابله" اهـ من اجتماع الجيوش بتلخيص وتصرف (ص٦).

فالله تعالى سمى نفسه نورًا، وجعل كتابه نورًا، ورسوله نورًا، ودينه نورًا، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه في الآخرة نورًا يتلألأ، قال تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، قال أبي بن كعب: (بدأ الله بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٨/ ١٣٥) وفي إسناده ضعف.

وفسر بكونه منور السماوات والأرض، وبأنه هادي أهل السماوات

والأرض، وهذا لا يمنع أنه تعالى في نفسه نور، فإن من عادة السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسر بفتح السين من الأسماء، أو بعض أنواع ذلك المفسر، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات له. فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وأما النور الذي هو وصفه فهو قائم به، ومنه اشتق له اسم النور، الذي هو أحد الأسماء الحسنى، كما دلت على ذلك النصوص، فلا يجوز تحريف ذلك بالتأويلات الباطلة.

وأما الأنوار القائمة بأعيان مشاهدة قائمة بأنفسها، فلم تأت إضافتها إلى الله تعالى أبدًا، فلا يقال لأنوار المصابيح، أو نور الشمس أو القمر أو الكواكب، إنها نور الله.

والحديث تضمن ثلاثة أمور شاملة عامة للسماوات والأرض: وهي: ربوبيتهما، وقيوميتهما، ونورهما، فكونه سبحانه ربًا لهما، وقيومًا لهما، ونورًا لهما، أوصاف له -تعالى-، وآثار هذه الأمور الثلاثة قائمة بهما.

فأثر الربوبية: الخلق والإيجاد، وأثر القيومية: صلاحهما، وانتظامهما، وأثر نوره تعالى استنارة السماوات، وإشراق الأرض بنوره يوم القيامة.

وأما صفة الربوبية والقيومية، والنور، فهي قائمة به تعالى كما أن صفة الرحمة، والقدرة، والإرادة، والرضا، والغضب، قائمة به تعالى والرحمة الموجودة في العالم، والإحسان، والخير، والنعمة، والعقوبة، آثار تلك الصفات.

وهكذا علمه تعالى القائم به هو صفته، وأما علوم عباده فمن آثار علمه، وقدرتهم من آثار قدرته.

وبذلك يعلم أن قول المعطلة: "كل عاقل يعلم بالبديهة أنه الله سبحانه ليس

هو هذا النور الفائض من جرم الشمس والقمر والمصابيح، فلا بد من حمل قوله: "أنت نور السماوات والأرض" على معنى أنه منور السماوات والأرض، أو هادي أهل السماوات والأرض " يعلم أنه باطل من جنس تحريفاتهم لسائر صفات الله، كما هو نهجهم.

ونحن نقول لهم أيضًا: أسأتم الظن بكلام الله، وكلام رسوله ﷺ حيث فهمتم أن حقيقته ومدلوله أنه سبحانه هو هذا النور الواقع على الحيطان، وغيرها، وهذا الفهم الفاسد هو الذي أوجب لكم إنكار حقيقة نوره تعالى وجحده.

فجمعتم بين الفهم الفاسد، وإنكار المعنى الحق.

وليس ما ذكرتم هو نور الرب تعالى القائم به، الذي هو صفته، وإنما هو مخلوق له منفصل عنه، فإن هذه الأنوار المخلوقة، تكون في محل دون محل، فنور الشمس والقمر ينور بعض الأرض لا جملتها، ولا ينور السماوات.

فمن ادعى أن نور الشمس والقمر ونحوهما، هو المراد بقوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} وقول الرسول صلى الله عليه وسل: "أنت نور السماوات والأرض " فقد كذب على الله ورسوله.اهـ. كلام الغنيمان.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (١٠/ ٥١٠): هل يجوز إطلاق اسم (عبد النور) على واحد من الناس؟

فأجابوا: أسماء الله تعالى توقيفية، ولم يثبت أن (النور) من أسمائه تعالى، وبناء على ذلك فلا يصح تعبيد الاسم له فلا يقال: (عبد النور).اهـ.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٦/ ٢٠٨): شيخنا في مثل هذا الموضوع استغرب بعض طلبة العلم ما سمعه منكم في تفسير قوله

تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} (النور:٣٥) لكونه ينورهما وليس له اسم النور، فنريد تفصيل في هذا جزاكم الله خيرًا.

فأجاب: ما عندي تفصيل إلا أنني لا أعلم أن النور اسم من أسماء الله ﷻ في حديث صحيح، بل قوله ﵇: حجابه النور لما سئل: هل رأيت ربك، قال: «نور أنى أراه»، وفي حديث أبي موسى الأشعري في صحيح مسلم يقول: «حجابه النور لو كشف هذا الحجاب لأحرق نوره كل شيء» ... أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فالجواب: لا أعلم أن النور اسم من أسماء الله ﷻ.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: بالنسبة لكلمة (النور) هل هي من صفات الله سبحانه وتعالى؟

فأجاب: قال الله تعالى: اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [النور:٣٥] فقل ما قال الله عن نفسه، ولا تتجاوز ذلك، ولك سلفٌ خيرٌ منك، وللمسئول سلفٌ خيرٌ منه، السلف الذين هم خيرٌ منك الصحابة ﵃، والمسئول الذي هو خير من المسئول هنا في وقتنا الرسول الله عليه الصلاة والسلام، هل لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله! هل النور من أسمائه الله أو صفاته؟ لم يسألوا، هل يسعنا ما وسعهم، أو يجوز أن نتعداهم؟ لا يجوز أن نتعداهم. يسعنا ما وسعهم، ولذلك أنا أنصح الإخوان الموجودين الآن من طلبة العلم وغير طلبة العلم أن يكفوا عن السؤال فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته عما كف عنه الصحابة ﵃، فوالله! إنهم لخيرٌ منا، وإن الذي يتوجه السؤال إليه في وقتهم خيرٌ منا، فعلينا أن نقف، لماذا هذا التكلف؟ نقول كما قال الله عنه نفسه: اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [النور:٣٥] إنك إذا سلكت هذه القاعدة، ونهجت هذا المنهج سلمت، وسلمت عقيدتك من شكوكٍ وأوهام، وسلمت من اتباع الهوى أو القول على الله بلا

علم، فنصيحتي لكم ولمن يستمع إلى كلامي: أن يتقي الله في نفسه، وأن يتجنب كل ما تجنبه الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الكف عن السؤال فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قد وفوا بالمقصود، والله عَزَّ وَجَلَّ قد أكمل لنا الدين، ولو كان شيءٌ يحتاج إلى سؤالٍ وتوضيح لوفق الله تعالى من الصحابة من يسأل عنه، ولهذا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أهل المدينة يستحيون أن يسألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شيءٍ من الأشياء حتى يتمنوا أن يأتي رجلٌ من الأعراب يسأل عنه، فيقيض الله تعالى من يسأل عن الشيء فيجيب عنه الرسول عليه الصلاة والسلام، حتى سأله رجل: أين كان الله قبل خلق السماوات والأرض؟ -إلى هذا الحد- فأجابه النبي عليه الصلاة والسلام، لو كان شيءٌ مما يتعلق بالدين يحتاج الناس إليه لقيض الله تعالى من يسأل عنه، فكف عما كف عنه الصحابة، اترك هذا التقييد، يجيء واحد متحذلق متعمق متكلف يقول: كم أصابع الله مثلًا؟ سبحان الله! أنت مكلف بهذا؟ عليك أن تؤمن بما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله واسكت، قال الإمام أحمد: لا نتجاوز القرآن والحديث، ونصف الله بما وصف به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا نتجاوز القرآن والحديث.اهـ.

(**تنبيه**) لشيخ الإسلام في هذه المسألة فصل مطول ننقله لنفاسته.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى (٦/ ٣٧٤): فصل قال المعترض في " الأسماء الحسنى " النور الهادي يجب تأويله قطعا؛ إذ النور كيفية قائمة بالجسمية وهو ضد الظلمة وجل الحق سبحانه أن يكون له ضد؛ ولو كان نورا لم تجز إضافته إلى نفسه في قوله: {مثل نوره} فيكون من إضافة الشيء إلى نفسه وهو غير جائز . وقوله: {الله نور السماوات والأرض} قال المفسرون: يعني هادي أهل السموات والأرض وهو ضعيف لأن ذكر الهادي

بعده يكون تكرارا وقيل: منور السموات بالكواكب وقيل: بالأدلة والحجج الباهرة . والنور جسم لطيف شفاف؛ فلا يجوز على الله . والتأويل مروي عن ابن عباس وأنس وسالم وهذا يبطل دعواه أن التأويل يبطل الظاهر ولم ينقل عن السلف . ولو كان نورا حقيقة - كما يقوله المشبهة - لوجب أيضا أن يكون الضياء ليلا ونهارا على الدوام . وقوله: {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا} {وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا} ومعلوم أنه ﷺ لم يكن السراج المعروف وإنما سمي سراجا بالهدى الذي جاء به؛ ووضوح أدلته بمنزلة السراج المنير وروي عن ابن عباس في رواية أخرى وأبي العالية والحسن: يعني منور " السموات والأرض ": شمسها وقمرها ونجومها . ومن كلام العارفين: "النور " هو الذي نور قلوب الصادقين بتوحيده ونور أسرار المحبين بتأييده . وقيل: هو الذي أحيا قلوب العارفين بنور معرفته ونفوس العابدين بنور عبادته . (والجواب): أن هذا الكلام وأمثاله ليس باعتراض علينا وإنما هو ابتداء نقص حرمته منهم؛ لما يظن أنه يلزمنا أو يظن أنا نقوله على الوجه الذي حكاه . وقد قال تعالى: {اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم} وقال النبي ﷺ {إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث} . وإذا كان في الكلام إخبار عن الغير بأنه يقول أقوالا باطلة في العقل والشرع وفيه رد تلك الأقوال كان هذا كذبا وظلما؛ فنعوذ بالله من ذلك . ثم مع كونه ظلما لنا يا ليته كان كلاما صحيحا مستقيما فكنا نحلله من حقنا ويستفاد ما فيه من العلم ولكن فيه من تحريف كتاب الله والإلحاد في آياته وأسمائه والكذب والظلم والعدوان الذي يتعلق بحقوق الله مما فيه؛ لكن إن عفونا عن حقنا فحق الله إليه لا إلى غيره . ونحن نذكر من القيام بحق الله ونصر كتابه ودينه ما يليق بهذا الموضع؛ فإن هذا الكلام الذي

ذكره فيه من التناقض والفساد ما لا أظن تمكنه من ضبطه من وجوه . (أحدها): أنه قال في أوله: النور كيفية قائمة بالجسمية . ثم قال في آخره: جسم لطيف شفاف فذكر في أول الكلام أنه عرض وصفة وفي آخره جسم وهو جوهر قائم بنفسه . (الثاني): أنه ذكر عن المفسرين أنهم تأولوا ذلك بالهادي وضعف ذلك ثم ذكر في آخره أن من كلام العارفين أن " النور " هو الذي نور قلوب الصادقين بتوحيده؛ وأسرار المحبين بتأييده وأحيا قلوب العارفين بنور معرفته وهذا هو معنى الهادي الذي ضعفه أولا فيضعفه أولا ويجعله من كلام العارفين وهي كلمة لها صولة في القلوب وإنما هو من كلام بعض المشايخ الذين يتكلمون بنوع من الوعظ الذي ليس فيه تحقيق . فإن الشيخ أبا عبد الرحمن ذكر في حقائق التفسير من الإشارات التي بعضها كلام حسن مستفاد وبعضها مكذوب على قائله مفترى كالمنقول عن جعفر وغيره وبعضها من المنقول الباطل المردود . فإن " إشارات المشايخ الصوفية " التي يشيرون بها: تنقسم إلى إشارة حالية - وهي إشارتهم بالقلوب - وذلك هو الذي امتازوا به وليس هذا موضعه . وتنقسم إلى الإشارات المتعلقة بالأقوال: مثل ما يأخذونها من القرآن ونحوه فتلك الإشارات هي من باب الاعتبار والقياس؛ وإلحاق ما ليس بمنصوص بالمنصوص مثل الاعتبار والقياس؛ الذي يستعمله الفقهاء في الأحكام؛ لكن هذا يستعمل في الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال ودرجات الرجال ونحو ذلك فإن كانت " الإشارة اعتبارية " من جنس القياس الصحيح كانت حسنة مقبولة؛ وإن كانت كالقياس الضعيف كان لها حكمه وإن كان تحريفا للكلام عن مواضعه وتأويلا للكلام على غير تأويله كانت من جنس كلام القرامطة والباطنية والجهمية؛ فتدبر هذا فإني قد أوضحت هذا في " قاعدة الإشارات " .

(الوجه الثالث) في تناقضه فإنه قال: التأويل منقول عن ابن عباس وأنس وسالم ولم يذكر إلا ثلاثة أقوال: (أحدها): أنه هادي أهل السموات والأرض وقد ضعف ذلك فإن كان المنقول هو هذا الضعيف فيا خيبة المسعى؛ إذ لم ينقل عن السلف في جميع كلامه إلى هنا شيئا عن السلف إلا هذا الذي ضعفه وأوهاه . وإن كان المنقول عن هؤلاء الثلاثة أنه منور السموات بالكواكب كان متناقضا من وجه آخر وهو أنه قد ذكر فيما بعد أن هذا روي عن ابن عباس في رواية أخرى وأبي العالية والحسن أنه منورها بالشمس والقمر والنجوم وهذا يوجب أن يكون المنقول عن ابن عباس والاثنين أولا غير المنقول عنه في رواية أخرى وعمن ليس معه في الأولى . وإن كان نوره بالحجج الباهرة والأدلة كان متناقضا فإن هذا هو معنى " الهادي ": إذ نصبه للأدلة والحجج هي من هدايته وهو قد ضعف هذا القول فما أدري من أيهما العجب أمن حكايته القولين اللذين أحدهما داخل في معنى الآخر ؟ أم من تضعيفه لقول السائل الذي يوجب تضعيف الاثنين - وهو لا يدري أنه قد ضعفهما جميعا - فيجب على الإنسان أن يعرف معنى الأقوال المنقولة ويعرف أن الذي يضعفه ليس هو الذي عظمه . (الوجه الرابع) أنه قد تبين أنه لم ينقل عن ابن عباس وأنس وسالم إلا القول الذي ضعفه أو ما يدخل فيه؛ فإنه إن كان قولهم: "الهادي " فقد صرح بضعفه وإن كان " مقيم الأدلة " فهو من معنى " الهادي "؛ وإن كان " المنور بالكواكب " فقد جعله قولا آخر؛ وإن كان ما ذكره عن بعض العارفين فهو أيضا داخل في " الهادي "؛ وإذا كان قد اعترف بضعف ما حكاه عن ابن عباس وأنس وسالم لم يكن فيه حجة علينا؛ فتبين أن ما ذكره عن " السلف " إما أن يكون مبطلا في نقله أو مفتريا بتضعيفه وعلى التقديرين لا حجة علينا بذلك . (الوجه الخامس) أنه

أساء الأدب على السلف؛ إذ يذكر عنهم ما يضعفه وأظهر للناس أن السلف كانوا يتأولون ليحتج بذلك على التأويل في الجملة وهو قد اعترف بضعف هذا التأويل ومن احتج بحجة وقد ضعفها وهو لا يعلم أنه ضعفها فقد رمى نفسه بسهمه ومن رمى بسهم البغي صرع به {والله لا يهدي القوم الظالمين} . (الوجه السادس) قوله: هذا يبطل دعواه أن " التأويل دفع الظاهر ولم ينقل عن السلف " فإن هذا القول لم أقله؛ وإن كنت قلته فهو لم ينقل إلا ما عرف أنه ضعيف والضعيف لا يبطل شيئا فهذه الوجوه في بيان تناقضه وحكايته عنا ما لم نقله . وأما " بيان فساد الكلام " فنقول: أما قوله: "يجب تأويله قطعا " فلا نسلم أنه يجب تأويله ولا نسلم أن ذلك لو وجب قطعي؛ بل جماهير المسلمين لا يتأولون هذا الاسم وهذا مذهب السلفية وجمهور الصفاتية من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم وهو قول أبي سعيد بن كلاب ذكره في الصفات ورد على الجهمية تأويل " اسم النور " وهو شيخ المتكلمين الصفاتية من الأشعرية - الشيخ الأول - وحكاه عنه أبو بكر بن فورك في كتاب " مقالات ابن كلاب "، والأشعري ولم يذكرا تأويله إلا عن الجهمية المذمومين باتفاق وهو أيضا قول أبي الحسن الأشعري ذكره في " الموجز " . وأما قوله: إن هذا ورد في الأسماء الحسنى فالحديث الذي فيه ذكر ذلك هو حديث الترمذي روى الأسماء الحسنى في " جامعه " من حديث الوليد بن مسلم عن شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ورواها ابن ماجه في سننه من طريق مخلد بن زياد القطواني؛ عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة . وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين ليستا من كلام النبي ﷺ وإنما كل منهما من كلام بعض السلف فالوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين كما

جاء مفسرا في بعض طرق حديثه . ولهذا اختلفت أعيانهما عنه؛ فروي عنه في إحدى الروايات من الأسماء بدل ما يذكر في الرواية الأخرى؛ لأن الذين جمعوها قد كانوا يذكرون هذا تارة وهذا تارة؛ واعتقدوا - هم وغيرهم - أن الأسماء الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة ليست شيئا معينا؛ بل من أحصى تسعة وتسعين اسما من أسماء الله دخل الجنة أو أنها وإن كانت معينة فالاسمان اللذان يتفق معناهما يقوم أحدهما مقام صاحبه كالأحد والواحد؛ فإن في رواية هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عنه رواها عثمان بن سعيد " الأحد " بدل " الواحد " و" المعطي " بدل " المغني " وهما متقاربان وعند الوليد هذه الأسماء بعد أن روى الحديث عن خليد بن دعلج عن قتادة عن ابن سيرين عن أبي هريرة . ثم قال هشام: وحدثنا الوليد حدثنا سعيد بن عبد العزيز مثل ذلك وقال: كلها في القرآن {هو الله الذي لا إله إلا هو} . . . مثل ما ساقها الترمذي لكن الترمذي رواها عن طريق صفوان بن صالح عن الوليد عن شعيب وقد رواها ابن أبي عاصم وبين ما ذكره هو والترمذي خلاف في بعض المواضع وهذا كله مما يبين لك أنها من الموصول المدرج في الحديث عن النبي ﷺ في بعض الطرق؛ وليست من كلامه . ولهذا جمعها " قوم آخرون " على غير هذا الجمع واستخرجوها من القرآن منهم سفيان بن عيينة والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم؛ كما قد ذكرت ذلك فيما تكلمت به قديما على هذا؛ وهذا كله يقتضي أنها عندهم مما يقبل البدل؛ فإن الذي عليه جماهير المسلمين أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين . قالوا: - ومنهم الخطابي - قوله: {إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها} التقييد بالعدد عائد إلى الأسماء الموصوفة بأنها هي هذه الأسماء . فهذه الجملة وهي قوله: {من أحصاها دخل الجنة} صفة للتسعة

والتسعين ليست جملة مبتدأة ولكن موضعها النصب ويجوز أن تكون مبتدأة والمعنى لا يختلف والتقدير أن لله أسماء بقدر هذا العدد من أحصاها دخل الجنة كما يقول القائل: إن لي مائة غلام أعددتهم للعتق وألف درهم أعددتها للحج فالتقييد بالعدد هو في الموصوف بهذه الصفة لا في أصل استحقاقه لذلك العدد؛ فإنه لم يقل إن أسماء الله تسعة وتسعون . قال: ويدل على ذلك قوله في الحديث الذي رواه أحمد في المسند: {اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك} فهذا يدل على أن لله أسماء فوق تسعة وتسعين يحصيها بعض المؤمنين . وأيضا فقوله: {إن لله تسعة وتسعين} تقييده بهذا العدد بمنزلة قوله تعالى: {تسعة عشر} فلما استقلوهم قال: {وما يعلم جنود ربك إلا هو} فأن لا يعلم أسماءه إلا هو أولى؛ وذلك أن هذا لو كان قد قيل منفردا لم يفد النفي إلا بمفهوم العدد الذي هو دون مفهوم الصفة والنزاع فيه مشهور وإن كان المختار عندنا أن التخصيص بالذكر - بعد قيام المقتضي للعموم - يفيد الاختصاص بالحكم فإن العدول عن وجوب التعميم إلى التخصيص إن لم يكن للاختصاص بالحكم وإلا كان تركا للمقتضى بلا معارض وذلك ممتنع . فقوله: {إن لله تسعة وتسعين} قد يكون للتحصيل بهذا العدد فوائد غير الحصر . و(منها) ذكر أن إحصاءها يورث الجنة؛ فإنه لو ذكر هذه الجملة منفردة وأتبعها بهذه منفردة لكان حسنا؛ فكيف والأصل في الكلام الاتصال وعدم الانفصال فتكون الجملة الشرطية صفة؛ لا ابتدائية . فهذا هو الراجح في العربية مع ما ذكر من الدليل . ولهذا قال: {إنه وتر يحب الوتر} ومحبته لذلك تدل على أنه متعلق بالإحصاء؛ أي يحب أن يحصى من أسمائه هذا العدد؛ وإذا كانت أسماء الله

أكثر من تسعة وتسعين أمكن أن يكون إحصاء تسعة وتسعين اسما يورث الجنة مطلقا على سبيل البدل؛ فهذا يوجه قول هؤلاء وإن كان كثير من الناس يجعلها أسماء معينة؛ ثم من هؤلاء من يقول: ليس إلا تسعة وتسعين اسما فقط وهو قول ابن حزم وطائفة والأكثرون منهم يقولون: وإن كانت أسماء الله أكثر؛ لكن الموعود بالجنة لمن أحصاها هي معينة وبكل حال: فتعيينها ليس من كلام النبي ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه؛ ولكن روي في ذلك عن السلف أنواع: من ذلك ما ذكره الترمذي . ومنها غير ذلك . فإذا عرف هذا: فقوله في أسمائه الحسنى " النور الهادي " لو نازعه منازع في ثبوت ذلك عن النبي ﷺ لم تكن له حجة ولكن جاء ذلك في أحاديث صحاح مثل قوله في الحديث الذي في الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يقول: {اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن} الحديث . وفي صحيح مسلم عن {أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك فقال: نور أنى أراه ؟ أو قال: رأيت نورا} . فالذي في القرآن والحديث الصحيح إضافة النور كقوله: {الله نور السماوات والأرض} أو {نور السماوات والأرض} ومن فيهن . وأما قوله: "إذ النور كيفية قائمة " فنقول: النور المخلوق محسوس لا يحتاج إلى بيان كيفية لكنه نوعان: أعيان وأعراض . " فالأعيان " هو نفس جرم النار حيث كانت - نور السراج والمصباح الذي في الزجاجة وغيره - وهي النور الذي ضرب الله به المثل، ومثل القمر فإن الله سماه نورا فقال: {جعل الشمس ضياء والقمر نورا} ولا ريب أن النار جسم لطيف شفاف . " وأعراض " مثل ما يقع من شعاع الشمس والقمر والنار على الأجسام الصقيلة وغيرها فإن المصباح إذا كان في البيت أضاء جوانب البيت فذلك النور والشعاع الواقع على الجدر والسقف

والأرض هو عرض وهو كيفية قائمة بالجسم . وقد يقال: ليس الصفة القائمة بالنار والقمر ونحوهما نورا فيكون الاسم على الجوهر تارة وعلى صفة أخرى؛ ولهذا يقال لضوء النهار نور كما قال تعالى: {وجعل الظلمات والنور} ومن هذا تسمية الليل ظلمة والنهار نورا فإنهما عرضان وقد قيل: هما جوهران؛ وليس هذا موضع بسط ذلك . فتبين أن اسم النور يتناول هذين والمعترض ذكر أولا حد " العرض " وذكر ثانيا حد " الجسم " فتناقض وكأنه أخذ ذلك من كلامي ولم يهتد لوجه الجمع . وكذلك اسم " الحق " يقع على ذات الله تعالى وعلى صفاته القدسية كقول النبي ﷺ {أنت الحق وقولك الحق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق} . وأما قول المعترض: النور ضد الظلمة وجل الحق أن يكون له ضد . فيقال له: لم تفهم معنى الضد المنفي عن الله؛ فإن " الضد " يراد به ما يمنع ثبوت الآخر كما يقال في الأعراض المتضادة مثل السواد والبياض . ويقول الناس: الضدان لا يجتمعان ويمتنع اجتماع الضدين؛ وهذا التضاد عند كثير من الناس لا يكون إلا في " الأعراض " وأما " الأعيان " فلا تضاد فيها؛ فيمتنع عند هذا أن يقال: لله ضد أو ليس له ضد؛ ومنهم من يقول يتصور التضاد فيها والله تعالى ليس له ضد يمنع ثبوته ووجوده بلا ريب؛ بل هو القاهر الغالب الذي لا يغلب . وقد يراد " بالضد " المعارض لأمره وحكمه وإن لم يكن مانعا من وجود ذاته كما قال النبي ﷺ {من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره} رواه أبو داود . وتسمية المخالف لأمره وحكمه ضدا كتسميته عدوا .

وبهذا الاعتبار فالمعادون المضادون لله كثيرون؛ فأما على التفسير الأول فلا ريب أنه ليس في نفس الأمر مضاد لله؛ لكن التضاد يقع في نفس الكفار فإن

الباطل ضد الحق والكذب ضد الصدق؛ فمن اعتقد في الله ما هو منزه عنه كان هذا ضدا للإيمان الصحيح به . وأما قوله: النور ضد الظلمة - وجل الحق أن يكون له ضد - فيقال له: والحي ضد الميت والعليم ضد الجاهل والسميع والبصير والذي يتكلم ضد الأصم الأعمى الأبكم وهكذا سائر ما سمي الله به من الأسماء لها أضداد وهو منزه عن أن يسمى بأضدادها فجل الله أن يكون ميتا أو عاجزا أو فقيرا ونحو ذلك . وأما وجود مخلوق له موصوف بضد صفته: مثل وجود الميت والجاهل والفقير والظالم فهذا كثير؛ بل غالب أسمائه لها أضداد موجودة في الموجودين . ولا يقال لأولئك إنهم أضداد الله ولكن يقال إنهم موصوفون بضد صفات الله؛ فإن التضاد بين الصفات إنما يكون في المحل الواحد لا في محلين فمن كان موصوفا بالموت ضادته الحياة ومن كان موصوفا بالحياة ضاده الموت والله سبحانه يمتنع أن يكون ظلمة أو موصوفا بالظلمة كما يمتنع أن يكون ميتا أو موصوفا بالموت . فهذا المعترض أخذ لفظ " الضد بالاشتراك " ولم يميز بين الضد الذي يضاد ثبوته ثبوت الحق وصفاته وأفعاله وبين أن يكون في مخلوقاته ما هو موصوف بضد صفاته وبين ما يضاده في أمره ونهيه فالضد الأول هو الممتنع وأما الآخران فوجودهما كثير؛ لكن لا يقال إنه ضد لله فإن المتصف بضد صفاته لم يضاده . والذين قالوا " النور ضد الظلمة " قالوا يمتنع اجتماعهما في عين واحدة لم يقولوا: إنه يمتنع أن يكون شيء موصوفا بأنه نور وشيء آخر موصوفا بأنه ظلمة؛ فليتدبر العاقل هذا التعطيل والتخليط . وأما قوله: لو كان نورا لم يجز إضافته إلى نفسه في قوله: {مثل نوره} فالكلام عليه من طريقين: (أحدهما) أن نقول: النص في كتاب الله وسنة رسوله قد سمى الله نور السموات والأرض وقد أخبر النص أن الله نور وأخبر

أيضا أنه يحتجب بالنور؛ فهذه ثلاثة أنوار في النص وقد تقدم ذكر الأول . (وأما الثاني) فهو في قوله: {وأشرقت الأرض بنور ربها} وفي قوله: {مثل نوره} وفيما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ {إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل .} ومنه قوله ﷺ في دعاء الطائف: {أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك} رواه الطبراني وغيره . ومنه قول ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه . ومنه قوله: ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: {قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه} . فهذا الحديث فيه ذكر حجابه . فإن تردد الراوي في لفظ النار والنور لا يمنع ذلك فإن مثل هذه النار الصافية التي كلم بها موسى يقال لها نار ونور كما سمى الله نار المصباح نورا بخلاف النار المظلمة كنار جهنم فتلك لا تسمى نورا . فالأقسام ثلاثة: "إشراق بلا إحراق " وهو النور المحض كالقمر . و" إحراق بلا إشراق " وهي النار المظلمة .

و" ما هو نار ونور " كالشمس ونار المصابيح التي في الدنيا توصف بالأمرين؛ وإذا كان كذلك صح أن يكون نور السموات والأرض وأن يضاف إليه النور وليس المضاف هو عين المضاف إليه . (الطريق الثاني) أن يقال: هذا يرد عليكم لا يختص بمن يسميه بما سمى به نفسه وبينه؛ فأنت إذا قلت: "هاد "

أو " منور " أو غير ذلك: فالمسمى " نورا " هو الرب نفسه؛ ليس هو النور المضاف إليه . فإذا قلت: "هو الهادي فنوره الهدى " جعلت أحد النورين عينا قائمة والآخر صفة؛ فهكذا يقول من يسميه نورا؛ وإذا كان السؤال يرد على القولين والقائلين كان تخصيص أحدهما بأنه مخالف لقوله ظلما ولددا في المحاجة أو جهلا وضلالا عن الحق . وأما ما ذكره من الأقوال: فلا ريب أن للناس فيها من الأقوال أكثر مما ذكره والموجود بأيدي الأمة من الروايات الصادقة والكاذبة والآراء المصيبة والمخطئة لا يحصيه إلا الله والكلام في " تفسير أسماء الله وصفاته وكلامه " فيه من الغث والسمين ما لا يحصيه إلا رب العالمين وإنما الشأن في الحق والعلم والدين . وقد كتبت قديما في بعض كتبي لبعض الأكابر: إن العلم ما قام عليه الدليل والنافع منه ما جاء به الرسول فالشأن في أن نقول علما وهو النقل المصدق والبحث المحقق فإن ما سوى ذلك - وإن زخرف مثله بعض الناس - خزف مزوق وإلا فباطل مطلق مثل ما ذكره في هذه الآية وغيرها . وهذه الكتب التي يسميها كثير من الناس " كتب التفسير " فيها كثير من التفسير منقولات عن السلف مكذوبة عليهم وقول على الله ورسوله بالرأي المجرد؛ بل بمجرد شبهة قياسية أو شبهة أدبية . فالمفسرون الذين ينقل عنهم لم يسمهم ومع هذا فقد ضعف قولهم بالباطل فإن القوم فسروا النور في الآية: بأنه الهادي؛ لم يفسروا النور في الأسماء الحسنى والحديث عن النبي ﷺ فلا يصح تضعيف قولهم بما ضعفه . ونحن إنما ذكرنا ذلك لبيان تناقضه وأنه لا يحتج علينا بشيء يروج على ذي لب فإن التناقض أول مقامات الفساد وهذا التفسير قد قاله طائفة من المفسرين . وأما كونه ثابتا عن ابن عباس أو غيره فهذا مما لم نثبته . ومعلوم أن في " كتب التفسير " من النقل عن ابن عباس من

الكذب شيئا كثيرا من رواية الكلبي عن أبي صالح وغيره فلا بد من تصحيح النقل لتقوم الحجة فليراجع " كتب التفسير " التي يحرر فيها النقل مثل تفسير محمد بن جرير الطبري الذي ينقل فيه كلام السلف بالإسناد - وليعرض عن تفسير مقاتل والكلبي - وقبله تفسير بقي بن مخلد الأندلسي وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم الشامي وعبد بن حميد الكشي وغيرهم إن لم يصعد إلى تفسير الإمام إسحاق بن راهويه وتفسير الإمام أحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة الذين هم أعلم أهل الأرض بالتفاسير الصحيحة عن النبي ﷺ وآثار الصحابة والتابعين كما هم أعلم الناس بحديث النبي ﷺ وآثار الصحابة والتابعين في الأصول والفروع وغير ذلك من العلوم . فإما أن يثبت أصلا يجعله قاعدة بمجرد رأي فهذا إنما ينفق على الجهال بالدلائل الأغشام في المسائل؛ وبمثل هذه المنقولات - التي لا يميز صدقها من كذبها والمعقولات التي لا يميز صوابها من خطئها - ضل من ضل من أهل المشرق في الأصول والفروع والفقه والتصوف . وما أحسن ما جاء هذا في آية النور التي قال الله تعالى فيها: {ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور} نسأل الله أن يجعل لنا نورا . ثم نقول: هذا القول الذي قاله بعض المفسرين في قوله: {الله نور السماوات والأرض} أي هادي أهل السموات والأرض لا يضرنا ولا يخالف ما قلناه فإنهم قالوه في تفسير الآية التي ذكر النور فيها مضافا؛ لم يذكروه في تفسير نور مطلق كما ادعيت أنت من ورود الحديث به؛ فأين هذا من هذا ؟ . ثم قول من قال من السلف: هادي أهل السموات والأرض لا يمنع أن يكون في نفسه نورا: فإن من عادة السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعض " صفات المفسر " من الأسماء أو بعض أنواعه؛ ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات للمسمى بل قد يكونان

متلازمين ولا دخول لبقية الأنواع فيه . وهذا قد قررناه غير مرة في القواعد المتقدمة ومن تدبره علم أن أكثر أقوال السلف في التفسير متفقة غير مختلفة . مثال ذلك قول بعضهم في {الصراط المستقيم} إنه الإسلام وقول آخر: إنه القرآن وقول آخر: إنه السنة والجماعة وقول آخر: إنه طريق العبودية . فهذه كلها صفات له متلازمة لا متباينة؛ وتسميته بهذه الأسماء بمنزلة تسمية القرآن والرسول بأسمائه: بل بمنزلة أسماء الله الحسنى . ومثال " الثاني " قوله تعالى: {فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات} فذكر منهم صنفا من الأصناف والعبد يعم الجميع . فالظالم لنفسه المخل ببعض الواجب والمقتصد القائم به والسابق المتقرب بالنوافل بعد الفرائض . وكل من الناس يدخل في هذا بحسب طريقه في التفسير والترجمة: ببيان النوع والجنس؛ ليقرب الفهم على المخاطب كما لو قال الأعجمي ما الخبز ؟ فقيل له: هذا وأشير إلى الرغيف . فالغرض الجنس لا هذا الشخص . فهكذا تفسير كثير من السلف وهو من جنس التعليم . فقول من قال: {الله نور السماوات والأرض} هادي أهل السموات والأرض كلام صحيح فإن من معاني كونه نور السموات والأرض أن يكون هاديا لهم؛ أما إنهم نفوا ما سوى ذلك فهذا غير معلوم وأما إنهم أرادوا ذلك فقد ثبت عن ابن مسعود أنه قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه . وقد تقدم عن النبي ﷺ من ذكر نور وجهه . وفي رواية " النور " ما فيه كفاية؛ فهذا بيان معنى غير الهداية . وقد أخبر الله في كتابه أن الأرض تشرق بنور ربها فإذا كانت تشرق من نوره كيف لا يكون هو نورا ؟ ولا يجوز أن يكون هذا النور المضاف إليه إضافة خلق وملك واصطفاء - كقوله: {ناقة الله} ونحو ذلك - لوجوه: (أحدها) أن النور لم يضف قط إلى الله إذا كان

صفة لأعيان قائمة فلا يقال في المصابيح التي في الدنيا؛ إنها نور الله ولا في الشمس والقمر وإنما يقال كما قال عبد الله بن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه وفي الدعاء المأثور عن النبي ﷺ {أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة} .

(الثاني) أن الأنوار المخلوقة كالشمس والقمر تشرق لها الأرض في الدنيا وليس من نور إلا وهو خلق من خلق الله وكذلك من قال: منور السموات والأرض لا ينافي أنه نور وكل منور نور فهما متلازمان . ثم إن الله تعالى ضرب مثل نوره الذي في قلوب المؤمنين بالنور الذي في المصباح وهو في نفسه نور وهو منور لغيره فإذا كان نوره في القلوب هو نور وهو منور فهو في نفسه أحق بذلك وقد علم أن كل ما هو نور فهو منور . وأما قول من قال: معناه منور السموات بالكواكب: فهذا إن أراد به قائله: أن ذلك من معنى كونه نور السموات وأنه أراد به ليس لكونه نور السموات والأرض معنى إلا هذا فهو مبطل؛ لأن الله أخبر أنه نور السموات والأرض؛ والكواكب لا يحصل نورها في جميع السموات والأرض . وأيضا فإنه قال: {مثل نوره كمشكاة فيها مصباح} فضرب المثل لنوره الموجود في قلوب المؤمنين؛ فعلم أن النور الموجود في قلوب المؤمنين نور الإيمان والعلم مراد من الآية؛ لم يضربها على النور الحسي الذي يكون للكواكب وهذا هو الجواب عما رواه عن ابن عباس في رواية أخرى وأبي العالية والحسن بعد المطالبة بصحة النقل والظن ضعفه عن ابن عباس لأنهم جعلوا ذلك من معاني النور أما إنهم يقولون قوله: {الله نور السماوات والأرض} ليس معناه إلا التنوير بالشمس والقمر والنجوم فهذا باطل قطعا . وقد قال ﷺ {أنت نور السموات والأرض ومن فيهن} ومعلوم أن العميان لا حظ لهم في ذلك

ومن يكون بينه وبين ذلك حجاب لا حظ له في ذلك والموتى لا نصيب لهم من ذلك وأهل الجنة لا نصيب لهم من ذلك فإن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر؛ كيف وقد روي أن أهل الجنة يعلمون الليل والنهار بأنوار تظهر من العرش مثل ظهور الشمس لأهل الدنيا فتلك الأنوار خارجة عن الشمس والقمر . وأما قوله: قد قيل: بالأدلة والحجج فهذا بعض معنى الهادي وقد تقدم الكلام على قوله: "هذا يبطل قوله إن التأويل دفع للظاهر ولم ينقل عن السلف " فإن هذا الكلام مكذوب علي وقد ثبت تناقض صاحبه وأنه لم يذكر عن السلف إلا ما اعترف بضعفه . وأما الذي أقوله الآن وأكتبه – وإن كنت لم أكتبه فيما تقدم من أجوبتي وإنما أقوله في كثير من المجالس – أن جميع ما في القرآن من آيات الصفات فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها . وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة وما رووه من الحديث ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير فلم أجد – إلى ساعتي هذه – عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئا من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف؛ بل عنهم من تقرير ذلك وتثبيته وبيان أن ذلك من صفات الله ما يخالف كلام المتأولين ما لا يحصيه إلا الله . وكذلك فيما يذكرونه آثرين وذاكرين عنهم شيئا كثيرا . وتمام هذا أني لم أجدهم تنازعوا إلا في مثل قوله تعالى: {يوم يكشف عن ساق} فروي عن ابن عباس وطائفة أن المراد به الشدة أن الله يكشف عن الشدة في الآخرة وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدوها في الصفات؛ للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين . ولا ريب أن ظاهر القرآن [لا] يدل على أن هذه من الصفات فإنه قال: {يوم يكشف عن ساق} نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله ولم يقل عن ساقه فمع عدم التعريف

بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر ومثل هذا ليس بتأويل إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف؛ ولكن كثير من هؤلاء يجعلون اللفظ على ما ليس مدلولا له ثم يريدون صرفه عنه ويجعلون هذا تأويلا، وهذا خطأ من وجهين كما قدمناه غير مرة . وأما قوله: "لو كان نورا حقيقة - كما تقوله المشبهة - لوجب أن يكون الضياء ليلا ونهارا على الدوام ": فنحن نقول بموجب ما ذكره من هذا القول . فإن المشبهة يقولون: إنه نور كالشمس؛ والله تعالى: {ليس كمثله شيء} فإنه ليس كشيء من الأنوار كما أن ذاته ليست كشيء من الذوات؛ لكن ما ذكره حجة عليه فإنه يمكن أن يكون نورا يحجبه عن خلقه كما قال في الحديث: {حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه} . لكن هنا غلط في النقل وهو إضافة هذا القول إلى المشبهة فإن هذا من أقوال الجهمية المعطلة أيضا كالمريسي فإنه كان يقول . إنه نور وهو كبير الجهمية؛ وإن كان قصده بالمشبهة من أثبت أن الله نور حقيقة فالمثبتة للصفات كلهم عنده مشبهة وهذه " لغة الجهمية المحضة " يسمون كل من أثبت الصفات مشبها . فقد قدمنا أن ابن كلاب والأشعري وغيرهما ذكرا أن نفي كونه نورا في نفسه هو قول الجهمية والمعتزلة وأنهما أثبتا أنه نور وقررا ذلك هما وأكابر أصحابهما فكيف بأهل الحديث وأئمة السنة . وأول هؤلاء المؤمنين بالله وبأسمائه وصفاته رسول الله ﷺ. وقد أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال الذي عارض به المعترض فقال ﷺ {حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه} . فأخبر أنه حجب عن المخلوقات بحجابه النور أن تدركها سبحات وجهه وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه فهذا

الحجاب عن إحراق السبحات يبين ما يرد في هذا المقام . وأما ما ذكره عن ابن عباس في روايته الأخرى فمعناه بعض الأنوار الحسية وما ذكره من كلام العارفين؛ فهو بعض معاني هدايته لعباده وإنما ذلك تنويع بعض الأنواع بحسب حاجة المخاطبين كما ذكرناه من عادة السلف أن يفسروها بذكر بعض الأنواع يقع على سبيل التمثيل لحاجة المخاطبين لا على سبيل الحصر والتحديد . فقد تبين أن جميع ما ذكر من الأقوال يرجع إلى معنيين من معاني كونه نور السموات والأرض وليس في ذلك دلالة على أنه في نفسه ليس بنور .

(باب ذكر مسائل الإيمان بالنزول)

اعلم رحمني الله وإياك أن (النزول والهبوط إلى السماء الدنيا) كلاهما صفة فعلية خبرية ثابتة لله ﷻ بالسنة الصحيحة.

قال الإمام الشافعي رحمه الله «القول في السنة التي أنا عليها ورأيت أصحابنا عليها، أهل الحديث الذين رأيتهم فأخذت عنهم، مثل سفيان [بن عيينة] ومالك وغيرهما: الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. وأن الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء. وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء»[١].

وقال أبو سعيد الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٧٩) بعد أن ذكر ما يثبت النُّزول من أحاديث رسول الله ﷺ: فهذه الأحاديث قد جاءت كلها وأكثر منها في نزول الرب تبارك وتعالى في هذه المواطن، وعلى تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا، لا ينكرها منهم أحد، ولا يمتنع من روايتها.اهـ.

---

(١) الوصية (ص٥٤) .

وقال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ «وأنه سبحانه وتعالى يهبط كل ليلة وينزل إلى السماء الدنيا، لخبر رسول الله ﷺ»(١).

وقال إمام الأئمة محمد بن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٢٨٩): باب: ذكر أخبار ثابتة السند صحيحة القوام، رواها علماء الحجاز والعراق عن النبي ﷺ في نزول الرب جل وعلا إلى السماء الدنيا كل ليلة: نشهد شهادة مقر بلسانه، مصدق بقلبه، مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نُزول الرب، من غير أن نصف الكيفية؛ لأنَّ نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا، وأعلمنا أنه يَنْزل، والله جل وعلا لم يترك ولا نبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ بيان ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم؛ فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النُّزول، غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية؛ إذ النبي ﷺ لم يصف لنا كيفية النُّزول. وفي هذه الأخبار ما بان وثبت وصح أنَّ الله جل وعلا فوق سماء الدنيا الذي أخبرنا نبينا ﷺ أنه يَنْزل إليه، إذ محال في لغة العرب أن يقول: نزل من أسفل إلى أعلى، ومفهوم في الخطاب أنَّ النُّزول من أعلى إلى أسفل.اهـ.

وقال أبو العباس السراج رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لم يقر ويؤمن بأن الله تعالى يعجب، ويضحك، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، فيقول: «من يسألني فأعطيه؟» فهو زنديق كافر، يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين»(٢).

قال الذهبي معقبا على هذا الأثر: «قلت: إنما يكفر بعد علمه بأن الرسول

---

(١) التبصير في معالم الدين (ص١٣٦).
(٢) العلو (ص٥٣٤).

ﷺ قال ذلك، ثم إنه جحد ذلك ولم يؤمن به»[١].

وقال أبو بكر بن أبي داود محدث بغداد:

تمسك بحبل الله واتبع الهدى ولا تك بدعيا لعلك تفلح
ودن بكتاب الله والسنن التي أتت عن رسول الله تنجو وتربح
وقل: ينزل الجبار في كل ليلة بلا كيف، جل الواحد المتمدح
إلى طبق الدنيا يمن بفضله فتفرج أبواب السماء وتفتح
يقول: ألا مستغفر يلق غافرا ومستمنح خيرا ورزقا فيمنح
روى ذاك قوم لا يرد حديثهم ألا خاب قوم كذبوهم وقبحوا[٢]

وقال أبو الحسن الأشعري: «ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا، وأن الرب عز وجل يقول: هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ وسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافا لما قاله أهل الزيغ والتضليل.

ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا وإجماع المسلمين وما كان في معناه.

ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن به لنا، ولا نقول على الله ما لا نعلم»[٣].

وقال رحمه الله: «ومما يؤكد أن الله عز وجل مستو على عرشه دون الأشياء كلها ما نقله أهل الرواية عن رسول الله ﷺ. وذكر حديث النزول بالسند عن ثلاثة من الصحابة وهم: جبير بن مطعم وأبو هريرة ورفاعة الجهني رضي الله عنهم»[٤].

---

(١) العلو (ص٢١٤). وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٩٦).
(٢) السير (١٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤).
(٣) الإبانة (ص٢٩ - ٣٠).
(٤) الإبانة (ص١١٠ - ١١٢).

وقال ابن أبي زمنين: "ومن قول أهل السنة أن الله ينزل إلى سماء الدنيا ويؤمنون بذلك من غير أن يروا فيه حدًا"(١).

كما نص على إجماع السلف على ذلك الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف فيما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية(٢).

وقد ألف الدارقطني كتابًا سماه "أحاديث النزول" تضمن ستة وتسعين حديثًا وأثرًا في إثبات هذه الصفة، كما ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابًا سماه "شرح حديث النزول" قرر فيه هذه الصفة على ضوء عقيدة السلف ورد على المخالفين.

وقال أبو عمرو الداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن قولهم: إن الله جل جلاله وتقدست أسماؤه: ينزل في كل ليلة إلى السماء الدنيا في الثلث الباقي من الليل، فيقول: «هل من داع يدعوني فأستجيب له، وهل من سائل يسألني فأعطيه، وهل من مستغفر يستغفرني فأغفر له؟» حتى ينفجر الصبح، على ما صحت به الأخبار، وتواترت به الآثار عن رسول الله ﷺ. نزوله تبارك وتعالى كيف شاء، بلا حد، ولا تكييف.

وهذا دين الأمة، وقول أهل السنة في هذه الصفات أن تمر كما جاءت بغير تكييف، ولا تحديد، فمن تجاوز المروي فيها وكيف شيئا منها ومثلها بشيء من جوارحنا وآلتنا فقد ضل واعتدى، وابتدع في الدين ما ليس منه، وخرق إجماع

---

(١) انظر أصول السنة ورقة ٤/ ب، وانظر السنة لابن أبي عاصم ١/ ٢١٦، والشريعة للآجري ص٣٠٦، واعتقاد أهل السنة للالكائي ٢/ ٤١٨، وعقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني ص١١٢، ومختصر العلو للذهبي (ص١٢٨).
(٢) انظر الحموية الكبرى (ص٤٦).

المسلمين، وفارق أئمة الدين»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فمن صحيح ما أتى به الأثر ... وشاع في الناس قديما وانتشر

نزول ربنا بلا امتراء ... في كل ليلة إلى السماء

من غير ما حد ولا تكييف ... سبحانه من قادر لطيف[٢]

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقا على حديث النزول: «هذا حديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد، لا يختلف أهل الحديث في صحته، وفيه[٣] دليل على أن الله عَزَّوَجَلَّ في السماء على العرش من فوق سبع سماوات، وعلمه في كل مكان كما قالت الجماعة أهل السنة أهل الفقه والأثر[٤]، ثم ذكر آيات دالة على علو الله تعالى[٥].

قال: وأما قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: «ينزل ربنا»، فالذي عليه أهل العلم من أهل السنة والحق الإيمان بمثل هذا وشبهه من القرآن والسنن دون كيفية فيقولون: ينزل ولا يقولون كيف النزول ولا يقولون كيف الاستواء ولا كيف المجيء في قوله عَزَّوَجَلَّ: {وجاء ربك والملك صفا صفا ۞} [الفجر: ٢٢]، ولا كيف التجلي في قوله: {فلما تجلى ربه للجبل} [الأعراف: ١٤٣]»[٦].

وقال الإمام أبو إسماعيل الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٤٩هـ) «ويثبت أصحاب

---

(١) الرسالة الوافية (ص١٣٤ - ١٣٨).

(٢) الأرجوزة المنبهة (ص١٩٤)، للحافظ: أبي عمرو الداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) التمهيد (٧/ ١٢٨).

(٤) الاستذكار (٨/ ١٤٨).

(٥) التمهيد (٧/ ١٢٩).

(٦) الاستذكار (٨/ ١٥١ - ١٥٢).

الحديث نزول الرب سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، من غير تشبيه له بنزول المخلوقين، ولا تمثيل ولا تكييف، بل يثبتون ما أثبته رسول الله ﷺ، وينتهون فيه إليه، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره»[1] - إلى أن قال: «فلما صح خبر النزول عن رسول الله ﷺ، أقر به أهل السنة، وقبلوا الخبر، وأثبتوا النزول على ما قاله رسول الله ﷺ، ولم يعتقدوا تشبيها له بنزول خلقه، ولم يبحثوا عن كيفيته إذ لا سبيل إليها بحال، وعلموا وتحققوا واعتقدوا أن صفات الله سبحانه وتعالى لا تشبه صفات الخلق كما أن ذاته لا تشبه ذوات الخلق، تعالى الله عما يقول المشبهة والمعطلة علوا كبيرا، ولعنهم لعنا كثيرا»[2].

وقال الإمام الإسماعيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٦٩هـ): «وأنه عَزَّ وَجَلَّ ينزل إلى السماء الدنيا على ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ بلا اعتقاد كيفية»[3].

وقال الذهبي: "وأحاديث نزول الباري متواترة قد سقت طرقها وتكلمت عليها بما أسأل عنه يوم القيامة"[4].

وقال أبو الخطاب الكلواذاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥١٠هـ) في عقيدته:

قالوا: النزول؟ فقلت: ناقله لنا ... قوم تمسكهم بشرع محمد

قالوا: فكيف نزول؟ فأجبتهم ... لم ينقل التكييف لي في مسند[5]

وقال الشيخ عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص٣٢).

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص٤٦).

(٣) اعتقاد أئمة أهل الحديث (ص٦٢).

(٤) انظر مختصر العلو (ص١١٠).

(٥) إتمام المنة بشرح اعتقاد أهل السنة (ص٧١).

والله ينـــزل كـــل آخـــر ليلـــة لـــسمائه الـــدنيا بـــلا كتمـــان
فيقـول: هـل مـن سـائل فأجيبـه فأنـا القريـب أجيـب مـن نـاداني
حاشـا الإلـه بـأن تكيـف ذاتـه فـالكيف والتمثيـل منتفيـان
والأصـل أن الله لـيس كمثلـه شـيء تعـالى الـرب ذو الإحـسان[١]

وقال أبو الطيب: حضرت عند أبي جعفر الترمذي (٢٩٥هـ) فسأله سائل عن حديث نزول الرب، فالنزول كيف هو يبقى فوقه علو؟ فقال: «النزول معقول، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[٢].

قال الإمام الذهبي معقبا: «صدق فقيه بغداد وعالمها في زمانه، إذ السؤال عن النزول ما هو؟ عي، لأنه إنما يكون السؤال عن كلمة غريبة في اللغة، وإلا فالنزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جلية واضحة للسامع، فإذا اتصف بها من ليس كمثله شيء، فالصفة تابعة للموصوف، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر»[٣].

وقد ذكر ابن القيم تسعة وعشرين صحابيًا رووا أحاديث النزول عن رسول الله ﷺ[٤].

وقال ابن حجر آل بوطامي: "... والحاصل أن حديث النزول حديث صحيح فقد رواه نحو من ثمانية وعشرين صحابيًا عن النبي ﷺ واشتملت عليه كتب الإسلام كالبخاري ومسلم ومسند أحمد وموطأ مالك، ورواه علماء

---

(١) نونية القحطاني (ص٩٦ - ٩٧).
(٢) أخرجه الذهبي في «العلو» (ص١٢٢٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مختصر العلو» (ص٢٣١).
(٣) العلو (ص١٢٢٩).
(٤) انظر الصواعق ٢/ ٢٣٠، ولوامع الأنوار البهية (١/ ٢٤٢).

الحجاز والعراق، وأطبق على اعتقاد نزوله بلا كيف جميع علماء الأمصار، كالإمام أبي حنيفة ومالك والسفيانين والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وسائر المحدثين والفقهاء، ولم يخالف في ذلك إلا أهل التعطيل والتأويل هدانا الله وإياهم سواء السبيل"(١).

وقد ذهب الخلف إلى تأويل هذه الصفة قائلين: إن المراد من النزول نزول أمره ورحمته، وقد رد عليهم أعلام السلف في ذلك، قال الدارمي في رده على بشر المريسي: "... وهذا أيضًا من حجج النساء والصبيان ومن ليس عنده بيان، ولا لمذهبه برهان، لأن أمر الله ورحمته ينزل في كل ساعة ووقت وأوان..."؟.

وقد حاول المعطلة الاعتراض على أحاديث النزول من وجه آخر قائلين: إن ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان، فلا يمكن أن يكون النزول في وقت معين، ولقد رد عليهم ابن رجب الحنبلي بعد حكاية قولهم قائلًا: "ومعلوم قبح هذا الاعتراض، وأن الرسول ﷺ أو خلفاءه الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه، بل بادروا بعقوبته وإلحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين"(٢).

مسألة: هل يخلو العرش منه سبحانه حال نزوله

قدمنا هذه المسألة في باب الإيمان بالعرش.

مسألة: في وقت النزول.

قال المباركفوري في مرعاة المفاتيح (٤/ ٢٢١): اختلف الروايات في تعيين الوقت على ستة أقوال: الأولى هي حين يبقى ثلث الليل الآخر، قال الترمذي: هذا أصح الروايات في ذلك. وقال العراقي: أصحها ما صححه الترمذي. وقال

(١) انظر كتابه العقائد السلفية (ص٧٦).

(٢) انظر فضل علم السلف على الخلف (ص٦)، كما رد عليهم ابن تيمية في شرح حديث النزول ص٦٨- ١٠٦، والهراس في تعليقه على كتاب التوحيد لابن خزيمة ص١٢٨.

الحافظ: ويقوي ذلك أن الروايات المخالفة له اختلف فيها على رواتها. والثانية: حين يمضي الثلث الأول، وهي عند الترمذي ومسلم. والثالثة: حين يبقى نصف الليل الآخر. وفي لفظ: إذا كان شطر الليل. وفي آخر: إذا مضى شطر الليل. الرابعة: ينزل الله تعالى شطر الليل أو ثلث الليل الآخر على الشك أو التنويع. الخامسة: إذا مضى نصف الليل أو ثلث الليل أي الأول. وفي لفظ: إذا ذهب ثلث الليل أو نصفه. والسادسة: الإطلاق ولا تعارض بين رواية من عين الوقت ومن لم يعين، كما هو ظاهر جلي، فالروايات المطلقة تحمل على المقيدة. وأما من عين الوقت، واختلفت ظواهر رواياتهم، فقد صار بعض العلماء إلى الترجيح كالترمذي على ما تقدم، إلا أنه عبر بالأصح، فلا يقتضي تضعيف غير تلك الرواية، وأما القاضي عياض فعبر في الترجيح بالصحيح، فاقتضى ضعف الرواية الأخرى، ورده النووي بأن مسلما رواها في صحيحه بإسناد لا يطعن فيه عن صحابيين، فكيف يضعفها؟ وإذا أمكن الجمع ولو على وجه فلا يصار إلى التضعيف. قال النووي: ويحتمل أن يكون النبي ﷺ أعلم بأحد الأمرين في وقت فأخبر به، ثم أعلم بالآخر في وقت فأعلم به، وسمع أبوهريرة الخبرين جميعا فنقلهما، وسمع أبوسعيد الخدري خبر الثلث الأول فقط فأخبر به-انتهى. وقال الحافظ: أما الرواية التي بأو، فإن كانت أو للشك فالمجزوم به مقدم على المشكوك فيه، وإن كانت للتردد بين حالين فيجمع بين الروايات بأن ذلك يقع بحسب اختلاف الأحوال، لكون أوقات الليل تختلف في الزمان، وفي الآفاق باختلاف تقدم دخول الليل عند قوم، وتأخره عند قوم. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون النزول يقع في الثلث الأول، والقول يقع في النصف وفي الثلث الثاني. وقيل: يحتمل على أن ذلك يقع في جميع الأوقات

التي وردت بها الأخبار، ويحمل على أن النبي ﷺ أعلم بأحد الأمور في وقت فأخبر به، ثم أعلم به في وقت آخر فأخبر به، فنقل الصحابة ذلك عنه-انتهى كلام الحافظ. وقال القاري: لا تنافي بين الروايات، لأنه يحتمل أن يكون النزول في بعض الليالي هكذا وفي بعضها هكذا، كذا قاله ابن حبان. وقال ابن حجر: ويحتمل أن يتكرر النزول عند الثلث الأول والنصف والثلث الأخير، واختص بزيادة الفضل لحثه على الاستغفار بالأسحار، ولإتفاق الصحيحين على روايته-انتهى.

وقال العلامة الألباني في تمام المنة (ص١٨٢): قوله -أي السيد سابق-: "... النزول الإلهي هل يدوم إلى انقضاء صلاة الصبح أو إلى طلوع الفجر؟ وقد ورد فيه هذا وهذا".

يعني بـ"النزول الإلهي" قوله ﷺ: "ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له؟". وهو حديث صحيح متواتر جاء عن جمع من الصحابة خرجت قسما طيبا منها في "الإرواء" ٤٥٠ و"صحيح أبي داود" ١١١٨ زاد بعضهم: "حتى ينفجر وفي رواية: يطلع الفجر".وقد كنت قلت في "التعليقات الجياد على زاد المعاد ": "لكن معظم الرواة اتفقوا على أنه يدوم إلى طلوع الفجر كما قال الحافظ في "الفتح" ٣ / ٢٤ وأما دوامه إلى صلاة الفجر فلم أجد رواية صريحة تؤيد ذلك نعم في رواية للنسائي من حديث أبي هريرة بلفظ: "حتى ترجل الشمس" فهي تتضمن ما ذكره المصنف أي ابن القيم لكنها رواية شاذة كما قال الحافظ". وأقول الآن: لعل الخطأ فيها من محمد بن إسماعيل بن أبي فديك فإنه عند النسائي في "عمل اليوم والليلة" رقم ٤٨٦ وابن خزيمة في

"التوحيد" ص ٨٦ - ٨٧ من طريقه: حدثني ابن أبي ذئب عن القاسم بن عباس عن نافع ابن جبير عن أبي هريرة فإن ابن أبي فديك وإن كان ثقة محتجا به في "الصحيحين" فقد قال فيه ابن سعد: "كان كثير الحديث وليس بحجة" ومن المحتمل أن يكون الخطأ من شيخه القاسم بن عباس فإنه مع كونه ثقة من رجال مسلم أيضا فقد لينه محمد ابن البرقي الحافظ وقال ابن المديني: "مجهول" كما في "الميزان". ولعل هذا هو الأقرب فقد خالفه عمرو بن دينار - وهو الثقة الثبت - إسنادا ومتنا فقال عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه مرفوعا بلفظ: "حتى يطلع الفجر" أخرجه ابن خزيمة في "التوحيد" ص ٨٨ وأحمد ٤ / ٨١ وغيرهما وهو مخرج في كتابي "ظلال الجنة في تخريج السنة" ٥٠٧. ثم وجدت روايتين أخريين:

الأولى: بلفظ: "حتى تطلع الشمس". أخرجه ابن خزيمة أيضا من طريق إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص رفعه. قلت: وهذا مع كونه مرسلا فهو ضعيف من أجل إبراهيم هذا وهو ابن مسلم. قال الحافظ في "التقريب ": "لين الحديث رفع موقوفات".

والأخرى بلفظ: "حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارئ من صلاة الفجر". أخرجه الدارمي ٣٤٦ - ٣٤٧ وابن خزيمة وأحمد ٢ / ٥٠٤ من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعا به. قلت: وهذا مع كونه قد شك فيه الراوي فهو مما لا قيمة له فكيف ومحمد ابن عمرو فيه كلام من قبل حفظه فكيف وقد خالفه الزهري ويحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بلفظ: "حتى الفجر". بغير شك. رواه مسلم وغيره. وبالجملة فلا يصح في الحديث إلا هذا اللفظ الأخير وعليه كل الروايات الصحيحة فيه. والله سبحانه وتعالى أعلم.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في شرح حديث النزول (ص١٠٧): وإذا كان كذلك - والنزول المذكور في الحديث النبوي على قائله أفضل الصلاة والسلام الذي اتفق عليه الشيخان: البخاري ومسلم، واتفق علماء الحديث على صحته: هو " إذا بقي ثلث الليل الآخر "وأما رواية "النصف والثلثين" فانفرد بها مسلم في بعض طرقه، وقد قال الترمذي: إن أصح الروايات عن أبي هريرة: "إذا بقي ثلث الليل الآخر". وقد روي عن النبي ﷺ من رواية جماعة كثيرة من الصحابة كما ذكرنا قبل هذا؛ فهو حديث متواتر عند أهل العلم بالحديث، والذي لا شك فيه إذا بقي ثلث الليل الآخر.

فإن كان النبي ﷺ قد ذكر [النزول] أيضًا إذا مضى ثلث الليل الأول وإذا انتصف الليل؛ فقوله حق وهو الصادق المصدوق، ويكون النزول أنواعًا ثلاثة: الأول إذا مضى ثلث الليل الأول، ثم إذا انتصف وهو أبلغ، ثم إذا بقي ثلث الليل، وهو أبلغ الأنواع الثلاثة.

ولفظ " الليل والنهار " في كلام الشارع إذا أطلق، فالنهار من طلوع الفجر، كما في قوله سبحانه وتعالى: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ} [هود: ١١٤]، وكما في قوله ﷺ: "صم يومًا وأفطر يومًا " وقوله: "كالذي يصوم النهار ويقوم الليل " ونحو ذلك، فإنما أراد صوم النهار من طلوع الفجر، وكذلك وقت صلاة الفجر، وأول وقت الصيام بالنقل المتواتر المعلوم للخاصة والعامة والإجماع الذي لا ريب فيه بين الأمة، وكذلك في مثل قوله ﷺ: "صلاة الليل مَثْنَى مَثْنَى، فإذا خِفْتَ الصبح فأوتر بركعة". ولهذا قال العلماء - كالإمام أحمد بن حنبل وغيره -: إن صلاة الفجر من صلاة النهار.

وأما إذا قال الشارع ﷺ: "نصف النهار " فإنما يعني به النهار المبتدئ من

طلوع الشمس، لا يريد قط ـ لا في كلامه ولا في كلام أحد من علماء المسلمين بنصف النهار ـ النهار الذي أوله من طلوع الفجر؛ فإن نصف هذا يكون قبل الزوال؛ ولهذا غلط بعض متأخري الفقهاء ـ لما رأى كلام العلماء أن الصائم المتطوع يجوز له أن ينوي التطوع قبل نصف النهار؛ وهل يجوز له بعده؟ على قولين هما روايتان عن أحمد ـ ظن أن المراد بالنهار هنا نهار الصوم الذي أوله طلوع الفجر. وسبب غلطه في ذلك أنه لم يفرق بين مسمى النهار إذا أطلق، وبين مسمى نصف النهار، فالنهار الذي يضاف إليه نصف في كلام الشارع وعلماء أمته هو من طلوع الشمس، والنهار المطلق في وقت الصلاة والصيام من طلوع الفجر.

والنبي ﷺ لما أخبر بالنزول إذا بقي ثلث الليل، فهذا الليل ـ المضاف إليه الثلث يظهر أنه من جنس النهار المضاف إليه النصف ـ وهو الذي ينتهي إلى طلوع الشمس، وكذلك لما قال النبي ﷺ: "وقت العشاء إلى نصف الليل" أو " إلى الثلث "، فهو هذا الليل. وكذلك الفقهاء إذا أطلقوا ثلث الليل ونصفه؛ فهو كإطلاقهم نصف النهار. وهكذا أهل الحساب لا يعرفون غير هذا.

وقد يقال: بل هو الليل المنتهي بطلوع الفجر كما في الحديث الصحيح: "أفضل القيام قيام داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه". واليوم المعتاد المشروع إلى طلوع الشمس بل إلى طلوع الفجر. فإن كان المراد بالحديث هذا، وحينئذ فإذا قدر ثلث الليل في أول المشرق يكون قبل طلوع الشمس عليهم بأربع ساعات، وقد قال النبي ﷺ: "ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ حتى يطلع الفجر". فقد أخبر بدوامه إلى طلوع

الفجر، وفي رواية: (إلى أن ينصرف القارئ من صلاة الفجر) . وقد قال تعالى: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الإسراء: ٧٨] تشهده ملائكة الليل والنهار، وقد قيل: يشهده الله وملائكته.

وإذا كان هذا النزول يدوم نحو سدس عند أولئك، فهكذا هو عند كل قوم إذا مضى ثلثًا ليلهم يدوم عندهم سدس الزمان، وأما النزول الذي في النصف أو الثلثين، فإنه يدوم ربع الزمان أو ثلثه، فهو أكثر دوامًا من ذلك. وإن أريد الليل المنتهي بطلوع الشمس، كان وقت النزول أقل من ذلك فيكون قريبًا من ثمن الزمان وتُسعه، وعلى رواية النصف والثلث يكون قريبًا من سدسه وربعه وأكثر من ذلك.

ومعلوم أن زمن ثلث ليل البلد الشرقي قبل ثلث ليل البلد الغربي كما قد عرف، والعمارة طولها اثنتا عشرة ساعة، مائة وثمانون درجة، فلو قدر أن لكل مقدار ساعة ـ وهو خمس عشرة درجة من المعمور ـ ثلثا غير ثلث مقدار الساعة الأخرى، لكان المعمور ستة وثلاثين ثلثًا، والنزول يدوم في كل ثلث مقدار سدس الزمان، فيلزم أن يكون النزول يدوم ليلًا ونهارًا، أنه يدوم بقدر الليل والنهار ست مرات، إذا قدر أن لكل طول ساعة من المعمور ثلثًا فكيف النزول الإلهي إلى السماء الدنيا لدعاء عباده الساكنين في الأرض؟

فكل أهل بلد من البلاد يبقي نزوله ودعاؤه لهم: هل من سائل؟ هل من داع؟ هل من مستغفر؟ سدس الزمان، والبلاد من المشرق إلى المغرب كثيرة. والإسلام -ولله الحمد- قد انتشر من المشرق إلى المغرب، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (زُوِيَتْ لي الأرض، مشارقها ومغاربها، وسَيَبْلُغ مُلْكُ أمتي ما زُوِي لي منها) [وقوله: (زُوِيَتْ): أي جُمِعت] . وإنما ذكرنا هذا؛ لأنه

قد يقال: إن هذا [النزول، والدعاء] إنما هو لعباده المؤمنين الذين يعبدونه ويسألونه ويستغفرونه؛ كما أن [نزول عَشِيَّةَعَرَفَة] إنما هو لعباده المؤمنين الذين يحجون إليه، وكما أن رمضان إذا دخل فتحت أبواب الجنة لعباده المؤمنين الذين يصومون رمضان، وعنهم تغلق أبواب النار، وتُصَفَّد [أي: تُوثق وتُقيَّد] . شياطينهم، وأما الكفار الذين يستحلون إفطار شهر رمضان ولا يرون له حرمة ومزية فلا تفتح لهم فيه أبواب الجنة ولا تغلق عنهم فيه أبواب النار، ولا تصفد شياطينهم.

وليس المقصود هنا بسط هذا المعنى، بل المقصود أن النزول إن كان خاصًا بالمؤمنين، فهم -ولله الحمد- من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وإن كان عامًا؛ فهو أبلغ، فعلى كل تقدير لابد أن يدوم النزول الإلهي على أهل كل بلد مقدار سدس الزمان أو أكثر. فإنه إذا قيل: ليل صيفهم قصير، قيل: وليل شتائهم طويل، فيعادل هذا هذا، وما نقص من ليل صيفهم زيد في ليل شتائهم؛ ولهذا جاء في الأثر: (الشتاء ربيع المؤمن؛ يصوم نهاره، ويقوم ليله) .

وإذا كان كذلك، فلو كان النزول كما يتخيله بعض الجهال من أنه يصير تحت السموات وفوق السماء الدنيا وتحت العرش مقدار ثلث الليل على كل بلد، لم يكن اللازم أنه لا يزال تحت العرش وتحت السموات فقط؛ فإن هذا إنما يكون وحده هو اللازم إذا كان كل سدس من المعمور لهم كلهم ثلث واحد، وكان المجموع ستة أثلاث، فإذا قدر بقاؤه على هؤلاء مقدار ثلث، ثم على هؤلاء الآخرين مقدار ثلث، لزم ألا يزال تحت العرش، أو تحت السموات، أو حيث تخيل الجاهل أن الله محصور فيه، فلا يكون قط فوق العرش.

وأما إذا كان لكل بلد ثلث غير الثلث الآخر، وأن أول كل بلد بعد الثلث الآخر، يقدر ما بينهما، وكذلك آخر ثلث ليل البلد الشرقي ينقضي قبل انقضاء ثلث ليل البلد الغربي، وأيضًا، إن كانت مداخلة، فلابد أن يدوم النزول على كل بلد ثلث ليلهم إلى طلوع فجرهم، فيلزم من ذلك أن يقدر أثلاث بقدر عدد البلاد.

وأيضًا، فكما أن ثلث الليل يختلف بطول البلد، فهو يختلف بعرضها أيضًا. فكلما كان البلد أدخل في الشمال، كان ليله في الشتاء أطول، وفي الصيف أقصر. وما كان قريبًا من خط الاستواء يكون ليله في الشتاء أقصر من ليل ذاك وليله في الصيف أطول من ليل ذاك، فيكون ليلهم ونهارهم أقرب إلى التساوي.

وحينئذ، فالنزول الإلهي لكل قوم هو مقدار ثلث ليلهم، فيختلف مقداره بمقادير الليل في الشمال والجنوب، كما اختلف في المشرق والمغرب. وأيضًا، فإنه إذا صار ثلث الليل عند قوم، فبعده بلحظة ثلث الليل عند ما يقاربهم من البلاد، فيحصل النزول الإلهي الذي أخبر به الصادق المصدق ـ أيضًا ـ عند أولئك إذا بقي ثلث ليلهم، وهكذا إلى آخر العمارة.

فلو كان كما توهمه الجاهل، من أنه يكون تحت العرش، وتكون فوقه السماء وتحته السماء؛ لكان هذا ممتنعًا من وجوه كثيرة:

منها: أنه لا يكون فوق العرش قط بل لا يزال تحته، ومنها: أنه يجب على هذا التقدير أن يكون الزمان بقدر ما هو مرات كثيرة جدًا ليقع كذلك، ومنها: أنه مع دوام نزوله إلى سماء هؤلاء إلى طلوع فجرهم، إن أمكن مع ذلك، أن يكون قد نزل على غيرهم أيضًا، ممن ثلث ليلهم يخالف ثلث هؤلاء في التقديم والتأخير والطول والقصر.

فهذا خلاف ما تخيلوه، فإنهم لا يمكنهم أن يتخيلوا نازلًا كنزول العباد، من يكون نازلا على سماء هؤلاء ثلث ليلهم، وهو ـ أيضًا ـ في تلك الساعة نازلًا على سماء آخرين، مع أنه يجب أن يتقدم على أولئك أو يتأخر عنهم، أو يزيد أو يقصر.

وحكى عن بعض الجهال أنه قيل له: فالسموات كيف حالها عند نزوله؟ قال: يرفعها، ثم يضعها، وهو قادر على ذلك. فهؤلاء الذين يتخيلون ما وصف رسول الله ﷺ به ربه أنه مثل صفات أجسامهم، كلهم ضالون، ثم يصيرون قسمين:

قسم علموا أن ذلك باطل، وظنوا أن هذا ظاهر النص ومدلوله، وأنه لا يفهم منه معنى إلا ذلك، فصاروا: إما أن يتأولوه تأويلًا يحرفون به الكلم عن مواضعه. وإما أن يقولوا: لا يفهم منه شيء، ويزعمون أن هذا مذهب السلف.

ويقولون: إن قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾ [آل عمران: ٧] يدل على أن معنى المتشابه لا يعلمه إلا الله، والحديث منه متشابه ـ كما في القرآن ـ وهذا من متشابه الحديث، فيلزمهم أن يكون الرسول الذي تكلم بحديث النزول لم يَدْرِ هو ما يقول، ولا ما عنى بكلامه ـ وهو المتكلم به ابتداء. فهل يجوز لعاقل أن يظن هذا بأحد من عقلاء بنى آدم؟ ! فضلًا عن الأنبياء! فضلا عن أفضل الأولين والآخرين، وأعلم الخلق، وأفصح الخلق، وأنصح الخلق للخلق ﷺ؟ ! وهم مع ذلك يدعون أنهم أهل السنة، وإن هذا القول الذي يصفون به الرسول وأمته هو قول أهل السنة.

ولا ريب أنهم لم يتصوروا حقيقة ما قالوه ولوازمه. ولو تصوروا ذلك لعلموا أنه يلزمهم ما هو من أقبح أقوال الكفار في الأنبياء، وهم لا يرتضون مقالة

من ينتقص النبي ﷺ، ولو تنقصه أحد لاستحلوا قتله. وهم مصيبون في استحلال قتل من يقدح في الأنبياء عليهم السلام، وقولهم يتضمن أعظم القَدْح؛ لكن لم يعرفوا ذلك. ولازم القول ليس بقول، فإنهم لو عرفوا أن هذا يلزمهم ما التزموه.

وقسم ثان، من الممثلين لله بخلقه، لما رأوا أن قول هؤلاء منكر، وأن قول الرسول ﷺ حق، قالوا مثل تلك الجهالات: من أنه تصير فوقه سماء وتحته سماء، أو أن السموات ترتفع ثم تعود، ونحو ذلك مما يظهر بطلانه لمن له أدنى عقل ولُبٍّ.

وقد سئل علماء اللجنة الدائمة (٣/ ١٨٦): جرى بيني وبين أحد المثقفين في علومهم الحديثة من مدرسي الجامعة أبيدجان ساحل العاج حيث يقول « إن ربكم ينزل إلى السماء الدنيا في آخر كل ليلة » قلت له بلا شك، وقرأت الحديث له، وقال إن ثبت ذلك معناه أن ربكم لم يستقر على العرش كما هو في القرآن {عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}؛ لأن آخر الليل لم تزل على بقعة من الأرض من بقعاتها حسب دورانها حول نفسها بقدرة الله تعالى حتى تقوم الساعة فتوقفت وسكت؟

فأجابوا: لا تعارض بين نزوله تعالى إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من كل ليلة مع اختلاف الأقطار وبين استوائه ﷻ على العرش؛ لأنه سبحانه لا يشبه خلقه في شيء من صفاته، ففي الإمكان أن ينزل كما يشاء نزولا يليق بجلاله في ثلث الليل الأخير بالنسبة إلى كل قطر، ولا ينافي ذلك علوه واستواءه على العرش؛ لأننا في ذلك لا نعلم كيفية النزول ولا كيفية الاستواء، بل ذلك مختص به سبحانه، بخلاف المخلوق فإنه يستحيل في حقه أن ينزل في مكان ويوجد بمكان آخر في تلك اللحظة كما هو معلوم إلا الله ﷻ فهو على كل شيء

قدير، ولا يقاس ولا يمثل بهم؛ لقوله ﷻ: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} وقوله سبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ومما ذكرناه يتضح لك أنه لا تعارض بين نزوله واستوائه، وأن اختلاف الأقطار لا يؤثر في ذلك.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: فضيلة الشيخ! حفظكم الله! حديث نزول ربنا إلى السماء الدنيا في ثلث الليل الآخِر، وذلك في كل ليلة؛ ولكن ثلث الليل يختلف من مدينة إلى أخرى، ومن دولة إلى أخرى، حتى قد يكون كل اليوم فيه فترة الثلث هذه، فهل ذلك يقتضي أن يكون دائمًا في النزول؟

فأجاب: أظننا يا أخي لم نقم من مكاننا الذي نهيناكم فيه عن التحدث بمثل هذه الأمور. فإذا كنتَ في بلد وأنت في ثلث الليل الآخر فآمن بأن الله نزل إلى السماء الدنيا، وإذا كنت في بلد في غير هذا الوقت فلا نزول. مثلًا: بالنسبة لنا هنا فنحن في قبيل الظهر، وليس فيه نزول؛ لكن إذا جئنا إلى جهات أخرى وهم في ثلث الليل الآخر نقول: ثبت النزول، والله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ في جميع صفاته. فالسؤال هذا سؤال متنطِّع، يجب على صاحبه أن يؤمن بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة، وفي كل مكان، أما أن تقول: يبقى دائمًا نازلًا فهذا ليس بصحيح. فأرى أن تبقي هذه الإجابة في جيبك وألا تخرجها، فمتى كنتَ في ثلث الليل الآخِر فالرب نازل، ومتى كنتَ في غير هذا الوقت فالرب غير نازل وانتهى الموضوع؛ لأن صفات الله ليست كصفات المخلوق، فالآن نحن نؤمن بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا، ونؤمن بأنه فوق كل شيء، فهل يُتَصَوَّر هذا في المخلوق أن ينزل إلى مكانٍ نازلٍ، وهو فوق كل شيء؟! ومع ذلك نحن نؤمن بأن الله فوق كل شيء، وأنه نازلٌ، وأن أقرب ما

يكون العبد من ربه وهو ساجد، ولا نقول أيضًا: كيف يكون العبد أقرب إلى ربه وهو ساجد، وهو فوق عرشه؟! فنقول: هذا إنما يورد إذا ما تصورنا أن صفات الخالق كصفات المخلوقين. فنصيحتي لكم -يا إخواننا- أن لا تتعرضوا لمثل هذه الأشياء؛ لأن الله أعظم وأجل من أن تدركه العقول أو الأبصار، (قل: آمنتُ بالله) وقل: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى:١١] وانتهى الموضوع. فإذا عُرَضَت عليك مثل هذه المسائل؛ لأن هذا يَعْرِض على بعض الناس، فيظن بعقله أن نزول الخالق كنزول المخلوق، فنقول: آمِن بما جاء به النص ولا تتعداه، ولا تورد أسئلة حوله.

مسألة: الرد على الشبهات الواردة على صفة النزول

قبل البدء بذكر الشبهات الواردة على حديث النزول والرد عليها أذكر كلاما نفيسا يزيل كثيرا من الشبهات في هذا الباب وغيره.

اعلم رحمك الله بأن صفات الله لا يتوهم فيها شيء من خصائص المخلوقين لا في لفظها ولا في ثبوت معناها. فإثباتها للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل تثبت له على وجه لا يماثل فيها خلقه، ولا يشابههم، فمن نفاها عنه لإطلاقها على المخلوق ألحد في أسمائه، وجحد صفات كماله. ومن أثبتها على وجه يماثل فيها خلقه فقد شبهه بخلقه، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أثبتها له على وجه لا يماثل فيها خلقه، بل كما يليق بجلاله وعظمته فقد بريء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

فما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء والمرض والموت، وكذلك علمه محفوف بنقصين: جهل سابق، ونسيان لاحق؛ وكذلك ما يلزم إرادته عن حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلى ما هو

عال عليه وكونه محمولا به مفتقرا إليه محاطا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام - تبارك وتعالى -.

فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرا وعقلتها كما ينبغي خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين، آفة التعطيل وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة، فخلصت من التعطيل ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم فخلصت من التشبيه.

فعليك بمراعاة هذا الأصل والاعتصام به، واجعله جنتك التي ترجع إليها في كل ما يطلق على الرب تعالى وعلى العبد[1].

وبعد هذا الكلام النفيس نذكر شبهات القوم ونأتي عليها من القواعد بإذن العلي الأعلى الكبير المتعال سبحانه وتعالى.

الشبهة الأولى

الليل ينتقل من مكان إلى آخر فثلث الليل مثلا في الشرق ينتقل حتى يكون في الغرب، ويختلف الزمن فكيف نوفق بين هذا وبين تقييد نزول الله ﷻ بثلث الليل؟

قال ابن رجب رحمه الله: ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام قبح هذا الاعتراض، وأن الرسول ﷺ وخلفاءه الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه، بل بادروا إلى عقوبته وإلحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين[2].

وقال شيخ الإسلام: وهذا إنما قالوه لتخيلهم من نزوله ما يتخيلونه من نزول أحدهم، وهذا عين التمثيل، ثم إنهم بعد ذلك جعلوه كالواحد العاجز منهم، الذي لا يمكنه أن يجمع من الأفعال ما يعجز غيره عن جمعه، وقد جاءت

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٧٣)، وجلاء الأفهام (ص٨٢ - ٨٣).
(٢) فضل علم السلف على الخلف (ص٢٣).

الأحاديث بأنه يحاسب خلقه يوم القيامة كل منهم يراه مخليا به يتجلى ويناجيه، لا يرى أنه متخليا لغيره ولا مخاطبا لغيره، وقد قال النبي ﷺ: «إذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين يقول الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى علي عبدي»[١].

فكل من الناس يناجيه، والله تعالى يقول لكل منهم ذلك، ولا يشغله شأن عن شأن[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: والليل يختلف فيكون ثلثه بالمشرق قبل أن يكون ثلثه بالمغرب، ونزوله الذي أخبر به رسوله ﷺ إلى السماء هؤلاء في ثلث ليلهم، وإلى السماء هؤلاء في ثلث ليلهم، لا يشغله شأن عن شأن، وكذلك قربه من الداعي المتقرب إليه والساجد لكل واحد بحسبه حيث كان وأين كان. والرجلان يسجدان في موضع واحد ولكل واحد قرب يخصه لا يشركه فيه الآخر.

والنصوص الواردة فيها الهدى والشفاء، والذي بلغها بلاغا مبينا، هو أعلم الخلق بربه وأنصحهم لخلقه وأحسنهم بيانا، وأعظم بلاغا، فلا يمكن أحد أن يعلم ويقول مثل ما علمه الرسول ﷺ وقاله. وكل من من الله عليه ببصيرة في قلبه تكون معه معرفة بهذا، قال تعالى: {ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ۝} [سبأ: ٦]. وقال في ضدهم: {والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشإ الله يضلله ومن

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم (٣٩٥).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٥٥ - ٥٦).

يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴿﴾ [الأنعام: ٣٩][(١)].

وقال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: وأورد المتأخرون الذين عرفوا أن الأرض كروية وأن الشمس تدور على الأرض إشكالا؛ قالوا: كيف ينزل في ثلث الليل؟! وثلث الليل إذا انتقل عن المملكة العربية السعودية، ذهب إلى أوروبا وما قاربها؟! أفيكون نازلا دائما؟![(٢)].

فنقول: إنه لا إشكال في ذلك بحمد الله تعالى، فإن هذا الحديث من صفات الله تعالى الفعلية، والواجب علينا نحو صفات الله تعالى سواء كانت ذاتية كالوجه واليدين، أم معنوية كالحياة والعلم، أم فعلية كالاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا، فالواجب علينا نحوها ما يلي:

أ - الإيمان بها على ما جاءت به النصوص من المعاني والحقائق اللائقة بالله تعالى.

ب - الكف عن محاولة تكييفها تصورا في الذهن، أو تعبيرا في النطق؛ لأن ذلك من القول على الله تعالى بلا علم، وقد حرمه الله تعالى في قوله: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿﴾} [الأعراف: ٣٣]، وفي قوله تعالى: {ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴿﴾} [الإسراء: ٣٦].

ولأن الله تعالى أعظم وأجل من أن يدرك المخلوق كنه صفاته وكيفيتها، ولأن الشيء لا يمكن إدراكه إلا بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو الخبر الصادق

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٤٣ - ٢٤٤).

(٢) شرح العقيدة الواسطية (ص٤٠١).

عنه، وكل ذلك منتف بالنسبة لكيفية صفات الله تعالى.

ج - الكف عن تمثيلها بصفات المخلوقين سواء كان ذلك تصورا في الذهن أم تعبيرا في النطق، لقوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: ١١].

فإذا علمت هذا الواجب نحو صفات الله تعالى، لم يبق إشكال في حديث النزول، ولا غيره من صفات الله تعالى، وذلك أن النبي ﷺ أخبر أمته أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، مخاطبا بذلك جميع أمته في مشارق الأرض ومغاربها، وخبره هذا من علم الغيب الذي أظهره الله تعالى عليه، والذي أظهره عليه - وهو الله تعالى - عالم بتغير الزمن على الأرض، وأن ثلث الليل عند قوم يكون نصف النهار عند آخرين مثلا.

وإذا كان النبي ﷺ يخاطب الأمة جميعا بهذا الحديث الذي خصص فيه نزول الله تبارك وتعالى بثلث الليل الآخر فإنه يكون عاما لجميع الأمة، فمن كانوا في الثلث الآخر من الليل تحقق عندهم النزول الإلهي، وقلنا لهم: هذا وقت نزول الله تعالى بالنسبة إليكم، ومن لم يكونوا في الوقت فليس ثم نزول الله تعالى بالنسبة إليهم، والنبي ﷺ حدد نزول الله تعالى إلى السماء الدنيا بوقت خاص، فمتى كان ذلك الوقت كان النزول ومتى انتهى انتهى النزول، وليس في ذلك أي إشكال، وهذا وإن كان الذهن قد لا يتصوره بالنسبة إلى نزول المخلوق، لكن نزول الله تعالى ليس كنزول خلقه حتى يقاس به ويجعل ما كان مستحيلا بالنسبة إلى المخلوق مستحيلا بالنسبة إلى الخالق.

فمثلا: إذا طلع الفجر بالنسبة إلينا وابتدأ ثلث الليل بالنسبة إلى من كانوا غربا قلنا: إن وقت النزول الإلهي بالنسبة إلينا قد انتهى، وبالنسبة إلى أولئك قد

ابتدأ، وهذا في غاية الإمكان بالنسبة إلى صفات الله تعالى، فإن الله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: ١١][(١)].

وقال الشيخ محمد بن خليل الهراس رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعطلة يشككون في حديث النزول، ويقولون: إن علم الهيئة أثبت أن الأرض في دورانها حول الشمس - وحول نفسها - تحدث مشارق ومغارب في كل لحظة، ومعنى هذا أنه في كل لحظة يكون هناك ثلث ليل آخر على سطح الأرض، وهذا يقتضي أن يكون الله عَزَّ وَجَلَّ صاعدا نازلا في كل لحظة، ونحن نقول لهؤلاء: إن الخبر قد صح رغم أنوفكم، وكلامكم هذا ليس طعنا في صحة الخبر، ولكنه تجهيل للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلحاد في حديثه»[(٢)].

وهذا القول هو ما يجب أن يكون في نفس كل أحد، وهو أن لا يتشرب بدع المبتدعين وتضليلاتهم، بل يعتصم بالكتاب والسنة، ويؤمن بما جاء عن الله وعن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما صح عنه، وستكون هذه الخيالات والوساوس التي يلقونها، أوهن عنده من بيت العنكبوت، وإن لم يعرف الرد على كلامهم بالتفصيل، ويكون قائلا بلسان حاله ومقاله: آمنت بما جاء عن الله على مراد الله، وبما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أجده في عقلي من وساوس أرمي به عرض الحائط ولا أبالي. فالله تعالى أعلم بنفسه من غيره، ورسوله أعلم بربه مما سواه، وأخشاهم له، وأفصحهم وأبلغهم وأعظمهم بيانا للمعنى الذي يريد أن يعلمهم إياه. فإذا قلنا: كلامه لا بد من صرفه عن ظاهره لكنا قد طعنا إما في نصحه وحرصه على أمته، وإما في بيانه وفصاحته، وإما في

(١) الجواب المختار لهداية المحتار (ص٣٣ - ٣٥)، للعلامة: ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) تعليقات الشيخ محمد خليل الهراس على كتاب «التوحيد» لابن خزيمة، (ص١٢٨).

علمه بربه، وكل منها باطل وكاف في الطعن فيه ﷺ، حاشاه من ذلك.

والله تعالى يثبتنا على الحق ويعصمنا من الزيغ والبدع والرد على رسول الله ﷺ إلى أن نلقاه إنه هو البر الرحيم(١).

الشبهة الثانية

قال الرازي: «إن كان المقصود من النزول من العرش إلى السماء الدنيا أن يسمع نداؤه، فهذا المقصود ما حصل، وإن كان المقصود مجرد النداء، سواء سمعناه أو لم نسمعه، فهذا مما لا حاجة فيه إلى النزول من العرش إلى السماء الدنيا، بل كان يمكنه أن ينادينا وهو على العرش، ومثاله: أن يريد من في المشرق إسماع من في المغرب ومناداته، فيتقدم إلى جهة المغرب بأقدام معدودة، ثم يناديه، وهو يعلم أنه لا يسمعه البتة، فههنا تكون تلك الخطوات عملا باطلا، وعبثا فاسدا، فيكون كفعل المجانين، فعلمنا أن ذلك غير لائق بحكمة الله تعالى»(٢).

إن هذا الكلام تلبيس على العوام، وتمويه على الجهال، وكذب ظاهر.

والرد عليه من وجوه

الوجه الأول:

هذا الكلام يعتبر مصادمة صريحة لقول رسول الله ﷺ واعتراض واضح عليه، فإنه هو الذي قال: «ينزل ربنا - تبارك وتعالى - إلى سماء الدنيا كل ليلة ويقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له».

وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفاء الشيطان

---

(١) صفة النزول الإلهي (ص٥٥٠).

(٢) أساس التقديس (ص١٤٣ - ١٤٤).

وأتباعه فنعوذ بالله من الخذلان، نسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء الذي ما رمي العبد بشر منه، وأن يلقى الله بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراك به أسلم له من أن يلقى الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي بني جنسه. وهل طرد الله تعالى إبليس ولعنه وأحل عليه سخطه وغضبه إلا حيث عارض النص بالرأي والقياس ثم قدمه عليه؟ والله يعلم أن شبه عدو الله مع كونها داحضة باطلة أقوى من كثير من شبه المعارضين لنصوص الأنبياء بآرائهم وعقولهم، فالعالم يتدبر سر تكرير الله تعالى لهذه القصة مرة بعد مرة، وليحذر أن يكون له نصيب من هذا الرأي والقياس وهو لا يشعر[(١)].

الثاني: قوله: «إن كان المقصود من النزول من العرش إلى السماء الدنيا أن يسمع نداؤه، فهذا المقصود ما حصل».

فيقال: لو كان ذلك هو المقصود لسمعناه، فإنه تعالى على كل شيء قدير؛ وإنما المقصود من النداء حكم عظيمة يعلمها الله - جل وعلا - ونحن وإن لم نسمع كلام الله تعالى هذا بآذاننا، إلا أنا آمنا بذلك حتى لكأن القائم في ذلك الوقت - الثلث الأخير - كأنه يسمع أنه تعالى ينادي بذلك النداء، وذلك لعلمنا أنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وهذا الخبر قد تواتر عنه ﷺ، ومن الحكم التي نعلمها من هذا النداء العظيم: هو إقبال العبد بكليته على ربه في هذا الوقت، والإلحاح عليه في الدعاء، والشعور بقربه وفضله، فيجد قائم الليل من حلاوة المناجاة، وطيب الذكر واليقين بإجابة الدعاء ما لا يجده في غير هذا الوقت، يعلم ذلك ضرورة قوام الليل، ولذلك فإن قوام الليل يكثرون من الاستغفار والذكر والدعاء في وقت السحر أشد مما قبله، لعلمهم أن وقت

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٩٥٢).

النزول يمتد إلى طلوع الفجر، ولذلك ينتظر عباد الرحمن تلك الساعات القليلة بفارغ الصبر.

الثالث: أنه من عادة الملوك الكرماء، والسادة الرحماء، إذا أرادوا أن يكرموا أهل بلد، أن يحلوا عليهم قريبا من بلادهم، أو في ديارهم، ليكرموهم بما يريدون، ويسمعوا حاجاتهم، ويلبوا رغباتهم، ولو عرضنا على العقل ملكين أرادا أن يكرما أهل بلد، أحدهما جاء إلى أهل هذا البلد بنفسه وسمع حاجاتهم، وأكرمهم في بلادهم، ولبى طلباتهم، والآخر أرسل أحد وزرائه أو أرسل رسالة مع أحد جنوده، بما يريد أن يكرمهم به، لقطع العقل بأن الأول أكرم وأجل وأعظم في الإكرام، ومن المعلوم أن كل كمال في المخلوق لا نقص فيه بوجه من الوجوه فالخالق أولى به، وواهب الكمال أحق به، فالرب تعالى، ينزل بنفسه إلى أدنى سماء وهي السماء الدنيا، وهو فوق عرشه، وهي أقرب السموات إلى قوام الليل، ويقول: «لا أسأل عن عبادي أحدا غيري»، فهل هذا إلا عين الكمال، مع أنه تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: ١١].

فما أجهل الإنسان بربه، وبكرمه، وبعظم فضله، فلله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

وبهذا يعلم أن قوله: بل كان يمكنه أن ينادينا وهو على عرشه، سوء أدب مع الله تعالى.

الرابع: أن هؤلاء المعطلة كلهم أنكروا أن يكون لله تعالى كلام بحرف وصوت! فكيف يمكن لهم أن يسمعوا نداء الله تعالى؟! وكيف يقرع صوت الله تعالى أسماعهم؟! لأنهم قائلون ببدعة الكلام النفسي الذي ليس بحرف ولا بصوت فهم أبشع حالا وأشنع بدعة في باب تعطيل صفة الكلام من الجهمية

الأولى؛ لأن الجهمية الأولى كانوا يقولون ببدعة خلق القرآن فقط، وأما هؤلاء المعطلة فهم يقولون مع القول ببدعة خلق القرآن، ببدعة القول بالكلام النفسي. فخرقوا بذلك إجماع أهل السنة، وأتوا بما لا يقره عقل صريح، ولا نقل صحيح، ولا لغة، ولا عرف ولا إجماع.

الخامس: أن هؤلاء المعطلة لكثير من الصفات ولا سيما صفة النزول، قد أولوا حديث النزول وحرفوه إلى: نزول الملك، فيقولون: إن الله لا ينزل بنفسه، بل ينزل ملك من الملائكة بأمره، فينادي هذا الملك ويقول: «من يدعوني ..، من يسألني ....، من يستغفرني ...".

أقول: إذا كان الأمر كذلك، وأن الملك ينزل وينادي فهل أهل التأويل سمعوا نداء هذا الملك؟!

وهل طرق صوت هذا الملك الذي ينزل وينادي أسماعهم؟!

وإذا لم يسمعوا نداء هذا الملك، فأي فائدة من نزول هذا الملك وندائه؟!

ونحن نقلب كلامهم عليهم ونقول لهم: وإذا كان نزول هذا الملك من السماء الدنيا ليسمعنا نداءه، فهذا الملك لم يسمعنا نداءه وصوته، فأي فائدة من نزوله.

ولقد كان يمكن هذا الملك أن ينادينا وهو في السماء ..، وهل هذا إلا مثل من يريد - وهو بالمشرق - إسماع شخص في المغرب، فتقدم إلى المغرب بخطوات معدودة، وأخذ يناديه، وهو يعلم أنه لا يسمع نداءه، فيكون نقله الأقدام عملا باطلا، وسعيه نحو المغرب عبثا صرفا، لا فائدة فيه، وكيف يستقر مثل هذا في قلب عاقل؟[١].

وقد سد هؤلاء المؤولة على الناس طريق معرفة ربهم ﷻ، فحرموهم من

---

(١) التنبيهات السنية (ص٢٠٧ - ٢٠٨).

خير عظيم، بل من أعظم علم في الوجود، فالله الموعد.

الشبهة الثالثة النزول نقلة والنقلة من خصائص الأجسام فيلزمها لوازم تمتنع في حق الله تعالى

لا تغتر أيها الناظر بهذه التلفيقات المزوقة، والكلمات المدبجة، والعبارات المبهرجة. فإنها كلمات خالية من التحقيق عارية من التوفيق.

والرد على الشبهة المذكورة من وجوه:

الوجه الأول: نقول: هذا جدال بالباطل لا يرتضيه من هو عارف بكيفية الاستدلالات، وعالم بمدارك الشرع والمدلولات، «وليس بمانع من القول بحقيقة النزول!!

هل أنتم أعلم بما يستحقه الله عَزَّوَجَلَّ من أصحاب الرسول ﷺ؟!

فليس إجلالنا لله كإجلال الصحابة ولا قريبا منه.

وليس حرصنا على العلم بصفات الله كحرص الصحابة، وهم ما قالوا هذه الاحتمالات أبدا، قالوا: سمعنا وآمنا وقبلنا وصدقنا.

وأنتم أيها الخالفون المخالفون تأتون الآن وتجادلون بالباطل وتقولون: كيف؟! وكيف؟!»[1].

الوجه الثاني: إن الرسول ﷺ أعلم الخلق بالحق، وأنصح الخلق للخلق، وأفصح الخلق في بيان الحق، وأحرص الخلق على هداية الخلق، فما بينه من أسماء الله وصفاته هو الغاية في هذا الباب «فإذا كان كذلك كان المتحذلق والمنكر عليه من أضل الناس، وأجهلهم وأسوئهم أدبا، بل يجب تأديبه وتعزيره، ويجب أن يصان كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة، والاعتقادات

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٤٠٠)، للعلامة: ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الفاسدة»(١).

الوجه الثالث: ليس في القول بلازم النزول محذور البتة، ولا يستلزم ذلك نقصا ولا سلب كمال، بل هو الكمال نفسه. وهذه الأفعال كمال ومدح، فهي حق دال عليه النقل، ولازم الحق حق.

وقولنا: إنه نزول لا محذور فيه، فإنه ليس كانتقال الأجسام من مكان إلى مكان كما قلتم: إن سمعه وبصره وحياته وقدرته وإرادته ليست كصفات الأجسام، فليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

ونحن لم نتقدم بين يدي الله ورسوله، بل أثبتنا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ. فألزمتم أنتم من أثبت ذلك القول بالانتقال، ومعلوم أن هذا الإلزام إنما هو إلزام لله ورسوله، فإنا لم نتعد ما وصف به نفسه، فكأنكم قلتم: من أثبت له نزولا لزمه وصفه بالانتقال، والرسول ﷺ هو الذي أثبت ذلك لله فهو حق بلا ريب.

فكان جوابنا: إن الانتقال إن لزم من إثبات ما أثبته الله تعالى ورسوله ﷺ، فلا بد من إثباته ضرورة، إذ لازم الحق حق، وإن لم يكن ذلك لازما له، فأنتم معترضون على النبي ﷺ كاذبون عليه، متقدمون بين يديه، فبطل إلزامكم.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا نسلم لزومه؛ فإن نزوله ليس كنزول المخلوقين، ولهذا نقل عن جماعة من الأئمة: أنه ينزل، ولا يخلو منه العرش(٢).

وقال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصواب في حديث النزول ونحوه ما قاله مالك وأقرانه يمر كما جاء بلا كيفية، ولازم الحق حق، ونفي الانتقال وإثباته عبارة

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٢٩ - ١٣٠).

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٣٤).

محدثة، فإن ثبتت في الأثر رويناها ونطقنا بها، وإن نفيت في الأثر نطقنا بالنفي، وإلا لزمنا السكوت وآمنا بما ثبت في الكتاب والسنة على مقتضاه[١].

وقال شيخ الاسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: والأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص. فالألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة في الإثبات تثبت، والتي جاءت بالنفي تنفى. والألفاظ المجملة كلفظ «الحركة» و«النزول» و«الانتقال» يجب أن يقال فيها: أنه منزه عن مماثلة المخلوقين من كل وجه، لا يماثل المخلوق لا في نزول، ولا في حركة، ولا انتقال ولا زوال، ولا غير ذلك[٢]. وهذه سبيل من اعتصم بالعروة الوثقى[٣].

الوجه الرابع: يقال لهم: رب العالمين إما أن يقبل الاتصاف بالإتيان والمجيء والنزول وجنس الحركة، وإما أن لا يقبله؛ فإن لم يقبله كانت الأجسام التي تقبل الحركة ولم تتحرك أكمل منه؛ وإن قبل ذلك ولم يفعله كان ما يتحرك أكمل منه؛ فإن الحركة كمال للمتحرك، ومعلوم أن من يمكنه أن يتحرك بنفسه أكمل ممن لا يمكنه التحرك، وما يقبل الحركة أكمل ممن لا يقبلها[٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن نزهه عن نزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا، ودنوه عشية عرفة من أهل الموقف، ومجيئه يوم القيامة للقضاء بين عباده، فرارا من تشبيهه بالأجسام، فقد شبهه بالجماد الذي لا يتصرف ولا يفعل ولا يجيء ولا

---

(١) المهذب في اختصار السنن الكبير (٢/ ٤٧٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٢٦).
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٣٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٣).

يأتي ولا ينزل»[١].

الوجه الخامس: أن يقال: النزول والصعود والمجيء والإتيان، ونحو ذلك مما هو من أنواع جنس الحركة لا نسلم أنه مخصوص بالجسم الصناعي الذي يتكلم المتكلمون في إثباته ونفيه، بل يوصف به ما هو أعم من ذلك. ثم هنا طريقان:

(**أحدهما**): إن هذه الأمور توصف بها الأجسام والأعراض فيقال: جاء البرد، وجاء الحر، وجاءت الحمى، وهي أعراض. وبه يعلم أن أنواع جنس الحركة كالنزول ونحوه ليس من خصائص الأجسام، فيجوز أن يوصف بها الله مع أنه ليس بجسم.

(الطريق الثاني): أن يقال: المجيء والإتيان والصعود والنزول توصف به روح الإنسان التي تفارقه بالموت، وتسمى النفس، وتوصف به الملائكة. وليس نزول الروح وصعودها من جنس نزول البدن وصعوده، فإن روح المؤمن تصعد إلى فوق السماوات ثم تهبط إلى الأرض فيما بين قبضها ووضع الميت في قبره. وهذا زمن يسير لا يصعد البدن إلى فوق السماوات ثم ينزل إلى الأرض في مثل هذا الزمان[٢].

وإذا كانت الروح تعرج من النائم إلى السماء مع أنها في البدن كما قال تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾ [الزمر: ٤٢]، علم أنه ليس عروجها من جنس عروج البدن الذي يمتنع هذا فيه.

---

(١) طريق الهجرتين (ص٢٩٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٣٦ - ٤٣٧).

وعروج الملائكة ونزولها من جنس عروج الروح ونزولها، لا من جنس عروج البدن ونزوله.

و«نزول» الرب ﷻ فوق هذا كله وأجل من هذا كله؛ فإنه تعالى أبعد عن مماثلة كل مخلوق من مماثلة مخلوق بمخلوق.

وإذا عرف هذا: فإن للملائكة من ذلك ما يليق بهم، وأن ما يوصف به الرب تبارك وتعالى: هو أكمل وأعلى وأتم من هذا كله[١]، وأولى بالإمكان، وأبعد عن مماثلة نزول الأجسام، بل نزوله لا يماثل نزول الملائكة وأرواح بني آدم[٢].

ومن ظن أن ما يوصف به الرب ﷻ لا يكون إلا مثل ما توصف به أبدان بني آدم؛ فغلطه أعظم من غلط من ظن أن ما توصف به الروح مثل ما توصف به الأبدان[٣].

وخلاصة هذه الشبهة وما تدور عليه عند جميع من يحتج بها سواء من الجهمية أو من غيرهم «إن النزول نقلة، والنقلة من خصائص الأجسام فيلزمها لوازم تمتنع في حق الله تعالى»، وهذه اللوازم التي يذكرونها تلزم فيمن ليس بإله، ورب للخلق. والله سبحانه وتعالى «منزه أن تكون صفاته مثل صفات الخلق كما كان منزها أن تكون ذاته مثل ذوات الخلق فمجيئه وإتيانه ونزوله على حسب ما يليق بصفاته من غير تشبيه وكيف»[٤].

وما أحسن قول الشاعر:

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٢٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٥٨ - ٤٥٩).

(٤) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص٥٩).

الـــــرب رب وإن تنـــــزل والعبـــد عبـــد، وإن ترقـــى![(١)]

الشبهة الرابعة: قال السقاف: لا يمكن أن ينزل بذاته كما تتخيل المجسمة إلى السماء الدنيا؛ لأن في ذلك حلول الخالق في المخلوق، وهو كفر بواح[(٢)].

اعلم - سلمك الله من الشبهات والشهوات - بأن «الأوهام الباطلة والعقول الفاسدة لما فهمت من نزول الرب ما يفهم من نزول المخلوق - وهو أن يفرغ مكانا ويشغل مكانا - نفت حقيقة ذلك فوقعت في محذورين: محذور التشبيه ومحذور التعطيل. ولو علمت هذه العقول الضعيفة أن نزوله سبحانه لا يشبه نزول المخلوق كما أن سمعه وبصره وعلمه وحياته كذلك. وإذا كان نزولا ليس كمثله نزول فكيف تنفي حقيقته»؟![(٣)].

والكلمات المذكورة باطلة وعن حلى التحقيق عارية.

وزعم السقاف أن من قال ينزل بذاته أنه مجسم حلولي: قول بلا علم وكذب وافتراء: {إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون} [النحل: ١١٦].

والسقاف وأمثاله لم يفهموا من نزول الخالق إلى السماء الدنيا إلا كما فهموا من نزول المخلوقات، «وهذا عين التمثيل، ثم إنهم بعد ذلك جعلوه كالواحد العاجز منهم الذي لا يمكنه أن يجمع من الأفعال ما يعجز غيره عن جمعه»[(٤)]. وكذبوا في هذا الفهم، وضلوا في هذا الظن والوهم الكاسد.

فإن الله سبحانه وتعالى قال: {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا

---

(١) السراج الوهاج (١٠/ ٥١٤ - ٥١٥).

(٢) دفع شبه التشبيه (ص٣٥).

(٣) مختصر الصواعق (٢/ ٢٢٨ - ٢٢٩).

(٤) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٢٢٨ - ٢٢٩).

قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون} [الزمر: ٦٧].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟!»(١).

فمن هذه عظمته، كيف يحصره مخلوق من المخلوقات. سماء أو غير سماء؟! حتى يقال: إنه إذا نزل إلى السماء الدنيا صار العرش فوقه، أو يصير شيء من المخلوقات يحصره ويحيط به سبحانه وتعالى(٢).

والله - ولله المثل الأعلى - أعظم من أن يظن ذلك به، وإنما يظنه الذين {وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون} [الزمر: ٦٧](٣).

قال شيخ الاسلام رحمه الله: العلي الأعلى العظيم، فهو أعلى من كل شيء، وأعظم من كل شيء. فلا يكون نزوله وإتيانه بحيث تكون المخلوقات تحيط به، أو تكون أعظم منه وأكبر، وهذا ممتنع(٤).

فالمخلوق إذا نزل من علو إلى سفل زال وصفه بالعلو وتبدل إلى وصفه بالسفول، وصار غيره أعلى منه.

والرب تعالى لا يكون شيء أعلى منه قط، بل هو العلي الأعلى، ولا يزال

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٨٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٨٢ - ٥٨٣).

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٢٢).

هو العلي الأعلى مع أنه يقرب إلى عباده ويدنو منهم، وينزل إلى حيث شاء، ويأتي كما شاء. وهو في ذلك العلي الأعلى، الكبير المتعال، علي في دنوه، قريب في علوه.

فهذا وإن لم يتصف به غيره فلعجز المخلوق أن يجمع بين هذا وهذا. كما يعجز أن يكون هو الأول والآخر والظاهر والباطن[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ونزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا سلام مما يضاد علوه، وسلام مما يضاد غناه وكماله، سلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه، وسلام من أن يصير تحت شيء أو محصورا في شيء. تعالى الله ربنا عن كل ما يضاد كماله[2].

فتبين بهذا الكلام النفيس، بطلان ما ذكره السقاف؛ وأنه مبني على شفا جرف هار من الخيالات والأوهام.

وليتأمل السقاف وأمثاله من أهل الكلام الأثر التالي:

قال محمد بن حاتم المظفري: سمعت عمرو بن محمد يقول: كان أبو معاوية الضرير يحدث هارون الرشيد، فحدثه بحديث أبي هريرة: «احتج آدم وموسى»[3] فقال علي بن جعفر: كيف هذا وبين آدم وموسى ما بينهما؟! قال: فوثب به هارون وقال: يحدثك عن الرسول ﷺ وتعارضه بكيف؟! فما زال يقول حتى سكت عنه[4].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٢٤).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٩ و٦٦١٤ و٧٥١٥) ومسلم (٢٦٥٢).

(٤) أخرجه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ١٨١)، وعنه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٤٣) من طريق آخر وبألفاظ مختلفة، وإسناده صحيح. انظر: «عقيدة السلف =

قال المحدث الصابوني معقبا: هكذا ينبغي للمرء أن يعظم أخبار رسول الله ﷺ ويقابلها بالقبول والتسليم والتصديق، وينكر أشد الإنكار على من يسلك فيها غير هذا الطريق الذي سلكه هارون الرشيد رَحِمَهُ اللهُ مع من اعترض على الخبر الصحيح الذي سمعه بـ «كيف»؟! على طريق الإنكار له، والابتعاد عنه، ولم يتلقه بالقبول كما يجب أن يتلقى جميع ما يرد من الرسول ﷺ.

جعلنا الله سبحانه من الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه ويتمسكون في دنياهم مدة حياتهم بالكتاب والسنة، وجنبنا الأهواء المضلة والآراء المضمحلة والأسواء المذلة، فضلا منه ومنة[1].

وفي ختام الرد على الشبهات الواردة على حديث التنزيل نقول وبالله التوفيق: إن «الحق الحقيق الذي ينبغي عليه التعويل أن نؤمن بما وصل إلينا عن طريق محمد رسول الله ﷺ، بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الآخر من الليل، ويقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟!

ولا يغتر بما فاه به: جمع من أهل الكلام، ورهط من أصحاب الأوهام؛ الناكبون عن الصراط السوي، والمنهج النبوي. الجامدون على سير المنطقيين والمتفلسفين، فإنهم بمعزل عن طريقة السلف الصالحين، وعلى مراحل شاسعة عن منهاج المتقين، الذين يؤمنون بالغيب ومما رزقناهم ينفقون.

فدع عنك نهبا صيح في حجراته   وهات حديثا ما حديث الرواحل»[2]

=

أصحاب الحديث» (ص١٢٧)، تحقيق: بدر البدر.

(١) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص١٢٧ - ١٢٨).

(٢) السراج الوهاج (١٠/ ٥٠٩-٥١١)، وانظر كتاب الكلمات الحسان في بيان علو

=

(باب ذكر مسألة التسلسل)

هذه المسألة من أصعب المباحث التي تعرض للدارس في دراسة العقيدة، وهي مسألة التسلسل، وقبل الخوض فيها ننبه على أن البحث في هذه المسألة من دقائق العلم فلو مات الإنسان من غير بحث فيه لما كان آثمًا إلا إذا خشي من عدم المعرفة أن يعتقد في الله نقصًا فإنه يجب عليه أن يحقق كما قال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويجب الاعتقاد قطعًا بأن كل ما سوى الله حادث مخلوق وما ثم قديم أزلي إلا الله وحده كما هو معلوم من الدين بالضرورة، وليعلم أيضا إن هذه المسألة من المباحث العويصة والصعبة حتى قال شيخ الإسلام هنا فيما تقدم: ويدخل في ذلك الكلام في حدوث العالم والكلام في كلام الله وأفعاله، والكلام في هذين الأصلين من محارات العقول.اهـ. وقال في درء التعارض (١/ ٢٧٥): فمن تدبر هذه الحقائق، وتبين له ما فيها من الاشتباه والالتباس: تبين له محارات أكابر النظار في هذه المهامه التي تحار فيها الأبصار، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.اهـ..

وينبغي أن يعلم أن أساس هذه المسألة والمدخل لتصورها وفهمها على حقيقتها وإدراك أهمية الخلاف فيها هو: هل يقال بدوام فاعلية الرب وأنه لم يزل فاعلًا؛ ولم يأت يوم وهو معطل عن الفعل أم لا سبحانه، فمن قال بذلك كان قائلًا بالقدم النوعي أو وجوب تسلسل الحوادث أي أفعال الرب ومن ثم بجواز تسلسل الحوادث أي المخلوقات أو الآثار، ومن نفى دوام فاعلية الرب قال بعدم التسلسل إلا أنهم اختلفوا فمنهم من قال ان الفعل كان ممتنعًا عليه كالجهمية، ومنهم من قال ان الفعل كان ممتنعًا منه كالكلابية والأشعرية كما

=

الرحمن.

سيأتي، والدليل على أن هذا هو أساس المسألة واضح من كلام شيخ الإسلام وكلام المخالفين له.

ولتوضيح المسألة نقول: لقد اختلف أهل القبلة في اتصاف الله بصفاته هل هو متصف بها بعد ظهور آثارها، وأسماء الرب هل سمي بها بعد ظهور آثارها أم هو متصف بصفاته ومسمى بأسمائه قبل ذلك على مذاهب:

المذهب الأول: مذهب الجهمية والمعتزلة وهؤلاء ذهبوا إلى ان الفعل كان ممتنعًا على الله ثم انقلب من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي، وحقيقة هذا المذهب هو أن الله تعالى لم يصر له صفات ولا أسماء إلا بعد أن ظهرت آثارها، فلما خلق صارت له صفة الخلق، وصار من أسمائه الخالق. وذلك على أصل عندهم، وهو أن أسماء الله مخلوقة، فلما خلق سمي الخالق، وخلق له اسم الخالق. فعندهم أن الزمان لما ابتدأ فيه الخلق أو الرزق أو الإنشاء صار بعده له اسم الخالق، وقبل ذلك لم يكن له هذا الاسم ولم تكن له هذه الصفات.

فقبل أن يكون ثم سامع لكلامه فليس هو سبحانه متكلما، فلما خلق سامعا لكلامه، خلق كلاما - عند المعتزلة والجهمية - فأسمعهم إياه، فصار له اسم المتكلم أو صفة الكلام، لما خلق من يسمع كلامه.

كذلك صفة الرحمة على تأويلهم الذي يؤولونه، والمنعم والمحيي والمميت كل هذه لا تطلق على الله عندهم إلا بعد أن وجد الفعل منه على أصلهم أن الأسماء عندهم والصفات مخلوقة.

المذهب الثاني: مذهب الكلابية والأشعرية والماتريدية ومذهب طوائف من أهل الكلام وقد ذهبوا إلى ان الفعل كان ممتنعًا منه لا عليه أي يثبت له

القدرة لكن لا يثبت له الفعل لأن المقدور ممتنع منه. وهذا يعني أن الرب سبحانه كان متصفا بالصفات وله الأسماء، ولكن لم تظهر آثار صفاته ولا آثار أسمائه بل كان زمنا طويلا طويلا معطلا عن الأفعال، له صفة الخلق وليس ثم ما يخلقه، له صفة الفعل ولم يفعل شيئا، له صفة الإرادة وأراد أشياء كونية مؤجلة غير منجزة وهكذا.

فمن أسمائه عند هؤلاء الخالق، ولكنه لم يخلق، ومن أسمائه عندهم أو من صفاته الكلام ولم يتكلم، ومن صفاته الرحمة بمعنى -إرادة الإنعام على تأويلهم المذموم- وليس ثم منعم عليه، ومن أسمائه المحيي وليس ثم من أحيا، ومن أسمائه الباري وليس ثم برأ، وهكذا حتى أنشأ الله سبحانه وخلق تعالى هذا الخلق المنظور الذي تراه من الأرض والسموات وما قص الله علينا في كتابه، ثم بعد ذلك ظهرت آثار أسمائه وصفاته، فعندهم أن الأسماء والصفات متعلقة بهذا العالم المنظور أو المعلوم دون غيره من العوالم التي قد تكون قد سبقته.

والسبب الذي أوقع المتكلمين في تعطيل الرب عن الفعل أزلًا هو إن القوم لما أسسوا لهم أصلًا، وبنوا عليه جميع قواعدهم، فقادهم هذا الأصل الفاسد رغمًا عنهم إلى التعطيل والإنكار وهذا الأصل هو امتناع قيام الحوادث بذاته سبحانه، وقد ابتدعت الجهمية هذا الدليل، ثم أخذته المعتزلة، تم تبعهم على ذلك الكلابية والأشعرية والماتريدية وغيرهم، وأصل هذه المسألة تطورت عند الجهمية وعند جهم بخصوصه فأصل لها أصلا، وهو أنه نظر في أصل الدين فوجد أنه مبني على إثبات وجود الله سبحانه، ويقال أن جهم ابتلي بطائفة من منكري وجود الإله، وحيروه فيما أوردوا عليه من الأسئلة. فقالوا له: أقم لنا

برهانا عقليا على أن الله سبحانه أو على أن هذا الخلق له رب وله خالق وأنه موجود. فتحير ونظر في هذه المسألة، ثم قال لهم: وجدتها. فأقام البرهان بما يسمى عند أهله بحلول الأعراض في الأجسام. وهو أصل الانحراف في مذهب الجهمية ثم المعتزلة ثم الأشاعرة والماتريدية. ولهذا السلف ينسبون كل من انحرف في الصفات إلى جهم فيقولون هو جهمي؛ لأنه ما انحرف إلا بموافقته لجهم في هذا الأصل الذي أصله وانحرف به عن منهج السلف. وهذا البرهان ليس ببرهان بل هو دليل باطل، قال في تقريره:

إن الجسم تحل فيه الأعراض -الجسم هو المتحيز: كتاب متحيز، كرسي متحيز، مبنى متحيز، إلى آخره- الأجسام تحل فيها الأعراض.

والأعراض مثل البرودة، الحرارة، مثل الارتفاع، الانخفاض، مثل الطول العرض العمق، مثل الحركة فيه والتحرك إلى آخره، هذه الأشياء معلوم أنها لا توجد بنفسها وإنما وجدت بالجسم. والجسم حلت فيه هذه الأعراض دون اختياره، فبهذا صار هذا الجسم جسما محتاجا إلى العرض، لأن العرض وحده لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بالأجسام. وحلول الأعراض بالأجسام دل على أنها مخلوقة وعلى أنها محتاجة لهذه الأشياء التي تميزها عن غيره وتصلح معها للوجود. فلهذا صار الجسم قابلا لحلول الأعراض أي الصفات فيه. وصار إذا الجسم محتاجا لغيره فصار إذا مخلوقا. إذا تبين هذا، قالوا له هذا دليل صحيح في أن الجسم لم يوجد نفسه - يعني الجسم المعين، العين المعينة هذه - لم يوجد نفسه وأنه موجود واقتنعوا بهذا البرهان مع أنه في حقيقته غير مقنع وغير مستقيم، فأثبت لهم وجود خالق، وجود رب لهذه الأشياء. فلما نظروا في هذا قالوا له: هذا دليل صحيح، فصف لنا ربك.

فلما سألوه هذا السؤال، نظر في الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة فتحير في أنه لو أثبت هذه الصفات لعادت على هذا الدليل الذي لم يجد غيره في إثبات وجود الله عادت عليه بالإبطال.

لأنه وجد في الكتاب والسنة أن من الصفات الاستواء، من الصفات العلو، من الصفات الرحمة، من الصفات الانتقام، من الصفات الإعطاء، من الصفات الغضب، من الصفات الرضا إلى آخره، وهذه كلها معاني لا تقوم بنفسها، وهي تأتي وتذهب يعني من حيث آحادها. فلهذا قال إنه لو قال لهم إن صفات الرحمن ؟ هي التي جاءت في الكتاب والسنة على ظاهرها فإنه يعود إلى أن سيقال له: إذا فالذي يتصف بهذه الصفات هو محتاج، إذا هو مثل الجسم فهو جسم كالأجسام.

فلهذا قال لهم إن الله سبحانه لا صفة له إلا صفة الوجود المطلق.

وعلى هذا الأصل مشى جهم في نفي الكلام ونفي جميع الصفات، حتى أسماء الرحمن سبحانه يفسرها بالآثار المخلوقة.

ثم جاء بعده المعتزلة فقالوا هذا البرهان صحيح، ولكن ثم صفات دل عليها العقل لا يمكن أن يكون الرب سبحانه موجودا دون هذه الصفات.

ثم جاء الأشاعرة وقالوا كلام المعتزلة صحيح لكن الصفات أكثر من الثلاث التي أثبتها المعتزلة فهي سبع وتؤول إلى عشرين عندهم.

ثم بعد ذلك جاء الماتريدية وقالوا الصفات ثمان، لابد من زيادة على السبع صفة التكوين وهكذا.

إذن منشأ الضلال في هذه المسألة هو هذا البرهان الباطل على وجود الله سبحانه الذي جعل فيه دليل الأعراض هو الدليل على حدوث الأجسام، ومنه

أبطل وصف الله سبحانه بصفاته.

المذهب الثالث: مذهب أهل السنة والجماعة أهل الحديث والأثر وقد ذهبوا إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل. ما زال بصفاته قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته، كما كان بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبديا، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده. ولا يرد على هذا صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها، كالخلق والتصوير، والإحياء والإماتة، والقبض والبسط والطي، والاستواء والإتيان والمجيء والنزول، والغضب والرضا، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، ولكن أصل معناه معلوم لنا، كما قال الإمام مالك- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لما سئل عن قوله تعالى: {ثم استوى على العرش} كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول. وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت، كما في حديث الشفاعة: «إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله»؛ لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلما بالأمس لا يقال: أنه حدث له الكلام، ولو كان غير متكلم لآفة كالصغير والخرس، ثم تكلم يقال: حدث له الكلام، فالساكت لغير آفة يسمى متكلما بالقوة، بمعنى أنه يتكلم إذا شاء، وفي حال تكلمه يسمى متكلما بالفعل، وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل، ولا يخرج عن

كونه كاتبا في حال عدم مباشرته للكتابة.

وحلول الحوادث بالرب تعالى، المنفي في علم الكلام المذموم، لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة. وفيه إجمال: فإن أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، ولا يحدث له وصف متجدد لم يكن - فهذا نفي صحيح. وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية، من أنه لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته - فهذا نفي باطل.

ونسوق هنا بعض ما ورد عن السلف مما يدل على دوام فاعلية الرب فمن ذلك:

١ - قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (أنه سأله سائل عن قوله: {وكان الله غفورًا رحيمًا} {عزيزًا حكيمًا} {سميعًا بصيرًا} فكأنه كان ثم مضى، فقال ابن عباس: {وكان الله غفورًا رحيمًا} سمى نفسه ذلك، وذلك قوله، أي: لم يزل كذلك) هذا لفظ البخاري وهو رواه مختصرًا، ولفظ البوشنجي محمد بن إبراهيم الإمام، عن شيخ البخاري الذي رواه من جهته البرقاني في صحيحه: • (فإن الله سمى نفسه ذلك ولم ينحله غيره، فذلك قوله: (وكان الله) أي: لم يزل كذلك) هكذا رواه البيهقي عن البرقاني.

وذكر الحميدي لفظه: (فإن الله جعل نفسه وسمى نفسه، وجعل نفسه ذلك ولم ينحله أحد غيره (وكان الله) أي: لم يزل كذلك).

ولفظ يعقوب بن سفيان عن يوسف بن عدي شيخ البخاري: (فإن الله سمى

نفسه ذلك، ولم يجعله غيره (وكان الله) أي: لم يزل كذلك، فقد أخبر ابن عباس أن معنى القرآن: أن الله سمى نفسه بهذه الأسماء لم ينحله ذلك غيره، وقوله: {وكان الله} يقول: إني لم أزل كذلك. ومن المعلوم أن الذي قاله ابن عباس هو مدلول الآيات، ففي هذا دلالة على فساد قول الجهمية من وجوه:

أحدها: أنه إذا كان عزيزًا حكيمًا، ولم يزل عزيزًا حكيمًا، والحكمة تتضمن كلامه ومشيئته، كما أن الرحمة تتضمن مشيئته، دل على أنه لم يزل متكلمًا مريدًا، وقوله: {غفورًا} أبلغ، فإنه إذا كان لم يزل غفورًا فأولى أنه لم يزل متكلمًا، وعند الجهمية بل لم يكن متكلمًا ولا رحيمًا ولا غفورًا، إذ هذا لا يكون إلا بخلق أمور منفصلة عنه، فحينئذ كان كذلك.

والثاني: قول ابن عباس: فإن الله سمى نفسه ذلك، يقتضي أنه هو الذي سمى نفسه بهذه الأسماء، لا أن المخلوق هو الذي سماه بها، ومن قال: إنها مخلوقة في جسم، لزمه أن يكون ذلك الجسم هو الذي سماه بها.

الثالث: قوله: ولم ينحله ذلك غيره، وفي اللفظ الآخر: ولم يجعله ذلك غيره، وهذا يتبين بجعله ذلك في الرواية أي: هو الذي حكم لنفسه بذلك لا غيره، ومن جعله مخلوقًا لزمه أن يكون الغير هو الذي جعله كذلك ونحله ذلك.

الرابع: أن ابن عباس ذكر ذلك في بيان معنى قوله: {وكان الله غفورًا رحيما}، {عزيزًا حكيمًا}، {سميعًا بصيرًا}، ليبين حكمة الإتيان بلفظ كان في مثل هذا، فأخبر في ذلك أنه هو الذي سمى نفسه ذلك ولم ينحله ذلك غيره. ووجه مناسبة هذا الجواب، أنه إذا نحل ذلك غيره كان ذلك مخلوقًا بخلق ذلك الغير، فلا يخبر عنه بأنه كان كذلك، وأما إذا كان هو الذي سمى به نفسه ناسب

أن يقال: إنه كان كذلك وما زال كذلك، لأنه هو لم يزل - سبحانه وتعالى - وهذا التفريق إنما يصح إذا كان غير مخلوق، ليصح أن يقال: لما كان هو المسمي لنفسه بذلك، كان لم يزل كذلك ا ٠ هـ من التسعينية لشيخ الإسلام (٢/ ٥٧٨).

٢- الإمام الدارمي: فقد قال ان الفعل لازم للحياة، فكل حي لابد أن يكون فعالًا، وما ليس بفعال فهو ليس بحي، فالحياة والفعل متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر في الوجود. انظر شرح هراس على النونية (١/ ١٧٠).

٣- الإمام أحمد بن حنبل: قال في رده على الجهمية (ص٣٤): وقلنا للجهمية من القائل يوم القيامة: يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، أليس الله هو القائل؟ قالوا: فيكون الله شيئًا فيعبر عن الله، كما يكون شيئًا فعبر لموسى. قلنا: فمن القائل {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين. فلنقصن عليهم بعلم} أليس الله هو الذي يسأل؟ قالوا هذا كله إنما يكون شيئًا فيعبر عن الله. فقلنا قد أعظمتم على الله الفرية حين زعمتم أنه لا يتكلم. فشبهتموه بالأصنام التي تعبد من دون الله، لأن الأصنام لا تتكلم ولا تتحرك ولا تزول من مكان إلى مكان فلما ظهرت عليه الحجة قال: إن الله يتكلم ولكن كلامه مخلوق. قلنا: وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق، فقد شبهتم الله بخلقه حين زعمتم أن كلامه مخلوق. ففي مذهبكم قد كان في وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق التكلم، وكذلك بنو آدم كانوا ولا يتكلمون حتى خلق الله لهم كلامًا. فقد جمعتم بين كفر وتشبيه، فتعالى الله عن هذه الصفة، بل نقول: إن الله لم يزل متكلمًا إذا شاء، ولا تقول إنه كان ولا يتكلم حتى خلق الكلام. ولا نقول أنه قد كان ولا قدرة له حتى خلق لنفسه قدرة ولا نقول أنه قد

كان ولا عظمة له حتى خلق لنفسه، عظمة، فقالت الجهمية لنا لما وصفنا الله بهذه الصفات: إن زعمتم أن الله ونوره والله وقدرته والله وعظمته فقد قلتم بقول النصارى حين زعمتم أن الله لم يزل ونوره ولم يزل وقدرته. قلنا لا نقول: عن الله لم يزل وقدرته ولم يزل ونوره ولكن نقول لم يزل بقدرته ونوره، لا متى قدر، ولا كيف قدر فقالوا: لا تكونن موحدين أبدًا حتى تقولوا: قد كان الله ولا شيء. قلنا: نحن نقول قد كان الله ولا شيء. ولكن إذا قلنا: إن الله لم يزل بصفاته كلها. أليس إنما يصف إلهًا واحدًا بجميع صفاته وضربنا لهم في ذلك مثلًا.

فقلنا: أخبرنا عن هذه النخلة، أليس لها جذع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار، واسمها اسم شيء واحد وسميت نخلة. بجميع صفاتها؟ فكذلك الله وله المثل الأعلى بجميع صفاته إلاه واحد لا نقول أنه قد كان في وقت من الأوقات ولا بقدرة حتى خلق قدرة والذي ليس له قدرة هو عاجز ولا نقول قد كان في وقت من الأوقات، ولا يعلم حتى خلق له علمًا فعلم، والذي لا يعلم هو جاهل، ولكن نقول لم يزل الله عالمًا قادرًا. لا متى ولا كيف.

٤- الإمام ابن المبارك: قال: لم يزل لله متكلمًا إذا شاء، نقله شيخ الإسلام في منهاج السنة (٢/ ٣٨٣).

٥- الإمام البخاري: قال في كتابه خلق أفعال العباد (ص١٠٧): ولقد بين نعيم بن حماد أن كلام الرب ليس بخلق وأن العرب لا تعرف الحى من الميت إلا بالفعل، فمن كان له فعل فهو حى ومن لم يكن له فعل فهو ميت، وأن أفعال العباد مخلوقة.

بعد فهم هذه المقدمة نعود لمسألة التسلسل فنقول: وليعلم أيضا أن

الحوادث لها معنيان: المعنى الأول: تطلق ويراد بها المخلوقات ومنه قول النحراوي: الصفة الرابعة الواجبة له تعالى المخالفة للحوادث أي المخلوقات.

المعنى الثاني: تطلق ويراد بها التجدد. وبهذا نعلم أنه ليس كل حادث مخلوقًا. وتسلسل الحوادث يراد بها تسلسل أفعال الرب التي نفاها أهل الكلام بحجة أن لا تحل في الذات الإلهية، وأما أهل السنة فيقولون بإثبات هذه الأفعال ويقولون إن نوع الحوادث قديم أي أن صفة الفعل وهو نوع أو جنس الصفات الفعلية قديم، أما أفرادها أو آحادها فهي حادثة وهذا الذي بمعنى التجدد، وهذا التسلسل للحوادث واجب التسلسل. أما الحوادث التي بمعنى المخلوقات وهو تسلسل الأعيان التي هي المفعولات وهي قديمة النوع أيضًا لا قديمة الأعيان، لأنه نتيجة القول بدوام فاعلية الرب، أما أفرادها فلا شك أنها مسبوقة بالعدم، وجائز أن يقال ما من زمن يفترض فيه خلق العالم إلا وجائز أن يقع قبله ذلك لأن الله أزلي وهو من التسلسل الجائز لا الواجب.

قال شيخ الإسلام في درء التعارض (٨/ ٢٧٩): والمقصود هنا أن هؤلاء المتكلمين الذين جمعوا في كلامهم بين حق وباطل. وقابلوا الباطل بباطل، وردوا البدعة ببدعة، لما ناظروا الفلاسفة وناظروهم، في مسألة حدوث العالم ونحوها، استطال عليهم الفلاسفة لما رأوهم قد سلكوا تلك الطريق، التي هي فاسدة عند أئمة الشرع والعقل، وقد اعترف حذاق النظار بفسادها، فظن هؤلاء الفلاسفة الملاحدة أنهم إذا أبطلوا قول هؤلاء بامتناع حوادث لا أول لها، وأقاموا الدليل على دوام الفعل، لزم من ذلك قدم هذا العالم، ومخالفة نصوص الأنبياء. وهذا جهل عظيم، فإنه ليس للفلاسفة ولا لغيرهم دليل واحد عقلي صحيح يخالف شيئًا من نصوص الأنبياء وهذه مسألة حدوث العالم وقدمه، لا

يقدر أحد من بني آدم يقيم دليلًا على قدم الأفلاك أصلًا، وجميع ما ذكروه ليس فيه ما يدل على قدم شيء بعينه من العالم أصلًا، وإنما غايتهم أن يدلوا على قدم نوع الفعل، وأن الفاعل لم يزل فاعلًا، وأن الحوادث لا أول لها، ونحو ذلك مما لا يدل على قدم شيء بعينه من العالم، وهذا لا يخالف شيئًا من نصوص الأنبياء، بل يوافقها.

وأما النصوص المتواترة عن الأنبياء بأن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأن الله خالق كل شيء، فكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن، فلا يمكن أحدًا أن يذكر دليلًا عقليًا يناقض هذا، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .اهـ.

وقال في الفتاوى (٩/ ٢٨٠): ولكن موضع النظر والنزاع (نوع الحوادث) وهو انه هل يمكن أن يكون النوع دائمًا فيكون الرب لا يزال يتكلم أو يفعل بمشيئته وقدرته أم يمتنع ذلك؟.اهـ.

وقال في منهاج السنة: وعمدة الفلاسفة على قدم العالم هو قولهم: يمتنع حدوث الحوادث بلا سبب حادث، فيمتنع تقدير ذات معطلة عن الفعل لم تفعل ثم فعلت من غير حدوث سبب. وهذا القول لا يدل على قدم شيء بعينه من العالم لا الأفلاك ولا غيرها، إنما يدل على أنه لم يزل فعالًا وإذا قدر أنه فعال لأفعال تقوم بنفسه أو مفعولات حادثة شيئًا بعد شيء، كان ذلك وفاء بموجب هذه الحجة، مع القول بأن كل ما سوى الله محدث مخلوق بعد أن لم يكن، كما أخبرت الرسل أن الله خالق كل شيء، وإن كان النوع لم يزل متجددًا، كما في الحوادث المستقبلة: كل منها حادث مخلوق، وهي لا تزال تحدث شيئًا بعد شيء..اهـ.

وقال ابن القيم في شفاء العليل (ص١٥٦): وأجابت طائفة أخرى من أهل السنة والحديث عن هذا بالتزام التسلسل، وقالوا: ليس في العقل ولا في الشرع ما ينفي دام فاعلية الرب سبحانه؛ وتعاقب أفعاله شيئًا قبل شيء إلى غير غاية، كما تتعاقب شيئًا بعد شيء إلى غير غاية، فلم يزل فعالًا.

قالوا: والفعل صفة كمال ومن يفعل أكمل ممن لا يفعل.

قالوا: ولا يقتضي صريح العقل إلا هذا، ومن زعم أن الفعل كان ممتنعًا عليه سبحانه في مدد [غير مقدرة] لا نهاية لها، ولا يقدر أن يفعل، ثم انقلب الفعل من الاستحالة الذاتية إلى الإمكان الذاتي، من غير حدوث سبب ولا تغير في الفاعل، فقد نادى على عقله بين الأنام.

قالوا: وإذا كان هذا في العقول، جاز أن ينقلب العالم من العدم إلى الوجود من غير فاعل، وإن امتنع هذا في بداية العقول، فكذلك تجدد إمكان الفعل وانقلابه من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي بلا سبب، وأما أن يكون هذا ممكنًا، وذاك ممتنعًا، فليس في العقول ما يقتضي بذلك.

قالوا: والتسلسل لفظ مجمل لم يرد بنفيه ولا إثباته كتاب ناطق، ولا سنة متبعة فيجب مراعاة لفظه، وهو ينقسم إلى واجب وممتنع وممكن، فالتسلسل في المؤثرين محال ممتنع لذاته، وهو أن يكون بين مؤثرين كل واحد منهما استفاد تأثيره ممن قبله لا إلى غاية. والتسلسل الواجب ما دل عليه العقل والشرع من دوام أفعال الرب تعالى في الأبد وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيمًا آخر لا نفاد له، وكذلك التسلسل في أفعاله سبحانه من طرف الأزل وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر فهذا واجب في كلامه، لأنه لم يزل متكلمًا إذا شاء، ولم تحدث له صفة الكلام في وقت، وهكذا أفعاله التي هي من لوازم

حياته، فإن كل حي فعال، والفرق بين الحي والميت بالفعل، ولهذا قال غير واحد من السلف: الحي الفعال وقال عثمان بن سعيد: كل حي فعال، ولم يكن ربنا تبارك وتعالى قط في وقت من الأوقات المحققة او المقدرة معطلًا عن كماله من الكلام [والإرادة والفعل].

وأما التسلسل الممكن فالتسلسل في مفعولاته من هذا الطرف، كما يتسلسل في طرف الأبد، فإنه إذا لم يزل حيًا قادرًا مريدًا متكلمًا، وذلك من لوازم ذاته، فالفعل ممكن له بوجوب هذه الصفات له، وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل، ولا يلزم من هذا أنه لم يزل الخلق معه، فإنه سبحانه متقدم على كل فرد فرد من مخلوقاته تقدمًا لا أول له، فلكل مخلوق أول، والخالق سبحانه لا أول له، فهو وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن.

قالوا: وكل قول سوى هذا فصريح العقل يرده، ويقضي ببطلانه، وكل من اعترف بأن الرب سبحانه لم يزل قادرًا على الفعل لزمه أحد أمرين لابد له منهما، إما بأن يقول بأن الفعل لم يزل ممكنًا، وإما ان يقول لم يزل واقعًا، وإلا تناقض تناقضًا بينًا، حيث زعم أن الرب سبحانه لم يزل قادرًا على الفعل، والفعل محال ممتنع لذاته لو أراده لم يمكن وجوده، بل فرض إرادته عنده محال، وهو مقدور له، وهذا قول يناقض بعضه بعضا.اهـ.

وقال الشنقيطي في كتابه رحلة الحج إلى بيت الله الحرام (ص٥١): وهذا الكلام كله في استحالة تسلسل تأثير بعض أفراد الهيولي في بعض اما بالنظر إلى وجود حوادث لا أول لها بايجاد الله، فذلك لا محال فيه ولا يلزمه محذور لأنها موجودة بقدرة وإرادة من لا أول له جل وعلا. وهو في كل لحظة من وجوده يحدث ما يشاء كيف يشاء فالحكم عليه بأن احداثه للحوادث له مبدأ يوهم أنه

كان قبل ذلك المبدأ عاجزًا عن الايجاد سبحانه وتعالى عن ذلك. وإيضاح المقام انك لو فرضت تحليل زمن وجود الله في الماضي إلى الأزل إلى أفراد زمانية أقل من لحظات العين أن تفرض ان ابتداء ايجاد الحوادث مقترن بلحظة من تلك اللحظات فإنك ان قلت هو مقترن باللحظة الأولى قلنا ليس هناك أولى البتة، وإن فرضت اقترانه بلحظة أخرى فإن الله موجود قبل تلك اللحظة بجميع صفات الكمال والجلال بما لا يتناهى من اللحظات وهو في كل لحظة يحدث ما شاء كيف شاء فالحكم عليه بأن لفعله مبدأ، لم يكن فعل قبله شيئًا يتوهم أن له مانعًا من الفعل قبل ابتداء الفعل، فالحاصل أن وجوده جل وعلا لا أول له وهو في كل لحظة من وجوده يفعل ما يشاء كيف يشاء فجميع ما سوى الله كله مخلوق حادث بعد عدم، إلا أن الله لم يسبق عليه زمن هو فيه ممنوع الفعل سبحانه وتعالى عن ذلك. فظهر أن وجود حوادث لا أول لها إن كانت بإيجاد من لا أول له لا محال فيه وكل فرد منها كائنًا ما كان فهو حادث مسبوق بعدم لكن محدثه لا أول له وهو في كل وقت يحدث ما شاء كيف شاء سبحانه وتعالى.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في شرح السفارينية (ص٣١٥): بعد أن لم تكن، والسماء مخلوقة بعد أن لم تكن، والأرض مخلوقة بعد أن لم تكن، وكل شيء مخلوق من العدم بعد أن لم يكن. وهذه المسالة ضل فيها من ضل من الناس، وزعموا أن المخلوقات قديمة النوع، وأن المادة أزلية، كما أنها أبدية، ولهذا يقولون: إن المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم؛ فليست معدومة من قبل، ولا تفنى من بعد. وكل هذا ضلال؛ لأنك إذا قلت: بقدم الأشياء وأنها لم تكن حادثة، أشركت بالله وجعلت له شريكًا في القدم وهذا شرك. ولكن هل الله ﷻ

أتى عليه وقت لم يكن يفعل شيئًا؟

قال بعض العلماء: نعم، أتى عليه وقت لم يكن يفعل شيئًا، ثم حدث الفعل، لأنك إن لم تقل بذلك لزم أن تجعل المفعول قديمًا، فإنك إذا اثبت لله فعلًا - فلا فعل إلا بمفعول - وحينئذٍ يلزمك أن تقول بِقِدم المفعولات، فتقع في الضلال.

ولهذا اختلف الناس في هذه المسالة، فمنع قوم التسلسل في الماضي، كان منعوه في المستقبل، وقالوا: إن الله تعالى في الأول لم يكن يفعل، وفي النهاية أيضًا لا يفعل، وبنوا على ذلك أن الجنة تفنى، والنار تفنى، أي ينعدمان بالكلية، بل ولا يبقى شيء أبدًا؛ لا سماء ولا أرض، ولا نجوم، ولا شمس، ولا قمر، ولا يبقى إلا الله عَجَلَّ، وهذا مذهب الجهمية، حيث قالوا: بأن الأشياء لا تدوم فكما أن لها ابتداء فلها انتهاء.

وقال بعض منهم بل تفنى الحركات دون الذوات، فحركات الحي تفنى دون ذاته، فيبقى الناس كأنهم أصنام، وهذا مذهب العلاف وهو من المعتزلة، وقد سخر به ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية، فقال: على زعمه: أن الإنسان من أهل الجنة إذا رفع إلى فمه فاكهة وجاء وقت الفناء جمع على ما هو عليه، وبقيت الفاكهة بيده لم تصل إلى فمه إلى أبد الآبدين، وإذا كان على أهله من الحور العين أو من نساء الدنيا وأتى وقت فناء الحركات بقي على ما هو عليه إلى أبد الآبدين. وهذا كلام غير معقول، بل أنه ضلال والعياذ بالله، وغالبًا ما يكون من لا يبني على علم من الشرع ضحكة. وقال قوم بعكس القول السابق حيث قالوا بالتسلسل في الابتداء والانتهاء، وأن الخلق قديم كما أنه لا نهاية له، فطردوا المسالة من الوجهين، فقالوا: إذا كنا نقول بإمكان تسلسل الحوادث في

المستقبل، وأن الجنة والنار باقية إلى أبد الآبدين، فكذلك في الماضي.

وقال آخرون -وزعموا أنهم أهل السنة - بأن التسلسل في المستقبل واجب وفي الماضي مستحيل، ومعنى ذلك أنه في الزمن الآتي لا تفنى الجنة، ولا تنفى النار ولا يفنى ما فهما، وأما في الماضي فالتسلسل مستحيل لأنه يلزم منه أن تكون الحوادث قديمة كقِدم الله، وهذا شرك.

وهنا قول رابع: وهو أن التسلسل في المستقبل ممكن في الذوات نفسها، وفي ذوات أخرى تستجد فيما بعد، وأما التسلسل في الماضي ففي الذوات مستحيل، ومعنى ذلك أن قولنا: إن هذه الذات لم تزل ولا تزال موجودة وهذا مستحيل؛ لأنه ليس هناك شيء من المخلوقات يوصف بالقِدم كقِدم الله.

لكن ليكن معلومًا أن الله لم يزل ولا يزال خلاقًا، وأن هناك مخلوقات غير السماء والأرض؛ لأن المصلي يقول: ((ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد))، فهناك مخلوقات قبل السموات وقبل العرش لا نعرف ما هي؛ لأن الله لم يزل ولا يزال فعالا، ولا يلزم من هذا أن قدم المفعول كقدم الفاعل؛ لأنه باتفاق العقلاء أن المفعول مسبوق بالفاعل؛ لأن المفعول نتيجة فعل الفاعل، وفعل الفاعل وصف له، ولابد أن يكون الموصوف سابقا على الصفة، ثم المفعول بعد الصفة.

يعني لما كان عندنا مفعول وفعل وفاعل، فالمفعول لا شك أنه متأخر عن فعل الفاعل، وفعل الفاعل متأخر عن الفاعل، وعلى ذلك فلا يلزم من قولنا بقدم الحوادث أن تكون قديمة كقدم الله، وأن تكون شريكة لله في الوجود.

وهذا هو الحق الذي ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد شنع عليه خصومه تشنيعًا عظيمًا، وقالوا: هذا قول الفلاسفة، وهذا قول باطل، ولكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ

تخلص منهم بأنه لا يلزم من قدم المفعول أن يكون مساويًا للفاعل، لأنه بضرورة العقل أن المفعول لابد أن يكون مسبوقًا بفعل، والفعل لابد أن يكون مسبوقًا بفاعل، وهذا هو الحق.

وقول المؤلف: (وضل من أثنى عليها بالقدم) إن أراد من أثنى عليها بالنوع فليس بصحيح، وإن أراد من أثنى عليها بالعين فهذا صحيح؛ لأن ما من شيء من المخلوقات يكون قديما ليس له أول أبدا.

وخلاصة القول في ذلك أنه ليس في الوجود إلا خالق ومخلوقا، وأن الخالق جل وعلا لم يزل ولا يزال موجودًا، وأما المخلوق فالأزل في حقه ممتنع، فليس هناك شيء من المخلوقات يكون أزليًا أبدًا، بل ما من مخلوق إلا وهو حادث بعد أن لم يكن؛ فالسموات والأرض والجبال والشجر والدواب والعرش والكرسي والقلم وغير ذلك كله مخلوق من العدم، ولم يقل أحد بقدمه إلا الفلاسفة.

فالفلاسفة هم الذين قالوا بقدم العالم، وأن العالم لم يزل ولا يزول، ولهذا يقولون: إن المادة لا تفنى كما أنها ليست حادثة، وهذا لا شك أنه شرك مخرج عن الملة، ومن ادعى أن مع الله شريكًا في الوجود فهو مشرك.

وهذه المخلوقات منها شيء أبدي خلقه الله للبقاء، ومنها شيء أمدي يعني له مدة ثم ينتهي، فمن الأشياء الأبدية الروح، فإن الله خلق أرواح للأبد، ولا يقال: إن الحيوان يموت فتفقد روحه؛ لأن موت الحيوان ليس فقدًا لروحه، بل مفارقة الروح للبدن.

اللهم إلا روح من لم يخلق للأبد فهذه قد تفنى، وليس عندي في ذلك أثارة من علم، لكن هذا هو الظاهر، فأرواح الحيوان سوف تعاد في أجسادها يوم

القيامة، كما قال الله تعالى: (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) (التكوير: ٥) ولكن يأمرها الله ﷻ بعد أن يقضي بينها بعدله أن تكون ترابا فتكون ترابا، وظاهر هذا أنها تفنى الأرواح والأجساد، لأن بقاء الأرواح بعد هذا الفصل والحكم لا فائدة منه فيما يظهر لنا.

إذا فالذي خلق للبقاء من الأرواح هو أرواح المكلفين؛ يعني بني آدم والجن، وكذلك الحور والولدان الذين في الجنة، فهؤلاء خلقوا للبقاء فلا يموتون.

إذا فمن جهة الأزلية ليس هناك مخلوق يكون أزليا أبدا، ومن جهة الأبدية ففيه تفصيل منه ما خلق على أنه أبدي، ومنه ما خلق على انه أمدي؛ يفنى ويزول.اهـ.

(تنبيه) لقد خالف شيخ الإسلام في هذه المسألة بعضهم مثل السبكي في السيف الصقيل (ص٨٦)، والحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٤٢١)، وابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية (ص١١٦)، وتقي الدين الحصني في كتابه دفع شبه من شبه وتمرد (ص ٦٠)، وزاهد الكوثري في حاشيته على السيف الصقيل (ص٨١)، وفي حاشيته على الإجماع لابن حزم (ص١٦٩) وغيرهم، ولكن الإشكال في خلاف العلامة الألباني حيث قال في الصحيحة (رقم ١٣٣): وفيه رد أيضًا على من يقول بحوادث لا أول لها، وأنه ما من مخلوق، إلا ومسبوق بمخلوق قبله، وهكذا إلى ما لا بداية له، بحيث لا يمكن أن يقال: هذا أول مخلوق، فالحديث يبطل هذا القول ويعين أن القلم هو أول مخلوق فليس قبله قطعًا أي مخلوق. ولقد أطال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ الكلام في رده على الفلاسفة محاولًا إثبات حوادث لا أول لها، وجاء في أثناء ذلك بما تحار فيه العقول، ولا

تقبله أكثر القلوب، حتى اتهمه خصومه بأنه يقول بأن المخلوقات قديمة لا أول لها، مع أنه يقول ويصرح بأن ما من مخلوق إلا وهو مسبوق بالعدم، ولكنه مع ذلك يقول بتسلسل الحوادث إلى ما لا بداية له. كما يقول هو وغيره بتسلسل الحوادث إلى ما لا نهاية، فذلك القول منه غير مقبول، بل هو مرفوض بهذا الحديث، وكم كنا نود أن لا يلج ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا المولج، لأن الكلام فيه شبيه بالفلسفة وعلم الكلام الذي تعلمنا منه التحذير والتنفير منه، ولكن صدق الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: "ما منا من أحد إلا رد ورد عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ.اهـ.

وقال في تعليقه على الطحاوية (ص٥٣) طبعة المكتب الإسلامي الثانية: قلت ذكر الشارح هنا أن العلماء اختلفوا هل القلم أول المخلوقات، أو العرش؟ على قولين لا ثالث لهما وأنا وإن كان الراجح عندي الأول، كما كنت صرحت به في تعليقي عليه فإني أقول الآن: سواء كان الراجح هذا أم ذاك، فالاختلاف المذكور يدل بمفهومه على أن العلماء اتفقوا على أن هناك أول مخلوق، والقائلون بحوادث لا أول لها، مخالفون لهذا الاتفاق، لأنهم يصرحون بأن ما من مخلوق إلا وقبله مخلوق، وهكذا إلى ما لا أول له، كما صرح بذلك ابن تيمية في بعض كتبه، فإن قالوا: العرش أول مخلوق، كما هو ظاهر كلام الشارح، نقضوا قولهم بحوادث لا أول لها وإن لم يقولوا بذلك خالفوا الاتفاق! فتأمل هذا فإنه مهم والله الموفق) اهـ.

وبالرجوع إلى أصل كلام الشارح نجد:

١- إنه قال (على قولين ذكرهما الحافظ أبوالعلاء ... ..) فجمله " لا ثالث لهما " من كلام الشيخ ناصر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢- أنه لم يقل إن العرش أول مخلوق بل قال (أصحهما أن العرش قبل القلم).

٣- أن هذا الكلام إنما هو في الفقرة الخاصة بالإيمان باللوح والقلم أما في الفقرة التي تعرض فيها الشارح للموضوع نفسه أي هل للحوادث أول فكلامه صريح في التقييد بهذا العالم المشهود لا جنس المخلوقات وذلك في جمل كثيرة منها: -

أ - قوله (واختلفوا في أول هذا العالم ما هو)

ب - قوله عن حديث كتابة المقادير (فأخبر ﷺ أن تقدير هذا العالم المخلوق في ستة أيام كان قبل خلقه السموات بخمسين الف سنة).

ج - قوله عن حديث عمران بن حصين (وقد أجابهم النبي ﷺ عن بدء هذا العالم المشهود لا عن جنس المخلوقات".

وأوضح من هذا كله وأهم أن الشارح إنما نقل كلامه عن شيخ الإسلام من منهاج السنة، والشيخ أجل من أن يتناقض بل صرح بأن المراد هو هذا العالم لا جنس الخلق. وإنما أوردنا هذا لأن شبهة أهل البدع في تكفير شيخ الإسلام أو تضليله هي دعوى مخالفة الإجماع وربما اعتضدوا بكلام الشيخ الألباني رحمه الله كما فعل السقاف. والذي يبدو أن الشيخ الألباني لم يقرأ كلام شيخ الإسلام بتدبر، وأجزم أنه لو قرأه بتدبر مع ما أوتي من التجرد ودقة الفهم لأقره وأيده لا سيما شرحه حديث عمران بن حصين. وعلى أي حال فالشيخ الألباني نقل (ص١٤) من الكتاب نفسه قول الشارح (أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء. وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا وهذا المأثور عن أئمة السنة والحديث) وقد أقر الشيخ هذا القول وهو حق وهذا بعينه

قول شيخ الإسلام عن صفة الخلق فنوع المخلوقات قديم قدم نوع الكلام وإن لم يكن شي من المخلوقات المعينة قديمًا ومخلوقاته هي أثر كلماته قال تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون} وقال {ألا له الخلق والأمر} فمن سلم بمذهب أهل السنة في الكلام فليسلم بكلامهم في الخلق كما ذكره شيخ الإسلام مؤيدًا كلامه بأقوال أئمة السنة فيه كالإمام أحمد والبخاري وابن المبارك والدارمي ومن قبلهم من الصحابة والتابعين.

ومما يجلي ذلك ان شيخ الإسلام قد نص على أن أشباه النوع بالعين وقع لكثير من الناس في الخلق كما وقع في الكلام انظر مجموع الفتاوى (١٢/ ١٨٤ - ١٩١و١٥٤ - ١٥٧)، والشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ لم يقع له الاشتباه في الكلام بل نقل قول الشارح كما ذكرنا عارفًا بمضمونه مقرًا له لكن وقع له الاشتباه في الخلق كما رأيت.

ولا ريب أن المسألة بتفصيلاتها ولوازمها دقيقة المنزع وعرة المسلك بعيدة الغور إلا أننا نذكر خلاصة ما يجب على المسلم - لا سيما طالب العلم - معرفته في هذا الشأن وهو هذه الأمور:

١ - أن الله تعالى هو الأول الذي ليس قبله شيء.

٢ - أن الله تعالى متصف بصفات الكمال أزلًا وأبدلًا ومنها كونه خالقًا لما يشاء متى شاء فعال لما يريد فلم يأت عليه زمن كان معطلًا فيه عن الخلق او الكلام أو غير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله.

٣- أن كل ما سوى الله تعالى مخلوق له مربوب كائن بعد أن لم يكن.

وبعد هذا إن أمكنه أن يفهم الفرق بين النوع والآحاد وبين حكم الواحد وحكم المجموع فقد انكشف له أصل المسألة، وإن لم يفهمه فلا يضيره

الوقوف بالساحل وإنما الضير في التخبط بلا هدى، وأسوأ منه الجهل المركب الذي اشترك فيه من كفروا الشيخ أو خطأوه ومن دافع عنه بنفي ما يعلم كل مطلع على كتبه أنه من مشهور أقواله.

(باب التحذير من مذهب المفوضة)

التفويض مصدر فوّض إليه الأمر يفوّضه بمعنى صيّره إليه وجعله الحاكم فيه، كما في لسان العرب (٧/ ٢١٠)، ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: "وأفوض أمري إلى الله" [غافر:٤٤] ومن دعائه ﷺ: "وفَوَّضْتُ أمري إليك" يعني رددته إليك. والمتكلمون يعنون بالتفويض في صفات الله تعالى ما ينسبونه إلى السلف من الكف عن تفسيرها الذي يدل على معناها. فهم - على قول المتكلمين - لا يعلمون معانيها، وأنهم في فهم هذه الصفات كالأعجمي الذي لا يعرف من معناها إلا مجرد سماع ألفاظها. ومن أجل ذلك فوضوا العلم بها إلى الله تعالى. ولا شك أن هذا تجهيل لسلف الأمة الذين هم أعلم الخلق بربهم سبحانه. وهو أيضا اتهام للنبي ﷺ بأنه لم يبين للصحابة ما أنزل الله عليه. ولا يوجد نص عن أحد من الصحابة أو التابعين أو من بعدهم من السلف الصالحين يقول في صفة من صفات الله تعالى: أنا لا أعلم معناها أو إنني أفوض معناها إلى الله تعالى. بل كانوا يقولون: "أَمِرُّوها كما جاءت" ولا يتحرجون من وصف الله عز وجل بشيء منها.

فمن المعلوم أن عقيدة السلف هي الإثبات، لا التفويض ولا التأويل لأن أكثر ما يتبجح به من لم يحط علما بمعتقد السلف أنهم مفوضة وأن من بعدهم من الخلف مؤولة، ويبنون على هذا أن من لم يقل بالتفويض ولا بالتأويل فهو المبتدع، ومن فوّض أو أوّل فهو على صراط مستقيم حتى قال قائلهم:

وكل نص أوهم التشبيها * أوّله أو فوّض ورم تنزيها. كما جوهرة التوحيد مع حاشية الباجوري، (ص ٥٥).

والنصوص الصريحة لا توهم التشبيه في العقول الزكية، وإنما الوهم من العقول الكليلة التي أصيبت بمرض الكلام والفلسفة والتي لا تفهم أن لله صفات تليق بجلاله وكماله مغايرة لصفات البشر المناسبة لحالهم وعجزهم وافتقارهم.

ثم إن المؤلة يتحيرون فلا يعرفون حقا ولا يهتدون سبيلا فيقولون: طريقة السلف أسلم - يعنون التفويض - وطريقة الخلف أعلم - يعنون التأويل. وهذا كله خطأ أورث خطأ. بل طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم، وطريقة غيرهم أظلم وأسقم وأغشم. فالسلف هم الذين زكّى الله طريقهم وهدّد بالعذاب من خالف سبيلهم. وهم خير الأمة بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم. فكيف يقال إن المتكلمين الحيارى أعلم منهم بالله وما يليق به؟! فالسلف لم يكونوا يفوّضون معاني صفات الله ﷻ لأنهم لم يكونوا يجهلون معانيها، ولم يؤولوا شيئا منها لأنهم لم يتوهموا مشابهة صفات الخالق بصفات المخلوق فيحتاجوا لما احتاج إليه أهل الكلام من التأويل. قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٠٥ - ٥٠٦): قد فسر علماء السلف المهم من الألفاظ وغير المهم، وما أبقوا ممكنا، وآيات الصفات وأحاديثها لم يتعرضوا لتأويلها أصلا، وهي أهم الدين، فلو كان تأويلها سائغا أو حتما لبادروا إليه، فعلم قطعا أن قراءتها وإمرارها على ما جاءت هو الحق، لا تفسير لها غيرُ ذلك، فنؤمن بذلك ونسكت اقتداء بالسلف، معتقدين أنها صفات لله تعالى استأثر الله بعلم حقائقها (يعني كيفيتها) وأنها لا تشبه صفات المخلوقين، كما أن ذاته

المقدسة لا تماثل المخلوقين. فالكتاب والسنة نطق بها، والرسول ﷺ بلّغ، وما تعرض لتأويل مع كون الباري قال:"لتبين للناس ما نزل إليهم" النحل: ٤٤]، فعلينا الإيمان والتسليم للنصوص، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.اهـ.

وهنا يجب التفريق بين التفويض الذي يقصدونه وبين ما ثبت عن السلف من الكف عن التكييف والتمثيل فهذا قد يسمى تفويضا ولكنه تفويض للكيفية لا للمعنى. فالسلف يثبتون معاني صفات الله تعالى على حقيقتها المعروفة التي يعرفها كل من يعرف اللغة العربية ولكن يفوضون العلم بكيفية هذه الصفات إذ أن ذلك لا تهتدي إليه العقول كما قال تعالى: "ولا يحيطون به علما" [طه: ١١٠]. ولذلك كانوا يقولون: أَمِرُّوهَا كما جاءت بلا كيف.

قال العلامة العثيمين في شرح الواسطية: بهذا تعرف ضلال أو كذب من قالوا: إن طريقة السلف هي التفويض، هؤلاء ضلوا إن قالوا ذلك عن جهل بطريقة السلف، وكذبوا إن قالوا ذلك عن عمد، أو نقول: كذبوا على الوجهين على لغة الحجاز، لأن الكذب عند الحجازيين بمعنى الخطأ. وعلى كل حال، لا شك أن الذين يقولون: إن مذهب أهل السنة هو التفويض، أنهم أخطأوا، لأن مذهب أهل السنة هو إثبات المعنى وتفويض الكيفية. وليعلم أن القول بالتفويض ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ من شر أقوال أهل البدع والإلحاد! عندما يسمع الإنسان التفويض، يقول: هذا جيد، أسلم من هؤلاء وهؤلاء، لا أقول بمذهب السلف، ولا أقول بمذهب أهل التأويل، أسلك سبيلًا وسطًا وأسلم من هذا كله، وأقول: الله أعلم ولا ندري ما معناها. لكن يقول شيخ الإسلام: هذا من شر أقوال أهل البدع والإلحاد وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وإذا تأملته وجدته تكذيبًا للقرآن وتجهيلًا للرسول واستطالة للفلاسفة. تكذيب للقرآن،

لأن الله يقول: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء) [النحل: ٨٩]، وأي بيان في كلمات لا يدرى ما معناها؟ وهي من أكثر ما يرد في القرآن، وأكثر ما ورد في القرآن أسماء الله وصفاته، إذا كنا لا ندري ما معناها، هل يكون القرآن تبيانًا لكل شيء؟ أين البيان؟ إن هؤلاء يقولون: إن الرسول لا يدري عن معاني القرآن فيما يتعلق بالأسماء والصفات وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يدري، فغيره من باب أولى.

وأعجب من ذلك يقولون: الرسول يتكلم في صفات الله، ولا يدري ما معناه يقول: "ربنا الله الذي في السماء"، وإذا سئل عن هذا؟ قال: لا أدري وكذلك في قوله: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا" وإذا سئل ما معنى "ينزل ربنا"؟ قال: لا أدري .... وعلى هذا، فقس. وهل هناك قدح أعظم من هذا القدح بالرسول بل هذا من أكبر القدح رسول من عند الله ليبين للناس وهو لا يدري ما معنى آيات الصفات وأحاديثها وهو يتكلم بالكلام ولا يدري معنى ذلك كله، فهذان وجهان: تكذيب بالقرآن وتجهيل الرسول.

وفيه فتح الباب للزنادقة الذين تطاولوا على أهل التفويض، وقال: أنتم لا تعرفون شيئًا، بل نحن الذين نعرف، وأخذوا يفسرون القرآن بغير ما أراد الله، وقالوا: كوننا نثبت معاني للنصوص خير من كوننا أميين لا نعرف شيئًا وذهبوا يتكلمون بما يريدون من معنى كلام الله وصفاته!! ولا يستطيع أهل التفويض أن يردوا عليهم، لأنهم يقولون: نحن لا نعلم ماذا أراد الله، فجائز أن يكون الذي يريد الله هو ما قلتم! ففتحوا باب شرور عظيمة، ولهذا جاءت العبارة الكاذبة: "طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم"!. يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذه قالها بعض الأغبياء" وهو صحيح، أن القائل غبي. هذه الكلمة من

أكذب ما يكون نطقًا ومدلولًا، "طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم"، كيف تكون أعلم وأحكم وتلك أسلم؟! لا يوجد سلامة بدون علم وحكمة أبدًا! فالذي لا يدري عن الطريق، لا يسلم، لأنه ليس معه علم، لو كان معه علم وحكمة، لسلم، فلا سلامة إلا بعلم وحكمة.

إذا قلت: إن طريقة السلف أسلم، لزم أن تقول: هي أعلم وأحكم وإلا لكنت متناقضًا.

إذًا، فالعبارة الصحيحة: "طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم"، وهذا معلوم.

وطريقة الخلف ما قاله القائل:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أرد إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعًا سن نادم

هذه الطريقة التي يقول عنها: إنه ما وجد إلا واضعًا كف حائر ذقن. وهذا ليس عنده علم، أو آخر: قارعًا سن نادم لأنه لم يسلك طريق السلامة أبدًا.

والرازي وهو من كبرائهم يقول:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم يقول: "لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: (الرحمن على العرش استوى) [طه: ٥] (إليه يصعد الكلم الطيب) [الشورى: ١١]، (ولا يحيطون به علما ([طه: ١١٠]، ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل

معرفتي" أهؤلاء نقول: إن طريقتهم أعلم وأحكم؟! الذي يقول: "إني أتمنى أن أموت على عقيدة عجائز نيسابور" والعجائز من عوام الناس، يتمنى أن يعود إلى الأميات! هل يقال: إنه أعلم وأحكم؟! أين العلم الذي عندهم؟!

فتبين أن طريقة التفويض طريق خاطئ، لأنه يتضمن ثلاث مفاسد: تكذيب القرآن، وتجهيل الرسول، واستطالة الفلاسفة! وأن الذين قالوا: إن طريقة السلف هي التفويض كذبوا على السلف! أو الذين قالوا: إن طريقة السلف هي التفويض كذبوا على السلف، بل هم يثبتون اللفظ والمعني ويقررونه، ويشرحونه بأوفى شرح.اهـ.

والخلاصة يجب أن نعلم أن هناك فرق بين نفي المعنى مطلقا ونفي تمام المعنى وبعبارة أخرى فرق بين فهم المعنى والإدراك والإحاطة لتمام المعنى، وهذا هو الفرق بين تفويض السلف وتفويض المفوضة: السلف يثبتون الجزء المفهوم من معنى اللفظ في لغة العرب وأوضح ذلك فأقول الناس في التعامل مع نصوص الصفات ثلاثة أقسام:

١- من لا يثبت أي معنى للفظة أي أنها لفظة مجهولة بالنسبة لنا كالحروف المقطعة طس كهيعص وهكذا وهم المفوضة ومنهم من يجريها على ظاهرها لكن يقول لا يعلم تأويلها إلا الله فهو يؤول إلى نفي المعنى وهذا هو الذي أنكره ابن عقيل على شيخه أبي يعلى وكلا النوعين تفويض معنى.

٢- من يثبت معنى الصفة لكن يفوض كنه وحقيقة الصفة وهم السلف.

٣- من يثبت معنى الصفة ويثبت الكيفية والكنه فيقول هي كصفات المخلوقين وهؤلا هم الممثلة المجسمة.

فأصبح الأمر فيه ثلاث درجات:

إما لا معنى مطلقا وإما القدر المفهوم من اللفظ دون الكيفية والكنه وإما المعنى والكيفية ونقرب هذا المعنى بمثال في المخلوقات:

نعيم الجنة: أخبر الله تعالى أن في الجنة ملابس ومآكل ومشارب لكن حقائق هذه الأشياء لا تعلم حقيقتها وكيفيتها بالنسبة لنا وإن كنا نعلم جزءا من معاني هذا النعيم فالرمان مثلا نعلم أنه طعام ويؤكل ونوع من الفاكهة وليس هو لباس أو مركب أو لفظ مجهول لكنا لا نعلم حقيقة لونه وحجمه وطعمه ورائحته كما نعلم أنه ليس كرمان الدنيا لأن نعيم الجنة فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لكن على قول المفوضة الرمان لا يعرف معناه فقد يكون مأكولا وقد يكون مشروبا وقد يكون مركوبا فمعناه مجهول.

وكذا إذا قلنا في المخلوقين يد فهي عند المخلوقين جزء وبعض من الجسم وهي الجزء المعروف منه فهذا القدر معروف لمعنى لفظة يد لكنها تختلف في حقيقتها من يد الفيل والأسد والطير والباعوضة تختلف في الحجم والشكل واللون ونحو ذلك فهذا معنى كلمة تفويض.

لكن في باب الصفات ولله المثل الأعلى فهو تبارك وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لا تطلق هذه الألفاظ التي أحدثها المتكلمون كأجزاء وأبعاض لكن أهل السنة يطلقون عليها أعيان في مقابل صفات المعاني فاليد والوجه والقدم والأصبع يسمونها صفات أعيان.

مسالة

أن مذهب السلف في صفات الله تعالى واضح كل الوضوح فيه من اليسر والسهولة ما يزيده إشراقا وجمالا فهم يؤمنون بكل ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ حقيقة لا مجازا على الوجه اللائق بكمال الله وجلاله لأنه

لا يصف الله تعالى أعلم من الله، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسوله ﷺ، والله يقول عن نفسه (أأنتم أعلم أم الله) البقرة آية ٧٤ ويقول عن رسوله ﷺ (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) النجم آية ٣ فكل ما جاء به القرآن حق لأنه من عند الله تعالى والله يقول (وقال الحق من ربكم) الكهف آية ٢٩ وكل ما ثبت في السنة حق وشرع لنا، وما أخبر به النبي ﷺ لا لتؤمن به. وطريقة السلف في الإثبات بنوها على أسس هي:

١- تنزيه الله سبحانه وتعالى عن مشابهة جميع المخلوقات في أسمائه وصفاته وذاته لقول الله تعالى (ليس كمثله شيء).

٢- اليأس من إدراك كيفية هذه الصفات والأسماء لقول الله تعالى (ولا يحيطون به علما) طه آية ١١٠، وقد نهانا النبي ﷺ عن التفكر في ذات الله تعالى لأن ذلك يؤدي إلى الهلكة، والقول في الصفات هو كالقول في الذات لأنهما من باب واحد، فهما من الغيب الذي لا نستطيع إدراكه أو الوقوف على حقيقته أو كنهه لأن ذلك من الغيب المحظور علينا والكيف المجهول عنا كما سبقت الإشارة إلى هذا بقول أم سلمة رضي الله عنها وغيرها: الاستواء معلوم والكيف مجهول "فمذهب السلف الصالح إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل، وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية هذا بأصلين: الأول: أن يقال القول في بعض الصفات كالقول في بعض فإن كان المخاطب ممن يقول بأن الله حي بحياة عليم بعلم قدير بقدرة سميع بسمع بصير ببصر متكلم بكلام ويجعل ذلك كله حقيقية وينازع في محبته ورضاه وغضبه وكراهيته فيجعل ذلك مجازا أو يفسره بالإرادة وأما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات، فيقال له: لا فرق بين ما نفيته وبين ما أثبته بل القول في أحدهما كالقول في الآخر. الثاني: أن يقال القول في الصفات كالقول في

الذات فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فإذا كان له ذات حقيقية لا تماثل الذوات فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات. وقد شاع لدى بعض الباحثين قديما وحديثا أن مذهب السلف هو التفويض وليس الإثبات، ونرد على هذه الدعوى بأمور: (أولا) الآيات القرآنية التي تضمنت هذه الصفات الكريمة لله تعالى من الاستواء والمجيء والرضا والغضب و... فإن لم يكن المراد منها إثبات هذه الصفات كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته فما هو المقصود منها إذا ؟ ثم إن الأحاديث النبوية الكثيرة في الصفات ومطابقتها لآيات الكريمات واستنطاق النبي ﷺ لبعض الصحابة وسؤاله لهم عن هذه الصفات كل ذلك من أوضح الأدلة على إثبات هذه الصفات لله جل وعلا وقد ذكر المصنف قسما من هذه الأحاديث مما يغنينا عن إعادة ذكرها أو ذكر مثيل لها بل سأكتفي بذكر حديثين فقط منهما مما رواهما البخاري ومسلم. (أ) قال ﷺ (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء...) الحديث. (ب) حديث احتج آدم وموسى وفيه فقال له موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده....) الحديث. (ثانيا) الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من السلف التي تدل على أن مذهبهم إنما هو إثبات الصفات لله سبحانه وتعالى. فقد أخرج اللالكائى بسنده قول أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الاستواء "الاستواء غير مجهول والكيف غير معلوم والإقرار به إيمان والجحود به كفر" [فتح الباري ١٣/ ٤٠٦.]. وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وأيم الله أني لأخشى لو كنت أحب قتله - لقتلت - يعني عثمان ولكن علم الله من فوق عرشه أني لم أحب قتله [الرد على الجهمية للدارمي ص ٢٧٥ في مجموعة اعتقاد السلف.]. وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين قبل أن يسلم: كم الها تعبد اليوم قال سبعة، ستة في

الأرض وواحد في السماء قال فإذا أصابك الضر فمن تدعو قال الذي في السماء [البيهقي في الأسماء والصفات ص ٤٢٤ .]. وكانت زينب أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تفتخر على سائر أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات [البيهقي في الأسماء والصفات ص ٤١٦ .]. ودخل ابن عباس على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي تموت فقال لها: كنت أحب نساء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب إلا طيبا وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات [الرد على الجهمية للدارمي ص ٢٧٥ .]. وقال عبد الرحمن بن القاسم (لا ينبغي لأحد أن يصف الله إلا بما وصف به نفسه في القرآن ولا يشبه يديه بشيء ولا وجهه بشيء ولكن يقول: له يدان كما وصف نفسه في القرآن وله وجه كما وصف نفسه يقف عندما وصف به نفسه في الكتاب فإنه تبارك وتعالى لا مثيل له ولا شبيه ولكن هو الله لا إله إلا هو [رسالة في الاعتقاد لمحمد بن عبد الله بن زمنين (ق ٢/ ٢).]. وقال الأوزاعي إمام أهل الشام في زمنه: كنا والتابعون متوافرون نقول إن الله على عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته [فتح الباري ١٣/ ٤٠٦ وصححها الذهبي في التذكرة ص ١٨١] (٧). وأخرج البيهقي بسند جيد عن عبد الله بن وهب قال كنت عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن: (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى فأطرق مالك فأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف به نفسه ولا يقال كيف وكيف عنه مرفوع وما أراك إلا صاحب بدعة فأخرجوه [فتح الباري ١٣/ ٤٠٧]. (ثالثا) ما نقله كثير ممن صنف في العقائد من المتقدمين أن مذهب السلف هو الإثبات. فقد أخرج البيهقي من طريق أبي داود الطيالسي قال: كان سفيان الثوري وشعبة وحماد بن

زيد بن سلمة وشريك وأبو عوانة لا يحددون ولا يشبهون ويروون هذه الأحاديث ولا يقولون كيف "قال أبو داود: وهو قولنا، وقال البيهقي، وعلى هذا مضى أكابرنا [الفتح ١٣/ ٤٠٧] وقال الترمذي في سننه عقب روايته لحديث النزول: وهو على العرش كما وصف به نفسه في كتابه كذا قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من الصفات [عون المعبود ١٣/ ٤٢]. وقتال أيضا في باب فضل الصدقة. قد ثبتت هذه الروايات فنؤمن بها ولا نتوهم ولا يقال كيف كذا جاء عن مالك وابن عيينة وابن المبارك أنهم أمروها بلا كيف وهذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة، وأما الجهمية فأنكروها وقالوا: هذا تشبيه، وقال إسحاق بن راهويه: إنما يكون التشبيه لو قيل يد كيد وسمع كسمع [عارضة الأحوزي بشرح الترمذي لابن العربي (٣/ ١٦٥)]. وقال الإمام أبو حنيفة في "الفقه الأكبر" وما ذكر الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف ولا يقال أن يده قدرته ونعمته لأن فيه إبطال الصفة وهو قول أهل القدر والاعتزال ولكن يده صفته بلا كيف وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف [ص ٢ ط حيدر آباد]. وقال الإمام الدارمي في مقدمة كتابه "الرد على الجهيمة" وله الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، يقبض ويبسط ويتكلم ويرضى ويسخط ويغضب ويحب ويبض ويكره ويضحك ويأمر وينهي ذو الوجه الكريم والسمع السميع والبصر البصير والكلام المبين واليدين والقبضتين والقدرة والسلطان والعظمة والعلم الأزلي لم يزل كذلك ولا يزال... استوى على عرشه فبان من خلقه لا تخفي عليه منهم خافية علمه بهم محيط وبصره فيهم نافذ (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [الرد على الجهمية ص ٢٥٥ - ٢٥٦]). وقال الدارمي

أيضا بعد أن ساق الآيات والأحاديث في إثبات صفة العلو لله سبحانه وتعالى: فمن آمن بهذا القرآن الذي احتججنا منه بهذه الآيات وصدق هذا الرسول الذي روينا عنه هذه الروايات لزمه الإقرار بأن الله بكماله فوق عرشه فوق سماواته وإلا فليحتمل قرآنا غير هذا فإنه غير مؤمن بهذا [المرجع السابق ص ٢٨٢]. وقال أبو العالية: استوى إلى السماء "ارتفع، وقال مجاهد: استوى علا. ونقل محيي السنة البغوي في تفسيره عن ابن عباس وأكثر المفسرين أن معناها ارتفع [الفتح ١٣/ ٤٠٣ - ٤٠٦]". وقال حماد بن زيد: إنما يحاون أن يقولوا ليس في السماء شيء [السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص ١٠]. وقيل ليزيد بن هارون من الجهمية؟ فقال: من زعم أن الرحمن على العرش استوى على خلاف ما يقر في قلوب العامة فهو جهمى [المرجع السابق ص ١٢]. وقال عباد بن العوام: كلمت بشرا المريسي وأصحاب بشر فرأيت آخر كلامهم ينتهي أن يقولوا ليس في السماء شيء [المرجع السابق ص ٦٣]. وقيل لعبد الله بن المبارك: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه [المرجع السابق ص ٥]. وأخرج الدارقطني بسنده أن عباد بن العوام قال: قدم علينا شريك بن عبد الله فقلت له: أن عندنا قوما من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث (أن الله ﷻ ينزل إلى سماء الدنيا) وأن أهل الجنة يرون ربهم (فحدثني شريك بنحو عشرة أحاديث في هذا وقال: أما نحن فأخذنا ديننا عن أبناء التابعين عن أصحاب رسول الله ﷺ فهم عمن أخذوا) [الصفات للدارقطنى (ق٦/ ١).]. وقال عبد العزيز بن الماجشون: والله ما دلهم على عظيم ما وصف من نفسه وما تحيط به قبضته إلا صغر نظيرها من عندهم أن ذلك الذي ألقى في روعهم وخلق على معرفته قلوبهم [الفتاوى لابن تيمية ٥/ ٤٨٢]. وقال الإمام الشافعي: لله

أسماء وصفات لا يسع أحد ردها ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل فتثبت هذه الصفات ونفي عنه التشبيه كما نفي عن نفسه فقال (ليس كمثله شيء) [عون المعبود ١٣/ ٤١] وقال أيضا: السنة التي أنا عليها ورأيت أصحابنا أهل الحديث الذين رأيتهم عليها فأحلف عنهم مثل سفيان ومالك وغيرهما الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف يشاء وأن الله ينزل إلى سماء الدنيا كيف يشاء [عون المعبود ١٣/ ٤٧]. (رابعا) أن الذين صنفوا في العقيدة من المتقدمين قد ذكروا الأحاديث والآثار التي تتعلق بالصفات ضمن أبواب في رسائلهم، حتى أن ابن خزيمة أطلق على كتابه في ذلك اسم: كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ وهذه بعض أبواب كتابه: باب في إثبات وجه الله، باب ذكر إثبات العين لله جل وعلا، باب ذكر إثبات السماع والرؤية لله جل وعلا، باب ذكر إثبات اليد للخالق البارئ جل وعلا، باب ذكر استواء خالقنا العلى الأعلى، باب صفة تكلم الله بالوحي، وهكذا فعل كثير ممن صنف في عقيدة السلف مثل كتاب "الرد على الجهمية" للدارمي، والرد على الجهمية للإمام أحمد والسنة له والسنة لابنه عبد الله والسنة لابن أبي عاصم النبيل والسنة لأبي بكر الأثرم والأربعين في دلائل التوحيد للهروي وشرح أصول السنن للالكائي والأسماء والصفات للبيهقي والإبانة للأشعري، وكذلك رسالته إلى أهل الثغر وعشرات الكتب غيرها - فكل هذه الكتب ليس فيها الا الإثبات وليس فيها ما يدل على خلافه، وهل بعد ذكر هذا الإجماع من هؤلاء الفحول من العلماء يطلب الدليل على أن مذهب السلف هو الإثبات. (خامسا) تبويب المحدثين لأحاديث الصفات في كتبهم دليل قاطع أيضا على أن مذهب

السلف هو الإثبات، وهذه بعض أبواب إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى. باب: وكان الله سميعا عليما، باب قول الله: ويحذركم الله نفسه، باب قول الله ﷻ: كل شيء هالك إلا وجهه، باب قول الله تعالى: ولتصنع على عيني، باب قول الله تعالى: لما خلقت بيدي، باب قول الله تعالى: تعرج الملائكة والروح إليه، وكان يذكر في كل باب عدة أحاديث فيها الصفة التي بوب عليها. كما عقد أبواب ذكر فيها ما أنكرت الجهمية من صفات الله تعالى وهكذا كان صنيع كثير من المحدثين، وسأذكر هنا بعض الأبواب التي ذكرها ابن ماجة في سننه في الرد على ما أنكرت الجهمية فقال: باب فيما أنكرت الجهمية: وذكر أحاديث الرؤية، والضحك والقبض والأصابع والطي وغيرها من أحاديث الصفات، والجهمية لهم تنكر أن هذه الأحاديث قد صدرت عن النبي ﷺ وإنما أنكرت ما فيها من إثبات لصفات الله تعالى، فرد عليهم علماء السنة هذا ما بين مكفر ومضلل ومبدع ومفسق . وقال الإمام أبو الحسن الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر: وأجمعوا على وصف الله تعالى بجميع ما وصف به نفسه ووصفه به نبيه من غير اعتراض فيه ولا تكييف له وإن الإيمان به واجب وترك التكييف له لازم [(ق ٧/ ١)]. وقال ابن عبد البر: أهل السنة مجمعون على الإقرار بهذه الصفات الواردة في الكتاب والسنة ولم يكيفوا شيئا منها، وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج فقالوا: من أقر بها فهو مشبه فسماهم من أقر بها معطلة [فتح الباري ١٣/ ٤٠٧]. وقال ابن خزيمة في كتابه "التوحيد" وإثبات صفات الرب عند كلامه على صفه الوجه: فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق والشام ومصر مذهبنا إنا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه نقر بذلك بألسنتنا ونصدق بذلك في قلوبنا - من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد

من المخلوقين وعز ربنا عن أن نشبهه بالمخلوقين وجل ربنا عن مقالة العاطلين وعز أن يكون عدما كما قاله المبطلون [ص ١٠]. وقال أبو عمرو الطلمنكي: وأجمعوا - أهل السنة - على أن لله عرشا وعلى أنه مستو على عرشه وعلمه وقدرته وتدبيره بكل ما خلقه. وقال أيضا: فأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى (وهو معكم أينما كنتم) ونحو ذلك في القرآن أن ذلك علمه وأن الله فوق السموات بذاته مستوى على عرشه كيف شاء [الفتاوى لابن تيمية ٥/ ٥١٩]. وذكر البيهقي في كتابة "الاعتقاد" بابا في ذكر آيات وأخبار وردت في إثبات صفة الوجه واليدين والعين وهذه صفات طرق إثباتها السمع فنثبتها لورود خبر الصادق بها ولا نكيفها [ص ٢٩]. وقال ابن قدامة المقدسي: وعلى هذا درج السلف وأئمة الخلف رضي الله عنهم، كلهم متفقون على الإقرار والإمرار والإثبات لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله من غير تعرض لتأويله وقد أمرنا بالاقتفاء لآثارهم والاهتداء بمنارهم وحذرنا المحدثات وأخبرنا أنها من الضلالات [لمعة الاعتقاد لابن قدامة ص ٤]. وقال الشهرستاني: واعلم أن جماعة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة... ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل بل يسوقون الكلام سوقا واحدا وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل اليدين والوجه ولا يؤلون ذلك إلا أنهم يقولون: هذه صفات وردت في الشرع فنسميها صفات خبرية [الملل والنحل ١/ ٩٢]. وذكر أن من هؤلاء مالك بن أنس وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وداود بن علي الأصفهاني ومن تابهم [المرجع السابق ١/ ٩٣]. وقال أبو محمد عبد الله بن يوسف الجويني في رسالته "إثبات الاستواء والفوقية" وأثبتنا علو ربنا سبحانه +وفوقيته واستواءه على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته

والحق واضح في ذلك والصدور تنشرح له، فإن التحريف تأباه العقول الصحيحة مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره والوقوف في ذلك جهل وعلى مع كون الرب تعالى وصف لنا نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها فوقوفنا عن إثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه في تعريفنا إياها فما وصف لنا نفسه بهذا إلا لنثبت ما وصف به نفسه لنا ولا نقف في ذلك أ هـ ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ج ١/ ١٨١ وقال الشيخ أحمد بن إبراهيم الواسطي الشافعي [المعروف بابن شيخ الحزامين المتوفي سنة ٧١١ هـ.]. في رسالته "النصيحة في صفات الرب جل وعلا". وصفاته معلومة من حيث الجملة والثبوت غير معقولة من حيث التكييف والتحديد، فيكون المؤمن بها مبصرا من وجه أعمى من وجه، مبصرا من حيث الإثبات والوجود أعمى من حيث التكييف والتحديد. وبهذا يحصل على الجمع بين الإثبات لما وصف الله به نفسه وبين نفي التحريف والتشبيه والوقوف وذلك مرادا لله تعالى منافي إبراز صفاته لنا لنعرفه بها ونؤمن بحقائقها لا فرق بين الاستواء والسمع ولا بين النزول والبصر لأن الكل ورد في النص، فإن قالوا لنا: في الاستواء شبهتهم، نقول لهم: في السمع شبهتم وصفتم ربكم بالعرض. وإن قالوا: لا عرض بل كما يليق به قلنا: في الاستواء والفوقية لا حصر بل كما يليق به، فجميع ما يلزمونا في الاستواء والنزول واليد والوجه والقدم والضحك والتعجب من التشبيه نلزمهم به في الحياة والسمع والبصر والعلم فكي لا يجعلونها أعراضا كذلك نحن لا نجعلها جوارح ولا مما يوصف به المخلوق وليس من الإنصاف أن يفهموا في الاستواء والنزول والوجه واليد صفات المخلوقين فيحتاجون إلى التأويل والتحريف فإن فهموا في هذه الصفات ذلك فيلزمهم أن يفهموا في الصفات السبع صفات المخلوقين من

الأعراض. فما يلزموننا في تلك الصفات من التشبيه والجسمية نلزمهم في هذه الصفات من العرضية وما ينزهون ربهم به في الصفات السبع وينفونه عنه من عوارض الجسم فيها فكذلك نحن نعمل في تلك الصفات التي ينسبوننا فيها إلى التشبيه سواء بسواء ومن أنصف عرف ما قلناه واعتقده وقبل نصيحتنا ودان الله بإثبات جميع صفاته هذه وتلك ونفي عن جميعها التعطيل والتشبيه والتأويل والوقوف. وهذا مراد الله تعالى منافي ذلك لأن هذه الصفات وتلك جاءت في موضع واحد وهو الكتاب والسنة فإذا أثبتنا تلك بلا تأويل وحرفنا هذه وأولناها كان كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض وفي هذا بلاغ وكفاية أ هـ بتصرف يسير جدا ص ٢٣ - ٢٤. (سادسا) ما ذكره المفسرون من الأحاديث والآثار عند آيات الصفات التي وردت في القرآن الكريم، دليل آخر على أن مذهب السلف هو الإثبات وليس التفويض. ولست أعني بالمفسرين هنا الذين سلكوا غير منهج السلف في تفاسيرهم بل أعنى من لم يخرج عن النهج السلفي منهم كابن جرير وابن أبي حاتم وابن كثير رحمهم الله أجمعين. (سابعا) لم يثبت أن أحدا من السلف صرح بنقيض هذه الصفات لا من قريب ولا من بعيد، مثل أنه لم ينقل عن أحد منهم أنه نفى أن يكون الله جلا جلاله في السماء، وإنما جاء أن من نفي ذلك الجهمية فرد عليهم علماء السلف وشنعوا عليهم. (ثامنا) إجماع علماء السلف على وصف من نفى صفات الله تعالى بأنه معطل جهمي متابع في ذلك للجهم بن صفوان الترمذي، فإنه أول من أظهر القول بنفي الصفات، وأما الذين أثبتوا بعض الصفات ونفوا بعضها فقد سلكوا في ذلك منهجا عقليا مع أنه يلزمهم في الصفات التي أثبتوها ما يلزمهم في الصفات التي نفوها. (تاسعا) مقتضى الإيمان بآيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ إنما يكون بإثبات

جميع جزئيات المؤمن به وفي ذلك زيادة في اليقين على من فوض ذلك وآمن بمجمله، لأن المعصوم ﷺ قد أتى به والعقول لا ترده. وغاية القول أن مذهب السلف هو الإثبات وليس التفويض لما يلزم على التفويض من أمور نكتفي بذكر بعضها: (أ) عدم معرفة النبي ﷺ والصحابة لمعاني آيات وأحاديث الصفات وإذا افترضنا أن هذا جائز في كلام الله تعالى فلا يصح أن يكون هذا جائزا في كلام النبي ﷺ. (ب) أنه يؤدي إلى القول بأن ظواهر هذه النصوص تدل على معنى لا يليق بالله تعالى، وقد قال بهذا طائفة، قال الرازي: أن هذه المتشابهات يجب القطع بأن مراد الله منها شيء غير ظاهرها كما يجب تفويض معناها إلى الله تعالى ولا يجوز الخوض في تفسيرها [أساس التقديس ص ٦] فهم اعتبروا أن آيات الصفات من المتشابه، وهذا قول باطل أيضا فقد تطرق ابن جرير في تفسيره إلى بيان المراد بالمتشابه عند آية آل عمران (وآخر متشابهات) وذكر الأقوال في ذلك عن السلف ولم يذكر أن أحدا من السلف قال بدخول آيات الصفات في المتشابه ونفترض ثانية أنه إذا جاز أن تكون آيات الصفات من المتشابه، فكيف يعقل أن تكون أحاديث الصفات من المتشابه أيضا وهذا خرق للإجماع لأن الأحاديث النبوية ليس فيها متشابهة. (جـ) أنه يشير إلى اتهام من ذكرنا من العلماء بتزوير حقيقة مذهب السلف في ذلك، وإذا جاز هذا فيلزم منه محاذير منها إبطال الإجماع من أصله وهو أصل من أصول التشريع. (د) مصادمة هذا القول للنصوص التي تفيد الإثبات والتشكيك في صفات الله تعالى وأن الشك في صفات الله تعالى لا يجوز. هـ) أنه يؤدي إلى أن ينسب للبدعة من خالفه وفي هذا خطأ كبير لأنهم سووا بين المثبتة للصفات والنافين لها ووهم جاهلون أي الفريقين أصاب السنة والحق وهذا يؤدي إلى أن يكون الحق باطلا

والسنة بدعة. شبهة والرد عليها: وقد وردت عن بعض السلف عبارات تدل على إمرار أحاديث الصفات وترك تأويلها وتفسيرها وقد اتخذت هذه العبارات شبهة للبعض فقرروا بموجبها أن مذهب السلف هو التفويض. فنقول في رد هذه الشبهة، أن هذه الأقوال عن بعض علماء السلف لا تتنافي مع ما قرروه من الإثبات، لأن مرادهم بمثل هذه العبارات إنما هو ترك الكلام في معنى كيفيتها، لأن معرفة الكيفية لا سبيل إليه فلابد من اليأس من إدراك كنه الصفة وحقيقتها وهذا أصل معروف لدى علماء السلف، ويؤكد أن المراد بهذه العبارات هو ما ذكرناه أن كل من نقل عنه مثل هذه العبارات قد نقل عنه القول بالإثبات، ومثال ذلك فقد روى الدارقطني، في "الصفات" بسنده قول سفيان بن عيينة: كل شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره لا كيف ولا مثيل (ق ٥/ ١). وروى الدارقطني أيضا في الكتاب نفسه وفي الورقة نفسها بسنده عن سفيان بن عيينة لما سئل عن أحاديث الصفات فقال: هي كما جاءت نقر بها ونحدث بلا كيف (ق ٥ / ٢). فالمراد من قول سفيان الأول إنما هو نفي الكيفية فقط، كما نفاها مالط وأم سلمة وغيرهم من السلف عندما قالوا في الاستواء أنه معلوم والكيف مجهول "وقد سبق أن ذكرنا قول الترمذي في سننه" قد ثبتت هذه الروايات فنؤمن بها ولا نتوهم ولا يقال كيف، كذا جاء عن مالك وابن عيينة وابن المبارك أنهم أمروها بلا كيف. كما جاء في بعض العبارات أيضا "وترك تفسيرها" أي أحاديث الصفات، فالمراد بذلك ترك تأويلها لأن لفظ التأويل في كلام العرب لا يراد به إلا التفسير أو الحقيقة الموجودة في الخارج التي يؤول إليها الشيء كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية... الفتاوى ٥/ ٣٤٩، أو أن المراد من ذلك ترك التفسير الذي يخرج عن ظاهر اللفظ أو ترك التفسير الذي يؤدي إلى الكيفية

والكنه. وأن مثل هذه العبارات تحمل على ما ذكرناه لاستحالة أن يراد به غير ذلك لما فيه من خرق للإجماعات الكثيرة التي نقلناها من أن مذهب السلف هو الإقرار لأحاديث وآيات الصفات، وعبارة المصنف في ذلك تحمل أيضا على ما ذكرناه فقد قال في الإبانة الكبرى في معرض الرد على الجهمية ونفوا عن الله الصفات التي نطق به القرآن ونزل بها الفرقان من السمع والبصر والحلم والرضا والغضب والعفو والمغفرة والصفح والمحاسبة والمناقشة (ق ٦٥٥ / ٢).

ولعل الشهرستاني أول من نقل أن مذهب السلف هو التفويض وتبعه على ذلك إمام الحرمين والرازي وغيرهما، قال الشهرستاني في "الملل والنحل" ص ٩٣: ثم إن جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف فقالوا لابد من إجرائها على ظاهرها فوقعوا في التشبيه الصرف وذلك على خلاف ما اعتقده السلف "وقد تناقض الشهرستاني هنا، وذلك أنه ذكر قبل صفحة واحدة فقط ما نصه: اعلم أن جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون الله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة... ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل بل يسوقون الكلام سوقا وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل اليدين والوجه ولا +يؤولون ذلك..." ص ٩٢. ففي النص الأول أفاد أن إجراء آيات الصفات على ظاهرها هو زيادة على مذهب السلف، وفي النص الثاني ذكر أن السلف يثبتون صفات خبرية مثل اليدين والوجه، فنقول للشهرستاني أليس هذا أيضا إجراء للنصوص على ظاهرها فنحن نطالب.... الشهرستاني بالتفريق بين ذلك؟. وقال الرازي في هذا الصدد في كتابه "أساس التقديس" ص ٢٢٣ ما نصه: أن هذه المتشابهات يجب القطع بأن مراد الله منها شيء غير ظواهرها كما يجب تفويض معناها إلى الله تعالى لا يجوز الخوض في تفسيرها أ هـ "وقد وقع الرازي أيضا هنا في تناقض

وبيان ذلك أنه أوجب تفويض معناها إلى الله تعالى، ثم دعا إلى حملها على غير ظاهرها، فكيف يكون هذا تفويضا، لأن مجرد حملها على غير ظاهرها هو نقض للتفويض أصلا، كما قال: ولا يجوز الخوض في تفسيرها" فما هي الفائدة إذا من حملها على غير ظاهرها، إذا كان لا يجوز لنا الخوض في تفسيرها. وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها [شرح جوهرة التوحيد للباجوري ص ١٤٩]. وقد حصروا ذلك في الصفات الفعلية أما الصفات التي أثبتوها من السمع والبصر و... فلم يتوهموا فيها التشبيه مع أن الصفات الفعلية التي نفوها وزعموا أنها توهم التشبيه لا فرق بينها وبين الصفات التي أثبتوها، وكيف يصح أن يقال هذا في الصفات وأكثرها وارد في القرآن الكريم والله سبحانه وتعالى يقول عنه (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير).

مسألة

قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ٣٣٢): الخوض في ذات الله محرم، وكذلك التفكر في ذات الله أيضًا منهيٌّ عنه. لكن المأمور به أن يُفَكِّرْ المرء في آلاء الله ﷻ.

فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال (تفكّروا في آلاء الله، ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا) وقد حسنه العلامة الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة (١٧٨٨) كما تقدم، فالمأمور به العبد أن يتفكّر في آلاء الله، وآلاء الله ﷻ يعني في آياته. وآيات الله ﷻ نوعان:

- آيات مرئية وهي ملكوته في السموات وفي الأرض وما خَلَقَ الله من شيء.
- وآيات متلوة وهي القرآن.

فمن تفكر في آلاء الله دلَّهُ على عِظَمِ ربه ﷻ وأصابه طمأنينة وسكينة

وخشوع وخضوع للرب ﷻ.

لهذا أمرنا ربنا سبحانه بالتفكر في آلائه وملكوته وآياته، قال سبحانه {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [آل عمران:١٩٠ - ١٩١]، وقال سبحانه {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا} وقال سبحانه أيضا {قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس:١٠١]، وقال ﷻ {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا} [سبإ:٤٦]، تقف هنا {مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ} [سبإ:٤٦]، والنبي ﷺ حُبِّبَ إليه الخلاء، حُبِّبَ إليه أن يدخل غار حراء ويمكث فيه الليالي ذوات العدد يَتَحَنَّثْ ويتأمل في ملكوت الله ﷻ. وهذا يُحدِثْ من حقائق الإيمان في النفس ومن الارتباط والذل لله ﷻ ما يُحدث. ولهذا كان من هدي السلف رضوان الله عليهم قلة الكلام والتفكّر في آلاء الله ﷻ. قالت أم الدرداء في وصف زوجها أبي الدرداء (كانت أكثر عبادة أبي الدرداء التفكّر)

وكان الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول (عاملنا القلوب بالتفكر فأورثها التَذَكُرْ، فرجعنا بالتَذَكُرْ على التفكر وحركنا القلوب بهما، فإذا القلوب لها أسماع وأبصار).

هذه كلمة عظيمة، الناس قلوبهم مُضْغَة كلها تتحرك وتقذف الدم؛ ولكن القلب الحي {لِيُنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا} [يس:٧٠]، صاحب القلب الحي هذا يكون قلبه له سمع وبصر؛ يعني يرى أشياء ويتفرس في الأشياء ويكون له مرئيات، يرى ما لا يراه الآخرون.

قال (عاملنا القلوب بالتفكر)، التفكر في آلاء الله، وليس التفكر في الله ولا في ذات الله إنما التفكر في آلاء الله ﷻ، فيما خلق، في آياته التي أعطاها المرسلين، في آياته المتلوة، القرآن إلى آخره، يعني في المنظورة والمقروءة.

(فأورثها التَذَكُرْ)؛ يعني تَذَكَرْ العبد، إذا تفكر وخلا بنفسه فإنه سيتذكر؛ لكن تَذَكُرُهُ سيكون ضعيفًا؛ لأنه بدايات التذكر بعد التفكر.

قال (فرجعنا) -هو يحكي حال السلف الحسن البصري يقول (عاملنا) يعني السلف يعني طبقة التابعين- قال (فرجعنا بالتَذَكُرْ) هذا الذي تذكرناه وصار في القلب نوع حياة رجعنا به على التَفَكُرْ، تَفَكَّرْنَا من جديد، نظرنا في الملكوت، في آلاء الله، في تصرف الله ﷻ في خلقه، في آيات الله في القرآن.

(فرجعنا بالتذكر على التفكر وحركنا القلوب بهما)، يعني مرة ورا مرة، هذا تذكر بعد تفكر، تذكر بعد تفكر، يبقى العبد في الإيمان.

قال (فإذا القلوب لها أسماع وأبصار)، ينفتح القلب من معارف الله ﷻ ومن الأُنْسِ به ومن لذة مناجاته ومن إيثار ما عنده على ما في هذه العاجلة، وعلى إيثار مَحَابِّهِ - جل جلاله - على أهواء النفس ما لا يدركه إلا من وفّقه الله - جل جلاله -. لهذا قال (وَلَا نَخُوضُ فِي اللهِ) سمة أهل السنة والجماعة أنهم لا يخوضون في الله، ولا يخوضون في صفات الله وإنما يذكرون ما دَلَّ عليه الكتاب والسنة ويُعَلِّمُونَ ذلك، وإنما المهم العمل، المهم هذا القلب أن يكون صالحًا، أن يكون خاشعًا لله، منيبا لله - جل جلاله -، ولهذا صح عن النبي ﷺ أنه قال «عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»، وقال في السبعة الذين يظلهم الله في ظلهم «ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»، فمن أعظم العبادات التَفَكُّرْ، تَفَكَرْ في القرآن، تُرَدِّدْ الآيات لتؤثر على

قلبك، التَفَكُّرْ في ملكوت الله، في هذه السماء العجيبة، الأرض، في الخلق، هذا من سمة وخصال أهل السنة والجماعة، مخالفين بذلك لطريقة الصوفية الذين أورثهم العزلة التفكر والخوف في الله ﷻ والكشف؛ كشف الحُجُبْ ونحو ذلك مما زلَّتْ به أقدامهم.

(باب والله على كل شيء قدير)

أهل السنة يجعلون قدرة الرب ﷻ متعلقة بكل شيء، واسم الله القدير متعلق بكل شيء، وقدرة الله ﷻ غير محصورة، بل هو سبحانه قادر على ما شاء وعلى ما لم يشأ ﷻ.

وهذا هو مذهب أهل الحديث والسنة، وبه جاء القرآن العظيم، فكل ما في القرآن تعليق القدرة بكل شيء {والله على كل شيء قدير} {وكان الله على كل شيء مقتدرا} [الكهف:٤٥]، {وكان الله على ذلك قديرا} [النساء:١٣٣]، {إن الله على كل شيء قدير} ونحو ذلك من الآيات التي فيها تعليق القدرة بكل شيء.

أهل البدع وأهل الكلام يعلقون القدرة بما يشاؤه الرب ﷻ.

فيقولون تعلق قدرة الرب ﷻ بما يشاؤه.

ولذلك ترى أنه يعدلون عما جاء في القرآن، بقول {والله على كل شيء قدير} إلى قولهم والله على ما يشاء قدير؛ لأن القدرة عندهم متعلقة بما شاءه الله وليست متعلقة بما لم يشأه.

فعندهم قدرة الله تتعلق بما شاء أن يحصل أما ما لم يشأ أن يحصل فإنه لا تتعلق به القدرة.

فإذا قيل هل الله قادر على أن لا يوجد إبليس؟ فيقولون: لا غير قادر.

هل الله قادر على أن لا توجد السموات؟ يقولون: لا، غير قادر. لأن القدرة عندهم متعلقة بما شاءه ﷻ، وما لم يشأه في كونه وفي ملكوته مما لم يحصل بعد أو مما حصل خلافه فإن القدرة غير متعلقة به.

* ولذلك فيقول قائلهم: ليس في الإمكان أبدع مما كان.

لأن القدرة عندهم متعلقة بما شاءه الله ﷻ.

وهذا القول باطل بوضوح وذلك لدليلين:

١- الدليل الأول: فإن الذي جاء في القرآن كما ذكرنا لك، تعليق القدرة بكل شيء في الآيات التي ذكرت لكم طرفا منها.

٢- الدليل الثاني: أن الله ﷻ قال في سورة الأنعام {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض} [الأنعام:٦٥]، ولما نزلت هذه الآية تلاها ؟ فقال {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم} قال ؟ (أعوذ بوجهك) ثم تلا {أو من تحت أرجلكم} فقال ؟ (أعوذ بوجهك) ثم تلا {أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض} قال ؟ (هذه أهون)، والله ﷻ لم يشأ أن يبعث على هذه الأمة عذابا من فوقها أو من تحت أرجلها، فيهلككم بسنة بعامة، بل جعل بينهم بأسهم شديد، لحكمته سبحانه وتعالى العظيمة العلية، فدلت الآية على أن قدرة الله ﷻ تتعلق بما لم يشاء أن يحصل {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم}، وهذا لم يشأه الله ﷻ ومع ذلك تعلقت به القدرة.

وهذه من الكلمات التي يكثر عند أهل العصر استعمالها فليتنبه لها لأنها من آثار قول أهل الاعتزال، ولا يعكر على ما سبق أنه جاء في بعض الأحاديث (والله على ما يشاء قادر) و(إني على ما أشاء قادر) وهذا الجواب عنه معروف بأنه

متعلق بأشياء مخصوصة، وليست تعليقا للقدرة بالمشيئة، أو أن يقال قدرته على ما يشاء لا تنفي قدرته على ما لم يشأ - ﷻ. شرح الطحاوية للعلامة الشيخ صالح آل الشيخ (ص ٧٦).

وقال المؤرخ عثمان بن بشر في كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد (٢/ ٢٢): كتبت له مرة -يعني عبدالرحمن ابن حسن- ودعوت له في آخر الكتاب، وقلت في ختام الدعاء: إنه على ما يشاء قدير.

فكتب إليّ وقال في أثناء جوابه: إن هذه الكلمة اشتهرت على الألسن من غير قصد، وهو قول الكثير إذا دعا الله تعالى وهو القادر على ما يشاء ويقصد بها أهل البدع شرًّا، وكل ما في القرآن. (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر) المائدة:١٠٢، وليس في القرآن والسنة ما يخالف ذلك أصلًا؛ لأن القدرة شاملة كاملة، وهي والعلم صفتان شاملتان، تتعلقان بالموجودات والمعدومات، وإنما قصد أهل البدع هو القادر على ما يشاء، أي أن القدرة لا تتعلق إلا بما تعلقت به المشيئة.اهـ.

وقال الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم في فتاواه (١/ ٢٠٧) في جواب له عن هذا التعبير: الأولى أن لا يطلق، ويقال: إن الله على كل شيء قدير؛ لشمول قدرة الله جل جلاله لما يشاؤه ولما لا يشاؤه، وقد غلط من نفى قدرته على ما لا يشاؤه، ومن الحجة عليهم قوله تعالى: (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) الآية.

وقال الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد في معجم المناهي اللفظية (ص ٣٣١) وقد جاء إطلاقها في حديث ابن مسعود الطويل في آخره أهل النار خروجًا في صحيح مسلم (١٨٧) جاء في آخر الحديث: (قالوا مِمّ تضحك يا رسول الله؟

قال: من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين، فيقول: إني لا أستهزء منك ولكني على ما أشاء قدير) وفي رواية في كتاب السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٤٥) والإيمان لابن منده بلفظ (ولكن على ما أشاء قادر) لكن هذا الإطلاق مقيد بأفعال معينة كهذا الحديث، وكذلك في الآية {وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} معلقة بالجمع؛ وعليه فإن إطلاق هذا اللفظ له حالتان، الأُولى: على وجعه العموم، فهذا ممتنع لثلاثة وجوه:

١- لأن فيها تقييدًا لما أطلقه الله.

٢- لأنه موهم بأن ما لا يشاؤه لا يقدر عليه.

٣- لأنه موح بمذهب القدرية.

والحالة الثانية: على وجه التقييد كما ذكر.اهـ. من معجم المناهي.

وسئل العلامة العلامة العثيمين كما مجموع فتاواه (٣/ ٨١): عن قول الإنسان: "إن الله على ما يشاء قدير" عند ختم الدعاء ونحوه؟

فأجاب: هذا لا ينبغي لوجوه:

الأول: أن الله تعالى إذا ذكر وصف نفسه بالقدرة، لم يقيد ذلك بالمشيئة في قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وقوله: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وقوله: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فعمم في القدرة كما عمم في الملك، وقوله: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فعمم في الملك والقدرة، وخص الخلق بالمشيئة؛ لأن الخلق فعل، والفعل لا يكون إلا بالمشيئة، أما القدرة فصفة أزلية أبدية شاملة لما شاء، وما لم يشأه، لكن ما شاءه سبحانه وقع، وما لم يشأه لم يقع، والآيات في ذلك كثيرة.

الثاني: أن تقييد القدرة بالمشيئة خلاف ما كان عليه النبي ﷺ وأتباعه فقد قال الله عنهم: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، ولم يقولوا: "إنك على ما تشاء قدير"، وخير الطريق طريق الأنبياء وأتباعهم، فإنهم أهدى علما، وأقوم عملا.

الثالث: أن تقييد القدرة بالمشيئة يوهم اختصاصها بما يشاؤه الله تعالى فقط، لا سيما وأن ذلك التقييد يؤتى به في الغالب سابقا حيث يقال: "على ما يشاء قدير"، وتقديم المعمول يفيد الحصر كما يعلم ذلك في تقرير علماء البلاغة وشواهده من الكتاب والسنة واللغة، وإذا خصت قدرة الله تعالى بما يشاؤه، كان ذلك نقصا في مدلولها وقصرا لها عن عمومها، فتكون قدرة الله تعالى ناقصة حيث انحصرت فيما يشاؤه، وهو خلاف الواقع فإن قدرة الله تعالى عامة فيما يشاؤه، وما لم يشأه، لكن ما شاءه فلا بد من وقوعه، وما لم يشأه، فلا يمكن وقوعه.

فإذا تبين أن وصف الله تعالى بالقدرة لا يقيد بالمشيئة بل يطلق كما أطلقه الله تعالى لنفسه، فإن ذلك لا يعارضه قول الله تعالى: {وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} فإن المقيد هنا بالمشيئة هو الجمع لا القدرة، والجمع فعل لا يقع إلا بالمشيئة، ولذلك قيد بها فمعنى الآية أن الله تعالى قادر على جمعهم متى شاء، وليس بعاجز عنه كما يدعيه من ينكره ويقيده بالمشيئة، رد لقول المشركين الذين قال الله تعالى عنهم: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} فلما طلبوا الإتيان بآبائهم

تحديا وإنكارا لما يجب الإيمان به من البعث، بين الله تعالى أن ذلك الجمع الكائن في يوم القيامة لا يقع إلا بمشيئته ولا يوجب وقوعه تحدي هؤلاء وإنكارهم كما قال الله تعالى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ} والحاصل أن قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} . لا يعارض ما قررناه من قبل؛ لأن القيد بالمشيئة ليس عائدا إلى القدرة، وإنما يعود إلى الجمع.

وكذلك لا يعارضه ما ثبت في صحيح مسلم في كتاب "الإيمان" في "باب آخر أهل النار خروجا" من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «آخر من يدخل الجنة رجل»، فذكر الحديث، وفيه أن الله تعالى قال للرجل: «إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر» وذلك لأن القدرة في هذا الحديث ذكرت لتقرير أمر واقع والأمر الواقع لا يكون إلا بعد المشيئة، وليس المراد بها ذكر الصفة المطلقة التي هي وصف الله تعالى أزلا وأبدا، ولذلك عبر عنها باسم الفاعل "قادر" دون الصفة المشبهة "قدير" وعلى هذا فإذا وقع أمر عظيم يستغربه المرء أو يستبعده، فقيل له في تقريره: إن الله على ما يشاء قادر، فلا حرج في ذلك، وما زال الناس يعبرون بمثل هذا في مثل ذلك، فإذا وقع أمر عظيم يستغرب أو يستبعد قالوا: قادر على ما يشاء، فيجب أن يعرف الفرق بين ذكر القدرة على أنها صفة لله تعالى، فلا تقيد بالمشيئة، وبين ذكرها لتقرير أمر واقع، فلا مانع من تقييدها بالمشيئة؛ لأن الواقع لا يقع إلا بالمشيئة، والقدرة هنا ذكرت لإثبات ذلك الواقع وتقرير وقوعه، والله سبحانه أعلم.

أما الشيخ ناصر فقال في الصحيحة (٦/ ١/ ١٩٣ - ١٩٥): (تنبيه): دل قوله تعالى في آخر الحديث: "ولكني على ما أشاء قادر أو قدير" على خطأ ما جاء في التعليق على العقيدة الطحاوية (ص ٢٠) نقلا عن بعض الأفاضل: "يجيء في كلام بعض الناس: وهو على ما يشاء قدير، وليس بصواب .. ".فأقول: بل هو عين الصواب بعد ثبوت ذلك في هذا الحديث، لاسيما ويشهد له قوله تعالى: {وهو على جمعهم إذا يشاء قدير} (الشورى: ٢٩) وذلك لا ينافي عموم مشيئته وقدرته تعالى كما تُوهم المشار إليه، والله أعلم.اهـ.

وقال في الصحيحة أيضا (٧/ ١/ ٣٤٥ - ٣٥٣): قوله: "ولكني على ما أشاء قادر- أو قدير- ": وهي جزء من حديث ابن مسعود عند مسلم (١٨٧): فيه دليل على جواز استعمال هذه الكلمة: "إن الله تعالى على ما يشاء قدير"، وقد كنت توقفت عنها حين علقت على قول الطحاوي في "العقيدة" (ص ٢٠): "ذلك بأنه على كل شيء قدير" كلمة للشيخ ابن مانع- رَحِمَهُ اللهُ- أن ذلك ليس بصواب، وأن الصواب ما في الكتاب والسنة (وهو على كل شيء قدير) لعموم مشيئة الله وقدرته .. إلخ كلامه. ثم وقفت بعد ذلك على هذه الكلمة في هذا الحديث في "صحيح مسلم "، فخشيت- متأثرًا بكلام الشيخ- أن تكون شاذة في الحديث؛ أو خطأ من بعض الرواة، فتريَّثت حتى يتسنى لي تخريجه والنظر في إسناده ورواته، ثم كنت في ليلة من ليالي غرة شهر ذي الحجة في بعض مخيمات عَمّان ألقي كلمة حول وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة على منهج السلف الصالح؛ ووجوب قرن ذلك بالعمل، وبعد الفراغ منها فتحنا باب الأسئلة، فسأل أحد إخواننا الحاضرين- ويبدو أنه على شيء من العلم والثقافة- عن هذه الكلمة، مشيرًا إلى تعليقي المذكور على "العقيدة الطحاوية "، وذكر- جزاه الله

خيرًا- بقوله تعالى: [وهو على جمعهم إذا يشاء قدير] (الشورى/ ٢٩)، فأجبته بأن الحديث بحاجة إلى تخريج وتحقيق، مشيرًا إلى أنه من الممكن أن يكون أصل الكلمة: "وأنا على كل شيء قدير" أو نحوها، فبادرت إلى تخريج الحديث، فوجدت أن الرواة عن حماد بن سلمة اتفقوا على اللفظ المتقدم ....
ثم قال الشيخ بعد أن استفاض في ذكر طرق وألفاظ الحديث:

وجملة القول؛ أن هذه الجملة قد اختلف في ضبطها عن ابن مسعود رضي الله عنه على اللفظين السابقين:

الأول: "ولكني على ما أشاء قادر".

والآخر: "ولكني على ذلك قادر".

واللفظ الأول أصح إسنادًا كما هو ظاهر.

لكن الآخر- مع صحة إسناده- مطابق لنص الآية تمام المطابقة: (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير). لأن المعنى: إذا يشاء ذلك الجمع، قال العلامة الآلوسي في "روح المعا ني ": "و (إذا) متعلقة بما قبلها لا بـ (قدير)؛ لأن المقيّد بالمشيئة جمعُه تعالى، لا قدرته سبحانه". قلت: وعلى ضوء تفسيره للآية، نقول: إن اسم الإشارة في الحديث: "ذلك " يعود إلى ما أعطى الله عز وجل عبده من النعم الكثيرة التي لا يستحقها؛ فضلًا منه تعالى عليه، فلما قال ما قال مستكثرًا ذلك عليه؛ قال تعالى: "ولكني على ذلك قادر"، فإذا فُسِّرَ بهذا اللفظ الأول أيضًا ولم يوقف عند ما فيه من مفهوم المخالفة، المشعر بأنه تعالى غير قادر على ما لا يشاء؛ على حد قوله تعالى: {لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة} ونحوه من المفاهيم التي قامت الأدلة القاطعة على أنها غير مرادة، إذا فسر هذا اللفظ الأول بهذا الذي دل عليه اللفظ الثاني؛ استقام المعنى، ولم يبق أي إشكال إن شاء الله

تعالى. هذا ما عندي من علم، فإن أصبت؛ فمن الله، وإن أخطأت، فمني، وأستغفره تعالى من كل ذنب لي، ومن كان عنده فضل علم؛ فليتفضل به شاكرين له.

(باب خصائص إيمان الصحابة في الصفات الإلهية)

لقد نزل الكتاب العزيز وجاء النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام بالصورة الصحيحة الكاملة عن الإله الحق سبحانه وجاءت النصوص القرآنية والنبوية بأحسن ما يمكن أن تأتي به واضحة لا لبس ولا غموض فيها، وفي ذلك يقول المولى: جل جلاله: وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ [الزمر:٥٥]، وإن من غاية الحسن في هذا الكتاب والسنة المطهرة ما وصف به الرب سبحانه من صفات الكمال والجلال التي تعهد الله بحفظها فكانت هذه الصفات الربانية تامة كاملة، وقد اختص الله بها خير خلقه وصفوته من البشرية جمعاء صحابة رسول الله ﷺ، الذين نزل عليهم الوحي غضًّا طريًّا، فعاصروا أحداثه وأسباب نزوله، ففهموا مراد ربهم سبحانه ومراد رسوله ﷺ، فكان ذلك الجيل المبارك خير من سمع، وخير من آمن، وخير من فهم، وخير من بلغ لمن بعده تمام التبليغ، فلا عجب أن تتطلع الأعناق إلى مستواهم، أو تنسب إليهم، وتتلمس منهجهم الحق في كل مسائل الاعتقاد ...

وقد وصف القرآن الكريم عميق إيمانهم، وتأثرهم بالوحي المنزل على رسولهم ﷺ فقال سبحانه وتعالى: اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [الزمر:٢٣] وقال

تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:٢٩].

وقد أخبر النبي ﷺ أن أصحابه أمنة لهذه الأمة بما يحملون من سلامة المعتقد الحق، والاستقامة الصادقة على أمر الله تعالى: فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ. ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء! قال: فجلسنا. فخرج علينا. فقال: ما زلتم ههنا؟ قلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب. ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء. قال: أحسنتم أو أصبتم قال: فرفع رأسه إلى السماء. وكان كثيرًا مما يرفع رأسه إلى السماء. فقال: النجوم أمنة للسماء. فإذا ذهبن النجوم أتى السماء ما توعد. وأنا أمنة لأصحابي. فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون. وأصحابي أمنة لأمتي. فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون)[١].

قال الإمام النووي: (قال العلماء معنى الحديث: أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت يوم القيامة، وهنت السماء فانفطرت، وانشقت، وذهبت، وقوله ﷺ: وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون) أي: من الفتن والحروب، وارتداد من ارتد من الأعراب، واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أنذر به صريحًا، وقد وقع كل ذلك. وقوله ﷺ: (وأصحابي أمنة لأمتي؛ فإذا ذهب أصحابي، أتى أمتي ما يوعدون) معناه:

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١).

ظهور البدع، والحوادث في الدين، والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وظهور الروم)(١).

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أمنة للأمة في صفاء عقيدتها وجميع تصوراتها، حيث عاش من عاش منهم، ونشروا العلم، وبلغوا للتابعين أحاديث رسول الله ﷺ في كل مسائل العقيدة والشريعة، وساد عصرهم الوفاق العقدي بين الأمة، وفي أواخر عصرهم برزت المرجئة والجهمية، وغيرها وكان علماء السلف يعتدون في إبطال البدع بما تلقوه عنهم من أحاديث رسول الله ﷺ، ومن أقوالهم في تفسير كتاب الله، ومن قبل هذا، وكله من نصوص الكتاب والسنة، فكانوا رضوان الله عليهم أمنة للأمة من المعطلة، والنفاة، والمشبهة، ومن جميع أهل البدع، فهم المنارة التي يهتدى بها في الظلمات.

وقد كان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وغيره من الصحابة الكرام ينبهون الناس إلى ضرورة اتباع منهج الصحابة رضوان الله عليهم حيث يقول: (من كان منكم متأسيًا، فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالًا، قومًا اختارهم الله لصحبه نبيه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)(٢).

وكان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه - يدخل المسجد فيقف على الحلق فيقول: (يا معشر القراء، اسلكوا الطريق فلئن سلكتموها لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ٨٣).
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ٦٣).

أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلال بعيدًا)[(١)].

وكان معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يجلس مجلسًا إلا ويحذر من الابتداع في الدين، فيقول: (الله حكم قسط هلك المرتابون، إن وراءكم فتنًا يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن، والمنافق، والرجل، والمرأة، والصغير، والكبير، والعبد، والحر، فيوشك قائل أن يقول للناس: ألا تتبعوني، وقد قرأت القرآن؟ ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، ويقول المنافق كلمة الحق)[(٢)].

وقد بلغ من صفات عقيدتهم، وسلامة سلوكهم أنهم كانوا يقارنون الأحوال التي عاشوها مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأحوال عصرهم المتأخر؛ حيث يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الموبقات) قال أبو عبدالله: (يعني بذلك المهلكات)[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٢).

(٢) أخرجه من طرق أبو داود (٤٦١١)، وعبد الرزاق (٢٠٧٥٠)، والدارمي (١/ ٥٩، رقم ٢٠٥)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٢٢٢، ٣٢٠ - ٣٢٢، ٧١٩)، والآجري في الشريعة (ص٤٧، ٤٨)، والفريابي في صفة المنافق (ص٥٨ - ٥٩، رقم ٤١، ٤٢)، والحاكم (٤/ ٤٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٣٣)، واللالكائي في شرح أصول السنة (١/ ٨٩، رقم ١١٧)، والأصبهاني في الحجة (ص٢٣٧)، وابن وضاح في البدع والنهي عنها (ص٢٦)، وابن بطة في الإبانة (١/ ٢٢/ ٢)، والبيهقي في المدخل (رقم٨٣٤)، وابن عبد البر في الجامع (٢/ ٩٨١/ رقم ١٧٨١)، والمزي في تهذيب الكمال (٣٢/ ٢١٩) والأثر قال عنه العلامة الألباني في صحيح أبي داود (٣/ ٨٧٢): صحيح الإسناد موقوف، وكذا قال الشيخ مشهور في تعليقه على الموافقات (٥/ ١٣٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٧/ ٢١): أثر إسناده صحيح.

(٣) أخرجهالبخاري (٦٤٩٢).

لقد كان العهد الذي عاشوه مع رسول الله ﷺ يمثل الكمال كله في مسائل العقيدة والشريعة، فلما ظهرت الفتن والأحداث العظيمة وأطلت البدع برأسها في أواخر حياتهم كانوا هم المرجع الذي رجع إليه علماء السلف في رد البدع، وأقوال أربابها المخالفة لمنهجهم الحق، ويمكننا إعطاء هذه الصورة الموجزة عن طبيعة البيان القرآني والنبوي في عرض الصفات الإلهية التي آمن بها الصحابة الكرام واعتقدوها الاعتقاد الحق؛ وهو المعتقد الحق الذي اعتقده التابعون وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين، وهو المنهج الذي هيمن على جمهور الأمة بالرغم من كثرة فرق الابتداع التي طرحت بدعها المخالفة لهذا المنهج طرحًا معاديًا لمعتقدهم وما أثر عنهم.

شمولية النصوص القرآنية لمسائل الأسماء والصفات

لقد حفل القرآن الكريم بذكر أسماء الله وصفاته وكمالاته إلى حد يفوق الحصر؛ فلا تكاد تخلو الآلاف من الآيات القرآنية من ذكر هذه الصفات والكمالات في أوائلها أوأثنائها، أو أواخرها، إما متناثرة في تلك الآيات، وإما بجمع بعضها لهذه الآيات وتلك، وبأساليب متنوعة، واحتفال القرآن بذكر صفات الله وكمالاته على هذه النحو حقيقة لا يخطئها من يقرأ القرآن ويتدبر آياته؛ بحيث لا يحتاج هذا الأمر إلى ذكر نماذج لهذه الحقيقة القرآنية لأنها تنتظم معظم آيات القرآن الكريم ولا يقتصر ذكر القرآن للصفات الإلهية على الآيات التي يكون موضوعها الحديث عن ذات الله وصفاته، بل كثيرًا ما تختم بهذه الصفات الآيات التي يكون موضوعها الدعوة إلى عبادة الله تعالى وبيان هذه العبادات وآثارها الفردية والاجتماعية.

أو الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية الكريمة، والحض عليها، وبيان نتائجها،

وأثارها، وكذلك الآيات التي تتناول نظام المجتمع في مختلف جوانبه السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتشريعية، فلا تكاد تخلو أغلب آيات القرآن الكريم التي ترافق عرض هذه الموضوعات من التذكير بصفات الله تعالى التي ينبني عليها ضرورة التمسك بهذه التوجيهات الإلهية والتحذير من مخالفتها، هذا بالإضافة إلى الآيات التي تتحدث عن اليوم الآخر بكل ما فيه من البعث، والحشر، والعرض، والجزاء، والجنة، والنار ترغيبًا في ثواب الله ورضاه، وتحذيرًا من غضبه، وعقابه، فعلى أساس الكثير من الصفات الإلهية التي تذكر في هذه الآيات يقوم الترغيب والترهيب وإثبات كل ما يتناوله اليوم الآخر من معتقدات.

- إن هذا العرض الموسع للصفات الإلهية في الكتاب العزيز جعل الإيمان بها، وفهم المراد الإلهي منها مسألة بدهية، لا تحتاج إلى خوض فيها، أو شرح وزيادة بيان، وقد أوقف القرآن الكريم والسنة النبوية هذا العرض عند حدود معينة؛ حيث فيها إثبات للصفات بمعانيها المعروفة لغة، ولم يتعد ذلك إلى الكشف عن الكيفية، فالتزم الصحابة رضوان الله عليهم، بالمنهج القرآني والنبوي ولم يقعوا في النفي والتشبيه كما وقع غيرهم ممن لم يلتزم بهذا المنهج الرباني فاعتقدوا - رضوان الله عليهم- المعتقد الحق في الصفات الإلهية، وورث هذا المنهج الحق منهم التابعون وتابعوهم بإحسان.

- يلاحظ في العرض القرآني، والنبوي أن الإثبات جاء بصورة واسعة النطاق، وأن النفي جاء في مسائل محدودة لتنزيه الرب سبحانه عن النقائص التي نسبها إليه أهل الأديان السابقة والمشركون، فالإثبات مفصل، والنفي مجمل، وقد وضع القرآن الكريم الأساس المتين للصحابة رضوان الله عليهم،

بتحذيرهم من حماقات الأمم السابقة، فقال سبحانه وتعالى: مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ [البقرة:١٠٦ - ١٠٧]

وهذا المعتقد أي الإثبات المفصل للصفات الإلهية هو الذي اعتقده الصحابة والتابعون وتابعوهم بخلاف المبتدعة الذين امتدت ألسنتهم الآثمة إلى الصفات الإلهية بالتعطيل، والتأويل، والتشبيه، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد علم النبي ﷺ أمته هذا التوحيد والقران مملوء منه، ولم يقل لهم كلمة واحدة تتضمن نفي الصفات، ولا قال ذلك أحد من الصحابة، والتابعين، وأئمة الدين، مع العلم الضروري بأنهم كانوا أعلم بمعاني القرآن منا، وإن ادعى مدع تقدمه في الفلسفة عليهم، فلا يمكنه أن يدعي تقدمه في معرفة ما أريد به القرآن عليهم، وهم الذين تعلموا من الرسول ﷺ لفظه ومعناه، وهم الذين أدوا ذلك إلى من بعدهم قال أبو عبدالرحمن السلمي- ت:٧٤هـ -: حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن، عثمان بن عفان، وعبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من رسول الله ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل)[1].

- فالإثبات المفصل هو ما قررناه من هيمنة الصفات الإلهية على معظم آيات الكتاب العزيز، والنفي المجمل يبين محدوديته هذا العرض الذي اقتبسناه من القرآن الكريم والسنة المطهرة، فقد عرض القرآن الكريم للتصورات الباطلة لليهود، والنصارى، والمشركين عن الله تعالى فقال سبحانه وتعالى عن بعض

---

(١) نقض تأسيس الجهمية (١/ ٢٢٠).

حماقات اليهود: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء [المائدة:٦٤]، وزعمت اليهود أن لله ولدًا – سبحانه وتعالى عن قولهم– فقال سبحانه: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ [التوبة:٣٠]، وزعموا – لعنهم الله – أن الله فقير وهم أغنياء، قال تعالى: لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ [آل عمران:١٨١] وقال تعالى ردًا على مزاعم اليهود الذين قالوا: إنه استراح يوم السبت سبحانه عن ذلك: وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ [ق:٣٨]، وقال تعالى ردًا على شبه النصارى وأكاذيبهم: لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [المائدة:٧٢]، وقال سبحانه ردًا على هذه المزاعم الباطلة: مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ [مريم:٣٥] وقال تعالى: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [الأنعام:١٠١]، وأبطل القرآن تصورات المشركين عن الإله الحق، فقال سبحانه: وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ [النحل:٥٧]، وقال تعالى: فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ [الصافات:١٤٩] وقال تعالى: أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ [الطور:٣٩].

وقال تعالى: أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنْ الأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الصافات: ١٥٠ - ١٨٢] وقال تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا [الفرقان:٥٨]

وقال تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:١١] وقال تعالى: اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقرة:٢٥٥] وقال تعالى: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ [الإخلاص:١ - ٤]

والسنة المطهرة اتبعت القرآن الكريم في الإثبات المفصل والنفي المجمل، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (قام فينا رسول الله ﷺ فقال: إن الله عَزَّ وَجَلَّ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات

وجهه ما انتهى إليه بصرة من خلقه)[١].

وعن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينه وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى كأن عينه عنبة طافية)[٢].

- وقد آمن الصحابة رضوان الله عليهم، من خلال هذا العرض المفصل الواسع بأن آيات الصفات هي من المحكم وليست من المتشابه كما افترى المبتدعة فيما بعد، وهذا الإحكام جاء من خلال سهولة معانيها وإن السلف تعرضوا لتفسيرها التفسير الذي يثبت الصفة، ولا يتعرض لبيان الكيفية، يقول شيخ الإسلام بعد أن يعرض قول الرازي حول سورة الإخلاص يقول الرازي: (هذه السورة يجب أن تكون من المحكمات لا من المتشابهات، ولأنه تعالى جعلها جوابًا عن سؤال السائل عند الحاجة وذلك يقتضي كونها من المحكمات لا من المتشابهات، وإذا ثبت هذا وجب الجزم بأن كل مذهب يخالف هذه السورة كان باطلًا [٣] قلت-شيخ الإسلام- كون هذه السورة من المحكمات، وكون كل مذهب يخالفها باطل هو حق لا ريب فيه، بل هذه السورة تعدل ثلث القرآن، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة، وهي صفة الرحمن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، وعليها اعتمد الأئمة في تنزيه الله كما ذكره الفضيل بن عياض، والإمام أحمد، وغيرهم من أئمة الإسلام ... لكن سائر الآيات المذكورة فيها أسماء الله وصفاته؛ مثل آية الكرسي، وأول الحديد، وآخر الحشر

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٧).
(٣) انتهى هنا كلام الرازي

ونحو ذلك هي كذلك- كل ذلك من الآيات المحكمات لكن هذه السورة ذكر فيها ما لم يذكر في غيرها من اسمه الأحد الصمد، ومثل نفي الأصول والفروع، والنظراء جميعًا، وإلا فاسمه الرحمن أنزله الله لما أنكر المشركون هذا الاسم، فأثبته الله لنفسه ردًا عليهم، وهذا أبلغ في كونه محكمًا من هذه السورة إذ الرد على المنكر أبلغ في إثبات نقيض قوله من جواب السائل الذي لم يرد عليه بنفي ولا إثبات)[١].

ويقول شيخ الإسلام أيضًا إن آيات الصفات من المحكم وليست من المتشابه: (إن الصحابة رضي الله عنهم، فسروا للتابعين القرآن كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره أُوقفُه عند كل آية منه وأسأله عنها؛ ولهذا قال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، وكان ابن مسعود يقول: (لو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته)[٢] وكل واحد من أصحاب ابن مسعود وابن عباس نقلوا عنه من التفسير ما لم يحصه إلا الله، والنقول بذلك عن الصحابة والتابعين ثابتة معروفة عند أهل العلم بها)[٣].

أما آيات الصفات فقد تعرض السلف لتفسير معناها المفهوم لغة، ووقفوا عند المعنى اللغوي ولم يتعدوه إلى الخوض في الكنه، أو القول بالنفي والتعطيل، فآيات الصفات إذًا هي من المحكم الذي فهم الصحابة معناه.

ومن الملاحظ على بعض آيات الصفات أنها عرضت بصورة مميزة، وذلك من خلال وقائع وأحداث عاصرها الصحابة رضوان الله عليهم، فكانت تلك

---

(١) نقض تأسيس الجهمية (١/ ٢٦١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٦٣).
(٣) القاعدة المراكشية (ص: ٣١ - ٣٢)

التعقيبات التي تربط الحديث بالصفات الإلهية مصدر إيمان، ويقين، وفهم كامل لمراد الله ﷻ.

وسوف نعرض لجملة من هذه الأحاديث التي عرضت فيها الصفات الإلهية وكان للصحابة منها مواقف وتعقيبات تنم عن تمام الفهم، واليقين الكامل بها، فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما نزلت على رسول الله ﷺ: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة: ٢٨٤]، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ. ثم بركوا على الركب. فقالوا: أي رسول الله! كلفنا من الأعمال ما نطيق. الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة. وقد أنزلت عليك هذه الآية. ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم. فأنزل الله في إثرها: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ [البقرة:٢٨٥] فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى. وأنزل الله ﷻ: لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، قال: نعم، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، قال: نعم، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، قال: نعم، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم)(١).

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٥).

لقد كان هذا الفهم منبعه التأثر بصفة من أعظم صفاته سبحانه وهي العلم، علمه بما يبدون، وما يكتمون، فخافوا من ذلك أشد الخوف، وهذا يبين عمق الفهم للمعاني وملاحظتها بما يخصهم في دينهم، وما يرضي ربهم، فلما علم سبحانه، منهم هذا الإيمان الصادق زادهم إيمانًا ويقينًا به، فقد روى مسلم عن ابن عباس قال: (لما نزلت هذه الآية: لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة:٢٨٤]. قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبي ﷺ: قولوا: سمعنا وسلمنا، قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم ..)[(١)].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه - يشير إلى رباعيته -، اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله)[(٢)].

وروى البخاري ذلك الخبر أيضًا على لسان ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أنه قال: (اشتد غضب الله على من قتله النبي ﷺ)[(٣)] فأي فهم يكون من هؤلاء الصحابة - رضوان الله عليهم- في هذه الساعات العصيبة من المفهوم اللغوي للعبارة، ولكنه غضب يليق بجلاله وكماله، فلم يخطر على بالهم تشبيه ذلك بغضب المخلوقين، أو خطر على بالهم أن يؤولوه، أو يعطلوه، رضوان الله عليهم.

ويوجه النبي ﷺ أصحابه إلى معنى صفة السمع، وأن الله سبحانه سميع

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٦) .
(٢) أخرجه البخاري (٤٠٧٣)، ومسلم (١٧٩٣) .
(٣) أخرجه البخاري (٤٠٧٤) .

قريب، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كنا مع النبي ﷺ في سفر: فكنا إذا علونا كبرنا، فقال: أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ، ولا غائبًا، تدعون سميعًا قريبًا)[(١)] وفي رواية مسلم قال: (إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)[(٢)].

ومن تمام فهم الصحابة للصفات الإلهية أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١])[(٣)].

فكان هذا التعجب نابعًا من وصف الرب سبحانه بأعظم صفات الكمال، وهذا هو التفريق بين الصفات الإلهية وصفات المخلوقين على لسان هذه الصحابية الجليلة التي تمثل هذا الجمع الكبير الذي يؤمن بالصفات الإلهية هذا الإيمان الحق، وكانوا رضوان الله عليهم يحبون صفات ربهم، ويتقربون إليه بهذا الحب، فقد روى البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (أن رسول الله ﷺ بعث رجلًا على سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٤).

(٣) أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم بعد حديث (٧٣٨٥)، وأخرجهموصولًا النسائي (٦/ ١٦٨)، وابن ماجه (١٨٨)، وأحمد (٦/ ٤٦) (٢٤٢٤١)، والحديث صححه ابن عساكر في معجم الشيوخ (١/ ١٦٣)، والحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٥/ ٣٣٩)، والعلامة الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (١/ ١٣٠) :إسناده صحيح.

[الإخلاص:١]، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: سلوه لأي شيء يصنع هذا فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: أخبروه أن الله –عز وجل– يحبه)[١]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأبي بن كعب: (إن الله أمرني أن أقرأ عليك: لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ [البينة:١] قال: وسماني؟ قال: نعم، فبكى)[٢].

وروى البخاري عن أنس قال: (جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك، قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكتم هذه، فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات)[٣].

ومما يبين عمق الفهم، وسرعة التفاعل مع الصفات التي أثرت في إيمان وحياة الصحابة رضوان الله عليهم، ما أخرجهالبخاري ومسلم في حديث الإفك عن عائشة رضي الله عنها قالت: (فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه، والله لا أنفق على مسطح شيئًا بعد ما قاله لعائشة، فأنزل الله تعالى: وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [النور:٢٢] فقال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه)[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٥٩)، ومسلم (٧٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٢٠).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

وهكذا لو بحثنا عن مواقف الصحابة لوجدناها قد ألمت إلمامًا كبيرًا في الصفات ومعانيها، وظهرت آثارها على حياتهم وجميع تصرفاتهم، ولعل الوقائع العظيمة من الغزوات التي غزاها الصحابة مع رسول الله ﷺ والآيات التي نزلت بشأنها والتي تنتهي تعقيباتها بالصفات الإلهية، هي من هذا الجانب الذي نرى أنها هيمنت عليه، فكانوا بأعلى درجات الفهم والإيمان واليقين، وعندما تجلى هذا الجانب في تصوراتهم بهذه الضخامة والشمول استغنوا عن السؤال والبحث والتنقير عنه، ومع ضخامة هذا العرض وشموليته في القرآن والسنة فقد غشيت أبصار المبتدعة عنه تمامًا، وقاموا بالبحث والتنقير على غير الهدى الرباني، وفتحوا أبواب الشرور على الأمة في أخص مسائل الألوهية، وهي مسائل الصفات التي حسمت مادة الاعتقاد بها على الصورة التي وقف عندها الصحابة، والتابعون، وتابعوهم الذين يمتدح طريقتهم الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول: (قف حيث وقف القوم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافد قد كفوا، وإنهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى، فلئن قلتم حدث بعدهم فما أحدثه إلا من سلك غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، ولقد تكلموا منه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونه مقصر، وما فوقهم مجسر، لقد قصر عنهم قوم فجفوا، وطمح آخرون عنهم فغلوا، وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم)[1]. وكانوا - رضوان الله عليهم- يكرهون التعمق والتكلف؛ فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

---

(١) أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد (ص: ٢٩٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٣٣٨، ٣٣٩).

قال: (كنا عند عمر، فقال: نهينا عن التكلف)[١] فإذا كان عمر ﵁ يروي النهي عن التكلف فمن باب أولى أن ينتهوا عن الخوض في الصفات بما لا يحل، وإنما وقفوا عند الحد الذي وقف عنده الكتاب والسنة بعيدًا عن القول بالوصف والكيفية، أو النفي والتعطيل.

ويوضح ابن الوزير كيف أن الصحابة فهموا الصفات الإلهية من خلال تعليم الرسول ﷺ لهم حيث يقول: (التسليم لقول الله تعالى ولحديث رسول الله ﷺ ولأصحابه، وتابعيهم الناقلين إلينا شريعته ﵇، وأن لا نتهم منهم أحدًا لثبوت عدالتهم في سائر لوازم الشريعة، فإنهم نقلوها عن معدن النبوة، وعنصر الرسالة، ولنعلم أن البيان لا يجوز تأخيره عند الحاجة، وقد بين لهم رسول الله ﷺ جميع ما أرسله الله تعالى به حتى قال فلان: (علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة، فقال الصحابي: أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم)[٢]. وحتى قال ﵇ في خطبة الوداع: (إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب - مضر- الذي بين جمادي وشعبان)[٣] هذا فيما لا يضر جهله كيف في أمر التوحيد، فلو علم أن الحاجة داعية إلى تأويل صفات الله، وأنه يلزم الخلق كيفية معرفتها لما وسعه إلا البيان، وفي عدم ذلك دليل على كذب مدعيه، فلا يرفع أحد طرفه إلى كيفية معرفة صفات الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٩٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢). من حديث سلمان ﵁.
(٣) أخرجه البخاري (٣١٩٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة ﵁.

من قبل عقله إلا غضه الدهش والحيرة، فانقلب إليه البصر خاسئًا وهو حسير، فهذا ما يجب على المسلمين أن يؤمنوا به جملة، وأن يحيطوا به تفصيلًا)(١).

- ومن خصائص إيمان الصحبة رضوان الله عليهم، بجانب فهمهم الواضح لها أنهم لم يتنازعوا بأي منها، وقد تنازعوا في آيات الأحكام، ولم يؤثر وجود أي نزاع بينهم في الصفات الإلهية، وهذا راجع إلى كمال فهمهم لها، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد تنازع الصحابة في تأويل قوله تعالى: أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ [البقرة:٢٣٧]، هل هو الأب، أو الزوج، وتنازعوا في تأويل قوله تعالى: أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء [النساء:٤٣] هل هو الجماع، أو اللمس باليد، والقبلة ونحوها، وتنازعوا في تأويل قوله تعالى: وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ هل هو المسافر يصلي بالتيمم مع الجنابة، أوالمجتاز بمواضع الصلاة، كالمساجد وهو جنب، وتنازعوا في تأويل ذوي القربى المستحقين الخمس هل هم قرابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو قرابة الإمام، وتنازعوا في تأويل قوله تعالى: وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [الأعراف:٢٠٤]، هل يدخل فيه قراءة الصلاة الواجبة أم لا، وتنازعوا في تأويل قوله: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا [البقرة:٢٣٤] هل يتناول اللفظ الحال، أو هل للحمل فقط، وتنازعوا في قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ [المائدة:٣] هل يدخل فيه ما مات في البحر أم لا، وتنازعوا في تأويل الكلالة، وفي تأويل قوله تعالى: فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ [النساء:١١]، وأمثال ذلك، ولم يتنازعوا في تأويل آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد، بل اتفقت كلمتهم وكلمة التابعين بعدهم على إقرارها وإمرارها، مع فهم معانيها وإثبات حقائقها، وهذا يدل على

---

(١) العواصم والقواصم (٣/ ٣٧٠).

أنها أعظم النوعين بيانًا، وأن العناية ببيانها أهم لأنها من تمام تحقيق الشهادتين، وإثباتها من لوازم التوحيد، فبينها الله ورسوله بيانًا شافيًا لا يقع فيه لبس ولا إشكال يوقع الراسخين في العلم في منازعة ولا اشتباه، ومن شرح الله لها صدره، ونور لها قلبه يعلم أن دلالتها على معانيها أظهر من دلالة كثير من آيات الأحكام على معانيها، ولهذا فإن آيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس، وأما آيات الأسماء والصفات فيشترك في فهمها الخاص والعام، أعني فهم أصل المعنى لا فهم الكنه، والكيفية، ولهذا أشكل على بعض الصحابة قوله: {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} [البقرة:١٨٧] ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة:١٨٦]، وأمثالها من آيات الصفات، وأشكل على عمر بن الخطاب آية الكلالة، ولم يشكل عليه أول الحديد، وآخر الحشر، وأول سورة طه، ونحوها من آيات الصفات، وأيضًا فإن بعض آيات الأحكام مجملة عرف بيانها بالسنة كقوله تعالى: فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ [البقرة:١٩٦]، فهذا مجمل في قدر الصيام والإطعام، فبينته السنة بأنه صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة، وكذلك، قوله: وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ [الحج:٢٩] مجمل في مقدار الطواف فبينته السنة بأنه سبع، ونظائره كثيرة كآية السرقة، وآية الزكاة، وآية الحج، وليس في آيات الصفات، وأحاديثها مجمل يحتاج إلى بيان من خارج بل بيانها فيها، وإن جاءت السنة بزيادة في البيان، والتفصيل؛ فلم تكن آيات الصفات مجملة محتملة لا يفهم المراد منها إلا بالسنة بخلاف آيات

الأحكام)[١].

مسألة

من الأمور الهامة التي تستوقف الباحث أن أول من أظهر الطعن على رسول الله ﷺ وأصحابه من المنتسبين لهذه الأمة هم المنافقون الذين ظهرت من خلالهم فرق الابتداع والمبتدعة، وأولهم ذو الخويصرة أول الخوارج؛ الذي خرج من ضئضئه حرقوص بن زهير، وذي الثدية، وجمهور الخوارج الذين خرجوا على عثمان رضي الله عنه، ثم على علي رضي الله عنه، وقالوا بتكفيرهم، وتكفير الصحابة، ثم عبدالله بن سبأ وأتباعه السبئية الذين اتخذوا شعار التشيع؛ حيث قالت الخوارج بتكفير عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعائشة ومن عاش في زمانهم من الصحابة فاستدركت عليهم الشيعة، فتناولت أبا بكر، وعمر، وجمهور الصحابة، ولتغطية سوءتها في كراهيتهم تولت أربعة منهم فقط بجوار علي رضي الله عنه.

ثم عندما برز قرن المرجئة المبتدعة خاضوا في الأحداث التي وقعت بين الصحابة رضوان الله عليهم، مخالفين لجمهور الأمة، وقالوا بالتوقف فيهم، ثم عندما ظهرت المعتزلة على يد واصل بن عطاء، وقرينه في الضلالة عمرو بن عبيد قالوا: بتفسيق الصحابة عليهم رضوان الله، وصار مثل هؤلاء الحيارى المتهوكون يطلقون ألسنتهم العلية للطعن على خير خلق الله عز وجل، حتى أن عمرو بن عبيد كان يقول عن عبدالله بن عمر إنه حشوي[٢]، ثم تعمقت خطة أعداء

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٢٠٨ - ٢١٢)، والعقيدة الإسلامية وجهود علماء السلف في تقريرها (ص ٨١ – ٩٨).

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢/ ٥٢٠).

الأمة ببروز الجعدية، والجهمية، وغلاة الشيعة، والقرامطة، وفلاسفة المعتزلة الذين توجهوا للعقائد التي اعتقدها الصحابة بصفاء وكمال تام، فقاموا بالإنكار والطعن وإلصاق الأباطيل بهم، والزعم بأنهم كانوا لا يفهمون معاني الصفات، فقام هؤلاء المبتدعة بالتأويل والتعطيل، والنفي والتشبيه لإثارة الشكوك والبلبلة في صفوف الأمة، حتى قيض الله لهم من رد هجمتهم الظالمة التي كانت تهدف إلى تجريد معاني الألوهية من نفوس المسلمين، والعمل على سيادة منهجها الظالم عندما استخدمت المأمون، والمعتصم، والواثق، في امتحان علماء الأمة طمعًا منهم في زعزعة قداسة القرآن من نفوس المسلمين، وإعادتهم إلى الجاهلية، ولكن الله ﷻ أعز دينه بصمود علماء السلف وعلى رأسهم إمام أهل السنة الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ وجزاه الله خيرًا، - فعاد الخزي والعار على المعتزلة ومن شايعهم من فرق الضلال.

ومن هنا، فإن أغلب الأفكار الخاطئة التي أثيرت قديمًا وحديثًا عن عقيدة الصحابة رضوان الله عليهم، فهي تنبع من هذه المستنقعات العفنة من المعتزلة، والشيعة، والخوارج، والمرجئة، والمشبهة، والقدرية، الذين انبرى لمناصرتهم فئة من الكتّاب المعاصرين تحت مسميات براقة، وكأن المغيرين تداعوا من جديد عندما شاهدوا الصحوة الإسلامية تنمو وتتلمس طريق السلف في المعتقد والسلوك، فقاموا بإشاعة أباطيل الفرق الضالة في قوالب جديدة، وأصبح الشباب المسلم في حيرة واضطراب، ولكن الله ﷻ منجز وعده وناصر دينه، بإذنه تعالى: وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ [يوسف:٢١]

وقد سبق أن تعرضت لعقيدة الصحابة في الصفات، وأنهم كانوا أعظم الناس فهمًا، وسوف نعرض فيما يلي لجملة من الشبه التي أثارها أعداء الصحابة

لإبطالها، وبيان زيفها، وأهداف القائلين بها، وذلك أن هؤلاء المبتدعة عندما ألجأتهم بدعهم المنحرفة لمثل هذه المقالات أرادوا تسويقها بين الناس، فقاموا بإلصاقها بالصحابة، وحاشاهم رضوان الله عليهم، أن يميلوا عن الطريق القويم الذي اختطه لهم رسول الله ﷺ[١].

مسألة: وظيفة العقل في باب الصفات.

من تمام تكريم الإسلام للعقل إعماله فيما خلق له، وهيئ من أجله، وحجبه عن التهوك والخوض فيما لا سبيل له ولا قدرة عليه.

وباب الصفات يتضمن علومًا ضرورية، وعلومًا نظرية، وعلومًا غيبية، فالعلوم الضرورية يتفق عليها جميع العقلاء. والعلوم النظرية يتفاوت الناس في إدراكها بحسب ما أتوا من قدرات ذهنية وتدبر ونظر، وأما العلوم الغيبية فتعلق العقل بها من جهتين:

أولًا: العلم بها: وهذا لا يستقل به العقل، ولا يهتدي إليه من حيث هو إلا أن يهدى إليه بخبر الصادق، فيعلمه حينئذ علمًا معنويًا عامًا مبنيًا على الاشتراك الذهني مع ما يوافقه في عالم الشهادة.

ثانيا: إدراك تفاصيلها وكيفياتها: وهذا لا سبيل إليه مطلقًا، إذ أنه قاصر قصورًا ذاتيًا عن بلوغ دركه والإحاطة بعلمه.

ومع كون العقل لا يستقل بالعلم بباب الصفات على سبيل التفصيل، فضلًا عن إدراك كيفية جميع الصفات، فإنه لا يحيل ذلك ولا يمنعه كما يمنع المستحيلات العقلية، مثل اجتماع النقيضين في محل واحد، أو ارتفاعهما عنه معًا، بل يقف من هذه النصوص الغيبية الخبرية موقف التسليم إذا صح النقل

(١) العقيدة الإسلامية وجهود علماء السلف في تقريرها (ص ١٩١).

وسلمت الرواية. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، ولم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه)[(١)]، وقال أيضًا: (فإن الرسول لا يجوز عليه أن يخالف شيئًا من الحق، ولا يخبر بما تحيله العقول وتنفيه. لكن يخبر بما تعجز العقول عن معرفته فيخبر بمحارات العقول، لا بمحالات العقول. ولهذا قال الإمام أحمد في رسالته في السنة، التي أخرجها عبدوس بن مالك العطار، قال: (ليس في السنة قياس، ولا يضرب لها الأمثال، ولا تدرك بالعقول)، هذا قوله وقول سائر أئمة المسلمين، فإنهم متفقون على أن ما جاء به الرسول ﷺ لا تدركه كل الناس بعقولهم، ولو أدركوه بعقولهم لاستغنوا عن الرسول)[(٢)].

والعقل الصريح السالم من الشبهات والشهوات لا يمكن أن يخالف النقل الصحيح السالم من العلل والقوادح في سنده ومتنه. وسر ذلك أن كلًا منهما من الله، فالعقل خلقه والنقل خبره وأمره، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ [الأعراف: ٥٤]. فكيف يختلفان! قال تعالى: أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا [النساء: ٨٢]. ولهذا فإن العلاقة بين العقل والشرع لها حالان لا ثالث لهما:

- فإما أن يؤيد العقل الشرع ويصدقه ويدل عليه.
- وإما أن يسلم له، ويجوز ما جاء به.

ولا يمكن أن يكون الثالث: وهو أن يعارضه ويخالفه.

وهذه الموافقة بين العقل الصريح والنقل الصحيح تقع من الطرفين، بحيث

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٩).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٩٧).

يصدق أحدهما الآخر، أو لا يعارضه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (.. كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول، وإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، ولكن كثيرًا من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا، فمن عرف قول الرسول ومراده كان عارفًا بالأدلة الشرعية، وليس في المعقول ما يخالف المنقول .. وكذلك (العقليات الصريحة) إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحًا لم تكن إلا حقًا، لا تناقض شيئًا مما قاله الرسول)[1].

ولما كان (النقل الصحيح) معصومًا محفوظًا، وكان العقل عرضة للزلل والانحراف، كان للنقل على العقل وصاية وحماية. فلا قياس في مقابلة النص، وإذا قدر ظهور تعارض بين العقل والنقل الصحيح، فالنقل ثابت والعقل متهم. فالنقل يحوط العقل ويسوسه ويوجهه الوجهة الصحيحة، ويحفظه من الزيغ.

كما أن النقل الصحيح ينير الطريق للعقل، ويوفر عليه الجهد، كما مثل شيخ الإسلام ابن تيمية فيما تقدم أثر النقل على العقل بقوله: (إن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار. وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها)[2].

مسألة: تفاضل صفات الله.

قال شيخ الإسلام في جواب أهل العلم والإيمان (ص٤٢): والنصوص والآثار في تفضيل كلام الله - بل وتفضيل بعض صفاته - على بعض متعددة . وقول القائل " صفات الله كلها فاضلة في غاية التمام والكمال ليس فيها نقص "

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٨٠ - ٨١) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٩)، ومذهب أهل التفويض في نصوص الصفات (ص ٤٧٣) .

كلام صحيح لكن توهمه أنه إذا كان بعضها أفضل من بعض كان المفضول معيبا منقوصا خطأ منه فإن النصوص تدل على أن بعض أسمائه أفضل من بعض ولهذا يقال دعا الله باسمه الأعظم . وتدل على أن بعض صفاته أفضل من بعض وبعض أفعاله أفضل من بعض ففي الآثار ذكر اسمه العظيم واسمه الأعظم واسمه الكبير والأكبر كما في السنن وأخرجه أحمد وابن حبان في صحيحه {عن ابن بريدة عن أبيه قال: دخلت مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلي يدعو: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب} . {وعن أنس قال: كنت جالسا مع رسول الله ﷺ في الحلقة ورجل قائم يصلي فلما ركع وسجد تشهد ودعا فقال في في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده لقد دعا باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى} . وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال {إن الله كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي} وفي رواية {سبقت رحمتي غضبي} فوصف رحمته بأنها تغلب وتسبق غضبه وهذا يدل على فضل رحمته على غضبه من جهة سبقها وغلبتها وقد ثبت في صحيح مسلم {عن عائشة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في سجوده اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك} . وروى الترمذي أنه كان يقول ذلك في وتره لكن هذا فيه نظر . وقد ثبت في الصحيح والسنن والمساند من غير وجه الاستعاذة بكلماته التامات كقوله: {أعوذ

بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون} . وفي صحيح مسلم عن خولة أنه قال ﷺ {من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامة لم يضره شيء حتى يرتحل منه} . وفي الصحيح أنه قال لعثمان بن أبي العاص: {قل: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر} . ومعلوم أن المستعاذ به أفضل من المستعاذ منه فقد استعاذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته . وأما استعاذته به منه فلا بد أن يكون باعتبار جهتين: يستعيذ به باعتبار تلك الجهة ومنه باعتبار تلك الجهة ليتغاير المستعاذ به والمستعاذ منه إذ أن المستعاذ منه مخوف مرهوب منه والمستعاذ به مدعو مستجار به ملتجأ إليه والجهة الواحدة لا تكون مطلوبة مهروبا منها لكن باعتبار جهتين تصح كما في الحديث الذي في الصحيحين عن البراء بن عازب {أن النبي ﷺ علم رجلا أن يقول عند النوم اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك وفوضت أمري إليك رغبة ورهبة إليك لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك . آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت} فبين أنه لا ينجي منه إلا هو ولا يلتجأ منه إلا إليه . وأعمل الفعل الثاني لما تنازع الفعلان في العمل . ومعلوم أن جهة كونه منجيا غير جهة كونه منجيا منه وكذلك جهة كونه ملتجأ إليه غير كونه ملتجأ منه سواء قيل إن ذلك يتعلق بمفعولاته أو أفعاله القائمة به أو صفاته أو بذاته باعتبارين . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال {المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا} . وقد جاء ذكر اليدين في عدة أحاديث ويذكر فيها أن كلتاهما يمين مع تفضيل اليمين . قال غير واحد من العلماء لما كانت صفات المخلوقين متضمنة للنقص فكانت يسار

أحدهم ناقصة في القوة ناقصة في الفعل بحيث تفعل بمياسرها كل ما يذم - كما يباشر بيده اليسرى النجاسات والأقذار - بين النبي ﷺ أن كلتا يمين الرب مباركة ليس فيها نقص ولا عيب بوجه من الوجوه كما في صفات المخلوقين مع أن اليمين أفضلهما كما في حديث آدم قال {اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة} فإنه لا نقص في صفاته ولا ذم في أفعاله بل أفعاله كلها إما فضل وإما عدل . وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: {يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه . والقسط بيده الأخرى يرفع ويخفض} فبين ﷺ أن الفضل بيده اليمنى والعدل بيده الأخرى . ومعلوم أنه مع أن كلتا يديه يمين فالفضل أعلى من العدل وهو سبحانه كل رحمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ورحمته أفضل من نقمته . ولهذا كان المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ولم يكونوا عن يده الأخرى . وجعلهم عن يمين الرحمن تفضيل لهم كما فضل في القرآن أهل اليمين وأهل الميمنة على أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة وإن كانوا إنما عذبهم بعدله . وكذلك الأحاديث والآثار جاءت بأن أهل قبضة اليمين هم أهل السعادة وأهل القبضة الأخرى هم أهل الشقاوة . ومما يبين هذا أن الشر لم يرد في أسمائه وإنما ورد في مفعولاته ولم يضف إليه إلا على سبيل العموم وأضافه إلى السبب المخلوق أو بحذف فاعله وذلك كقوله تعالى: {الله خالق كل شيء} و{من شر ما خلق} وكأسمائه المقترنة مثل المعطي المانع الضار النافع المعز المذل الخافض الرافع وكقوله: {وإذا مرضت فهو يشفين} وكقوله: {صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} وكقول الجن: {وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم

أراد بهم ربهم رشدا} . وقد ثبت في صحيح مسلم عن {النبي ﷺ أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح والخير بيديك والشر ليس إليك} وسواء أريد به: أنه لا يضاف إليك ولا يتقرب به إليك أو قيل إن الشر إما عدم وإما من لوازم العدم وكلاهما ليس إلى الله فهذا يبين أنه سبحانه إنما يضاف إليه الخير وأسماؤه تدل على صفاته وذلك كله خير حسن جميل ليس فيه شر وإنما وقع الشر في المخلوقات...

مسألة: بطلان مقولة: مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أحكم.

درج المفوضة والمتكلمة من الأشاعرة على وصف مذهب التفويض بـ (السلامة) مبررين بذلك - حسب فهمهم الخاطئ - اختيار السلف لهذا السبيل لكونهم أقرب إلى الورع والاحتياط في الدين. وانساق كثير من الناس وراء هذا التبرير الذي يظهر منه - بادئ الرأي - إجلال السلف، وإضفاء مسحة الورع عليهم بتعظيمهم لجانب الرب، وعدم الخوض في هذه المزالق.

وصار بعض من ينتحل السلف ومذهبهم يلوح بهذه اللافتة (السلامة) للترويج لمذهب التجهيل. ولما كانت (السلامة) كلمة مقابلة لكلمة (الهلاك) أو حتى كلمة (المخاطرة) فقد استمالت النفوس والقلوب طلبًا للحذر من الوقيعة في مقام دحض مزلة.

فاجتمع في دعوى التفويض المزعومة أمران حبيبان إلى النفوس:

- نسبته إلى السلف ...
- تضمنه للسلامة المنافية للخطر والهلكة.

ولذلك قيل: (مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم).

وقد تتابع المتأخرون على ترديد هذه المقالة بلفظها أو مضمونها ...

- قول بدر الدين بن جماعة: (وقد رجح قوم من الأكابر الأعلام قول السلف لأنه أسلم، وقوم منهم قول أهل التأويل للحاجة إليه)[١].

- وقال سعد الدين التفتازاني بعد ذكر نصوص الصفات: (إنها ظنيات سمعية في معارضة قطعيات عقلية، فيقطع بأنها ليست على ظواهرها، ويفوض العلم بمعانيها إلى الله تعالى، مع اعتقاد حقيقتها، جريًا على الطريق الأسلم الموافق للوقف على (إلا الله) في قوله تعالى: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ، أو تأول تأويلات مناسبة موافقة لما دلت عليه الأدلة العقلية على ما ذكر في كتب التفسير، وشروح الحديث سلوكًا للطريق الأحكم، الموافق للعطف في (إلا الله، والراسخون في العلم)[٢].

- قول أحمد الدردير: (وأجاب أئمتنا، سلفهم، بأن الله تعالى منزه عن صفات الحوادث، مع تفويض معاني هذه النصوص إليه تعالى إيثارًا للطريق الأسلم: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ، وخلفهم، بتعيين محامل صحيحة إبطالًا لمذهب الضالين، وإرشادًا للقاصدين .. نظرًا إلى الطريق الأحكم، وذهابًا إلى أن الوقف في الآية: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ. ومن ثم قيل: إن طريق السلف أسلم، وطريق الخلف أعلم)[٣].

ومثل هذا في كتب المتأخرين كثير. وسبب ذلك كما يبين شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة، التي شاركوا فيها إخوانهم من الكافرين؛ فلما اعتقدوا انتفاء

---

(١) إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص: ٩٣).
(٢) شرح المقاصد (٤/ ٥٠).
(٣) شرح الخريدة البهية (ص: ٤٢ - ٤٣).

الصفات في نفس الأمر، وكان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى، بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى - وهي التي يسمونها طريقة السلف - وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع تكلف - وهي التي يسمونها طريقة الخلف - فصار هذا الباطل مركبًا من فساد العقل والكفر بالسمع .. الخ)[١].

نقض شبهتهم

بعد هذا العرض والاستذكار لدعوى المفوضة، والمسوغين للتفويض بأن التفويض أسلم، ننقض هذه الدعوى بما يلي:

أولًا: أن هذه (السلامة) المزعومة سلامة في مقابلة (العلم) و(الحكمة). فنصيب السلف: (السلامة) دون (العلم) و(الحكمة)، ونصيب الخلف (العلم) و(الحكمة) دون (السلامة)، وتلك قسمة ضيزى، وتحكم بلا دليل. فهذه الأمور الثلاثة متلازمة، لا يتصور انفكاكها. فإقرارهم بأن السلف لا يتميزون بالعلم والحكمة لعدم تعيينهم المراد من النصوص يتسلزم نفي السلامة عن طريقتهم. والأمر خلاف ذلك، بل على النقيض تمامًا.

قال العلامة العثيمين في بيان بطلان هذا الزعم: (.. إن كون طريقة السلف أسلم من لوازم كونها أعلم وأحكم، إذ لا سلامة إلا بالعلم والحكمة. العلم بأسباب السلامة، والحكمة في سلوك تلك الأسباب، وبهذا يتبين أن طريق السلف (أسلم، وأعلم، وأحكم)[٢].

والسلامة التي يمكن إثباتها في مذهب أهل التفويض هي السلامة من التحريف الذي تقوله المتكلمون على الله بغير علم، بصرف معاني النصوص إلى

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٩ - ١٠).

(٢) فتح رب البرية بتلخيص الحموية (ص: ١٩).

استعمالات مجازية. ولا ريب أن هذا لون من السلامة، لكن قابله الوقوع في هلكة التجهيل، بتفريغ تلك النصوص من أي معنى يفهمه السامع، فكانوا كما قيل:

المستجير بعمرو حال كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ثانيًا: أن هذه (السلامة) المدعاة، المبنية على الجهل، لن تصل بأصحابها إلى شاطئ الأمان، وبر الطمأنينة إلا من ابتلي بالإعراض والصدود ولم يشتغل قلبه بمعالي الأمور. أما النفوس الزكية، والقلوب الحية فلا يمكن أن تحال على مجهولات، وطلاسم، ومعميات ثم تركن إليها. (لأنه لا يمكن لأي قلب فيه حياة ووعي وطلب للعلم ونهمة في العبادة إلا أن يكون أكبر همه هو البحث في الإيمان بالله تعالى، ومعرفته بأسمائه وصفاته، وتحقيق ذلك علمًا واعتقادًا)[1]. وبالتالي يظل معتنق التفويض يعيش في حيرة، واضطراب، وتناقض، وحسبه بذلك بعدًا عن السلامة المزعومة.

(باب متفرقات)

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (١/ ١٠١): هل تعلم صفات الله ﷻ واجب؟ أم مستحب؟ أم أنه سواء تعلم ذلك أم لم يتعلم هذه الصفات؟

وماذا تقولون في الذين يقولون بأن تعلم هذه الصفات لا ينبغي؛ لأنه يجعل الإنسان يدخل أو يوسوس له كلمة: كيف وماذا؟ وما الكتب التي تنصحوننا بتعلمها في هذا الباب مأجورين؟.

(١) تلخيص الحموية (ص: ٨).

فأجاب: تعلم أسماء الله وصفاته من القرآن العظيم والسنة المطهرة من أفضل القربات؛ لأن هذا يعين على تعظيم الله وتقديسه، وسؤاله بأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، والله يقول: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} دل على أنه يشرع أن نعرفها حتى ندعوه بها.

ويقول النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما، من أحصاها دخل الجنة». دل على أنه وتر يحب الوتر، ودل على أنه ينبغي لأهل العلم ولأهل الإيمان تعلم أسماء الله وصفاته، حتى يسألوه بها، وحتى يثنوا عليه بها، وحتى يعملوا بمقتضاها، وتحصل لهم الجنة.

هكذا ينبغي للمؤمن أن يعلم أن الله جل وعلا ذو الأسماء الحسنى، وأنه لا شبيه له، ولا كفو له ولا ند له. وأنه الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا يشبه الله بخلقه؛ لأنه سبحانه يقول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

وهو الرحمن رحمة لا كرحمتنا، وهو العلي علوا لا كعلونا، وهو المستوي على العرش لا كاستوائنا، رحيم لا كرحمتنا، يغضب لا كغضبنا، ويضحك لا كضحكنا، إلى غير هذا من صفاته سبحانه وتعالى.

أما الكتب التي ننصح بقراءتها في هذا المجال فإن أعظم كتاب هو القرآن، ننصحك بالقرآن العظيم، ننصح جميع المسلمين بالعناية بالقرآن، والإكثار من تلاوته؛ فهو كتاب الله، فيه الهدى والنور، كما قال سبحانه: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}، وقال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ}، وقال سبحانه: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}، وقال سبحانه: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}.

فنوصي جميع المسلمين رجالا ونساء، نوصيهم بالقرآن، نوصيهم بالإكثار

من تلاوته، وتدبر معانيه، وحفظه، أو ما تيسر منه؛ فهو كتاب الله، فيه الهدى والنور، فيه الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، فيه الدعوة إلى ما أوجب الله، وترك ما حرم الله. فيه قصص الأنبياء والمرسلين، فيه قصص الأخيار؛ حتى يتأسى بهم المؤمن، فيه قصص الأشرار؛ حتى تجتنب أعمالهم.

ثم كتب الحديث الشريف، كالصحيحين: البخاري، ومسلم. والسنن الأربعة، لمن كان عنده علم يقرأ فيهما.

وأما المبتدئ، طالب العلم المبتدئ - فنوصيه بمثل المختصرات التي يستطيع حفظها، مثل بلوغ المرام للحافظ ابن حجر، ومثل كتاب التوحيد، وثلاثة الأصول، والأربع القواعد للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ. كشف الشبهات كذلك له رَحِمَهُ ٱللَّهُ. والعقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، وعمدة الحديث للشيخ الحافظ عبد الغني المقدسي. هذه كتب ينبغي حفظها، تفيد وتنفع، من الكتب المهمة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٣٨): البعض من الناس حينما يسأل أين الله؟ يقول: في كل مكان، فما هو الجواب الصحيح من الأدلة الشرعية؟.

فأجاب: الواجب على من سئل: أين الله؟ أن يجيب بما أجابت به الجارية لما سألها الرسول ﷺ، جيء للرسول ﷺ بجارية يريد صاحبها أن يعتقها، فقال لها النبي ﷺ: «أين الله؟ " قالت: في السماء، قال: "من أنا؟ " قالت: أنت رسول الله، فقال الرسول ﷺ للذي أتى بها: أعتقها فإنها مؤمنة». وهذا هو الواجب، من قيل له: أين الله؟ يقول: في السماء، فوق العرش؛ كما قال الله جل وعلا: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ}، وقال: {أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يعني في جهة العلو فوق

العرش، وقال جل وعلا: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} وقال سبحانه: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} الآية. والله جل وعلا قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، وقال سبحانه: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، يعني استوى ارتفع وعلا، في سبعة مواضع من القرآن، ذكر فيها أنه استوى على العرش سبحانه وتعالى، وأهل السنة والجماعة من أصحاب النبي ﷺ وأتباعهم بإحسان يؤمنون بهذا ويقرون بأنه سبحانه فوق العرش، فوق جميع الخلق، وأنه استوى على العرش، فوق جميع الخلق، وأنه استوى على العرش استواء يليق بجلاله وعظمته، لا يشابه خلقه في شيء من صفاته سبحانه وتعالى.

فمن سئل: أين الله؟ يقول: في السماء فوق العرش، هكذا قال أهل السنة والجماعة، كما دل عليه القرآن العظيم، والسنة المطهرة.

ومن قال: إنه في كل مكان، فقد كذب الله ورسوله، وهو بهذا يكون كافرا، يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وعلى ولي الأمر: السلطان أن يحيله إلى المحكمة، فإن تاب وإلا قتل؛ لأن معناه إنكار كون الله في العلو كونه فوق العرش، معناه تكذيب الله، وتكذيب الرسول ﷺ؛ فيكون كافرا مرتدا، يستتاب فإن تاب وإلا قتل من جهة ولي الأمر، يحال إلى المحكمة الشرعية حتى يستتاب.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٤٢): قرأت كثيرا في كتب التوحيد، فما إرشادكم في الكتاب الجامع للأسماء والصفات، واعتقاد أهل السنة والجماعة؟ وهل يصلح إطلاق كلمة: إن الله سبحانه وتعالى مع خلقه بعلمه وبقدرته وإرادته، وأقصد بذلك الباء، لأني أقول الباء تقتضي الملاصقة، أرجو التوجيه في هذه القضايا؟.

فأجاب: أحسن كتاب وأشرف كتاب، وأعظم كتاب في بيان أسماء الله وصفاته، وحقه على عباده هو كتاب الله، هو القرآن العظيم ليس بعده كتاب، هو أشرف كتاب وأعظم كتاب وخير كتاب، وأعلى كتاب لمن أراد الحق وليس فوقه كتاب، وفيه الهداية وفيه البيان، وفيه الدلالة على كل خير، ثم سنة الرسول ﷺ الصحيحة، مثل ما في الصحيحين وما ثبت في السنن وغيرها من الأحاديث الصحيحة، فهي أيضا العمدة في هذا الباب، ثم الاستعانة بكتب أهل العلم، التي فيها خير كثير من السلف ككتب الأئمة المعروفين، وموطأ مالك ومسند أحمد وغيرها؛ لأنها كتب تروي الأحاديث الصحيحة تروي الآثار عن السلف الصالح، ثم ما ألفه بعدهم العلماء في الأسماء والصفات مثل كتاب التوحيد لابن خزيمة، كتاب السنة لعبد الله بن أحمد، كتاب الدارمي عثمان بن سعيد للرد على بشر المريسي، وما أشبه ذلك من الكتب التي ألفت في السنة، كتب البيهقي وإن كان فيها بعض التأويل، الذي وافق فيه الأشاعرة لكنها في الجملة كتب مفيدة، لكن يجب التنبه لما فيها من بعض الخلل والتأويل، ومن أحسن الكتب المتأخرة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، كتب ابن القيم والذهبي، هؤلاء من خيرة العلماء في القرن الثامن، وشيخ الإسلام أيضا من أعيان القرن السابع، فقد جمع بين القرنين فهو من أعيان السابع والثامن جميعا، أما ابن القيم والذهبي وأشباههم، فهم من أعيان القرن الثامن، وهم من أئمة الهدى وكتبهم فيها خير كثير، وهكذا أشباههم من أهل السنة كالحافظ ابن كثير وغيره، وابن رجب، ومن المتأخرين شيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمة الله عليه، فإنه من أهل السنة وممن ألف في السنة في القرن الثاني عشر، هكذا تلاميذه وأتباعه، كالشيخ عبد الرحمن بن حسن صاحب فتح المجيد، والشيخ سليمان

بن عبد الله صاحب تيسير العزيز الحميد، وكلاهما حفيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهكذا كتب أئمة الدعوة الذين سلكوا مسلك الشيخ محمد في الدعوة إلى الحق وفي إثبات أسماء الله وصفاته.

والقاعدة في هذا أن كل من عرف باتباع السنة، وتعظيم السنة والسير على منهج السلف الصالح، فهو الذي ينبغي السير على منهاجه، والاستعانة بكتبه والثناء عليه، وحث الناس على الاستفادة من كتبه هكذا، لا يقتصر على أحد معين، كل من عرف أنه يعتني بالسنة ويعظم كلام الله، وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، ويحذر كلام أهل البدع، ويحذر منه ويسير على منهاج السلف الصالح، فهو جدير بالاتباع، وجدير أن يعض على كتبه بالنواجذ سواء كان شافعيا أو مالكيا أو حنفيا، أو حنبليا أو ظاهريا أو لا ينتسب لأحد.

وعن المعية نعم المعية حق، وهذا الكلام هو كلام أهل السنة، بأن الله مع عباده بالمعية، كما قال تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} وهو مع أوليائه أيضا بالمعية، لكنها معية خاصة تقتضي نصره لهم، وحفظه لهم وكلاءته لهم، كما قال سبحانه في حق موسى وهارون: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} يعني بالنصر والتأييد والكلاءة، وحمايتهما من شر فرعون، وقد فعل سبحانه لقد تكلما على فرعون وناظراه، وبينا له الحق ولم يخافا في الله لومة لائم، والله حماهما من كيده.

وهكذا قوله سبحانه في حق محمد ﷺ {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا}، لما كان في الغار مع صاحبه أبي بكر، وهكذا قوله سبحانه: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} إلى غير هذا من آيات المعية، وليس في الباء شبهة، الله معنا بقدرته بعلمه ليس بشبهة.

المعنى: أنه فوق العرش، فوق السماوات السبع، بائن من خلقه وهو معنا سبحانه، بقدرته يعني قادرا علينا، معنا يعني أنه قادر علينا، عالم بأحوالنا يرانا ولا يخفى عليه مكاننا، وهو فوق العرش سبحانه وتعالى، وهو معنا أيضا بإحسانه إلينا وبكلاءته لأوليائه، وبحفظه لهم كما أنه مع الناس كلهم بالعلم والإحاطة والقدرة والتصرف سبحانه وتعالى، واعتقاد الباء ملاصقة غير لازم؛ لأن كل مقام له مقال، سرت مع زيد، لا يلزم منه الملاصقة معه، يعني جنبه، لكن لا تلزم الملاصقة، سافرت مع زوجتي كذلك، سافرت مع فلان كذلك، أو سافرت بفلان مثل مع فلان، لا يقتضي الملاصقة، كل شيء بحسبه، سرت مع القمر أو سرت والقمر، أو سرت بالشمس، يعني بالاستمتاع بها والانتفاع بها.

كما هي في حق المخلوق إذا قال أحد: أنا معك حيثما كنت، فالله أولى وأجل، ويقول الناس مثلا في العهد الأول: فلان مع معاوية، يعني مع مناصرة معاوية، ولو كان في الشرق أو الغرب، وفلان مع علي يعني مع مناصرة علي، وإن كان ليس في الكوفة ولا معه في جيشه، ويقال: فلانة مع زوجها وفلان معه فلانة، وإن كان بينهما مسافات طويلة، يعني في عصمته، كذلك الراعي مع الرعية والرعية مع الراعي، كلها معية نسبية إذا جاز هذا في المخلوقين، مع قرب بعضهم من بعض، فيجوز في حق الخالق مع عظيم البينونة، البينونة عظيمة، الله سبحانه لا يشابهه شيء، والله سبحانه لا يخالط خلقه، ولا يكون في خلقه شيء منه ولا في خلقه شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من خلقه سبحانه وتعالى.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٤٦): حديث النزول قول: ينزل ربنا في الثلث الأخير، هل ينزل ربنا عَزَّ وَجَلَّ؟ أم تنزل الرحمة؟.

فأجاب: تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ في الصحيحين وغيرهما أن

الله جل وعلا ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة، يقول النبي ﷺ: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فينادي فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ (١)». أخبر عن نفسه أنه ينزل، لكن لا يعلم كيف النزول إلا هو، كما لا يعلم كيف الاستواء إلا هو سبحانه وتعالى، ينزل كما يشاء وكما يليق بجلاله، لا يعلم كيف نزوله إلا هو، فنقول: ينزل ولا نكيف، ولا نمثل، ولا نزيد ولا ننقص، بل نقول: ينزل ربنا كما قال: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» وفي لفظ: «هل من سائل فيعطى سؤله؟ هل من داع فيستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له» وفي اللفظ الآخر: «هل من تائب فيتاب عليه؟».

يجب على كل مسلم أن يؤمن بهذا النزول إيمانا قاطعا يقينا على الوجه اللائق بالله، لا يكيف، كما نقول في الاستواء، الاستواء معلوم والكيف مجهول، فهكذا نقول: النزول معلوم والكيف مجهول. هكذا قال أئمة السلف كمالك، وربيعة بن أبي عبد الرحمن عن شيخه، وسفيان الثوري والأوزاعي وأحمد بن حنبل، وغيرهم من أئمة الإسلام، قالوا في الاستواء وهكذا في النزول، استوى كما يليق بجلاله، استواء بلا كيف فالاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال - يعني عن الكيف - بدعة.

فهكذا نقول: يغضب ويرضى، سبحانه وتعالى غضبا يليق بجلاله لا يشابه غضب المخلوقين، وهكذا يسمع ويبصر لا كسمع المخلوقين، ولا كبصر المخلوقين، سمعا يليق بجلاله، وبصرا يليق بجلاله لا يشابه صفات المخلوقين، وهكذا بقية الصفات، بابها واحد، نثبتها لله على الوجه اللائق

بجلال الله، لا يشابه خلقه في شيء من صفاته، قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} هذا قول أهل السنة والجماعة، وهم أصحاب النبي ﷺ وأتباعهم بإحسان إلى يوم القيامة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٤٩): ما الفرق بين الحلم والصبر الذي من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ؟.

فأجاب: الحلم هو عدم معاجلة العاصي بالعقوبة فهو سبحانه موصوف بالحلم جل وعلا، وهو أيضا موصوف بالصبر كما في الحديث الصحيح: «لا أحد أصبر على أذى من الله عَزَّ وَجَلَّ، يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم»، الصبر يعني عدم العجلة بالعقوبة، كونه يصبر لا يعاجل عباده بالعقوبة مع شرك الكثير وظلمهم وعدوانهم، كما قال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}، وقال سبحانه: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} ومع هذا يمهلهم، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} ففي هذا الحلم والصبر جميعا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٥٠): كم مرة كلم الله موسى؟ وهل كلمه في نفس المكان الذي كلمه به أول مرة إن كان كلمه مرة أخرى؟.

فأجاب: الله أعلم، الله قال: {وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} أما عدد الكلمات فالله أعلم، لم يبلغني في هذا عدد.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٥٠): ما هي اللغة التي يتكلم بها الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة لعباده؟ وضحوا لنا ذلك مأجورين.

فأجاب: ظاهر النصوص الواردة عن النبي ﷺ، أنه يكلم الناس باللغة العربية، والله أعلم جل وعلا.

ولا أعلم مانعا من أنه يتكلم بغيرها، هو على كل شيء قدير سبحانه وتعالى؛ يعلم كل شيء؛ ويعلم جميع اللغات، ولا تخفى عليه خافية جل وعلا، لكن ظاهر النصوص أنه يخاطب الناس يوم القيامة باللغة العربية؛ وأن لغة أهل الجنة هي اللغة العربية، يتخاطبون بهذه اللغة المعروفة - أهل الجنة - والله يخاطبهم بذلك، كما هو ظاهر النصوص، وهو سبحانه يعلم كل شيء، ويقدر على كل شيء وعلى جميع اللغات سبحانه وتعالى؛ ويعلم أحوال أهلها؛ ويجازيهم على أعمالهم بما يستحقون سبحانه وتعالى.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٥١): من المعلوم عند أهل السنة أن القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، ولكن هذه الحروف التي كتب بها القرآن، هل هي غير مخلوقة، أم أنها حروف عربية؛ أي هل كان القرآن مكتوبا في اللوح المحفوظ بهذه الحروف، أم أن هذه الحروف وجدت مع العرب؟ أرجو بيان مذهب السلف فيما سبق، والرد على الإشكالات إن كان هناك إشكالات.

فأجاب: هذا الكلام الذي سأل عنه السائل قد أجاب عنه أهل السنة والجماعة، وأجمعوا أن هذا القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، حروفه ومعانيه، فالقرآن هو كلام الله، حروفا ومعاني، تكلم الله به جل وعلا وسمعه جبرائيل وبلغه محمدا عليه الصلاة والسلام. فالقرآن كله حروفه ومعانيه هو كلام الله، ومن قال: إنه مخلوق، فقد كفر عند أهل السنة والجماعة، فهو كلام الله حروفا ومعاني، وهو موجود في اللوح المحفوظ، بحروفه ومعانيه، كما قال سبحانه: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ} {فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}، فالقرآن كله كلام الله، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، بحروفه ومعانيه جميعا، كما نص

عليه أهل السنة والجماعة، وكما نص على ذلك أيضا أبو العباس، شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتبه، منها العقيدة الواسطية التي ذكر فيها عقيدة أهل السنة والجماعة، فالقرآن كلام الله، حروفا ومعاني جميعا، فكلام الله حروف ومعان. نزل به جبرائيل على النبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام، وأثبته الله في اللوح المحفوظ، كما بين الله في كتابه سبحانه وتعالى، ومن قال خلاف ذلك فقد خالف الشرع، وابتدع في الدين، وخالف أهل السنة والجماعة.

س: هذا السائل من اليمن، رمز لاسمه، بـ س. و. ت. يقول: هل قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن القرآن ليس مخلوقا، وهو كلام الله، ولكن التلفظ به مخلوق؟.

ج. القرآن هو كلام الله، والبخاري وغيره يقولون: هو كلام الله، منزل غير مخلوق، ولكن إذا قال: لفظي بالقرآن مخلوق؛ هذا فيه احتمال، ولهذا رأى الأئمة ترك ذلك، وإذا أراد صوته فصوته مخلوق، أما إذا أراد لفظي يعني ملفوظي. والذي يتكلم به هو القرآن، هذا غلط، ولهذا كره بعض أهل العلم من يقول: هذا الكلام؛ لأنه يوهم، إذا قال: صوتي مخلوق، أما القرآن فهو كلام الله، وأوضح الأمر فلا حرج، ولهذا كره إطلاق هذه الكلمة بعض أهل العلم لأنه يوهم، وبعضهم أجاز ذلك على نية الصوت، أما المتلفظ به وهو القرآن فهو كلام الله، منزل غير مخلوق، سواء في قلبك أو تلفظت به أو كتبته هو كلام الله غير مخلوق.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٥٣): ما حكم من ينتسب إلى مذهب يؤمن بأن القرآن مخلوق، وأن الناس لا يرون الله يوم القيامة، مع العلم أن من ينتسبون إلى هذا المذهب أغلبهم لا يقرون بخلق القرآن، ولا يؤمنون به،

ويقولون: إنا لا نؤمن بأن القرآن مخلوق، لكننا ننتسب إلى هذا المذهب؛ لأن آباءنا كانوا ينتسبون إليه فقط، وما حكم من يؤمن بخلق القرآن؟ أيعتبر خارجا عن ملة الإسلام؟ وجهونا في هذا، جزاكم الله خيرا.

فأجاب: نعم الذين يقولون: إن القرآن مخلوق، معناه إنكار أنه كلام الله، وهذا كفر أكبر، وهكذا من قال: إن الله لا يرى، فمن أنكر رؤية الله في الآخرة، رؤيته في الجنة فهذا كفر أكبر؛ لأنه كذب الله وكذب رسوله عليه الصلاة والسلام، فكل طائفة أو شخص يقول: إن القرآن مخلوق، معناه أنه ليس كلام الله بل هو كلام مخلوق، والله صرح بأنه كلامه سبحانه وتعالى؛ لقوله جل وعلا: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ} وقال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ}.

والرسول ﷺ كان يقول للناس: «ألا رجل يؤمنني حتى أبلغ كلام ربي» يطوف عليهم في مكة قبل الهجرة يطلب منهم أن يؤووه حتى يبلغ كلام الله، المقصود أن الرسول ﷺ والصحابة كلهم صرحوا بأن القرآن كلام الله، والقرآن دل على أنه كلام الله، فمن زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أنه ليس كلام الله، فيكون كافرا بذلك، مكذبا لله ولرسوله ولإجماع المسلمين، وهكذا من أنكر صفات الله، وأنكر رؤيته ومن قال: إنه ليس بحكيم ولا حليم، ولا عزيز ولا قدير، فهو كافر كالجهمية، وكذلك من أنكر رؤية الله، وأن المؤمنين لا يرونه في الآخرة ولا في الجنة، هذا كافر كفرا أكبر، أعوذ بالله؛ لأنه كذب الله ورسوله، والله يقول جل وعلا في حق الكفرة: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} فإذا حجب الكفار، معناه أن المؤمنين يرون ربهم، سبحانه وتعالى، قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ}، ناضرة أي بهية جميلة، {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} تنظر إلى الله

سبحانه وتعالى، وقال جل وعلا: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}، جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله» وجاء في الأحاديث الصحيحة المتواترة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم ترون ربكم كما ترون القمر في ليلة البدر لا تضامون في رؤيته»، وقال في حديث آخر: «كما ترون الشمس في صحراء ليس دونها سحاب» وكما قال في ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته، يعني رؤية واضحة بارزة ظاهرة، ليست فيها شبهة ولا شك، فالمقصود أن المؤمنين يوم القيامة يرون ربهم رؤية ظاهرة كما ترى الشمس صحوا، ليس دونها سحاب رؤية بارزة، وهكذا في الجنة يرون ربهم جل وعلا، فمن أنكر هذا، وقال: إنه لا يرى فقد كذب الله ورسوله، فيكون كافرا نسأل الله العافية.

مسألة

قال العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (٦/ ٩): كثير من الناس من هؤلاء الموحِّدين يمرون على بعض الآيات التي فيها تتضمن عقيدة وبعض الأحاديث الأخرى وهم غير منتبهين لما تتضمن هذه النصوص من عقيدة صحيحة! وهي من تمام الإيمان بالله ﷻ، خذوا مثلًا عقيدة أو الإيمان بعلو الله ﷻ على خلقه أنا أعرف بالتجربة أن كثيرًا من إخواننا الموحِّدين السلفيين يعتقدون معنا بأن الله ﷻ على العرش استوى دون تأويل ودون تكييف ولكنهم حينما يأتيهم معتزلي عصري أو جهمي عصري، أو ماتريدي أو أشعري عصري فيلقي إليه شبهة قائمة على ظاهر آية لم يفهم معناها لا الموسْوِس ولا الموَسْوَس إليه، فيحار في عقيدته ويضل عنها بعيدًا، لماذا؟

لأنه لم يتلقن العقيدة الصحيحة من كل الجوانب التي تعرَّض لبيانها كتابُ

ربِنا وحديثُ نبِينا.

حينما يقول المعتزلي المعاصر: الله ﷻ يقول: {أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} (الملك:١٦)، وأنتم تقولون إن الله في السماء، وهذا معناه أنكم جعلتم معبودكم في ظرف هو السماء المخلوقة، ما أريد أن أخوض طويلًا في هذه القضية؛ لأن المقصود هو التذكير فقط، وإلا فالبحث في هذه الجزئية يحتاج إلى جلسة خاصة، أريد من هذا المثال أن عقيدة التوحيد بكل لوازمها ومتطلباتها ليست واضحة في أذهان الذين آمنوا بالعقيدة السلفية، لا أعني الآخرين الذين اتبعوا الجهمية أو المعتزلة أو الماتريدية أو الأشاعرة في مثل هذه المسألة، فأنا أرمي بهذا المثال إلى أن المسألة ليست باليسر الذي يصوره اليوم بعض إخواننا الدعاة الذين يلتقون معنا في الدعوة إلى الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح، أن الأمر ليس بهذه السهولة التي يدعيها بعضهم، والسبب في هذا ما سبق بيانه مني من الفرق بين جاهلية المشركين الأولين حينما يدعون أن يقولوا: لا إله إلا الله فيأبون؛ لأنهم يفهمون معنى هذه الكلمة الطيبة، وبين المسلمين المعاصرين اليوم حينما يقول هذه الكلمة لكنهم يأبون معناها الصحيح، هذا الفرق الجوهري هو الآن متحقق في مثل هذه العقيدة، عقيدة علو الله ﷻ على مخلوقاته كلها، فهذا يحتاج إلى بيان، ولا يكفي أن يعتقد المسلم فقط معنى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه:٥)، ومعنى: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، دون أن يعرف أن في هنا «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» في هذه الظرفية في هذا الحديث هي كـ "في" في قوله تعالى: {أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} (الملك:١٦) أي: من على السماء، حتى إذا جاء ذلك المعتزلي أو الأشعري ووسوس إليه وقال له: أنتم تجعلون ربكم في ظرف

في السماء، فيكون الجواب عنده: لا لا منافاة بين قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه:٥)، وبين قوله: {أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} (الملك:١٦)؛ لأن «في» هنا بمعنى «على» هناك، والدليل كثير وكثير جدًا، من هذا الحديث المتداول على ألسنة الناس، وهو بمجموع طرقه والحمد لله حديث صحيح: «ارحموا من في الأرض» لا يعني الحشرات والديدان التي هي في الأرض، وإنما من على الأرض من الإنسان والحيوان، «يرحمكم من في السماء» أي من على السماء، فمثل هذا التفصيل لا بد أن يكون المستجيبون لدعوة الحق على بينة من الأمر.

ويُقرِّب لكم هذا أن تتذكروا حديث الجارية وهي راعية غنم كما تعلمون، حينما سألها الرسول عليه السلام، وأنتم إن شاء الله ذاكرون الحديث، وإنما أذكر بالشاهد منه قال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء. لو سألت اليوم كبار شيوخ الأزهر لقالوا لك: في كل مكان، بينما الجارية تحسن الجواب، وهي جارية راعية غنم، ما هو السبب؟ لأنها كانت تعيش في جو بتعبيرنا العصري جو سلفي، أي جو سني بالتعبير العام؛ لأنها تخرجت كما يقولون أيضًا اليوم من مدرسة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-، هذه المدرسة لم تكن خاصة في بعض الرجال ولا في بعض النساء، وإنما كانت تنتقل من ناس إلى ناس فتعم السكان جميعهم من رجال ونساء؛ ولذلك عرفت الجارية وهي راعية غنم العقيدة الصحيحة التي جاء بها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في الكتاب وفي السنة.

اليوم لم يوجد شيء من هذا، من هذا البيان وهذا الوضوح، بحيث أنه لو سألت - ما أقول راعية غنم- بل لو سألت راعي أمة وجماعة قد يحار في

الجواب، كما يحار الكثيرون اليوم.

فإذًا قضية الدعوة إلى التوحيد وتثبيتها في قلوب الناس، ما يكفي أن نمرِّر آيات كما كان الأمر في العهد الأول؛ لأنهم أولًا كانوا يفهمون العبارات العربية بيسر، وثانيًا لم يكن هناك زيغ وانحراف في العقيدة نبع من الفلسفة ومن علم الكلام، فقام يعارض العقيدة السليمة، فنحن أوضاعنا اليوم تختلف تمامًا، فلا يجوز أن نتوهم بأن الدعوة إلى العقيدة الصحيحة هي اليوم من اليسر، كما كان الأمر في ذلك اليوم من اليسر، وأقرب لكم هذا بمثل لا يختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان إن شاء الله، من اليسر المعروف يومئذٍ أن الصحابي يسمع الحديث من رسول الله مباشرةً ثم التابعي يسمع الحديث من الصحابي مباشرة وهكذا نقف عند القرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية هل كان هناك شيء اسمه: علم الحديث، لم يكن هناك شيء اسمه علم الحديث، علم الجرح والتعديل لم يكن شيء منه هناك، أما الآن فهذا أمر لا بد منه، وهو فرض من فروض الكفاية، العالم اليوم لكي يتمكن من معرفة هذا حديث صحيح أو ضعيف، ليس هذا ميسرًا له كما كان الأمر بالنسبة للصحابي؛ لأنه يتلقى الحديث من فم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- غضًا طريًا، ثم التابعي يتلقاه من الصحابة الذين زكوا بشهادة الله ﷻ لهم إلى آخره، فما كان ميسورًا يومئذٍ ليس ميسورًا اليوم، لهذا ينبغي ملاحظة هذا الأمر، والاهتمام كما ينبغي مما يتناسب مع المشاكل المحيطة بنا اليوم بصفتنا مسلمين، ما لم يكن المسلمون الأولون قد أحاط بهم مما أحاط بنا من الإشكالات والشبهات وعلم الكلام، من أجل ذلك، أو يحسن بنا أن نذكر من أجل ذلك في بعض الأحاديث الصحيحة أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما ذكر الغرباء في بعضها، قال: «للواحد منهم خمسون من

الأجر»، قالوا: منا يا رسول الله أم منهم، قال: «منهم»، ثم علَّل ذلك بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنكم تجدون على الحق أنصارًا، ولا يجدون على الحق أنصارًا»، هذا من مقتضى الغربة الشديدة القائمة اليوم، التي لم تكن في الزمن الأول، لا شك أنه الزمن الأول الغربة كانت بين شرك وتوحيد، بين كفر وإيمان، أما الآن المشكلة بين المسلمين أنفسهم، فهذه قضية ينبغي الانتباه لها أولًا، ثانيًا: لا ينبغي أن يقول ناس من الناس ولنقل نحن مثلًا معشر السلفيين المحصورين في بلد ما، نحن الآن ينبغي أن ننتقل إلى مرحلة أخرى غير مرحلة الدعوة إلى التوحيد، وأعني بهذه المرحلة الأخرى هو العمل السياسي، لا ينبغي أن نقول هذا؛ لأن الإسلام دعوته دعوة حق أولًا، وعامة ثانيًا، نحن ما ندري من أين ستنبغ الحركة التي يبدأ منها تحقيق الحكم بالإسلام في أرض الله الواسعة، ولذلك فيجب أن تكون دعوتنا عامة، إن كانت مثلًا دعوتنا في بلد عربي كمثل بلدنا هذا مثلًا، فما ينبغي أن نقول: نحن عرب والقرآن نزل بلغتنا العرب، مع أننا نذكر بأن العرب اليوم كبعض الأعاجم الذين استعربوا، فالعرب اليوم استعجموا؛ بسبب بعدهم عن لغتهم، وهذا مما أبعدهم عن فهم كتاب ربهم وسنة نبيهم، فهب أننا نحن العرب هنا فهمنا الإسلام فهمًا صحيحًا، فلا نقنع بأننا نكفي نحن أن نعمل عملًا سياسيًا، ونحرك الناس ونشغلهم بالسياسة عما يجب عليهم من الاشتغال بفهم الإسلام كما

قلنا آنفًا، ليس محصورًا بالعقيدة بل بالعبادة، وفي المعاملات وفي السلوك، أنا لا أعتقد أن هناك في الأرض الإسلامية العامة شعبًا يعد الملايين يمكن أن يعتمد عليهم بأنهم فهموا الإسلام بهذه الأمور الثلاثة التي سبق ذكرها: عقيدةً، وعبادةً، وسلوكًا، ورُبوا على هذه التربية، لا أعتقد هذا موجود؛ ولذلك نحن

ندندن دائمًا وأبدًا حول ونركز حول نقطتين أساسيتين، وكثير من إخواننا الحاضرين يعلمون ذلك حينما نقول: التربية، فإنما نعني من هذه التربية التربية القائمة على التصفية، فلا بد من الأمرين معًا، التصفية والتربية، فإن كان هناك نوع من التصفية فهو في العقيدة، وليس بصورة عامة، وفي شعب قد يعد الملايين، وإنما ذلك في أفراد منهم ضاعوا في هذا المجتمع الواسع، وليس لهم كلمة وليس لهم ما يجمعهم حتى يكونوا كتلة واحدة، بحيث يمكنهم أن يؤثروا في ذلك المجتمع الذي هو جزء من المجتمع الإسلامي الكبير، أعني شعبًا من الشعوب، فقد يكون هناك أفراد فهموا الإسلام فهمًا صحيحًا من كل الجوانب نفترض هذا وهذا بعيد جدًا؛ لأني أعتقد أن فردًا بل ولا خمسة ولا عشرة ولا عشرين يستطيعون أن يقوموا بواجب التصفية، تصفية الإسلام مما دخل فيه في كل جوانب الإسلام من عقيدة من عبادة من سلوك من معاملة ما شابه ذلك، لا يستطيع أن ينهض بهذا الواجب أفراد قليلون خاصة في هذا المجتمع الذي يعد الملايين لا بد ما يكون هناك المئات من الدعاة الذين فهموا الإسلام فهمًا صحيحًا، ثم قاموا بواجب تربية من حولهم، التربية هذه الآن مفقودة ولذلك سيكون للتحرك السياسي الآن آثار سيئة قبل تحقيق هاتين القضيتين الهامتين التصفية والتربية، هل نعني بتحقيق بكلمة التحقيق تحقيق ذلك في المجتمع الإسلامي كله، هذا مما لا نفكر فيه ولا منامًا؛ لأن هذا أمر مستحيل؛ لأن الله ﷻ يقول في القرآن الكريم: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} (هود:١١٨، ١١٩)، هؤلاء المرحومون لا يتحقق فيهم أنهم مرحومون فعلًا من ربنا تبارك وتعالى إلا إذا فهموا الإسلام فهمًا صحيحًا، وربوا أنفسهم أيضًا على هذا الإسلام الصحيح، فالاشتغال الآن بما

يسمى بالعمل السياسي، ونحن لا ننكر العمل السياسي، لكننا نعتقد بالتسلسل المنطقي الشرعي في آن واحد، أن نبدأ بالعقيدة ونثني بالعبادة وبالسلوك تصحيحًا لكل هذه الأمور، ثم لا بد أن يأتي يوم لا بد من العمل السياسي فيه؛ لأن السياسة معناها: إدارة شؤون الأمة، من الذين يدير شؤون الأمة، ليس زيد وبكر وعمر الذي هو يترأس على جماعة أو يوجه جماعة هذا أمر الأمير الإمام الأول، يعني الذي يبايع من قبل المسلمين فهذا هو الذي يجب أن يكون على معرفة بسياسة الواقع، أما أن نشغل أنفسنا بأمور نحن لو عرفناها حق المعرفة لا نتمكن من إدارتها؛ لنضرب مثلًا واضحًا جدًا اليوم مع الأسف الشديد، هذه الحروب القائمة ضد المسلمين اليوم في كثير من بلاد الإسلام، هل يفيد تحريك وإثارة حماس المسلمين في كل بلاد الدنيا ونحن لا نملك الجهاد الواجب إدارتها من إمام مسؤول، لا فائدة من هذا العمل، لا نقول: هذا ليس بواجب، هو واجب،

ولكنه أمر سابق لأوانه، ولذلك فعلينا أن نشغل أنفسنا وأن نشغل غيرنا ممن ندعوهم إلى دعوتنا أن نفهمهم الإسلام الصحيح، وأن نربيهم تربية صحيحة، وإشغالهم بأمور حماسية فذلك مما سيصرفهم عن التمكن في الدعوة التي هي تجب أن يقوم بها أو أن تقوم في ذهن كل مكلف من المسلمين كتصحيح العقيدة وتصحيح العبادة وتصحيح السلوك، هذه من الفروض العينية التي لا يعذر مُقَصِّر فيها، أما الأمور الأخرى فهي بعضها يكون من الفروض الكفائية كما يقال اليوم من معرفة فقه الواقع، أو الاشتغال بالعمل السياسي وما شابه ذلك، هذا إذا عرفه بعض الأفراد إذا كان بإمكانهم أن يستفيدوا من ذلك عمليًا، أما أن يشغلوا جمهور الناس به؛ فذلك مما يشغلهم بالمهم عن الأهم، وهذا هو الذي

نراه ملموسًا لمس اليد في كثير من الجماعات الإسلامية أو الأحزاب الإسلامية، حيث نعرف أن بعضهم كان يهتم بتربية الشباب المسلم المتكتل والملتف حول هؤلاء الدعاة ليفهموا العقيدة الصحيحة والعبادة الصحيحة والسلوك الصحيح، وإذا بهم بسبب الانشغال السياسي ومحاولة الدخول في البرلمانات التي تحكم بغير ما أنزل الله، فقد صرفهم عن الجانب الأهم، واشتغلوا بما هو مهم، وقد لا يكون مهمًا في ظرف من الظروف القائمة الآن.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في مختصر العلو (ص٤٦ - ٥٠): وهنا يطيب لي بهذه المناسبة أن أنقل من بعض المخطوطات فصلًا رائعًا من كلام بعض علماء السلف مما لم يُطبع حتى الآن فيما علمت وهو للخطيب البغدادي الحافظ المؤرخ المشهور، وقد ذكر المصنف طرفًا منه في ترجمته كما يأتي فرأيت أن أذكره هنا بنصه إتمامًا للحجة على الخَلَف الذين يتوهم الكثير منهم أن القول بوجوب الإيمان بحقائق الصفات ومعانيها كما يليق بالله تعالى هو مذهب تفرد به ابن تيمية ومن اقتدوا به فيها، ولم يعلموا أنه رَحِمَهُ اللَّهُ تابع لهم في ذلك، وإنما فضله في بيانه وشرحه له، وإقامة الأدلة عليه بالمنقول والمعقول، ودفع الشبهات عنه، وإلا فهو سلفي المعتقد، وهو الواجب على كل مسلم، ولذلك بادرنا إلى نشر كتاب الذهبي هذا الذي بين يديك لتعلم به ما قد يكون خافيًا عليك كما خفي على غيرك، فكان ذلك سببا قويًا من أسباب الابتعاد عن العقيدة السلفية والطريقة المحمدية.

قال الحافظ الخطيب رحمه الله تعالى: " أما الكلام في الصفات فإن ما روي منها في السنن الصحاح مذهب السلف رضوان الله عليهم إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله سبحانه،

وحققها من المثبتين قوم فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، والقصد إنما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمرين ودين الله بين الغالي فيه والمقصِّر عنه.

والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، ويحتذي في ذلك حذوه ومثاله، فإذا كان معلوما أن إثبات رب العالمين ﷻ إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف.

فإذا قلنا: لله تعالى يد وسمع وبصر فإنما هي صفات أثبتها الله تعالى لنفسه ولا نقول: إن معنى اليد: القدرة، ولا إن معنى السمع والبصر: العلم، ولا نقول: إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إنما وجب إثباتها لأن التوقيف ورد بها ووجب نفي التشبيه عنها؛ لقوله تبارك وتعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} وقوله ﷻ: {ولم يكن له كفوا أحد}.

ولما تعلق أهل البدع على عيب أهل النقل برواياتهم هذه الأحاديث، ولبَّسوا على من ضعف علمه بأنهم يروون ما لا يليق بالتوحيد ولا يصح في الدين، ورموهم بكفر أهل التشبيه وغفلة أهل التعطيل أجيبوا بأن في كتاب الله تعالى آيات محكمات يفهم منها المراد بظاهرها، وآيات متشابهات لا يوقف على معناها إلا بردها إلى المحكم، ويجب تصديق الكل والإيمان بالجميع، فكذلك أخبار الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- جارية هذا المجرى، ومنزلة على هذا التنزيل، يرد المتشابه منها إلى المحكم ويقبل الجميع.

وتنقسم الأحاديث المروية في الصفات ثلاثة أقسام:

أ - منها أخبار ثابتة أجمع أئمة النقل على صحتها لاستفاضتها وعدالة ناقليها، فيجب قبولها والإيمان بها، مع حفظ القلب أن يسبق إليه اعتقاد ما يقتضي تشبيها لله بخلقه، ووصفه بما لا يليق به من الجوارح والأدوات والتغير والحركات.

ب - القسم الثاني: أخبار ساقطة بأسانيد واهية وألفاظ شنيعة أجمع أهل العلم بالنقل على بطلانها، فهذه لا يجوز الاشتغال بها ولا التعريج عليها.

ج - والقسم الثالث: أخبار اختلف أهل العلم في أحوال نقلتها فقبلهم البعض دون الكل، فهذه يجب الاجتهاد والنظر فيها لتلحق بأهل القبول أو تجعل في حيز الفساد والبطول".

قلت: فاحفظ هذا الأصل من الكلام في الصفات وافهمه جيدًا؛ فإنه مفتاح الهداية والاستقامة عليها، وعليه اعتمد الإمام الجويني حين هداه الله تعالى لمذهب السلف في الاستواء وغيره كما تقدم ذكره عنه، وهو عمدة المحققين كلهم في تحقيقاتهم لهذه المسألة كابن تيمية وابن القيم وغيرهما قال ابن تيمية في " التدمرية " (ص ٢٩): طبع المكتب الإسلامي:

" القول في الصفات كالقول في الذات؛ فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل سائر الصفات.

فإذا قال السائل كيف استوى على العرش؟ قيل له كما قال ربيعة ومالك وغيرهما رضي الله عنهم: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن الكيفية بدعة "؛ لأنه سؤال عما لا يعلمه البشر ولا يمكنهم الإجابة عنه؛ وكذلك إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟ قيل له: كيف

هو؟ فإذا قال: لا أعلم كيفيته. قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله؛ إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف وهو فرع له وتابع له فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله وأنت لا تعلم كيفية ذاته؟ وإذا كنت تُقر بأن له حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء، فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه ثابت في نفس الأمر، وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزوله واستواؤهم ...".

وقال في " الحموية " (ص ٩٩) بعد أن ذكر مختصر ما تقدم:

" ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل، فلا يُمثِّلون صفات الله بصفات خلقه كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف بها نفسه ووصفه به رسوله، فيعطلوا أسماءه الحسنى وصفاته العليا، ويحرِّفوا الكلم عن مواضعه، ويلحدوا في أسماء الله وآياته.

وكل واحد من فريقي التعطيل والتمثيل فهو جامع بين التعطيل والتمثيل، أما المعطِّلون فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التعطيل والتمثيل مثَّلوا أولًا وعطلوا آخرًا، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة به سبحانه وتعالى؛ فإنه إذا قال القائل: لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساويًا، وكل ذلك من المحال - ونحو ذلك من الكلام - فإنه لم يَفهم من كون الله على العرش إلا ما يَثْبُت لأي جسم كان على أي جسم كان، وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم، أما استواء يليق

بجلال الله ويختص به فلا يلزمه شيء من اللوازم الباطلة التي يجب نفيها كما يلزم سائر الأجسام، وصار هذا مثل قول الممثل: إذا كان للعالم صانع فإما أن يكون جوهرًا أو عرضًا إذا لا يعقل موجود إلا هذان، وقوله: إذا كان مستويًا على العرش فهو مماثل لاستواء الإنسان على السرير والفلك؛ إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا، فإن كليهما مَثَّلَ وكليهما عَطَّلَ حقيقة ما وصف الله به، وامتاز الأول بتعطيل كل اسم للاستواء الحقيقي، وامتاز الثاني بإثبات استواء هو من خصائص المخلوقين.

والقول الفصل هو ما عليه الأمة الوسط من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ويختص به، فكما أنه سبحانه موصوف بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك ولا يجوز أن يثبت للعلم والقدرة خصائص الأغراض التي لعلم المخلوقين وقدرتهم؛ فكذلك هو سبحانه فوق العرش ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق وملزوماتها.

واعلم أنه ليس في العقل الصريح، ولا في شيء من النقل الصحيح ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلًا".

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضا في مختصر العلو (ص٣٥ – ٣٨): بعد أن بيِّن وهاء مقولة المخالفين:"مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم"]:

والظن الذي أُتي منه المخالفون هو مما يُكرِّر ذكرّه بعض المؤيدين لمذهب الخلف على مذهب السلف ويتوهم صحته بعض الكتاب الإسلاميين الذين لا علم عندهم بأقوال السلف ويسمونه بـ" التفويض "، وهو مما يكثر الكوثري عزوه إليهم زورًا فيقول في تعليقه على " السيف الصقيل " (ص ١٣): "الذي كان عليه السلف إجراء ما ورد في الكتاب والسنة المشهورة (!) في صفات الله

سبحانه على اللسان مع التنزيه بدون خوض في المعنى ومن غير تعيين المراد".

وأعاد هذا المعنى في مواضع أخرى منه (ص ١٣١ و١٤٥) وجرى على منواله قرينُه المتعاون معه على تحريف نصوص كتاب " الأسماء والصفات " للبيهقي ذاك في التعليق عليه وهذا في التقديم له في كتابه الذي سماه " فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان " أعني الشيخ سلامة القضاعي العزامي فقد ذكر نحوه في مواطن منه غير أنه قال: "أكثر السلف على الكف عن بيان المعنى المراد اللائق بالحق تعالى " كذا قال (ص ٩٤).ونحوه (ص ٨١ و٥) فقد نسب إلى أكثر السلف تنزههم عن بيان المعنى اللائق بالحق تعالى. فهل كان ذلك جهلا منهم بالله أم كتما للعلم؟ فبأيهما أجاب فهو كما قيل: أحلاهما مر. وصدق الله العظيم: {ذلك مبلغهم من العلم}.

وجملة القول في التأويل الذي تمسك به الخلف أنه كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى في منتصف قصيدته الرائعة " الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية "المعروفة بالنونية:

هـذا وأصـل بليـة الإسـلام ... ن تأويـل ذي التحريـف والـبطلان

ثم أفاض في سرد أضراره نظمًا بما لا تجده عند غيره نثرًا فراجعه فإنه هام جدًا. وانظرها مع شرحها للشيخ أحمد بن عيسى المسمى بـ" توضيح المقاصد وتصحيح القواعد بشرح قصيدة ابن القيم "، ثم إن عجبي لا يكاد ينتهي من الكوثري وأمثاله الذين ينسبون السلف الصالح في آيات الصفات إلى التفويض وعدم البحث عن المراد منها كما سبق النقل الصريح بذلك عنه؛ فإنه إن لم يجد في قلبه من التعظيم للسلف وعلمهم ما يزعه عن التلفظ بها بما يمس مقامهم في المعرفة بالله تعالى وصفاته؛ أفلم يقف على ما نقله العلماء عنهم من العبارات

المختلفة لفظًا والمتحدة معنى وكلها تلتقي حول شيء واحد وهو إثبات الصفات، مع الرد على المعطلة النافين لها والممثلة المشبهين لها بصفات الخلق؟! وإليك بعض النصوص في ذلك مما ستراه في الكتاب [أي: مختصر العلو] في تراجمهم إن شاء الله تعالى.

١- قال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي ومالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد: عن الأحاديث التي في الصفات؟ فكلهم قالوا لي:

"أمرُّوها كما جاءت بلا تفسير".وفي رواية: "بلا كيف".

٢- قال ربيعة الرأي ومالك وغيرهما: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب "

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في " الفتوى الحموية " (ص ١٠٩ مطبعة السنة المحمدية): " فقول ربيعة ومالك: الاستواء غير مجهول ... "موافق لقول الباقين" أمروها كما جاءت بلا كيف " فإنما نفوا علم الكيفية ولم ينفوا حقيقة الصفة، ولو كان القوم آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول" ولما قالوا: "أمروها كما جاءت بلا كيف"؛ فإن الاستواء حينئذ لا يكون معلومًا بل مجهولًا بمنزلة حروف المعجم".

وأيضا فإنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى، وإنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبت الصفات.

وأيضا فإن من ينفي الصفات الجزئية - أو الصفات مطلقًا - لا يحتاج إلى أن يقول "بلا كيف" فمن قال: "إن الله ليس على العرش" لا يحتاج أن يقول: "بلا كيف" فلو كان مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر فلما قالوا:

"وبلا كيف".

وأيضا فقولهم " أمروها كما جاءت " يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه فإنها جاءت ألفاظًا دالة على معاني، فلو كانت دلالتها منتفية لكان الواجب أن يقال: "أمروا لفظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير مراد، أو أمروا لفظها مع اعتقاد

أن (من) الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة " وحينئذ تكون قد أمرت كما جاءت، ولا يقال حينئذ " بلا كيف " إذ نفي الكيف عما ليس بثابت لغو من القول".

٣- قال الإمام الخطابي: " مذهب السلف في الصفات إثباتها وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها".

٤- قال الحافظ ابن عبد البر: " أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة في الكتاب والسنة وحملها على الحقيقة لا على المجاز إلا أنهم لم يُكَيِّفوا شيئا من ذلك، وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل منها شيئًا على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبه، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود".

قلت: فهذا قُلٌّ من جُلٍّ النصوص التي سنراها في الكتاب وهي كلها متفقة على أن السلف كانوا يفهمون آيات الصفات ويفسرونها ويعينون المعنى المراد منها على ما يليق به تبارك وتعالى.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في موسوعته العقدية (٦/ ١٧٦): هناك استفسار لأني قرأت أنا في كتاب المدعو السقاف، قرأت في المقدمة أنه يقول: أن الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد ألف كتابه العلو وهو في العشرينات من عمره، فهل صحيح .

الرجل .. هذا رجل دجال، إذا كان ألف هذا الكتاب في أول أمره وهل مات عنه وهو راض عنه أم منكر له؟ هذا كله تركيب كلام من أجل توهيم على العوام، لا تُقِم لهذا وزنًا يا أخي! هذا رجل كذاب ..

مداخلة: هناك كتاب طبع حديثًا: «دفع شبه التشبيه»، هل يصح نسبته إلى ابن الجوزي؟

الشيخ: مع الأسف النسبة إلى ابن الجوزي صحيحة، وابن الجوزي من بين الحنابلة .. جماهير الحنابلة في الصفات أشعري، ثم جاء هذا السخاف هذا فطبع هذا الكتاب على كيفه! كما يقولون عندنا في الشام، وعلق عليه تعليقات زاد في الطين بلة وفي الطنبور نغمة، وكلما جاء ابن الجوزي بنقل عن بعض الحنابلة المتأخرين وضع هو السخاف في طبعته الجديدة بين هلالين: فلان مثلًا ابن أبي يعلى المجسم .. المجسم، فالذي لا يعرف الحقيقة يتوهم أن هذه الصفة من المؤلف، وهو ابن الجوزي بينما هو الذي طبع هذا الكتاب، وهو السقاف هذا .. هو حشر عديدًا من هذه الكلمات في ترجمة كثير من الحنابلة تضليلًا أيضًا للعوام.

الكتاب صحيح النسبة إلى ابن الجوزي، لكن ابن الجوزي له كلمات في تفسيره المسمى بـ" زاد المسير" يخالف كثيرًا مما ذكره في هذا الكتاب.

علي حسن: فضيلة الشيخ حول هذا، الله يبارك فيكم أستاذي، شيخ الإسلام ابن تيمية ينقل «في درء التعارض» عن ابن الجوزي أنه رجع إلى عقيدة السلف في آخر عمره وذلك في كتاب له سماه «الانتصار لأصحاب الحديث»، وهناك كتاب شيخنا طبع قريبًا منذ نحو عشر سنوات في مصر، عندي منه نسخة اسمه: مجالس في الآيات المتشابهة ..

الشيخ: له؟

مداخلة: لابن الجوزي، يسرد فيه عقيدة السلف تمامًا، ولعل هذا شيخنا بعد ما كتب له أبو إسحاق العلفي وهو أحد معاصريه كما ينقل ابن رجب في ذيل الطبقات كتب له رسالة يعاتبه فيها، وهي رسالة قوية جدًا في الحقيقة ويشتد عليه، فيقول: كيف تخالف إمامك .. كيف تخالف المنهج الحق .. كيف كذا .. فلعل هذا، يعني: فلعل رجوعه أثر عن ذلك الإنكار الذي حصل في عصره.

الشيخ: هذا الكتاب أولى أن يقال بأنه ألفه ابن الجوزي في حداثة علمه ثم رجع عنه، وهذه فائدة سجلت والحمد لله، لكن أنا رأيت له بعض الكلمات في تفسيره يخالف فيها ما ذكره ..

مداخلة: مسألة الاستواء {الرحمن على العرش استوى} يَرِدُّ فيها على من أوَّل الاستواء بالاستيلاء، بينما هناك يفسر الاستواء بالاستيلاء.

الشيخ: هو هذا! وهذا أنا ذكرته في بعض تعليقاتي التي ستخرج ... إن شاء الله.

مداخلة: فضيلة الشيخ ما قرره السقاف في مقدمة هذا الكتاب من رد خبر الآحاد في مجال العقيدة، ما تعليقكم على هذا الأمر؟

الشيخ: أيضًا هذا ..

علي حسن: أخونا مشهور شيخنا الآن يتعقب هذا الكلام كله.

الشيخ: نحن لنا رسالتان مطبوعتان من قديم في أن حديث الآحاد تثبت به العقيدة، والرد على المنكرين لذلك، فإذا تيسر لكم الاطلاع عليه فيكون القضاء المبرم على هذه الدعوى الباطلة، نعم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٦/ ٢٠٧): روى الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «أن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا» قال السائل: هل يجوز تسمية الله تعالى بالطيب واعتباره من

أسمائه تعالى؟

الشيخ: نعم، يقال: الطيب، كما جاء في هذا الحديث في صحيح مسلم «إن الله طيب ولا يقبل إلا طيبًا» يظهر أن هذه صفة وليست اسمًا عَلَمًا يوصف ربنا ﷻ بهذه الصفة ولا يطلق عليه اسمًا، هذا هو الجواب عن السؤال، أنت السائل؟

مداخلة: نعم.

الشيخ: تريد شيئًا آخر؟

مداخلة: أريد يا شيخ أيضًا: هل يشتق من الصفات أسماء لله ﷻ؟

الشيخ: لا.

مداخلة: طيب! هذه صفة مشتق منها اسم.

الشيخ: وما هي؟

مداخلة: إن الله طيب، صفة لله ﷻ.

الشيخ: ... نصفه لكن لا نسميه.

مداخلة: لا نسميه، أي: لا نقول: إن من أسماء؛ لأني حضرت مجلسًا لأحد المشايخ فكان يطلب فوائد من هذا الحديث، فذكر أحد الجالسين من الطلبة بهذا اللفظ قال: نستفيد من هذا الحديث أن الله ﷻ يسمى بالطيب، فسألت هذا الشيخ قلت له: يا شيخ، هل هذا صحيح، يشتق من الصفة اسم؟ قال: نعم، يسمى الله ﷻ بالطيب، الشيخ: ... لو قال: الطيب، كما جاء في بعض الأسماء كنا نسميه، لكن هو جاء هناك صفة لله ﷻ، فهو صفة.

مداخلة: من الخطأ أن يطلق اسمًا.

الشيخ: نعم، اسمًا هكذا مفردًا لا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٦/ ٢٠٧): هل الساتر من أسماء الله؟

الشيخ: انظر بارك الله فيك! يقول أهل العلم: أسماء الله توقيفية، ما معنى توقيفية؟ يعني: نحن لا نعرف أسماء الله إلا بإيقاف النبي لنا عليها مفهوم هذا الكلام؟ طيب! نحن لا يجوز لنا أن نسمي الله عَزَّ وَجَلَّ بما لم يُسمِ هو به نفسه أو يسمه به نبيه، نحن لا يجوز لنا أن نسمي ربنا إلا بما سمى هو به نفسه أو سماه نبيه به، فالآن: لا يوجد في أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ إلا الستير، أما الساتر، أما الستار فلم يرد في أسمائه تعالى، وإن كان المعنى صحيح، يعني الآن: لو قال لك قائل: إن الله عَزَّ وَجَلَّ سخي غير بخيل هذا المعنى صحيح أو لا؟

مداخلة: نعم، صحيح.

الشيخ: صحيح، لكن لا يجوز أن نسميه سخيًا وإنما نسميه بالاسم المرادف له؛ لأنه سمى الله به نفسه على لسان نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- ألا وهو الكريم، والكريم والسخي في لغة العرب لفظان مترادفان يؤديان إلى معنى واحد، فكون السخي بمعنى الكريم لا يسوغ لنا أن نقول: يا سخي أكرمني .. تفضل علي، لكن نقول: يا كريم؛ لأن أسماء الله توقيفية، واضح هذا الكلام؟ طيب.

الشيخ: نحن نتكلم عما يتعلق بالله ليس عما يتعلق بعباد الله .. أنا رأيت إنسانًا على خطأ فأستر عليه ما في مانع، وأقول: أن الله يستر عليه أيضًا ما في مانع، ما ستر عبد مسلمًا أخاه المسلم إلا ستره الله عَزَّ وَجَلَّ، لكن هل نشتق من هذا الاسم اسمًا نطلقه على الله فنقول: أنه ساتر أو ستار؟ لا، وإنما ما جاء في الحديث وهو

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إذا أتى أحدكم الخلاء فليستتر فإن الله حيي ستير يحب من

عبده الحياء والستر» حيي ستير، فهذا الذي جاء، [وإن كانت] كلمة ستار وساتر مشهورة جدًا.

فالشاهد: أسماء الله توقيفية، وربنا قال في القرآن الكريم: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} (آل عمران:٥٤) فلا يجوز لنا أن نسمي الله بالماكر، ولا يجوز أن نسميه بالمكار؛ لأنه ما سمى بذلك نفسه، لا نشتق من هذا الاسم المركب: {وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} (آل عمران:٥٤) ما نشتق منه اسم فاعل ماكر، أو فاعل مبالغة مكار لا؛ لأن أسماء الله توقيفية.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٦/ ٢١١): أحيانًا نسمع الإمام يقول: اللهم انتقم لنا؟ هل ورد من أسماء الله وصفاته أنه المنتقم حتى يقول: انتقم لنا من كذا؟

الشيخ: هو ليس من الضروري أن يكون من أسمائه (المنتقم) حتى يجوز لنا أن نقول: انتقم، يعني لو قلنا يا رب اقتل أعداءنا، هذا ما يحتاج إلى أن نقول:

هل من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ (القتال)؛ لا، لأنه هذا ليس وصفًا، ليس اسمًا اسم علم، واضح؟

مداخلة: يعني هل الله ينتقم أو يأخذ يعني؟

الشيخ: ما في مانع ينتقم ممن؟ من الظالمين ومن الكافرين.

مداخلة: طيب وقوله تعالى: {وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} (آل عمران:٤).

الشيخ: هاه، صفة.

مداخلة: صفة.

الشيخ: لكن ليس من أسمائه (المنتقم).

مداخلة: ليس من أسمائه.

شيخي يزيدون في الدعاء بـ سيف نقمتك.

الشيخ: كيف.

مداخلة: اللهم انتقم لنا بـ سيف نقمتك.

الشيخ: ما سمعت.

مداخلة: بسيف نقمتك.

الشيخ: بيت؟

مداخلة: بسيف.

الشيخ: بسيف نقمتك.

مداخلة: أي نعم.

الشيخ: يا أخي الكلام في اللغة العربية واسع، ما لم يخالف شرعًا فما في منه مانع.

الملقي: نعم.

الشيخ: هذا كلام بيسموه مجازي مش حقيقي، الله ما عنده سيف، ولذلك أضاف السيف للنقمة، فهو تعبير مستساغ عربيةً.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٦/ ٢٠٧): .. نحن نقول مثلًا بكل بساطة ولا إنكار ولا جحود: الله موجود فهل اسم موجود من أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ طبعًا لا، الذي ينكره العلماء أنه لا يجوز تسمية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ووصفه إلا بما سمى ووصف به نفسه، لا يعنون الجملة الخبرية التي يطلقها الإنسان ثم لا يقف عندها فيصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بأنه من أسمائه

أنه موجود، .. وإنما هو يخبر خبرًا محضًا، وهذا ما يبينه ابن تيمية الذي يقول السائل بأنه يستعمل كلمة الشارع لأن هذا إخبار عن معنى قائم في الذهن

يعبر عنه الإنسان.

فالله عز وجل إذا قال قائل: ليس بمفقود .. ليس بمعدوم، لا يكون قد أطلق اسمًا على الله أو صفة من صفات الله، لكنه بهذه الكلمة: ليس بمعدوم يعبر عن كلمة الباقي أو اسم باقي، والحي والقيوم ونحو ذلك؛ لهذا لا ينكر مثل هذا الاستعمال إذا لم يستعمل على أنه اسم جاء عن السلف، أو أنه صفة جاء في الشرع منصوصًا عليها.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٦/ ٢١٧): في العقيدة أحيانًا بعض الإخوة يسألون في باب الصفات يقول مثلًا في المكر والخداع: {يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} (النساء:١٤٢)، ومثلها من الصفات، فأيش يعني، ما رأيكم بمثل هذا، هل هو من باب المقابلة كما يقول ابن القيم في الصواعق أم ما رأيكم؟

الشيخ: نعم، هو كذلك، لكن قد لا نضطر أن نقول من باب المقابلة باعتبار أن صفة من الله عز وجل أو كل صفة من صفات الله عز وجل تختلف كل الاختلاف عن صفات المخلوقين، فمكر الإنسان غير مكر رب الأنام، فـ {مَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} (آل عمران:٥٤) مجرد أنه وصف نفسه بأنه خير الماكرين خلاص أخذ الله عز وجل الصفة التي تليق بعظمته وجلاله دون الصفة التي إذا أطلقت على البشر تكون وصف ذم لهم وليس وصف مدح، فحينئذٍ إذا قيل من باب المجانسة والمقابلة أو لم يقل بهذه الكلمة، المهم أن أي صفة فهي تختلف عن صفات المخلوقين تمامًا، ثم لا يشتق منها، لا يشتق منها اسم فاعل، فلا يقال مثلًا: ربنا ماكر، أو خادع أو مخادع أو ما شابه ذلك، وإنما ينطق

بالصفة كما جاءت في الكتاب أو في السنة، ولعل في هذا القدر كفاية،

والحمد لله رب العالمين.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصحيحة (٧/ ١/ ٣٤٥ - ٣٤٦، ٣٥٣ - ٣٥٦): ثم وقفت بعد زمن من تحرير هذا التخريج على من ينكر صحة الحديث من جهة ما فيه من إثبات صفة الضحك لرب العالمين بقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-:

« .. من ضَحِكِ رب العالمين». وأعني به ذاك الجهمي الجاحد المعطل.... قلت: سبحان الله اما أشبه اليوم بالبارحة، فها هو الجهمي المبتدع- بل الجاحد- يثلبه من جديد ويطعن فيه تقليدًا منه للكوثري والغماري وأمثالهما من المتجهمة للسبب نفسه الذي ذكره ابن حبان- رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، لذلك؛ تجده قد نصب نفسه- مثلهما- لرميه بما لا يصح، حتى ضعف به هذا الحديث الصحيح المتلقى من الأمة بالقبول، حتى من ابن الجوزي في "الدفع " الذي فتح له باب التجهم؛ فإنه لعلمه بثقة حماد لم يَسَعْهُ إلا التسليم به، ولكنه فسره بالمجاز الذي يؤدي بهم إلى أن يفسروا وجود ذاته تعالى بالمجاز أيضًا؛ لأن للمخلوقات وجودًا أيضًا، فإذا قالوا: لا ينسب الضحك إلى الله لأن الضحك من صفة الإنسان؛ فلينفوا إذن وجوده تعالى؛ لأن الإنسان موجود أيضًا! فسيقولون: وجوده تعالى ليس كوجودنا .. فنقول: قولوا إذن في كل صفة لله ثبتت في الكتاب أو السنة: إنها ليست كصفتنا؛ تستريحوا وتهتدوا {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}؛ فله سمع ولكن ليس كسمعنا، وبصر ليس كبصرنا .. ويضحك ولكن ليس كضحكنا؛ فإنه يقال في الصفات كلها ما يقال في الذات إثباتًا وتنزيهًا.

فهذا الحق ما به من خفاءٍ ... فدعني عن بُنَيَّات الطريق. ثم إن الواقع يشهد أن كل جهمي جاحد إنما هو من الذين قال الله فيهم: {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة}

ذلك؛ لأنهم يحاولون تضعيف أحاديث الصفات بكل وسيلة غير مشروعة، كما فعل هذا الجاحد بهذا الحديث، فضعف إمامًا من أئمة المسلمين بزور ادعاه عليه، ثم لم يعبأ بمن تابعه من الثقات كما تقدم، ولا بورود هذه الصفة في أحاديث أخرى في "الصحيحين " وغيرهما، بحيث يقطع الواقف عليها بثبوت نسبتها إلى الله تعالى. وكذلك يفعل بكل أحاديث الصفات الأخرى جحدًا لها- بتضعيفها-، أو تعطيلًا لها- بتأويلها- كما فعل بآيات الصفات كالمجيء والفوقية والاستواء؛ تقليدًا منه للكوثري وأمثاله من الجهمية، عاملهم الله بما يستحقون!.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في مختصر العلو (ص٢٢ - ٢٥): اعلم أيها القارئ الكريم أن هذا الكتاب قد عالج مسألة هي من أخطر المسائل الاعتقادية التي تَفَرَّق المسلمون حولها منذ أن وُجِدَت المعتزلة حتى يومنا هذا ألا وهي مسألة علو الله عَزَّ وَجَلَّ على خلقه الثابتة بالكتاب والسنة المتواترة المدعَّم بشاهد الفطرة السليمة، وما كان لمسلم أن ينكر مثلها في الثبوت لولا أن بعض الفرق المنحرفة عن السنة فتحوا على أنفسهم وعلى الناس من بعدهم باب التأويل فلقد كاد الشيطان به لعدوه الإنسان كيدًا عظيمًا ومنعهم به أن يسلكوا صراطًا مستقيمًا كيف لا؟ وهم قد اتفقوا على أن الأصل في الكلام أن يُحمل على الحقيقة وأنه لا يجوز الخروج عنها إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة، أو لقرينة عقلية، أو عرفية، أو لفظية، كما هو مُفصَّل في محله، ومع ذلك فإنك تراهم يخالفون هذا الأصل الذي أصَّلوه لأتفه الأسباب وأبعد الأمور عن منطق الإنسان المؤمن بكلام الله وحديث نبيه حقًّا، فهل يستقيم في الدنيا فهم أو تفاهم إذا قال قائل مثلًا: "جاء الأمير " فيأتي متأول من أمثال أولئك المتأولين فيقول في تفسير هذه

الجملة القصيرة: يعني جاء عبد الأمير أو نحو ذلك من التقدير. فإذا أنكرت عليه ذلك أجابك بأن هذا مجاز فإذا قيل له: المجاز لا يصار إليه إلا عند تعذر الحقيقة وهي ممكنة هنا أو لقرينة، لا قرينة هنا[١] سكت أو جادلك بالباطل.

وقد يقول قائل: وهل يفعل ذلك عاقل؟ قلت: ذلك ما صنعه كل الفرق المتأولة الذين ينكرون حقائق الأسماء والصفات الإلهية من المعتزلة وغيرهم ممن تأثر بهم من الخلف ولا نبعد بك كثيرا بضرب الأمثال وإنما نقتصد مثلين من القرآن الكريم أحدهما يشبه المثال السابق تماما والآخر له صلة بصلب موضوع الكتاب:

الأول: قوله تعالى: {وجاء ربك والملك صفا صفا} فقيل في تأويلها: وجاء ربك[٢] وقيل غير ذلك من التأويل. ونحو كذلك أولوا قوله تعالى: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر} . فقال بعضهم: يأتيهم الله بظلل. فنفى بذلك حقيقة الإتيان اللائق بالله تعالى بل غلا بعض ذوي الأهواء فقال: "قوله تعالى: «هل ينظرون» حكاية عن اليهود، والمعنى أنهم لا يقبلون دينك إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ليروه جهرة لأن اليهود كانوا

---

(١) قرائن المجاز الموجبة للعدول إليه عن الحقيقة ثلاث:
العقلية كقوله تعالى: [واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها] أي أهلهما.
ومنه: [واخفض لهما جناح الذل].
الثانية: الفوقية مثل [يا هامان ابن لي صرحا] أي مر من يبني؛ لأن مثله مما يعرف أنه لا يبني.
الثالثة: نحو [مثل نوره] فإنها دليل على أن الله غير النور.
قال أهل العلم: وأمارة الدعوة الباطلة تجردها عن أحد هذه القرائن انظر: "إيثار الحق على الخلق" (ص ١٦٦ - ١٦٧) للعلامة المرتضى اليماني.

(٢) كذا ولعل صوابها: جاء [أمر] ربك.

مشبهة يجوزون على الله المجيء والذهاب) نقله الكوثري في تعليقه على "الأسماء والصفات" (ص ٤٤٧ - ٤٤٨) عن الفخر الرازي وأقره.

فتأمل - هداني الله وإياك - كيف أنكر مجيء الله الصريح في الآيتين المذكورتين. وهو إنما يكون يوم القيامة كما جاء في تفسير ابن جرير لقوله تعالى: «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك» فذكر (١٢/ ٢٤٥ - ٢٤٦) في قوله: {أو يأتي ربك} عن قتادة وابن جريج: يوم القيامة ونحوه عن ابن مسعود وغيره. في " الدر المنثور" (١/ ٢٤١) وانظر كلمة الإمام ابن راهويه في إثبات المجيء في الفقرة الآتية من الكتاب (٢١٣).

فنفى هذا المتأول ببركة التأويل إتيان الله ومجيئه يوم القيامة الثابت في هذه الآيات الكريمة والأحاديث في ذلك أكثر وأطيب، ولم يكتف بهذا بل نسب القول بتجويز المجيء على الله إلى اليهود وأن الآية نزلت في حقهم ضلال وكذب، أما الضلال فواضح من تحريف الآيات المستلزم الطعن في الأئمة الذين يؤمنون بمجيء الله تعالى يوم القيام. وأما الكذب فإن أحدًا من العلماء لم يذكر أن الآية نزلت في اليهود بل السياق يدفع ذلك قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِين، فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيم، هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ} (سورة البقرة: ٢٠٨ - ٢١١).

قلت: فأنت ترى أن الخطاب موجه للمؤمنين ولذلك قال ابن جرير في "تفسيره" (٤/ ٢٥٩) لقوله تعالى: {فإن زللتم ..}:

"يعني بذلك جل ثناؤه فإن أخطأتم الحق فضللتم عنه وخالفتم الإسلام

وشرائعه من بعد ما جاءتكم حججي وبينات هداي، واتضحت لكم صحة أمر الإسلام بالأدلة التي قطعت عذركم أيها المؤمنون - فاعلموا أن الله ذو عزة..."

نعم قد روى ابن جرير (٤/ ٢٥٥) عن عكرمة قوله:" {ادخلوا في السلم كافة} قال: نزلت في ثعلبة وعبد الله بن سلام وو ... كلهم من يهود قالوا: يا رسول الله يوم السبت كنا نعظمه فدعنا فلنسبت فيه ... فنزلت".

قلت: وهذا مع أنه في مؤمني اليهود لا يصح إسناده لإرساله، ولو صح لم يجز القول بأنها " نزلت في حق اليهود " لأنها تعني عند الإطلاق كفارهم والواقع خلافه فتأمل هذا رحمنا الله وإياك، هل تجد في هذه الآيات المصرحة بإتيان الله ومجيئه قرينة من تلك القرائن الثلاث تضطر السامع إلى فهم ذلك على نحو مجيء المخلوق وهذا تشبيه حقًّا اضطرهم هذا الفهم الخاطئ إلى إنكاره ونسبته إلى اليهود وصاروا إلى التأويل. وكان بوسعهم أن يثبتوا لله تعالى هذه الصفة كما أثبتها السلف دون تشبيه كما قال تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} وإلا فهم على ذلك سيتأولون السمع والبصر أيضا لأن الله تعالى قد أثبت للمخلوق سمعًا وبصرًا في القرآن والسنة، فقد يقولون إننا إذا أثبتنا السمع والبصر لله شبهناه بمخلوقاته، وهذا ما فعلته المعتزلة تماما فإنهم تأولوهما بالعلم تنزيهًا له تعالى عن المشابهة زعموا وبذلك آمنوا بالطرف الأول من الآية [ليس كمثله شيء] ولم يؤمنوا بالطرف الآخر منها {وهو السميع العليم} وأما الأشاعرة وغيرهم من الخلف فقد آمنوا بكل ذلك هنا فجمعوا بين التنزيه والإثبات قائلين: سمعه ليس كسمعنا وبصره ليس كبصرنا. فهذا هو الحق وكان عليهم طرد ذلك في كل ما وصف الله به نفسه فيقال: مجيئه تعالى حق ولكنه ليس كمجيئنا، ونزوله إلى السماء الدنيا حق لتواتر الأحاديث بذلك

كما يأتي في الكتاب ولكن ليس كنزولنا، وهكذا في كل الصفات ولكنهم لم يفعلوا ذلك مع الأسف في كثير من الصفات منها ما نحن فيه فتأولوه بما سبق أو بغيره ومنها الاستواء.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في موسوعته العقدية (٦/ ٢٥٧): هناك أيضًا مسألة عقدية أو قاعدة أبطلها بعضهم في العقيدة أن الصفات إذا لم يكن في الصفة أو في الحديث الذي فيه إثبات صفة قرينة فيكن الأمر على حقيقتها مثل حديث الهرولة: «ومن جاءني يمشي جئته هرولة»، في أول الحديث قرينة: «من تقرب إلي»، فيقول: هذه القرينة يعني تبين أن الهرولة ليست حقيقة بمعنى: أننا نقول أن الله يهرول، لا نقول إن الله يهرول، هل توافقون على هذه القاعدة أولًا؟ ثم ثانيًا: ما معنى الهرولة أو هل تثبتون الهرولة لله سبحانه وتعالى؟

الجواب: أنا لا أعرف هذا التفصيل الذي تنقله وأثبت ما أثبته الرسول

في الحديث ولا أشتق منه شيئًا فعلًا أو اسمًا أكثر مما جاء في هذا الحديث، لا أزيد عليه.

مداخلة: نفهمه على ضوء الحديث الآخر: «عبدي جعت فلم تطعمني، أو مرضت فلم تَعُدْني».

الشيخ: نعم.

مداخلة: «فقال: كيف أعودك وأنت رب العالمين».

الشيخ: نعم.

مداخلة: في تتمة الحديث يبين أنه يعني ليس هذا فيه إثبات صفة المرض أو الجوع لله عَزَّ وَجَلَّ.

الشيخ: طبعًا؛ لأنه هذا لا يمكن إلا أن يكون نقصًا، لكن الهرولة ...

مداخلة: كذلك الهرولة.

الشيخ: الهرولة كالمجيء والنزول صفات ليس يوجد عندنا ما ينفيها إذا خصصناها بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن هذه الصفات ليست صفة نقص حتى نبادر رأسًا إلى نفيها كالطعام والشراب والمرض ونحو ذلك، فأنا أجد فرقًا بين الأمرين لكن لا أتوسع في موضوع الهرولة ولا أزيد على أكثر مما جاء في الحديث، ولا أدري أو لا أذكر ماذا ذكر شيخ السلفيين في هذه المسألة ألا وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فلعل إخوانّا الحاضرين يذكرون شيئًا من ذلك، كلام ابن تيمية حول هذا الحديث ...

مداخلة: ابن القيم.

الشيخ: ابن القيم لا بأس.

مداخلة: هم يثبتون هذه الصفة لكن يبينون معنى هذه الصفة على وجه يليق بالمخلوق وعلى وجه يليق «بالله تعالى».

الشيخ: كل الصفات شأنها هكذا.

مداخلة: هذا كلام عام يعني ...

مداخلة: كويس: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا»، التقرب هاهنا يكون بالذات وإلا يكون بماذا؟

الشيخ: تقرب العبد يكون بالعبادة والطاعة.

مداخلة: بارك الله فيكم، وتقرب رب العزة والجلال؟

الشيخ: بماذا يكون؟

مداخلة: بالثواب.

الشيخ: طيب.

مداخلة: أليس كذلك؟

الشيخ: لكن هذا لا ينفي الآخر.

مداخلة: ومن جاءنا يمشي هل نحن نمشي إلى الله؟

الشيخ: ما في حاجة لإن هذا تكرار للمعنى السابق ما في حاجة للتسلسل.

مداخلة: يعني: الخلاصة أنكم تثبتون الهرولة لله؟

الشيخ: بس ولا نزيد على ذلك.

مداخلة: على وجه يليق به.

الشيخ: أي نعم، لا نشتق ولا نتوسع نعم.

مداخلة: إذا كان في نص الحديث تأويل يكون في تأويل العبد لا لصفة الرب.

الشيخ: هو هذا بس.

مداخلة: جزاكم الله خيرًا.

الشيخ: نعم.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في التعليق على متن الطحاوية (ص١٠٠ - ١٠١): معلقا على قول صاحب الطحاوية: "والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى": فيه رد على المتأولة المعطلة من الأشاعرة وغيرهم الذين قالوا بأن المراد بالبغض والرضى إرادة الإحسان، وليت شعري ما الفرق بين تسليمهم بصفة الإرادة وإنكارهم للصفتين المذكورتين بتأويلهما وهي مثلهما في اتصاف العبد بها أيضًا؟ فهلا قالوا فيهما كما قالوا في الإرادة الإلهية: إنها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد وإن كان كل (١) منهما حقيقة تناسب الموصوف بها. وقد بسط القول في ذلك الشارح رَحِمَهُ اللهُ فراجعه.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحيحة (٤/ ١٨٣، ١٩١ - ١٩٣): «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته».

قال العلامة الألباني: لشيخ الإسلام جوابا قيما على سؤال حول التردد المذكور في هذا الحديث، أنقله هنا بشيء من الاختصار لعزته وأهميته، قال رحمه الله تعالى في " المجموع " (١٨/ ١٢٩ - ١٣١): "هذا حديث شريف، وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء، وقد رد هذا الكلام طائفة وقالوا: إن الله لا يوصف بالتردد، فإنما يتردد من لا يعلم عواقب الأمور، والله أعلم بالعواقب وربما قال بعضهم: إن الله يعامل معاملة التردد! والتحقيق: أن كلام رسوله حق وليس أحد أعلم بالله من رسوله، ولا أنصح للأمة، ولا أفصح ولا أحسن بيانًا منه، فإذا كان كذلك كان المتحذلق والمنكر عليه من أضل الناس، وأجهلهم وأسوئهم أدبًا، بل يجب تأديبه وتعزيره ويجب أن يصان كلام رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عن الظنون الباطلة والاعتقادات الفاسدة. ولكن المتردد منا، وإن كان تردده في الأمر لأجل كونه ما يعلم عاقبة الأمور (فإنه) لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنزلة ما يُوصف به الواحد منا، فإن الله ليس كمثله شيء، ثم هذا باطل (على إطلاقه) فإن الواحد يتردد تارة لعدم العلم بالعواقب، وتارة لما في الفعلين من المصالح والمفاسد، فيريد الفعل لما فيه من المصلحة، ويكرهه لما فيه من المفسدة، لا لجهله منه بالشيء الواحد الذي

يحب من وجه ويكره من وجه، كما قيل:

الشيب كره وكره أن أفارقه ... اعجب لشيء على البغضاء محبوب

وهذا مثل إرادة المريض لدوائه الكريه، بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس هو من هذا الباب، وفي " الصحيح ": "حفت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره " وقال تعالى: {كتب عليكم القتال وهو كره لكم} الآية.

ومن هذا الباب يظهر معنى التردد المذكور في الحديث، فإنه قال: "لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه " فإن العبد الذي هذا حاله صار محبوبًا للحق محبًا له، يتقرب إليه أولا بالفرائض وهو يحبها، ثم اجتهد في النوافل، التي يحبها ويحب فاعلها، فأتى بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق.

فأحبه الحق لفعل محبوبه من الجانبين بقصد اتفاق الإرادة، بحيث يحب ما يحبه محبوبه، ويكره ما يكره محبوبه، والرب يكره أن يسوء عبده ومحبوبه، فلزم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محاب محبوبه. والله سبحانه قد قضى بالموت.

فكل ما قضى به فهو يريده ولابد منه، فالرب مريد لموته لما سبق به قضاؤه وهو مع ذلك كاره لمساءة عبده، وهي المساءة التي تحصل له بالموت، فصار الموت مرادًا للحق من وجه مكروهًا له من وجه، وهذا حقيقة التردد، وهو أن يكون الشيء الواحد مرادًا من وجه مكروهًا من وجه وإن كان لابد من ترجح أحد الجانبين، كما ترُجَّح إرادة الموت، لكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته كإرادته لموت الكافر الذي يُبغضه ويريد مساءته".

وقال في مكان آخر (١٠/ ٥٨ - ٥٩): "فبين سبحانه أنه يتردد لأن التردد تعارض إرادتين، فهو سبحانه يحب ما يحب عبده، ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت، فهو يكرهه كما قال: "وأنا أكره مساءته" وهو سبحانه قد قضى بالموت فهو يريد أن يموت، فسمى ذلك ترددًا. ثم بين أنه لابد من وقوع ذلك".

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٦/ ٢٧٥): يسأل سائل فيقول: ما القول الفصل في قوله تعالى: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} (البقرة:١٥) وقوله تعالى: {سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ} (التوبة:٧٩) وغيرها من الآيات المشابهة، هل نثبت ما أثبته الله لنفسه، أم نؤولها بلازمها كما يقول بعض المفسرين وجزاكم الله خير.

الشيخ: هذا السؤال جوابه معروف عند أهل السلف وأتباع السلف، وبالمقابل أتباع الخلف، من المعلوم أن السلف كانوا يقولون في مثل هذه الآية وتلك: أمروها كما جاءت، وهم لا يعنون كما يتوهم بعض الخلف اليوم .. لا يعنون أمروها بدون فهم، وإنما أمروها كما جاءت بفهم صحيح وبدون تشبيه وتكييف، وبالتالي بدون تأويل أو تعطيل.

والجواب الحاسم في مثل هاتين الآيتين هو أن نستحضر قول الله عَزَّ وَجَلَّ في صفتين أخريين ألا وهما صفة السمع والبصر حين قال ربنا عَزَّ وَجَلَّ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (الشورى:١١) ففي الآية تنزيه، وفيها إثبات لصفتي السمع والبصر، ومعنى التنزيه أننا حينما نثبت لله عَزَّ وَجَلَّ صفةً جاءت في كتابه أو في سنة نبيه أننا نثبتها كما يليق بعظمته تبارك وتعالى وجلاله، ولا نُكَيِّف ذلك فلا نقول: سمعه كسمعنا وبصره كبصرنا، كما أننا لا نتأول ذلك كما فعل ذلك قديمًا بعض غلاة المعتزلة حيث تأوَّلوا السمع والبصر بالعلم، قالوا: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (الشورى:١١) أي: العليم، علمًا بأن الله عَزَّ وَجَلَّ قد وصف نفسه

في غير ما آية في القرآن الكريم بالعلم، فحينما يأتي أولئك المعتزلة الغلاة فيتأولون السمع والبصر بالعلم فذلك هو التعطيل الذي قال عنه بعض علمائنا المتقدمين كابن تيمية وابن القيم الجوزية رحمهم الله قالوا: المعطل يعبد عدمًا والمُجسِّم يعبد صنمًا.

على هذا الأساس من التنزيه والإثبات بدون تشبيه أو تأويل نقول في الآيتين السابقتين من استهزاء الله ﷻ بالمستهزئين بآياته وسخرية الله ﷻ بأولئك وأمثالهم إنما هو استهزاء يليق بالله ﷻ وليس من باب سخرية الإنسان بالإنسان، واستهزاء الإنسان بالإنسان، فالآية والأخرى كلتاهما يساقان مساق الآيات المتشابهات، نمرُّها كما جاءت مع الفهم السليم على ما كان عليه السلف الصالح بدون تشبيه، فهنا لا نشبه استهزاء الله بالمشركين كاستهزاء الناس بعضهم في بعض، وإنما نقول: استهزاءً يليق بالله تبارك وتعالى كما جاء تمامًا في الأثر الصحيح الثابت عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن رجلًا جاء إليه فقال: يا مالك! {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه:٥) كيف استوى؟ قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، أخرجوا الرجل فإنه مبتدع.

كذلك نحن نعلم أن الاستهزاء لغًة معروف وهو مقابل مقابلة المستهزئ باستهزاء من نده، ولكن الله ﷻ ما دام أنه ثبت لدينا يقينًا أنه ليس كمثله شيء، فلا نقول: استهزاؤه كاستهزائنا نحن كما قال مالك تمامًا: استواء الله ﷻ على عرشه معروف، ولكنه بلا كيف، والسؤال عن الكيف بدعة، لذلك أمر بإخراج الرجل على اعتباره إياه مبتدعًا، كذلك نحن نقول في كل آيات الصفات منها صفة الاستهزاء والسخرية معناهما معروف لغًة، ولكن ليس هناك تكييف ولا تشبيه، وهذا هو المنهاج في كل آيات الصفات وأحاديث الصفات.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في كيف يجب علينا أن نفسر القرآن (ص١٩ – ٢١): إن الله عَزَّوَجَلَّ يُخبر عن نفسه فيقول: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} (آل عمران٥٤)، فربما يضيق عقل بعض الناس عن فهم هذه الآية على ظاهرها، وبما أننا لسنا بحاجة للتأويل، فكيف يكون الله خير الماكرين؟!

[فأجاب]: المسألة سهلة بفضل الله، وذلك لأننا نستطيع أن نعرف أن المكر – من حيث هو مكر– لا يوصف دائمًا وأبدًا بأنه شر، كما إنه لا يوصف دائمًا وأبدًا بأنه خير، فرُب كافر يمكر بمسلم، لكن هذا المسلم كَيِّسُ فَطنٌ ليس مغفلًا ولا غبيًّا، فهو متنبه لمكر خصمه الكافر، فيعامله على نقيض مَكَرَه هو، بحيث تكون النتيجة أن هذا المسلم بمكره الحسن قضى على الكافر بمكره السيئ، فهل يقال: إن هذا المسلم حينما مكر بالكافر تعاطى أمرًا غير مشروع؟ لا أحد يقول هذا.

ومن السهل أن تفهموا هذه الحقيقة من قوله عليه الصلاة والسلام «الحرب خدعة»، فالذي يقالُ في الخدعة يُقال في المكر تمامًا، فمخادعة المسلم لأخيه المسلم حرام، لكن مخادعة المسلم للكافر عدو الله وعدو رسوله هذا ليس حرامًا، بل هو واجب، كذلك مكر المسلم بالكافر الذي يريد المكر به –بحيث يبطل هذا المسلم مكر الكافر– هذا مكر حسن، وهذا إنسان وذاك إنسان.

فماذا نقول بالنسبة لرب العالمين القادر العليم الحكيم؟

ها هو يبطل مكر الماكرين جميعًا لذلك قال {وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}، فحينما وصف رُّبنا عَزَّوَجَلَّ نفسَه بهذه الصفة؟ قد لفت نظرنا بأن المكر حتى من البشر ليس دائمًا، لأنه قال {وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} فهناك ماكر بخير، وماكر بِشَرٍّ، فمن مكر بخير لم يُذم، والله عَزَّوَجَلَّ كما قال {وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}.

وباختصار أقول: كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فإذا توهم الإنسان أمرًا لا يليق بالله، فليعلم رأسًا أنه مخطئ، فهذه الآية هي مدح لله ﷻ، وليس فيها أي شيء لا يجوز نسبته إلى الله تبارك وتعالى.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٦/ ٢٨٣): الأحباش[1] ينكرون في جملة ما ينكرون اليد التي وصف الله ﷻ نفسه بها، يقولون: اليد جارحة .. ! سبحان الله، وهم يتكلمون عن أنفسهم، فكيف يقولون في اليد التي ذكرها الله إنها جارحة؟ هؤلاء من أجهل الناس إن لم يكونوا من أضل الناس؛ ذلك لأنهم يقيسون الغائب على الشاهد، بل يقيسون غيب الغيوب وهو الله تبارك وتعالى على أنفسهم، هذا في منتهى الحماقة إن لم يكن في منتهى الضلال، نحن نجاريهم جدلًا لا عقيدةً وحاشى أن نشاركهم في عقيدتهم، نقول لهم: الله ذات متصف بصفات الكمال، هل تقولون معنا؟ لا بد أن يقولوا معنا: نعم أو يقولوا: لا، فإن قالوا: لا فذاك هو الذي يدل على ضلالهم ويؤكد ما هم فيه فلا كلام لنا معهم؛ لأن الكلام حينئذ يكون مع الزنادقة، والمفروض الآن أننا نتكلم مع مسلمين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويصلون وو إلى آخره .. فإذا قالوا نحن معكم بأن الله ﷻ له كل صفات الكمال، فإذا قالوا هذه الكلمة فقد تناقضوا حينما قالوا الله ذات وله صفات، وأنت أيها المتكلم بكلام علماء الكلام حينما تقول اليد جارحة هذه جارحة بالنسبة لذاتك، فهل ذاتك كذات الله أو ذات الله كذاتك؟ ستقول حاشى لله، ذاته ليست كالذوات، وبالتالي صفاته ليست كسائر صفات المخلوقات، إذًا انتهت المشكلة يا جماعة .. يقال في الذات ما يقال في الصفات، يقال في الصفات ما يقال في الذات إيجابًا وسلبًا الله

---

(١) أتباع عبد الله الهرري الحبشي.

ذات له كل صفات الكمال ومنزه عن كل صفات النقص، ذلك قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (الشورى:١١) فهو سميع وبصير صدق الله، لكن سمعه ليس كسمعنا، بصره ليس كبصرنا، لا بد لهؤلاء المجادلين بالباطل والمتسترين بكلام ظاهره حق وباطنه باطل، لا بد لهؤلاء أن ينكروا كل صفات الله ﷻ، لماذا؟ لأن وصف الله بهذه الصفات في الغالب فيها اشتراك لفظي ليس حقيقي معنوي، الله ﷻ قال عن آدم {فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} (الإنسان:٢) وَوَصْفُه نفسَه بأنه سميع بصير، إذًا انتهى الوقت؟

إذًا ننهي هذا الكلام فنقول: إذا كان الله ﷻ قال: {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (الشورى:١١) ووصف آدم عليه السلام بأنه جعله سميعًا بصيرًا، فعلى طريقة هؤلاء الأحباش وأمثالهم من المعطلة لا بد من أحد شيئين: إما أن نقول إن الله ليس كما قال: {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (الشورى:١١)؛ لأنه قال في آدم: {فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} (الإنسان:٢) أو أن نقول لا هو كما وصف به نفسه لكن قوله في آدم {فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} (الإنسان:٢) ليس كذلك فلا بد من تعطيل أحد الوصفين إما ما كان منهما متعلقًا بالله ﷻ وهذا كفر، وإما ما كان متعلقًا بوصف الله لآدم عليه السلام بأنه جعله سميعًا بصيرًا إنكار أيضًا هذا فهو كفر فهم دائرون ما بين كفر وكفر وذلك عاقبة من لا يتبع السلف الصالح، ولذلك قيل:

وكل خير في اتباع من سلف ... وكل شر في ابتداع من خلف فنوصي الحاضرين جميعًا ألا يصغوا لعلماء الكلام ولا لأذنابهم، وعليهم أن يعرفوا عقيدة السلف ليكونوا إن شاء الله مهتدين، والحمد لله رب العالمين.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٦/ ٣٠٨): السائل: تفسير قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ} (القلم:٤٢) فالمفسرين دائمًا يذكرون حديث البخاري

اللي يبين الآية الكريمة يكشف ربنا عن ساقه أو كما جاء في الحديث، لكن في نفس الوقت يورد في الحديث بتفسيرات قول ابن عباس وعكرمة ومجاهد أنه الكشف عن الساق هنا يوم الكرب أو دفع الكربة أو الشدة كما جاء في تفسير لغة العرب، فهنا كيف التوافق يكون في مسألة يعني إمرار نصوص الصفات على ظاهرها، لا سيما وأن الكثير من الناس تحتج بهذه الآية وعن تفسير قول ابن عباس في هذه الآية بالرد على أهل السنة في مسائل كثيرة جدًا.

الشيخ: بارك الله فيك، يجب على كل طالب علم أن يكون منطلقه في الفهم وفي الفقه قائمًا على القواعد العلمية الأصولية سواءٌ ما كان منها متعلق بأصول الحديث أو أصول الفقه، ليس من العلم عند أحدٍ من أهل العلم أن يعارض قول رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بقول غيره ممن ليس معصومًا، ثم بالتالي ليس من العلم محاولة التوفيق بين الحديث المرفوع والقول الموقوف، ليس هناك حاجة لإعمال الفكر في سبيل التوفيق بين الحديث المرفوع والحديث الموقوف، فقول ابن عباس إن صح، لا ينبغي أن يعارض قول الرسول عليه السلام فتنتهي المشكلة؟ لماذا؟ تفكرون أن تعالجوا قضية ليست هي في ذات نفسها مشكلة تريدون توفقوا بين قوله عليه السلام وقول ابن عباس! هذا ما ينبغي.

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام

فإذا قال الرسول قولًا، فما ينبغي أن نلتفت إلى غيره ليست مشكلة أهل السنة وأهل البدعة وهؤلاء هم متعصبة المذاهب ماهي المشكلة بيننا وبينهم هم يقولون قال الإمام هذه مشكلة، هذه ليست مشكلة عندنا، أما عندهم وهم يقدمون قول الإمام على قول سيد الرسل فضلًا عن الأئمة هي مشكلة عندهم،

أما عندنا فلا إشكال في ذلك أبدا، لعلك حصلت الجواب.

السائل: آه بارك الله فيك، لكن يحتجون بعضهم يحتج يقول: إنه مذهب أهل السنة والجماعة في النصوص الشرعية يكون على فهم العلماء، وبعضهم يقولون: إنه ابن عباس رضي الله تعالى عنه والعلماء من التابعين كعكرمة مجاهد يقول نأخذ فهم الآية على فهمهم هم.

الشيخ: المسألة لما يكون مسألة فهم الكلام صحيح، لكن لما يكون مسألة نص لا يقبل فهمًا آخر، ولا يقبل خلافًا؛ فحينئذٍ المسألة كما قلنا آنفًا، يوم يكشف عن ساقٍ أي عن ساقه تبارك وتعالي ليس على ... الفهم هذه، أما حينما تكون المسألة تحتمل وجهين من حيث الأسلوب العربي لا شك أن المرجع في ذلك إلى العلماء.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في الصحيحة (٣/ ١٥٥ - ١٥٦): [قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-]:

- «يؤتى بأشد الناس كان بلاء في الدنيا من أهل الجنة، فيقول أصبغوه صبغة الجنة، فيصبغونه فيها صبغة، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط أو شيئا تكرهه؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئًا أكرهه قط، ثم يؤتى بأنعم الناس كان في الدنيا من أهل النار فيقول: أصبغوه فيها صبغة، فيقول: يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط قرة عين قط؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت خيرا قط ولا قرة عين قط».

(**فائدة**): في الحديث جواز الحلف بصفة من صفات الله تعالى ومن أبواب البيهقي في " السنن الكبرى " (١٠/ ٤١) " باب ما جاء في الحلف بصفات الله تعالى كالعزة والقدرة والجلال والكبرياء والعظمة والكلام والسمع ونحو

ذلك". ثم ساق تحته أحاديث وأشار إلى هذا الحديث واستشهد ببعض الآثار عن ابن مسعود وغيره وقال: "فيه دليل على أن الحلف بالقرآن كان يمينًا ...".ثم روي بإسناده الصحيح عن التابعي الثقة عمرو بن دينار قال: "أدركت الناس منذ سبعين سنة يقولون: الله الخالق وما سواه مخلوق والقرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ".

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في موسوعته العقدية (٦/ ٣٧٧): سؤال: بعض الناس عندما يستغرب من شيء يقول بشرف الله هل هذا الشيء يجوز، وهل يعتبر هذا من باب التجسيد وصف الله بما لا يليق به سبحانه؟

الشيخ: ... لا يجوز أن يوصف ربُّنا إلا بما وصف به نفسه ولو كانت هذه الصفة في عرف الناس صفة تشريف وتبجيل وتقديس، فما دام أن هذه الصفة لم ترِد في الكتاب ولا في السنة فلا يجوز أن يوصف الله عَزَّ وَجَلَّ بذلك، لقد ذكر العلماء أن الله عَزَّ وَجَلَّ يوصف بأنه كريم لكنه لا يوصف بأنه سخي والسخاء في اللغة العربية ربما -وأعني ما أقول- وربما يكون بمعنى الكرم وأقول بذلك متحفظًا؛ لأن بعض الفقهاء في اللغة قد يفرقون بين لفظين مترادفين عند عامة الناس كأمثالنا في اللغة ولكن قد يكون الأمر في كثير من الأحيان لا فرق في اللغة بين لفظين مترادفين، فقد يقول: الإنسان الشمس طلعت، وقد يقول: ظهرت، وقد يقول أشرقت، وقد يقول: بانت، وكل هذه الألفاظ ألفاظ مترادفة لكن بانت تتميز عن الألفاظ الأخرى لأنها من ألفاظ التضاد فيقال في اللغة إذا أشرقت الشمس بانت الشمس، وإذا غربت الشمس أيضًا يقال بانت الشمس، لفظان مترادفان، ولهذا أمثلة كثيرة في اللغة يقال رجل جليل أي عظيم، ويقال: رجل جليل أي حقير، السياق والسباق هو الذي يخصص المراد من اللفظ الذي له معنيان متقابلان.

الخلاصة: ربنا ﷻ لا يوصف بأنه شريف أو بأنه له شرف لأن هذه الصفة لم ترد كما قلنا في التضاد.

-من يقول هذا، أقول له: هذا لا يجوز؟

-طبعًا، لكن هل نقول له لا يجوز؛ وهو ينكر لا يؤمن بالله من أصله، المسألة هنا قضية أخرى يعنى تدخل في سياسة الدعوة، أما إنه هذا لا يجوز؟ لا يجوز.

السائل: -شيخنا لو إنسان قاصد هذا اللفظ [بشرف الله] لكن قصد اليمين، فهل نرتب عليه حكم اليمين أم لأنه حلف حلفًا غير شرعي، لا نرتب عليه حكم اليمين؟ -قال مثلًا. بشرف الله.

-أي نعم، فيما يبدوا لي -والله أعلم- نرتب عليه لأن الأعمال بالنيات لكن نحن نصحح له لفظه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٦/ ٣٨٨): ما حكم أهل العلم من قول القائل: جرت عادة الله على كذا وكذا، وهو الشيخ المقبلي في "العَلَمُ الشامخ" قال هذا لفظ ممنوع أو كذا، لا أدري يعني هل له وجه في المنع أم لا؟.

الشيخ: يبدو أن وجه المنع هو إطلاق ما هو من طبيعة البشر، ولعله يحسن أن نذكر هنا ما كنا رأيناه في بعض الكتب قديمًا وهو قول الإمام الشافعي: العادة طبيعة ثانية، فالعادة تأتي من ممارسة الشيء والاعتياد عليه؛ لأن هذا لا يليق بالله تبارك وتعالى، فهذا يدل على فضل الرجل حينما يأتي إلى الناس بشيء لم يُسبق إليه غيره يدل على فقهه وعلمه، أما تكرار الشيء الذي يشترك في معرفته الكبير والصغير والعالم وطالب العلم فليس في ذلك كبير الفائدة.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في مختصر العلو (ص٥٢ - ٥٦): بعد أن بين أن علو الله تعالى

ثابت بصحيح المنقول وصريح المعقول]:

ومن هنا نعلم مبلغ ضلال الجهمية ومن تأثر بهم من الخلف الذين أنكروا جميعًا أن يكون الله تعالى على عرشه فوق خلقه، ثم انقسم هؤلاء إلى مذهبين:

الأول: مذهب الجهمية الذين ذهبوا إلى أن الله تعالى في كل مكان مخلوق[١]. وقد جادلهم الإمام أحمد رحمه الله تعالى، فأحسن جدالهم وكشف به عوارهم فقال في رسالة " الرد على الجهمية ":

" وإذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله سبحانه وتعالى حين زعم أنه في كل مكان، ولا يكون في مكان دون مكان فقل له: أليس كان الله ولا شيء؟ فيقول: نعم. فقل له: فحين خلق الشيء خلقه في نفسه أو خارجا عن نفسه؟ فإنه يصير إلى أحد ثلاثة أقاويل:

أ - إن زعم أن الله تعالى خلق الخلق في نفسه كفر حين زعم أن الجن والإنس والشياطين وإبليس في نفسه.

ب - وإن قال: خلقهم خارجًا من نفسه ثم دخل فيهم كفر أيضًا حين زعم أنه دخل في كل مكان وحش وقذر.

ج - وإن قال خلقهم خارجًا من نفسه ثم لم يدخل فيهم؛ رجع عن قوله أجمع وهو قول أهل السنة)[٢] ..

والمذهب الآخر قول بعض غلاة النفاة للعلو:

---

(١) وحكاه الأشعري في (مقالات الإسلاميين) (ص ٢١٢) عن بعض المعتزلة، وتبرأ منه في "الإبانة " كما ستراه في ترجمته، وجزم بأنه تعالى مستو على عرشه، وهذا خلاف اعتقاد أتباعه المنتسبين إليه كما سترى قريبًا.

(٢) "اجتماع الجيوش الإسلامية" (ص ٧٦ - ٨٠) ومثله في رسالة " المعرفة " للشيخ عبد الكريم الرفاعي - رَحِمَهُ اللهُ -.

" الله لا فوق، لا تحت، ولا يمين، ولا يسار، ولا أمام، ولا خلف لا داخل العالم، ولا خارجه "[١] ويزيد بعض فلاسفتهم:

" لا متصلا بالعالم ولا منفصلا عنه "

قلت: وهذا النفي معناه - كما هو ظاهر - أن الله غير موجود، وهذا هو التعطيل المطلق والجحد الأكبر، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وما أحسن ما قال محمود بن سبكتكين لمن وصف الله بذلك: "ميز لنا بين هذا الرب الذي تثبته وبين المعدوم" ذكره في " التدمرية " (ص ٤١).

وهذان المذهبان الباطلان أحدهما - ولا بد - لازم لكل من أنكر صفة العلو لله على عرشه كما سبق بيانه، وإن مما يؤسف له شديد الأسف أن المذهب الأول منهما هو السائد اليوم على ألسنة الناس في هذه البلاد عامتهم وخاصتهم فما تكاد تجلس في مجلس يذكر الله فيه إلا بادرك بعض الجالسين فيه بقوله: "الله موجود في كل مكان" وقد يقول آخر: "الله موجود في كل الوجود" فإذا سارعت إلى بيان بطلان هذا الكلام لما فيه من نسبة ما لا يجوز إلى الله من كونه مظروفًا لخلقه، وما فيه من المخالفة لصفة علوه على عرشه، سارع بعض المتعالمين إلى تأويل ذلك القول بضم جملة " بعلمه " إليه، كأنما هو آية من كتاب الله أو حديث عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لا بد من تأويله، ولم يدر هؤلاء المساكين أنها كلمة الجهمية والمعتزلة وعقيدتهم على ما يدل عليه ظاهر هذا القول دون أي تأويل، فإذا سمعت تأويلهم إياه بقولهم " بعلمه " ظننت خيرًا، ولكن سرعان ما يخيب ظنك حينما توجه

---

(١) كذا في " حاشية البيجوري على الجوهرة " (ص ٥٨) وقد سمعت هذا النفي من بعض المشايخ على المنبر يوم الجمعة يُعلم المسلمين الإيمان برب العالمين.

السؤال الموروث عن النبي المعصوم الكاشف عن إيمان المرء أو مبلغ معرفته بالله تعالى أو العكس ألا وهو قوله -صلى الله عليه وآله وسلم- للجارية: «أين الله» قالت: في السماء. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»، فأنت إذا وجهت مثل هذا السؤال إلى العامة والخاصة وجدتهم يحملقون بأعينهم مستنكرين إياه، جاهلين أو متجاهلين أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الذي سَنَّهُ لنا، ثم تراهم مع ذلك حيارى لا يدرون بماذا يجيبون كأن الشريعة الإسلامية لم تتعرض لبيانه مطلقًا، لا في الكتاب ولا في السنة، مع أن الأدلة فيهما متواترة على أن الله تعالى في السماء، ولذلك فالجارية لما أجابت على السؤال بقولها: في السماء شهد لها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بأنها مؤمنة لأنها أجابت بما هو معروف في الكتاب والسنة، فيا ويح من لا يشهد له الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- بالإيمان، ويا ويل من يأبى بل يستنكر ما جعله -صلى الله عليه وآله وسلم- دليلًا على الإيمان، وهذا والله من أعظم ما أصاب المسلمين من الانحراف عن عقيدتهم أن لا يعرف أحدهم أن ربه الذي يعبده ويسجد له أهو فوق خلقه أم تحتهم، بل لا يدري إذا كان خارجًا عنه أو في داخله، حتى صدق فيهم قول بعض المتقدمين من أهل العلم:" أضاعوا معبودهم "،وهم مع ذلك لم يبلغوا في الضلال شأن أولئك الذين حكموا عليه بالعدم حين قالوا: "لا فوق ولا تحت ... " إلخ فحق فيهم قول بعضهم: "المعطل يعبد عدمًا، والمجسم يعبد صنمًا "، يشير بذلك إلى الجهمية المعطلة النفاة، وإلى المجسمة الممثلة الذين يثبتون الصفات مع التجسيم والتشبيه، والحل وسط بينهما كما تقدم.

ومع خطورة هذه المسألة وبالغ أهميتها وشدة الخلاف القائم فيها بين أهل السنة من جهة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من النفاة من جهة أخرى حتى قال

ابن القيم رحمه الله تعالى في " الجيوش الإسلامية " (ص ٩٦):

" بل الذي بين أهل الحديث والجهمية من الحرب أعظم مما بين عسكر الكفر وعسكر الإسلام "

أقول: مع هذا كله نرى أغلب الدعاة الإسلاميين اليوم لا يقيمون لهذه المسالة ولا لأمثالها من مسائل الاعتقاد وزنًا، ولا يلقون لها بًالا، فلا تسمع لها في محاضراتهم ولا في مجالسهم الخاصة فضلًا عن العامة ذكرًا، ويكتفون من المدعوين أن يؤمنوا إيمانًا مجملًا؛ ألا ترى إلى ذلك الدكتور الذي قال في مقدمة رسالة " باطن الإثم " وهو يرسم للمسلمين المتفرقين المتدابرين الدواء بزعمه: "وما أظن إلا أننا جميعا مؤمنون بالله إلها واحدًا لا شريك له، بيده الخير والملك، وهو على كل شيء قدير "

نعم نحن مؤمنون بالله ... ولكن إيمان المؤمنين يختلف بعضه عن بعض أشد الاختلاف، وما نحن فيه من صفة العلو أوضح مثال فإن كان الدكتور يعتقدها على طريقة السلف المثبتين لها بدون تشبيه ولا تعطيل؛ فالناس الذين وضع لهم هذه الرسالة لا يشاركونه في ذلك الاعتقاد إن كان هو ليس شريكًا لهم في اعتقادهم، فماذا يفيد هذا الإيمان وهو ليس على ما شرعه الله وبينه، وقد أشار إلى هذه الحقيقة الإمام أبو محمد الجويني في مقدمة رسالته السابقة " الاستواء والفوقية " بعد أن ذكر الله تعالى ببعض صفاته كالسمع والبصر والكلام واليدين والقبضتين: " استوى على عرشه فبان من خلفه، لا يخفى عليه منهم خافية، علمه بهم محيط وبصره بهم نافذ، وهو في ذاته وصفاته لا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يمثل بشيء من جوارح مبتدعاته، هي صفات لائقة بجلاله وعظمته لا تتخيل كيفيتها الظنون، ولا ترها في الدنيا العيون، بل نؤمن

بحقائقها وثبوتها واتصاف الرب تعالى بها، وننفي عنها تأويل المتأولين، وتعطيل الجاحدين، وتمثيل المشبهين، تبارك الله أحسن الخالقين، فبهذا الرب نؤمن، وإياه نعبد، وله نصلي ونسجد، فمن قصد بعبادته إلى إله ليست له هذه الصفات فإنما يعبد غير الله، وليس معبوده ذلك بإله".

والإمام الجويني رحمه الله تعالى حينما يقول ذلك، ويُصدِر هذا الحكم العدل على النفاة إنما تلقى ذلك عن أئمة السلف(١) فسيأتي في ترجمة الإمام عبد الله بن المبارك قوله في الجهمية: "إنهم يزعمون أن إلهك الذي في السماء ليس بشيء"، في ترجمة عباد بن العوام: "آخر كلامهم ينتهي أن يقولوا ليس في السماء شيء أرى أن لا يناكحوا أو يتوارثوا"، ونحوه في ترجمة عبد الرحمن بن مهدي، ووهب بن جرير، والقعنبي، وأبو معمر القطيعي، وغيرهم من الأئمة، لكنهم لا يكفرون بالجهل بها أحدًا إلا بعد انتهائها إليه كما سيأتي في ترجمة الإمام ابن جرير الطبري.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في موسوعته العقدية (٧/ ٦٨١): سؤال: قول تعالى: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} (هود:٧)، ممكن تفسرها لنا، جزاك الله خير.

الشيخ: المسألة لا تحتاج إلى تفسير بأكثر مما هو واضح؛ لأن هذه من الأمور الغيبية التي لا يجوز للمسلمين التوسع فيها، وإدخال العقل العاجز عن إدراك المغيبات، وتصويرها في حدود المشاهدات، فكون ربنا يقول: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} (هود:٧)، هو خلق من خلق الله عَزَّ وَجَلَّ، كان العرش ولا يزال

---

(١) وهذا معنى ما جاء في رسالة "المعرفة" للشيخ عبد الكريم الرفاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ١٢): "ومن اعتقد اعتقادًا غير مطابقًا للواقع كاعتقاد النصارى بالتثليث والوثنية بالتجسيم وغير ذلك من المعتقدات الباطلة فهو كافر بإجماع المسلمين".

على الماء، لكن هذا بلا شك لا يعني أن الماء قديم أزلي لا أول له، وأن العرش أيضًا قديم أزلي لا أول له، لأن كل ما سوى الله ﷻ فهو مخلوقٌ مسبوقٌ بالعدم، فربنا ﷻ حينما يتحدث في القرآن الكريم عن هذه الحقيقة الخَلْقِيَّة الغيبية عن الناس، يخبرنا بأن العرش ليس على السماء: أجرام، وإنما على الماء، وليس إلا هذا في الآية، وكثير من الناس اليوم يتأولون النصوص القرآنية ببعض الاكتشافات العلمية، وهذا عبارة عن تَظَنُّن إن لم نقل إنه تخرُّص؛ لأننا لو سألنا العلم اليوم الذي يُعْرَفُ بالعلم التجريبي والعلم الفلكي، ما هي السماوات السبع المنصوص عليها في القرآن الكريم، طبعًا سيقف أمامها حائرًا؛ حتى الملاحدة منهم نحن لا نتحدث عمَّا وراء الطبيعة، نحن نتحدث عما أُحيط به علمًا، فنحن لا نعلم إلا هذا الفراغ الذي بعد مائتين .. ثلاثمائة كيلو متر كما يقولون، هذه ممتلئة بالهواء، ثم بعد ذلك فراغ مطلق فيها هذه الأجرام، وهذه الكواكب التي تعد بملايين الملايين، فهم لا يتحدثون إلا عما شاهدوا، ولذلك فهم لا يستطيعون التحدث عن السموات السبع بشيء، بالتالي لا يستطيعون أن يتحدثوا عن الماء الذي فوقه عرش الرحمن تبارك وتعالى.

هذا ما يمكن الإجابة عن هذا السؤال.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٧/ ٦٨٢): السؤال: حديث: «إذا سألتم الله فسألوه الفردوس فهي أوسط الجنة وهو أعلى الجنة وفوقه العرش ومنه تفجر أنهار الجنة» (١) وقول الله سبحانه وتعالى

في سورة هود: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} (هود:٧)، فالفهم لهذا الحديث؛ لأنه يذكر الحديث أن أعلى الجنة العرش، والآية تذكر أن عرش الله سبحانه وتعالى فوق الماء؟

الجواب: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} (هود:٧)، هذا لا ينافي هذا أولًا؛ لأنه كون العرش أعظم مخلوقات الله ﷻ، فما ينفي أن يكون بهذه العظمة هو أيضًا على العرش وهو فوق الجنة، ومشكلة هذا السؤال وغيره من الأسئلة أن بعض المسلمين اليوم يحاولون أن يكيفوا الأخبار الغيبية تكييفًا ماديًا ملموسًا، وهذا خطأ جدًا؛ لأن الأمور الغيبية لا يجوز التوسع فيها وإنما يجب الوقوف عند حروفها وعدم التزايد عليها، أما محاولة التعمق في فهم الكيفيات هذه الغيبية عندنا كهذه المسألة، فالعرش كان على الماء، ثم العرش هو سقف الجنة، نحن نحاول الآن أن نتكيف أن العرش حجمه صغير أولًا، ثم نحاول أن نتكيف أن الأمر كما كان من قبل، أي: كان عرش الرحمن على الماء، ... وهو كذلك، لكن هذا أولًا لا يستلزم المنافاة التي أشرت إلى نفيها آنفًا.

وثانيًا وأخيرًا أقول: يمكن أن يكون الأمر "كان" كما قال في القرآن "كان" ثم بعد ذلك ربنا ﷻ كما قال: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} (الرحمن:٢٩)، فمن شأنه ﷻ أن يخلق وأن يحيي وأن يميت ويتصرف في خلقه كما يشاء، فإذًا: ليس هناك من الضروري أن نجمع أولًا أن عرشه على الماء، وعرشه أيضًا فوق الجنة في آن واحد، ممكن أن يكون كذلك وقد سبق الجواب عنه، ويمكن أن يكون طرأ على هذا الماء خلق جديد بحيث أنه صار العرش كله سقف الجنة. هذا ما نقوله إجمالًا، والتفصيل لا يجوز الدخول في الغيبيات.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التعليق على متن الطحاوية (ص٥٢ - ٥٣): على كلام شارح الطحاوية:"وهو مستغن عن العرش وما دونه".مقررًا إياه:

قال الشارح رحمه الله تعالى: وإنما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الكلام هنا؛ لأنه لما ذكر العرش والكرسي ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش؛

ليبين أن خلقه العرش لاستوائه عليه ليس لحاجته إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضته وكون العالي فوق السافل لا يلزم أن يكون السافل حاويًا للعالي محيطًا به حاملًا له، ولا أن يكون الأعلى مفتقرًا إليه، فانظر إلى السماء كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها.

فالرب تعالى أعظم شأنًا وأجل من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه، وهي حمله بقدرته للسافل وفقر السافل وغناه هو سبحانه عن السافل وإحاطته ﷻ به فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش وفقر العرش إليه وإحاطته بالعرش وعدم إحاطة العرش به وحصره للعرش وعدم الحصر للعرش له. وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق.

ونفاة العلو أهل التعطيل لو فَصَّلوا بهذا التفصيل لهُدوا إلى سواء السبيل وعلموا مطابقة العقل للتنزيل، ولسلكوا خلف الدليل، ولكن فارقوا الدليل فضلُّوا عن سواء السبيل. والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سئل عن قوله تعالى: {ثم استوى على العرش} (الأعراف: ٥٣) وغيرها: كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مختصر العلو (ص١٩٢ - ١٩٣): عن علي بن خشرم حدثنا إسحاق قال: دخلت على ابن طاهر، فقال: ما هذه الأحاديث يروون أن الله ينزل إلى السماء الدنيا؟ قلت نعم، رواها الثقات الذين يروون الأحكام. فقال: ينزل ويدع عرشه؟ فقلت يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش؟ قال: نعم. قلت: فلم تتكلم في هذا؟. إسناده صحيح.

(فائدة): في قول إسحاق رحمه الله تعالى: "يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش" إشارة منه إلى تحقيق أن نزوله تعالى ليس كنزول المخلوق، وأنه

ينزل إلى السماء الدنيا دون أن يخلو منه العرش ويصير العرش فوقه، وهذا مستحيل بالنسبة لنزول المخلوق الذي يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر، وهذا الذي أشار إليه إسحاق هو المأثور عن سلف الأمة وأئمتها أنه تعالى لا يزال فوق العرش، ولا يخلو العرش منه، مع دنوه ونزوله إلى السماء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهو الصواب، فراجع بسط ذلك في كتابه "شرح حديث النزول" (ص٤٢ - ٥٩).

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في موسوعته العقدية (٧/ ٦٨٨): سؤال: قضية استواء الله على عرشه هل تعني أن الله مستقر بذاته على العرش؟

الشيخ: لا يجوز استعمال ألفاظ لم ترد في الشرع؛ لا يجوز أن يوصف الله بأنه مستقر؛ لأن الاستقرار أولًا: صفة بشرية، ثانيًا: لم يُوصف بها ربُّنا عَزَّ وَجَلَّ حتى نقول: استقرار يليق بجلاله وكماله كما نقول في الاستواء، فنحن لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه ثم مقرونًا مع التنزيل {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (الشورى:١١).

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٧/ ٦٨٩): السؤال: هل هناك دليل من الكتاب أو السنة أو أقوال الصحابة ما ينفي أو يثبت مماسَّة الرب عَزَّ وَجَلَّ لعرشه؟

الشيخ: [لا يوجد] ذلك إطلاقًا، وإثبات مثل هذه الأمور ونفيها في اعتقادي خروج عن منهج السلف الصالح؛ لأن كلًا من الإثبات والنفي يترتب منه محذور، أما الإثبات فقد يلزم منه محظورات أحدهما نسبة شيء إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لم يثبت في الكتاب ولا في السنة وهذا لا يجوز.

والشيء الآخر أننا إذا أثبتنا أو ادعينا شيئًا من ذلك فتحنا طريقًا للمعطلين المؤولين لنصوص الكتاب والسنة المتعلقة بصفات الرب تبارك وتعالى، فتحنا

لهم طريقًا ليتهمونا بالتجسيم؛ لأنهم يفسرون هذه الأمور التي قد يدعيها بعض من سبقنا، يفسرونها على ظاهرها التي تليق بالبشر ولا تليق بالله ﷻ، ولذلك فلا يجوز إثبات مثل هذه الأمور، كما أنه لا يجوز نفيها لأنه قد يلزم من نفيها نفي ما جاء في الكتاب والسنة من ذلك مثلًا: أن الله ﷻ ليس حالًّا في المخلوقات، أي: ليس كما يقول المعطلة والقائلون بوحدة الوجود أن الله ﷻ في كل مكان، أن الله ﷻ موجود في كل الوجود، وغلا الصوفية في تصريحهم بهذه الضلالة حينما قال قائلهم في شعر لا أذكره الآن، أنه مثل رب العالمين ومخلوقاته كمثل الماء والثلج، هل يمكن فصل الماء عن الثلج حين كونه ثلجًا؟ الجواب: لا، كذلك عندهم رب العالمين تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرا إنه حال في المخلوقات، والعقيدة السلفية أن الله ﷻ غني عن العالمين، وهو ليس بحاجة إلى العرش، وإلى الجلوس عليه، والتمكُّن منه، وقد صرح بذلك بعض العلماء المعتدلين من الماتريدية، أقول المعتدلين؛ لأن الماتريدية كالأشاعرة في كثير من الأمور المخالفة لعقيدة السلف الصالح أما هذا البعض الذي أشير إليه، فقد قال مثبتًا لصفة علو الله على عرشه دون إيهام أنه بحاجة إليه فقال:

ورب العرش فوق العرش … لا وصف التمكن واتصال

لأن وصف رب العالمين بهذا الوصف معناه أنه بحاجة إلى العرش، وكان الله ولا شيء معه، كما نفهم من حديث عمران بن حصين، ثم خلق العرش والسماوات كما جاء تفصيل ذلك في السنة.

فإذًا: باختصار لا يوجد في الكتاب ولا في السنة شيء يثبت هذا الذي جاء في السؤال أو ينفيه فلا نقر ولا ننفي.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في الضعيفة (٢/ ٢٥٧ - ٢٥٨): إن مما ينكر في هذا الباب

[أي باب الغلو في الإثبات بإثبات ما لا يصح] ما رواه أبو محمد الدشتي في " إثبات الحد " (١٤٤/ ١ - ٢) من طريق أبي العز أحمد بن عبيد الله بن كادش: أنشدنا أبو طالب محمد بن علي الحربي: أنشدنا الإمام أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال:

حديث الشفاعة في أحمد — لى أحمد المصطفى نسنده

فأما حديث بإقعاده — لى العرش فلا نجحده

أمِرُّوا الحديث على وجهه — لا تدخلوا فيه ما يفسده

ولا تنكروا أنه قاعد — لا تجحدوا أنه يقعده

فهذا إسناد لا يصح، من أجل أبي العز هذا، فقد أورده ابن العماد في وفيات سنة (٥٢٦) من " الشذرات " (٤/ ٧٨) وقال: "قال عبد الوهاب الأنماطي: كان مخلطا".

وأما شيخه أبو طالب وهو العشاري فقد أورده في وفيات سنة (٤٥١) وقال (٣/ ٢٨٩): "كان صالحا خيرا عالمًا زاهدًا".

فاعلم أن إقعاده -صلى الله عليه وآله وسلم- على العرش ليس فيه إلا ... الحديث الباطل وهو ما يروى عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: يجلسني على العرش تفسيرًا لقوله تعالى: {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا}، وأما قعوده تعالى على العرش فليس فيه حديث يصح، ولا تلازم بينه وبين الاستواء عليه كما لا يخفى. وقد وقفت فيه على حديثين، أنا ذاكرهما لبيان حالهما:

- «إن كرسيه وسع السماوات والأرض، وإنه يقعد عليه، ما يفضل منه مقدار أربع أصابع - ثم قال بأصابعه فجمعها - وإن له أطيطًا كأطيط الرحل

الجديد إذا ركب من ثقله». (منكر ...)

«يقول الله ﷻ للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده: إني لم أجعل علمي وحكمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم، على ما كان فيكم، ولا أبالي». موضوع بهذا التمام.

وفيه لفظة منكرة جدًّا وهي قعود الله تبارك وتعالى على الكرسي، ولا أعرف هذه اللفظة في حديث صحيح، وخاصة أحاديث النزول وهي كثيرة جدًّا بل وهي متواترة كما قطع بذلك الحافظ الذهبي في " العلو" (ص ٥٣، ٥٩)، وذكر أنه أَلَّف في ذلك جزءًا.

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ١٢٤): عن أقسام صفات الله تعالى باعتبار لزومها لذاته المقدسة وعدم لزومها؟.

فأجاب: تنقسم صفات الله تعالى باعتبار لزومها لذاته المقدسة وعدم لزومها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: صفات ذاتية.

القسم الثاني: صفات فعلية.

القسم الثالث: صفات ذاتية فعلية باعتبارين.

فأما الصفات الذاتية فيراد بها الصفات اللازمة لذاته تعالى، التي لم يزل ولا يزال متصفا بها مثل الحياة، والعلم، والقدرة، والعزة، والحكمة، والعظمة، والجلال، والعلو ونحوها من صفات المعاني، وسميت ذاتية للزومها للذات، ومثل اليدين، والعينين، والوجه، وقد تسمى هذه بالصفات الخبرية.

وأما الصفات الفعلية فهي التي تتعلق بمشيئته، وليست لازمة لذاته لا باعتبار نوعها، ولا باعتبار آحادها، مثل الاستواء على العرش، والنزول إلى

السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين العباد يوم القيامة، فهذه الصفات صفات فعلية تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، وهي صفات حادثة في نوعها وآحادها، فالاستواء على العرش لم يكن إلا بعد خلق العرش، والنزول إلى السماء الدنيا لم يكن إلا بعد خلق السماء، والمجيء يوم القيامة لم يكن قبل يوم القيامة.

وأما الصفات الذاتية الفعلية فهي التي إذا نظرت إلى نوعها وجدت أن الله تعالى لم يزل ولا يزال متصفا بها، فهي لازمة لذاته، وإذا نظرت إلى آحادها وجدت أنها تتعلق بمشيئته وليست لازمة لذاته، ومثلوا لذلك بكلام الله تعالى، فإنه باعتبار نوعه من الصفات الذاتية؛ لأن الله لم يزل ولا يزال متكلما، فكلامه من كماله الواجب له سبحانه، وباعتبار آحاد الكلام أعني باعتبار الكلام المعين الذي يتكلم به سبحانه متى شاء، من الصفات الفعلية؛ لأنه كان بمشيئته سبحانه.

وصرح بالقسمين الأولين في التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية ص ٢٠ للشيخ ابن رشيد.

وقد أشار إلى نحو مما ذكرنا في الفتاوى مجموع ابن قاسم ص ١٥٠ - ١٦٠ ج ٦.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٢٥): عن علو الله تعالى، وعن قول من يقول: إنه عن الجهات الست خال وإنه في قلب العبد المؤمن.

فأجاب: مذهب السلف رضوان الله عليهم أن الله تعالى بذاته فوق عباده وقد قال الله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} وقال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ} . وقال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا

إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} . وقال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} . وقال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} . فإذا تبين أن طريقة المؤمنين عند التنازع هي الرجوع إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ والسمع والطاعة لهما، وعدم الخيار فيما سواهما، وأن الإيمان لا يكون إلا بذلك، مع انتفاء الحرج وتمام التسليم، فإن الخروج عن هذا الطريق موجب لما قال الله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} .

وعلى هذا فإن المتأمل في هذه المسألة - مسألة علو الله تعالى - بذاته على خلقه بعد ردها إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ يتبين له أن الكتاب والسنة قد دلا دلالة صريحة بجميع وجوه الدلالة على علو الله تعالى بذاته فوق خلقه، بعبارات مختلفة منها:

١ - التصريح بأن الله تعالى في السماء كقوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} . وقوله ﷺ في رقية المريض: «ربنا الله الذي في السماء»، إلى آخر الحديث، رواه أبو داود، وقوله، ﷺ: «والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها» . رواه مسلم.

٢- التصريح بفوقيته تعالى، كقوله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} . وقوله: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} . وقوله ﷺ: «إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي» . رواه البخاري.

٣- التصريح بصعود الأشياء إليه، ونزولها منه، والصعود لا يكون إلا إلى أعلى، والنزول لا يكون إلا من أعلى، كقوله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} . وقوله: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} . وقوله: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ} وقوله تعالى في القرآن الكريم: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} . والقرآن كلام الله تعالى، كما قال سبحانه: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ} . وإذا كان القرآن الكريم كلامه وهو تنزيل منه دل ذلك على علوه بذاته تعالى وقوله ﷺ: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني» . إلى آخر الحديث، وهو صحيح ثابت في الصحيحين وغيرهما. وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ علمه ما يقول: إذا أوى إلى فراشه، ومنه: «آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت» . وهو في صحيح البخاري وغيره.

٤- التصريح بوصفه تعالى بالعلو، كما في قوله تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} . وقوله: {وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} . «وقول النبي ﷺ: سبحان ربي الأعلى» .

٥- إشارة النبي ﷺ إلى السماء حين يشهد الله تعالى في موقف عرفة ذلك الموقف العظيم، الذي شهد فيه النبي ﷺ أكبر جمع من أمته، حين «قال لهم: ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. فقال: اللهم اشهد. يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها

إلى «الناس،» وذلك ثابت في صحيح مسلم من حديث جابر، وهو ظاهر في أن الله تعالى في السماء وإلا لكان رفعه إياها عبثا.

٦- «سؤال النبي ﷺ للجارية حين قال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: أعتقها فإنها مؤمنة» . رواه مسلم من حديث طويل عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه وهو صريح في إثبات العلو الذاتي لله تعالى؛ لأن "أين"، إنما يستفهم بها عن المكان، وقد أقر النبي ﷺ هذه المرأة حين سألها أين الله؟ فأقرها على أنه تعالى في السماء، وبين أن هذا مقتضى الإيمان حين قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» . فلا يؤمن العبد حتى يقر ويعتقد أن الله تعالى في السماء، فهذه أنواع من الأدلة السمعية الخبرية من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ تدل على علو الله تعالى بذاته فوق خلقه، أما أفراد الأدلة فكثيرة لا يمكن حصرها في هذا الموضع، وقد أجمع السلف الصالح رضوان الله عليهم على القول بمقتضى هذه النصوص وأثبتوا لله تعالى العلو الذاتي، وهو أنه سبحانه عال بذاته فوق خلقه، كما أنهم مجمعون على إثبات العلو المعنوي له وهو علو الصفات، قال الله تعالى: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} . وقال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} وقال تعالى: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} . وقال: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كماله في ذاته وصفاته وأفعاله.

وكما أن علو الله تعالى الذاتي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وإجماع السلف، فقد دل عليه العقل والفطرة.

أما دلالة العقل: فيقال: لا ريب أن العلو صفة كمال، وأن ضده صفة نقص، والله تعالى قد ثبت له صفات الكمال فوجب ثبوت العلو له تعالى، ولا يلزم

على إثباته له شيء من النقص، فإنا نقول: إن علوه تعالى ليس متضمنا لكون شيء من مخلوقاته محيطا به، ومن ظن أن إثبات العلو له يستلزم ذلك فقد وهم في ظنه، وضل في عقله.

وأما دلالة الفطرة على علو الله تعالى بذاته: فإن كل داع لله تعالى دعاء عبادة، أو دعاء مسألة لا يتجه قلبه حين دعائه إلا إلى السماء، ولذلك تجده يرفع يديه إلى السماء بمقتضى فطرته، كما قال ذلك الهمداني لأبي المعالي الجويني: "ما قال عارف قط: يا رب إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو". فجعل الجويني يلطم على رأسه ويقول: "حيرني الهمداني، حيرني الهمداني". هكذا نقل عنه، سواء صحت عنه أم لم تصح، فإن كل أحد يدرك ذلك، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الرجل يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب» إلى آخر الحديث. ثم إنك تجد الرجل يصلي وقلبه نحو السماء لا سيما حين يسجد. ويقول: "سبحان ربي الأعلى" لأنه يعلم أن معبوده في السماء سبحانه وتعالى.

وأما قولهم: "إن الله تعالى عن الجهات الست خال"، فهذا القول على عمومه باطل؛ لأنه يقتضي إبطال ما أثبته الله تعالى لنفسه، وأثبته له أعلم خلقه به، وأشدهم تعظيما له، وهو رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أنه سبحانه في السماء التي هي في جهة العلو، بل إن ذلك يقتضي وصف الله تعالى بالعدم؛ لأن الجهات الست هي الفوق، والتحت، واليمين، والشمال، والخلف، والأمام، وما من شيء موجود إلا تتعلق به نسبة إحدى هذه الجهات، وهذا أمر معلوم ببداهة العقول، وإن نفيت هذه الجهات عن الله تعالى لزم أن يكون معدوما، والذهن وإن كان قد يفرض موجودا خاليا من تعلق هذه النسب به لكن هذا شيء يفرضه

الذهن، ولا يوجد في الخارج، ونحن نؤمن ونرى لزاما على كل مؤمن بالله أن يؤمن بعلوه تعالى فوق خلقه، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وإجماع السلف، والعقل، والفطرة، كما قررناه من قبل. ولكننا مع ذلك نؤمن بأن الله تعالى محيط بكل شيء، وأنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته، وأنه سبحانه غني عن خلقه فلا يحتاج لشيء من مخلوقاته. ونحن نرى أيضا أنه لا يجوز لمؤمن أن يخرج عما يدل عليه الكتاب والسنة، لقول أحد من الناس كائنا من كان، كما أسلفنا الأدلة على ذلك في أول جوابنا هذا.

وأما قولهم: "إن الله تعالى في قلب المؤمن". فهذا لا دليل عليه من كتاب الله تعالى، ولا سنة رسوله ﷺ ولا كلام أحد من السلف الصالح فيما نعلم، وهو أيضا على إطلاقه باطل، فإنه إن أريد به أن الله تعالى حال في قلب العبد فهو باطل قطعا، فإن الله تعالى أعظم وأجل من ذلك، ومن العجائب - والعجائب جمة - أن ينفر شخص مما دل عليه الكتاب والسنة من كون الله تعالى في السماء، ثم يطمئن بما لم يدل عليه الكتاب والسنة من زعمه أن الله تعالى في قلب المؤمن، إذ ليس في الكتاب والسنة حرف واحد يدل على ذلك.

وإن أريد بكون الله تعالى في قلب العبد المؤمن أنه دائما يذكر ربه في قلبه، فهذا حق، ولكن يجب أن يعبر عنه بعبارة تدل على حقيقته وينتفي عنها المدلول الباطل، فيقال مثلا: إن ذكر الله تعالى دائما في قلب العبد المؤمن. ولكن الذي يظهر من كلام من يتكلم بها أنه يريد أن يستبدلها عن كون الله تعالى في السماء، وهي بهذا المعنى باطلة كما سبق.

فليحذر المؤمن من إنكار ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله، وأجمع عليه السلف إلى عبارات مجملة غامضة تحتمل من المعاني الحق والباطل، وليلتزم

سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، حتى يدخل في قول الله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} . جعلنا الله وإياكم منهم، ووهب لنا جميعا منه رحمة، إنه هو الوهاب.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٣٢): عن قول بعض الناس إذا سئل: "أين الله"؟ قال: "الله في كل مكان". أو "موجود". فهل هذه الإجابة صحيحة على إطلاقها؟.

فأجاب: هذه إجابة باطلة لا على إطلاقها ولا تقييدها فإذا سئل أين الله؟ فليقل: "في السماء"، كما أجابت بذلك «المرأة التي سألها النبي ﷺ: "أين الله" قالت: في السماء» .

وأما من قال: "موجود" فقط. فهذا حيدة عن الجواب ومراوغة منه.

وأما من قال: "إن الله في كل مكان". وأراد بذاته فهذا كفر؛ لأنه تكذيب لما دلت عليه النصوص، بل الأدلة السمعية، والعقلية، والفطرية من أن الله تعالى عليٌّ على كل شيء وأنه فوق السماوات مستو على عرشه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٣٣): عن توضيح ما جاء في كتاب "عقيدة أهل السنة والجماعة" من قول فضيلته: "ومن كان هذا شأنه كان مع خلقه حقيقة، وإن كان فوقهم على عرشه حقيقة".

فأجاب: فقولنا: "ومن كان هذا شأنه كان مع خلقه حقيقة، وإن كان فوقهم على عرشه حقيقة". نريد بذلك أن هذه الآية كغيرها من آيات الصفات يراد بها حقيقة معناها مع تنزيه الله تعالى، عما لا يليق به من كونه مختلطا بخلقه، بل هو سبحانه على عرشه بائن من خلقه.

وحقيقة المعية لا تستلزم الاختلاط، ولهذا تقول العرب: "ما زلنا نسير والقمر معنا"، مع أن القمر في السماء، ولا يفهم أحد من ذلك أن القمر في الأرض، فالرب جل وعلا أعظم وأجل فهو مع خلقه، كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية، حيث قال: "وكل هذا الكلام الذي ذكره الله -من أنه فوق العرش وأنه معنا- حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف". وقال قبل ذلك: "وليس معنى قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ} أنه مختلط بالخلق، فإن هذا لا توجبه اللغة، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان".اهـ..كلامه. وبهذا التقرير علم أن الله تعالى مع خلقه حقا وإن كان بذاته فوق عرشه ولا تناقض بين هذا وهذا.

وبه أيضا بطل احتجاج أهل التأويل من الأشعرية وغيرهم على أهل السنة، حيث قالوا لأهل السنة: لم تنكرون علينا التأويل فيما نئوله من آيات الصفات وأحاديثها بصرفها عن حقيقتها، وأنتم تئولون نصوص المعية وتصرفونها عن حقيقتها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٤٠): عن صحة حديث: «لو دليتم بحبل إلى الأرض السابعة لوقع على الله»[1] ؟ وما معناه؟.

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٠)، والترمذي (٣٢٩٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧٨) والبزار وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٣٠٣) وأبو الشيخ في "العظمة" (٢٠١، ٣٠٢)، والبيهقي في الأسماء (ص ٥٠٥ - ٥٠٦)، والجورقاني في الأباطيل (٦٥) ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٨) والحديث ضعفه الترمذي، وقال البيهقي: في رواية الحسن عن أبي هريرة انقطاع ولا يثبت سماعه من أبي هريرة"، وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية: هذا حديث لا يصح، وقال الجورقاني: هذا حديث باطل. وله علة تخفى على من لم يتبحر، فمن تأمل هذا الحديث واعتبر أقوال رواته يحكم عليه بالصحة لأمانتهم وعدالتهم، والعلة فيه إرسال الحسن عن أبي هريرة =

فأجاب: هذا الحديث اختلف العلماء في تصحيحه، والذين قالوا: إنه صحيح يقول: ون: إن معنى الحديث لو أدليتم بحبل لوقع على الله ﷻ لأن الله تعالى محيط بكل شيء، فكل شيء هو في قبضة الله سبحانه وتعالى وكل شيء فإنه لا يغيب عن الله تعالى، حتى إن السماوات السبع والأرضين السبع في كف الرحمن ﷻ كخردلة في يد أحدنا يقول: الله تعالى في القرآن الكريم: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} . ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون دالا على أن الله سبحانه وتعالى في كل مكان، أو على أن الله تعالى في أسفل الأرض السابعة فإن هذا ممتنع شرعا، وعقلا، وفطرة؛ لأن علو الله سبحانه وتعالى قد دل عليه كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ والإجماع، والعقل، والفطرة. فمن الكتاب: قوله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} . وقوله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} والآيات في هذه كثيرة جدا في كتاب الله فكل آية تدل على صعود الشيء إلى الله، أو رفع الشيء إلى الله، أو نزول الشيء من الله فإنها تدل على علو الله ﷻ.

وأما السنة: فإنها متواترة على علو الله ﷻ والسنة دلت على علو الله ﷻ من قول الرسول ﷺ وفعله وإقراره. قال النبي ﷺ: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في

=

فإنّه لم يسمع من أبي هريرة شيئا، ولا يعلم بإرسال الحسن عن أبي هريرة إلا المتبحرون، وقال بعد أنْ ذكر رواية أبي جعفر الرازي: هذا حديث لا يرجع منه إلى صحة"، وقال الحافظ الذهبى فى العلو (٦٠): الحسن مدلس والمتن منكر، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٦) رواه احمد وفيه الحكم بن عبدالملك وهو متروك الحديث، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٠٩٤)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده ضعيف.

السماء» . فهذا قول منه ﷺ يدل على علو الله ﷻ «وخطب النبي ﷺ في أمته يوم عرفة فقال لهم: "ألا هل بلغت"؟ قالوا: نعم. فرفع إصبعه إلى السماء يقول: "اللهم اشهد» . فهذا فعل منه ﷺ يدل على علو الله ﷻ وإقراره «حين سأل الجارية "أين الله" قالت: في السماء. قال: "أعتقها فإنها مؤمنة» . وأما الإجماع: فقد أجمع الصحابة والتابعون لهم بإحسان من أئمة هذه الأمة وعلمائها على أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء، ولم ينقل عنهم حرف واحد أن الله ليس في السماء، أو أنه مختلط بالخلق أو أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل، ولا منفصل، ولا مباين، ولا محاذ، بل النصوص عنهم كلها متفقة على أن الله تعالى في العلو وفوق كل شيء. أما العقل: فقد دل على علو الله بأن نقول: هل العلو صفة كمال أو السفل؟ الجواب بالعلو والله ﷻ قد قال في كتابه: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} فكل وصف أكمل فهو الله ﷻ وإذا كان العقل يدل على أن العلو كمال وجب أن يثبت العلو لله ﷻ، وتقرير ذلك أن يقال: إن الله ﷻ إما أن يكون في الأعلى، أو في الأسفل، أو في المحاذي ففي الأسفل مستحيل لنقصه، وفي المحاذي مستحيل أيضا لنقصه، لأنه يلزم أن يكون مساويا للمخلوق، فلم يبق إلا العلو فالله عال فوق كل شيء.

أما الفطرة: فإن كل إنسان مفطور على أن الله تعالى في السماء تجد الإنسان يقول: يا الله ويتجه إلى السماء فما يجد في قلبه ضرورة إلا إلى العلو. إذن فنحن نقول: إن الله تعالى فوق كل شيء، وإذا كان فوق كل شيء فإنه لا يمكن أن يكون المراد بهذا الحديث: "«لو دليتم بحبل إلى الأرض السابعة لوقع على الله» أن الله في الأرض.

فإن قيل: هل قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ

الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} يقتضي أن الله في الأرض كما هو في السماء؟

فالجواب: لا لأن الله تعالى يخبر عن الألوهية، ولا يخبر عن مكانه أنه في السماء والأرض، لكن يخبر أنه إله في السماء وإله في الأرض، كما تقول: فلان أمير في مكة وأمير في المدينة، فالمعنى أن إمارته ثابتة في مكة وفي المدينة وإن كان هو قطعا في أحد البلدين وليس فيهما جميعا. فهذه الآية تدل على أن ألوهية الله ثابتة في الأرض وفي السماء، وإن كان هو سبحانه وتعالى في السماء.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٥٤): عمن يقول: إن كون الدجال أعور لا يثبت أن الله ذو عينين وإنما يثبت أنه يرى كل شيء يمر؟.

فأجاب: لو تأمل القائل حديث الدجال لرأى أنه يدل دلالة واضحة على أن الله تعالى له عينان اثنتان فقط، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال في الدجال: «أعور العين كأن عينه عنبة طافية» .

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ ذكر الدجال فقال: «إن الله ليس بأعور ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية» .

ووجه الدلالة من الحديث أنه لو كان لله تعالى أكثر من عينين لكان الزائد كمالا بلا شك؛ لأنه لا يمكن أن يتصف الله تعالى بما ليس بكمال، وهذا الكمال يحصل به التمييز فيقول: إن الله له أعين، فلو كان ثابتا لكان ذكره هو الواجب، لأنه أبلغ في وصف الرب بالكمال مع التمييز.

وقد نقل أبو الحسن الأشعري وغيره أن هذا هو ما عليه أهل السنة، أعني إثبات أن الله تعالى له عينان فقط، وإنما جمعت في قوله تعالى: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} لأنها أضيفت إلى اسم جمع فكان جمعها أولى من أجل التناسب بين المتضايفين كما جمعت اليد في قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا

عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} من أجل التناسب بين المتضايفين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الصواعق ١/ ٢٥٤: "إن دعوى الجهمي أن ظاهر القرآن يدل على أن لله تعالى أيديا كثيرة على جنب واحد وأعينا كثيرة على وجه واحد عضن للقرآن، وتنقص له وذم، ولا يدل ظاهر القرآن ولا باطنه على ذلك بوجه ما، ولا فهمه من له عقل".

إلى أن قال: "فهذا الأشعري والناس قبله وبعده ومعه لم يفهموا من الأعين أعينا كثيرة على وجه، ولا أيديا كثيرة على شق واحد، حتى جاء هذا الجهمي فعضن القرآن وادعى أن هذا ظاهره، وإنما قصد هذا وأمثاله التشنيع على من بدعه وضلله من أهل السنة والحديث".

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٥٥): ما الأمور التي يجب تعليقها بالمشيئة والأمور التي لا ينبغي تعليقها بالمشيئة؟.

فأجاب: كل شيء مستقبل فإن الأفضل أن تعلقه بالمشيئة لقول الله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} . أما الشيء الماضي فلا يعلق بالمشيئة إلا إذا قصد بذلك التعليل.

فمثلا لو قال لك شخص: دخل شهر رمضان هذا العام ليلة الأحد إن شاء الله. فلا يحتاج أن نقول: إن شاء الله لأنه مضى وعلم. ولو قال لك قائل: لبست ثوبي إن شاء الله -وهو لابسه- فلا يحسن أن يعلق بالمشيئة؛ لأنه شيء مضى، وانتهى إلا إذا قصد التعليل أي قصد أن اللبس كان بمشيئة الله. فهذا لا بأس به.

فلو قال قائل حين صلى: صليت إن شاء الله إن قصد فعل الصلاة فإن الاستثناء هنا لا ينبغي، لأنه صلى وإن قصد إن شاء الله الصلاة المقبولة فهنا يصح أن يقول: إن شاء الله، لأنه لا يعلم أقبلت أم لم تقبل.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٥٩): عن اسم الله تعالى الجبار؟.

فأجاب: الجبار له ثلاثة معان:

الأول: جبر القوة، فهو - سبحانه وتعالى - الجبار الذي يقهر الجبابرة ويغلبهم بجبروته وعظمته، فكل جبار وإن عظم فهو تحت قهر الله عَزَّ وَجَلَّ وجبروته وفي يده وقبضته.

الثاني: جبر الرحمة، فإنه سبحانه يجبر الضعيف بالغنى والقوة، ويجبر الكسير بالسلامة، ويجبر المنكسرة قلوبهم بإزالة كسرها، وإحلال الفرج والطمأنينة فيها، وما يحصل لهم من الثواب والعاقبة الحميدة إذا صبروا على ذلك من أجله.

الثالث: جبر العلو فإنه سبحانه فوق خلقه عال عليهم، وهو مع علوه عليهم قريب منهم يسمع أقوالهم، ويرى أفعالهم، ويعلم ما توسوس به نفوسهم. قال ابن القيم في النونية في معنى الجبار:

وكذلك الجبار من أوصافه ... الجبر في أوصافه قسمان
جبر الضعيف وكل قلب قد غدا ... ا كسرة فالجبر منه دان
والثانِ جبر القهر بالعز الذي ... ا ينبغي لسواه من إنسان
وله مسمى ثالث وهو العلو ... ليس يدنو منه من إنسان
من قولهم جبارة للنخلة ال ... ليا التي فاقت لكل بنان

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٦٠): هل من أسماء الله تعالى: "الحي القيوم"؟.

فأجاب: لا شك أن من أسماء الله الحسنى "الحي القيوم" بل ورد أنهما اسم الله الأعظم، لتضمنهما معاني أسماء الله وصفاته الذاتية والفعلية، وهما مذكوران

في ثلاث آيات من القرآن الكريم: في آية الكرسي: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} . وفي أول سورة آل عمران: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} . وفي سورة طه: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} . وآية الكرسي أعظم آية في كتاب الله، من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٦١): عما جاء في الترغيب والترهيب عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «مر النبي ﷺ بأبي عياش وهو يصلي ويقول: "اللهم إني أسالك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت يا حنان، يا منان، يا بديع السماوات والأرض» .." رواه الإمام أحمد، واللفظ له، ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، فهل الحنان من أسماء الله تعالى؟.

فأجاب: لقد راجعت الأصول مسند أحمد، وأبي داود، والنسائي، وابن ماجه، فقد أورده الإمام أحمد في المسند في عدة مواضع من الجزء الثالث، ص ١٢٠ -١٥٨ - ٢٤٥ - ٢٦٥، وأورده أبو داود في الجزء الأول باب الدعاء ص ٣٤٣، وأورده النسائي في الجزء الثالث باب الدعاء بعد الذكر ص ٤٤، وأورده ابن ماجه في الجزء الثاني كتاب الدعاء باب اسم الله الأعظم ص ١٢٦٨، وليس فيهن ذكر الحنان سوى طريق واحدة عند الإمام أحمد فيها الحنان دون المنان وهي التي في ص ١٥٨، وليست باللفظ المذكور في الترغيب، واللفظ المذكور في الترغيب ليس فيه عند أحمد سوى ذكر المنان وقد رأيت كلاما لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أنكر فيه أن يكون الحنان من أسماء الله تعالى فإذا كانت الروايات أكثرها بعدم إثباته، فالذي أرى أن يتوقف فيه. والله أعلم.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٦٢): هل من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ "المنان"، "المنتقم"، "الهادي"، "المعين "؟.

فأجاب: أما المنان فقد صح عن النبي ﷺ.

وأما المنتقم فليس من أسماء الله؛ لأن الله تعالى لم يذكر هذا الوصف لنفسه إلا مقيدا، وكل وصف جاء مقيدا فهو ليس من أسماء الله؛ لأن أسماء الله كمال على الإطلاق لا تحتاج إلى تقييد، والله سبحانه وتعالى إنما ذكر المنتقم في مقابلة الإجرام فقال: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} وحينئذ لا يكون المنتقم من أسماء الله.

أما "الهادي" فبعض العلماء أثبته من أسماء الله وبعضهم قال: بل هذا من أوصاف الله وليس اسما.

"والمعين" كذلك ليس من أسماء الله، ولكنه من صفاته فإنه هو الذي يعين من شاء من عباده.

ومن العلماء من قال: إنه من أسمائه لأنه دال على معنى حسن وليس فيه نقص بوجه من الوجوه.

والله سبحانه وتعالى يقول: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} .

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٦٣): هل الدهر من أسماء الله؟.

فأجاب: الدهر ليس من أسماء الله سبحانه وتعالى ومن زعم ذلك فقد أخطأ وذلك لسببين:

السبب الأول: أن أسماءه - سبحانه وتعالى - حسنى، أي بالغة في الحسن أكمله، فلا بد أن تشتمل على وصف ومعنى هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لا تجد في أسماء الله تعالى اسما جامدا، والدهر اسم جامد لا يحمل معنى إلا أنه اسم للأوقات.

السبب الثاني: أن سياق الحديث يأبى ذلك، لأنه قال: «أقلب الليل والنهار»

والليل والنهار هما الدهر فكيف يمكن أن يكون المقلب بفتح اللام هو المقلب بكسر اللام؟!.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٦٣): عن قول النبي ﷺ في الحديث القدسي: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار» ؟.

فأجاب: قوله في الحديث المشار إليه في السؤال: «يؤذيني ابن آدم» أي إنه سبحانه يتأذى بما ذكر في الحديث، لكن ليست الأذية التي أثبتها الله لنفسه كأذية المخلوق، بدليل قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} فقدم نفي المماثلة على الإثبات، لأجل أن يرد الإثبات على قلب خال من توهم المماثلة، ويكون الإثبات حينئذ على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لا يماثل في صفاته، كما لا يماثل في ذاته، وكل ما وصف الله به نفسه ليس فيه احتمال للتمثيل، إذ لو أجزت احتمال التمثيل في كلامه سبحانه وكلام رسوله ﷺ في صفات الله، لأجزت احتمال الكفر في كلام الله سبحانه وكلام رسوله ﷺ لأن تمثيل صفات الله تعالى بصفات المخلوقين كفر لأنه تكذيب لقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} .

وقوله: أنا الدهر أي مدبر الدهر ومصرفه. كما قال الله تعالى: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} . كما قال في هذا الحديث: «أقلب الليل والنهار» والليل والنهار هما الدهر.

ولا يقال: بأن الله نفسه هو الدهر، ومن قال ذلك فقد جعل المخلوق خالقا، والمقلب مقلبا.

فإن قيل: أليس المجاز ممنوعا في كلام الله وكلام رسوله ﷺ وفي اللغة؟

أجيب: بلى، ولكن الكلمة حقيقة في معناها الذي دل عليه السياق والقرائن، وهنا في الكلام محذوف تقديره "وأنا مقلب الدهر" لأنه فسره بقوله: «أقلب الليل والنهار» ولأن العقل لا يمكن أن يجعل الخالق الفاعل هو المخلوق المفعول.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٦٧): عن حكم إضافة الحوادث إلى صفة من صفات الله؟.

فأجاب: إضافة الحوادث إلى صفة من صفات الله بمعنى أنه من مقتضى هذه الصفة لا بأس به، مثل أن نقول: اقتضت حكمة الله أن يعذب الظالم، أو أوجب القضاء والقدر أن يشقى فلان أو يسعد فلان ويدل لذلك قول النبي ﷺ: «لو سبق القضاء والقدر شيء لسبقته العين».

أما إذا أضيفت الحوادث إلى صفة من صفات الله وكأن الصفة هي التي فعلت دون الموصوف فلا يجوز؛ لأن المؤثر هو الله تعالى وهو الخالق المدبر لجميع الأمور.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٦٨): هل أهل السنة يئولون اليد في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} ؟.

فأجاب: ينبغي أن نعلم أن التأويل عند أهل السنة ليس مذموما كله، بل المذموم منه ما لم يدل عليه دليل، وما دل عليه الدليل يسمى تفسيرا، سواء كان الدليل متصلا بالنص، أو منفصلا عنه، فصرف الدليل عن ظاهره ليس مذموما على الإطلاق.

ومثال التأويل بالدليل المتصل ما جاء في الحديث الثابت في صحيح مسلم في قوله تعالى في الحديث القدسي: «عبدي جعت فلم تطعمني، ومرضت فلم

تعدني» فظاهر هذا الحديث أن الله نفسه هو الذي جاع وهو الذي مرض، وهذا غير مراد قطعا، ففسر هذا الحديث بنفس الحديث: «فقال: أما علمت أن عبدي فلانا جاع فلم تطعمه، وعبدي فلانا مرض فلم تعده» . فالذي صرف ظاهر اللفظ الأول إلى هذا المعنى هو الحديث القدسي نفسه، فلا يقال: إن صرف ظاهر اللفظ الأول إلى هذا المعنى الثاني تأويل مذموم.

وقال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} . ظاهر اللفظ أنك إذا بدأت القراءة لم تستعذ. لكن قد دل الدليل المنفصل على أن معنى: إِذَا قَرَأْتَ أي إذا أردت أن تقرأ. لكن عبر عن الإرادة بالفعل ليبين أن المراد بذلك الإرادة المقترنة بالفعل لا الإرادة السابقة، ولو أراد التعبير بالفعل لكان الإنسان إذا أراد في الصباح أن يقرأ في المساء قلنا له: استعذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لأنك ستقرأ في آخر الليل، لكن لما عبر بالفعل عن الإرادة دل على أن الإرادة هي الإرادة التي يقترن بها الفعل.

فإذا فهمنا هذه القاعدة، وهي أن التأويل الذي قام الدليل عليه ليس مذموما عرفنا الجواب عن الآية التي ساقها السائل.

فهل الصحابة في صلح الحديبية كانوا يبايعون الله؟ هم في الحقيقة كانوا يبايعون النبي ﷺ، مباشرة وذلك في قوله سبحانه: {يُبَايِعُونَكَ} لكن لما كان الرسول مبلغا عن الله سبحانه صارت مبايعة الرسول كمبايعة الله، وصار الذي يبايعه كأنما يبايع الله.

وقوله تعالى: {يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} المعلوم أن يد الله حقيقة ليست فوق أيديهم، وأن التي فوق أيديهم عند المبايعة هي يد الرسول ﷺ لكن الرسول كان مبلغا عن الله.

ويجوز أن نقول: {يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} على سبيل العلو المطلق، فالله سبحانه بذاته فوق كل شيء. والله أعلم.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٧٠): هل يوصف الله بالمكر؟ وهل يسمى به؟.

فأجاب: لا يوصف الله تعالى بالمكر إلا مقيدا فلا يوصف الله تعالى به وصفا مطلقا، قال الله تعالى: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} .

ففي هذه الآية دليل على أن لله مكرا، والمكر هو التوصل إلى إيقاع الخصم من حيث لا يشعر. ومنه جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري: «الحرب خدعة» .

فإن قيل: كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إن المكر في محله محمود يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه ولذلك لا يوصف الله به على الإطلاق، فلا يجوز أن تقول: "إن الله ماكر" وإنما تذكر هذه الصفة في مقام يكون مدحا مثل قوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ} . وقوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} . ومثل قوله تعالى: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ} . ولا تنفى عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل إنها في المقام الذي تكون مدحا يوصف بها، وفي المقام الذي لا تكون فيه مدحا لا يوصف بها.

وكذلك لا يسمى الله به فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر، والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئة الله سبحانه.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٧١): هل يوصف الله بالخيانة؟

والخداع كما قال الله تعالى: {يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} ؟.

فأجاب: أما الخيانة فلا يوصف الله بها أبدا لأنها ذم بكل حال، إذ إنها مكر في موضع الائتمان وهو مذموم قال الله تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ} . ولم يقل: فخانهم.

وأما الخداع فهو كالمكر يوصف الله تعالى به حين يكون مدحا ولا يوصف به على سبيل الإطلاق قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} .

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٧١): عما جاء في كتاب شرح العقيدة الواسطية من أن صفة (الحي) مسبوقة بالعدم؟.

فأجاب: حياة الله عَزَّ وَجَلَّ حياة كاملة، لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال، وشرح العقيدة الواسطية الذي قرأ فيه هذا السائل أن حياة الله عَزَّ وَجَلَّ تسبق بعدم خطأ بلا شك، وهذا خطأ مطبعي فيما يظهر، لأنه إذا قيل: حياة كاملة فالحياة الكاملة لا تسبق بعدم، فحياة الله عَزَّ وَجَلَّ حياة كاملة، متضمنة لجميع الصفات الكاملة، فلم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٧١): هل يوصف الله تعالى بالنسيان؟.

فأجاب: للنسيان معنيان:

أحدهما: الذهول عن شيء معلوم مثل قوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} . ومثل قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} . على أحد القولين، ومثل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما أنا بشر كما تنسون فإذا نسيت فذكروني» . وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها» .

وهذا المعنى للنسيان منتف عن الله ﷻ بالدليلين السمعي، والعقلي.

أما السمعي: فقوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} وقوله عن موسى: {قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} . فقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} أي مستقبلهم يدل على انتفاء الجهل عن الله تعالى، وقوله: {وَمَا خَلْفَهُمْ} أي ماضيهم يدل على انتفاء النسيان عنه. والآية الثانية دلالتها على ذلك ظاهرة.

وأما العقلي: فإن النسيان نقص، والله تعالى منزه عن النقص، موصوف بالكمال، كما قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} . وعلى هذا فلا يجوز وصف الله بالنسيان بهذا المعنى على كل حال.

والمعنى الثاني للنسيان: الترك عن علم وعمد، مثل قوله تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} . الآية، ومثل قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} . على أحد القولين. ومثل قوله ﷺ في أقسام أهل الخيل: «ورجل ربطها تغنيا وتعففا، ولم ينس حق الله في رقابها وظهورها فهي له كذلك ستر» . وهذا المعنى من النسيان ثابت لله تعالى ﷻ قال الله تعالى: {فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ} . وقال تعالى في المنافقين: {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} . وفي صحيح مسلم في كتاب الزهد والرقائق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟

فذكر الحديث، وفيه: «أن الله تعالى يلقى العبد فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني» .

وتركه سبحانه للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة

لحكمته، قال الله تعالى: {وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} . وقال تعالى: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} . وقال: {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً} . والنصوص في ثبوت الترك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة، وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه. وقيام هذه الأفعال به سبحانه لا يماثل قيامها بالمخلوقين، وإن شاركه في أصل المعنى، كما هو معلوم عند أهل السنة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٧٤): هل نفهم من حديث: «إن الله لا يمل حتى تملوا» المتفق عليه أن الله يوصف بالملل؟.

فأجاب: من المعلوم أن القاعدة عند أهل السنة والجماعة أننا نصف الله تبارك وتعالى بما وصف به نفسه من غير تمثيل، ولا تكييف.

فإذا كان هذا الحديث يدل على أن لله مللا فإن ملل الله ليس كمثل مللنا نحن، بل هو ملل ليس فيه شيء من النقص، أما ملل الإنسان فإن فيه أشياء من النقص؛ لأنه يتعب نفسيا وجسميا مما نزل بعد لعدم قوة تحمله، وأما ملل الله إن كان هذا الحديث يدل عليه فإنه ملل يليق به عَزَّوَجَلَّ، ولا يتضمن نقصا بوجه من الوجه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٧٤): هل نثبت صفة الملل لله عَزَّوَجَلَّ؟.

فأجاب: جاء في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «فإن الله لا يمل حتى تملوا» فمن العلماء من قال إن هذا دليل على إثبات الملل لله، لكن ملل الله ليس كملل المخلوق، إذ إن ملل المخلوق نقص، لأنه يدل على سأمه وضجره من هذا الشيء، أما ملل الله فهو كمال وليس فيه نقص، ويجري هذا كسائر الصفات التي نثبتها لله على وجه الكمال وإن كانت في حق المخلوق ليست كمالا.

ومن العلماء من يقول: إن قوله: «لا يمل حتى تملوا» يراد به بيان أنه مهما عملت من عمل فإن الله يجازيك عليه، فاعمل ما بدا لك فإن الله لا يمل من ثوابك حتى تمل من العمل، وعلى هذا فيكون المراد بالملل لازم الملل.

ومنهم من قال: إن هذا الحديث لا يدل على صفة الملل لله إطلاقا لأن قول القائل: لا أقوم حتى تقوم لا يستلزم قيام الثاني وهذا أيضا «لا يمل حتى تملوا» لا يستلزم ثبوت الملل لله عز وجل.

وعلى كل حال يجب علينا أن نعتقد أن الله تعالى منزه عن كل صفة نقص من الملل وغيره، وإذا ثبت أن هذا الحديث دليل على الملل فالمراد به ملل ليس كملل المخلوق.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (١/ ١٧٥): عن أنواع التعطيل؟.

فأجاب: التعطيل نوعان:

الأول: تعطيل تكذيب وجحد، وهذا كفر. ومثاله رجل قال: إن الله لم يستو على العرش. فهذا جحود وتكذيب؛ لأن الله تعالى يقول: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} . ومن كذب خبر الله فهو كافر.

الثاني: تعطيل تأويل، وهذا هو معترك الخلاف بين العلماء هل يحكم على من عطل تأويلا بالكفر أولا؟ ومثاله رجل أثبت أن الله على العرش استوى، لكن قال: أقول: إن معناه استولى فهذا تعطيل تأويل، وهذا قد لا يكفر به الإنسان، ولهذا لا نكفر من فسر الاستواء بالاستيلاء.

وهذا النوع في الحقيقة فيه تفصيل: فأحيانا يكون الإنسان مبتدعا غير كافر، وأحيانا يكون مبتدعا كافرا حسب ما تقتضيه النصوص الشرعية في ذلك.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (١/ ١٢٤): عن حكم إنكار شيء من

أسماء الله تعالى أو صفاته؟.

فأجاب: الإنكار نوعان:

النوع الأول: إنكار تكذيب، وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحدا أنكر اسما من أسماء الله، أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة، مثل أن يقول: ليس لله يد، فهو كافر بإجماع المسلمين؛ لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة.

النوع الثاني: إنكار تأويل، وهو أن لا يجحدها، ولكن يئولها وهذا نوعان:

الأول: أن يكون لهذا التأويل مسوغ في اللغة العربية فهذا لا يوجب الكفر.

الثاني: أن لا يكون له مسوغ في اللغة العربية فهذا موجب للكفر، لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار تكذيبا، مثل أن يقول: ليس لله يد حقيقة، ولا بمعنى النعمة، أو القوة، فهذا كافر؛ لأنه نفاها نفيا مطلقا فهو مكذب حقيقة، ولو قال في قوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} المراد بيديه السماوات والأرض فهو كافر، لأنه لا يصح في اللغة العربية، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية فهو منكر مكذب.

لكن إن قال: المراد باليد النعمة أو القوة فلا يكفر لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى النعمة قال الشاعر:

وكم لظلام الليل عندك من يد ... تحدث أن المانوية تكذب

من "يد" أي: من نعمة؛ لأن المانوية يقولون: إن الظلمة لا تحدث الخير وإنما تحدث الشر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٧٧): عن حكم من يعتقد أن صفات الخالق مثل صفات المخلوق؟.

فأجاب: الذي يعتقد أن صفات الخالق مثل صفات المخلوق ضال، ذلك

أن صفات الخالق لا تماثل صفات المخلوقين بنص القرآن الكريم قال الله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} . ولا يلزم من تماثل الشيئين في الاسم أو الصفة أن يتماثلا في الحقيقة هذه قاعدة معلومة.

أليس للآدمي وجه. وللبعير وجه؟ اتفقا في الاسم لكن لم يتفقا في الحقيقة. وللجمل يد، وللذرة يد، فهل اليدان متماثلتان؟

الجواب لا، إذن لماذا لا تقول: لله عَزَّ وَجَلَّ وجه ولا يماثل أوجه المخلوقين، ولله يد ولا تماثل أيدي المخلوقين؟ ! قال الله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} .

وقال: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ} . هل هناك يد من أيدي المخلوقين تكون كهذه اليد؟ لا. إذا يجب أن نعلم أن الخالق لا يماثل المخلوق، لا في ذاته، ولا في صفاته: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ولذلك لا يجوز أبدا أن تتخيل كيفية صفة من صفات الله، أو أن تظن أن صفات الله كمثل صفات المخلوق.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٧٨): عن الحكمة من إيجاد الكرام الكاتبين مع أن الله يعلم كل شيء؟.

فأجاب: نقول في مثل هذه الأمور: إننا قد ندرك حكمتها وقد لا ندرك، فإن كثيرا من الأشياء لا نعلم حكمتها كما قال الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} فإن هذه المخلوقات لو سألنا سائل ما الحكمة أن الله جعل الإبل على هذا الوجه، وجعل الخيل على هذا الوجه وجعل الحمير على هذا الوجه، وجعل الآدمي على هذا الوجه، وما أشبه ذلك. لو سألنا عن الحكمة في هذه الأمور ما علمناها، ولو سئلنا ما الحكمة

في أن الله ﷻ جعل صلاة الظهر أربعا، وصلاة العصر أربعا، والمغرب ثلاثا، وصلاة العشاء أربعا وما أشبه ذلك ما استطعنا أن نعلم الحكمة في ذلك وبهذا علمنا أن كثيرا من الأمور الكونية، وكثيرا من الأمور الشرعية تخفى علينا حكمتها، وإذا كان كذلك فإنا نقول: إن التماسنا للحكمة في بعض الأشياء المخلوقة أو المشروعة، إن من الله علينا بالوصول إليها فذاك زيادة فضل وخير وعلم، وإن لم نصل إليها فإن ذلك لا ينقصنا شيئا.

ثم نعود إلى جواب السؤال وهو ما الحكمة في أن الله ﷻ وكل بنا كراما كاتبين يعلمون ما نفعل؟

فالحكمة من ذلك بيان أن الله - سبحانه وتعالى - نظم الأشياء وقدرها، وأحكمها إحكاما متقنا، حتى إنه سبحانه وتعالى جعل على أفعال بني آدم وأقوالهم كراما كاتبين موكلين بهم يكتبون ما يفعلون، مع أنه سبحانه وتعالى عالم بما يفعلون قبل أن يفعلوه، ولكن كل هذا من أجل بيان كمال عناية الله ﷻ بالإنسان، وكمال حفظه تبارك وتعالى وأن هذا الكون منظم أحسن نظام ومحكم أحسن إحكام. والله عليم حكيم.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (١/ ١٢٤): عن صفة الهرولة؟.

فأجاب: صفة الهرولة ثابتة لله تعالى كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقول: الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي» فذكر الحديث، وفيه: «وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»، وهذه الهرولة صفة من صفات أفعاله التي يجب علينا الإيمان بها من غير تكييف ولا تمثيل؛ لأنه أخبر بها عن نفسه وهو أعلم بنفسه، فوجب علينا قبولها بدون تكييف؛ لأن التكييف قول على الله بغير علم وهو حرام، وبدون تمثيل؛ لأن الله

يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٨٣): من محمد الصالح العثيمين إلى أخيه المكرم الشيخ. . . حفظه الله تعالى، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد: ففي هذا اليوم وصل إلي كتابكم، وقد فهمت ما فيه، وقد تضمن ملاحظة فضيلتكم على كلامي فيما يتعلق بالحديث القدسي الذي رواه النبي عن ربه تبارك وتعالى، أنه قال: «من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا، ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» . وكان في إثبات الهرولة لله تعالى إشكال عندكم.

فيا محب: تعلم أن هذا الحديث أخبر الله تعالى به عن نفسه، ونقله عنه أمينه على وحيه ورسوله إلى عباده، ومبلغ رسالته على الوجه الأتم، ونقله عن هذا الرسول أمناء أمته من الصحابة والتابعين، وأئمة الأمة من أهل الحديث والفقه، وتلقته الأمة بالقبول.

وتعلم يا محب: أن الله - تبارك وتعالى - أعلم بنفسه وبغيره: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾

وتعلم يا محب: أن الله تعالى لم يطلع خلقه على ما علمه إياهم من أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، إلا ليبين لهم الحق حتى لا يضلوا: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

وتعلم يا محب: أنه لا أحد أحسن من الله حديثا ولا أصدق منه قيلا، وأن كلامه جل وعلا في أعلى غاية الفصاحة والبيان.

وقد قال سبحانه عن نفسه: «من أتاني يمشي أتيته هرولة» . فلا تستوحش يا

أخي من شيء أثبته الله تعالى لنفسه بعد أن علمت ما سبق، واعلم أنك إذا نفيت أن الله تعالى يأتي هرولة فسيكون مضمون هذا النفي صحة أن يقال: إن الله لا يأتي هرولة. وفي هذا ما فيه.

ومن المعلوم أن السلف يؤمنون بأن الله تعالى يأتي إتيانا حقيقيا للفصل بين عباده يوم القيامة على الوجه اللائق به، كما دل على ذلك كتاب الله تعالى، وليس في هذا الحديث القدسي إلا أن إتيانه يكون هرولة لمن أتاه يمشي فمن أثبت إتيان الله تعالى، حقيقة لم يشكل عليه أن يكون شيء من هذا الإتيان بصفة الهرولة على الوجه اللائق به. وأي مانع يمنع من أن نؤمن بأن الله تعالى يأتي هرولة، وقد أخبر الله تعالى به عن نفسه وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، وليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وليس في إتيان الله تعالى هرولة على الوجه اللائق به بدون تكييف ولا تمثيل شيء من النقص، حتى يقال: إنه ليس ظاهر الكلام، بل هو فعل من أفعاله يفعله كيف يشاء، ولهذا لم يأت في كلام الله تعالى عنه، ولا في كلام رسول الله ﷺ ما يصرفه عن ذلك كما أتى في الحديث القدسي: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني» . الحديث.

وأما قول فضيلتكم: "لم أجد عن الصحابة والتابعين ذكر لإثبات هذه الصفة" أي الهرولة، فإن فضيلتكم لا يخفى عليه أن هذه الصفة جاء إثباتها لله تعالى فيما أخبر الله به نفسه عن نفسه " أتيته هرولة "، وفيما نقله عنه أمينه على وحيه ورسوله إلى من أرسله إليهم من خلقه، وفيما رواه الصحابة عن رسول الله ﷺ، وفيما رواه التابعون عن الصحابة، وفيما رواه أئمة الأمة بعدهم إلى عصرنا هذا، كلهم يقولون عن الله: "أتيته هرولة".

فقد ذكرت في كلام الله في الحديث القدسي، وفي كلام رسوله، وفي كلام الصحابة، وفي كلام التابعين، وفي كلام الأئمة بعدهم رواية ودراية نقلا وقبولا، ولله الحمد.

ولا يخفى على فضيلتكم القاعدة العامة عند السلف من أن نصوص الصفات تجري على ظاهرها اللائق بالله تعالى بلا كيف؛ كما اشتهر عنهم قولهم: "أمروها كما جاءت بلا كيف". وهذه القاعدة تجري على كل فرد من أفراد النصوص، وإن لم ينصوا عليه بعينه، ولا يمكننا أن نخرج عنها نصا واحدا إلا بدليل عن السلف أنفسهم، ولو قلنا: إنه لا بد أن ينصوا على كل نص بعينه لم يكن لهذه القاعدة فائدة. ومن ذلك هذا الحديث الذي نحن بصدد الكلام عليه، فإن ظاهره ثبوت إتيان الله تعالى هرولة، وهذا الظاهر ليس ممتنعا على الله عز وجل؛ لأنه لا يتضمن نقصا فيكون داخلا في القاعدة المذكورة، فيثبت لله تعالى حقيقة، ويصان عن الأوهام الباطلة من التمثيل والتكييف.

ولا يخفى على فضيلتكم أن هذا الحديث ليس فيه شيء من المشاكلة؛ فإن الإشكال عندكم فيما ظهر لي ليس في مجرد الإتيان، ولكن في إثبات الهرولة. والهرولة إنما ذكرت في الحديث في إتيان الله تعالى فقط. أما في إتيان المخلوق فقال: "من أتاني يمشي " والفرق بين مطلق المشي والهرولة ظاهر وحينئذ فلا مشاكلة.

ثم إن المشاكلة عند من قال بها تكون في أحد الطرفين حقيقة، وفي الثاني غير حقيقة، لكن ذكرت بلفظه للتشاكل.

ثم إن فتح باب المشاكلة ينفتح به إشكالات، ألا ترى أن الذاهبين لذلك أنكروا من أجله صفات يثبتها السلف أهل السنة:

فقالوا: إن الاستهزاء الذي أخبر الله عنه نفسه في قوله: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} من المشاكلة.

وقالوا: إن الخداع الذي أخبر الله به عن نفسه في قوله: {وَهُوَ خَادِعُهُمْ} من المشاكلة.

وقالوا: إن المكر الذي أخبر الله به عن نفسه في قوله: {وَيَمْكُرُ اللَّهُ} من المشاكلة.

وقالوا: إن الكيد الذي أخبر الله به عن نفسه في قوله: {وَأَكِيدُ كَيْدًا} من المشاكلة.

وقالوا: إن الرضى الذي أخبر الله به عن نفسه في قوله: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ} من المشاكلة.

إلى غير هذا مما ذكروه ونفوا من أجله حقيقة ما وصف الله به نفسه من ذلك.

ولعل فضيلتكم يرجع إلى ما كتبته عن القول الثاني في تفسير الحديث، والذي ذهب إليه بعض الناس، فإن العلة فيه عندي غير المشاكلة؛ لأني أرى أن التعليل بالمشاكلة تعليل ينفتح به ما لا يمكن دفعه، كما أنه عند التأمل لا مشاكلة في الحديث لما بينته آنفا.

وأما ما تفضل به فضيلته من ملاحظة على قولي: "إن الحديث خرج مخرج المثال فيكون المعنى من أتاني يمشي في عبادة تفتقر إلى المشي" من وجهين:

أحدها: أن لفظ (مَن) من صيغ العموم.

الثاني: أنه تفسير وتأويل لا ينضبط.

فلا يخفى على فضيلتكم أن لفظ (مَن) وغيرها من الأسماء الموصلة أو

الشرطية، عام في أفراد ما تدل عليه الصلة أو فعل الشرط فقط، فإذا قلت: من أخبرني بقدوم فلان فله كذا، كان عاما في جميع أفراد من يخبرك بقدومه، لكنه لا يتناول من أخبرك بقدوم غيره، أو من أخبرك عنه بشيء غير القدوم، فقوله تعالى في الحديث القدسي: «من أتاني يمشي في عبادة تستلزم المشي» . لم نكن أخرجنا لفظ (مَن) عن العموم حيث جعلناها شاملة لكل فرد من أفراد من أتى الله يمشي، وإتيان الله تعالى مشيا إنما يكون في عبادة

تفتقر إلى المشي ليتحقق أنه أتى الله تعالى مشيا.

وبعد هذا يتبين أن ما قلته في التفسير منضبط غير مشكل، وأنه أبعد عن أن يلزمنا الخصوم من أهل التأويل بموافقتهم أو مداهنتهم فيما أولوه من صفات الله ﷻ حيث أبقي الحديث على حقيقته اللائقة بالله تعالى، من غير تكييف ولا تمثيل.

وإن الإنسان ليجد في نفسه الخوف من أن يلقى الله ﷻ، وهو يقول: "إن الله تعالى لا يأتي هرولة" بعد أن أثبت الله ذلك لنفسه، وسبحان من قال عن نفسه: {وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ} .

ولقد تأملت هذه المسألة، وكلما هممت أن أقول بما ذهب إليه بعض الناس في هذا الحديث، وجدتني خائفا أن أقول في كلام الله ﷻ ما لا أعلم، وأن بقائي على ما يدل عليه ظاهر الحديث مع تنزيه الله ﷻ عما لا يليق به من مماثلة الخلق، ومع الكف عن تكييف صفاته أسلم في عقيدتي، وأبعد لي عن التكلف ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

وإني لأشكر فضيلتكم على ما أتحفتموني به من كلام شيخ الإسلام في نقضه كلام الرازي، فنعم التحفة، ونعم من أتحف بها أصلا ونقلا.

ولا يخفى على فضيلتكم ما لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - من التحقيق في المنقول والمعقول مما جعل كلامه - رحمه الله تعالى - له الأثر في النفوس والقبول تغمده الله برحمته وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرا.

لكن لا يخفى على فضيلتكم أن جل كلامه الذي نقلتم إنما هو في مسألة التقرب؛ لأنه هو الذي ذكر بلفظ المساحة، ومع ذلك فقد أورده الشيخ رحمه الله تعالى بذلك الترديد حيث قال:

"إما أن يكون ظاهر اللفظ في تقرب العبد إلى ربه هو تقرب بالمساحة المذكورة أو لا يكون، فإن كان ذلك هو ظاهر اللفظ، فإما أن يكون ممكنا أو لا يكون، فإن كان ممكنا فالآخر أيضا ممكن، ولا يكون في ذلك مخالفة للظاهر، وإن لم يكن ممكنا فمن أظهر الأشياء للإنسان علمه بنفسه وسعيه، فيكون قد ظهر للمخاطب معنى قربه بنفسه، وقد علم أن قرب ربه إليه من جنس ذلك، فيكون الآخر أيضا ظاهرا في الخطاب. فلا يكون ظاهر الخطاب هو المعنى الممتنع بل ظاهره هو المعنى الحق، ومن المعلوم أنه ليس ظاهر الخطاب أن العبد يتقرب إلى الله تعالى بحركة بدنه شبرا وذراعا ومشيا وهرولة. لكن قد يقال: عدم ظهور هذا هو للقرينة الحسية العقلية، وهو أن العبد يعلم أن تقربه ليس على هذا الوجه، وذلك لا يمنع أن يكون ظاهر اللفظ متروكا. فيقال: هذه القرينة الحسية الظاهرة لكل أحد هي أبلغ من القرينة اللفظية، فيكون بمعنى الخطاب ما ظهر بها لا ما ظهر بدونها". اهـ. المقصود منه.

فأنت ترى - حفظك الله - أن الشيخ - رحمه الله تعالى - جعل الأمر مترددا بين أن يكون التقرب بالمساحة ظاهر اللفظ أو لا يكون، وأنه إن كان ظاهر اللفظ فإما أن يكون ممكنا أو لا يكون، وأنه إن كان ممكنا فالآخر أيضا ممكن،

وإن لم يكن ممكنا فالآخر من جنس ذلك، ولا يمكن أن يكون غير الممكن ظاهر الخطاب لامتناعه، يعني أننا إذا قلنا: إن تقرب العبد إلى ربه بالمساحة (الشبر والذراع) غير ممكن، صار تقرب الله تعالى الذراع والباع غير ممكن، وإذا كان غير ممكن امتنع أن يكون هو ظاهر الخطاب

لأنه لا يمكن أن يكون ظاهر كلام الله تعالى أمرا مستحيلا.

وأما قوله رحمه الله تعالى: "ومن المعلوم أنه ليس ظاهر الخطاب أن العبد يتقرب إلى الله تعالى بحركة بدنه شبرا وذراعا ومشيا وهرولة". فإنه قد يقال: ما الذي يمنع ذلك فإن العبد يتقرب إلى ربه بحركة قلبه وحركة بدنه، ولهذا يقال: القلوب جوالة، فقلب يحوم حول العرش، وقلب يتجول حول الحش. وحركة القلب وشعور العبد بقربه من ربه بقلبه أمر معلوم، وكذلك حركة البدن التي يتقرب العبد بها إلى ربه بقلبه أمر معلوم، وكذلك حركة البدن التي يتقرب العبد بها إلى ربه بكون الحركة في شأن موسى: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} . قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كلمه الله تعالى وناداه وقربه فناجاه".

ولا يخفى على فضيلتكم ما رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - أن النبي ﷺ قال: «إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء، فيقول لهم: انظروا إلى عباد جاءوني شعثا غبرا» . وما رواه أحمد ومسلم من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول:ما أراد هؤلاء» . ودنوه - جل وعلا - كما يعلم فضيلتكم لا ينافي علوه تعالى، قال شيخ الإسلام في الفتاوى: (جمع ابن قاسم) ٤٦ / ٥): "وأصل هذا أن قربه سبحانه ودنوه من بعض مخلوقاته لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش، بل

هو فوق العرش، ويقرب من خلقه كيف يشاء، كما قال ذلك من قاله من السلف، وهذا كقربه إلى موسى لما كلمه من الشجرة". إلى أن قال ٤٦٤: "وإذا كان المنادي هو الله رب العالمين، وقد ناداه من موضع معين وقربه إليه دل ذلك على ما قاله السلف من قربه ودنوه من موسى عليه السلام، مع أن هذا قرب مما دون السماء". إلى أن قال ٤٦٥: "وقربه من العباد بتقربهم إليه مما يقربه جميع من يقول: إنه فوق العرش، سواء قالوا مع ذلك: إنه تقوم به الأفعال الاختيارية أم لم يقولوا.

وأما من ينكر ذلك فمنهم من يفسر قرب العباد بكونهم يقاربونه ويشابهونه من بعض الوجوه، فيكونون قريبين منه، وهذا تفسير أبي حامد والمتفلسفة، ومنهم من يفسر قربهم بطاعته، ويفسر قربه بإثابته، وهذا تفسير جمهور الجهمية، فإنهم ليس عندهم قرب ولا تقريب أصلا.

ومما يدخل في معاني القرب - وليس في الطوائف من ينكره - قرب المعروف والمعبود إلى قلوب العارفين والعابدين، فإن كل من أحب شيئا فإنه لا بد أن يعرفه، ويقرب من قلبه، والذي يبغضه يبعد من قلبه".

إلى أن قال ٤٦٦: "والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته هو القول المعروف للسلف والأئمة، وهو قول الأشعري وغيره من الكلابية، فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته". إلى أن قال: "وأما دنوه نفسه وتقربه من بعض عباده فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ومجيئه يوم القيامة، ونزوله، واستوائه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف، وأئمة الإسلام المشهورين، وأهل الحديث والنقل عنهم بذلك متواتر، وأول من أنكر هذا في الإسلام الجهمية، ومن وافقهم من المعتزلة".

وفي ص ٣١ / ٦: "لكن عموم المسلمين وسلف الأمة وأهل السنة من جميع الطوائف تقر بذلك، فيكون العبد متقربا بحركة روحه وبدنه إلى ربه، مع إثباتهم أيضا التقرب منهما إلى الأماكن المشرفة، وإثباتهم أيضا تحول روحه وبدنه من حال إلى حال.

فالأول: مثل معراج النبي ﷺ وعروج روح العبد إلى ربه، وقربه منه في السجود وغير ذلك.

والثاني: مثل الحج إلى بيته وقصده في المساجد.

والثالث: مثل ذكره له ودعائه ومحبته وعبادته وهو في بيته، لكن في هذين يقرون أيضا بقرب الروح أيضا إلى الله نفسه فيجمعون بين الأنواع كلها".

قال في ص ١٣/ ٦: "وإذا كان قرب عباده منه نفسه وقربه منهم ليس ممتنعا عند الجماهير من السلف وأتباعهم من أهل الحديث والفقهاء والصوفية وأهل الكلام لم يجب أن يتأول كل نص فيه ذكر به، من جهة امتناع القرب عليه، ولا يلزم من جواز القرب عليه أن يكون كل موضع ذكر فيه قربه يراد به قربه بنفسه، بل يبقى هذا من الأمور الجائزة، وينظر في النص الوارد فإن دل على هذا حمل عليه، وإن دل على هذا حمل عليه، وهذا كما تقدم في لفظ الإتيان والمجيء".اهـ.

ففي هذا الكلام من تقرير تقرب العبد إلى ربه بحركة روحه وبدنه، وأن قرب العباد منه نفسه وقره منهم ليس ممتنعا عند الجماهير من السلف وأتباعهم، ما يخالف ما ذكره في نقضه على الرازي، وعليه فيكون للشيخ رحمه الله تعالى في هذا قولان، ولكن أيهما أقرب أن يكون أرجح عنده؟

قد يقال: إن الثاني أقرب أن يكون أرجح؛ لأن فيه زيادة، ولأنه ساقه جازما به، بخلاف الأول فإنه كان فيه ترديد. والله أعلم.

وخلاصة القول: أن إبقاء النص على ظاهره أولى وأسلم فيما أراه، ولو ذهب ذاهب إلى تأويله لظهور القرينة عنده في ذلك لوسعه الأمر لاحتماله. والله تعالى رقيب على قول كل قائل وقلبه. فنسأل الله تعالى الهداية والتوفيق، لما يحب ويرضى إنه جواد كريم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٩٤): الحمد لله، وبعد، فقد اطلعت على تعليق كتبه مختصر تفسير المنار الشيخ القاضي محمد أحمد كنعان ص ٣٧٨ - ٣٨٩ جـ ٢ تضمن مسائل ثلاثا يجب التنبيه عليها:

الأولى: قوله: "فالإمام مالك وغيره من السلف نفوا الكيف أصلا معلوما ومجهولا؛ لأنهما في النتيجة سواء من حيث نسبة الكيف إلى الله تعالى، والكيف عليه تعالى محال".

وهذا القول غير صحيح، فإن السلف لا ينفون الكيف مطلقا؛ لأن نفي الكيف مطلقا نفي للوجود؛ إذ ما من موجود إلا وله كيفية، لكنها قد تكون معلومة، وقد تكون مجهولة، وكيفية ذات الله تعالى وصفاته مجهولة، وكيفية ذات الله تعالى وصفاته مجهولة لنا، ولا يحل لنا أن نكيف شيئا من ذلك؛ لأننا إن قيدنا هذه الكيفية بما نشاهده فهذا هو التمثيل الممتنع في حق الله تعالى، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته، وإن لم نقيد الكيفية بما نشاهده وإنما تصورنا كيفية معينة لا نظير لها فيما نشاهد كان ذلك قولا على الله تعالى بغير علم، وهو حرام؛ لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} . وعلى هذا فثبت كيفية لا نعلمها ولا يحل لنا أن نتصورها بشيء معين، سواء قيدناها بمماثل نشاهده أم لا.

وأما قوله: "إن الإمام مالك لا يقول: والكيف مجهول". فالجزم بأنه لا يقول بذلك جزم بما لا علم فيه. وأما كون هذا غير الوارد عنه فصحيح، فإن الوارد بالسند عنه قوله: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة". كما رواه البيهقي وأبو الشيخ الأصبهاني، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: "غير معقول" أي أنا لا ندركه بعقولنا، فإذا لم ندركه بعقولنا ولم يرد به السمع، فقد انتفى عنه الدليلان العقلي والسمعي، فوجب الكف عنه، وتعذرت الإجابة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية: "فقول ربيعة ومالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب". موافق لقول الباقين: "أمروها كما جاءت بلا كيف" فإنما نفوا علم الكيفية ولم ينفوا حقيقة الصفة". اهـ.

فتأمل قول الشيخ: "فإنما نفوا علم الكيفية". ولم يقل: نفوا الكيفية يتبين لك أن السلف يثبتون الكيفية لكنها مجهولة لنا، ويدل لذلك أن الإمام مالكا وشيخه - رحمهما الله - لم يقولا: الكيف مستحيل أو غير ممكن ولو كان هذا هو الحق الذي يجب لله لبينه السلف رحمهم الله.

والحاصل أن نفي الكيفية عن الاستواء مطلقا هو تعطيل محض لهذه الصفة؛ لأننا إذا أثبتنا الاستواء حقيقة لزم أن يكون له كيفية، وهكذا يقال في بقية الصفات.

المسألة الثانية قوله: "ولا يجوز أن يفهم من الاستواء معنى لا يليق بالله، مثل الاستقرار، أو الجلوس، أو القعود".

وهذا القول غير صحيح على إطلاقه، فإن قوله: "لا يجوز أن يفهم من الاستواء معنى لا يليق بالله " صحيح فإن كل ما وصف الله تعالى به نفسه من

الاستواء وغيره لا يجوز أن نفهم منه معنى لا يليق بالله، ولكن ما هو المرجع والميزان فيما يليق بالله تعالى وما لا يليق؟

إن قلت: المرجع إلى ذلك العقول لزم من ذلك محذوران عظيمان:

أحدهما أن يكون المرجع فيما يجب لله تعالى من صفات الكمال وما ينزه من صفات النقص هو العقل، ومن المعلوم قصور العقول عن إدراك ما يجب لله تعالى إثباتا أو نفيا على سبيل التفصيل. قال الله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} . فإذا علم قصور العقول عن ذلك فكيف يمكن أن تكون ميزانا لما لا يمكن أن تدركه؟ !

الثاني: أن عقول هؤلاء الذين زعموا أن المرجع في ذلك العقول كانت مضطربة متناقضة يوجب بعضها ما يرى الآخر امتناعه، فكيف تكون هذه العقول المضطربة أدلة وبراهين في إثبات ما يثبت لله تعالى ونفي ما ينفى عنه؟ !

وأما تمثيله لما لا يليق بالله بتفسير الاستواء على العرش بالاستقرار عليه والجلوس والقعود فغير صحيح، فأما تفسير استواء الله تعالى على عرشه باستقراره عليه فهو مشهور عن السلف، نقله ابن القيم في النونية وغيره. وأما الجلوس والقعود فقد ذكره بعضهم، لكن في نفسي منه شيء. والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله: "أو المكان " يعني أنه لا يليق بالله عز وجل. وهذا أيضا غير صحيح على إطلاقه، فإنه إن أراد بنفي المكان المكان المحيط بالله عز وجل فهذا النفي صحيح، فإن الله تعالى لا يحيط به شيء من مخلوقاته، وهو أعظم وأجل من أن يحيط به شيء، كيف {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} .

وإن أراد بنفي المكان نفي أن يكون الله تعالى في العلو فهذا النفي غير

صحيح، بل هو باطل بدلالة الكتاب والسنة، وإجماع السلف والعقل والفطرة، وقد ثبت «عن النبي ﷺ أنه قال للجارية: "أين الله؟". قالت: في السماء. قال لمالكها: "أعتقها فإنها مؤمنة"» . وكل من دعا الله ﷻ فإنه لا ينصرف قلبه إلا إلى العلو، هذه هي الفطرة التي فطر الله الخلق عليها لا ينصرف عنها إلا من اجتالته الشياطين، لا تجد أحدا يدعو الله ﷻ وهو سليم الفطرة ثم ينصرف قلبه يمينا أو شمالا أو إلى أسفل، أو لا ينصرف إلى جهة، بل لا ينصرف قلبه إلا إلى فوق.

يسبه؛ لأنه محل هذه الأمور المكروهة فهذا محرم؛ لأنه مناف للصبر الواجب وليس بكفر؛ لأنه ما سب الله مباشرة، ولو سب الله مباشرة لكان كافرا.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٩٨): كيف نجمع بين قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر» . . " الحديث، وبين قول الرسول ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها» الحديث؟.

فأجاب: حديث «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها» لا أدري عن صحته، والذي أظن أنه ضعيف، ولكن على تقدير صحته فليس هذا من باب السب، إنما هو من باب الخبر وأنه لا خير فيها إلا عالم ومتعلم، أو ذكر الله وما والاه، وأما سب الدهر فهو عيبه ولومه والتسخط مما وقع فيه، وإضافة هذا الشيء إلى الدهر مع أن الأمر كله بيد الله ﷻ كما جاء في الحديث نفسه: «وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار» .

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٩٨): عن هذه العبارات: "هذا زمان أقشر"، أو "الزمن غدار" أو "يا خيبة الزمن الذي رأيتك فيه"؟.

فأجاب: هذه العبارات التي ذكرت في السؤال تقع على وجهين:

الوجه الأولى: أن تكون سبا وقدحا في الزمن فهذا حرام، ولا يجوز؛ لأن ما

حصل في الزمن فهو من الله ﷻ، فمن سبه فقد سب الله، ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار» . والوجه الثاني: أن يقولها على سبيل الإخبار فهذا لا بأس به، ومنه قوله تعالى عن لوط، عليه الصلاة والسلام: {وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} أي شديد، وكل الناس يقولون: هذا يوم شديد. وهذا يوم فيه كذا وكذا من الأمور وليس فيه شيء.

وأما قول: "هذا الزمن غدار" فهذا سب؛ لأن الغدر صفة ذم ولا يجوز.

وقول: "يا خيبة اليوم الذي رأيتك فيه" إذا قصد يا خيبتي أنا، فهذا لا بأس فيه، وليس سبا للدهر، وإن قصد الزمن أو اليوم فهذا سب فلا يجوز.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٢٠٣): عن حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله قال: «يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» . رواه البخاري؟.

فأجاب: هذا الحديث حديث عظيم ذكر بعض أهل العلم أنه بلغ حد التواتر عن النبي، ولا شك أنه حديث مستفيض مشهور، وقد شرحه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكتاب مستقل، لما فيه من الفوائد العظيمة، ففيه ثبوت النزول لله سبحانه وتعالى لقوله:" يتنزل ربنا" والنزول من صفات الله الفعلية؛ لأنه فعل وهذا النزول نزول الله نفسه حقيقة؛ لأن الرسول أضافه إلى الله، ونحن نعلم أن الرسول أعلم الناس بالله، ونعلم كذلك أن الرسول أفصح الخلق، ونعلم كذلك أنه أصدق الخلق فيما يخبر به، فليس في كلامه شيء من الكذب، ولا يمكن أن يتقول على الله تعالى شيئا لا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في

أحكامه، قال الله تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} . ونعلم كذلك أن رسول الله ﷺ أنصح الخلق، وأنه ﷺ لا يساويه أحد من الخلق في النصحية للخلق، ونعلم كذلك أنه ﷺ لا يريد من العباد إلا أن يهتدوا، وهذا من تمام نصحه أنه لا يريد منهم أن يضلوا، فهو عليه الصلاة والسلام، أعلم الخلق بالله، وأنصح الخلق للخلق، وأفصح الخلق فيما ينطق به، وكذلك لا يريد إلا الهداية للخلق فإذا قال: "ينزل ربنا " فإن أي إنسان يقول: خلاف ظاهر هذا اللفظ قد اتهم النبي ﷺ إما بأنه غير عالم، فمثلا إذا قال: المراد ينزل أمره. نقول: أنت أعلم بالله من رسول الله ﷺ فالرسول يقول: "ينزل ربنا " وأنت تقول: ينزل أمره أأنت أعلم أم رسول الله؟ ! أو أنه اتهمه بأنه لا يريد النصح للخلق حيث عمى عليهم فخاطبهم بما يريد خلافه، ولا شك أن الإنسان الذي يخاطب الناس بما يريد خلافه غير ناصح لهم أو نقول: أنت الآن اتهمت الرسول ﷺ بأنه غير فصيح، بل هو عيي يريد شيئا ولكن لا ينطق به، يريد ينزل أمر ربنا ولكن يقول: ينزل ربنا لأنه لا يفرق بين هذا وهذا، فكلامك هذا لا يخلو من وصمة الرسول ﷺ فعليك أن تتقي الله، وأن تؤمن بما قال الرسول ﷺ من أن الله تعالى نفسه ينزل حقيقة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٢٠٤): هل يستلزم نزول الله عَزَّ وَجَلَّ أن يخلو العرش منه أو لا؟.

فأجاب: أصل هذا السؤال تنطع، وإيراده غير مشكور عليه مورده، لأننا نسأل هل أنت أحرص من الصحابة على فهم صفات الله؟ إن قال: نعم فقد كذب. وإن قال: لا. قلنا: فليسعك ما وسعهم، فهم ما سألوا الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله إذا نزل هل يخلو منه العرش؟ وما لك ولهذا السؤال، قل: ينزل

واسكت. يخلو منه العرش أو ما يخلو، هذا ليس إليك، أنت مأمور بأن تصدق الخبر ولا سيما ما يتعلق بذات الله وصفاته؛ لأنه أمر فوق العقول فإذا نقول: هذا السؤال تنطع أصلا لا يرد، وكل إنسان يريد الأدب كما تأدب الصحابة مع رسول الله ﷺ فإنه لا يورده، فإذا قدر أن شخصا ابتلي بأن وجد العلماء بحثوا في هذا واختلفوا فيه، فمنهم من يقول: يخلو، ومنهم من يقول: لا يخلو، ومنهم من توقف، فالسبيل الأقوم في هذا هو التوقف، ثم القول بأنه لا يخلو منه العرش، وأضعف الأقوال القول بأنه يخلو منه العرش، فالتوقف أسلمها وليس هذا مما يجب علينا القول به؛ لأن الرسول ﷺ لم يبينه والصحابة لم يستفسروا عنه، ولو كان هذا مما يجب علينا أن نعتقده لبينه الله ورسوله بأي طريق، ونحن نعلم أنه أحيانا يبين الرسول ﷺ الحق من عنده، وأحيانا يتوقف فينزل الوحي، وأحيانا يأتي أعرابي فيسأل عن شيء، وأحيانا يسأل الصحابة أنفسهم عن الشيء، كل هذا لم يرد في هذا الحديث، فإذا لو توقفنا وقلنا: الله أعلم فليس علينا سبيل لأن هذا هو الواقع.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٢٠٥): هل إذا نزل تقله السماء؟.

فأجاب: هذا لا يكون، لأنك لو قلت: إن السماء تقله لزم أنه يكون محتاجا إليها، كما تكون أنت محتاجا إلى السقف إذا أقلك، ومعلوم أن الله غني عن كل شيء، وأن كل شيء محتاج إلى الله، فإذا نجزم بأن السماء لا تقله، لأنها لو أقلته لكان محتاجا إليها وهذا مستحيل على الله عَزَّ وَجَلَّ.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٢٠٦): هل السماء الثانية فما فوقها تكون فوقه إذا نزل إلى السماء الدنيا؟.

فأجاب: لا، ونجزم بهذا لأننا لو قلنا بإمكان ذلك لبطلت صفة العلو،

وصفة العلو لازمة لله، وهي صفة ذاتية لا تنتفي عن الله ولا يمكن أن يكون شيء فوقه. حينئذ يبقى الإنسان منبهتا كيف ينزل إلى السماء الدنيا ولا تقله ولا تكون السماوات الأخرى فوقه هل يمكن هذا؟! الجواب: إذا كنت منبهتا من هذا فإنما تنبهت إذا قست صفات الخالق بصفات المخلوق، صحيح أن المخلوق إذا نزل إلى المصباح صار السطح فوقه وصار سطح المصباح يقله، لكن الخالق لا يمكن أن يقاس بخلقه، فلا تقل: كيف؟ ولم؟

فإذا هذان السؤالان: هل السماء تقله؟

الجواب: لا لأنك إن فرضت هذا لزم أن يكون الله محتاجا إلى السماء، والله تعالى غني عن كل شيء، وكل شيء محتاج إليه.

والسؤال الثاني: هل تكون السماوات فوقه ما عدا السماء الدنيا؟

الجواب: لا؛ لأنك لو فرضت ذلك لزم انتفاء صفة العلو لله مع أن العلو من صفات الله الذاتية التي لا ينفك عنها.

فالسؤال هذا من أصله بدعة كما قال مالك للذي سأله عن الاستواء كيف استوى؟ قال: "السؤال عنه بدعة" يعني لأنه ما سأل الصحابة عنه، فأنت الآن ابتدعت في دين الله حيث سألت عن أمر ديني ما سأل عنه الصحابة وهم أفضل منك، وأحرص منك على العلم بصفات الله، لكن مع ذلك لو قال: أنا يساورني القلق أخشى أن أعتقد بصفات الله ما لا يجوز، فبينوا لي وأنقذوني، فحينئذ نبين له لأن الإنسان قد يبتلى بمثل هذه الأمور، ويأتيه الشيطان ويوسوس له، ويقول: كيف؟ وكيف؟ حتى يؤدي به إلى أحد محذورين: إما التمثيل، وإما التعطيل، فإذا جاءنا يسأل ويقول: أنقذوني ما زال هذا يتردد في خاطري ما يكفيني أن تقولوا: بدعة كيف أذهب ما في خاطري وقلبي. نقول: نبين لك.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٢٠٧): هل الذي ينزل هو الله عَزَّوَجَلَّ أو لا؟.

فأجاب: ذكرنا فيما سبق أن الذي ينزل هو الله نفسه، هكذا قال رسول الله ﷺ وهو أعلم الخلق به، وأنصحهم، وأفصحهم مقالا، وأصدقهم فيما يقول: فهو أعلم، وأنصح، وأفصح، وأصدق، وكل هذه الصفات الأربع موجودة في كلامه عليه الصلاة والسلام، فوالله ما كذب في قوله: «ينزل ربنا» ولا غش الأمة ولا نطق بعي ولا نطق عن جهل {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} بل هو الصادق المصدوق ﷺ يقول: "«ينزل ربنا عَزَّوَجَلَّ» . لكن قال بعض الناس: إن الذي ينزل أمر الله وقال آخرون: الذي ينزل رحمة الله، وقال آخرون: الذي ينزل ملك من ملائكة الله، سبحان الله هل الرسول ﷺ ما يعرف أن يعبر هذا التعبير لا يعرف أن يقول: تنزل رحمة الله، أو ينزل أمر الله، أو ينزل ملك من ملائكة الله؟ الجواب: يعرف أن يعبر ولو كان المراد ينزل أمره أو رحمته، أو ملكه، لكان الرسول عليه الصلاة والسلام ملبسا على الأمة حين قال: «ينزل ربنا» ولم يكن مبينا للأمة بل ملبسا عليهم؛ لأن الذي يقول: لك: «ينزل ربنا» وهو يريد ينزل أمره هل وضح لك وبين أو غشك ولبس عليك؟ الجواب: غشك ولبس عليك فإذا الذي ينزل هو الرب عَزَّوَجَلَّ.

وهذا التحريف ولا نقول: هذا التأويل فالقول بأن مثل هذا التحريف تأويل تلطيف للمسألة، وكل تأويل لا يدل عليه دليل فهو تحريف، نقول: هذا التحريف لا شك أنه باطل فإذا قلنا: إن الذي ينزل أمر الله في ثلث الليل فمقتضاه:

أولا: أنه في غير ثلث الليل لا ينزل أمر الله، وأمر الله نازل في كل لحظة {يُدَبِّرُ

الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ .

ثانيا: أمر الله ما ينتهي بالسماء الدنيا قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ . وليس إلى السماء الدنيا فقط، فبطل هذا التحريف من جهة أن الأمر لا يختص بهذا الجزء من الليل، وأن الأمر لا ينتهي إلى السماء بل ينزل إلى الأرض.

ورحمة الله أيضا نفس الشيء نقول رحمة الله ﷻ تنزل كل لحظة، ولو فقدت رحمة الله من العالم لحظة لهلك، فكل لحظة تنزل الرحمة وتنزل إلى الأرض، إذا ما الفائدة لنا بنزول الرحمة إلى السماء فقط، إذا لم تصلنا الرحمة فلا فائدة لنا منها، فبطل تفسيره بالرحمة بل ما يترتب على تفسيره بالأمر أو بالرحمة من اللوازم الفاسدة أعظم مما يتوهمه من صرف اللفظ إلى الأمر أو الرحمة من المفاسد في تفسيره بنزول الله نفسه.

ثالثا: هل يمكن للأمر أو الرحمة أن تقول: من يدعوني فأستجيب له إلخ؟

الجواب: لا يمكن أن تقول رحمة الله من يدعوني، ولا يمكن أن يقول أمر الله: من يدعوني، فالذي يقول هو الله ﷻ كذلك إذا قيل: إن الذي ينزل ملك من ملائكته نقول: الملك إذا نزل إلى السماء الدنيا لا يمكن أن يقول: من يدعوني. أبدا لو قال الملك: من يدعوني صار من دعاة الشرك؛ لأن الذي يجيب الداعي إذا دعاه هو الله ﷻ فلا يمكن للملك أن يقول: هكذا، حتى لو فرض أن الله أمره أن يقول لقال: من يدعو الله فيستجيب له، ولا يمكن لملك من الملائكة وهم لا يعصون الله أن يقول: من يدعوني فأستجيب له، وبهذا بطل تحريف هذا الحديث إلى هذا المعنى أن يكون النازل ملكا.

وتحريف نصوص الصفات من القرآن والسنة يجري فيها هذا المجرى، يعني أن كل التحريفات إذا تأملتها وجدت أنه يترتب عليها من المفاسد أضعاف

ما يترتب على المفاسد التي توهموها لو أجروا اللفظ على ظاهره، ولهذا نجد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سلموا من هذا، فلا يوجد عنهم حرف واحد في تحريف نصوص الصفات؛ لأنه ليس فيها إشكال عندهم يجرونها على ظاهرها، كما يجرون آيات الأحكام على ظاهرها، والغريب أن هؤلاء الذين يحرفون في نصوص الصفات وهم لا يستطيعون أن يعقلوها لو حرف أحد من نصوص الأحكام - مع أن الأحكام مربوطة بالمصالح والمصالح للعقول فيها مدخل - لو حرف أحد في نصوص الأحكام لأقاموا عليه الدنيا، وقالوا: ما يمكن أن تخرج اللفظ عن ظاهره، مع أن الأحكام مربوطة بالمصالح والمصالح للعقل فيها مجال، لكن صفات الله غير مربوطة بهذا، صفات الله طريقها الخبر المجرد يعني ما فيه تلق في صفات الله نفيا، أو إثباتا إلا من الكتاب والسنة، ومع ذلك نجد من يلعب بنصوص الكتاب والسنة فيما يتعلق بصفات الله ويحرفها حينما يرى أن العقل يقتضي ذلك، مع أن العقل الذي يدعي أنه يقتضي ذلك، عقل من؟ عقل زيد أو عمرو أو بكر. . كل واحد منهم له عقل يقول: هذا هو الحق، ولهذا تجدهم يتناقضون، بل إن الواحد منهم ينقض كلامه بعضه بعضا، يؤلف كتابا فينقض به ما في الكتاب الأول وهكذا.

حجج تهافت كالزجاج تخالها ... حقا وكل كاسر مكسور

فهم يتناقضون لأنهم على غير برهان وعلى غير أساس، فلهذا نقول: الطريق السليم، والمنهج الحكيم هو: ما درج عليه السلف من إجراء هذه النصوص على ظاهرها.

فإذا قال قائل: ظاهرها التمثيل.

قلنا له: أخطأت ليس ظاهرها التمثيل، وكيف يكون ظاهرها التمثيل وهي

مضافة إلى الله تعالى والله لا يماثله أحد في ذاته فكذلك في صفاته. فمثلا قوله تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} إذا قال: أنا لا أثبت الوجه حقيقة لأن ظاهره التمثيل، نقول: أخطأت ليس ظاهره التمثيل؛ لأن الله تعالى لم يذكر وجها مطلقا حتى يحمل على المعهود، وإنما ذكر وجها مضافا إلى ذاته {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} فإذا كان مضافا إلى ذاته وأنت تؤمن بأن ذاته لا تماثل ذوات المخلوقين وجب أن يكون وجهه لا يماثل أوجه المخلوقين. والله أكبر عليك لو قيل: يد الفيل ما فهمت أنها كيد الهرة؛ لأنها أضيفت إلى الفيل وليست يدا مطلقة حتى تقول: تشترك مع غيرها فلا يمكن أن تفهم من قول القائل: يد فيل أنه كقول القائل: يد هر، أبدا فيكف تفهم إذا قيل: يد الله بأنها كيد زيد أو عمرو؟ أبدا ما يمكن أن تفهم هذا، فكل من قال: إن ظاهر نصوص الصفات التمثيل فإنه كاذب سواء تعمد الكذب أم لم يتعمده؛ لأنه حتى الذي يقول عن تأويل خاطئ يسمى كاذبا أليس الرسول عليه الصلاة والسلام قد «قال لأبي السنابل لما أخبر بأن أبا السنابل قال لسبيعة الأسلمية: لن تنكحي حتى يمضي عليك أربعة أشهر وعشر، قال الرسول ﷺ: كذب أبو السنابل.» مع أنه ما تعمد الكذب لكنه قال قولا خاطئا فنحن نقول هذا كاذب سواء تعمد أم لم يتعمد فليس في نصوص الصفات، ولله الحمد ما يقتضي التمثيل لا عقلا ولا سمعا، ثم إن لدينا آية من كتاب الله ﷻ تمحو كل ما ادعى أن فيه تمثيلا وهي قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} . فأنت إذا جاءك نص إثبات فاقرنه بنص هذا النفي ولا تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض بل اقرنه به. فمثلا قوله تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} نقول: وليس كمثل وجه الله شيء لأن الله يقول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وعلى هذا فقس، والأمر ولله الحمد ظاهر جدا ولولا كثرة الناس الذين سلكوا هذا المسلك أعني مسلك

التأويل في قولهم والتحريف فيما نرى، لولا كثرتهم لكان الأمر غير مشكل على أحد إطلاقا؛ لأنه واضح ليس فيه إشكال، فلهذا نقول: يجب علينا أن نؤمن بأن الله ﷻ ينزل إلى السماء الدنيا هو نفسه كما نؤمن بأنه هو نفسه الذي خلق السماوات وأضاف الخلق إليه، وينزل إلى السماء هو؛ لأن الإضافة في "ينزل" كالإضافة في "خلق، ويخلق "، ولا فرق فالنازل هو الله، والخالق هو الله، والرازق هو الله، والباسط هو الله، وهكذا ولا فرق بينهما، والإنسان المؤمن الذي يتقي الله ﷻ لا يمكن أن يحرف ما أضافه الله إلى نفسه ويضيفه إلى أمر آخر، وإذا أداه اجتهاده إلى ذلك فإنه يكون معذورا لا مشكورا؛ لأن هناك فرقا بين السعي المشكور وهو ما وافق الحق، وبين العمل المعذور وهو ما خالف الحق لكن نعرف من صاحبه النصح إلا أنه التبس عليه الحق، فإن في هؤلاء المئولة الذين نرى أن عملهم تحريف فيهم من يعلم منه النصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، وللمسلمين، لكن التبس عليهم الحق فضلوا الطريق في هذه المسألة.

وفي قوله: «فيقول: من يدعوني فأستجيب له» في هذا إثبات القول لله وأنه بحرف وصوت؛ لأن أصل القول لا بد أن يكون بصوت ولو كان قولا بالنفس لقيده الله كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ} فإذا أطلق القول فلا بد أن يكون بصوت، ثم إن كان من بعد سمي نداء، وإن كان من قرب سمي نجاء.

فإذا قال قائل: نحن لا نسمع هذا القول؟

فنقول: أخبرنا به من قوله عندنا أشد يقينا مما لو سمعنا وهو الرسول ﷺ، نعلم علم اليقين بأن الله يقول: بخبر أصدق الخلق ﷺ ونحن لو سمعنا قولا، لظننا أنه وجبة شيء سقط، أو حفيف أشجار من رياح فنتوهم فيما نسمع لكن ما

قاله رسول الله ﷺ لا نتوهم فيه، فيكون خبر الرسول ﷺ عندنا بمنزلة ما سمعنا بآذاننا، بل أشد يقينا، إذا صح عنه، وهذا الحديث قد صح عنه فهو متواتر أو هو مشهور مستفيض عند أهل السنة والحديث فلذلك نقول: إن الله يقول هذا فينبغي لك وأنت تتهجد لله في هذا الزمن من الليل أن تشعر بأن الله ينادي يقول: من يدعوني فأستجيب له، فتدعو الله تعالى وأنت موقن بهذا والدعاء أن تقول: "يا رب" فهذا دعاء.

وقوله: "من يسألني " أي من يطلب مني شيئًا مثل أن تقول: (يا رب أسألك الجنة) فهذا سؤال، واجتمع في قول القائل: يا رب أسالك الجنة الدعاء والسؤال.

وقوله: "من يستغفرني فأغفر له" أي من يطلب مني المغفرة مثل أن تقول: يا رب اغفر لي فهذا استغفار، وإذا قال القائل: "اللهم إني أسالك الجنة" فقوله: "اللهم" دعاء لأن أصلها يا الله. وقوله "أسالك الجنة" هذا سؤال فيكون فيه سؤال ودعاء وفي حديث أبي بكر الذي علمه إياه النبي ﷺ: "اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم".

فهذا متضمن لثلاثة، الدعاء في قوله: "اللهم "، والاستغفار في قوله: "فاغفر لي "، وفي قوله: "وارحمني " دعاء بالرحمة.

قوله: "من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له" "من " هنا اسم استفهام، والمراد به التشويق وليس المراد به الاستخبار، لأن الله ﷻ يعلم، لكن المراد به التشويق يشوق سبحانه وتعالى عباده أن يسألوه، وأن يدعوه، وأن يستغفروه وفي هذا غاية الكرم والجود من الله سبحانه

وتعالى أنه هو الذي يشوق عباده إلى سؤاله، ودعائه، ومغفرته كقوله: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم} انظر إلى هذا الخطاب الرفيق الشيق ففيه التشويق والرفق {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} ولم يقل: "يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله" ما قال هكذا وإن كان قالها في آيات أخرى لكن في هذه الآية ما قال هكذا؛ لأن المقام يقتضي ذلك فالسورة كلها سورة جهاد من أولها إلى آخرها {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} . المهم أن في هذا الحديث وأمثاله من كرم الله ﷻ ما هو ظاهر لمن تأمله، وأهم شيء فيما تكلمنا عليه مسألة الصفات فأنا أكرر أن تلتزموا فيها ما التزمه السلف، وأن لا تحيدوا يمينا ولا شمالا، ولا تسألوا عما لم يسأله السلف، فإن هذا من التنطع والتكلف والابتداع في دين الله، وإني أقول لكم: إن الإنسان كلما تعمق في هذه الأمور فأخشى أن ينقص في قلبه من إجلال الله وعظمته بقدر ما حصل من هذا التعمق في البحث في هذه الأمور واسأل العامي، العامي إذا ذكرت الله عنده اقشعر جلده وإذا ذكرت نزوله إلى السماء الدنيا اقشعر جلده لكن أولئك الذين يتعمقون في الصفات ويحاولون أن يسألوا حتى عن الأظافر نسأل الله لنا ولهم الهداية هؤلاء إذا ذكر عندهم حديث النزول بدءوا يوردون على أنفسهم أو على غيرهم كيف تكون الحال وثلث الليل يتنقل على الكرة الأرضية؟ وكيف تكون الحال حين نزوله بالنسبة للعلو وبالنسبة للعرش؟

ونحو ذلك من الأسئلة التي تشطح بهم عن تعظيم الله ﷻ وهؤلاء بلا شك سينقص من إجلال الله ﷻ في قلوبهم بقدر ما حاولوا من التعمق في هذه الأمور، وليس إجلالنا لله ﷻ كإجلال الصحابة ولا قريبا منه، وليس حرصنا على العلم

بصفات الله كحرص الصحابة وهم ما سألوا هذه الأسئلة، ولذلك - وأنا أنصحكم لله وأرجو منكم ألا تتعمقوا في هذه الأمور فتسألوا عن أشياء لم يسأل عنها الصحابة - خذوا ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واتركوا ما عدا ذلك لئلا يوقعكم الشيطان في أمر تعجزون عن التخلص منه قد يوقعكم في التمثيل ويلزمكم إلزاما بأن تعتقدوا ذلك؛ لأن الإنسان الذي يتعمق إلى هذا الحد يخشى عليه، خذوا ما جاء في الكتاب وصحيح السنة واحمدوا الله على العافية واسلكوا سبيل السابقين، والله أعلم.

(باب ذكر مسائل الإيمان بالنظر إلى الله عز وجل)

مسائل في الباب

المسألة الأولى: انعقد إجماع أهل السنة والجماعة - رحمهم الله تعالى - على أنه جل وعلا يرى رؤية حقيقية في الآخرة على ما يريده جل وعلا من كيفيتها، فالرؤية في الآخرة من المسائل المتفق عليها ومستند هذا الإجماع القرآن والسنة، قال تعالى " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " وقد ورد في تفسيرها أنها رؤية الله تبارك وتعالى، كما في حديث صهيب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا يا أهل الجنة إن لكم موعدا قالوا: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة وينجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فيظهر فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم منه، ثم تلا هذه الآية: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)[1].

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١)، وهو من الأحرف اليسيرة جدا التي انتقدها الإمام الدارقطني على الأمام مسلم كما في الإلزامات والتتبع (ص٣٠٣-٣٠٥) ووافقه غيره، قال أبو عيسى الترمذي وأبو مسعود الدمشقي وغيرهما: لم يروه هكذا مرفوعا عن ثابت غير =

وقال تعالى " وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة " وقد تواترت أدلة السنة في ذلك، فالأدلة في إثبات الرؤية محكمة متواترة قطعية الدلالة قطعية الثبوت، لا ينازع فيها أحد من أهل السنة، ولكن أبى ذلك أهل البدع والضلال، وردوه وحاربوه، ووصفوا من أثبته بأنه مجسم حشوي، ولم يأبهوا بتلك الأدلة

=

حماد بن سلمة، ورواه سليمان بن المغيرة، وحماد بن زيد، وحماد بن واقد عن ثابت عن ابن أبي ليلى من قوله ليس فيه ذكر النبي ﷺ ولا ذكر صهيب، ونقل المزي في تحفة الأشراف (٤/ ١٩٨) كلام أبو مسعود الدمشقي وسكت عنه، ونقل الحافظ في الفتح (٨/ ٣٤٧) كلام الترمذي وسكت عنه، وقال الشيخ مقبل في تعليقه على الإلزامات والتتبع (٣٠٥): وبعد فالذي يظهر لي هو ترجيح رواية الجماعة وإن كان حماد بن سلمة أثبت الناس في ثابت فإنه تغير حفظه بآخره كما في التقريب والخطأ إلى الواحد أقرب منه إلى الجماعة. والله أعلم .

أما الإمام النووي فقد قال شرح مسلم (١٠/ ٢٦) "قال أبو عيسى الترمذي وأبو مسعود الدمشقي وغيرهما: لم يروه هكذا مرفوعا عن ثابت غير حماد بن سلمة، ورواه سليمان بن المغيرة، وحماد بن زيد، وحماد بن واقد عن ثابت عن ابن أبي ليلى من قوله ليس فيه ذكر النبي ﷺ ولا ذكر صهيب، وهذا الذي قاله هؤلاء ليس بقادح في صحة الحديث فقد قدمنا في الفصول أن المذهب الصحيح المختار الذي ذهب إليه الفقهاء وأصحاب الأصول والمحققون من المحدثين وصححه الخطيب البغدادي: أن الحديث إذا رواه بعض الثقات متصلا وبعضهم مرسلا، أو بعضهم مرفوعا وبعضهم موقوفا حكم بالمتصل وبالمرفوع لأنهما زيادة ثقة مقبولة عند الجماهير من كل الطوائف والله أعلم".اهـ.

وقال العلامة الألباني في ظلال الجنة (١/ ٢٣٨ رقم ٤٧٢): حماد بن سلمة ثقة حافظ ولا سيما في روايته عن ثابت فزيادته حجة والله أعلم ورواية سليمان بن المغيرة وحماد بن زيد وصلهما ابن جرير في تفسيره وهي مختصرة جدا عن رواية حماد بن سلمة مما يشعر أن ابن أبي ليلى كان أحيانا يختصر متنه وكذا إسناده فلا يسنده وتارة يسنده ويسوقه بتمامة والله أعلم وانظر النصيحة (ص٤٢-٤٥) .

المتواترة، ولم ينظروا فيها، بل حرفوها وأخرجوها عن دلالاتها الصحيحة، وحملوها من المعاني الباطلة الغريبة عن لسان العرب، وكل ذلك بسبب الدلالة المتشابهة في قوله تعالى " لن تراني " وقوله تعالى " لا تدركه الأبصار " ففهموا من هاتين الآيتين بأنه تعالى لا يمكن أن يرى، فجعلوا تلك الدلالة المتشابهة هي الأصل، وحقها الاعتماد، وأما الأدلة المتواترة في إثبات الرؤية فحقها التحريف والتعطيل والجحد والإنكار، فأدى بهم ذلك إلى إنكار رؤية الرب جل وعلا يوم القيامة، فانظر كيف وصلت بهم الحال إلى تعطيل عشرات النصوص المتواترة بسبب تقديم المحتمل المتشابه على الدلالة المحكمة القطعية، وأما أهل السنة فإنهم قد اعتمدوا على المحكم وردوا المتشابه إلى المحكم فاتفقت الأدلة وتآلفت، وقال أهل السنة:- إن نفي الرؤية في قوله " لن تراني " إنما هو نفي لها في الدنيا فقط، ونحن نقول بذلك فالله تعالى لا يرى ولن يرى في الدنيا، والخلاف الآن إنما هو في الرؤية يوم القيامة، وأما قوله تعالى " لا تدركه الأبصار " فإنه ليس نفيا للرؤية، وإنما هو نفي للإدراك فقط، فالأعين إذا رأت ربها تعالى يوم القيامة، فإنها لا تحيط به رؤية، فالرؤية شيء والإدراك شيء آخر، فأنت ترى السماء لكن هل تحيط برؤيتها كلها؟ وأنت ترى الأرض لكن هل تحيط برؤيتها كلها؟ بالطبع:- لا فالسماء ترى ولا يحاط بها، والأرض ترى ولا يحاط بها، فالله تعالى يرى في الآخرة ولا يحاط به فقوله تعالى " لا تدركه الأبصار " إنما هو نفي للإدراك وليس نفيا للرؤية، بل إن نفي الإدراك يتضمن إثبات الرؤية، ولو تدبرت ذلك لرأيته صحيحا، والمراد:- أن أهل البدع قدموا دلالة المتشابه على المحكم، فوقعوا في رد الأدلة الصحيحة المتواترة القطعية، وأما أهل السنة فإنهم قدموا المحكم على المحتمل، فاتزن قولهم، وصار وسطا

بين طرفين وهدى بين ضلالتين، ذلك لأن الصوفية الغلاة يعتقدون أن الله تعالى يرى في الدنيا رؤية حقيقية فضلا عن رؤيته في الآخرة، بينما ذهب أهل البدع من المعتزلة والجهمية ومن سار على منهجهم من الرافضة، وكذلك الزيدية، وكذلك الإباضية ونحوهم من طوائف الخوارج؛، والأشاعرة والماتريدية[1] إلى أنه جل وعلا لا يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة، أما بالنسبة لغلاة الجهمية والفلاسفة وغيرهم فإنهم ينكرون ما هو أكبر من الرؤية، وأما أهل الحق فإنهم توسطوا بين المذهبين فقالوا: إنه جل وعلا لا يرى في الدنيا، وإنما يرى في الآخرة، فالحق معهم، ولا يخرج البتة عنهم، ونحن نقول بما قالوا، والله ربنا يتولانا وإياك لما فيه صلاح الدين والدنيا.

وقد سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٢٢٢): عن مذهب السلف في رؤية الله ﷻ؟ وعمن يزعم "أن الله لا يرى بالعين وأن الرؤية عبارة عن كمال اليقين "؟

---

١ الأشاعرة الماتريدية، يردون على المعتزلة في نفيهم للرؤية، وهم وإن ألفوا كتبًا في إثبات الرؤية وردوا بها على المعتزلة إلا أن نفيهم لعلو الله سبحانه وتعالى أوقعهم في ورطة فيما يتعلق بإثبات الرؤية؛ لأن المعتزلة قالوا لهؤلاء الأشاعرة: لا يمكن أن تصح الرؤية إلا بإثبات العلو أما إذا نفيتم علو الله، وأثبتم الرؤية، وكانت الرؤية بلا مقابلة، فمعنى ذلك: أنكم تثبتون رؤية علمية، وهذه لا نخالفكم فيها، وبلا شك أن ما ذهب إليه الأشاعرة والماتريدية في هذه القضية مخالف لمنهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى، فإثباتهم للرؤية وإنكارهم للعلو فيه تناقض، فهم إما أن يثبتوا أن المؤمنين يرون ربهم، ويرفعون أبصارهم في الجنة فيرونه ويكلمهم ويكلمونه، وبذلك يثبتون الرؤية ويثبتون العلو، أو يسلكوا مسلك المعتزلة الذين نفوا الأمرين جميعًا؛ حيث نفوا العلو لله سبحانه وتعالى، وعلى إثره نفوا رؤية الله سبحانه وتعالى، وحملوه على الرؤية العلمية أو نحوها.

فأجاب: يقول: الله ﷻ في القرآن الكريم حين ذكر القيامة: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} . فأضاف النظر إلى الوجوه، والذي يمكن به النظر في الوجوه العين، ففي الآية دليل على أن الله سبحانه وتعالى يرى بالعين، ولكن رؤيتنا لله ﷻ لا تقتضي الإحاطة به لأن الله تعالى يقول: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} . فإذا كنا لا يمكن أن نحيط بالله علما والإحاطة العلمية أوسع وأشمل من الإحاطة البصرية دل ذلك على أنه لا يمكن أن نحيط به إحاطة بصرية ويدل لذلك قوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ} . فالأبصار وإن رأته لا يمكن أن تدركه، فالله ﷻ يرى بالعين رؤية حقيقية، ولكنه لا يدرك بهذه الرؤية، لأنه ﷻ أعظم من أن يحاط به، وهذا هو الذي ذهب إليه السلف، ويرون أن أكمل نعيم ينعم به الإنسان أن ينظر إلى وجه الله ﷻ ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك لذة النظر إلى وجهك» . قال: "لذة النظر"؛ لأن لهذا النظر لذة عظيمة لا يدركها إلا من أدركها بنعمة من الله وفضل منه، وأرجو الله تعالى أن يجعلني وإياكم منهم. هذه هي حقيقة الرؤية التي أجمع عليها السلف.

أما من زعم أن الله لا يرى بالعين وأن الرؤية عبارة عن كمال اليقين فإن قوله هذا باطل مخالف للأدلة ويكذبه الواقع؛ لأن كمال اليقين موجود في الدنيا أيضا قال النبي ﷺ في تفسير الإحسان: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» . وعبادتك لله كأنك تراه هذا هو كمال اليقين، فدعوى أن النصوص الواردة في الرؤية تعني كمال اليقين؛ لأن المتيقن يقينا كاملا كالذي يشاهد بالعين دعوى باطلة وتحريف للنصوص، وليس بتأويل بل هو تحريف باطل يجب رده على من قال به، والله المستعان.اهـ.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٦/ ٤١٦): شيخنا

بالنسبة لقوله تعالى: {عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ} (المطففين:٢٣).

النظر الذي قال الأئمة يعني بعض الأئمة فسر هذا النظر بأنه النظر إلى الله تعالى، ثم هناك حديث إن أعلى أهل الجنة منزلة هو من ينظر إلى الله كل يوم مرتين مع أن هذا الحديث قد أوردتموه في «ضعيف الجامع»، فهل هناك وصف لرؤية المؤمنين لربهم في الجنة وقد جاء حديث أن في الجنة في يوم الجمعة ينظر فيه المؤمنون لربهم يعني كيف يكون يعني التفسير هنا بالنسبة للآية {عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ} (المطففين:٢٣).

فهم ينظرون على الأرائك متكئون على الأرائك ينظرون، ومع ذلك هناك يوم يخصص للنظر والحديث الذي ورد في هذا أيضًا ضعيف فكيف يوجه هذا؟

الشيخ: سامحك الله، هل تسأل عن أصل رؤية المؤمنين لربهم أم تسأل عن المرات التي ينظرون فيها إلى ربهم؟ أم تسأل عن عدد المرات التي ينظرون فيها إلى ربهم؟ سؤالك ذو شعب كثيرة فلو أنك تحدد سؤالًا أولًا وثانيًا وثالثًا إن كان الأمر كما نتصور يكون هذا أوضح للحاضرين سؤالًا وجوابًا، فإن كان في سؤالك ثلاثة أسئلة فأبدأ إذًا بالأهم فالأهم.

السؤال: طيب بالنسبة لقول الله تعالى: {عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ} (المطففين:٢٣).

هل هذا دائم في الجنة؟ يعني يعتبر هذا الأول.

الشيخ: طبعًا.

السؤال: أقصد دائم من حيث الوقت؟

الشيخ: رجعت حليمة لعادتها القديمة، يا أخي حدد سؤال بارك الله فيك.

السؤال: يعني هم ...

الشيخ: هل أنت مؤمن بأصل الرؤية؟

السؤال: نعم طبعًا.

الشيخ: طيب إذًا ما هو سؤالك؟

السؤال: أن هذا النظر دائم في كل وقت في الجنة؟

الشيخ: ما ندري دائم كل وقت.

السؤال: إذًا يعني الأمر ...

الشيخ: لماذا مثل هذا السؤال؟ هلا سألت مثلًا عن حديث الجمعة المسمى بالحديث بيوم المزيد هل صحيح أم لا؟ نقول نعم والحمد لله هو صحيح، إذًا المؤمنون يرون ربهم كل يوم جمعة، أما كل ساعة وكل لحظة ما عندنا علم، ولماذا السؤال في الأمور الغيبية وأنت بلا شك تعلم في حدود ما علمت أنك لم تقف على أن المؤمنين يرون ربهم في كل لحظة وفي كل ساعة، لا ما علمت هذا ولا غيرك يعلم ذلك إطلاقًا، إذًا الذي يجب على كل مؤمن. هو أن يؤمن بأصل الرؤية التي ثبتت في الكتاب والسنة، ولذلك أنا استغربت أول الأمر في حينما سألت عن قوله تعالى: {عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ} (المطففين:٢٣).

هل هذا معنى ينظرون إلى ربهم؟ الجواب نعم، لكن هناك نصوص أوضح في إثبات أصل الرؤية من هذه الآية وهذا ليس بحاجة الآن لسنا بحاجة لأن نذكر شيئًا منها لأني لا أعتقد أحدًا من الحاضرين على الأقل عنده شك في أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، حتى الذين ينكرون الصفات بطريق تأويلها كالأشاعرة والماتريدية مثلًا مما يحجون به وتقام الحجة عليهم أنهم يؤمنون برؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة خلافًا للمعتزلة وخلافًا للخوارج هؤلاء المعتزلة والخوارج ينكرون أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، أما الماتريدية

والأشعرية فهم يشاركون أهل السنة أهل الحديث في إيمانهم في أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة.

هنا تأتي حجة هي قاصمة ظهر المنكرين لاستواء الله ﷻ على عرشه واستعلائه على مخلوقاته، ذلك لأن هذه الرؤية التي اشترك الماتريدية والأشاعرة مع أهل الحديث في الإيمان بها تستلزم إثبات علو الله ﷻ.

وهم ينكرون العلو، يقال لهم: كيف تنكرون علو الله على خلقه ومع ذلك تثبتون رؤية المؤمنين لربهم، فكيف تعقلون رؤية المؤمنين لربهم وأنتم تنكرون علو الله ﷻ على خلقه[1]؟

---

١ (تنبيه) قدمنا قريبا أن مذهب الأشاعرة والماتريدية في مسألة الرؤية ليس كمذهب أهل السنة فتنبه، لأن مذهب الأشاعرة والماتريدية أيضا باطل وملخصه: أن الرؤية ليست إلى جهة، وإنما تكون إدراكًا، فردُّوا قول المعتزلة في أنَّ الرؤية ممتنعة بإثباتها، ووافقوهم في أنَّ ليس على العرش رب وأنَّ الله سبحانه ليس في جهة - جهة العلو - فقالوا الرؤية لا إلى جهة، فهم في الحقيقية لا يؤمنون برؤية الله تعالى، لأنه قولهم هذا متضمن لطامتين:
الأولى: نفي علو الله تعالى.
الثانية: استحالة الرؤية فإن الرؤية بدون جهة مستحيلة، ولذا صرح عقلاء الماتريدية والأشعرية بأن الخلاف بينهم وبين المعتزلة لفظي، وأنهم جميعًا منكرون للرؤية البصرية، وأن الرؤية عندهم رؤية علمية .
قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ٢٦٨): أما قول الأشاعرة في المسألة وهو أنهم قالوا يُرَى إدراكًا لا إلى جهة فإنه عجيب.
فإنَّ قول المعتزلة في نفي الرؤية أقرب إلى العقل من قول الأشاعرة - يعني إلى عقل وفهم السامع - خلافًا لقول الشارح إنَّ قول الأشاعرة أقرب إلى العقل من قول من نفى.
بل الحقيقة العكس: من نَفَى الرؤية لأنه لا يثبت العلو قال ما دام أننا لا نثبت العلو فالرؤية لا يمكن أن تكون إلا إلى جهة. الإنسان كيف يرى؟ لابد إلى جهة يراه، أما يرى شيئًا ليس أمامه ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن شماله وليس بأعلى منه ولا أسفل منه فكيف يراه؟ وأين يراه؟ لا شك أنَّ هذا العقل يرده.
=

هذا تنافر وتضاد ولذلك الآن تجد ذاك الرجل الذي يعني ملأت رائحته الكريهة أنوف المؤمنين جميعًا لا يتعرض إطلاقًا لإثبات هذه العقيدة وهي عقيدة رؤية المؤمنين رؤية المؤمنين لرب العالمين مع أن عقيدة الأشاعرة وعقيدة الماتريدية لماذا؟ لأن هذه العقيدة وحدها تكفي لإبطال قولهم: الله ﷻ ليس فوق العرش وليس فوق المخلوقات كلها.

إذًا يجب أن نؤمن بأصل الرؤية هذه لثبوتها في الكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف من الماتريدية والأشاعرة، أما الدخول في التفاصيل فيقف المؤمن عند ما علم منها، علمنا حديث المزيد حديث يوم الجمعة وأن المؤمنين يرون ربهم في كل جمعة فآمنا بذلك، ولسنا مكلفين بل لا يجوز لنا أن نتعمق أكثر من ذلك.

ويعجبني بهذه المناسبة قولة أحد علماء الحنفية الماتريدية الذين كما ذكرت آنفًا يشتركون مع أهل الحديث بالإيمان بهذه النعمة العظمى وهي رؤية

=

ولهذا نقول قول الأشاعرة إنه يُرَى لا إلى جهة؛ يعني لا يُرَى في جهة العلو ويُرَى إدراكًا، فإنَّ هذا ولو كان إثباتًا للرؤية فهو غير مقبول عقلًا ولا مقبول سمعًا.

والواجب إثبات النصوص التي جاء فيها ذلك وإثبات ما دلت عليه من أنَّ الرؤية تكون على ما أخبر الله ﷻ، وأنَّ الله سبحانه يطَّلع إلى أهل الجنة وأنه يكشف الحجاب فيرفعون رؤوسهم فينظرون إلى الرب ﷻ، وأنه سبحانه مستوٍ على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته، وأنَّ عرش الرحمن فوق الجنة؛ يعني سقف الجنة، وهكذا في أدلة كثيرة.

فمن نفى علو الرحمن ﷻ وقال هو -سبحانه- في كل مكان، فكيف يُقْبَلُ إثباته للرؤية؟ لاشك أنَّ قول الأشاعرة عجيب وليس لهم حجة من جهة سمعية ولا من جهة عقلية، إلا شيئًا واحدًا وهو أنهم أبطلوا: نفي علو الله ﷻ؛ وأنّه سبحانه في كل مكان وفرَّعُوا عليه أنَّ الرؤية لمَّا جاءت بها الأدلة قالوا يُرَى لا إلى جهة وهذا باطل.

المؤمنين لربهم يوم القيامة قال هذا الرجل العالم الفاضل الحنفي الماتريدي: يراه المؤمنون بغير كيف وتشبيه وضرب من مثال، يراه المؤمنين بغير كيف وتشبيه وضرب من مثال.

المسألة الثانية: سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٢٢٥): عما جاء في شرح لمعة الاعتقاد من قول فضيلته: "رؤية الله في الدنيا مستحيلة". وقد ذكر الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ أن رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ بالأبصار جائزة عقلا في الدنيا والآخرة، وأما شرعا فهي جائزة وواقعة في الآخرة، وأما في الدنيا فممنوعة شرعا. وما نقله النووي عن بعض أهل العلم من أن رؤية الله تعالى في الدنيا جائزة، فنرجو من فضيلتكم توضيح ذلك؟

فأجاب: ما ذكرته في شرح لمعة الاعتقاد لا ينافي ما ذكره الشيخ الشنقيطي وغيره من أن رؤية الله تعالى في الدنيا ممكنة، فإن قولي: "إنه مستحيل" أي بحسب خبر الله عَزَّ وَجَلَّ بأنه لن يراه، إذ لا يمكن أن يتخلف مدلول خبره تعالى، وقد جاءت بمثل ذلك السنة، حيث قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يتحدث عن الدجال: «واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا». أخرجه مسلم، ثم اعلم أن المستحيل في حق الله تعالى نوعان:

أحدهما: مستحيل لكونه لا يليق بجلاله كالجهل والعجز ونحوهما، فهذا لا يمكن لمن عرف الله تعالى وقدره حق قدره أن يخطر بباله جوازه أو ينطق لسانه بسؤاله

الثاني: مستحيل بالنسبة لغيره لكمال صفات الله تعالى، كرؤية الإنسان ربه في الدنيا، فإن هذا مستحيل لكون البشر لا يطيق أن يرى الله تعالى في الدنيا لنقص حياة البشر حينئذ. ولذلك تكون الرؤية ممكنة يوم القيامة؛ لأن حياة

البشر حينذاك أكمل، وعلى كل حال فقد دلت النصوص وإجماع السلف على أن الله تعالى لم يره أحد في الدنيا يقظة، وإن كان قد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ما ظاهره أن نبينا محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى الله تعالى، فالله أعلم.

المسألة الثالثة: قال العلامة العثيمين في إتحاف الخلان والجماعة بشرح عقيدة أهل السنة والجماعة: هل لنا أن نقول: اللهم من أنكر رؤيتك في الآخرة فاحرمه منها؟!! نعم، نحن نقول ما قال هو على نفسه، هو يقول: أنا أحرمهم منها، ولم ندعُ عليهم عدوانا، لأنهم لما أنكروا الرؤية، سيقولون نحن محرومون منها، سواء دعوتم، أو لم تدعوا، وأقول: إن من قال ة: اللهم اجعلهم ممن ينظرون إليك يوم القيامة لكان معتديا في الدعاء، لأنهم يرون أن رؤية الله محال، وهؤلاء لو دعوت لهم، وقلت: اللهم اجعل هؤلاء ممن ينظرون إليك يوم القيامة، فسيقولون: نعوذ بالله!!!، ولقالوا: {ادعوا ربكم تضرعا وخفية، إنه لا يحب المعتدين}، وإنه معتد في الدعاء، لأنك سألت ما لا يجوز.

وإذا قلت: اللهم احرم من لا يؤمن برؤيتك في الآخرة، احرمه من رؤيتك، فيقولون: أحسنت، بارك الله فيك، هذا ما نريد!!!. لكن في ظني أنه في قرارة نفسه، لو قلنا أمامه: أسأل الله أن يحرمك من رؤيته يوم القيامة، سيقشعر جلده، وسينقبض قلبه، وإن كان هو بلسانه لا يصدق، فسوف يرى أن هذا الدعاء عظيم، لأني أدعو به وأنا مؤمن بأن الله يُرى حقا، وإنني إذا قلت: اللهم من أنكر رؤيتك في الآخرة فاحرمه منها، فسوف يتأثر بلا شك، حتى وإن صمم عنادا.

المسألة الرابعة: **قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ١٣٧): اختلف أهل السنة في رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ في الموقف: هل هي للمؤمنين وحدهم، أم للمؤمنين والمنافقين، - أم للناس جميعا، على ثلاثة أقوال.**

وكل الأقوال في مذهب أهل السنة - يعني قال بها طائفة -.

وكما قال الإمام تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ الخلاف في هذه المسألة - يعني هل يرى الكفار ربهم يوم القيامة أو لا يرونه؟ هل يراه المنافقون أو لا يرونه؟ - لا ينبغي أن تكون من المسائل التي يُشَدَّدُ فيها الخلاف؛ بل الأمر فيها خَفِي، هذا نص عبارته. والمذاهب فيها كما ذكرت لكم ثلاثة:

- فجمهور أهل السنة والحديث على أنَّ الرؤية للمؤمنين في عرصات القيامة.

- وقال طائفة للمؤمنين والمنافقين، وممن ذهب إلى ذلك ابن خزيمة كما نصَّ عليه في كتاب التوحيد

- القول الثالث: أنَّ الرؤية للجميع، للمؤمنين والمنافقين والكفار.

واستدلوا على ذلك بأنَّ الكافر يُحْجَبْ {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين:١٥]، قالوا: فكونه حُجِبَ يومئذ دلَّ على أنَّه قبل ذلك لم يكن محجوبًا؛ لأنَّ الكلام في الآخرة، وأما في الدنيا فالكل محجوب عن رؤية الرب عَزَّ وَجَلَّ.

وهذه الأقوال جَمَعَتْ النظر في الرؤية.

ويبقى أنَّ رؤية الرب عَزَّ وَجَلَّ نوعان:

١- النوع الأول: رؤية إكرام ولذة ونعيم وإنعام وحبور وسرور، فهذه للمؤمنين في الجنة وللمؤمنين في عرصات القيامة، فهي من الطمأنينة لهم.

٢- والنوع الثاني رؤية حساب وتقرير وتعريف، فهذه هي التي يمكن أن يقال: إنها مرادة في حديث المنافقين فيما ثبت في الصحيح (أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يأتي الأمة وفيه منافقوها، ثم يأتيهم في غير الصورة التي رأوها من قبل، ثم يأمرهم

بالسجود فلا يسجدون، فيقولون نحن هنا حتى يأتي ربنا، ثم بعد ذلك يكشف الرب عن ساق، فيعرفونه فيسجد المؤمنون، ويبقى من لم يكن مخلصا في الدنيا يريد أن يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا) فهذا يدل على أنّ هذه الرؤية رؤية تعريف ورؤية حساب وهذا النوع من الرؤية لا ينبغي أن يكون الخلاف فيه؛ لأنَّ الحديث دل عليه.

فإذًا الرؤية التي نقول: إنه أجمع أهل السنة على أنها للمؤمنين هي رؤية التنعم والتلذذ، وفي ضمن ذلك رؤية التعريف.

وأما رؤية الله ﷻ للتعريف والحساب فهذه كُلٌ يراه بحسب حاله والله أعلم بكيفية ذلك وتفسيره.

أما الكفار فعامة أهل العلم إلا من شذَّ وقلَّ يقولون إنَّ الكافر لا يرى الله ﷻ لا رؤية تعريف ولا رؤية تلذذ من باب أولى؛ لأنَّ الكافر محل العذاب والنكال.

وأجابوا عن استدلالهم بقوله تعالى: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين:١٥]، بأَّن هذا استدلال بالمفهوم، بمفهوم (يَوْمَئِذٍ)، (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) وهم محجوبون في الدنيا عن الرؤية وكذلك محجوبون في الآخرة عن الرؤية.

وكلمة (يَوْمَئِذٍ)، ليس لها مفهوم كما قال ﷻ {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة:١٧]، وكما في قوله: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر:٨]، وفي آيات كثيرة عُلِّقَتْ أشياء تحصل يوم القيامة بـ (يَوْمَئِذٍ)، وقد يكون جنسها أو بعض أفرادها يحصل في الدنيا إما بالعموم أو بالخصوص.

المقصود من رد الاستدلال أنه كلمة (يَوْمَئِذٍ) ليس لها مفهوم، لا نفهم منه أنهم حُجِبُوا يومئذ فمعنى ذلك أنهم قبل ذلك يعني قبل الحجب يومئذ لم

يكونوا محجوبين، بل كانوا محجوبين ثم صاروا محجوبين لكن توعَّدَهُم بين حالهم بقوله (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ)، فحُجِبوا ثم صاروا صالين للجحيم.

مسألة: قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ١٤٥): أنَّ رؤية المؤمنين في الجنة لربهم ﷻ عامة بالإنس والجن، للرجال وللنساء، وللملائكة أيضًا، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣ - ٢٤]، فالملائكة في الجنة يعني طائفة منهم في الجنة، وفي الجنة المؤمنون من الجن والإنس ومن الرجال والنساء، ولم يدلَّ دليل على اختصاص الرؤية بالرجال دون النساء ولا على اختصاص الرؤية بالإنس دون الجن، وهذه فيها أقوال:

١- القول الأول: من قال: إنَّ الرؤية للإنس دون الجن، وهذا خلاف الصواب كما ذكرنا؛ لأنَّ الآيات عامة في الرؤية في كل مؤمن فمن دخل الجنة رآه.

٢- القول الثاني: إنَّ الرؤية للرجال دون النساء، واستدلوا على ذلك بقوله ﷻ ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢] وأنَّ القصر في الخيام يدل على عدم خروجهن من ذلك.

والصواب أنَّ الرجال والنساء من المكلفين من الجن والإنس يرون ربهم ﷻ إذ كانوا من أهل الجنة. وأمَّا الاستدلال بالآية فعجيب لأنَّ:

أولًا: الآية أولًا في الحور، والحور خلق ينشؤهن الله ﷻ إنشاءً في الجنة وليسوا من المكلفين في الدنيا.

ثانيًا: أنَّ الله ﷻ قال ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾

[يس:٥٦] وقال ﷻ في الآية الأخرى {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ}، فمن نعيم أهل الجنة أنهم يتمتعون هم وأزواجهم على الأرائك فيتكئون وينظرون، وإخراج النساء من الاتكاء ضده الآية وكذلك إخراجهم من النظر ضده الآية.

لهذا نقول غلط من قال إنَّ الرؤية للرجال دون النساء، فالنساء يرون ربهم ﷻ كما يراه الرجال؛ لأنهم مكلفون متعبدون، والنعيم عام للإنسان الذي يدخل الجنة من الرجال والنساء جميعًا، نسأل الله الكريم من فضله.

(باب أن الله خلق آدم على صورته)

ورد في هذه المسألة حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) ولفظه (خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعا فلما خلقه قال اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن) وهو حديث صحيح قطعا كما هو بين فهو متفق عليه.

وفي صحيح مسلم (٢٦١٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته).

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنه مرفوعا (لا تقبحوا الوجه؛ فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن ﷻ)(١).

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (ص ٣٨)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١/ ٢٦٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٨-٢٢٩)، والحاكم (٢/ ٣١٩)، والطبراني في الكبير =

=

(٣/ ٢٠٦/ ٢)، والدارقطني في كتاب الصفات (٦٤/ ٤٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٢٩١) وغيرهم والحديث قال عنه العلامة الألباني في الضعيفة تحت الحديث رقم (١١٧٦): هذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين ولكن له أربع علل، ذكر ابن خزيمة ثلاثة منها فقال: إحداها: أن الثوري قد خالف الأعمش في إسناده فأرسله الثوري ولم يقل: "عن ابن عمر".

والثانية: أن الأعمش مدلس لم يذكر أنه سمعه من حبيب بن أبي ثابت.

والثالثة: أن حبيب بن أبي ثابت أيضا مدلس لم يعلم أنه سمعه من عطاء ثم قال: "فمعنى الخبر - إن صح من طريق النقل مسندا - أن ابن آدم خلق على الصورة التي خلقها الرحمن حين صور آدم ثم نفخ فيه الروح". قلت: والعلة الرابعة: هي جرير بن عبد الحميد فإنه وإن كان ثقة كما تقدم فقد ذكر الذهبي في ترجمته من " الميزان " أن البيهقي ذكر في " سننه " في ثلاثين حديثا لجرير بن عبد الحميد قال: "قد نسب في آخر عمره إلى سوء الحفظ". قلت: وإن مما يؤكد ذلك أنه رواه مرة عند ابن أبي عاصم (رقم ٥١٨) بلفظ: "على صورته". لم يذكر " الرحمن". وهذا الصحيح المحفوظ عن النبي ﷺ من الطرق الصحيحة عن أبي هريرة، والمشار إليها آنفا. فإذا عرفت هذا فلا فائدة كبرى من قول الهيثمي في " المجمع " (٨/ ١٠٦): "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن إسماعيل الطالقاني وهو ثقة، وفيه ضعف". وكذلك من قول الحافظ في " الفتح " (٥/ ١٣٩): "أخرجه ابن أبي عاصم في " السنة " والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد رجاله ثقات". لأن كون رجال الإسناد ثقاتا ليس هو كل ما يجب تحققه في السند حتى يكون صحيحا، بل هو شرط من الشروط الأساسية في ذلك، بل إن تتبعي لكلمات الأئمة في الكلام على الأحاديث قد دلني على أن قول أحدهم في حديث ما: "رجال إسناده ثقات "، يدل على أن الإسناد غير صحيح، بل فيه علة ولذلك لم يصححه، وإنما صرح بأن رجاله ثقات فقط، فتأمل. ثم إن كون إسناد الطبراني فيه الطالقاني لا يضر لوسلم الحديث من العلل السابقة، لأن الطالقاني متابع فيه كما أشرت إليه في أول هذا التخريج. وقد يقال: إن الحديث يقوى بما رواه ابن لهيعة بسنده عن أبي هريرة مرفوعا بلفظ: "إذا قاتل أحدكم فليتجنب الوجه فإنما صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن " قلت: قد كان يمكن ذلك لولا أن الحديث بهذا اللفظ منكر كما سبق بيانه آنفا، فلا يصح حينئذ أن يكون شاهدا لهذا الحديث. ومنه تعلم ما في قول

=

=

الحافظ في " الفتح " بعد أن نقل قول القرطبي: "أعاد بعضهم الضمير على الله متمسكا بما ورد في بعض طرقه إن الله خلق آدم على صورة الرحمن، قال: وكأن من رواه [رواه] بالمعنى متمسكا بما توهمه فغلط في ذلك، وقد أنكر المازري ومن تبعه صحة هذه الزيادة، ثم قال: وعلى تقدير صحتها فيجمل على ما يليق بالباري سبحانه وتعالى "، فقال الحافظ: "قلت: الزيادة أخرجها ابن أبي عاصم في " السنة " والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد رجاله ثقات، وأخرجها ابن أبي عاصم أيضا من طريق أبي يونس عن أبي هريرة بلفظ يرد التأويل الأول، قال: "من قاتل فليتجنب الوجه فلأن صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن". فتعين إجراء ما في ذلك على ما تقرر بين أهل السنة من إمراره كما جاء من غير اعتقاد تشبيه، أومن تأويله على ما يليق بالرحمن جل جلاله".

قلت: والتأويل طريقة الخلف، وإمراره كما جاء طريقة السلف، وهو المذهب، ولكن ذلك موقوف على صحة الحديث عن الرسول ﷺ، وقد علمت أنه لا يصح كما بينا لك آنفا، وإن كان الحافظ قد نقل عقب كلامه السابق تصحيحه عن بعض الأئمة، فقال: "وقال حرب الكرماني في " كتاب السنة ": سمعت إسحاق بن راهويه يقول: صح أن الله خلق آدم على صورة الرحمن. وقال إسحاق الكوسج: سمعت أحمد يقول: هو حديث صحيح". قلت: إن كانوا يريدون صحة الحديث من الطريقين السابقين فذلك غير ظاهر لنا ومعنا تصريح الإمام ابن خزيمة بتضعيفه وهو علم في الحديث والتمسك بالسنة والتسليم بما ثبت فيها عن النبي ﷺ ومعنا أيضا ابن قتيبة حيث عقد فصلا خاصا في كتابه " مختلف الحديث " (ص ٢٧٥ - ٢٨٠) حول هذا الحديث وتأويله قال فيه: "فإن صحت رواية ابن عمر عن النبي ﷺ بذلك فهو كما قال رسول الله ﷺ، فلا تأويل ولا تنازع". وإن كانوا وقفوا للحديث على غير الطريقين المذكورين، فالأمر متوقف على الوقوف على ذلك والنظر في رجالها، نقول هذا لأن التقليد في دين الله لا يجوز، ولا سيما في مثل هذا الأمر الغيبي، مع اختلاف أقوال الأئمة في حديثه، وأنا أستبعد جدا أن يكون للحديث غير هذين الطريقين، لأن الحافظ لم يذكر غيرهما، ومن أوسع اطلاعا منه على السنة؟ نعم له طرق أخرى بدون زيادة " الرحمن " فانظر: "إذا ضرب أحدكم.. " و" إذا قاتل أحدكم... " في " صحيح الجامع " (٦٨٧ و٧١٦) وغيره.

وخلاصة القول: إن الحديث ضعيف بلفظيه وطريقيه، وأنه إلى ذلك مخالف

=

=

للأحاديث الصحيحة بألفاظ متقاربة، منها قوله ﷺ: "خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعا". أخرجه الشيخان وغيرهما " الصحيحة ٤٥٠".

(تنبيه هام): بعد تحرير الكلام على الحديثين بزمن بعيد وقفت على مقال طويل لأخينا الفاضل الشيخ حماد الأنصاري نشره في مجلة " الجامعة السلفية " ذهب فيه إلى اتباع - ولا أقول تقليد - من صحح الحديث من علمائنا رحمهم الله تعالى، دون أن يقيم الدليل على ذلك بالرجوع إلى القواعد الحديثية وتراجم الرواة التي لا تخفى على مثله، لذلك رأيت - أداء للأمانة العلمية - أن أبي بعض النقاط التي تكشف عن خطئه فيما ذهب إليه مع اعترافي بعلمه وفضله وإفادته لطلبة العلم وبخاصة في الجامعة الإسلامية جزاه الله خيرا.

أولا: أوهم القراء أن ابن خزيمة رحمه الله تعالى تفرد من بين الأئمة بإنكاره لحديث " على صورة الرحمن " مع أن معه ابن قتيبة والمازري ومن تبعه، كما تقدم، وهو وإن كان ذلك في آخر البحث، فقد كان الأولى أن يذكره في أوله حتى تكون الصورة واضحة عند القراء.

ثانيا: نسب إلى الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنه أنكر الحديث أيضا قبل ابن خزيمة!

وهذا مما لا يجوز نسبته للإمام لأمرين:

الأول: أن الشيخ نقل ذلك عن الذهبي، والذهبي ذكره عن العقيلي بسنده: حدثنا مقدام بن داود.. إلخ، ومقدام هذا يعلم الشيخ أنه متكلم فيه، بل قال النسائي فيه: "ليس بثقة " فلا يجوز أن ينسب بروايته إلى الإمام أنه أنكر حديثا صحيحا على رأي الشيخ، وعلى رأينا أيضا لما يأتي.

والآخر: أن الرواية المذكورة في إنكار مالك ليس لهذا الحديث المنكر، وإنما للحديث الصحيح المتفق عليه فإنه فيها بلفظ: "إن الله خلق آدم على صورته". وكذلك هو عند العقيلي في " الضعفاء " (٢/ ٢٥١) في هذه الرواية، فحاشا الإمام مالك أن ينكر الحديث بهذا اللفظ الصحيح أوغيره من الأئمة. ولذلك فالقارئ العادي يفهم من بحث الشيخ أن الإمام ينكر هذا الحديث الصحيح!

ثالثا: ساق إسناد حديث ابن عمر أكثر من مرة، وكذلك فعل بحديث أبي هريرة دون فائدة، وساقهما مساق المسلمات من الأحاديث وهو يعلم العلل الثلاث التي ذكرها له ابن خزيمة لأنه في صدد الرد عليه، ومع ذلك لم يتعرض لها بذكر! بله جواب، وكذلك

=

=

يعلم ضعف ابن لهيعة الذي في حديث أبي هريرة، فلم ينبس ببنت شفة!
رابعا: نقل كلام الذهبي الذي ذكره عقب رواية المقدام، وفيه: أن هذا الحديث لم ينفرد به ابن عجلان فقد رواه (الأرقام الآتية مني) :
١ - همام عن قتادة عن أبي أيوب المراغي عن أبي هريرة.
٢ - ورواه شعيب وابن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.
٣ - ورواه جماعة كالليث بن سعد وغيره عن ابن عجلان عن المقبري عن أبي هريرة.
٤ - ورواه شعيب أيضا وغيره عن أبي الزناد عن موسى بن أبي عثمان عن أبي هريرة. انتهى.
وأقول: نص كلام الذهبي قبيل هذه الطرق: "قلت: الحديث في أن الله خلق آدم على صورته؛ لم ينفرد به ابن عجلان... " إلخ. فأنت ترى أن كلام الذهبي في واد، وكلام الشيخ في واد آخر. فهذه الطرق الأربعة ليس فيها زيادة " صورة الرحمن "، والشيخ - سامحه الله - يسوقها تقوية لها، وهو لوتأمل فيها لوجدها تدل دلالة قاطعة على نكارة هذه الزيادة، إذ لا يعقل أن تفوت على هؤلاء وكلهم ثقات، ويحفظها مثل ابن لهيعة، ومن ليس له في العير ولا في النفير! وإني - والله - متعجب من الشيخ غاية العجب كيف يسوق هذه الروايات نقلا عن الذهبي وهو قد ساقها لتقوية الحديث الصحيح الذي أنكره مالك بزعم المقدام بن داود الواهي، والشيخ - عافانا الله وإياه - يسوقها لتقوية الحديث المنكر! وإن مما يؤكد أن الذهبي كلامه في الحديث الصحيح وليس في الحديث المنكر أنه قال في آخره:
" وقال الكوسج: سمعت أحمد بن حنبل يقول: هذا الحديث صحيح. قلت: وهو مخرج في الصحاح". قلت: فقوله هذا يدلنا على أمرين:
الأول: أنه يعني الحديث الصحيح، لأنه هو المخرج في " الصحاح " كما سبق مني.
والآخر: أنه هو المقصود بتصحيح أحمد المذكور، فلم يبق بيد الشيخ إلا تصحيح إسحاق، فمن الممكن أن يكون ذلك فهما منه، وليس رواية. والله أعلم.
خامسا وأخيرا: قرن الشيخ الحافظ الذهبي والعسقلاني مع أحمد وإسحاق في تصحيح الحديث. وجوابي عليه: أن كلام الذهبي ليس صريحا في ذلك، بل ظاهره أنه يعني الحديث الصحيح. وأما ابن حجر فعمدة الشيخ في ذلك قوله: "رجاله ثقات " وقد علمت مما سبق أن هذا لا يعني الصحة، ولوسلمنا جدلا أنه صححه هو أوغيره قلنا:
=

مسألة: اعلم رحمني الله وإياك أن الصورة: صفة ذاتية خبرية ثابتة لله ﷻ بالأحاديث الصحيحة، مثل حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الطويل في رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وفيه: (فيأتيهم الجبار في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا...) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

وحديث معاذ في الرؤية المنامية: (رأيت ربي في أحسن صورة....)(١).

=

"هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين". وخلاصة (التنبيه) أن الشيخ حفظه الله حكى قولين متعارضين في حديث " على صورة الرحمن " دون ترجيح بينهما سوى مجرد الدعوى، وذكر له طريقين ضعيفين منكرين دون أن يجيب عن أسباب ضعفهما، بل أوهم أن له طرقا كثيرة يتقوى بها، وهي في الواقع مما يؤكد وهنهما عند العارفين بهذا العلم الشريف وتراجم رواته. وهذا بخلاف ما صنع شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه " نقض التأسيس " في فصل عقده فيه لهذا الحديث بأحد ألفاظه الصحيحة: "إن الله خلق أدم على صورته " أرسل إلي صورة منه بعض الأخوان جزاه الله خيرا فإن ابن تيمية مع كونه أطال الكلام في ذكر تأويلات العلماء له وما قالوه في مرجع ضمير " صورته "، ونقل أيضا كلام ابن خزيمة بتمامه في تضعيف حديث الترجمة وتأويله إياه إن صح، فرد عليه التأويل، وسلم له التضعيف، ولم يتعقبه بالرد، لأنه يعلم أن لا سبيل إلى ذلك، كما يتبين للقارىء من هذا التخريج والتحقيق، ولهذا كنت أود للشيخ الأنصاري أن لا يصحح الحديث، وهو ضعيف من طريقيه، ومتنه منكر لمخالفته للأحاديث الصحيحة. نسأل الله تعالى لنا وله التوفيق والسداد في القول والعمل، وأن يحشرنا في زمرة المخلصين الصادقين " يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم".

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣، رقم ٢٢١٦٢)، والترمذى (٥/ ٣٦٨، رقم ٣٢٣٥)، والبزار (٧/ ١١٠، رقم ٢٦٦٨)، والطبرانى في الكبير (٢٠/ ١٠٩، رقم ٢١٦) عن معاذ رضي الله عنه وروي أيضا عن غيره من الصحابة رضي الله عنهم وهذا الحديث اختلف في صحته الجهابذة فقال البخاري: حسن صحيح كما نقل ذلك عنه تلميذه الترمذي، وقال الترمذي حسن

=

قال أبو محمد ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ٢٦١): والذي عندي - والله تعالى أعلم - أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن، ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن، ونحن نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد.اهـ..

وقال أبو يعلى الفراء في إبطال التأويلات (١/ ١٢٦) في التعليق على حديث: (رأيت ربي في أحسن صورة)؛ قال: اعلم أن الكلام في هذا الخبر يتعلق به فصول: أحدها جواز إطلاق الصورة عليه.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في نقض تأسيس الرازي (ص٤٥٥): والوجه الخامس: أن الأحاديث مع آيات القرآن أخبرت بأنه يأتي عباده يوم القيامة على الوجه الذي وصف، وعند هؤلاء هو كل آت، وما في الدنيا والآخرة، وأما أهل الإلحاد

=

صحيح، وقال البزار في مسنده (١٠/ ١٠٩) روي من وجوه، وقال ابن عدي في الكامل (٨/ ٦١) له طرق، وكذا قال ابن القيسراني في الذخيرة (١/ ٢٤٠)، وحسنه ابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٣٢٢)، وصححه ابن العربي في أحكام القرآن (٤/ ٧٣)، وحسنه الحافظ في نتائج الأفكار (٢/ ٣١٧)، وصححه الشيخ شاكر في تحقيق المسند، وصححه العلامة الشيخ الألباني في الصحيحة (٣١٦٩).

وضعفه بعض الحفاظ منهم محمد بن نصر في قيام الليل (ص ١٨) فقال: هذا حديث اضطرب الرواة في إسناده وليس يثبت عند أهل المعرفة بالحديث وقال ابن خزيمة في (التوحيد) (١٤٠ - ١٤٥): إنه خبر يتوهم كثير من طلاب العلم أنه خبر صحيح وليس كذلك وقال الدارقطني في العلل (٦/ ٧٥) بعد ذكر أوجه الخلاف في الحديث: وليس فيها صحيح وكلها مضطربة وقال البيهقي في الأسماء والصفات (ص٣٩٣) وفي ثبوت هذا الحديث نظر وقال الأرنؤوط زمن معه في تحقيق المسند: ضعيف لاضطرابه ومداره على عبد الرحمن بن عائش وقد اختلف فيه عليه والله أعلم.

والحلول الخاص، كالذين يقولون بالاتحاد أو الحلول في المسيح أو علي أو بعض المشايخ أو بعض الملوك أو غير ذلك مما قد بسطنا القول عليهم في غير هذا الموضع؛ فقد يتأولون أيضا هذا الحديث كما تأوله أهل الاتحاد والحلول المطلق؛ لكونه قال: فيأتيهم الله في صورة، لكن يقال لهم: لفظ (الصورة) في الحديث (يعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حديث أبي سعيد) كسائر ما ورد من الأسماء والصفات التي قد يسمى المخلوق بها على وجه التقييد، وإذا أطلقت على الله مختصة به؛ مثل العليم والقدير والرحيم والسميع والبصير، ومثل خلقه بيديه واستوائه على العرش ونحو ذلك اهـ.

وقال شيخ الإسلام أيضا: وكما أنه لابد لكل موجود من صفات تقوم به، فلابد لكل قائم بنفسه من صورة يكون عليها، ويمتنع أن يكون في الوجود قائم بنفسه ليس له صورة يكون عليها.اهـ.

أما حديث: (خلق الله آدم على صورته) المتقدم في التعليق السابق؛ فلم أورده في الأدلة؛ للاختلاف القائم بين أهل العلم من أهل السنة: هل الضمير في (صورته) عائد على آدم أم على الله سبحانه وتعالى مع اتفاق الكل على إثبات الصورة للرحمن وقد اختلف في عود الضمير في هذا الحديث على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الضمير يعود على المضروب.

قال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب التوحيد (١/ ٨٤-٨٥): توهم بعض من لم يتحر العلم أن قوله (على صورته) يريد صورة الرحمن عز ربنا وجل عن أن يكون هذا معنى الخبر، بل معنى قوله (خلق آدم على صورته) الهاء في هذا الموضع كناية عن اسم المضروب والمشتوم، أراد ﷺ أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب، الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب، والذي قبح

وجهه، فزجر ﷺ أن يقول: ووجه من أشبه وجهك، لأن وجه آدم شبيه وجوه بنيه، فإذا قال الشاتم لبعض بني آدم: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، كان مقبحا وجه آدم - صلوات الله عليه وسلامه - الذي وجوه بنيه شبيهة بوجه أبيهم، فتفهموا رحمكم الله معنى الخبر، لا تغلطوا فتضلوا عن سواء السبيل، وتحملوا على القول بالتشبيه الذي هو ضلال.اهـ..

وقال ابن حبان بعد تخريج هذا الحديث (١٢/ ٤٢٠ الإحسان): يريد به صورة المضروب، لأن الضارب إذا ضرب وجه أخيه المسلم ضرب وجها خلق الله آدم على صورته.اهـ..

وقال الحافظ في الفتح (٥/ ١٨٣): واختلف في الضمير على من يعود؟ فالأكثر على أنه يعود على المضروب لما تقدم من الأمر بإكرام وجهه، ولولا أن المراد التعليل بذلك لم يكن لهذه الجملة ارتباط بما قبلها.اهـ. وهذا القول قد تعقب.

وقال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص٣٨٩): في سرد لأقوال الأئمة في تأويل هذا الحديث - ومنها (أن المراد أن الله خلق آدم على صورة الوجه، قال: وهذا لا فائدة فيه، والناس يعلمون أن الله تبارك وتعالى خلق آدم على خلق ولده، وجهه على وجوههم، وزاد قوم في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام مر برجل يضرب وجه رجل آخر، فقال (لا تضربه، فإن الله تعالى خلق آدم عليه الصلاة والسلام على صورته) أي صورة المضروب، وفي هذا القول من الخلل ما في الأول.اهـ. وهذه الزيادة التي ذكرها ابن قتيبة في حديث الصورة وهي أن النبي ﷺ مر برجل يضرب رجل آخر، فقال (لا تضربه) قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض التأسيس: هذا شيء لا أصل له، ولا يعرف في شيء من كتب

الحديث.اهـ..

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٧٤) في ترجمة محمد بن إسحاق بن خزيمة - (وكتابه في التوحيد مجلد كبير، وقد تأول في ذلك حديث الصورة، فليعذر من تأول بعض الصفات، وأما السلف فما خاضوا في التأويل بل آمنوا وكفوا، وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده - مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق - أهدرناه، وبدعناه، لقل من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنه وكرمه.اهـ..

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض التأسيس: عن الشيخ محمد الكرخي الشافعي أنه قال في كتابه " الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزاما لذوي البدع والفضول " ما نصه (فأما تأويل من لم يتابعه عليه الأئمة فغير مقبول، وإن صدر ذلك عن إمام معروف غير مجهول، نحو ما ينسب إلى أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في تأويل الحديث (خلق آدم على صورته) فإنه يفسر ذلك بذلك التأويل، ولم يتابعه عليه من قبله من أئمة الحديث، لما رويناه عن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولم يتابعه أيضا من بعد...) ثم قال شيخ الإسلام قلت: فقد ذكر الحافظ أبو موسى المديني فيما جمعه من مناقب الإمام الملقب بقوام السنة أبي القاسم إسماعيل بن محمد التميمي صاحب كتاب الترغيب والترهيب، قال: سمعته يقول: أخطأ محمد بن إسحاق بن خزيمة في حديث الصورة، ولا يطعن عليه بذلك بل لا يؤخذ عنه فحسب. قال أبو موسى: أشار بذلك إلى أنه قل من إمام إلا وله زلة، فإذا ترك ذلك الإمام لأجل زلته، ترك كثير من الأئمة، وهذا لا ينبغي أن يفعل)

وقد تعقب هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض التأسيس وساق ثلاثة

عشر وجها لإبطال هذا القول:

• منها: أنه في مثل هذا لا يصلح إفراد الضمير، فإن الله خلق آدم على صورة بنيه كلهم فتخصيص واحد لم يتقدم له ذكر بأن الله خلق آدم على صورته في غاية البعد، لا سيما وقوله (وإذا قاتل أحدكم.. وإذا ضرب أحدكم) عام في كل مضروب، والله خلق آدم على صورهم جميعهم، فلا معنى لإفراد الضمير، وكذلك قوله (لا يقولن أحدكم قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك) عام في كل مخاطب، والله قد خلقهم كلهم على صورة آدم.

• ومنها: أن ذرية آدم خلقوا على صورة آدم، لم يخلق آدم على صورهم، فإن مثل هذا الخطاب إنما يقال فيه: خلق الثاني المتأخر في الوجود على صورة الأول المتقدم وجوده، لا يقال: إنه خلق الأول على صورة الثاني المتأخر في الوجود، كما يقال: خلق الخلق على غير مثال أو نسيج هذا على منوال هذا.

• ومنها: أنه إذا أريد مجرد المشابهة لآدم وذريته لم يحتج إلى لفظ خلق على كذا، فإذ هذه العبارة إنما تستعمل فيما فطر على مثال غيره، بل يقال إن وجهه يشبه وجه آدم، أو فإن صورته تشبه صورة آدم.

القول الثاني: أن الضمير يعود إلى آدم.

وهذا القول مروي عن أبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي، ذكره القاضي أبو الحسين في طبقات الحنابلة (١/ ٣٠٩) في ترجمة محمد بن علي الجرجاني، المعروف بحمدان أنه قال: سألت أبا ثور عن قول النبي ﷺ (إن الله خلق آدم على صورته) فقال: على صورة آدم.اهـ..

ونقله الإمام أحمد عن بعض محدثي البصرة، كما في نقض التأسيس لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٦١-٦٢) عن أبي سليمان الخطابي وأقره.

ونسبه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص٣١٨) إلى أهل الكلام، فقال: فقال قوم من أصحاب الكلام: أراد خلق آدم على صورة آدم لم يزد على ذلك.اهـ.. وإليه ذهب العراقي في طرح التثريب (٨/ ١٠٤).

وقد تعقب هذا القول أيضا: فقال الإمام أحمد - لما ذكر له قول أبي ثور المتقدم - (من قال: إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي، وأي صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه؟.اهـ.

وقال ابن قتيبة - بعد ذكره لهذا القول (ولو كان المراد هذا، ما كان في الكلام فائدة، ومن يشك في أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته، والسباع على صورها، الأنعام على صورها.اهـ..

وقد ساق شيخ الإسلام ابن تيمية لفساد هذا القول تسعة أوجه في كتابه نقض التأسيس.

· منها: أنه إذا قيل: إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورة آدم، أولا تقبحوا الوجه، ولا يقل أحدكم قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ،فإن الله خلق آدم على صورة آدم، كان هذا من أفسد الكلام، فإنه لا يكون بين العلة والحكم مناسبة أصلا، فإن كون آدم مخلوقا على صورة آدم، فأي تفسير فسر به فليس في ذلك مناسبة للنهي عن ضرب وجوه بنية، ولا عن تقبيحها وتقبيح ما يشبهها، وإنما دخل التلبيس بهذا التأويل حيث فرق الحديث المروي (إذا قاتل أحدكم فليتق الوجه) مفردا، وروي قوله (إن الله خلق آدم على صورته) مفردا، أما مع أداء الحديث على وجهه فإن عود الضمير إلى آدم يمنع فيه، وذلك أن خلق آدم على صورة آدم سواء كان فيه تشريف

لآدم أو كان فيه إخبار مجرد بالواقع فلا يناسب هذا الحكم.

ومنها: أن الله خلق سائر أعضاء آدم على صورة آدم، فلو كان مانعا من ضرب الوجه أو تقبيحه لوجب أن يكون مانعا من ضرب سائر الوجوه وتقبيح سائر الصور، وهذا معلوم الفساد في العقل والدين، وتعليل الحكم الخاص بالعلة المشتركة من أقبح الكلام، وإضافة ذلك إلى النبي ﷺ لا يصدر إلا عن جهل عظيم أو نفاق شديد، إذ لا خلاف في علمه وحكمته وحسن كلامه وبيانه.

ومنها: أن هذا تعليل للحكم بما يوجب نفيه، وهذا من أعظم التناقض، وذلك أنهم تأولوا الحديث على أن آدم لم يخلق من نطفة وعلقة ومضغة، وعلى أنه لم يتكون في مدة طويلة بواسطة العناصر، بنوه قد خلقوا من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وخلقوا في مدة عناصر الأرض، فإن كانت العلة المانعة من ضرب الوجه وتقبيحه كونه خلق على ذلك الوجه، وهذه العلة منتفية في بنيه، فينبغي أن يجوز ضرب وجوه بنيه وتقبيحها لانتفاء العلة فيها أن آدم هو الذي خلق على صورة دونهم، إذ هم لم يخلقوا كما خلق لآدم على صورهم التي هم عليها بل نقلوا من نطفة إلى علقة إلى مضغة.. .

القول الثالث: أن الضمير يعود على الله جل جلاله.

وقد ذكر الإمام أحمد هذا القول فيما أملاه على بعض أصحابه من أقوال أهل السنة والجماعة، قال القاضي أبو الحسين في طبقات الحنابلة (١/ ٣١٣) في ترجمة أبي جعفر محمد بن عوف بن سفيان الطائي الحمصي - (نقلت من خط أحمد الشنجي بإسناده قال: سمعت محمد بن عوف يقول: أملى عليَّ أحمد بن حنبل - فذكر جملة من المسائل التي أملاها عليه مما يعتقده أهل السنة والجماعة، ومنها - وأن آدم ﷺ خلق على صورة الرحمن كما جاء الخبر عن

رسول الله ﷺ.اهـ.

وقال ابن تيمية في نقض التأسيس (٣/ ٢٠٢): لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير في الحديث عائد إلى الله تعالى، فإنه مستفيض من طرق متعددة، عن عدد من الصحابة، وسياق الأحاديث كلها تدل على ذلك... ولكن لما انتشرت الجهمية في المائة الثالثة جعل طائفة الضمير فيه عائدا إلى غير الله تعالى، حتى نقل ذلك عن طائفة من العلماء المعروفين بالعلم والسنة في عامة أمورهم، كأبي ثور وابن خزيمة وأبي الشيخ الأصفهاني وغيرهم، ولذلك أنكر عليهم أئمة الدين وغيرهم من علماء السنة.اهـ.

وجاء في فتاوى اللجنة الدائمة (٣/ ٥٠٥): عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «خلق الله آدم على صورته ستون ذراعا» فهل هذا الحديث صحيح؟

فأجابت: هو حديث صحيح، ولا غرابة في متنه فإن له معنيان:

الأول أن الله لم يخلق آدم صغيرا قصيرا كالأطفال من ذريته ثم نما وطال حتى بلغ ستين ذراعا، بل جعله يوم خلقه طويلا على صورة نفسه النهائية طوله ستون ذراعا.

والثاني أن الضمير في قوله «على صورته» يعود على الله بدليل ما جاء في رواية أخرى صحيحة «على صورة الرحمن» وهو ظاهر السياق ولا يلزم على ذلك التشبيه، فإن الله سمى نفسه بأسماء سمى بها خلقه ووصف نفسه بصفات وصف بها خلقه، ولم يلزم من ذلك التشبيه، وكذا الصورة، ولا يلزم من إتيانها لله تشبيهه بخلقه؛ لأن الاشتراك في الاسم وفي المعنى الكلي لا يلزم منه التشبيه فيما يخص كلا منهما، لقوله تعالى: {ليس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} .اهـ..

وسئل العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في مجموع فتاواه (٤/ ٢٢٦): ورد حديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى فيه عن تقبيح الوجه، وأن الله سبحانه خلق آدم على صورته. فما الاعتقاد السليم نحو هذا الحديث؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحديث ثابت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "إذا ضرب أحدكم فليتق الوجه فإن الله خلق آدم على صورته" وفي لفظ آخر: "على صورة الرحمن " وهذا لا يستلزم التشبيه والتمثيل. والمعنى عند أهل العلم أن الله خلق آدم سميعا بصيرا، متكلما إذا شاء، وهذا وصف الله فإنه سميع بصير متكلم إذا شاء، وله وجه جل وعلا. وليس المعنى التشبيه والتمثيل، بل الصورة التي لله غير الصورة التي للمخلوق، وإنما المعنى أنه سميع بصير متكلم إذا شاء ومتى شاء، وهكذا خلق الله آدم سميعا بصيرا ذا وجه وذا يد وذا قدم، لكن ليس السمع كالسمع وليس البصر كالبصر، وليس المتكلم كالمتكلم، بل لله صفاته جل وعلا التي تليق بجلاله وعظمته، وللعبد صفاته التي تليق به، صفات يعتريها الفناء والنقص، وصفات الله سبحانه كاملة لا يعتريها نقص ولا زوال ولا فناء، ولهذا قال عَزَّ وَجَلَّ: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (الشورى / ١١)، وقال سبحانه: (ولم يكن له كفوا أحد) (الإخلاص / ٤)، فلا يجوز ضرب الوجه ولا تقبيح الوجه).اهـ..

قال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١٠/ ٩٤٥): أما حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (إن لله خلق آدم على صورته) ،ووجه الله لا يماثل أوجه المخلوقين، فيجاب عنه: بأنه لا يراد به صورة تماثل صورة الرب عَزَّ وَجَلَّ بإجماع المسلمين والعقلاء، لأن الله عَزَّ وَجَلَّ وسع كرسيه السماوات والأرض، والسماوات والأرضون كلها بالنسبة للكرسي - موضع القدمين - كحلقة

ألقيت في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة، فما ظنك برب العالمين؟ فلا أحد يحيط به وصفا ولا تخيلا، من هذا وصفه لا يمكن أن يكون على صورة آدم ستون ذراعا، وإنما يراد به أحد معنيين:

الأول: أن الله خلق آدم على صورة اختارها وجعلها أحسن صورة في الوجه، وعلى هذا، فلا ينبغي أن يقبح أو يضرب لأنه لما أضافه إلى نفسه اقتضى من الإكرام ما لا ينبغي معه أن يقبح أو أن يضرب.

الثاني: أن الله خلق آدم على صورة الله ﷻ ولا يلزم من ذلك المماثلة بدليل قوله ﷺ: (إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أضوأ كوكب في السماء)، ولا يلزم أن يكون على صورة نفس القمر، لأن القمر أكبر من أهل الجنة، وأهل الجنة يدخلونها طول أحدهم ستون ذراعا، وعرضه سبعة أذرع كما في بعض الأحاديث. وقال بعض أهل العلم: على صورته، أي: صورة آدم، أي: أن الله خلق آدم أول مرة على هذه الصورة، وليس كبنية يتدرج في الإنشاء نطفة ثم علقة ثم مضغة. لكن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أنكر هذا التأويل، وقال: هذا تأويل الجهمية، ولأنه يفقد الحديث معناه، وأيضا يعارضه اللفظ الآخر المفسر للضمير وهو بلفظ: (على صورة الرحمن).

(باب نقض قاعدة تقابل العدم والملكة)[١]

(١) المتقابلان هما اللذان لا يجتمعان من جهة واحدة، وهما أنواع:

١ - الضدان، وهما اللذان لا يجتمعان ولكن قد يرتفعان، كالسواد والبياض.

٢ - المتضايفان، كالأبوة والبنوة، فهذان قد يجتمعان لكن من جهتين، لا من جهة واحدة، فالأبوة والبنوة قد تجتمع في زيد لكن من جهتين، فإن أبوته بالقياس إلى ابنه، =

هذه المسألة من شبه الغلاة من الجهمية والقرامطة في نفيهم للصفات، وليس الغريب إيرادهم لها، لأن الباطل وأهله لا يتوقفون عن إيراد الأدلة على باطلهم ولو كانت ضعيفة متهافتة، وإنما الغريب أن يذعن لهذه الشبهة بعض النظار من المتكلمين ويعتقدوا أن اعتراضهم وشبهتهم صحيحة.

وخلاصة المسألة أن الصفاتية احتجوا على إثبات صفة السمع والبصر والكلام لله بدليل الكمال، وهو أنه لو لم يكن متصفًا بهذه الصفات لا تصف بضدها، فاعترض النفاة على هذا بأن هذا يلزم في القابل لها، أما غير القابل - كالجماد - فنفي البصر عنه لا يلزم منه العمى، لكونه غير قابل لهما، يقول شيخ الإسلام في أحد المواضع من درء التعارض (٦/ ١٣٥): فإن قيل لهم: إذا لم يوصف بصفة الكمال، لزم اتصافه بهذه النقائص. قالوا: هذا إنما يكون فيما يقبل الاتصاف بهذا وهذا، ويقول المنطقيون: هذان متقابلان تقابل العدم

=

وبنوته بالقياس إلى أبيه.

٣- المتقابلان بالسلب والإيجاب، وهما أمران أحدهما عدم الآخر مطلقا، كالفرسية، واللافرسية، ومثل: زيد حيوان، زيد ليس بحيوان.

٤- المتقابلان بالملكة والعدم: وهما أمران أحدهما وجودي والآخر عدم ذلك الأمر الوجودي لا مطلقا بل من القابل، كالبصر والعمى والعلم والجهل، فالعمى عدم البصر عما من شأنه البصر، والجهل عدم العلم عما من شأنه العلم.

والمراد بالملكة: كل معنى وجودي أمكن أن، يكون ثابتا للشيء إما بحق جنسه كالبصر للإنسان أو بحق نوع ككتابة زيد، أو بحق شخصه كاللحية للرجل، وأما العدم المقابل لها فهو ارتفاع هذه الملكة.

فقال هؤلاء: لما لم يكن الجماد، كالحجر، قابلا للاتصاف بالبصر والعمى، فإنه لا يقال فيه: أعمى ولا بصير (انظر التعريفات ص: ١٠٥-١٠٦، والمعجم الفلسفي - صليبا ٢/ ٣١٨-٣١٩).

والملكة، لا تقابل السلب والإيجاب، والمتقابلان تقابل السلب والإيجاب لا يرتفعان جميعًا، بخلاف المتقابلين تقابل العدم والملكة، كالحياة والموت، والعمى والبصر، فإنهما قد يرتفعان جميعا إذا كان المحل لا يقبلهما كالجمادات، فإنها لما لم تقبل الحياة والبصر والعلم لم يقل فيها إنها حية ولا ميتة، ولا عالمة ولا جاهلة.

وقد أشكل كلامهم هذا على كثير من النظار، وأضلوا به خلقًا كثيرًا، حتى الآمدى وأمثاله من أذكياء النظار، اعتقدوا أن هذا كلام صحيح، وأنه يقدح في الدليل الذي استدل به السلف والأئمة ومتكلموا أهل الإثبات في إثبات السمع والبصر وغير ذلك من الصفات، وهذا من جملة تلبيسات أهل المنطق والفلسفة التي راجت على هؤلاء فأضلتهم عن كثير من الحق الصحيح، المعلوم بالعقل الصريح".اهـ.

وموقف الآمدى - المتأثر بهذه الشبهة كما ذكر شيخ الإسلام - ذكره في أبكار الأفكار، وفي غاية المرام، فقد قال في الأبكار (١/ ٥٧) بعد ذكر الشبهة وأنواع المتقابلات: "فإن أريد بالتقابل ها هنا تقابل التناقض بالسلب والإيجاب وهو أنه لا يخلو من كونه سميعا وبصيرا ومتكلما أو ليس، فهو ما يقوله الخصم ولا يقبل نفيه من غير دليل.. وإن أريد بالتقابل تقابل العدم والملكة فلا يلزم أيضًا من نفي الملكة تحقق العدم ولا بالعكس، إلا في محل يكون قابلا لهما، ولهذا يصح أن يقال: الحجر لا أعمى ولا بصير، والقول بكون الباري تعالى قابلا للبصر والعمى دعوى محل النزاع، والمصادرة على المطلوب، وعلى هذا فقد امتنع لزوم العمى والخرس والطرش في حق الله تعالى من ضرورة نفي البصر والسمع والكلام عنه.اهـ. ولما رأى الآمدى صدق هذا الاعتراض أحال

على طريقة أخرى في الاستدلال لهذه الصفات، أما أصحاب الشبهة من القرامطة وغيرهم فقد قالوا بسلب النقيضين فقالوا: نقول: لا أعمى ولا بصير وهكذا.

وقد رد شيخ الإسلام على هذه الشبهة وعلى من صححها، وبين زيفها وبطلانها من وجوه عديدة منها:

١- أن ما لا يقبل الاتصاف بصفات الكمال أنقص مما يقبل الاتصاف بصفات الكمال، ولذلك كان الحجر أنقص من الحي الأعمى، وحينئذ فإذا كان اتصافه بكون أعمى، أصم، أبكم ممتنعا، مع كون المتصف بذلك أكمل من الجماد والذي لا يقبل الاتصاف بهذا وضده؛ علم أن القول بأنه تعالى غير قابل للاتصاف بذلك أعظم في نقصه، وهو أشد امتناعا.

٢- أن هذا اصطلاح اصطلحتم عليه، وهو باطل من وجهين:

أ- أن ما لا حياة فيه يسمى مواتا وميتا، وهذا موجود في لغة العرب، وقد جاء في القرآن، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ} (النحل: من الآية ٢٠-٢١)، وهذا في أصنام العرب وهي من الجمادات، وقال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا} (يّس: من الآية٣٣)، وقال: {اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} (الحديد: من الآية١٧) .

ب- أن الجامدات يمكن اتصافها بالحياة وغيرها، فإن الله قادر على أن يخلق في الجمادات حياة، كما جعل عصا موسى حية تسعى، تبلع الحبال والعصى.

٣- أن نفس عدم الحياة والعلم والقدرة نقص لكل ما عدم عنه ذلك سواء

فرض قابل أو غير قابل، فإنا إذا قدرنا موجودين أحدهما يسمع ويبصر ويتكلم، والآخر ليس كذلك، كان الأول أكمل من الثاني، وما لا يقبل ذلك أنقص مما يقبله.

٤- أن كل محذور في عدم الملكة هو ثابت في السلب العام وزيادة، فإذا كنتم تقولون: ليس ميتا ولا جاهلا ولا أعمى، كان قولكم مع ذلك: ليس حيا ولا عالما ولا بصيرا، فيه من النقص ما في قول من يقول: ميت وجاهل وأعمى، وزيادة، وهذا مبني على أن ما لا يقبل الملكة أنقص من القابل لها.

٥- أن كل كمال اتصف به الممكن إذا لم يستلزم نقصا، فالواجب أولى به من الممكن، واتصافه به أولى لأنه أكمل ولأنه معطي الكمال لغيره، فالإنسان - الذي هو أكمل عندكم من الجدار الذي ضربتم به المثل في عدم القبول - إذا كان متصفا بصفة من صفات الكمال الذي لا نقص به، فالخالق أولى به، وهذا واضح.

٦- أن يقال لهؤلاء أنتم فررتم من التشبيه بالمخلوق الناقص فوقعتم في شر منه حيث شبهتموه بالجماد الذي هو أشد نقصا، بل إن سلبكم النقيضين أدى إلى تشبيهه بما هو أشد نقصا من المعدومات والممتنعات[1].

هذه أهم أوجه الرد، وهناك ردود أخرى متجهة إلى نفس تقسيمهم

(١) انظر فيما سبق: الصفدية (١/ ٩٠-٩٦)، والتدمرية (١٥٩-١٦٤) -المحققة- والجواب الصحيح (٢/ ١١٠-١١١)، وشرح الأصفهانية (ص:٧٦) -ت مخلوف-، ودرء التعارض (١/ ٢٢٢-٢٢٣، ٣٤١، ٣/ ٣٦٧-٣٦٨، ٤/ ٩-١٠، ٣٤-٤٠، ١٥٩-١٦٠، ٥/ ٢٧٣-٢٧٤، ٦/ ١٣٥-١٣٧)، والرسالة الأكملية، مجموع الفتاوى (٦/ ٨٨-٩٠)، وأيضًا مجموع الفتاوى (٦/ ٥٣٨، ٨/ ٢٢-٢٤)، والكيلانية مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٥٧-٣٥٨).

للمتقابلات وبيان أنه متداخل وغير حاصر.

وبذلك يتبين صحة هذا الدليل على إثبات الصفات، وأن الله لو لم يتصف بالسمع والبصر لا تصف بضدها، كما يتبين تهافت شبهة هؤلاء وبطلانها، وأن الآمدي وغيره كانوا قاصري الفهم حين ظنوا صحة هذه الشبهة.

(باب ذكر مسئلة الاسم والمسمى)

هذه المسألة من المسائل الحادثة التي لم يعرفها السلف الأوائل من الصحابة والتابعين، ولم ينقل عنهم أنهم خاضوا فيها، كما قال ابن جرير رحمه الله تعالى: ثم حدث في دهرنا هذا حماقات خاض فيها أهل الجهل والغباء، ونوكي الأمة، والرعاع، يتعب إحصاؤها ويمل تعدادها، فيها القول في اسم الشيء، أهو هو أم هو غيره.

وقال: وأما القول في الاسم أهو المسمى أم غير المسمى، فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيتبع، ولا قول من إمام فيستمع، فالخوض فيه شين والصمت عنه زين(١).

ولكن لما كان الكلام في هذا الأمر مستمرًا من أهل البدع والضلالات، اضطر أهل السنة للرد على هؤلاء، وتفنيد أقوالهم الباطلة المخالفة لكتاب الله وسنة نبيه، وبيان الحق في هذه المسألة.

وقبل أن ندخل في بيان هذه المسألة لنتعرف على المعنى اللغوي للفظة (اسم).

قال الزجاج: معنى قولنا اسم هو مشتق من السمو وهو الرفعة، والأصل فيه: سمو مثل قنو وأقناء.

---

(١) صريح السنة (١٧، ٢١).

وقال الجوهري مثله.

قال ابن سيده: والاسم اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض لتفصل به بعضه من بعض كقولك مبتدئا: اِسم هذا كذا، وإن شئت قلت: اُسم هذا كذا.

وقال أبو العباس: الاسم رسم وسمة توضع على الشيء تعرف به.

قال الأزهري: ومن قال إن اسمًا مأخوذ من وسمت فهو غلط. لأنه لو كان اسم من سمته لكان تصغيره وسيمًا مثل تصغير عدةٍ وصلة وما أشبهها.

قال ابن تيمية: وهو مشتق من (السمو) وهو العلو كما قال النحاة البصريون، وقال النحاة الكوفيون هو مشتق من (السمة) وهي العلامة، وهذا صحيح في (الاشتقاق الأوسط) وهو ما يتفق فيه حروف اللفظين دون ترتيبهما، فإنه في كليهما (السين والميم والواو) والمعنى صحيح، فإن السمة والسيما: العلامة، ومنه يقال: وسمته اسمه كقوله: سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ [القلم: ١٦]. ومنه التوسم كقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ [الحجر: ٧٥].

لكن اشتقاقه من (السمو) هو الاشتقاق الخاص الذي يتفق فيه اللفظان في الحروف، وترتيبها، ومعناه أخص وأتم، فإنهم يقولون في تصريفه: سميت، ولا يقولون وسمت، وفي جمعه أسماء لا أوسام، وفي تصغيره سمي لا وسيم. ويقال لصاحبه مسمى لا يقال موسوم، وهذا المعنى أخص. فإن (العلو) مقارن (للظهور)، كلما كان الشيء أعلى كان أظهر.

فالاسم يظهر به المسمى ويعلو، فيقال للمسمى: سمه أي أظهره، وأعله أي أعل ذكره بالاسم الذي يذكر به، لكن تارة بما يحمد به ويذكر تارة بما يذم به، كما قال تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا [مريم: ٥٠]. وقال وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ [الشرح:٤] وقال وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ

عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ [الصافات٧٨:- ٧٩].

وقال في النوع المذموم: وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ [القصص: ٤٢]. وقال تعالى: نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [القصص: ٣]، فكلاهما ظهر ذكره، لكن هذا إمام في الخير، وهذا إمام في الشر.

وما ليس له اسم، فإنه لا يذكر، ولا يظهر، ولا يعلو ذكره، بل هو كالشيء الخفي الذي لا يعرف، ولهذا يقال: الاسم دليل على المسمى، وعلم على المسمى ونحو ذلك.

ولهذا كان (أهل الإسلام والسنة) الذين يذكرون أسماء الله يعرفونه، ويعبدونه، ويحبونه، ويذكرونه، ويظهرون ذكره.

والملاحدة: الذين ينكرون أسماءه، وتعرض قلوبهم عن معرفته وعبادته، ومحبته وذكره، حتى ينسوا ذكره نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ [التوبة: ٦٧]، وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [الحشر: ١٩]. وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ [الأعراف: ٢٠٥].

والاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور في القلب، قد يراد به مجرد اللفظ، وقد يراد به مجرد المعنى فإنه من الكلام، والكلام اسم للفظ والمعنى، وقد يراد به أحدهما، ولهذا كان من ذكر الله بقلبه أو لسانه فقد ذكره، لكن ذكره بهما أتم.

والله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه، وأمر بالتسبيح باسمه، كما أمر بدعائه بأسمائه الحسنى، فيدعى بأسمائه الحسنى، ويسبح اسمه، وتسبيح اسمه هو تسبيح له، إذ المقصود بالاسم المسمى، كما أن دعاء الاسم هو دعاء المسمى.

قال تعالى: قُلِ ادْعُواْ اللهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا [الإسراء: ١١٠](١).

ومن المعروف أن الجهمية، والمعتزلة حرصوا على تقرير أن الاسم غير المسمى ليسلم لهم مذهبهم الفاسد القائل بخلق القرآن، فقابلهم البعض فقالوا: بل الاسم هو المسمى، حتى لا يقال: إن أسماء الله غير الله، وهذا قول بعض المنتسبين إلى السنة.

وقد ذكر شيخ الإسلام عدة أقوال في هذه المسألة، وهي:

١- أن الاسم غير المسمى، وهذا قول الجهمية، والمعتزلة الذين يقولون: إن أسماء الله غير الله، وما كان غير فهو مخلوق.

٢-التوقف والامساك عن إطلاق مثل هذه العبارات نفيا وإثباتا، وأن كلا من الإطلاقين بدعة، وقد ذكر هذا الخلال عن إبراهيم الحربي وغيره، وكما ذكره أبو جعفر الطبري في صريح السنة، وعده من الحماقات، فقال في في كتابه صريح السنة (ص: ٢٦-٢٧): وأما القول في الاسم هو المسمى أم هو غيره فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيُتبع ولا قول من إمام فيُستمع). قلت: قول ابن جرير: (ولا قول من إمام فيستمع) يشير إلى أن النزاع في هذه المسألة حدث بعد أئمة السلف الأوائل، وذكر ابن أبي يعلى أن الإمام أحمد كان يشق عليه الكلام في الاسم والمسمى ويقول: (هذا كلام محدث، ولا يقول إن الاسم غير المسمى ولا هو هو ولكن يقول: إن الاسم للمسمى اتباعا لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} . انظر: طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٠)، ونسب الأشعري هذا القول في المقالات (ص١٧٢) إلى بعض أصحاب ابن

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٠٧) باختصار.

كلاب.

٣- أن الاسم هو المسمى، وهذا قول كثير من المنتسبين إلى السنة، مثل أبي بكر عبد العزيز، وأبي القاسم الطبرى، واللالكائي، وأبي محمد البغوي وغيرهم. وهو أحد قولي أصحاب أبي الحسن الأشعري، اختاره أبو بكر بن فورك وغيره[١].

٤- وهو القول الثاني المشهور عن أبي الحسن الأشعري أن الأسماء ثلاثة أقسام:

تارة يكون الاسم هو المسمى، كاسم الموجود.

وتارة يكون غير المسمى، كاسم الخالق.

وتارة لا يكون هو ولا غيره كاسم العليم والقدوس[٢].

٥- أن الاسم للمسمى، كما يقوله أكثر أهل السنة، فهؤلاء وافقوا الكتاب والسنة والمعقول لقوله تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) [الأعراف: ١٨٠] وقال: (أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) [الإسراء: ١١٠] وهؤلاء إذا قيل لهم: هل الاسم هو المسمى أو غيره؟ "فصلوا فقالوا: ليس هو نفس المسمى، ولكن يراد به المسمى، وإذا قيل: إنه غيره بمعنى أنه يجب أن يكون مباينا. فهذا باطل؟ فإن المخلوق قد يتكلم بأسماء نفسه فلا تكون بائنة منه، فكيف بالخالق، وأسماؤه من كلامه، وليس كلامه بائنا عنه، ولكن قد يكون الاسم نفسه بائنا، مثل أن يسمى الرجل غيره باسم، أو يتكلم باسمه، فهذا الاسم نفسه ليس قائما

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/ ٢٠٤)، وشرح السنة (٥/ ٢٩)، والمقالات (ص: ١٧٢، ٢٩٠، ٢٩٣).

(٢) ذكر هذا القول والذي قبله البيهقي في الجامع لشعب الإيمان (١/ ٣٣٦-٣٣٧)، وانظر: الاعتقاد (ص٧١- ٧٢).

بالمسمى، لكن المقصود به المسمى، فإن الاسم مقصوده اظهار المسمى وبيانه"[١].

فالأشاعرة لهم قولان ضعيفان[٢] وقد ناقشهما شيخ الإسلام وبين ضعفهما: ومن ردوده على من قال منهم: إن الاسم هو المسمى قوله: "قلت لو اقتصروا على أن أسماء الشيء إذا ذكرت في الكلام فالمراد بها المسميات- كما ذكروه في

---

(١) فالحاصل أن هاهنا ثلاث صور. الأولى: الاسم غير المسمى. والثانية: الاسم هو المسمى. والثالثة: الاسم للمسمى. فأما الصورتان الأوليان فتحتملان حقا وباطلا، فقول القائل إن الاسم غير المسمى إن أراد أن لفظ الاسم غير الذات وأنه مخلوق، فهذا معنى باطل لأن أسماء الله تعالى من كلامه وكلامه غير مخلوق فأسماء الله غير مخلوقة.
وإن أراد القائل أن أسماء الله غير ذات الله، فهذا كلام صحيح عقلا ولغة، لأن لفظ زيد مثلا غير زيد الآكل الشارب. وأما الصورة الثانية: أن الاسم عين المسمى، فأيضا تحتمل حقا وباطلا، فمن قال إن الاسم عين المسمى وأراد بالاسم الذات وأراد أن ألفاظ أسماء الله مخلوقة، فهذا معنى باطل كما سبق. وإن أراد أن الاسم عين المسمى بمعنى الاسم لا ينفك عن المسمى ولم يقل بخلق أسماء الله، فهو كلام حق. وأما الصورة الثالثة: وهي أن الاسم للمسمى فهو كلام واضح لا تلبيس فيه ولا تدليس وليس من الكلمات المحدثة بل الكتاب والسنة يدلان عليه، فقد قال الله تبارك وتعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}. فالحاصل أن قول القائل إن الاسم عين المسمى أو غير المسمى إن صدر عن إمام من أئمة السنة فيُحمل على المعنى الحق، وإن جرى على لسان إمام من أئمة أهل الكلام فيحمل على المعنى الباطل.
ولذلك ننبه طلبة العلم إلى معرفة مصطلحات أهل الكلام لغموضها وتلبيسها ولما في طياتها من التعطيل والشطط، والله المستعان.
الخلاصة: الراجح عند أهل السنة أن يقال: إن الاسم للمسمى؛ لورود الأدلة بذلك، ولا يقال الاسم هو المسمى أو غير المسمى إلا ببيان المعنى الحق إذ إنها تحتمل حقا وباطلا. انظر كتاب اعتقاد أهل السنة للشيخ عثمان الخميس (ص١٠٨).

(٢) نسب ابن فورك في المجرد إلى الأشعري أنه يقول: أن الاسم غير المسمى، مع مخالفته ورده على الجهمية، انظر: المجرد (ص: ٣٨-٣٩).

قوله "يَا يَحْيَى" [مريم: ١٢] ونحو ذلك- لكان ذلك معنى واضحا، لا ينازعه فيه من فهمه، لكن لم يقتصروا على ذلك، ولهذا أنكر قولهم جمهور الناس من أهل السنة وغيرهم لما في قولهم من الأقوال الباطلة، مثل دعواهم أن لفظ اسم الذي هو (أ، س، م) معناه ذات الشيء ونفسه، وأن الأسماء- التي هى الأسماء- مثل زيد وعمرو هى التسميات، ليست هي أسماء المسميات، وكلاهما باطل مخالف لما يعلمه جميع الناس من جميع الأمم ولما يقولونه ... وأيضا فهم تكلفوا هذا التكليف ليقولوا: إن اسم الله غير مخلوق، ومرادهم أن الله غير مخلوق وهذا مما لا تنازع فيه الجهمية والمعتزلة؛ فإن أولئك ما قالوا الأسماء مخلوقة إلا لما قال هؤلاء هي المسميات. فوافقوا الجهمية والمعتزلة في المعنى، ووافقوا أهل السنة في اللفظ، ولكن أرادوا به ما لم يسبقهم أحد إلى القول به من أن لفظ اسم وهو (ألف، سين، ميم) معناه إذا أطلق هو الذات المسماة، بل معنى هذا اللفظ هى الأقوال التي هى أسماء الأشياء، مثل زيد وعمرو، وعالم وجاهل، فلفظ الاسم لا يدل على أن هذه الأسماء هى مسماة ...[1] " إلى آخر مناقشته لهم.

ثم ذكر أن أهل القول الثاني من الأشاعرة- الذي قسموا الأسماء إلى ثلاثة أقسام- " غلطوا من وجه آخر؛ فإنه إذا سلم لهم أن المراد بالاسم الذي هو (ألف، سين، ميم) هو مسمى الأسماء فاسمه الخالق هو الرب الخالق نفسه، ليس هو المخلوقات المنفصلة عنه، واسمه العليم هو الرب العليم، الذي العلم صفة له، فليس العلم هو المسمى، بل المسمى هو العليم، فكان الواجب أن يقال على أصلهم: الاسم هنا هو المسمى وصفته، وفي الخالق الاسم هو

---

(١) قاعدة في الاسم والمسمى- مجموع الفتاوى (٦/ ١٩١-١٩٢) .

المسمى وفعله، ثم قولهم: ان الخلق هو المخلوق، وليس الخلق فعلا قائما بذاته، قول ضعيف، مخالف لقول جمهور المسلمين"١.

وبهذا يتبين أن القول الخامس هو القول الراجح وأن الاسم للمسمى، وأنه لابد من الاستفصال عن المقصود لمن قال: الاسم هو المسمى أو غيره.

قال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رحمه الله تعالى: (فصل في الاسم والمسمى، هل هو هو أو غيره؟ أولا يقال هو هو، ولا يقال هو غيره؟ أو هو له؟ أو يفصل في ذلك؟

فإن الناس قد تنازعوا في ذلك، والنزاع اشتهر بعد الأئمة، بعد أحمد وغيره، والذي كان معروفًا عند (أئمة السنة) أحمد وغيره: الإنكار على الجهمية الذين يقولون أسماء الله مخلوقة، ويقولون: الاسم غير المسمى، وأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق.

وهؤلاء هم الذين ذمهم السلف وغلظوا فيهم القول، لأن أسماء الله من كلامه، وكلام الله غير مخلوق، بل هو المتكلم به، وهو المسمى لنفسه بما فيه من الأسماء.

والجهمية يقولون: كلامه مخلوق، وأسماؤه مخلوقة، وهو نفسه لم يتكلم بكلام يقوم بذاته، ولا سمى نفسه باسم هو المتكلم به، بل قد يقولون: إنه تكلم به وسمى نفسه بهذه الأسماء، بمعنى أنه خلقها في غيره، لا بمعنى أنه نفسه تكلم بها الكلام القائم به، فالقول في أسمائه هو نوع من القول في كلامه)[٢].

ويقول شارح العقيدة الطحاوية:

---

(١) قاعدة في الاسم والمسمى- مجموع الفتاوى (٦/ ٢٠١-٢٠٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ١٨٥) .

(طالما غلط كثير من الناس في ذلك وجهلوا الصواب فيه. فالاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى.

فإذا قلت: قال الله كذا، أو سمع الله لمن حمده، ونحو ذلك فهذا المراد به المسمى نفسه.

وإذا قلت: الله اسم عربي، والرحمن اسم عربي، والرحيم من أسماء الله تعالى ونحو ذلك، فالاسم ها هنا هو المراد لا المسمَّى، ولا يقال غيره، لما في لفظ الغير من الإجمال.

فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق. وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له، حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى)[(١)].

وزيادة في الإيضاح نقول إن الاسم يأتي في مواضع من الكلام ويراد به التسمية:

بوب لذلك البخاري في كتاب التوحيد: باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، وخرج بعدة أحاديث منها: الذكر الذي يقال عند النوم (باسمك ربي وضعت جنبي ..)[(٢)]، وحديث أنس في التسمية عند الذبح[(٣)]، وحديث ابن عمر في النهي عن الحلف إلا بالله[(٤)].

---

(١) العقيدة الطحاوية (١٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٦٥)، ومسلم (١٩٦٦).

(٤) أخرجه الطيالسى (١٨٩٦)، وأحمد (٢/ ١٢٥)، والترمذى (١٥٣٥)، وأبو داود (٣٢٥١)، وأبو عوانة (٤/ ٤٤، رقم ٥٩٦٧)، وابن حبان (٤٣٥٨)، والحاكم (١/ ٦٥، رقم ٤٥)، والبيهقى (١٠/ ٢٩)، والضياء (١/ ٢٠٥) والحديث حسنه الترمذي، =

=

وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه ابن القيم في أحكام أهل الذمة (٣/ ١٢٩٢)، وكذا صححه ابن الملقن في البدر المنير (٩/ ٤٥٨)، وابن كثير في مسند الفاروق (١/ ٤٣١)، وصححه أيضا العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وصححه العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (١/ ٤٥)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٧٣٤)، ثم عاد وقال في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (رقم ٢٦٨): هذا الحديث إذا نظرت إلى سنده وجدتهم رجال الصحيح، ولكنه منقطع قال البيهقي (١٠ ص ٢٩): وهذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من بن عمر، أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أنبأ أحمد بن جعفر هو القطيعي ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن منصور عن سعد بن عبيدة قال: كنت عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقمت وتركت رجلا عنده من كندة فأتيت سعيد بن المسيب قال فجاء الكندي فزعا فقال جاء بن عمر رجل فقال احلف بالكعبة قال لا ولكن أحلف برب الكعبة فإن عمر كان يحلف بأبيه فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا تحلف بأبيك فإنه من حلف بغير الله فقد أشرك. وجاء بيان المجهول أنه محمد الكندي كما في "مسند أحمد" (ج ٢ ص ٦٩) ومحمد الكندي ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٨/ ١٣٢) وهو مجهول، قاله أبو حاتم.اهـ.

وكذا قال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٨/ ٥٠٣): رجاله ثقات رجال الشيخين، إلا أن سعد بن عبيدة ثم يسمع هذا الحديث من ابن عمر مباشرة، بل كان في مجلسه مع رجل من كندة ثم خرج سعد إلى عند سعيد بن المسيب، فسمعه الكندي من ابن عمر، ثم جاء فحدث به سعد بن عبيدة، كذا بينه منصور بن المعتمر فيما يأتي برقم (٥٣٧٥) و(٥٥٩٣)، ولعل هذا أصح من صنيع الأعمش وغيره حيث اختصروه، فأوهموا أنه من مسموعات سعد بن عبيدة، عن ابن عمر فعلى رواية منصور يكون في إسناد الخبر راو مبهم، وهو الرجل الكندي، لكن سمي في الرواية التي ستأتي برقم (٥٣٧٥) محمدا الكندي، وقد ذكر ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" ٨/ ١٣٢ في هذه الطبقة راويا يسمى محمدا الكندي، وقال: روى عن علي رضي الله عنه، مرسل، روى عنه عبد الله بن يحيى التوأم، سمعت أبي يقول ذلك، وسمعته يقول: هو مجهول، وسيأتي برقم (٥٢٢٢) و(٥٢٥٦) من طريق الأعمش عن سعد بن عبيدة ما يفيد أن هذا الأخير كان في مجلس ابن عمر عندما حدث بهذا الحديث، ولعل الأعمش اختصره، على أن أئمة الجرح

=

قال ابن بطال: (مقصوده بهذه الترجمة تصحيح القول بأن الاسم هو المسمى، فلذلك صحت الاستعاذة بالاسم كما صحت بالذات)[١].

وجاء في القرآن الكريم الأمر بتنزيه الاسم في قوله: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى، وقوله: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ، وقوله: تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ فدل هذا على أنه أمر بتسبيح الله تعالى، ودل العقل على أن المسبح هو الله تعالى لا غيره. لأن تسبيح الاسم وذكره هو تسبيح المسمَّى وذكره.

فإن المسبح والذاكر إنما يسبح اسمه ويذكر اسمه، فيقول: (سبحان ربي الأعلى) فهو نطق بلفظ ربي الأعلى، والمراد هو المسمى بهذا اللفظ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمَّى.

ويأتي في موضع آخر ويراد به الاسم نفسه:

كحديث أنس أن النبي ﷺ: (اتخذ خاتمًا من فضة ونقش فيه: محمد رسول الله)[٢]، فالمراد هنا نقش الاسم والتسمية.

وقول النبي ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه)[٣]، فمعلوم أن المراد تحرك شفتاه بذكر اسم الله وهو القول ليس المراد

=

والتعديل كالإمامين أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين قد قدموا منصورا على الأعمش إذا اختلفا، كما أن الأعمش موصوف بالتدليس، وهو هناك قد عنعنه. ولكل ما سلف أشار الطحاوي في "شرح مشكل الآثار" بإثر الحديث (٨٣١) إلى فساد إسناده، وقال البيهقي في "السنن" ١٠/ ٢٩: هذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من ابن عمر.

(١) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٤٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٧٧)، ومسلم (٢٠٩٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٥٤٠)، والبخاري في خلق أفعال العباد (٤٣٦)، وابن المبارك في الزهد (٣٩٣)، وابن ماجه (٣٧٩٢)، وابن حبان (٨١٥)، والحاكم (١/ ٤٩٦)، =

أن الشفتين تتحرك بنفسه تعالى[(١)].

وكذا حديث (إن لله تسعة وتسعين اسما)[(٢)] المراد به التسمية.

وأهل السنة والجماعة الذين قالوا بأن الاسم هو المسمى، لا ينازعون في أن الاسم غير المسمى من جهة أن الأسماء أقوال، وأنها ليست هي المسميات فهذا لا ينازع فيه أحد من العقلاء.

لكنهم قالوا ذلك (أي أن الاسم هو المسمى) ردًا على الجهمية والمعتزلة الذين قالوا: إن الاسم غير المسمى، ويقصدون أن أسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق، وأن الله كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء، وهذا كله من الباطل المعلوم شرعًا وعقلًا.

وهناك قول آخر في هذه المسألة ينقل عن أهل السنة وهو أن (الاسم للمسمى) ذكره ابن جرير حيث قال: (وحسب امرئ من العلم به، والقول فيه، أن ينتهي إلى قول الله ﷻ ثناؤه الصادق وهو قوله: قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا [الإسراء: ١١٠][(٣)]. وقوله تعالى: وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى

=

والبيهقي في الشعب (١/ ٣٩١)، والبغوي (١٢٤٢)، وعلقه البخاري مجزوما به في صحيحه قبل الحديث رقم (٧٥٢٤) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه والحديث صححه ابن حبان، وكذا صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال البوصيري (٤/ ١٢٧): هذا إسناد حسن، وصححه الحافظ في التهذيب (١٢/ ٤٤٨)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (١٩٠٦)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٦/ ٥٦٨): حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن مصعب.

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٠٧) باختصار.

فَادْعُوهُ بِهَا [الأعراف: ١٨٠])[١].

شناعة قول الجهمية في هذه المسألة:

قال ابن أبي حاتم في كتاب (الرد على الجهمية): ذكر نعيم بن حماد أن الجهمية قالوا: إن أسماء الله مخلوقة، لأن الاسم غير المسمى، وادعوا أن الله كان ولا وجود لهذه الأسماء ثم خلقها ثم تسمى بها.

قال: قلنا لهم إن الله قال: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى، وقال: ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فأخبر أنه المعبود، ودل كلامه على اسمه بما دل به على نفسه، فمن زعم أن اسم الله مخلوق فقد زعم أن الله أمر نبيه أن يسبح مخلوقًا.

ونقل عن إسحاق بن راهويه عن الجهمية أن جهمًا قال: لو قلت إن لله تسعًا وتسعين اسمًا لعبدت تسعة وتسعين إلهًا. قال: فقلنا لهم عن الله أمر عباده أن يدعوه بأسمائه فقال وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا والأسماء جمع أقله ثلاثة، ولا فرق في الزيادة على الواحد بين الثلاثة وبين التسعة والتسعين[٢].

وقالت الجهمية لمن قال: إن الله لم يزل بأسمائه وصفاته: قلتم بقول النصارى حيث جعلوا معه غيره.

فأجابوا (أي أهل السنة): بأنا نقول إنه واحد بأسمائه وصفاته فلا نصف إلا واحدًا بصفاته كما قال تعالى: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وصفه بالوحدة مع أنه كان له لسان، وعينان، وأذنان، وسمع، وبصر، ولم يخرج بهذه الصفات عن كونه واحد، ولله المثل الأعلى[٣].

وقال الشافعي: (من حلف باسم من أسماء الله فحنث فعليه الكفارة، لأن

---

(١) صريح السنة (٢٧).

(٢) الفتح (١٣/ ٣٧٨).

(٣) الفتح (١٣/ ٣٨١).

اسم الله غير مخلوق، ومن حلف بالكعبة أو بالصفا والمروة فليس عليه الكفارة، لأنه مخلوق، وذاك غير مخلوق)[1].

(باب هل الصفة هي الموصوف أو غيره)

هذه المسألة شبيهة بمسألة: هل الاسم هو المسمى أو غيره، وكل ذلك من الألفاظ المجملة التي كان للسلف رحمهم الله فيها موقف واضح محدد، وهو أنه لا ينبغي إطلاق النفي ولا الإثبات، بل لا بد من الاستفصال.

والمهم هنا قبل عرض الخلاف في ذلك وبيان الراجح، توضيح منشأ بحث هذه المسألة، أي مسألة هل الصفة هي الموصوف أو غيره، والتي يعبر عنها أحيانا بالقول: هل الصفات هي الذات أو غيرها، والذي يظهر أن ذلك نشأ من خلال ردود أهل الكلام على النصاري:

أ- فالنصارى قالوا: إن كلمة الله التي بها خلق كل شيء تجسدت بإنسان، فكان من ردود أهل الإسلام عليهم لبيان باطلهم أن بينوا تهافت قولهم: إن كلمة الله بها خلق كل شيء، لأن الخالق هو الله، وهو خلق الأشياء بقوله "كن" وهو كلامه، فالخالق لم يخلق به الأشياء، فالكلام الذي به خلقت الأشياء ليس هو الخالق لها، بل به خلق الأشياء، فضلال هؤلاء أنهم جعلوا الكلمة هي الخالق. والكلمة مجرد الصفة، والصفة ليست خالقة، وإن كانت الصفة مع الموصوف فهذا هو الخالق، ليس هو المخلوق به، والفرق بين الخالق للسموات والأرض والكلمة التي بها خلقت السموات والأرض أمر ظاهر معروف، كالفرق بين

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٢١١)، والذهبي في العلو (ص: ١٦٦)، وانظر النهج الأسمى في شرح أسماء الله.

القدرة والقادر ...[1] فهؤلاء النصارى جعلوا الصفة غير الموصوف، وجعلوها خالقة، بل جعلوها حالة في أحد المخلوقات.

ب- وكان من آثار مناقشة أهل الكلام - وخاصة المعتزلة - للنصارى أن تطرقوا لهذا الموضوع كثيرا، فنشأت شبهة تعدد القدماء، وأن إثبات صفة لله يلزم منه أن تكون قديمة، وإذا كانت غير الموصوف لزم تعدد القدماء، فظنوا - أي المعتزلة - أن تحقيق التوحيد، والخلوص من شرك النصارى لا يتم إلا بنفي جميع الصفات عن الله تعالى وبنوا ذلك على:

أن الصفة غير الموصوف، وغير الذات، وأن الصفة لله لا بد أن تكون قديمة.

والنتيجة أن إثبات الصفات لله يلزم منه تعدد القدماء، وهو باطل[2].

والعجيب أن هؤلاء المعتزلة - وهم أرباب الكلام والبحث في المعقولات - لم تستوعب عقولهم أن الذات لا يمكن أن تنفك عن صفاتها، ومن ثم فلا شبهة ولا تعدد.

ج- فلما جاءت الأشعرية وغيرهم اهتموا ببحث هذه المسألة، وصاروا يستخدمون عبارات معينة عن بيان قدم الذات والصفات، كأن يقولوا: الرب قديم، وصفته قديمة، ولا يقولون: الرب وصفاته قديمان لما في العطف والتثنية من الإشعار بالتغاير، أو يقولون: الرب بصفاته قديم، وهكذا. كما بينوا أن الصفات لا يقال هي الذات ولا غيره، حذرا من هذه الشبهة التي وقع فيها

---

(١) انظر: الجواب الصحيح (٢/ ٢٦٦، ٢٩٢، ٣/ ٥٤-٤٤).

(٢) انظر: تفصيل مذهب المعتزلة في المحيط بالتكليف (ص: ١٧٧) وما بعدها، ط مصر، وشرح الأصول الخمسة (ص: ١٩٥-١٩٧)، والمختصر في أصول الدين (١/ ١٨٢-١٨٣) ضمن رسائل العدل والتوحيد.

المعتزلة.

وخلاصة الأقوال في الصفة هل هي الموصوف أو غيره هي:

١- قول من يقول: الصفة غير الموصوف، أو الصفات غير الذات، وهذا قول المعتزلة والكرامية، والمعتزلة تنفي الصفات، والكرامية تثبتها[1].

٢- قول من يفرق بين الأمرين، ولا يجمع بينهما،فيقول: أنا أقول مفرقا: أن الصفة ليست هي الموصوف وأقول:إنها ليست غير الموصوف ولكن لا أجمع بين السلبين فأقول: ليست الموصوف ولا غيره، لأن الجمع بين النفي فيه من الإيهام ما ليس في التفريق، وهذا قول أبي الحسن الأشعري، الذي يقول على هذا: الموصوف قديم، والصفة قديمة، ولا يقول عند الجمع: قديمان، كما لا يقال عند الجمع: لا هو الموصوف ولا غيره[2].

٣- جاء بعد الأشعري من الأشاعرة من يجوز الجمع بين السلبين، وصاروا يقولون: ليست الصفة هي الموصوف ولا غيره، كما صاروا يجوزون إطلاق القول بإثبات قديمين، وصار هؤلاء يردون على المعتزلة الذين قالوا لهم يلزم من ذلك إثبات قديمين بعدة ردود منها "أن كونهما قديمين لا يوجب تماثلهما كالسواد والبياض اشتركا في كونهما مخالفين للجوهر، ومع هذا لا يجب تماثلهما وأنه ليس معنى القديم معنى الإله ... ولأن النبي محدث وصفاته محدثة، وليس إذا كان الموصوف نبيا وجب أن يكون صفاته أنبياء لكونهما

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٦).

(٢) انظر: الرسائل إلى أهل الثغر (ص: ٧٠-٧١) [وقد نسب إليه ابن فورك في المجرد ص: ٣٨، أنه يقول: لا يقال لصفاته هي هو ولا غيره] وانظر أيضًا: الرسالة الأكملية - مجموع الفتاوى (٦/ ٩٦)، وجواب أهل العلم والإيمان - مجموع الفتاوى (١٧/ ١٦٠)، ودرء التعارض (٥/ ٤٩).

محدثة، كذلك لا يجب إذا كانت الصفات قديمة والموصوف بها قديما أن تكون آلهة لكونهما قديمة"، وهذا قول الباقلاني، والقاضي أبي يعلى(١).

٤- أصحاب القوا الرابع قالوا: أن هذا الكلام فيه إجمال، وأن لفظ "الغير" فيه إجمال، ومن ثم فلا بد من التفصيل، وهؤلاء لا يقولون عن الصفة: إنها الموصوف ولا يقولون: إنها غيره، ولا يقولون: ليست هي الموصوف ولا غيره. ويلاحظ أن المقصود ليست إثبات قول ثالث كما هو قول الباقلاني والقاضي أبي يعلى الذين قالوا ليست الصفة هي الموصوف ولا غيره - فإن هذا قول ثالث، بل المقصود أنه لا ينبغي الإطلاق: نفيا وإثباتا، وهم تركوا إطلاق اللفظين لما في ذلك من الإجمال.

وهذا قول جمهور أهل السنة، كالإمام أحمد وغيره، كما أنه قول ابن كلاب[٢].

وهؤلاء قالوا: لفظ "الغير" فيه إجمال: فقد يراد به المباين المنفصل، ويعبر عنه بأن الغيرين ما جاز وجود أحدهما وعدمه، أو ما جاز مفارقة أحدهما الآخر بزمان أو مكان أو وجود، وقد يراد بالغير ما ليس هو عين الشيء، ويعبر بأنه ما جاز العلم بأحدهما دون الآخر[٣].

---

(١) درء التعارض (٥/ ٥٠)، وقارن بالتدمرية (ص: ١١٨)، والتمهيد (ص: ٢٠٦-٢٠٧، ٢١٠-٢١٢)، ورسالة الحرة [المطبوعة باسم الإنصاف] (ص: ٣٨)، والمعتمد (ص:٤٦).

(٢) انظر: جواب أهل العلم والإيمان (١٧/ ١٥٩-١٦٠)، ودرء التعارض (٢/ ٢٧٠، ٥/ ٤٩)، وانظر: مقالات الأشعري (ص: ١٦٩-١٧٠).

(٣) انظر: درء التعارض (١/ ٢٨١)، وجواب أهل العلم والإيمان - مجموع الفتاوى (١٧/ ١٦٠-١٦١)، والمسألة المصرية في القرآن - مجموع الفتاوى (١٢/ ١٧٠)، والسبعينية (ص: ٩٦-٩٧).

وهناك فرق بين الأمرين، وعلى هذا فيفصل الأمر:

١- فإذا قيل: هل الصفات هي الموصوف أو غيره؟ قيل: إن أريد بالغير الأول، وهو ما جاز مفارقة أحدهما الآخر، فليست الصفة غير الموصوف، وإن أريد بالغير المعنى الثاني - وهو ما جاز العلم بأحدهما دون الآخر - فالصفة غير الموصوف.

فمن قال: إن الصفة هي الموصوف، قاصد بذلك أنها ليست غيره بالمعنى الأول للفظ الغير، فقوله صحيح، وكذا إن قال: الصفة غير الموصوف قاصدًا بالغير المعنى الثاني فكلامه صحيح أيضًا. وعكس الأمرين باطل، والسلف يقولون بهذا التفصيل، ومن المعلوم أن الموصوف لا تنفك عنه صفاته.

٢- وإذا قيل: هل الصفات زائدة على الذات، أو هل الصفات هي الذات أو غيرها؟ قالوا: إن أريد بالذات المجردة التي يقر بها نفاة الصفات فالصفات زائدة عليها، وهي غير الذات، وإن أريد بالذات الذات الموجودة في الخارج فتلك لا تكون موجودة إلا بصفاتها اللازمة والصفات ليست زائدة على الذات، ولا غيرها بهذا المعنى.

ومن ذلك يتضح خطأ وصواب من أطلق القول بأن الصفات غير الذات أو هي الذات[1]، على حسب ما في لفظ الغير، والذات من الإجمال.

---

(١) لشيخ الإسلام ملاحظة دقيقة هنا، وهي أنه يجب أن، يفرق بين قول القائل: إن الصفات غير الذات وقوله: إنها غير الله، لأن لفظ "الذات" يشعر بمغايرته للصفة، بخلاف اسم "الله" تعالى فإنه متضمن لصفات كماله، وعلى ذلك فإنه لا يقال: إن الصفات غير الله، لما في ذلك من الإيهام. أما القول إنها غير الذات فقد يكون صحيحًا، لما في التعبير بالذات من الإشعار بأن المقصود بالذات المجردة دون صفاتها. انظر: الجواب الصحيح (٣/ ٣٠٨)، والصفدية (١/ ١٠٨-١٠٩)، ودرء التعارض =

وبذلك يتبين أرجحية مذهب السلف حين لم يطلقوا الأمرين في ذلك، بل فصلوا واستفصلوا عن المراد، فإن كان حقا قبلوه وإن كان باطلا ردوه[1]

مسألة: بعض المتكلمين أطلقوا بعض الأسماء لله وإن لم يرد بها نص ولا إجماع، وذلك كاسم القديم، والذات وغيرها[2]. وقد ناقش شيخ الإسلام هؤلاء ذاكرا الخلاف في ذلك فقال: إن المسلمين في أسماء الله تعالى على طريقتين:

كثير منهم يقول: إن أسماءه سمعية شرعية، فلا يسمى إلا بالأسماء التي جاءت بها الشريعة، فإن هذه عبادة، والعبادات مبناها على التوقف والاتباع.

ومنهم من يقول: ما صح معناه في اللغة، وكان معناه ثابتا له لم يحرم تسميته به، فإن الشارع لم، يحرم علينا ذلك فيكون عفوا.

والصواب القول الثالث: وهو أن يفرق بين أن يدعى بالأسماء، أو يخبر بها عنه؛ فإذا دعى لم يدع إلا بالأسماء الحسنى كما قال تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) [الأعراف: ١٨٠]، وأما الإخبار عنه فهو بحسب الحاجة، فإذا احتيج في تفهيم الغير المراد إلى أن يترجم أسماؤه بغير العربية، أو يعبر باسم له معنى صحيح لم يكن ذلك محرما"[3]، ويقول في موضع آخر بعد ترجيح ما ذكره في القول الثالث قال: "وإما إذا احتيج إلى الإخبار عنه مثل أن يقال: ليس هو بقديم ولا موجود، ولا ذات قائمة

=

(١٠/ ٧٢).

(١) انظر في هذه المسألة: التسعينية (ص: ١٠٨-١٠٩)، والدرء (٢/ ٢٣٠-٢٣١، ٣/ ٢٠-٢٥، ٥/ ٣٧-٥٠، ٣٣٨، ٩/ ١٣٦، ١٠/ ١٢٠، ٢٣١، ٢٣٥).

(٢) انظر: المنهاج في شعب الإيمان (١/ ١٨٨)، والأسماء والصفات للبيهقي (ص: ٩)، والمقصد الأسنى للغزالي (ص: ١٦٥)، ولوامع البينات للرازي (ص: ٣٥٥-٣٥٦).

(٣) الجواب الصحيح (٣/ ٢٠٣).

بنفسها، ونحو ذلك، فقيل في تحقيق الإثبات: بل هو سبحانه قديم، موجود، وهو ذات قائمة بنفسها، وقيل: "ليس بشيء" فقيل: بل هو شيء. فهذا سائغ وإن كان لا يدعى بمثل هذه الأسماء التى ليس فيها ما يدل على المدح كقول القائل: يا شيء ... "[١].

فهذا التفريق الدقيق الذي ذكره شيخ الإسلام بين الدعاء والإخبار هو الذي يفصل في الأمر، والمتكلمون إنما ذكروا بعض الأسماء التى لم ترد بسبب خوضهم في علوم الكلام واصطلاحات الفلاسفة فاضطروا إلى مجاراتهم[٢].

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠١)، وانظر: درء التعارض (١/ ٢٩٧-٢٩٨)، وبدائع الفوائد لابن القيم (١/ ١٨٢).

(٢) انظر كتاب موقف ابن تيمية من الأشاعرة.

الفهرس

❊ ❊ ❊

جامع المسائل العقدية

تأليف
محمد بن نصر أبي جبل

دار اللؤلؤة

الجزء الرابع

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(باب مباحث الإيمان بالحساب)

مسائل في الباب

المسألة الأولى: تعريف الحساب في اللغة، وفي الشرع

جاءت في كتب اللغة عدة إطلاقات للفظة الحساب، ومن بين تلك الإطلاقات: أن الحساب يطلق ويراد به: العدد، والمعدود، والإحصاء بالدقة التامة دون زيادة ولا نقصان، وقد ذكر أهل اللغة في مادة حسب كثيرًا من المعاني التي جاءت لهذه الكلمة.

وفي هذا يقول الأزهري: (وإنما سمي الحساب في المعاملات حسابًا لأنه يعلم به ما فيه كفاية ليس فيه زيادة على المقدار ولا نقصان).

وقال الليث: (والحساب والحسابة عدك الشيء، تقول: حسبت الشيء أحسب حسابًا وحسابة وحسبته).

ويأتي الحساب كذلك بمعنى الكثرة، قال أبو عبيد عن أبي يزيد) أحسبت الرجل أي أعطيته ما يرضى، وقال: غيره معناه أعطيته حتى قال: حسبي، قال الله ﷻ: {عَطَاء حِسَابًا} [النبأ: ٣٦] أي كثيرًا.

ويقال: أتاني حساب من الناس أي جماعة كثيرة وهي لغة هذيل)(١).

وتأتي لفظة حسبان مرادفة لكلمة الحساب والكل بمعنى واحد، نقل الأزهري في تهذيب اللغة (٤/ ٣٣١ - ٣٣٢) عن أبي العباس أنه قال: (حسابنا مصدر كما تقول: حسبته أحسبه حسبانًا وحسابًا، وقال الأخفش: إن حسبانا

---

(١) انظر كتب اللغة مادة حسب، تهذيب اللغة (٤/ ٣٣٢-٣٣٣) وانظر تاج العروس (١/ ٢١٠-٢١٣)، وانظر كذلك القاموس المحيط (١/ ٥٦) والصحاح للجوهري (١/ ١١٠).

جمع حساب، وقال أبو الهيثم: الحسبان جمع حساب وكذلك أحسبة، مثل شهاب وأشهبة وشهبان.اهـ.

وقال أيضًا في نفس المصدر: وأخبرني المنذري عن ثعلب أنه قال: قال الأخفش في قوله ﷻ: وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا} [الأنعام: ٩٦] فمعناه: بحساب فحذف الباء.اهـ.

ويقول الفيروزآبادي في القاموس المحيط (١/ ٥٦): حسبه حسبًا وحسبانًا بالضم، وحسبانًا وحسابًا وحسبة وحسابة بكسرهن: عده، والمعدود محسوب.اهـ.

ويقول الهوريني في فوائد في اللغة والصحاح (ص: ٤٢): حسبته أحسبه بالضم حسبًا وحسابًا وحسبانًا وحسابة إذا عددته، والمعدود محسوب.اهـ.

وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في معجم مقاييس اللغة (٢/ ٥٨) أن حسب لها معان فقال: (الأول: العدد، تقول: حسبت الشيء أحسبة وحسبانًا، قال الله تعالى: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} [الرحمن: ٥]).اهـ.

وقال الراغب في المفردات (ص: ١٦٦ - ١١٧): الحساب: استعمال العدد، يقال: حسبت أحسب حسابا وحسبانا، قال تعالى: لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ [يونس: ٥] وقال تعالى: وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا} [الأنعام: ٩٦].اهـ.

والحسبان ما يحاسب عليه فيجازى بحسبه، وكذا لفظة الحسيب والمحاسب فإنها تطلق مرادًا بها الحساب قال الراغب في المصدر السابق: والحسيب والمحاسب: من يحاسبك ثم يعبر عن المكافئ بالحساب.اهـ.

وقد ورد في القرآن الكريم كذلك إطلاق لفظة الحساب مرادا بها الجزاء كما

قال تعالى:

١- (وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)} [المؤمنون: ١١٧] قال الطبري في جامع البيان (١٨/ ٦٤): فإنما حساب عمله السيئ عند ربه وهو موفيه جزاءه إذا قدم عليه.اهـ.

٢- وقال تعالى: (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ)} [الشعراء: ١١١ - ١١٣] قال ابن جريج: أي هو أعلم بما في أنفسهم.

٣- قال تعالى: (إِنَّ إِلينَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)} [الغاشية: ٢٥ - ٢٦] قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٠٤): أي نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.اهـ.

ويطلق أيضًا على محاسبة النفس: قال تعالى: (كَفَى بِنَفْسِكَ اليوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)} [الإسراء: ١٤] أي كفى بك لنفسك محاسبًا، ويطلق على التوسعة في الرزق كما قال تعالى: (يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ)} [ال عمران: ٣٨]، أي بغير تقتير وتضييق، كقولك: فلان ينفق بغير حساب، أي يوسع النفقة ولا يحسبها.

والحاصل أن أقوال أهل اللغة في المراد بالحساب، تشير إلى أنه يرد بمعنى الكثرة في الشيء، والزيادة فيه، والعدد، والإحصاء، والدقة في العدد دون زيادة ولا نقصان. الحياة الآخرة لغالب عواجي (٢/ ٩٠٥).

أما المراد بالحساب في الشرع فإنه يراد به: توقيف الله عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم، خيرًا كانت أو شرًا، تفصيلًا لا بالوزن، إلا من

استثنى منهم[١].

وقوله: (لا بالوزن) يحتمل أنه يريد أن الله يحاسبهم ثم يزن أعمالهم، لا أنه يكتفي بالمحاسبة عن الوزن (إلا من استثنى منهم) فإنه لا يحاسبهم ولا يزن أعمالهم.

ويحتمل أيضا أن يكون المعنى: أن الله يوقفهم على أعمالهم تفصيلًا، ولا يكتفي بالمعرفة الإجمالية التي تتأتى من طريق الوزن.

ونقل السفاريني عن الثعلبي تعريفه للحساب قائلًا: الحساب تعريف الله ﷻ الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك، يدل على هذا قوله تعالى: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ[٢][المجادلة: ٦].

والظاهر: أن تعريف الثعلبي أشمل من تعريف السفاريني، لأنه يتضمن تعريف الله عباده بأعمالهم تفصيلًا على مقدار ما يستحقونه من الجزاء، خيرًا أو شرًا، وتعريف السفاريني ينفرد بأن هذه المحاسبة لا يغني عنها الميزان، ولا تغني عن الميزان.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التذكرة (ص٢٧١) في تعريف الحساب: ومعناه أن البارئ سبحانه يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة، يعدد عليهم نعمه ثم يقابل البعض بالبعض.اهـ.

ومعنى هذه العبارة: أن نتيجة مقابلة بعضها ببعض أي السيئات بالحسنات - لإظهار أيهما أرجح، وعليه يحكم على الشخص، إن كان من أهل الخير أو

(١) لوامع الأنوار (٢/ ١٦٥)، وانظر: الكواشف الجلية (ص: ٣٤٣).
(٢) لوامع الأنوار (٢/ ١٦٥).

أهل الشر.

قال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (٥/ ٦٣): الحساب لغة: العدد.

وشرعا: إطلاع الله عباده على أعمالهم.

وهو ثابت بالكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين.

قال الله تعالى: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} . وكان النبي ﷺ، يقول في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حسابا يسيرا». فقالت عائشة رضي الله عنها: ما الحساب اليسير؟ قال: «أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه». رواه أحمد. وقال الألباني: إسناده جيد.

وأجمع المسلمون على ثبوت الحساب يوم القيامة.

وصفة الحساب للمؤمن: أن الله يخلو به فيقرره بذنوبه، حتى إذا رأى أنه قد هلك. قال الله له: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته.

وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين. متفق عليه من حديث ابن عمر.

والحساب عام لجميع الناس إلا من استثناهم النبي ﷺ، وهم سبعون ألفا من هذه الأمة منهم عكاشة بن محصن يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب. متفق عليه. وروى أحمد من حديث ثوبان مرفوعا أن مع كل واحد سبعين ألفا، قال ابن كثير: حديث صحيح وذكر له شواهد.

وأول من يُحاسب هذه الأمة لقول النبي، ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضي بينهم قبل الخلائق». متفق عليه، وروى ابن ماجه عن ابن عباس مرفوعا: «نحن آخر الأمم وأول من يحاسب» الحديث.

وأول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله الصلاة لقول النبي، ﷺ: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله». رواه الطبراني في الأوسط، وسنده لا بأس به إن شاء الله، قال المنذري في الترغيب والترهيب ص٢٤٦ ج١: وأول ما يقضى بين الناس في الدماء لقول النبي، ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء». متفق عليه.

(تنبيه): سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٤٠): هل يوم الحساب يوم واحد؟.

فأجاب: يوم الحساب يوم واحد، ولكنه يوم مقداره خمسون ألف سنة، كما قال الله تعالى: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} أي أن هذا العذاب يقع للكافرين في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، وأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه، وجبينه، وظهره، كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد».

وهذا اليوم الطويل هو يوم عسير على الكافرين، كما قال تعالى: {وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا}، وقال تعالى: {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ}، ومفهوم هاتين الآيتين: أنه على المؤمن يسير وهو كذلك، فهذا اليوم الطويل بما فيه من الأهوال، والأشياء العظيمة ييسره الله تعالى على المؤمن، ويكون عسيرا على الكافر. وأسأل الله تعالى أن يجعلني وإخواني

المسلمين ممن يسره الله عليهم يوم القيامة.

والتفكير والتعمق في مثل هذه الأمور الغيبية هو من التنطع، الذي قال النبي ﷺ فيه: «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون». الحياة الآخرة لغالب عواجي- (٢/ ٩٠٨).

ويراد بالحساب والجزاء أيضا كما في القيامة الكبرى لعمر بن سليمان الأشقر (ص١٩٣): أن يُوقف الحق تبارك وتعالى عباده بين يديه، ويعرفهم بأعمالهم التي عملوها، وأقوالهم التي قالوها، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر، واستقامة وانحراف، وطاعة وعصيان، وما يستحقونه على ما قدموه من إثابة وعقوبة، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صالحين، وبشمالهم إن كانوا طالحين.

ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده، وما يقولونه له، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين، وشهادة الشهود ووزن للأعمال.

والحساب منه العسير، ومنه اليسير، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ، والتبكيت، ومنه الفضل والصفح، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين.

المسألة الثانية: أدلة إثبات الحساب

لقد حظي ذكر الحساب بنصوص كثيرة في كتاب الله ﷻ وفي سنة نبيه ﷺ، وأجمع عليه جميع أهل الإسلام، إذ هو من المسائل الأخروية المعلومة من الدين بالضرورة.

وقد أكثر الله من ذكره في القرآن الكريم، في مواضع كثيرة، بعبارات متنوعة، ودلالات مختلفة مصورًا هول ذلك، أو مخبراً عنه ومبشرًا به، كل ذلك لزيادة العناية وللفت أنظار الناس إليه ليكونوا على بينة من أمرهم فيستعدوا له بالعمل

الصالح إذ أنه من أهم الأمور التي تحدث في يوم القيامة، بل هو المراد ببعث الناس وقيامهم من قبورهم وفي الموقف.

وبه يتميز الناس فيسعد من يسعد، ويشقى من يشقى، حينما يفصل الله بين خلقه في أكمل صور العدل وأجلها، ونعرض فيما يلي أدلة إثباته من كتاب الله ﷻ ومن سنة نبيه ﷺ.

المطلب الأول: الأدلة من القرآن الكريم

الأدلة في القرآن الكريم على وقوع الحساب كثيرة لا يتسع المقام لذكرها كلها غير أننا سنقتصر على إبراز أهم الجوانب التي جاءت في أمر الحساب، فمن ذلك:

١- ما جاء في إخباره ﷻ عن سرعة وقوع الحساب، فقال تعالى: (وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)} [المائدة: ٤]

وقال تعالى في بيان أن سرعة ذلك الحساب يكون مع تمام العدل: (لِيَجْزِي اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [إبراهيم: ٥١]

(اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ اليَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [غافر: ١٧]

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)} [الأنبياء: ٤٧]

٢- والحساب تارة يكون يسيرًا على أهل الإيمان والطاعات، وتارة يكون عسيرًا على أهل الكفر والمعاصي (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إلى أَهْلِهِ مَسْرُورًا)} [الانشقاق: ٧ - ٩].

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ

حِسَابِيهْ)} [الحاقة: ١٩ - ٢٠]

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ)} [الحاقة: ٢٥ - ٢٦]

{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)} [الرعد: ١٨]

{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) [ص: ٢٦]

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)} [النور: ٣٩]

٣- وقال تعالى في بيان إحاطة علمه بكل ما يصدر عن العباد ظاهرًا أو باطنًا: {لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)} [البقرة: ٢٨٤]

وقد عفا الله عما يضمره الإنسان في قلبه فلا يحاسبه عليه.

٤- وقال تعالى في مدح المؤمنين وخوفهم من هول الحساب: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ)} [الرعد: ٢١]

٥- وقال تعالى في مدح الصابرين وبيان أجرهم: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى

الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]

٦- وقال تعالى في ذم المكذبين بالحساب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢٧]. ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

وأما ما ورد من قولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، فإنما هو قول على سبيل الاستهزاء أو التحدي للرسول ﷺ أن يريهم صكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاء بوعيد الله.

ونكتفي بما تقدم ذكره من الآيات التي تدل على وقوع الحساب في يوم القيامة، وبها يتبين مدى عناية القرآن الكريم بذكره وعظيم شأنه. ونضيف إلى ما تقدم من الأدلة الواردة في القرآن الكريم أدلة أخرى من السنة النبوية فيما يأتي:

المطلب الثاني: الأدلة من السنة النبوية

وكما حظي ذكر الحساب في القرآن الكريم بكثرة العناية بذكره وإيراده في أكثر من موضع كما رأينا فيما سبق عرضه، فقد حظي كذلك بالذكر والعناية والاهتمام على لسان المصطفى ﷺ، فقد وردت أحاديث كثيرة بشأنه وسنذكر منها ما يتبين به صدق ما قدمناه وذلك فيما يلي:

قال ﷺ في الحث على الاستعداد بالعمل الصالح، ومحاسبة النفس، وعدم تركها ترتع كيف شاءت، وهو ما ورد عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني)[1]، قال الترمذي: ومعنى قوله ﷺ: (دان نفسه) يقول

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤)، والمبارك في الزهد (١٧١)، والطيالسي (١١١٢)، =

حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة.اهـ. فإذا لم يستعد العبد بالعمل الصالح، ولم يسلك ما أمره الله به، ولم ينته عما نهاه عنه بل كفر بربه ولقائه، فإنه سيندم يوم القيامة، ويتمنى أن لو كان له ملء الأرض ذهبًا ويفتدي به لو نفعه حين يحاسب بين يدي الله تبارك وتعالى.

كما جاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نبي الله ﷺ كان يقول: (يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك)[1].

وقدجاء عن النبي ﷺ في سهولة الحساب ويسره وتجاوز الله تعالى حديث عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك، فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ

=

والترمذي (٢٤٥٩)، والطبراني في الكبير (٧١٤٣)، وفي مسند الشاميين (١٤٨٥)، والحاكم (١/ ٥٧ و٤/ ٢٥١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٦٧ و٨/ ١٧٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٨٥)، والبيهقي (٣/ ٣٦٩)، وفي الشعب (١٠٥٤٦)، والخطيب في التاريخ (١٢/ ٥٠)، والبغوي في شرح السنة (٤١١٦)، وفي التفسير (٢/ ٣٠٥) والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن، وحسنه البغوي، وصححه الحاكم في الموضعين، فتعقبه الذهبي في الموضع الأول بقوله: لا والله، أبو بكر واه، ولم يتعقبه في الموضع الثاني، وضعفه ابن عدي في الكامل (٢/ ٢١٢)، وكذا ابن القيسراني في الذخيرة (٤/ ١٩٢٨)، وقال الحافظ في تخريج أحاديث المشكاة (٥/ ٤٩): إسناده ضعيف، وقال العلامة ابن باز في الفوائد العلمية من الدروس البازية (٩/ ٢٣): ضعيف لأنه من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم وإن كان معناه صحيحًا، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٥٣١٩)، وقال العلامة الوادعي في الفتاوى الحديثية (١/ ٥٦): معناه صحيح لكنه بهذا اللفظ ضعيف، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٨/ ٣٥٠): إسناده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٨)، ومسلم (٢٨٠٥).

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} [الانشقاق: ٧ - ٩]. فقال رسول الله ﷺ: إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب)(١). وفي بعض روايات هذا الحديث: (من حوسب عذب.. إلخ الحديث)(٢).

وقال ﷺ في تجاوز الله تعالى عمن يتجاوز عن الناس في الحساب، وييسر عليهم، وتخفيف الله عن عباده، عن أبي مسعود البدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرًا، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر. قال: قال الله ﷻ: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه)(٣).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا، فلما انصرف قلت: يا نبي الله ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر الله في كتابه فيتجاوز عنه، من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك، وكل ما يصيب المؤمن يكفر الله ﷻ به عنه حتى الشوكة تشوكه)(٤).

(١) أخرجه البخاري (١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٨)، ومسلم (٢٨٠٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٦١).

(٤) أخرجه إسحاق بن راهويه (٢/ ٣٦٧، رقم ٩٠٩)، وأحمد (٦/ ٤٨، رقم ٢٤٢٦١)، الطبري في تفسيره (٣٠/ ١١٥)، وابن خزيمة (٢/ ٣٠، رقم ٨٤٩)، وابن حبان (١٦/ ٣٧٢، رقم ٧٣٧٢)، والحاكم (١/ ٣٨٥، رقم ٩٣٦)، والطبراني في "الأوسط" (٣٦٦٢)، والبيهقى فى شعب الإيمان (١/ ٢٥٢، رقم ٢٧٠) والحديث صححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وصححه ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣٧٩)، وقال السيوطي في البدور السافرة (٢١٧): إسناده صحيح، وقال العلامة الألباني في المشكاة (٥٥٦٢): إسناده جيد، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند (٤٠/ ٢٦٠): حديث صحيح دون قوله: سمعت النبي ﷺ يقول في صلاته: "اللهم حاسبني حسابا يسيرا" فهذه الزيادة تفرد بها محمد بن اسحاق وقد قال الذهبي في "الميزان": وما تفرد به فيه نكارة. قلنا: وقد اختلف =

وعن محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال: (اثنان يكرههما ابن آدم: الموت، والموت خير للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب)[١].

وعن العدل في القصاص يوم القيامة وتبادل الحسنات والسيئات يقول ﷺ: (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثَمَّ دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه)[٢].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في

=

عليه فيه، قلت محمد بن إسحاق إذا صرح بالتحديث فحديثه حسن، وقد صرح بالسماع.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٧)، والبغوي في شرح السنة (٣٩٦١) وأبو عمرو الداني في الفتن (١/ ١٧٩) وغيرهم من حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث قال عنه المنذري في الترغيب: رواه أحمد بإسنادين رواة أحدهما محتج بهم في الصحيح ومحمود له رؤية ولم يصح له سماع فيما أرى وتقدم الخلاف في صحبته في باب الرياء وغيره والله أعلم، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٢١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في شرح الصدور (٣٥): إسناده صحيح، وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٨١٣): هذا إسناد جيد رجاله ثقات رجال الشيخين ومحمود بن لبيد صحابي صغير وجل روايته عن الصحابة كما قال الحافظ في " التقريب ومراسيل الصحابة حجة كما هو مقرر في علم المصطلح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٩/ ٣٦): إسناده جيد.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٤). من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الدنيا)[١].

وقد أخبر ﷺ أن ناسًا لا يحاسبون، وهم سبعون ألفًا إكرامًا لهم كما جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي ﷺ: (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر، فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمتك ومنهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئًا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: وما الذي تخوضون فيه؟ فأخبروه، فقال: هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة)[٢].

وفي بيان أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة قال رسول الله ﷺ: (أول ما يقضى بين الناس بالدماء)[٣].

وعن حريث بن قبيصة قال: قدمنا المدينة فقلت اللهم يسر لي جليسًا صالحًا، قال فجلست إلى أبي هريرة فقلت: إني سألت الله أن يرزقني جليسًا صالحًا، فحدثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، لعل الله أن ينفعني به،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٣)، ومسلم (١٦٧٨). من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب ﷻ: انظروا هل لعبدي من تطوع، فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك)(١).

وعن أول الخلق حسابًا يقول ﷺ فيما يرويه ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: (نحن آخر الأمم وأول من يحاسب، يقال: أين الأمة الأمية ونبيها؟ فنحن الآخرون الأولون)(٢). الحياة الآخرة لغالب عواجي (٢/ ٩١٦).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٥، رقم ٩٤٩٠)، وابن المبارك في الزهد (١/ ٣٢٠، رقم ٩١٥)، البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٣٤)، وأبو داود (١/ ٢٩١، رقم ٨٦٤)، والترمذي (٤١٣)، وابن ماجة (١/ ٤٥٨، رقم ١٤٢٥)، والنسائى (١/ ٢٣٣، رقم ٤٦٦)، والحاكم (١/ ٣٩٤، رقم ٩٦٥)، والبيهقى (٢/ ٣٨٦، رقم ٣٨١٣) والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال النووي في المجموع (٤/ ٥٥): إسناده صحيح بمعناه، وقال ابن الملقن في تحفة المحتاج (١/ ٣٣٣): إسناده صحيح، وقال العلامة الألباني في صحيح أبي داود الأم (٤/ ١٧): هذا إسناد رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين؛ غير أنس بن حكيم الضبي؛ وهو مجهول، كما قال ابن القطان وغيره، ثم صحح الشيخ الحديث لطرقه فقال: حديث صحيح، وصححه الحاكم والذهبي وابن عبد البر وحسنه الترمذي، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٥/ ٣٠٠): حديث صحيح وهذا إسناد ضعيف.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٣٤، رقم ٤٢٩٠)، والطيالسي (٢٧١١)، وأحمد (٢٥٤٦، ٢٦٩٢، ٢٦٩٣)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢٦٦)، وأبو يعلى (٢٣٢٨)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٤٨١-٤٨٢)، والديلمى (٤/ ٢٨٢، رقم ٦٨٣٣) والحديث قال عنه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٥٦): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات وأبو سلمة هو موسى بن إسماعيل البصري التبوذكي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٣٧٤)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٦٦٦)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٥/ ٣٥٠):
=

المسألة الثالثة: قواعد محاسبة العباد على أعمالهم

لو عذَّب الله جميع خلقه لم يكن ظالمًا لهـم، والحـق تبارك وتعـالى بـين لنـا في كثير من النصوص جملة القواعـد التـي تقـوم عليهـا المحاكمـة والمحاسـبة في ذلك اليوم.

القاعدة الأولى: العدل التام الذي لا يشوبه ظلم

يُوَفِّي الحقُّ ﷻ عباده يـوم القيامـة أجـورهم كاملـة غيـر منقوصـة، ولا تظلـم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال لقمان في وصيته لابنه معرفًا إياه بعدل الله: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

وقـال الحـق في موضـع آخـر: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]. وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ - وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فقد أخبر الحق تبارك وتعالى في هذه النصوص أنه يُوفِّي كل عبدٍ عمله، وأنه لا يضيع منه، ولا ينقص منه مقدار الـذرة، وهـي الهبـاءة التـي في أشعة الشمس إذا دخلت من الطاق، ولا مقدار الفتيل ولا النقير، والفتيـل هـو الخيط الـذي يكـون في شـق النـواة، والنقير: النقـرة الـصغيرة التـي تكـون في ظهـر

=

رجاله ثقات، إلا أنه اختلف فيه على حماد بن سلمة كما سيأتي في التخريج.

النواة.

القاعدة الثانية: لا يؤخذ أحد بجريرة غيره

قاعدة الحساب والجزاء التي تمثل قمة العدل ومنتهاه أن الله يجازي العباد بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ولا يحمل الحق تبارك وتعالى أحدًا وزر غيره، كما قال تعالى: (وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)} [الأنعام: ١٦٤]. وهذا هو العدل الذي لا عدل فوقه، فالمهتدي يقطف ثمار هدايته، والضال ضلاله على نفسه، (مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)} [الإسراء: ١٥].

وهذه القاعدة العظيمة إحدى الشرائع التي اتفقت الرسالات السماوية على تقريرها، قال تعالى: (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى - وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى - أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى - وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى - وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى - ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى)} [النجم: ٣٦-٤١].

يقول القرطبي في تفسيره (٤/ ١٥٧) في تفسير قوله تعالى: (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)} [الأنعام: ١٦٤] " أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى، لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها، وأصل الوزر الثقل، ومنه قوله تعالى: (وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ)} [الشرح: ٢]، وهو هنا الذنب،.. والآية نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يقول: اتبعوا سبيلي أحمل أوزاركم، ذكره ابن عباس، وقيل: إنها نزلت ردًا على العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وابنه، وبجريرة حليفه".اهـ.

قد يعارض بعض أهل العلم هذا الذي ذكرناه من أن الإنسان لا يحمل شيئًا

من أوزار الآخرين بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

وهذا الذي ذكروه موافق لما ذكرناه من النصوص، وليس بمعارض لها، فإن هذه النصوص تدل على أن الإنسان يتحمل إثم ما ارتكب من ذنوب، وإثم الذين أضلهم بقوله وفعله، كما أن دعاة الهدى ينالون أجر ما عملوه، ومثل أجر من اهتدى بهديهم، واستفاد بعلمهم، فإضلال هؤلاء لغيرهم هو فعل لهم يعاقبون عليه.

القاعدة الثالثة: إطلاع العباد على ما قدموه من أعمال

من إعذار الله لخلقه، وعدله في عباده أن يطلعهم على ما قدموه من صالح أعمالهم وطالحها، حتى يحكموا على أنفسهم، فلا يكون لهم بعد ذلك عذر.

قال تعالى: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [ال عمران: ٣٠]، وقال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] وقال: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وإطلاع العباد على ما قدموه يكون بإعطائهم صحائف أعمالهم، وقراءتهم لها، فقد أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - أنه وكل بكل واحد منا ملكين يسجلان عليه صالح أعماله وطالحها، فإذا مات ختم على كتابه، فإذا كان يوم القيامة أعطى العبد كتابه، وقيل له: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا

يَلْقَاهُ مَنشُورًا – اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)} [الإسراء: ١٣–١٤].

وهو كتاب شامل لجميع الأعمال كبيرها وصغيرها (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)} [الكهف: ٤٩].

القاعدة الرابعة: مضاعفة الحسنات دون السيئات

ومن رحمته أن يضاعف أجر الأعمال الصالحة (إِن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)} [التغابن: ١٧].

وأقل ما تضاعف به الحسنة عشرة أضعاف (مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)} [الأنعام: ١٦٠]. أما السيئة فلا تجزى إلا مثلها (وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا)} [الأنعام: ١٦٠]. وهذا مقتضى عدله تبارك وتعالى.

وقد روى الحاكم في مستدركه، وأحمد في مسنده بإسناد حسن عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال (حدثنا الصادق المصدوق فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: "الحسنة بعشر أمثالها أو أزيد.. والسيئة واحدة أو أغفرها، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا ما لم تشرك بي، لقيتك بقرابها مغفرة)[1].

ومن الأعمال التي أخبر الرسول ﷺ أنها تضاعف عشرة أضعاف قراءة القرآن، ففي الحديث الذي يرويه الترمذي والدارمي بإسناد صحيح عن ابن

---

(١) قال العلامة الألباني في الصحيحة (١٢٨): رواه الحاكم (٤/ ٢٤١) وأحمد (٥/ ١٠٨) عن عاصم عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي. قلت: عاصم هو ابن بهدلة وهو حسن الحديث، وبقية الرجال ثقات رجال الشيخين، فالإسناد حسن.

مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف)[١]، وأخبرنا رسولنا صلوات الله وسلامه عليه أيضًا أن الذكر يضاعف عشرة أضعاف، ففي سنن الترمذي والنسائي وأبي داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (خصلتان - أو خلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا دخل الجنة، وهما يسيرٌ، ومن يعمل بهما قليل: يسبح الله في دبر كل صلاة عشرًا، ويحمده عشرًا، ويكبره عشرًا، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده، قال: فلك خمسون ومائة باللسان، وألف وخمسمائة في الميزان، وإذا أخذت مضجعك تسبحه وتكبره وتحمده مائة، فتلك مائة باللسان، وألف في الميزان، فأيكم يعمل في اليوم والليلة ألفين وخمسمائة سيئة؟ قالوا: فكيف لا نحصيها؟ قال: يأتي أحدكم الشيطان وهو في صلاته، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، حتى ينفتل، فلعله لا يفعل، ويأتيه وهو في مضجعه، فلا يزال ينومه حتى ينام "، أخرجه الترمذي والنسائي، وفي رواية أبي داود بعد قوله: "في الميزان " الأولى، قال: "ويكبر أربعًا وثلاثين إذا أخذ مضجعه، ويحمد ثلاثًا وثلاثين، ويسبح ثلاثًا وثلاثين، فذلك مائة باللسان، وألف في الميزان، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده قالوا: يا رسول الله، كيف هما يسيرٌ، ومن يعمل بهما قليل؟ قال: يأتي أحدكم الشيطان في منامه، فينومه قبل أن يقوله، ويأتيه في صلاته فيذكره

---

(١) أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير (١/ ٢١٦)، والترمذى (٥/ ١٧٥، رقم ٢٩١٠)، والبيهقى فى الشعب (٢/ ٣٤٢، رقم ١٩٨٣) والحديث صححه الترمذي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٦٦٠)، وصححه الحويني في كتاب الإنشراح في أدب النكاح (رقم ١٢١، ١٤٧).

حاجته قبل أن يقولها)[١].

وحدثنا رسولنا ﷺ في حديث الإسراء الذي يرويه البخاري وغيره تردده ﷺ بين ربه وموسى، حيث كان يشير عليه موسى في كل مرة أن يرجع إلى ربه، فيسأله أن يخفف عنه من الصلاة، حتى أصبحت خمسًا بعد أن كانت خمسين.. قال في ختام ذلك: "قال الجبار تبارك وتعالى: إنه لا يبدل القول، كما فرضت عليك في أم الكتاب، فكل حسنة بعشرة أمثالها، فهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك، فرجع إلى موسى. فقال: كيف فعلت؟ قال: خففت عنا، أعطانا بكل حسنة عشرة أمثالها".

وقد يضاعفها أكثر من ذلك، وقد تصل المضاعفة إلى سبعمائة ضعف، وأكثر من ذلك، ومن ذلك أجر المنفق في سبيل الله، قال تعالى: (مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)} [البقرة: ٢٦١]، قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٦١): هذا مثل ضربه الله لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. فقال:

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٠)، والحميدي (٥٨٣)، وعبد الرزاق في المصنف (٣١٨٩، ٣١٩٠)، وعبد بن حميد في المنتخب (٣٥٦)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٣٣ - ٢٣٤)، وأبو داود (٥٠٦٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٦٥٥)، والترمذي (٣٤١٠)، وابن ماجه (٩٢٦)، والبزار (٢٤٠٣، ٢٤٧٩)، وابن حبان (٢٠١٢)، والحاكم (١/ ٥٤٧)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٧٤٩) وغيرهم، والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه ابن حبان، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (٢/ ٢٦٦).: هذا حديث صحيح، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١١/ ١٢٨): إسناده صحيح، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وحسنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ٥١٠).

(مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ)} [البقرة: ٢٦١] قال سعيد بن جبير: "يعني في طاعة الله". وقال مكحول: يعني به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك. وعن ابن عباس: الجهاد والحج يضعف الدرهم فيها إلى سبعمائة ضعف".اهـ.

وأورد ابن كثير عند تفسير هذه الآية الحديث الذي يرويه مسلم والنسائي وأحمد عن عبد الله بن مسعود (أن رجلًا تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: "لتأتين يوم القيامة بسبعمائة مخطومة " هذا لفظ أحمد والنسائي. ولفظ مسلم: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله. هذه في سبيل الله، فقال: "لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة).

وأما الأعمال التي تضاعف أضعافًا لا تدخل تحت حصر، ولا يحصيها إلا الذي يجزى بها: الصوم، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي: وأنا أجزي به)[1].

والسر في كون الصائم يعطى من غير تقدير، أن الصوم من الصبر، والصابرون يوفون أجورهم بغير حساب، قال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)} [الزمر: ١٠]، قال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٤٠): "وقال أهل العلم: كل أجر يكال كيلًا، ويوزن وزنًا إلا الصوم، فإنه يحثى ويغرف غرفا".اهـ.

ومن الصبر: الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها وكربها التي يبتلي الله بها عباده (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).

وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ - الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ - أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)} [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وعندما يرى أهل العافية عظم أجر الصابرين يتمنون أن تكون جلودهم قرضت بالمقاريض لينالوا أجر الصابرين، ففي سنن الترمذي عن جابر، ومعجم الطبراني عن ابن عباس بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: (ليودَّن أهل العافية يوم القيامة، أن جلودهم قرضت بالمقاريض، مما يرون من ثواب أهل البلاء)[1].

---

(١) قال العلامة الألباني في الصحيحة (٢٢٠٦): رواه الترمذي (٢٤٠٤)، والخطيب في التاريخ (٤/ ٤٠٠) وكذا ابن عساكر (٩/ ٩/ ١) عن عبد الرحمن بن مغراء أخبرنا الأعمش عن أبي الزبير عن جابربن عبد الله مرفوعا. وقال الترمذي: "حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه". قلت: وله علتان: الأولى: عنعنة أبي الزبير، فإنه مدلس، كما تقدم مرارا. والأخرى: أن عبد الرحمن بن مغراء وإن كان صدوقا، فقد تكلموا في حديثه عن الأعمش كما في التقريب ومن طريقه رواه ابن أبي الدنيا أيضا كما في الترغيب (٤/ ١٤٦) وقال: ورواه الطبراني في " الكبير " عن ابن مسعود موقوفا عليه وفيه رجل لم يسم". ثم ذكر له شاهدا من حديث ابن عباس مرفوعا بلفظ: "يؤتى بالشهيد يوم القيامة فيوقف للحساب، ثم يؤتى بالمتصدق فينصب للحساب، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينصب لهم ديوان، فيصب عليهم الأجر صبا، حتى إن أهل العافية ليتمنون في الموقف
أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله". وقال: "رواه الطبراني في " الكبير " من رواية مجاعة بن الزبير، وقد وثق". قلت: أخرجه فيه (٣/ ١٧٨/ ٢): حدثنا السري بن سهل الجنديسابوري أخبرنا عبد الله بن رشيد أخبرنا مجاعة بن الزبير عن قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس والسري هذا، قال البيهقي: لا يحتج به، ولا بشيخه، قلت: وشيخه عبد الله بن رشيد، قد ذكره ابن حبان في " الثقات " وقال: "مستقيم الحديث " قلت: فهذا الإسناد لا يحتج به، لكن لا يمنع ذلك من الاستشهاد
=

ومن فضل الله تبارك وتعالى أن المؤمن الذي يهم بفعل الحسنة، ولكنه لا يفعلها تكتب له حسنة تامة، والذي يهم بفعل السيئة، ثم تدركه مخافة الله، فيتركها تكتب له حسنة تامة، ففي صحيح البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل، قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها، فعملها، كتبها الله له سيئة واحدة)[1].

وتبلغ رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن يبدِّل سيئاتهم حسنات، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: (إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها. رجل يؤتى به يوم القيامة. فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا فيقول نعم: لا يستطيع أن ينكر. وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له: فإن لك مكانا كل سيئة حسنة فيقول: رب، عملت أشياء لا أراها ها هنا " فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه)[2].

القاعدة الخامسة: إقامة الشهود

أعظم الشهداء في يوم المعاد على العباد هو ربهم وخالقهم وفاطرهم، الذي

=

به لأنه ليس شديد الضعف، فالحديث حسن والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠).

لا تخفى عليه خافية من أحوالهم، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣].

ولكن الله يحب الإعذار على خلقه، فيبعث من مخلوقاته شهداء على المكذبين الجاحدين حتى لا يكون لهم عذر، وقد أشارت أكثر من آية إلى الشهداء الذين يشهدون على العباد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء﴾ [الزمر: ٦٩].

وأول من يشهد على الأمم رسلها، فيشهد كل رسول على أمته بالبلاغ، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء﴾ [النحل: ٨٩].

وقوله: ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، هم الرسل، لأن كل أمة رسولها منها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [القصص: ٧٥].

وكما يشهدون على أممهم بالبلاغ يشهدون عليهم بالتكذيب، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ - فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦-٧].

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٧٦) في تفسير الآية الأولى: "هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلوا

إليهم،... وقول الرسل: (لا علم لنا) قال مجاهد والحسن البصري والسدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم.. وقال ابن عباس: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، رواه ابن جرير ثم اختاره، ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الله ﷻ، أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا ما أجبنا، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا شيء". اهـ.

ثم إن الأمم تكذب رسلها، وتقول كل أمة ما جاءنا من نذير، فتأتي هذه الأمة: أمة محمد ﷺ وتشهد للرسل بالبلاغ، كما قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)} [البقرة: ١٤٣].

وقد أورد البخاري في صحيحه في كتاب التفسير (٤٤٨٧) الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يدعى نوح يوم القيامة، لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: "هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليكم شهيدًا، فذلك قوله جل ذكره: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)} [البقرة: ١٤٣]".

وقد أفاد ابن حجر في الفتح (٨/ ١٧٢) أنه قد جاء الحديث عند أحمد والنسائي وابن ماجة بلفظ: "يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، ويجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه أكثر من ذلك. قال: فيقال لهم: أبلغكم هذا؟

فيقولون: لا، فيقال للنبي: أبلغتهم؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يشهد لك؟.. " الحديث. وذكر ابن حجر أيضًا أن في بعض روايات الحديث زيادة: "فيقال ما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبينا أن الرسل قد بلغوا فصدقناه".اهـ.

ومن الأشهاد الأرض والأيام والليالي، تشهد بما عمل فيها وعليها، ويشهد المال على صاحبه، وقد عقد القرطبي في تذكرته لهذا الموضوع بابًا، وذكر فيه حديث الترمذي عن أبي هريرة ﵁ قال: (قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (يومئذٍ تحدث أخبارها)} [الزلزلة: ٤]. قال: "أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها)[(١)]، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

ويشهد على العبد أيضًا ملائكة الرحمن الذين كانوا يسجلون عليه صالح أعماله وطالحها، كما قال تعالى: (وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) [ق: ٢١]، والسائق والشهيد الملكان اللذان كانا موكلين بتلك النفس.

وتشهد الملائكة على العباد بما كانوا يعملون، (وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ) [هود: ١٨]، فإذا لج العبد في الخصومة، وكذب ربه، وكذب الشهود الذين شهدوا عليه، أقام الله عليه شاهدًا منه، فتشهد على المرء

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٤، رقم ٨٨٥٤)، والترمذى (٤/ ٦١٩، رقم ٢٤٢٩)، والنسائى فى الكبرى (٦/ ٥٢٠، رقم ١١٦٩٣)، وابن حبان (١٦/ ٣٦٠، رقم ٧٣٦٠)، والحاكم (٢/ ٥٨٠، رقم ٣٩٦٥)، والبغوي في شرح السنة (١٥/ ١١٦) والحديث قال عنه الترمذي حسن غريب، وقال الحاكم: صحيح الإسناد! فرده الذهبي بقوله: قلت: يحيى هذا منكر الحديث قاله البخاري، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٤٨٣٤)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده ضعيف.

أعضاؤه، وقد مضى بيان هذا. القيامة الكبرى لعمر بن سليمان الأشقر (ص٢٠٣-٢١٢).

المسألة الرابعة: من يشملهم الحساب

الناس في يوم القيامة يردون فصل القضاء طوائف متفرقة، وأصنافًا شتى، منهم من يستحق غاية الإكرام، ومنهم من يستحق غاية التعذيب، ومنهم من هو بين ذلك.

فهناك الأنبياء، وهناك المؤمنون - السابقون منهم والمقتصدون -، وهناك من خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وهناك كفار هم أعداء الله ومحل سخطه وبغضه.

إنهم يردون أصنافًا شتى لا يعلمهم إلا الله تعالى، فمن من هؤلاء يحاسب؟ ومن من هؤلاء لا يحاسب، بل يكرمهم الله فلا يحاسبهم؟

قد أجمل القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ الجواب عن هذه الأصناف بالنسبة للحساب، فقسمهم إلى ثلاثة فرق فقال في التذكرة (ص ٣٤٣): فرقة: لايحاسبون أصلًا، وفرقة: تحاسب حسابًا يسيرًا - وهما من المؤمنين - وفرقة: تحاسب حسابًا شديدًا، يكون منها مسلم وكافر، وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنى إلى رحمة الله، فلا يبعد أن يكون من الكفار من هو أدنى إلى غضب الله، فيدخله النار بغير حساب.اهـ.

والواقع أن الإجابة تحتاج إلى تفصيل أكثر لطوائف الناس، وسنذكر فيما يلي تفصيل ما قيل عن كل طائفة:

المطلب الأول: الأنبياء

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ

الْمُرْسَلِينَ*فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ} الأعراف: ٦. وهو سؤال عن التبليغ لا عن الأعمال التى يمارسها كل مؤمن ليجازى عليها، فالحساب الذى يتصل به عرض الكتاب وقراءته {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين} الأنبياء: ٤٧، فيه استثناءات جاء بعضها فى الحديث المتفق عليه (أن سبعين ألفا من أمة النبى ﷺ يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وعينهم بقوله "وهم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)، ومن المعلوم أن المذكورون من السبعين ألفا لا يرقون إلى درجة الأنبياء والرسل وقد أعفاهم الله من الحساب كرامة لهم، فهل يحاسب الأنبياء والرسل؟ نعم سيسألون عن تبليغ الرسالة كشهادة على أممهم أما سؤال الحساب وما يترتب عليه من جزاء فلا.

فإطلاق القول في الآية بأن الأنبياء يسألون؛ المقصود به مساءلتهم عن تبليغهم الدعوة إلى أقوامهم، وهو مجرد مساءلة لزيادة إقامة الحجة على العصاة، وليس مساءلة مناقشة كما تقدم.

قال الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٠٥): يقول تعالى ذكره: لنسألن الأمم الذين أرسلت إليهم رسلي: ماذا عملت فيما جاءتهم به الرسل من عندي من أمري ونهيي؟ هل عملوا بما أمرتهم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، وأطاعوا أمري، أم عصوني فخالفوا ذلك؟ ولنسألن المرسلين)، يقول: ولنسألن الرسل الذين أرسلتهم إلى الأمم: هل بلغتهم رسالاتي، وأدَّت إليهم ما أمرتهم بأدائه إليهم، أم قصّروا في ذلك ففرَّطوا ولم يبلغوهم؟..اهـ.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٨٨): قوله: {فلنسألن الذين أرسل إليهم}

الآية، كقوله تعالى {ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين} [القصص: ٦٥] وقوله: {يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب} [المائدة: ١٠٩] فالرب تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته؛ ولهذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية: {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين} قال: يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسلين عما بلغوا.اهـ.

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ١٥): قوله: {فلنسئلن الذين أرسل إليهم} هذا وعيد شديد، والسؤال للقوم الذين أرسل الله إليهم الرسل من الأمم السالفة للتقريع والتوبيخ، واللام لام القسم، أي لنسألنهم عما أجابوا به رسلهم عند دعوتهم، والفاء لترتيب الأحوال الأخروية على الأحوال الدنيوية {ولنسألن المرسلين} أي الأنبياء الذين بعثهم الله، أي نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم، ومن أطاع منهم ومن عصى. وقيل المعنى: فلنسألن الذين أرسل إليهم، يعني الأنبياء، ولنسألن المرسلين، يعني الملائكة، ولا يعارض هذا قول الله سبحانه: {ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون} [القصص: ٧٨] لما قدمنا غير مرة أن الآخرة مواطن، ففي موطن يسألون، وفي موطن لا يسألون، وهكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بأن أثبت تارة ونفى أخرى، بالنسبة إلى يوم القيامة، فإنه محمول على تعدد المواقف مع طول ذلك اليوم طولا عظيما {فلنقصن عليهم بعلم} أي على الرسل والمرسل إليهم، ما وقع بينهم عند الدعوة منهم بعلم لا بجهل، أي عالمين بما يسرون وما يعلنون {وما كنا غائبين} عنهم في حال من الأحوال حتى يخفى علينا شيء مما وقع بينهم.اهـ.

وقال السعدي في تفسيره (ص٢٨٣): قوله {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ} أي لنسألن الأمم الذين أرسل اللّه إليهم المرسلين عما أجابوا به رسلهم {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} الآيات

{وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} عن تبليغهم لرسالات ربهم وعما أجابتهم به أممهم.اهـ.

وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير (٥/ ٣٠٨): وسؤال الذين أرسل إليهم سُؤال عن بلوغ الرّسالة. وهو سؤال تقريع في ذلك المحشر، قال تعالى: {ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين} [القصص: ٦٥].

وسؤال المرسلين عن تبليغهم الرّسالة سؤال إرهاب لأُمَمِهم، لأنّهم إذا سمعوا شهادة رسلهم عليهم أيقنوا بأنّهم مسوقون إلى العذاب، وقد تقدّم ذلك في قوله: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد} [النساء: ٤١] وقوله {يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم} [المائدة: ١٠٩].

و{الذين أرسل إليهم}، هم أمم الرّسل، وعبّر عنهم بالموصول لما تدُلّ عليه الصّلة من التّعليل، فإن فائدة الإرسال هي إجابة الرّسل، فلا جرم أن يسأل عن ذلك المُرسَل إليهم، ولمّا كان المقصود الأهمّ من السّؤال هو الأمم، لإقامة الحجّة عليهم في استحقاق العقاب، قُدّم ذكرهم على ذكر الرّسل، ولما تدُلّ عليه صلة (الذي) وصلة (ال) من أنّ المسؤول عنه هو ما يتعلّق بأمر الرّسالةِ، وهو سؤال الفريقين عن وقوع التّبليغ.

ولَمَّا دلّ على هذا المعنى التّعبيرُ: ب {الذين أرسل إليهم} والتّعبيرُ: ب {المرسلين} لم يحتجّ إلى ذكر جواب المسؤولين لظهور أنّه إثبات التّبليغ والبلاغ.

والفاء في قوله: {فلنقصن عليهم} للتفريع والتّرتيب على قوله: {فلنسألن}، أي لنسألنّهم ثمّ نخبرهم بتفصيل ماأجمله جوابهم، أي فلنقصّنّ عليهم تفاصيل أحوالهم، أي فعِلْمُنا غَنِي عن جوابهم ولكن السّؤال لغرض آخر.

وقد دلّ على إرادة التّفصيل تنكيرُ علم في قوله: {بعلم} أي علم عظيم، فإنّ تنوين (عِلم) للتعظيم، وكمالُ العلم إنّما يظهر في العلم بالأمور الكثيرة، وزاد ذلك بيانًا قولُه: {وما كنا غائبين} الذي هو بمعنى: لا يعزب عن علمنا شيء يغيب عنّا ونغيب عنه.

والقَصّ: الاخبار، يقال: قصّ عليه، بمعنى أخبره، وتقدّم في قوله تعالى: {يقص الحقّ} في (الأنعام:٥٧).

وجملة: {وما كنا غائبين} معطوف على {فلنقصن عليهم بعلم}، وهي في موقع التّذييل.

والغائب ضدّ الحاضر، وهو هنا كناية عن الجاهل، لأنّ الغيبة تستلزم الجهالة عرفًا، أي الجهالة بأحوال المَغيب عنه، فإنّها ولو بلغتْه بالأخبار لا تكون تامة عنده مثل المشاهد، أي وما كنّا جاهلين بشيء من أحوالهم، لأنّنا مطّلعون عليهم، وهذا النّفي للغيبة مثل إثبات المعيَّة في قوله تعالى {وهو معكم أينما كنتم} [الحديد:٤].

وإثباتُ سؤال الأمم هنا لا ينافي نفيه في قوله تعالى {ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون} [القصص:٧٨] وقوله {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان} [الرحمن:٣٩] لأنّ المسؤول عنه هنا هو التّبليغ والمنفيَّ في الآيتين الآخريين هو السّؤال لمعرفة التفاصيل.اهـ.

المطلب الثاني: المؤمنين

وأما بقية المؤمنين بصورة عامة فلا ريب أن الله تعالى يحاسبهم محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، وبالحساب يمتاز بعضهم على بعض بالدرجات؛ نتيجة لثقل موازينهم وخفتها {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ٧ - ٨]

وقد قدمنا ذكر للنصوص التي تدل على محاسبة الله تعالى عباده المؤمنين.

وأما أولئك السبعون الألف الذين ورد النص بأنهم لا يحاسبون، فهو إكرام من الله تعالى لنبينا محمد ﷺ في أمته.

ومصداق هذا ما جاء من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم برقم (٢٢٠) قال رسول الله ﷺ (عرضت علي الأمم فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط والنبي ليس معه أحد حتى رفع لي سواد عظيم قلت ما هذا أمتي هذه قيل بل هذا موسى وقومه قيل انظر إلى الأفق فإذا سواد يملأ الأفق ثم قيل لي انظر ها هنا وها هنا في آفاق السماء فإذا سواد قد ملأ الأفق قيل هذه أمتك ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب ثم دخل ولم يبين لهم فأفاض القوم وقالوا نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله فنحن هم أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام فإنا ولدنا في الجاهلية فبلغ النبي ﷺ فخرج فقال هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون فقال عكاشة بن محصن أمنهم أنا يا رسول الله قال نعم فقام آخر فقال أمنهم أنا قال سبقك بها عكاشة).

وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألف بغير حساب، فقال يزيد الأخنس: والله ما أولئك في أمتك إلا كالذباب الأصهب في الذبان، فقال رسول الله: فإن ربي عَزَّ وَجَلَّ قد وعدني سبعين

ألفًا مع كل ألف سبعين ألفًا، وزادني ثلاث حثيات، قال فما حوضك؟ قال: ما بين عدن إلى عمان، وأوسع وأوسع - يشير بيده - قال: فيه مثعبان من ذهب وفضة. قال: فما حوضك يا نبي الله؟ قال: أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأطيب من رائحة المسك، من شرب منه لم يظمأ بعدها أبدًا، ولم يسود وجهه أبدًا)[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن الرسول ﷺ قال: (أعطيت سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر وقلوبهم

على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي عَزَّ وَجَلَّ، فزادني مع كل واحد سبعين ألفا)[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٠ - ٢٥١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٢٤٧، ١٢٤٨)، وفي السنة (٧٢٩، ٥٨٨)، وابن حبان (٦٤٥٧، ٧٢٤٦)، والطبراني في الكبير (٧٦٧٢) وفي الشاميين (١٩٦٨)، والبيهقي في البعث والنشور (١٣٤) والحديث قال عنه المنذري في الترغيب (٤/ ٣١١): رواته محتج بهم في الصحيح، وكذا قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٦٥)، وقال السفاريني في لوائح الأنوار (٢/ ١٦٥): إسناده صحيح، وصححه العلامة الألباني في التعليقات الحسان (٦٤٥٧)، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٦/ ٤٧٩).

(٢) قال العلامة الألباني في الصحيحة (١٤٨٤): أخرجه أحمد (١ / ٦) من طريق المسعودي قال: حدثني بكير بن الأخنس عن رجل عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: فذكره، قال أبو بكر: فرأيت أن ذلك آت على أهل القرى، ومصيب من حافات البوادي. قلت: وهذا سند ضعيف من أجل الرجل الذي لم يسم. والمسعودي كان اختلط واسمه عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود. لكن الحديث صحيح فإن له شواهد كثيرة عن جمع من الصحابة، وفاته حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "سألت ربي عَزَّ وَجَلَّ، فوعدني أن يدخل من أمتي سبعين ألفا على صورة القمر ليلة البدر، فاستزدت فزادني مع كل ألف سبعين ألفا، فقلت: أي رب =

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في زاد المعاد (١/ ٤٧٥): "وذلك لأن هؤلاء دخلوا الجنة بغير حساب لكمال توحيدهم، ولهذا نفى عنهم الاسترقاء وهو سؤال الناس أن يرقوهم، ولهذا قال: (وعلى ربهم يتوكلون) فلكمال توكلهم على ربهم وسكونهم إليه وثقتهم به ورضاهم عنه وإنزال حوائجهم به لا يسألون الناس شيئا لا رقية ولا غيرها، ولا يحصل لهم طيرة تصدهم عما يقصدونه؛ فإن الطيرة تنقص التوحيد وتضعفه" انتهى[1].

=

إن لم يكن هؤلاء مهاجري أمتي، قال: إذن أكملهم لك من الأعراب " أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩) عن زهير بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قلت: وهذا إسناد على شرط مسلم لكن زهير هذا وهو أبو المنذر الخراساني فيه ضعف من قبل حفظه. والحديث قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٤٥): "رواه أحمد والبيهقي في البعث من رواية سهل بن أبي صالح....، وسنده جيد وفي الباب عن أبي أيوب عند الطبراني وعن حذيفة عند أحمد وعن أنس عند البزار وعن ثوبان عند ابن أبي عاصم، فهذه طرق يقوي بعضها بعضا". قلت: وعن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عند أحمد أيضا (١/ ١٩٧).

(١) سئل العلامة العثيمين في لقاءات الباب المفتوح: ما المقصود بحديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بدون حساب ولا عذاب؟

فأجاب: هذا الحديث حديث طويل مشهور، وهو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى سوادًا عظيمًا قد سد الأفق فقيل له: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فجعل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتساءلون بينهم من هؤلاء؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)، قوله: لا يسترقون، أي: لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم لمرض كان فيهم، ولا يكتوون، أي: لا يطلبون من أحد أن يكويهم، ولا يتطيرون، أي: لا يتشاءمون، وعلى ربهم يتوكلون، أي: يعتمدون اعتمادًا كليًا. وعلم من قوله: لا يسترقون أنهم لو قرءوا على غيرهم فلا بأس، ولا يحرمون من هذا الثواب العظيم، وأنه لو قرأ عليهم غيرهم بلا طلب منهم فلا بأس، ولا يحرمون من هذا الثواب العظيم، وكذلك من كواه غيره بلا طلب منه فإنه لا يحرم هذا

=

=

الثواب. أما التطير فهو التشاؤم، قال العلماء: التشاؤم يكون بمرئي أو مسموع أو معلوم، والتشاؤم من مرئي: مثل أن يرى شيئًا فيقع في نفسه التشاؤم، كأن يرى طيرًا أسود فيقول: هذا سواد يومي، أو كأن يرى أمامه إنسانًا عثر فمات فيتشاءم ويقول: إن ذهبت في هذا الطريق حصل لي مثلما حصل لهذا الشخص، أو ما أشبه ذلك، والتشاؤم بمسموع: مثل أن يسمع كلمة نابية فيتشاءم ويرجع عن حاجته. والتشاؤم بالمعلوم: التشاؤم بالأيام أو بالشهور، كما كان أهل الجاهلية يفعلون، منهم من يتشاءم بشهر صفر، ومنهم من يتشاءم بشهر شوال، ومنهم من يتشاءم بيوم الأربعاء، وغير ذلك مما هو معروف من طرق الجاهلية، فإن الطيرة من الشرك كما قال النبي ﷺ: (الطيرة شرك، الطيرة شرك) وعلى الإنسان أن يتوكل على الله ويعتمد عليه في أمره كله، وإذا رأى أن من الخير أن يفعل فليفعل، ولا يهمه ما سمعه وما رآه؛ لأن الطيرة من الشرك. وأما التوكل فهو: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع فعل الأسباب النافعة؛ لأن التوكل بدون فعل الأسباب النافعة يسمى تواكلًا وليس توكلًا، فإن سيد المتوكلين محمد ﷺ، ومع ذلك كان يفعل الأسباب التي تقيه، ففي غزوة أحد ظاهر بين درعين يعني: لبس درعين خوفًا من السهام، وضرب الخندق على المدينة لئلا يدخلها العدو، واختفى في غار ثور ثلاثة أيام لئلا يدركه العدو، فالأسباب النافعة فعلها لا ينافي التوكل أبدًا، بل هو من مقتضى التوكل. فهذه الأوصاف الأربعة أنهم: (لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)، هي من صفات من يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، ولكن ليعلم أنه لابد أن يكون عندهم إيمان، فلو فرضنا أن أحدًا اتصف بهذه الصفات لكنه لا يصلي فهذا لا يدخل الجنة أبدًا لا بحساب ولا بغير حساب؛ لأن من لا يصلي كافر، ولا ينفعه أنه لا يسترقي، ولا يكتوي، ولا يتطير، وأنه يتوكل ويعتمد على الله، فيجب أن ننتبه إلى هذه المسألة.

وسئل العلامة العثيمين أيضا كما في مجموع فتاواه (١٧/ ٣٦): نريد إيضاح حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قول النبي ﷺ عن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «إنهم لا يسترقون... » الحديث. فهل عموم العلاج يدخل في الحديث؟ وإذا كان لا يدخل فما الفرق بينه وبين الرقية؟ لأن كلًا منهما سبب. وكيف نفهم أمر النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها وغيرها أن يسترقوا من العين؟ وإذا علمنا رجلًا أصابته عين فهل نأمره بالرقية أم نرشده إلى الصبر والاحتساب؟ أرجو الإفادة وجزاكم الله خيرًا.

=

(**تنبيه**): هل السبعون ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب كلهم من أهل البقيع؟

قال العلامة الألباني في الضعيفة (١١/ ٢/ ٨٤٩ - ٨٥٠): روي عن النبي

=

فأجاب: قوله في حديث السبعين ألفًا: «ولا يسترقون» (أي لا يطلبون الرقية من غيرهم) لكنه عليه الصلاة والسلام أمر بالتداوي وأرشد إليه وقال: «ما أنزل الله داء، إلا أنزل له شفاء عَلِمه من عَلِمه وجَهِله من جَهِله»، والفرق بينهما من وجهين:

الوجه الأول: أن تعلُّق الإنسان بالراقي أكثر من تَعَلُّقه بالتداوي؛ لأن الراقي إذا قدّر الله تعالى أن ينتفع المريض برقيته، صارت العلاقة بينه وبين هذا المريض علاقة روحية فربما يُفتتن به ويقول: هذا من أولياء الله وما أشبه ذلك، وقد يحصل معه شيء من الشرك ولهذا جاء بعدها «وعلى ربهم يتوكلون».

الثاني: أنه قد يطلب الرقية من شخص ليس أهلًا لذلك، لأنه يداوي بشيء حسي يعرف فيرقى هذا الذي سئل الرقية ثم لا يحصل الشفاء بالرقية لأنها غير شرعية ولكن عند الرقية، فيفتتن الناس أيضًا بهذا الرجل، ويظنونه ممن تجاب دعوته، وممن يتبرك بقراءته وليس كذلك.

فلهذا قال ﷺ: «ولا يسترقون»، ولم يقل: ولا يتداوون، وعلى هذا فالدواء مطلوب، وأما الاسترقاء فإن الأفضل تركه، لكن لو أنَّ أحدًا من الناس هو الذي تقدم وقرأ عليك ولم تمنعه فإن هذا لا يمنع من دخول الإنسان في هذا الحديث، لأنك لم تطلب الرقية، وكذلك لو أنك رقيت على أخيك فإنك محسن إليه ولا تخرج بهذه الرقية من صفات هؤلاء السبعين ألفًا، ولهذا نقول: إن ما ورد في «صحيح مسلم» من زيادة وهي قوله: «ولا يرقون» زيادة شاذة ليست بصحيحة، والصواب: «ولا يسترقون» فقط.

أما الرقية من العالم فلأن العالِم معروف، فتطلب منه الرقية، لأنه إذا رقي على الإنسان فإنه ينتفع بذلك بإذن الله ﷻ، كالطبيب الذي يداوي.

أما هل نأمر الذي أصيب بالعين بالرقية أو نأمره بالصبر؟ فنقول له: إن الرسول ﷺ أرشد إلى طريقة الشفاء من العين، حيث أمر الذي عان أحد الصحابة أن يغتسل ويتوضأ، فيؤخذ من مائه فيصبُّ على المصاب حتى يُشفى.

صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أم قيس! ترين هذه المقبرة؛ يبعث الله منها سبعين ألفًا يوم القيامة على صورة القمر ليلة البدر، يدخلون الجنة بغير حساب، [كأن وجوههم القمر ليلة البدر]. فقام عكاشة فقال: وأنا يا رسول الله؟! قال: وأنت. فقام آخر فقال: وأنا يا رسول الله؟! قال: سبقك بها عكاشة»

قال الإمام العلامة الألباني: والحديث منكر؛ لأن المحفوظ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في السبعين ألفًا أنهم: "الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون".أخرجه الشيخان. والظاهر: أنه في عامة أمته -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ وليس في الذين يدفنون في البقيع. والله أعلم.

المطلب الثالث: الكفار

اختلف العلماء في الكفار: هل يحاسبون ويسألون؟ أم يأمر بهم إلى النار من غير سؤال، لأن أعمالهم باطلة حابطة فلا فائدة من السؤال والحساب؟ وإذا كانوا يحاسبون ويسألون فما فائدة حسابهم وسؤالهم؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوي (٤/ ٣٠٥): "هذه المسألة تنازع فيها المتأخرون من أصحاب أحمد وغيرهم، فممن قال إنهم لا يحاسبون أبو بكر عبد العزيز، وأبو الحسن التميمي، والقاضي أبو يعلى، وغيرهم، وممن قال: إنهم يحاسبون: أبو حفص البرمكي من أصحاب أحمد، وأبو سليمان الدمشقي، وأبو طالب".اهـ.

والصحيح أن الكفار محاسبون مسؤولون كما أن أعمالهم توزن، وقد دلت على ذلك نصوص كثيرة، كقوله تعالى: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)} [القصص: ٦٢]، وقوله: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)} [القصص: ٦٥]، وقوله: (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ - فَهُوَ فِي عِيشَةٍ

رَّاضِيَةٍ - وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ - فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ - وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ - نَارٌ حَامِيَةٌ)} [القارعة: ٦-١١]. وقوله: (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ - أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ)} [المؤمنون: ١٠٣-١٠٥] ولا شك أن هذه النصوص في الكفار المشركين.

أما لماذا يحاسبون وتوزن أعمالهم مع أن أعمالهم حابطة مردودة فلأمور:

الأول: إقامة الحجة عليهم، وإظهار عدل الله فيهم، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، وهو صاحب العدل المطلق، ولذلك يسألهم ويحاسبهم، ويطلعهم على سجلاتهم التي حوت أعمالهم، ويظهر الميزان عظم سيئاتهم وشناعة أفعالهم (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)} [الأنبياء: ٤٧]، (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)} [الكهف: ٤٩].

يقول القرطبي في التذكرة (ص٢٢٥): "والباري -سبحانه وتعالى- يسأل الخلق في الدنيا والآخرة تقريرًا لإقامة الحجة وإظهارًا للحكمة".

الثاني: أن الله يحاسبهم لتوبيخهم وتقريعهم، يقول شيخ الإسلام في مجموع الفتاوي (٤/ ٣٠٥): "يراد بالحساب عرض أعمال الكفار عليهم وتوبيخهم عليها، ويراد بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات، فإن أريد بالحساب المعنى الأول، فلا ريب أنهم محاسبون بهذا الاعتبار، وإن أريد به المعنى الثاني فإن قصد ذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجنة فهذا خطأ

ظاهر".اهـ.

وهذا التأنيب والتقريع والتوبيخ ظاهر من نصوص كثيرة كقوله تعالى {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأنعام: ٣٠]. وقوله: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [الأنعام: ١٣٠]، وقوله: {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ - وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ} [الشعراء: ٩١-٩٢]، وقوله: {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} [القصص: ٦٤].

قال ابن كثير في النهاية (٢/ ٣٥): "وأما الكفار فتوزن أعمالهم، وإن لم تكن لهم حسنات تنفعهم يقابل بهذا كفرهم، لإظهار شقائهم وفضيحتهم على رؤوس الخلائق".

الثالث: أن الكفار مكلفون بأصول الشريعة كما هم مكلفون بفروعها، فيسألون عما قصروا فيه وخالفوا فيه الحق، يقول القرطبي في التذكرة (ص٣٠٥): "وفي القرآن ما يدل على أنه مخاطبون بها (أي فروع الشريعة) مسؤولون عنها، محاسبون بها، مجزيون على الإخلال بها، لأن الله تعالى يقول: {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ - الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [فصلت: ٦-٧]، فتوعدهم على منعهم الزكاة، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ - قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ - وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ - وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ - وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ} [المدثر: ٤٢-٤٦]، فبان بهذا أن المشركين مخاطبون بالإيمان والبعث وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأنهم مسؤولون عنها،

مجزيون".اهـ.

الرابع: أن الكفار يتفاوتون في كفرهم وذنوبهم ومعاصيهم، ويحلون في النار بمقدار هذه الذنوب، فالنار دركات بعضها تحت بعض، كما أن الجنة درجات بعضها فوق بعض، وكلما كان المرء أشد كفرًا وضلالًا كلما كان أشد عذابًا، وبعض الكفرة يكون في الدرك الأسفل من النار، ومنهم المنافقون (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)} [النساء: ١٤٥].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوي (٤/ ٣٠٥): "عقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلَّت سيئاته، ومن كان له حسنات خففت عنه العذاب، كما أن أبا طلب أخف عذابًا من أبي لهب.. فكان الحساب لبيان مراتب العذاب، لا لأجل دخولهم الجنة".اهـ.

ويذكر القرطبي في التذكرة (ص٣١٢) في وزن أعمال العباد وجهين:

الأول: أنه يوضع في إحدى الكفتين كفره وسيئاته. ولا يجد الكافر حسنة توضع في الكفة الأخرى، فترجح كفة السيئات لكون كفة الحسنات فارغة.

والثاني: أن حسنات الكافر من صلة رحم، وصدقة، ومواساة للناس توضع في كفة الحسنات، ولكن كفة السيئات ترجح بسبب كفره وشركه.اهـ.

والوجه الأول هو الصحيح لأن الشرك يحبط العمل، (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)} [الزمر: ٦٥] (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)} [البقرة: ٢١٧]. وفي الحديث: (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه)(١).

---

(١) أخرجه النسائي (٦/ ٢٥، رقم ٣١٤٠)، والطبراني (٨/ ١٤٠، رقم ٧٦٢٨) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث قال عنه المنذري في الترغيب (١/ ٤٠): إسناده =

ولأنه قد صح أن الرسول ﷺ أخبر أن الكافر يطعم بحسنته في الدنيا فيوافى يوم القيامة وليس له حسنة، ففي صحيح مسلم (٢٨٠٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال (قال رسول الله ﷺ إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها).

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٣٨): كيف يحاسب الكافر يوم القيامة، وهو غير مطالب بالتكاليف الشرعية؟.

فأجاب: هذا السؤال مبني على فهم ليس بصحيح، فإن الكافر مطالب بما يطالب به المؤمن، لكنه غير ملزم به في الدنيا، ويدل على أنه مطالب قوله تعالى: {إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ}.

فلولا أنهم عوقبوا بترك الصلاة، وترك إطعام المساكين ما ذكروه؛ لأن ذكره في هذه الحال لا فائدة منه، وذلك دليل على أنهم يعاقبون على فروع الإسلام، وكما أن هذا هو مقتضى الأثر، فهو أيضا مقتضى النظر، فإذا كان الله تعالى يعاقب عبده المؤمن على ما أخل به من واجب في دينه فكيف لا يعاقب الكافر؟، بل إني أزيدك أن الكافر يعاقب على كل ما أنعم الله به عليه من طعام وشراب وغيره، قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ

=

جيد، وقال العراقي في المغني (٥/ ١١٢): إسناده حسن، وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٥): إسناده جيد، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الترغيب (١٣٣١)، وفي الصحيحة (٥٢).

فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، فمنطوق الآية رفع الجناح عن المؤمنين فيما طعموه، ومفهومها وقوع الجناح على الكافرين فيما طعموه، وكذلك قوله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، فإن قوله: {قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}. دليل على أن غير المؤمن ليس له حق في أن يستمتع بها في الدنيا.

أقول: ليس له حق شرعي، أما الحق بالنظر إلى الأمر الكوني وهو أن الله – سبحانه وتعالى– خلقها، وانتفع بها هذا الكافر، فهذا أمر لا يمكن إنكاره، فهذا دليل على أن الكافر يحاسب حتى على ما أكل من المباحات وما لبس، وكما أن هذا مقتضى الأثر فإنه مقتضى النظر، إذ كيف يحق لهذا الكافر العاصي لله الذي لا يؤمن به كيف يحق له عقلا أن يستمتع بما خلقه الله ﷻ وما أنعم الله به على عباده، وإذ تبين لك هذا، فإن الكافر يحاسب يوم القيامة على عمله، ولكن حساب الكافر يوم القيامة ليس كحساب المؤمن؛ لأن المؤمن يحاسب حسابا يسيرا، يخلو به الرب ﷻ ويقرره بذنوبه حتى يعترف، ثم يقول له –سبحانه وتعالى–: «قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم».

أما الكافر – والعياذ بالله – فإن حسابه أن يقرر بذنوبه، ويخزى بها على رءوس الأشهاد: {وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} .اهـ. كلام العثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

فإن قيل: قررتم فيما سبق أن الكفار يسألون ويجادلون ويتكلمون ويعتذرون، فيكف تفعلون بالنصوص الدالة على خلاف ذلك، كقوله تعالى:

{وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} [القصص: ٧٨]، وقوله: {فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٣٩]، وقوله: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ - وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المرسلات: ٣٥-٣٦]، ونحو ذلك من النصوص.

فنقول: ليس بين هذه النصوص وتلك تعارض، وقد وفق أهل العلم بينهما بوجوه عدة.

الأول: أن الكفار لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ، لم عملتم كذا وكذا؟ وكذا يقال في تكليمهم واعتذارهم، أي لا يكلمهم الله بما يحبونه، بل يكلمهم كلام تقريع وتوبيخ.

الثاني: أنهم لا يسألون سؤال استفهام، لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم، وإنما يسألون سؤال تقرير، فيقال لهم: لم فعلتم كذا؟ قال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم، لأن الله حفظها عليهم وكتبتها عليهم الملائكة.

الثالث: أنهم يسألون في يوم القيامة في موطن دون موطن، قال القرطبي في التذكرة (ص٢٨٦): "القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك "

وقال السفاريني في لوامع الأنوار البهية: (٢/ ١٧٤): "وقيل يسألون في موطن دون موطن رواه عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.. فللناس يوم القيامة حالات، والآيات مخرجة باعتبار تلك الحالات، ومن ثَمَّ قال الإمام أحمد في أجوبته القرآنية: أول ما تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون، ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون، فذلك قوله تعالى تكلموا، واختصموا، فذلك قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمر: ٣١]، عند الحساب وإعطاء المظالم، ثم يقال لهم بعد

ذلك: (لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ) [ق: ٢٨]، يعني في الدنيا، فإن العذاب مع هذا القول كائن".

الرابع: قال القرطبي في التذكرة (ص٢٨٧): "أن معنى قوله تعالى: (وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ)} [القصص: ٧٨]، سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين، أي إن الملائكة لا تحتاج إلى أن تسأل أحدًا يوم القيامة أن يقال: ما دينك؟ وما كنت تصنع في الدنيا؟ حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان مؤمنًا أو كان كافرًا، لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه منشرحي الصدور، ويكون المشركون سود الوجوه زرقًا مكروبين، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار، وتميزهم في الموقف كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم..".اهـ.

قال العلامة الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب (ص١٣١-١٣٢): قوله تعالى: {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين} الآية، هذه الآية الكريمة تدل على أن الله يسأل جميع الناس يوم القيامة ونظيرها قوله تعالى: {فوربك لنسألنهم أجمعين، عما كانوا يعملون}، وقوله: {وقفوهم إنهم مسؤولون}، وقوله: {ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين}، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله: {فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان}، وكقوله: {ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون}.

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه وهو أن السؤال قسمان: سؤال توبيخ وتقريع، وأداته غالبا (لم)، وسؤال استخبار واستعلام وأداته غالبا (هل) فالمثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع، والمنفي هو سؤال: الاستخبار والاستعلام، وجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله لهم المنصوص في القرآن كله

توبيخ وتقريع كقوله: {وقفوهم إنهم مسؤولون، ما لكم لا تناصرون}، وكقوله: {أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون}، وكقوله: {ألم يأتكم رسل منكم}، وكقوله: {ألم يأتكم نذير}، إلى غير ذلك من الآيات، وسؤال الله للرسل ماذا أجبتم لتوبيخ الذين كذبوهم كسؤال الموؤودة بأي ذنب قتلت لتوبيخ قاتلها.

الوجه الثاني: أن في القيامة مواقف متعددة ففي بعضها يسألون وفي بعضها لا يسألون.

الوجه الثالث: هو ما ذكره الحليمي من أن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، وعدم السؤال محمول على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه، ويدل لهذا قوله تعالى فيقول: {ماذا أجبتم المرسلين} والعلم عند الله تعالى.

المسألة الخامسة: متى يكون الحساب؟ وأين يكون المحاسبون؟

حدثنا ربنا عن مشهد الحساب والجزاء في يوم الحساب فقال: (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)} [الزمر: ٦٩].

وحسبنا أن نعلم أن المحاسب في ذلك اليوم هو الحكم والعدل قيوم السماوات والأرض ليتبين لنا عظم هذا المشهد وجلاله ومهابته، وهذا الإشراق المنصوص عليه في الآية، إنما يكون عند مجيء الملك الجليل لفصل القضاء، قال تعالى: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ)} [البقرة: ٢١٠].

وهذا المجيء الله أعلم بكيفيته، نؤمن به ونعلم أنه حق، ولا نؤوِّله ولا نحرِّفه، ولا نكذب به، والآية تنصُّ على مجيء الملائكة، فهو موقف جليل

تحضره ملائكة الرحمن بكتب الأعمال التي أحصت على الخلق أعمالهم وتصرفاتهم وأقوالهم، ليكون حجة على العباد، وهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ويجاء في موقف القضاء والحساب بالرسل، ويسألون عن الأمانة التي حمَّلهم الله إياها. وهي إبلاغ وحي الله إلى من أرسلوا إليه، ويشهدون على أقوامهم ما علموه منهم.

ويقوم الأشهاد في ذلك اليوم العظيم فيشهدون على الخلائق بما كان منهم، والأشهاد هم الملائكة الذين كانوا يسجلون على المرء أعماله، ويشهد أيضًا الأنبياء وغيرهم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] وما أسرع نسيان الإنسان لأعماله التي يعملها هو غافل لا يدري أن هناك من يراقبه مراقبة دقيقة يسجل عليه كل ما يصدر عنه من قول أو فعل.

قال الطبري في تفسيره (٢٨/ ١٢): يقول تعالى ذكره أحصى الله ما عملوا، فعده عليهم، وأثبته، وحفظه، ونسيه عاملوه، والله على كل شيء شهيد.اهـ.

فإذا جمعهم الله في الموقف، وأذن بفصل القضاء فيهم أعطاهم الله تلك الكتب ليقفوا على ما فيها، ثم بعد ذلك تبدأ المحاسبة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إلى أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ [الانشقاق: ٧ - ١٠]

وفي تقديم الله تعالى ذكر الكتاب- أو صحف الأعمال - على ذكر الحساب

دلالة على تقديم أخذ الصحف على الحساب، وفي هذا يقول القرطبي في التذكرة (ص٢٥٥): فإذا وقف الناس على أعمالهم، من الصحف التي يؤثرها بعد البعث حوسبوا عليها.اهـ.

وقبل حسابهم يمتاز كل فريق عن الأخر، المؤمنون في مكان، وغيرهم من الكفار كل فرقة في مكان، قال الحافظ ابن كثير في (النهاية (٢/ ١١٠): فإذا نصب كرسي فصل القضاء، انماز الكافرون عن المؤمنين في الموقف إلى ناحية الشمال وبقي المؤمنون عن يمين العرض، ومنهم من يكون بين يديه، قال تعالى: (وَامْتَازُوا اليَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) [يس: ٥٩]).اهـ.

قال ابن كثير فيتفسيره (٣/ ٥٧٦): (وَامْتَازُوا اليَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) يقول الله تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة، من أمره لهم أن يمتازوا، بمعنى يميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ) [يونس: ٢٨]. وقال ﷻ: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ)} [الروم: ١٤] أي يصيرون صدعين فرقتين.اهـ.

وفي فتح القدير (٤/ ٣٣٧) قال مقاتل: (معناه: اعتزلوا اليوم - بمعنى في الآخرة - من الصالحين)، وقال السدي: (كونوا على حدة)، وقال الزجاج: (انفردوا عن المؤمنين) ، وقال الضحاك: (يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والنصاري فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبدة الأوثان فرقة)، وقال داود بن الجراح: (يمتاز المسلمون عن المجرمين، إلا أصحاب الأهواء فإنهم يكونون مع المجرمين).اهـ.

فالثابت هنا هو تميز كل فريق عن الفريق الآخر، دون تحديد للجهات التي

ذكرها الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في الآية السابقة، وكذا في قوله تعالى: (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ) [يونس: ٢٨].

قال ابن كثير في تفسيره (في معني الآية: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ [يونس: ٢٨]: (الزموا أنتم وهم مكانا معينا، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين).

وقال تعالى: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ).} [الروم: ١٤]

وقال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ)} [الروم: ٤٣] أي يصيرون فرقتين.

قال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٢٩).: (والمراد بتفرقهم هاهنا: أن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة وأهل النار يصيرون إلى النار.اهـ.

وقال تعالى: (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إلى صِرَاطِ الْجَحِيمِ)} [الصافات: ٢٢ - ٢٣]

وهذه الآية فسرها بعضهم بأن كل صنف يتميز مع مثله، فقد جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قول الله: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [الصافات: ٢٢]، قال: (أمثالهم، الذين هم مثلهم، يجيء أصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، أزواج في الجنة، وأزواج في النار).

وفي رواية عن ابن عباس: قال: (أشباههم) ، وفي لفظ: (نظراءهم)، وفي رواية عن عكرمة مثله.

وعن مجاهد قال: (أمثالهم، القتلة مع القتلة، والزناة مع الزناة، وأكلة الربا مع أكلة الربا).

وخلاصة ما قيل عن تميز المؤمنين عن غيرهم، وتميز كل فرقة بمفردها: أن الله تعالى أمر بأن يتميز أهل محبته ورضوانه عن أهل عداوته وعصيانه، إلى حيث يشاء سبحانه وتعالى، كما أمر أن ينفرد أهل عصيانه عن أهل طاعته، ليكون لكل فرقة من الفرق موضع يليق بها، وليعرف كل فريق حاله. الحياة الآخرة لغالب عواجي (٢/ ٩٢٥).

المسألة السادسة: ما يسأل عنه العباد

يسأل العباد عن الإله الذي كانوا يعبدونه، وعن إجابتهم للمرسلين، وقد بينا ذلك فيما مضى، ويسألون عن أعمالهم التي عملوها، وعما تمتعوا به من النعيم في الحياة الدنيا، كما يسألون عن عهودهم ومواثيقهم، وعن أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم.

١- الكفر والشرك: أعظم ما يسأل عنه العباد هو كفرهم وشركهم، فيسألهم عن الشركاء والأنداد الذين كانوا يعبدونه من دون الله كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ - مِن دُونِ اللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢-٩٣]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

ويسألون عن عبادتهم لغير الله من تقديم القرابين للآلهة التي كانوا يعبدونها، ونحر الذبائح باسمها ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦]. ويسألون عن تكذيبهم للرسل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ - فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُونَ﴾ [القصص: ٦٥-٦٦].

٢- ما عمله في دنياه: يسأل المرء في يوم القيامة عن جميع أعماله التي

عملها في الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ - عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]. وقال: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وفي سنن الترمذي عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟)(١).

وفي سنن الترمذي أيضًا عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه، حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم)(٢).

والذي يتأمل في مثل هذا الحديث يعلم السر في دعوة الرسول ﷺ المسلم

---

(١) أخرجه الترمذى (٤/ ٦١٢، رقم ٢٤١٧)، وأبو يعلى (١٣/ ٤٢٨، رقم ٧٤٣٤)، وأبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٢٣٢) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وقال ابن مفلح في الآدب الشرعية (٢/ ٤١): إسناده جيد، وصححه العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٣٠/ ٣٠١)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٧٣٠٠)، وفي الصحيحة (٩٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٦)، وأبو يعلى في مسنده (٢٥٤/ ٢)، والطبراني في الكبير (١/ ٤٨/ ١)، والصغير (رقم ٦٤٨ - الروض)، وابن عدي في الكامل (ق٩٥/ ١)، والخطيب (١٢/ ٤٤٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥/ ١٨٢/ ١، ١٢/ ٢٣٩/ ٢) والحديث ضعفه الترمذي بقوله: "حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ إلا من حديث الحسين بن قيس، وهو يضعف في الحديث من قبل حفظه"، وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٩٤٦) بعد أن نقل كلام الترمذي: قلت: لكن له شواهد تدل على أنه قد حفظه، من حديث أبي برزة الأسلمي، ومعاذ بن جبل، ثم خرج الشيخ الشاهدان.

إلى التخفف من المال، فكلما كثر مال العبد كثر حسابه وطال، وكلما قل ماله خف حسابه وأسرع به إلى الجنة، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن فقراء المهاجرين يسبقون أغنياءهم إلى الجنة بأربعين سنة، ففي صحيح مسلم (٢٩٧٩) عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال (جاء ثلاثة نفر إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، وأنا عنده، فقالوا: يا أبا محمد، إنا والله، ما نقدر على شيء، لا نفقة، ولا دابة، ولا متاع. فقال: ما شئتم إن شئتم رجعتم إلينا فأعطيناكم ما يسر الله لكم. وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان. وإن شئتم صبرتم. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء، يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا).

٣- النعيم الذي يتمتع به: يسأل الله عباده في يوم القيامة عن النعيم الذي خولهم إياه في الدنيا، كما قال: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)} [التكاثر: ٨]، يعني بالنعيم شبع البطون، وبارد الماء، وظلال المساكن، واعتدال الخلق، ولذة النوم، وقال سعيد بن جبير: حتى عن شربة عسل. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا. وقال الحسن البصري: من النعيم الغذاء والعشاء. وقال أبو قلابة: من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي. وعن ابن عباس: النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار.

وهذا الذي فسروها به من باب التنوع في التفسير، فإن أصناف النعيم كثيرة لا تعد ولا تحصى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) [إبراهيم: ٣٤]، وبعض أنواع النعيم من الضروريات وبعضها من الكماليات، والناس يتفاوتون في ذلك فيما بينهم، ويوجد في عصر مالا يجده أهل عصور أخرى، وفي بلد ما لا يجده أهل بلاد أخرى، وكل ذلك يسأل عنه العباد.

روى الترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أول ما

يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسمك؟ ونروك من الماء البارد)[١]، وبعض الناس لا يستشعر النعم العظيمة التي وهبه الله إياها، فلا يدرك النعمة التي في شربة الماء، ولقمة الطعام، وفيما وهبه الله من مسكن وزوجة وأولاد، ويظن أن النعم تتمثل في القصور والبساتين والمراكب فحسب، فقد سأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص فقال (ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم فأنت من الأغنياء قال فإن لي خادمًا قال: فأنت من الملوك)[٢].

وفي صحيح البخاري (٦٤١٢) عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)، ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون. وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: (لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ﷻ، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم)[٣].

---

(١) أخرجه الترمذى (٥/ ٤٤٨، رقم ٣٣٥٨)، والحاكم (٤/ ١٥٣، رقم ٧٢٠٣)، والبيهقى فى الشعب (٤/ ١٤٧، رقم ٤٦٠٧)، والديلمى في مسند الفردوس (١/ ١٨، رقم ١٩)، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (ص٣١)، وابن معين في التاريخ والعلل (٤/ ٢)، وتمام في الفوائد (٣٦/ ١)، وابن بشران في الأمالي (١٨/ ٥/ ١)، وابن شاذان الأزجي في الفوائد (٢/ ١٠٢/ ١)، والرامهرمزي في الفاصل (ص١٣٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢/ ٢٠/ ١، ٨/ ٢٠٣/ ١) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٥٣٩)، وصححه العدوي في صحيح الأحاديث القدسية (٧٧).

(٢) أخرجة مسلم (٢٩٧٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٧٢، رقم ٢٣٢٠٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠١)، وفي =

وفي بعض الأحاديث النبوية بيان من الرسول ﷺ عن صورة من صور السؤال عن النعيم الذي يواجه الله به عباده في ذلك اليوم، ففي صحيح مسلم (٢٩٦٨) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "يلقى (الرب) العبد فيقول: أي فُل - أي يا فلان-، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ قال: فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فُل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع. فيقول: ههنا اذن،

قال: ثم يقال له الآن نبعث عليك شاهدًا عليك، ويتفكر في نفسه، من ذا يشهد علي؟ فيختم الله على فيه. ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق الذي

=

التاريخ الكبير (٥/ ٢٢)، وابن ماجه (٢/ ٧٢٤، رقم ٢١٤١)، والحكيم في النوادر (١/ ٢١٢)، والحاكم (٢/ ٣، رقم ٢١٣١)، وابن أبى عاصم (٥/ ٢٨، رقم ٢٥٦٦)، والبيهقي في الشعب (١٢٤٥ و١٢٤٦)، وفي الآداب (٩٦٥)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٦/ ٣٠٨٢ رقم ٧١٢٠)، والمزي في تهذيب الكمال (١٤/ ٤٥٠) من حديث معاذ بن عبدالله بن خُبيب الجُهني، عن أبيه، عن عمِّه، والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال البوصيرى في مصباح الزجاجة (٣/ ٦): إسناده صحيح رجاله ثقات، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٧٤)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٨/ ٢٢٩): إسناده حسن.

يسخط الله عليه).

والسؤال عن النعيم سؤال عن شكر العبد لما أنعم الله به عليه، فإذا شكر فقد أدى حق النعمة، وإن أبى وكفر، أغضب عليه الله، ففي صحيح مسلم (٢٧٣٤) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها).

٤- العهود والمواثيق: يسأل الله عباده عما عاهدوه عليه (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولًا)} [الأحزاب: ١٥]، وكل عهد مشروع بين العباد فإن الله سائل العبد عن الوفاء به (وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا)} [الإسراء: ٣٤].

٥- السمع والبصر والفؤاد: يسأل الله العباد عن جميع ما يقولونه، ولذلك حذرهم من القول بلا علم (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا)} [الإسراء: ٣٦]، قال قتادة: "لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله".

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٠٨): "ومضمون ما ذكروه في الآية أن الله نهى عن القول بغير علم، بل بالظن، الذي هو التوهم والخيال. كما قال تعالى: (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)} [الحجرات: ١٢]. وفي الحديث: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"، وفي سنن أبي داود بئس مطية الرجل: (زعموا) وفي الحديث الآخر: "إن أفرى الفرى أن يري الرجل عينيه ما لم تريا" وفي الصحيح: "من تحلم حلمًا كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل". القيامة الكبرى (ص٢١٦).

المسألة السابعة: أول من يحاسب

يحاسب الله سبحانه وتعالى البشر في أسرع وقت كما ذكر سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، وقد اختلفت أقوال العلماء في ذكر أول من يحاسب في يوم القيامة من الجماعات أو الأفراد، هل هم الملائكة؟ أم هو اللوح المحفوظ؟ أم هم الأنبياء والرسل؟ أم أرباب الأموال والسعة؟ أم أنهم أول من تبارزوا في يوم بدر؛ علي بن أبي طالب، وحمزة، وعبيدة، وأقرانهم من المشركين؟ أم أن أول المحاسبين جاران من أمة محمد ﷺ؟ أم الزوج وزوجته؟.

كل ذلك قد قيل، ونوضح فيما يلي أدلة تلك الأقوال والجمع بينها:

❊ أما ما جاء من أنهم الملائكة: فهو ما روى ابن أنعم عن حبان بن أبي جيلة فيما يعزوه البرديسي قال: (أول من يدعى يوم القيامة إسرافيل، فيقول الله عز وجل ثناؤه: هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم يا رب، فيخلى عن إسرافيل، ويقول لجبريل: ما صنعت بعهدي؟ فيقول: بلغت الرسل، فتدعى الرسل فيقول: هل بلغكم جبريل عهدي؟ فيقولون: نعم فيخلى جبريل. ويقال للرسل: هل بلغتم عهدي؟ فيقولون: نعم قد بلغناه الأمم، فتدعى الأمم فيقال: هل بلغكم الرسل عهدي؟ فمكذب، ومصدق، فتقول الرسل: لنا عليكم شهداء، فيقول الله تبارك وتعالى وهو أعلم: من؟ فيقولون: أمة محمد ﷺ، فيقال لهم: أتشهدون أن الرسل قد بلغت الأمم؟ فتقول الأمم: يا رب، كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟ فيقول الله عز وجل: تشهدوا عليهم ولم تدركوهم؟ فيقولون: يا ربنا أرسلت إلينا رسولًا، وأنزلت علينا كتابًا، فقصصت علينا فيه أن قد بلغوا قولك) وهو حديث ضعيف لا يثبت.

❊ وأما ما جاء من أول المحاسبين اللوح المحفوظ: فهو ماجاء عن سنان أنه قال: (اللوح المحفوظ معلق بالعرش، فإذا أراد الله أن يوحي بشئ كتب في

اللوح المحفوظ، فيجيء اللوح حتى يقرع جبهة إسرافيل، فينظر فيه، فإن كان لأهل السماء دفعه إلى ميكائيل، وإن كان لأهل الأرض دفعه إلى جبريل، فأول ما يحاسب يوم القيامة اللوح المحفوظ، يدعى به ترعد فرائصه، فيقال: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: إسرافيل، فيجاء بإسرافيل ترعد فرائصه، فيقال: هل بلغك اللوح؟ فإذا قال: نعم؛ قال اللوح: الحمد لله الذى نجاني من سوء الحساب، ثم كذلك) وهو أيضا حديث ضعيف لا يثبت، وفى حديث وهب بن الورد (أن إسرافيل عليه السلام يقول: بلغت جبريل، فيدعى جبريل عليه السلام ترعد فرائصه، فيقال: ما صنعت فيما بلغك إسرافيل؟ فيقول: بلغت الرسل، فيؤتى بالرسل فيقال: ما صنعتم فيما أدى إليكم جبريل؟ فيقولون: بلغنا الناس، فهو قوله تعالى: فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِين} [الأعراف: ٦]) وهو أيضا حديث ضعيف لا يثبت.

* وأما ما جاء من أن أول المحاسبين الأنبياء والرسل فقد قال البرديسي: (فيبدأ بالأنبياء عليهم الصلاة السلام، فيقول: ماذا أجبتم؟ قيل في تفسيرها: كانوا قد علموا ولكن ذهبت عقولهم، وغربت أفهامهم ونسوا من شدة الهول، وعظيم الخطب، وصعوبة الأمر، فقالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب، ثم يقويهم الله عز وجل فيدعى بنوح عليه الصلاة والسلام)، ثم استدل بما أخرج البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدعى بنوح عليه السلام يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليهم شهيدًا، وذلك في قوله: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ

عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣]. والوسط: العدل، أى عدولًا خيارًا، وخير الأمور الوسط).

* وأما ما جاء من أنهم العلماء، أو المغازون، أو أرباب المال والسعة: فهو ما ذكره السفاريني في لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٧٤) إلا أنه لم يسنده إلى أحد.

* أما ما جاء من أنهم الذين تبارزوا فى يوم بدر: فهو ما أخرج البخاري (٤٧٤٤) بسنده إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: (أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة).

وروى كذلك عن قيس بن عباد وعن أبي ذر عن علي بن أبي طالب أن الآية من قوله تعالى: (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ)} [الحج: ١٩]. أنها نزلت في شأن الذين تبارزوا يوم بدر، وهم حمزة، وعلي، وعبيدة - أبو عبيدة - ابن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة، والوليد بن عتبة)[١].

* وأما ما جاء من أنهم جاران: فهو ما روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أول خصمين يوم القيامة جاران)[٢].

ويجمع بين تلك الأقوال: بأن ما صح من تلك الأقوال والروايات فإنه يحمل على أولية مقيدة فى بابها، وأما بالنسبة للأمم، فقد جاء في السنة أن أول

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٧٤٣) وصحيح مسلم برقم (٣٠٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١، رقم ١٧٤١٠)، والطبرانى (١٧/ ٣٠٣، رقم ٨٣٦) والحديث قال عنه العراقي في المغني (٢/ ٢٦٦): إسناده ضعيف وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٣٢٠): رواه أحمد والطبراني بإسنادين أحدهما جيد، وقال الهيثمي: أحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح غير أبي نسافة وهو ثقة وأعاده بمحل آخر (١٠/ ٣٥٢) وقال: إسناده حسن، وقال السيوطي في البدور السافرة (٢٨٦): إسناده حسن، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٢٥٦٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٨/ ٦٠١): حديث حسن فابن لهيعة قد توبع.

الأمم يقضي الله بينهم هم أمة محمد ﷺ، وهذه مزية ومفخرة لهم؛ ليكونوا شهداء على الناس، ومما ورد في هذا ما أخرجه ابن ماجه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (نحن آخر الأمم، وأول من يحاسب، يقال: أين الأمة الأمية ونبيها؟ فنحن الآخرون الأولون)[١].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (يجيء النبي ومعه الرجلان ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، فيقال: من شهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد، فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم، فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون أخبرنا نبينا بذلك؛ أن الرسل قد بلغوا فصدقناه قال فذلكم قوله تعالى: وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣])[٢].

وورد عن رفاعة الجهني قال: (صدرنا مع رسول الله ﷺ فقال: والذي نفس

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٣٤، رقم ٤٢٩٠)، والطيالسي (٢٧١١)، وأحمد (٢٥٤٦، ٢٦٩٢، ٢٦٩٣)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢٦٦)، وأبو يعلى (٢٣٢٨)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٤٨١-٤٨٢)، والديلمى (٤/ ٢٨٢، رقم ٦٨٣٣) والحديث قال عنه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٥٦): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات وأبو سلمة هو موسى بن إسماعيل البصري التبوذكي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٣٧٤)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٦٦٦)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٥/ ٣٥٠): رجاله ثقات، إلا أنه اختلف فيه على حماد بن سلمة كما سيأتي في التخريج.

(٢) أصل الحديث في صحيح البخاري، وبهذا اللفظ أخرجه ابن ماجة (٤٢٨٤) والحديث قال عنه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٤٤٨): إسناده صحيح على شرط الشيخين، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٥/ ٣٤٧): إسناده صحيح.

محمد بيده ما من عبد يؤمن ثم يسدد إلا سلك به في الجنة، وأرجو ألا يدخلوها حتى تبوؤا أنتم ومن صلح من ذراريكم مساكن في الجنة، ولقد وعدني ربي ﷻ أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بغير حساب)(١).

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنكم وفيتم سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله)(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٦)، والدارمي (١/ ٣٤٧)، وابن أبي شيبة (١١/ ٤٨٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٠٩)، وابن ماجه (٢٠٩٠، ٤٢٨٥)، وابن خزيمة في التوحيد (ص ١٣٢-١٣٣)، وابن حبان (٢١٢)، والطبراني في الكبير (٤٥٥٦)، والبيهقى فى الشعب (١/ ٣٦٣، رقم ٤٠٤)، والمزي في تهذيب الكمال (٩/ ٢٠٧) والحديث صححه ابن خزيمة، وابن حبان، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٤٠٥)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٥/ ٣٤٨): حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٦١، رقم ١١٦٠٤)، والترمذى (٥/ ٢٢٦، رقم ٣٠٠١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٣، رقم ٤٢٨٧، ٤٢٨٨)، وعبد الرزاق في التفسير (١/ ٤٥)، وعبد بن حميد (٤٠٩)، والدارمي (٢٧٦٠)، والحسين المروزي في زوائده على زهد ابن المبارك (٣٨٢)، والطبري في التفسير (٤/ ٤٥)، والروياني في مسنده (٩٢١،٩٢٤)، وابن أبي حاتم في التفسير (٤٠١٧)، والحاكم (٤/ ٩٤، رقم ٦٩٨٧)، والطبرانى (١٩/ ٤٢٧، رقم ١٠٣٨)، وأبو القاسم بن بشران في مجلس إملاءه (٦٢٥)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٥)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٤٠٥)، والواحدي في الوسيط (١/ ٤٧٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ١١٥ و١٣/ ٨٢ و٥٤/ ٢٦١)، والرافعي في التدوين في أخبار قزوين (٢/ ٢٦٢) والحديث صححه أحمد، وابن المديني، وابن حبان وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ١٢٧): إسناده جيد، وقال الهيثمي في المجمع (١٨٦٤٥): رواه أحمد ورجاله ثقات، وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٢٥): هو حديث حسن صحيح، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٢٣٠١)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٣/ ٢١٩): إسناده حسن.

فثبت بهذه النصوص أن أمة محمد ﷺ هم أول الأمم تحاسب، وأول الأمم تدخل الجنة.

قال ابن كثير في النهاية (٢/ ٢٣٧): أول ما يقضي فيه يوم القيامة الدماء، قال في حديث الصور[(١)]: ثم يقضي الله بين العباد، فيكون أول ما يقضي فيه الدماء، وهذا هو الواقع يوم القيامة، وهو أنه بعد أن يفرغ الله من الفصل بين البهائم[(٢)]، يشرع في القضاء بين العباد كما قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ

---

(١) حديث الصور أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٨٦)، (٣٨٧)، وابن جرير في تفسيره (٢/ ٣٣٠-٣٣١) والبيهقي في البعث والنشور (٦٦٨و٦٦٩)، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٥ / ٣٣٩، ٣٤٢) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وعلي بن سعيد في كتاب الطاعة والعصيان، وأبي يعلى، وأبي الحسن القطان في المطولات وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي موسى المديني كلاهما في المطولات، والحديث قال عنه ابن كثير في تفسير (٢/ ١٤٧): هذا حديث مشهور وهو غريب جدا، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة وفي تهذيب التهذيب (٩/ ٣٢٤) قال الإمام أحمد رجاله لا يعرفون، وقال البخاري لم يصح، وقال ابن حبان لست أعتمد على إسناده، وقال الأزدي ليس بالقائم في إسناده نظر، وقال الدارقطني: لإسناده لايثبت.اهـ. وضعفه أيضا العقيلي في الضعفاء (٤/ ١٤٧)، والبيهقي، وعبد الحق، والحافظ في المطالب العالية (٣/ ٩٩)، وقال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/ ٧٨٨): ظاهره النكارة.

(٢) لعل مستند ابن كثير في جزمه بأن الفصل بين البهائم يكون قبل البدء في الفصل بين الثقلين هو جزء من حديث الصور الطويل فيه (....فيقضي الله، ﷻ، بين خلقه، إلا الثقلين الجن والإنس، فيقضي بين الوحش والبهائم، حتى إنه ليقضي للجماء من ذات القرن، فإذا فرغ من ذلك، فلم تبق تبعة عند واحدة للأخرى قال الله لها كوني ترابا. فعند ذلك يقول الكافر: {يا ليتني كنت ترابا} [النبأ: ٤٠] ثم يقضي الله [ﷻ بين العباد، فكان أول ما يقضي فيه الدماء) وقد...) وقد تقدم تخريجه في التعليق السابق.

رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ يونس: ٤٧. ويكون أول الأمم.

أمة محمد ﷺ أول الأمم حسابًا يوم القيامة

ثم يقضي بين هذه الأمة، لشرف نبيها، كما أنهم أول من يجوز على الصراط، وأول من يدخل الجنة، كما ثبت في الصحيحين من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة) وفي رواية: (المقضي لهم قبل الخلائق).

وقال ابن ماجه: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا أبو سلمة، حدثنا عمار بن سلمة، عن سعيد بن أياس الحريري، عن أبي نصرة، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (نحن آخر الأمم، وأول من يحاسب، يقال أين الأمة الأمية ونبيها؟ فنحن الآخرون الأولون) والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر أول ما يقضي بين الناس فيه يوم القيامة، ومن يناقش الحساب، ومن يسامح فيه

قد تقدم في الحديث: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء).

وفي رواية يحيى بن عقيل، عن أبي هريرة: (حتى للذرة من الذرة) والمراد بالذرة هاهنا النملة، والله أعلم.

وإذا كان هذا حكم الحيوانات التي ليست مكلفة، فتخليص الحقوق من الآدميين، وإنصاف بعضهم من بعض، أولى وأحرى.

وقد ثبت في الصحيحين، ومسند أحمد، وسنن الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، من حديث سليمان بن مهران، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: (أول ما يقضى فيه بين

الناس يوم القيامة الدماء)، وقد تقدم في حديث الصور (أن المقتول يأتي يوم القيامة تشخب أوداجه دماء، وفي بعض الأحاديث ورأسه في يده فيتعلق بالقاتل حتى ولو كان قتله في سبيل الله فيقول: يا رب سل هذا فيم قتلني ؟ فيقول الله تعالى: لم قتلت هذا ؟ فيقول: يا رب قتلته لتكون العزة لك، فيقول الله: صدقت. ويقول المقتول ظلمًا: سل هذا فيم قتلني ؟ فيقول الله تعالى: لم قتلته. فيقول: لتكون العزة لي، وفي رواية لفلان فيقول الله: تعست، ثم يقتص منه لكل من قتله ظلمًا، ثم يبقى في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء رحمه. الحياة الآخرة لغالب عواجي- بتصرف- (٢/ ٩٦٩).

(فرع): أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله

فأول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله تبارك وتعالى الصلاة، فإن صلحت أفلح ونجح وإلا خاب وخسر، ففي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيئًا قال الرب تبارك وتعالى انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك)[1].

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، قال: يقول ربنا عَزَّ وَجَلَّ لملائكته: انظروا في صلاة عبدي، أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص

---

(١) أخرجه الترمذى (٢/ ٢٦٩، رقم ٤١٣)، والنسائى (١/ ٢٣٢، رقم ٤٦٥)، وابن ماجه (١/ ٤٥٨، رقم ١٤٢٥) والحديث حسنه الترمذي، وصححه النووي في المجموع (٤/ ٥٥)، وصححه العلامة ابن باز في فتاوى نور على الدرب (٦/ ٢٩)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي.

منها شيئًا، قال: انظروا، هل لعبدي من تطوع، فإن كان له تطوع، قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال بعد ذلك)[١].

المسألة الثامنة: أنواع الحساب وأمثلة لهذه الأنواع

المطلب الأول: أنواع الحساب

يتفاوت حساب العباد، فبعض العباد يكون حسابهم عسيرًا وهؤلاء هم الكفرة المجرمون الذين أشركوا بالله ما لمن ينزل به سلطانًا، وتمردوا على شرع الله، وكذبوا بالرسل، وبعض عصاة الموحدين قد يطول حسابهم ويعسر بسبب كثرة الذنوب وعظمها، وبعض العباد يدخلون الجنة بغير حساب، وهم الصفوة من هذه الأمة، والقمم الشامخة في الإيمان والتقى والصلاح.. وبعض العباد يحاسبون حسابًا يسيرًا، وهؤلاء لا يناقشون الحساب، أي لا يدقق، ولا يحقق معهم، وإنما تعرض عليهم ذنوبهم ثم يتجاوز لهم عنها.

وهذا معنى قوله تبارك وتعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ- فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا)} [الانشقاق: ٧-٨]، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: "ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ- فَسَوْفَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٥، رقم ٩٤٩٠)، وابن المبارك (١/ ٣٢٠، رقم ٩١٥)، وأبو داود (١/ ٢٩١، رقم ٨٦٤)، وابن ماجة (١/ ٤٥٨، رقم ١٤٢٥)، والنسائى (١/ ٢٣٣، رقم ٤٦٦)، والحاكم (١/ ٣٩٤، رقم ٩٦٥)، والبيهقى (٢/ ٣٨٦، رقم ٣٨١٣) والحديث قال عنه العلامة الألباني في صحيح أبي داود الأم (٤/ ١٧): هذا إسناد رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين؛ غير أنس بن حكيم الضبي؛ وهو مجهول، كما قال ابن القطان وغيره، ثم صحح الشيخ الحديث لطرقه فقال: حديث صحيح، وصححه الحاكم والذهبي وابن عبد البر وحسنه الترمذي، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: حديث صحيح وهذا إسناد ضعيف.

يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا)} [الانشقاق: ٧-٨]، فقال رسول الله ﷺ: "إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك).

قال النووي في شرحه للحديث (١٧/ ٢٠٨): "معنى نوقش الحساب: استقصي عليه. قال القاضي: وقوله: (عذب) له معنيان: أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ. والثاني: أنه مفض إلى العذاب بالنار ويؤيده قوله في الرواية الأخرى: (هلك) مكان (عذب) هذا كلام القاضي.

قال النووي: وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصي عليه، ولم يسامح هلك، ودخل النار، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء".اهـ.

ونقل الحافظ في الفتح (١١/ ٤٠٢) عن القرطبي في معنى قوله: "إنما ذلك العرض " قال: إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منَّة الله عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة.اهـ.

والمراد بالعرض - كما هو ظاهر من هذه الأحاديث - عرض ذنوب المؤمنين عليهم، كي يدركوا مدى نعمة الله عليهم في غفرانها لهم

وقد سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٣٧): كيف نجمع بين قول النبي ﷺ: «من نوقش الحساب عذب». رواه البخاري من حديث عائشة، ومناقشة المؤمن في قوله ﷺ: «إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك

اليوم، فيعطى كتاب حسناته». الحديث رواه البخاري؟.

فأجاب: ليس في هذا إشكال؛ لأن المناقشة معناها: أن يحاسب، فيطالب بهذه النعم التي أعطاه الله إياها؛ لأن الحساب الذي فيه المناقشة معناه: أنك كما تأخذ تعطي، ولكن حساب الله لعبده المؤمن يوم القيامة ليس على هذا الوجه، بل إنه مجرد فضل من الله تعالى إذا قرره بذنوبه، وأقر واعترف قال: "سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم "، وكلمة نوقش تدل على هذا؛ لأن المناقشة الأخذ والرد في الشيء، والبحث على دقيقه وجليله، وهذا لا يكون بالنسبة لله ﷻ مع عبده المؤمن، بل إن الله تعالى يجعل الحساب للمؤمنين مبنيا على الفضل والإحسان، لا على المناقشة والأخذ بالعدل.اهـ.

المطلب الثاني: أمثلة هذه الأنواع

ورد في السنة النبوية مشاهد للمناقشة والعرض والمعاتبة التي تكون من الله لعباده، وسنسوق لكل واحد من هذه الأنواع الثلاثة مشهدًا مما صح في السنة.

١ - مناقشة المرائين: روى مسلم والترمذي والنسائي عن شفي بن ماتع الأصبحي رحمه الله أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: "من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه، حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت له: أسألك بحق وحق، لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ، عقلته وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة، فمكثنا قليلًا، ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم أفاق ومسح عن وجهه، وقال: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ، أنا وهو في هذا البيت، ما معنا

أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًا على وجهه، فأسندته طويلًا، ثم أفاق، فقال: حدثني رسول الله ﷺ: أن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجلٌ كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى، يا رب، قال: فماذا عملت فما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك، ويؤتى بصحاب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك، حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى، يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد، فقيل ذلك.

ثم يؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله: في ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة "، قال الوليد أبو عثمان المدائني: فأخبرني عقبة بن مسلم: أن شفيًا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا، قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم: "أنه كان سيافًا لمعاوية، فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فعل بهؤلاء هكذا، فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا، حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاء هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية، ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله: (مَن

كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ - أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [هود: ١٥-١٦]. أخرجه الترمذي. وفي رواية مسلم والنسائي عن سليمان بن يسار: قال: "تفرق الناس عن أبي هريرة، فقال له ناتل أخو أهل الشام: أيها الشيخ حدثني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه: رجل استشهد، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، فقال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأوتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنه تعلمت العلم ليقال عالمٌ، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه بنعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار".

٢- عرض الرب ذنوب عبده عليه: ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافرون والمنافقون فيقول

الأشهاد: (هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) [هود: ١٨].

قال القرطبي في التذكرة (ص٢٦٣) قوله: "فيضع عليه كنفه " أي: ستره ولطفه وإكرامه، فيخاطب خطاب ملاطفة، ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة، فيقول له: هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف، فيقول الله ممتنًا عليه، ومظهرًا فضله لديه: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، أي لم أفضحك بها فيها، وأنا أغفرها لك اليوم.

٣- معاتبة الرب عبده فيما وقع منه من تقصير: وقد حدثنا الرسول ﷺ عن معاتبة الرب لعبده يوم القيامة، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني؟ قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمتك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني؟ قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه؟ أما علمت أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي؟".

وفي ختام مشهد الحساب يعطى كل عبد كتابه المشتمل على سجل كامل لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا وتختلف الطريقة التي يؤتى بها العباد كتبهم، فأما المؤمن فإنه يؤتى كتابه بيمينه من أمامه، فيحاسب حسابًا يسيرًا، وينقلب إلى أهله في الجنة مسرورًا (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ - فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا

يَسِيرًا - وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا)} [الانشقاق: ٧-٩]، وإذا اطلع المؤمن على ما تحويه صحيفته من التوحيد وصالح الأعمال سر واستبشر، وأعلن هذا السرور، ورفع به صوته، (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ - إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ - فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ - فِي جنَّةٍ عَالِيَةٍ - قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ - كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)} [الحاقة: ١٩-٢٤].

وأما الكافار والمنافقين فإنهم يؤتون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم، وعند ذلك يدعو الكافر بالويل والثبور، وعظائم الأمور (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ - فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا - وَيَصْلَى سَعِيرًا)} [الانشقاق: ١٠-١٢]. (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ - وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ - يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ - مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ - هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ - خُذُوهُ فَغُلُّوهُ - ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ)} [الحاقة: ٢٥-٣١].

وعندما يعطى العباد كتبهم يقال لهم: (هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)} [الجاثية: ٢٩].

وقد سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٤٢): كيف نجمع بين قول الله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ}، وقوله: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ} ؟.

فأجاب: الجمع بينهما أن يقال: يأخذه بشماله، لكن تخلع الشمال إلى الخلف من وراء ظهره، والجزاء من جنس العمل، فكما أن هذا الرجل جعل كتاب الله وراء ظهره، أعطي كتابه يوم القيامة من وراء ظهره جزاء وفاقا.اهـ. القيامة الكبرى (ص٢٢٤).

المسألة التاسعة: اقتصاص المظالم بين الخلق

يقتص الحكم العدل في يوم القيامة للمظلوم من ظالمه، حتى لا يبقى لأحد عند أحد مظلمة، حتى الحيوان يقتص لبعضه من بعض، فإذا انطحت شاتان إحداهما جلحاء لا قرون لها، والأخرى ذات قرون، فإنه يقتص لتلك من هذه، ففي صحيح مسلم (٢٥٨٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء".

والذي يعتدي على غيره بالضرب، يقتص منه بالضرب في يوم القيامة، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري في الأدب المفرد والبيهقي في السنن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من ضرب بسوط ظلمًا، اقتص منه يوم القيامة)[1].

وفي معجم الطبراني الكبير عن عمار، قال: قال رسول الله ﷺ: (من ضرب مملوكه ظالمًا، أقيد منه يوم القيامة)[2].

والذي يقذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد في يوم القيامة، إن كان كذابًا فيما رماه به، ففي صحيح مسلم (١٦٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: (من قذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال).

---

(١) أخرجه البزار (٣٤٥٤)، والطبراني في الأوسط (١٤٤٥)، والبيهقي في الكبري (٨/ ٤٥، رقم ١٥٧٨٣)، والأصبهاني في الترغيب (٢١٠٢) والحديث قال عنه المنذري في الترغيب (٣/ ٢١٧): إسناده حسن، وكذا قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٥٣)، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٣٥٢)، وصححه في صحيح الأدب المفرد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٧٩٥٤)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٢٣)، والبزار (١٣٩٩)، وابن أبي الدنيا في الأهوال (٢٦٨)، والطبراني في الأوسط (١٤٤٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٧٨) والحديث قال عنه المنذري (٣/ ١٦١)، والهيثمي (٤/ ٢٣٨): رجاله ثقات، وفيه نظر، ولكن للحديث شواهد لذا صححه لغيره العلامة الألباني في الصحيحة (٢٣٥٢).

المطلب الأول: كيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة

إذا كان يوم القيامة كانت ثروة الإنسان ورأس ماله حسناته، فإذا كانت عليه مظالم للعباد فإنهم يأخذون من حسناته بقدر ما ظلمهم، فإن لم يكن له حسنات أو فنيت حسناته، فإنه يؤخذ من سيئاتهم فيطرح فوق ظهره، ففي صحيح البخاري (٢٣١٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلل منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه).

وهذا الذي يأخذ الناس حسناته، ثم يقذفون فوق ظهره بسيئاتهم هو المفلس، كما سماه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي صحيح مسلم (٢٥٨١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (أتدرون من المفلس؟" قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: "إن المفلس من أمتي، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار).

والمدين الذي مات، وللناس في ذمته أموال يأخذ أصحاب الأموال من حسناته بمقدار ما لهم عنده، ففي سنن ابن ماجة عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من مات وعليه دينار أو درهم، قضى من حسناته، ليس ثم دينار ولا درهم)[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ٨٠٧، رقم ٢٤١٤)، والطبراني في الكبير (١٣٥٠٤)، وفي الأوسط (٢٩٢١، ٢٩٥٩)، وابن عدي في الكامل (٣/ ١٢٤٩)، والحاكم (٢/ ٢٧)، =

وفي صحيح البخاري (٢٤٤٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ (من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه).

وإذا كانت بين العباد مظالم متبادلة اقتص لبعضهم من بعض، فإن تساوى ظلم كل واحد منهما للآخر كان كفافًا لا له ولا عليه، وإن بقي لبعضهم حقوق عند الآخرين أخذها.

ففي سنن الترمذي عن عائشة، قالت: (جاء رجل فقعد بين يدي الرسول ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني، ويخونني، ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله ﷺ: "إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا لا لك، ولا عليك. وإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم كان فضلًا لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل " فتنحى الرجل، وجعل يهتف ويبكى، فقال له رسول الله ﷺ: "أما تقرأ قوله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)} [الأنبياء: ٤٧])[1].

=

والبيهقي (٦/ ٨٢ و٨/ ٣٣٢)، والديلمى (٣/ ٥٠٧، رقم ٥٥٧٣) والحديث قال عنه المنذري في الترغيب (٣/ ٤٦): إسناده حسن، وكذا قال الدمياطي في المتجر الرابح (١٢٦)، والهيتمي في الزواجر (١/ ٢٤٧)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٦٥٤٦)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٣/ ٤٩٠): حديث صحيح.

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٨٠، رقم ٢٦٤٤٤)، والترمذى (٥/ ٣٢٠، رقم ٣١٦٥)، =

ولما كان هذا شأن الظلم فحري بالعباد الذين يخافون ذلك اليوم أن يتركوه ويجتنبوه وقد أخبر الرسول ﷺ أن الظلم يكون ظلمات في يوم القيامة، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (الظلم ظلمات يوم القيامة).

وفي صحيح مسلم (٢٥٧٨) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ: (اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة).

المطلب الثاني: عظم شأن الدماء

من أعظم الأمور عند الله أن يسفك العباد بعضهم دم بعض في غير الطريق الذي شرعه الله تبارك وتعالى، ففي الحديث الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (يجيء الرجل آخذًا بيد الرجل، فيقول: يا رب، هذا قتلني:

=

والبيهقى فى شعب الإيمان (٦/ ٣٧٧، رقم ٨٥٨٦) والحديث أشار الترمذي إلى ضعفه، وقال الذهبي في السير (١٤/ ٤٥٩): هذا منكر جدا وقال في الميزان (٢/ ٤٤٨): هذا باطل وأقره الحافظ في اللسان (٥/ ٢٢)، وقال في الميزان أيضا (٢/ ٥٨١) في ترجمة عبدالرحمن بن غزوان قراد: سئل أحمد بن صالح عن حديثه هذا فقال: هذا حديث موضوع، وقال أبو أحمد الحاكم: روى عن الليث حديثا منكرا يعني هذا الحديث، وقال ابن حبان: كان يخطئ، يتخالج في القلب منه لروايته عن الليث، عن مالك، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قصة المماليك، وقال الحافظ ابن حجر في " مقدمة فتح الباري ": أخطأ في سنده، وإنما رواه عن الليث، عن زياد بن عجلان، عن زياد مولى ابن عباس مرسلا، بينه الدارقطني في غرائب مالك، والحاكم أبو أحمد في " الكنى " وغير واحد. وقال الخليلي: قراد قديم، ينفرد عن الليث بحديث لا يتابع عليه يعني هذا الحديث، وضعفه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند، أما المنذري فقد قال في الترغيب: إسناد أحمد والترمذي متصلان ورواتهما ثقات عبد الرحمن هذا يكنى أبا نوح ثقة احتج به البخاري وبقية رجال أحمد ثقات احتج بهم البخاري ومسلم، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب (٢٢٩٠) و(٣٦٠٦).

فيقول: لم قتلته؟ فيقول: قتلته لتكون العزة لك، فيقول: فإنها لي، ويجيء الرجل آخذًا بيد الرجل، فيقول: أي رب، إن هذا قتلني، فيقول الله: لم قتلته؟ فيقول: لتكون العزة لفلان، فيقول: إنها ليست لفلان، فيبوء بإثمه)[١].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: (يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دمًا، فيقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟ حتى يدنيه من العرش)[٢].

ولعظم أمر الدماء فإنها تكون أول شيء يقضى فيه بين العباد.

فقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: "أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء).

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٩٧): "وفي الحديث عظم أمر الدم، فإن البداءة إنما تكون بالأهم، والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة وتفويت

---

(١) أخرجه النسائى (٧/ ٨٤، رقم ٣٩٩٧)، والطبرانى (١٠/ ٩٦، رقم ١٠٠٧٥)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/ ١٤٧)، والبيهقى في الكبرى (٨/ ١٩١، رقم ١٦٥٧٩)، وفى الشعب (٤/ ٣٤١، رقم ٥٣٢٨) والحديث صححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٦٩٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/ ٥٥٣): إسناده صحيح، وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٨٧٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٢٢)، والحميدي في مسنده (١ / ٢٢٨ رقم ٤٨٨)، والترمذى (٥/ ٢٤٠، رقم ٣٠٢٩)، والنسائى (٧/ ٨٧، رقم ٤٠٠٥)، وابن ماجه (٢/ ٨٧٤، رقم ٢٦٢١)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (ص١٣٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢ / ل ١٧٠ / ب)، والضياء (١٠/ ٤٧، رقم ٤٢) والحديث حسنه الترمذي، وقال عنه المنذري والهيثمي: رواته رواة الصحيح، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٨٠٣١)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٥٨٤)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٥/ ٤١٢): حديث صحيح، وهذا إسناد حسن.

المصلحة، وإعلام البنية الإنسانية غاية في ذلك".اهـ.

ولا تعارض بين هذا الحديث وحديث أن أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة، قال ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٩٦): "ولا يعارض هذا حديث أبي هريرة رفعه: "إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته " الحديث أخرجه أصحاب السنن، لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق.

والثاني: فيما يتعلق بعبادة الخالق. وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين، ولفظه: "أول ما يحاسب العبد عليه صلاته، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء".اهـ.

المطلب الثالث: الاقتصاص للبهائم بعضها من بعض

" يقضي الله بين خلقه: الجن والإنس والبهائم، وإنه ليقيد يومئذ الجماء من القرناء، حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى قال الله: كونوا ترابًا، فعندذلك يقول الكافر: (يا ليتني كنت ترابًا)} [النبأ: ٤٠].

هذا حديث أخرجه ابن جرير في تفسيره بإسناده إلى أبي هريرة يرفعه، وفي رواية أخرى أخرجها ابن جرير أيضًا عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: "إن الله يحشر الخلق كلهم، كل دابة وطائر وإنسان، يقول للبهائم والطير: كونوا ترابًا، فعند ذلك يقول الكافر: (يا ليتني كنت ترابًا)} [النبأ: ٤٠]".

وعن ابن جرير أيضًا عن عبد الله بن عمرو قال: (إذا كان يوم القيامة مد الأديم، وحشر الدواب والبهائم والوحش، ثم يحصل القصاص بين الدواب، يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فرغ من القصاص بين الدواب، قال لها: كوني ترابًا، قال فعند ذلك يقول الكافر: (يا ليتني كنت ترابًا)}

[النبأ: ٤٠])[1].

(١) قال العلامة الألباني في الصحيحة (١٩٦٦): أخرجه ابن جرير في " تفسيره " (٣٠ / ١٧ - ١٨) من طريق إسماعيل بن رافع المدني عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة مرفوعا به. قلت: وهذا إسناد ضعيف، إسماعيل بن رافع المدني، قال الحافظ: "ضعيف الحفظ". والرجل الأنصاري لم أعرفه لكنه قد توبع فأخرجه ابن جرير من طريق جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: "إن الله يحشر الخلق كلهم، كل دابة وطائر وإنسان، يقول للبهائم والطير: كونوا ترابا، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتني كنت ترابا﴾". قلت: وهذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات رجال مسلم غير ابن ثور وهو محمد الصنعاني وهو وإن كان موقوفا فإنه شاهد قوي للمرفوع لأنه لا يقال من قبل الرأي. ويشهد له ما عند ابن جرير أيضا من طريق عوف عن أبي المغيرة عن عبد الله بن عمرو قال: إذا كان يوم القيامة مد الأديم وحشر الدواب والبهائم والوحش، ثم يحصل القصاص بين الدواب، يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فرغ من القصاص بين الدواب قال لها: كوني ترابا، قال: فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتني كنت ترابا﴾. قلت: وإسناده جيد، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي المغيرة هذا وهو القواس لا يسمى، قال الذهبي في الميزان: "لينه سليمان التيمي، وقال ابن المديني: لا أعلم أحدا روى عنه غير عوف". قلت: لكن قال ابن معين: إنه ثقة كما في " الجرح والتعديل " (٤ / ٢ / ٤٣٩) وذكره ابن حبان في " الثقات "، فثبت الإسناد، والحمد لله على توفيقه. وفي حشر البهائم والقصاص بينها أحاديث كثيرة، سأذكر ما وقفت عليه منها في الحديث الآتي: (يقتص الخلق بعضهم من بعض، حتى الجماء من القرناء، وحتى الذرة من الذرة) قال العلامة الألباني في الصحيحة (١٩٦٧): أخرجه أحمد (٢ / ٣٦٣): حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد عن واصل عن يحيى بن عقيل عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: فذكره. قلت: وهذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم. وواصل هو مولى أبي عيينة. وحماد هو ابن سلمة البصري. وعبد الصمد هو ابن عبد الوارث البصري. والحديث قال الهيثمي في " مجمع الزوائد " (١٠ / ٣٥٢) تبعا للمنذري في " الترغيب " (٤ / ٢٠١): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح". قلت: وأصله في " الصحيح " من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة =

=

بلفظ: "لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء". أخرجه مسلم (٧ / ١٨ - ١٩). والترمذي (٤ / ٢٩٢ بشرح التحفة) وأحمد (٢ / ٢٣٥ و٣٠١ و٤١١) من طرق عنه به. وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح". وفي لفظ لأحمد: "حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء تنطحها". وإسناده صحيح أيضا على شرط مسلم. وله طريق أخرى، فقال ابن لهيعة: عن دراج أبي السمح عن أي حجيرة عن أبي هريرة مرفوعا بلفظ: "ألا والذي نفسي بيده ليختصمن كل شيء يوم القيامة، حتى الشاتان فيما انتطحتا". أخرجه أحمد (٢ / ٢٩٠) بإسناد قال المنذري: "حسن". قلت: ولعله يعني لغيره، فإن ابن لهيعة سيء الحفظ وكذلك دراج أبو السمح. ورواه الطبراني في " الأوسط " بنحوه، قال الهيثمي: "و فيه جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف". وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في " البعث " عن أبي هريرة أيضا قال: "يحشر الخلائق كلهم يوم القيامة والبهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني ترابا فذلك حين يقول الكافر: *(يا ليتني كنت ترابا)* ": أورده السيوطي في " الدر المنثور " (٦ / ٣١٠) ولم يتكلم على إسناده كما هي عادته وهو عند ابن جرير (٣٠ / ١٧) قوي كما سبق قريبا وموضع الشاهد منه صحيح قطعا عنه مرفوعا للطرق السابقة، ولشواهده الآتية:

الأول: عن أبي سعيد الخدري مرفوعا مثل حديث أبي هريرة من الطريق الأخرى. أخرجه أحمد أيضا (٣ / ٢٩) عن ابن لهيعة أيضا حدثنا دراج عن أبي الهيثم عنه. وقد عرفت حال ابن لهيعة وشيخه آنفا.

الثاني: عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ كان جالسا، وشاتان تقترنان، فنطحت إحدهما الأخرى فأجهضتها، قال: فضحك رسول الله ﷺ فقيل له: ما يضحكك يا رسول الله ! قال: "عجبت لها، والذي نفسي بيده ليقادن لها يوم القيامة". أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣) عن ليث عن عبد الرحمن بن ثروان عن الهزيل بن شرحبيل عنه. وهذا إسناد جيد في الشواهد والمتابعات، رجاله ثقات رجال " الصحيح " غير ليث وهو ابن أبي سليم، ضعيف لاختلاطه ولكنه قد توبع، فرواه منذر الثوري عن أشياخ له (و في رواية لهم) عن أبي ذر مختصرا وفيه: "يا أبا ذر ! هل تدري فيم تنطحان ؟ قال: لا، قال: لكن الله يدري، وسيقضي بينهما". أخرجه أحمد أيضا (٥ / ١٦٢). قلت: وهذا إسناد صحيح عندي،

=

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء).

وأخرج أحمد في مسنده بإسناد رجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه

=

فإن رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين غير الأشياخ الذين لم يسموا وهم جمع من التابعين، يغتفر الجهل بحالهم لاجتماعهم على رواية هذا الحديث، ولا يخدج في ذلك قوله في الرواية الأولى: "أشياخ له " فإنه لا منافاة بين الروايتين لأن الأقل يدخل في الأكثر، وزيادة الثقة مقبولة، وقد خفيت هذه الرواية الأخرى على الهيثمي، فقال عقب الرواية المطولة والمختصرة:

" رواه كله أحمد والبزار بالرواية الأولى وكذلك الطبراني في " المعجم الأوسط " وفيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس (!) وبقية رجال أحمد رجال الصحيح غير شيخه ابن أبي عائشة وهو ثقة، ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح، وفيها راو لم يسم " !

الثالث: عن عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ قال: "إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة". أخرجه أحمد (١ / ٧٢) عن حجاج بن نصير حدثنا شعبة عن العوام بن مراجم - من بني قيس بن ثعلبة - عن أبي عثمان النهدي عنه. قلت: وهذا إسناد رجاله ثقات غير حجاج بن نصير وهو ضعيف كما في " التقريب".

الرابع: عن عبد الله بن أبي أوفى مرفوعا بلفظ: "إنه ليبلغ من عدل الله يوم القيامة حتى يقتص للجماء من ذات القرن". أخرجه الطبراني في " الأوسط " (٩٥٨٢) عن علي بن سنان أخبرنا بشر بن محمد الواسطي حدثنا عبد الله بن عمران الواسطي عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن أبي أوفى، وقال: "لم يروه عن عطاء إلا عبد الله بن عمران، ولا عنه إلا بشر بن محمد، تفرد به علي بن سنان". قال الهيثمي: "رواه الطبراني في " الأوسط "

وفيه من لم أعرفهم وعطاء بن السائب اختلط".

الخامس: عن ثوبان مرفوعا نحو الحديث الذي قبله. أخرجه الطبراني في " الكبير " (١٤٢١) وفيه زيد بن ربيعة وقد ضعفه جماعة، وقال ابن عدي: أرجو أن لا بأس به وبقية رجاله ثقات.

عن النبي ﷺ قال: "يقتص الخلق بعضهم من بعض حتى الجماء من القرناء، وحتى الذَّرة من الذَّرة". وفي المسند أيضًا عن أبي هريرة يرفعه: "ألا والذي نفسي بيده ليختصمن كل شيء يوم القيامة، حتى الشاتان فيما انتطحتا". وروى أحمد بإسناد صحيح عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنطحان، فقال: أبا ذر، هل تدري فيم تنطحان؟ قال: لا. قال: ولكن الله يدري، وسيقضي بينهما) وهذه الأحاديث مخرجه في الحاشية.

(تنبيه): كيف يقتص من البهائم وهي غير مكلفة؟ لقد أشكل على كثير من أهل العلم هذا الذي ذكره الرسول ﷺ من حشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض.

قال العلامة الألباني في الصحيحة (١٩٦٧): (فائدة) قال النووي في " شرح مسلم " تحت حديث الترجمة: "هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين وكما يعاد الأطفال والمجانين، ومن لم تبلغه دعوة. وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة، قال الله تعالى: (و إذا الوحوش حشرت) وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع، وجب حمله على ظاهره، قال العلماء: وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب. وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة، و(الجلحاء) بالمد هي الجماء التي لا قرن لها. والله أعلم " وذكر نحوه ابن الملك في مبارق الأزهار (٢ / ٢٩٣) مختصرا. ونقل عنه العلامة الشيخ علي القاريء في المرقاة (٤ / ٧٦١) أنه قال: "فإن قيل: الشاة غير مكلفة، فكيف يقتص منها ؟ قلنا: إن الله تعالى فعال لما يريد ولا يسأل عما يفعل والغرض منه إعلام العباد أن الحقوق لا تضيع بل يقتص حق المظلوم من

الظالم". قال القاريء: "و هو وجه حسن، وتوجيه مستحسن، إلا أن التعبير عن الحكمة بـ (الغرض) وقع في غير موضعه. وجملة الأمر أن القضية دالة بطريق المبالغة على كمال العدالة بين كافة المكلفين، فإنه إذا كان هذا حال الحيوانات الخارجة عن التكليف، فكيف بذوي العقول من الوضيع والشريف، والقوي والضعيف ؟" قلت: ومن المؤسف أن ترد كل هذه الأحاديث من بعض علماء الكلام بمجرد الرأي، وأعجب منه أن يجنح إليه العلامة الألوسي ! فقال بعد أن ساق الحديث عن أبي هريرة من رواية مسلم ومن رواية أحمد بلفظ الترجمة عند تفسيره آية (و إذا الوحوش حشرت) في تفسيره روح المعاني (٩/ ٣٠٦): "ومال حجة الإسلام الغزالي وجماعة إلى أنه لا يحشر غير الثقلين لعدم كونه مكلفا ولا أهلا لكرامة بوجه، وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معول عليها يدل على حشر غيرهما من الوحوش، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحا لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام. وإلى هذا القول أميل ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول لأن لهم ما يصلح مستندا في الجملة. والله تعالى أعلم". قلت: كذا قال - عفا الله عنا وعنه - وهو منه غريب جدا لأنه على خلاف ما نعرفه عنه في كتابه المذكور، من سلوك الجادة في تفسير آيات الكتاب على نهج السلف، دون تأويل أو تعطيل، فما الذي حمله هنا على أن يفسر الحديث على خلاف ما يدل عليه ظاهره، وأن يحمله على كناية عن العدل التام، أليس هذا تكذيبا للحديث المصرح بأنه يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء، فيقول هو تبعا لعلماء الكلام: إنه كناية !... أي لا يقاد للشاة الجماء. وهذا كله يقال لو وقفنا بالنظر عند رواية مسلم المذكورة، أما إذا انتقلنا به إلى الروايات الأخرى كحديث الترجمة وحديث أبي ذر وغيره، فإنها قاطعة في أن القصاص المذكور هو حقيقة وليس كناية، ورحم الله الإمام

النووي، فقد أشار بقوله السابق: "و إذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره " قلت: أشار بهذا إلى رد التأويل المذكور وبمثل هذا التأويل أنكر الفلاسفة وكثير من علماء الكلام كالمعتزلة وغيرهم رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة وعلوه على عرشه ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة ومجيئه تعالى يوم القيامة. وغير ذلك من آيات الصفات وأحاديثها. وبالجملة، فالقول بحشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض هو الصواب الذي لا يجوز غيره، فلا جرم أن ذهب إليه الجمهور كما ذكر الألوسي نفسه في مكان آخر من " تفسيره " (٩ / ٢٨١)، وبه جزم الشوكاني في تفسير آية " التكوير من تفسيره فتح القدير، فقال (٥/ ٣٧٧): "الوحوش ما توحش من دواب البر، ومعنى (حشرت) بعثت، حتى يقتص بعضها من بعض، فيقتص للجماء من القرناء". وقد اغتر بكلمة الألوسي المتقدمة النافية لحشر الوحوش محرر " باب الفتاوي " في مجلة الوعي الإسلامي السنة الثانية، العدد ٨٩ ص ١٠٧ ، فنقلها عنه، مرتضيا لها معتمدا عليها، وذلك من شؤم التقليد وقلة التحقيق. والله المستعان وهو ولي التوفيق.

المطلب الرابع: متى يقتص للمؤمنين بعضهم من بعض

في صحيح البخاري (٢٤٤٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا خلص المؤمنون من النار، حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نقوا وهذِّبوا، أذن لهم بدخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده، لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا)، قال الحافظ في الفتح (٥ / ٩٦): قوله (بقنطرة) الذي يظهر أنها طرف الصراط مما يلي الجنة، ويحتمل أن تكون من غيره بين الصراط والجنة.

وقوله (فيتقاصون) بتشديد المهملة: يتفاعلون، من القصاص، والمراد به:

تتبع ما بينهم من المظالم، وإسقاط بعضها ببعض.

وقوله (حتى إذا نقوا) بضم النون، بعدها قاف، من التنقية، ووقع للمستملي هنا " تقصوا بفتح المثناة والقاف وتشديد المهملة، أي: أكملوا التقاص.

قوله (وهذبوا) أي: خلصوا من الآثام بمقاصصة بعضها ببعض.اهـ.

وقال علماء اللجنة الدائمة (٣/ ٤٦٣): إذا عبر المؤمنون عامة على الصراط أوقف منهم من كان عليه مظالم للمؤمنين بمكان بين الجنة والنار ومنعوا من دخول الجنة حتى يقضى للمظلوم ممن ظلمه فيؤخذ من حسنات الظالم ويعطى المظلوم، حتى إذا نقوا وطهروا أذن لهم بدخول الجنة، أما من لا مظلمة عليه لأحد فإن ظاهر هذا الحديث وغيره من الأحاديث الدالة على أن بعض المؤمنين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب فإنه لا يوقف.

وأما قوله تعالى: {وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا} فخبر منه تعالى عن الناس مسلمهم وكافرهم بأنه لا أحد منهم إلا سيرد جهنم، وذلك مرور كل منهم على الصراط المضروب على متن جهنم كالقنطرة مرورا متفاوتا في السرعة والبطء والنجاة من النار والسقوط فيها، فينجي الله المؤمنين من النار، ويدع فيها الكافرين، كما قال تعالى عقب هذه الآية {ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا} وقد أوجب سبحانه على نفسه هذا الجزاء وقضى به عليها قضاء مبرما، لا راد لقضائه تعالى ولا تبديل لحكمه[1].

(باب ذكر مباحث الولاء والبراء)

(باب تعريف الولاء والبراء)

الولاء في اللغة: جاء في لسان العرب: الموالاة - كما قال ابن الأعرابي -:

---

(١) القيامة الكبرى (ص٢٣٧).

أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له في أحدهما هوى فيواليه أو يحابيه. ووالى فلان فلانًا: إذا أحبه.

والمولى: اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو: الرب، والمالك، والسيد والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والعقيد، والصهر، والعبد، والمعتق، والمنعم عليه. ويلاحظ في هذه المعاني أنها تقوم على النصرة والمحبة[١].

والولاية - بالفتح - في النسب والنصرة والعتق.

والموالاة - بالضم - من والى القوم. قال الشافعي في قوله ﷺ: (من كنت مولاه فعلي مولاه)[٢] يعني بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ [محمد:١١].

والموالاة ضد المعاداة، والولي ضد العدو، قال تعالى: يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ

(١) لسان العرب لابن منظور (٣/ ٩٨٥ - ٩٨٦)، وانظر: القاموس المحيط (ص٢٩٤).

(٢) ورد من حديث زيد بن أرقم وسعد بن أبي وقاص وبريدة بن الحصيب وعلي بن أبي طالب وأبي أيوب الأنصاري والبراء بن عازب وعبد الله بن عباس وأنس بن مالك وأبي سعيد وأبي هريرة. وقد ضعف الحديث بعض أهل العلم كما نُقلَ عن البخاري وإبراهيم الحربي وطائفة من أهل العلم بالحديث أنهم طعنوا فيه وضعفوه، وقال ابن العربي في عارضة الأحوذي: ضعيف مطعون فيه، وصححه أخرون حتى أن الكتاني عده في نظم المتناثر (٢٤٩) متواتر ومن قبله السيوطي وممن صححه النووي كما في المنثورات، ونقل عن أحمد بن حنبل أنه حسنه، وقال الذهبي في السير هذا حديث حسن عال جدا ومتنه متواتر، وصححه ابن كثير في البداية والنهاية، وصححه ابن حجر في الفتح، وقال أيضا: هو حديث كثير الطرق جدا وقد استوعبها ابن عقدة في مؤلف مفرد وأكثر أسانيدها صحيح أو حسن، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٧٥٠)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٥٧، ٣٥٥، ٣٨١، ١٤٧٩).

أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا [مريم:٤٥].

قال ثعلب: كل من عبد شيئًا من دون الله فقد اتخذه وليًا. وقوله تعالى: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ} [البقرة:٢٥٧]. وليهم في نصرهم على عدوهم، وإظهار دينهم على دين مخالفيهم. وقيل: وليهم، أي: يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم.

والولي: القرب والدنو[١]. والموالاة: المتابعة.

والتولي: يكون بمعنى الإعراض، ويكون بمعنى الاتباع. قال تعالى: {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [محمد:٣٨]. أي: أن تعرضوا عن الإسلام.

وقوله تعالى: {وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:٥١].

معناه: من يتبعهم وينصرهم[٢].

وقال صاحب (المصباح المنير) الولي: فعيل بمعنى فاعل، من وليه إذا قام به، ومنه قوله تعالى: {الله ولي الذين ءامنوا} [البقرة:٢٥٧].

ويكون الولي: بمعنى مفعول، في حق المطيع، فيقال: المؤمن ولي الله. ووالاه موالاة وولاء: من باب (قاتل) أي تابعه[٣].

تعريف البراء في اللغة: قال ابن الأعرابي: بَرِئَ إذا تخلص، وبَرِئَ، إذا تنزه وتباعد، وبَرِئَ: إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى: {بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة:١] أي: إعذار وإنذار.

---

(١) لسان العرب (٣/ ٩٨٦).

(٢) لسان العرب (٣/ ٩٨٨).

(٣) المصباح المنير للفيومي (٢/ ٨٤١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما دعاه عمر إلى العمل فأبى قال عمر: (إن يوسف قد سأل العمل، فقال أبو هريرة: إن يوسف مني بريء وأنا منه براء)[١].

أي بريئ عن مساواته في الحكم وأن أقاس به، ولم يرد براءة الولاية والمحبة لأنه مأمور بالإيمان به، انتهى من (النهاية).

والبراء والبريء سواء.

وليلة البراء: ليلة يتبرأ القمر من الشمس، وهي أول ليلة من الشهر[٢].

تعريف الولاء بالمعنى الاصطلاحي: الولاية هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهرًا. قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} [البقرة:٢٥٧][٣].

فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم وإظهار الود لهم، بالأقوال والأفعال والنوايا.

تعريف البراء بالمعنى الاصطلاحي: هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار.

شرح تعريف الولاء والبراء: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الولاية: ضد العداوة: البغض والبعد... والولي: القريب يقال: هذا يلي هذا: أي يقرب منه، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر)[٤] أي: لأقرب رجل إلى الميت.

---

(١) ذكره ابن الأثير في كتابه النهاية في غريب الأحاديث (١/ ١١٢) تحقيق الزاوي والطناحي.
(٢) لسان العرب (١/ ١٨٣)، والقاموس المحيط (١/ ٨).
(٣) شرح الطحاوية (ص٤٠٣)، وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (ص٤٢٢).
(٤) أخرجه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معاديًا له. كما قال تعالى: {لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ} [الممتحنة:١]. فمن عادى أولياء الله فقد عاداه، ومن عاداه فقد حاربه ولهذا جاء في الحديث: ومن عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة)[١]........................

(١) جزء من حديث أخرجه بنحوه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(تنبيه) هذا الحديث وإن كان في صحيح البخاري ولكنه من الأحاديث القليلة جدا التي انتقدها بعض العلماء، والصواب مع الإمام البخاري كما سترى، والحديث قال عنه العراقي في المغني: انفرد به خالد القطواني وهو متكلم فيه، واستنكره الذهبي، فقال في ترجمة خالد بن مخلد في: (الميزان ٢/ ١٦٤ - ١٦٥) بعد أن ذكر اختلاف العلماء في درجته، وساق بعض مناكيره، موردا منها هذا الحديث: "فهذا حديث غريب جدا، ولولا هيبة الجامع الصحيح لعدوه في منكرات خالد ابن مخلد؛ وذلك لغرابة لفظه، ولأنه مما ينفرد به شريك وليس بالحافظ ولم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد، ولا خرجه من عدا البخاري..".اهـ. ونقل الحافظ ابن حجر بعض كلامه هذا في: (الفتح ١١/ ٣٤٩) وقال:".. وإطلاق أنه لم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد مردود.." ثم ذكر أن للحديث طرقا أخرى قال عنها: "يدل مجموعها على أن له أصلا". ثم ذكره عن: عائشة، وأبي أمامة، وعلي، وابن عباس، وأنس، وحذيفة، ومعاذ ابن جبل، ووهب بن منبه مقطوعا، وعزاها إلى مخرجيها، وتكلم عليها، وتعقب بعض أهل العلم في كلامهم على بعض طرقها.

وقد أمعن العلامة الألباني النظر في هذه الشواهد في الصحيحة (١٦٤٠): وزاد عليها شاهدا من حديث ميمونة رضي الله عنها ودرسها سندا ومتنا سوى حديث علي؛ لعدم وقوفه على سنده وأطال النفس في ذلك إلى أن قال: "وخلاصة القول: إن أكثر هذه الشواهد لا تصلح لتقوية الحديث بها؛ إما لشدة ضعف إسنادها، وإما لاختصارها، اللهم إلا حديث عائشة، وحديث أنس بطريقيه، فإنهما إذا ضما إلى إسناد حديث أبي هريرة اعتضد بمجموعها، وارتقى إلى درجة الصحيح إن شاء الله تعالى، وقد صححه من سبق ذكره من العلماء.اهـ.

=

....[1].

ومسمى الموالاة (لأعداء الله): يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة وذهاب الإسلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات[2].

ولما عقد الله الأخوة والمحبة والموالاة والنصرة بين المؤمنين، ونهى عن موالاة الكافرين كلهم من يهود ونصارى وملحدين ومشركين وغيرهم كان من الأصول المتفق عليها بين المسلمين: أنّ كل مؤمن موحّد تارك لجميع المكفرات الشرعية تجب محبته وموالاته ونصرته، وكل من كان بخلاف ذلك وجب التقرب إلى الله ببغضه ومعاداته، وجهاده باللسان واليد بحسب القدرة والإمكان.

وحيث إن الولاء والبراء تابعان للحب والبغض، فإن أصل الإيمان أن تحب في الله أنبياءه وأتباعهم، وتبغض في الله أعداءه وأعداء رسله[3].

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: من أحب في الله، وأبغض في الله ووالى

=

قلت الإمام البخاري رحمه الله هو إمام هذا الشأن وإليه فيه المنتهى وطريقة البخاري في صحيحه كما هو معلوم عند أهل الصنعة إن أخرج عن متكلم فيه، هي أن ينتقي ما يعلم أنه حفظه، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه، وقديما قالوا إذ قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام فرحم الله إمام أئمة الصنعة جبل الحفظ وإمام الدنيا ولي الله أبي عبد الله البخاري، وتدبر كلمة العلامة الألباني في الصحيحة (١٦٤٠) حيث قال: وقد أطال النفس فيه -أي ابن حجر-، وحق له ذلك، فإن حديثا يخرجه الإمام البخاري في "المسند الصحيح" ليس من السهل الطعن في صحته لمجرد ضعف في إسناده، لاحتمال أن يكون له شواهد تأخذ بعضده وتقويه.

(١) الفرقان لابن تيمية (ص٧).

(٢) الرسائل المفيدة للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ (ص٤٣).

(٣) الفتاوى السعدية للشيخ عبدالرحمن بن سعدي (١/ ٩٨).

في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا[1].

وإذا كان حبر هذه الأمة يذكر أن مؤاخاة الناس في زمانه قد أصبحت على أمر الدنيا وأن ذلك لا يجدي على أهله شيئًا، وهذا في القرن الذي هو خير القرون: فجدير بالمؤمن أن يعي ويعرف من يحب ومن يبغض، ومن يوالي ومن يعادي ثم يزن نفسه بميزان الكتاب والسنة ليرى أواقف هو في صفّ الشيطان وحزبه أم في صفّ عباد الرحمن وحزب الله الذين هم المفلحون، وما عداهم فأولئك هم الذين خسروا الدنيا والآخرة!

وإذا أصبحت المؤاخاة والمحبة على أمر الدنيا - كما قال الصحابي الجليل عبدالله بن عباس - فإن تلك المحبة والمؤاخاة لا تلبث أن تزول بزوال العرض الزائل وحينئذ لا يكون للأمة شوكة ومنعة أمام أعدائها.

وفي عصرنا الحاضر عصر المادة والدنيا قد أصبحت محبة الناس في الأغلب على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئًا. ولن تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا بالرجوع إلى الله والاجتماع على الحب فيه والبغض فيه والولاء له والبراء ممن أمرنا الله بالبراء منه، وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

(باب منزلة الولاء والبراء)

---

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٤٠٦)، والعدني في الإيمان (٦٣)، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٨٧) وقال: وأخرج ابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ثم ذكره بنحوه... وفيه الليث بن أبي سليم قال عنه ابن حجر في تقريب التهذيب (٢/ ٤٨): صدوق اختلط جدًّا ولم يتميز حديثه.

إن الولاء والبراء شرط في الإيمان، كما قال سبحانه: {تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [المائدة:٨٣ - ٨٤].

يقول ابن تيمية عن هذه الآية: فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط، وجد المشروط بحرف (لو) التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط، فقال: وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب، ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء، ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه[(١)].

والولاء والبراء أوثق عرى الإيمان، كما قال ﷺ: (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله)[(٢)].

(١) الإيمان (ص١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٤١ و١٣/ ٢٢٩)، وفي الإيمان (١١٠)، وابن أبي الدنيا في الإخوان (رقم ١)، وابن نصر في الصلاة (٣٩٣)، والروياني (٣٩٩)، والبيهقي في الشعب (٤، ٩٠٦٦) / وابن عبد البر في التمهيد (١٧/ ٤٣١)، وأبو بكر الشافعي في فوائده (١٠٥٦)، والخطيب في تاريخه (١١/ ٣٥٤)، والشجري في أماليه (٢/ ١٣٣) وابن قدامة في المتحابين من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وللحديث شاهد عن ابن مسعود وآخر عن ابن عباس، والحديث أعله بليث بن أبي سليم المنذري في الترغيب (٤/ ٨٥)، والبوصيري في إتحاف الخيرة (٦/ ١٠٥)، والدمياطي في المتجر الرابح (٢٨٣)، والهيثمي في المجمع (١/ ٩٤)، وقال العلامة الألباني في صحيح الترغيب (٣٠٣٠): حسن لغيره، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٠/ ٤٨٨): حديث حسن بشواهده، وهذا إسناد ضعيف لضعف ليث، وهو ابن أبي سليم، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخن، وقال الحويني في النافلة تحت =

يقول الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب: فهل يتم الدين أو يقام علم الجهاد، أو علم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بالحب في دين الله والبغض في الله، والمعاداة في الله والموالاة في الله، ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة، ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء، لم يكن فرقانًا بين الحق والباطل، ولا بين المؤمنين والكفار، ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان[١].

ويقول الشيخ حمد بن عتيق: فأما معاداة الكفار والمشركين فاعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أوجب ذلك، وأكد إيجابه وحرّم موالاتهم وشدد فيها، حتى إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد، وتحريم ضده[٢].

وقد كان النبي ﷺ يبايع أصحابه على تحقيق هذا الأصل العظيم، فعن جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يبايع، فقلت: يا رسول الله أبسط يدك حتى أبايعك واشترط علي فأنت أعلم قال: (أبايعك على أن تعبد الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتناصح المسلمين، وتفارق المشركين)[٣].

وجاء من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: "قلت يا نبي الله ما أتيتك حتى حلفت أكثر من عددهن -لأصابع يديه- ألا آتيك، ولا آتي دينك، وإني

=

الحديث (١٥٦): الحديث صحيح لأجل هذه الشواهد. والله أعلم.

(١) رسالة أوثق عرى الإيمان (ص٣٨).

(٢) النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الاشراك (ضمن مجموعة التوحيد) (ص ٣٦٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٥)، والنسائي (٧/ ١٤٨)، وحسين المروزي في زياداته على زهد ابن المبارك (٩٨٧) والحديث صححه العلامة الألباني في صحيح سنن النسائي، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٣/ ٢٤٢): إسناده حسن.

كنت امرءًا لا أعقل شيئًا إلا ما علمني الله ورسوله، وإني أسألك بوجه الله ﷻ بما بعثك ربك إلينا؟ قال: بالإسلام، قال: قلت: وما آيات الإسلام؟ قال: أن تقول: أسلمت وجهي إلى الله ﷻ وتخليت، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، كل مسلم على مسلم محرم، أخوان نصيران، لا يقبل الله ﷻ من مشرك بعدما أسلم عملًا أو يفارق المشركين إلى المسلمين)[١].

وما أجمل تلك العبارة التي سطرها أبو الوفاء بن عقيل قائلًا: إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم في الموقف بلبيك، وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة، عاش ابن الراوندي والمعري عليهما لعائن الله ينظمون وينثرون كفرًا... وعاشوا سنين، وعظمت قبورهم، واشتريت تصانيفهم، وهذا يدل على برودة الدين في القلب[٢].

وأما معنى الولاء فهو المحبة والمودة والقرب، والبراء هو البغض والعداوة والبعد، والولاء والبراء من أعمال القلوب، لكن تظهر مقتضياتهما على اللسان والجوارح.

يقول الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: وأصل الموالاة الحب، وأصل المعاداة البغض، وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما

(١) أخرجه مطولًا ومختصرا عبد الرزاق (٢٠١١٥)، وأحمد (٥/ ٤)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٥٧)، والبخاري في خلق أفعال العباد (٤٠١)، وابن ماجه (٢٣٤، ٢٥٣٦)، والنسائي (٥/ ٨٢)، والحاكم (٤/ ٦٤٣) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (٣٦٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٣/ ٢٣٧): إسناده حسن.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٢٦٨).

يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنس والمعاونة، وكالجهاد والهجرة، ونحو ذلك من الأعمال(١).

والولاء لا يكون إلا لله تعالى ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين قال سبحانه: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} [المائدة:٥٥].

فالولاء للمؤمنين يكون بمحبتهم لإيمانهم، ونصرتهم، والنصح لهم، والدعاء لهم، والسلام عليهم، وزيارة مريضهم، وتشييع ميتهم، وإعانتهم، والرحمة بهم، وغير ذلك(٢).

والبراءة من الكفار تكون ببغضهم -دينًا- ومفارقتهم، وعدم الركون إليهم، أو الإعجاب بهم، والحذر من التشبه بهم، وتحقيق مخالفتهم شرعًا، وجهادهم بالمال واللسان والسنان، ونحو ذلك من مقتضيات العداوة في الله(٣).

٢- ولما كانت موالاة الكفار تقع على شعب متفاوتة، وصور مختلفة، لذا فإن الحكم فيها ليس حكمًا واحدًا، فإن من هذه الشعب والصور ما يوجب الردة، ونقض الإيمان بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من المعاصي(٤).

---

(١) الدرر السنية (٢/ ١٥٧).

(٢) تفصيل ذلك في رسالة أوثق عرى الإيمان لسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب (ص٤٩ - ٥١)، وكتاب الولاء والبراء لمحمد القحطاني، والموالاة والمعاداة لمحماس الجلعود.

(٣) نظر: تفصيل ذلك في رسالة أوثق عرى الإيمان لسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب (ص٤٩ - ٥١)، وكتاب الولاء والبراء لمحمد القحطاني، والموالاة والمعادة لمحماس الجلعود.

(٤) الدرر السنية (٧/ ١٥٥، ١٥٩، ٢٢٠)، ومجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٣/ ١٠، ٣١، ٣٨، ٥٧).

يقول الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: ولفظ الظلم والمعصية والفسوق والفجور والموالاة والمعاداة والركون والشرك ونحو ذلك من الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة، قد يراد بها مسماها المطلق وحقيقتها المطلقة، وقد يراد بها مطلق الحقيقة، والأول هو الأصل عند الأصوليين، والثاني لا يحمل الكلام عليه إلا بقرينة لفظية أو معنوية، وإنما يعرف ذلك بالبيان النبوي، وتفسير السنة[1].

وهذه الموالاة التي تناقض الإيمان، قد تكون اعتقادًا فحسب، وقد تظهر في أقوال وأعمال. والذي يهمنا في هذا المبحث الموالاة العملية، حيث سنورد مسألة مظاهرة الكفار على المسلمين كمثال لتلك الموالاة، وقبل أن نفصل الحديث عن تلك المسألة، فإننا نوضح - باختصار - جملة من الأمثلة على تلك الموالاة العملية، نظرًا لعظم خطرها، وسعة انتشارها، وكثرة الوقوع فيها، فنذكر منها ما يلي:

أ- من أقام ببلاد الكفر رغبةً واختيارًا لصحبتهم، فيرضى ما هم عليه من الدين، أو يمدحه، أو يرضيهم بعيب المسلمين، فهذا كافر عدو لله ورسوله، لقوله تعالى: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ} [ال عمران:٢٨][2].

يقول ابن رشد: فإذا وجب بالكتاب والسنة وإجماع الأمة على من أسلم ببلد الحرب أن يهاجر، ويلحق بدار المسلمين ولا يثوي بين المشركين، ويقيم بين أظهرهم لئلا تجري عليه أحكامهم، فكيف يباح لأحد الدخول إلى بلادهم

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٣/ ٧).
(٢) الدفاع عن أهل السنة والاتباع لحمد بن عتيق (ص١٢)، والدرر السنية (٧/ ٢٠٢).

حيث تجري علينا أحكامهم في تجارة أو غيرها، وقد كره مالك رحمه الله تعالى أن يسكن أحد ببلد يسب فيه السلف فكيف ببلد يكفر فيه بالرحمن، وتعبد فيه من دونه الأوثان، ولا تستقر نفس أحد على هذا إلا وهو مسلم سوء، مريض الإيمان[١].

ومما حرره ابن حزم في هذه المسألة قوله: قد علمنا أن من خرج عن دار الإسلام إلى دار الحرب فقد أَبِقَ عن الله تعالى، وعن إمام المسلمين وجماعتهم، ويبين هذا حديثه ﷺ أنه بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين[٢] وهو عليه السلام لا يبرأ إلا من كافر، قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} [التوبة:٧١].

قال أبو محمد: فصح بهذا أن من لحق بدار الكفر والحرب مختارًا محاربًا لمن يليه من المسلمين، فهو بهذا الفعل مرتد له أحكام المرتد كلها من وجوب

---

(١) مقدمات ابن راشد (٢/ ٦١٢، ٦١٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذى (١٦٠٤)، والطبرانى (٢/ ٣٠٣)، والبيهقى (٨/ ١٣١)، وابن حزم في المحلى (١٠/ ٣٦٩) والحديث قال عنه الحافظ في التلخيص (٤/ ١١٩، رقم ١٩٠٤): صحح البخاري، وأبو حاتم، وأبو داود، والترمذي، والدارقطني إرساله.اهـ. وكذا قال العلامة الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (١٠٥)، أما العلامة الألباني فصححه في الإرواء (١٢٠٧) بشواهده، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٤/ ٢٨١): إسناده صحيح. وقد اختلف في وصله وإرساله، فوصله أبو معاوية -وهو محمد بن خازم الضرير، وحفص بن غياث والحجاج بن أرطاة، وأرسله آخرون، وقد صحح الوصل ابن القطان الفاسي في "بيان الوهم والإيهام" ٥/ ٤٢١، وابن دقيق العيد في "الإمام" فيما نقله عنه ابن الملقن في "البدر المنير" ٩/ ١٦٤، وصحح الإرسال البخاري كما في "العلل الكبير" للترمذي ٢/ ٦٨٦، والترمذي عقب الرواية (١٦٩٧) من "جامعه"، وأبو حاتم الرازي كما في "العلل" لابنه ١/ ٣١٤، والدارقطني في "العلل" ٤/ ورقة ٨٨.

القتل عليه، متى قدر عليه، ومن إباحة ماله، وانفساخ نكاحه وغير ذلك لأن رسول الله ﷺ لم يبرأ من مسلم. وأما من فرّ إلى أرض الحرب لظلم خافه، ولم يحارب المسلمين، ولا أعانهم عليه، ولم يجد في المسلمين من يجيره فهذا لا شيء عليه؛ لأنه مضطر مكره[١].

ويقول في موضع آخر: من لحق بأرض الشرك بغير ضرورة فهو محارب، هذا أقل أحواله إن سلم من الردة بنفس فراقه جماعة الإسلام، وانحيازه إلى أرض الشرك[٢].

ويقول ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا} [النساء:٩٧]: هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حرامًا بالإجماع[٣].

ولما سئل أحمد بن يحيى الونشريسي عن قوم من الأندلسيين هاجروا من بلادهم الأندلس - وقد كانت دار شرك - إلى دار الإسلام في بلاد المغرب ثم ندموا على تلك الهجرة، وسخطوا وصرحوا بذم دار الإسلام، ومدح دار الكفر وأهله... فكتب رَحِمَهُ اللَّهُ جوابًا مبسوطًا عن هذه النازلة، بعنوان: (أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من

---

(١) المحلى (١٣/ ١٣٨، ١٣٩).
(٢) المحلى (١٣/ ٣١).
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥١٤.

العقوبات والزواجر)[1] فأورد النصوص الشرعية في تحريم الموالاة الكفرية، ووجوب الهجرة إلى دار الإسلام ثم قال: وتكرار الآيات في هذا المعنى وجريها على نسق وتيرة واحدة مؤكد للتحريم، ورافع للاحتمال المتطرق إليه، فإن المعنى إذا نُصّ عليه وأُكّد بالتكرار فقد ارتفع الاحتمال لا شك، فتتعاضد هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والاجتماعات القطعية على هذا النهي، فلا تجد في تحريم هذه الإقامة، وهذه الموالاة الكفرانية مخالفًا من أهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فهو تحريم مقطوع به من الدين... ومن خالف الآن في ذلك أو رام الخلاف من المقيمين معهم والراكنين إليهم، فجوز هذه الإقامة واستخفّ أمرها واستسهل حكمها، فهو مارق من الدين، ومفارق لجماعة المسلمين، ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم، ومسبوق بالإجماع الذي لا سبيل إلى مخالفته وخرق سبيله[2].

وجاء في آخر فتواه، قوله للسائل: وما ذكرت عن هؤلاء المهاجرين من قبيح الكلام وسبّ دار الإسلام، وتمني الرجوع إلى دار الشرك والأصنام، وغير ذلك من الفواحش المنكرة التي لا تصدر إلا من اللئام، يوجب لهم خزي الدنيا والآخرة وينزلهم أسوأ المنازل، والواجب على من مكنه الله في الأرض ويسره لليسرى أن يقبض على هؤلاء وأن يرهقهم العقوبة الشديدة، والتنكيل المبرح ضربًا وسجنًا حتى لا يتعدوا حدود الله؛ لأن فتنة هؤلاء أشد ضررًا من فتنة الجوع والخوف ونهب الأنفس والأموال، وذلك أن من هلك هنالك فإلى رحمة

---

(١) المعيار المعرب ٢/ ١١٩ – ١٣٥.

(٢) المعيار المعرب ٢/ ١٢٣، ١٢٤=باختصار.

الله تعالى وكريم عفوه، ومن هلك دينه فإلى لعنة الله وعظيم سخطه، فإن محبة الموالاة الشركية، والمساكنة النصرانية والعزم على رفض الهجرة والركوب إلى الكفار، والرضى بدفع الجزية إليهم، ونبذ العزة الإسلامية، والطاعة الإمامية، والبيعة السلطانية، وظهور السلطان النصراني عليها وإذلاله إياها فواحش عظيمة مهلكة قاصمة للظهر يكاد أن تكون كفرًا والعياذ بالله[١].

ويقول الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: الإقامة ببلد يعلو فيها الشرك والكفر، ويظهر الرفض، ودين الإفرنج ونحوهم من المعطلة للربوبية والإلهية، وترفع فيها شعائرهم، ويهدم الإسلام والتوحيد، ويعطل التسبيح والتكبير والتحميد، وتقلع قواعد الملة والإيمان، ويحكم بينهم بحكم الإفرنج واليونان، ويشتم السابقون من أهل بدر وبيعة الرضوان، فالإقامة بين أظهرهم والحالة هذه لا تصدر عن قلب باشره حقيقة الإسلام والإيمان والدين... بل لا يصدر عن قلبٍ رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا، فإن الرضى بهذه الأصول الثلاثة قطب الدين، وعليه تدور حقائق العلم واليقين، وفي قصة إسلام جرير بن عبدالله أنه قال يا رسول الله بايعني واشترط، فقال الرسول ﷺ: (تعبدالله ولا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وأن تفارق المشركين)[٢] أخرجه أبو عبدالرحمن النسائي، وفيه إلحاق مفارقة المشركين بأركان الإسلام ودعائمه العظام.

ب- من أطاع الكفار في التشريع والتحليل والتحريم، فأظهر الموافقة في

---

(١) المعيار المعرب (٢/ ١٣٢)، وانظر ما كتبه الونشريسي من مفاسد الإقامة في ديار الكفر في كتابه المعيار (٢/ ١٣٧ - ١٤١).

(٢) تقدم تخريجه قريبا.

ذلك، فهو كافر وخارج عن الملة، وسنورد بعض النصوص القرآنية في هذا الشأن:

يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [ال عمران:١٠٠].

ومما قاله أبو السعود في تفسير هذه الآية: وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للمبالغة في التحذير عن طاعتهم وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية، فإنه في قوة أن يقال: لا تطيعوا فريقًا...[(١)].

وتأمل قوله تعالى: {إِن تُطِيعُواْ.. } فإن هذا الفعل جاء مطلقًا، فحذف المتعلق المعمول فيه، ليفيد تعميم المعنى[(٢)]، فالآية الكريمة تحذر أيّما تحذير عن طاعة أهل الكتاب - فضلًا عن غيرهم من أصناف الكفار - في جميع الأحوال وسائر شؤون الحياة.

ويقول ﷻ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ} [ال عمران:١٤٩].

يقول الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب: عند هذه الآية: أخبر تعالى أن المؤمنين إن أطاعوا الكفار فلا بد أن يردوهم على أعقابهم عن الإسلام، فإنهم لا يقنعون منهم بدون الكفر، وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك صاروا من الخاسرين في الدنيا والآخرة، ولم يرخص في موافقهم وطاعتهم خوفًا منهم. وهذا هو الواقع فإنهم لا يقتنعون ممن وافقهم إلا بشهادة أنهم على حقٍّ وإظهار

(١) تفسير أبي السعود (١/ ٥٢٣).
(٢) انظر توضيح هذه النكته في كتاب القواعد الحسان لتفسير القرآن لعبدالرحمن السعدي (ص٤٦ - ٥١).

العداوة والبغضاء للمسلمين[١].

ويقول سبحانه وتعالى: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٢١].

فصرح تعالى بأنهم مشركون في طاعة أولئك الكفار، حينما وافقوهم في تحليل أو تحريم[٢].

وقال تبارك وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ [محمد: ٢٥، ٢٦].

فهذا النوع من الموالاة كان سببًا في ردة أولئك القوم[٣]، ولذا يقول ابن حزم: فجعلهم مرتدين كفارًا بعد علمهم الحق، وبعد أن تبيّن لهم الهدى بقولهم للكفار ما قالوا فقط، وأخبرنا تعالى أنه يعرف إسرارهم[٤].

ويقول القاسمي في (تفسيره): ذلك إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم، بِأَنَّهُمْ أي: لسبب أنهم قَالُوا أي: المنافقون الذين كرهوا ما نزل الله أي: اليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ أي بعض أموركم، أو ما تأمرون به... كما أوضح ذلك قوله تعالى: {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ

(١) الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك (ص٣٣).

(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٤/ ٨٣).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨/ ١٩٣).

(٤) الفصل (٣/ ٢٦٢).

مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ} [الحشر: ١١][١].

فتلك الآيات الكريمات قد قررت أن بعضًا من الطاعة لأولئك الكفار هي ردة عن دين الإسلام، كموافقتهم في عداوة الرسول ﷺ، أو المظاهرة على محمد ﷺ كما جاء مفصلًا في كتب التفسير[٢].

ولذا عاقبهم الله تعالى بحبوط الأعمال، كما جاء في الآيات التالية: فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ [محمد: ٢٧، ٢٨]

ومما سطره يراع الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب - رحمهم الله - عند قوله تعالى: {ذلك بأنهم قالوا... الآية: أخبر تعالى أن سبب ما جرى عليهم من الردة وتسويل الشيطان والإملاء لهم هو قولهم للذين كرهوا ما نزل الله، سنطيعكم في بعض الأمر فإذا كان من وَعَدَ المشركين الكارهين لما نزل الله بطاعتهم في بعض الأمر كافرًا، وإن لم يفعل ما وعدهم به، فكيف بمن وافق المشركين وأظهر أنهم على هدى[٣][٤].

(باب عقيدة أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: على المؤمن أن يعادي في الله ويوالي في الله، فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه -وإن ظلمه. فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية.

---

(١) تفسير القاسمي (١٥/ ٥٦).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٧/ ٤٠٩)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٣٩)، وتفسير النسفي (٥/ ٥١٢).

(٣) الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك (٥٠، ٥١).

(٤) نواقض الإيمان القولية والعملية لعبد(ص٣٥٨).

قال تعالى: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحجرات:٩].

(فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغي، وأمر بالإصلاح بينهم، فليتدبر المؤمن: أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك. فإن الله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام والثواب لأوليائه والإهانة والعقاب لأعدائه.

(وإذا اجتمع في الرجل الواحد: خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كاللص تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة، وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم)[١].

ولمّا كان الولاء والبراء مبنيين على قاعدة الحب والبغض... فإن الناس في نظر أهل السنة والجماعة - بحسب الحب والبغض والولاء والبراء - ثلاثة أصناف:

الأول: من يحب جملة. وهو من آمن بالله ورسوله، وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علمًا وعملًا واعتقادًا. وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله، وانقاد لأوامره وانتهى عما نهى الله عنه، وأحب في الله، ووالى في الله وأبغض في الله،

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٠٨ - ٢٠٩).

وعادى في الله، وقدم قول رسول الله ﷺ على قول كل أحد كائنًا من كان[١]

الثاني: من يحب من وجه ويبغض من وجه، فهو المسلم الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، فيحب ويوالى على قدر ما معه من الخير، ويبغض ويعادى على قدر ما معه من الشر ومن لم يتسع قلبه لهذا كان ما يفسد أكثر مما يصلح.. وإذا أردت الدليل على ذلك فهذا عبد الله بن حمار[٢] وهو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ كان يشرب الخمر، فأتي به إلى رسول الله ﷺ فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ (لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله)[٣] مع أنه ﷺ لعن الخمر وشاربها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه[٤].

الثالث: من يبغض جملة وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولم يؤمن بالقدر خيره وشره، وأنه كله بقضاء الله وقدره وأنكر البعث بعد الموت، وترك أحد أركان الإسلام الخمسة، أو أشرك بالله في عبادته أحدًا من الأنبياء والأولياء والصالحين، وصرف لهم نوعًا من أنواع العبادة كالحب

(١) إرشاد الطالب لابن سحمان (ص١٣)

(٢) عبد الله بن حمار هكذا أورده ابن سحمان والموجودة في (صحيح البخاري) (١٢/ ٧٥) أنه عبد الله، كان يلقب حمارًا. وقال ابن حجر: كان يهدي إلى النبي ﷺ ويضحكه في كلامه. انظر الإصابة (٤/ ٢٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

(٤) روي من حديث ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وأنس رضي الله عنهم جميعا، والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٧٢٥٣)، والهيتمي في الزواجر (٢/ ١٥٧)، وصححه أيضا العلامة ابن باز في مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٥)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٨٣٩)، وفي صحيح الترغيب (٢٣٥٧)، وحسنه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٥٩)، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٤/ ٤٦٩)، وصححه الشيخ مشهور في تحقيق إعلام الموقعين (٤/ ٤٩٨).

والدعاء، والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة، والذبح والنذر والإبانة والذل والخضوع والخشية والرغبة والرهبة والتعلق، أو ألحد في أسمائه وصفاته واتبع غير سبيل المؤمنين، وانتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة، وكذلك كل من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها[١].

فأهل السنة والجماعة -إذن- يوالون المؤمن المستقيم على دينه ولاء كاملًا ويحبونه وينصرونه نصرة كاملة، ويتبرؤون من الكفرة والملحدين والمشركين والمرتدين ويعادونهم عداوة وبغضًا كاملين. أما من خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا فيوالونه بحسب ما عنده من الإيمان، ويعادونه بحسب ما هو عليه من الشر.

وأهل السنة والجماعة يتبرؤون ممن حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب، قال تعالى: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رضي الله عنهمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة:٢٢].

ويمتثلون لنهيه تعالى في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ

---

(١) إرشاد الطالب (ص١٩).

وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة:٢٣ - ٢٤].

ويلخص الإمام ابن تيمية مذهب أهل السنة والجماعة فيقول: (الحمد والذم والحب والبغض والموالاة والمعادة إنما تكون بالأشياء التي أنزل الله بها سلطانه، وسلطانه كتابه، فمن كان مؤمنًا وجبت موالاته من أي صنف كان، ومن كان كافرًا وجبت معاداته من أي صنف كان.

قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: ٥٥ - ٥٦].

وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة: ٥١].

وقال: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} [التوبة:٧١].

ومن كان فيه إيمان وفيه فجور أعطي من الموالاة بحسب إيمانه، ومن البغض بحسب فجوره، ولا يخرج من الإيمان بالكلية بمجرد الذنوب والمعاصي كما يقول الخوارج والمعتزلة.

ولا يجعل الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون بمنزلة الفساق في الإيمان والدين والحب والبغض والموالاة والمعاداة

قال تعالى: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: ٩ -

١٠]. فجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبغي.

(... ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضًا موالاة الدين لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم بشهادة بعض، ويأخذ بعضهم العلم من بعض، ويتوارثون ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك)[1].

الولاء والبراء القلبي: ومن عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا الموضوع أن الولاء القلبي وكذلك العداوة يجب أن تكون كاملة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فأما حب القلب وبغضه، وإرادته وكراهته، فينبغي أن تكون كاملة جازمة، لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان، وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته، ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل.

ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله، وبغض الله ورسوله وهذا نوع من الهوى، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص: ٥٠][2].

موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب البدع والأهواء

يدخل في معتقد أهل السنة والجماعة البراءة من أرباب البدع والأهواء.

والبدعة: مأخوذة من الابتداع وهو الاختراع، وهو الشيء يحدث من غير

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (ص ١٠٨ -٢٠١).

(٢) شذرات البلاتين (١/ ٣٥٤) والأمر بالمعروف لابن تيمية.

أصل سبق ولا مثال احتذي ولا ألف مثله ومنه قولهم: ابتدع الله الخلق أي خلقهم ابتداء ومنه قوله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [البقرة: ١١٧].

وقوله: {قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ} [الأحقاف: ٩].

أي لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض.

وهذا الاسم يدخل فيما تخترعه القلوب، وفيما تنطق به الألسنة وفيما تفعله الجوارح[١].

قال ابن الجوزي: (البدعة عبارة عن فعل لم يكن فابتدع. والأغلب في المبتدعات أنها تصادم الشريعة بالمخالفة وتوجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان)[٢].

ولقائل أن يقول: ما شأننا الآن وأصحاب البدع لا سيما وأنت تتكلم عن ولاء الكفار والبراء منهم وموالاة المؤمنين ونصرتهم؟؟

والجواب على ذلك: أولًا: أن البدعة خطرها عظيم وكبير، والدليل على ذلك أنها تنقسم إلى رتب متفاوتة ما بين الكفر الصريح إلى الكبيرة والصغيرة، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي:

(البدعة تنقسم إلى رتب متفاوتة منها ما هو كفر صراح، كبدعة الجاهلية التي نبه عليها القرآن بقوله: وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [الأنعام: ١٣٦].

وقوله تعالى: {وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى

---

(١) كتاب الحوادث والبدع للطرطوشي (٣٨ - ٣٩).

(٢) تلبيس إبليس (ص٢٦).

أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: ١٣٩].

وقوله: {مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} [المائدة: ١٠٣].

وكذلك بدعة المنافقين حين اتخذوا الدين ذريعة لحفظ النفس والمال وما أشبه ذلك مما لا يشك أنه كفر صراح)[١].

وقضية التحليل والتحريم خصوصية لله ﷻ، فمن ادعى التحليل والتحريم فقد شرع ومن شرع فقد أله نفسه. وكما أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق فهو أيضًا صاحب الأمر والسلطان، قال تعالى: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} [النحل:١١٦].

فهذه البدعة الكفرية وأمثالها لأصحابها منا العداء والبغض والكره والجهاد بعد الإعذار والإنذار، والبراءة منهم لا تختلف عن البراءة من الكافر الأصلي. فقد قال ﷺ (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[٢].

قال البغوي: (وقد اتفق علماء السنة على معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم)[٣].

ونعود لرتب البدع كما ذكرها الشاطبي فقال: (ومن البدع ما هو من

---

(١) الاعتصام (٢/ ٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٣) شرح السنة (١/ ٢٢٧).

المعاصي التي ليست بكفر أو يختلف فيها هل هي كفر أم لا؟ كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة ومن أشبههم من الفرق الضالة.

ومنها ما هو معصية ويتفق على أنها ليست بكفر، كبدعة التبتل[١] والصيام قائمًا في الشمس والخصاء بقصد قطع شهوة الجماع.

ومنها: ما هو مكروه كالاجتماع للدعاء عشية عرفة، وذكر السلاطين في خطبة الجمعة على ما قاله ابن عبد السلام الشافعي وما أشبه ذلك[٢].

فأرباب هذه البدع يتبرأ منهم أهل السنة والجماعة.

ثانيًا: لخطورة البدع على الدين أورد هنا نماذج من أقوال سلف الأمة في التحذير من البدع وأصحابها. ومن ذلك ما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث يقول: (من كان مستنًا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم كانوا على الهدي المستقيم)[٣]. وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها[٤].

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: من أحدث في هذه الأمة شيئًا لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خان الدين، لأن الله تعالى يقول: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة: ٣].

---

(١) التبتل: هو الانقطاع عن الدنيا إلى الله. انظر مختار الصحاح (ص ٥٣).

(٢) الاعتصام (٢/ ٣٧).

(٣) شرح السنة للبغوي (١/ ٢١٤).

(٤) شرح السنة للبغوي (١/ ٢١٦).

فما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينًا[١].

وذكر الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن مفاسد البدع تنحصر في أمرين:

١- أنها مضادة للشارع، ومراغمة له، حيث نصب المبتدع نفسه منصب المستدرك على الشريعة لا منصب المكتفي بما حد له.

٢- أن كل بدعة -وإن قلت- تشريع زائد أو ناقص، أو تغيير للأصل الصحيح، وكل ذلك قد يكون على الانفراد، وقد يكون ملحقًا بما هو مشروع فيكون قادحًا في المشروع، ولو فعل أحد مثل هذا في نفس الشريعة عامدًا، لكفر، إذ الزيادة والنقصان فيها أو التغيير -قل أو كثر- كفر[٢].

ويعضد هذا النظر عموم الأدلة في ذم البدع ومنها: قوله ﷺ: (كل بدعة ضلالة)[٣] وقوله ﷺ: (من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا)[٤].

وقال أحد علماء السلف: (لا تجالسوا أصحاب الأهواء، أو قال أصحاب الخصومات فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون)[٥].

(باب العلاقة بين التشبه والولاء)

من نافلة القول: أن الشارع ما ترك خيرًا إلا دل الأمة عليه، وما ترك شرًا إلا حذر الأمة عنه. وحين أمر الشارع الحكيم بمخالفة الكفار -في الهدي الظاهر-

(١) الاعتصام (٢/ ٥٣).
(٢) الاعتصام (٢/ ٦١) بتصرف بسيط.
(٣) أخرجه مسلم (٨٦٧).
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).
(٥) شرح السنة للبغوي (١/ ٢٢٧)، والولاء والبراء في الإسلام (ص١٣٨).

فإن ذلك لحكم جليلة[١] منها:

١- إن المشاركة في الهدي الظاهر: تورث تناسبًا وتشاكلًا بين المتشابهين يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال.

وهذا أمر محسوس، فإن اللابس لثياب الجند المقاتلة -مثلًا- في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه مقتضيًا لذلك، إلا أن يمنعه من ذلك مانع.

٢- إن المخالفة في الهدي الظاهر: توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال. والانعطاف إلى أهل الهدي والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين.

وكلما كان القلب أتم حياة، وأعرف بالإسلام الذي هو الإسلام - لست أعني مجرد التوسم به ظاهرًا، أو باطنًا بمجرد الاعتقادات التقليدية من حيث الجملة - كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنًا أو ظاهرًا أتم. وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد.

٣- إن مشاركتهم في الهدي الظاهر: توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التمييز ظاهرًا بين المهديين المرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية.

هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلا مباحًا محضًا، لو تجرد عن مشابهتهم.

فأما إن كان من موجبات كفرهم فإنه يكون شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع ضلالتهم ومعاصيهم. وهذا أصل ينبغي

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١١ - ١٢)

أن يتفطن إليه(١).

مثال واحد من مشابهة اليهود والنصارى

(العيد)

العيد مظهر مميز للأمة، ومن هنا اخترته مثالًا واحدًا من أمثلة التشبه باليهود والنصارى، وقد وردت الأدلة الكثيرة المحرمة للتشبه بهم في هذا الشأن من الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار(٢).

أما الكتاب فقد قال تعالى: {وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} [الفرقان: ٧٢].

قال مجاهد في تفسيرها إنها أعياد المشركين وكذلك قال مثله الربيع بن أنس والقاضي أبو يعلى والضحاك(٣).

وإذا كان الله قد مدح ترك شهودها الذي هو مجرد الحضور برؤية أو سماع فكيف بالموافقة بما يزيد على ذلك من العمل الذي هو عمل الزور لا مجرد شهوده؟

ومن السنة: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (قدم رسول الله ﷺ ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: ما هذان اليومان؟ قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله ﷺ إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما، يوم الأضحى ويوم الفطر)(٤).

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٢).

(٢) أفاض شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الموضوع بما يكفي ويشفي في كتابه القيم اقتضاء الصراط المستقيم. ولذا فما أذكره هنا مقتبس من كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٨١).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٣)، وأبو داود (١١٣٤)، والنسائى فى الكبرى (١٧٥٥)، عبد بن حميد (١٣٩٢)، وأبو يعلى (٣٨٢٠)، والحاكم (١/ ٤٣٤)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٤٨٨) والفريابي في أحكام العيدين، والضياء في المختارة (١٩١١) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال النووي في الخلاصة (٢/ ٨١٩): رواه =

ووجه الدلالة: أن اليومين الجاهليين لم يقرهما رسول الله ﷺ ولا تركهم يلعبون فيهما على العادة بل قال إن الله قد أبدلكم بهما خيرا منهما... والإبدال من الشيء يقتضي ترك المبدل منه، إذ لا يجمع بين البدل والمبدل منه. وهذه العبارة لا تستعمل إلا فيها ترك اجتماعهما كقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا} [الكهف: ٥٠].

وقوله ﷺ خيرًا منهما يقتضي الاعتياض بما شرع لنا عما كان في الجاهلية.

والمحذور في أعياد أهل الكتابين التي نقرهم عليها أشد من المحذور في أعياد الجاهلية التي لا نقرهم عليها، فإن الأمة قد حذروا مشابهة اليهود والنصارى وأخبروا إن سيفعل قوم منهم هذا المحذور، بخلاف دين الجاهلية فإنه لا يعود إلا في آخر الدهر عند اخترام أنفس المؤمنين عمومًا، ولو لم يكن أشد منه فإنه مثله على ما لا يخفى، إذ الشر الذي له فاعل موجود يخاف على الناس منه أكثر من شر لا مقتضي له قوي[(١)]

أما الإجماع: فما هو معلوم من السير أن اليهود والنصارى والمجوس ما زالوا في أمصار المسلمين بالجزية يفعلون أعيادهم التي لهم، ومع ذلك لم يكن على عهد السلف من المسلمين من يشركهم في شيء من ذلك.

وكذلك ما فعله عمر بخصوص أهل الذمة وما اتفق عليه الصحابة والفقهاء

=

أبو داود والنسائي وغيرهما بأسانيد صحيحة، وقال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٨٥): إسناده على شرط مسلم، وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٤٤٢): إسناده صحيح، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٠٢١)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٨٤ - ١٨٦).

أن أهل الذمة لا يظهرون أعيادهم في دار الإسلام، وإذا كان هذا اتفاقهم فكيف يسوغ للمسلمين فعلها؟ أو ليس فعل المسلم لها أشد من فعل الكافر لها مظهرًا لها؟

وقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إياكم ورطانة الأعاجم، وأن تدخلوا على المشركين يوم عيدهم في كنائسهم فإن السخطة تتنزل عليهم) رواه أبو الشيخ الأصبهاني ورواه البيهقي بإسناد صحيح[1].

وأما الاعتبار: فالأعياد من جملة الشرع، والمناهج والمناسك التي قال الله فيها: لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨].

فلا فرق بين مشاركتهم في العيد وبين مشاركتهم في سائر المناهج، فإن الموافقة في جميع العيد: موافقة في الكفر، والموافقة في بعض فروعه: موافقة في بعض شعب الكفر، بل إن الأعياد من أخص ما تتميز به الشرائع، ومن أظهر ما لها من الشعائر، فالموافقة فيها موافقة في أخص شرائع الكفر وأظهر شعائره.

ولا ريب: أن الموافقة في هذا قد تنتهي إلى الكفر في الجملة[2].

ثم إن عيدهم من الدين الملعون هو وأهله، فموافقتهم فيه موافقة فيما يتميزون به من أسباب سخط الله وعقابه.

ومن أوجه الاعتبار أيضًا: (أنه إذا سوغ فعل القليل من ذلك أدى إلى فعل

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١/ ٤١١)، والبيهقي (٩/ ٢٣٤) (١٨٦٤٠) من طريق عطاء بن دينار، -وليس ابن يسار- عن عمر به وإسناده منقطع بين عطاء وعمر، والأثر قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم) (١/ ٥١١)، وابن القيم في أحكام أهل الذمة (٣/ ١٢٤٧): إسناده صحيح، وكذا قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٤١٧)، وابن كثير في مسند الفاروق (٢/ ٤٩٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢٠٨)

الكثير، ثم إذا اشتهر الشيء دخل فيه عوام الناس وتناسوا أصله حتى يصير عادة للناس بل عيدًا لهم، حتى يضاهى بعيد الله، بل قد يزيد عليه حتى يكاد أن يفضي إلى موت الإسلام وحياة الكفر)[١].

أما ما ينعكس على نفوسهم إذا تشبه بهم المسلمون في العيد خاصة فهو السرور والفرح لأن في ذلك رفعة لباطلهم وتنافيًا لمبدأ القهر والجزية والصغار الواقعين تحته.

وخلاصة المشابهة: أنها تفضي إلى كفر أو معصية غالبًا، أو تفضي إليهما في الجملة وليس في هذا المفضي مصلحة، وما أفضى إلى ذلك كان محرمًا فالمشابهة محرمة، والمقدمة الثانية لا ريب فيها، لأن استقرار الشريعة يدل على أن ما أفضى إلى الكفر غالبًا وما أفضى إليه على وجه خفي حرام وما أفضى إليه في الجملة ولا حاجة تدعو إليه حرام[٢].

وبعد أن يتمعن المسلم كل هذه الأحكام بخصوص العيد عليه أن يقيس بمقياس الكتاب والسنة: الأعياد المحدثة اليوم ومن يحدثونها ومن يهنئون بها الكفرة والملاحدة. مثل عيد الثورة! وعيد الجلوس! وعيد الميلاد! وعيد الأم، وعيد تحكيم القانون ونبذ الشريعة وعيد الوطن وعيد الجلاء إلى أخر هذه المسميات والأسماء الجاهلية التي ما أنزل بها من سلطان، والتي هي مضاهاة ومنازعة لشريعة الله وحكمه.

فواجب المسلم أن لا يقر بها ولا يهنئ أحدًا بها ويكتفي بالعيدين الإسلاميين الفطر والأضحى وفي الأيام الأخرى كالجمعة وغيرها ما يغنينا عن

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢٠٩).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢١٦).

استيراد شعائر وشعارات الكفر وأربابه.

صورة مشرقة من صور التميز في المجتمع الإسلامي الأول:

كلما عاد الحديث إلى الرعيل الأول كان له حلاوة خاصة تبعث في النفس الأمل والرجاء بالاقتضاء بأولئك العظام، وتحفز الهمم لتشمر عن ساعد الجد فتلحق بركب قافلة الإيمان، ودعاة الهدى والخير.

ولقد كانت الشروط العمرية التي وضعها الفاروق رضي الله عنه مثالًا رائعًا في تعامل المسلمين مع غيرهم وتميز أهل الذمة عن المسلمين مما يحفظ على المجتمع الإسلامي شخصيته المستقلة ويرعى لأولئك الذميين حقوقهم التي أمر بها هذا الدين الحنيف.

إن الحرص العمري على تميز المسلمين عن غير المسلمين هو عمق هذه العقيدة في نفسه والقيام بمسؤوليته كراع للأمة يعلم أنه مسؤول عنها كما في الحديث الصحيح (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[1] متفق عليه.

والذي جعلني أختار موضوع أهل الذمة في هذه النقطة بالذات هو أن وضع الذميين في الدولة الإسلامية وضع خاص غير وضع الكفار الحربيين أو المهادنين.

وحيث ينشأ ويعيش الذميون وسط المجتمع الإسلامي فإن هذا الشيء يجب أن يكون محاطًا بحصانة خاصة للمسلمين لئلا يؤدي احتكاكهم بالذميين إلى التشبه بهم وذوبان الشخصية الإسلامية التي أراد هذا الدين أن تكون فريدة متميزة في كل شيء.

ثم إن من صفات هذا الدين الحنيف العدل حتى مع الكفار، ولكن ما حدود

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣) ومسلم (١٨٢٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

هذا العدل وما سماته؟ خاصة وأنه قد أقر (الذميين) على العيش وسط المجتمع الإسلامي؟

الجواب: هو ما ورد في (الشروط العمرية) التي نصت على حماية المسلمين وكفلت للذميين حقوقهم على أن يكونوا هم أيضًا متميزين بزيهم وديانتهم حتى لا يلتبس المسلم بالذمي: وينتج من ذلك خليط لا يعرف له اتجاه محدد وهوية خاصة. وهذه الشروط - كما يقول عنها شيخ الإسلام ابن تيمية - منها: ما مقصوده التمييز عن المسلمين في الشعور واللباس، والأسماء، والمراكب والكلام ونحوها ليتميز المسلم من الكافر ولا يشبه أحدهما الآخر في الظاهر. ولم يرض عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والمسلمون بأصل التمييز، بل بالتمييز في عامة الهدي وذلك يقتضي: إجماع المسلمين على التميز عن الكفار ظاهرًا، وترك التشبه بهم، ولقد كان أمراء الهدى مثل العمرين وغيرهما يبالغون في تحقيق ذلك بما يتم به المقصود. ومنها: ما يعود بإخفاء منكرات دينهم وترك إظهارها، كمنعهم من إظهار الخمر، والناقوس والنيران في الأعياد. ومنها: ما يعود بإخفاء شعار دينهم كأصواتهم بكتابهم.

ومنها: ما يعود بترك إكرامهم وإلزامهم الصغار الذي شرعه الله[(١)]. وإليك نص هذه الشروط:

روى سفيان الثوري عن مسروق عن عبدالرحمن بن غنم قال: كتبت لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين صالح نصارى الشام، وشرط عليهم فيه (ألا يحدثوا في مدينتهم ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة، ولا قلاية[(٢)]، ولا صومعة راهب، ولا

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١٢٢ - ١٢٤).

(٢) القلاية: مبنى يبنيه النصارى كالمنارة ولا تكون إلا لواحد ينفرد فيها بنفسه ولا يكون =

يجددوا ما خرب، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم، ولا يؤوا جاسوسًا، ولا يكتموا غشًا للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يظهروا شركًا، ولا يمنعوا ذوي قراباتهم من الإسلام إن أرادوه وأن يوقروا المسلمين، وأن يقوموا لهم من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم، ولا يتكنوا بكناهم، ولا يركبوا سرجًا، ولا يتقلدوا سيفًا، ولا يبيعوا الخمور، وأن يجزوا مقادم رؤوسهم، وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا، وأن يشدوا الزنانير على أوساطهم ولا يظهروا صليبًا ولا شيئًا من كتبهم في شيء من طرق المسلمين، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضربًا خفيًا، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من محضرة المسلمين، ولا يخرجوا شعانين، ولا يرفعوا أصواتهم مع موتاهم، ولا يظهروا النيران معهم ولا يشتروا من الرقيق ما جرت فيه سهام المسلمين)[١].

فإن خالفوا شيئًا مما شرطوه فلا ذمة لهم، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق[٢] انتهى.

ولهذه الشروط طرق أخرى في رواياتها، ولكنها كلها تلتقي عند هذا المعنى، ولذلك عقب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على اختلاف تلك الروايات بقوله: وشهرة هذه

=

لها باب، بل فيها طاقة يتناول منها طعامه وشرابه وما يحتاج إليه. انظر أحكام أهل الذمة (٢/ ٦٦٨).

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٠٢)، قال الذهبي في المهذب (٧/ ٣٧٦٧): فيه يحيى بن عقبة قال أبو حاتم: يفتعل الحديث وقال النسائي وغيره: ليس بثقة، وقال الألباني في إرواء الغليل (٥/ ١٠٣): إسناده ضعيف جدا.

(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم (٢/ ٦٦١ - ٦٦٢).

الشروط تغني عن إسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكروها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها من بعده الخلفاء وعملوا بها[1].

سبحان الله!!!، ما هذا البون الشاسع بين تلك القمة وبين هذا الغثاء الذي يعيش اليوم على الأرض متميعًا متسكعًا وراء الكفار والملاحدة. ويحسب نفسه مسلمًا؟

أين تلك العزة والقوة والسلطان الرباني الذي أخذ به ذلك الجيل، وأين الضعف والاستخذاء والتبعية العمياء التي يعيشها (المسلمون) اليوم؟

ترى: هل المنتسبون اليوم للإسلام في درجة الذميين الذين طبقت عليهم هذه الشروط؟ هل "المسلمون" اليوم ذميون للكفار؟

إن الذي يظهر لي أنه حتى على هذا الافتراض الأخير فإن المسلمين اليوم أقل قدرًا من ذميي الأمس. ذميو الأمس: في صغار وفى ذلة وفي زي معين ومكان معين. نعم.

أما مسلمو اليوم ففي صغار وذلة واستكانة عن إسلامهم وتبعية للشرق الملحد والغرب الكافر، وإعجاب وانبهار بما عليه أعداء الإسلام، وسخرية واستهزاء بما كان عليه سلف هذه الأمة!

من هنا فهم أحط قدرًا عند الله - ما داموا بهذه الصفات - وأحقر من أن يهابوا وأصغر من أن يسمع لهم كلمة في المجتمع الدولي المعاصر.

فعلى المسلم الصادق. المسلم الواعي. المسلم المدرك لحقيقة إسلامه أن يعرف أين يضع قدمه ولمن يهب حبه وولاءه، وأن يعلم أن حب أعداء الله

---

(١) أحكام أهل الذمة لابن القيم (٢/ ٦٦٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٢).

وموالاتهم والتشبه بهم لا تلتقي مع صدق إيمانه وإنما يفعل ذلك من يزعم الإسلام زعمًا وبئس ذلك الزعم الكاذب.

وقد ذكر علماء الإسلام ما ينتقض به عهد الذمي حرصًا على حماية المسلمين من أي دخيل يستغل سماحة الإسلام فيغدر بالمسلمين. وهذه النواقض هي:-

١- الإعانة على قتال المسلمين، وقتل المسلم أو المسلمة.

٢- قطع الطريق عليهم.

٣- إيواء جواسيس المشركين أو التجسس للمشركين بأن يكتب لهم أسرار المسلمين.

٤- الزنا بالمسلمة أو إصابتها باسم النكاح.

٥- افتتان المسلم عن دينه.

٦- سب الله أو النبي ﷺ(١).

والأدلة على انتقاض عهد الذمي بسب الله أو كتابه أو دينه أو رسوله ووجوب قتله، وقتل المسلم إذا فعل ذلك كثيرة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين والاعتبار(٢).

أما الكتاب: فقوله تعالى: {وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ} [التوبة: ١٢].

وقوله تعالى: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية (٥ - ٢٦).

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول: والمراد بالاعتبار: القياس.

الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩].

وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا} [الأحزاب: ٥٧ - ٥٨].

ومن السنة: ما رواه الشعبي عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت فأبطل رسول الله ﷺ دمها)[1] رواه أبو داود وابن بطة في (سننه)، والحديث متصل لأن الشعبي رأى عليًا وكان على عهد علي قد ناهز العشرين سنة. ثم إن كان فيه إرسال -لأن الشعبي يبعد سماعه من علي- فهو حجة وفاقًا، لأن الشعبي عندهم صحيح المراسيل لا يعرفون له مرسلًا إلا صحيحًا[2].

وأيضًا ما رواه عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، فلما كانت ذات ليلة

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٦٢)، البيهقي (٧/ ٦٠ و٩/ ٢٠٠)، والضياء المقدسي في المختارة (٥٤٧) والحديث قال عنه شيخ الإسلام في الصارم المسلول (٢/ ١٥٦): هذا الحديث جيد فإن الشعبي رأى عليا وروى عنه حديث شراحة الهمدانية وكان على عهد علي قد ناهز العشرين سنة وهو كوفي فقد ثبت لقاؤه فيكون الحديث متصلا ثم إن كان فيه إرسال لأن الشعبي يبعد سماعه من علي فهو حجة وفاقا لأن الشعبي عندهم صحيح المراسيل لا يعرفون له مرسلا إلا صحيحا ثم هو من أعلم الناس بحديث علي وأعلمهم بثقات أصحابه، وقال العلامة الألباني في ضعيف أبي داود: ضعيف الإسناد، وصححه في الإرواء (٥/ ٩١)، وفي المشكاة (٣٤٨١)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٦/ ٤١٧): حسن لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات، لكن قال المنذري في "اختصار السنن" ٦/ ٢٠٠: ذكر بعضهم أن الشعبي سمع من علي بن أبي طالب، وقال غيره: إنه رآه.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص٦١).

جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه فأخذ المغول فوضعه في بطنها واتكأ عليها فقتلها، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فجمع الناس فقال: أنشد رجلًا فعل ما فعل لي عليه حق إلا قام " قال: فقام الأعمى يتخطى الناس وهو يتزلزل، حتى قعد بين يدي النبي ﷺ فقال يا رسول الله أنا صاحبها، كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي وأزجرها فلا تنزجر، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وكانت بي رفيقة، فلما كانت البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك فأخذت المغول فوضعته في بطنها واتكأت عليها حتى قتلها. فقال النبي ﷺ اشهدوا أن دمها هدر)[(١)].

ومن السنة أيضًا: ما احتج به الشافعي على أن الذمي إذا سب قتل وبرئت منه الذمة وهو قصة كعب بن الأشرف اليهودي. والحديث متفق عليه[(٢)].

وأما إجماع الصحابة: فقد نقل ذلك عنهم في قضايا متعددة مستفيضة ولم ينكرها أحد فصارت إجماعًا ومن ذلك: ما رفع إلى المهاجر بن أبي أمية، وكان أميرًا على اليمامة ونواحيها: أن امرأتين مغنيتين غنت أحدهما بشتم النبي ﷺ فقطع يدها ونزع ثنيتيها وغنت الأخرى بهجاء المسلمين فقطع يدها ونزع ثنيتيها، فكتب إليه أبو بكر: بلغني الذي سرت به في المرأة التي غنت وزمزمت بشتم النبي ﷺ فلولا ما قد سبقتني لأمرتك بقتلها، لأن حد الأنبياء ليس يشبه

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٦١)، والنسائي (٧/ ١٠٧)، والدارقطني (٣١٩٤) والحديث قال عنه الحافظ في بلوغ المرام: رواته ثقات، وصححه العلامة الألباني في الإرواء (٥/ ٩٢)، وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٦٠١)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٦/ ٤١٦): إسناده قوي من أجل عثمان الشحام، فهو صدوق لا بأس به وباقي رجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٣٧) ومسلم (١٨٠١).

الحدود، فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد فهو محارب غادر[١].

وفي عهد عمر رضي الله عنه: جاءه رجل من أهل الكتاب - حين دخل الشام - وهو مشجوج مضروب فغضب لذلك عمر وأمر بإحضار عوف بن مالك الأشجعي لأنه هو الذي فعل ذلك بالذمي فلما سأله عمر عن فعله هذا قال: يا أمير المؤمنين رأيت هذا يسوق بامرأة مسلمة على حمار فنخس بها لتصرع، فلم تصرع، فدفعها فصرعت فغشيها، وأكب عليها، فقال عمر ائتني بالمرأة فلتصدق على ما قلت فأتاها عوف، فذهب معه أبوها وزوجها فأخبر عمر بمثل قول عوف، فأمر عمر باليهودي فصلب وقال: ما على هذا صالحناكم ثم قال: يا أيها الناس اتقوا الله في ذمة محمد صلى الله عليه وسلم فمن فعل منهم مثل هذا فلا ذمة له[٢].

وأما الاعتبار: فمن وجوه[٣]:

أحدها: أن عيب ديننا وشتم نبينا مجاهدة لنا ومحاربة، فكان نقضًا للعهد كالمجاهدة والمحاربة بطريق الأولى.

الثاني: - إن مطلق العهد الذي بيننا وبينهم يقتضي أن يكفوا ويمسكوا عن إظهار الطعن في ديننا، وشتم رسولنا، كما يقتضي الإمساك عن دمائنا ومحاربتنا.

الثالث: إن الله فرض علينا تعزيز رسوله وتوقيره، وتعزيزه: نصره ومنعه،

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص ٢٠٠).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٠١) من حديث سويد بن غفلة، وقال: تابعه ابن أشوع عن الشعبى عن عوف بن مالك، وقال ابن الملقن في البدر المنير (٩/ ٢١٧): معروف، وقال ابن كثير في إرشاد الفقيه (٢/ ٣٤٤): إسناده صحيح، وقال الألباني في إرواء الغليل (٥/ ١٢٠): فقد قال البيهقي عقبه: "تابعه ابن أشوع عن الشعبي عن عوف بن مالك". قلت: فهو بهذه المتابعة حسن إن شاء الله تعالى.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٣٣).

وتوقيره: إجلاله وتعظيمه، وذلك يوجب صون عرضه بكل طريق. فلا يجوز أن نصالح أهل الذمة، وهم يسمعونا شتم نبينا وإظهار ذلك، لأنا إذا تركناهم على هذا تركنا الواجب علينا نحو رسول الله ﷺ[١].

(باب الفرق بين الموالاة وبين المعاملة بالحسنى)

أن الولاء شيء والمعاملة بالحسنى شيء آخر والأصل في هذا قوله تعالى: {لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة:٨].

وقد اختلف أهل العلم في تفسيرها فقال بعضهم أن المعني بها: الذين كانوا آمنوا بمكة ولم يهاجروا فأذن الله للمؤمنين ببرهم والإحسان إليهم وإلى هذا ذهب مجاهد.

وقال آخرون: عني بها من غير أهل مكة من لم يهاجر.

وقال آخرون: بل عني بها من مشركي مكة من لم يقاتل المؤمنين ولم يخرجوهم من ديارهم ونسخ الله ذلك بعد بالأمر بقتالهم. ويروى هذا عن قتادة[٢].

ورجح ابن جرير: أن أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم. لأن الله ﷻ عم بقوله: لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. جميع من كان ذلك صفته، فلم

(١) الولاء والبراء في الإسلام (ص٣٢٢).
(٢) تفسير الطبري (٢٨/ ٦٦).

يخصص به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ. لأن بر المؤمن أحدًا من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينهما ولا نسب غير محرم، ولا منهي عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح.

ويبين ذلك الخبر المروي عن ابن الزبير في قصة أسماء مع أمها[١].

والإسلام بفعله هذا - حتى في حالة الخصومة - يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك، وعدالة المعاملة انتظارًا لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضووا تحت لوائه الرفيع.

... إن الله أمر بصلة الأقارب الكفار والمشركين و... ذلك ليس موالاة لهم في شيء.

ونزيد هذا الأمر إيضاحًا بقصة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما مع أمها فقد روى البخاري ومسلم عن أسماء رضي الله عنها قالت: (قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال: نعم صلي أمك)[٢].

قال الخطابي: فيه - أي الحديث - أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة ويستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلمًا[٣].

قال ابن حجر: البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحابب والتوادد المنهي عنه في قوله تعالى: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ

---

(١) تفسير الطبري (٢٨/ ٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٢٠) ومسلم (١٠٠٣).

(٣) فتح الباري (٥/ ٢٣٤).

وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رضي الله عنهمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: ٢٢]. فإنها عامة في حق من قاتل ومن لم يقاتل[١].

وقال ابن القيم: الذي يقوم عليه الدليل وجوب الإنفاق، وإن اختلف الدينان لقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان: ١٤ -١٥].

وليس من الإحسان ولا من المعروف ترك أبيه وأمه في غاية الضرورة والفاقة وهو في غاية الغنى. وقد ذم الله قاطعي الرحم وعظم قطيعتها وأوجب حقها وإن كانت كافرة لقوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: ١].

وفي الحديث (لا يدخل الجنة قاطع رحم)[٢].

وصلة الرحم واجبة، وإن كانت لكافر، فله دينه وللواصل دينه وقياس النفقة على الميراث قياس فاسد، فإن الميراث مبناه على النصرة والموالاة بخلاف النفقة فإنها صلة ومواساة من حقوق القرابة.

وقد جعل الله للقرابة حقًا - وإن كانت كافرة - فالكفر لا يسقط حقوقها في الدنيا. قال تعالى: {وَاعْبُدُواْ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي

---

(١) فتح الباري (٥/ ٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٤) ومسلم (٢٥٥٦) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء: ٣٦].

وكل من ذكر في هذه الآية فحقه واجب وإن كان كافرًا، فما بال ذي القربى وحده يخرج من جملة من وصى الله بالإحسان إليه[١].

من هنا: يتضح لنا: أن الموالاة الممثلة في الحب والنصرة شيء. والنفقة والصلة والإحسان للأقارب الكفار شيء آخر. وسماحة الإسلام أيضًا تتضح في معاملة الأسرى والشيوخ والأطفال والنساء في الحرب. كما هو معلوم من صفحاته المشرقة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الأصل أنه لا يحرم على الناس من المعاملات التي يحتاجون إليها إلا ما دل الكتاب والسنة على تحريمه، كما لا يشرع لهم من العبادات التي يتقربون بها إلى الله إلا مما دل الكتاب والسنة على شرعه. إذ الدين ما شرعه الله، والحرام ما حرمه الله، بخلاف الذين ذمهم الله حيث حرموا من دون الله ما لم يحرمه الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله[٢].

وانطلاقًا من هذه القاعدة وبناء على النصوص الشرعية وسيرة رسول الله ﷺ وأصحابه الراشدين وأئمة المسلمين نقول: إن التعامل مع الكفار في البيع والشراء والهدية وخلاف ذلك لا يدخل في مسمى الموالاة، بل يباح للمسلم البيع والشراء مع الكفار فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يسأل عن معاملة التتار فيقول: (يجوز فيها ما يجوز في معاملة أمثالهم، ويحرم فيها ما يحرم في معاملة

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٤١٧ – ٤١٨).
(٢) السياسة الشرعية (ص ١٥٥).

أمثالهم، فيجوز أن يبتاع الرجل من مواشيهم وخيلهم ونحو ذلك كما يبتاع من مواشي الأعراب والتركمان والأكراد ويجوز أن يبيعهم من الطعام والثياب ونحو ذلك ما يبيعه لأمثالهم.

فأما إن باعهم أو باع غيرهم ما يعينهم به على المحرمات، كبيع الخيل والسلاح لمن يقاتل به قتالًا محرمًا فهذا لا يجوز قال تعالى: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢].

وإذا كان الذي معهم أو مع غيرهم، أموال يعرف أنهم غصبوها من معصوم فذلك لا يجوز اشتراؤها لمن يمتلكها لكن إذا اشتريت على طريق الاستنقاذ لتصرف في مصارفه الشرعية فتعاد إلى أصحابها - إن أمكن - وإلا صرفت في مصالح المسلمين: جاز هذا. وإذا علم أن في أموالهم شيئًا محرمًا لا تعرف عينه، فهذا لا تحرم معاملتهم فيه كما إذا علم أن في الأسواق ما هو مغصوب ومسروق ولم يعلم عينه)[١].

وقد روى البخاري في كتاب البيوع باب الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب عن عبدالرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: (كنا مع النبي ﷺ ثم جاء رجل مشرك مشعان[٢] طويل بغنم يسوقها فقال النبي ﷺ: (بيعًا أم عطية) أو قال: أم هبة؟ فقال: لا. بيع فاشترى منه شاة)[٣].

قال ابن بطال: معاملة الكفار جائزة إلا بيع ما يستعين به أهل الحرب على

(١) المسائل الماردينية (ص ١٣٢ - ١٣٣) تحقيق الشاويش الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩هـ
(٢) أي طويل مشعث الشعر.
(٣) أخرجه البخاري (٢٢١٦) ومسلم (٢٠٥٦).

المسلمين[١]

وثبت أيضًا عن النبي ﷺ (أنه أخذ من يهودي ثلاثين وسقًا من شعير ورهنه درعه)[٢] قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وإذا سافر الرجل إلى دار الحرب ليشتري منها جاز عندنا، كما دل عليه حديث تجارة أبي بكر رضي الله عنه في حياة رسول الله ﷺ إلى أرض الشام وهي حينذاك دار حرب وغير ذلك من الأحاديث. فأما بيع المسلم لهم في أعيادهم ما يستعينون به على عيدهم من الطعام واللباس والريحان ونحو ذلك، أو إهداء ذلك لهم: فهذا فيه نوع إعانة على إقامة عيدهم المحرم، وهو مبني على أصل وهو: أنه لا يجوز أن يبيع الكفار عنبًا أو عصيرًا يتخذونه خمرًا. وكذلك لا يجوز بيعهم سلاحًا يقاتلون به مسلمًا)[٣].

٢- الوقف عليهم أو وقفهم على المسلمين

قال ابن القيم: (أما ما وقفوه. فينظر فيه، فإن وقفوه على معين أو جهة يجوز للمسلم الوقف عليها كالصدقة على المساكين والفقراء وإصلاح الطرق والمصالح العامة، أو على أولادهم وأنسالهم وأعقابهم: فهذا الوقف صحيح. حكمه حكم وقف المسلمين على هذه الجهات لكن إذا شرط في استحقاق

(١) فتح الباري (٤/ ٤١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٢٤)، والطبراني (١١/ ٢٦٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٦)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن جرير في مسند ابن عباس (١/ ٢٣٩): اسناده صحيح، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٢٦): رجاله موثوقون، وقال أحمد شاكر في مسند أحمد (٤/ ٢٥٦): إسناده صحيح، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند (٦١٢). وروى البخاري (٢٥١٣) نحوه من حديث عائشة بلفظ: (اشترى رسول الله ﷺ من يهودي طعاما ورهنه درعه).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢٢٩).

الأولاد والأقارب بقاءهم على الكفر - فإن أسلموا لم يستحقوا شيئًا- لم يصح هذا الشرط، ولم يجز للحاكم أن يحكم بموجبه باتفاق الأمة لأنه مناقض لدين الإسلام، مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ.

أما وقف المسلم عليه: فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم، أو على أقاربه، وبني فلان ونحوه.

ولا يكون الكفر موجبًا ولا شرطًا في الاستحقاق ولا مانعًا منه - فلو وقف على ولده أو أبيه أو قرابته استحقوا ذلك وإن بقوا على كفرهم، فإن أسلموا فأولى بالاستحقاق.

وأما الوقف على كنائسهم وبيعهم ومواضع كفرهم التي يقيمون فيها شعار الكفر: فلا يصح من كافر ولا مسلم. فإن في ذلك أعظم الإعانة له على الكفر والمساعدة والتقوية عليه، وذلك مناف لدين الله)[(١)].

٣- عيادتهم وتهنئتهم:

روى البخاري في كتاب الجنائز عن أنس رضي الله عنه قال: (كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم. فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار)[(٢)].

وروى أيضًا: قصة أبي طالب حين حضرته الوفاة فزاره النبي ﷺ وعرض عليه الإسلام[(٣)].

---

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ٢٩٩ - ٣٠٢) وانظر مجموعة الرسائل والمسائل (١/ ٢٢٩)
(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٦).
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٤).

قال ابن بطال: إنما تشرع عيادته إذا رجي أن يجيب إلى الدخول في الإسلام، فأما إذا لم يطمع في ذلك فلا(١).

قال ابن حجر: والذي يظهر: أن ذلك يختلف باختلاف المقاصد، فقد يقع بعيادته مصلحة أخرى(٢).

(أما تهنئتهم بشعائر الكفر المختصة بهم فحرام بالاتفاق، وذلك مثل أن يهنأهم بأعيادهم فيقول: عيدك مبارك، أو تهنأ بهذا العيد، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثمًا عند الله، وأشد مقتًا من التهنئة بشرب الخمر وقتل النفس وارتكاب الفرج الحرام ونحوه.

وكثير مما لا قدر للدين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل. فمن هنأ عبدًا بمعصية، أو بدعة أو كفر فقد تعرض لمقت الله وسخطه، وقد كان أهل الورع من أهل العلم يتجنبون تهنئة الظلمة بالولايات، وتهنئة الجهال بمنصب القضاء والتدريس والافتاء تجنبًا لمقت الله وسقوطهم من عينه " وإن بلي الرجل فتعاطاه دفعًا لشر يتوقعه منهم فمشى إليهم ولم يقل إلا خيرًا ودعا لهم بالتوفيق والتسديد فلا بأس بذلك)(٣).

ويدخل في هذا أيضًا: تعظيمهم ومخاطبتهم بالسيد والمولى وذلك حرام قطعًا، ففي الحديث المرفوع (لا تقولوا للمنافق سيد فإنه إن يك سيدًا فقد اسخطتم ربكم عز وجل)(٤).

---

(١) فتح الباري (١٠/ ١١٩).
(٢) فتح الباري (١٠/ ١١٩).
(٣) أحكام أهل الذمة لابن القيم (١/ ٢٠٥ - ٢٠٦).
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٦)، وأبو داود (٤٩٧٧)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣٦٤)، =

ولا يجوز أيضًا تلقيبهم -كما يقول ابن القيم - بمعز الدولة أو فلان السديد، أو الرشيد أو الصالح ونحو ذلك. ومن تسمى بشيء من هذه الأسماء لم يجز للمسلم أن يدعوه به، بل إن كان نصرانيًا قال: يا نصراني، يا صليبي، ويقال لليهودي، يا يهودي.

ثم قال ابن القيم بالنص (.. وأما اليوم فقد وقفنا إلى زمان يصدرون في المجالس، ويقام لهم وتقبل أيديهم ويتحكمون في أرزاق الجند، والأموال السلطانية، ويكنون بأبي العلاء وأبي الفضل، وأبي الطيب، ويسمون حسنًا

=

والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٤٤)، والطحاوي في شرح المشكل (٥٩٨٧)، والبيهقي في الشعب (٤٨٨٣) والحديث احتج به المصنف، وصحح إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٧٩)، والنووي في الأذكار (ص ٤٤٩)، وكذا العراقي في المغني (٣/ ١٦٢)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٣٧١)، وقال الحويني في تحقيق كتاب الصمت (ص ١٩٩): إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٨/ ٢٣): رجاله ثقات رجال الشيخين، وقتادة -وهو ابن دعامة السدوسي- لا يعرف له سماع من عبد الله بن بريدة كما قال البخاري في تاريخه الكبير (٤/ ١٢)، وقال الترمذي في السنن بإثر الحديث (٩٨٢): قال بعض أهل العلم: لا نعرف لقتادة سماعا من عبد الله بن بريدة، وقال الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (رقم ٦٠): ظاهر هذا الحديث أنه صحيح على شرط الشيخين ولكن الحافظ العلائي يقول فى "جامع التحصيل " وقال الترمذي قال بعض أهل العلم لا نعرف لقتادة سماعا من عبدالله بن بريدة.اهـ. وقال البخاري كما في تهذيب التهذيب ولا نعرف لقتادة سماعا من ابن بريدة.اهـ. فإن قال قائل إن الترمذي لم يذكر عن بعض أهل العلم الجزم بعدم السماع؟ فالجواب: إن قتادة مدلس ويرسل، ولم يصرح في هذا الحديث بالسماع، فنحن نتوقف في نسبة الحديث إلى رسول الله. فإن قال قائل فقد تابعه عقبة بن عبدالله الأصم عند الحاكم (ج ٤ ص ٣١) وعند أبى نعيم في أخبار أصبهان (ج ٢ ص ١٩٨) ، وعند الخطيب في تاريخه (٥/ ٤٥٤) وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

وحسينًا وعثمان وعليًا! وقد كانت أسماؤهم من قبل: يوحنا ومتى وجرجس وبطرس وعزرًا وأشعيًا، وحزقيل وحيي، ولكل زمان دولة ورجال)[١].

وإذا كان هذا كلام العلامة ابن القيم وهو المتوفى سنة ٧٥١ هـ رَحِمَهُ اللَّهُ. فلينظر المسلم اليوم إلى هذا الغثاء الذي هو كغثاء السيل، ينتسبون للإسلام وهم يتبعون أعداء الله في كل صغيرة وكبيرة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه، وليست تبعية لهم فحسب بل إنها تبعية بإعجاب وانبهار! فما تمر بأعدائنا مناسبة إلا وتنهال التهاني عليهم من كل حدب وصوب بالتهنئة والتبريك ومعسول الأماني!!

٤- حكم السلام عليهم

اختلف العلماء في معني قوله تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين دعا أباه فأبى قال إبراهيم سَلامٌ عَلَيْكَ [مريم: ٤٧].

فأما الجمهور فقالوا: المراد بسلامه المسالمة التي هي المشاركة لا التحية. وقال الطبري: معناه: أمنة مني لك. وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام[٢]. وقال بعضهم في معنى تسليمه: هو تحية مفارق. وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها قيل لابن عيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال نعم: قال الله تعالى: {لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: ٨].

وقال: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ} [الممتحنة: ٤].

وقال إبراهيم لأبيه {سَلامٌ عَلَيْكَ [مريم: ٤٧].

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٧٧١).

(٢) تفسير القرطبي (١١/ ١١١ - ١١٢).

قال القرطبي: قلت: والأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة[١].

وفي الشأن حديثان: فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه)[٢].

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد (أن النبي ﷺ ركب حمارًا عليه إكاف تحته قطيفة فدكية، وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، وفيهم عبدالله بن أبي بن سلول، وفي المجلس عبدالله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبدالله بن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم النبي ﷺ)[٣] الحديث.

قال القرطبي: (فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء، لأن ذلك إكرام والكافر ليس أهله والثاني: يجوز ذلك. قال الطبري: ولا يعارض ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة، فإنه ليس أحدهما خلاف للآخر، وذلك أن حديث أبي هريرة مخرجه العموم، وخبر أسامة يبين أن معناه الخصوص: قال النخعي إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فابدأ بالسلام.

فبان بهذا أن حديث أبي هريرة (لا تبدؤهم بالسلام) إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدؤهم بالسلام من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قبلهم، أو حق صحبة أو جوار أو سفر.

---

(١) تفسير القرطبي (١١/ ١١١ - ١١٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨).

قال الطبري: قد روي عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه قال له علقمة: يا أبا عبدالرحمن أليس يكره أنه يبدؤا بالسلام؟ قال: نعم. ولكن حق الصحبة.

وقال الأوزاعي: إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك وروي عن الحسن البصري أنه قال إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم)[١].

قال ابن القيم: إن صاحب هذا الوجه - أي من أجاز ابتداءهم بالسلام - قال: يقال له - السلام عليك. فقط بدون ذكر الرحمة، وبلفظ الإفراد[٢].

(أما رد السلام عليهم فاختلف في وجوبه: فالجمهور على وجوبه وهو الصواب. وقالت طائفة: لا يجب الرد عليهم كما لا يجب على أهل البدع وأولى والصواب الأول: والفرق: أنا مأمورون بهجر أهل البدع تعزيرًا لهم وتحذيرًا منهم بخلاف أهل الذمة)[٣].

قلت: ومما يرجح رأي الجمهور في وجوب الرد على أهل الكتاب قوله ﷺ (إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليكم. فقل وعليك)[٤]. وقوله ﷺ (إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم)[٥].

(باب حكم والدي رسول الله ﷺ)

اختلف العلماء في مصير والدي النبي ﷺ على ثلاثة مذاهب:

---

(١) تفسير القرطبي (١١/ ١١٢).
(٢) زاد المعاد (٢/ ٤٢٥).
(٣) زاد المعاد (٢/ ٤٢٥).
(٤) أخرجه البخاري (٦٢٥٧)، ومسلم (٢١٦٤) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
(٥) أخرجه البخاري (٦٢٥٨)، ومسلم (٢١٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

الأول: أنهما في النار، وهذا مذهب الجماهير، وقد بسط الكلام في عدم نجاة الوالدين: إبراهيم بن محمد الحلبي، في رسالة بعنوان: (رسالة في حق أبوي الرسول ﷺ)، والملا علي بن سلطان القاري في رسالة بعنوان: (أدلة معتقد أبي حنيفة الأعظم في أبوي الرسول عليه الصلاة والسلام).

ومن أظهر ما استدل به أصحاب هذا المذهب: حديث أنس رضي الله عنه، والذي فيه إخبار النبي ﷺ بأن أباه في النار، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه، والذي فيه أن النبي ﷺ نهي عن الاستغفار لأمه، وكلاهما عند مسلم، وكذا إخباره ﷺ بأن أمه في النار.

وادعى الإجماع على عدم نجاتهما الملا علي بن سلطان القاري فقال: (وأما الإجماع؛ فقد اتفق السف والخلف من الصحافة والتابعين، والأئمة الأربعة وسائر المجتهدين -على ذلك، من غير إظهار خلاف لما هنالك، والخلاف من اللاحق لا يقدح في الإجماع السابق، سواء يكون من جنس المخالف أو صنف الموافق).اهـ.

ويرى هؤلاء أن إخباره ﷺ عن أبويه بأنهما من أهل النار، لا ينافي الأحاديث الواردة بامتحان أهل الفترة، لأن أهل الفترة منهم من يجيب يوم القيامة، ومنهم من لا يجيب، فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب، فلا منافاة.

المذهب الثاني: التوقف فيهما، فلا يحكم لهما بجنة ولا نار

قال تاج الدين الفاكهاني: (والله أعلم بحال أبويه).

وقال السخاوي بعد أن أورد حديث إحياء والدي النبي ﷺ: (والذي أراه الكف عن التعرض لهذا إثباتًا ونفيًا).

وحكى هذا المذهب شمس الحق العظيم آبادي ومال إليه واستحسنه.

المذهب الثالث: أنهما في الجنة

ولأصحاب هذا المذهب في سبب نجاتهما ثلاثة مسالك:

الأول: أنهما لم تبلغهما الدعوة، ولا عذاب على من لم تبلغه الدعوة: أشار لهذا المسلك: السيوطي، والسندي.

المسلك الثاني: أنهما كانا على التوحيد، ملة إبراهيم عليه السلام: وهذا المسلك قال به الطاهر بن عاشور، ومحمد الجزيري.

المسلك الثالث: إن الله تعالى أحياهما لنبيه صلى الله عليه وسلم في آخر حياته، فآمنا به واتبعاه:

وهذا المسلك مال إليه طائفة منهم ابن شاهين، والخطيب البغدادي، والسهيلي، وأبوعبد الله القرطبي، والمحب الطبري، وناصر الدين بن المنير، والأبي، وابن حجر الهيثمي، والعجلوني، وغيرهم.

وانتصر له السيوطي فألف فيه عدة مؤلفات من أشهرها: كتابه (مسالك الحنفا في والدي المصطفى)، وقد أطال في تقرير نجاة الأبوين، وحشد العديد من الأدلة التي تؤيد ما ذهب إليه، حتى قال: (وإذا كان قد صح في أبي طالب أنه أهون أهل النار عذابًا؛ لقرابته منه صلى الله عليه وسلم وبره به، مع إدراكه الدعوة وامتناعه من الإجابة، وطول عمره، فما ظنك بأبويه، اللذين هما أشد منه قربًا، وآكد حبًا، وأبسط عذرًا، وأقصر عمرًا، فمعاذ الله أن يظن بهما أنهما في طبقة الجحيم، وأن يشدد عليهما العذاب العظيم، هذا لا يفهمه من له أدنى ذوق سليم)..اهـ.

ومن أظهر ما استدل به أصحاب هذا المسلك: ما روى عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل إلى الحجون كئيبًا حزينًا، فأقام به ما شاء ربه عز وجل، ثم رجع مسرورًا، فقالت: يا رسول الله، نزلت إلى الحجون كئيبًا حزينًا فأقمت به ما شاء

الله، ثم رجعت مسروراً، قال: "سألت ربي عزل وجل فأحيا لي أمي فآمنت به، ثم ردها".

قال السهيلي بعد إيراده للحديث: (الله قادر على كل شيء، وليس تعجز رحمته وقدرته عن شيء، ونبيه ﷺ أهل أن يختص بما شاء من فضله، وينعم عليه بما شاء من كرامته)..اهـ.

وقال ناصر الدين بن المنير المالكي في كتاب (المقتفى في شرف المصطفى): (قد وقع لنبينا ﷺ إحياء الموتى، نظير ما وقع لعيسى ابن مريم....، وجاء في حديث أن النبي ﷺ لما منع من الاستغفار للكفار دعا الله أن يحيي له أبويه فأحياهما له فآمنا به وصدقا وماتا مؤمنين)..اهـ.

وقال أبوعبد الله القرطبي: (فضائل النبي ﷺ لم تزل تتوالى وتتابع إلى حين مماته، فيكون هذا مما فضله الله به وأكرمه، وليس إحياؤهما وإيمانهما به يمتنع عقلًا ولا شرعًا، فقد ورد في القرآن إحياء قتيل بني إسرائيل، وإخباره بقاتله، وكان عيسى عليه السلام يحيي الموتى، وكذلك نبينا عليه الصلاة والسلام أحيا الله على يديه جماعة من الموتى...، وإذا ثبت هذا فما يمتنع من إيمانهما بعد إحيائهما زيادة كرامة في فضيلته)..اهـ.

وقال ابن سيد الناس بعد أن ذكر قصة الإحياء، والأحاديث الواردة في التعذيب: (وذكر بعض أهل العلم في الجمع بين هذه الورايات ما حاصله أن النبي ﷺ لم يزل راقيا في المقامات السنية، صاعدًا في الدرجات العلية، إلى أن قبض الله روحه الطاهرة إليه، وأزلفه بما خصه به لديه من الكرامة حين القدوم عليه، فمن الجائز أن تكون هذه درجة حصلت له ﷺ بعد أن لم تكن، وأن يكون الإحياء والإيمان متأخرًا عن تلك الأحاديث فلا تعارض)..اهـ.

قلت لكن الصواب أن هذا الحديث حديث باطل لا يصح، ومما يدل على عدم صحة هذه الحديث: أن هذا الأمر لو وقع لاشتهر وانتشر، لأنه يكون آية عظيمة من آيات الله تعالى، فتتوفر الدواعي على نقلها.

وهذا الحديث رواه ابن شاهين في الناسخ والمنسوخ والخطيب البغدادي في السابق اللاحق - كما قال السيوطي في الحاوي (٢/ ٤٤٠)، قال ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٨٣): هذا حديث موضوع بلا شك، والذي وضعه قليل الفهم عديم العلم، إذ لو كان له علم لعلم أن من مات كافرا لا ينفعه أن يؤمن بعد الرجعة، لا بل لو آمن عند المعاينة لم ينتفع، ويكفي رد هذا الحديث قوله تعالى: (فيمت وهو كافر) وقوله في الصحيح: (استأذنت ربي في أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي) وقد كان أقوام يضعون أحاديث ويدسونها في كتب المغفلين فيرويها أولئك، قال شيخنا أبو الفضل بن ناصر: هذا حديث موضوع وأم رسول الله ﷺ ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة ودفنت هناك وليست بالحجون" انتهى. والحجون: موضع بمكة.

وقال الحافظ ابن كثير في البداية (٢/ ٢٦١): وأما الحديث الذي ذكره السهيلي وذكر أن في إسناده مجهولين إلى أبي الزناد عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يحيي أبويه، فأحياهما وآمنا به: إنه حديث منكر جدا، وإن كان ممكنا بالنظر إلى قدرة الله تعالى، لكن الذي ثبت في الصحيح يعارضه" انتهى.

وقال ملا علي القاري في الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (ص ٨٣) عن هذا الحديث: موضوع، كما قال ابن دحية، وقد وضعت في هذه المسألة رسالة مستقلة" انتهى.

وقال صاحب عون المعبود (١٢/ ٣٢٤): "وكل ما ورد بإحياء والديه ﷺ وإيمانهما ونجاتهما أكثره موضوع مكذوب مفترى، وبعضه ضعيف جدا لا يصح بحال لاتفاق أئمة الحديث على وضعه كالدارقطني والجوزقاني وابن شاهين والخطيب وابن عساكر وابن ناصر وابن الجوزي والسهيلي والقرطبي والمحب الطبري وفتح الدين بن سيد الناس وإبراهيم الحلبي وجماعة. وقد بسط الكلام في عدم نجاة الوالدين العلامة إبراهيم الحلبي في رسالة مستقلة، والعلامة علي القاري في شرح الفقه الأكبر وفي رسالة مستقلة، ويشهد لصحة هذا المسلك هذا الحديث الصحيح (يعني حديث: إن أبي وأباك في النار) والشيخ جلال الدين السيوطي قد خالف الحفاظ والعلماء المحققين وأثبت لهما الإيمان والنجاة فصنف الرسائل العديدة في ذلك، منها رسالة التعظيم والمنة في أن أبوي رسول الله ﷺ في الجنة".اهـ.

وبعض أهل التصوف لم يستطع تصحيح هذه الأحاديث وفق القواعد الحديثية فصححها بالكشف! كما فعل البيجوري حيث قال كما في جوهرة التوحيد (ص ٣٠): "ولعل هذا الحديث - حديث إحياء والدي النبي ﷺ وإيمانهما ثم موتهما- صح عند أهل الحقيقة بطريق الكشف" انتهى.

قال النووي في شرح مسلم (٣/ ٧٩) في شرحه لحديث أنس: فيه أن من مات على الكفر فهو في النار ولا تنفعه قرابة المقربين، وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العربُ من عبادة الأوثان فهو من أهل النار، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء"..اهـ.

قال القرافي في شرح تنقيح الفصول (ص٢٩٧): «حكاية الخلاف في أنه عليه

الصلاة والسلام كان متعبدا قبل نبوته بشرع من قبله يجب أن يكون مخصوصا بالفروع دون الأصول، فإن قواعد العقائد كان الناس في الجاهلية مكلفين بها إجماعا. ولذلك انعقد الإجماع على أن موتاهم في النار يعذبون على كفرهم، ولولا التكليف لما عذبوا، فهو عليه الصلاة والسلام متعبد بشرع من قبله -بفتح الباء -بمعنى مكلف لامرية فيه،إنما الخلاف في الفروع خاصة، فعموم إطلاق العلماء مخصوص بالإجماع»..اهـ.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كما في مجموع فتاواه (٤/ ٣٢٤): هل صح عن النبي ﷺ: أن الله تبارك وتعالى أحيا له أبويه حتى أسلما على يديه ثم ماتا بعد ذلك؟.

فأجاب: لم يصح ذلك عن أحد من أهل الحديث؛ بل أهل المعرفة متفقون على أن ذلك كذب مختلق وإن كان قد روى في ذلك أبو بكر - يعني الخطيب - في كتابه " السابق واللاحق " وذكره أبو القاسم السهيلي في " شرح السيرة " بإسناد فيه مجاهيل وذكره أبو عبد الله القرطبي في " التذكرة " وأمثال هذه المواضع فلا نزاع بين أهل المعرفة أنه من أظهر الموضوعات كذبا كما نص عليه أهل العلم وليس ذلك في الكتب المعتمدة في الحديث؛ لا في الصحيح ولا في السنن ولا في المسانيد ونحو ذلك من كتب الحديث المعروفة ولا ذكره أهل كتب المغازي والتفسير وإن كانوا قد يروون الضعيف مع الصحيح. لأن ظهور كذب ذلك لا يخفى على متدين فإن مثل هذا لو وقع لكان مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله فإنه من أعظم الأمور خرقا للعادة من وجهين: من جهة إحياء الموتى: ومن جهة الإيمان بعد الموت، فكان نقل مثل هذا أولى من نقل غيره فلما لم يروه أحد من الثقات علم أنه كذب، والخطيب البغدادي هو في

كتاب السابق واللاحق مقصوده أن يذكر من تقدم ومن تأخر من المحدثين عن شخص واحد سواء كان الذي يروونه صدقا أو كذبا وابن شاهين يروي الغث والسمين. والسهيلي إنما ذكر ذلك بإسناد فيه مجاهيل. ثم هذا خلاف الكتاب والسنة الصحيحة والإجماع. قال الله تعالى: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما} {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار} . فبين الله تعالى: {أنه لا توبة لمن مات كافرا. وقال تعالى: {فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون} فأخبر أن سنته في عباده أنه لا ينفع الإيمان بعد رؤية البأس؛ فكيف بعد الموت؟ ونحو ذلك من النصوص، وفي صحيح مسلم: "{أن رجلا قال للنبي ﷺ أين أبي؟ قال: إن أباك في النار، فلما أدبر دعاه فقال: إن أبي وأباك في النار}". وفي صحيح مسلم أيضا أنه قال: "{استأذنت ربي أن أزور قبر أمي فأذن لي واستأذنته في أن أستغفر لها فلم يأذن لي. فزوروا القبور فإنها تذكر الآخرة}". وفي الحديث الذي في المسند وغيره قال: "{إن أمي مع أمك في النار} " فإن قيل: هذا في عام الفتح والإحياء كان بعد ذلك في حجة الوداع ولهذا ذكر ذلك من ذكره وبهذا اعتذر صاحب التذكرة وهذا باطل لوجوه: - (الأول: إن الخبر عما كان ويكون لا يدخله نسخ كقوله في أبي لهب: {سيصلى نارا ذات لهب} وكقوله في الوليد: {سأرهقه صعودا} . وكذلك في: "{إن أبي وأباك في النار} " و" {إن أمي وأمك في النار} " وهذا ليس خبرا عن نار يخرج منها صاحبها كأهل الكبائر؛ لأنه لو كان كذلك لجاز الاستغفار لهما ولو كان قد سبق في علم الله إيمانهما لم ينهه عن ذلك فإن

الأعمال بالخواتيم ومن مات مؤمنا فإن الله يغفر له فلا يكون الاستغفار له ممتنعا. (الثاني: أن النبي ﷺ زار قبر أمه لأنها كانت بطريقه " بالحجون " عند مكة عام الفتح وأما أبوه فلم يكن هناك ولم يزره إذ كان مدفونا بالشام في غير طريقه فكيف يقال: أحيي له؟. (الثالث: إنهما لو كانا مؤمنين إيمانا ينفع كانا أحق بالشهرة والذكر من عميه: حمزة والعباس؛ وهذا أبعد مما يقوله الجهال من الرافضة ونحوهم من أن أبا طالب آمن ويحتجون بما في " السيرة " من الحديث الضعيف وفيه أنه تكلم بكلام خفي وقت الموت. ولو أن العباس ذكر أنه آمن لما كان {قال للنبي ﷺ عمك الشيخ الضال كان ينفعك فهل نفعته بشيء؟ فقال: وجدته في غمرة من نار فشفعت فيه حتى صار في ضحضاح من نار في رجليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار} ".

هذا باطل مخالف لما في الصحيح وغيره فإنه كان آخر شيء قاله: هو على ملة عبد المطلب وأن العباس لم يشهد موته مع أن ذلك لو صح لكان أبو طالب أحق بالشهرة من حمزة والعباس فلما كان من العلم المتواتر المستفيض بين الأمة خلفا عن سلف أنه لم يذكر أبو طالب ولا أبواه في جملة من يذكر من أهله المؤمنين كحمزة والعباس وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم كان هذا من أبين الأدلة على أن ذلك كذب.

الرابع: أن الله تعالى قال {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم} - إلى قوله - {لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء} الآية. وقال تعالى {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه}. فأمر بالتأسي بإبراهيم والذين معه؛

إلا في وعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار. وأخبر أنه لما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه والله أعلم. انتهى.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (٢٨/ ٤٩٩): هل صحيح أن أهل الفترة ناجون، وأن أبوي النبي ﷺ كانوا من أهل الفترة، وأنهم ناجون من عذاب النار، وأنهم في الجنة؟ وإن كان غير صحيح، فما هو الرد؟ وما حكم الدين في هذا الكلام؟ أفتونا مأجورين.

فأجابوا: أهل الفترة فيهم خلاف بين العلماء، والأرجح في شأنهم أنهم يمتحنون يوم القيامة، فمن أجاب لما طلب منه نجا، ومن أبى هلك، كما صح بذلك حديث الأسود بن سريع التميمي السعدي وغيره وأما أبوا الرسول ﷺ فليسا من أهل الفترة؛ لأن العرب كانوا على ملة إبراهيم ﷺ، خصوصا في أرض الحجاز، وإنما دخل عليهم الشرك أخيرا في عهد عمرو بن لحي الخزاعي، ولكن عندهم بقايا من دين إبراهيم، مثل الحج وغيره، فليسوا أهل فترة، لأن أهل الفترة عبارة عن قوم لم تبلغهم دعوة أحد من الرسل، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال لرجل سأله عن أبيه: «إن أبي وأباك في النار» رواه مسلم في صحيحه وثبت عنه ﷺ أنه استأذن ربه أن يزور قبر أمه فأذن له، واستأذن أن يستغفر لها فلم يؤذن له، وقد قال الله ﷻ {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم} وهذه الآية نزلت في أبي طالب وأمثاله ممن مات على الشرك بعد الدعوة..اهـ.

قال العلامة الألباني الصحيحة (٦/ ١/ ١٧٧ - ١٨٢): واعلم أيها الأخ المسلم أن بعض الناس اليوم وقبل اليوم لا استعداد عندهم لقبول هذه الأحاديث الصحيحة، وتبني ما فيها من الحكم بالكفر على والدي الرسول -

صلى الله عليه وآله وسلم-، بل إن فيهم من يظن أنه من الدعاة إلى الإسلام ليستنكر أشد الاستنكار التعرض لذكر هذه الأحاديث ودلالتها الصريحة! وفي اعتقادي أن هذا الاستنكار إنما ينصب منهم على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي قالها إن صدقوا بها، وهذا- كما هو ظاهر- كفر بواح، أو على الأقل: على الأئمة الذين رووها وصححوها، وهذا فسق أو كفر صراح، لأنه يلزم منه تشكيك المسلمين بدينهم، لأنه لا طريق لهم إلى معرفته والإيمان به، إلا من طريق نبيهم -صلى الله عليه وآله وسلم- كما لا يخفى على كل مسلم بصير بدينه، فإذا لم يصدقوا بها لعدم موافقتها لعواطفهم وأذواقهم وأهوائهم- والناس في ذلك مختلفون أشد الاختلاف- كان في ذلك فتح باب عظيم جدا لرد الأحاديث الصحيحة، وهذا أمر مشاهد اليوم من كثير من الكتاب الذين ابتلي المسلمون بكتاباتهم كالغزالي والهويدي وبليق وابن عبد المنان وأمثالهم ممن لا ميزان عندهم لتصحيح الأحاديث وتضعيفها إلا أهواؤهم!

واعلم أيها المسلم- المشفق على دينه أن يهدم بأقلام بعض المنتسبين إليه- أن هذه الأحاديث ونحوها مما فيه الإخبار بكفر أشخاص أو إيمانهم، إنما هو من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها وتلقيها بالقبول، لقوله تعالى: {ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب} (البقرة: ١ - ٣) وقوله: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم..} (الأحزاب: ٣٦)، فالإعراض عنها وعدم الإيمان بها يلزم منه أحد أمرين لا ثالث لهما- وأحلاهما مر-: إما تكذيب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وإما تكذيب رواتها الثقات كما تقدم، وأنا حين أكتب هذا أعلم أن بعض الذين ينكرون هذه الأحاديث أو يتأولونها تأويلًا باطلًا كما فعل

السيوطي- عفا الله عنا وعنه- في بعض رسائله، إنما يحملهم على ذلك غلوهم في تعظيم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وحبهم إياه، فينكرون أن يكون أبواه -صلى الله عليه وآله وسلم- كما أخبر هو نفسه عنهما، فكأنهم أشفق عليهما منه -صلى الله عليه وآله وسلم-!!

وقد لا يتورع بعضهم أن يركن في ذلك إلى الحديث المشهور على ألسنة بعض الناس الذي فيه أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أحيا الله له أمه، وفي رواية: أبويه، وهو حديث موضوع باطل عند أهل العلم كالدارقطني والجورقاني، وابن عساكر والذهبي والعسقلاني، وغيرهم كما هو مبين في موضعه، وراجع له إن شئت كتاب " الأباطيل والمناكير " للجورقاني بتعليق الدكتور عبد الرحمن الفريوائي (١/ ٢٢٢ - ٢٢٩) وقال ابن الجوزي في " الموضوعات " (١/ ٢٨٤): "هذا حديث موضوع بلا شك، والذي وضعه قليل الفهم، عديم العلم، إذ لو كان له علم لعلم أن من مات كافرًا لا ينفعه أن يؤمن بعد الرجعة، لا بل لو آمن عند المعاينة، ويكفي في رد هذا الحديث قوله تعالى: {فيمت وهو كافر}، وقوله -صلى الله عليه وآله وسلم- في (الصحيح): «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي».

ولقد أحسن القول في هؤلاء بعبارة ناصعة وجيزة الشيخ عبد الرحمن اليماني رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على" الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة " للإمام الشوكاني، فقال (ص ٣٢٢):" كثيرًا ما تجمح المحبة ببعض الناس، فيتخطى الحجة ويحاربها، ومن وفق علم أن ذلك منافٍ للمحبة الشرعية، والله المستعان".

قلت: وممن جمحت به المحبة السيوطي عفا الله عنه، فإنه مال إلى تصحيح

حديث الإحياء الباطل عند كبار العلماء كما تقدم، وحاول في كتابه " اللآلئ " (١/ ٢٦٥ - ٢٦٨) التوفيق بينه وبين حديث الاستئذان وما في معناه، بأنه منسوخ، وهو يعلم من علم الأصول أن النسخ لا يقع في الأخبار وإنما في الأحكام! وذلك أنه لا يعقل أن يخبر الصادق المصدوق عن شخص أنه في النار ثم ينسخ ذلك بقوله: إنه في الجنة! كما هو ظاهر معروف لدى العلماء.

ومن جموحه في ذلك أنه أعرض عن ذكر حديث مسلم عن أنس المطابق لحديث الترجمة إعراضًا مطلقًا، ولم يشر إليه أدنى إشارة، بل إنه قد اشتط به القلم وغلا، فحكم عليه بالضعف متعلقا بكلام بعضهم في رواية حماد بن سلمة! وهو يعلم أنه من أئمة المسلمين وثقاتهم، وأن روايته عن ثابت صحيحة، بل قال ابن المديني وأحمد وغيرهما: أثبت أصحاب ثابت حماد، ثم سليمان، ثم حماد بن زيد، وهي صحاح.

وتضعيفه المذكور كنت قرأته قديمًا جدا في رسالة له في حديث الإحياء - طبع الهند- ولا تطولها يدي الآن لأنقل كلامه، وأتتبع عواره، فليراجعها من شاء التثبت[١].

ولقد كان من آثار تضعيفه إياه أنني لاحظت أنه أعرض عن ذكره أيضا في شيء من كتبه الجامعة لكل ما هب ودب، مثل " الجامع الصغير " و" زيادته" و"الجامع الكبير "! ولذلك خلا منه " كنز العمال " والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وتأمل الفرق بينه وبين الحافظ البيهقي الذي قدم الإيمان والتصديق على

---

(١) اسم هذه الرسالة "مسالك الحنفا في والدي المصطفى" وهي في الحاوي له (٢/ ٢٤٤-٢٨١).

العاطفة والهوى، فإنه لما ذكر حديث: «خرجت من نكاح غير سفاح»، قال عقبه: "وأبواه كانا مشركين، بدليل ما أخبرنا.. "، ثم ساق حديث أنس هذا وحديث أبي هريرة المتقدم في زيارة قبر أمه -صلى الله عليه وآله وسلم-..اهـ.

وسئل العلامة الألباني أيضا كما في موسوعته العقدية (٥/ ٨٨٧): ما الجواب على من يقول: كيف يكون والدا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في النار، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «كل نسب ينقطع أو منقطع يوم القيامة إلا نسبي»؟

الشيخ: هذا سؤال غير فقيه، هل المقصود هنا النسب الديني، وإلا النسب التناسلي، طبعًا المقصود فيه النسب التناسلي، والجواب بإيجاز كما يقال عن آزر والد إبراهيم عليه السلام، ماذا يقال؟.. آزر والد إبراهيم وهو مشرك: {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} (الأنعام:٧٤)، فهذا هو الجواب الموجز، أما المفصل فالكلام فيه طويل وطويل جدًا، لكننا نقول: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} (النساء:١٢٣)، وربنا عز وجل يقول: {فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ} (المؤمنون:١٠١)، والرسول عليه السلام الذي جاء السائل يسأل عن أبيه يقول: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»، ثم الدين ليس بالعقل ولا بالعاطفة، إنما باتباع أحكام الله في كتابه وأحكام رسوله في سنته وفي حديثه، لو أراد الإنسان أن يعالج الأحكام الشرعية ولو كان من أعلم أهل الأرض بعد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لأصاب هذا الإسلام ما أصاب الأديان التي كانت قبله، كاليهودية والنصرانية، فضلًا عن غيرها كالبوذية والهندوسية... وغيرها، لكن الله عز وجل بسابق علمه وغالب حكمته قدر أن يكون هذا الإسلام محفوظًا إلى أن يقبض الله عز وجل بتلك

الريح الطيبة روح كل مؤمن، فلا يبقى على وجه الأرض من يقول: لا إله إلا الله، فعليهم تقوم الساعة، قدر أن يظل هذا الإسلام محفوظًا في أصلين، في كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، فهذا وذاك كان صيانة للمسلمين أن ينحرفوا في دينهم إلى عقولهم وأهوائهم كما أصاب الذين من قبلنا ممن بدلوا دينهم واتبعوا أهواءهم واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، ولذلك فما ينبغي للمسلم خاصة من ليس عنده يعني وفر من الثقافة الإسلام إذا ما سمع خبرًا نبويًا أن يعالجه بطرح إشكالات وشبهات، كهذا السؤال.

فأي شيء في حديث أنه: «كل نسب وسبب ينقطع إلا نسبي»، هذا له علاقة بالتوالد، فنحن نعتقد أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كما جاء عنه أنه ولد من نكاح وليس من سفاح، فأبواه كانا معصومين من الوقوع في الفاحشة وفي الزنا لكي لا يكون ابنهما وهو محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- إلا شريف النسب، لكن ذلك لا ينفي أن يكون على الأقل أبوه وأمه أقول على الأقل من أهل الضلال يعني من أهل الشرك وعبادة الأوثان ما ينافي هذا ذاك، وبعد ذلك أقول: ما ينافي أن يكون من أولئك المشركين الذين بلغتهم دعوة التوحيد ثم انحرفوا فيها مع المنحرفين عنها وهم كثر في الجاهلية الأولى، كما هم كثيرون في جاهلية القرن العشرين كما يقولون، وحينئذ فلا غرابة أن يقول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- جوابًا على سؤال ذلك السائل القائل: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار»، ثم ولى الرجل السائل، طبعًا نتصور المشهد هذا، نتصوره الآن، أنه رجع أسيفًا حزينًا على أبيه، لأنه هو ولده، والرسول عليه السلام أدق الناس نظرًا وأشدهم فراسةً قال: «هاتوا الرجل»، فقال له: «إن أبي وأباك في النار»، لا شك نحن يحزننا أن يكون والدا نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- النار، ولكن

حزنه عليه السلام عليهما أكبر وتأثره بذلك أشد منا بكثير، ولكن أليس هذا الاستسلام منا تبعًا لاستسلام نبينا بحكم ربنا العادل على الوالدين بهذا الحكم الشديد بالنسبة إلينا، والعادل بالنسبة لصدوره من ربنا في حقهما؟ هو كذلك ولهذا هنا هذا التقدير الإلهي امتحان من أشد أنواع الامتحان للرسول أصالةً ولأتباعه المؤمنين به تبعًا، هل يرضى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بقضاء الله وقدره أم يقول: لم أبي وأمي في النار؟، لا هو يرضى بلا شك، ونحن إذًا تبعًا له نرضى بما رضي هو به من قضاء الله وقدره، ثم إن الحكمة البالغة أن يتذكر الإنسان بمثل هذا الحكم الشديد على العواطف، عواطف المسلمين أن يرجعوا في أنفسهم إلى أن الأمر كله بيد الله، وأن لا أحد هناك يؤثر بجاهه ومنزلته على الله، وكما قال تبارك وتعالى: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (القصص:٦٨)، فإذًا تقدير الله عز وجل لمثل هذا الأمر، أبوا الرسول عليه السلام مشركان وفي النار لأكبر دليل على أن الواسطة البشرية بين الناس وبين خالق الناس لا تفيد إطلاقًا؛ لأن السلطة كل السلطة بيد الله تبارك وتعالى، فهو الفعال لما يريد، وهنا تأتي الآية السابقة التي ذكرنا: {فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ} (المؤمنون:١٠١)، ففيها [قطع] دابر الاعتماد على النسب؛ لأن المسلم لما يرى أن أبوي الرسول عليه السلام هذا مصيرهم بسبب كفرهم، فإذًا سوف لا يغتر أحد بأن يقول على خلاف ما قال ذلك الشاعر العربي، أيش قال، هات لنشوف:

لسنا وإن أحسابنا كرمت يومًا على الأحساب

على الأحساب

مداخلة:

لسنا وإن أحسابنا كرمت يومًا على الأحساب نتكل

الشيخ: على الأحساب نتكل، أنا أحفظ هكذا

نبني كما بنت أوئلنا

مداخلة: نبني كما كانت أوئلنا... تبنى ونفعل...

الشيخ: كما فعلوا.اهـ.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٥/ ٨٩٠): السؤال: حول قضية تفضلت فيها أن الذين لم تبلغهم الرسالة وأن أطفال المشركين وأهل الفترة يمتحنون في عرصات يوم القيامة، الحديث الذي تفضلت به، وهذا يعارضه حديثان، أريد أن نعلم [كيف الجمع] وهما الحديث الذي رواه مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أبي وأبوك في النار» ثم الحديث الآخر أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال في الحديث الصحيح: «إن الله وعدني أن لا يعذب اللاهين من أمة البشر» واللاهين معلوم أنهم الأطفال، وهذا عموم الأطفال المشركين وغيرهم.

الجواب: العموم أمره سهل، تعرف أن العام يدخله التخصيص أليس كذلك؟

مداخلة: نعم.

الشيخ: إذًا تخصيص حسب ما سمعت من التفصيل. واضح؟

مداخلة: نعم.

الشيخ: يبقى الجواب عن الحديث الأول، الحديث الأول ليس فيه معارضة والحمد لله شأن كل الأحاديث الصحيحة، إنما يأتي ادعاء المعارضة هو من فكرة قائمة في أذهان كثير من الناس اليوم وهي فكرة خاطئة، وهي أن الذين كانوا قبل الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ هم من أهل الفترة، وهذا خطأ فاحش جدًا، العرب في

الجاهلية لم يكونوا من أهل الفترة، أي: لم تبلغهم دعوة نبي. كيف وإبراهيم وإسماعيل يقول الله رب العالمين في القرآن الكريم: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ} (البقرة:١٢٧).. إلى آخر الآية.

وبعدين هم كانوا يحجون ويعتمرون وكانوا يطوفون، وكانوا يأتون بكثير من المناسك التي ورثوها عن إبراهيم وإسماعيل، فمن الخطأ الفاحش أن يقال: إن العرب كل العرب كانوا من أهل الفترة، ولذلك فالعرب بلغتهم دعوة إبراهيم وإسماعيل والآثار إلى الآن، آثار هذه الدعوة لا تزال موجودة في المسجد الحرام، لكن معلوم أيضًا بالإضافة إلى هذا أن العرب دخل في ديانتهم أشياء كثيرة من الشرك والوثنية، وكان ذلك ظاهرًا حتى في الكعبة التي كانت نصبت فيها الأصنام، والرسول لما دخلها كان يحطمها بعصاه، وكلما حطم صنمًا يقول: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} (الإسراء:٨١)، لكن هذا لا يعني أنهم ما جاءتهم الدعوة، إنما نستطيع أن نقول: منهم من جاءتهم الدعوة والمقصود هنا بالدعوة ليس تفصيليًا؛ لأن الحقيقة المسلمين اليوم الدعوة التفصيلية ما جاءتهم على وجه الصحيح إلا أفراد قليلين جدًا، لكن يهمنا العقيدة التوحيد الذي هي سبب النجاة من الخلود في النار يوم القيامة واضح أو لا؟ فأنا أقول أن العرب كأي أمة أخرى بلغتهم دعوة نبي أو رسول فمنهم من جاءته كما جاءت إلى الرسول وكما بلغها الرسول، ومنهم من انحرفت جاءته منحرفة، والله ﷻ هو الذي يعلم من هو الذي بلغته الدعوة قبل أن تنحرف عن الجادة والعكس بالعكس، لكن الغرض أن لا نطلق الكلام ونقول أن العرب في الجاهلية كانوا أهل فترة لهذا السبب أولًا، ولأحاديث متكاثرة جدًا تدل على أن أفرادًا من الجاهلية يعذبون، كهذا الحديث مثلًا: «إن أبي وأباك في النار» فهذا

دليل أنه بلغته الدعوة وإلا كيف يعذب في النار ولم تبلغه الدعوة، وكحديث أن الرسول ﷺ كان مع بعض أصحابه على دابته لما مر بقبرين فشمست الدابة، نفرت، فنظر الرسول ﷺ فرأى هناك قبرين، فسأل أصحابه وقال: «متى مات هؤلاء أو هذان؟ قالوا: ماتا في الجاهلية. فقال ﷺ: لولا أن تدافنوا لأسمعتكم عذاب القبر» فالدابة سمعت عذاب القبر فشمست، والرسول يقول: «لولا أن تدافنوا» أي: لولا أن تموتوا فيدفن بعضكم بعضًا من رهبة سماع العذاب في القبر لأسمعتكم العذاب هذا.

كذلك الحديث الذي يقول السائل أو السائلة أن فلان في الجاهلية، حاتم الطائي أو غيره، ابن جدعان يمكن أنه كان كريمًا وكان مضيافًا وكان كثير الخيرات واليتامى والمساكين.. وإلى آخره هل ينفعه شيء من ذلك يا رسول الله؟! قال: «لا، إنه لم يقل يومًا من دهره: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»، لذلك فباختصار أهل الجاهلية ليسوا أهل فترة، بلغتهم دعوة إبراهيم وإسماعيل وكان بعض أفرادهم على التوحيد. نعم.

مداخلة: هل صح بأنه كان أفراد... لا يتجاوزون الستة نفر هم الذين يعلمون كورقة بن نوفل مثلًا عن الحنيفية السمحة وكان كثير النظر للسماء والهمهمة ولا يعلم كيف يعبد الله تبارك وتعالى، يقول: لو أعلم كيف تبعد لعبدتك، وأخبر الله تبارك وتعالى عن المشركين بأنهم كانوا يتقربون للأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، يعبدونها ليتقربوا من الله تبارك وتعالى، فهم لا يعلمون الوسيلة والصحيحة والعقيدة السليمة التي يعبد الله تبارك وتعالى بها، إذ كانوا يعبدوا الأصنام لكي تقربهم إلى خالقهم.

فمن هذا ألا تكون الديانة الحنيفية اندثرت وزالت وما بقي لها أي معان؟

الشيخ: أنا أعتقد أنه سبق الجواب عن مثل هذا السؤال أيضًا؛ لأني جعلت العرب في الجاهلية كالمسلمين اليوم، فمنهم من بلغته الدعوة فهو مسؤول مؤاخذ إذا كفر بها، ومنهم من لم تبلغه الدعوة فهو غير مؤاخذ وله حساب كما عرفتم في عرصات يوم القيامة، وقلت أيضًا: بأن من العرب من بلغته الدعوة وضربت مثلًا بجماعة التوحيد هؤلاء معروفين يعني، لكن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك أفراد آخرون كانوا موحدين، وما ذكرته بالنسبة لورقة أو غيره أنه كان يقول: لا أعرف كيف أعبد الله. هذا أنا شيء لا أعرفه، ولا أعتقد صحته، لكن هب أن الأمر كذلك، لكن هذا هل معناه أنه كان مشركًا؟ لا. كان موحدًا، فالتوحيد هو سبب الخروج أو عدم الخلود في النار على الأقل.

الخلاصة عرفتموها وهو: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥).

فكل شخص بعينه جاءنا حديث صحيح في الجاهلية أنه معذب لا يجوز أن نتصور أنه من أهل الفترة، هذا هو المهم في الموضوع، فقد بلغته الدعوة وبذلك ترتب العذاب به. والحمد لله.

(باب حال عقيدة الولاء والبراء في عصرنا الحاضر)

إنه بعد أن سبق بيان قضية الولاء والبراء في التصور الإسلامي، ووقفنا على مدى أهمية هذا الموضوع، وبعد سياق تلك الأمثلة المشرقة من تاريخ الصدر الأول من هذه الأمة: لا بد أن نقف عند وضع المسلمين في العصر الحاضر، لنرى أين يقف المسلمون اليوم من هذه القضية وما مدى التزامهم بها أو تخليهم عنها؟ وما الذي حل بهم؟ وهل هناك مبشرات لتغيير هذا الواقع المؤلم؟

وإنه لمن البدهي هنا أن نقول: أن العالم الإسلامي في العصور المتأخرة قد

بلغ دركات الانحطاط والتخلف في كل شيء.

انحطاط في عقيدته حيث ترك ما عليه السلف الصالح وذهب إلى خزعبلات وحواشي علم الكلام الدخيل والخوض في نقاشات بيزنطية لا تمت للواقع ولا تصلحه بأي حال بل تزيده فسادًا وانهيارًا.

وانحطاط في التزامه بمقتضيات هذه العقيدة من الجهاد والتميز والعزة حيث استبدل بذلك كله التصوف والخرافات والتواكل، مما أطمع العدو فيهم على هذه الحال وتخلف في جميع المجالات العلمية وترك مكان القيادة إلى ذلة التبعية فبعد أن كان المسلمون هم الرواد في كل علم نافع جاء الخلف ليترك ذلك الميراث العظيم الذي أخذه أعداء هذا الدين واستفادوا به ودفعهم إلى ما وصلوا إليه الآن.

وأخيرًا فقد أعطى هؤلاء الخلف للناس: صورة هزيلة رديئة عن الإسلام، جعلت أعداء هذا الدين يتكالبون عليه من كل حدب وصوب طامعين في إطفاء نور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. ولقد غزت العالم الإسلامي جيوش كثيرة وعديدة، وهي على كثرتها وضراوتها العسكرية لم تكتف بهذا بل نوعت أساليب الهجوم، فاستخدمت بعد الهجوم العسكري - الغزو الفكري الخبيث الذي فعل في (المسلمين) ما لم تفعله الجيوش الجرارة!.

وأول ما حرص عليه الأعداء هو بث سموم التشكيك وقلب المفاهيم حيث أخذ ينشر أمثال هذه الأفكار: "ما للدين ونظام المجتمع؟ وما للدين والاقتصاد؟ ما للدين وعلاقات الفرد بالمجتمع وبالدولة؟ وما للدين والسلوك العملي في واقع الحياة، ما للدين والملبس وخاصة ملابس المرأة؟ ما للدين

والفن؟ ما للدين والصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون؟ وباختصار: ما للدين والحياة؟ ما للدين والواقع الذي يعيشه البشر على الأرض؟"[1].

وكان هدف الاستعمار - كما يقول صاحب كتاب كفاح دين (ص١٤٧): (تكوين جيل يستحي من الانتساب للإسلام، ويكره أن يرى وهو يقوم بشيء من شعائره، خصوصًا بين المثقفين الكبار! والطبقات التي تهيأ للحكم والنفوذ.

الواحد من هؤلاء يحب أن يراه الناس خارجًا من حانة، ولا يحب أن يروه خارجًا من مسجد ومن السهل عليه أن يوصف بأنه زنى بعشر نسوة، لكن وجهه يسود لو قيل: متزوج من اثنتين أما أن يفكر في تلاوة آيات من القرآن أو يرجع إلى شيء من سنة رسول الله فذلك ما لا يخطر له ببال.اهـ.

وأفلح الاستعمار أيضًا في تكوين جيل يرفض العمل تحت لواء الإسلام، وهذا الجيل هو " الطابور الخامس" الذي ألحق بنا الهزائم في كل ميدان.

وحتى لا يكون الحديث مجرد عاطفة أو هجوم - كما يقال ذلك - أرى أن أثبت هنا نصوصًا صريحة واضحة نطق بها أعداؤنا الكفار ونفذوها تدل على مدى عمق عداوتهم للإسلام والمسلمين وإنهم لا يريدون إلا الشر والكيد بهذا الدين وطمس معالمه، وفي هذه النصوص أيضًا عظة وعبرة للمتغافلين والمنهزمين والمبهورين بهم من أبناء جلدتنا ومن الذين ينطقون بلغتنا ويتسمون بأسمائنا. ثم يحكم المنصف بعد قراءتها هل تحقق شيء منها أم لا؟

يقول القس زويمر في مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م وهو يخاطب المبشرين بالنصرانية في العالم الإسلامي ما نصه (.. إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية - ليست هي إدخال المسلمين في

(١) هل نحن مسلمون؟ (ص١١٠).

المسيحية - فإن في هذا هداية لهم وتكريمًا (!!) وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعًا من أجله كل التهنئة) وسترد بقية هذه الكلمة. ومع وضوح هذا النص الصليبي الحاقد وجد من (المستسلمين) - وهو محسوب من العلماء - من يقول أن قضية زمالة الأديان والتسامح بينها والتقارب والالتقاء بينها أمر محبب كما قد سبق ذكر ذلك في الباب الثاني. مما يدل على مدى الغفلة وعمق الجهل بحقيقة الإسلام وبحقيقة عداوة أعدائه له.

ويقول لويس التاسع: إن الغزو العسكري لا يكفي لهزيمة المسلمين ولكن لا بد من غزو عقيدتهم.

ثم نجد عدوًا آخر يقول - وهو يتابع عودة المسلمين إلى إسلامهم - (ألا إن ثمة قوة جديدة بدأت تظهر ألا وهي الدعوة إلى إسلام "متزمت" والسعي عن طريق الإسلام إلى نظام حياة لا يكون نسخة عن نظام آخر ولا تقليدًا له. بل يكون خاصًا بهويته وتقاليده ومصالحه المعنوية والمادية).

ويقول وليم جيفورد بالكراف: متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه.

وبالرغم من مئات النصوص التي تشبه ما ذكرنا، والتي مؤداها جميعًا: طمس الإسلام وإخراج المسلمين من إسلامهم فقد وجد للأسف في بلاد

المسلمين من كان عونًا لهؤلاء الأعداء على خططهم، أو من ميع قضايا الإسلام في سبيل ملاينة أعداء الله.

يقول الأستاذ عبد القادر عودة رَحِمَهُ اللَّهُ: إن بعض الأقطار التي تسمي نفسها إسلامية، تبيح للمبشرين من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والأمريكيين أن ينشئوا مدارس للتبشير بالدين المسيحي في بلادهم حتى تفتن أطفال المسلمين عن دينهم، بل إن بعض الأقطار منع تعليم الدين الإسلامي في المدارس الحكومية وأهمل دراسة التاريخ الإسلامي في الوقت الذي يركز فيه الاهتمام بتدريس تاريخ أوروبا وتمجيد حضارتها وأنها هي قبلة الرقي والمدنية.

وإذا كان هذا على مستوى الحكومات، فإن الأفراد أشد إيغالًا في ذلك وهم صنفان:

صنف من العلماء الذين لهم مكانة في التاريخ الحديث، وكتب عنهم مجلدات فيها من المدح وألقاب الإصلاح ما الله به عليم، ولكن التاريخ كشف عن هوياتهم ومواقفهم. ومنهم عبد الرحمن الكواكبي، هذا الرجل الذي يعتبر من أسبق الناس ظهورًا في الدعوة إلى التفريق بين السلطة الدينية والسلطة السياسة. وقد أصدر كتاب (أم القرى) سنة ١٨٨٩م. وورد في هذا الكتاب آراء لم تخل من إشارات مريبة إلى موالاة الدول الأوربية المستعمرة حيث قال فيما قال: "وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة والاستفادة من إرشاداتها وإن كانت غير مسلمة، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب".

أما الشيخ محمد عبده فكما يقول عنه الأستاذ غازي التوبة: قد تجاوز تعاونه مع الإنجليز المحتلين لمصر إلى التعاون مع الجواسيس المستشرقين في انكلترا

نفسها، حيث تتضح ثقتهم المطلقة به، وتعاونه البعيد معهم في الرسالتين المبعوثتين إلى "المستر بلنت" جوابًا على سؤال الأخير عن رأي المفتي في الحالة السياسية الجديدة في مصر، وعن رأيه في الدستور المناسب لمصر. وقد أورد محمد رشيد رضا نص الرسالتين في الجزء الأول من تاريخه ص ٨٩٩ - ٩٠٢ وورد في الرسالة الثانية الفقرة الثالثة قوله (إذا فرض إن كان بعض الوزراء من الانكليز وكان لهم مرؤوسون من المصريين فإنه ينبغي أن يعطى هؤلاء المرؤوسون المصريون أو الوزراء الثانويون سلطة تسمح لهم بأن يفصلوا في جميع المسائل المختصة بالدين وما أشبه ذلك تحت مراقبة الوزراء الأصليين بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد ألعوبة في أيديهم كما هو الحال الآن). وهذا هو رأي الشيخ الذي نعت بمصلح العصر.

أما عباس محمود العقاد فيقول في كتابه: "التفكير فريضة إسلامية" ما الذي يمنع المسلم أن يعمل للديموقراطية أو يعمل للاشتراكية. أو يعمل للوحدة العالمية؟

وما الذي يمنع المسلم من أحكام دينه أن يقبل مذهب التطور أو يقبل الوجودية في صورتها المثلى؟

إلى أن قال: إن عقيدة المسلم لا تمنعه من أن يكون اشتراكيًا. وأنا أعلم مثل ما علم غيري أن هذا الكلام قد يقابل بالاستنكار والاستغراب لأنه خلاف المعهود ولكن أقول ما قاله الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه القيم "الإسلام والحضارة الغربية" حيث قال: (نحن حين ندعو إلى إعادة النظر في تقويم الرجال لا نريد أن ننقص من قدر أحد، ولكننا لا نريد أن تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناس يزعم الزاعمون أنهم معصومون من كل

خطأ، وأن أعمالهم كلها حسنات لا تقبل القدح والنقد، حتى أن المخدوع بهم والمتعصب لهم والمروج لآرائهم ليهيج ويموج إذا وصف أحد الناس إمامًا من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه، في الوقت الذي لا يهيجون فيه ولا يموجون حين يوصف أصحاب رسول الله ﷺ بما لا يقبلون أن يوصف به زعماؤهم المعصومون فيقبلون أن يوصم سيف الإسلام خالد بن الوليد بأنه قتل مالك بن نويرة في حرب الردة طمعًا في زوجته، ويرددون ما شاع حول ذلك من أكاذيب. ويقبلون أن يلطخ تاريخ ذي النورين عثمان بن عفان بما ألصقه به، ابن سبأ اليهودي من تهم.. يقبلون ذلك كله ثم يرفضون أن يمس أحد أصنامهم بما هو أيسر منه، ويحتمون بحرية الرأي في كل ما يخالفون به إجماع المسلمين، ويأبون على مخالفيهم في الرأي هذه الحرية. يخطئون كبار المجتهدين من أئمة المسلمين ويجرحونهم بالظنون والأوهام ويثورون لتخطئة ساداتهم أو تجريحهم بالحقائق الدامغة).

إننا لا بد أن نقول للمخطىء أنت مخطىء وللمصيب نقول: أحسنت وبارك الله فيك. لذا فإن انزلاق هؤلاء العلماء. أو غيرهم في قضية موالاة الكفار أو التساهل معهم في بعض الأمور بغير دليل شرعي أمر يرفضه الإسلام ويأباه لأن موضع القدوة لنا هو رسول الله ﷺ وصحابته الأجلاء وسلفنا الصالح وكفى. وليس من حق فرد -كائنًا من كان- أن يجعل من آرائه وعلمه سلما يرتقي عليه الموالون للكفار، ثم يزعم بعد هذا أنه داعية إسلامي، أو مصلح عظيم!!

أما الصنف الثاني: فهم الذين صنعهم الاستعمار على عينه، ورباهم تربية أوربية خالصة في التفكير والسلوك من أجل أن يكونوا أداة للتقريب بين المسلمين وبين المستعمر الأوربي ومن هذا الصنف طه حسين الذي يقول في

كتابه مستقبل الثقافة في مصر: (لكن السبيل إلى ذلك - أي الرقي - ليست في الكلام يرسل إرسالا، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة، وإنما هي واضحة بينة ومستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة ليس لها تعدد، وهي: أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب.

(باب متفرقات)

مسألة: أمور مشروعة يظن أنها من الموالاة

ما يُظنَّ أنه موالاة وليس بموالاة؛ كالتعامل مع الكفار بتجارةٍ أو إجارةٍ أو عاريةٍ أو رهنٍ أو بيعٍ أو شراءٍ أو نحو ذلك. وكذا التخلق بالأخلاق الطيبة معهم لعل الله أن يهديهم للدين أو بذل الهدية لهم فإن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أهدى لأخ له قبل أن يُسلِمْ ثوبًا أهداه له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانوا إذا وُجِدَ عندهم لحمٌ أو ذبيحةٌ قال: "أأطعمتم جارنا اليهودي؟" ونحو ذلك، وكذلك قبول هديةٍ منهم؛ فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبِلَ ماريةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هديةً من المقوقس عظيم الأقباط، ولا يعدُ هذا موالاة، ورهن درعه عند يهودي في صاعٍ من شعير، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أجَّرَ نفسه ليهوديةٍ فنتح لها ستة عشر دلوًا، كل دلوٍ بتمرة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عاقد اليهود وعاهدهم على أن يشاركوا مع المسلمين في قتال بقية الكفار والمشركين، وعقد معهم عهدًا، وعقد عهدًا مع خُزَاعة، وأحيانًا عقد عهودًا فيها حيفٌ على المسلمين في الظاهر؛ ولكن العاقبة للمتقين، كما حدث في صلح الحديبية، ولم يقل أحدٌ أن هذا التعامل نوعٌ من المودة والموالاة.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "أَمَّا وَاللهِ لاَ يَدْعُونِي الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ، يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرْمَةً،

وَلاَ يَدْعُونِي فِيهَا إِلَى صِلَةٍ إِلاَّ أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا".

كذلك في مسألة الوفاء بالعهد؛ حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أسره المشركون هو وأبوه – مشركو قريش–، فطلبوا منهم أن يخلُّوا سبيلهم، قالوا بشرط: أن تذهبوا إلى المدينة – أو إلى يثرب كما يقولون– ولا تذهبوا إلى محمد وأصحابه في بدر، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعطوهم العهد على أن يذهبوا إلى المدينة ولا يذهبوا إلى بدرٍ إلى القتال، فجاء حذيفةُ وأبوه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبروه الخبر، مع حاجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المقاتلين، مع كثرة عدد الكفار، وقلَّةِ عدد المسلمين؛ فقال لحذيفة وأبيه: "نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ" أخرجه مسلم.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرض جاره اليهودي، غلامٌ من جيرانه من اليهود، فذهب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعوده، يزوره؛ فقال له: "قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" فنظر اليهودي الغلام إلى أبيه، فقال له: "أطع أبا القاسم". فقال: "أشهد أنْ لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله"؛ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الحمد لله الذي أنقذه بي من النار"أخرجه مسلم.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أذِنَ لأسماء بنت أبي بكر أن تصل أمها لما جاءتها، وأمرنا الله ببر الوالدين ولو كانا كافرين أو مشركين.

مسألة: حكم اتخاذ الكافر صَدِيقًا

نهى الله تعالى ذكره عن اتخاذ الكافرين بطانة وأصدقاء وأولياء؛ فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ

اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} (آل عمران: ١١٨ - ١٢٠).

وقال تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ} (آل عمران: ٢٨).

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٤١): ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم.

مسألة: حكم تسمية النصارى بالمسيحيين

لا يجوز ذلك لأن ذلك يعني أنهم أتباع المسيح عليه السلام وليسوا كذلك؛ بل كذبوا على الله تعالى وعلى المسيح عليه السلام فزعموا أن المسيح هو الله أو هو ابن الله؛ تعالى الله عما يقول الظالمون؛ قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (المائدة: ١١٦ - ١١٧).

وعليه فتسميتهم مسيحيين فيه تزكية لهم ولما هم عليه؛ وهم على كفر وباطل والعياذ بالله؛ قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} (المائدة: ١٧). والله سماهم في كتابه العزيز النصارى؛ وعليه فلا نسميهم

إلا بما سماهم الله وسماهم رسوله ﷺ.

مسألة: حكم السفر لبلاد الكفر

الأصل في السفر الإباحة، ومنع السفر لبلاد الكفر للمفاسد المترتبة على ذلك، وأبيح في حالات محدودة كالسفر للدعوة إلى الله، قال الشيخ العلامة صالح الفوزان: السفر إلى بلاد الكفر لا يجوز؛ لأن فيه مخاطر على العقيدة والأخلاق ومخالطة للكفار وإقامة بين أظهرهم، لكن إذا دعت حاجة ضرورية وغرض صحيح للسفر لبلادهم كالسفر لعلاج مرض لا يتوفر إلا ببلادهم، أو السفر لدراسة لا يمكن الحصول عليها في بلاد المسلمين، أو السفر لتجارة، فهذه أغراض صحيحة يجوز السفر من أجلها لبلاد الكفار بشرط المحافظة على شعائر الإسلام، والتمكن من إقامة الدين في بلادهم، وأن يكون ذلك بقدر الحاجة فقط ثم يعود إلى بلاد المسلمين.

أما السفر للسياحة فإنه لا يجوز؛ لأن المسلم ليس بحاجة إلى ذلك، ولا يعود عليه منه مصلحة تعادل أو ترجح على ما فيه من مضرة وخطر على الدين والعقيدة. انتهى

وقال العثيمين رحمه الله تعالى في شرح الرياض: "لا يجوز للإنسان أن يسافر إلى بلاد الكفر إلا بشروط ثلاث:

الشرط الأول: أن يكون عنده علم يدفع به الشبهات.

الشرط الثاني: أن يكون عنده دين يمنعه من الشهوات.

الشرط الثالث: أن يكون محتاجًا إلى ذلك مثل أن يكون مريضًا أو يكون محتاجًا إلى علم لا يوجد في بلاد الإسلام تخصص فيه فيذهب إلى هناك، أو يكون الإنسان محتاجًا إلى تجارة ، يذهب ويتجر ويرجع. المهم أن يكون هناك

حاجة، ولهذا أرى أن الذين يسافرون إلى بلد الكفر من أجل السياحة فقط أرى أنهم آثمون، وأن كل قرش يصرفونه لهذا السفر فإنه حرام عليهم وإضاعة لمالهم وسيحاسبون عنه يوم القيامة حين لا يجدون مكانًا يتفسحون فيه أو يتنزهون فيه"..اهـ. بتصرف يسير.

مسألة : حكم التجنس بجنسية دولة

الأصل في التجنس بجنسية دول الكفار التحريم، لأدلة تحريم السفر لبلاد الكفر والإقامة بين المشركين، وأجيز لأمور منها:

أ - أن يترك المسلم بلده بسبب الاضطرار والاضطهاد ويلجأ لهذه الدولة؛ فهو جائز بشرط الاضطرار الحقيقي للجوء، وأن يتحقق الأمن للمسلم وأهله في بلاد الكفر، وأن يستطيع إقامة دينه هناك، وأن ينوي الرجوع لبلاد الإسلام متى تيسر ذلك، وأن ينكر المنكر ولو بقلبه، مع عدم الذوبان في مجتمعات الكفر.

ب - التجنس لمصلحة الإسلام والمسلمين ونشر الدعوة، وهو جائز.

واشترط لجواز ذلك:

١ - انسداد أبواب العالم الإسلامي في وجه لجوئه إليهم.

٢ - أن يضمر النية على العودة متى تيسَّر ذلك.

٣ - أن يختار البلد التي يستطيع فيها إظهار دينه وعبادته بحرية.

قال الشيخ ابن جبرين رَحِمَهُ اللهُ: "من اضطر إلى طلب جنسية دولة كافرة كمطارَد من بلده ولم يجد مأوى، فيجوز له ذلك بشرط أن يظهر دينه، ويكون متمكنا من أداء الشعائر الدينية، وأما الحصول على الجنسية من أجل مصلحة دنيوية محضة فلا أرى جوازه" انتهى.

مسألة: حكم التجسس للكفار

التجسس على المسلمين لمصلحة الكفار حرام: فهو خيانة للدّين، ومحاربة للمسلمين، ومعاونة لأهل الشرك والكفر عليهم، وكلها كبائر عظيمة، وتصل للردّة إذا صدرت من المسلم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (الأنفال: ٢٧).

وهي من نواقض العهود والمواثيق إذا صدرت من المعاهدين وأهل الذمة، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ} (التوبة: ٤).

وقد حذر الله من أولئك؛ فقال -تعالى: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالًا ولأَوْضَعُواْ خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} (التوبة: ٤٧).

قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ في قوله -تعالى-: {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} وفيكم مخبرون لهم يؤدون إليهم ما يسمعون منكم وهو الجواسيس[١].

وقد تحدث الفقهاء عن عقوبة الجاسوس مسلمًا كان أو كافرًا، فقالت المالكية والحنابلة وغيرهم: يقتل الجاسوس المسلم إذا تجسس للعدو على المسلمين.

وذهب أبو حنيفة والشافعي إلى عدم قتله، وإنما يعاقب تعزيرًا، إلا إن تظاهر على الإسلام فيقتل، أو ترتب على جاسوسيته قتل، ومثله الذمي.

وإن كان كافرًا يقتل في حال الحرب، وكذلك في حال السلم إن كان هناك عهد لأنّه نقض للعهد.

---

(١) تفسير البغوي: ١٠/ ٢٩٨.

وقد ورد في السنة النبوية: ما يدل على قتل الجاسوس مطلقا، فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: "أُتي النبي ﷺ عينٌ من المشركين وهو في سفر فجلس عند أصحابه، ثم انسل، فقال ﷺ: "اطلبوه فاقتلوه" قال: فسبقتهم إليه فقتلته، وأخذت سلبه، فنفلني إياه"[١]

مسألة: حكم الاستعانة بالكفار في القتال الكفار

اختلف العلماء رحمهم الله في حكم الاستعانة بالكفار في قتال الكفار على قولين:

أحدهما: المنع من ذلك.

واستدلوا بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا من المشركين كان معروفا بالجرأة والنجدة أدرك النبي ﷺ في مسيره إلى بدر في حرة الوبرة فقال: جئت لأتبعك وأصيب معك؛ فقال له النبي ﷺ: "تؤمن بالله ورسوله" قال: لا؛ قال "ارجع فلن أستعين بمشرك" قالت: ثم مضى حتى إذا كنا في الشجرة أدركه الرجل فقال: له كما قال له أول مرة فقال: "تؤمن بالله ورسوله" قال: لا؛ قال: "ارجع فلن أستعين بمشرك"؛ ثم لحقه في البيداء فقال مثل قوله؛ فقال له: "تؤمن بالله ورسوله" قال: نعم؛ قال "فانطلق".اهـ.

وروى إسحاق بن راهويه في مسنده أخبرنا الفضل بن موسى عن محمد بن عمرو بن علقمة عن سعيد بن المنذر عن أبي حميد الساعدي قال: خرج رسول الله ﷺ يوم أحد حتى إذا خلف ثنية الوداع نظر وراءه فإذا كتيبة حسناء فقال: "من هؤلاء "؟ قالوا هذا عبد الله بن أبي بن سلول ومواليه من اليهود وهم رهط عبد الله بن سلام فقال: "هل أسلموا"؟ قالوا: لا إنهم على دينهم؛ قال: "قولوا

(١) أخرجه البخاري (٣٠٥١).

لهم فليرجعوا فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين" انتهى.

واحتجوا أيضًا بما رواه الحاكم في صحيحه من حديث يزيد بن هارون أنبأنا مسلم بن سعيد الواسطي عن خبيب بن عبد الرحمن بن خبيب عن أبيه عن جده خبيب بن يساف قال: أتيت أنا ورجل من قومي رسول الله ﷺ وهو يريد غزوًا فقلت يا رسول الله إنا نستحي أن يشهد قومنا مشهدا لم نشهده معهم فقال: "أسلما" فقلنا: لا؛ قال: "فإنا لا نستعين بالمشركين" قال: فأسلمنا وشهدنا معه"[(١)] الحديث.

القول الثاني: القول بالجواز؛ قال الشافعي وآخرون: إن كان الكافر حسن الرأي في المسلمين ودعت الحاجة إلى الاستعانة به أستعين به وإلا فيكره، وحمل الحديثين على هذين الحالين، وإذا حضر الكافر بالإذن رضخ له ولا يسهم والله أعلم.اهـ.

وقد جاء في الحديث الآخر أن النبي ﷺ استعان بصفوان بن أمية قبل إسلامه.

واحتج القائلون بالجواز أيضًا بما رواه أحمد وأبو داود عن ذي مخمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ستصالحون الروم صلحًا آمنًا وتغزون أنتم وهم عدوا من ورائكم فتنصرون وتغنمون"[(٢)] الحديث.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٢١، ١٢٢) وإسناده ضعيف عبد الرحمن بن خبيب والد خبيب بن عبد الرحمن بن خبيب بن إساف الأنصاري، ترجم له البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٢٧٨)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٥/ ٢٣٠)، ولم يذكرا في الرواة عنه غير ابنه خبيب، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان، ولكن لمتن الحديث صحيح لشواهده كما في الصحيحة (١١٠١).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٦٧، ٤٢٩٢)، وابن ماجه (٤٠٨٩)، وابن حبان (٦٧٠٨) =

مسألة: حكم إعانة الكفار في حرب المسلمين

قال العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في كما في فتاواه (١/ ٢٧٤): وقد أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين وساعدهم بأي نوع من المساعدة فهو كافر مثلهم، كما قال الله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (المائدة: ٥١).

مسألة: هل يقدح في البراءة من الكفار محبة الزوجة غير المسلمة (الكتابية)؟

إن كانت المحبة لدينها ولما هي عليه من الكفر فهذا والعياذ بالله من الموالاة الكبرى التي تخرج عن الإسلام؛ وأما إن كانت المحبة لحسن تبعلها له؛ ولتفانيها في خدمته وأولاده؛ مع بغض ما هي عليه من الكفر والبراءة منه ودوام النصح لها ودعوتها إلى الإسلام؛ فهذا لا شيء فيه والله أعلم.

مسألة: حكم الاستغفار لموتى غير المسلمين؟

لا يجوز الاستغفار لغير المسلمين أو الدعاء لهم بالرحمة؛ قال الله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} وفي الآية وجوب إظهار البراءة من الكفار والمنافقين من جميع الوجوه، وظهر في هذه الآية أنه تجب البراءة من أمواتهم وأحيائهم وإن كانوا في غاية القرب من الإنسان.

=

و(٦٧٠٩) والحديث صححه ابن حبان والحاكم وأقره الذهبي وقال العلامة الألباني في صحيح أبي داود الأم (٨/ ٣٧٤): إسناده صحيح على شرط البخاري؛ غير ذي مخبر، وهو صحابي معروف، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٤/ ٣٩٨): إسناده صحيح.

مسألة: حكم الاحتفال بأعياد الكفار؟

لا يجوز الاحتفال بأعياد الكفار لما في ذلك من إقرار ما هم عليه من الكفر، ولما فيه من تكثير سوادهم؛ والتشبه بهم قد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من تشبه بقوم فهو منهم"؛ والله سبحانه وتعالى يقول: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ} (الفرقان: ٧٢). الآية فسرها العلماء بأعياد المشركين؛ ولما فيه من التعاون على الإثم والعدوان قال تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (المائدة:٢).

ولما فيه أيضًا من موالاتهم؛ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} (المائدة: ٥١)، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ} (الممتحنة: ١).

ولأنه ليس للمسلمين إلا عيدان يوم الفطر ويوم الأضحى وقد روى أبو داود (١١٣٤) والنسائي (١٥٥٦) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَقَالَ: مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟ قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى، وَيَوْمَ الْفِطْر وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٢١).

مسألة: حكم الاحتفال بشم النسيم؟

شم النسيم لا يجوز الاحتفال به بأي مظهر من مظاهر الاحتفال سواء أكان بتناول أطعمة معينة كالسمك المملح (الفسيخ) أو البيض، أو أي شيء يؤكل خصيصًا بهذه المناسبة، أو كانت بلبس لباس معين، أو بخروج في نزهة، لأن كل ذلك من صور الاحتفال المحرم؛ لأنه عيد للنصارى؛ وهو في أصله عيد فرعوني

ثم انتقل لليهود وسموه عيد الفصح أي الخروج من مصر ثم انتقل للنصارى وهو عيد القيامة؛ وذلك لما دخلت النصرانية مصر فأصبح عيدهم يلازم عيد المصريين القدماء -الفراعنة- ويقع دائمًا في اليوم التالي لعيد الفصح أو عيد القيامة.

والأطعمة المباحة لا حرج في تناولها ولكنها منعت في هذه المناسبة لأنها صارت علامة على الاحتفال؛ ولما فيه من التشبه بالكافرين والرضا بدينهم؛ والموالاة لهم؛ واتباعهم على باطلهم؛ فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مرفوعًا: "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراع بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم"، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟!!!، قال: "فمن؟".

وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من تشبه بقوم فهو منهم" أخرجه أحمد وأبو داود.

وقال الله تعالى: {إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم} (الزمر: ٧). وقال تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا} (المائدة: ٣). وقال تعالى: {ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} (آل عمران: ٨٥).

وقال الله تعالى: {والذين لا يشهدون الزور} قال: ابن عباس، وأبو العالية، وطاوس، ومحمد بن سيرين، والضحاك، وابن زيد، والربيع بن أنس، وغيرهم: "هي أعياد المشركين".

وقيل: "الشرك، وعبادة الأصنام"، وقيل: "اللغو والغناء"، وقيل: "الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل"، وقيل "مجالس السوء والخنا"، وقيل: "شرب الخمر".

وراجع: "تفسير ابن كثير" (٦/ ١٤٢)، و"تفسير القرطبي" (٥/ ٤٩٣١).

مسألة: حكم الاحتفال بعيد الميلاد (الكريسمس)؟

ما قيل في شم النسيم يقال في عيد الميلاد أو عيد الأم أو عيد الحب أو عيد النيروز وما شابه من أعياد الكفر والبدعة، فالاحتفال بها حرام كلمة واحدة، لما في ذلك من تضييع لثوابت الإسلام وإضعاف لوازع الدين في نفس المسلم، وإلغاء لهويته وضياع أصل الولاء والبراء، وإقرار ما عليه النصارى أو اليهود أو غيرهم من ملل الكفر من الباطل.

ويحتفل النصارى كل عام بميلاد المسيح عليه السلام في مواعيد مختلفة حسب كل طائفة منهم؛ وبكل أسف يشاركهم بعض المسلمين في ذلك؛ قَال اللهُ تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُل إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} (البقرة: ١٢٠). وورد عن عمر بن الخطاب قال: "لا تعلموا رطانة الأعاجم ولا تدخلوا على المشركين كنائسهم يوم عيدهم فإن السخطة تنزل عليهم" رواه عبد الرزاق والبيهقي.

قال شيخ الإسلام: إن أعياد أهل الكتاب والأعاجم نهي عنها لسببين:

١ - أحدهما: أن فيها مشابهة للكفار.

٢ - والثاني: أنها من البدع.

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ" متفق عليه.

مسألة: حكم الاحتفال بذكرى الميلاد؟

حرام لأنه تشبه بغير المسلمين، وقد أخرج أحمد وأبو داود قول النبي صلى الله عليه وسلم:

"من تشبه بقوم فهو منهم"(١).

ولو كان خيرًا لدل عليه رسول الله ﷺ؛ ولسبقنا إليه السلف الصالحون الأوائل من الصحابة والتابعين؛ وعليه فالاحتفال به بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار كما قال المعصوم ﷺ.

مسألة: حكم تهنئة الكفار بأعيادهم؟

قال ابن القيم -يرحمه الله- في كتاب (أحكام أهل الذمة): "وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به فحرام بالاتفاق، مثل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم، فيقول: عيد مبارك عليك، أو تهْنأ بهذا العيد ونحوه، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب بل ذلك أعظم إثمًا عند الله، وأشد مقتًا من التهنئة بشرب الخمر وقتل النفس، وارتكاب الفرج الحرام

ونحوه، وكثير ممن لا قدر للدين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل، فمن هنّأ عبدًا بمعصية أو بدعة، أو كفر فقد تعرض لمقت الله وسخطه." انتهى

ومنع من ذلك أيضًا لما فيه من إقرارهم على كفرهم، ولما فيه من تقوية نفوسهم على باطلهم، ولما فيه من موالاتهم. والله أعلم.

مسألة: حكم دفع الزكاة لغير المسلمين؟

لا يجوز إعطاء الزكاة لغير مسلم؛ إلا إذا كان من المؤلفة قلوبهم قال الله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ

---

(١) روي من حديث حذيفة، وأبي هريرة، وابن عمر، وأنس رضي الله عنهم والحديث صححه ابن حبان، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٣١): جيد، وقال العراقي في المغني (١/ ٣٥٩): إسناده صحيح، وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٨٢): إسناده حسن، وصححه العلامة الألباني في الإرواء (١٢٦٩).

وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (التوبة: ٦٠).

وقول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل لما بعثه لليمن: "ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ" الحديث متفق عليه.

أما الصدقة فيجوز التصدق على الفقراء من غير المسلمين مع كون فقراء المسلمين أولى، قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (الممتحنة: ٨ - ٩).

ولحديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: "قَدِمَتْ عَلَيّ أمي وهي مشركة - في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومُدَّتِهم - مع أبيها، فاستفتت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبةٌ - تطلب العون - أفأصلها؟ قال: نعم صِلِيْها " رواه البخاري (٢٩٤٦).

وعن عائشة رضي الله عنها: "أن امرأة يهودية سألتها فأعطتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت النبي ﷺ قالت له، فقال: لا، قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: "إنه أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم". مسند أحمد برقم (٢٤٨١٥). فدل هذان الحديثان على جواز

التصدق على الكافر.

مسألة: حكم قبول أموال الكفار؟

يجوز قبول أموال الكافر إذا بذلها وتبرع بها عن طيب نفس؛ فقد أكل النبي ﷺ عند اليهود[١].

وأهدى له ملك أيلة - بلدة بساحل البحر - وكان كافرًا بغلة بيضاء وبردةً[٢].

وبذل عنه النجاشي مهر أم حبيبة ولم يكن أسلم آنذاك؛ فعن أم حبيبة أن رسول الله صلى اللهم عليه وسلم تزوجها وهي بأرض الحبشة زوَّجها النجاشي وأمهرها أربعة آلاف وجهزها من عنده وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة ولم يبعث إليها رسول الله ﷺ بشيء وكان مهر نسائه أربع مائة درهم[٣].

مسألة: ما حكم الإهداء إليهم أو قبول هديتهم؟

يجوز الإهداء لهم وقبول الهدية منهم؛ فقد قبل النبي ﷺ هدية المقوقس عظيم الإسكندرية، وأهدى عمر رضي الله عنه حلته لأخ له مشرك كما في صحيح البخاري.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٢٤) ومسلم (٤٠٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١١) ومسلم (١٣٩٢).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤٢٧)، وأبو داود (٢٠٨٦)، النسائي (٣٣٥٠)، والحاكم (٢/ ١٨١) وغيرهم، والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال العلامة الألباني في صحيح أبي داود الأم (٦/ ٣٢٢): هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين؛ غير ابن فارس -وهو الذهلي- فمن شرط البخاري، وقد توبع كما يأتي، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٣/ ٤٢٨): حديث صحيح، وهذا إسناد اختلف في وصله وإرساله، كما بيناه في "مسند أحمد" (٢٧٤٠٨)، وقد تابع معمرا على وصل هذا الحديث عبد الرحمن بن خالد بن مسافر وهو ثقة، إلا أنه جعله عن عروة، عن عائشة، وهذا اختلاف في ذكر الصحابي، ومثله لا يضر بصحة الحديث.

مسألة: حكم الانتفاع بما أنتجه الكفار؟

لا بأس بذلك إذا دعت الحاجة إليه؛ فعلم الكيمياء والفيزياء والفلك والطب والصناعة والزراعة والأعمال الإدارية وأمثال ذلك يحتاجها المسلمون، فلا بأس من الانتفاع بها، بل قد يجب الأخذ بها لرفع الحرج عن الأمة.

أما ما أنتجوه من الفلسفات النظريات الكلامية والتصورات العقدية فيمنع المسلم من الأخذ بذلك لكمال الدين وتمام النعمة، ولما في ذلك من مخالفات عقدية واضحة لعقيدة الإسلام؛ وقد نهى رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب عن القراءة في صحيفة التوراة، لأن كتاب الله فيه الهدى والنور؛ والله أعلم.

مسألة: حكم استخدام الكفار؟

لا بأس بالاستعانة بالكافر الأمين وإجارته إذا لم يتوفر المسلم؛ فإن النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه في رحلة الهجرة استعانا بدليلٍ اسمه عبد الله ابن اريقط وهو يومئذ على الكفر.

مسألة: حكم العمل لدى المشركين؟

يكره ذلك، لما فيه من تعرض المسلم للامتهان، وجاز لحاجة أو ضرورة ويدل على ذلك ما رواه البخاري أيضًا عن خباب رضي الله عنه قال: كنت رجلًا قينًا فعملت للعاص بن وائل فاجتمع لي عنده، فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: أما والله حتى تموت ثم تبعث فلا؛ قال: وإني لميت ثم مبعوث؟

قلت: نعم. قال: فإنه سيكون لي ثم مال وولد، فأقضيك: فأنزل الله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا}[1] (مريم: ٧٧).

---

(١) صحيح البخاري كتاب الإجازة باب هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك في أرض الحرب (٤/ ٤٥٢ ح ٢٢٧٥).

قال المهلب: كره أهل العلم ذلك - أي مؤاجرة نفسه من مشرك في أرض الحرب - إلا لضرورة بشرطين أحدهما أن يكون عمله فيما يحل للمسلم فعله والآخر: أن لا يعينه على ما يعود ضرره على المسلمين[١].

مسألة: حكم من صحح دين النصارى أو اليهود أو غيرهم من ملل الكفر؟

من صحح دين النصارى أو اليهود أو غيرهم من ملل الكفر، ولم يعتقد كفرهم فهو كافر مرتد؛ قال الله ﷻ: {ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} (آل عمران: ٨٥).

وقال الله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} (المائدة: ١٧)

ومن صحح دين النصارى مكذِّبٌ بقول الله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (المائدة: ٧٣)

وقول الله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (التوبة: ٣٠ - ٣١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار". رواه مسلم (١٥٣).

---

(١) فتح الباري (٤/ ٤٥٢).

قال القاضي عياض: "ولهذا نكفِّر كل من دان بغير ملة المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شك، أو صحَّح مذهبهم، وإن أظهر مع ذلك الإسلام، واعتقده، واعتقد إبطال كل مذهب سواه، فهو كافر بإظهاره ما أظهر من خلاف ذلك" انتهى[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: قد ثبت في الكتاب، والسنَّة، والإجماع: أن من بلغته رسالته ﷺ فلم يؤمن به: فهو كافر، لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد؛ لظهور أدلة الرسالة، وأعلام النبوة "[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا -: إن اليهود والنصارى كفار كفرًا معلومًا بالاضطرار من دين الإسلام "[٣].

مسألة: حكم تولية الكافر أمور المسلمين؟

لا يجوز أن يتولى غير المسلم ولاية على المسلمين؛ قال الله تعالى: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} (النساء: ١٤١).

وقال الله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} (النساء: ٥٩). فدلَّ بقوله: {مِنْكُمْ} على أنَّ أولي الأمر يجب أن يكونوا من المسلمين المؤمنين؛ لا من غيرهم.

وقال الله ﷻ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} (آل عمران: ١١٨).

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ١٠٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٩٦).
(٣) مجموع الفتاوى" (٣٥/ ٢٠١).

وعن عُبَادة بن الصَّامت قال: دعانا رسولُ الله ﷺ فبايَعناه، فكان فيما أخذَ علينا أنْ بايعَنَا على السَّمع والطاعة في منشَطِنا ومَكرهِنا، وعُسرنا ويُسرنا، وأثَرَةٍ علينا، وأن لا نُنازِع الأمر أهلَه، قال: "إلاَّ أن ترَوْا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان"[١].

وقال القاضي عياض: أجمع العلماءُ على أنَّ الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنَّه لو طرأ عليه الكفر انعزل، وكذا لو ترك إقامةَ الصَّلوات والدُّعاءَ إليها[٢].

مسألة: حكم الدعوة لوحدة الأديان؟

القول بوحدة الأديان دعوة خبيثة هدامة كفرية، إذ فيها تصحيح لما عليه اليهود والنصارى، قال جل وعلا: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ}؛ وثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: "والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار".

ومن الآثار السيئة لهذه الدعوة تضييع وتمييع عقيدة الولاء والبراء التي هي أصل من أصول الإسلام، وليعلم القاصي والداني أن هذه الدعوة كفر وردة؛ فمن لم يكفر اليهود والنصارى فهو كافر، طردًا لقاعدة الشريعة: "من لم يكفر الكافر بعد إقامة الحجة عليه فهو كافر".

ولذا فمن المضحك المبكي أن نسمع من يدعو لمجمع أديان (مسجد ومعبد وكنيسة) في مبنى واحد؛ أو طباعة القرآن والتوراة والإنجيل في مجلد واحد؛ والعياذ بالله من الكفر وتحول العافية.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤٢٧).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (٦/ ٣١٥).

مسألة: ذكر بعض الأمور المتسببه في إضعاف عقيدة الولاء والبراء؟

هناك وسائل وطرائق شتى؛ لإضعاف عقيدة الولاء والبراء ولتمييع القضايا الإسلامية ولتذويب شخصية المسلم؛ ومن ذلك:

❋ نشر اللادينية والمذاهب الهدامة.

❋ إحياء النعرات الجاهلية كالقومية والقبلية والفرعونية ونحوه.

❋ محاربة أصول الإسلام ومصادره قرآنا وسنة؛ والتشكيك فيهما.

❋ العمل على إيجاد بدائل لمصادر الإسلام من ذلك فكر المستشرقين، وأطروحات التغريبيين.

❋ الطعن في الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، والحط من قدرهم.

❋ محاربة اللغة العربية، وتشجيع تعلم اللغات الأخرى.

❋ محاربة التاريخ الإسلامي؛ والعمل على تشويهه وتزويره.

❋ محاربة مظاهر التدين؛ كالحجاب الإسلامي؛ والزي الشرعي واللحية.

❋ إضعاف الهوية الإسلامية.

❋ التحريش بين المسلمين وإثارة القلاقل بينهم؛ ليضعف ولاؤهم لبعض.

❋ الدعوة إلى المواطنة وزمالة الأديان.

❋ العمل على نشر الأفكار التغريبية والفكر الهدام.

❋ الدعوة إلى قبول الآخر بما عليه وما فيه من انحرافات.

❋ محاولة القوم رفع شأن الساقطين والساقطات؛ وفي الوقت ذاته الحط من أقدار الصالحين والمصلحين.

❋ سحق المتدينين والدعاة المخلصين والتنكيل بهم بواسطة الحكام الجائرين؛ إرهابًا للناس وللصد عن دين الله تعالى.

* تشجيع الإعلام الفاسد على ترويج الشائعات المغرضة والشبهات الباطلة على الإسلام وأهله.

مسألة: حكم بناء معابد لليهود أو كنائس للنصارى

جاء في فتوى اللجنة الدائمة فتوى رقم (٢١٤١٣) وتاريخ ١/ ٤/ ١٤٢١ هـ: صار من ضروريات الدين: تحريم الكفر الذي يقتضي تحريم التعبد لله على خلاف ما جاء في شريعة الإسلام، ومنه تحريم بناء معابد وفق شرائع

منسوخة يهودية أو نصرانية أو غيرهما؛ لأن تلك المعابد سواء كانت كنيسة أو غيرها تعتبر معابد كفرية؛ لأن العبادات التي تُؤدى فيها على خلاف شريعة الإسلام الناسخة لجميع الشرائع قبلها والمبطلة لها، والله تعالى يقول عن الكفار وأعمالهم: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنْثُورًا} (الفرقان: ٢٣).

ولهذا أجمع العلماء على تحريم بناء المعابد الكفرية مثل: الكنائس في بلاد المسلمين، وأنه لا يجوز اجتماع قبلتين في بلد واحد من بلاد الإسلام، وألا يكون فيها شيء من شعائر الكفار لا كنائس ولا غيرها، وأجمعوا على وجوب هدم الكنائس وغيرها من المعابد الكفرية إذا أُحدثت في الإسلام، ولا تجوز معارضة ولي الأمر في هدمها بل تجب طاعته. انتهى

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (١/ ١٩٧): عن حكم التشبه بالكفار.

فأجاب: تعلمون أنه يجب على المسلم أن يكون ذا شخصية مميزة، تابعة لتعاليم ديننا الحنيف، من المحافظة على هيئته ولباسه، وتمسكه بالسنة المطهرة، وعدم التقليد المقيت لعادات مجتمعه، بل يتبع شرع الله وسنة

المصطفى عليه الصلاة والسلام، وحيث إنه جاءت في العالم الإسلامي عادات قادمة من الغرب، والبلاد النصرانية، بل ودخلت في بعض الأنظمة كالنظم العسكرية ونظام الخدمة المدنية، وحيث إن الرسول قد أمر بمخالفة اليهود والنصارى بكل شيء، وفي الحديث: «لا تشبهوا باليهود فمن تشبه بقوم حشر معهم» أو كما قال عليه الصلاة والسلام، وحيث إن هناك حديثا يقول الرسول ﷺ فيه: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه " قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟".

نعم الواجب على المسلم أن يستقل بنفسه، وأن يتباعد عن مشابهة أعداء الله، كما أمره الله بذلك، والرسول ﷺ حذر الأمة من اتباع سنن من كان قبلها، الأمم الكافرة اليهود والنصارى والمجوس أو غيرهم من الكفرة، فدل ذلك على وجوب استقلال المسلمين بزيهم الخاص، وطاعاتهم التي أوجب الله عليهم، وشرعها لهم إلى غير ذلك، وأن لا يتشبهوا بأعدائهم لا في أخلاقهم، ولا في أعمالهم ولا في أقوالهم، ولا في أعيادهم، ولا في أزيائهم، ولهذا روى الإمام أحمد رضي الله عنه ورحمه، بإسناد جيد عن ابن عمر، أن النبي ﷺ قال في حديث طويل: «ومن تشبه بقوم فهو منهم".. أوله: «بعثت بين يدي الساعة، حتى يعبد الله وحده، وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم".

فالواجب على المؤمنين والمسلمين أن يبتعدوا عن التشبه بأعداء الله في جميع الأمور، وأن يستقلوا بأنفسهم في جميع أمورهم حتى يتميزوا عن عدوهم وحتى يعرفوا أينما كانوا بزيهم وطرائقهم وعاداتهم الإسلامية، وأعمالهم الإسلامية.

لكن لو وجد شيء مشترك، فعله المسلمون والكافرون، فلا يسمى هذا تشبها كما وقع الآن في ركوب الطائرات، وركوب السيارات كانت هذه أولا عند أعدائنا ثم يسر الله لنا الانتفاع بها، هذا صار الآن مشتركا ليس فيه تشبه بأعداء الله، ولا يمنع استعمالهم هذه الطائرات، أو لهذه القطارات، أو السيارات أن نستعملها وهكذا ما حدث من القوات التي يستعان بها في الحرب للمسلمين، أن يأخذوها ليدافعوا بها عن دينهم، وعن بلادهم وحتى يعملوا بقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}.

فالأمور التي للمسلمين فيها نفع يجوز لهم أن يأخذوها من عدوهم، ولا يسمى تشبها، لما فيه من الإعداد والنفع العام للمسلمين، وهكذا الأشياء التي اشترك فيها المسلمون، وصارت من عادة الجميع لا يكون فيها تشبه، وإنما التشبه يكون فيما اختصوا به، وصار من زيهم الخاص، المقصود أن الأشياء التي فيها نفع لنا ولا يختص فيها المشركون، أما ما كان خاصا بالمشركين، ليس لنا فيه نفع لا نتزين به، لكن الذي فيه نفع نأخذه منهم ونحتج بقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} والله سبحانه يقول: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}، والحذر من أمور الدين التي هي من زيهم وأخلاقهم، وليست من ديننا، وإذا كان من ديننا نستعمله، ولو تشبهوا بنا فيه ولو شاركونا كما لو أجمعوا على إرخاء اللحى، نرخيها نحن، ولو أرخوها لا نخالفهم في ذلك، بل نرخيها لأننا مأمورون بإرخائها وهكذا لو بنوا المساجد وصلوا في المساجد لا نهدم مساجدنا ما كان من ديننا نلزمه ولو شاركونا فيه، وكذلك الأنظمة التي تنفعنا نأخذ بها، كنظام المرور والشرطة ونظام كذا وكذا الذي ينفع الأمة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (١/ ٢٠١): هل يجوز توريد البطاقات الكروت الخاصة بأعياد المسيحيين وما شابهها، مثل الكرسمس وأشكاله، هل يجوز توريدها أو حملها أو الاعتناء بها؟.

فأجاب: الذي يظهر لي أن هذا لا يجوز؛ لأن هذا فيه إشاعة لها، وربما اغتر بها بعض الناس فظن أنها جائزة، وربما أفضت إلى تقليدهم، والتشجيع على تقليدهم في هذه الأعياد المبتدعة، فلا ينبغي أن تروج هذه البطاقات، ولا ينبغي أن تتداول بين الناس بل ينبغي إتلافها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (١/ ٢٠٣): نعلم أن هناك مجلسا لذكر الله، وعندنا أصبح مجلس اسمه مجلس الصلاة على النبي ﷺ فنقول: اللهم صل على سيدنا محمد وعلى والديه وسلم، أو اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم؛ على حسب الإمام. فهل هذا المجلس جائز؟ أفيدونا جزاكم الله خيرا.

فأجاب: الصلاة على والدي النبي لا تجوز؛ لأن والدي النبي ماتا على الجاهلية، فلا يصلى عليهما، ولا يدعى لهما، فعنه ﷺ أنه قال: «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي، فلم يأذن لي» وقال لرجل سأله عن أبيه: «إن أبي وأباك في النار» فلا يجوز الصلاة عليهما، ولا الدعاء لهما، ولكن تصلي على النبي ﷺ تقول: (اللهم صل على محمد، اللهم صل على نبينا محمد، على سيدنا محمد) هذا طيب، يقول النبي ﷺ: «من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشرا» في أي وقت.

أما جعل مجالس خاصة للصلاة على النبي ﷺ بصوت جماعي وبلفظ جماعي، فهذا لا أصل له، لكن إذا سمعت من يصلي على النبي عليه الصلاة

والسلام فصل عليه، وإذا سمعت من يذكر النبي فصل عليه، عليه الصلاة والسلام، وأنت في طريقك، وفي بيتك في المسجد تصلي على النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأن النبي عليه السلام يقول: «من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشرا» والله يقول في كتابه العظيم القرآن الكريم: {إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه، وإذا قلت: اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه، أو اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته؛ كله طيب، والمقصود الصلاة عليه وعلى آله، كله طيب، أما ذكر والديه فلا، ولا يدخل والديه في الدعاء والصلاة المخصوصة بالرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنهما لم يسلما، فهما غير داخلين في آله؛ آله يعني أهل بيته من المسلمين وأتباعه هم آله، وأهل بيته الطيبون، كفاطمة وكزوجاته وكعلي وكالحسن والحسين وغيرهم، ممن أسلم من بني هاشم، هم من آله، أما أبواه فليسا من آله، الذين يصلى عليهم، ويدعى لهم؛ لأنهما ماتا على دين الجاهلية.

وسئل رحمه الله في نفس المصدر (١/ ٢٠٥): يلاحظ أن بعضا من المسلمين يشاركون المسيحيين في عيد الميلاد والكرسمس كما يسمونه، ويرجو التوجيه في ذلك.

فأجاب: لا يجوز للمسلم ولا للمسلمة مشاركة النصارى أو اليهود أو غيرهم من الكفرة في أعيادهم، بل يجب ترك ذلك؛ لأن من تشبه بقوم فهو منهم، والرسول صلى الله عليه وسلم حذرنا من مشابهتهم والتخلق بأخلاقهم، فعلى المؤمن وعلى المؤمنة الحذر من ذلك، وأن لا يساعد في إقامة هذه الأعياد بأي شيء؛ لأنها أعياد مخالفة لشرع الله، ويقيمها أعداء الله فلا يجوز الاشتراك فيها ولا التعاون مع أهلها ولا مساعدتهم بأي شيء لا بالشاي ولا بالقهوة ولا بأي شيء من

الأمور كالأواني ونحوها وأيضا يقول الله سبحانه: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}.

فالمشاركة مع الكفرة في أعيادهم نوع من التعاون على الإثم والعدوان، فالواجب على كل مسلم وكل مسلمة ترك ذلك، ولا ينبغي للعاقل أن يغتر بذلك، الواجب أن ينظر في الشرع الإسلامي وما جاء به وأن يمتثل أمر الله ورسوله، وأن لا ينظر إلى أمور الناس، فإن أكثرهم لا يبالي بما شرع الله، كما قال الله ﷻ في كتابه العظيم: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} وقال سبحانه: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} فالعوائد المخالفة للشرع لا يجوز الأخذ بها، وإن فعلها الناس، والمؤمن يزن أقواله وأفعاله، ويزن أقوال وأفعال الناس بالكتاب والسنة، كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، فما وافقهما أو أحدهما فهو المقبول، وإن تركه الناس، وما خالفهما أو أحدهما، فهو المردود ولو فعله الناس، رزق الله الجميع التوفيق والهداية.

وسئل رحمه الله في نفس المصدر (١/ ٢٠١): نحن - الحمد لله - مسلمون، ولدينا أخ مسيحي هل يجوز الأكل والشرب معه أو لا؟ أفيدونا جزاكم الله خيرا.

فأجاب: المسيحي ليس أخا لك، إذا كنت مسلما، إلا إذا كان أخا لك من النسب، الكافر ليس أخا لك، يقول الله جل وعلا: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} ويقول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم»، فالمسلم هو أخو المسلم، وليس أخا للكافر، وإن كان أخا لنسبه، لكن ليس أخا في الدين، سواء كان يهوديا أو نصرانيا، أو مجوسيا أو شيوعيا أو قاديانيا أو وثنيا كل هؤلاء الكفرة ليسوا إخوة لنا بل بيننا وبينهم البغضاء والعداوة، وإن أحسنا إليهم، إذا كانوا فقراء ليسوا

محاربين، لا مانع أن نحسن إليهم، إذا كانوا أهل ذمة أو مستأمنين، نحسن إليهم لفقرهم، وندعوهم إلى الإسلام لا بأس، لكن ليسوا إخوة لنا، وليسوا أحبابا لنا، بل نبغضهم في الله حتى يهتدوا، ومع هذا نحسن إليهم وندعوهم إلى الله، ونسأل الله لهم الهداية، كل هذا مطلوب، أما إذا كانوا حربا لنا، بيننا وبينهم القتال، ليس لهم ذمة ولا أمان، فهؤلاء نبغضهم في الله ونقاتلهم، ولا نعطيهم شيئا ولا نساعدهم على المسلمين، بل نبغضهم في الله ونحاربهم ونقطع الصلة بيننا وبينهم، ولا نساعدهم بشيء أصلا، بل إعانتهم على المسلمين كفر وردة، وهذا المسيحي لا تتخذوه صاحبا ولا تواكلوه، لكن إذا بليت به، ساكن معك، أو ضيف لا مانع أن تأكل معه، لكن لا تتخذه صاحبا ولا بطانة بل اتخذه عدوا وبغيضا في الله ﷻ حتى يهتدي وأما مواكلته العارضة، بسبب الضيافة أو بسبب أنه نزل معك في محل السكن، لعارض فإنك تأكل معه إذا دعت الحاجة، ولكن تسعى في الخلاص من صحبته ومساكنته؛ لئلا يجرك إلى بلائه، ولئلا تتساهل فيما أوجب الله عليك من شأنه، والله المستعان.

وسئل رحمه الله في نفس المصدر (١/ ٢٠٨): عندنا مدرسون غير مسلمين، وغالبا ما نناديهم بكلمة " سير " باللغة الإنجليزية، وهذه الكلمة تعني سيدي بالعربي فهل هذا يجوز؟ أفيدونا جزاكم الله عنا خير الجزاء.

فأجاب: إذا كان معناها يا سيدي فالذي ينبغي تركها؛ لأن النبي ﷺ لما قيل له أنت سيدنا، قال: «السيد الله تبارك وتعالى»، ولأن لفظة سيدي قد تسبب عظمة في نفسه وكبرياء، وتجره إلى الكبرياء والغلو، والتكبر ونحو ذلك، فالحاصل أن الأولى عدم نداء الأستاذ أو الأخ بسيدي أو ما يدل على معناها، ولكن يقول: يا أبا فلان، يا فلان بالألقاب الأخرى التي يرتضيها، وليس فيها

غلو أو بكنيته أو باسم معروف.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (١/ ٢٠٩): علمنا أن من أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، فما معنى الحب في الله؟ وما معنى البغض في الله؟.

فأجاب: الحب في الله أن تحب من أجل الله جل وعلا؛ لأنك رأيته ذا تقوى وإيمان، فتحبه في الله وتبغضه في الله: لأنك رأيته كافرا عاصيا لله فتبغضه في الله أو عاصيا، وإن كان مسلما فتبغضه بقدر ما عنده من المعاصي، هكذا المؤمن يتسع قلبه لهذا أو هذا، يحب في الله أهل الإيمان والتقوى، ويبغض في الله أهل الكفر والشرور والمعاصي، ويكون قلبه متسعا لهذا وهذا وإذا كان الرجل فيه خير وشر كالمسلم العاصي أحبه من أجل إسلامه، وأبغضه من أجل ما عنده من المعاصي ويكون فيه الأمران، الشعبتان، شعبة الحب والبغض، أهل الإيمان والاستقامة يحبهم حبا كاملا وأهل الكفر يبغضهم بغضا كاملا وصاحب الشائبتين صاحب المعاصي يحبه على قدر ما عنده من الإيمان والإسلام، ويبغضه على قدر ما عنده من المعاصي والمخالفات.

مسألة: سئل العلامة الألباني كما في جامع تراثه في المنهج والأحداث الكبرى (٨/ ٥١): هل يجوز استغابة الكافر والمشرك، وهل يجوز أن نَسُبَّهم؟

الجواب: يجوز كل ذلك؛ لأن الكافر لا حرمة له إلا إذا كان يترتب على ذلك مفسدة، فمثلًا: إذا كان يسب الكافر في وجهه، أو بقفاه فيبلغه ذلك، فربما يسب المسلم ويسب دينه ونبيه إلخ، فعند ذلك يحرم سب المسلم للمشرك.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ٥٢): هل يجوز بعد دعاء قنوت الوتر الدعاء للمسلمين والدعاء على الكفار؟

الشيخ: لو كان يقنت في صلاته، وبدا له أن يقنت في دعاء قنوت الوتر، يمكن

أن يتسامح به، وبخاصة إذا كان قنوت الوتر في النصف الثاني من رمضان، لأنه في روايات ثابتة عن السلف أنهم كانوا يلعنون الكفار ويدعون عليهم في قنوت الوتر بالنصف الثاني من رمضان، لكنهم ما كانوا ليعرضوا عن القنوت بالدعاء على الكفار في الصلوات الخمس، فخلاصة الجواب: ترك القنوت في الصلوات الخمس والدعاء على الكفار، ونقل هذا الدعاء إلى قنوت الوتر، هذا قلب للسنة. واضح.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ٥٣): مداخلة: طعام أهل الكتاب حل لنا،... شيء الحِلِّية، طعام أهل الكتاب، فإذا كان علمت أن طعام أهل الكتاب أو وجبة معينة عند أهل الكتاب ذات طقوس دينية، مثل الكريسماس و... أشياء، في هذا اليوم إذا كان علمت أن الأكلة هذه تمت للمناسبة هذه، هل الوجبة هذه يجوز لنا أن نأكل منها أم لا؟

الشيخ: لا.

مداخلة: ما نأكل منها.

الشيخ: لا، ولا يجوز تأييد الكفار على عاداتهم الدينية مهما كانت أشكالها وصورها، طعامًا، لباسًا، تعييدًا، كل هذا لا ينبغي ولا يجوز، طعام الذين أوتوا الكتاب يعني: الأكل المعتاد، إذا كان ذبيحة حل وإلا فلا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ٥٤): السائل: هناك بعض النصرانيات ممن يجاورننا، ويودوننا ويقدمون لنا عون ولا أبالغ إذا قلت بأنهن يعرفن بحسن خلقهن ومكارم أخلاقهن أكثر من بعض المسلمات المصليات ويقومون على خدمتنا ولا يتدخلون بأمور ديننا، ويحترموننا مثل ما يحترمون راهباتهن طبعًا هذا رأيهم فينا، هل هناك مانع من معاملتهن بالحسنى، وجزاكم الله خيرا؟

الشيخ: لا مانع من معاملة أهل الكتاب الذين يعيشون معنا وبين ظهرانينا بشرط أن لا نخالف شريعة ربنا من أجلهم، من ذلك مثلًا- مما يخفى على كثير من المسلمين أو المسلمات الذين يجاورونهم مثل هؤلاء النصارى- فلا يجوز لهؤلاء المسلمين بحكم ما سبق من الثناء على معاملتهم لا يجوز لهؤلاء المسلمين مقابل ذلك مخالطتهم في أعيادهم، وتهنئتهم بأعيادهم ومبادرتهم بسلامنا الإسلامي السلام، {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: ٨]، هذا النص صريح في القرآن، لكن هذا البر الذي يُقَدَّم إليهم، والقسط والعدل الذي يعاملون به يجب ألا يقترن معه مخالفة من المسلم لدينه مثلًا: قد تدخل النصرانية بيت المسلمة وهي في بيتها متعرية لأنه لا يوجد رجل غريب عنها، فتظهر هذه المسلمة أمام النصرانية كما تظهر أمام محارمها أمام أختها وأبيها وأخيها أي بادية الذراعين مكشوفة الساقين هذا لا يجوز في الإسلام لأن هذه المرأة الكافرة كالرجل الكافر أو المسلم بالنسبة للمرأة المسلمة، وعورة المرأة المسلمة بالنسبة للمرأة الكافرة كعورتها بالنسبة للرجل المسلم، كلها عورة إلا الوجه والكفين وهذا أمر يغفل عنه كثير من المسلمات الصالحات الطيبات والقانتات والمصليات، فلا يجوز لهن أن يعاملن هذه الكتابيات وأن يظهرن أمامهن كما يظهرن أمام أخواتهن المسلمات، فمثل هذا الحكم يجب أن يراعى في معاملتهن وإلا كان الواجب الابتعاد عنهم، نعم.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٨/ ٦١): السائل: [حكم حفر قبور للنصارى]؟

هو مكلف شرعًا أنه إذا مر بمقابر النصارى أن يقول أُبَشِّركم بالنار فكيف

يحفر لهم حفرة النار.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٨/ ٥٧): أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مر بمقبرة المسلمين، فقال أنا بعيد عهد بالحديث هو مذكور في أحكام الجنائز إنه كم فات هؤلاء من شر وأدركوا الخير، ثم بمقبرة الكفار فقال: كم فاتهم من الخير لواستجابوا لدعوة الإسلام..

مداخلة:...

الشيخ: كفار، ولذلك الذين يدندنون حوله الجمع بين مقابر المسلمين والكفار، قد ينظرون للقضية نظرة اجتماعية، نظرة مدنية، ولا ينظرون إليها نظرة دينية إطلاقًا ومن هذا المنطلق تجد المقابر اليوم مقابر المسلمين... بعض الحكام ببعض بلاد الإسلام أن يحيطوها بالأشجار الباسقات، والخضار الجميلة، بحيث إنه لا تقع أعين المارة على ما يكرب حياتهم من نظرهم إليها، فهذا طبعًا... ينافي تمامًا الغاية التي من أجلها أذن الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ... طبعًا للمسلمين بزيارة القبور بعد أن كان نهاهم عنها، «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة».

فالآن زيارة القبور كادت تصبح نسيًا منسيًا، وذلك لكثرة الخطوات المدنية التي يخطونها في سبيل إخراج المقبرة من المدينة إلى خارجها، فا للي بيزور المقبرة سوف يركب سيارة خاصة يستأجرها، يروح يزور الأموات، ما يفعل ذلك، أما لما تكون المقبرة بين ظهرانيتهم كلما مر بها يتكلموا عليها، يترحموا على من فيها، يتذكروا أقوامهم كيف كانوا كيف صاروا؟ فهذه المعاني الإسلامية والتربوية ما بيفكر هؤلاء بها؛ لذلك يريدوا يطمسوا معالمها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، فمن هذا المنطلق يأتي موضوع توحيد مقابر

المسلمين، غير المسلمين يجُعلون في مكان واحد والخروج بالمقبرة خارج المدينة.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٨/ ٥٩): مداخلة: سؤال آخر يا شيخنا سؤال بسيط: بالنسبة لأهل الكتاب اليوم، هل يجوز اتباع جنائزهم؟

الجواب: مثل الأب اليوم يجوز؟

مداخلة: نعم، ونحن نعرف أنه لا يجوز، لكن أحد الإخوان قرأ في كتاب لعبد الرحمن عبد الخالق يقول: يجوز اتباع جنائزهم، بس يسأل هو: هل يجوز يعني: هل هذا الكلام صحيح؟ فقلت: له إن شاء الله الليلة أتحدث مع الشيخ أسأل الشيخ أسألك إياه، فأنا استجد لشيء جديد ما أعلم؟

الشيخ: أنا أجبتك بس أجبتك بطريقة حبيت أن أرمي عصورفين بحجر واحد، بس بيظهر ما قدرت ارمي الرمي ولا في عصفور واحد.

قلت لك في الجواب: مثل غير اليوم؟ لأنك أنت.

مداخلة:... نعم.

الشيخ: أنت سألت اليوم.

مداخلة: نعم.

الشيخ: وأنا أجبتك مثل قبل اليوم ماذا كان الحكم الإسلامي قبل اليوم؟

مداخلة: في حدود ما أعلم أنه ما يجوز.

الشيخ: إذًا: عرفت فالزم وقف عندما تعلم.

مداخلة: الله يجزيك الخير يا شيخ.

الشيخ: لأنه نحن ما يجوز نتبع جنائز المبتدعة من المسلمين، فضلًا أنه نتبع جنائز الكافرين، لكن هذه السياسة هكذا تعمل بأصحابها، تحملهم على أن

يغيروا أحكام الشريعة.

مداخلة: لا حول ولا قوة إلا بالله.

الشيخ: الله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٨/ ٦١): الملقي: رجل مسلم تزوج بامرأة نصرانية، ثم حملت منه وكان الطفل أعتقد في الشهر السادس، ثم توفيت فأين تدفن؟

الشيخ: فأين تدفن؟

الملقي: نعم.

الشيخ: آه

الملقي: هل في مقبرة المسلمين أم النصارى أم؟

الشيخ: أيوه.

الملقي: وأين توجه، وكيف يوجه الجنين.

الشيخ: تدفن في مقابر الكافرين النصارى، ولا تدفن في مقابر المسلمين لم؟ لأن الجنين لم تجر عليه أحكام الدنيا بعد.

الملقي: هذا ما أجبت به هذا الرجل هذا؟

الشيخ: طيب.

الملقي: جزاك الله خير يا شيخ.

الشيخ: وإياك. نعم.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٨/ ٦٢): امرأة نصرانية يُشك في إسلامها فهل تدفن في مقابر المسلمين؟ !

الشيخ: الذي نحن نفتي عليه إذا كانت على الإسلام رسميًا كما يقولون

ومنطلقها في حياتها على مقتضى هذا الإسلام فهي تدفن في مقابر المسلمين، صرحوا جميعًا أنها ما كانت تصلي، وأنها أخيرًا وجدوها ذهبت إلى العمرة عند أختها، يجوز ذهابها للعمرة بحيلة ترى أختها..

مداخلة: بنتها.

الشيخ: نعم؟

مداخلة: بنتها هي بنت هذه.

الشيخ: آه نعم، بنتها، المقصود جوابي إذا كان منطلقها في حياتها يدل على إسلامها فهي تدفن في مقابر المسلمين ولا يجوز أن تدفن في مقابر النصارى، وإذا كان منطلقها في حياتها يدل على أنها هذه كلمة قالتها ما تعرف ما هي الدوافع الشخصية التي حملتها أن تسجل نفسها أنها مسلمة وفيه حوادث كثيرة من هذا القبيل لا تخفى على الجميع، فحينئذ لا قيمة للإعلان هذا لأنه قول غير مقترن بالفعل.

{فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ٥] هكذا في القرآن الكريم، سألت أنها كانت تذهب إلى الكنيسة يوم الأحد يأتي جواب في... يقول أنا ما رأيتها، وعلى ذلك تجتمعوا وتصفوا حياتها كيف كانت؟

إذا غلب على حياتها أنها مسلمة تدفن في المسلمين وإلا في النصارى.

مداخلة: جزاك الله خير، طيب... يا شيخنا أمثالنا يعني المسلمين يدخلوا مقابر هؤلاء النصارى ويقوموا بدفنها؟

الشيخ: لا.

مداخلة: لا. ولا حتى ابنها؟

الشيخ: لا. ابنها ما في مانع. لكن تشييعها وكذا لا يجوز.

مداخلة: جزاك الله خير.

الشيخ: وإياك.

الشيخ:... أنها مسلمة تدفن في مقابر المسلمين، وإذا ثبت أنها كانت في منطلق حياتها ليست كذلك فلا تدفن في مقابر المسلمين، أنا ما أقول ادفنوها هنا أو هنا لأني لا أعرف ما حياتها.

مداخلة: طيب شيخنا بالنسبة لأولادها أو من يشاهدها يوميًا.

الشيخ: ما هو ما أعطى جواب.

مداخلة: أي نعم، الآن لو هذا مثلًا شريط أسمعناهم إياه الآن ونقول: أنت مثلًا يا ابنها أو يا بنتها ما تشهدوا عليها؟ فستسألوا عنها يوم القيامة على هذه الشهادة، فبرئوا أنفسكم أمام الله، فإن كانت يعني معاملاتها وصلاتها للإسلام مع المسلمين فتدفن في مقابر المسلمين، وإلا فإذا كانت معاملاتها وأسلوبها وأحاديثها في هذه الكنيسة أو كذا فتدفن في مقابر النصارى وأنتم مسؤولون عن هذا.

الشيخ: هذا هو أنا كلامي يدور حول هذه القضية.

مداخلة: أي نعم.

الشيخ: نحن لا نعرف حياتها هم أعرف.

مداخلة: نعم.

الشيخ: يكفي إذا كانت مسلمة عملًا تدفن في مقابر المسلمين وإلا في مقابر النصارى، فالحكم يصدر من عندهم نحن أعطيناهم مبادئ.

مداخلة: نعم.

الشيخ: وبس.

مداخلة: جزاك الله خير يا شيخنا.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ٦٥): السؤال الثاني أن امرأة هنا في كندا كندية يعني: نصرانية.

الشيخ: كانت نصرانية ولا تزال؟

المتصل: نصرانية ما زالت، فكانت لها جارة أو صديقة مسلمة كنت تبرها وتزورها وتحسن إليها، فهي بلغت من الكبر عتيًا، وهي على مشارف الموت.

الشيخ: المسلمة؟

المتصل: لا، الكندية الكافرة.

الشيخ: أيوه طيب.

المتصل: فتريد أن تعطي أموالها لهذه المسلمة التي كانت تبرها، يمكن تبلغ مائة ألف دولار تقريبًا.

الشيخ: ما شاء الله.

المتصل: تريد أن تعطيها لهذه المسلمة على شرط أن المسلمة تعتني مثلًا بقبرها، يعني: تحفر لها قبر وتضع الورود حوله تعرف الطقوس التي للنصارى هنا، هذا شرطها، فهل المسلمة.. هل يجوز لها أن تأخذ المال وتفعل هذا لهذه النصرانية، يجوز إذا ماتت؟

الشيخ: لا يجوز.

المتصل: لا يجوز.

الشيخ: إن وهبت هذه النصرانية مالها لتلك المسلمة دون أي شرط حل لها وإلا فلا.

المتصل: الله يجزيك الخير يا أخي العزيز.

الشيخ: الله يحفظك.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٨/ ٦٨): هل يجوز للمسلم الذي يكون أهله كافرين أن يصاحبهم إلى المقبرة إذا توفي أحدهم؟

الجواب: إذا كان لا يسعه إلا ذلك من باب السياسة الشرعية فيجوز، وإلا فيسعه أن يتخلف عنهم مخالفة لطقوسهم ومراسمهم، ولاشك أنه يقع في أثناء ذلك الكفر الصريح، نعم.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٨/ ٦٩): ما حكم الدفن في بلاد الكفار، ولكن لا بد أن أوضح هذه المسألة حتى يتبين لشيخنا الحكم فيها إن شاء الله.

في بلاد الكفر يدفنون المسلم في مقبرة واحدة مع الكفار، وإذا كان قد يكون يعطون مكانًا بجانب الجدار مقابل لقبور الكفار، بحيث يكون الحاجز فقط ممر بين المسلم والكافر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا بد أن يدفع مبلغًا لمدة خمسة عشر سنة، فإذا انتهت هذه المدة لا بد أن يدفع أيضًا مبلغًا آخر، فإذا لم يدفع أخرج التابوت وحرق، ثم إذا لم يوجد لهذا المسلم من يقوم بدفنه، فيأخذون هذا المسلم لمكان التشريح ويتعلمون يتدربون فيه.

الشيخ: هذا السؤال هو فرع عن سؤال كان ينبغي أن يكون مقدمًا على ذاك السؤال، ما حكم استيطان المسلمين لبلاد الكفار، وأظن أنه من المعلوم لديك على الأقل لكثرة ما تحدثنا معك هاتفيًا ومع غيرك، أنه لا يجوز للمسلم أن يستوطن بلاد الكفر، وكنا نذكر كلامًا عامًا؛ لأن هذا السكن أو هذه المساكنة تجلب على الساكن مع المشركين مفاسد كثيرة في نفسه وفي عياله، فالآن أنت تسأل عن أثر من آثار استيطان المسلمين لبلاد الكفار والمشركين، وهنا يقال ما

بني على فاسد فهو فاسد، ما بني على محرم فهو محرم، ما أدى إلى محرم فهو محرم، لو كان استيطان بلاد المشركين جائزًا ولكن يترتب منه مثل هذه المفسدة التي أنت تسأل عنها الآن، لكان ذلك كافيًا بالقول بأنه لا يجوز استيطان بلاد المشركين، فكيف وهناك الأحاديث الكثيرة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- تنهى المسلم عن مشاركة المشركين في بلادهم، من ذلك قوله عليه السلام: «المسلم والمشرك لا تتراءى نارهما»، يجب أن يعيش بعيدًا، ويترتب من وراء هذا السؤال التنبيه أن المسألة تختلف بين أن يسكن المشركون بلاد الإسلام وبين أن يسكن المسلمون بلاد الكفر والطغيان، فالأمر الأول جائز كمثل زواج المسلم بالكتابية والأمر الآخر غير جائز، كتزويج المسلمة بالكتابي؛ لأن مساكنة المشركين للمسلمين في بلادهم فيه عكس سكن المسلم في بلاد الكفر فيه جذب له والتعريف له بالإسلام، فمع ذلك فإذا كان في بلاد المسلمين كفار يعيشون فيموت أحدهم، فلا يجوز أن يدفن في مقابر المسلمين، وإنما يدفن في مقابر الكفار، فمقبرة المسلمين يجب أن تكون منفصلة تمامًا عن مقبرة المشركين، وقد مر الرسول عليه السلام مرة بمقبرة المسلمين، فقال لقد لقي هؤلاء شرًا كثيرا أو كما قال عليه السلام، ولذلك فمن آثار استيطان المسلمين لبلاد الكفر، فأولًا لا يجوز أن يدفن المسلم بجوار الكافر، ولو فصل بين المقبرتين ذلك الجدار كما ذكرنا، فأولًا لا يجوز

المسلم بجوار الكافر، ولو فصل بين مقبرتين ذلك الجدار كما ذكرت.

ثانيًا لا يجوز نبش قبور المسلمين مهما طال الزمن إلا في حالة صيرورة جسد الميت رميمًا ترابًا، فحينئذ يصبح لا قيمة لهذا الميت؛ لأنه صار ترابًا، فيكفي إذًا أن نعرف من تفاصيل السؤال أن ذلك كله لا يجوز من ألفه إلى يائه،

ونحن نعلم هذه المشكلة منذ نحو عشرين سنة في بلاد أوروبا، أي: إن المسلمين ليس لهم مقبرة هناك يدفنون فيها، وإنما يستأجرون أرضًا من الدولة لسنوات محدودة، فإذا انتهت، فإن استأجرت مرة ثانية استمروا في الدفن، وإلا وقعت المصيبة التي ذكرتها،... كلام كل التفصيل الذي جاء في السؤال هو غير جائز شرعًا، وهو أثر من آثار استيطان بلاد الكفر وذلك مما لا يجوز، فما بني على فاسد فهو فاسد.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ٧١): بالنسبة لحكم دخول الكنيسة بحجة يعني رؤية الآثار كذا؟

الشيخ: إذا دخل مرة أو مرتين فقط لهذا القصد ما فيه مانع، لكن أن يتخذ ذلك شبه عادة له فلا يجوز لأنه لا يجوز نشارك أولئك في مواطن الكفر التي يُشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ فيها ليل نهار، فإذا دخلها مرة أو مرتين وحصل المقصود من الاطلاع فبعد ذلك لا يعد الكرة.

مداخلة: طيب إذا كان سواء يعبد فيه أو لا يعبد فيها الكنيسة؟

الشيخ: يعني تكون مهجورة يعني تقصد وإلا ليس في حالة قيامهم بالعبادة؟

مداخلة: نعم.

الشيخ: هكذا تعني؟ لا شك أن دخولها في هذه الحالة أشد من دخولها وليس فيها في تلك الحالة من يُشرك، لكن البنيان كله قائم على هذا الشرك.

مداخلة: سواء كانت مهجورة أو غير مهجورة يا شيخ؟

الشيخ: مهجورة.

مداخلة: المهجور أهون.

الشيخ: معلوم.

مداخلة: يعني آثار قديمة؟

الشيخ: نعم.

مداخلة: على هذه القضية يجوز يأتي المتاحف؟

الشيخ: كيف؟

مداخلة: المتاحف؟

الشيخ: نعم؟

مداخلة: مثل الأهرامات وغيرها.

الشيخ: يجوز.

مداخلة: للعبرة أوكيف

الشيخ: العبرة والاطلاع من باب:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه... ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

مداخلة: جزاكم الله خير يا شيخ.

الشيخ: وإياكم.

مداخلة: بارك الله فيكم.

الشيخ: وإياكم.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٨/ ٧٣): سائق ملتزم ما شاء الله، وركبت معاه... ثنتين من النساء، وبعد ذلك... قالوا له وصلنا للكنيسة الفلانية.

الشيخ: أيوه.

السائل: ايش يفعل بالحالة هذه، شو يلزمه.

الشيخ: ينزلهن.

السائل: يعني ما يوصلهن.

الشيخ: ينزلهن...

السائل: أيوه.

الشيخ: ما دام هو ملتزم كما قلت على ذمتك.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٨/ ٧٤): هل يجوز للمسلم أن يعمل عند أهل الكتاب كنصارى أو يهود؟ وإذا أمروا بمعصية الله، مثل واحد في رمضان يعمل عند نصراني، أمره بالمعصية بعمل يعمله وهو...، هل له أن يخالفه حتى لو أدى لتركه للعمل؟

الشيخ: نعم، يجب عليه ذلك، ولذلك قلت لك: أردت أن أقول لكن أنت تابعت في السؤال، فالمتابعة أوضحت السؤال ولم يبق مجال لسؤال، لأنه واضح، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فأردت أنا أقول: يجوز للمسلم أن يعمل عند النصراني وعند اليهودي إذا كان عمله مشروعًا جائزًا في الشرع، أما إذا كان عمله مخالفًا لدينه فيجب أن يستقيل منه لأول لحظة، أما من حيث جواز العمل عند غير المسلم فعندنا بعض الأحاديث أن عليًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عمل عند يهودي يومًا مقابل كل دلو ينضحه من البئر تمرة، يسحب له دلو من بئر بتمرة، الذي عمل هو علي بن أبي طالب وصاحب العمل هو يهودي، يجوز هذا، أما يقول له: لا تصلي مع الجماعة كما يفعل كثير من المسلمين اليوم فضلًا عن اليهود والنصارى، كثير من الإخوان المصريين يسألوني هذا السؤال: أنا أعمل في المطعم، أعمل في شركة، لا يسمح لي أن أصلي صلاة الجماعة في المسجد، بل لا يسمح لي أن أصلي صلاة الجمعة في المسجد، أقول له: يجب أن تشترط عليه أنك حر تصلي كل الصلوات لما تكون عنده في المسجد وبخاصة صلاة الجمعة، فإن أبى قل له: السلام عليكم واترك العمل، ورزقك على الله. أظن

انتهى جواب السؤال، واضح؟

السائل: واضح.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ٧٥): ما حكم العمل تحت إمرة كافر؟ العمل الدنيوي؟

الشيخ: هذا ينظر إلى نوع العمل، فإذا كان أمرًا دنيويًا فهذا أمر سائغ وجائز، وتاريخ السلف وتعاملهم مع المخالفين للدين كاليهود والنصارى أمر ثابت شرعًا، واتفاق علي مثلًا مع ذاك اليهودي على أن ينضح له مقابل يأخذ تمرة مقابل دلو من الماء، فهو يقول له انضح عشر مثلًا أدلاء، أو عشرين وإلى آخره، فهو يأتمر بأمره فلا ضير في ذلك أبدًا، نعم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ٨١): عندي شيء، ربما أنا مثلًا صاحب أعمال، وعندي محامي من أهل الكتاب، هذا المحامي أشعر أنه قريب من الإسلام، أحدثه عن الإسلام، ويحب أن يسمع الإسلام كلام طيب، فمرضت زوجته ودخلت المستشفى، فهل يجوز لي أن أذهب إليه لأواسيه لعلها تكون فاتحة خير بأن يدخل إلى الإسلام أم لا يجوز؟

الشيخ: يجوز، ولكن الشرط أن لا يخرج من مسلم مخالفة شرعية؛ لأنه الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ عاد غلامًا يهوديًا، وهذا ثابت في صحيح البخاري، لكن شو كانت العاقبة، لما عاده وجده في حضرة الموت، فقال له عَلَيْهِ السَّلَامُ: قل لا إله إلا الله، وكان عند رأس الغلام أبوه، فرفع الغلام بصره إلى أبيه ينظر إليه نظرة لها معنى، كأنه يستأذنه في طاعة الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأبوه يهودي، فالخبيث ما وسعه إلا أن يقول لولده: أطع أبا القاسم، فقال: لا إله إلا الله ومات، فقال عليه الصلاة والسلام: الحمد لله الذي أنقذه بي من النار، وهذا في الواقع من كفر اليهود وعنادهم،

مصداق قول الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه: {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} [البقرة: ١٤٦] فهذا اليهودي الخبيث لما شاف ابنه في طريق الموت وبيعرف إنه النجاة في الآخرة باتباع الرسول قال لابنه: أطع أبا القاسم، أما هو خبيث لا يزال كافر، هذا هو {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم} إيه نعم، نسأل الله الحماية.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٨/ ٩٠): شيخنا هناك تعقيب مهم جدًا ويلجأ له أكثر الشباب الذي هو السفر إلى بلاد الغرب بحجة الحصول على جواز السفر؟

الشيخ: هذه ختم للموالاة.

مداخلة: أنا أردت منك تعليق لهذه؛ لأني أريد أن ينشر هذا التعليق إن كان بالإمكان.

الشيخ: أخونا رائد... أنتم تعرفون أنه مقيم في هنجاريا سألني منذ أسبوع تقريبًا بالهاتف، أولًا سألني عن الجهاد في البوسنة والهرسك، قلت أنا لا أعتقد أن هناك جهاد، وكما تعلمون هذا دائمًا رأينا الجهاد لا يكون جهاد أفراد للكفار الذين عندهم كل وسائل القتال والتدمير، وإنما يكون بجهاد الدول الإسلامية لكن الدول الإسلامية كما تعلمون.. !

لكن إذا كان هناك مجال بالمساعدة سواء بالمال أو العلاج والدواء و.. فهذا أقل ما يجب، هذا تحدثنا معه سابقًا.

فجاءني منذ أسبوع تقريبًا يقول: الآن لإيصال هذه المساعدات إلى تلك البلاد لا يمكن للرجل العربي المسلم أن يدخلها إلا بجواز أجنبي، فهل يجوز أن أستخرج أنا جواز هنجاري لكي أتمكن من إدخال هذه المساعدات؟

قلت له: هذا لا يجوز؛ لأن هذا هو ختم لموالاة الكفار؛ لأنك تعني أنك

تريد أن تكون محكومًا بهذا النظام الكافر، ولذلك أنت تستنجد وترجو هؤلاء أن يعطوك هذا الجواز الكافر، فأنا دائمًا أقول بأن هذا من تمام الموالاة للكفار، وأيضًا كثيرًا ما سئلت ولعل الدكتور يعرف هذه الحقيقة أن المسلم مثلًا الذي يعيش في تلك البلاد حتى يكون له الحقوق التي تعطى للمواطن الأمريكي لا بد هو أن يكون عنده جواز أمريكي، وليحصل على الجواز الأمريكي يمكن أن يتزوج أمريكية فيحصل على الجواز الأمريكي، صحيح هذا؟

مداخلة: نعم.

الشيخ: نقول نحن: الغاية لا تبرر الوسيلة، هذه قاعدة ليست إسلامية أبدًا، فلذلك استحصال الجواز هذا عين الموالاة، تحقيق للموالاة تمامًا للكفار وحتى أيضًا من مشاكل الإقامة في تلك البلاد لعلي عرفت هذا من أخونا أبو رائد أو غيره، ولعل هذا أيضًا موجود في تلك البلاد، يعطى المقيمون في تلك البلاد راتب، إذا كان ما عندهم عمل، موجود هذا في أمريكا؟

مداخلة: نعم.

الشيخ: سبحان الله، ربنا يقول: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء: ١٤١].

ورسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المعطية واليد السفلى هي الآخذة».

فكيف يمد المسلم يده لينال مالًا أو صدقة من يد الكافر، {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨].

أسأل الله عز وجل أن يجعلنا مؤمنين حقًا، وبهذا القدر كفاية، والحمد لله رب العالمين.

مداخلة: شيخنا لا بد أن نذكر في هذا الباب وإن صح وهو حديث: «أني نهيت عن زبد المشركين» أي: عن عطائهم ورزقهم.

الشيخ: صدق رسول الله.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ١٠٥): شيخنا هل يجوز تهنئة النصارى وان نقول لهم كل عام وانتم بخير.

الشيخ: لا ما يجوز للمسلم أن تقول هذه القوله فضلًا أن تقوله للكافر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ١١٤): شيخنا فقه حديث: «فاضطروهم إلى أضيق الطرقات» لو تشرح لنا هذا الحديث؟

الشيخ: هذا مع الأسف عندما يكون للمسلمين عزهم ومجدهم فهو يعيش بين الكفار، كل الكفار تحت النظام الإسلامي والذي منه أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ومن ذلك ما جاء ذكره في هذا الحديث: «إذا لقيتم المشركين فلا تبدؤوهم السلام، واضطروهم إلى أضيق الطرق»، فيكون النظام الإسلامي يومئذ وليس اليوم؛ لأن اليوم مع الأسف الشديد لقد تربى المحكومون فضلًا عن الحكام تربية غير إسلامية في كثير من الأحكام الشرعية، منها أنهم رفعوا أسماء تدل على معاني ومسميات في الشرع الإسلامي رموا هذه الأسماء لكي لا تذكرهم بهذه المسميات؛ لأنها لا تتناسب مع الوضع الاجتماعي.

نحن مثلًا كثيرًا ما نحذر المسلمين حينما أعرضوا عن كلمة (ربا) واستبدلوا الفائدة بالربا، استعملوا كلمة الفائدة مكان الربا، والآن من جملة هذه الألفاظ التي رفعوها أولًا، واستبدلوا غيرها بها ثانيًا كلمة (مواطن)، كلمة مواطن تعني عدم التفريق بين المسلم واليهودي والنصراني والكافر والملحد والبعثي والشيوعي.. إلى آخره، موطن، وتجد هذه اللغة شائعة من المسلمين، لما يتصل

المتصل مع الإذاعة البث المباشر، يقول أنا مواطن ولا يقول أنا مسلم، فضلًا عن أن يقول أنا يهودي أو أن يقول نصراني، بل يقول: أنا مواطن، هذه تعمية للحقائق الشرعية، لا يتنبه لها الناس، فإذا ما وصل المجتمع إلى هذا الانحطاط في عدم الشعور بالعزة الإسلامية التي كانت لأجدادنا من قبل، حينئذ لو شعر بعض المسلمين بعزتهم لكنهم مع الأسف لا يستطيعون أن ينفذوا كثيرًا من أحكام دينهم، من ذلك: «إذا لقيتم المشركين فاضطروهم إلى أضيق الطرق»، معنى أضيق الطرق، كانت الطرق يومئذ ليست بهذه السعة وهذه الرحابة المشاهدة اليوم، وخاصة في العواصم، لا تزال بعض الطرق في بعض القرى تذكرنا بهذه الطرق التي ليس فيها هذه السعة والرحابة، فجاء قوله عليه السلام: «فاضطروهم إلى أضيق الطرق»، فقد كان المسلم إلى عهد قريب أدركت أنا ناسًا في سوريا يحكون أن المسلم كان إذا لقي يهوديًا في دمشق مثلًا يقول له: طيرق، يعني افسح عن جادة الطريق وخذ جانبًا، أدركت أنا هذه اللفظة.

هذه الكلمة (طيرق) أخذت من الطريق المذكور في الحديث، فاضطروهم إلى أضيق الطرق، لكن اليوم مع الأسف الشديد لو أراد أحدنا أن ينفذ قام الحكم القانوني يحول بينه وبين ذلك، ويعتبره معتديًا على المواطن، وهذه الدلالة مع الأسف الشديد، والكلام كما يقال ذو شجون يجر بعضه بعضًا، دلالة المواطن أي استعمال هذه الكلمة بدل الذمي، وإعطاءه من الحقوق ما للمسلم، ذلك أثر من آثار الأحاديث الضعيفة والموضوعة، إن أنسَ فلم أنسَ أنني كنت أقرأ في مجلة المسلمون التي كانت تصدر في القاهرة، إبان عز الإخوان المسلمين فيها، وينشرون فيها محاضرات كان يلقيها حسن البنا رحمه الله، وأصحابه سعيد رمضان وغيره، كانوا يتحدثون عن عدالة الإسلام وعن موقفه

الرائع تجاه المخالفين للمسلمين، أي: أهل الذمة، يريدون بذلك أن يُمَهِّدوا في قيام الحكم الإسلامي دون أن يجدوا معارضة من اليهود والنصارى؛ لأنهم قد عرفوا أن الإسلام لا ينقص من حقوقهم شيئًا، تلك الحقوق التي يستوي فيها الذمي مع المسلم، فيقولون في محاضراتهم تأييدًا لهذه الدعوة الخاطئة وإن كان المقصود هو الوصول لإقامة الحكم الإسلامي، ولكني كما أقول في كثير من مثل هذه المناسبات:

أوردها سعد وسعد مشتمل ... ما هكذا يا سعد تورد الإبل

لا يمكن للمسلمين أن يقيموا دولة الإسلام بتغيير أحكام المسلمين، وإنما لبيانها للناس، ثم يقال بكل حرية: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [الكهف: ٢٩]، من هذا التغيير أن المجتمع المثقف اليوم الثقافة العصرية وليس الثقافة الشرعية، وبخاصة الثقافة الشرعية الصحيحة القائمة على الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، لا، أقول: هذا الشباب المثقف ثقافة عامة عصرية أصبح مهيئًا لإقامة الدولة المسلمة بشرط أن لليهود وللنصارى ما للمسلمين من حقوق؛ لأنهم لقنوا منذ نعومة أظفارهم في جامعاتهم وفي جمعياتهم، ومن رؤساء هذه الجمعيات قولهم قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في أهل الذمة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

إذًا: ليس هناك فرق بين مسلم وبين يهودي، إذًا: كلمة مواطن تجمعنا.

وهذا من أبطل الأحاديث التي يتكلم بها بعض الدعاة الإسلاميين حتى اليوم؛ لأن هذا الحديث بهذا السياق أي: أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال هذه الجملة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» في حق أهل الذمة من اليهود والنصارى، هذا لا أصل له في شيء من كتب أهل السنة، ومن هنا يظهر لكم

خطورة تلقي الإسلام من كتب الفقه المتوارثة وبخاصة ما كان منها من الكتب المتأخرة تأليفًا؛ لأن فيها من الأحاديث ما لا يصح الشيء الكثير، ولذلك قام بعض حفاظ الحديث وعلماؤه بتخريج هذه الكتب الفقهية نصحًا للأمة، لكن من هؤلاء المثقفين اليوم، والذين يحاضرون في المجتمعات العامة والخاصة الذين جمعوا بين دراسة الفقه المقارن أو المقارن، وبين دراسة الأحاديث وتمييز صحيحها من ضعيفها حتى لا يقعوا في مثل هذا المنكر أن ينسبوا إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما لم يقل.

الحديث السابق وجدوه في كتاب من كتب الفقه الحنفي معروف باسم الهداية، الذي عليه شرح فتح القدير لابن الهمام الحنفي المصري الإسكندراني، قال مخرج هذا الكتاب الهداية وهو الحافظ الزيلعي في كتابه المسمى بنصب الراية لأحاديث الهداية قال: هذا حديث غريب.

وهذا اصطلاح للزيلعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفرد به عن الاصطلاح المعروف قديمًا، إذا قال علماء الحديث في حديث ما حديث غريب، يعنون إسناده غريب، فخذ حذرك منه، ولا يقولون في حديث لا إسناد له حديث غريب، وإنما يقولون: لا أصل له.

جاء الزيلعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فبسبب اشتراكه في التنوع بمذهب هذا الكتاب الهداية تلفظ مع المؤلف.

فكل ما مر به حديث لا أصل له قال: حديث غريب.

حديث أهل الذمة وأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال فيهم: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» ذكره صاحب الهداية وقال الزيلعي: حديث غريب.

ليت هؤلاء المحاضرين الذين ينقلون هذا الحديث من الهداية قرؤوا كلام

الزيلعي، إذًا لعرفوا على كل حال أن هذا الحديث، إذ ما عرفوا أنه لا أصل له؛ لأنهم لا يعرفون اصطلاح الزيلعي، لكن عرفوا أنه حديث مستغرب يعني: غير صحيح، لكن هم في واد وكتب الحديث في واد، زد على ما ذكرت من أن هذا الحديث لا أصل له هكذا، أنه تحريف لحديث صحيح، الحديث الصحيح يقول الرسول لأحد رؤساء الجيش حينما جهزه ورأسه عليه، قال: «إذا لقيت المشركين فادعهم إلى إحدى الثلاث: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم استجابوا فلهم ما لنا وعليهم ما علينا».

إذًا: لهم ما لنا وعليهم ما علينا إذا صاروا مثلنا، مسلمين يعني، ولذلك مع الأسف استمر آثار هذه الأحاديث تعمل عملها، وتنخر في جسد الأمة من حيث لا يشعرون ولا يدرون.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ١٢٠): شيخنا بعض المسلمين يرقبون الغرب وتطورات الغرب فإذا حدث بعض الشيء فيه أظهروا الفرح والسرور، فهل هذا يعتبر من الخلل العقدي العملي أم القلبي، وماذا تنصح هؤلاء الناس؟

الشيخ: عفوًا، تقصد ماذا، ماذا تقصد؟

مداخلة: كلينتون شيخ.

مداخلة:... ذهب فلان وجاء فلان.

الشيخ: آه.

مداخلة: فهذا أخف منها، وهذا يعني سينفع المسلمين إلى غير ذلك.

الشيخ: هذا ضعف إيمان وعقل معًا. ضعف إيمان وعقل، الحقيقة الذي لا بد لكل مسلم أن يستحضرها في ذهنه بمثل هذه المناسبة، أن يتذكر قوله -تبارك وتعالى-: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} [الأعراف: ٣٨] ليذوقوا العذاب.

مداخلة: الآية {إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ} [الأعراف: ٣٨].

الشيخ: الله أكبر.

مداخلة: ههههه.

الشيخ: أي نعم، فالشاهد، في الحقيقة هذا الفرح فرح صبياني ليس فرح رجال أولًا، ثم هو ليس فرح رجال مسلمين ثانيًا؛ لأنه كون سقط بوش وقام مكانه

مداخلة: كلنتون.

الشيخ: ما أعرف شو اسمه

مداخلة: هههههه

الشيخ: أسماء غريبة على ذهني.

مداخلة: والله شيخنا أسماء شياطين.

الشيخ: ههه هه فالشاهد، سقط بوش ونجح في الانتخاب فلان، هم كلهم يمشون على سياسة واحدة، وإنما تغيير وجوه، ولذلك فمن السخافة بمكان أن نفرح أنه راح بوش وجاء فلان مكانه، وبخاصة أنه فلان لسا ما عرفنا خيره من شره إن كان منهم خير، فلماذا هذا الاستعجال، ما دام أنه الكفر أولًا كله ملة واحدة، والشعب الأمريكي كشعب سياسته مع اليهود، فكونه سقط بوش ونجح فلان هذا ما بغير من سياسة هذا الشعب بهذه السرعة التي يتوهمها بعض ضعفاء الأحلام والعقول، إنه خلصنا من بوش، طيب وهذا لعله شر من بوش، على كل حال، المسلم لا يفرح بسقوط شخص كافر وقيام شخص كافر مكانه؛ لأنه الكفر ملة واحدة، والسياسة هي سياسة واحدة، انظروا الآن: مين كان في الوزارة

تبع اليهود وقام مكانه....

مداخلة: آخشاميور، وإسحاق رابين.

الشيخ: إسحاق رابين، شو شوفنا بين سقط هذاك وقام هذا لا شيء أبدًا، إنما هو لعب على ذوي الأحلام الضعيفة، ومع الأسف بعض المسلمين أو بعض السياسيين الذين لم يساسوا بسياسة القرآن والسنة، ولذلك أنا أستطيع أن أقول إن الله، كما قال الله ﷻ أقول بهذه المناسبة: {إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} [القصص: ٧٦]، هؤلاء الذين يفرحون بسقوط هذا ونجاح هذا، هؤلاء كما قلت آنفًا أحلامهم كأحلام الصبيان بل العصافير، الله المستعان.

مداخلة:... دائمًا موجود في مجلس الشيوخ تبعهم. وكذا، يعني ما بينفرق... السياسة معهم.

الشيخ: السياسة واحدة. أي نعم.

الملقي: هل لهذا الأمر علاقة في العقيدة، يعني هل من الممكن أن يطلق، يعني بعض إخواننا يطلق على من يظهر الفرح لمثل هؤلاء: الكفر؟

الشيخ: لا لا، هذا كله خطأ ومعصية إذا كان إلها علاقة بالكفر فالكفر العملي يا أخي، نحن نأخذ القاعدة ونستريح، الكفر المخرج عن الملة يتعلق بالقلب، لا يتعلق باللسان، والآن سؤالك هذا يُذَكِّرني بقسمة عادلة أخرى للكفر، فهناك كفر لفظي، وكفر قلبي، التقسيم السابق كان كفر اعتقادي وكفر عملي، الآن قسمة أخرى عادلة كفر لفظي، وكفر قلبي، الكفر القلبي يساوي الكفر الاعتقادي، الكفر اللفظي يساوي الكفر العملي، فإنسان يظهر فرحًا بسقوط بوش ونجاح جورج أو أنطونيوس أو ما شابه ذلك، هذا فرح بلا شك لا ينبغي أن يصدر من مسلم، فهذا ممكن نسميه كفرًا لفظيًا، لكن هذا لا يكفر به؛

لأنه قد وقع في زمن الرسول ﷺ كما أعتقد أنه لا يخفى على أحد منكم شيء من ذلك، كمثل حديث ابن عباس لما قال إن الرسول ﷺ خطب يومًا في أصحابه فقام رجل ليقول له: ما شاء الله وشئت يا رسول الله، فقال: «أجعلتني لله ندًا، قل: ما شاء الله وحده»، فهذا كفر لفظي، قال له: «أجعلتني لله ندًا»، لكنه ما ألزمه بشيء.

الشيخ: من لوازم الكفر الاعتقادي، فإذًا نحن يجب أن نضع أمام أعيننا دائمًا وأبدًا هذه القسمة الصحيحة: كفر اعتقادي أو قلبي، وكفر عملي أو لفظي؛ لأنه اللفظ من العمل، فإذا رأينا مثل هذا ما نبادر إلى أن نقول: كفر، حتى لو تكلم بلفظة الكفر ما نبادر إلى تكفيره وإخراجه عن الملة، حتى نستوضح ماذا يريد بهذه الكلمة.

مداخلة: بعد إذنك شيخنا، لو سمحتوا.

الشيخ: تفضل

مداخلة: قبل ما يتكلم الأخ سليم.

الشيخ: نعم

مداخلة: أقول في هناك في سياسة البلاد الغربية أو الكفار بعامة في هناك أصول وفروع.

الشيخ: أيوه.

مداخلة: فالأصول لا تتغير على مدى السنين.

الشيخ: تمام...

مداخلة: أبدًا، في هناك أصول ثابتة للسياسة.

الشيخ: تمام...

مداخلة: وهذه الأصول الثابتة هي التي ينطلق منها وتحكم مسيرة السياسيين الصغار والكبار في تلك البلاد.

الشيخ: آه.

مداخلة: الفروع في الحقيقة هي متفرعة من هذه الأصول، وعندما نتابع نحن مسيرة السياسات الدولية العالمية التي أحاطت خصوصًا بنا وأوقعتنا فيما أوقعتنا فيه من البلايا نجد أن التغير الذي حدَّث إنما حدَّث فقط في الصيغ التي صيغت بها هذه الفروع المتفرعة عن هذه الأصول.

الشيخ: نعم.

مداخلة: ولذلك، نحن نضرب مثال مثلًا لذلك، مثلًا قضية فلسطين، قضية فلسطين الحقيقة منذ ما يقرب من خمسة وأربعين من خمس وأربعين سنة ونحن نتابع هذه القضية متابعة تخرجنا،.... في كل خمس سنوات أو عشر سنوات مرحلية سنوية قسمت لها القضية بأبعاد الزمن، تخرجنا من حال إلى حال، ونحن ننظر في هذا الحال الذي سبق فنجده أحسن من الحال الذي يأتي، والسياسة الدولية هي التي تلجؤنا إلى استحسان المرحلة الآتية وعدم استحسان المرحلة التي فاتت.

الشيخ: الله أكبر.

مداخلة: ولذلك وصلنا الآن بهذه السياسات التي صاغتها لنا الدولة الكافرة وصلنا إلى قناعة بأن أفضل ما يمكن أن نفعله الآن بالنسبة للقضية الفلسطينية أن نسلم بكل ما يحدث من غير أن نسأل: لم ولا كيف؟

الشيخ: الله أكبر.

مداخلة: وهذه النهاية التي انتهت إليها تعطينا فكرة، فيا ترى لو أنه كان هناك

مثلًا جاء أو بقي بوش هل يمكن أن نتصور بأن النهاية التي انتهت إليها القضية الفلسطينية ووضعت على مائدة المباحثات التي تجري الآن في واشنطن مثلًا، هل كان يمكن لبوش أن يعجل في النهاية قبل أن يتغير موقعه وأن يكون أن يأتي الرئيس الجديد؟ طبعًا الجواب: لا. هل هذا الرجل الآتي هل هو سيستعجل في حل القضية ويقول بأنني رأيت ما كان قبل السياسة التي رسمها بوش لهذه القضية هل أعود إلى المرحلة السابقة لأقف عندها وأحل القضية أو أجعل القضية محلولة بالنظريات التي كانت تحكم هذه القضية في المرحلة الزمنية السابقة؟ الجواب: لا. ولذلك سياسة واحدة لا تختلف، الفرح إذا فرحنا بقدوم كلنتون، نبكي على بوش.

الشيخ: الله أكبر، الله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ١٢٩): هل يجوز العمل بسفارة أجنبية أو عربية؟

الشيخ: الحقيقة أن العمل في السفارة الغربية إذا كانت سفارة معروفة عداؤها للإسلام والمسلمين فهذا قولًا واحدًا: لا يجوز؛ لأنه داخل في مخالفة عموم قوله تبارك وتعالى: {وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢]، أولًا.

وثانيًا: إن عمل المسلم في سفارة من هذه السفارات، وبخاصة إذا كان العمل في بلد الكفر، فهو نوع من التولي.

فيكون السبب المانع سببان اثنان:

الأول: أنه تعاون مع الكفار.

والثاني: هو تولي الكفار؛ لأن المسلم الذي أمر بمعاداة المشركين والكفار

لا يمكن أن يطمئن لئن يكون موظفًا رتيبًا في سفارة تعادي الإسلام والمسلمين.

أما إن كانت السفارة أو كان التوظف في سفارة عربية، وأنا يؤسفني أن يغلب علينا اليوم استعمال كلمة العربية مقام السفارة الإسلامية، فنحن نعني كما يعني الأعاجم من أمثالنا نحن في بلادنا كما يقال: فلان عرب، هم ما يقصدون العين فلان هرب، يعني: عرب يمكن في عندنا ألباني هنا، أين هذا البكري؟ هاه هنا، في الزوايا خبايا، فهناك إذا قالوا عرب يعني مسلم؛ لأنه يغلب في أذهانهم أن غالبية العرب نسبًا هم مسلمون دينًا ومذهبًا.

فالقصد: أن هذه السفارة التي يعمل فيها هذا المسلم إن كان يغلب عليها الخير ومحاولة مساعدة المسلمين في أعمالهم فيجوز، وإلا فتلحق بالأولى.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ١٣١): رجل كافر له رغبة في دخول الإسلام فأحب أن يقرأ القرآن فهل يجوز إهداؤه المصحف؟

الشيخ: لا شك في ذلك حينما لا يتبين لنا أن ذاك الكافر لا يريد أن يمس القرآن بسوء، فنحن إذا امتنعنا من عرض كتاب رَبِّنا على الكفار فكيف ندعوهم إلى الإسلام؟ ! لذلك صح عن النبي عليه الصلاة والسلام كما في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أنه نهى أن يُسَافر بالقرآن إلى أرض العدو، وفي لفظ لمسلم: لا تسافروا بالمصحف إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو، نال فلان فلانًا معناه: سبه وطعن فيه، فنهى الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن أن يسافر المسلم بالمصحف إلى أرض العدو إذا كان يخشى أنه إذا وقع في يد العدو أن يصاب كلام الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء من الإهانة ونحو ذلك.

وكما هو معلوم من علم أصول الفقه أن دِلَالة المفهوم في الكتاب والسنة حجة كدلالة المنطوق إلا إذا عارض المفهومَ منطوقٌ ما فدلالة المنطوق

أصوليًا أقوى من دلالة المفهوم، فإذا تعارض منطوق ومفهوم قُدِّم المنطوق على المفهوم، أما إذا كان هناك مفهوم ما لم يعارضه منطوق فهو حجة، وهذه قاعدة تُيَسِّر لطالب العلم أن يفهم شيئًا من الفقه يخفى على من لا علم عنده بأن المفهوم حجة، إذا كان الأمر كذلك نعود إلى قوله: «مخافة أن يناله العدو» فهذا مفهومه: أنه إذا لم يكن هناك خوف أن ينال العدو المصحف بإهانة ما فلا ينهى الرسول عليه الصلاة والسلام المسلم أن يسافر بالمصحف إلى أرض العدو.

وكأني ألاحظ بأن في نفوس بعض الحاضرين تشوقًا إلى معرفة الدليل على حجية المفهوم؛ لأن الواقع أن المسألة يوجد فيها خلاف بين الحنفية من جهة والأئمة الآخرين من جهة أخرى، فالحنفية يصرحون فيقولون: بأن المفهوم لا يؤخذ به، ومن عجب أنهم يقيدون ولا يطلقون فيقولون: مفاهيم الكتاب والسنة ليست بحجة، أما مفاهيم كتبنا فهي حجة، هذا من الأشياء التي ينبغي على طالب العلم أن يكون على انتباه وحذر منها حتى لا يقع في شيء من الإفراط أو التفريط.. أو أن يفضل كلام المخلوق على كلام الخالق سبحانه وتعالى، فالدليل على أن المفهوم حجة بالقيد السابق، أي: إن لم يخالف منطوقًا هو أن الله تبارك وتعالى ذكر في كتابه فقال: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [النساء: ١٠١] هذا شرط مفهومه: أنه عليكم جناح أن تقصروا إن لم تخافوا، وهذا ما ألقي في بال بعض الصحابة لما سمع هذه الآية، فتوجه بسبب هذا الذي ألقي في نفسه بالسؤال إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قائلًا: يا رسول الله! ما لنا نقصر وقد أمنا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» أين الدليل؟ الدليل أن الصحابي العربي فهم أن هذا الشرط منه مفهوم،

ولولا ذلك ما كان به من حاجة إلى أن يتوجه بالسؤال الذي يدفع عنه الشبهة والإشكال، ما كان به حاجة أن يتوجه بذلك إلى الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ ليقول له: ما لنا نقصر وقد أمنا؟ هو كأنه يقول: يا رسول الله! ربنا اشترط علينا في رفع المؤاخذة... في القصر إذا ضربنا في الأرض، أي: سافرنا إذا كنا خائفين، ونحن الآن وقد وطد الله للإسلام في الأرض توطيدا، ولم يبق هنا منا خوف من المشركين بل قضى الله على المشركين فأمنا فما بالنا نقصر؟ أنتم تعلمون جميعًا بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حج حجة الوداع وليس في طريقه شيء من الخوف إطلاقًا، ومع ذلك من ساعة خروجه من المدينة ظل يقصر هو والصحابة حتى رجع إليها، وكما يقول عثمان بن عفان: ونحن مطمئنون غير خائفين، فجاء هذا السؤال.

هذا الحديث مما يتعلق بموضوع سابق كنت طرقته لكم فيه أيضًا تنبيه إلى طريق من طرق الاستنباط للفقه، لما ذكرت لكم قول أبو بكر: مزامير الشيطان في بيت رسول الله! وعطفت على ذلك أحاديث أخرى، فقلت: وبنيت على ذلك أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إذا سمع شيئًا وأقره ولم ينكره فكأنه هو قال ذلك؛ لأنه أقره، هنا لما سمع الصحابي يقول: ما بالنا نقصر وقد أمنا؟ لا شك وضح لكم أن الصحابي اعتد هنا بالمفهوم، بالتالي ما قال له الرسول أنت تحتج بالمفهوم والمفهوم لا حجة فيه، بمعنى لا سمح الله: لو كان منطق النبي وفهمه لهذه النقطة بالذات على ما يذهب إليه الحنفية، أي: من أن المفهوم ليس به حجة، أو بعبارة أخرى: لو أن الحنفي المتمذهب بالمذهب هذا أورد عليه هذا السؤال من أحدهم، ماذا يكون جوابه؟ سيخطئه سيقول له: أنت تحتج بالمفهوم والمفهوم لا حجة فيه، هل كان هذا هو موقف النبي -صلى الله عليه

وآله وسلم-؟ كلا، وإنما سكت عن سؤاله مقرًا له ثم أزال إشكاله بقوله هذا... هو الأمر كما تقول.. الفهم كما تفهم لكن انتبه هناك شيء خفي عليك، فالأمر كما تقول ولكن الله تفضل على عباده وتصدق عليهم فأنتم من عباده فاقبلوا صدقته.

فالمفهوم حجة بنص هذه الآية التي فهمها الصحابي، وأقر الرسول عليه السلام فهمه، وأزال إشكاله بقوله: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته».

ومن تمام الحجة في هذه الرواية أن أحد التابعين قال أمام عمر فيما يغلب على ظني: لو أني أدركت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لسألته، قال له عمر: عما تسأله؟ قال: عن هذه الآية: {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [النساء: ١٠١] وهانحن اليوم... يقول هذا الكلام، لا نزال نقصر وليس هناك خوف فالإسلام هو الحاكم؟ قال: لقد سألت رسول الله.. الصحابي... عمر يقول: لقد سألت رسول الله عما كنت تريد أن تسأله فأجابني بقوله: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته».

وسئل رحمه الله في نفس المصدر (٨/ ١٣٥): أفتونا جزاكم الله خيرًا في البلية التي بُلِينا بها، وهي وجود الخَدَم من الرجال ومن النساء ومنهم الكفار في بيوتنا، حيث... بحجة الضرورة.

الشيخ: هذه مصيبة من المصائب التي ابتُلِيت بها بعض البلاد وبخاصة أمثال بلادكم التي ابتليتم فيها بكثرة المال، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن لكل أمة فتنة، ففتنة أمتي المال» يجب على من أنعم الله عليهم أن يقابلوا نعمة الله هذه بالشكر والشكر هو طاعة الله عز وجل فيما أمر والانتهاء عما عنه نهى وزجر.

أولًا: لا يجوز للرجل المسلم أن يُدْخِل بيته امرأة كافرة، ليس رجلًا

مسلمًا... كافرًا بل لا يجوز للمسلم أن يدخل بيته كافرةً خادمة، ذلك لأن هذه الكافرة ستتطلع على عورة المرأة المسلمة، ويجب أن تعلموا أن عورة المرأة المسلمة تجاه المرأة الكافرة هي كمنزلة الرجل، فلا يجوز للمرأة المسلمة أن تظهر أمام المرأة الكافرة ولو كانت خادمًا إلا قرص الوجه والكفين فقط، فمن ذا الذي يستطيع أن يفرض هذا الواجب على رَبَّة الدار السيدة المخدومة، هذا صعب جدًا فيما أعتقد إن لم أقل إنه مستحيل واقعيًا لذلك لا يجوز استخدام المرأة الكافرة، وإذا عرفتم ذلك عرفتم أن استخدام الرجل لا يجوز.. الرجل الكافر لا يجوز من باب أولى؛ لأنه على ميزان قول ربنا تبارك وتعالى في تأديبه للأولاد بقوله: {فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} [الإسراء: ٢٣] فإذا كان الله تبارك وتعالى قد أَدَّب الولد فنهاه أن يُقَابِل والده أو والدته بكلمة: أف، فمن أولى أنه ينهاه عن أن يضربه أو يضربها بكف، هذا يسمى عند العلماء بالقياس الأولوي وهو متفق عليه عند العلماء.

فإذا كان لا يجوز استخدام المرأة الكافرة؛ لأنها سَتَطَّلِع على شيء من عورة المرأة المسلمة فمن باب أولى لا يجوز استخدام الرجل الكافر، ونحو ذلك أيضًا استخدام الرجل المسلم؛ لأننا نعلم أيضًا بالتجربة أن المرأة السيدة تتساهل وتتسامح مع الخادم الذي هو رجل مسلم، وكما يقال في بلادنا السورية وغيرها: ما في أحد غريب! هذا خادمنا وهذا منا وفينا، ثم قد يكون هذا الخادم سائقًا للسيارة فيقود بها السيارة ويخلوا بها فيها، وربما يجري الشيطان بينهما ثم تحصل الفتن التي تحصل في بعض البلاد، لذلك هذا كله لا يجوز إسلاميًا، إذا كان ولا بد للزوجين أن يستخدموا امرأة فلا بد من أن تكون مسلمة؛ لأن الفتنة بها أقل من فتنة المرأة الكافرة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ١٣٨): هل يجوز حضور احتفال عيد المعلم الذي يقام في المدارس، وهل يجوز للمُدَرِّسة قبول الهدية التي تهدي لها المدرسة؟

الشيخ: الجواب: أن هذه المشكلة هي مشكلة نابعة من تقليدنا لِنُظُم الكفار ولا يمكن القضاء على مثلها إلا بتغيير المناهج الدراسية وإلا فستسمعون أنه لا يجوز لا يجوز لا يجوز، لكن مع لا يجوز فنحن مرغمون على الوقوع فيها لفساد المنهاج، لعلكم تعلمون جميعًا أنه لا يوجد في الإسلام أعياد سوى ثلاثة: عيدان سنويان عيد الفطر وعيد الأضحى، وعيد أسبوعي وهو يوم الجمعة، ليس ثمة أعياد إلا هذه، لقد كنا نشكو ولا نزال نشكو من عيد واحد طرأ على المسلمين منذ سنين طويلة منذ قرون، ألا وهو عيد المولد النبوي، وكنا نقول: إن هذا أولًا بدعة لا أصل لها في السنة، وثانيًا هو أيضًا نابع من تقليد المسلمين القدامى للنصارى فيقول قائلهم.. قائل المبتدعة هؤلاء: يا أخي! النصارى يحتفلون بميلاد نبيهم فكيف لا نحتفل نحن بميلاد نبينا صلوات الله وسلامه عليه؟ !

لقد غفل المسلمون غفلة عنيفة جدًا عن دينهم، فمعنى هذا الكلام أن النصارى قدوة لنا، وكأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ما حذرنا عن اتباعهم وتقليدهم... الحديث الذي في البخاري مثلًا من رواية أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذرعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى، قال: فمن الناس؟ ! » فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ يُحَذِّرنا من أن نُقَلِّد هؤلاء الكفار؛ لأنهم انحرفوا عن سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ أولًا بتحريفهم للكتاب..

للتوراة والأنجيل، وثانيًا: بسبب كفرهم بالإسلام وبنبينا عليه الصلاة والسلام الذي نسف الله به وبكتابه سائر الأديان.

ولا بأس بهذه المناسبة أن أُذَكِّر بشيء ربما يجهله بعض الناس: لقد ورد في صحيح مسلم من حديث أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: يا رسول الله! ما تقول في صوم يوم الاثنين، كان جوابه على طريقة أسلوب حكيم، ما قال له: هذا مستحب.. هذا أمر فاضل ونحو ذلك، وإنما قال له ما هو أبلغ من ذلك، قال: «ذاك يوم وُلِدّت فيه وأُنِزل عليَّ الوحي فيه» ما معنى هذا الجواب؟ كأنه يقول: عليكم أن تصوموا يوم الاثنين شكرًا لله عَزَّ وَجَلَّ على ما أنعم به عليكم من ولادتي فيه وبعثتي فيه، ينبغي أن تشكروا الله على ذلك بأن تصوموا هذا اليوم؛ لأنه يوم فضيل ولد فيه الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-، وبعث فيه الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-.

ومن سنن الأمم قبلنا من أهل الكتاب أن يشكروا الله عَزَّ وَجَلَّ على نعمة أنعم الله تبارك وتعالى بها عليهم، فقد جاء في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما جاء المدينة مهاجرًا وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم عن السبب، فقالوا: هذا يوم نجى الله فيه موسى وقومه من فرعون وجنده، فقال عليه الصلاة والسلام: «نحن أحق بموسى منكم فصامه، وأمر بصيامه» فإذا كان أولًا اليهود صاموا يوم عاشوراء شكرًا لله وأقرهم على ذلك نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام، ثم جاء الإقرار من نبينا خاتم الأنبياء وقال لهم: «نحن أحق بموسى منكم» فصامه وأمر بصيامه، فنحن إذًا علينا... بهذه النعمة التي لا نعمة بعدها إلا الإسلام أن نصوم كل يوم اثنين. نحن نعلم أن كثيرًا من المسلمين والحمد لله لا يزالون يتابعون يومين على

الأقل في الأسبوع، يوم الاثنين ويوم الخميس، هذا مما جاءت فيه الأحاديث الفعلية والقولية، ولكن كثيرًا من الصائمين هؤلاء يصومون يوم الاثنين؛ لأنه يشرع فيه الصيام لكن أقل من القليل من يصوم يوم الاثنين وهو يستحضر في نفسه أنه حض عليه كشكرًا لربه أن خلق وأولد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وبعثه في هذا اليوم، هذا المعنى قليل جدًا من هؤلاء الصائمين من يستحضره في نفسه في يوم صومه، فمثلًا... يوم الاثنين وهو يستحضر في نفسه أنه حض عليه كشكرًا لربه أن خلق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وبعثه في هذا اليوم، هذا المعنى قليل جدًا من هؤلاء الصائمين من يستحضروه في نفسه في يوم صومه، فماذا نقول عن الذين لا يصومونه؟ هم أبعد ما يكونون عن أن يستحضروا هذا الحكم الشرعي المُعَلَّل بهذه العلة التي تستوجب شكر الله بالصيام.

فماذا أصاب المسلمين؟ لقد استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فإنك تجد عامة الذين يحتفلون بما يسمونه بعيد المولد النبوي لا يصومون يوم الاثنين أكثر هؤلاء... لا يصومون يوم الاثنين، إذا قيل لهم: بم تحتفلون؟ يقولون: نحن نحتفل تعظيمًا للرسول عليه السلام وذكرى للرسول عليه السلام، لكن الرسول قد شرع لكم بأمر الله ما هو خير لكم من هذا الاحتفال الذي هو أولًا محدث لا أصل له في الإسلام، وثانيًا: هو تشبه بالكفار... النصارى يحتفلون بمولد عيسى فنحن أولى أن نحتفل بمولد نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وثالثًا وأخيرًا: أنتم تحتفلون هذا الاحتفال غير المشروع في العام مرة، ورسولكم سن لكم أن تحتفلوا في كل أسبوع، فأي الاحتفالين أعظم لو كنتم تعلمون! إذًا: لا يجوز أن نحتفل بعيد من الأعياد وما أكثر هذه الأعياد، عيد

المعلم وعيد الأم وعيد الشجرة، فأصبحت الأيام كلها أعيادًا وليتها كانت فعلًا أعيادًا؛ لأن طبيعة الأعياد أن الناس يعيشون فيها بفرح وسُرور وحبور، لكن الناس اليوم يُعَيِّدون في ضنك من العيش والحياة، مع ذلك كثرت الأعياد التي يحتفلون بها، وهي في الواقع يصدق عليها قول الله ﷻ: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} [النجم: ٢٣].

فإذا كان الأمر كما ذكرنا أنه لا أعياد في الإسلام إلا تلك الأعياد الثلاثة، فإذًا: الاحتفال بعيد المعلم ككل احتفال في الأعياد الأخرى لا تُشْرَع في دين الإسلام.

مداخلة: والهدية يا شيخ.

الشيخ: الهدية تابعة للأصل، الأصل فاسد، فما بُنِي على فاسد فهو فاسد.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٨/ ١٤٢): يسأل السائل فيقول: هل يجوز إقامة المحاضرات عند رأس السنة الميلادية تتحدث عن المسيح عليه الصلاة والسلام ومكانته في الإسلام، وما إلى ذلك من أمور متعلقة بالمسيح، وذلك لدعوة غير المسلمين من النصارى وغيرهم لاعتناق الإسلام، وما حكم المداومة على ذلك؟

الشيخ: أولًا: ذكرنا في الأمس القريب حكم الأعياد في الإسلام غير الأعياد الثلاثة، عيد الفطر والأضحى وعيد يوم الجمعة.

ثانيًا: من كان حقيقةً حريصًا على دعوة غير المسلمين إلى الإسلام فلا ينحصر الأمر باغتنام فرصة احتفال النصارى بعيدهم لنشاركهم بدعوى دعوتهم إلى الإسلام، فهناك مجالات كثيرة جدًا من الكتابة والخطاب ونحو ذلك لدعوتهم في أي وقت يتمكن الداعي منه، فليس هناك ما يُبَرِّر مشاركة النصارى

بأعيادهم بدعوى تبليغهم دعوة الإسلام، وباختصار: ليس من الإسلام ما يقال اليوم: الغاية تُبرِّر الوسيلة؛ لأن هذه القاعدة المزعومة ليست قاعدةً إسلامية إنما هي قاعدة [يهودية] محضة، ولقد ابتلي بعض المسلمين بالتأثر بها، فنجدهم يواقعون ويقارفون أحكامًا غير شرعية بدعوى أنها تؤدي إلى مصلحة، المصلحة لا يجوز اتخاذ الطريق إليها طريقًا غير شرعي، كما أيضًا تحدثنا في جلسة مضت عن الفرق بين المصلحة التي يشرع الأخذ بها وبين البدعة التي يسميها بعضهم بدعة حسنة، فذكرنا أن المصلحة لها شروط لا بد أن تتوفر لجواز الأخذ بها وإلا فلا.

إن كنتم تذكرون ما كنت ذكرته لكم من كلام ابن تيمية أن المقتضي إذا كان قد حدث ولم يكن في زمن الرسول عليه السلام، وكان السبب لوجود المقتضي الأخذ بالمصلحة نابعًا بسبب تقصيرنا في تطبيق أحكام شرعنا فلا يجوز حينذاك أن نتخذ تلك المصلحة؛ لأنها نتجت أو توهمناها مصلحة بسبب عدم تطبيقنا للشريعة، كنت فصلت هذا... بعض التفصيل... النصارى بل لا يجوز اتخاذ الأعياد المبتدعة عند المسلمين وسيلة لتحقيق مصلحة.

فنحن نقول: إن كثيرًا من الإسلاميين اليوم يغتنمون فرصة المولد النبوي، فيخطبون ويذكرون وإلى آخره، وقد يشاركهم في ذلك بعض السلفيين بدعوى أنها فرصة تغتنم وتهتبل لتبليغ الدعوة السلفية إلى هؤلاء الناس... هذا ما نراه جائزًا... من المشاركة بأعياد نعتقد أنها ليست مشروعة، مع ملاحظة أنه يمكن... في الدعوة بالطريق المشروع، نعم؟...

مداخلة:...

الشيخ:... أنا قلت: لا يوجد في الإسلام إلا عيد الفطر وعيد الأضحى وعيد

يوم الجمعة.

مداخلة:...

الشيخ: كيف لا يكون... ألا يحضرون معه؟

مداخلة:... مجرد أن المرء...

الشيخ: والسؤال كيف كان؟

مداخلة:...

الشيخ: إذًا هذا تستطيع أن تجعله سؤالًا منفصل.

مداخلة:...

الشيخ: لكن ما الذي يتبادر من السؤال؟ تستطيع أنت أن تقول.. ما تستدرك، تقول: لكن هؤلاء كذا، لكن تقول: إذا لم يشاركوهم في أعيادهم ولكنهم في أماكنهم حيث هم في المسجد.. في المدرسة.. في النادي، في أي مكان كان فهم يتحدثون بالدعوة الإسلامية، فهذا حينئذٍ يأخذ قولًا آخر وحكمًا آخر.

مداخلة:... هذه...

الشيخ: ما في مانع؛ لأنه ما في مشاركة، وأنت لعلك تَنَبَّهت أنني قلت: إن بعض الإسلاميين يغتنمون فرصة الاحتفال بالمولد النبوي حتى بعض السلفيين قلت،... أنا هذا لا أراه جائزًا لما فيه من المشاركة في الاحتفال بشيء لم يثبت في السنة، فنحن ندندن حول المشاركة الذاتية والشخصية، أما الذي أنت بدا أو ذهب إليه وهلك وفكرك هذه مسألة أخرى،...

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٨/ ١٤٥): مداخلة: بسم الله الرحمن الرحيم، ما حكم الوقوف أمام العلم، وحكم الكف عن الحركة والانتصاب للعلم وعند السلام الوطني؟

الشيخ: هذه بلا شك من التقاليد الكافرة، والتي نهينا عن تقليدهم بمناهي عامة وخاصة، فلا يجوز لأي دولة مسلمة حقًا أن تتبنى شيئًا من تقاليد الكفار، لكن الأمر يعود إلى من كان له الخيرة، ولا شك أن الحاكم المسلم الذي ليس فوقه حاكم في الدنيا هو الذي يستطيع أن يغير ويبدل هذه التقاليد وهذه العادات الكافرة بتقاليد وعادات إسلامية.

أما من كان موظفًا أو كان جنديًا، ولا يستطيع إلا أن يتبع هذا النظام المنحرف عن الإسلام، فهنا يظهر مراتب الناس، على حد قوله عليه السلام: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» فنحن نعلم مثل هذه المشاكل يقع الشيء الكثير منها في بعض البلاد الإسلامية؛ لأنها أمور تقاليد أجنبية.

مثلًا: في بعض الدول العربية الإسلامية، لا يجوز للجندي أن يلتحي، فالناس على هذه المراتب التي جاء ذكرها في الحديث، أكثر الناس اليوم لما يدخلون التجنيد يحلقون لحاهم، بعضهم لا يحلقها وإنما هم يحلقونها منه رغم أنفه، وبعضٌ آخر وهذا قليل جدًا، وله أمثلة هنا في الأردن وفي سوريا يصمد ويصبر ويلقى العذاب والسجن.. إلى آخره، ثم ينصره الله عز وجل فتراه جنديًا ملتحيًا بينما الألوف المؤلفة بدون لحى.

فإذًا: القضية لها علاقة بقوة إيمان المكلف، فهذا الذي يُكَلَّف بأن يُحَيِّي العلم هذه التحية غير الإسلامية، بلا شك أنه يستطيع أن لا يُحَيِّي، لكنه يعلم أن أمامه السجن وأمامه التعذيب، وربما أشياء أخرى لا نعرفها، فالمؤمن القوي الإيمان يصبر، ثم ما يكون بعد الصبر إلا النصر، كما رَبُّنا عز وجل عَوَّد المؤمنين بذلك، وناس آخرون لا يصبرون هذا الصبر، فيحيوا العلم وقلوبهم منكرة لهذه

التحية، وهكذا فيجب أن نعلم أن هذا منكر، وأن الذي يضطر إلى القيام به على الأقل ينكره بقلبه؛ لأنه ليس وراء ذلك ذرة من إيمان كما هو معلوم في بعض روايات الأحاديث الصحيحة.

مداخلة: مجرد الانتصاب أمام العلم هذا يخل بالتوحيد؟

الشيخ: طبعًا يخل بالإسلام والشريعة والآداب الإسلامية: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِين} [المطففين: ٦] هذا التعظيم أشبه بتعظيم الأصنام؛ لأن هذا العلم عبارة عن قطعة قماش، لكن هو التقليد الأوروبي الأعمى مع الأسف الشديد.

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٣/ ١١): عن الولاء والبراء؟.

فأجاب: البراء والولاء لله سبحانه، أن يتبرأ الإنسان من كل ما تبرأ الله منه، كما قال سبحانه وتعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا} وهذا مع القوم المشركين، كما قال سبحانه: {وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ}، فيجب على كل مؤمن أن يتبرأ من كل مشرك وكافر، فهذا في الأشخاص.

وكذلك يجب على المسلم أن يتبرأ من كل عمل لا يرضي الله ورسوله وإن لم يكن كفرا، كالفسوق والعصيان، كما قال سبحانه: {وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}.

وإذا كان مؤمن عنده إيمان، وعنده معصية، فنواليه على إيمانه، ونكرهه

على معاصيه، وهذا يجري في حياتنا، فقد تأخذ الدواء كريه الطعم، وأنت كاره لطعمه، وأنت مع ذلك راغب فيه؛ لأن فيه شفاء من المرض.

وبعض الناس يكره المؤمن العاصي أكثر مما يكره الكافر، وهذا من العجب، وهو قلب للحقائق، فالكافر عدو لله ولرسوله وللمؤمنين، ويجب علينا أن نكرهه من كل قلوبنا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ}. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} وهؤلاء الكفار لن يرضوا منك إلا اتباع ملتهم وبيع دينك {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}، {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا}، وهذا في كل أنواع الكفر: الجحود والإنكار، والتكذيب، والشرك، والإلحاد.

أما الأعمال فنتبرأ من كل عمل محرم، ولا يجوز لنا أن نألف الأعمال المحرمة، ولا أن نأخذ بها، والمؤمن العاصي نتبرأ من عمله بالمعصية، ولكننا نواليه، ونحبه على ما معه من الإيمان.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ١٢): عن حكم موالاة الكفار؟.

فأجاب: موالاة الكفار بالموادة والمناصرة واتخاذهم بطانة حرام منهي عنها بنص القرآن الكريم، قال الله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ}، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ

وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا}، وأخبر أنه إذا لم يكن المؤمنون بعضهم أولياء بعض، والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، ويتميز هؤلاء عن هؤلاء، فإنها تكون فتنة في الأرض، وفساد كبير.

ولا ينبغي أبدا أن يثق المؤمن بغير المؤمن، مهما أظهر من المودة، وأبدى من النصح، فإن الله تعالى يقول عنهم: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً}، ويقول سبحانه لنبيه: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ}، والواجب على المؤمن أن يعتمد على الله في تنفيذ شرعه، وألا تأخذه فيه لومة لائم، وألا يخاف من أعدائه، فقد قال الله تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، وقال تعالى: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ}.

وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}، والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٣/ ١٤): عن حكم مودة الكفار، وتفضيلهم على المسلمين؟.

فأجاب: لا شك أن الذي يواد الكفار أكثر من المسلمين قد فعل محرما

عظيما، فإنه يجب أن يحب المسلمين، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، أما أن يود أعداء الله أكثر من المسلمين، فهذا خطر عظيم، وحرام عليه، بل لا يجوز أن يودهم، ولو أقل من المسلمين لقوله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ} وكذلك أيضا من أثنى عليهم ومدحهم وفضلهم على المسلمين في العمل وغيره، فإنه قد فعل إثما، وأساء الظن بإخوانه المسلمين، وأحسن بمن ليسوا أهلا لإحسان الظن، والواجب على المؤمن أن يقدم المسلمين على غيرهم في جميع الشئون في الأعمال وفي غيرها، وإذا حصل من المسلمين تقصير، فالواجب عليه أن ينصحهم، وأن يحذرهم، وأن يبين لهم مغبة الظلم؛ لعل الله أن يهديهم على يده.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ١٥): عن الموالاة والمعاداة؟ وعن حكم هجر المسلم؟.

فأجاب: إن الموالاة والمعاداة يجب أن تكون لله عَزَّ وَجَلَّ، فإن من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فقد سلك الطريق التي بها تنال ولاية الله عَزَّ وَجَلَّ، أما من كانت ولايته ومعاداته وحبه وبغضه للهوى، أو للتقليد الأعمى، فقد حرم خيرا كثيرا، وربما يقع في أمر كبير، فقد يعادي وليا من أولياء الله عَزَّ وَجَلَّ، فيكون حربا لله تعالى، كما في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه

البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «قال الله ﷻ: من عادى لي وليا فقد آذنته في الحرب»... " الحديث.

وربما يحب ويوالي عدوا من أولياء الله ﷻ، فيقع في أمر كبير وخطر عظيم كما قال الله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} .

وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ} ، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ} .

وهجر المسلم في الأصل حرام، بل من كبائر الذنوب إذا زاد على ثلاثة أيام، فقد صح عن النبي - أنه قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة، يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام». متفق عليه، وروى أبو داود والنسائي بإسناده قال المنذري: إنه على شرط البخاري وسلم: «فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار».

ومن المعلوم أن المسلم لا يخرج عن الإسلام بالمعاصي وإن عظمت، ما لم تكن كفرا، وعلى هذا فلا يحل هجر أصحاب المعاصي، إلا أن يكون في هجرهم مصلحة بإقلاعهم عنها، وردع غيرهم عنها؛ لأن المسلم العاصي ولو كانت معصيته كبيرة أخ لك؛ فيدخل في قوله -: لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث... " ومن الأدلة على أن العاصي أخ للمطيع، وإن عظمت معصيته قوله تعالى فيمن قتل مؤمنا عمدا: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ} . فجعل الله القاتل عمدا أخا للمقتول، مع أن القتل -قتل المؤمن عمدا- من أعظم الكبائر، وقوله تعالى في الطائفتين

المقتتلتين من المؤمنين: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا}. إلى قوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}. فلم يخرج الله الطائفتين المقتتلتين من الإيمان، ولا من الأخوة الإيمانية.

فإن كان في الهجر مصلحة، أو زوال مفسدة، بحيث يكون رادعا لغير العاصي عن المعصية أو موجبا، لإقلاع العاصي عن معصيته كان الهجر حينئذ جائزا، بل مطلوبا طلبا لازما، أو مرغبا فيه، حسب عظم المعصية التي هجر من أجلها، ودليل ذلك قصة كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم وهم الثلاثة الذين خلفوا؛ فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهجرهم، ونهى عن تكليمهم، فاجتنبهم الناس، حتى إن كعبا رضي الله عنه دخل على ابن عمه أبي قتادة رضي الله عنه وهو أحب الناس إليه، فسلم عليه فلم يرد عليه السلام، فصار بهذا الهجر من المصلحة العظيمة لهؤلاء الثلاثة من الرجوع إلى الله عز وجل، والتوبة النصوح والابتلاء العظيم، ولغيرهم من المسلمين ما ترجحت به مصلحة الهجر على مصلحة الوصل.

أما اليوم، فإن كثيرا من أهل المعاصي لا يزيدهم الهجر إلا مكابرة وتماديا في معصيتهم، ونفورا وتنفيرا عن أهل العلم والإيمان؛ فلا يكون في هجرهم فائدة لهم ولا لغيرهم.

وعلى هذا فنقول: إن الهجر دواء يستعمل حيث كان فيه الشفاء، وأما إذا لم يكن فيه شفاء أو كان فيه إشفاء، وهو الهلاك فلا يستعمل.

فأحوال الهجر ثلاث:

إما أن تترجح مصلحته فيكون مطلوبا.

وإما أن تترجح مفسدته فينهى عنه بلا شك.

وإما أن لا يترجح هذا ولا هذا، فالأقرب النهي عنه؛ لعموم قول النبي، صلى الله عليه وسلم:

«لا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة».

أما الكفار المرتدون فيجب هجرهم والبعد عنهم، وأن لا يجالسوا ولا يواكلوا، إذا قام الإنسان بنصحهم ودعوتهم إلى الرجوع إلى الإسلام فأبوا، وذلك لأن المرتد لا يقر على ردته، بل يدعى إلى الرجوع إلى ما خرج منه، فإن أبى وجب قتله، وإذا قتل على ردته، فإنه لا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن مع المسلمين، وإنما يرمى بثيابه، ورجس دمه في حفرة بعيدا عن المقابر الإسلامية في مكان غير مملوك.

وأما الكفار غير المرتدين فلهم حق القرابة إن كانوا من ذوي القربى، كما قال تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ}، وقال في الأبوين الكافرين المشركين: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٣/ ١٨): عما زعمه أحد الوعاظ في مسجد من مساجد أوربا، من أنه لا يجوز تكفير اليهود والنصارى؟.

فأجاب: إن هذا القول الصادر عن هذا الرجل ضلال، وقد يكون كفرا، وذلك لأن اليهود والنصارى كفرهم الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه، قال الله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، فدل ذلك على أنهم مشركون، وبين الله تعالى في آيات أخرى ما هو صريح بكفرهم:

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ

اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}.

{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ}.

والآيات في هذا كثيرة، والأحاديث، فمن أنكر كفر اليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وكذبوه، فقد كذب الله ﷻ وتكذيب الله كفر، ومن شك في كفرهم فلا شك في كفره هو.

ويا سبحان الله كيف يرضى هذا الرجل أن يقول: إنه لا يجوز إطلاق الكفر على هؤلاء، وهم يقولون: إن الله ثالث ثلاثة؟ وقد كفرهم خالقهم ﷻ، وكيف لا يرضى أن يكفر هؤلاء وهم يقولون: إن المسيح ابن الله، ويقولون: يد الله مغلولة، ويقولون: إن الله فقير ونحن أغنياء؟!

كيف لا يرضى أن يكفر هؤلاء، وأن يطلق كلمة الكفر عليهم، وهم يصفون ربهم بهذه الأوصاف السيئة التي كلها عيب وشتم وسب؟!

وإني أدعو هذا الرجل، أدعوه أن يتوب إلى الله ﷻ وأن يقرأ قول الله تعالى: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} وألا يداهن هؤلاء في كفرهم، وأن يبين لكل أحد أن هؤلاء كفار، وأنهم من أصحاب النار، قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي يهودي «ولا نصراني من هذه الأمة -أي أمة الدعوة- ثم لا يتبع ما جئت به، أو قال: "لا يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار».

فعلى هذا القائل أن يتوب إلى ربه من هذا القول العظيم الفرية، وأن يعلن إعلانا صريحا بأن هؤلاء كفرة، وأنهم من أصحاب النار، وأن الواجب عليهم أن يتبعوا النبي الأمي محمدا ﷺ فإنه مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل {يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} وهو بشارة عيسى ابن مريم، عليه الصلاة والسلام.

فقد قال عيسى ابن مريم ما حكاه ربه عنه: {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}.

لما جاءهم من... ؟ من الذي جاءهم... ؟ المبشر به أحمد، لما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين، وبهذا نرد دعوى أولئك النصارى الذين قالوا: إن الذي بشر به عيسى هو أحمد لا محمد، فنقول: إن الله قال: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}. ولم يأتكم بعد عيسى إلا محمد ﷺ ومحمد هو أحمد، لكن الله ألهم عيسى أن يسمي محمدا بأحمد؛ لأن أحمد اسم تفضيل من الحمد، فهو أحمد الناس لله، وهو أحمد الخلق في الأوصاف كاملة، فهو عليه الصلاة والسلام أحمد الناس لله، جعلا لصيغة التفضيل من باب اسم الفاعل، وهو أحمد الناس، بمعنى أحق الناس أن يحمد، جعلا لصيغة التفضيل من باب اسم المفعول، فهو حامد ومحمود على أكمل صيغة الحمد الدال عليها أحمد.

وإني أقول: إن كل من زعم أن في الأرض دينا يقبله الله سوى دين الإسلام، فإنه كافر لا شك في كفره؛ لأن الله ﷻ يقول في كتابه: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} ويقول ﷻ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}.

وعلى هذا -وأكررها مرة ثالثة- على هذا القائل أن يتوب إلى الله ﷻ وأن يبين للناس جميعا أن هؤلاء اليهود والنصارى كفار؛ لأن الحجة قد قامت

عليهم وبلغتهم الرسالة، ولكنهم كفروا عنادا.

ولقد كان اليهود يوصفون بأنهم مغضوب عليهم؛ لأنهم علموا الحق وخالفوه، وكان النصارى يوصفون بأنهم ضالون؛ لأنهم أرادوا الحق فضلوا عنه، أما الآن فقد علم الجميع الحق وعرفوه، ولكنهم خالفوه وبذلك استحقوا جميعا أن يكونوا مغضوبا عليهم، وإني أدعو هؤلاء اليهود والنصارى إلى أن يؤمنوا بالله ورسله جميعا وأن يتبعوا محمدا ﷺ لأن هذا هو الذي أمروا به في كتبهم كما قال الله تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.

وليأخذوا من الأجر بنصيبين، كما قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وآمن بمحمد، ﷺ». الحديث.

ثم إني اطلعت بعد هذا على كلام لصاحب الإقناع في باب حكم المرتد قال فيه -بعد كلام سبق-: "أولم يكفر من دان بغير الإسلام كالنصارى، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم فهو كافر".

ونقل عن شيخ الإسلام قوله:

"من اعتقد أن الكنائس بيوت الله، وأن الله يعبد فيها، وأن ما يفعله اليهود والنصارى عبادة لله وطاعة له ولرسوله، أو أنه يحب ذلك أو يرضاه أو أعانهم على فتحها، وإقامة دينهم، وأن ذلك قربة أو طاعة فهو كافر".

وقال أيضا في موضع آخر: "من اعتقد أن زيارة أهل الذمة في كنائسهم قربة إلى الله فهو مرتد".

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٢٣): عن وصف الكفار بالصدق والأمانة وحسن العمل؟.

فأجاب: هذه الأخلاق إن صحت مع أن فيهم الكذب والغدر والخيانة والسطو أكثر مما يوجد في بعض البلاد الإسلامية وهذا معلوم، لكن إذا صحت هذه، فإنها أخلاق يدعو إليها الإسلام، والمسلمون أولى أن يقوموا بها ليكسبوا بذلك حسن الأخلاق مع الأجر والثواب، أما الكفار فإنهم لا يقصدون بها إلا أمرا ماديا فيصدقون في المعاملة لجلب الناس إليهم.

لكن المسلم إذا تخلق بمثل هذه الأمور فهو يريد بالإضافة إلى الأمر المادي أمرا شرعيا، وهو تحقيق الإيمان والثواب من الله عَزَّ وَجَلَّ وهذا هو الفارق بين المسلم والكافر.

أما ما زعم من الصدق في دول الكفر شرقية كانت أم غربية، فهذا إن صح فإنما هو نزر قليل من الخير في جانب كثير من الشر، ولو لم يكن من ذلك إلا أنهم أنكروا حق من حقه أعظم الحقوق، وهو الله عَزَّ وَجَلَّ {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}. فهؤلاء مهما عملوا من الخير، فإنه نزر قليل مغمور في جانب سيئاتهم، وكفرهم، وظلمهم فلا خير فيهم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٢٤): عن حكم السفر إلى بلاد الكفار؟

وحكم السفر للسياحة؟.

فأجاب: السفر إلى بلاد الكفار لا يجوز إلا بثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يكون عند الإنسان علم يدفع به الشبهات.

الشرط الثاني: أن يكون عنده دين يمنعه من الشهوات.

الشرط الثالث: أن يكون محتاجا إلى ذلك.

فإن لم تتم هذه الشروط، فإنه لا يجوز السفر إلى بلاد الكفار لما في ذلك من الفتنة أو خوف الفتنة، وفيه إضاعة المال؛ لأن الإنسان ينفق أموالا كثيرة في هذه الأسفار.

أما إذا دعت الحاجة إلى ذلك لعلاج أو تلقي علم لا يوجد في بلده، وكان عنده علم ودين على ما وصفنا فهذا لا بأس به.

وأما السفر للسياحة في بلاد الكفار، فهذا ليس بحاجة، وبإمكانه أن يذهب إلى بلاد إسلامية يحافظ أهلها على شعائر الإسلام، وبلادنا الآن -والحمد لله- أصبحت بلادا سياحية في بعض المناطق، فبإمكانه أن يذهب إليها، ويقضي زمن إجازته فيها.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٢٥): عن حكم الإقامة في بلاد الكفار؟.

فأجاب: الإقامة في بلاد الكفار خطر عظيم على دين المسلم، وأخلاقه، وسلوكه، وآدابه وقد شاهدنا وغيرنا انحراف كثير ممن أقاموا هناك، فرجعوا بغير ما ذهبوا به، رجعوا فساقا، وبعضهم رجع مرتدا عن دينه، وكافرا به وبسائر الأديان -والعياذ بالله- حتى صاروا إلى الجحود المطلق والاستهزاء بالدين وأهله السابقين منهم واللاحقين، ولهذا كان ينبغي بل يتعين التحفظ من ذلك، ووضع الشروط التي تمنع من الهوي في تلك المهالك.

فالإقامة في بلاد الكفر لا بد فيها من شرطين أساسيين:

الشرط الأول: أمن المقيم على دينه بحيث يكون عنده من العلم والإيمان وقوة العزيمة ما يطمئنه على الثبات على دينه، والحذر من الانحراف والزيغ، وأن يكون مضمرا لعداوة الكافرين وبغضهم، مبتعدا عن موالاتهم ومحبتهم، فإن موالاتهم ومحبتهم مما ينافي الإيمان، قال الله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} الآية. وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ}، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «أن من أحب قوما فهو منهم، وأن المرء مع من أحب».

ومحبة أعداء الله من أعظم ما يكون خطرا على المسلم؛ لأن محبتهم تستلزم موافقتهم واتباعهم، أو على الأقل عدم الإنكار عليهم، ولذلك قال النبي ﷺ «من أحب قوما فهو منهم».

الشرط الثاني: أن يتمكن من إظهار دينه بحيث يقوم بشعائر الإسلام بدون ممانع، فلا يمنع من إقامة الصلاة والجمعة والجماعات إن كان معه من يصلي جماعة، ومن يقيم الجمعة، ولا يمنع من الزكاة والصيام والحج وغيرها من شعائر الدين، فإن كان لا يتمكن من ذلك لم تجز الإقامة لوجوب الهجرة حينئذ، قال في المغني ص٤٥٧ جـ٨ في الكلام على أقسام الناس في الهجرة: أحدها من تجب عليه، وهو من يقدر عليها، ولا يمكنه إظهار دينه، ولا تمكنه

إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار، فهذا تجب عليه الهجرة؛ لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} . وهذا وعيد شديد يدل على الوجوب، ولأن القيام بواجب دينه واجب على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.اهـ..

وبعد تمام هذين الشرطين الأساسيين تنقسم الإقامة في دار الكفر إلى أقسام:

القسم الأول: أن يقيم للدعوة إلى الإسلام والترغيب فيه، فهذا نوع من الجهاد، فهي فرض كفاية على من قدر عليها، بشرط أن تتحقق الدعوة، وأن لا يوجد من يمنع منها أو من الاستجابة إليها؛ لأن الدعوة إلى الإسلام من واجبات الدين، وهي طريقة المرسلين، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه في كل زمان ومكان فقال ﷺ: «بلغوا عني ولو آية».

القسم الثاني: أن يقيم لدراسة أحوال الكافرين، والتعرف على ما هم عليه من فساد العقيدة، وبطلان التعبد، وانحلال الأخلاق، وفوضوية السلوك؛ ليحذر الناس من الاغترار بهم، ويبين للمعجبين بهم حقيقة حالهم، وهذه الإقامة نوع من الجهاد أيضا لما يترتب عليها من التحذير من الكفر وأهله، المتضمن للترغيب في الإسلام وهديه؛ لأن فساد الكفر دليل على صلاح الإسلام، كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء

لكن لا بد من شرط أن يتحقق مراده بدون مفسدة أعظم منه، فإن لم يتحقق مراده بأن منع من نشر ما هم عليه والتحذير منه، فلا فائدة من إقامته، وإن تحقق

مراده مع مفسدة أعظم مثل أن يقابلوا فعله بسب الإسلام ورسول الإسلام وأئمة الإسلام؛ وجب الكف لقوله تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

ويشبه هذا أن يقيم في بلاد الكفر ليكون عينا للمسلمين، ليعرف ما يدبرونه للمسلمين من المكايد فيحذرهم المسلمون، كما أرسل النبي ﷺ حذيفة بن اليمان إلى المشركين في غزوة الخندق؛ ليعرف خبرهم.

القسم الثالث: أن يقيم لحاجة الدولة المسلمة، وتنظيم علاقاتها مع دولة الكفر كموظفي السفارات، فحكمها حكم ما أقام من أجله، فالملحق الثقافي مثلا يقيم ليرعى شئون الطلبة، ويراقبهم ويحملهم على التزام دين الإسلام وأخلاقه وآدابه، فيحصل بإقامته مصلحة كبيرة ويندرئ بها شر كبير.

القسم الرابع: أن يقيم لحاجة خاصة مباحة كالتجارة والعلاج، فتباح الإقامة بقدر الحاجة، وقد نص أهل العلم رحمهم الله على جواز دخول بلاد الكفار للتجارة، وأثروا ذلك عن بعض الصحابة رضي الله عنهم.

القسم الخامس: أن يقيم للدراسة، وهي من جنس ما قبلها إقامة لحاجة، لكنها أخطر منها، وأشد فتكا بدين المقيم وأخلاقه، فإن الطالب يشعر بدنو مرتبته وعلو مرتبة معلميه، فيحصل من ذلك تعظيمهم، والاقتناع بآرائهم وأفكارهم وسلوكهم، فيقلدهم إلا من شاء الله عصمته وهم قليل، ثم إن الطالب يشعر بحاجته إلى معلمه، فيؤدي ذلك إلى التودد إليه، ومداهنته فيما هو عليه من الانحراف والضلال، والطالب في مقر تعلمه له زملاء يتخذ منهم أصدقاء يحبهم، ويتولاهم ويكتسب منهم، ومن أجل خطر هذا القسم وجب التحفظ فيه

أكثر مما قبله، فيشترط فيه بالإضافة إلى الشرطين الأساسيين شروط:

الشرط الأول: أن يكون الطالب على مستوى كبير من النضوج العقلي الذي يميز به بين النافع والضار، وينظر به إلى المستقبل البعيد، فأما بعث الأحداث "الصغار السن"، وذوي العقول الصغيرة، فهو خطر عظيم على دينهم، وخلقهم، وسلوكهم، ثم هو خطر على أمتهم التي سيرجعون إليها، وينفثون فيها من السموم التي نهلوها من أولئك الكفار كما شهد ويشهد به الواقع، فإن كثيرا من أولئك المبعوثين رجعوا بغير ما ذهبوا به، رجعوا منحرفين في ديانتهم، وأخلاقهم، وسلوكهم، وحصل عليهم وعلى مجتمعهم من الضرر في هذه الأمور ما هو معلوم مشاهد، وما مثل بعث هؤلاء إلا كمثل تقديم النعاج للكلاب الضارية.

الشرط الثاني: أن يكون عند الطالب من علم الشريعة ما يتمكن به من التمييز بين الحق والباطل، ومقارعة الباطل بالحق لئلا ينخدع بما هم عليه من الباطل، فيظنه حقا أو يلتبس عليه، أو يعجز عن دفعه، فيبقى حيران، أو يتبع الباطل.

وفي الدعاء المأثور: «اللهم أرني الحق حقا، وارزقني اتباعه، وأرني الباطل باطلا، وارزقني اجتنابه، ولا تجعله ملتبسا علي فأضل».

الشرط الثالث: أن يكون عند الطالب دين يحميه، ويتحصن به من الكفر والفسوق، فضعيف الدين لا يسلم مع الإقامة هناك إلا أن يشاء الله، وذلك لقوة المهاجم وضعف المقاوم، فأسباب الكفر والفسوق هناك قوية وكثيرة متنوعة، فإذا صادفت محلا ضعيف المقاومة عملت عملها.

الشرط الرابع: أن تدعو الحاجة إلى العلم الذي أقام من أجله بأن يكون في تعلمه مصلحة للمسلمين، ولا يوجد له نظير في المدارس في بلادهم، فإن كان

من فضول العلم الذي لا مصلحة فيه للمسلمين أو كان في البلاد الإسلامية من المدارس نظيره، لم يجز أن يقيم في بلاد الكفر من أجله لما في الإقامة من الخطر على الدين والأخلاق، وإضاعة الأموال الكثيرة بدون فائدة.

القسم السادس: أن يقيم للسكن، وهذا أخطر مما قبله وأعظم لما يترتب عليه من المفاسد بالاختلاط التام بأهل الكفر وشعوره بأنه مواطن، ملتزم بما تقتضيه الوطنية من مودة، وموالاة، وتكثير لسواد الكفار، ويتربى أهله بين أهل الكفر، فيأخذون من أخلاقهم وعاداتهم، وربما قلدوهم في العقيدة والتعبد، ولذلك جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله». وهذا الحديث، وإن كان ضعيف السند لكن له وجهة من النظر، فإن المساكنة تدعو إلى المشاكلة، وعن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا: يا رسول الله، ولم؟ قال لا تراءى نارهما» رواه أبو داود والترمذي، وأكثر الرواة رووه مرسلا عن قيس بن أبي حازم عن النبي ﷺ قال الترمذي سمعت محمدا -يعني البخاري - يقول الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ مرسل.اهـ..

وكيف تطيب نفس مؤمن أن يسكن في بلاد كفار تعلن فيها شعائر الكفر، ويكون الحكم فيها لغير الله ورسوله، وهو يشاهد ذلك بعينه ويسمعه بأذنيه، ويرضى به، بل ينتسب إلى تلك البلاد ويسكن فيها بأهله وأولاده، ويطمئن إليها كما يطمئن إلى بلاد المسلمين مع ما في ذلك من الخطر العظيم، عليه وعلى أهله وأولاده في دينهم وأخلاقهم.

هذا ما توصلنا إليه في حكم الإقامة في بلاد الكفر، نسأل الله أن يكون موافقا للحق والصواب.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٣١): عن حكم مخالطة الكفار ومعاملتهم بالرفق واللين طمعا في إسلامهم؟.

فأجاب: لا شك أن المسلم يجب عليه أن يبغض أعداء الله، ويتبرأ منهم؛ لأن هذه هي طريقة الرسل وأتباعهم قال الله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ} وقال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ} وعلى هذا لا يحل لمسلم أن يقع في قلبه محبة ومودة لأعداء الله الذين هم أعداء له في الواقع، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ}.

أما كون المسلم يعاملهم بالرفق واللين طمعا في إسلامهم وإيمانهم، فهذا لا بأس به؛ لأنه من باب التأليف على الإسلام، ولكن إذا يئس منهم عاملهم بما يستحقون أن يعاملهم به، وهذا مفصل في كتب أهل العلم، ولا سيما كتاب "أحكام أهل الذمة" لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٣٢): عن رجل أسلم وأحب الإسلام وأهله، ويبغض الشرك وأهله، وبقي في بلد يكره أهلها الإسلام ويحاربونه ويقاتلون المسلمين، ولكنه يشق عليه ترك الوطن فلم يهاجر، فما الحكم؟.

فأجاب: هذا الرجل يحرم عليه بقاؤه في هذا البلد، ويجب عليه أن يهاجر؛ فإن لم يفعل فليرتقب قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ

وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا} فالواجب على هذا إذا كان قادرا على الهجرة أن يهاجر إلى بلد الإسلام، وحينئذ سوف ينسلخ من قلبه محبة البلد التي هاجر منها، وسوف يرغب في بلاد الإسلام، أما كونه لا يستطيع مفارقة بلد يحارب الإسلام وأهله، لمجرد أنها وطنه الأول، فهذا حرام، ولا يجوز له البقاء فيها.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٣٢): عن حكم مخالطة المسلمين لغيرهم في أعيادهم؟.

فأجاب: مخالطة غير المسلمين في أعيادهم محرمة لما في ذلك من الإعانة على الإثم والعدوان، وقد قال الله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} . ولأن هذه الأعياد إن كانت لمناسبات دينية، فإن مشاركتهم فيها تقتضي إقرارهم على هذه الديانة والرضاء بما هم عليه من الكفر، وإذا كانت الأعياد لمناسبات غير دينية، فإنه لو كانت هذه الأعياد في المسلمين ما أقيمت، فكيف وهي في الكفار؟ لذلك قال أهل العلم: إنه لا يجوز للمسلمين أن يشاركوا غير المسلمين في أعيادهم؛ لأن ذلك إقرار ورضا بما هم عليه من الدين الباطل، ثم إنه معاونة على الإثم والعدوان.

واختلف العلماء فيما إذا أهدى إليك أحد من غير المسلمين هدية بمناسبة أعيادهم، هل يجوز لك قبولها أو لا يجوز؟

فمن العلماء من قال: لا يجوز أن تقبل هديتهم في أعيادهم؛ لأن ذلك عنوان الرضاء بها، ومنهم من يقول: لا بأس به، وعلى كل حال إذا لم يكن في ذلك محظور شرعي، وهو أن يعتقد المهدي إليك أنك راض بما هم عليه، فإنه لا

بأس بالقبول، وإلا فعدم القبول أولى.

وهنا يحسن أن نذكر ما قاله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب أحكام أهل الذمة ١/ ٢٠٥ "وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به فحرام بالاتفاق، مثل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم، فيقول: عيد مبارك عليك أو تهنأ بهذا العيد ونحوه، فهذا إن سلم قائله من الكفر، فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب.. وكثير ممن لا قدر للدين عنده يقع في ذلك".اهـ.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٣٣): عن حكم السلام على غير المسلمين؟.

فأجاب: البدء بالسلام على غير المسلمين محرم ولا يجوز؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه»، ولكنهم إذا سلموا وجب علينا أن نرد عليهم؛ لعموم قوله تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}، «وكان اليهود يسلمون على النبي ﷺ فيقولون: "السام عليك يا محمد"، والسام بمعنى الموت، يدعون على رسول الله ﷺ بالموت، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: "إن اليهود يقولون: السام عليكم، فإذا سلموا عليكم فقولوا: وعليكم»

فإذا سلم غير المسلم على المسلم، وقال: "السام عليكم" فإننا نقول: "وعليكم". وفي قوله ﷺ: "وعليكم" دليل على أنهم إذا كانوا قد قالوا: السلام عليكم، فإن عليهم السلام، فكما قالوا نقول لهم، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن اليهودي أو النصراني أو غيرهم من غير المسلمين إذا قالوا بلفظ صريح: "السلام عليكم" جاز أن نقول: عليكم السلام.

ولا يجوز كذلك أن يبدءوا بالتحية كأهلا وسهلا وما أشبهها؛ لأن في ذلك

إكراما لهم، وتعظيما لهم، ولكن إذا قالوا لنا مثل هذا، فإننا نقول لهم مثل ما يقولون؛ لأن الإسلام جاء بالعدل وإعطاء كل ذي حق حقه، ومن المعلوم أن المسلمين أعلى مكانة ومرتبة عند الله ﷻ فلا ينبغي أن يذلوا أنفسهم لغير المسلمين فيبدءوهم بالسلام.

إذا فنقول في خلاصة الجواب: لا يجوز أن يبدأ غير المسلمين بالسلام؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك؛ ولأن في هذا إذلالا للمسلم، حيث يبدأ بتعظيم غير المسلم، والمسلم أعلى مرتبة عند الله ﷻ فلا ينبغي أن يذل نفسه في هذا، أما إذا سلموا علينا فإننا نرد عليهم مثل ما سلموا.

وكذلك أيضا لا يجوز أن نبدأهم بالتحية مثل أهلا وسهلا ومرحبا وما أشبه ذلك، لما في ذلك من تعظيمهم، فهو كابتداء السلام عليهم.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٣٥): عن حكم السلام على المسلم بهذه الصيغة "السلام على من اتبع الهدى "؟ وكيف يسلم الإنسان على أهل محل فيهم المسلم والكافر؟.

فأجاب: لا يجوز أن يسلم الإنسان على المسلم بقوله: "السلام على من اتبع الهدى" لأن هذه الصيغة إنما قالها الرسول ﷺ حين كتب إلى غير المسلمين، وأخوك المسلم قل له: السلام عليكم، أما أن تقول: "السلام على من اتبع الهدى" فمقتضى هذا أن أخاك هذا ليس ممن اتبع الهدى.

وإذا كانوا مسلمين ونصارى، فإنه يسلم عليهم بالسلام المعتاد، يقول: السلام عليكم، يقصد بذلك المسلمين.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٣٥): هل يجوز لنا أن نبدأ الكفار بالسلام؟ وكيف نرد عليهم إذا سلموا علينا؟.

فأجاب: إن هؤلاء الذين يأتوننا من الشرق ومن الغرب ممن ليسوا مسلمين، لا يحل لنا أن نبدأهم بالسلام؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام». رواه مسلم في صحيحه.

وإذا سلموا علينا، فإننا نرد عليهم بمثل ما سلموا علينا به؛ لقوله تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا} وسلامهم علينا بالتحية الإسلامية "السلام عليكم" لا يخلو من حالين:

الحال الأولى: أن يفصحوا باللام فيقولوا: "السلام عليكم"، فلنا أن نقول: عليكم السلام، ولنا أن نقول: وعليكم.

الحال الثانية: إذا لم يفصحوا باللام مثل أن يقولوا: "السام عليكم"، فإننا نقول: "وعليكم" فقط، وذلك لأن اليهود كانوا يأتون إلى رسول الله ﷺ فيسلمون عليه بقولهم: "السام عليكم" غير مفصحين باللام؛ والسام هو الموت، يريدون الدعاء على النبي ﷺ بالموت؛ فأمر النبي ﷺ أن نقول لهم: "وعليكم"، فإذا كانوا قالوا: "السام عليكم" فإننا نقول: "وعليكم" يعني أنتم أيضا عليكم السام، هذا هو ما دلت عليه السنة.

وأما أن نبدأهم نحن بالسلام، فإن هذا قد نهانا عنه نبينا ﷺ.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٣٦): إذا سلم الكافر على المسلم فهل يرد عليه؟ وإذا مد يده للمصافحة فما الحكم؟ وكذلك خدمته بإعطائه الشاي وهو على الكرسي؟.

فأجاب: إذا سلم الكافر على المسلم سلاما بينا واضحا، فقال: السلام عليكم، فإنك تقول: عليك السلام؛ لقوله تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}، أما إذا لم يكن بينا واضحا، فإنك تقول: وعليك.

وكذلك لو كان سلامه واضحا؛ يقول فيه: السام عليكم، يعني الموت، فإنه يقال: وعليك.

فالأقسام ثلاثة:

الأول: أن يقول بلفظ صريح: "السام عليكم"؛ فيجاب: "وعليكم".

الثاني: أن نشك هل قال: "السام" أو قال: "السلام"، فيجاب: "وعليكم".

الثالث: أن يقول بلفظ صريح: "السلام عليكم". فيجاب: "عليكم السلام"؛ لقوله تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "فلو تحقق السامع أن الذي قال له: سلام عليكم لا شك فيه، فهل له أن يقول: وعليك السلام، أو يقتصر على قوله: وعليك؟ فالذي تقتضيه الأدلة وقواعد الشريعة أن يقال له: وعليك السلام، فإن هذا من باب العدل، والله تعالى يأمر بالعدل والإحسان، وقد قال تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}، فندب إلى الفضل، وأوجب العدل، ولا ينافي هذا شيئا من أحاديث الباب بوجه ما، فإنه ﷺ إنما أمر بالاقتصار على قول الراد: وعليكم، على السبب المذكور الذي كانوا يعتمدونه في تحيتهم، ثم قال ابن القيم: والاعتبار وإن كان لعموم اللفظ، فإنما يعتبر عمومه في نظير المذكور، لا فيما يخالفه، قال الله تعالى: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ}، فإذا زال هذا السبب، وقال الكتابي: سلام عليكم ورحمة الله، فالعدل في التحية أن يرد عليه نظير سلامه.اهـ. ٢٠٠/ ١ أحكام أهل الذمة. وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليكم، فقولوا: وعليك». والسام هو الموت.

وإذا مد يده إليك للمصافحة، فمد يدك إليه، وإلا فلا تبدأه.

وأما خدمته بإعطائه الشاي، وهو على الكرسي فمكروه، لكن ضع الفنجال على الماصة، ولا حرج.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٣٩): شخص يعمل مع الكفار، فبماذا تنصحونه؟.

فأجاب: ننصح هذا الأخ الذي يعمل مع الكفار، أن يطلب عملا ليس فيه أحد من أعداء الله ورسوله ممن يدينون بغير الإسلام، فإذا تيسر فهذا هو الذي ينبغي، وإن لم يتيسر فلا حرج عليه؛ لأنه في عمله وهم في عملهم، ولكن بشرط أن لا يكون في قلبه مودة لهم ومحبة وموالاة، وأن يلتزم ما جاء به الشرع فيما يتعلق بالسلام عليهم ورد السلام ونحو هذا، وكذلك أيضا لا يشيع جنائزهم، ولا يحضرها، ولا يشهد أعيادهم، ولا يهنئهم بها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٤٠): كيف نستفيد مما عند الكفار دون الوقوع في المحظور؟ وهل للمصالح المرسلة دخل في ذلك؟.

فأجاب: الذي يفعله أعداء الله وأعداؤنا، وهم الكفار ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عبادات.

القسم الثاني: عادات.

القسم الثالث: صناعات وأعمال.

أما العبادات: فمن المعلوم، أنه لا يجوز لأي مسلم أن يتشبه بهم في عباداتهم، ومن تشبه بهم في عباداتهم، فإنه على خطر عظيم، فقد يكون ذلك مؤديا إلى كفره، وخروجه من الإسلام.

وأما العادات: كاللباس وغيره، فإنه يحرم أن يتشبه بهم لقول النبي صلى الله عليكم وسلم: «من تشبه بقوم فهو منهم».

وأما الصناعات والحرف: التي فيها مصالح عامة، فلا حرج أن نتعلم مما صنعوه ونستفيد منه، وليس هذا من باب التشبه، ولكنه من باب المشاركة في الأعمال النافعة التي لا يعد من قام بها متشبها بهم.

وأما قول السائل: "وهل للمصالح المرسلة دخل في ذلك؟".

فنقول: إن المصالح المرسلة لا ينبغي أن تجعل دليلا مستقلا، بل نقول: هذه المصالح المرسلة إن تحققنا أنها مصلحة، فقد شهد لها الشرع بالصحة والقبول وتكون من الشرع، وإن شهد لها بالبطلان، فإنها ليست مصالح مرسلة، ولو زعم فاعلها أنها مصالح مرسلة، وإن كان لا هذا ولا هذا، فإنها ترجع إلى الأصل؛ إن كانت من العبادات، فالأصل في العبادات الحظر، وإن كانت من غير العبادات، فالأصل فيها الحل، وبهذا يتبين أن المصالح المرسلة ليست دليلا مستقلا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٤١): عن حكم استقدام العمال الكفار؟ وحكم تقديم الطعام لهم؟.

فأجاب: المسلمون خير من الكافرين؛ لقول الله تعالى: {وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ}. ولكن لا بأس من استقدام غير المسلمين للحاجة.

وأما تقديم الطعام لهم، فإن كان على سبيل الخدمة بأن يكون يخدمهم في بيتهم ونحوه، فلا ينبغي بل ذكر فقهاؤنا كراهة ذلك، وإن كان على غير هذا الوجه مثل أن تقدمه لهم من بيتك، فلا حرج فيه؛ لأن الحاجة داعية له.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٤١): عن حكم استقدام غير المسلمين

إلى الجزيرة العربية؟.

فأجاب: استقدام غير المسلمين إلى الجزيرة العربية أخشى أن يكون من المشاقة لرسول الله ﷺ حيث صح عنه كما في صحيح البخاري «أنه قال في مرض موته: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»، وفي صحيح مسلم أنه قال: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما».

لكن استقدامهم للحاجة إليهم بحيث لا نجد مسلما يقوم بتلك الحاجة جائز، بشرط أن لا يمنحوا إقامة مطلقة.

وحيث قلنا: جائز، فإنه إن ترتب على استقدامهم مفاسد دينية في العقيدة أو الأخلاق صار حراما؛ لأن الجائز إذا ترتب عليه مفسدة صار محرما تحريم الوسائل كما هو معلوم، ومن المفاسد المترتبة على ذلك ما يخشى من محبتهم، والرضا بما هم عليه من الكفر، وذهاب الغيرة الدينية بمخالطتهم، وفي المسلمين -ولله الحمد- خير وكفاية، نسأل الله الهداية والتوفيق.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٤٢): عن حكم قول: أخي لغير المسلم؟ وكذلك قول: صديق ورفيق؟ وحكم الضحك إلى الكفار لطلب المودة؟.

فأجاب: أما قول: "يا أخي" لغير المسلم، فهذا حرام، ولا يجوز إلا أن يكون أخا له من النسب أو الرضاع، وذلك لأنه إذا انتفت أخوة النسب والرضاع لم يبق إلا أخوة الدين، والكافر ليس أخا للمؤمن في دينه، وتذكر قول نبي الله تعالى نوح: {رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ}.

وأما قول: "صديق رفيق" ونحوهما، فإذا كانت كلمة عابرة يقصد بها نداء من جهل اسمه منهم، فهذا لا بأس به، وإن قصد بها معناها توددا وتقربا منهم،

فقد قال الله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} . فكل كلمات التلطف التي يقصد بها الموادة، لا يجوز للمؤمن أن يخاطب بها أحدا من الكفار.

وكذلك الضحك إليهم لطلب الموادة بيننا وبينهم، لا يجوز كما علمت من الآية الكريمة.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٣/ ٤٣): عن وصف الكافر بأنه أخ؟.

فأجاب: لا يحل للمسلم أن يصف الكافر -أيا كان نوع كفره؛ سواء كان نصرانيا، أم يهوديا، أم مجوسيا، أم ملحدا- لا يجوز له أن يصفه بالأخ أبدا، فاحذر يا أخي مثل هذا التعبير، فإنه لا أخوة بين المسلمين وبين الكفار أبدا، الأخوة هي الأخوة الإيمانية كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} . وإذا كانت قرابة النسب تنتفي باختلاف الدين، فكيف تثبت الأخوة مع اختلاف الدين وعدم القرابة؟ قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن نوح وابنه لما قال نوح عليه الصلاة والسلام: {رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ} .

فلا أخوة بين المؤمن والكافر أبدا، بل الواجب على المؤمن ألا يتخذ الكافر وليا كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ} ، فمن هم أعداء الله؟ أعداء الله هم الكافرون، قال الله تعالى {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} .

وقال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى

أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٤٤): إذا وجد الإنسان شخصا غير مسلم في الطريق وطلب إيصاله فما الحكم؟ وهل يجوز الأكل مما مسته أيدي الكفار؟.

فأجاب: إذا وجدت شخصا غير مسلم في الطريق، فلا حرج عليك أن تركبه؛ لأن الله يقول: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

أما الأكل مما مسته أيدي الكفار فجائز؛ لأن نجاسة الكافر نجاسة معنوية لا حسية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٤٤): عن حكم تهنئة الكفار بعيد الكريسمس؟ وكيف نرد عليهم إذا هنئونا به؟ وهل يجوز الذهاب إلى أماكن الحفلات التي يقيمونها بهذه المناسبة؟ وهل يأثم الإنسان إذا فعل شيئا مما ذكر بغير قصد؟ وإنما فعله إما مجاملة أو حياء أو إحراجا أو غير ذلك من الأسباب؟ وهل يجوز التشبه بهم في ذلك؟.

فأجاب: تهنئة الكفار بعيد الكريسمس أو غيره من أعيادهم الدينية حرام بالاتفاق، كما نقل ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه "أحكام أهل الذمة"، حيث قال: "وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به فحرام بالاتفاق، مثل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم، فيقول: عيد مبارك عليك، أو تهنأ بهذا العيد ونحوه، فهذا إن سلم قائله من الكفر، فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن تهنئه بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثما عند الله، وأشد مقتا من التهنئة بشرب الخمر وقتل النفس،

وارتكاب الفرج الحرام ونحوه. وكثير ممن لا قدر للدين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل، فمن هنأ عبدا بمعصية أو بدعة أو كفر فقد تعرض لمقت الله وسخطه". انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وإنما كانت تهنئة الكفار بأعيادهم الدينية حراما، وبهذه المثابة التي ذكرها ابن القيم؛ لأن فيها إقرارا لما هم عليه من شعائر الكفر، ورضا به لهم، وإن كان هو لا يرضى بهذا الكفر لنفسه، لكن يحرم على المسلم أن يرضى بشعائر الكفر، أو يهنئ بها غيره؛ لأن الله تعالى لا يرضى بذلك، كما قال الله تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}. وقال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}. وتهنئتهم بذلك حرام سواء كانوا مشاركين للشخص في العمل أم لا.

وإذا هنئونا بأعيادهم، فإننا لا نجيبهم على ذلك؛ لأنها ليست بأعياد لنا، ولأنها أعياد لا يرضاها الله تعالى؛ لأنها إما مبتدعة في دينهم، وإما مشروعة، لكن نسخت بدين الإسلام الذي بعث الله به محمدا ﷺ إلى جميع الخلق، وقال فيه: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

وإجابة المسلم دعوتهم بهذه المناسبة حرام؛ لأن هذا أعظم من تهنئتهم بها، لما في ذلك من مشاركتهم فيها.

وكذلك يحرم على المسلمين التشبه بالكفار بإقامة الحفلات بهذه المناسبة، أو تبادل الهدايا أو توزيع الحلوى، أو أطباق الطعام، أو تعطيل الأعمال ونحو ذلك، لقول النبي ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم». قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم): "مشابهتهم في بعض أعيادهم توجب سرور قلوبهم، بما هم عليه من الباطل، وربما أطمعهم

ذلك في انتهاز الفرص واستذلال الضعفاء". انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن فعل شيئا من ذلك فهو آثم سواء فعله مجاملة، أو توددا، أو حياء أو لغير ذلك من الأسباب؛ لأنه من المداهنة في دين الله، ومن أسباب تقوية نفوس الكفار وفخرهم بدينهم.

والله المسئول أن يعز المسلمين بدينهم، ويرزقهم الثبات عليه، وينصرهم على أعدائهم، إنه قوي عزيز.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٤٧): هل يجوز الذهاب إلى القس للتهنئة بسلامة الوصول والعودة؟.

فأجاب: لا يجوز الذهاب إلى أحد من الكفار عند قدومه للتهنئة بوصوله، والسلام عليه؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام».

وأما ذهاب النبي ﷺ لليهودي الذي كان مريضا؛ فإن هذا اليهودي كان غلاما يخدم النبي ﷺ فلما مرض عاده النبي ﷺ ليعرض عليه الإسلام، فعرضه عليه فأسلم، فأين هذا الذي يعوده ليعرض عليه الإسلام من شخص زار قسا؛ ليهنئه بسلامة الوصول، ويرفع من معنويته؟ ! لا يمكن أن يقيس هذا على ذاك إلا جاهل أو صاحب هوى.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٤٧): عن مقياس التشبه بالكفار؟.

فأجاب: مقياس التشبه أن يفعل المتشبه ما يختص به المتشبه به، فالتشبه بالكفار أن يفعل المسلم شيئا من خصائصهم، أما ما انتشر بين المسلمين، وصار لا يتميز به الكفار؛ فإنه لا يكون تشبها، فلا يكون حراما من أجل أنه تشبه، إلا أن يكون محرما من جهة أخرى، وهذا الذي قلناه هو مقتضى مدلول هذه

الكلمة، وقد صرح بمثله صاحب الفتح حيث قال ص٢٧٢ ج١٠ "وقد كره بعض السلف ليس البرنس؛ لأنه كان من لباس الرهبان، وقد سئل مالك عنه فقال: لا بأس به. قيل: فإنه من لبوس النصارى، قال: كان يلبس هاهنا".اهـ..

قلت: لو استدل مالك «بقول النبي ﷺ حين سئل ما يلبس المحرم، فقال: «"لا يلبس القمص، ولا السراويل، ولا البرانس» الحديث؛ لكان أولى.

وفي الفتح أيضا ص٣٠٧ جـ١ : وإن قلنا: النهي عنها (أي عن المياثر الأرجوان) من أجل التشبه بالأعجام فهو لمصلحة دينية، لكن كان ذلك شعارهم حينئذ وهم كفار، ثم لما لم يصر الآن يختص بشعارهم زال ذلك المعنى، فتزول الكراهة. والله أعلم.اهـ..

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٤٨): يدعي بعض الناس، أن سبب تخلف المسلمين، هو تمسكهم بدينهم، وشبهتهم في ذلك، أن الغرب لما تخلوا عن جميع الديانات وتحرروا منها، وصلوا إلى ما وصلوا إليه من التقدم الحضاري، وربما أيدوا شبهتهم بما عند الغرب من الأمطار الكثيرة والزروع؛ فما رأي فضيلتكم؟.

فأجاب: هذا الكلام لا يصدر إلا من ضعيف الإيمان، أو مفقود الإيمان، جاهل بالتاريخ، غير عالم بأسباب النصر، فالأمة الإسلامية لما كانت متمسكة بدينها في صدر الإسلام كان لها العزة والتمكين، والقوة، والسيطرة في جميع نواحي الحياة، بل إن بعض الناس يقول: إن الغرب لم يستفيدوا ما استفادوه من العلوم إلا ما نقلوه عن المسلمين في صدر الإسلام، ولكن الأمة الإسلامية تخلفت كثيرا عن دينها، وابتدعت في دين الله ما ليس منه، عقيدة، وقولا، وفعلا، وحصل بذلك التأخر الكبير، والتخلف الكبير، ونحن نعلم علم اليقين ونشهد

الله ﷻ إننا لو رجعنا إلى ما كان عليه أسلافنا في ديننا، لكانت لنا العزة، والكرامة، والظهور على جميع الناس، ولهذا لما حدث " أبو سفيان " " هرقل " ملك الروم - والروم في ذلك الوقت تعتبر دولة عظمى- بما عليه الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه؛ قال: "إن كان ما تقول حقا، فسيملك ما تحت قدمي هاتين"، ولما خرج أبو سفيان وأصحابه من عند " هرقل " قال: "لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر".

وأما ما حصل في الدول الغربية الكافرة الملحدة من التقدم في الصناعات وغيرها، فإن ديننا لا يمنع منه، لو أننا التفتنا إليه، لكن مع الأسف ضيعنا هذا وهذا، ضيعنا ديننا، وضيعنا دنيانا، وإلا فإن الدين الإسلامي لا يعارض هذا التقدم، بل قال الله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ} . وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} . وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} . وقال تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ} . إلى غير ذلك من الآيات التي تعلن إعلانا ظاهرا للإنسان أن يكتسب ويعمل وينتفع، لكن لا على حساب الدين، فهذه الأمم الكافرة هي كافرة من الأصل، دينها الذي كانت تدعيه دين باطل، فهو وإلحادها على حد سواء، لا فرق. فالله سبحانه وتعالى يقول: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} . وإن كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى لهم بعض المزايا التي يخالفون غيرهم فيها، لكن بالنسبة للآخرة هم وغيرهم سواء، ولهذا أقسم النبي ﷺ أنه لا يسمع به من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يتبع ما جاء به، إلا كان من أصحاب النار، فهم من الأصل كافرون، سواء انتسبوا إلى اليهودية، أو النصرانية، أم لم ينتسبوا إليها.

وأما ما يحصل لهم من الأمطار وغيرها، فهم يصابون بهذا ابتلاء من الله تعالى وامتحانا، وتعجل لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، كما «قال النبي عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب، وقد رآه قد أثر في جنبه حصير، فبكى عمر. فقال: يا رسول الله، فارس والروم يعيشون فيما يعيشون فيه من النعيم، وأنت على هذه الحال. فقال: "يا عمر، هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة». ثم إنهم يأتيهم من القحط، والبلايا، والزلازل، والعواصف المدمرة ما هو معلوم، وينشر دائما في الإذاعات، وفي الصحف، وفي غيرها، ولكن من وقع السؤال عنه أعمى، أعمى الله بصيرته، فلم يعرف الواقع، ولم يعرف حقيقة الأمر، ونصيحتي له أن يتوب إلى الله ﷻ عن هذه التصورات قبل أن يفاجئه الموت، وأن يرجع إلى ربه، وأن يعلم أنه لا عزة لنا، ولا كرامة، ولا ظهور، ولا سيادة إلا إذا رجعنا إلى دين الإسلام، رجوعا حقيقيا يصدقه القول والفعل، وأن يعلم أن ما عليه هؤلاء الكفار باطل ليس بحق، وأن مأواهم النار، كما أخبر الله بذلك في كتابه، وعلى لسان رسوله، صلى الله عليه سلم، وأن هذا الإمداد الذي أمدهم الله به من النعم ما هو إلا ابتلاء وامتحان، وتعجيل طيبات، حتى إذا هلكوا وفارقوا هذا النعيم إلى الجحيم ازدادت عليه الحسرة والألم والحزن، وهذا من حكمة الله ﷻ بتنعيم هؤلاء، على أنهم كما قلت لم يسلموا من الكوارث التي تصيبهم من الزلازل، والقحط، والعواصف، والفيضانات وغيرها، فأسأل الله لهذا السائل الهداية والتوفيق، وأن يرده إلى الحق، وأن يبصرنا جميعا في ديننا، إنه جواد كريم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٥١): هل يمكن أن يصل المسلم في هذا

العصر إلى ما وصل إليه الصحابة من الالتزام بدين الله؟.

فأجاب: أما الوصول إلى مرتبة الصحابة فهذا غير ممكن؛ لأن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

وأما إصلاح الأمة الإسلامية حتى تنتقل عن هذا الوضع الذي هي عليه، فهذا ممكن، والله على كل شيء قدير، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك». ولا ريب أن الأمة الإسلامية في الوضع الحالي في وضع مزر، بعيدة عما يريده الله منها من الإجماع على دين الله، والقوة في دين الله؛ لأن الله يقول: {وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ}.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٥١): هل يعتبر الشيعة في حكم الكفار؟ وهل ندعو الله تعالى أن ينصر الكفار عليهم؟.

فأجاب: الكفر حكم شرعي مرده إلى الله ورسوله، فما دل الكتاب والسنة على أنه كفر فهو كفر، وما دل الكتاب والسنة على أنه ليس بكفر فليس بكفر، فليس على أحد بل ولا له أن يكفر أحدا حتى يقوم الدليل من الكتاب والسنة على كفره. وإذا كان من المعلوم أنه لا يملك أحد أن يحلل ما حرم الله، أو يحرم ما أحل الله، أو يوجب ما لم يوجبه الله تعالى إما في الكتاب أو السنة، فلا يملك أحد أن يكفر من لم يكفره الله إما في الكتاب وإما في السنة.

ولا بد في التكفير من شروط أربعة:

الأول: ثبوت أن هذا القول، أو الفعل، أو الترك كفر بمقتضى دلالة الكتاب أو السنة.

الثاني: ثبوت قيامه بالمكلف.

الثالث: بلوغ الحجة.

الرابع: انتفاء مانع التكفير في حقه.

فإذا لم يثبت أن هذا القول، أو الفعل، أو الترك كفر بمقتضى دلالة الكتاب والسنة، فإنه لا يحل لأحد أن يحكم بأنه كفر؛ لأن ذلك من القول على الله بلا علم، وقد قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} وقال: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}.

وإذا لم يثبت قيامه بالمكلف، فإنه لا يحل أن يرمى به بمجرد الظن لقوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}. الآية، ولأنه يؤدي إلى استحلال دم المعصوم بلا حق.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما؛ إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه» هذا لفظ مسلم.

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا يرمي رجل رجلا بالفسوق، ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك». أخرجه البخاري، ولمسلم معناه.

وإذا لم تبلغه الحجة، فإنه لا يحكم بكفره؛ لقوله تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}. وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}. وقوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ

بَعْدِهِ} إلى قوله: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}. وقوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة -يعني أمة الدعوة- يهودي ولا نصراني ثم يموت، ولم يؤمن بالذي» «أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار».

لكن إن كان من لم تبلغه الحجة لا يدين بدين الإسلام، فإنه لا يعامل في الدنيا معاملة المسلم، وأما في الآخرة، فأصح الأقوال فيه أن أمره إلى الله تعالى.

وإذا تمت هذه الشروط الثلاثة أعني ثبوت أن هذا القول، أو الفعل أو الترك كفر بمقتضى دلالة الكتاب والسنة، وأنه قام بالمكلف، وأن المكلف قد بلغته الحجة، ولكن وجد مانع التكفير في حقه، فإنه لا يكفر لوجود المانع.

فمن موانع التكفير

الإكراه؛ فإذا أكره على الكفر فكفر، وكان قلبه مطمئنا بالإيمان، لم يحكم بكفره؛ لوجود المانع، وهو الإكراه؛ قال الله تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

ومن موانع التكفير

أن يغلق على المرء قصده، فلا يدري ما يقول لشدة فرح، أو حزن، أو خوف، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا}.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لله

أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه «وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ خطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

فهذا الرجل أخطأ من شدة الفرح خطأ يخرج به عن الإسلام، لكن منع من خروجه منه أنه أغلق عليه قصده، فلم يدر ما يقول من شدة الفرح، فقد قصد الثناء على ربه؛ لكنه من شدة الفرح أتى بكلمة لو قصدها لكفر.

فالواجب الحذر من إطلاق الكفر على طائفة أو شخص معين، حتى يعلم تحقق شروط التكفير في حقه، وانتفاء موانعه.

إذا تبين ذلك؛ فإن الشيعة فرق شتى ذكر السفاريني في شرح عقيدته أنهم اثنتان وعشرون فرقة، وعلى هذا يختلف الحكم فيهم بحسب بعدهم من السنة، فكل من كان عن السنة أبعد كان إلى الضلال أقرب.

ومن فرقهم الرافضة الذين تشيعوا لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين -رضي الله عنهم جميعا- تشيعا مفرطا في الغلو لا يرضاه علي بن أبي طالب ولا غيره من أئمة الهدى، كما جفوا غيره من الخلفاء جفاء مفرطا، ولا سيما الخليفتان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقد قالوا فيهما شيئا لم يقله فيهما أحد من فرق الأمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى ٣/ ٣٥٦ من مجموع ابن قاسم: "وأصل قول الرافضة أن النبي ﷺ نص على علي -يعني في الخلافة- نصا قاطعا للعذر، وأنه إمام معصوم، ومن خالفه كفر، وأن المهاجرين

والأنصار كتموا النص، وكفروا بالإمام المعصوم، واتبعوا أهواءهم، وبدلوا الدين، وغيروا الشريعة، وظلموا واعتدوا، بل كفروا إلا نفرا قليلا، إما بضعة عشره، أو أكثر، ثم يقولون: إن أبا بكر وعمر ونحوهما ما زالوا منافقين، وقد يقولون: بل آمنوا ثم كفروا، وأكثرهم يكفر من خالف قولهم، ويسمون أنفسهم المؤمنين، ومن خالفهم كفارا، ومنهم ظهرت أمهات الزندقة والنفاق، كزندقة القرامطة والباطنية وأمثالهم".اهـ.. وانظر قوله فيهم أيضا في المجموع المذكور٤/ ٤٢٨- ٤٢٩.

وقال في كتابه القيم: (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) ص٩٥١ تحقيق الدكتور ناصر العقل:

"والشرك وسائر البدع مبناها على الكذب والافتراء، ولهذا كل من كان عن التوحيد والسنة أبعد كان إلى الشرك والابتداع والافتراء أقرب، كالرافضة الذين هم أكذب طوائف أهل الأهواء، وأعظمهم شركا، فلا يوجد في أهل الأهواء أكذب منهم، ولا أبعد عن التوحيد منهم، حتى إنهم يخربون مساجد الله التي يذكر فيها اسمه، فيعطلونها من الجماعات والجمعات، ويعمرون المشاهد التي على القبور التي نهى الله ورسوله عن اتخاذها".اهـ..

وانظر ما كتبه محب الدين الخطيب في رسالته "الخطوط العريضة" فقد نقل عن كتاب "مفاتيح الجنان" من دعائهم ما نصه: "اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، والعن صنمي قريش، وجبتيهما، وطاغوتيهما، وابنتيهما" قال: ويعنون بهما وبالجبت والطاغوت أبا بكر وعمر، ويريدون بابنتيهما أم المؤمنين عائشة، وأم المؤمنين حفصة رضي الله عن الجميع.

ومن قرأ التاريخ علم أن للرافضة يدا في سقوط بغداد، وانتهاء الخلافة

الإسلامية فيها حيث سهلوا للتتار دخولها، وقتل التتار من العامة والعلماء أمما كثيرة، فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب "منهاج السنة" أنهم هم الذين سعوا في مجيء التتر إلى بغداد دار الخلافة حتى قتل الكفار -يعني التتر- من المسلمين ما لا يحصيه إلا الله تعالى من بني هاشم وغيرهم، وقتلوا بجهات بغداد ألف ألف وثمانمائة ألف، ونيفا وسبعين ألفا، وقتلوا الخليفة العباسي، وسبوا النساء الهاشميات وصبيان الهاشميين.اهـ.. ٤/ ٥٩٢. تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم.

ومن عقيدة الرافضة: "التقية" وهي أن يظهر خلاف ما يبطن، ولا شك أن هذا نوع من النفاق، يغتر به من يغتر من الناس.

والمنافقون أضر على الإسلام من ذوي الكفر الصريح، ولهذا أنزل الله تعالى فيهم سورة كاملة كان من هدي النبي ﷺ أن يقرأ بها في صلاة الجمعة؛ لإعلان أحوال المنافقين، والتحذير منهم في أكبر جمع أسبوعي وأكثره، وقال فيها عن المنافقين: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ}.

وأما قول السائل: هل يدعو المسلم الله أن ينصر الكفار عليهم؟

فجوابه: أن الأولى والأجدر بالمؤمن أن يدعو الله تعالى أن يخذل الكافرين وينصر المؤمنين الصادقين، الذين يقولون بقلوبهم وألسنتهم ما ذكر الله عنه في قوله: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}. ويتولون أصحاب رسول الله ﷺ معترفين لكل واحد بفضله، منزلين كل واحد منزلته من غير إفراط ولا تفريط، نسأل الله تعالى أن يجمع كلمة المؤمنين على الحق، وأن ينصرهم على من سواهم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٣/ ٥٨): يكره بعض الناس اسم " علي " و"

الحسين " ونحوه وينفر منها، وذلك لتعظيم الرافضة لتلك الأسماء، فما جوابكم حفظكم الله تعالى؟.

فأجاب: جوابي على هذا أن البدعة لا تقابل ببدعة، فإذا كان طائفة من أهل البدع يغلون في مثل هذه الأسماء، ويتبركون بها، فلا يجوز أن نقابلهم ببدعة؛ فننفر من هذه الأسماء ونكرهها، بل نقول: إن الأسماء لا تغير شيئا عما كان عليه الإنسان، فكم من إنسان يسمى باسم طيب حسن، وهو -أعني المسمى به- من أسوأ الناس، كم من إنسان يسمى عبد الله، وهو من أشد الناس استكبارا، وكم من إنسان يسمى محمدا، وهو من أعظم الناس ذما، وكم من إنسان يسمى عليا وهو نازل سافل، فالمهم أن الاسم لا يغير شيئا، لكن لا شك أن تحسين الاسم من الأمور المطلوبة، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أحب الأسماء إلى الله عبد الله، وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام».

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٣/ ٥٨): عن مدرس يدرس مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، ويعلم تلاميذه الصوفية، والمدائح النبوية؛ فاعترض عليه طالب من الطلبة، فقيل: إنه وهابي، والوهابية لا تقر المدائح النبوية.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد.

فإن هذا السؤال سؤال عظيم اشتمل على مسائل في أصول الدين، ومسائل تاريخية، ومسائل علمية.

أما المسائل العلمية: فإنه ذكر أنه يفقه تلامذته على مذهب الإمام أبي حنيفة، ولا ريب أن مذهب الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ أحد المذاهب الأربعة المتبوعة المشهورة، ولكن ليعلم أن هذه المذاهب الأربعة لا ينحصر الحق

فيها، بل الحق قد يكون في غيرها، فإن إجماعهم على حكم مسألة من المسائل ليس إجماعا للأمة، والأئمة أنفسهم رحمهم الله ما جعلهم الله أئمة لعباده إلا حيث كانوا أهلا للإمامة، حيث عرفوا قدر أنفسهم، وعلموا أنه لا طاعة لهم إلا فيما كان موافقا لطاعة النبي ﷺ وكانوا يحذرون عن تقليدهم إلا فيما وافق السنة، ولا ريب أن مذهب الإمام أبي حنيفة ومذهب الإمام أحمد ومذهب الإمام الشافعي ومذهب الإمام مالك وغيرهم من أهل العلم، أنها قابلة لأن تكون خطأ وصوابا، فإن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وعلى هذا فإنه لا حرج عليه أن يفقه تلامذته على مذهب الإمام أبي حنيفة، بشرط إذا تبين له الدليل بخلافه تبع الدليل وتركه، ووضح لطلبته أن هذا هو الحق، وأن هذا هو الواجب عليهم.

أما فيما يتعلق بمسألة الصوفية وغنائهم ومديحهم وضربهم بالدف، والتغبير التي يضربون الفراش ونحوه بالسوط، فما كان أكثر غبارا فهو أشد صدقا في الطلب، وما أشبه ذلك مما يفعلونه، فإن هذا من البدع المحرمة التي يجب عليه أن يقلع عنها، وأن ينهى أصحابه عنها، وذلك لأن خير القرون، وهم القرن الذين بعث فيهم النبي ﷺ لم يتعبدوا لله بهذا التعبد؛ ولأن هذا التعبد لا يورث القلب إنابة إلى الله ولا انكسارا لديه، ولا خشوعا لديه، وإنما يورث انفعالات نفسية يتأثر بها الإنسان من مثل هذا العمل، كالصراخ وعدم الانضباط والحركة الثائرة وما أشبه ذلك، وكل هذا يدل على أن هذا التعبد باطل، وأنه ليس بنافع للعبد، وهو دليل واقعي غير الدليل الأثري الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة» فهذا التعبد من الضلال المبين الذي

يجب على العبد أن يقلع عنه، وأن يتوب إلى الله، وأن يرجع إلى ما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون، فإن هديهم أكمل هدي، وطريقهم أحسن طريق، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. ولا يكون العمل صالحا إلا بأمرين:

الإخلاص لله، والموافقة لشريعته التي جاء بها رسوله ﷺ.

وأما ما ذكره من مجادلة الطالب له، وقول بعضهم: إنه رجل وهابي، وإن الوهابية لا يقرون المدائح النبوية، وما إلى ذلك، فإننا نخبره وغيره بأن الوهابية -ولله الحمد- كانوا من أشد الناس تمسكا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن أشد الناس تعظيما لرسول الله ﷺ واتباعا لسنته، ويدلك على هذا أنهم كانوا حريصين دائما على اتباع سنة الرسول ﷺ والتقيد بها، وإنكار ما خالفها من عقيدة، أو عمل قولي أو فعلي.

ويدلك على هذا أيضا أنهم جعلوا الصلاة على النبي ﷺ ركنا من أركان الصلاة، لا تصح الصلاة إلا بها؛ فهل بعد هذا من شك في تعظيمهم لرسول الله ﷺ؟

وهم أيضا إنما قالوا بأنها ركن من أركان الصلاة؛ لأن ذلك هو مقتضى الدليل عندهم، فهم متبعون للدليل، معظمون للرسول، لا يغلون بالنبي ﷺ في أمر لم يشرعه الله ورسوله، ثم إن حقيقة الأمر أن إنكارهم للمدائح النبوية المشتملة على الغلو في رسول الله ﷺ هو التعظيم الحقيقي لرسول الله ﷺ وهو سلوك الأدب مع الله ورسوله حيث لم يقدموا بين يدي الله ورسوله، فلم يغلوا؛ لأن النبي ﷺ نهاهم عن ذلك فقال النبي ﷺ: «أيها الناس قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان».

ونهى عليه الصلاة والسلام عن الغلو فيه كما غلت النصارى في المسيح ابن مريم؛ قال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد؛ فقولوا: عبد الله ورسوله». والمهم أن طريق الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأتباعه، وهو الإمام المجدد طريقه هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه لمن تتبعه بعلم وإنصاف. وأما من قال بجهل أو بظلم وجور فإنه لا يمكن أن يكون لأقواله منتهى، فإن الجائر أو الجاهل يقول كل ما يمكنه أن يقول من حق وباطل، ولا انضباط لقوله، وإذا لم تستح فاصنع ما شئت، ومن أراد أن يعرف الحق في هذا، فليقرأ ما كتبه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأحفاده، والعلماء من بعده حتى يتبين له الحق، إذا كان منصفا ومريدا للحق.

ثم إن المدائح النبوية المشتملة على الغلو، لا شك أن رسول الله ﷺ لا يرضى بها، بل إنما جاء بالنهي عنها، والتحذير منها، فمن المدائح التي يحرصون عليها ويتغنون بها ما قاله الشاعر:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وأشباه ذلك مما هو معلوم، ومثل هذا بلا شك كفر بالرسول ﷺ وإشراك بالله عَزَّ وَجَلَّ، فإن رسول الله ﷺ بشر لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله عَزَّ وَجَلَّ، والدنيا وضرتها وهي الآخرة، ليست من جود رسول الله ﷺ بل هي من خلق الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو الذي خلق الدنيا والآخرة، وهو الذي جاد فيهما بما جاد على عباده سبحانه وتعالى، وكذلك علم اللوح والقلم ليس من علوم الرسول ﷺ، بل إن علم اللوح والقلم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يعلم منه رسول الله ﷺ إلا ما أطلعه الله عليه هذا هو حقيقة الأمر، وهذا وأمثاله هي المدائح التي يتغنى بها هؤلاء الذين يدعون

أنهم معظمون لرسول الله ﷺ ومن العجائب أن هؤلاء المغالين يدعون أنهم معظمون لرسول الله ﷺ تجدهم معظمين له كما زعموا في مثل هذه الأمور، وهم في كثير من سننه فاترون معرضون، والعياذ بالله.

فأنصح القائل وغيره بأن يعود إلى الله ﷻ، وأن لا يطري رسول الله ﷺ كما أطرى النصارى عيسى ابن مريم، وأن يعلم أن رسول الله ﷺ بشر يمتاز عن غيره بالوحي الذي أوحاه الله إليه، وما خصه الله به من المناقب الحميدة، والأخلاق العالية، ولكن ليس له من التصرف في الكون شيء، وإنما التصرف في الكون، والذي يدعى ويرجى ويؤله هو الله ﷻ وحده، لا إله إلا هو، سبحانه وتعالى عما يشركون.

مسألة: وسئل العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضا كما في فتاوى نور على الدرب: كيف تكون المحبة في الله أرجو منكم إفادة؟.

فأجاب: تكون المحبة في الله بأن تحب الرجل لكونه عابدًا صالحًا لا لأنه قريبك ولا لأن عنده مالًا ولا لأنه يعجبك فيه خلقه ومنظره وما أشبه ذلك لا تحبه إلا لدينه وتقواه هذه المحبة في الله وفي هذه الحال تجد أن كل واحدٍ منكما يعين الآخر على طاعة الله وقد ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمامٌ عادل وشابٌ نشأ في طاعة الله ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال فقال إني أخاف الله ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه) والشاهد هنا قوله (رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه) ولكني أحذر غاية التحذير ولا سيما النساء من أن

تكون هذه المحبة في الله محبةً مع الله لأن بعض الناس يغرم بمحبة أخيه في الله أو تغرم المرأة بمحبة أختها في الله حتى تكون محبة هذا الإنسان في قلبها أو في قلب الرجل أشد من محبة الله لأنه يكون دائمًا هو الذي في قلبه وهو الذي على ذكره إن نام نام على ذكره وإن استيقظ استيقظ على ذكره وإن ذهب أو رجع فهو على ذكره فينسيه ذكره ذكر الله ﷻ وهذا شركٌ في المحبة قال الله تعالى ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ وفعلًا تحصل الشكوى من هذا الأمر أن تحب المرأة زميلتها أو معلمتها محبةً شديدةً تستولي على قلبها وفكرها وعقلها حتى تكون هي التي على بالها دائمًا وتنسى بذكرها ذكر الله وهذا خطأ وخطر والواجب على المرء إذا وقع في هذا الداء أن يحاول الدواء ما استطاع ولكن كيف الدواء وقد وصلت الحال إلى هذه المنزلة الدواء أن يذكر أولًا أن محبة الله تعالى فوق كل شيء ويصرف قلبه لمحبة الله ومما يقوي محبة الله في قلب العبد دوام ذكر الله وكثرة قراءة القرآن وكثرة الأعمال الصالحة والإعراض عن شهوات النفس وهوى النفس ثانيًا أن يبتعد بعض الشيء عن هذا الذي وقع في قلبه محبته إلى هذه المنزلة يبتعد عنه بعض الشيء ويتلهى بأمرٍ آخر فإن لم ينفع فليجتنبه نهائيًا يقطع الصلة بينه وبينه حتى يهدأ هذا الحب وتزول هذه الحرارة وتسكن ثم يعود إلى محبته المحبة العادية ومن أجل كثرة الشكوى من هذا أحببت أن أنبه عليه أن لا تكون المحبة في الله ترتقي إلى أن تكون محبةً مع الله لأن هذا نوعٌ من الشرك في المحبة.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر: هل تعد زيارة المسلمة لأهلها الكفار موالاةً لمن حاد الله ورسوله وهل يعتبر الأب أجنبيًا يجب عدم الكشف له؟.

فأجاب: صلة الرحم لا تعتبر موالاةً بل الموالاة شيء والصلة شيء آخر

ولهذا جمع الله تعالى بين الصلة وبين النهي عن اتخاذ الولاية في سورةٍ واحدة فقال تعالى في سورة الممتحنة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ) وقال في نفس السورة (لا يَنْهَاكُمْ اللهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ) فصلة الرحم أمرٌ منفصل عن الولاية فعلى هذا يجب على الإنسان أن يصل رحمه ولو كانوا كفارًا لكن بدون موالاةٍ ومناصرة ومعاضدة على ما هم عليه من الكفر وكذلك يجوز أن يدعوهم إلى بيته مثلًا ولكن مع ذلك ينبغي أن يحرص على عرض الإسلام عليهم ونصحهم وإرشادهم لعل الله أن يهديهم بسببه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر: هل يأثم الإنسان إذا عاش مع أناس لا يصلون ولكنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لكنه لا يستطيع أن يهجرهم لأنهم إخوان وأقارب؟.

فأجاب: نعم، إذا كانوا لا يصلون فالواجب عليه نصيحتهم حينًا بعد حين فإن أصروا على ترك الصلاة فهم كفرة مرتدون عن دين الإسلام مستوجبون للخلود في النار والعياذ بالله وعليه أن يهجرهم فلا يجيب دعوتهم ولا يسلم عليهم ولا يدعوهم إلا إذا رجا ولو رجاءً بعيدًا أن يهديهم الله عَزَّ وَجَلَّ بالمناصحة فلا ييأس من رحمة الله.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر: هل يجوز مؤاكلة المشركين من طبق واحد؟.

فأجاب: الأولى للمسلم أن يتجنب مجالس السوء ومنها مجالس المشركين واليهود والنصارى فليبتعد عنهم بقدر الإمكان لكن إذا ألجأته الحاجة أو الضرورة لمؤاكلتهم فإنه يعذر في ذلك كما يوجد اليوم في كثير من المؤسسات تجمع بين عمال كفار وعمال مسلمين ولا يستطيع المسلم أن يتخلص من

الاجتماع بهؤلاء ولكني أقول إن من الخير أن يعرض المسلم على هؤلاء الكفار محاسن الإسلام وأن يدعوهم إلى الإسلام فلعل الله سبحانه وتعالى أن يهديهم به فينال هذا الأجر الذي قاله رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب حين وجهه إلى خيبر قال له (ادعهم إلى الإسلام فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم) وحمر النعم هي الإبل الحمراء وكانت من أنفس الأموال وأغلاها عند العرب.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر: عن حكم زيارة النصراني إذا كان مريضًا وعن اتباع جنازته.

فأجاب: زيارة النصراني أو غيره من الكفار إذا كان مريضًا وتسمى في الحقيقة عيادة لا زيارة لأن المريض يعاد مرة بعد أخرى فإذا كان في ذلك مصلحة كدعوته إلى الإسلام فهذا خير ويطلب من الإنسان أن يعوده وإن لم يكن فيها مصلحة فإن كان هناك سبب يقتضي ذلك مثل كونه قريبا أو جارا أو ما أشبه ذلك فلا بأس أيضا وإلا فالخير في ترك عيادته وأما اتباع جنازته فإن كان فيها شيء محرم كالناقوس وإشعال النيران والصلبان فإنه لا يجوز وإن لم يكن فيها شيء محرم فينظر إلى المصلحة في ذلك والله أعلم.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر: هل يجوز السفر للبلاد الكافرة والعمل بها في الأعمال المباحة مع المحافظة على العقيدة؟.

فأجاب: لاشك أن الذي يسافر إلى هذه البلاد مخاطر بدينه لأنها بلاد كفر والمرء إذا عاش في بيئة فإنه يتأثر بها إلا من عصم الله قال النبي ﷺ (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) وكيف تطيب نفس مؤمن أن يعيش في بلاد لا يسمع إلا أجراس النواقيس وأصوات الأبواق ولا

يسمع فيها قول الله أكبر حي على الصلاة المؤمن ينبغي له أن يبتعد مهما أمكن عن بلاد الكفر ولكن إذا دعت الحاجة إلى ذلك وكان عنده علم يدفع به شبهات المنصرين وكان عنده عبادة تمنعه من الزيغ والميل بهذه الشروط الثلاثة نرى أنه لا بأس أن يسافر إلى الخارج بالشروط الثلاثة أعيدها أولًا الحاجة إلى ذلك بأن يكون مسافرًا لتخصصات لا توجد في بلاده وثانيًا أن يكون لديه علم يدفع به شبهات المضللين المنصرين وغير المنصرين الشرط الثالث أن يكون عنده عبادة قوية تمنعه من الزيغ والانحلال فإذا تمت هذه الشروط الثلاثة فلا بأس أن يسافر وإذا تخلف واحد منها فنرى أنه لا يجوز السفر لا سيما لصغار السن والنشء فإنهم على خطر وقد حذر رسول الله ﷺ من سمع بالدجال أن يقرب منه وأمره بأن يبعد عنه وأخبر بأن الرجل يأتي إليه وهو يرى أنه لا يصده ثم لا يزال به حتى يصده عن دينه وهذا أمر واقع فإن الذين يسافرون إلى بلاد الكفر غالبهم يرجع بغير ما سافر به من دين وخلق نسأل الله السلامة والعافية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر: أنا معلمة في منطقة بعيدة عن سكن الأهل تستوجب وظيفتي أن أسكن في سكن المعلمات الذي خصصته الحكومة لنا كان من ضمن المعلمات اللواتي معي في نفس الغرفة معلمة غير مسلمة وهي تشاركني في الأكل والشرب وكذلك في ماء الغسيل لأننا نجلب الماء من الشاطئ ونخزنه فأنا أضطر في صلاة المغرب أن أتوضأ من هذا الماء لأنني أخاف الخروج ليلًا إلى النهر وخاصة أن المنطقة ريفية وموحشة ليلًا وبقيت على هذه الحال أربع سنوات فهل صلاتي صحيحة وأيضًا هل معاشرتي لها صحيحة أفيدوني في ذلك بارك الله فيكم؟.

فأجاب: هذا السؤال تضمن سؤالين السؤال الأول عن حكم استعمال الماء

المخزن بينكما أي بين المرأة السائلة وبين من كانت معها وهي غير مسلمة فهذا الماء المخزن طاهر مطهر وذلك لأن بدن الكافر ليس بنجس نجاسة حسية بل نجاسة الكافر نجاسة معنوية لقول الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) ولقول النبي ﷺ لأبي هريرة (إن المسلم لا ينجس) وعلى هذا فيجوز للإنسان أن يتوضأ بالماء الذي خزنه غير مسلم وكذلك يجوز أن يلبس الثياب التي غسلها غير مسلم وأن يأكل الطعام الذي طبخه غير مسلم وأما ما ذبحه غير المسلمين فإن كان الذابح من اليهود والنصارى فذبيحته حلال لقول الله تعالى (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ) قال ابن عباس رضي الله عنهما (طعامهم: ذبائحهم) ولأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه أكل من الشاة التي أهدتها له اليهودية وأجاب يهوديًا على إهالة سنخة وخبز شعير وأقر عبد الله بن مغفل على أخذ الجراب من الشحم الذي رمي به في فتح خيبر فثبت بالسنة الفعلية والسنة الإقرارية أن ذبائح أهل الكتاب حلال ولا ينبغي أن نسأل كيف ذبحوا ولا هل ذكروا اسم عليه أم لا فقد ثبت في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن قومًا قالوا يا رسول الله إن قومًا يأتوننا باللحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا فقال النبي ﷺ (سموا أنتم وكلوا) قالت وكانوا حديثي عهد بكفر يعني أنهم جديدو الإسلام ومثل هؤلاء قد تخفى عليهم الأحكام الفرعية الدقيقة التي لا يعلمها إلا من عاش بين المسلمين ومع هذا أرشد النبي ﷺ هؤلاء السائلين إلى أن يعتنوا بفعلهم هم بأنفسهم فقال (سموا أنتم وكلوا) أي سموا على الأكل وكلوا وأما ما فعله غيركم ممن تصرفه صحيح فإنه يحمل على الصحة ولا ينبغي السؤال عنه لأن ذلك من التعمق والتنطع ولو ذهبنا نلزم أنفسنا بالسؤال عن مثل ذلك لأتعبنا

أنفسنا إتعابًا كثيرًا لاحتمال أن يكون كل طعام قدم إلينا غير مباح فإن من دعاك إلى طعام وقدمه إليك فإنه من الجائز أن يكون هذا الطعام مغصوبًا أو مسروقًا ومن الجائز أن يكون ثمنه حرامًا ومن الجائز أن يكون اللحم الذي ذبح فيه لم يسمَّ الله عليه وما أشبه ذلك فمن رحمة الله تعالى بعباده أن الفعل إذا كان قد صدر من أهله فإن الظاهر أنه فعل على وجه تبرأ به الذمة ولا يلحق الإنسان فيه حرج وأما ما تضمنه السؤال من المسألة الثانية أو السؤال الثاني وهو معاشرة هذه المرأة الكافرة فإن مخالطة الكافرين إن كان يرجى منها إسلامهم بعرض الإسلام عليهم وبيان مزاياه وفضائله فلا حرج على الإنسان أن يخالط هؤلاء ليدعوهم إلى الإسلام ببيان مزاياه وفضائله وبيان مضار الشرك وآثامه وعقوباته وإن كان الإنسان لا يرجو من هؤلاء الكفار أن يسلموا فإنه لا يعاشرهم لما تقتضيه معاشرتهم من الوقوع في الإثم فإن المعاشرة تذهب الغيرة والإحساس وربما تجلب المودة والمحبة لأولئك الكافرين وقد الله ﷻ (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) ومودة أعداء الله ومحبتهم وموالاتهم مخالفة لما يجب على المسلم فإن الله سبحانه وتعالى قد نهى عن ذلك فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) وقال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ من الحق) ولا ريب أن كل كافر فهو عدو لله وعدو للمؤمنين قال الله تعالى (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) فكل كافر فهو عدو

الله ولا يليق بمؤمن أن يعاشر أعداء الله ﷻ وأن يوادهم ويحبهم لما في ذلك من الخطر العظيم على دينه وعلى منهجه نسأل الله للجميع الهداية والتوفيق والعصمة مما يغضبه.

وسئل رحمه الله في نفس المصدر: أنا مقيم في الأردن في منزل معظم سكانه من الإخوة المسيحيين نأكل ونشرب مع بعضهم فهل صلاتي وعيشي معهم باطل أرجو من الشيخ إفادة حول هذا؟.

فأجاب: قبل الإجابة على سؤاله أود أن أذكر له ملاحظة أرجو أن تكون جرت على لسانه بلا قصد وهي قوله أعيش مع الإخوة المسيحيين فإنه لا أُخوة بين المسلمين وبين النصارى أبدًا الأُخوة هي الأُخوة الإيمانية كما قال الله ﷻ (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وإذا كانت قرابة النسب تنفى مع اختلاف الدين فكيف تثبت الأُخوة مع اختلاف الدين وعدم القرابة قال الله ﷻ عن نوح وابنه لما قال نوح عليه الصلاة والسلام (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) فلا أخوة بين المؤمن والكافر أبدًا بل الواجب على المؤمن أن لا يتخذ الكافر وليًا كما قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ) فمن هم أعداء الله هم الكافرون قال الله (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) وقال سبحانه وتعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) فلا يحل للمسلم أن يصف الكافر أيًا كان نوع كفره سواء كان نصرانيًا أم يهوديًا أم مجوسيًا أم ملحدًا دهريًا لا يجوز له أن يصفه بالأخ أبدًا

فاحذر يا أخي مثل هذا التعبير ولا يعني ذلك حينما نقول هذا أنه لو كان أخًا لك في النسب حقيقة أن أخوته تنتفي أعني أخوته النسبية بل إن أخوته النسبية ثابتة إذا كان أخًا لك مثل أن يكون من أولاد أمك أو أولاد أبيك لكن أخوة تكون أخوة ربط بينك وبينه هذه لا تجوز أبدًا وأما الجواب على سؤاله فإن الذي ينبغي للإنسان أن يبتعد عن مخالطة غير المسلمين يبتعد عنهم لأن مخالطتهم تزيل الغيرة الدينية من قلبه وربما تؤدي إلى مودتهم ومحبتهم وقد قال الله تعالى (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

وسئل رحمه الله في نفس المصدر: ظروف العمل قد تجمعنا مع هؤلاء الآتية صفاتهم أولهم رجلٌ يدين بدين المجوسية مطلقًا لا علاقة له بالإسلام وثانيهم يدين بأحد الأديان السماوية المنسوخة بالإسلام وثالثهم ناكرٌ للأديان ورابعهم يدين بالإسلام ويؤمن به ولكنه في نفس الوقت لا يطبق قواعد الإسلام الخمسة عمليًا مع القدرة على العمل ويترك ذلك تلقائيًا بغير عذرٍ شرعي زد على ذلك أنه يستغيث ويستعين بغير الله وسؤالي هو أننا بحكم ظروف العمل الموحد في مصلحةٍ واحدة يبادروننا بالسلام مرةً وتارةً نبادرهم نحن وأيضًا قد يموت واحدٌ من هؤلاء ويلزمنا من ناحيةٍ إنسانية بحكم الزمالة أن نحضر مراسم العزاء من صلاةٍ ودفن وتعزية فما حكم الإسلام في كل هذا أفيدونا أفادكم الله؟.

فأجاب: نحن ننصح هذا الأخ ونقول له ينبغي لك أن تطلب عملًا ليس فيه أحدٌ من أعداء الله ورسوله ممن يدينون بغير الإسلام فإذا تيسر فهذا هو الواجب

وهذا هو الذي ينبغي وإن لم يتيسر فلا حرج عليك لأنك أنت في عملك وهم في عملهم ولكن بشرط أن لا يكون في قلبك مودةٌ لهم ومحبة وموالاة وأن تلتزم ما جاء به الشرع فيما يتعلق بالسلام عليهم ورد السلام ونحو هذا كذلك أيضًا لا تشيع جنائزهم ولا تحضرها إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك كما لو لم يوجد أحد يقوم بدفنهم فلا حرج عليك في هذه الحال أن تقوم بدفنهم وأما مع وجود أحد من أوليائهم يقوم بذلك فإنك لا تشهد جنائزهم لأن المؤمن يجب أن يراعي ما يرضي الله ورسوله ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر: لدي أخٌ لا يصلى إلا قليلًا وهو عاقٌ لوالديه كما أنه يشرب الدخان وهو بذيء اللسان بالإضافة إلى أعمال أخرى يقوم بها فما الحكم في هذا الشخص هل لنا أن نجلس معه في المجلس الذي يكون فيه وهل نأكل معه من طبقٍ واحد أم يأخذ حكم تارك الصلاة؟.

فأجاب: لا يأخذ حكم تارك الصلاة لأن بينه وبين تارك الصلاة فرقًا فتارك الصلاة كافرٌ مرتد وليس من المسلمين وهذا مسلم لكنه ناقص الإيمان فأرى أن تنظروا للمصلحة إن كانت مشاركتكم إياه في الأكل والشرب والجلوس تؤدي إلى رقة قلبه وميوله إليكم فافعلوا، وهذا وإن كان لا يحصل في أول مرة أو ثاني مرة لكن ما دمنا نعرف أن الرجل له نوع من الميل إلى الاستقامة فلنجلس معه ونتحدث إليه ولنباسطه، أما إذا عرفتم أن الرجل معاندٌ مكابر وأن هجره في هذه الأحوال يؤدي إلى خفة استكباره وإلى رجوعه إلى الحق فافعلوا أي جانبوه في الأكل والشرب والجلوس والتحدث.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر: أصلى وأصوم شهر رمضان وكان معي جماعة من المسيحيين وسكنت معهم في المسكن وكنت آكل وأشرب معهم

هل صلاتي صحيحة وأكلي وشربي معهم صحيح أم لا أفيدونا في ذلك بارك الله فيكم؟.

فأجاب: هذا الرجل يقول إن معه جماعة من النصارى وإنه يأكل معهم ويشرب معهم ويصلى فهل هذا الفعل صحيح أم لا فنقول له في الجواب على ذلك أما صلاتك فصحيحة لأنه لم يكن فيها شيء يوجب بطلانها وربما تكون صلاتك داعية لهم إلى الإسلام مرغبة لهم فيها إذا رأوا أنك تذهب وتدع العمل لتقوم بما أوجب الله عليك من الصلاة وتقوم في آخر الليل تتوضأ ولا سيما في الليالي الباردة لتؤدي ما فرض الله عليك فربما يكون ذلك سببًا لرغبتهم في الإسلام ودخولهم فيه وأما معاشرتك إياهم وأكلك وشربك معهم فإن هذا لا ينبغي بل الذي ينبغي لك أن تختار أصحابًا من المسلمين ليكونوا لك عونًا على طاعة الله سبحانه وتعالى وتبتعد عن قوم ليسوا بمسلمين لأن ذلك أعني مخالطتك غير المسلمين قد يؤدي إلى محبتك إياهم ومودتك لهم وقد يكون لك معهم مجاملة ومصانعة لاتحل لك وقد قال الله سبحانه وتعالى (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ).

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر: لي أخ في بلاد كفار مثل الاتحاد السوفيتي وغيرها من البلاد الكافرة الذين يُعدون دار حرب فما هو الجواب حيال هذا الأخ في معاملته ومراسلاته؟.

فأجاب: هذا الأخ الذي يكون في بلاد الكفار سواء كانت حربية أم ذات عهد

يجب على المرء أن يراسله ليناصحه ويدعوه إلى القدوم إلى بلاد الإسلام لأن ذلك أسلم لدينه وأبرأ من براثن الشرك والكفر وأما تركه وهجره فهذا قد لا يزيده إلا شرًا وسوءًا وتمسكًا بما هو عليه فالذي ينبغي لهذا أن يراسل أخاه ويدعوه إلى الدين ويرغبه فيه ثم إلى الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام إلا إذا كانت إقامته هناك لمصلحة تعود إلى الإسلام مثل أن يكون داعية هنالك موفقًا في دعوته فهنا الإقامة من أجل هذا الغرض لا بأس بها بل قد تكون واجبة عليه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر: لي صديق لا يصلى ولا يصوم وهو في العشرين من العمر وأنا أحبه وأقدره لأنه زميل مخلص لي وأنا أحافظ على الصلوات والحمد لله فما حكم زمالتي له؟.

فأجاب: أقول أولا ما دام صديقًا لك فله حق عليك أن تناصحه وأن تؤكد عليه أن يصلى وأن تخوفه من عقوبة الله عَزَّ وَجَلَّ إذا لم يصلِّ وأن تصطحبه معك إلى المسجد وإلى مجالس الذكر ومجالس الإيمان من الأصحاب والخلان لعل الله يهديه على يدك فتكون أهديت له أهم هدية فإن حصل هذا المطلوب فهو المطلوب وإن لم يحصل فلا أرى أن تصاحبه ولا أن تماشيه لأن من ترك الصلاة فهو كافر كفرا مخرجا عن الملة هو مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر: إنني أعمل في دائرة وهذه يكثر فيها النصارى جدًا ونحن نتعامل معهم ونودهم أحيانًا أكثر من المسلمين وأنا سمعت وقرأت أن هذا لا يجوز على الرغم من أنني أصوم وأصلى وأرتدي الحجاب الشرعي وأخاف الله وأحيانًا أجادلهم إلى درجة الخصومة ولكن دون جدوى وأحيانًا أو كثيرًا ما يكذبون ما أقول ولكن بعد يوم أعود وأتكلم معهم طمعًا في إسلامهم

لأنهم يودونني كثيرًا وأنا أظل في حيرة من هذه الصداقة وخصوصًا مع إحداهن فهي لا تؤذيني ولا تسيء إلي ولكني أخاف الله تعالى وأخشى أن يكون علي إثم في صداقتي لها وإخلاصي لها ولكن يعلم الله أنني أطمع كثيرًا في دخولها ورفاقها في الإسلام ولذلك حافظت على علاقتي بها فهل علي شيء في هذا؟.

فأجاب: لاشك أن المسلم يجب عليه أن يبغض أعداء الله وأن يتبرأ منهم لأن هذه هي طريقة الرسل وأتباعهم قال الله تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ) وقال تعالى (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) وعلى هذا فلا يحل لك أن يقع في قلبك محبة ومودة لأعداء الله الذين هم أعداء لك في الواقع قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ) أما كونك تعاملينهم باللين والرفق طمعًا في إسلامهم وإيمانهم فهذا لا بأس به لأنه من باب التأليف على الإسلام ولكن إذا أيست منهم فعامليهم بما يستحقون أن تعامليهم به.

فضيلة الشيخ: ماذا عن مودتهم أكثر من المسلمين أو عن مدحهم أو ربما يكون مدحهم بصفة عامة كمن يقول مثلًا إن المسيحيين يعني غير المسلمين قد يكونون أفضل من المسلمين في بعض المعاملات أو في شيء بصفة عامة؟

فأجاب رحمه الله تعالى: {لاشك أن الذي يوادهم أكثر من المسلمين أن هذا فَعَل محرمًا عظيمًا فإنه يجب عليه أن يحب المؤمنين وأن يحب لهم ما

يحب لنفسه أما أن يواد أعداء الله أكثر من المسلمين فهذا خطر عليه عظيم وحرام عليه بل لا يجوز أن يودهم ولو أقل من المسلمين كما سمعت من الآية (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ) وكذلك أيضًا من أثنى عليهم ومدحهم وفضلهم على المسلمين في العمل وغيره فإنه قد فعل إثمًا وأساء الظن بإخوانه المسلمين وأحسن الظن بمن ليس أهلًا لإحسان الظن والواجب على المؤمن أن يقدم المسلمين على غيرهم في جميع الشؤون في الأعمال وفي غيرها وإذا حصل من المسلمين تقصير فالواجب عليه أن ينصحهم وأن يحذرهم وأن يبين لهم مغبة الظلم لعل الله أنْ يهديهم على يده.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر: أنا مسلم وأحمد الله على ذلك متبع لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولكن لي زملاء عندهم بعض البدع فهل لي أن أتركهم وأهجرهم أفيدوني وانصحوني مأجورين؟.

فأجاب: الواجب على من كان له قرناء فيهم بدعة أن ينصحهم ويبين لهم أن ما هم عليه بدعة لعل الله أن يهديهم على يديه حتى ينال أجرهم فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب (لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم) فإن أصروا على ما هم عليه من البدعة فإن كانت البدعة مكفرة وجب عليه هجرهم والبعد عنهم وإن لم تكن مكفرة فلينظر هل في هجرهم مصلحة إن كان في هجرهم مصلحة هجرهم وإن لم يكن في هجرهم مصلحة فلا يهجرهم وذلك لأن الهجر دواء إن كان يرجى نفعه فليفعل وإن لم يرجَ نفعه فلا يفعل لأن الأصل أن هجر المؤمن محرم والعاصي من المؤمنين لا

يرتفع عنه اسم الإيمان فيكون هجره في الأصل محرما لكن إذا كان في هجره مصلحة لكونه يستقيم ويدع ما يوجب فسقه فإنه يهجر وإلا فلا هذا هو الضابط في الهجر الذي تجتمع فيه الأدلة وخلاصته أن هجر الكافر المرتد واجب إذا لم يفد فيه النصيحة هجر الفاسق ليس بجائز إلا إذا كان في هجره مصلحة ودليل ذلك أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال (لا يحل لأحدٍ أن يهجر أخاه المؤمن يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام) إلا إذا كان في هجره مصلحة فيهجر كما فعل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في كعب بن مالك وصاحبيه حين تخلفوا عن غزوة تبوك.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر: نحن نعلم والحمد لله بأن زيارة القبور بهدف الاستعانة والاستغاثة بها محرم وشرك ولكن ماذا أفعل وأهلي ينذرون الذبائح كل عام لأصحاب القبور بهدف التقرب إليهم ونصحناهم كثيرًا لكن دون فائدة قائلين بأنهم أولياء لله وصالحون فقلت لهم إذا كانوا صالحين فهم صالحون لأنفسهم وهم أموات ولا يستطيعون أن ينفعوكم وسؤالي هل أبقى معهم في المنزل مع العلم بأنهم يصلون وهل صلاتهم هذه مقبولة؟.

فأجاب: نعم نحن معك في نصيحة أهلك عن هذا العمل المشين الذي هو من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله والذي قال الله تعالى عنه (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) وإني أقول لأهلك اتقوا الله في أنفسكم فإنكم إن متم على ذلك صرتم من أصحاب النار وأنتم خالدون فيها مخلدون وحرم الله عليكم الجنة والعياذ بالله وهم مشركون مخلدون في النار ولو كانوا يصلون ويصومون ويحجون ويعتمرون وصلاتهم غير مقبولة وحجهم غير مقبول وصدقاتهم غير مقبولة لأنهم كفار والعياذ بالله

فنصيحتي لهؤلاء الأهل أن يتداركوا الأمر قبل فوات الأوان أن يتوبوا إلى الله ﷻ قبل حلول الأجل فإن التوبة بعد حلول الأجل لا تقبل قال الله تبارك وتعالى (وليست التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) إذًا قولي لأهلك أنقذوا أنفسكم من النار أنقذوا أنفسكم من النار أنقذوا أنفسكم من النار وهؤلاء الموتى الذين تزورونهم أولًا هل تشهدون عليهم بأنهم أولياءٌ لله قد يكونون أولياء لله بحسب الظاهر وباطنهم خراب لا ندري وإذا أحسنا الظن إلى أبعد الحدود فليكونوا من أولياء الله ولكن إذا كانوا من أولياء الله فإنهم جثث هامدة لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا يملكون لغيرهم نفعًا ولا ضرًا قال الله تعالى (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) وقال الله تبارك وتعالى (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) وقال الله تعالى (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) وليعلم أهلك وغيرهم ممن يدعون الأموات أن هؤلاء الأموات لا يستجيبون ولا ينفعون ولا يضرون وأنهم هم بأنفسهم محتاجون لمن يدعو لهم أسأل الله أن ينير قلوبنا بالتوحيد والإخلاص والإيمان إنه على كل شيء قدير.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر: تذكر أنها فتاة وبحكم علاقتها بالأسرة والعائلة والأقارب العديد منهم لا يصلى فكيف يكون التعامل معهم علما بأنهم

يعلمون أن الصلاة واجبة إنما هو تكاسل فكيف تكون العلاقة معهم؟.

فأجاب: العلاقة مع هؤلاء الذين لا يصلون بتاتًا المناصحة قبل كل شيء بالكلام وبالرسائل وبالأشرطة الدينية فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم وإن أبوا إلا أن يكونوا على ما هم عليه وجب هجرهم والبعد عنهم لأنهم في هذه الحال لا حق لهم إذ أن تارك الصلاة مرتد خارج عن الإسلام ليس له حق كما قال الله ﷻ لنوح عليه الصلاة والسلام لما قال (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) وكان ابن نوح كافرا قال (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) فهذه الحال هي التي يجب أن تعاملي بها هؤلاء الأقربين.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر: يا فضيلة الشيخ ليس في مقدور العائلة ولو كانوا يعرفون أن ابنهم هذا لا يصلى أو لا يأتي بشيء من شعائر الدين لا يستطيعون أن يرموه مثلًا في حفرة أو يذهبوا به من دون تغسيل ولا تكفين ولا صلاة عليه لأن هذا يحرجهم جدًا؟.

فأجاب: سبحان الله وما الذي يمنع ما السبب؟ لأن الواجب على العائلة إذا كان من أبنائهم من هو بهذه الصفة، الواجب عليهم أن لا يحبوه، لأنهم إذا أحبوه فقد أحبوا أعداء الله لأن الكافر عدو لله فقد قال الله ﷻ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ) وقال تعالى (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) فأصلًا يعني العطف أو المودة أو المحبة لمثل هذا الذي هو عدو لله هذا لا يجوز، وهو ينافي الإيمان، وكيف يدعي محبة الله من يحب أعداء الله، هذا لا يمكن.

(باب ذكر مباحث الملائكة)

مسائل في الباب:

المسألة الأولى: الملائكة لغة

جمع ملك، قال ابن فارس: (الميم واللام والكاف أصل صحيح يدل على قوة في الشيء وصحة)(١).

والملك أصله (ملاك) نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله، ثم حذفت الألف تخفيفًا فصارت ملكًا، وهو مشتق من الألوكة والملأكة وهي: الرسالة، والملأك: الملك؛ لأنه يبلغ عن الله تعالى، يقال: ألك؛ أي تحمل الرسالة(٢).

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: (فسميت الملائكة ملائكة بالرسالة؛ لأنها رسل الله بينه وبين أنبيائه ومن أرسلت إليه من عباده)(٣).

وإنما سميت الرسالة ألوكة ومألكة لأنها تؤلك في الفم، من قولهم: يألك اللجام ويعلكه(٤).

وتعريف الملائكة اصطلاحًا: خلق من خلق الله تعالى، خلقهم الله عَزَّ وَجَلَّ من نور، مربوبون مسخرون، عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يوصوفون بالذكورة ولا بالأنوثة، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يملون ولا يتعبون ولا يتناكحون ولا يعلم عددهم إلا الله(٥).

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/ ٣٥١ - ٣٥٢) مادة (ملك).

(٢) معجم مقاييس اللغة (١/ ١٣٢) مادة (ألك)، والمحيط في اللغة (٦/ ٢٧٥)، و(المصباح المنير (١/ ٢٣)، والقاموس المحيط (٣/ ٤٣٢ - ٤٣٣)، مادة (ملك).

(٣) تفسير الطبري (١/ ٢٦١).

(٤) المحيط في اللغة (١/ ٣٢٩)، معجم مقاييس اللغة (١/ ١٣٣) مادة (ألك).

(٥) لوامع الأنوار البهية (١/ ٤٤٧)، وأعلام السنة المنشورة (ص: ٧٨)، والإيمان لمحمد =

وقد عرفها بعضهم بأنها: (أجسام نورانية، أعطيت قدرة على التشكل والظهور بأشكال مختلفة بإذن الله تعالى)[١].

والإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، والذي لا يصح إيمان عبد حتى يقر به، فيؤمن بوجودهم، وبما ورد في الكتاب والسنة من صفاتهم وأفعالهم، قال الله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٩٨].

وقد حكم الله ﷻ بالكفر على من أنكر وجود الملائكة؛ ولم يؤمن بهم، فقال تبارك وتعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلًا بَعِيدًا)} [النساء: ١٣٦]. والملائكة خلق من خلق الله تعالى، خلقهم الله ﷻ من نور، مربوبون مسخرون، عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يملون ولا يتعبون ولا يتناكحون ولا يعلم عددهم إلا الله.

والإيمان بالملائكة: هو الإيمان بوجودهم إيمانًا جازمًا لا يتطرق إليه شك، ولا ريب، قال الله تبارك وتعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إليه مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [البقرة:٢٨٥]، لقوله تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلًا بَعِيدًا}

=

نعيم ياسين (ص: ٣٢)، عالم الملائكة الأبرار لعمر سليمان الأشقر (ص: ١٣ وما بعدها).

(١) فتح الباري (٦/ ٤٥٠)، روح المعاني للألوسي (١/ ٢١٨).

[النساء:١٣٦]. فأهل السنة والجماعة: يؤمنون بهم إجمالًا، وأما تفصيلًا فبمن صح به الدليل ممن سماه الله ورسوله ﷺ؛ كجبريل الموكل بالوحي، وميكائيل الموكل بالمطر، وإسرافيل الموكل بالنفخ في الصور، وملك الموت الموكل بقبض الأرواح، ومالك خازن النار. وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بوجودهم، وأنهم عباد مخلوقون، خلقهم الله تعالى: {من نور، وهم ذوات حقيقية، وليسوا قوى خفية، وهم خلق من خلق الله تعالى. والملائكة خلقتهم عظيمة، منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، وثبت أن جبريل - عليه السلام - له ستمائة جناح. وهم جند من جنود الله، قادرون على التمثل بأمثال الأشياء، والتشكل بأشكال جسمانية؛ حسبما تقتضيها الحالات التي يأذن بها الله سبحانه وتعالى وهم مقربون من الله ومكرمون.

قال العلامة الحكمي في معارج القبول (ص٨٠٨): الإيمان (بالملائكة) الذين هم عباد الله المكرمون والسفرة بينه تعالى: {وبين رسله عليهم الصلاة والسلام (المرام) خَلقا وخُلقا والكرام على الله تعالى: {(البررة) الطاهرين ذاتا وصفة وأفعالا المطيعين لله عز وجل خلقهم الله تعالى: {من النور لعبادته ليسوا بناتا لله عز وجل ولا أولادا ولا شركاء معه ولا أندادا تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون والملحدون علوا كبيرا قال الله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُون لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نُجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِين} [الأنبياء:٢٦ - ٢٩]، وقال الله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُون وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون أَصْطَفَى البَنَاتِ عَلَى البَنِين مَالَكُمْ كَيْفَ تَحكُمُونَ أَفَلا تَذَكَّرُون -

إلى قوله: - وَمَا مِنَّا إلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُون} [الصافات:١٥١ - ١٦٦]، وقال الله تعالى: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِين أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالبَنِين - إلى قوله - وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتَهُمْ وَيَسْأَلُون} [الزخرف:١٥ - ١٩]، الآيات. وقال الله تعالى: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لله وَلا المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَيَحْشُرْهُمْ إليه جَمِيعا} [الأنبياء:١٧٢]، وقال الله تعالى: {وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُون يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُون} [الأنبياء:١٩ - ٢٠]، وقال الله تعالى: {الحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاع يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شيء قَدِير [فاطر:١]، وقال الله تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ وَنَزَّلَ المَلائِكَةَ تَنْزِيلًا المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ للرَّحْمَن وقال الله تعالى: {يَوْمَ يَرَوْنَ المَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ للمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورا} [الفرقان:٢٢]، وقال الله تعالى: {إِنَّ الذِّينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُون} [الأعراف:٢٠٦]، وقال الله تعالى: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيَا [مريم:٦٤] وقال الله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جَمِيعًا ثُمَّ يقول للمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُون قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُون [سبأ:٤٠] وقال الله تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ الله عَدُوٌّ للكَافِرِين} [البقرة:٩٨] والآيات في ذكر الملائكة في القرآن كثيرة.

المسألة الثانية

من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الملائكة مخلوقات قائمة بنفسها

خلقها الله ﷻ من نور، وأنها حية ناطقة تنزل وتصعد، وتجيء وتذهب، وتتكلم بتبليغ الوحي، وبغيره.

فهي أعيان مخلوقة موجودة، وليست مجرد أعراض كما زعمت الفلاسفة.

نص الإجماع الذي حكاه شيخ الإسلام: قرر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الملائكة من المخلوقات بقوله: (والملائكة من الأعيان لا من الأعراض، فهي من المخلوقات باتفاق المسلمين، وليس بين أهل الملل خلاف في أن الملائكة جميعهم مخلوقون، ولم يجعل أحد منهم المصنوعات نوعين: عالم خلق وعالم أمر، بل الجميع عندهم مخلوق، ومن قال: إن قوله تعالى: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤] أريد به هذا التقسيم الذي ذكره، فقد خالف إجماع المسلمين)[١].

وبين رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه المخلوقات موجودة في الحقيقة، وليسوا مجرد صفات أو أعراض، فقال: (فنقول إن المسلمين من أعظم الناس معرفة بوجود الملائكة والجن كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة)[٢].

وقرر أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ أن الملائكة أعيان قائمة بنفسها، حية وناطقة، خلافًا للفلاسفة ومن سار على نهجهم ممن يجعل الملائكة أعراضًا تقوم بالنفس، حيث قال: (ومعلوم أن الملائكة الذين وصفهم الله تعالى في الكتاب والسنة لا ينطبقون على هذه العقول العشرة والنفوس التسعة التي يذكرونها، ولهذا يؤول

---

(١) بغية المرتاد (ص: ٢٣١، ٢٣٢).
(٢) الجواب الصحيح (٥/ ٢٤ - ٢٥).

بهم الأمر إلى أن يجعلوا الملائكة والشياطين أعراضًا تقوم بالنفس؛ ليست أعيانًا قائمة بنفسها حية ناطقة، ومعلوم بالاضطرار أن هذا خلاف ما أخبرت به الرسل واتفق عليه المسلمون)(١).

ذكر من نقل الإجماع أو نص على المسألة ممن سبق شيخ الإسلام: الملائكة خلق من خلق الله ﷻ؛ خلقهم الله من نور، وعلى هذا تواترت أقوال السلف رحمهم الله تعالى من الصحابة والتابعين.

فقد روى الإمام أبو سعيد الدارمي رحمه الله أن عمرو بن دينار رحمه الله قال: (أدركت أصحاب النبي ﷺ فمن دونهم منذ سبعين سنة يقولون: الله الخالق وما سواه مخلوق...)(٢).

وعقد الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه بابًا بعنوان: (باب ما جاء في تخليق السموات والأرض وغيرها من الخلائق، وهو فعل الرب تبارك وتعالى وأمره، فالرب بصفاته وفعله وأمره وهو الخالق المكون غير مخلوق، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه؛ فهو مفعول مخلوق مكون)(٣).

وقال الواحدي رحمه الله في قوله تعالى: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤] قال: (يعني: أن جميع ما في العالم مخلوق له)(٤).

فيدخل في ذلك الملائكة بلا شك، إذ ليس هناك نص من القرآن الكريم، ولا من السنة الشريفة يخرج الملائكة عن هذا العموم، بل إن النصوص جاءت مقررة لكون الملائكة عليهم السلام مخلوقون مربوبون...

---

(١) بغية المرتاد (ص: ٢١٩) باختصار.
(٢) شذرات الذهب (٢/ ١٧٦).
(٣) بعد رقم (٧٤٥١).
(٤) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٣٩٧).

وقد ذكر الحليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المعاني التي ينتظمها الإيمان بالملائكة، وذكر منها: (إنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه كالإنس والجن)(١).

وهذا ما قرره ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (وإن الملائكة حق، وهم خلق من خلق الله عَزَّ وَجَلَّ، مكرمون، كلهم رسل الله، قال الله تعالى: {وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ} [الرعد: ٢٣]، وقال تعالى: {بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} [الأنبياء: ٢٦]، وقال تعالى: {جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ [فاطر: ١])(٢).

وقال الطوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكذا الملائكة، فإن الشياطين خلقوا من نار، والملائكة من نور، كما صح في السنة النبوية)(٣).

وتواترت أقوال السلف أيضًا على أن الملائكة أحياء عقلاء ناطقون.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أجمع المسلمون على أن الملائكة مؤمنون فضلاء، واتفق أئمة المسلمين أن حكم المرسلين منهم حكم النبيين سواء في العصمة مما ذكرنا عصمتهم منه، وأنهم في حقوق الأنبياء، والتبليغ إليهم كالأنبياء مع الأمم)(٤).

وقال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال بعض السخفاء: إن الملائكة بمنزلة الهواء والرياح.

وهذا كذب وقحة وجنون؛ لأن الملائكة بنص القرآن والسنن وإجماع جميع من يقر بالملائكة من أهل الأديان المختلفة عقلًا متعبدون منهيون مأمورون، وليس كذلك الهواء والرياح، لكنها لا تعقل ولا هي متكلفة متعبدة؛

(١) المنهاج (٢/ ٢٥٦).
(٢) المحلي (١/ ١٣).
(٣) الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية (١/ ٤٠٩).
(٤) الشفا (٢/ ١٧٤).

بل هي مسخرة مصرفة لا اختيار لها، قال تعالى: {وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} [البقرة: ١٦٤])[1].

ومن المعلوم ضرورة أن الإيمان والعقل والفضل لا يوصف به غير الأحياء، فظهر من كلام العلماء رحمهم الله أنهم مقرون لكون الملائكة من الأحياء.

مستند الإجماع في المسألة: مما يستدل به على أن الملائكة مخلوقة عموم قوله تعالى: {اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الزمر: ٦٢]، وقوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ [غافر: ٦٢].

يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فكل شيء من سماء وأرض وذي روح وشجر وغير ذلك: فالله خلقه)[2].

ومن الأدلة أيضًا قوله تعالى: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا [فصلت: ١٢].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا قال قتادة والسدي: خلق فيها شمسها وقمرها، ونجومها وأفلاكها، وخلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها)[3].

ومن الأدلة قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ} [الشورى: ٢٩].

---

(١) الفصل (٣٦/ ١٩٦) باختصار.
(٢) الرسالة (ص: ٥٤).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٠٢).

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ قال: (يدخل في هذا الملائكة والناس)[١].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات؛ على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار السماوات والأرض)[٢].

ومن أدلة السنة ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[٣].

فهذا نص صريح صحيح من النبي ﷺ بأن الملائكة مخلوقة، فلم يبق بعد ذلك لمخالف مقال.

أما الأدلة على أن الملائكة متصفون بالكلام فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن المحاورة التي جرت بينه عَزَّ وَجَلَّ وبين ملائكته عليهم السلام فقال تبارك وتعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ٣٠ - ٣٢].

فأثبت الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الآيات أنه كلم الملائكة عليهم السلام وكلموه.

---

(١) تفسير الطبري م١٣ (٢٦/ ٤٠)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٦).
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أيضًا أن الملائكة عليهم السلام يكلم بعضهم بعضًا كما في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ: ٢٣].

وقد ذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذه الآية فيها: (إثبات أن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ويجابون: قال الْحَقَّ، خلافًا لمن قال: إنهم لا يوصفون بذلك؛ فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن لا عقول لهم، وهذا قدح في الشريعة بلا ريب)(١).

وفي هذه الأدلة - التي تثبت صفة الكلام للملائكة عليهم السلام - دلالة أيضًا على أنهم أحياء.

ومما يدل على ذلك أيضًا ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنهم من أنهم يصعدون وينزلون، كما في قوله تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج: ٤]، وقوله تعالى: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ} [القدر: ٤]. وغير الحي لا يمكن وصفه بذلك.

أما من السنة فقد ثبت أن الملائكة عليهم السلام يتمثلون في صورة البشر، كما في حديث جبريل المشهور عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (بينا نحن عند رسول الله ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام؟...).

ثم قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر الحديث: (يا عمر! أتدري من السائل؟ قلت: الله

---

(١) القول المفيد (١/ ٤١١).

ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم)[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)[٢].

وهذا إثبات قاطع على أن الملائكة عليهم السلام أحياء، وأنهم يتكلمون.

فظهر جليًا بما لا يدع مجالًا للشك - بجموع هذه الأدلة - أن الملائكة عليهم السلام خلق من خلق الله عز وجل، وهم أحياء ناطقون[٣].

(فرع): وظائف الملائكة

الملائكة جند من جنود الله تعالى، أسند الله إليهم كثيرًا من الأعمال الجليلة، والوظائف الكبيرة، وأعطاهم القدرة على تأديتها على أكمل وجه. وهم بحسب ما هيأهم الله تعالى له ووكلهم به على أقسام: فمنهم الموكل بالوحي من الله تعالى إلى رسله عليهم الصلاة والسلام وهو جبريل عليه السلام، قال تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ - عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ - بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] (الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥) وقد تقدم أنه أفضل الملائكة وأكرمهم على الله، وقد وصفه الله بالقوة والأمانة على تأدية مهمته.

ولم يره النبي صلى الله عليه وسلم في صورته التي خُلق عليها إلا مرتين، وبقية الأوقات يأتيه في صورة رجل، رآه مرة بالأفق من ناحية المشرق وفي ذلك يقول الله تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٧).

(٣) المسائل العقدية التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع (ص ٦٦٤).

{وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} [التكوير: ٢٣] (التكوير: ٢٣). ورآه مرة ثانية ليلة الإسراء في السماء وهذا ما أخبر الله عنه بقوله: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى - عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى - عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَاوَى} [النجم: ١٣ - ١٥] (النجم: ١٣ - ١٥).

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سألت النبي ﷺ عن تفسير الآيتين المتقدمتين فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين. رأيته منهبطًا من السماء سادًّا عِظَمُ خَلْقِه ما بين السماء إلى الأرض».

ومنهم الموكل بالقطر والنبات قيل هو ميكائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد ورد ذكره في القرآن. قال تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٩٨] (البقرة: ٩٨) وهو ذو مكانه عالية، ومنزلة رفيعة عند ربه، ولذا خصه الله هنا بالذكر مع جبريل، وعطفهما على الملائكة، مع أنهما من جنسهم لشرفهما، من قبيل عطف الخاص على العام. وكذا ورد ذكره في السنة على ما تقدم في دعاء النبي ﷺ في صلاة الليل أنه يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل»..). ولذا قال العلماء إن هؤلاء الثلاثة المذكورين هم أفضل الملائكة.

ومنهم الموكل بالصُّور وهو إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ثالث الملائكة المفضلين المتقدم ذكرهم. وهو أحد حملة العرش. والصور: قرن عظيم ينفخ فيه. روى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ فقال: قرن ينفخ فيه» وهو حديث ثابت، وأخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينظر

متى يؤمر، قال المسلمون: يا رسول الله فما نقول؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا» وهو حديث صحيح.

وينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات، وقيل نفختان وهو الصواب: نفخة الصعق، ونفخة البعث. قال تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [الزمر: ٦٨] (الزمر: ٦٨).

ومنهم الموكل بقبض الأرواح وهو ملك الموت قال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} [السجدة: ١١] (السجدة: ١١).

ولملك الموت أعوان من الملائكة، يأتون العبد بحسب عمله، وإن كان محسنًا ففي أحسن هيئة، وإن كان مسيئًا ففي أشنع هيئة، قال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} [الأنعام: ٦١] (الأنعام: ٦١).

ومنهم الموكل بالجبال وهو ملك الجبال، وقد ورد ذكره في حديث خروج النبي ﷺ إلى أهل الطائف في بداية البعثة ودعوته إياهم وعدم استجابتهم له وفيه يقول النبي ﷺ: «فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال. فسلم عليّ ثم قال: يا محمد. فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا». والأخشبان: هما جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله.

ومنهم الملك الموكل بالرحم على ما دل عليه حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ وكَّل ملكًا يقول: يا ربِّ! نطفة. يا ربِّ! علقة. يا ربِّ مضغة. فإذا أراد أن يقضي خلقه، قال: أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق والأجل؟ فيكتب في بطن أمه».

ومنهم حملة العرش قال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} [غافر: ٧] (غافر: ٧).

وقال تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: ١٧] (الحاقة: ١٧).

ومنهم خزنة الجنة. قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [الزمر: ٧٣] (الزمر: ٧٣). وقال تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ} [الرعد: ٢٣] (الرعد: ٢٣).

ومنهم خزنة النار عياذا بالله منها وهم الزبانية ورؤساؤهم تسعة عشر. قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٩] (غافر: ٤٩). وقال تعالى: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ - سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} [العلق: ١٧ - ١٨] (العلق: ١٧، ١٨). وقال تعالى: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ - وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} [المدثر: ٣٠ - ٣١] (المدثر: ٣٠، ٣١)، وقال تعالى: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [الزخرف: ٧٧] (الزخرف: ٧٧). وقد جاء في

السنة ذكر مالك وأنه خازن النار ورؤية النبي ﷺ له، ففي صحيح البخاري من حديث سَمُرَة بن جُنْدُب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «رأيت الليلة رجلين أتياني فقالا: الذي يوقد النار مالك خازن النار، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل».

ومنهم زوار البيت المعمور: يدخل في كل يوم منهم البيت المعمور سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه على ما ثبت من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (... ثم رفع لي البيت المعمور، فقلت: يا جبريل! ما هذا؟ قال: هذا البيت المعمور. يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخر ما عليهم».

ومنهم ملائكة سياحون يتبعون مجالس الذكر فقد روىَ الشيخان من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا»...) قال العلماء: وهؤلاء الملائكة زائدون عن الحفظة وغيرهم من المرتبين مع الخلائق.

وقد ثبت أيضًا أنهم يبلغون النبي ﷺ من أمته السلام لما روى أحمد والنسائي بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «إن لله عَزَّ وَجَلَّ ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام».

ومنهم الكرام الكاتبون وعملهم كتابة أعمال الخلق وإحصاؤها عليهم. قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ - كِرَامًا كَاتِبِينَ - يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: ١٠ - ١٢] (الانفطار: ١٠ - ١٢) وقال تعالى: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ - مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٧ - ١٨] (ق: ١٧، ١٨) قال مجاهد في تفسير الآية: ملك عن يمينه وآخر عن يساره فأما الذي

عن يمينه فيكتب الخير، وأما الذي عن شماله فيكتب الشر.

ومنهم الموكلون بفتنة القبر وسؤال العباد في قبورهم وهما مُنْكَر ونَكِير. وقد دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة. أخرج الشيخان من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد ﷺ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة فيراهما جميعًا». وأخرج الترمذي وابن حبان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت أو قال أحدكم- أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل»...) وهو حديث حسن.

فهؤلاء هم أشهر من جاءت النصوص بذكر وظائفهم وأسمائهم من الملائكة ممن يتعين على العبد الإيمان بهم والتصديق بمدلولات النصوص في حقهم والله تعالى أعلم.

المسألة الثالثة

قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (٢/ ٢٣): عند قول الطحاوي (ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين) وهاهنا مسائل

المسألة الأولى: قوله (ونؤمن بالكرام الكاتبين) إلى آخره

أخذه من قول الله ﷻ {وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين *يعلمون ما تفعلون} [الانفطار:١٠-١٢]، فوصفهم الله ﷻ بأنهم حفظة علينا، وبأنهم كرام وبأنهم كتبة، والآيات التي تدل لهذا الأصل متعددة -يأتي بيان بعضها إن شاء الله

تعالى- لكن هاهنا على هذه الآية وعلى لفظ الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: وصف الله - عَزَّ وَجَلَّ الملائكة هؤلاء:

الوصف الأول: بأنهم حفظة على ابن آدم.

الوصف الثاني: بأنهم كتبة.

الوصف الثالث: بأنهم يعلمون ما تفعلون.

أما الوصف الأول: وهو أنهم حفظة على ابن آدم ففرق ما بين أن يكون حافظا على ابن آدم وما بين أن يكون حافظا لابن آدم -وسيأتي بيان الفرق في المسائل التي بعدها-، ففي هذه الآية أنهم حفظة على ابن آدم؛ يعني يحفظون على ابن آدم ما يصدر منه.

ثم وصفهم بوصف ثان: أنهم إذا حفظوا على ابن آدم ما صدر منه فإنهم يكتبونه في صحف عندهم بأيدي الملائكة، فملك موكل بكتابة الحسنات والملك الآخر موكل بكتابة السيئات، فإذا الكتابة منقسمة إلى كتابة للحسنات في صحف والكتابة للسيئات في صحف.

الوصف الثالث: أنه قال {يعلمون ما تفعلون}، والفعل الذي يفعله ابن آدم يكون بقلبه فيشمل أعمال القلوب، ويكون بلسانه ويشمل ما يحرك به لسانه ولو لم ينطق به، ما يعمله بجوارحه المختلفة من الأيدي والأرجل والفرج واللسان إلى آخره، فكل ما يعمله بجوارحه أيضا تعلمه الملائكة، هذه دلالة الآية.

هل يكتب هذا كله؟ ظاهر الآية أن هذا بأجمعه يكتب، وآية سورة (ق) فيها قول الله عَزَّ وَجَلَّ {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} [ق:١٨].

{رقيب} يراقبه، و{عتيد} يعني معد للحفظ عليه ولمراقبته، فكل شيء - يعني مما يلفظه- يعلم فيكتب.

ودلالة آية الانفطار هذه تشمل الأصناف الثلاثة، وهذا هو الصحيح أن الملائكة تكتب أعمال القلوب؛ لأنها أفعال، وتكتب عمل اللسان ونطق اللسان، وتكتب عمل الجوارح؛ وذلك لأن عمل القلب منه ما هو واجب وهو إخلاصه ونيته وتوكله على الله وخوفه ورجاؤه ونحو ذلك، من أعمال القلوب، وهي أعظم العبادات التي يتعبد بها المرء ربه هذه العبادات الجليلة.

ثم من أعمال القلوب ما يكون من باب إتيان السيئات من: الهم، أو إرادة السيئة والعزم عليها، أو من المنهيات من سوء الظن بالمسلم، أو سوء الظن بالله ﷻ، أو نحو ذلك من الكبر إلى آخره من المنهيات، والملائكة يعلمون هذا كله.

وعلمهم به، هل هو لقدرتهم عليه ذاتا؟ أو لأن الله ﷻ أقدرهم عليه لأنهم موكلون بهذا الأمر؟ الظاهر هو الثاني؛ لأن الملائكة ليس لهم سلطان على ابن آدم ولا علم بالغيب، وإنما الله ﷻ أقدر هذا الصنف من الملائكة بخصوصه على الإطلاع لأنهم موكلون بالكتابة، والقلب يحاسب عليه الإنسان واللسان يحاسب عليه وكذلك الجوارح يحاسب عليها.

فإذا كل هذه تكتب وحتى ما يكون من قبيل الهم الذي يهم به الإنسان فإنه يعلم ويحفظ، ثم هل يكتب عليه أو يكتب له؟ هذا فيه البحث المعروف لديكم في أن «الله تجاوز لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم» والمقصود بـ (ما حدثت به أنفسها) ما هو من قبيل الهم أو من قبيل الوسوسة أو من قبيل حديث النفس؛ لكن إذا انتقل الهم أو حديث النفس إلى العزم والإرادة على الشر صار مؤاخذا عليه، إذا انتقل حديث النفس أو الهم هذا إلى شرف المكان وهو مكة فإنه يؤاخذ عليه في قول بعض أهل العلم وهكذا.

فإذا ﴿يعلمون ما تفعلون﴾ هذه عامة يمكن أن يستثنى منها ما تجاوز الله ﷻ

لهذه الأمة عنه والباقي على عمومه، وهذا مما يعظم الخوف من حركات العبد وفي قلبه ولسانه وجوارحه، ويعظم عند العبد المؤمن شأن الاستغفار فإذا كان النبي ﷺ يحسب له في المجلس الواحد أنه يستغفر ويتوب إلى الله مائة مرة؛ لأجل عظم ما يفعله وما تعلمه الملائكة، فإن أشباهنا أعظم وأعظم وأعظم حاجة إلى كثرة الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله ﷻ.

المسألة الثانية: كثير من العلماء عند هذه المسألة عند ذكر الكرام الكاتبين وعند الآية، يجعلون الكتبة والحفظة شيئا واحدا

فيجعلون الجميع أربعة ملائكة منهم اثنان للكتابة، واثنان للحفظ، وهذا درج عليه كثير من العلماء في شروحهم حتى شارح الطحاوية عندكم نسج على هذا المنوال.

وهذا الأمر يحتاج إلى نظر وجمع للنصوص والأحاديث حتى تنظر في دلالتها، والذي يظهر لي بنوع من التأمل وليس ببحث مستفيض أن الملائكة الكتبة غير الحفظة، فالحفظة يحفظون الإنسان، وأما الكتبة فإنهم يحفظون عليه.

الحفظة هم المعقبات الذين ذكرهم الله ﷻ في قوله في سورة الرعد {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله} [الرعد:١١]، أوجه التفاسير فيها أن معنى {يحفظونه من أمر الله} يعني يحفظونه بأمر الله؛ يعني يحفظونه وحفظهم له بأمر الله لهم أن يحفظوه، وفيه -يعني في الحفظة- قوله ﷺ «يتعاقبون فيكم ملائكة أربعة بالليل وأربعة بالنهار فيجتمعون» إلى أخر الحديث «فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: آتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون» وهذا الحديث يدل على أن الحفظة هؤلاء يتعاقبون، منهم من يحفظ بالليل ومنهم من يحفظ بالنهار، وأن هؤلاء يلتقون في وقت الصلاة، يعني

في هذا الوقت من اليوم ثم يفارقون العبد، وهذا خلاف ما دلت عليه الآية الأخرى والأحاديث في وصف الملائكة الكتبة في أنهم لا يغادرون ابن آدم ولا يفارقونه على أي حال كان فيها حاشا الجنابة(١).

فإذا نقول: الذي يظهر من الأدلة التفريق في الحفظ ما بين الحفظ لابن آدم والحفظ عليه، فحفظ ابن آدم هذا عمل الملائكة الذين يتعاقبون؛ المعقبات، وأما الحفظ عليه فهذا عمل الكتبة.

والكتبة اثنان: أحدهما يكتب الحسنات والآخر يكتب السيئات، وأما الحفظة: فكما قال النبي ﷺ إنهم أربعة يتعاقبون في الليل والنهار.

المسألة الثالثة: الإيمان بالكتبة يقتضي الإيمان بأنهم يكتبون

لأن أصل المسألة الإيمان بالملائكة الكتبة، ويقتضي ذلك الإيمان بأنهم يكتبون في صحف، وقد جاءت الأدلة في السنة أن منهم من يكتب الحسنات ومنهم من يكتب السيئات، وربما تنازعوا في كتابة بعض الأشياء فيحكم الله ﷻ بينهم، والكتابة هذه في صحف الملائكة هذه هي التي تجمع على العبد، وهي كتابه الذي يجمع معه في عنقه إذا أدخل القبر، وهو الذي جاء فيه قول الله ﷻ {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا} [الإسراء:١٤]، وهي الصحف التي يحاسب الله ﷻ العبد بها فيقرره على ما فيها من أعمال، وفيه أنه يسألهم ربنا ﷻ هل ظلمكم ملائكتي؟ فيقولون لا يا رب، يعني بعد أن يحاسبهم الرب جل جلاله.

---

(١) يشير الشيخ صالح حفظه الله إلى حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال (ثلاثة لا تقربهم الملائكة: الجنب والسكران والمتضمخ بالخلوق) وهو في الصحيحة (١٨٠٤) للعلامة الألباني.

وإذا كان كذلك فإن مقتضى الإيمان بالكتابة وأن الإنسان على ما في قلبه يكتب له أو عليه، وحركة لسانه يكتب له أو عليه، وحركة جوارحه يكتب له أو عليه، فإن عظم الإيمان بهذا الأصل يطلب العبد إلى أن يجعل صحائفه ليس فيها إلا الخير، وإذا عمل شيئا من السوء فليعظم الحسنات الماحية وليعظم الاستغفار الذي يمحو الله ﷻ به السيئات، ولهذا صار من نتائج الاعتقاد الصحيح أن العبد يكون أذل ما يكون لله ﷻ، فأصحاب العقيدة الحقة يذلون لله ﷻ حتى ولو عصوا أو صار عندهم ما صار فإنهم أكثر ذلا لله ﷻ؛ لأن عندهم من الإيمان بالغيبيات واليوم الآخر وبالكتابة وبمعرفة الله ﷻ والعلم به وصفاته وما هو عليه جل جلاله من نعوت الجلال والكمال ما يوجب عليهم قسرا أن لا يكون في قلوبهم إعراض أو كبر أو طاعة للشيطان في البعد عن ربهم جل جلاله.

ولهذا الوصية للجميع أنهم إذا علموا العقيدة فإنهم يعلمونها لأن صلاح القلب به تصلح الأعمال، وهذا واقع، وأما أهل الكلام وأهل البدع فإنهم يعلمون مسائل الاعتقاد كمسائل عقلية، مسائل عقلية ينظرون إليها نظرا عقليا برهانيا، عقليا أو نقليا دون نظر في آثار ذلك، ولهذا تجد فيهم من قسوة القلوب ومن قلة العبادة، وترك التواضع، والكبر إلى آخره من الصفات المذمومة ما فيهم، بخلاف أهل الحق من أهل السنة والحديث والعبادة، فإنهم ألين قلوبا لأجل ما معهم من العلم بالله ﷻ، وأكثر تواضعا للخلق، ونفع للعباد وخوف من الله ﷻ، لأجل صحة العقيدة أثمرت في قلوبهم وفي أعمالهم.اهـ. من شرح الطحاوية.

المسألة الرابعة: هل تكتب الحفظة ما لا ثواب فيه، ولا عقاب

قال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان (٧/ ٤٢٨): اعلم أن العلماء اختلفوا

في عمل العبد الجائز الذي لا ثواب ولا عقاب عليه، هل تكتبه الحفظة عليه أولا؟ فقال بعضهم: يكتب عليه كل شيء حتى الأنين في المرض، وهذا هو ظاهر قوله: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} ؛ لأن قوله: من قول نكرة في سياق النفي زيدت قبلها لفظة من، فهي نص صريح في العموم.

وقال بعض العلماء: لا يكتب من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب، وكلهم مجمعون على أنه لا جزاء إلا فيما فيه ثواب أو عقاب فالذين يقولون: لا يكتب إلا ما فيه ثواب أو عقاب، والذين يقولون يكتب الجميع متفقون على إسقاط ما لا ثواب فيه ولا عقاب، إلا أن بعضهم يقولون لا يكتب أصلا، وبعضهم يقولون: يكتب أولا ثم يمحى. وزعم بعضهم أن محو ذلك، وإثبات ما فيه ثواب أو عقاب هو معنى قوله تعالى: {يمحو الله ما يشآء ويثبت} .

والذين قالوا: لا يكتب ما لا جزاء فيه. قالوا: إن في الآية نعتا محذوفا سوغ حذفه العلم به، لأن كل الناس يعلمون أن الجائز لا ثواب فيه ولا عقاب، وتقدير النعت المحذوف، ما يلفظ من قول مستوجب للجزاء، وقد قدمنا أن حذف النعت إذا دل عليه أسلوب عربي معروف.اهـ.

المسألة الخامسة: عدد الملائكة مع كل شخص

الملائكة الكرام يصحبون بني آدم من يوم تكوينهم في بطون أمهاتهم حتى نزع أرواحهم من أجسادهم يوم موتهم، وهم أيضا يصحبونهم في قبورهم وفي الآخرة.

أما صحبتهم له في الدنيا فتكون كما يلي:

أولا: يقومون عليه عند خلقه: فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال (وكل الله بالرحم ملكًا، فيقول أي رب نطفة؟ أي رب علقة؟ أي رب مضغة ؟ فإذا أراد الله

أن يقضي خلقها قال أي رب ذكر أم أنثى ؟ أشقي أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه)[1].

ثانيا: حراستهم لابن آدم: قال تعالى {سوآء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله} [الرعد/ ١٠-١١]، وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس أن المعقبات من الله هم الملائكة جعلهم الله ليحفظوا الإنسان من أمامه ومن ورائه، فإذا جاء قدر الله - الذي قدر عليه أن يقع به من حادث ومصاب ونحوه - تخلوا عنه.

وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه إلا قال له الملك: وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه.

وقال رجل لعلي بن أبي طالب إن نفرا من مراد يريدون قتلك، فقال -أي: علي-: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جنة حصينة.

والمعقبات المذكورة في آية الرعد هي المرادة بالآية الأخرى {وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون} فالحفظة الذي يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتي أجله المقدر له.

قال البغوي في التفسير: يحفظونه من أمر الله، يعني: بأمر الله، أي: يحفظونه بإذن الله تعالى ما لم يجئ المقدور، فإذا جاء المقدور خلوا عنه. وقيل:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٦٤٦) واللفظ للبخاري.

يحفظونه من أمر الله: أي مما أمر الله به من الحفظ عنه. وقال القرطبي في التفسير: اختلف في هذا الحفظ، فقيل: يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرة، لطفا منه به، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه، قاله ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. قال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى علي فقال: احترس فإن ناسا من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبين قدر الله، وإن الأجل حصن حصينة، وعلى هذا، (يحفظونه من أمر الله) أي بأمر الله وبإذنه، فـ (من) بمعنى الباء، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض. وقيل (من) بمعنى (عن)، أي يحفظونه عن أمر الله، وهذا قريب من الأول، أي حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم، وهذا قول الحسن، تقول: كسوته عن عري ومن عري، ومنه قوله عز وجل: أطعمهم من جوع {قريش: ٤} أي عن جوع، وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب، حتى لا تحل به عقوبة، لأن الله لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإن أصروا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النقمة، وتزول عنهم الحفظة المعقبات. وقيل: يحفظونه من الجن، قال كعب: لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن.

وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٥٣): وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان أحدهما حفظه له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله قال الله عز وجل له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله قال ابن عباس هم الملائكة يحفظونه بأمر الله فإذا جاء القدر خلوا عنه وقال علي رضي الله عنه إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه

وإن الأجل جنة حصينة وقال مجاهد ما من عبد إلا وله ملك يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما من شيء يأتيه إلا قال له وراءك إلا شيئا أذن الله فيه فيصيبه.

ثالثا: الملائكة الذين يكتبون الحسنات والسيئات: ما من أحد من الناس إلا وله ملكان يكتبان أعماله من الخير والشر من صغير أو كبير، قال تعالى: {وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين، يعلمون ما تفعلون} [الانفطار/ ١٠ -١٢].

وقال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} [ق/ ١٦-١٨]، ويكتب صاحب اليمين الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات.

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كتبت واحدة)[1].

وإذا علمنا هذا تبين أن عدد الذين يصحبون ابن آدم بعد ولادته: أربعة ملائكة.

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٠٤): وقوله: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله} أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل

---

(١) أخرجه الطبرانى في الكبير (٨/ ١٨٥، رقم ٧٧٦٥)، وفي الشاميين (٥٢٦، ١٢٢٨)، وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٢٤)، والبيهقى فى الشعب (٥/ ٣٩١، رقم ٧٠٥١)، والواحدي في تفسيره (٤/ ٨٥/ ١) والحديث قال عنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠٨): رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها وثقوا، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (١٢٠٩).

وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ملائكة بالليل وملائكة بالنهار.

فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل.

المسألة السادسة: كيف تعلم الملائكة ما في قلب الإنسان؟

عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما يروي عن ربه عَزَّ وَجَلَّ قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة)[1].

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٢٥):" وفيه دليل على أن الملك يطلع على ما في قلب الآدمي ؛ إما بإطلاع الله إياه، أو بأن يخلق له علما يدرك به ذلك.

ويؤيد الأول ما أخرجه بن أبي الدنيا عن أبي عمران الجوني، قال: ينادى الملك اكتب لفلان كذا وكذا، فيقول يا رب: إنه لم يعمله، فيقول: إنه نواه.

وقيل: بل يجد الملك للهم بالسيئة رائحة خبيثة، وبالحسنة رائحة طيبة وأخرج، ذلك الطبري عن أبي معشر المدني، وجاء مثله عن سفيان بن عيينة".اهـ.

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥٣) عن قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إذا هم العبد بالحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة.... الحديث) فإذا

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

كان الهم سرا بين العبد وبين ربه فكيف تطلع الملائكة عليه ؟

فأجاب: "الحمد لله، قد روي عن سفيان بن عيينة في جواب هذه المسألة، قال: إنه إذا هم بحسنة شم الملك رائحة طيبة، وإذا هم بسيئة شم رائحة خبيثة، والتحقيق: أن الله قادر أن يعلم الملائكة بما في نفس العبد كيف شاء، كما هو قادر على أن يطلع بعض البشر على ما في الإنسان، فإذا كان بعض البشر قد يجعل الله له من الكشف ما يعلم به أحيانا ما في قلب الإنسان: فالملك الموكل بالعبد أولى بأن يعرفه الله ذلك، وقد قيل في قوله تعالى: {ونحن أقرب إليه من حبل الوريد [ق:١٦].

أن المراد به الملائكة، والله قد جعل الملائكة تلقي في نفس العبد الخواطر، كما قال عبد الله بن مسعود: إن للملك لمة (وللشيطان لمة) فلمة الملك تصديق بالحق ووعد بالخير، ولمة الشيطان تكذيب بالحق وإيعاد بالشر، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وأنا؛ إلا أن الله قد أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير.

فالسيئة التي يهم بها العبد إذا كانت من إلقاء الشيطان: علم بها الشيطان، والحسنة التي يهم بها العبد إذا كانت من إلقاء الملك، علم بها الملك أيضا بطريق الأولى، وإذا علم بها هذا الملك أمكن علم الملائكة الحفظة لأعمال بني آدم". انتهى.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضا في مجموع الفتاوى (٥/ ٥٠٨): "وهم وإن شموا رائحة طيبة ورائحة خبيثة، فعلمهم لا يفتقر إلى ذلك، بل ما فى قلب ابن آدم يعلمونه، بل ويبصرونه ويسمعون وسوسة نفسه، بل الشيطان يلتقم قلبه؛ فاذا ذكر الله

خنس، وإذا غفل قلبه عن ذكره وسوس، ويعلم هل ذكر الله أم غفل عن ذكره، ويعلم ما تهواه نفسه من شهوات الغى فيزينها له، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى فى حديث ذكر صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم) وقرب الملائكة والشيطان من قلب ابن آدم مما تواترت به الآثار، سواء كان العبد مؤمنا أو كافرا" انتهى.

وسئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٩/ ٣٧٠): إذا نويت عمل خير في قلبي هل يعلم به الشيطان ويحاول صرفي عنه؟

فأجاب:... وكل إنسان معه شيطان ومعه ملك ، كما قال النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا ومعه قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم » وأخبر ﷺ أن الشيطان يملي على الإنسان الشر ويدعوه إلى الشر وله لمة في قلبه وله اطلاع بتقدير الله على ما يريده العبد وينويه من أعمال الخير والشر ، والملك كذلك له لمة بقلبه يملي عليه الخير ويدعوه إلى الخير فهذه أشياء مكنهم الله منها: أي مكن القرينين القرين من الجن والقرين من الملائكة ، وحتى النبي ﷺ معه شيطان وهو القرين من الجن كما تقدم وهو الحديث بذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: «ما منكم من أحد إلا ومعه قرينه من الملائكة ومن الجن قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال: وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير » والمقصود أن كل إنسان معه قرين من الملائكة وقرين من الشياطين ، فالمؤمن يقهر شيطانه بطاعة الله والاستقامة على دينه ، ويذل شيطانه حتى يكون ضعيفا لا يستطيع أن يمنع المؤمن من الخير ولا أن يوقعه في الشر إلا ما شاء الله ، والعاصي بمعاصيه وسيئاته يعين شيطانه حتى يقوى على مساعدته على الباطل ، وتشجيعه على

الباطل ، وعلى تثبيطه عن الخير. فعلى المؤمن أن يتقي الله وأن يحرص على جهاد شيطانه بطاعة الله ورسوله والتعوذ بالله من الشيطان ، وعلى أن يحرص في مساعدة ملكه على طاعة الله ورسوله والقيام بأوامر الله سبحانه وتعالى.اهـ.

المسألة السابعة: هل الملائكة ذكور

قال كثير من العلماء الملائكة لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، ومن قال هم إناث فقد كفر لمخالفته كتاب الله، ولا يقال إنهم ذكور؛ إذ لم يرد في ذلك نص صحيح.

وقد سئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: هل الملائكة فيهم ذكور وإناث أم ذكور فقط، أم إناث فقط؟

فأجاب: هناك قاعدة للمؤمن الذي يريد أن يرتاح ويريح، ويتأدب مع الله ورسوله ألا يسأل عن شيء من أمور الغيب، نؤمن بها كما جاءت، ولذلك لو كان هذا السؤال فيه خير لكان أول من يسأل عنه الصحابة رضي الله عنهم، وإن شاء الله سؤالك جيد؛ لأننا استفدنا هذه النصيحة، إن أمور الغيب لا تسأل عنها، لما قال رجلٌ للإمام مالك بن أنس رحمه الله: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه:٥] غضب، كيف تسأل كيف استوى؟ وقال له: ما أراك إلا مبتدعًا، وأمر به أن يخرج من مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام من المسجد النبوي.

وأما العلامة ابن باز فسئل كما في فتاواه (٨/ ٤٢٣): نقرأ ونسمع كثيرا من عامة الناس وكتابهم وشعرائهم من يصف في كتابه أو شعره الممرضات بأنهن ملائكة الرحمة؟ هل يجوز ذلك؟.

فأجاب: هذا الوصف لا يجوز إطلاقه على الممرضات، لأن الملائكة ذكور وليسوا إناثا، وقد أنكر الله سبحانه على المشركين وصفهم الملائكة

بالأنوثية، ولأن ملائكة الرحمة لهم وصف خاص لا ينطبق على الممرضات ولأن الممرضات فيهن الطيب والخبيث ، فلا يجوز إطلاق هذا الوصف عليهن. والله الموفق.اهـ.

ولعل مستند العلامة ابن باز في ذلك بعض سياقات الأدلة من القرآن والسنة فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قدم إلى نبينا محمد ﷺ وضيوف ابراهيم والملائكة في بدر وغيرها من الغزوات كلهم على صفة ذكور(١).

---

(١) وقد يقال هذه الفتوى ليست صريحة في المطلوب لأن الفتوى ليست في الموضوع، لأن السؤال الذي ورد للشيخ لم يكن هل الملائكة ذكور أو إناث، بل كان عن حكم وصف الممرضات بملائكة الرحمة، فليست الفتوى اصيلة في الموضوع.

وهناك قدر مشترك لاخلاف فيه، أن وصف الملك (المفرد) لا يجوز بوصف التأنيث، لنص القرآن، أما الجمع فذكرهم بالتأنيث في الفعل غير حقيقي، فيجوز فيه التذكير والتأنيث للتكسير في جمعه، مالم يكن متقدما على الفعل فيجب التأنيث، فتقول (نزل الملائكة، ونزلت الملائكة) وتقول (الملائكة نزلت)، فمثله كـ(قال نسوة) و(قالت الأعراب) ونظائره في القران وفصيح العرب كثيرة جدا.

واللغويون وعلماء الكلام وغيرهم يذكرون نفس الكلام عن الباري تعالى، إنه لا يجوز وصفه بالتأنيث، ولا الإشارة إليه بضمير المؤنث، ولا يلزم من ذلك بمفهوم المخالفة شيء.

فالوصف بالذكورية من حيث الاستخدام اللغوي صحيح، فيقال (هذا ملك) و(نزل الملك)، ولا يجوز ـ شرعا ـ أن يقال (هذه ملك) و(نزلت الملك).

واستخدام مفهوم المخالفة في نحو ذلك خطأ لوجوه:

منها أن مفهوم المخالفة نفسه ليس حجة في كل الموارد، والموارد التي يجوز الاستدلال به فيها متفاوتة في القوة.

ومنها أن المورد المفروض هنا ليس من موارد مفهوم المخالفة، لكونه غيبيا محضا، وافتراض إعمال مفهوم المخالفة قائم على قسمة عقلية حاصرة، وهي هنا غير موجودة، لأن الحصر العقلي في التقسيم لا يكون إلا بنص، أو استقراء تام، وكلاهما هنا معدوم، =

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) قوله تعالى: {"له معقبات " أي لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار. وقال: "معقبات " والملائكة ذكران لأنه جمع معقبة.

وقال ابن كثير: وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن سليمان التيمي عن أبي مجلز في قوله تعالى " وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم" قال هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار قال " ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى

=

فالمسألة برمتها غيبية.

ومنها أن الحكم بالذكورة والأنوثة الحقيقية عند علماء العربية هو بأن يلد الموصوف بالأنوثة أو يبيض، وهذا ليس في الملائكة، ولم يرد في الشرع أنهم يتكاثرون أصلا، بل ورد أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنهم يسبحون الليل والنهار.

والاستدلال بقوله تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين) لإفادة القسمة الحاصرة، والاستدلال منها على كون الملائكة ذكورا، لا يسلم.

لأنه يرد عليه أن الكلية في الآية أغلبية لا مطلقة، ونظائرها كثيرة في القرآن، ويرد عليه أن المراد بالزوجية ما هو أعم من الذكورة والأنوثة كما يذكر المحققون من أهل العلم، فالزوجية حاصلة بين السماء والأرض، والحلو والحامض والمر والتافه ونحو ذلك، ولا شيء مما سبق ذكر أو أنثى.

وأخيرا فرفع الذكورة والأنوثة عن الملائكة لو سلم تنزلا بالقسمة الحاصرة بين الذكورة والأنوثة لا شيء فيها، لأن وصف الذكورة والأنوثة من قبيل الملكة والعدم، فرفعهما عن المحل غير القابل لهما لا محظور فيه، فيجوز أن يقال الحجر ليس ذكرا ولا أنثى، ولو قال قائل الحجر ليس ذكرا، لم يجز لقائل أن يقول هو أنثى بمفهوم المخالفة.

عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة " قال فيقال حين يدخل أهل الجنة الجنة" ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون". وهذا صحيح إلى أبي مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق وقول الجمهور مقدم على قوله بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه وكذا قول مجاهد إنهم قوم صالحون علماء فقهاء فيه غرابة أيضا والله أعلم ولم يعقب ابن كثير على قوله أنهم ذكور بل تعقبه في تفسيره للآية.اهـ.

وقال الإمام البخاري في صحيحه (١١/ ٣٣-فتح): (باب تسليم الرجال على النساء والنساء على الرجال) حدثنا ابن مقاتل، أخبرنا عبد الله، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ (يا عائشة، هذا جبريل يقرأ عليك السلام». قالت: قلت: وعليه السلام ورحمة الله، ترى ما لا نرى. تريد رسول الله ﷺ).

المسألة الثامنة: هل الملائكة يموتون

ورد في الحديث عند البخاري (٧٣٨٣) ومسلم (٢٧١٧) عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: (اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون)، وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥٩).: هل جميع الخلق حتى الملائكة يموتون؟

فأجاب: "الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة، وحتى ملك الموت، وروي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ، والمسلمون واليهود والنصارى متفقون على إمكان ذلك وقدرة الله عليه، وإنما يخالف في

ذلك طوائف من المتفلسفة أتباع أرسطو وأمثالهم، ومن دخل معهم من المنتسبين إلى الإسلام أو اليهود والنصارى، كأصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم ممن زعم أن الملائكة هي العقول والنفوس، وأنه لا يمكن موتها بحال، بل هي عندهم آلهة وأرباب لهذا العالم.

والقرآن وسائر الكتب تنطق بأن الملائكة عبيد مدبرون كما قال سبحانه (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا)، وقال تعالى: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)، وقال: (وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى). والله سبحانه قادر على أن يميتهم ثم يحييهم، كما هو قادر على إماتة البشر والجن ثم إحيائهم، وقد قال سبحانه (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه).

وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه، وعن غير واحد من الصحابة أنه قال: (إن الله إذا تكلم بالوحي أخذ الملائكة مثل الغشي) وفى رواية (إذا سمعت الملائكة كلامه صعقوا) وفى رواية (سمعت الملائكة كجر السلسلة على الصفوان فيصعقون فإذا فزع عن قلوبهم) أي أزيل الفزع عن قلوبهم (قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق فينادون الحق الحق).

فقد أخبر في هذه الأحاديث الصحيحة أنهم يصعقون صعق الغشي، فإذا جاز عليهم صعق الغشي جاز صعق الموت وأما الاستثناء [أي قوله سبحانه: إلا من شاء الله] فهو متناول لمن دخل في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها

موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله، فإن الله أطلق في كتابه، وقد ثبت في الصحيح أن النبي قال (إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى آخذا بساق العرش فلا أدرى هل أفاق قبلي أم كان ممن استثناه الله)... ؛ فإذا كان النبي ﷺ لم يخبر بكل من استثنى الله لم يمكنا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء، وأمثال مما لم يخبر به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر، والله أعلم.

المسألة التاسعة: في مصير الملكين الموكلين بكتابة أعمال الإنسان بعد وفاته

روي في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (وكل بالمؤمن ملكان يكتبان عمله ويحفظان عليه، فإذا مات ووضع في قبره قالوا: سبحانك وكلتنا بعبدك هذا نحفظ عليه عمله وقد قبضته، فائذن لنا فلنصعد إلى السماء فنسبحك، فيقول عز وجل: سمائي مملوءة من ملائكتي، فيقولان: فائذن لنا فلنكن في الأرض، فيقول عز وجل: أرضي مملوءة من خلقي، ولكن قوما على قبر عبدي فسبحاني واحمداني وهللاني، واكتبا ذلك لعبدي حتى يبعث)[1].

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٧/ ١٠٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٧٩، رقم ٥٠٣)، أبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٨٤٦، ٨٤٧)، والبيهقى فى الشعب (٧/ ١٨٣، رقم ٩٩٣١)، والديلمى في مسند الفردوس (٤/ ٣٨٣، رقم ٧١١٤)، وابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٢٢٩)، وأخرجه أيضا إسحاق بن راهويه في مسنده كما في نصب الراية (١/ ٤٣٤)، وأحمد بن منيع في مسنده كما في المطالب العالية (١٢/ ٣٠٥، رقم ٢٨٧٩) والحديث قال عنه ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٢٢٩): هذا حديث لا يصح وقد اتفقوا على تضعيف عثمان بن مطر، وعده ابن عدي ثم الذهبي ثم الحافظ في اللسان فيما أنكر على الهيثم بن جماز، وضعفه البيهقي، وقال ابن القيسراني في الذخيرة (٥/ ٢٥٦٠): منكر، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٦١٢٨): موضوع، وقال الحويني في مجلة التوحيد: باطل ويشبه أن يكون موضوعًا، وقد ذكر السيوطي في =

وقد سئل علماء اللجنة الدائمة (٢/ ٤٠٢): أفتونا عن الملائكة الموكلين بالإنسان لإحصاء أعماله في مدة الحياة عندما يموت الإنسان، هل يموت الملكان الموكلان به أو أين يكون مصيرهما بعد وفاة الإنسان؟

فأجابوا: أحوال الملائكة وشؤونهم من الغيبيات، ولا تعرف إلا من قبل السمع -الكتاب والسنة-، ولم يرد نص في موت كتبة الحسنات والسيئات عند موت من تولوا كتابة حسناته وسيئاته، ولا نص ببقاء حياتهم ولا عن مصيرهم، وذلك إلى الله، وليس ما سئل عنه مما كلفنا اعتقاده، ولا يتعلق به عمل، فالسؤال عن ذلك دخول فيما لا يعني ؛ لذا ننصح السائل أن لا يدخل فيما لا يعنيه، ويبذل جهده في السؤال عما يعود عليه وعلى المسلمين بالنفع في دينهم ودنياهم.اهـ.

المسألة العاشرة: هل ثبت شئ في الملائكة الكروبيون شئ

أن ما يطلق عليه "الملائكة الكروبيون" ليس له أصل في الأحاديث النبوية الصحيحة -فيما نعلم - وغاية ما جاء ذكرهم فيه: أحاديث ضعيفة جدا، وموضوعة، وآثار عن السلف، وطائفة من المفسرين، وقد ذكر بعض العلماء أن الكروبيين هم:

من يكونون حول عرش الرحمن، أو هم حملة العرش أنفسهم.

وقال آخرون: هم سادة الملائكة وعظماؤهم.

=

الآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (٢/ ٤٣٢، ٤٣٣) شواهد لهذا الحديث عن أبي بكر وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لا يخلو سند أحدها من متهم أو كذاب، فالحديث لا يصح من أي وجه من هذه الوجوه.

وقال فريق ثالث: هم ملائكة العذاب.

قال الآلوسي في روح المعاني (١٣/ ٧٠): يقال لحَمَلَة العرش والحافِّيْن به: الكَرُوْبِيِّون، جمع كَرُوْبِي، بفتح الكاف وضم الراء المهملة المُخَفَّفَة وتشديدها خطأ، ثم واو بعدها باء موحَّدة ثم ياء مشددة، من (كرب) بمعنى قرب وقد توقَّف بعضهم في سماعه من العرب، وأثبته أبو علي الفارسي، واستشهد له بقوله: كَرُوْبِيَّةٌ مِنْهُمْ رُكُوْعٌ وَسُجَّدُ

وفيه دلالة على المبالغة في القُرْب لصيغة فَعُوْل والياء التي تُزَاد للمبالغة.

وقيل من (الكَرْب) بمعنى الشدَّة والحزن، وكأن وصفهم بذلك لأنهم أشد الملائكة خوفًا.

وزعم بعضهم أن الكروبيين حملة العرش، وأنهم أول الملائكة وجودًا، ومثله لا يُعْرف إلا بسماع.

وعن البيهقي أنهم ملائكة العذاب، وكأن ذلك إطلاق آخر من الكرب بمعنى الشدَّة والحزن) انتهى.

والمعروف أن الكروبيين هم المُقَرَّبُوْن من الملائكة، قال الخطابي رحمه الله تعالى في غريب الحديث (١/ ٤٤٠): الملائكة الكَرُوبيّون، وهم المُقَرّبون وقال بعضهم إنما سُمُّوا (كَرُوبيين) لأنهم يُدْخِلون الكَرْب على الكفار، وليس هذا بشيء.اهـ.

وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٦١): في حديث أبي العالية: (الكروبيون سادة الملائكة) هم المقربون، ويقال لكل حيوانٍ وَثِيْقِ المفاصل إنه لمُكْرَب الخَلْق، إذا كان شديد القُوَى والأول أشبه.اهـ.

والأمر من الغيب الذي لا يجوز إثباته إلا بوحي من الله، ولم يثبت في ذلك شيء.

وقد سئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٨/ ٥٠): من هم الملائكة الكروبيون؟

فأجاب: لم يثبت فيما علمتُ حديث فيه ذكر هذا الاسم للملائكة، الملائكة الكروبيون والحقيقة أن هذا الاسم منذ نحو ثلاثين سنة لم يكن مر بي في الأحاديث التي كنت قرأتها في مئات إن لم أقل ألوف الكتب أكثرها مخطوطة حتى سمعت هذا الاسم في منى في موسم من مواسم الحج، كنت جالسا في ليلةٍ هادئةٍ وجميلةٍ من أيام منى أتحدث مع بعض إخواننا من أنصار السنة المصريين والسوريين وغيرهم، لما دخل علينا شيخ سمته لا بأس به سلم وجلس واستمع وبعد أن توقفت قليلًا عن الكلام دخل هو في الموضوع يتكلم، تبين من كلامه أنه من الذين درسوا في الأزهر ويحملون في طوايا نفوسهم بغضًا للدعوة السلفية أو دعوة التوحيد وأنه متأثر ببعض الدعاوى الكاذبة التي تنسب إلى جماعة التوحيد في كل بلاد الإسلام سواء كان هنا أو في مصر أو في سوريا أو في غير مكان، وإذا به يتهجم ويقول أن دعوة الوهابيين بهذا الاسم دعوة جيدة، ولكنهم يشبهون الله بالمخلوقات.

فسألته: كيف ذلك؟

قال: إنهم يقولون بأن الله ﷻ - سبحان الله يخطِّئ القرآن وهو لا يشعر - قال: يقولون بأن الله على العرش استوى، فقلت له: هل هذا قولهم؟ أم قول رب العالمين؟ استدرك فقال يعني هو بأنهم يفسرون هذه الآية بمعنى، يفسرون الآية بمعنى أن الله قاعد على عرشه، قلت له: يا أخي... الخلاف بينهم وبين مخالفيهم ليس في تشبيه رب العالمين بالمخلوقين فهذا باطل بالاتفاق، وإنما الخلاف هل يصح تأويل الاستواء بمعنى الاستيلاء أم الصحيح أن الاستواء هو

الاستعلاء ودخلت في هذا الموضوع طويلًا، وأمر طبيعي جدًّا أن خلاصة العقيدة السلفية في هذه الجزئية أن لله صفة الفوقية، فهو تمسك بهذه وقال: هل من المعقول أن الله ﷻ يكون فوق العرش، معنى ذلك أننا وضعناه في مكان، قلت له: لا، هذا وهم منكم ونحن نتبرأ من عقيدة تجعل الله ﷻ محصور في مكان وهو العلي الكبير، ثم بدأت المناقشة معه بطريقة خاصة قلت له: هل أنت معي في أن الله كان ولا شيء معه؟

قال: طبعًا

قلتُ: حين كان الله فهل كان هناك عرش؟

قال: لا.

إذن كان الله ولا شيء معه ثم خلق العرش

قال: نعم

تسلسلت معه فقلت له: نحن الآن في الأرض فما الذي فوقنا؟

قال: السماء الدنيا ثم؟

الثانية، إلى أن وصلنا إلى السابعة، قلت: ماذا فوق السابعة؟

قال: العرش

قلتُ - وهنا الشاهد - وماذا فوق العرش؟

قال: الملائكة الكروبيون

لأول مرة أسمع هذا الاسم منذ نحو ثلاثين سنة، قلت: ما هذا؟ الملائكة الكروبيون فوق العرش؟ نحن نعرف أن الذي فوق العرش هو خالق العرش بدليل الآية السابقة وتأويل السلف لها بأنه على العرش استوى أي استعلى، وكما قال المعتبرين في هذه المسألة:

وربُّ العرش فوق العرش لكن بلا وصف التمكن واتصال

فالله غني عن العالمين، لكن أنا أسمع لأول مرة أن الذي فوق العرش هم الملائكة الكروبيون، هل عندك آية في إثبات أولا: أن هناك ملائكة يسمون بالملائكة الكروبيون؟

قال: لا

قلت: طيب، هل عندك حديث في أنه جاء ذكرهم فيه بهذه التسمية؟

قال: لا

قلت: فإذن من أين جئت بهذه العقيدة أن فوق العرش ملائكة كروبيون

قال: هكذا درسونا مشايخنا في الأزهر الشريف

قلت: يا عجبا، أنا أعلم أن علماء الأزهر يقررون على الطلبة في دروسهم ما يتعلق بأصول العقائد وأصول الفقه يقولون لهم: أحاديث الآحاد الصحيحة لا تثبت بها عقيدة، فكيف لقنوكم عقيدة ليست مذكورة لا في القرآن ولا في السنة؟ كيف اعتقدتم؟

فبهت الرجل، ثم تابعتُ الكلام، قلت له: هب أن فوق العرش أولئك الملائكة المسمون عندكم بالكروبيون، فماذا فوقهم، وقف الرجل، وقف حيران، وقد كنت قدمت معه كان الله ولا شيء معه، وكان مشتق من كن فيكون فلم يكن شيء هناك فقال الله لخلقه كن فكان، فإذا انتهى أن ما وصلنا إلى العرش وبزعمك أن فوق العرش أولئك الملائكة؛ فماذا فوق هؤلاء الملائكة، أعدم أم وجود؟

قال: لا، عدم، لأنا كنا اتفقنا أن لا شيء قبل أن يخلق الله تبارك وتعالى السماوات والأرض، كان الله ولا شيء معه، إذن فقبل أن يخلق الله شيئا لم يكن هناك شيء، فإذا انتهى بك العلم إلى أن فوق العرش الملائكة الكروبيون ولا

شيء وراء ذلك من كون لأنه انتهى الخلق فإذا قال السلفيون بأن الله تبارك وتعالى على العرش استوى أي استعلى، فلماذا تنسبونهم إلى أنهم حصروا الله ﷻ في كونه ولا كون هناك لأن الكون محصور ومحدود وفي رأينا آخر الكون وأعلاه العرش، في رأيك أنت العرش وعليه الكروبيون ولا شيء بعد ذلك، فإذن العقيدة الصحيحة عقلًا ونقلًا إنما هي عقيدة السلف الصالح؛ لأنهم لم يجعلوا الله في مكان كما تزعمون؛ لأنه لا مكان هناك وراء العرش إنما هو العدم المحض إلا الله تبارك وتعالى، ولكن ما بالكم أنتم أنكم حينما فررتم مما نسبتم السلفيين إليه وهم براء منه فإن الله ليس في مكان لأن ما بعد العرش ليس كونًا وليس مكانًا فهو على العرش استوى، لكن ما بالكم أنتم تفرون من إثبات هذه الصفة لله تبارك وتعالى وهي صفة التنزيه تمامًا؛ لأنه ليس في الكون، فكيف وأنتم تقولون إن الله في كل مكان تحصرونه في كونه الذي خلقه بعد أن لم يكن له وجود، فأنتم المشبهة وأنتم المجسمة، ولسنا نحن معشر السلفيين إلا القائلون بما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير} [الشورى:١١] وعلى أساس من هذه الآية بطرفيها ننزهه تعالى تنزيهًا كاملًا ونثبت له الصفات كما يليق بعظمته وجلاله.

المسألة الحادية عشر: حكم الاستهزاء بالملائكة

الواجب على المسلم أن يحفظ لسانه، فلا يتكلم بما يغضب الله تعالى، ورب كلمة يتكلم بها الإنسان، وهو لا يظن أن لها شأنا، تكون سبب هلاكه وعذابه، والعياذ بالله.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق)[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

وقد ذكر أهل العلم أن الاستهزاء بالملائكة أو بأحد منهم كفر، وخروج عن الإسلام واستدلوا بقول الله ﷻ: (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) التوبة:٦٥ - ٦٦.

قال ابن حزم في "الفصل في الملل والأهواء والنحل" (٣/ ١٤٢): "وصح بالنص أن كل من استهزأ بالله تعالى، أو بملك من الملائكة، أو بنبي من الأنبياء عليهم السلام، أو بآية من القرآن، أو بفريضة من فرائض الدين، فهي كلها آيات الله تعالى، بعد بلوغ الحجة إليه، فهو كافر" انتهى.

وقال في "المحلى" (١١/ ٤١٣): "كل من سب الله تعالى أو استهزأ به، أو سب ملكا من الملائكة أو استهزأ به، أو سب نبيا من الأنبياء أو استهزأ به، أو سب آية من آيات الله تعالى أو استهزأ بها، والشرائع كلها والقرآن من آيات الله تعالى، فهو بذلك كافر، مرتد، له حكم المرتد" انتهى.

وقال ابن نجيم في "البحر الرائق" (٥/ ١٣١): "يكفر بعيبه ملكا من الملائكة أو الاستخفاف به" انتهى.

بل ذكر بعض العلماء أنه يكفر من تكلم بما فيه مجرد إشعار بالاستهزاء والسخرية

قال ابن نجيم الحنفي: "ويكفر بقوله لغيره: "رؤيتي إياك كرؤية ملك الموت " عند البعض، خلافا للأكثر" انتهى.

المسألة الثانية عشر: ما الحكمة من إيجاد الكرام الكاتبين مع أن الله يعلم كل شيء؟

قال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (١/ ١٢١): "نقول في مثل هذه الأمور إننا قد ندرك حكمتها، وقد لا ندرك، فإن كثيرا من الأشياء لا نعلم

حكمتها، كما قال الله تعالى: {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} الإسراء/ ٨٥. فإن هذه المخلوقات لو سألنا سائل ما الحكمة أن الله جعل الإبل على هذا الوجه، وجعل الخيل على هذا الوجه، وجعل الحمير على هذا الوجه، وجعل الآدمي على هذا الوجه ؟ وما أشبه ذلك، لو سألنا عن الحكمة في هذه الأمور ما علمناها، ولو سئلنا ما الحكمة في أن الله ﷻ جعل صلاة الظهر أربعا، وصلاة العصر أربعا، والمغرب ثلاثا، وصلاة العشاء أربعا ؟ وما أشبه ذلك ما استطعنا أن نعلم الحكمة في ذلك.

وبهذا علمنا أن كثيرا من الأمور الكونية، وكثيرا من الأمور الشرعية تخفى علينا حكمتها، وإذا كان كذلك فإنا نقول إن التماسنا للحكمة في بعض الأشياء المخلوقة أو المشروعة، إن من الله علينا بالوصول إليها فذاك زيادة فضل وخير وعلم، وإن لم نصل إليها، فإن ذلك لا ينقصنا شيئا.

ثم نعود إلى جواب السؤال، وهو ما الحكمة في أن الله ﷻ وكل بنا كراما كاتبين يعلمون ما نفعل ؟ فالحكمة من ذلك بيان أن الله سبحانه وتعالى نظم الأشياء وقدرها، وأحكمها إحكاما متقنا، حتى إنه سبحانه وتعالى جعل على أفعال بني آدم وأقوالهم كراما كاتبين، موكلين بهم، يكتبون ما يفعلون، مع أنه سبحانه وتعالى عالم بما يفعلون قبل أن يفعلوه، ولكن كل هذا من أجل بيان كمال عناية الله ﷻ بالإنسان، وكمال حفظه تبارك وتعالى، وأن هذا الكون منظم أحسن نظام، ومحكم أحسن إحكام، والله عليم حكيم.اهـ.

المسألة الثالثة عشر: التفاضل بين الملائكة والبشر

هذه مسألة كثر الكلام فيها في كتب المتأخرين من أهل العلم أخذًا وردًا، وطال طولًا أخرجها عن فائدتها وحدها، وخلاصة ما قيل فيها أن الناس فيها

على مذاهب ثلاثة:

الأول: تفضيل الملائكة على البشر مطلقًا، وإليه ذهبت المعتزلة، وبعض الأشعرية، وابن حزم، ومال إليه بعض أهل السنة، وبعض الصوفية، واستدلوا بأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لها وجهها في الدلالة على قولهم، كقوله سبحانه في بني آدم: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]. فقال على كثير ولم يقل على كل، ومن عساه أن يكون الخارج من هذا الكثير إلا الملائكة، وبقوله سبحانه: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]. ومثل هذا دال لغة على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه، وبقوله سبحانه: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]. والمعنى عندهم أني لا أدعي فوق منزلتي، وبقوله ﷺ: (يقول الله تعالى: {أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وهو نص في الأفضلية، وهي أدلة على ما ترى من الدلالة، إلا أن المخالفين ردوا على الاستدلال بها ورد هؤلاء على ردودهم.

الثاني: تفضيل الأنبياء وصالحي البشر على الملائكة: وهو مذهب جمهور أهل السنة والجماعة وكذا جمهور أصحاب الأشعري واستدلوا بأدلة ظاهرة الدلالة على قولهم، كقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، والفاضل لا يسجد للمفضول، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]. وقوله: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل

عمران: ٣٣]. هذه في الأنبياء، أما في صالح البشر فكقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾} [البينة: ٧]. وهي أدلة في القوة على ما ترى، إلا أن المخالفين ردوا على الاستدلال بها وعلى الرد رد، ورأى قوم أن الأدلة متكافئة فكان قول ثالث وهو التوقف والسكوت عن التفضيل. وإنا إن ذهبنا نتتبع الأدلة والردود ورد الردود لخرج بنا الموضوع عن حده وطال طولًا لا نستطيع الوقوف عند حد له. وهي مسألة - كما ذكرت - كثر فيها الاختلاف، وتشعبت فيها الاستدلالات، وتشابكت وعظم فيها الجدال حتى خرج بها بعضهم مخرج المنافرة والمفاخرة فأخذ يقول: منا الأنبياء ومنا الأولياء، فرد عليه بأن للملائكة أن تقول: أليس منكم فرعون وهامان؟ أليس منكم من ادعى الربوبية؟ وأساء بعضهم الأدب فقال: كان الملك خادمًا للنبي ﷺ، أو أن بعض الملائكة خدموا بني آدم. وهذه المسألة قد قال فيها ابن تيمية في الفتاوى (٤/ ٣٥٤): المسألة على هذا الوجه لست أعلم فيها مقالة سابقة مفسرة، وربما ناظر بعض الناس على تفضيل الملك، وبعضهم على تفضيل البشر، وربما اشتبهت هذه المسألة بمسألة التفضيل بين الصالح وغيره.اهـ.

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٥٤): أكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم. قال: أقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن سعيد بن العاص أنه حضر مجلسًا لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر: ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم) وذكر بقية الواقعة وفيها معارضة أحدهم بتفضيل الملائكة واستدلال كل.اهـ.

ولقد نزع جماعة من أهل العلم إلى أن هذه من فضول المسائل

قال البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٨٢). في التفاضل بين الملائكة والبشر: والأمر فيه سهل، وليس فيه من الفائدة إلا معرفة الشيء على ما هو به.اهـ.

وقال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٢٧٨): وكنت ترددت في الكلام على هذه المسألة لقلة ثمرتها، وأنها قريب مما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

وقال: وحاصل الكلام أن هذه المسألة من فضول المسائل ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول.اهـ.

ونقل عن تاج الدين الفزاري من كتاب له في تفضيل البشر على الملك ما نصه: اعلم أن هذه المسألة من بدع الكلام التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كبير المقاصد، ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن، وامتنع عن الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخل كلامه من ضعف واضطراب.اهـ.

ولم تكن المسألة عند السلف موضع نظر وأخذ ورد، ولم تكن لهم بها عناية فائقة بحيث ينصبونها موضوعًا للنظر والاستدلال، ولم يقع بينهم فيها كلام وخلاف، وقد رويت عن الصحابة أحاديث موقوفة ومرفوعة فيها ذكر لهذه المسألة في بعضها تفضيل المؤمن على الملائكة، وبعضها تفضيل المؤمن على بعض الملائكة، وبعضها تفضيل بني آدم على الملائكة، ولكنها أحاديث إما ضعيفة أو موضوعة مثل حديث: (المؤمن أكرم على الله ﷻ من بعض الملائكة). وحديث: (أن الملائكة قالت: يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون

فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فأجعل لنا الآخرة فقال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان). وحديث: (ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من بني آدم، قيل: يا رسول الله، ولا الملائكة؟ قال: الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر) وكلها ضعيف وموضوع.

لذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٤/ ٣٦٩) بعد ذكر بعض هذه الأحاديث: وأقل ما في هذه الآثار أن السلف الأولين كانوا يتناقلون بينهم أن صالحي البشر أفضل من الملائكة من غير نكير منهم لذلك، ولم يخالف أحد منهم في ذلك، إنما ظهر الخلاف بعد تشتت الأهواء بأهلها، وتفرق الآراء، فقد كان ذلك المستقر عندهم.اهـ.

وقال في الفتاوى أيضا (٤/ ٣٧١): قد كان السلف يحدثون الأحاديث المتضمنة فضل صالح البشر على الملائكة، وتروى على رؤوس الناس ولو كان هذا منكرًا لأنكروه فدل على اعتقادهم ذلك.اهـ.

وقد جاء عن الإمام أحمد كما في طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٩ و٣٠٦) أنه كان يفضل صالحي المؤمنين على الملائكة، ويخطئ من يفضل الملائكة على بني آدم.

وقد فصل ابن تيمية في هذه المسألة تفصيلًا طويلًا، قرر فيه مذهب أهل السنة تفضيل صالح البشر على الملائكة كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٥٢).

ونقل عنه ابن القيم كما في بدائع الفوائد (٣/ ١٦٣): أنه سئل عن صالحي بني آدم والملائكة أيهما أفضل؟

فأجاب بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل

باعتبار البداية، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهين عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير حال صالحي البشر أكمل من حال الملائكة) قال: (وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالح كل منهم على حقه).اهـ. مباحث المفاضلة في العقيدة لمحمد بن عبدالرحمن الشظيفي (ص٣٥٤).

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٧/ ٢/ ١٠٣٥ - ١٠٣٩): تحت حديث رسول صلى الله عليه وآله وسلم: (ذاك إبراهيم عليه السلام يعني: أنّه خير البريّة).

قلت: وظاهر الحديث يدل على أمرين:

أحدهما: أن إبراهيم عليه السلام خير الخلق مطلقًا بما فيهم الملائكة.

والآخر: أنه أفضل من نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وأجاب العلماء عن هذا بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال ذلك تواضعًا وهضمًا لنفسه، أو أنه قال ذلك قبل أن يوحى إليه بأن الله تعالى اتخذه خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، وأنه سيد الناس يوم القيامة، آدم فمن دونه تحت لوائه -صلى الله عليه وآله وسلم-، كما جاء في الأحاديث الصحيحة، وبهذا أجاب الطحاوي، فراجعه فإنه هام مفيد.

وأما الأمر الأول؛ فلم يتعرض له الطحاوي، فأرى- والله أعلم- أن قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «خير البرية» من حيث إنه لا يشمل الملائكة، كقوله تعالى في سورة (البينة): {[إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} بعد قوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ

خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ}، وأن المراد بـ (خير البرية) و(شر البرية)؛ إنما هم غير الملائكة- كما يشعر بذلك السياق-؛ فإن الملائكة {لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}. وقد ذكر القرطبي أنه قد استدل بقوله تعالى: {خير البرية} من فضل بني آدم على الملائكة، ثم أحال في بيان الخلاف في ذلك على سورة البقرة (١/ ٢٨٩)، وهناك ذكر الخلاف في المسألة بشيء من التفصيل، وذكر دليل من قال بذلك، والقائل بأن الملائكة أفضل، ومن ذلك قوله:

"وفي البخاري: "يقول الله تعالى: {من ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم"، وهذا نص".

ثم قال: "وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم، لأن طريق ذلك خبر الله تعالى، وخبر رسوله، أو إجماع الأمة، وليس ههنا شيء من ذلك".

ثم رأيت العلامة ابن أبي العز الحنفي قد توسع جدا في ذكر أدلة الفريقين ومناقشتها، وبيان ما لها وما عليها في "شرح العقيدة الطحاوية" (٣٠١ - ٣١١) - وتبعه الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (١٣/ ٣٨٤ - ٣٨٨) -؛ وذكر عن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ أنه لم يقطع فيها بجواب، وقال: "وهذا هو الحق، فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين، وليس علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل؛ فإن هذا لو كان من الواجب لبين لنا نصًا.. وحملني على بسط الكلام هنا: أن بعض الجاهلين يسيئون الأدب بقولهم: كان الملك خادمًا للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-! أو أن بعض الملائكة خدام بني آدم!! يعنون: الملائكة الموكلين بالبشر، ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع المجانبة للأدب..".

ثم شرع في البسط المذكور، وختمه بقوله: "وحاصل الكلام: أن هذه المسألة من فضول المسائل، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول، وتوقف أبو حنيفة في الجواب عنها كما تقدم. والله أعلم بالصواب". قلت: ولقد كان التوقف المذكور هو الذي يقتضيه النظر والتأمل في أدلة الفريقين، وجواب كل منهما عن أدلة الآخر، لولا حديث البخاري الذي قال فيه القرطبي: إنه نص في المسألة كما تقدم؛ وقد حكاه الحافظ العسقلاني عن ابن بطال أيضًا، وإن كان الحافظ تكلف في رد دلالته وتأويله: "بأن الخيرية إنما حصلت بالذاكر والملأ معًا؛ فالجانب الذي فيه رب العزة خير من الجانب الذي ليس هو فيه بلا ارتياب، فالخيرية حصلت بالنسبة للمجموع على المجموع".

وقد كنت وقفت منذ القديم في "الترغيب والترهيب" على حديث من رواية البزار وابن حبان في "صحيحه" هو نص في الموضوع وأقوى؛ لأنه يبطل التأويل المذكور، ونصه: "أول من يدخل الجنة من خلق الله: الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله لملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: ربنا! نحن سكان سماواتك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟! قال: إن هؤلاء كانوا عبادًا لي يعبدوني لا يشركون بي شيئًا، وتسد بهم الثغور..، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك؛ فيدخلون عليهم من كل باب: [سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار]. وقال المنذري (٤/ ٨٦)، والهيثمي (١٠/ ٢٥٩): "ورجاله ثقات". وهو في "موارد الظمآن" (٢٥٦٥) - والسياق له -، ومخرج في المجلد السادس من "الصحيحة" برقم (٢٥٥٩). وإني لأستغرب جدًّا كيف فات على أولئك العلماء من الفريقين

إيراده احتجاجًا ودفعًا؟! وبخاصة الحافظ ابن حجر العسقلاني، لنعلم رأيه في شهادة الملائكة أمام ربهم: أنهم خيرة خلقه، وما أظن أنه يجد له تأويلًا إلا التسليم لدلالته! ونحوه حديث الترجمة، فما تعرض أحد منهم لذكره، ولعل ذلك لأنهم يرون أيضًا أنه خاص بالناس دون الملائكة؛ كما تقدم بيانه في طليعة هذا التخريج، وهو الذي استظهره الإمام الآلوسي في تفسيره "روح المعاني" (٣/ ٢٦٤)! والله ولي التوفيق.

وأما حديث: "علي خير البرية"؛ فمن موضوعات الشيعة، وقد روي من حديث أبي سعيد الخدري، وهو مخرج في "الضعيفة" (٥٥٩٣)، ومن حديث جابر بن جابر برقم (٤٩٢٥)، وذكره الآلوسي من حديث أبي هريرة عند ابن أبي حاتم، وحديث عائشة وعلي وابن عباس عند ابن مردويه، ولم أقف على أسانيدها. ومن الظاهر أنها من عمل الشيعة أو غيرهم من الضعفاء والكذابين، ولذلك عقب الآلوسي عليها بقوله: "وإن دون إثبات صحة تلك الأخبار خرط القتاد. والله تعالى أعلم".

ولا بد من التنبيه أنه وقع فيه حديث أبي هريرة: "مرفوعًا"، وأنا أظن أنه محرف: "موقوفًا"؛ فإن من المعروف أن مرجع المتأخرين في تخريج أحاديث التفسير إنما هو "الدر المنثور" على الغالب، والحديث فيه (٦/ ٣٧٩) غير مرفوع!..اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٢٨١): أيهما أفضل الملائكة أم الصالحون من البشر؟

فأجاب: هذه المسألة وهي المفاضلة بين الملائكة وبين الصالحين من البشر محل خلاف بين أهل العلم وكل منهم أدلى بدلوه فيما يحتج به من

النصوص، ولكن القول الراجح أن يقال: إن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة باعتبار النهاية فإن الله -سبحانه وتعالى- يعد لهم من الثواب ما لا يحصل مثله للملائكة فيما نعلم، بل إن الملائكة في مقرهم أي في مقر الصالحين وهو الجنة يدخلون عليهم من كل باب {سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار}.

أما باعتبار البداية فإن الملائكة أفضل لأنهم خلقوا من نور وجبلوا على طاعة الله ﷻ والقوة عليها كما قال الله تعالى في ملائكة النار: {عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون}. وقال ﷻ: {ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون} هذا هو القول الفصل في هذه المسألة.

وبعد فإن الخوض فيها وطلب المفاضلة بين صالحي البشر والملائكة من فضول العلم الذي لا يضطر الإنسان إلى فهمه والعلم به والله المستعان.

المسألة الرابعة عشر: هل خلق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من نور كالملائكة

قال العلامة الألباني في الصحيحة (١/ ٢/ ٨٢٠) تحت حديث «خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من نار السموم وخلق آدم عليه السلام مما قد وصف لكم».

وفيه إشارة إلى بطلان الحديث المشهور على ألسنة الناس: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر». ونحوه من الأحاديث التي تقول بأنه -صلى الله عليه وآله وسلم- خلق من نور، فإن هذا الحديث دليل واضح على أن الملائكة فقط هم الذين خلقوا من نور، دون آدم وبنيه، فتنبه ولا تكن من الغافلين.

وأما ما رواه عبد الله بن أحمد في السنة (ص ١٥١) عن عكرمة قال: "خلقت

الملائكة من نور العزة، وخلق إبليس من نار العزة".

وعن عبد الله بن عمرو قال: "خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر " قلت: فهذا كله من الإسرائيليات التي لا يجوز الأخذ بها، لأنها لم ترد عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم.اهـ.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٨/ ١٢): السلام عليكم ورحمة الله وبركاته عندنا الله يسلمك! أتانا شيخ من قريب اسمه عبد الرحيم الطحان، وكانت له محاضرة عنوانها: تعظيم أنبياء الله ومن بعض ما قاله في نفس المحاضرة قوله: ليتنا كنا نساء وحظينا بريق الحسن، من يحظ بالحسن.. ليلة لو نظرَ، وقوله: ووالله لو أدركنا الحسين لمسحنا نعليه بلحانا وفي ذلك شرف لنا وفخر.

وقوله: ثبت عن أنس بإسناد صحيح: إن النبي عليه الصلاة والسلام عندما دخل المدينة أضاء فيها كل شيء لما تنورت بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأشرقت.

وقوله: ينقل الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء في الجزء الحادي عشر صفحة (٢١١) عن بعض طلبة العلم أنه قال: نظرة إلى الإمام أحمد تعدل عبادة سنة وأكثر، علق الإمام الذهبي على هذه الجملة بقوله: هذا غلو لا ينبغي، وقال: والله ليس بغلو وإنه مما ينبغي.

وقال...: كان جعفر الصادق يقول: إذا وجدت في قلبي فتور وقسوة نظرت إلى وجه محمد بن واسع فاجتهدت أسبوع، وقال: النظر إلى أئمتنا يستشفى به.. يتداوى به.. يذكر بالله، ويقولون: من لم ينفعك لحظه لم ينفعك لفظه ووعظه.

وقوله: ذكر أحمد من مجالس الذكر عندما نذكره [كأننا] ذكرنا الله...

وقوله: نظرة إلى وجه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- تعدل عبادة آلاف السنين، والنظرة إلى الصحابة الطيبين تعدل عبادة آلاف السنين.

قابل هذا الشيخ بعض الشيوخ يقول: واسمه الشيخ عبد الرحمن زيد العابدين، ويقول: قابلته وقلت له: ووالله ما رأيته إلا قبلت يده، وكان يقول، أي: الشيخ عبد الرحمن زين - يقول للشيخ عبد الرحيم: من مقاصدي إذا ذهبت لأحج رؤية الإمام الشنقيطي، وهذا الشيخ يا شيخنا! معروف على مستوى في دولتنا قطر، وكل طلبة العلم يحضرون له، فما رأيكم وما الرد على هذا؟

فأجاب: بارك الله فيك، ما كان ينبغي أن تطيل علينا بسردك لمثل هذا الهراء، فانتبه لما سأقول: باستثناء حديث أنس الذي حكيته عن الطحان أقول: أولًا: حديث أنس هو فعلًا حديث صحيح ولكن الإضاءة هي إضاءة معنوية يعني: هو كناية عن انتشار نور الإسلام، وإلا فالمدينة كما تعلم إذا أطفئت الأنوار اليوم فسنراها مظلمة كما كان الشأن في عهد الرسول عليه السلام، وقد جاء في الحديث الصحيح أن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها استيقظت ليلة قالت: ولم تكن المصابيح يومئذٍ، لم تجد نبيها بجانبها فأخذت تبحث عنه والليل ظلام فوقعت يدها على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو ساجد في صلاته وقدماه منصوبتان وهو يقول: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فالرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- بلا شك نور هدى الله به العرب ثم العجم بسبب الهدى والنور الذي أنزله الله تبارك وتعالى على قلب الرسول، فلم تكن إضاءة المدينة المذكورة في حديث أنس هي إضاءة مادية وإلا كانت السيدة عائشة ترى نبيها -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو يصلي في الغرفة.. في البيت،

لكنها صرحت بأنها لم تره لم؟ لأنه لم تكن عندهم المصابيح يومئذٍ فأقول: باستثناء حديث أنس من ذاك الهراء، فحديث أنس صحيح ومعناه ليس كما يفسره الرجل.

أقول بعد تكريري لهذا الاستثناء: الكلام الذي حكيته عنه كله هراء ويجب أن يطحن من الطحانين طحنًا.

سمعت الجواب؟

مداخلة: ماذا تنصحون طلبة العلم جزاكم الله خيرًا؟

الشيخ: أنصحهم ألا يحضروا للرجل درسًا؛ لأنه صوفي مبتدع ويتستر بالسنة وهو جاهل بها.

المسألة الخامسة عشر: سجود الملائكة لآدم عليه السلام

من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله عز وجل لما أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام سجدوا له جميعًا بلا استثناء، ملائكة الأرض، وملائكة السماء، لقوله تعالى: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [ص: ٧٢].

(ومن قال إنه لم يسجد له جميع الملائكة بل ملائكة الأرض؛ فقد رد القرآن بالكذب والبهتان، وهذا القول ونحوه ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارى، وإنما هو من أقوال الملاحدة المتفلسفة الذين يجعلون الملائكة قوى النفس الصالحة، والشياطين قوى النفس الخبيثة، ويجعلون سجود الملائكة طاعة القوى للعقل، وامتناع الشياطين عصيان القوى الخبيثة للعقل)[١].

وكانت سجود الملائكة لآدم عليه السلام عبادة وطاعة لله، وقربة يتقربون بها إليه

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٤٥، ٣٤٦).

وهو لآدم تشريف وتكريم وتعظيم[١]... نقل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إجماع أهل الملل على سجود الملائكة لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وذلك في معرض رده على الفلاسفة الذين يزعمون أن الملائكة هي التي أبدعت جميع المصنوعات حيث قال:

(ولأن ما اتفق عليه أهل الملل من أن الملائكة سجدوا لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يبطل قول هؤلاء: إن أضعف العقول - التي هي الملائكة عندهم - هو مبدع جميع البشر، ورب كل ما تحت فلك القمر)[٢].

وقد بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا السجود كان لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على الحقيقة فقال: (السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه بإجماع من يسمع قوله)[٣].

وذلك للرد على من زعم أن السجود كان لله، وإنما جعل آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبله للملائكة يسجدون إليه كما يسجد إلى الكعبة، وليس في هذا تفضيل له عليهم؛ كما أن السجود إلى الكعبة ليس فيه تفضيل للكعبة على المؤمن عند الله.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأدلة على صحة ما ذهب إليه، وفساد قول هؤلاء وذلك من عدة وجوه:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى قال: اسْجُدُواْ لآدَمَ} [البقرة: ٣٤]، ولم يقل: إلى آدم.

وكل حرف له معنى، ومن التمييز في اللسان أن يقال: سجدت له، وسجدت إليه، كما قال تعالى: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [فصلت: ٣٧]، وقوله: وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٠١)، والوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي (١/ ١١٩)، وتفسير البغوي (١/ ٣٥).

(٢) بغية المرتاد (ص: ٢٤٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٥٨).

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [الرعد: ١٥]، وأيضًا فإن النبي ﷺ كان يصلي إلى عنزة، ولا يقال لعنزة، وإلى عمود وشجرة، ولا يقال لعمود، ولا لشجرة.

والساجد للشيء يخضع له بقلبه، ويخشع له بفؤاده، وأما الساجد إليه فإنما يولي وجهه وبدنه إليه ظاهرًا، كما يولي وجهه إلى بعض النواحي إذا أمه، كما قال تعالى: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة: ١٤٤].

الثاني: أن آدم عليه السلام لو كان قبلة لم يمتنع إبليس من السجود، أو يزعم أنه خير منه، فإن القبلة قد تكون أحجارًا؛ وليس في ذلك تفضيل لها على المصلين إليها، وقد يصلي الرجل إلى عَنَزَة وبعير، وإلى رجل؛ ولا يتوهم أنه مفضل بذلك، فمن أي شيء فر الشيطان؟ هذا هو العجب العجيب.

الثالث: أنه لو جعل آدم قبلة في سجدة واحدة؛ لكانت القبلة وبيت المقدس أفضل منه بآلاف كثيرة، إذ جعلت قبلة دائمة في جميع أنواع الصلوات، فهذه القصة الطويلة التي هي من أفضل النعم عليه، والتي رفعه الله بها، وامتن بها عليه؛ ليس فيها أكثر من أنه جعله كالكعبة في بعض الأوقات، مع أن بعض ما أوتيه من الإيمان والعلم، والقرب من الرحمن أفضل بكثير من الكعبة؛ والكعبة إنما وضعت له ولذريته؛ أفيجعل من جسيم النعيم عليه أو يشبه به في شيء نزر قليل جدًا؟. هذا مالا يقوله عاقل[1].

وهذا السجود كان من جميع الملائكة؛ ملائكة السماء، وملائكة الأرض، وهذا ما قرره رحمه الله عندما سئل: هل سجد ملائكة السماء والأرض، أم ملائكة الأرض خاصة؟.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٥٨، ٣٥٩) بتصرف.

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (بل أسجد له جميع الملائكة كما نطق بذلك القرآن في قوله تعالى: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [ص: ٧٣]، فهذه ثلاث صيغ مقررة للعموم وللاستغراق؛ فإن قوله: الْمَلَائِكَةُ يقتضي جميع الملائكة؛ فإن اسم الجمع المعرف بالألف واللام يقتضي العموم؛ فهو رب جميع الملائكة.

الثاني: (كلهم) وهذا من أبلغ العموم، الثالث: قوله: أَجْمَعُونَ وهذا توكيد للعموم)(١).

ذكر من نقل الإجماع أو نص على المسألة ممن سبق شيخ الإسلام: اتفقت كلمة العلماء رحمهم الله تعالى على أن الملائكة عليهم السلام سجدوا لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والذي يدل على ذلك ما نقوله من الإجماع على أن سجود الملائكة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن سجود عبادة.

قال أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: (اتفقت الأمة على أن السجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن سجود عبادة)(٢).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: (أجمع المسلمون على أن ذلك السجود ليس سجود عبادة)(٣).

وقرر ذلك القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: (واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة)(٤).

قلت: وفي إجماعهم على أن السجود لم يكن سجود عبادة، يؤخذ منه أنهم

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٤٥) باختصار.
(٢) أحكام القرآن (١/ ٢٧).
(٣) التفسير الكبير (٢/ ٢١٢).
(٤) تفسير القرطبي (١/ ٣٣٣).

مجمعون على وقوع هذا السجود لآدم عليه السلام، وهو ما نقل عليه الإجماع شيخ الإسلام رحمه الله.

وقد بين الطبري رحمه الله أن السجود وقع من جميع الملائكة لا من بعضهم حيث قال: (... فلما سوى الله خلق ذلك البشر وهو آدم، ونفخ فيه من روحه، سجد له الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [ص: ٧٣]، يعني بذلك الملائكة الذين هم في السموات والأرض)(١).

وهذا السجود كان لآدم عليه السلام على الحقيقة، خلافًا لمن زعم أن السجود كان لله وإنما جعل آدم عليه السلام قبلة، فقد أخرج الطبري عن قتادة رحمهما الله في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ} [البقرة: ٣٤] أنه قال: (فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته)(٢).

وقال البغوي رحمه الله: اسْجُدُواْ فيه قولان: الأصح أن السجود كان لآدم على الحقيقة، وتضمن معنى الطاعة لله عز وجل بامتثال أمره، وكان ذلك سجود تعظيم وتحية لا سجود عبادة)(٣).

مستند الإجماع في المسألة: الأدلة على سجود الملائكة لآدم عليه السلام كثيرة، وقد ذكر المولى تبارك وتعالى ذلك في سبعة مواضع من الكتاب العزيز.

قال الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٣٤].

وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٢٥).
(٢) تفسير الطبري م١ (١/ ٣٠١).
(٣) تفسير البغوي (١/ ٣٥).

فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ} [الأعراف: ١١].

وقال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} [الإسراء: ٦١].

وقال الله سبحانه وتعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: ٥٠].

وقال الله ﷻ: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى [طه: ١١٦].

وقال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} [الحجر: ٢٨ - ٣٠].

وقال المولى ﷻ: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [ص: ٧١ - ٧٣].

فهذه الأدلة جميعًا دلت دلالة قاطعة على أن الملائكة سجدوا لآدم عليه السلام على الحقيقة؛ امتثالًا وطاعة لربهم ﷻ.

أما أدلة السنة على ذلك فما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما، فحج آدم موسى. قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟. فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل

شيء، وقربك نجيا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاما. قال آدم: فهل وجدت فيها: وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى [طه: ١٢١]؟. قال: نعم قال: أفتلومني على أن عملت عملا كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟. قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى)(١).

والشاهد في قوله موسى عليه السلام: (وأسجد لك ملائكته). فهذا إثبات من موسى عليه السلام، وإقرار من محمد ﷺ على سجود الملائكة لآدم عليه السلام.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، يأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا...)(٢).

وفي هذا إثبات من النبي ﷺ - الذي لا ينطق عن الهوى - على سجود الملائكة لآدم عليه السلام.

(باب متفرقات)

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٥/ ٣١): هل الملائكة تدخل مع الإنسان عند دخوله الحمام أم لا؟.

فأجاب: أما الحفظة فالظاهر من الدليل أنهم معه دائما، الحفظة الذين يحفظون حسناته وسيئاته، ظاهر الدليل أنهم معه دائما، وأما غير الحفظة، فالله أعلم، جاء في بعض الأحاديث على أنهم يفارقونه عند قضاء حاجته، ولكن لا أعلم حال أسانيدها، هذه المسألة تحتاج إلى إعادة نظر إن شاء الله، حتى يحقق

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

ما يتعلق بها إن شاء الله.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ١١١): قرأت في كتاب يسمى بدائع الزهور، في وقائع الدهور: لما دخل نبي الله يعقوب إلى مصر مشى العسكر بين يديه، حتى وصل إلى قصر ابنه يوسف، حيث كان وزير عزيز مصر في ذلك الوقت، وعندما دخل القصر رفع يوسف أباه وخالته على سريره، وأمر العسكر أن يسجدوا لهما، وكان ذلك عادة أهل مصر في التحية، فهل سجود التحية مباح في مثل هذه المواقف؟ أرجو من سيادتكم تفسيرا عن ذلك، حفظكم الله وزادكم من علمه، ونفعنا بكم والمسلمين آمين.

فأجاب: ينبغي أن يعلم أن هذا الكتاب، وهو بدائع الزهور ليس من الكتب المعتمدة، بل هو حاطب ليل يذكر الغث والسمين، والصحيح والباطل فلا يعتمد عليه، وأخبار بني إسرائيل أخبار قديمة، لا يعتمد عليها إلا ما ثبت عن الله سبحانه، أو عن رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، ونص القرآن أن يوسف عليه الصلاة والسلام رفع أبويه على العرش وهما: أبوه وأمه لا خالته، بل أبوه وأمه، لأن الله سبحانه قال: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا}، وكانت السجدة ذلك الوقت مباحة للإكرام والتحية وليست للعبادة، وكما سجد الملائكة لآدم إكراما، وتعظيما لا عبادة، فهذه السجدة ليست من باب العبادة، بل هي من باب التحية والإكرام، وهي جائزة في شرع من قبلنا، ولكن في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ممنوع ذلك، ولهذا ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، لعظم حقه عليها». وبين أن السجود لله سبحانه وتعالى، فلا يسجد إلا لله سبحانه وتعالى، وقال عَزَّ وَجَلَّ في آخر سورة النجم: {فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا}، وقال

في سورة اقرأ: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}.

فالسجود لله وحده، وشريعة محمد عليه الصلاة والسلام هي أكمل الشرائع وأتمها، فلا يجوز فيها السجود لغير الله لا تحية ولا عبادة، أما العبادة فلا تصح إلا لله وحده في جميع الشرائع، لأن الله جل وعلا قال: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، وقال سبحانه: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} فالعبادة حق الله وحده في كل زمان ومكان، ولكن كان السجود فيما مضى يستعمل تحية وإكراما، كما فعل أبوا يوسف وإخوته، وكما فعلت الملائكة لآدم، هذا من باب التحية والإكرام، وليس من باب العبادة، أما في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، فإن الله ﷻ منع من ذلك، وجعل السجود لله وحده سبحانه وتعالى، ولا يجوز أن يسجد لأحد لا للأنبياء ولا غيرهم، حتى محمد عليه الصلاة والسلام، منع أن يسجد له أحد، وأخبر أن السجود لله وحده سبحانه وتعالى، فعلم بهذا أن جميع أنواع العبادة كلها لله وحده سبحانه وتعالى، ومن أعظمها السجود فإنه ذل وانكسار لله سبحانه وتعالى، فهو من أفضل العبادات، فلا يصرف لغيره من الناس، لا للأنبياء ولا للجن ولا للإنس ولا غيرهم، والله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٢٣): هل صحيح أنه يوجد كرام كاتبون، يدافعون وينافحون عن المؤمن، إذا خاصمه أحد وهو ساكت ولم يرد؟.

فأجاب: ورد في هذا بعض الأحاديث، لكن لا أذكرها على أسانيدها، أما الكتاب فموجودون لأن الله يقول: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ} {كِرَامًا كَاتِبِينَ} {يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}، مع الإنسان حفظة يكتبون أعماله وأقواله، أما الدفاع

عنه، والروايات التي فيها الدفاع عنه، هذه محل نظر، يحتاج إلى مراجعة أسانيدها.

مسألة: قال العلامة الألباني في الصحيحة (١/ ٢/ ٨٢٠): قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من نار السموم وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مما قد وصف لكم».

قلت: وفيه إشارة إلى بطلان الحديث المشهور على ألسنة الناس: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر». ونحوه من الأحاديث التي تقول بأنه -صلى الله عليه وآله وسلم- خلق من نور، فإن هذا الحديث دليل واضح على أن الملائكة فقط هم الذين خلقوا من نور، دون آدم وبنيه، فتنبه ولا تكن من الغافلين.

وأما ما رواه عبد الله بن أحمد في " السنة " (ص ١٥١) عن عكرمة قال: "خلقت الملائكة من نور العزة، وخلق إبليس من نار العزة".

وعن عبد الله بن عمرو قال: "خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر " قلت: فهذا كله من الإسرائيليات التي لا يجوز الأخذ بها، لأنها لم ترد عن الصادق المصدوق -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في المصدر السابق (٧/ ٢/ ١٠٣٥ - ١٠٣٩): [=قال رسول صلى الله عليه وآله وسلم: «ذاك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. يعني: أنّه خير البريّة».

قلت: وظاهر الحديث يدل على أمرين:

أحدهما: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خير الخلق مطلقًا بما فيهم الملائكة.

والآخر: أنه أفضل من نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وأجاب العلماء عن هذا بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال ذلك تواضعًا وهضمًا لنفسه، أو أنه قال ذلك قبل أن يوحى إليه بأن الله تعالى اتخذه

خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، وأنه سيد الناس يوم القيامة، آدم فمن دونه تحت لوائه -صلى الله عليه وآله وسلم-، كما جاء في الأحاديث الصحيحة، وبهذا أجاب الطحاوي، فراجعه فإنه هام مفيد.

وأما الأمر الأول؛ فلم يتعرض له الطحاوي، فأرى- والله أعلم- أن قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «خير البرية» من حيث إنه لا يشمل الملائكة، كقوله تعالى في سورة (البينة): {[إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} بعد قوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ}، وأن المراد بـ (خير البرية) و(شر البرية)؛ إنما هم غير الملائكة- كما يشعر بذلك السياق-؛ فإن الملائكة {لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون}. وقد ذكر القرطبي أنه قد استدل بقوله تعالى: {خير البرية} من فضل بني آدم على الملائكة، ثم أحال في بيان الخلاف في ذلك على سورة البقرة (١/ ٢٨٩)، وهناك ذكر الخلاف في المسألة بشيء من التفصيل، وذكر دليل من قال بذلك، والقائل بأن الملائكة أفضل، ومن ذلك قوله:

"وفي البخاري: "يقول الله تعالى: {من ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم "، وهذا نص".

ثم قال: "وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم، لأن طريق ذلك خبر الله تعالى، وخبر رسوله، أو إجماع الأمة، وليس ههنا شيء من ذلك".

ثم رأيت العلامة ابن أبي العز الحنفي قد توسع جدا في ذكر أدلة الفريقين ومناقشتها، وبيان ما لها وما عليها في "شرح العقيدة الطحاوية" (٣٠١ - ٣١١)

- وتبعه الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (١٣/ ٣٨٤ - ٣٨٨) -؛ وذكر عن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لم يقطع فيها بجواب، وقال: "وهذا هو الحق، فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين، وليس علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل؛ فإن هذا لو كان من الواجب لبين لنا نصًا.. وحملني على بسط الكلام هنا: أن بعض الجاهلين يسيئون الأدب بقولهم: كان الملك خادمًا للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-! أو أن بعض الملائكة خدام بني آدم!! يعنون: الملائكة الموكلين بالبشر، ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع المجانبة للأدب..".

ثم شرع في البسط المذكور، وختمه بقوله: "وحاصل الكلام: أن هذه المسألة من فضول المسائل، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول، وتوقف أبو حنيفة في الجواب عنها كما تقدم. والله أعلم بالصواب".

قلت: ولقد كان التوقف المذكور هو الذي يقتضيه النظر والتأمل في أدلة الفريقين، وجواب كل منهما عن أدلة الآخر، لولا حديث البخاري الذي قال فيه القرطبي: إنه نص في المسألة كما تقدم؛ وقد حكاه الحافظ العسقلاني عن ابن بطال أيضًا، وإن كان الحافظ تكلف في رد دلالته وتأويله:

"بأن الخيرية إنما حصلت بالذاكر والملأ معًا؛ فالجانب الذي فيه رب العزة خير من الجانب الذي ليس هو فيه بلا ارتياب، فالخيرية حصلت بالنسبة للمجموع على المجموع".

وقد كنت وقفت منذ القديم في "الترغيب والترهيب" على حديث من رواية البزار وابن حبان في "صحيحه" هو نص في الموضوع وأقوى؛ لأنه يبطل التأويل المذكور، ونصه:

"أول من يدخل الجنة من خلق الله: الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم

الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله لملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة:

ربنا! نحن سكان سماواتك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟! قال: إن هؤلاء كانوا عبادًا لي يعبدوني لا يشركون بي شيئًا، وتسد بهم الثغور..، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك؛ فيدخلون عليهم من كل باب: [سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار].

وقال المنذري (٤/ ٨٦)، والهيثمي (١٠/ ٢٥٩): "ورجاله ثقات".

وهو في "موارد الظمآن " (٢٥٦٥) - والسياق له-، ومخرج في المجلد السادس من "الصحيحة" برقم (٢٥٥٩). وإني لأستغرب جدًّا كيف فات على أولئك العلماء من الفريقين إيراده احتجاجًا ودفعًا؟! وبخاصة الحافظ ابن حجر العسقلاني، لنعلم رأيه في شهادة الملائكة أمام ربهم: أنهم خيرة خلقه، وما أظن أنه يجد له تأويلًا إلا التسليم لدلالته!

ونحوه حديث الترجمة، فما تعرض أحد منهم لذكره، ولعل ذلك لأنهم يرون أيضًا أنه خاص بالناس دون الملائكة؛ كما تقدم بيانه في طليعة هذا التخريج، وهو الذي استظهره الإمام الآلوسي في تفسيره "روح المعاني " (٣/ ٢٦٤)! والله ولي التوفيق.

وأما حديث: "علي خير البرية"؛ فمن موضوعات الشيعة، وقد روي من حديث أبي سعيد الخدري، وهو مخرج في "الضعيفة " (٥٥٩٣)، ومن حديث جابر بن جابر برقم (٤٩٢٥)، وذكره الآلوسي من حديث أبي هريرة عند ابن أبي حاتم، وحديث عائشة وعلي وابن عباس عند ابن مردويه، ولم أقف على أسانيدها. ومن الظاهر أنها من عمل الشيعة أو غيرهم من الضعفاء والكذابين،

ولذلك عقب الآلوسي عليها بقوله: "وإن دون إثبات صحة تلك الأخبار خرط القتاد. والله تعالى أعلم".

ولا بد من التنبيه أنه وقع فيه حديث أبي هريرة: "مرفوعًا "، وأنا أظن أنه محرف: "موقوفًا"؛ فإن من المعروف أن مرجع المتأخرين في تخريج أحاديث التفسير إنما هو "الدر المنثور"على الغالب، والحديث فيه (٦/ ٣٧٩) غير مرفوع!.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في موسوعته العقدية (٨/ ٣١): الفتوى خلاصتها: أنه وقفنا على عبارات للخميني أنه يقول: كذا وكذا، أربع خمس عبارات، فهذه العبارات هي الكفر بعينه، وكل من يقول بهذا الكلام فهو كافر أو يكفر، وشرحنا هنا في الأسباب المقتضية لهذا الحكم، وبلا شك أنه نفس الكلمات عندما يقرأها مسلم مهما كان الثقافة الإسلامية ضحلة فهو لا يشك في أن هذا الكلام كفر.

من ذلك مثلًا أنه يقول في بعض كتبه: بأن أئمة أهل البيت هم من المنزلة عند الله تبارك وتعالى فوق منزلة الملائكة والرسل والأنبياء، ومن ذلك أنه يقول: أن مصحف فاطمة أظن مذكور هذا في الأشياء.. مصحف فاطمة هو المصحف الكامل، أما المصحف المتداول اليوم بين الأئمة فهو جزء من ذاك المصحف، وهذا كفر لقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر:٩] وهكذا أربع خمس عبارات نقلت من كتبه.. كتب الخميني نفسه، هذه الأشياء خطيرة جدًا وكتابه الذي أصدره: «فوائد الثورة الإيرانية» هذه وهي: الكتاب المعروف: «بالحكومة الإسلامية»، لا أدري رأيتم هذا الكتيب الصغير؟

مداخلة: لا.

الشيخ: لم تروه،، في هذا الكتيب الصغير الذي سماه: الثورة الإسلامية أو:

الحكومة الإسلامية مع أن هذا الكتاب هو كتاب دعاية، والمفروض عند كل الناس المسلمين والكافرين أن أي كتاب سياسي لا يحسن بالكاتب أن ينشر في هذا الكتاب العقائد التي يعلم أن الخصوم سوف ينكرونها ويبادرون إلى عدم الاستجابة لمضمون الكتاب بصورة عامة، ومع أن الشيعة يوجد عندهم عقيدة يساعدهم أوسع ما تكون المساعدة في سلوك هذا السبيل السياسي وهو: كتمان عقائدهم عن الناس؛ لأنه يوجد لديهم شيء يسمى: بالتقية، لا بد أنك سمعت عن التقية شيء، فالأمر عندهم في موضوع التقية خطير جدًا بحيث أنه لا يمكن لإنسان يعرف أن عندهم التقية أن يركن إليهم؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وهذا دين عندهم، فهو إذا قال لك عن شيء وهو يعلم أنه كاذب لا يستوحش من هذا الكلام إطلاقًا؛ لأن هكذا دينه الذي منه التقية يأمره بذلك.

فمع كون عندهم هذه التقية التي تسوغ لهم أن يقولوا ما شاؤوا، وعلى العكس أكثر من ذلك أن يكتموا عن الناس عقائدهم، لكن الله ﷻ لحكمته البالغة ألهم هذا الرجل الخميني في كتيبه المشار إليه آنفًا: الحكومة الإسلامية أن يبيح عن بعض العقائد مع أنه كتاب دعوة وسياسة، منها: ما ذكرته آنفًا من تعظيمه لأهل البيت أكثر من الملائكة والأنبياء والرسل.

ومن ذلك وهذه كفرية أخرى، وهي: أنهم يعني: أهل البيت يعلمون كل حركة تقع في الكون ما من ذرة تقع في الكون إلا وهم على علم بها، مع أن أهل البيت ماتوا وصاروا ترابًا مهما كان شأنهم، فجعلوهم شركاء في العلم مع الله ﷻ، يعني: أشياء غريبة جدًا، فربنا تبارك وتعالى ليقيم الحجة على من قد يغتر بدعاياتهم يعني: سَخَّرَ هذا الإنسان أن يضع في هذا الكتيب الذي هو كتاب دعاية العقيدتين الوافدتين، واحدة منها تكفي لتحذير الناس من الاغترار بما سموه

بالثورة الإسلامية.

ومع الأسف يعني: لما قامت هذه الثورة اغتر بها بعض الشخصيات الإسلامية ويمكن ذهبوا إليهم، فمنهم من رجع وقد تبين له الحق، ومنهم من لا يزال إلى الآن يدعو إلى دعوتهم.

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في فتاوى نور على الدرب: ما هي أهمية الإيمان بالملائكة؟.

فأجاب: الإيمان بالملائكة أهميته عظيمة؛ لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، كما قال جبريل للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (أخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره). أما كيف نؤمن بهم؟ فنؤمن بأنهم عالم غيبي خلقوا من نور، وجعل الله منهم رسلًا ومنهم عبادًا، وهم على قوة عظيمة، ولا سيما جبريل عليه السلام، فقد وصفه الله بأنه ذو قوة فقال: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ). وهم في وظائفهم أقسام: منهم ملائكة مع الإنسان عن اليمين وعن الشمال يكتبون أعماله الحسنة والسيئة، ومنهم ملائكة يحفظون الإنسان من أمر الله عز وجل يتعاقبون بالليل والنهار، هؤلاء في الليل وهؤلاء في النهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ومنهم ملائكة موكلون بقبض الأرواح، ومنهم ملائكة موكلون بسؤال الأموات بعد الدفن. المهم أنهم عالم غيبي عظيم، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (أطت السماء وحق لها أن تئط) - والأطيط هو صرير الرحل، رحل البعير، إذا حمِّل وصار البعير يمشي، يكون له أطيط، أي: صرير- يقول: (أطت السماء وحق لها أن تئط، ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد).

(وأخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن البيت المعمور الذي في السماء السابعة: أنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه في اليوم الثاني، بل يأتي غيرهم، إلى يوم القيامة) أو إلى ما بعد ذلك الله أعلم. المهم أنهم جنود لا يعلمهم إلا الله ﷻ، فنؤمن بما عرفنا من أسمائهم، ونؤمن بما عرفنا من أوصافهم، ونؤمن بما عرفنا من وظائفهم، وما عدا ذلك فالله أعلم.

وسئل رحمه الله في نفس المصدر السابق: فضيلة الشيخ نود أن تعطونا نبذة عن خلق الملائكة، وهل تأتي على صورة حيوان؟ ما صحة ذلك؟.

فأجاب: الملائكة عالم غيبي خلقهم الله سبحانه وتعالى من نور، وكلفهم بما شاء من العبادات والأوامر، واصطفى منهم رسلًا، كما قال الله تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ}. فمنهم الرسل الموكلون بالوحي، كجبريل عليه الصلاة والسلام. ومنهم الرسل الموكلون بقبض أراوح بني آدم، كما قال الله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ}. ومنهم الكتبة الذين يكتبون أعمال بني آدم، ومنهم الحفظة الذين يحفظونهم من أمر الله، ومنهم السياحون الذين يسيحون في الأرض يتلمسون حلق الذكر، إلى غير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة من أعمالهم ووظائفهم. وأما أوصافهم: فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه رأى جبريل وله ستمائة جناح قد سد الأفق، ولكن مع هذا له قدرة بإذن الله ﷻ أن يكون على صورة إنسان، كما جاء جبريل إلى النبي عليه الصلاة والسلام على صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد من الصحابة، فجلس إلى النبي ﷺ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، وسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، وعن الساعة وأشراطها، وكما جاء إليه بصورة دحية

الكلبي، وكما أخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام في قصة الثلاثة من بني إسرائيل: الأبرص والأقرع والأعمى، وأن الملك جاء إلى كل واحد منهم وسأله عن أحب ما يكون إليه، ثم بعد أن أنعم الله عليهم بإزالة العيوب وبالمال عاد إليهم الملك بصورة كل واحد منهم قبل أن يزول عنه العيب ويحصل له الغنى، والقصة معروفة مشهورة. ثم إن الملائكة عليهم الصلاة والسلام لهم قدرة عظيمة، وسرعة عظيمة في الطيران والوصول إلى الغايات، ألم تر إلى قول سليمان عليه الصلاة والسلام: (يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مسلمين) أي: عرش بلقيس، وهو السرير الذي تجلس عليه، وهو عرش عظيم. (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ). قال أهل العلم: إن هذا الرجل دعا الله ﷻ، فحملت الملائكة العرش حتى وضعته عند سليمان عليه الصلاة والسلام. ثم ألم تر إلى الإنسان يموت فتقبض الملائكة روحه، وتصعد بها إلى الله ﷻ إذا كان مؤمنًا إلى ما فوق السماوات، وتعاد إليه روحه إذا دفن في قبره؟ وكل هذا يدل على أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام لهم قوة عظيمة وسرعة عظيمة. ومن أراد أن يقف على شيء من أوصافهم وأحوالهم فليرجع إلى الكتب المصنفة في ذلك، منها كتاب البداية والنهاية لابن كثير رحمه الله.

وسئل رحمه الله في نفس المصدر السابق: إن الله سبحانه وتعالى قد خلق لنا كرامًا كاتبين، يكتبون كل ما نقول ونفعل. السؤال: ما الحكمة من خلقهم؟ مع العلم بأن الله سبحانه وتعالى يعلم ولا يخفى عليه ما نسر وما نعلن؟.

فأجاب: جوابنا على هذا السؤال أن نقول: أولاً: مثل هذه الأمور قد ندرك

حكمتها وقد لا ندرك، فإن كثيرًا من الأشياء لا نعرف حكمتها، كما قال الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}. فإن هذه المخلوقات لو سألنا سائل: ما الحكمة أن الله جعل الإبل على هذا الوجه؟ وجعل الخيل على هذا الوجه؟ وجعل الحمير على هذا الوجه؟ وجعل الآدمي على هذا الوجه؟ وما أشبه ذلك، لو سُئلنا عن الحكمة في هذه الأمور ما علمناها، ولو سُئلنا: ما الحكمة في أن الله ﷻ جعل صلاة الظهر أربعًا، وصلاة العصر أربعًا، وصلاة العشاء أربعًا؟ وما أشبه ذلك ما استطعنا أن نعرف الحكمة في ذلك، إذ قد يقول قائل: لماذا لم تجعل ثماني أو ستًا؟ ولهذا علمنا أن كثيرًا من الأمور الكونية وكثيرًا من الأمور الشرعية تخفى علينا حكمتها، وإذا كان كذلك فإنا نقول: إن التماسنا للحكمة في بعض الأشياء المخلوقة أو الأشياء المشروعة إن منّ الله علينا بالوصول إليها فذاك زيادة فضل وخير وعلم، وإن لم نصل إليها فإن ذلك لم ينقصنا شيئًا. ثم نعود إلى جواب السؤال، وهو: ما الحكمة في أن الله وكل بنا كرامًا كاتبين يعلمون ما نفعل؟ فالحكمة من ذلك بيان أن الله سبحانه وتعالى نظم الأشياء وقدرها، وأحكمها إحكامًا متقنًا، حتى أنه سبحانه وتعالى جعل على أفعال بني آدم وأقوالهم كرامًا كاتبين يكتبون ما يفعلون، مع أنه سبحانه وتعالى عالم بما يفعلون قبل أن يفعلوه، ولكن كل هذا من أجل بيان كمال عناية الله ﷻ بالإنسان، وكمال حفظه تبارك وتعالى، وأن هذا الكون منظم أحسن نظام، ومحكم أحسن إحكام.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر السابق: فضيلة الشيخ بعض الناس يقومون بوضع البخور في بيوتٍ قديمة، يدعون أنهم يبخرونها للملائكة، ويضعون قطعًا من القماش ويبخرونها. فما حكم الشرع في نظركم في ذلك مأجورين؟.

فأجاب: إن هؤلاء جماعة من الخرافيين السفهاء في عقولهم، الضالين في عملهم؛ لأن الملائكة لا يمكن أن تكون أماكنها الأماكن الخربة، الأماكن الخربة يمكن أن تكون مأوى الجن أو الشياطين، أما الملائكة فإن مأواها في الأرض هي بيوت الله ﷻ، كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيمن أكل بصلًا أو ثومًا قال: (فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم)، فالطيبات للطيبين والطيبون للطيبات. وأضل من ذلك أن يبخروا هذه الأماكن، وكذلك يجعلون قطعًا من القماش ويبخرونها، وكل هذا ضلال في الدين وسفه في العقل. والواجب على من علم بذلك أن ينكر على من فعلها، ويبين له أن هذا خطأ عظيم، وأن الملائكة عليهم الصلاة والسلام أجل وأكرم عند الله من أن يجعل مأواهم هذه البيوت الخربة.

(باب في الإيمان بقبض ملك الموت الأنفس)

مسائل في الباب:

المسألة الأولى: **يدخل في الإيمان باليوم الآخر (الإيمان بالموت)**

الذي هو المفضي بالعبد إلى منازل الآخرة، وهو ساعة كل إنسان بخصوصه، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث....: (إنْ يعش هذا لَمْ يُدْرِكْهُ الهرم قامَتْ عليكم ساعَتُكُمْ)[١].

فإذا حان الأجل وشارفت حياة الإنسان على المغيب أرسل الله رسل الموت لسلِّ الروح المدبِّرة للجسد والمحركة له، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ} [الأنعام: ٦١]، وملائكة الموت تأتي المؤمن في صورة حسنة جميلة،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥١١)، ومسلم (٢٩٥٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وتأتي الكافر والمنافق في صورة مخيفة، ففي حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ بصره، ثم يجيء ملك الموت عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة -وفي رواية: المطمئنة- اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السقاء، فيأخذها... وإن العبد الكافر -وفي رواية الفاجر- إذا كان في انقطاع من الآخرة، وإقبال من الدنيا، نزل إليه من السماء ملائكة -غلاظ شداد- سود الوجوه، معهم المسوح -من النار- فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود -الكثير الشعب- من الصوف المبلول، -فتقطع معها العروق والعصب-)[1].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٢١٩)، والطيالسى (ص ١٠٢، رقم ٧٥٣)، وعبد الرزاق (٦٧٣٧)، وأحمد (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وابن ماجة (١٥٤٨، ١٥٤٩)، والرويانى (١/ ٢٦٣، رقم ٣٩٢)، وهناد (٣٣٩)، وابن خزيمة فى التوحيد (ص ١١٩)، وابن منده (١٠٦٤)، والطبري في تهذيب الآثار (١/ رقم ٢٤٨٠، ٢٤٨٥)، والآجري في الشريعة (ص ٣٦٧)، والرافعي في التدوين (١/ ٦٢)، والحاكم (١/ ٩٣)، والبيهقى فى الشعب (١/ ٣٥٥) والحديث قال عنه الطبري في مسند عمر (٢/ ٤٩٤): إسناده صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي، وقال البيهقي: حديث كبير صحيح الإسناد، وقال ابن منده في الإيمان (٣٩٨): هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء وهو ثابت على رسم الجماعة، وصححه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٩٠)، وصححه المصنف =

وما يحدث للميت حال موته لا نشاهده ولا نراه، وإن كنا نرى آثاره، وقد حدثنا ربنا تبارك وتعالى عن حال المحتضر فقال: فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ - وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ - وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ} [الواقعة: ٨٣ - ٨٥]: والمتحدث عنه في الآية الروح عندما تبلغ الحلقوم في حال الاحتضار، ومن حوله ينظرون إلى ما يعانيه من سكرات الموت، وإن كانوا لا يرون ملائكة الرحمن التي تسلُّ روحه وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ} [الواقعة: ٨٥] كما قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ} [الأنعام: ٦١].

وقال في الآية الأخرى: كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} [القيامة: ٢٦ - ٣٠] والتي تبلغ التراقي هي الروح، والتراقي جمع ترقوة وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق(١).

وقد صرح الحديث بأن ملك الموت يبشر المؤمن بالمغفرة من الله والرضوان، ويبشر الكافر أو الفاجر بسخط الله وغضبه، وهذا قد صرحت به نصوص كثيرة في كتاب الله، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ

=

ونقل تصحيح أبي نعيم والحاكم له في تهذيب السنن (٧/ ١٤٠)، وقال الهيثمى (٣/ ٥٠): رجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في شرح الصدور (٩١): له طرق صحيحة، وصححه العلامة الألباني في المشكاة (١٦٣٠)، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند، وحسنه العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٢/ ٢٧٢ - ٢٧٤).

(١) تفسير البغوي (٨/ ٢٨٥)، تفسير الرازي (٣٠/ ٢٠٤)، تفسير ابن كثير (٨/ ٢٨١).

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

وهذا التنزُّل - كما قال طائفة من أئمة التفسير منهم مجاهد والسدي - إنما يكون حالة الاحتضار(١)، ولا شك أن الإنسان في حالة الاحتضار يكون في موقف صعب، يخاف فيه من المستقبل الآتي، كما يخاف على من خلَّف بعده، فتأتي الملائكة لتؤمنه مما يخاف ويحزن، وتُطَمئِنُ قلبه، وتقول له: لا تخف من المستقبل الآتي في البرزخ والآخرة، ولا تحزن على ما خلفت من أهل وولد أو دَيْنٍ، وتبشره بالبشرى العظيمة، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ [فصلت: ٣٠]، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ [فصلت: ٣١]، وما دام العبد قد تولى الله وحده، فإن الله يتولاه دائمًا، وخاصة في المواقف الصعبة، ومن أشقها هذا الموقف، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ [فصلت: ٣١]. أما الكفرة الفجرة فإن الملائكة تتنزل عليهم بنقيض ذلك إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا} [النساء: ٩٧]، وقد نزلت هذه الآية كما أخرج البخاري عن ابن عباس في فريق أسلم، ولكنه لم يهاجر فأدركه الموت، أو قتل في صفوف الأعداء(٢)، فإن الملائكة تقرِّع هؤلاء في حال الاحتضار وتوبخهم، وتبشرهم بالنار.

وقد حدثنا ربنا عن توفي الملائكة للكفرة في معركة بدر فقال: وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٤٦٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤٥٩٦).

- ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ} [الأنفال: ٥٠ - ٥١].

قال ابن كثير في تفسير الآيات: (ولو ترى يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمرًا عظيمًا فظيعًا منكرًا، إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون ذوقوا عذاب الحريق)[1].

وقد أشار المفسر المدقق العلامة ابن كثير إلى أن هذا وإن كان في وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال: وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ..[2].

وهذا الذي قاله ابن كثير صحيح يدل عليه أكثر من آية في كتاب الله تعالى، كقوله: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [الأعراف: ٣٧]، وقوله: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: ٢٨]، وقوله: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ [محمد: ٢٥ - ٢٧][3].

قال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٧).

(٣) القيامة الصغرى (ص ١٩).

تُرْجَعُونَ} [السجدة: ١١] (السجدة: ١١)، ولملك الموت أعوان من الملائكة، يأتون العبد بحسب عمله، فإن كان محسنًا ففي أحسن هيئة، وإن كان مسيئًا ففي أشنع هيئة.

قال العلامة العثيمين في شرح الواسطية (٨/ ٤٦- مجموع الفتاوى): كذلك نعلم أن منهم -أي الملائكة- من وكل بقبض أرواح بني آدم، أو بقبض روح كل ذي روح وهم: ملك الموت وأعوانه ولا يسمى عزرائيل؛ لأنه لم يثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أن اسمه هذا.

قال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} [الأنعام: ٦١]. وقال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} [السجدة: ١١]. وقال تعالى: {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} [الزمر: ٤٢].

ولا منافاة بين هذه الآيات الثلاث، فإن الملائكة تقبض الروح، فإن ملك الموت إذا أخرجها من البدن تكون عنده ملائكة، إن كان الرجل من أهل الجنة، فيكون معهم حنوط من الجنة، وكفن من الجنة، يأخذون هذه الروح الطيبة، ويجعلونها في هذا الكفن، ويصعدون بها إلى الله ﷻ حتى تقف بين يدي الله ﷻ، ثم يقول اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فترجع الروح إلى الجسد من أجل الاختبار: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وإن كان الميت غير مؤمن والعياذ بالله، فإنه ينزل ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من النار، يأخذون الروح، ويجعلونها في هذا الكفن، ثم يصعدون بها إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها وتطرح إلى الأرض، قال الله تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}

[الحج: ٣١]، ثم يقول الله: «اكتبوا كتاب عبدي في سجين»(١) نسأل الله العافية!.

هؤلاء موكلون بقبض الروح من ملك الموت إذا قبضها، وملك الموت هو الذي يباشر قبضها، فلا منافاة إذن، والذي يأمر بذلك هو الله، فيكون في الحقيقة هو المتوفي.

المسألة الثانية: اشتهر أن اسم ملك الموت عزرائيل إلا أنه لم ترد تسمية ملك الموت بهذا الاسم في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الصحيحة، وإنما ورد ذلك في بعض الآثار والتي قد تكون من الإسرائيليات

قال السندي: لم يرد في تسميته حديث مرفوع.اهـ.

وقال المناوي في "فيض القدير" (٣/ ٣٢) بعد أن ذكر أن ملك الموت اشتهر أن اسمه عزرائيل، قال: ولم أقف على تسميته بذلك في الخبر.اهـ.

---

(١) جزء من حديث البراء الطويل في حال المحتضر، وقد أخرجه الطيالسى (ص ١٠٢، رقم ٧٥٣)، وأحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧)، وأبو داود (٤/ ٢٣٩، رقم ٤٧٥٣)، والرويانى (١/ ٢٦٣، رقم ٣٩٢)، وهناد (١/ ٢٠٥، رقم ٣٣٩)، وابن خزيمة فى التوحيد (ص ١١٩)، وابن منده (٢/ ٩٦٢، رقم ١٠٦٤)، والحاكم (١/ ٩٣ ٩٨، رقم ١٠٧، ١٠٩ ١١٧)، والبيهقى فى الشعب (١/ ٣٥٥، رقم ٣٩٥)، والآجُرّي في الشريعة (٢/ ١٩٠ رقم ٩١٩) والحديث قال عنه الطبري في مسند عمر (٢/ ٤٩٤): إسناده صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وقال البيهقي: صحيح الإسناد، وقال ابن منده في الإيمان (٣٩٨): هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء وهو ثابت على رسم الجماعة، وصححه الإمام ابن القيم ونقل تصحيح أبي نعيم والحاكم له في تهذيب السنن (٧/ ١٤٠)، وقال الهيثمى (٣/ ٥٠): رجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في شرح الصدور (٩١): له طرق صحيحة، وصححه العلامة الألباني في المشكاة (١٦٣٠)، وصححه الأرنؤوط في تحقيق المسند، وحسنه العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٢/ ٢٧٢ - ٢٧٤)، وصححه العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٨).

وقال العلامة الألباني في تعليقه على قول الطحاوي: "ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين". قال رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: هذا هو اسمه في القرآن، وأما تسميته بـ"عزرائيل" كما هو الشائع بين الناس فلا أصل له، وإنما هو من الإسرائيليات.اهـ.

وقال العلامة الألباني في تحقيق كتاب التوحيد والعقائد الإسلامية (ص ٦٨): لقد أحسن المصنف صنعًا بإعراضه عن تسميه ملك الموت بـ «عزرائيل» فإن هذا الاسم على شهرته عند الناس ليس له أصل في الكتاب والسنة، وإنما هو من الإسرائيليات واسمه في القرآن والسنة «ملك الموت». قال الحافظ ابن كثير في "البداية " (١/ ٥٧): «وأما ملك الموت فليس بمصرح باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح، وقد جاء تسميته في بعض الآثار بـ (عزرائيل). والله أعلم».اهـ.

وقال العلامة العثيمين كما في فتاواه (٣/ ١٦١): (ملك الموت): وقد اشتهر أن اسمه (عزرائيل)، لكنه لم يصح، إنما ورد هذا في آثار إسرائيلية لا توجب أن نؤمن بهذا الاسم، فنسمي من وكل بالموت بـ (ملك الموت) كما سماه الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون).

المسألة الثالثة: هل ملك الموت موكل بقبض كل ذي روح

أخبر سبحانه أن ملك الموت يقبض أرواح بني آدم، وأما أرواح البهائم والطير، فلم يرد فيها نص من الكتاب أو السنة الصحيحة -فيما نعلم- وإنما ورد في ذلك أحاديث لا تصح، منها حديث (آجال البهائم كلها من القمل والبراغيث والجراد والخيل والبغال كلها والبقر وغير ذلك، آجالها في التسبيح، فإذا انقضى

تسبيحها قبض الله أرواحها، وليس إلى ملك الموت من ذلك شيء)[١].

وحديث (.... يا محمد! لو أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو أذن بقبضها)[٢].

وقد اختلف أهل العلم في هذه المسألة على أقوال.

الأول: ذهب أكثر أهل العلم إلى أن ملك الموت هو الذي يقبض أرواح الجميع.

قال القرطبي في التفسير (١٤/ ص٩٣): ذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي قال حدثني أبو محمد الحسن بن محمد الخلال قال حدثنا

(١) أخرجه بنحوه العقيلى (٤/ ٣٢١، ترجمة ١٩٢٣ الوليد بن موسى الدمشقى)، وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٧٣٥ رقم ١٢١٠)، والديلمى في مسند الفردوس (١/ ٤١٨، رقم ١٦٩٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧/ ٩١٠ - ٩١١)، وابن الجوزى فى الموضوعات (٣/ ٥٢٤، رقم ١٧٥٠). والحديث قال عنه ابن الجوزي: هذا حديث موضوع، والمتهم به الوليد، يعنى ابن موسى الدمشقى، وقال الذهبي في ترتيب الموضوعات (٣٠٠): فيه الوليد بن موسى الدمشقي واه، وقال الحافظ فى اللسان (٦/ ٢٢٧، ترجمة ٨٠٧): منكر جدا، وقال الشوكانى فى الفوائد المجموعة (ص٢٧١): موضوع، وقال العقيلي: لا أصل له من حديث الأوزاعي ولا غيره، وأقره ابن عساكر، وقال الألباني في الضعيفة (١٦٩٣، ٦١١٤): موضوع، وجعجع حوله السيوطي في " اللآلىء " (٢/ ٤٢١) دون طائل، وإن تبعه ابن عراق (٢/ ٣٦٦)، فإن العقيلي ومن وافقه، أعلم منه بهذا الفن وأكثر.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٢٢٠ رقم ٤١٨٨) والبزار في مسنده (٧٨٤) كشف الأستار، وابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى (٤/ ٢٥١، رقم ٢٢٥٤)، والحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٥٢٠) وقال: لا يصح، والمتهم به عمرو بن شمر، وقال الحافظ في الإصابة (٣/ ٩٣): فيه عمرو بن شمر متروك، وقال في تحفة النبلاء (٨٧): فيه عمرو بن شمر وهو ضعيف جدا، مع إرسال الحديث، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٦٤١٠): موضوع.

أبو محمد عبد الله بن عثمان الصفار قال حدثنا أبو بكر حامد المصري قال حدثنا يحيى بن أيوب العلاف قال حدثنا سليمان بن مهير الكلابي قال حضرت مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأتاه رجل فسأله أبا عبد الله البراغيث أملك الموت يقبض أرواحها قال فأطرق مالك طويلا ثم قال ألها أنفس قال نعم قال ملك الموت يقبض أرواحها الله يتوفى الأنفس حين موتها.اهـ.

وقال الآلوسي قال في روح المعاني (٢١/ ١٢٦): (والذي ذهب إليه الجمهور أن ملك الموت لمن يعقل وما لا يعقل من الحيوان واحد وهو عزرائيل ومعناه عبد الله فيما قيل نعم له أعوان كما ذكرنا.اهـ.

وزعم ابن عجيبة في البحر المديد (٥/ ٥٨٧): أن مذهب أهل السُنَّة قاطبة: أن ملك الموت هو الّذي يقبض جميع الأرواح، من بني آدم والبهائِم وسائر الحيوانات.اهـ.

القول الثاني: وقال بعضهم: إن الله يتوفاها بنفسه، فيعدم حياتها.

القول الثالث: قال السيوطي في شرح الصدور (ص٥١): ثم رأيت جويبر أخرج في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس قال: وكل ملك الموت بقبض أرواح الآدميين فهو الذي يقبض أرواحهم وملك في الجن وملك في الشياطين وملك في الطير والوحوش والسباع والخشاش والحيتان والنمل فهم أربعة أملاك) والله أعلم بصحة هذا عنه!!.اهـ. قلت إسناده ضعيف جدا لأن جويبر متروك.

وقد اعتبر بعض أهل العلم البحث في مثل هذا تكلفا، ففي مسائل إسحاق (ص٤٨٣٩، رقم ٣٥٣٤): قال إسحاق بن منصور قال: إسحاق بن راهويه: وأما قبض أرواح السباع والبهائم وسائر الدواب فإن بقية أخبرنا في حديث عن

ابن عباس أنه سئل عن أرواح البهائم من يقبضها فقال: ملك الموت وقد ذكر في حديث آخر (أنها أنفاس تخرج) وكل قد جاء. وليس على المتعلم في مثل هذا أو شبهه مضرة، إلا أن يكون سقط عليه، بل يؤدي ما سمع كما سمع، فأما أن يحكم بأمر ليس بمجمع عليه، فليس ذلك له.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاء الباب المفتوح (١٤٦/ ١١): هل ملك الموت موكل بقبض أرواح الحيوانات؟

فأجاب: ما رأيك إذا قلت: إن ملك الموت موكل بقبض أرواح الحيوانات أو غير موكل، ما الفائدة من هذا؟! هل سأل الصحابة عنه الرسول ﷺ، هم أحرص منا على العلم، والرسول أقدر منا على الإجابة، ومع ذلك ما سألوا، إنما قال الله ﷻ: (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم) السجدة/ ١١، موكل بقبض أرواح بني آدم، أما غير أرواح بني آدم لم يثبت، الله أعلم.

ولكننا أهم شيء في جواب هذا السؤال أن الإنسان لا يتنطع، قال النبي ﷺ: (هلك المتنطعون) فلا تسأل عن شيء ليس فيه فائدة، والله لو كانت فيه فائدة بعلمنا أن ملك الموت يقبض أرواح الحيوانات الأخرى لبينها الله سبحانه وتعالى، إما في القرآن أو السنة، أو أن الله يقيض من يسأل الرسول عن هذا، ولهذا كان الصحابة يفرحون أن يأتي أعرابي من البادية يسأل عن شيء ربما يستحون أن يسألوا الرسول عنه.

الحاصل يا أخي أنت ومن يسمع أقول: إن التعمق في هذه الأمور خطأ؛ لأن الرسول قال: (هلك المتنطعون) ما قالها مرة: (هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون) ثلاث مرات، في مثل هذه الأمور الغيبية خذ ما ثبت ودع ما لم يذكر... فعلينا يا إخواني! أن نأخذ من مسائل الغيب ما ثبت

عندنا، والباقي نسكت عنه، لو كلفنا به أو كان لنا مصلحة في معرفته لبينه الله، قال الله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) النحل/ ٤٤، فالرسول ﷺ ما ترك شيئا نحتاجه إلا بينه".

المسألة الرابعة: لماذا فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت عليه السلام

ثبت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا عند البخاري (١٣٣٩، ٣٤٠٧)، ومسلم (٢٣٧٢) قال (أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فقال أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت قال فرد الله إليه عينه وقال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة قال أي رب ثم مه؟ قال ثم الموت قال فالآن فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر فقال رسول الله ﷺ فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر).

والحديث ثابت كما ترى، وقد أنكره بعض المبتدعة.

وفي مسائل الكوسج (٣٢٩٠) سئل أحمد عن بعض الأحاديث... منها هذا الحديث، فقال أحمد كل هذا صحيح، وقال إسحاق بن راهويه: كل هذا صحيح، ولا ينكره إلا مبتدع، أو ضعيف الرأي.اهـ.

قال بعض أهل العلم: إن الله لم يبعث ملك الموت لموسى، وهو يريد قبض روحه حينئذٍ، وإنّما بعثه إليه اختبارًا، فلطمه موسى عليه السلام لأنه رأى آدميًا داخل داره بغير إذنه، ولم يعلم أنه ملك الموت، فقد جاء في رواية (كان ملك الموت يأتي الناس عيانًا فأتى موسى فلطمه...)، وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط في صورة البشر فلم يعرفاهم ابتداء، وقد أباح الشارع فقوء عين الناظر في دار المسلم بغير إذنه، كما جاء في الحديث: (من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم حل

لهم أن يفقؤوا عينه)، وعلى فرض أنه عرفه فلا دليل على مشروعية القصاص بين الملائكة والبشر، ولا دليل على أن ملك الموت طلب القصاص من موسى فلم يقتص له، ثم رد الله عين ملك الموت ليعلم موسى أنه جاءه من عند الله فلهذا استسلم حينئذ.

ونقل النووي في المنهاج (١٥/ ١٢٩) أنه لا يمتنع أن يأذن الله لموسى في هذه اللطمة امتحانًا للملطوم.

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٤٢): وقال غيره -أي غير النووي-: إنما لطمه؛ لأنه جاء لقبض روحه من قبل أن يخيره، لما ثبت أنه لم يقبض نبي حتى يخير، فلهذا لما خيره في المرة الثانية أذعن، قيل: وهذا أولى الأقوال بالصواب، وفيه نظر؛ لأنه يعود أصل السؤال، فيقال: لم أقدم ملك الموت على قبض نبي الله وأخل بالشرط؟ فيعود الجواب أن ذلك وقع امتحانًا، وزعم بعضهم أن معنى قوله (فقأ عينه) أي أبطل حجته، وهو مردود بقوله في نفس الحديث (فرد الله عينه)، وبقوله (لطمه وصكّه) وغير ذلك من قرائن السياق...، ورد الله إلى ملك الموت عينه البشرية؛ ليرجع إلى موسى على كمال الصورة، فيكون ذلك أقوى في اعتباره.اهـ.

وقال القرطبى في تفسيره (٦/ ١٣٢) واختلف العلماء فى تأويل لطم موسى عين الملك وفقئها على أقوال، منها: أنها كانت عينا متخيلة لا حقيقية، وهذا باطل، لأنه يؤدى إلى أن ما يراه الأنبياء من صور الملائكة لا حقيقة له، ومنها أنها كانت عينا معنوية، وإنما فقأها بالحجة. وهذا مجاز لا حقيقة، ومنها أنه عليه السلام لم يعرف ملك الموت، وإنما رأى رجلا دخل منزله بغير إذنه يريد نفسه، فدافع عن نفسه فلطم عينه ففقأها. وتجب المدافعة فى هذا بكل ممكن، وهذا

وجه حسن، لأنه حقيقة فى العين والصك. قاله الإمام أبو بكر بن خزيمة، غير أنه اعترض عليه بما فى الحديث، وهو أن ملك الموت لما رجع إلى الله تعالى قال: يا رب أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت، فلو لم يعرفه موسى لما صدق القول من ملك الموت. وأيضا قوله فى الرواية الأخرى: أجب ربك. يدل على تعريفه بنفسه. والله أعلم.

ومنها أن موسى عليه الصلاة والسلام كان سريع الغضب، إذا غضب طلع الدخان من قلنسوته ورفع شعر بدنه جبته، وسرعة غضبه كانت سببا لصكه ملك الموت. قال ابن العربى: وهذا كما ترى، فإن الأنبياء معصومون من أن يقع منهم ابتداء مثل هذا فى الرضا والغضب.

ومنها -وهو الصحيح من هذه الأقوال -أن موسى عليه الصلاة والسلام عرف ملك الموت، وأنه جاء ليقبض روحه، لكنه جاء مجيء الجازم بأنه قد أمر بقبض روحه من غير تخيير، وعند موسى ما قد نص عليه نبينا محمد ﷺ من "أن الله لا يقبض روح نبى حتى يخيره" فلما جاء على غير هذا الوجه الذى علم به، بادر بشهامته وقوة نفسه إلى أدبه، فلطمه ففقأ عينه امتحانا لملك الموت، إذ لم يصرح له بالتخيير. ومما يدل على صحة هذا أنه لما رجع إليه ملك الموت فخيره بين الحياة والموت اختار الموت واستسلم، والله بغيبه أحكم وأعلم، هذا أصح ما قيل فى وفاة موسى عليه السلام، وقد ذكر المفسرون فى ذلك قصصا وأخبارا الله أعلم بصحتها، وفى الصحيح غنية عنها.اهـ.

وقال العلامة الألباني الصحيحة (٧/ ٢/ ٨٢٦ - ٨٣٥): هذا الحديث من الأحاديث الصحيحة المشهورة التي أخرجها الشيخان من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه، وتلقته الأمة بالقبول، وقد جمعت ألفاظها والزيادات التي وقعت فيها،

وسقتها لك سياقًا واحدًا كما ترى؛ لتأخذ القصة كاملة بجميع فوائدها المتفرقة في بطون مصادرها، الأمر الذي يساعدك على فهمها فهمًا صحيحًا، لا إشكال فيه ولا شبهة، فتسلِّم لقول رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- تسليمًا.

واعلم أن هذا الحديث الصحيح جدًّا مما أنكره بعض ذوي القلوب المريضة من المبتدعة- فضلًا عن الزنادقة- قديمًا وحديثًا، وقد رد عليهم العلماء- على مر العصور- بما يشفي ويكفي من كان راغبًا السلامة في دينه وعقيدته؛ كابن خزيمة، وابن حبان، والبيهقي، والبغوي، والنووي، والعسقلاني، وغيرهم.

وممن أنكره من المعاصرين: الشيخ الغزالي في كتابه "السنة.. "، بل وطعن في الذين دافعوا عن الحديث " فقال (ص ٢٩): "وهو دفاع تافه لا يساغ "!

وهكذا؛ فالرجل ماضٍ في غيّه، والطعن في السنة والذابين عنها بمجرد عقله (الكبير!). ولست أدري- والله- كيف يعقل هذا الرجل- إذا افترضنا فيه الإيمان والعقل-! كيف يدخل في عقله أن يكون هؤلاء الأئمة الأجلة من محدِّثين وفقهاء - من الإمام البخاري إلى الإمام العسقلاني- على خطأ في تصحيحهم هذا الحديث، ويكون هو وحده- صاحب العقل الكبير! - مصيبًا في تضعيفه إياه ورده عليهم؟!

ثم هو لا يكتفي بهذا! بل يخادع القراء ويدلس عليهم، ويوهمهم أنه مع الأئمة لا يخالفهم، فيقول بين يدي إنكاره لهذا الحديث وغيره كالذي قبله (ص٢٦):

"لا خلاف بين المسلمين في العمل بما صحت نسبته لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وفق أصول الاستدلال التي وضعها الأئمة، وانتهت إليها

الأمة، إنما ينشأ الخلاف حول صدق هذه النسبة أو بطلانها، وهو خلاف لا بد من حسمه، ولا بد من رفض الافتعال أو التكلف فيه، فإذا استجمع الخبر المروي شروط الصحة المقررة بين العلماء فلا معنى لرفضه، وإذا وقع خلاف محترم في توفر هذه الشروط أصبح في الأمر سعة "! هذا كلامه، فهل تجاوب معه؟ كلا ثم كلا؛ فإن الحديث لا خلاف في صحته بين العلماء، وله ثلاثة طرق صحيحة كما تقدم، فكيف تملص من كلامه المذكور؟! لقد دلس على القراء وأوهم أن الحديث مختلف في صحته؛ فقال (ص ٢٧): "وقد جادل البعض في صحته "!

ويعني: أن الحديث صار من القسم الذي فيه سعة للخلاف! فنقول له:

أولًا: هل الخلاف الذي توهمه "خلاف محترم " أم هو خلاف ساقط الاعتبار؟! لأن المخالف ليس من العلماء المحترمين!! ولذلك لم تتجرأ على تسميته! ولعله من الخوارج أو الشيعة الذين يطعنون في أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وبخاصة راوي هذا الحديث (أبي هريرة) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وثانيًا: يحتمل أن يكون المجادِل الذي أشرتَ إليه هو أنت، وحينئذٍ فبالأولى أن يكون خلافك ساقط الاعتبار، كما هو ظاهر كالشمس في رائعة النهار! ثم قال: "إن الحديث صحيح السند؛ لكن متنه يثير الريبة؛ إذ يفيد أن موسى يكره الموت ولا يحب لقاء الله... " إلى آخر هرائه! فأقول: بمثل هذا الفهم المنكوس يرد هذا الرجل أحاديث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-!! ولا يكتفي بذلك، بل ويرد على العلماء كافة الذين فهموه وشرحوه شرحًا صحيحًا، وردوا على أمثاله من أهل الأهواء الذين يسيئون فهم الأحاديث ثم يردونها، وإنما هم في الواقع يردون جهلهم، وهي سالمة منه والحمد لله، وها هو

المثال؛ فإن الحديث صريح بخلاف ما نسب إلى موسى عليه السلام، ألا وهو قوله عليه السلام: "فالآن من قريب". فتعامى الرجل عنه، وتشبث باللطم المذكور في أوله، ولم ينظر إلى نهاية القصة، فمثله كمثل من يَرُدُّ قوله تعالى: {فويل للمصلين} بزعم أنه يخالف الآيات الآمرة بالصلاة، ولا ينظر إلى ما بعده: {الذين هم عن صلاتهم ساهون} هذا من جهة.

ومن جهة أخرى؛ فإن الرجل بنى رَدَّهُ للحديث على زعمه أن موسى عليه السلام كان عارفًا بملك الموت حين لطمه! وهذا من تمام جهله وإعراضه عن كلام العلماء الذي نقله (ص ٢٨): "أن موسى لم يعلم أنه ملك من عند الله، وظن أنه رجل قصده يريد قتله، فدافعه عنه، فأدت المدافعة إلى فقءِ عينه".

ومع أن هذا الكلام يدل عليه تمام القصة كما قدمتُ، ويؤكده قوله في أول الحديث: "أن ملك الموت كان يأتي الناس عيانًا"،أي: في صورة البشر، وفقءِ عينه وردها إليه مما يقوي ذلك.

أقول: مع هذا كله، استكبر الرجل ولم يرد على علماء الأمة إلا بقوله الذي لا يعجز عن مثله أيُّ مُبطِلٍ غريق في الضلال: "نقول نحن (!): هذا الدفاع كله خفيف الوزن، وهو دفاع تافه لا يساغ "! وإن من ضلال الرجل وجهله قوله (ص ٢٧): "ثم، هل الملائكة تعرض لهم العاهات التي تعرض للبشر من عَمَى أو عَوَر؟! ذاك بعيد"! فأقول: وهذا من الحجة عليك، الدالة على قلة فهمك؛ فإن هذا الذي استبعدتهُ مما جعل العلماء يقولون في دفاعهم: إن موسى لم يعلم أنه ملك، أفما آن لك أن تعقل؟!! ثم ختم ضلاله في هذا الحديث وطعنه فيه بقوله: "والعلة في المتن يبصرها المحققون (!) وتخفى على أصحاب الفكر السطحي "! فيا له من مغرور أهلكه العجب لقد جعل! نفسه من المحققين،

وعلماء الأمة من "أصحاب الفكر السطحي "! والحقيقة أنه هو العلة؛ لجهله وقلة فهمه إن لم يكن فيه ما هو أكثر من ذلك مما أشار إليه الكفار وهم يعذَّبون في النار: {لو كنا نسمعُ أو نعقِلُ ما كنا في أصحاب السَّعير} ؛ نسأل الله حسن الخاتمة والوفاة على سبيل المؤمنين.

وأرى من تمام الفائدة أن أنقل إلى القراء الكرام كلام إمامين من أئمة المسلمين وحفاظ الحديث، فيه بيان الحكمة من تحديثه -صلى الله عليه وآله وسلم- بهذا الحديث، قال ابن حبان عقب الحديث: "إن الله جل وعلا بعث رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- معلمًا لِخلقِهِ، فأنزله موضع الإبانة عن مراده، فبلَّغ -صلى الله عليه وآله وسلم- رسالته، وبيّن عن آياته بألفاظ مجملة ومفسرة، عقلها عنه أصحابه أو بعضهم، وهذا الخبر من الأخبار التي يدرك معناه من لم يُحرَمِ التوفيق لإصابة الحق، وذاك أن الله جل وعلا أرسل ملك الموت إلى موسى رسالة ابتلاء واختبار، وأمره أن يقول له: "أجب ربك ": أمر اختبار وابتلاء، لا أمرًا يريد الله جل وعلا إمضاءه؛ كما أمر خليله صلى الله على نبينا وعليه بذبح ابنه أمر اختبار وابتلاء، دون الأمر الذي أراد الله جل وعلا إمضاءه، فلما عزم على ذبح ابنه (وتلّه للجبين)؛ فداه بالذِّبح العظيم.

وقد بعث الله جل وعلا الملائكة إلى رسله في صور لا يعرفونها؛ كدخول الملائكة على رسوله إبراهيم ولم يعرفهم؛ حتى أوجس منهم خيفة، وكمجيء جبريل إلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وسؤاله إياه عن الإيمان والإسلام، فلم يعرفه المصطفى حتى ولّى.

فكان مجيء ملك الموت إلى موسى على غير الصورة التي كان يعرفه موسى عليه السلام عليها، وكان موسى غيورًا، فرأى في داره رجلًا لم يعرفه، فشال يده

فلطمه، فأتت لطمته على فقء عينه التي في الصورة التي تصور بها، لا الصورة التي خلَقَهُ اللهُ عليها، ولما كان المصرح عن نبينا في خبر ابن عباس حيث قال: "أمَّني جبريلُ عند البيت مرتين... " فذكر الخبر، وقال في آخره: "هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك "[١]، كان في هذا الخبر البيانُ الواضح: أن بعض شرائعنا قد تتفق ببعض شرائع من قبلنا مِن الأمم.

ولما كان من شريعتنا أن من فقأ عين الداخل دارهُ بغير إذنه، أو الناظر إلى بيته بغير أمره، من غير جناح على فاعله، ولا حرج على مرتكبه، للأخبار الواردة فيه، التي أمليناها في غير موضع من كتبنا[٢] ؛ كان جائزًا اتفاق هذه الشريعة بشريعة موسى بإسقاط الحرج عمّن فقأ عين الداخل داره بغير إذنه، فكان استعمال موسى هذا الفعل مباحًا له، ولا حرج عليه في فعله.

فلما رجع ملك الموت إلى ربه، وأخبره بما كان من موسى فيه؛ أمره ثانيًا بأمر آخر أمر اختبار وابتلاء كما ذكرنا قبل، إذ قال الله له: "قل له: إن شئت، فضع يدك على متن ثور، فلك بكل ما غطت يدك بكل شعرة سنة"، فلما علم موسى كليم الله صلى الله على نبينا وعليه أنه ملك الموت، وأنه جاء بالرسالة من عند الله، طابت نفسه بالموت ولم يستمهل، وقال: "فالآن " فلو كانت المرة الأولى عرفه موسى أنه ملك الموت، لاستعمل ما استعمل في المرة الأخرى عند تيقنه وعلمه به، ضدَّ قول من زعم: "أن أصحاب الحديث حمَّالة الحطب

---

(١) حديث حسن صحيح؛ كما قال الترمذي، وصححه جمع، وهو مخرج في "الإرواء" (١/ ٢٦٨)،و"صحيح أبي داود" (٤١٧)،وعزاه بعضهم لـ"صحيح ابن حبان"، فوهم!.

(٢) من ذلك كتابه "الصحيح" (٧/ ٥٩٧ - ٥٩٨ - الإحسان) من حديث أبي هريرة بألفاظ متقاربة، بعضها في"الصحيحين"،وهو مخرج في "الإرواء" (١٤٢٨و ٢٢٢٧).

ورعاة الليل، يجمعون ما لا ينتفعون به، ويروون ما لا يؤجرون عليه، ويقولون بما يبطله الإسلام "، جهلًا منه لمعاني الأخبار، وترك التفقه في الآثار، معتمدًا على رأيه المنكوس، وقياسه المعكوس".

قلت: ما أشبه الليلة بالبارحة! فهذا الزاعم الطاعن في أصحاب الحديث هو سلف الغزالي في طعنه فيهم، وفي أحاديثهم الصحيحة، وما وصفه به ابن حبان من الجهل بمعاني الآثار، يشبه تمامًا جهل الغزالي بها، وكتابه المتقدم ذكره والنقل عنه مشحون بطعنه في الأحاديث الصحيحة التي لا خلاف عند أهل العلم في صحتها، وقد ختم الكتاب بإنكاره عدة أحاديث صحيحة في إثبات القدر؛ لأنه فهم منها- بفهمه المعكوس والمنكوس- أنها تفيد الجبر، وتنفي عن الإنسان الاختيار الذي به كُلِّفَ، وترتب عليه الثواب والعقاب، مشاركًا في هذا الفهم العامة الجهلة، ولكنه فرَّ من فهمه الخاطئ إلى ما هو مثله أو أسوأ منه، ألا وهو إنكاره القدر والأحاديث الدالة عليها، وألحق نفسه بالمعتزلة!! وقد قام بواجب الرد عليه كثير من العلماء والكتَّاب، وكشفوا للناس ما فيه من زيغ وضلال في الحديث والعقيدة والفقه، وكان أطولهم نفسًا، وأكثرهم إفادة، وأهدأهم بالًا: الأخ الفاضل سلمان العودة في كتابه "حوار هادئ مع محمد الغزالي"،فنِعمَ الردُّ هو؛ لولا تساهل وتسامح لا يستحقه الغزالي تجاه طعناته العديدة مع أئمة الحديث والفقه، وإن كان الأخ الفاضل قد كشف القناع عنها بأدبه الناعم!

والحافظ الآخر الذي سبقت الإشارة إليه: هو الإمام البغوي؛ فإنه بعد أن ذكر أن الحديث: "متفق على صحته "؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث يجب على المرء المسلم الإيمان به على ما جاء به من غير أن يعتبره بما جرى عليه عُرف

البشرِ، فيقع في الارتياب؛ لأنه أمرٌ مصدره عن قدرة الله سبحانه وتعالى وحُكمه، وهو مجادلة بين ملك كريم، ونبي كليم، كلُّ واحد منهما مخصوص بصفة خرج بها عن حكم عوامِّ البشر، ومجاري عاداتهم في المعنى الذي خُصَّ به، فلا يعتبر حالهما بحال غيرهما، قد اصطفى الله سبحانه وتعالى موسى برسالاته وبكلامه، وأيده بالآيات الظاهرة، والمعجزات الباهرة، كاليد البيضاء، والعصا، وانفلاق البحر، وغيرهما مما نطق به القرآن، ودلّت عليه الآثار، وكل ذلك إكرام من الله ﷻ أكرمه بها، فلما دنت وفاته- وهو بشرٌ يكره الموت طبعًا، ويجد ألمه حسًا-؛ لطف له بأن لم يفاجئه به بغتة، ولم يأمر الملك الموكل به أن يأخذه به قهرًا؛ لكن أرسله إليه منذرًا بالموت، وأمره بالتعرض له على سبيل الامتحان في صورة بشرٍ، فلما رآه موسى استنكر شأنه، واستوعر مكانه، فاحتجز منه دفعًا عن نفسه بما كان من صكه إياه، فأتى ذلك على عينه التي ركبت في الصورة البشرية التي جاءه فيها، دون الصورة الملكية التي هو مجبول عليها، وقد كان في طبع موسى -صلى الله عليه وآله وسلم- حمِيَّةٌ وحِدّةٌ على ما قص الله علينا من أمره في كتابه من وكزه القبطي، وإلقائه الألواح، وأخذه برأس أخيه يجره إليه.

وروي أنه كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته نارًا، وقد جرت سنة الدين بدفع من قصدك بسوء، كما جاء في الحديث: «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم حلّ لهم أن يفقأوا عينه»، فلما نظر موسى إلى شخص في صورة بشر هجم عليه يُريد نفسه، ويقصد هلاكه، وهو لا يثبته، ولا يعرفه أنه رسول ربه؛ دفعه عن نفسه، فكان فيه ذهاب عينه، فلما عاد الملك إلى ربه، ردّ الله إليه عينه، وأعاده رسولًا إليه؛ ليعلم نبي الله عليه السلام- إذا رأى صحة عينه المفقوءة- أنه رسول الله بعثه لقبض

روحه، فاستسلم حينئذٍ لأمره، وطاب نفسًا بقضائه، وكلُّ ذلك رفق من الله ﷻ، ولطف منه في تسهيل ما لم يكن بد من لقائه، والانقياد لمورد قضائه، قال: وما أشبه معنى قوله:"ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن؛ يكره الموت... " بترديده رسوله ملك الموت إلى نبيه موسى عليه السلام، فيما كرهه من نزول الموت به، وقد ذكر هذا المعنى أبو سليمان الخطابي في كتابه ردًا على من طعن في هذا الحديث وأمثاله من أهل البدع والملحدين أبادهم الله، وكفى المسلمين شرهم".اهـ.

وسئل العلامة الألباني أيضا كما في موسوعة العلامة الألباني (٨/ ٣٩): يقول السائل: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن موسى عليه السلام لطم عين ملك الموت فأعوره» سمعت أحد العلماء يضعف إخراج هذا الحديث، ويقول: إن رائحة الإسرائيلية لتفوح من هذا الحديث، فكيف نرد عليهم، وهل يجوز أن نسمي ملك الموت عزرائيل، وهل هناك رواية صحيحة على أن اسمه عزرائيل، وكيف يجوز لنبي أن يضرب ملكًا، مع العلم بأن ملك الموت شديد، وهل أذن الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام بذلك؟

فأجاب: هذا السؤال له شعبتان: الشعبة الأولى: تتعلق بحديث لطم موسى عليه السلام للملك حتى فقأ عينه.

والشعبة الأخرى: هي هل صح أن ملك الموت يسمى بعزرائيل كما هو شائع عند كثير من الناس، نجيب عن هذا الشق الثاني: لأن الجواب فيه مختصر لنعود إلى الجواب عن الشق الأول: لم يصح عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إطلاقًا تسمية ملك الموت بعزرائيل، فقد جاء في كثير من الأحاديث اسم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، هذا ثابت لكن تسمية ملك الموت بعزرائيل

فليس له أصل في السنة فضلًا عن القرآن الكريم.

نعود إلى الجواب عن الشق الأول من السؤال وهو حديث ملك الموت، وتضعيف من ضعفه من العلماء، بين يدي الجواب أريد أن أذكركم بقاعدة علمية معترف بها حتى عند من ليس مسلمًا، هذه القاعدة العلمية: هي أنه لا يجوز لمن كان جاهلًا بعلم أن يتكلم فيه؛ لأنه يخالف نصوصًا من الكتاب والسنة من ذلك قول ربنا تبارك وتعالى: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} (الإسراء:٣٦) فالذي يريد أن يتكلم في الطب مثلًا لا يجوز أن يتكلم إذا كان مفسرًا؛ لأن الطب ليس من عمله، كما أن هذا الطبيب المختص في مهنته لا يجوز أن يتكلم في التفسير أو في الفقه أو في غير ذلك؛ لأن هذا وذاك إذا تكلما في غير اختصاصهما فقد قفا ما لا علم له به، ويكون قد خاف النص القرآني السابق.

هذا أظن من الأمور التي يصح أن يذكر معه المثل العربي القديم: هذا أمر لا يختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان، أي: أنه لا يجوز أن يتكلم في علم ما إلا أهل الاختصاص، إذا كان هذا أمرًا مسلمًا وهو كذلك عدنا إلى هذا الحديث أو غيره، من الذي يتكلم فيه، آلطبيب مثلًا؟ الجواب طبعًا: لا، آلكيمائي مثلًا؟ الجواب: لا، أسئلة كثيرة كثيرة نقترب من الحقيقة، آلمفسر؟ الجواب: لا، آلفقيه؟ الجواب: لا، إذًا: من الذي يتكلم؟ إنما هو العالم بالحديث، وعلماء الحديث كانوا كما قيل.. كانوا إذا عدو قليلًا فصاروا اليوم أقل من القليل، ولذلك فلا يجوز لطلاب العلم أن يتورطوا بكلمة تنقل عن عالم لا نعرف هوية واختصاص هذا العالم إذا ما قال: الحديث الفلاني ضعيف، هذه قاعدة يجب أن نلتزمها دائمًا وأبدًا، ومن عجائب المصائب التي حلت في الأمة من الغفلة

بالقواعد العلمية المبثوثة في الكتاب والسنة أنهم يبتعدون عنها كل البعد، وإذا جاء دور ما يتعلق بما يخص أنفسهم تجدهم يحققون مثل ذلك النص القرآني الذي يلزم المسلمين أن يرجعوا إلى أهل الاختصاص، مثلًا إذا أصاب أحدنا أو أحد من يخصنا مرض ما فهو لا يذهب إلى أي طبيب وإنما قبل كل شيء يسأل عن المختص في ذاك المرض، ثم يتابع السؤال والبحث والتحقيق عن الطبيب الماهر المختص في ذلك المرض حينذاك يذهب إليه ويعرض نفسه أو حبيبه عليه، أما فيما يتعلق بالدين فأصبح الأمر فوضى لا نظام لها، ذلك أن الناس اليوم كلما رأوا إنسان يدندن حول بعض المسائل الفقهية أو حول بعض الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية ظنوا أنه عالم زمانه فيتوجهون في الأسئلة فيقعون في المحذور الذي جاء ذكره في الحديث الأول ألا وهو قوله عليه السلام: «قتلوه قاتلهم الله، ألا سألوا - أي: أهل العلم - فإنما شفاء العي السؤال»[1].

---

(١) قال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٥/ ١٧٣) عن هذا المتن: حسن، وهذا سند رجاله ثقات رجال الشيخين إلا أن فيه انقطاعا بين الأوزاعي وبين عطاء بن أبي رباح، وقال أبو حاتم وأبو زرعة فيما نقله عنهما ابن أبي حاتم في "علل الحديث" ١/ ٣٧: روى هذا الحديث ابن أبي العشرين، عن الأوزاعي، عن إسماعيل بن مسلم، عن عطاء، عن ابن عباس، وأفسد الحديث. قلنا: وقد رواه ابن ماجه من طريق ابن أبي العشرين هذا، فلم يذكر فيه إسماعيل بن مسلم- وهو أبو إسحاق المكي-، فإن صح ذكره فيه، فالإسناد ضعيف، والله تعالى أعلم.

وأخرجه الدارمي (٧٥٢)، والدارقطني ١/ ١٩٢ من طريق أبي المغيرة، بهذا الإسناد. وفي آخره عندهما: قال عطاء: بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "لو غسل جسده وترك رأسه حيث أصابه الجرح"، وهذا مرسل.

وأخرجه أبو داود (٣٣٧)، والدارقطني ١/ ١٩١ و١٩٢، والبيهقي ١/ ٢٢٧ من طرق عن الأوزاعي، به.

وأخرجه عبد الرزاق (٨٦٧)، ومن طريقه الدارقطني ١/ ١٩١ عن الأوزاعي، عن =

=

رجل، عن عطاء، به.
وأخرجه ابن ماجه (٥٧٢) من طريق عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين، والدارقطني ١/ ١٩١ من طريق أيوب بن سويد، وأبو نعيم في "الحلية" ٣/ ٣١٧، ٣١٨ من طريق محمد بن كثير، ثلاثتهم عن الأوزاعي، عن عطاء بن أبي رباح، به. قال أبونعيم: هذا حديث غريب، لا نحفظ هذه اللفظة من أحد من الصحابة إلا من حديث ابن عباس، ولا عنه إلا من رواية عطاء.
وأخرجه أبو يعلى (٢٤٢٠)، والدارقطني ١/ ١٩٠، والحاكم ١/ ١٧٨ من طريقين عن الهقل بن زياد، قال: سمعت الاوزاعي قال: قال عطاء: قال ابن عباس... الحديث.
وأخرجه الحاكم ١/ ١٧٨ من طريق بشر بن بكر، حدثني الأوزاعي، حدثنا عطاء بن أبي رباح أنه سمع عبد الله بن عباس. وبشر بن بكر- مع أنه ثقة- يغرب، وقد أعل الحاكم هذا إلاسناد بقوله: قد رواه الهقل بن زياد، وهو من أثبت أصحاب الاوزاعي، ولم يذكر سماع الأوزاعي من عطاء. ثم ساق الحديث السالف. وأخرجه الطبراني (١١٤٧٢) عن إسحاق بن إبراهيم الدبري، عن عبد الرزاق، عن الأوزاعي سمعته منه أو أخبرته عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس. وقال في آخره: "إلا يمموه؟".
وبعض من أخرجه من هؤلاء زاد فيه قول عطاء عن النبي ﷺ مرسلا، والذي أشرنا إليه في أول التخريج.
وأخرج ابن الجارود في "المنتقى" (١٢٨)، وابن خزيمة (٢٧٣)، وابن حبان (١٣١٤)، والحاكم ١/ ١٦٥، والبيهقي١/ ٢٢٦ من طريق الوليد بن عبيد الله بن أبي رباح، عن عطاء، عن ابن عباس: أن رجلا أجنب في شتاء، فسأل، فأمر بالغسل، فمات، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: "ما لهم قتلوه؟ قتلهم الله- ثلاثا-، قد جعل الله الصعيد- أو التيمم- طهورا". والوليد بن عبيد الله: هو ابن أخي عطاء بن أبي رباح، ترجمة ابن أبي حاتم ٩/ ٩، ونقل توثيقه عن يحيى بن معين، ونقل الذهبي في "الميزان" ٤/ ٣٤١ تضعيفه عن الدارقطني، وقد صحح له هذا الحديث ابن حبان وابن خزيمة والحاكم، ووافقه الذهبي.... وفي الباب عن الزبير بن خريق، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر نحو حديث ابن عباس عند أبي داود (٣٣٦)، والدارقطني ١/ ١٩٠، والبيهقي١/ ٢٢٧ - ٢٢٨، والبغوي (٣١٣)، والزبير بن خريق لين الحديث، وقد وقع فيه من الزيادة ما ليس في حديث ابن عباس، وهو المسح على الجبيرة. وعن علي مرفوعا: "إنما شفاء العي

=

بعد هذا أعود لأقول: أي إنسان تكلم في غير اختصاصه لا يجوز له ذلك، وبخاصة إلا تبين أن كلامه مخالف لأهل الاختصاص في العلم الذي تكلم هو فيه بغير علم، فحديث لطم موسى عليه السلام لملك الموت حديث أخرجه الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «جاء ملك الموت إلى موسى عليه الصلاة والسلام فقال له: أجب ربك» يعني: سلم لي نفسك وروحك، فما كان من موسى عليه السلام إلا أن لطمه تلك اللطمة ففقأ عينه، فرجع الملك ملك الموت إلى ربه، قال: يا رب! أرسلتني إلى عبد يكره الموت، فقال الله له: عد إليه وقل له: إن ربك يقول لك: ضع يدك على جلد ثور فلك من العمر من السنين بعدد كل الشعرات التي تكون تحت أصابعك، فرجع ملك الموت إلى موسى عليه السلام وقال له ما أمره به ربه، قال موسى: وماذا بعد ذلك؟ قال الموت، قال: فالآن، فقبض ملك الموت روح موسى عليه السلام في تلك اللحظة. قال نبينا صلوات الله وسلامه عليه: «ولو كنت ثمة» أي: حيث قبض ملك الموت روح موسى «لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر» هذا نص الحديث في الصحيحين.

الجواب الآن: يحتاج إلى أن أتكلم في أكثر من مسألة، المسألة الأولى:

=

السؤال" عند القضاعي في "مسند الشهاب" (١١٦٢)، وإسناده ضعيف انتهى. والحديث ضعفه كثير من العلماء، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٣/ ٣٢٨)، وضعفه العلامة الألباني في الأرواء (١/ ١٤٢)، ثم عاد وصحح منه في صحيح الجامع (٤٣٦٢، ٤٣٦٣) (قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال؟ إنما كان يكفيه أن يتيمم)، وضعف منه قوله (و يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده)، وضعفه الشيخ مشهور في طبعته (٣/ ٤٧٢).

يتبين بعد ورود هذا الحديث في الصحيحين أن ذلك الذي ضعفه هو الضعيف؛ ذلك لأنه تكلم بغير علم، وفي ظني أن هذا المضعف هو من أولئك الناس الكثيريين الذين يسلطون ويحكمون عقولهم إن لم أقل أهوائهم في الحكم على الأحاديث الصحيحة بأنها ضعيفة وربما قالوا إنها موضوعة، ما الدليل على ما زعموه من الضعف والوضع؟ هو تحكيمهم عقولهم، واتباعهم لأهوائهم: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ} [المؤمنون:٧١] ذلك لأن الإيمان ضعف في صدور كثير من الناس ولو ممن قد ينتمون إلى العلم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: لم يدرسوا السنة دراسةً واعيةً مستوعبة لطرق الحديث التي من عادتها أنها تزيل ما قد يقع في نفوس البعض من إشكال.

نحن الآن بعد أن بينا أن الذي ضعف الحديث هو الضعيف؛ لأنه خالف أولًا: الإمامين الذين وضعا كتابين يسميان بالصحيحين هما باتفاق علماء السنة أصح كتاب بعد كتاب الله تبارك وتعالى، صحيح البخاري وصحيح مسلم، وليس هذا فقط بل تلقت الأمة ذلك بالقبول، ولذلك كان كل حديث جاء في الصحيحين لم يتكلم أحد من علماء الحديث الذين كانوا في مرتبة البخاري ومسلم بشيء من النقد، فهذه الأحاديث كلها ثابتة يقينًا عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، إذًا: فلا نقيم وزنًا لمن يضعف مثل هذا الحديث مهما كان شأنه ومهما ظن الناس فيه علمًا.

أما الإشكال الذي يصوره السؤال: أن ملك الموت كيف يضربه موسى عليه السلام؟ الجواب: وهذا فيه إشارة لما قلته أن هؤلاء الناس لا يدرسون السنة، الجواب: في رواية في مسند الإمام أحمد بسند صحيح قال: كان ملك الموت يأتي الناس على صورة البشر، فإذًا: ملك الموت لما جاء إلى موسى فقال له:

أجب ربك، ما جاءه بالعلامة التي تجعل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ينتبه إلى أن هذا الذي يقول له: أسلم روحك هو ملك مرسل من الله، فهو جاءه بصورة بشر، وأي إنسان منا لو جاءه شخص ويقول: سلم لي روحك، فماذا سيكون موقفه منه؟ سيكون موقف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالذات؛ لأنه يتعدى على وظيفة لملك كريم لا يشاركه فيه الملائكة الآخرون، فكيف إنسان يتقدم إلى بشر مثله ويقول: أسلم روحك، فما كان منه إلا صفعه ففقأ عينه، هذا أمر طبيعي والشبهة تطيح وتزول من أصلها وفصلها حينما نتذكر هذه الرواية الأخرى أن ملك الموت كان يأتي الناس عيانًا بصورة البشر، بذلك ترون في تتمة الحديث أن ملك الموت لما شكا أمره إلى الله وقال له: أرسلتني إلى عبد يكره الموت، أعطاه علامة وقال له: راجع إلى موسى وقل له: إن ربك يأمرك أن تضع يدك إلى آخر الحديث على جلد ثور فلك من العمر بكل شعرة تحت يدك، لما رجع الملك بهذا البرهان إلى موسى عليه الصلاة والسلام قال له: وماذا بعد ذلك؟ قال: الموت، قال: إذًا فالآن قبض روحه تلك الساعة، لماذا استسلم ثانيًا ولم يستسلم أولًا؟ وضح الجواب، أولًا كان الطالب بشرًا من البشر، فكأنه يهزأ، وما كان موسى يعلم أنه ملك من الله مرسل، لذلك ضربه فلما جاء الملك ومعه هذه العلامة من الله عَزَّ وَجَلَّ واطمئن موسى إليها وسأله ذلك السؤال، وأجابه: ما بعد ذلك إلا الموت، قال: فالآن، إذًا: موسى لا يكره الموت ولكنه فقأ عين ذلك الرجل على ظنه أنه بشر من البشر.

فحينما ننظر إلى الحديث بتفسير هذه الرواية التي رواها الإمام أحمد في المسند يطيح الإشكال يبطل قول من قال: أنه ربما يكون هذا الحديث من الإسرائيليات، هذا كلام باطل؛ لأنه حين يقال الراوية الفلانية أو الحديث

الفلاني هو من الإسرائيليات فذلك يعني أنه مما كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يتحدثون بينهم ببعض الروايات التي تلقوها عن أسلافهم، وفيها الحق وفيها الباطل لذلك قال عليه السلام: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»(١) هذا هو معنى كون الشيء من الإسرائيليات، ولكن هناك تفصيل لا بد من ذكره لعلمي أن قليلًا ما يقرأ هذا التفصيل في كتب العلماء؛ الإسرائيليات نسبة إلى رواية قصص تتعلق ببني إسرائيل، تنقسم إلى قسمين: القسم الأول وهو الأكثر رواية وشيوعًا ما كان مرويًا كما ذكرنا آنفًا عن أهل الكتاب، وهذه روايات كثيرة وكثيرة جدًا كقصة مثلًا هاروت وماروت أنه ما كانا ملكين مقربين عند الله تبارك وتعالى، وأن الله عز وجل لما قال للملائكة: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٣٠] قال: الله أراد أن يمتحن هؤلاء الملائكة الذين قالوا: أتجعل فيها، قال: اختاروا ملكين منكم لأنزلهما إلى الأرض ولأبتليهم، فاختار هاروت وماروت، قصة طويلة خلاصتها: أن الله عز وجل كساهم ثوب البشرية فافتتنوا بامرأة فراودها عن نفسها فامتنعت حتى يقتلا غلامًا هناك، فامتنعا لأنهم يعلمون أن هذا حرام، فعرضت عليهم الخمر فشربا الخمر فسكرا وقتلا الغلام وفجرا بالمرأة، فعاقبهم الله

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٦ رقم ١٧٢٦٤)، وأبو داود (٣/ ٣١٨، رقم ٣٦٤٤)، والطبرانى (٢٢/ ٣٤٩ رقم ٨٧٤)، والبيهقى (٢/ ١٠، رقم ٢٠٧١)، والبغوى فى تفسيره (٣/ ٤٧٠)، وابن حبان (١٤/ ١٥١، رقم ٦٢٥٧) وغيرهم والحديث صححه ابن حبان، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ١٧٤): إسناده جيد، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده حسن، أما العلامة الألباني فقد ضعفه في ضعيف الجامع (٥٠٥٢) ثم عاد وحسنه في الصحيحة (٢٨٠٠).

تبارك وتعالى في الدنيا بأن علقهم في بئر منكسين رؤوسهم إلى أسفل وأرجلهم إلى أعلى ويخرج الدخان من أسفل ويدخل في مناخيرهم ويخرج من أدبارهم.

هذه قصة تروى في تفسير الآية السابقة، هذه من الإسرائيليات، وهي مما تنافي قول الله ﷻ في الملائكة في قوله تبارك وتعالى: {عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} (التحريم:٦) فهذه القصة تنافي مثل هذه الآية التي تصرح أن الملائكة معصومون لا يمكن أن يتصور أنهم يزنون ويقتلون النفس بغير حق إلى آخر ما جاء في تلك الإسرائيليات.

هذا النوع من الإسرائيليات حينما يقال هذا الخبر أو هذه الرواية من الإسرائيليات.

هناك قسم آخر ولو أنه قليل ولكن هذا يجب ألا يساق مساق القسم الأول: هذا القسم الآخر أخبار يتحدث بها رسول الله عن بني إسرائيل، هذه إسرائيليات صحيحة؛ لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حدث بها وليست من قبيل ما يرويه أهل الكتاب، والأمثلة في هذا كثيرة، ولا بأس أن نذكر بحديث واحد قاله عليه السلام: بينما رجل ممن قبلكم يمشي في فلاة من الأرض، إذ سمع صوتًا من السحاب يقول: اسق أرض فلان، فتعجب الرجل الذي يمشي في الأرض وتوجه مع السحاب حتى رأى السحاب يفرغ مشحونه من المطر في بستان، فأطل هذا الرجل فرأى صاحب البستان يعمل في أرضه، فسلم عليه وكأنه سماه بالاسم الذي سمعه من السماء فتعجب الرجل وقال له: ما علمك؟ فقص عليه القصة أنه سمع هذا الاسم يخاطب به الملائكة السحاب ويأمرون السحاب أن ينطلق إلى هذه الأرض التي أنت تعمل فيها، فبم ذاك؟ لا أعلم أمرًا أستحق من الله هذا الإكرام سوى أنني أملك هذه الأرض، فأزرعها ثم أحصدها، فأجعل

حصيدها ثلاثة أثلاث: ثلث أعيده إلى الأرض، وثلث أنفقه على نفسي وعيالي، وثلث آخر أتصدق به على الفقراء الذين حولي، فقال له الرجل: فهو هذا، يعني: بقيامك بهذه الواجبات استحققت هذه العناية الإلهية حيث سخر لك السحاب.

هذا حديث يتحدث عن بني إسرائيل، لكن من الذي حدث به؟ هو رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- الموصوف في القرآن الكريم بأنه لا ينطق الهوى.. {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (النجم:٤) فإذًا هذا الحديث ما دام جاء في الصحيحين، وعن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: وذكر الحديث، فإذًا: لا يجوز لنا أن نقول: هذا من الإسرائيليات بالمعنى، وإذا كان ولا بد فنقيد ذلك بأنه من الإسرائيليات لكن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هو الذي تكلم به.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في شرح لمعة الإعتقاد (٥/ ٥٢-مجموع الفتاوى): هذا الحديث ثابت في الصحيحين وإنما أثبته المؤلف في العقيدة لأن بعض المبتدعة أنكره معللا ذلك بأنه يمتنع أن موسى يلطم الملك. ونرد عليهم: بأن الملك أتى موسى بصورة إنسان لا يعرف موسى من هو؟ يطلب منه نفسه، فمقتضى الطبيعة البشرية أن يدافع المطلوب عن نفسه، ولو علم موسى أنه ملك لم يلطمه، ولذلك استسلم له في المرة الثانية حين جاء بما يدل أنه من عند الله، وهو إعطاؤه مهلة من السنين بقدر ما تحت يده من شعر ثور.

المسألة الخامسة: ما ورد في تخيير الرسل والأنبياء قبل الموت هل يشمل من قتل منهم أيضا أم لا

لقد صح عن النبي ﷺ أن كل نبي يخير عند موته بين الدنيا والآخرة، جاء ذلك في روايات عدة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

(كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيا أو يخير. فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: اللهم في الرفيق الأعلى. فقلت: إذا لا يجاورنا. فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح)[١].

وعنها رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة. وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحة شديدة، فسمعته يقول: (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) فعلمت أنه خير)[٢].

قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٣٧): قوله: (كنت أسمع أنه لا يموت نبي حتى يخير) ولم تصرح عائشة بذكر من سمعت ذلك منه في هذه الرواية، وصرحت بذلك في الرواية التي تليها من طريق الزهري عن عروة عنها قالت: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: (إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيى أو يخير) وهو شك من الراوي، هل قال يحيى، أو يخير.

وعند أحمد من طريق المطلب بن عبد الله عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يقول: (ما من نبي يقبض إلا يرى الثواب ثم يخير)

ولأحمد أيضا من حديث أبي مويهبة قال: قال لي رسول الله ﷺ: (إني أوتيت مفاتيح خزائن الأرض والخلد ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة فاخترت لقاء ربي والجنة)

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٣٧) ومسلم (٢٤٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٨٦).

وعند عبد الرزاق من مرسل طاوس رفعه: (خيرت بين أن أبقى حتى أرى ما يفتح على أمتي وبين التعجيل فاخترت التعجيل) انتهى.

وقال أيضا في نفس المصدر(١٠/ ١٣١): "هذه الحالة من خصائص الأنبياء أنه لا يقبض نبي حتى يخير بين البقاء في الدنيا وبين الموت. انتهى.

ولما كان تخيير الرسل والأنبياء قبل الموت من عالم الغيب الذي لم نطلع عليه إلا بواسطة الوحي الصحيح، لم يجز لنا أن نتكلم في تفاصيله بغير علم ولا هدى، بل يجب الوقوف عند حدود النصوص الواردة في هذا الموضوع، وهي نصوص عامة لم تستثن أحدا من الأنبياء، بل جاءت بصيغة تؤكد العموم، ففي الرواية الأولى بلفظ: (لم يقبض نبي قط)، وفي الرواية الثانية بلفظ: (ما من نبي يمرض)، فيظهر أنها تعم كل نبي، سواء مات ميتة طبيعية على فراشه، أو قتل شهيدا باعتداء المعتدين، هذا ما يمكننا قوله، ولا نستطيع تجاوز ذلك.

ولا يفوتنا التنبيه هنا على كثرة الكذب في هذا الموضوع، فقد رويت أحاديث كثيرة ضعيفة تذكر قصة استئذان ملك الموت على النبي ﷺ ليقبض روحه، وما دار من حوار طويل بينهما.

قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٢٥٦):" وقد ذكر الواقدي وغيره في الوفاة أخبارا كثيرة فيها نكارات وغرابة شديدة، أضربنا عن أكثرها صفحا لضعف أسانيدها، ونكارة متونها، ولا سيما ما يورده كثير من القصاص المتأخرين وغيرهم، فكثير منه موضوع لا محالة، وفي الأحاديث الصحيحة والحسنة المروية في الكتب المشهورة غنية عن الأكاذيب وما لا يعرف سنده، والله أعلم" انتهى.

وقال الشيخ محمد رشيد رضا في مجلة المنار " (١١/ ٣٥٢): "وأما

الجواب عن -استئذان ملك الموت على النبي ﷺ- فهو أن الحديث في ذلك لا يصح، ولا عبرة بسكوت بعض أهل السير عليه ، ولا بذكره في بعض الخطب التي قلما تحرى أصحابها الصحاح من السنن والآثار ، بل أولع أكثرهم بالواهيات والموضوعات" انتهى.

وسئل العلامة العثيمين بالنسبة لقصة وفاة النبي ﷺ، ذكرت بعض كتب التاريخ أن ملك الموت أتى النبي ﷺ يستأذنه على شكل أعرابي، ما صحة هذا الكلام ؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا غير صحيح...لم يأته ملك الموت ولم يستأذن منه، بل خطب ﷺ في آخر حياته خطبة وقال: (إن عبدا خيره الله تعالى بين الخلد في الدنيا ما شاء الله، وبين لقاء ربه، فاختار لقاء ربه) هكذا قال في آخر حياته، فبكى أبو بكر، فتعجب الناس كيف يبكي أبو بكر من هذه الكلمات، فكان النبي ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلم الناس برسول الله ﷺ، هذا الذي ورد، أما أن ملك الموت جاء يستأذنه فهذا غير صحيح " انتهى من "لقاء الباب المفتوح" (٢/ ٣٤٠).

المسألة السادسة : أي الملائكة تقبض روح المسلم العاصي المصر ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب

أولا: عامة النصوص الواردة في هذا الموضوع تقسم الناس إلى قسمين:

١- مؤمنون تتولى ملائكة الرحمة قبض أرواحهم، وترفعها إلى السماء، تحفها بعنايتها، وتتلقاها بالبشرى، وتناديها بأحب أسمائها، فترى من النعيم والسرور والحبور ما يسرها ويثبتها.

٢- كافرون ومنافقون تتولى ملائكة العذاب نزع أرواحهم، وتتلقاها بالشدة

والوعيد، تغلق في وجهها أبواب السماء، فتلقى في الأرض لتنال من الويل والعذاب جزاء ما كسبت في الدنيا من ظلم وكفر وعدوان.

وقد ذكر الله ﷻ ذلك في القرآن الكريم، فقال سبحانه وتعالى: {والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا} النازعات/ ١-٣.

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣١٢): "قال ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جبير، وأبو صالح، وأبو الضحى، والسدي: (والنازعات غرقا) الملائكة، يعنون حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعنف فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط، وهو قوله: (والناشطات نشطا) قاله ابن عباس.

وعن ابن عباس: (والنازعات) هي أنفس الكفار، تنزع ثم تنشط، ثم تغرق في النار. رواه ابن أبي حاتم" انتهى.

ثانيا: يبقى الخوف على المسلم العاصي، أو المسلم الفاسق -والمقصود هو المصر على كبائر الذنوب، أو الظالم المعتدي على الخلق ومات على ذلك-: بأي القسمين السابقين يلحق ؟ هل تقبض روحه ملائكة الرحمة ويلقى ما يلقاه المؤمنون، أم تقبضها ملائكة العذاب ويلقى ما يلقاه الكافرون ؟

هذا من عالم الغيب الذي لم نقف فيه على نصوص صريحة تجزم لنا بحقيقة الحال الذي سيؤول إليه أصحاب الكبائر.

وقد سئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٩/ ١٢٩): هل للمسلم الذي يرتكب الكبائر ملائكة مخصصون يقبضون روحه غير ملائكة الرحمة وملائكة العذاب؟

فأجاب: لا، لا أحاديث.اهـ.

وسئل الشيخ أيضا في نفس المصدر السابق (٩/ ١٣٠): كيف يجمع بين الأحاديث التي فيها أن روح المؤمن تخرج مقرونة بالريح الطيبة وبين كونه يعذب في القبر؟

فأجاب: لا يوجد في الأحاديث الجمع بين النقيضين المذكورين في السؤال، أنه من جهة تخرج روحه مقرونة بالريح الطيبة وملفوفة بالحرير الناعم، كما هو مذكور في بعض الأحاديث الصحيحة، ثم من جهة أنه يعذب، لا يوجد مثل هذا الجمع بين النقيضين في الأحاديث، فالذي يعذب كمثل ما سبق في الحديثين السابقين: «استنزهوا من البول فإن عامة عذاب القبر منه» هذا لم يأت في مثله أن روحه تلف في حرير، فالظاهر: أن الجمع بين النقيضين غير واقع، وهذا بلا شك كما لا يخفى على الجميع هو من أمور الغيب التي أشرنا إليها في الأمس القريب، بمناسبة ذكر إذا وضع الميت في قبره وانصرف الناس عنه مدبرين فإنه يسمع قرع نعالهم، قلنا: أنه لا ينبغي التوسع في الأمور الغيبية ولا استعمال أقيسة نظرية؛ لأن هذا أمر يتعلق بالإيمان فقط وليس بالأحكام الشرعية، ولذلك فلا نجد في السنة الجمع بين هذين النقيضين.اهـ. كلام العلامة الألباني.

ولكن ثمة بعض الإشارات الغير جازمة التي يمكن أن تدل على أن ملائكة العذاب هي التي تتولى قبض أرواح أصحاب الكبائر، ومن ذلك:

١ - حديث الرجل الذي قتل مائة نفس، ثم تاب إلى الله ﷻ، فلما قبضت روحه اختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب أيهم يقبضها ويرفعها، فقد جاء في قصته التي يرويها أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ: (فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك في صورة

آدمي، فجعلوه بينهم، فقال قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة)[(١)]، فتأمل كيف أن ملائكة العذاب همت أن تقبض روح هذا العاصي الذي قتل مائة نفس، ولولا صدق توبته لكانت روحه من نصيب ملائكة العذاب، فالخوف على جميع أصحاب الكبائر بعد ذلك أن تتولى ملائكة العذاب قبض أرواحهم إن لم يتوبوا إلى الله ﷻ.

٢- الأحاديث الكثيرة التي جاءت في وصف حضور الملائكة قبض روح الميت، وإصعادها بها إلى السماوات العلى، والمقابلة بين حال المؤمنين وحال الكافرين، جاء في بعض روايات هذه الأحاديث ذكر (الفاجر) بدلا من (الكافر)، وفي بعضها تصفه بـ: (الرجل السوء) وقد يكون في ذلك إشارة أيضا إلى أن أصحاب الكبائر على خطر عظيم في هذا الشأن.

عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال -في حديث طويل يبين فيه حال المؤمن والفاجر عند قبض الأرواح-: (وأما الفاجر: فإذا كان في قبل من الآخرة، وانقطاع من الدنيا، أتاه ملك الموت، فيقعد عند رأسه، وينزل الملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيقعدون منه مد البصر، فيقول ملك الموت: أخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سخط من الله وغضب...إلى آخر الحديث) هذه رواية الحاكم في "المستدرك" (١/ ٩٣)، وصححها الشيخ الألباني في "أحكام الجنائز" (فقرة/ ١٠٨)، والحديث أصله في السنن. وقد جمع ابن طولون في كتابه: "التحرير المرسخ في أحوال البرزخ" (ص/ ٧٥-١١٢)

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٤٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

الأحاديث والآثار الواردة في هذا الشأن يمكن الاطلاع عليها هناك.

إلا إذا قلنا: إن المراد بالفاجر، أو الرجل السوء، في هذه الروايات، هو الكافر، المذكور في الروايات الأخرى، لتتفق روايات الحديث، كما هو الأظهر، فيعود الأمر إلى السكوت عن أهل المعاصي والكبائر من المسلمين. والله أعلم.

قال الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان (٣/ ٣): "(الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) النحل/ ٣٢

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن المتقين الذين كنوا يمتثلون أوامر ربهم، ويجتنبون نواهيه، تتوفاهم الملائكة: أي يقبضون أرواحهم، في حال كونهم طيبين: أي طاهرين من الشرك والمعاصي - على أصح التفسيرات - ويبشرونهم بالجنة، ويسلمون عليهم.

وبين هذا المعنى أيضا في غير هذا الموضع. كقوله: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون} [فصلت: ٣٠]، وقوله: {وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين} [الزمر: ٧٣]، وقوله: {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} [الرعد: ٢٣-٢٤]. والبشارة عند الموت، وعند دخول الجنة من باب واحد. لأنها بشارة بالخير بعد الانتقال إلى الآخرة.

ويفهم من صفات هؤلاء الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ويقولون لهم سلام عليكم ادخلوا الجنة- أن الذين لم يتصفوا بالتقوى لم تتوفهم الملائكة على تلك الحال الكريمة، ولم تسلم عليهم، ولم تبشرهم.

وقد بين تعالى هذا المفهوم في مواضع أخر. كقوله: {الذين تتوفاهم

الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم} [النحل: ٢٨] الآية، وقوله: {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم} [النساء: ٩٧]- إلى قوله - {وسآءت مصيرا} [النساء: ٩٧]، وقوله: {ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم} [الأنفال: ٥٠] الآية، إلى غير ذلك من الآيات" انتهى.

ولعله أن يقال هنا ـ والله أعلم ـ أن حال أهل المعاصي والكبائر، عند الموت، يتفاوت بحسب معاصيهم وطاعاتهم؛ فمن كان من الموحدين، الطيبين المستقيمين، فله من البشارة وطيب الحال ما وعد الله به هنا، ومن خلط خلط له، فيحرم من البشارة وطيب الحال، ورحمة الملائكة به، بحسب حاله وعمله.

المسألة السابعة: حضور الشيطان عند الموت

إذا حضر الموت كان الشيطان حريصًا على الإنسان حتى لا يفلت منه، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: (إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة، فليمط ما كان بها من أذى، ثم ليأكلها، ولا يدعها للشيطان، فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة)[1].

وقد ذكر علماؤنا أن الشيطان يأتي الإنسان في تلك اللحظات الحرجة في صورة أبيه أو أمه أو غيرهم ممن هو شفيق عليه ناصح له، ويدعوه إلى اتباع اليهودية أو النصرانية أو غيرها من المبادئ المعارضة للإسلام، فهناك يزيغ الله من كتبت له الشقاوة[2]، وهو معنى قوله تعالى: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣٣).

(٢) التذكرة (ص: ٣٣).

وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وقد حدث عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل قال: (حضرت وفاة أبي أحمد، وبيدي خرقة لأشد لحييه، فكان يغرق، ثم يفيق، ويقول بيده: لا بعد، لا بعد، فعل هذا مرارًا، فقلت له: يا أبت أي شيء يبدو منك؟ قال: إن الشيطان قائم بحذائي عاض على أنامله، يقول: يا أحمد فتني، وأنا أقول: لا بعد، لا بعد، حتى أموت)[(١)].

وقال القرطبي: سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي، يقول: (حضرت أخا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد القرطبي بقرطبة، وقد احتضر، فقيل له: لا إله إلا الله، فكان يقول: لا، لا، فلما أفاق، ذكرنا له ذلك، فقال: أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي، يقول أحدهما: مت يهوديًا فإنه خير الأديان، والآخر يقول: مت نصرانيًا فإنه خير الأديان، فكنت أقول لهما: لا، لا...)[(٢)].

وقد استدل بعض العلماء بهذا الحديث - حديث جابر بن عبد الله - على حضور الشيطان عند المحتضر؛ لإغوائه وافتتانه، كما استدلوا أيضًا بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: ((كان رسول الله ﷺ يدعو: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال))[(٣)].

قال ابن دقيق العيد: (فتنة المحيا ما يعرض للإنسان مدة حياته من الافتتان

---

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ٤٩٩).

(٢) التذكرة (ص: ٣٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨).

بالدنيا والشهوات والجهالات، وأعظمها والعياذ بالله أمر الخاتمة عند الموت، وفتنة الممات يجوز أن يراد بها الفتنة عند الموت، أضيفت إليه لقربها منه، ويكون المراد بفتنة المحيا على هذا ما قبل ذلك، ويجوز أن يراد بها فتنة القبر)[١].

كما قد استدل شيخ الإسلام ابن تيمية بحديث الاستعاذة من فتنة المحيا والممات على حضور الشيطان عند المحتضر لإغوائه، وأنه قد يعرض الأديان على بعض العباد، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أما عرض الأديان على العبد وقت الموت فليس هو أمرًا عامًا لكل أحد، ولا هو أيضًا منتفيًا عن كل أحد، بل من الناس من تعرض عليه الأديان قبل موته، ومنهم من لا تعرض عليه، وقد وقع ذلك لأقوام، وهذا كله من فتنة المحيا والممات التي أمرنا أن نستعيذ منها في صلاتنا، منها ما في الحديث الصحيح (أمرنا النبي ﷺ أن نستعيذ في صلاتنا من أربع من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال)[٢]، ولكن وقت الموت أحرص ما يكون الشيطان على إغواء بني آدم؛ لأنه وقت الحاجة، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (الأعمال بخواتيمها)[٣] وقال ﷺ: (إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)[٤]...، ولهذا يقال: إن من لم يحج يخاف عليه

(١) فتح الباري لابن حجر (٢/ ٣١٩).
(٢) رواه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨).
(٣) رواه البخاري (٦٤٩٣) من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٤) رواه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

من ذلك، لما روى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (من ملك زادًا أو راحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج، فليمت إن شاء يهوديًا، وإن شاء نصرانيًا)(١)...)(٢).

وقال في موضع آخر: (وأما عرض الأديان وقت الموت فيبتلى به بعض الناس دون بعض...)(٣).

وذكر ابن حجر أن الأكثر والأغلب في سوء الخاتمة أنه لا يقع إلا لمن في طويته فساد أو ارتياب، ويكثر وقوعه للمصرّ على الكبائر والمجترئ على

---

(١) أخرجه الترمذي (٨١٢)، والبزار (٨٦١)، وابن عدى (٧/ ١٢٠)، والعقيلى (٤/ ٣٤٨)، وابن جرير (٤/ ١٦)، والبيهقى فى الشعب (٣٩٧٨) والحديث ضعفه الترمذي بقوله هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفي إسناده مقال وهلال بن عبد الله مجهول والحارث يضعف في الحديث وضعفه، ابن عدي، والعقيلي، وابن القطان كما في نصب الراية للزيلعي، وقال ابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ: فيه هلال مولى ربيعة قال البخاري: حديث هلال في الحج منكر، وقال ابن العربي في عارضة الأحوذي: ضعيف، وقال الذهبي في تنقيح التحقيق: فيه هلال بن عبد الله مجهول، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٨٦٠)، وضعفه الشيخ مشهور في تعليقه على إعلام الموقعين (٥/ ١٠٧)، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢٠٩)، فتعقبه ابن حجر في التلخيص بقوله: وإذا انضم هذا الموقوف إلى مرسل ابن سابط، علم أن لهذا الحديث أصلا، ومحمله على من استحل الترك، وتبين بذلك خطأ من ادعى أنه موضوع، والله أعلم، وقال الفتني في التذكرة (ص ٧٣) قال القاضي لا التفات إلى حكم ابن الجوزي بالوضع كيف وقد أخرجه الترمذي في جامعه وقد قال أن كل حديث في كتابه معمول به إلا حديثين وليس هذا أحدهما والحديث مؤول، وقال الزركشي قد أخطأ ابن الجوزي إذ لا يلزم من جهل الراوي وضع الحديث مع أن له طرقا.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤/ ٢٠٢).

العظائم، إذ يهجم عليه الموت بغتة فيصطلمه[١] الشيطان عند تلك الصدمة، فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته[٢].

ويدل على حضور الشيطان عند المحتضر قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ} [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، فالمعنى: أعوذ بك أن يحضرني الشيطان في أمرٍ من أموري كائنًا ما كان، سواء كان ذلك وقت تلاوة القرآن، أو عند حضور الموت، أو غير ذلك من جميع الشؤون في جميع الأوقات[٣].

وتحدث أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح المقدسي عن حضور الشيطان عند المحتضر تحت عنوان (الفصل الثاني والعشرون في اجتهاد الشيطان على المؤمن عند الموت)، واستشهد بما رواه النسائي وأبو داود بسنديهما عن أبي اليسر قال: كان رسول الله ﷺ يقول (اللهم إني أعوذ بك من التردّي، والهدم، والغرق، والحريق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبرًا، وأعوذ بك أن أموت لديغًا)[٤].

---

(١) الاصطلام: الاستئصال والهلاك والقطع. انظر: لسان العرب (٢/ ٤٦٩).

(٢) فتح الباري (١١/ ٤٨٩، ٤٩٠).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/ ٨١٩).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٧)، وأبو داود (١٥٥٢)، والنسائي (٥٥٣٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٧٠)، وفي الدعاء (١٣٦٢، ١٣٦٣)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩١٩)، والدولابي في الكنى (١/ ٦٢)، والحاكم (١/ ٧١٣ رقم ١٩٤٨)، والمزي في تهذيب الكمال (١٣/ ٢٥٢) والحديث قال عنه الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، فتعقبه الذهبي بقوله: أخرجه أبو داود والنسائي بطرق، وليس فيه عن جده، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٢)، وخالفه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٤/ ٢٨١) فقالوا: إسناده ضعيف لاضطرابه، =

فقوله ﷺ: (وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت)، قال الخطابي في شرحه: (هو أن يستولي عليه عند مفارقة الدنيا، فيضله، ويحول بينه وبين التوبة أو يعوقه عن إصلاح شأنه والخروج من مظلمة تكون قبله، أو يؤيسه من رحمة الله، أو يكره له الموت ويؤسفه على حياة الدنيا، فلا يرضى بما قضاه الله عليه من الفناء والنقلة إلى الدار الآخرة، فيختم له، ويلقى الله وهو ساخط عليه)[(١)].

ويقول ابن الجوزي: (وقد يتعرض إبليس للمريض فيؤذيه في دينه ودنياه، وقد يستولي على الإنسان فيضله في اعتقاده، وربما حال بينه وبين التوبة... وربما جاء الاعتراض على المقدر؛ فينبغي للمؤمن أن يعلم أن تلك الساعة هي مصدوقة للحرب، وحين يحمى الوطيس فينبغي أن يتجلد، ويستعين بالله على العدو)[(٢)].

(باب في الإيمان بمسائل الملكين)

مسائل في الباب

المسألة الأولى: اسم الملكين الموكلين بسؤال القبر

الموكلون بفتنة القبر وسؤال العباد في قبورهم هما مُنْكَر ونَكِير، وقد دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، فقد أخرج الشيخان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه

=

فقد اختلف فيه على عبد الله بن سعيد بن أبي هند، فرواه هنا عن صيفي دون واسطة، ورواه برقم (١٥٥٢٤) عن جده أبي هند، عن صيفي. بزيادة جده في الإسناد. وأبو هند لم نقع له على ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر، وقد رجح أبو حاتم في "العلل" (٢٠٨٥) الرواية التي فيها هذه الزيادة.

(١) معالم السنن (٢/ ١٩٤).

(٢) الثبات عند الممات (ص: ٤١، ٤٢).

ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد ﷺ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة فيراهما جميعًا).

ﷺ: (ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي، حتى الجنة والنار، فأوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريب من فتنة المسيح الدجال. يقال: ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا واتبعنا، هو محمد ثلاثا. فيقال: نم صالحا، قد علمنا إن كنت لموقنا به. وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته)[1].

يقول السيوطي في الحاوي للفتاوي (٢/ ١٧٥): "أطبق العلماء على أن المراد بقوله: (يفتنون)، و(بفتنة القبر) سؤال الملكين: منكر ونكير، والأحاديث صريحة فيه، ولهذا سمي ملكا السؤال " الفتانين "" انتهى.

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت أو قال أحدكم- أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل»...)[2]، فهذان الملكان جاءت النصوص بذكر أسميهما فيتعين على العبد الإيمان بهم والتصديق بمدلولات النصوص في حقهم، فالملكان

---

(١) أخرجه البخاري (٨٦) ومسلم (٩٠٥) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

(٢) أخرج الترمذى (٣/ ٣٨٣، رقم ١٠٧١)، وابن حبان (٧/ ٣٨٦، رقم ٣١١٧)، وابن أبى عاصم (٢/ ٤١٦، رقم ٨٦٤)، والرافعى في تاريخ قزوين (٣/ ٢٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه والحديث قال عنه الترمذي: حسن غريب، وصححه ابن حبات، وقال النووي في الخلاصة (٢/ ١٠٤١): إسناده حسن، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (١٣٩١).

الموكلان بالسؤال في القبر اسمهما منكر ونكير وقد نص على ذلك الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من أئمة السنة، وخالف أهل السنة في هذه المسألة بعض أهل البدع.

قال الآمدي في أبكار الأفكار: قد اتفق سلف الأمة قبل ظهور الخلاف وأكثرهم بعد ظهوره على إ ثبات إحياء الموتى في قبورهم ومساءلة الملكين لهم وتسمية أحدهما منكرا والآخر نكيرا وعلى إثبات عذاب القبر للمجرمين والكافرين.... وذهب ضرار بن عمرو، وبشر المريسي[1]، وأكثر المتأخرين من المعتزلة إلى إنكار ذلك كله وأنكر الجبائي، وابنه والبلخي تسمية الملكين منكرا ونكيرا مع الاعتراف بهما وإنما المنكر ما يصدر من الكافر عند تلجلجه إذا سئل والنكير تقريع الملكين له.اهـ. والحق ما قاله أهل الحق، أهل السنة والجماعة، أهل الحديث والأثر.

قال الإمام أحمد في اصول السنة (٣١):.. وأن هذه الأمة تفتن في قبورها، وتسأل عن الايمان والاسلام، ومن ربه ومن نبيه، وياتيه منكر ونكير، كيف شاء وكيف أراد...اهـ.

وقال ابن أبي عاصم في كتاب السنة (ص٤١٩ - ٤٢٠): وفي المساءلة أخبار ثابتة والأخبار التي في المساءلة في القبر منكر ونكير أخبار ثابتة توجب العلم.اهـ.

وقال الطحاوي في العقيدة الطحاوية (٥٠):.. وبعذاب القبر لمن كان له أهلا وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه...اهـ.

وقال أبوبكر الاسماعيلي في اعتقاد أئمة الحديث (٧٠): ويؤمنون بمسألة منكر ونكير على ماثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ.اهـ.

---

(١) شرح الأصول الخمسة (ص٧٣٠)، والمواقف (ص٣٨٢).

وقال شيخ الاسلام في الأصفهانية (٢/ ٢١٤): اذا ثبتت الرسالة ثبت ماأخبر به الرسول مماينكره بعض أهل البدع كعذاب القبر وسؤال منكر ونكير وكالصراط والشفاعة...اهـ.

وانظر في ذلك كلام البربهاري في السنة (٣٧)، وصديق حسن خان في قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر (١٣٣)، وابن قدامة في لمعة الاعتقاد (٢٦)

ومرعي الكرمي في اقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات (٢١٣)، والكلاباذي في التعرف لمذهب أهل التصوف (٥٧)، وابن عساكر في تبيين كذب المفتري فيما نسب الى الامام ابي الحسن الأشعري (٣٠٥).

قال الحكيم الترمذي وإنما سميا فتاني القبر لأن في سؤالهما انتهارا وفي خلقهما صعوبة قال: وسميا منكرا ونكيرا لأن خلقهما لا يشبه خلق الآدميين ولا خلق الملائكة ولا خلق البهائم ولا خلق الهوام بل هما خلق بديع وليس في خلقهما أنس للناظرين إليهما جعلهما الله تكرمة للمؤمن لتثبته وتبصره وهتكا لستر المنافق في البرزخ من قبل أن يبعث.اهـ.

وقال السيوطي: وهذا يدل على أن الاسم منكر بفتح الكاف وهو المجزوم به في القاموس. قلت وكذا في نهاية ابن الأثير قال: ومنكر ونكير اسما الملكين مفعل وفعيل.

وذكر ابن يونس من الشافعية أن اسم ملكي المؤمن مبشر وبشير قلت: وهذا يحتاج إلى دليل مأثور وأنى به فإن الأحاديث ليس فيها سوى منكر ونكير وقد أشار إلى ذلك السيوطي في أرجوزته بقوله:

وضبط منكر بفتح كاف فلست أدري فيه من خلاف

وذكر ابن يونس من صحبنا | أن اللذين يأتيان المؤمنا
اسمهما البشير والمبشر | ولم أقف في ذا على ما يؤثر

وقال الإمام ابن القيم في كتاب الروح: قال كثير من المعتزلة: لا يجوز تسمية ملائكة الله بمنكر ونكير وإنما المنكر ما يبدو من تلجلجه إذا سئل والنكير تقريع الملكين له، قال الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير. وروجع في منكر ونكير فقال هكذا هو. يعني أنهما منكر ونكير. لوامع الأنوار البهية (٢/ ٨).

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية: جاء في ذكر الملكين عدة أحاديث وهي حسنة أو صحيحة في التنصيص على اسميهما أنهما منكر ونكير، أو الأول المنكر والثاني النكير، وقد قال بعض العلماء إن الأول اسمه المنكر - على اسم الفاعل- والثاني النكير، وهذا ليس بصحيح بل هو منكر ونكير يعني أيضا منكور، منكر في شكله وهيئته، ونكير أيضا في شكله وهيئته وذلك لأنهما من صفتهما كما جاء في الحديث أنهما شديدان أزرقان يأتيان في صورة لم يألفها الميت.

المسألة الثانية: هل يسأل المؤمن والكافر

قال الإمام ابن القيم في الروح (ص٨٣): المسألة الحادية عشر: وهى أن السؤال في القبر هل هو عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق.

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد والآثار الدالة تدل على أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق كان منسوبا إلى أهل القبلة ودين الإسلام بظاهر الشهادة وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه

وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام فيثبت الله الذين آمنوا ويرتاب المبطلون.

والقرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول وأن السؤال للكافر والمسلم قال الله تعالى {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء} وقد ثبت في الصحيح أنها نزلت في عذاب القبر حين يسأل من ربك وما دينك ومن نبيك

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبي أنه قال إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه انه ليسمع قرع نعالهم وذكر الحديث زاد البخارى وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس فيقال لا دريت ولا تليت ويضرب بمطرقة من حديد يصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين هكذا في البخارى وأما المنافق والكافر بالواو وقد تقدم في حديث أبى سعيد الخدرى الذى رواه ابن ماجه والإمام أحمد كنا في جنازة مع النبي فقال يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فاذا الإنسان دفن وتولى عنه أصحابه جاء ملك وفي يده مطراق فأقعده فقال ما تقول في هذا الرجل فإن كان مؤمنا قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول له صدقت فيفتح له باب إلى النار فيقول هذا منزلك لو كفرت بربك وأما الكافر والمنافق فيقول له ما تقول في هذا الرجل فيقول لا أدرى فيقال لا دريت ولا اهتديت ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول له هذا منزلك لو آمنت بربك فأما إذ كفرت فان الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى النار ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله إلا الثقلين فقال بعض الصحابة يا رسول الله ما أحد يقوم على رأسه ملك إلا هيل عند ذلك فقال رسول الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل

الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء

وفي حديث البراء بن عازب الطويل وأما الكافر إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزل عليه الملائكة من السماء معهم مسوح وذكر الحديث إلى أن قال ثم تعاد روحه في جسده في قبره وذكر الحديث وفي لفظ فاذا كان كافر جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فذكر الحديث إلى قوله ما هذه الروح الخبيثة فيقولون فلان بأسو أسمائه فاذا انتهى به إلى سماء الدنيا أغلقت دونه قال يرمى به من السماء ثم قرأ قوله تعالى {ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق} قال فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فيجلسانه وينتهرانه فيقولان من ربك فيقول هاه لا أدرى فيقولان لا دريت فيقولان ما هذا النبي الذى بعث فيكم فيقول سمعت الناس يقولون ذلك لا ادرى فيقولان له لا دريت وذلك قوله تعالى {ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء} وذكر الحديث

واسم الفاجر في عرف القرآن والسنة يتناول الكافر قطعا كقوله تعالى {إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم} وقوله تعالى {كلا إن كتاب الفجار لفي سجين} وفي لفظ آخر في حديث البراء وإن الكافر إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزل اليه ملائكة شداد غضاب معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيحتوشونه فتنزع روحه كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل فاذا أخرجت لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء

وذكر الحديث إلى أن قال انه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين فيقال يا هذا من ربك وما دينك ومن نبنيك فيقول لا أدرى فيقال لا دريت وذكر الحديث رواه حماد بن سلمة عن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو عن

زاذان عن البراء

وفي حديث عيسى بن المسيب عن عدى بن ثابت عن البراء خرجنا مع رسول في جنازة رجل من الأنصار وذكر الحديث إلى أن قال وإن الكافر إذا كان في دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه ملائكة معهم كفن من نارو وحنوط من نار فذكر الحديث إلى أن قال فترد روحه إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيجلسانه ثم يقولان يا هذا من ربك فيقول لا أدرى فينادى من جانب القبر لادريت فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه وذكر الحديث

ورواه الإمام أحمد في مسنده عن أبى النظر هاشم بن القاسم حدثنا عيسى بن المسيب فذكره

وفي حديث محمد بن سلمة عن خصيف عن مجاهد عن البراء قال كنا في جنازة رجل من الأنصار ومعنا رسول الله فذكر الحديث إلى أن قال وقال رسول الله وإذا وضع الكافر أتاه منكر ونكير فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول لا أدرى فيقولان له لادريت الحديث وقد تقدم

وبالجملة فعامة من روى حديث البراء بن عازب قال فيه وأما الكافر بالجزم وبعضهم قال وأما الفاجر وبعضهم قال وأما المنافق والمرتاب وهذه اللفظة من شك بعض الرواة هكذا في الحديث لا أدرى أى ذلك قال وأما من ذكر الكافر والفاجر فلم يشك ورواية من لم يشك مع كثرتهم أولى من رواية من شك مع انفراده على أنه لا تناقض بين الروايتين فان المنافق يسأل كما يسأل الكافر

والمؤمن فيثبت الله أهل الإيمان ويضل الله الظالمين وهم الكفار والمنافقون

وقد جمع أبو سعيد الخدرى في حديثه الذى رواه أبو عامر العقدى حدثنا عباد بن راشد عن داود بن أبى هند عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال شهدنا مع رسول الله جنازة فذكر الحديث وقال وإن كان كافرا أو منافقا يقول له ما تقول في هذا الرجل فيقول لا أدرى وهذا صريح في أن السؤال للكافر والمنافق وقول أبى عمر رَحِمَهُ اللَّهُ وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه فيقال له ليس كذلك بل هو من جملة المسئولين وأولى بالسؤال من غيره

وقد أخبر الله في كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة قال تعالى {ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين} وقال تعالى فوربكم لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وقال تعالى {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين} فإذا سئلوا يوم القيامة فكيف لا يسألون في قبورهم فليس لما ذكره أبو عمر رَحِمَهُ اللَّهُ وجه.اهـ.

وقال السفاريني في لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٠): قال ابن عبد البر: لا يكون السؤال إلا لمؤمن أو منافق كان منسوبا إلى دين الإسلام بظاهر الشهادة بخلاف الكافر، كذا قال وخالفه في ذلك الجمهور، فقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتاب الروح: القرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول بل السؤال للكافر والمسلم، قال الله تعالى: {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت} [إبراهيم: ٢٧] وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أنها نزلت في عذاب القبر كما تقدم فإن في الأحاديث الكافر والفاجر واسم الفاجر في عرف القرآن والسنة يتناول الكافر قطعا ومنه قوله تعالى {كلا إن كتاب الفجار لفي سجين} [المطففين: ٧]. ونحو هذا في كتاب العاقبة للحافظ عبد الحق الإشبيلي

وصوبه القرطبي في التذكرة، وانتصر الجلال السيوطي لابن عبد البر وفيما قاله نظر.

المسألة الثالثة: هل سؤال القبر خاص بهذه الأمة

اختار الإمام ابن القيم والحافظ عبد الحق الإشبيلي وغيرهما أن سؤال القبر ليس خاص بهذه الأمة بل غيرها تساويها في ذلك وجزم به أيضا القرطبي في التذكرة، وقال الحكيم الترمذي: إنه خاص بهذه الأمة، وتوقف ابن عبد البر وانتصر السيوطي في هذا للحكيم الترمذي.

قال الإمام ابن القيم في الروح (ص٨٦): المسألة الثانية عشرة وهى أن سؤال منكر ونكير هل هو مختص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها.

هذا موضع تكلم فيه الناس فقال أبو عبد الله الترمذى إنما سؤال الميت في هذه الأمة خاصة لأن الأمم قبلنا كانت الرسل تأتيهم بالرسالة فاذا أبوا كفت الرسل واعتزلتهم وعولجو بالعذاب فلما بعث الله محمدا بالرحمة إماما للخلق كما قال تعالى {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين} أمسك عنهم العذاب وأعطى السيف حتى يدخل في دين الإسلام من دخل لمهابة السيف ثم يرسخ الإيمان في قلبه فأمهلوا فمن ها هنا ظهر أمر النفاق وكانوا يسرون الكفر ويعلنون الإيمان فكانوا بين المسلمين في ستر فلما ماتوا قبض الله لهم فتانى القبر ليستخرجا سرهم بالسؤال وليميز الله الخبيث من الطيب فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء، وخالف في ذلك آخرون منهم عبد الحق الأشبيلى والقرطبى وقالوا السؤال لهذه الأمة ولغيرها وتوقف في ذلك آخرون منهم أبو عمر بن عبد البر فقال وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي أنه قال إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ومنهم من

يرويه تسأل وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصت بذلك فهذا أمر لا يقطع عليه، وقد احتج من خصه بهذه الأمة بقوله إن هذه الأمة تبتلى في قبورها وبقوله أوحى إلى أنكم تفتنون في قبوركم وهذا ظاهر في الاختصاص بهذه الأمة قالوا ويدل عليه قول الملكين له ما كنت تقول في هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول المؤمن أشهد أنه عبد الله ورسوله فهذا خاص بالنبي وقوله في الحديث الآخر إنكم بي تمتحنون وعني تسألون

وقال آخرون لا يدل هذا على اختصاص السؤال بهذه الأمة دون سائر الأمم فإن قوله "إن الأمة" إما أن يراد به أمة الناس كما قال تعالى وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم وكل جنس من أجناس الحيوان يسمى أمة وفي الحديث لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها وفيه أيضا حديث النبي الذي قرصته نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله اليه من أجل أن قرصتك نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله وإن كان المراد به أمته الذي بعث فيهم لم يكن فيه ما ينفي سؤال غيرهم من الأمم بل قد يكون ذكرهم اخبارا بأنهم مسئولون في قبورهم وأن ذلك لا يختص بمن قبلهم لفضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم، وكذلك قوله أوحى إلى أنكم تفتنون في قبوركم، وكذلك اخباره عن قول الملكين ما هذا الرجل الذي بعث فيكم هو إخبار لأمته بما تمتحن به في قبورها والظاهر والله أعلم أن كل نبي مع أمته كذلك وأنهم معذبون في قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجة عليهم كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة والله سبحانه وتعالى أعلم.اهـ.

وقال السفاريني في لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٠): ومثل هذا ما اختاره المحقق ابن القيم والحافظ عبد الحق الإشبيلي وغيرهما من أن سؤال القبر

ليس بخاص بهذه الأمة، بل غيرها تساويها في ذلك وجزم به أيضا القرطبي في التذكرة، وقال الحكيم الترمذي: إنه خاص بهذه الأمة، وتوقف ابن عبد البر وانتصر السيوطي في هذا للحكيم الترمذي.

قال الإمام المحقق ابن القيم في الروح بعد ذكره الأقوال الثلاثة: والظاهر - والله أعلم- أن كل نبي مع أمته كذلك - يعني يسأل عنه كنبينا ﷺ مع أمته - وأنهم يعذبون في القبور بعد السؤال وإقامة الحجة عليهم كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة.

واستدل الحكيم الترمذي على عدم السؤال أن الأمم قبل هذه الأمة كانت الرسل تأتيهم بالرسالة فإذا أبوا كفت الرسل واعتزلوهم وعوجلوا بالعذاب. قال فلما بعث الله محمدا ﷺ بالرحمة أمسك عنهم العذاب وأعطى السيف حتى يدخل في دين الإسلام من دخل لمهابة السيف، ثم يرسخ الإيمان في قلبه، فمن هنا ظهر النفاق فكانوا يسرون بالكفر ويعلنون الإيمان وكانوا بين المؤمنين في ستر فلما ماتوا قيض الله لهم فتاني القبر ليستخرج أمرهم بالسؤال وليميز الله الخبيث من الطيب.

وفيما قاله مقال من عدة أوجه نبهت على بعضها في البحور الزاخرة منها ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية روح الله روحه في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح أن المعروف عند أهل العلم أنه بعد نزول التوراة لم يهلك تعالى مكذبي الأمم بعذاب سماوي يعمهم كما أهلك قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم بل أمر المؤمنين بجهاد الكفار كما أمر بني إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة، وقول يوشع للكفار مشهور، وكذا داود وسليمان وغيرهم من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

المسألة الرابعة: هل بعض الناس لا يأتيهم الفتانان؟.

عن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتان)(١).

وعن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (كل ميت يختم على عمله، إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر)(٢).

قال النووي في شرح مسلم (١٣/ ٦١): "هذه فضيلة ظاهرة للمرابط، وجريان عمله عليه بعد موته فضيلة مختصة به لا يشاركه فيها أحد، وقد جاء صريحا في غير مسلم: (كل ميت يختم على عمله الا المرابط فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة).

قوله ﷺ: "وأجرى عليه رزقه " موافق لقول الله تعالى في الشهداء: (أحياء

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٣).

(٢) أخرجه ابن المبارك فى الجهاد (١/ ١٤٢، رقم ١٧٥)، وأحمد (٦/ ٢٠، رقم ٢٣٩٩٧)، والترمذى (٤/ ١٦٥، رقم ١٦٢١)، وابن حبان (١٠/ ٤٨٤، رقم ٤٦٢٤)، والطبرانى (١٨/ ٣٠٩، رقم ٧٩٧)، والبيهقى فى كتاب الزهد الكبير (٢/ ١٦٣، رقم ٣٦٩)، والقضاعى (١/ ١٤٠، رقم ١٨٤)، والديلمى (٤/ ٢٠٦، رقم ٦٦٢٩) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن العربي في العارضة(٤/ ١١٣)، وابن دقيق العيد في الاقتراح (ص١٢٤)، والحافظ في الفتح (١٢/ ٤٢١)، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٣٥): ثابت، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٥٤٩)، وصححه الشيخ مقبل في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٠٦٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده صحيح.

عند ربهم يرزقون)، والأحاديث السابقة أن أرواح الشهداء تأكل من ثمار الجنة، قوله ﷺ: "أمن الفتان " ضبطوا (أمن) بوجهين: أحدهما أمن بفتح الهمزة وكسر الميم من غير واو، والثاني: (أومن) بضم الهمزة وبواو.

وقوله " الفتان " فقال القاضي: رواية الأكثرين بضم الفاء، جمع فاتن، قال: ورواية الطبري بالفتح، وفي رواية أبى داود في سننه (أومن من فتاني القبر)" انتهى.

وقال السرخسي في شرح السير الكبير (١/ ٩): "ومعنى هذا الوعد في حق من مات مرابطا -والله أعلم- أنه في حياته كان يؤمن المسلمين بعمله، فيجازى في قبره بالأمن مما يخاف منه، أو لما اختار في حياته المقام في أرض الخوف والوحشة لإعزاز الدين، يجازى بدفع الخوف والوحشة عنه في القبر" انتهى.

وقال المناوي في الفيض (٥/ ٤٤): (من فتان القبر) أي: فتانيه: منكر ونكير، أي لا يأتيانه، ولا يختبرانه، بل يكتفى بموته مرابطا شاهدا على صحة إيمانه" انتهى.

وفي الحديث عن راشد بن سعد، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ (أن رجلا قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: كفى ببارقة السيوف على راسه فتنة)(١).

---

(١) أخرجه النسائي في الصغرى (٤/ ٩٩)، وفي الكبرى (٢١٩١)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٢٣٠)، والقاسم السرقسطي في الحديث (٢/ ١٦٥/ ١) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، والحديث حسنه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٥/ ٧٤٣)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨٣)، وقال الشيخ مشهور في طبعته (٦/ ٥٤٩): راشد بن سعد هذا ثقة، إلا إنه كثير الإرسال، وقد مات بعد المائة، فهل سمع هذا من أحد من الصحابة؟ الأمر محتمل ففي سنده نظر مع ثقة رجاله.

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال (ما من مسلم يموت يوم الجمعة، أي ليلة الجمعة، إلا وقاه الله فتنة القبر)(١).

قال القرطبي في التذكرة (ص٤٢٣): اعلم رحمك الله أن هذا الباب - يعني الذين يأمنون فتنة القبر - لا يعارض ما تقدم من الأبواب - يعني عموم فتنة القبر- بل يخصها، ويبين من لا يسأل في قبره ولا يفتن فيه ممن يجري عليه السؤال ويقاسي تلك الأهوال، وهذا كله ليس فيه مدخل للقياس، ولا مجال للنظر فيه، وإنما فيه التسليم والانقياد لقول الصادق المرسل للعباد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وأصحابه إلى يوم التناد.... وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشهيد: (كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة)، معناه: أنه لو كان في هؤلاء المقتولين نفاق، كان إذا التقى الزحفان وبرقت السيوف: فروا ؛ لأن من شأن المنافق الفرار والروغان عند ذلك، ومن شأن المؤمن البذل والتسليم لله نفسا، وهيجان حمية الله، والتعصب له لإعلاء كلمته، فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره، حيث برز للحرب والقتل، فلماذا يعاد عليه السؤال في القبر ؟ قاله الحكيم الترمذي" انتهى.

وقال المناوي قي الفيض (٥/ ٦): (ببارقة السيوف) أي: بلمعانها. قال الراغب: البارقة: لمعان السيف (على رأسه) يعني: الشهيد (فتنة): فلا يفتن في قبره، ولا يسأل، إذ لو كان فيه نفاق لفر عند التقاء الجمعين، فلما ربط نفسه لله في سبيله ظهر صدق ما في ضميره، وظاهره اختصاص ذلك بشهيد المعركة، لكن أخبار الرباط تؤذن بالتعميم" انتهى.

---

(١) قال العلامة الألباني في أحكام الجنائز (ص٣٥): أخرجه أحمد (٦٥٨٢ - ٦٦٤٦) من طريقين عن عبد الله بن عمرو، والترمذي من أحد الوجهين، وله شواهد عن أنس وجابر بن عبد الله، وغيرهما، فالحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح.

وقال صاحب لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٢): ورد في صحيح الأخبار أن بعض الناس من الموتى لا تنالهم فتنة القبر ولا يأتيهم الفتانان وذلك على ثلاثة أنحاء - مضاف إلى عمل ومضاف إلى حال ابتلاء نزل بالميت ومضاف إلى زمان كالشهدا.. والمرابطين في سبيل الله، وروي أن «سورة تبارك من قرأها كل ليلة عصم من فتنة القبر»، «ومن مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كفي فتنة القبر»... وممن لا يسأل الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وأما الجن فالأدلة تعمهم ويسألون لأنهم مكلفون في الجملة كما نص عليه علماؤنا وغيرهم وبالله التوفيق.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (٨/ ٤٧٧):" وأما الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله فإنهم لا يسألون؛ لظهور صدق إيمانهم بجهادهم. قال الله تعالى: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) التوبة/ ١١١، وقال: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) آل عمران/ ١٦٩. وقال النبي ﷺ: (كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة)، وإذا كان المرابط إذا مات أمن الفتان؛ لظهور صدقه؛ فهذا الذي قتل في المعركة مثله أو أولى منه؛ لأنه بذل وعرض رقبته لعدو الله؛ إعلاء لكلمة الله، وانتصارا لدينه، وهذا من أكبر الأدلة على صدق إيمانه" انتهى.

وقد جمع القرطبي في "التذكرة لأحوال الموتى وأمور الآخرة" (ص/ ٤١٥-٤٢٦)، وكذلك العلامة ابن القيم في كتابه الروح (ص٧٩-٨٢) الأسباب المنجية من عذاب القبر وفتنة القبر بالتفصيل، فمن أراد الاطلاع عليها والتوسع فيها فليرجع إلى هذين الكتابين، وإن كان في بعض ما ذكراه توقف ونظر.

(**تنبيه**) هذه الأسئلة الثلاثة التي يسألها منكر ونكير فصلها الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب في كتاب الأصول الثلاثة، والأصول الثلاثة هي: معرفة العبد ربه، ونبيه ودينه ففصلها الشيخ تفصيلًا بينًا في كتابه الأصول الثلاثة.

المسألة الخامسة: هل يمتحن الأطفال في قبورهم

اختلف أهل العلم في ذلك على قولين:

الأول أن الأطفال يسألون في قبورهم كغيرهم من الكبار العقلاء، وهو قول بعض المالكية وبعض الحنابلة، واختاره القرطبي، واختاره أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية كما نقله عنه في الفروع (٢/ ٢١٦).

قالوا لأن الأطفال تشرع الصلاة عليهم، والدعاء لهم، وسؤال الله أن يقيهم عذاب القبر وفتنته، لما روي عن أنس رضي الله عن أن النبي ﷺ صلى على صبي أو صبية، فقال: (لو كان نجا أحد من ضمة القبر لنجا هذا الصبي) رواه الطبراني في الأوسط، وقال عنه الذهبي في الميزان (١/ ٣٧٢): منكر، وقال الحافظ في المطالب العالية (٤/ ٣٦٣): إسناده صحيح، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (١٩٥٩): رجاله ثقات، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٠٧).

وعن حماد بن سلمة، عن ثمامة بن عبد الله بن أنس، عن البراء بن عازب، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهم: أن صبيا دفن، فقال رسول الله ﷺ: (لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي) رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في الصحيحة (٥/ ١٩٥) رقم (٢١٦٤).

وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال: (صليت وراء أبي هريرة على صبي لم يعمل خطيئة قط، فسمعته يقول: (اللهم أعذه من عذاب القبر) رواه مالك (٢/

١٩٢) برقم (٤٨٠)، والبيهقي (٤/ ٩)، وعبد الرزاق (٣/ ٥٣٣).

قال هؤلاء: والله يكمل لهم عقولهم ليعرفوا بذلك منزلتهم ويلهمون الجواب عما يسألون عنه، وقد دلت الأحاديث الكثيرة أنهم يمتحنون في الآخرة، فكذلك في القبر، فلا فرق بين الامتحانين.

وقال آخرون وهو قول الشافعية، وبعض المالكية والحنابلة، قال ابن مفلح في الفروع (٢/ ٢١٦) وهو قول القاضي، وابن عقيل: بل السؤال خاص بالكبار الذين عقلوا الرسالات والرسل فهم الذين يسألون هل أطاعوا هذا النبي أم لا؟ أما الصغار فلا معنى لسؤالهم لأنهم لم يتمكنوا من معرفة الرسول، فكيف يسألون عن ذلك؟ إذ لا فائدة في هذا السؤال، بخلاف السؤال في الآخرة، فالله يرسل لهم رسولا ويأمرهم بطاع أمره، وعقولهم معهم، فمن أطاعه منهم نجا، ومن عصاه أدخله النار، فهذا السؤال عن أمر في ذلك الوقت لا أنه سؤال عما مضى كسؤال الملكين.

وأما ما ورد من الدعاء له فهذا لا يراد به العقوبة للطفل على فعل فعله، بل يراد به الألم الذي يحصل للميت فيتوجع ويتألم منه، وإن لم يكن عقوبة له، مثل قول الرسول ": (السفر قطعة من العذاب) رواه البخاري ومسلم.

قال ابن القيم في الروح (ص٣٦٨): ولاريب أن في القبر من الآلام، والهموم، والحسرات ما قد يسري أثره إلى الطفل، فيتألم به، فيشرع للمصلي عليه أن يسأل الله تعالى له أن يقيه ذلك العذاب.

المسألة السادسة: ما هي اللغة التي سيسأل بها الناس في القبر

في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه يسأل باللغة السريانية.

قاله البلقيني - كما نقله عنه تلميذه السيوطي في رسالته "شرح الصدور في أحوال الموتى والقبور" - ولم يذكر له أي دليل يمكن الاعتماد عليه.

القول الثاني: يسأل باللغة العربية.

نص عليه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: ويمكن الاستدلال له بظواهر الأحاديث الواردة، فقد جاءت تصف ما يكون في البرزخ باللغة العربية، ولا مانع من كونها على الحقيقة، ويلهم الله جميع من يفتن في قبره فهم هذه اللغة والجواب بها.

قال الحافظ ابن حجر في "الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع" (ص/ ١٢٢): "وأما سؤال الملكين فظاهر الحديث الصحيح أنه بالعربي؛ لأن فيه أنهما يقولان له: (ما علمك بهذا الرجل) إلى آخر الحديث، ويحتمل مع ذلك أن يكون خطاب كل أحد بلسانه" انتهى.

القول الثالث: يسأل بلغة يفهمها، ذكره ابن حجر احتمالا كما سبق في كلامه.

وهو اختيار اللجنة الدائمة، والعلامة العثيمين رحمهم الله جميعا.

جاء في "فتاوى اللجنة الدائمة" (٣/ ٤٥٠): "إذا مات الإنسان ودفن جاءه ملكان وسألاه عن ربه ونبيه ودينه بلغة يفهمها" انتهى.

وقال العلامة العثيمين في شرح العقيدة السفارينية (ص/ ٤٣٥):" قال بعض العلماء: يسأل بالسريانية، سبحان الله! السريانية لغة النصارى، والظاهر -والله أعلم- أن هذا القول مأخوذ من النصارى؛ لأجل أن يفتخروا ويقولوا لغتنا لغة السؤال في القبر لكل ميت.

والذي يظهر أنه يسأل بما يفهم: إن كان من العرب فباللغة العربية، إن كان من غير العرب فبلغته" انتهى.

والاشتغال بمثل هذه التفاصيل مما لا منفعة فيه للسائل في أمر دينه ودنياه، ويكفيه من ذلك أن يؤمن أنه يسأل في قبره، وأن يسأل الله أن يوفقه للعمل بطاعته، وأن يلهمه الجواب، ويثبته عند السؤال.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى" (٤/ ٣٠٠):" بماذا يخاطب الناس يوم البعث؟ وهل يخاطبهم الله تعالى بلسان العرب؟ وهل صح أن لسان أهل النار الفارسية ، وأن لسان أهل الجنة العربية؟

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يعلم بأي لغة يتكلم الناس يومئذ ، ولا بأي لغة يسمعون خطاب الرب جل وعلا؛ لأن الله تعالى لم يخبرنا بشيء من ذلك ، ولا رسوله عليه الصلاة والسلام، ولم يصح أن الفارسية لغة الجهنميين، ولا أن العربية لغة أهل النعيم الأبدي ، ولا نعلم نزاعا في ذلك بين الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، بل كلهم يكفون عن ذلك؛ لأن الكلام في مثل هذا من فضول القول ،.. ولكن حدث في ذلك خلاف بين المتأخرين.

فقال ناس: يتخاطبون بالعربية. وقال آخرون: إلا أهل النار ، فإنهم يجيبون بالفارسية ، وهي لغتهم في النار. وقال آخرون: يتخاطبون بالسريانية؛ لأنها لغة آدم ، وعنها تفرعت اللغات. وقال آخرون: إلا أهل الجنة ، فإنهم يتكلمون بالعربية.

وكل هذه الأقوال لا حجة لأربابها ، لا من طريق عقل ولا نقل ، بل هي دعاوى عارية عن الأدلة ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم" انتهى.

المسألة السابعة : حكم تلقين الميت بعد دفنه

يروى عن جابر بن سعيد الأزدي قال دخلت على أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو في النزع فقال لي: يا أبا سعيد (إذا أنا مت فاصنعوا بي كما أمر رسول الله ﷺ أن

يصنع بموتانا فإنه قال: إذا مات الرجل منكم فدفنتموه فليقم أحدكم عند رأسه فليقل: يا فلان ابن فلانة ! فإنه يستوي قاعدًا فليقل يا فلان ابن فلانة فإنه سيقول أرشدني رحمك الله فليقل: اذكر ما خرجت عليه من دار الدنيا شهادة أن لا إله الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور فإن منكرًا ونكيرًا يأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه ويقول له: ما نصنع عند رجل لقن حجته ؟ فيكون الله حجيجهما دونه)[1].

قال العز بن عبد السلام في فتاواه (ص٤٢٧): لم يصح في التلقين شيء وهو بدعة وقوله ﷺ:(لقنوا موتاكم لا إله إلا الله) محمول على من دنا موته ويئس من حياته.اهـ.

وقال ابن قدامة المقدسي في المغني (٢/ ٣٧٧): فأما التلقين بعد الدفن فلم أجد فيه عن أحمد شيئًا ولا أعلم فيه للأئمة قولًا سوى ما رواه الأثرم قال قلت

(١) أخرجه الطبرانى (٨/ ٢٤٩، رقم ٧٩٧٩)، والخلعي في الفوائد (٥٥/ ٢)، وابن عساكر (٢٤/ ٧٣) والحديث قال عنه ابنُ عدي: منكر، وضعفه الضياء في السنن والأحكام (٣/ ١٨٧)، وقال ابنُ الصلاح - كما في الأذكار (ص ١٧٤) للنووي: ليس إسنادُهُ بالقائم، وضعّفه النووي في المجموع (٥/ ٣٠٤)، وفي الفتاوى (ص٥٤)، وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٩٦): وهو مما لا يحكم بصحته، وقال ابن القيم في تحفة المودود: لا يصح، وقال في زاد المعاد (١/ ٥٢٣): لا يصح رفعه، وقال في تهذيب سنن أبي داود (١٣/ ٢٩٣): وهذا الحديث متفق على ضعفه، وضعفه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٤٢٠)، وقال الهيثمى في المجمع (٢/ ٣٢٤): فيه من لم أعرفه جماعة، وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٦٣)، وفي نتائج الأفكار: ضعيف جدًّا، وضعفه الزركشي في اللآلئ المنثورة (ص٥٩)، والسيوطي في الدرر المنتثرة (ص٢٥)، والصنعاني في سبل السلام (٢/ ١١٤)، وقال: ويتحصل من كلام أئمة التحقيق أنه حديث ضعيفٌ والعمل به بدعة، ولا يغتر بكثرة من يفعله، وضعفه الألباني في الإرواء (٣/ ٢٠٢)، وقال في الضعيفة (٥٩٩): منكر.

لأبي عبد الله: فهذا الذي يصنعون إذا دفن الميت، يقف الرجل ويقول: يا فلان ابن فلان اذكر ما فارقت عليه شهادة أن لا إله إلا الله ؟

فقال: ما رأيت أحدًا فعل هذا إلا أهل الشام حين مات أبو المغيرة جاء إنسان فقال ذلك. قال: وكان أبو المغيرة يروي فيه عن أبي بكر بن أبي مريم عن أشياخهم أنهم كانوا يفعلونه.اهـ.

وسئل شيخ الإسلام كما في مجموع فتاواه (٢٤/ ٢٩٦): عن تلقين الميت في قبره بعد الفراغ من دفنه هل صح فيه حديث عن النبي ﷺ أو عن صحابته ؟ وهل إذا لم يكن فيه شيء يجوز فعله ؟ أم لا ؟.

فأجاب: هذا التلقين المذكور قد نقل عن طائفة من الصحابة: أنهم أمروا به كأبي أمامة الباهلي وغيره. وروي فيه حديث عن النبي ﷺ لكنه مما لا يحكم بصحته ؛ ولم يكن كثير من الصحابة يفعل ذلك فلهذا قال الإمام أحمد وغيره من العلماء: إن هذا التلقين لا بأس به فرخصوا فيه ولم يأمروا به، واستحبه طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد وكرهه طائفة من العلماء من أصحاب مالك وغيرهم، والذي في السنن {عن النبي ﷺ أنه كان يقوم على قبر الرجل من أصحابه إذا دفن ويقول: سلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل} وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: {لقنوا أمواتكم لا إله إلا الله} . فتلقين المحتضر سنة مأمور بها. وقد ثبت أن المقبور يسأل ويمتحن وأنه يؤمر بالدعاء له ؛ فلهذا قيل: إن التلقين ينفعه فإن الميت يسمع النداء. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: {إنه ليسمع قرع نعالهم} وأنه قال: {ما أنتم بأسمع لما أقول منهم} وأنه أمرنا بالسلام على الموتى. فقال: {ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله روحه حتى يرد عليه السلام} والله أعلم.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (١/ ٥٢٢): ولم يكن يجلس -أي رسول الله- ﷺ يقرأ عند القبر ولا يلقن الميت كما يفعله الناس اليوم.اهـ.

وقال شمس الحق العظيم آبادي في عون المعبود (٨/ ٢٦٨): والتلقين بعد الموت قد جزم كثير أنه حادث.اهـ.

وسئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٢/ ١١٠٢): أود أن تعطوني فكرة عن تلقين الميت عند نزوله في القبر هل هي صحيحة أو بدعة؟

فأجاب: الحمد لله "التلقين اختلف فيه العلماء، وهو أن يقال له: يا فلان اذكر ما خرجت به من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله... إلى آخره، وجاء في بعض الآثار عن أهل الشام ولكنها غير صحيحة.

والصواب: أن التلقين بدعة، فلا يقال: يا فلان اذكر ما خرجت به من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنك رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا، وبالقرآن إماما.

هذا ليس له أصل يعتمد عليه، والذي ينبغي تركه، هذا هو المعتمد لعدم الدليل.

ولكن يستحب إذا فرغ الناس من دفن الميت يستحب الوقوف عليه والدعاء له بالمغفرة والثبات، هذا هو المشروع، فإذا فرغ الناس من دفن الميت يوقف عليه ويدعى له بالمغفرة والثبات، وكان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: (استغفروا لأخيكم. وسلوا له بالتثبيت فإنه الآن يسأل)، هذه السنة" انتهى.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٩/ ١٨): فضيلة الشيخ حفظكم الله! ما حكم تلقين الميت للشهادة بعد قبره؟

فأجاب: هذا التلقين الذي يفعل في بعض البلاد الإسلامية عمدته حديث لا يصح بوجه من الوجوه، وكم دَفَنَ النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من أصحابه من الشهداء وغيرهم ولم ينقل عنه ولا في حديث واحد من فعله ﵇ ولو كان حديثًا ضعيفًا أنه بعد أن دفن الميت أخذ ﵇ يلقنه هذا التلقين: إذا جاءاك فسألاك من ربك فقل: ربي الله إلى آخره، هذا لم يرد من فعله ﵇ مطلقًا وإنما جاء في حديث من حديث أبي أمامة أو ثوبان الآن أنا أشك في معجم الطبراني الكبير وفي إسناده ضعف مذكور في محله.

فهذا التلقين لا يجوز اتخاذه سنةً؛ لأن عمل الرسول ﵇ لم يكن عليه... ومن عجب أن التلقين المشروع لا يأخذ اهتمامهم كما يهتمون بهذا التلقين غير المشروع، أعني بالتقلين المشروع: ما جاء به الحديث الصحيح من غير ما طريق واحد ألا وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله» لقنوا موتاكم، أي: الذين حضرهم الموت وأشرفوا على الموت وهم لا يزالون في قيد الحياة؛ لأن هذا التلقين قد ينفعهم؛ لأن الرسول ﵇ ثبت عنه أنه قال: «إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة عبده ما لم يغرغر» فإذا كان فضل الله ﷻ واسعًا إلى درجة أنه يقبل توبة عباده أو عبده قبل أن تصل الروح إلى الحلقوم فحينئذٍ يؤمل ويرجى أن المحتضر إذا قيل له: قل: لا إله إلا الله، أن يستجيب لهذا القول ولهذا الأمر فيكون آخر قوله شهادة أن لا إله إلا الله، ويكون ذلك بشرى له بحسن خاتمته، فهذا التلقين هو المشروع.. «لقنوا موتاكم» أي: الذين حضرهم الموت لا إله إلا الله، أما تلقين الميت الذي وضع في قبره فلا يفيده شيئًا؛ لأنه انتهى أجله إن صالحًا فصالح وإن طالحًا فطالح ولا يفيده هذا التلقين المبتدع، بل أنا أقول: هذا التلقين يشبه نوعًا من التلقين معروف بين الناس في

هذا الزمان وهم الطلبة في المدارس، إذا أحدهم لقن جاره في أثناء الامتحان قد يكون سببًا لسقوطه؛ لأنه تلقن ما لا ينبغي أن يتلقنه؛ لأنه هذا الذي كان قد لقنه كان ينبغي عليه أن يصل إليه بجهده وتعبه ونصبه، أما أن يستفيد من جهود غيره فسوف لا يستفيد، كذلك هذا الميت الذي دفن في قبره فتلقينه لا يفيده شيئًا مطلقًا.

«من مات وكان آخر ما قال: لا إله إلا الله» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

بهذه المناسبة تلقين المحتضر: هناك بعض العلماء يقولون، وفي زعمي قولهم هذا يشبه الفلسفة التي لا أصل لها في الشرع بل ولا في العقل، يقولون: لا ينبغي للملقن لمن حضره الموت أن يقول له: قل لا إله إلا الله، وإنما هو يذكر الله ويقول: لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله تسميعًا للمحتضر لعله يتنبه من غفلته في تلك الساعة الخطيرة ويقول: لا إله إلا الله، لماذا يقول هذا البعض، أنه لا ينبغي أن يأمره بلا إله إلا الله؟ خشية أن يرفض الأمر فيكون عاقبة أمره الموت على كفر والعياذ بالله، هكذا زعموا.

لكني أقول: قد جاء في السنة الصحيحة ما يبين أن قوله عليه السلام: «لقنوا موتاكم: لا إله إلا الله» إنما يعني أمر المحتضر بأن يقول: لا إله إلا الله، جاء هذا في صحيح البخاري حينما مرض غلام من اليهود كان يخدم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فعاده النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فوجده في حضرة الموت، فقال له عليه الصلاة والسلام: «قل: لا إله إلا الله» هذا هو التلقين.

وبهذا ينبغي أن نأخذ فائدة وهي: أن أقوال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يجب تفسيرها بأفعاله عليه الصلاة والسلام فالسنة القولية تبين بالسنة الفعلية، «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» قيل كما سمعتم آنفًا أنه يقول في حضرة

المحتضر: لا إله إلا الله، ولا يخاطبه بقوله: قل: لا إله إلا الله، فجاءت السنة الفعلية مبينة أن المقصود من: «لقنوا موتاكم» هو أن يؤمر بأن يقول: لا إله إلا الله، هذا ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام حينما عاد هذا الغلام اليهودي الذي كان يخدم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو يهودي ابن يهودي، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام هو من أكرم الناس خلقًا ولو كان هذا الغلام يهوديًا فقد عاده، ولكنه عليه الصلاة والسلام يهتبل كل فرصة ليبلغ الناس العلم والدين فاغتنمها فرصة وقال له: «» يا غلام! قل: لا إله إلا الله» وعلى رأس الغلام والده اليهودي فنظر الغلام إلى أبيه كأنه يقول له ما رأيك.. هاأنت تسمع محمدًا عليه الصلاة والسلام يقول لي: قل: لا إله إلا الله، فالخبيث وهذا شأن الكفار كما قال تعالى: {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} (البقرة:١٤٦) هو يعرف أن دعوة الرسول حق ولكن كما قال أيضًا في الآية الأخرى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ} (النمل:١٤) لما رأى اليهودي ابنه في طريق الموت وأنه لا حياة له بعد ذلك قال له: أطع أبا القاسم، أبا القاسم يقول لابن اليهودي، قل: لا إله إلا الله، واليهودي الوالد يكفر بلا إله إلا الله، ولكن لما رأى ولده أنه في طريق الموت ولا نجاة له إذا مات يهوديًا قال له: أطع أبا القاسم، أما هو فلا يزال عاصيًا لأبي القاسم عنادًا وكفرًا وضلالًا.

الشاهد، قال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وخرجت روحه، فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد لله الذي نجاه بي من النار» فهذا هو التلقين المشروع أن يقال للمحتضر: قل: لا إله إلا الله، أما تلقينه وهو في قبره فلا يفيده شيئًا سواء عند دفنه أو بعد دفنه وهو ميت لا حراك له ولا يسمع ما يلقن ولو سمع لما استجاب؛ لأنه خرج بما حصله في الدنيا من إيمان وعمل صالح، أو كفر وعمل

طالح.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا لفهم الإسلام فهمًا صحيحًا وأن يرزقنا العلم الصالح، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: بعض الناس عندما يموت الميت ويوضع في قبره وينتهى من دفنه يعود إليه أحد أقاربه.. شقيقه ويقول له: يا فلان بن فلان! إن الله ربك والإسلام دينك ومحمد نبيك! ويسمى تلقين الميت، ما رأيكم في هذا؟

فأجاب: رأينا أن هذا بدعة، وأنه لا يغني من الحق شيئًا، والضال ضال وإن لقن، وهاهو الدجال إذا بعث فإن من كان في قلبه نفاق -والعياذ بالله- وإن كان يعرف أخباره سوف يتبعه، لكن الثابت: (أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل) ولم يقل لقنوه، فتلقين الميت بعد دفنه بدعة.اهـ.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (٨/ ٣٣٨): أنا أعرف أن التلقين لا يجوز للميت بعد الموت، ولكن كثير من العلماء يجيزونه عندنا، واحتجوا بالمذهب الشافعي، وقد رجعت إلى نيل الأوطار للشوكاني حيث سكت عن ذلك وقال: أجازه بعض الشافعية. ولا أدري ما الحل في ذلك.

فأجابوا: الصحيح من قولي العلماء في التلقين بعد الموت أنه غير مشروع، بل بدعة، وكل بدعة ضلالة، وما رواه الطبراني في الكبير عن سعيد بن عبد الله الأودي عن أبي أمامة رضي الله عنه (في تلقين الميت بعد دفنه) ذكره الهيثمي في الجزء الثاني والثالث من مجمع الزوائد، وقال: في إسناده جماعة لم أعرفهم.اهـ.. وعلى هذا لا يحتج به على جواز تلقين الميت، فهو بدعة مردودة بقول رسول

الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وليس مذهب إمام من الأئمة الأربعة ونحوهم كالشافعي حجة في إثبات حكم شرعي، بل الحجة في كتاب الله وما صح من سنة النبي ﷺ في إجماع الأمة، ولم يثبت في التلقين بعد الموت شيء من ذلك فكان مردودا.

أما تلقين من حضرته الوفاة كلمة: (لا إله إلا الله) ليقولها وراء من لقنه إياها فمشروع؛ ليكون آخر قوله في حياته كلمة التوحيد، وقد فعل ذلك النبي ﷺ مع عمه أبي طالب، لكنه لم يستجب له، بل كان آخر ما قال: إنه على دين عبد المطلب.

(باب ذكر مباحث عذاب القبر)

مسائل في الباب:

المسألة الأولى: هل تموت الروح كما يموت البدن ؟

اختلف الناس في هذه المسألة، فقالت طائفة: تموت الروح، وتذوق الموت، وقالت طائفة لا تموت، واستشهد كلٌّ منهم بأدلة، وإليك بيان ذلك:

القول الأول: الروح تموت كما يموت البدن.

وهو محكيٌّ عن طائفة من المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة، وهو قول جماعة من فقهاء الأندلس.

قال الحافظ ابن رجب في أهوال القبور (١/ ١٨٧): وقد حكي عن طائفة من المتكلمين وذهب إليه جماعة من فقهاء الأندلس قديمًا، منهم عبد الأعلى بن وهب بن محمد ابن عمر بن لبابة، ومن متأخريهم: كالسهيلي وأبي بكر بن العربي وغيرهما.اهـ واستدل هؤلاء لقولهم بأدلةٍ، ومنها:

الدليل الأول: قول الله تعالى {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} {آل عمران: ١٨٥}

قالوا والروح نفسٌ فهي ذائقة الموت.

الدليل الثاني: قول الله ﷻ {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} {٢٦، ٢٧}.

قالوا قد دلَّت الآية وغيرها من الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده.

الدليل الثالث: قول الله سبحانه: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} {القصص: ٨٨}. قالوا وإذا كانت الملائكة تموت، فالنفوس البشرية أولى بالموت.

الدليل الرابع: قوله تعالى عن أهل النار أنهم قالوا: {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} {غافر: ١١}.

قالوا فالموتة الأولى هذه المشهودة وهي للبدن، والأخرى للروح.

القول الثاني: الروح لا تموت، بل هي مخلوقةٌ للبقاء، وإنما الموت للأبدان.

وهذا القول هو الحق وهو قول أهل السنة والجماعة، واستدلوا لذلك بعدة أدلة، ومنها:

الدليل الأول: قول الله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} {الدخان: ٥٦}.

قالوا: هذه الموتة هي مُفارقة الروح للبدن.

الدليل الثاني: الأحاديث الكثيرة الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد مُفارقتها للأبدان.

قالوا ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب، فدلَّ ذلك على بقائها.

قال ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنِّحل (٢/ ١٠٩): وهذا الموت إنما هو فراقها - يعني الرُّوح - للجسد فقط، برهان ذلك قول الله تعالى:

{أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ} {الأنعام: ٩٣}، وقوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} {البقرة: ٢٨} فصح أن الحياة المذكورة إنما هي ضم الجسد إلى النفس، وهو نفخ الروح فيه، وأن الموت المذكور إنما هو التفريق بين الجسد والنفس فقط وليس موت النفس، مما يظنه أهل الجهل وأهل الإلحاد، من إنها تعدم جملة بل هي موجودة قائمة كما كانت قبل الموت، وقبل الحياة الأولى، ولا أنها يذهب حسها وعلمها، بل حسها بعد الموت أصح ما كان، وعلمها أتم ما كان، وحياتها التي هي الحس والحركة الإرادية باقية بحسبها أكمل ما كانت قَطُّ، قال ﷻ: {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} {العنكبوت: ٦٤}.اهـ

وقال القرطبي في التذكرة (ص١٥١): وكل من يقول إن الروح يموت ويفنى فهو ملحد وكذلك من يقول بالتناسخ أنها إذا خرجت من هذا ركبت في شيء آخر حمار أو كلب أو غير ذلك وإنما هي محفوظة بحفظ الله إما منعمة وإما معذبة على مايأتي بيانه إن شاء الله تعالى.اهـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢/ ٤٣٢): والأرواح مخلوقة بلا شك، وهي لا تعدم ولا تفنى، ولكن موتها مفارقة الأبدان وعند النفخة الثانية تعاد الأرواح إلى الأبدان.اهـ

وقال الإمام ابن القيم في الروح (١/ ٣٤): هل الروح تموت أم الموت للبدن وحده؟

اختلف الناس في هذا، فقالت طائفة: تموت الروح وتذوق الموت؛ لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت.

قالوا: وقد دلَّت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده، قال تعالى: {كُلُّ مَنْ

عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} {٢٦، ٢٧}، وقال تعالى {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} {القصص: ٨٨} قالوا وإذا كانت الملائكة تموت، فالنفوس البشرية أولى بالموت. قالوا وقد قال تعالى عن أهل النار أنهم قالوا {رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} {غافر: ١١} فالموتة الأولى هذه المشهودة وهي للبدن، والأخرى للروح.

وقال آخرون لا تموت الأرواح ؛ فإنها خُلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان قالوا وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب، وقد قال تعالى: {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ} {آل عمران: ١٦٩، ١٧٠} هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت، والصواب أن يقال موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإنْ أُريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإنْ أُريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدمًا محضًا فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب... كما صرح به النص أنها كذلك حتى يَرُدَّها الله في جسدها.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم أيضا في مدارج السالكين (٣/ ٢٥٦): يعني أن الأرواح خلقت للبقاء لا للفناء هذا هو الحق وما خالف فيه إلا شرذمة من الناس من أهل الإلحاد القائلين إن الأرواح تفنى بفناء الأبدان لكونها قوة من قواها وعرضا من أعراضها

وهؤلاء قسمان أحدهما منكر لمعاد الأبدان والثاني من يقر بمعاد الأبدان

ويقول إن الله عز وجل يعيد قوى البدن وأعراضه ومنها الروح فتفنى بفناء البدن فليس عند الطائفتين روح قائمة بنفسها تساكن البدن وتفارقه وتتصل به وتنفصل عنه

وأما الحق الذي اتفقت عليه الرسل وأتباعهم فهو أن هذه الأرواح باقية بعد مفارقة أبدانها لا تفنى ولا تعدم وأنها منعمة أو معذبة في البرزخ فإذا كان يوم المعاد ردت إلى أبدانها فتنعم معها أو تعذب ولا تعدم ولا تفنى.اهـ.

وقال في هداية الحيارى (ص٥١٠): وأما الروح التي بها الحياة فهي النفس على قاعدة أهل السنة، وهي جسم لطيف ويشاكل الأجسام المحسوسة تحدث، ويخرج بها إلى السماء بفرح، لا تموت ولا تفنى، وهي مما له أول وليس له آخر كالجنة والنار، والأجساد في المعاد وهي بعينين ويدين، وهي ذو ريحة طيبة أو كريهة بحسب محلها، وهي إما منعمة أو معذبة، وذلك غاية الدليل على حدوثها.اهـ.

وقال العلامة ابن أبي العز في شرح الطحاوية (١/ ٢٦٤): واختلف الناس هل تموت الروح أم لا ؟ فقالت طائفة: تموت ؛ لأنها نفسٌ، وكل نفس ذائقة الموت، وقد قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} {٢٦، ٢٧}، وقال تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} {القصص: ٨٨}.

قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت، فالنفوس البشرية أولى بالموت.

وقال آخرون لا تموت الأرواح، فإنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان قالوا وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، والصواب أن يقال موت النفوس هو

مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أُريد بموتها هذا القدر، فهي ذائقة الموت، وإن أُريد أنها تعدم وتفنى بالكلية، فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب.

المسألة الثانية: عذاب القبر ونعيمه

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص: ٢٧٦): وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلًا، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، بل إن الشرع قد يأتي بما تحار فيه العقول، فإن عودة الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا.

وقال في موضع آخر (ص: ٢٦٨): واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رمادًا ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور، وما ورد من إجلاسه، واختلاف أضلاعه ونحو ذلك، فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير.

وأنكرت الملاحدة ومن تمذهب بمذهب الفلاسفة من الإسلاميين عذاب القبر، وقالوا: ليس له حقيقة، واحتجوا لذلك بأنهم يفتحون القبور فلا يرون شيئًا مما أخبرت به النصوص، وأنكره أيضًا الخوارج وبعض المعتزلة كضرار بن عمرو وبشر المريسي، وخالفهم جميع أهل السنة، وأكثر المعتزلة.

وهؤلاء كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وقد ظن هؤلاء أن أبصارهم يمكن أن ترى كل شيء، وأن أسماعهم يمكن أن تسمع كل شيء، ونحن اليوم نعلم من أسرار الكون ما كانت أسماعنا وأبصارنا عاجزة عن سماعه ورؤيته، ومن آمن بالله صدَّق خبره.

وقد وردت إشارات في القرآن تدل على عذاب القبر، وقد ترجم البخاري في كتاب الجنائز لعذاب القبر، فقال: باب ما جاء في عذاب القبر، وساق في الترجمة قوله تعالى: {إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ)} [الأنعام: ٩٣]، وقوله تعالى: {سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ)} [التوبة: ١٠١]. وقوله تعالى: {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) [غافر: ٤٥ - ٤٦].

والآية الأولى التي ساقها البخاري إنما هي في تعذيب الملائكة الكفار في حال الاحتضار، والآية الثانية تدل على أن هناك عذابين سيصيبان المنافقين قبل عذاب يوم القيامة، العذاب الأول ما يصيبهم الله به في الدنيا إما بعقاب من عنده وإما بأيدي المؤمنين، والعذاب الثاني عذاب القبر، قال الحسن البصري: (سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ)} [التوبة: ١٠١]: (عذاب الدنيا، وعذاب القبر)، وقال الطبري في تفسيره (١٤/ ٤٤٢): والأغلب أن إحدى المرتين عذاب القبر، والأخرى تحتمل أحد ما تقدم ذكره من الجوع أو السبي أو القتل والإذلال أو غير ذلك.

والآية الثالثة حجة واضحة لأهل السنة الذين أثبتوا عذاب القبر، فإن الحق تبارك وتعالى قرر أن آل فرعون يعرضون على النار غدوًا وعشيًا، وهذا قبل يوم

القيامة، لأنه قال بعد ذلك: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، قال القرطبي كما في الفتح (٣/ ٢٣٣): الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر.

ومن الإشارات القرآنية الواضحة الدالة على فتنة القبر وعذابه قوله تبارك وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ففي الحديث الصحيح الذي يرويه البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (إذا أقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وفي رواية أخرى: وزاد: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [إبراهيم: ٢٧] نزلت في عذاب القبر) رواه البخاري (١٣٦٩).

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: (أن اليهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة الرسول ﷺ عن عذاب القبر، فقال: نعم، عذاب القبر. قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى إلا تعوذ من عذاب القبر) رواه البخاري (١٣٧٢). زاد غندر: (عذاب القبر حق) رواه البخاري (١٣٧٣). وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (دخلت عليَّ عجوزان من عُجُز يهود المدينة، فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت: فكذبتهما، ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا، ودخل رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا عليَّ، فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فقال: صدقتا، إنهم يعذبون عذابًا تسمعه البهائم " قالت: فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر) رواه البخاري (٦٣٦٦)، ومسلم (٥٨٦).

ولعظم هذا الأمر وخطورته كان الرسول ﷺ يعلمه لأصحابه، بل وخطب فيهم مرة به، ففي صحيح البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: قالت: (قام رسول الله ﷺ خطيبًا فذكر فتنة القبر التي يفتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة) رواه البخاري (١٣٧٣). والنسائي، وزاد النسائي (٤/ ١٠٣): (حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ، فلما سكنت ضجتهم، قلت لرجل قريب مني: أي بارك الله لك، ماذا قال رسول الله ﷺ آخر قوله؟ قال: قد أوحى إلي: أنكم تفتنون في القبور قريبًا من فتنة الدجال) وصححه العلامة الألباني في صحيح سنن النسائي.

وقد سمع الرسول الكريم صلى الله علي وسلم بعض المعذبين في قبورهم، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه (٢٨٦٧) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: (بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار، على بغلة له، ونحن معه، إذ حادت به، فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا، قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراك، فقال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه).

وفي صحيح البخاري (١٣٧٥)، ومسلم (٢٨٦٩) عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: (خرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس، فسمع صوتًا، فقال: يهود تعذب في قبورها).

ويدل على سماع الرسول ﷺ للمعذبين في قبورهم الحديث الذي يرويه البخاري (٦٠٥٥)، ومسلم (٢٩٢) في صحيحهما عن ابن عباس، وفيه أن الرسول ﷺ مرّ بقبرين، فقال: (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير..) الحديث.

قال العلامة الألباني في الصحيحة (١/ ١/ ٢٩٤ - ٢٩٧): في هذه الأحاديث فوائد كثيرة منها: إثبات عذاب القبر، والأحاديث في ذلك متواترة، فلا مجال للشك فيه بزعم أنها آحاد! ولو سلمنا أنها آحاد فيجب الأخذ بها لأن القرآن يشهد لها، قال تعالى: {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} (غافر:٤٥، ٤٦) ولو سلمنا أنه لا يوجد في القرآن ما يشهد لها، فهي وحدها كافية لإثبات هذه العقيدة، والزعم بأن العقيدة لا تثبت بما صح من أحاديث الآحاد زعم باطل دخيل في الإسلام، لم يقل به أحد من الأئمة الأعلام كالأربعة وغيرهم، بل هو مما جاء به بعض علماء الكلام، بدون برهان من الله ولا سلطان، وقد كتبنا فصلًا خاصا في هذا الموضوع الخطير في كتاب لنا، أرجو أن أوفق لتبييضه ونشره على الناس.اهـ.

وقال النووي في شرح مسلم (١٧ / ٢٠١): فان قيل فنحن نشاهد الميت على حاله في قبره فكيف يسأل ويقعد ويضرب بمطارق من حديد ولا يظهر له أثر، فالجواب أن ذلك غير ممتنع بل له نظر في العادة وهو النائم، فإنه يجد لذة وآلاما لا نحس نحن شيئا منها، وكذا يجد اليقظان لذة وآلما لما يسمعه أو يفكر فيه ولا يشاهد ذلك جليسه منه، وكذا كان جبرئيل يأتي النبي ﷺ فيخبره بالوحي الكريم ولا يدركه الحاضرون، وكل هذا ظاهر جلى.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى (٤ / ٢٧٥، ٢٧٦): والنائم يحصل له في منامه لذة وألم وذلك يحصل للروح والبدن حتى إنه يحصل له في منامه من يضربه فيصبح والوجع في بدنه، ويرى في منامه أنه أطعم شيئا طيبا فيصبح وطعمه في فمه، وهذا موجود، فإذا كان النائم يحصل لروحه وبدنه من

النعيم والعذاب ما يحس به والذي إلى جنبه لا يحس به حتى قد يصيح النائم من شدة الألم أو الفزع الذي يحصل له ويسمع اليقظان صياحه وقد يتكلم إما بقرآن وإما بذكر وإما بجواب واليقظان يسمع ذلك وهو نائم عينه مغمضة ولو خوطب لم يسمع: فكيف ينكر حال المقبور الذي أخبر الرسول أنه " يسمع قرع نعالهم "، وقال " ما أنتم أسمع لما أقول منهم " ؟

والقلب يشبه القبر، ولهذا قال لما فاتته صلاة العصر يوم الخندق " ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا " وفى لفظ " قلوبهم وقبورهم نارا " وفرق بينهما في قوله: (بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور) وهذا تقريب وتقرير لإمكان ذلك.

ولا يجوز أن يقال ذلك الذي يجده الميت من النعيم والعذاب مثلما يجده النائم في منامه، بل ذلك النعيم والعذاب أكمل وأبلغ وأتم وهو نعيم حقيقي وعذاب حقيقي، ولكن يذكر هذا المثل لبيان إمكان ذلك، إذا قال السائل: الميت لا يتحرك في قبره والتراب لا يتغير ونحو ذلك مع أن هذه المسألة لها بسط يطول وشرح لا تحتمله هذه الورقة والله اعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

المسألة الثالثة: عذاب القبر على الروح والجسد

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٢): هل هو على النفس والبدن أو على النفس ؛ دون البدن ؟ والميت يعذب في قبره حيا أم ميتا ؟ وإن عادت الروح إلى الجسد أم لم تعد فهل يتشاركان في العذاب والنعيم ؟ أو يكون ذلك على أحدهما دون الآخر؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين بل العذاب والنعيم على النفس والبدن

جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين كما يكون للروح منفردة عن البدن وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح ؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة والكلام وفي المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث ؛ قول من يقول إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح ؛ وأن البدن لا ينعم ولا يعذب وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان ؛ وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين ويقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يقولون لا يكون ذلك في البرزخ وإنما يكون عند القيام من القبور وقول من يقول إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب وإنما الروح هي الحياة وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من المعتزلة وأصحاب أبي الحسن الأشعري كالقاضي أبي بكر وغيرهم ؛ وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن وهذا قول باطل ؛ خالفه الأستاذ أبو المعالي الجويني وغيره ؛ بل قد ثبت في الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة أن الروح تبقى بعد فراق البدن وأنها منعمة أو معذبة والفلاسفة الإلهيون يقولون بهذا لكن ينكرون معاد الأبدان وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان ؛ لكن ينكرون معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان ؛ وكلا القولين خطأ وضلال لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف والتحقيق والكلام.

والقول الثالث الشاذ قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب بل لا يكون ذلك حتى تقوم القيامة الكبرى كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم الذين ينكرون عذاب القبر ونعيمه بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق

البدن وأن البدن لا ينعم ولا يعذب فجميع هؤلاء الطائفتين ضلال في أمر البرزخ لكنهم خير من الفلاسفة ؛ لأنهم يقرون بالقيامة الكبرى فإذا عرفت هذه الأقوال الثلاثة الباطلة فليعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة وأنها تتصل بالبدن أحيانا فيحصل له معها النعيم والعذاب. ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى أجسادها وقاموا من قبورهم لرب العالمين. ومعاد الأبدان متفق عليه عند المسلمين واليهود والنصارى وهذا كله متفق عليه عند علماء الحديث والسنة وهل يكون للبدن دون الروح نعيم أو عذاب ؟ أثبت ذلك طائفة منهم وأنكره أكثرهم ونحن نذكر ما يبين ما ذكرناه فأما أحاديث عذاب القبر ومسألة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبي صلى الله عليه... ثم استفاض الشيخ في ذكر الأدلة.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في الروح (ص ٥١، ٥٢): وقد سئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة، ونحن نذكر لفظ جوابه فقال: بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتنعم وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليها في هذه الحال مجتمعين كما تكون على الروح منفردة عن البدن.

مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانا ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى.اهـ.

وسئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٢٨/ ٢٦): ما هي عقيدة أهل السنة والجماعة في عذاب القبر، وهل هو على الروح فقط، أو على الروح والجسد ؟

فأجاب: من عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بعذاب القبر ونعيمه، الميت إما أن ينعم وإما أن يعذب، أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك، وقد أخبر النبي بهذا عليه الصلاة والسلام عن ذلك فالقبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار، فعلى المسلم أن يؤمن بهذا وقد أطلع الله نبيه ﷺ على شخصين يعذبان، أحدهما كان يمشي بالنميمة، والآخر كان لا يتنزه من بوله.

أهل السنة والجماعة يؤمنون بعذاب القبر ونعيمه، أنه حق على الروح والجسد جميعا، ولكن نصيب الروح أكثر، كما قال الله جل وعلا في آل فرعون {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} فهكذا الميت الصالح ينعم في قبره، وغير الصالح يعذب في قبره، ويوم القيامة العذاب أشد، والنعيم أعظم، بعد البعث والنشور.اهـ.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٩/ ١٥١): بالنسبة للروح، بعد وفاة الشخص هل تعود إليه ثانية عندما ينزل إلى القبر وهل يعذب حسب أعماله في القبر؟

فأجاب: لا شك أن الميت حينما يوضع في قبره فتعود الروح إليه ساعة مجيء الملكين: منكر ونكير لسؤاله، فإذا ما أجاب بالجواب عاد ميتًا كما كان من قبل، وأنا أعني بهذا أن الروح حين يوضع في قبره تعود إليه الروح وتتلبسه بحيث أنه لما بيكون ضجيع القبر يجلس حتى يوجه إليه السؤال فيجيب،

فالروح تتلبس قسمه الأعلى فإذا ما انتهى من الجواب عاد كما كان ميتًا، هنا الآن سؤال: أين مصير روحه؟

الجواب: يعذب أو ينعم بروحه لأن جسده ميت، طريقة التنعيم والتعذيب طبعًا هذه الأمور الغيبية التي لا يجوز لمسلم أن يتعمق فيها، لأنه من باب الغيب وما نعلم الغيب ولا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، ولكن في عندنا بعض التفاصيل التي عرفناهما من السنة الصحيحة، من ذلك مثلًا إذا كانت روح الميت مؤمنة يفتح له طاقة من القبر يطل منها على منزله في الجنة، من روحها، ونعيمها ولا يزال هكذا يتنعم إلى قيام الساعة.

في حديث آخر أن هذا الميت المؤمن إما أن يكون من عامة المؤمنين، وإما أن يكون شهيدًا، فإذا كان من عامة المؤمنين فتتنقل روحه منه إلى بطن طير من طيور الجنة فيتنعم يأكل هذا الطير من شجر الجنة، إذا كان هذا الميت شهيدا فتكون روحه في حوصلة طير من طيور الجنة.

روح المؤمن العادي في بطن الطير، روح المؤمن الشهيد في حوصلة الطير.

فإذن روح المؤمن نعيمه إما في قبره وقد ينتقل في الجنة بروحه وليس بجسده، أما إذا كان لا سمح الله فاسقا أو كافرًا فيفتح له طاقة ويرى منزله في النار، في جهنم، يفتح له منها طاقة فيأتيه من ريحها ولهيبها ودخانها فلا يزال يعذب حتى تقوم الساعة.

ومن هنا نصل إلى نقطة هامة جدًا لها علاقة ببعض مشاكل العصر الحاضر، فلا بد أنكم تسمعون بناس يزعمون أنهم يستحضرون الأرواح، تسمعون الشيء هذا ولا لا؟

يعني استحضار الأرواح اليوم من بدع العصر الحاضر، وضلالات الكفار

الأوربيين وأمثالهم.

هؤلاء لا يؤمنون بشيء اسمه بعث ونشور... الخ. فيزعمون أن بإمكانهم أن يستحضروا روح من شاؤوا من الأطباء، من العلماء، من الصالحين، من الطالحين الخ. واغتر بهم كثر من المسلمين في مصر، في سوريا الخ. نحن نعرف بعضهم، فإذا استحضرنا هذه العقيدة الإسلامية وهي أن روح الميت في القبر: ينعم أو يعذب أن ينتقل إذا كان مؤمنًا إلى الجنة، كيف يمكن استعادة هذا الأرواح إلى عالم الدنيا، واستنطاقها، واستجوابها؟ هذا من تدجيل الشيطان على هؤلاء الناس اليوم إذا تذكرتم هذا الحقيقة فاذكروا معها عملية استحضار الأرواح هو دجل عصري، دجل عصري يخالف الشريعة الإسلامية.اهـ.

وسئل **العلامة** العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٢٥): هل عذاب القبر على البدن، أو على الروح؟.

فأجاب: الأصل أنه على الروح؛ لأن الحكم بعد الموت للروح، والبدن جثة هامدة، ولهذا لا يحتاج البدن إلى إمداد لبقائه، فلا يأكل ولا يشرب، بل تأكله الهوام، فالأصل أنه على الروح، لكن قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن الروح قد تتصل بالبدن فيعذب أو ينعم معها، وأن لأهل السنة قولا آخر بأن العذاب، أو النعيم يكون للبدن دون الروح، واعتمدوا في ذلك على أن هذا قد رئي حسّا في القبر، فقد فتحت بعض القبور ورئي أثر العذاب على الجسم، وفتحت بعض القبور ورئي أثر النعيم على الجسم.

وقد حدثني بعض الناس أنهم في هذا البلد هنا في عنيزة كانوا يحفرون لسور البلد الخارجي، فمروا على قبر فانفتح اللحد فوجد فيه ميت أكلت كفنه الأرض، وبقي جسمه يابسا لكن لم تأكل منه شيئا حتى إنهم قالوا: إنهم رأوا

لحيته، وفيها الحنا وفاح عليهم رائحة كأطيب ما يكون من المسك، فتوقفوا، وذهبوا إلى الشيخ وسألوه، فقال: دعوه على ما هو عليه واجنبوا عنه، احفروا من يمين أو من يسار.

فبناء على ذلك قال العلماء: إن الروح قد تتصل في البدن، فيكون العذاب على هذا وهذا، وربما يستأنس لذلك بالحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «إن القبر ليضيق على الكافر حتى تختلف أضلاعه»، فهذا يدل على أن العذاب يكون على الجسم؛ لأن الأضلاع في الجسم، والله أعلم.اهـ.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية: عذاب القبر مسلط على الإنسان المكلف، والإنسان المكلف اسم لروحه وجسده، ولذلك الأدلة التي دلت على حصول عذاب القبر تتناول الروح والجسد معا، فالعذاب والنعيم يقع على الروح ويقع على الجسد، يقع على الروح متصلة بالجسد بنوع من الاتصال الذي يصلح للحياة البرزخية، ويقع على الروح مجردة، وربما على البدن مجردا؛ يعني على البدن وحده ونحو ذلك، ذكر هذا طائفة من العلماء لأجل دلالة النصوص على هذا وهذا.

والظاهر أن العذاب والنعيم وما يحصل في البرزخ يقع على الإنسان بروحه وجسده؛ لكن تعلق الروح بالجسد هنا يختلف، لهذا صار قول أهل السنة والجماعة أن العذاب يقع على الروح وعلى الجسد، وأن النعيم أيضا في المقابل للروح وللجسد.

والمخالف في تعلق الروح بالبدن هنا ربما كان من المتنسبين للسنة، فمن المتنسبين للسنة من العلماء من يقول العذاب على الروح والنعيم للروح وأما البدن فإنه لا يعذب ولا ينعم كما ذكرنا، ولهذا صارت أقوال أهل السنة في هذه

المسألة؛ يعني المنتسبين للسنة ثلاثة أقوال:

القول الأول: قول أهل السنة الذي دونوه في عقائدهم وقرره أئمتنا أن العذاب -كما ذكرنا- والنعيم يقع على الروح والجسد معا على هذا وهذا.

القول الثاني: أنه على الروح فقط دون الجسد، وهذا قول طائفة منهم ابن حزم، وطائفة من المعتزلة والأشاعرة وجماعة.

القول الثالث: أن العذاب والنعيم يكون للروح والبدن ما دام باقيا، وأما إذا تحلل فإنه يكون العذاب والنعيم للروح فقط.

وظاهر الأدلة كما ذكرنا هو الأول وهو الذي قرره الأئمة وللمسألة تفصيل وردود على ابن حزم وعلى غيره تطلب من المطولات.

المسألة الرابعة: من لم يدفن من مصلوب ونحوه يناله نصيبه من فتنة السؤال وضغطة القبر

قال الإمام ابن القيم في كتاب الروح (ص٥٨): مما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب يناله نصيبه منه قبر أم لم يقبر، فلو أكلته السباع أو حرق حتى صار رمادا أو نسف في الهواء أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل من المقبور.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٢٦): ما المراد بالقبر، هل هو مدفن الميت أو البرزخ؟.

فأجاب: أصل القبر مدفن الميت، قال الله تعالى: {ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}، قال ابن عباس: أي أكرمه بدفنه. وقد يراد به البرزخ الذي بين موت الإنسان وقيام الساعة، وإن لم يدفن، كما قال تعالى: {وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}. يعني من وراء الذين ماتوا؛ لأن أول الآية يدل على هذا: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ

الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}.

ولكن هل الداعي إذا دعا «أعوذ بالله من عذاب القبر»، يريد عذاب مدفن الموتى، أو من عذاب البرزخ الذي بين موته وبين قيام الساعة؟.

الجواب: يريد الثاني؛ لأن الإنسان في الحقيقة لا يدري هل يموت ويدفن، أو يموت وتأكله السباع، أو يحترق، ويكون رمادا ما يدري! {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ}، فاستحضر أنك إذا قلت: من عذاب القبر، أي من العذاب الذي يكون للإنسان بعد موته إلى قيام الساعة.اهـ.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية: عذاب القبر اسم لما بعد الموت، وقيل عنه عذاب القبر تغليبا، وقد يكون عذابا في القبر وقد يكون عذابا في غير القبر، يعني أن من فارقت روحه جسده فإنه إما أن ينعم وإما أن يعذب، وغالب الناس من جميع الملل والنحل والديانات يقبرون، فلذلك صارت سمة للمسألة اسم نعيم القبر أو عذاب القبر، وإلا فحقيقتها عذاب البرزخ ونعيم البرزخ؛ لأن الحياة المقصود بالتنعم أو العذاب فيها هي الحياة الثانية وهي الحياة البرزخية.

فالحياة ثلاث: الحياة الدنيا، والحياة البرزخية، والحياة الآخرة.

والمقصود هنا الحياة البرزخية ولذلك من دفن أو من لم يدفن وأحرق وذر أو من أكل فتفرقت أجزاؤه أو من رمي في البحر ولم يقبر أو إلى آخره، أو من رفع في مكان ولم يجعل تحت الأرض في قبر، فالجميع صاروا إلى حياة برزخية.

فإذا قول العلماء عذاب القبر أو ما جاء في الدليل في بعض النصوص من

تسميته عذاب القبر هذا من باب التغليب؛ لأن غالب الناس يدفنون.

المسألة الخامسة: حقيقة ضمة القبر

ضمة القبر أول ما يلاقيه الميت في عالم البرزخ، وقد جاءت بإثباتها نصوص صريحة صحيحة عن النبي ﷺ، منها حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (إن للقبر ضغطة ولو كان أحد ناجيا منها نجا منها سعد بن معاذ)[١].

ومنها حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال عن سعد بن معاذ رضي الله عنه حين توفي (هذا الذي تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفا من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه)[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٥٥)، والبغوي في حديث علي بن الجعد (١٨٤٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ١٠٧)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١١١٤) وغيرهم والحديث قال عنه الحافظ في القول المسدد (٨١) والحديث صححه الطبري في مسند عمر (٢/ ٥٩٩)، وقال الذهبي في السير (١/ ٢٩١): إسناده قوي، وقال الحافظ العراقي إسناد جيد وقال الحافظ أبو الحسن الهيثمي رجاله رجال الصحيح ورواه أحمد أيضا عن محمد بن جعفر عن شعبة عن سعد بن إبراهيم عن نافع مولى ابن عمر عن إنسان عن عائشة نحوه وهذه الرواية تدل على أن نافعا لم يسمعه من عائشة رضي الله عنها وما رواه يعقوب ويحيى هو الراجح ويمكن ان يكون نافع سمعه عن إنسان عن عائشة ثم سمعه عنها أيضا فرواه بالوجهين.اهـ. وقال العلامة الألباني في الصحيحة (١٦٩٥) وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه وشواهده صحيح بلا ريب، فنسأل الله تعالى أن يهون علينا ضغطة القبر إنه نعم المجيب، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤٠/ ٣٢٧).

(٢) أخرجه النسائي في المجتبى (٢٠٥٥) وفي الكبرى (٢١٨٢) وابن سعد في الطبقات (٣/ ٤٣٠) والحديث اختلف في إسناده، وقال عنه النووي في الخلاصة (٢/ ١٠٤٣): إسناده صحيح، وقال الزيلعي في نصب الراية (٢/ ٢٨٦): وهذا ذكره ابن أبي حاتم في علله، وذكر في إسناده اختلافا ولم يضعفه ولا جعله منكرا، وقال الحافظ في القول المسدد (ص٨٣): رجاله ثقات محتج بهم في الصحيح، وصححه العلامة الألباني في =

ومنها حديث أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أن صبيا دفن، فقال ﷺ (لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي)[1].

وقد اختلف أهل العلم في ضمة القبر، وكيف يكون حال المؤمن فيها، على قولين:

القول الأول: تصيب ضمة القبر كل مؤمن وتشتد عليه، غير أن المؤمن الصالح سرعان ما يفرج عنه ويفسح له في قبره، فلا يطول العذاب عليه، أما الفاسق فتشتد عليه الضمة ويطول عليه ضيق لحده بحسب ذنبه ومعصيته، قال أبو القاسم السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا ينجو من ضغطة القبر صالح ولا طالح غير أن الفرق بين المسلم والكافر فيها دوام الضغط للكافر وحصول هذه الحالة للمؤمن في أول نزوله إلى قبره ثم يعود إلى الانفساح له" انتهى.

وقال الحكيم الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: "سبب هذا الضغط أنه ما من أحد إلا وقد ألم بذنب ما فتدركه هذه الضغطة جزاء لها ثم تدركه الرحمة" انتهى.

نقلا عن حاشية السيوطي على سنن النسائي (٣/ ٢٩٢)، ونقله الرملي في فتاواه (٤/ ٢١٠).

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٩/ ١٥٩): سؤال: قال في المسند..: حديث حذيفة قال: «كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في جنازة، فلما انتهينا إلى القبر قعد على ساقيه فجعل يردد بصره فيه، ثم

=

صحيح النسائي، وقال الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٧٧٢): هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ١٢١) وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢١٦٤).

قال: يضغط المؤمن فيه ضغطة تزول منها حمائله، ويُملأ على الكافر نارًا» قال: والحمال: عروق الأنثيين... ما معنى تزول الحمائل؟

الشيخ: كناية عن شدة العذاب..

مداخلة: يعني: المؤمن يضغط ضغطة لهذه الدرجة؟

الشيخ: وتتداخل أضلاعه لا ينجو منها حتى سعد بن معاذ كما قال عليه السلام في بعض الأحاديث الصحيحة.

مداخلة: يعني: الضغطة يتألم منها؟

الشيخ:... بلا شك، هذا إذا تداخلت الأضلاع فهذا ألم شديد لكن لا يستمر، ضغطة واحدة ثم يعود كل شيء إلى طبيعته إن صالحًا فصالح وإن طالح فطالح كما شرحنا آنفًا من حيث أنه يفتح للميت طاقة في القبر.

مداخلة: يعني: الضغطة لا بد منها.

الشيخ: لا بد منها.

القول الثاني: تصيب ضمة القبر المؤمنين الصالحين ولكنها ضمة رفق وحنان، ليس فيها أذى ولا ألم، أما المسلمون العاصون فتشتد عليهم سخطا بحسب كثرة ذنوبهم وسوء أعمالهم.

عن محمد التيمي رحمه الله قال: كان يقال: إن ضمة القبر إنما أصلها أنها أمهم، ومنها خلقوا، فغابوا عنها الغيبة الطويلة، فلما رد إليها أولادها ضمتهم ضم الوالدة الشفيقة التي غاب عنها ولدها ثم قدم عليها، فمن كان لله مطيعا ضمته برفق ورأفة، ومن كان لله عاصيا ضمته بعنف سخطا منها عليه).

ذكره السيوطي في حاشيته على " سنن النسائي " (٣/ ٢٩٢) من رواية ابن أبي الدنيا.

وقد روي في هذا المعنى حديث مرفوع عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (يا رسول الله! إنك منذ يوم حدثتني بصوت منكر ونكير وضغطة القبر ليس ينفعني شيء قال يا عائشة إن أصوات منكر ونكير في أسماع المؤمنين كالإثمد في العين، وإن ضغطة القبر على المؤمن كالأم الشفيقة يشكو إليها ابنها الصداع فتغمز رأسه غمزا رفيقا، ولكن يا عائشة ويل للشاكين في الله كيف يضغطون في قبورهم كضغطة البيضة على الصخرة)[1]، ولكنه حديث ضعيف لا يثبت.

قال الحافظ الذهبي في السير (١/ ٢٩٠ - ٢٩٢): هذه الضمة ليست من عذاب القبر في شيء، بل هو أمر يجده المؤمن كما يجد ألم فقد ولده وحميمه في الدنيا، وكما يجد من ألم مرضه، وألم خروج نفسه، وألم سؤاله في قبره وامتحانه، وألم تأثره ببكاء أهله عليه، وألم قيامه من قبره، وألم الموقف وهوله، وألم الورود على النار، ونحو ذلك. فهذه الأراجيف كلها قد تنال العبد، وما هي من عذاب القبر، ولا من عذاب جهنم قط، ولكن العبد التقي يرفق الله به في بعض ذلك أو كله، ولا راحة للمؤمن دون لقاء ربه. قال الله تعالى: {وأنذرهم يوم الحسرة}، وقال: (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر) فنسأل الله تعالى العفو واللطف الخفي. ومع هذه الهزات، فسعد - يعني ابن معاذ - ممن نعلم أنه من أهل الجنة، وأنه من أرفع الشهداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. كأنك يا هذا تظن أن الفائز لا يناله هول في الدارين، ولا روع ولا ألم ولا خوف؟! سل ربك العافية، وأن يحشرنا في زمرة سعد" انتهى.

---

(١) أخرجه البيهقي في إثبات عذاب القبر (٨٥، رقم ١١٦)، والديلمي في مسند الفردوس (٣٧٧٦)، وفي سنده الحسن بن أبي جعفر وعلي بن زيد بن جدعان ضعيفان. فهو حديث ضعيف. وقد عزاه بعضهم لابن منده وابن النجار.

وقال النفراوي في الفواكه الدواني (٢/ ٦٨٨): "وأما ضمة القبر فلا بد منها، وإن كانت تختلف باختلاف الدرجات" انتهى.

وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:" هذا الحديث - يعني حديث (لقد ضم القبر سعدا ضمة..) - مشهور عند العلماء، وعلى تقدير صحته: فإن ضمة الأرض للمؤن ضمة رحمة وشفقة، كالأم تضم ولدها إلى صدرها، أما ضمتها للكافر فهي ضمة عذاب والعياذ بالله، فإن النبي ﷺ أخبر أن الإنسان إذا دفن أتاه ملكان يسألانه عن ثلاثة أصول: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فالمؤمن يقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، أسأل الله أن يجعل جوابي وجوابكم هذا، أما المنافق أو المرتد - أعاذنا الله وإياكم من هذا - فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون قولا فقلته، فيضيق عليه القبر حتى تختلف أضلاعه والعياذ بالله، يدخل بعضه في بعض من شدة الضم، ففرق بين ضم الأرض للكافر أو المرتد وضمها للمؤمن." انتهى باختصار من لقاءات الباب المفتوح " (لقاء رقم/ ١٦١، سؤال رقم/ ١٧).

والذي يظهر والله أعلم أن القول الأول أرجح القولين في هذه المسألة، لدلالة ظاهر السنة عليه، وأن أحدا من المؤمنين، فضلا عن غيرهم، لا ينجو من ضمة القبر؛ وهذا يدل على شدة هذه الضمة، وأن لها ألما يصيب من ضمه قبره، وإن كان الناس يتفاوتون في ذلك، كل بحسب عمله وحاله، ولأجل ذلك ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضمة القبر في أسباب مغفرة الذنوب، فقال: "السبب الثامن ما يحصل فى القبر من الفتنة والضغطة والروعة فإن هذا مما يكفر به الخطايا". انتهى. مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٠).

المسألة السادسة: هل يمكن أن يرى بعض الناس ما يحدث في القبر من عذاب؟

ينتقل الميت بموته إلى عالم البرزخ، وهو عالم آخر غير الذي قضى عمره فيه، وهذا العالم الغيبي ليس لأحد أن يثبت فيه شيئا، أو ينفيه، إلا بدليل من الكتاب والسنة.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة تثبت تكلم " الميت " وهو محمول على الأكتاف لدفنه، وأيضا وهو في قبره، وثبت في تلك الأحاديث وغيرها أن الأحياء لا يسعمون ذلك الكلام الذي قاله الميت، أما الموضع الأول فقد استثنى النبي ﷺ الإنس من السماع، وأما الموضع الثاني: فقد استثنى الإنس والجن.

الموضع الأول: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يقول قال رسول الله ﷺ: (إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت: قدموني قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها أين يذهبون بها، يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق). رواه البخاري (١٣١٤).

قال الحافظ في الفتح (٣/ ١٨٥): قوله في آخر الحديث (يسمع صوتها كل شيء): دال على أن ذلك بلسان القال، لا بلسان الحال.

وقال العيني في عمدة القاري " (٨/ ١١٤): واستدل بالحديث المذكور على أن كلام الميت يسمعه كل حيوان غير الإنسان.

والموضع الثاني: هو حديث البراء بن عازب المشهور، وفيه (فيأتيه آت فيقول من ربك ما دينك من نبيك فيقول لا أدري فيقول لا دريت ولا تلوت ويأتيه آت قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بهوان من الله وعذاب مقيم فيقول وأنت فبشرك الله بالشر من أنت فيقول أنا عملك الخبيث كنت بطيئا عن طاعة الله سريعا في معصية الله فجزاك الله شرا ثم يقيض له أعمى أصم أبكم

في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان ترابا فيضربه ضربة حتى يصير ترابا ثم يعيده الله كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين قال البراء بن عازب ثم يفتح له باب من النار ويمهد من فرش النار)[1].

وفي الفرق بين الموضعين، وعدم سماع الإنس في الأول، وعدم سماع الإنس والجن في الموضع الثاني.

قال الحافظ في الفتح (٣/ ١٨٥)- تعليقا على الحديث الأول -: وقد استشكل هذا مع ما ورد في حديث السؤال في القبر (فيضربه ضربة فيصعق صعقة يسمعه كل شيء إلا الثقلين) والجامع بينهما: الميت والصعق، والأول استثنى فيه الإنس فقط، والثاني استثنى فيه الجن والإنس؟! والجواب: أن كلام الميت بما ذكر لا يقتضي وجود الصعق - وهو الفزع - إلا من الآدمي؛ لكونه لم يألف سماع كلام الميت، بخلاف الجن في ذلك، وأما الصيحة التي يصيحها

(١) أخرجه الطيالسى (ص ١٠٢، رقم ٧٥٣)، وأحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧)، وأبو داود (٤/ ٢٣٩، رقم ٤٧٥٣)، والرويانى (١/ ٢٦٣، رقم ٣٩٢)، وهناد (١/ ٢٠٥، رقم ٣٣٩)، وابن خزيمة فى التوحيد (ص ١١٩)، وابن منده (٢/ ٩٦٢، رقم ١٠٦٤)، والحاكم (١/ ٩٣ ٩٨، رقم ١٠٧، ١٠٩ ١١٧)، والبيهقى فى الشعب (١/ ٣٥٥، رقم ٣٩٥)، والآجُرّي في الشريعة (٢/ ١٩٠ رقم ٩١٩) والحديث قال عنه الطبري في مسند عمر (٢/ ٤٩٤): إسناده صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وقال البيهقي: صحيح الإسناد، وقال ابن منده في الإيمان (٣٩٨): هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء وهو ثابت على رسم الجماعة، وصححه الإمام ابن القيم ونقل تصحيح أبي نعيم والحاكم له في تهذيب السنن (٧/ ١٤٠)، وقال الهيثمى (٣/ ٥٠): رجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في شرح الصدور (٩١): له طرق صحيحة، وصححه العلامة الألباني في المشكاة (١٦٣٠)، وصححه الأرنؤوط في تحقيق المسند، وحسنه الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٢/ ٢٧٢ - ٢٧٤)، وصححه العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٨).

المضروب فإنها غير مألوفه للإنس والجن جميعا؛ لكون سببها عذاب الله، ولا شيء أشد منه على كل مكلف، فاشترك فيه الجن، والإنس.اهـ.

وفي الحديث عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال (بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال: (من يعرف أصحاب هذه الأقبر) فقال رجل: أنا، قال: (فمتى مات هؤلاء) قال: ماتوا في الإشراك، فقال: (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه). رواه مسلم (٢٨٦٨).

وعن أبي أيوب رضي الله عنهم قال: خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتا فقال: (يهود تعذب في قبورها) رواه البخاري (١٣٠٩) ومسلم (٢٧٦٩).

والحديث رواه ابن حبان (٧/ ٣٩٤) وبوب عليه بقوله: "ذكر الإخبار بأن المصطفى ﷺ أسمع أصوات الكفرة حيث عذبت في قبورها".

وفي عدم سماع الإنسان في كلا الموضعين حكم جليلة.

قال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٨/ ٤٨٢، ٤٨٣): قوله: (إلا الإنسان): يعني: أنه لا يسمع هذا الصياح، وذلك لحكم عظيمة؛ منها:

أولا: ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: (لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر).

ثانيا: أن في إخفاء ذلك سترا للميت.

ثالثا: أن فيه عدم إزعاج لأهله؛ لأن أهله إذا سمعوا ميتهم يعذب ويصيح: لم يستقر لهم قرار.

رابعا: عدم تخجيل أهله؛ لأن الناس يقولون: هذا ولدكم! هذا أبوكم! هذا

أخوكم! وما أشبه ذلك.

خامسا: أننا قد نهلك؛ لأنها صيحة ليست هينة، بل صيحة قد توجب أن تسقط القلوب من معاليقها، فيموت الإنسان أو يغشى عليه.

سادسا: لو سمع الناس صراخ هؤلاء المعذبين: لكان الإيمان بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة، لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تفوت مصلحة الامتحان؛ لأن الناس سوف يؤمنون بما شاهدوه قطعا؛ لكن إذا كان غائبا عنهم، ولم يعلموا به إلا عن طريق الخبر: صار من باب الإيمان بالغيب.اهـ.

وقال العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٩/ ١٥٧): هذا ممكن -أي يمكن أن يرى بعض الناس ما يحدث في القبر من عذاب-، لعلكم سمعتم الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن العباس رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بقبرين فقال عليه الصلاة والسلام: «أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما الآخر: فكان لا يستنزه - وفي رواية -: لا يستتر من البول، ثم أمر بأن يؤتى له بغصن فشقه شقين ووضع كل شق منهما على القبر، فسألوه عن ذلك عليه الصلاة والسلام فقال: لعل الله عز وجل يخفف عنهما ما داما رطبين». فالرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- سمع عذاب هذين المعذبين، وكانا مسلمين لكن أحدهما يسعى بالنميمة والآخر: لا يستتر، أي: يتساهل في الكشف عن عورته أمام الناس، أو لا يستنزه من البول، أي: لا يتحاشى أن يصيبه رشاش البول، ولذلك عذبا، وقال عليه الصلاة والسلام: «استنزهوا من البول فإن أكثر عذاب القبر من البول».

كذلك جاء في الصحيح: «أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مر ذات يوم

راكبًا دابته فشمست به، فنزل فرأى قبرين فسأل أصحابه الذين كانوا معه: متى مات هذان؟ قالوا: في الجاهلية، فقال عليه الصلاة والسلام: لولا أن لا تدافنوا لأسمعتكم عذاب القبر» أي: إن الدابة لما شمست به عليه السلام سمعت صوت عذاب المقبورين، فلا يستبعد أن يرى بعض الناس بعض العصاة في قبورهم يعذبون؛ لأن عذاب القبر حق، ولذلك أمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من قوله: «إذا جلس أحدكم في التشهد الأخير فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب جهنم، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال» فعذاب القبر حق يمكن أن يرى بالأعين العادية أفعى تنهش منه... ونحو ذلك، لكن يبقى كل شيء خاضع لعلم الرواية صحت الرواية أم لا؟ الذي يُحَدِّث صادق أو مُهَوِّل، كل هذا ممكن أن يقال، أما الأصل فثابت.

(تنبيه): قال العلامة الألباني في الضعيفة (٣/ ٦٤٥ - ٦٤٦) تحت الحديث الضعيف (احضروا موتاكم، ولقنوهم لا إله إلا الله، وبشروهم بالجنة، فإن الحليم من الرجال والنساء يتحيرون عند ذلك المصرع، وإن الشيطان لأقرب ما يكون عند ذلك المصرع، والذي نفسي بيده لا تخرج نفس عبد من الدنيا حتى يألم كل عرق منه على حياله) وأما ما نقله الغزالي في " الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة " من

فتنة الموت، وأن إبليس لعنه الله وكل أعوانه يأتون الميت على صفة أبويه على صفة اليهودية، فيقولان له: مت يهوديًا، فإن انصرف عنهم جاء أقوام آخرون على صفة النصارى حتى يعرض عليه عقائد كل ملة، فمن أراد الله هدايته أرسل إليه جبريل فيطرد الشيطان وجنده، فيبتسم الميت... إلخ، فقال

السيوطي: "لم أقف عليه في الحديث".

المسألة السابعة: في ذكر بعض أسباب عذاب القبر

الأسباب التي يعذب بها أصحابها في القبور كثيرة، وقد جمعها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: وقد يتساءل البعض عن الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور ؟

وجوابها من وجهين مجمل ومفصل:

أما المجمل فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم لمعاصيه، فلا يعذب الله روحا عرفته وأحبته وامتثلت أمره واجتنبت نهيه، ولا بدنا كانت فيه أبدا ؛ فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقل ومستكثر، ومصدق ومكذب.

وأما الجواب المفصل فقد أخبر النبي ﷺ عن الرجلين الذين رآهما يعذبان في قبورهما، يمشي أحدهما بالنميمة بين الناس، ويترك الآخر الاستبراء من البول، فهذا ترك الطهارة الواجبة، وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وإن كان صادقا.. وفي هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة بالكذب والزور والبهتان أعظم عذابا.. كما أن في ترك الاستبراء من البول تنبيها على أن من ترك الصلاة التي الاستبراء من البول بعض واجباتها وشروطها فهو أشد عذابا، وفي حديث شعبة: (أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس) فهذا مغتاب، وذلك نمام، وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الذي ضرب سوطا امتلأ القبر عليه به نارا، لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور، ومر على مظلوم فلم ينصره.

وفي حديث سمرة في صحيح البخاري في تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق..

وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به بالنهار.. وتعذيب الزناة والزواني.. وتعذيب آكل الربا كما شاهدهم النبي ﷺ في البرزخ.

وفي حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي فيه رضخ رؤوس أقوام بالصخر لتثاقل رؤوسهم عن الصلاة.. والذين يسرحون بين الضريع والزقوم لتركهم زكاة أموالهم.. والذين يأكلون اللحم المنتن الخبيث لزناهم.. والذين تقرض شفاههم بمقاريض من حديد لقيامهم في الفتن بالكلام والخطب..

وفي حديث أبى سعيد عقوبة أرباب تلك الجرائم، فمنهم من بطونهم أمثال البيوت وهم أكلة الربا.. ومنهم من تفتح أفواههم فيلقمون الجمر حتى يخرج من أسافلهم وهم أكلة أموال اليتامى.. ومنهم المعلقات بثديهن وهن الزوانى، ومنهم من تقطع جنوبهم ويطعمون لحومهم وهم المغتابون.. ومنهم من لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم وهم الذين يقعون في أعراض الناس..

وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن صاحب الشملة التي غلها من المغنم أنها تشتعل نارا في قبره، هذا وله فيها حق، فكيف بمن ظلم غيره ما لا حق له فيه.

فعذاب القبر عن معاصي القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله فالنمام والكذاب والمغتاب وشاهد الزور وقاذف المحصن والموضع في الفتنة والداعي إلى البدعة والقائل على الله ورسوله ما لا علم له به والمجازف في كلامه، وآكل الربا وآكل أموال اليتامى وآكل السحت من الرشوة ونحوها، وآكل مال أخيه المسلم بغير حق أو مال

المعاهد وشارب المسكر.

والزاني واللوطي والسارق والخائن والغادر والمخادع والماكر وآخذ الربا ومعطيه وكاتبه وشاهداه، والمحلل والمحلل له والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه ومؤذي المسلمين ومتتبع عوراتهم والحاكم بغير ما أنزل الله والمفتي بغير ما شرعه الله والمعين على الإثم والعدوان وقاتل النفس التي حرم الله، والملحد في حرم الله، والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها.. والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله والنائحة والمستمع إليها، ونواحو جهنم وهم المغنون الغناء الذي حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم.. والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها القناديل والسرج، والمطففون في استيفاء ما لهم إذا أخذوه وهضم ما عليهم إذا بذلوه والجبارون والمتكبرون والمراءون والهمازون واللمازون والطاعنون على السلف والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم.

والذي إذا خوفته بالله وذكرته به لم يرعو ولم ينزجر، فإذا خوفته بمخلوق مثله خاف وارعوى وكف عما هو فيه والذى يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدي ولا يرفع به رأسا ، فإذا بلغه عمن يحسن به الظن ممن يصيب ويخطئ عض عليه بالنواجذ ولم يخالفه والذي يقرأ عليه القرآن فلا يؤثر فيه وربما استثقل به فإذا سمع قرآن الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعي الطرب وود أن المغنى لا يسكت والذي يحلف بالله ويكذب فإذا حلف بشيخه أو قريبه أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين لم يكذب ولو هدد وعوقب.

والذي يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين إخوانه وأضرابه وهو المجاهر.

والذي لا تأمنه على مالك وحرمتك، والفاحش اللسان البذيء الذي تركه الخلق اتقاء شره وفحشه والذي يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها ولا يذكر الله فيها إلا قليلا، ولا يؤدى زكاة ماله طيبة بها نفسه، ولا يحج مع قدرته على الحج ولا يؤدى ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها والذي لا يتورع في نظره ولا لفظه ولا أكله ولا خطوه ولا يبالي بما حصل من المال من حلال أو حرام ولا يصل رحمه ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم، بل يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، ويرائي للعالمين، ويمنع الماعون، ويشتغل بعيوب الناس عن عيبه ، وبذنوبهم عن ذنبه فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها وصغيرها وكبيرها.

ولما كان أكثر الناس كذلك كان أكثر أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل.

فظواهر القبور تراب وبواطنها حسرات وعذاب ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبنيات وفي باطنها الدواهى والبليات، تغلى بالحسرات كما تغلي القدور بما فيها، ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالا ونادت: يا عمار الدنيا، لقد عمرتم دارا موشكة بكم زوالا، وخربتم دارا أنتم مسرعون إليها انتقالا عمرتم بيوتا لغيركم منافعها وسكناها، وخربتم بيوتا ليس لكم مساكن سواها هذه دار الاستباق ومستودع الأعمال وبذر الزرع، وهذه محل للعبر، رياض من رياض الجنة، أو حفر من حفر النار.." انتهى من كتاب الروح (ص٩٥) بتصرف يسير.

ونذكر هنا مجموعة من هذه المعاصي مقرونة بأدلتها من القرآن والسنة الصحيحة.

١-الشرك بالله والكفر به: قال الله تعالى عن آل فرعون: (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) غافر/ ٤٦.

وقال تعالى: {ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) الأنعام/ ٩٣.

وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم وغضب الله عليه فتفرق روحه في جسده وتعصي وتأبى الخروج فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: (أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون....) الأنعام/ ٩٣.

ومما يدل على أن الشرك سبب من أسباب عذاب القبر حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ فقال رجل أنا قال: فمتى مات هؤلاء ؟ قال: ماتوا في الإشراك.. فقال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه.. ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار.. (الحديث). رواه مسلم (٢٨٦٧)

فقوله في الحديث: (ماتوا في الإشراك) دليل على أن الشرك سبب في عذاب القبر.

٢- النفاق سبب من أسباب عذاب القبر: والمنافقون أولى الناس بعذاب القبر، كيف لا وهم أصحاب الدرك الأسفل من النار.

قال الله تعالى: {وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم) التوبة/ ١٠١. قال قتادة والربيع بن أنس في قوله تعالى: {سنعذبهم مرتين): إحداهما في الدنيا، والأخرى هي عذاب القبر.

وفي أحاديث سؤال الملكين وفتنة القبر، ورد التصريح باسم المنافق، أو المرتاب في كثير من الروايات، كما في البخاري (١٣٧٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (.. وأما الكافر والمنافق فيقال له..)، وفي الصحيحين من حديث أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (وأما المنافق أو المرتاب).

٣- تغيير شرع الله تعالى؛ بتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم: والدليل على أن ذلك الإلحاد في شرع الله تعالى سبب من أسباب العذاب في القبر قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار؛ كان أول من سيب السوائب) رواه البخاري (٤٦٢٣).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يجر قصبه في النار) وهي الأمعاء.

والسائبة: هي ناقة أو بقرة أو شاة كانوا يسيبونها فلا تركب ولا تؤكل ولا يحمل عليها، وكان بعضهم ينذر شيئا من ماله يجعله سائبة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في دقائق التفسير (٢/ ٧١): "العرب من ولد إسماعيل وغيره، الذين كانوا جيران البيت العتيق الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، كانوا حنفاء على ملة إبراهيم، إلى أن غير دينه بعض ولاة خزاعة، وهو عمرو بن لحي، وهو أول من غير دين إبراهيم بالشرك وتحريم ما لم يحرمه الله، ولهذا

قال النبي ﷺ: رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه" انتهى.

٤- عدم الاستبراء من البول، والمشي بين الناس بالنميمة

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي ﷺ بقبرين فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة...الحديث. رواه البخاري (٢١٨) ومسلم (٢٩٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (إن عامة عذاب القبر من البول فتنزهوا منه) أخرجه الدارقطني، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ١٥٢).

٥- الغيبة: وعلى ذلك ترجم البخاري رحمه الله في كتاب الجنائز بقوله: "عذاب القبر من الغيبة والبول " ثم روى فيه حديث القبرين السابق مع أن لفظ البخاري ليس فيه ذكر الغيبة، وإنما فيه النميمة، لكنه جرى على عادته في الإشارة إلى ما ورد في بعض طرق الحديث: (وأما الآخر فيعذب في الغيبة) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٦٦).

٦- الكذب: ففي حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، قال: ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى. قال: قلت: سبحان الله ! ما هذان ؟ ثم قال عن هذا المعذب في آخر الحديث: (إنه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق..) رواه البخاري (٧٠٧٤) فيشرشر: أي يقطعه. والشدق: جانب الفم.

هجر القرآن بعد تعلمه، والنوم عن الصلاة المكتوبة

ففي حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه، فيتدهده الحجر ها هنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى. قال: قلت لهما: سبحان الله ! ما هذان ؟ وفيه: (والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل به بالنهار).

(يثلغ رأسه): أي يشدخه ويشقه. (يتدهده): أي يتدحرج.

وفي رواية: (أما الرجل الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة) رواه البخاري (٧٠٧٦).

وذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله أن هذه الرواية أوضح من الأولى ؛ فإن ظاهر الأولى أنه يعذب على ترك قراءة القرآن بالليل، وأما الأخرى فتدل على أنه يعذب على نومه عن الصلاة المكتوبة.

قال: ويحتمل أن يكون العذاب على مجموع الأمرين ؛ ترك القراءة، وترك العمل.

قال ابن حجر: "قال ابن هبيرة: رفض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة ؛ لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه، فلما رفض أشرف الأشياء وهو القرآن عوقب في أشرف أعضائه وهو الرأس" فتح الباري (٣/ ٢٥١).

٧- أكل الربا: ففي حديث سمرة رضي الله عنه قال: (فانطلقنا فأتينا على نهر أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع

عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرا فينطلق يسبح ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجرا) إلى أن قال: (وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا).

٨- الزنا: ففي حديث سمرة رضي الله عنه: (فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، فإذا فيه لغط وأصوات، قال: فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا [أي: صاحوا] قال: قلت لهما: ما هؤلاء ؟) وفي آخره: (وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني).

٩- أمر الناس بالبر ونسيان النفس: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: (رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال: الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟!)[١].

وعند البيهقي: (أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت وفت، فقلت: يا جبريل من هؤلاء ؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرءون كتاب الله ولا يعملون به) رواه البيهقي في

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٨١٩)، ووكيع في الزهد (٢٩٧)، وأحمد (٣/ ١٢٠)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٠٨)، وعبد بن حميد (١٢٢٢)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٥١٣)، وأبو يعلى (٣٩٩٦) وغيرهم، والحديث حسنه البغوي في شرح السنة (٧/ ٣٦٢)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٩١)، بمجموع طرقه، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٨٤)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٩/ ٢٤٤): حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان، لكن قد توبع كما سيأتي، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح.

"شعب الإيمان" وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (١٢٨).

١٠- الإفطار في رمضان من غير عذر: فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بينا أنا نائم إذ أتاني رجلان، فأخذا بضبعي، وأتيا بي جبل فقالا لي: اصعد. فقلت: إني لا أطيقه. فقالا: إنا سنسهله لك. قال: فصعدت حتى إذا كنت في سواء الجبل، إذا أنا بأصوات شديدة، فقلت: ما هذه الأصوات ؟ قال: هذا عواء أهل النار. ثم انطلق بي، فإذا بقوم معلقين بعراقيبهم، مشققة أشداقهم، تسيل أشداقهم دما، قال: قلت: من هؤلاء ؟ قال: هم الذين يفطرون قبل تحلة صومهم)[(١)].

١١- الغلول من الغنائم: دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الرجل الذي غل الثوب في بعض مغازيه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عنه: (والذي نفسي بيده إن الشملة [ثوب] التي أخذها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارا) أخرجه البخاري (٤٢٣٤) ومسلم (١١٥).

والغلول هو أخذ الغازي شيئا من الغنيمة دون عرضه على ولي الأمر لقسمته.

١٢- جر الثوب خيلاء: يدل على ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة) أخرجه

---

(١) جزء من حديث أخرجه ابن خزيمة (١٩٨٦)، والنسائي في الكبرى (٣٢٨٦)، وابن حبان (١٦/ ٥٣٦، رقم ٧٤٩١)، والحاكم (٢/ ٢٢٨، رقم ٢٨٣٧)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٢/ ٤٥٦)، والطبرانى (٨/ ١٥٧، رقم ٧٦٦٧)، والبيهقي (٤/ ٢٦٦)، والأصبهاني في الترغيب (٢/ ٦٠٨ - ٦٠٩) والحديث قال عنه المنذري في الترغيب (٢/ ٣٠٥): لا علة له، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ووافقهما العلامة الألباني في الصحيحة (٣٩٥١).

البخاري (٣٤٨٥) ومسلم (٢٠٨٨).

والتجلجل: أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد ويندفع من شق إلى شق. فالمعنى: يتجلجل في الأرض أي ينزل فيها مضطربا متدافعا.

١٣- السرقة من الحجاج: دل على ذلك حديث جابر رضي الله عنه في صلاة الكسوف.. وفيه قول النبي ﷺ: (لقد جيء بالنار، وذلكم حين رأيتموني تأخرت مخافة أن يصيبني من لفحها، وحتى رأيت فيها صاحب المحجن يجر قصبه في النار ؛ كان يسرق الحاج بمحجنه، فإن فطن له قال: إنما تعلق بمحجني، وإن غفل عنه ذهب به) رواه مسلم (٩٠٤) والمحجن: عصا معوجة الرأس.

١٤- حبس الحيوان وتعذيبه وعدم رحمته: ففي حديث جابر رضي الله عنه في صلاة الكسوف قال النبي ﷺ: (رأيت فيها [أي النار] صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعا) رواه مسلم (٩٠٤) قال البيهقي في كتابه "إثبات عذاب القبر" (ص ٩٧): "ورأى حين صلى صلاة الخسوف من يجر قصبه في النار، ومن يعذب في السرقة، والمرأة التي كانت تعذب في الهرة وقد صاروا في قبورهم رميما في أعين أهل زمانه، ولم ير من صلى معه من ذلك ما رأى" انتهى.

١٥- الدين: إن مما يضر الميت في قبره ما عليه من دين، فعن سعد بن الأطول قال: (مات أخي وترك ثلاث مائة دينار، وترك ولدا صغارا، فأردت أن أنفق عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ: (إن أخاك محبوس بدينه، فاذهب فاقض عنه، قال: فذهبت فقضيت عنه، ثم جئت فقلت: يا رسول الله، قد قضيت عنه ولم يبق إلا امرأة تدعي دينارين، وليست لها بينة قال: أعطها فإنها صادقة)[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٦)، (٥/ ٧)، وعبد بن حميد (٣٠٥)، وابن أبي شيبة في المسند =

المسألة الثامنة

قال العلامة الألباني في مقدمة كتابه الآيات البينات في عدم سماع الأموات عند الحنفية السادات: اعلم أن كون الموتى يسمعون أو لا يسمعون إنما هو أمر غيبي من أمور البرزخ التي لا يعلمها إلا الله ﷻ فلا يجوز الخوض فيه بالأقيسة والآراء وإنما يوقف فيه مع النص إثباتا ونفيا وسترى المؤلف رحمه الله تعالى ذكر في الفصل الأول كلام الحنفية في أنهم لا يسمعون وفي الفصل الثاني نقل عن غيرهم مثله وحكى عن غير هؤلاء أنهم يسمعون وليس يهمني أن هؤلاء قلة وأولئك الكثرة فالحق لا يعرف بالكثرة ولا بالقلة وإنما بدليله الثابت في الكتاب والسنة مع التفقه فيهما وهذا ما أنا بصدده إن شاء الله تعالى فأقول:

استدل الأولون بقوله تعالى: {وما أنت بمسمع من في القبور} (فاطر: ٢٢) وقوله: {إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين} (النمل: ٨٠ والروم ٥٢) وأجاب الآخرون بأن الآيتين مجاز وأنه ليس المقصود ب (الموتى) وب (من في القبور) الموتى حقيقة في قبورهم وإنما المراد بهم الكفار الأحياء شبهوا بالموتى " والمعنى من هم في حال الموتى أو في حال من سكن القبر " كما قال الحافظ ابن حجر على ما يأتي في الرسالة (ص ٧٢)

=

(٢/ رقم ٦١٩)، وابن ماجه (٢٤٣٣)، وابن سعد (٧/ ٥٧)، والبخاري في التاريخ الكبير (٤/ ٤٥)، وأبو يعلى (١٥١٠، ١٥١٢)، والطبراني في الكبير (٥٤٦٦)، وابن حبان في الثقات (٣/ ١٥٢)، وأبو نعيم في المعرفة (٣١٩٦)، وابن قانع في معجم الصحابة (٥/ رقم ٥١٦)، والبيهقى (١٠/ ١٤٢)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ٢٣٦) من حديث سعد الأطول، والحديث حسنه البوصيرى فى إتحاف الخيرة (٣/ ٣٦٩) ، وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٣/ ٢٦٤)، وتحقيق سنن ابن ماجة (٣/ ٥٠٢).

فأقول: لا شك عند كل من تدبر الآيتين وسياقهما أن المعنى هو ما ذكره الحافظ رحمه الله تعالى وعلى ذلك جرى علماء التفسير لا خلاف بينهم في ذلك فيما علمت ولكن ذلك لا يمنع الاستدلال بهما على ما سبق لأن الموتى لما كانوا لا يسمعون حقيقة وكان ذلك معروفا عند المخاطبين شبه الله تعالى بهم الكفار الأحياء في عدم السماع فدل هذا التشبيه على أن المشبه بهم - وهم الموتى في قبورهم - لا يسمعون كما يدل مثلا تشبيه زيد في الشجاعة بالأسد على أن الأسد شجاع بل هو في ذلك أقوى من زيد ولذلك شبه به وإن كان الكلام لم يسق للتحدث عن شجاعة الأسد نفسه وإنما عن زيد وكذلك الآيتان السابقتان وإن كانتا تحدثتا عن الكفار الأحياء وشبهوا بموتى القبور فذلك لا ينفي أن موتى القبور لا يسمعون بل إن كل عربي سليم السليقة لا يفهم من تشبيه موتى الأحياء بهؤلاء إلا أن هؤلاء أقوى في عدم السماع منهم كما في المثال السابق وإذا الأمر كذلك فموتى القبور لا يسمعون. ولما لاحظ هذا بعض المخالفين لم يسعه إلا أن يسلم بالنفي المذكور ولكنه قيده بقوله: "سماع انتفاع " يعني أنهم يسمعون ولكن سماعا لا انتفاع فيه وهذا في نقدي قلب للتشبيه المذكور في الآيتين حيث جعل المشبه به مشبها فإن القيد المذكور يصدق على موتى الأحياء من الكفار فإنهم يسمعون حقيقة ولكن لا ينتفعون من سماعهم كما هو مشاهد فكيف يجوز جعل المشبه بهم من موتى القبور مثلهم في أنهم يسمعون ولكنهم لا ينتفعون من سماعهم مع أن المشاهد أنهم لا يسمعون مطلقا ولذلك حسن التشبيه المذكور في الآيتين الكريمتين فبطل القيد المذكور ولقد كان من الممكن القول بنحو القيد المذكور في موتى القبور لو كان هناك نص قاطع على أن الموتى يسمعون مطلقا إذن لوجب الإيمان به

والتوفيق بينه وبين ما قد يعارضه من النصوص كالآيتين مثلا ولكن مثل هذا النص مما لا وجود له بل الأدلة قائمة على خلافه وإليك البيان:

الدليل الأول: قوله تعالى في تمام الآية الثانية: {ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين} فقد شبههم الله تعالى - أعني موتى الأحياء من الكفار بالصم أيضا فهل هذا يقتضي في المشبه بهم (الصم) أنهم يسمعون أيضا ولكن سماعا لا انتفاع فيه أيضا أم أنه يقتضي أنهم لا يسمعون مطلقا كما هو الحق الظاهر الذي لا خفاء فيه. وفي التفسير المأثور ما يؤيد هذا الذي نقول فقال ابن جرير في " تفسيره " (٢١/ ٣٦) لهذه الآية: هذا مثل معناه: فإنك لا تقدر أن تفهم هؤلاء المشركين الذين قد ختم الله على أسماعهم فسلبهم فهم ما يتلى عليهم من مواعظ تنزيله كما لا تقدر أن تفهم الموتى الذين سلبهم الله أسماعهم بأن تجعل لهم أسماعا، وقوله: {ولا تسمع الصم الدعاء} يقول: كما لا تقدر أن تسمع الصم الذين قد سلبوا السمع إذا ولوا عنك مدبرين كذلك لا تقدر أن توفق هؤلاء الذين قد سلبهم الله فهم آيات كتابه لسماع ذلك وفهمه

ثم روى بإسناد الصحيح عن قتادة قال: هذا مثل ضربه الله للكافر فكما لا يسمع الميت الدعاء كذلك لا يسمع الكافر {ولا تسمع الصم الدعاء..} يقول: لو أن أصم ولى مدبرا ثم ناديته لم يسمع كذلك الكافر لا يسمع ولا ينتفع بما سمع، وعزاه في الدرر (٥/ ١١٤) لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم دون ابن جرير، وقد فسر القرطبي (١٣/ ٢٣٢) هذه الآية بنحو ما سبق عن ابن جرير وكأنه اختصره منه فثبت من هذه النقول عن كتب التفسير المعتمدة أن الموتى في قبورهم لا يسمعون كالصم إذا ولوا مدبرين

وهذا هو الذي فهمته السيدة عائشة رضي الله عنها واشتهر ذلك عنها في كتب السنة

وغيرها ونقله المؤلف عنها في عدة مواضع من رسالته فانظر (ص ٥٤، ٥٦، ٥٨، ٦٨، ٦٩، ٧١) وفاته هو وغيره أنه هو الذي فهمه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وغيره من الصحابة لما نادى النبي ﷺ أهل القليب على ما يأتي بيانه قريبا إن شاء الله تعالى

الدليل الثاني: قوله تعالى: {ذلك الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبك مثل خبير} . (فاطر ١٣ و١٤)

قلت: فهذه الآية صريحة في نفي السمع عن أولئك الذي كان المشركون يدعونهم من دون الله تعالى وهم موتى الأولياء والصالحين الذين كان المشركون يمثلونهم في تماثيل وأصنام لهم يعبدونهم فيها وليس لذاتها كما يدل على ذلك آية سورة (نوح) عن قومه: {وقالوا: لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ولا يعوق ونسرا} ففي التفسير المأثور عن ابن عباس وغيره من السلف: أن هؤلاء الخمسة أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم (أي علم تلك الصور بخصوصها) عبدت. رواه البخاري وغيره. ونحوه قوله تعالى: {والذين اتخذوا من دونه أولياءه ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} (الزمر / ٣) فإنها صريحة في أن المشركين كانوا يعبدون الصالحين ولذلك اتخذوهم وسائط بينهم وبين الله تعالى قائلين: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ولاعتقادهم بصلاحهم كانوا ينادونهم ويعبدونهم من دون الله توهما منهم أنهم يسمعون ويضرون وينفعون ومثل هذا الوهم لا يمكن أن يقع فيه أي مشرك مهما كان سخيف العقل لو كان لا يعتقد فيمن يناديه الصلاح والنفع

والضر كالحجر العادي مثلا وقد بين هذا العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى فقال في كتابه " إغاثة اللفهان " (٢/ ٢٢٢ - ٢٢٣)

وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم، فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ولهذا لعن النبي صلى الله عليه وسلم المتخذين على القبور المساجد ونهى عن الصلاة إلى القبور.. فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كله إما جهلا وإما عنادا لأهل التوحيد ولم يضرهم ذلك شيئا. وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين، وأما خواصهم فإنهم اتخذوها - بزعمهم - على صور الكواكب المؤثرة في العالم عندهم وجعلوا لها بيوتا وسدنة وحجابا وحجبا وقربانا ولم يزل هذا في الدنيا قديما وحديثا (ثم بين مواطن بيوت هذه الأصنام وذكر عباد الشمس والقمر وأصنامهم وما اتخذوه من الشرائع حولها ثم قال ٢/ ٢٢٤): فوضع الصنم إنما كان في الأصل على شكل معبود غائب فجعلوا الصنم على شكله وهيأته وصورته ليكون نائبا منابه وقائما مقامه وإلا فمن المعلوم أن عاقلا لا ينحت خشبة أو حجرا بيده ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده".

قلت: ومما يؤيد أن المقصود بقوله في الآية المتقدمة (لا يسمعوا دعاءكم} إنما هم المعبودون من دون الله أنفسهم وليست ذوات الأصنام تمام الآية: {ويوم القيامة يكفرون بشرككم} والأصنام لا تبعث لأنها جمادات غير مكلفة كما هو معلوم بخلاف العابدين والمعبودين فإنهم جميعا محشورون قال تعالى: {ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول: ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء

ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا}. (الفرقان / ١٧ – ١٨) وقال: {يوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا: سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون} (سبأ / ٤٠ – ٤١) وهذا كقوله تعالى: {وإذا قال الله: يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال: سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق} الآية (المائدة / ١١٦) وخير ما فسر به القرآن إنما هو القرآن والسنة وليس فيهما – فيما أعلم – ما يدل على أن الله يحشر الجمادات أيضا فوجب الوقوف عند هذه الآية الصريحة فيما ذكرنا.

وقد يقول قائل: إن هذا الذي بينته قوي متين ولكنه يخالف ما جرى عليه كثير من المفسرين في تفسير آية سورة (فاطر) وما في معناها من الآيات الأخرى فقالوا: إن المراد بها الأصنام نفسها وبناء على ذلك عللوا قوله تعالى فيها: {لا يسمعوا دعاءكم} بقولهم: "لأنها جمادات لا تضر ولا تنفع "

فأقول: لا شك أنت هذا بظاهره ينافي ما بينت ولكنه لا ينفي أن يكون لهم قول آخر يتماشى مع ما حققته فقال القرطبي (١٤/ ٣٣٦) عقب التعليل المذكور آنفا وتبعه الشوكاني (٤/ ٣٣٣) وغيره ما معناه:

ويجوز أن يرجع {والذين تدعون من دونه...} وما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم الكفار كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين والمعنى أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقا وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم كما أخبر عن عيسى عليه السلام بقوله: {ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق}

وقد ذكرا نحوه في تفسير آية (الزمر) المتقدمة

قلت: وهو أولى من تفسيرهما السابق لأنه مدعم بالآيات المتقدمة بخلاف

تفسيرهما المشار إليه فإنه يستلزم القول بحشر الأصنام ذاتها وهذا مع أنه لا دليل عليه فإنه يخالف الآيات المشار إليها ولهذا قال الشيخ عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمهما الله - في كتابه " قرة عيون الموحدين " (ص ١٠٧ - ١٠٨) في تفسير آيتي (فاطر) ما نصه:

ابتدأ تعالى هذه الآيات بقوله: {ذلكم الله ربكم له الملك} يخبر الخبير أن الملك له وحده والملوك وجميع الخلق تحت تصرفه وتدبيره ولهذا قال: {والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير} فإن من كانت هذه صفته فلا يجوز أن يرغب في طلب نفع أو دفع ضر إلى أحد سوى الله تعالى وتقدس بل يجب إخلاص الدعاء - الذي هو أعظم أنواع العبادة - له وأخبر تعالى أن ما يدعوه أهل الشرك لا يملك شيئا وأنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم ولو فرض أنهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم وأنهم يوم القيامة يفكرون بشركهم أي ينكرونه ويتبرؤون ممن فعله معهم. فهذا الذي أخبر به الخبير الذي {لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء} وأخبر أن ذلك الدعاء شرك به وأنه لا يغفره لمن لقيه فأهل الشرك ما صدقوا الخبير ولا أطاعوه فيما حكم به وشرع بل قالوا: إن الميت يسمع ومع سماعه ينفع فتركوا الإسلام والإيمان رأسا كما ترى عليه الأكثرين من جهلة هذه الأمة

فتبين مما تقدم وجه الاستدلال بقوله تعالى: {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم} على أن الصالحين لا يسمعون بعد موتهم وغيرهم مثلهم بداهة بل ذلك من باب أولى كما لا يخفى فالموتى كلهم إذن لا يسمعون. والله الموفق

الدليل الثالث: حديث قليب بدر وله روايات مختصرة ومطولة أجتزئ هنا على روايتين منها:

الأولى: حديث ابن عمر قال:وقف النبي ﷺ على قليب بدر فقال: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول " فذكر لعائشة فقالت: إنما قال النبي ﷺ: إنهم الآن يعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق ثم قرأت: {إنك لا تسمع الموتى} حتى قرأت الآية

أخرجه البخاري (٧/ ٢٤٢ - فتح الباري) والنسائي (١/ ٦٩٣) وأحمد (٢/ ٣١) من طريق أخرى عن ابن عمر وسيأتي بعضه في الكتاب (ص ٦٨، ٧١)

والأخرى: حديث أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان ابن فلان: ويا فلان ابن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها؟ فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم". قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخا وتصغيرا ونقمة وحسرة وندما

أخرجه الشيخان وغيرهما وقد خرجته في التعليق الآتي (ص ٥٤) من الكتاب. ووجه الاستدلال بهذا الحديث يتضح بملاحظة أمرين:

الأول: ما في الرواية الأولى منه من تقييده ﷺ سماع موتى القليب بقوله: "الآن " فإن مفهومه أنهم لا يسمعون في غير هذا الوقت. وهو المطلوب. وهذه فائدة هامة نبه عليها العلامة الآلوسي - والد المؤلف رحمهما الله - في كتابه "

روح المعاني " (٦/ ٤٥٥) ففيه تنبيه قوي على أن الأصل في الموتى أنهم لا يسمعون ولكن أهل القليب في ذلك الوقت قد سمعوا نداء النبي ﷺ وبإسماع الله تعالى إياهم خرقا للعادة ومعجزة للنبي ﷺ كما سيأتي في الكتاب (ص ٥٦، ٥٩) عن بعض العلماء الحنفية وغيرهم من المحدثين. وفي " تفسير القرطبي " (١٣/ ٢٣٢): قال ابن عطية: فيشبه أن قصة بدر خرق عادة لمحمد ﷺ في أن رد الله إليهم إدراكا سمعوا به مقاله ولولا إخبار رسول الله ﷺ بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بي من الكفرة وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين "

قلت: ولذلك أورده الخطيب التبريزي في " باب المعجزات " من " المشكاة " (ج ٣ رقم ٥٩٣٨ - بتخريجي)

والآمر الآخر: أن النبي ﷺ أقر عمر وغيره من الصحابة على ما كان مستقرا في نفوسهم واعتقادهم أن الموتى لا يسمعون بعضهم أومأ إلى ذلك إيماء وبعضهم ذكر صراحة لكن الأمر بحاجة إلى توضيح فأقول:

أما الإيماء فهو في مبادرة الصحابة لما سمعوا نداءه ﷺ لموتى القليب بقولهم: "ما تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟" فإن في رواية أخرى عن أنس نحوه بلفظ " قالوا " بدل: (قال عمر " كما سيأتي في الكتاب (ص ٧١ - ٧٣) فلولا أنهم كانوا على علم بذلك سابق تلقوه منه ﷺ ما كان لهم أن يبادروه بذلك. وهب أنهم تسرعوا وأنكروا بغير علم سابق فواجب التبليغ حينئذ يوجب على النبي ﷺ أن يبين لهم أن اعتقادهم هذا خطأ وأنه لا أصل له في الشرع ولم نر في شيء من روايات الحديث مثل هذا البيان وغاية ما قال لهم: "ما أنتم بأسمع لما أقول منهم". وهذا - كما ترى - ليس فيه تأسيس قاعدة عامة بالنسبة للموتى

جميعا تخالف اعتقادهم السابق وإنما هو إخبار عن أهل القليب خاصة على أنه ليس ذلك على إطلاقه بالنسبة إليهم أيضا إذا تذكرت رواية ابن عمر التي فيها " إنهم الآن يسمعون " كما تقدم شرحه فسماعهم إذن خاص بذلك الوقت وبما قال لهم النبي ﷺ فقط فهي واقعة عين لا عموم لها فلا تدل على أنهم يسمعون دائما وأبدا وكل ما يقال لهم كما لا تشمل غيرهم من الموتى مطلقا وهذا واضح إن شاء الله تعالى. ويزيده ووضوحا ما يأتي.

وأما الصراحة فهي فيما رواه أحمد (٣/ ٢٨٧) من حديث أنس رضي الله عنه قال:".... فسمع عمر صوته فقال: يا رسول الله أتناديهم بعد ثلاث؟ وهل يسمعون؟ يقول الله عز وجل: {إنك لا تسمع الموتى} فقال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع [لما أقول] منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا". وسنده صحيح على شرط مسلم. فقد صرح عمر رضي الله عنه أن الآية المذكورة هي العمدة في تلك المبادرة وأنهم فهموا من عمومها دخول أهل القليب فيه ولذلك أشكل عليهم الأمر فصارحوا النبي ﷺ بذلك ليزيل إشكالهم؟ وكان ذلك ببيانه المتقدم.

ومنه يتضح أن النبي ﷺ أقر الصحابة - وفي مقدمتهم عمر - على فهمهم للآية على ذلك الوجه العام الشامل لموتى القليب وغيرهم لأنه لم ينكره عليهم ولا قال لهم: أخطأتم فالآية لا تنفي مطلقا سماع الموتى بل إنه أقرهم على ذلك الوجه العام الشامل لموتى القليب وغيرهم لأنه لم ينكره عليهم ولا قال لهم: أخطأتم فالآية لا تنفي مطلقا سماع الموتى بل إنه أقرهم على ذلك ولكن بين لهم ما كان خافيا من شأن القليب وأنهم سمعوا كلامه حقا وأن ذلك أمر مستثنى من الآية معجزة له ﷺ كما سبق، هذا وإن مما يحسن التنبيه عليه وإرشاد الأريب إليه أن استدلال عائشة المتقدم بالآية يشبه تماما استدلال عمر بها فلا

وجه لتخطئتها اليوم بعد تبين إقرار النبي ﷺ لعمر عليه اللهم إلا في ردها على ابن عمر في روايته لقصة القليب بلفظ السماع وتوهيمها إياه فقد تبين من اتفاق جماعة من الصحابة على روايتها كروايته هو أنها هي الواهمة وإن كان من الممكن الجمع بين روايتهم وروايتها كما سيأتي بيانه في التعليق على " الرسالة " (ص ٧ - ٨) فخطؤها ليس في الاستدلال بالآية وإنما في خفاء القصة عليها على حقيقتها ولولا ذلك لكان موقفها موقف سائر الصحابة منها ألا وهو الموقف الجازم بها على ما أخبر به النبي ﷺ واعتبارها مستثناة من الآية، فتنبه لهذا واعلم أن من الفقه الدقيق الاعتناء بتتبع ما أقره النبي ﷺ من الأمور والاحتجاج به لأن إقراره ﷺ حق كما هو معلوم وإلا فبدون ذلك قد يضل الفهم عن الصواب في كثير من النصوص. ولا نذهب بك بعيدا فهذا هو الشاهد بين يديك فقد اعتاد كثير من المؤلفين وغيرهم أن يستدلوا بهذا الحديث -حديث القليب- على أن الموتى يسمعون متمسكين بظاهر قوله ﷺ: "ما أنتم بأسمع لما أقول منهم " غير منتبهين لإقراره ﷺ الصحابة على اعتقادهم بأن الموتى لا يسمعون وأنه لم يرده عليهم إلا باستثناء أهل القليب منه معجزة له ﷺ فعاد الحديث بالتنبه لما ذكرنا حجة على أن الموتى لا يسمعون وأن هذا هو الأصل فلا يجوز الخروج عنه إلا بنص كما هو الشأن في كل نص عام. والله تعالى الموفق

وقد يجد الباحث من هذا النوع أمثلة كثيرة ولعله من المفيد أن أذكر هنا ما يحضرني الآن من ذلك وهما مثالان:

الأول: حديث جابر عن أم مبشر رضي الله عنهما أنها سمعت النبي ﷺ يقول عنه حفصة: "لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها". قالت: بلى يا رسول الله فانتهرها. فقالت حفصة: {وإن منكم إلا

واردها} فقال النبي ﷺ: "قد قال الله ﷻ: {ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا} " رواه مسلم وغيره وهو مخرج في " الصحيحة " (٢١٦٠) وتخريج السنة (٨٦٠ - طبع المكتب الإسلامي)

أقول: ففي استدلال السيدة حفصة رضي الله عنها بآية الورود دليل على أنها فهمت (الورود) بمعنى الدخول وأنه عام لجميع الناس الصالح والطالح منهم ولذلك أشكل عليها نفي النبي ﷺ دخول النار في حق أصحاب الشجرة فأزال ﷺ إشكالها بأن ذكرها بتمام الآية: {ثم ننجي الذين اتقوا} ففيه أنه ﷺ أقرها على فهمها المذكور وأنه على ذلك أجابها بما خلاصته أن الدخول المنفي في الحديث هو غير الدخول المثبت في الآية وأن الأول خاص بالصالحين ومنهم أهل الشجرة والمراد به نفي العذاب أي أنهم يدخلونها مرورا إلى الجنة دون أن تمسهم بعذاب. والدخول الآخر عام لجميع الناس ثم هم فريقان: منهم من تمسه بعذاب ومنهم على خلاف ذلك وهذا ما وضحته الآية نفسها في تمامها وراجع لهذا مبارق الأزهار (١/ ٢٥٠) ومرقاة المفاتيح (٥/ ٦٢١ - ٦٣٢).

قلت: فاستفدنا من الإقرار المذكور حكما لولاه لم نهتد إلى وجه الصواب في الآية وهو أن الورود فيها بمعنى الدخول وأنه لجميع الناس ولكنها بالنسبة للصالحين لا تضرهم بل تكون عليهم بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم وقد روي هذا صراحة مرفوعا في حديث آخر لجابر لكن استغربه الحافظ ابن كثير وبينت علته في " الأحاديث الضعيفة " (٤٧٦١). لكن حديثه هذا عن أم مبشر يدل على صحة معناه وقد مال إليه العلامة الشوكاني في تفسيره للآية (٣/ ٣٣٣) واستظهره من قبله القرطبي (١١/ ١٣٨ - ١٣٩) وهو المعتمد.

والآخر: حديث " الصحيحين " والسياق للبخاري نقلا من " مختصر

البخاري " بقلمي لأنه أتم جمعت فيه فوائده وزوائده من مختلف مواضعه قالت عائشة: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي جاريتان [من جواري الأنصار ٣/ ٣] (وفي رواية: قينتان ٤/ ٢٦٦] [في أيام منى تدففان وتضربان ٤/ ١٦١] تغنيان بغناء (وفي رواية: بما تقاولت (وفي أخرى تقاذفت) الأنصار يوم) بعاث. [وليستا بمغنيتين] فاضطجع على الفراش وحول وجهه ودخل أبو بكر [والنبي ﷺ متغش بثوبه ٢/ ١١] فانتهرني) وفي رواية: فانتهرهما) وقال: مزمارة (وفي رواية: مزمار) الشيطان عند (وفي رواية: أمزامير الشيطان في بيت) رسول الله ﷺ [(مرتين)]؟ فأقبل عليه رسول الله ﷺ (وفي رواية: فكشف النبي ﷺ عن وجهه) فقال: دعهما [يا أبا بكر [ف] إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا]". فلما غفل غمزتهما فخرجتا". (رقم ٥٠٨ من المختصر ")

قلت: فنجد في هذا الحديث أن النبي ﷺ لم ينكر قول أبي بكر الصديق في الغناء بالدف أنه " مزمار الشيطان " ولا نهره لابنته أو للجاريتين بل أقره على ذلك فدل إقراره إياه على أن ذلك معروف وليس بمنكر فمن أين جاء أبو بكر بذلك؟ الجواب: جاء به من تعاليم النبي ﷺ وأحاديثه الكثيرة في تحريم الغناء وآلات الطرب وقد ذكر طائفة منها العلامة ابن قيم الجوزية في كتابه " إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان " (١/ ٢٥٨ - ٢٦٧) وخرجت بعضها في "الصحيحة" (٩١) و"المشكاة " (٣٦٥٢) ولولا علم أبي بكر بذلك وكونه على بينة من الأمر ما كان له أن يتقدم بين يدي النبي ﷺ وفي بيته بمثل هذا الإنكار الشديد غير أنه كان خافيا عليه أن هذا الذي أنكره يجوز في يوم عيد فبينه له النبي ﷺ بقوله: "دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا " فبقي إنكار أبي بكر العام مسلما به لإقراره ﷺ إياه ولكنه استثنى منه الغناء في العيد فهو

مباح بالمواصفات الواردة في هذا الحديث

فتبين أنه ﷺ كما أقر عمر على استنكاره سماع الموتى كذلك أقر أبا بكر على استنكاره مزمار الشيطان وكما أنه أدخل على الأول تخصيصا كذلك أدخل على قول أبي بكر هذا تخصيصا اقتضى إباحة الغناء المذكور في يوم العيد ومن غفل عن ملاحظة الإقرار الذي بينا أخذ من الحديث الإباحة في كل الأيام كما يحلو ذلك لبعض الكتاب المعاصرين وسلفهم فيه ابن حزم فإنه استدل به على الإباحة مطلقا جمودا منه على الظاهر فإنه قال في رسالته في الملاهي (ص ٩٨ - ٩٩): وقد سمع رسول الله ﷺ قول أبي بكر: مزمار الشيطان " فأنكر عليه ولم ينكر على الجاريتين غناءهما " والواقع أنه ليس في كل روايات الحديث الإنكار المذكور وإنما فيه قوله ﷺ لأبي بكر: "دعهما... " وفرق كبير بين الأمرين فإن الإنكار الأول لو وقع لشمل الآخر ولا عكس كما هو ظاهر بل نقول زيادة على ذلك: إن النبي ﷺ أقر قول أبي بكر المذكور كما سبق بيانه وقد قال ابن القيم في " إغاثة اللهفان " بعد أن ذكر الحديث (١/ ٢٥٧):

فلم ينكر رسول الله ﷺ على أبي بكر تسميته الغناء مزمار الشيطان وأقرهما لأنهما جاريتان غير مكلفتين تغنيان بغناء الأعراب الذي قيل في يوم حرب بعاث من الشجاعة والحرب وكان اليوم يوم عيد وأما أنه ﷺ لم ينكر على الجاريتين فحق ولكن كان ذلك في يوم عيد فلا يشمل غيره أولا. وثانيا: لما أمر ﷺ أبا بكر بأن لا ينكر عليهما بقوله: "دعهما " أتبع ذلك بقوله: "فإن لكل قوم عبدا... " فهذه جملة تعليلية تدل على أن علة الإباحة هي العيدية إذا صح التعبير ومن المعلوم أن العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما فإذا انتفت هذه العلة بأن لم يكن يوم عيد لم يبح الغناء فيه كما هو ظاهر ولكن ابن حزم لعله لا يقول بدليل

العلة كما عرف عنه أنه لا يقول بدليل الخطاب وقد رد عليه العلماء ولا سيما شيخ الإسلام ابن تيمية في غير ما موضع من " مجموع الفتاوى " فراجع المجلد الثاني من " فهرسه "

لقد طال الكلام على حديث عائشة في سماع الغناء ولا بأس من ذلك إن شاء الله تعالى فإن الشاهد منه واضح ومهم وهو أن ملاحظة طالب العلم إقرار النبي ﷺ لأمر ما يفتح عليه بابا من الفقه والفهم ما كان ليصل إليه بدونها. وهكذا كان الأمر في حديث القليب فقد تبين بما سبق أنه دليل صريح على أن الموتى لا يسمعون وذلك من ملاحظتنا إقرار النبي ﷺ لاستنكار عمر سماعهم واستدلاله عليه بالآية {إنك لا تسمع الموتى} فلا يجوز لأحد بعد هذا أن يلتفت إلى أقوال المخالفين القائلين بأن الموتى يسمعون فإنه خلاف القرآن الذي بينه الرسول ﷺ

الدليل الرابع: قول النبي ﷺ: "إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام " أقول: ووجه الاستدلال به أنه صريح في أن النبي ﷺ لا يسمع سلام المسلمين عليه إذ لو كان يسمعه بنفسه لما كان بحاجة إلى من يبلغه إليه كما هو ظاهر لا يخفى على أحد إن شاء الله تعالى. وإذا كان الأمر كذلك فبالأولى أنه ﷺ لا يسمع غير السلام من الكلام وإذا كان كذلك فلأن لا يسمع السلام غيره من الموتى أولى وأحرى

ثم إن الحديث مطلق يشمل حتى من سلم عليه ﷺ عند قبره ولا دليل يصرح بالتفريق بينه وبين من صلى عليه بعيدا عنه والحديث المروي في ذلك موضوع كما سيأتي بيانه في التعليق (ص ٨٠)

وهذا الاستدلال لم أره لأحد قبلي فإذا كان صوابا - كما أرجو - فهو فضل

من الله ونعمة وإن كان خطأ فهو من نفسي والله تعالى أسأل أن يغفره لي وسائر ذنوبي

أدلة المخالفين

فإن قيل: يظهر من النقول التي ستأتي في الرسالة عن العلماء أن المسألة خلافية فلا بد أن المخالفين فيها أدلة استندوا إليها

فأقول: لم أر فيها من صرح بأن الميت يسمع سماعا مطلقا عاما كما كان شأنه في حياته ولا أظن عالما يقول به وإنما رأيت بعضهم يستدل بأدلة يثبت بها سماعا لهم في الجملة وأقوى ما استدلوا به سندا حديثان:

الأول: حديث قليب بدر المتقدم وقد عرفت مما سبق بيانه أنه خاص بأهل القليب من جهة وأنه دليل على أن الأصل في الموتى أنهم لا يسمعون من جهة أخرى وأن سماعهم كان خرقا للعادة فلا داعي للإعادة

والآخر: حديث: "إن الميت ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا". وفي رواية " إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان... " الحديث (انظر ص ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٨٢) من " الآيات "

وهذا كما ترى خاص بوقت وضعه في قبره ومجيء الملكين إليه لسؤاله " فلا عموم فيه وعلى ذلك حمله العلماء كابن الهمام وغيره كما سيأتي في " الآيات " (ص ٥٦، ٥٩، ٧٣)

ولهم من هذا النوع أدلة أخرى ولكن لا تصح أسانيدها وفي أحدها التصريح بأن الموتى يسمعون السلام عليهم من الزائر وسائرها ليس في السماع وبعضها خاص بشهداء أحد وكلها ضعيفة وبعضها أشد ضعفا من بعض كما ستراه في التعليق (ص ٦٩)

وأغرب ما رأيت لهم من الأدلة قول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في " الروح " (ص ٨) تحت المسألة الأولى: هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم أم لا؟ فأجاب بكلام طويل جاء فيه ما نصه:

ويكفي في هذا تسمية المسلم عليهم زائرا ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائرا فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاره لم يصح أن يقال: زاره هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم وكذلك السلام عليهم أيضا فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم محال وقد علم النبي ﷺ أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا: سلام عليكم أهل الديار، وهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلم الرد ".

أقول وبالله تعالى التوفيق: رحم الله ابن القيم فما كان أغناه من الدخول في مثل هذا الاستدلال العقلي الذي لا مجال له في أمر غيبي كهذا فوالله لو أن ناقلا نقل هذا الكلام عنه ولم أقف أنا بنفسي عليه لما صدقته لغرابته وبعده عن الأصول العلمية والقواعد السلفية التي تعلمناها منه ومن شيخه الإمام ابن تيمية فهو أشبه شيء بكلام الآرائيين والقياسيين الذين يقيسون الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق وهو قياس باطل فاسد طالما رد ابن القيم أمثاله على أهل الكلام والبدع ولهذا وغيره فإني في شك كبير من صحة نسبة " الروح " إليه أو لعله ألفه في أول طلبه للعلم. والله أعلم

ثم إن كلامه مردود في شطريه بأمرين:

الأول: ما ثبت في " الصحيح " أن النبي ﷺ كان يزور البيت في الحج وأنه كان وهو في المدينة يزور قباء راكبا وماشيا ومن المعلوم تسمية طواف الإفاضة بطواف الزيارة. فهل من أحد يقول: بأن البيت وقباء يشعر كل منهما بزيارة الزائر

أو أنه يعلم بزيارته؟ وأما الآخر: فهو مخاطبة الصحابة للنبي ﷺ في تشهد الصلاة بقولهم: "السلام عليكم أيها النبي.... " وهم خلفه قريبا منه وبعيدا عنه في مسجده وفي غير مسجده أفيقال: إنه كان يسمعهم ويشعر بهم حين يخاطبونه به وإلا فالسلام عليه محال؟ اللهم غفرا. وانظر التعليق الآتي على الصفحة (٩٥ - ٩٦) وإذا كان لا يسمع هذا الخطاب في قيد حياته أفيسمعه بعد وفاته وهو في الرفيق الأعلى لا سيما وقد ثبت أنه يبلغه ولا يسمعه كما سبق بيانه في الدليل الرابع (ص ٣٦)؟ ويكفي في رد ذلك أن يقال: إنه استدلال مبني على الاستنباط والنظر فمثله قد يمكن الاعتداد به إذا لم يكن مخالفا للنص والأثر فكيف وهو مخالف لنصوص عدة واحد منها فقط فيه كفاية وغنية كما سلف وبخاصة منها حديث قليب بدر وفيه إقرار النبي ﷺ لعمر أن الموتى لا يسمعون فلا قيمة إذن للاستنباط المذكور فإن الأمر كما قيل: "إذا جاء الأثر بطل النظر وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل "

وقد يتساءل القارئ - بعد هذا - عن وجه مخاطبة الموتى بالسلام وهم لا يسمعونه؟ وفي الإجابة عنه أحيل القارئ إلى ما ذكر المؤلف رحمه الله تعالى فيما يأتي من الرسالة وما علقته عليها (ص ٩٥ - ٩٦) فإن في ذلك كفاية وغنية عن الإعادة

وخلاصة البحث والتحقيق: أن الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال أئمة الحنفية وغيرهم - كما ستراه في الكتاب مبسوطا - على أن الموتى لا يسمعون وأن هذا هو الأصل فإذا ثبت أنهم يسمعون في بعض الأحوال كما في حديث خفق النعال أو أن بعضهم سمع في وقت ما كما في حديث القليب فلا ينبغي أن يجعل ذلك أصلا فيقال إن الموتى يسمعون كما فعل بعضهم كلا فإنها قضايا

جزئية لا تشكل قاعدة كلية يعارض بها الأصل المذكور بل الحق أنه يجب أن تستثني منه على قاعدة استثناء الأقل من الأثر أو الخاص من العام كما هو المقرر في علم أصول الفقه ولذلك قال العلامة الآلوسي في " روح المعاني " بعد بحث مستفيض في هذه المسألة (٦/ ٤٥٥):.... فيقتصر على القول بسماع ما ورد السمع بسماعه.اهـ.

وهذا مذهب طوائف من أهل العلم كما قال الحافظ ابن جرب الحنبلي على ما سيأتي في الرسالة (ص ٧٠) وما أحسن ما قاله ابن التين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الموتى لا يسمعون بلا شك لكن إذا أراد الله تعالى إسماع ما ليس من شأنه السماع لم يمتنع لقوله تعالى: {إنا عرضنا الأمانة} الآية وقوله: {فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها} الآية. كما نقله المؤلف فيما يأتي (ص ٧٢) فإذا علمت أيها القارئ الكريم أن الموتى لا يسمعون فقد تبين أنه لم يبق هناك مجال لمناداتهم من دون الله تعالى ولو بطلب ما كانوا قادرين عليه وهم أحياء كما تقدم بيانه في (ص ١٦ - ٢١) بحكم كونهم لا يسمعون النداء وأن مناداة من كان كذلك والطلب منه سخافة في العقل وضلال في الدين وصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم: {ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين}. (الأحقاف ٥ - ٦) هذا ولما كان الواقع يشهد أنه لا يزال في هؤلاء المبتلين بنداء الموتى والاستغاثة بهم من دون الله تعالى من يرجو الدار الآخرة ويحرص على معرفة الحق واتباعه إذا تبين له اقتطعت من وقتي الضيق ما مكنني من التعليق على هذه الرسالة النافعة إن شاء الله تعالى وتحقيقها وتخريج أحاديثها ووضع هذه المقدمة بين يديها راجيا من المولى سبحانه

وتعالى أن ينفع بها المخلصين من المسلمين ويجعلنا وإياهم من {الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب} . (الزمر ١٨).

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في موسوعته العقدية (٩/ ١١١): سؤال: يا أستاذ! هل هناك أناس الآن دخلوا الجنة أو أناس دخلوا النار، مثل الآية التي في سورة يس: {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ} (يس:٢٦).. ؟

الشيخ: هذا فيما سيكون..، أما الآن ما هو إلا الحياة البرزخية فدخول الجنة والنار مؤقت للحساب،... البعث يوم القيامة..

مداخلة: حتى الشهداء والأنبياء..

الشيخ: كلهم، لكن أرواحهم لها نعيم خاص كما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تعلق من ثمر الجنة» وكذلك: «أرواح المؤمنين في بطون طير خضر تعلق من ثمر الجنة» فهذا نعيم روحي، أما النعيم البدني والروحي معًا وكذلك الجحيم فذلك لا يكون إلا بعد البعث والنشور.

مداخلة: طيب يا أستاذ! نحن الذي نفهمه على قدر عقولنا، أن الشخص عندما يكون حي يكون جسده وروحه مرتبطان ببعض...، الله عَزَّ وَجَلَّ عندما يقول: {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ} (آل عمران:١٦٩) أقصد أنا: بل أحياء تكون الحياة مربوطة الجسد في الروح.

الشيخ: هذا شيء معروف لا يحتاج إلى سؤال، شرحه لك الرسول وأعطاك الجواب وأنا قدمته سلفًا.. أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر، ما معنى هذا؟ معناه أنه يتنعم في بدنه؟! يتنعم في بدن مستعار، وهو الطير الأخضر، فحياة الشهداء حياة تتناسب مع مقامه عند الله أولًا وبقاؤهم في البرزخ ثانيًا، الحياة

تختلف حياة البرزخية غير الحياة الدنيوية، والحياة الأخروية غير الحياتين كلتيهما، الحياة الأخروية غير الحياة البرزخية وغير الحياة الدنيوية أيضًا؛ ولذلك لا يجوز أن يستعمل الإنسان القياس.. قياس الغائب على الشاهد، فتقول أنت: نحن لا نعرف الحياة إلا هكذا! طيب! هذه الحياة التي تعرفها لا تقيس عليها الحياة التي لا تعرفها، وبخاصة وقد جاءت بعض النصوص توضح لك تمامًا أن حياة الشهداء التي ربنا ﷻ أثبتها في نص القرآن: {بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} (آل عمران:١٦٩) ما هو رزقهم؟ ليس طبق ونفق مثل الذي عندنا، رزقهم يأكلون بطريق أكل هذا الطير الأخضر، هذا هو الرزق، الحديث يبين القرآن.

مداخلة: عندما رأى الرسول عليه الصلاة والسلام الجنة والنار ووجد الذين يتعذبون فيها والذين يتنعمون فكيف هذا؟

الشيخ: نعم، كشف له عما سيكون عليه أوضاع أهل الجنة وأهل النار، هذا الكشف الحقيقي الذي سرقه الصوفية ونسبوه إلى أنفسهم، هذا للأنبياء والرسل وفقط.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٩/ ١٥١): سؤال: بالنسبة للروح، بعد وفاة الشخص هل تعود إليه ثانية عندما ينزل إلى القبر وهل يعذب حسب أعماله في القبر؟

الشيخ: لا شك أن الميت حينما يوضع في قبره فتعود الروح إليه ساعة مجيء الملكين: منكر ونكير لسؤاله، فإذا ما أجاب بالجواب عاد ميتًا كما كان من قبل، وأنا أعني بهذا أن الروح حين يوضع في قبره تعود إليه الروح وتتلبسه بحيث أنه لما بيكون ضجيع القبر يجلس حتى يوجه إليه السؤال فيجيب،

فالروح تتلبس قسمه الأعلى فإذا ما انتهى من الجواب عاد كما كان ميتًا، هنا الآن سؤال: أين مصير روحه؟

الجواب: يعذب أو ينعم بروحه لأن جسده ميت، طريقة التنعيم والتعذيب طبعًا هذه الأمور الغيبية التي لا يجوز لمسلم أن يتعمق فيها، لأنه من باب الغيب وما نعلم الغيب ولا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، ولكن في عندنا بعض التفاصيل التي عرفناهما من السنة الصحيحة، من ذلك مثلًا إذا كانت روح الميت مؤمنة يفتح له طاقة من القبر يطل منها على منزله في الجنة، من روحها، ونعيمها ولا يزال هكذا يتنعم إلى قيام الساعة.

في حديث آخر أن هذا الميت المؤمن إما أن يكون من عامة المؤمنين، وإما أن يكون شهيدًا، فإذا كان من عامة المؤمنين فتنتقل روحه منه إلى بطن طير من طيور الجنة فيتنعم يأكل هذا الطير من شجر الجنة، إذا كان هذا الميت شهيدا فتكون روحه في حوصلة طير من طيور الجنة.

روح المؤمن العادي في بطن الطير، روح المؤمن الشهيد في حوصلة الطير.

فإذن روح المؤمن نعيمه إما في قبره وقد ينتقل في الجنة بروحه وليس بجسده، أما إذا كان لا سمح الله فاسقا أو كافرًا فيفتح له طاقة ويرى منزله في النار، في جهنم، يفتح له منها طاقة فيأتيه من ريحها ولهيبها ودخانها فلا يزال يعذب حتى تقوم الساعة.

ومن هنا نصل إلى نقطة هامة جدًا لها علاقة ببعض مشاكل العصر الحاضر، فلا بد أنكم تسمعون بناس يزعمون أنهم يستحضرون الأرواح، تسمعون الشيء هذا ولا لا؟

يعني استحضار الأرواح اليوم من بدع العصر الحاضر، وضلالات الكفار

الأوربيين وأمثالهم.

هؤلاء لا يؤمنون بشيء اسمه بعث ونشور... الخ. فيزعمون أن بإمكانهم أن يستحضروا روح من شاؤوا من الأطباء، من العلماء، من الصالحين، من الطالحين الخ. واغتر بهم كثر من المسلمين في مصر، في سوريا الخ. نحن نعرف بعضهم، فإذا استحضرنا هذه العقيدة الإسلامية وهي أن روح الميت في القبر: ينعم أو يعذب أن ينتقل إذا كان مؤمنًا إلى الجنة، كيف يمكن استعادة هذا الأرواح إلى عالم الدنيا، واستنطاقها، واستجوابها؟ هذا من تدجيل الشيطان على هؤلاء الناس اليوم إذا تذكرتم هذا الحقيقة فاذكروا معها عملية استحضار الأرواح هو دجل عصري، دجل عصري يخالف الشريعة الإسلامية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٩/ ١٥٥): يسأل السائل فيقول: هل حديث تعذيب الرجل الكافر في القبر وضرب الملائكة له يطبق على المسلم العاصي؟

الشيخ: ذلك مما لا نعرفه، ومن المحتمل أن يشارك المنافق أو الفاسق من المسلمين الكافر في التعذيب بنوع من العذاب، وهذا مما جاء التصريح به في مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «استنزهوا من البول فإن عامة عذاب القبر منه» فهذا يدل على أن المسلم يعذب في القبر ولكن ما نوعية هذا العذاب هذا مما لا نعلمه، وكذلك يؤيد معنى هذا الحديث حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه الشيخان في صحيحيهما أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مر بقبرين فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه - وفي رواية: لا يستتر - من البول، وأما الآخر فكان يسعى بالنميمة» ثم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يؤتى بغصن النخيل فشقه نصفين ووضع أحدهما على قبر

والآخر على الآخر، فسألوه عن عليه السلام فقال: «لعل الله أن يخفف عنهما ما داما رطبين» فهذا أيضًا فيه تصريح بأن المسلم يعذب في قبره بسبب معصية كان اقترفها في حياته، وذكر هنا في الحديث معصيتين إحداهما: إهماله التنزه وعدم الاحتياط في أن يصاب برشاش البول والآخر أنه كان يسعى بالنميمة.

وقوله عليه السلام حينما وضع على كل قبر شقًا من ذلك الغصن: «لعل الله أن يخفف عنهما ما داما رطبين» إشعار بأنهما كانا مسلمين، ويؤكد ذلك ما جاء في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما سئل عن الوضع المذكور وعن السبب الحامل له على ذلك قال: «لعل الله عز وجل أن يخفف عنهما بشفاعتي» أي: بدعائي، ومعنى هذا: أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- دعا لهما أن يخفف الله عنهما من العذاب الذي أصابهما ما دام الغصنان رطبين.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٩/ ١٥٦): ستاذنا، عذاب القبر هو عذاب حتى يوم القيامة، أم متقطع؟ وما الدليل على ذلك؟

الشيخ: ربنا قال في القرآن الكريم في حق فرعون وجماعته: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} (غافر:٤٦)، هذا بالنسبة لأكثر الناس، فرعون وجماعته، الذي اتخذوه إلهًا من دون الله، أما الآخرين لا شك أن من الفساق من المسلمين، بيكون عذابهم دون ذلك، أما تفصيل بين كم وكم، فهذا ليس له ذكر في السنة.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٩/ ١٥٧): السائل: العاصي؛ في بعض الأوقات يدعون أنهم يشوفون ما يحدث له في القبر.

الشيخ: هذا ممكن، لعلكم سمعتم الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم

في صحيحيهما من حديث عبد الله بن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مر بقبرين فقال عليه الصلاة والسلام: «أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما الآخر: فكان لا يستنزه - وفي رواية -: لا يستتر من البول، ثم أمر بأن يؤتى له بغصن فشقه شقين ووضع كل شق منهما على القبر، فسألوه عن ذلك عليه الصلاة والسلام فقال: لعل الله عَزَّ وَجَلَّ يخفف عنهما ما داما رطبين».

فالرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- سمع عذاب هذين المعذبين، وكانا مسلمين لكن

أحدهما يسعى بالنميمة والآخر: لا يستتر، أي: يتساهل في الكشف عن عورته

أمام الناس، أو لا يستنزه من البول، أي: لا يتحاشى أن يصيبه رشاش البول، ولذلك عذبا، وقال عليه الصلاة والسلام: «استنزهوا من البول فإن أكثر عذاب القبر من البول».

كذلك جاء في الصحيح: «أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مر ذات يوم راكبًا دابته فشمست به، فنزل فرأى قبرين فسأل أصحابه الذين كانوا معه: متى مات هذان؟ قالوا: في الجاهلية، فقال عليه الصلاة والسلام: لولا أن لا تدافنوا لأسمعتكم عذاب القبر» أي: إن الدابة لما شمست به عَلَيْهِ السَّلَامُ سمعت صوت عذاب المقبورين، فلا يستبعد أن يرى بعض الناس بعض العصاة في قبورهم يعذبون؛ لأن عذاب القبر حق، ولذلك أمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من قوله: «إذا جلس أحدكم في التشهد الأخير فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب جهنم، ومن فتنة المحيا

والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال» فعذاب القبر حق يمكن أن يرى بالأعين العادية أفعى تنهش منه... ونحو ذلك، لكن يبقى كل شيء خاضع لعلم الرواية صحت الرواية أم لا؟ الذي يُحَدِّث صادق أو مُهَوِّل، كل هذا ممكن أن يقال، أما الأصل فثابت.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٩/ ١٨٧): سؤال: حديث يقول فيما معناه: «ما من عبدٍ يصلي عليّ يوم الجمعة إلا رد الله علي روحي».

الشيخ: ما فيش يوم الجمعة «ما من مسلمٍ يسلم علي إلا رد الله علي روحي فأرد عَلَيْهِ السَّلَامُ».

مداخلة: نعم فبعض الصوفيين استدل عليه بأن الرسول الصلاة والسلام ما مات بل حي في القبر، ويستدلوا بهذا الحديث.

الشيخ: أيش معنى يرد علي روحي؟ ما مات؛ أنت روحك هلا في نفسك ولا مردودة إليك هذا كلام صوفي ويكفي أنه كلامًا صوفيًا؛ لأنه خالف حديث الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ ولذلك أقول هذول الصوفية لبالغ جهلهم ينكرون النصوص القاطعة بشبهات ما أنزل الله بها من سلطان؛ ربنا يقول في صريح القرآن {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} (الزُّمر:٣٠) فإذًا هو كسائر البشر ميت كما هم أيش؟ ميتون، إيش معنى ميت؟ أي: ستموت أي ستصبح ميتًا، وكذلك الناس جميعًا.

أينكرون هذه الحقائق بشبهات مثل هذه الشبهة التي ذكرتها عن الحديث، الحديث يعني أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مات، وكل حي فإنما سبيله الموت، ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام، ولذلك لما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحديث الآخر الصحيح: «أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة، فإن صلاتكم تبلغني» قالوا: كيف ذاك وقد أَرَمْتَ؟ ماذا فهم الصحابة من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا؟

فهموا أنه ميت، ولذلك استغربوا كيف تبلغه صلاته، وقد أَرِمَ أي: فني، أي: صار رميمًا، قال {قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} (يس:٧٨) فالصحابة كانوا يتلقون عن الرسول عليه السلام هذه الحقيقة التي لا مناص لأحدٍ من البشر إلا وأن يقع فيها، وهي {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} (الزُّمر:٣٠) كانوا عرفوا هذه الحقيقة ولذلك لما جاءهم الرسول عليه السلام بشيء ما كانوا يعرفونه من قبل: «أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة فإن صلاتكم تبلغني» قالوا كيف ذاك وقد أرمت، أي فنيت، طبعًا مت، وأكثر من مت، أي: فنيت وصرت رميمًا، قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» فأجساد الأنبياء كل الأنبياء لا تصبح رميمًا كأجساد الآخرين، ولذلك فرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- جسده في قبره كما هو من قبل هذه معجزة هذه كرامه من الله عز وجل لنبيه عليه السلام، بل ولِسائر الأنبياء الكرام ولكن الله كرم نبيه عليه السلام بكرامةٍ أخرى لا يشاركه فيها أحد من الأنبياء؛ وهي قوله عليه السلام: «فإن صلاتكم تبلغني» قالوا: كيف ذاك وقد أرمت؟ قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» أي أنا كسائر الأنبياء جسدي في القبر حي طري ولكن اصطفاني ربي عز وجل بخصلةٍ أخرى؛ أنه كلما سلَّم علي مسلمٌ رد الله إليَّ روحي فأردُّ عليه السلام.

وهذا الحديث وهو ثابت فيه دلاله على أن الرسول عليه السلام خلاف ما يتوهم كثير من العامة بل وفيهم بعض الخاصة وهي أن النبي لا يسمع سلام المسلمين عليه، وإنما كما جاء في الحديث الصحيح: «إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام» «إن لله ملائكة سياحين» يعني: طوافين على المسلمين، فكلما سمعوا مسلمًا يصلي على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بلغوه بذلك، وهو لا يسمع؛ لأن الميت لا يسمع انفصل عن هذه الحياة الدنيا ومتعلقاتها كلها،

ولكن الله ﷻ اصطفى نبيه عليه السلام فيما ذكرنا من الحياة، ومن تمكينه بإعادة روحه إلى جسده ورد السلام على المسلمين عليه، ومن ذلك أيضًا أن هناك ملائكة يبلغونه السلام، فكلما سلموا عليه من فلان هو رد عليهم السلام.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٩/ ١٩٢): سؤال: زيارة القبور يا شيخ، هل المقبور يشعر بزيارة أهله مثلًا؟

الشيخ: أبدًا ليس عنده هذا الشعور، ولا ذاك العلم بالزائر للمزور.

مداخلة: يعني الدعاء لا يصل في الحال في نفس الوقت.

الشيخ: الدعاء إذا كان مقبولًا يصل إلى الله فيستجيبه أما الميت فلا يشعر به، لكن لو فرضنا مثلًا أن الميت كان يعذب فرُفع العذاب عنه كلًا أو جزءًا بسبب دعاء الرجل الصالح، فهو يشعر بالفرق بين العذاب الذي كان فيه، وبين انتفاء العذاب كلًا أو جزءًا.

(باب مباحث الإيمان بالكتب المنزلة)

مسائل في الباب:

مسألة: الكتب في اللغة

جمع كتاب بمعنى مكتوب، مثل فراش بمعنى مفروش، وإله بمعنى مألوه، وغراس بمعنى مغروس.

ومادة (كتب) تدور حول الجمع والضم، وسمي الكاتب كاتبًا؛ لأنه يجمع الحروف ويضم بعضها إلى بعض.

ومنه الكتيبة من الجيش سميت كتيبةً؛ لاجتماعها، وانضمام بعضها إلى بعض، ومنه تسمية الخياط كاتبًا؛ لأنه يجمع أطراف الثوب إلى بعض، كما في مقامات الحريري، حيث قال ملغزًا:

وكـاتبين ومـا خطـت أنـاملهم   حرفًا ولا قـرأوا مـا خـط في الكتـب

ويَقْصدُ بهم الخياطين. رسائل في العقيدة لمحمد إبراهيم الحمد - ص: ٢٨٠

والكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيها كما في قوله تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ} [النساء: ١٥٣] يعني صحيفة مكتوبا فيها.

والمراد بالكتب هنا: الكتب والصحف التي حوت كلام الله تعالى الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام. سواء ما ألقاه مكتوبًا كالتوراة، أو أنزله عن طريق الملك مشافهة فكتب بعد ذلك كسائر الكتب[1].

ومعنى الإيمان بالكتب التصديق الجازم بأن كلها منزل من عند الله ﷻ على رسله إلى عباده بالحق المبين والهدى المستبين، وأنها كلام الله ﷻ لا كلام غيره، وأن الله تعالى: {تكلم بها حقيقة كما شاء وعلى الوجه الذي أراد، فمنها المسموع منه من وراء حجاب بدون واسطة، ومنها ما يسمعه الرسول المَلَكي ويأمره بتبليغه منه إلى الرسول البشري.

والإيمان بكتب الله التي أنزل على رسله كلها ركن عظيم من أركان الإيمان وأصل كبير من أصول الدين، لا يتحقق الإيمان إلا به. وقد دل على ذلك الكتاب والسنة.

فمن الكتاب قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: ١٣٦]. فأمر الله

---

(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب (ص ١٢٧).

عباده المؤمنين في الآية بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه. فأمرهم بالإيمان بالله ورسوله وهو محمد ﷺ والكتاب الذي أنزل على رسوله وهو القرآن، والكتاب الذي أنزل من قبل وهو جميع الكتب المتقدمة: كالتوراة، والإنجيل، والزبور، ثم بين في ختام الآية أن من كفر بشيء من أركان الإيمان فقد ضل ضلالا بعيدا وخرج عن قصد السبيل ومن أركان الإيمان المذكورة الإيمان بكتب الله.

وقال تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} [البقرة: ١٧٧]. فأخبر ﷻ أن حقيقة البر: هو الإيمان بما ذكر من أركان الإيمان، والعمل بخصال البر الواردة في الآية بعد هذا. وذكر من أركان الإيمان: (الإيمان بالكتاب) قال ابن كثير: هو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء. حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب[1].

ولتقرير الإيمان بالكتب كلها أمر الله عباده المؤمنين أن يخاطبوا أهل الكتاب بقوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٦]. فتضمنت الآية إيمان المؤمنين بما أنزل الله عليهم بواسطة رسوله ﷺ، وما أنزل على أعيان الرسل المذكورين في الآية، وما أنزل على بقية الأنبياء في الجملة وأنهم لا يفرقون بين الرسل في الإيمان ببعضهم دون بعض فانتظم ذلك الإيمان بجميع الرسل وكل ما أنزل الله عليهم من الكتب.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٩٧).

والآيات في تقرير هذا من كتاب الله كثيرة.

وأما السنة فقد دلت كذلك على وجوب الإيمان بالكتب. وأن الإيمان بها ركن من أركان الإيمان، دل على ذلك حديث جبريل، وسؤاله النبي ﷺ أركان الإيمان، فذكر النبي ﷺ في إجابته: الإيمان بالكتب مع بقية أركان الإيمان.

فتقرر بهذا وجوب الإيمان بالكتب والتصديق بها جميعها، واعتقاد أنها كلها من الله تعالى أنزلها على رسله بالحق والهدى والنور والضياء، وأن من كذب بها أو جحد شيئا منها فهو كافر بالله خارج من الدين.

مسألة: كيفية الإيمان بالكتب

الإيمان بكتب الله يشتمل على عدة جوانب دلت النصوص على وجوب اعتقادها وتقريرها لتحقيق هذا الركن العظيم من أركان الإيمان. وهي:

١- التصديق الجازم بأنها كلها منزلة من الله ﷻ، وأنها كلام الله تعالى لا كلام غيره، وأن الله تكلم بها حقيقة كما شاء وعلى الوجه الذي أراد سبحانه. قال تعالى: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ} {مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} (آل عمران: ٢- ٤).

فأخبر الله ﷻ أنه أنزل هذه الكتب المذكورة وهي: التوراة، والإنجيل، والقرآن من عنده وهذا يدل على أنه هو المتكلم بها وأنها منه بدأت لا من غيره، ولذا توعد في نهاية السياق من كفر بآيات الله بالعذاب الشديد.

وقال مخبراً عن التوراة {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ} (المائدة: ٤٤) فبين أنه تعالى هو الذي أنزل التوراة وأن ما فيها من الهدى والنور منه سبحانه. وقال تعالى في سياق آخر مبيناً أن التوراة من كلامه وذلك في معرض إخباره عن

اليهود ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ (البقرة: ٧٥) فكلام الله الذي سمعوه ثم حرفوه هو التوراة. قاله السُّدِّي وابن زيد وجمع من المفسرين.

وقال تعالى في الإنجيل ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ﴾ (المائدة: ٤٧) أي من الأوامر والنواهي التي هي من كلام الله.

وقال في القرآن الكريم: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١). وقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل: ٦). وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ (النحل: ١٠٢). وقال تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ﴾ (التوبة: ٦). وإنما أمروا أن يسمعوا القرآن الذي أنزله على رسوله ﷺ فهو كلام الله على الحقيقة.

٢- الإيمان بأنها دعت كلها إلى عبادة الله وحده وقد جاءت بالخير والهدى والنور والضياء. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾ (آل عمران: ٧٩). فبين الله أنه ما ينبغي لأحد من البشر، آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة، أن يأمر الناس أن يتخذوه إلها من دون الله. وذلك أن كتب الله إنما جاءت بإخلاص العبادة لله وحده.

وقال تعالى مبينًا أن كتبه جاءت بالحق والهدى ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ٣، ٤). وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (البقرة: ٢١٣). وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا

التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ} (المائدة: ٤٤). وقال تعالى: {وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ} (المائدة: ٤٦). وقال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ} {فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} (البقرة: ١٨٥). إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة أن كتب الله تعالى قد جاءت بالهدى والنور من الله تعالى.

٣- الإيمان بأن كتب الله يصدق بعضها بعضًا فلا تناقض بينها ولا تعارض كما قال تعالى في القرآن {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} (المائدة: ٤٨). وقال في الإنجيل: {وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ} (المائدة: ٤٦). فيجب الإيمان بهذا واعتقاد سلامة كتب الله من كل تناقض أو تعارض، وهذا من أعظم خصائص كتب الله عن كتب الخلق وكلام الله عن كلام الخلق فإن كتب المخلوقين عرضة للنقص والخلل والتعارض كما قال تعالى في وصف القرآن {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} (النساء: ٨٢).

٤- الإيمان بما سمى الله ﷻ من كتبه على وجه الخصوص، والتصديق بها، وبإخبار الله ورسوله عنها. وهذه الكتب هي:

أ) التوراة: وهي كتاب الله الذي آتاه موسى عليه السلام. قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ} (القصص: ٤٣). وفي حديث الشفاعة الطويل الذي أخرجه الشيخان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا: (... «فيأتون إبراهيم فيقول: لست هُنَاكم ويذكر خطيئته التي أصابها ولكن ائتوا موسى عبدًا آتاه الله التوراة وكلمه تكليما »، وقد ألقى الله التوراة على موسى مكتوبة في الألواح وفي ذلك يقول سبحانه {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ} (الأعراف: ١٤٥). قال ابن

عباس (يريد ألواح التوراة). وفي حديث احتجاج آدم وموسى من رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي: (... «قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده» أخرجاه في الصحيحين من طرق كثيرة. والتوراة هي أعظم كتب بني إسرائيل وفيها تفصيل شريعتهم وأحكامهم التي أنزلها الله على موسى وقد كان على العمل بها أنبياء بني إسرائيل الذين جاءوا من بعد موسى كما قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ} (المائدة: ٤٤). وقد أخبر الله في كتابه عن تحريف اليهود للتوراة وتبديلها على ما سيأتي بسط هذا في المبحث القادم إن شاء الله.

ب) الإنجيل: وهو كتاب الله الذي أنزله على عيسى ابن مريم عليهما السلام. قال تعالى: {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} (المائدة: ٤٦).

وقد أنزل الله الإنجيل مصدقا للتوراة وموافقا لها كما تقدم في الآية السابقة.

قال بعض العلماء: لم يخالف الإنجيل التوراة إلا في قليل من الأحكام مما كانوا يختلفون فيه كما أخبر الله عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: {وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} (آل عمران: ٥٠).

وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن التوراة والإنجيل نصا على البشارة بنبينا محمد ﷺ. قال تعالى {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ} (الأعراف: ١٥٧).

وقد لحق الإنجيل من التحريف ما لحق التوراة، كما سيأتي بيانه في المبحث

القادم بحول الله.

ج) الزبور: وهو كتاب الله الذي أنزله على داود عليه السلام. قال تعالى: {وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا} (النساء: ١٦٣). قال قتادة في تفسير الآية: "كنا نحدث أنه دعاء علمه الله داود وتحميد وتمجيد لله عز وجل ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود".

د) صحف إبراهيم وموسى: وقد جاء ذكرها في موضعين من كتاب الله، الأول في سورة النجم في قول الله تعالى: {أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى} {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} {أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} (النجم: ٣٦-٣٩). والثاني في سورة الأعلى، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} {وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى} {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} (الأعلى: ١٤- ١٩). فأخبر الله عز وجل عن بعض ما جاء في هذه الصحف من وحيه الذي أنزله على رسوليه إبراهيم وموسى عليهما السلام. والعلم عند الله.

هـ) القرآن العظيم: وهو كتاب الله الذي أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، وهو آخر كتب الله نزولا وأشرفها وأكملها، والناسخ لما قبله من الكتب وقد كانت دعوته لعامة الثقلين من الإنس والجن. قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} (المائدة: ٤٨) ومهيمنًا: أي شهيدًا على ما قبله من الكتب وحاكما عليها. وقال تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} (الأنعام: ١٩). وقال عز وجل: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} (الفرقان: ١).

وللقرآن أسماء كثيرة أشهرها: القرآن، والفرقان، والكتاب، والتنزيل، والذكر.

فيجب الإيمان بهذه الكتب على ما جاءت به النصوص، من ذكر أسمائها، ومن أنزلت فيهم، وكل ما أخبر الله به ورسوله ﷺ عنها، وما قُصَّ علينا من أخبار أهلها.

٥- الاعتقاد الجازم بنسخ جميع الكتب والصحف التي أنزلها الله على رسله، بالقرآن الكريم، وأنه لا يسع أحدًا من الإنس أو الجن، لا من أصحاب الكتب السابقة، ولا من غيرهم، أن يعبدوا الله بعد نزول القرآن بغير ما جاء فيه أو يتحاكموا إلى غيره. والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة. قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} (الفرقان: ١). وقال ﷻ: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} {يَهْدِي بِهِ} {اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (المائدة: ١٥، ١٦).

وقال تعالى آمرا نبيه ﷺ أن يحكم بين أهل الكتاب بالقرآن {فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ} (المائدة: ٤٨). وقال أيضا {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ} (المائدة: ٤٩).

ومن السنة حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا،

والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيا، ما وسعه إلا أن يتبعني»(١) ومعنى متهوكون: متحيرون.

فهذا ما يجب اعتقاده في كتب الله على سبيل الإجمال وسيأتي تفصيل ما يجب اعتقاده في القرآن على وجه الخصوص في مبحث مستقل إن شاء الله تعالى.

مسألة: تحريف أهل الكتاب لكلام الله

أخبر الله ﷻ في القرآن الكريم عن تحريف أهل الكتاب لكتب الله المنزلة عليهم وتغييرها وتبديلها.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧، رقم ١٥١٩٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٦٤٢١)، وأبو عبيد في غريب الحديث (٣/ ٢٨ - ٢٩)، والدارمي (٤٣٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٥/ ٢)، والبزار (١٢٤ - كشف الأستار)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٧)، والبغوي في شرح السنة (١٢٦)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ٤٢)، والهروي في ذم الكلام (٤/ ٦٧ - ٢)، والضياء المقدسي في المنتقى من مسموعاته بمرو (٣٣/ ٢) والحديث صححه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٢٢)، وقال عنه ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٢٧٦): إسناده على شرط مسلم، وقال المعلمي في الأنوار الكاشفة (١٢٢) هذا من رواية مجالد عن الشعبي عن جابر ومجالد ليس بالقوي، وقال العلامة الألباني في الإرواء (١٥٨٩) وهذا سند فيه ضعف من أجل مجالد وهو ابن سعيد الهمداني قال الحافظ في التقريب: ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره، وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٢٨٤): رواه أحمد وابن أبى شيبة والبزار ورجاله موثقون إلا أن في مجالد ضعفا، قلت (الكلام للألباني): لكن الحديث قوي فإن له شواهد كثيرة أذكر بعضها، ثم ذكر الشيخ رحمه الله بعض شواهده، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده ضعيف لضعف مجالد: وهو ابن سعيد، ونقل ابن حجر في ترجمة عبد الله بن ثابت من الإصابة (٤/ ٣٠) عن البخاري أنه قال: قال مجالد عن الشعبي عن جابر: إن عمر أتى بكتاب، ولا يصح.. قلنا: وقوله: "ولا يصح" لم يرد في المطبوع من التاريخ الكبير للبخاري (٥/ ٣٩).

قال تعالى في حق اليهود: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (البقرة: ٧٥).

وقال ﷻ: {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} (النساء: ٤٦).

وقال تعالى مخبرا عن النصارى: {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} (المائدة: ١٤، ١٥).

فدلت الآيات على تحريف اليهود والنصارى كتب الله المنزلة عليهم.

وقد كان هذا التحريف بالزيادة تارة وبالنقص تارة أخرى.

فدليل الزيادة قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} (البقرة: ٧٩).

ودليل النقص قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ} (المائدة: ١٥). وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} (الأنعام: ٩١).

تحريف التوراة والإنجيل وأدلة ذلك: هذا ما جاء في تحريف أهل الكتاب لكلام الله وكتبه في الجملة. وأما التوراة والإنجيل خاصة فقد دلت الأدلة مما تقدم وغيرها على وقوع التحريف فيهما.

فمن أدلة تحريف التوراة قوله تعالى: {قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا

لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} (الأنعام: ٩١). وجاء في تفسير الآية: (أي تجعلون الكتاب الذي جاء به موسى في قراطيس تضعونه فيها ليتم لكم ما تريدونه من التحريف والتبديل وكتم صفة النبي ﷺ المذكورة فيه).

وقال تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ} (البقرة: ٧٥) قال السدي في تفسير الآية: (هي التوراة حرفوها). وقال ابن زيد: (التوراة التي أنزلها عليهم يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراما والحرام فيها حلالا والحق فيها باطلا والباطل فيها حقا).

ودليل تحريف الإنجيل قوله تعالى: {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى} {أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} (المائدة: ١٤-١٥). قال بعض أئمة التفسير في تفسير الآية الأخيرة: (أي يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه وافتروا على الله فيه ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه.

فدلت هذه الآيات على وقوع التحريف والتبديل في التوراة والإنجيل. ولهذا اتفق علماء المسلمين على أن التوراة والإنجيل قد دخلهما التحريف والتغيير.

أما القرآن العظيم فهو سليم مما طرأ على الكتب السابقة من التحريف والتبديل وهو محفوظ من كل ذلك بحفظ الله له وصيانته إياه كما أخبر الله عن ذلك بقوله: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: ٩). قال الطبري في تفسير الآية: "قال وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل ما ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه". كما أخبر الله في آيات

أخرى عن تمام إحكامه للقرآن وتفصيله وتنزيهه من كل باطل فقال عز من قائل: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ} {حَكِيمٍ حَمِيدٍ} (فصلت: ٤٢). وقال تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} (هود: ١). وقال ﷻ: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} (القيامة: ١٦، ١٧).

فدلت هذه الآيات على كمال حفظ الله للقرآن لفظا ومعنى بدءا بنزوله إلى أن يأذن الله برفعه إليه سليما من كل تغيير أو تبديل. إذ تكفل بتعليمه لنبيه ﷺ، ثم جمعه في صدره وبيانه له وتفسيره في سنته المطهرة، ثم ما هيأ الله له بعد ذلك من عدول الرجال الذين حفظوه في الصدور والسطور، عبر الأجيال والقرون، فبقي سليما منزها من كل باطل، يقرؤه الصغار والكبار، على مختلف الأعصار والأمصار، غضا طريا كما أنزل من الله على رسوله ﷺ. وقد نبه العلماء في هذا المقام إلى سر لطيف ونكتة بديعة تتعلق بجواز التحريف على التوراة وعدم جوازه على القرآن على ما روى أبو عمرو الداني عن أبي الحسن المنتاب قال: (كنت يوما عند القاضي أبي إسحاق إسماعيل بن إسحاق فقيل له: لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن ؟ فقال القاضي: قال الله ﷻ في أهل التوراة {بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ} (المائدة: ٤٤) فوكل الحفظ إليهم فجاز التبديل عليهم. وقال في القرآن {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: ٩) فلم يجز التبديل عليهم. قال: فمضيت إلى أبي عبد الله المحاملي فذكرت له الحكاية فقال: "ما سمعت كلاما أحسن من هذا".

مسألة: تعريف القرآن العظيم

القرآن من مادة قرأ، ومنه قرأت الشيء، فهو قرآن: أي جمعته، وضممت بعضه إلى بعض، فمعناه: الجمع والضم. ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سلى

قط، وما قرأت جنينًا، أي لم تضم رحمها على ولد[١].

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: (... وإنما سمي قرآنًا لأنه يجمع السور فيضمها، وتفسير ذلك في آية من القرآن، قال الله -جل ثناؤه-: إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [القيامة: ١٧]... تأليف بعضه إلى بعض...) ثم قال: وفي آية أخرى: فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ} [النحل: ٩٨]... إذا تلوت بعضه في إثر بعض، حتى يجتمع، وينضم بعضه إلى بعض، ومعناه: يصير إلى معنى التأليف والجمع، ثم استشهد على هذا المعنى، بقول عمرو بن كلثوم:

ذراعي حرة أدماء بكر   هجان اللون لم تقرأ جنينًا[٢]

أي لم تضم في رحمها ولدًا قط[٣] فسمي القرآن قرآنًا، لأنه جمع القصص، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات والسور: بعضها إلى بعض[٤].

ويذكر أبو بكر الباقلاني: أن القرآن يكون مصدرًا واسمًا: مصدرًا كما في قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [القيامة: ١٧]، واسمًا كما في قوله (تعالى): وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا} [الإسراء: ٤٥][٥].

ويروى عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (أن القرآن اسم علم لكتاب الله، غير مشتق:

---

(١) الصحاح - لإسماعيل بن حماد الجوهري (١/ ٦٥) مادة: قرأ.

(٢) شرح القصائد السبع الطوال لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (معلقة عمرو ابن كلثوم) (ص: ٣٨٠).

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي (١/ ١ - ٣).

(٤) لسان العرب (١/ ١٢٨) مادة قرأ.

(٥) نكت الانتصار لنقل القرآن لأبي بكر الباقلاني (ص: ٥٦).

كالتوراة، والإنجيل)[١]. قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والصحيح الاشتقاق في الجميع)[٢] أي في القرآن والتوراة والإنجيل[٣].

وأما معنى القرآن في الاصطلاح فهو اسم لكلام الله تعالى، المنزل على عبده ورسوله: محمد ﷺ، وهو اسم لكتاب الله خاصة ولا يسمى به شيء غيره من سائر الكتب[٤]. وإضافة الكلام إلى الله تعالى إضافة حقيقية، من باب إضافة الكلام إلى قائله.

وعرفه السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (وأما في العرف فهو الكلام المنزل على محمد ﷺ للإعجاز بسورة منه، فخرج بالمنزل على محمد ﷺ: التوراة والإنجيل، وسائر الكتب، وبالإعجاز: الأحاديث الربانية القدسية كحديث الصحيحين: (أنا عند ظن عبدي بي... إلى آخره)[٥] وغيره... وقولنا: بسورة منه: هو بيان لأقل ما وقع به الإعجاز، وهو قدر أقل سورة، كالكوثر، أو ثلاث آيات من غيرها، بخلاف من دونها[٦]... ثم قال: (وزاد بعض المتأخرين في الحد: المتعبد بتلاوته، ليخرج المنسوخ التلاوة)[٧].

ولما ظهر الخوض في صفات الله تعالى، وفي كلام الله خاصة، من قبل الزنادقة، وفرق المبتدعة، أحتاج أهل السنة إلى تعريف القرآن تعريفًا يظهرون

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٢٩٨).
(٢) تفسير القرطبي (٢/ ٢٩٨).
(٣) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة (١/ ٥٣).
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٢٩٨)، ومجاز القرآن لأبي عبيدة (١/ ١).
(٥) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٦) إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، (ص: ٢٥٤ - ٢٥٨).
(٧) التحبير في علم التفسير لجلال الدين السيوطي ص: (٣٩ - ٤٠).

فيه معتقدهم في صفات الله تعالى عامة، وفي صفة الكلام خاصة، ومنه القرآن، مخالفين بذلك أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهم، فقال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله تعالى:

(وإن القرآن كلام الله، منه بدأ بلا كيفية قولًا، وأنزله على رسوله وحيًا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقًا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه، فزعم أنه كلام البشر فقد كفر)(١).

مسألة: كيفية حفظ القرآن

حفظ القرآن في عهد النبوة: أنزل الله تعالى كتابه ليكون الكتاب المهيمن، والرسالة الخاتمة، والشرعة الباقية، مما يتطلب رعايته عن عبث العابثين؛ وتحريف الغالين؛ وانتحال المبطلين؛ وقد اتفق له ذلك منذ اللحظة الأولى لنزوله، وحتى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تحقيقًا لقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩].

وللحفظ في عهد النبوة وجوه عدة، منها:

١- الطريقة التي كان ينزل بها الوحي: وهي أن ينزل على هيئة تكون أدعى إلى حفظه، وضبطه: أخرج البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن الحارث بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا، فيكلمني، فأعي ما يقول)(٢).

٢- مدارسة الملك النبي ﷺ القرآن: وكان ذلك في رمضان من كل عام:

---

(١) شرح الطحاوية (ص: ١٢١، ١٢٢).

(٢) رواه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: (كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة)[١].

وفي رواية لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه...)[٢].

٣- كتابة الوحي، ومقابلته كما هو معلوم في أحاديث كثيرة

٤- قصر الكتابة على القرآن: وذلك في بادئ الأمر، لئلا يختلط القرآن بغيره، لحديث (لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج...)[٣].

ثم كان الإذن بالكتابة، بعد أن زال سبب المنع.

٥- الحض على تعلم القرآن وتعليمه: فقد كان النبي ﷺ يحث أصحابه على تعلم القرآن وتعليمه، وحفظه، وتحفيظه، وكان يقدم أكثرهم أخذًا للقرآن في إمامة الصلوات، وقيادة السرايا، والدفن.

٦- قوة الحافظة عند العرب: فالعرب كانوا أهل حافظة لا تكاد تخطئ، وذاكرة لا يكاد يعزب عنها شيء، وخاصة أن القرآن جاء في براعة من الأسلوب، ورفعة من البيان، ما يجعله أحرى لحفظه، والاهتمام به، حتى كثر آخذوه: صدرًا وسطرًا، قال الباقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: (... وتظاهر بينهم، حتى حفظه الرجال،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩٧)، ومسلم (٢٣٠٨).
(٢) أخرجه البخاري (٤٩٩٨).
(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٤).

وتنقلت به الرحال، وتعلمه الكبير والصغير؛ إذ كان عمدة دينهم، وعلمًا عليه، والمفروض تلاوته في صلواتهم، والواجب استعماله في أحكامهم)[(١)].

* حفظ القرآن في عهد الصحابة رضوان الله عليهم.

أما حفظ القرآن في عهد الصحابة، فقد تجلى ذلك عبر حادثتين عظيمتين:

الأولى منها: في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وذلك لما كثر في حفظة كتاب الله تعالى، فخشي الصحابة ذهاب القرآن بذهاب حفظته؛ فأجمعوا أمرهم على جمعه في مكان واحد، وهو ما يسمى بالجمع الأول؛ أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: (أرسل إلي أبو بكر الصديق، مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى إن استحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، لا نتهمك؛ وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به في جمع القرآن، قلت كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فتتبعت القرآن، أجمعه من العسب، واللخاف، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم

(١) إعجاز القرآن (ص: ١٦)، وانظر منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة (١/ ٦١).

أجدها مع أحد غيره: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} [التوبة: ١٢٨]، حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر، حياته، ثم عند حفصة بنت عمر)[١].

أما الحادثة الثانية: ففي عهد الخليفة الثالث، عثمان بن عفان رضي الله عنه وذلك لما ظهر النزاع بين بعض المسلمين بسبب الاختلاف في الأحرف التي يقرأ بها القرآن، فأجمع الصحابة ومن معهم من المسلمين على جمع القرآن في مصحف واحد، وأحرقوا ما دونه من المصاحف، توحيدًا لقراءتهم، وجمعًا لكلمتهم: أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال: (إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القرآن، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى! فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام؛ فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم؛ ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق)[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٨٧).

وهكذا حفظ كتاب الله تعالى على يد الشيخين الجليلين، أبي بكر وعثمان، وهو مما يعد في مناقبهما[١].

مسألة: كيفية معرفة القراءة الصحيحة والشاذة في هذه الأعصار

لمعرفة القراءة الصحيحة والشاذة في هذه الأعصار مصادر معلومة عند أهل الأداء وأئمة القراء ومصادر القراءة الصحيحة على قسمين:

القسم الأول: مصادر القراءات العشر الصغرى، وهي حرز الأماني ووجه التهاني المعروفة بالشاطبية في القراءات السبع للإمام القاسم بن فيره الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ) وتحبير التيسير في القراءات العشر للحافظ أبي الخير محمد ابن الجزري (ت٨٣٣ هـ) وسميت بالعشر الصغرى لأنها أخذت عن كل راو طريقا واحدا فقط، وينضوي تحت تلك المصادر كل من وافقها من الكتب أو أسند إليها، ومن أشهرها غيث النفع في القراءات السبع من طريق الشاطبية للصفاقسي (ت ١١١٨ هـ) والدرة المضية في القراءات الثلاث للحافظ ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) والبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة للشيخ عبد الفتاح القاضي (ت ١٤٠٣ هـ).

القسم الثاني: مصادر القراءات العشر الكبرى، وهي التي اعتمدت عن كل راو ثمانية طرق أصلية، ولذلك أطلق عليها العشر الكبرى، وهي في النشر في القراءات العشر وتقريب النشر وطيبة النشر، كلاها للحافظ ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ)، وكذلك من وافقه كما في إتحاف فضلاء البشر للبنا الدمياطي (ت ١١١٧ هـ) فيما يرويه عن القراء العشرة.

فما ورد في هذين المصدرين أي العشرة الكبرى والصغرى فهو الصحيح،

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٣٩، ٢٤٠).

وكلها متواترة، وما كان منها صحيح مستفاض مما هو من قبيل الأداء فهو ملحق بالمتواتر حكما، لأنه من القرآن المقطوع به، وما عدا تلك القراءات فهو الشاذ.

وهنا أمور ينبغي التنبيه لهما، وهي:

الأمر الأول: أن الأوجه التي في القراءات العشر الصغرى قد تضمنتها القراءات العشر الكبرى إلا أربع كلمات زادت فيها الدرة وجها آخر لابن وردان ليس في الطيبة.

الأمر الثاني: حيث إنه ربما يشق على غير المتخصصين الرجوع إلى جميع المصادر المذكورة في هذا النوع من القراءات، وهي القراءات المتواترة التي عليها الاعتماد عند علماء العصر الحاضر، فإنه يمكن للباحث الرجوع إلى كتاب إتحاف فضلاء البشر للبنا الدمياطي (ت ١١١٧ هـ) فيما يرويه عن القراء العشرة، فإن هذا الكتاب قد اشتمل على المتواتر عن هؤلاء العشرة، لأنه تضمن النشر وطيبته وتقريبه وشروحها وما يدور في فلكها.

الأمر الثالث: اشتملت كتب الشواذ على بعض القراءات المتواترة، ولذلك ينبغي الحيطة من الاستعجال في إطلاق الشذوذ على القراءة لمجرد وجودها في كتب الشواذ، بل لابد من الرجوع إلى مصادر القراءات الصحيحة المبينة في أول التعليق للتثبت من عدم ورودها فيها.

الأمر الرابع: خلو بعض المصادر الصحيحة من بعض أوجه القراءات المعتبرة لا يخدش في ثبوتها في المصادر الأخرى، لأن المعتمد في كتب القراءات الرواية والمشافهة، فالأصل أن المصنف لا يثبت إلى ما رواه أو شافهه به، وغاية ما يدل عليه اختلاف المصادر عن أحد القراء أو الرواة أن الوجهين المذكور والمتروك وردا عنه حسب الطرق التي أدت تلك الروايات والقراءات

إلى تلك المصادر.

الأمر الخامس: ليس كل ما يعزى إلى القراء السبعة أو العشرة تجوز القراءة به، بل لا بد من وجود هذا العزو في الكتب التي ذكرناها في مصدرين القراءة الصحيحة في أول التعليق.

الأمر السادس: إذا ثبتت القراءة فلا يضرها تضعيف النحاة أو غيرهم لها.

مسألة: التعريف بالتوراة

التوراة: كلمة عبرانية تعني الشريعة أو الناموس، ويراد بها في اصطلاح اليهود: خمسة أسفار يعتقدون أن موسى عليه السلام كتبها بيده، ويسمونها "بنتاتوك" نسبة إلى (بنتا) وهي كلمة يونانية تعني خمسة، أي: الأسفار الخمسة، وهذه الأسفار هي:

١- سفر التكوين: ويتحدث عن خلق السموات والأرض، وآدم، والأنبياء بعده إلى موت يوسف عليه السلام

٢- سفر الخروج: ويتحدث عن قصة بني إسرائيل من بعد موت يوسف عليه السلام إلى خروجهم من مصر، وما حدث لهم بعد الخروج مع موسى عليه السلام

٣- سفر اللاويين: وهو نسبة إلى لاوى بن يعقوب، الذي من نسله موسى وهارون عليهما السلام، وأولاد هارون هم الذين فيهم الكهانة، أي: القيام بالأمور الدينية، وهم المكلفون بالمحافظة على الشريعة وتعليمها الناس، ويتضمن هذا السفر أمورًا تتعلق بهم وبعض الشعائر الدينية الأخرى.

٤- سفر العدد: وهو معنيٌّ بعدِّ بني إسرائيل، ويتضمن توجيهات، وحوادث حدثت من بني إسرائيل بعد الخروج.

٥- سفر التثنية: ويعني تكرير الشريعة، وإعادة الأوامر والنواهي عليهم مرة

أخرى، وينتهي هذا السفر بذكر موت موسى عليه السلام وقبره، وقد يطلق النصارى اسم التوراة على جميع أسفار العهد القديم.

أما في اصطلاح المسلمين فهي: الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام نورًا وهدى لبني إسرائيل.

أما الكتب الملحقة بالتوراة فهي: أربعة وثلاثون سفرًا، حسب النسخة البروتستانتية، فيكون مجموعها مع التوراة تسعة وثلاثين سفرًا، وهي التي تسمى العهد القديم لدى النصارى، ويمكن تقسيمها إلى خمسة أقسام:

أولًا: الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام

ثانيًا: الأسفار التاريخية، وهي ثلاثة عشر سفرا:

١ - يشوع ٢ - القضاة ٣ - راعوث ٤ - صموئيل الأول ٥ - صموئيل الثاني ٦ - الملوك الأول ٧ - الملوك الثاني ٨ - أخبار الأيام الأول ٩ - أخبار الأيام الثاني ١٠ - عزرا ١١ - نحميا ١٢ - إستير ١٣ - يونان (يونس عليه السلام).

وهذه الأسفار تحكي قصة بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام إلى ما بعد العودة من السبي البابلي إلى فلسطين، وإقامتهم للهيكل مرة أخرى بعد تدميره، ماعدا سفري أخبار الأيام الأول والثاني، فإنها تعيد قصة بني إسرائيل، وتبتدئ بذكر مواليد آدم على سبيل الاختصار إلى السنة الأولى لملك الفرس قورش، وكذلك سفر يونان (يونس عليه السلام) يحكي قصته مع أهل نينوى الذين أرسل إليهم. ثالثًا: أسفار الأنبياء وهي خمسة عشر سفرًا:

١ - أشعيا ٢ - إرميا ٣ - حزقيال ٤ - دانيال ٥ - هوشع ٦ - يوثيل ٧ - عاموس ٨ - عوبديا ٩ - ميخا ١٠ - ناحوم ١١ - حبقوق ١٢ - صفنيا ١٣ - حجى ١٤ - زكريا ١٥ - ملاخى.

وهذه الأسفار يغلب عليها طابع الرؤى، والتنبؤات بما سيكون من حال بني إسرائيل، وحال الناس معهم، وفيها تهديدات لبني إسرائيل، ووعود بالعودة والنصر. والذين نسبت إليهم هذه الأسفار هم ممن كانوا زمن السبي إلى بابل وبعده.

رابعًا: أسفار الحكمة والشعر (الأسفار الأدبية)

وهي خمسة أسفار:

١- أيوب ٢- الأمثال ٣- الجامعة ٤- نشيد الإنشاد ٥- مراثي إرميا.

خامسًا: سفر الابتهالات والأدعية سفر واحد، وهو سفر المزامير المنسوب إلى داود عليه السلام.

هذه أسفار النسخة العبرانية المعتمدة لدى اليهود والبروتستانت من النصارى.

أما النصارى الكاثوليك، والأرثوذكس فيعتمدون النسخة اليونانية، وهي تزيد على العبرانية بسبعة أسفار هي: سفر طوبيا، ويهوديت، والحكمة، ويشوع بن سيراخ، وباروخ، والمكابيين الأول والمكابيين الثاني[1].

تاريخ التوراة

إن كل كتاب يستمد قيمته من قيمة صاحبه، ولابد أن يثبت صحة نسبته إلى صاحبه، وإلا فإنه يفقد قيمته، والكتب المنزلة المقدسة تستمد قدسيتها من نسبتها إلى من جاءت من عنده، وهو الله عز وجل، ولابد لثبوت قدسيتها أن تثبت صحة نسبتها وسندها إلى الله عز وجل، وما لم يثبت ذلك فإنها لا تكون مقدسة، وغير واجبة القبول؛ إذ تكون عرضة للتحريف، والتبديل، والخطأ.

---

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (ص ٧٦).

فلهذا لابد لنا أن نتعرف على حال التوراة المنسوبة إلى موسى عليه السلام، وهي أهم جزء في العهد القديم الذي بين يدي اليهود والنصارى من ناحية إسنادها فنقول:

إن من نظر في التوراة والأسفار الملحقة بها يجد ذكرًا محدودًا لأسفار موسى التي يسمونها الشريعة، أو سفر الرب، أو التوراة.

ومن خلال هذه المعلومات نجد أن اليهود ذكروا:

١- أن موسى عليه السلام دوَّن جميع الأحكام وكتبها، وهي أحكام أعطيها شفهيًّا وفي هذا قالوا في (سفر الخروج) (٢٤/ ٣): (فجاء موسى وحدث الشعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام، فأجاب جميع الشعب بصوت واحد، وقالوا: كل الأقوال التي تكلم بها الرب نفعل. فكتب موسى جميع أقوال الرب...) ثم قالوا: (وأخذ كتاب العهد، وقرأ في مسامع الشعب فقالوا: كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له).

٢- أن موسى أُعطي شريعة مكتوبة بيد الله تعالى، وفي هذا قالوا في (سفر الخروج) (٢٤/ ١٢) (وقال الرب لموسى: اصعد إلى الجبل، وكن هناك فأعطيك لوحي الحجارة، والشريعة، والوصية التي كتبتها لتعليمهم).

ثم ذكروا بعد هذا أن موسى عليه السلام مكث أربعين يومًا في الجبل، وذكروا شرائع كثيرة أعطيها، وتكلم الله بها معه، ثم في نهاية ذلك ذكروا إعطاءه الألواح، وفي هذا قالوا في (سفر الخروج) (٣١/ ١٨): (ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحي الشهادة، لوحي حجر مكتوبين بإصبع الله). وفي أثناء غياب موسى عليه السلام عبد بنو إسرائيل العجل، فلما عاد موسى عليه السلام ورأى قومه يرقصون حول العجل ألقى الألواح فتكسرت، ثم إن الله سبحانه وتعالى

فيما يذكر اليهود كتب له لوحين آخرين بدلًا عنها.

٣- ذكر اليهود أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قبيل وفاته كتب التوراة، وأعطاها لحاملي التابوت، وفي هذا قالوا في (سفر التثنية) (٣١/ ٩): (وكتب موسى هذه التوراة، وسلمها للكهنة من بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب، ولجميع شيوخ إسرائيل، وأمرهم موسى قائلًا: في نهاية السبع السنين في ميعاد سنة البراء في عيد المظال حينما يجيء جميع إسرائيل؛ لكي يظهروا أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره، تقرأ هذه التوراة، أمام كل إسرائيل في مسامعهم).

ثم ذكر اليهود في خاتمة هذا السفر السبب الذي لأجله دوَّن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التوراة فقالوا في (سفر التثنية) (٣١/ ٢٤): (فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلًا: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم؛ ليكون هناك شاهدًا عليكم؛ لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي).

٤- ذكر اليهود في سفر يشوع أن يشوع (يوشع) كتب التوراة مرة أخرى على أحجار المذبح حسب وصية موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي هذا قالوا: (حينئذ بنى يشوع مذبحًا للرب إله إسرائيل في جبل عيبال... وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى التي كتبها أمام بني إسرائيل... وبعد ذلك قرأ جميع كلام التوراة البركة واللعنة، حسب كل ما كتب في سفر التوراة).

٥- انقطع بعد هذا ذكر التوراة وخبرها، فلا يذكر اليهود في كتابهم التوراة التي كتبها موسى، ولا ما كتبه يشوع على حجارة المذبح، وإنما ذكروا التابوت الذي وضع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيه التوراة، وأن هذا التابوت استولى عليه الأعداء في

زمن النبي صموئيل في قولهم، ثم أعيد إليهم بعد سبعة أشهر، فجعلوه في قرية يسمونها يعاريم. وبقى هناك فيما ذكروا عشرين عامًا إلى أن جاء داود عليه السلام فأصعده من هناك إلى أورشليم، وجعله في خيمة، ثم نقله سليمان عليه السلام إلى الهيكل الذي بناه، وجعله في قدس الأقداس فيما يقولون، وكانوا يستقبلونه في الصلاة.

وقد ذكروا أن سليمان عليه السلام حين فتح التابوت لم يكن فيه سوى لوحي الحجر اللذين وضعهما موسى عليه السلام، فأين ذهبت نسخة التوراة التي نسخها موسى عليه السلام ووضعها في التابوت؟ هذا مالا يجد اليهود ولا النصارى جوابًا له.

٦- بعد سليمان عليه السلام انقسمت دولة بني إسرائيل إلى قسمين: دولة إسرائيل في الشمال: وهي تحت حكم يربعام بن نباط، وعاصمتها نابلس. ودولة يهوذا في الجنوب، وهي تحت حكم رحبعام بن سليمان، وعاصمتها أورشليم.

وذكر اليهود حادثة في زمن رحبعام، لها دلالتها المهمة: وهي أن رحبعام ترك شريعة الرب هو وكل إسرائيل، وذلك يعني انحرافهم عن الدين فهاجمهم فرعون مصر في ذلك الزمن، واستباح ديارهم، وفي هذا قالوا في (سفر الملوك الأول) (١٤/ ٢٢): (وعمل يهوذا الشر في عيني الرب، وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التي أخطأوا بها، وبنوا لأنفسهم مرتفعات، وأنصابًا، وسواري على كل تل مرتفع، وتحت كل شجرة خضراء، وكان أيضًا مأبونون في الأرض فعلوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل. وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم، وأخذ جميع خزائن بيت الرب، وخزائن بيت الملك، وأخذ كل شيء، وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان).

وفي (سفر أخبار الأيام الثاني) (١٢/ ١) وصفوا شيشق، وما معه من قوة بما يلي: (وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر على أورشليم- لأنهم خانوا الرب- بألف ومائتي مركبة، وستين ألف فارس، ولم يكن عدد للشعب الذين جاؤوا معه من مصر، لوبيين وسكيين وكوشيين، وأخذ المدن الحصينة التي ليهوذا، وأتى إلى أورشليم...).

فهذا النص فيه دلالة واضحة على أن عاصمة اليهود الدينية استباحها فرعون مصر، واستولى على ما فيها، وهذا يدل على أن اليهود فقدوا التوراة في هذه الحادثة حيث لم يشر كتابهم المقدس إليها بعد هذا إلا في زمن الملك يوشيا، أي: بعد ما يقارب ثلاثة قرون وزيادة، كما سيأتي بيانه في الفقرة التالية، كما أن التابوت ينتهي خبره بعد هذه الحادثة إلى زمن الملك يوشيا أيضًا، حيث طلب من اللاويين أن يجعلوا التابوت في البيت الذي بناه النبي سليمان عليه السلام، ثم ينقطع بعد هذا خبره إلى يومنا هذا، ولعله كان مما دمره بختنصر في غزوه لبيت المقدس.

٧- يزعم اليهود أن الملك يوشيا الذي تولى الملك في يهوذا بعد سليمان عليه السلام بما يقارب (٣٤٠) عامًا، وقبيل غزو بختنصر لدولة يهوذا وتدميرها مرة أخرى وجد سفر الشريعة، وهذا نص كلامهم: (وفي السنة الثامنة عشرة للملك يوشيا، أرسل الملك شافان بن أصليا بن مشلام الكاتب إلى بيت الرب قائلًا:

اصعد إلى حلقيا الكاهن فيحسب الفضة المدخلة إلى بيت الرب التي جمعها حارسو الباب من الشعب فيدفعوها ليد عاملي الشغل الموكلين ببيت الرب... فقال حلقيا الكاهن العظيم لشافان الكاتب: قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب، وسلم حلقيا السفر لشافان فقرأه، وجاء شافان الكاتب إلى الملك

ورد على الملك جوابًا.... وأخبر شافان الملك قائلًا: قد أعطاني حلقيا الكاهن سفرًا، وقرأه شافان أمام الملك، فلما سمع الملك كلام سفر الشريعة مزق ثيابه، وأمر الملك حلقيا الكاهن، وأخيقام بن شافان.... قائلًا: اذهبوا اسألوا الرب لأجلي، ولأجل الشعب، ولأجل كل يهوذا من جهة كلام هذا السفر الذي وجد؛ لأنه عظيم، هو غضب الرب الذي اشتعل علينا من أجل أن آباءنا لم يسمعوا لكلام هذا السفر ليعملوا حسب كل ما هو مكتوب علينا... وأرسل الملك فجمعوا إليه كل شيوخ يهوذا وأورشليم وصعد الملك إلى بيت الرب، وجمع رجال يهوذا، وكل سكان أورشليم معه والكهنة والأنبياء، وكل الشعب من الصغير إلى الكبير، وقرأ في آذانهم كل كلام سفر الشريعة الذي وجد في بيت الرب).

فهذا الخبر الذي ذكره اليهود فيه دلالة واضحة على أنهم كانوا قد فقدوا التوراة، وأنهم أيضًا ضيعوا أحكامها، ونسوا الشيء الكثير منها، وما وجدوه في الواقع ليس فيه أي دليل على أنه التوراة؛ إذ من المستبعد جدًّا أن يكون اليهود قد فقدوا التوراة كل هذه المدة الطويلة- أكثر من ثلاثة قرون- وهي موجودة في الهيكل مع أنه معبد عام، وقد تعاقب على رئاسته خلال تلك المدة الكثيرة من الكهنة، وهم يبحثون عنها كل تلك المدة ولا يجدونها مع ما لها من القداسة في نفوسهم ثم يجدها الكاهن حلقيا؟

هذا في الواقع مستبعد جدًّا، وليس بعيدًا أن يكون الكاهن حلقيا كتبها من محفوظاته ومعلوماته، وزعم أنها سفر الشريعة؛ ليرضي بذلك الملك يوشيا، الذي كان له تدين ورغبة في استقامة الشعب. والله أعلم.

٨- بعد الملك يوشيا بخمس وعشرين سنة تقريبًا- وذلك سنة (٥٨٦) ق.

م- هجم بختنصر الكلداني على دولة يهوذا ودمرها، ودمر الهيكل، وسبى بني إسرائيل، وفي هذا قالوا في كتابهم بعد ذكر مبررات التدمير من فساد بني إسرائيل وكفرهم: "فأصعد عليهم ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم بالسيف في بيت مقدسهم، ولم يشفق على فتى، أو عذراء، ولا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده، وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة، وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعا إلى بابل، وأحرقوا بيت الله، وهدموا سور أورشليم، وأحرقوا جميع قصورها بالنار، وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة، وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيدًا إلى أن ملكت مملكة فارس". فيجمع الكُتَّاب هنا على أن التوراة فقدت من بني إسرائيل مرة أخرى بسبب هذا التدمير الشامل.

٩- يزعم اليهود أن عزرا الكاتب قد هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها، وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء.

وعزرا هذا كان زمن السبي البابلي، ولما عاد بنو إسرائيل إلى أورشليم في زمن ملك الفرس جمعهم لقراءة ما كتب من شريعة موسى، وفي هذا قالوا: (اجتمع كل الشعب كرجل واحد إلى الساحة التي أمام باب الماء، وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتي بسفر شريعة موسى التي أمر بها الرب إسرائيل، فأتى عزرا الكاتب بالشريعة أمام الجماعة من الرجال والنساء، وكل فاهم ما يسمع في اليوم الأول من الشهر السابع، وقرأ منها أمام الساحة التي أمام باب الماء من الصباح إلى نصف النهار أمام الرجال والنساء والفاهمين، وكانت آذان كل الشعب نحو سفر الشريعة).

فيظهر من هذا واضحًا أن عزرا قد كتب لهم التوراة، ولم يذكر اليهود من

أين وصلت التوراة إليه، وبينه وبين موسى عليه السلام أكثر من ثمانية قرون؟ وقد فقدت التوراة قبل زمن عزرا قطعًا كما مرَّ ذكره.

فعلى هذا يتبين أن التوراة التي كان عزرا يقرأها على الناس إما أن تكون مفتراة مكذوبة، دوَّنها عزرا من محفوظاته وما وصل إليه من مدونات ومعلومات، وليست توراة موسى، وبالتأكيد لا يوثق بحفظه ولا ما وصل إليه من أوراق وكتب؛ إذ إن ذلك يحتاج إلى إثبات السند المتصل منه إلى موسى عليه السلام، وهذا أبعد عليهم من السماء. وإما أن تكون معلومات متوارثة في الأحكام الواجب على بني إسرائيل التزامها، دوَّنها عزرا على أنها الفرائض التي أوجبها الله على بني إسرائيل، وزعم هو أو زعم كُتَّاب الكلام السابق أنها سفر شريعة موسى، وبين الأمرين كما بين السماء والأرض؛ إذ إن توراة موسى منزلة من عند الله، وما جمعه عزرا ودوَّنه لا يعدو أن يكون فهومًا واستنباطات بشرية يعتريها ما يعتري البشر من النقص والخلل، وهذا الاحتمال الأخير في رأيي أرجح من سابقه، وذلك لأن اليهود ذكروا في كتابهم عن عزرا قولهم: "لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها، وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء". فهذا يدل على أنه أخذ يجدُّ في الجمع والتتبع والعمل والتعليم.

وهناك نص آخر يدل على أن بني إسرائيل قد أهملوا العمل بكثير من التعاليم من أيام يوشع بن نون، وفي هذا قالوا عن أحد أعيادهم التي عملوها بدعوة من عزرا: (وعمل كل الجماعة الراجعين من السبي مظال وسكنوا في المظال؛ لأنه لم يعمل بنو إسرائيل هكذا من أيام يشوع بن نون إلى ذلك اليوم، وكان فرح عظيما جدًّا).

فهذا ينص صراحة على الإهمال للتعاليم، وعدم أدائها من زمن بعيد، فلا

يمكن لرجل مهما أوتي من العلم جمع كل التعاليم الواجبة مع البعد الزمني، وكثرة التقلبات والانحرافات التي وقع فيها بنو إسرائيل، ومع ذلك فجمعه لا يعدو أن يكون عملًا بشريًّا لا يصح بأي حال نسبته إلى الله ﷻ.

١٠ - ذكر المؤرخون أن الحاكم اليوناني (بطليموس الثاني) الذي كان في الفترة من (٢٨٢ - ٢٤٧ - ق. م) طلب من اليعازار رئيس الكهان أن يرسل إليه اثنين وسبعين عالمًا من علماء التوراة؛ لترجمة أسفار موسى الخمسة إلى اليونانية فنفذ الطلب، وكان اليعازار على رأس أولئك، وتمت المهمة خلال اثنين وسبعين يومًا، فكانت الترجمة المعروفة بـ (السبعينية) في اللغة اليونانية للأسفار الخمسة. وعن اليونانية ترجم العهد القديم إلى اللاتينية.

فهذه الترجمة للأسفار تمت بعد فترة طويلة جدًّا من وفاة موسى عليه السلام، إذ تقارب العشرة قرون، وكذلك بعد فترة طويلة من نسخة عزرا التي سبق ذكرها؛ إذ بين هذه الترجمة وتلك النسخة قرابة قرنين من الزمان، مما يجعل الكتاب الذي ترجم عنه إلى اليونانية لا سند له، فيكون المترجَم بالتالي لا قيمة له. كما أن هذه المعلومة لم يذكرها إلا رجل يوناني يسمى (أرستاي) في رسالة له لهذا ردها كثيرٌ من متأخري اليهود والنصارى، وإن كان المتقدمون قد قبلوها. كما ذكر ذلك الدبس في (تاريخ سورية). فهي معلومة لم يتوفر لها الإثباتات اللازمة، إضافة إلى غرابتها حيث زعم قائلها أن اليعازار أرسل اثنين وسبعين رجلًا من علماء اليهود، ستة من كل سبط من أسباطهم الاثني عشر، وأنهم جعلوا في أماكن منفرد بعضهم عن بعض، فكانت ترجماتهم متطابقة تمامًا. فهذا الخبر لا يمكن قبوله وتصديقه، وذلك لأن مما هو متفق عليه عند اليهود أن عشرة أسباط من بني إسرائيل وهم الذين كانوا شعب دولة إسرائيل شمال دولة يهوذا قد سبوا

من أيام الأشوريين في سنة (٧٢٢) ق. م وانقرضوا حيث يوصفون بالأسباط العشرة الضائعة، وحسب الخبر المذكور هنا فإن اليعازار قد أحضر ستين عالمًا منهم، وهذا مستبعد جدًّا.

١١ - أن اليهود فقدوا المقدرة على فهم اللغة العبرية المدونة القديمة بعد اختلاطهم بالأمم، وذلك أن اللغة العبرية في أصلها بدون نقط ولا حركات، وهذا يسبب أخطاءً كثيرة في القراءة، فاهتدوا إلى وسيلة لإزالة هذا اللبس بإدخال النقط والحركات، والفواصل، واستمر هذا العمل من القرن السابع الميلادي إلى القرن العاشر الميلادي، فأخرجوا نسخة من التوراة باللغة العبرية على هذا النمط تسمى النسخة الماسورية، انتهوا منها في القرن العاشر الميلادي، وعن هذه النسخة- أي: العبرية- المعدلة نسخت جميع النسخ العبرية والمترجمة عنها.

والسؤال المطروح هنا: أين النسخ الأصلية التي نقلت عنها النسخة الماسورية؟

الجواب عن ذلك: أنه لا يوجد بأيدي اليهود أو النصارى شيء من النسخ الأصلية سوى مخطوطات وادي قمران عند البحر الميت، والتي عثر عليها في الفترة من عام (١٩٤٧) - (١٩٥٦م) وهي مجموعات متكاملة للعهد القديم كتبت قبل الميلاد بثلاثة قرون، وأقربها عهدًا ما كتب قبل الميلاد بقرن واحد، إلا أن هذه المخطوطات التي استولى على الجزء الأكبر منها كل من أمريكا، وبريطانيا، واليهود في فلسطين لم تكشف ولم تعلن حتى الآن، مما يجعل في الأذهان استفهامات عديدة حولها، وأنها تتضمن أمورا خطيرة، جعلت اليهود والنصارى يتفقون على عدم كشفها على غير عادتهم في الآثار التاريخية.

ومن خلال هذا العرض التاريخي الموثق للتوراة يتبين ما يلي

١- أن التوراة التي أعطيها موسى عليه السلام مكتوبة، والتي دوَّنها، وكذلك التي دوَّنها يوشع بن نون بعد موسى عليه السلام فقدت، إما قبل عهد سليمان عليه السلام، أو بعده مباشرة.

٢- أن اليهود زعموا أنهم عثروا على التوراة زمن الملك يوشيا، وهو ادعاء يحتاج إلى العديد من الإثباتات لاعتقاد صحته.

٣- أن اليهود فقدوا ما ادعوا أنهم وجدوه زمن الملك يوشيا، وذلك بسبب تدمير بيت المقدس وما أعقب ذلك من سبي اليهود وتهجيرهم.

٤- أن عزرا أعاد لهم التوراة وكتبها فيما زعم اليهود، وإذا قبلنا كلام اليهود هذا فإن ذلك لا يعدو أن يكون عملًا بشريًّا، وإذا كان عزرا نسبه إلى الله عز وجل فهو كاذب في ذلك؛ لأن التوراة لم يدَّعِ أحد لا من اليهود، ولا من النصارى، ولا من المسلمين أنها أنزلت مرتين مرة على موسى، ومرة على عزرا.

وقد يكون الذي ادَّعى أن تلك هي التوراة ألهمها عزرا هم الكتبة فيما بعد، فهم في هذا كاذبون؛ لأن عزرا لم يقل ذلك فيما نقلوا عنه.

وأدلة بطلان ذلك ظاهرة من ناحية بُعد الزمان، وانقطاع السند، وفساد بني إسرائيل.

٥- أن نسخة عزرا وما دوَّنه عزرا لا يعلم على التحقيق مصيرها، وإنما بعد ذلك بما يقارب قرنين من الزمان كتبت النسخة السبعينية، ولم يذكر من أي نسخة ترجمت، وادعاء أنها من حفظ الكهنة بعيد جدًّا؛ إذ إن اليهود لا يحفظون كتابهم عن ظهر قلب، وليس فيهم من يدَّعي ذلك.

٦- أن النسخة العبرية، والتي تنتمي إلى النص الماسوري، لا تختلف عن

الكتاب المترجم من ناحية أنها أخذت طريقة في الكتابة مغايرة للغة الأصلية التي كتب بها العهد القديم، مما يجعل ثبوت صحتها منوطًا بوجود النصوص الأصلية التي تتفق مع اللغة القديمة، حتى يمكن المقابلة عليها، وإلا تعتبر لا أصل لها يشهد لصحتها، فتكون بذلك مثلها مثل النسخة اليونانية.

٧- أن النص اليوناني والنص العبري للتوراة والعهد القديم لم يؤخذا من مصدر واحد، بل من مصدرين مختلفين يدل على هذا اختلافهما في عدد الأسفار، حيث إن اليونانية ستة وأربعون سفرًا، وأما العبرية الماسورية فهي تسعة وثلاثون سفرًا، كما أن بينهما اختلافات كثيرة وعديدة مما يدل على أنهما من مصدرين مختلفين.

ومن خلال هذا يتبين بما لا يدع مجالًا للشك أن العهد القديم كتاب ليس له أي سند تاريخي يثبت تسلسل نقله، وأنه تعرض لفترات عديدة من الضياع، وأن أصله العبري لا وجود له بأيدي اليهود، مما يجعل المجال واسعًا للتحريف والتبديل[1].

وقوع التحريف في الكتب المتقدمة على القرآن

التحريف لغة: التغيير والتبديل، وتحريف الكلام عن مواضعه: تغييره[2].

قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التحريف: الإمالة، وتحريف الكلام: أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين)[3].

وقد بين ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كيفية التحريف في الكتب السابقة كما بينها الله عَزَّ وَجَلَّ في

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (ص ٨٠).
(٢) مختار الصحاح (ص: ١٣١).
(٣) المفردات في غريب القرآن (ص: ١٢١).

القرآن الكريم بقوله: (وأما التحريف فقد أخبر سبحانه عنهم في مواضع متعددة، وكذلك لي اللسان بالكتاب ليحسبه السامع منه وما هو منه. فهذه خمسة أمور: أحدها: لبس الحق بالباطل، وهو خلطه به بحيث لا يتميز الحق من الباطل.

الثاني: كتمان الحق.

الثالث: إخفاؤه، وهو قريب من كتمانه.

الرابع: تحريف الكلم عن مواضعه، وهو نوعان: تحريف لفظه، وتحريف معناه.

الخامس: لي اللسان به، ليلبس على السامع اللفظ المنزل بغيره)[1].

وقد اختلفت أقوال الناس في وقوع التحريف في الكتب السابقة على ثلاثة أقوال[2].

القول الأول: زعمت طائفة أنها بدلت كلها بجميع لغاتها، ومن هؤلاء من أسرف حتى قال: (إنه لا حرمة لها، وجوز الاستجمار بها من البول).

وهذا القول باطل لا يقوله أحد من المسلمين، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا مما لا يقوله المسلمون، ولكن قد يقول بعضهم: إنه حرف بعد مبعث محمد ﷺ ألفاظ بعض النسخ، فإن الجمهور الذين يقولون: إن بعض ألفاظها حرفت، منهم من يقول: كان من قبل المبعث، ومنهم من يقول: كان بعده، ومنهم من يثبت الأمرين أو يجوزهما، ولكن لا يقول: إنه حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة في مشارق الأرض ومغاربها)[3].

---

(١) هداية الحيارى (ص: ٤٨).

(٢) الجواب الصحيح (٢/ ٤١٨ - ٤٢٧)، وإغاثة اللفهان (٢/ ٣٥١ - ٣٥٤)، وفتح القدير (١٥/ ٥٠٥).

(٣) الجواب الصحيح (٢/ ٤١٩).

القول الثاني: أن التبديل والتغيير وقع في المعاني لا في الألفاظ.

وإلى هذا القول ذهب الإمام البخاري[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واختاره الرازي في تفسيره[٢].

وهذا القول لا يسلم له بإطلاق، بل لابد من التفصيل في ذلك.

فأما القول: بأن التحريف قد وقع في معاني تلك الكتب؛ فهذا أمر مسلم به، وهو ما حكى عليه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإجماع... بل إن هذا القول يقر به عامة اليهود والنصارى[٣].

وأما القول بعدم التحريف في ألفاظها فلا يسلم بذلك؛ لأنه قد وجد فيها من الألفاظ ما لا يجوز أن يكون من كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، إضافة إلى ما فيها من التناقض والتضارب في نصوصها، فلو كان وحيًا من عند الله لما وجد فيها هذا التناقض والتضارب، وقد ذكر ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (كتاب الفصل) كثيرًا من هذه التناقضات الظاهرة، والتي تؤكد وقوع التحريف في ألفاظها.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (تحريفهم المعاني لا ينكر؛ بل هو موجود عندهم بكثرة...)[٤].

القول الثالث: أن التحريف قد وقع في اليسير منها، ولكن أكثرها باق على ما أنزل عليه.

وقد رجح هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥].

---

(١) فتح الباري (١٥/ ٥٠٣).

(٢) التفسير الكبير (٢/ ١٢٣).

(٣) الجواب الصحيح (٢/ ٤٠٧).

(٤) فتح الباري (١٥/ ٥٠٥).

(٥) الجواب الصحيح (٢/ ٤٢٠).

وقد تكفل الله ﷻ بحفظ كتابه العزيز، أما ما سبقه من الكتب فقد استحفظها جل جلاله الربانيين والأحبار؛ فأحدثوا فيها كثيرًا من التحريف والتغيير والتبديل، كما أخبرنا الله عنهم في أكثر من موضع من القرآن الكريم.

نص الإجماع الذي حكاه شيخ الإسلام، مما سبق يتضح أن التحريف في الكتب السابقة على قسمين:

الأول: التحريف في ألفاظها، وهذا قد وقع فيه الخلاف.

الثاني: التحريف في معانيها وترجمتها، وهذا أمر مجمع عليه، وهو ما نقله شيخ الإسلام رحمه الله في هذه المسألة بقوله:

(وأهل الكتاب اليهود والنصارى مع المسلمين متفقون على أن الكتب المتقدمة وقع التحريف بها؛ إما عمدًا وإما خطأ: في ترجمتها، وفي تفسيرها، وشرحها، وتأويلها؛ وإنما تنازع الناس هل وقع التحريف في بعض ألفاظها)[1].

وقال أيضًا: (والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على وقوع الغلط في تفسير بعض الألفاظ وبيان مراد الأنبياء بها، وفي ترجمة بعضها، فإنك تجد بالتوراة عدة نسخ مترجمة وبينها فروق يختلف بها المعنى المفهوم، وكذلك في الإنجيل وغيره).

وقال أيضا: (ولكن علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع التحريف في المعاني والتفسير)[2].

ذكر من نقل الإجماع أو نص على المسألة ممن سبق شيخ الإسلام: إن المتأمل لأحوال اليهود والنصارى ومواقفهم مع كتب الله ﷻ يجد أنهم قد

(١) الجواب الصحيح (٥/ ١٢٣).
(٢) الجواب الصحيح (٢/ ٤١٩).

حرفوا كثيرًا مما أنزل الله.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ٧٥]... قال: (يحرفونه أي يميلونه عن وجهه ومعناه الذي هو معناه إلى غيره، فأخبر الله جل ثناؤه أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك على علم منهم بتأويل ما حرفوا وأنه بخلاف ما حرفوه إليه فقال: {يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ} [البقرة: ٧٥] يعني: من بعد ما عقلوا تأويله؛ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أي يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك مبطلون كاذبون)[١].

وقال أيضا: (قال ابن زيد في قوله: يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ قال: التوراة التي أنزلها عليهم يحرفونها؛ يجعلون الحلال فيها حرامًا، والحرام فيها حلالًا، والحق فيها باطلًا، والباطل فيها حقًا، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب؛ فهو فيه محق، وإن جاء أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء؛ أمروه بالحق، فقال لهم: أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٤٤])[٢].

وقال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: (يحرفون: يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله)[٣].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (مراد البخاري بقوله: (يتأولونه) أنهم يحرفون

---

(١) تفسير الطبري م١ (١/ ٤٨٥).
(٢) تفسير الطبري م١ (١/ ٤٨٣، ٤٨٤).
(٣) صحيح البخاري (٦/ ٢٧٤٥).

المراد؛ بضرب من التأويل، كما لو كانت الكلمة بالعبرانية تحتمل معنيين قريب وبعيد، وكان المراد القريب؛ فإنهم يحملونها على البعيد، ونحو ذلك)[1].

وقال شهاب الدين القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن طالع كتبهم وأناجيلهم وجد فيها من العجائب ما يقضي له بأن القوم تفرقت شرائعهم وأحكامهم، وأن القوم لا يلتزمون مذهبًا.

والعجب أن أناجيلهم حكايات وتواريخ، وكلام كفرة وكهنة وتلامذة وغيرهم، حتى أني أحلف بالله الذي لا إله إلا هو أن تاريخ الطبري عند المسلمين أصح نقلًا من الإنجيل، ويعتمد عليه العاقل أكثر، مع أن التاريخ لا يجوز - عند المسلمين - أن يبنى عليه شيء من أمر الدين، وإنما هو حكايات في المجالس، ويقولون مع ذلك: الإنجيل كتاب الله أنزله إلينا، وأمر السيد المسيح باتباعه، فليت شعري أين هذا الإنجيل المنزل من عند الله تعالى؟! وأين كلماته من بين هذه الكلمات؟!)[2].

بل إن اليهود أنفسهم قد اتفقوا على وقوع التحريف في كتابهم؛ كما ذكر ذلك عنهم شهاب الدين القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: (طائفة من اليهود يقال لهم السامرية، اتفق اليهود على أنهم حرفوا التوراة تحريفًا شديدًا، والسامرية يدعون عليهم مثل ذلك التحريف، ولعل الفريقين صادقان، فأين حينئذ في التوراة شيء يوثق به مع تقابل هذه الدعاوى من فرق اليهود؟، فكفونا بأنفسهم عن أنفسهم)[3].

---

(١) فتح الباري (١٥/ ٥٠٧).
(٢) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة في الرد على اليهود والنصارى (ص: ٥١).
(٣) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة في الرد على اليهود والنصارى (ص: ١١٦).

ومن ذلك أيضًا أنهم يعترفون أن سبعين كاهنًا منهم اجتمعوا على تبديل ثلاثة عشر حرفًا من التوراة، وقد نقل ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (واليهود تقر أن السبعين كاهنًا اجتمعوا على اتفاق من جميعهم على تبديل ثلاثة عشر حرفًا من التوراة، وذلك بعد المسيح في عهد القياصرة الذي كانوا تحت قهرهم؛ حيث زال الملك عنهم ولم يبق لهم ملك يخافونه ويأخذ على أيديهم، ومن رضي بتبديل موضوع واحد من كتاب الله فلا يؤمن منه تحريف غيره، واليهود تقر أيضًا أن السامرة حرفوا مواضع من التوراة وبدلوها تبديلًا ظاهرًا وزادوا ونقصوا، والسامرة تدعي ذلك عليهم)[1].

أما النصارى فقد ذكر ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنهم متفقون على أن هذه الأناجيل التي بين أيديهم عبارة عن تواريخ ألفها أصحابها في أزمان مختلفة حيث يقول:

(النصارى لا يدعون أن الأناجيل منزلة من عند الله تعالى على المسيح، ولا أن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أتاهم بها، بل كلهم أولهم عن آخرهم لا يختلفون في أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة)[2].

أما ما يتعلق بالترجمة فإن التوراة قد ترجمت من العبرية إلى اليونانية والعربية، كما أن الأناجيل الأربعة قد كتبت بلغات متعددة، فإنجيل متى كتب بالعبرية، وأما مرقص ولوقا ويوحنا فقد كتبت أناجيلهم باليونانية[3]، ومعلوم أن التوراة والإنجيل إنما نزلت بلغة موسى وعيسى عليهما السلام وهي العبرية، ثم ترجمت بعد ذلك إلى غيرها من اللغات[4].

---

(١) هداية الحياري (ص: ١٠١).

(٢) الفصل لابن حزم (١/ ٢٥١) باختصار.

(٣) الفصل لابن حزم (١/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٤) الجواب الصحيح (٥/ ١٢٣).

(وإذا أخذنا في الحسبان الاعتبارات التي من الممكن أن تحول مسار واتجاه الترجمة؛ نخرج بنتيجة أن هذه الترجمة لا يمكن أن تكون مماثلة ومطابقة للأصل الذي نقلت منه، ومن هذه الاعتبارات ما يلي:

١ - إذا فقد الإيمان، وفقد الضمير الحي الذي يؤرق صاحبه عند المخالفة؛ عندئذ لا يستبعد حصول التجاوزات في الترجمة.

٢ - تأثر الترجمة قوة وضعفًا بسبب قوة وضعف المترجم في معرفة وفهم اللغة المنقول منها والمنقول إليها.

٣ - أن الترجمة تصبغ بصبغة المترجم؛ لأنه من غير المعقول أن يتخلى المترجم - حال الترجمة - عن عقيدته وماضيه وثقافته وتطلعاته، وهذه كلها أمور تدفع المترجم لأن يصوغ الترجمة بالصيغة التي تميل إليها نفسه.

٤ - يكفي في عدم التماثل أنه ترجمة وليس أصلًا)[1].

٥ - ومن المهم في ذلك أننا لا علم لنا بالأصل الذي ترجم.

٦ - وكذلك فإنا لا نعرف المترجم، ومدى معرفته باللغة المترجم عنها، وكذلك باللغة المترجم إليها؛ لأن الضعف في واحدة منهما يفسد اللفظ والمعنى جميعًا.

فإذا كان هذا صنيعهم في ألفاظ التوراة التي يزعمون أنها كلام الله، فكيف يؤمنون بعد ذلك في تفسيرهم لها وبيان معانيها، أو عند ترجمتها، لا شك أن العقل السليم يجزم بوقوع التغيير والتبديل في ذلك.

مستند الإجماع في المسألة: لقد شهد الله جل جلاله في مواضع عديدة من

---

(١) مسلمو أهل الكتاب وأثرهم في الدفاع عن القضايا القرآنية (٢/ ٦٨٤ - ٦٨٥) باختصار.

القرآن الكريم على تحريف اليهود والنصارى لكتبهم التي أنزلها الله سبحانه وتعالى لأنبيائهم؛ فمن ذلك قول الحق سبحانه وتعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ٧٥].

وقوله تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ} [المائدة: ١٣].

ومعنى يحرفونه: أي يبدلون معناه، ويتأولونه على غير تأويله(١).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: {ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ قال: (قال مجاهد والسدي: هم علماء اليهود الذين يحرفون التوراة، فيجعلون الحرام حلالًا والحلال حرامًا اتباعًا لأهوائهم مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ أي عرفوه وعلموه وهذا توبيخ لهم)(٢).

ومن الأدلة أيضًا قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [ال عمران: ٧٨].

ومن الأدلة المحسوسة على وقوع التحريف في كتبهم؛ إضافة إلى ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ عنهم في القرآن الكريم ما يلي:

١- انقطاع السند، وعدم حصول التواتر في نقلها، فليس في أسفار اليهود وأناجيل النصارى ما تصح نسبته إلى أنبيائهم عليهم السلام.

فالتوراة لم يتم تدوينها إلا بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم إن نسخة التوراة الأصلية قد ضاعت أيام الغزو البابلي لليهود، كما شهد بذلك أهل العلم منهم، ثم أعادوا

---

(١) تفسير الطبري م١ (١/ ٤٨٥)، وتفسير القرطبي (٥/ ٢٣٣).

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ٦).

كتابتها مرة أخرى[١]، حتى جاء أحد ملوك الرومان وفتح فلسطين عام (١٦١ ق. م) فأمر بإحراق كافة النسخ التي عثر عليها من التوراة، وكل من احتفظ بنسخة منها يقتل، وكان يجري البحث عنها شهريًا، واستمر الحال على ذلك مدة زادت على ثلاث سنوات ونصف[٢].

وأما الإنجيل فإن الذي بأيدي النصارى منه أربع كتب مختلفة؛ وهم جميعًا متفقون على أنها أربعة تواريخ ألفها أربعة رجال وهم: يوحنا ومتى ومرقس ولوقا[٣]، ثم إن مرقس ولوقا لم يكونا من حواريي المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ[٤].

٢- التناقض الواضح والتعارض الفاضح بين نصوص التوراة، وكذلك الحال في نصوص الأناجيل[٥]، ولو كانت كلام الله حقيقة لاستحال أن يلحق بها تناقض أو اختلاف، يقول المولى تبارك وتعالى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢].

٣- شهادة بعض علماء اليهود والنصارى على وقوع التحريف في كتبهم؛ وخاصة من رجع منهم إلى الحق، واتبع شريعة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٦].

وفي هذه الأدلة أوضح دلالة على أن الكتب التي سبقت القرآن الكريم قد

---

(١) التوراة بين فقدان الأصل وتناقض النص (ص: ٤، ٥).
(٢) التوراة بين فقدان الأصل وتناقض النص (ص: ٨٤، ٨٥).
(٣) الفصل لابن حزم (١/ ٢٥١).
(٤) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (١/ ٢٨٤).
(٥) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث (ص: ٥٥، ٥٦)، و(ص: ١٣٠، ١٣١)، وتخجيل من حرف التوراة والإنجيل (١/ ٢٨٣) وما بعدها، التوراة بين فقدان الأصل وتناقض النص (ص: ١).
(٦) التوراة والأناجيل والقرآن الكريم (ص: ١٥)، والتوراة بين فقدان الأصل وتناقض النص (ص: ٢)

وقع فيها التغيير والتبديل، وأن أهل الكتاب قد غيروا وبدلوا عن علم وإصرار[١].

مسألة: بيان تحريف التوراة من حيث المتن والسند.

جاءت بعض آيات القرآن الكريم الصريحة في أن اليهود قد حرَّفوا التوراة وغيرها من كتب الله المنزلة على أنبيائه من بني إسرائيل، ولقد انطلق علماؤنا المسلمون من تلك الآيات وغيرها من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في نقدهم للتوراة وما يتبعها من الأسفار المقدسة عند اليهود، واستخرجوا منها الأدلة والشواهد على تحقيق ما ذكره الله ﷻ في القرآن الكريم من وقوع التحريف والتبديل والكذب في كتبهم، ونستطيع أن نقرر بكل ثقة أن الأسبقية في نقد التوراة والأناجيل والكتب الأخرى المحرفة كان لعلمائنا المسلمين بهدي من القرآن الكريم الذي وضع أصول ذلك النقد الهادف إلى إظهار الحق وإزهاق الباطل، وقد تأثر أحبار اليهود والنصارى ومفكريهم بالمسلمين في دراساتهم النقدية للتوراة والأناجيل، ومن ثم تجرؤوا على المشاركة في تلك الدراسات النقدية لكتبهم المقدسة بعد أن تخلصوا من طغيان الكنيسة وسيطرتها، واستطاعوا إعلان نتائج دراساتهم التي سبقهم إلى كثير منها علماؤنا المسلمون بقرون عديدة.

وفي هذه الدراسة الموجزة جدًّا سنحاول أن نبين الخطوط العريضة والعناوين الرئيسة في نقد أسفار العهد القديم وخاصة التوراة، وستتركز على ناحيتين: الأولى: نقد سند كتبهم المقدسة، وعدم صحة نسبتها إلى أنبيائهم، الثانية: نقد المتن، وبيان ما فيه من مواطن التحريف والتبديل والخطأ.

---

(١) المسائل العقدية التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع (ص ٧٥٨).

الفرع الأول: نقد السند

لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى طريقة المجادلة، والرد على دعاوى اليهود والنصارى، وبيان بطلانها، وهي مطالبتهم بالحجة والدليل على مزاعمهم، قال تعالى: {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِين} [البقرة: ١١١].

وبما أن اليهود وكذلك النصارى يزعمون أن التوراة الحالية كتبها موسى بيده وأن أسفارهم الأخرى كتبها أنبياؤهم أو أشخاص أوحي إليهم بها، فإنا نطالبهم بالأدلة والبراهين التي تثبت صحة نسبة التوراة المحرفة إلى موسى عليه الصلاة والسلام، وكذلك سائر أسفارهم المنسوبة إلى أنبيائهم قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ!} [البقرة:١١١].

ومن الأدلة التي نطالبهم بها:-

النسخة الأصلية للتوراة التي كتبها موسى عليه الصلاة والسلام، أو أملاها على غيره، وكذلك النسخ الأصلية لأسفارهم الأخرى.

السند المتصل المتواتر بنقل الثقات العدول الذي يثبت سلامة النص الحالي لأسفارهم من التحريف والتبديل. وتأتي الإجابة لطلبنا من أحبار اليهود والنصارى وباحثيهم بأنهم لا يملكون النسخ الأصلية للتوراة أو غيرها من الأسفار، وأن أقدم مخطوطة لديهم لأسفارهم تعود إلى القرن الرابع الميلادي، علما بأن موسى عليه الصلاة والسلام قد عاش في القرن الرابع عشر قبل الميلاد على الأرجح، وآخر نبي من أنبيائهم في العهد القديم عاش في القرن الرابع قبل الميلاد.

يقول مؤلفو (قاموس الكتاب المقدس): ولكن لا توجد لدينا الآن هذه

المخطوطات الأصلية (للعهد القديم والجديد) التي دوَّنها كتبة الأسفار المقدسة.

ويعلل اليهود والنصارى فقدان النسخ والسند لكتبهم المقدسة بكثرة حوادث الاضطهاد والنكبات التي نزلت بهم خلال تاريخهم الطويل. ومن تلك الحوادث: الغزو الآشوري عليهم في سنة (٧٢٢) ق. م، ثم الغزو البابلي الشهير سنة (٥٨٦) ق. م ونتج عنه تدمير الهيكل وأخذ بني إسرائيل سبيًا إلى بابل، ثم الاضطهاد اليوناني ومن بعده الاضطهاد الروماني الذي استمر لعدة قرون، وقد نتج عن هذه الاضطهادات إحراق أسفارهم وإتلافها ومنع قراءتها وقتل أحبارهم وعلمائهم.

ونضيف سببًا آخر مهمًّا لضياع أسفارهم، وانقطاع أسانيدهم، هو كثرة حوادث الردة والشرك في بني إسرائيل، وكفرهم بالله ﷻ، وإهمالهم للتوراة وغيرها، وهي مذكورة في أسفارهم المقدسة لديهم، ومنها ما ورد في (سفر القضاة) (٢/ ١١ - ١٥): (وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم، وتركوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر، وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم، وسجدوا لها وأغاظوا الرب، تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت، فحمي الرب على إسرائيل فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم وباعهم بيد أعدائهم، ولم يقدروا بعد على الوقوف أمام أعدائهم، حيثما خرجوا كانت يد الرب عليهم للشر، كما تكلم الرب وكما أقسم الرب لهم).

وقد تكررت الردة والشرك بالله من بني إسرائيل مرات عديدة في عهد القضاة.

ثم تكرر ذلك منهم في عهد الملوك، فقد ورد في (سفر الملوك) (١٢/ ٢٨ - ٣٣): (أن يربعام استشار الملك وعمل عجلي ذهب، وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم، هو ذا آلهتكم يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر. ووضع واحدًا في بيت إيل، وجعل الآخر في دان، وكان هذا الأمر خطية، وكان الشعب يذهبون إلى أمام أحدهما حتى إلى دان...).

وما ذكرناه مما يجعل كل عاقل منصف منهم يرتاب ويشك في صحة نسبة التوراة الحالية إلى موسى وسلامتها من التحريف والتبديل!!!

وكانت تلك الأسباب وغيرها قد دفعت بالكثيرين من محققي اليهود والنصارى إلى الاعتراف بأن أسفار العهد القديم مشكوك في أمر مؤلفيها، وإليك مختصرا لما يقوله محررو طبعة سنة (١٩٧١م) الإنجليزية من كتابهم المقدس لديهم، وهي آخر طبعة معدَّلة من كتابهم وآخر طبعة حتى الآن، يقول المحررون:

- سفر التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والتثنية: مؤلفه موسى على الأغلب.

- سفر يشوع: معظمه منسوب إلى يشوع.

وتكرر منهم الشرك والردَّة عن دين الله الحق مرات عديدة في عهد الملوك.

- انظر: (سفر الملوك الأول)، (الإصحاحات: ١٩،٢٢)، و(سفر الملوك الثاني)، (الإصحاحات: ١/ ١٣،١٤،١٥،١٦،١٧،٢١،٢٢،٢٣،٢٤).

بل وصل بهم الكفر إلى حد وصف نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام بالكفر وعبادة غير الله، والعياذ بالله.

- انظر: (سفر الملوك الأول)، (الإصحاح: ١١).

نقلًا من كتاب (التحريف في التوراة)، (ص: ٣) د. محمد الخولي، ووجدت أيضًا تلك الاعترافات بجهالة مؤلفي أسفارهم في مقدمة الكتاب المقدس (المدخل) طبع المطبعة الكاثوليكية سنة (١٩٨٨م) بلبنان، وفي كتاب (رسالة في اللاهوت والسياسة) - تأليف الفيلسوف اليهودي باروخ سبينوزا، وكتاب (السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم)، و(قاموس الكتاب المقدس) في التعليق على تلك الأسفار.

- سفر القضاة: مؤلفه صموئيل على الاحتمال.

- سفر راعوث: مؤلفه غير محدد، ولكن ربما يكون صموئيل.

- سفر صموئيل الأول: المؤلف مجهول.

- سفر صموئيل الثاني: المؤلف مجهول.

- سفر الملوك الأول: المؤلف مجهول.

- سفر الملوك الثاني: المؤلف مجهول

- سفر أخبار الأيام الأول: المؤلف مجهول، ولكن ربما جمعه وحرره عزرا.

- سفر أخبار الأيام الثاني، المؤلف مجهول، ولكن ربما جمعه وحرره عزرا.

- سفر عزرا: من المحتمل أن عزرا كتبه أو حرره.

- سفر أستير: المؤلف مجهول.

- سفر المزامير: المؤلف الرئيسي داود، لكن معه آخرون وبعضهم مجهولون.

- سفر الأمثال والجامعة ونشيد الأناشيد: المؤلف مجهول، ولكنها عادة

تنسب إلى سليمان.

- سفر إشعياء: ينسب معظمه إلى أشعيا، ولكن بعضه من المحتمل كتبه آخرون.

- سفر يونان: المؤلف مجهول.

- سفر حبقون: لا يعرف شيء عن مكان أو زمان ولادته.

وبعد هذا الاعتراف منهم فإن الأمر لا يحتاج إلى زيادة تعليق منا.

ومن الأدلة أيضًا على عدم الوثوق بالتوراة الحالية ما ورد في (سفر الملوك الثاني) (٢٢/ ٨ - ١٣) في عهد الملك يوشيا من ملوك مملكة يهوذا، أن التوراة قد فقدت وضاعت من بني إسرائيل سنوات عديدة، ثم ادعاء العثور عليها على يد الكاهن في الهيكل، ولا نسلم لهم بأن التوراة التي عثر عليها هي توراة موسى؛ إذ إن اتهام الكاهن بالتزوير قائم في مسايرته لرغبة الملك في العودة إلى التوحيد بعد ارتداد وكفر من سبقه من آبائه، إضافة إلى أن هذه النسخة من التوراة قد فقدت أيضًا في الغزو البابلي وحوادث الحروب الأخرى.

ومن الأدلة القاطعة على عدم صحة نسبة التوراة الحالية إلى موسى عليه الصلاة والسلام نصوص التوراة نفسها، وإليك بعض الشواهد:

- خاتمة التوراة في (سفر التثنية) (٣٤/ ١ - ١٢) وفيه: "فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب ودفنه في الجواء... ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم، وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته، فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات موآب ثلاثين يومًا، فكملت أيام بكاء مناحة موسى، ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة، إذ وضع موسى عليه يديه فسمع له بنو إسرائيل وعملوا كما أوصى الرب

موسى، ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهًا لوجه... " وبذلك ينتهي كتاب التوراة.

ولا أعتقد أن عاقلًا يجرؤ على القول أن كاتب هذا الكلام هو موسى عليه الصلاة والسلام!!!

- إن بعض نصوص التوراة تتحدث عن موسى بضمير الغائب، وبصيغة لا يمكن التصديق بأن كاتبها هو موسى، ومن تلك النصوص: (تحدث الله مع موسى) (وكان الله مع موسى وجهًا لوجه) (وكان موسى رجلًا حليمًا جدًّا أكثر من جميع الناس) (فسخط موسى على وكلاء الجيش) (موسى رجل الله) ونحو ذلك، فلو كان موسى كاتب تلك النصوص لقال مثلًا: كلمني الرب، تحدثت مع الله. ونحوه. - إن ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها التوراة وما تشتمل عليها من موضوعات وتشريعات وبيئات اجتماعية وسياسية وجغرافية تنعكس فيها، تظهر أنها قد ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى، مما يثبت أن هذه الأسفار قد كتبت بأقلام اليهود التي تعكس أفكارهم ونظمهم المتعددة في مختلف أدوار تاريخهم الطويل، مثال ذلك:

ورد في التوراة في (سفر التكوين) (١٤/ ١٤) أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام تتبع أعداءه إلى (دان). وهي اسم مدينة لم تُسَمَّ بهذا الاسم إلا بعد موت يوشع بعد دخول بني إسرائيل فلسطين واستقرارهم بها، فقد ورد في (سفر القضاة) (١٨/ ٢٩) (وسمّوا المدينة دان) باسم أبيهم الذي ولد لإسرائيل، وكان اسم المدينة قبل ذلك (لايش) فكيف يذكر موسى - وهو يقص قصة إبراهيم- اسم مدينة لم تسمَّ بهذا الاسم إلا من بعده بزمن طويل جدًّا؟!!

تلك بعض الملاحظات التي جعلت الفيلسوف اليهودي باروخ سبنوزا

(ت١٦٧٧م) يعلن صراحة قوله: (من هذه الملاحظات كلها يظهر واضحًا وضوح النهار أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة، بل كتبها شخص آخر عاش بعد موسى بقرون عديدة).اهـ.

أضف إلى ذلك أيضًا اختلاف فرق اليهود في قبول ورفض بعض أسفار العهد القديم، فطائفة السامرة من اليهود لا تعترف إلا بالتوراة الخمسة الأسفار، وتنكر ما عداها من الأسفار، وتقبل منها سفري يوشع والقضاة باعتبارهما أسفارا تاريخية فقط. ويخالفها جمهور اليهود الذين يقبلون أسفار العهد القديم المذكورة. ويختلف مع اليهود أيضًا طائفة الكاثوليك من النصارى في قبول ورفض بعض أسفار العهد القديم[1].

الفرع الثاني: نقد السند

قال الله ﷻ: أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢].

وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون} [النحل: ٩٠].

وقال تبارك وتعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ٥٨].

في ضوء هذه الآيات الكريمة- التي وضحت بعض خصائص الوحي الإلهي المنزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - نبين بعض مواطن

---

(١) الأسفار المقدسة عند اليهود وأثرها في انحرافهم مجلة الجامعة الإسلامية - عدد ١١١.

الاختلاف والتناقض والباطل الذي يدل على وقوع التحريف والتزوير في أسفار اليهود،... ويمكننا تلخيص أبرز الانتقادات الموجهة إلى متن الأسفار في العناوين الرئيسة الآتية، وتندرج تحتها عشرات الأمثلة والشواهد، وسنكتفي بذكر بعضها الأسفار المقدسة عند اليهود وأثرها في انحرافهم.

أولًا: الاختلاف في عدد الأسفار

مما هو معلوم أن بين يدي اليهود والنصارى ثلاث نسخ مشهورة من التوراة والعهد القديم. ومن هذه النسخ تتفرع سائر الترجمات تقريبًا، وهي:

١ – النسخة العبرية

وهي المقبولة والمعتبرة لدى اليهود وجمهور علماء البروتستانت النصارى، وهي مأخوذة من الماسورية وما ترجم عنها.

٢– النسخة اليونانية

وهي المعتبرة لدى النصارى الكاثوليك والأرثوذكس، وهي التي تسمى السبعينية وما ترجم عنها.

٣– النسخة السامرية

وهي المعتبرة والمقبولة لدى اليهود السامريين.

وإذا عقدنا مقارنة بين النسخ الثلاث من ناحية عدد الأسفار نجد أن النسخة العبرية تسعة وثلاثون سفرًا فقط.

أما النسخة اليونانية فهي ستة وأربعون سفرًا، حيث تزيد سبعة أسفار عن النسخة العبرية، ويعتبرها النصارى الكاثوليك والأرثوذكس مقدسة.

أما النسخة السامريه فلا تضم إلا أسفار موسى الخمسة فقط، وقد يضمون إليها سفر يوشع فقط، وما عداه فلا يعترفون به ولا يعدونه مقدسًا.

فهذا الاختلاف الهائل بين النسخ لكتاب واحد، والكل يزعم أنه موحى به من قبل الله ﷻ، ويدَّعي أن كتابه هو الكتاب الحق وما عداه باطل، مع عدم القدرة على تقديم الدليل القاطع على صحة ما يدعيه، فذلك دليل على التحريف من قبل المتقدمين، وأن المتأخرين استلموا ما وصل إليهم بدون نظر في ثبوته أو عدم ثبوته، أو أن المتأخرين وصلتهم كتب عديدة ومتنوعة، فأدخلوا ما رأوا أنه مناسب وذو دلالات مهمة، وحذفوا ما رأوا عدم تناسبه مع ما يعتقدون أو يرون، بدون أن يكون لهم دليل صحيح على إضافة ما أضافوا من الأسفار، أو حذف ما حذفوا منها.

ثانيًا: الاختلاف والتباين بين النسخ في المعلومات المدونة

إذا قارنا بين النسخ الثلاث فيما اتفقت في ذكره من أخبار وقصص نجد بينها تباينًا شديدًا واختلافًا كبيرًا، ومن الأمثلة على ذلك:

١ - أن اليهود ذكروا تاريخ مواليد بني آدم إلى نوح عليه السلام، ونصوا على عمر كل واحد منهم، وكذلك عمره حين ولد له أول مولود، وبعقد مقارنة بين أعمار من ذكروا حين ولد لهم أول مولود تتبين اختلافات واضحة بين النسخ الثلاث....

فهذه أمثلة تدل على تحريفهم وتبديلهم لكلام الله - إن ثبت أن ما سبق هو من كلام الله المنزل- حيث لا يمكن الجمع بين هذه الروايات المتناقضة.

ثالثًا: الاختلاف بالمقارنة مع ما ذكروه في مواضع أخرى من كتابهم

١ - ذكروا في سفر التكوين أن سفينة نوح استقرت بعد الطوفان على جبال أراراط بعد سبعة أشهر وسبعة عشر يومًا، ثم ذكروا أن رؤوس الجبال بعد الطوفان لم تظهر إلا في أول الشهر العاشر.

وهذا نص كلامهم في (سفر التكوين) (٨/ ٤): (واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط، وكانت المياه تنقص نقصًا متواليًا إلى الشهر العاشر، وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال).

ففي هذا تناقض ظاهر، فكيف رست السفينة على الجبال بعد سبعة أشهر مع أن رؤوس الجبال لم تظهر إلا في أول الشهر العاشر؟!

٢- ذكروا أن الله أمر نوحًا أن يحمل في الفلك من كل جنس اثنين، فقالوا في (سفر التكوين) (٦/ ١٩): (ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كلٍّ تدخل إلى الفلك؛ لاستبقائها معك، تكون ذكرًا وأنثى من الطيور كأجناسها، ومن البهائم كأجناسها، ومن كل دبابات الأرض كأجناسها).

وبعده مباشرة ذكروا أن الله أمره أن يأخذ من كل جنس سبعة سبعة ذكرًا وأنثى، ماعدا البهائم غير الطاهرة فيأخذ اثنين. ففي (سفر التكوين) (٧/ ٢) قالوا: (من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرًا وأنثى، ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكرًا وأنثى، ومن طيور السماء أيضًا سبعة سبعة ذكرًا وأنثى؛ لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض).

٣- ذكروا في (سفر الخروج) (٢٤/ ٩) أن موسى وهارون وشيوخ إسرائيل رأوا الله، فقالوا: (ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل. ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف إسرائيل، فرأوا الله وأكلوا وشربوا). هكذا زعموا في هذا الموضع وفي (سفر التثنية) (٤٤/ ١٢) زعموا أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام ممتنًا عليه وعلى بني إسرائيل:

(فكلَّمكم الرب من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام، ولكن لم تروا صورة بل صوتًا... فاحتفظوا جدًّا لأنفسكم، فإنكم لم تروا صورة ما...). فهذا فيه أنهم لم يروا الله ﷻ، وهذا الحق، فهم لم يروا الله ﷻ إلا أن فيه بيان تناقض كلامهم.

٤- قالوا في (سفر الخروج) (٣٣/ ١١) في كلام الله لموسى: (ويكلم الرب موسى وجهًا لوجه، كما يكلم الرجل صاحبه).

ففي هذا يزعمون أن الكلام يتم مقابلة مما يوحي بأن موسى عليه السلام يرى وجه الله تعالى حين يكلمه.

وفي نص آخر بعد هذا يقولون: إن الله قال لموسى لما طلب أن يراه (سفر الخروج) (٣٣/ ٢٠) (لا تقدر أن ترى وجهي؛ لأن الإنسان لا يراني ويعيش). فهنا ذكروا أن الله تعالى نفى أن يستطيع موسى أو أي إنسان رؤية وجهه ﷻ. وفي هذا تناقض واضح مع ما قبله، ودليل على التحريف. والحق أن موسى عليه السلام لم يرَ الله ﷻ، كما ذكر ذلك ربنا جلَّ وعلا في القرآن الكريم حيث قال: وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ١٤٣].

٥- أنهم ذكروا أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام كما في (سفر التكوين) (٢٢/ ٢): (خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق، واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال).

فلا شك أن هذا خطأ؛ لأن إسحاق عليه السلام لم يكن وحيد إبراهيم عليه السلام، بل

الذي كان وحيده هو بكره إسماعيل عليه السلام، حيث نص اليهود في كتابهم على أن إسماعيل عليه السلام ولد قبل إسحاق عليه السلام، حيث ختن وعمره ثلاث عشرة سنة، ولم يكن إسحاق ولد بعد، وفي هذا قالوا في (سفر التكوين) (١٧/ ٢٥): (وكان إسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته، في ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم وإسماعيل ابنه).

ثم ذكروا بعد ذلك بشارة الملائكة بإسحاق حين ضافوا إبراهيم عليه السلام، وهم في طريقهم إلى قوم لوط، والذي يبدو أن اليهود حسدوا أبا العرب إسماعيل عليه السلام على هذه المنقبة العظيمة فغيَّروا وحرَّفوا لأجل ذلك.

رابعًا: الزيادة والإضافات

توجد في التوراة العديد من الجمل التي لا يمكن أن يصح نسبتها إلى موسى عليه السلام، ومن ذلك:

١- أن الكتاب من أوله إلى آخره مليء بقولهم: (وقال الرب لموسى)، (وقال موسى للرب) (وحدَّث موسى الشعب). ونحو ذلك من العبارات التي تدل على الحكاية والرواية مما يقطع بأنها ليست من كلام موسى عليه السلام ولا من كلام الله عز وجل.

٢- جاء في (سفر التكوين) (٣٦/ ٣١): (وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبل ما مَلَك ملكٌ لبني اسرائيل)، فهذه العبارة لا يمكن أيضا أن تكون من كلام موسى عليه السلام؛ إذ إن ملوك بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام بزمن طويل.

٣- جاء في (سفر التثنية) في آخره (٣٤/ ٥) حكاية وفاة موسى ودفنه فقالوا: (فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب ودفنه في

الجواء في أرض مؤاب، مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم).

فهذا النص لا شك أنه أُدخل في الكتاب وليس منه؛ إذ ليس من المعقول أن يكتب موسى عليه السلام موته ودفنه، وأن إنسانًا لا يعرف قبره إلى يوم كتابة ذلك الكلام.

وببعض ما ذكرنا يستدل اللبيب والعاقل على أن اليهود لم يحافظوا على كلام الله وكتبه، بل ضيَّعوها وحرَّفوها، وغيَّروا فيها وبدَّلوا، وأضافوا وحذفوا حسب أهوائهم وشهواتهم وأغراضهم[1].

مسألة: ذكر صفات الله عز وجل في التوراة المحرفة

الله عز وجل له صفات الكمال المطلق التي لا تشوبها شائبة نقص، ولا شك أن موسى عليه السلام قد علَّم بني إسرائيل ذلك، كما أن التوراة المنزلة قد تضمنت ذلك، إلا أن بني إسرائيل قد كفروا وضلوا وانحرفوا عن دين الله عز وجل، فتكونت لديهم عقيدة منحرفة جعلتهم يقولون في الله قولًا عظيمًا، ومن ذلك ما ذكره الله عز وجل في القرآن الكريم من قوله عز وجل: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء} [المائدة: ٦٤]. وقال عز وجل: لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ} [ال عمران: ١٨١]. فهذا الكفر والوقاحة من اليهود أثر من آثار تحريفهم لكتابهم، حيث تضمن كتابهم المسمى التوراة، وكذلك الكتب الملحقة به كثيرًا من الصفات التي لا يصح ولا يليق وصف الله عز وجل بها، وهي من أدل الأدلة على التحريف، فمن ذلك: وصفهم الله عز وجل بالتعب

يزعم اليهود في كتابهم أن الله عز وجل تعب من خلق السموات والأرض،

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (ص ٩٦).

فاستراح في اليوم السابع، فقد ورد في (سفر التكوين) (٢/ ٢) ما نصه: (وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل). وفي (سفر الخروج) (٣١/ ١٧) قالوا: (لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض، وفي اليوم السابع استراح وتنفس). وقد ردَّ الله ﷿ عليهم وبيَّن بطلان قولهم هذا في قوله ﷿: وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ [ق: ٣٨].

وصفهم الله ﷿ بالجهل: وصف اليهود الله ﷿ بالجهل في عدة مواطن من كتابهم، منها: قولهم في قصة آدم وحواء بعد أن أكلا من الشجرة كما في (سفر التكوين) (٣/ ٨): (وسمعا صوت الرب الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة فنادى الرب الإله آدم، وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت؛ لأني عريان فاختبأت. فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني فأكلت). فيتضح من كلامهم هذا أن الله ﷿ لم يعلم بآدم حين أكل من الشجرة، ولم يره حين أكل، بل لم يعلم بمكانه بعد أن اختبأ في الجنة. فهل يصحُّ أن يقول أحد: إن الله العليم بكل شيء، والذي لا يغيب عن سمعه وبصره شيء مهما خفي ودقَّ، يخفى عليه أمر آدم على هذه الحال التي ذكر اليهود؟ فلاشك أن ذلك من تحريفهم. ولو نظرنا في كلام الله ﷿ في القرآن الكريم عن هذه الحادثة لوجدنا الفرق الشاسع بين التعبيرين ودلالتهما. ففي القرآن يقول الله ﷿: وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن

سَوْءاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ١٩ - ٢٣] ففي هذا النص الكريم ما يتناسب مع كمال علم الله وكمال سمعه وبصره، وأنه محيط بكل شيء، فحالما أكل آدم وزوجته من الشجرة ناداهما ربهما قائلًا: أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [الأعراف: ٢٢] فلم يسأل آدم أين هو؟ ولا من أعلمه أنه عريان؟ وهل أكل من الشجرة؟ كما يزعم اليهود. كما أن جواب آدم في القرآن الكريم هو الجواب اللائق بالنبي الكريم، حيث اعتذر مباشرة بأنه معتدٍ في هذا الأكل، وسأل الله المغفرة والرحمة، وهذا هو اللائق بآدم العبد الصالح والنبي الكريم، لا ما ذكره اليهود من أنه ألقى باللائمة على زوجته، وحمَّلها وحدها المسئولية.

ومن وصفهم الله ﷻ بالجهل أيضًا زعمهم أن الله ﷻ يجب أن توضع له علامة؛ ليستدل بها عليهم حيث قالوا: إن الله أمرهم قبل خروجهم من مصر أن يلطخوا أبوابهم: العتبة العليا والقائمتين بالدم، ويعللون ذلك بقولهم: (فان الربَّ يجتاز ليضرب المصريين فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب، ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضرب). (سفر الخروج) (١٢/ ٢٣). وهذا باطل؛ فإن الله جلَّ وعلا عالم الغيب والشهادة يقول سبحانه عن نفسه: عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ [سبأ: ٣].

وصفهم الله ﷻ بالندم: يزعم اليهود أن الله ﷻ ندم على فعله، فمن ذلك قولهم في (سفر الخروج) (٣٢/ ١٤): "فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه". وقد كذَّبهم الله في ذلك فقال جلَّ وعلا: لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء:٢٣] وقال: قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} [الفرقان: ٧٧] وهل يندم إلا الغرُّ الجاهل بالعواقب؟ والله ﷻ منزه عن ذلك.

وقد ورد في كتابهم أيضا ما يبين بطلان هذا الوصف وأن الله جلَّ وعلا لا يوصف به. جاء في (سفر العدد) (٢٣/ ١٩): "ليس الله إنسانًا فيكذب ولا ابن إنسان فيندم".

وصفهم الله ﷻ وتعالى وتقدس بالبكاء وذرف الدموع

وفي هذا يقولون في كتابهم أن الله قال لهم: (وإن لم تسمعوا- أي: كلامه وتطيعوه- فإن نفسي تبكي في أماكن مستترة من أجل الكبرياء، وتبكي عيني بكاءً وتذرف الدموع؛ لأنه قد سبي قطيع الرب). (سفر إرميا) (١٣/ ١٧). وأيضًا قالوا بعد ذلك مثله في (سفر إرميا) (١٤/ ١٧): إن الله قال لهم: "لتذرف عيناي دموعًا ليلًا ونهارًا ولا تكفا؛ لأن العذراء بنت شعبي سحقت سحقًا عظيمًا بضربة موجعة جدًّا". فهذا كله لاشك أنه من افتراءات اليهود على الله ﷻ ووقاحتهم في كلامهم عن الله سبحانه. وهو دليل واضح على التحريف والتلاعب بكلام الله وكتب الأنبياء وفق أهوائهم، لا يراعون في ذلك لله وقارًا، ولا لكلامه تعظيمًا وإكبارًا، سوى ما يتفق مع أمزجتهم وأهوائهم، فعليهم من الله ما يستحقون[١].

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية لسعود بن عبد العزيز الخلف (ص ١٠٥).

مسألة: وصف اليهود للأنبياء عليهم السلام في التوراة المحرفة

من يقرأ التوراة والكتب الملحقة بها يجد أن أنبياء الله والموكلين بهداية الناس وتعليمهم الهدى والخير لا يتمتعون بصفات الصالحين والأتقياء، بل يجد أن العهد القديم ينسب إليهم كثيرًا من المخازي والقبائح التي يتنزه عنها كثير من الناس العاديين، فكيف يليق أن يُنسب شيء من ذلك إلى الأنبياء الذين قد اصطفاهم الله وخصَّهم بهذه المهمة العظيمة، وهي تبليغ دينه، والذين هم قدوة للصالحين، وأئمة في البرِّ والتُّقَى.

ومما لاشك فيه أن الأنبياء عليهم السلام أكمل الناس دينًا وورعًا وتقوى، وأن الله اصطفاهم ورعاهم، وكمَّلهم وحفظهم، وعصمهم من القبائح والرذائل، هذه حقيقتهم بلا مراء ولا تردد، وما أضافه اليهود إليهم مما لا يليق نسبته إليهم هو محض افتراء وكذب، ودليل واضح على تحريفهم لكتبهم لأغراض في نفوسهم، غير مراعين حرمة لمقام النبوة، ولا لما جبل الله عليه أولئك الأنبياء عليهم السلام من الكمال البشري في خلْقهم وخُلقهم.

وإليك الأمثلة الدالة على تحريف اليهود لكتابهم بطعنهم في أنبياء الله ﷻ، ووصفهم بالصفات التي لا يجوز بحال نسبتها إليهم، فمن ذلك قولهم في:

نوح عليه السلام

زعم اليهود في كتابهم أن نوحًا عليه السلام، شرب الخمر وتعرَّى داخل خبائه، وفي هذا قالوا في (سفر التكوين) (٩/ ٢٠): (وابتدأ نوح يكون فلاحًا، وغرس كرمًا وشرب من الخمر وتعرَّى داخل خبائه). هكذا وصفوا نبي الله نوحًا عليه السلام، وهو أول أنبياء الله إلى المشركين، والذي دعا قومه إلى دين الله ألف سنة إلا خمسين عامًا، كما ذكر الله ﷻ حيث قال: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ

سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} [العنكبوت: ١٤] وامتنَّ الله على بني إسرائيل أنهم ذرية ذلك العبد الصالح نوح عليه السلام، فقال جلَّ وعلا: وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء:٢ - ٣] فامتنَّ الله على بني إسرائيل بنسبتهم إلى ذلك العبد الصالح، واليهود يصفونه بتلك النقيصة، وما ذلك منهم إلَّا خدمة لأهوائهم وأغراضهم التي تتضح من بقية كلامهم في القصة نفسها، حيث يقولون بعد الكلام السابق في (سفر التكوين) (٩/ ٢٢): (فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجًا، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما، فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته). فيتضح من هذا النص أن مقصد اليهود منه لعن الكنعانيين الذين كانوا أعداءً لبني إسرائيل، كما أن فيه خطًا ظاهرًا من ناحية أن حام هو الذي أبصر عورة أبيه حسب النص السابق، فلماذا يلعن ابنه كنعان، مع أن لحام أبناءً آخرين غير كنعان، فإن اليهود قالوا في (سفر التكوين) (١٠/ ٦): (وبنو حام كوش ومصرايم ونوط وكنعان). فلماذا خص كنعان من بين إخوته؟ ما ذلك إلا لهدف خاص في نفوسهم، وهو لعن الكنعانيين أعدائهم، ولو كان بالافتراء على الله عز وجل وعلى نبيه نوح عليه السلام.

لوط عليه السلام: ومن الأنبياء الذين افترى عليهم اليهود لوط عليه السلام، فقد افتروا عليه فرية عظمى، ورموه بشنيعة كبرى يترفع عنها أعظم الناس فسادًا، حيث زعم اليهود أن لوطًا عليه السلام قد زنى بابنتيه الكبرى والصغرى بعد أن أنجاه الله من القرية التي كانت تعمل الخبائث، وأن البنتين أنجبتا من ذلك الزنى، وهذا

محض افتراء وبهتان لنبي كريم ولبناته وأهل بيته الصالحين، وقد ذكر الله ﷻ لنا صلاح لوط عليه السلام وأهل بيته وطهارتهم على لسان أعدائه، فقال جلَّ وعلا: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [النمل: ٥٦] ولو بحثنا عن سبب افتراء اليهود لهذه الفرية في كتابهم لوجدنا أنهم إنما قصدوا الطعن في أعدائهم المؤابيين والعمونيين من خلال هذه الفرية؛ لأنهم زعموا أن البنت الكبرى حملت من ذلك الزنى فأنجبت مؤاب، وهو أبو المؤابيين، وأن الصغرى حملت أيضًا من ذلك الزنى وأنجبت بني عمي، وهو أبو بني عمون، فلهذا السبب والهوى كذب اليهود على نبي الله ووصموه بهذه الفعلة الشنيعة، وفي ذلك أوضح دليل على التحريف.

يعقوب عليه السلام: زعموا أن يعقوب عليه السلام احتال لأخذ النبوة والبركة من أبيه إسحاق عليه السلام لنفسه، فذكروا أن إسحاق عليه السلام لما كبر وكف بصره دعا ابنه عيسو، وهو الأكبر، وحسب التقليد لديهم فإن البركة تكون للأكبر، وطلب منه أن يصطاد له جديًا ويطبخه حتى يباركه، فذهب عيسو للصيد كما أمره أبوه، إلا أن أمهما كانت تحب يعقوب- وهو الأصغر- أكثر من أخيه عيسو، وأرادت أن تكون البركة له، فدعته وأمرته أن يحضر جديًا فيطبخه، وأن يلبس ملابس أخيه، ويضع فوق يديه جلد جدي حتى يبدو جسمه بشعر مثل جسم أخيه عيسو، فيظن إسحاق عليه السلام أنه هو فيباركه، ففعل يعقوب عليه السلام ذلك ثم دخل على أبيه، ففي ذلك قالوا: (فدخل إلى أبيه وقال: يا أبي. فقال: ها أنذا، من أنت؟ فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك قد فعلت كما كلمتني، قم اجلس وكلْ من صيدي؛ لكي تباركني نفسك. فقال إسحاق لابنه: ما هذا الذي أسرعت لتجد يا بني؟ فقال: إن الرب إلهك قد يسر لي. فقال إسحاق ليعقوب: تقدم لأجسك يا

ابني أأنت هو ابني عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه فجسه، وقال: الصوت صوت يعقوب، ولكن اليدين يدا عيسو. ولم يعرفه؛ لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، فباركه وقال: هل أنت هو ابني عيسو؟ فقال: أنا هو. فقال: قدِّم لي لآكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي. فقدم له فأكل وأحضر له خمرًا فشرب، فقال له إسحاق أبوه: تقدَّم وقبِّلني يا ابني. فتقدم وقبله، فشم رائحة ثيابه وباركه، وقال: انظر رائحة ابني كرائحة حقل، قد باركه الرب، فليعطك الله من ندى السماء، ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر، ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيدًا لإخوتك، وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين، ومباركوك مباركين) (سفر التكوين) (٢٧/ ١٨ - ٢٩). وفاز يعقوب بالبركة بهذه الحيلة، وبعد أن جاء أخوه عيسو لم يكن أمامه إلا الصراخ والعويل لفوات البركة. وبهذا الكلام يصمون أباهم يعقوب عليه السلام بالكذب مرارًا، وانتحال شخصية أخيه كيدًا، وأخذ ما ليس له فيه حق احتيالًا، كما يصمون أباهم إسحاق عليه السلام بالجهل الشديد إلى حد التغفيل والغباء حيث لم يستطع أن يميز بين ولديه، وهو أمر مستبعد جدًّا أن يقع لأقل الناس إدراكًا وأشدهم تغفيلًا، فضلًا عن نبي الله إسحاق عليه السلام.

وهذا كله مما لا يليق وصف الأنبياء عليهم السلام به، كما أن النبوة ليست بيد إسحاق ولا بيد غيره من الأنبياء، بل هي محض تفضل من الله عز وجل. قال تعالى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ.} [الزخرف:٣٢] وقال تعالى: {وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام:

١٢٤].

ويتجلى في هذه القصة طرفًا من مكر اليهود وكيدهم، فإذا نظرنا إلى قصة إسماعيل وإسحاق عليهما السلام نجد أنهم أغفلوا مسألة البكورية في استحقاق البركة، والتي يقصدون بها النبوة، وجعلوا البركة لإسحاق دون إسماعيل عليه السلام؛ لأن إسماعيل عندهم ابن جارية، ولما صار الأمر متعلقًا بعيسو ويعقوب، وعيسو هو الأكبر حسب كلامهم اخترعوا هذه القصة، حتى يبينوا أن يعقوب قد أخذ البركة دون أخيه عيسو.

وأيضًا تلك البركة التي يزعمون أنها للأكبر لا نراها بَعْدُ في نبي آخر من أنبيائهم، حتى أن يعقوب عليه السلام لما بارك أبناءه عند موته جعل البركة العظمى ليوسف عليه السلام، وهو أصغر أبناء يعقوب، ما عدا شقيقه بنيامين فقد كان أصغر منه، وهكذا أيضًا بارك يعقوب أفرايم ومنسي ابني يوسف عليه السلام، فقد كان منسي هو البكر، فجعل يعقوب عليه السلام البركة الأهم لأفرايم- وهو الصغير- حيث وضع عليه يده اليمنى، فهذه قصة مخترعة مفتراة على نبي الله إسحاق ويعقوب عليهما السلام، لاشك في ذلك.

هارون عليه السلام

زعموا أن هارون عليه السلام هو الذي صنع لهم العجل ودعاهم إلى عبادته فقالوا في (سفر الخروج) (٣٢/ ١): (ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون، وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا... فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها.... فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلًا مسبوكًا، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل). فهل يعقل أن نبيًّا أرسله الله لدعوة قومه إلى

عبادة الله وحده يصنع لقومه عجلًا، ويدعوهم إلى عبادته؟! حاشا أنبياء الله من ذلك. وقد بيَّن الله ﷻ في القرآن أن الذي صنع لهم العجل هو السامري، فقال ﷻ: قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ [طه: ٨٥]. أما هارون عليه السلام فقد قام بواجبه من ناحية نهيهم عن عبادة العجل، قال جلَّ وعلا: وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي [طه: ٩٠].

داود عليه السلام

زعموا أنه زنى بامرأة أحد جنوده، وحبلت من ذلك الزنى، ثم إنه تسبب في مقتل زوجها حيث أمر أن يُجعل في مقدمة الجيش حتى يعرِّضه للقتل، ثم بعد مقتل زوجها تزوَّجها ومات ذلك المولود الأول، ثم حبلت مرة أخرى، فأنجبت النبي سليمان عليه السلام.

سليمان عليه السلام

زعموا أن سليمان عليه السلام تزوَّج بنساء مشركات يعبدن الأصنام، ثم هو عبد الأصنام معهن وبنى للأصنام أيضًا معابد لعبادتها.

ذلك كله محض افتراء وكذب، وهو من افتراءات اليهود على أنبياء الله تعالى وكذبهم عليهم، وأن هذا من أظهر أدلة تحريف الكتب الإلهية، والعبث فيها وفق أهوائهم ورغباتهم.

ولسائل أن يسأل لماذا طعن اليهود في أنبيائهم، وقد كان لأنبيائهم الدور الأكبر والفضل العظيم عليهم بعد فضل الله فيما نالوا من خير الدنيا وعزِّها في سابق حياتهم؟

إن هذا لسؤال محير!! إلا أنَّا إذا تصورنا أن هذه الكتب قد طالتها يد

التحريف، ولا نعرف على التحقيق من الذي تولَّى تحريفها، ولا الزمان الذي حرِّفت فيه، إلا أننا نقطع حسب ما أوردوا في كتبهم أن بني إسرائيل انحرفوا عن دينهم انحرافات خطيرة وكثيرة، بل تركوا دينهم وعبدوا الأصنام والأوثان خاصة فيما قبل السبي، ولا نشك أن جزءًا كبيرًا من التحريف كان في تلك الفترات، وهي التي لا يتورع أصحابها عن الافتراء على الله ﷻ وعلى أنبيائه عليهم السلام فتمَّت في ذلك الزمان التحريفات الكثيرة، أو كتابة كتب كاملة ونسبتها إلى نبي من الأنبياء، ثم إن المتأخرين منهم لم يكن لديهم الجرأة على تمحيص تلك النصوص، أو أنهم أيضًا اختلَّت موازينهم بسبب ذلك التحريف.

ولكن السؤال لازال قائمًا: لماذا حرَّف أولئك اليهود كلام الله، وطعنوا في أنبيائهم وأصحاب الفضل عليهم بهذه المطاعن؟

الذي يبدو لي أن أولئك المحرفين أرادوا أن يبرروا ما هم فيه من فساد وانحراف وفسق، فألصقوا أنواعًا من التُّهم بأنبيائهم حتى لو احتجَّ عليهم محتجٌّ بأمر من الأمور المتعلقة بانحرافهم احتجوا له بأن النبي الفلاني فعل كذا وفعل كذا، كذبًا وزورًا.

وأيضًا ليخدموا غرضًا في نفوسهم، كما سبق أن قلنا عن طعنهم في نبي الله نوح ولوط عليهما السلام.

وهذا كله يكفي في التعبير عنه قول الله ﷻ: فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُون} [البقرة: ٧٩][(١)].

مسألة: التعريف بالإنجيل

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية لسعود بن عبد العزيز الخلف (ص ١١٠).

الإنجيل كلمة يونانية تعني الخبر الطيب (البشارة). والإنجيل عند المسلمين: هو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام فيه هدى ونور، قال تعالى: {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٤٦]. وقد دعا المسيح عليه السلام بني إسرائيل للأخذ بالإنجيل والإيمان به، فقد جاء في إنجيل مرقص (١/ ١٤): (وبعدما أُسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول: قد كمل الزمان، واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل). وقد ذكر هذا الإنجيل أوائل النصارى، ودعوا إلى الإيمان به، وفي هذا يقول سفر (أعمال الرسل) (٨/ ٢٥) عن بطرس ويوحنا في دعوتهما للسامريين من اليهود: (وكما شهدا وتكلما بكلمة الرب رجعا إلى أورشليم، وبشَّرا بالإنجيل في قرى كثيرة للسامريين).

وذكره بولس أيضًا في رسائله، مثل قوله في رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي (٢/ ٢): (جاهرنا في إلهنا أن نكلمكم بإنجيل الله في جهاد كثير؛ لأن وعظنا ليس عن ضلال ولا عن دنس ولا بمكر، بل كما استحسنا من الله أن نؤتمن على الإنجيل هكذا نتكلم... ثم يقول:... فإنكم أيها الإخوة تذكرون تعبنا وكدنا إذ كنا نكرز لكم بإنجيل الله..). فإذًا الإنجيل كان كتابًا موجودًا ومعروفًا لدى النصارى الأوائل بأنه إنجيل الله أو إنجيل المسيح، إلا أن هذا الإنجيل لا نجده بين الأناجيل الموجودة بين يدي النصارى اليوم، فأين هو؟ على النصارى أن يجيبوا على هذا السؤال، أو يعترفوا بأنهم فقدوه في زمن مبكر من تاريخهم، ولعل هذا هو الأرجح؛ إذ يقول الله عز وجل: وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:١٤]. وقد صار عند النصارى بدل الإنجيل الواحد أربعة أناجيل، يجعلونها في مقدمة كتابهم العهد الجديد، ولا ينسبون أيًّا منها إلى المسيح عليه السلام، وإنما هي منسوبة إلى متى ومرقص ولوقا ويوحنا - الذي يزعم النصارى أن اثنين منهم من الحواريين وهما متى ويوحنا، والآخران أحدهما مرقص تلميذ بطرس، والآخر لوقا تلميذ بولس في زعمهم. وهذه الأناجيل تحوي شيئًا من تاريخ عيسى عليه السلام حيث ذُكِرَ فيها ولادته، ثم تنقلاته في الدعوة، ثم نهايته بصلبه وقيامته في زعمهم، ثم صعوده إلى السماء. كما تحتوي على مواعظ منسوبة إليه وخطب، ومجادلات مع اليهود، ومعجزات كان يظهرها للناس دليلًا على صدقه في أنه مرسل من الله، فهذه الأناجيل أشبه ما تكون بكتب السيرة، إلا أن بينها اختلافات ليست قليلة، وبعضها اختلافات جوهرية لا يمكن التوفيق بينها إلا بالتعسف كما سيتبين.

والقارئ لهذه الأناجيل الأربعة يستطيع بسهولة أن يدرك أن ما ورد فيها من دعوة وخطب ومواعظ ومجادلات تعود إلى مطلبين أساسيين، هما:

١ - الدعوة إلى التوبة والعمل بما جاء في الشريعة التي أنزلت على موسى عليه السلام.

٢ - التبشير بقرب قيام مملكة الله التي يتحقق فيها العدل والمساواة[١].

تاريخ الأناجيل الأربعة إجمالا

قبل الحديث عن تاريخ الأناجيل الأربعة لدى النصارى لا بد من بيان أن الكتب الدينية لها مكانة عظيمة لدى أتباعها، ولها دور خطير في الحياة؛ إذ يعتمد عليها في توضيح الطريق إلى سعادة الدنيا وفوز الآخرة. فلهذا يجب أن تكون

---

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية لسعود بن عبد العزيز الخلف (ص ١٩٩).

الكتب ثابتة الإسناد إلى أصحابها الذين هم رسل الله، والمبلغون عن الله ﷻ، فإذا لم تكن كذلك فإنها تفقد قيمتها؛ إذ تكون عرضة للتحريف والتبديل من قبل أصحاب الأهواء والمقاصد الخبيثة، أو من قبل العوارض البشرية كالنسيان، وقلة العلم، والوهم ونحو ذلك.

فصحة الإسناد بعدالة رواة الأخبار وضبطهم، وعدم انقطاعه، هو السبيل الذي يمكن به وصول هذه الكتب إلى الناس سليمة صحيحة كاملة، فيتعرَّف الناس على الحق من خلالها.

وإذا نظرنا في كتب الحديث عند أهل الإسلام- والتي تتضمن أقوال نبينا محمد ﷺ وأفعاله وتقريرا ته وجميع ما يتعلق به- عرفنا الجهد العظيم الذي بذله أولئك الأئمة في المحافظة على حديث رسول الله ﷺ سليمًا صحيحًا، حيث يستطيع المسلم في القرن الخامس عشر الهجري أن يعرف صحة الحديث من عدمها.

وإذا بحثنا في التاريخ لدى النصارى عن إسناد لهذه الأناجيل إلى من تنسب إليه لا نجد من ذلك شيئًا البتة لا قليلًا ولا كثيرًا. ورسائل بولس، وكذلك الرسائل الأخرى، وأعمال الرسل ليس في شيء منها إشارة إلى واحد من هذه الكتب الأربعة، الأمر الذي يترتب عليه أن هذه الكتب لم تكن معروفة في ذلك الزمن، ولم يطَّلع عليها أحد منهم، وفي هذا دلالة قوية على أن نشأة هذه الكتب وظهورها كان متأخرًا عن هذه الرسائل، بخلاف إنجيل الله أو إنجيل المسيح فقد ورد ذكره في كلام بولس مرارًا عديدة، كما ورد ذكره في إنجيل مرقص، وأعمال الرسل مما يدل على وجوده وأنه معروف معلوم.

وقد حاول النصارى أن يجدوا لهذه الكتب إسنادًا أو إخبارًا عنها في كلام

متقدميهم يتفق مع الزمن الذي يزعمون أنها كتبت فيه، وهو الربع الأخير من القرن الأول الميلادي على أكثر تقدير. إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع، مما اضطرهم إلى الاعتراف بأن هذه الكتب لم تعرف إلا بعد موت من تنسب إليه بعشرات السنين، فتكون نسبتها إلى أولئك الناس نسبة لا تقوم على أدنى دليل، وإليك بعض كلام النصارى في هذا الأمر:

يقول القس (فهيم عزيز) الأستاذ بكلية اللاهوت الإنجيلية: (لكن قانونية أسفار العهد الجديد لم تتم في وقت واحد ولم يكفها جيل أو جيلان، بل استمرت مدة طويلة، ولم تقف الكنائس المختلفة موقفًا موحدًا من الأسفار المختلفة، بل اختلفت آراؤها من جهة بعض الأسفار، واستمرت في ذلك حقبة طويلة، فلهذا يلزم تتبع هذا التاريخ الطويل لقانونية أسفار العهد الجديد.

الكنيسة الأولى: يوم الخمسين (١٠٠)م

من المعلوم جيدًا أنه لم تكن في تلك الفترة كتب مقدسة تسمى العهد الجديد، ولكن الكنيسة لم تمكث بدون مصادر إلهية تستند عليها في كل شيء من وعظ وتعاليم وسلوك ومعاملات، وقد كان لها في هذا المجال ثلاثة مصادر). ثم ذكر أن المصادر الثلاثة هي: العهد القديم، المسيح، الرسل، ثم قال: (ثانيًا: (١٠٠ - ١٧٠) م، ظهور الكتب القانونية في العهد الجديد:

كانت أول مجموعة عرفتها الكنيسة من العهد الجديد هي مجموعة رسائل بولس. فهي أول ما جمع من كل كتب العهد الجديد، ولقد كتب بولس رسائله إلى كنائس وأفراد لظروف خاصة ومواقف محددة..).

ثم قال: (أما المجموعة الثانية: فهي مجموعة الأناجيل الأربعة، وقد ظهرت هذه المجموعة متأخرة بعض الوقت عن مجموعة كتابات بولس. ومع أن تاريخ

اعتبارها كتبًا قانونية مقدسة متساوية في ذلك مع كتب العهد القديم لا يزال مجهولًا، لكن الاقتباسات العديدة التي وجدت في كتابات آباء الكنيسة الرسوليين وشهاداتهم تلقي بعض الضوء على هذه الحقيقية الجوهرية في العصر المسيحي، ويلاحظ الدارس الأمور الآتية:

أن بولس لم يشر في كتاباته إلى أي من الأناجيل المكتوبة، ولا إلى أي كتاب عن حياة المسيح أو أقواله..). ثم ذكر المصنف سبع نقاط أخرى أورد في بعضها اقتباسات لمتقدمين من النصارى تتوافق في بعضها مع ما ورد في بعض الأناجيل بدون النص على اسم الإنجيل. وأهم ما ذكره من الملاحظات هي قوله في الملاحظتين السابعة والثامنة:

٧- أما جاستن أو يوستينوس الشهيد الذي كان سامريًّا يونانيًّا، وتحوَّل إلى المسيحية، ودرس في روما، واستشهد حوالي (١٦٥) م، فيؤخذ من كتاباته أنه قد عرف الأناجيل الأربعة مرتبطة معًا، مع أنه لم يكشف النقاب عمن جمعها، ولا في أي مكان جمعت، وهو يصفها عندما يذكرها في دفاعه ضد الوثنيين بأنها الذكريات، ولكنه عندما كان يكتب للمسيحين كان يقول عن الرسل: (هم أولئك الذين كتبوا ذكرياتهم عن كل الأشياء التي تختص بيسوع المسيح المخلص). ثم يقول مرة أخرى: (الذكريات التي عملها الرسل التي تسمى الأناجيل).

٨- أما الشاهد الأخير فهو (الديا طسرن) الذي كتبه (تاتيان)، وأراد أن يجمع فيه الأناجيل الأربعة معًا في إنجيل واحد، وقد أضاف تاتيان هذا بضعة كلمات للمسيح لا توجد في هذه الأناجيل، ولكنها أخذت من كتب أبوكريفية أخرى، وهو بذلك يشهد أن الأربعة الأناجيل وجدت معًا، ولكن إضافاته مجرد

اقتباسات لا تدلُّ على أنه كان يعتبر أن هناك كتبًا أخرى تضارعها في سلطانها وقداستها. وبعد هذا النقل عن أحد القسس المتعمقين والمتخصصين في دراسات العهد الجديد، ننقل كلام مجموعة من المتخصصين النصارى عن أناجيلهم وذلك في المدخل إلى العهد الجديد قالوا في التعريف بتاريخ وقانونية العهد الجديد ما يلي: (لقد سيطرت على المسيحيين الأوائل فكرة تناقلتها الألسن شفاهًا - تعلن انتهاء هذا العالم سريعًا وعودة المسيح ثانية إلى الأرض؛ ليدين الناس، وكان من بين نتائج هذا المعتقد أن توقف التفكير في تأليف كتابات مسيحية تسجل أخبار المسيح وتعاليمه، فتأخر لذلك تأليف الأناجيل؛ إذ لم يشرع في تأليف أقدمها - وهو إنجيل مرقس الذي لم يكن قط من تلاميذ المسيح - إلا بعد بضع عشرات من السنين، لقد كانوا يؤمنون بنهاية العالم وعودة المسيح سريعًا إلى الأرض: قبل أن يكمل رسله التبشير في مدن إسرائيل، وهي عملية لا تستغرق أكثر من عدة أشهر أو بضع سنين على أكثر تقدير..... الحق أقول لكم: لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان. متى (١٠/ ٢٣).

- وقبل أن يموت عدد من الذين وقفوا أمامه يستمعون إلى تعاليمه ومواعظه. وهي فترة يمكن تقديرها دون خطأ يذكر في حدود خمسين عامًا على أقصى تقدير: الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قوم لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيًا في ملكوته. متى (١٦/ ٢٨)

- وهو يعود ثانية إلى الأرض قبل أن يفنى ذلك الجيل الذي عاصر المسيح، وهي فترة لا تتجاوز أقصى ما قدرناه، أي: خمسين عامًا:....... الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله. متى (٢٤/ ٢٤). ومعلوم

أن ذلك كله لم يحدث؛ إذ لا يزال الكون قائمًا، وبنو آدم يعيشون في عالمهم الدنيوي حتى يأتي أمر الله، هذا - ولما بردت الحمية التي أثارتها فكرة عودة المسيح سريعًا إلى الأرض، ظهرت الحاجة ماسة إلى تدوين الذكريات عنه وعن تعاليمه، ومن هنا كانت النواة لتأليف أسفار - ما صار يعرف فيما بعد باسم - العهد الجديد، وهي الأسفار التي لم يعترف بشرعيتها إلا على مراحل وعلى امتداد أكثر من ثلاثة قرون. إن كلمة (قانون) اليونانية مثل كلمة (قاعدة) في العربية قابلة لمعنى مجازي يراد به قاعدة للسلوك أو قاعدة للإيمان، وقد استعملت هنا للدلالة على جدول رسمي للأسفار التي تعدها الكنيسة ملزمة للحياة وللإيمان. ولم تندرج هذه الكلمة بهذا المعنى في الأدب المسيحي إلا منذ القرن الرابع، كانت السلطة العليا في أمور الدين تتمثل عند مسيحي الجيل الأول في مرجعين. أولهما: العهد القديم، وكان الكتبة المسيحيون الأولون يستشهدون بجميع أجزائه على وجه التقريب استشهادهم بوحي الله.

وأما المرجع الآخر الذي نما نموًّا سريعًا، فقد أجمعوا على تسميته: الرب. ولكن العهد القديم كان يتألف وحده من نصوص مكتوبة، وأما أقوال الرب وما كان يبشر به الرسل، فقد تناقلتها ألسنة الحفاظ مدة طويلة، ولم يشعر المسيحيون الأولون إلا بعد وفاة آخر الرسل بضرورة كل من: تدوين أهم ما علَّمه الرسل، وتولى حفظ ما كتبوه. ويبدو أن المسيحيين حتى ما يقرب من السنة (١٥٠) م، تدرجوا من حيث لم يشعروا بالأمر إلا قليلًا جدًّا إلى الشروع في إنشاء مجموعة جديدة من الأسفار المقدسة، وأغلب الظن أنهم جمعوا في بدء أمرهم رسائل بولس واستعملوها في حياتهم الكنسية، ولم تكن غايتهم قط أن يؤلفوا ملحقًا بالكتاب المقدس، بل كانوا يَدَعُون الأحداث توجِّههم، فقد

كانت الوثائق البولسية مكتوبة، في حين أن التقليد الإنجيلي كان لا يزال في معظمه متناقلًا على ألسنة الحفاظ. ولا يظهر شأن الأناجيل طوال هذه المدة ظهورًا واضحًا كما يظهر شأن رسائل بولس.

أجل لم تخل مؤلفات الكتبة المسيحيين الأقدمين من شواهد مأخوذة من الأناجيل أو تلمح إليها، ولكنه يكاد أن يكون من العسير في كل مرة الجزم: هل الشواهد مأخوذة من نصوص مكتوبة كانت بين أيدي هؤلاء الكتبة، أم هل اكتفوا باستذكار أجزاء من التقليد الشفهي؟ ومهما يكن من أمر، فليس هناك قبل السنة (١٤٠) م، أي شهادة تثبت أن الناس عرفوا مجموعة من النصوص الإنجيلية المكتوبة، ولا يذكر أن لمؤلَفٍ من تلك المؤلفات صفة ما يلزم، فلم يظهر إلا في النصف الثاني من القرن الثاني شهادات ازدادت وضوحًا على مرِّ الزمن بأن هناك مجموعة من الأناجيل، وأن بها صفة ما يلزم، وقد جرى الاعتراف بتلك الصفة على نحو تدريجي. فيمكن القول أن الأناجيل الأربعة حظيت نحو السنة (١٧٠) م، بمقام الأدب القانوني، وإن لم تستعمل تلك اللفظة حتى ذلك الحين. لم يوضع (لم يستقر) الجدول التام للمؤلفات العائدة إلى القانون إلا على نحو تدرجي، وكلما تحقق شيء من الاتفاق، فهكذا يجدر بالذكر ما جرى بين السنة (١٥٠) م، والسنة (٢٠٠) م، إذ حدد على نحو تدرجي أن سفر أعمال الرسل مؤلف قانوني، وقد حصل شيء من الإجماع على رسالة يوحنا الأولى. ولكن ما زال هناك شيء من التردد في بعض الأمور: فإلى جانب مؤلفات فيها من الوضوح الباطني ما جعل الكنيسة تتقبَّلها تقبُّلها لما لابد منه، هناك عدد كبير من المؤلفات الحائرة يذكرها بعض الآباء ذِكْرَهم لأسفار قانونية، في حين أن غيرهم ينظر إليها نظرته إلى مطالعة مفيدة ذلك شأن: الرسالة

إلى العبرانيين، ورسالة بطرس الثانية، وكل من رسالة يعقوب ويهوذا.

وهناك أيضًا مؤلفات جرت العادة أن يستشهد بها في ذلك الوقت على أنها من الكتاب المقدس، ومن ثم جزء من القانون، لم تبق زمنًا على تلك الحال، بل أخرجت آخر الأمر من القانون، ذلك ما جرى لمؤلَّف: هرماس، وعنوانه (الراعي)، وللديداكي ورسالة إكليمنضس الأولى، ورسالة برنابا، ورؤيا بطرس، وكانت الرسالة إلى العبرانيين، والرؤيا، موضوع أشد المنازعات، وقد أنكرت صحة نسبتها إلى الرسل إنكارًا شديدًا مدة طويلة. ولم تقبل من جهة أخرى إلا ببطء: رسالتا يوحنا الثانية والثالثة ورسالة بطرس الثانية، ورسالة يهوذا. ولا حاجة إلى أن نتتبع تتبعًا مفصلًا جميع مراحل هذا التطور الذي أدَّى خلال القرن الرابع إلى تأليف قانون هو في مجمله القانون الذي نعرفه اليوم).

من خلال هذا البيان والنقل المطول عن النصارى أنفسهم في حديثهم عن كتبهم يتلخص لنا ما يلي:

١ - أن الله أنزل كتابًا على المسيح سماه الإنجيل، ودعا المسيح عليه السلام الناس إلى الإيمان به، وذكره أوائل النصارى، كما ذكره بولس في رسائله.

٢ - أن النصارى لا يعرفون شيئًا عن مصير ذلك الإنجيل، ولا أين ذهب!!.

٣ - أنه كانت هناك روايات شفوية ووثيقة مشتركة متداولة كان يتناقلها الحواريون ودعاة النصارى الأوائل، ويعتقد أنها كانت المصدر الأساسي لأوجه الاتفاق بين الأناجيل. وأرى أن تلك الروايات الشفوية لا يبعد أن يكون الإنجيل الأصلي من ضمنها، إلا أن النصارى لم يدوِّنوه مجموعة واحدة، كما أنهم لم يميزوه عن غيره من الروايات، مما جعله غير محدد، ولا يستطيع أحد الجزم والاعتقاد بشيء من النصوص أنها منه، وهذا تصديق قول الله عز وجل: وَمِنَ

الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ} [المائدة:١٤].

٤- أن المتقدمين من النصارى لم يشيروا إلى الأناجيل الأربعة، ولم يذكروها ألبته، فبولس- على كثرة رسائله- لم يذكرها في رسائله أبدًا، وكذلك لم يذكرها سفر أعمال الرسل الذي ذكر دعاة النصارى الأوائل، وهذا يدلُّ على أن هذه الكتب لم تكن موجودة في ذلك الزمن، وأنها أُلِّفت وكتبت بعد ذلك.

٥- أن أول من ذكر مجموعة من الكتب المدونة ذكرًا صريحا هو جاستن الذي قتل عام (١٦٥) م، وهذا لا يدل صراحة على الأناجيل الأربعة نفسها، وأما أول محاولة للتعريف بها ونشرها فكانت عن طريق "تاتيان" الذي جمع الأناجيل الأربعة في كتاب واحد سماه (الدياطسرن) في الفترة من (١٦٦ - ١٧٠) م، وهذا هو التاريخ الذي يمكن أن يعزى إليه وجود هذه الكتب، وهو تاريخ متأخر جدًّا عن وفاة من تعزى إليهم هذه الكتب؛ إذ إنهم جميعًا ماتوا قبل نهاية القرن الأول، مما يدلُّ على أنهم برءاء منها، وأنها منحولة إليهم.

٦- أنه حتى بعد هذا التاريخ- وهو (١٧٠) م، إلى القرن الرابع الميلادي- لم تكن الأناجيل الأربعة وحدها هي الموجودة، بل كانت هناك أناجيل كثيرة موجودة منتشرة ربما تبلغ مائة إنجيل، ولم يكن لأيٍّ منها صفة الإلزام والقداسة، وذلك أمر تكون الأناجيل الأربعة معه عرضة للتحريف والتغيير خلال تلك الفترة أيضًا.

٧- أن النصارى لا يعرفون بالضبط تاريخ إعطاء هذه الكتب صفة الإلزام والقداسة، وإنما يرون أنه خلال القرن الرابع الميلادي أخذت كتبهم صفة القداسة بشكل متدرج، يعني: رويدًا رويدًا.

٨- أن النصارى لا يملكون السند لكتبهم، ولا يعرفون مصدرها الحقيقي،

ولا تعدو أن تكون كتبًا وجدوها منحولة إلى أولئك الناس الذين نُسبت إليهم فنسبوها إليهم، واعتقدوا صحة ذلك بدون دليل، وهذا أمر لا يمكن أن يعطي النفس البشرية القناعة المناسبة لما تراد له هذه الكتب في الأصل من تجنب سخط الله وبلوغ رضوانه.

٩- أننا نعجب غاية العجب من زعم النصارى: أن هذه الكتب حقيقية وصادقة، وتنقل بأمانة وإخلاص كلام المسيح، وتروي أخباره. كيف تجرؤوا على مثل هذا الكلام، وكيف قبله أتباعهم مع أنهم لا يملكون الدليل على ذلك، وكل دعوى عريت عن الدليل فهي باطله.

قال الله ﷻ: قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ} [الأنعام:١٤٨].

وكل من تحدث في دين الله بلا علم فهو ضال مضل، قال ﷻ: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ} [الحج:٣]. وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الحج:٨ - ٩]. ولأن دعاويهم عارية عن الدليل فهي نابعة من الهوى، فلهذا سمى الله ﷻ ما عند اليهود والنصارى من دين أهواء في قوله ﷻ لنبيه محمد ﷺ: وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [البقرة:١٢٠]. ولكن ذلك العجب يذهب، وتلك الدهشة تزول إذا علمنا أن للآباء والكبراء والسادة من أهل الضلالة الذين يسعون إلى المحافظة على مكاسبهم الدنيوية الدور الأكبر في إضلال العوام والدهماء الذين لا يستخدمون

ما وهبهم الله من عقل وسمع وإدراك، وإنما يتابعون وينقادون انقياد الأعمى، وفي هذا يقول الله ﷻ: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ} [المائدة:١٠٤].

وقال ﷻ: يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} [الأحزاب:٦٦ - ٦٨]. والواجب على الإنسان أن لا يخضع للتقليد فيما تتعلق به نجاته وسعادته أو هلاكه وشقاوته، بل يتحقق من الأمر، ويتأكد من صحته، ويسأل الله الهداية والتسديد والرشد إلى أن يصل إلى الحق والنور الذي لن يخطئه بإذن الله تعالى إذا أخلص الطلب، واجتهد في الدعاء، وتحرَّر من الأهواء والتقليد والعصبية(١).

مسألة: تاريخ الأناجيل الأربعة وإنجيل برنابا تفصيلا

أولا: إنجيل متى

يصدر النصارى كتابهم المقدس بهذا الإنجيل، فهو أول كتبهم في الترتيب، وهو أطولها؛ إذ يحوي ثمانية وعشرين إصحاحًا.

ويزعم النصارى أن (متى) الذي ينسب الكتاب إليه هو أحد الحواريين، وكان قبل اتباعه للمسيح عشارًا (جابي ضرائب).

إلا أن النصارى لم يستطيعوا أن يبرزوا لنا دليلًا يُعتمد عليه في صحة نسبة هذا الكتاب إلى (متى)، وأقدم من يعتمدون على قوله في نسبة الكتاب إلى (متى) أحد كتابهم، ويسمى (يوسابيوس القيصري) في كتابه (تاريخ الكنيسة)

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (ص ٢٠٣).

حيث نقل عن أسقف كان لهيرا بوليس سنة (١٣٠) م، يدعى (بابياس)، أنه قال: (إن متى كتب الأقوال باللغة العبرانية).

وهذا القول ولدى جميع العقلاء لا يمكن أن يعتمد عليه في إثبات صحة نسبة الكتاب إلى "متى" الذي يزعمون أنه حواري.

وذلك لأن "بابياس" المذكور هنا لم يكن سمع تلك التعاليم وتلك الكتب من أصحابها، بل كان يسمعها بواسطة، حيث يقول عن نفسه فيما ذكر عنه (يوسابيوس): (وكلما أتى واحد ممن كان يتبع المشايخ سألته عن أقوالهم؛ لأنني لا أعتقد أن ما تحصل عليه من الكتب يفيد بقدر ما يصل من الصوت الحي).

فهو هنا لا يتحرى في النقل، ومما لاشك فيه أن أولئك الوسائط لابد أن تثبت عدالتهم، وإلا فلا يعتد بما يروونه ويقولونه.

كما أن (يوسابيوس القيصري) قد طعن في بابياس نفسه حيث قال عن رواياته: (ويُدوِّنُ نفس الكاتب روايات أخرى يقول: إنها وصلته من التقليد غير المكتوب. وأمثالًا وتعاليم غريبة للمخلص وأمورًا خرافية...).

ثم قال عنه وعن آرائه: (وأظن أنه وصل إلى هذه الآراء بسبب إساءة فهمه للكتابات الرسولية، غير مدرك أن أقوالهم كانت مجازية؛ إذ يبدو أنه كان محدود الإدراك جدًّا كما يتبين من أبحاثه، وإليه يرجع السبب في أن كثيرين من آباء الكنيسة من بعده اعتنقوا نفس الآراء مستندين في ذلك على أقدمية الزمن الذي عاش فيه).

فهذه طريقة (بابياس) في النقل حيث ينقل عن كل من اتبع المشايخ بدون تحر لمقدرة التلميذ على الحفظ والضبط للروايات والعدالة وما إلى ذلك من

شروط صحة الخبر، كما أن (بابياس) نفسه ضعيف التمييز بين الأقوال محدود الإدراك جدًّا. فكيف تعتبر أقوال من هذه حاله في أخطر قضية، وهي الشهادة لكتاب بأنه كلام رب العالمين؟ كما أن في المقابل هناك عدة أدلة تدل على عدم صحة نسبة الإنجيل إلى (متى) الذي يزعمون أنه حواري وهي:

١- أن النصارى لم ينقلوا الإنجيل بالسند، وقول (بابياس) السابق لم يعين فيه من هو (متى)، هل هو الحواري أم رجل آخر؟ كما أنه لم يعين الكتاب بل قال: (الأقوال).

وأيضًا فقد ذكر أمرًا آخر يختلف تمامًا عما عليه إنجيل متى الموجود، وهو أنه قال: إنه كتبه باللغة العبرانية، مع أن النصارى يجمعون على أن: الكتاب لم يعرفوه إلا باللغة اليونانية، ولا يعرفون للكتاب نسخة عبرانية، بل الكثير منهم يرى أن: الكتاب يظهر من لغته أنه أول ما كتب إنما كتب باللغة اليونانية، وليس العبرانية، فهذا يدل على أن قول (بابياس) لا ينطبق على إنجيل متى الموجود بين يدي النصارى.

كما أن هناك استفسارًا آخر في حالة أن يكون الإنجيل مترجمًا من اللغة العبرانية إلى اللغة اليونانية، وهو: من هو مترجمه؟ وهذا أمر مهم؛ لأنه ما لم يعلم دين المترجم، وصدقه، وضبطه، وقوة معرفته باللغتين لا يمكن أن يعتمد على ترجمته.

٢- إن الدارسين لهذا الكتاب والباحثين من النصارى وغيرهم يرون أن كاتب هذا الإنجيل اعتمد كثيرًا على إنجيل مرقص، ومرقص في كلام النصارى تلميذ بطرس، فهل من المعقول أن يعتمد أحد كبار الحواريين في زعمهم على تلميذ من تلاميذهم في الأمور التي هم شاهدوها وعاينوها وعايشوا أحداثها؟

هذا يدل على أن كاتبه غير (متى) الذي يزعمون أنه حواري، وأن دعوى النصارى أن كاتب الإنجيل هو متى الحواري دعوى عارية عن الدليل، وهي من باب الظن والتخمين الذي لا يغني من الحق شيئًا.

ثانيًا: إنجيل مرقص

هذا الإنجيل الثاني في ترتيب الأناجيل لدى النصارى، وهو أقصرها؛ إذ إنه يحوي ستة عشر إصحاحًا فقط. أما كاتب الإنجيل فهو في زعم النصارى رجل من أتباع الحواريين، والمعلومات عنه قليلة جدًّا وغامضة، ولا تتضح شخصيته وضوحًا يُطمئن النفس؛ إذ إن كل ما ورد عنه الإشارة إلى أن اسمه يوحنا، ويلقب مرقص، وأنه صاحَبَ بولس وبرنابا في دعوتهما، ثم افترق عنهما، ثم ذكر بولس في رسائله اسم مرقص ذكرًا مقتضبًا لا يعطي غناء في التعريف به، وورد ذكر اسمه مع بطرس حيث يقول عنه: (تسلم عليكم التي في بابل المختارة معكم ومرقص ابني). فهذه المعلومات يفهم منها أن الرجل مجهول؛ إذ إنها لم تعط تعريفًا بدينه، وعلمه، وأمانته، ونحو ذلك مما يجب توافر معرفته فيمن يكون واسطة لكتاب مقدس. أما الكتاب وهو الإنجيل: فأقدم المعلومات التي عزته إلى من يسمَّى مرقص ما نقله (يوسابيوس) في تاريخه الكنسي عن بابياس حيث قال: (ولقد قال الشيخ أيضًا: إن مرقص الذي صار مفسرًا لبطرس قد كتب بكل دقة كل ما تذَكَّره من أقوال وأعمال الرب، ولكن ليس بالترتيب؛ لأنه لم يسمع الرب ولم يتبعه، ولكن كما قلت قبلًا عن بطرس الذي ذكر من تعاليم السيد ما يوافق حاجة السامعين، بدون أن يهدف إلى كتابة كل ما قاله الرب وعمله، وهكذا فصل مرقص أنه لم يعمل خطأً واحدًا في كل ما ذكره وكتبه..). هذه أقدم شهادة لدى النصارى عن الكتاب والكاتب، فهي شهادة مطعون فيه، لمجهول

الحال- وهو مرقص- عن أمر مجمل، حيث ذكر أنه كتب ما تذكر، ولم يفصل في المكتوب ما هو!! فهل تكفي هذه الشهادة في إثبات صحة الكتاب!!، لاشك أنها لا تكفي؛ فإن مثل هذه الأدلة والشواهد لو قدِّمت لدى قاض في قضية لم يقبلها ولم يحكم وفقها.

ثالثًا: إنجيل لوقا

هذا الإنجيل الثالث في ترتيب النصارى لكتابهم، ويحوي أربعة وعشرين إصحاحًا. وكاتب الإنجيل في زعم النصارى هو أحد الوثنيين الذين آمنوا بالمسيح بعد رفعه، وكان رفيقًا لبولس (شاؤول اليهودي) حيث ذكره بولس في ثلاثة مواضع من رسائله، واصفًا إياه بأنه رفيقه. ولا يوجد لدى النصارى معلومات عنه سوى أنه أممي رافق بولس في بعض تنقلاته، حيث ورد اسمه في تلك الرحلات. فهو بذلك يعتبر شخصية مجهولة وغير معروفة ولا متميزة بعدالة وديانة، ومع هذا أيضًا لا يوجد لدى النصارى دليل يعتمد عليه في صحة نسبة الكتاب إليه. ولندرة المعلومات التي توثق نسبة الكتاب إلى لوقا المذكور يستشهد النصارى بكلام مجهول، حيث يقول القس (فهيم عزيز) في كتابه (المدخل إلى العهد الجديد) في استدلاله على صحة نسبة الكتاب إلى لوقا ما يلي: (هناك مقدمة كتبت لإنجيل لوقا فيما بين (١٦٠ - ١٨٠) ، اسمها (ضد مارسيون) فيها يقول الكاتب عن لوقا: إنه من أنطاكية في سوريا، مهنته طبيب، وكان أعزب بدون زوجة، مات وهو في سن (٨٤) في بواتييه ممتلئًا بروح القدس، وقد كتب إنجيله كله في المناطق التي تحيط بأخائيه؛ لكي يفسر للأمم القصة الصحيحة للعهد الجديد الإلهي..) ثم قال صاحب الكتاب معلقًا: (هذه مقتطقات عن هذه الشهادة التي لا يعرف كاتبها، وقد قبلها كثير من العلماء؛

لأنهم لم يجدوا من أتباع مارسيون من يكذبها، مما يدل على أنها تقليد كنسي قوي). بمثل هذه الشهادة المجهولة يثبت النصارى صحة كتابهم إلى ذلك الرجل المجهول لوقا، وهي لاشك شهادة لا قيمة لها ولا تفيد شيئًا، ويدل استدلالهم بها على أنهم لا يملكون أدلة على صحة نسبة الكتاب إلى من يسمونه (لوقا)، وذلك يبين لنا أن النصارى حين زعموا أن إنجيل لوقا كتاب صحيح وصادق، فإن ذلك مجرد دعوى بدون بينة.

رابعًا: إنجيل يوحنا

هذا الإنجيل الرابع في ترتيب العهد الجديد، وهو إنجيل متميز عن الأناجيل الثلاثة قبله؛ إذ تلك متشابهة إلى حد كبير، أما هذا فإنه يختلف عنها؛ لأنه ركَّز على قضية واحدة، وهي إبراز دعوى ألوهية المسيح وبنوته لله- تعالى الله عن قولهم - بنظرة فلسفية لا تخفى على الناظر في الكتاب، لهذا يعتبر هو الكتاب الوحيد من بين الأناجيل الأربعة الذي صرَّح بهذا الأمر تصريحًا واضحًا. وإذا بحثنا في صحة نسبة الكتاب إلى يوحنا الذي يزعم النصارى أن الكتاب من تصنيفه نجده أقل كتبهم نصيبًا من الصحة؛ لعدة أدلة أبرزها منكروا نسبة الكتاب إلى يوحنا الحواري وهي:

١- أن بوليكاربوس الذي يقال: إنه كان تلميذًا ليوحنا. لم يشر إلى هذا الإنجيل عن شيخه يوحنا، مما يدلُّ على أنه لا يعرفه، وأن نسبته إلى شيخه غير صحيحة.

٢- أن الكتاب مملوء بالمصطلحات الفلسفية اليونانية التي تدلُّ على أن لكاتبه إلمامًا بالفلسفة اليونانية، أما يوحنا فكما يذكر النصارى فقد كان يمتهن الصيد، مما يدلُّ على أنه بعيد عن الفلسفة ومصطلحاتها.

٣- أن النصارى الأوائل لم ينسبوا هذا الإنجيل إلى يوحنا الحواري المزعوم، وأن (يوسابيوس) الذي كان يسأل (بابياس) عن هذه الأمور يقول: (الواضح أن بابياس يذكر اثنين اسمهما يوحنا: الأول: الرسول وقد مات، والثاني: الشيخ وهو حيٌّ. ويلوح أنه هو الذي كتب الإنجيل). فلهذا يقول القس (فهيم عزيز) بناء على ذلك: (إن الكنيسة كانت بطيئه في قبولها لهذا الإنجيل). وبناءً على ذلك فمنذ نهاية القرن التاسع عشر ظهر الاعتراض على نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا بشكل واسع، ووصفته (دائرة المعارف الفرنسية) بأنه إنجيل مزور، وهذه الدائرة اشترك في تأليفها خمسمائة من علماء النصارى، ونص كلامهم: (أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولاشك كتاب مزور، أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض، وهما القديسان يوحنا ومتى، وقد ادَّعى هذا الكاتب المزور في متن الكتاب أنه الحواري الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه على الكتاب نصًّا، مع أن صاحبه غير يوحنا يقينًا، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه، وإنا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهودهم ليربطوا- ولو بأوهى رابطة- ذلك الرجل الفلسفي الذي أَلَّف هذا الكتاب في الجيل الثاني بالحواري يوحنا الصياد الجليلي، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى). نقول مع هذه الاعتراضات، ومع عدم وجود أدلة تثبت صحة نسبته إلى يوحنا الحواري المزعوم، فلا يجوز لعاقل أن يدعي صحة نسبته إلى يوحنا، فضلًا عن أن يزعم أنه كتاب مقدس موحى به من الله، فهذا فيه افتراء عظيم على الله ﷻ، وإضلال لعباد الله بالباطل. بعد هذا كله يتضح للناظر اللبيب أن النصارى- وكذلك اليهود من قبلهم- لا يملكون مستندًا صحيحًا لكتبهم يثبت

صحة نسبتها إلى من ينسبونها إليه، وإن من المعلوم أن أي إنسان أراد أن يقاضي إنسانًا آخر لدى محكمة فلا يمكن أن تنظر المحكمة في دعواه ما لم يقدم من الإثباتات الصحيحة ما يصح اعتباره دليلًا، والنصارى لم يقدِّموا لأنفسهم ولا لأهل ملتهم من المستندات والأدلة شيئًا يثبتون به صحة كتبهم، بل لا يعرفون طريقًا إلى شيء من المستندات الصحيحة، يقول الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه العظيم (إظهار الحق): (ولذلك طلبنا مرارًا من علمائهم الفحول السند المتصل، فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينهم، فقال: إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على النصارى إلى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة). وفي هذا كفاية ودلالة على أن تلك الكتب التي تسمَّى الأناجيل كتب لا يملك أصحابها أي مستند يمكن الاعتماد عليه في صحة نسبتها إلى من ينسبونها إليه، فضلًا عن أن يصحَّ نسبتها إلى المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ(١).

خامسا: إنجيل برنابا

إنجيل برنابا لا يعتبر من الأناجيل القانونية لدى النصارى، ولا يعترفون به، ولأهمية ما يحتويه من معلومات، ولما بينه وبين الأناجيل الأربعة من تشابه في التعريف بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته نُعرِّف به هنا في نقاط مختصرة.

أ- التعريف بـ (برنابا)

برنابا: اسمه (يوسف) ويلقب ابن الوعظ، وهو لاوي قبرصي الجنسية، وهو خال (مرقس) صاحب الإنجيل فيما يقال، وكان من دعاة النصرانية الأوائل، ويظهر من إنجيله أن له مكانة لدى المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، والنصارى يرون أنه

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (ص٢١٧).

من الدعاة الذين لهم أثر ونشاط ظاهر، وكان من أعماله البارزه أنه باع حقله وأتى بقيمته من النقود ووضعها تحت تصرف الدعاة، وحين ادَّعى بولس (شاؤول اليهودي) الدخول في دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ خاف منه الحواريون لما يعلمون من سابق عداوته، فشفع له برنابا عندهم فقبلوه ضمن جماعتهم، ثم اختلف معه بعد فترة من العمل في الدعوة سويا وانفصلا.

ب- التعريف بإنجيله:

أقدم خبر عن إنجيل برنابا كان قريبًا من عام (٤٩٢) م، وذلك حين أصدر البابا (جلاسيوس) الأول أمرًا يحرم فيه مطالعة عدد من الكتب، كان منها كتاب يسمَّى (إنجيل برنابا) وهذا كان قبل مبعث النبي ﷺ، ثم لم يظهر له خبر بعد ذلك إلا في أواخر القرن السادس عشر الميلادي حيث عثر أحد الرهبان اللاتينيين وهو (فرامرينو) على رسائل (لإريانوس) يندد فيها ببولس، وأسند (إريانوس) تنديده هذا إلى إنجيل برنابا. فحرص هذا الراهب على الاطِّلاع على هذا الإنجيل. واتفق أنه أصبح مقربًا للبابا (سكتس) الخامس، ودخل معه يومًا إلى مكتبته فأخذت البابا غفوة نام فيها، فأخذ (فرامرينو) يطالع في مكتبته رغبة في قطع الوقت، فوقعت يده على هذا الكتاب فوضعه في ثوبه وأخفاه، ثم أستأذن بعد أن أفاق البابا، وخرج فطالع الكتاب بشغف شديد، ثم أسلم على أثر ذلك- بيَّن هذه المعلومات المستشرق سايل في مقدمة ترجمته للقرآن الكريم- ثم في أوائل القرن الثامن عشر عام (١٧٠٩) م، عثر (كريمر) أحد مستشارى ملك بروسيا على نسخة لإنجيل برنابا باللغة الايطالية، عند أحد وجهاء مدينة أمستردام- حيث كان يقيم وقتئذ - وأهداها (كريمر) إلى الأمير (إيوجين سافوي) لولعه بالعلوم والآثار التاريخية، ثم انتقلت تلك النسخة فيما بعد-

وذلك عام (١٧٣٨) م- مع جميع مكتبة ذلك الأمير إلى مكتبة البلاط الملكي في فينا، حيث هي موجودة الآن، ثم ترجمت إلى الإنجليزية، وعنها إلى العربية من قبل الدكتور خليل سعادة، وهو لبناني نصراني. وكان يوجد لهذا الكتاب نسخة أخرى بالأسبانية، يظن أنها منقولة عن الإيطالية عُثِرَ عليها في أوائل القرن الثامن عشر أيضًا، وكانت عند رجل يدعى الدكتور (هلم) أهداها إلى المستشرق (سايل)، ثم دفعها هذا بدوره إلى الدكتور (منكهوس) الذي ترجمها إلى الإنجليزية، ودفعها مع ترجمتها عام (١٧٨٤) م، إلى الدكتور (هويت) أحد مشاهير الأساتذة في إكسفورد ببريطانيا، وعنده اختفت تلك النسخة مع ترجمتها. وقد أورد الدكتور (هويت) مقتطفات عديدة منها في دروسه، وقد اطَّلع على تلك المقتطفات خليل سعادة، مترجم كتاب إنجيل برنابا إلى العربية.

وحين ظهر هذا الإنجيل أحدث دويًّا في الأوساط النصرانية لما فيه من المعلومات المضادة لعقائدهم، فحاولوا دفعه بوسائل كثيرة، ومما زعموه:

أنه تأليف عربي مسلم، أو يهودي أندلسى تنصر ثم أسلم- وهذا في الواقع من التخرصات، ويدلُّ على بطلان تلك الدعاوى أمور منها:

١- لماذا يؤلف رجل أسلم كتابًا للنصارى، ويفتري الكذب وهو قد دخل في الإسلام.

٢- أن في الكتاب معلومات غير موجودة في كتب اليهود والنصارى الآن.

٣- أن مترجم الكتاب إلى العربية- وهو خليل سعادة النصراني- قد وصف صاحب الإنجيل بأنه على إلمام واسع جدًّا بالعهد القديم والنصرانية أكثر ممن نذروا أنفسهم للدين النصراني وتفسيره وتعليمه، حتى إنه لينذر أن يكون فيهم من يقرب من إلمام صاحب هذا الإنجيل، فكيف يكون مسلمًا وله هذا الإلمام

الواسع؟!

٤- إن مما يدفع أن يكون صاحبه مسلم أن فيه أخطاء لا يمكن أن تقع من المسلم لبداهتها، ومنها قوله: إن السموات عشرة. وخلطه بين اسم ميخائيل وميكائيل، ويقول: أدريل بدل إسرافيل.

وعلى كل حال فهذا كتاب ظهر في بلاد نصرانية، وبخط ولغة نصرانية، ولم يرد عن أحد المسلمين أنه اطَّلع على الكتاب مع سعة اطلاع علماء المسلمين، وحرصهم على الرد على النصارى، وهو لاشك مما يظهره الله ﷻ دليلًا للحق ودحرًا للباطل وردًّا له.

ج- أهم مبادئ إنجيل برنابا التي يختلف بها عن الأناجيل الأربعة:

إن الذي جعل النصارى يحملون على هذا الإنجيل حملتهم، ويتنصلون منه، هو مخالفته لأناجيلهم المعتمدة وعقيدتهم في أخطر وأهم نقاطها، وهي:-

أولًا: أنه صرح أن المسيح عليه السلام إنسان، وليس إله ولا ابن إله، وبيَّن أن سبب تأليف إنجيله هو رد هذه الفرية التي أطلقها بولس مع غيرها من الافتراءات، كترك الختان وإباحة أكل اللحوم النجسة، وفي هذا يقول في أول إنجيله: أيها الأعزاء، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة، للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر الله به دائمًا مجوزين كل لحم نجس، الذين ضلَّ في عدادهم أيضًا بولس، الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا، ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله.

ثانيًا: أنه نقل عن المسيح التصريح بأن الذبيح هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس إسحاق كما يزعم اليهود، وفي هذا يقول:-

أجاب يعقوب: يا معلم قل لنا من صنع هذا العهد، فإن اليهود يقولون بإسحاق، والإسماعيليون يقولون بإسماعيل؟ أجاب يسوع: صدقوني؛ لأني أقول لكم الحق، إن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق.

حينئذ قال التلاميذ: يا معلم هكذا كتب في كتاب موسى أن العهد صنع بإسحاق.

أجاب يسوع متأوهًا: هذا هو المكتوب، ولكن موسى لم يكتبه ولا يشوع، بل أحبارنا الذين لا يخافون الله.

الحق أقول لكم: إنكم إذا أعملتم النظر في كلام الملاك جبريل تعلمون حديث كتبتنا وفقهائنا؛ لأن الملاك قال: يا إبراهيم، سيعلم العالم كله كيف يحبك الله، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله حقًا، يجب عليك أن تفعل شيئًا لأجل محبة الله، أجاب إبراهيم: هاهو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله، فكلَّم الله حينئذ إبراهيم قائلًا: خذ ابنك بكرك إسماعيل، واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة.

فكيف يكون إسحاق البكر وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين؟

فقال حينئذ التلاميذ: إن خداع الفقهاء لجلي، لذلك قل لنا أنت الحق؛ لأننا نعلم أنك مرسل من الله".

وذكر برنابا أيضًا أن المسيح خاطب رئيس كهنة اليهود قائلًا له: إن إبراهيم أحب الله حيث إنه لم يكتف بتحطيم الأصنام الباطلة تحطيمًا ولا بهجر أبيه وأمه، ولكنه كان يريد أن يذبح ابنه طاعة لله.

أجاب رئيس الكهنة: إنما أسألك هذا ولا أطلب قتلك، فقل لنا: من كان ابن إبراهيم هذا؟

أجاب يسوع: إن غيرة شرفك يا الله تؤججني ولا أقدر أن أسكت. الحق أقول: إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلالته مسيا الموعود به إبراهيم أن به تتبارك كل قبائل الأرض.

فلما سمع هذا رئيس الكهنة حنق وصرخ: لنرجم هذا الفاجر؛ لأنه إسماعيلى، وقد جدف على موسى وعلى شريعة الله.

ثالثًا:- أنه نقل عن المسيح التصريح بالبشارة بالنبي محمد ﷺ باسمه وذلك في مواطن عدة من كتابه منها: أن اليهود سألوا المسيح عليه السلام عن اسم النبي المنتظر فقال: فقال الكاهن حينئذ: ماذا يسمى مسيا، وما هي العلامة التي تعلن مجيئه؟ فأجاب يسوع: إن اسمه المبارك (محمد). حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين: يا الله، أرسل لنا رسولك، يا محمد، تعال سريعًا لخلاص العالم.

وأورد أيضًا برنابا حوارًا تمَّ بينه وبين المسيح عليه السلام بعد أن رفع إلى السماء، ثم عاد مرة أخرى ليطمئن أمه وحوارييه بأنه لم يمت، ثم ارتفع مرة أخرى إلى السماء، وهذا نصه: (فقال حينئذ الذي يكتب: يا معلم إذا كان الله رحيمًا فلماذا عذبنا بهذا المقدار بما جعلنا نعتقد أنك كنت ميتًا، ولقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت، وسمح الله أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص على جبل الجمجمة وأنت قدوس الله؟

أجاب يسوع: صدقني يا برنابا إن الله يعاقب على كل خطيئة- مهما كانت طفيفة- عقابًا عظيمًا؛ لأن الله يغضب من الخطيئة، فلذلك لما كانت أمي

وتلاميذي الأمناء الذين كانوا معي أحبوني قليلًا حبًّا عالميًّا، أراد الله البر أن يعاقب على هذا الحب بالحزن الحاضر حتى لا يعاقب عليه بلهب الجحيم، فلماذا كان الناس قد دعوني الله وابن الله على أني كنت بريئًا في العالم، أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا، معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب؛ لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة، وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله، الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله).

رابعًا: أن برنابا صرَّح أن المسيح لم يُصلب، وإنما رُفع إلى السماء، وأن الذي صلب هو يهوذا الإسخريوطي، وهو الذي وشى بالمسيح لدى اليهود، حيث أُلْقِي عليه شبه المسيح، فقبض عليه وصلب بدلًا عن المسيح عليه السلام.

وهذا نص كلامه:- (ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دنو جم غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفًا، وكان الأحد عشر نيامًا، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبِّح الله إلى الأبد. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نيامًا.

فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغيَّر يهوذا في النطق وفي الوجه، فصار شبيها بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع، أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم، لذلك تعجبنا وأجبنا: أنت يا سيد هو معلمنا أنسيتنا الآن؟

أما هو فقال متبسمًا: هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفون يهوذا الإسخريوطي.

وبينما كان يقول هذا دخلت الجنود وألقوا أيديهم على يهوذا؛ لأنه كان

شبيهًا بيسوع من كل وجه).

وبعد أن ذكر محاكمة يهوذا وجلده من قبل اليهود والوالي الروماني وهم يظنون أنه يسوع قال: (وأُسْلِمَ يهوذا للكتبة والفريسيين كأنه مجرم يستحق الموت، وحكموا عليه بالصلب وعلى لصين معه.

فقادوه إلى جبل الجمجمة حيث اعتادوا شنق المجرمين، وهناك صلبوه عريانًا مبالغة في تحقيره).

هذه أهم مبادئ هذا الكتاب الذي أحدث بمبادئه وقت ظهوره دويًّا لدى النصارى، أما نحن المسلمين فلا يقدم عندنا هذا الكتاب ولا يؤخر، فنحن مطمئنون لكتاب ربنا الذي بين أيدينا نعرف به الحق، وعلى ضوئه نقيس الحق.

وهذا كتاب لا سند له ولا تاريخ، ثم هو من تأليف رجل ليس بمعصوم فقد يخطئ، ويضل، وينسى، وهذه لا تجعل لكتابه قيمة دينية عقائدية، وإنما تجعل له قيمة تاريخية وأدبية، والله أعلم(١).

مسألة: تحريف الإنجيل

إن الكتب المقدسة كتب معصومة عن الخطأ، محفوظة من الخلل والزلل؛ لأن المفترض فيها أن تكون من قبل رب العالمين الذي يعلم السرَّ وأخفى، وهو الحق لا يصدر منه إلا الحق جلَّ وعلا. والنصارى يسندون كتبهم إلى الله ﷻ عن طريق الإلهام إلى كتابها، والدارس لهذه الكتب يستطيع أن يتبين صدق هذه الدعوى من كذبها؛ إذ إن الحقَّ لا خفاء فيه. وقد سبق أن ذكرنا نبذة عن هذه الكتب من ناحية السند، حيث تبين أن النصارى لا يوجد عندهم دليل يثبت صحة نسبة كتبهم إلى أولئك الناس الذين نُسبت إليهم، فعليه لا يمكن اعتبارها

---

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (ص ٢٤١).

كتبًا صحيحة، ولا يجوز لعاقل أن ينسبها إلى أولئك الرجال، فضلًا عن أن ينسبها إلى الله ﷻ. ومما يؤكد عدم صحتها الاختلافات الكثيرة بينها، وكذلك الأغلاط العديدة فيها، وسنضرب لذلك أمثلة.

أولا: الاختلافات

إذا قارنا بين الأناجيل الأربعة نجد بينها اختلافات جوهرية تدل على خطأ كُتَّابها، وأنهم غير معصومين ولا ملهمين، وأن الله ﷻ بريء منها، ورسوله عيسى عليه السلام، ومن الأمثلة على ذلك:

١- نسب المسيح عليه السلام إن مما يدهش له الإنسان أشدَّ الدهش أن النصارى لم يستطيعوا أن يضبطوا نسب المسيح عليه السلام، ولم يتفقوا عليه، فأعطاه كلٌّ من صاحب إنجيل متى وصاحب إنجيل لوقا نسبًا مختلفًا عن الآخر.

ففي هذا النسب فوارق وأغلاط عدة هي:

١- أن متى نسب المسيح إلى يوسف بن يعقوب، وجعله في النهاية من نسل سليمان بن داود عليهما السلام.

أما لوقا فنسبه إلى يوسف بن هالي، وجعله في النهاية من نسل ناثان بن داود عليه السلام.

٢- أن متى جعل آباء المسيح إلى داود عليه السلام سبعة وعشرين أبًا، أما لوقا فجعلهم اثنين وأربعين أبًا، وهذا فرق كبير بينهما يدل على خطئهما أو خطأ أحدهما قطعًا.

والنصارى يدَّعون أن أحد الإنجيلين كتب فيه نسب مريم، والآخر كتب فيه نسب يوسف، وهذا كلام باطل؛ إذ إن صاحب إنجيل متى (١/ ١٦) يقول: (يعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح).

أما إنجيل لوقا (٣/ ٢٣) فيقول: (ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة، وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي). فكلاهما صرح بنسب يوسف.

أما الأغلاط في هذا النسب فعديدة منها

١- أن نسبة المسيح عليه السلام إلى يوسف خطيب مريم في زعمهم خطأ فاحش، وفيه تصديق لطعن اليهود في مريم أم المسيح عليه السلام، وكان الواجب على النصارى أن ينسبوه إلى أمه مريم لا إلى رجل أجنبي عنه. خاصة وأن ولادته منها كانت معجزة عظيمة وآية باهرة، فنسبته إليها فيه إظهار لهذه المعجزة، وتأكيد لها وإعلان، أما نسبته إلى رجل وليس هو أبوه فيه إخفاء لهذه المعجزة واستحياء. والله عز وجل في القرآن الكريم صرَّح في مواطن عدة بنسبته إلى مريم الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} [المائدة:١٧،٧٢، ٧٥]. عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} [ال عمران: ٤٥] ،} [النساء: ١٥٧،١٧١].

٢- أن صاحب إنجيل متَّى أسقط أربعة آباء من سلسلة النسب: ثلاثة منهم على التوالي بين (عزيا ويورام) حيث النسب كما هو في أخبار الأيام الأول (٣/ ١١ - ١٣) (عزريا بن أمصيا بن يواش بن أخزيا بن يورام)،كما أسقط واحدًا بين (يكنيا ويوشيا) وهو (يهو ياقيم) وسبب إسقاط اسم يهوياقيم بين يوشيا ويكنيا هو أن (يهوياقيم) هذا مَلَكَ دولة يهوذا بعد أبيه، إلا أنه كان عابدا للأوثان فكتب له (إرميا) يحذره من قبيح صنعه، ويبين له مغبة أفعاله، فأحرق (يهوياقيم) الكتاب ولم يرجع عن غيه، فقال عنه إرميا حسب كلامهم: (لذلك هكذا قال الرب عن يهوياقيم مَلِكِ يهوذا لا يكون له جالس على كرسي داود، وتكون جثته مطروحة للحر نهارًا وللبرد ليلًا) سفر إرميا (٣٦/ ٣٠).

ومعنى هذا الكلام أنه لا يكون من نسله ملك، فأسقطه (متى) لهذا السبب،

وعلل صاحب تفسير العهد الجديد ذلك التصرف بأن (متى) أراد أن يجعل كل مجموعه من النسب تحوي أربعة عشر اسمًا.

ونقول: إذا كانت هذه العلة التي لا معنى لها من أجلها حذف أربعة آباء من نسب المسيح، فذلك يعني أن الكاتب قد كتبه لخدمة أهداف في نفسه، وأنه لا يكتب ما علم وسمع مجردًا من الهوى والآراء الخاصة، ومن هنا يمكن أن ندرك كيفية تعامل النصارى الأوائل مع المعلومات الواردة إليهم، وأنهم يصوغونها وفق ما يرون ويعتقدون، لا وفق الحق مجردًا عن الهوى والآراء الخاصة. ولنا أن نبحث هنا عن السبب في هذا الخطأ الفاحش والاختلاف في نسب المسيح عليه السلام، فنقول: إن سبب خطأ النصارى في نسب المسيح عليه السلام أنهم نسبوه إلى رجل مغمور غير مشهور هو "يوسف النجار" خطيب مريم في زعمهم، فلهذا أخطؤوا في نسبه، فأعطاه (متَّى) نسبًا ملوكيًّا، وأعطاه (لوقا) نسبًا آخر غير معروف ولا معلوم.

ولكن لماذا أعرض كُتَّاب النصارى عن مريم، ولم يعطوه نسبها، فيجعلونه كما هو الحق عيسى بن مريم بنت عمران؟.

السبب في هذا ظاهر وهو: أن مريم بنت عمران امرأة عابدة مشهورة، تربَّت في بيت النبي زكريًّا عليه السلام، الذي كان من نسل هارون عليه السلام حيث كان كاهن بيت المقدس والمسؤول عن البخور عندهم هو زوج "أليصابات" خالة مريم، وهي من نسل هارون عليه السلام أيضًا، فتكون مريم من السبط نفسه، وهو سبط لاوي بن يعقوب عليه السلام، وذلك أن تشريع اليهود يأمرهم أن تتزوج المرأة من سبطها، ولا تتزوج من سبط أخر حتى تستمر الأموال في نفس السبط، ولا تنتقل إلى أسباط أخرى بواسطة الميراث. فلهذا تكون مريم من سبط زكريا عليه السلام وزوجته،

وكذلك خطيبها المزعوم إن صحَّ كلامهم في ذلك يكون من السبط نفسه، وهو سبط لاوي الذي منه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومما يدلُّ على أن مريم من سبط هارون قول الله عَزَّوَجَلَّ: يَا أُخْتَ هَارُونَ [مريم:٢٨]. قال السدي: قيل لها: يَا أُخْتَ هَارُونَ. أي: أخي موسى؛ لأنها من نسله كما يقال للتميمي: يا أخا تميم. وللمضري: يا أخا مضر. وهذا الأمر فيما يبدو علمه كتَّاب الأناجيل فأزعجهم إزعاجًا شديدًا؛ لأنهم يظنون أن المسيح لابد أن يكون من نسل داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فأعطوه ذلك النسب المخترع إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك حتى ينطبق عليه ما يزعمه اليهود، وهو أن المسيح لابد أن يكون من نسل داود عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى يكون مسيحًا. والله أعلم.

٣- ذكر إنجيل متَّى (١١/ ١٣) من كلام المسيح عن يوحنا المعمدان (يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ) قوله: (لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبؤوا، وإن أردتم أن تقبلوا فهذا إيليا المزمع أن يأتي من له أذنان للسمع فليسمع). وورد في إنجيل متَّى أيضًا (١٧/ ١) أنهم سألوا المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: (وسأله تلاميذه قائلين: فلماذا يقول الكتبة إن إيليا ينبغي أن يأتي أولًا، فأجاب يسوع وقال لهم: إن إيليا يأتي أولًا ويرد كل شيء، ولكني أقول لكم: إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه، بل عملوا به كل ما أرادوا، كذلك ابن الإنسان أيضا سوف يتألم منهم، حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان). فالمسيح هنا يبين أن يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو إيليا. ويخالف هذا قول يوحنا في إنجيله (١/ ١٩) حين جاء اليهود يسألون يحيى عن نفسه حيث قال: (أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت، فاعترف ولم ينكر وأقر أني لست أنا المسيح، فسألوه من أنت، إيليا أنت؟ فقال: لست أنا. النبي أنت؟ فأجاب لا. فقالوا له: من أنت لنعطي جوابًا للذين أرسلونا؟ ماذا تقول عن نفسك؟ قال: أنا صوت صارخ في البرية قَوِّمُوا طريق

الرب كما قال إشعيا النبي). فهنا أنكر يحيى عليه السلام أن يكون هو إيليا، وهذا تناقض واضح.

٤- أن متى ذكر في إنجيله (٢٠/ ٢٩ - ٣٤) أن عيسى عليه السلام لما خرج من أريحا قابله أعميان فطلبا منه أن يشفيهما من العمى فلمس عيونهما فشفيا. وقد ذكر هذه القصة مرقص في (١٠/ ٤٦ - ٥٢) وبين أن بارينماوس الأعمى ابن نيماوس هو الذي طلب ذلك فقط.

٥- أن مرقص ذكر في (٦/ ٨) أن عيسى عليه السلام أوصى حوارييه حين أرسلهم للدعوة في القرى بأن لا يحملوا شيئًا للطريق غير عصا فقط لا مزودًا، ولا خبزًا، ولا نحاسًا، وذكر ذلك لوقا في (٩/ ٣) إلا أنه قال: إن عيسى عليه السلام أوصاهم وقال لهم: (لا تحملوا شيئًا للطريق لا عصا ولا مزودًا ولا خبزًا ولا فضة) ففي الأول أجاز لهم حمل العصا، والثاني نهاهم عن حمل العصا أيضًا.

٦- أن إنجيل متى ذكر فيه في (١٥/ ٢١) أن المرأة التي طلبت من المسيح شفاء ابنتها كانت كنعانية. وذكر القصة مرقص في إنجيله (٧/ ٢٤) ونص عبارته عن جنس المرأة: (وكانت المرأة أممية وفي جنسها فينيقيه سوريه).

٧- أن إنجيل متى ذكر أسماء تلاميذ عيسى الاثني عشر فقال (١٠/ ٢): (وأما أسماء الاثني عشر رسولًا فهي هذه: الأول سمعان الذي يقال له: بطرس، وإندراوس أخوه، يعقوب بن زبدي، ويوحنا أخوه، فيلبس، وبرثولماوس، توما، ومتى العشار، يعقوب بن حلفى، ولباوس الملقب تداوس، سمعان القانوني، ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه). وذكر مرقص في (٣/ ١٦) الأسماء فوافق فيها متى، وخالفهما لوقا حيث حذف من قائمة متى (لباوس الملقب تداوس) ووضع بدلًا عنه (يهوذا أخا يعقوب).

٨- اختلافهم في الذين حضروا لمشاهدة قبر المسيح بعد دفنه المزعوم ووقت ذلك، حيث يقول متى (٢٨/ ١): (وبعد السبت عند فجر أول الأسبوع جاءت مريم المجدليه ومريم أخرى لتنظرا القبر). وفي إنجيل مرقص (١٦/ ١) يقول: (وبعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدليه ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطًا ليأتين ويدهنه، وباكرًا جدًّا في أول الأسبوع أتين إلى القبر إذ طلعت الشمس). وفي إنجيل لوقا (٢٤/ ١) يقول: (ثم في أول الأسبوع أول الفجر أتين إلى القبر حاملات الحنوط الذي أعددنه ومعهن أناس).

وفي إنجيل يوحنا (٢٠/ ١) يقول: (وفي أول الأسبوع جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكرًا والظلام باق، فنظرت الحجر مرفوعًا عن القبر).

فهذه الاختلافات وغيرها كثير- ذكرها علماء الإسلام وغيرهم- تدلُّ دلالة واضحة على أن في الكتاب صنعة بشرية، وتحريف وتبديل[1].

ثانيا: الأغلاط في الأناجيل

كما بين الأناجيل اختلافات يوجد بها أغلاط وأخطاء كثيرة أيضًا، نذكر منها:

١- قال متَّى في إنجيله (١/ ٣) مستدلًّا للمسيح وولادته من مريم بنبوءة سابقة جاءت على لسان إشعيا: (وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل: هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنًا، ويدعون اسمه (عمانوئيل) الذي تفسيره الله معنا). وهذا غلط؛ لأن هذا اللفظ الذي ورد على لسان إشعياء لا ينطبق على المسيح، فإن له قصة تدل على المراد به، وهي: أن (رصين) ملك أرام، (وفقح بن رمليا) ملك إسرائيل، اتفقا على محاربة (آحاز بن يوثان) ملك يهوذا، فخاف

---

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (ص ٢٢٧).

منهما (آحاز) خوفًا شديدًا، فأوحى الله إلى النبي إشعياء أن يقول لآحاز: بأن لا يخاف؛ لأنهما لا يستطيعان أن يفعلا به ما أرادا وأن ملكهما سيزول أيضًا، وبين له إشعياء آية لخراب ملكهما وزواله، أن امرأة شابه تحبل وتلد ابنًا يسمى (عمانوئيل)، فتصبح أرض هذين الملكين خرابًا قبل أن يميز ذلك الابن بين الخير والشر، ونص كلامه: (ها العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه (عمانوئيل) زبدًا وعسلًا يأكل، متى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير؛ لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يرفض الشر ويختار الخير تخلى الأرض التي أنت خاش من ملكيها) سفر إشعياء (٧/ ١٤). وقد وقع ذلك فقد استولى (تغلث فلاسر) الثاني ملك آشور على بلاد سوريا، وقتل (رصين) ملكها، أما (فقح) فقتله في نفس السنة أحد أقربائه، وتولَّى الملك مكانه، كل ذلك حدث بعد هذه المقولة بما يقارب إحدى وعشرين سنة، أي: قبل ميلاد المسيح بما يقارب سبعة قرون.

٢- قال متى في إنجيله (٢٧/ ٥١) بعد الصلب المزعوم للمسيح وإسلامه الروح: (وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل، والأرض تزلزلت، والصخور تفتقت، والقبور تفتحت، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته، ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين). فهذه الحكاية التي ذكرها متَّى لم يذكرها غيره من كتَّاب الأناجيل مما يدلُّ على أن كلامه لا حقيقة له؛ لأنها آية عظيمة تتوافر الهمم على نقلها.

٣- أنه ورد في إنجيل متَّى (١٢/ ٤٠) وكذلك في (١٦/ ٤) أن المسيح قال: إنه لن يعطي لليهود آية إلا آية يونان (يونس عليه السلام). ونصه: (لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال). وهذا غلط؛ لأن المسيح عليه السلام في زعمهم صلب ضحى

يوم الجمعة، ومات بعد ست ساعات، أي: وقت العصر، ودفن قبيل غروب الشمس، وبقى في قبره تلك الليلة، ونهار السبت من الغد، وليلة الأحد، وفي صباح الأحد جاؤوا ولم يجدوه في قبره، مما يدل على أنه مكث في زعمهم ليلتين ويومًا واحدًا فقط، فيكون كلام متَّى السابق غلط واضح.

٤- أن متَّى ذكر في مواضع من كتابه أن القيامة ستقوم على ذلك الجيل، ومن ذلك قوله في (١٦/ ٢٧) على لسان المسيح: (فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته، وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله، الحق أقول لكم: إن من القيام ههنا قومًا لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيًا في ملكوته). كما ورد في الإنجيل نفسه (٣/ ٢٣) قولهم على لسان المسيح: (فإن الحق أقول لكم: لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان). فهذه النصوص تؤكد القيامة قبل موت الكثيرين من ذلك الجيل، وقبل أن يكمل الحواريون الدعوة في جميع مدن بني إسرائيل، وهذا أمر لم يتحقق، وله الآن ألفا سنة إلا قليلا مما يدلُّ على أنه غلط فاحش.

٥- جاء في إنجيل لوقا (١/ ٣٠) في البشارة بالمسيح قوله: (ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية). وهذا خطأ بيِّن؛ لأن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن ملكًا لليهود، ولا ملكًا على آل يعقوب، بل كان أكثرهم معادين له إلى أن رفع إلى السماء بسبب محاولتهم قتله.

٦- ورد في إنجيل مرقس (١١/ ٢٣): (فأجاب يسوع وقال لهم: ليكن لكم إيمان بالله؛ لأن الحق أقول لكم: إن من قال لهذا الجبل: انتقل وانطرح في البحر. ولا يشك في قلبه، بل يؤمن أن ما يقوله يكون، فمهما قال يكون له، لذلك

أقول لكم: كل ما تطلبونه حينما تصلون، فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم). وورد أيضا في إنجيل مرقس (١٦/ ١٧): (وهذه الآيات تتبع المؤمنين، يخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بألسنة جديدة، يحملون حيات، وإن شربوا شيئًا مميتًا لا يضرهم ويضعون أيديهم على المرضى فيبرؤون). وفي إنجيل يوحنا (١٤/ ١٢): (الحق الحق أقول لكم: من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضًا، ويعمل أعظم منها؛ لأني ماض إلى أبي، ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله). فهذه النصوص الثلاثة لاشك في أنها خطأ، فلا يستطيع النصارى أن يدعو ذلك لأنفسهم. كما أن عبارة إنجيل يوحنا فيها مغالات شديدة، حيث زعم أن من آمن بالمسيح يعمل أعظم من أعمال المسيح نفسه، وهذا من الترهات الفارغة. وبمجموع ما ذكر عن الأناجيل من ناحية تاريخها، ومتنها يتبين لنا أن هذه الكتب لا يمكن أن تكون هي الكتاب الذي أنزل الله ﷻ على عبده ورسوله المسيح عليه السلام، وأحسن أحوالها أن تكون متضمنة لبعض ما أنزل الله ﷻ على عيسى عليه السلام[1].

* * *

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (ص ٢٣٧).

الفهرس

❊ ❊ ❊

جامع المسائل العقدية

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

دار اللؤلؤة

الجزء الخامس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(باب متفرقات)

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٤/ ٢٢٤): ما حكم الإيمان بالكتب السماوية وكم عددها؟.

فأجاب: الواجب الإيمان بها إجمالا وتفصيلا، إجمالا فيما لم يسم، يؤمن بأن الله أنزل الكتب، على الرسل والأنبياء كما قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}. يؤمن المؤمن بأن الله أنزل كتبا، على الرسل عليهم الصلاة والسلام، فيها العدل وفيها الشرائع، ويؤمن بما يسمى الله، من التوراة والإنجيل، والزبور، يؤمن بما سمى الله، سمى لنا التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود، يؤمن بما سمى الله وما بين سبحانه، والقرآن على محمد ﷺ، فما سمى الله سميناه، وآمنا به نصا، وما أجمله الله أجملناه، وتقول: الله جل وعلا أنزل كتبا على أنبيائه، ورسله نؤمن بها، ونصدق بها، ونعلم أنها حق من عند الله، ﷻ، لكن لا نعلم تفصيلها، إنما نعلم أنه أنزل كتبا، إقامة للحجة، وقطعا للمعذرة، ومنها التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود، والقرآن على خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام.

مسألة: سئل العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (٧/ ٨٤٤): سؤال: فيه أخ قال: إن التوراة والإنجيل لا نعطيهما صفة كلام الله كما للقرآن، فهل هو مصيب في هذا؟

الشيخ: والقرآن.

السائل: هو يؤمن بأن القرآن كلام الله مائة بالمائة، لكن يقول: صفة كلام

الله، الإنجيل والتوراة ليس بمنزلة القرآن من حيث أنه كلام الله منه بدأ وإليه يعود؟

الشيخ: هذا ما يقصد؟ الإنجيل المحرف والمبدل؟

السائل: الإنجيل غير المحرف.

الشيخ: الذي أُنزل على قلب موسى وعيسى؟

السائل: نعم غير المحرف.

الشيخ: هذا كفر.

السائل: كيف نرد عليه؟

الشيخ: عندنا في القرآن: {وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} (النساء:١٦٤).

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في فتاوى نور على الدرب: التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة هل هي منسوخة بالقرآن؟ وما هو الدليل من القرآن إن وجد؟ والسنة المطهرة؟ وما حكم قراءتها بالنسبة للعالم للاطلاع؟.

فأجاب: الكتب السابقة منسوخة بالقرآن الكريم؛ لقول الله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ). فكلمة: (وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) تقتضي أن القرآن الكريم حاكم على جميع الكتب السابقة، وأن السلطة له، فهو ناسخ لجميع ما سبقه من الكتب. وأما قراءة الكتب السابقة: فإن كان للاهتداء بها والاسترشاد فهو حرام ولا يجوز؛ لأن ذلك طعن في القرآن والسنة، حيث يعتقد هذا المسترشد أنها-أي: الكتب السابقة- أكمل مما في القرآن والسنة، وإن كان للاطلاع عليها ليعرف ما فيها من حق فيرد به على من خالفوا الإسلام فهذا لا بأس به، وقد يكون واجبًا؛ لأن معرفة الداء هي التي يمكن بها تشخيص المرض ومحاولة شفائه، أما من ليس عالمًا ولا يريد أن

يطلع ليرد فهذا لا يطالعها. إذًا فأقسام الناس فيها ثلاثة: من طالعها للاسترشاد بها فهذا حرام ولا يجوز؛ لأنه طعن في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ومن طالعها ليعرف ما فيها من حق فيرد به على من تمسكوا بها وتركوا الإسلام فهذا جائز، بل قد يكون واجبًا، ومن طالعها لمجرد المطالعة فقط، لا ليهتدي بها ولا ليرد بها، فهذا جائز، لكن الأولى التباعد عن ذلك؛ لئلا يخادعه الشيطان بها.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق: ماحكم قراءة الكتب السماوية مع علمنا بتحريفها؟.

فأجاب: أولًا يجب أن نعلم أنه ليس هناك كتابٌ سماوي يتعبد لله بقراءته، وليس هناك كتابٌ سماوي يتعبد الإنسان لله تعالى بما شرع فيه، إلا كتابًا واحدًا وهو القرآن، ولا يحل لأحد أن يطالع في كتب الإنجيل ولا في كتب التوراة، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رأى مع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صحيفة من التوراة، فغضب وقال: (أفي شكٍ أنت يا ابن الخطاب)؟ والحديث وإن كان في صحته نظر لكن صحيح أنه لا اهتداء إلا بالقرآن. ثم هذه الكتب التي بأيدي النصارى الآن أو بأيدي اليهود هل هي المنزلة من السماء؟ إنهم قد حرفوا وبدلوا وغيروا، فلا يوثق أن ما في أيديهم هي الكتب التي نزلها الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم إن جميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن، فلا حاجة لها إطلاقًا. نعم لو فرض أن هناك طالب علم ذا غيرةٍ في دينه وبصيرةٍ في علمه طالع كتب اليهود والنصارى من أجل أن يرد عليهم منها فهذا لا بأس أن يطالعها لهذه المصلحة، وأما عامة الناس فلا، وأرى من الواجب على كل من رأى من هذه الكتب شيئًا أن يحرقه، النصارى عليهم لعنة الله إلى يوم القيامة صاروا يبثون في الناس الآن ما يدعونه إنجيلًا على شكل المصحف تمامًا، مشكل على وجهٍ صحيح، وفيه

فواصل كفواصل السور، والذي لا يعرف المصحف- كرجلٍ مسلم ولكنه لا يقرأ- إذا رأى هذا ظن أنه القرآن، كل هذا من خبثهم ودسهم على الإسلام، فإذا رأيت أخي المسلم مثل هذا فبادر بإحراقه يكن لك أجر؛ لأن هذا من باب الدفاع عن الإسلام.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: عثرت على بعض الكتب المسيحية، فهل يصح إحراقها أم يجب عليّ أن أدفعها للمسيحيين لأنها تخصهم؟.

فأجاب: كأن السائل يريد أنه وجد نسخًا من الإنجيل، وأشكل عليه: هل يحرقها، أو يدفعها للنصارى الذين يدعون أنهم متبعون لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام؟ والذي أرى أنه يجب عليه إحراقها، وأنه لا يحل له أن يعطيها النصارى.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: ما هو الحكم في الذي يقرأ بالإنجيل؟ فهل هو حلال أم حرام، مع العلم أنه يتلو القرآن؟.

فأجاب: تلاوة غير القرآن الكريم من الكتب السابقة تقسم إلى قسمين: أحدهما: أن يكون التالي عالمًا بالشريعة، ويتلوها ليقيم الحجة على معتنقيها بصدق ما جاء به الإسلام، فالتلاوة هنا وسيلة إلى أمر محمود فتكون محمودة. والقسم الثاني: أن تكون التلاوة من عامي لا يعرف الشريعة، ويقصد الاهتداء بهذه الكتب، فهذه حرام عليه، أي: هذه التلاوة حرام عليه؛ لأنه لا يجوز أن يسترشد بالكتب السابقة وعنده هذا القرآن الكريم الذي كان مصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها، ولا يجوز الاهتداء بغير ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا هو خلاصة الجواب في مسألة مطالعة كتب غير المسلمين.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: إنني قرأت في كتاب وهو كتاب

مسيحي، وفيه مكتوب أن المسيح ابن الله تعالى، وأنا أعرف أنه خطأ وكفر بالله، هل يلحقني ذنب في هذه القراءة؟ أرشدوني جزاكم الله خيرًا، رغم أن الكتاب فيه عدة أخطاء وكفر بالله؟.

فأجاب: هذا الكتاب الذي قرأت للمسيحي لم تبين أنه الإنجيل أو غيره، وعلى كل حال فإن الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل قراءتها على ثلاثة أوجه: أحدها: أن يقرأها للاسترشاد بها والاستفادة منها، فهذا لا يجوز، وذلك لأن في القرآن والسنة ما يغني عنها. ثانيًا: أن يقرأها ليعرف ما فيها من حق فيلزم به متبعيها، ويبين خطأهم في مخالفة ما جاء به محمد ﷺ، فهذا لا بأس به، بل هو مطلوب إما وجوبًا وإما استحبابًا. الثالث: أن يقرأها لمجرد المطالعة فقط ليعرف ما عندهم، وليس يريد أن يسترشد بها أو يهتدي بها عن القرآن والسنة، ولا أن يرد على متبعيها باطلهم، فالأولى هنا أن لا يفعل؛ لأنه يخشى أن يتأثر بها ويجعلها مصدرًا لرشاده وهدايته.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: نحن نعلم بأن القرآن الكريم نزل مفرقًا، وورد بالقرآن أنه نزل في ليلة القدر، هل معنى ذلك بأنه نزل في كل سنة من ليلة القدر؟ نرجو بهذا إفادة يا فضيلة الشيخ؟.

فأجاب: إنه لا يخفى علينا جميعًا أن القرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لقوله تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) أي: حتى يسمع القرآن. وليس المعنى أن هذا المستجير يسمع كلام الله نفسه من الله، بل إنما يسمع القرآن الذي هو كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن هذا القرآن نزل من عند الله تعالى، كما قال الله تعالى: (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ). وكما قال تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

مُبِينٍ) فالقرآن نزل من عند الله ﷻ، ونزوله كان مفرقًا، كما قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا). وقال تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا). ولنزوله مفرقًا فوائد كثيرة، ذكرها أهل العلم في التفسير في أصول التفسير. فأما قوله تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ). فقد اختلف المفسرون فيها، فقال بعضهم: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ) أي: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، فيكون القرآن أول ما نزل في ليلة القدر، ثم نزل متتابعًا حسب ما تقتضيه حكمة الله ﷻ. وقال بعض العلماء: إنه نزل إلى بيت العزة جميعًا في ليلة القدر، ثم نزل إلى النبي ﷺ مفرقًا بعد ذلك. لكن الأول أقرب إلى الصواب؛ لأن قوله: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ) يقتضي إنزاله إلى منتهى إنزاله، وهو قلب النبي ﷺ، ومعلوم أنه لم ينزل على قلب النبي ﷺ جميعًا في ليلة واحدة، بل نزل مفرقًا، فيكون المعنى: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ) أي: إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، ثم صار ينزل مفرقًا حسب ما تقتضيه حكمة الله تبارك وتعالى.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: هل نزول القرآن باللغة العربية يجعل الأعجميين لديهم عذر أو حجة لأن القرآن ليس بلغتهم؟.

فأجاب: ليس للأعجميين حجة أو عذر لكون القرآن ليس بلغتهم، بل عليهم أن يتعلموا لغة القرآن؛ لأنه إذا توقف فهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على تعلم العربية كان تعلم العربية واجبًا، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولهذا كان من أئمة اللغة العربية قوم من العجم من فارس وغيرها، وصاروا أئمة في العربية لأنهم عرفوا قدر تعلم اللغة العربية، فتعلموها فصاروا أئمة فيها. وأما تعصب بعض الناس للغتهم، وعدم تحولهم

إلى اللغة العربية مع قدرتهم على ذلك، فهذا من حمية الجاهلية، والقرآن ولله الحمد الآن انتشر بين العالم، وترجم معناه إلى لغات متعددة، لغات عالمية حية، ولغات في مناطق معينة، فلا حجة لأحد اليوم في قوله: إن لساني ليس عربيًّا فلا أفهم القرآن.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق: قرأت في كتاب بأن أهل السنة والجماعة قالوا بأن من قال: إن القرآن محدث فهو كافر، وإن القرآن ليس مخلوقًا. فما معنى أن القرآن ليس محدثًا وليس مخلوقًا؟.

فأجاب: أما من قال: إن القرآن مخلوق، فهو مبتدع ضال؛ لأن القرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، وكلام الله من صفاته، وصفات الخالق غير مخلوقة، وقد أنكر أئمة أهل السنة على من قال ذلك -أي: على من قال: إن القرآن مخلوق- إنكارًا شديدًا، وحصلت بذلك الفتنة المشهورة التي جرت في زمن إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ، حتى إن بعضهم -أي: بعض الأئمة- أطلق الكفر على من قال: إن القرآن مخلوق، ولا شك أن من قال: إن القرآن مخلوق، فقد أبطل الأمر والنهي؛ لأنه إذا كان مخلوقًا فمعناه أنه شيء خلق على هذه الصورة المعينة، فهو كالنقوش في الجدران والورق وشبهها لا يفيد شيئًا، إذ ليس أمرًا ولا نهيًا ولا خبرًا ولا استخبارًا. وأما من قال: إن القرآن محدث، فليس بمبتدع وليس بضال، بل قد قال الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾. نعم لو كان المخاطب لا يفهم من كلمة محدث إلا أنه مخلوق فهنا لا نخاطبه بذلك، ولا نقول: إنه محدث، خشية أن يتوهم ما ليس بجائز.

فضيلة الشيخ: لماذا اعتبرت الفرق الضالة بأن القرآن مخلوق وأنه محدث؟ وما هو الغرض من ذلك؟

فأجاب رحمه الله تعالى: نعم أولًا: كما سمعت كلمة محدث لا بأس بها، ما لم نكن نخاطب من يفهم منها الخلق، وأن "محدث" في إزاء مخلوق. وأما المخلوق فإنهم إنما ذهبوا هذا المذهب لشبهات كانت عليهم، مثل قوله تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ). ومثل قوله تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) وما أشبه ذلك، فظنوا أن هذا هو الحق، لكنهم بُيِّنَ لهم هذا، وبُيِّنَ لهم الغلط، إلا أنهم أصروا وعاندوا، وصاروا يدعون إلى بدعتهم هذه، وهي بدعة ضلالة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: ما الفرق بين الأنبياء والرسل؟ وهل توجد كتب غير الكتب الأربعة التي نزلت أو أنزلت على الأنبياء؟ وما هي الصحف التي أنزلت على إبراهيم؟ نرجو منكم الإجابة.

فأجاب: جميع من ذكروا في القرآن من النبيين رسل، حتى وإن ذكروا بوصف النبوة؛ لقول الله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ). وقوله تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ) إلى أن قال: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ). فكل نبيٍّ ذكر في القرآن فإنه رسول، لكن ذكر العلماء رحمهم الله أن النبي هو الذي أوحى الله إليه بالشرع ولم يلزمه بتبليغه، وإنما أوحى الله إليه بالشرع لأجل أن يتعبد به، فيحيي شريعةً قبله أو يجدد شريعةً إذا لم يكن مسبوقًا بشريعةٍ من قبل. فمن الأول قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ). ومن الثاني- وهو: أن يكون الوحي الذي أوحي إلى النبي نبوة بلا رسالة- آدم عليه الصلاة والسلام، فإنه كان نبيًا ولم يكن رسولًا، ومع ذلك فهو لم يجدد

شريعةً قبله، وإنما تعبد لله تعالى بما أوحى إليه من الشرع، فتبعه على ذلك أولاده، فلما كثر الناس واختلفوا بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب، وأول رسولٍ بعثه الله ﷻ هو نوح عليه الصلاة والسلام، ومعه كتابٌ بلا شك، وآخر الرسل والأنبياء محمدٌ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فكل رسول معه كتاب، ولكننا لا نعلم من الكتب السابقة إلا التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وصحف موسى، وقد اختلف العلماء في صحف موسى هل هي التوراة أم غيرها؟ والله أعلم. هذا هو جواب السؤال.

(باب ذكر مباحث الإيمان بالرسل)

مسائل في الباب

مسألة: تعريف النبي والرسول

النبي في لغة العرب مشتق من النبأ وهو الخبر، قال تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} [النبأ: ١ - ٢].

وإنّما سمّي النبي نبيًّا؛ لأنه مُخبرٌ مُخْبَر، فهو مُخْبَر، أي: أنَّ الله أخبره، وأوحى إليه {قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} [التحريم: ٣]، وهو مُخْبِرٌ عن الله تعالى أمره ووحيه {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الحجر: ٤٩] {وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ} [الحجر: ٥١].

وقيل: النبوة مشتقة من النَّبْوَة، وهي ما ارتفع من الأرض، وتطلق العرب لفظ النبي على علم من أعلام الأرض التي يهتدى بها، والمناسبة بين لفظ النبي والمعنى اللغوي، أنَّ النبي ذو رفعة وقدر عظيم في الدنيا والآخرة، فالأنبياء هم أشرف الخلق، وهم الأعلام التي يهتدي بها الناس فتصلح دنياهم وأخراهم.

والإرسال في اللغة التوجيه، فإذا بعثت شخصًا في مهمة فهو رسولك، قال

تعالى حاكيًا قول ملكة سبأ: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} [النمل: ٣٥]، وقد يريدون بالرسول ذلك الشخص الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذًا من قول العرب: (جاءت الإبلُ رَسَلًا) أي: متتابعة.

وعلى ذلك فالرُّسل إنّما سمّوا بذلك لأنّهم وُجّهوا من قبل الله تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا} [المؤمنون: ٤٤]، وهم مبعوثون برسالة معينة مُكلَّفون بحملها وتبليغها ومتابعتها.

الفرق بين الرسول والنبي

لا يصحُّ قول من ذهب إلى أنه لا فرق بين الرسول والنبي، ويدلُّ على بطلان هذا القول ما ورد في عدة الأنبياء والرسل، فقد ذكر الرسول ﷺ أنَّ عدة الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، وعدَّة الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا، ويدلّ على الفرق أيضًا ما ورد في كتاب الله من عطف النبي على الرسول {وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رّسُولٍ وَلاَ نَبِيّ إِلاّ إِذَا تَمَنّىَ أَلْقَى الشّيْطَانُ فِيَ أُمْنِيّتِهِ} [الحج: ٥٢]، ووصف بعض رسله بالنبوة والرسالة مما يدُل على أن الرسالة أمر زائد على النبوة، كقوله في حقِّ موسى عليه السلام: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىَ إِنّهُ كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نّبِيًّا} [مريم: ٥١].

والشائع عند العلماء أنَّ النبي أعم من الرسول، فالرسول هو من أُوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه، والنبي من أوحي إليه ولم يؤمر بالبلاغ، وعلى ذلك فكلُّ رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا.

وهذا الذي ذكروه هنا بعيد لأمور:

الأول: أن الله نصَّ على أنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل في قوله: {وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رّسُولٍ وَلاَ نَبِيّ ...} [الحج: ٥٢]، فإذا كان الفارق بينهما

هو الأمر بالبلاغ فالإرسال يقتضي من النبي البلاغ.

الثاني: أنَّ ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالى، والله لا ينزل وحيه ليكتم ويدفن في صدر واحد من الناس، ثمَّ يموت هذا العلم بموته.

الثالث: قول الرسول ﷺ فيما يرويه عنه ابن عباس: (عرضت عليَّ الأمم، فجعل يمرُّ النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد)(١).

فدلّ هذا على أنَّ الأنبياء مأمورون بالبلاغ، وأنَّهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم. فقيل (الرسولَ مَنْ أُوحي إليه بشرع جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله)(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢) واللفظ له، ومسلم (٢٢٠).

(٢) تفسير الآلوسي (٧/ ١٥٧).

قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في شرح الطحاوية: وهذا يدل على أنَّ الفرق قائم ما بين النبي وما بين الرسول، وأنّ النبي إرساله خاص وأنَّ الرسول إرساله مطلق، فلهذا نقول دلّت آية سورة الحج {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ} على أنّ كلا من النبي والرسول يقع عليه إرسال.

فما الفرق بينهما من جهة التعريف؟

الجواب: أنَّ العلماء اختلفوا على أقوال كثيرة في تعريف هذا وهذا، ولكن الاختصار في ذلك مطلوب: وهو أنَّ تعريف النبي -وهي مسألة اجتهادية-:

النبي هو من أَوْحَى الله إليه بشرعٍ لنفسه أو أَمرَه بالتبليغ إلى قوم موافقين؛ يعني موافقين له في التوحيد.

والرسول: هو من أَوْحى الله إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه إلى قوم مخالفين.

وتلحظ أنَّ هذا التعريف للنبي وللرسول أَنه لا مَدْخَلَ لإيتاء الكتاب في وصف النبوة والرسالة، فقد يُعطى النبي كتابًا وقد يعطى الرسول كتابًا، وقد يكون الرسول ليس له كتاب وإنما له صحف {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} [الأعلى:١٩]، وقد يكون له كتاب.

=

=

فإذًا من جَعَلَ الفيصل أو الفرق بين النبي والرسول هو إيتاء الكتاب، وحي جاءه بكتاب مُنَزَّلْ من عند الله ﷻ، فهذا ليس بجيد، بل يقال لك كما ذكرت لك في التعريف أنَّ المدار على:

-النبي مُوحَى إليه، والرسول موحى إليه.

-النبي يوحى إليه بشرع أو بفصلٍ في قضية؛ شرع يشمل أشياء كثيرة، -وكذلك الرسول يوحى إليه بشرع.

-النبي يُوحى إليه لإبلاغه إلى قوم موافقين أو ليعمل به في خاصة نفسه كما جاء في الحديث (ويأتي النبي وليس معه أحد)، الرسول يُبعث إلى قوم مخالفين له.

ولهذا جاء في الحديث أن (العلماء ورثة الأنبياء) ولم يجعلهم ورثة الرسل، وإنما قال (وإن العلماء ورثة الأنبياء)، وذلك لأنّ العالم في قومه يقوم مقام النبي في إيضاح الشريعة التي معه، فيكون إذًا في إيضاح شريعته، في إيضاح الشريعة يكون ثَمَّ شَبَه ما بين العالم والنبي، ولكن النبي يُوحى إليه فتكون أحكامه صوابًا؛ لأنها من عند الله ﷻ، والعالم يوضِحُ الشريعة ويعرض لحُكْمِهِ الغلط.

يتعلق بهذه المسألة بحث أنَّ الرسول قد يكون متابعًا لشريعة مَنْ قَبْلَهْ، كما أنَّ النبي يكون متابعًا لشريعة مَنْ قَبْلَهْ. فإذًا الفرق ما بين النبي والرسول في إتباع الشريعة -شريعة مَنْ قَبْلْ- أَنَّ النبي يكون متابعا لشريعة مَنْ قَبْلَهْ، والرسول قد يكون متابعًا -كيوسف عليه السلام جاء قومه بما بعث به إبراهيم عليه السلام ويعقوب-، وقد يكون يُبْعَثُ بشريعة جديدة.

وهذا الكلام؛ هذه الاحترازات لأجل أنَّ ثمة طائفة من أهل العلم جعلت كل مُحْتَرَزٍ من هذه الأشياء فرقا ما بين النبي والرسول.

فإذًا كما ذكرت لكم:

- الكتاب قد يُعطاهُ النبي وقد يُعطاهُ الرسول.

- بَعْثُهُ لقوم موافقين أو مخالفين هذا مدار فرق ما بين النبي والرسول.

- الرسول قد يبعث بشريعة مَنْ قَبْلَهْ بالتوحيد بالديانة التي جاء بها الرسول لمن قبله، لكن يُرْسل إلى قوم مخالفين، وإذا كانوا مخالفين فلا بد أن يكون منهم مَنْ يُصَدِّقُهُ ويكون منهم من يُكَذِّبُه؛ لأنه ما من رسول إلا وقد كُذِّب، كما جاء في ذلك الآيات الكثيرة. وانظر كتاب النبوات لشيخ الإسلام (ص٢٥٥).

وقد كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ كما ثبت في الحديث، وأنبياء بني إسرائيل كلّهم مبعوثون بشريعة موسى: التوراة وكانوا مأمورين بإبلاغ قومهم وحي الله إليهم أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىَ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ أن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ ...} [البقرة: ٢٤٦] فالنبي كما يظهر من الآية يُوحَى إليه شيء يوجب على قومه أمرًا، وهذا لا يكون إلا مع وجوب التبليغ. واعتبر في هذا بحال داود وسليمان وزكريا ويحي فهؤلاء جميعًا أنبياء، وقد كانوا يقومون بسياسة بني إسرائيل، والحكم بينهم وإبلاغهم الحق، والله أعلم بالصواب.

مسألة: معنى الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل أصل من أصول الإيمان، قال تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [ال عمران: ٨٤].

ومن لم يؤمن بالرسل ضل ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينًا وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا} [النساء: ١٣٦].

وأهل السنة والجماعة: يؤمنون ويعتقدون اعتقادًا جازمًا بأن الله سبحانه أرسل إلى عباده رسلًا مبشرين ومنذرين، ودعاة إلى دين الحق، لهداية البشر، وإخراجهم من الظلمات إلى النور. فكانت دعوتهم إنقاذًا للأمم من الشرك والوثنية، وتطهيرًا للمجتمعات من التحلل والفساد، وأنهم بلغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وجاهدوا في الله حق جهاده، وقد جاؤوا بمعجزات

باهرات تدل على صدقهم، ومن كفر بواحد منهم؛ فقد كفر بالله تعالى: وبجميع الرسل عليهم السلام، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:١٥٠]. وقد بين الله الحكمة من بعثة الرسل الكرام، فقال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء:١٦٥]. ولقد أرسل الله رسلًا وأنبياء كثيرين منهم من ذكره لنا في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ ومنهم من لم يخبرنا عنهم، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ [غافر:٧٨]. وقال: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل:٣٦]. والمذكور من أسمائهم في القرآن الكريم خمسة وعشرون رسولًا ونبيًا، وهم: أبو البشر آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، شعيب، أيوب، ذو الكفل، موسى، هارون، داود، سليمان، إلياس، اليسع، يونس، زكريا، يحيى، عيسى، ومحمد خاتم الأنبياء والرسل؛ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وأفضل أولي العزم نبي الإسلام، وخاتم الأنبياء والمرسلين ورسول رب العالمين؛ محمد بن عبدالله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال الله تبارك وتعالى: وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب:٤٠]. وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بهم جميعًا من سمى الله منهم ومن لم يسم، من أولهم آدم عليه السلام ... إلى آخرهم وخاتمهم وأفضلهم نبينا محمد بن عبدالله؛ صلى الله عليهم أجمعين. والإيمان

بالرسل إيمان مجمل، والإيمان بنبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم إيمان مفصل يقتضي ذلك منهم اتباعه فيما جاء به على وجه التفصيل.

والذين يزعمون أنَّهم مؤمنون بالله ولكنّهم يكفرون بالرسل والكتب هؤلاء لا يقدرون الله حقَّ قدره، وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٩١]. فالذين يقدرون الله حقَّ قدره، ويعلمون صفاته التي اتصف بها من العلم والحكمة والرحمة لا بدَّ أن يوقنوا بأنَّه أرسل الرسل وأنزل الكتب، لأن هذا مقتضى صفاته، فهو لم يخلق الخلق عبثًا، أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً} [القيامة: ٣٦].

ومن كفر بالرسل وهو يزعم أنَّه يؤمن بالله فهو عند الله كافر لا ينفعه إيمانه، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا} [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

فقد نصَّت الآية على كفر من زعم الإيمان بالله وكفر بالرسل وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ، يقول القرطبي في هذه الآية: (نصّ سبحانه على أنَّ التفريق بين الله ورسله كفر، وإنَّما كان كفرًا لأنَّ الله فرض على الناس أن يعبدوه بما شرعه على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردّوا عليهم شرائعهم، ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أُمروا بالتزامها، فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية، وكذلك التفريق بين الله ورسله).

مسألة: ما يجب علينا نحو الرسل

يجب على الأمة تجاه الرسل حقوق عظيمة بحسب ما أنزلهم الله من

المنازل الرفيعة في الدين، وما رفعهم الله إليه من الدرجات السامية الجليلة عنده، وما شرفهم به من المهمات النبيلة، وما اصطفاهم به من تبليغ وحيه وشرعه لعامة خلقه. ومن هذه الحقوق:

١- تصديقهم جميعًا فيما جاءوا به، وأنهم مرسلون من ربهم، مبلغون عن الله ما أمرهم الله بتبليغه لمن أرسلوا إليهم وعدم التفريق بينهم في ذلك. قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ} [النساء: ٦٤]. وقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [المائدة: ٩٢]. وقال ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا} [النساء: ١٥٠، ١٥١]. فيجب تصديق الرسل فيما جاءوا به من الرسالات وهذا مقتضى الإيمان بهم.

ومما يجب معرفته أنه لا يجوز لأحد من الثقلين متابعة أحدٍ من الرسل السابقين بعد مبعث محمد ﷺ المبعوث للناس كافة، إذْ أن شريعته جاءت ناسخة لجميع شرائع الأنبياء قبله، فلا دين إلا ما بعثه الله به ولا متابعة إلا لهذا النبي الكريم. قال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [ال عمران: ٨٥]. وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [سبأ: ٢٨]. وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ..} [الأعراف: ١٥٨].

٢- موالاتهم جميعًا ومحبتهم والحذر من بغضهم وعداوتهم.

قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: ٥٦]. وقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

بَعْضٍ} [التوبة: ٧١]. فتضمنت الآية وصف المؤمنين بموالاة بعضهم لبعض فدخل في ذلك رسل الله الذين هم أكمل المؤمنين إيمانًا، وعليه فإن موالاتهم ومحبتهم في قلوب المؤمنين هي أعظم من موالاة غيرهم من الخلق لعلو مكانتهم في الدين ورفعة درجاتهم في الإيمان. ولذا حذر الله من معاداة رسله وعطفها في الذكر على معاداة الله وملائكته، وقرن بينهما في العقوبة والجزاء. فقال عز من قائل: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٩٨].

يجب على الأمة تجاه الرسل حقوق عظيمة بحسب ما أنزلهم الله من المنازل الرفيعة في الدين، وما رفعهم الله إليه من الدرجات السامية الجليلة عنده، وما شرفهم به من المهمات النبيلة، وما اصطفاهم به من تبليغ وحيه وشرعه لعامة خلقه. ومن هذه الحقوق:

١ - تصديقهم جميعًا فيما جاءوا به، وأنهم مرسلون من ربهم، مبلغون عن الله ما أمرهم الله بتبليغه لمن أرسلوا إليهم وعدم التفريق بينهم في ذلك. قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ} [النساء: ٦٤]. وقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [المائدة: ٩٢]. وقال ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا} [النساء: ١٥٠، ١٥١]. فيجب تصديق الرسل فيما جاءوا به من الرسالات وهذا مقتضى الإيمان بهم.

ومما يجب معرفته أنه لا يجوز لأحد من الثقلين متابعة أحدٍ من الرسل السابقين بعد مبعث محمد ﷺ المبعوث للناس كافة، إذْ أن شريعته جاءت

ناسخة لجميع شرائع الأنبياء قبله، فلا دين إلا ما بعثه الله به ولا متابعة إلا لهذا النبي الكريم. قال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [ال عمران: ٨٥]. وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: ٢٨]. وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ..} [الأعراف: ١٥٨].

٢- موالاتهم جميعًا ومحبتهم والحذر من بغضهم وعداوتهم.

قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: ٥٦]. وقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [التوبة: ٧١]. فتضمنت الآية وصف المؤمنين بموالاة بعضهم لبعض فدخل في ذلك رسل الله الذين هم أكمل المؤمنين إيمانًا، وعليه فإن موالاتهم ومحبتهم في قلوب المؤمنين هي أعظم من موالاة غيرهم من الخلق لعلو مكانتهم في الدين ورفعة درجاتهم في الإيمان. ولذا حذر الله من معاداة رسله وعطفها في الذكر على معاداة الله وملائكته، وقرن بينهما في العقوبة والجزاء. فقال عز من قائل: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٩٨][(١)].

مسألة: صالحون مختلف في نبوتهم

١- ذو القرنين

ذكر الله خبر ذي القرنين في آخر سورة الكهف، ومما أخبر الله به عنه أنه خاطبه {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا} [الكهف: ٨٦].

(١) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ص١٦٣).

فهل كان هذا الخطاب بواسطة نبيّ كان معه، أو كان هو نبيًّا؟ جزم الفخر الرازي بنبوته[(١)]، وقال ابن حجر: (وهذا مرويٌّ عن عبد الله بن عمرو، وعليه ظاهر القرآن)[(٢)] ومن الذين نفوا نبوته عليُّ بن أبي طالب[(٣)].

٢- تبع

ورد ذكر تبع في القرآن الكريم، قال تعالى: {أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ} [الدخان: ٣٧]، وقال: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلّ كَذَّبَ الرّسُلَ فَحَقّ وَعِيدِ} [ق: ١٢ - ١٤]، فهل كان نبيًّا مرسلًا إلى قومه فكذبوه فأهلكهم الله؟ الله أعلم بذلك.

الأفضل التوقف في أمر ذي القرنين وتُبّع

والأفضل أن يتوقف في إثبات النبوة لهذين، لأنه صحّ عن الرسول ﷺ أنه قال: (ما أدري أتُبّع نبيًّا أم لا، وما أدري ذا القرنين نبيًا أم لا)[(٤)] فإذا كان الرسول

---

(١) فتح الباري (٦/ ٣٨٢).
(٢) فتح الباري (٦/ ٣٨٢).
(٣) أخرجه ابن أبى عاصم في السنة (٢/ ٥٩٧) (١٣١٨).
(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٧٤) والحاكم في المستدرك (١/ ٣٦) وعنه البيهقي (٨/ ٣٢٩) وأبو القاسم الحنائي في الفوائد (١٦/ ١) وابن عبد البر في الجامع (٢/ ٥٠)، وابن عساكر في التاريخ (٤٠/ ٣١٧) والحديث ضعفه البخاري كما حكا ذلك عنه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣٢٩) وكذا أعله الحنائي بالإرسال كما في الفوائد (١٦/ ١)، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه ابن حزم في المحلى (١١/ ١٢٥) وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٢١٧) وأجاب على من ضعفه فانظره إن شئت.
(فائدة) قال ابن حزم في المحلى (١١/ ١٢٥) أما حديث أبي هريرة فصحيح السند وما نعلم له في وقتنا هذا علة الا أن الذي لا نشك فيه أن رسول الله ﷺ لا يختلف قوله ولا =

ﷺ لا يدري، فنحن أحرى بأن لا ندري.

٣- الخضر

الخضر هو العبد الصالح الذي رحل إليه موسى ليطلب منه علمًا، وقد حدثنا الله عن خبرهما في سورة الكهف.

وسياق القصة يدلّ على نبوته من وجوه[1]:

أحدها: قوله تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [الكهف: ٦٥]، والأظهر أنّ هذه الرحمة هي رحمة النبوة، وهذا العلم هو ما يوحى إليه به من قبل الله.

الثاني: قول موسى له: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىَ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىَ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ اللهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْني عَن شَيءٍ حَتَّىَ

=

يقول الا الحق وقد قال ﷺ بأصح سند مما أوردنا آنفا من طريق عبادة: أن من أصاب من الزنا. والسرقة. والقتل. والغصب شيئا فأقيم عليه الحد فهو كفارة له فمن المحال أن يشك رسول الله ﷺ في شئ قد قطع به وبشر أمته به وهو وحي من الله تعالى أوحى إليه به والقول عندنا فيه أن أبا هريرة لم يقل أنه سمع من رسول الله ﷺ هذا الكلام وقد سمعه أبو هريرة من أحد المهاجرين ممن سمعه ذلك الصاحب من رسول الله ﷺ في أول البعث قبل أن يسمع عبادة رسول الله ﷺ يقول: "ان الحدود كفارة فهذا صحيح بانه عليه السلام لا يعلم الا ما علمه الله تعالى ثم أعلمه بعد ذلك ما لم يكن يعلمه حينئذ وأخبر به الانصار إذ بايعوه قبل الهجرة والحدود حينئذ لم تكن نزلت بعد لا حين بيعة عبادة ولا قبل ذلك وانما نزلت بالمدينة بعد الهجرة لكن الله تعالى أعلم رسوله عليه السلام أنه سيكون لهذه الذنوب حدود وعقوبات وان كان لم يعلمه بها لكنه أخبره أنها كفارات لاهلها هذا هو الحق الذي لا يجوز غيره ان صح حديث أبي هريرة ولم تكن فيه علة.

(١) البداية والنهاية (١/ ٣٢٦).

أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} [الكهف: ٦٦ - ٧٠] فلو كان غير نبيّ لم يكن معصومًا، ولم يكن لموسى -وهو نبيٌّ عظيم، ورسول كريم، واجب العصمة- كبيرُ رغبةٍ، ولا عظيم طلبة في علم وَليٍّ غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه، والتفتيش عنه، ولو أنَّه يمضي حقبًا من الزمان، قيل: ثمانين سنة، ثمَّ لما اجتمع به، تواضع له، وعظّمه، واتبعه في صورة مستفيد منه، دلّ على أنه نبيٌّ مثله، يوحى إليه كما يوحى إليه، وقد خصّ من العلوم اللدنيَّة والأسرار النبويَّة بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم، نبيّ بني إسرائيل الكريم.

الثالث: أنّ الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام، وهذا دليل مستقلٌّ على نبوتّه، وبرهان ظاهر على عصمته، لأنَّ الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده، لأنَّ خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز الخطأ عليه بالاتفاق، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم علمًا منه بأنّه إذا بلغ يكفر، ويحمل أبويه على الكفر لشّدة محبتهما له، فيتابعانه عليه، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته دلّ ذلك على نبوته وأنّه مؤيد من الله بعصمته. الرابع: أنّه لمَّا فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى، ووضح له عن حقيقة أمره وجلاَّه، قال بعد ذلك كلّه: {رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [الكهف: ٨٢]، يعني ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمرت به، وأوحي إليّ فيه.

قال الحافظ في الفتح (١/ ٢٢١): ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة فقالوا إنه يستفاد من قصة موسى والخضر أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء وأما الأولياء والخواص فلا

حاجة بهم إلى تلك النصوص بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون الأحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى ويؤيده الحديث المشهور استفت قلبك وإن أفتوك قال القرطبي وهذا القول زندقة وكفر لأنه إنكار لما علم من الشرائع فإن الله قد أجرى سنته وأنفذ كلمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه المبينين لشرائعه وأحكامه كما قال الله تعالى الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس وقال الله أعلم حيث يجعل رسالاته وأمر بطاعتهم في كل ما جاؤوا به وحث على طاعتهم والتمسك بما أمروا به فإن فيه الهدى وقد حصل العلم اليقين وإجماع السلف على ذلك فمن ادعى أن هناك طريقا أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الطرق التي جاءت بها الرسل يستغني بها عن الرسول فهو كافر يقتل ولا يستتاب قال وهي دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبينا لأن من قال إنه يأخذ عن قلبه لأن الذي يقع فيه هو حكم الله وأنه يعمل بمقتضاه من غير حاجة منه إلى كتاب ولا سنة فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة كما قال نبينا ﷺ إن روح القدس نفث في روعي قال وقد بلغنا عن بعضهم أنه قال أنا لا آخذ عن الموتى وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت وكذا قال آخر أنا آخذ عن قلبي عن ربي وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع نسأل الله الهداية والتوفيق انتهى.

وقال العلامة الشنقيطي -رحمة الله تعالى عليه- في تفسير قوله تعالى: {فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما}

الكهف/ ٦٥:

ولكنه يفهم من بعض الآيات أن هذه الرحمة المذكورة هنا رحمة نبوة، وأن هذا العلم اللدني علم وحي ... ومعلوم أن الرحمة وإيتاء العلم اللدني أعم من كون ذلك عن طريق النبوة وغيرها، والاستدلال بالأعم على الأخص في أن وجود الأعم لا يستلزم وجود الأخص كما هو معروف، ومن أظهر الأدلة في أن الرحمة والعلم اللدني الذين امتن الله بهما على عبده الخضر عن طريق النبوة والوحي قوله تعالى: {وما فعلته عن أمري} الكهف / ٨٢، أي: وإنما فعلته عن أمر الله جل وعلا، وأمر الله إنما يتحقق بطريق الوحي، إذ لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي من الله جل وعلا، ولا سيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر، وتعييب سفن الناس بخرقها؛ لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي من الله تعالى، وقد حصر تعالى طرق الإنذار في الوحي في قوله تعالى: (قل إنما أنذركم بالوحي) الأنبياء/ ٤٥، و"إنما" صيغة حصر.

وقال أيضا:".. . وبهذا كله تعلم: أن قتل الخضر للغلام، وخرقه للسفينة وقوله: (وما فعلته عن أمري)، دليل ظاهر على نبوته، وعزا الفخر الرازي في تفسيره القول بنبوته للأكثرين، ومما يستأنس به للقول بنبوته تواضع موسى عليه الصلاة والسلام له في قوله: (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا) الكهف/ ٦٦، وقوله: (ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا) الكهف/ ٦٩، مع قول الخضر له: (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) الكهف/ ٦٨ .".

وقال العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (٢/ ٥١٦): قال الحافظ ابن

حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في أول رسالته «الزهر النضر»: «باب ما ورد في كونه نبيًا، قال الله تعالى في خبره عن موسى حكاية عنه: {وما فعلته عن أمري}، وهذه ظاهرة أنه فعله بأمر من الله، والأصل عدم الوساطة، ويحتمل أن يكون بوساطة نبي آخر لم يذكره، وهو بعيد، ولا سبيل إلى القول بأنه إلهام، لأن ذلك لا يكون من غير نبي وحيًا حتى يعمل به ما عمل؛ من قتل النفس، وتعريض الأنفس للغرق. فإن قلنا: إنه نبي، فلا إنكار في ذلك.

وأيضًا، كيف يكون غير النبي أعلم من النبي، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث الصحيح: «أن الله تعالى قال لموسى: بلى عبدنا خضر»؟!. وأيضا فكيف يكون النبي تابعًا لغير نبي؟! وقال الثعلبي: هو نبي في جميع الأقوال. وكان بعض أكابر العلماء يقول: أول عقدة تحل من الزندقة اعتقاد كون الخضر نبيًا، لأن الزنادقة يتذرعون بكونه غير نبي إلى أن الولي أفضل من النبي! كما قال قائلهم وهو ابن عربي صاحب «الفصوص» و«الفتوحات المكية»:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

قلت: وهناك آية أخرى تدل على نبوته عليه الصلاة والسلام، وهي قوله تعالى في: {آتيناه رحمة من عندنا}، فقد ذكر العلامة الآلوسي في تفسيرها ثلاثة أقوال، أشار إلى تضعيفها كلها، ثم قال: «والجمهور على أنها الوحي والنبوة، وقد أطلقت على ذلك في مواضع من القرآن، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس، ... والمنصور ما عليه الجمهور، وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة، وبمجموعها يكاد يحصل اليقين» روح المعاني (٥/ ٩٢ - ٩٣).

قلت: ولقد صدق رحمه الله تعالى، فإن المتأمل في قصته مع موسى عليهما

الصلاة والسلام يجد أن الخضر كان مظهرًا على الغيب وليس ذلك لأحد من الأولياء، بدليل قوله تعالى: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحدًا إلا من ارتضى من رسول}، وذلك ظاهر في مواطن عدة من القصة، أذكر ما تيسر منها:

١- قوله لموسى عندما طلب منه الصحبة {إنك لن تستطيع معي صبرا} فهذا الجزم منه عليه السلام لدليل واضح على أنه كان على علم بذلك، ولم يكن من باب الظن والتخرص منه، حاشاه، ويؤيده زيادة جاءت في بعض طرق الحديث عقب هذه الآية بلفظ: «وكان رجلًا يعلم علم الغيب، قد علم ذلك».

٢- ومثله قوله في تأويله قتل الغلام: «وأما الغلام فطبع يوم طبع كافرًا، وكان أبواه قد عطفا عليه، فلو أنه أدرك، أرهقهما طغيانًا وكفرًا، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا». زاد في رواية: «ووقع أبوه على أمه فعلقت فولدت منه خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا». وإخباره عليه السلام أن الغلام طبع كافرًا، وأن أباه وقع على أمه فحملت وولدت خيرًا منه، لهو من الأمور الغيبية المحضة التي لا مجال للاطلاع عليها إلا من طريق النبوة والوحي، فذلك من أقوى الأدلة على أنه كان نبيًا، إن لم يكن رسولا.

٣- ومن ذلك قول -صلى الله عليه وآله وسلم-: «لما لقي موسى الخضر عليهما السلام، جاء طير، فألقى منقاره في الماء فقال الخضر لموسى: تدري ما يقول هذا الطير؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما علمك وعلم موسى في علم الله إلا كما أخذا منقاري من الماء». فهذا صريح في أن الخضر، قد علم منطق الطير، وهو من الغيب الذي لا يعلمه البشر، فهو في هذا على نحو النبي سليمان عليه الصلاة والسلام الذي حكى الله عنه في القرآن: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} (النمل: ١٦). وخلاصة القول في هذه المسألة أن الأدلة المتقدمة إذا تأملها المسلم ووعاها بقلبه، تيقن أن الصواب القول بنبوة الخضر كما ذهب

إليه جمهور العلماء ولذلك فعل ما فعل من العجائب التي لم يصبر لها موسى عليه الصلاة والسلام، وهو كليم الله تعالى، وبه نستطيع أن نحل تلك العقدة من الزندقة التي أشار إليها الحافظ ابن حجر فيما سبق، ونحوها مما يعتقده كثير من الصوفية من الاعتقاد بالظاهر والباطن، والحقيقة والشريعة التي أفسد عقيدة كثير من الخاصة فضلًا عن العامة، فاعتقدوا الصلاح بل الولاية في كثير من الفساق الذين لا يصلون ولا يشهدون جماعات المسلمين ولا أعيادهم بدعوى الظاهر، وأنهم في الباطن من كبار أولياء الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وما قصة شيخ الإسلام ابن تيمية مع البطائحية الذين كانوا يتظاهرون في دمشق بالولاية والكرامة في زمانه حتى نصره الله عليهم، وقضى على باطنهم وباطلهم عن القارئ يعيد. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} (ق: ٣٧).

مسألة: لا تثبت النبوة إلّا بالدليل

يذكر علماء التفسير والسير أسماء كثير من الأنبياء نقلًا عن بني إسرائيل، أو اعتمادًا على أقوال لم تثبت صحتها، فإن خالفت هذه النقول شيئًا مما ثبت عندنا من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ رفضناها، كقول الذين قالوا: (إنَّ الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية المذكورة قصتهم في سورة يس كانوا من أتباع عيسى، وأن جرجيس وخالد بن سنان كانا نبيين بعد عيسى)[(١)].

نردّ هذّا كله، لأنَّه ثبت في الحديث الصحيح أنّه ليس بين عيسى ابن مريم وبين رسولنا صلوات الله وسلامه عليهما نبيٌّ[(٢)]، فالرسل المذكورون في آية

---

(١) فتح الباري (٦/ ٤٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) بلفظ: (ليس بيني وبينه نبي) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سورة يس إما رسل بعثوا قبل عيسى، وهذا هو الراجح، أو هم -كما يقول بعض المفسرين- مبعوثون من قبل عيسى وهذا بعيد، لأن الله أخبر أنّه مرسلهم، والرسول عند الإطلاق ينصرف إلى الاصطلاح المعروف، وما ورد من أنَّ خالد بن سنان نبي عربي ضيعه قومه فهو حديث لا يصحُّ، وهو مخالف لحديث صحيح أخبر الرسول ﷺ فيه أنَّ عدد الأنبياء الذين من العرب أربعة[1].

أما ما ورد عن بني إسرائيل من أخبار بتسمية بعض الأنبياء مما لا دليل عليه من الكتاب والسنة، فلا نكذّبه، ولا نصدّق به، لأنَّ خبرهم يحتمل الصدق والكذب[2].

مسألة: في عدد الأنبياء

اختلف أهل العلم في عدد الأنبياء والمرسلين، وذلك بحسب ما ثبت عندهم من الأحاديث الوارد فيها ذكر عددهم، فمن حسنها أو صححها فقد قال بمقتضاها، ومن ضعفها فقد قال بأن العدد لا يعرف إلا بالوحي فيتوقف في إثبات العدد، وأشهر هذه الأحاديث حديث أبي ذر رضي الله عنه، وفيه أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، والرسل منهم: ثلاثمائة وخمسة عشر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٠٩): وهذا الذي ذكره أحمد، وذكره محمد بن نصر، وغيرهما، يبين أنهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل، وأن حديث أبي ذر في ذلك لم يثبت عندهم.اهـ. والظاهر أن شيخ

---

(١) جزء من حديث مطول أخرجه ابن حبان (٣٦١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦) وفيه إبراهيم بن هشام الغساني كذبه أبو حاتم وأبو زرعة، وقال الذهبي: "وهو صاحب حديث أبي ذر الطويل انفرد به عن أبيه عن جده قال العلامة الألباني في ضعيف الموارد (ص ١٣) على الحديث بطوله ضعيف جدا.

(٢) الرسل والرسالات لعمر الأشقر (ص ٢٦).

الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يؤيدهم في ذلك، وقد أشار إلى حديث أبي ذر بصيغة التضعيف فقال: "وقد روي في حديث أبي ذر أن عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر"، ولم يستدل به، بل استدل بالآيات الدالة على كثرتهم.

وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير آية النساء -: وقوله تعالى: (ورسلا لم نقصصهم عليك) النساء/ ١٦٤: يقتضي كثرة الأنبياء، دون تحديد بعدد، وقد قال تعالى (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) فاطر/ ٢٤، وقال تعالى: (وقرونا بين ذلك كثيرا) الفرقان/ ٣٨، وما يذكر من عدد الأنبياء فغير صحيح، الله أعلم بعدتهم، صلى الله عليهم. انتهى

وسئل علماء اللجنة الدائمة (٣/ ٢٥٦): كم عدد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؟.

فأجابوا: لا يعلم عددهم إلا الله؛ لقوله تعالى: (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) غافر/ ٧٨، والمعروف منهم من ذكروا في القرآن أو صحت بخبره السنة.

وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٢/ ٦٦، ٦٧): وجاء في حديث أبي ذر عند أبي حاتم بن حبان وغيره أنه سأل النبي ﷺ عن الرسل وعن الأنبياء فقال النبي ﷺ: الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفا والرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر، وفي رواية أبي أمامة: ثلاثمائة وخمسة عشر، ولكنهما حديثان ضعيفان عند أهل العلم، ولهما شواهد ولكنها ضعيفة أيضا، كما ذكرنا آنفا، وفي بعضها أنه قال عليه الصلاة والسلام ألف نبي فأكثر، وفي بعضها أن الأنبياء ثلاثة آلاف وجميع الأحاديث في هذا الباب ضعيفة، بل عد ابن الجوزي حديث أبي ذر من الموضوعات. والمقصود أنه ليس في عدد الأنبياء والرسل خبر يعتمد عليه، فلا

يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى، لكنهم جم غفير، قص الله علينا أخبار بعضهم ولم يقص علينا أخبار البعض الآخر، لحكمته البالغة جل وعلا.

مسألة: الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم

فعن أنس في حديث الإسراء: (والنبي نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم) رواه البخاري في صحيحه (٣٥٧٠)، وهذا وإن كان من قول أنس إلا أن مثله لا يقال من قبل الرأي كما يقول احافظ في الفتح (٦/ ٥٧٩)، وقد ورد هذا من قول الرسول ﷺ، فقد صحّ عنه أنّه قال: (إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٨٧)، وقال ﷺ عن نفسه: (إنّ عيني تنامان ولا ينام قلبي) رواه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨).

و مما تفرد به الأنبياء أنّهم يخيَّرون بين الدنيا والآخرة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من نبي يمرض إلاّ خيّر بين الدنيا والآخرة، وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحّة شديدة، فسمعته يقول: مع الَّذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشُّهداء والصَّالحين} [النساء: ٦٩] فعلمت أنه خيَّر) رواه البخاري (٤٥٨٦).

وممّا خص به الأنبياء بعد موتهم أمور تتعلق بهم في القبر، منها: الأول: أنّه لا يقبر نبيٌّ إلاّ في الموضع الذي مات فيه، ففي الحديث: (لم يقبر نبيٌّ إلا حيث يموت) صححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠١). ولهذا فإنّ الصحابة – رضوان الله عليهم– دفنوا الرسول ﷺ في حجرة عائشة حيث قبض.

ومن إكرام الله لأنبيائه ورسله أنّ الأرض لا تأكل أجسادهم، فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى، ففي الحديث (إنّ الله

حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) وهو حديث صحيح.

مسألة: لم يرد في السنة النبوية

ما يدل على مكان دفن المسيح عيسى عليه السلام في آخر الزمان.

وأما الحديث الذي يروى في ذلك فضعيف جدا لا يثبت، وهذا بيانه: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (ينزل عيسى ابن مريم إلى الأرض، فيتزوج، ويولد له، ويمكث خمسا وأربعين سنة، ثم يموت فيدفن معي في قبري، فأقوم أنا وعيسى ابن مريم من قبر واحد بين أبي بكر وعمر) أخرجه ابن أبي الدنيا كما عزاه إليه الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/ ٥٦٢)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٩١٥)، وفي المنتظم (١/ ١٢٦)، وفي الوفا (٢/ ٧١٤) من طريق عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، والإفريقي ضعيف بمرة، وقال الذهبي في الميزان (٢/ ٥٦٢): منكر، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٦٥٦٢): منكر انتهى، ووردت بعض الآثار في هذا الشأن عن بعض الصحابة والتابعين ممن قرؤوا التوراة وعرفوا ما فيها وهي أيضا ضعيفة لا تثبت.

مسألة: سئل شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٨): عن رجلين تجادلا، فقال أحدهما: إن تربة محمد ﷺ أفضل من السماوات والأرض. وقال الآخر: الكعبة أفضل، فمع من الصواب؟

فأجاب: "الحمد لله، أما نفس محمد ﷺ فما خلق الله خلقا أكرم عليه منه، وأما نفس التراب فليس هو أفضل من الكعبة البيت الحرام، بل الكعبة أفضل منه، ولا يعرف أحد من العلماء فضل تراب القبر على الكعبة إلا القاضي عياض، ولم يسبقه أحد إليه، ولا وافقه أحد عليه، والله أعلم" انتهى.

مسألة: ذهب بعض العلماء إلى أنّ الله أنعم على بعض النساء بالنبوة

فمن هؤلاء أبو الحسن الأشعري والقرطبي وابن حزم، والذين يقولون بنبوة النساء متفقون على نبوة مريم، ومنهم من ينسب النبوة إلى غيرها، ويعدّون من النساء النبيات: حواء وسارة وأمّ موسى وهاجر وآسية. وهؤلاء عندما اعترض عليهم بالآية التي تحصر الرسالة في الرجال دون النساء، قالوا: نحن لا نخالف في ذلك، فالرسالة للرجال، أمّا النبوة فلا يشملها النصُّ القرآني، وليس في نبوة النساء تلك المحذورات التي عددتموها فيما لو كان من النساء رسول، لأنَّ النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها، يعمل بها، ولا يحتاج إلى أن يبلغها إلى الآخرين.

وحجّة هؤلاء أن القرآن أخبر بأن الله تعالى أوحى إلى بعض النساء، فمن ذلك أنه أوحى إلى أمّ موسى: (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) [القصص: ٧]، وأرسل جبريل إلى مريم فخاطبها (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا) .. [مريم: ١٧ - ١٩] وخاطبتها الملائكة قائلة: (يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) [ال عمران: ٤٢ - ٤٣].

فأبو الحسن الأشعري يرى أنّ كلَّ من جاءه الملك عن الله تعالى بحكم من أمر أو نهي أو بإعلام فهو نبي، وقد تحقق في أمّ موسى ومريم شيء من هذا، وفي غيرهما أيضًا، فقد تحقق في حواء وسارة وهاجر وآسية بنصّ القرآن. واستدلوا أيضًا باصطفاء الله لمريم على العالمين (وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) [ال

عمران: ٤٢] وبقوله ﷺ: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون) رواه البخاري (٣٧٦٩)، ومسلم (٢٤٣١) قالوا: الذي يبلغ مرتبة الكمال هم الأنبياء.

وهذا الذي ذكروه لا ينهض لإثبات نبوة النساء، والرد عليهم من وجوه:

الأول: أنّا لا نسلم لهم أن النبي غير مأمور بالتبليغ والتوجيه ومخالطة الناس، والذي اخترناه أن لا فرق بين النبي والرسول في هذا، وأنَّ الفرق في غير ذلك.

وإذا كان الأمر كذلك فالمحذورات التي قيلت في إرسال رسول من النساء قائمة في بعث نبي من النساء، وهي محذورات كثيرة تجعل المرأة لا تستطيع القيام بحقّ النبوة.

الثاني: قد يكون وحي الله إلى هؤلاء النسوة أم موسى وآسية.. إنّما وقع منامًا، فقد علمنا أنّ من الوحي ما يكون منامًا، وهذا يقع لغير الأنبياء.

الثالث: لا نسلم لهم قولهم: إن كل من خاطبته الملائكة فهو نبي، ففي الحديث أن الله أرسل ملكًا لرجل يزور أخًا له في الله في قرية أخرى، فسأله عن سبب زيارته له، فلمّا أخبره أنه يحبّه في الله، أعلمه أنَّ الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبّه، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة، وقد جاء جبريل يعلم الصحابة أمر دينهم بسؤال الرسول ﷺ والصحابة يشاهدونه ويسمعونه.

الرابع: أنّ الرسول ﷺ توقف في نبوة ذي القرنين مع إخبار القرآن بأنّ الله أوحى إليه (قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) [الكهف: ٨٦].

الخامس: لا حجّة لهم في النصوص الدالة على اصطفاء الله لمريم، فالله قد

صرح بأنّه اصطفى غير الأنبياء: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) [فاطر: ٣٢]، واصطفى آل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ومن آلهما من ليس بنبيّ جزمًا (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) [ال عمران: ٣٣].

السادس: لا يلزم من لفظ الكمال الوارد في الحديث الذي احتجوا به النبوة، لأنّه يطلق لتمام الشيء، وتناهيه في بابه، فالمراد بلوغ النساء الكاملات النهاية في جميع الفضائل التي للنساء، وعلى ذلك فالكمال هنا غير كمال الأنبياء.

السابع: ورد في بعض الأحاديث النصّ على أن خديجة من الكاملات وهذا يبين أن الكمال هنا ليس كمال النبوة.

الثامن: ورد في بعض الأحاديث أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلاّ ما كان من مريم ابنة عمران، وهذا يبطل القول بنبوة من عدا مريم كأم موسى وآسية، لأنّ فاطمة ليست بنبيّة جزمًا وقد نصَّ الحديث على أنها أفضل من غيرها، فلو كانت أم موسى وآسية نبيتان لكانتا أفضل من فاطمة.

التاسع: وصف مريم بأنها صديقة في مقام الثناء عليها والإخبار بفضلها، قال تعالى: (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ) [المائدة: ٧٥] فلو كان هناك وصفًا أعلى من ذلك لوصفها به، ولم يأت في نصّ قرآني ولا في حديث نبويّ صحيح إخبار بنبوة واحدة من النساء. وقد نقل القاضي عياض عن جمهور الفقهاء أنّ مريم ليست بنبيّة، وذكر النووي في (الأذكار) عن إمام الحرمين أنّه نقل الإجماع على أنّ مريم ليست نبيّة، ونسبه في (شرح المهذب) لجماعة، وجاء عن الحسن البصري: ليس في

النساء نبيّة ولا في الجنّ، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٩٦) وأبو محمد (يقصد شيخ الإسلام الإمام ابن حزم) مع كثرة علمه وتبحره وما يأتي به من الفوائد العظيمة: له من الأقوال المنكرة الشاذة ما يعجب منه كما يعجب مما يأتي به من الأقوال الحسنة الفائقة وهذا كقوله: إن مريم نبية وإن آسية نبية وإن أم موسى نبية. وقد ذكر القاضي أبو بكر والقاضي أبو يعلى وأبو المعالي وغيرهم: الإجماع على أنه ليس في النساء نبية والقرآن والسنة دلا على ذلك: كما في قوله: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى} وقوله: {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة} ذكر أن غاية ما انتهت إليه أمه: الصديقية وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

مسألة: هل ثبت أن المسيح عليه السلام سيدفن في آخر الزمان في الحجرة النبوية

لم يرد في السنة النبوية ما يدل على مكان دفن المسيح عيسى عليه السلام في آخر الزمان، وأما الحديث الذي يروى في ذلك فضعيف جدا لا يثبت، وهذا بيانه:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ينزل عيسى ابن مريم إلى الأرض، فيتزوج، ويولد له، ويمكث خمسا وأربعين سنة، ثم يموت فيدفن معي في قبري، فأقوم أنا وعيسى ابن مريم من قبر واحد بين أبي بكر وعمر).

رواه ابن أبي الدنيا - كما عزاه إليه الذهبي في "ميزان الاعتدال" (٢/ ٥٦٢) - وابن الجوزي في "العلل المتناهية" (٢/ ٩١٥) وفي "المنتظم" (١/ ١٢٦)، وفي "الوفا" (٢/ ٧١٤) أيضا: من طريق عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي.

قال ابن الجوزي: "هذا حديث لا يصح، والإفريقي ضعيف بمرة" انتهى.

وأورده الذهبي في "ميزان الاعتدال" في سياق المناكير التي رواها هذا

الراوي، وقال: "فهذه مناكير غير محتملة" انتهى.

وقال الشيخ الألباني في "السلسلة الضعيفة" برقم (٦٥٦٢): "منكر" انتهى.

ووردت بعض الآثار في هذا الشأن عن علماء الصحابة ممن قرؤوا التوراة وعرفوا ما فيها:

١- قال عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مكتوب في التوراة صفة محمد، وصفة عيسى بن مريم، يدفن معه) رواه البخاري في "التاريخ الكبير" (٦/ ٢٢٩)، والترمذي في "السنن" (رقم/ ٣٦١٧)، والطبراني في "المعجم الكبير" (القطعة المفقودة ص/ ١١١)، والآجري في كتاب "الشريعة" (٣/ ١٣٢٤) بألفاظ متقاربة، ولكني اخترت اللفظ الذي عند الترمذي لتصريحه بنقل الكلام عن التوراة.

كلهم رووه من طريق عثمان بن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده.

وهذا إسناد ضعيف، فيه عثمان بن الضحاك: قال أبو داود: ضعيف. انظر "تهذيب التهذيب" (٧/ ١٢٤). وفيه: محمد بن يوسف لم يوثقه أحد، وإنما ذكره ابن حبان في "الثقات" انظر ترجمته في "تهذيب التهذيب" (٩/ ٥٣٤) لذلك قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ بعد إخراجه الحديث في التاريخ الكبير في ترجمته: "هذا لا يصح عندي، ولا يتابع عليه" انتهى.

وقال العلامة الألباني في "السلسلة الضعيفة" برقم (٦٩٦٢): "موقوف ضعيف" انتهى.

٢- عن سعيد بن المسيب قال: (إن قبور الثلاثة في صفة بيت عائشة، وهناك موضع قبر يدفن فيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ).

قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦٦): "من وجه ضعيف" انتهى.

كما ذكر ذلك بعض العلماء والمؤرخين:

قال الإمام القرطبي رحمه الله: "ثم يقبض الله روح عيسى عليه السلام ويذوق الموت، ويدفن إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم في الحجرة ...، وقد قيل إنه يدفن بالأرض المقدسة مدفن الأنبياء" انتهى.

"التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" (ص/ ١٣٠١) وذكر نحوه ابن عساكر وغيره.

والذي يتحصل مما سبق أنه لم يثبت في حوادث آخر الزمان دفن عيسى عليه السلام في الحجرة النبوية، وما ورد في ذلك إنما هي آثار ضعيفة السند، ومأخوذة عن غير الكتاب والسنة، والله أعلم.

مسألة: الجواب عن إشكال حول قول يوسف عليه السلام: اذكرني عند ربك؟

أظهر القولين في تفسيره هذه الآية أن الذي نسي ذكر ربه في هذه الآية، ليس هو يوسف عليه السلام، وإنما هو السجين الآخر، الذي طلب منه يوسف أن يذكره عند ربه، قال تعالى: (وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك، فأنساه الشيطان ذكر ربه، فلبث في السجن بضع سنين) سورة يوسف/ ٤٢.

وإذا كان الأظهر في تفسير الآية أن الناسي هو حامل الرسالة من يوسف إلى عزيز مصر، فليس في إرسال هذه الرسالة: أن يذكر العزيز بأمر يوسف، شيء مما يخل بمنصب الرسالة، بل ولا منصب التوكل على الله وإنزال الحوائج به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "قال تعالى: (فأنساه الشيطان ذكر ربه)، قيل: أنسي يوسف ذكر ربه لما قال: (اذكرني عند ربك).

وقيل: بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه، وهذا هو الصواب، فإنه

مطابق لقوله: (اذكرني عند ربك)، قال تعالى: (فأنساه الشيطان ذكر ربه)، والضمير يعود إلى القريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك؛ ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه؛ بل كان ذاكرا لربه. وقد دعاهما قبل تعبير الرؤيا إلى الإيمان بربه، وقال لهما: (يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار. ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)، وقال لهما قبل ذلك: (لا يأتيكما طعام ترزقانه)، أي: في الرؤيا (إلانبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما)، يعني التأويل، (ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون)، فبذا يذكر ربه ﷻ فإن هذا مما علمه ربه؛ لأنه ترك ملة قوم مشركين لا يؤمنون بالله وإن كانوا مقرين بالصانع، ولا يؤمنون بالآخرة، واتبع ملة آبائه أئمة المؤمنين - الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمره - إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ فذكر ربه ثم دعاهما إلى الإيمان بربه، ثم بعد هذا عبر الرؤيا، فقال: (يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا) الآية، ثم لما قضى تأويل الرؤيا: (وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك)، فكيف يكون قد أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه؟

وإنما أنسى الشيطان الناجي ذكر ربه، أي الذكر المضاف إلى ربه والمنسوب إليه، وهو أن يذكر عنده يوسف.

والذين قالوا ذلك القول، قالوا: كان الأولى أن يتوكل على الله ولا يقول اذكرني عند ربك. فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين.

فيقال: ليس في قوله: (اذكرني عند ربك) ما يناقض التوكل؛ بل قد قال يوسف: (إن الحكم إلا لله) كما أن قول أبيه: (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) لم يناقض توكله، بل قال: (وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون).

وأيضا: فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين، والمخلص لا يكون مخلصا مع توكله على غير الله، فإن ذلك شرك، ويوسف لم يكن مشركا، لا في عبادته ولا توكله، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله: (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين)، فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده.

وقوله: (اذكرني عند ربك) مثل قوله لربه: (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم)، فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضا للتوكل، ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه، فكيف يكون قوله للفتى: (اذكرني عند ربك) مناقضا للتوكل، وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به؛ ليعلم حاله، ليتبين الحق، ويوسف كان من أثبت الناس.

ولهذا بعد أن طلب: (وقال الملك ائتوني به)، قال: (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم)، فيوسف يذكر ربه في هذه الحال كما ذكره في تلك.

ويقول: (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة)، فلم يكن في قوله له: (اذكرني عند ربك) ترك لواجب ولا فعل لمحرم حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين ...

والمقصود أن يوسف لم يفعل ذنبا ذكره الله عنه، وهو سبحانه لا يذكر عن

أحد من الأنبياء ذنبا إلا ذكر استغفاره منه، ولم يذكر عن يوسف استغفارا من هذه الكلمة" انتهى باختصار. من "مجموع الفتاوى" (١٥/ ١١٢ – ١١٨).

مسألة: هل النبي ﷺ أفضل الخلق

وردت في فضائل النبي ﷺ وخصائصه أدلة كثيرة جدا، ولم يرد – فيما نعلم – دليل صريح فيه النص صراحة على أن النبي ﷺ أفضل الخلق، والذي ورد النص عليه: أنه ﷺ أفضل البشر وسيد ولد آدم.

روى مسلم (٤٢٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع).

وقد فهم العلماء من هذا النص وغيره من النصوص الواردة في فضائل نبينا ﷺ أنه أفضل الخلق.

قال النووي رحمه الله في "شرح صحيح مسلم": وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على الخلق كلهم، لأن مذهب أهل السنة أن الآدميين أفضل من الملائكة، وهو ﷺ أفضل الآدميين وغيرهم" انتهى.

وقد تتابع العلماء على وصف النبي ﷺ بأنه أفضل الخلق، ونكتفي بالإشارة إلى بعض مواضع كلامهم خشية الإطالة: الإمام الشافعي في "الأم" (٤/ ١٦٧).

الإمام عبد الرازق الصنعاني في مصنفه (٢/ ٤١٩).

شيخ الإسلام ابن تيمة في "مجموع الفتاوى" (١/ ٣١٣) و(٥/ ١٢٧، ٤٦٨).

ابن القيم في تهذيب السنن حديث رقم (١٧٨٧) من عون المعبود.

ابن حجر في "فتح الباري" شرح حديث رقم (٦٢٢٩).

المرداوي في " الإنصاف" (١١/ ٤٢٢).

الألوسي في"روح المعاني" (٤/ ٢٨٤).

الطاهر بن عاشور في تفسيره (٢/ ٤٢٠).

السعدي في تفسيره (٥١، ١٨٥، ٦٩٩).

محمد الأمين الشنقيطي في "أضواء البيان" (٩/ ٢١٥).

الشيخ عبد العزيز بن باز في "مجموع الفتاوى" (٢/ ٧٦، ٣٨٣).

علماء اللجنة الدائمة للإفتاء، وقد سئلوا: هل نقول بأن النبي ﷺ خير البشر أو خير الخلق؟ وهل هناك دليل على أنه خير الخلق، كما يقول كثير من الناس؟

فأجابوا: "جاء في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة بيان عظم قدر نبينا محمد ﷺ ورفعة مكانته عند ربه تعالى من خلال الفضائل الجليلة والخصائص الكريمة التي خصه الله بها، مما يدل على أنه أفضل الخلق وأكرمهم على الله وأعظمهم جاها عنده سبحانه، قال الله سبحانه: (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) النساء/ ١١٣، وأجناس الفضل التي فضله الله بها يصعب استقصاؤها؛ فمن ذلك: أن الله عز وجل اتخذه خليلا، وجعله خاتم رسله، وأنزل عليه أفضل كتبه، وجعل رسالته عامة للثقلين إلى يوم القيامة، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأجرى على يديه من الآيات ما فاق به جميع الأنبياء قبله، وهو سيد ولد آدم، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع، وبيده لواء الحمد يوم القيامة، وأول من يجوز الصراط، وأول من يقرع باب الجنة، وأول من يدخلها.. . إلى غير ذلك من الخصائص والكرامات الواردة في الكتاب والسنة، مما جعل العلماء يتفقون على أن النبي ﷺ هو أعظم الخلق جاها عند الله تعالى، قال شيخ الإسلام ابن

تيمية رحمه الله تعالى: "وقد اتفق المسلمون على أنه ﷺ أعظم الخلق جاها عند الله، لا جاه لمخلوق أعظم من جاهه، ولا شفاعة أعظم من شفاعته".

فمما ذكر وغيره يتبين أن نبينا محمدا ﷺ هو أفضل الأنبياء، بل وأفضل الخلق، وأعظمهم منزلة عند الله تعالى، ولكن مع هذه الفضائل والخصائص العظيمة فإنه ﷺ لا يرقى عن درجة البشرية، فلا يجوز دعاؤه والاستغاثة به من دون الله ﷻ، كما قال تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) الكهف/ ١١٠، وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم" انتهى. "فتاوى اللجنة الدائمة" (٢٦/ ٣٥).

وقد توقف في ذلك العلامة العثيمين رحمه الله، نظرا لأنه لم يرد بذلك نص صريح فقال: "المشهور عند كثير من العلماء إطلاق أن محمدا ﷺ أفضل الخلق، كما قال الناظم:

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا فمل عن الشقاق

لكن الأحوط والأسلم أن نقول: محمد ﷺ سيد ولد آدم، وأفضل البشر، وأفضل الأنبياء، أو ما أشبه ذلك اتباعا لما جاء به النص، ولم أعلم إلى ساعتي هذه أنه جاء أن النبي ﷺ أفضل الخلق مطلقا في كل شيء.. . فالأسلم أن الإنسان في هذه الأمور يتحرى ما جاء به النص. مثلا لو قال قائل: هل فضل الله بني آدم عموما على جميع المخلوقات؟ قلنا: لا؛ لأن الله تعالى قال: (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في لبر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) الإسراء/ ٧٠، لم يقل: على كل من خلقنا، فمثل هذه الإطلاقات ينبغي على الإنسان أن يتقيد فيها بما جاء به النص فقط ولا يتعدى.

والحمد لله، نحن نعلم أن محمدا ﷺ خاتم النبيين، وأشرف الرسل وأفضلهم وأكرمهم عند الله ﷻ، وأدلة ذلك من القرآن والسنة الصحيحة معروفة مشهورة، وأما ما لم يرد به دليل صحيح فإن الاحتياط أن نتورع عنه، لكنه مشهور عند كثير من العلماء، تجدهم يقولون: إن محمدا أشرف الخلق" انتهى "لقاءات الباب المفتوح" (٥٣/ ١١).

مسألة: هل صحيح أن النبي ﷺ خلق من نور

نبينا محمد ﷺ سيد ولد آدم أجمعين، وهو بشر من بني آدم، ولد من أبوين، يأكل الطعام ويتزوج النساء، يجوع ويمرض، ويفرح ويحزن، ومن أظهر مظاهر بشريته أن الله سبحانه توفاه كما يتوفى الأنفس، ولكن الذي يميز النبي ﷺ هو النبوة والرسالة والوحي.

قال الله تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد) الكهف/ ١١٠. وحال النبي ﷺ في بشريته هو حال جميع الأنبياء والمرسلين.

قال الله تعالى: (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) الأنبياء/ ٨.

وقد أنكر الله على الذين تعجبوا من بشرية الرسول ﷺ، فقال سبحانه: (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) الفرقان/ ٧.

فلا يجوز تجاوز ما يقرره القرآن الكريم من رسالة النبي ﷺ وبشريته، ومن ذلك: أنه لا يجوز وصفه ﷺ بأنه نور أو لا ظل له، أو أنه خلق من نور، بل هذا من الغلو الذي نهى عنه النبي ﷺ حين قال: (لا تطروني كما أطري عيسى ابن مريم، وقولوا عبد الله ورسوله) رواه البخاري (٦٨٣٠).

وقد ثبت أن الملائكة هي التي خلقت من نور، وليس أحد من بني آدم، قال

النبي ﷺ: (خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من نار السموم، وخلق آدم عليه السلام مما وصف لكم) رواه مسلم (٢٩٩٦).

قال العلامة الألباني في الصحيحة (٤٥٨): "وفيه إشارة إلى بطلان الحديث المشهور على ألسنة الناس: (أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر)! ونحوه من الأحاديث التي تقول بأنه ﷺ خلق من نور، فإن هذا الحديث دليل واضح على أن الملائكة فقط هم الذين خلقوا من نور، دون آدم وبنيه، فتنبه ولا تكن من الغافلين" انتهى.

وقد سئلت اللجنة الدائمة للإفتاء السؤال التالي: هنا في الباكستان علماء فرقة (البريلوية) يعتقدون أنه لا ظل للنبي ﷺ، وهذا دلالة على عدم بشرية النبي ﷺ. هل هذا الحديث صحيح. ليس الظل للنبي ﷺ؟.

فأجابت: "هذا القول باطل، مناف لنصوص القرآن والسنة الصريحة الدالة على أنه صلوات الله وسلامه عليه بشر لا يختلف في تكوينه البشري عن الناس، وأن له ظلا كما لأي إنسان، وما أكرمه الله به من الرسالة لا يخرجه عن وصفه البشري الذي خلقه الله عليه من أم وأب، قال تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) الآية، وقال تعالى: (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم) الآية.

أما ما يروى من أن النبي ﷺ خلق من نور الله، فهو حديث موضوع" انتهى. "فتاوى اللجنة الدائمة" (١/ ٤٦٤).

مسألة: عصمة الأنبياء

الأنبياء هم صفوة البشر، وهم أكرم الخلق على الله تعالى، اصطفاهم الله تعالى لتبليغ الناس دعوة لا إله إلا الله، وجعلهم الله تعالى الواسطة بينه وبين

خلقه في تبليغ الشرائع، وهم مأمورون بالتبليغ عن الله تعالى، قال الله تعالى: "أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين " الأنعام / ٨٩. والأنبياء وظيفتهم التبليغ عن الله تعالى مع كونهم بشرا، ولذلك فهم بالنسبة للأمر المتعلق بالعصمة على حالين:

١- العصمة في تبليغ الدين. ٢- العصمة من الأخطاء البشرية.

أولا : أما بالنسبة للأمر الأول

فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون في التبليغ عن الله تبارك وتعالى، فلا يكتمون شيئا مما أوحاه الله إليهم، ولا يزيدون عليه من عند أنفسهم، قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ " يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس " المائدة / ٦٧، وقال تعالى: "ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين " الحاقة / ٤٧ - ٤٤، وقال تعالى: {" وما هو على الغيب بضنين " التكوير / ٢٤، قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية " وما هو على ما أوحاه الله إليه بشحيح، يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء، وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه، البلاغ المبين، فلم يشح بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، إليهم الغاية في العلوم ..." انتهى

فالنبي في تبليغه لدين ربه وشريعته لا يخطأ في شيء البتة لا كبير ولا قليل، بل هو معصوم دائما من الله تعالى.

قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله (فتاوى ابن باز ج٦/ ٣٧١): "قد أجمع المسلمون قاطبة على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - ولاسيما محمد ﷺ معصومون من الخطأ فيما يبلغونه عن الله عز وجل، قال تعالى: "والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى " النجم / ١ - ٥)، فنبينا محمد ﷺ معصوم في كل ما يبلغ عن الله قولا وعملا وتقريرا، هذا لا نزاع فيه بين أهل العلم" انتهى.

وقد اتفقت الأمة على أن الرسل معصومون في تحمل الرسالة، فلا ينسون شيئا مما أوحاه الله إليهم، إلا شيئا قد نسخ، وقد تكفل الله جل وعلا لرسوله _ ﷺ _ أن يقرئه فلا ينسى، إلا شيئا أراد الله أن ينسيه إياه وتكفل له بأن يجمع له القرآن في صدره. قال تعالى. " سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله " الأعلى / ٧، وقال تعالى: " إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه " القيامة / ١٧ - ١٨.

قال شيخ الإسلام رحمه الله (مجموع الفتاوى ج١٨/ ٧): "فان الآيات الدالة على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله عز وجل فلا يكون خبرهم إلا حقا وهذا معنى النبوة وهو يتضمن أن الله ينبئه بالغيب وأنه ينبئ الناس بالغيب والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربه" انتهى.

ثانيا: بالنسبة للأنبياء كأناس يصدر منهم الخطأ، فهو على حالات

عدم الخطأ بصدور الكبائر منهم:

أما كبائر الذنوب فلا تصدر من الأنبياء أبدا وهم معصومون من الكبائر،

سواء قبل بعثتهم أم بعدها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (مجموع الفتاوى: ج٤/ ٣١٩):

" إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف ... وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول" انتهى.

وأما صغائر الذنوب فربما تقع منهم أو من بعضهم، ولهذا ذهب أكثر أهل العلم إلى أنهم غير معصومين منها، وإذا وقعت منهم فإنهم لا يقرون عليها بل ينبههم الله تبارك وتعالى عليها فيبادرون بالتوبة منها.

مسألة: التفاضل بين الأنبياء والرسل

قال ابن كثير: (لا خلاف أن الرسول أفضل من بقية الأنبياء)[1]. وقال السفاريني: (الرسول أفضل من النبي إجماعًا لتميزه بالرسالة التي هي أفضل من النبوة)[2].

وقد بدأ الله بذكر الرسول قبل النبي في قوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحج: ٥٢]. وقدم سبحانه الوصف بالرسالة على الوصف بالنبوة في قوله في كل من موسى وإسماعيل عليهما السلام: وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا [مريم: ٥١]. فلعل في هذه دلالة على فضل الرسول على النبي، إذا الترتيب كان قاضيا بتقديم النبي على الرسول، لأن النبوة تكون

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧).

(٢) لوامع الأنوار البهية (١/ ٥٠).

أولًا ثم الرسالة، ففي تقديمها على النبوة إفادة معنى. ودلل الماوردي على فضل الرسول فقال: (الرسول أعلى منزلة من النبي ولذلك سميت الملائكة رسلًا ولم يسموا أنبياء)[١]. ولكن هذا الاستدلال على القول بتفضيل الملائكة على الأنبياء وهو مرجوح. كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

ومن أوجه فضل الرسل على الأنبياء

أن الرسالة في أصلها قدر زائد على النبوة فهي نبوة وزيادة، فالرسل ساووا الأنبياء في النبوة، وفضلوا عليهم بالرسالة - صلوات الله وسلامه على الجميع-، يقول القرطبي: (معلوم أن من أرسل أفضل ممن لم يرسل، فإن من أرسل فضل على غيره في الرسالة واستووا في النبوة).

قال: (إلى ما يلقاه الرسل من تكذيب أممهم وقتلهم إياهم وهذا مما لا خفاء فيه)[٢]. وفي قول القرطبي هذا وجه آخر من وجوه فضل الرسول على النبي وهو ما يلقاه الرسل دون الأنبياء من المنازعة مع أقوامهم، وذكر ابن القيم طبقات المكلفين فجعل الطبقة الأولى مرتبة أولي العزم من الرسل ثم الطبقة الثانية من عداهم من الرسل ثم قال: (الطبقة الثالثة الذين لم يرسلوا إلى أممهم وإنما كانت لهم النبوة دون الرسالة فاختصوا بإيحاء الله إليهم، وإرساله ملائكته إليهم، واختصت الرسل عنهم بإرسالهم إلى الأمة بدعوتهم إلى الله بشريعته وأمره واشتركوا في الوحي ونزول الملائكة عليهم)[٣].

ومن وجوه فضل الرسول على النبي: أن الرسالة تثمر هداية الكافرين وإزالة

---

(١) أعلام النبوة (٣٨).

(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٣).

(٣) طريق الهجرتين (ص: ٣٥٠).

الشرك، أما النبوة فتثمر توجيه المؤمنين وصيانة أحكام الله فيهم، وهذا مستفاد مما ذكر من الفرق بين النبي والرسول أن النبي يبعث في مؤمنين، والرسول في كافرين، ولا شك أن هداية الكافر خير من تعليم المؤمن وفي كل خير، قال ﷺ لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أمره بدعوة أهل خيبر إلى الإسلام: (فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم)[1].

وهذا الإجماع المذكور على فضل الرسول على النبي واقع خلافًا للعز بن عبد السلام كما يقول السفاريني[2] فإن العز قال: (إن قيل أيهما أفضل النبوة أم الإرسال؟ فنقول: النبوة أفضل، لأن النبوة إخبار عما يستحقه الرب من صفات الجمال ونعوت الكمال، وهي متعلقة بالله من طرفيها، والإرسال دونها أمر بالإبلاغ إلى العباد، فهو متعلق بالله من أحد طرفيه وبالعباد من الطرف الآخر، ولا شك أن ما يتعلق بالله من طرفيه أفضل مما يتعلق به من أحد طرفيه، والنبوة سابقة على الإرسال فإن قول الله لموسى: إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مقدم على قوله: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فجميع ما تحدث به قبل قوله: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ نبوة، وما أمره بعد ذلك من التبليغ فهو إرسال، والحاصل أن النبوة راجعة إلى التعريف بالإله وبما يجب له والإرسال إلى أمر الرسول بأن يبلغ عنه إلى عباده أو إلى بعض عباده ما أوجبه عليهم من معرفته، وطاعته، واجتناب معصيته، وكذلك الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال له جبريل: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ إلى قوله: إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى كان هذا نبوة، وكان ابتداء الرسالة حين جاء

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) لوامع الأنوار البهية (١/ ٥٠، ٢/ ٣٠٠).

جبريل بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾(١).

ويظهر من كلام العز بن عبد السلام حصره سبب تفضيله النبي على الرسول في أمرين:

الأول: أن النبوة متعلقة بالله من طرفيها، والإرسال متعلق بالله من أحد طرفيه وبالعباد من الطرف الآخر.

الثاني: أن النبوة سابقة على الإرسال.

أما الأول: فإنه لم يعين الطرفين ما هما على التحديد، إلا أنه بنى ذلك على تفريقه بين النبوة والرسالة بأن النبوة تعريف الله نبيه به سبحانه وبما يجب له، ومثاله في كلامه قول الله لموسى عليه السلام: إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وقول جبريل للنبي ﷺ: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، والرسالة الأمر بالتبليغ، ومثاله قوله سبحانه لموسى عليه السلام: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ وقوله للنبي ﷺ: قم فأنذر، فكان النبوة على هذا وحي خاص بالنبي لا يبلغه لغيره، والرسول من أمر بالتبليغ فرجع إلى قول من جعل الفرق بينهما أن النبي من أوحي إليه بوحي ولم يؤمر بتبليغه، والرسول من أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه، وهو غير مسلم، فإن الإرسال ثابت لهما كما تقدم بيانه في مسألة الفرق، وثبوت الإرسال لهما يجعل النبوة متعلقة بالله وبالعباد كالرسالة، فيكون السبب المذكور في تفضيل النبي على الرسول منتقضًا.

وأما الثاني: فإن سبق النبوة دليل على فضل الرسالة عليها لأنه لا يبلغ مرتبة الرسالة إلا من كان نبيًا فهي مرتبة شريفة تفضل مرتبة النبوة، فلا يبلغ مبلغ الرسول إلا من كان نبيًا أولًا.

---

(١) قواعد الأحكام (٢٣٧).

ونبوة الرسول تكون إعدادا له للقيام بأعباء الرسالة -وهذا مفهوم من كلام العز- فدل على فضل الرسالة على النبوة.

وقد فهم السفاريني من كلام العز بن عبد السلام تخصيصه فضل النبوة على الرسالة في حال اجتماعهما في شخص واحد لا مطلقًا قال السفاريني: (الرسول أفضل من النبي إجماعًا، لتميزه بالرسالة التي هي أفضل من النبوة، على الأصح خلافًا لابن عبد السلام) إلى أن قال: (ثم أن محل الخلاف فيهما مع اتحاد محلهما وقيامهما معًا بشخص واحد، أما مع تعدد المحل فلا خلاف في أفضلية الرسالة على النبوة)(١).

وقال في موضع آخر: (الرسالة أفضل من النبوة ولو في شخص واحد، خلافًا للعز بن عبد السلام في قوله أن نبوة النبي أفضل من رسالته لقصرها على الحق تعالى، إذ هي الإيحاء بما يتعلق بالباري جل شأنه من غير ارتباط له بالخلق، وأما مع تعدد المحل فلا خلاف في أفضلية الرسالة على النبوة ضرورة جمع الرسالة لها مع زيادة) قال: (على أن الصحيح المعتمد أفضلية الرسالة مطلقًا)(٢).

وليس في كلام العز الذي وجدته ونقلته إلا إطلاق تفضيل النبوة على الرسالة لا كما يذكر السفاريني إلا أن يكون وقف على غير ما وقفت عليه.

هذا وقد جاء في كلام لابن حجر في ذكره وجوهًا في تعليل نهي النبي ﷺ عبادة من قول: ورسولك الذي أرسلت، ليقول: ونبيك الذي أرسلت في حديث الدعاء قبل النوم، وكان مما قاله: (أو لأن لفظ النبي أمدح من لفظ الرسول، لأنه

(١) لوامع الأنوار البهية (١/ ٥٠).
(٢) لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٠٠).

مشترك في الإطلاق على كل من أرسل بخلاف لفظ النبي فإنه لا اشتراك فيه عرفًا)[١]. وهذا في عرف اللغة لا في عرف الشرع، بل وصف الرسالة في عرف الشرع يستلزم وصف النبوة. فالصحيح أن الرسالة أفضل من النبوة، والرسول أفضل من النبي، فلفظ الرسول أمدح من لفظ النبي.

مسألة: توجيه النهي الوارد في التفضيل بين الأنبياء

لابد من اعتقاد التفاضل بين الأنبياء واعتقاد فضل الرسل على الأنبياء وفضل أولي العزم على بقية الرسل وفضل محمد ﷺ على سائر الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، لقيام الأدلة الشرعية الصريحة الصحيحة على ذلك، وقد ثبت عن النبي ﷺ نهيه عن التفضيل بين الأنبياء، ونهيه عن تفضيله خاصة على بعض الأنبياء، وفي هذا إشكال يظهر لناظره ويزول لمتأمله، وقد خرج العلماء وجوهًا من القول في توجيه ذلك النهي.

أما ما ورد عن النبي ﷺ فقد قال ﷺ: (لا تخيروا بين الأنبياء)، وفي رواية (لا تفضلوا بين الأنبياء) وهو واقع في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس جاء يهودي، فقال: يا أبا القاسم، ضرب وجهي رجل من أصحابك، فقال: أضربته؟ قال: سمعته بالسوق يحلف: والذي اصطفى موسى على البشر، قلت: أي خبيث، على محمد ﷺ؟ فأخذتني غضبة ضربت وجهه، فقال النبي ﷺ: لا تخيروا بين الأنبياء ..) الحديث[٢]، وفي رواية: (لا تخيروني بين الأنبياء)[٣] وفي رواية: (لا تفضلوا بين أنبياء الله)[٤]، وروى القصة أبو هريرة

---

(١) فتح الباري (١/ ٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٢) ومسلم (١٦٣)، (٢٣٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩١٦).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (١٥٩).

بنحوه إلا أنه قال: (لا تخيروني على موسى)[١] وفي حديث ثان قال ﷺ: (لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)[٢] إلا أن النهي في هذا الحديث يحتمل التأويل على وجهين:

الأول: أن يكون المراد بقوله (أنا): رسول الله ﷺ نفسه، قال الخطابي: (وهذا أولى الوجهين وأشبههما بمعنى الحديث، فقد جاء من غير هذا الطريق أنه ﷺ قال: (ما ينبغي لنبي أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)[٣] فعم الأنبياء كلهم فدخل هو في جملتهم)[٤].

الثاني: أن يكون إنما أراد ﷺ بقوله: لا ينبغي لعبد): من سواه من الناس، أي لا ينبغي للعبد القائل أن يقول ذلك[٥].

وقد دل على أن هذا هو الأولى في معنى الحديث جملة من ألفاظ الحديث في عدد من رواياته في الصحيحين، ففي رواية: (لا أقول إن أحدًا أفضل من

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (١٦٧).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٥)، وأبو داود (٤٦٧٠)، والبزار (٢٢٣٤)، وأبو يعلى (٦٧٩٣)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٤٩٧)، والخطيب في تاريخه (١٠/ ١٣٨) والحديث صححه لغيره العلامة الألباني في صحيح أبي داود، ثم عاد وقال في الضعيفة (٦٩٥٧): منكر بلفظ: "نبي" ... والمحفوظ في هذا الحديث بلفظ:"... لعبد"، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٣/ ١٩٦): إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط في تحقيق سنن أبي داود (٧/ ٦٢): صحيح بما قبله، وهذا إسناد رجاله ثقات إلا أن فيه عنعنة محمد بن إسحاق.

(٤) معالم السنن للخطابي (٣/ ١٤٦).

(٥) معالم السنن (٣/ ١٤٦) وفتح الباري (٨/ ٢٦٧) وتحفة الأحوذي (١/ ٥٤٢ و٩/ ١١٩).

يونس بن متى)[١] وفي رواية: (من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب)[٢] فلا يصح مع قوله: فقد كذب أن يكون المراد رسول الله ﷺ.

وفي رواية يقول ﷺ: (قال -يعني الله تبارك وتعالى- لا ينبغي لعبد لي (وفي لفظ: لعبدي) أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)[٣]. فقوله: (لعبد لي) يمنع أن يكون المراد رسول الله ﷺ خاصة.

والحاصل أن في الحديثين ينهى رسول الله ﷺ عن التفضيل بين الأنبياء، وعن تفضيله على موسى ويونس خاصة - على حمل الحديث في يونس على أن النبي ﷺ هو المراد - وهو ﷺ أفضل منهما ومن سائر الأنبياء وجميع الخلق قطعًا كما تقدمت الدلائل عليه من الكتاب والسنة والإجماع، وفي هذا إشكال ظاهر، وقد وجه العلماء ذلك النهي لإزالة الإشكال في أقوال متعددة، منها:

١ - أن النهي ورد قبل أن يعلم النبي ﷺ أنه سيد ولد آدم وأفضل الأنبياء فلما علم أخبر به، وأن النهي عن التفضيل منسوخ بالقرآن[٤].

إلا أن في هذا القول نظر كما يقول ابن كثير، قال: (لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة[٥]، وما هاجر أبو هريرة إلا عام حنين متأخرًا، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا والله أعلم)[٦]، وهو كما قال، بل والقول بالنسخ مردود،

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٤٦٠٤). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٧٦). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) الشفا (١/ ٢٢٦) وتفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢) وشرح النووي لمسلم (١٤/ ٣٨) وفتاوى النووي (١٩٦) وفتح الباري (٦/ ٤٥٢) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٠٥).
(٥) يعني حديث قصة لطم الأنصاري لليهودي المتقدم ذكرها.
(٦) البداية والنهاية (١/ ٢٨٥).

فإن التفاضل بين الأنبياء ،وفضل أولى العزم من الرسل منهم، وتفضيله ﷺ على يونس، كل ذلك قد ورد في الآيات المكية في سورة الإسراء، والأحقاف، والقلم، وقصة حديث أبي سعيد وأبي هريرة وقعت في المدينة، وكذلك الحديث الآخر في يونس عليه السلام ورد من رواية أبي هريرة وابن عباس، وابن عباس على سبيل المثال، من صغار الصحابة توفي النبي ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة وقد ورد أيضًا من رواية عبد الله بن مسعود.

٢- أن النهي من باب التواضع وهضم النفس ونفي الكبر والعجب[١]. قال القاضي عياض: (وهذا لا يسلم من الاعتراض)[٢]. وهذا التوجيه لا يتناسب مع قوله ﷺ (فقد كذب) في رواية: (من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب) إن حمل الحديث على أن المراد بقوله (أنا) رسول الله ﷺ[٣]. فإذا حمل على أن المراد به من سواه ﷺ، فإن لهذا التوجيه وجهه، خاصة مع قوله ﷺ: (إن الله أوصى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد)[٤]. ويكون مناسبًا أيضًا مع قوله: (ولا فخر) في حديث (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) المتقدم ذكره.

٣- أن النهي عن تعيين المفضول، أما تفضيل بعضهم على بعض في الجملة

---

(١) تأويل مختلف الحديث (٧٩) الشفا (١/ ٢٢٧) وشرح صحيح مسلم للنووي (١٤/ ٣٨) وتفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢) وتفسير ابن كثير (١/ ٣٠٥) وفتح الباري (٦/ ٤٥٢) ومعالم السنن بهامش المختصر (٧/ ٤١).

(٢) الشفا (١/ ٢٢٧).

(٣) تحفة الأحوذي (٩/ ١١٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٦٥). من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

دون تعيين المفضول فهو دلالة النصوص، قاله ابن عطية[١] واستشهد له بقوله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم) بإطلاق دون تعيين. ونقل القرطبي قول من قال: (إن النهي اقتضى منع إطلاق اللفظ لا منع اعتقاد ذلك المعنى، فإن الله أخبر بأن الرسل متفاضلون، فلا تقول: نبينا خير من الأنبياء، ولا من فلان النبي، اجتنابًا لما نهي عنه، وتأدبًا به، وعملًا باعتقاد ما تضمنه القرآن من التفضيل)[٢].

إلا أن في هذا التوجيه نظرًا، فالله ﷻ لما أخبر أنه فضل بعض النبيين على بعض في آية الإسراء، وبعض الرسل على بعض في آية البقرة، جعل يعين في الآيتين بعض المتفاضلين ويذكر بعض الوجوه التي فضلوا بها، فعمم ثم خص كما هو ظاهر من لفظ الآيتين وقد تقدم ذكرهما مرارًا[٣].

وقد عين الله ﷻ أولي العزم بالذكر وفضلهم على بقية الأنبياء - كما تقدم - ، والرسل أفضل من الأنبياء كما دل عليه الدليل واتفق عليه العلماء، فالرسول أفضل من النبي وفي هذا تعيين كما هو ظاهر، أما الإجمال في قوله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم) فهو دال على التعيين أيضًا، إذ ثبوت كونه ﷺ أفضل من الأنبياء جملة دليل كونه أفضل من كل واحد منهم مفصلًا، هذا مع قيام دليل على التعيين فلقد استدل العلماء بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ على أن النبي ﷺ أفضل من يونس، وهذا شاهد على التعيين، فالمراد بالنهي إذًا غير هذا الوجه.

٤ - أن المراد بالنهي المنع من التفضيل من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها فهم متساوون فيها، وإنما التفاضل بالخصائص والمحن

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٣٣١ - ٣٣٢).
(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢).
(٣) تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٤).

ونحوها[١]. قال القرطبي: (وهذا قول حسن فإنه جمع بين الآيات والأحاديث من غير نسخ)[٢].

وقال ابن قتيبة في حديث لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى: (ويجوز أن يريد لا تفضلوني عليه في العمل فلعله أكثر عملًا مني، ولا في البلوى والامتحان فإنه أعظم مني محنة)[٣].

٥- أن المراد بالنهي منع التفضيل من عند أنفسنا لأن مقام التفضيل إنما هو إلى الله[٤]، وروي عن أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يمنع من المفاضلة بين الأنبياء مع قوله بأن بعضهم أفضل من بعض وأن محمدًا أفضلهم، لكنه يقول ليس تعيين التفضيل إلى أحد منا[٥].

٦- أن المراد بالنهي منع التفضيل بمجرد الآراء والعصبية[٦]. وهذا قد يؤول إلى سابقه.

٧- أن المراد بالنهي منع التفضيل الذي يؤدي إلى الخصومة والتشاجر[٧]. وذلك في مثل الحال التي تحاكم فيها اليهودي مع الأنصاري عند النبي ﷺ كما في حديث أبي سعيد وأبي هريرة فهذا التوجيه ملائم لسبب ورود الحديث.

---

(١) الشفا (١/ ٢٢٧) وتفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢) وشرح صحيح مسلم للنووي (١٤/ ٣٨) وفتاوى النووي (١٩٦) وعون المعبود (١٢/ ٤٢٥).
(٢) تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢).
(٣) تأويل مختلف الحديث (٧٩).
(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٥) وعون المعبود (١٢/ ٤٢٤).
(٥) طبقات الحنابلة (٢/ ٣٠٦).
(٦) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٥).
(٧) شرح صحيح مسلم للنووي (١٤/ ٣٨) وفتاوى النووي (١٩٦) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٥).

٨- أن المراد بالنهي منع التفضيل الذي يؤدي إلى توهم النقص في المفضول، أو الغض منه، والإزراء به[١].

قال الخطابي في النهي الوارد: (معنى هذا ترك التخيير بينهم على وجه الإزراء ببعضهم، فإنه ربما أدى ذلك إلى فساد الاعتقاد فيهم والإخلال بالواجب من حقوقهم، ويفرض الإيمان بهم، وليس معناه أن يعتقد التسوية بينهم في درجاتهم فإن الله سبحانه قد أخبر أنه قد فاضل بينهم)[٢]. وممن قال بهذا التوجيه ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعليه حمل حديث أبي سعيد وأبي هريرة المذكور[٣]. وهو لائق بحديث: (ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى).

فقد ذكر أهل العلم أنه إنما خص يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالذكر لما يخشى على من سمع ما قصه الله علينا من شأنه وما كان من قلة صبره، ونهي نبينا عليهما الصلاة والسلام عن أن يكون مثله، من أن يقع في نفسه تنقيص له، فبالغ ﷺ في ذكر فضل يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لسد هذه الذريعة[٤]، إلا أن هناك من خرج بهذه العلة للنهي عن حدها فأطلق حكم النهي لمطلق هذه العلة، فجعل النهي مطلقًا لهذه العلة، فقال كما نقل القرطبي: (لا يقال: النبي أفضل من الأنبياء كلهم ولا من فلان ولا خير، كما هو ظاهر النهي، لما يتوهم من النقص في المفضول، لأن النهي اقتضى منع إطلاق اللفظ لا منع اعتقاد ذلك المعنى، فإن الله تعالى أخبر بأن الرسل

---

(١) الشفا (١/ ٢٢٧) وتفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢) وشرح صحيح مسلم للنووي (١٤/ ٣٨) وفتاوى النووي (١٩٦).

(٢) معالم السنن - بهامش مختصر سنن أبي داود (٧/ ٣٨).

(٣) الفتاوى (١٤/ ٤٣٦).

(٤) الشفا (١/ ٢٢٧) ومعالم السنن- بهامش المختصر (٧/ ٤١) وفتح الباري (٦/ ٤٥٢).

متفاضلون، فلا تقول: نبينا خير من الأنبياء، ولا من فلان النبي، اجتنابًا لما نهي عنه، وتأدبًا به وعملًا باعتقاد ما تضمنه القرآن من التفضيل)[١].

وظاهر هذا الكلام أن المراد من النهي - عند قائله - هو منع تعيين المفضول، لا تفضيل بعض النبيين على بعض في الجملة كما في آخر النقل، ...، ثم جعل العلة من عدم تعيين المفضول هي دفع توهم نقص المفضول كما في أول النقل، وظاهر هذا جعل تعيين المفضول موهمًا نقصه، هكذا بهذا الإطلاق وهو خطأ، ويكفي في الجواب عن القول بألا يقال النبي أفضل من الأنبياء أن يورد حديث أبي هريرة في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: فضلت على الأنبياء بست الحديث[٢].

مسألة: الجواب عن شبهة استغناء العقل عن الوحي

يزعم بعض الناس في عالم اليوم أنّه يمكنهم الاستغناء عن الرسل والرسالات بالعقول التي وهبهم الله إياها، ولذلك نراهم يسنُّون القوانين، ويحلُّون ويحرمون، ويخططون ويوجهون، ومستندهم في ذلك كلّه أن عقولهم تستحسن ذلك أو تقبحه، وترضى به أو ترفضه، وهؤلاء لهم سلف قالوا مثل مقالتهم هذه (فالبراهمة - وهم طائفة من المجوس - زعموا أن إرسال الرسل عبث، لا يليق بالحكيم، لإغناء العقل عن الرسل، لأنّ ما جاءت به الرسل إن كان موافقًا للعقل حسنًا عنده فهو يفعله، وإن لم يأت به، وإن كان مخالفًا قبيحًا- فإن احتاج إليه فعله وإلاّ تركه)[٣].

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢).
(٢) رواه البخاري (٥٢٣)، وانظر مباحث المفاضلة في العقيدة (ص ١٥٨).
(٣) لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٥٦).

ولا يجوز في مجال الحجاج والنزاع أن يبادر المسلم إلى إنكار قدرة العقل على إدراك الحسن والقبح، (فإنّ الله قد فطر عباده على الفرق بين الحسن والقبيح، وركب في عقولهم إدراك ذلك، والتمييز بين النوعين، كما فطرهم على الفرق بين النافع والضار والملائم لهم والمنافر، وركب في حواسهم إدراك ذلك، والتمييز بين أنواعه.

والفطرة الأولى: (وهي فطرته العباد على الفرق بين الحسن والقبيح) هي خاصة الإنسان التي تميز بها عن غيره من الحيوانات، وأما الفطرة الثانية (وهي فطرته للعباد على الفرق بين النافع والضار ..) فمشتركة بين أصناف الحيوان)[١] والذي ينبغي أن ينازع فيه أمور:

الأول: أنّ هناك أمورًا هي مصلحة للإنسان لا يستطيع الإنسان إدراكها بمجرد عقله، لأنها غير داخلة في مجال العقل ودائرته، (فمن أين للعقل معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته ..؟ ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده؟ ومن أين له معرفة تفاصيل ثوابه وعقابه، وما أعدّ لأوليائه، وما أعدّ لأعدائه، ومقادير الثواب والعقاب، وكيفيتهما، ودرجاتهما؟ ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يُظهِر اللهُ عليه أحدًا من خلقه إلاّ من ارتضاه من رسله إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل، وبلغته عن الله، وليس في العقل طريق إلى معرفته)[٢].

الثاني: أن الذي يدرك العقل حسنه أو قبحه يدركه على سبيل الإجمال، ولا يستطيع أن يدرك تفاصيل ما جاء به الشرع، وإن أدركت التفاصيل فهو إدراك

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١١٦).
(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ١١٧).

لبعض الجزئيات وليس إدراكًا كليًا شاملًا: (فالعقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلًا أو ظلمًا فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كلّ فعل وعقد)[١].

الثالث: أن العقول قد تحار في الفعل الواحد، فقد يكون الفعل مشتملًا على مصلحة ومفسدة، ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أو مصلحته، فيتوقف العقل في ذلك، فتأتي الشرائع ببيان ذلك، وتأمر براجح المصلحة، وتنهى عن راجح المفسدة، وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره، والعقل لا يدرك ذلك، وتأتي الشرائع ببيانه، فتأمر به من هو مصلحة له، وتنهى عنه من حيث هو مفسدة في حقّه، وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر، وفي ضمنه مصلحة عظيمة لا يهتدي إليها العقل، فتجيء الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة، والمفسدة الراجحة[٢].

وفي هذا يقول ابن تيمية: (الأنبياء جاؤوا بما تعجز العقول عن معرفته، ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه، فهم يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول)[٣].

الرابع: ما يتوصل إليه العقل وإن كان صحيحًا، فإنه ليس إلا فرضيات، قد تجرفها الآراء المتناقضة، والمذاهب الملحدة.

ولو استطاعت البقاء فإنها -في غيبة الوحي- ستكون تخمينات شتى، يلتبس فيها الحق بالباطل.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١١٧).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ١١٧).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ٣١٢).

بطلان قول البراهمة

والبراهمة الذين يزعمون أنّ العقل يغني عن الوحي لا نحتاج إلى إيراد الحجج لإبطال قولهم، وكل ما نفعله أن نوجه الأنظار إلى ما قادتهم إليه عقولهم التي زعموا أنهم يستغنون بها عن الوحي، هذا زعيم من زعمائهم في القرن العشرين يقول مفاخرًا[1]: (عندما أرى البقرة لا أجدني أرى حيوانًا، لأني أعبد البقرة، وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع). ولقد قاده عقله إلى تفضيل أمّه البقرة على أمّه التي ولدته: (وأمي البقرة تفضل أمّي الحقيقية من عدة وجوه، فالأمّ الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين، وتتطلب منّا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكنّ أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائمًا، ولا تطلب منّا شيئًا مقابل ذلك سوى الطعام العادي ..) ومضى عابد البقر يقارن بين أمّه البقرة وأمّه الحقيقية موردًا الحجج والبراهين على أفضلية أمّه البقرة على أمّه الحقيقية إلى أن قال: (إنّ ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال، وأنا أعدّ نفسي واحدًا من هؤلاء الملايين). وقد قرأت منذ مدة في مجلة العربي التي تصدر في الكويت عن معبد فخم مكسو بالرخام الأبيض ترسل إليه الهدايا والألطاف - من شتى أنحاء الهند، بقي أن تعلم أنّ الآلهة التي تقدم لها القرابين وترسل لها النذور في ذلك المعبد الفخم إنّما هي الفئران. هذه بعض الترهات التي هدتهم إليها عقولهم التي زعموا أنّ فيها غنية عن الوحي الإلهي.

مجالات العقل: إن الذين يريدون أن يستغنوا عن الوحي بالعقل يظلمون العقل ظلمًا كبيرًا، ويبددون طاقة العقل في غير مجالها، (إن للعقل اختصاصه

---

(١) هو زعيم الهند غاندي، انظر أقواله في كتاب مقارنة الأديان (٤/ ٣٢). وانظر: نظرات في النبوة (ص: ٢٧).

وميدانه وطاقته، فإذا اشتغل خارج اختصاصه جانبه الصواب، وحالفه الشطط والتخبط، وإذا أجري في غير ميدانه كبا وتعثر، وإذا كلف فوق طاقته كان نصيبه العجز والكلال. إن العالم المادي المحسوس أو عالم الطبيعة هو ميدان العقل الفسيح الذي يصول فيه ويجول، فيستخرج مكنوناته، ويربط بين أسبابه وعلله، ومقدماته ونتائجه، فيكشف ويخترع، ويتبحّر في العلوم النافعة في مختلف ميادين الحياة، وتسير عجلة التقدم البشري إلى أمام.

أما إذا كلف النظر خارج اختصاصه أعني ما وراء الطبيعة فإنه يرجع بعد طول البحث والعناء بما لا يروي غليلًا ولا يشفي عليلًا، بل يرجع بسخافات وشطحات)[١].

موقع العقل من الوحي

يزعم كثير من الناس أن الوحي يلغي العقل ويطمس نوره، ويورثه البلادة والخمول، وهذا زعم كاذب، ليس له من الصحة نصيب، فالوحي الإلهي وجّه العقول إلى النظر في الكون والتدبر فيه، وحث الإنسان على استعمار هذه الأرض، واستثمارها، وفي مجال العلوم المنزلة من الله وظيفة العقل أن ينظر فيها، ليستوثق من صحة نسبتها إلى الله تعالى، فإن تبين له صحة ذلك فعليه أن يستوعب وحي الله إليه، ويستخدم العقل الذي وهبه الله إياه في فهم وتدبر الوحي، ثم يجتهد في التطبيق والتنفيذ.

والوحي مع العقل كنور الشمس أو الضوء مع العين، فإذا حجب الوحي عن العقل لم ينتفع الإنسان بعقله، كما أنّ المبصر لا ينتفع بعينه إذا عاش في ظلمة، فإذا أشرقت الشمس، وانتشر ضوؤها انتفع بناظريه، وكذلك أصحاب

(١) نظرات في النبوة (ص: ١٧).

العقول إذا أشرق الوحي على عقولهم وقلوبهم أبصرت واهتدت فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦](١).

(باب متفرقات)

مسألة: سئل شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع فتاواه (٤/ ٣٣١ - ٣٣٦) عن: الذبيح من ولد خليل الله إبراهيم عليه السلام هل هو: إسماعيل أو إسحاق؟.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين. هذه المسألة فيها مذهبان مشهوران للعلماء وكل منهما مذكور عن طائفة من السلف وذكر أبو يعلى في ذلك روايتين عن أحمد ونصر أنه إسحاق اتباعا لأبي بكر عبد العزيز وأبو بكر اتبع محمد بن جرير. ولهذا يذكر أبو الفرج ابن الجوزي: أن أصحاب أحمد ينصرون أنه إسحاق وإنما ينصره هذان ومن اتبعهما ويحكى ذلك عن مالك نفسه لكن خالفه طائفة من أصحابه. وذكر الشريف أبو علي بن أبي يوسف: أن الصحيح في مذهب أحمد أنه إسماعيل وهذا هو الذي رواه عبد الله بن أحمد عن أبيه قال: مذهب أبي أنه إسماعيل وفي الجملة فالنزاع فيها مشهور لكن الذي يجب القطع به أنه إسماعيل وهذا الذي عليه الكتاب والسنة والدلائل المشهورة وهو الذي تدل عليه التوراة التي بأيدي أهل الكتاب. وأيضا فإن فيها أنه قال لإبراهيم: اذبح ابنك وحيدك. وفي ترجمة أخرى: بكرك. وإسماعيل هو الذي كان وحيده وبكره باتفاق المسلمين وأهل الكتاب لكن أهل الكتاب حرفوا فزادوا إسحاق فتلقى ذلك عنهم من تلقاه وشاع عند بعض المسلمين أنه إسحاق وأصله من تحريف أهل الكتاب. ومما يدل على أنه إسماعيل قصة الذبيح المذكورة في سورة

(١) الرسل والرسالات (ص ٣٥).

الصافات. قال تعالى: {فبشرناه بغلام حليم} وقد انطوت البشارة على ثلاث. على أن الولد غلام ذكر وأنه يبلغ الحلم وأنه يكون حليما. وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: {ستجدني إن شاء الله من الصابرين} ؟ وقيل: لم ينعت الله الأنبياء بأقل من الحلم وذلك لعزة وجوده ولقد نعت إبراهيم به في قوله تعالى {إن إبراهيم لأواه حليم} {إن إبراهيم لحليم أواه منيب} لأن الحادثة شهدت بحلمهما: {فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين} -إلى قوله- {وفديناه بذبح عظيم} {وتركنا عليه في الآخرين} {سلام على إبراهيم} {كذلك نجزي المحسنين} {إنه من عبادنا المؤمنين} {وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين} {وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين} . فهذه القصة تدل على أنه إسماعيل من وجوه: - (أحدها: أنه بشره بالذبيح وذكر قصته أولا فلما استوفى ذلك قال: {وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين} {وباركنا عليه وعلى إسحاق} فبين أنهما بشارتان: بشارة بالذبيح وبشارة ثانية بإسحاق وهذا بين.

(الثاني: أنه لم يذكر قصة الذبيح في القرآن إلا في هذا الموضع وفي سائر المواضع يذكر البشارة بإسحاق خاصة كما في سورة هود: من قوله تعالى {وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب} فلو كان الذبيح إسحاق لكان خلفا للوعد في يعقوب. وقال تعالى: {فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم} {فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم} وقال تعالى في سورة الحجر: {قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم} {قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون} {قالوا

بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين} ولم يذكر أنه الذبيح ثم لما ذكر البشارتين جميعا: البشارة بالذبيح والبشارة بإسحاق بعده كان هذا من الأدلة على أن إسحاق ليس هو الذبيح. ويؤيد ذلك أنه ذكر هبته وهبة يعقوب لإبراهيم في رَحِمَهُ ٱللَّهُ {ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين} وقوله: {ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين} ولم يذكر الله الذبيح. (الوجه الثالث: أنه ذكر في الذبيح أنه غلام حليم ولما ذكر البشارة بإسحاق ذكر البشارة بغلام عليم في غير هذا الموضع والتخصيص لا بد له من حكمة وهذا مما يقوي اقتران الوصفين والحلم هو مناسب للصبر الذي هو خلق الذبيح. وإسماعيل وصف بالصبر في قوله تعالى. {واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار} وهذا أيضا وجه ثالث فإنه قال في الذبيح: {يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين} وقد وصف الله إسماعيل أنه من الصابرين ووصف الله تعالى إسماعيل أيضا بصدق الوعد في قوله تعالى {إنه كان صادق الوعد} لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به. الوجه الرابع: أن البشارة بإسحاق كانت معجزة؛ لأن العجوز عقيم؛ ولهذا قال الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ {أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون} وقالت امرأته: {أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا} وقد سبق أن البشارة بإسحاق في حال الكبر وكانت البشارة مشتركة بين إبراهيم وامرأته. وأما البشارة بالذبيح فكانت لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وامتحن بذبحه دون الأم المبشرة به وهذا مما يوافق ما نقل عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه في الصحيح وغيره: من أن إسماعيل لما ولدته هاجر غارت سارة فذهب إبراهيم بإسماعيل وأمه إلى مكة وهناك أمر بالذبح. وهذا مما يؤيد أن هذا الذبيح دون ذلك.

ومما يدل على أن الذبيح ليس هو إسحاق أن الله تعالى قال: {فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب} فكيف يأمر بعد ذلك بذبحه؟ والبشارة بيعقوب تقتضي أن إسحاق يعيش ويولد له يعقوب ولا خلاف بين الناس أن قصة الذبيح كانت قبل ولادة يعقوب بل يعقوب إنما ولد بعد موت إبراهيم عليه السلام وقصة الذبيح كانت في حياة إبراهيم بلا ريب. ومما يدل على ذلك: أن قصة الذبيح كانت بمكة {والنبي ﷺ لما فتح مكة كان قرنا الكبش في الكعبة فقال النبي ﷺ للسادن: إني آمرك أن تخمر قرني الكبش فإنه لا ينبغي أن يكون في القبلة ما يلهي المصلي} . ولهذا جعلت منى محلا للنسك من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما اللذان بنيا البيت بنص القرآن. ولم ينقل أحد أن إسحاق ذهب إلى مكة لا من أهل الكتاب ولا غيرهم لكن بعض المؤمنين من أهل الكتاب يزعمون أن قصة الذبح كانت بالشام فهذا افتراء. فإن هذا لو كان ببعض جبال الشام لعرف ذلك الجبل وربما جعل منسكا كما جعل المسجد الذي بناه إبراهيم وما حوله من المشاعر. وفي المسألة دلائل أخرى على ما ذكرناه وأسئلة أوردها طائفة كابن جرير والقاضي أبي يعلى والسهيلي ولكن لا يتسع هذا الموضع لذكرها والجواب عنها. والله عز وجل أعلم. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.اهـ.

وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٣٣١) عن حديث (أنا ابن الذبيحين): لا أصل له بهذا اللفظ. وفي الكشف (١/ ١٩٩): قال الزيلعي وابن حجر في تخريج الكشاف: لم نجده بهذا اللفظ. قلت: الحديث في التخريج (٤/ ١٤١) ونص ابن حجر فيه: قلت: بيض له -يعني الزيلعي - وقد أخرجه. قلت: كذا قال، والظاهر أنه ترك بياضا في الأصل بعد قوله: أخرجه، لإملائه فيما بعد فلم

يتمكن، وكأنه كان يظن أن له أصلا فلم يجده، والله أعلم.

وقد وجدت الحاكم قد علق هذا الحديث مجزوما بنسبته إلى النبي ﷺ فقال في المستدرك (٢/ ٥٥٩) بعد أن روى أثرين عن ابن عباس وابن مسعود أن الذبيح هو إسحاق: وقد كنت أرى مشايخ الحديث قبلنا وفي سائر المدن التي طلبنا الحديث فيه وهم لا يختلفون أن الذبيح إسماعيل، وقاعدتهم فيه قول النبي ﷺ: "أنا ابن الذبيحين " إذ لا خلاف أنه من ولد إسماعيل وأن الذبيح الآخر أبوه الأدنى عبد الله بن عبد المطلب، والآن فإني أجد مصنفي هذه الأدلة يختارون قول من قال: إنه إسحاق.

قلت: فلعل الحاكم يشير بالحديث المذكور إلى ما أخرجه قبل صفحات (٢/ ٥٥١) من طريق عبد الله بن محمد العتبي، حدثنا عبد الله بن سعيد (عن) الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية بن أبي سفيان فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم، فقال بعضهم: الذبيح إسماعيل، وقال بعضهم: بل إسحاق الذبيح، فقال معاوية: سقطتم على الخبير، كنا عند رسول الله ﷺ فأتاه الأعرابي فقال: يا رسول الله خلفت البلاد يابسة، والماء يابسا، هلك المال وضاع العيال، فعد علي بما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه، فقلنا: يا أمير المؤمنين وما الذبيحان؟ قال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله أمرها أن ينحر بعض ولده، فأخرجهم فأسهم بينهم فخرج السهم لعبد الله، فأراد ذبحه، فمنعه أخواله من بني مخزوم وقالوا: أرض ربك وافد ابنك، قال: ففداه بمئة ناقة، قال: فهو الذبيح، وإسماعيل الثاني، وسكت عليه الحاكم، لكن تعقبه الذهبي بقوله: قلت: إسناده واه، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٨) بعد أن ذكره من هذا الوجه من رواية ابن جرير:

وهذا حديث غريب جدا.

وأما ما في الكشف نقلا عن شرح الزرقاني على المواهب: والحديث حسن بل صححه الحاكم والذهبي لتقويه بتعدد طرقه، فوهم فاحش، فإنما قال الزرقاني: هذا في حديث " الذبيح إسحاق " وفيه مع ذلك نظر كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. ثم إن صاحب الكشف عقب على ما سبق بقوله: وأقول: فحينئذ لا ينافيه ما نقله الحلبي في سيرته عن السيوطي أن هذا الحديث غريب وفي إسناده من لا يعرف. قلت: وقد عرفت أن الطرق المشار إليها في كلام الزرقاني ليست لهذا الحديث، فقد اتفق قول الذهبي والسيوطي على تضعيفه.

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (١/ ٧٨): كم عدد الأنبياء والرسل وعن الفرق ما بينهم؟.

فأجاب: لم يثبت في عددهم حديث صحيح، لم يثبت في عدد الرسل والأنبياء حديث صحيح، ويروى أن الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر، والأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، ولكن الحديث ليس بثابت، بل هو ضعيف، لكن الأنبياء كثيرون، والرسل أخص وأقل، والرسول هو الذي يوحى إليه ويؤمر بالبلاغ، يرسل للأمة يبلغها، والنبي هو الذي يوحى إليه في نفسه، لكن لا يؤمر بتبليغ الناس، هذا أحد التعريفين، والتعريف الثاني للعلماء: أن الرسول هو الذي يبعث إلى الأمة مستقلا، والنبي هو الذي يبعث تابعا لغيره، كأنبياء بني إسرائيل بعد موسى تابعين له، والصواب في هذا أن الأمر واسع، النبي يسمى رسولا، والرسول يسمى نبيا حتى النبي يسمى رسولا، قال الله جل وعلا: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى}.

سمى كليهما رسولا، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى

أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} (٢). الآية من سورة الحج فسماهم جميعا رسلا، فالنبي يسمى رسولا، والرسول الذي يبلغ الناس يسمى رسولا؛ لأن النبي الذي أوحي إليه قد أرسل إلى نفسه، لكن ما أمر أن يبلغ الناس، فقد أرسل إلى نفسه يأمرها وينهاها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٨٠): من هو أول الأنبياء إدريس أم نوح عليهم السلام؟ (١).

فأجاب: أول الأنبياء بعدما وقع الشرك نوح، بعد ما وقع في الأمة، وأما قبل ذلك فهو آدم، هو أول الرسل وأول الأنبياء، آدم أبونا عليه الصلاة والسلام، وهو أول رسول وأول نبي، وكانت ذريته على الإسلام، عشرة قرون، ثم وقع الشرك في قوم نوح، فأرسل الله عليهم نوحا فصار نوح أول الرسل بعد وقوع الشرك.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٨٠): إذا كان هناك فرق بين النبي والرسول، فمن هو أول رسول بعث؟ وما هو الفرق بين النبي والرسول جزاكم الله خيرا؟.

فأجاب: المشهور عند العلماء أن النبي هو الذي يوحى إليه بشرع، لكن لا يؤمر بتبليغه بل هو وحي لنفسه، يعني أمر في نفسه بالعمل، فهذا يقال له: نبي، فإذا أمر بتبليغ الناس، يقال له: نبي رسول، قال آخرون من أهل العلم: إن النبي هو الذي يكون مبعوثا بشريعة سبقه إليها نبي مثله، كالأنبياء بعد موسى الذين يحكمون بالتوراة، فيقال لهم أنبياء ورسل، أما الرسول المستقل كموسى ونوح وهود، فهؤلاء يقال لهم رسل وهم أنبياء أيضا.

وبكل حال فالأمر في هذا واسع، والأقرب أن الرسول يسمى نبيا، والنبي

يسمى رسولا؛ ولهذا قال جل وعلا: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} (١). فالنبي يسمى رسولا؛ لأنه أوحي إليه بشرع، وإن كان لنفسه، وإذا أمر بالتبليغ صار رسولا لنفسه ولغيره، فالأمر في هذا واسع.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٨٧): هل صحيح أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ نزل في سيريلانكا، وخاصة في منطقة سرندبب، هل هذا صحيح أم لا؟ (١).

فأجاب: لا أصل لهذا ولا أساس لهذا، لا تعرف صحته ولا أصل له. فلا يعرف قبره ولا في أين نزل، ولا في أي بقعة أين دفن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، المقصود أن قبر آدم لا يعرف في أي بقعة من الأرض.

مسألة: قال العلامة الألباني في الصحيحة (٦/ ١/ ٣٥٨، ٣٦٤ - ٣٦٩): قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كان آدم نبيًا مكلمًا، كان بينه وبين نوح عشرة قرون، وكانت الرسل ثلاثمائة وخمسة عشر».

اعلم أن الحديث وما ذكرنا من الأحاديث الأخرى، مما يدل على المغايرة بين الرسول والنبي، وذلك مما دل عليه القرآن أيضًا في قوله عَزَّ وَجَلَّ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ... } [الحج:٥٢] الآية.

وعلى ذلك جرى عامة المفسرين، من ابن جرير الطبري الإمام، إلى خاتمة المحققين الآلوسي، وهو ما جزم به شيخ الإسلام ابن تيمية في غير ما موضع من فتاويه (المجموع١٠/ ٢٩٠ و١٨/ ٧) أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا.

وقال القرطبي في "تفسيره" (١٢/ ٨٠): "قال المهدوي: وهذا هو الصحيح

أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا.

وكذا ذكر القاضي عياض في كتاب "الشفا"، قال: والصحيح الذي عليه الجم الغفير أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا واحتج بحديث أبي ذر ...

قلت: ويؤكد المغايرة في الآية ما رواه أبو بكر الأنباري في كتاب " الرد" له بإسناده عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قرأ: [وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث]. وقال أبو بكر: فهذا حديث لا يؤخذ به على أن ذلك قرآن، والمحدث هو الذي يوحى إليه في نومه؛ لأن رؤيا الأنبياء وحي.

قلت: فإن صح ذلك عن ابن عباس فهو مما يؤكد ما ذكرنا من المغايرة، وإن كان لا يثبت به قرآن، ويؤيده أن المغايرة هذه رويت عن تلميذه مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد ذكر السيوطي في " الدر " (٤/ ٣٦٦) برواية ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: "النبي وحده الذي يكلم وينزل عليه، ولا يرسل". فهذا نص من هذا الإمام في التفسير، يؤيد ما تتابع عليه العلماء من القول بالمغايرة، الموافق لظاهر القرآن وصريح السنة.

وكان الدافع على تحرير هذا أنني رأيت مجموعة رسائل لأحد فضلاء العصر الحاضر، فيها رسالة بعنوان: "إتحاف الأحفياء برسالة الأنبياء " ذهب فيها إلى عدم التفريق بين الرسول والنبي.

وبحثه فيها يدل المحقق المطلع على بحوث العلماء وأقوالهم، على أن المؤلف لها حفظه الله ارتجلها ارتجالًا دون أن يتعب نفسه بالبحث عن أقوال العلماء في المسألة، وإلا فكيف جاز له أن يقول (ج ١/ ٤٢٩):

١ - " وأسبق من رأينا تكلم بهذا التفريق هو العلامة ابن كثير ... "! وقد سبقه إلى ذلك مجاهد، التابعي الجليل (ت ١٠٤) وشيخ المفسرين ابن جرير

(ت ٣١٠) والبغوي (ت ٥١٦) والقرطبي (ت ٦٧١) والزمخشري (ت ٥٣٨)، وغيرهم ممن أشرت إليهم آنفًا.

٢- كيف يقول (ص ٤٣١): "إن ابن تيمية لم يذكر التفريق المشار إليه في كتابه (النبوات) "! وليس من اللازم أن يذكر المؤلف كل ما يعلمه في الموضوع في كتاب واحد، فقد ذكر ذلك ابن تيمية في غير ما موضع من فتاواه، فلو أنه راجع " مجموع الفتاوى " له لوجد ذلك في (١٠/ ٢٩٠ و١٨/ ٧).

ومن ذلك تعلم بطلان قوله عقب ذلك: "فهذه الغلطة في التفريق بين الرسول والنبي يظهر أنها إنما دخلت على الناس من طريق حديث موضوع رواه ابن مردويه عن أبي ذر، وهو حديث طويل جدا لا يحتمل أبو ذر حفظه مع طوله .. "!

أقول: ليس العمدة في التفريق المذكور على هذا الحديث الطويل الذي زعم أن أبا ذر لا يتحمل حفظه كما شرحت ذلك في هذا التخريج الفريد في بابه فيما أظن، وتالله إن هذا الزعم لبدعة في علم الجرح والتعديل ما سُبِقَ - والحمد لله - من أحد إلى مثلها! وإلا لزمه رد أحاديث كثيرة طويلة صحيحة ثابتة في الصحيحين وغيرهما، كحديث صلح الحديبية، وحديث الدجال والجساسة، وحديث عائشة: "كنت لك كأبي زرع لأم زرع "، وغيرها. ولعله لا يلتزم ذلك إن شاء الله تعالى وتقليده لابن الجوزي في حكمه على الحديث بالوضع مردود، لأن التقليد ليس بعلم، كما لا يخفى على مثله، ثم لماذا آثر تقليده على تقليد الذين ردوا عليه حكمه عليه بالوضع؟ كالحافظ العسقلاني والمحقق الآلوسي وغيرهما ممن سبقت الإشارة إلى كلامهم، لاسيما وهو يعلم تشدد ابن الجوزي في نقده للأحاديث، كما يعلم إن شاء الله أن نقده لو سلم به، خاص في

بعض طرق الحديث التي خرجتها هنا.

ومن غرائبه أنه ذكر آية الأمنية: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى} وأن الواو تفيد المغايرة، ثم رد ذلك بقوله: "والجواب أن مثل هذا يقع كثيرًا في القرآن وفي السنة يعطف بالشيء على الشيء، ويراد بالتالي نفس الأول كما في قوله: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، فغاير بينهما بحرف العطف، ومعلوم أن المسلمين هم المؤمنون، والمؤمنين هم المسلمون".

فأقول: هذا غير معلوم، بل العكس هو الصواب، كما شرح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه، وبخاصة منها كتابه "الإيمان"، ولذلك قال في "مختصر الفتاوى المصرية" (ص٥٨٦): "الذي عليه جمهور سلف المسلمين: أن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، فالمؤمن أفضل من المسلم، قال تعالى ٤٩: ١٤: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا}. فالآية كما ترى حجة عليه، ويؤيد ذلك تمامها: {وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ... } الآية: فإن من الظاهر بداهة أنه ليس كل مسلم قانتا! ثم ذكر آية أخرى لا تصلح أيضا دليلا له، وهي قوله تعالى: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ...}، قال: فعطف بجبريل وميكال على الملائكة وهما منهم".

أقول: نعم، ولكن هذا ليس من باب عطف الشيء على الشيء ويراد بالتالي نفس الأول كما هو دعواه، وإنما هذا من باب عطف الخاص على العام. وهذا مما لا خلاف فيه، ولكنه ليس موضع البحث كما هو ظاهر للفقيه. نعم إن ما ذهب إليه المومى إليه في الرسالة السابقة من إنكار ما جاء في بعض كتب الكلام في تعريف النبي أنه من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، فهو مما أصاب فيه

كبد الحقيقة، ولطالما أنكرناه في مجالسنا ودروسنا، لأن ذلك يستلزم جواز كتمان العلم مما لا يليق بالعلماء، بله الأنبياء، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُون} .

ولعل المشار إليه توهم أن هذا المنكر إنما تفرع من القول بالتفريق بين الرسول والنبي، فبادر إلى إنكار الأصل ليسقط معه الفرع، كما فعل بعض الفرق قديمًا حين بادروا إلى إنكار القدر الإلهي إبطالا للجبر، وبعض العلماء في العصر الحاضر إلى إنكار عقيدة نزول عيسى وخروج المهدي عليهما السلام، إنكارًا لتواكل جمهور من المسلمين عليها. وكل ذلك خطأ، وإن كانوا أرادوا الإصلاح، فإن ذلك لا يكون ولن يكون بإنكار الحق الذي قامت عليه الأدلة. ولو أن الكاتب المشار إليه توسع في دراسة هذه المسألة قبل أن يسود رسالته، لوجد فيها أقوالًا أخرى استوعبها العلامة الآلوسي (٥/ ٤٤٩)، ولكان بإمكانه أن يختار منها ما لا نكارة فيه، كمثل قول الزمخشري (٣/ ٣٧): "والفرق بينهما، أن الرسول من الأنبياء: من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه. والنبي غير الرسول: من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله".

ومثله قول البيضاوي في "تفسيره" (٤/ ٥٧): "الرسول: من بعثه الله بشريعة مجددة يدعو الناس إليها، والنبي يعمه، ومن بعثه لتقرير شرع سابق، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام، ولذلك شبه النبي – صلى الله عليه وآله وسلم– علماء أمته بهم". يشير إلى حديث " علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل " ولكنه حديث لا أصل له، كما نص على ذلك الحافظ

العسقلاني والسخاوي وغيرهما.

ثم إنهم قد أوردوا على تعريفه المذكور اعتراضات يتلخص منها أن الصواب حذف لفظة " مجددة " منه، ومثله لفظة " الكتاب " في تعريف الزمخشري، لأن إسماعيل عليه السلام، لم يكن له كتاب ولا شريعة مجددة، بل كان على شريعة إبراهيم عليهما السلام، وقد وصفه الله عز وجل في القرآن بقوله: {إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا}.

ويبقى تعريف النبي بمن بعث لتقرير شرع سابق، والرسول من بعثه الله بشريعة يدعو الناس إليها، سواء كانت جديدة أو متقدمة. والله أعلم.

وقال رحمه الله في الضعيفة (١٣/ ٢٠٢، ٢٠٥): روي عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «بُعِثْتُ على أَثَرِ ثمانيةِ آلافٍ من الأنبياءِ؛ منهم أربعةُ آلافِ نبيٍّ من بني إسرائيلَ». (ضعيف).

وقد روي في حَدِيثِ أبي ذر الطويل: أن عدد الأنبياء مائة ألف وعشرون ألفًا!

أخرجه ابن حبان في "صحيحه" بطوله (رقم ٩٤)، وفيه إبراهيم بن هشام الغَسَّاني وهو متروك؛ متهم بالكذب، وعزاه الحافظ (٦/ ٣٦١) لـ"صحيحه "وسكت!

وروي بإسناد آخر ضعيف من حديث أبي أمامة مرفوعًا بلفظ:" وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر؛ جمًا غفيرًا".

أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥ - ٢٦٦)، والطبراني في "الكبير" (٨/ ٢٥٨/ ٧٨٧١)، وفيه علي بن يزيد الألهاني؛ ضعيف.

لكن عدد الرسل صحيح؛ جاء من طريق أخرى عن أبي أمامة بسند صحيح،

وعدد الأنبياء صحيح لغيره، وقد حققت ذلك كله في "الصحيحة" (٢٦٦٨).

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في موسوعته العقدية (٨/ ١٤٧): هل الرسل يأتون صغائر الذنوب؟

الجواب: أنا أعتقد قبل الإجابة مباشرة عن هذا السؤال، بأنه سؤال كما يقال اليوم غير ذي موضوع؛ لأن الأمر لا يتعلق بمنهج لنا وبإصلاح عقائدنا وأعمالنا، وإنما هو أمر يتعلق بمن تقدم النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من الأنبياء والرسل، فما أجد أن مثل هذا السؤال ينبغي الاهتمام بتوجيهه، ولكن لا بد من الإجابة عنه حتى نبين ما عندنا من علم في هذه المسألة.

نحن نعتقد أن العصمة المقطوع بها للأنبياء والرسل إنما هي أولًا العصمة في تبليغ الدعوة، وثانيًا: العصمة عن الوقوع في الذنوب الكبائر وهم يعلمونها، أما أن يقعوا في صغيرة من الصغائر التي لا يترتب من ورائها إلا انتفاء الكمال المطلق؛ فهذا لا بأس من أن يقع شيء من ذلك من الأنبياء والرسل، وذلك ليبقى مستقرًا في قلوب المؤمنين أن الكمال المطلق لله رب العالمين وحده لا شريك له.

والقرآن في إثبات هذه الحقيقة فيه الكثير من النصوص والأدلة في غير ما نبي أو رسول، فقصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في نهي رب العالمين إياه عن أكل الشجر، وقول رب العالمين: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} [طه:١٢١] وقول القرآن الكريم بالنسبة لنبينا عَلَيْهِ السَّلَامُ: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} [عبس:١] .. {عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ} [التوبة:٤٣]، هذا كله يدل على أن النبي ممكن أن يتعرض لما لا يليق بمقام نبوته من هذه الصغائر، لكن هل هذا يعيبهم؟

الجواب: لا؛ لأن هذه مقتضى البشرية.

كما نقول: هل يعيب النبي والرسول أن يتعرض لما يتعرض له الناس عامة من مثل السهو والنسيان؟

نقول: لا، لا مانع من أن يتعرض أحد من الرسل والأنبياء لمثل هذا؛ لأنه لا يمس مقام الدعوة التي أرسل بها إلى الناس كافة.

فقوله عليه السلام فيما أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حينما صلى بهم صلاة الظهر خمس ركعات، فلما سلم قالوا له: «صليت خمسًا. فسجد سجدتي السهو، ثم قال عليه السلام: إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني».

فلا يضر مقام النبوة ولا الرسالة أن يقع منهم مما الأكمل أن لا يقع، لكن الكمال المطلق لله عز وجل، الأكمل أن لا ينسى الرسول عليه السلام، لكن حكمة الله عز وجل اقتضت أن ينسى الرسول لكن هذا النسيان لا يمس الدعوة؛ لأنه لا ينسى ما يتعلق بالدعوة، ولذلك يشير ربنا عز وجل إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: {سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ} (الأعلى:٦، ٧) من أن تنسى آية قد بلغتها الناس، أي: أديت الرسالة وبلغت الأمانة، فممكن أن يعرض للرسول عليه السلام بعد هذا التبليغ الواجب عليه أن ينسى شيئًا مما بلغهم كما جاء في صحيح البخاري أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- دخل المسجد يومًا فسمع رجلًا يتلو القرآن فقال: «رحم الله فلانًا، لقد ذكرني آية كنت أنسيتها» فنسيان الرسول عليه السلام لمثل هذه الآية لا يضره فيما يتعلق بدعوته؛ لأنه قد بلغها، ولذلك استطاع ذلك الرجل أن يقرأها، فلما قرأها الرجل تذكرها الرسول عليه السلام، فمثل هذا النسيان لا يضره.

كذلك وقوع بعض الأنبياء والرسل في شيء من الصغائر لا يضرهم؛ لأنه لا ينفر المدعوين عن دعوته بخلاف وقوعهم في الكبائر، ولذلك فهم منزهون عنها دون الصغائر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٨/ ١٥٤): فضيلة الشيخ حفظك الله ذكرتم في أحد مؤلفاتكم حديث أن الأنبياء يصلون في قبورهم أرجو توضيح ذلك وجزاكم الله خيرًا.

الشيخ: هذا الحديث من أنباء الغيب التي لا يجوز للمسلم أن يُعمل عقله فيها بل من الواجب عليه أن يسلم بها تسليمًا، وهذا الحديث وإن كان وقع فيه خلاف من بعض العلماء علماء الحديث تصحيحًا وتضعيفًا فالراجح عندي أنه صحيح ومذكور في "سلسلة الأحاديث صحيحة" ومخرج تخريجًا علميًا، لكن إن كان يشك بعضهم في صحة هذا الحديث فهناك حديث لا شك في صحته؛ لأن الإمام مسلمًا قد أخرجه في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «مررت ليلة أسري بي بموسى قائمًا يصلي في قبره» فإذًا صلاة الأنبياء في قبورهم عقيدة صحيحة يجب على المسلم أن يؤمن بها لكن لا يتوسع في محاولة تكييف هذه الصلاة فلا يقول مثلًا: كيف يصلي موسى في قبره والقبر لا يتسع لقيام موسى في القبر؟ لأننا نقول عالم الغيب لا يقاس على عالم الشهادة .. عالم البرزخ لا يقاس على عالم الآخرة فلكل طبائعه وخواصه، فإذا أخبرنا الصادق المصدوق أنه رأى موسى عليه الصلاة والسلام قائمًا يصلي في قبره صدقناه وآمنا به ووكلنا معرفة حقيقة هذه الصلاة إلى الله تبارك وتعالى.

وعلى هذا الميزان قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون» فليست هذه الحياة بالحياة المادية بحيث أننا إذا خاطبناهم يردون علينا ويسمعون كلامنا كما كانوا يسمعون كلام الناس في الدنيا حينما كانوا أحياء لا نتوسع في مثل هذه التفاصيل؛ لأنه كما قلت آنفًا عالم الغيب لا يقاس على عالم

الشهادة على عالم المادة.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في الضعيفة (١/ ٤٨٣ - ٤٨٥): روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «كان خطيئة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ النظر». (موضوع)

قال ابن الصلاح في " مشكل الوسيط ": لا أصل لهذا الحديث.

وقال الزركشي في " تخريج أحاديث الشرح ": هذا حديث منكر، فيه ضعفاء، ومجاهيل، وانقطاع، قال: وقد استدل على بطلانه بقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: "إني أراكم من وراء ظهري "، كذا في " ذيل الأحاديث الموضوعة " للسيوطي (ص ١٢٢ - ١٢٣) و"تنزيه الشريعة " لابن عراق (٣٠٨/ ١ - ٢).

قلت: والاستدلال المذكور فيه نظر، لأن رؤية النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من خلفه إنما هي في حالة الصلاة كما تدل عليه الأحاديث الواردة في الباب، وليس هناك ما يدل على أنها مطلقة في الصلاة وخارجها، فتأمل ... وقصة افتتان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بنظره إلى امرأة الجندي أو ريا مشهورة مبثوثة في كتب قصص الأنبياء وبعض كتب التفسير، ولا يشك مسلم عاقل في بطلانها لما فيها من نسبة ما لا يليق بمقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل محاولته تعريض زوجها للقتل، ليتزوجها من بعده! وقد رويت هذه القصة مختصرة عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- فوجب ذكرها والتحذير منها وبيان بطلانها وهي:

«إن داود النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ حين نظر إلى المرأة فهم بها قطع على بني إسرائيل بعثًا وأوحى إلى صاحب البعث فقال: إذا حضر العدو فقرب فلانًا، وسماه، قال: فقربه بين يدي التابوت، قال: وكان ذلك التابوت في ذلك الزمان يستنصر به، فمن قدم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش الذي

يقاتله، فقتل زوج المرأة، ونزل الملكان على داود فقصا عليه القصة» باطل.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في موسوعته العقدية (٨/ ١٩٢): ما مدى صحة تعبير: "قبض على خاتم سليمان"

الشيخ: «قبض على خاتم سليمان» تعبير خطأ.

مداخلة: نعم.

الشيخ: تعبير خطأ يشير إلى خرافة راسخة في أذهان الناس ... لأن عامة الناس يعتقدوا أن مُلك سليمان كان في خاتمه.

مداخلة: مشهور جدًا هذا بين الناس على كل طبقاتهم.

الشيخ: آه، وبناءً على ذلك تروى الخرافة المعروفة وهي: {وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ} (ص:٣٤).

ألقينا على كرسيه جسدًا، هي الآية تتعلق بالحديث الصحيح، قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لأطوفن الليلة على مائة امرأة تأتي كل امرأة منها بفارس أو ولد يقاتل في سبيل الله، فقيل له: قل إن شاء الله. فنسي ولم يقل، فلم تأت امرأة منهن إلا بشق ولد».

هذا الشق الولد ألقي على كرسي السلطان الدنيا، كلها في ملكه، هذا التفسير الصحيح، فسروا هذه الآية بقصة خبيثة جدًا وهي: أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يصطاد يومًا السمك على ساحل البحر فسقط الخاتم منه فالتقطته سمكة، أخذ الخاتم من السمكة شيطان من شياطين الجن فوضعه في أصبعه فخضع ملك سليمان له وهو صار غريبًا عن ملكه، وجلس الشيطان على كرسي سيلمان يحكم بين الناس كما يشتهي ويشاء، وصار يدخل على نساء سليمان بصورة سليمان.

هنا يبدأ الخُبْث الذي لا خُبث بعده بالنسبة للأنبياء، واستمر برهة من الدهر

وهو هكذا يظن الناس أنه سليمان حتى نساؤه، وأنه يأتي نساءه حتى استنكرت إحداهن من أمره، لما سئلن قلن: والله نحن نستغرب أنه يأتينا في حالة الحيض، فثاروا عليه حينئذ المجلس الذي كان يحكمهم سليمان عليه السلام. إي نعم.

لا، أنا لبعد العهد يمكن ما حكيت القصة من عشرين سنة، خلطت شوية ولا مؤاخذة، سليمان دخل يتوضأ فخلع ماذا؟

مداخلة: الخاتم.

الشيخ: الخاتم، فجاء الشيطان سرقه وماذا؟ وتسلط كما قلنا على الملك، إي نعم. فلما يعني طرد الشيطان بعد أن انكشف حاله التقطته السمكة فهو اصطادها وإذا بها لما يشقها يجد فيها الخاتم فيضعه في خاتمه فيعود السلطان إليه، سخافة، مع سخافتها فيها النكارة الشديدة هذه.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٨/ ١٩٤): السائل: يا شيخ هل تجوز الصلاة خلف إمام يستغيث بالرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- كوسيلة.

الشيخ: عليه الصلاة والسلام.

مداخلة: عليه الصلاة والسلام.

وهل يجوز كذلك الأمر أنه يستبيح لنفسه أنه يميل إلى الحكم الذي يقول فيه: إنه عيسى عليه السلام لم يُرفع جسديًا إلى السماء، بل رفع مقدارًا، وكذلك الأمر يستبيح لنفسه بالقول أنه يقرأ على اللوح المحفوظ في المنام رؤيةً، هل تجيز الصلاة خلفه؟

الشيخ: تجوز الصلاة خلفه ما دمت أو دمنا نحكم بإسلامه، فإذا أخرجناه من دائرة الإسلام فحينئذ لا تجوز الصلاة.

فأنت في حدود معرفتك بالشرع أولًا، ومعرفتك بالشخص ثانيًا: هو لا يزال

في دائرة الإسلام ولَّا ارتد عن الإسلام؟

لا زال في دائرة الإسلام ... ورجع وقال لي: لا تخبر شيوخك بالذي أنا قلته إياك، ...، بالطبع خضع في القول عاود من جديد، كان في الأول موقفه حازم وبعدين رجع يحكي لي: لا تخبر شيوخك بالذي حصل حتى لا يكفروني أو يفهموني خطأ، أنا برائي رؤية في المنام شيء حصل معاي.

الشيخ: معليش هذه جزء مما ذكرت، ...

مداخلة: أنا أحكي الرؤية في المنام.

أما هو يميل إلى أنه عيسى عليه السلام لم يرفع نبيًا إلى السماء، بل رفع مقدارًا، إني رافعك.

الشيخ: نعم.

الشيخ: المهم يا أخي خذ القاعدة واسترح: كل إنسان أصله مسلم، ثم ارتكب مخالفة شرعية، هذه المخالفة تخرجه من دائرة الإسلام والمسلمين، ولا تصح الصلاة خلفه، ولكن يجب أن نعلم أنه ليس كل مسلم وقع في الكفر وقع الكفر عليه، عرفت كيف؟ ليس كل من وقع في الكفر، وقع الكفر عليه وتلبسه الكفر وأحاط به بحيث أنه خرج من دائرة الإسلام.

فهذه هي القاعدة وتطبيق هذه القاعدة لا يستطيع عامة الناس أن يطبقوها على أي إنسان، وإنما هذا يحتاج إلى علماء عارفين بالكتاب والسنة، ويكون عنده شيء من الروية والتؤدة والتأني بحيث أنه ما في عنده الإفراط والتفريط، ما عنده أن كل المسلمين كما يقولون على خير، ولا أنه من قال كذا فقد كفر وارتد عن الدين بدون ما يعرف أحواله، هل هو معذور هل هو جاهل، هل هو عالم إلى آخره.

ولذلك فأنا أقول لعامة المسلمين من أمثالك: أنه هذا الذي أنت تسأل عنه في حدود معرفتك أنت مسلم ولَّا كافر؟ لا والله مسلم إذًا: الصلاة جائزة، لا والله هذا ليس مسلمًا عندي، أقول لك حينئذ: أنت احتياطًا لا تصلي وراءه، لكن معناها من جهة أخرى: لازم تحتاط ما تبادر إلى تكفيره، ستكون أنت مخطئ في تكفيره؛ لأنك لست من أهل العلم عرفت كيف؟ فإذا غلب على ظنك أنه هذا كَفَرَ، لا تصلي وراءه وتصلي خلف إمام لا تشك في إسلامه وإيمانه. لكن لا تقطع بكفره ما دمت لست من أهل العلم.

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في فتاوى نور على الدرب: أرجو أن تبينوا لنا مشكورين حقيقة الأمر في مسألة عصمة الرسول الكريم ﷺ، حيث يلتبس الأمر على كثير من الناس في هذا الشأن، كثيرًا ما نسمع ما يمكن أن يفهم منه أن الرسول ﷺ كان معصومًا من الخطأ، كما يفهم من عموم قوله تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى). ولكن نرى في بعض ما ورد عنه ﷺ أنه كان يصيب ويخطئ في بعض الأمور، كالسهو في الصلاة مثلًا. فما حقيقة أمر العصمة للرسول ﷺ؟ وما هي الجوانب التي عصم منها من الخطأ تحديدًا والجوانب التي لم يعصم من الخطأ مشكورين؟.

فأجاب: فإني أسأل هذا السائل: هل يؤمن بأن محمدًا رسول الله على كل حال؟ هو يؤمن بهذا لا شك إن شاء الله، إذا كان يؤمن بمحمد رسول الله ﷺ أنه رسول الله فكفى، وما وقع منه فإنه لا ينافي الرسالة، فالسهو وقع منه في الصلاة، ولكنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون). وعدم العلم وقع منه عليه الصلاة والسلام، فقد (صلى ذات يوم بأصحابه وعليه نعلاه، وفي أثناء الصلاة خلع النعلين، فخلع المسلمون نعالهم،

فلما سلم سألهم: لماذا؟ قالوا: يا رسول الله رأيناك خلعت نعليك فخلعنا نعالنا. فقال: إن جبريل أتاني وأخبرني أن فيهما قذرًا فخلعتهما). فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلى في نعليه ولم يعلم أن فيهما قذرًا، وهذا أيضًا من طبيعة البشر أن الإنسان جاهل، هذا الأصل في الإنسان، كما قال الله ﷻ: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ). نبي الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد يجتهد في أفعاله ولا يكون اجتهاده مصيبًا، لكنه حين فعله للشيء الذي صدر منه عن اجتهاد هو مصيب، كما في قول الله تعالى: (عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى. أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى. أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى. فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى. وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى. وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى. وَهُوَ يَخْشَى. فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى. كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ). فهذا وقع اجتهادًا من النبي ﷺ أن ينصرف إلى هؤلاء الكبراء الذين جاؤوا إليه من قريش، يرجو إسلامهم وينتفع بإسلامهم قومهم والمسلمون جميعًا. ومثل قول الله تعالى: (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ). فاجتهد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعفا عنهم؛ لمحبته ﷺ للعفو، وأخذ الناس بظواهرهم، وهو حين عفا عنهم مصيب، لكن بين الله ﷻ له أن الحكمة هي الانتظار، وهذا لا يخدش بالرسالة، النسيان من طبيعة الإنسان، وعدم العلم هو أصل الإنسان أنه لا يعلم حين وقع من الرسول ﷺ مثل هذا فإنه والله لا يخدش بالرسالة وأما قوله تعالى (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) فالمعنى: أنه ﷺ لا ينطق نطقًا صادرًا عن هوى، وإنما نطقه إما عن وحي من الله وإما عن اجتهاد، فليس كغيره ممن ينطق عن الهوى ويتكلم بما يهوى، سواء كان الحق أو غير الحق. وإني أنصح هذا السائل وغيره ألا يتعمقوا

في مثل هذه الأمور فيلقي الشيطان في قلوبهم شرًّا، فالإنسان غير آمن من الشيطان، أليس النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذات ليلة وهو معتكف قام يقلب صفية رضي الله عنها، حين جلست عنده ساعة من الليل في معتكفه، فقام يقلبها عليه الصلاة والسلام -أي: يمشي معها- فأبصر به رجلان من الأنصار فأسرعا، أسرعا خوفًا وخجلًا من النبي صلى الله عليه وسلم وحياء، فقال: (عليرسلكما إنها صفية). فقالا: سبحان الله! قال: (نعم، إني خشيت أن يقذف الشيطان في قلوبكما شيئًا- أو قال: شرًّا-). فانظر إلى هذا: خاف أن يلقي الشيطان في قلوبهما ما لا يليق بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهما من الصحابة، فالبحث في هذه الأمور والتعمق فيها قد يكون خطرًا على الإنسان وهو لا يشعر، وأنا أشكر السائل حيث سأل ليتبين له الأمر، لكني أقول: إن الأولى بالإنسان أن يدع البحث في هذه الأمور، وأن يقول: محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهو أبعد الناس أن يقول عن هوى أو أن يحكم بالهوى، بل هو الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام. ثم إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من كل ما يخل بالإخلاص لله عز وجل، فلم يقع منهم الشرك، معصومون عن كل ما يخل بالمروءة والخلق، فلم يقع منهم ما ينافي ذلك، وأما بعض الذنوب فيقع منهم، لكن من خصائصهم أنهم معصومون من الاستمرار فيها وعدم التوبة، وإذا تاب الإنسان من الذنب فكمن لا ذنب له، بل قد تكون حاله بعد التوبة من الذنب أكمل من حاله قبل أن يفعل الذنب. وبهذه المناسبة أود أن أبين أن ما ذكر في الإسرائيليات عن داود عليه الصلاة والسلام في قصة الخصمين اللذين اختصما عنده وقال أحدهما: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ).

في بعض الإسرائيليات أن داود عليه الصلاة والسلام كان له أحد الجنود، وكان عند هذا الجندي امرأة أعجبت داود وأرادها، فطلب من هذا الجندي أن يذهب للجهاد لعله يقتل فيأخذ زوجته، هذه قصة كذب ولا يجوز لأحد أن ينقلها إلا إذا بين أنها كذب، ولا يجوز اعتقادها في نبي من أنبياء الله، هذه لا تليق ولا من عامي من الناس فكيف بنبي؟ ولا أستبعد أن هذه من دسائس اليهود التي دسوها على المسلمين ليفسدوا بذلك دينهم. والقضية هي أن هذا الرجل مع خصمه عنده نعجة واحدة، أي: أنثى من الضأن، وكان أخوه -أي: خصمه- عنده تسع وتسعون، فقال له: أنت ليس عندك إلا واحدة لا تغني شيئًا، وأنا عندي تسع وتسعون، باقٍ واحدة وتكتمل المائة، والإنسان ينظر إلى تكميل العدد، فطلب منه هذه الواحدة، وجعل يورد عليه الحجج حتى غلبه في الحجج، فاختصما إلى داود. فإذا قال قائل: ما تقول في قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾؟ فالجواب سهل: داود عليه السلام جعله الله خليفة في الأرض يحكم بين الناس، وكونه يدخل محرابه -أي: متعبده- ثم يغلق الباب خلاف لما كلف به، وهو مجتهد في ذلك لا شك، ثم إنه حكم على الخصم قبل أن يسمع حجة الآخر المحكوم عليه، فلما قال الخصم: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ الخ. فحكم قبل أن يسمع حجة الخصم، ولعله من أجل أن يسرع التفرغ للعبادة، فلما جاءت هذه القصة وأخذ بقول الخصم وكان قد أغلق الباب ظن داود عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى أرسل هذين الخصمين اختبارًا له ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾. فإن قال قائل: ما تقولون في قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لهند حين شكت زوجها أبا سفيان أنه رجل

شحيح لا يعطيها وولدها ما يكفيهم، فقال: (خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف) فحكم لها؟ فالجواب: أن حكم النبي ﷺ فتيا وليست قضاء بين خصمين؛ لأن خصمها لم يحضر، فهو أفتاها على صورة القضية بدون محاكمة ومخاصمة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: يوجد في مدينة الكوفة مسجد يقال: إن جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام قد زاروا هذا المسجد، ولكل نبي فيه محراب ودعاء مكتوب على المحراب، والناس يزورون هذا المسجد بكثرة ويتنقلون بين محاريبه، ويدعون عند كل محراب بما كتب عليه من الدعاء بعدد الركعات التي يريد الزائر أن يصليها. فهل هذا صحيح؟ وهل زيارة هذا المسجد لهذا الغرض جائزة أم لا؟.

فأجاب: هذا باطل قطعًا، فإن سيد الأنبياء والمرسلين محمدًا ﷺ لم يزره بلا ريب، وكذلك الأنبياء قبله لا يمكن أن يكونوا قد زاروه؛ لأنه لو قصد بالأنبياء الأنبياء الذين لم يرسلوا فإنهم أربعة وعشرون ألفًا، وإن قصد الرسل فهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا، وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا قد زاروا هذا المسجد، وإنما هذا من التزوير الذي يقصد به أكل المال بالباطل وصد الناس عن سبيل الله. والذهاب إلى هذا المسجد بهذه النية محرم ولا يجوز، والواجب على المسلمين أن يتحققوا في هذه الأمور، وأن ينصحوا من مارس القيام بتعظيمها واحترامها، وليس هناك مساجد تشد الرحال إليها إلا ثلاثة: المسجد الحرام، ومسجد النبي ﷺ، والمسجد الأقصى. وماعدا ذلك من المشاهد أو المساجد فإنه لا يجوز أن تشد إليها الرحال مطلقًا في أي حال من الأحوال، ثم إن غالب هذه الأمور تكون كذبًا مزوّرة، والمؤمن العاقل يعرف أن هذا من

التزوير بأول نظرة.

فضيلة الشيخ: لكن ما حكم الصلاة فيه؟

فأجاب رحمه الله تعالى: قلت في الجواب: إنه لا يجوز قصده للصلاة فيه، وإنه حرام وأما الصلاة فيه كبقعة، مثل: أن يمر به الإنسان مرورًا عابرًا فيصلى فيه، فإنه لا بأس به.

فضيلة الشيخ: يعني: دون أن يعتقد فيه شيئًا؟

فأجاب رحمه الله تعالى: دون أن يعتقد ما ذكره السائل؛ لعموم قول النبي ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا). إلا أن يخشى أن يفتتن أحد بصلاته فيه، فإنه يتجنبه ويتقدم عنه، ويصلى في مكان آخر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: إن سيدنا محمدًا ﷺ جاءه ملك وفتح صدره وملأه نورًا، فما مدى صحة هذا الكلام؟.

فأجاب: هذا الكلام صحيح، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام حين عرج به جاءه جبريل فشق ما بين نحره إلى أسفل بطنه، واستخرج قلبه فملأه حكمة وإيمانًا وليس نورًا، ولكن ملأه حكمة وإيمانًا، والإيمان والحكمة من النور المعنوي.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: سمعت من بعض الإخوة يقول بأن محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم خلق من نور، وأن آدم خلق من نور محمد، فهل هذا القول صحيح؟.

فأجاب: هذا القول من أبطل الباطل، وهو كذب مخالف لقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) .ولقوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي

قَرَارٍ مَكِينٍ). والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من بني آدم، وهو سيد ولد آدم، وهو مخلوق من نطفة أبيه، وأبوه مخلوق من نطفة جده، وهكذا إلى أن يصل الخلق إلى آدم الذي خلقه الله من سلالة من طين. والعجب أن هؤلاء الذين يأتون بهذه الأكاذيب تعظيمًا لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعضهم عنده تهاون في دينه، واتباعه لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولعلهم يجهلون أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نهى عن الغلو فيه وحذر منه. وإن نصيحتي لهؤلاء أن يتلقوا معتقدهم من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأن يعلموا أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشر مثلنا، كما أمره الله أن يقول ذلك ويعلنه على الملأ: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ). فقد تميز صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالوحي، وبما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق، وبأنه أتقى الناس لله وأعبد الناس لله، لكنه بشر، وهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم أعلم أنه بشر مثلنا ينسى كما ننسى فقال: (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني). انظر التواضع العظيم: أخبر أنه بشر ينسى، ومع ذلك قال: (إذا نسيت فذكروني). ولن ينقص ذلك من قدره شيئًا، بل هو أكمل الخلق إيمانًا وتقوى وزهدًا وخلقًا عليه الصلاة والسلام، ومن أراد أن يحشر تحت لوائه يوم القيامة فليكن تحت لواء سنته في الدنيا، ولا يتعدَّ حدود الله ولا يقصر عنها، فلا غلو ولا تحريف، هذا الواجب علينا. ولقد قال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (قلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ). فمن كان صادقًا في دعوى المحبة لله أو المحبة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فليتبع الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبذلك يقيم بينة على صدق

دعواه، وأما أن يدعي أنه متبع للرسول محب للرسول، وهو يقول في الرسول ما ليس حقيقة، ويبتدع في دينه ما لم يشرع، فإن البينة تخالف دعواه.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: يوجد في القرآن الكريم سورة سميت بسورة لقمان، فمن هو هذا الشخص الذي يدعى لقمان؟ وهل أوتي النبوة؟.

فأجاب: سميت سورة لقمان لأنه ذكر فيها قصة لقمان وعظته لابنه، وتلك الوصايا التي ذكرها له، والسورة تسمى باسم ما ذكر فيها أحيانًا، كما يقال: سورة البقرة، سورة آل عمران، سورة الإسراء، وما أشبه ذلك.

فضيلة الشيخ: أيضًا يقول: من هذا الشخص الذي يدعى لقمان؟ وهل أوتي النبوة أم لا؟

فأجاب رحمه الله تعالى: الصحيح أنه ليس بنبي، وأن الله تعالى آتاه الحكمة وهي موافقة الصواب مع العلم، وقولنا: مع العلم، للتبيان وإلا فلا صواب إلا بعلم، والصواب أنه ليس من الأنبياء، وإنما هو رجل آتاه الله الحكمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: هل الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حي إلى يومنا هذا؟.

فأجاب: أما كونه حيًّا فلا، ليس بحي؛ لأنه لو كان حيًّا لوجب عليه أن يؤمن بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأن يجاهد معه، ولم يكن شيء من ذلك، فالخضر كغيره من البشر مات في وقته فيما يظهر لنا، وكذلك ليس الخضر بنبي، وإنما هو رجل آتاه الله تعالى علمًا لا يعلمه موسى عليه الصلاة والسلام؛ لأن موسى عليه الصلاة والسلام قال: إنه لا أحد في الأرض أعلم منه، فأراه الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية: أن موسى عليه الصلاة والسلام وإن كان لديه علم كثير من شريعة الله فإنه قد يفوته شيء من المعلومات الأخرى.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: يزعم بعض الناس من المسلمين أن نبي الله الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يزال حيًا يطوف على الأرض، وأنه إذا مر على إنسان وطلب منه الإحسان فقدمه له، إن كان ذلك الإنسان فقيرًا صار غنيا، ويأتي إلى الناس بهيئة المجانين كي لا يعرفوه، وصار كثير من الناس يقدمون الإحسان لكل من يأتيهم بمثل تلك الهيئة، ظنًا منهم أن يكون هو الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهل هذا الزعم الأسطوري وارد في الحديث الشريف؟.

فأجاب: الكلام على هذا السؤال من وجهين: أولًا: قول السائل: إن نبي الله الخضر، وجزمه بأنه نبي: هذا محل خلاف بين أهل العلم، هل كان الخضر نبيًا، أو كان وليًا أعطاه الله سبحانه وتعالى من الكرامات ما علم به مآل ما جرى بينه وبين موسى عليه الصلاة والسلام؟ والراجح أنه ليس بنبي، وأنه ولي من أولياء الله؛ لأدلة ليس هذا موضع بسطها. الوجه الثاني: من حيث بقاء هذا الرجل- أعني: الخضر- إلى الآن: فإن هذا لا يصح إطلاقًا؛ لأنه لو كان الخضر حيًا لكان يجب عليه أن يأتي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويؤمن به ويتبعه لو كان حيًا، على فرض أن يكون حيًا لكان قد مات أيضًا؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدث أصحابه في آخر حياته أنه على رأس مائة سنة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها ذلك اليوم أحد، فلو فرض أن الخضر قد بقي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لكان لا يمكن أن يبقى بعد مائة السنة التي أخبر عنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعليه فإن الخضر لا وجود له وليس بموجود. ثم إن هذا الزعم الباطل الذي يقتضي السخرية والاستهزاء به، حيث يقول: إنه يأتي إلى الناس بصورة المجنون لئلا يعرف، وإن من أتاه شيئًا وأهدى إليه شيئًا فإنه يصبح غنيًا، فإن هذا باطل من أبطل الباطل. أيضًا والمهم أنه يجب على المؤمن أن يعتقد بأن الخضر ليس بموجود؛

للدليلين اللذين أشرنا إليهما فيما سبق: أنه لو كان موجودًا لم يسعه إلا أن يأتي للنبي عليه الصلاة والسلام ويؤمن به ويتبعه، وأنه لو كان موجودًا لكان يموت قبل أن تأتي مائة السنة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: هل هناك خصائص اختصها الله عَزَّ وَجَلَّ للرسول ﷺ، ولم تكن لغيره من أفراد أمته؟.

فأجاب: نعم الخصائص التي اختص بها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وليست لأمته كثيرة جدًّا، وقد ذكر العلماء رحمهم الله- أعني بهم: الفقهاء، ذكروا- في كتاب النكاح خصائص كثيرة للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فمن أحب أن يرجع إليها فليفعل. ومن ذلك ما ذكره الله تعالى في القرآن حيث قال: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ) إلى قوله: (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ). فهنا بين الله عَزَّ وَجَلَّ أن النكاح بالهبة لا يحل إلا للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم. كما أن هذه الأمة خصها الله تعالى بخصائص لم تكن لغيرها من الأمم، كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الثابت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي) وذكر تمام الحديث. فالحاصل أن الله سبحانه وتعالى يختص من شاء من عباده بأحكام شرعية وغيرها مما لا يكون لغيره.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: يقولون: إن الرسول ﷺ وهو في قبره يسمع ويرد، وضحوا لنا كيف يكون ذلك في حياته؟ والذين يقولون هذا الكلام

يستندون للآية الكريمة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. وإذا كان الشهداء أحياء فكيف لا يكون الرسول ﷺ؟ هذا في قولهم؟.

فأجاب: نقول: أما كونه ﷺ يسمع ويرد فليس به غرابة، فقد روى أبو داود في سننه: (أنه ما من رجل يسلِّم على رجل في قبره وهو يعرفه في الدنيا، إلا رد الله عليه روحه فرد عليه السلام). فلا غرابة أن النبي ﷺ إذا سلم عليه المسلم يرد الله عليه روحه فيرد السلام. وأما كونه حيًّا في قبره: فالشهداء أحياء عند الله، والله تبارك وتعالى لم يقل: ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا، بل أحياء في قبورهم، بل قال: بل أحياء عند ربهم يرزقون. ولا شك أن النبي ﷺ دفن وصلى عليه صلاة الجنازة وخلفه من خلفه من أصحابه، وليسوا يقدمون له الأكل والشرب، وهم يعلمون أنه مات، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾. وكما قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾. وهذا أمر معلوم بالضرورة من الدين، ولا يماري فيه أحد، وحياة الشهداء عند الله ﷻ ليست كحياة الدنيا، أي: ليست حياة يحتاج فيها الإنسان إلى أكل وشرب أو هواء ويعبد ويدعو، هي حياة برزخية ،الله تعالى أعلم بكيفيتها. وعلى هذا فلا يحل لأحد أن يقف على قبر النبي ﷺ فيقول: يا رسول الله اشفع لي، يا رسول الله استغفر لي؛ لأن هذا غير ممكن، فالنبي ﷺ لا يمكن أن يستغفر لأحد بعد موته، ولا يمكن أن يشفع لأحد إلا بإذن الله، وإذا أردت أن تسأل سؤالًا صحيحًا فقل: اللهم ارزقني شفاعة نبيك، اللهم شفعه فيَّ، وما أشبه ذلك.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق: يقول الرسول ﷺ: إن أعمال العباد

تعرض عليه وهو في قبره. هل هذا حديث صحيح؟.

فأجاب: نعم، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام تعرض عليه، الصلاة عليه، يعني: إذا صلينا على النبي ﷺ فإنها تعرض عليه وتبلغه أينما كنا، أما سائر أعمالنا فلا يحضرني الآن هل هو صحيح أو غير صحيح.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: إذا قام شخص بقراءة القرآن، أو وضع قدميه وهو متجه إلى بيت الرسول ﷺ، هل عليه إثم في ذلك؟.

فأجاب: ليس عليه إثم في ذلك، فإن مد الرجلين إلى اتجاه قبر النبي ﷺ لا حرج فيه، ولا يحتاج أن أقول: بشرط أن لا يكون مستهينًا برسول الله ﷺ أو محتقرًا له؛ لأن هذا لا يمكن أن يقع من مسلم، فمد الرجلين إلى نحو قبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا بأس به، وهذا يقع كثيرًا، كالذين يكونون في الصف الأول في المسجد النبوي فإنهم يستندون إلى الجدار القبلي، وحينئذ تكون أرجلهم إن مدوها ممدودة نحو القبر.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: أسأل عن النبي ﷺ هل كان يقرأ أم كان أميًا؟.

فأجاب: النبي ﷺ كان أميًا؛ لقول الله تعالى: (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ). ولقوله تعالى: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ). فهو عليه الصلاة والسلام كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، فلما نزل عليه القرآن صار يقرأ، ولكن هل كان يكتب؟ هذا موضع خلاف بين أهل العلم، فمنهم من قال: إن النبي ﷺ بعد أن أنزل عليه الوحي صار يقرأ ويكتب؛ لأن الله إنما قيد انتفاء الكتابة قبل نزول القرآن: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ). وأما بعد ذلك فقد كان يكتب، ومن العلماء من قال: إنه لم

يزل عليه الصلاة والسلام غير كاتب حتى توفاه الله(١).

---

(١) قال الذهبي في السير (١٨/ ٥٤٠): قال (أي القاضي عياض): ولما تكلم أبو الوليد في حديث الكتابة يوم الحديبية الذي في (صحيح البخاري). قال بظاهر لفظه، فأنكر عليه الفقيه أبو بكر بن الصائغ، وكفره بإجازته الكتب على رسول الله ﷺ النبي الأمي، وأنه تكذيب للقرآن، فتكلم في ذلك من لم يفهم الكلام، حتى أطلقوا عليه الفتنة، وقبحوا عند العامة ما أتى به، وتكلم به خطباؤهم في الجمع، وقال شاعرهم:

برئت ممن شرى دنيا بآخرة * وقال: إن رسول الله قد كتبا

فصنف القاضي أبو الوليد (رسالة) بين فيها أن ذلك غير قادح في المعجزة، فرجع بها جماعة، قلت (الكلام للذهبي): يجوز على النبي ﷺ أن يكتب اسمه ليس إلا، ولا يخرج بذلك عن كونه أميا، وما من كتب اسمه من الأمراء والولاة إدمانا للعلامة يعد كاتبا، فالحكم للغالب لا لما ندر، وقد قال - عليه الصلاة والسلام -: (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب). أي لأن أكثرهم كذلك، وقد كان فيهم الكتبة قليلا، وقال تعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم} [الجمعة:٢]، فقوله - عليه الصلاة والسلام - : (لا نحسب) حق، ومع هذا فكان يعرف السنين والحساب، وقسم الفيء، وقسمة المواريث بالحساب العربي الفطري لا بحساب القبط ولا الجبر والمقابلة، بأبي هو ونفسي ﷺ، وقد كان سيد الأذكياء، ويبعد في العادة أن الذكي يملي الوحي وكتب الملوك وغير ذلك على كتابه، ويرى اسمه الشريف في خاتمه، ولا يعرف هيئة ذلك مع الطول، ولا يخرج بذلك عن أميته، وبعض العلماء عد ما كتبه يوم الحديبية من معجزاته، لكونه لا يعرف الكتابة وكتب، فإن قيل: لا يجوز عليه أن يكتب، فلو كتب؛ لارتاب مبطل، ولقال: كان يحسن الخط، ونظر في كتب الأولين.

قلنا: ما كتب خطا كثيرا حتى يرتاب به المبطلون، بل قد يقال: لو قال مع طول مدة كتابة الكتاب بين يديه: لا أعرف أن أكتب اسمي الذي في خاتمي، لارتاب المبطلون أيضا، ولقالوا: هو غاية في الذكاء، فكيف لا يعرف ذلك؟ بل عرفه، وقال: لا أعرف.

فكان يكون ارتيابهم أكثر وأبلغ في إنكاره، والله أعلم.اهـ.

وقال الصالحي في سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٧٠ - ٢٧٣): قال الله سبحانه وتعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) (العنكبوت / ٤٨) قال أئمة التفسير: الضمير في قوله: من قبله عائد الى الكتاب وهو القرآن المنزل =

=

عليه ﷺ أي: وما كنت يا محمد تقرأ من قبله، ولا تختلف الى أهل الكتاب، بل أنزلناه اليك في غاية الاعجاز والتضمن للغيوب وغير ذلك، فلو كنت ممن يقرأ كتابا، ويخط خطوطا لارتاب المبطلون من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلق، وقالوا: الذي تجده في كتبنا لا يكتب ولا يقرأ وليس به. فقد روى ابن أبي حاتم عن مجاهد - رضي الله تعالى عنه - قال: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدا ﷺ لا يخط ولا يقرأ. وروى الشيخان عن ابن عمر - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب). فهذا الحديث صريح في أنه كان لا يحسنهما وأصرح من ذلك ما في الصحيح في باب عمرة القضاء، من حديث البراء - رضي الله تعالى عنه - قصة الحديبية قال فيه: انه ﷺ لما أمر عليا أن يكتب كتاب الصلح بينه وبين قريش قال: اكتب هذا ما صلح عليه محمد رسول الله ﷺ فقال سهيل بن عمرو - رضي الله تعالى عنه - وذلك قبل أن يسلم: لو علمنا انك رسول الله، ما صددناك، اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله ﷺ: امح رسول الله فقال: والله، لا أمحوك أبدا، فأخذ رسول الله ﷺ وليس يحسن أن يكتب فكتب: (هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله) وقد تمسك بهذه الرواية من قال: انه كان يحسن الكتابة كالامام الباجي وأبي ذر الصروي وأبو الفتح النيسابوري وأبي جعفر السمناني الاصولي. وقالوا: إن عدم معرفته كان بسبب المعجزة ولما أمن الارتياب في ذلك ثم عرف حينئذ الكتابة من غير تقدم تعليم فكانت معجزة أخرى، ورجع عن ذلك أبو ذر كما سيأتي. والجواب أن قصة الحديبية واحدة، وقد وردت بألفاظ مختلفة وان الكاتب فيها هو علي كما وقع التصريح به في حديث المسور وفي رواية في حديث البراء ذكره البخاري في الجزية قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: (امح رسول الله فقال علي: والله لا أمحاه أبدا، قال: فأرنيه، قال: فأراه اياه فمحاه النبي ﷺ بيده. وذكر مسلم نحوه. فيحتمل أن النكتة في قوله: (فأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب) ليساوي قوله أرني اياها، أنه ما أحتاج أن يريه موضع الكلمة التي أمتنع علي من محوها الا لكونه كان لا يحسن الكتابة، وعلى أن قوله بعد ذلك، (فكتب) فيه حذف تقديره فمحاها، فأعادها لعلي فكتب، وبهذا جزم ابن التين قلت: هذا ويحمل قوله (فكتب) علي أنه أمر بالكتابة ... ويؤيده الرواية الاخرى للبخاري من حديث أنس - رضي الله تعالى عنه - بلفظ: لما صالح النبي ﷺ أهل الحديبية كتب علي بينهم كتابا فكتب: محمد رسول الله، فتحمل الرواية الاولى على أن قوله: فكتب أي فأمر بالكتابة

=

وسئل العلامة العثيمين أيضا كما في مجموع فتاواه (١/ ٣١١): هل الأنبياء المذكورون في قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ} رسل أم لا؟ ومن أول الرسل؟.

فأجاب: النبيون المذكورون في قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا

=

وهو كثير لحديث ابن عباس: كتب رسول الله ﷺ الى قيصر، وحديث كتب الى النجاشي. وحديث عبد الله بن عكيم: كتب الينا رسول الله ﷺ وحديث كتب الى كسرى. ويدل عليه أيضا رواية المسور في الصحيح أيضا في هذه القصة ففيها: (والله، اني رسول الله، وان كذبوني فاكتب: محمد بن عبد الله). وحكى مغلطاي في الزهر الباسم، ان الحافظ أبا ذر الهروي رأى في المنام أنه دخل مسجد المدينة فرأى قبر رسول الله ﷺ ينشق ويميد ولا يستقر، فاندهش لذلك، وقال في نفسه: لعل هذا بسبب اعتقادي، ثم عقدت التوبة مع نفسي فسكن واستقر، فلما استيقظ قص الرؤيا على ابن مفوز فعبرها له كذلك الحافظ ابن مفوز، من غير أن ينسبه الى نفسه فقال ابن مفوز: بغير صفته أو ينحله ما ليس له بأهل ولعله مفترى عليه. فقال: من أين قلت هذا؟ قال: من قول الله تعالى: (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا، أن دعوا للرحمن ولدا، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا) (مريم / ٩٠ - ٩١ - ٩٢) فقال: لله درك وأقبل يقبل عينيه مرة ويبكي ويضحك مرة أخرى ثم قال أنا صاحب هذه الروايات فاسمع ما يشهد لك صحة تأويلها، اني رأيتها في ذلك الفزع العظيم كنت أقول: والله ما هذا الا أني أقول واعتقد أن سيدنا رسول الله ﷺ يكتب فكنت أملي فأقول اني تائب، يا رسول الله، وأكرر ذلك مرارا، فأرى القبر الشريف قد عاد الى هيئته أولا وسكن، ثم استيقظت وأشهدت على نفسي بأن النبي ﷺ لا يكتب قط وعلى ألقى الله ﷻ ونقله الحافظ في تخريج احاديث الرافعي لكن قال ابن محمد الهروي بدل أبي ذر الهروي فالله تعالى أعلم. (تنبيه): ما رواه عمر بن شبة وابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود. رضي الله تعالى عنه - ما مات رسول الله ﷺ حتى قرأ وكتب، وهاه البيهقي وقال: انه منقطع وقال الطبراني هذا منكر وأظن ان معناه أن النبي ﷺ لم يمت حتى قرأ عبد الله بن عتبة وكتب يعني أنه كان يعقل في زمانه. وكل حديث في هذا الباب فغير صحيح.

إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} . كلهم رسل لقوله تعالى في سياقها: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} وكل من ذكر في القرآن من النبيين فهم رسل لقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} .

وأول الرسل نوح وآخرهم محمد، ﷺ، لقوله تعالى: {كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} وقد ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون نوحًا فيقولون له: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، ولقوله تعالى في محمد ﷺ: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} .وإذا كان خاتم النبيين فهو خاتم الرسل قطعًا إذ لا رسالة إلا بنبوة ولهذا يقال: كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣١٢): هل الرسل عليهم الصلاة والسلام سواء في الفضيلة؟.

فأجاب: الرسل عليهم الصلاة والسلام، ليسوا سواء في الفضيلة لقوله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} . وقوله تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ} .

ويجب علينا أن نؤمن بجميع الرسل أنهم حق صادقون فيما جاءوا به مصدقون فيما أوحي إليهم لقوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ} . إلى قوله: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ} . ولأن هذا طريق النبي، ﷺ، والمؤمنين قال الله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ} .

فلا نفرق بين أحد من الرسل في الإيمان به، وأنه صادق، مصدوق ورسالته

حق ولكن نفرق في أمرين:

الأول: الأفضلية فنفضل بعضهم على بعض كما فضل الله بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات، لكن لا نقول ذلك على سبيل المفاخرة أو التنقص للمفضول كما في صحيح البخاري «أن يهوديًا أقسم فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فلطم وجهه رجل من الأنصار حين سمعه وقال: تقول هذا ورسول الله، ﷺ، بين أظهرنا، فذهب اليهودي إلى رسول الله، ﷺ، وقال: إن لي ذمة وعهدًا فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال النبي، ﷺ، للأنصاري: "لم لطمت وجهه؟ " فذكره فغضب النبي، ﷺ، حتى رئي في وجهه ثم قال: "لا تفضلوا بين أنبياء الله». وكما في صحيحه أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي، ﷺ، قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» .

الثاني: الاتباع فلا نتبع إلا من أرسل إلينا وهو محمد، ﷺ؛ لأن شريعة النبي، ﷺ، نسخت جميع الشرائع لقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} .

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣١٢): هل هناك فرق بين الرسول والنبي؟

فأجاب: نعم، فأهل العلم يقولون: إن النبي هو من أوحى الله إليه بشرع ولم يأمره بتبليغه بل يعمل به في نفسه دون إلزام بالتبليغ.

والرسول هو من أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه والعمل به. فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا، والأنبياء أكثر من الرسل، وقد قص الله بعض الرسل في القرآن ولم يقصص البعض الآخر.

قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ} .

وبناء على هذه الآية يتبين أن كل من ذكر في القرآن من الأنبياء فهو رسول.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣١٤): إن النبي من أوحي إليه بالشرع ولم يؤمر بتبليغه أما الرسول فهو من أوحي إليه بالشرع وأمر بتبليغه ولكن كيف لا يؤمر النبي بتبليغ الشرع وقد أوحي إليه؟

فأجاب: أوحى الله إلى النبي بالشرع من أجل إحياء الشرع بمعنى أن من رآه واقتدى به واتبعه دون أن يلزم بإبلاغه، ومن ذلك ما حصل لآدم عليه الصلاة والسلام، فإن آدم كان نبيًا مكلمًا كما جاء ذلك عن رسول الله، ﷺ، ومع هذا فليس من الرسل لأنه قد دلت السنة بل دل القرآن، والسنة، وإجماع الأمة على أن أول رسول أرسله الله هو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. وآدم لا بد أن يكون متعبدًا لله بوحي من الله فيكون قد أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ ولهذا لا يعد من الرسل.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣١٥): من أول الرسل؟.

فأجاب: أول الرسل عليهم الصلاة والسلام، نوح عليه الصلاة والسلام، وآخرهم محمد، ﷺ، وأما قبل نوح فلم يبعث رسول، وبهذا نعلم خطأ المؤرخين الذين قالوا: إن إدريس، عليه الصلاة والسلام، كان قبل نوح؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: في كتابه: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} وفي الحديث الصحيح في قصة الشفاعة «أن الناس يأتون إلى نوح فيقولون له: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض»، فلا رسول قبل نوح، ولا رسول بعد محمد، ﷺ، لقوله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} .

وأما نزول عيسى ابن مريم، عليه السلام في آخر الزمان فإنه لا ينزل على أنه رسول مجدد، بل ينزل على أنه حاكم بشريعة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم؛ لأن الواجب على عيسى وعلى غيره من الأنبياء الإيمان بمحمد، صلى الله عليه وسلم، كما قال الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} وهذا الرسول المصدق لما معهم هو محمد، صلى الله عليه وسلم، كما صح ذلك عن ابن عباس وغيره.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (١/ ٣١٦): هل آدم عليه الصلاة والسلام، رسول أو نبي؟.

فأجاب: آدم ليس برسول ولكنه نبي، كما جاء في الحديث الذي أخرجه ابن حبان في صحيحه «أن النبي، صلى الله عليه وسلم، سئل عن آدم أَنَبِيٌّ هو؟ قال: "نعم نبي مكلم"»، ولكنه ليس برسول والدليل قوله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} وقوله، صلى الله عليه وسلم، في حديث الشفاعة: «إن الناس يذهبون إلى نوح فيقولون: "أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض» وهذا نص صريح بأن نوحًا أول الرسل.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (١/ ٣١٦): عن عقيدة المسلمين في عيسى ابن مريم، عليه الصلاة والسلام؟.

فأجاب: عقيدة المسلمين في عيسى ابن مريم، عليه الصلاة والسلام، أنه أحد الرسل الكرام، بل أحد الخمسة الذين هو أولو العزم وهم: محمد، صلى الله عليه وسلم، وإبراهيم ونوح، وموسى، وعيسى، عليهم الصلاة والسلام، ذكرهم الله في موضعين من كتابه، في سورة الأحزاب: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ

وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}، وفي سورة الشورى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}. وأن عيسى عليه الصلاة والسلام، بشر من بني آدم مخلوق من أم بلا أب، وأنه عبد الله ورسوله فهو عبد لا يُعبد، ورسول لا يكذب، وأنه ليس له من خصائص الربوبية شيء بل هو كما قال الله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} وأنه، عليه الصلاة والسلام، لم يأمر قومه بأن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله، وإنما قال لهم ما أمره الله به: {أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} وأنه، عليه السلام خلق بكلمة الله عز وجل كما قال الله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} وأنه ليس بينه وبين محمد، صلى الله عليه وسلم، رسول كما قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} ولا يتم إيمان أحد حتى يؤمن بأن عيسى عبد الله ورسوله، وأنه مبرأ ومنزه عما وصفه به اليهود الذين قالوا: "إنه ابن بغي وإنه نشأ من الزنا" -والعياذ بالله- وقد برأه الله تعالى من ذلك، كما أنهم -أي المسلمين - يتبرؤون من طريق النصارى الذين ضلوا في فهم الحقيقة بالنسبة لعيسى ابن مريم حيث اتخذوه وأمه إلهين من دون الله، وقال بعضهم: إنه ابن الله، وقال بعضهم: إنه ثالث ثلاثة.

أما فيما يتعلق بقتله وصلبه فالله سبحانه وتعالى قد نفى أن يكون قد قتل أو صلب نفيًا صريحًا قاطعًا فقال عز وجل: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا

بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} فمن اعتقد أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، قتل وصلب فقد كذب القرآن، ومن كذب القرآن فقد كفر، فنحن نؤمن بأن عيسى، عليه الصلاة والسلام لم يقتل ولم يصلب، ولكننا نقول: إن اليهود باءوا بإثم القتل والصلب حيث زعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وهم لم يقتلوه حقيقة بل قتلوا من شبه لهم، حيث ألقى الله شبهه على واحد منهم فقتلوه وصلبوه، وقالوا: إننا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، فاليهود باءوا بإثم القتل والصلب بإقرارهم على أنفسهم، والمسيح عيسى ابن مريم برأه الله من ذلك وحفظه ورفعه سبحانه وتعالى عنده إلى السماء وسوف ينزل في آخر الزمان إلى الأرض فيحكم بشريعة النبي، ﷺ، ثم يموت في الأرض ويدفن فيها ويخرج منها كما يخرج سائر بني آدم لقول الله تعالى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}، وقوله: {فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} .

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣١٩): عن وصف النبي، ﷺ، بحبيب الله؟.

فأجاب: النبي، ﷺ، حبيب الله لا شك فهو حاب لله ومحبوب لله، ولكن هناك وصف أعلى من ذلك وهو خليل لله، فالرسول، عليه الصلاة والسلام، خليل الله كما قال ﷺ: «إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا». ولهذا من وصفه بالمحبة فقط فإنه نزله عن مرتبته، فالخلة أعظم من المحبة وأعلى، فكل المؤمنين أحباء الله، ولكن الرسول، عليه الصلاة والسلام، في مقام أعلى من ذلك وهي الخلة فقد اتخذه الله خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، لذلك نقول:

إن محمدًا رسول الله، ﷺ، خليل الله، وهذا أعلى من قولنا: حبيب الله لأنه متضمن للمحبة، وزيادة لأنه غاية المحبة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣١٩): عن حكم جعل مدح النبي، ﷺ، تجارة؟.

فأجاب: حكم هذا محرم، ويجب أن يعلم بأن المديح للنبي، ﷺ، ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: أن يكون مدحًا فيما يستحقه، ﷺ، بدون أن يصل إلى درجة الغلو فهذا لا بأس به أي لا بأس أن يمدح رسول الله، ﷺ، بما هو أهله من الأوصاف الحميدة الكاملة في خلقه وهديه ﷺ.

والقسم الثاني: من مديح الرسول، ﷺ، قسم يخرج بالمادح إلى الغلو الذي نهى عنه النبي، ﷺ، وقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله». فمن مدح النبي، ﷺ، بأنه غياث المستغيثين، ومجيب دعوة المضطرين، وأنه مالك الدنيا والآخرة، وأنه يعلم الغيب وما شابه ذلك من ألفاظ المديح فإن هذا القسم محرم بل قد يصل إلى الشرك الأكبر المخرج من الملة، فلا يجوز أن يمدح الرسول، عليه الصلاة والسلام، بما يصل إلى درجة الغلو لنهي النبي، ﷺ، عن ذلك.

ثم نرجع إلى اتخاذ المديح الجائز حرفة يكتسب بها الإنسان فنقول أيضًا: إن هذا حرام ولا يجوز؛ لأن مدح الرسول، عليه الصلاة والسلام، بما يستحق وبما هو أهل له، ﷺ، من مكارم الأخلاق والصفات الحميدة، والهدي المستقيم مدحه بذلك من العبادة التي يتقرب بها إلى الله، وما كان عبادة فإنه لا يجوز أن يتخذ وسيلة إلى الدنيا لقول الله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. والله الهادي إلى سواء الصراط.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣٢١): عمن قال: إن تزوج النبي، ﷺ، كان لغرضين: أحدهما: مصلحة الدعوة، والثاني: التمشي مع ما فطره الله عليه من التمتع بما أحل الله له؟.

فأجاب: من المعلوم أن النبي، ﷺ، بشر أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة إلى الناس كافة، وأن اتصافه بما تقتضيه الطبيعة البشرية من الحاجة إلى الأكل، والشرب، والنوم، والبول، والغائط ومدافعة البرد، والحر، والعدو، ومن التمتع بالنكاح، وأطايب المأكول والمشروب وغيرها من مقتضيات الطبيعة البشرية لا يقدح في نبوته ورسالته، بل قد قال الله له: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} وقال هو عن نفسه: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون». وانتفاء علم الغيب، وطرو النسيان على العلم قصور في مرتبة العلم من حيث هو علم، لكن لما كان من طبيعة البشر الذي خلقه الله ضعيفًا في جميع أموره، لم يكن ذلك قصورًا في مقام النبوة، ونقصًا في حق النبي ﷺ.

ولا ريب أن شهوة النكاح من طبيعة الإنسان فكمالها فيه من كمال طبيعته، وقوتها فيه تدل على سلامة البنية واستقامة الطبيعة، ولهذا ثبت في صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «كنا نتحدث أنه يعني النبي، ﷺ، أعطي قوة ثلاثين». يعني على النساء، وهذا والله أعلم، ليتمكن من إدراك ما أحل الله منهن بلا حصر ولا مهر، ولا ولي، فيقوم بحقوقهن، ويحصل بكثرتهن ما حصل من المصالح العظيمة الخاصة بهن والعامة للأمة جميعًا،

ولولا هذه القوة التي أمده الله بها ما كان يدرك أن يتزوج بكل هذا العدد، أو يقوم بحقهن من الإحصان والعشرة.

ولو فرض أن النبي، ﷺ، تزوج امرأة لمجرد قضاء الوطر من الشهوة والتمشي مع ما تقتضيه الفطرة بل الطبيعة لم يكن في ذلك قصور في مقام النبوة، ولا نقص في حقه، ﷺ، كيف وقد قال ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، وحسبها، وجمالها، ودينها، فاظفر بذات الدين». بل قد قال الله له: {لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ}. لكننا لا نعلم حتى الآن أن رسول الله، ﷺ، تزوج امرأة لمجرد قضاء الوطر من الشهوة، ولو كان كذلك لاختار الأبكار الباهرات جمالا، الشابات سنًّا، كما قال لجابر رضي الله عنه حين أخبره أنه تزوج ثيبًا، قال: «فهلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك» ؟. وفي رواية: «وتضاحكها وتضاحكك». وفي رواية: «ما لك وللعذارى ولعابها»، رواه البخاري، وإنما كان زواجه، ﷺ، إما تأليفًا، أو تشريفًا، أو جبرًا أو مكافأة، أو غير ذلك من المقاصد العظيمة. وقد أجملها في فتح الباري ص ١١٥ ج ٩ المطبعة السلفية حيث قال: "والذي تحصل من كلام أهل العلم في الحكمة في استكثاره من النساء عشرة أوجه:

أحدها: أن يكثر من يشاهد أحواله الباطنة فينتفي عنه ما يظن به المشركون من أنه ساحر أو غير ذلك.

ثانيها: لتتشرف به قبائل العرب بمصاهرته فيهم.

ثالثها: الزيادة في تألفهم لذلك.

رابعها: الزيادة في التكليف حيث كلف أن لا يشغله ما حبب إليه منهن عن المبالغة في التبليغ.

خامسها: لتكثر عشيرته من جهة نسائه فتزداد أعوانه على من يحاربه.

سادسها: نقل الأحكام الشرعية التي لا يطلع عليها الرجال؛ لأن أكثر ما يقع مع الزوجة مما شأنه أن يختفي مثله.

سابعها: الاطلاع على محاسن أخلاقه الباطنة. فقد تزوج أم حبيبة وأبوها يعاديه، وصفية بعد قتل أبيها وعمها وزوجها، فلو لم يكن أكمل الخلق في خلقه لنفرن منه، بل الذي وقع أنه كان أحب إليهن من جميع أهلهن.

ثامنها: ما تقدم مبسوطًا من خرق العادة له في كثرة الجماع مع التقلل من المأكول والمشروب، وكثرة الصيام والوصال. وقد أمر من لم يقدر على مؤن النكاح بالصوم، وأشار إلى أن كثرته تكسر شهوته، فانخرقت هذه العادة في حقه ﷺ.

تاسعها وعاشرها: ما تقدم عن صاحب الشفاء من تحصينهن والقيام بحقوقهن.اهـ.

قلت: الثامنة حاصلة لأن الله أعطاه قوة ثلاثين رجلا كما سبق.

وثم وجه حادي عشر: وهو إظهار كمال عدله في معاملتهن لتتأسى به الأمة في ذلك.

وثاني عشر: كثرة انتشار الشريعة فإن انتشارها من عدد أكثر من انتشارها من واحدة.

وثالث عشر: جبر قلب من فات شرفها كما في صفية بنت حيي وجويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق.

ورابع عشر: تقرير الحكم الشرعي وانتشال العقيدة الفاسدة التي رسخت في قلوب الناس من منع التزوج بزوجة ابن التبني، كما في قصة زينب فإن اقتناع

الناس بالفعل أبلغ من اقتناعهم بالقول، وانظر اقتناع الناس بحلق النبي، ﷺ، رأسه في الحديبية ومبادرتهم بذلك حين حلق بعد أن تباطئوا في الحلق مع أمره لهم به.

وخامس عشر: التأليف وتقوية الصلة كما في أمر عائشة وحفصة، فإن النبي، ﷺ، شد صلته بخلفائه الأربعة عن طريق المصاهرة، مع ما لبعضهم من القرابة الخاصة، فتزوج ابنتي أبي بكر وعمر، وزوج بناته الثلاث بعثمان - وعلي رضي الله عن الجميع - فسبحان من وهب نبيه، ﷺ، هذه الحكم، وأمده بما يحققها قدرًا وشرعًا، فأعطاه قوة الثلاثين رجلا، وأحل له ما شاء من النساء يرجي من يشاء منهن، ويؤوي إليه من يشاء، وهو سبحانه الحكيم العليم.

وأما عدم تزوجه بالواهبة نفسها، فلا يدل على أنه تزوج من سواها لمجرد الشهوة، وقضاء وطر النكاح.

وأما ابنة الجون فلم يعدل عن تزوجها بل دخل عليها وخلا بها، ولكنها استعاذت بالله منه، فتركها النبي، ﷺ، وقال: «لقد عذت بعظيم فالحقي بأهلك». ولكن هل تزوجها النبي، ﷺ، لمجرد جمالها وقضاء وطر النكاح أو لأمر آخر؟ إن كان لأمر آخر سقط الاستدلال به على أن النبي، ﷺ، كان يتزوج لمجرد قضاء الوطر، وإن كان لأجل قضاء الوطر فإن من حكمة الله تعالى أن حال بينه وبين هذه المرأة بسبب استعاذتها منه.

وأما سودة رضي الله عنها فقد خافت أن يطلقها النبي، ﷺ، لكبر سنها فوهبت يومها لعائشة، وخوفها منه لا يلزم من أن يكون قد هم به. وأما ما روي أنه طلقها بالفعل فضعيف لإرساله.

وأما زواجه، ﷺ، بزينب فليس لجمالها بل هو لإزالة عقيدة سائدة بين

العرب، وهي امتناع الرجل من تزوج مفارقة من تبناه، فأبطل الله التبني وأبطل الأحكام المترتبة عليه عند العرب، ولما كانت تلك العقيدة السائدة راسخة في نفوس العرب كان تأثير القول في اقتلاعها بطيئًا، وتأثير الفعل فيها أسرع فقيض الله سبحانه بحكمته البالغة أن يقع ذلك من النبي، ﷺ، في تزوجه بمفارقة مولاه زيد بن حارثة الذي كان تبناه من قبل ليطمئن المسلمون إلى ذلك الحكم الإلهي، ولا يكون في قلوبهم حرج منه، وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحكمة بقوله تعالى: {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا} . ثم تأمل قوله تعالى: {زَوَّجْنَاكَهَا} . فإنه يشعر بأن تزويجها إياه لم يكن عن طلب منه، أو تشوف إليه، وإنما هو قضاء من الله لتقرير الحكم الشرعي وترسيخه، وعدم الحرج منه وبهذا يعرف بطلان ما يروى أن النبي، ﷺ، أتى زيدًا ذات يوم لحاجة فرأى زينب فوقعت في نفسه وأعجبه حسنها فقال: "سبحان الله مقلب القلوب". فأخبرت زينب زيدًا بذلك ففطن له فكرهها وطلقها بعد مراجعة النبي، ﷺ، وقوله: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ} . فهذا الأثر باطل مناقض لما ذكر الله تعالى من الحكمة في تزويجها إياه، وقد أعرض عنه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فلم يذكره، وقال: أحببنا أن نضرب عنها -أي عن الآثار الواردة عن بعض السلف صفحًا- لعدم صحتها فلا نوردها، ويدل على بطلان هذا الأثر أنه لا يليق بحال الأنبياء فضلا عن أفضلهم وأتقاهم لله عَزَّ وَجَلَّ وما أشبه هذه القصة بتلفيق قصة داود عليه الصلاة والسلام، وتحيله على التزوج بزوجة من ليس له إلا زوجة واحدة، على ما ذكر في بعض كتب التفسير عند قوله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ} . إلى آخر القصة فإن من علم قدر الأنبياء وبعدهم عن الظلم والعدوان والمكر

والخديعة علم أن هذه القصة مكذوبة على نبي الله داود عليه الصلاة والسلام.

والحاصل أنه وإن جاز للنبي، ﷺ، أن يتزوج لمجرد قضاء الوطر من النكاح وجمال المرأة وأن ذلك لا يقدح في مقامه، فإننا لا نعلم أن النبي، ﷺ، تزوج زواجًا استقرت به الزوجة وبقيت معه من أجل هذا الغرض. والله أعلم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣٢٦): لماذا وجه الله الخطاب إلى الرسول، ﷺ، في قوله: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ} مع أن النبي، ﷺ، معصوم من الشرك؟.

فأجاب: الخطاب هنا للرسول، ﷺ، في ظاهر سياق الآية.

وقال بعض العلماء: لا يصح أن يكون للرسول، ﷺ؛ لأن الرسول، ﷺ، يستحيل أن يقع منه ذلك والآية على تقدير " قل " وهذا ضعيف لإخراج الآية عن سياقها.

والصواب: أنه إما خاص بالرسول، ﷺ، والحكم له ولغيره، وإما عام لكل من يصح خطابه ويدخل فيه الرسول، ﷺ، وكونه يوجه إليه مثل هذا الخطاب لا يقتضي أن يكون ذلك ممكنًا منه قال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} فالخطاب له ولجميع الرسل ولا يمكن أن يقع، فلا يمكن أن يقع منه، ﷺ، - باعتبار حاله - شركٌ أبدًا، والحكمة من النهي أن يكون غيره متأسيًا به فإذا كان النهي موجهًا إلى من لا يمكن أن يقع منه باعتبار حاله فهو إلى من يمكن منه من باب أولى.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣٣٠): كيف نجمع بين قوله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}. وقوله: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ}؟.

فأجاب: قوله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} كقوله تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ}. فالأنبياء والرسل لا شك أن بعضهم أفضل من بعض فالرسل أفضل من الأنبياء، وأولو العزم من الرسل أفضل ممن سواهم، وأولو العزم من الرسل هم الخمسة الذين ذكرهم الله تعالى في آيتين من القرآن إحداهما في سورة الأحزاب: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}. محمد، عليه الصلاة والسلام، ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم.

والآية الثانية في سورة الشورى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى}. فهؤلاء خمسة وهم أفضل ممن سواهم.

وأما قوله تعالى عن المؤمنين: {كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ}. فالمعنى لا نفرق بينهم في الإيمان بل نؤمن أن كلهم رسل من عند الله حقًّا وأنهم ما كذبوا فهم صادقون مصدقون وهذا معنى قوله: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ} أي في الإيمان بل نؤمن أن كلهم، عليهم الصلاة والسلام، رسل من عند الله حقًّا.

لكن في الإيمان المتضمن للاتباع - هذا يكون لمن بعد الرسول، ﷺ، - خاص بالرسول، ﷺ، لأنه، ﷺ، هو المتبع؛ لأن شريعته نسخت ما سواها من الشرائع وبهذا نعلم أن الإيمان يكون للجميع كلهم نؤمن بهم وأنهم رسل الله حقًّا وأن شريعته التي جاء بها حق، وأما بعد أن بعث الرسول، عليه الصلاة والسلام، فإن جميع الأديان السابقة نسخت بشريعته، ﷺ، وصار الواجب على جميع الناس أن ينصروا محمدًا ﷺ وحده، ولقد نسخ الله تعالى بحكمته جميع

الإديان سوى دين الرسول، ﷺ، ولهذا قال الله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} فكانت الأديان سوى دين الرسول، عليه الصلاة والسلام، كلها منسوخة لكن الإيمان بالرسل وأنهم حق هذا أمر لا بد منه.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣٣٣): عمن يعتقد أن النبي، ﷺ، نور من نور الله وليس ببشر وأنه يعلم الغيب ثم هو يستغيث به، ﷺ، معتقدًا أنه يملك النفع والضر، فهل تجوز الصلاة خلف هذا الرجل أو من كان على شاكلته أفيدونا جزاكم الله خيرًا؟.

فأجاب: من اعتقد أن النبي، ﷺ، نور من الله وليس ببشر وأنه يعلم الغيب فهو كافر بالله ورسوله وهو من أعداء الله ورسوله وليس من أولياء الله ورسوله لأن قوله هذا تكذيب لله ورسوله ومن كذب الله ورسوله فهو كافر والدليل على أن قوله هذا تكذيب لله ورسوله قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} وقوله تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ} وقوله تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} وقوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} وقوله ﷺ: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني» .

ومن استغاث برسول الله، ﷺ، معتقدًا أنه يملك النفع والضر فهو كافر مكذب لله تعالى مشرك به لقوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ

الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} وقوله تعالى: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} وقوله، ﷺ، لأقاربه: «لا أغني عنكم من الله شيئًا» كما قال ذلك لفاطمة وصفية عمة رسول الله ﷺ.

ولا تجوز الصلاة خلف هذا الرجل ومن كان على شاكلته ولا تصح الصلاة خلفه ولا يحل أن يجعل إمامًا للمسلمين.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣٣٢): عن معجزات الرسول ﷺ؟.

فأجاب: معجزات النبي، ﷺ، وهي الآيات الدالة على رسالته، ﷺ، وأنه رسول الله حقًّا كثيرة جدًا وأعظم آيات جاء بها هذا القرآن الكريم كما قال الله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} .

فالقرآن العظيم أعظم آية جاء بها رسول الله، ﷺ، وأنفع لمن تدبرها واقتدى بها لأنها آية باقية إلى يوم القيامة.

أما الآيات الأخرى الحسية التي مضت وانقضت أو لا تزال تحدث فهي كثيرة وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ جملة صالحة منها في آخر كتابه " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح "، هذا الكتاب الذي ينبغي لكل طالب علم أن يقرأه لأنه بين فيه شطح النصارى الذين بدلوا دين المسيح، عليه الصلاة والسلام، وخطأهم وضلالهم وأنهم ليسوا على شيء مما كانوا عليه فيما حرفوه وبدلوه وغيروه. والكتاب مطبوع وبإمكان كل إنسان الحصول عليه، وفيه فوائد

عظيمة منها ما أشرت إليه، بيان الشيء الكثير من آيات النبي، ﷺ، وكذلك ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " البداية والنهاية " ذكر كثيرًا من آيات النبي، ﷺ، فمن أحب فليرجع إليه[١].

(١) قلت معجزات رسول الله ﷺ كثيره قد أفرد لها بعض العلماء مصنفات مستقلة كالبيهقي وأبو نعيم وغيرهم كثير ومن كثرتها قسموها فمثلا يقال معجزاته مع الحجارة ومعجزاته مع الحيوانات ومع الطيور ومع الجمادات إلى غير ذلك وسنسوق بعضا مما صح منها إتماما للفائدة .

١ - (عن جابر قال عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ منها ثم أقبل الناس نحوه قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به ونشرب إلا ما في ركوتك فوضع النبي ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون قال فشربنا وتوضأنا قيل لجابر كم كنتم قال لو كنا مائة ألف لكفانا كنا خمس عشرة مائة) متفق عليه قال في سبل الهدى والرشاد: وهو اشرف المياه كما قال البلقيني - في التدريب- قال القرطبي: قصة نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ تكررت منه في عدة مواطن، في مشاهد عظيمة، ووردت عنه من طرق كثيرة يفيد عمومها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي .

قال ولم يسمع بمثل هذه المعجزة العظيمة من غير نبينا ﷺ، حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه، ولحمه ودمه .وقد نقل ابن عبد البر عن المزني أنه قال: نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى ﷺ فتفجرت منه المياه، لأن خروج المياه من الحجارة معهود بخلاف خروجه من بين اللحم والدم.اهـ.

٢ - (عن حنظلة بن حذيم قال: وفدت مع جدي حذيم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي بنين ذوي لحى وغيرهم وهذا أصغرهم فأدناني رسول الله ﷺ ومسح رأسي وقال: "بارك الله فيك". قال الذيال: فلقد رأيت حنظلة يؤتى بالرجل الوارم وجهه أو الشاة الوارم ضرعها فيقول: بسم الله على موضع كف رسول الله ﷺ فيمسحه فيذهب الورم) قال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الأوسط والكبير بنحوه وأحمد في حديث طويل ورجال أحمد ثقات وصححه الشيخ مقبل في الجامع الصحيح مما ليس =

=

في الصحيحين وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد - وهو ابن سلمة - فمن رجال مسلم

٣- (عن ابن مسعود قال: كنت غلاما يافعا أرعى غنما لعقبة بن أبي معيط ب (مكة) فأتى علي رسول الله ﷺ وأبو بكر وقد فرا من المشركين فقال - أو: فقالا -: عندك يا غلام لبن تسقينا؟ قلت: إني مؤتمن ولست بساقيكما. فقال: هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم. فأتيتهما بها فاعتقلها أبو بكر وأخذ رسول الله ﷺ الضرع ودعا فحفل الضرع وأتاه أبو بكر بصخرة متقعرة فحلب فيها ثم شرب هو وأبو بكر ثم سقياني ثم قال للضرع: اقلص. فقلص، فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب. يعني: القرآن فقال: (إنك غلام معلم) فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد) أخرجه الطيالسي وأحمد والحسن بن عرفة صححه الشيخ أحمد شاكر في تخريج المسند وأورده الألباني في صحيح فقه السيرة وحسنه الشيخ مقبل في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن

٤- (عن جابر قال: إن أم مالك كانت تهدي للنبي ﷺ في عكة لها سمنا فيأتيها بنوها فيسألون الأدم وليس عندهم شيء فتعمد إلى الذي كانت تهدي فيه للنبي ﷺ فتجد فيه سمنا فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته فأتت النبي ﷺ فقال: "عصرتيها " قالت نعم قال: "لو تركتيها ما زال قائما). رواه مسلم

٥- (عن جابر أن رسول الله جاءه رجل يستطعمه فأطعمه شطر وسق شعير فما زال الرجل يأكل منه وامرأته وضيفهما حتى كاله ففني فأتى النبي ﷺ فقال: "لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم) رواه مسلم

٦- (عن أبي هريرة قال أتيت النبي ﷺ بتمرات فقلت يا رسول الله ادع الله فيهن بالبركة فضمهن ثم دعا لي فيهن بالبركة فقال خذهن واجعلهن في مزودك هذا أو في هذا المزود كلما أردت أن تأخذ منه شيئا فأدخل فيه يدك فخذه ولا تنثره نثرا فقد حملت من ذلك التمر كذا وكذا من وسق في سبيل الله فكنا نأكل منه ونطعم وكان لا يفارق حقوي حتى كان يوم قتل عثمان فإنه انقطع) أخرجه أحمد وابن سعد والترمذي وابن حبان والبيهقي، وحسنه الألباني في السلسلةالصحيحة وقال: شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير المهاجر

٧- (عن جابر قا ل إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا:
=

=

هذه كدية عرضت في الخندق فقال: "أنا نازل " ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لانذوق ذوقا فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيبا أهيل فانكفأت إلى امرأتي فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت بالنبي ﷺ خمصا شديدا فأخرجت جرابا فيه صاع من شعير ولنا بهمة داجن فذبحتها وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ثم جئت النبي ﷺ فساررته فقلت: يا رسول الله؟ ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعا من شعير فتعال أنت ونفر معك فصاح النبي ﷺ: "يا أهل الخندق إن جابرا صنع سورا فحي هلا بكم " فقال رسول الله ﷺ: "لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء". وجاء فأخرجت له عجينا فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك ثم قال " ادعي خابزة فلتخبز معي واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها " وهم ألف فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي وإن عجيننا ليخبز كما هو) متفق عليه

٨- (عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقل الماء فقال: اطلبوا فضلة من ماء فجاءوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده في الإناء ثم قال: حي على الطهور المبارك والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل) رواه البخاري

٩- (عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة فيسند ظهره إلى جذع منصوب في المسجد فيخطب الناس فجاءه رومي فقال: ألا أصنع لك شيئا تقعد عليه وكأنك قائم؟ فصنع له منبرا له درجتان ويقعد على الثالثة فلما قعد نبي الله ﷺ على ذلك المنبر خار الجذع كخوار الثور حتى ارتج المسجد حزنا على رسول الله ﷺ فنزل إليه رسول الله ﷺ من المنبر فالتزمه وهو يخور فلما التزمه رسول الله ﷺ سكن ثم قال: أما والذي نفس محمد بيده لو لم ألتزمه لما زال هكذا إلى يوم القيامة حزنا على رسول الله ﷺ فأمر به رسول الله ﷺ فدفن) أخرجه أحمد والبخاري في التاريخ والدارمي وابن ماجة والبغوي والضياء قي المختارة قال ابن حجر في موافقة الخبر الخبر: صحيح وصححه الألباني في السلسلةالصحيحة وحسنه الشيخ مقبل في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين

(فائدة) أخرج ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي عن أبيه عن عمرو بن سواد عن الشافعي قال ما أعطى الله نبيا ما أعطى محمدا فقلت أعطى عيسى إحياء الموتى قال أعطى

=

=

محمدا حنين الجذع حتى سمع صوته فهذا أكبر من ذلك.
١٠- (عن جابر قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا واديا أفيح فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فلم ير شيئا يستتر به وإذا شجرتين بشاطئ الوادي فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال انقادي علي بإذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال انقادي علي بإذن الله فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما قال التئما علي بإذن الله فالتأمتا فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتة فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلا وإذا الشجرتين قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق) رواه مسلم
١١- (عن يعلى ابن مرة عن أبيه قال كنت مع النبي ﷺ في سفر فأراد أن يقضي حاجته فقال لي ائت تلك الأشاءتين قال وكيع يعني النخل الصغار فقل لهما إن رسول الله ﷺ يأمركما أن تجتمعا فاجتمعتا فاستتر بهما فقضى حاجته ثم قال لي ائتهما فقل لهما لترجع كل واحدة منكما إلى مكانها فقلت لهما فرجعتا) رواه ابن ماجة وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة
١٢- (عن ابن عباس قال جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ قال: بما أعرف أنك نبي؟ قال: "إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة يشهد أني رسول الله " فدعاه رسول الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ ثم قال: ارجع فعاد فأسلم الأعرابي) رواه الترمذي وصححه والبخاري في التاريخ وأبو يعلى وابن حبان وصححه الألباني في المشكاة وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين
١٣- (عن ابن عمر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فأقبل أعرابي فلما دنا قال له النبي ﷺ: "أين تريد؟". قال: إلى أهلي. قال: "هل لك في خير؟". قال: وما هو؟ قال: "تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله". قال: من شاهد على ما تقول؟ قال: "هذه الشجرة". فدعاها رسول الله ﷺ وهي بشاطئ الوادي فأقبلت تخد الأرض خدا حتى جاءت بين يديه فاستشهدها ثلاثا فشهدت أنه كما قال ثم رجعت إلى منبتها ورجع الأعرابي إلى قومه وقال: إن يتبعوني آتيك بهم وإلا رجعت إليك فكنت معك) أخرجه الدارمي وابن حبان والحاكم والطبراني وأبو يعلى والبزار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال الذهبي: إسناده جيد وقال ابن كثير في البداية والنهاية: إسناده جيد وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح وصححه الألباني في المشكاة

=

=

١٤- (عن أبي هريرة قال: إنكم تقولون أكثر أبو هريرة عن النبي ﷺ والله الموعد وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخوتي من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم وكنت امرأ مسكينا ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني وقال النبي ﷺ يوما: "لن يبسط أحد منكم ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه ثم يجمعه إلى صدره فينسى من مقالتي شيئا أبدا " فبسطت نمرة ليس علي ثوب غيرها حتى قضى النبي ﷺ مقالته ثم جمعتها إلى صدري فوالذي بعثه بالحق ما نسيت من مقالته تلك إلى يومي هذا) متفق عليه

١٥- (عن أنس قال: إن رجلا كان يكتب للنبي ﷺ فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين فقال النبي ﷺ: "إن الأرض لا تقبله". فأخبرني أبو طلحة أنه أتى الأرض التي مات فيها فوجده منبوذا فقال: ما شأن هذا؟ فقالوا: دفناه مرارا فلم تقبله الأرض) متفق عليه

١٦- (عن أنس قال أصابت الناس سنة على عهد النبي ﷺ فبينا النبي ﷺ يخطب في يوم جمعة قام أعرابي فقال يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا فرفع يديه وما نرى في السماء قزعة فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى وقام ذلك الأعرابي أو قال غيره فقال يا رسول الله تهدم البناء وغرق المال فادع الله لنا فرفع يديه فقال اللهم حوالينا ولا علينا فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادي قناة شهرا ولم يجئ أحد من ناحية إلا حدث بالجود

وفي رواية قال: "اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر". قال: فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس) متفق عليه

١٧- (عن جابر قال: كان النبي ﷺ إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد فلما صنع له المنبر فاستوى عليه صاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت تنشق فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت قال بكت على ما كانت تسمع من الذكر) رواه البخاري

١٨- (عن أبي موسى قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل

=

=

ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم قال فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ قال هذا سيد العالمين هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين فقال له أشياخ من قريش ما علمك فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدا ولا يسجدان إلا لنبي وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ثم رجع فصنع لهم طعاما فلما أتاهم به وكان هو في رعية الإبل فقال أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه فقال انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه فقال أنشدكم بالله أيكم وليه قالوا أبو طالب فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وبعث معه أبو بكر بلالا وزوده الراهب من الكعك والزيت) رواه الترمذي عن أبي موسى رضي الله عنه قال السخاوي في المقاصد الحسنة: لم تذكر الغمامة في حديث أصح من هذا وصححه الألباني في المشكاة وحسنه الشيخ مقبل في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين وذكر بلال في الحديث خطأ إذ لم يكن خلق بعد كما نبه على ذلك الحافظ في الإصابة فقال رجاله ثقات وليس فيه سوى هذه اللفظة فيحتمل أنها مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهما من أحد رواته وقال الجزري إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح أو أحدهما وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ وعدة أئمتنا وهما وهو كذلك فإن سن النبي ﷺ إذ ذاك اثنا عشرة سنة وأبو بكر أصغر منه بسنتين وبلال لعله لم يكن ولد في ذلك الوقت .

(تنبيه) قال الذهبي في ميزان الاعتدال: قيل مما يدل على بطلان هذا الحديث قوله وبعث معه أبو بكر بلالا وبلال لم يخلق بعد وأبو بكر كان صبيا انتهى وقال ابن كثير في البداية والنهاية: فيه غرابة قلت قد صحح الحديث زمرة من المحدثين كما مر وحكموا على هذه اللفظة بالضعف ولم يضعفوا كل الحديث .

١٩ - (عن أبي هريرة قال جاء ذئب إلى راعي غنم فأخذ منها شاة فطلبه الراعي حتى انتزعها منه قال فصعد الذئب على تل فأقعى واستذفر فقال عمدت إلى رزق رزقنيه الله عز وجل أخذته ثم انتزعته مني فقال الرجل تالله إن رأيت كاليوم ذئبا يتكلم فقال الذئب أعجب من هذا رجل في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى وبما هو كائن بعدكم وكان الرجل يهوديا فجاء الرجل إلى النبي ﷺ فأسلم وخبره فصدقه النبي ﷺ ثم قال النبي ﷺ إنها أمارة من أمارات بين يدي الساعة قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع

=

=

حتى تحدثه نعلاه وسوطه ما أحدث أهله بعده) رواه أحمد عن أبي هريرة ﵁ قال ابن كثير في البداية والنهاية: إسناده على شرط السنن وقال السيوطي في شرح المواقف: إسناده صحيح وقال الشيخ أحمد شاكر في تخريج المسند: إسناده صحيح وصححه الألباني في المشكاة

٢٠- (عن أبي العلاء عن سمرة بن جندب قال كنا مع النبي ﷺ نتداول من قصعة من غدوة حتى الليل يقوم عشرة ويقعد عشرة قلنا: فمما كانت تمد؟ قال: من أي شيء تعجب؟ ما كانت تمد إلا من ههنا وأشار بيده إلى السماء) رواه الترمذي والدارمي وصححه الألباني في المشكاة وقال الشيخ مقبل في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين: صحيح على شرط الشيخين

٢١- (عن جابر بأن يهودية من أهل خيبر سمت شاة مصلية ثم أهدتها لرسول الله ﷺ فأخذ رسول الله ﷺ الذراع فأكل منها وأكل رهط من أصحابه معه فقال رسول الله ﷺ ارفعوا أيديكم وأرسل إلى اليهودية فدعاها فقال سممت هذه الشاة فقالت من أخبرك قال أخبرتني هذه في يدي للذراع قالت نعم قالت قلت إن كان نبيا فلن يضره وإن لم يكن نبيا استرحنا منه فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها وتوفي بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة حجمه أبو هند بالقرن والشفرة وهو مولى لبني بياضة من الأنصار) رواه أبو داود والدارمي وصححه الألباني في المشكاة

٢٢- (عن علي بن أبي طالب قال كنت مع النبي ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله) رواه الترمذي والبيهقي قال ابن حجر في موافقة الخبر الخبر: حسن غريب وصححه الألباني لغيره في السلسلةالصحيحة

٢٣- (عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن) رواه مسلم

٢٤- (عن أنس بن مالك ﵁ قال كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه وإنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره وإن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا إنه كان لنا جمل نسني عليه وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره وقد عطش الزرع والنخل فقال ﷺ لأصحابه قوموا فقاموا فدخل الحائط والجمل في ناحيته فمشى النبي ﷺ

=

=

نحوه فقالت الأنصار يا رسول الله قد صار مثل الكلب نخاف عليك صولته قال ليس علي منه بأس فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خر ساجدا بين يديه فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل... الحديث) رواه أحمد والنسائي والبزار قال المنذري في الترغيب: رواه أحمد والنسائي بإسناد جيد رواته ثقات مشهورون والبزار بنحوه، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح غير حفص ابن أخي أنس وهو ثقة وقال الألباني في صحيح الترغيب صحيح لغيره

٢٥- (عن جابر قال: غزوت مع رسول الله ﷺ وأنا على ناضح لنا قد أعيا فلا يكاد يسير فتلاحق بي النبي ﷺ فقال لي ما لبعيرك قلت: قدعيي فتخلف رسول الله ﷺ فزجره ودعا له فما زال بين يدي الإبل قدامها يسير فقال لي كيف ترى بعيرك قال قلت بخير قد أصابته بركتك قال أفتبيعنيه بوقية. فبعته على أن لي فقار ظهره حتى المدينة فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة غدوت عليه بالبعير فأعطاني ثمنه ورده علي) متفق عليه

٢٦- (عن ابن المنكدر أن سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم أو أسر فانطلق هاربا يلتمس الجيش فإذا هو بالأسد. فقال: يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله ﷺ كان من أمري كيت وكيت فأقبل الأسد له بصبصة حتى قام إلى جنبه كلما سمع صوتا أهوى إليه ثم أقبل يمشي إلى جنبه حتى بلغ الجيش ثم رجع الأسد) رواه الحاكم وقال الهيثمي في المجمع: رواه البزار والطبراني بنحوه ورجالهما وثقوا. وصححه الألباني في المشكاة وضعفه الشيخ مقبل في تعليقه على المستدرك

٢٧- (عن عبد الله بن قرط رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القر". قال ثور: وهو اليوم الثاني. قال: وقرب لرسول الله ﷺ بدنات خمس أو ست فطفقن يزدلفن إليه بأيتهن يبدأ قال: فلما وجبت جنوبها. قال فتكلم بكلمة خفية لم أفهمها فقلت: ما قال؟ قال: "من شاء اقتطع) أخرجه أحمد وأبو داود والبيهقي وقال: إسناده حسن وقال ابن كثير في إرشاد الفقيه: إسناده جيد وصححه العلامة الألباني في الإرواء وحسنه الشيخ مقبل في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين

٢٨- (عن جابر رضي الله عنه قال استأذنت الحمى على رسول الله ﷺ فقال من هذه قالت أم ملدم فأمر بها إلى أهل قباء فلقوا منها ما يعلم الله فأتوه فشكوا ذلك إليه فقال ما شئتم إن شئتم دعوت الله فكشفها عنكم وإن شئتم أن تكون لكم طهورا قالوا أوتفعله؟ قال نعم

=

=

قالوا فدعها) اخرجه أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه والبيهقي قال المنذري وكذا الهيثمي: رواه أحمد ورواته رواة الصحيح وصححه الألباني في صحيح الترغيب
٢٩- (عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: "لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله". فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال: "أين علي بن أبي طالب؟ " فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: "فأرسلوا إليه". فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: "انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم) متفق عليه
٣٠- (لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى). متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وقد وقع كما أخبر ﷺ قال الحافظ في الفتح: قال القرطبي في التذكرة قد خرجت نار بالحجاز بالمدينة وكان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العتمة الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة واستمرت إلى ضحى النهار يوم الجمعة فسكنت وظهرت النار بقريظة بطرف الحرة ترى في صورة البلد العظيم عليها سور محيط عليه شراريف وابراج ومآذن وترى رجال يقودونها لا تمر على جبل الا دكته وأذابته ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دوي كدوي الرعد يأخذ الصخور بين يديه وينتهى إلى محط الركب العراقي واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم فانتهت النار إلى قرب المدينة ومع ذلك فكان يأتي المدينة نسيم بارد وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر وقال لي بعض أصحابنا رأيتها صاعدة في الهواء من نحو خمسة أيام وسمعت انها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى وقال النووي تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام وقال أبو شامة في ذيل الروضتين وردت في أوائل شعبان سنة أربع وخمسين كتب من المدينة الشريفة فيها شرح أمر عظيم حدث بها فيه تصديق لما في الصحيحين فذكر هذا الحديث قال فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها انه بلغه انه كتب بتيماء على ضوئها الكتب فمن الكتب فذكر نحو ما تقدم ومن ذلك ان في بعض الكتب ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة في شرقي المدينة نار

=

=

عظيمة بينها وبين المدينة نصف يوم انفجرت من الأرض وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد وفي كتاب آخر انبجست الأرض من الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد المدينة وهي برأي العين من المدينة وسال منها واد يكون مقداره أربع فراسخ وعرضه أربع أميال يجري على وجه الأرض ويخرج منه مهاد وجبال صغار وفي كتاب آخر ظهر ضوؤها إلى ان رأوها من مكة قال ولا أقدر أصف عظمها ولها دوي قال أبو شامة ونظم الناس في هذا أشعارا ودام امرها أشهرا ثم خمدت.اهـ.

٣١- (يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرئ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل) رواه مسلم عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد وقع كما أخبر صلى الله عليه

٣٢ -(لقد دخل علي البيت ملك لم يدخل علي قبلها فقال لي: إن ابنك هذا: حسين مقتول وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها. قال: فأخرج تربة حمراء) رواه أحمد عن عن عائشة أو أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح وصححه الألباني في السلسلةالصحيحة وقد وقع كما أخبر صلى الله عليه

٣٣- (الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وأبو يعلى وابن حبان عن سفينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال الحافظ بن حجر في موافقة الخبر الخبر: حسن وصححه الألباني في صحيح الجامع وحسنه الشيخ مقبل في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين .

وقد وقع كما أخبر ﷺ قال المباركفوري في تحفة الأحوذي: قال العلقمي قال شيخنا يعني الحافظ السيوطي لم يكن في الثلاثين بعده ﷺ إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن قال العلقمي بل الثلاثون سنة هي مدة الخلفاء الأربعة كما حررته فمدة خلافة أبي بكر سنتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام ومدة عمر عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام ومدة عثمان إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرا وتسعة أيام ومدة خلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر وسبعة أيام هذا هو التحرير فلعلهم ألغوا الأيام وبعض الشهور

وقال النووي في تهذيب الأسماء مدة خلافة عمر عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين يوما وعثمان اثنتي عشرة سنة إلا ست ليال وعلي خمس سنين وقيل خمس سنين إلا أشهرا والحسن نحو سبعة أشهر انتهى كلام النووي والأمر في ذلك سهل هذا اخر كلام العلقمي.اهـ.

=

(باب مباحث الإيمان بالبعث)

مسائل في الباب

مسألة: تعريف البعث

يختلف تعريف البعث في اللغة باختلاف ما علق به، فقد يطلق ويراد به:

١- الإرسال: يقال بعثت فلانًا أو ابتعثته أي أرسلته.

٢- البعث من النوم: يقال: بعثه من منامه إذا أيقظه.

=

٣٤- (عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة قال: فمن أشقى الآخرين؟ قال: لا أدري قال: الذي يضربك على هذا - وأشار إلى رأسه قال: فكان علي يقول: يا أهل العراق ولوددت أن لو قد انبعث أشقاها يخضب هذه من هذه) رواه ابن عساكر وغيره عن عده من الصحابة قال الحافظ في الفتح: له شاهد. وعن علي نفسه بإسناد لين، وبإسناد جيد وصححه الألباني في السلسلةالصحيحة بمجموع طرقه

وقد وقع كما أخبر ﷺ

٣٥- (ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار) رواه البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه وقد وقع كما أخبر ﷺ

٣٦- (يا عثمان لِلَّهِ إن الله مقمصك قميصا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم عن عائشة رضي الله عنها وصححه الألباني في صحيح الجامع .

قال صاحب تحفة الأحوذي: قوله (قميصا) أراد به خلعة الخلافة وفي رواية بن ماجه يا عثمان إن ولاك الله هذا الأمر يوما فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه (فإن أرادوك على خلعه) أي حملوك على نزعه (فلا تخلعه لهم) يعني إن قصدوا عزلك عن الخلافة فلا تعزل نفسك عنها لأجلهم لكونك على الحق وكونهم على الباطل فلهذا الحديث كان عثمان رضي الله عنه ما عزل نفسه حين حاصروه يوم الدار.اهـ.

وفيما ذكرنا من معجزاته ﷺ كفاية ومن أراد المزيد فعليه بكتب الدلائل.

٣- الإثارة: وهو أصل البعث، ومنه قيل للناقة: بعثتها إذا أثرتها وكانت قبل باركة.

وفي هذا يقول الأزهري[١]: (قال الليث: بعثت البعير فانبعث إذا حللت عقاله وأرسلته، لو كان باركًا فأثرته).

وقال أيضًا: (والبعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما: الإرسال كقول الله تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ} [الأعراف: ١٠٣]، معناه أرسلنا.

والبعث أيضًا الإحياء من الله للموتى، ومنه قوله جل وعز: ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ٥٦]، أي أحييناكم.

وقال أبو هلال: (بعث الخلق: اسم لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف، ومنه قوله تعالى: {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ [يس: ٥٢])[٢].

ويقول الفيروز آبادي[٣]: (بعثه كمنعه: أرسله كابتعثه فانبعث، والناقة أثارها، وفلانًا من منامه: أهبه ... وتبعث مني الشعر انبعث كأنه سال)[٤].

وقال الراغب: (أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث، ويختلف البعث بحسب ما علق به.

فبعثت البعير: أثرته وسيرته، وقوله ﷻ: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [الأنعام: ٣٦]. أي يخرجهم ويسيرهم

---

(١) ((تهذيب اللغة)) (٢/ ٣٣٤) مادة: (بعث).

(٢) ((الفروق)) (٢٨٤).

(٣) ((القاموس المحيط)) (١/ ١٦٨) مادة: (بعث).

(٤) ((القاموس المحيط)) (١/ ١٦٨).

إلى القيامة.

فالبعث ضربان: بشري كبعث البعير وبعث الإنسان في حاجة. وإلهي وذلك ضربان:

أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس، وذلك يختص به الباري تعالى، ولم يقدر عليه أحدًا.

والثاني: إحياء الموتى، وقد خص بذلك بعض أوليائه كعيسى ﷺ والثاني، ومنه قوله ﷻ: فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [الروم: ٥٦]، يعني الحشر.

وقوله ﷻ: فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ} [المائدة: ٣١]. أي قيضه.

وقوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [الكهف: ١٢]، وذلك إثارة بلا توجيه إلى مكان)[١].

وأما البعث في الشرع فيراد به: إحياء الله للموتى وإخراجهم من قبورهم أحياء للحساب والجزاء.

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (البعث: وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة)[٢].

وقال السفاريني: (أما البعث فالمراد به المعاد الجسماني؛ فإنه المتبادر عند الإطلاق؛ إذ هو الذي يجب اعتقاده ويكفر منكره)[٣].

فالبعث هو: المعاد الجسماني فإنه المتبادر عند الإطلاق إذ هو الذي يجب

---

(١) ((المفردات)) (ص: ٥٢).

(٢) ((تفسير القرآن العظيم)) (٣/ ٢٠٦).

(٣) ((مختصر اللوامع)) (ص: ٣٨٧).

اعتقاده ويكفر منكره، قال الإمام المحقق ابن القيم في كتابه الروح: معاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين، واليهود، والنصارى. وقال الجلال الدواني هو بإجماع أهل الملل وبشهادة نصوص القرآن بحيث لا يقبل التأويل كقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس:٧٨].

(**فرع**): النشر في اللغة يأتي بمعنى البسط، والانتشار، وتقلب الإنسان في حوائجه، ويأتي بمعنى التفرق.

أما مجيئه بمعنى البسط فمثل قوله تعالى: {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} [التكوير: ١٠] ومنه قوله تعالى: {وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا} [المرسلات: ٣] أي الملائكة التي تنشر الرياح أو الرياح التي تنشر السحاب.

وأما مجيئه بمعنى الانتشار فمثل قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا} [الفرقان: ٤٧] أي جعل فيه الانتشار وابتغاء الرزق.

وعن تقلب الإنسان في حوائجه قوله تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} [الجمعة: ١٠] أي تفرقوا فيها[1].

قال الأزهري في باب (نشر): (قال الليث: النشر: نشر الريح الطيبة، وعن ثعلب عن ابن الأعرابي قال: النشر: الحياة، والنشر: الريح الطيبة).

قال الأزهري: يقال: أنشر الله الموتى فنشروا: إذا حيوا، كما قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا ... يا عجبًا للميت الناشر

(١) ((المفردات للراغب)) (ص: ٤٩٢).

وقال الزجاج: يقال: نشرهم الله أي بعثهم، كما قال الله تعالى: وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك: ١٥])[١].

وقال أبو هلال العسكري: (والنشور: اسم لظهور المبعوثين، وظهور أعمالهم للخلائق، ومنه قولك: نشرت اسمك ونشرت قضية فلان، إلا أنه قيل: أنشر الله الموتى - بالألف -، ونشرت الفضيلة الثوب، للفرق بين المعنيين)[٢].

وذكر الزمخشري في (أساس البلاغة): أن من معانيه أيضًا: إذاعة الخير ونشره في الناس[٣].

والنشور في الاصطلاح يطلق ويراد به معنى البعث، وهو انتشار الناس من قبورهم إلى الموقف للحساب والجزاء.

وإذا كان المعنى اللغوي يراد به الانتشار والتفرق والانبساط والبعث، فهي معان عامة يدخل فيها المعنى الاصطلاحي وهو نشر الله للأموات وإحياؤهم من قبورهم، فالنشور يراد به سريان الحياة في الأموات، كما رأيناه في تعريفات العلماء السابقة من أنه يراد به البعث في اليوم الآخر وخروج الناس من قبورهم أحياء.

وعرفه البرديسي بأنه: (قيام الناس من قبورهم)[٤].

وقال السفاريني: (وأما النشور فهو يرادف البعث في المعنى، نشر الميت ينشر نشورًا: إذا عاش بعد الموت، وأنشره الله أي أحياه)[٥].

---

(١) ((تهذيب اللغة)) (١١/ ٣٣٨).

(٢) ((الفروق في اللغة)) (ص: ٢٨٤).

(٣) ((أساس البلاغة)) (ص: ٤٥٦).

(٤) ((تكملة شرح الصدور)) (ص: ١٦).

(٥) ((مختصر لوامع الأنوار)) (٣٨٨).

(فرع): المعاد في اللغة

قال الفيروز أبادي: (والمعاد: الآخرة، والحج، ومكة، والجنة - وبكليهما فسر قوله تعالى: {لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} [القصص: ٨٥]، والمرجع، والمصير.

وقال: وأعاده إلى مكانه: رجعه، والكلام: كرره، وتعاودوا في الحرب: عاد كل فريق إلى صاحبه)[١].

وقال الراغب: (والمعاد يقال للعود وللزمان الذي يعود فيه، وقد يكون للمكان الذي يعود إليه)[٢].

وتدل تلك التعريفات للمعاد على أنه مصدر ميمي مأخوذ من العود، وهو رجوع الشيء إلى ما كان عليه أولًا.

وفي الاصطلاح: يطلق لفظ المعاد على الرجوع إلى الله تعالى في يوم القيامة، ورجوع أجزاء البدن المتفرقة إلى الاجتماع كما كانت في الدنيا، وحلول الروح فيه.

قال ابن الأثير: (وفي أسماء الله تعالى "المعيد" هو الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات في الدنيا، وبعد الممات إلى الحياة يوم القيامة)[٣].

مسألة: ذكر بعض منكري البعث

الصنف الأول أنكروا المبدأ والمعاد

وزعموا أنَّ الأكوان تتصرف بطبيعتها فتوجد وتعدم بأنفسها، ليس لها رب يتصرف فيها، إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، وهؤلاء هم جمهور الفلاسفة

---

(١) ((القاموس المحيط)) (١/ ٣٣٠).

(٢) ((المفردات)) (٣٥٢).

(٣) ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣١٦).

الدَّهرية والطبائعية.

الصنف الثاني من الدهرية طائفة يقال لهم الدوريَّة

وهم منكرون للخالق أيضًا، ويعتقدون أنَّ في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أنَّ هذا قد تكرَّر مرات لا تتناهى فكابروا في المعقول وكذَّبوا المنقول، قبحهم الله تعالى. وهاتان الطائفتان يعمهم قوله ﷻ {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ} [الجاثية:٢٤] ولهذا عن السلف الصالح فيها تفسيران: الأول معنى قولهم نَمُوتُ وَنَحْيَا أي يموت الآباء ويحيا الأبناء هكذا أبدًا، وهو قول الطائفة الأولى. والمعنى الثاني أنَّهم عَنَوْا كونهم يموتون ويحيون هم أنفسهم ويتكرر ذلك منهم أبدًا ولا حساب ولا جزاء، بل ولا موجد ولا معدم ولا محاسب ولا مجازي، وهذا قول الدورية.

المطلب الثالث: الصنف الثالث الدهرية من مشركي العرب ومن وافقهم

وهم مقرون بالبداءة، وأنَّ الله تعالى: ربّهم وخالقهم {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ} [الزخرف:٨٧] ومع هذا قالوا: {إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ} [الدخان:٣٥] فأقروا بالبداءة والمبدئ، وأنكروا البعث والمعاد، وهم المذكورون في حديث أبي هريرة الصحيح: (وأما تكذيبه إيَّاي فقوله لَنْ يعيدني كما بدأني، وليس أوَّلَ الخلقِ بأهون عليَّ مِنْ إعادته)[1].

الصنف الرابع ملاحدة الجهمية ومن وافقهم: أقروا بمعاد ليس على ما في القرآن ولا فيما أخبَرَتْ به الرسل عن الله ﷻ، بل زعموا أنَّ هذا العالم يعدم عدمًا محضًا، وليس المعاد هو بل عالم آخر غيره، فحينئذٍ تكون الأرض التي

(١) أخرجه البخاري (٤٩٧٤).

تحدّث أخبارها وتخبر بما عمل عليها من خير وشر ليست هي هذه، وتكون الأجساد التي تعذب وتجازى وتشهد على من عمل بها المعاصي ليست هي التي أعيدت بل هي غيرها، والأبدان التي تنعم في الجنة وتثاب ليست هي التي عملت الطاعة ولا أنَّها تحولت من حال إلى حال، بل هي غيرها تُبتدأ ابتداءً محضًا، فأنكروا معاد الأبدان وزعموا أنَّ المعادَ بداءة أخرى!(١).

مسألة: التعريف بالصور

الصور في لغة العرب هو: القرن (يشبه البوق) وقد سئل رسول الله عن الصور ففسره بما تعرفه العرب من كلامها كما سيأتي، وأما الذي ينفخ فيه: فقد اشتهر أنه إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونقل بعض العلماء الإجماع على ذلك، ووقع التصريح به في بعض الأحاديث كما في الفتح (١١/ ٣٦٨)، وقد ورد في الصور أحاديث منها حديث (كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر أن ينفخ؟، قال: قلنا: يا رسول الله، فما نقول يومئذ؟، قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل)(٢).

ومنها حديث حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (الصور قرن ينفخ فيه)(٣).

---

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول (٢/ ٩٣٩-٩٤٠).

(٢) هذا الحديث روي عن أبي سعيد الخدري وابن عباس وزيد بن أرقم وأبو هريرة وجابر بن عبدالله وأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والحديث حسنه الترمذي، والبغوي، وقال ابن كثير في البداية والنهاية إسناده جيد، وكذا قال السيوطي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٠٧٩)، وصححه العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيين (١/ ٤٠٠)، وصححه الأرنؤوط في تحقيق المسند.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢، رقم٦٥٠٧)، وأبو داود (٤/ ٢٣٦، رقم٤٧٤٢)، والترمذى (٤/ ٦٢٠، رقم٢٤٣٠)، والحاكم (٢/ ٥٥٠، رقم٣٨٧٠)، والبيهقى فى الشعب (١/ ٣٠٧، رقم ٣٥٠)، والنسائى فى الكبرى (٦/ ٣٩٢، رقم ١١٣١٢)، والدارمى (٢/
=

لذا قال ابن ابن جرير في تفسيره (٧/ ٢٤١) وهو يتكلم عن الصور قد اختلفوا فيه فقال بعضهم: هو قرن ينفخ فيه نفختان، إحداهما لفناء من كان حيًا على الأرض، والثانية لنشر كل ميت، وقال آخرون: الصور في هذا الموضع: جمع صورة، ينفخ فيها روحها فتحيا.

ثم رجح ابن جرير القول الأول بقوله: والصواب من القول في ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن إسرافيل قد التقم الصور، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ)، وأنه قال: (الصور قرن ينفخ فيه).

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٨١): واختلف المفسرون في قوله: {يوم ينفخ في الصور} فقال بعضهم: المراد بالصور هاهنا جمع صورة أي: يوم ينفخ فيها فتحيا ... والصحيح أن المراد بالصور: "القرن" الذي ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام.

وكذلك ذهب الآلوسي حيث قال في روح المعاني (٢٠/ ٣٠) عن قوله تعالى: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى} [الزمر: ٦٨]: (ظاهر في أن الصور ليس جمع صورة، وإلا لقال سبحانه (فيها) بدل (فيه)، وارتكاب التأويل يجعل الكلام من باب التمثيل ظاهر في إنكار أن يكون هناك صور حقيقة، وهو خلاف ما نطقت به الأحاديث الصحاح).

ثم قال الآلوسي: وقد قال أبو الهيثم - على ما نقل عنه القرطبي في تفسيره: من أنكر أن يكون الصور قرنًا، فهو كمن أنكر العرش والصراط والميزان،

=

٤١٨، رقم ٢٧٩٨)، والبزار (٦/ ٤٤٣، رقم ٢٤٨١)والحديث حسنه الترمذي، وصححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٠٨٠)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده صحيح رجاله ثقات.

وطلب لها تأويلات.اهـ.

فكما يدخل في الإيمان باليوم الآخر الموت وما بعده من فتنة القبر ونعيمه أو عذابه وباللقاء والبعث والنشور والقيام من القبور كذلك يدخل في ذلك الإيمان بالصور والنفخ فيه الذي جعله الله سبب الفزع والصعق والقيام من القبور، وهو القرن الذي وكل الله تعالى: به إسرافيل كما تقدم في ذكر الملائكة.
وقد ذكر الله ﷻ النفخ فيه في مواضع من كتابه، كقوله ﷻ: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) [الزمر:٦٨] الآيات، وقال تعالى: (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) [النمل:٨٧] الآيات، وقال تعالى: (قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [الأنعام:٧٣]. وغيرها من الآيات.

مسألة: في عدد النفخات في الصور هل هي ثلاث نفخات أم نفختان فقط؟

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن النفخ في الصور يكون مرتين: الأولى يحصل بها الصعق، والثانية يحصل بها البعث مستدلين بقوله تعالى: (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) الزمر/ ٦٨.

وبما ورد في الأحاديث الصحيحة التي ذكرت هاتين النفختين وما يترتب عليهما من آثار فقد روى البخاري (٤٦٥١) ومسلم (٢٩٥٥) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوما؟ قال: أبيت قالوا أربعون شهرا؟ قال: أبيت قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل. قال: وليس من الإنسان

شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة) قال النووي: ومعنى قول أبي هريرة (أبيت) أي أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يوما أو سنة أو شهرا بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة. اهـ.

وفي صحيح مسلم (٢٩٤٠) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (.. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله أو قال ينزل الله مطرا كأنه الطل أو الظل (شك الراوي) فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وقوله: (أصغى ليتا): أصغى أي أمال، والليت هو جانب العنق والمعنى فلا يبقى أحد إلا أمال عنقه، ورفع عنقه، وقوله: (يلوط حوض إبله): أي يطين ويصلح مجمع الماء الذي تشرب منه إبله. (شرح النووي على مسلم ١٨/ ٧٦)

ومن العلماء من قال: إنها ثلاث نفخات وزاد فيها نفخة الفزع وأنها تكون قبل نفخة الصعق ثم تليها نفخة الصعق مستندين على ما ورد في قوله تعالى: (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين) النمل/ ٨٧

ولكن لا يلزم من ذكر الصعق في آية والفزع في الأخرى أن لا يحصلا معا من النفخة الأولى بل هما متلازمان فإذا نفخ في الصور فزع الناس فزعا صعقوا منه وماتوا.

واستدلوا أيضا ببعض الأحاديث التي ورد فيها أن النفخات ثلاث، لكن الحديث الذي استدلوا به هو حديث الصور الطويل؛ وهو حديث ضعيف مضطرب كما يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله. والله أعلم.

فيستفاد مما سبق أن الله تعالى إذا أذن بموت الأحياء أمر ملك الصور أن ينفخ فيه؛ فينفخ نفخة عظيمة تفزع جميع الخلائق فيصعقون منها ويهلكون، ثم يمكثون على ذلك مدة قدرها أربعين من غير تحديد بسنة أو شهر أو يوم ـ الله أعلم بمقدارها ـ فتتحلل أجسادهم في هذه المدة ولا يبقى منها إلا عجب الذنب وهو العظم المستدير الذي في أصل الظهر، ثم يرسل الله سحابا فتمطر مطرا فإذا أصاب الماء هذا العظم نبت منه الجسم كما ينبت النبات ويتركب الخلق من هذا العظم كما بدأ الله الخلق أول مرة يعيده وهو على كل شيء قدير، ثم ينفخ في الصور نفخة البعث فتعود الأرواح إلى الأجساد فيخرجون من القبور سراعا إلى أرض المحشر نسأل الله رحمته ولطفه.

وبعد فالواجب على المسلم أن يستعد لهذه اللحظات الحاسمة بالمبادرة للأعمال الصالحة، والمسارعة في الخيرات، والبعد عن الأمور المنكرة، ومجانبة السيئات، وإذا كان أخشى الخلق لله وأتقاهم له يقول: "كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ .. فكيف بحالنا نحن المقصرين الضعفاء؟! نسأل الله أن يجعلنا ممن لا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون .. آمين.

(باب متفرقات)

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٤/ ٣٢٧): النفخ في الصور، ما هو الصور؟ وهل هو قرن، أم ماذا؟.

فأجاب: نعم، قرن عظيم، ينفخ فيه إسرافيل النفخة الأولى للموت والفزع، والنفخة الثانية للبعث والنشور. هذه النفختان جاء بهما القرآن الكريم. إحداهما

يقال لها: نفخة الصعق، ويقال لها: نفخة الفزع، وبها يموت الناس، والثانية نفخة البعث. وقال جماعة من العلماء: إنها ثلاث: نفخة الفزع، وقد يفزع الناس فقط، ثم تأتي بعدها نفخة الموت، ثم نفخة البعث والنشور. وقد جاءت هذه الثلاث في حديث الصور، ولكن حديث الصور ضعيف والمحفوظ نفختان فقط، كما دل عليهما كتاب الله العظيم، سورة النمل، وفي سورة الزمر نفختان، نفخة الموت، ويقال لها: نفخة الفزع أو الصعق، والثانية: نفخة البعث والنشور.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر السابق (٤/ ٣٢٨): هل النفخات في الصور ثلاث أم اثنتان؟.

فأجاب: الصواب أنها اثنتان، هذا هو المحفوظ كما جاء في القرآن الكريم وفي الأحاديث الصحيحة، نفخة الفزع وهي نفخة الصعق والموت، والثانية: نفخة البعث. فالأولى يقال لها: نفخة الفزع، ويقال لها: نفخة الصعق، ويقال لها: نفخة الموت، تسمى بأسماء، وهي المذكورة في قوله جل وعلا: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} وهي المذكورة في قوله جل وعلا: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ} وقال آخرون: إنها ثلاث: نفخة الفزع يفزع الناس ولا يموتون، ثم نفخة الصعق والموت، ثم نفخة البعث. وجاء هذا في حديث الصور من حديث إسماعيل بن رافع الأنصاري ولكنه ضعيف، والصواب أنها نفختان: نفخة الفزع يمدها إسرافيل، يمدها طويلا. فأول ما يسمعها الناس، كل منهم يصغي ليتا ويرفع ليتا، يعني يصغي عنقه هكذا وهكذا يستمع، ثم لا يزال إسرافيل يمدها حتى ترتفع، وحتى يصعق الناس فيموتون.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر السابق (٤/ ٣٢٩): كيف يقوم الناس من

قبورهم يوم القيامة؟

فأجاب: أخبر الله عنهم بما بين سبحانه وتعالى: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} فهم يخرجون من الأجداث إذا سمعوا الصيحة، وهي نفخة البعث، النفخة الثانية يخرجهم الله من قبورهم ومن كل مكان، ويجمعهم جل وعلا يوم القيامة، والله أعلم بكيفية ذلك سبحانه وتعالى. المقصود أنهم يخرجون حفاة، عراة، غرلا، كما جاءت به الأحاديث، حفاة لا نعال عليهم، عراة لا لباس عليهم، غرلا غير مختونين، حتى يقضى بينهم، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، كما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر السابق (٤/ ٣٢٩): هل من دليل شرعي على تجمع أرواح المؤمنين، في منتصف كل ليلة جمعة عند الركن والمقام، وتجمع أرواح أهل النار في نفس الوقت في بئر بأرض العراق كما قرأت في إحدى الصحف؟ .

فأجاب: لا أعلم أصلا لما ذكره السائل، من تجمع الأرواح بين الركن والمقام، في أي ليلة وفي أي يوم، كل ذلك لا أصل له، كله من الخرافات الباطلة، وهكذا تجمع أرواح الكفار في بئر في العراق، أو في غير العراق أو عدن أو في غير ذلك، كل ذلك لا أصل له، فلا ينبغي أن يعول عليها.

مسألة: قال العلامة الألباني في الضعيفة (٨/ ١٠١، ١٠٧): عن حديث «الدنيا كلها سبعة أيام من أيام الآخرة، وذلك قول الله تعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّون}». (موضوع)

ثم ذكر أحاديث تدور حول هذا المعنى ثم قال: إن الواقع يشهد ببطلان هذه

الأحاديث؛ فإن السيوطي قرر في الرسالة المذكورة -أي رسالة "الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف"-بناء عليها وعلى غيرها من الأحاديث والآثار- وجلها واهية -أن مدة هذه الأمة تزيد على ألف سنة، ولا تبلغ الزيادة عليها خمس مئة سنة، وأن الناس يمكثون بعد طلوع الشمس من مغربها مئة وعشرين سنة!.

أقول: ونحن الآن في سنة (١٣٩١)، فالباقي لتمام الخمس مائة إنما هو مئة سنة وتسع سنوات، وعليه تكون الشمس قد طلعت من مغربها من قبل سنتنا هذه بإحدى عشرة سنة على تقرير السيوطي، وهي لما تطلع بعد! والله تعالى وحده هو الذي يعلم وقت طلوعها، وكيف يمكن لإنسان أن يحدد مثل هذا الوقت المستلزم لتحديد وقت قيام الساعة، وهو ينافي ما أخبر الله تعالى من أنها لا تأتي إلا بغتة؛ كما في قوله ﷻ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون} (الأعراف: ١٨٧).

وقال رَحِمَهُ الله في الضعيفة أيضا (١/ ٦٢١ - ٦٢٢): عن حديث «يدعى الناس يوم القيامة بأمهاتهم سترا من الله ﷻ عليهم». (موضوع).

وقد ثبت ما يخالفه، ففي " سنن أبي داود " بإسناد جيد كما قاله النووي في " الأذكار " من حديث أبي الدرداء مرفوعًا: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم» وفي الصحيح من حديث عمر مرفوعا: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان»، والله أعلم.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في الصحيحة (٤/ ٦٠٨، ٦١٢ - ٦١٤): قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقتص الخلق بعضهم من بعض، حتى الجماء من القرناء، وحتى الذرة من الذرة».

(**فائدة**) قال النووي في " شرح مسلم " تحت حديث الترجمة: "هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين وكما يعاد الأطفال والمجانين، ومن لم تبلغه دعوة. وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة، قال الله تعالى: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع، وجب حمله على ظاهره. قال العلماء: وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب. وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة، و(الجلحاء) بالمد هي الجماء التي لا قرن لها. والله أعلم".

وذكر نحوه ابن الملك في " مبارق الأزهار " (٢/ ٢٩٣) مختصراً. ونقل عنه العلامة الشيخ علي القاريء في " المرقاة " (٤/ ٧٦١) أنه قال: "فإن قيل: الشاة غير مكلفة، فكيف يقتص منها؟ قلنا: إن الله تعالى فعال لما يريد ولا يسأل عما يفعل والغرض منه إعلام العباد أن الحقوق لا تضيع بل يقتص حق المظلوم من الظالم". قال القاريء: "وهو وجه حسن، وتوجيه مستحسن، إلا أن التعبير عن الحكمة بـ (الغرض) وقع في غير موضعه. وجملة الأمر أن القضية دالة بطريق المبالغة على كمال العدالة بين كافة المكلفين، فإنه إذا كان هذا حال الحيوانات الخارجة عن التكليف، فكيف بذوي العقول من الوضيع والشريف، والقوي والضعيف؟".

قلت: ومن المؤسف أن ترد كل هذه الأحاديث من بعض علماء الكلام بمجرد الرأي، وأعجب منه أن يجنح إليه العلامة الألوسي! فقال بعد أن ساق الحديث عن أبي هريرة من رواية مسلم ومن رواية أحمد بلفظ الترجمة عند تفسيره آية {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} في تفسيره " روح المعاني " (٩/ ٣٠٦): "ومال حجة الإسلام الغزالي وجماعة إلى أنه لا يحشر غير الثقلين لعدم كونه مكلفًا ولا أهلًا لكرامة بوجه، وليس في هذا الباب نص من كتاب أو سنة معول عليها يدل على حشر غيرهما من الوحوش، وخبر مسلم والترمذي وإن كان صحيحا لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام. وإلى هذا القول أميل ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول لأن لهم ما يصلح مستندا في الجملة. والله تعالى أعلم".

قلت: كذا قال -عفا الله عنا وعنه- وهو منه غريب جدًّا؛ لأنه على خلاف ما نعرفه عنه في كتابه المذكور، من سلوك الجادة في تفسير آيات الكتاب على نهج السلف، دون تأويل أو تعطيل، فما الذي حمله هنا على أن يفسر الحديث على خلاف ما يدل عليه ظاهره، وأن يحمله على كناية عن العدل التام، أليس هذا تكذيبًا للحديث المصرح بأنه يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء، فيقول هو تبعا لعلماء الكلام: إنه كناية! ... أي لا يقاد للشاة الجماء. وهذا كله يقال لو وقفنا بالنظر عند رواية مسلم المذكورة، أما إذا انتقلنا به إلى الروايات الأخرى كحديث الترجمة وحديث أبي ذر وغيره، فإنها قاطعة في أن القصاص المذكور هو حقيقة وليس كناية، ورحم الله الإمام النووي، فقد أشار بقوله السابق: "وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره".

قلت: أشار بهذا إلى رد التأويل المذكور وبمثل هذا التأويل أنكر الفلاسفة وكثير من علماء الكلام كالمعتزلة وغيرهم رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة وعلوه على عرشه ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة ومجيئه تعالى يوم القيامة، وغير ذلك من آيات الصفات وأحاديثها. وبالجملة، فالقول بحشر البهائم والاقتصاص لبعضها من بعض هو الصواب الذي لا يجوز غيره، فلا جرم أن ذهب إليه الجمهور كما ذكر الألوسي نفسه في مكان آخر من "تفسيره" (٩/ ٢٨١)، وبه جزم الشوكاني في تفسير آية " التكوير " من تفسيره " فتح القدير "، فقال (٥/ ٣٧٧): "الوحوش ما توحش من دواب البر، ومعنى (حشرت) بعثت، حتى يقتص بعضها من بعض، فيقتص للجماء من القرناء". وقد اغتر بكلمة الألوسي المتقدمة النافية لحشر الوحوش محرر " باب الفتاوي " في مجلة الوعي الإسلامي السنة الثانية، العدد ٨٩ ص ١٠٧، فنقلها عنه، مرتضيا لها معتمدا عليها، وذلك من شؤم التقليد وقلة التحقيق. والله المستعان وهو ولي التوفيق.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في موسوعته العقدية (٩/ ٣٣٥): شيخنا الفاضل حفظك الله في تفسير الآية: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} (النمل:٨٨) في الآية تفسير للشيخ الشعرواي بأن هذا إثبات لحركة دوران الأرض حيث يقول: أن تشبيه حركة السحاب المحمولة بالرياح مثل حركة الجبال المحمولة بالأرض المتحركة، واستدل الشيخ الشعرواي بأن يوم القيامة لا يكون فيه حسبانًا إنما حقيقة، وأن الأرض والسماوات تبدل تمامًا فلا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا في الأرض، فهل من كلمة في هذا الموضوع وجزاك الله خيرًا.

الشيخ: أنا بطبيعة الحال ما أستحضر الآيات التي جاءت قبل هذه الآية

ولكن الذي أعلمه فيها من علماء التفسير الماضيين أن قوله تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} (النمل:٨٨) إنما هذا: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ} (إبراهيم:٤٨) ففي هذا التبديل في الآية الأخرى: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ} (النبأ:٢٠) فهذا التبديل لا يكون في هذا العهد الذي يعيشه الناس بطمأنينة على هذه الأرض وإنما يوم ذلك {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ} (إبراهيم:٤٨).

وأنا أقول بهذه المناسبة: إن كثيرًا من الكتاب أو الوعاظ المعاصرين اليوم يحاولون أن يتكلفوا تطبيق بعض الآيات القرآنية على المخترعات أو الأفكار الفلكية التي اكتشفت في العصر الحاضر ظنًا منهم أن في ذلك نصرًا للإسلام، ونحن نقول: أن الإسلام ليس بحاجة إلى تكلف تأويل الآيات على خلاف ما كان عليه علماء التفسير سلفًا وخلفًا ولشيء من التكلف الذي لا يحتمله سياق الآيات وسباقها، فلا أجد هذا الذي نقل عن الشيخ الشعرواي صوابًا بل هو مخالف لما هو عليه علماء التفسير، نعم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر السابق (٩/ ٣٤٥): عن سهل بن سعد في الصحيحين قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: «يحشر الناس على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي» وهناك حديث عائشة في مسلم عندما سألته عن مكان الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض، فقال: على الصراط، ولكننا نعلم أن الناس يساقون على أرض المحشر أولًا وقبل أن

يصلوا إلى الصراط فهل يكون هناك تبديل قبل الوصول إلى الصراط؟ أفيدونا جزاكم الله خيرًا؟

الشيخ: لا جواب عندي في مثل هذه الأمور الغيبية، ولا يجوز الخوض فيها

بالرأي وإنما كما قال: {وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (النساء:٦٥)، نعم.

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٣٥): كيف تدنو الشمس يوم القيامة من الخلائق مقدار ميل، ولا تحرقهم، وهي لو دنت عما هي عليه الآن بمقدار شبر واحد لاحترقت الأرض؟ .

فأجاب: إن وظيفة المؤمن - وهذه قاعدة يجب أن تبنى عليها عقيدتنا - فيما ورد من أخبار الغيب القبول والتسليم، وأن لا يسأل عن كيف؟ ولم؟؛ لأن هذا أمر فوق ما تتصوره أنت، فالواجب عليك أن تقبل وتسلم وتقول: آمنا وصدقنا، آمنا بأن الشمس تدنو من الخلائق يوم القيامة بمقدار ميل، وما زاد على ذلك من الإيرادات فهو من البدع، ولهذا لما سئل الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ عن استواء الله كيف استوى؟ قال: "السؤال عنه بدعة". هكذا أيضا كل أمور الغيب السؤال عنها بدعة، وموقف الإنسان منها القبول والتسليم.

جواب الشق الثاني: بالنسبة لدنو الشمس من الخلائق يوم القيامة فإننا نقول:

إن الأجسام تبعث يوم القيامة لا على الصفة التي عليها في الدنيا من النقص، وعدم التحمل، بل هي تبعث بعثا كاملا تاما، ولهذا يقف الناس يوم القيامة يوما مقداره خمسون ألف سنة لا يأكلون ولا يشربون، وهذا أمر لا يحتمل في الدنيا، فتدنو الشمس منهم وأجسامهم قد أعطيت من القوة ما يتحمل دنوها، ومن ذلك ما ذكرناه من الوقوف خمسين ألف سنة، لا يحتاجون إلى طعام، ولا شراب، فالأجسام يوم القيامة لها شأن آخر غير شأنها في هذه الدنيا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر السابق (٢/ ٣٦): قلتم في الفتوى السابقة رقم "١٦١": إن الأجسام تبعث يوم القيامة لا على الصفة التي هي عليها في الدنيا،

والله ﷻ يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾،، فنأمل من فضيلتكم توضيح ذلك؟ .

فأجاب: هذا لا يشكل على ما قلنا؛ لأن المراد بقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ من حيث الخلق، فهو كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، فالمعنى: أنه كما بدأ خلقكم، وقدر عليه فإنكم تعودون كذلك بقدرة الله ﷻ.

وسئل رحمه الله في نفس المصدر السابق (٢/ ٣٧): كيف نجمع بين قول النبي ﷺ: «من نوقش الحساب عذب». رواه البخاري من حديث عائشة، ومناقشة المؤمن في قوله ﷺ: «إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته». الحديث رواه البخاري؟.

فأجاب: ليس في هذا إشكال؛ لأن المناقشة معناها: أن يحاسب، فيطالب بهذه النعم التي أعطاه الله إياها؛ لأن الحساب الذي فيه المناقشة معناه: أنك كما تأخذ تعطي، ولكن حساب الله لعبده المؤمن يوم القيامة ليس على هذا الوجه، بل إنه مجرد فضل من الله تعالى إذا قرره بذنوبه، وأقر واعترف قال: "سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم "، وكلمة نوقش تدل على هذا؛ لأن المناقشة الأخذ والرد في الشيء، والبحث على دقيقه وجليله، وهذا لا يكون بالنسبة لله ﷻ مع عبده المؤمن، بل إن الله تعالى يجعل الحساب للمؤمنين مبنيا على الفضل والإحسان، لا على المناقشة والأخذ بالعدل.

وسئل رحمه الله في نفس المصدر السابق (٢/ ٣٨): كيف يحاسب الكافر يوم القيامة، وهو غير مطالب بالتكاليف الشرعية؟ .

فأجاب: هذا السؤال مبني على فهم ليس بصحيح، فإن الكافر مطالب بما يطالب به المؤمن، لكنه غير ملزم به في الدنيا، ويدل على أنه مطالب قوله تعالى: {إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ} .

فلولا أنهم عوقبوا بترك الصلاة، وترك إطعام المساكين ما ذكروه؛ لأن ذكره في هذه الحال لا فائدة منه، وذلك دليل على أنهم يعاقبون على فروع الإسلام، وكما أن هذا هو مقتضى الأثر، فهو أيضا مقتضى النظر، فإذا كان الله تعالى يعاقب عبده المؤمن على ما أخل به من واجب في دينه فكيف لا يعاقب الكافر؟، بل إني أزيدك أن الكافر يعاقب على كل ما أنعم الله به عليه من طعام وشراب وغيره، قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} ، فمنطوق الآية رفع الجناح عن المؤمنين فيما طعموه، ومفهومها وقوع الجناح على الكافرين فيما طعموه، وكذلك قوله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} ، فإن قوله: {قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} . دليل على أن غير المؤمن ليس له حق في أن يستمتع بها في الدنيا.

أقول: ليس له حق شرعي، أما الحق بالنظر إلى الأمر الكوني وهو أن الله سبحانه وتعالى خلقها، وانتفع بها هذا الكافر، فهذا أمر لا يمكن إنكاره، فهذا دليل على أن الكافر يحاسب حتى على ما أكل من المباحات وما لبس، وكما أن

هذا مقتضى الأثر فإنه مقتضى النظر، إذ كيف يحق لهذا الكافر العاصي لله الذي لا يؤمن به كيف يحق له عقلا أن يستمتع بما خلقه الله ﷻ وما أنعم الله به على عباده، وإذ تبين لك هذا، فإن الكافر يحاسب يوم القيامة على عمله، ولكن حساب الكافر يوم القيامة ليس كحساب المؤمن؛ لأن المؤمن يحاسب حسابا يسيرا، يخلو به الرب ﷻ ويقرره بذنوبه حتى يعترف، ثم يقول له -سبحانه وتعالى-: «قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم» .

أما الكافر -والعياذ بالله- فإن حسابه أن يقرر بذنوبه، ويخزى بها على رءوس الأشهاد: {وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} .

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في فتاوى نور على الدرب: كيف يقوم الناس من قبورهم يوم القيامة؟.

فأجاب: يقوم الناس من قبورهم حفاةً عراةً غرلًا بُهمًا. أما حفاةً فمعناه: أنه ليس في أقدامهم نعالٌ ولا خفاف ولا جوارب، وأما عراة فمعناه: أنه ليس عليهم ثياب، العورات بادية، كما خرجوا من بطون أمهاتهم يخرجون من بطون الأرض، كما قال الله تعالى: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ). غرلًا أي: غير مختونين، أي: إن القلفة التي تقطع في الختان في الدنيا- وهي الجلدة التي على رأس الذكر- تعاد يوم القيامة، حتى يخرج الناس من قبورهم كما خرجوا من بطون أمهاتهم غير مختونين، وأما بُهمًا فمعناه: أنه ليس معهم مال يعرفون به، فلا درهم ولا دينار ولا متاع ولا شيء ما هي إلا الأعمال الصالحة، هكذا يخرج الناس من قبورهم لرب العالمين جل وعلا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في فتاوى نور على الدرب: هل صحيح أن يوم القيامة

يخفف على المؤمن حتى يصير كأنه وقت قصير جدًّا؟ أرجو بهذا إفادة؟.

فأجاب: لاشك أن المؤمن يخفف عنه ذلك اليوم حتى يكون يسيرًا جدًّا، ودليل ذلك في كتاب الله ﷻ، قال الله تبارك وتعالى: (وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا). وقال تعالى: (عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ). وقال تعالى: (يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ). وكل هذا يدل أن هذا اليوم يكون يسيرًا على المؤمنين، وبقدر ما يكون الإيمان عند العبد يكون اليسر في ذلك اليوم؛ لأن الجزاء من جنس العمل، نسأل الله أن ييسر علينا وعلى إخواننا المسلمين أهوال ذلك اليوم.

(باب ذكر مباحث التوسل)

قال العلامة الألباني في كتابه القيم: التوسل أنواعه وأحكامه:

الفصل الأول: التوسل في اللغة والقرآن

معنى التوسل في لغة العرب: وقبل الخوض في هذا الموضوع بتفصيل، أحب أن ألفت النظر إلى سبب هام من أسباب سوء فهم كثير من الناس لمعنى التوسل، وتوسعهم فيه، وإدخالهم فيه ما ليس منه، وذلك هو عدم فهمهم لمعناه اللغوي، وعدم معرفتهم بدلالته الأصلية، ذلك أن لفظة (التوسل) لفظة عربية أصيلة، وردت في القرآن والسنة وكلام العرب من شعر ونثر، وقد عنى بها: التقرب إلى المطلوب، والتوصل إليه برغبة، قال ابن الأثير في "النهاية": (الواسل: الراغب، والوسيلة: القربة والواسطة، وما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به، وجمعها وسائل) وقال الفيروز أبادي في "القاموس": (وسل إلى الله تعالى توسيلًا: عمل عملًا تقرب به إليه كتوسل) وقال ابن فارس في "معجم المقاييس": (الوسيلة: الرغبة والطلب، يقال: وسل إذا رغب، والواسل: الراغب إلى الله ﷻ، وهو في قول لبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدْرُ أمرهم ... لى، كل ذي دين إلى الله واسلُ

وقال الراغب الأصفاني في "المفردات": (الوسيلة: التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصيلة، لتضمنها لمعنى الرغبة، قال تعالى: (وابتغوا إليه الوسيلة)، وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى: مراعاة سبيله بالعمل والعبادة، وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقربة، والواسل: الراغب إلى الله تعالى).

وقد نقل العلامة ابن جرير هذا المعنى أيضًا وأنشد عليه قول الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافي بيننا والوسائل

هذا وهناك معنى آخر للوسيلة هو المنزلة عند الملك، والدرجة والقربة، كما ورد في الحديث تسمية أعلى منزلة في الجنة بها، وذلك هو قوله ﷺ: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل

ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة) .

وواضح ان هذين المعنيين الأخيرين للوسيلة وثيقا الصلة بمعناها الأصلي، ولكنهما غير مرادين في بحثنا هذا.

معنى الوسيلة في القرآن

إن ما قدمته من بيان معنى التوسل هو المعروف في اللغة، ولم يخالف فيه أحد، وبه فسر السلف الصالح وأئمة التفسير الآيتين الكريمتين اللتين وردت فيهما لفظة (الوسيلة)، وهما قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون) [المائدة: ٣٥]، وقوله سبحانه: (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورًا) [الإسراء: ٥٧].

فأما الآية الأولى، فقد قال إمام المفسرين الحافظ ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها: (يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله فيما أخبرهم، ووعد من الثواب، وأوعد من العقاب. (اتقوا الله) يقول: أجيبوا الله فيما أمركم، ونهاكم بالطاعة له في ذلك.(وابتغوا إليه الوسيلة): يقول: واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه).

ونقل الحافظ ابن كثير عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن: معنى الوسيلة فيها القربة، ونقل مثل ذلك عن مجاهد وأبي وائل والحسن وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد، ونقل عن قتادة قوله فيها: (أي تقربوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه) ثم قال ابن كثير: (وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه.. والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود).

وأما الآية الثانية فقد بين الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مناسبة نزولها التي توضح معناها فقال: (نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ :(أي استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن، والجن لا يرضون بذلك، لكونهم أسلموا، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة، وهذا هو المعتمد في تفسير الآية).

قلت: وهي صريحة في أن المراد بالوسيلة ما يتقرب به إلى الله تعالى، ولذلك قال: (يبتغون) أي يطلبون ما يتقربون به إلى الله تعالى من الأعمال الصالحة، وهي كذلك تشير

إلى هذه الظاهرة الغريبة المخالفة لكل تفكير سليم، ظاهره أن يتوجه بعض الناس بعبادتهم ودعائهم إلى بعض عباد الله، يخافونهم ويرجونهم، مع أن هؤلاء العباد المعبودين قد أعلنوا إسلامهم، وأقروا لله بعبوديتهم، وأخذوا يتسابقون في

التقرب إليه سبحانه، بالأعمال الصالحة التي يحبها ويرضاها، ويطمعون في رحمته، ويخافون من عقابه، فهو سبحانه يُسَفه في هذه الآية أحلام أولئك الجاهلين الذين عبدوا الجن، واستمروا على عبادتهم مع أنهم مخلوقون عابدون له سبحانه، وضعفاء مثلهم، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، وينكر الله عليهم عدم توجيههم بالعبادة إليه وحده، تبارك وتعالى، وهو الذي يملك وحده الضر والنفع، وبيده وحده مقادير كل شيء وهو المهيمن على كل شيء.

الأعمال الصالحة وحدها هي الوسائل المقربة إلى الله

ومن الغريب أن بعض مدعي العلم اعتادوا الاستدلال بالآيتين السابقتين على ما يلهج به كثير منهم من التوسل بذوات الأنبياء أو حقهم أو حرمتهم أو جاههم، وهو استدلال خاطى لا يصح حمل الآيتين عليه، لأنه لم يثبت شرعًا أن هذا التوسل مشروع مرغوب فيه، ولذلك

لم يذكروا هذا الاستدلال أحد من السلف الصالح، ولا استحبوا التوسل المذكور، بل الذي فهموه منهما أن الله تبارك وتعالى يأمرنا بالتقرب إليه بكل رغبة، والتقدم إليه بك قربة، والتوصل إلى رضاه بكل سبيل.

ولكن الله سبحانه قد علمنا في نصوص أخرى كثيرة أن علينا إذا أردنا التقرب إليه أن نتقدم إليه بالإعمال الصالحة التي يحبها ويرضاها، وهو لم يكل تلك الأعمال إلينا، ولم يترك تحديدها إلى عقولنا وأذواقنا، لأنها حينذاك ستختلف وتتباين، وستضطرب وتتخاصم، بل أمرنا سبحانه أن نرجع إليه في ذلك، ونتبع إرشاده وتعليمه فيه، لأنه لا يعلم ما يرضي الله ﷻ إلا الله وحده، فلهذا كان من الواجب علينا حتى نعرف الوسائل المقربة إلى الله أن نرجع في كل مسألة إلى ما شرعه الله سبحانه، وبينه رسول الله ﷺ، ويعني ذلك أن نرجع إلى

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهذا هو الذي وصانا به رسولنا محمد صلوات الله عليه وسلامه حيث قال: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله).

متى يكون العمل صالحًا

وقد تبين من الكتاب والسنة أن العمل حتى يكون صالحًا مقبولًا يقرب إلى الله سبحانه، فلا بد من أن يتوفر فيه أمران هامان عظيمان، أولهما: أن يكون صاحبه قد قصد به وجه الله ﷻ، وثانيهما: أن يكون موافقًا لما شرعه الله تبارك وتعالى في كتابه، أو بينه رسوله في سنته، فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم يكن العمل صالحًا ولا مقبولًا.

ويدل على هذا قوله تبارك وتعالى: (فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملًا صالحًا، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا) [الكهف: ١١٠] فقد أمر سبحانه أن يكون العمل صالحًا، أي موافقًا للسنة، ثم أمر أن يخلص به صاحبه لله، لا يبتغي به سواه.

قال الحافظ ابن كثير في "تفسيره": (وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ) وروي مثل هذا عن القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره.

الفصل الثاني: الوسائل الكونية والشرعية

إذا عرفنا أن الوسيلة هي السبب الموصل إلى المطلوب برغبة فاعلم أنها تنقسم إلى قسمين، وسيلة كونية، ووسيلة شرعية.

فأما الوسيلة الكونية فهي كل سبب طبيعي يوصل إلى المقصود بخلقته التي خلقها الله بها، ويؤدي إلى المطلوب بفطرته التي فطره الله عليها، وهي مشتركة

بين المؤمن والكافر من غير تفريق، ومن أمثلتها الماء فهو وسيلة إلى ريّ الإنسان، والطعام وسيلة إلى شبعه، واللباس وسيلة إلى حمايته من الحر والقر، والسيارة وسيلة إلى انتقاله من مكان إلى مكان، وهكذا.

وأما الوسيلة الشرعية فهي كل سبب يوصل إلى المقصود عن طريق ما شرعه الله تعالى، وبينه في كتابه وسنة نبيه، وهي خاصة بالمؤمن المتبع أمر الله ورسوله.

ومن أمثلتها النطق بالشهادتين بإخلاص وفهم وسيلة إلى دخول الجنة والنجاة من الخلود في النار، وإتباع السيئة الحسنة وسيلة إلى محو السيئة، وقول الدعاء المأثور بعد الأذان وسيلة إلى نيل شفاعة النبي ﷺ، وصلة الأرحام وسيلة لطول العمر وسعة الرزق، وهكذا.

فهذه الأمور وأمثالها إنما عرفنا أنها وسائل تحقق تلك الغايات والمقاصد عن طريق الشرع وحده، لا عن طريق العلم أو التجربة أو الحواس، فنحن لم نعلم أن صلة الرحم تطيل العمر وتوسع الرزق إلا من قوله صلوات الله وسلامه عليه:(من أحب أن يُبْسَط له في رزقه، وأن يُنْسَأ له في أثره فَلْيَصِلْ رحمه). وهكذا الأمثلة الأخرى.

ويخطىء الكثيرون في فهم هذه الوسائل بنوعيها خطأ كبيرًا، ويهمون وهمًا شنيعًا، فقد يظنون سببًا كونيًا ما يوصل إلى غاية معينة، ويكون الأمر بخلاف ما يظنون، وقد يعتقدون سببًا شرعيًا ما يؤدي إلى مقصد شرعي معين، ويكون الحق بخلاف ما يعتقدون.

فمن أمثلة الوسائل الباطلة شرعًا وكونًا في آن واحد، ما يراه المار في شارع النصر في دمشق في كثير من الاحيان، إذ يجد بعض الناس قد وضعوا أمامهم

مناضد صغيرة، وعليها حيوان صغير يشبه الفأر الكبير، وقد وضع بجانبه بطاقات مضمومة كتب فيها عبارات فيها توقعات لحظوظ الناس، كتبها صاحب الحيوان، أو أملاها عليه بعض الناس كما شاء لهم جهلهم وهواهم، فيمر الصديقات الحميمان فيقول أحدهم للأخر: تعال لنرى حظنا ونصيبنا، فيدفعان للرجل بضعة قروش، فيدفع الحوين لسحب بطاقة ما، ويعطيها أحدهما فيقرؤها، ويطالع حظه المزعوم فيها !

ترى ما مبلغ عقل هذا الإنسان الذي يتخذ الحيوان دليلًا ليعلمه ما جهله، وليطلعه على ما غُيّب عنه من قدره ؟

إنه إن كان يعتقد فعلًا أن هذا الحيوان يعلم الغيب فلا شك أن الحيوان خير منه، وإن كان لا يعتقد ذلك ففعله هذا عبث وسخف وإضاعة وقت ومال يتنزه عنه العقلاء. كما أن تعاطي هذا العمل تدجيل وتضليل وأكل لأموال الناس بالباطل.

ولا شك أن لجوء الناس إلى هذا الحيوان لمعرفة الغيب وسيلة كونية بزعمهم، ولكنها باطلة تدحضها التجربة، ويهدمها النظر السليم، فهي وسيلة خرافية أدى إليها الجهل والدجل، وهي من الناحية الشرعية باطلة أيضًا تخالف الكتاب والسنة والإجماع، ويكفي في ذلك مخالفتها لقوله سبحانه في الثناء على نفسه: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول..) [الجن: ٢٦-٢٧].

ومن الأسباب الكونية الموهومة ظن بعضهم انه إذا سافر أو تزوج مثلًا يوم الأربعاء أخفق في سفره وخاب في زواجه، واعتقادهم أنه من شرع في عمل هام فرأى أعمى أو ذو عاهة لم يتم عمله ولم ينجح فيه !

ومن هذه الأسباب أيضًا ظن كثير من العرب والمسلمين اليوم أنهم بعددهم الكبير فقط ينتصرون على أعدائهم من الصهاينة والمستعمرين، وأنهم على وضعهم الذي هم عليه سيرمون اليهود في البحر، وقد أثبتت التجارب خطأ هذه الظنون وبطلانها، وأن الأمر أعمق من أن يعالج بهذه الطريقة السطحية.

ومن الأسباب الشرعية الموهومة اتخاذ بعض الناس أسبابًا يظنونها تقربهم إلى الله سبحانه، وهي تبعدهم منه في الحقيقة، وتجلب لهم السخط والغضب، بل واللعنة والعذاب، فمن ذلك استغاثة بعضهم بالموتى المقبورين من الأولياء والصالحين، ليقضوا لهم حوائجهم التي لا يستطيع قضاءها إلا الله سبحانه وتعالى، كطلبهم منهم دفع الضر وشفاء السقم، وجلب الرزق وإزالة العقم، والنصر على العدو وأمثال ذلك، فيتمسحون بحديد الأضرحة وحجارة القبور، ويهزونها أو يلقون إليها أوراقًا كتبوا فيها طلباتهم ورغابتهم، فهذه وسائل شرعية بزعمهم، ولكنها في الحقيقة باطلة، ومخالفة لأساس الإسلام الأكبر الذي هو العبودية لله تعالى وحده، وإفراده سبحانه بجميع أنواعها وفروعها.

ومن ذلك اعتقاد بعضهم الصدق في خبر يتحدث به إنسان ما إذا عطس هو أو أحد الحاضرين عند تحدثه بذلك.

ومنها اعتقادهم بأن أحدًا من أصحابهم أو أقربائهم يذكرهم بخير إذا طنت آذانهم،وكذلك اعتقادهم بأن بلاء ينزل عليهم إذا قصوا أظافرهم في الليل وفي أيام السبت والأحد ...، أو إذا كنسوا بيوتهم ليلًا...، ومنها اعتقادهم أنهم إذا حسنوا ظنهم بحجر واعتقدوا فيه فإنه ينفعهم.

فهذه وأمثالها اعتقادات باطلة، بل خرافات وترهات، وظنون وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان، وقد رأيت أن أصلها أحاديث موضوعة مكذوبة، لعن

الله واضعها، وقبح ملفقها.

وعلى هذا فإن الوسائل الكونية منها ما هو مباح أذن الله به، ومنها ما هو حرام نهى الله عنه، وقد ذكرت فيما سبق أمثلة من هذه الوسائل بنوعيها مما يَهم الناس فيه، ويظنونه مباحًا وموصولًا إلى القصد مع أنه بعكس ذلك، وأذكر فيما يلي بعض الأمثلة على الوسائل الكونية المشروعة وغير المشروعة.

فمن الوسائل الكونية المشروعة للكسب والحصول على الرزق اتخاذ البيع والشراء والتجارة والزراعة والإجارة، ومن الوسائل الكونية المحرمة الإقراض بالربا وبيع العينة والاحتكار والغش والسرقة، والميسر وبيع الخمور والتماثيل، ومن أدلة ذلك قوله تعالى: (وأحل الله البيع وحرم الربا) [البقرة: ٢٧٥].

فكل من البيع والربا سبب كوني لكسب الرزق، ولكن الله تعالى أحل الأول، وحرم الثاني.

كيف تعرف صحة الوسائل ومشروعيتها

والطريق الصحيح لمعرفة مشروعية الوسائل الكونية والشرعية هو الرجوع إلى الكتاب والسنة، والتثبت مما ورد فيهما عنها، والنظر في دلالات نصوصهما، وليس هناك طريق آخر لذلك البتة.

فهناك شرطان لجواز استعمال سبب كوني ما، الأول أن يكون مباحًا في الشرع، والثاني أن يكون قد ثبت تحقيقه للمطلوب، أو غلب ذلك على الظن.

وأما الوسيلة الشرعية فلا يشترط فيها إلا ثبوتها في الشرع ليس غير.

فاتخاذ الحيوان في المثال الاسبق وسيلة مزعومة لمعرفة الغيب هو من الناحية الكونية باطل تدحضه التجربة والنظر، ومن الناحية الشرعية كفر وضلال، بين الله بطلانه وحذر منه.

وكثيرًا ما يخلط الناس في هذه الأمور، فيظنون أنه بمجرد ثبوت النفع بوسيلة ما تكون هذه الوسيلة جائزة ومشروعة، فقد يحدث أن يدعو أحدهم وليًا، أو يستغيث بميت فيتحقق طلبه، وينال رغبته، فيدعي أن هذا دليل على قدرة الموتى والأولياء على إغاثة الناس، وعلى جواز دعائهم والاستغاثة بهم، وما حجته في ذلك غير حصوله على طلبه، وقد قرأنا مع الأسف في بعض الكتب الدينية أشياء كثيرة من هذا القبيل، إذ يقول مسطرها، أو ينقل عن بعضهم قوله مثلًا: إنه وقع في شدة، واستغاث بالولي الفلاني، أو الصالح العلاني، وناداه باسمه، فحضر حالًا، أو جاءه في النوم فأغاثه، وحقق له ما أراد.

وما درى هذا المسكين وأمثاله أن هذا - إن صح وقوعه - استدراج من الله ﷻ للمشركين والمبتدعين، وفتنة منه سبحانه لهم، ومكر منه بهم، جزاءًا وفاقًا على إعراضهم عن الكتاب والسنة، واتباعهم لأهوائهم وشياطينهم.

فهذا الذي يقول ذاك الكلام يجيز الاستغاثة بغير الله تعالى، هذه الاستغاثة التي هي الشرك الأكبر بعينه، بسبب حادثة وقعت له أو لغيره، ويمكن أن تكون هذه الحادثة مختلقة من أصلها، أو محرفة ومضخمة لإضلال بني آدم، كما يمكن أن تكون صحيحة، وراويها صادقًا فيما أخبر، ولكنه أخطأ في حكمه على المنقذ والمغيث، فظنه وليًا صالحًا، وإنما هو شيطان رجيم، فعل ذلك عن قصد خبيث، هو تلبيس الأمور على الناس، وإيقاعهم في حبائل الكفر والضلال من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

وقد تضافرت الأخبار على أن المشركين في الجاهلية كانوا يأتون إلى الصنم، وينادونه فيسمعون صوتًا، فيظنون أن الذي يكلمهم ويجيبهم إنما هو معبودهم الذي قصدوه من دون الله، وليس هو في الحقيقة والواقع غير شيطان

لعين يريد إضلالهم، وإغراقهم في العقائد الباطلة.

والمقصود من ذلك كله أن تعرف أن التجارب والأخبار ليست الوسيلة الصحيحة لمعرفة مشروعية الأعمال الدينية، بل الوسيلة الوحيدة المقبولة لذلك هي الاحتكام للشرع المتمثل في الكتاب والسنة وليس غير.

وأهم ما يخلط فيه كثير من الناس في هذا الباب الاتصال بعالم الغيب بطريقة من الطرق، كإتيان الكهان والعرافين، والمنجمين والسحرة والمشعوذين، فتراهم يعتقدون في هؤلاء معرفة الغيب، لأنهم يحدثونهم عن بعض الأمور المغيبة عنهم، ويكون الأمر وفق ما يحدثون أحيانًا، ويظنون ذلك جائزًا مباحًا، بدليل وقوعه كما يخبرون. وهذا خطأ جسيم، وضلال مبين، فإن مجرد حصول منفعة ما بواسطة ما لا يكفي لإثبات مشروعية هذه الواسطة، فبيع الخمر مثلًا قد يؤدي إلى منفعة صاحبه وغناه وثروته، وكذلك الميسر واليانصيب أحيانًا، ولذلك قال ربنا تبارك وتعالى فيهما: (يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير، ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما) [سورة البقرة: الآية: ٢١٩] ومع ذلك فهما محرمان، وملعون في الخمر عشرة كما ثبت في الحديث .

فإتيان الكهان كذلك حرام، لأنه قد ثبت في الدين النهي عنه، والتحذير منه، قال النبي ﷺ: (من أتى كاهنًا، فصدقه بما يقول فقد بريء مما أنزل على محمد) .

وقال ﷺ: (من أتى عرافًا، فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة).

وقال معاوية بن الحكم السلمي للنبي ﷺ: إن منا رجالًا يأتون الكهان؟ فقال ﷺ: (فلا تأتهم...) .

وقد بين الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه طريقة حصول الكهان والسحرة على بعض المغيبات بقوله ﷺ: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كالسلسلة على صفوان، فإذا فُزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر، ووصف سفيان - أحد رواة الحديث - (وهو ابن عيينة كما قال الحافظ ابن كثير في "تفسيره" (٣/ ٥٣٧) بيده، وفرَّج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل ان يرمي بها إلى صاحبه، وربما لم تدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه، الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الساحر، فيكذب معها مائة كذبة، فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا، يكون كذا وكذا، فوجدناه حقًا؟(للكلمة التي سُمعت من السماء) .

وورد مثل هذا في حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ جالسًا في نفر من أصحابه، فاستنار نجم، فقال ﷺ: (ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟) قالوا: كنا نقول: يولد عظيم أو يموت عظيم، فقال رسول الله ﷺ: (فإنها لا يُرْمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن السمع، فيُرمَون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون) .

فمن هذين الحديثين وغيرهما نعلم أن الاتصال بين الإنس والجن واقع،

وأن الجني يخبر الكاهن ببعض الأخبار الصادقة، فيضيف إليها الكاهن أخبارًا أخرى ملفقة من عنده، فيحدث الناس، فيطلعون على صدق بعضها، ومع ذلك فقد نهى الشارع الحكيم عن إتيان هؤلاء الكهان، وحذر من تصديقهم فيما يقولون، كما مر معنا آنفًا.

وبهذه المناسبة فلا يفوتنا أن نذكر أن الكهانة والعرافة والتنجيم ما يزال لها أثر كبير على كثير من الناس، حتى في عصرنا هذا الذي يدعي أهله أنه عصر العلم والتفكير، والتمدن والثقافة، ويظنون أن الكهانة والشعوذة والسحر قد ولّت أيامها وانقضى سلطانها، ولكن الذي يمكن النظر، ويطلع على خفايا ما يحدث هنا وهناك يعلم علم اليقين أنها ما تزال تسيطر على كثيرين، ولكنها لبست لبوسًا جديدًا، وتدبت بأشكال عصرية، لا يفطن إلى حقيقتها إلا القليل، وما استحضار الأرواح ومخاطبتها، والاتصال بها بأنواعه المختلفة إلا شكل من أشكال هذه الكهانة الحديثة التي تضلل الناس، وتفتنهم عن دينهم، وتربطهم بالأوهام والأباطيل، ويظنونها حقيقة وعلمًا، ودينًا، والحقيقة والعلم والدين منها بُرءاء.

والخلاصة أن الأسباب الكونية، وما يُظن أنه من الأسباب الشرعية لا يجوز إثباتها،

ولا تعاطيها إلا بعد ثبوت جوازها في الشرع، كما يجب في الأسباب الكونية إثبات صحتها وفائدتها بالنظر والتجربة.

ومما يجب التنبه له، أن ما ثبت كونه وسيلة كونية، فإنه يكفي في إباحته والأخذ به، أن

لا يكون في الشرع النهي عنه، وفي مثله يقول الفقهاء: الأصل في الأشياء

الإباحة.وأما الوسائل الشرعية، فلا يكفي في جواز الأخذ بها، أن الشارع الحكيم لم ينه عنها، كما يتوهمه الكثيرون بل لا بد فيها من ثبوت النص الشرعي المستلزم مشروعيتها واستحبابها.لأن الاستحباب شيء زائد على الإباحة، فإنه مما يتقرب إلى الله تعالى، والقربات لا تثبت بمجرد عدم ورود النهي عنها، ومن هنا قال بعض السلف: (كل عبادة لم يتعبدها اصحاب رسول الله ﷺ فلا تتعبدوها)، وهذا مستفاد من أحاديث النهي عن الابتداع في الدين وهي معروفة، ومن هنا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (الأصل في العبادات المنع إلا لنص، وفي العادات الإباحة إلا لنص). فاحفظ هذا فإنه هام جدًا يساعدك على استبصار الحق فيما اختلف فيه الناس.

الفصل الثالث: التوسل المشروع وأنواعه

عرفنا مما سبق أن هناك قضيتين مستقلتين، أولاهما وجوب أن يكون التوسل به مشروعًا، وذلك لا يعرف إلا بدليل صحيح من الكتاب والسنة، وثانيهما أن يكون التوسل بسبب كوني صحيحًا يوصل إلى المطلوب.

ونحن نعلم أن الله ﷻ أمرنا بدعائه سبحانه والاستغاثة به، فقال: (وقال ربكم ادعوني استجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) [غافر: ٦٠]. وقال تعالى: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداعِ إذا دعان، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) [البقرة: ١٧٨].

وقد شرع لنا عز شأنه أنواعًا من التوسلات المشروعة المفيدة المحققة للغرض، والتي تكفل الله بإجابة الداعي بها، إذا توفرت شروط الدعاء الأخرى، فلننظر الآن فيم تدل عليه النصوص الشرعية الثابتة من التوسل دون تعصب او تحيز.

إن الذي ظهر لنا بعد تتبع ما ورد في الكتاب الكريم والسنة المطهرة أن هناك ثلاثة أنواع للتوسل شرعها الله تعالى، وحث عليها، وَرَدَ بعضها في القرآن، واستعملها الرسول ﷺ وحض عليها، وليس في هذه الأنواع التوسل بالذوات أو الجاهات أو الحقوق أو المقامات، فدل ذلك على عدم مشروعيته وعدم دخوله في عموم (الوسيلة) المذكورة في الآيتين السالفتين.

أما الأنواع المشار إليها من التوسل المشروع فهي:

١- التوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى، أو صفة من صفاته العليا: كأن يقول المسلم في دعائه: اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم، اللطيف الخبير أن تعافيني.

أو يقول: أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني وتغفر لي. ومثله قول القائل: اللهم إني أسألك بحبك لمحمد ﷺ. فإن الحب من صفاته تعالى.

ودليل مشروعية هذا التوسل قوله ﷻ: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) [الأعراف: ١٨٠].والمعنى: ادعوا الله تعالى متوسلين إليه بأسمائه الحسنى. ولا شك أن صفاته العليا ﷻ داخلة في هذا الطلب، لأن أسماءه الحسنى سبحانه صفات له، خصت به تبارك وتعالى.

ومن ذلك ما ذكره الله تعالى من دعاء سليمان عليه السلام حيث قال: (قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحًا ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) [النمل: ١٩].

ومن الأدلة أيضًا قول النبي ﷺ في أحد أدعيته الثابتة عنه قبل السلام من صلاته ﷺ: (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت

الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خير لي..) .

ومنها أنه ﷺ سمع رجلًا يقول في تشهده: (اللهم إني أسألك يا الله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم) فقال ﷺ (قد غفر له قد غفر له).

وسمع النبي ﷺ رجلًا آخر يقول في تشهده: (اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، المنان يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم، إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار) فقال النبي ﷺ لأصحابه: (تدرون بما دعا؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه العظيم (وفي رواية: الأعظم) الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطي.

ومنها قوله ﷺ: (من كثر همه فليقل: (اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحد من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي) إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرجا).

ومنها ما ورد في استعاذته ﷺ وهي قوله: (اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني..) .

ومنها ما رواه أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ: (كان إذا حزبه -أي اهمه وأحزنه- أمر قال: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث) .

فهذه الأحاديث وما شابهها تبين مشروعية التوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه أو صفه من صفاته، وأن ذلك مما يحبه الله سبحانه ويرضاه، ولذلك

استعمله رسول الله ﷺ، وقد قال الله تبارك وتعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه) [سورة الحشر: الآية ٨]. فكان من المشروع لنا أن ندعوه سبحانه بما دعاه به رسوله ﷺ، فذلك خير ألف مرة من الدعاء بأدعية ننشئها، وصيغ نخترعها.

٢ ـ التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به الداعي: كأن يقول المسلم: اللهم بإيماني بك، ومحبتي لك، واتباعي لرسولك اغفر لي.. أو يقول: اللهم إني أسألك بحبي لمحمد ﷺ وإيماني به أن تفرج عني.. ومنه أن يذكر الداعي عملًا صالحًا ذا بالٍ، فيه خوفه من الله سبحانه، وتقواه إياه، وإيثاره رضاه على كل شيء، وطاعته له جل شأنه، ثم يتوسل به إلى ربه في دعائه، ليكون أرجى لقبوله وإجابته.

وهذا توسل جيد وجميل قد شرعه الله تعالى وارتضاه، ويدل على مشروعيته قوله تعالى: (الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) [سورة آل عمران: الآية ١٦] وقوله: (ربنا آمنا بما أنزلت وتبعت الرسول فاكتبا مع الشاهدين) [سورة آل عمران: الآية ٥٣] وقوله: (إننا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) [سورة أل عمران: الآيتان ١٩٣ و١٩٤]. وقوله: (إنه كان فريق من عبادي يقولون: ربنا آمنا فاغفر لنا، وارحمنا، وأنت خير الراحمين) [سورة المؤمنون: الآية ١٠٩] وأمثال هذه الآيات الكريمات المباركات. وكذلك يدل على مشروعية هذا النوع من التوسل ما رواه بريدة بن الحُصَيب رضي الله عنه حيث قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يقول: (اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحدًا)، فقال: (قد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب) .

ومن ذلك ما تضمنته قصة أصحاب الغار، كما يرويها عبد الله ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار، فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم (وفي رواية لمسلم: فقال بعضهم لبعض: انظروا إعمالًا عملتموها صالحة لله، فادعوا الله بها، لعل الله يفرجها عنكم). فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبُقُ قبلهما أهلا ولا مالا، فنأى بي طلب شيء (وفي رواية لمسلم: الشجر) يومًا، فلم أرِحْ عليهما، حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا أو مالا، فلبثت والقدح على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج.

قال النبي ﷺ: قال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني حتى ألمت بها سَنَة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومئة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أحل لك أن تفض (وفي رواية لمسلم: يا عبد الله اتق الله، ولا تفتح) الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

قال النبي ﷺ: وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء، فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره، حتى كثرت منه الأموال،

فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدّ لي أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك، من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبد الله ! لا تستهزئ بي. فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله، فاستاقه، فلم يترك منه شيئًا. اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة ... فخرجوا يمشون).

ويتضح من هذا الحديث أن هؤلاء الرجال المؤمنين الثلاثة حينما اشتد بهم الكرب، وضاق بهم الأمر، ويئسوا من أن يأتيهم الفرج من كل طريق إلا طريق الله تبارك وتعالى وحده، فلجأوا إليه، ودعوه بإخلاص واستذكروا أعمالًا لهم صالحة، كانوا تعرفوا فيها إلى الله في أوقات الرخاء، راجين أن يتعرف إليهم ربهم مقابلها في أوقات الشدة، كما ورد في حديث النبي ﷺ الذي فيه: (.. تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) فتوسلوا إليه سبحانه بتلك الأعمال؛ توسل الأول ببره والديه، وعطفه عليهما، ورأفته الشديدة بهما حتى كان منه ذلك الموقف الرائع الفريد، وما أحسب إنسانًا آخر، حاشا الأنبياء ـ يصل بره بوالديه إلى هذا الحد.

وتوسل الثاني بعفته من الزنى بابنة عمه التي أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء بعدما قدر عليها، واستسلمت له مكروهة بسبب الجوع والحاجة، ولكنها ذكرته بالله ﷻ، فتذكر قلبه، وخشعت جوارحه، وتركها والمال الذي أعطاها.

وتوسل الثالث بحفاظه على حق أجيره الذي ترك أجرته التي كانت فَرَقاَ من أرز كما ورد في رواية صحيحة للحديث وذهب، فنماها له صاحب العمل، وثمرها حتى كانت منها الشاه والبقر والأبل والرقيق، فلما احتاج الأجير إلى المال ذكر أجرته الزهيدة عند صاحبه، فجاءه وطالبه بحقه، فأعطاه تلك الأموال

كلها، فدهش وظنه يستهزىء به، ولكنه لما تيقن منه الجد، وعرف أنه ثمرّ له أجره حتى تجمعت منه تلك الأموال، استساقها فرحًا مذهولًا، ولم يترك منها شيئًا. وأيْم الله إن صنيع رب العمل هذا بالغ حد الروعة في الإحسان إلى العامل، ومحقق المثل الأعلى الممكن في رعايته وإكرامه، مما لا يصل إلى عشر معشاره موقف كل من يدعي نصرة العمال والكادحين، ويتاجر بدعوى حماية الفقراء والمحتاجين، وإنصافهم وإعطائهم حقوقهم، دعا هؤلاء الثلاثة ربهم سبحانه متوسلين إليه بهذه الأعمال الصالحة أي صلاح، والمواقف الكريمة أي كرم، معلنين أنهم إنما فعلوها ابتغاء رضوان الله تعالى وحده،

لم يردوا بها دنيا قريبة أو مصلحة عاجلة أو مالًا، ورجوا الله جل شأنه أن يفرج عنهم ضائقتهم، ويخلصهم من محنتهم، فاستجاب سبحانه دعاءهم، وكشف كربهم، وكان عند حسن ظنهم به، فخرق لهم العادات وأكرمهم بتلك الكرامة الظاهرة، فأزاح الصخرة بالتدرج على مراحل ثلاث، كلما دعا واحد منهم تنفرج بعض الانفراج حتى انفرجت تمامًا مع آخر دعوة الثالث بعد أن كانوا في موت محقق. ورسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه يروي لنا هذه القصة الرائعة التي كانت في بطون الغيب، لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ليذكرنا بأعمال فاضلة مثالية لأناس فاضلين مثاليين من أتباع الرسل السابقين، لنقتدي بهم، ونتأسى بأعمالهم، ونأخذ من أخبارهم الدروس الثمينة، والعظات البالغة. ولا يقولن قائل: إن هذه الأعمال جرت قبل بعثة نبينا محمد ﷺ فلا تنطبق علينا بناء على ما هو الراجح في علم الأصول أن شرع من قبلنا ليس شرعًا لنا. لأننا نقول: إن حكاية النبي ﷺ لهذه الحادثة إنما جاءت في سياق المدح والثناء، والتعظيم والتبجيل، وهذا إقرار منه ﷺ بذلك، بل هو أكثر من إقرار لما

قاموا به من التوسل بأعمالهم الصالحة المذكورة، بل إن هذا ليس إلا شرحًا وتطبيقًا عمليًا للآيات المتقدمة، وبذلك تتلاقى الشرائع السماوية في تعاليمها وتوجيهاتها، ومقاصدها وغاياتها، ولا غرابة في ذلك، فهي تنبع من معين واحد، وتخرج من مشكاة واحدة، وخاصة فيما يتعلق بحال الناس مع ربهم سبحانه، فهي لا تكاد تختلف إلا في القليل النادر الذي يقتضي حكمة الله سبحانه تغييره وتبديله.

٣ - التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح

كأن يقول المسلم في ضيق شديد، أو تحل به مصيبة كبيرة، ويعلم من نفسه التفريط في جنب الله تبارك وتعالى، فيجب أن يأخذ بسبب قوي إلى الله، فيذهب إلى رجل يعتقد فيه الصلاح والتقوى، أو الفضل والعلم بالكتاب والسنة، فيطلب منه أن يدعوا له ربه، ليفرج عنه كربه، ويزيل عنه همه. فهذا نوع آخر من التوسل المشروع، دلت عليه الشريعة المطهرة، وأرشدت إليه، وقد وردت أمثلة منه في السنة الشريفة، كما وقعت نماذج منه من فعل الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم، فمن ذلك ما رواه أنس ابن مالك رضي الله عنه حيث قال: (اصاب الناس سنَة على عهد النبي ﷺ، فبينما النبي ﷺ يخطب [على المنبر ٢/ ٢٢] قائمًا في يوم الجمعة، قام [وفي راوية: دخل ٢/ ١٦] أعرابي [من أهل البدو ٢/ ٢١] [من باب كان وجَاه المنبر] [نحو دار القضاء ورسول الله قائم، فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا ٢/ ١٧] فقال: يا رسول الله ! هلك المال، وجاع [وفي رواية: هلك] العيال [ومن طريق أخرى: هلك الكُراع، وهلك الشاء] [وفي أخرى هلكت المواشي، وانقطعت السبل] فادعُ الله لنا [أن يَسْقِيَنا] [وفي أخرى: يُغيثنا] فرفع يديه يدعو [حتى رأيت بياض إبطه]: [اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا]،

[ورفع الناس أيديهم معه يدعون،] [ولم يذكر أنه حوَّل رداءه، ولا استقبل القبلة ٢ / ١٨] و[لا والله] ما نرى في السماء [من سحاب ولا] قزعة [ولا شيئًا، وما بيننا وبين سَلْع من بيت ولا دار] [وفي رواية: قال أنس: وإن السماء لمثل الزجاجة] [قال فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت] فوالذي نفسه بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطرَ يتحادر على لحيته ﷺ [وفي رواية: فهاجت ريح أنشأت سحابًا، ثم اجتمع، ثم أرسلت السماءُ عزاليها [ونزل عن المنبر فصلى ٢/ ١٩] [فخرجنا نخوض الماس حتى أتينا منازلنا] [وفي رواية: حتى ما كاد الرجل يصل إلى منزله ٧/ ١٥٤] فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد وبعد الغد، والذي يليه حتى الجمعة الأخرى [ما تقلع] [حتى سالت مثاعب المدينة] [وفي رواية: فلا والله ما رأينا الشمس ستًا].

وقام ذلك الأعرابي أو غيره [وفي رواية: ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبله قائمًا] فقال: يا رسول الله تهدم البناء [وفي رواية: تهدمت البيوت، وتقطعت السبل، وهلكت المواشي] [وفي طريق: بشَق المسافر، ومُنع الطريق] وغرق المال، فادع الله [يحبُسه] لنا [فتبسم النبي ﷺ] فرفع يده، فقال: اللهم حوالينا ولا علينا، [اللهم على رؤوس الجبال والإكام [والظراب] وبطون الأودية ومنابت الشجر] فما [جعل] يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت مثل الجوْبَة، [وفي رواية: فنظرت إلى السحاب تصدع حول المدينة [يمينًا وشمالًا] كأنه إكليل] [وفي أخرى: فانْجابَتْ] عن المدينة انجياب الثوب] [يمطر ما حولينا ولا يمطر فيها شيء [وفي طريق:قطرة] [وخرجنا نمشي في الشمس] يريهم الله كرامة نبيه ﷺ وإجابة

دعوته]، وسال الوادي [وادي] قناة شهرًا، ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود).

ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ابن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيُسقَون.

ومعنى قول عمر: إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنا نتوسل إليك بعم نبينا، أننا كنا نقصد نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونطلب منه أن يدعو لنا، ونتقرب إلى الله بدعائه، والآن وقد انتقل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الرفيق الأعلى، ولم يعد من الممكن أن يدعو لنا، فإننا نتوجه إلى عم نبينا العباس، ونطلب منه أن يدعوَ لنا، وليس معناه أنهم كانوا يقولون في دعائنهم: (اللهم بجاه نبيك اسقنا)، ثم أصبحوا يقولون بعد وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اللهم بجاه العباس اسقنا)، لأن مثل هذا دعاء مبتدع ليس له أصل في الكتاب ولا في السنة، ولم يفعله أحد من السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم، كما سيأتي الكلام على ذلك بشيء من البسط قريبًا إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك أيضًا ما رواه الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى في "تاريخه" (١٨/ ١٥١/ ١) بسند صحيح عن التابعي الجليل سليم ابن عامر الخبَائري: (أن السماء قحطت، فخرج معاوية بن أبي سفيان وأهل دمشق يستسقون، فلما قعد معاوية على المنبر، قال: أين يزيد بن الأسود الجُرَشي؟ فناداه الناس، فأقبل يتخطى الناس، فأمره معاوية فصعد على المنبر، فقعد عند رجليه، فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا، اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بيزيد بن الأسود الجرشي، يا يزيد ارفع يديك إلى الله، فرفع يديه، ورفع الناس أيديهم، فما كان أوشك أن ثارت سحابة في الغرب كأنها ترس، وهبت لها ريح،

فسقتنا حتى كاد الناس أن لا يبلغوا منازلهم).

وروى ابن عساكر أيضًا بسند صحيح أن الضحاك بن قيس خرج يستسقي بالناس فقال ليزيد بن الأسود أيضًا: قم يا بكاء! زاد في رواية: (فما دعا إلا ثلاثًا حتى أمطروا مطرًا كادوا يغرقون منه).

فهذا معاوية ﵁ أيضًا لا يتوسل بالنبي ﷺ، لما سبق بيانه، وإنما يتوسل بهذا الرجل الصالح: يزيد ين الأسود رحمه الله تعالى، فيطلب منه أن يدعو الله تعالى، ليسقيهم ويغيثهم، ويستجيب الله تبارك وتعالى طلبه. وحدث مثل هذا في ولاية الضحاك بن قيس أيضًا.

بطلان التوسل بما عدا الأنواع الثلاثة السابقة:

فمما سبق تعلم أن التوسل المشروع الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وجرى عليه عمل السلف الصالح، وأجمع عليه المسلمون وهو:

١ - التوسل باسم من أسماء الله تبارك وتعالى أو صفة من صفاته.

٢ - التوسل بعمل صالح قام به الداعي.

٣ - التوسل بدعاء رجل صالح.

وأما ما عدا هذه الأنواع من التوسلات ففيه خلاف، والذي نعتقده وندين الله تعالى به أنه غير جائز، ولا مشروع، لأنه لم يرد فيه دليل، تقوم به الحجة - وقد أنكره العلماء المحققون في العصور الإسلامية المتعاقبة، مع أنه قد قال ببعضه بعض الأئمة، فأجاز الإمام أحمد التوسل بالرسول ﷺ وحده فقط، وأجاز غيره كالإمام الشوكاني التوسل به وبغيره من الأنبياء والصالحين: ولكنا - كشأننا في جميع الأمور الخلافية - ندور مع الدليل حيث دار ولا نتعصب للرجال، ولا ننحاز لأحد إلا للحق كما نراه ونعتقده، وقد رأينا في قضية التوسل

التي نحن بصددها الحق مع الذين حظروا التوسل بمخلوق، ولم نر لمجيزيه دليلًا صحيحًا يعتد به، ونحن نطالبهم بأن يأتونا بنص صحيح صريح من الكتاب أو السنة فيه التوسل بمخلوق، وهيهات أن يجدوا شيئًا يؤيد ما يذهبون إليه، أو يسند ما يدعونه، اللهم إلا شبهًا واحتمالات، سنعرض للرد عليها بعد قليل.

فهذه الأدعية الواردة في القرآن الكريم وهي كثيرة، لا نجد في شيء منها التوسل بالجاه أو الحرمة أو الحق أو المكانة لشيء من المخلوقات، وهاك بعض الأدعية الكريمة على سبيل المثال: يقول ربنا جل شأنه معلمًا إيانا ما ندعو به ومرشدًا: (ربنا لا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تُحمَّلْنا ما لا طاقة لنا به، واعْفُ عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين) [البقرة: ٢٨٦] ويقول: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) [البقرة: ٢٠١] ويقول: (فقالوا: على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) [يونس:٨٥- ٨٦] ويقول: (وإذ قال ابراهيم: رب اجعل هذا البلد آمنًا واجنبني وبَنِيَّ أن نعبد الأصنام)، (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي، ربنا وتقبل دعاء، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) [ابراهيم: ٣٥- ٤١] ويقول على لسان موسيغ: (قال: رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي..) [طه: ٢٥- ٢٨] ويقول سبحانه: (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غرامًا..) [الفرقان: ٦٥]...إلى آخر ما هنالك من الأدعية القرآنية الكريمة، وبعضها مما يعلمنا الله تعالى أن ندعو به ابتداء، وبعضها مما يحكيه سبحانه عن

بعض أنبيائه ورساله، أو بعض عباده وأوليائه، وواضح أنه ليس في شيء منها ذاك التوسل المبتدع الذي يدندن حوله المتعصبون، ويخاصم فيه المخالفون.

وإذا انتقلنا إلى السنة الشريفة لنطلع منها على أدعية النبي ﷺ التي ارتضاها الله تعالى له، وعلمه إياها، وأرشدنا إلى فضلها وحسنها، نراها مطابقة لما في أدعية القرآن السالفة من حيث خلوها من التوسل المبتدع المشار إليه، وهاك بعض تلك الأدعية النبوية المختارة:

فمنها دعاء الاستخارة المشهور الذي كان النبي ﷺ يعلمه أصحابه إذا هموا بأمر كما كان يعلمهم القرآن، وهو: (اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، وعاجله وآجله، فأقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، وعاجله وآجله، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به).

ومنها: (اللهم أصلح لي ديني، الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر) و: (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرًا لي...) و: (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) و: (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك) و: (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ومحمد نعوذ بك من النار) ومثل هذه الأدعية في السنة كثير، ولا نجد فيها دعاء واحدًا ثابتًا فيه شيء من

التوسل المبتدع الذي يستعمله المخالفون.

ومن الغريب حقًا أنك ترى هؤلاء يعرضون عن أنواع التوسل المشروعة السابقة،

فلا يكادون يستعلمون شيئًا منها في دعائهم أو تعليمهم الناس مع ثبوتها في الكتاب والسنة وأجماع الأمة عليها، وتراهم بدلًا من ذلك يعمدون إلى أدعية اخترعوها، وتوسلات ابتدعوها لم يشرعها الله ﷻ، ولم يستعملها رسوله المصطفى ﷺ، ولم ينقل عن سلف هذه الأمة من أصحاب القرون الثلاثة الفاضلة، وأقل ما يقال فيها: إنها مختلف فيها، فما أجدرهم بقوله تبارك وتعالى: (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) [البقرة:٦١].

وأهل هذه أحد الشواهد العلمية التي تؤكد صدق التابعي الجليل حسان بن عطية المحاربي رحمه حيث قال: (ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سننهم مثلها، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة).

هذا ولم ننفرد نحن بإنكار تلك التوسلات المبتدعة، بل سبقنا إلى إنكارها كبار الأئمة والعلماء، وتقرر ذلك في بعض المذاهب المتبعة، ألا وهو مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، فقد جاء في "الدر المختار" (٢/ ٦٣٠) - وهو من أشهر كتب الحنفية - ما نصه:

(عن أبي حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، والدعاء المأذون فيه، المأمور به ما استفيد من قوله تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها).

ونحوه في "الفتاوى الهندية" (٥/ ٢٨٠). وقال القُدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بـ "شرح الكرخي" في (باب الكراهة): (قال بشر بن الوليد حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول: بمعاقد العز من عرشك، أو بحق خلقك، وهو قول أبي يوسف، قال أبو يوسف:

معقد العز من عرشه هو الله، فلا أكره هذا، وأكره أن يقول: بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام، قال القُدوري: المسألة بخلقه لا تجوز لأنه لا حق للخلق على الخالق، فلا تجوز وفاقًا). نقله شيخ الإسلام في "القاعدة الجليلة" وقال الزبيدي في "شرح الإحياء" (٢/ ٢٨٥): (كره أبو حنيفة وصاحباه أن يقول الرجل: أسألك بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، أو بحق البيت الحرام والمشعر الحرام، ونحو ذلك، إذ ليس لأحد على الله حق، وكذلك كره أبو حنيفة ومحمد أن يقول الداعي: اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك، وأجازه أبو يوسف لما بلغه الأثر فيه).

أقول: لكن الأثر المشار إليه باطل لا يصح، رواه ابن الجوزي في "الموضوعات" وقال: (هذا حديث موضوع بلا شك)، وأقره الحافظ الزيلعي في "نصب الراية" (٢٧٣) فلا يحتج به، وإن كان قول القائل: (أسألك بمعاقد العز من عرشك) يعود إلى التوسل بصفة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ، فهو توسل مشروع بأدلة أخرى كما سبق، تغني عن هذا الحديث الموضوع. قال ابن الاثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أسألك بمعاقد العز من عرشك، أي بالخصال التي استحق بها العرش العز، أو بمواضع انعقادها منه، وحقيقة معناه: بعز عرشك، وأصحاب أبي حنيفة يكرهون هذا اللفظ من الدعاء).

فعلى الوجه الأول من هذا الشرح، وهو الخصال التي استحق بها العرش العز، يكون توسلًا بصفة من صفات الله تعالى فيكون جائزًا، وأما على الوجه الثاني الذي هو مواضع انعقاد العز من العرش، فهو توسل بمخلوق فيكون غير جائز، وعلى كلٍ فالحديث لا يستحق زيادة في البحث والتأويل لعدم ثبوته، فنكفي بما سبق.

الفصل الرابع:

شبهات والجواب عليها

يورد المخالفون في هذا الموضوع بعض الاعتراضات والشبهات، ليدعوا رأيهم الخاطىء، ويوهموا العامة بصحته، ويلبسوا الأمر عليهم، وأعرض فيما يلي هذه الشبهات واحدة إثر واحدة، وأرد عليها ردًا علميًا مقنعًا إن شاء الله، بما يقرر ما بينته في الفصل السابق وينسجم معه، ويقنع كل مخلص منصف، ويدحض كل افتراء علينا بالباطل، وبالله تعالى وحده التوفيق، وهو المستعان.

الشبهة الأولى: حديث استسقاء عمر بالعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

يحتجون على جواز التوسل بجاه الأشخاص وحرمتهم وحقهم بحديث انس السابق: (أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا قَحَطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا، فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون).

فيفهمون من هذا الحديث أن توسل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما كان بجاه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومكانته عند الله سبحانه، وأن توسله كأنه مجرد ذكر منه للعباس في دعائه، وطلب منه لله أن يسقيهم من أجله، وقد أقره الصحابة على ذلك، فأفاد بزعمهم ما يدعون.

وأما سبب عدول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن التوسل بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بزعمهم - وتوسله بدلًا منه بالعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنما كان لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ليس غير.

وفهمهم هذا خاطىء، وتفسيرهم هذا مردود من وجوه كثيرة اهمها:

١ – إن القواعد المهمة في الشريعة الإسلامية أن النصوص الشرعية يفسر

بعضها بعضًا، ولا يفهم شيء منها في موضوع ما بمعزل عن بقية النصوص الواردة فيه. وبناء على ذلك فحديث توسل عمر السابق إنما يفهم على ضوء ما ثبت من الروايات والأحاديث الواردة في التوسل بعد جمعها وتحقيقها، ونحن والمخالفون متفقون على أن في كلام عمر: (كنا نتوسل إليك بنبينا.. وإنا نتوسل إليك بعم نبينا) شيئًا محذوفًا، لا بد له من تقدير، وهذا التقدير إما أن يكون: (كنا نتوسل بـ (جاه) نبينا، وإنا نتوسل إليك بـ (جاه) عم نبينا) على رأيهم هم، أو يكون: (كنا نتوسل إليك بـ (دعاء) نبينا، وإنا نتوسل إليك بـ (دعاء) عم نبينا) على رأينا نحن.

ولا بد من الأخذ بواحد من هذين التقديرين ليفهم الكلام بوضوح وجلاء.

ولنعرف أي التقديرين صواب لا بد من اللجوء إلى السنة، لتبين لنا طريقة توسل الصحابة الكرام بالنبي ﷺ.

ترى هل كانوا إذا أجدبوا وقحَطوا قبع كل منهم في دراه، أو مكان آخر، أو اجتمعوا دون أن يكون معهم رسول الله ﷺ، ثم دعوا ربهم قائلين: (اللهم بنبيك محمد، وحرمته عندك، ومكانته لديك اسقنا الغيث). مثلًا أم كانوا يأتون النبي ﷺ ذاته فعلًا، ويطلبون منه أن يدعو الله تعالى لهم، فيحقق ﷺ طلْبتهم، ويدعو ربه سبحانه، ويتضرع إليه حتى يسقوا؟

أما الأمر الأول فلا وجود له إطلاقًا في السنة النبوية الشريفة، وفي عمل الصحابة رضوان

الله تعالى عليهم، ولا يستطيع أحد من الخلفيين أو الطُّرُقيين ان يأتي بدليل يثبت أن طريقة

توسلهم كانت بأن يذكروا في أدعيتهم اسم النبي ﷺ، ويطلبوا من الله بحقه

وقدره عنده ما يريدون. بل الذي نجده بكثرة، وتطفح به كتب السنة هو الأمر الثاني، إذ تبين أن طريقة توسل الأصحاب الكرام بالنبي ﷺ إنما كانت إذا رغبوا في قضاء حاجة، أو كشف نازلة أن يذهبوا إليه ﷺ، ويطلبوا منه مباشرة أن يدعو لهم ربه، أي أنهم كانوا يتوسلون إلى الله تعالى بدعاء الرسول الكريم ﷺ ليس غير.

ويرشد إلى ذلك قوله تبارك وتعالى: (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيمًا) [النساء: ٦٤].

ومن أمثلة ذلك ما مر معنا في حديث أنس السابق الذي ذكر فيه مجيء الأعرابي إلى المسجد يوم الجمعة حيث كان رسول الله ﷺ يخطب، وعرضه له ضنك حالهم، وجدب أرضهم، وهلاك ماشيتهم، وطلبه منه أن يدعو الله سبحانه لينقذهم مما هم فيه، فاستجاب له ﷺ، وهو الذي وصفه ربه بقوله: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) [التوبة:١٢٨]، فدعا ﷺ لهم ربه، واستجاب سبحانه دعاء نبيه، ورحم عباده ونشر رحمته، وأحيا بلدهم الميت.

ومن ذلك أيضًا مجيء الأعرابي السابق نفسه أو غيره إلى النبي ﷺ وهو يخطب الجمعة الثانية، وشكواه له انقطاع الطرقات وتهدم البنيان، وهلاك المواشي، وطلبه منه أن يدعو لهم ربه، ليمسك عنهم الأمطار، وفعل ﷺ فاستجاب له ربه جل شأنه أيضًا.

ومن ذلك ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها حيث قالت: شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى، ووعد الناس يومًا يخرجون فيه. قالت: فخرج رسول الله ﷺ حين بدا حاجب الشمس، فقعد على

المنبر، فكبر وحمد الله، ثم قال: (إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر ع إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم...) الحديث، وفيه انه ﷺ دعا الله سبحانه، وصلى بالناس، فأغاثهم الله تعالى حتى سالت السيول، وانطلقوا إلى بيوتهم مسرعين، فضحك الرسول ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: (أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله).

فهذه الأحاديث وأمثالها مما وقع زمن النبي ﷺ وزمن أصحابه الكرام رضوان الله عليهم تُبين بما لا يقبل الجدال أو الممارة أن التوسل بالنبي ﷺ أو بالصالحين الذي كان عليه السلف الصالح هو مجيء المتوسل إلى المتوسل به، وعرضه حاله له، وطلبه منه أن يدعو له الله سبحانه، ليحقق طلبه، فيستجيب هذا له، ويستجيب من ثم الله سبحانه وتعالى.

٢- وهذا الذي بيناه من معنى الوسيلة هو المعهود في حياة الناس واستعمالهم، فإنه إذا كانت لإنسان حاجة ما عند مدير أو رئيس أ، موظف مثلًا، فإنه يبحث عمن يعرفه ثم يذهب إليه ويكلمه، ويعرض له حاجته فيفعل، وينقل هذا الوسيط رغبته إلى الشخص المسؤول، فيقضيها له غالبًا. فهذا هو التوسل المعروف عند العرب منذ القديم، وما يزال، فإذا قال أحدهم: إني توسلت إلى فلان، فإنما يعني أنه ذهب إلى الثاني وكلمه في حاجته، ليحدث بها الأول، ويطلب منه قضاءها، ولا يفهم أحد من ذلك أنه ذهب إلى الأول وقال له: بحق فلان (الوسيط) عندك، ومنزلته لديك اقض لي حاجتي.

وهكذا فالتوسل إلى الله ﷻ بالرجل الصالح ليس معناه التوسل بذاته وبجاهه وبحقه، بل هو التوسل بدعائه وتضرعه واستغاثته به سبحانه وتعالى، وهذا هو بالتالي معنى قول عمر رضي الله عنه: (اللهم إنا منا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا)

أي: كنا إذ قل المطر مثلًا نذهب إلى النبي ﷺ، ونطلب منه ان يدعو لنا الله جل شأنه.

٣- ويؤكد هذا ويوضحه تمام قول عمر رضي الله عنه: (وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا)، أي إننا بعد وفاة نبينا جئنا بالعباس عم النبي ﷺ، وطلبنا منه أن يدعو لنا ربنا سبحانه ليغيثنا.

تُرى لماذا عدل عمر رضي الله عنه عن التوسل بالنبي ﷺ إلى التوسل بالعباس رضي الله عنه، مع العلم ان العباس مهما كان شأنه ومقامه فإنه لا يذكر امام شأن النبي ﷺ ومقامه؟

أما الجواب برأينا فهو: لأن التوسل بالنبي ﷺ غير ممكن بعد وفاته، فأنى لهم أن يذهبوا إليه ﷺ ويشرحوا له حالهم، ويطلبوا منه أن يدعو لهم، ويؤمنوا على دعائه، وهو قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، وأضحى في حال يختلف عن حال الدنيا وظروفها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، فأنى لهم أن يحظوا بدعائه ﷺ وشفاعته فيهم، وبينهم وبينه كما قال الله عز شأنه: (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) [المؤمنون:١٠٠].

ولذلك لجأ عمر رضي الله عنه، وهو العربي الأصيل الذي صحب النبي ﷺ ولازمه في أكثر أحواله، وعرفه حق المعرفة، وفهم دينه حق الفهم، ووافقه القرآن في مواضع عدة، لجأ إلى توسل ممكن فاختار العباس رضي الله عنه، لقرابته من النبي ﷺ من ناحية، ولصلاحه ودينه وتقواه من ناحية آخرى، وطلب منه أن يدعو لهم بالغيث والسقيا. وما كان لعمر

ولا لغير عمر أن يدع التوسل بالنبي ﷺ، ويلجأ إلى التوسل بالعباس أو غيره لو كان التوسل بالنبي ﷺ ممكنًا، وما كان من المعقول ان يقر الصحابة

رضوان الله عليهم عمر على ذلك أبدًا، لأن الانصراف عن التوسل بالنبي ﷺ إلى التوسل بغيره ما هو إلا كالانصراف عن الاقتداء بالنبي ﷺ في الصلاة إلى الاقتداء بغيره، سواء بسواء، ذلك أن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كانوا يعرفون قدر نبيهم ﷺ ومكانته وفضله معرفة لا يدانيهم فيها أحد، كما نرى ذلك واضحًا في الحديث الذي رواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم، فحانت الصلاة، فجاء المؤذن إلى أبي بكر، فقال: أتصلي بالناس، فأقيم؟ قال: فصلى أبو بكر، فجاء رسول الله ﷺ والناس في الصلاة، فتخلص حتى وقف في الصف، فصفق الناس، وكان أبو بكر لا يلتفت في الصلاة، فلما أكثر الناس التصفيق التفت، فرأى رسول الله ﷺ، فأشار إليه رسول الله ﷺ أن أمكث مكانك، فرفع أبو بكر يديه، فحمد الله عز وجل على ما أمره به رسول الله ﷺ من ذلك، ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف، وتقدم النبي ﷺ فصلى ثم انصرف، فقال: (يا أبا بكر: ما منعك أن تثبت إذ أمرتك؟) قال أبو بكر: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ).

فأنت ترى أن الصحابة رضي الله عنهم لم يستسيغوا الاستمرار على الاقتداء بأبي بكر رضي الله عنه في صلاته عندما حضر الرسول ﷺ، كما أن أبا بكر رضي الله عنه

لم تطاوعه نفسه على الثبات في مكانه مع أمر النبي ﷺ له بذلك، لماذا؟ كل ذلك لتعظيمهم نبيهم ﷺ، وتأدبهم معه، ومعرفتهم حقه وفضله، فإذا كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم

لم يرتضوا الاقتداء بغير النبي ﷺ عندما أمكن ذلك، مع أنهم كانوا بدأوا الصلاة في غيابه ﷺ عنهم، فكيف يتركون التوسل به ﷺ أيضًا بعد وفاته، لو كان

ذلك ممكنًا، ويلجئون إلى التوسل بغيره؟ وكما لم يقبل ابوبكر أن يؤم المسلمين فمن البديهي أن لا يقبل العباس أيضًا أن يتوسل الناس به، ويدعوا التوسل بالنبي ﷺ لو كان ذلك ممكنًا.

(تنبيه): وهذا يدل من ناحية أخرى على سخافة تفكير من يزعم أنه ﷺ في قبره حي كحياتنا، لانه لو كان ذلك كذلك لما كان ثمة وجه مقبول لانصرافهم عن الصلاة وراءه ﷺ إلى الصلاة وراء غيره ممن لا يدانيه أبدًا في منزلته وفضله.

ولا يعترض احد على ما قررته بأنه قد ورد أن النبي ﷺ قال: (أنا في قبري حي طري، من سلم علي سلمت عليه). وأنه يستفاد منه أنه ﷺ حي مثل حياتنا، فإذا توسل به سمعنا واستجاب لنا، فيحصل مقصودنا، وتتحقق رغبتنا، وأنه لا فرق في ذلك بين حاله ﷺ في حياته، وبين حاله بعد وفاته أقول: لا يعترض أحد بما سبق لأنه مردود من وجهين:

الأول حديثي: وخلاصته أن الحديث المذكور لا أصل له بهذا اللفظ، كما أن لفظة (طري) لا وجود لها في شيء من كتب السنة إطلاقًا، ولكن معناه قد ورد في عدة أحاديث صحيحة، منها قوله ﷺ: (إن أفضل ايامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي) قالوا: يا رسول الله ! وكيف تعرض صلاتنا عليك، وقد أرمتَ (قال: يقولون: بَليتَ)، قال: (إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء) ومنها قوله ﷺ:(الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون) وقوله ﷺ: (مررت ليلة أسري بي على موسى قائمًا يصلي في قبره) وقوله: (إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام).

الجواب الثاني فقهي: وفحواه أن حياته ﷺ بعد وفاته مخالفة لحياته قبل

الوفاة، ذلك أن الحياة البرزخية غيب من الغيوب، ولا يدري كنهها إلا الله سبحانه وتعالى، ولكن من الثابت والمعلوم أنها تختلف عن الحياة الدنيوية، ولا تخضع لقوانينها، فالانسان في الدنيا يأكل ويشرب، ويتنفس ويتزوج، ويتحرك ويتبرز، ويمرض ويتكلم، ولا أحد يستطيع أن يثبت أن أحدًا بعد الموت حتى الأنبياء عليهم السلام، وفي مقدمتهم نبينا محمد ﷺ تعرض له هذه الأمور بعد موته.

ومما يؤكد هذا أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يختلفون في مسائل كثيرة بعد وفاته ﷺ، ولم يخطر في باب أحد منهم الذهاب إليه ﷺ في قبره، ومشاورته في ذلك، وسؤاله عن الصواب فيها، لماذا؟ إن الأمر واضح جدًا، وهو أنهم كلهم يعلمون أنه ﷺ انقطع عن الحياة الدنيا، ولم تعد تنطبق عليه أحوالها ونواميسها.فرسول الله ﷺ بعد موته حي، أكمل حياة يحياها إنسان في البرزخ، ولكنها حياة لا تشبه حياة الدنيا، ولعل مما يشير إلى ذلك قوله ﷺ: (ما من احد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) وعلى كل حال فإن حقيقتها لا يدريها إلا الله سبحانه وتعالى، ولذلك فلا يجوز قياس الحياة البرزخية أو الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية، كما لا يجوز أن تعطى واحدة منهما أحكام الأخرى، بل لكل منها شكل خاص وحكم معين، ولا تتشابه إلا في الاسم، أما الحقيقة فلا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى.

ونعود بعد هذا التنبيه إلى ما كنا فيه من الرد على المخالفين في حديث توسل عمر بالعباس، فنقول: إن تعليلهم لعدول عمر رضي الله عنه عن التوسل بالنبي ﷺ إلى التوسل بالعباس رضي الله عنه بأنه لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل هو تعليل مضحك وعجيب.إذ كيف يمكن أن يخطر في بال عمر رضي الله عنه، أو في بال غيره من الصحابة الكرام رضي الله عنهم تلك الحذلقة الفقهية المتأخرة، وهو

يرى الناس في حالة شديدة من الضنك والكرب، والشقاء والبؤس، يكادون يموتون جوعًا وعطشًا لشح الماء وهلاك الماشية، وخلو الأرض من الزرع والخضرة حتى سمي ذاك العام بعام الرمادة، كيف يَرِد في خاطره تلك الفلسفة الفقهية في هذا الظرف العصيب، فيدع الأخذ بالوسيلة الكبرى في دعائه، وهي التوسل بالنبي الأعظم ﷺ، لو كان ذلك جائزًا ويأخذ بالوسيلة الصغرى، التي لا تقارن بالأولى، وهي التوسل بالعباس، لماذا؟ لا لشيء إلا ليبين للناس أنه يجوز لهم التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل !!

إن الشاهد والمعلوم أن الإنسان إذ حلّت به شدة يلجأ إلى أقوى وسيلة عنده في دفعها، ويدَع الوسائل الأخرى لأوقات الرخاء، وهذا كان يفهمه الجاهليون المشركون أنفسهم، إذ كانوا يَدعون أصنامهم في أوقات اليسر، ويتركونها ويدْعون الله تعالى وحده في اوقات العسر، كما قال تبارك وتعالى: (حتى إذا ركبوا في الفُلْلك دعوا الله مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) [العنكبوت: ٢٦٥].

فنعلم منهذا أن الإنسان بفطرته يستنجد بالقوة العظمى، والوسيلة الكبرى حين الشدائد والفواقر، وقد يلجأ إلى الوسائل الصغرى حين الأمن واليسر، وقد يخطر في باله حينذاك أن يبين ذلك الحكم الفقهي الذي افترضوه، وهو جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل. وأمر آخر نقوله جوابًا على شبهة أولئك، وهو: هب أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطر في باله أن يبين ذلك الحكم الفقهي المزعوم، ترى فهل خطر ذلك في بال معاوية والضحاك بن قيس حين توسلا بالتابعي الجليل: يزيد بن الأسود الجُرَشي أيضًا؟ لا شك أن هذا ضرب من التمحل والتكلف لا يحسدون عليه.

٤- إننا نلاحظ في حديث استسقاء عمر بالعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أمرًا جديرًا بالانتباه، وهو قوله: (إن عمر بن الخطاب كان إذا قَحطوا، استسقى بالعباس بن عبدالمطلب، ففي هذا إشارة إلى تكرار استسقاء عمر بدعاء العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ففيه حجة بالغة على الذين يتأولون فعل عمر ذلك أنه إنما ترك التوسل به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى التوسل بعمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل، فإننا نقول: لو كان الأمر كذلك لفعل عمر ذلك مرة واحدة، ولما استمر عليه كلما استسقى، وهذا بيّن لا يخفى إن شاء الله تعالى على أهل العلم والانصاف.

٥- لقد فسرت بعض روايات الحديث الصحيحة كلام عمر المذكور وقصده، إذ نقلت دعاء العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استجابة لطلب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمن ذلك ما نقله الحافظ العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ في "الفتح" (٣/ ١٥٠) حيث قال: (قد بين الزبير بن بكار في "الأنساب" صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة، والوقت الذي وقع فيه ذلك، فأخرج بإسناد له أن العباس لما استسقى به عمر قال: (اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجّه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، وهذا أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث)، قال: فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض، وعاش الناس).

وفي هذا الحديث: أولًا: التوسل بدعاء العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا بذاته كما بينه الزبير بن بكار وغيره، وفي هذا رد واضح على الذين يزعمون أن توسل عمر كان بذات العباس لا بدعائه، إذ لو كان الأمر كذلك لما كان ثمة حاجة ليقوم العباس، فيدعو بعد عمر دعاءً جديدًا.

ثانيًا: أن عمر صرح بأنهم كانوا يتوسلون بنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته، وأنه في هذه الحادثة توسل بعمه العباس، ومما لا شك فيه أن التوسليْن من نوع واحد:

توسلهم بالرسول ﷺ وتوسلهم بالعباس، وإذ تبين للقارىء - مما يأتي - أن توسلهم به ﷺ إنما كان توسلًا بدعائه ﷺ فتكون النتيجة أن توسلهم بالعباس إنما هو توسل بدعائه أيضًا، بضرورة أن التوسلين من نوع واحد.

أما أن توسلهم به ﷺ إنما كان توسلًا بدعائه، فالدليل على ذلك صريح رواية الإسماعيلي في مستخرجه على الصحيح لهذا الحديث بلفظ: (كانوا إذ قحطوا على عهد النبي ﷺ استسقوا به، فيستسقي لهم، فيسقون، فلما كان في إمارة عمر...) فذكر الحديث، نقلته من "الفتح" (٢/ ٣٩٩)، فقوله: (فيستسقي لهم) صريح في أنه ﷺ كان يطلب لهم السقيا من الله تعالى ففي "النهاية" لابن الأثير: (الاستسقاء، استفعال من طلب السقيا أي إنزال الغيث على البلاد والعباد، يقال: سقى الله عباده الغيث وأسقاهم، والاسم السقيا بالضم، واستقيت فلانًا إذا طلبت منه أن يسقيك).

إذا تبين هذا، فقوله في هذه الرواية (استسقوا به) أي بدعائه، وكذلك قوله في الرواية

الأولى: (كنا نتوسل إليك بنبينا)، أي بدعائه، لا يمكن أن يفهم من مجموع رواية الحديث إلا هذا. ويؤيده:

ثالثًا: لو كان توسل عمر إنما هو بذات العباس أو جاهه عند الله تعالى، لما ترك التوسل به ﷺ بهذا المعنى، لأن هذا ممكن لو كان مشروعًا، فعدول عمر عن هذه إلى التوسل بدعاء العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أكبر دليل على أن عمر والصحابة الذين كانوا معه كانوا لا يرون التوسل بذاته ﷺ، وعلى هذا جرى عمل السلف من بعدهم، كما رأيت في توسل معاوية بن أبي سفيان والضحاك ابن قيس بيزيد بن الأسود الجرشي، وفيهما بيان دعائه بصراحة وجلاء.

فهل يجوز أن يجمع هؤلاء كلهم على ترك التوسل بذاته ﷺ لو كان جائزًا، سيّما والمخالفون يزعمون أنه أفضل من التوسل بدعاء العباس وغيره؟! اللهم إن ذلك غير جائز ولا معقول، بل إن هذا الإجماع منهم من أكبر الأدلة على أن التوسل المذكور غير مشروع عندهم، فإنهم أسمى من أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ! اعتراض ورده :

وأما جواب صاحب "مصباح الزجاجة في فوائد قضاء الحاجة" عن ترك عمر التوسل بذاته ﷺ بقوله (ص٢٥):(إن عمر لم يبلغه حديث توسل الضرير، ولو بلغه لتوسل به).فهو جواب باطل من وجوه:

الأول: أن حديث الضرير إنما يدل على ما دل عليه توسل عمر هذا من التوسل بالدعاء لا بالذات، كما سبق ويأتي بيانه.

الثاني: أن توسل عمر لم يكن سرًا، بل كان جهرًا على رؤوس الأشهاد، وفيهم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فإذا جاز أن يخفى الحديث على عمر، فهل يجوز أن يخفى على جميع الموجودين مع عمر من الصحابة ؟!

الثالث: أن عمر -كما سبق- كان يكرر هذا التوسل كلما نزل بأهل المدينة خطر، أو كلما دعي للاستسقاء كما يدل على ذلك لفظ (كان) في حديث أنس السابق (أن عمر كان إذا قحَطوا استسقى بالعباس) وكذلك روى ابن عباس عن عمر كما ذكره ابن عبد البر في "الاستيعاب" (٣/ ٩٨)، فإذا جاز أن يخفى ذلك عليه أول مرة، أفيجوز أن يستمر على الجهل به كلما استسقى بالعباس، وعنده المهاجرون والأنصار، وهم سكوت لا يقدمون اليه

ما عندهم من العلم بحديث الضرير ؟! اللهم إن هذا الجواب ليتضمن رمي

الصحابة جميعهم بالجهل بحديث الضرير مطلقًا، أو على الأقل بدلالته على جواز التوسل بالذات، والأول باطل لا يخفى بطلانه، والثاني حق فإن الصحابة لو كانوا يعلمون أن حديث الضرير يدل على التوسل المزعوم لما عدلوا عن التوسل بذاته ﷺ إلى التوسل بدعاء العباس كما سبق.

رابعًا: أن عمر ليس هو وحده الذي عدل عن التوسل بذاته ﷺ إلى التوسل بالدعاء، بل تابعه على ذلك معاوية بن أبي سفيان فإنه أيضًا عدل إلى التوسل بدعاء يزيد بن الأسود، ولم يتوسل به ﷺ وعنده جماعة من الصحابة وأجلاء التابعين، فهل يقال أيضًا إن معاوية ومن معه لم يكونوا يعلمون بحديث الضرير؟ وقل نحو ذلك في توسل الضحاك بن قيس بيزيد هذا أيضًا.

ثم أجاب صاحب المصباح بجواب آخر، وتبعه من لم يوفق من المتعصبين المخالفين فقال:

(إن عمر أراد بالتوسل بالعباس الاقتداء بالنبي ﷺ في إكرام العباس وإجلاله، وقد جاء هذا صريحًا عن عمر، فروى الزبير بن بكار في "الأنساب" من طريق داود بن عطاء عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال: (استسقى عمر ابن الخطاب عام الرمادة بالعباس بن عبد المطلب، فخطب عمر فقال: إن رسول ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ، واتخذوه وسيلة إلى الله...) ورواه البلاذري من طريق هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه به.

والجواب من وجوه أيضًا:

الأول: عدم التسليم بصحة هذه الرواية، فإنها من طريق داود ابن عاطاء وهو المدني، وهو ضعيف كما في "التقريب"، ومن طريق الزبير بن بكار عنه رواه

الحاكم (٣/ ٣٣٤) وسكت عنه، وتعقبه الذهبي بقوله: (داود متروك) قلت: والرواي عنه ساعدة بن عبيدالله المزني لم أجد من ترجمه، ثم إن في السند اضطرابًا، فقد رواه - كما رأيت - هشام بن سعد عن زيد بن أسلم فقال: (عن أبيه) بدل ابن عمر، لكن هشامًا أوثق من داود، إلا أننا لم نقف على سياقه، لننظر هل فيه مخالفة لسياق داود هذا أم لا؟ ولا تغتر بقولهم في "المصباح" عقب هذا الإسناد: (به) المفيد أن السياق واحد، فإن عمدته فيما نقله عن البلاذري إنما هو "فتح الباري" وهو لم يقل: (به). انظر "الفتح" (٢/ ٣٩٩).

الثاني: لو صحت هذه الرواية، فهي إنما تدل على السبب الذي من أجله توسل عمر بالعباس دون غيره من الصحابة الحاضرين حينذاك، وأما أن تدل على جواز الرغبة عن التوسل بذاته ﷺ - لو كان جائزًا عندهم - إلى التوسل بالعباس أي بذاته فكلا، ثم كلا، لأننا نعلم بالبداهة والضرورة - كما قال بعضهم - أنه لو أصاب جماعة من الناس قحط شديد، وأرادوا أن يتوسلوا بأحدهم لما أمكن أن يعدلوا عمن دعاؤه أقرب إلى الإجابة، وإلى رحمة الله سبحانه وتعالى، ولو أن إنسانًا أصيب بمكروه فادح، وكان أمامه نبي، وآخر غير نبي، وأراد أن يطلب الدعاء من أحدهما لما طلبه إلا من النبي، ولو طلبه من غير النبي، وترك النبي لعد من الآثمين الجاهلين، فكيف يظن بعمر ومن معه من الصحابة أن يعدلوا عن التوسل به ﷺ إلى التوسل بغيره، لو كان التوسل بذاته ﷺ جائزًا، فكيف وهو أفضل عند المخالفين من التوسل بدعاء العباس وغيره من الصالحين؟! لا سيما وقد تكرر ذلك منهم مرارًا كما سبق، وهم لا يتوسلون به ﷺ ولا مرة واحدة، واستمر الأمر كذلك، فلم ينقل عن أحد منهم خلاف ما صنع عمر، بل صح عن معاوية ومن معه ما يوافق صنيعه حيث توسلوا بدعاء

يزيد بن الأسود، وهو تابعي جليل، فهل يصح أن يقال: إن التوسل به كان اقتداء بالنبي ﷺ ؟!

الحق أقول: إن جريان عمل الصحابة على ترك التوسل بذاته ﷺ عند نزول الشدائد بهم

- بعد أن كانوا لا يتوسلون بغيره ﷺ في حياته - لهو أكبر الأدلة الواضحة على أن التوسل بذاته ﷺ غير مشروع، وإلا لنقل ذلك عنهم من طرق كثيرة في حوادث متعددة، ألا ترى إلى هؤلاء المخالفين كيف ليهجون بالتوسل بذاته ﷺ لأدنى مناسبة لظنهم أنه مشروع، فلو كان الأمر كذلك لنُقِل مثله عن الصحابة، مع العلم أنهم أشد تعظيمًا ومحبة له ﷺ من هؤلاء، فكيف ولم يُنقل عنهم ذلك ولا مرة واحدة، بل صح عنهم الرغبة عنه إلى التوسل بدعاء الصالحين ؟!

الشبهة الثانية: حديث الضرير

بعد أن فرغنا من تحقيق الكلام في حديث توسل عمر بالعباس رضي الله عنه، وبينا أنه ليس حجة للمخالفين بل هو عليهم، نشرع الآن في تحقيق القول في حديث الضرير، والنظر في معناه: هل هو حجة لهم أم عليهم أيضًا؟ فنقول:

أخرج أحمد وغيره بسند صحيح عن عثمان بن حنيف أن رجلًا ضرير البصر أتى النبي ﷺ، فقال: ادع الله أن يعافيني. قال: (إن شئت دعوت لك، وإن شئت أخّرتُ ذاك، فهو خير)، (وفي رواية: (وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك))، فقال: ادعهُ. فأمره أن يتوضأ، فيحسن وضوءه، فيصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهتُ بك إلى ربي في حاجتي هذه، فتقضى لي، اللهم فشفّعه فيَّ [وشفّعني فيه]. قال: ففعل الرجل فبرأ.

يرى المخالفون: أن هذا الحديث يدل على جواز التوسل في الدعاء بجاه النبي ﷺ أو غيره من الصالحين، إذ فيه أن النبي ﷺ علم الأعمى أن يتوسل به في دعائه، وقد فعل الأعمى ذلك فعاد بصيرًا.

وأما نحن فنرى ان هذا الحديث لا حجة لهم فيه على التوسل المختلف فيه، وهو التوسل بالذات، بل هو دليل آخر على النوع الثالث من أنواع التوسل المشروع الذي أسلفناه، لأن توسل الأعمى إنما كان بدعائه. والأدلة على ما نقول من الحديث نفسه كثيرة، وأهمها:

أولًا: أن الأعمى إنما جاء إلى النبي ﷺ ليدعو له، وذلك قوله: (أدعُ الله أن يعافيني) فهو توسل إلى الله تعالى بدعائه ﷺ، لأنه يعلم أن دعاءه ﷺ أرجى للقبول عند الله بخلاف دعاء غيره، ولو كان قصد الأعمى التوسل بذات النبي ﷺ أو جاهه أو حقه لما كان ثمة حاجة به إلى أن يأتي النبي ﷺ، ويطلب منه الدعاء له، بل كان يقعد في بيته، ويدعو ربه بأن يقول مثلًا: (اللهم إني أسألك بجاه نبيك ومنزلته عندك أن يشفيني، وتجعلني بصيرًا). ولكنه لم يفعل، لماذا؟ لأنه عربي يفهم معنى التوسل في لغة العرب حق الفهم، ويعرف أنه ليس كلمة يقولها صاحب الحاجة، يذكر فيها اسم الموسَّل به، بل لابد أن يشتمل على المجيء إلى من يعتقد فيه الصلاح والعلم بالكتاب والسنة، وطلب الدعاء منه له.

ثانيًا: أن النبي ﷺ وعده بالدعاء مع نصحه له ببيان ما هو الأفضل له، وهو قوله ﷺ: (إن شئت دعوتُ، وإن شئت صبرت فهو خير لك). وهذا الأمر الثاني هو ما أشار إليه ﷺ في الحديث الذي رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: (إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه -أي عينيه - فصبر، عوضته منهما الجنة).

ثالثًا: إصرار الأعمى على الدعاء وهو قوله: (فادع) فهذا يقتضي أن الرسول ﷺ دعا له، لأنه ﷺ خير من وفى بما وعد، وقد وعده بالدعاء له إن شاء كما سبق، فقد شاء الدعاء وأصر عليه، فإذن لا بد أنه ﷺ دعا له، فثبت المراد، وقد وجه النبي ﷺ الأعمى بدافع من رحمته، وبحرص منه أن يستجيب الله تعالى دعاءه فيه، وجهه إلى النوع الثاني من التوسل المشروع، وهو التوسل بالعمل الصالح، ليجمع له الخير من أطرافه، فأمرهأن يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يدعو لنفسه وهذه الأعمال طاعة لله سبحانه وتعالى يقدمها بين يدي دعاء النبي ﷺ له، وهي تدخل في قوله تعالى: (وابتغوا إليه الوسيلة) كما سبق.

وهكذا فلم يكتف الرسول ﷺ بدعائه للأعمى الذي وعده به، بل شغله بأعمال فيها طاعة لله سبحانه وتعالى وقربة إليه، ليكون الأمر مكتملًا من جميع نواحيه، وأقرب إلى القبول والرضا من الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا، فالحادثة كلها تدور حول الدعاء - كما هو ظاهر - وليس فيها ذكر شيء مما يزعمون.

وقد غفل عن هذا الشيخ الغماري أو تغافل، فقال في "المصباح" (٢٤): (وإن شئتَ دعوتُ). أي وإن شئت علمتك دعاء تدعو به، ولقنتك إياه، وهذا التأويل واجب ليتفق أول الحديث مع آخره).

قلت: هذا التأويل باطل لوجوه كثيرة منها: أن الأعمى إنما طلب منه ﷺ أن يدعو له، لا أن يعلمه دعاء، فإذا كان قوله ﷺ له: (وإن شئت دعوت) جوابًا على طلبه تعين أنه الدعاء له، ولابد، وهذا المعنى هو الذي يتفق مع آخر الحديث، ولذلك رأينا الغماري

لم يتعرض لتفسير قوله في آخره: (اللهم فشفعه في، وشفعني فيه) لأنه صريح في أن التوسل كان بدعائه ﷺ كما بيناه فيما سلف.

ثم قال: (ثم لو سلمنا أن النبي ﷺ دعا للضرير فذلك لا يمنع من تعميم الحديث في غيره).

قلت: وهذه مغالطة مكشوفة، لأنه لا أحد ينكر تعميم الحديث في غير الأعمى في حالة دعائه ﷺ لغيره، ولكن لما كان الدعاء منه ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى غير معلوم بالنسبة للمتوسلين في شتى الحوائج والرغبات، وكانوا هم أنفسهم لا يتوسلون بدعائه ﷺ بعد وفاته، لذلك اختلف الحكم، وكان هذا التسليم من الغماري حجة عليه.

رابعًا: أن في الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ إياه أن يقول: (اللهم فشفعه في) وهذا يستحيل حمله على التوسل بذاته ﷺ، أو جاهه، أو حقه، إذ أن المعنى: اللهم اقبل شفاعته ﷺ في، أي اقبل دعائه في أن ترد عليَّ بصري، والشفاعة لغة الدعاء، وهو المراد بالشفاعة الثابتة له ﷺ ولغيره من الأنبياء والصالحين يوم القيامة، وهذا يبين أن الشفاعة أخص من الدعاء، إذ لا تكون إلا إذا كان هناك اثنان يطلبان أمرًا، فيكون أحدهما شفيعًا للآخر، بخلاف الطالب الواحد الذي لم يشفع غيره، قال في "لسان العرب": (الشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره، والشافع الطالب لغيره، يتشفع به إلى المطلوب، يقال بشفعت بفلان إلى فلان، فشفعني فيه).

فثبت بهذا الوجه أيضًا أن توسل الأعمى إنما كان بدعائه ﷺ لا بذاته.

خامسًا: إن مما علم النبي ﷺ الأعمى أن يقوله: (وشفعني فيه) أي اقبل شفاعتي، أي دعائي في أن تقبل شفاعته ﷺ، أي دعاءه في أن ترد علي بصري. هذا الذي لا يمكن أن يفهم من هذه الجملة سواه.

ولهذا ترى المخالفين يتجاهلونها ولا يتعرضون لها من قريب أو من بعيد،

لأنها تنسف بنيانهم من القواعد، وتجتثه من الجذور، وإذا سمعوها رأيتهم ينظرون إليك نظر المغشي عليه. ذلك أن شفاعة الرسول ﷺ في الأعمى مفهومة، ولكن شفاعة الأعمى في الرسول ﷺ كيف تكون؟ لا جواب لذلك عندهم البتة. ومما يدل على شعورهم بأن هذه الجملة تبطل تأويلاتهم أنك لا ترى واحدًا منهم يستعملها، فيقول في دعائه مثلًا: اللهم شفع فيَّ نبيك، وشفعني فيه.

سادسًا: إن هذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب، وما أظهره الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإنه بدعائه ﷺ لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره، ولذلك رواه المصنفون في "دلائل النبوة" كالبيهقي وغيره، فهذا يدل على ان السر في شفاء الأعمى إنما هو دعاء النبي ﷺ. ويؤيده كل من دعا به من العميان مخلصًا إليه تعالى، منيبًا إليه قد عوفي، بل على الأقل لعوفي واحد منهم، وهذا ما لم يكن ولعله لا يكون أبدًا.

كما أنه لو كان السر في شفاء الأعمى أنه توسل بجاه النبي ﷺ وقدره وحقه، كما يفهم عامة المتأخرين، لكان من المفروض أن يحصل هذا الشفاء لغيره من العميان الذين يتوسلون بجاهه ﷺ، بل ويضمون إليه أحيانًا جاه جميع الأنبياء المرسلين، وكل الأولياء والشهداء والصالحين، وجاه كل من له جاه عند الله من الملائكة، والإنس والجن أجمعين! ولم نعلم ولا نظن أحدًا قد علم حصول مثل هذا خلال القرون الطويلة بعد وفاته ﷺ إلى اليوم.

إذا تبين للقارىء الكريم ما أوردناه من الوجوه الدالة على أن حديث الأعمى إنما يدور حول التوسل بدعائه ﷺ، وأنه لا علاقة له بالتوسل بالذات، فحينئذ يتبين له أن قول الأعمى في دعائه: (اللهم إني أسألك، وأتوسل إليك

بنبيك محمد ﷺ) إنما المراد به: أتوسل إليك بدعاء نبيك، أي على حذف المضاف، وهذا أمر معروف في اللغة، كقوله تعالى: (واسأل القرية التي كنا فيها، والعير التي اقبلنا فيها) أي أهل القرية وأصحاب العير. ونحن والمخالفون متفقون على ذلك، أي على تقدير مضاف محذوف، وهو مثل ما رأينا في دعاء عمر وتوسله بالعباس، فإما أن يكون التقدير: إني أتوجه إليك بـ (جاه) نبيك، ويا محمد إني توجهت بـ (ذات) ك أو (مكانت) ك إلى ربي كما يزعمون، وإما أن يكون التقدير: إني أتوجه إليك بـ (دعاء) نبيك، ويا محمد إني توجهت بـ (دعاء) ك إلى ربي كما هو قولنا. ولا بد لترجيح احد التقديرين من دليل يدل عليه. فأما تقديرهم (بجاهه) فليس لهم عليه دليل لا من هذه الحديث ولا من غيره، إذ ليس في سياق الكلام ولا سباقه تصريح أو إشارة لذكر الجاه أو ما يدل عليه إطلاقًا، كما أنه ليس عندهم شيء من القرآن أو من السنة أو من فعل الصحابة يدل على التوسل بالجاه، فيبقى تقديرهم من غير مرجح، فسقط من الاعتبار، والحمد لله.

أما تقديرنافيقوم عليه أدلة كثيرة، تقدمت في الوجوه السابقة.

وثمة أمر آخر جدير بالذكر، وهو أنه لو حمل حديث الضرير على ظاهره، وهو التوسل بالذات لكان معطلًا لقوله فيما بعد: (اللهم فشفعه في، وشفعني فيه) وهذا لا يجوز كما لا يخفى، فوجب التوفيق بين هذه الجملة والتي قبلها. وليس ذلك إلا على ما حملناه من أن التوسل كان بالدعاء، فثبت المراد، وبطل الاستدلال به على التوسل بالذات، والحمد لله.

على أنني أقول: لو صح أن الأعمى إنما توسل بذاته ﷺ، فيكون حكمًا خاصًا به ﷺ، لا يشاركه فيه غيره من الأنبياء والصالحين، وإلحاقهم به مما لا

يقبله النظر الصحيح، لأنه ﷺ سيدهم وأفضلهم جميعًا، فيمكن أن يكون هذا مما خصه الله به عليهم ككثير مما صح به الخبر، وباب الخصوصيات لا تدخل فيه القياسات، فمن رأى أن توسل الأعمى كان بذاته ﷺ، فعليه أن يقف عنده، ولا يزيد عليه كما نقل عن الإمام أحمد والشيخ العز بن عبد السلام رحمهما الله تعالى. هذا هو الذي يقتضيه البحث العلمي مع الإنصاف، والله الموفق للصواب.

دفع توهم

هذا ولا بد من بيان ناحية هامة تتعلق بهذا الموضوع، وهي أننا حينما ننفي التوسل بجاه النبي ﷺ، وجاه غيره من الأنبياء والصالحين فليس ذلك لأننا ننكر أن يكون لهم جاه، أو قدر أو مكانة عند الله، كما أنه ليس ذلك لأننا نبغضهم، وننكر قدرهم ومنزلتهم عند الله، ولا تشعر أفئدتنا بمحبتهم، كما افترى علينا الدكتور البوطي في كتابه "فقه السيرة" (ص٣٥٤) فقال ما نصه: (فقد ضل أقوام لم تشعر أفئدتهم بمحبة رسول الله ﷺ، وراحوا يستنكرون التوسل بذاته ﷺ بعد وفاته...) كلا ثم كلا، فنحن ولله الحمد من أشد الناس تقديرًا لرسول الله ﷺ، وأكثرهم حبًا له، واعترافًا بفضله ﷺ، وإن دل هذا الكلام على شيء فإنما يدل على الحقد الأعمى الذي يملأ قلوب أعداء الدعوة السلفية على هذه الدعوة وعلى أصحابها، حتى يحملهم على أن يركبوا هذا المركب الخطر الصعب، ويقترفوا هذه الجريمة البشعة النكراء، ويأكلوا لحوم إخوانهم المسلمين، ويكفروهم دونما دليل، اللهم إلا الظن الذي هو أكذب الحديث، كما قال النبي الأكرم ﷺ.

ولا أدري كيف سمح هذا المؤلف الظالم لنفسه أن يصدر مثل هذا الحكم

الذي لا يستطيع إصداره إلا الله ﷻ، المطلع وحده على خفايا القلوب ومكنونات الصدور، ولا تخفى عليه خافية.

أتراه لا يعلم جزاء من يفعل ذلك، أم إنه يعلم، ولكنه أعماه الحقد الأسود والتحامل الدفين على دعاة السنة؟ أي الأمرين كان فإننا نذكره بهذين الحديثين الشريفين لعله ينزجر عن غيه، ويفيق من غفلته، ويتوب من فعلته.

قال رسول الله ﷺ:(إيما رجل أكفر رجلًا مسلمًا، فإن كان كافرًا وإلا كان هو الكافر) وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: (إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق) .

كما نقول له أخيرًا: ترى هل دريت يا هذا بأنك حينما تقول ذاك الكلام فإنك ترد على سلف هذه الأمة الصالح، وتكفر أئمتها المجتهدين ممن لا يجيز التوسل بالنبي ﷺ وغيره بعد وفاتهم كالإمام أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى، وقد قال أبو حنيفة: (أكره أن يتوسل إلى الله إلا بالله) كما تقدم.

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظمُ

ونعود لنقول: إن كل مخلص منصف ليعلم علم اليقين بأننا والحمد لله من أشد الناس حبًا لرسول الله ﷺ، ومن أعرفهم بقدره وحقه وفضله ﷺ، وبأنه أفضل النبيين، وسيد المرسلين، وخاتمهم وخيرهم، وصاحب اللواء المحمود، والحوض المورود، والشفاعة العظمى، والوسيلة والفضيلة، والمعجزات الباهرات، وبأن الله تعالى نسخ بدينه كل دين، وأنزل عليه سبعًا من المثاني والقرآن العظيم، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس. إلى آخر ما هنالك من فضائله ﷺ ومناقبه التي تبين قدره العظيم، وجاهه المنيف صلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا كثيرًا.

أقول: إننا - والحمد لله - من أول الناس اعترافًا بذلك كله، ولعل منزلته ﷺ عندنا محفوظة أكثر بكثير مما هي محفوظة لدى الآخرين، الذين يدعون محبته، ويتظاهرون بمعرفة قدره، لأن العبرة في ذلك كله إنما هي في الاتباع له ﷺ، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، كما قال سبحانه وتعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم)، ونحن بفضل الله من أحرص الناس على طاعة الله ﷻ، واتباع نبيه ﷺ وهما أصدق الأدلة على المودة والمحبة الخالصة بخلاف الغلو في التعظيم، والإفراط في الوصف اللذين نهى الله تعالى عنهما، فقال سبحانه: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق) كما نهى النبي ﷺ عنهما فقال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله).

ومن الجدير بالذكر أن النبي ﷺ جعل من الغلو في الدين أن يختار الحاج إذا أراد رمي الجمرات بمنى الحصوات الكبيرة وأمر أن تكون مثل حصى الخذف، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة: (هات أَلْقِطْ لي). قال: فلقطت له نحو حصى الخذف، فلما وضعتهن في يده قال: (مثل هؤلاء - ثلاث مرات - وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين) ذلك لأنه ﷺ يعد مسألة رمي الجمار مسألة رمزية الغرض منها نبذ الشيطان ومحاربته، وليس حقيقية يراد بها قتله وإماتته، فعلى المسلم تحقيق الأمر، ومنابذة الشيطان عدو الإنسان اللدود بالعداء ليس غير، ومع هذا التحذير الشديد من الغلو في الدين، وقع المسلمون فيه مع الأسف، واتبعوا سنن أهل الكتاب، فقال قائلهم:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم … واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

فهذا الشاعر الذي يعظمه كثير من المسلمين، ويترنمون بقصيدته هذه، المشهورة بالبردة، ويتبركون بها، وينشدونها في الموالد وبعض مجالس الوعظ والعلم، ويعدون ذلك قربة إلى الله تبارك وتعالى، ودليلًا على محبتهم نبيهم ﷺ، أقول: هذا الشاعر قد ظن النهي الوارد في الحديث السابق منصبًا فقط على الادعاء بأن محمدًا ﷺ ابن الله، فنهى عن هذه القولة، ودعا إلى القول بأي شيء آخر مهما كان. وهذا غلط بالغ وضلال مبين، ذلك لأن للاطراء المنهي عنه في الحديث معنيين اثنين أولهما مطلق المدح، وثانيهما المدح المجاوز للحد. وعلى هذا فيمكن أن يكون المراد الحديث النهي عن مدحه ﷺ مطلقًا، من باب سد الذريعة، واكتفاءً باصطفاء الله تعالى له نبيًا ورسولًا، وحبيبًا وخليلًا، ومما أثنى سبحانه عليه في قوله: (وإنك لعلى خلق عظيم)، إذ ماذا يمكن للبشر أن يقولوا فيه بعد قول الله تبارك وتعالى هذا؟ وما قيمة أي كلام يقولونه أمام شهادة الله تعالى هذه؟ وإن أعظم مدح له ﷺ أن تقول فيه ما قال ربنا ﷻ: إنه عبد له ورسوله، فتلك أكبر تزكية له ﷺ، وليس فيها إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير. وقد وصفه ربنا سبحانه وتعالى وهو في أعلى درجاته، وأرفع تكريم من الله تعالى له، وذلك حينما أسرى وعرج به إلى السماوات العلى، حيث أراه من آيات ربه الكبرى، وصفه حينذاك بالعبودية فقال: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى) [الإسراء:١].

ويمكن أن يكون المراد: لا تبالغوا في مدحي، فتصفوني بأكثر مما أستحقه، وتصبغوا علي بعض خصائص الله تبارك وتعالى.

ولعل الأرجح في الحديث المعنى الأول لأمرين اثنين: أولهما تمام الحديث، وهو قوله ﷺ:

(فقولوا عبد الله ورسوله) أي اكتفوا بما وصفني به الله ﷻ من اختياري عبدًا له ورسولًا، وثانيهما ما عقد بعض أئمة الحديث له من الترجمة، فأورده الإمام الترمذي مثلًا تحت عنوان: "باب تواضع النبي ﷺ" فحمل الحديث على النهي عن المدح المطلق وهو الذي ينسجم مع معنى التواضع ويأتلف معه.

تنبيه:

واعلم انه وقع في بعض الطرق الأخرى لحديث الضرير السابق زيادتان لا بد من بيان شذوذهما وضعفهما، حتى يكون القارىء على بينة من أمرهما، فلا يغتر بقول من احتج بهما على خلاف الحق والصواب.

الزيادة الأولى

زيادة حماد بن سلمة قال: حدثنا أبو جعفر الخطمي.. فساق إسناده مثل رواية شعبة، وكذلك المتن إلا أنه اختصره بعض الشيء، وزاد في آخره بعد قوله: وشفع نبيي في رد بصري: (وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك) رواه أبو بكر بن أبي خيثمة في تاريخه، فقال: حدثنا مسلم بن إبراهيم: حدثنا حماد بن سلمه به.

وقد أعلَّ هذه الزيادة شيخ الإسلام ابن تيمية في "القاعدة الجليلة" (ص١٠٢) بتفرد حماد بن سلمة بها، ومخالفته لرواية شعبة، وهو أجلّ من روى هذا الحديث وهذا إعلال يتفق مع القواعد الحديثية، ولا يخالفها البتة، وقول الغماري في "المصباح" (ص٣٠) بأن حمادًا ثقة من رجال الصحيح، وزيادة الثقة مقبولة، غفلة منه أو تغافل عما تقرر في المصطلح، أن القبول مشروط بما إذا لم يخالف الراوي من هو أوثق منه، قال الحافظ في "نخبة الفكر": (والزيادة

مقبولة ما لم تقع منافية لمن هو أوثق، فإن خولف بأرجح، فالراجح المحفوظ، ومقابله الشاذ).

قلت: وهذا الشرط مفقود هنا، فإن حماد بن سلمة، وإن كان من رجال مسلم، فهو

بلا شك دون شعبة في الحفظ، ويتبين لك ذلك بمراجعة ترجمة الرجلين في كتب القوم، فالأول أورده الذهبي في "الميزان" وهو إنما يورد فيه من تُكُلِّم فيه، ووصفه بأنه (ثقة له أوهام) بينما

لم يورد فيه شعبة مطلقًا، ويظهر لك الفرق بينهما بالتأمل في ترجمة الحافظ لهما، فقد قال في "التقريب": (حماد بن سلمة ثقة عابد أثبت الناس في ثابت، وتغير حفظه بآخره) ثم قال: (شعبة بن الحجاج ثقة حافظ متقن، كان الثوري يقول: هو أمير المؤمنين في الحديث، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال، وذب عن السنة، وكان عابدًا).

قلت: إذا تبين لك هذا عرفت أن مخالفة حماد لشعبة في هذا الحديث وزيادته عليه تلك الزيادة غير مقبولة، لأنها منافية لمن هو أوثق منه فهي زيادة شاذة كما يشير إليه كلام الحافظ السابق في "النخبة" ولعل حمادًا روى هذا الحديث حين تغير حفظه، فوقع في الخطأ، وكأن الإمام أحمد أشار إلى شذوذ هذه الزيادة، فإنه أخرج الحديث من طريق مؤمَّل (وهو ابن اسماعيل) عن حماد - عقب رواية شعبة المتقدمة - إلا أنه لم يسق لفظ الحديث، بل أحال به على لفظ حديث شعبة، فقال: (فذكر الحديث) ويحتمل أن الزيادة لم تقع في رواية مؤمل عن حماد، لذلك لم يشر إليها الإمام أحمد كما هي عادة الحفاظ إذا أحالوا في رواية على أخرى بينوا ما في الرواية المحالة من الزيادة على الأولى.

وخلاصة القول: إن الزيادة لا تصح لشذوذها، ولو صحت لم تكن دليلًا على جواز التوسل بذاته ﷺ، لاحتمال أن يكون معنى قوله: (فافعل مثل ذلك) يعني من إتيانه ﷺ في حال حياته، وطلب الدعاء منه والتوسل به، والتوضؤ والصلاة، والدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ أن يدعو به. والله أعلم.

الزيادة الثانية

قصة الرجل مع عثمان بن عفان، وتوسله به ﷺ حتى قضى له حاجته، وأخرجها الطبراني في "المعجم الصغير" (ص١٠٣-١٠٤) وفي "الكبير" (٣/ ٢/ ١/ ١-٢) من طريق عبد الله بن وهب عن شبيب بن سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلًا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته فلقي عثمان بن حنيف، فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان: إئت الميضأة، فتوضأ، ثم ائت المسجد، فصل فيه ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمدﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك عز وجل، فقضي لي حاجتي، وتذكر حاجتك، ورح إليَّ حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال، ثم أتى باب عثمان رضي الله عنه فجاء البواب حتى أخذ بيده، فأدخله عليه، فأجلسه معه على الطنفسة، وقال: حاجتك؟ فذكر حاجته، فقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فأتنا، ثم إن الرجل خرج من عنده، فلقي عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيرًا، ما كان ينظر في حاجتي، ولا يلتفت إلي حتى كامته في، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته، ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضرير، فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي ﷺ: فتصبر،

فقال: يا رسول الله إنه ليس لي قائد، وقد شق علي، فقال النبي ﷺ: (ائت الميضأة، فتوضأ ثم صلي ركعتين، ثم ادعُ بهذه الدعوات) قال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا، وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط. قال الطبراني: (لم يرواه عن روح بن القاسم إلا شبيب بن سعيد أبو سعيد المكي وهو ثقة، وهو الذي يحدث عنه أحمد بن شبيب عن أبيه عن يونس بن يزيد الأيلي، وقد روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر الخطمي - واسمه عمير بن يزيد - وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر بن فارس عن شعبة، والحديث صحيح).

قلت: لا شك في صحة الحديث، وإنما البحث الآن في هذه القصة التي تفرد بها شبيب بن سعيد كما قال الطبراني، وشبيب هذا متكلم فيه، وخاصة في رواية ابن وهب عنه، لكن تابعه عنه إسماعيل وأحمد ابنا شبيب بن سعيد هذا، أما اسماعيل فلا أعرفه، ولم أجد من ذكره، ولقد أغفلوه حتى لم يذكروه في الرواة عن أبيه، بخلاف أخيه أحمد فإنه صدوق، وأما أبوه شبيب فملخص كلامهم فيه: أنه ثقة في حفظه ضعف، إلا في رواية ابنه أحمد هذا عنه عن يونس خاصة فهو حجة، فقال الذهبي في "الميزان": (صدوق يغرب، ذكره ابن عدي في "كامله" فقال..له نسخة عن يونس بن يزيد مستقيمة، حدث عنه ابن وهب بمناكير، قال ابن المديني: كان يختلف في تجارة إلى مصر، وكتابه صحيح قد كتبته عن ابنه أحمد. قال ابن عدي: كان شبيب لعله يغلط ويهم إذ حدث من حفظه، وأرجو أنه لا يتعمد، فإذا حدث عنه ابنه أحمد بأحاديث يونس فكأنه يونس آخر. يعني يجوِّد).

فهذا الكلام يفيد أن شبيبًا هذا لا بأس بحديثه بشرطين اثنين: الأول: ان

يكون من رواية ابنه أحمد عنه، والثاني: أن يكون من رواية شبيب عن يونس، والسبب في ذلك أنه كان عنده كتب يونس بن يزيد، كما قال ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" عن أبيه (٢/ ١/ ٣٥٩)، فهو إذا حدث من كتبه هذه أجاد، وإذا حدث من حفظه وهو كما قال ابن عدي، وعلى هذا فقول الحافظ في ترجمته من "التقريب": (لا بأس بحديثه من رواية ابنه أحمد عنه، لا من رواية ابن وهب) فيه نظر، لأنه أوهم أنه لا بأس بحديثه من رواية أحمد مطلقًا، وليس كذلك، بل هذا مقيد بأن يكون من روايته هو عن يونس لما سبق، ويؤيده أن الحافظ نفسه أشار لهذا القيد، فإنه أورد شبيبًا هذا في "من طعن فيه من رجال البخاري" من "مقدمة فتح الباري" (ص١٣٣) ثم دفع الطعن عنه - بعد أن ذكر من وثقه وقول ابن عدي فيه - بقوله: (قلت: أخرج البخاري من رواية ابنه عنه عن يونس أحاديث، ولم يخرج من روايته عن غير يونس، ولا من رواية ابن وهب عنه شيئًا).

فقد أشار رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا الكلام إلى أن الطعن قائم في شبيب إذا كانت روايته عن غير يونس، ولو من رواية ابنه أحمد عنه، وهذا هو الصواب كما بينته آنفًا، وعليه يجب أن يحمل كلامه في "التقريب" توفيقًا بين كلاميه، ورفعًا للتعارض بينهما.

إذا تبين هذا يظهر لك ضعف هذه القصة، وعدم صلاحية الاحتجاج بها. ثم ظهر لي فيها علة أخرى وهي الاختلاف على أحمد فيها، فقد أخرج الحديث ابن السني في "عمل اليوم والليلة" (ص٢٠٢) والحاكم (١/ ٥٢٦) من ثلاثة طرق عن أحمد بن شبيب بدون القصة، وكذلك رواه عون بن عمارة البصري ثنا روح ابن القاسم به، أخرجه الحاكم، وعون هذا وإن كان ضعيفًا، فروايته أولى من رواية شبيب، لموافقتها لرواية شعبة وحماد بن سلمة عن أبي جعفر

الخطمي.

وخلاصة القول: إن هذه القصة ضعيفة منكرة، لأمور ثلاثة:

ضعف حفظ المتفرد بها، والاختلاف عليه فيها، ومخالفته للثقات الذين لم يذكروها في الحديث، وأمر واحد من هذه الأمور كاف لإسقاط هذه القصة، فكيف بها مجتمعة؟

ومن عجائب التعصب واتباع الهوى أن الشيخ الغماري أورد روايات هذه القصة في "المصباح" (ص١٢و١٧) من طريق البيهقي في "الدلائل" والطبراني، ثم لم يتكلم عليها مطلقًا لا تصحيحًا ولا تضعيفًا، والسبب واضح، أما التصحيح فغير ممكن صناعة، وأما التضعيف فهو الحق ولكن...

ونحو ذلك فعل من لم يوفق في "الإصابة"، فإنهم أوردوا (ص٢١-٢٢) الحديث بهذه القصة، ثم قالوا: (وهذا الحديث صححه الطبراني في "الصغير" و"الكبير")!

وفي هذا القول على صغره جهالات:

أولًا: أن الطبراني لم يصحح الحديث في "الكبير" بل في "الصغير" فقط، وأنا نقلت الحديث عنه للقارئين مباشرة، لا بالواسطة كما يفعل أولئك، لقصر باعهم في هذا العلم الشريف (ومن ورد البحر استقل السواقيا).

ثانيًا: أن الطبراني إنما صحح الحديث فقط دون القصة، بدليل قوله وقد سبق: (قد روى الحديث شعبة...والحديث صحيح) فهذا نص على أنه أراد حديث شعبة، وشعبة لم يرو هذه القصة، فلم يصححها إذن الطبراني، فلا حجة لهم في كلامه.

ثالثًا: أن عثمان بن حنيف لو ثبتت عنه القصة لم يُعَلِّم ذلك الرجل فيها دعاء

الضرير بتمامه، فإنه أسقط منه جملة (اللهم شفعه في وشفعني فيه) لانه يفهم بسليقته العربية أن هذا القول يستلزم أن يكون النبي ﷺ داعيًا لذلك الرجل، كما كان داعيًا للأعمى، ولما كان هذا منفيًا بالنسبة للرجل، لم يذكر هذه الجملة؟

قال شيخ الإسلام (ص١٠٤): (ومعلوم أن الواحد بعد موته ﷺ إذا قال: اللهم فشفعه في وشفعني فيه - مع أن النبي ﷺ لم يدعُ له - كان هذا كلامًا باطلًا، مع أن عثمان بن حنيف لم يأمره ان يسأل النبي ﷺ شيئًا، ولا أن يقول: (فشفعه في)، ولم يأمره بالدعاء المأثور على وجهه، وإنما أمره ببعضه، وليس هناك من النبي ﷺ شفاعة، ولا ما يظن أنه شفاعة، فلو قال بعد موته: (فشفعه في) لكان كلامًا لا معنى له، ولهذا لم يأمر به عثمان، والدعاء المأثور عن النبي ﷺ لم يأمر به، والذي أمر به ليس مأثورًا عن النبي ﷺ، ومثل هذا لا تثبت به شريعة، كسائر ما ينقل عن آحاد الصحابة في حسن العبادات أو الإباحات أو الايجابات أو التحريمات، إذ لم يوافقه غيره من الصحابة عليه، وكان ما يثبت عن النبي ﷺ يخالفه ولا يوافقه، لم يكن فعله سنة يجب على المسلمين اتباعها، بل غايته ان يكون ذلك مما يسوغ فيه الاجتهاد، ومما تنازعت فيه الأمة، فيجب رده إلى الله والرسول).

ثم ذكر أمثلة كثيرة مما تفرد به بعض الصحابة، ولم يتبع عليه مثل إدخال ابن عمر الماء في عينيه في الوضوء، ونحو ذلك فراجعه.

ثم قال: وإذا كان في ذلك كذلك، فمعلوم أنه إذا ثبت عن عثمان بن حنيف أو غيره أنه جعل من المشروع المستحب أن يتوسل بالنبي ﷺ بعد موته من غير أن يكون النبي ﷺ داعيًا له، ولا شافعًا فيه فقد علمنا أن عمر وأكابر الصحابة لم يروا هذا مشروعًا بعد مماته كما كان يشرع في حياته، بل كانوا في الاستسقاء في

حياته ﷺ يتوسلون فلما مات لم يتوسلوا به، بل قال عمر في دعائه الصحيح المشهور الثابت باتفاق أهل العلم بمحضر من المهاجرين والأنصار في عام الرمادة المشهور، لما اشتد بهم الجدب حتى حلف عمر: لا يأكل سمينًا حتى يخصب الناس، ثم لما استسقى بالناس قال: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا، فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. فيسقون. وهذا دعاء أقره عليه جميع الصحابة، ولم ينكره أحد مع شهرته، وهو من أظهر الإجماعات الإقرارية، ودعا بمثله معاوية بن أبي سفيان في خلافته، فلو كان توسلهم بالنبي ﷺ بعد مماته كتوسلهم في حياته لقالوا: كيف نتوسل بمثل العباس ويزيد بن الأسود ونحوهما، ونعدل عن التوسل بالنبي ﷺ الذي هو أفضل الخلائق، وهو أفضل الوسائل وأعظمها عند الله؟ فلما لم يقل ذلك أحد منهم، وقد علم أنهم في حياته إنما توسلوا بدعائه وشفاعته، وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره، وشفاعة غيره، علم أن المشروع عندهم التوسل بدعاء المتوسل به، لا بذاته).

هذا، وفي القصة جملة إذا تأمل فيها العاقل العارف بفضائل الصحابة وجدها من الأدلة الأخرى على نكارتها وضعفها، وهي أن الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه كان لا ينظر في حاجة ذلك الرجل، ولا يلتفت إليه! فكيف يتفق هذا مع ما صح عن النبي ﷺ أن الملائكة تستحي من عثمان، ومع ما عرف به رضي الله عنه من رفقه بالناس، وبره بهم، ولينه معهم؟ هذا كله يجعلنا نستبعد وقوع ذلك منه، لأنه ظلم يتنافى مع شمائه رضي الله عنه وأرضاه.

(تنبيه): اطلعنا بعد صف هذه الملزمة على كتاب "التوصل إلى حقيقة التوسل" للشيخ محمد نسيب الرفاعي، الذي ذيل اسمه عليه بلقب "مؤسس الدعوة السلفية وخادمها"، وتقتضينا الأمانة العلمية، والنصيحة الدينية وقول

كلمة الحق أن نبين حكم الله كما نفهمه، وندين الله تعالى به في هذا اللقب فنقول:

إن من نافلة القول أن نبين ان الدعوة إنما هي دعوة الإسلام الحق كما أنزله الله تعالى على خاتم رسله وأنبيائه محمد ﷺ، فالله وحده سبحانه هو مؤسسها ومشرعها، وليس لأحد من البشر كائنًا من كان أن يدعي تأسيسها وتشريعها، وحتى النبي الأكرم محمد صلوات الله وسلامه عليه إنما كان دوره فيها التلقي الواعي الأمين، والتبليغ الكامل الدقيق، ولم يكن مسموحًا له التصرف في شيء من شرع الله تعالى ووحيه، ولهذا فادعاه إنسان مهما علا وسما تأسيس هذه الدعوة الإلهية المباركة إنما هو في الحقيقة خطأ جسيم وجرح بليغ، هذا إن لم يكن شركًا أكبر، والعياذ بالله.

فلا ندري كيف وقع هذا من رجل عاش دهرًا طويلًا مع إخوانه في حلب وغيرها من البلاد الشامية في الدعوة السلفية التي هي أخص خصائصها وأهم اهتماماتها محاربة الشركيات والوثنيات اللفظية، فضلًا عن الشركيات الاعتقادية، ثم اعتزلهم جميعًا، هدانا الله تعالى وإياه، وجنبنا الزلل والفتن ومضلات الأهواء.

ولعل أحدًا يحاول التماس عذر للمؤلف بأنه إنما قصد من ذاك اللقب أنه مجدد الدعوة السلفية، وليس أنه منشئها وصائغ تعاليمها، وقد كان في المسلمين قديمًا وحديثًا مجددون، والمؤلف واحد من هؤلاء في ظنه.

ونقول: نعم، إن هناك مجددين لدعوة الإسلام الحق على تتالي الزمان، ولكن شتان بين المؤلف وأولئك المجددين، وحسبه أن يكون تابعًا لأحدهم، ولو وافقناه جدلًا على حشر نفسه معهم لكان من الواجب عليه ان يحدد دائرة

لتجديده المزعوم كبلد أو قطر، أما إطلاقه ذاك اللقب الفضفاض فإنه يوحي إلى القراء بأنه المجدد للإسلام في العالم الإسلامي كله في هذا العصر، وأين هو من هذا؟

أضف إلى ذلك أن من الأخلاق الأساسية التي يجب أن يتصف بها الداعية المسلم المتواضع، والبعد عن حب الظهور والتفاخر والادعاء، فإن هذه أدواء قاتلة تجرد الساعي اليها، والحريص عليها من أهلية الدعوة، وتفقده سلاحًا ماضيًا للنصرعلى أعدائها، وتجعل عمله هباءً منثورًا، والعياذ بالله، فاللهم عصمتك وهداك.

هذا وقدتصفحنا الكتاب المشار إليه على عجل، فوجدنا فيه بعض الأخطاء، نتبه على بعضها في محله، ومنها أنه قال في (ص٢٣٧) في صدد الحديث عن إسناد القصة السابقة

ما نصه: (إن في سند هذا الحديث رجلًا اسمه روح بن صلاح، وقد ضعفه الجمهور وابن عدي وقال ابن يونس: يروي أحاديث منكرة). وهذا خطأ محض لا ندري وجهه، وهذا الرجل (أي روح بن صلاح) إنما هو علة الحديث الثالث كما سيأتي.

الشبهة الثالثة: الأحاديث الضعيفة في التوسل

يحتج مجيزو التوسل المبتدع بأحاديث كثيرة، إذا تأملناها نجدها تندرج تحت نوعين اثنين، الأول ثابت بالنسبة إلى رسول الله ﷺ، ولكنه لا يدل على مرادهم، ولا يؤيد رأيهم كحديث الضرير، وقد تقدم الكلام على هذا النوع.

والنوع الثاني غير ثابت النسبة إلى رسول الله ﷺ، وبعضه يدل على مرادهم، وبعضه

لا يدل، وهذه الأحاديث التي لا تصح كثيرة، فأكتفي بذكر ما اشتهر منها، فأقول:

الحديث الأول

عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا:(من خرج من بيته إلى الصلاة، فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا...أقبل الله عليه بوجهه).

رواه أحمد (٣/ ٢١) واللفظ له، وابن ماجه، وانظر تخريجه مفصلًا في "سلسلة الأحاديث الضعيفة" (رقم ٢٤). وإسناده ضعيف لأنه من رواية عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري، وعطية ضعيف كما قال النووي في "الأذكار" وابن تيمية في "القاعدة الجليلة" والذهبي في "الميزان" بل قال في "الضعفاء" (٨٨/ ١): (مجمع على ضعفه)، والحافظ الهيثمي في غير موضع من "مجمع الزوائد" منها (٥/ ٢٣٦) وأورده أبوبكر بن المحب البعلبكي في "الضعفاء والمتروكين"، والبوصيري كما يأتي، وكذا الحافظ ابن حجر بقوله فيه: (صدوق يخطىء كثيرًا، كان شيعيًا مدلسًا، وقد أبان فيه عن سبب ضعفه وهو أمران:

الأول: ضعف حفظه بقوله: (يخطىء كثيرًا، وهذا كقوله فيه "طبقات المدلسين": (ضعيف الحفظ) وأصرح منه قوله في "تلخيص الحبير" (ص٢٤١ طبع الهند) وقد ذكر حديثًا آخر: (وفيه عطية بن سعيد العوفي وهو ضعيف).

الثاني: تدليسه، لكن كان على الحافظ أن يبين نوع تدليسه، فإن التدليس عند المحدثين على أقسام كثيرة من أشهرها ما يلي:

الأول: أن يروي الرواي عمن لقيه ما لم يسمعه منه، أو عمن عاصره ولم يلقه، موهمًا أنه سمعه منه، كأن يقول: عن فلان، أو قال فلان.

الثاني: أن يأتي الرواي باسم شيخه أو لقبه على خلاف المشهور به تعمية لأمره، وقد صرحوا بتحريم هذا النوع إذا كان شيخه غير ثقة، فدلسه لئلا يعرف حاله، أو أوهم أنه رجل آخر من الثقات على وفق اسمه أو كنيته، وهذا يعرف عندهم بتدليس الشيوخ.

قلت: وتدليس عطية من هذا النوع المحرم، كما كنت بينته في كتابي "الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة" (٢٤).

وخلاصة ذلك أن عطية هذا كان يروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، فلما مات جالس أحد الكذابين المعروفين، بالكذب في الحديث وهو الكلبي، فكان عطية إذا روى عنه كناه أبا سعيد، فيتوهم السامعون منه أنه يريد أبا سعيد الخدري! وهذا وحده عندي يسقط عدالة عطية هذا، فكيف إذا انضم إلى ذلك سوء حفظه! ولهذا كنت أحب للحافظ رحمه الله أن ينبه على أن تدليس عطية من هذا النوع الفاحش، ولو بالإشارة كما فعل في "طبقات المدلسين" إذ قال: (مشهور بالتدليس القبيح) كما سبق.

ثم كأن الحافظ نسي أو وهم - أو غير ذلك من الأسباب التي تعرض للبشر - فقال في تخريجه لهذا الحديث: إن عطية قال في رواية: حدثني أبو سعيد. قال: (فأمن بذلك تدليس عطية) كما نقله ابن علان عنه، وقلده في ذلك بعض المعاصرين.

قلت: والتصريح بالسماع إنما يفيد إذا كان التدليس من النوع الأول، وتدليس عطية من النوع الآخر القبيح، فلا يفيد فيه ذلك، لأنه في هذه الرواية أيضًا قال: (حدثني أبو سعيد) فهذا هو عين التدليس القبيح.

فتبين مما سبق أن عطية ضعيف لسوء حفظه وتدليسه الفاحش، فكان حديثه

هذا ضعيفًا، وأما تحسين الحافظ له الذي اغتر به من لا علم عنده فهو بناء على سهوه السابق، فتنبه ولا تكن من الغافلين. وفي الحديث علل أخر تكلمت عليها في الكتاب المشار إليه سابقًا، فلا حاجة للإعادة، فليرجع إليه من شاء الزيادة.

وأما فهم بعض المعاصرين من عبارة الحافظ ابن حجر السابقة في "التقريب" أنها تفيد توثيق عطية هذا ففهم لا يغبطون عليه، وقد سألت الشيخ أحمد بن الصديق حين التقيت به في ظاهرية دمشق عن هذا الفهم فتعجب منه، فإن من كثر خطؤه في الرواية سقطت الثقة به بخلاف من قال ذلك منه، فالأول ضعيف الحديث، والآخر حسن الحديث، ولذلك جعل الحافظ في "شرح النخبة" من كثر غلطه قرين من ساء حفظه، وجعل حديث كل منهما مردودًا فراجعه مع حاشية الشيخ علي القاري عليه (ص١٢١، ١٣٠).

وإنما غرّ هؤلاء ما نقلوه عن الحافظ أنه قال في "تخريج الأذكار": (ضعف عطية إنما جاء من قبل تشيعه، وقيل تدليسه، وإلا فهو صدوق).

وهم لقصر باعهم إن لم نقل لجهلهم في هذا العلم لا جرأة لهم على بيان رأيهم الصريح في أوهام العلماء، بل إنهم يسوقون كلماتهم كأنها في مأمن من الخطأ والزلل، لا سيما إذا كانت موافقة لغرضهم كهذه الجملة، وإلا فهي ظاهرة التعارض مع قول الحافظ المنقول عن "التقريب" إذ أنها تعلل ضعف عطية بسببين:

أحدهما: التشيع، وهذا ليس جرحًا مطلقًا على الراجح.

والثاني: التدليس، وهذا جرح قد يزول كما سيأتي، ومع ذلك فإنه أشار إلى تضعيفه لهذا السبب بقوله: (قيل). بينما جزم في "التقريب" بأنه كان مدلسًا، كما جزم بأنه كان شيعيًا، ولذلك أورده (أعني الحافظ نفسه) في رسالة "طبقات

المدلسين" (ص١٨) فقال: (تابعي معروف، ضعيف الحفظ مشهور بالتدليس القبيح) ذكره في "المرتبة الرابعة" وهي التي يورد فيها (من اتفق على أنه لا يحتج بشيء من حديثهم إلا بما صرحوا فيه بالسماع، لكثرة تدليسهم عن الضعفاء والمجاهيل كبقية بن الوليد) كما ذكره في المقدمة، فهذان النصان من الحافظ نفسه دليل على وهمه في تضعيفه كون عطية مدلسًا في الجملة المذكورة آنفًا. فهذا وجه من وجوه التعارض بينها وبين عبارة "التقريب". وثمة وجه آخر وهو أنه في هذه الجملة لم يصفه بما هو جرح عنده - كما سبق عن "شرح النخبة" - وهو قوله في "التقريب": (يخطىء كثيرًا) فهذا كله يدلنا على أن الحافظ رحمه الله تعالى لم يكن قد ساعده حفظه حين تخريجه لهذا الحديث، فوقع في هذا القصور الذي يشهد به كلامه المسطور في كتبه الأخرى، وهي أولى بالاعتماد عليها من كتابه "التخريج"، لأنه في تلك ينقل عن الأصول مباشرة، ويلخص منها بخلاف صنيعه في "التخريج".

ولما ذكرنا من حال العوفي ضعف الحديث غير واحد من الحفاظ كالمنذري في "الترغيب" والنووي وشيخ الإسلام ابن تيمية في "القاعدة الجليلة" وكذا البوصيري، فقال في "مصباح الزجاجة" (٢/ ٥٢): (هذا إسناد مسلسل بالضعفاء: عطية وفضيل بن مرزوق والفضل بن الموفق كلهم ضعفاء). وقال صديق خان في "نزل الأبرار" (ص٧١) بعد أن أشار لهذا الحديث وحديث بلال الآتي بعده: (وإسنادهم ضعيف، صرح بذلك النووي في"الأذكار").

الحديث الثاني

وحديث بلال الذي أشار إليه صديق خان هو ما روي عنه أنه قال: (كان

رسول الله ﷺ إذا خرج إلى الصلاة قال: بسم الله، آمنت بالله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله. اللهم بحق السائلين عليك، وبحق مخرجي هذا، فإني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا..) الحديث أخرجه ابن السني في "عمل اليوم والليلة - رقم٨٢" من طريق الوازع بن نافع العقيلي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله عنه.

قلت: وهذا سند ضعيف جدًا، وآفته الوازع هذا، فإنه لم يكن عنده وازع يمنعه من الكذب، كما بينته في "السلسلة الضعيفة" ولذلك لما قال النووي في "الأذكار": (حديث ضعيف أحد رواته الوازع بن نافع العقيلي وهو متفق على ضعفه، وأنه منكر الحديث) قال الحافظ بعد تخريجه: (هذا حديث واه جدًا، أخرجه الدارقطني في "الأفراد" من هذا الوجه وقال: تفرد به الوازع، وهو متفق على ضعفه وأنه منكر الحديث. والقول فيه أشد من ذلك، فقال ابن معين والنسائي: ليس بثقة، وقال أبو حاتم وجماعة، متروك الحديث، وقال الحاكم: يروي أحاديث موضوعة).

قلت: فلا يجوز الاستشهاد به كما فعل الشيخ الكوثري، والشيخ الغماري في "مصباح الزجاجة" (٥٦) وغيرهما من المبتدعة.

ومع كون هذين الحديثين ضعيفين فهما لا يدلان على التوسل بالمخلوقين أبدًا، وإنما يعودان إلى أحد أنواع التوسل المشروع الذي تقدم الكلام عنه، وهو التوسل إلى الله تعالى بصفة من صفاته ﷻ، لأن فيهما التوسل بحق السائلين على الله وبحق ممشى المصلين. فما هو حق السائلين على الله تعالى؟، لا شك أنه إجابة دعائهم، وإجابة الله دعاء عباده صفة من صفاته ﷻ، وكذلك حق ممشى المسلم إلى المسجد هو أن يغفر الله له، ويدخله الجنة ومغفرة الله تعالى

ورحمته، وإدخاله بعض خلقه ممن يطيعه الجنة. كل ذلك صفات له تبارك وتعالى.

وبهذا تعلم أن هذا الحديث الذي يحتج به المبتدعون ينقلب عليهم، ويصبح بعد فهمه فهمًا جيدًا حجة لنا عليهم، والحمد لله على توفيقه.

الحديث الثالث

عن أبي أمامة قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أصبح، وإذا أمسى دعا بهذا الدعاء: اللهم أنت أحق من ذكر، وأحق من عبد.. أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض، وبكل حق هو لك، وبحق السائلين عليك...).

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٠/ ١١٧): (رواه الطبراني، وفيه فضال بن جبير، وهو ضعيف مجمع على ضعفه).

قلت: بل هو ضعيف جدًا، اتهمه ابن حبان فقال: (شيخ يزعم أنه سمع أبا أمامة، يروي عنه ما ليس منه حديثه). وقال أيضًا: (لا يجوز الاحتجاج به بحال، يروي أحاديث لا أصل له).

وقال ابن عدي في "الكامل" (٢٥/ ١٣): (أحاديثه كلها غير محفوظة).

قلت: فالحديث شديد الضعف، فلا يجوز الاستشهاد به أيضًا، كما فعل صاحب "المصباح" (ص٥٦).

الحديث الرابع

عن أنس بن مالك قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي رضي الله عنهما دعا أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلامًا أسود يحفرون...

فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ، فاضطجع فيه فقال: (الله الذي يحيي ويميت،

وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بين أسد، ولقنها حجتها، ووسع مدخلها بحق نبيك، والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين...).

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٩/ ٢٥٧): (رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه روح بن صلاح، وثقة ابن حبان والحاكم وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح).

قلت: ومن طريق الطبراني رواه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (٣/ ١٢١) وإسناده عندهما ضعيف، لأن روح بن صلاح الذي في إسناده قد تفرد به، كما قال أبو نعيم نفسه، وروح ضعفه ابن عدي، وقال ابن يونس: رويت عنه مناكير، وقال الدارقطني (ضعيف في الحديث) وقال ابن ماكولا: (ضعفوه) وقال ابن عدي بعد أن أخرج له حديثين: (له أحاديث كثيرة، في بعضها نكرة) فقد اتفقوا على تضعيفه فكان حديثه منكرًا لتفرده به.

وقد ذهب بعضهم إلى تقوية هذا الحديث لتوثيق ابن حبان والحاكم لروح هذا، ولكن ذلك لا ينفعهم، لما عرفا به من التساهل في التوثيق، فقولهما عند التعارض لا يقام له وزن حتى

لو كان الجرح مبهمًا، فكيف مع بيانه كما هي الحال هنا، وقد فصلت الكلام على ضعف هذا الحديث في "السلسلة الضعيفة" (٢٣) فلا نعيد الكلام عليه في هذه العجالة، ولكن المشار إليهم جاؤوا بما يضحك فقالوا: (حكم عليه الشيخ ناصر بالضعف، فنطالبه بمن ضعف هذا الحديث من المحدثين).

قلت: قد ذكرنا من ضعف رواية روح بن صلاح الذي تفرد به، وهذا يستلزم ضعف حديثه كما لا يخفى إلا عند المتابعة وقد نفاها أبو نعيم، أو عند مجيئه من طريق آخر وهيهات!

ثم قالوا: (ولو فرض تضعيفه، فضعفه خفيف فلا يمنع جواز العمل، لأنه من باب ما جوزه المحدثون والفقهاء من العمل بالضعيف الذي ليس ضعفه بشديد في الترغيب والترهيب).

قلت: ليس في هذا الحديث شيء من الترغيب، ولا هو يبين فضل عمل ثابت في الشرع، إنما هو ينقل أمرًا دائرًا بين أن يكون جائزًا أو غير جائز، فهو إذن يقرر حكمًا شرعيًا لو صح، وأنتم إنما توردونه من الأدلة على جواز هذا التوسل المختلف فيه، فإذا سلمتم بضعفه لم يجز لكم الاستدلال به، وما أتصور عاقلا يوافقكم على إدخال هذا الحديث في باب الترغيب والترهيب، وهذا شأن من يفر من الخضوع للحق، يقول ما لا يقوله جميع العقلاء.

الحديث الخامس

عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد قال: (كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين) .

فيرى المخالفون أن هذا الحديث يفيد أن النبي ﷺ كان يطلب من الله تعالى أن ينصره، ويفتح عليه بالضعفاء المساكين من المهاجرين، وهذا - بزعمهم - هو التوسل المختلف فيه نفسه.

والجواب من وجهين:

الأول: ضعف الحديث، فقد أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١/ ٨١/ ٢): حدثنا محمد بن إسحاق بن راهويه حدثنا أبي حدثنا عيسى بن يونس حدثني أبي عن أبيه عن أميه به.

وحدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي بن عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان عن أبي إسحاق عن أمية بن خالد

به. ثم رواه من طريق قيس بن الربيع عن أبي إسحاق عن المهلب بن أبي صفرة عن أمية بن خالد مرفوعًا بلفظ: (... يستفتح ويستنصر بصعاليك المسلمين).

قلت: مداره على أمية هذا، ولم تثبت صحبته، فالحديث مرسل ضعيف، وقال ابن عبد البر في "الاستيعاب" (١/ ٣٨): (لا تصح عندي صحبته، والحديث مرسل)

وقال الحافظ في "الإصابة" (١/ ١٣٣): (ليست له صحبة ولا رواية).

قلت: وفيه علة أخرى، وهي اختلاط أبي اسحاق وعنعنته، فإنه كان مدلسًا، إلا أن سفيان سمع منه قبل الاختلاط، فبقيت العلة الأخرى وهي العنعنة.

فثبت بذلك ضعف الحديث وأنه لا تقوم به حجة. وهذا هو الجواب الأول.

الثاني: أن الحديث لو صح فلا يدل إلا على مثل ما دل عليه حديث عمر، وحديث الأعمى من التوسل بدعاء الصالحين.قال المناوي في "فيض القدير": (كان يستفتح) أي يفتتح القتال، من قوله تعالى: (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) ذكره الزمخشري.

(ويستنصر) أي يطلب النصرة (بصعاليك المسلمين) أي بدعاء فقرائهم الذين لا مال لهم.

قلت: وقد جاء هذا التفسير من حديثه، اخرجه النسائي (٢/ ١٥) بلفظ: (إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم، وصلاتهم وإخلاصهم) وسنده صحيح، وأصله في "صحيح البخاري" (٦/ ٦٧)، فقد بين الحديث أن الاستنصار إنما يكون بدعاء الصالحين، لا بذواتهم وجاههم.

ومما يؤكد ذلك أن الحديث ورد في رواية قيس بن الربيع المتقدمة بلفظ: (كان يستفتح ويستنصر...) فقد علمنا بهذا أن الاستنصار بالصالحين يكون

بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم، وهكذا الاستفتاح، وبهذا يكون هذا الحديث - إن صح - دليلًا على التوسل المشروع، وحجة على التوسل المبتدع، والحمد لله.

الحديث السادس

عن عمر بن الخطاب مرفوعًا: (لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال: يا آدم ! وكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه؟ قال: يا رب لما خلقتني بيدك، ونفخت في من روحك رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضِف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال: غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتُك).

أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٦١٥) من طريق أبي الحارث عبد الله بن مسلم الفهري: حدثنا إسماعيل بن مسلمة: أنبأ عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر. وقال: (صحيح الإسناد وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذا الكتاب).

فتعقبه الذهبي فقال: (قلت: بل موضوع، وعبد الرحمن واهٍ، وعبد الله بن أسلم الفهري لا أدري من ذا) قلت: ومن تناقض الحاكم في "المستدرك" نفسه أنه أورد فيه (٣/ ٣٣٢) حديثًا آخر لعبد الرحمن هذا ولم يصححه، بل قال: (والشيخان لم يحتجا بعبد الرحمن بن زيد!).

قلت: والفهري هذا أورده الذهبي في "الميزان" وساق له هذا الحديث وقال: (خبر باطل)، وكذا قال الحافظ ابن حجر في "اللسان" (٣/ ٣٦٠) وزاد عليه قوله في الفهري هذا: (لا أستبعد أن يكون هو الذي قبله فإنه من طبقته) قلت: والذي قبله هو عبد الله بن مسلم بن رُشيد، قال الحافظ: ذكره ابن حبان،

منهم بوضع الحديث، يضع على ليث ومالك وابن لهيعة، لا يحل كتب حديثه، وهو الذي روى عن ابن هدية نسخة كأنها معمولة).

قلت: والحديث رواه الطبراني في "المعجم الصغير" (ص٢٠٧): ثنا محمد بن داود بن أسلم الصدفي المصري: ثنا أحمد ابن سعيد المدني الفهري: ثنا عبد الله بن إسماعيل المدني عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم به. وهذا سند مظلم فإن كل من دون عبد الرحمن لا يعرفون، وقد أشار إلى ذلك الحافظ الهيثمي حيث قال في "مجمع الزوائد" (٨/ ٢٥٣): (رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه من لم أعرفهم).

قلت: وهذا إعلال قاصر، يوهم من لا علم عنده أن ليس فيهم من هو معروف بالطعن فيه، وليس كذلك فإن مداره على عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال البيهقي: (إنه تفرد به) وهو متهم بالوضع، رماه بذلك الحاكم نفسه، ولذلك أنكر العلماء عليه تصحيحه لحديثه، ونسبوه إلى الخطأ والتناقض، فقال (وراث علم الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين شيخ الإسلام ابن تيمية) رَحِمَهُ اللَّهُ في "القاعدة الجليلة" (ص٨٩): (ورواية الحاكم لهذا الحديث مما أنكر عليه، فإنه نفسه قد قال في كتاب "المدخل إلى معرفة الصحيح من السقيم": (عبد الرحمن بن زيد بن أسلم روى عن أبيه أحاديث موضوعة، لا تخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه). قلت: وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف باتفاقهم يغلط كثيرًا، ضعفه أحمد بن حنبل وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي والدارقطني، وغيرهم. وقال ابن حبان: (كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم حتى كثر ذلك من روايته من رفع المراسيل، وإسناد الموقوف، فاستحق الترك).

وأما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث وأمثاله فهذا مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث، وقالوا: إن الحاكم يصحح أحاديث موضوعة مكذوبة عند أهل المعرفة بالحديث. ولهذا كان أهل العلم بالحديث لا يعتمدون على مجرد تصحيح الحاكم).

قلت: وقد أورد الحاكم نفسه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في كتابه "الضعفاء" كما سماه العلامة ابن عبد الهادي، وقال في آخره: (فهؤلاء الذين قدمت ذكرهم قد ظهر عندي جرحهم، لأن الجرح لا يثبت إلا ببينة، فهم الذين أبين جرحهم لمن طالبني به، فإن الجرح لا أستحله تقليدًا، والذي أختاره لطالب هذا الشأن أن لا يكتب حديث واحد من هؤلاء الذين سميتهم، فالراوي لحديثهم داخل في قوله ﷺ: (من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبَيْن) .

قلت: فمن تأمل في كلام الحاكم هذا والذي قبله يتبن له بوضوح أن حديث عبد الرحمن بن زيد هذا موضوع عند الحاكم نفسه، وأن من يرويه بعد العلم بحاله فهو أحد الكاذبَيْن.

وقد اتفق عند التحقيق كلام الحفاظ ابن تيمية والذهبي والعسقلاني على بطلان هذا الحديث، وتبعهم على ذلك غير واحد من المحققين كالحافظ ابن عبد الهادي كما سيأتي، فلا يجوز لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصحح الحديث بعد اتفاق هؤلاء على وضعه تقليدًا للحاكم في أحد قوليه، مع اختياره في قوله الآخر لطالب العلم أن لا يكتب حديث عبد الرحمن هذا، وأنه إن فعل كان أحد الكاذبين كما سبق.

(**تنبيه**): إذا عرفت هذا فقول بعض المشايخ: (إن حكم الشيخ ناصر على

الحديث بأنه "كذب وموضوع" باطل لأن مستنده قول الذهبي إنه موضوع) باطل حقًا لأن الذهبي قد وافقه من ذكرنا من الحفاظ الأعلام، ثم قالوا: (ومستند الذهبي ما في إسناد الحاكم من رجل قيل فيه إنه متهم). قلت: (هذا باطل أيضًا، لأن الرجل المشار إليه وهو عبد الله بن مسلم الفهري جهله الذهبي ولم يتهمه كما تقدم نقله عنه، وما أظن هذا يخفى عليهم ولكنهم تجاهلوه لغرض في أنفسهم، وهو أن يتسنى لهم أن يقولوا عقب ذلك: (لكن للحديث إسناد آخر عند الطبراني ليس فيه هذا المتهم، وغاية ما فيه أن فيه من هو غير معروف)، قلت: بل فيه ثلاثة لا يعرفون، وإذا كانوا لا يعلمون ذلك فلماذا عدلوا عن تقليد الهيثمي في قوله: (وفيه من لم أعرفهم) كما سبق، وهو هلكى وراء التقليد، إلى قولهم: (فيه من هو غير معروف)؟! السبب في ذلك أن قول الهيثمي نص على أن (من هو غير معروف) جماعة، وأما قولهم فليس نصًا على ذلك، بل هذا يقال إذا كان في السند شخص لا يعرف أو أكثر، فهو في الحقيقة من تلبيساتهم على القراء. نعوذ بالله من الخذلان. ثم قالوا عطفًا على ما سبق: (وإن فيه عبد الرحمن بن زيد وهو على الراجح عند الحافظ ابن حجر ممن يقال فيه ضعيف، وهذه الكلمة من أخف مراتب التضعيف) أقول: لكن الراجح عند غير الحافظ أنه أشد ضعفًا من ذلك، فقد قال فيه أبو نعيم: (روى عن أبيه أحاديث موضوعة). وكذا قال الحاكم نفسه كما سبق، وهو وكذا أبو نعيم من المعروفين بتساهلهم في التوثيق، فإذا جرحا فإنما ذلك بعد ان ظهر لهما ان عبد الرحمن مجروح حقًا، ولذلك اتفقوا على تضعيفه كما نص في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، بل ضعّفه جدًا علي بن المديني وابن سعد وغيرهما، وقال الطحاوي: (حديثه عند أهل العلم بالحديث في النهاية من الضعف) فهو

معروف بالضعف الشديد منذ القديم، فما الذي حمل المخالفين على الإعراض عن هذه الأقوال المتضافرة على أن عبد الرحمن هذا ضعيف جدًا - إن لم يكن كذابًا - إلى التمسك بقول الحافظ فيه (ضعيف) ؟! أقول هذا مع احتمال أن يكون سقط من قلم الحافظ أو قلم بعض النساخ عقب قوله (ضعيف) لفظة (جدًا) وعلى كل حال فإن تقليدهم للحافظ في هذه الكلمة لا يفيدهم شيئًا، بعد أن حكم هو على الحديث بأنه (خبر باطل) كما سبق نقله عن "لسانه"! فهذا من الأدلة الكثيرة على أن هؤلاء أتباع هوى، وليسوا طلاب حق، وإلا لأخذوا بقول الحافظ هذ الموافق لقول الذهبي وغيره من المحققين، ولم يعرجوا على تضعيفه فقط لعبد الرحمن، ليعارضوا به الذهبي، ويدلسوا على الناس أمر الحديث، ويظهروه بمظهر الأحاديث التي اختلف فيها العلماء حتى يتسنى لهم ابتداع رأي جديد حول الحديث يتلاءم مع قول أحد الحفاظ في احد رواته ! فانظر اليهم كيف قالوا عقب ما سبق: (فما كان حاله هكذا عند المحدثين فليس من الموضوع، ولا من الضعيف الشديد، بل هو من القسم الذي يعمل به في الفضائل) !

أقول: وهذا كلام ساقط من وجهين: الأول: أنه مبني على أن عبد الرحمن ضعيف فقط وليس كذلك بل هو ضعيف جدًا كما سبق، وسيأتي التصريح بذلك عن أحد الحفاظ النقاد. الثاني: أنه معارض لحكم الحافظ بل الحفاظ على الحديث بالبطلان كما سبق، فكيف جاز لهم مخالفتهم لا سيما قد صرح أحدهم في "التعقيب الحثيث" (٢١) (أنه ليس له صفة التصحيح والتضعيف)! فلعله قال ذلك تواضعًا ! وإلا فأنت تراه هنا قد أعطى لنفسه منزلة تسوغ له الاستقلال في البحث ولو أدى إلى مخالفة كل أولئك الحفاظ والنقاد ! ويؤيد

هذا الذي نقوله فيه انه قال عطفًا على ما سبق: (فنحن في هذا الحديث مع من لم ير به ذلك (يعني الوضع) كالحاكم والحافظ السبكي، فليس علينا فيه افتيات على الحافظ الذهبي، لكن رأينا ما عليه الحافظان المذكوران أقرب إلى الصواب).

أقول: ولا يخفى ما في هذا الكلام من التلبيس والتدليس فإن الحاكم إنما ذهب في "المستدرك" إلى تصحيح الحديث كما سبق، والسبكي قلده في ذلك كما بينه الحافظ ابن عبدالهادي فقال في رده عليه في "الصارم المنكي" (ص٣٢): (وإني لاتعجب منه كيف قلد الحاكم في تصحيحه مع أنه حديث غير صحيح ولا ثابت، بل هو حديث ضعيف الإسناد جدًا، وقد حكم عليه بعض الأئمة بالوضع، وليس إسناده من الحاكم إلى عبد الرحمن بن زيد بصحيح بل مفتعل على عبد الرحمن كما سنبينه، ولو كان صحيحًا إلى عبد الرحمن لكان ضعيفًا غير محتج به، لأن عبد الرحمن في طريقه، وقد أخطأ الحاكم وتناقض تناقضًا فاحشًا كما عرف له ذلك في مواضيع، فإنه قال في كتاب "الضعفاء"، بعد أن ذكر عبد الرحمن منهم) وذكر ما نقلته عنه فيما سبق (ص٨٦-٨٧): (فانظر إلى ما وقع للحاكم في هذا الموضع من الخطأ العظيم والتناقض الفاحش، ثم إن هذا المعترض المخذول عمد إلى هذا الذي اخطأ فيه الحاكم وتناقض، فقلده فيه، واعتمد عليه، فقال " ونحن قد اعتمدنا في تصحيحه على الحاكم"، وذكر قبل ذلك بقليل أنه مما تبين له صحته. فانظر يرحمك الله إلى هذا الخذلان البين والخطأ الفاحش ! كيف جاء هذا المعترض إلى حديث غير صحيح ولا ثابت، بل هو حديث موضوع، فصححه واعتمد عليه، وقلد في ذلك الحاكم مع ظهور خطئه وتناقضه، مع معرفة هذا المعترض بضعف راويه وجرحه واطلاعه على

الكلام المشهور فيه).

أقول: هذا شأن السبكي رحمه الله تعالى في هذا الحديث، وتقليد الحاكم في تصحيحه، وهذا مع كونه خطأ في نفسه كما سبق بيانه فهو خلاف رأي المشار إليه سابقًا الذي صرح بأن الحديث ضعيف لا صحيح ولا موضوع، فقد خالف - هو ومن قلده وناصره - الحاكم والسبكي كما خالفوا من سبق ذكرهم من العلماء الفحول الذين قالوا بوضع الحديث أو بطلانه، فليس افتئاتهم على الذهبي فقط، بل وعلى من وافقه وخالفه جميعًا ! فليتأمل العاقل ما يفعل الهوى بصاحبه ! لقد أرادوا أن ينزهوا أنفسهم عن الافتئات على الذهبي، وإذا بهم يقولون بما هو أدهى وأمر من الافتئات على من ذكرنا من العلماء !

ومن مغالطاتهم المكشوفة عند أهل العلم قولهم في أثناء كلامهم السابق بعد أن أشاروا إلى طريق الطبراني الذي سبق الكلام عليه: (فالذهبي لم يطلع على هذا الطريق، وإلا لو اطلع عليه لم يقل ذلك).

أقول: وهذا كلام باطل، إذ أن الذهبي حكم على الحديث بالوضع والبطلان من طريق الحاكم، وفيه عبد الرحمن بن زيد ورجل آخر لا يعرفه، كما سبق بيانه في أول هذا التنبيه، وطريق الطبراني فيه علاوة على عبد الرحمن هذا ثلاث رجال آخرون لا يعرفون كما سبق أيضًا، فكيف يصح أن يقال حينئذ: (إن الذهبي لو اطلع على هذا الطريق لم يقل بذلك)؟!

اللهم إن هذه مغالطة ومكابرة مكشوفة أو جهل مركب، فرحمتك اللهم وهداك !

لقد تبين للقراء الكرام مما سلف أن للحديث علتين:

الأولى: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأنه ضعيف جدًا.

الثانية: جهالة الإسناد إلى عبد الرحمن.

وللحديث عندي علة أخرى. وهي اضطراب عبد الرحمن أو من دونه في إسناده، فتارة كان يرفعه كما مضى، وتارة كان يرويه موقوفًا على عمر، لا يرفعه إلى النبي ﷺ، كما رواه أبو بكر الآجري في كتاب "الشريعة" (ص٤٢٧) من طريق عبد الله ابن اسماعيل بن أبي مريم عن عبد الرحمن بن زيد به، وعبد الله هذا لم أعرفه أيضًا، فلا يصح عن عمر مرفوعًا ولا موقوفًا، ثم رواه الآجري من طريق آخر عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه أنه قال: من الكلمات التي تاب الله بها على آدم قال: اللهم أسألك بحق محمد عليك.. الحديث نحوه مختصرًا، وهذا مع إرساله ووقفه، فإن إسناده إلى ابن أبي الزناد ضعيف جدًا، وفيه عثمان بن خالد والد أبي مروان العثماني، قال النسائي: (ليس بثقة).

وعلى هذا فلا يبعد أن يكون أصل هذا الحديث من الإسرائيليات التي تسربت إلى المسلمين من بعض مسلمة أهل الكتاب أو غير مسلمتهم. أو عن كتبهم التي لا يوثق بها، لما طرأ عليها من التحريف والتبديل كما بينه شيخ الإسلام في كتبه، ثم رفعه بعض هؤلاء الضعفاء إلى النبي ﷺ خطأ أو عمدًا.

مخالفة هذا الحديث للقرآن

ومما يؤيد ما ذهب إليه العلماء من وضع هذا الحديث وبطلانه أنه يخالف القرآن الكريم في موضعين منه:

الأول: أنه تضمن أن الله تعالى غفر لآدم بسبب توسله به ﷺ، والله ﷻ يقول: (فتلقى آدم من ربه كلمات، فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم). وقد جاء تفسير هذه الكلمات عن ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما مما يخالف هذا الحديث، فأخرج الحاكم (٣/ ٥٤٥) عنه: (فتلقى آدم من ربه كلمات) قال: أي

رب ! ألم تخلقني بيدك؟

قال: بلى. قال: ألم تنفخ فيَّ من روحك؟ قال:بلى. قال: أي رب ! ألم تسكنّي جنتك؟ قال: بلى. قال: ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى. قالت: أرأيت إن تبتُ وأصلحت، أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: بلى. قال: فهو قوله: (فتلقى آدم من ربه كلمات) وقال الحاكم: (صحيح الإسناد) ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

قلت: وقول ابن عباس هذا في حكم المرفوع من وجهين:

الأول: أنه أمر غيبي لا يقال من مجرد الرأي.

الثاني: أنه ورد في تفسير الآية، وما كان كذلك فهو في حكم المرفوع كما تقرر في محله، ولا سيما إذا كان من قول إمام المفسرين عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:(اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل).

وقد قيل في تفسير هذه الكلمات: إنها ما في الآية الاخرى (قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين).وبهذا جزم السيد رشيد رضا في "تفسيره"

(١/ ٢٧٩). لكن أشار ابن كثير (١/ ٨١) إلى تضعيفه، ولا منافاة عندي بين القولين، بل أحدهم يتمم الآخر، فحديث ابن عباس لم يتعرض لبيان ما قاله آدم عليه السلام بعد أن تلقى من ربه تلك الكلمات وهذا القول يبين ذلك، فلا منافاة والحمد لله، وثبت مخالفة الحديث للقرآن، فكان باطلًا.

الموضع الثاني: قوله في آخره: (ولولا محمد ما خلقتك) فإن هذا أمر عظيم يتعلق بالعقائد التي لا تثبت إلا بنص متواتر اتفاقًا، أو صحيح عند آخرين، ولو كان ذلك صحيحًا لورد في الكتاب والسنة الصحيحة، وافتراض صحته في الواقع

مع ضياع النص الذي تقوم به الحجة ينافي قوله تبارك وتعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون). والذكر هنا يشمل الشريعة كلها قرآنًا وسنة، كما قرره ابن حزم في "الإحكام" وأيضًا فإن الله تبارك وتعالى قد أخبرنا عن الحكمة التي من أجلها خلق آدم وذريته، فقال ﷻ: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، فكل ما خالف هذه الحكمة أو زاد عليها لا يقبل إلا بنص صحيح عن المعصوم ﷺ كمخالفة هذا الحديث الباطل. ومثله ما اشتهر على ألسنة الناس: (لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك) فإنه موضوع كما قاله الصنعاني ووافقه الشوكاني في "الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة" (ص١١٦). ومن الطرائف أن المتنبي ميرزا غلام أحمد القادياني سرق هذا الحديث الموضوع فادعى أن الله خاطبه بقوله: (لولاك لما خلقت الافلاك) !! وهذا شيء يعترف به أتباعه القاديانيون هنا في دمشق وغيرها، لوروده في كتاب متنبئهم "حقيقة الوحي" (ص٩٩).

ثم على افتراض أن هذا الحديث ضعيف فقط كما يزعم بعض المخالفين خلافًا لمن سبق ذكرهم من العلماء والحفاظ، فلا يجوز الاستدلال به على مشروعية التوسل المختلف فيه، لأن - على قولهم - عبادة مشروعة، وأقل أحوال العبادة أن تكون مستحبة، والاستحباب حكم شرعي من الأحكام الخمسة التي لا تثبت إلا بنص صحيح تقوم به الحجة، فإذا الحديث عنده ضعيف، فلا حجة فيه البتة، وهذا بين لا يخفى إن شاء الله تعالى.

الحديث السابع (توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم)

وبعضهم يرويه بلفظ: (إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم).

هذا باطل لا أصل له في شيء من كتب الحديث البتة، وإنما يرويه بعض الجهال بالسنة

كما نبَّه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "القاعدة الجليلة" (ص١٣٢، ١٥٠) قال: (مع أن جاهه ﷺ عند الله أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين، ولكن جاه المخلوق عند الخالق ليس كجاه المخلوق عند المخلوق فإنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه، فهو شريك له في حصول المطلوب، والله تعالى لا شريك له

كما قال سبحانه: (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وما لهم فيهما من شرك، وما له منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) [سورة سبأ: ٢٢-٢٣].

فلا يلزم إذن من كون جاهه ﷺ عند ربه عظيمًا، أن نتوسل به إلى الله تعالى لعدم ثبوت الأمر به عنه ﷺ، ويوضح ذلك أن الركوع والسجود من مظاهر التعظيم فيما اصطلح عليه الناس، فقد كانوا وما يزال بعضهم يقومون ويركعون ويسجدون لمليكهم ورئيسهم والمعظم لديهم، ومن المتفق عليه بين المسلمين أن محمدًا ﷺ هو أعظم الناس لديهم، وأرفعهم عندهم. ترى فهل يجوز لهم أن يقوموا ويركعوا ويسجدوا له في حياته وبعد مماته؟

الجواب: إنه لا بد لمن يجوز ذلك، من أن يثبت وروده في الشرع، وقد نظرنا فوجدنا أن السجود والركوع لا يجوزان إلا له سبحانه وتعالى، وقد نهى النبي ﷺ أن يسجد أو يركع أحد لأحد، كما أننا رأينا في السنة كراهية النبي ﷺ للقيام، فدل ذلك على عدم مشروعيته.

ترى فهل يستطيع أحد أن يقول عنا حين نمنع السجود لرسول الله ﷺ: إننا

نكر جاهه ﷺ وقدره؟ كلا ثم كلا.

فظهر من هذا بجلاء إن شاء الله تعالى أنه لا تلازم بين ثبوت جاه النبي ﷺ وبين تعظيمه بالتوسل بجاهه ما دام أنه لم يرد في الشرع.

هذا، وإن من جاهه ﷺ أنه يجب علينا اتباعه وإطاعته كما يجب إطاعة ربه، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: (ما تركت شيئًا يقربكم إلى الله إلا أمرتكم به) فإذا لم يأمرنا بهذا التوسل ولو أمرَ استحباب فليس عبادة، فيجب علينا اتباعه في ذلك وأن ندع العواطف جانبًا، ولا نفسح لها المجال حتى ندخل في دين الله ما ليس منه بدعوى حبه ﷺ، فالحب الصادق إنما هو بالاتبْاع، وليس بابتداع كما قال ﷻ: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ومنه قول الشاعر:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرك في القياس بديع

لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

أثران ضعيفان:

١ - أثر الاستسقاء بالرسول ﷺ بعد وفاته:

وبعد أن فرغنا من إيراد الأحاديث الضعيفة في التوسل، وتحقيق القول فيها يحسن بنا أن نورد أثرًا، كثيرًا ما يورده المجيزون لهذا التوسل المبتدع، لنبين حاله من صحة او ضعف، وهل له علاقة بما نحن فيه أم لا؟

فأقول: قال الحافظ في "الفتح" (٢/ ٣٩٧) ما نصه: (وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الدار - وكان خازن عمر - قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ! استسق لأمتك، فإنهم قد هلكوا، فأتي الرجلُ في المنام، فقيل له: ائت عمر.. الحديث. وقد روى سيف في "الفتوح" أن الذي رأى المنام المذكور هو

بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة).

قلت: والجواب من وجوه:

الأول: عدم التسليم بصحة هذه القصة، لأن مالك الدار غير معروف العدالة والضبط، وهذان شرطان أساسيان في كل سند صحيح كما تقرر في علم المصطلح، وقد أورده ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" (٤/ ٢١٣) ولم يذكر راويًا عنه غير أبي صالح هذا، ففيه إشعار بأنه مجهول، ويؤيده أن ابن أبي حاتم نفسه - مع سعة حفظه واطلاعه - لم يحك فيه توثيقًا فبقي على الجهالة، ولا ينافي هذا قول الحافظ: (...بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان...) لأننا نقول: إنه ليس نصًا في تصحيح جميع السند بل إلى أبي صالح فقط، ولولا ذلك لما ابتدأ هو الإسنادَ من عند أبي صالح، ولقال رأسًا: (عن مالك الدار... وإسناده صحيح) ولكنه تعمد ذلك، ليلفت النظر إلى أن ها هنا شيئًا ينبغي النظر فيه، والعلماء إنما يفعلون ذلك لأسباب منها: أنهم قد لا يحضرهم ترجمة بعض الرواة، فلا يستجيزون لأنفسهم حذف السند كله، لما فيه من إيهام صحته لاسيما عند الاستدلال به، بل يوردون منه ما فيه موضع للنظر فيه، وهذا هو الذي صنعه الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا، وكأنه يشير إلى تفرد أبي صالح السمان عن مالك الدار كما سبق نقله عن ابن أبي حاتم، وهو يحيل بذلك إلى وجوب التثبت من حال مالك هذا أو يشير إلى جهالته. والله أعلم.

وهذا علم دقيق لا يعرفه إلا من مارس هذه الصناعة، ويؤيد ما ذهبت اليه أن الحافظ المنذري أورد في "الترغيب" (٢/ ٤١-٤٢) قصة أخرى من رواية مالك الدار عن عمر ثم قال: (رواه الطبراني في "الكبير"، ورواته إلى مالك الدار ثقات مشهورون، ومالك الدار لا أعرفه). وكذا قال الهيثمي في "مجمع الزوائد"

(٣/ ١٢٥).

وقد غفل عن هذا التحقيق صاحب كتاب "التوصل" (ص٢٤١) فاغتر بظاهر كلام الحافظ، وصرح بأن الحديث صحيح، وتخلص منه بقوله: (فليس فيه سوى: جاء رجل..) واعتمد على أن الرواية التي فيها تسمية الرجل ببلال بن الحارث فيها سيف، وقد عرفت حاله.

وهذا لا فائدة كبرى فيه، بل الأثر ضعيف من أصله لجهالة مالك الدار كما بيناه.

الثاني: أنها مخالفة لما ثبت في الشرع من استحباب إقامة صلاة الاستسقاء لاستنزال الغيث من السماء، كما ورد ذلك في أحاديث كثيرة، وأخذ به جماهير الأئمة، بل هي مخالفة لما أفادته الآية من الدعاء والاستغفار، وهي قوله تعالى في سورة نوح: (فقلت: استغفروا ربكم إنه كان غفارًا، يرسل السماء عليكم مدرارًا..) وهذا ما فعله عمر بن الخطاب حين استسقى وتوسل بدعاء العباس كما سبق بيانه، وهكذا كانت عادة السلف الصالح كلما أصابهم القحط أن يصلوا ويدعوا، ولم ينقل عن أحد منهم مطلقًا أنه التجأ إلى قبر النبي ﷺ، وطلب منه الدعاء للسقيا، ولو كان ذلك مشروعًا لفعلوه ولو مرة واحدة، فإذا لم يفعلوه دل ذلك على عدم مشروعية ما جاء في القصة.

الثالث: هب أن القصة صحيحة، فلا حجة فيها، لأن مدارها على رجل لم يسم، فهو مجهول أيضًا، وتسميته بلالًا في رواية سيف لا يساوي شيئًا، لأن سيفًا هذا - وهوابن عمر التميمي - متفق على ضعفه عند المحدثين، بل قال ابن حبان فيه: (يروي الموضوعات عن الأثبات، وقالوا: إنه كان يضع الحديث). فمن كان هذا شأنه لا تقبل روايته ولا كرامة، لا سيما عند المخالفة.

(**تنبيه**): سيف هذا يرد ذكره كثيرًا في تاريخ ابن جرير وابن كثير وغيرهما، فينبغي على المشتغلين بعلم التاريخ أن لا يغفلوا عن حقيقة أمره حتى لا يعطوا الروايات ما لا تستحق من المنزلة.

ومثله لوط بن يحيى أو مخنف قال الذهبي في "الميزان" (أخباري تالف لا يوثق به، تركه أبو حاتم وغيره. وقال الدارقطني: ضعيف، وقال يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال ابن عدي: شيعي محترق صاحب أخبارهم).

ومثله محمد بن عمر المعروف بالواقدي - شيخ ابن سعد صاحب "الطبقات" الذي يكثر الرواية عنه - وقد اغتر به الدكتور البوطي، فروى أخبارًا كثيرة في "فقه السيرة" من طريقه مع أنه تعهد بأن ينقل عن الصحاح، وما صح من السيرة! والواقدي هذا متروك الحديث أيضًا كما قال علماء الحديث، فتأمل.

الفرق بين التوسل بذات النبي ﷺ وبين طلب الدعاء منه:

الوجه الرابع: أن هذا الأثر ليس فيه التوسل بالنبي ﷺ، بل فيه طلب الدعاء منه بأن يستسقي الله تعالى أمته، وهذه مسألة أخرى لا تشملها الأحاديث المتقدمة، ولم يقل بجوازها أحد من علماء السلف الصالح رضي الله عنهم، أعني الطلب منه ﷺ بعد وفاته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "القاعدة الجليلة" (ص١٩-٢٠): (لم يكن النبي ﷺ بل ولا أحد من الأنبياء قبله شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين، ويستشفعوا بهم، لا بعد مماتهم، ولا في مغيبهم، فلا يقول أحد: (يا ملائكة الله اشفعوا لي عند الله، سلو الله لنا أن ينصرنا أو يرزقنا أو يهدينا، وكذلك لا يقول لمن مات من الأنبياء والصالحين: يا نبي الله يا ولي الله (الأصل: رسول الله) ادع الله لي، سل الله لي، سل الله أن يغفر لي...ولا

يقول: أشكو إليك ذنوبي أو نقص رزقي أو تسلط العدو علي، أو أشكو إليك فلانًا الذي ظلمني، ولا يقول: أنا نزيلك، أنا ضيفك، أنا جارك، أو أنت تجير من يستجيرك.

ولا يكتب أحد ورقة ويعلقها عند القبور، ولا يكتب احد محضرًا أنه استجار بفلان، ويذهب بالمحضر إلى من يعمل بذلك المحضر ونحو ذلك مما يفعله أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين، كما يفعله النصارى في كنائسهم، وكما يفعله المبتدعون من المسلمين عند قبور الأنبياء والصالحين أو في مغيبهم، فهذا مما علم بالإضطرار من دين الإسلام، وبالنقل المتواتر وبإجماع المسلمين أن النبي ﷺ لم يشرع هذا لأمته، وكذلك الأنبياء قبله لم يشرعوا شيئًا من ذلك، ولا فعل هذا احد من أصحابه ﷺ والتابعين لهم بإحسان، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا ذكر أحد من الأئمة لا في مناسك الحج ولا غيرها أنه يستحب لأحد أن يسأل النبي ﷺ عند قبره أن يشفع له أو يدعو لأمته، أو يشكو إليه ما نزل بأمته من مصائب الدنيا والدين، وكان أصحابه يبتلون بأنواع البلاء بعد موته، فتارة بالجدب، وتارة بنقص الرزق، وتارة بالخوف وقوة العدو، وتارة بالذنوب والمعاصي، ولم يكن أحد منهم يأتي إلى قبر الرسول ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول: نشكوا إليك جدب الزمان أو قوة العدو، أ، كثرة الذنوب ولا يقول: سل الله لنا أو لأمتك أن يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم، بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثة التي لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين، فليست واجبة ولا مستحبة باتفاق أئمة المسلمين، وكل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهي بدعة سيئة وضلالة باتفاق المسلمين.

ومن قال في بعض البدع: إنها بدعة حسنة فإنما ذلك إذا قام دليل شرعي على أنها مستحبة، فأما ما ليس بمستحب ولا واجب فلا يقول أحد من المسلمين: إنها من الحسنات التي يتقرب بها إلى الله، ومن تقرب إلى الله بما ليس من الحسنات المأمور بها أمر إيجاب ولا استحباب فهو ضال متبع للشيطان، وسبيله من سبيل الشيطان، كما قال عبد الله بن مسعود ﵁: خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، وخط خطوطًا عن يمينه وشماله، ثم قال (هذا سبيل الله، وهذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه) ثم قرأ (وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) [الانعام: ٥٣].

قلت: إنما وقع بعض المتأخرين في هذا الخطأ المبين بسبب قياسهم حياة الأنبياء في البرزخ على حياتهم في الدنيا، وهذا قياس باطل مخالف للكتاب والسنة والواقع، وحسبنا الآن مثالًا على ذلك أن أحدًا من المسلمين لا يجيز الصلاة وراء قبورهم، ولا يستطيع أحد مكالمتهم، ولا التحدث اليهم، وغير ذلك من الفوارق التي لا تخفى على عاقل.

الاستغاثة بغير الله تعالى

ونتج من هذا القياس الفاسد والرأي الكاسد تلك الضلالة الكبرى، والمصيبة العظمى التي وقع فيها كثير من عامة المسلمين وبعض خاصتهم، ألا وهي الاستغاثة بالأنبياء الصالحين من دون الله تعالى في الشدائد والمصائب حتى إنك لتسمع جماعات متعددة عند بعض القبور يستغيثون بأصحابها في أمور مختلفة، كأن هؤلاء الأموات يسمعون ما يقال لهم، ويطلب منهم من الحاجات المختلفة بلغات متباينة، فهم عند المستغيثين بهم يعلمون مختلف لغات الدنيا، ويميزون كل لغة عن الأخرى، ولو كان الكلام بها في آن واحد! وهذا هو الشرك

في صفات الله تعالى الذي جهله كثير من الناس، فوقعوا بسببه في هذه الضلالة الكبرى.

ويبطل هذا يرد عليه آيات كثيرة. منها قوله تعالى: (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلًا) [سورة الإسراء: الآية ٥٦]. والآيات في هذا الصدد كثيرة، بل قد ألف في بيان ذلك كتب ورسائل عديدة. فمن كان في شك من ذلك فليرجع إليها يظهر له الحق إن شاء الله، ولكني وقفت على نقول لبعض علماء الحنفية رأيت من المفيد إيرادها هنا حتى لا يظن ظان أن ما قلناه لم يذهب إليه أحد من أصحاب المذاهب المعروفة.

قال الشيخ أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي في "التعليق المغني على سنن الدارقطني" (ص٥٢٠-٥٢١): (ومن أقبح المنكرات وأكبر البدعات وأعظم المحدثات ما اعتاده أهل البدع من ذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولهم: يا شيخ عبد القادر الجيلاني شيئًا لله، والصلوات المنكوسة إلى بغداد، وغير ذلك مما لا يعد، هؤلاء عبدة غير الله ما قدروا الله حق قدره، ولم يعلم هؤلاء السفهاء أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يقدر على جلب نفع لأحد ولا دفع ضر عنه مقدار ذرة، فلم يستغيثون به ولم يطلبون الحوائج منه ؟! أليس الله بكاف عبده ؟!! اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك أو نعظم أحدًا من خلقك كعظمتك، قال في "البزازية" وغيرها من كتب الفتاوى:"من قال: إن أرواح المشايخ حاضرة تعلم يكفر" وقال الشيخ فخر الدين أبو سعد عثمان الجياني بن سليمان الحنفي في رسالته: "ومن ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله، واعتقد بذلك كفر. كذا في "البحر الرائق"، وقال القاضي حميد الدين ناكوري الهندي في "التوشيح":"منهم الذين يدعون الأنبياء والأولياء عند الحوائج والمصائب

باعتقاد أن أرواحهم حاضرة تسمع النداء وتعلم الحوائج، وذلك شرك قبيح وجهل صريح، قال الله تعالى: (ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة، وهم عن دعائهم غافلون) [سورة الأحقاف: الآية٥]، وفي "البحر": لو تزوج بشهادة الله ورسوله لا ينعقد النكاح، ويكفر لاعتقاده أن النبي ﷺ يعلم الغيب، وهكذا في فتاوى قاضي خان والعيني والدر المختار والعالمكيرية وغيرها من كتب العلماء الحنفية، وأما في الآيات الكريمة والسنة المطهرة في إبطال أساس الشرك، والتوبيخ لفاعله فأكثر من أن تحصى، - ولشيخنا العلامة السيد محمد نذير حسين الدهلوي في رد تلك البدعة المنكرة رسالة شافية".

٢- أثر فتح الكوى فوق قبر الرسول ﷺ إلى السماء:

روى الدارمي في "سننه" (١/ ٤٣): حدثنا أبو النعمان ثنا سعيد ابن زيد ثنا عمرو بن مالك النكري حدثنا أبو الجوزاء أوس بن عبد الله قال: قحَط أهل المدينة قحطًا شديدًا، فشكوا إلى عائشة، فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، قال: ففعلوا، فمطرنا مطرًا حتى نبت العشب، وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمي عام الفتق.

قلت: وهذا سند ضعيف لا تقوم به حجة لأمور ثلاثة:

أولها: أن سعيد بن زيد وهو أخو حماد بن زيد فيه ضعف. قال فيه الحافظ في "التقريب": صدوق له أوهام. وقال الذهبي في "الميزان": (قال يحيى بن سعيد: ضعيف، وقال السعدي: ليس بحجة، يضعفون حديثه، وقال النسائي وغيره: ليس بالقوي، وقال أحمد: ليس به بأس، كان يحيى بن سعيد لا

يستمرئه).

وثانيهما: أنه موقوف على عائشة وليس بمرفوع إلى النبي ﷺ، ولو صح لم تكن فيه حجة، لأنه يحتمل أن يكون من قبيل الآراء الاجتهادية لبعض الصحابة، مما يخطئون فيه ويصيبون، ولسنا ملزمين بالعمل بها.

وثالثها: أن أبا النعمان هذا هو محمد بن الفضل، يعرف بعارم، وهو وإن كان ثقة فقد اختلط في آخر عمره. وقد أورده الحافظ برهان الدين الحلبي حيث أورده في "المختلطين" من كتابه "المقدمة" وقال (ص٣٩١): (والحكم فيهم أنه يقبل حديث من أخذ عنهم قبل الاختلاط ولا يقبل حديث من أخذ عنه قبل الاختلاط أو بعده).

قلت: وهذا الأثر لا يدرى هل سمعه الدارمي منه قبل الاختلاط أو بعده، فهو إذن غير مقبول، فلا يحتج به، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في"الرد على البكري"(ص٦٨-٧٤): (وما روي عن عائشة رضي الله عنها من فتح الكوة من قبره إلى السماء، لينزل المطر فليس بصحيح، ولا يثبت إسناده، ومما يبين كذب هذا أنه في مدة حياة عائشة لم يكن للبيت كوة، بل كان باقيًا كما كان على عهد النبي ﷺ، بعضه مسقوف وبعضه مكشوف، وكانت الشمس تنزل فيه، كما ثبت في "الصحيحين" عن عائشة أن النبي ﷺ كان يصلي العصر والشمس في حجرتها، لم يظهر الفيء بعد، ولم تزل الحجرة النبوية كذلك في مسجد الرسول ﷺ.. ومن حينئذ دخلت الحجرة النبوية في المسجد، ثم إنه يُبنى حول حجرة عائشة التي فيها القبر جدار عال، وبعد ذلك جعلت الكوة لينزل منها من ينزل إذا احتيج إلى ذلك لأجل كنس أو تنظيف.وأما وجود الكوة في حياة عائشة فكذب بين لو صح ذلك لكان حجة ودليلًا على أن القوم لم يكونوا يقسمون على الله

بمخلوق ولا يتوسلون في دعائهم بميت، ولا يسألون الله به، وإنما فتحوا على القبر لتنزل الرحمة عليه، ولم يكن هناك دعاء يقسمون به عليه، فأين هذا من هذا، والمخلوق إنما ينفع المخلوق بدعائه أو بعمله، فإن الله تعالى يحب أن نتوسل اليه بالإيمان والعمل والصلاة والسلام على نبيه ﷺ ومحبته وطاعته وموالاته، فهذه هي الأمور التي يحب الله أن نتوسل بها إليه، وإن أريد أن نتوسل إليه بما تُحَبُ ذاته، وإن لم يكن هناك ما يحب الله أن نتوسل به من الإيمان والعمل الصالح، فهذا باطل عقلًا وشرعًا، أما عقلًا فلأنه ليس في كون الشخص المعين محبوبًا له ما يوجب كون حاجتي تقضى بالتوسل بذاته إذا لم يكن مني ولا منه سبب تقضى به حاجتي، فإن كان منه دعاء لي أو كان مني إيمان به وطاعة له فلا ريب أن هذه وسيلة، وأما نفس ذاته المحبوبة فأي وسيلة لي منها إذا لم يحصل لي السبب الذي أمرت به فيها.

وأما الشرع فيقال: العبادات كلها مبناها على الاتباع لا على الابتداع، فليس لأحد أن يشرع من الدين ما لم يأذن به الله، فليس لأحد أن يصلي إلى قبره ويقول هو أحق بالصلاة إليه من الكعبة، وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال:(لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها) مع أن طائفة من غلاة العباد يصلون إلى قبور شيوخهم، بل يستدبرون القبلة، ويصلون إلى قبر الشيخ ويقولون: هذه قبلة الخاصة، والكعبة قبلة العامة ! وطائفة أخرى يرون الصلاة عند قبور شيوخهم أفضل من الصلاة في المساجد حتى المسجد الحرام [والنبوي] والأقصى. وكثير من الناس يرى أن الدعاء عند قبور الأنبياء والصالحين أفضل منه في المساجد، وهذا كله مما قد علم جميع أهل العلم بديانة الإسلام أنه مناف لشريعة الإسلام. ومن لم يعتصم في هذا الباب وغيره بالكتاب والسنة فقد ضَل

وأضل، ووقع في مهواة من التلف. فعلى العبد أن يسلم للشريعة المحمدية الكاملة البيضاء الواضحة، ويسلم أنها جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإذا رأى من العبادات والتقشفات وغيرها التي يظنها حسنة ونافعة ما ليس بمشروع علم أن ضررها راجح على نفعها، ومفسدتها راجحة على مصلحتها، إذ الشارع الحكيم لا يهمل المصالح) ثم قال: (والدعاء من أجل العبادات، فينبغي للإنسان أن يلزم الأدعية المشروعة فإنها معصومة كما يتحرى في سائر عبادته الصور المشروعة، فإن هذا هو الصراط المستقيم. والله تعالى يوفقنا وسائر إخواننا المؤمنين).

"**تنبيه**": أعلم أن كتاب الدارمي هذا هو على طريقة السنن الأربعة في ترتيب الكتب والأبواب، ولذلك فالصواب إطلاق اسم "السنن" عليه كما فعل فضيلة الشيخ دهمان في طبعته إياه.

وقد اشتهر قديمًا بـ"مسند الدارمي"، وهذا وهم لا وجه له مطلقًا عند أهل العلم، ومثله تسميته بـ"الصحيح" وهذا أبعد ما يكون عن الصواب، لأن فيه أحاديث مرفوعة كثيرة ضعيفة الأسانيد، وبعضها مرسلات ومعضلات، وفيه آثار موقوفة، وكثير منها ضعيفة كهذا الأثر، فأنَّى له الصحة !! ومثل هذا الخطأ إطلاق لفظ "الصحاح" على السنن الأربعة أيضًا، كما يفعل بعض الدكاترة ! فإن هذا مع منافاته لأسمائها الحقيقية "السنن" فإنها منافية أيضًا لواقع الأمر، فإن فيها أحاديث ضعيفة كثيرة أيضًا، ومنافية أيضًا لصنيع مؤلفيها، فإنهم ينبهون أحيانًا على بعض الأحاديث الضعيفة التي وقعت فيها، وبخاصة منهم الإمام الترمذي فإنه واسع الباع في بيان الضعيف الذي في كتابه، كما يعرف ذلك أهل العلم بهذه "السنن". وفي "سنن ابن ماجه" غير ما حديث موضوع فضلًا عن

الضعيف، فلا يطلق على هذه "السنن" اسم "الصحاح" إلا جاهل أو مغرض.

الوجه الرابع

الشبهة الرابعة: قياس الخالق على المخلوقين

يقول المخالفون، إن التوسل بذوات الصالحين وأقدارهم أمر مطلوب وجائز، لأنه مبني على منطق الواقع ومتطلباته، ذلك أن أحدنا إذا كانت له حاجة عند ملك أو وزير أو مسؤول كبير فهو لا يذهب إليه مباشرة، لأنه يشعر أنه ربما لا يلتفت إليه، هذا إذا لم يرده أصلًا، ولذلك كان من الطبيعي إذا أردنا حاجة من كبير فإننا نبحث عمن يعرفه، ويكون مقربًا إليه أثيرًا عنده، ونجعله واسطة بيننا وبينه، فإذا فعلنا ذلك استجاب لنا، وقضيت حاجتنا، وهكذا الأمر نفسه في علاقتنا بالله سبحانه - بزعمهم - فالله ﷻ عظيم العظماء، وكبير الكبراء، ونحن مذنبون عصاة، وبعيدون لذلك عن جناب الله، ليس من اللائق بنا أن ندعوه مباشرة، لأننا إن فعلنا ذلك خفنا أن يردنا على أعقابنا خائبين، أو لا يلتفت إلينا فنرجع بخفي حنين، وهناك ناس صالحون كالأنبياء والرسل والشهداء قريبون إليه سبحانه، يستجيب لهم إذا دعوه، ويقبل شفاعتهم إذا شفعوا لديه، أفلا يكون الأولى بنا والأخرى ان نتوسل إليه بجاههم، ونقدم بين يدي دعائنا ذكرهم، عسى ان ينظر الله تعالى إلينا إكرامًا لهم، ويجيب دعاءنا مراعاة لخاطرهم، فلماذا تمنعون هذا النوع من التوسل، والبشر يستعملونه فيما بينهم، فلم لا يستعملونه مع ربهم ومعبودهم؟

ونقول جوابًا على هذه الشبهة: إنكم يا هؤلاء إذن تقيسون الخالق على المخلوق، وتشبهون قيوم السماوات والأرض، أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، الرؤوف الرحيم بأولئك الحكام الظالمين، والمتسلطين المتجبرين

الذين لا يأبهون لمصالح الرعية، ويجعلون بينهم وبين الرعية حجبًا وأستارًا، فلا يمكنها أن تصل إليهم إلا بوسائط ووسائل، ترضي هذه الوسائط بالرشاوي والهبات، وتخضع لها وتتذلل، وتترضاها وتقرب إليها، فهل خطر ببالكم أيها المساكين أنكم حين تفعلون ذلك تذمون ربكم، وتطعنون به، وتؤذونه، وتصفونه بما يمقته وما يكرهه؟

هل خطر ببالكم انكم تصفون الله تعالى بأبشع الصفات حين تقيسونه على الحكام الظلمة، والمتسلطين الفجرة، فكيف يسَّوغ هذا لكم دينكم، وكيف يتفق هذا مع ما يجب عليكم من تعظيمكم لربكم، وتمجيدكم لخالقكم؟

ترى لو كان يمكن لأحد الناس أن يخاطب الحاكم وجهًا لوجه، ويكلمه دون واسطة أو حجاب أيكون ذلك أكمل وأمدح له، أم حين لا يتمكن من مخاطبته إلا من خلال وسائط قد تطول وقد تقصر؟

يا هؤلاء إنكم تفخرون في أحاديثكم بعمر بن الخطاب رضي الله عنه وتمجدونه وتشيدون به وتبينون للناس أنه كان متواضعًا لا يتكبر ولا يتجبر، وكان قريبًا من الناس، يتمكن أضعفهم من لقائه ومخاطبته، وأنه كان يأتيه الأعرابي الجاهل الفظ من البادية، فيكلمه دون واسطة أو حجاب، فينظر في حاجته ويقضيها له إن كانت حقًا. ترى هل هذا النوع من الحكام خير وأفضل، أم ذاك النوع الذي تضربون لربكم به الأمثال؟

فما لكم كيف تحكمون؟ وما لعقولكم أين ذهبت، وما لتفكيركم أين غاب، وكيف ساغ لكم تشبيه الله تعالى بالملك الظالم، أم كيف غطى عنكم الشيطان بشاعة قياس الله سبحانه على الأمير الغاشم؟

يا هؤلاء إنكم لو شبهتم الله تعالى بأعدل الناس وأتقى الناس، وأصلح

الناس لكفرتم، فكيف وقد شبهتموه بأظلم الناس، وأفجر الناس، وأخبث الناس؟

يا هؤلاء إنكم لو قستم ربكم الجليل على عمر بن الخطاب التقي العادل لوقعتم في الشرك، فكيف تردى بكم الشيطان، فلم ترضوا بذلك حتى أوقعكم في قياس ربكم على أهل الجور والفساد من الملوك والأمراء والوزراء؟

إن تشبيه الله تعالى بخلقه كفر كله حذر منه سبحانه حيث قال: (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقًا من السماوات والأرض شيئًا ولا يستطيعون. فلا تضربوا لله الأمثال. إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) [سورة النحل: الآية ٧٤] كما نفى سبحانه أي مشابهة بينه وبين أي خلق من مخلوقاته فقال: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) [سورة الشورى: الآية ١١]. ولكن شر تشبيه أن يشبهه المرء بالأشرار والفجار والفساق من الولاة، وهو يظن أنه يحسن صنعًا! إن هذا هو الذي يحمل بعض العلماء والمحققين على المبالغة في إنكار التوسل بذوات الأنبياء، واعتباره شركًا، وإن كان هو نفسه ليس شركًا عندنا، بل يخشى ان يؤدي إلى الشرك، وقد ادى فعلًا بأولئك الذين يعتذرون لتوسلهم بذلك التشبيه السابق الذي هو الكفر بعينه لو كانوا يعلمون.

ومن هنا يتبين أن قول بعض الدعاة الإسلاميين اليوم في الأصل الخامس عشر من أصوله العشرين: (والدعاء إذا قُرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء، وليس من مسائل العقيدة) ليس صحيحًا على إطلاقه لما علمت أن في الواقع ما يشهد بأنه خلاف جوهري، إذ فيه شرك صريح كما سبق. ولعل مثل هذا القول الذي يهوّن من أمر هذا الانحراف هو أحد الأسباب التي تدفع الكثيرين إلى عدم البحث فيه، وتحقيق الصواب في أمره،

مما يؤدي في نهاية المطاف إلى استمرار المبتدعين في بدعهم، واستفحال خطرها بينهم، ولذلك قال الإمام العز بن عبد السلام في رسالة "الواسطة" (ص٥): (ومن أثبت الأنبياء وسواهم من مشايخ العلم والدين وسائط بين الله وبين خلقه كالحجّاب الذين بين الملك ورعيته، بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله تعالى حوائج خلقه، وأن الله تعالى إنما يهدي عباده ويرزقهم وينصرهم بتوسطهم، بمعنى أن الخلق يسألونهم، وهم يسألون الله كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملك حوائج الناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدبًا منهم أن يباشروا سؤال الملك، ولأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك، لكونهم أقرب إلى الملك من الطلب، فمن أثبتهم وسائط على هذه الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وهؤلاء مشبَّهون لله، شبهوا الخالق بالمخلوق، وجعلوا لله أندادًا...).

الشبهة الخامسة

هل هناك مانع من التوسل المبتدع على وجه الإباحة لا استحباب

قد يقول القائل: صحيح أنه لم يثبت في السنة ما يدل على استحباب التوسل بذوات الأنبياء والصالحين، ولكن ما المانع منه إذا فعلناه على طريق الإباحة، لأنه لم يأتِ نهي عنه؟

فأقول: هذه شبهة طالما سمعناها ممن يريد أن يتخذ موقفًا وسطًا بين الفريقين لكي يرضي كلًا منهما، وينجو من حملاتهما عليه! والجواب: يجب أن لا ننسى في هذا المقام معنى الوسيلة إذ هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود كما تقدم بيانه.

ولا يخفى أن الذي يراد التوصل إليه إما أن يكون دينيًا، أو دنيويًا، وعلى

الأول لا يمكن معرفة الوسيلة التي توصل إلى الأمر الديني إلا من طريق شرعي، فلو ادعى رجل ان توسله إلى الله تعالى بآية من آياته الكونية العظيمة كالليل والنهار مثلًا سبب لاستجابة الدعاء لرد عليه ذلك إلا أن يأتي بدليل، ولا يمكن أن يقال حينئذ بإباحة هذا التوسل، لأنه كلام ينقض بعضه بعضًا، إ أنك تسميه توسلًا، وهذا لم يثبت شرعًا، وليس له طريق آخر في إثباته، وهذا بخلاف القسم الثاني من القسمين المذكورين وهو الدنيوي، فإن أسبابه يمكن أن تعرف بالعقل أو بالعلم أو بالتجربة ونحو ذلك، مثل الرجل يتاجر ببيع الخمر، فهذا سبب معروف للحصول على المال، فهو وسيلة لتحقيق المقصود وهو المال، ولكن هذه الوسيلة نهى الله عنها، فلا يجوز اتباعها بخلاف ما لو تاجر بسبب لم يحرمه الله ﷻ، فهو مباح، أما السبب المدعى أن يقرب إلى الله وأنه أرجى في قبوله الدعاء، فهذا سبب لا يعرف إلا بطريق الشرع، فحين يقال: بأن الشرع لم يرد بذلك، لم يجز تسميته وسيلة حتى يمكن أن يقال إنه مباح التوسل به، وقد تقدم الكلام في هذا النوع مفصلًا في الفصل الثاني من هذه الرسالة.

وشيء ثان: وهو أن التوسل الذي سلمنا بعدم وروده قد جاء في الشرع ما يغني عنه، وهو التوسلات الثلاثة التي سبق ذكرها في أول البحث، فما الذي يحمل المسلم على اختيار هذا التوسل الذي يم يرد، والإعراض عن التوسل الذي ورد؟ وقد اتفق العلماء على أن البدعة إذا صادمت سنة فهي بدعة ضلالة اتفاقًا، وهذا التوسل من هذا القبيل، فلم يجز التوسل به، ولو على طريق الإباحة دون الاستحباب!.

وأمر ثالث: وهو أن هذا التوسل بالذوات يشبه توسل الناس ببعض المقربين إلى الملوك والحكام، والله تبارك وتعالى ليس كثله شيء باعتراف

المتوسلين بذلك، فإذا توسل المسلم إليه تعالى بالأشخاص فقد شبهه عملًا بأولئك الملوك والحكام كما سبق بيانه، وهذا غير جائز.

الشبهة السادسة: قياس التوسل بالذات على التوسل بالعمل الصالح

هذه شبهة أخرى يثيرها بعض أولئك المبتدعين زينها لهم الشيطان، ولقنهم إياها حيث يقولون: قد قدمتم أن من التوسل المشروع اتفاقًا التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح، فإذا كان التوسل بهذا جائزًا فالتوسل بالرجل الصالح الذي صدر منه هذا العمل أولى بالجواز، وأحرى بالمشروعية، فلا ينبغي إنكاره.

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن هذا قياس، والقياس في العبادات باطل كما تقدم (ص١٣٠)، وما مثل من يقول هذا القول إلا كمثل من يقول: إذا جاز توسل المتوسل بعمله الصالح - وهو بلا شك دون عمل الولي والنبي - جاز أن يتوسل بعمل النبي والولي، وهذا وما لزم منه باطل فهو باطل.

الوجه الثاني: أن هذه مغالطة مكشوفة، لأننا لم نقل - كما لم يقل أحد من السلف قبلنا - أنه يجوز للمسلم أن يتوسل بعمل غيره الصالح، وإنما التوسل المشار إليه إنما هو التوسل بعمل المتوسل الصالح نفسه، فإذا تبين هذا قلبنا عليهم كلامهم السابق فقلنا: إذا كان لا يجوز التوسل بالعمل الصالح الذي صدر من غير الداعي فأولى ثم أولى ألا يجوز التوسل بذاته، وهذا بين لا يخفى والحمد لله.

الشبهة السابعة: قياس التوسل بذات النبي ﷺ على التبرك بآثاره

وهذه شبهة أخرى لم تكن معروفة فيما مضى من القرون، ابتدعها ورَوّجها

الدكتور البوطي ذاته، إذ قرر في كتابه "فقه السيرة" (ص٣٤٤-٤٥٥) خلال حديثه عن الدروس المستفادة من غزوة الحديبية مشروعية التبرك بآثاره النبي ﷺ، ثم قاس على ذلك التوسل بذاته بعد وفاته، وأتى نتيجة لذلك برأي غريب وعجيب لم يقل به أحد من المشتغلين بالعلم، حتى من المغرقين في التقليد والجمود والتعصب والابتداع في الدين.

ولكي لا يظن أحد أننا نتقول عليه أو نظلمه ننقل نص كلامه بتمامه، ونعتذر إلى القراء لطوله، قال: (وإذا علمت أن التبرك بالشيء إنما هو طلب الخير بواسطته ووسيلته علمت أن التوسل بآثار النبي ﷺ أمر مندوب إليه ومشروع، فضلًا عن التوسل بذاته الشريفة، وليس ثمة فرق بين أن يكون ذلك في حياته ﷺ أو بعد وفاته، فآثار النبي ﷺ وفضلاته لا تتصف بالحياة مطلقًا، سواء تعلق التبرك والتوسل بها في حياته أ، بعد وفاته، ولقد توسل الصحابة بشعراته من بعد وفاته كما ثبت ذلك في صحيح البخاري في باب شيب رسول الله ﷺ.

ومع ذلك فقد ضل أقوام لم تشعر أفئدتهم بمحبة رسول الله ﷺ، وراحوا يستنكرون التوسل بذاته ﷺ بعد وفاته، بحجة أن تأثير النبي ﷺ قد انقطع بوفاته، فالتوسل به إنما هو توسل بشيء تأثير له البتة. وهذه حجة تدل على جهل عجيب جدًا، فهل ثبت لرسول الله ﷺ تأثير ذاتي في الأشياء في حال حياته حتى نبحث عن مصير هذا التأثير بعد وفاته؟ إن أحدًا من المسلمين لا يستطيع أن ينسب أي تأثير ذاتي في الأشياء لغير الواحد الأحد، ومن اعتقد خلاف ذلك يكفر بإجماع المسلمين كلهم... فمناط التبرك والتوسل به أو بآثاره ﷺ ليس هو إسناد أي تأثير إليه، وإنما المناط كونه أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق، وكونه رحمة من الله للعباد، فهو التوسل بقربه ﷺ إلى ربه وبرحمته الكبرى

للخلق، وبهذا المعنى توسل الأعمى به ﷺ في أن يرد عليه بصره، فرده الله عليه، وبهذا المعنى كان الصحابة يتوسلون بآثاره وفضلاته دون أن يجدوا منه أي إنكار. وقد مر بيان استحباب الاستشفاع بأهل الصلاح والتقوى وأهل بيت النبوة في الاستسقاء وغيره، وأن ذلك مما أجمع عليه جمهور الأئمة والفقهاء بما فيهم الشوكاني وابن قدامة والصنعاني وغيرهم.

والفرق بعد هذا بين حياته وموته ﷺ خلط عجيب وغريب في البحث لا مسوغ له).

ولنا على هذا الكلام مؤاخذات كثيرة نورد أهمها فيما يلي:

١ - لقد أشرنا (ص٧٧-٧٨) إلى تعريض البوطي بالسلفيين، واتهامه إياهم بأن أفئدتهم

لا تشعر بمحبة رسول الله ﷺ والاستدلال على ذلك بإنكارهم التوسل به ﷺ بعد وفاته.

وهذه فرية باطلة، وبهتان ظالم لا شك أن الله تعالى سيحاسبه عليه أشد الحساب ما لم يتبْ إليه التوبة النصوح. ذلك لأن فيها تكفيرًا لآلاف المسلمين دونما دليل أو برهان إلا الظن والوهم اللذين لا يغنيان من الحق شيئًا.

٢ - إنه قد خلط في كلامه السابق بين الحق والباطل خلطًا عجيبًا، فاستدل بحقه على باطله، فوصل من جرّاء ذلك إلى رأي لم يسبقه إليه أحد من العالمين.

وإذا أردنا أن نميز بين نوعي كلامه فإننا نقول:

إن الحق الذي تضمنه هو:

أ - أن النبي ﷺ قريب إلى الله تبارك وتعالى، وأنه كان رحمة من الله تعالى للخلق.

ب - أنه لا تأثير لأحد حتى للنبي ﷺ تأثيرًا ذاتيًا في الأشياء، وإنما التأثير كله لله الواحد الأحد.

ج - أنه يشرع التبرك بآثار النبي ﷺ، وأن الصحابة فعلوا ذلك في حياته ﷺ وبإقرار منه.

هذه النقاط الثلاثة صحيحة لا خلاف فيها، ولو وقف الكاتب عندها لما كان ثمة حاجة للتعليق عليه.

وأما الباطل الذي تضمنه كلامه وفيه الخلاف العريض فهو:

أ - أن التوسل بآثار النبي ﷺ جائز، وأن الصحابة كانوا يتوسلون بآثاره ﷺ وفضلاته.

ب - تسويته بين التبرك والتوسل.

ج - أن التوسل بذاته ﷺ جائز كجواز التبرك بفضلاته.

د - أن مناط التوسل به ﷺ هو كونه أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق.

هـ - جهله بمعنى كلمة الاستشفاع مما حمله على الاستدلال بها على التوسل المبتدع.

و- افتراؤه على السلفيين بأنهم يرون أن النبي ﷺ كان له تأثير ذاتي في الأشياء خلال حياته، وقد انقطع ذاك التأثير بوفاته، وأن هذا هو سبب إنكارهم التوسل به ﷺ بعد وفاته!

ز - ادعاؤه أن الأعمى توسل بقربه ﷺ من ربه.

ح - ادعاؤه أن محمدًا ﷺ أفضل الخلائق على الإطلاق.

وننتقل بعد هذا الإجمال إلى الشرح والتفصيل فنقول:

١ - تخليط البوطي في التسوية بين التبرك والتوسل:

لقد قال الدكتور البوطي: (ان التوسل بآثار النبي ﷺ أمر مندوب إليه ومشروع فضلًا عن التوسل بذاته الشريفة). وظاهر كلامه أن يقيس التوسل بذاته ﷺ قياسًا أولويًا على التبرك بآثاره، ويسمى هذا التبرك توسلًا، ويؤكد ما ذكرناه قوله في (ص١٩٦) من كتابه المذكور حيث ذكر بعض الروايات التي فيها تبرك بعض الصحابة بآثاره ﷺ، ثم قال: (فإذا كان هذا شأن التوسل بآثاره المادية، فكيف بالتوسل بمنزلته عند الله جل جلاله؟ وكيف بالتوسل بكونه رحمة للعالمين؟).

ولكنه سرعان ما تراجع عن كل ذلك زاعمًا أن التبرك والتوسل معناهما واحد، منكرًا أنه يقيس التوسل على التبرك، وأن المسألة لا تعدو أن تكون استدلالًا بالقياس، فإن التوسل والتبرك كلمتان تدلان على معنى واحد، وهو التماس الخير والبركة عن طريق المتوسل به، وكل من التوسل بجاهه ﷺ عند الله والتوسل بآثاره أو فضلاته أو ثيابه أفرادًا وجزئيات داخلة تحت نوع شامل هو مطلق التوسل الذي ثبت حكمه بالأحاديث الصحيحة، وكل الصور الجزئية له يدخل تحت عموم النص بواسطة ما يسمى بتنقيح المناط عند علماء الأصول).

والحقيقة أن ظاهر كلام الدكتور الأول كان أهون بكثير من كلامه الأخير هذا، لأن التوسل يختلف اختلافًا بينًا عن التبرك، ومن يسوي بينهما فإنه يكون قد ارتكب خطأً شنيعًا، ووقع في جهل فظيع بالحقائق الشرعية، مما لا يجوز أن يقع في طالب علم يحترم نفسه.

إن التبرك هو التماس من حاز أثرًا من آثار النبي ﷺ حصول خير به خصوصية له ﷺ، وأما التوسل فهو إرفاق دعاء الله تعالى بشيء من الوسائل

التي شرعها الله تعالى لعباده، كأن يقول: اللهم إني أسألك بحبي لنبيك ﷺ أن تغفر لي، ونحو ذلك. ويتبدى هذا الفرق في أمرين:

أولهما: أن التبرك يرجى به شيء من الخير الدنيوي فحسب، بخلاف التوسل الذي يرجى به أي شيء من الخير الدنيوي والأخروي.

ثانيهما: أن التبرك هو التماس الخير العاجل كما سبق بيانه، بخلاف التوسل الذي هو مصاحب للدعاء ولا يستعمل إلا معه.

وبيانًا لذلك نقول: يشرع للمسلم أن يتوسل في دعائه باسم من أسماء الله تبارك وتعالى الحسنى مثلًا، ويطلب بها تحقيق ما شاء من قضاء حاجة دنيوية كالتوسعة في الرزق، أو أخروية كالنجاة من النار، فيقول مثلًا: اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بأنك أنت الله الأحد، الصمد، أن تشفيني أو تدخلني الجنة...، ولا أحد يستطيع أن ينكر عليه شيئًا من ذلك، بينما لا يجوز لهذا المسلم أن يفعل ذلك حينما يتبرك بأثر من آثاره ﷺ، فهو لا يستطيع ولا يجوز له أن يقول مثلًا: (اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بثوب نبيك أو بصاقه أو بوله أن تغفر لي وترحمني.. ومن يفعل ذلك فإنه يعرّض نفسه من غير ريب ليشك الناس في عقله وفهمه فضلًا عن عقيدته ودينه. وظاهر كلام الدكتور أنه يجيز هذا التوسل العجيب، ويعده هو والتبرك بأثر من آثار النبي ﷺ شيئًا واحدًا، وهو بهذا يخلط خلطًا قبيحًا، ومع ذلك لا يخجل من اتهام السلفيين بأنهم يخلطون خلطًا عجيبًا لا مسوغ له، فقد علم القراء من الذين يخلط ويخبط خبط عشواء.

إن هذا ليذكرنا حقًا بالمثل العربي القائل: رمتني بدائها وانسلّت. وصدق النبي الكريم ﷺ حيث يقول:(إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت).

وثمة ملاحظة هامة وخطيرة في كلام الدكتور السابق، وهي أنه يدعي ثبوت مطلق التوسل بالأحاديث الصحيحة، وهذا باطل، لأنه ليس أكثر من افتراض ودعوى مجردة لا حقيقة لها إلا في ذهنه، إذ لم يثبت من التوسل المتعلق بالنبي ﷺ إلا دعاؤه ﷺ كما تقدم في ثنايا هذه الرسالة، واما التوسل بجاهه ﷺ أو آثاره فلم يثبت منه شيء البتة في كتاب أو سنة، ونحن نطالب الدكتور أن يدلنا على حديث واحد ثابت، فيه هذه الدعوى، ونحن على يقين أنه لن يجد شيئًا من ذلك، فقد عوّدنا على تقرير أحكام ضخمة دونما دليل (خبط لزق)! وادعاء دعاوى عريضة لا تقوم على أساس إلا أنها بدت له هكذا، وحسب القارىء له أن يؤمن بما يقول ويسلم له تسليمًا، وإياه ثم إياه أن يسأله عن الدليل، لأن ذلك من قلة الأدب، ورقة الدين، وطريقة السلفيين، والعياذ بالله. فتأمل!

٢- بطلان التوسل بآثار النبي ﷺ

وبعد إثبات الفرق بين التوسل والتبرك نعلم أن آثار النبي ﷺ لا يتوسل بها إلى الله تعالى وإنما يتبرك بها فحسب، أي يرجى بحيازتها حصول بعض الخير الدنيوي كما سبق بيانه.

إننا نرى أن التوسل بآثار النبي ﷺ غير مشروع البتة، وأن من الافتراء على الصحابة رضوان الله عليهم الادعاء بأنهم كانوا يتوسلون بتلك الآثار، ومن ادعى خلاف رأينا فعليه الدليل، بأن يثبت أن الصحابة كانوا يقولون في دعائهم مثلًا: اللهم ببصاق نبيك اشفِ مرضانا، أو: اللهم ببول نبيك أو غائطه اجرنا من النار!! إن أحدًا من العقلاء لا يستسيغ رواية ذلك مجرد رواية فكيف باستعماله، وإذا كان الدكتور البوطي ما يزال في شك من ذلك، وإذا كان يرى جواز ذلك فعليه أن يثبته عمليًا بأن يدعو من على منبره بمثل الدعوات السابقة، وإن لم

يفعل - ولن يفعل إن شاء الله ما بقي فيه عقل، وفي قلبه ذرة من إيمان - فذلك دليل على أنه يقول بلسانه ما لا يعتقد في قلبه.

هذا ولابد من الإشارة إلى أننا نؤمن بجواز التبرك بآثاره ﷺ، ولا ننكره خلافًا لما يوهمه صنيع خصومنا، ولكن لهذا التبرك شروطًا منها الإيمان الشرعي المقبول عند الله، فمن لم يكن مسلمًا صادق الإسلام فلن يحقق الله له أي خير بتبركه هذا، كما يشترط للراغب في التبرك أن يكون حاصلًا على أثر من آثاره ﷺ ويستعمله، ونحن نعلم أن آثاره ﷺ من ثياب أو شعر أو فضلات قد فقدت، وليس بإمكان أحد إثبات وجود شيء منها على وجه القطع واليقين، وإذا كان الأمر كذلك فإن التبرك بهذه الآثار يصبح أمرًا غير ذي موضوع في زماننا هذا، ويكون أمرًا نظريًا محضًا، فلا ينبغي إطالة القول فيه، ولكن ثمة أمر يجب تبيانه، وهو أن النبي ﷺ وإن أقر الصحابة في غزوة الحديبية وغيرها على التبرك بآثاره والتمسح بها، وذلك لغرض مهم وخاصة في تلك المناسبة، وذلك الغرض هو إرهاب كفار قريش وإظهار مدى تعلق المسلمين بنبيهم، وحبهم له، وتفانيهم في خدمته وتعظيم شأنه، إلا أن الذي لا يجوز التغافل عنه ولا كتمانه أن النبي ﷺ بعد تلك الغزوة رغّب المسلمين بأسلوب حكيم وطريقة لطيفة عن هذا التبرك، وصرفهم عنه، وأرشدهم إلى أعمال صالحة خير لهم منه عند الله ﷻ، وأجدى، وهذا ما يدل عليه الحديث الآتي:

عن عبد الرحمن بن أبي قراد رضي الله عنه أن النبي ﷺ توضأ بومًا، فجعل أصحابه يتمسحون بوضوئه، فقال لهم النبي ﷺ: (ما يحملكم على هذا؟) قالوا: حب الله ورسوله. فقال النبي ﷺ: (من سره أن يحب الله ورسوله، أو يحبه الله ورسوله فليصدق

حديثه إذا حدث، وليؤد أمانته إذا اؤتمن، وليحسن جوار من جاوره) .

٣- افتراء عريض:

والظاهر أن الدكتور لا يطيب له عيش، ولا يهنأ له بال إلا إذا افترى على السلفيين، وكذب عليهم، كذبًا مكشوفًا حينًا ومغطى حينًا آخر. وها هو هنا يفتري علينا حين يزعم أننا نحتج على منع التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته بالقول بأن تأثيره ﷺ في الحوادث قد انقطع بعد وفاته، ويتطوع بأن يثبت أن النبي ﷺ سواء في حياته أو بعد وفاته ليس له تأثير ذاتي في الأشياء في كل ظرف وفي كل حين، وأن المؤثر الوحيد فيها هو الله وحده سبحانه.

وواضح من هذا بجلاء أنه يتهم السلفيين بأنهم يعتقدون أن النبي ﷺ كان له تأثير ذاتي في الأشياء حال حياته. وهذا كذب صراح، وافتراء مكشوف، لم يقل به سلفي قط، بل ولا خطر في بال أحد من السلفيين البتة، وكيف يقولونه وهم دعاة التوحيد الخالص، والدين الصحيح، والذين جعلوا أكبر همهم دعوة الناس إلى إخلاص عبوديتهم لله تعالى وحده، وتخليص عقائدهم من كل شائبة من شوائب الشرك، والتنديد بكل ما يخدش جناب التوحيد، ولو كان ذلك خطأ لفظيًا. وقد تحملوا في سبيل ذلك الأذى من الناس والتشهير بهم والافتراء عليهم واتهامهم بأقبح التهم، وما نقم الناس - وفيهم الدكتور البوطي - عليهم إلا لدعوتهم الحقة هذه، ومع ذلك فلا يخجل من أن يرميهم بهذه التهمة الباطلة التي يعلم هو

- فيما نرجح - قبل غيره أنها باطلة مفتراة، وإلا فليبين لنا - إن استطاع - مصدر هذا القول المزعوم، ومن قاله من السلفيين، وفي أي كتاب ورد من كتبهم أو نشراتهم، فإن لم يفعل

- وهيهات أن يفعل - فإنه يكون قد ظهر لكل أحد كذبه وافتراؤه.

وشيء آخر نذكره هنا، وهو أن كلام البوطي السابق (ومن ادعى شيئًا من ذلك يكفر بإجماع المسلمين) يفيد لمن تأمله تكفير السلفيين عمومًا، وهذا كذب آخر واتهام ظالم، لا شك أن الله تعالى سيحاسبه عليه، لأن السلفيين هم مسلمون، بل هم أحق الناس بصفة الإسلام، وهم يعلمون حق العلم أن نسبة التأثير الذاتي للنبي ﷺ أو لغيره هو من الشرك في الربوبية المخرج من الملة، وهم من أشد الناس تنبهًا له وتحذيرًا منه، بينما البوطي وأمثاله يلتمسون

للواقعين فيه مختلف الأعذار والتبريرات.

ولا يفوتنا هنا أن نذكره وأمثاله بما بيناه في ثنايا هذه الرسالة من أن السبب الذي يدعونا إلى منع التوسل بذوات الصالحين ومكانتهم وجاههم إنما هو كونه لم يرد في الشريعة الغراء،

ولم يستعمله النبي ﷺ ولا أصحابه، فهو لذلك محدَث مبتدع، وما ورد من النصوص التي يحتج بها المخالفون بعضها ثابت ولكنه لا يدل على ما يدعون، وبعضها الآخر غير ثابت، وقد مضى تفصيل ذلك.

إن هذا هو السبب الذي يحملنا على إنكار ذلك التوسل، وتقول بصراحة: إنه لو ورد في الشرع لقلنا به، ولم يمنعنا منه مانع، لأننا أسرى في يد الشريعة، فما أجازته أجزناه، وما منعته منعناه، والغريب أن الدكتور تغافل عن هذا السبب الأساسي، واختلق من عنده سببًا تخيله كما شاء له هواه قاصدًا بذلك أن يتمكن من الطعن فينا والتشهير بنا، وإثارة الغوغاء علينا، فانظر - رحمك الله - إلى هذا الأسلوب الغريب المنافي للدين والعلم، واشتكِ معنا إلى الله ﷻ من غربة الحق وأهله في هذا الزمان.

٤- خطؤه في ادعائه أن مناط التوسل بالنبي ﷺ كونه أفضل الخلائق

وهذا خطأ آخر وقع فيه الدكتور نتيجة لتهوره وعدم تفكيره فيما يكتب، حيث ادعى أن مناط التوسل بالنبي ﷺ هو كونه أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق، وكونه رحمة من الله للعباد كما تقدم من كلامه.

ونقول له: ان معنى ذلك عندك أن من لم يكن كذلك (أي أفضل الخلائق عند الله ..)

فلا يجوز التوسل به، لأنه لم يتحقق فيه المناط المزعوم، ذلك لأن المناط أصلًا هو علة الحكم التي يوجد بوجودها، وينعدم بعدمها، وعلى هذا فمعنى عبارة الدكتور - لو كان يعقل ما يقول - إنه لا يجوز التوسل بأحد مطلقًا إلا بالنبي ﷺ، ونحن نعلم علم اليقين أنه يعتقد خلاف ذلك، ويرى جواز التوسل بكل نبي أو ولي أو صالح، وبهذا يكون هو نفسه قد قال ما لا يعتقد، وناقض نفسه بنفسه، والسبب في ذلك أحد أمرين، فإما أن يكون غير فاهم لاصطلاح المناط عند العلماء، وإما أن يكون غير متأمل فيما ينتج عنه من كلامه، وهذا هو الأقرب، والله أعلم.

وأمر آخر نذكره في هذه المناسبة وهو أن من المقرر لدى علماء الأصول أنه لابد لاعتبار المناط في حكم ما من أن يكون قد ورد تعيينه في نص من كتاب أو سنة، ولا يكفي فيه الاعتماد على الظن والاستنباط.

وإذا عدنا إلى ما ذكره الدكتور وجدنا أنه قد ادعى مناطًا ليس عليه شبة دليل من الكتاب والسنة، وإنما عمدته في ذلك مجرد الظن والوهم، فهل هكذا يكون العلم وإثبات الحقائق الشرعية عند الدكتور الذين يُعَنْون لبعض كتبه بأنها (أبحاث في القمة)؟

وأمر ثالث وأخير وهو أن الدكتور قد ادعى أن النبي ﷺ أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق. وهذه عقيدة، وهي لا تثبت عنده، إلا بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة، أي بآية قطعية الدلالة، أو حديث متواتر قطعي الدلالة، فأين هذا النص الذي يثبت كونه ﷺ أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق؟

ومن المعلوم أن هذه القضية مختلف فيها بين العلماء، وقد توقف فيها الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى، ومن شاء التفصيل فعليه بشرح عقيدة الإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (ص٣٣٧-٣٤٨، طبعة المكتب الإسلامي بتحقيقي).

ولعل مستند الدكتور في تقرير تلك العقيدة ما ورد في قصة المعراج المنسوبة كذبًا وعدوانًا إلى الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، مع أنه هو نفسه يقول عن هذه القصة: (إنه كتاب ملفق من مجموعة أحاديث باطلة لا أصل لها ولا سند)! والحقيقة أن كلامه هذا بهذا الإطلاق هو الباطل، إذ يوجد في الكتاب المذكور كثير منالأحاديث الصحيحة، وبعضها مما رواه الشيخان، ولكن المؤلف خلطها بأحاديث أخرى بعضها موضوع وبعضها لا أصل له، وبعضها ضعيف، وقد بينت ذلك في ردي على الدكتور البوطي الذي نشر في مجلة التمدن الإسلامي أولًا، ثم في كتاب مستقل، كما سبق بيانه قريبًا (ص١٢١) .

٥- جهلة بالمعنى اللغوي لكلمة الاستشفاع:

وهذه غلطة شنيعة أخرى وقع فيها الدكتور - اصلحه الله وهداه - إذ استدل بالاستشفاع الوارد في أحاديث الاستسقاء على التوسل المبتدع، فقال: (وقد مر بيان استحباب الاستشفاع بأهل الصلاح والتقوى، وأهل بيت النبوة الوارد في الاستسقاء وغيره، وأن ذلك مما أجمع عليه جمهور الأئمة والفقهاء بما فيهم

الشوكاني وابن قدامة والصنعاني وغيرهم) وما كان للدكتور أن يقع في هذا الخطأ لو كان يفقه معنى الاستشفاع في اللغة، ورغبة في تنوير القراء وإفادتهم نورد بعض ما ذكرته كتب اللغة في بيان معنى الشفاعة والاستشفاع.

قال صاحب "القاموس المحيط": (الشَفْع خلاف الوتر وهو الزوج، والشفعة هي أن تشفع فيما تطلب، فتضمه إلى ما عندك فتشفعه أي تزيده، وشاة شافع: في بطنها ولد يتبعها آخر، سميت شافعًا لأن ولدها شفعها أو شفعته، واستشفعه إلينا: سأله أن يشفع).

وفي "المعجم الوسيط" الذي أصدره مجمع اللغة العربية في مصر: (شفع الشيء شفعًا: ضم مثله إليه وجعله زوجًا، والبصرُ الأشباحَ: رآها شيئين، واستشفع: طلب الناصر والشفيع، والشفائع: المزدوجات، والشفاعة: كلام الشفيع، والشفيع: ما شفع غيره، وجعله زوجًا).

وفي "النهاية" لابن الأثير: (الشُفْعة مشتقة من الزيادة، لأن الشفيع يضم المبيع إلى ملكه، فيشفعه به، كأنه كان واحدًا وترًا، فصار زوجًا شفعًا، والشافع هو الجاعل الوتر شفعًا..).

فمن هذه النقول وأمثالها يظهر معنى الاستشفاع بوضوح، وهو أن يطلب إنسان من آخر أن يشاركه في الطلب، فيزيد به ويكونا شفعًا أي زوجًا، وقد أخذ من هذا الأصل اللغوي المعنى الشرعي للاستشفاع حيث أريد به الطلب من أهل الخير والعلم والصلاح أن يشاركوا المسلمين في الدعاء إلى الله في الملمات، فيشفعوهم بذلك ويزيدوا الداعين، فيكون ذلك أرجى لقبول الدعاء.

وبهذا يمكننا فهم الشفاعة العظمى للنبي ﷺ يوم القيامة، فهي باتفاق العلماء دعاء النبي ﷺ للناس بعد مجيئهم إليه، وطلبهم منه أن يدعو الله تعالى

ليعجّل لهم الحساب، ولم يفهم أحد من أهل العلم من ذلك أن يقول الناس مثلًا: اللهم بمنزلة محمد ﷺ عندك عجّل لنا الحساب.

ومن الغريب حقًا أن يتجرأ الدكتور البوطي فيدعي إجماع الأئمة والفقهاء بما فيهم الشوكاني وابن قدامة والصنعاني على فهمه الشاذ المبني على جهل فظيع بمعاني الألفاظ المستعملة في اللغة والشرع.

ونكتفي للرد عليه بنقل كلام أحد الأئمة الذين نص على أسمائهم، وادعى مشاركتهم إياه في فهمه لمعنى الاستشفاع، ونعني الإمام ابن قدامة المقدسي صاحب أكبر كتاب في الفقه الحنبلي وهو "المغني" إذ قال فيه (٢/ ٢٩٥) ما نصه:

(ويستحب بأن يستسقي بمن ظهر صلاحه، لأنه أقرب إلى إجابة الدعاء، فإن عمر استسقى بالعباس عم النبي ﷺ. قال ابن عمر: استسقى عمر عام الرمادة بالعباس، فقال: اللهم إن هذا عم نبيك نتوجه إليك به، فاسقنا، فما برحوا حتى سقاهم الله، وروي أن معاوية خرج يستسقي، فلما جلس على المنبر قال: أين يزيد بن الأسود الجُرَشي؟ فقام يزيد، فدعاه معاوية فأجلسه عند رجليه، ثم قال: اللهم إنا نستشفع إليك بخيرنا وأفضلنا يزيد بن الأسود، يا يزيد ارفع يديك، فرفع يديه ودعا الله تعالى، فثارت في الغرب سحابة مثل الترس، وهبَّ لها ريح، فسقوا حتى كادوا لا يبلغون منازلهم، واستسقى به الضحاك مرة أخرى).

وواضح من كلام ابن قدامة هذا أنه يعني بالاستشفاع الوارد في الاستسقاء أن يطلب إمام المسلمين من بعض أهل العلم والصلاح أن يشترك مع المسلمين في التوجه إلى الله ودعائه سبحانه لكشف الشدة عن عبادة المؤمنين. ولم يقصد

الإمام ابن قدامة بل ونجزم بأنه لم يخطر في باله ذاك المعنى الخاطىء الذي يحمله عليه البوطي وأمثاله من المبتدعين، ويريدون حمل الألفاظ الشرعية عليه.

ترى كيف يدعي البوطي مثل هذا الإجماع المزيف ويستشهد بابن قدامة وغيره، وها هو كلام ابن قدامة ينسف فهمه من الجذور؟ أم أنه لا يفهم ما في كتب القوم، أم لعله يدعي ما يروق له من الدعاوى الساقطة دون أن يراجع الكتب، أو يقرأ كلام العلماء اعتمادًا منه على أن قارئيه مقلدون تقليدًا أعمى وليسوا ممن يراجع أو يقرأ أو يتثبت مما يقال؟

إنه لأمر مؤسف والله، وبلية من أعظم البلايا التي نشهدها في واقع المسلمين، وهي من غير شك من الأسباب الكبرى في تأخر المسلمين وضعفهم وانحطاطهم، ومحال أن تتغير هذه الحال إلا إذا غيروا ما بأنفسهم من الجمود والتصوف والفقه المذهبي وعلم الكلام، وعادوا إلى هدي الله الحق المتمثل في الكتاب والسنة، والذي توضحه الدعوة السلفية الغراء.

٦- خطؤه في ادعائه أن توسل الأعمى كان بمنزلة النبي ﷺ عند الله:

ونختم الرد على الدكتور البوطي بالإشارة إلى خطئه في ادعائه أن توسل الأعمى إنما كان بمنزلة النبي ﷺ، وبكونه أفضل الخلائق عند الله، لأن ذلك مجرد دعوى لا برهان عليها، ولم يستطع الدكتور أن يأتي بشبه دليل على ذلك، وقد تقدم في هذه الرسالة إثبات أن توسل الأعمى إنما كان بدعاء النبي ﷺ، وقد فندنا كل الشبهات فيما علمنا التي يوردها المخالفون، ويحتجون بها على رأيهم الخاطىء، كما بيَّنا (ص٦٥) ضعف الزيادة التي أشار الدكتور إليها، وسكت عنها جهلًا أو تجاهلًا، وهي قوله: (فإن كان لك حاجة فافعل مثل ذلك).

ورغبة في عدم الإطالة لا نعيد ذلك.

ومما سبق كله، يتبين لكل منصف مريد للحق بطلان تلك الشبهة البوطية وسقوطها، وصدق الله تبارك وتعالى إذ يقول: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون) ويقول: (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا).

(باب متفرقات)

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٢/ ١٠٩): حدثونا عن التوسل والوسيلة، ووضحوا لنا الشبه والرد عليها، ولا سيما أن هناك من يستدل بمثل قوله تعالى: {وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} ويستدلون أيضا بالتوسل بالعباس رضي الله عنه، وما الفرق بين التوسل بالأنبياء والصالحين، والتوسل بالأعمال الصالحة؟ جزاكم الله خيرا .

فأجاب: هذا السؤال سؤال مهم، وجدير بالعناية، لأنه يشتبه الموضوع فيه على كثير من الناس، فالوسيلة وسيلتان: وسيلة جائزة، بل مشروعة مأمور بها، ووسيلة ممنوعة، أما الوسيلة المشروعة، فهي التوسل إلى الله بالإيمان، والعمل الصالح، وسائر ما شرعه الله جل وعلا، وهي المراد في قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} يعني: القربة إليه بطاعته، كالصلاة والصوم والصدقة، والحج، وإخلاص العبادة لله ونحو ذلك، فقوله سبحانه: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ} يعني: من دون الله، من أصنام ومن أشجار، وأحجار، وأنبياء وغير ذلك، {فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا}، يعني: أولئك المدعوون لا يملكون كشف الضر عن داعيهم من مرض أو جنون أو غير ذلك، {وَلَا تَحْوِيلًا} يعني: ولا تحويلا من حال إلى حال، ومن شدة إلى

سهولة، أو من عضو إلى عضو، لا يملكون ذلك، بل هم عاجزون عن ذلك، وإنما هو بيد الله سبحانه وتعالى، ثم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، يعني: أولئك الذين يدعوهم هؤلاء المشركون، من أنبياء وصالحين أو ملائكة: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، يعني: هم يبتغون يطلبون من الله الوسيلة، وهي القربة إليه بطاعته من صلاة وصوم وصدقات وغير ذلك، ويرجون رحمته، لهذا عملوا واجتهدوا بطاعته، ويخافون عذابه سبحانه وتعالى، فهذه الوسيلة هي القيام بحقه من توحيده وطاعته، بفعل الأوامر وترك النواهي، وهي الإيمان والهدى والتقوى، وهي ما بعث الله به الرسل، عليهم الصلاة والسلام، من قول وعمل، فهذه الوسيلة واجبة من الواجبات، ومستحبة من المستحبات، فالتوسل إليه بتوحيده، والإخلاص له وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت، هذا أمر لازم، وفريضة، في الحجة الأولى من العمر، وكذلك التوسل إليه بترك المعاصي أمر لازم، فريضة، والتوسل إليه، بالنوافل من صلاة النافلة، وصوم النافلة وصدقة النافلة، والإكثار من ذكر الله، أيضا مستحب، وقربة وطاعة، وذلك جعله الله من أسباب دخول الجنة، والنجاة من النار، أما الوسيلة الأخرى التي لا تجوز، فهي التوسل إليه بدعاء الأموات، والاستغاثة بالأموات، هذه وسائل شركية، يسميها المشركون وسيلة، وهي شرك أكبر وهي المراد في قوله سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾، ويقول جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ يعني يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فاتخذوهم وسيلة بهذا المعنى، يعني بدعائهم وسؤالهم، وطلب الشفاعة منهم، والنصر على الأعداء وشفاء المرضى ونحو ذلك، وزعموا أنهم بهذا

يكونون لهم وسيلة، وهذا هو الشرك الأكبر، وهذا هو دين المشركين، نسأل الله العافية، فإن المشركين يزعمون: أن عبادتهم للأنبياء، والملائكة والصالحين والجن، وسيلة إلى مقاصدهم، وأن هذه المعبودات تشفع لهم عند الله، وتقربهم من الله زلفى، فأبطل الله ذلك، وأكذبهم بذلك، قال تعالى في حقهم: {قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، بعد قوله سبحانه: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ}.

وقال في آية الزمر: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}؛ فأكذبهم الله سبحانه وتعالى، بقوله: {إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}، فسماهم كذبة في قولهم: إنها تقربنا إلى الله زلفى، كفرة بهذا العمل، بدعائهم إياهم واستغاثتهم بهم ونذرهم لهم ونحو ذلك، فالواجب على جميع المكلفين بل على جميع الناس، الحذر من هذه الوسيلة، فلا يفعلها المكلف ولا غير المكلف، يجب على المكلف أن يحذرها، وعليه أن يحذر غير المكلفين، من أولاده أن يفعلها أيضا، فالله هو الذي يعبد سبحانه وتعالى، وهو الذي يدعى، وهو الذي يرجى وهو الذي يسأل النصر على الأعداء، والشفاء للمرضى، وغير ذلك من حاجات العباد، يقول سبحانه وتعالى في كتابه العظيم: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ} {إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}، ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، ويقول عن نبيه ﷺ: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ

السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}. ونذير وبشير، ليس بمعبود من دون الله، وليس بإله مع الله، سبحانه وتعالى، وقال جل وعلا: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا}، {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} قل يا محمد للناس: {إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا}، {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} {قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} {إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ} بل ذلك بيده سبحانه وتعالى، هو الذي يملك النفع والضر، والعطاء والمنع والشفاء من الأمراض، والنصر على الأعداء، بيده سبحانه وتعالى، وهناك نوع ثان: من الوسيلة الممنوعة، هو التوسل بجاه فلان، وحق فلان، هذه الوسيلة ممنوعة، لكنها ليست شركا أكبر، بل هي من وسائل الشرك، كأن يقول: اللهم إني أسألك بجاه محمد، بجاه فلان وحق أنبيائك، هذا لا يجوز، هذه بدعة ليس عليها دليل، الله يقول: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} يدعى بأسمائه وصفاته، وما كان يتوسل إلا بالأعمال الصالحة، بالصلاة والصوم، وبر الوالدين، وصلة الرحم، والعفة عن الفواحش، هذه وسائل شرعية، كما في قصة أصحاب الغار، الذين آواهم المبيت والمطر إلى غار فدخلوا فيه، فانطبقت عليهم صخرة، سدت عليهم فم الغار، فقالوا فيما بينهم: لا ينجيكم من هذا إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فاسألوا الله وتوجهوا إليه بصالح أعمالكم، فأحدهم: دعا وسأل ربه ببره لوالديه، والآخر توسل إلى الله بعفته عن الزنا بعد قدرته على المرأة، والثالث توسل إلى الله بأداء الأمانة، بأجير كان له أجر عنده، نمى أجره، فلما جاء أعطاه إياه كاملا فانفرجت عنهم الصخرة، بهذه الوسيلة الصالحة، العملية، وهذا من لطف الله وإحسانه، وآياته العظيمة، أن فرج عنهم وجعل انطباق هذه الصخرة، سببا لتوسلهم بهذه

الأعمال، وليعلم الناس فضل الأعمال الصالحة، وأنها من أسباب تفريج الكروب وتيسير الأمور، وأن الواجب على العبد، أن يحذر غضب الله، وأسباب عقابه، متى أقام على المعصية فليحذر، وليبتعد عنها، ومتى قدر على البر والخير فليفعل، أما توسل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالعباس، فهذا توسل بدعاء العباس، فإنه كان النبي ﷺ إذا أجدب الناس كان يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ الغيث، وكان الناس يفزعون إليه ويقولون: يا رسول الله استغث لنا، هلكت الأموال وانقطعت السبل، يعني بسبب الجدب فيستغيث الله، ويسأله سبحانه أن يغيث العباد، فيغيثهم سبحانه وتعالى، فلما أجدبوا في عهد عمر، قال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا حين كان بين أيدنا، فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قم يا عباس فادع الله لنا، فقام العباس ودعا لهم واستغاث فسقاهم الله، والعباس عم النبي ﷺ، هذا توسل بدعاء العباس، مثلما كان يتوسل بدعاء النبي في حياته، ﷺ، فدل ذلك على أنه بعد وفاته، لا يستغاث به ولا يطلب منه الغوث، عليه الصلاة والسلام، لأنه لا يستطيع ذلك، انقطع عمله المتعلق بالدنيا، ولهذا طلب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من العباس، أن يدعو الله أن يغيث الناس، فقام العباس ودعا الله فأغاث الله الناس، وهكذا فعل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الشام طلب من يزيد بن الأسود، الصحابي الجليل أن يسأل الله الغوث، فقام يزيد وسأل الله، فأغاث الناس، هذا لا بأس به شرعي، أن يقول ولي الأمر، أو خطيب المسجد لعالم من العلماء، أو بعض الأخيار: ادع الله يا فلان للمسلمين، أن الله يغيثهم فلا بأس، كما فعل عمر مع العباس، وكما فعل معاوية مع يزيد بن الأسود، وهكذا الإنسان يقول: اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى، وصفاتك العلا، أن تغيثنا وأن ترحمنا، وأن تغفر لنا، الله يقول سبحانه: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} فأنت تسأل، وهكذا غيرك

يسأل يتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، ويدعو الله للمسلمين، في الجدب وفي غيره، وبهذا يتضح أن الوسيلة: ثلاثة أقسام: قسم مشروع، وهو التوسل إلى الله بتوحيده، والإيمان به وبالأعمال الصالحة، وبأسمائه وصفاته، وقسم شرك، وهو التوسل إلى الله بدعاء الأموات، والاستغاثة بالأموات، والنذر لهم، والذبح لهم، والتوسل بالأصنام، أو بالأشجار والأحجار، أو بالجن هذا شرك أكبر، القسم الثالث بدعة لا يجوز، وليس بشرك، وليس مشروعا، بل هو بدعة، وهو التوسل بحق فلان، أو بجاه فلان، أو حق الأنبياء، هذا منكر وبدعة، ومن وسائل الشرك، أما الوسائل الشرعية، فكما تقدم: التوسل بالأعمال الصالحات، وبأسماء الله وصفاته، هذا كله من التوسل الشرعي.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١١٨): هل يتعرض سماحتكم لشبه أولئك، الذين يتوسلون بالمخلوقين؟

فأجاب: هذه الشبه لا أساس لها، بل هي باطلة، بعضهم يشبه يقول: إذا جاز التوسل بجاه فلان، وحق فلان، دل على أنه يدعى ويسأل، هذا باطل لأن هذا التوسل بدعة، ثم لو جاز ما صلح أن يكون دليلا على أن يستغاث بالإنسان، لأن التوسل بالجاه، سؤال لله، يسأل الله بجاه فلان، وهذا سؤال لله، ليس سؤالا للمخلوق، لكن الوسيلة هي التي منكرة وبدعة بجاه فلان وحق فلان، أما لو سأل الله بأسمائه وصفاته، أو سأل الله ولم يتوسل بشيء، قال: اللهم أنجنا من النار، اللهم أغثنا كله طيب، أو اللهم أغثنا بفضلك، أو بأسمائك وصفاتك ورحمتك، هذا طيب أما الشبهة بأن الأنبياء لهم جاه ولهم عند الله منزلة، فندعوهم حتى يشفعوا لنا، هذا باطل، لأن جاههم ومنزلتهم، التي عند الله لم يجعلها الله مسوغة للمشركين أن يعبدوهم بل أنكر عليهم لما استغاثوا بهم،

وطلبوا منهم الشفاعة، أنكر عليهم ذلك، وسماهم كذبة كفرة، وذكر أن ما فعلوه باطل يتنزه الله عنه، بقوله سبحانه: {قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، ثم قال ﷻ: {إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} هذه الوسيلة التي فعلها المشركون مع الأصنام، ومع الأنبياء ومع الجن استغاثوا بهم ونذروا لهم، وزعموا أنهم يشفعون لهم، هذه باطلة، أبطلها الله وأبطلها الرسول ﷺ وحذر منها الأمة، وأمرهم أن يخلصوا العبادة لله، وحده سبحانه وتعالى.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٢/ ١١٩): ما حكم الوجاهة؟ وهل يصح أن نقول: بجاه سيدنا محمد ﷺ اغفر لي، أو اغفر لوالدي، وما أشبه ذلك؟.

فأجاب: السؤال بالجاه بدعة، لا يجوز، ولكن تسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وبإيمانك، وأعمالك الصالحة، هذا المشروع. أما أن تقول: اللهم إني أسألك بجاه محمد ﷺ أو بجاه نبينا محمد ﷺ، أو بجاه الأنبياء، أو بجاه الصالحين، هذا منهي عنه، ليس من الوسائل الشرعية. الله يقول جل وعلا: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} ما قال فادعوا بجاه الأنبياء، أو بجاه الصالحين. فتقول اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى أن تغفر لي، وأن ترحمني، وأن تعلمني العلم النافع، وأن تفقهني في الدين، وأن تغنيني عن خلقك، وما أشبه ذلك، اللهم إني أسألك: لأنك الرحمن الرحيم، ولأنك العزيز الحكيم أن تغفر لي وترحمني، اللهم إني أسألك برحمتك وفضلك وإحسانك، أن تغفر لي وترحمني، اللهم إني أسألك لأنك الجواد الكريم، ولأنك العفو الغفور، إلى غير هذا من الأدعية مثل ما في الحديث الصحيح؛ فالنبي ﷺ قال

للصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال الصديق: «يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي وفي بيتي؟ قال: "قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم». هكذا علم الصديق، رواه الشيخان في الصحيحين، وكان النبي ﷺ يدعو ربه، يقول: «اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره». ويدعو الله بأسمائه سبحانه وتعالى وصفاته، فلا ينبغي لأحد أن يدعو الله بغير ما شرع، لا بجاه فلان ولا بحق فلان؛ لا بحق الأنبياء والصالحين، ولا بجاه الأنبياء والصالحين، ولا بأس أن تتوسل بالإيمان، تقول: اللهم إني أسألك بإيماني بك وبنبيك محمد ﷺ أن تغفر لي، أو تعطيني كذا وكذا؛ اللهم إني أسألك بمحبتي لك، ومحبة نبيك وعبادك الصالحين أن تغفر لي وترحمني، لا بأس. التوسل بالإيمان والمحبة لله ولرسوله أو بالتوحيد، أو تقول: اللهم إني أسألك، بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، كما فعله النبي ﷺ تقول: اللهم إني أسأل بتوحيدي لك وإيماني بك، وهكذا بالأعمال الصالحة الأخرى، تقول: اللهم إني أسألك ببري لوالدي، وبأدائي الأمانة، وبعفتي عما حرم الله، تسأل بأعمالك الطيبة، كله طيب. أما أن تسأله بجاه فلان، ليس عملك هذا، حق فلان ليس عملك، ولا هو من أسماء الله وصفاته، فلا تسأل به.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إن ثلاثة ممن قبلنا آواهم مبيت ومطر إلى غار، فدخلوا فيه، من أجل المبيت والوقاية من المطر، فأراد الله جل وعلا أن أنزل عليهم صخرة، انحدرت عليهم بإذن الله، فغطت عليهم باب الغار، عظيمة ما استطاعوا دفعها؛ فقالوا فيما بينهم لن ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم»؛ الله جل وعلا قدر سقوط هذا الحجر على

الغار، ليتوسلوا بهذه الوسائل وليعلم الناس فضل البر وفضل العفة عن الفواحش وفضل أداء الأمانة حتى يتأسوا بهؤلاء، ويستفيدوا من عمل هؤلاء، هذه نعمة من الله، فضل من الله. والنبي ﷺ خبرنا بهذا، حتى نستفيد من هذه القصة، وأن بر الوالدين والعفة عن الفواحش، وأداء الأمانة من أعظم الأسباب في تفريج الكروب وتيسير الأمور، ومن أعظم الأسباب في النجاة من النار، لأن الكربة يوم القيامة، أعظم من كربة الدنيا، فالإنسان إذا اتقى الله وابتعد عن محارم الله وأدى ما أوجب الله عليه، فهذا من أسباب التفريج في الدنيا والنجاة في الآخرة، كما قال سبحانه: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}، وقال سبحانه: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا}، فأنت يا عبد الله وأنت يا أمة الله تذكرا جميعا في هذه القصة، قصة هؤلاء الثلاثة، واستفيدا من هذه القصة الفائدة العظيمة، وليتيقن كل واحد منا أن بر الوالدين من أعظم القربات ومن أفضل الطاعات، ومن أسباب تفريج الكروب، وتيسير الأمور. وهكذا العفة عما حرم الله، عن الزنى والفواحش من أفضل القربات ومن أعظم أسباب تيسير الأمور، وتفريج الكروب والنجاة من النار. وهكذا أداء الأمانة والعناية بالأمانة، وعدم الخيانة، كل ذلك من أسباب تفريج الكروب وتيسير الأمور ومن أسباب رضا الله سبحانه، وتيسير أمرك وإدخالك الجنة وإنجائك من النار. نسأل الله للجميع التوفيق والهداية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٣١): ما حكم التوسل بجاه الله سبحانه وتعالى؟.

فأجاب: التوسل بجاه الله إلى الله سبحانه وتعالى كأن تقول: أسألك بجاهك العظيم، بعلمك العظيم، برحمتك بإحسانك، بجبروتك بعزتك، كله طيب،

جاهه عظمته سبحانه وتعالى.

فإذا سأل الله بذلك فلا بأس، يقول: اللهم إني أسألك بجاهك العظيم، بعلمك العظيم، بقدرتك بعزتك، أن تغفر لي وأن ترحمني.

أما سؤال الناس بالله، فإن تركه أولى، لا يسأل الناس بالله، لا بجاه الله، لا يقول: أسألك بالله، وبجاهه سبحانه أن تفعل كذا إن ترك هذا أولى وأحوط.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٤١): يوجد حديث عن النبي ﷺ أن الصحابة كانت تتوسل به لنزول الغيث، وعندما مات ﷺ كانت الصحابة تتوسل بالعباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لنزول الغيث، فلماذا لا يجوز لنا التوسل بالنبي ﷺ ليشفع لنا وغير ذلك من الأمور؟.

فأجاب: كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يتوسلون به في حياته، يعني بدعائه وشفاعته، لا بالذات، يتوسلون بدعائه وشفاعته إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فكان يخطب ويدعو ويستغيث، فيغيث الله المسلمين أو يدعو للشخص بدعوات صالحة ينفعه الله بها، وهكذا يوم القيامة يطلب الناس منه الشفاعة فيشفع لهم في الموقف حتى يريحهم الله من هول الموقف ويشفع في أهل الجنة، حتى يدخلوا الجنة، بعدما يتقدم الناس إلى آدم، ثم إلى نوح ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، كلهم يعتذرون كل واحد يقول: اذهبوا إلى غيري لست لها، حتى يقول لهم عيسى وهو الأخير منهم: اذهبوا إلى محمد عليه الصلاة والسلام، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال: فيأتوني يعني يأتيه الناس، يأتيه المؤمنون فيقول: أنا لها أنا لها، عليه الصلاة والسلام، ثم يتقدم إلى ربه فيسجد بين يديه، ويحمده بمحامد عظيمة يفتحها الله عليه، ثم يقول له الرب جل وعلا: ارفع رأسك فقل يسمع واسأل تعط، واشفع تشفع، فبعد الإذن يشفع عليه الصلاة والسلام، في

أهل الموقف حتى يقضى بينهم، ثم يشفع في أهل الجنة حتى يدخلوا الجنة، وفي حياته ﷺ، يطلب منه المسلمون أن يستغيث لهم، أن يدعو لهم، وأن يستشفعوا بدعائه، لا بذاته؛ فلهذا لما توفي ﷺ تركوا ذلك واستسقى عمر بالعباس وقال: عمر رضي الله عنه: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل بعم نبينا فاسقنا.

ولو كان التوسل بذاته جائزا لتوسلوا به بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، ولم يحتاجوا إلى العباس، فلما عدل عمر والصحابة إلى العباس، ليدعو لهم دل على أن التوسل بالدعاء والشفاعة لا بالذوات، فالمسلمون اليوم يتوسلون إلى الله بالدعاء يسألون الله ويدعونه، أن يسقيهم وأن يرحمهم وأن يغفر لهم، لا بذات النبي ﷺ ولا بغير ذات النبي، وإذا رأى المسلمون أن يدعو لهم فلان أو فلان، لما فيه من الصلاح والخير، فقالوا له: تقدم فادع الله لنا، أو وجدوا من أهل بيت النبي ﷺ من هو معروف بالخير والفضل والعلم، وطلبوا منه أن يدعو الله لهم، كله طيب كما فعله عمر مع العباس.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٢/ ١٤٣): طلب الإنسان من شخص أن يدعو له، كأن يقول: ادع لي في سفرك، أو لا تنسنا من الدعاء، أو غير ذلك، هل هذا من التوسل بغير الله، وجهونا في ضوء هذا الدعاء مأجورين؟.

فأجاب: طلب الدعاء من الأخ في الله أو الأخت في الله لا حرج فيه، وليس من التوسل المذموم، النبي ﷺ قال في بعض أيامه لأصحابه: إنه يقدم عليكم شخص من اليمن يقال له أويس القرني كان بارا بأمه، فمن لقيه منكم فليطلب منه أن يستغفر له، ويروى عنه ﷺ أنه قال لعمر لما أراد العمرة: «لا تنسنا من دعائك».

فالمقصود أن كون الإنسان يقول لأخيه: ادع الله لي في سفرك، أو في سفري، ادع الله لي بأن يرزقني الولد الصالح، أو الزوجة الصالحة، أو تقول له أخته أو أمه أو غيرهم ادع الله لي، كل هذا لا بأس به، المقصود أن الإنسان إذا طلب من أخيه أو من أخته في الله الدعاء لا حرج.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٤٦): رجل يقول أحيانا في بعض دعواته: اللهم بشرف الرسول اشفني، ويسر أموري بجاه محمد ﷺ فأخبرته أن هذا لا يجوز، وأن الدعاء يكون لله عَزَّوَجَلَّ، بعظمته ومقدرته وبجاهه، وإذا أردت أن تقول بدلا من هذا، فافعل وقل: اللهم شفع في نبيك محمدا ﷺ هل ما قلت للرجل صحيح؟ وما حكم الدعاء بشرف وجاه الرسول ﷺ؟ وماذا أفعل إذا كنت مخطئا في قولي؟ هذا وجهوني جزاكم الله خيرا.

فأجاب: كلامك طيب، وأنت مصيب فيما فعلت، فلا يشرع التوسل بشرف الرسول ﷺ، ولا بحق الرسول ولا بجاهه، ولا بجاه فلان ولا بحق الأنبياء، ولا بشرف الأنبياء لأن الله تعالى ما شرع ذلك، وإنما شرع لنا التوسل بأسمائه، وصفاته، وبالأعمال الصالحات، هذا الوسيلة في الدعاء، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وشرع لنا التوسل بصفاته، فعند السؤال تقول: اللهم إني أسألك برحمتك، وبجودك وكرمك أن تغفر لي، وبعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق، أن تغفر لي وأن ترحمني، أو تتوسل بأعمالك الصالحة، بتوبتك إليه، وإيمانك به، سبحانه وتوحيدك له، ومحبتك له، أو بطاعتك للرسول ﷺ، ومحبتك للرسول ﷺ، أو بأدائك الصلاة لله وحده، وما أشبه ذلك من الأعمال الصالحات، أما التوسل بجاه فلان أو شرف فلان، أو حق فلان، هذا لا يجوز على الصحيح الذي عليه جمهور أهل العلم، والأصل في هذا قوله

سبحانه: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} وهكذا ما صح عن رسول الله من تعليم الناس التوسل إلى الله بصفاته وأسمائه، ومن الأعمال الصالحات، وقد وقع لثلاثة في غار انسد عليهم الغار، بصخرة عظيمة لم يستطيعوا دفعها، فقالوا فيما بينهم: إنه لا يخلصكم من هذه المصيبة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فدعوا الله وسألوه بصالح أعمالهم، ففرج الله عنهم، وأزاح عنهم الصخرة، أحدهم توسل ببره لوالديه، والثاني توسل بعفته عن الزنا، والثالث توسل بأدائه الأمانة ففرج الله عنهم سبحانه وتعالى، فهذه الوسيلة الشرعية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٤٧): ما حكم التوسل بجاه النبي ﷺ وببركة رمضان؟.

فأجاب: التوسل بجاه النبي ﷺ بدعة، إذا توسل يقول: اللهم إني أسألك بإيماني بنبيك، بمحبتي له، هذا طيب، هذه وسيلة شرعية، اللهم إني أسألك باتباعي نبيك ﷺ، بمتابعته للنبي ﷺ، بإيمانه بالنبي، هذا كله طيب، كله وسيلة شرعية، أما بجاه نبيك أو بحق نبيك هذا ليس بوسيلة شرعية.

أما التوسل ببركة رمضان فلا، لا يتوسل بذلك، يتوسل بصيامه لرمضان، هذا بالعمل، أما بركة رمضان ما هو بعمل له، بركة رمضان شيء جعله الله في رمضان، لكن يقول: اللهم إني أسألك بصيامي وبقيامي أن تغفر لي، أو بحجي لبيتك، أو بطاعتي لك، أو باتباعي لشريعتك، يتوسل بأعماله الطيبة هو.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٤٨): هل يجوز الدعاء بجاه الرسول محمد ﷺ أو بجاه القرآن أو بجاه الإنجيل، والتوراة، أو بجاه رمضان، أو بجاه الصالحين من الناس؟.

فأجاب: ليس للمسلم أن يدعو متوسلا بجاه فلان، أو حق فلان كجاه

الأنبياء أو جاه الصالحين، أو جاه النبي محمد ﷺ، أو جاه جبرائيل أو حق فلان، ليس هذا بمشروع عند جمهور أهل العلم، بل هو من البدع ومن وسائل الشرك، أما التوسل بالقرآن الكريم، أن يقول: أسألك يا ربي بكلامك، أو بكتابك العزيز، فلا بأس، أو أسألك بكلامك المنزل على موسى وعلى عيسى، فلا بأس، لكن التوسل بأسماء الله وصفاته أكمل، مثل: أسألك بأسمائك يا ربي بصفاتك، والقرآن من كلامه والتوراة من كلامه والإنجيل من كلامه المنزل، لا المحرف الكلام المنزل على موسى من كلام الله، والكلام المنزل على عيسى من كلام الله، فإذا توسل المؤمن بكلام الله المنزل على أنبيائه فلا بأس، أو بالقرآن نفسه فلا بأس، لأنه من صفاته سبحانه وتعالى، وإذا قال أسألك بأسمائك الحسنى، أو بصفاتك العلا مجملا فهذا كله طيب، وكلها وسائل شرعية كما قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} وهكذا التوسل بالإيمان بالله ورسوله، ومحبة الله ورسوله، والتوسل بأعمالك الصالحة، كالتوسل ببرك لوالديك، وبعفتك عما حرم الله، وبأدائك الأمانة التي عليك، فالتوسل بالأعمال الصالحة لا بأس به.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٥٦): هل تجوز الاستغاثة بالرسول ﷺ؟.

فأجاب: أما في حياته فيما يقدر عليه، فلا بأس، كأن يقال يا رسول الله أغثنا من هذا الأمير، الذي ظلمنا، أو من هذا الشخص الذي ظلمنا، فالرسول يستطيع بأن يأمر بعض الصحابة، أن يزيل الشر وأن يغيثه من ذلك، أما بعد الوفاة فلا. لا يستغاث بأحد، لا الرسول ولا غيره، بعد الوفاة لا يستغاث بالأموات، لا الرسول ولا غيره عليه الصلاة والسلام، ومن باب الجواز قوله سبحانه:

{فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ} استغاث الإسرائيلي بموسى على القبطي، لأن موسى حي يسمع كلامه ويستطيع إغاثته، ومن هذا استغاثة الإنسان بإخوانه في الحرب، في قتال الأعداء، هذا لا بأس به.

أما طلب الأموات، والاستغاثة بالأموات أو بالأصنام، أو بالجمادات أو بالأشجار والأحجار أو بالنجوم، هذا كفر بالله شرك أكبر. وهكذا الاستغاثة بالحي، فيما لا يقدر عليه، كأن يستغيث به في أن يصلح قلبه، بأمر سري في نفسه يرى أن له سرا، أو بأن ينقذه من النار... لسر فيه، أو يدخله الجنة لسر فيه، هذا كفر بالله. أما إذا قال: أعني على أسباب دخول الجنة، يعلمه ويتفقه في الدين، أو على إصلاح قلبي، بالتذكير والوعظ والتوجيه إلى الخير، هذا أمر مطلوب، يعظه ويذكره وينصحه، أما أن يعتقد أن هذا الولي، وإن كان حيا يعتقد أنه يستطيع إدخال الجنة، وإنجاء الناس من النار، وشفاء المرضى بسره بشيء فيه، هذا كفر بالله، نعوذ بالله.

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٣٣٥): عن حكم التوسل.

فأجاب: هذا سؤال مهم، فنحب أن نبسط الجواب فيه؛ فأقول:

التوسل: مصدر توسل يتوسل؛ أي اتخذ وسيلة توصله إلى مقصوده، فأصله طلب الوصول إلى الغاية المقصودة.

وينقسم التوسل إلى قسمين

القسم الأول: قسم صحيح، وهو التوسل بالوسيلة الصحيحة الموصلة إلى المطلوب؛ وهو على أنواع نذكر منها:

النوع الأول: التوسل بأسماء الله تعالى وذلك على وجهين:

الوجه الأول: أن يكون ذلك على سبيل العموم، ومثاله ما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في دعاء الهم والغم قال: «اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي» ... "إلخ؛ فهنا توسل بأسماء الله -تعالى - على سبيل العموم " «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك» .

الوجه الثاني: أن يكون ذلك على سبيل الخصوص بأن يتوسل الإنسان باسم خاص لحاجة خاصة تناسب هذا الاسم، مثل ما جاء في حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث طلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاءً يدعو به في صلاته، فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» فطلب المغفرة والرحمة وتوسل إلى الله تعالى باسمين من أسمائه مناسبين للمطلوب وهما "الغفور" و"الرحيم".

وهذا النوع من التوسل داخل في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} فإن الدعاء هنا يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بصفاته

وهو أيضًا كالتوسل بأسمائه على وجهين:

الوجه الأول: أن يكون عامًّا كأن تقول: "اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا" ثم تذكر مطلوبك.

الوجه الثاني: أن يكون خاصًّا، كأن تتوسل إلى الله تعالى بصفة معينة خاصة لمطلوب خاص، مثل ما جاء في الحديث «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على

الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرًا لي» فهنا توسل لله تعالى بصفة "العلم" و"القدرة" وهما مناسبتان للمطلوب.

ومن ذلك أن يتوسل بصفة فعلية مثل: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» .

النوع الثالث: أن يتوسل الإنسان إلى الله ٥ بالإيمان به، وبرسوله ﷺ

فيقول:"اللهم إني آمنت بك، وبرسولك فاغفر لي أو وفقني"، أو يقول: "اللهم بإيماني بك وبرسولك أسألك كذا وكذا"، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ} إلى قوله: {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} فتوسلوا إلى الله تعالى بالإيمان به أن يغفر لهم الذنوب، ويكفر عنهم السيئات، ويتوفاهم مع الأبرار.

النوع الرابع: أن يتوسل إلى الله سبحانه وتعالى بالعمل الصالح

ومنه قصة النفر الثلاثة الذين أووا إلى غار ليبيتوا فيه، فانطبق عليهم الغار بصخرة لا يستطيعون زحزحتها، فتوسل كل منهم إلى الله بعمل صالح فعله؛ فأحدهم توسل إلى الله تعالى ببره بوالديه؛ والثاني بعفته التامة؛ والثالث بوفائه لأجيره، قال كل منهم «اللهم إن كنت فعلت ذلك من أجلك فافرج عنا ما نحن فيه» فانفرجت الصخرة، فهذا توسل إلى الله بالعمل الصالح.

النوع الخامس: أن يتوسل إلى الله تعالى بذكر حاله

يعني أن الداعي يتوسل إلى الله تعالى بذكر حاله وما هو عليه من الحاجة، ومنه قول موسى عليه الصلاة والسلام: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}

يتوسل إلى الله تعالى بذكر حاله أن ينزل إليه الخير. ويقرب من ذلك قول زكريا -عليه الصلاة والسلام-: {رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا} فهذه أنواع من التوسل كلها جائزة؛ لأنها أسباب صالحة لحصول المقصود بالتوسل بها.

النوع السادس: التوسل إلى الله ٥ بدعاء الرجل الصالح الذي ترجى إجابته

فإن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يسألون النبي ﷺ أن يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ لهم بدعاءٍ عام، ودعاءٍ خاص؛ ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن رجلًا دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا، فرفع النبي ﷺ يديه وقال: "اللهم أغثنا" ثلاث مرات، فما نزل من منبره إلا والمطر يتحادر من لحيته، وبقي المطر أسبوعًا كاملًا، وفي الجمعة الأخرى جاء ذلك الرجل أو غيره والنبي ﷺ يخطب فقال: يا رسول الله، غرق المال، وتهدم البناء فادع الله أن يمسكها عنا، فرفع النبي ﷺ يديه وقال: "اللهم حوالينا ولا علينا" فما يشير إلى ناحية من السماء إلا انفرجت، حتى خرج الناس يمشون في الشمس». وهناك عدة وقائع سأل الصحابة النبي ﷺ أن يدعو لهم على وجه الخصوص ومن ذلك «أن النبي ﷺ ذكر أن في أمته سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب وهم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشة بن محصن وقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال: "أنت منهم» فهذا أيضًا من التوسل الجائز وهو أن يطلب الإنسان من شخص ترجى إجابته أن يدعو الله تعالى له؛ إلا أن الذي ينبغي أن يكون السائل يريد بذلك نفع نفسه، ونفع أخيه الذي طلب منه الدعاء، حتى لا يتمحض السؤال لنفسه خاصة؛ لأنك إذا أردت نفع أخيك

ونفع نفسك صار في هذا إحسان إليه؛ فإن الإنسان إذا دعا لأخيه في ظهر الغيب قال الملك: "آمين ولك بمثل " وهو كذلك يكون من المحسنين بهذا الدعاء والله يحب المحسنين.

القسم الثاني: التوسل غير الصحيح

وهو: أن يتوسل الإنسان إلى الله تعالى بما ليس بوسيلة؛ أي بما لم يثبت في الشرع أنه وسيلة؛ لأن التوسل بمثل ذلك من اللغو، والباطل المخالف للمعقول والمنقول؛ ومن ذلك أن يتوسل الإنسان إلى الله تعالى بدعاء ميت يطلب من هذا الميت أن يدعو الله له؛ لأن هذا ليس وسيلة شرعية صحيحة؛ بل من سفه الإنسان أن يطلب من الميت أن يدعو الله له؛ لأن الميت إذا مات انقطع عمله، ولا يمكن لأحد أن يدعو لأحد بعد موته، حتى النبي ﷺ لا يمكن أن يدعو لأحد بعد موته؛ ولهذا لم يتوسل الصحابة رضي الله عنهم إلى الله بطلب الدعاء من رسوله ﷺ بعد موته؛ فإن الناس لما أصابهم الجدب في عهد عمر رضي الله عنه قال: "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا " فقام العباس رضي الله عنه فدعا الله تعالى. ولو كان طلب الدعاء من الميت سائغًا، ووسيلة صحيحة لكان عمر ومن معه من الصحابة يطلبون ذلك من رسول الله ﷺ؛ لأن إجابة دعائه ﷺ أقرب من إجابة دعاء العباس رضي الله عنه فالمهم أن التوسل إلى الله تعالى بطلب الدعاء من ميت توسل باطل لا يحل، ولا يجوز.

ومن التوسل الذي ليس بصحيح: أن يتوسل الإنسان بجاه النبي ﷺ وذلك أن جاه الرسول ﷺ ليس مفيدًا بالنسبة إلى الداعي؛ لأنه لا يفيد إلا الرسول ﷺ أما بالنسبة للداعي فليس بمفيد حتى يتوسل إلى الله به، وقد تقدم أن التوسل اتخاذ الوسيلة الصالحة التي تثمر. فما فائدتك أنت من كون الرسول ﷺ له جاه

عند الله؟! وإذا أردت أن تتوسل إلى الله على وجه صحيح فقل: اللهم بإيماني بك وبرسولك، أو بمحبتي لرسولك، وما أشبه ذلك؛ فإن هذا الوسيلة الصحيحة النافعة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٣٤٦): عن التوسل هل هو من مسائل العقيدة؟ وعن حكم التوسل بالصالحين؟.

فأجاب: التوسل داخل في العقيدة، لأن المتوسل يعتقد أن لهذه الوسيلة تأثيرًا في حصول مطلوبه، ودفع مكروهه؛ فهو في الحقيقة من مسائل العقيدة؛ لأن الإنسان لا يتوسل بشيء إلا وهو يعتقد أن له تأثيرًا فيما يريد.

والتوسل بالصالحين ينقسم إلى قسمين

القسم الأول: التوسل بدعائهم فهذا لا بأس به؛ فقد كان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يتوسلون برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بدعائه: يدعو الله لهم فينتفعون بذلك؛ واستسقى عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ "العباس بن عبد المطلب" بدعائه.

وأما القسم الثاني: فهو التوسل بذواتهم: فهذا ليس بشرعي؛ بل هو من البدع من وجه، ونوع من الشرك من وجه آخر.

فهو من البدع؛ لأنه لم يكن معروفًا في عهد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأصحابه.

وهو من الشرك لأن كل من اعتقد في أمر من الأمور أنه سبب ولم يكن سببًا شرعيًا فإنه قد أتى نوعًا من أنواع الشرك؛ وعلى هذا لا يجوز التوسل بذات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مثل أن يقول: أسألك بنبيك محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلا على تقدير أنه يتوسل إلى الله تعالى بالإيمان بالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومحبته فإن ذلك من دين الله الذي ينتفع به العبد، وأما ذات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فليست وسيلة ينتفع بها العبد؛ وكذلك على القول الراجح لا يجوز التوسل بجاه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأن جاه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إنما ينتفع به النبي

ﷺ نفسه؛ ولا ينتفع به غيره؛ وإذا كان الإنسان يتوسل بجاه النبي ﷺ باعتقاد أن للنبي ﷺ جاهًا عند الله فليقل: اللهم إني أسألك أن تشفع بي نبيك محمدًا ﷺ، وما أشبه ذلك من الكلمات التي يدعو بها الله عز وجل.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٢/ ٣٤٨): هل يجوز التوسل بجاه النبي، ﷺ،؟.

فأجاب: التوسل بجاه النبي ﷺ ليس بجائز على الراجح من قول أهل العلم؛ فيحرم التوسل بجاه النبي ﷺ؛ فلا يقول: الإنسان: اللهم إني أسألك بجاه نبيك كذا، وكذا؛ وذلك لأن الوسيلة لا تكون وسيلة إلا إذا كان لها أثر في حصول المقصود؛ وجاه النبي ﷺ بالنسبة للداعي ليس له أثر في حصول المقصود؛ وإذا لم يكن له أثر لم يكن سببًا صحيحًا؛ والله عز وجل لا يدعى إلا بما يكون سببًا صحيحًا له أثر في حصول المطلوب؛ فجاه النبي ﷺ هو مما يختص به النبي ﷺ وحده؛ وهو مما يكون منقبة له وحده؛ أما نحن فلسنا ننتفع بذلك؛ وإنما ننتفع بالإيمان بالرسول ﷺ ومحبته؛ وما أيسر الأمر على الداعي إذا قال: "اللهم إني أسألك بإيماني بك، وبرسولك كذا، وكذا" بدلًا من أن يقول: أسألك بجاه نبيك. ومن نعمة الله عز وجل ورحمته بنا أنه لا ينسد باب من الأبواب المحظورة إلا وأمام الإنسان أبواب كثيرة من الأبواب المباحة. والحمد لله رب العالمين.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٢/ ٣٤٨): عن هذا الحديث: أن أعمى أتى إلى رسول الله، ﷺ، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يكشف عن بصري قال: "أو أدعك"، قال: يا رسول الله إنه قد شق عليّ ذهاب بصري، فقال: فانطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل: "اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد،

ﷺ، نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي حاجتي" ما صحة هذا وما معناه؟.

فأجاب: هذا الحديث اختلف أهل العلم في صحته فمنهم من قال: إنه ضعيف، ومنهم من قال: إنه حسن، ولكن له وجهة ليست كما يتبادر من اللفظ، فإن هذا الحديث معناه أن النبي ﷺ أمر هذا الرجل الأعمى أن يتوضأ، ويصلي ركعتين ليكون صادقًا في طلب شفاعة النبي ﷺ له، وليكون وضوؤه، وصلاته عنوانًا على رغبته في التوسل بالنبي - ﷺ- والتوجه به إلى الله -سبحانه وتعالى-؛ فإذا صدقت النية، وصحت، وقويت العزيمة فإن النبي ﷺ يشفع له إلى الله ﷻ؛ وذلك بأن يدعو النبي ﷺ له. فإن الدعاء نوع من الشفاعة كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من «رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه». فيكون معنى هذا الحديث أن هذا الأعمى يطلب من النبي ﷺ أن يدعو الله له؛ لأن هذا الدعاء نوع شفاعة.

أما الآن وبعد موت النبي ﷺ فإن مثل هذه الحال لا يمكن أن تكون لتعذر دعاء النبي ﷺ لأحد بعد الموت، كما قال النبي ﷺ: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» والدعاء بلا شك من الأعمال التي تنقطع بالموت؛ بل الدعاء عبادة كما قال الله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} ولهذا لم يلجأ الصحابة رضي الله عنهم عند الشدائد وعند الحاجة إلى سؤال النبي ﷺ أن يدعو الله لهم؛ بل قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قحط المطر: "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم

نبينا فاسقنا فيسقون " وطلب من العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ بالسقيا فدعا فسقوا. وهذا يدل على أنه لا يمكن أن يطلب من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته أن يدعو لأحد؛ لأن ذلك متعذر لانقطاع عمله بموته صلوات الله وسلامه عليه؛ وإذا كان لا يمكن لأحد أن يطلب من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو له بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه لا يمكن -ومن باب أولى- أن يدعو أحد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه بشيء من حاجاته أو مصالحه؛ فإن هذا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ والذي حرم الله على من اتصف به الجنة: قال الله تعالى: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ} وقال تعالى: {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ}؛ وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}؛ وقال - تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}. فالمهم أن من دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وفاته أو غيره من الأموات لدفع ضرر أو جلب منفعة فهو مشرك شركًا أكبر مخرجًا عن الملة، وعليه أن يتوب إلى الله -سبحانه وتعالى-، وأن يوجه الدعاء إلى العلي الكبير الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء؛ وإني لأعجب من قوم يذهبون إلى قبر فلان وفلان يدعونه أن يفرج عنهم الكربات ويجلب لهم الخيرات، وهم يعلمون أن هذا الرجل كان في حال حياته لا يملك ذلك فكيف بعد موته بعد أن كان جثة، وربما يكون رميمًا قد أكلته الأرض، فيذهبون يدعونه، ويتركون دعاء الله عَزَّ وَجَلَّ الذي هو كاشف الضر، وجالب النفع، والخير، مع أن الله تعالى أمرهم بذلك وحثهم عليه فقال: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}. وقال -الله تعالى-: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}. وقال تعالى منكرًا على

من دعا غيره: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ﴾. أسأل الله تعالى أن يهدينا جميعًا صراطه المستقيم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٣٥١): عن حديث: أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب وقال: "اللهم إنا كنا نستسقي إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، فيسقون " هل هو صحيح؟ وهل يدل على جواز التوسل بجاه الأولياء؟.

فأجاب: هذا الحديث الذي أشار إليه السائل حديث صحيح رواه البخاري، لكن من تأمله وجد أنه دليل على عدم التوسل بجاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو غيره؛ وذلك أن التوسل هو اتخاذ وسيلة؛ والوسيلة هي الشيء الموصل إلى المقصود؛ والوسيلة المذكورة في هذا الحديث " نتوسل إليك بنبينا فتسقينا؛ وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا " المراد بها التوسل إلى الله تعالى بدعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال الرجل: «يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا»؛ ولأن عمر قال للعباس: قم يا عباس فادع الله فدعا، ولو كان هذا من باب التوسل بالجاه لكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتوسل بجاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يتوسل بالعباس؛ لأن جاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم عند الله من جاه العباس، وغيره؛ فلو كان هذا الحديث من باب التوسل بالجاه لكان الأجدر بأمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يتوسل بجاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون جاه العباس بن عبد المطلب.

والحاصل أن التوسل إلى الله تعالى بدعاء من ترجى فيه إجابة الدعاء لصلاحه لا بأس به؛ فقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتوسلون إلى الله تعالى بدعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم؛ وكذلك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ توسل بدعاء العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلا بأس إذا رأيت رجلًا صالحًا حريًا بالإجابة لكون طعامه وشرابه وملبسه ومسكنه

حلالًا وكونه معروفًا بالعبادة والتقوى، لا بأس أن تسأله أن يدعو الله لك بما تحب، بشرط أن لا يحصل في ذلك غرور لهذا الشخص الذي طلب منه الدعاء، فإن حصل منه غرور بذلك فإنه لا يحل لك أن تقتله وتهلكه بهذا الطلب منه؛ لأن ذلك يضره.

كما أنني أيضًا أقول: إن هذا جائز؛ ولكنني لا أحبذه، وأرى أن الإنسان يسأل الله تعالى بنفسه دون أن يجعل له واسطة بينه وبين الله، وأن ذلك أقوى في الرجاء، وأقرب إلى الخشية، كما أنني أيضًا أرغب من الإنسان إذا طلب من أخيه الذي ترجى إجابة دعائه أن يدعو له، أن ينوي بذلك الإحسان إليه -أي إلى هذا الداعي- دون دفع حاجة هذا المدعو له؛ لأنه إذا طلبه من أجل دفع حاجته صار كسؤال المال وشبه المذموم، أما إذا قصد بذلك نفع أخيه الداعي بالإحسان إليه، والإحسان إلى المسلم يثاب عليه المرء كما هو معروف كان هذا أولى وأحسن. والله ولي التوفيق.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٣٥٢): عن حكم هذا الدعاء: "اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك" هل للسائلين حق على الله؟.

فأجاب: يجب علينا أولًا أن نعلم أن التوسل إلى الله تعالى قسمان: قسم جائز: وهو ما جاء به الشرع.

قسم ممنوع: وهو ما منعه الشرع

والجائز أنواع: ونعني بالجائز هنا ما ليس بممنوع فلا يمنع أن يكون مستحبًا.

أولًا: التوسل إلى الله بأسمائه؛ وهذا جائز؛ ودليله قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}، وكذلك قوله ﷺ: «أسألك بكل اسم هو لك

سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك» إلى آخر الحديث.

ثانيًا: التوسل إلى الله بصفاته ومنه ما جاء في الحديث: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني ما علمت الوفاة خيرًا لي» فإن علم الله الغيب صفة، وقدرته على الخلق صفة، وهذا التوسل إلى الله تعالى بعلمه، وقدرته.

ثالثًا: التوسل إلى الله تعالى بأفعاله: أن تدعو الله بشيء ثم تتوسل إليه في تحقيق هذا الشيء بفعل نظيره؛ ومنه حديث الصلاة على النبي ﷺ: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم». فإن صلاة الله على إبراهيم وعلى آل إبراهيم من أفعاله.

وكذلك أيضًا تقول: "اللهم كما أنزلت علينا المطر فاجعله غيثًا نافعًا " فهنا توسل إلى الله بإنزال المطر؛ وهو فعل من أفعال الله.

رابعًا: التوسل إلى الله بالإيمان؛ ومنه قوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا} ثم قال: {فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ}

خامسًا: التوسل إلى الله بالعمل الصالح: ومنه حديث الثلاثة الذين خرجوا في سفر فآواهم الليل إلى غار، فدخلوه ثم انحدرت عليهم صخرة من الجبل فسدت الباب، فتوسل كل واحد منهم بصالح عمله، فانفرجت الصخرة.

سادسًا: التوسل إلى الله بدعاء من ترجى إجابته: يعني أن تطلب من شخص ترجى إجابته أن يدعو الله لك؛ وهذا كثير؛ ومنه ما ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن النبي ﷺ كان يخطب الناس يوم الجمعة، فدخل رجل فقال:

يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل -يعني من قلة المطر والنبات- فادع الله أن يغيثنا فرفع النبي ﷺ يديه، وقال: "اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا" فما نزل من منبره إلا والمطر يتحادر من لحيته».

وقولنا: التوسل إلى الله بدعاء من ترجى إجابته هذا من النوع الجائز ولكنه هل هو من الأمر المشروع يعني هل يشرع لك أن تقول لشخص ما: ادع الله لي؟

نقول: في هذا تفصيل:

إن كان لأمر عام يعني طلبت من هذا الرجل أن يشفع لك في أمر عام لك ولغيرك فلا بأس به، ومنه الحديث الذي أشرت إليه في قصة الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ فقال: «هلكت الأموال وانقطعت السبل» فإن هذا الرجل لم يسأل شيئًا لنفسه؛ وإنما سأل شيئًا لعموم المسلمين.

أما إذا كان لغير عامة المسلمين فالأولى ألا تسأل أحدًا يدعو لك إلا إذا كنت تقصد من وراء ذلك أن ينتفع الداعي.

فتأتي لشخص وتقول: ادع الله لي؛ هذا لا بأس به بشرط ألا تقصد به إذلال نفسك بالسؤال؛ ولكن قصدك نفع الداعي؛ لأنه إذا دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك: «آمين ولك بمثله»؛ فهذه أنواع ستة كلها جائزة.

أما التوسل الممنوع فهو: أن يتوسل الإنسان بالمخلوق؛ فإن هذا لا يجوز؛ فالتوسل بالمخلوق حرام؛ يعني لا بدعائه ولكن بذاته، مثل أن تقول: "اللهم إني أسألك بمحمد ﷺ كذا وكذا" فإن هذا لا يجوز.

وكذلك لو سألت بجاه الرسول ﷺ فإنه لا يجوز؛ لأن هذا السبب لم يجعله الله، ولا رسوله سببًا.

وأما ما جاء في السؤال "أسألك بحق السائلين عليك" فالسائل يسأل هل

للسائلين حق؟

الجواب: نعم للسائلين حق أوجبه الله على نفسه في قوله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} . وكذلك فإن الله يقول إذا نزل إلى السماء الدنيا: «من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه» فهذا حق السائلين، وهو من فعل الله ﷻ والتوسل إلى الله بفعله لا بأس به.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في فتاوى نور على الدرب: هل التوسل إلى الله بالأنبياء والمرسلين والصالحين جائز؟ نرجو أن توضحوا لنا ذلك يا فضيلة الشيخ مع الدليل الواضح؟.

فأجاب: التوسل إلى الله سبحانه وتعالى هو أن يذكر ما يوصله إلى مقصوده، فإن ذكر ما لا أثر له في ذلك متوسلًا به إلى الله فإن هذا التوسل بدعة. وبناءً على هذا نقول: التوسل بالأنبياء إن كان المراد التوسل باتباعهم ومحبتهم والإيمان بهم فهذا لا بأس به وهو أمر مشروع، ولكنه لا ينبغي للمتوسل أن يقول: أتوسل إليك بنبيك أو بأنبيائك أو ما أشبه ذلك، بل يقول: أتوسل إليك بمحبة أنبيائك واتباع نبيك محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فلا يحذف المضاف بل يذكره؛ لأنه إذا قال: أتوسل إليك بأنبيائك فقد يظن الظان أنه توسل بدعي، والتوسل البدعي هو يتوسل بذوات الأنبياء فيقول: أسألك بنبيك أسألك بأنبيائك أسألك بجاه نبيك أسألك بجاه أنبيائك وما أشبه ذلك، فإن هذا التوسل بدعي، وذلك لأن هذا التوسل لا يوصل إلى المقصود، إذ إن جاه النبي لا ينفعك فلا يصح أن يكون وسيلة لحصول مطلوبك، وجاه الأنبياء إنما يختص بهم فقط. وعلى هذا فمن سمعته يقول: أتوسل إليك بالأنبياء فلا تحكم عليه ببدعة ولا سنة، قل: ماذا تريد؟ إذا قال: أنا أريد أن أتوسل بذات الأنبياء

وأشخاصهم فقل: هذا بدعة، وإذا قال: أريد أن أتوسل إليه بجاه الأنبياء؛ لأن لهم جاهًا عند الله قل: هذا بدعة أيضًا؛ لأن هذا ليس بوسيلة ولا ينفعك. إذا قال: أتوسل إليك بأنبيائك أي بحبي لهم فهذا حق؛ لأن محبة الأنبياء عبادة توصل إلى المقصود وتؤثر في إجابة الدعوة. إذا قال: أتوسل إليك بأنبيائك أي بالإيمان بهم فهذا حقيقة؛ لأنه عبادة، كما قال تعالى: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم ...) إلى آخره. إذا قال: أتوسل إليك باتباع الأنبياء نقول: هنا يجب التوقف؛ لأن الأنبياء السابقين لا يلزم اتباعهم فيما يخالف شرعنا، ولكن قل: أتوسل إليك باتباع نبيك محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فحينئذٍ يكون صحيحًا وإني بهذه المناسبة أود أن أبين أن التوسل منه ممنوع ومنه جائز. فالممنوع: أن يتوسل بما ليس بوسيلة؛ لأن التوسل بما ليس بوسيلة إما بدعة وإما شرك، والتوسل الجائز: أن يتوسل بما هو وسيلة، وهو أنواع: النوع الأول: أن يتوسل إلى الله بأسمائه فيقول: اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى أن تغفر لي، فهذا جائز؛ لقول الله تعالى: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)، ولحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في دعاء الهم والحزن أن يقول: (اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك......) إلى آخره.

الثاني: هو التوسل إلى الله بصفاته، فهذا أيضًا جائز مشروع مثل: (اللهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أن تحييني ما علمت الحياة خيرًا لي، وأن تتوفاني ما علمت أن الوفاة خير لي)، فهذا توسل إلى الله تعالى بصفاته، ومنه قول القائل: يا رحمان برحمتك أستغيث. الثالث: أن يتوسل إلى الله بأفعاله بأفعال الله فتقول: اللهم كما أنعمت علي بالمال فأنعم علي بالعلم، أو تقول: اللهم كما أنعمت علي بالعلم فأنعم علي بالمال الذي يكفيني عن خلقك، ومنه

قول النبي ﷺ: (قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد) فإنه هنا توسل إلى الله بفعله السابق الذي أنعم به على إبراهيم وآل إبراهيم أن يصلى على محمد وعلى آل محمد. الرابع: أن يتوسل إلى الله بالإيمان به، ومن ذلك قول أولي الألباب: (رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ)، فتوسلوا إلى الله تعالى بالإيمان به. الخامس: أن يتوسل إلى الله بالعمل الصالح، ومنه قوله تعالى: (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ). ومنه حديث الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار حين أووا إليه، فانطبقت عليهم صخرة عجزوا عن دفعها، فتوسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة: توسل أحدهم بالبر التام، وتوسل الثاني بالعفة التامة، وتوسل الثالث بالأمانة، ففرج الله عنهم. السادس: أن يتوسل إلى الله سبحانه وتعالى بذكر حاله، وأنه فقير ظالم لنفسه محتاج لربه، ومنه قول موسى عليه الصلاة السلام: (رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ). ومنه قول الداعي: (اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي)، فهذا توسل إلى الله تعالى بحال الداعي. السابع: أن يتوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح، مثل قول الرجل الذي دخل على النبي ﷺ وهو يخطب يوم الجمعة فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا. فرفع النبي ﷺ يديه ودعا، وهذا الرجل سأل النبي ﷺ أن يدعو لنفع عام للمسلمين. وأما سؤال الرجل من يعتقد فيه صلاحًا أن يدعو له هو بنفسه فالأفضل تركه؛ لأن هذا فيه نوع من السؤال الذي يوجب ذل السائل أمام المسؤول، وربما يكون فيه اغترار للمسؤول، حيث يرى نفسه أنه رجل صالح يسأل الدعاء، وفيه أيضًا أن الإنسان قد يتكل على طلبه من هذا

الرجل الصالح أن يدعو له فلا يدعو هو لنفسه. وأما ما يذكر من أن النبي ﷺ قال لعمر بن الخطاب: (لا تنسنا يا أخي من دعائك) فهذا ضعيف، لا يصح عن النبي ﷺ. وأما ما جاء في الحديث من وصية الرسول ﷺ -من أدرك أويسًا القرني أن يطلب منه الدعاء- فهذا خاص به، ولهذا لم يأمر النبي ﷺ أحدًا أن يطلب من صالح من الصحابة أن يدعو له، والصحابة أفضل من أويس القرني كأبي بكر، عمر، عثمان، علي، ابن مسعود، ابن عباس وغيرهم من الصحابة أفضل من أويس بلا شك، ومع ذلك لم يقل النبي عليه الصلاة والسلام لأحد من الناس: من لقي أبا بكر فليطلب منه الدعاء أو نحو ذلك، فهذه أنواع التوسل الجائزة، وينبغي للإنسان إذا توسل بأسماء الله أن يتوسل بها عمومًا مثل: أسألك بكل اسمٍ هو لك، فأما إذا أراد أن يتوسل باسم خاص فليكن هذا الاسم مطابقًا للسؤال، فإذا كان يريد المغفرة فيقول: اللهم يا غفور اغفر لي، أو يقول: اللهم اغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم، حتى تكون الوسيلة مطابقة للمطلوب. ولا يليق إطلاقًا أن يقول قائل: اللهم يا شديد العقاب اغفر لي واعف عني وما أشبه ذلك؛ لما في ذلك من التضاد بين الوسيلة والمطلوب. وقد قال أبو بكر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: علمني دعاء أدعو به في صلاتي؟ فقال: (قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم)، وهذا جمع بين وسائل متعددة: منها ذكر حال الداعي: (اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا)، ومنها: الثناء على الله عز وجل بصفة من صفاته: (ولا يغفر الذنوب إلا أنت)، ومنها: التوسل بالأسماء في قوله: (إنك أنت الغفور الرحيم) .

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق: هل يجوز أن نقول في دعائنا اللهمَ شفِّع

فينا محمدًا ﷺ؟.

فأجاب: أما قول القائل اللهم شفع في رسولك محمدًا ﷺ فإن ذلك لا بأس به ولهذا أمرنا أن نقول خلف الأذان إذا تابعنا المؤذن أمرنا أن نقول اللهم صلِّ على محمد اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد أمرنا أن نقول ذلك لأن من قاله حلت له شفاعة الرسول ﷺ فنحن مأمورون أن نفعل جميع الأسباب التي تكون بها شفاعة رسول الله ﷺ ومن ذلك الدعاء فإن الدعاء من أكبر الأسباب لحصول المقصود كما قال الله تعالى (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) فإذا سألت الله ﷻ أن يجعل نبيه محمدًا ﷺ شافعًا لك فإنه لا حرج في هذا.

(باب ذكر مباحث التبرك)

مسائل في الباب

مسألة: تعريف التبرك

البركة: هي كثرة الخير وثبوته، وهي مأخوذة من البركة بالكسر، والبركة: مجمع الماء، ومجمع الماء يتميز عن مجرى الماء بأمرين:

الكثرة. الثبوت.

والتبرك طلب البركة، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم، مثل القرآن، قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ [ص: ٢٩]، فمن بركته أن من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بذلك أممًا كثيرة من الشرك، ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوفر للإنسان الوقت والجهد، إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.

أن يكون بأمر حسي معلوم، مثل: التعليم، والدعاء، ونحوه، فهذا الرجل يتبرك بعمله ودعوته إلى الخير، فيكون هذا بركة لأننا نلنا منه خيرًا كثيرًا.

وقال أسيد بن حضير: (ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر)[١]، فإن الله يجري على بعض الناس من أمور الخير ما لا يجريه على يد الآخر[٢].

مسألة: التبرك بآثار الرسول ﷺ

لا شك أن آثار رسول الله ﷺ - صفوة خلق الله وأفضل النبيين - أثبت جودًا، وأشهر ذكرًا، وأظهر بركة، فهي أولى بذلك وأحرى.

ولهذا فإن صحابة الرسول ﷺ ورضي الله عنهم تبركوا بذاته عليه الصلاة والسلام، وبآثاره الحسية المنفصلة منه ﷺ في حياته، وأقرهم ﷺ على ذلك ولم ينكر عليهم، ثم إنهم رضي الله عنهم تبركوا ومن بعدهم من سلف هذه الأمة الصالح بآثار الرسول ﷺ بعد وفاته، مما يدل على مشروعية هذا التبرك.

وينبغي أن يعلم أنه لا يصاحب هذا التبرك - من جهة الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح - شيء يعارض أو يناقض توحيد الألوهية أو الربوبية، وأن هذا الفعل ليس من باب الغلو المذموم، وإلا لنبه على ذلك الرسول ﷺ صحابته رضي الله عنهم، كما نهاهم عن بعض الألفاظ الشركية[٣]، وحذرهم من ألفاظ الغلو[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤) ومسلم (٣٦٧).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد للعلامة العثيمين (ص٢٤٥).

(٣) انظر أمثلة هذا في كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ١١٢) (باب قول ما شاء الله وشئت).

(٤) انظر أمثلة هذا في كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ١٤٦) (باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك).

فينظر إذًا إلى هذا على أنه تكريم وتشريف من الخالق سبحانه وتعالى لصفوة خلقه في بدنه، وما ينفصل عنه من آثاره الحسية، حيث وضع تبارك وتعالى في ذلك كله الخير والبركة.

وهذه نماذج مما نقل إلينا نقلًا صحيحًا من الأخبار والآثار عن تبرك جماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم بنبينا محمد ﷺ أثناء حياته، بذاته الكريمة، أو بآثاره الشريفة ﷺ، على النحو التالي:

أ- تبرك الصحابة رضي الله عنهم بأعضاء جسده ﷺ

مما يدل على بركة أعضاء جسده الشريف ﷺ ما روته عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها)[١].

ومما ورد عن تبرك الصحابة رضي الله تعالى عنهم بيده الشريفة ﷺ ما ثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيها، فربما جاءوه في الغداة الباردة، فيغمس يده فيها)[٢].

وما ثبت عن أبي جحيفة رضي الله عنه أنه قال: (خرج رسول الله ﷺ بالهاجرة إلى البطحاء فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين) وفيه (وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم)) قال: (فأخذت بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك)[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).
(٢) أخرجه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٥٥٣).

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يحرصون على تقبيل يده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كما أنهم أيضًا يحرصون على مس أي موضع من جسده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقبيله كلما أمكن ذلك للتبرك وغيره.

ومن هذا ما روى أبو داود في سننه أن أسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بينما هو يحث القوم - وكان فيه مزاح - طعنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خاصرته بعود، فقال: أصبرني، قال: (اصطبر) قال: إن عليك قميصًا وليس علي قميص، فرفع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قميصه فاحتضنه، وأخذ يقبل كشحه، قال: (إنما أردت هذا يا رسول الله)[(١)].

ب- تبركهم بما انفصل منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١- التبرك بشعر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ثبت أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يتبركون بشعر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه قد أقرهم على ذلك، بل إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزعه عليهم.

ففي صحيح مسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى منى، فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنى ونحر، ثم قال للحلاق (خذ) وأشار إلى جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس)[(٢)].

وفي رواية: (فبدأ بالشق الأيمن، فوزعه الشعرة والشعرتين بين الناس، ثم قال بالأيسر فصنع به مثل ذلك، ثم قال: هاهنا أبو طلحة فدفعه إلى أبي

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٢٤)، والطبراني في الكبير (٥٥٦)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٠٢)، والضياء في المختارة (١٤٧١) الحديث صححه الشيخ ناصر في صحيح أبي داود، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٧/ ٥١٢): رجاله ثقات، إلا أن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يدرك أسيد بن حضير.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٠٥).

طلحة)[١].

قال النووي رحمه الله تعالى: (من فوائد الحديث التبرك بشعره ﷺ، وجواز اقتنائه للتبرك)[٢].

وكان الصحابة رضي الله عنهم يحرصون على اقتناء شعره الشريف عليه الصلاة والسلام.

ففي صحيح مسلم أيضًا عن أنس رضي الله عنه قال: (لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل)[٣].

وقد ذكر النووي من أحكام هذا الحديث: تبرك الصحابة بشعر الرسول ﷺ الكريم، وإكرامهم إياه أن يقع منه إلا في يد رجل سبق إليه[٤].

ولعل حرص الصحابة رضي الله عنهم على ذلك في حجة الوداع لإظهار مدى حبهم للنبي ﷺ وتعظيمهم له على مرأى جموع الحجاج.

٢- التبرك بريق النبي ﷺ

في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها هاجرت إلى رسول الله ﷺ وهي حبلى بعبد الله بن الزبير. قالت: (فأتيت المدينة فنزلت بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيت رسول الله ﷺ فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ... ثم حنكه بالتمرة)

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٠٥).
(٢) شرح النووي لصحيح مسلم (٩/ ٥٤).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٢٥).
(٤) شرح النووي لصحيح مسلم (١٥/ ٨٢).

الحديث[١].

وجاء في صحيح البخاري في حديث صلح الحديبية أن عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه قال عن أصحاب النبي ﷺ: (فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده ...)[٢].

قال ابن حجر رحمه الله معلقًا على فعل الصحابة رضي الله عنهم ونحوه في هذه الغزوة مع الرسول ﷺ: (ولعل الصحابة فعلوا ذلك بحضرة عروة، وبالغوا في ذلك،، إشارة منهم إلى الرد على ما خشيه من فرارهم، وكأنهم قالوا بلسان الحال: من يحب إمامه هذه المحبة، ويعظمه هذا التعظيم، كيف يظن به أن يفر عنه ويسلمه لعدوه؟ بل هم أشد اغتباطًا به وبدينه وبنصره من القبائل التي يراعي بعضها بعضًا بمجرد الرحم)[٣].

٣- التبرك بعرق النبي ﷺ

جاء في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه، قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها، فأُتيت فقيل لها: هذا النبي ﷺ نام في بيتك على فراشك، قال: فجاءت وقد عرق، واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش، ففتحت عتيدتها، فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها، ففزع النبي ﷺ فقال: (وما تصنعين يا أم سليم؟ فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، قال: أصبت)[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٩)، ومسلم (٢١٤٦).
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٢،٢٧٣١).
(٣) فتح الباري (٥/ ٣٤١).
(٤) أخرجه مسلم (٢٣٣١).

ج- تبركهم بما لبسه أو لمسه أو فضل منه ﷺ

- التبرك بثياب النبي ﷺ

جاء في صحيح البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: (جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة، فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم: هي شملة، فقال سهل: هي شملة منسوجة، فيها حاشيتها، فقالت: يا رسول الله أكسوك هذه، فأخذها النبي ﷺ محتاجًا إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه، فاكسنيها، فقال: نعم فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجا إليها، ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئًا فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلي أكفن فيها)[١].

وثبت في الصحيحين أن الرسول ﷺ أعطى اللاتي يغسلن ابنته إزاره وقال: (أشعرنها إياه)[٢].

قال النووي رحمه الله تعالى: معنى (أشعرنها إياه) اجعلنه شعارًا لها، وهو الثوب الذي يلي الجسد، سمي شعرًا لأنه يلي شعر الجسد، ثم قال: (والحكمة في إشعارها به تبريكها).

التبرك بمواضع أصابع النبي ﷺ

جاء في صحيح مسلم في حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه (فكان يصنع للنبي ﷺ طعامًا، فإذا جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه، فيتتبع موضع أصابعه)[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٦٠٣٦).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٥٣)، ومسلم (٩٣٩).
(٣) أخرجه مسلم (٢٠٥٣).

التبرك بفضل شرب النبي ﷺ

في الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (أن رسول الله ﷺ أتي بشراب، فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره أشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله، لا أوثر بنصيبي منك أحدًا. قال: فتله رسول الله ﷺ في يده)[١].

التبرك بماء وضوئه ﷺ

جاء في الصحيحين عن أبي جحيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: (خرج علينا رسول الله ﷺ بالهاجرة، فأتي بوضوء فتوضأ، فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسحون به)[٢].

وأما المقصود بفضل وضوئه ﷺ فقد قال ابن حجر رحمه الله تعالى: (كأنهم اقتسموا الماء الذي فضل عنه، ويحتمل أن يكونوا تناولوا ما سال من أعضاء وضوئه ﷺ)[٣]. وجاء في صحيح البخاري في حديث صلح الحديبية أن عروة ابن مسعود الثقفي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال عن أصحاب النبي ﷺ: (وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه)[٤].

بل إن الرسول ﷺ أرشد أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أحيانًا إلى شيء من هذا، وساعدهم عليه.

ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (دعا رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥١) ومسلم (٢٠٣٠).
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٥٣) ومسلم (٥٠٣).
(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (١/ ٢٩٥).
(٤) أخرجه البخاري (٢٧٣١،٢٧٣٢).

بقدح فيه ماء، فغسل يديه ووجهه فيه، ومج فيه، ثم قال: اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما، وأبشرا فأخذا القدح، ففعلا ما أمرهما به رسول الله ﷺ، فنادتهما أم سلمة من وراء الستر: أفضلا لأمكما مما في إنائكما، فأفضلا لها منه طائفة)[(١)].

وفيهما أيضًا عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ وصب علي من وضوئه فعقلت) الحديث[(٢)].

مسألة: التبرك بآثاره ﷺ بعد وفاته

أ- نماذج من تبرك الصحابة بآثار الرسول ﷺ بعد وفاته:

عقد الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه - كتاب فرض الخمس - باب بعنوان: باب ما ذكر من درع النبي ﷺ وعصاه، وسيفه، وقدحه، وخاتمه، وما استعمل الخلفاء بعده من ذلك مما لم يذكر قسمته، ومن شعره، ونعله، وآنيته، مما تبرك أصحابه وغيرهم بعد وفاته[(٣)].

ثم ساق البخاري جملة من أحاديث هذا الباب. ... منها.

عن عيسى بن طهمان قال: (أخرج إلينا أنس نعلين جرداوين، لهما قبالان، فحدثني ثابت البناني بعد عن أنس: أنهما نعلا النبي ﷺ)[(٤)].

وعن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة رضي الله عنها كساء ملبدًا، وقالت: (في هذا نزع روح النبي ﷺ)[(٥)]. وفي رواية أخرى (أخرجت إلينا عائشة إزارًا غليظًا مما

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢٨)، ومسلم (٢٤٩٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٤)، وانظر التبرك أنواعه وأحكامه (ص٢٤٣).
(٣) صحيح البخاري (٤/ ٤٦).
(٤) أخرجه البخاري (٣١٠٧).
(٥) أخرجه البخاري (٣١٠٨).

يصنع باليمن، وكساء من هذه التي يدعونها الملبدة)[١].

وأخرج البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه أيضًا في موضع آخر عن عاصم الأحول قال: (رأيت قدح النبي ﷺ عند أنس بن مالك، وكان قد انصدع، فسلسله بفضة، قال أنس: لقد سقيت رسول الله ﷺ في هذا القدح أكثر من كذا وكذا)[٢].

وجاء في صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أخرجت جبة طيالسة، وقالت: (هذه كانت عند عائشة حتى قبضت، فلما قبضت قبضتها، وكان النبي ﷺ يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها)[٣].

ب- نماذج من تبرك التابعين بآثار الرسول ﷺ بعد وفاته

لم يقتصر التبرك بآثار المصطفى ﷺ بعد وفاته على الصحابة الكرام رضي الله عنهم، بل نقل عن بعض التابعين أيضًا رحمهم الله تعالى ما يدل على وقوع هذا التبرك المشروع.

وسأورد الآن نماذج مما صح نقله في هذا الباب عن جمع من التابعين رحمهم الله تعالى.

فمن ذلك حرصهم على اقتناء شعر الرسول ﷺ، المحفوظ عند بعض الصحابة رضي الله عنهم للتبرك به.

ففي صحيح البخاري رحمه الله تعالى عن ابن سيرين رحمه الله تعالى أنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٠٨)، ومسلم (٢٠٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٠٨)، ومسلم (٢٠٨٠).

(٣) أخرجه ومسلم (٢٠٦٩).

قال: قلت لعبيدة: (عندنا من شعر النبي ﷺ، أصبناه من قبل أنس، أو من قبل أهل أنس) فقال: (لأن تكون عندي شعرة منه أحب إلي من الدنيا وما فيها)[(١)].

وكانوا يتبركون بالشعرات الكريمة عند إصابتهم بالعين ونحوها.

ففي صحيح البخاري عن عثمان بن عبد الله بن موهب رضي الله عنه قال: (أرسلني أهلي إلى أم سلمة -زوج النبي ﷺ- بقدح من ماء ... فيه شعر من شعر النبي ﷺ، وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث إليها مخضبة ...)[(٢)].

قال ابن حجر رحمه الله: (والمراد أنه كان من اشتكى أرسل إناء إلى أم سلمة، فتجعل فيه تلك الشعرات وتغسلها فيه، وتعيده، فيشربه صاحب الإناء، أو يغتسل به استشفاء بها فتحصل له بركتها)[(٣)].

كما كان التابعون رحمهم الله تعالى يتبركون بالشرب في قدح النبي ﷺ.

فقد عقد الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه - كتاب الأشربة - بابًا بعنوان (باب الشرب من قدح النبي ﷺ وآنيته) ثم ذكر هذا القول تعليقًا: وقال أبو بردة: قال لي عبد الله بن سلام: (ألا أسقيك في قدح شرب النبي ﷺ فيه؟)[(٤)]. ثم روى البخاري في هذا الباب حديثين فقط.

وسأذكر أحدهما، وهو المروي عن أبي حازم رحمه الله عن سهل بن سعد رضي الله عنه، وفيه أن سهل بن سعد سقى الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بقدح، قال أبو حازم: (فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه) وقال: (ثم استوهبه عمر بن

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٩٦).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٣٥٣).

(٤) أخرجه البخاري معلقا قبل حديث (٥٦٣٧).

عبد العزيز بعد ذلك فوهبه له)[١].

وفي موضع آخر من صحيح البخاري، روى عن عاصم الأحول رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال في شأن قدح النبي ﷺ - الموجود عند أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: (رأيت القدح وشربت فيه)[٢].

ج- هل يوجد شيء من آثار الرسول ﷺ في العصر الحاضر؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال أحب أن أنبه على أن حكم التبرك بآثار الرسول ﷺ باق على مشروعيته، لا يقتصر على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أو التابعين فقط رحمهم الله تعالى، فإن بركة آثار الرسول ﷺ باقية فيها، وليس هناك ما يرفعها.

وإجابة عن السؤال الآنف الذكر لابد من بيان الأمور الآتية:

أولًا: جاء في صحيح البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عن عمرو بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهمًا ولا دينارًا، ولا عبدًا ولا أمة، ولا شيئًا، إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضًا جعلها صدقة)[٣].

ولا شك أن هذا يدل على قلة ما خلفه الرسول ﷺ بعد موته من أدواته الخاصة.

ثانيًا: وردت أخبار عديدة بعد عصر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والتابعين رحمهم الله، إلى يومنا هذا تدل على حصول هذا التبرك بآثار المصطفى ﷺ، من قبل بعض الخلفاء والعلماء والصالحين، وإن كان بعض هذه الأخبار ليس صحيحًا، وهذا إما بسبب ضعف في روايته، أو لعدم صحة نسبة الأثر ذاته إلى الرسول ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٣٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣١٠٩).
(٣) رواه البخاري (٢٧٣٩).

وهذا هو الأكثر.

قال صاحب كتاب (الآثار النبوية) بعد أن سرد الآثار المنسوبة إلى النبي ﷺ وغيره، بالقسطنطينية - عاصمة الخلافة العثمانية -: (لا يخفى أن بعض هذه الآثار محتمل الصحة، غير أنا لم نر أحدًا من الثقات ذكرها بإثبات أو نفي، فالله سبحانه أعلم بها، وبعضها لا يسعنا أن نكتم ما يخامر النفس فيها من الريب ويتنازعها من الشكوك)[(١)] الخ.

ثالثًا: ثبوت فقدان الكثير من آثار الرسول ﷺ على مدى الأيام والقرون، بسبب الضياع، أو الحروب والفتن، وغير ذلك.

ومن الأمثلة على هذا ما يأتي:-

١- جاء في صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: (اتخذ رسول الله ﷺ خاتمًا من ورق فكان في يده، ثم كان في يد أبي بكر، ثم كان في يد عمر، ثم كان في يد عثمان، حتى وقع منه في بئر أريس، نقشه - محمد رسول الله -)[(٢)].

٢- فقدان البردة والقضيب في آخر الدولة العباسية حين أحرقهما التتار عند غزوهم لبغداد سنة ٦٥٦هـ[(٣)].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: (وقد توارث بنو العباس هذه البردة خلفًا عن سلف، وكان الخليفة يلبسها يوم العيد على كتفيه، ويأخذ القضيب المنسوب إليه صلوات الله وسلامه عليه في إحدى يديه، فيخرج وعليه من

---

(١) من كتاب الآثار النبوية لأحمد تيمور باشا (ص: ٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٧٣)، ومسلم (٢٠٩١).

(٣) الآثار النبوية لأحمد تيمور باشا (ص: ٢٧ - ٣٠).

السكينة والوقار ما يصدع به القلوب، ويبهر به الأبصار)[١].

٣- ذهاب نعلين ينسبان إلى النبي ﷺ في فتنة تيمورلنك بدمشق سنة ٨٠٣هـ[٢].

ومن الأسباب أيضًا لفقدان الآثار النبوية وصية بعض من عنده شيء منها أن يكفن فيه إن كان لباسًا، كما تقدم قريبًا من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، أو يوصي بأن يدفن معه بعد موته، إن كان ذلك الأثر شعرات مثلًا[٣].

رابعًا: يلحظ كثرة ادعاء وجود وامتلاك شعرات منسوبة إلى الرسول ﷺ في كثير من البلدان الإسلامية[٤] في العصور المتأخرة، حتى قيل إن في القسطنطينية وحدها ثلاثًا وأربعين شعرة سنة ١٣٢٧هـ، ثم أهدي منها خمس وعشرون وبقي ثماني عشرة[٥].

ولذا قال مؤلف كتاب (الآثار النبوية) بعد أن ذكر أخبار التبرك بشعرات الرسول ﷺ من قبل أصحابه رضي الله عنهم: (فما صح من العشرات التي تداولها الناس بعد ذلك فإنما وصل إليهم مما قسم بين الأصحاب رضي الله عنهم، غير أن الصعوبة في معرفة صحيحها من زائفها)[٦].

وهناك عناية بحفظ تلك الشعراء المنسوبة إلى الرسول ﷺ من قبل من

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٨).

(٢) فتح المتعال في مدح النعال لأحمد بن محمد المقري (ص: ٣٦٣) باختصار.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ٣٣٧)، الآثار النبوية لأحمد تيمور باشا (ص: ٨٢، ٨٤، ٨٥).

(٤) ومن الأمثلة على ذلك: القاهرة، دمشق، بيت المقدس، عكا، حيفا وغيرها. انظر كتاب الآثار النبوية لأحمد تيمور باشا (ص: ٨٩ - ٩٦).

(٥) الآثار النبوية (ص: ٩١).

(٦) الآثار النبوية (ص: ٨٢).

يدعي ذلك، حيث إنها تحفظ في صناديق أو قوارير وتلف بقطع من الحرير ونحوه.

على أنه في بعض الأماكن يحتفل بإخراجها - على طريقة خاصة - مرة واحدة أو أكثر كل عام، في بعض المواسم، كليلة ٢٧ من رمضان، أو ليلة النصف من شعبان مثلًا[(١)].

ومن خلال ما تقدم فإن ما يدعى الآن عند بعض الأشخاص، أو في بعض المواضع من وجود بعض الآثار النبوية، كالشعرات أو النعال وغيرها - موضع شك، فيحتاج في إثبات صحة نسبته إلى الرسول ﷺ إلى برهان قاطع، يزيل الشك الوارد، ولكن أين ذلك؟

يقول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: (ونحن نعلم أن آثاره ﷺ، من ثياب، أو شعر، أو فضلات، قد فقدت، وليس بإمكان أحد إثبات وجود شيء منها على وجه القطع واليقين)[(٢)] لاسيما مع مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان على وجود تلك الآثار النبوية، ومع إمكان الكذب في ادعاء نسبتها إلى الرسول ﷺ للحصول على بعض الأغراض، كما وضعت الأحاديث ونسبت إلى الرسول ﷺ كذبًا وزورًا.

وعلى أي حال فإن التبرك الأسمى والأعلى بالرسول ﷺ هو اتباع ما أثر

---

(١) الآثار النبوية (ص: ٩١ - ٩٣، ٩٥)، وكتاب تبرك الصحابة بآثار رسول الله ﷺ للكردي (ص: ٥٨ - ٦٠)، وكتاب تحذير المسلمين عن الابتداع والبدع في الدين لأحمد بن حجر البنعلي (ص: ١٦٨ - ١٧٠).

(٢) التوسل أنواعه وأحكامه للألباني (ص: ١٤٦)، وانظر كتاب أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة لأحمد بن يحيى النجمي (ص: ٣٠٩)، وكتاب هذه مفاهيمنا لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ (ص: ٢٠٤).

عنه من قول أو فعل، والاقتداء به، والسير على منهاجه ظاهرًا وباطنًا، وإن في هذا الخير كله ...

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (كان أهل المدينة لما قدم عليهم النبي ﷺ في بركته لما آمنوا به وأطاعوه، فببركة ذلك حصل لهم سعادة الدنيا والآخرة، بل كل مؤمن آمن بالرسول وأطاعه حصل له من بركة الرسول بسبب إيمانه وطاعته من خير الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله)[1].

مسألة: التبرك الممنوع

١- تبرك شركي: وهو أن يعتقد المتبرك أن المتبرك به - وهو المخلوق - يهب البركة بنفسه، فيبارك في الأشياء بذاته استقلالًا، أو أن يطلب منه الخير والنماء فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى؛ لأن الله تعالى وحده موجد البركة وواهبها، فقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: (البركة من الله)، فطلبها من غيره، أو اعتقاد أن غيره يهبها بذاته شرك أكبر.

٢- تبرك بدعي:

وهو التبرك بما لم يرد دليل شرعي يدل على جواز التبرك به، معتقدًا أن الله جعل فيه بركة، أو التبرك بالشيء الذي ورد التبرك به في غير ما ورد في الشرع التبرك به فيه.

وهذا بلا شك محرم؛ لأن فيه إحداث عبادة لا دليل عليها من كتاب أو سنة، ولأنه جعل ما ليس بسبب سببًا، فهو من الشرك الأصغر؛ ولأنه يؤدي إلى الوقوع في الشرك الأكبر.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ١١٣)، وانظر التبرك أنواعه وأحكامه لناصر بن عبد الرحمن الجديع (ص٢٤٣).

أنواع التبرك البدعي

النوع الأول: التبرك بالنبي ﷺ بعد وفاته

الذي بقي من التبرك بعد وفاته أمران فقط هما:

١- الإيمان به وطاعته واتباعه.

ومن المعلوم أن هذا واجب على المكلفين، وأن من أداه سيحصل على الخير العظيم والأجر الجزيل، وعلى سعادة الدارين، وهذا ما يسمى بالبركات المعنوية للرسول ﷺ، وأنعم بذلك من فضل وخير.

٢- التبرك بآثاره الحسية المنفصلة منه ﷺ ...

وعلى هذا فما عدا ذلك من صيغ التبرك بالرسول ﷺ بعد وفاته غير مشروع، بل هو ممنوع.

هذا وإن مما تتحتم معرفته هنا أنه مع وجوب اعتقاد عظم شأن الرسول ﷺ وعلو منزلته، وعموم بركته حيًا وميتًا، ومع عظم محبة الناس له ﷺ، إلا أن هذا يجب أن لا يؤدي إلى رفعه فوق منزلته، أو الغلو في محبته، كما يظهر مثلًا في ممارسات التبرك بالرسول ﷺ غير المشروع.

كما ينبغي أن يعلم أيضًا أن منع التبرك بالرسول ﷺ في بعض الأحوال، لا يعني انتقاص حقه أو التقليل من شأنه ﷺ.

أما سؤال الرسول ﷺ بعد وفاته حاجة، أو الاستغاثة به لكشف كربة، ونحو ذلك، فهذا أبعد مراتب البدع، وهو من أنواع الشرك بالله تعالى(١)، لأنه من باب الاستعانة أو الاستغاثة بمخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله تبارك وتعالى(٢).

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص: ١١٩)، وكتاب الرد على البكري لابن تيمية (ص: ٥٥).

(٢) انظر إن شئت تفاصيل هذه المسألة في كتاب غاية الأماني في الرد على النبهاني للألوسي =

٢- أداء بعض العبادات عند القبر النبوي

من أشهر هذه العبادات الدعاء والصلاة عند القبر. وإن من يعمل ذلك يظن أو يعتقد أن الدعاء عند قبره ﷺ مستجاب، أو أنه أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت، وأن الصلاة عند القبر أرجى للقبول[١]، فيقصد زيارته لذلك[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا الفعل ونحوه: (فهذا من المنكرات المبتدعة باتفاق أئمة المسلمين، وهي محرمة، وما علمت في ذلك نزاعًا بين أئمة الدين)[٣].

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا حكم الدعاء عند القبر النبوي: (ولا يقف عند القبر للدعاء لنفسه، فإن هذا بدعة، ولم يكن أحد من الصحابة يقف عند القبر يدعو لنفسه، ولكن كانوا يستقبلون القبلة، ويدعون في مسجده)[٤].

ويدخل فيما تقدم من بدع الزيارة: الجلوس عند القبر، وحوله، لتلاوة القرآن الكريم، وذكر الله عَزَّ وَجَلَّ[٥]، وما قد يتبع ذلك من رفع الصوت، وطول القيام

=

(ص: ٢٥٦) فما بعدها، وانظر أيضًا لهذه المسألة ونحوها كتاب كشف الشبهات للإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد طبع ضمن القسم الأول لمؤلفاته (ص: ١٥٣ - ١٨٣) وهو كتاب نفيس.

(١) ومن باب أولى قصد الصلاة تجاه القبر. انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ١٩٤).

(٢) الرد على البكري (ص: ٥٦).

(٣) الرد على البكري (ص: ٥٦).

(٤) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية (٢/ ٤٠٨)، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٨١).

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٣٧) بتصرف، ومن رسالة الألباني بعنوان مناسك الحج والعمرة في الكتاب والسنة وآثار السلف، ورد ما ألحق الناس بها من البدع (ص: ٦١).

أو الجلوس عند القبر، مما يضايق الآخرين من المصلين أو الزوار، أو يشوش عليهم، وأيضًا تجديد الزائر التوبة عند القبر الشريف، كما ادعى بعضهم استحبابه[١].

وهكذا فإن قصد أي نوع من أنواع العبادة الأخرى، كالطواف[٢] ونحوه، مما قد يعمل عند القبر تبركًا، فإن ذلك كله من البدع المحدثة في الدين، ولأن الطواف خاص بالكعبة فقط.

وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ معللًا عدم مشروعية أداء العبادات عند القبر النبوي: (لو كان للأعمال عند القبر فضيلة لفتح للمسلمين باب الحجرة، فلما منعوا من الوصول إلى القبر، وأمروا بالعبادة في المسجد: علم أن فضيلة العمل فيه لكونه في مسجده ... ولم يأمر قط بأن يقصد بعمل صالح أن يفعل عند قبره ﷺ)[٣].

٣- التمسح بالقبر أو تقبيله، ونحو ذلك

إن التمسح بحائط قبر الرسول ﷺ باليد أو غيرها - على أي وجه كان - أو تقبيله رجاء الخير والبركة، مظهر من مظاهر البدع عند بعض الزوار.

وقد نص على كراهة ذلك الفعل، وعلى النهي عنه جماعة من العلماء[٤]،

---

(١) انظر مثلًا كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي (٤/ ١٣٩٩)، وكتاب حقيقة التوسل والوسيلة على ضوء الكتاب والسنة لموسى محمد علي (ص: ٩٤).

(٢) الروض المربع للبهوتي (ص: ١٥٢)، مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية (٢/ ٤١٠)، الإيضاح في المناسك للنووي (ص: ١٦٠)، المدخل لابن الحاج (١/ ٢٦٣)، الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع للسيوطي (ص: ١٢٥)، الإبداع في مضار الابتداع لعلي محفوظ (ص: ١٦٦)، وغيرها.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٤) انظر الكتب الآتية: الشفا للقاضي عياض (٢/ ٨٥)، إحياء علوم الدين للغزالي (١/ =

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه عادة النصارى واليهود[١].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتفاق العلماء على أن من زار قبر النبي ﷺ، أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين - الصحابة وأهل البيت وغيرهم - أنه لا يتمسح به، ولا يقبله[٢].

أما ما يروى عن بعض العلماء أنه فعل ذلك أو أجازه ففيه نظر[٣].

وقال شيخ الإسلام مبينًا حكم تقبيل الجمادات: (ليس في الدنيا من الجمادات ما يشرع تقبيلها إلا الحجر الأسود، وقد ثبت في الصحيحين أن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك)[٤][٥].

وقال في موضع آخر مبينًا سبب كراهة العلماء للتمسح بقبر النبي ﷺ أو تقبيله، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لأنهم علموا ما قصده النبي ﷺ من حسم مادة الشرك، وتحقيق التوحيد، وإخلاص الدين لله رب العالمين)[٦].

وقال أيضا: (لأن التقبيل والاستلام إنما يكون لأركان بيت الله الحرام، فلا

=

٢٥٩)، الحوادث والبدع للطرطوشي (ص: ١٤٨)، المغني لابن قدامة (٣/ ٥٥٩)، الإيضاح للنووي (ص: ١٦١)، المدخل لابن الحجاج (١/ ٢٦٣)، الأمر بالأتباع للسيوطي (ص: ١٢٥)، وفاء الوفا بأخبار المصطفى للسمهودي (٤/ ١٤٠٢).

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٢٧١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٧٩).

(٣) الرد على الأخنائي لابن تيمية (ص: ١٦٩، ١٧١)، أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة لأحمد بن يحيى النجمي (ص: ٣٠٣ - ٣٠٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٧٩).

(٥) الحديث رواه البخاري (١٥٩٧) ومسلم (١٢٧٠).

(٦) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٨٠).

يشبه بيت المخلوق ببيت الخالق)[١].

وللإمام النووي رحمه الله تعالى كلام نفيس حول حكم هذا الفعل بقبر الرسول ﷺ، أرى أن من المناسب ذكره هنا لأهميته.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما نصه: (يكره مسحه باليد وتقبيله، بل الأدب أن يبعد منه كما يبعد منه لو حضر في حياته ﷺ، هذا هو الصواب، وهو الذي قاله العلماء وأطبقوا عليه، وينبغي أن لا يغتر بكثير من العوام في مخالفتهم ذلك، فإن الاقتداء والعمل إنما يكون بأقوال العلماء، ولا يلتفت إلى محدثات العوام وجهالاتهم، ولقد أحسن السيد الجليل أبو علي الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى في قوله ما معناه: اتبع طرق الهدى، ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطريق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين. ومن خطر بباله أن المسح باليد ونحوه أبلغ في البركة فهو من جهالته وغفلته، لأن البركة إنما هي في ما وافق الشرع، وأقوال العلماء، وكيف يبتغى الفضل في مخالفة الصواب)[٢].

وهكذا تبين لنا أن التمسح بالقبر أو تقبيله[٣]، ونحو ذلك مما قد يعمل عند القبر الشريف تبركًا، كإلصاق البطن أو الظهر بجدار القبر[٤]، أو التبرك برؤية القبر[٥]، كل ذلك من البدع المذمومة.

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية (١/ ٢٩٨).

(٢) الإيضاح في المناسك للإمام النووي (ص: ١٦١).

(٣) أقبح من هذا تقبيل الأرض حول القبر. انظر: وفاء الوفا للسمهودي (٤/ ١٤٠٦).

(٤) من كتاب الإيضاح للنووي (ص: ١٦٠، ١٦١)، اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢١٩)، الأمر بالأتباع للسيوطي (ص: ١٢٥)، الإبداع لعلي محفوظ (ص: ١٦٦). ومنهم من يضع خده على القبر استشفاء. انظر كتاب التوسل والزيارة في الشريعة الإسلامية لمحمد الفقي (ص: ٢١٦).

(٥) ذكر هذا بعضهم على سبيل الترغيب. انظر كتاب الشفا للقاضي عياض (٢/ ٨٥).

إلى غير ذلك من مظاهر التبرك غير المشروع بقبر النبي ﷺ التي يراها من يزور مسجده ﷺ ويسلم عليه(١).

ب- التبرك بالمواضع التي جلس أو صلى فيها ﷺ

لابد من معرفة الفرق بين هذين الأمرين (وهما):

أحدهما: ما قصده الرسول ﷺ من العبادات - كالصلاة ونحوها - في أي بقعة أو مكان، فإنه يشرع قصده وتحري مكانه، اقتداء به ﷺ وطلبًا للأجر والثواب، وهذا لا خلاف فيه.

الثاني: ما فعله الرسول ﷺ من العبادات وغيرها، في أي مكان، دون قصده لمكان بذاته، أو أداء العبادة فيه، فهذا مما لا يشرع قصده أو تحريه، وهو محل البحث هنا.

وعلى هذا فإن ما فعله الرسول ﷺ على وجه التعبد فهو عبادة يشرع التأسي به فيه، فإذا تخصص زمان أو مكان بعبادة، كان تخصيصه بتلك العبادة سنة(٢).

فقصد الصلاة أو الدعاء في الأمكنة التي كان النبي ﷺ يقصد الصلاة أو الدعاء عندها سنة، اقتداء برسول الله ﷺ واتباعًا له، كما إذا تحرى الصلاة أو الدعاء في وقت من الأوقات، فإن قصد الصلاة أو الدعاء في ذلك الوقت سنة كسائر عباداته، وسائر الأفعال التي فعلها على وجه التقرب(٣).

ومن أمثلة هذا قصد الرسول ﷺ الصلاة خلف مقام إبراهيم عليه السلام، وكما كان يتحرى الصلاة عند الاسطوانة في مسجده ﷺ، وكما يقصد المساجد

---

(١) التبرك أنواعه وأحكامه (ص ٣٢٤).
(٢) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (٥/ ٢٦٠).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٤٦، ٧٤٧).

للصلاة، ويقصد الصف الأول، ونحو ذلك[١]. أما ما لم يكن كذلك فلا يشرع قصده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية موضحًا حكم هذه المسألة: (لم يشرع الله تعالى للمسلمين مكانًا يقصد للصلاة إلا المسجد، ولا مكانًا يقصد للعبادة إلا المشاعر، فمشاعر الحج، كعرفة ومزدلفة ومنى تقصد بالذكر والدعاء والتكبير لا الصلاة، بخلاف المساجد، فإنها هي التي تقصد للصلاة، وما ثم مكان يقصد بعينه إلا المساجد والمشاعر، وفيها الصلاة والنسك ... وما سوى ذلك من البقاع فإنه لا يستحب قصد بقعة بعينها للصلاة ولا الدعاء ولا الذكر، إذ لم يأت في شرع الله ورسوله قصدها لذلك، وإن كان مسكنًا لنبي أو منزلًا أو ممرًا.

فإن الدين أصله متابعة النبي ﷺ وموافقته بفعل ما أمرنا به وشرعه لنا وسنه لنا، ونقتدي به في أفعاله التي شرع لنا الاقتداء به فيها، بخلاف ما كان من خصائصه.

فأما الفعل الذي لم يشرعه هو لنا، ولا أمرنا به، ولا فعله فعلًا سن لنا أن نتأسى به فيه، فهذا ليس من العبادات والقرب، فاتخاذ هذا قربة مخالفة له ﷺ)[٢].

وبناء على ما تقدم فإن المواضع التي صلى فيها الرسول ﷺ بالمدينة - ما عدا مسجده ﷺ ومسجد قباء - أو على طرقها، أو بمكة - ما عدا المسجد الحرام - ونحو ذلك مما لم يقصده بذاته، كبعض المساجد بمكة أو المدينة وما حولهما، المبنية على آثار صلاة الرسول ﷺ، في حضره أو سفره أو غزواته - إن

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٤٢).
(٢) مجموعة الرسائل والمسائل (٥/ ٢٦٣، ٢٦٤).

صح ذلك - لا تشرع الصلاة فيها على سبيل القصد، والقربة، والتبرك، وستأتي أدلة ذلك.

وكذلك فإن المواضع والبقاع والجبال التي جلس أو أقام فيها الرسول ﷺ - ما عدا المشاعر - لا تقصد العبادة فيها التماسًا للبركة.

وكذا فإن الآبار التي شرب منها الرسول ﷺ - ما عدا بئر زمزم - أو اغتسل منها، لا تقصد تبركًا واستشفاء ......

أدلة عدم شرعية التبرك بالمواضع التي جلس أو صلى فيها ﷺ

يمكن الاستدلال على عدم شرعية التبرك بهذه المواضع - على الوجه المتقدم - من عدة أوجه:

أحدها: لا يوجد دليل من النصوص الشرعية يفيد جواز ذلك الفعل أو استحبابه.

ولا شك أن الجلوس في تلك المواضع للصلاة أو الدعاء أو الذكر ونحو ذلك قربة وتبركًا من أنواع العبادة، والعبادات مبناها على الاتباع لا على الابتداع.

الثاني: أن الصحابة رضي الله عنهم لم ينقل عن أحد منهم أنه تبرك بشيء من المواضع التي جلس فيها رسول الله ﷺ، أو البقع التي صلى عليها عليه الصلاة والسلام اتفاقًا، مع أنهم أحرص الأمة على التبرك بالرسول ﷺ، ومع علمهم بتلك المواضع، وشدة محبتهم للرسول ﷺ وتعظيمهم له، واتباعهم لسنته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر السابقين الأولين، من المهاجرين والأنصار، يذهبون من المدينة إلى مكة حجاجًا وعمارًا ومسافرين، ولم ينقل عن أحد منهم أنه تحرى الصلاة في

مصليات النبي ﷺ، ومعلوم أن هذا لو كان عندهم مستحبًا لكانوا إليه أسبق، فإنهم أعلم بسنته، وأتبع لها من غيرهم)[١].

فتحري هذا ليس من سنة الخلفاء الراشدين التي حث الرسول ﷺ على التمسك بها، بل هو مما ابتدع.

ولم ينقل قصد الصلاة في تلك البقاع التي صلى فيها الرسول ﷺ إلا عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهو لم يكن يقصد التبرك - كما سيأتي إيضاحه - مع أن قول الصحابي إذا خالفه نظيره ليس بحجة، فكيف إذا انفرد به عن جماهير الصحابة[٢].

وكما أن أداء الصلاة ونحوها من أنواع العبادة غير مشروع عند الآثار النبوية تبركًا، فإن التمسح أو التقبيل لشيء منها ممنوع أيضًا، كما عليه سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: (المكان الذي كان النبي ﷺ يصلي فيه بالمدينة النبوية دائمًا، لم يكن أحد من السلف يستلمه ولا يقبله، ولا المواضع التي صلى فيها بمكة وغيرها)[٣].

الوجه الثالث: نهي السلف الصالح عن هذا التبرك قولا وفعلا

لقد أنكر هذا التبرك السلف الصالح رحمهم الله، من الصحابة والتابعين فمن بعدهم.

وكان على رأس هؤلاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخليفة الراشد.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٤٨).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٤٨) بتصرف.
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨٠٠).

فعن المعرور بن سويد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (خرجنا مع عمر بن الخطاب، فعرض لنا في بعض الطريق مسجد، فابتدره الناس يصلون فيه، فقال عمر: ما شأنهم؟ فقالوا: هذا مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال عمر: أيها الناس، إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم مثل هذا، حتى أحدثوها بِيَعًا، فمن عرضت له فيه صلاة فليصل، ومن لم تعرض له فيه صلاة فليمض)(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ معلقًا على هذه القصة: (لما كان النبي لم يقصد تخصيصه بالصلاة فيه، بل صلى فيه لأنه موضع نزوله، رأى عمر أن مشاركته في صورة الفعل من غير موافقة له في قصده ليس متابعة، بل تخصيص ذلك المكان بالصلاة من بدع أهل الكتاب التي هلكوا بها، ونهى المسلمين عن التشبه بهم في ذلك، ففاعل ذلك متشبه بالنبي ﷺ في الصورة، ومتشبه باليهود والنصارى في القصد، الذي هو عمل القلب وهذا هو الأصل، فإن المتابعة في السنة أبلغ من المتابعة في صورة العمل)(٢).

وقد قال ابن وضاح القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن روى هاتين القصتين: (وكان مالك بن أنس، وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد، وتلك الآثار للنبي ﷺ ما عدا قباء وأحدًا)(٣).

ثم قال: (وسمعتهم يذكرون أن سفيان الثوري دخل مسجد بيت المقدس، فصلى فيه، ولم يتبع تلك الآثار، ولا الصلاة فيها، وكذلك فعل غيره أيضًا ممن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٨ (٢٧٣٤).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٢٨١).

(٣) المقصود إتيان قبور شهداء أحد لزيارتهم والسلام عليهم، وفي كتاب الاعتصام للشاطبي (١/ ٣٤٧) هكذا (ما عدا قباء وحده) نقلًا عن ابن وضاح.

يقتدى به، وقدم وكيع أيضًا مسجد بيت المقدس فلم يعد فعل سفيان).

ثم قال أخيرًا: (فعليكم بالاتباع لأئمة الهدى المعروفين، فقد قال بعد من مضى: كم من أمر هو اليوم معروف عند كثير من الناس كان منكرًا عند من مضى)[1] الخ.

تلك نماذج لنهي السلف الصالح رحمهم بأقوالهم وأفعالهم عن هذا التبرك المبتدع.

الوجه الرابع: أن منع هذا التبرك من باب سد الذريعة

يمكن إيضاح ذلك من عدة وجوه:

أحدها: أن النهي عن هذا الفعل سد لذريعة الشرك والفتنة[2]، فهو وسيلة إلى الفتنة بتلك المواضع، وتعظيمها، وربما أفضى ذلك إلى جعلها معابد[3].

الثاني: أن ذلك الفعل يشبه الصلاة عند المقابر[4]، إذ هو ذريعة إلى اتخاذ تلك الآثار مساجد.

والنصوص الشرعية تحرم اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ... مع أنهم مدفونون فيها، وهم أحياء في قبورهم[5]، فما بالك بالمواضع الأخرى لهم.

الثالث: أن هذا الفعل ذريعة إلى التشبه بأهل الكتاب في أفعالهم، كما حذر عمر رضي الله عنه.

---

(١) البدع والنهي عنها لابن وضاح القرطبي (ص: ٤٣).
(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ٣٦٨).
(٣) التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية لعبد العزيز بن ناصر الرشيد (ص: ٣٤٠)، وانظر كتاب هذه مفاهيمنا لصالح آل الشيخ (ص: ٢١٢).
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٤٥).
(٥) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (٥/ ٢٦٢).

الوجه الخامس

أن بركة ذوات الأنبياء والمرسلين لا تتعدى إلى الأمكنة الأرضية والله أعلم

وإلا لزم أن تكون كل أرض وطئها النبي، أو جلس عليها، أو طريق مر بها تطلب بركتها، ويتبرك بها، وهذا لازم باطل قطعًا، فانتفى الملزوم إذًا[١].

قال الشيخ صديق حسن رَحِمَهُ اللَّهُ: (قالوا: المشي في أرض مشى فيها رسول الله ﷺ يكفر السيئات، خصوصًا مع النية الصالحة ... وفيها بشرى له برجاء أن يكون متبعًا آثاره الشريفة، قلت: وذلك يحتاج إلى سند، لأن المكفر إنما هو اتباع هديه وسنته ظاهرًا وباطنًا دون تتبع آثاره الأرضية فقط، فتدبر)[٢].

وبهذه الأوجه وغيرها يستدل على عدم مشروعية التبرك المذكور[٣].

وما ورد عن ابن عمر ونزوله في مواضع نزول النبي ﷺ ونحو ذلك مردود بفعل سائر الصحابة

وقد تبين أن أحدا من السلف لم يكن يفعل ذلك، إلا ما نقل عن ابن عمر: أنه كان يتحرى النزول في المواضع التي نزل فيها النبي ﷺ والصلاة في المواضع التي صلى فيها، حتى أن النبي ﷺ توضأ وصب فضل وضوئه في أصل شجرة. ففعل ابن عمر ذلك وهذا من ابن عمر تحر لمثل فعله. فإنه قصد أن يفعل مثل فعله، في نزوله وصلاته، وصبه للماء وغير ذلك، لم يقصد ابن عمر الصلاة والدعاء في المواضع التي نزلها.

... أن لا تكون تلك البقعة في طريقه، بل يعدل عن طريقه إليها، أو يسافر

---

(١) هذه مفاهيمنا (ص: ٢١١)، وانظر: مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (٥/ ٢٦٣).

(٢) رحلة الصديق إلى البيت العتيق لصديق حسن خان (ص: ٢١).

(٣) التبرك أنواعه وأحكامه (ص ٣٣٩).

إليها سفرا قصيرًا أو طويلا مثل من يذهب إلى حراء ليصلي فيه ويدعو، أو يذهب إلى الطور الذي كلم الله عليه موسى ليصلي فيه ويدعو، أو يسافر إلى غير هذه الأمكنة من الجبال وغير الجبال، التي يقال فيها مقامات الأنبياء أو غيرهم، أو مشهد مبني على أثر نبي من الأنبياء، مثل ما كان مبنيًا على نعله، ومثل ما في جبل قاسيون، وجبل الفتح، وجبل طور زيتا الذي ببيت المقدس، ونحو هذه البقاع، فهذا مما يعلم كل من كان عالما بحال رسول الله ﷺ، وحال أصحابه من بعده، أنهم لم يكونوا يقصدون شيئا من هذه الأمكنة.

ارتياد جبل حراء والغار ونحوه من البدع التي لم تشرع ولم يفعلها الصحابة والسلف الصالح.

فإن جبل حراء الذي هو أطول جبل بمكة، كانت قريش تنتابه قبل الإسلام وتتعبد هناك، ولهذا قال أبو طالب في شعره:

وراق ليرقى في حراء ونازل

وقد ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتي غار حراء، فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد، ثم يرجع فيتزود لذلك، حتى فجأه الوحي، وهو بغار حراء، فأتاه الملك، فقال له: اقرأ. فقال لست بقارئ قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، ثم قال: اقرأ. فقال لست بقارئ قال: مرتين أو ثلاثا- ثم قال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١ - ٥]، فرجع بها رسول الله ﷺ

ترجف بوادره)[١] الحديث بطوله.

فتحنثه وتعبده بغار حراء كان قبل المبعث. ثم إنه لما أكرمه الله بنبوته ورسالته، وفرض على الخلق الإيمان به وطاعته واتباعه، وأقام بمكة بضع عشرة سنة هو ومن آمن به من المهاجرين الأولين الذين هم أفضل الخلق، ولا يذهب هو ولا أحد من أصحابه إلى حراء. ثم هاجر إلى المدينة واعتمر أربع عمر: عمرة الحديبية التي صده فيها المشركون عن البيت -والحديبية عن يمينك وأنت قاصد مكة إذا مررت بالتنعيم عند المساجد التي يقال إنها مساجد عائشة، والجبل الذي عن يمينك يقال له جبل التنعيم، والحديبية غربيه- ثم إنه اعتمر من العام القابل عمرة القضية، ودخل مكة هو وكثير من أصحابه، وأقاموا بها ثلاثا. ثم لما فتح مكة وذهب إلى ناحية حنين والطائف شرقي مكة، فقاتل هوازن بوادي حنين، ثم حاصر أهل الطائف وقسم غنائم حنين بالجعرانة، فأتى بعمرة من الجعرانة إلى مكة، ثم إنه اعتمر عمرته الرابعة مع حجة الوداع، وحج معه جماهير المسلمين، ولم يتخلف عن الحج معه إلا من شاء الله، ولم يشرع النبي ﷺ لأمته زيارة تلك البقاع والمشاهد وهو في ذلك كله، لا هو ولا أحد من أصحابه يأتي غار حراء، ولا يزوره، ولا شيئا من البقاع التي حول مكة، ولم يكن هناك عبادة إلا بالمسجد الحرام، وبين الصفا والمروة، وبمنى والمزدلفة وعرفات، وصلى الظهر والعصر ببطن عرنة، وضربت له القبة يوم عرفة بنمرة، المجاورة لعرفة.

ثم بعده خلفاؤه الراشدون وغيرهم، من السابقين الأولين، لم يكونوا يسيرون إلى غار حراء ونحوه للصلاة فيه والدعاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٣).

وكذلك الغار المذكور في القرآن في قوله تعالى: {ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ} [التوبة: ٤٠]، وهو غار بجبل ثور، يمان مكة، لم يشرع لأمته السفر إليه وزيارته والصلاة فيه والدعاء، ولا بنى رسول الله ﷺ بمكة مسجدا، غير المسجد الحرام، بل تلك المساجد كلها محدثة، مسجد المولد وغيره، ولا شرع لأمته زيارة موضع المولد ولا زيارة موضع بيعة العقبة الذي خلف منى، وقد بني هناك له مسجد.

ومعلوم أنه لو كان هذا مشروعا مستحبا يثيب الله عليه، لكان النبي ﷺ أعلم الناس بذلك، ولكان يعلم أصحابه ذلك، وكان أصحابه أعلم بذلك وأرغب فيه ممن بعدهم، فلما لم يكونوا يلتفتون إلى شيء من ذلك علم أنه من البدع المحدثة، التي لم يكونوا يعدونها عبادة وقربة وطاعة، فمن جعلها عبادة وقربة وطاعة فقد اتبع غير سبيلهم، وشرع من الدين ما لم يأذن به الله.

وإذا كان حكم مقام نبينا ﷺ في مثل غار حراء الذي ابتدئ فيه بالإنباء والإرسال، وأنزل عليه فيه القرآن، مع أنه كان قبل الإسلام يتعبد فيه. وفي مثل الغار المذكور في القرآن الذي أنزل الله فيه سكينته عليه.

فمن المعلوم أن مقامات غيره من الأنبياء أبعد عن أن يشرع قصدها، والسفر إليها لصلاة أو دعاء أو نحو ذلك، إذا كانت صحيحة ثابتة. فكيف إذا علم أنها كذب، أو لم يعلم صحتها.

وأيضا- فإن المكان الذي كان النبي ﷺ يصلي فيه بالمدينة النبوية دائما، لم يكن أحد من السلف يستلمه ولا يقبله، ولا المواضع التي صلى فيها بمكة وغيرها. فإذا كان الموضع الذي كان يطؤه بقدميه الكريمتين، ويصلي عليه، لم يشرع لأمته التمسح به ولا تقبيله، فكيف بما يقال: إن غيره صلى فيه أو نام عليه؟

وإذا كان هذا ليس بمشروع في موضع قدميه للصلاة، فكيف بالنعل الذي هو موضع قدميه للمشي وغيره؟ هذا إذا كان النعل صحيحا، فكيف بما لا يعلم صحته، أو بما يعلم أنه مكذوب: كحجارة كثيرة يأخذها الكذابون وينحتون فيها موضع قدم، ويزعمون عند الجهال أن هذا الموضع قدم النبي ﷺ، وإذا كان هذا غير مشروع في موضع قدميه، وقدمي إبراهيم الخليل، الذي لا شك فيه، ونحن مع هذا قد أمرنا أن نتخذه مصلى، فكيف بما يقال إنه موضع قدميه، كذبا وافتراء عليه كالموضع الذي بصخرة بيت المقدس، وغير ذلك من المقامات.

فإن قيل فقد أمر الله أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى، فيقاس عليه غيره. قيل له: هذا الحكم خاص بمقام إبراهيم الذي بمكة، سواء أريد به المقام الذي عند الكعبة موضع قيام إبراهيم، أو أريد به المشاعر: عرفة ومزدلفة ومنى، فلا نزاع بين المسلمين أن المشاعر خصت من العبادات بما لا يشركها فيه سائر البقاع، كما خص البيت بالطواف. فما خصت به تلك البقاع لا يقاس به غيرها. وما لم يشرع فيها فأولى أن لا يشرع في غيرها ونحن استدللنا على أن ما لم يشرع هناك من التقبيل، والاستلام أولى أن لا يشرع في غيرها، ولا يلزم أن يشرع في غير تلك البقاع مثل ما شرع فيها(١).

ج- حكم التبرك بأثر قدم الرسول ﷺ

ذلك أنه يوجد في بعض البلدان ما يسمى (أثر موطئ قدم الرسول ﷺ) وهو عبارة عن حجارة عليها أثر قدم، يزعم بعض الناس أنها قدم الرسول ﷺ، فيتبركون بها مسحًا وتقبيلًا ومشاهدة، وغير ذلك، كالدعاء عندها، ونحوه، وقد ينشئون الزيارة لأجل ذلك.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨٠٣).

والكلام على بطلان ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن ما يدعى وجوده من آثار قدمه الشريفة عليه الصلاة والسلام غير صحيح؛ لعدة أسباب، منها ما يأتي:

١- عدم وجود ما يثبت صحة شيء من ذلك، فليس هناك أدلة معتبرة يعتمد عليها، وإنما الأمر مجرد إشاعات فقط في البداية، اكتسبت الشهرة بعد ذلك، خصوصًا عند العوام.

٢- نص المحققون من العلماء والحفاظ على إنكار صحة آثار القدم النبوية على الأحجار(١).

وإن من علامات زيف آثار القدم ما قرره صاحب كتاب (الآثار النبوية) حين قابل بين المعروف من تلك الآثار، حيث قال: (المعروف الآن من هذه الأحجار سبعة: أربعة منها بمصر، وواحد بقبة الصخرة ببيت المقدس، وواحد بالقسطنطينية، وواحد بالطائف، وهي حجارة سوداء، إلى الزرقة في الغالب، عليها آثار أقدام متباينة في الصورة والقدم، لا يشبه الواحد منها الآخر)(٢).

٣- أن ما استفاض واشتهر خصوصًا على ألسنة الشعراء والمداح من تأثير قدمه ﷺ في الصخر إذا وطئ عليه لا أصل له، فهو كذب مختلق(٣).

الوجه الثاني: لو صح وجود شيء من آثار قدم الرسول ﷺ افتراضًا، فإنه لا

---

(١) أورد المؤلف أحمد تيمور باشا صاحب كتاب الآثار النبوية جملة من أسماء هؤلاء العلماء. انظر كتابه هذا (ص: ٦٨، ٦٩)، وراجع الاقتضاء (٢/ ٨٠٠)، ومجموع فتاوى ابن تيمية (٢٧/ ١٣).

(٢) الآثار النبوية لأحمد تيمور باشا (ص: ٥٣).

(٣) فتح المتعال في مدح النعال للمقري (ص: ٣٤٩، ٣٥١)، وكتاب الآثار النبوية (ص: ٥٣، ٦٣).

يجوز التبرك به على وجه من الوجوه، لما يأتي:

١- ما تقدم تقريره والاستدلال عليه. .. من عدم مشروعية التبرك بالمواضع التي جلس أو صلى فيها الرسول ﷺ، وأثر القدم جزء من هذه المواضع، ولذا لم يتبرك به السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

وقد نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: (الموضع الذي كان ﷺ يطؤه بقدميه الكريمتين، ويصلي عليه، لم يشرع لأمته التمسح به ولا تقبيله)[(١)].

وقال في موضع آخر رَحِمَهُ اللَّهُ: (قصد الصلاة والدعاء عندما يقال إنه قدم نبي، أو أثر نبي، أو قبر نبي ... من البدع المحدثة، المنكرة في الإسلام، لم يشرع ذلك الرسول ﷺ، ولا كان السابقون الأولون والتابعون لهم بإحسان يفعلونه، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين، بل هو من أسباب الشرك، وذرائع الإفك)[(٢)].

٢- اتفق العلماء على ما مضت به السنة من أنه لا يشرع الاستلام والتقبيل لمقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٣)] - الموجود به موضع قدميه - وإذا كان هذا غير مشروع في موضع قدمي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ - الذي لا شك فيه - مع أنا قد أمرنا أن نتخذه مصلى، فكيف بما يقال إنه موضع قدم الرسول ﷺ -كذبًا وافتراء[(٤)] -.

هذا ما يتعلق بحكم التبرك بأثر قدم الرسول ﷺ.

وهكذا الحكم أيضًا في كل ما قد ينسب إلى المصطفى ﷺ من آثار أخرى مشابهة، كأثر الكف، أو المرفق، أو الرأس وغير ذلك[(٥)]، فإنه لا يوجد لها مستند

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨٠٠).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٧/ ١٤٥).

(٣) أخبار مكة للأزرقي (٢/ ٢٩، ٣٠)، إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ٢١٢).

(٤) الاقتضاء (٢/ ٧٩٩، ٨٠٠) بتصرف.

(٥) الآثار النبوية لأحمد تيمور باشا (ص: ٦١، ٦٢).

شرعي صحيح، يثبت صحة نسبتها إلى الرسول ﷺ، ثم أنه لا يشرع التبرك بها على أي وجه من الوجوه لو صح شيء منها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

د - حكم التبرك بمكان ولادة الرسول ﷺ

ذكر بعض المتأخرين من المؤرخين أن بمكة موضعًا مشهورًا يقال إنه مكان مولد النبي ﷺ، وأنه يزار بعد صلاة المغرب من الليلة الثانية عشرة من شهر ربيع الأول في كل سنة، من قبل بعض الفقهاء والأعيان، على طريقة خاصة، فيدخلون فيه ويخطبون ويدعون لولاة الأمر، ثم يعودون إلى المسجد الحرام قبيل العشاء[1].

وذكر بعضهم أن هذا الموضع يفتح يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ليتبرك به الناس - بالصلاة، والدعاء، والتمسح ونحو ذلك - فهو أول تربة مست جسمه الطاهر عليه الصلاة والسلام[2]، وحتى ادعى بعض العلماء أن الدعاء يستجاب في مولد النبي ﷺ عند الزوال[3].

فهل التبرك بمكان ولادة الرسول ﷺ مشروع أم ممنوع؟.

والجواب: أن حكم هذه المسألة لا يختلف عن أمثالها من المسائل السابقة، وهو عدم الجواز، وذلك من وجهين:

الوجه الأول: اختلاف العلماء والمؤرخين في تعيين مكان ولادته ﷺ[4]،

---

(١) الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف لابن ظهيرة -المتوفى سنة ٩٨٦هـ- (ص: ٣٢٦)، وكتاب إعلام العلماء الأعلام للقطبي - المتوفى سنة ١٠١٤هـ (ص: ١٥٤) باختصار.

(٢) رحلة ابن جبير (ص: ٩٢) بتصرف.

(٣) إعلام العلماء والأعلام للقطبي (ص: ١٥٤).

(٤) انظر مثلًا شفاء الغرام (١/ ٢٦٩)، الجامع اللطيف (ص: ٣٢٥ - ٣٢٧)، أخبار الكرام (ص: ٢٢٠، ٢٢١).

وعدم وجود أدلة صحيحة تحدد هذا الموضع يقينًا.

وأما المكان المشهور -المشار إليه آنفًا- فمحل شك لدى كثير من العلماء.

وقد تطرق الرحالة أبو سالم العياشي إلى تحقيق مكان المولد، وساق اختلاف العلماء فيه، ثم ناقش ذلك القول المشهور بين الناس.

ومما أورده قوله: (والعجب أنهم عينوا محلًا من الدار مقدار مضجع، وقالوا له: موضع ولادته ﷺ، ويبعد عندي كل البعد تعيين ذلك من طريق صحيح أو ضعيف، لما تقدم من الخلاف في كونه في مكة أو غيرها، وعلى القول بأنه فيها ففي أي شعابها؟ وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففي أي الدور؟ وعلى القول بتعيين الدار يبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار، بعد مرور الأزمان والأعصار، وانقطاع الآثار).

ثم قال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ مستبعدًا صحة تحديد ذلك المكان: (والولادة وقعت في زمن الجاهلية، وليس هناك من يعتني بحفظ الأمكنة، سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك، وبعد مجيء الإسلام فقد علم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتناقهم بالتقييد، بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي، لصرفهم اعتناءهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لما هو أهم، من حفظ الشريعة، والذب عنها بالسنان واللسان)[1].

ولا شك أن اختلاف العلماء والمؤرخين في تحديد موضع الولادة دليل على عدم اهتمام الصحابة الأجلاء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ به - لأنه لا يتعلق به عمل شرعي - وإلا لنقل اتفاقهم على مكان معين معروف، كما تعرف أماكن مشاعر الحج مثلًا.

فهذا إذًا من دلائل عدم مشروعية التبرك بمكان الولادة، فالصحابة أحرص

(١) الرحلة العياشية المسماة (ماء الموائد) للعياشي (١/ ٢٢٥).

من غيرهم على فعل الخير والمسارعة إليه.

الوجه الثاني: لو صحت معرفة مكان ولادة النبي ﷺ لما جاز التبرك به على أي وجه، لما تقدم تقريره والاحتجاج له ... من عدم مشروعية التبرك بالمواضع التي جلس أو صلى فيها الرسول ﷺ، ونحو ذلك من الآثار المكانية، ومكان الولادة جزء منها.

أما الاستدلال على شرعية تعظيم المكان الذي ولد فيه نبي، والتبرك به، بما روي أن جبريل عليه السلام أمر محمدًا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج بصلاة ركعتين ببيت لحم، حيث ولد عيسى عليه السلام[1]، فيجاب عنه بما يأتي:

١ - أن علماء الحديث وغيرهم حكموا على هذه الرواية بأنها منكرة موضوعة، فلم يثبت عن النبي ﷺ أنه صلى في بيت لحم[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ثبت في الصحيح (أن النبي ﷺ لما أتى بيت المقدس ليلة الإسراء صلى فيه ركعتين)[3] ولم يصل بمكان غيره ولا زاره، وحديث المعراج فيه ما هو في الصحيح، وفيه ما هو في السنن والمسانيد، وفيه ما هو ضعيف، وفيه ما هو من الموضوعات المختلقات، مثل ما يرويه بعضهم فيه (أن النبي ﷺ قال له جبريل: هذا قبر أبيك إبراهيم، انزل فصل فيه، وهذا بيت لحم مولد أخيك عيسى، انزل فصل فيه)[4] .... فهذا ونحوه من الكذب

---

(١) القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل ﷺ للشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري (ص: ٤٣، ١٣٨) نقلًا عن رسالة لمحمد بن علوي المالكي.

(٢) القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل ﷺ للشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري (ص: ١٣٨ - ١٤٥) فقد أفاض مؤلفه وفقه الله في نقل كلام أهل العلم وحكمهم على هذه الرواية وأسانيدها.

(٣) أخرجه مسلم (١٦٢).

(٤) المجروحين (١/ ٢٢٥) لابن حبان.

المختلق باتفاق أهل المعرفة). إلى أن قال: (وبيت لحم كنيسة من كنائس النصارى، ليس في إتيانها فضيلة عند المسلمين، سواء كان مولد عيسى أو لم يكن)[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (قد قيل: إنه -أي النبي ﷺ- نزل ببيت لحم، وصلى فيه، ولم يصح ذلك عنه ألبتة)[٢].

٢- لو ثبت أنه عليه الصلاة والسلام صلى ليلة الإسراء في بيت لحم، لم يكن في ذلك ما يؤيد جواز الصلاة في مكان ولادة النبي ﷺ تبركًا واحتسابًا للأجر، لعدم صحة القياس في أمور العبادة، فهي توقيفية.

فضلًا عن أن النبي ﷺ لم يأمر أمته بتعظيم بيت لحم، ولم يأمرها بالصلاة فيه، ولم يكن أحد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعظم بيت لحم ويصلي فيه[٣]، فليس في إتيانه فضيلة عند المسلمين كما تقدم، وكذا مكان ولادة النبي ﷺ، والله تعالى أعلم[٤].

النوع الثاني: التبرك بالأولياء والصالحين

وردت أدلة كثيرة تدل على مشروعية التبرك بجسد وآثار النبي ﷺ، كشعره وعرقه وثيابه وغير ذلك.

أما غير النبي ﷺ من الأولياء والصالحين فلم يرد دليل صحيح صريح يدل على مشروعية التبرك بأجسادهم ولا بآثارهم، ولذلك لم يرد عن أحد من

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨١٤).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٤).
(٣) الرد القوي على الرفاعي والمجهول وابن علوي للشيخ حمود التويجري (ص: ٨٨) بتصرف، وانظر اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨١٣).
(٤) التبرك أنواعه وأحكامه (ص ٣٥٥).

أصحاب النبي ﷺ، ولا عن أحد من التابعين أنهم تبركوا بجسد أو آثار أحد من الصالحين، فلم يتبركوا بأفضل هذه الأمة بعد نبيها، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ولا بغيره من العشرة المبشرين بالجنة، ولا بأحد من أهل البيت ولا غيرهم، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، لحرصهم الشديد على فعل جميع أنواع البر والخير، فإجماعهم على ترك التبرك بجسد وآثار غيره ﷺ من الصالحين دليل صريح على عدم مشروعيته.

وعليه فإن من تبرك بذات أو آثار أحد من الصالحين غير النبي ﷺ قد عصى الله تعالى، وعصى نبيه محمدًا ﷺ، وأعطى هذه الخاصية التي خص بها ربنا جل وعلا نبيه ﷺ لغيره من البشر، وسواهم بالنبي ﷺ في ذلك، فسوى عموم الأولياء والصالحين بخير البشر وسيد ولد آدم ﷺ، وهذا فيه هضم لحقه ﷺ، ودليل على نقص محبته عليه الصلاة والسلام في قلب هذا المتبرك.

ومن أنواع التبرك المحرم بالصالحين

أ) التمسح بهم، ولبس ثيابهم، أو الشرب بعد شربهم طلبًا للبركة.

ب) تقبيل قبورهم، والتمسح بها، وأخذ ترابها طلبًا للبركة، وقد حكى جمع من أهل العلم إجماع العلماء على أن هذا كله منهي عنه[1]، وذكر أبو حامد الغزالي الشافعي المتوفي سنة ٥٠٥هـ، وغيره من علماء الشافعية والحنفية أن هذه الأفعال من عادات النصارى، وذكر بعض علماء الشافعية وبعض علماء الحنفية أن استلام القبور تبركًا كبيرة من كبائر الذنوب.

---

(١) ينظر: رسالة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور (ص: ٢٤ - ٣٢)، الاستغاثة في الرد على البكري (١/ ٣٥٦)، مجموع الفتاوى (٤/ ٥٢١، ٢٦/ ٩٧، ٢٧/ ٧٩ - ١٠٩، ١٣٦ - ٢٩٤)، الاختيارات الجنائز (ص: ٩٢)، الصارم المنكي (ص: ١٠٩ - ١٧٨)، الزواجر: الكبيرة (٩٣ - ٩٨، ١/ ١٤٩).

ج) عبادة الله عند قبورهم تبركًا بها، معتقدًا فضل التعبد لله تعالى عندها، وأن ذلك سبب لقبول هذه العبادة، وسبب لاستجابة الدعاء.

النوع الثالث: التبرك بالأزمان والأماكن والأشياء التي لم يرد في الشرع ما يدل على مشروعية التبرك بها

ومن أمثلة هذه الأشياء:

١ - الأماكن التي مر بها النبي ﷺ، أو تعبد لله فيها اتفاقًا من غير قصد لها لذاتها، وإنما لأنه ﷺ كان موجودًا في هذه الأماكن وقت تعبده لله تعالى بهذه العبادة، ولم يرد دليل شرعي يدل على فضلها.

ومن هذه الأماكن: جبل ثور، وغار حراء، وجبل عرفات، والأماكن التي مر بها النبي ﷺ في أسفاره، والمساجد السبعة التي قرب الخندق، والمكان الذي يزعم بعضهم أن النبي ﷺ ولد فيه - مع أنه مختلف في مكان ولادته عليه الصلاة والسلام اختلافًا كثيرًا - ومثل الأماكن التي قيل إنه ولد فيها نبي أو ولي أو عاشوا فيها ونحو ذلك - مع أن كثيرًا من ذلك لم يثبت -.

فلا يجوز للمسلم قصد زيارة هذه الأماكن للتعبد لله تعالى عندها، أو فوقها، بصلاة أو دعاء أو غيرهما، كما لا يجوز للمسلم مسح شيء من هذه الأماكن لطلب البركة، ولا يشرع صعود هذه الجبال لا في أيام الحج ولا غيرها، حتى جبل عرفات، لا يشرع صعوده في يوم عرفة، ولا غيره، ولا التمسح بالعمود التي فوقه، وإنما يشرع الوقوف عند الصخرات القريبة منه إن تيسر، وإلا وقف الحاج في أي مكان من عرفات.

ولذلك لم يثبت عن أحد من الصحابة أنه قصد شيئًا من هذه الأماكن للتبرك بها بتقبيل أو لمس أو غيرهما ولا أن أحدًا منهم قصدها للتعبد لله فيها.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى)[1] رواه البخاري ومسلم، وثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي هو ثاني الخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباع سنتهم (أنه لما رأى الناس وهو راجع من الحج ينزلون فيصلون في مسجد، فسأل عنهم، فقالوا: مسجد صلى فيه النبي ﷺ، فقال: إنما هلك من كان قبلكم أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعًا، من مر بشيء من هذه المساجد فحضرت الصلاة فليصل، وإلا فليمض)[2].

فهذا قول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الذي قال عنه النبي ﷺ: (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه)[3]. وقال عنه النبي ﷺ وعن أبي بكر رضي الله عنهما

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩٧)، ومسلم (٨٢٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٨، رقم ٣٧٣٤)، وابن أبي شيبة ٢/ ١٥٣، رقم ٧٥٤٩)، وابن وضاح في كتابه البدع والنهي عنها (ص ٤١ - ٤٢) والأثر قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في التوسل والوسيلة (٢٠٣)، وابن كثير في مسند الفاروق (١/ ١٤٢): إسناده صحيح، وقال الحافظ في الفتح (١/ ٥٦٩): ثبت عن أبيه -أي عمر رضي الله عنه-، وقال العلامة الألباني في إصلاح المساجد (ص٢٠٤): إسناده صحيح، وقال في مختصر صحيح البخاري (١/ ١٧٤) بعد أن ذكر الأثر: وهذا من علمه وفقهه رضي الله عنه. وتجد تخريج هذا الأثر مع بيان حكم تتبع آثار الأنبياء والصالحين في فتوايَ المطبوعة في آخر كتاب "جزيرة فيلكا وخرافة أثر الخضر فيها" للأستاذ أحمد بن عبد العزيز الحصين/ نشر الدار السلفية في الكويت (ص ٤٣ - ٥٧)، فلتراجع فإنها هامة.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٥٣)، وعبد بن حميد (٧٥٨)، وابن سعد (٣/ ٣٣٥)، والترمذى (٣٦٨٢)، وابن حبان (٦٨٩٥)، وعبد الله بن أحمد في زياداته على فضائل الصحابة (٣٩٥)، والقطيعي في زياداته عليه (٥٢٥)، والطبرانى فى الأوسط (٣٣٣٠)، وتمام في فوائده (١٠١٦)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (/ ٣٢٧)، وابن عبد البر في التمهيد (٨/ ١٠٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ١٠٣)، والبغوي في "وشرح السنة (٣٨٧٥)
=

(اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر)(١).

وهو -أي قول عمر السابق - يدل على التحذير من التبرك بالأماكن التي مر بها أو تعبد فيها نبينا ﷺ دون قصد لها، وعلى عدم مشروعية قصد هذه الأماكن للتعبد لله فيها، وعلى هذا أجمع سلف هذه الأمة وكل من سار على طريقتهم؛ ولأن ذلك من المحدثات التي لا دليل عليها.

٢- التبرك ببعض الأشجار وبعض الأحجار وبعض الأعمدة وبعض الآبار

=

عن ابن عمر رضي الله عنهما، والحديث روي أيضا عن أبي ذر، وأبي هريرة، وبلال، ومعاوية، والحديث حسنه الترمذي، وصححه ابن حبان، وقال شيخ الإسلام في منهاج السنة (٦/ ٦٣) روي من وجوه ثابتة، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٤/ ٥٢٨)، والشيخ ناصر في صحيح الترمذي، وحسنه العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٧٢١)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٩/ ١٤٤): حديث صحيح.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٢)، والترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجة (٩٧)، والحاكم (٤٤٥٣)، والبيهقي في الكبرى (١٦٣٦٧) والحديث قال عنه الحافظ في التلخيص (٥/ ٤٩٨): أعله ابن أبي حاتم، عن أبيه، وقال العقيلي بعد أن أخرجه من حديث مالك، عن نافع عن ابن عمر: لا أصل له من حديث مالك، وهو يروى عن حذيفة بأسانيد جياد تثبت، وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال البزار وابن حزم: لا يصح.اهـ. وقال الخليلي في الإرشاد (١/ ٣٧٨) صحيح معلول، وصححه الجوزقاني في الأباطيل والمناكير (١/ ٢٨٨)، وقال المزي في تهذيب الكمال (١٣/ ٤٤٧) له متابعة، وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٦٥): حسن، وصححه ابن العربي في العواصم (ص٢٥٢)، وقال الحافظ ابن حجر في موافقة الخبر الخبر (١/ ١٤٣) مثله حسن، وصححه الشوكاني في إرشاد الفحول (١/ ٢٩٣) وقال الألباني في الصحيحة (١٢٣٣) روي من حديث عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم ثم صححه الشيخ الحديث بمجموع طرقه، وضعفه الشيخ مقبل في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (١١٨).

والعيون التي يظن بعض العامة أن لها فضلًا، إما لظنهم أن أحد الأنبياء والأولياء وقف على ذلك الحجر، أو لاعتقادهم أن نبيًا نام تحت تلك الشجرة، أو يرى أحدهم رؤيا أن هذه الشجرة أو هذا الحجر مبارك، أو يعتقدون أن نبيًا اغتسل في تلك البئر أو العين، أو أن شخصًا اغتسل فيها فشفي، ونحو ذلك، فيغلون فيها ويتبركون بها فيتمسحون بالأشجار والأحجار، ويغتسلون بماء هذه البئر أو تلك العين طلبًا للبركة، ويعلقون بالشجرة الخرق والمسامير والثياب، فربما أدى بهم غلوهم هذا في آخر الأمر إلى عبادة هذه الأشياء، واعتقاد أنها تنفع وتضر بذاتها.

ولا شك أن التبرك بالأشجار والأحجار والعيون ونحوها، بأي نوع من أنواع التبرك، من مسح أو تقبيل، أو اغتسال، أو غيرها مما سبق ذكره تبركًا وتعظيمًا محرم بإجماع أهل العلم، ولا يفعله إلا الجهال؛ لأنه إحداث عبادات ليس لها أصل في الشرع، ولأنه من أعظم أسباب الوقوع في الشرك الأكبر، ولما روى أبو واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، ونحن حديثو عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم وأمتعتهم، يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال ﷺ: (الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل: اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [الأعراف: ١٣٨]، ثم قال: إنكم قوم تجهلون، لتركبن سنن من كان قبلكم)[(١)].

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨، رقم ٢١٩٥٠)، والترمذي (٢١٨٠)، والنسائي في الكبرى (١١١٨٥)، والطيالسي في مسنده (١٣٤٦)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٠١)، والطبراني (٣/ ٢٤٤، رقم ٣٢٩٢)، والحميدي (٢/ ٣٧٥، رقم ٨٤٨)، وابن حبان (٦٧٠٢)، وأبو يعلى (١٤٤١)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٧) وغيرهم والحديث قال عنه الترمذي حسن صحيح، وصححه ابن حبان، وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان (٢/ =

فلما طلب حدثاء العهد بالإسلام من الصحابة شجرة يتبركون بها تقليدًا للمشركين أنكر عليهم النبي ﷺ ذلك، وأخبرهم أن طلبهم هذا يشبه طلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام أن يجعل لهم آلهة تقليدًا لمشركي زمانهم، فطلبهم مشابه لطلب بني إسرائيل من جهة طلب التشبه بالمشركين فيما هو شرك، وإن كان ما طلبه هؤلاء الصحابة من الشرك الأصغر.

ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه ليس هناك حجر أو غيره يشرع مسحه أو تقبيله تبركًا، حتى مقام إبراهيم الخليل - عليه السلام - لا يشرع تقبيله مطلقًا مع أنه قد وقف عليه، وأثرت فيه قدماه - عليه السلام -، وهذا كله قد أجمع عليه أهل العلم.

ومسح الحجر الأسود وتقبيله، وكذلك مسح الركن اليماني في أثناء الطواف إنما هو من باب التعبد لله تعالى، واتباع سنة النبي ﷺ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه لما قبل الحجر الأسود: (إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك)[1] رواه البخاري ومسلم.

كما أنه يجب قطع الأشجار وهدم الآبار والعيون، وإزالة الأحجار التي يتبرك بها العامة، حسمًا لمادة الشرك، كما فعل عمر رضي الله عنه حين قطع شجرة بيعة الرضوان.

٢- التبرك ببعض الليالي والأيام التي يقال: إنها وقعت فيها أحداث عظيمة،

=

٤١٨) ثابت، وصححه العلامة الألباني في المشكاة (٥٣٣٥)، وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٣/ ٣٣٧): إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(١) أخرجه البخاري (١٥٩٧) ومسلم (١٢٧٠).

كالليلة التي يقال إنها حصل فيها الإسراء والمعراج، ونحو ذلك.

النوع الرابع: التبرك بالأماكن والأشياء الفاضلة

وردت نصوص شرعية كثيرة تدل على فضل وبركة كثير من الأماكن، كالكعبة المشرفة، والمساجد الثلاثة، وكثير من الأزمان كليلة القدر ويوم عرفة، وكثير من الأشياء الأخرى، كما زمزم، والسحور للصائم، والتبكير في طلب الرزق ونحوه، وغير ذلك.

والتبرك بهذه الأشياء يكون بفعل العبادات وغيرها مما ورد في الشرع ما يدل على فضلها فيها، ولا يجوز التبرك بها بغير ما ورد، وعليه فمن تبرك بالأزمان، أو الأماكن، أو الأشياء التي وردت نصوص تدل على فضلها أو بركتها بتخصيصها بعبادات أو تبركات معينة لم يرد في الشرع ما يدل على تخصيصها بها، فقد خالف المشروع، وأحدث بدعة ليس لها أصل في الشرع، وذلك كمن يخص ليلة القدر بعمرة، وكمن يتبرك بجدران الكعبة بتقبيلها أو مسحها، أو يتمسح بمقام إبراهيم أو بالحجر المسمى حجر إسماعيل، أو بأستار الكعبة، أو بجدران المسجد الحرام، أو المسجد النبوي وأعمدتهما ونحو ذلك، فهذا كله محرم، وهو من البدع المحدثة، وقد اتفق أصحاب النبي ﷺ وسلف هذه الأمة على عدم مشروعيته[1]، وعندك أن يتبرك بأحجار أو تراب شيء من المواضع

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ٨٠٨، ٨٠٩)، مجموع الفتاوى (٤/ ٥٢١، ٢٧/ ٧٩، ١٠٦ - ١١٠)، الاختيارات الجنائز (٩٢)، والحج (ص: ١١٨)، زيارة القبور للبركوي الحنفي (ص: ٥٢)، مجلس الأبرار للرومي الحنفي مع خزينة الأسرار لسبحان بخش الهندي الحنفي (ص: ١٣٠)، ونقائش الأزهار للسورتي الحنفي (ص: ١٦١) نقلًا عن جهود علماء الحنفية (ص: ٦٥٧)، إصلاح المساجد للقاسمي (ص: ٥٢)، القول السديد للسعدي (ص: ٥٣)، فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم (٥/ ١١، ١٢).

الفاضلة بالتمرغ عليه أو يجمعه أو الاحتفاظ به.

ومما يدل أيضًا على تحريم التبرك بالأشياء الفاضلة بغير ما ورد في الشرع ما ثبت في (صحيح البخاري) عن ثاني الخلفاء الراشدين الذين أمرنا بأتباع سنتهم: عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذي قال عنه النبي ﷺ: (إن الله جعل الحق على قلب عمر ولسانه)[١]، وقال ﷺ عنه وعن أبي بكر: (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر)[٢]، أنه قال رضي الله عنه لما قبل الحجر الأسود: (إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك)[٣] رواه البخاري ومسلم، فقول عمر هذا صريح في أن تقبيل الحجر الأسود إنما هو اتباع للنبي ﷺ، فالمسلم يفعله تعبدًا لله تعالى، واقتداء بخير البرية ﷺ، وليس من باب التبرك في شيء.

وإذا كان هذا في شأن الحجر الأسود الذي هو أفضل الكعبة، فغيره من الأماكن والأشياء الفاضلة أولى، فيتعبد المسلم فيها بما ورد في الشرع ولا يزيد عليه.

ومما يدل كذلك على تحريم التبرك بالأشياء الفاضلة بغير ما ورد في الشرع ما ثبت عن حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عم النبي ﷺ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه أنكر على من استلم أركان الكعبة الأربعة؛ لأن النبي ﷺ لم يستلم إلا الحجر الأسود والركن اليماني[٤]. رواه البخاري.

(باب متفرقات)

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٤/ ٣٣٠): مات عندنا في البلد رجل وجاء خبر وفاته في النهار ورأينا نساء مسنات من البلد يذهبن إلى بيته

---

(١) تقدم تخريجه قريبا.

(٢) تقدم تخريجه قريبا.

(٣) تقدم تخريجه قريبا.

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤).

وهو مسجى بعد تكفينه وسط النساء وهن حوله فسألناهن لم تذهبن عنده؟ قلن: (نتبارك به)، فما حكم عملهن هذا؟ وهل هو سنة؟.

فأجاب: هذا العمل لا يجوز بل هو منكر؛ لأنه لا يجوز لأحد أن يتبرك بالأموات أو قبورهم ولا أن يدعوهم من دون الله ويسألهم قضاء حاجة أو شفاء مريض أو نحو ذلك؛ لأن العبادة حق الله وحده ومنه تطلب البركة وهو سبحانه هو الموصوف بالتبارك كما قال ﷻ في سورة الفرقان: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} وقال سبحانه: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} ومعنى ذلك: أنه سبحانه بلغ النهاية في العظمة والبركة، أما العبد فهو مبارك -بفتح الراء- إذا هداه الله وأصلحه ونفع به العباد، كما قال الله ﷻ عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ} والله ولي التوفيق.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في المصدر السابق (٤/ ٣٣١): إمام للمسجد الذي نصلي فيه يقول: إنه يجوز للإنسان أن يسأل الله ببركة فلان أحد الصالحين، مثلا اغفر لي يا رب ببركة فلان، وسؤالي؛ أليس هذا نوع من الشرك، كما أن هذا الإمام يكتب الحجب ويعطي المحو للناس كعلاج فهل نصلي خلفه، وهل كلامه وفعله جائز، أفيدوني أفادكم الله؟.

فأجاب: التوسل بجاه فلان أو ببركة فلان أو بحق فلان بدعة وليست من الشرك، فإذا قال: اللهم إني أسألك بجاه أنبيائك أو بجاه وليك فلان أو بعبدك فلان أو بحق فلان أو بركة فلان فذلك لا يجوز وهو من البدع ومن وسائل الشرك؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة فيكون بدعة، والله سبحانه وتعالى يقول: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} ولم يقل ببركة فلان أو جاه

فلان، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»، فالتوسل يكون بأسماء الله وبصفاته وبتوحيده كما جاء في الحديث الصحيح: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» ويكون أيضا بالأعمال الصالحة، كسؤال أهل الغار لما انطبقت عليهم الصخرة ولم يستطيعوا الخروج، سألوا ربهم، أحدهم: سأل ببر الوالدين، والثاني: سأل بعفته عن الزنا، والثالث: سأل بأدائه الأمانة، ففرج الله عنهم، فدل ذلك على أن التوسل بالأعمال الصالحة كأن يقول: اللهم إني أسألك بصحبتي لنبيك ﷺ، أو باتباعي شرعك، أو بعفتي عما حرمت علي، أو نحو ذلك، توسل شرعي وصحيح أما ما يتعلق بعمله الآخر من كتابته الحجب فهذا لا يجوز؛ لأن الرسول ﷺ قال: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»، وقال ﷺ: «من تعلق تميمة فقد أشرك» .

والحجب: هي التمائم، فلا يجوز كتب التمائم ولا تعليقها، والذي يعلقها ينكر عليه والذي يكتبها للناس ينكر عليه حتى ولو كانت من القرآن.

كان عبد الله بن مسعود وجماعة غيره من السلف الصالح ينكرون ذلك، سواء كانت من القرآن أو غيره؛ للأحاديث العامة السابقة في ذلك ولقوله ﷺ: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، والمراد بالرقى المصنوعة: الرقى المجهولة، أو الرقى التي فيها شرك، أما التي تجوز فالرقى الشرعية فقط؛ لقول النبي ﷺ: «لا بأس بالرقى ما لم تكن شركا» ولأنه رقى ورقي.

أما التولة: فهي نوع من السحر، وتسمى الصرف والعطف وهي ممنوعة، والتمائم كذلك ممنوعة، وهي الحجب وتسمى الجوامع وتسمى الحروز؛ لأن الرسول ﷺ زجر عنها، ولم يستثن منها شيئا وسماها شركا، ودعا على من تعلقها.

ولأن القول بجواز ما كان من القرآن أو الأدعية المباحة والأذكار الشرعية استثناء بغير حجة ووسيلة إلى تعليق التمائم الأخرى الشركية، ومعلوم أن الأخذ بالعموم متعين ما لم يرد ما يخصه، كما أن من المعلوم من الشريعة المطهرة وجوب سد الذرائع المفضية إلى الشرك أو إلى ما دونه من المعاصي، ولأنها إذا علقت صارت وسيلة إلى تعلق القلوب بها والاعتماد عليها ونسيان الله سبحانه وتعالى، فمن حكمة الله في هذا أنه سبحانه وتعالى نهى عنها حتى تكون القلوب معلقة به سبحانه لا بغيره، وتعليق القرآن وسيلة لتعليق غيره، فلهذا وجب منع الجميع وأن لا يعلق شيء على المريض، ولا على الصبي لا من القرآن ولا من غيره، بل يعلم الدعاء الشرعي كالتعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وقراءة آية الكرسي وقراءة سورة الإخلاص والمعوذتين عند النوم وبعد الصلوات الخمس، فهذا الإمام ينكر عليه ويعلم أن هذا لا يجوز، فإن استقام وإلا وجب السعي في عزله.

أما المحو: فهو أن يكتب آيات بالزعفران في صحن نظيف أو في قرطاس ثم تغسل ويشربها المريض، وهذا فعله كثير من السلف والخلف ولا حرج فيه إذا كان القائم لذلك من المعروفين بالعلم والفضل وحسن العقيدة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في المصدر السابق (٢٤/ ٣٨٤): يعلق بعض الناس آيات قرآنية وأحاديث نبوية في غرف المنازل، أو في المطاعم أو المكاتب، وكذلك في المستشفيات والمستوصفات يعلقون قوله تعالى: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} وغير ذلك.. فهل تعليق ذلك يعتبر من التمائم المنهي عنها شرعا، علما بأن مقصودهم استنزال البركات وطرد الشياطين، وقد يقصد من ذلك أيضا تذكير الناسي وتنبيه الغافل.. وهل من التمائم وضع المصحف في السيارة بحجة

التبرك به؟.

فأجاب: إذا كان المقصود بما ذكره السائل تذكره الناس وتعليمهم ما ينفعهم فلا حرج في ذلك، أما إذا كان المقصود اعتبارها حرزا من الشياطين أو الجن فلا أعلم لهذا أصلا، وهكذا وضع المصحف في السيارة للتبرك بذلك، ليس له أصل وليس بمشروع، أما إذا وضعه في السيارة ليقرأ فيه بعض الأحيان، أو ليقرأ فيه بعض الركاب فهذا طيب ولا بأس .

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في المصدر السابق (٢٨/ ٢٨٥): هل ثبت في السنة أن البركة الذاتية قد تكون لغير الأنبياء؟.

فأجاب: لا نعلم شيئا في هذا إلا ما ثبت عنه ﷺ أن الله جعل في جسمه وعرقه ومس جسده بركة خاصة به عليه الصلاة والسلام، ولا يقاس عليه غيره من العلماء وغيرهم، وما يفعله بعض الناس من التبرك ببعض الناس فهو غلط لا وجه له، وليس عليه دليل، إنما هذا خاص بالنبي ﷺ؛ لأن الله جعل في عرقه بركة، وفي ريقه وفي وضوئه وفي شعره عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا وزع شعره بين الناس في حجة الوداع، وأمر الصحابة أن يأخذوا من فضل وضوئه ومن عرقه - عليه الصلاة والسلام - لما جعل الله فيه من البركة، ولا يقاس عليه غيره؛ ولهذا لم يتبرك الصحابة بالصديق ولا بعمر ولا بعثمان ولا بعلي وهم أفضل الناس بعد الأنبياء، فدل ذلك على أن هذا خاص بالنبي ﷺ، أما ما يفعله بعض الناس من التبرك ببعض العلماء أو ببعض العباد أو ببعض جدران الكعبة أو بكسوة الكعبة، فكل هذا لا أصل له، بل يجب منعه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في المصدر السابق (٢٨/ ٢٨٦): هل التبرك بقبر النبي ﷺ جائز؟.

فأجاب: لا يجوز، بل هو بدعة ومن وسائل الشرك، فالتبرك بزيد، أو عمرو، أو بجدران الكعبة، أو بما يشبهه، أو بالأسطوانات، هذه بدعة قد تفضي إلى الشرك إذا ظن أن البركة تحصل منها، أما إذا ظن أنها مشروعة فهذه بدعة، والواجب ترك ذلك، وإنما شرع التبرك به ﷺ في حياته، وكذلك شرع الله التبرك بماء زمزم الذي جعله الله مباركا.

لكن يجب على المؤمن التمسك بشريعة الرسول ﷺ والحذر مما خالفها، والله ولي التوفيق.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المصدر السابق (٢٨/ ٢٨٧): هل من خصائص مكة أو الكعبة التبرك بأحجارها أو آثارها؟.

فأجاب: ليس من خصائص مكة أن يتبرك الإنسان بأشجارها وأحجارها، بل من خصائص مكة ألا يعضد ولا يحش حشيشها؛ لنهي النبي ﷺ عن ذلك إلا الإذخر، فإن النبي ﷺ استثناه؛ لأنه يكون للبيوت وقيون الحدادين، وكذلك اللحد في القبر فإنه تسد به شقوق اللبنات، وعلى هذا فنقول: إن حجارة الحرم أو مكة ليس فيها شيء يتبرك به بالتمسح به أو بنقله إلى البلاد أو ما أشبه ذلك.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في فتاوى نور على الدرب (٣/ ١٦١): رأيت في بعض الكتب المنتشرة عندنا في الصومال أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يزدحمون على ماء وضوء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، يتبركون به، وإذا تنخم أو بصق يأخذون ذلك ويتمسحون به، وازدحموا على الحلاق عند حلق رأسه ﷺ، واقتسموا شعره يتبركون به، وشرب عبد الله بن الزبير دمه ﷺ لما احتجم، وشربت أم أيمن بوله فقال لها: صحة يا أم أيمن، فما صحة ذلك؟ أفيدونا جزاكم الله خيرا، وهل يجوز أن يقيس الناس على مثل هذه الأحوال، إن كان ما

ورد صحيحا؟.

فأجاب: لا ريب أنه قد ثبت عن رسول الله ﷺ، أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتبركون بماء وضوئه، وبشعره عليه الصلاة والسلام، وببصاقه عليه الصلاة والسلام وبنخامته، كل هذا ثابت عنه عليه الصلاة والسلام، وعن الصحابة، وقد ثبت في حديث أبي جحيفة في الصحيحين، في حجة الوداع، أنه لما خرج بلال بوضوئه ﷺ، كان الصحابة يتناولون منه ما تيسر، هذا يأخذ قليلا وهذا يأخذ كثيرا من وضوئه عليه الصلاة والسلام، وثبت في صلح الحديبية، أنه إذا تنخع نخاعة أو بصق تلقاها الصحابة وجعلوا يدلكون بها أجسادهم، لما جعل الله فيها من البركة، ولما حلق في حجة الوداع، قسم نصف الشعر بين الصحابة، والنصف الثاني أعطاه أبا طلحة رضي الله عنه، كل هذا ثابت عنه ﷺ، وليس هناك شك عند أهل العلم في بركة جسمه ﷺ، وشعره وما مس جسمه ووضوئه، وعرقه عليه الصلاة والسلام.

لكن لا يقاس عليه غيره، إذ إن الصحابة رضي الله عنهم، ما فعلوا هذا مع الصديق ولا مع عمر، ولا مع عثمان، ولا مع علي، وهم أفضل الصحابة هم أفضل الناس بعد الأنبياء، فلو كان هذا مشروعا أو جائزا، مع غير النبي ﷺ لفعله المسلمون، مع هؤلاء الأخيار، ولأن ذلك قد يكون وسيلة للشرك والغلو، فلهذا منعه أهل العلم في الصحيح من أقوال أهل العلم أنه لا يقاس على الرسول ﷺ أحد بل خاص به ﷺ، لما ثبت وعلم من بركته ﷺ، في جسمه وعرقه وشعره، وسائر أجزائه عليه الصلاة والسلام، ولأنه أقر الصحابة على ذلك، فلولا أنه جائز لما أقرهم، فلا يقاس عليه غيره لأمور كثيرة، أما التبرك بالعلماء والعباد، الذي يفعله بعض الناس، فهذا غلط ولا يجوز، لأنه خالف هدي الرسول ﷺ وأصحابه،

ولم يفعله المسلمون مع فضلائهم ولا كبارهم، كالخلفاء الراشدين ولم يفعله مع بقية الصحابة، ولو كان خيرا لسبقونا إليه، ولأن العبادات توقيفية، ولأن هذا قد يفضي إلى الشرك والغلو، ولهذا رجح المحققون من أهل العلم منعه مع غير النبي عليه الصلاة والسلام، أما شرب ابن الزبير دمه، وأم أيمن بوله، فهذا محل نظر، وقد ورد هذا ولكن في صحته نظر، فهو يحتاج إلى تمحيص ونظر في أسانيد القصة، والأصل تحريم الدم وتحريم البول، الله حرم علينا البول لأنه نجس، وحرم الدم لأنه من الخبائث، وهو نجس، فإن صح فهذا يستثنى، لأن الرسول ﷺ له خصائص، كما قلنا في العرق ومسألة الشعر، ومسألة البصاق هذا خاص به، فهكذا إذا صح حديث أم أيمن، وصح حديث ابن الزبير، صار من الخصائص، وسوف نبحثه إن شاء الله، ونعتني به ويكون في حلقة أخرى إن شاء الله.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٦٣): يقيس الذين يرون التبرك بالصالحين، يقيسون عملهم بما كان يفعله الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من التبرك بآثار النبي ﷺ، وشعره وملابسه، وفضلات جسمه، فبينوا لنا المعتقد الصحيح، في هذا جزاكم الله خيرا؟.

فأجاب: هذا القياس باطل، النبي ﷺ شرع الله لنا أن نقتدي به ونتأسى به ﷺ، وشرع الله جل وعلا التبرك بما مس جسده من شعر وعرق ونحو ذلك، لأنه ﷺ لما حلق رأسه في حجة الوداع، وزعه على الصحابة، هذا يدل على أنه هذا جائز بالنسبة إليه، عليه الصلاة والسلام، وهكذا ملابسه التي تلي جسده، فيها بركة، لأن الله جعله مباركا وجعل ما أصاب جسده فيه بركة، أما غيره فلا يقاس عليه، ولا يدعى من دون الله، ولكن نفس العرق، أو نفس الشعر من النبي

ﷺ خاصة، لا بأس أن يجعل في طيب الإنسان، أو يلبسه على جسده، يرجو أن الله يجعل فيه بركة له، كما جعل ماء زمزم مباركا، سبحانه وتعالى، هذا فضل منه جل وعلا.

وكما جعل في الأطعمة واللحوم بركة للمسلمين، فليس هذا بمستنكر أما أن يتبرك بفلان، أو شعر فلان، أو عرق فلان فلا، لأنه لا يقاس عليه غيره، عليه الصلاة والسلام، القياس لا بد أن يكون الفرع مساويا للأصل، وليس أحد يساوي النبي ﷺ، هو أفضل الخلق وسيد الخلق، وله خصائص، ولهذا لم يفعل الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم هذا التبرك مع الصديق ولا مع عمر ولا مع عثمان، ولا مع علي، ولا مع غيرهم من سادات الصحابة وكبارهم لعلمهم أن هذا خاص بالنبي ﷺ، لا بغيره ﷺ، وهم القدوة والأسوة، وهم أعلم الناس، بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ورضي الله عنهم.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٣/ ١٦٥): هل يجوز التبرك بالتراب الموجود على ضريح الولي المتوفى؟ وهل هذا التراب يفيد شيئا؟ وما هو رأي سماحتكم في هذا؟.

فأجاب: التبرك بتراب القبور منكر ومن المحرمات الشركية لأنه لا يجوز التبرك بتراب الولي ولا غير الولي لأن البركة من الله عز وجل إنما التبرك بالشيء الذي شرعه الله مثل التبرك بماء زمزم لأن الله قد جعل فيه البركة، وأخبر النبي ﷺ أنه مبارك أو كونه مثلا يسأل ربه أن الله يجعل هذا المال مباركا يدعو ربه أنه يبارك فيه له أو أن الله يبارك له في هذا الولد، فالبركة من الله عز وجل ولم يكن الصحابة يتبركون لا بالصديق ولا بعمر ولا بعثمان ولا بعلي إنما هذا خاص بالنبي ﷺ كانوا يتبركون بعرقه وريقه عليه الصلاة والسلام، أما من بعده فلا

يتبرك بهم، وجميع الأولياء لا يتبرك بهم، إنما هذا خاص بالنبي ﷺ، فالتبرك بالأشخاص ترابهم أو آثارهم كله منكر لا يجوز، بل من وسائل الشرك الأكبر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٦٦): أرجو تعريفا كاملا لأولياء الله، ومن هم؟ وهل عندهم علامات مميزة؟ وهل تصح زيارتهم للتبرك، وقضاء الحوائج سواء كانوا أحياء أم أمواتا؟ جزاكم الله خيرا؟.

فأجاب: أولياء الله هم أهل التقوى والإيمان هم أهل الصلاح والاستقامة على دين الله، وعلى ما جاء به رسوله عليه الصلاة والسلام، هؤلاء هم أولياء الله، وهم أهل التقوى، وهم أهل الإيمان، كما قال الله سبحانه: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، ثم فسرهم فقال: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}، هؤلاء هم أولياء الله، هكذا في سورة يونس. وقال في سورة الأنفال: {وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ}، فأولياء الله هم أهل التقوى، هم أهل الإيمان، هم الذين أطاعوا الله ورسوله، واستقاموا على دين الله وتركوا الشرك والمعاصي، هؤلاء هم أولياء الله، يجب حبهم في الله، ولكن لا يجوز دعاؤهم من دون الله، ولا الاستغاثة بهم، ولا البناء على قبورهم، هذا منكر، ولا البناء على قبور الأنبياء أيضا، يقول النبي ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا وإن من كان قبلكم -يعني: من الأمم- كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك» رواه مسلم في الصحيح فنهى الناس عن اتخاذ المساجد على قبور الأنبياء والصالحين، وحذرهم من ذلك، ولعن من فعل هذا.

وروى مسلم في الصحيح، عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «نهى رسول الله أن

يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه» فلا يبنى عليه قبة ولا غرفة ولا مسجد، بل يجب الحذر من ذلك، بل تترك القبور بارزة شامسة، كما كانت في عهد النبي ﷺ في البقيع وفي غيره، في الأرض الواضحة التي ليس فيها بناء، يكون القبر بارزا عن الأرض قدر شبر ونحوه، حتى يعرف أنه قبر، ولا يبنى عليه، ولا يجصص، ولا يبنى عليه قبة ولا مسجد، كل هذا لا يجوز وهذه القباب والمساجد التي توضع على القبور من أسباب الشرك، إذا رآها العامي معظمة بالقباب والمساجد، وربما فرشوها، وربما طيبوها صار هذا من أسباب الشرك، بدعة يترتب عليها شرك أكبر، نسأل الله العافية، فإن العامة إذا رأوا هذا العمل، دعوها من دون الله واستغاثوا بها، وتمسحوا بها إلى غير ذلك؛ أما زيارة المؤمن، أن يسلم على أخيه، يعني على قبره، إذا كان ظاهرا، بارزا، ليس فيه قبة ولا مسجد، فلا بأس، بل سنة النبي عليه السلام قال: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»، فإذا زار القبور ليسلم عليهم، ويدعو لهم، فهذا مشروع، وهذا سنة؛ أما أن يزورهم ليدعوهم من دون الله، أو يستغيث بهم، أو يطلبهم المدد، فهذا شرك أكبر، لا يجوز، فالذي يقول لصاحب القبر: المدد المدد، أو يا سيدي فلان أغثني، أو انصرني، أو اشف مريضي، أو أنا في جوارك، أو أنا في حمايتك، هذا دعاء لغير الله، وشرك بالله سبحانه وتعالى هذا من جنس عمل الجاهلية الأولى، أبي جهل وأشباهه.

الواجب على المسلمين أن يحذروا هذه الأمور، وأن يتواصوا ويتناصحوا بتركها أينما كانوا، وأما الأحياء منهم إذا زارهم يسلم عليهم لحبهم في الله، فلا بأس يزورهم لحبهم في الله، لا للتبرك بهم، والذي يزورهم يسلم عليهم ويعرف أحوالهم، ويتذاكر معهم في الخير، أو في العلم، كل هذا طيب، أو ليدعوا

ويستغفروا له، لا بأس، إذا قال: ادعوا لي أو استغفروا لي، لا بأس أما أن يزوره لأجل الاعتقاد فيه، أنه يدعى من دون الله، أو أنه يصلح أن يعبد من دون الله حيا أو ميتا، لأنه ينفع أو يضر، أو أنه يتصرف في الكون، أو ما أشبه هذا من اعتقاد الجهلة، فهذا لا يجوز يقول الله جل وعلا لنبيه ﷺ: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، فإذا كان ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأفضل الخلق، لا يملك لغيره نفعا ولا ضرا، ولا يعلم الغيب، فكيف بغيره من الناس، فعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى، هو النافع الضار، المعطي المانع، جل وعلا، فليس لأحد أن يدعو غير الله من الأموات أو الغائبين، أو الأشجار أو الأحجار أو الجن، أو الملائكة، بل هذا من الشرك بالله سبحانه وتعالى، وليس له أن يعتقد في أحد من أنه ينفع ويضر دون الله، أو أنه يصلح أن يعبد من دون الله، ويدعى من دون الله، كل هذا اعتقاد باطل وكفر، نسأل الله العافية؛ أما الحي الحاضر، القادر، يقول: يا أخي أعني على كذا، لا بأس. الحي الحاضر، تقول له: ساعدني على إصلاح سيارتي، على عمارة بيتي، على مزرعتي، وهو قادر يسمعك ويستطيع أن يساعدك بما يسر الله، لا بأس. هذه أمور جائزة فيما بين الناس، قال تعالى في قصة موسى: {فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ}؛ لأنه حي يسمع كلامه، وموسى يقدر أن يغيثه، فلا بأس بهذا أما دعاء الأموات والاستغاثة بالأموات، أو الغائبين يعتقد فيهم أنهم يسمعون دعاءه وينفعون ويضرون، هذا هو الشرك الأكبر، هذا عمل الجاهلية الأولى، نسأل الله العافية ولو قال: إني ما قصدت أنهم ينفعون ويضرون، ولو قال: أقصد أنهم شفعاء عند الله، هذا شرك المشركين، المشركون ما قصدوا أنهم ينفعون

ويضرون، بل أرادوهم شفعاء عند الله، وأرادوهم أن يقربوهم إلى الله، كما قال تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ}، قال الله سبحانه: {قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، فسمى عملهم هذا شركا، وقال سبحانه وتعالى في سورة الزمر: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} ما قالوا لأنهم ينفعون ويضرون، لا، قالوا: يقربونا إلى الله زلفى، هذه عقيدتهم، يعلمون أن النافع الضار هو الله وحده، ولكنهم يطلبون من الأولياء أو من الأنبياء، أو من الملائكة الشفاعة إلى الله، ليعطيهم مطالبهم، ويزعمون أنهم شفعاء وأنهم يقربون إلى الله، ولا يعتقدون أنهم يتصرفون في الكون، أو ينفعون أو يضرون، لا، ليس هذا من اعتقاد الجاهلية، ومع هذا كفرهم الله وقاتلهم الرسول ﷺ على شركهم هذا، فالواجب على كل من يدعي الإسلام أن يتبصر ويتفقه في دينه، وأن يحذر التعلق بأهل القبور ودعائهم من دون الله، والاستغاثة بهم والنذر لهم والذبح لهم، وأن هذا هو شرك الجاهلية، كما يفعل هذا بعض الناس عند قبر السيد البدوي، أو السيد الحسين، أو الشيخ عبد القادر في العراق، أو غيرهم كل هذا شرك بالله لا يجوز لا مع الحسين، ولا مع البدوي، ولا مع الشيخ عبد القادر الجيلاني، ولا مع غيرهم من الناس، ولا مع ابن عربي في الشام، ولا مع غيرهم؛ الواجب الإخلاص لله في العبادة؛ لأنه حقه سبحانه وتعالى، قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}، وقال سبحانه: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، يعني أمر وأوصى ألا تعبدوا إلا إياه، وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}، وقال جل وعلا: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} هذا أصل الدين وأساس الملة، وهذا

أعظم واجب وأهم واجب، أن تعبد الله وحده، بدعائك ونذرك وذبحك وصلاتك وصومك وغير ذلك، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}، والنسك يطلق على الذبح وعلى العبادة، فكما أن الصلاة لله، هكذا الذبح لله، فالذي يذبح للجن، أو يتقرب لأصحاب القبور، أو الأشجار والأصنام بالذبائح، هذا شرك بالله ﷻ. وهكذا دعاؤهم والاستغاثة بهم وطلبهم المدد، الذي يقف على قبر ويقول: المدد، أو يدعوهم من قريب، يا سيدي البدوي، أو يا سيدي الحسين المدد المدد، أو يا سيدي عبد القادر المدد المدد، هذا الشرك الأكبر، هذا شرك بالله ﷻ وعبادة لغيره. قال سبحانه وتعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا}، (أحدا) عام يعم الأنبياء وغيرهم، نكرة في سياق النهي تعم الأنبياء والملائكة والجن والإنس، وقال سبحانه وتعالى: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ}، يعني: المشركين، وقال سبحانه: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}، فسمى دعاة غير الله: كفارا، ولو قالوا: ما نسميه إلها، ولو قالوا: نسميهم سادة، أو نسميهم أولياء، متى دعوهم واستغاثوا بهم، فقد جعلوهم آلهة، وإن لم يسموهم آلهة، فلا عبرة بالأسماء، العبرة بالحقائق، فالذي يعبده من دون الله ويستغيث به، قد جعله إلها، وإن لم يسمه إلها، وإن قال: هو السيد، أو هو الولي، أو هو كذا، أو كذا بأسماء أخرى، الاعتبار في الأمور بالحقائق، والمعاني، لا بالألفاظ. نسأل الله أن يهدي إخواننا جميعا المسلمين، ونسأل الله أن يرشد الجاهل للحق على الهدى، وأن يكثر في المسلمين علماء الحق، وعلماء الهدى، حتى يبصروا الناس، وحتى يرشدوهم

إلى توحيد الله، وإلى الحق الذي بعث الله به نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام، ونسأل الله أن يهدي الجاهل إلى أن يتعلم، ويسأل، ويتبصر، ولا يرضى بالتقليد الأعمى، ونصيحتي لجميع من يتصل بالقبور، أو يدعو القبور، أو يجهل أحكام الله، نصيحتي للجميع أن يسألوا العلماء، علماء الحق، علماء السنة، أهل البصيرة، يسألوهم، مثل أنصار السنة في مصر، مثل علماء السنة في الشام، في الأردن، في أي مكان، علماء الحق المعروفين بالسنة والتوحيد، والإخلاص، والبصيرة، وهكذا في كل مكان، في إفريقيا، وفي أوروبا، وفي أمريكا، في كل مكان. الواجب على من جهل الحكم أن يسأل، ولا يقدم على شيء على غير بصيرة، والله يقول سبحانه في كتابه العظيم: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}.

وروي عنه عليه السلام أنه قال لقوم أفتوا من غير علم: «ألا سألوا إذا لم يعلموا، إنما شفاء العي السؤال» وكان الصحابة يسألونه عليه الصلاة والسلام، ويعلمهم ويجيبهم، حتى النساء يسألونه ويجيبهم. وقال له بعض النساء: يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا يوما نسألك ونتحدث إليك، فوعدهن وجمعهن في مكان، وأتاهن وسألنه عن حاجاتهن، عليه الصلاة والسلام. فالواجب على العلماء أن ينبسطوا للجهلة حتى يعلموهم، وأن يعتنوا بالكتاب والسنة، وأن تكون الفتاوى من الكتاب والسنة، لا من التقليد الأعمى، بل من كتاب الله العظيم، وسنة رسوله الأمين، على العالم أن يتبصر من طريق الكتاب والسنة، وأن يعلم الناس على ضوء الكتاب والسنة، ويرشدهم إلى أحكام الله التي دل عليها كتابه العظيم، وسنة رسوله الأمين عليه الصلاة والسلام، وأن يحذر التساهل في هذه الأمور. رزق الله الجميع الهداية التوفيق.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٧٨): ما رأي فضيلتكم فيمن يقول في دعائه: نسأل الله التوفيق والسداد والنجاح ببركة سيدنا النبي ﷺ، وهل يعد ذلك من التبرك بجاه النبي.

فأجاب: هذا من الوسائل غير الشرعية، هذه بدعة من وسائل الشرك إذا قال: اللهم إني أسألك ببركة النبي أو بجاه النبي أو بحق النبي أو بحق الأنبياء، هذه بدعة، ولكن يسأل الله بأسمائه وصفاته؛ قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}، فيقول: اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى بأنك الرحمن الرحيم بأنك العزيز الحكيم وما أشبه ذلك، أو يسأله بإيمانه وتوحيده، اللهم إني أسألك بإيماني بك وبرسولك وبإخلاص العبادة لك، يسأل بتوحيده وإيمانه أو بالأعمال الصالحة بإقامتي الصلاة بأدائي للزكاة، بحبي لله ولرسوله، كل هذه وسائل شرعية، ومن هذه قصة أهل الغار الذين توسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة وهي قصة غريبة عظيمة ثابتة، عن النبي ﷺ في الصحيحين وهي «أن ثلاثة كانوا في البرية، فاضطرهم الليل والمطر إلى غار، بجبل فدخلوا فيه للمبيت وأثناء المطر انحدرت صخرة عظيمة من أعلى الجبل فسدت عليهم الغار ابتلاء وامتحانا، فأرادوا زحزحتها فلم يستطيعوا لأنها عظيمة فقالوا فيما بينهم: إنه لا ينجيكم من هذا البلاء إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما لا أهلا ولا مالا - الغبوق اللبن الذي يشرب بعد العشاء - الحليب - فجئت ذات ليلة بغبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أسقي قبلهما أهلا أو مالا فوقفت بالقدح أنتظر لعلهما يستيقظان فلم يزل ذلك بي حتى طلع الفجر فلما استيقظا أسقيتهما، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت هذا ابتغاء وجهك فأفرج

عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة بعض الشيء حتى رأوا السماء لكن لا يستطيعون الخروج، ثم قال الثاني: اللهم إنه كانت لي ابنة عم، وكنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء وإني أردتها على نفسها ذات يوم - أراد الزنا منها - فأبت فألمت بها سنة، ألمت بها حاجة وجاءت إليه تطلبه الرفد فقال: لا حتى تمكنيني من نفسك، فعند الضرورة وافقت، فلما جلس بين رجليها قالت: يا عبد الله اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، وكان قد أعطاها مائة وعشرين دينارا -يعني مائة وعشرين جنيه ذهب - فلما قالت هذا الكلام له خاف الله وقام ولم يجامعها وترك لها الذهب كله، ثم قال: اللهم إن كنت تعلم إني فعلت هذا ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة بعض الشيء أيضا لكن لا يستطيعون الخروج؛ ثم قال الثالث: اللهم إنه كان عندي أجراء فأعطيتهم أجورهم إلا واحدا بقي أجره عندي فنميته وثمرته حتى صار منه إبل وبقر وغنم ورقيق وإن كان طعاما فهو مثلا: قمح أو شعير أو أرز فجاءه الرجل يقول: يا عبد الله أعطني مالي، جاءه بعد مدة يقول: يا عبد الله مالي عندك أجرتي. فقال له هذا الذي ترى كله مالك، الإبل والبقر والغنم والرقيق كلها من مالك، فقال الرجل يا عبد الله لا تستهزئ بي أعطني مالي أجرتي. قال كل هذا من أجرتك فأخذه واستاقه كله، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت هذا ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة وخرجوا». هذا كله يدل على أن التوسل بالأعمال الصالحات من أسباب الإجابة، أما التوسل بجاه محمد وببركات النبي أو بحق النبي محمد أو بحق الأولياء أو بحق الأنبياء هذا بدعة ليس من الشرع إنما التوسل بأسماء الله وبصفاته وبالأعمال الصالحات.

مسألة: قال العلامة الألباني في دفاع عن الحديث النبوي (ص٧٤ - ٧٩):

قال [أي البوطي في "فقه السيرة"] في حاشية (ص ١٩٧) بعد أن نبه إلى معجزة فرس سراقة وغوص قائمتيها في الأرض، ومعجزة خروجه -صلى الله عليه وآله وسلم- من بيته وقد أحاط به المشركون، وتبرك أبي أيوب الأنصاري وزوجه، ثم استطرد فذكر تبرك أم سلمه بشعره -صلى الله عليه وآله وسلم- وأم سليم بعرقه وغير ذلك ثم علق عليه فقال: «يرى الشيخ ناصر الألباني أن مثل هذه الأحاديث لا فائدة منها في هذا العصر، ذكر ذلك في نقد له على أحاديث كان قد انتقاها الأستاذ محمد المنتصر الكتاني لطلاب كلية الشريعة.

ونحن نر ى أن هذا كلام خطير لا ينبغي أ، يتفوه به مسلم، فجميع أقوال الرسول وأفعاله وإقراراته تشريع، والتشريع باق مستمر إلى يوم القيامة ما

لم ينسخه كتاب أو سنة صحيحة، ومن أهم فوائد التشريع ودليله معرفة الحكم، والاعتقاد بموجبه.

يشربا من إناء مج فيه -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن يفرغاه على وجوههما، ثم قال: «تبرك الصحابة بآثار رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ».ثم أورد فيه حديث طلق بن علي وفيه أنه -صلى الله عليه وآله وسلم- توضأ وتمضمض ثم صبه في إداوة لهم. ثم أعاد الترجمة ذاتها وذكر تحتها حديثًا ثالثًا في تبرك أسماء بجبته -صلى الله عليه وآله وسلم- ثم أعاد الترجمة للمرة الرابعة وأورد فيه حديثًا في تبرك أم سلمه بشعر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

فما هو الفائدة من تكرار هذه العناوين والتراجم في الوقت الذي لا يمكن اليوم التبرك بآثاره -صلى الله عليه وآله وسلم- لعدم وجودها؟ وما يفعلونه اليوم في بعض البلاد من التبرك في بعض المناسبات بشعرة محفوظة في زجاجة فهو شيء لا أصل له في الشرع، ولا يثبت ذلك بطرق صحيحة.

نعم إنما يستفيد من هذه التراجم بعض مشايخ الطرق كما سبق ذكره في المقدمة، ولعل المصنف وضع هذه التراجم مساعدة منه لهم على استعباد مريديهم وإخضاعهم لهم باسم التبرك بهم والله المستعان».

هذا الذي قلته في النقد المذكور نقلته مضطرًا بالحرف الواحد ليقابله القارئ الكريم بما نسبه البوطي إليّ، ليتبين له افتراؤه وغلواءه في قوله: «هذا كلام خطير لا ينبغي أن يتفوه به مسلم،»! فأنت ترى أن الدكتور تعمد حذف لفظة «كبير» المضافة إلى «فائدة» والتي هي نص صريح في أنني لا أنفي الفائدة مطلقًا من معرفتها كما زعم البوطي، وإنما أنفي فائدتها الكبرى وهذا أمر واضح لا يخفى على أحد إن شاء الله تعالى، وقد عللت ذلك بتعليل بين فقلت: «لا يمكن اليوم التبرك بآثاره -صلى الله عليه وآله وسلم- لعدم وجودها .... » فتبقى الفائدة التي ليست بكبيرة إنما هي معرفتها لمجرد العلم بالشيء ولا الجهل به، فكيف ينسب البوطي إليّ تلك الفرية: «هذه الأحاديث لا فائدة منها في هذا العصر»؟!

ثانيًا: هب أنني قلت ذلك، فهلا ذكر السبب الذي قلته في تعليل ذلك بديل أن يكتمه عن الناس فيوقعهم في الولوغ في عرض الألباني وذهابهم مذاهب شتى في تعليل ذلك والطعن فيه، أم أن هذا هو الذي يقصده البوطي بكل ما يكتبه ضد الألباني، وليس هو النصح لهم؟!

ثالثًا: أما كان من الواجب على الدكتور البوطي أن يرد على تعليلي المذكور إن كان عنده رد، بديل أن يأخذ من نقدي المتقدم على الكتاني- على طوله- تلك الجملة المبتورة، «لا فائدة منها» فيكذب علي!

رابعًا: لا أشك أن هناك خلافًا كبيرًا بيننا وبين الدكتور البوطي في تقدير فائدة

أحاديث التبرك فهي عندي وعند كل ذي عليم فيما اعتقد غير ذي موضوع اليوم، وهذا لا ينافي فائدة معرفتها كما سبق بيانه، بينما يرى الدكتور أنها ذات موضوع، لأنها تدل على التبرك، وهو والتوسل بمعنى واحد عنده كما يدل عليه قوله المتقدم: «ومعنى ذلك أنه لا مانع من التوسل والتبرك بآثار النبي عليه الصلاة والسلام فضلًا عن التوسل بذاته وجاهه ... » إلخ. وأصرح منه قوله في صلب الكتاب في الصفحة (١٩٧):

«فإن التوسل والتبرك كلمتان تدلان على معنى واحد، وهو التماس الخير والبركة عن طريق التوسل به. وكل من التوسل بجاهه -صلى الله عليه وآله وسلم- عند الله والتوسل بآثاره أو فضلاته أو ثيابه، أفراد وجزئيات داخلة تحت نوع شامل هو مطلق التوسل الذي ثبت حكمه بالأحاديث الصحيحة، وكل الصور الجزئية له تدخل تحت عموم النص بواسطة ما يسمى بـ (تنقيح المناط) عند علماء الأصول».

وصرح في مكان آخر (ص ٣٥٥) أن المناط إنما هو كونه -صلى الله عليه وآله وسلم- أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق.

فأقول: في الكلام خبط وخلط كثير وادعاء ما لا أصل له، وما لا يعقل، كما أنه ليس هناك ولا حديث واحد يثبت به مطلق التوسل الذي زعمه الدكتور (المقلد الذي يقول ما لم يقله أي مجتهد في الدنيا!!) فهلا ذكر شيئًا من تلك الأحاديث التي تثبت مطلق التوسل، وبين وجه دلالتها على ما زعم، وأعرض عن هذا الكلام والجعجعة التي لا طحن فيها.

ثم كيف يجعل التوسل بمعنى التبرك، والتوسل عنده لا يستلزم حضور المتوسل به، كما هو صريح كلامه، وبين التبرك الذي يقتضي حضور الشيء

المتبرك به، كما هو ظاهر الأحاديث التي ذكرها الأستاذ البوطي ومن قبله الكتاني وغيرهما؟! وإلا فكيف يمكن التبرك بها؟!

وأيضًا فكلامه صريح في جواز التوسل بقوله في دعائه: اللهم إني أتوسل إليك بفضلات نبيك وعرقه و... وغير ذلك مما يستحي من كتابته فضلا عن النطق به كل مسلم عاقل غيور على مقام الإلوهية، ويا خجلتاه إذا قام الدكتور على المنبر يوم الجمعة يدعو بهذا الدعاء تحقيقًا منه لما ذهب إليه من فلسفة التوسل بالفضلات!!

وتالله لقد ازددنا يقينًا بعدم مشروعية التوسل بالذات لما رأينا الدكتور البوطي قد استلزم منه مشروعية التوسل بجزء من أجزاء الذات حتى ولو كان من الجنس الذي كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- نفسه يتطهر ويتنزه منه كما هو ثابت في «الصحيحين» وغيرهما من كتب السنة المطهرة.

خامسًا: لقد تبين مما سبق أن ما ظنه الدكتور البوطي في السبب ظن إثم؛ لأني أولًا لم ألغ فائدة أحاديث التبرك بآثاره -صلى الله عليه وآله وسلم- كما سبق بيانه. وثانيًا لأنه قائم على تسويته الباطلة بين التبرك والتوسل من جهة، وعلى مشروعية التوسل بالذات من جهة أخرى، وكلاهما غير صحيح كما قدمنا ولو بإيجاز.

وأما غمزه إياي بالشذوذ في قوله: «أنها تخالف مذهبه في التوسل» فهو ناشئ من عدم مراعاته الأدب مع الأئمة الذين يخالفون رأيه ولا -أقول مذهبه؛ فأنه لا مذهب له على الرغم من لا مذهبيته! وإلا فأين هو من قول الإمام أبي حنيفة: «أكره أن يسأل الله إلا بالله» فلم يجز الإمام السؤال بالذات فضلًا عن الفضلات كما هو رأي المقلد المجتهد الجامع للمتناقضات!! وما ذهب إليه الإمام هو

مذهب صاحبيه أيضًا فضلًا عن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما من المحققين، وهو المذهب المنصور من الأحاديث النبوية والآثار السلفية، كما تراه مفصلًا في رسالتي الخاصة في التوسل، مع الرد على شبهات المخالفين ونقدها روايةً ودرايةً، ومن ذلك الرد مفصلًا على البوطي في خلطه بين التوسل والتبرك، وتجويزه التوسل بالفضلات، وما يصل هذا المقال إلى أيدي القراء الكرام إلا وتكون الرسالة قد تداولتها الأيدي وانتفع بها إن شاء الله كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ومعذرة إلى القراء مما اضطررنا إليه من الإطالة في الرد على البوطي في هذه الفقرة التي جرتنا إلى الخروج عما نحن بصدده من الرد عليه من الناحية الحديثية المحضة التي توجهتُ إليها في هذه المقالات دون مناقشة في آرائه الفقهية التي خالف فيها الأدلة الشرعية، ولعلي أتفرغ بعد للكتابة في ذلك بإذن الله تعالى.اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في نقد نصوص حديثية (ص ٧٥): إيراده "أي الكتاني في كتابه" أحاديث لا يترتب على معرفتها اليوم كبير فائدة، تحت العناوين الآتية: (ص٢٢):

التبرك بآثار رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بأمره

وذكر فيه حديث على بن أبي طالب وفيه أمره -صلى الله عليه وآله وسلم- له ولغيره أن يشربا من إناء مج فيه -صلى الله عليه وآله وسلم- وأن يفرغا على وجوههما. ثم قال: «تبرك الصحابة بآثار رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-» ثم أورد فيه حديث طلق بن علي وفيه أنه -صلى الله عليه وآله وسلم- توضأ وتمضمض ثم صبه في أداوة لهم. ثم أعاد الترجمة للمرة الرابعة وأورد فيه حديثًا في تبرك أم سلمة بشعر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

فما هو الفائدة من تكرار هذه العناوين والتراجم في الوقت الذي لا يمكن اليوم التبرك في بعض المناسبات بشعرة محفوظة في زجاجة فهو شيء لا أصل له في الشرع، ولا يثبت ذلك بطريق صحيح.

نعم إنما يستفيد من هذه التراجم بعض مشايخ الطرق كما سبق ذكره في المقدمة، ولعل المصنف وضع هذه التراجم مساعدة منه لهم على استعباد مريديهم واخضاعهم لهم باسم التبرك بهم! والله المستعان.

ثم قال: (ص٢٣) تقبيل يد الرسول ورجليه!. ثم ساق حديثًا فيه أن يهوديين قبلا يده -صلى الله عليه وآله وسلم- ورجله!. قلت: ومع أن الحديث في ثبوته نظر كما سبق بيانه في موضعه (ص١٤) فهل يريد الشيخ في ذلك أن يشرع للناس أن يَقبِّل المريد رجل شيخه أيضًا اعتمادًا منه على فعل اليهوديين؟! فإن قيل: لكن الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- أقرهما على ذلك فيقال: أثبت العرش ثم انقش، فالحديث لم يثبت كما ذكرنا، ولو ثبت، فليس يجوز قياس المسلم على اليهودي، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فلئن أقر -صلى الله عليه وآله وسلم- اليهوديين على تقبيل رجله، فلا يلزم منه إقرار المسلم على مثله لأنه عزيز وذاك ذليل صاغر، فأي قياس أفسد من هذا على وجه الأرض أن يقاس المسلم على الكافر، والعزيز على الذليل؟! ولو جاز فلا يجوز لأي شيخ أن يقيس نفسه على الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- فيجيز لها ما جاز له -صلى الله عليه وآله وسلم-! لأنه من باب قياس الحدادين على الملائكة! أو هو على الأقل قياس مع الفارق! .اهـ.

وسئل رحمه كما في موسوعته العقدية (٣/ ٩٠١): هل كان المسلمون يتبركون بالتفال ومخلفات الوضوء، وهل كان النبي يرضى بذلك؟

الشيخ: هذا سؤال هام، الواقع أن ذلك وقع ووقع على علم من الرسول عليه السلام وسكوت منه، ولكن هذا السكوت كان برهة من الزمن، ولم يستمر منه -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولقد ظهر حكمة ذلك السكوت المؤقت واضحًا بينًا جليًا في صلح الحديبية، حيث أخذ المشركون يرسلون سفيرًا منهم- وما أريد أن أقول: رسولًا منهم، وإن كان هذا سائغًا من حيث العربية-فكلما أرسلوا سفيرًا منهم ليحادث الرسول عليه السلام ويفهموا ما يريد، كان يرى هذا السفير تلك المبالغة العجيبة التي لا يعرفونها في ملوك كسرى وقيصر، من تهافت الصحابة على وضوء النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الماء الذي كان يتوضأ به وتبركهم به، فكان من آثار ما شاهدوا أو شهدوا أنهم عادوا إلى رؤوس قريش وقالوا لهم: صالحوا محمدًا فوالله لقد رأينا كسرى وقيصر فما رأينا أحدًا يُعظِّمهم كما أرينا أصحاب محمد يُعظِّمون محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم-، وعلى هذا جرى الصلح المعروف في صلح الحديبية.

فكان سكوت النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على مثل تلك المبالغة في التبرك به عليه السلام من السياسية الشرعية الحكيمة، ولكنه لأنه طبع على ما وصف بحق في قوله تبارك وتعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: ٤) وكما قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله» وكما قال في حديث آخر: «لا تنزلوني فوق منزلتي التي أنزلني الله فيها» فهو تجاوب في نهاية مع هذا المبدأ الأساسي الذي كان يحياه الرسول عليه السلام وذلك حينما شاهدهم مرة يتهافتون أيضًا على التبرك بوضوئه فقال لهم: «ما يحملكم على هذا؟ قالوا: حب الله ورسوله، قال:- هنا الشاهد-إن كنت تحبون الله ورسوله فاصدقوا في الحديث وأدوا الأمانة» انظر هذا اللطف في النقد من

الأمر المفضول إلى الحكم الفاضل، لم يصدهم الرسول عليه السلام صدًا، وإنما مهد لهم تمهيدًا بأسلوب عظيم جدًا: «ما الذي يحملكم على هذا؟ قالوا: حب الله ورسوله» وهم صادقون في ذلك، فقال لهم: هذا لا يدل حبكم لله والرسول، الذي يدلكم على ذلك هو أن تعملوا بما جاء به الرسول عن ربه تبارك وتعالى.

ولهذا فنحن نرى أن ما ثبت من التبرك هو ثابت وفي صحيح البخاري قصة الحديبية في صحيح البخاري، لا مجال لإنكارها من حيث الرواية أبدًا، لكن بعض الناس يأخذون الأمور بالعجلة ولا يأخذونها بالرَوِيِّة، فلو أنهم نظروا أولًا إلى الحكمة من ذاك السكون ثم اطلعوا على الحديث الأخير لزال الإشكال ولعرفوا عظمة الرسول عليه السلام في ذاك وفي هذا الحديث.اهـ.

وسئل رحمه الله في نفس المصدر السابق (٣/ ٩١٠): سؤال آخر عن مسألة التبرك بآثار الرسول سواء متصلة كشعره أو منفصلة كثيابه أو المنبر، يُروى عن ابن عمر أثر أنه كان يتبرك بمنبر الرسول، كذلك عن الإمام أحمد: ذكر الذهبي هناك في معرض الاحتجاج على الحنابلة بأنه كان يتبرك بشعرات الرسول، كذلك بمنبر الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-، فما أدري هل صحت هذه الأسانيد عن ابن عمر أولًا ثم عن الإمام أحمد، ثم ما الموقف الصحيح في هذه؟

الشيخ: أما عن الإمام أحمد فلست أدري؛ لأن ما يذكر في مناقب الأئمة والحفاظ لا شك أن علماء الحديث لا يعنون برواية هذه المناقب كما يعنون برواية الأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بالأسانيد الصحيحة، وهم في الأغلب يذكرون المناقب معلقة دون ذكر إسناد ما مثل هذه المناقب، وعلى ذلك فلا نستطيع أن نثبت أو أن ننكر وندع الأمر هكذا معلقًا حتى يتسنى

لنا الوقوف على إسناد يمكن تطبيق قواعد علم الحديث عليه، ثم لا يترتب من وراء ذلك أي فائدة شرعية تذكر، وما هذه المناقب التي تذكر في بعض التراجم عندي إلا كمثل ما يروى عن بني إسرائيل، وقد تعلمون أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يقول: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» وقال في بعض الأحاديث الأخرى: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» (١) لأننا قد نصدق بشيء وهو كذب، أو نكذب بشيء وهو صدق.

وهكذا أنا أقول بالنسبة لبعض المناقب، فضلًا عن المثالب فلا نقف عندها كثيرًا إلا إذا جاء شيء منها ... بالسند الذي نصحح به الحديث أو نحسنه على الأقل، حينذاك نقول: ثبت هذا أو لم يثبت، أما ما أشرت إلى بعض ما جاء عن بعض الصحابة فلا شك أن بعض ذلك ثابت صحيح عنهم، وما تبرك بعض أزواج النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بعرقه -صلى الله عليه وآله وسلم- وخلطها إياه بطيبها هذا مما لا شك فيه لوروده في صحيح مسلم، ولذلك فلا يستطيع حديثي عنده إلمام بالروايات وبنقلها تصحيحًا وتضعيفًا أن ينكر وقوع مثل هذا التبرك من بعض الصحابة لبعض آثار النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في حياته وبعد وفاته.

لكننا نرى نحن أن هذا الحكم ينبغي سده من باب سد الذرائع؛ لأن الذين كانوا يفعلون ذلك هم أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الذين عرفوا التوحيد بمعانيه الصحيحة، ولا يدور في الذهن أنهم يمكن أن يقعوا في شيء من الغلو في النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بخلاف هؤلاء المتأخرين الذين جاءوا فقد ... لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- غلوًا كثيرًا وفي صور

شتى، فلا نستطيع أن نقيس الخلف على السلف فلئن ثبت كما ذكرنا عن بعض الصحابة ذلك فهو حكم ومن أحسن أحواله أن يقال بأنه جائز، والأمر الجائز إذا خشي أن يترتب من ورائه فساد في العقيدة أو القلوب فيجب إيقافه من باب سد الذريعة.

ولعل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان ينظر هذه النظرة البعيدة حينما حج في خلافته ونزل منزلًا من تلك المنازل فرأى بعض الناس ينحون منحًى عن الجادة وعن الطريق، فلما سأل إلى أين هؤلاء يذهبون؟ قيل له: بأن هناك مصلًّى صلى فيه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فهم يقصدون الصلاة في هذا المصلى، فقال رضي الله تعالى عنه: من أدركته الصلاة من شيء من هذه المصليات التي صلى فيها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فليصلّ ومن لا فلا تفعلوا فإنما أهلك من قبلكم اتباعهم آثار أنبيائهم.

فهذا الاتباع كان سببًا في وقوع الفساد ... بالنسبة لمن كان قبلنا من اليهود والنصارى، فلا غرابة ولا جرم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله» فعلى الرغم من أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- نصح أمته بهذا الحديث إذا بهذه الأمة من على فيه وقال:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم   واحكم بما شئت فيه مدحًا فاحتكم

فهذا في واد، وقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «لا تطروني كما أطرت النصارى .. » في واد آخر، ومنشأ هذا الغلو ينشأ من فهم هذا الحديث بمعنًى واسع أكثر مما يدل عليه الحديث بتمامه؛ لأن هذا الحديث يمكن تمريره وتفسيره بأحد معنيين:

الأول: لا تطروني: لا تبالغوا في مدحي، وهذا مفهوم عنده، ولكن لا تبالغوا، فهذا هو المعنى الأول.

المعنى الآخر، وهو الذي يبدو لي: أنه ينهى أمته أيضًا من باب سد الذريعة أن يمدحوه عليه الصلاة والسلام بشيء من عند أنفسهم خشية أن ينحرف بهم المدح عن العدل وعن كلمة الحق، هذا المعنى هو الذي سيترجح عندي أولًا بالنظر إلى تمام الحديث حيث قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم» وكأن سائلًا سيسأل: فماذا وكيف نقول وكيف نمدح؟ فأجاب الرسول عليه السلام كما هي عادته ولا غرابة في ذلك، فإنه كما قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (النجم: ٣ - ٤) «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، إنما أنا عبد-إذًا-فقولوا: عبد الله ورسوله» لا تزيدوا في مدحي على ما مدحني ربي تبارك وتعالى، وليس المعنى إذًا: لا تبالغوا وإنما لا تمدحوا إلا بما جاء في الكتاب والسنة.

والذي جعلني أميل إلى هذا المعنى الثاني هو أن علماء الحديث ذكروا هذا الحديث في باب: تواضع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، [وإذا أخذنا] الحديث بالمعنى الأول لم يتفق الحديث مع الترجمة ولم يترجم الباب لهذا الحديث؛ لأنه أن يُقال ... لا تبالغ في مدحي فهذا واجب، بينما الباب تواضع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي يليق بهذا التواضع إنما هو أن يقول عليه الصلاة والسلام: لا تمدحوني ولا تقولوا شيئًا إلا عبد الله ورسوله؛ لأن الله عز وجل هكذا وصفه عليه الصلاة والسلام.

فإذًا من باب سد الذريعة كما جاء هذا الحديث وإن كان قد وقع شيء من التبرك من بعض الصحابة وإن صح ذلك من بعض ما جاء من بعده فهذه قضايا

فردية لا يبنى عليها حكم عام يذاع بين المسلمين؛ لأن العاقبة ستكون الغلو في رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وهذا مما نهى عنه هو مباشرةً وكان ذلك تفسيرًا لمثل قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ} (النساء: ١٧١).اهـ.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر السابق (٣/ ٩١٤): هنا يقول السائل: أنكر شيخ الإسلام ابن تيمية التمسح بقبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولكنه لم ينكر التمسح بالمنبر ويستدل بما نقله عن الإمام أحمد عن ابن عمر أنه فعله، فما حكم هذا؟ ذكره شيخ الإسلام في ...

الشيخ: ذكر الحكم أو ذكر الرواية عن ابن عمر؟

مداخلة: ... أنه ذكر هذا الكلام الذي نقله هذا السائل.

الشيخ: وما هو أعده.

مداخلة: يقول: أنكر شيخ الإسلام ابن تيمية التمسح بقبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولكنه لم ينكر التمسح بالمنبر ويستدل بما نقله عن الإمام أحمد عن ابن عمر أنه فعل، فما حكم هذا؟

الشيخ: أنا جوابي على هذا أظن أنه سبق في كلمتي في أول هذه الجلسة: أن هذا يمنع من باب سد الذريعة، وإن كنا نشعر بفرق كبير بين التمسح بقبره عليه الصلاة والسلام؛ لأنه يشعر أن المتمسح يطلب منه المدد ونحو ذلك من المعاني التي لا يجوز صرفها إلا الله تبارك وتعالى، أما التمسح بالمنبر فلا يتبادر المسلم بمثل هذا المعنى الشركي وهو كسائر أنواع التبرك التي جاء ذكرها في أول جلستنا هذه، فأنا أقول بالمنع من كل هذه الأشياء من باب سد الذريعة؛ ولأن الناس ليس عندهم هذه الدقة التي تحملهم على التفريق بين التمسح

بالقبر وبين التمسح بالمنبر.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحيحة (٣/ ١٥٩، ١٢ - ١٦٧): قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم: «قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات».

فائدة: ليس في شيء من هذه الأحاديث ما يدل على قداسة كربلاء وفضل السجود على أرضها واستحباب اتخاذ قرص منها للسجود عليه عند الصلاة كما عليه الشيعة اليوم ولو كان ذلك مستحبًا لكان أحرى به أن يُتخذ من أرض المسجدين الشريفين المكي والمدني ولكنه من بدع الشيعة وغلوهم في تعظيم أهل البيت وآثارهم، ومن عجائبهم أنهم يرون أن العقل من مصادر التشريع عندهم، ولذلك فهم يقولون بالتحسين والتقبيح العقليين ومع ذلك فإنهم يروون في فضل السجود على أرض كربلاء من الأحاديث ما يشهد العقل السليم ببطلانه بداهة، فقد وقفت على رسالة لبعضهم وهو المدعو السيد عبد الرضا (!) المرعشي الشهرستاني بعنوان " السجود على التربة الحسينية".

ومما جاء فيها (ص ١٥): "وورد أن السجود عليها أفضل لشرفها وقداستها وطهارة من دفن فيها، فقد ورد الحديث عن أئمة العترة الطاهرة عليهم السلام أن السجود عليها ينور إلى الأرض السابعة. وآخر: أنه يخرق الحجب السبعة، وفي (آخر): يقبل الله صلاة من يسجد عليها ما لم يقبله من غيرها، وفي (آخر) أن السجود على طين قبر الحسين ينور الأرضين".

ومثل هذه الأحاديث ظاهرة البطلان عندنا وأئمة أهل البيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ براء منها وليس لها أسانيد عندهم ليمكن نقدها على نهج علم الحديث وأصوله وإنما هي مراسيل ومعضلات! ولم يكتف مؤلف الرسالة بتسويدها بمثل هذه النقول

المزعومة على أئمة البيت حتى راح يوهم القراء أنها مروية مثلها في كتبنا نحن أهل السنة، فها هو يقول: (ص ١٩): "وليس أحاديث فضل هذه التربة الحسينية وقداستها منحصرة بأحاديث الأئمة عليهم السلام، إذ أن أمثال هذه الأحاديث لها شهرة وافرة في أمهات كتب بقية الفرق الإسلامية عن طريق علمائهم ورواتهم، ومنها ما رواه السيوطي في كتابه " الخصائص الكبرى " في " باب إخبار النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بقتل الحسين عليه السلام، وروى فيه ما يناهز العشرين حديثا عن أكابر ثقاتهم كالحاكم والبيهقي وأبي نعيم والطبراني والهيثمي في " المجمع " (٩/ ١٩١) وأمثالهم من مشاهير رواتهم".

فاعلم أيها المسلم أنه ليس عند السيوطي ولا الهيثمي ولو حديث واحد يدل على فضل التربة الحسينية وقداستها، وكل ما فيها مما اتفقت عليه مفرداتها إنما هو إخباره -صلى الله عليه وآله وسلم- بقتله فيها، وقد سقت لك آنفا نخبة منها، فهل ترى فيها ما ادعاه الشيعي في رسالته على السيوطي والهيثمي؟! اللهم لا، ولكن الشيعة في سبيل تأييد ضلالاتهم وبدعهم يتعلقون بما هو أوهى من بيت العنكبوت!.

ولم يقف أمره عند هذا التدليس على القراء بل تعداه إلى الكذب على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فهو يقول (ص ١٣): "وأول من اتخذ لوحة من الأرض للسجود عليها هو نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- في السنة الثالثة من الهجرة لما وقعت الحرب الهائلة بين المسلمين وقريش في أحد وانهدم فيها أعظم ركن للإسلام وهو حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- نساء المسلمين بالنياحة عليه في كل مأتم، واتسع الأمر في تكريمه إلى أن صاروا

يأخذون من تراب قبره فيتبركون به ويسجدون عليه لله تعالى، ويعملون المسبحات منه كما جاء في كتاب " الأرض والتربة الحسينية " وعليه أصحابه، ومنهم الفقيه ...".والكتاب المذكور هو من كتب الشيعة، فتأمل أيها القارئ الكريم كيف كذب على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فادعى أنه أول من اتخذ قرصًا للسجود عليه، ثم لم يسق لدعم دعواه إلا أكذوبة أخرى وهي أمره -صلى الله عليه وآله وسلم- النساء بالنياحة على حمزة في كل مأتم ومع أنه لا ارتباط بين هذا لو صح وبين اتخاذ القرص كما هو ظاهر، فإنه لا يصح ذلك على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، كيف وهو قد صح عنه أنه أخذ على النساء في مبايعته إياهن ألا ينحن كما رواه الشيخان وغيرهما عن أم عطية (انظر كتابنا " أحكام الجنائز " ص ٢٨) ويبدو لي أنه بنى الأكذوبتين السابقتين على أكذوبة ثالثة وهي قوله في أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: "واتسع الأمر في تكريمه إلى أن صاروا يأخذون من تراب قبره فيتبركون به ويسجدون عليه لله تعالى ... "، فهذا كذب على الصحابة رضي الله عنهم وحاشاهم من أن يقارفوا مثل هذه الوثنية، وحسب القارئ دليلًا على افتراء هذا الشيعي على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأصحابه أنه لم يستطع أن يعزو ذلك لمصدر معروف من مصادر المسلمين، سوى كتاب " الأرض والتربة الحسينية " وهو من كتب بعض متأخريهم ولمؤلف مغمور منهم، ولأمر ما لم يجرؤ الشيعي على تسميته والكشف عن هويته حتى لا يفتضح أمره بذكره إياه مصدرا لأكاذيبه!

ولم يكتف حضرته بما سبق من الكذب على السلف الأول بل تعداه إلى الكذب على من بعدهم، فاسمع إلى تمام كلامه السابق: "ومنهم الفقيه الكبير

المتفق عليه مسروق بن الأجدع المتوفى سنة (٦٢) تابعي عظيم من رجال الصحاح الست كان يأخذ في أسفاره لبنة من تربة المدينة المنورة يسجد عليها (!) كما أخرجه شيخ المشايخ الحافظ إمام السنة أبو بكر ابن أبي شيبة في كتابه " المصنف " في المجلد الثاني في " باب من كان يحمل في السفينة شيئًا يسجد عليه، فأخرجه بإسنادين أن مسروقًا كان إذا سافر حمل معه في السفينة لبنة من تربة المدينة المنورة يسجد عليها".

قلت: وفي هذا الكلام عديد من الكذبات: الأولى: قوله: "كان يأخذ في أسفاره " فإنه بإطلاقه يشمل السفر برًا وهو خلاف الأثر الذي ذكره!

الثانية: جزمه بأنه كان يفعل ذلك يعطي أنه ثابت عنه وليس كذلك بل ضعيف منقطع كما يأتي بيانه.

الثالثة: قوله " ... بإسنادين " كذب وإنما هو إسناد واحد مداره على محمد بن سيرين، اخْتلِف عليه فيه، فرواه ابن أبي شيبة في " المصنف " (٢/ ٤٣/ ٢) من طريق يزيد بن إبراهيم عن ابن سيرين قال: "نبئت أن مسروقًا كان يحمل معه لبنة في السفينة، يعني يسجد عليها "، ومن طريق ابن عون عن محمد " أن مسروقًا كان إذا سافر حمل معه في السفينة لبنة يسجد عليها "، فأنت ترى أن الإسناد الأول من طريق ابن سيرين، والآخر من طريق محمد وهو ابن سيرين، فهو في الحقيقة إسناد واحد ولكن يزيد بن إبراهيم قال عنه: نبئت "، فأثبت أن ابن سيرين أخذ ذلك بالواسطة عن مسروق ولم يثبت ذلك ابن عون وكل منهما ثقة فيما روى إلا أن يزيد ابن إبراهيم قد جاء بزيادة في السند، فيجب أن تقبل كما هو مقرر في " المصطلح " لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ، وبناء عليه فالإسناد بذلك إلى مسروق ضعيف لا تقوم به حجة لأن مداره على راو لم

يسم مجهول، فلا يجوز الجزم بنسبة ذلك إلى مسروق رَضِوَاللَّهُعَنْهُ ورحمه كما صنع الشيعي.

الرابعة: لقد أدخل الشيعي في هذا الأثر زيادة ليس لها أصل في " المصنف " وهي قوله: "من تربة المدينة المنورة "! فليس لها ذكر في كل من الروايتين عنده كما رأيت. فهل تدري لم أفتعل الشيعي هذه الزيادة في هذا الأثر؟ لقد تبين له أنه ليس فيه دليل مطلقا على اتخاذ القرص من الأرض المباركة " المدينة المنورة " للسجود عليه إذا ما تركه على ما رواه ابن أبي شيبة ولذلك ألحق به هذه الزيادة ليوهم القراء أن مسروقا رَحِمَهُٱللَّهُ اتخذ القرص من المدينة للسجود عليه تبركًا، فإذا ثبت له ذلك ألحق به جواز اتخاذ القرص من أرض كربلاء بجامع اشتراك الأرضين في القداسة!! وإذا علمت أن المقيس عليه باطل لا أصل له وإنما هو من اختلاق الشيعي عرفت أن المقيس باطل أيضا لأنه كما قيل: وهل يستقيم الظل والعود أعوج؟!

فتأمل أيها القارئ الكريم مبلغ جرأة الشيعة على الكذب حتى على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- في سبيل تأييد ما هم عليه من الضلال، يتبين لك صدق من وصفهم من الأئمة بقوله: "أكذب الطوائف الرافضة "!

ومن أكاذيبه قوله (ص ٩): "ورد في صحيح البخاري صحيفة (!) (٣٣١ ج١) أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يكره الصلاة على شيء دون الأرض "! وهذا كذب من وجهين: الأول: أنه ليس في " صحيح البخاري " هذا النص لا عنه -صلى الله عليه وآله وسلم- ولا عن غيره من السلف.

الآخر: أنه إنما ذكره الحافظ ابن حجر في " شرحه على البخاري " (ج١/ ص ٣٨٨ - المطبعة البهية) عن عروة فقال: "وقد روى ابن أبي شيبة عن

عروة بن الزبير أنه كان يكره الصلاة على شيء دون الأرض".

قلت: وأكاذيب الشيعة وتدليسهم على الأمة لا يكاد يحصر، وإنما أردت بيان بعضها مما وقع في هذه الرسالة بمناسبة تخريج هذا الحديث على سبيل التمثيل، وإلا فالوقت أعز من أن يضيع في تتبعها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في موسوعته العقدية (٣/ ٩٣٠): سؤال قرأنا في باب «إن لبدنك عليك حقًا» ص٨١٦ من المجلد الخامس من مجلتنا العزيزة «المسلمون» في الإجابة على السؤال عن الزوائد في الجلد وطريقة شفائها، ومما ذكر قول: «لو اعتقد أحدكم في حجر لنفعه»، فأرجوكم إجابتنا على صفحات «المسلمون» هل هذا قول الرسول الكريم -صلى الله عليه وآله وسلم- أو حكمة من حكم العرب أو غير ذلك؟ وقد قرأت في مجلة (الهدى النبوي) العدد ٢ - ٧، ١٣٧٦، ص٩٩ أن هذا الحديث من وضع المشركين عبَّاد الأوثان. أرجوكم عرض ذلك على الشيخ ناصر الدين الألباني لإفادتنا مشكورين؟

الجواب: المذكور، قال ابن تيمية: إنه كذب، وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: إنه لا أصل له، وأقرهما الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة على الألسنة» (١٩٥ - ١٦٠) ولا يمكن أن يكون حكمةً من حكم العرب، إلا أن يكون للعرب المشركين لما فيه من تأييد ظاهر لوثنيتهم المعروفة التي إنما بعث رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لتحطيمها، وإنقاذ أصحابهم منها إلى نور التوحيد الخالص من أوضارها {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه "حجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم":

من بدع الحج: «التمسح بحيطان الكعبة والمقام».

والتبرك بالمطر النازل من ميزاب الرحمة من الكعبة.

والتبرك بالاغتسال في البركة التي بجانب قبور الشهداء بالمدينة.

ومسح البعض بأيديهم النخلتين النحاسيتين الموضوعتين في المسجد النبوي غربي المنبر.

وربط الخرق بالنافذة المطلة على أرض الشهداء.

وربط الخرق بالمقام والمنبر لقضاء الحاجات .اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في التعليق على إصلاح المساجد (ص ١٦٧): قال القاسمي في "إصلاح المساجد": وأما أهل العلم من الصحابة والتابعين فلم يكونوا يعظِّمون الصخرة.

فعلق الشيخ قائلًا: قلت: وهذا على خلاف ما عليه الناس اليوم من تعظيمها وقصد الصلاة عندها، والله تعالى أعلم بما صرف من الأموال في تجديدها أو ترميمها بعد ضرب اليهود لها بالقنابل، وهي اليوم تحت أيديهم، بظلم المسلمين لأنفسهم، ومخالفتهم لشريعة نبيهم، أمراء ومأمورين، حكامًا ومحكومين، ألهمهم الله العودة إلى العمل بدينهم ليتمكنوا من طرد العدو من بلادهم، والله المستعان.اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في موسوعته العقدية (٣/ ٩٣٩): قال الشيخ: [مخاطبًا صاحب البيت الذي عقدت فيه الجلسة وكان قد علق صورة المسجد الأقصى على الحائط]:- يا أخي هذه الصورة يجب أن ترفع من هنا هذه الصورة التي لا أكبر منها عندك.

-**مداخلة**: إن شاء الله.

-**الشيخ**: تدري لما السبب؟ هذه الصورة الآن ظللت العلم الإسلامي وجعلت الصخرة صخرة مقدسة، وهي صخرة من الصخور لا قيمة لها سواء كانت هناك أو كانت في بريطانيا لا قيمة لها إطلاقًا، والمسؤلون عنها مباشرة هم الملوك الذين ينفقون أمولًا طائلة في سبيل زخرفتها وتزيينها وفي ذلك تضليل للشعوب الإسلامية فصارت هذه الصخرة صخرة مقدسة ... ،ثم استغلت سياسيًا لا يكفيهم أن يستغلوا الواقع المسجد الأقصى الذي هو من المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال يكفينا هذا إذا كانوا يريدون أن يستغلوا الوضع سياسيًا ويثيروا حماس المسلمين وإن كانوا كما قيل:

ولئن ناديت أسمعت حيًا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو نارًا نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رماد

فإذا أرادوا أن يثيروا عواطف المسلمين إن كان هذا يثير فالمسجد الأقصى باعتباره من المساجد الثلاثة يكفي فهي مضلة ومضللة ومن جملة تأييدها نصبها ووضعها في صدور المجالس ونحن معشر السلفيين صاننا الله ﷻ من أن نقدس حجارة لا قيمة لها إسلاميًا واضح.

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ١٠٨): جاء في الفتوى السابقة أن التبرك بريق أحد غير النبي، ﷺ، حرام ونوع من الشرك باستثناء الرقية بالقرآن حيث إن هذا يشكل مع ما جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها «أن النبي، ﷺ، كان يقول في الرقية: "بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا» فنرجو من فضيلتكم التكرم بالتوضيح؟

فأجاب: ذكر بعض العلماء أن هذا مخصوص برسول الله، ﷺ، وبأرض المدينة فقط وعلى هذا فلا إشكال.

ولكن رأى الجمهور أن هذا ليس خاصًا برسول الله، ﷺ، ولا بأرض المدينة بل هو عام في كل راق وفي كل أرض ولكنه ليس من باب التبرك بالريق المجردة بل هو ريق مصحوب برقية وتربة للاستشفاء وليس لمجرد التبرك. وجوابنا في الفتوى السابقة هو التبرك المحض بالريق وعليه فلا إشكال لاختلاف الصورتين.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المصدر السابق (٣/ ٢٣١): عن حكم النذر والتبرك بالقبور، والأضرحة؟.

فأجاب: النذر عبادة لا يجوز إلا لله عَزَّوَجَلَّ وكل من صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله فإنه مشرك كافر، قد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار، قال الله تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} .

وأما التبرك بها: فإن كان يعتقد أنها تنفع من دون الله عَزَّوَجَلَّ فهذا شرك في الربوبية مخرج عن الملة، وإن كان يعتقد أنها سبب وليست تنفع من دون الله فهو ضال غير مصيب، وما اعتقده فإنه من الشرك الأصغر، فعلى من ابتلي بمثل هذه المسائل أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى، وأن يقلع عن ذلك قبل أن يفاجئه الموت، فينتقل من الدنيا على أسوأ حال، وليعلم أن الذي يملك الضر والنفع هو الله سبحانه وتعالى، وأنه هو ملجأ كل أحد، كما قال الله تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}، وبدلًا من أن يتعب نفسه في الالتجاء إلى قبر فلان وفلان، ممن يعتقدونهم أولياء، ليلتفت إلى ربه عَزَّوَجَلَّ وليسأله جلب النفع ودفع الضر، فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يملك هذا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في فتاوى نور على الدرب: ما حكم وضع المصحف في السيارة من أجل التبرك والحفظ من العين، وأيضًا خشية أن تصدم؟.

فأجاب: حكم وضع المصحف في السيارة دفعًا للعين أو توقيًا للخطر بدعة، فإن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يكونوا يحملون المصاحف على إبلهم دفعًا للخطر أو للعين، وإذا كان بدعة فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: (كل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار).

(باب ذكر مسائل الإيمان بالجن)

(باب الإيمان بوجود الجن)

ثبت وجود الجن بالقرآن والسنة وعلى ذلك انعقد الإجماع، فمنكر وجودهم كافر لإنكاره ما علم من الدين بالضرورة.

ولقد أفاض القرآن الكريم والسنة النبوية في الحديث عن الجن وأحوالهم في مواضع كثيرة، فقد ورد ذكرهم في القرآن في مواضع متعددة تقرب من أربعين موضعًا عدا عن الآيات التي تحدثت عن الشيطان وهي كثيرة، وانفردت سورة كاملة للحديث عن أحوال النفر الذين استمعوا للقرآن من الرسول عليه الصلاة والسلام وهو بمكة هي سورة الجن، إذ ورد في مطلعها إخبار الله لنبيه باستماع هذا النفر للقرآن، قال تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} [الجن:١-٢].

واعتبرهم القرآن نوعًا آخر يشترك مع الإنسان في التكليف وإن اختلف عنهم في الصفات، فجاءت كثير من خطابات التكليف شاملة للجن والإنس قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]. وقال: يا

مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا} [الأنعام: ١٣٠]، ورتب القرآن الجزاء لهم حسب أعمالهم في الدنيا فقال: وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [السجدة: ١٣]، وقال في معرض الحديث عن نعيم الجنة: فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ} [الرحمن: ٥٦]. وتحدى الله الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن فقال: قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: ٨٨]، واستنكر القرآن المزاعم التي تقول بأن الجن يعلمون الغيب فقال في معرض الحديث عن موت سليمان عليه السلام: فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ [سبأ: ١٤]. وغير ذلك من الآيات التي تحدثت عن أحوال هذا المخلوق.

ومعلوم أن القرآن الكريم قد ثبتت صحته، لأنه منقول إلينا بالتواتر، فعلى هذا الأساس لا مجال لإنكار هذا النوع من المخلوقات متى كان الخبر صادقًا، وإنكارهم يكون تكذيبًا لخبر الله عنهم دون حجة أو برهان، وذلك لا يكون إلا من سمات الجاهلين أو الكافرين، ووجودهم بشكل قاطع لا يحتمل التأويل بأي شكل من الأشكال.

وأما السنة النبوية فقد ورد ذكرهم في أحاديث كثيرة، وهذه الأحاديث بمجملها تبين أحوال هذا المخلوق، من حيث المادة التي خلقوا منها، ومن حيث طعامهم وشرابهم وتناسلهم ومطالبتهم بالتكاليف الشرعية، ومحاسبتهم في الآخرة، بالإضافة إلى الأحاديث التي تبين إمكانية رؤيتهم بمختلف الصور التي يتشكلون فيها، وغيرها من الأحاديث التي تشرح أحوالهم، قال الدميري في

حياة الحيوان الكبرى (١/ ٢٠٦): (واعلم أن الأحاديث في وجود الجن والشياطين لا تحصى، وكذلك أشعار العرب وأخبارها، فالنزاع في ذلك مكابرة فيما هو معلوم بالتواتر).اهـ.

فمن حيث بيان أصل المادة التي خلقوا منها، فقد أورد الإمام مسلم في صحيحه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[1].

وما ورد من الأحاديث في تكليم الرسول ﷺ الجن وقراءته القرآن عليهم ودعوتهم إلى الله في أكثر من مرة، وقد كان ابن مسعود رفيقًا للرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ في كثير منها ... وهذه الأحاديث في كثير منها أحاديث صحيحة، رواها الثقات من الصحابة والتابعين عن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام، فلا مجال لتكذيبها أو تأويلها تأويلًا فاسدًا يخرج عن المقصود منها.

وقد فصلت هذه الأحاديث كثيرًا من أحوال الجن وصفاتهم، ومتى ثبتت صحتها، فإن المكذب بها يكون مكذبًا للقرآن، الذي نص على وجوب الإيمان بما أخبر به عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [التغابن: ٨]، وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلًا بَعِيدًا) [النساء: ١٣٦].

على أن هذه الأدلة السمعية الواردة عن الرسول ﷺ في وجود الجن، لها في نفس الوقت دلالات حسية كذلك على وجودهم، إذ قد ثبت رؤيتهم له عَلَيْهِ السَّلَامُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

ولنفر من أصحابة الذين رافقوه عند ذهابه لتكليم الجن وقراءة القرآن عليهم، ومثل هذا قد حصل لأبي هريرة عندما جاءه الشيطان في صورة رجل فقير فجعل يحثو من مال الصدقة ... وكما ورد عن ابن عباس (أن امرأة جاءت بابن لها إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابني هذا به جنون، وأنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا فيخبث علينا، فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا، فثع ثعة، وخرج من جوفه مثل الجرو الأسود يسعى)[1].

فهذه قصة سمعية من جهة، حسية من جهة أخرى، حيث دلت على رؤية الحاضرين للجني على شكل جرو أسود يسعى، وما حصل ذلك من أخذ الرسول عليه السلام للشيطان وخنقه إياه عندما جاءه ليقطع صلاته، حتى وجد برد لعابه على يديه الشريفتين.

وغير ذلك من الروايات التي تحمل دلالات حسية على رؤية الجن مما لا يجعل مجالًا للشك في وجودهم ..... والعقل لا يمنع من وجود عوالم غائبة عن حِسِّنا، لأنه قد ثبت وجود أشياء كثيرة في هذا الكون لا يراها الإنسان ولكنه يحس بوجودها، وعدم رؤية الإنسان لشيء من الأشياء لا يستلزم عدم وجوده،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٩)، والدارمي (١٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٣٥٨٠) والطبراني في الكبير (١٢/ ٥٧)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٣٩٥) والحديث قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٢٩٨): غريب من هذا الوجه -فيه- فرقد السبخي فيه كلام وله شاهد، ولأجل فرقد السبخي ضعف الحديث البوصيري في إتحاف الخيرة (٤/ ٤٦١)، والشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٢/ ٥٣٧)، وضعفه العلامة الألباني في المشكاة (٥٩٢٣) وكذا ضعفه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤/ ٣٧) بقولهم: إسناده ضعيف، فرقد السَبَخي: هو فرقد بن يعقوب السبخي قال البخاري: في حديثه مناكير، وقال أحمد وأبو حاتم: ليس بالقوي، وقال يحيى القطان: ما تعجبني الرواية عنه، وضعفه ابن سعد وابن المديني والنسائي ويعقوب بن شيبة وغيرهم.

والقاعدة العلمية تقول: عدم العلم بوجود شيء لا يستلزم عدم وجوده. أي عدم رؤيتك للشيء الذي تبحث عنه لا يستلزم أن يكون بحد ذاته مفقودًا، إذ أن الموجودات أعظم من المشاهدات، أي ليس كل الموجودات خاضعة لحاسة الرؤية، أو لمطلق الحواس ... وقد ثبت عن طريق القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن طريق السنة الصحيحة وجود عالم يختلف عن الإنسان يسمى عالم الجن، وهذا القرآن ليس من تأليف الرسول عليه السلام، أو من تأليف أحد من البشر على الإطلاق، فعندئذ وجب التصديق بهذا الإخبار الصحيح عن الله عز وجل وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا اعتبار بجهل الإنسان بهذا العالم ما دام المخبر صادقًا.

ولا يدعي إنسان عاقل على الإطلاق أنه رأى الميكروبات بالعين المجردة التي لا ترى إلا بالمجهر بعد تكبيرها آلاف المرات، لأن السبب في عدم رؤيتها أن حاسة البصر عند الإنسان غير مؤهلة لهذه الرؤية، ما دامت الرؤية لهذا البصر محدودة في مجال العالم المشهود للإنسان، قال محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٨/ ٣٦٦): (ولو كان الاستدلال بعدم رؤية الشيء على عدم وجوده صحيحًا وأصلًا ينبغي للعقلاء الاعتماد عليه، لما بحث عاقل في الدنيا عما في الوجود من المواد والقوى المجهولة، ولما كشفت هذه الميكروبات التي ارتقت بها علوم الطب والجراحة إلى الدرجة التي وصلت إليها، ولا تزال قابلة للارتقاء بكشف أمثالها، ولما عرفت الكهرباء التي أحدث كشفها هذا التأثير العظيم في الحضارة، ولولم تكشف الميكروبات - وأخبر أمثالهم بها في القرون الخالية - لعدوه مجنونًا، وجزموا باستحالة وجود أحياء لا ترى، إذ يوجد في نقطة الماء ألوف الألوف منها، وأنها تدخل في الأبدان من خرطوم البعوضة أو

البرغوث .. الخ، كما أن ما يجزم به علماء الكهرباء من تأثيرها في تكوين العوالم، وما تعرفه الشعوب الكثيرة الآن من تخاطب الناس بها من البلاد البعيدة بآلات التلغراف والتليفون اللاسكلية - كله مما لم يكن يتصوره عقل، وقد وقع بالفعل). ويقول أيضًا كما في فتاوى الإمام محمد رشيد رضا (١/ ٢٥٢): (ويعجبني قول الدكتور (فانديك) في كلامه عن الحواس الخمس إذ يقول: لو كانت لنا حواس أخر فوق الخمس التي لنا، لربما توصلنا بها إلى معرفة أشياء كثيرة لا نقدر على إدراكها بالحواس الخمسة التي نملكها، ولو كانت حواسنا الموجودة أحدَّ مما عليه لربما أفادتنا أكثر مما تفيدنا وهي على حالتنا الحاضرة، ولو كان سمعنا أحدَّ لربما سمعنا أصواتًا تأتينا من عالم غير هذا الذي نحن فيه)، ولكن حكمة الله اقتضت أن تكون حواسنا كما هي عليه الآن.

وقد أثبتت التجارب وجود أشياء كثيرة في هذا الكون مع أن الإنسان لا يراها، فالكهرب الذي يسري في السلك موجود ولكننا لا نراه، والموجات الصوتية التي تنتقل عبر الأثير نحس بها ونلمس آثارها، خاصة في هذا العصر الذي ارتقت فيه المعارف والعلوم ارتقاء عجيبًا ... وباسم المنهج التجريبي في البحث أنكر كثير من المنتسبين له وجود مخلوقات تسمى بالملائكة والجن، ولم يكن لهم حجة يلجأون إليها في إنكار ذلك إلا أنهم لم يشاهدوها ولم يضعوها تحت المجهر أو في أنابيب الاختبار، ليجروا عليها التجارب، في الوقت الذي يتحدثون فيه للبشرية عن وجود الجاذبية والمغناطيسية والكهرب، وغيرها من الأشياء التي تغيب عن حواسنا، ولقد أخطأت الحضارة الغربية وغيرها من الحضارات المادية عندما آمنت بالعقل وجحدت ما سواه، وعاشت تحت

ظلال وثنية عقلية، هي أخطر ألوان الوثنيات وأشدها إذلالًا وإهدارا للقيم الإنسانية العليا، وهذا العقل الذي عبدته هذه الحضارة شيء عظيم حقًا في عالم الحس والمشاهدة، لأنهما يخضعان لهذا العقل في مجال التجربة والاختبار، أما ما وراء الحس والمشاهدة، فلا مجال للعقل أن يحكم على ذلك بالظنون والتخرصات، وفي الوقت الذي نجد فيه إبداع هذه الحضارة المادية في مجال الماديات، نجدها في الجانب الآخر قد تعثرت تعثرا مضحكًا في المعنويات والأخلاقيات والعبادات، وفي كافة ما يتصل بأمور الغيب كالروح والإلهام والوحي، لأنها أمور فوق الحس والمشاهدة .... ومع شهرة هذه الإدلة ووضوحها فقد انقسم الناس قديمًا وحديثًا في أمر الجن إلى مذاهب شتى، فما بين مثبت لوجودهم، أو منكر، أو مؤول لهم بشتى التأويلات الفاسدة، أو مغالٍ في قدرتهم وسلطانهم في الأرض، إلى غير ذلك من المذاهب والتصريفات المختلفة في شأن هذا المخلوق. ويمكن إجمال هذه المذاهب فيما يلي:

١ - مذهب أهل السنة والجماعة: الذي عليه أهل السنة والجماعة من المسلمين وهو إثبات وجود مخلوقات غائبة عن حواسنا تسمى الجن، وأنها لا تظهر إلا أذا تشكلت في صور غير صورها في بعض الأحوال ولبعض الناس، وأنها مخلوقات عاقلة مكلفة بالتكاليف الشرعية على نحو ما عليه البشر، وأنهم يأكلون، ويشربون، ويتناكحون ولهم ذرية، قال ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل (٥/ ١٢): لكن لما أخبرت الرسل الذين شهد الله ﷻ بصدقهم بما أبدى على أيديهم من المعجزات المحلية للطبائع بنص الله ﷻ وعلى وجود الجن في العالم، وجب ضرورة العلم بخلقهم ووجودهم، وقد جاء النص بذلك وبأنهم أمة عاقلة مميزة، متعبدة، موعودة متوعدة، متناسلة،

يموتون. وأجمع المسلمون كلهم على ذلك.اهـ.

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٩/ ٩): لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن ولا في أن الله أرسل محمدًا ﷺ إليهم .. إلى أن يقول: وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواترًا معلومًا بالاضطرار، ومعلوم بالاضطرار أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة، بل مأمورون منهيون، ليسوا صفات وأعراضًا قائمة بالإنسان أو غيره كما يزعم بعض الملاحدة.اهـ.

وقال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية (ص: ١٢٣): وأما الجان فأهل السنة والجماعة يؤمنون بوجودهم.اهـ.

٢- مذهب جمهور الكفار كعامة أهل الكتاب والمجوس، وجمهور الكنعانيين، واليونانيين، والرومان، والهنود القدماء، وعامة مشركي العرب: الإقرار بوجود الجن، مع انحراف في تصورهم عن هذا المخلوق، هذه الطوائف المختلفة أقرت بوجود الجن، ولكن إقرارهم هذا صاحبه تصورات فاسدة ومنحرفة، فمنهم من اعتبر أن الجن شركاء لله في الخلق والتدبير، ومنهم من اعتبر أن للجن سلطانًا في الأرض، وأنهم يعلمون الغيب، ومنهم من أثبت أخوة بين الله وإبليس - تعالى الله عن ذلك- إلى غير ذلك من التصورات المنحرفة

٣- مذهب أكثر الفلاسفة وجماعة من القدرية والمعتزلة والجهمية، وكافة الزنادقة قديمًا وحديثًا: إنكار الجن، بالإضافة إلى نفر قد أولوا النصوص الدالة على وجود الجن تأويلًا يدل على إنكارهم، كما سيأتي.

قال الإمام القرطبي في تفسيره (١٩/ ٦): وقد أنكر جماع من كفرة الأطباء والفلاسفة الجن وقالوا: إنهم بسائط، ولا يصح طعامهم، اجتراء على الله وافتراء، والقرآن والسنة ترد عليهم.اهـ. وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى

(١٩/ ١٠): وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، وكما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك، كما يوجد في طوائف المسلمين كالجهمية والمعتزلة من ينكر ذلك، وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرين بذلك.اهـ.

والملاحدة والمتفلسفة يجعلون الملائكة قوى النفس الصالحة، والشياطين قوى النفس الخبيثة. كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٤٦).

وقد أنكرت جماهير القدرية وكافة الزنادقة الجن قال إمام الحرمين كما في إيضاح الدلالة في عموم الرسالة (ص٤): وكثير من الفلاسفة، وجماهير القدرية، وكافة الزنادقة أنكروا الجن والشياطين رأسًا، ولا يبعد لو أنكر ذلك من لا يتدبر ولا يتشبث بالشريعة، وإنما العجب من إنكار القدرية مع نصوص القرآن وتواتر الأخبار واستفاضة الآثار.اهـ. والذي يظهر أن المتأخرين من القدرية هم الذين ينكرون وجود الجن مع اعتراف متقدميهم بذلك، قال أبو بكر الباقلاني كما في إيضاح الدلالة في عموم الرسالة (ص٥): وكثير من القدرية يثبتون وجود الجن قديمًا وينفون وجودهم الآن، ومنه من يزعم أنهم لا يرون لرقة أجسامهم ونفوذ الشعاع فيها، ومنهم من قال: إنما لا يرون لأنهم لا ألوان لهم.اهـ.

وأما المعتزلة فالمشهور عن أكثر العلماء أن الكثيرين منهم ينكرون وجود الجن، يقول الجويني كما في كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة (٣٢٣): وقد أنكرهم معظم المعتزلة، ودل إنكارهم إياهم على قلة مبالاتهم، وركاكة ديانتهم، فليس في إثباتهم مستحيل عقلي، وقد نصت نصوص الكتاب والسنة على إثباتهم، وحق على اللبيب المعتصم بحبل الدين أن يثبت ما قضى العقل

بجوازه، ونص الشرع على ثبوته.اهـ. وقال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية (ص: ١٢٣).: وإنكار المعتزلة لوجودهم فيه مخالفة للكتاب والسنة والإجماع، بل ألزموا به كفرًا لأن فيه تكذيب النصوص القطعية بوجودهم.

وقال الدميري في حياة الحيوان الكبرى (١/ ٢٠٦): فإذا قيل: ما تقول فيما حكى عن بعض المعتزلة أنه ينكر وجود الجن؟ قلنا: عجيب أن يثبت ذلك عمن يصدق بالقرآن وهو ناطق بوجودهم.اهـ.

وقد ذكر محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٧/ ٥٢٨) أن الزمخشري وشيعته لم يكونوا من المنكرين لوجود الجن، وإنما الجن - كما يقولون - من عالم الغيب، لا نصدق من خبرهم إلا ما أثبته الشرع، أو ما هو في قوته من دليل الحس أو العقل، ولم يثبت شرعًا، ولا عقلًا، ولا اختبارًا، أن شياطين الجن تأكل الناس، ولا أنها تظهر لهم في الفيافي كما كانت تزعم العرب، وغير ذلك في طور الجهل والخرافات.اهـ.

أما الزنادقة قديمًا وحديثًا كالدهرية والملحدين من الشيوعيين وغيرهم فإنهم ينكرون الغيبيات بشكل عام، ويعتبرون أن الكون وجد هكذا صدفة، وعلى هذا فهم يحاربون الأديان ويعتبرونها أفيون الشعوب، وذلك كما تفعل الشيوعية في الوقت الحاضر، وليس لهؤلاء حجة في إنكار الغيبيات - والجن من بينهم - إلا عدم الإيمان بما لا يقع عليه الحس، ولا يعرف بالتجربة والمشاهدة، وهي حجة ساقطة من أساسها، لا تقوى على الوقوف أمام الأدلة الكثيرة الناطقة بوجودهم.

شبه المنكرين لوجود الجن والرد عليها: وجملة الشبه التي يتمسك بها المنكرون للجن تتلخص فيما يلي:

١- أن الجن لو كانوا موجودين لوجب أن يكونوا أجسامًا كثيفة أو لطيفة، ولو كانوا أجسامًا كثيفة لرآهم كل إنسان سليم الحس، ولو كانوا أجسامًا لطيفة لتمزقوا عند هبوب الرياح والعواصف، وللزم أن لا يكون لهم قدرة على الأعمال الشاقة كما يقول مثبتو الجن على حد قولهم.

والجواب على هذه الشبهة: أن الجن مجردون عن المادة والجسمية التي نشاهدها في الأمور المحسوسة أمامنا كالبشر، والدواب، والأشجار وغير ذلك، ولكن هذا لا يمنع أن يجعل الله فيهم خاصية القدرة على التشكل بالأشكال المختلفة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقد وردت الأحاديث الصحيحة في تشكلهم بمختلف الصور، فمعارضة هذه النصوص بالظن إنما هو تحكم بالباطل.

أما قولهم: إنهم لو كانوا أجسامًا لطيفة لتمزقوا عند هبوب الرياح والعواصف فجوابه: لقد ثبت عند الفلاسفة أن النار التي تنفصل عن الصواعق تنفذ في اللحظة اللطيفة في بواطن الأحجار والحديد وتخرج من الجانب الآخر، فلم لا يعقل مثله في هذه الصورة؟!، وعلى هذا التقدير فإن الجن تكون قادرة على النفوذ في بواطن الناس وعلى التصرف فيها، وأنها تبقى حية فعالة مصونة عن الفساد إلى الأجل المعين والوقت المعلوم، فكل هذه الأحوال احتمالات ظاهرة، والدليل لم يقم على إبطالها، فلم يجز المصير إلى القول بإبطالها وقد ثبت تسخيرهم للنبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بصريح القرآن، وقد كان يراهم على صورهم الأصلية كما دل عليه ظاهر القرآن.

٢- أن هذه الأشخاص المسماة بالجن لو كانوا حاضرين في هذا العالم، مخالطين للبشر، فالظاهر الغالب أن يحصل لهم بسبب طول المخالطة

والمصاحبة إما صداقة، وإما عداوة، فإن حصلت الصداقة وجب ظهور المنافع بسبب تلك الصداقة، وإن حصلت العداوة وجب ظهور المضاد بسبب تلك العداوة، إلا أننا لا نرى أثرًا لا من تلك الصداقة ولا من تلك العداوة.

والجواب على هذه الشبهة: أنه لا يشترط أن يحصل للإنسان من مصاحبة أحد صداقة أو عداوة يترتب عليهما المنافع والمضار، ومع ذلك فإن الوقائع الصحيحة التي وردت في السنة تدل على أن بعض الجن قد حصل منهم إيذاء لبعض من يكرهونه من الأنس، وقد ثبت علاج الرسول ﷺ لبعض من صرعتهم الجن، وقد ثبت كذلك نفع الجن لبعض الإنس كما حصل مع أبي هريرة عندما جاءه الشيطان فجعل يحثو من الطعام وقد تكرر مجيئه ثلاث مرات، وكان يزعم أنه لا يعود، حتى همَّ أبو هريرة أن يرفع أمره للرسول ﷺ، فقال الشيطان عند ذلك: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، فعلمه آية الكرسي وقال له: اقرأها فإنه لا يقربك شيطان ، وغير ذلك مما قد ثبت في نفع الجن لبعض الناس وإضرارهم لبعض منهم.

٣- إن الطريق إلى معرفة الجن إما الحس وإما المشاهدة وإما الدليل، ولم يثبت لنا بالحس وجودهم ورؤيتهم، والذين يقولون إنا أبصرناهم وسمعنا أصواتهم طائفة من المجانين يتخيلون ذلك، وليست في الحقيقة كذلك، وأما الخبر بواسطة الأنبياء عليهم السلام فباطل، لأن ذلك يؤدي إلى إبطال نبوتهم، ولجاز أن يقال إن كل ما أتى به الأنبياء من المعجزات إنما هو بإعانة الجن والشياطين، فإذا جوزنا نفوذ الجن في بواطن الإنسان فلم لا يجوز أن يقال: إن حنين الجذع إنما كان لأن الشيطان نفذ في ذلك الجذع ثم أظهر الحنين؟ ولم لا يجوز أن يقال: إن الناقة تكلمت مع الرسول ﷺ لأن الشيطان دخل في باطنها

فتكلمت؟ وأما الدليل والنظر فهو متعذر، لأنا لا نعرف دليلًا عقليًا يدل على وجود الجن والشياطين.

والجواب على هذه الشبهة: أن الدليل الحسي قد دل على وجود الجن، حيث رآهم الرسول عليه الصلاة والسلام وهو نبي معصوم من الخطأ والكذب، ورآهم ابن مسعود عندما ذهب معه ليلة تكليم الجن، ورآهم أبو هريرة عندما جاءه الشيطان في صورة رجل فقير، فأخذ يحثو من مال الصدقة، وقد حدث مثل ذلك لنفر من الصحابة، وغير ذلك من الوقائع التي تدل على رؤية الجن من قبل هؤلاء، وهم صحابة أجلاء وليسوا من المجانين كما يزعم المنكرون لوجود الجن، بل هم من العقلاء الموثوق بهم.

وأما الخبر فقد جاءت نصوص القرآن مخبرة عن أحوال الجن في مواضع متعددة من القرآن، وليس هناك من سبيل للطعن بكتاب الله - المنقول بالتواتر - بأي حال من الأحوال، ودل على وجودهم السنة المتواترة التي تقطع الشك وترفع العذر في إنكار وجودهم أو تأويلهم.

والقول أن في الاعتراف بهم إبطالًا لنبوة الأنبياء غير صحيح، لأنه قد ثبت لنا وجودهم عن طريق هؤلاء الأنبياء كذلك، فالشك في وجودهم يوجب الطعن في نبوتهم أيضًا.

وأما أن الإقرار بوجودهم يوجب إنكار معجزات الأنبياء فغير مسلم، لأن المعجزة إنما هي تأييد من الله لأنبيائه حتى يظهر للناس صدق نبوتهم، والرسل معصومون من تلبيس الجن والشياطين، فلا يمكن أن يكون حنين الجذع وتكليم الناقة للرسول عليه السلام من قبيل هذه التلبيسات.

أما الذين ينكرون وجود الجن بحجة عدم رؤيتهم، أمثال الزنادقة

والماديين، فهؤلاء ينكرون كل ما لا يقع عليه الحس، وأنه لم يدل دليل عقلي على نفي وجودهم، ولا يمنع العقل من وجودهم، في الوقت الذي دل فيه العقل على وجود أشياء كثيرة غائبة من الحس، وهو أمر لا تحيله الطباع ولا تنكره العقول، ثم إن العقل لم يدع أنه توصل إلى معرفة جميع الأشياء، وأن ما وصل إليه علم الإنسان غيض من فيض. فثبت بهذا بطلان شبهات منكري الجن.

موقف المنكرين لوجود الجن من النصوص الدالة على إثبات وجودهم:

وفي الوقت الذي يقرر الإسلام وجود الجن وأنهم مخلوقات عاقلة مكلفة خلقوا من النار، يأتي المنكرون للجن من الملاحدة والفلاسفة وغيرهم فيؤولون النصوص الدالة على وجود الجن والملائكة تأويلًا يبعد عن مقصد القرآن والسنة، وهو تأويل لا يعتمد على دليل يؤيده بل هو من تحريف الكلم عن مواضعه، تضليلًا للناس وصدا لهم عن سبيل الله، وهي تأويلات معلومة الفساد بالضرورة من دين الإسلام، وقد أدى تأويل هذا النفر من الناس إلى إنكار الجن بالكلية، وبهذا يتفقون مع المنكرين في الغاية والهدف. وقد تجلت هذه النظرة عند القدامى والمحدثين:

أما عند القدامى فيقول ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٤٦): وقد زعم الملاحدة والمتفلسفة بأن الملائكة هم قوى النفس الصالحة، والشياطين هم قوى النفس الخبيثة، ويجعلون سجود الملائكة طاعة القوى للعقل، وامتناع الشياطين عصيان القوى الخبيثة للعقل، ونحو ذلك من المقالات التي يقولها أصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم من القرامطة الباطنية، ومن سلك سبيلهم من ضلال المتكلمة والمتعبدة، وقد يوجد نحو هذه الأقوال في أقوال المفسرين التي لا إسناد لها يعتمد عليه.اهـ.

ويوضح هذه النظرة التي ذكرها ابن تيمية عن هذه الطوائف فخر الدين الرازي في تفسيره (١/ ٧٨): حيث يبين موقف الطوائف المختلفة من الجن، وقد ذكر عن هؤلاء الفلاسفة قولهم: النفوس الناطقة البشرية المفارقة للأبدان قد تكون خيرة وقد تكون شريرة، فإن كانت خيرة فهي الملائكة الأرضية، وإن كانت شريرة فهي الشياطين الأرضية، ثم إذا حدث بدن شديد المشابهة ببدن تلك النفس المفارقة ضرب تعلق بهذا البدن الحادث، وتصير تلك النفس المفارقة، معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن على الأعمال اللائقة بها، فإن كانت النفسان من النفوس الطاهرة المشرقة الخيرة، كانت تلك المعاونة والمعاضدة إلهامًا، وإن كانتا من النفوس الخبيثة الشريرة، كانت تلك المعاونة والمناصرة وسوسة.

وقال ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل (١/ ٩٠): وذهب القائلون بتناسخ الأرواح أمثال أحمد بن خابط، وأبو مسلم الخراساني، والرازي الطبيب المعروف وغيرهم أن الشياطين هي أرواح الشريرين من الناس، والملائكة هي أرواح الخيرين منهم.اهـ.

وذكر نحو هذا البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق (ص٢٧٩) حيث يقول: والباطنية يتأولون الملائكة على دعاتهم إلى بدعتهم، ويتأولون الشياطين والأبالسة على مخالفيهم.اهـ.

وما تقدم من تأويل الجن والملائكة هذا التأويل الفاسد إنما سببه الانحراف والزيغ عن منهج الحق، حيث ضلت هذه الفرق عن الإسلام، وتأولت آيات القرآن تأويلًا باطلا يوافق أهواءهم وما انتحلوه من إنكار هذه العوالم، فجمعوا بين إنكار الحق الثابت وتحريف النصوص.

وتأويل بعض هؤلاء الجن، والملائكة، بالأرواح المفارقة للأبدان هو من القول بالتناسخ أو يشابهه، ولا شك أن مذهب التناسخ مذهب باطل كما هو مقرر في الإسلام، فإن الأرواح لا تنتقل إلى أبدان أخر بعد الموت، بل تبقى في مستقرها في دار البرزخ منعمة أو معذبة.اهـ. من عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة (ص٧٩ وما بعده) بتصرف.

مسألة: كفر من أنكر وجود الجن

أن إنكار الجن مناقض للإيمان بالكتب المنزلة، فالإيمان بالكتب يتضمن الإقرار بها وتصديقها، وإنكار الجن هو تكذيب وجحود لآيات الله تعالى، فهو يناقض هذا الإقرار والتصديق، ومن ثَمَّ فقد توعّد الله تعالى أولئك المنكرين لآياته، المكذبين بها بالعذاب المهين والخلود في نار جهنم.

قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) [الأعراف:٤٠]. وقال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) [الحج:٥٧]. بل إن صفة الجحود لتلك الآيات لا تقوم إلا في الكفار، كما قال تبارك وتعالى: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ) [العنكبوت:٤٧]

قال ابن بطة في الإبانة الصغرى (ص٢١٣): فمن أنكر الجن فهو كافر بالله، جاحد بآياته، مكذب بكتابه.اهـ.

وقال ابن حزم في الفصل (٥/ ١١٢): لكن لما أخبرت الرسل الذين شهد الله ﷻ بصدقهم، مما أبدى على أيديهم من المعجزات ... بنصّ الله ﷻ على وجود الجن في العالم، وجب ضرورة العلم بخلقهم ووجودهم، وقد جاء النص

بذلك، وبأنهم أمة عاقلة مميزة متعبدة، موعودة متوعدة متناسلة يموتون ... فمن أنكر الجن، أو تأوّل فيهم تأويلًا يخرجهم به عن هذا الظاهر، فهو كافر مشرك حلال الدم والمال.اهـ.

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٦): وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجن، اجتراءً على الله وافتراءً، والقرآن والسنة ترد عليهم.اهـ.

وقال إمام الحرمين كما في آكام المرجان في أحكام الجان (ص: ١٩):"والتمسك بالظواهر والآحاد تكلف منا مع إجماع كافة العلماء في عصر الصحابة والتابعين على وجود الجن والشياطين، والاستعاذة بالله تعالى من شرورهم، ولا يراغم مثل هذا الاتفاق متدين متشبث بمسكه من الدين ثم ساق عدة أحاديث، ثم قال: فمن لم يرتدع بهذا وأمثاله فينبغي أن يتهم في الدين ويعترف بالانسلال منه، على أنه ليس في إثبات الشياطين ومردة الجن ما يقدح في أصل من أصول العقل وقضية من قضاياه".اهـ.

وقال الألوسي في روح المعاني (٢٩/ ٨٢): ونفي الجن كفر صريح كما لا يخفى.اهـ.

وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد كما في الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ١١٤): دلّت الكتب السماوية على وجود الجن حقيقة، وأجمع المسلمون عليه، بل وعقلاء النصارى، والمجوس، والصابئون؛ وهذا أمر معلوم حتى عند جاهلية العرب، ولم ينكر وجودهم إلا جهلة الأطباء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، وكذا جمهور الكفار، لأن وجودهم تواترت به أخبار الأنبياء، تواترا معلوما بالاضطرار، يعرفه الخاصة والعامة؛ قال: ولم ينكر الجن إلا شرذمة

قليلة من جهلة الفلاسفة ونحوهم .....

وقال الإمام الماوردي: الجن من العالم الناطق المميز، يتناسلون، ويموتون، وأشخاصهم محجوبة عن الأبصار، وإن تميزوا بأفعال وآثار، إلا أن الله يخص برؤيتهم من يشاء.

وإنما عرفهم الإنس من الكتب الإلهية، وما تخيلوه من آثارهم الخفية ... إلى أن قال: فإن أنكر قوم خلق الجن، ولم يؤمنوا بالكتب الإلهية، قهرتهم براهين العقول، وحجج القياس. وقال أبو البقاء في كلياته: وجمهور أرباب الملل، المصدقين بالأنبياء، قد اعترفوا بوجود الجن، واعترف جمع عظيم من قدماء الفلاسفة.اهـ .. أما حكم منكر الجن فإنهم مكذبون للقرآن العزيز والسنة النبوية، ومخالفون لما أجمع عليه المسلمون، كما قال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ} [سورة الأحقاف آية: ٢٩]، {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ} [سورة الجن آية: ١]، وكما في خبر جن نصيبين الذين جاؤوا إلى النبي ﷺ فاستمعوا قراءته، وآمنوا به، وصدقوه. فظهر مما تقدم إثبات وجود الجن حقيقة، وكفر من أنكر وجودهم، وأن لهم قدرة على النفوذ من بواطن البشر؛ وأن الصرع صرعان: صرع من الأرواح الشريرة الأرضية، وصرع من الأخلاط الرديئة، لما نص عليه كثير من محققي العلماء، رحمهم الله، والله الموفق، والهادي إلى سواء السبيل؛ وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.اهـ.

وقال العلامة الألباني في أصل صفة الصلاة (١/ ١٢٤): عن جابر بن سمرة قال: صلينا مع رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- صلاة مكتوبة فضم يده في الصلاة، فلما صلى قلنا: يا رسول الله أحدث في الصلاة شيء؟ قال: «لا إلا أن

الشيطان أراد أن يمر بين يدي فخنقته حتى وجدت برد لسانه على يدي، وأيم الله لولا ما سبقني إليه أخي سليمان لارتبط إلى سارية من سواري المسجد حتى يطيف به ولدان أهل المدينة». قال الشيخ: إسناده صحيح على شرط مسلم.

ثم علق عليه العلامة الألباني قائلًا: وهو من الأحاديث الكثيرة التي يكفر بها طائفة القاديانية؛ فإنهم لا يؤمنون بعالم الجن المذكور في القرآن والسنة، وطريقتهم في رد النصوص معروفة، فإن كانت من القرآن؛ حرفوا معانيها؛ كقوله تعالى {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} قالوا: أي من الإنس! فيجعلون لفظة " الجن " مرادفة للفظة " الإنس "؛ كـ" البشر "! فخرجوا بذلك عن اللغة والشرع، وإن كانت من السنة؛ فإن أمكنهم تحريفها بالتأويل الباطل؛ فعلوا، وإلا؛ فما أسهل حكمهم ببطلانها؛ ولو أجمع أئمة الحديث كلهم والأمة من ورائهم على صحتها؛ بل تواترها! هداهم الله.اهـ.

وقال الشيخ أيضا في نفس المصدر (٣/ ١٠٠٥- ١٠٠٦): ومن أباطيل غلام أحمد القادياني المخبول: زعمه أن المراد بالشيطان الرجيم في الاستعاذة هو هذا الدجال -يعني: الديانة} [المسيحية الباطلة]-؛ قال في كتابه "إعجاز المسيح" (٢٩):

ولا يفهم هذا الرمزَ إلا ذو القريحة الوقادة! ... ومن وقف على كتبه؛ يعلم أن تفسيره كله أو جله على هذه الطريقة الرمزية الصوفية الغالية، التي لا تستند إلى قاعدة لغوية أو شرعية، وإنما هي الهوى أو الوحي الشيطاني! وهو في أثناء تفسيره للاستعاذة يشير إلى إنكار وجود الجن والشياطين، وإنما الجن عنده وعند أتباعه الضالين هم زعماء الناس؛ كما صرح لي بذلك بعض أتباعه، وكان قد جرى بيني وبينه مناظرة شفهية في هذا الموضع في جلسات تبلغ العشر، كان

نتيجتها أن انسحب منها مذمومًا مدحورًا.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في الشرح الممتع (١٤/ ٤٢٧): أو جحد الجن، فهو ـ أيضًا ـ كافر؛ لأنه مكذب للقرآن، فأما من جحد دخول الجني في الإنس فهو ضال، وليس بكافر فهو ضال؛ لأنه قال قولًا ينكره الواقع، وينكره الثابت بالأخبار عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وعن غيره.اهـ.

وسئل العلامة الفوزان كما في المنتقى من فتاوى الفوزان: في عصرنا الحاضر كثُرَ حديث الناس عن تلبُّس الجنِّ بالإنس، ودخولهم فيهم، ومن الناس من ينكر ذلك، بل إنّ البعض ينكر الجنَّ إطلاقًا؛ فهل لهذا تأثير على عقيدة المسلم؟ وهل ورد ما يلزم بالإيمان بالجنِّ؟ ثم ما الفرق بينهم وبين الملائكة؟

فأجاب: إنكار وجود الجنِّ كفر وردَّةٌ عن الإسلام؛ لأنه إنكارٌ لما تواتر في الكتاب والسنة من الأخبار عن وجودهم؛ فالإيمان بوجودهم من الإيمان بالغيب؛ لأننا لا نراهم، وإنما نعتمد في إثبات وجودهم على الخبر الصَّادق؛ قال تعالى في إبليس وجنوده: {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ} [الأعراف: ٢٧].

أمَّا إنكار دخولهم في الإنس؛ فلا يقتضي الكفر، لكنه خطأ، وتكذيب لما ثبت في الأدلَّة الشرعيَّة والواقع المتكرِّر وجوده، لكن لِخفاء هذه المسألة لا يُكفَّر المخالف فيها، ولكن يخطَّأ؛ لأنه لا يعتمد في إنكار ذلك على دليل، وإنما يعتمد على عقله وإدراكه، والعقل لا يُتَّخذ مقياسًا في الأمور الغيبيَّة، وكذلك لا يكون العقل مقدَّمًا على أدلَّة الشرع؛ إلا عند أهل الضلال.

والفرق بين الجنِّ والملائكة من وجوه:

الوجه الأول: من وجه أصل الخِلقة؛ فالجنُّ خُلِقوا من نار السَّموم،

والملائكة خُلِقوا من نور.

الوجه الثاني: أن الملائكة عبادٌ مطيعون لله، مقرَّبون، مكرَمون؛ كما قال تعالى: {بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ، لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: {لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦]. أما الجنُّ؛ فمنهم المؤمن ومنهم الكافر؛ كما قال تعالى إخبارًا عنهم: {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ} [الجن: ١٤]، ومنهم المطيع ومنهم العاصي؛ قال تعالى: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ.. .} [الجن: ١١] إلى غير ذلك من الآيات.اهـ.

وقال العلامة الفوزان أيضا في إعانة المستفيد (١/ ٢٥): ومن جحد وجود الجن فهو كافر؛ لأنه مُكَذِّبٌ لله ورسوله وإجماع الأمة على وجود الجن، وهؤلاء الذين أنكروا وجودهم على أي شيء يعتمدون؟، ما يعتمدون على شيء إلاَّ لأنهم لا يرونهم، وهل كل موجود لابد أن تراه؟ هناك أشياء كثيرة ما تراها وهي موجودة، مثلًا: الروح التي فيك، هل تراها؟، هل الروح التي تحركك؛ تمشي بها وتقعد هل تراها، والعقل موجود ومع هذا لا تراه.

الحاصل؛ أنه ما كل شيء موجود لابد أننا نراه، هناك أشياء كثيرة وكثيرة وكثيرة لا نراها، وربما تكون تعيش معنا، ولله الحِكمة سبحانه وتعالى، ومن ذلك {الْجِنَّ} وهم عالم عظيم، إلاَّ أننا لا نراهم، وهم مكلّفون مثل الإنس.اهـ.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ٤٢٣): من الإيمان بالكتب الإيمان بالقرآن والقرآن فيه الخَبَرْ عن الغيب ومنه الخبر عن الجن، فالجن أنزل الله ﷻ فيهم آيات كثيرة {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ} [الجن:١- ٢]، وقال

عَجَلَّ في آية الأحقاف {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} [الأحقاف:٢٩]، وقال عَجَلَّ {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سبإ:٤١]، وقال سبحانه {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} [الصافات:١٥٨]، وغير ذلك من الآيات التي فيها ذكر الجن، {قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ} [النمل:٣٩]، فالإيمان بالجن واجب؛ الإيمان بوجودهم وبما أخبر الله عَجَلَّ عنهم من صفتهم في كتابه، وبما صحّ في حديث النبي ﷺ، فمن أنكر وجود الجن كفر لأنه كذَّبَ القرآن، فَيُعَرَّف -إذا كان مثله يجهل- يُعَرَّفْ بما جاء في القرآن من الآيات، فإذا كذب بوجود الجن مع ذكرهم في القرآن فإن تكذيبه يعود إلى إنكار وجحد القرآن فيكون كافرًا بذلك.

مسألة: ماهية الجن

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٢): عن قائل يقول: إن لم يتبين لي حقيقة ماهية الجن وكنه صفاتهم؛ وإلا فلا أتبع العلماء في شيء.

فأجاب: أما كونه لم يتبين له كيفية الجن وماهياتهم؛ فهذا ليس فيه إلا إخباره بعدم علمه لم ينكر وجودهم؛ إذ وجودهم ثابت بطرق كثيرة غير دلالة الكتاب والسنة فإن من الناس من رآهم وفيهم من رأى من رآهم وثبت ذلك عنده بالخبر واليقين. ومن الناس من كلمهم وكلموه ومن الناس من يأمرهم وينهاهم ويتصرف فيهم: وهذا يكون للصالحين وغير الصالحين ولو ذكرت ما جرى لي ولأصحابي معهم: لطال الخطاب. وكذلك ما جرى لغيرنا؛ لكن الاعتماد على

الأجوبة العلمية يكون على ما يشترك الناس في علمه لا يكون بما يختص بعلمه المجيب إلا أن يكون الجواب لمن يصدقه فيما يخبر به.اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٤٤): واختلف في صفتهم فقال القاضي أبو بكر الباقلاني قال بعض المعتزلة: الجن أجساد رقيقة بسيطة، قال: وهذا عندنا غير ممتنع إن ثبت به سمع. وقال أبو يعلى بن الفراء: الجن أجسام مؤلفة وأشخاص ممثلة، يجوز أن تكون رقيقة وأن تكون كثيفة خلافا للمعتزلة في دعواهم أنها رقيقة، وأن امتناع رؤيتنا لهم من جهة رقتها. وهو مردود، فإن الرقة ليس بمانعة عن الرؤية. ويجوز أن يخفى عن رؤيتنا بعض الأجسام الكثيفة إذا لم يخلق الله فينا إدراكها. وروى البيهقي في "مناقب الشافعي" بإسناده عن الربيع سمعت الشافعي يقول: من زعم أنه يرى الجن أبطلنا شهادته، إلا أن يكون نبيا. انتهى. وهذا محمول على من يدعي رؤيتهم على صورهم التي خلقوا عليها، وأما من ادعى أنه يري شيئا منهم بعد أن يتطور على صور شتى من الحيوان فلا يقدح فيه، وقد تواردت الأخبار بتطورهم في الصور، واختلف أهل الكلام في ذلك فقيل: هو تخييل فقط ولا ينتقل أحد عن صورته الأصلية، وقيل بل ينتقلون لكن لا باقتدارهم على ذلك بل بضرب من الفعل إذا فعله انتقل كالسحر وهذا قد يرجع إلى الأول، وفيه أثر عن عمر أخرجه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح "أن الغيلان ذكروا عند عمر فقال: إن أحدا لا يستطيع أن يتحول عن صورته التي خلقه الله عليها، ولكن لهم سحرة كسحرتكم، فإذا رأيتم ذلك فأذنوا" وإذا ثبت وجودهم فقد اختلف في أصلهم فقيل: إن أصلهم من ولد إبليس، فمن كان منهم كافرا سمي شيطانا، وقيل: إن الشياطين خاصة أولاد إبليس ومن عداهم ليسوا من ولده، وحديث ابن عباس الآتي في تفسير سورة

الجن يقوي أنهم نوع واحد من أصل واحد، واختلف صنفه فمن كان كافرا سمي شيطانا وإلا قيل له جني.اهـ.

وسئل العلامة الوادعي كما في تحفة المجيب (ص٣٧٥): هل الجن أرواح أم أجساد؟

فأجب: الذي يظهر أنّهم أرواح وأجساد، إلا أنّهم قادرون على التشكل والدخول من أي مكان والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يأمرنا بغلق الأبواب ويقول: ((إن الشّيطان لا يفتح غلقًا)). ويأمرنا بتغطية الآنية وأن نذكر اسم الله عليها، وهكذا إذا دخل إلى منْزله وقال: بسم الله. قال الشيطان: لا مبيت، وإذا أكل وقال: بسم الله. قال الشيطان: لا مبيت ولا عشاء.

(باب تعريف الجن)

ورد لفظ الجن في القرآن الكريم في آيات كثيرة، وسميت باسمهم سورة هي سورة الجن، وورد في السنة المطهرة كذلك ذكر الجن في مواضع متعددة، وكل ذلك إنما يدل على أهمية هذا المخلوق، إذ أنه يشاطر الإنس في التكليف، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]، وعلى هذا فما هو هذا المخلوق؟.

الجن بالكسر: اسم جنس جمعي واحده جني، وهو مأخوذ من الاجتنان، وهو التستر والاستخفاء. وقد سموا بذلك لاجتنانهم من الناس فلا يرون، والجمع جنان وهم الجنة.

وعلى هذا فهم ضد الإنس، لأن الإنس سمي بذلك لظهوره، وإدراك البصر إياه، فيقال: آنست الشيء: إذا أبصرته.

ويقال: لا جنَّ بهذا الأمر: أي لا خفاء به ولا ستر.

والمجن بالكسر: هو الترس، لأن المقاتل يستتر به من الرامي والطاعن وغير ذلك. وكل شيء وقيت به نفسك واستترت به فهو جنة. ومنه قول الرسول ﷺ: (.. والصيام جنة). أي وقاية، لأنه يقي صاحبه من المعاصي.

وجن الرجل جنونًا وأجنه الله فهو مجنون: إذا خفي عقله واستتر، وجن الرجل كذلك: أعجب بنفسه حتى يصير كالمجنون من شدة إعجابه. وقال القتيبي: وأحسب قول الشنفري من هذا:

فلو جن إنسان من الحسن جنت ..

أسماء الجن في لغة العرب

قال ابن عبد البر: الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان على مراتب:

١- فإذا ذكروا الجن خالصًا قالوا جني.

٢- فإذا أرادوا أنه مما يسكن مع الناس، قالوا: عامر والجمع عمار.

٣- فإن كان مما يعرض للصبيان قالوا: أرواح.

٤- فإن خبث وتعرض قالوا: شيطان.

٥- فإن زاد أمره على ذلك وقوي أمره قالوا: عفريت.

أما تعريف الجن اصطلاحا: يستخلص من التعريفات المتعددة للجن: بأنهم نوع من الأرواح العاقلة، المريدة، المكلفة على نحو ما عليه الإنسان، مجردون عن المادة، مستترون عن الحواس، لا يرون على طبيعتهم، ولا بصورتهم الحقيقية، ولهم قدرة على التشكل، يأكلون، ويشربون، ويتناكحون، ولهم ذرية، محاسبون على أعمالهم في الآخرة.

وهذا التعريف يعطي الصفات البارزة لهذا العالم الذي نجهل الكثير عن طبيعة حياته، لأنه غائب عن حواسنا، ...

وبناء على ما تقدم فإن الجن خلق يغاير طبيعة البشر من حيث الشكل وأصل المادة التي خلقوا منها، إذ أنهم مخلوقون من النار، بعكس الإنسان الذي خلق من الطين قال تعالى: {خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ} [الرحمن: ١٤- ١٥].

وكذلك فإن هذا المخلوق له حياته الخاصة من حيث الطعام والشراب، يختلف فيها عن الإنسان، وغير ذلك مما يختص به من الصفات .. عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة (ص٨،٣)، وعالم الجن والشياطين لعمر سليمان الأشقر (ص ١٢).

(باب الجن مكلفون)

خلق الله الجن للغاية نفسها التي خلق الإنس من أجلها، قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات: ٥٦] لذا فقد انعقد الإجماع من أهل الحق على تكليف الجن في الجملة.

لقد نصت كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أن الجن مكلفون بالتكاليف الشرعية، وأنهم مأمورون بفعل الطاعات والقيام بالعبادات، وأنهم منهيون عن ارتكاب المعاصي والمحرمات، وأنهم مختارون لهذا الأمر والنهي، وهذا ما عليه جمهور أهل الإسلام. وهم بهذا كالبشر الذين كلفهم الله بالتكاليف الشرعية أمرًا ونهيًا.

وذهب قوم -ممن لا يعتد بخلافهم- إلى أن الجن مضطرون، أي أنهم غير قادرين على فعل الطاعات أو ارتكاب المنهيات، وعلى هذا الأساس فهم غير مكلفين، وهذا يقتضي عدم الجزاء بالثواب على فعل الطاعات، وعدم الجزاء بالعقاب على ارتكاب المنهيات.

وقد نقل القاضي عبد الجبار الهمداني هذا القول عن زرقان الذي حكاه عن بعض الحشوية على ما ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري[(١)].

والصواب الذي لا ريب فيه أن الجن مكلفون أمرًا ونهيًا، مختارون لهذا التكليف، قال ابن القيم طريق الهجرتين (ص٤١٨): الصواب الذي عليه جمهور أهل الإسلام أنهم مأمورون منهيون، مكلفون بالشريعة الإسلامية، وأدلة القرآن والسنة على ذلك أكثر من أن تحصر، وإضافة القول إلى المعتزلة بتكليفهم، بمنزلة أن يقال: ذهب المعتزلة إلى القول بمعاد الأبدان، ونحو ذلك مما هو من أقوال سائر أهل الإسلام.اهـ.

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٦٩): إن سورة الرحمن، والأحقاف، وقل أوحي دليل على أن الجن مخاطبون مكلفون، مأمورون منهيون، معاقبون كالإنس سواء بسواء، مؤمنهم كمؤمنهم، وكافرهم ككافرهم، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك.اهـ.

وقال الفخر الرازي في تفسيره (٢٨/ ٣١٣): وأطبق المحققون على أن الجن مكلفون.اهـ.

ونقل مثل هذا القول ابن حجر العسقلاني في الفتح (٦/ ٣٤٤): عن القاضي عبد الجبار الهمداني، ورجح القاضي عبد الجبار قول الجماعة بعد أن ذكر عن بعض الحشوية قولهم: بأن الجن مضطرون إلى أفعالهم وليسوا مكلفين، ثم قال: (والدليل للجماعة ما في القرآن من ذم الشياطين والتحرز من شرهم، وما

---

(١) فتح الباري (٦/ ٣٤٤) وقال الشبلي في آكام المرجان (ص٣٤):فصل قال القاضي عبد الجبار لا نعلم خلافا بين أهل النظر في الجن مكلفون وقد حكى زرقان وغسان فيما ذكراه من المقالات عن الحشوية أنهم مضطرون إلى أفعالهم وأنهم ليسوا مكلفين.

أعد لهم من العذاب، وهذه الخصال لا تكون إلا لمن خالف الأمر وارتكب النهي، مع تمكنه من أن لا يفعل، والآيات والأخبار الدالة على تكليفهم كثيرة جدًا[(١)].

أولا: الأدلة من القرآن على تكليف الجن

وردت آيات كثيرة تدل على تكليف الجن، وهي على أنواع مختلفة منها:

١- ما جاء من التصريح في الحكمة من خلق الجن والإنس.

وذلك في قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ) [الذاريات: ٥٦- ٥٧]. فالآية صريحة في أن الله قد خلق الجن والإنس للعبادة، وعلى هذا وردت أقوال العلماء:

قال ابن عباس: (إِلا لِيَعْبُدُونِ) أي: إلا ليقروا بعبادتي، طوعًا أو كرهًا)، وهذا اختيار ابن جرير الطبري كما في تفسيره (٢٧/ ٨).

وورد عن علي بن أبي طالب، وابن جريج، والربيع بن أنس أن معنى قوله

(١) قال ابن عبد البر في التمهيد (١١/ ١١٧): "وهم عند الجماعة مكلفون مخاطبون لقوله تعالى يا معشر الجن والإنس وقوله تعالى فبأي آلاء ربكما تكذبان وقوله سنفرغ لكم أيها الثقلان وقوله لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ولا يختلفون أن محمدا ﷺ رسول إلى الإنس والجن نذير وبشير هذا مما فضل به على الأنبياء أنه بعث إلى الخلق كافة الجن والإنس وغيره لم يرسل إلا بلسان قومه ﷺ ودليل ذلك ما نطق به القرآن من دعائهم إلى الإيمان بقوله في مواضع من كتابه يا معشر الجن والإنس".اهـ.

وقال ابن مفلح في الفروع (١/ ٦٣٥): "الجنّ مكلفون في الجملة إجماعًا يدخل كافرهم النار إجماعًا، ويدخل مؤمنهم الجنة وفاقًا لمالك والشافعي رضي الله عنهما، لا أنهم يصيرون ترابًا كالبهائم، وأن ثواب مؤمنهم النجاة من النار خلافًا لأبي حنيفة والليث بن سعد ومن وافقهما. قال: وظاهر الأول يعني قول الإمام أحمد ومالك والشافعي رضي الله عنه م أنهم في الجنة كغيرهم بقدر ثوابهم، خلافًا لمن قال: لا يأكلون، ولا يشربون فيها، كمجاهد، أو أنهم في ربض؛ أي حول الجنة، كعمر بن عبد العزيز".

تعالى: (إِلا لِيَعْبُدُونِ) أي إلا لآمرهم بالعبادة، وهو اختيار الزجاج[(١)].

٢- ما ورد عن صرف الجن إلى الرسول ﷺ، واستماعهم للقرآن منه.

أ- قال تعالى: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [الأحقاف: ٢٩- ٣١].

فقد أخبر القرآن الكريم أن الله قد صرف الجن إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لاستماع القرآن منه، وسواء كان حضورهم إلى مكة - حيث كان الرسول عليه السلام يقرأ القرآن، بعد منعهم من استراق أخبار السماء - أو كان حضورهم بتوفيق من الله هداية لهم، على ما ذكره الإمام الماوردي في أعلام النبوة (ص: ١٤٣) فإن في ذلك دلالة على استماعهم للقرآن منه عليه السلام، وانصاتهم لسماعه.

قال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (ص: ٤٢١): وقوله تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ} [الأحقاف: ٢٩]. الآية، تدل على تكليف الجن من عدة وجوه:

أحدها: أن الله تعالى صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به، ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه.

الثاني: أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه،

---

(١) تفسير القرطبي (١٧/ ٥٥)، وفتح القدير (٥/ ٩٢)

وأن القرآن مصدق له، وأنه هاد إلى صراط مستقيم، وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة.

الثالث: أنهم قالوا لقومهم: يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ} [الأحقاف: ٣٠]. والآية صريحة في أنهم مكلفون، مأمورون بإجابة الرسول، وهو تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر اهـ.

وقال الألوسي في روح المعاني (٢٦/ ٣٢): في قوله تعالى: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ: وهذا ونحوه يدل على أن الجن مكلفون.اهـ.

وقال ابن كثير في تفسيره: وفي هذا دلالة على أنه تعالى أرسل محمدًا ﷺ إلى الثقلين: الجن والإنس، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم، ووعدهم، ووعيدهم، وهي سورة الرحمن، ولهذا قال: أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ.اهـ.

ب- قوله تعالى في سورة الجن: (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا -إلى قوله-: وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) [الجن: ١- ١٥].

وقد جاءت هذه الآيات إخبارًا للرسول عليه الصلاة والسلام باستماع نفر من الجن إليه وهو يقرأ القرآن بأصحابه، وذلك بعد أن منع الجن من استراق أخبار السماء، فعرفوا أن هذا المنع ما حصل إلا لشيء قد حدث في الأرض، فجابوا الأرض، فكان النفر الذين أخذوا نحو تهامة في بلاد الحجاز قد مروا على الرسول عليه السلام وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له

وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم منذرين، فأنزل الله تعالى إلى نبيه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١] الآية[١]، ولم يكن يعلم باستماعهم إليه على الراجح من الروايات في ذلك، وظاهر القرآن يدل عليه.

وقد دلت هذه الآيات على إيمانهم بالقرآن وأخذهم عهدًا على أنفسهم أن لا يشركوا بالله، وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢]، وقوله عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ [الجن:١٢]. ففي إيمانهم بالقرآن، ووصفهم له بأنه يهدي إلى الرشد، وعدم إشراكهم بالله، دلالة على أنهم مكلفون، وكذلك مسارعتهم لاستماعه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]. أي: لما قام رسول الله ﷺ يدعو ربه ويقرأ القرآن اجتمع الجن عليه متلبدين متراكمين، حرصًا على ما جاء به من الهدى. فقد كانوا فرحين حريصين متأملين عند سماعهم للقرآن، وفي هذا دلالة على كمال عقولهم، وهو يقتضي التكليف، وقد وردت آيات كثيرة تخاطب العقل كقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ ، وقوله: ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ ، وقوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. وفي هذا دلالة على توجه الخطاب للعاقل، وقد تقدم أن الجن مخلوقات عاقلة مريدة مختارة، عندها القدرة على التمييز بين الحق والباطل.

٣- ما يتضمن التصريح بإرسال رسل إليهم

قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٧٣). من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا) [الأنعام: ١٣٠].

ففي هذه الآية خطاب للجن والإنس يوم القيامة، وهذا الخطاب فيه تقرير من الله في أنه قد بعث رسلًا إلى الجن والإنس حيث يسألهم وهو أعلم: هل بلغتهم الرسل رسالاته؟، وبذلك يزول العذر وتنقطع الحجة لأي واحد من الجن والإنس، إذ بعث الله رسلًا يوضحون الطريق ويأمرون بعبادة الله، وينهون عن معصيته، ولا شك أن أمر الرسل ونهيهم للجن والإنس هو محض التكليف، قال ابن القيم: (وهذه الآية تدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ، لكن دعوة أولئك الرسل كانت مقصورة على بعض الإنس والجن، أما رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام فهي عامة لجميع الجن والإنس[1].

٤- ما يتضمن خطاب الجن والإنس معًا

وذلك في سورة الرحمن في قوله تعالى بعد الحديث عن نعمه على عباده: فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ١٣]، حيث ورد هذا الخطاب في واحد وثلاثين موضعًا من سورة الرحمن، وفيه خطاب للجن والإنس معًا، وفي هذه المواضع امتنان من الله على عباده بهذه النعم التي لا يجحدها إلا كافر.

فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (خرج رسول الله ﷺ فقرأ سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودًا منكم، كلما أتيت على قوله: فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد)[2].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٤٢١) بتصرف.

(٢) أخرجه الترمذى (٥/ ٣٩٩، رقم ٣٢٩١)، والحاكم (٢/ ٥١٥، رقم ٣٧٦٦) والبيهقى فى شعب الإيمان (٢/ ٤٨٩، رقم ٢٤٩٣)، وأبو الشيخ فى العظمة (٥/ ١٦٦٦، رقم ١١٠٦٢٦)، والحكيم في نوادر الأصول (٢/ ٢٧٧)، والإسماعيلي في معجمه (ج ١/ =

قال ابن القيم في طريق الهجرتين (ص٤٢٢): وهذا يدل على ذكائهم، وفطنتهم، ومعرفتهم بمؤنة الخطاب وعلمهم أنهم مقصودون به ..... وقد دلت سورة الرحمن على تكليفهم بالشرائع كما كلف الإنس، ولهذا يقول في إثر كل

=

ق١٠/ ١ - ٢)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (١/ ١٨١) من حديث جابر رضي الله عنه، وللحديث شاهد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أخرجه البزاز (٣/ رقم ٢٢٦٩)، وابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٧٢)، والخطيب في التاريخ (٤/ ٣٠١) والحديث ضعفه الترمذي، وابن عدي في الكامل (٣/ ٢١٩)، والعقيلي في الضعفاء (٢/ ٣٣٥)، والذهبي في الميزان (٢/ ٨٥)، وضعفه أيضا الحويني في النافلة (١٠٦)، وقال العلامة الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (رقم ٧٥): الحديث ذكره الحافظ الذهبي في "الميزان" في ترجمة زهير بن محمد التميمي من مناكيره ثم قال الإمام الذهبي رحمه الله: تفرد به هشام بن عمار عن الوليد قال ابن عدي: سرقه جماعة فحدثوا به عن الوليد منهم سليمان بن أحمد الواسطي وعلي بن جميل الرقي وعمرو بن مالك البصري وبركة بن محمد الحلبي. اهـ وذكر الذهبي قبل هذا في ترجمة زهير بن محمد: قال الترمذي في "العلل": سألت البخاري عن حديث زهير هذا فقال: أنا أتقي هذا الشيخ كأن حديثه موضوع، وليس هذا عندي زهير بن محمد. قال وكان أحمد بن حنبل يضعف هذا الشيخ ويقول: ينبغي أن يكون قلب اسمه أهل الشام". اهـ. وقال الإمام الترمذي بعد ذكره هذا الحديث (ج٤ص١٩٢مع "تحفة الأحوذي" طبعة هندية): غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد قال ابن حنبل كأن زهير بن محمد الذي وقع بالشام ليس هو الذي يروى عنه بالعراق كأنه رجل آخر قلبوا اسمه يعني لما يروون عنه من المناكير. وسمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: أهل الشام يروون عن زهير بن محمد مناكير وأهل العراق يروون عنه أحاديث مقاربة. اهـ من أحاديث معلة، وضعفه أيضا الشيخ مشهور في أخطاء المصلين، وقواه غيرهم فصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال ابن عساكر في معجم الشيوخ (١/ ٨١): حسن غريب، وصححه السيوطي في الدر المنثور (١٤/ ١٠١)، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة رقم (٢١٥٠) وقال: الحديث بمجموع الطريقين لا ينزل عن رتبة الحسن.

آية: فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، فدل على أن السورة خطاب للثقلين معًا، ولهذا قرأها رسول الله ﷺ على الجن قراءة تبليغ، وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن ردًا منهم، فإنهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ: لا نكذب بشيء من آلائك ربنا فلك الحمد.

٥- ما يتضمن تحدي الثقلين بالإتيان بمثل القرآن

وذلك في قوله تعالى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) [الإسراء: ٨٨].

فهو تحد للإنس والجن معًا في أن يقدروا على الإتيان بمثل هذا القرآن، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك وتوجه الخطاب بالتحدي للإنس والجن من دون الخلائق دليل على أنهم هم المعنيون بأمر هذا القرآن وما اشتمل عليه من أنواع الإعجاز المختلفة، وفي هذا دليل على تكليف الجن كالإنس.

٦- ما يتضمن بشارة المؤمنين من الجن بالثواب على أعمالهم وتحذير الكافرين والعصاة منهم بالعقاب على كفرهم ومعصيتهم في الآخرة

وقد وردت البشارة بالتحذير في مواضع متعددة من القرآن منها:

أ- قوله تعالى في سورة الأحقاف: (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) [الأحقاف: ١٨- ١٩]. فقد أخبر الله في هذه الآيات أن في الجن من حق عليه القول، أي: وجب عليه العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، وفي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين، وتعلق الأمر والنهي بهم، ثم قال بعد ذلك: (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا) أي في الخير والشر يوفونها ولا يظلمون شيئًا من أعمالهم، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا

مأمورين بالشرائع، متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر[١].

وقوله تعالى كذلك: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) [الأحقاف: ٢٩].

والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول عليه الصلاة والسلام[٢].

ثم ما جاء من أمر هذا النفر من الجن لقولهم بإجابة دعوة الرسول عليه السلام المستجابة لمغفرة الله لذنوب الجن ونجاتهم من العذاب، وذلك في قوله تعالى عن هؤلاء النفر: (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [الأحقاف: ٣١]. والذنب هو مخالفة الأمر وارتكاب النهي، وقوله: (وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) وهذا يدل على أن من لا يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم، وفيه بشارة لمن آمن بالرسول واستجاب لدعوته، وإنذار لمن كذب وعصى، وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم[٣].

ثم عقب تعالى على ذلك بقوله عنهم: (وَمَن لا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ) [الأحقاف: ٣٢].

وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعي الله منهم، قال الإمام الطبري

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٤١٩)

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٤٢١).

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٤٢١).

في تفسيره (٢٦/ ٣٤): يقول تعالى مخبراً عن قيل هؤلاء النفر لقومهم: ومن لا يجب أيها القوم رسول الله محمدًا ﷺ وداعيه إلى ما بعثه بالدعاء إليه، وهو توحيده والعمل بطاعته، فليس بمعجز ربه بهربه إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه إلى الإسلام وتركه تصديقه، وإن ذهب في الأرض هاربًا، لأنه حيث كان فهو في سلطانه وقبضته، وليس لمن لم يجب داعي الله من دون ربه نصراء ينصرونه من الله إذا عاقبه ربه على كفره به وتكذيبه داعيه.

ب- قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. ثم قوله بعد ذلك: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]

فهذه الآيات تتحدث عن الجن والإنس وموقفهم من بعضهم بعضًا، واستذكارهم لاستمتاعهم ببعضهم في الدنيا سواء كان بطاعة الإنس للجن فيما يأمرون به من الشهوات، أو التجاء الإنس بالجن عند النزول في واد أو قفر موحش لا أنيس به، وتلذذ بهذه الطاعة من قبل الإنس، التي تشعر بسيادة الجن على الإنس فكان من نتيجة هذا الاستمتاع البعد عن طاعة الله، الذي ترتب عليه الخلود في النار كما نصت عليه الآية الكريمة.

وقوله: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨] فيه خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في العذاب واشتراكهم في العذاب

يدل على اشتراكهم في التكليف.

وقوله في الآية الأخرى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا) فيه إنذار لهم بالخوف من عذاب ربهم على لسان الرسل الذين بعثوا إليهم، إذ هم تنكبوا الطريق ولم يمتثلوا لهذا الإنذار.

ج - قوله تعالى في سورة سبأ إخبارًا عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) [سبأ: ١٢].

ففي هذه الآية تهديد للجن بالعذاب إذا هم خالفوا أمره تعالى في طاعة نبيه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما يسخرهم به من القيام بشتى الأعمال التي يأمرهم بها، وهو يدل على تكليفهم، وإلا لما استحقوا العذاب على هذه المخالفة.

د - ما جاء في سورة الرحمن من التهديد للجن والإنس في قوله تعالى: (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) [الرحمن: ٣١- ٤٠].

فقد جاءت هذه الآيات بعد الحديث عن خلق النوعين: الإنس والجن في قوله تعالى: (خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) [الرحمن: ١٥]. ثم خاطب الله النوعين بالخطاب

المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم، وإنكار تكذيبهم بآياته، وترغيبهم في وعده، وتخويفهم من وعيده، وتهديده بقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ وتخويفهم من عواقب ذنوبهم وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]. ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم، وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المنهيون المثابون المعاقبون.

وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع، قال قتادة: معناه فراغ الدنيا وانقضاؤها، ومجيء الآخرة والجزاء فيها، والله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء، والفراغ في اللغة على وجهين: فراغ من الشغل، وفراغ بمعنى القصد، وهو في هذا الموضع بالمعنى الثاني، وقد قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء[1].

أما قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]. فعلى الراجح من أقوال المفسرين أن هذا خطاب للجن والإنس في الآخرة عندما يجتمعون في صعيد واحد للحساب، حيث تكون الملائكة قد أحاطت بأقطار الأرض، وأحاط سرادق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهربًا ولا منفذًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢- ٣٣]. قال مجاهد: فارين غير معجزين. وقال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندُّوا هربًا، فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفًا، فيرجعون إلى المكان

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٤٢٢).

الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وعلى هذا فيكون المعنى: يا معشر الجن والإنس إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السماوات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم في الآخرة فافعلوا. وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]. فيه دليل على إضافة الذنوب إلى الثقلين، وهذا دليل على أنهما سويًا في التكليف.

هـ - ما جاء في سورة الجن من إخبار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام من استماع نفر من الجن إليه بقوله عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٣- ١٧]. ثم التعقيب في أواخر السورة بقوله: ﴿إِلا بَلاغًا مِّنَ اللهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]. فهو الجزاء من الله للمؤمنين من الجن والإنس على أعمالهم، فإن الله لا يبخس أحدًا من عباده على عمل عمله في الدنيا، بالإضافة إلى أن الله لن يحمله في الدنيا أكثر مما يستطيع، أما في الآخرة فإن الله أعد للمسلمين نعيمًا مقيمًا، لأنهم تحروا الصواب واختاروه عن معرفة وقصد، بعد تبين ووضوح. وأما القاسطون وهم الجائرون الظالمون المجانبون للعدل والصلاح، فهم حطب جهنم جزاء أعمالهم، ولو استقام هؤلاء النفر من الجن والإنس على الإسلام لأسقيناهم ماء موفورًا نغدقه عليهم، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء، لنفتنهم فيه ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون.

وقد دلت هذه الآيات على أن الجن يجزون بأعمالهم خيرًا أو شرًا، وأنهم لا يعذبون في النار، وهذا مترتب على تكليفهم في الدنيا بفعل الطاعات وترك المعاصي، وإلا لما كان هذا العذاب للعصاة منهم، والثواب للطائعين منهم كذلك.

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا أن الجن مكلفون بنص القرآن، وأنهم هم والإنس في ذلك سواء، وأنهم سيحاسبون على هذا التكليف في الآخرة، فإن أحسنوا فلهم الجنة، وإن أساءوا فالنار مثواهم جزاء عادلًا من الله سبحانه.

ثانيا: الأدلة من السنة

وردت كثير من الأحاديث التي تثبت تكليف الجن، وأن رسول الله ﷺ قد قرأ عليهم القرآن، وأنهم مكلفون بالإيمان برسالته، فمن هذه الأحاديث:

١- ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود فقلت: (هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه. فالتمسناه في الأودية والشعاب. فقلنا: استطير أواغتيل قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء قال فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فقال: أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن، فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال: لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم، أوفر ما يكون لحمًا. وكل بعرة علف لدوابكم، فقال رسول الله ﷺ: فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم)[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٤٥٠)، وهذا الحديث وإن كان في مسلم ولكنه من الأحرف اليسيرة =

=

جدا التى انتقضها عليه بعض العلماء، فقد قال العلامة الألباني في الضعيفة (١٠٣٨): أخرجه مسلم (٢/ ٣٦) وابن خزيمة في " صحيحه " (رقم ٨٢) والبيهقي (١/ ١٠٨ - ١٠٩) .... وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات، ولكنه معلول بعلتين:

الأولى: إن قوله: "وسألوه الزاد ... " إلخ مدرج في الحديث ليس من مسند ابن مسعود بل هو عن الشعبي قال: وسألوه الزاد إلخ، فهو مرسل، كما بينه البيهقي بقوله عقبه: رواه مسلم في " الصحيح " هكذا، ورواه عن علي بن حجر عن إسماعيل بن إبراهيم عن داود بن أبي هند بهذا الإسناد إلى قوله: وآثار نيرانهم، قال الشعبي: وسألوه الزاد، وكانوا من جن الجزيرة، إلى آخر الحديث من قول الشعبي مفصلا من حديث عبد الله. قلت: هكذا هو في " الصحيح " عقب رواية عبد الأعلى المتقدمة، وهكذا رواه الترمذي في " سننه " (٤/ ١٨٣) قال: حدثنا علي بن حجر به، إلا أنه قال: "كل عظم لم يذكر اسم الله عليه " كما يأتي بيانه في " العلة الأخرى " وكذلك رواه البيهقي بسندين له عن علي بن حجر به، إلا أنه لم يسق لفظه، وإنما أحال فيه على لفظ عبد الأعلى فكأنه عنده بلفظه: "كل عظم ذكر ... ". ثم قال: ورواه محمد بن أبي عدي عن داود إلى قوله: "وآثار نيرانهم "، ثم قال: قال داود: ولا أدري في حديث علقمة أوفي حديث عامر أنهم سألوا رسول الله ﷺ تلك الليلة الزاد فذكره.

ثم ساق البيهقي إسناده إلى محمد بن أبي عدي به، ثم قال: ورواه جماعة عن داود مدرجا في الحديث من غير شك. ورواية إسماعيل بن علية قد أخرجها الإمام أحمد أيضا مقرونا مع رواية غيره من الثقات فقال: (٤١٤٩): حدثنا إسماعيل: أخبرنا داود وابن أبي زائدة -المعنى- قالا: حدثنا داود به مثل رواية إسماعيل عند مسلم.

وتابعهما يزيد بن زريع قال: حدثنا داود بن أبي هند به. أخرجه أبو عوانة في " صحيحه " (١/ ٢١٩)، وأخرجه الطيالسي أيضا في " مسنده " (١/ ٤٧) لكنه أدرجه في الحديث ولم يفصله عنه! وقد قرن بروايته وهيب بن خالد ثم أخرجه مسلم من طريق عبد الله بن إدريس عن داود به إلى قوله: "وآثار نيرانهم "، ولم يذكر ما بعده إطلاقا.

وجملة القول: إن أصحاب داود بن أبي هند اختلفوا عليه في هذه الزيادة على وجوه:

الأول: أنها من مسند ابن مسعود، كذلك رواه عبد الأعلى بن عبد الأعلى ووهيب ابن خالد، وكذا يزيد بن زريع وعبد الوهاب بن عطاء في إحدى الروايتين عنهما.

الثاني: أنها من مرسل الشعبي، وليس من مسند ابن مسعود، جزم بذلك عن داود

=

=

إسماعيل بن علية وابن أبي زائدة، ويزيد بن زريع في الرواية الأخرى عنه. ويمكن أن يلحق بهؤلاء عبد الله بن إدريس فإنه لم يذكرها أصلا كما سبق، ولو كانت عنده من مسند ابن مسعود لذكرها إن شاء الله تعالى.

الثالث: أن داود شك في كونها من مسند ابن مسعود، أومن مرسل الشعبي، كذلك رواه عنه محمد بن أبي عدي وعبد الوهاب بن عطاء في الرواية الأخرى عنه. ولا يخفى على الخبير بهذا العلم الشريف أن هذا الاختلاف إنما يدل على أن المختلف عليه وهو داود بن أبي هند لم يضبط هذا الحديث ولم يحفظه جيدا، ولذلك اضطرب فيه على الوجوه الثلاثة التي بينتها، ولا يمكن أن يكون ذلك من الرواة عنه لأنهم جميعا ثقات، فكل روى ما سمع منه، وإذا كان كذلك فالاضطراب دليل على ضعف الحديث كما هو مقرر في علم مصطلح الحديث لأنه يشعر بأن راويه لم يحفظه. هذا ما تحرر لدي أخيرا، وأما الدارقطني فقد أعله بالإرسال فقال كما في " شرح مسلم " للنووي:

انتهى حديث ابن مسعود عند قوله: "فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم "، وما بعده من قول الشعبي، كذا رواه أصحاب داود الراوي عن الشعبي: ابن علية وابن زريع، وابن أبي زائدة وابن إدريس وغيرهم. هكذا قال الدارقطني وغيره، ومعنى قوله: إنه من كلام الشعبي أنه ليس مرويا عن ابن مسعود بهذا الحديث، وإلا فالشعبي لا يقول هذا الكلام إلا بتوقيف عن النبي ﷺ. والله أعلم.

قلت: قول الشعبي: "وسألوه الزاد ..." صريح في رفعه إلى النبي ﷺ فلا داعي لقول النووي: "فالشعبي لا يقول..." إلخ. فإن مثل هذا إنما يقال فيما ظاهره الوقف كما لا يخفى.

العلة الأخرى: الاضطراب في متنه أيضا على داود، فعبد الأعلى يقول عنه: كل عظم ذكر اسم الله عليه " وتابعه على ذلك إسماعيل بن علية وابن أبي زائدة عند أحمد وعبد الوهاب بن عطاء عند الطحاوي. وخالف هؤلاء وهيب بن خالد ويزيد بن زريع عند الطيالسي وعند أبي عوانة عن يزيد وحده فقالا: "كل عظم لم يذكر اسم الله عليه".

واختلفوا على إسماعيل بن علية فرواه أحمد عنه كما سبق، وتابعه علي بن حجر عن إسماعيل عند مسلم، وخالفه الترمذي فقال: حدثنا علي بن حجر به باللفظ الثاني: "لم يذكر ..". وهذا الاختلاف على داود في ضبط متن الحديث مما يؤكد ضعفه، وأن داود لم يكن قد حفظه. ثم رجعت إلى ترجمته من " التهذيب " فوجدت بعض الأئمة قد

=

=

صرحوا بهذا الذي ذكرته فيه، فقال ابن حبان: كان من خيار أهل البصرة، من المتقنين في الروايات، إلا أنه كان يهم إذا حدث من حفظه. وقال أحمد " كان كثير الاضطراب والخلاف" قلت: واضطراب داود في هذا الحديث من أقوى الأدلة على هذا الذي قاله فيه الإمام أحمد، فرَحِمَهُ اللهُ، وجزاه خيرا، ما كان أعلمه بأحوال الرجال! وخلاصة الكلام في هذا الحديث أنه ضعيف للاضطراب في سنده ومتنه، ولم أجد له شاهدا نقويه به، بل هو مخالف بظاهره لحديث أبي هريرة: "أنه كان يحمل مع النبي ﷺ إداوة لوضوئه وحاجته، فبينما هو يتبعه بها، فقال: من هذا؟ فقال: أنا أبو هريرة فقال: ابغني أحجارا أستنفض بها، ولا تأتني بعظم ولا بروثة " فأتيته بأحجار أحملها في طرف ثوبي، حتى وضعت إلى جنبه، ثم انصرفت، حتى إذا فرغ مشيت معه، فقلت: ما بال العظم والروثة؟ قال: هما من طعام الجن، وإنه أتاني وفد جن نصيبين - ونعم الجن - فسألوني الزاد، فدعوت الله أن لا يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليها طعما، وفي لفظ: طعاما". أخرجه البخاري (٧/ ١٣٦) والطحاوي (١/ ٧٤) والبيهقي (١/ ١٠٧ - ١٠٨). قلت: ووجه المخالفة أن ظاهره أن العظم والروثة زاد وطعام للجن أنفسهم، وليس شيء من ذلك لدوابهم، والتوفيق بينه وبين حديث ابن مسعود بحمل الطعام فيه على طعام الدواب كما فعل الحافظ في " الفتح " وتبعه الصنعاني في " سبل السلام " (١/ ١٢٣)، لا بأس به لو ثبت حديث ابن مسعود بإسناد آخر بلفظ يغاير بظاهره اللفظ السابق، وهو: أولئك جن نصيبين سألوني المتاع - والمتاع الزاد - فمتعتهم بكل عظم حائل، أو بعرة أو روثة، فقلت: يا رسول الله، وما يغني ذلك عنهم؟ قال: إنهم لن يجدوا عظما، إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، فلا يستنقين أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة. أخرجه ابن جرير في "تفسيره" (٢٦/ ٣٢ ـ طبع البابي الحلبي) عن يحيى بن أبي كثير عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي أنه قال لابن مسعود: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، قال: أجل، قال: فكيف كان؟ فذكر الحديث كله، وذكر أن النبي ﷺ خط عليه خطا وقال: لا تبرح منها، فذكر أن مثل العجاجة السوداء غشيت رسول الله ﷺ، فذعر ثلاث مرات، حتى إذا كان قريبا من الصبح، أتاني رسول الله ﷺ فقال: أنمت؟ قلت: لا والله، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول: اجلسوا، قال: لو خرجت لم آمن أن يختطفك بعضهم، ثم قال: هل رأيت شيئا؟ قال: نعم رأيت رجالا

=

=

سودا مستشعري ثياب بيض، قال: فذكره. قلت: وهذا سند ضعيف، رجاله كلهم ثقات معروفون، غير عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي، أورده ابن أبي حاتم (٢/ ٢/ ١١٧) وقال: روى عن جابر بن عبد الله، روى عنه قتادة وأبو بشر جعفر بن إياس.
ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا، ومثله يورده ابن حبان في " الثقات "، ولست بطائله الآن حتى أتأكد من أنه أورده أولا. وقد ذكر الحافظ في ترجمة أبيه من " التهذيب " أنه كان من كبار رجال معاوية، وكان أميرا له على البصرة.
ثم رأيته في " الثقات " (٧/ ٥١)، ذكره فيمن روى عن التابعين، فقال: يروي عن كعب، وعنه قتادة، وحقه أن يورده في التابعين لتصريحه في هذا الحديث أنه لقي ابن مسعود وسمع منه، وفيه أنه رواه عنه يحيى بن أبي كثير، فقد روى عنه ثلاثة من الثقات، فمثله يحسن بعضهم حديثه، ولا أقل من أن يستشهد به، فلعله لذلك لما ذكره ابن كثير في "تفسيره" (٤/ ١٦٥) من طريق ابن جرير سكت عليه. وذكره الزيلعي في " نصب الراية " (١/ ١٤٤ - ١٤٥) من رواية أبي نعيم في " دلائل النبوة " عن الطبراني بسنده إلى معاوية بن سلام عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني عمرو بن غيلان الثقفي قال: أتيت عبد الله بن مسعود فقلت له: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن ... الحديث، وعزاه الصنعاني في " السبل " وتبعه الشوكاني في " النيل " (١/ ٨٥) لأبي عبد الله الحاكم في " دلائل النبوة " فإن عنى " دلائل النبوة " من " المستدرك " فليس فيه، والله أعلم.
ورواه الدارقطني في " سننه " (ص ٢٩) من وجه آخر عن معاوية بن سلام به مختصرا إلا أنه قال: فلان بن غيلان وقال: مجهول، قيل: اسمه عمرو، وقيل: عبد الله بن عمرو بن غيلان. وبه أعله الزيلعي، فقال عقب رواية الطبراني: وفي سنده رجل لم يسم، ولا يخفى أن هذا القول غير مستقيم بالنسبة لرواية الطبراني، فلوعزاه للدارقطني ثم ذكره عقبه لأصاب. وللحديث طريق أخرى، يرويه أبو فزارة عن أبي زيد مولى عمرو بن حريث المخزومي عن عبد الله بن مسعود به، نحوه وفيه: قد زودتهم الرجعة، وما وجدوا من روث وجدوه شعيرا، وما وجدوه عظم وجدوه كاسيا، أخرجه أحمد (رقم ٣٤٨١)، وأبو زيد هذا قال الذهبي: لا يعرف، قال البخاري في " الضعفاء ": لا يصح حديثه -يعني هذا - وقال أبو أحمد الحاكم: رجل مجهول، قلت: ما له سوى حديث واحد.

=

=

قلت: يعني هذا، وهو مخرج في " ضعيف أبي داود " (رقم ١٠) زيادة على ما هنا وقد جاء مختصرا من طريق عبد الله بن الديلمي عن ابن مسعود قال: قدم وفد من الجن على رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! انه أمتك أن يستنجوا بعظم أوروثة أوحممة، فإن الله جعل لنا فيها رزقا، قال: فنهى النبي ﷺ.

أخرجه أبو داود وغيره بسند صحيح، وهو مخرج في " صحيح أبي داود " رقم (٢٩) ومن طريق موسى بن علي بن رباح قال: سمعت أبي يقول: عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ أتاه ليلة الجن ومعه عظم حائل، وبعرة، وفحمة، فقال: "لا تستنجين بشيء من هذا إذا خرجت إلى الخلاء". أخرجه أحمد (١/ ٤٥٧) والدارقطني (١/ ٥٦/ ٧) والبيهقي (١/ ١٠٩ - ١١٠) وأعلاه بعدم ثبوت سماع علي من ابن مسعود، ورده عليه ابن التركماني في " الجوهر النقي " فراجعه. ورواه عبد الله بن صالح: حدثني موسى بن علي به أتم منه.

أخرجه الطبراني في " الأوسط " (٩١٥٨ - بترقيمي) وقال: لم يروعلي بن رباح عن ابن مسعود حديثا غير هذا. قلت: وهو ثقة كابنه، فإن كان سمعه من ابن مسعود فهو صحيح من الوجه الأول.

وأما عبد الله بن صالح، ففيه ضعف، وبه أعله الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢١٠) وبالجملة فالحديث مشهور عن ابن مسعود كما قال الحافظ في التلخيص (١/ ١٠٩)، فهو صحيح عنه قطعا، لكن في بعض طرقه ما ليس في البعض الآخر، وقد تبين من مجموع ما أخرجنا منها أن رواية مسلم المتقدمة عن داود بن أبي هند صحيحة بتمامها إلا قوله في حديث الترجمة: "علف لدوابكم " وجملة: "اسم الله " على وجهيها، لخلوها عن شاهد، واضطراب داود في ذلك وصلا وإرسالا. ومن أجل ذلك خرجته هنا، والله سبحانه وتعالى أعلم.اهـ. من الضعيفة.

(تنبيه) المروى عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمران:

الأمر الأول: أنه لم يشهد ليلة الجن مع رسول الله ﷺ.

الأمر الثاني: أنه شهدها.

أولا: روي أنه لم يشهدها، عن ابن مسعود، وعن ابنة أبي عبيدة، وعن إبراهيم النخعي.

قال محقق المطالب العالية (١٥/ ٤٠٧): وقد اختلفت مسالك العلماء في الكلام على النفي والإثبات على مذاهب هي:

=

=

١ - الأخذ بالحديث الصحيح لذاته الوارد في صحيح مسلم وغيره الذي يفيد عدم حضوره ليلة الجن. واطراح الأحاديث الباقية لأنها طرق لا تسلم من ضعف.

ذهب إلى هذا الدارقطني في العلل (٥/ ١٠٣٤٧)، إذ قال بعد أن ذكر الأحاديث المروية في شهوده، وضعفها. قال: والصحيح ما روي عن ابن مسعود أنه لم يشهد مع النبي ﷺ ليلة الجن.

وقال في السنن (١/ ٧٧)، بعد أن ذكر الحديث عن علقمة أن عبد الله لم يحضرها قال: هذا هو الصحيح عن ابن مسعود.

وكذا أبو زرعة وأبو حاتم حيث قالا: ولا يصح في هذا الباب شيء. انظر: العلل لابن أبي حاتم (١/ ١٥).

والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٩٦)، وعبارته: فهذا الباب إن كان يؤخذ من طريق صحة الإسناد فهذا الحديث الذي فيه الإنكار أولى، لاستقامة طريقه ومتنه، وثبت رواته. اهـ.

وكأن البيهقي يذهب إلى هذا في السنن الكبرى (١/ ٩ - ١٠)، إذ ذكر الطرق التي تفيد شهوده وضعفها ثم ذكر الصحيح.

وهذا المسلك لا أراه أولى من غيره لأن فيه إهمالا لحديث مقبول محتج به أيضا.

٢ - أن الرواة أسقطوا حرفا من الأحاديث النافية. وأن أصله: ما شهدها أحد غيري فأسقط الراوي: غيري.

ذهب إلى هذا ابن قتيبة في مختلف الحديث (ص ١١٩)، والبطليوسي في التنبيه على أسباب الاختلاف (ص ١٩٤). ولكن لا يسلم هذا إذ الحديث في صحيح مسلم، والرواة له أكثر من واحد، ويبعد أن يجتمعوا على وهم.

٣ - أن عبد الله لم يكن مع النبي ﷺ حال المخاطبة، وإنما كان بعيدا عنه، أي: في الخط الذي خط له. ذهب إلى هذا البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٣٠)، حيث قال: قلت: يحتمل قوله في الحديث الصحيح: ما صحبه منا أحد، أراد به في حال ذهابه لقراءة القرآن عليهم. اهـ. وذكر كلاما سيأتي. وذكر ذلك صاحب الجوهر النقي (١/ ١٢)، وعزاه لجماعة من المحققين.

وذكره الزيلعي في نصب الراية (١/ ١٤٣).

٤ - منهم من تأول قوله: "فبتنا بشر ليلة بات بها قوم" في صحيح مسلم، على غير ابن

=

=

مسعود ممن لم يعلم بخروجه عليه الصلاة والسلام إلى الجن.

ذكر ذلك البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٣٠)، حيث قال: إلا أن ما روي في هذا الحديث فيه إعلام أصحابه بخروجه إليهم يخالف ما روي في الحديث الصحيح من فقدانهم إياه حتى قيل. اغتيل، استطير، إلا أن يكون المراد بمن فقده غير الذي علم بخروجه. والله أعلم.

ونقله عنه الزيلعي في نصب الراية (١/ ١٤٤)، وقال عنه: وهو محتمل على بعد. أهـ.

٥ - منهم من قال بتعدد الواقعة، وأن الجن وفدوا على النبي ﷺ عدة مرات.

حضر ابن مسعود بعضها، ولم يحضر الأخرى.

ذهب إلى هذا البيهقي، واستدل بأحاديث منها: ما أخرجه البخاري في صحيحه، مناقب الأنصار باب إسلام سعد بن أبي وقاص (٣٨٦٠ - ٣/ ٥٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يحمل مع النبي ﷺ إداوة لوضوئه وحاجته. فبينما هو يتبعه بها، فقال: من هذا .. إلى أن قال في العظم والروثة: "هما من طعام الجن، وإنه أتاني وقد حن نصيبين -ونعم الجن- فسألوني الزاد فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظم ولا بروثه إلا وجدوا عليها طعما".

مما يدل على تكرر مجيئهم بعد ذلك.

واستدل أيضا بالحديث الذي أخرجه أبو نعيم في الدلائل عن عمرو بن غيلان، عن عبد الله، وقد سبق، وفيه أن حن نصيبين أتوا بالمدينة فشهدهم عبد الله.

وبالحديث المروى عن الزبير بن العوام أنه شهد أيضا ليلة الجن بالمدينة. بنحو حديث عبد الله.

رواه الطبراني كما ذكر ذلك في المجمع (١/ ٢١٥)، باب ما نهى أن يستنجي به. وقال: إسناده حسن وليس فيه غير بقية. وقد صرح بالتحديث. اهـ. لكن فيه مجاهيل، والسند ضعيف. وهو عند ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٦١١)، بنحوه. وعزاه الزيلعي في نصب الراية (١/ ١٤٥)، إلى أبي نعيم في الدلائل. ولم أقف عليه عنده في المطبوع.

ومن أجل هذه النصوص جعل بعضهم ليالي الجن أكثر من ليلة. ومن أحسن من ذكر ذلك الإمام الشبلي في أكام المرجان (ص ٨٥)، باب في قراءة النبي ﷺ القرآن على الجن. حيث ذكر أن ذهاب الرسول ﷺ إلى الجن وقع ست مرات:

١ - هي الليلة التي قيل فيها: إنه اغتيل. أو استطير، وكانت بمكة. ولم يحضرها ابن

=

فقد دل هذا الحديث أن رسول الله ﷺ قد أتاه داعي الجن في إحدى الليالي، فذهب معه، وقرأ عليهم القرآن. وقراءته عليه السلام القرآن على الجن تدل على أنهم مكلفون بهذا الكتاب كما كلف به الإنس.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ. وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: مالكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث. فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها. فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها. فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له. وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فرجعوا إلى قومهم فقالوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} [الجن: ١ – ٢]. فأنزل الله

=

مسعود، كما عند مسلم وغيره.

٢ – كانت بمكة بالحجون.

٣ – كانت بأعلى مكة. وقد غاب النبي ﷺ فيها في الجبال.

٤ – كانت ببقيع الغرقد بالمدينة. وفي هذه الليالي الثلاث حضر ابن مسعود.

٥ – خارج المدينة حضرها الزبير بن العوام.

٦ – في بعض أسفاره حضرها بلال بن الحارث. اهـ.

فهذا جمع حسن. وقد نقله عن الشبلي صاحب الكوكب الدري شرح سنن الترمذي (١/ ٥٦).

وأولى الأقوال عندي هو الثالث، والرابع، والخامس، لأن الجمع بين الأحاديث أولى من إهمال البعض وإعمال البعض.

ﷻ على نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١])[1].

فقد دل هذا الحديث على استماع الجن للقرآن وتعجبهم منه. ثم انطلاقهم إلى قومهم منذرين بهذا القرآن، ولا شك أن هذا يدل على تكليفهم، وإلا لما انطلقوا إلى أقوامهم محذرين من عدم الإيمان به، وهو ظاهر في تعلق الشريعة بهم.

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: (فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم. ونصرت بالرعب. وأحلت لي الغنائم. وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون)[2].

قال السبكي في فتاواه (٥/ ٦٧- ٦٩): ومحل الاستدلال قوله: (وأرسلت إلى الخلق كافة) فإنه يشمل الجن والإنس، وحمله على الإنس خاصة تخصيص بغير دليل، فلا يجوز ... ثم يقول بعد ذلك: حديث مسلم الذي استدللنا به أصرح الأحاديث الدالة على شمول الرسالة للجن والإنس.اهـ.

هذا وقد تكررت وفادات الجن على الرسول ﷺ، وقد ذكر الألوسي أنها ست وفادات كما تقدم.

والأحاديث الواردة في قراءة الرسول عليه الصلاة والسلام القرآن على الجن، تفيد أنهم مكلفون بالتكاليف الشرعية، ومحاسبون على أفعالهم، واجتماع هذه الروايات مع بعضها آكد في دلالتها على تكليف الجن من دلالتها على تكليفهم في حال انفرادها. عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٧٥

---

(١) أخرجه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩).
(٢) أخرجه مسلم (٥٢٣).

وما بعدها) بتصرف.

وقال الإمام البخاري في صحيحه (٦/ ٣٤٣- فتح): باب (ذكر الجن وثوابهم وعقابهم) لقوله: {يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي} إلى قوله: {عما يعملون}. {بخسا}: نقصا. قال مجاهد: {وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا}: قال كفار قريش: الملائكة بنات الله وأمهاتهن بنات سروات الجن، قال الله {ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون}: ستحضر للحساب. {جند محضرون}: عند الحساب. حدثنا قتيبة عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري عن أبيه أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له: "إني أراك تحب الغنم والبادية فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة قال أبو سعيد سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم".اهـ.

قال العيني في عمدة القاري (١٥/ ١٨٢): أي: هذا باب في بيان وجود الجن، وفي بيان أنهم يثابون بالخير ويعاقبون بالشر، والكلام فيه على أنواع:

الأول: في وجود الجن: فقال الشيخ أبو العباس بن تيمية، رحمه الله: لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن وإن وجد فيهم من ينكر ذلك فكما يوجد في بعض طوائف المسلمين: كالجهمية والمعتزلة، من ينكر ذلك، وأن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرين بذلك، وهذا لأن وجود الجن قد تواترت به أخبار الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، تواترا معلوما بالاضطرار ... وقال أبو القاسم الأنصاري في (شرح الإرشاد): وقد أنكرهم معظم المعتزلة ودل إنكارهم إياهم على قلة مبالاتهم

وركاكة ديانتهم، فليس في إثباتهم مستحيل عقلي، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على إثباتهم. وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: وكثير من القدرية يثبتون وجود الجن قديما، وينفون وجودهم الآن، ومنهم من يقر بوجودهم ويزعم أنهم لا يرون لرقة أجسامهم ونفوذ الشعاع فيها، ومنهم من قال: إنما لا يرون لأنهم لا ألوان لهم.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (١/ ٤١٤): الطبقة الثامنة عشرة -من طبقات المكلفين-: طبقة الجن، وقد اتفق المسلمون على أن منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر. قال تعالى إخبارًا عنهم: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} [الجن: ١١] قال مجاهد: يعنون مسلمين وكافرين. وقال الحسن والسدى: أمثالكم، فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة. وقال سعيد ابن جبير: ألوانا شتى. وقال ابن كيسان: شيعًا وفرقًا. ومعنى الكلام: أصنافًا مختلفة ومذاهب .... وبالجملة فهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع الأنبياءِ ووجوب اتباعهم لهم. فأما شريعتنا فأجمع المسلمون على أن محمدًا ﷺ بعث إلى الجن والإنس، وأنه يجب على الجن طاعته، كما يجب على الإنس، وأما قبل نبينا ﷺ فقوله تعالى: {ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَت مِن قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِى النَّارِ} يدل على الأمم الخالية من كفار الجن فى النار، وذلك إنما يكون بعد إقامة الحجة عليهم بالرسالة.

وقد دلت سورة الرحمن على تكليفهم بالشرائع كما كلف الإنس، ولهذا يقول فى إثر كل آية: {فَبِأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} فدلَّ ذلك على أن السورة خطاب للثقلين معًا، ولهذا قرأها رسول الله ﷺ على الجن قراءَة تبليغ وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن ردًا منهم، فإنهم جعلوا يقولون كلما قرأَ عليهم:

{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}: لا نكذب بشيء من آلائك ربنا فلك الحمد.اهـ.

مسألة: كيفية تكاليف الجن

سئل شيخ الإسلام كما في مجموع فتاواه (٤/ ٢٣٣): عن الجان المؤمنين هل هم مخاطبون " بفروع الإسلام " كالصوم والصلاة وغير ذلك من العبادات؟ أو هم مخاطبون بنفس التصديق لا غير؟

فأجاب: لا ريب أنهم مأمورون بأعمال زائدة على التصديق ومنهيون عن أعمال غير التكذيب فهم مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم فإنهم ليسوا مماثلي الإنس في الحد والحقيقة فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساويا لما على الإنس في الحد لكنهم مشاركون الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي والتحليل والتحريم. وهذا ما لم أعلم فيه نزاعا بين المسلمين. وكذلك لم يتنازعوا أن أهل الكفر والفسوق والعصيان منهم يستحقون لعذاب النار كما يدخلها من الآدميين؛ لكن تنازعوا في أهل الإيمان منهم؛ فذهب الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد: إلى أنهم يدخلون الجنة. وروي في حديث رواه الطبراني {أنهم يكونون في ربض الجنة. يراهم الإنس من حيث لا يرونهم}. وذهب طائفة منهم أبو حنيفة - فيما نقل عنه - إلى أن المطيعين منهم يصيرون ترابا كالبهائم ويكون ثوابهم النجاة من النار. وهل فيهم رسل أم ليس فيهم إلا نذر؟ على قولين: فقيل: فيهم رسل لقوله تعالى {يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم}.

وقيل: الرسل من الإنس؛ والجن فيهم النذر وهذا أشهر؛ فإنه أخبر عنهم باتباع دين محمد ﷺ وأنهم {ولوا إلى قومهم منذرين} {قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى} الآية قالوا وقوله {ألم يأتكم رسل منكم} كقوله:

{يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} وإنما يخرج من المالح وكقوله {وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا} والقمر في واحدة وأما التكليف بالأمر والنهي والتحليل والتحريم فدلائله كثيرة مثل ما في مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ {أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن فانطلقوا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيدكم أوفر ما يكون وكل بعرة علف لدوابكم؛ فقال النبي ﷺ لا تستنجوا بالعظم والروث} وذلك لئلا يفسد عليهم طعامهم وعلفهم وهنا يبين أنما أباح لهم من ذلك ما ذكر اسم الله عليه دون ما لم يذكر اسم الله عليه وقال تعالى {وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم} إلى قوله {إني أخاف الله والله شديد العقاب} فأخبر عن الشيطان أنه يخاف الله والعقوبة إنما تكون على ترك مأمور أو فعل محظور وليس هو هنا التصديق وأيضا فإبليس الذي هو أبو الجن لم تكن معصيته تكذيبا فإن الله أمره بالسجود وقد علم أن الله أمره ولم يكن بينه وبين الله رسول يكذبه ولما امتنع عن السجود لآدم عاقبه الله العقوبة البليغة؛ ولهذا قال النبي ﷺ " {إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يبكي} الحديث. وقد قال تعالى في قصة سليمان: {ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر} إلى قوله {عذاب السعير} وقد جعل في ذلك ما أمرهم به من طاعة سليمان وقد قال تعالى عن إبليس. إنه عصى ولم يقل كذب وقد قال تعالى. عن الجن. {يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى} إلى قوله. {ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض} الآية. فأمروا بإجابة داعي الله الذي هو الرسول. والإجابة والاستجابة هي طاعة الأمر والنهي وهي العبادة التي خلق لها الثقلان؛ كما قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} . ومن قال " إن العبادة " هي

المعرفة الفطرية الموجودة فيها وأن ذلك هو الإيمان وهو داخل في الثقلين فقط: فإن ذلك لو كان كذلك لم يكن في الثقلين كافر والله أخبر بكفر إبليس وغيره من الجن والإنس وقد قال تعالى: {لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين} وأخبر أنه يملؤها منه ومن أتباعه وهذا يبين أنه لا يدخلها إلا من اتبعه فعلم أن من يدخلها من الكفار والفساق من أتباع إبليس؛ ومعلوم أن الكفار ليسوا بمؤمنين ولا عارفين الله معرفة يكونون بها مؤمنين ولكن اللام لبيان الجملة الشرعية المتعلقة بالإرادة الشرعية كما في قوله تعالى {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} وقوله {يريد الله ليبين لكم} الآية وقد تكون لبيان العاقبة الكونية كما في قوله: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام} الآية؛ وهذا كقوله تعالى: {ولا يزالون مختلفين} {إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم} أي خلق قوما للاختلاف وقوما للرحمة وقال: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس} فاللام في قوله تعالى {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} وإن كانت هي اللام في هذه الآية فإن مدلولها لام إرادة الفاعل ومقصوده ولهذا تنقسم في كتاب الله إلى إرادة دينية وإرادة كونية؛ كما تنقسم في كتاب الله تعالى الكلمات والأمر والحكم والقضاء والتحريم والإذن وغير ذلك وأيضا فقوله تعالى {يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا} إلى قوله: {وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين} . فبين أن الثقلين جميعا تلت عليهم الرسل آيات الله ولهذا لما قرأ رسول الله ﷺ سورة على الصحابة قال " للجن كانوا " الحديث. دعاهم إلى طاعة الله لما فيه من الأمر والنهي؛ لا إلى مجرد حديث لا طاعة معه فإن مثل هذا التصديق كان مع إبليس فلم يغن عنه من الله شيئا. والدلائل الدالة على هذا

الأصل وما في الحديث والآثار من كون الجن يحجون ويصلون ويجاهدون وأنهم يعاقبون على الذنب: كثيرة جدا وقد قال تعالى فيما أخبر عنهم {وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا} قالوا مذاهب شتى مسلمين ويهود ونصارى وشيعة وسنة. فأخبر أن منهم الصالحون ومنهم دون الصالحين فيكون: إما مطيعا في ذلك فيكون مؤمنا وإما عاصيا في ذلك فيكون كافرا ولا ينقسم مؤمن إلى صالح وإلى غير صالح فإن غير الصالح لا يعتقد صلاحه لترك الطاعات فالصالح هو القائم بما وجب عليه؛ ودون الصالح لا بد أن يكون عاصيا في بعض ما أمر به وهو قسم غير الكافر فإن الكافر لا يوصف بمثل ذلك وهذا يبين أن فيهم من يترك بعض الواجبات والله أعلم.اهـ.

وقال الطوفي في "شرح مختصر الروضة" (١/ ٢١٨): (وقع النزاع بين بعض الفقهاء في سنتنا هذه- وهي سنة ثمان وسبع مائة للهجرة - في أن الجن مكلفون بفروع الدين أم لا؟

واستفتي فيها شيخنا أبو العباس أحمد بن تيمية بالقاهرة-أيده الله تعالى- فأجاب فيها بما ملخصه أنهم مكلفون بها بالجملة، لكن لا على حد تكليف الإنس بها، لأنهم مخالفون للإنس بالحد فبالضرورة يخالفونهم في بعض التكاليف.

قلت: مثاله، أن الجن قد أعطي بعضهم قوة الطيران في الهواء، فهذا يخاطب بقصد البيت الحرام للحج طائرا.

والإنسان لعدم تلك القوة فيه، لا يخاطب بذلك، فهذا في طرف زيادة تكليفهم على تكليف الإنس.

وأما من جهة نقص تكليفهم عن تكليف الإنس، فكل تكليف يتعلق

بخصوص طبيعة الإنس، ينتفي في حق الجن، لعدم تلك الخصوصية فيهم.

والدليل على تكليف الجن بالفروع، الإجماع على أن النبي ﷺ أرسل بالقرآن الكريم إلى الجن والإنس، فجميع أوامره ونواهيه متوجهة إلى الجنسين، وهي مشتملة على الأصول والفروع، نحو: (آمِنُوا بِاللهِ) [النساء: ١٣٦]، (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) [البقرة: ٤٣]. وقد تضمن هذا الدليل، على أن كفار الإنس مخاطبون بها، وكذلك كفار الجن، لتوجه القرآن بجميع ما فيه إلى مؤمني الجنسين وكفارهم.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في شرح السفارينية (ص٤٩٦): هل ما يؤمر به الجن هو ما يؤمر به الإنس؟ يعني هل صلاتهم كصلاتنا وزكاتهم كزكاتنا وصيامهم كصيامنا وحجهم كحجنا؟

في هذا أيضًا خلاف بين العلماء رحمهم الله؛ فمنهم من قال: إذا كان تلقيهم لما يقومون به من الشرائع مما جاءت به الإنس، وجب أن يكون هو نفس ما جاء به الإنس؛ لأننا لا نرى فيما جاء به الإنس فضلًا خاصًا بالجن، بل نجد أن الأحكام واحدة، وعلى هذا فيكون ما أمر به الإنس هو ما أمر به الجن ولا فرق.

وقال بعض العلماء رحمهم الله: بل إنهما يفترقان، فليس ما أمر به الجن مساويًا لما أمر به الإنس في الحد والحقيقة؛ لأن جنس الجن ليس كجنس الإنس، وإذا كان الإنس تختلف أحكامهم باختلاف أحوالهم؛ فالمريض يصلي قاعدًا مثلًا؛ والفقير لا زكاة عليه؛ ومن لا يستطيع الحج فلا حج عليه، فكذلك الجن لا يمكن أن يكلف إلا بما يناسب حالهم، وتكون العمومات الدالة على ذلك مثل (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة: الآية ٢٨٦)، وما أشبهها تقيد عموم تكليفهم بشرائع الإنس.

وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: إن اختلافهم عن الإنس في الحد والحقيقة يقتضي ألا يتساووا في التكليف؛ لأن حكمة الله تعطي كل مكلف ما يناسبه حتى في البشر، وعلى كل حال فنحن نؤمن بأن الجن مكلفون بالجملة، وأن كافرهم يدخل النار، وأن مؤمنهم يدخل الجنة أيضًا، أما مسألة الرسالة وعدم الرسالة فقد تكون الأدلة متكافئة وإن كان الراجح أن الرسل من البشر، وأما مساواتهم للإنس في الأحكام الشرعية فهذا محل توقف؛ فإن نظرنا إلى عموم الأدلة قلنا: هم مساوون للإنس، وإن نظرنا إلى الحكمة في التشريع، وأن الشرع يختلف باختلاف المكلف قلنا: لابد أن يكون لهم شرع خاص بهم، وهذا الشرع الخاص بهم وإن كنا لا نجده لا في الكتاب ولا في السنة، لكن يؤخذ من العمومات مثل قوله تعالى (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة: ٢٨٦)، وقوله تعالى: (فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)(التغابن: الآية ١٦)، فهم قد لا يستطيعون كل ما يستطيعه الإنس، وقد لا يكون عندهم كل ما عند الإنس، فتكون لهم أحكام خاصة بهم، ولذا نقول فيه: الله اعلم، فالأدلة في هذا متكافئة وليس هناك دليل واضح على أن ما كلفوا به مساوٍ لما كلف به الإنس أو مخالف.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين ايضا كما في مجموع فتاواه (١/ ٣٠٠): هل الجن أسلموا برسالة محمد، ﷺ، وآمنوا بالرسل من قبل هل فرض عليهم الحج وإن كان كذلك فأين يحجون؟.

فأجاب: إن الجن مكلفون بلا شك، مكلفون بطاعة الله سبحانه وتعالى .... والظاهر أنهم مكلفون بما يكلف به الإنس من العبادات ولا سيما أصولها كالأركان الخمسة، وحجهم يكون كحج الإنس زمنًا ومكانًا وإن كانوا يختلفون

عن الإنس في جنس العبادات التي لا تناسب حالهم فتكون مختلفة عن التكليف الذي يكلف به الإنس. والله أعلم.اهـ.

(**فرع**) سئل أبو البقاء العكبري الحنبلي كما في عمدة القاري (١٥/ ١٨٥) عن الجن هل تصح الصلاة خلفهم؟

فأجاب: نعم، لأنهم مكلفون، والنبي ﷺ أرسل إليهم.

(باب هل يدخل صالحي الجن الجنة)

اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

القول الأول: أنه لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ثم يقال لهم: كونوا ترابًا مثل البهائم. وهو قول أبي حنيفة، وحكاه سفيان الثوري عن الليث بن أبي سليم، وهو رواية عن مجاهد، وبه قال الحسن البصري.

قال ابن القيم في طريق الهجرتين (ص٤١٨): وحكى عن أبي حنيفة وغيره أن ثوابهم نجاتهم من النار.اهـ.

وقال الماوردي في أعلام النبوة (ص: ١٤٥): وحكى سفيان عن ليث أنهم يثابون على الإيمان بأن يجازوا على النار خلاصًا منها، ثم يقال لهم: كونوا ترابًا كالبهائم.

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢١٧): وقال أبو حنيفة: ليس ثواب الجن إلا أن يجاروا من النار، ثم يقال لهم كونوا ترابًا كالبهائم.اهـ.

وذكر الشوكاني في فتح القدير (٢/ ١٦٤) عن أبي الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال: مسلمو الجن لا يدخلون الجنة ولا النار، وذلك أن أخرج أباهم من الجنة، فلا يعيده ولا يعيد ولده.اهـ.

وقال ابن نجيم في الأشباه والنظائر (ص: ٣٣٠): واختلف العلماء في حكم

مؤمن الجن: فقال قوم: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار، وإليه ذهب أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ .. وعن الليث: ثوابهم أن يجاروا من النار ثم يقال لهم: كونوا ترابًا كالبهائم، وعن أبي الزناد كذلك.اهـ.

وقال الحسن كما في تفسير القرطبي (١٦/ ٢١٧): ليس لمؤمني الجن ثواب غير نجاتهم من النار) وذكر القرطبي (١٩/ ٥) في رواية عن مجاهد أن الجن لا يدخلون الجنة وإن صرفوا عن النار.

وقد استدل هذا الفريق بقوله تعالى إخبارًا عن النفر من الجن الذين استمعوا القرآن: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١] ووجه استدلالهم بها: أن المغفرة للذنوب لا تستلزم الإثابة لأنه ستر، والإثابة بالوعد فضل، قال ابن القيم في طريق الهجرتين (ص: ٤٢٧): واحتج هؤلاء بهذه الآية فجعل غاية ثوابهم إجارتهم من العذاب الأليم.اهـ.

القول الثاني: أنهم يثابون على الطاعة بدخول الجنة، على خلاف في حالهم فيها، نقله ابن حزم عن الجمهور، وممن قال به الضحاك وابن عباس، وهو قول الخليفة عمر بن عبد العزيز، وإليه ذهب الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد، وأصحابهم، وابن أبي ليلى، والأوزاعي، ورجحه القرطبي، وهو قول أكثر المفسرين.

القول الثالث: التوقف في المسألة.

قال الألوسي في روح المعاني (٢٧/ ١٢٠): عن الإمام أبي حنيفة ثلاث روايات الأولى: أنهم لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ثم يقال لهم كونوا ترابا كسائر الحيوانات.

الثانية: أنهم من أهل الجنة ولا ثواب لهم أي زائد على دخولها.

الثالثة: التوقف قال الكردي: هو في أكثر الروايات وفي فتاوي أبي إسحاق بن الصفار أن الإمام يقول: لا يكونون في الجنة ولا في النار ولكن في معلوم الله تعالى.اهـ.

وقال القشيري كما في تفسير القرطبي (١٦/ ٢١٧): والصحيح أن هذا -أي دخولهم الجنة - مما لم يقطع فيه بشيء والله أعلم.اهـ.

لكن الجمهور من المسلمين القائلين بثواب المؤمنين من الجن في الآخرة اختلفوا في كيفية الثواب؟:

١- فقد ذهب الأكثرون منهم إلى أنهم في الجنة ويصيبون من نعيمها.

٢- ونقل عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنهم يكونون في ربض الجنة، وذكره الألوسي عن الإمام مالك وطائفة من العلماء[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع فتاوى (٤/ ٢٣٣): وروي في حديث رواه الطبراني: أنهم يكونون في ربض الجنة، يراهم الإنس من حيث لا يرونهم[2].اهـ.

وقال جماعة: أنهم على الأعراف بين الجنة والنار، ذكره الألوسي، ودليل

(١) روح المعاني (٢٧/ ١٢٠)، والأشباه والنظائر (٢/ ٣٣٠).

(٢) لم أجده، والظاهر أنه لا أصل له، لذا قال الإمام ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ٣٩): وقد ثبت بنص القرآن واجماع الامة ان مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون فمحسنهم في الجنة بفضل الله بما كانوا يعملون لكن قيل انهم يكونون في ربض الجنة يراهم اهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم ومثل هذا لايعلم الا بتوقيف تنقطع الحجة عنده فإن ثبتت حجة يجب اتباعها وإلا فهو مما يحكى ليعلم وصحته موقوفة على الدليل والله أعلم.

هذا القول حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا (إن مؤمنى الجن لهم ثواب وعليهم عقاب قيل ما ثوابهم قال على الأعراف وليسوا فى الجنة قيل وما الأعراف قال حائط الجنة تجرى فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار[1] ولكنه حديث موضوع كما في الحاشية.

وفي رواية ذكرها ابن نجيم في الأشباه والنظائر (٢/ ٣٣٠) عن الضحاك أنهم يلهمون التسبيح والذكر، فيصيبون من لذته ما يصيبه بنو آدم من نعيم الجنة.اهـ. ولكن ذكر النووي في شرحه لصحيح مسلم (٤/ ١٦٩) أن الضحاك قال بأن الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون.اهـ.

وهو ما نقله الفخر الرازي في تفسيره (٢٨/ ٣٣) عنه إذ يقول: قال الضحاك: يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون.

والراجح -والله أعلم- أن الجن يثابون على أعمالهم، ويدخلون الجنة، ويصيبون من نعيمها، وذلك لأن ظواهر الآيات الواردة في جزاء الجن في الآخرة تقتضي ذلك، لأنها جاءت عامة في استحقاق المحسنين لجزاء أعمالهم، ولم يرد دليل يخصصها، فتبقى على عمومها، وهو مذهب أكثر العلماء، وهذه بعض أقوالهم.

قال الإمام ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ٣٧): فصل وقوله تعالى فاما ياتينكم مني هدى هو خطاب لمن اهبطه من الجنة بقوله اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ثم قال فاما يأتينكم مني هدى وكلا الخطابين لابوي

---

(١) أخرجه البيهقي في البعث (١٠٧/ ١٠٨)، وابن عساكر من طريقه، وطريق غيره في تاريخ دمشق (١٧/ ٩١٠ - المدينة)، والذهبي في سير الأعلام (١٧/ ٧ - ٨) والحديث قال عنه الذهبي: هذا حديث منكر جدا، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٦١١٣): موضوع.

الثقلين وهو دليل على ان الجن ماموررون منهيون داخلون تحت شرائع الانبياء وهذا مما لا خلاف فيه بين الامة وان نبينا بعث اليهم كما بعث الى الانس كما لا خلاف بينها ان مسيئهم مستحق للعقاب وانما اختلف علماء الاسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة فالجمهور على ان محسنهم في الجنة كما ان مسيئهم في النار وقيل بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم واما الجنة فلا يدخلها احد من اولاد إبليس وإنماهي لبني آدم وصالحي ذريته خاصة وحكى هذا القول عن ابي حنيفة رحمه الله تعالى واحتج الاولون بوجوه احدها هذه الاية فانه سبحانه اخبر ان من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى وهذا مستلزم لكمال النعيم ولا يقال ان الاية إنما تدل على نفي العذاب فقط ولا خلاف ان مؤمنيهم لا يعاقبون لانا نقول لولم تدل الاية الا على امر عدمي فقط لم يكن مدحا لمؤمني الانس ولما كان فيها الا مجرد امرعدمي وهو عدم الخوف والحزن ومعلوم ان سياق الاية ومقصودها إنما اريد به ان من اتبع هدى الله الذي انزله حصل له غاية النعيم واندفع عنه غاية الشقاء وعبر عن هذا المعنى المطلوب بنفي الامور المذكورة لاقتضاء الحال لذلك فإنه لما اهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل فاخبره سبحانه انه معطيه وذريته عهدا من اتبعه منهم انتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء ومعلوم انه لا ينتفى ذلك كله إلا بدخول دار النعيم ولكن المقام بذكر التصريح بنفي غاية المكروهات اولى الثاني قوله تعالى وإذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إناسمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من

ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم اخبارا بقوله ان من اجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلا بقوله ويجركم من عذاب اليم بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار فكل من غفر الله له فلا بد من دخوله الجنة الثالث قوله تعالى في الحور العين لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فهذا يدل على ان مؤمني الجن والانس يدخلون الجنة وأنه لم يسبق من احد منهم طمث لاحد من الحور فدل على ان مؤمنيهم يتأنى منهم طمث الحور العين بعد الدخول كما يتأتى من الانس ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الاخبار عنهم بذلك الرابع قوله تعالى فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون والجن منهم مؤمن ومنهم كافر كما قال صالحوهم وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فكما دخل كافرهم في الاية الثانية وجب ان يدخل مؤمنهم في الاولى الخامس قوله عن صالحيهم فمن اسلم فأولئك تحروا رشدا والرشد هو الهدى والفلاح وهو الذي يهدى اليه القرآن ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد بل لم يحصل له من الرشد الا مجردالعلم السادس قوله تعالى سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض اعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله فيدخل في المبشرين ويستحق البشارة السابع قوله تعالى والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم {عم} سبحانه بالدعوة وخص

بالهداية المفضية اليها فمن هداه اليها فهو من دعاه اليها فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين اليها الثامن قوله تعالى ويوم نحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذي اجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون يا معشر الجن والانس الم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم واهلها غافلون ولكل درجات مما عملوا وهذا عام في الجن والانس فاخبرهم تعالى ان لكلهم درجات من عمله فاقتضى ان يكون لمحسنهم درجات من عمله كما لمحسن الانس التاسع قوله تعالى إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون وقوله تعالى {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون} ووجه التمسك بالاية من جوه ثلاثة احدها عموم الاسم الموصول فيها الثاني ترتيبه الجزاء المذكورعلى المسألة ليدل على انه مستحق بها وهو قول ربنا الله مع الاستقامة والحكم يعم بعموم علته فإذا كان دخول الجنة مرتبا على الاقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على امره فمن اتى ذلك استحق الجزاء الثالث انه قال فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون اولئك اصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوايعملون فدل على ان كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من اهل الجنة وقد تقدم في اول الايات قوله تعالى فمن اتبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم

يحزنون وانه متناول للفريقين ودلت هذه الاية على ان من لا خوف عليه ولا حزن فهو من اهل الجنة العاشر انه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله فدخول محسنهم الجنة بفضله ورحمته اولى فإن رحمته سبقت غضبه والفضل اغلب من العدل ولهذا لا يدخل النار الا من عمل اعمال اهل النار واما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيرا قط بل ينشيء لها أقواما يسكنهم إياها من غير عمل عملوه ويرفع فيها درجات العبد من غير سعي منه بل بما يصل اليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها اليه بخلاف اهل النار فإنه لا يعذب فيها بغير عمل اصلا وقد ثبت بنص القرآن واجماع الامة ان مسيء الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون فمحسنهم في الجنة بفضل الله بما كانوا يعملون لكن قيل انهم يكونون في ربض الجنة يراهم اهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم ومثل هذا لايعلم الا بتوقيف تنقطع الحجة عنده فإن ثبتت حجة يجب اتباعها وإلا فهو مما يحكى ليعلم وصحته موقوفة على الدليل والله أعلم.اهـ.

وقال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٣٠٣): وقد استدل بهذه الآية -{ويجركم من عذاب أليم}- من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا في هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: حدثت عن جرير، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: (لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية

إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة(١).

والحق أن مؤمنهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} [الرحمن: ٧٤]، وفي هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: {ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان} [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس، فقالوا: "ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد" فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضا فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار -وهو مقام عدل- فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة -وهو مقام فضل- بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضا على ذلك عموم قوله تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا} [الكهف: ١٠٧]، وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة، ولله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه: {يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى} [نوح: ٤]، ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكي فيهم أقوال غريبة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٧٨٦) وإسناده ضعيف، كما هو بين.

فعن عمر بن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بحبوحة الجنة، وإنما يكونون في ربضها وحولها وفي أرجائها. ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ولا يرون بني آدم عكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا.

ومن الناس من قال: لا يأكلون في الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس، عوضا عن الطعام والشراب كالملائكة، لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها.اهـ.

وقال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان (٧/ ٢٣٦): قوله تعالى: {يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم.

منطوق هذه الآية أن من أجاب داعي الله محمدا ﷺ وآمن به، وبما جاء به من الحق - غفر الله له ذنوبه، وأجاره من العذاب الأليم. ومفهومها، أعني مفهوم مخالفتها المعروف بدليل الخطاب، أن من لم يجب داعي الله من الجن، ولم يؤمن به لم يغفر له، ولم يجره من عذاب أليم، بل يعذبه ويدخله النار، وهذا المفهوم جاء مصرحا به مبينا في آيات أخر، كقوله تعالى: {وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} [١١/ ١١٩]. وقوله تعالى: {ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} [٣٢/ ١٣]. وقوله تعالى: {قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار} [٧/ ٣٨]. وقوله تعالى: {فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون} [٢٦/ ٩٤- ٩٥]. إلى غير ذلك من الآيات.

أما دخول المؤمنين المجيبين داعي الله من الجن الجنة - فلم تتعرض له الآية الكريمة بإثبات ولا نفي، وقد دلت آية أخرى على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة، وهي قوله تعالى في سورة «الرحمن»: {ولمن خاف مقام ربه

جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان} [٥٥/ ٤٦- ٤٧]. وبه تعلم أن ما ذهب إليه بعض أهل العلم، قائلين: إنه يفهم من هذه الآية، من أن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة، وأن جزاء إيمانهم وإجابتهم داعي الله، هو الغفران وإجارتهم من العذاب الأليم فقط، كما هو نص الآية - كله خلاف التحقيق.

وقد أوضحنا ذلك في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في الكلام على هذه الآية، من سورة «الأحقاف» فقلنا فيه ما نصه: هذه الآية يفهم من ظاهرها، أن جزاء المطيع من الجن غفران ذنوبه، وإجارته من عذاب أليم، لا دخوله الجنة.

وقد تمسك جماعة من العلماء منهم، الإمام أبو حنيفة - رحمه الله تعالى - بظاهر هذه الآية، فقالوا: إن المؤمنين المطيعين من الجن لا يدخلون الجنة، مع أنه جاء في آية أخرى ما يدل على أن مؤمنيهم في الجنة، وهي قوله تعالى: {ولمن خاف مقام ربه جنتان؛ لأنه تعالى بين شموله للجن والإنس، بقوله: فبأي آلاء ربكما تكذبان.

ويستأنس لهذا بقوله تعالى: {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} [٥٥/ ٥٦]. فإنه يشير إلى أن في الجنة جنا يطمثون النساء كالإنس.

والجواب عن هذا أن آية «الأحقاف» نص فيها على الغفران والإجارة من العذاب، ولم يتعرض فيها لدخول الجنة بنفي ولا إثبات، وآية «الرحمن» نص فيها على دخولهم الجنة؛ لأنه تعالى قال فيها: ولمن خاف مقام ربه جنتان.

وقد تقرر في الأصول أن الموصولات من صيغ العموم، فقوله: ولمن خاف، يعم كل خائف مقام ربه، ثم صرح بشمول ذلك الجن والإنس معا بقوله: فبأي آلاء ربكما تكذبان.

فبين أن الوعد بالجنتين لمن خاف مقام ربه من آلائه، أي نعمه على الإنس والجن، فلا تعارض بين الآيتين؛ لأن إحداهما بينت ما لم تعرض له الأخرى.

ولو سلمنا أن قوله: يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم، يفهم منه عدم دخولهم الجنة، فإنه إنما يدل عليه بالمفهوم، وقوله: ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان يدل على دخولهم الجنة بعموم المنطوق.

والمنطوق مقدم على المفهوم كما تقرر في الأصول.

ولا يخفى أنا إذا أردنا تحقيق هذا المفهوم المدعى وجدناه معدوما من أصله؛ للإجماع على أن قسمة المفهوم ثنائية، إما أن يكون مفهوم موافقة أو مخالفة، ولا ثالث.

ولا يدخل هذا المفهوم المدعى في شيء من أقسام المفهومين.

أما عدم دخوله في مفهوم الموافقة بقسميه فواضح.

وأما عدم دخوله في شيء من أنواع مفهوم المخالفة، فلأن عدم دخوله في مفهوم الحصر أو الغاية أو العدد أو الصفة أو الظرف - واضح.

فلم يبق من أنواع مفهوم المخالفة يتوهم دخوله فيه إلا مفهوم الشرط أو اللقب، وليس داخلا في واحد منهما، فظهر عدم دخوله فيه أصلا.

أما وجه توهم دخوله في مفهوم الشرط، فلأن قوله: يغفر لكم من ذنوبكم فعل مضارع مجزوم بكونه جزاء الطلب.

وجمهور علماء العربية على أن الفعل إذا كان كذلك فهو مجزوم بشرط مقدر، لا بالجملة قبله، كما قيل به.

وعلى الصحيح الذي هو مذهب الجمهور، فتقرير المعنى: أجيبوا داعي الله وآمنوا به إن تفعلوا ذلك يغفر لكم، فيتوهم في الآية مفهوم هذا الشرط المقدر.

والجواب عن هذا: أن مفهوم الشرط عند القائل به، إنما هو في فعل الشرط لا في جزائه، وهو معتبر هنا في فعل الشرط على عادته، فمفهوم أن تجيبوا داعي الله وتؤمنوا به يغفر لكم، أنهم إن لم يجيبوا داعي الله ولم يؤمنوا به؛ لم يغفر لهم، وهو كذلك.

أما جزاء الشرط فلا مفهوم له؛ لاحتمال أن تترتب على الشرط الواحد مشروطات كثيرة، فيذكر بعضها جزاء له، فلا يدل على نفي غيره.

كما لو قلت لشخص مثلا: إن تسرق يجب عليك غرم ما سرقت.

فهذا الكلام حق ولا يدل على نفي غير الغرم كالقطع؛ لأن قطع اليد مرتب أيضا على السرقة، كالغرم.

وكذلك الغفران والإجارة من العذاب ودخول الجنة - كلها مرتبة على إجابة داعي الله والإيمان به.

فذكر في الآية بعضها وسكت فيها عن بعض، ثم بين في موضع آخر، وهذا لا إشكال فيه.

وأما وجه توهم دخوله في مفهوم اللقب، فلأن اللقب في اصطلاح الأصوليين هو ما لم يمكن انتظام الكلام العربي دونه، أعني المسند إليه، سواء كان لقبا أو كنية أو اسما أو اسم جنس أو غير ذلك.

وقد أوضحنا اللقب غاية في «المائدة».

والجواب عن عدم دخوله في مفهوم اللقب، أن الغفران والإجارة من العذاب المدعى بالفرض أنهما لقبان لجنس مصدريهما، وأن تخصيصهما بالذكر يدل على نفي غيرهما في الآية سندان لا مسند إليهما، بدليل أن المصدر فيهما كامن في الفعل، ولا يستند إلى الفعل إجماعا، ما لم يرد مجرد لفظه على

سبيل الحكاية.

ومفهوم اللقب عند القائل به إنما هو فيما إذا كان اللقب مسندا إليه؛ لأن تخصيصه بالذكر عند القائل به يدل على اختصاص الحكم به دون غيره، وإلا لما كان للتخصيص بالذكر فائدة، كما عللوا به مفهوم الصفة.

وأجيب من جهة الجمهور: بأن اللقب ذكر ليمكن الحكم، لا لتخصيصه بالحكم؛ إذ لا يمكن الإسناد بدون مسند إليه.

ومما يوضح ذلك أن مفهوم الصفة الذي حمل عليه اللقب عند القائل به - إنما هو في المسند إليه لا في المسند؛ لأن المسند إليه هو الذي تراعى أفراده وصفاتها، فيقصد بعضها بالذكر دون بعض فيختص الحكم بالمذكور.

أما المسند فإنه لا يراعى فيه شيء من الأفراد والأوصاف أصلا، وإنما يراعى فيه مجرد الماهية التي هي الحقيقة الذهنية.

ولو حكمت مثلا على الإنسان بأنه حيوان - فإن المسند إليه الذي هو الإنسان في هذا المثال يقصد به جميع أفراده؛ لأن كل فرد منها حيوان بخلاف المسند الذي هو الحيوان في هذا المثال، فلا يقصد به إلا مطلق ماهيته وحقيقته الذهنية من غير مراعاة الأفراد؛ لأنه لو روعيت أفراده لاستلزم الحكم على الإنسان بأنه فرد آخر من أفراد الحيوان كالفرش مثلا.

والحكم بالمباين على المباين باطل إذا كان إيجابيا باتفاق العقلاء.

وعامة النظار على أن موضوع القضية إذا كانت غير طبيعية يراعى فيه ما يصدق عليه عنوانها من الأفراد باعتبار الوجود الخارجي إن كانت خارجية، أو الذهني إن كانت حقيقية.

أما المحمول من حيث هو فلا تراعى فيه الأفراد البتة.

وإنما يراعى فيه مطلق الماهية، ولو سلمنا تسليما جدليا أن مثل هذه الآية يدخل في مفهوم اللقب - فجماهير العلماء على أن مفهوم اللقب لا عبرة به، وربما كان اعتباره كفرا، كما لو اعتبر معتبر مفهوم اللقب في قوله تعالى: (محمد رسول الله) [٤٨/ ٢٩] فقال: يفهم من مفهوم لقبه أن غير محمد ﷺ لم يكن رسول الله، فهذا كفر بإجماع المسلمين.

فالتحقيق أن اعتبار مفهوم اللقب لا دليل عليه شرعا ولا لغة ولا عقلا، سواء كان اسم جنس، أو اسم عين، أو اسم جمع أو غير ذلك.

فقولك: جاء زيد، لا يفهم منه عدم مجيء عمرو.

وقولك: رأيت أسدا، لا يفهم منه عدم رؤيتك لغير الأسد.

والقول بالفرق بين اسم الجنس فيعتبر، واسم العين فلا يعتبر، لا يظهر.

فلا عبرة بقول الصيرفي وأبي بكر الدقاق وغيرهما من الشافعية.

ولا بقول ابن خويز منداد وابن القصار من المالكية، ولا بقول بعض الحنابلة باعتبار مفهوم اللقب؛ لأنه لا دليل على اعتباره عند القائل به، إلا أنه يقول: لو لم يكن اللقب مختصا بالحكم لما كان لتخصيصه بالذكر فائدة، كما علل به مفهوم الصفة؛ لأن الجمهور يقولون: ذكر اللقب ليسند إليه، وهو واضح لا إشكال فيه.

وأشار صاحب مراقي السعود إلى تعريف اللقب بالاصطلاح الأصولي، وأنه أضعف المفاهيم - بقوله: أضعفها اللقب وهو ما أبي من دونه نظم الكلام العرب وحاصل فقه هذه المسألة أن الجن مكلفون على لسان نبينا ﷺ بدلالة الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، وأن كافرهم في النار بإجماع المسلمين، وهو صريح قوله تعالى: {لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} [١١/

١١٩]. وقوله تعالى: {فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون} [٢٦/ ٩٤- ٩٥]. وقوله تعالى: {قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار} [٧/ ٣٨]. إلى غير ذلك من الآيات.

وأن مؤمنيهم اختلف في دخولهم الجنة، ومنشأ الخلاف الاختلاف في فهم الآيتين المذكورتين. والظاهر دخولهم الجنة كما بينا، والعلم عند الله تعالى.اهـ.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (٢٨/ ٤٩٠): في القرآن قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} وجاء في الأحاديث حيث قال رسول الله ﷺ (كل الناس يدخلون الجنة إلا من أبى، فقيل: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال "من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني دخل النار) فنعرف أن الجن والإنس كلنا نعبد الله حيث وعد الله عباده بدخول الجنة، ولماذا لم يذكر اسم الجن معنا، حيث كانوا عباد الرحمن، وعلى هذا فنطلب من سماحتكم البيان والبرهان؟

فأجابوا: الصحيح: أن مؤمني الجن يدخلون الجنة، قال تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} فمن خاف المقام بين يدي ربه بأن آمن وعمل صالحا فهو مؤمن، وقد وعد الله المؤمنين بدخول الجنة، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} وقوله تعالى: {يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} صريح في أن من أجاب الداعي وآمن بالله جوزي بمغفرة الذنوب والإجارة من العذاب، وهذا يستلزم دخول الجنة، لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة.اهـ.

وأما من قال: بأنه لا جزاء لهم إلا الجنة محتجًا بقوله تعالى: (يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [الأحقاف: ٣١]. فمن الواضح أنه لا يلزم من

الاقتصار على ذكر المغفرة والنجاة من العذاب نفي ثوابهم، كيف وقد ثبت بالأدلة المتعددة ثوابهم وتنعمهم بالجنة.

وأما من قال بأنهم على الأعراف: بين الجنة والنار فهو قول لا دليل صحيح عليه، ثم إن وقوف أصحاب الأعراف عقاب من الله يعقبه دخول الجنة كما قال تعالى: (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) [الأعراف: ٤٦]. ولذلك قال بعض السلف: ما أطمعهم إلا ليدخلهم، والحديث في مؤمني الجن الذين لا عقاب عليهم.

وأما من قال بالتوقف في كيفية ثوابهم فهو بعيد، إذ لا موجب له مع شهادة النصوص بدخولهم الجنة.

وأما من قال بأنهم في ربض الجنة، أو أنهم يلهمون التسبيح فيصيبون من لذته ما يصيبه بنو آدم من النعيم، فأنها أقوال لا دليل عليها.

قال محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٨/ ١١٢): في هذه الأقوال: وشذ من قال أن مسلمي الجن لا يدخلون الجنة، إذ ليس لهم ثواب، وأشد منه شذوذًا من زعم أنهم لا يدخلون الجنة ولا النار، نقل ذلك السيوطي عن ليث بن أبي سليم، وهو مخالف لنصوص القرآن، وليث هذا مضطرب الحديث وإن روى عنه مسلم، وقد اختلط عقله في آخر عمره، ولعله قال هذا القول وغيره مما أنكر عليه بعد اختلاطه.اهـ.

(فرع): هل مؤمني الجن يرون ربهم في الجنة؟

قال العيني في عمدة القاري (٢٣/ ٧٥): ثم إن مؤمني الجن إذا دخلوا الجنة هل يرون الله تعالى فقد وقع في كلام عبد السلام في (القواعد الصغرى) ما يدل على أنهم لا يرون الله تعالى وأن الرؤية مخصوصة بمؤمني البشر فإنه صرح بأن

الملائكة لا يرون الله تعالى في الجنة ومقتضى هذا أن الجن لا يرونه.اهـ.

وقال السيوطي في الحاوي (٢/ ٢٨٨): وأما السؤال الثاني: فذكر صاحب آكام المرجان في أحكام الجان أن قياس قول الشيخ عز الدين بن عبد السلام في الملائكة أنهم لا يرون ربهم أن الجن أيضًا لا يرون ربهم ومستند الشيخ عز الدين في الملائكة قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) خص من ذلك المؤمنون فبقي على عمومه في الملائكة، لكن ما قاله الشيخ عز الدين في الملائكة ممنوع كما بينته في الكتاب الذي ألفته في الرؤية، وما قاله صاحب الآكام في الجن خالفه فيه البلقيني ومال إلى أنهم يرون، والذي أقوله: إن الجن تحصل لهم الرؤية في الموقف مع سائر الخلق قطعًا ويحصل لهم في الجنة في وقت ما من غير قطع بذلك لكن باحتمال راجح، وأما أنهم يساوون الإنس في الرؤية كل جمعة فالظاهر خلافه.اهـ.

وقال ابن حجر الهيتمي كما في الفتاوى الحديثية (ص٥٢): وذهب بعض الحنفية أنهم لا يرون الله وإليه يميل كلام ابن عبد السلام لأنه صرح بمنع الرؤية للملائكة ووافقه جماعة من الحنفية، لكن الأرجح أن الملائكة يرونه كما نص عليه الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتابه الإبانة في أصول الديانة، وتابعه الإمام البيهقي وغيره كابن القيم والحداد والجلال البلقيني. قال الجلال: وكذلك الجن يرونه لعموم الأدلة، ومر في الأحاديث المتعلقة بالملائكة التصريح في حديث البيهقي وأبي الشيخ والخطيب وابن عساكر بأن الملائكة يرون ربهم، ولعل ابن عبد السلام لم يطلع عليه وإلا لم يخالفه.اهـ.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ١٣٩): إنَّ رؤية المؤمنين في الجنة لربهم ﷻ عامة بالإنس والجن، للرجال وللنساء، وللملائكة

أيضًا، {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد:٢٣-٢٤]، فالملائكة في الجنة يعني طائفة منهم في الجنة، وفي الجنة المؤمنون من الجن والإنس ومن الرجال والنساء، ولم يدلَّ دليل على اختصاص الرؤية بالرجال دون النساء ولا على اختصاص الرؤية بالإنس دون الجن، وهذه فيها أقوال:

١- القول الأول: من قال: إنَّ الرؤية للإنس دون الجن، وهذا خلاف الصواب كما ذكرنا؛ لأنَّ الآيات عامة في الرؤية في كل مؤمن فمن دخل الجنة رآه.

٢- القول الثاني: إنَّ الرؤية للرجال دون النساء، واستدلوا على ذلك بقوله ﷻ {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} [الرحمن:٧٢] وأنَّ القصر في الخيام يدل على عدم خروجهن من ذلك. والصواب أنَّ الرجال والنساء من المكلفين من الجن والإنس يرون ربهم ﷻ إذ كانوا من أهل الجنة.

وأمَّا الاستدلال بالآية فعجيب لأنَّ:

أولًا: الآية أولًا في الحور، والحور خلق ينشؤهن الله ﷻ إنشاءً في الجنة وليسوا من المكلفين في الدنيا.

ثانيًا: أنَّ الله ﷻ قال {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ} [يس:٥٦] وقال ﷻ في الآية الأخرى {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ}، فمن نعيم أهل الجنة أنهم يتمتعون هم وأزواجهم على الأرائك فيتكئون وينظرون، وإخراج النساء من الاتكاء ضده الآية وكذلك إخراجهم من النظر ضده الآية.

لهذا نقول غلط من قال إنَّ الرؤية للرجال دون النساء، فالنساء يرون ربهم ﷻ كما يراه الرجال؛ لأنهم مكلفون متعبدون، والنعيم عام للإنسان الذي يدخل

الجنة من الرجال والنساء جميعًا، نسأل الله الكريم من فضله.

(فرع): تزاوج الجن في الجنة

سئل العلامة الوادعي كما في تحفة المجيب (ص٣٧٥): هل الجن يتزوجون من الحور العين في الجنة .. ؟.

فأجاب: الذي يظهر أنّهم يتزوجون بدليل قوله تعالى: {لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ}.

مسألة: كيف يعذب كفار الجن بالنار وقد خلقوا من النار؟

يورد بعض الناس هذه الشبهة فيقولون: أنتم تقرون أن الجن خلقوا من نار، ثمّ تقولون: إنّ كافرهم يعذب في نار جهنم، ومسترق السمع منهم يقذف بشهب من نار، فكيف تؤثر النار فيهم وقد خلقوا منها؟

والجواب هو أنه لا يلزم من كون الجن خلقوا من نار أن يكونوا الآن نارا، كما أن الإنس خلقوا من تراب وليسوا الآن ترابا.

فإن أنّ الأصل الذي خلق منه الجن النار، أمّا بعد خلقهم فليسوا كذلك، إذ أصبحوا خلقًا مخالفًا للنار، يوضح هذا أن الإنسان خلق من تراب، ثم بعد إيجاده أصبح مخالفًا للتراب، ولو ضربت إنسانًا بقطعة مشوية من الطين لقتلته، ولو رميته بالتراب لآذاه، ولو دفنته فيه لاختنق، فمع أنه من تراب إلا أن التراب يؤذيه، فكذلك الجن.

قال أبو الوفاء بن عقيل كما في عالم الجن والشياطين (ص ٥٨): "أضاف الشياطين والجان إلى النار حسب ما أضاف الإنسان إلى التراب والطين والفخار، والمراد به في حق الإنسان أن أصله الطين، وليس الآدمي طينا حقيقة، لكنه كان طينا، كذلك الجان كان نارا في الأصل" انتهى.

والأدلة على أن الجن خلقهم الله تعالى من نار، ولكنهم ليسوا الآن نارا كثيرة منها:

حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه، قال رسول الله ﷺ (حتى وجدت برد لسانه على يدي، ولولا دعوة أخي سليمان عليه السلام لأصبح موثقا حتى يراه الناس)[1].

ومنها حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال (قام رسول الله ﷺ فسمعناه يقول أعوذ بالله منك ثم قال: ألعنك بلعنة الله ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئا، فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله قد سمعناك تقول في الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك، قال إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر، ثلاث مرات، ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة)[2].

فمن هذين الحديثين يتبين لنا أن الجن الآن ليسوا نارا؛ ويدل على ذلك ما وجده رسول الله ﷺ من برد لسان الشيطان، كما في الحديث الأول، وأن الشيطان لو كان باقيا على ناريته ما احتاج أن يأتي بشهاب ليجعله في وجه النبي ﷺ ولما استطاع الولدان أن يلعبوا به.

ومن الأدلة كذلك قول النبي ﷺ: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم)[3].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٣٩) وإسناده حسن، وفي الباب عن جمع من الصحابة.

(٢) أخرجه مسلم (٥٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٣٣) ومسلم (٢١٧٥).

ولو كان الشيطان نارا لاحترق الإنسان؛ لأن الشيطان داخله[1]،فتبين الفرق

---

(١)(تنبيه) هل قوله صلى الله عليه وآله وسلم «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» من أدلة تلبس الجن بالإنس؟ سئل لعلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٨/ ١١٩): ما هي الأدلة لدخول الجن في الإنس من الكتاب والسنة؟

فأجاب: هذا بحث طرق وشبعتم منه، والآية الكريمة: {الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} (البقرة:٢٧٥) والأحاديث التي جاءت عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه من معجزاته أنه أخرج بعض الشياطين من بعض المرضى فنشط المريض كأنما نشط من عقال، فحسبكم هذا، وهذه عقيدة صحيحة تلقتها الأمة بالقبول، إلا المعتزلة وإلا من كان فيه اعتزال، وقد لا يكون من المعتزلة.

مداخلة: طيب! الحديث: «يجري الشيطان من ابن آدم مجرى الدم» قالوا: هل سيحملنا هذا الحديث أن تقول» كل إنسان به مس.

الشيخ: لا، هذا كلام .. هذا تحميل للحديث الصحيح هذا ما لا يتحمل، ومن هنا ندخل في بحث هام جدًا قد يغفل عنه كثير من طلبة العلم إن لم أقل: قد يغفل عنه بعض أهل العلم أو على الأقل بعض من ينتسب إلى أهل العلم، قوله عليه السلام: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» له مناسبة، هذه المناسبة تَشْرَحُ وتُبَيِّنُ للسامع للحديث المعنى الصحيح المقصود من الحديث، فلا يسعه حينذاك أن يحمله ما لا يتحمل من المعنى؛ الحديث في صحيح البخاري، وفي باب الاعتكاف منه بصورة خاصة، أو كتاب الاعتكاف الذي يلي كتاب الصيام، أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان معتكفًا في مسجده فزارته زوجته صفية وجلست عنده مدة، ثم خرج معها يقلبها إلى أهلها فوقف معها في جانب في الطريق، وهو معها يتحدث مر رجلان من الأنصار فوقع بصرهما على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وبجانبه امرأة، هم لا يعرفونها بطبيعة الحال؛ لأن نساء النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كن يحتجبن حتى في وجوههن وجوبًا وخصوصيةً للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولذلك كانت الفضليات .. النساء الفاضلات من الصحابيات الجليلات يغطين أيضًا وجوههن تشبهًا بنساء الرسول عليه السلام أمهات المؤمنين.

فما عرف هذان الرجلان هذه المرأة التي وقف الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- معها، فسارعا السير والمشي، فقال لهما عليه الصلاة والسلام: «على رسلكما إنها صفية =

بين كون الشيطان نارا وكونه مخلوقا من نار.

ولو كان الشيطان نارا الآن -على سبيل الفرض- وأراد الله أن يعذبه بنار جهنم، فإن الله تعالى على كل شيء قدير، ولا يعجزه شيء سبحانه وتعالى.

(باب عموم رسالة محمد ﷺ إلى الإنس والجن)

الذي يدين به المسلمون هو أن النبي ﷺ إرسل إلى الثقلين الإنس والجن، وهذا مما أجمع أهل الإيمان بالله ورسوله عليه، وهذا الإجماع تواتر في نقله العلماء.

قال ابن عبد البر في التمهيد (١١/ ١١٧): ولا يختلفون أن محمدا ﷺ رسول إلى الإنس والجن نذير وبشير هذا مما فضل به على الأنبياء أنه بعث إلى الخلق كافة الجن والإنس وغيره لم يرسل إلا بلسان قومه ﷺ.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٩/ ٩): يجب على الإنسان أن يعلم أن الله ﷻ أرسل محمدا ﷺ إلى جميع الثقلين الإنس والجن وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته وأن يحللوا ما حلل الله ورسوله ويحرموا ما حرم الله ورسوله وأن يوجبوا ما أوجبه الله ورسوله ويحبوا ما أحبه الله ورسوله ويكرهوا ما كرهه الله ورسوله وأن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمد ﷺ من الإنس والجن فلم يؤمن به استحق عقاب الله تعالى كما يستحقه أمثاله من الكافرين الذين بعث إليهم الرسول وهذا أصل متفق عليه بين

=

- زوجتي -» قالا: «يا رسول الله!» إن كنا نشك في أحد فما كنا لنشك بك يا رسول الله» .. قال: «إن الشطيان يجري من الإنسان - وفي لفظ روايات - من ابن آدم مجرى الدم» إذا ربطنا هذا الحديث بمناسبته انكشف لنا المراد منه؛ يجري من الإنسان من ابن آدم مجرى الدم بالوسوسة، وليس بالإيذاء والصرع كما زعم المشار إليه في كلام السائل.

الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين أهل السنة والجماعة وغيرهم -رضي الله عنهم أجمعين- لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن ولا في أن الله أرسل محمدا ﷺ إليهم ..اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (ص٦١٦): وقد اتفق المسلمون على أن كفار الجن في النار ... وبالجملة فهذا أمر معلوم باضطرار من دين الإسلام وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع ووجوب اتباعهم لهم فأما شريعتنا فأجمع المسلمون على أن محمدا بعث إلى الجن والإنس وأنه يجب على الجن طاعته كما يجب على الإنس.اهـ.

وقال الزركشي في البحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٣٨٤): والدليل على تكليف الجن بالفروع الإجماع على أن النبي ﷺ أرسل بالقرآن إلى الإنس والجن، وجميع أوامره ونواهيه يتوجه إلى الجنسين، وقد تضمن ذلك أن كفار الإنس مخاطبون بها، وكذلك كفار الجن.اهـ.

وقال الشبلي في آكام المرجان (ص٦٥): لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في أن الله تعالى أرسل محمدا ﷺ إلى الجن والإنس وثبت في الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي إلى أن قال وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة قال ابن عقيل الجن داخلون في مسمى الناس لغة وقال الراغب الناس جماعة حيوان ذي كفر وروية والجن لهم فكر وروية والناس من ناس يقوس إذا تحرك وقال الجوهري الناس قد يكون من الإنس ومن الجن وفي الصحيحين أيضا من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ بعثت إلى الأحمر والأسود واختلفت العلماء في المعنى المراد من الأحمر والأسود هنا

فقيل هم العرب العجم لأن الغالب على العجم الحمرة والبياض وعلى العرب الآدمة والسواد وقيل أراد الإنس والجن وقيل أراد الأحمر والأبيض مطلقا فإن العرب تقول إمرأة حمراء أي بيضاء ويؤيد قول من قال إنهم الجن إن إطلاق السواد على الجن صحيح باعتبار مشابهتهم للأرواح والأرواح يقال لها اسودة كما في حديث الإسراء أنه رأى آدم وعن يمينه اسودة وعن شماله اسودة وانها نسم بنيه وفي حديث ابن مسعود ليلة الجن فغشيته أسودة حالت بيني وبينه.اهـ.

مسألة: هل بعث الأنبياء السابقين إلى الجن

الأظهر دلالة والله أعلم أن الله لم يبعث نبيا إلى الإنس والجن قبل محمد ﷺ، دل على ذلك قوله ﷺ: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة، فليصل وأحلت لي المغانم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة" رواه البخاري.

وفي رواية مسلم: "وبعثت إلى كل أحمر وأسود" قال مجاهد: يعني الجن والإنس، وقال غيره: يعني العرب والعجم، والكل صحيح.

فهذه إحدى الخصال التي فضل بها ﷺ على سائر إخوانه الأنبياء، وهي عموم بعثته إلى الإنس والجن والعرب والعجم، قال الإمام ابن عبد البر: ولا يختلفون أنه ﷺ بعث إلى الإنس والجن، وهذا مما فضل به على الأنبياء.

ولا يعني اقتصار بعثة الأنبياء السابقين إلى أقوامهم تكليفا، أقول: لا يعني ذلك عدم جواز أن يدخل في دينهم من ليس من أقوامهم، أو أن يدعو النبي غير قومه من غير أن يكون مكلفا بذلك، وعلى هذا يخرج ما ذكر الله من تهود الجن

مع أن موسى لم يبعث إليهم، وإنما بعث إلى بني إسرائيل، قال تعالى: (قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) [الأحقاف:٣٠].

قال عطاء: كانوا يهودا فأسلموا.

وقال ابن المسيب في تفسير قوله تعالى: (كنا طرائق قددا) [الجن:١١] كنا مسلمين ويهودا ونصارى ومجوسا.

وقال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (٧/ ٢٥٨): قال ابن مفلح في الفروع: لم يبعث إليهم (أي الجن) نبي قبل نبينا محمد ﷺ.

قلت: ويشهد له قوله ﷺ: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) فأما قوله تعالى عن الجن: {يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ}. فظاهره أنهم كانوا يتعبدون بشريعة موسى، وكذا هو ظاهر حال الجن المسخرين لسليمان أي إن الظاهر أنهم كانوا يتعبدون بشريعة سليمان، وكان يتعبد بشريعة موسى، هكذا قيل: إنه ظاهر حالهم وفيه نظر ولكن يكفينا ظاهر الآية.

والجواب أن الظاهر أنه لم يكلف بالرسالة إليهم، وإن كانوا قد يتعبدون بها والله أعلم.

مسألة: لم قال الجن (أنزل من بعد موسى)

وذلك في قوله تعالى (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [الأحقاف:٢٩- ٣١]. ولم يذكروا عيسى صلى الله عليهما وسلم؟

هذه الآية الكريمة تضمنت خبراً عما جرى بين الجن الذين استمعوا لآيات من القرآن الكريم، فذكروا وصفين للقرآن، أحدهما: أنه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، والثاني: أنه أنزل من بعد موسى عليه السلام، وسبب قولهم: "من بعد موسى" مع أن عيسى عليه السلام كان أقرب لمبعث محمد عليهم -الصلاة والسلام- ، قد حاول أهل العلم من المفسرين توجيهه، فأشار كثير منهم ـ كالبغوي، والرازي، وأبي السعود، وغيرهم ـ إلى أن ذلك النفر من الجن كان على دين موسى عليه السلام، واعتمدوا في ذلك على أثر يذكر عن قتادة رحمه الله، وهذا الأثر إن صحت نسبته إليه فتوجيه الآية اعتمادا عليه محل نظر؛ لاحتمال أن يكون قاله باجتهاده معتمدا في ذلك على مصادر ليست معصومة كروايات أهل الكتاب مثلا، ذلك أن ظواهر النصوص من الكتاب والسنة تقوي القول بضعف هذا التوجيه لما قد تقرر عند بعض أهل العلم؛ أن من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه بعث للثقلين الإنس والجن، وأن من كان قبله من الأنبياء كان يبعث إلى قومه خاصة، ففي الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) وغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة) قال ابن عبد البر -رحمه الله-: لا يختلفون ـ أي أهل العلم ـ أنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى الإنس والجن، وهذا مما فضل به على الأنبياء".اهـ. وحكى الإجماع أيضا ابن قتيبة في تأويل مشكل الحديث في سياق رده على النظام المعتزلي.

والمقصود أن هذا التوجيه المذكور محل نظر، وأحسن منه ما أورده ابن

كثير والسمعاني في تفسيريهما، وحاصله أن شريعة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جاءت متممة لشريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تخرج عنها بكثير شرائع، بل كان غالبها رقائق ومواعظ؛ فلأجل هذا ذكروا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يذكروا عيسى عليهما السلام.

وقد سئل شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٣): سأل رجل آخر عن قوله تعالى {ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة} فقال: ما سمعنا بنص القرآن والحديث أن ما قبل كتابنا إلا الإنجيل فقال الآخر عيسى إنما كان تبعا لموسى والإنجيل إنما فيه توسع في الأحكام تيسير مما في التوراة فأنكر عليه رجل وقال: كان لعيسى شرع غير شرع موسى واحتج بقوله {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} قال: فما الحكم في قوله: {وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة}؟ فقال ليست هذه حجة.

فأجاب: قد أخبر الله في القرآن أن عيسى قال لهم {ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم} فعلم أنه أحل البعض دون الجميع وأخبر عن المسيح أنه علمه التوراة والإنجيل بقوله {ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل} ومن المعلوم أنه لولا أنه متبع لبعض ما في التوراة لم يكن تعلمها له منة ألا ترى أنا نحن لم نؤمر بحفظ التوراة والإنجيل وإن كان كثير من شرائع الكتابين يوافق شريعة القرآن فهذا وغيره يبين ما ذكره علماء المسلمين من أن الإنجيل ليس فيه إلا أحكام قليلة وأكثر الأحكام يتبع فيها ما في التوراة؛ وبهذا يحصل التغاير بين الشرعتين ولهذا كان النصارى متفقين على حفظ التوراة وتلاوتها كما يحفظون الإنجيل؛ ولهذا لما سمع النجاشي القرآن قال إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة وكذلك ورقة بن نوفل قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لما ذكر له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يأتيه قال هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى. وكذلك قالت

الجن {إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى} وقال تعالى {فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل} قالوا ساحران تظاهرا أي موسى ومحمد وفي القراءة الأخرى {سحران تظاهرا} أي التوراة والقرآن وكذلك قال {وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس} إلى قوله: {وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه} فهذا وما أشبهه مما فيه اقتران التوراة بالقرآن وتخصيصها بالذكر يبين ما ذكروه من أن التوراة هي الأصل والإنجيل تبع لها في كثير من الأحكام وإن كان مغايرا لبعضها.

فلهذا يذكر الإنجيل مع التوراة والقرآن في مثل قوله: {نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل} {من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان} وقال: {وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن} فيذكر الثلاثة تارة ويذكر القرآن مع التوراة وحدها تارة لسر وهو أن الإنجيل من وجه أصل ومن وجه تبع؛ بخلاف القرآن مع التوراة فإنه أصل من كل وجه بل هو مهيمن على ما بين يديه من الكتاب وإن كان موافقا للتوراة في أصول الدين وكتبه من الشرائع والله أعلم.اهـ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرة (٧/ ٣٠٢): ولم يذكروا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة، فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقصة نزول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: بخ بخ هذا الناموس الذي نزل الله على موسى" رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(باب هل هناك رسل من الجن)

اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

الأول: أن رسل الجن هم من البشر، ولم يبعث إلى الجن رسول منهم، وهو رأي الجمهور من العلماء[١].

الثاني: أنه ليس في الجن رسل ولكن منهم نذر عن الرسل، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج وأبو عبيد[٢]، وهو اختيار العلامة العثيمين حيث قال في تفسير سورة الذاريات: كذلك يمتاز الإنس عنهم بأن منهم الرسل والأنبياء، وأما الجن فليس منهم رسل، ولكن منهم نُذر، يبلغونهم الرسالات من الإنس، كما في قول الله تعالى: {وإذ صرفنآ إليك نفرًا من الجن يستمعون القرءان فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين}.

الثالث: أنه قد بعث إلى الجن رسل منهم، وهو رأي مقاتل والضحاك[٣] وهو اختيار ابن حزم كما في الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ٢٦٤).

وهو اختيار العلامة ابن باز أيضا فقد سئل كما في مسائل الإمام ابن باز للشيخ عبد الله بن مانع (ص٣٣): هل من الجن رسل؟

فأجاب: الله أعلم، لا مانع.اهـ.

والذي ينبغي أن يعلم في هذا المقام أن الجمهور والضحاك ومن معه متفقون على أن محمدًا ﷺ مبعوث إلى الجن والإنس معًا، وإنما الاختلاف

---

(١) فتاوى السبكي (٢/ ٦١٨)، والأشباه والنظائر (٢/ ٣٣٠)، والتفسير الكبير (١٣/ ١٩٥)، والفتاوى الحديثية (٦٩).

(٢) تفسير الطبري (٢٦/ ٣١)، وتفسير القرطبي (٧/ ٨٦)، وطريق الهجرتين (١/ ٤١٦)، وفتاوى السبكي (٢/ ٦١٨).

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٨٦)، وروح المعاني (٨/ ٢٨)، والتفسير الكبير (١٣/ ١٩٥).

بينهم في أنه هل بعث إلى الجن رسل من جنسهم قبل مبعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أم لا؟

فالضحاك ومن معه يقولون: بأنه قد بعث إلى الجن رسل منهم قبل نبينا عليه السلام، والجمهور على خلافه، قال السبكي في فتاواه (٢/ ٦١٩): ومن نقل عن الضحاك مطلقًا أن رسل الجن منهم فهو محمول على هذا التقييد -أي قبل نبينا عليه السلام- ولم ينقل أحد عنه أن ذلك في هذه المسألة، وإن توهم أحد ذلك عليه فقد أخطأ، ويجب عليه النزوع وعدم اعتقاده، وأن لا ينسب إلى رجل عالم ما يخالف الإجماع، فيكون قد جنى عليه جناية يطالبه بها بين يدي الله تعالى.

وقال أيضا في نفس المصدر (٢/ ٦٠٩): ولم يقل الضحاك ولا أحد غيره باستمرار ذلك في هذه الملة، وإنما محل الخلاف في ذلك في الملل المتقدمة خاصة، وأما في هذه الملة فمحمد ﷺ هو المرسل إليهم وإلى غيرهم، والاستدلال بالإجماع في ذلك صحيح.

وإليك تفصيل هذه الأقوال مع ذكر أدلتها:

القول الأول: وهو قول الجمهور بأن رسل الجن هم من البشر وليسوا من الجن.

قال شيخ الإسلام في النبوات: واختلفوا: هل يكون في الجن رسل؟ والأكثرون على أنّه لا رسل فيهم، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالًا نُوحِي إِلَيهِمْ مِنْ أَهْلِ القُرَى} .اهـ.

وقال ابن نجيم في الأشباه والنظائر (٢/ ٣٣٠): الجمهور على أنه لم يكن من الجن نبي.اهـ.

وقال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية (ص: ٦٦): وجمهور الخلف

والسلف أنه لم يكن فيهم رسول ولا نبي خلافًا للضحاك.اهـ.

وقال الشبلي في آكام المرجان (ص٣٤): وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا على أنه لم يكن من الجن قط رسول، ولم تكن الرسل إلا من الإنس، ونقل معنى هذا عن ابن عباس، وابن جريج، ومجاهد، والكلبي، وأبي عبيد، والواحدي.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (١/ ٤١٦): ولما كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولًا ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف أخر ليس شيء منها للجن وهم: الرسل، والأنبياء، والمقربون، فليس في الجن صنف من هؤلاء بل حليتهم الصلاح.اهـ.

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب كما في مؤلفات الشيخ القسم الرابع - التفسير- (ص١٧٩)، (وص ٢١١- ٢١٢)، (وص٢٥٣): وأن الرسل من البشر كلهم رجال، وليس في الجن ولا في النساء رسل، وأنهم من أهل القرى.اهـ.

وقال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ١٨٨): قوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} الآية.

قال بعض العلماء: المراد بالرسل من الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل، فيبلغونه إلى قومهم، ويشهد لهذا أن الله ذكر أنهم منذرون لقومهم في قوله: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} [٤٦/ ٢٩].

وقال بعض العلماء: {رُسُلٌ مِنْكُمْ} [٦/ ١٣٠]، أي من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس: لأنه لا رسل من الجن، ويستأنس لهذا القول بأن القرآن ربما أطلق فيه المجموع مرادًا بعضه، كقوله: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا} [٧١/ ١٦]، وقوله: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا} [٩١/ ١٤]، مع أن العاقر واحد منهم،

كما بينه بقوله: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} [٥٤/ ٢٩]، واعلم أن ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من أجلاء العلماء في تفسير هذه الآية: من أن قوله: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [٥٥/ ٢٢]، يراد به البحر الملح خاصة دون العذب غلط كبير، لا يجوز القول به. لأنه مخالف مخالفة صريحة لكلام الله تعالى، لأن الله ذكر البحرين الملح والعذب، بقوله: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [٣٥/ ١٢]، ثم صرح باستخراج اللؤلؤ والمرجان منها جميعًا بقوله: {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا}، والحلية المذكورة هي اللؤلؤ والمرجان، فقصره على الملح مناقض للآية صريحًا، كما ترى.

استدل الجمهور بالكتاب والسنة.

أولًا: الأدلة من الكتاب: ومنها:

١- قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى) [يوسف: ١٠٩]. قال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٧٤): وهذا رد على القائلين: (وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) [الأنعام: ٨]. أي: أرسلنا رجالًا ليس فيهم امرأة، ولا جني، ولا ملك .. قال الحسن: لم يبعث الله نبيًا من أهل البادية قط، ولا من النساء، ولا من الجن .. قال العلماء: من شرط الرسول أن يكون آدميا مدنيًا، وإنما قالوا آدميًا تحرزًا من قوله: يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن: ٦]. والله أعلم.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم طريق الهجرتين (١/ ٤١٦) في الآية: فهذا يدل على أنه لم يرسل جنيًا، ولا امرأة، ولا بدويًا، وأما تسميته تعالى الجن رجالًا في قوله: (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) [الجن:

٦]. فلم يطلق عليهم الرجال، بل هي تسمية مقيدة بقوله: (مِّنَ الْجِنِّ) فهم رجال من الجن، ولا يستلزم دخولهم في الرجال عند الإطلاق، كما تقول: رجال من حجارة، ورجال من خشب ونحوه.اهـ.

٢- قوله تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) [النساء: ١٦٣]. وقوله تعالى: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) [العنكبوت: ٢٧]. وذلك إخبارًا عن إسماعيل عليه السلام.

فهذه الآيات قد أخبرت أن الله قد جعل النبوة في الرجال من البشر، ولو كان في الجن رسل وأنبياء لأخبر القرآن بذلك، والآيات السالفة إخبار من الله عن إبراهيم عليه السلام أن الله قد جعل النبوة في ذريته من بعده، قال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣٤٠): فلم يبعث الله نبيًا بعد إبراهيم إلا من صلبه.اهـ.

٣- قوله تعالى: (وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ) [الفرقان: ٢٠].

فقد أخبر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن الرسل الذين بعثهم قبله كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، والمقصود بذلك أنهم بشر، وليس في الآية ما يدل على بعث الرسل من خلاف الإنس.

٤- قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) [ال عمران: ٣٣].

قال الرازي في تفسيره (١٣/ ١٩٥): وأجمعوا على أن المراد بهذا

الاصطفاء إنما هو النبوة، فوجب كون النبوة مخصوصة بهؤلاء فقط.اهـ.، فلا يدخل فيه الجن أو غيرهم من البشر.

٥- قوله تعالى: (إخبارًا عن النفر من الجن الذين ولوا إلى قومهم منذرين بعد سماعهم القرآن من الرسول عليه السلام: إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الأحقاف: ٣٠].

والذي نفهمه من هذه الآية أن هذا النفر من الجن كان منهم من آمن بموسى عليه السلام، مما يدل على أنه مرسل إليهم، وقد نقل القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢١٧): عن ابن عباس: أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى، فلذلك قالت: أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى .. قال مقاتل: ولم يبعث الله نبيًا إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ.اهـ. وفي هذا دليل على أنه لم يبعث إلى الجن رسولًا منهم.

ثانيًا: الأدلة من السنة

أخرج مسلم في صحيحه (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ..) الحديث.

فإخباره عليه الصلاة والسلام أن كل نبي من الأنبياء السابقين كان يبعث إلى قومه خاصة فيه دليل على أن الجن لم يبعث إليهم رسول منهم، وذلك أن القوم في اللغة: هم جماعة الرجل من الرجال والنساء، فتخصيص الحديث بعث الرسل السابقين إلى أقوامهم بقوله: (إلى قومه) فيه دليل على أنهم جماعة ذلك النبي من الناس دون الجن، إذ لم يعهد في اللغة إطلاق لفظ القوم على جماعة الرجل من الجن.

وقوله عليه الصلاة والسلام بعد ذلك: (وبعثت إلى كل أحمر وأسود) فيه

مزيد بيان لما قلناه، حيث إن رسالة من قبله من الأنبياء كانت لأقوامهم من البشر خاصة، وامتاز نبينا عليه الصلاة والسلام على غيره من الأنبياء بأنه قد بعث إلى الجن والإنس جميعًا، كما نص على ذلك الحديث المتقدم، وفي هذا دلالة على أنه لم يكن في الجن رسل منهم.

وأما من ذكر بأن الرسل السابقين قبل نبينا عليه الصلاة والسلام كانوا يبعثون إلى الإنس والجن جميعًا - كما ذكر الكلبي - فإن ذلك معارض بالحديث المتقدم، حيث اختص الرسول ﷺ على غيره من الأنبياء بأنه بعث إلى الجن والإنس جميعًا، ولم يحصل هذا لغير نبينا عليه الصلاة والسلام.

القول الثاني: بأن في الجن نذرًا، وليس منهم رسل، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهم من السلف.

قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٨٦): وقال ابن عباس: رسل الجن هم الذين بلغوا قومهم ما سمعوه من الوحي كما قال: ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ ثم قال: وقال مجاهد: الرسل من الإنس والنذر من الجن ثم قرأ: ﴿إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ يقول القرطبي: وهو -أي قول مجاهد - معنى قول ابن عباس، وهو الصحيح.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص٣٦٣): وجمهور العلماء على أن الرسل من الإنس، ولم يبعث من الجن رسول، لكن منهم النذر.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم طريق الهجرتين (١/ ٤١٦): قال غير واحد من السلف: الرسل من الإنس، وأما الجن ففيهم النذر.اهـ.

وقال الإمام الطبري في تفسيره (٢٦/ ٣١): عن ابن عباس ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ

نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، قال كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلًا إلى قومهم.اهـ.

وقال السبكي في فتاواه (٢/ ٦١٨): والذين خالفوا الضحاك في تمسكه بظاهر قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) [الأنعام: ١٣٠]. إنما يؤلون هذه الآية، فقد قال ابن عباس ومجاهد وابن جريج وأبو عبيد: معناه: أن رسل الإنس رسل من الله إليهم، ورسل الجن قوم من الجن ليسوا رسلًا عن الله، ولكن بثهم الله في الأرض، فسمعوا كلام رسل الله، الذين هم من بني آدم، وجاءوا إلى قومهم من الجن فأخبروهم، كما اتفق للذين صرفهم الله إلى النبي ﷺ واستمعوا القرآن وولوا إلى قومهم منذرين، فهم رسل عن الرسل، لا رسل عن الله تعالى، ويسمون نذرًا، ويجوز تسميتهم رسلًا، لتسمية رسل عيسى رسلًا في قوله تعالى: (إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ) [يس: ١٤] وجاء قوله: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ على ذلك، فالرسل على الإطلاق من الإنس، وهم رسل الله، والنذر من الجن، وهم رسل الرسل ويجوز تسميتهم رسلًا.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في شرح السفارينية (ص٤٩٦): ولكن يبقى النظر هل أرسل من الجن رسول؟ فيه خلاف، قيل لا، لقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)(يوسف: الآية ١٠٩)، وقيل: بل منهم رسول لقول الله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)(الأنعام: الآية ١٣٠) فهو يخاطب الجن والإنس يقول: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) إنس من الإنس وجِن من الجن.

وأما قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) (يوسف: الآية ١٠٩) فإن الذكور من الجن يسمون رجالًا، كما قال الله تعالى: (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ) (الجن: الآية ٦)، فالجن فيهم رجال كما في هذه الآية الكريمة، وعلى هذا فلا يتم الاستدلال بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)، ويكون ظاهر قوله: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) أن من الجن رسلًا.

والذين قالوا: إنه ليس من الجن رسل، أجابوا عن قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) قالوا: إن الخطاب باعتبار المجموع لا باعتبار الجميع، فهو كقوله تعالى في البحرين: (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) (الرحمن: ٢٢)، واللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من المالح على المشهور.

قالوا أيضًا: إن حكمة الله تعالى تأبى ذلك؛ لأن الرسالة تشريف وتكريم وتعظيم، والجن أصلهم من النار وأبوهم إبليس سيد المتكبرين، وقائد الكافرين، فليس من الحكمة أن يكرم هؤلاء بالرسالة، وإنما يتلقون التعاليم مما جاء إلى البشر، كما قال تعالى: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقرآن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ) (الاحقاف: ٢٩)(قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ) (الاحقاف: ٣٠) (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) (الاحقاف: ٣١) فقالوا: إن الجن ليس منهم رسل لكن منهم نذر؛ حيث قال تعالى: (وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ)، فيتلقى هؤلاء النذر مما جاءت به الرسل وينذرون بها قومهم.اهـ.

(تنبيه): القول الثاني لا يخالف قول الجمهور من كل وجه، وفيه أيضا توجيه لقوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ) وعلى هذا الأساس فهو لا يخالف رأي الجمهور مطلقا، بل يؤيده ويدعمه من ناحية أنه يوافق قول الجمهور فيه أنه لم يبعث إلى الجن رسل منهم بل الرسل من الإنس فقط، وأدلة الفريق الثاني هي نفس أدلة الفريق الأول.

القول الثالث: القائلون بأن في الجن رسلًا منهم، وهو قول الضحاك، وذكر القرطبي ذلك عن مقاتل رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال في تفسيره (٧/ ٨٦): وقال مقاتل والضحاك: أرسل الله رسلًا من الجن كما أرسل من الإنس.اهـ.

وذكر الإمام الطبري في تفسيره (٨/ ٣٦): أنه يوجد غير الضحاك من القائلين بهذا القول فقال: (وأما الذين قالوا بقول الضحاك فإنهم قالوا: إن الله أخبر أن من الجن رسلًا أرسلوا إليهم، كما أخبر أن من الإنس رسلًا أرسلوا إليهم.اهـ.

فلعل ابن جرير قصد مقاتلًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ونقل الألوسي في روح المعاني (٨/ ٢٨): أن الذين ذكروا بأن من الجن أنبياء منهم قد صرحوا بأن رسولًا منهم يسمى يوسف.اهـ.

وقال ابن حزم في الفصل (٣/ ٢٦٤): ولم يبعث إلى الجن نبي من الإنس البتة قبل محمد ﷺ، لأنه ليس الجن من قوم إنسي، وباليقين ندري أنهم قد أنذروا، فصح أنه جاءهم أنبياء منهم قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ).اهـ.

استدل هذا الفريق على ما ذهب إليه بما يلي:

١ - قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ).

قال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ١٦٣): وظاهره أن الله بعث في الدنيا إلى الجن رسلًا منهم، كما بعث إلى الإنس رسلًا منهم.اهـ.

وقال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية: وظاهر القرآن يشهد للضحاك، والأكثرون في خلافه.اهـ.

وقال الألوسي في روح المعاني (٨/ ٢٨): وظاهر الآية يقتضي إرسال الرسل إلى كل من المعشرين من جنسهم.اهـ.

وقال العلامة الوادعي في تحفة المجيب (ص٣٦٢): ففي هذه الآية الكريمة أنه أرسل إليهم وقد اختلف العلماء هل من الجن رسل، أم الرسل من الأنس؟ وظاهر الآية أن منهم رسلًا، ولا يضرنا ذلك.اهـ.

ووجه استدلال الضحاك بهذه الآية: أن الله خاطب الجن والإنس بأنه قد بعث إليهم رسلًا منهما، بدليل قوله تعالى: (مِّنكُمْ) وهو يقتضي بعث الرسل إلى الجن منهم وبعث الرسل إلى الإنس منهم كذلك.

٢- وذكر الفخر الرازي في تفسيره (١٣/ ١٩٥): أن الضحاك احتج بقوله بإرسال الرسل إلى الجن منهم بقوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ) [فاطر: ٢٤]. ثم قال الرازي: ويمكن أن يحتج الضحاك بوجه آخر وهو قوله تعالى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ) [الأنعام: ٩]. قال المفسرون: السبب في استئناس الإنسان بالإنسان أكمل من استئناسه بالملك، فوجب في حكمة الله تعالى أن يجعل رسول الإنس من الإنس ليكمل هذا الاستئناس، إذا ثبت هذا المعنى فهذا السبب حاصل في الجن، فوجب أن يكون رسول الجن من الجن.

٣- ذكر ابن نجيم في الأشباه والنظائر (ص٣٣٠): أن الضحاك وابن حزم

احتجا على أنه كان من الجن نبي بقوله عليه الصلاة والسلام: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ... الحديث). قال: وليس الجن من قومه، ولا شك أنهم أنذروا، فصح أنه جاءهم أنبياء منهم.

قال ابن حزم في المحلى (٧/ ٤٩٣): قال الله تعالى: (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) قال -أي الطحاوي-: فانما يخرج اللؤلؤ والمرجان من أحدهما، قال: ومثل قوله تعالى: (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) قال: وانما الرسل من الانس لامن الجن قال أبو محمد ابن حزم: صدق الله وكذب الطحاوي وكذب من أخبره بما ذكر بل اللؤلؤ والمرجان خارجان من البحرين اللذين بينهما البرزخ فلا يبغيان، ولقد جاءت الجن رسل منهم بيقين لانهم بنص القرآن متعبدون موعودون بالجنة والنار، وقد صح ما روينا من طريق مسلم بن الحجاج نا قتيبة نا اسماعيل - هو ابن جعفر - عن العلاء -هو ابن عبد الرحمن- عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال (فضلت على الانبياء بست) فذكر منها (وأرسلت إلى الخلق كافة)، ومن طريق البخاري نا محمد بن سنان العوفى نا هشيم انا سيار نا يزيد - (هو ابن صهيب) الفقير انا جابر بن عبد الله ان رسول الله ﷺ قال: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى) فذكر فيها (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) ومن طريق الحجاج بن المنهال نا حماد بن سلمة عن ثابت البنانى وحميد كليهما عن أنس (أن رسول الله ﷺ قال: أعطيت أربعا لم يعطها نبى قبلى أرسلت إلى كل أحمر وأسود) وذكر باقى الخبر، فصح بنقل التواتر أن رسول الله ﷺ بعث وحده إلى الجن والانس وانه لم يبعث نبى قبله قط الا إلى قومه خاصة، وقال تعالى: (وما

خلقت الجن والانس الا ليعبدون)، وقال تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فصح يقينا أنهم مذ خلقوا مأمورون بعبادة الله تعالى، وصح بما ذكرنا من السنن القاطعة انه لم يبعث إليهم نبى من الانس قبل محمد عليه السلام، والجن ليسوا قوم أحد من الانس فصح يقينا انهم بعث إليهم أنبياء منهم. انظر عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة.

(باب أصل المادة التي خلق منها الجن)

قال الله تعالى: {والجانَّ خلقناه من قبل من نار السموم} الحجر، الآية ٢٧، وقال: {وخلق الجانَّ من مارجٍ من نار} الصف، الآية ١٥.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم).

قال ابن العراقي في طرح التثريب (٨/ ٢٧٧): «ومارج النار» بكسر الراء وبالجيم لهبها المختلط بسوادها قاله المازري وابن الأثير، والنووي وغيرهم وقال في الصحاح نار لا دخان لها وقال في المشارق اللهب المختلط وقيل نار دون الحجاب منها هذه الصواعق وحكي في الإكمال هذا الثاني عن الفراء.اهـ.

وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٢/ ٣١١- ٣١٢): وهذا -الحديث- منها بلا شك فإن التركيب والصنع عليه ظاهر، ثم إن فيه ما هو مخالف للقرآن الكريم في موضعين منه:

الأول: قوله في إبليس: "كان من الملائكة" والله عز وجل يقول فيه: {كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ}، وما يروى عن ابن عباس في تفسير قوله: {من الجن} أي من خزان الجنان، وأن إبليس كان من الملائكة، فمما لا يصح إسناده عنه، ومما يبطله أنه خلق من نار كما ثبت في القرآن الكريم، والملائكة خلقت من نور

كما في " صحيح مسلم " عن عائشة مرفوعا، فكيف يصح أن يكون منهم خلقة، وإنما دخل معهم في الأمر بالسجود لآدم عليه السلام لأنه كان قد تشبه بهم وتعبد وتنسك، كما قال الحافظ ابن كثير، وقد صح عن الحسن البصري أنه قال: "ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر". -ثم ذكر الإمام الموضع الثاني-.اهـ.

وقال العلامة الألباني أيضا في تحقيق الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص ٥٨): ذكر أبو عبيد في "الإيمان": أن إبليس "كان في عداد الملائكة" فعلق الإمام الألباني على ذلك قائلا: يعني الذين أمروا بالسجود، ولا يعني .. رحمه الله تعالى: أنه كان منهم في الخلق والجبلة، كيف والقرآن يقول عنه {كان من الجن}، والرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». "مختصر مسلم" رقم (٢١٦٩).

وسئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٤/ ٢): فضيلة الشيخ يقولون بأن الرسول مخلوق من نور، هل هذا كلام صحيح؟

فأجاب: هذا الكلام باطل، فإن محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم من بني آدم، وسلسلة آبائه وأجداده معلومة، وهو نفسه عليه الصلاة والسلام قد صرح بما أمر الله به، فقد قال الله تعالى له: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ). وقال صلى الله عليه وسلم هو عن نفسه: (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون). فقد خلق عليه الصلاة والسلام من طين، كما هو شأن بني آدم كلهم، والذين خلقوا من نور هم الملائكة، فإن المخلوقات ثلاثة أقسام: قسم خلقوا من نار وهو إبليس وذريته، وقسم خلقوا من النور وهم الملائكة، وقسم خلقوا

من طين وهم آدم وبنوه، وليس هناك قسم رابع، فهذا الحديث أو الأثر أو القولة المشهورة أن نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم خلق من نور كذب لا أصل له.

مسألة: في معنى قوله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي).

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت (يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء؟ فقال: "كل شيء خلق من ماء"، قال: قلت يا رسول الله، أنبئني عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة؟ قال: أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام)[(١)].

قال الحافظ ابن رجب في لطائف المعارف (ص٢٣): وحديث أبي هريرة

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٥، رقم ٧٩١٩) و(٢/ ٣٢٣، رقم ٨٢٧٨)، وابن حبان (٦/ ٢٩٩، رقم ٢٥٥٩)، والحاكم (٤/ ١٧٦، رقم ٧٢٧٨)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٥٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ٢٠): إسناده جيد، وقال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣٤٠): هذا إسناد على شرط الصحيحين، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن، واسمه سليم، والترمذي يصحح له. وقد رواه سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة مرسلا والله أعلم، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٦): رجال أحمد رجال الصحيح خلا أبا ميمونة وهو ثقة، وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٢٩): إسناده صحيح، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٨/ ٥٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٣/ ٣١٤): إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي ميمونة، فقد روى له أصحاب السنن الأربعة، وهو ثقة، قيل: هو الفارسي الأبار، ومنهم من فرق بين الفارسي والأبار، وقد اختلف في اسمه، أما العلامة الألباني فقد قال في الإرواء (٣/ ٢٣٧): إسناده صحيح رجاله رجال الشيخين غير أبي ميمونة وهو ثقة كما في التقريب، وضعفه في الضعيفة تحت الحديث (١٣٢٤)، وضعيف الترغيب (٣٥٤) و(٥٤٨) وضعيف الجامع (٤٢٣٢) وفي إزالة الدهش والوله (١١).

يدل على أن الماء مادة جميع المخلوقات وقد دل القرآن على أن الماء مادة جميع الحيوانات قال الله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الانبياء: ٣٠] وقال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ} [النور: ٤٥] وقول من قال: أن المراد بالماء النطفة التي يخلق منها الحيوانات بعيد لوجهين:

أحدهما: أن النطفة لا تسمى ماء مطلقا بل مقيدا لقوله تعالى: {خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} [الطارق: ٦، ٧] وقوله تعالى: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} [المرسلات: ٢٠].

والثاني: أن من الحيوانات ما يتولد من غير نطفة كدود الخل والفاكهة ونحو ذلك فليس كل حيوان مخلوقا من نطفة والقرآن دل على خلق جميع ما يدب وما فيه حياة من ماء فعلم بذلك أن أصل جميعها الماء المطلق ولا ينافي هذا قوله تعالى: {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ} [الحجر: ٢٧] وقول النبي ﷺ: "خلقت الملائكة من نور" فإن حديث أبي هريرة دل على أن أصل النور والنار الماء كما أن أصل التراب الذي خلق منه آدم الماء فإن آدم خلق من طين والطين تراب مختلط بماء أو التراب خلق من الماء كما تقدم عن ابن عباس وغيره وزعم مقاتل: أن الماء خلق من النور وهو مردود بحديث أبي هريرة هذا وغيره ولا يستنكر خلق النار من الماء فإن الله ﷻ جمع بقدرته بين الماء والنار في الشجر الأخضر وجعل ذلك من أدلة القدرة على البعث وذكر الطبائعيون أن الماء بانحداره يصير بخارا والبخار ينقلب هواء والهواء ينقلب نارا والله أعلم. اهـ.

وقال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان (٤/ ٢١٦): قوله تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون).

الظاهر أن «جعل» هنا بمعنى خلق؛ لأنها متعدية لمفعول واحد. ويدل لذلك قوله تعالى في سورة «النور»: والله خلق كل دابة من ماء.

واختلف العلماء في معنى خلق كل شيء من الماء. قال بعض العلماء: الماء الذي خلق منه كل شيء هو النطفة؛ لأن الله خلق جميع الحيوانات التي تولد عن طريق التناسل من النطف، وعلى هذا فهو من العام المخصوص.

وقال بعض العلماء: هو الماء المعروف؛ لأن الحيوانات إما مخلوقة منه مباشرة كبعض الحيوانات التي تتخلق من الماء، وإما غير مباشرة؛ لأن النطف من الأغذية، والأغذية كلها ناشئة عن الماء، وذلك في الحبوب والثمار ونحوها ظاهر، وكذلك هو في اللحوم، والألبان، والأسمان ونحوها؛ لأنه كله ناشئ بسبب الماء.

وقال بعض أهل العلم: معنى خلقه كل حيوان من ماء أنه كأنما خلقه من الماء

لفرط احتياجه إليه، وقلة صبره عنه، كقوله: خلق الإنسان من عجل، إلى غير ذلك من الأقوال. وقد قدمنا المعاني الأربعة التي تأتي لها لفظة «جعل» وما جاء منها في القرآن وما لم يجئ فيه في سورة «النحل».

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: لقائل أن يقول: كيف قال: وخلقنا من الماء كل حيوان؟ وقد قال: والجان خلقناه من قبل من نار السموم وجاء في الأخبار أن الله تعالى خلق الملائكة من النور، وقال تعالى في حق عيسى عليه السلام: وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وقال في حق آدم: خلقه من تراب.

والجواب: اللفظ وإن كان عاما إلا أن القرينة المخصصة قائمة، فإن الدليل

لا بد وأن يكون مشاهدا محسوسا؛ ليكون أقرب إلى المقصود. وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة، والجن، وآدم، وقصة عيسى عليهم السلام؛ لأن الكفار لم يروا شيئا من ذلك. اهـ منه.

ثم قال الرازي أيضا: اختلف المفسرون، فقال بعضهم: المراد من قوله: كل شيء حي الحيوان فقط. وقال آخرون: بل يدخل فيه النبات، والشجر؛ لأنه من الماء صار ناميا، وصار فيه الرطوبة، والخضرة، والنور، والثمر. وهذا القول أليق بالمعنى المقصود، كأنه تعالى قال: ففتقنا السماء لإنزال المطر، وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حيا. حجة القول الأول: أن النبات لا يسمى حيا. قلنا: لا نسلم، والدليل عليه قوله تعالى: (كيف يحيي الأرض بعد موتها) انتهى منه أيضا.اهـ.

مسألة: هل خلق الجن متقدم على خلق الإنسان؟

لا شك أن خلق الجن متقدم على خلق الإنسان لقوله تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حَمَإٍ مَّسنونٍ - والجآنَّ خلقناه من قبل من نَّار السَّموم) [الحجر: ٢٦- ٢٧]، فقد نصّ في الآية أن الجان مخلوق قبل الإنسان، ويرى بعض السابقين أنهم خلقوا قبل الإنسان بألفي عام، وهذا لا دليل عليه من كتاب ولا سنّة.

مسألة: هل سكن الجن قبل آدم عليه السلام على الأرض

لم يأت في الكتاب والسنة شيء يدل على أن قوما كانوا يسكنون الأرض قبل آدم عليه السلام، وإنما الذي جاء في ذلك هو من أقوال بعض المفسرين من الصحابة والتابعين.

قال ابن عاشور في "التحرير والتنوير" (١/ ٢٢٨):" تعقيب ذكر خلق

الأرض ثم السماوات، بذكر إرادته تعالى جعل الخليفة، دليل على أن جعل الخليفة كان أول الأحوال على الأرض بعد خلقها، فالخليفة هنا الذي يخلف صاحب الشيء في التصرف في مملوكاته، ولا يلزم أن يكون المخلوف مستقرا في المكان من قبل، فالخليفة آدم، وخلفيته قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي، وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي" انتهى.

أما ما يذكره بعض المفسرين أو المؤرخين، أن قوما اسمهم الحن (بالحاء المهملة) كانوا يسكنون الأرض، فجاء الجن (بالجيم المعجمة) فقتلوهم وسكنوا مكانهم، فيبدو أنها من القصص التي لا تستند إلى أي سند صحيح.

يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" (١/ ٥٥) " قال كثير من علماء التفسير: خلقت الجن قبل آدم عليه السلام، وكان قبلهم في الأرض (الحن والبن)، فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم" انتهى.

قال العلامة الطاهر ابن عاشور في "التحرير والتنوير" (١/ ٢٢٨): "إذا صح أن الأرض كانت معمورة من قبل بطائفة من المخلوقات يسمون (الحن والبن) بحاء مهملة مكسورة ونون في الأول، وبموحدة مكسورة ونون في الثاني، وقيل: اسمهم (الطم والرم) بفتح أولهما، وأحسبه من المزاعم، وأن وضع هذين الاسمين من باب قول الناس (هيان بن بيان) إشارة إلى غير موجود أو غير معروف، ولعل هذا انجر لأهل القصص من خرافات الفرس أو اليونان، فإن الفرس زعموا أنه كان قبل الإنسان في الأرض جنس اسمه الطم والرم، وكان اليونان يعتقدون أن الأرض كانت معمورة بمخلوقات تدعى (التيتان) وأن (زفس) وهو (المشتري) كبير الأرباب في اعتقادهم جلاهم من الأرض

لفسادهم" انتهى.

مسألة: باب هل إبليس أب للجن

ورد في الحديث عن معاوية بن الحكم رضي السلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قدم على رسول الله ﷺ فقال (يا رسول الله إني أريد أن أسألك عن الأمر لا أسأل عنه أحدا بعدك من أبونا؟ قال آدم قال من أمنا؟ قال حواء قال من أبو الجن؟ قال إبليس قال فمن أمهم؟ قال امرأته)[1] ولكنه حديث ضعيف لا يثبت كما في الحاشية.

وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى أن إبليس هو أبو الجن كلهم مؤمنهم وكافرهم، فهو أصلهم وهم ذريته نقل هذا القول عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن البصري وغيرهم.

وقد أطلق شيخ الإسلام على إبليس أنه " أبو الجن " في أكثر من موضع، انظر "مجموع الفتاوى" (٤/ ٣٤٦،٢٣٥)، وكذا تلميذه ابن القيم، ثم الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٦/ ٣٦٩).

وقال العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللهُ كما في "مجموع الفتاوى" (٩/ ٣٧٠- ٣٧١) -:

" والشيطان هو أبو الجن عند جمع من أهل العلم ، وهو الذي عصى ربه واستكبر عن السجود لآدم ، فطرده الله وأبعده" انتهى.

وجاء في فتاوى نور على الدرب للعلامة العثيمين (الجن والشياطين/ سؤال رقم/ ٢):

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ١٩٧) وقال عنه الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن الزهري إلا يونس بن يزيد ولا عن يونس إلا طلحة بن زيد تفرد به محمد بن ماهان، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٩٨): فيه طلحة بن زيد ضعفه البخاري وأحمد وذكره ابن حبان في الثقات، قلت وقال عنه علي بن المديني: كان يضع الحديث كما في التهذيب (٥/ ١٦).

"لا شك أن إبليس هو أبو الجن؛ لقوله تعالى: (وخلق الجان من مارج من نار). وقوله عن إبليس وهو يخاطب رب العزة سبحانه وتعالى: (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين). وقوله تعالى: (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو).

فهذه الأمور أدلتها واضحة أن الشيطان له ذرية، وأن الجن ذريته ولكن كيف يكون ذلك؟ هذا ما لا علم لنا به، وهو من الأمور التي لا يضر الجهل بها، ولا ينفع العلم بها. والله أعلم.

(باب أنواع الجن)

عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال قال رسول الله (الجن ثلاثة أصناف صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون)[(١)].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خلق الله الجن ثلاثة أصناف: صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض، وصنف كالريح في الهواء،

---

(١) أخرجه الطبرانى (٢٢/ ٢١٤، رقم ٥٧٣)، والحاكم (٢/ ٤٩٥ رقم ٣٧٠٢)، وأبو الشيخ فى العظمة (٥/ ١٦٤٤، رقم ١٠٨٧٧)، وابن حبان (١٤/ ٢٦، رقم ٦١٥٦)، وأبو نعيم فى الحلية (٥/ ١٣٧)، والأصبهاني في الحجة (٢/ ٣٩١) و(١/ ٤٨٥)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (رقم ٢٢٨٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٣٠)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ٩٥ - ٩٦) والحديث ضعفه ابن كثير في تفسيره (٦/ ٤٩٩): رفعه غريب جدا، وخالفه غيره فقال ابن عبد البر في الإستذكار (٧/ ٥٣٦): إسناده جيد رواته أئمة ثقات، وصححه ابن حبان، والحاكم ووافقه الذهبي، وقال المناوى في الفيض (٣/ ٣٦٥) قال: العراقى: صحيح الإسناد، وقال الهيثمى (٨/ ١٣٦): رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٣١١٤)، وقال الأرنؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان: إسناده قوي.

وصنف عليهم الحساب والعقاب ..)[(١)].

الجن أصناف مختلفة، فهم أصناف من حيث خلقتهم العامة، يختلف فيها كل صنف عن الآخر، وهم قبائل متعددة، وفيهم الذكور والإناث. وهم بعد ذلك مختلفون في الاعتقاد، ففيهم المؤمن والكافر، والصالح والطالح، وهم فرق وشيع مختلفة، إلى غير ذلك مما يتعلق بأصنافهم.

أولا: أصناف الجن من حيث أصل خلقتهم، وقوتهم

الجن مختلفون من حيث أصل خلقتهم التي خلقهم الله عليها، فصنف منهم يشبهون الحيات والكلاب وبقية الحيوانات، وصنف يطير في الهواء، وثالث يقيم ويرتحل، بدليل حديث أبي ثعلبة الخشني المتقدم.

فالجن على هذا الأساس متباينون في أصل خلقتهم التي خلقوا عليها، فهم على صور شتى، ولكن هذه الأصناف جميعًا لا تخرج في الدائرة العامة عن كونها مخلوقة من النار، لإخبار القرآن بذلك، قال تعالى: ﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

وقد ذكر أن هناك صنفًا من الجن يقال له الحِنُّ - بالحاء -، قال ابن منظور: (والجن بالكسر: حي من الجن يقال بأن منهم الكلاب السود البهم، وقيل بأن

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الهواتف (ص ٩٩، رقم ١٥٦)، وأبو الشيخ فى العظمة (٥/ ١٦٣٩، رقم ١٠٨١١)، وفي التاريخ (ص١٠٦)، والديلمى (٢/ ١٨٩، رقم ٢٩٤٢) والحديث قال عنه ابن حبان في المجروحين (٢/ ٤٥٨): فيه يزيد بن سنان يخطئ كثيرا حتى يروي عن الثقات مالا يشبه حديث الأثبات لا يعجبني الاحتجاج بخبره، وعده الذهبي في الميزان (٤/ ٤٢٨) من مناكير يزيد بن سنان، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٨/ ١٨٦): إسناده ضعيف، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٣٥٤٩).

الحن ضرب من الجن وأنشد: يلعبن أحوالي من حن وجن

وقيل بأنهم سفلة الجن وضعفاؤهم، وأنشد مهاصر بن المحل:

أبيت أهوى في شياطين ترن مختلف نجواهم جن وحن

وقد قيل بأنهم سموا بالحِنِّ لأنهم كانوا يعيشون في الظلمة فحنوا إلى سطح الأرض[1].

وأطلقت بعض الأوصاف على الجن لمناسبتها لبعض أصنافهم، وهي في مجملها أوصاف تدور حول المكر والدهاء، والقوة والتبدل من صورة إلى أخرى.

فمن هذه الأوصاف

أ - العفريت: قال تعالى إخبارًا عن جن سليمان عليه السلام: (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) [النمل: ٣٩]. قال ابن منظور: (العفريت من الرجال: النافذ في الأمر، المبالغ فيه مع خبث ودهاء، والعفريت من الشيء: المبالغ، يقال فلان عفريت نفريت، وعفرية نفرية ...

وعلى هذا فإن العفريت في الآية يراد به القوي الداهية، الذي يقدر على إحضار عرش بلقيس من اليمن إلى أرض فلسطين بقوته ودهائه.

وقد تقدم حديث الرسول ﷺ: (إن عفريتًا من الجن تفلت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي ..)[2].

وهذا الوصف إنما يطلق على بعض الجن، إذا أنهم ليسوا جميعًا في مرتبة

---

(١) (تنبيه) لم يصح شئ عن المعصوم ﷺ في أن هناك صنف من الجن يسمى الحن فتنبه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

واحدة، بل فيهم الضعيف كذلك، فعن ابن مسعود قال: (لقي رجل من أصحاب النبي ﷺ رجلًا من الجن، فصارعه فصرعه الإنس، فقال له الجني: عاودني، فعاوده، فصرعه الإنسي، فقال له الإنسي: إني لأراك ضئيلًا شحيبًا، كأن ذريعتيك ذريعتا كلب. فكذلك أنتم معاشر الجن - أو أنت منهم كذلك -؟ قال: لا والله إني منهم لضليع، ولكن عاودني الثالثة، فإن صرعتني علمتك شيئًا ينفعك، فعاوده، فصرعه فقال: هات علمني، قال: هل تقرأ آية الكرسي؟ قال نعم، قال: إنك لن تقرأها في بيت إلا خرج منه الشيطان له خبج كخبج الحمار، لا يدخله حتى يصبح، قال رجل من القوم: يا أبا عبد الرحمن من ذاك الرجل من أصحاب النبي ﷺ؟ قال فعبس عبد الله وأقبل عليه وقال: من يكون هو إلا عمر رضي الله عنه)[1].

ب - الخبل: وهم الذين يخبلون الناس ويؤونهم، ويقال: رجل مخبل: إذا كان به مس من الجن، وسيأتي الحديث عن هذا عند الحديث عن صرع الجن للإنس.

ج- الغول: وقد قيل إنه ساحر الجن، قال عليه الصلاة والسلام: (إذا

(١) أخرجه الدارمي (٣٤٢٤)، والدينوري في المجالسة (٦/ ١٤٦، رقم ٢٤٧٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ص١٦٥، ١٦٦) والأثر قال عنه الهيثمي في المجمع (٩/ ٧١ - ٧٢) رواهما الطبراني بإسنادين ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح إلا أن الشعبي لم يسمع من ابن مسعود ولكنه أدركه، ورواة الطريق الأولى فيهم المسعودي وهو ثقة ولكنه اختلط فبان لنا صحة رواية المسعودي برواية الشعبي والله أعلم.. قلت ويبقى الجمع بين هذه القصة وحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عند البخاري (٣٢٩٤ و٣٦٨٣ و٦٠٨٥) ومسلم (٢٣٩٦)(إيه يا ابن الخطاب! والذي نفسي بيده! ما لقيك الشيطان سالكا فجا؛ إلا سلك فجا غير فجك).

تغولت لكم الغيلان فنادوا بالأذان)[(١)]،يعني: إذا ضلوا وشبهت عليهم الغول

(١) قال العلامة الألباني في الضعيفة (١١٤٠): ضعيف. رواه ابن أبي شيبة في " المصنف " (١٢/ ٤٤/ ١): حدثنا يزيد بن هارون عن هشام بن حسان عن الحسن عن جابر بن عبد الله مرفوعا. وبهذا الإسناد أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٨١ - ٣٨٢) وأبو يعلى (٥٩٣ - ٥٩٤) في حديث. وكذلك أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٥) وابن السني في " عمل اليوم والليلة " (٥١٧) من طريقين آخرين عن هشام بن حسان به. وأخرجه ابن خزيمة في " صحيحه " (١/ ٢٥٦/ ١) وكذا أبو داود (٢٥٧٠) ولكنه لم يسق لفظه. قلت: وهذا إسناد ضعيف، ورجاله ثقات، وإنما علته الانقطاع بين الحسن وهو البصري وجابر، فإنه لم يسمع منه كما قال أبو حاتم والبزار. وقد رواه البزار (٤/ ٣٤/ ٣١٤٩) من طريقين عن يونس عن الحسن عن سعد بن أبي وقاص مرفوعا به نحوه. وقال البزار: لا نعلمه يروى عن سعد إلا من هذا الوجه، ولا نعلم سمع الحسن من سعد شيئا". وقال الهيثمي (١٠/ ١٣٤):

" ورجاله ثقات إلا أن الحسن البصري لم يسمع من سعد فيما أحسب". وله شاهد واه جدا من رواية عمر بن صبح عن مقاتل بن حيان عن نافع عن ابن عمر مرفوعا به. أخرجه بن عدي في " الكامل " (ق ٢٤٤/ ١) وقال:

" هذا الحديث بهذا الإسناد بعض متنه لا يعرف إلا من طريق عمر بن صبح عن مقاتل، وابن صبح منكر الحديث".وقال الذهبي: "ليس بثقة ولا مأمون، قال ابن حبان: كان ممن يضع الحديث". وله شاهد آخر من حديث أبي هريرة مرفوعا به. وزاد: "فإن الشيطان إذا سمع النداء أدبر وله حصاص". أخرجه الطبراني في " الأوسط " من حديث عدي بن الفضل عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عنه. وقال: "لم يروه عن سهيل إلا عدي".

قلت: وهو متروك كما قال الهيثمي (١٠/ ١٣٤). والزيادة المذكورة عند مسلم (٢/ ٥ - ٦) من طريقين عن سهيل به. وهذا يدل على نكارة ما زاده عدي عليها. ويؤكده أن في أحد الطريقين المشار إليهما عند مسلم عن سهيل قال: أرسلني أبي إلى بني حارثة، قال: ومعي غلام لنا أوصاحب لنا، فناداه مناد من حائط باسمه، قال: وأشرف الذي معي على الحائط فلم ير شيئا، فذكرت ذلك لأبي فقال: لوشعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك، ولكن إذا سمعت صوتا فناد بالصلاة، فإني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ =

الطريق أذَّنوا فذهبت الغيلان، وتغولت: صارت غولًا، وذلك لأنها تتصور بصور كثيرة، فمرة تتصور في صورة امرأة جميلة، وأخرى في صورة امرأة قبيحة، ومرة قصيرة، وأخرى طويلة، ومرة كالإنس، وأخرى كالدواب، وهكذا لتفزع الناس، فهي متبدلة باستمرار، قال كعب بن زهير:

فما تدوم على حال تكون بها كما تلون في أثوابها الغول

ويقال: غاله الدهر أي غير حاله، كما يتغول الغول، فيتغير في كل صورة.

نلاحظ مما تقدم أن الجن أصناف مختلفة من حيث قوتهم، ومكرهم، وتنقلهم في الصور المختلفة، وتخبطهم للإنسان وإيذائهم له، وهي أوصاف تتناسب مع طبيعتهم النارية، مع ما أعطاهم الله من القدرة على التشكل والتبدل في الصور المختلفة.

(تنبيه) قال العلامة الألباني في التعليق على الترغيب والترهيب (٢/ ٦٠٢-٦٠٣): «الغول»: جنس من الجن والشياطين، كانوا يعتقدون في الجاهلية أنها تتلون في البراري لتضل الناس وتهلكهم، فأبطل ذلك النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بقوله: «لا غول» ... وقال ابن الأثير: «الغول أحد الغيلان» وهي جنس

=

أنه قال: "إن الشيطان إذا نودي بالصلاة، ولى وله خصائص". قلت: فهذا يبين أن هذه الزيادة التي تفرد بها عدي - وهو ابن الفضل - أصلها مقطوع من كلام أبي صالح والد سهيل، فرفعه عدي!.اهـ. من الضعيفة.

(تنبيه) في صحيح مسلم (٣٨٩): عن سهيل قال (أرسلني أبي إلى بني حارثة قال ومعي غلام لنا (أو صاحب لنا) فناداه مناد من حائط باسمه قال وأشرف الذي معي على الحائط فلم ير شيئا فذكرت ذلك لأبي فقال لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ولكن إذا سمعت صوتا فناد بالصلاة فإني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال إن الشيطان إذا نودي بالصلاة ولى وله حصاص).

من الجن والشياطين، كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس فتتغول تغولًا، أي: تتلون تلونًا في صور شتى، وتغولهم أي: تضلهم عن الطريق، وتهلكهم فنفاه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأبطله.اهـ.

ثانيا: أصناف الجن من حيث إنتسابهم إلى قبائل وأماكن

في الجن قبائل وأقوام كما هو الأمر عند الإنس، فقد أخبر القرآن أن للجن أقوامًا، قال تعالى إخبارًا عن النفر الذين استمعوا للقرآن من الرسول عليه الصلاة والسلام ثم ولوا إلى قومهم منذرين: (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [الأحقاف: ٣١]. قال ابن منظور في لسان العرب (١٢/ ٤٩٦): والقوم الجماعة من الرجال والنساء جميعًا، وقيل: هو للرجال خاصة دون النساء، ويقوي ذلك قوله تعالى: (لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ) [الحجرات: ١١] أي رجال من رجال، ولا نساء من نساء ... وقال: وقوم كل رجل: شيعته وعشيرته .. وفي الحديث: (إن نسَّاني الشيطان شيئًا من صلاتي فليسبح القوم، وليصفق النساء)(١)، قال ابن الأثير: القوم في الأصل مصدر قام، ثم غلب على الرجال دون النساء، ولذلك قابلهن به، وسموا بذلك، لأنهم قوامون على النساء بالأمور التي ليس للنساء أن يقمن بها وقال الجوهري: القوم: الرجال دون النساء لا واحد له من لفظه، قال: وربما دخل النساء فيه على

---

(١) أخرجه أحمد (١٦/ ٥٧٣)، وأبو داود (٢١٧٤)، والترمذي بإثر الحديث (٢٧٨٧)، وفي الشمائل له بإثر الحديث (٢٢٠) والحديث قال عنه الترمذي: حديث حسن إلا أن الطفاوي لا نعرفه إلا في هذا الحديث، ولا نعرف اسمه، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف أبي داود، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٦/ ٥٧٥): إسناده ضعيف لجهالة الطفاوي.

سبيل التبع، لأن قوم كل نبي، رجال ونساء.اهـ.

وعلى هذا فإن قول النفر من الجن: (يا قومنا) يفيد أن لكل نفر من الجن قومًا ينتسبون إليه، فإن هؤلاء النفر من الجن انطلقوا إلى شيعتهم وعشيرتهم ينذرونهم، وأولى الناس بالإنذار الأهل والعشيرة، كما قال تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ففيما تقدم دلالة على وجود القوم والعشيرة والقرابة عند الجن، تمامًا كما هو الشأن عند الإنس، ولا عجب في ذلك، إذ أنهم يتناكحون ويتناسلون، ولا شك أن هذا يستدعي أن يكون عندهم هذه الأصول والفروع.

وكما أن الجن ينتسبون إلى أقوام، فإنهم ينتسبون إلى أماكن وأوطان كذلك، فقد ذكر أن النفر الذين قدموا على الرسول ﷺ إنما جاءوا إليه من نصيبين، ففي حديث أبي هريرة رضي الله أنه (كان يحمل مع النبي ﷺ إدواة لوضوئه وحاجته، فبينما هو يتبعه بها فقال: من هذا؟ فقال: أنا أبو هريرة، فقال: أبغني أحجارًا أستنفض بها، ولا تأتيني بعظم ولا بروثة، فأتيته بأحجار أحملها في طرف ثوبي حتى وضعت إلى جنبه، ثم انصرفت، حتى إذا فرغ مشيت معه فقلت: ما بال العظم والروثة؟ قال: هما من طعام الجن، وإنه أتاني وفد جن نصيبين - ونعم الجن - فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعمًا)(١). ونصيبين هذه قيل: إنها مدينة بالشام، وجنها سادات الجن، وقيل: إنها قرية باليمن غير التي في العراق، وقيل: إنهم من نينوى، وأن جن نصيبين أتوه بعد ذلك بمكة، وذكر الحافظ في الفتح (٧/ ١٧٢): أن نصيبين منطقة بين الشام والعراق، وذكر القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢): أن الجن

(١) أخرجه البخاري (٣٨٦٠).

الذين قدموا على الرسول وهو بمكة كانوا سبعة نفر: ثلاثة من أهل حران وأربعة من أهل نصيبين، والذين أتوه بنخلة جن نينوى.اهـ.

وفي رواية عند مسلم (٤٥٠) عن الشعبي أن وفد الجن الذي قدم على الرسول وهو بمكة إنما كان من جن الجزيرة.

فقد دلت هذه الأحاديث على أن الجن ينتسبون إلى أوطان، فمنهم جن الجزيرة، ومنهم جن نينوى، ومنهم جن نصيبين، ومنهم جن حران إلى غير ذلك من الأوطان والأماكن التي يسكنها الجن وينتسبون إليها.

ثالثا: أصناف الجن من حيث الإيمان والكفر، والصلاح والفساد.

كما أن الجن قبائل مختلفة، فهم كذلك أصحاب ملل ونحل متباينة، ففيهم المؤمن والكافر، والعادل والظالم، والسني والبدعي كما تقدم في الأبواب السابقة. عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة (ص: ٥٩، وما بعده) بتصرف.

(باب رؤية بعض الحيوانات للجن)

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال (إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله؛ فإنها رأت ملكا، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنه رأى شيطانا)[1].

وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: (إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمر بالليل فتعوذوا بالله، فإنهن يرين ما لا ترون)[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠٣) ومسلم (٢٧٢٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٦، رقم ١٤٣٢٢)، وعبد بن حميد (ص ٣٥٠، رقم ١١٥٧)، وأبو داود (٤/ ٣٢٧، رقم ٥١٠٣، ٥١٠٤)، وأبو يعلى (٤/ ٢١٠، رقم ٢٣٢٧)، وابن خزيمة (٢٥٥٩)، وابن حبان (١٢/ ٣٢٦، رقم ٥٥١٧)، والحاكم (٤/ ٣١٦، رقم ٧٧٦٢)، والبغوي (٣٠٦٠) والحديث صححه ابن حبان، وصححه الحاكم وأقره =

(لن ينهق الحمار حتى يرى شيطانا، فإذا كان ذلك فاذكروا الله، وصلوا علي)

في هذه الأحاديث دلالة صريحة على أن من الحيوانات ما يرى الشيطان - الذي هو من جنس الجن - رؤية حقيقية تفزعه، ولا مانع من سماعها أصوات الجن والشياطين أيضا.

قال الدكتور الأشقر في عالم الجن والشياطين (ص/ ١٦): ورؤية الحيوان لما لا نرى ليس غريبا، فقد تحقق العلماء من قدرة بعض الأحياء على رؤية ما لا نراه، فالنحل يرى الأشعة فوق البنفسجية، ولذلك فإنه يرى الشمس حال الغيم، والبومة ترى الفأر في ظلمة الليل البهيم.اهـ.

عن أبي رافع مرفوعا (لن ينهق الحمار حتى يرى شيطانا، فإذا كان ذلك فاذكروا الله، وصلوا علي)(١).

في هذه الأحاديث دلالة صريحة على أن من الحيوانات ما يرى الشيطان -

---

=

الذهبي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٣١٨٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٢/ ١٨٨): إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن إسحاق، فقد روى له أهل السنن، وقرنه مسلم بغيره، وقد صرح بالتحديث في بعض مصادر التخريج.

(١) قال العلامة الألباني في الضعيفة (٤٣٤٣): ضعيف جدا أخرجه ابن السني في "عمل اليوم والليلة" (٣٠٩): عن معمر بن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع: حدثنا أبي محمد، عن أبيه عبيد الله عن أبي رافع مرفوعا، قلت: وهذا إسناد ضعيف جدا؛ معمر وأبوه محمد؛ قال البخاري في كل منهما: "منكر الحديث". وقال أبو حاتم في الأب:"منكر الحديث جدا". قلت: وذكر الصلاة على النبي ﷺ فيه من منكراتهما؛ فقد صح الحديث عن أبي هريرة بدونها في "الصحيحين" وغيرهما.اهـ. وانظر أيضا الضعيفة رقم (٦٣٨٧).

الذي هو من جنس الجن - رؤية حقيقية تفزعه، ولا مانع من سماعها أصوات الجن والشياطين أيضا.

قال الدكتور الأشقر في عالم الجن والشياطين (ص/ ١٦): ورؤية الحيوان لما لا نرى ليس غريبا، فقد تحقق العلماء من قدرة بعض الأحياء على رؤية ما لا نراه، فالنحل يرى الأشعة فوق البنفسجية، ولذلك فإنه يرى الشمس حال الغيم، والبومة ترى الفأر في ظلمة الليل البهيم.اهـ.

قال المباركفوري في مرعاة المفاتيح (٨/ ١٦٦): قوله (إذا سمعتم صياح)، بكسر الصاد (الديكة) بكسر الدال المهملة وفتح التحتانية جمع ديك، كفيلة جمع فيل وهو ذكر الدجاج، وليس المراد حقيقة الجمع لأن سماع واحد كاف، وللديك خصيصة ليست لغيره من معرفة الوقت الليلي، فإنه يقسط أصواته فيها تقسيطًا، لا يكاد يتفاوت ويوالي صياحه قبل الفجر وبعده، لا يكاد يخطئ سواء طال الليل أم قصر، وزاد في رواية أحمد (ج٢: ص٣٠٨)، والبخاري في الأدب المفرد، وابن السني (في الليل)(فسلوا الله)، بنقل الهمزة، وروي بإثباته، أي فاطلبوا (من فضله)، أي زيادة إنعامه عليكم، (فإنها رأت ملكًا)، بفتح اللام نكرة إفادة للتعميم، قال عياض: كأن السبب فيه رجاء تأمين الملائكة على دعاءه، واستغفارهم له وشهادتهم له بالإخلاص، ويؤخذ منه استحباب الدعاء عند حضور الصالحين تبركًا بهم، وصحح ابن حبان، وأخرجه أبو داود، وأحمد من حديث زيد بن خالد رفعه (لا تسبوا الديك فإنه يدعو إلى الصلاة) وفي رواية (يوقظ للصلاة)[1]،وعند البزار من هذا الوجه سبب قوله ﷺ ذلك أن ديكًا صرخ

---

(١)أخرجه عبد الرزاق (٢٠٤٩٨)، وأحمد (٤/ ١١٥)، (٥/ ١٩٢)، والطيالسى (ص ١٢٩، رقم ٩٥٧) وعبد بن حميد (٢٧٨)، والحميدي (٨٣٣)، وأبو داود (٥١٠١)، =

فلعنه رجل فقال ذلك. قال الحليمي: يؤخذ منه أن كل من استفيد منه الخير لا ينبغي أن يسب، ولا أن يستهان به بل يكرم ويحسن إليه، قال وليس معنى قوله: (يدعو إلى الصلاة) أن يقول حقيقة صلوا أو حانت الصلاة، بل معناه أن العادة جرت بأنه يصرخ عند طلوع الفجر فطرة فطره الله عليها، (وإذا سمعتم نهيق الحمار)، أي صوته المنكر. وزاد البخاري في الأدب المفرد، وابن السني في عمل اليوم والليلة (من الليل)، وكذا وقع في حديث جابر عند أحمد، وأبي داود وغيره كما سيأتي في باب تغطية الأواني، وزاد فيه أيضًا (نباح الكلاب)، قيل: أطلق الأمر بالتعوذ عند نهيق الحمر، في حديث الباب فاقتضى أنه لا فرق في طلبه بين الليل والنهار، وخصه في رواية أخرى بالليل. فإما أن يحمل المطلق على المقيد، أو يقال: خص الليل لأن انتشار الشياطين فيه أكثر، فيكون نهيق الحمير فيه أكثر، فلو وقع نهارًا كان ذلك. وقال الشوكاني: في قوله في الحديث الآخر (من الليل) يقيد المطلق فتكون الاستعاذة إذا سمع (النهيق) والنباح ليلًا لا نهارًا (فتعوذوا بالله من الشيطان) كذا في بعض النسخ من المشكاة، وهكذا وقع في

=

والنسائي في الكبرى (١٠٧١٥)، وابن حبان (٥٧٣١) والبيهقى فى شعب الإيمان (٤/ ٢٩٩، رقم ٥١٧٢) والحديث رجاله ثقات، ولكن اختلف في وصله وإرساله فصحح أبو حاتم والبزار وأبو نعيم وصله، وقال الدارقطني: المرسل أشبه بالصواب، وصححه ابن حبان، وقال النووي في رياض الصالحين (ص ٦٢٤)؛ والأذكار (ص ٣٢٤): إسناده صحيح، وقال المناوي في فيض القدير (٦/ ٣٩٩) -بعد نقل كلام النووي-: وقال غيره: رجاله ثقات. فرمز المؤلف -يعني السيوطي- لحسنه فقط تقصير، أو قصور. اهـ .. وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٤٢٧): إسناده جيد، وقال مغلطاي في شرح ابن ماجة (٣/ ١١٧): سنده صحيح، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٧٣١٤)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٣٦٣).

الصحيحين، والمسند، والترمذي، وبعض نسخ أبي داود، وزاد في بعض نسخ المشكاة (الرجيم)، وهكذا وقع في المصابيح، وبعض نسخ أبي داود، قال الحفني: أي اعتصموا بالله منه بأن يقول أحدكم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أو نحو ذلك من صيغ التعوذ.

وقال المناوي: فتعوذا أي ندبًا بأي صيغة كانت، والأولى (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) (فإنه) أي الحمار (رأى شيطانًا) في الصحيحين والمصابيح (فإنها رأت شيطانًا) على تأويل الدابة ورعاية المقابلة، ووقع في المسند، والترمذي، وشرح السنة كما في المشكاة، يعني وحضور الشيطان مظنة الوسوسة والطغيان ومعصية الرحمن فناسب التعوذ لدفع ذلك، قال عياض: وفائدة الأمر بالتعوذ لما يخشى من شر الشيطان وشر وسوسته، فيلجأ إلى الله في رفع ذلك. وقال الطيبي: لعل السر فيه أن الديك أقرب الحيوانات صوتًا إلى الذاكرين الله، لأنها تحفظ غالبًا أوقات الصلاة وأنكر الأصوات صوت الحمير فهو أقربها صوتًا إلى من هو أبعد من رحمة الله. وفيه دلالة على أن الله تعالى: خلق للديكة إدراكًا تدرك به النفوس القدسية، كما خلق للحمير والكلاب إدراكًا تدرك به النفوس الشريرة الخبيثة، ونزول الرحمة عند حضور الصلحاء، ونزول الغضب عند حضور أهل المعاصي. فائدة قال الداودي: ينبغي أن يتعلم من الديك خمسة أشياء: حسن الصوت، والقيام بالسحر، والسخاء، والغيرة، وكثيرة النكاح. تنبيه قيل: قوله: (فإنها رأت ملكًا) و(إنه رأى شيطانًا) ليس المعنى أنها لا تصوت إلا إذا رأت ملكًا أو شيطانًا، فإن صياح الديكة وكذلك نهيق الحمار، كثيرًا ما يكون لعوارض وأسباب غير رؤية الملك والشيطان، بل المعنى أن صوتهما قد يكون لذلك أيضًا، فلا يتعين أي الأصوات لذلك، وأيها

لغيره فيستحب الدعوة والتعوذ عند كل تصويت منهما، ليقع البعض منهما موقعهما، وإن لم يقع الكل مقام الرؤية، مع أن زيادة الدعاء والتعوذ مطلوبة، وإن لم يكن في محل إجابة، وكذلك حضور شيطان، ووجوده لا يتوقف التعوذ عليه لأن الإنسان أحوج ما يكون إليهما، فكان تعميم فكان تعميم الأمر بالدعاء والتعوذ عند كل صياح ديك ونهيق حمار كتعميم أمر العبادة في ليالي القدر تحريًا لمظان القبول.

(باب كيف نستتر عن أعين الجن)

عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال (ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحدهم الخلاء أن يقول: بسم الله)[1].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال: (اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث)[2].

وعن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث)[3].

---

(١) أخرجه الترمذى (٢/ ٥٠٣، رقم ٦٠٦)، وابن ماجه (١/ ١٠٩، رقم ٢٩٧) والحديث ضعفه الترمذي بقوله: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده ليس بذاك القوى، وضعفه البيهقي في الدعوات الكبير (١/ ١١١) بقوله: إسناده فيه نظر، وضعفه ابن العربي في العارضة (١/ ٤٠)، وقال الحافظ في النتائج (١/ ١٩٧): رواته موثقون، وقال المناوى في الفيض (٤/ ٩٧): مال مغلطاى إلى صحته فإنه لما نقل عن الترمذى أنه غير قوى قال ولا أدرى ما يوجب ذلك لأن جميع من فى سنده غير مطعون عليهم بوجه من الوجوه بل لو قال قائل إسناده صحيح لكان مصيبا، وصححه العلامة الألباني بمجموع طرقه في الإرواء (١/ ٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٣)، والطيالسي (٦٧٩)، وابن أبي شيبة (١/ ١) و(١٠/ =

=
٤٥٢)، وأبو داود (٦)، وابن ماجه بعد (٢٩٦)، والترمذي في العلل الكبير (١/ ٨٢)، والنسائي في الكبرى (٩٩٠٥، ٩٩٠٦)، وفي عمل اليوم والليلة (٧٧، ٧٨)، وابن خزيمة (٦٩)، وابن حبان (١٤٠٦)، والطبراني في الكبير (٥١١٥)، وفي الدعاء (٣٦٣)، والحاكم (١/ ١٨٧)، والبيهقي (١/ ٩٦)، والخطيب في تاريخه (١٣/ ٣٠١) والحديث صححه ابن حبان، وقال النووي في الخلاصة (١/ ١٤٩): إسناده صحيح، وصححه ابن الملقن في الإعلام (١/ ٤٢٧)، وقال العلامة ابن باز في تعليقه على البلوغ (١٠٩): سنده جيد، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٠٧٠)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٢/ ٣٩): رجالُه ثقات رجال الشيخين، وهذا حديث تفرَد به قتادة، ورواه عنه شعبة، وسعيد بن أبي عروبة، ومعمر، وهشام الدستوائي، واختلفوا عليه فيه: فرواه شعبة عنه، فقال: عن النضر بن أنس، عن زيد بن أرقم، رواه عن شعبة محمدُ بن جعفر وحجاج في هذه الرواية، وعبد الرحمن بن مهدي في الرواية (١٩٣٣٢). ورواه سعيدُ بنُ أبي عروبة، عنه، فقال: عن القاسم الشيباني، عن زيد بن أرقم، رواه عن سعيد أسباطُ بن محمد، وعبدُ الوهَّاب الخفاف في الرواية (١٩٣٣١)، وخالفهما ابنُ علية- عند النسائي في "الكبرى" (٩٩٠٤)، والطبراني في "الكبير" (٥١٠٠)، وفي "الدعاء" (٣٦٢) - فقال: عن النضر بن أنس، بدل: القاسم الشيباني، وثلاثتهم روى عن سعيد قبل الاختلاط. ورواه معمر عنه، فقال: عن النضر بن أنس، عن أبيه أنس بن مالك، رواه عن معمر عبد الرزاق عند الطبراني في "الدعاء" (٣٥٥). ورواه هشام الدستوائي- كما ذكر الترمذي في "سننه" ١/ ١١ - فقال: عن قتادة، عن زيد بن أرقم .. وقد عدَ الترمذيُّ هذا الاختلاف اضطرابًا، فقال: وحديثُ زيد بن أرقم في إسناده اضطرابٌ، ثم سرده. وقال في "العلل الكبير" ١/ ٨٤: سألت محمدًا (يعني البخاري) إيُ الروايات عندنا أصحُ؟ قال: لعل قتادة سمع منهما جميعًا عن زيد بن أرقم، ولم يقض في هذا بشيء. قلنا: يريد البخاري بقوله هذا دَفْعَ الاضطراب عن إسناد هذا الحديث، لأن قول معمر فيه: عن أنس بن مالك، وهمٌ، فيما نقله البيهقي في "سننه" ١/ ٩٦ عن الإمام أحمد، وروايةُ الدستوائي فيها، انقطاع، فتمحَّض من هذه الروايات روايتا سعيد وشعبة، عن قتادة. ولم يقطع البخاري باضطرابهما، وإن لم يوافقه الترمذي، وصحَّحهما ابن حبان، فقال: الحديث مشهورٌ عن شعبةَ وسعيدٍ جميعًا، وهو ما تفرَّد به قتادة. قلنا: وتابعه على تصحيحهما الحاكم في "المستدرك"، فقال: وكلا الإسنادين من
=

قال ابن العربي في المسالك (٢/ ٢٩٩): كان رسول الله ﷺ يحض على الاستعاذة في هذا الموضع لمعنيين:

أحدهما: أنه خلاء، وللشيطان قدرة في الخلاء ليست له في الملأ يصل بها إلى العبد، قال رسول ﷺ: (الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب)[1].

الثاني: أنه موضع قذر يجب أن ينزه ذكر الله عن الجري فيه على اللسان، فيغتنم الشيطان عدم ذكر الله، فإن ذكره يطرده، فلجأ إلى الاستعاذة قبل ذلك، ليعقدها عصمة بينه وبين الشيطان، حتى يخرج من الخلاء.اهـ.

قوله في الحديث الأول (ستر) بفتح السين مصدر، وقيل بالكسر، وهو الحجاب (ما بين أعين الجن) قال الطيبي "ستر"مبتدأ و"ما بين" موصولة مضاف إليها وصلتها الظرف أي الفعل الذي تعلق به، وخبر المبتدأ قوله أن يقول: بسم الله. (عورات بني آدم) بسكون الواو جمع عورة (إذا دخل أحدهم الخلاء) أي وقت دخول أحد بني آدم، ثم هذا الظرف قيد واقعي غالبي للتكشف المحتاج إلى الستر بالبسملة المتقدمة، لا أنه احترازي، فإنه ينبغي أن يبسمل إذا أراد كشف العورة عند خلع الثوب، أو إرادة الغسل، يدل على ما قلنا من عموم الحكم ما روي عن أنس مرفوعًا: (ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا وضعوا ثيابهم أن يقولوا "بسم الله)، أخرجه الطبراني في الأوسط بإسنادين أحدهما فيه محمد بن مسلمة الأموي، ضعفه البخاري وغيره، ووثقه ابن حبان وابن عدي، وبقية رجاله الموثقون. (أن يقول: بسم الله) وذلك لأن

=

شرط الصحيح، ووافقه الذهبي.اهـ. وانظر بذل الإحسان (٢/ ٢٠٧ - ٢١١).

(١) أخرجه البخاري (١٢١٠) ومسلم (٥٤١) من حديث أبي هريرة.

اسم الله كالطابع على بني آدم فلا يستطيع الجن فكه، قال المناوي: وقال بعض أئمة الشافعية: ولا يزيد "الرحمن الرحيم" اقتصارًا على الوارد ووقوفًا مع ظاهر هذا الخبر. ولا منافاة بين حديث على هذا وبين ما تقدم من ذكر التعوذ عند دخول الخلاء في حديث زيد بن أرقم وحديث أنس المتقدم في الفصل الأول، إذ ليس أن يقول: هذا وذاك، أحدهما تسمية الله والآخر دعاء يستعيذ به من الخبث والخبائث، ويدل على الجمع ما رواه العمري حديث أنس في التعوذ بلفظ: إذا دخلتم الخلاء فقولوا: "بسم الله، أعوذ بالله من الخبث والخبائث". قال الحافظ في الفتح: إسناده على شرط مسلم. فالجمع أفضل، ولو اكتفى بكل منهما لحصل أصل السنة. مرعاة المفاتيح (٢/ ٦٤- ٦٥).

وقوله في الحديث الثالث (إن الحشوش) بضم الحاء المهملة وشينين معجمتين، هي الكتف ومواضع قضاء الحاجة، واحدها حش مثلث الحاء، وأصله جماعة النخل المتكاثفة، وكانوا يقضون حوائجهم إليها قبل اتخاذ الكنف في البيوت. (محتضرة) بفتح الضاد أي تحضرها الجن والشياطين يترصدون بني آدم بالأذى والفساد؛ لأنها مواضع تكشف فيه العورات وتهجر عن ذكر الله. فيتمكنون منهم في تلك المواضع ما لا يتمكنون في غيرها من المواضع. (أعوذ بالله) قد تقدم أنه ﷺ -كان- يقول: (اللهم إني أعوذبك). فيتخير بين الصيغتين، أو يقول هذا مرة والآخر مرة مرعاة المفاتيح (٢/ ٦٤).

من المعلوم أن الجن يرى الإنسان دون أن يراه، قال تعالى: (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) الأعراف / ٢٧.

ولما كانت الشياطين خبيثة - فإنها تألف الأماكن الخبيثة، قال الله تعالى: (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ... الآية) النور / ٢٦، ولذلك تحضر

الشياطين الأماكن التي يقضي فيها الإنسان حاجته، وتريد إتباع الأذية والضرر به.

وقد بين لنا النبي ﷺ ماذا نفعل حتى يحمينا الله من شر الشياطين إذا دخلنا الخلاء وذلك بأن يقول المسلم قبل دخول المكان (بسم الله، اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث).

قال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الشرح الممتع (١/ ٨٣): فائدة البسملة: أنها ستر. وفائدة هذه الاستعاذة: الالتجاء إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من الخبث والخبائث لأن هذا المكان خبيث، والخبيث مأوى الخبثاء فهو مأوى الشياطين فصار من المناسب إذا أراد دخول الخلاء أن يقول الله: أعوذ بالله من الخبث والخبائث حتى لا يصيبه الخبث وهو الشر، ولا الخبائث وهو النفوس الشريرة.

(باب مساكن الجن)

عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة (أنه دخل على أبي سعيد الخدري في بيته قال فوجدته يصلي فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته فسمعت تحريكا في عراجين في ناحية البيت فالتفت فإذا حية فوثبت لأقتلها فأشار إلى أن اجلس فجلست فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار فقال أترى هذا البيت؟ فقلت نعم فقال كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس قال فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله فاستأذنه يوما فقال له رسول الله ﷺ خذ عليك سلاحك فإني أخشى عليك قريظة فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع فإذا امرأته بين البابين قائمة فأهوى إليها الرمح ليطعنها به وأصابته غيرة فقالت له اكفف عليك رمحك وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها

بالرمح فانتظمها به ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه فما يدري أيهما كان أسرع موتا الحية أم الفتى؟ قال فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا له وقلنا ادع الله يحييه لنا فقال استغفروا لصاحبكم ثم قال إن بالمدينة جنا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان)(١).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة)(٢).

وعن بلال بن الحارث قال (خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فخرج لحاجته وكان إذا خرج لحاجته يبعد فأتيته بأداوة من ماء، فانطلق، فسمعت خصومة رجال ولغطا لم أسمع مثلها، فجاء، فقال: بلال؟ قلت بلال قال: أمعك ماء؟ قلت نعم قال أصبت، فأخذه مني فتوضأ قلت يا رسول الله، سمعت عندك خصومة رجال ولغطا ما سمعت أحدا من ألسنتهم قال: اختصم عندي الجن المسلمون والجن المشركون، سألوني أن أسكنهم، فأسكنت المسلمين الجلس، وأسكنت المشركين الغور، قلت لكثير: ما الجلس؟ وما الغور؟ قال: الجلس: القرى والجبال، والغور: ما بين الجبال والبحار، قال كثير: ما رأينا أحدا أصيب بالجلس إلا سلم، ولا أصيب أحد بالغور إلا لم يكد يسلم)(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٦).

(٢) أخرجه مسلم (٧٨٠).

(٣) أخرجه الطبرانى (١/ ٣٧١، رقم ١١٤٣)، وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٦٨٣)، والمزي في تهذيب الكمال (١٥/ ٤٦٣) والحديث قال عنه العلامة الألباني في الضعيفة (٢٠٧٤): هذا إسناد ضعيف جدا، كثير بن عبد الله هذا متروك. وبه أعله الهيثمي في المجمع (١/ ٢٠٣).

وعن قتادة عن عبد الله بن سرجس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نبى الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال (لا يبولن أحدكم فى جحر، قالوا لقتادة وما يكره من البول فى الجحر قال يقال إنها مساكن الجن)[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٨٢)، وأبو داود (٢٩)، والنسائي (٣٤)، وابن الجارود في المنتقى (٣٤)، والحاكم (١/ ٢٩٧)، والبيهقي (١/ ٩٩) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه النووي في الخلاصة (١/ ١٥٦)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٢/ ٣٢١)، وقال عنه الحافظ في التلخيص (١/ ١٠٦) قيل: إن قتادة لم يسمع من عبد الله بن سرجس، حكاه حرب عن أحمد، وأثبت سماعه منه؛ علي بن المديني، وصححه ابن خزيمة وابن السكن، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (١/ ٢٣): رجاله ثقات، وقد أثبت سماع قتادة من عبد الله بن سرجس غير واحد من أهل العلم كابن المديني وأبي زرعة وأبي حاتم الرازيين، وأحمد بن حنبل في رواية ابنه عبد الله، وأما في رواية حرب بن إسماعيل فقد تشكك في سماعه منه، أما العلامة الألباني فقال في تمام المنة ملخصا (٦١): الحديث ضعيف وتصحيح من صححه تساهل أو خطأ منهم فإن له علة تمنع الحكم عليه بالصحة وهي عنعنة قتادة فإنه مدلس، هذا يقال فيما لوثبت سماع قتادة من ابن سرجس في الجملة وقد أثبته علي ابن المديني ونفاه غيره، وقال الحويني في غوث المكدود (١/ ٣١٧): يمنع من صحة الحديث عنعنة قتادة. فقد وصفه غير واحد بالتدليس، ولم يصرح بتحديث. وقد تقرر في "الأصول" أن المدلس إذا عنعن عن شيخ لا يرتاب أحد في سماعه منه، فإنه لا يقبل منه، لاحتمال أنه دلسه عنه، فكيف إذا كان في سماعه من شيخه كلام أصلا؟ فلا يطمئن القلب لتصحيح هذا الإسناد. والله أعلم، وبما تقدم من التحقيق تعلم ما في قول الشوكاني في "السيل الجرار" (١/ ٦٦): "إسناده صحيح، وكل رجاله ثقات"! وسبقه النووي، فقال في "المجموع" (٢/ ٨٥): "حديث صحيح، رواه أحمد ..... بالأسانيد الصحيحة" اهـ. فقوله: "بالأسانيد الصحيحة" فيه نظر، فليس له إلا هذا الإسناد عند من ذكرهم. وقد رأيت النووي رَحِمَهُ اللَّهُ يكثر من هذه العبارة، مع أن الإسناد واحد، فلينتبه لذلك. وعزاه الهيثمي (٨/ ١١١) للطبراني وأحمد وقال: "رجال أحمد رجال الصحيح". وليس في هذا تصحيح للإسناد كما لا يخفى.

قال في مرعاة المفاتيح (٢/ ٦٢) قوله (لا يبولن أحدكم في جحر) أي ثقب بتقديم الجيم المضمومة وسكون الحاء المهملة، كل شيء تحتفره السباع والهوام لأنفسها. وجه النهي أن الجحر مأوى الهوام وذوات السموم فلا يؤمن أن تصيبه مضرة من قبل ذلك. ويقال: إن الذي يبول في الجحر يخشى عليه عادية الجن كما عند أبي داود، والنسائي. قالوا لقتادة أي الراوى عن عبد الله بن سرجس: وما يكره البول من الجحر؟ فقال: يقال إنها مساكن الجن.اهـ.

وقال الأثيوبي في ذخيرة العقبى (١/ ٥٤٦): "المسألة الخامسة": في قول قتادة: يقال إنها مساكن الجن بيان لسبب كراهة البول في الجُحْر، وذلك لئلا يحصل له ضرر، وفي رواية البيهقي، والحاكم، فقال: "إنها مساكن الجن" بدون قوله كان يقال كما تقدم.

قال المناوي في شرحه الكبير: ويؤيده الأثر الصحيح أن سعد بن عُبَادة الخزرجي بال في جُحر ثم خَرَّ ميتا، فسُمعَت الجنُّ تقول:

نحنُ قَتَلنَا سَيِّدَ الخَزْ ... رَجْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَهْ

وَرَمَيْنَاهُ بِسَهْم ... فَلَمْ يُخْطِئْ فُؤادَهْ

قال في المرقاة شرح المشكاة بعد أن ذكر هذا الأثر الله أعلم بصحته[1] اهـ.

(١) روى هذا الأثر عن عبد الله بن سرجس محمد بن سيرين وقتادة وعبد العزيز بن سعيد بن سعد بن عبادة، وأبو رجاء العطاردي، وعطاء بن أبي رباح، وطرقه مخرجه بالتفصيل في تحقيق المطالب العالية (٢/ ١٧٧ - ١٨٠)، وكل طرقه لا تسلم من ضعف، لذا قال العلامة الألباني في الإرواء (١/ ٩٤، رقم ٥٦): لا يصح، على أنه مشهور عند المؤرخين، حتى قال ابن عبد البر فى الاستيعاب (٢/ ٣٧): "ولم يختلفوا أنه وجد ميتا فى مغتسله وقد اخضر جسده" ولكننى لم أجد له إسنادا صحيحا على طريقة المحدثين.اهـ. من الإرواء. لكن توارد الأئمة على ذكر هذا السبب في قتله، وكثرة طرقه، =

وقال الدكتور الأشقر في عالم الجن والشياطين (ص٢٢): الجن يسكنون هذه الأرض التي نعيش فوقها، ويكثر تجمعهم في الخراب والفلوات، ومواضع النجاسات كالحمامات والحشوش والمزابل والمقابر، ولذلك - كما يقول ابن تيمية - يأوي إلى كثير من هذه الأماكن، التي هي مأوى الشياطين: الشيوخ الذين تقترن بهم الشياطين. وقد جاءت الأحاديث ناهية عن الصلاة في الحمام؛ لأجل ما فيها من نجاسة، ولأنها مأوى الشياطين، وفي المقبرة؛ لأنها ذريعة إلى الشرك.

ويكثر تجمعهم في الأماكن التي يستطيعون أن يفسدوا فيها كالأسواق، فقد أوصى سلمان أصحابه قائلًا: (لا تكونن، إن استطعت، أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشياطين، وبها ينصب رايته)[1].

والشياطين تبيت في البيوت التي يسكنها الناس، وتطردها التسمية، وذكر الله، وقراءة القرآن، خاصة سورة البقرة، وآية الكرسي منها، وأخبر الرسول ﷺ أن الشياطين تنتشر، وتكثر بحلول الظلام، ولذا أمرنا أن نكف صبياننا في هذه الفترة، وهو حديث متفق عليه.اهـ.

وسئل العلامة الوادعي كما في تحفة المجيب (ص٣٧٦): أين يسكن الجن؟.

فأجاب: هم يختلفون فالجن الصالحون يسكنون في المساجد وفي الأماكن

=

واستشهادهم بهذه الآثار، قد يرجح ثبوته، بل ذهب ابن الأثير، وابن عبد البر رحمهما الله إلى أبعد من ذلك، حيث قالا: ولم يختلفوا أنه وجد ميتا في مغتسله، وقد اخضر جسده ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلا يقول ولا يرون أحدا: نحن قتلنا سيد ... إلخ البيتين. الاستيعاب بهامش الإصابة (٢/ ٤٠)؛ وأسد الغابة (٢/ ٣٨٤).

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥١).

الصالحة والجن الفاسدون القذرون يسكنون في الحمامات وفي المواضع القذرة.

(باب طعام الجن)

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صل الله عليه وسلم (أمره أن يأتيه بأحجار يستجمر بها وقال له: (ولا تأتيني بعظم ولا روثة)، ولما سأل أبو هريرة الرسول ﷺ بعد ذلك عن سرّ نهيه عن العظم والروثة، قال: هما من طعام الجن، وإنّه أتاني وفد جن نصيبين -ونعم الجن- فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم: أن لا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعامًا)[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم، أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة علفٌ لدوابكم فقال رسول الله ﷺ: (فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم)[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٠).

(٢)أخرجه مسلم (٤٥٠) وهذا الحديث وإن كان في مسلم ولكنه من الأحرف اليسيرة جدا التى انتقضها عليه بعض العلماء، فقد قال العلامة الألباني في الضعيفة (١٠٣٨): أخرجه مسلم (٢/ ٣٦) وابن خزيمة في " صحيحه " (رقم ٨٢) والبيهقي (١/ ١٠٨ - ١٠٩) .... وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات، ولكنه معلول بعلتين:

الأولى: إن قوله: "وسألوه الزاد ... " إلخ مدرج في الحديث ليس من مسند ابن مسعود بل هو عن الشعبي قال: وسألوه الزاد إلخ، فهو مرسل، كما بينه البيهقي بقوله عقبه: رواه مسلم في " الصحيح " هكذا، ورواه عن علي بن حجر عن إسماعيل بن إبراهيم عن داود بن أبي هند بهذا الإسناد إلى قوله: وآثار نيرانهم، قال الشعبي: وسألوه الزاد، وكانوا من جن الجزيرة، إلى آخر الحديث من قول الشعبي مفصلا من حديث عبد الله. قلت: =

=

هكذا هو في " الصحيح " عقب رواية عبد الأعلى المتقدمة، وهكذا رواه الترمذي في " سننه " (٤/ ١٨٣) قال: حدثنا علي بن حجر به، إلا أنه قال: "كل عظم لم يذكر اسم الله عليه " كما يأتي بيانه في " العلة الأخرى " وكذلك رواه البيهقي بسندين له عن علي بن حجر به، إلا أنه لم يسق لفظه، وإنما أحال فيه على لفظ عبد الأعلى فكأنه عنده بلفظه: "كل عظم ذكر ...". ثم قال: ورواه محمد بن أبي عدي عن داود إلى قوله: "وآثار نيرانهم "، ثم قال: قال داود: ولا أدري في حديث علقمة أوفي حديث عامر أنهم سألوا رسول الله ﷺ تلك الليلة الزاد فذكره.

ثم ساق البيهقي إسناده إلى محمد بن أبي عدي به، ثم قال: ورواه جماعة عن داود مدرجا في الحديث من غير شك. ورواية إسماعيل بن علية قد أخرجها الإمام أحمد أيضا مقرونا مع رواية غيره من الثقات فقال: (٤١٤٩): حدثنا إسماعيل: أخبرنا داود وابن أبي زائدة - المعنى - قالا: حدثنا داود به مثل رواية إسماعيل عند مسلم.

وتابعهما يزيد بن زريع قال: حدثنا داود بن أبي هند به. أخرجه أبو عوانة في " صحيحه " (١/ ٢١٩)، وأخرجه الطيالسي أيضا في " مسنده " (١/ ٤٧) لكنه أدرجه في الحديث ولم يفصله عنه! وقد قرن بروايته وهيب بن خالد ثم أخرجه مسلم من طريق عبد الله بن إدريس عن داود به إلى قوله: "وآثار نيرانهم "، ولم يذكر ما بعده إطلاقا.

وجملة القول: إن أصحاب داود بن أبي هند اختلفوا عليه في هذه الزيادة على وجوه:

الأول: أنها من مسند ابن مسعود، كذلك رواه عبد الأعلى بن عبد الأعلى ووهيب ابن خالد، وكذا يزيد بن زريع وعبد الوهاب بن عطاء في إحدى الروايتين عنهما.

الثاني: أنها من مرسل الشعبي، وليس من مسند ابن مسعود، جزم بذلك عن داود إسماعيل بن علية وابن أبي زائدة، ويزيد بن زريع في الرواية الأخرى عنه. ويمكن أن يلحق بهؤلاء عبد الله بن إدريس فإنه لم يذكرها أصلا كما سبق، ولو كانت عنده من مسند ابن مسعود لذكرها إن شاء الله تعالى.

الثالث: أن داود شك في كونها من مسند ابن مسعود، أومن مرسل الشعبي، كذلك رواه عنه محمد بن أبي عدي وعبد الوهاب بن عطاء في الرواية الأخرى عنه. ولا يخفى على الخبير بهذا العلم الشريف أن هذا الاختلاف إنما يدل على أن المختلف عليه وهو داود بن أبي هند لم يضبط هذا الحديث ولم يحفظه جيدا، ولذلك اضطرب فيه على الوجوه الثلاثة التي بينتها، ولا يمكن أن يكون ذلك من الرواة عنه لأنهم جميعا ثقات، فكل

=

=

روى ما سمع منه، وإذا كان كذلك فالاضطراب دليل على ضعف الحديث كما هو مقرر في علم مصطلح الحديث لأنه يشعر بأن راويه لم يحفظه. هذا ما تحرر لدي أخيرا، وأما الدارقطني فقد أعله بالإرسال فقال كما في " شرح مسلم " للنووي:
انتهى حديث ابن مسعود عند قوله: "فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم "، وما بعده من قول الشعبي، كذا رواه أصحاب داود الراوي عن الشعبي: ابن علية وابن زريع، وابن أبي زائدة وابن إدريس وغيرهم. هكذا قال الدارقطني وغيره، ومعنى قوله: إنه من كلام الشعبي أنه ليس مرويا عن ابن مسعود بهذا الحديث، وإلا فالشعبي لا يقول هذا الكلام إلا بتوقيف عن النبي ﷺ. والله أعلم.
قلت: قول الشعبي: "وسألوه الزاد ... " صريح في رفعه إلى النبي ﷺ فلا داعي لقول النووي: "فالشعبي لا يقول ... " إلخ. فإن مثل هذا إنما يقال فيما ظاهره الوقف كما لا يخفى.
العلة الأخرى: الاضطراب في متنه أيضا على داود، فعبد الأعلى يقول عنه: كل عظم ذكر اسم الله عليه " وتابعه على ذلك إسماعيل بن علية وابن أبي زائدة عند أحمد وعبد الوهاب بن عطاء عند الطحاوي. وخالف هؤلاء وهيب بن خالد ويزيد بن زريع عند الطيالسي وعند أبي عوانة عن يزيد وحده فقالا: "كل عظم لم يذكر اسم الله عليه".
واختلفوا على إسماعيل بن علية فرواه أحمد عنه كما سبق، وتابعه علي بن حجر عن إسماعيل عند مسلم، وخالفه الترمذي فقال: حدثنا علي بن حجر به باللفظ الثاني: "لم يذكر ..". وهذا الاختلاف على داود في ضبط متن الحديث مما يؤكد ضعفه، وأن داود لم يكن قد حفظه. ثم رجعت إلى ترجمته من " التهذيب " فوجدت بعض الأئمة قد صرحوا بهذا الذي ذكرته فيه، فقال ابن حبان: كان من خيار أهل البصرة، من المتقنين في الروايات، إلا أنه كان يهم إذا حدث من حفظه. وقال أحمد " كان كثير الاضطراب والخلاف" قلت: واضطراب داود في هذا الحديث من أقوى الأدلة على هذا الذي قاله فيه الإمام أحمد، فرحمه الله، وجزاه خيرا، ما كان أعلمه بأحوال الرجال! وخلاصة الكلام في هذا الحديث أنه ضعيف للاضطراب في سنده ومتنه، ولم أجد له شاهدا نقويه به، بل هو مخالف بظاهره لحديث أبي هريرة: "أنه كان يحمل مع النبي ﷺ إداوة لوضوئه وحاجته، فبينما هو يتبعه بها، فقال: من هذا؟ فقال: أنا أبو هريرة فقال: ابغني أحجارا أستنفض بها، ولا تأتني بعظم ولا بروثة " فأتيته بأحجار أحملها في طرف ثوبي، حتى
=

=

وضعت إلى جنبه، ثم انصرفت، حتى إذا فرغ مشيت معه، فقلت: ما بال العظم والروثة؟ قال: هما من طعام الجن، وإنه أتاني وفد جن نصيبين - ونعم الجن - فسألوني الزاد، فدعوت الله أن لا يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليها طعما، وفي لفظ: طعاما". أخرجه البخاري (٧/ ١٣٦) والطحاوي (١/ ٧٤) والبيهقي (١/ ١٠٧ - ١٠٨). قلت: ووجه المخالفة أن ظاهره أن العظم والروثة زاد وطعام للجن أنفسهم، وليس شيء من ذلك لدوابهم، والتوفيق بينه وبين حديث ابن مسعود بحمل الطعام فيه على طعام الدواب كما فعل الحافظ في " الفتح " وتبعه الصنعاني في " سبل السلام " (١/ ١٢٣)، لا بأس به لوثبت حديث ابن مسعود بإسناد آخر بلفظ يغاير بظاهره اللفظ السابق، وهو: أولئك جن نصيبين سألوني المتاع - والمتاع الزاد - فمتعتهم بكل عظم حائل، أو بعرة أو روثة، فقلت: يا رسول الله، وما يغني ذلك عنهم؟ قال: إنهم لن يجدوا عظما، إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، فلا يستنقين أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة. أخرجه ابن جرير في "تفسيره" (٢٦/ ٣٢ ـ طبع البابي الحلبي) عن يحيى بن أبي كثير عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي أنه قال لابن مسعود: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، قال: أجل، قال: فكيف كان؟ فذكر الحديث كله، وذكر أن النبي ﷺ خط عليه خطا وقال: لا تبرح منها، فذكر أن مثل العجاجة السوداء غشيت رسول الله ﷺ، فذعر ثلاث مرات، حتى إذا كان قريبا من الصبح، أتاني رسول الله ﷺ فقال: أنمت؟ قلت: لا والله، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول: اجلسوا، قال: لوخرجت لم آمن أن يختطفك بعضهم، ثم قال: هل رأيت شيئا؟ قال: نعم رأيت رجالا سودا مستشعري ثياب بيض، قال: فذكره. قلت: وهذا سند ضعيف، رجاله كلهم ثقات معروفون، غير عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي، أورده ابن أبي حاتم (٢/ ٢/ ١١٧) وقال: روى عن جابر بن عبد الله، روى عنه قتادة وأبو بشر جعفر بن إياس.

ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا، ومثله يورده ابن حبان في " الثقات "، ولست بطائله الآن حتى أتأكد من أنه أورده أولا. وقد ذكر الحافظ في ترجمة أبيه من " التهذيب " أنه كان من كبار رجال معاوية، وكان أميرا له على البصرة.

ثم رأيته في " الثقات " (٧/ ٥١)، ذكره فيمن روى عن التابعين، فقال: يروي عن كعب، وعنه قتادة، وحقه أن يورده في التابعين لتصريحه في هذا الحديث أنه لقي ابن مسعود

=

=

وسمع منه، وفيه أنه رواه عنه يحيى بن أبي كثير، فقد روى عنه ثلاثة من الثقات، فمثله يحسن بعضهم حديثه، ولا أقل من أن يستشهد به، فلعله لذلك لما ذكره ابن كثير في "تفسيره" (٤/ ١٦٥) من طريق ابن جرير سكت عليه. وذكره الزيلعي في " نصب الراية " (١/ ١٤٤ - ١٤٥) من رواية أبي نعيم في " دلائل النبوة " عن الطبراني بسنده إلى معاوية بن سلام عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني عمرو بن غيلان الثقفي قال: أتيت عبد الله بن مسعود فقلت له: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن ... الحديث، وعزاه الصنعاني في " السبل " وتبعه الشوكاني في " النيل " (١/ ٨٥) لأبي عبد الله الحاكم في " دلائل النبوة " فإن عنى " دلائل النبوة " من " المستدرك " فليس فيه، والله أعلم.

ورواه الدارقطني في " سننه " (ص ٢٩) من وجه آخر عن معاوية بن سلام به مختصرا إلا أنه قال: فلان بن غيلان وقال: مجهول، قيل: اسمه عمرو، وقيل: عبد الله بن عمرو بن غيلان. وبه أعله الزيلعي، فقال عقب رواية الطبراني: وفي سنده رجل لم يسم، ولا يخفى أن هذا القول غير مستقيم بالنسبة لرواية الطبراني، فلوعزاه للدارقطني ثم ذكره عقبه لأصاب. وللحديث طريق أخرى، يرويه أبو فزارة عن أبي زيد مولى عمرو بن حريث المخزومي عن عبد الله بن مسعود به، نحوه وفيه: قد زودتهم الرجعة، وما وجدوا من روث وجدوه شعيرا، وما وجدوه عظم وجدوه كاسيا، أخرجه أحمد (رقم ٣٤٨١)، وأبو زيد هذا قال الذهبي: لا يعرف، قال البخاري في " الضعفاء ": لا يصح حديثه -يعني هذا - وقال أبو أحمد الحاكم: رجل مجهول، قلت: ما له سوى حديث واحد.

قلت: يعني هذا، وهو مخرج في " ضعيف أبي داود " (رقم ١٠) زيادة على ما هنا وقد جاء مختصرا من طريق عبد الله بن الديلمي عن ابن مسعود قال: قدم وفد من الجن على رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! انه أمتك أن يستنجوا بعظم أوروثة أوحممة، فإن الله جعل لنا فيها رزقا، قال: فنهى النبي ﷺ.

أخرجه أبو داود وغيره بسند صحيح، وهو مخرج في " صحيح أبي داود " رقم (٢٩) ومن طريق موسى بن علي بن رباح قال: سمعت أبي يقول: عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ أتاه ليلة الجن ومعه عظم حائل، وبعرة، وفحمة، فقال: "لا تستنجين بشيء من هذا إذا خرجت إلى الخلاء". أخرجه أحمد (١/ ٤٥٧) والدارقطني (١/ ٥٦/ ٧)

=

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أكل فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله)(١).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما (أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان أدركتم المبيت وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء)(٢).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال (كنا إذا حضرنا مع النبي صلى الله عليه وسلم طعاما لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضع يده وإنا حضرنا معه مرة طعاما فجاءت جارية كأنها تدفع فذهبت لتضع يدها في الطعام فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها ثم جاء

=

والبيهقي (١/ ١٠٩ - ١١٠) وأعلاه بعدم ثبوت سماع علي من ابن مسعود، ورده عليه ابن التركماني في " الجوهر النقي " فراجعه. ورواه عبد الله بن صالح: حدثني موسى بن علي به أتم منه.

أخرجه الطبراني في " الأوسط " (٩١٥٨ - بترقيمي) وقال: لم يروعلي بن رباح عن ابن مسعود حديثا غير هذا. قلت: وهو ثقة كابنه، فإن كان سمعه من ابن مسعود فهو صحيح من الوجه الأول.

وأما عبد الله بن صالح، ففيه ضعف، وبه أعله الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢١٠) وبالجملة فالحديث مشهور عن ابن مسعود كما قال الحافظ في التلخيص (١/ ١٠٩)، فهو صحيح عنه قطعا، لكن في بعض طرقه ما ليس في البعض الآخر، وقد تبين من مجموع ما أخرجنا منها أن رواية مسلم المتقدمة عن داود بن أبي هند صحيحة بتمامها إلا قوله في حديث الترجمة: "علف لدوابكم " وجملة: "اسم الله " على وجهيها، لخلوها عن شاهد، واضطراب داود في ذلك وصلا وإرسالا. ومن أجل ذلك خرجته هنا، والله سبحانه وتعالى أعلم.اهـ. من الضعيفة.

(١) أخرجه مسلم (٢٠٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠١٨).

أعرابي كأنما يدفع فأخذ بيده فقال رسول الله ﷺ (إن الشيطان يستحل الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها فأخذت بيدها فجاء بهذا الأعرابي ليستحل به فأخذت بيده والذي نفسي بيده إن يده في يدي مع يدها)[١].

ففي هذه النصوص دلالة قاطعة على أن الجن والشياطين تأكل وتشرب.

قال ابن عبد البر في التمهيد (١١/ ١١٤): وفي هذا الحديث دليل على أن الشياطين يأكلون ويشربون، وقد حمل قوم هذا الحديث وما كان مثله على المجاز فقالوا في قوله إن الشيطان يأكل بشماله إن الأكل بالشمال أكل يحبه الشيطان كما قال في الخمرة زينة الشيطان وفي الاقتعاط بالعمامة عمامة الشيطان أي إن الخمرة ومثل تلك العمة يزينها الشيطان ويدعو إليها وكذلك يدعو إلى الأكل بالشمال ويزينه وهذا عندي ليس بشيء ولا معنى لحمل شيء من الكلام على المجاز إذا أمكنت فيه الحقيقة بوجه ما وقال آخرون أكل الشيطان صحيح ولكنه تشمم واسترواح لا مضغ ولا بلع وإنما المضغ والبلع لذوي الجثث ويكون استرواحه وشمه من جهة شماله ويكون بذلك مشاركا في المال، قال أبو عمر أكثر أهل العلم بالتأويل يقولون في قول الله ﷻ (وشاركهم في الأموال) قالوا الإنفاق في الحرام والأولاد قالوا الزنا ومن الدليل على أن الشياطين من الجن يأكلون ويشربون قوله ﷺ في العظم والروثة في حديث الاستنجاء هي زاد إخوانكم من الجن وفي غير هذا الحديث إن طعامهم ما لم يذكر اسم الله عليه وما لم يغسل من الأيدي والصحاف وشرابهم الجدف وهي الرغوة والزبد وهذا أشياء لا تدرك بعقل ولا تقاس على أصل وإنما فيه التسليم لمن آتاه الله من

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠١٧).

العلم ما لم يؤتنا وهو نبينا ﷺ وفي هذا الحديث حديث ابن عمر المذكور في هذا الباب ما يرفع الإشكال قوله إن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويحتمل أن يكون الجن كلهم يأكلون ويشربون ويحتمل أن يكون كذلك بعضهم جنس منهم.اهـ.

وقال ابن العربي في العارضة (٨/ ٢١٤): قالت المبتدعة الشياطين لا تأكل ولا تشرب وقالت طائفة من الجن تأكل ولا تشرب وقال قائلون أكلهم شم وهذه حبالة الحاد لا يقع فيها إلا معيب الفؤاد أو عديم الرشاد الشياطين والجن يأكلون ويشربون وينكحون ويولد لهم ويموتون وذلك جائز في العقل ورد به الشرع وتظاهرت به الأحاديث فلا يخرج عن هذا المضمار إلا حمار والذين يقولون إنهم يشمون ما شموا العلم في الحديث الصحيح انه قال وذكر الشيطان انه يستحل الطعام لا يذكر اسم الله عليه وانه جاء بهذا الأعرابي يستحل به فأخذت بيده وجاء بهذه الجارية يستحل بها فأخذت بيدها فو الذي نفسي بيده إن يده لفي يدي مع أيديهما ولو كان يشم لم يكن لليد هنالك مدخل وقولهم إن الجن والشياطين بسائط دعوى يريدون بها أنهم لا يفنون وهو يفنون وذلك موضح كله على التفصيل في كتبنا في الأصول فان قيل فقد قال النبي عليه السلام إن الشيطان حساس لحاس قلنا هو يشم ويأكل وله لذة في الشمة كلذته في اللقمة كلذتنا في كل طعمة الثانية لما أنكرت الجهلة أن يكون الشيطان جسما أنكرت واستبعدت أو جهلت أن يكون له يدان وقد جاء الحديث الصحيح بإثبات اليد له والعقل يجوزه فلم نبعده واليمين والشمال هما حد الجسم من جهة عرضه والفوق والتحت هما حداه من جهة طوله وشرف الله إحدى جهتي الآدمي على الأخرى وكرم إحدى جارحتيه على مقابلتها وترك جهتي الشيطان على الدناءة

والشؤم فكلتا يدي الشيطان شمال فكلما يأكل فإنه باليد الناقصة القذرة.اهـ.

وقال النووي في شرح مسلم (١٣/ ١٩٠): الصواب الذي عليه جماهير العلماء من السلف والخلف من المحدثين والفقهاء والمتكلمين أن هذا الحديث وشبهه من الأحاديث الواردة في أكل الشيطان محمولة على ظواهرها وأن الشيطان يأكل حقيقة إذ العقل لايحيله والشرع لم ينكره بل أثبته فوجب قبوله واعتقاده والله أعلم.اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٥٢٢): قال الطيبي: وتحريره لا تأكلوا بالشمال، فإن فعلتم كنتم من أولياء الشيطان، فإن الشيطان يحمل أولياءه على ذلك انتهي. وفيه عدول عن الظاهر، والأولى حمل الخبر على ظاهره وأن الشيطان يأكل حقيقة لأن العقل لا يحيل ذلك، وقد ثبت الخبر به فلا يحتاج إلى تأويله.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في شرح الرياض (٤/ ١٩٧): وهذه من نعمة الله سبحانه وتعالى أن الشيطان يحرم أن يأكل معنا إذا سمينا في أول الطعام وكذلك إذا سمينا في آخره وقلنا بسم الله أوله وآخره فإن ما أكله يتقيؤه فيحرم إياه وفي الحديث دليل على أن الشيطان يأكل لأنه أكل من هذا الطعام فالشيطان يأكل ويشرب ويشارك الآكل والشارب إذا لم يسم الله تعالى على آكله وشربه.

(باب مجلس الشيطان)

عن كثير، عن أبي عياض، عن رجل، من أصحاب النبي ﷺ (أن النبي ﷺ نهى أن يجلس بين الضح والظل، وقال مجلس الشيطان)[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٣ - ٤١٤، رقم ١٥٤٥٩) والحديث قال عنه المنذري في الترغيب (٤/ ١٠١): إسناده جيد، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٦٣): رجاله رجال =

لا يجوز الجلوس بين الشمس والظل لحديث الترجمة وأيضا لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال أبو القاسم ﷺ: (إذا كان أحدكم في الشمس وقال مخلد في الفيءِ فقلص عنه الظلُّ وصار بعضه في الشمس وبعضه في الظل فليقم)[1]. وعند أحمد: (فليتحول من مجلسه). ومن طريق بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (أن النبي ﷺ نهى أن يُقعد بين الظل والشمس)[2].

والعلة في ذلك؛ أنه مجلس الشيطان كما جاء في حديث الترجمة.

قال علماء اللجنة الدائمة (٢٦/ ٣٨٦): الجلوس بين الظل والشمس مكروه؛ لأن النبي ﷺ نهى أن يقعد بين الظل والشمس رواه ابن ماجه بسند جيد، وثبت أيضا عنه عليه الصلاة والسلام أنه سماه: مجلس الشيطان رواه أحمد وابن ماجه.اهـ.

=

الصحيح غير كثير بن أبي كثير وهو ثقة، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٨٣٨) وقال: والحديث صححه أحمد وابن راهويه، فقال المروزي في "مسائله عنهما" (ص٢٢٣): قلت يكره أن يجلس الرجل بين الظل والشمس؟ قال (يعني أحمد) هذا مكروه أليس قد نهى عن ذا؟ قال إسحاق قد صح النهي فيه عن النبي ﷺ، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٤/ ١٤٧): حديث صحيح وهذا إسناد حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير كثير بن أبي كثير وهو البصري فقد روى عنه جمع، وذكره ابن حبان في "الثقات"، ووثقه العجلي.

(١) أخرجه أحمد (١٤/ ٥٣١ - الرسالة)، والحميدي (١١٣٨)، وأبو داود (٤٨٢١)، والبيهقي (٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧) والحديث صححه العلامة الألباني في الصحيحة (٨٣٧)، وحسنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند.

(٢) أخرجه ابن ماجة (٣٧٢٢) والحديث قال عنه العلامة الألباني في الصحيحة تحت الحديث (٨٣٨): إسناده حسن كما قال البوصيري في الزوائد (ق ٢٤٩/ ١ - ٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٤/ ٦٦٨): حسن لغيره، وهذا إسناد حسن في المتابعات والشواهد من أجل أبي المنيب: واسمه عبيد الله بن عبد الله العتكي.

وهذا النهي الظاهر أنه لثلاثة أمور:

الأول: أن النبي ﷺ نسب هذا المجلس للشيطان، وقد قال ربنا تبارك وتعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ...) [النور: من الآية٢١].

الثاني: أن هذا يضر بالجسم، خصوصا إذا اعتاده، قال الإمام ابن القيم رحمه الله في "زاد المعاد" (٤/ ٢٤٢): والنوم في الشمس يثير الداء الدفين، ونوم الإنسان بعضه في الشمس وبعضه في الظل رديء". وقال المناوي - رحمه الله- في "فيض القدير" (٦/ ٣٥١): لأن الجلوس بين الظل والشمس مضر بالبدن إذ الإنسان إذا قعد ذلك المقعد فسد مزاجه لاختلاف حال البدن من المؤثرين المتضادين كما هو مبين في نظائره من كتب الطب ذكره القاضي وقضيته أنه لو كان في الشمس فقلصت عنه فصار بعضه فيها وبعضه في الظل كان الحكم كذلك ثم لما خفي هذا المعنى على التوربشتي قال الحق الأبلج التسليم للشارع فإنه يعلم مالا يعلمه غيره.

وقال العلامة العثيمين في فتاواى نور على الدرب: بعض العلماء ذكر أن من الحكمة في النهي هو أن الدورة الدموية تنتقل من الظل البارد إلى الشمس الحارة وهذا بلا شك يؤثر عليها تأثيرًا بالغًا أن تنتقل من حار إلى بارد ومن بارد إلى حار، ثم إنه قال بعض العلماء أيضًا إن من المجرب أنه يحدث الزكام.

الثالث: أنه مناف للعدل الذي قامت عليه السماوات والأرض، فإما أن يكون جميع البدن في الشمس أو في الظل، وهذا من كمال هذه الشريعة، حيث راعت هذه الأمور الدقيقة، والله أعلم.

(تنبيه) خبر البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه (رأيت رسول الله قاعدًا في فناء

الكعبة بعضه في الظل وبعضه في الشمس) ضعيف لا يثبت لأن فيه مسلم بن كيسان الضبى الملائى البراد الأعور، أبو عبد الله الكوفى قال الذهبي في الكاشف: واه وقال الحافظ في التقريب: ضعيف.

(باب مشية الشيطان)

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إن الشيطان يمشي في النعل الواحدة).

قال العلامة الألباني في الصحيحة (٣٤٨): أخرجه الطحاوي في " مشكل الآثار " (٢/ ١٤٢): حدثنا الربيع بن سليمان المرادي حدثنا ابن وهب عن الليث بن سعد عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: فذكره. قلت: وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين غير الربيع بن سليمان المرادي وهو ثقة. والحديث في الصحيحين وغيرهما من طريق أبي الزناد عن الأعرج به بلفظ " لا يمش أحدكم في نعل واحدة، لينعلهما جميعا، أو ليخلعهما جميعا". وله شاهد من حديث جابر مرفوعا بلفظ: "لا تمش في نعل واحدة". أخرجه مسلم (٦/ ١٥٤) وأحمد (٣/ ٣٢٢) وغيرهما. قلت: فالحديث في النهي عن المشي في نعل واحدة صحيح مشهور، وإنما خرجت حديث الطحاوي هذا لتضمنه علة النهي، فهو يرجح قولا واحدا من الأقوال التي قيلت في تحديدها، فجاء في الفتح (١٠/ ٢٦١): "قال الخطابي الحكمة في النهي أن النعل شرعت لوقاية الرجل عما يكون في الأرض من شوك أو نحوه، فإذا انفردت إحدى الرجلين احتاج الماشي أن يتوقى لإحدى رجليه ما لا يتوقى للأخرى فيخرج بذلك عن سجية مشيه، ولا يأمن مع ذلك من العثار. وقيل: لأنه لم يعدل بين جوارحه، وربما نسب فاعل

ذلك إلى اختلال الرأي أو ضعفه. وقال ابن العربي: قيل: العلة فيها أنها مشية الشيطان، وقيل: لأنها خارجة عن الاعتدال. وقال البيهقي: الكراهة فيه للشهرة فتمتد الأبصار لمن ترى ذلك منه، وقد ورد النهي عن الشهرة في اللباس، فكل شيء صير صاحبه شهرة فحقه أن يجتنب". فأقول: الصحيح من هذه الأقوال، هو الذي حكاه ابن العربي أنها مشية الشيطان. وتصديره إياه بقوله: "قيل" مما يشعر بتضعيفه، وذلك معناه أنه لم يقف على هذا الحديث الصحيح المؤيد لهذا "القيل"، ولو وقف عليه لما وسعه إلا الجزم به.

و كذلك سكوت الحافظ عليه يشعرنا أنه لم يقف عليه أيضا، وإلا لذكره على طريقته في جمع الأحاديث وذكر أطرافها المناسبة للباب، لاسيما وليس في تعيين العلة وتحديدها سواه فخذها فائدة نفيسة عزيزة ربما لا تراها في غير هذا المكان، يعود الفضل فيها إلى الإمام أبي جعفر الطحاوي، فهو الذي حفظها لنا بإسناد صحيح في كتابه دون عشرات الكتب الأخرى لغيره.

(تنبيه) أما الحديث الذي رواه ليث عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة قالت: "ربما مشى النبي ﷺ في نعل واحدة". فهو ضعيف لا يحتج به. أخرجه الترمذي (١/ ٣٢٩) من طريق هريم بن سفيان البجلي الكوفي والطحاوي من طريق مندل كلاهما عن ليث به. وضعفه الطحاوي بقوله: "مندل ليس من أهل التثبت. وليث وإن كان من أهل الفضل فإن روايته ليست عند أهل العلم بالقوية". قلت: مندل قد تابعه هريم وهو ثقة من رجال الشيخين، فبرئت عهدته منه، وانحصرت في الليث فهو علة الحديث، وهو ضعيف. قال الحافظ في " التقريب ": "صدوق اختلط أخيرا ولم يتميز حديثه فترك". وإذا عرف هذا فلا يجوز معارضة حديث الباب بهذا الحديث الواهي

كما فعل بعض أهل الجهل بالآثار فيما ذكره الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى.

(باب ذبائح الجن)

عن أبي هريرة مرفوعا (نهى عن ذبائح الجن)(١).

قال العلامة الألباني: والحديث وهو «نهى عن ذبائح الجن» في " سنن البيهقي " (٩/ ٣١٤) من الوجه الذي ذكره السيوطي وعنده عقب الحديث ما نصه: قال: (لعله يعني الزهري) وأما ذبائح الجن: أن تشتري الدار وتستخرج العين وما أشبه ذلك فتذبح لها ذبيحة للطيرة، وقال أبو عبيد: وهذا التفسير في الحديث معناه: أنهم يتطيرون إلى هذا الفعل مخافة أنهم إن لم يذبحوا فيطمعوا أن يصيبهم فيها شيء من الجن يؤذيهم، فأبطل النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا قلت: لقد علمت أن الحديث غير صحيح، فالعمدة في النهي عن هذه الذبائح الأحاديث الصحيحة في النهي عن الطيرة، والله أعلم. "الضعيفة" (١/ ٤١٣).

---

(١) أخرجه ابن حبان في المجروحين (٢/ ١٩) أورده في ترجمة عبد الله بن أذينة وقال فيه: "منكر الحديث جدًا، يروي عن ثور ما ليس من حديثه، لا يجوز الاحتجاج به بحال"، وفي اللسان (٣/ ٢٥٧): "وقال الحاكم والنقاش: روى أحاديث موضوعة، وقال الدارقطني: متروك الحديث، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٣٠٢)، وقال ابن القيسراني في الذخيرة (١١٦): فيه عبد الله بن أذينة يروي عن ثور المنكرات، وقال الذهبي في تلخيص الموضوعات (٢١٥): لم يصح، وضعفه ابن الملقن في البدر المنير (٩/ ٣٢٧)، والحافظ في التلخيص (٤/ ١٤٩٦)، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٢٤٠): موضوع، وتعقبه السيوطي -أي ابن الجوزي- في اللآليء (٢/ ٢٢٦) فقال: قلت أخرجه أبو عبيد في غريبه والبيهقي من طريقه: أنبأنا عمر بن هارون عن يونس عن الزهري رفع الحديث، قلت: وهذا التعقيب لا طائل تحته، فإن عمر بن هارون متفق على تضعيفه بل قال فيه يحيى بن معين وصالح جزرة: كذاب، فسقط حديثه.

وقال العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٥/ ٣٨٨) عن الذبح عند اكتمال البناء أو انتصافه: هذا التصرف فيه تفصيل، فإن كان المقصود من الذبيحة اتقاء الجن أو مقصدا آخر يقصد به صاحب البيت أن هذا الذبح يحصل به كذا وكذا كسلامته وسلامة ساكنيه فهذا لا يجوز، فهو من البدع، وإن كان للجن فهو شرك أكبر؛ لأنها عبادة لغير الله.

أما إن كان من باب الشكر على ما أنعم الله به عليه من الوصول إلى السقف أو عند اكتمال البيت فيجمع أقاربه وجيرانه ويدعوهم لهذه الوليمة: فهذه لا بأس بها، وهذا يفعله كثير من الناس من باب الشكر لنعم الله حيث من عليهم بتعمير البيت والسكن فيه بدلا من الاستئجار، ومثل ذلك ما يفعله بعض الناس عند القدوم من السفر يدعو أقاربه وجيرانه شكرا لله على السلامة، فإن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر نحر جزورا ودعا الناس لذلك عليه الصلاة والسلام. رواه البخاري (٣٠٨٩)

وقال العلامة العثيمين الشرح الممتع (٧/ ٥٥٠، ٥٥١): ما يفعله بعض الناس إذا نزل منزلا جديدا ذبح ودعا الجيران والأقارب: هذا لا بأس به ما لم يكن مصحوبا بعقيدة فاسدة، كما يفعل في بعض الأماكن إذا نزل منزلا فإن أول ما يفعل أن يأتي بشاة ويذبحها على عتبة الباب حتى يسيل الدم عليها، ويقول: إن هذا يمنع الجن من دخول البيت، فهذه عقيدة فاسدة ليس لها أصل، لكن من ذبح من أجل الفرح والسرور: فهذا لا بأس به.

(باب هل خلقت الإبل من الشياطين)

عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ (صلوا في مرابض الغنم، ولا تصلوا في أعطان الإبل، فإنها خلقت من الشياطين)، وفي رواية (لا

تصلوا في أعطان الإبل فإنها من الجن خلقت ألا ترون عيونها وهبتها إذا نفرت وصلوا في مرابد الغنم فإنها هي أقرب من الرحمة)(١).

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال (سئل رسول الله ﷺ عن الوضوء من لحوم الإبل، فقال: "توضؤوا منها" وسئل عن لحوم الغنم، فقال: "لا توضؤوا منها" وسئل عن الصلاة في مبارك الإبل، فقال: "لا تصلوا في مبارك الإبل، فإنها من الشياطين" وسئل عن الصلاة في مرابض الغنم، فقال: "صلوا فيها فإنها بركة)(٢).

---

(١) أخرجه الشافعي في الأم (١/ ٩٢)، وعبد الرزاق (١٣٠٢)، والطيالسى (ص ١٢٣، رقم ٩١٣)، وأحمد (٤/ ٨٦، رقم ١٦٨٤٥)، ابن أبى شيبة (١/ ٣٣٧، رقم ٣٨٧٧)، وعبد بن حميد (٥٠١)، وابن ماجه (١/ ٢٥٣، رقم ٧٦٩)، وابن حبان (٤/ ٦٠١، رقم ١٧٠٢)، والمحاملي في أماليه (٨٥)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٨٤)، والروياني في مسنده (٨٩٨)، وأبو القاسم البغوي في الجعديات (٣٣٠١)، والبغوي في شرح السنة (٥٠٤)، والبيهقى (٢/ ٤٤٩، رقم ٤١٥٣)، وابن عبد البر في التمهيد (٥/ ٣٠٢ - ٣٠٣) وغيرهم، وفي الباب عن ابن عمر وأبي هريرة، والحديث قال عنه ابن عبد البر في التمهيد (٢٢/ ٣٣٤): إسناده حسن، واحتج به ابن حزم في المحلى (١/ ١٧٤)، وحسنه النووي في الخلاصة (١/ ٣١٧)، وفي المجموع (٣/ ١٦٠)، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح العمدة -الصلاة (٤٢٩)، وقال مغلطاي في شرح سنن ابن ماجة (٣/ ٢١٢): إسناده صحيح، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٦): ورجال أحمد رجال الصحيح، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٦٣٠، ٥٠١٨)، وصححه الشوكاني في النيل (٢/ ٢٣)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٨٨٥)، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٧/ ٣٥٣)، أما العلامة الألباني فصححه في صحيح الجامع (٣٧٨٨ و١٤٣٩)، وصحيح ابن ماجة (٧٦٨ و٧٦٩)، والثمر المستطاب (١/ ٣٨٧ - ٣٨٨)، والضعيفة (٥/ ٢٣٨) ثم ضعف جملة (فإنها خلقت من الشياطين) في ضعيف موارد الظمآن (٢٥ - ٣٣٥).

(٢) أخرجه بتمامه ومختصرا أحمد (٤/ ٢٨٨، رقم ١٨٥٦١)، وعبد الرزاق في المصنف (١٥٩٦)، والطيالسي (٧٣٤، ٧٣٥)، وابن أبى شيبة (١/ ٣٣٧، رقم ٣٨٧٨)، وأبو =

وعن خالد بن معدان مرسلا (إن الإبل خلقت من الشياطين وإن وراء كل بعير شيطانا)[١].

الحديث الأول قال عنه الصنعاني في التنوير (٦/ ٥٩٤): قوله (صلوا في مرابض الغنم ولا تصلوا في أعطان الإبل فإنها خلقت من الشياطين) كأن المراد أن فيها صفات من صفات الشياطين كشدة النفار وإيذاء صاحبها ونحوه لا أنها خلقت هي من الشياطين لأنها من الدواب المخلوقة من الماء الداخلة في عموم {وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ} [النور: ٤٥]، والشياطين خلقت من النار ويحتمل أن في أصل جبلتها الخلق من النار وهذه هي العلة المنصوصة على النهي لا النجاسة ولو كانت النجاسة علة لذكرت لأنها أهم من هذه العلة إذ هي ألصق بشأن الصلاة فما عدل ﷺ إلى هذه إلا لعقد تلك. استشكل التعليل بكونها خلقت من الشياطين بما ثبت من صلاته ﷺ عليها النافلة.اهـ.

=

داود (١/ ٤٧، رقم ١٨٤)، وابن ماجه (٤٩٤)، والترمذي (٨١)، وأبو يعلى (١٧٠٩)، وابن خزيمة (٣٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٨٤)، وابن الجارود (٢٦)، وابن المنذر في الأوسط (١/ ١٣٨)، وابن حبان (١١٢٨)، والبيهقي في المعرفة (١/ ٤٥٣)، وفي السنن الكبرى (١/ ١٥٩) والحديث صححه ابن حبان، وقال عنه ابن عبد البر في التمهيد (٢٢/ ٣٣٣): إسناده حسن، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح العمدة -الصلاة (٤٢٩)، وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٥١)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٠/ ٥١٠): إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير عبد الله بن عبد الله - وهو الرازي مولى بني هاشم قاضي الري أبو جعفر- فمن رجال أصحاب السنن، وهو ثقة.

(١) أخرجه سعيد بن منصور عن خالد بن معدان مرسلًا، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (١٥٧٩).

والحديث الثالث قال عنه المناوي في الفيض (٢/ ٣٢٠): قوله (إن الإبل) بنوعيها عرابا وبخاتى (خلقت من الشياطين وإن وراء كل بعير شيطانا) قال ابن جرير: معناه أنها خلقت من طباع الشياطين وأن البعير إذا نفر كان نفاره من شيطان يعدو خلفه فينفره ألا ترى إلى هيئتها وعينها إذا نفرت؟ انتهى.

وقال الصنعاني في التنوير (٣/ ٤٢٩): قوله (إن الإبل خلقت من الشياطين) كلمة من ابتدأ به مثلها في خلقه من سلالة من طين أي خلقت من الجنس الذي خلقت من الشياطين وهو النار، ويحتمل أنها خلقت من نفس الشياطين ولا ينافيه قوله تعالى: {وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ} [النور: ٤٥] إما لأن هذا تخصيص لذلك أو لأن المراد هذا التناسل المشاهد فإنه من ماء والأصل من الشياطين. (وإن وراء كل بعير شيطانًا) فيه أنها تلازمها الشياطين ولذلك أمر من شرى بعيرًا بالأخذ بذروته والتعوذ ونهى عن الصلاة في معاطن الإبل.اهـ.

وقال ابن حبان في صحيحه (٤/ ٦٠٢): قوله ﷺ: "فإنها خلقت من الشياطين" أراد به أن معها الشياطين وهكذا قوله ﷺ: "فليدرأه ما استطاع فإن أبى فليقاتله فإنه شيطان" ثم قال في خبر صدقة بن يسار عن بن عمر: "فليقاتله فإن معه القرين" .... ثم قال ذكر البيان بأن قوله ﷺ فإنها خلقت من الشياطين لفظة أطلقها على المجاورة لا على الحقيقة ثم ذكر حديث "على ظهر كل بعير شيطان فإذا ركبتموها فسموا الله ولا تقصروا عن حاجاتكم" ... ثم ذكر حديث عبد الله بن عمر (أن رسول الله ﷺ الله ﷺ كان يوتر على البعير) ثم قال: لو كان الزجر عن الصلاة في أعطان الإبل لأجل أنها خلقت من الشياطين لم يصل ﷺ على البعير إذ محال أن لا تجوز الصلاة في المواضع التي قد يكون فيها الشيطان ثم تجوز الصلاة على الشيطان نفسه بل معنى قوله ﷺ: "إنها خلقت من

الشياطين" أراد به أن معها الشياطين على سبيل المجاورة والقرب.اهـ.

وقال ابن حزم في المحلى (٢/ ٣٤٤): فان قيل: فانه قد روى عنه ﷺ أنه قال: (فانها خلقت من الشياطين) قلنا نعم، هذا حق، ونحن نقر بهذا، ولا اعتراض في هذا على نهيه عليه السلام عن الصلاة في أعطانها.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في شرح عمدة الفقه (١/ ١٨٥): أشار ﷺ في الإبل إلى أنها من الشياطين، يريد والله أعلم أنها من جنس الشياطين ونوعهم، فإن كل عات متمرد شيطان من أي الدواب كان، كالكلب الأسود شيطان، والإبل شياطين الأنعام، كما للإنس شياطين ... فلعل الإنسان إذا أكل لحم الإبل أورثته نفارا وشماسا وحالا شبيها بحال الشيطان، والشيطان خلق من النار، وإنما تطفئ النار بالماء، فأمر بالوضوء من لحومها كسرا لتلك السورة، وقمعا لتلك الحال، وهذا لأن قلب الإنسان وخلقه يتغير بالمطاعم التي يطعمها.اهـ.

وقال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ٣٠٤): واعلم أن العلماء اختلفوا في علة النهي عن الصلاة في أعطان الإبل.

فقيل: لأنها خلقت من الشياطين، كما تقدم في الحديث عن النَّبي ﷺ، وهذا هو الصحيح في التعليل؛ لأن النَّبي ﷺ قال: "لا تصلوا في مبارك الإبل فإنها خلقت من الشياطين"، وترتيبه كونها خلقت من الشياطين بالفاء على النهي، يدل على أنه هو علته كما تقرر في مبحث مسلك النص، ومسلك الإيماء، والتنبيه.

وقال جماعة من أهل العلم: معنى كونها "خلقت من الشياطين"، أنها ربما نفرت وهو في الصلاة فتؤدي إلى قطع صلاته، أو أذاه، أو تشويش خاطره. وقد قدمنا أن كل عات متمرد تسميه العرب شيطانًا، والإبل إذا نفرت فهي عاتية

متمردة، فتسميتها باسم الشياطين مطابق للغة العرب.

والعرب تقول: خلق من كذا للمبالغة، كما يقولون: خلق هذا من الكرم، ومنه قوله {خُلِقَ الْأِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ} [٢١/ ٣٧]، على أصح التفسيرين.

وعلى هذا فيفرق بين كون الإبل في معاطنها، وبين غيبتها عنها إذ يؤمن نفورها حينئذ.

قال الشوكاني في نيل الأوطار: ويرشد إلى صحة هذا حديث ابن مغفل عند أحمد بإسناد صحيح بلفظ: "لا تصلوا في أعطان الإبل، فإنها خلقت من الجن، ألا ترون إلى عيونها وهيئاتها إذا نفرت".

وقد يحتمل أن علة النهي أن يجاء بها إلى معاطنها بعد شروعه في الصلاة فيقطعها، أو يستمر فيها مع شغل خاطره، اهـ كلام الشوكاني.

ومن هذا التعليل المنصوص فهم العلماء القائلون بعدم بطلانها أنه لما كانت علة النهي ما ذكر دل ذلك على أن الصلاة إذا فعلها تامة أنها غير باطلة.

وقيل: العلة أن أصحاب الإبل يتغوطون في مباركها بخلاف أهل الغنم.

وقيل: العلة أن الناقة تحيض، والجمل يمني.

وكلها تعليلات لا معول عليها، والصحيح التعليل المنصوص عنه ﷺ بأنها خلقت من الشياطين، والعلم عند الله تعالى.اهـ.

وقال العلامة الألباني في الدرر البهية (١/ ١٠٦): تعليقا على قول المصنف (النهي معلل بأنها ربما تؤذي المصلِّي): هذا التعليل لا أصل له في السنة، وإنما جاء فيها قوله ﷺ: "صلوا في مرابض الغنم، ولا تصلوا في أعطان الإبل؛ فإنها خُلقت من الشياطين". رواه ابن ماجه، والطحاوي، وأحمد، والبيهقي، والطيالسي عن عبد الله بن مُغفَّل، وإسناده صحيح كما بينته في الثمر المستطاب

وله شاهد من حديث البراء بسند صحيح كما بينته هناك؛ وفيه: "صلوا فيها -

يعني: مرابض الغنم-؛ فإنها بركة "، وقد رواه الخطيب في " الموضح " (٢/ ٩٧).اهـ.

وقال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (١٢/ ٣٨٢): وقال بعض أهل العلم: إنما نهى عن الصلاة في مبارك الإبل أو أعطانها لأنها خلقت من الشياطين، كما جاء ذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح، فإذا كانت مخلوقة من الشياطين فلا يبعد أن تصحبها الشياطين، وتكون هذه الأماكن مأوى للإبل ومعها الشياطين، وتكون الحكمة في النهي عن الصلاة في الحش، وهذا الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو أقرب ما يقال في الحكمة ومع ذلك فالحكمة هي التعبد لله بذلك.اهـ.

وقال الشيخ أيضا في الشرح الممتع (١/ ٤٥١): وقيل: إنها خلقت من الشياطين (٨٥٥) كما ورد بذلك الحديث (٤). وليس المعنى أن أصل مادتها ذلك، ولكن المعنى أنها خلقت من الشيطنة، وهذا كقوله تعالى: {خلق الإنسان من عجل} [الأنبياء: ٣٧]، وليس المعنى أن مادة الخلق من عجل، لكن هذه طبيعته، كما قال تعالى: {وكان الإنسان عجولا} [الإسراء: ١١].

وقال في نفس المصدر السابق (٢/ ١٤٢): وليس معناه: مادتها من الشياطين، بل لأن فيها خلقا كبيرا من أخلاق الشياطين، وإذا كان في المخلوق خلق كبير من شيء معين نسب إليه، ولهذا قال تعالى: {خلق الإنسان من عجل} [الأنبياء: ٣٧] مع أنه خلق من تراب، لكن لما كانت طبيعته العجلة صار كأنه ناشئ منها، كأنها عنصر وجوده.

(باب حكم الإستعانة بالجن)

معاملة الجن خطر عظيم، وباب من أبواب الشر والفساد، طالما أصاب الناس من شره وآفته، وحسبك في ذلك أن الشرك لم يدخل على الناس إلا من

طريقهم، فقد قال النبي ﷺ مخبرا عن تعليم الله ﷻ عباده بقوله (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا)(١)، وإن كان في الجن من المؤمنين والمسلمين كما فيهم من الكافرين الفاسقين، غير أن احتجابهم عن الإنسان يحول دون الاطمئنان إلى أي منهم، ويوجب الخوف من استدراجهم، خاصة مع انتشار الجهل واشتهار البدع التي هي بريد الشرك، فغالبا ما توقع هذه المخلوقات الإنسان فيما يحرم، ثم لا تنفعهم أيضا إلا يسيرا.

وقد قال الله ﷻ: (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا)(الجن:٦).

فأكثر أهل العلم على أنه لا يجوز الاستعانة بالجن لأنهم غالبا لا يعينون شخصا إلا إذا وصلوا لمأربهم منه، من الخضوع لهم، والوقوع في أنواع من الشرك والضلالات نسأل الله العافية، ومن الأدلة على عدم جواز الإستعانة بهم قوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)، فهذا أمر بالإعداد للجهاد، فكل ما يمكن الإعداد به فهو مما تشمله الآية بالأمر، ومعلوم أن الاستعانة بالجن في مثل معارك المسلمين من أعظم الإعداد، فلو لم يكن منهم إلا نقل المعلومات عن العدو لكان ذلك من أعظم أسباب القوة، ومع هذا كله فلم ينقل عن النبي ﷺ في غزوة واحدة، ولا في بعث أو سرية أنه استعان بالجن المسلمين، بل إنه في غزوة الخندق في ليلة باردة رغب عليه الصلاة والسلام في التعرف على أحوال الكفار، فلم يجد إلا أن ينتدب من أصحابه من يأتيه بخبرهم، وقد كرر عليهم الطلب فلم يقم أحد، حتى أمر حذيفة رضي الله عنه بأن يأتيه بالخبر، قال حذيفة: فلم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

أجد بدا إذ دعاني باسمي أن أقوم، وذلك لشدة الأمر في تلك الليلة بين الخوف والبرد، فلو كانت الاستعانة بالجن المسلمين جائزة لكانت تلك الليلة من أعظم أوقات الحاجة، إن لم تكن ضرورة، فما كان على النبي ﷺ إلا أن يدعو جنيا ممن أسلم على يديه ليأتيه بالخبر في لحظة، دون أن يشق على أصحابه، فدل على أن الاستعانة بهم أصلا غير واردة بل هي ممنوعة.

والنبي ﷺ قد سحر كما ثبت في الصحيحين، ولم يستعن بالجن المسلمين في معرفة السحر، بل إنه لم يعرف أنه في بئر ذي أروان حتى أخبره جبريل وميكائيل عليهما السلام.

وأين هم الجن يوم حنين إذ بلغت القلوب الحناجر؟!.

وأين هم عن سائر غزوات النبي ﷺ وحاجاته؟.

ها هم يطيرون، هلاّ طاروا بالنبي ﷺ يوم هجرته فزاد أمنه من طلب قريش؟! ها هم يأتون بأخبار المرضى: فهلاّ أسعفوا مصابي الصحابة، ولا يقال إن النبي ﷺ ترك الاستعانة بالجن المسلمين مع جواز ذلك، لكونه منافيا، لكمال التوكل كما في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، لأن الاستعانة بهم لو كانت جائزة لكانت من قبيل أمره عليه الصلاة والسلام لبعض أصحابه لقضاء بعض حاجته، أو كأمره حذيفة ﷺ بأن يأتيه بخبر المشركين في الحديث المتقدم، مما لا يعتبر منافيا لكمال التوكل، فلما لم يحدث ذلك دل على أن الاستعانة بهم هي من قبيل الممنوع، وليست من قبيل المأذون فيه.

وكما لم ينقل عن النبي ﷺ أنه أستعان بالجن، فكذلك لم يثبت عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم، وما يروى عن بعضهم في هذا الباب فضعيف لا يثبت.

وأيضا إن استخدام الجن خاص بنبي الله سليمان عليه السلام كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن عفريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع علي صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد، حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان {رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي} فرددته خاسئا) متفق عليه. فكأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن يتعدى إلى ما كان من خصوصيات نبي الله سليمان عليه السلام فكيف يستجيز المسلم لنفسه أن يقتحم ما وقف عنه النبي صلى الله عليه وسلم -!!. لذلك كانت فتاوى أكثر أهل العلم بحرمة التعاطي مع الجن والتعامل معهم مطلقا - سواء في ذلك المؤمن منهم والكافر - وضرورة عدم التساهل في ذلك، سدا لباب الفتنة والريبة، ورعاية لقلوب الناس التي تملؤها الفطرة الإيمانية.

قال العلامة الألباني في الصحيحة تحت حديث (٢٧٦٠):" ومن هذا القبيل معالجة بعض المتظاهرين بالصلاح للناس بما يسمونه بـ" الطب الروحاني "، سواء كان ذلك على الطريقة القديمة من اتصاله بقرينه من الجن - كما كانوا عليه في الجاهلية - أو بطريقة ما يسمى اليوم باستحضار الأرواح، ونحوه عندي " التنويم المغناطيسي "، فإن ذلك كله من الوسائل التي لا تشرع؛ لأن مرجعها إلى الاستعانة بالجن التي كانت من أسباب ضلال المشركين كما جاء في القرآن الكريم: (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) الجن/ ٦، أي: خوفا وإثما.

وادعاء بعض المبتلين بالاستعانة بهم أنهم إنما يستعينون بالصالحين منهم دعوى كاذبة؛ لأنهم مما لا يمكن - عادة - مخالطتهم ومعاشرتهم، التي تكشف عن صلاحهم أو طلاحهم، ونحن نعلم بالتجربة أن كثيرا ممن تصاحبهم أشد

المصاحبة من الإنس، يتبين لك أنهم لا يصلحون، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) التغابن/ ١٤ هذا في الإنس الظاهر، فما بالك بالجن الذين قال الله تعالى فيهم: (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) الأعراف/ ٢٧" انتهى.

وسئل العلامة الألباني أيضا كما في موسوعة العلامة الألباني (٣/ ١٠٦٧) هل يجوز الاستعانة بالجن أم لا؟

فأجاب: لا، لأني أعتقد أن الاستعانة بالجن أو المؤاخاة مع الجن كما يقولون اليوم هذا سبيل ضلال، وأنه لا يجوز للمسلم أن يستعين بمن يظن أنه من الجن لقوله تبارك وتعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} (الجن: ٦) وبالإضافة إلى ذلك أن المسلم يخالط أخاه المسلم الإنسي سنين طويلة وهو واثق به وإذا به بعد هذه السنين كلها يتبين أنه ليس كذلك، وهو مثله يعامله ويفهم منه ويأخذ ويعطي وو .. إلخ، فكيف بإمكان الإنسي أن يعرف هذا الشخص الذي هو من عالَم ما يسمى اليوم بما وراء المادة، كيف بإمكانه أن يعرف أنه مسلم أو كافر أو يعرف أنه صالح أو طالح، ونحن الإنس ما نقدر نتمكن من الوثوق بعضنا في بعض.

ولذلك فنحن نرى سد هذا الباب إطلاقًا إلا فقط مما ثبت في السنة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أولًا، وعن بعض علماء المسلمين ثانيًا، وفي مقدمتهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، من تلاوة بعض الآيات القرآنية على الممسوس من الجن، هذا يمكن أن يقال بجوازه، وفائدته ملموسة قديمًا وحديثًا، أما التوسع بأكثر من هذا القدر فهذا لا يجوز شرعًا، لأنه من مزالق الأقدام، ولأنه من الممكن أن يُضلَّل هذا الإنسي بهذا الجني بما قد يقدمه إليه

من أخبار أو معلومات يتوهم الإنسي أنها معلومات صحيحة وصادقة، هذا ما نعتقده وندين الله به.اهـ.

وسئل العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حكم استخدام الجن من المسلمين في العلاج إذا لزم الأمر؟

فأجاب: "لا ينبغي للمريض استخدام الجن في العلاج ولا يسألهم، بل يسأل الأطباء المعروفين، وأما اللجوء إلى الجن فلا؛ لأنه وسيلة إلى عبادتهم وتصديقهم؛ لأن في الجن من هو كافر، ومن هو مسلم، ومن هو مبتدع، ولا تعرف أحوالهم، فلا ينبغي الاعتماد عليهم، ولا يسألون، ولو تمثلوا لك، بل عليك أن تسأل أهل العلم والطب من الإنس، وقد ذم الله المشركين بقوله تعالى: (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) الجن/ ٦؛ ولأنه وسيلة للاعتقاد فيهم والشرك، وهو وسيلة لطلب النفع منهم والاستعانة بهم، وذلك كله من الشرك" انتهى.

وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: "لا يستعان بالجان، لا المسلم منهم ولا الذي يقول إنه مسلم؛ لأنه قد يقول مسلم وهو كذاب من أجل أن يتدخل مع الإنس، فيسد هذا الباب من أصله، ولا يجوز الاستعانة بالجن ولو قالوا إنهم مسلمون؛ لأن هذا يفتح الباب.

والاستعانة بالغائب لا تجوز سواء كان جنيا أو غير جني، وسواء كان مسلما أو غير مسلم، إنما يستعان بالحاضر الذي يقدر على الإعانة، كما قال تعالى عن موسى: (... فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ...) القصص/ ١٥، هذا حاضر ويقدر على الإغاثة فلا مانع من هذا في الأمور العادية" انتهى.

" السحر والشعوذة " (ص ٨٦، ٨٧).

وقال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله في التمهيد لشرح كتاب التوحيد" (٢/ ٣٧٣- ٣٧٤): الاستعانة بالجن سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين وسيلة من وسائل الشرك، والاستعانة معناها: طلب الإعانة؛ ولهذا فمن المتقرر عند أهل العلم أنه لا يجوز طلب الإعانة من مسلمي الجن؛ لأن الصحابة -رضوان الله عليهم- لم يطلبوا ذلك منهم، وهم أولى أن تخدمهم الجن، وأن تعينهم، وأصل الاستعانة بالجن: من أسباب إغراء الإنسي بالتوسل إلى الجني، وبرفعة مقامه، وبالاستمتاع به، وقد قال - جل وعلا -: (ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) الأنعام / ١٢٨، فحصل الاستمتاع - كما قال المفسرون - من الجني بالإنسي: بأن الإنسي يتقرب إليه، ويخضع له، ويذل، ويكون في حاجته، ويحصل الاستمتاع من الإنسي بالجني بأن يخدمه الجني، وقد يكن مع ذلك الاستمتاع ذبح من الإنسي للجني، وتقرب بأنواع العبادات، أو بالكفر بالله - جل وعلا - والعياذ بالله، بإهانة المصحف، أو بامتهانه أو نحو ذلك؛ ولهذا نقول: إن تلك الاستعانة بجميع أنواعها لا تجوز، فمنها ما هو شرك -كالاستعانة بشياطين الجن- يعني: الكفار - ومنها ما هو وسيلة إلى الشرك، كالاستعانة بمسلمي الجن" انتهى.

وقال الشيخ مشهور في فتح المنان في جمع كلام شيخ الاسلام عن الجان (ص ٢١٣-٢١٤): وقد اتخذ بعض الرقاة كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ متكئا على مشروعية الإستعانة بالجن المسلم في العلاج بأنه من الأمور المباحة، ولا أرى في كلام شيخ الإسلام ما يسوغ لهم هذا، فإذا كان من البدهيات المسلم بها أن الجن من عالم الغيب يرانا ولا نراه؛ الغالب عليه الكذب معتد ظلوم غشوم لا

يعرف العذر بالجهل مجهولة عدالته، لذا روايته للحديث ضعيفة فما هو المقياس الذي نحكم به على أن هذا الجني مسلم وهذا منافق وهذا صالح وذاك طالح؟.

لذا الاستعانة بالجن المسلم (كما يدعي البعض) في العلاج لا تجوز للأسباب التالية:

أولا: قد ثبت أن النبي ﷺ رقى ورقي وأمر أصحابه بالرقية فاجتمع بذلك فعله وأمره وإقراره ﷺ، فلو كانت الاستعانة بالجن المسلم كما يدعي البعض فضيلة ما ادخرها الله عن رسوله ﷺ يوم سحرته يهود ولا عن أصحابه رضي الله عنهم وهم خير الخلق وأفضلهم بعد أنبيائه، وفيهم من أصابه الصرع، وفيهم من أصابته العين، وفيهم من تناوشته الأمراض من كل جانب؛ فما نقلت لنا كتب السنة عن راق فيهم استعان بالجن.

ثانيا: الاستعانة بالجني المسلم -كما يدعي البعض- تعلق قلب الراقي بهذا الجني وهذا ذريعة لتفشي استخدام الجن - مسلمهم وكافرهم - ومن ثم يصبح وسيلة من وسائل الشرك بالله جل وعلا، وخرق ثوب التوحيد، ومن فهم مقاصد الشريعة تبين له خطورة هذا الأمر فما قاعدة (سد الذرائع) إلا من هذا القبيل.

ثالثا: يجب المفاصلة بين الراقي بالقرآن والساحر - عليه لعنة الله - وهذا الأمر فيه مشابهة لفعل السحرة، فالساحر يستعين بالجن، ويساعدونه، ويقضون له بعض حوائجه، لذا قد يختلط الأمر على من قل حظه من العلم فيساوي بين الراقي بالقرآن والساحر فيروج بذلك سوق السحرة، وهذا من المفاسد العظيمة على العقيدة.

رابعا: من المعلوم أن الجن أصل خلقته من النار، والنار خاصيتها الإحراق، فيغلب على طبعه الظلم والاعتداء وسرعة التقلب والتحول من حال إلى حال، فقد ينقلب من صديق إلى ألد الأعداء ويذيق صاحبه سوء العذاب لأنه أصبح خبيرا بنقاط ضعفه.

احذر عدوك مرة واحذر فلربما انقلب الصديق فكان

فمن أراد التخلص من هذا الأمر فليستشعر أن الحق في اتباع النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم أجمعين والتابعين من أئمة الهدى والتقى والدين وليترك التعرج على كل ما خالف طريقتهم كائنا ما كان فهل بعد سبيل الله ورسوله إلا سبيل الشيطان؟. والله أعلم.اهـ.

أما العلامة العثيمين فقال في شرح السفارينية (ص٤٩٨): مسألة: هل يمكن التعاون بين الجن والإنس؟

والجواب: أن التعاون بينهما إذا أمكن فلا بأس به، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن الاستعانة بالجن جائزة بشرطين: ألا يكون الطريق الموصل إليها محرمًا، وألا يستعين بهم على شيء محرم، فإن كانت الطريقة محرمة؛ كأن يقولوا: لا نعينك حتى تسجد لنا مثلًا. وهذا لا يمكن أن يقع من مؤمني الجن؛ لأن مؤمن الجن لا يمكن أن يأمر بالشرك، لكن قد يكون مؤمنًا أو يكون مسلمًا وعنده فسق، فيقول مثلًا للمرأة: لا أعينك حتى تمكنيني من نفسك، أو يكون عنده فاحشة اللواط ويقول للشاب: لا أعينك حتى تمكنني من نفسك فهذا حرام، أو يستعين بهم على شيء محرم بأن يقول لهم: احضروا لي مال فلان، فيذهبون ويحضرون إليه مال فلان، فهذا حرام؛ لأنه استعان بهم على المعصية وهي سرقة مال الناس، لكن إذا استعان بهم على شيء مباح وبطريق مباح فيقول

شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه لا باس بذلك

وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقائع في الفتاوى وكذلك في كتاب النبوات وكذلك في إيضاح الدلالة في عموم الرسالة أنه في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كانت امرأة في المدينة لها رئي من الجن وأن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تأخر وبحثوا عنه فجاءوا إلى هذه المرأة فأرسلت رئيها فأخبرهم.اهـ.

وسئل العلامة الوادعي كما في تحفة المجيب (ص٣٧١): هل يجوز التعاون والاستغاثة بالجن المسلمين فيما يقدرون عليه؟

فأجاب: أما مسألة التعاون فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: {وتعاونوا على البرّ والتّقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان}، فيجوز التعاون معهم لكن الذي ينبغي أن تعرفه أن تتأكد أنه ليس بشيطان يستدرجك ثم يأمرك بالمعاصي وبمخالفة دين الله، وقد وجد غير واحد من العلماء الأفاضل الذين يخدمهم الجن.

مسألة: لا يصح الاعتماد على إخبار الجن

اعلم رحمني الله وإياك أن الأصل في الجن أنه كذوب لا يصدق، وقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (صدقك وهو كذوب. ذاك شيطان) رواه البخاري (٣٢٧٥).

قال الحافظ: "في الحديث من الفوائد: أن الشيطان من شأنه أن يكذب" انتهى باختصار.

وقال أيضا: "وقوله في آخره (صدقك وهو كذوب) هو من التتميم البليغ، لأنه لما أوهم مدحه بوصفه الصدق في قوله صدقك استدرك نفي الصدق عنه بصيغة مبالغة، والمعنى: صدقك في هذا القول مع أن عادته الكذب المستمر، وهو كقولهم: قد يصدق الكذوب" انتهى.

ومن مقاصد الشيطان التي يسعى إليها: التفريق بين الناس والوقيعة بينهم.

قال الله تعالى عن السحرة الذين يتعلمون السحر من الشياطين: (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) البقرة/ ١٠٢.

فشأن الشياطين: التفريق بين الأحبة، والسعي بالفساد بين الناس، فتقطع الأرحام، وتطلق الزوجات، ويتباغض الناس.

مسألة: حكم الاستعانة بالجني المتلبس بالإنسي للعلاج

سئل العلامة الألباني كما في موسوعة الألباني (٣/ ١٠٤٢): أنا يعني أقرأ على المصابين بالجن.

الشيخ: حفظك الله.

مداخلة: بارك الله فيك، وعندي بعض الأسئلة في هذا الموضوع.

الشيخ: نعم.

مداخلة: أحيانًا عندما أقرأ أدعوا الجني للإسلام ويسلم والحمد لله ومرات أساله عن موضع السحر ليس فقط للمريض وإنما لمرض آخر، هل سؤالي له جائز، وأحيانًا هو يساعد في إخراج السحر، يساعد ويخبرك عن مكان الصفة ويساعد كذلك في إخراجه وفك السحر عن هذا المريض بهذه الطريقة، هو نفسه يأخذ السحر ويفكه، ويعود المريض معافى سليمًا خاليًا من المرض، هل هذا جائز؟

الشيخ: أنا أعتقد أنك سلفي معنا أليس كذلك؟

مداخلة: نسأل الله أن نكون عند حسن الظن.

الشيخ: إن شاء الله.

مداخلة: نعم.

الشيخ: فهل لك سلف في ذلك؟

مداخلة: لا أعلم.

الشيخ: وأنا مثلك لا أعلم، فماذا يكون الجواب؟

مداخلة: في العلاج أم في المرض في العلاج أم في السؤال؟

الشيخ: أنت عن ايش عم تسأل؟

مداخلة: أنا بسأل عن العلاج وعن السؤال.

الشيخ: وأنا أجيب عن السؤال والعلاج.

مداخلة: أما في العلاج في أثر في هذا

الشيخ: لأن العلاج ناتج عن سؤال.

مداخلة: نعم.

الشيخ: ولَّا ليس كذلك؟

مداخلة: لا، هناك نوعين

الشيخ: آه.

مداخلة: النوع الأول: أنني أعالج بالكتاب والسنة، أقرأ على المريض بعض الآيات التي وردت يعني قرأها رسول الله مثل الفاتحة، مثل آية الكرسي، المعوذات.

الشيخ: معليش نحن ما هذا موضوعنا ...

مداخلة: لكن أحيانًا يحصل هذا مثلًا أقرأ مع هذا الجني وما يطلع، فأقرأ على مريض آخر ويكون الجني قد أسلم و..

الشيخ: يكون ما فيه حاجة لهذا.

مداخلة: نعم.

الشيخ: ما لك فيه سلف فأنت سلفي، وما ليس لك فيه سلف فأنت خلفي.

مداخلة: نعم.

الشيخ: المسألة واضحة.

مداخلة: طيب يعني إن ملخص الكلام لا يجوز؟

الشيخ: لا يجوز طبعًا، هذا استعانة بالجن.

مداخلة: وقد حصل هذا ماذا أعمل؟

الشيخ: هذا استعانة بالجن.

مداخلة: حصل هذا.

الشيخ: تب إلى الله.

مداخلة: أستغفر الله.

الشيخ: أي نعم ...، لا يجوز سؤال الجن أن هذا مرضه كذا ما هو علاجه ما هو كذا؟ قال إنه أسلم ما دراك أنه أسلم، يجوز أن هذا تورية من شان يجرك إلى قضية أخرى كما كانت تفعل الشياطين مع العرب في الجاهلية، حيث ينطقون من أصناهم فيضلونهم سواء السبيل.

مداخلة: نعم.

الشيخ: لا يجوز التعاون مع عالم الغيب إطلاقًا، ولا يجوز مناداتهم ولا يجوز الطلب منهم.

مداخلة: أما العلاج فجائز

الشيخ: انتهينا لما ذكرت أن علاجك نوعين: سلفي وخلفي فقلنا: علاجك السلفي فنعما هو، أما علاجك الخلفي [فلا].

مداخلة: طيب إذا أخبرك وأنت يعني بدون أن تطلب منه بشيء.

الشيخ: لا أسمع منه.

مداخلة: لا أسمع منه.

الشيخ: إلا إن عرفت أنه صدق فيه قوله ﷺ: -وأنَّى لك ذلك-: «صدقك وهو كذوب».اهـ.

أما العلامة العثيمين فقد سئل كما في الكنز الثمين في سؤالات ابن سنيد لابن عثيمين (ص١٧٤): يستعمل بعض الذين يقرؤون على المرضى الجن لمعرفة المرض فما حكم ذلك؟

فأجاب: شيخ الإسلام يجوِّز ذلك إذا لم يكن ثمَّ محرَّم فلا يعينونه على محرم ولا يتقرب إليهم بمحرم. وأنتم ماذا ترون؟ أرى ما يراه الشيخ.

مسألة: حقيقة الاستعانة بالجن لفك الرصد على الكنوز المدفونة.

قال ابن خلدون في تاريخه -المقدمة- (١/ ٤٨١): الفصل الرابع في ان ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي.

إعلم أن كثيرا من ضعفاء العقول في الامصار يحرصون على استخراج الاموال من تحت الارض ويبتغون الكسب من ذلك ويعتقدون أن أموال الامم السالفة مختزنة كلها تحت الارض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية لا يفض ختامها ذلك إلا من عثر على علمه واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان فاهل الامصار بافريقية يرون أن الافرنجة الذين كانوا قبل الاسلام بها دفنوا أموالهم كذلك وأودعوها في الصحف بالكتاب إلى أن يجدوا السبيل إلى استخراجها وأهل الامصار بالمشرق يرون مثل ذلك في أمم القبط والروم والفرس ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك إلى حفر موضع المال ممن لم يعرف طلسمه ولا خبره فيجدونه خاليا أو

معمورا بالديدان أو يشاهد الاموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم أو تميد به الارض حتى يظنه خسفا أو مثل ذلك من الهذر ونجد كثيرا من طلبة البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون إلى أهل الدنيا بالاوراق المتحزمة الحواشي إما بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن باعطاء الامارات عليها في أماكنها يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونه على الحفر والطلب ويموهون عليهم بانهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من منال الحكام والعقوبات وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الاعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقى من دعواه وهو بمعزل عن السحر وطرقه فتولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الايدي على الاحتفار والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول فإذا لم يعثروا على شئ ردوا ذلك إلى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال يخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم والذي يحمل على ذلك في الغالب زيادة على ضعف العقل إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجوه المنحرفة وعلى غير المجرى الطبيعي من هذا وأمثاله عجزا عن السعي في المكاسب وركونا إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله واكتسابه ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه في نصب ومتاعب وجهد شديد أشد من الاول ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال العقوبات وربما يحمل على ذلك في الاكثر زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حد النهاية حتى تقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه ولا تفي بمطالبها فإذا عجز عن الكسب بالمجرى الطبيعي لم يجد وليجة في نفسه إلا التمني لوجود المال العظيم دفعة

من غير كلفة ليفي له ذلك بالعوائد التي حصل في أسرها فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده ولهذا فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة ومن سكان الامصار الكثيرة الترف المتسعة الاحوال مثل مصر وما في معناها فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومسألة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكيمياء هكذا بلغني عن أهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه لما يرون أن غالب هذه الاموال الدفينة كلها في بحاري النيل وأنه أعظم ما يستر دفينا أو مختزنا في تلك الآفاق ويموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتعلة في الاعتذار عن الوصول إليها بجرية النيل تسترا بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالاعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلفا بشأن السحر متوارثا في ذلك القطر عن أوليه فعلومهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم في البراري وغيرها وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها إلى حكماء المشرق تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير بصناعة سحرية حسبما تراه فيها وهي هذه:

يا طالبا للسر في التغوير ... إسمع كلام الصدق من خبير

دع عنك ما قد صنفوا في ... من قول بهتان ولفظ غرور

واسمع لصدق مقالتي ... إن كنت ممن لا يرى بالزور

فإذا أردت تغور البئر التي ... حارت لها الاوهام في التدبير

صور كصورتك التي أوقفتها ... والرأس رأس الشبل في

ويداه ما سكتان للحبل الذي ... في الدلو ينشل من قرار

البير وبصدره هاء كما عاينتها عدد الطلاق احذر من التكرير
ويطا على الطاءات غير مشي اللبيب الكيس النحرير
ويكون حول الكل خط دائر تربيعه أولى من التكوير
واذبح عليه الطير والطخه به واقصده عقب الذبح بالتبخير
بالسندروس وباللبان وميعة والقسط والبسه بثوب حرير
من أحمر أو أصفر لا أزرق لا أخضر فيه ولا تكدير
ويشده خيطان صوف أبيض أو أحمر من خالص التحمير
والطالع الاسد الذي قد بينوا ويكون بدء الشهر غير منير
والبدر متصل بسعد عطارد في يوم سبت ساعة التدبير

يعني أن تكون الطاءات بين قدميه كأنه يمشي عليها وعندي أن هذه القصيدة من تمويهات المتخرفين فلهم في ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجيبة وتنتهي التخرفة والكذب بهم إلى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة لمثل هذه ويحتفرون الحفر ويضعون المطابق فيها والشواهد التي يكتبونها في صحائف كذبهم ثم يقصدون ضعفاء العقول بأمثال هذه الصحائف ويعثون على كبراء ذلك المنزل وسكناه ويوهمون أن به دفينا من المال لا يعبر عن كثرته ويطالبون بالمال لاشتراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم ويعدونه بظهور الشواهد التي قد أعدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع ولبس عليه من حيث لا يشعر وبينهم في ذلك اصطلاح في كلامهم يلبسون به عليهم ليخفى عند محاورتهم فيما يتلونه من حفر وبخور وذبح حيوان وأمثال ذلك وأما الكلام في ذلك على الحقيقة فلا اصل له في علم ولا خبر واعلم أن الكنوز وإن كانت توجد لكنها في حكم النادر وعلى وجه

الاتفاق لا على وجه القصد إليها وليس ذلك بأمر تعم به البلوى حتى يدخر الناس أموالهم تحت الارض ويختمون عليها بالطلاسم لا في القديم ولا في الحديث والركاز الذي ورد في الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفين الجاهلية إنما يوجد بالعثور والانفاق لا بالقصد والطلب وأيضا فمن اختزن ماله وختم عليه بالاعمال السحرية فقد بالغ في إخفائه فكيف ينصب عليه الادلة والامارات لمن يبتغيه ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع على ذخيرته أهل الامصار والآفاق هذا يناقض قصد الاخفاء وأيضا فأفعال العقلاء لا بد وأن تكون لغرض مقصود في الانتفاع ومن اختزن المال فإنه يختزنه لولده أو قريبه أو من يؤثره وأما أن يقصد إخفاءه بالكلية عن كل أحد وإنما هو للبلاء والهلاك أو لمن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتي من الامم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه وأما قولهم أين أموال الامم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور فاعلم أن الاموال من الذهب والفضة والجواهر والامتعة إنما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن والعمران يظهرها بالاعمال الانسانية ويزيد فيها أو ينقصها وما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث وربما انتقل من قطر إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه والعمران الذى يستدعي له فإن نقص المال في المغرب وأفريقية فلم ينقص ببلاد الصقالبة والافرنج وإن نقص في مصر والشام فلم ينقص في الهند والصين وإنما هي الآلات والمكاسب والعمران يوفرها أو ينقصها مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره وكذا الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب بأعيانها لاقرب وقت وأما ما وقع في مصر من أمر

المطالب والكنوز فسببه أن مصر في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر واللآلئ على مذهب من تقدم

من أهل الدول فلما انقضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم نقروا على ذلك في قبورهم فكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف كالاهرام من قبور الملوك وغيرها وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد ويعثر على الدفين فيها كثيرا من الاوقات أما ما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرمون به موتاهم في الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها فلذلك عني أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها حتى إنهم حين ضربت المكوس على الاصناف آخر الدولة ضربت على أهل المطالب وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهوسين فوجد بذلك المتعاطون من أهل الاطماع الذريعة إلى الكشف عنه والذرع باستخراجه وما حصلوا إلا على الخيبة في جميع مساعيهم نعوذ بالله من الخسران فيحتاج من وقع له شئ من هذا الوسواس وابتلي به أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب معاشه كما تعوذ رسول الله ﷺ من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمحالات والمكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢ / السؤال رقم ١١٦): هناك من يحضر الجن بطلاسم يقولها، ويجعلهم يخرجون له كنوزا مدفونة في أرض القرية منذ زمن بعيد، فما حكم هذا العمل؟.

فأجاب: هذا العمل ليس بجائز؛ فإن هذه الطلاسم التي يحضرون بها الجن ويستخدمونهم بها لا تخلو من شرك - في الغالب -، والشرك أمره خطير قال الله تعالى: (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار)، والذي يذهب إليهم يغريهم ويغرهم، يغريهم بأنفسهم وأنهم على حق، ويغرهم بما يعطيهم من الأموال.

فالواجب مقاطعة هؤلاء، وأن يدع الإنسان الذهاب إليهم، وأن يحذر إخوانه المسلمين من الذهاب إليهم، والغالب في أمثال هؤلاء أنهم يحتالون على الناس ويبتزون أموالهم بغير حق ويقولون القول تخرصا، ثم إن وافق القدر أخذوا ينشرونه بين الناس، ويقولون: نحن قلنا وصار كذا، ونحن قلنا وصار كذا، وإن لم يوافق ادعوا دعاوى باطلة، أنها هي التي منعت هذا الشيء.

وإني أوجه النصيحة إى من ابتلي بهذا الأمر وأقول لهم: احذروا أن تمتطوا الكذب على الناس والشرك بالله ﷻ وأخذ أموال الناس بالباطل، فإن أمد الدنيا قريب، والحساب يوم القيامة عسير، وعليكم أن تتوبوا إلى الله تعالى من هذا العمل، وأن تصححوا أعمالكم، وتطيبوا أموالكم، والله الموفق.

(باب هل ابليس من الجن أم من الملائكة)

إبليس - لعنه الله - من الجن، ولم يكن يوما ملكا من الملائكة، ولا حتى طرفة عين؛ فإن الملائكة خلق كرام لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وقد جاء ذلك في النصوص القرآنية الصريحة التي تدل على أن إبليس من الجن وليس من الملائكة، ومنها:

١ - قال الله تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو

بئس للظالمين بدلا) الكهف / ٥٠.

٢- وقد بين الله تعالى أنه خلق الجن من النار، قال تعالى: (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) الحجر/ ٢٧، وقال: (وخلق الجان من مارج من نار) الرحمن / ١٥، وقد جاء في الآيات أن إبليس - لعنه الله - خلق من النار، جاء ذلك على لسان إبليس لما سأله الله سبحانه وتعالى عن سبب رفضه السجود لآدم لما أمره الله بذلك، فقال - لعنه الله-: (قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) الأعراف/ ١٢، فيدل هذا على أنه كان من الجن، وجاء في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)(١).

فمن صفات الملائكة أنها خلقت من نور، والجن خلق من نار.

٣- وقد وصف الله عز وجل الملائكة في كتابه الكريم، فقال: (يا أيها الذين ءامنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) التحريم / ٦. وقال سبحانه: (بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) الأنبياء / ٢٦- ٢٧. وقال: (ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) النحل / ٤٩- ٥٠. فلا يمكن أن يعصي الملائكة ربهم لأنهم معصومون من الخطأ ومجبولون على الطاعة.

٤- وكون إبليس ليس من الملائكة فإنه ليس مجبرا على الطاعة، وله الاختيار، كما لنا نحن البشر، قال تعالى: (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

كفورا)، وأيضا فإن هناك المسلمين والكافرين من الجن؛ جاء في الآيات من سورة الجن: (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك برنا أحدا) الجن / ١ - ٢. وجاء في نفس السورة على لسان الجن: (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ..) الآيات.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: قال الحسن البصري: "ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أصل البشر" رواه الطبري بإسناد صحيح) ج٣/ ٨٩.

وقد قال بعض العلماء إن إبليس ملك من الملائكة، وأنه طاووس الملائكة، وأنه كان من أكثر الملائكة اجتهادا في العبادة .. إلى غير ذلك من الروايات التي معظمها من الإسرائيليات، ومنها ما يخالف النصوص الصريحة في القرآن الكريم.

قال ابن كثير في تفسيره (٥/ ١٦٧): مبينا ذلك: وقوله {فسجدوا إلا إبليس كان من الجن} أي: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه قال: "خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، خلق آدم مما وصف لكم". فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة.

ونبه تعالى هاهنا على أنه {من الجن} أي: إنه خلق من نار، كما قال: {أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين} [الأعراف:١٢، ص:٧٦]

قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة، يقال لهم: الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة -قال: وكان اسمه الحارث، وكان خازنا من خزان الجنة، وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحي-قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار. وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت.

وقال الضحاك أيضا، عن ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازنا على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض، وكان مما سولت له نفسه، من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفا على أهل السماء، فوقع من ذلك في قلبه كبر لا يعلمه إلا الله. فاستخرج الله ذلك الكبر منه حين أمره بالسجود لآدم "فاستكبر، وكان من الكافرين. قال ابن عباس: وقوله: {كان من الجن} أي: من خزان الجنان، كما يقال للرجل: مكي، ومدني، وبصري، وكوفي. وقال ابن جريج، عن ابن عباس، نحو ذلك.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: هو من خزان الجنة، وكان يدبر أمر السماء الدنيا، رواه ابن جرير من حديث الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد، به.

وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة سماء الدنيا.

وقال ابن إسحاق، عن خلاد بن عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كان إبليس -قبل أن يركب المعصية-من الملائكة، اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض. وكان من أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما. فذلك دعاه إلى الكبر،

وكان من حي يسمون جنا.

وقال ابن جريج، عن صالح مولى التوأمة وشريك بن أبي نمر، أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة من الجن، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض. فعصى، فسخط الله عليه، فمسخه شيطانا رجيما -لعنه الله- ممسوخا، قال: وإذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترجه، وإذا كانت في معصية فارجه.

وعن سعيد بن جبير أنه قال: كان من الجنانين، الذين يعملون في الجنة.

وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء، والسادة الأتقياء والأبرار والنجباء من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه، من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي، خاتم الرسل، وسيد البشر عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات، أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل.اهـ.

وقال ابن حزم في الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ٢٨): وقد ادعى

قوم أن إبليس كان ملكا فعصى وحاشى لله من هذا لأن الله تعالى قد كذب هذا القول بقوله تعالى: {إلا إبليس كان من الجن. وبقوله: أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني. ولا ذرية للملائكة ... وبإخباره أنه خلق إبليس من نار السموم، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: خلقت الملائكة من نور والنور غير النار بلا شك، فصح أن الجن غير الملائكة والملائكة كلهم خيار مكرمون بنص القرآن والجن والأنس فيهما مذموم ومحمود.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٤٦): ولم يكن في المأمورين بالسجود أحد من الشياطين؛ لكن أبوهم إبليس هو كان مأمورا فامتنع وعصى وجعله بعض الناس من الملائكة لدخوله في الأمر بالسجود وبعضهم من الجن لأن له قبيلا وذرية ولكونه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور، والتحقيق أنه كان منهم باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله ولم يخرج من السجود لآدم أحد من الملائكة لا جبرائيل ولا ميكائيل ولا غيرهما.اهـ.

وقال العلامة الألباني أيضا في تحقيق الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص ٥٨): ذكر أبو عبيد في "الإيمان": أن إبليس "كان في عداد الملائكة" فعلق الإمام الألباني على ذلك قائلا: يعني الذين أمروا بالسجود، ولا يعني .. رحمه الله تعالى: أنه كان منهم في الخلق والجبلة، كيف والقرآن يقول عنه {كان من الجن}، والرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». "مختصر مسلم" رقم (٢١٦٩).

وقال العلامة الألباني أيضا في الضعيفة (٢/ ٣١١- ٣١٢): وهذا -الحديث- منها بلا شك فإن التركيب والصنع عليه ظاهر، ثم إن فيه ما هو

مخالف للقرآن الكريم في موضعين منه:

الأول: قوله في إبليس: "كان من الملائكة" والله ﷻ يقول فيه: {كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ}، وما يروى عن ابن عباس في تفسير قوله: {من الجن} أي من خزان الجنان، وأن إبليس كان من الملائكة، فمما لا يصح إسناده عنه، ومما يبطله أنه خلق من نار كما ثبت في القرآن الكريم، والملائكة خلقت من نور كما في صحيح مسلم عن عائشة مرفوعا، فكيف يصح أن يكون منهم خلقة، وإنما دخل معهم في الأمر بالسجود لآدم عليه السلام لأنه كان قد تشبه بهم وتعبد وتنسك، كما قال الحافظ ابن كثير، وقد صح عن الحسن البصري أنه قال: "ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر". [ثم ذكر الإمام الموضع الثاني].اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه: هل إبليس من الملائكة؟

فأجاب: إبليس ليس من الملائكة لأن إبليس خلق من نار والملائكة خلقت من نور، ولأن طبيعة إبليس غير طبيعة الملائكة، فالملائكة وصفهم الله تعالى بأنهم: {لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}. ووصفهم الله تعالى بقوله: {وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ}.أما الشيطان فإنه على العكس من ذلك فإنه كان مستكبرًا كما قال تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}، ولكن لما وجه الخطاب إلى الملائكة بالسجود لآدم وكان إبليس من بينهم -أي معهم مشاركًا لهم في العبادة - وإن كان قلبه -والعياذ بالله- منطويًا على الكفر والاستكبار صار الخطاب متوجهًا إلى الجميع فلهذا صح استثناؤه منهم فقال تعالى: {فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ} وإلا فأصله ليس منهم بلا شك كما قال تعالى:

{فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} . والله أعلم.اهـ.

وقال الدكتور الفوزان كما في المنتقى من فتاواه: فهل إبليس من الملائكة؟

هذا موضع خلاف بين أهل العلم قيل: إنه من الملائكة لظاهر الاستثناء في قوله تعالى: {فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ} [سورة ص: الآيتين: ٧٣، ٧٤] ثم إنه بعد ذلك لما حصل منه ما حصل من استكبار عن طاعة الله، فإن الله سبحانه وتعالى عاقبه وأحل به لعنته، وهذا قول ضعيف.

والصحيح: أنه ليس من الملائكة لقوله تعالى: {إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [سورة الكهف: آية ٥٠] فالصحيح: أنه ليس من الملائكة، لأن الملائكة خلقت من نور كما في الحديث والشيطان خلق من نار كما قال: {خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [سورة الأعراف: آية ١٢].اهـ. وهو اختيار اللجنة الدائمة.

(باب هل يتزاوج الإنس والجن)

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا (لاتقوم الساعة حتى تكثر فيكم أولاد الجن من نسائكم، ويكثر نسبهم فيكم حتى يجادلوكم بالقرآن؛ حتى يردوكم عن دينكم)(١). ولكنه حديث منكر جدا كما في الحاشية.

(١) قال العلامة الألباني في الضعيفة (٥٧٧٦): منكر جدًا. أخرجه أبو بكر الكلاباذي في مفتاح المعاني (ق ٣٨١/ ١) من طريق خلف بن سليمان النسفي أبي سعيد: ثنا محمد بن المصفى: ثنا بقية ابن الوليد: ثنا عمران أو ابن عمران: ثني كرز عن نافع عن ابن عمر مرفوعًا. قلت: وهذا إسناد ضعيف، ومتن منكر؛ عمران أو ابن عمران؛ لم أعرفه، فهو من مشايخ بقية المجهولين الذين من طريقهم كثرت المناكير في تحديث بقية عنهم بتدليسه إياهم، أو بتصريحه بالتحديث عنهم؛ كما مر هنا. أقول هذا على افتراض أن هذا السند إليه صحيح، وليس كذلك؛ فإن خلف ابن سليمان النسفي ليس له ذكر في شيء من كتب التراجم التي عندي، فهو الآفة إن سلم من شيخ بقية.

=

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا (كان أحد أبوي بلقيس جنيا)(١) ولكنه حديث

=

(فائدة): ذكر الذهبي في الميزان من رواية الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد قال: سمعت شيخنا أبا محمد بن عبد السلام السلمي (يعني: عز الدين) يقول - وجرى ذكر ابن عربي الطائي -: (وهو شيخ سوء شيعي كذاب. فقلت له: وكذاب أيضًا؟ قال: نعم؛ تذاكرنا بدمشق التزويج بالجن، فقال ابن العربي: هذا محال؛ لأن الإنس جسم كثيف والجن روح لطيف، ولن يعلق الجسم الكثيف الروح اللطيف. ثم بعد قليل رأيته وبه شجة! فقال: تزوجت جنية فرزقت منها ثلاث أولاد، فاتفق يومًا أني أغضبتها، فضربتني بعظم حصلت منه هذه الشجة، وانصرفت، فلم أرها بعد). وعلق الذهبي رحمه الله على تكذيب العز بن عبد السلام للشيخ ابن عربي بقوله: (وما عندي من محيي الدين تعمد كذبًا؛ لكن أثرت فيه الخلوات والجوع فسادًا وخيالًا وطرف جنون) والغرض من ذكر هذه الفائدة إنما هو تذكير القراء بأن العلماء يستنكرون أشد الاستنكار إمكانية التزاوج بين الإنس والجن؛ لاختلاف طبيعة خلقهما، حتى اتهموا من ادعى ذلك بالكذب أو بنوع من الجنون، وأحلاهما مر، فما نسمعه في هذا الزمان من أن بعض النسوة يشعرن وهن في فراش الزوجية بالمجامعة ممن لا يرينه، إن هو إلا من وسوسة الشيطان، وتلاعبه ببني الإنسان، ويستغل ذلك بعض أولئك الذين يتعاطون مهنة استخراج الجني من الإنسي، ويرتكبون في أثناء ذلك أمورًا - غير تلاوة القرآن والمعوذات - مما هو غير واردٍ في السنة، مثل: مكالمة الجني وسؤاله عن بعض الأمور الخفية، وعن دينهم ومذهبهم! وتصديقهم في كل ما يخبرون به! وهم من عالم الغيب، لا يمكن للإنس أن يعرفوا مؤمنهم من كافرهم، والصادق من الكاذب منهم، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد حرم إتيان الكهان وتصديقهم؛ لأنهم ممن يوالون الجن، وهؤلاء كانوا يسترقون السمع ويلقون إلى أوليائهم من الإنس ما استرقوا ويخلطون معه أكثر من مئة كذبة؛ كما في الصحيح.

أقول: إذا كان إتيان هؤلاء محرمًا؛ فبالأولى أن يكون محرمًا إتيان أوليائهم من الإنس الذين يخاطبون الجن مباشرة ويستخدمونهم، ويقضون لهم بعض مصالحهم، ليضلوهم عن سبيل الله؛ كما كان الأمر في الجاهلية، وذلك قوله تعالى: {وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا}.

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٩/ ١٦٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٦٥٣، رقم

=

منكر كما في الحاشية.

من المعلوم أن الزواج من أعظم مسائل الحياة التي تقوم عليه دينًا ودنيا، ولهذا اعتنى به الإسلام أيما عناية، وفصَّل مسائله أيما تفصيل وما يرتبط به من أحكام كثيرة وعظيمة، يُعلم هذا من الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، ولقد امتن الله تعالى علينا بأن خلق الأنثى من ذات جنسنا، فكانت بشرا حتى يحصل سكن الرجل إليها، ويحصل بينهما مودة ورحمة، وحتى يتم إعمار الأرض بالذرية.

قال تعالى: (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) النحل/ من الآية ٧٢.

وقال تعالى: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) الروم/ ٢١.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:قوله تعالى: (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) الآية، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه امتن على بني آدم أعظم منة، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجا، من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكورا وإناثا، وجعل الإناث أزواجا للذكور، وهذا من أعظم المنن، كما أنه من أعظم الآيات

=

١٠٩٦)، وابن عدي (١/ ١٧٧)، والثعلبي في عرائس المجالس (٢٧٨) والحديث ضعفه ابن القيسرانس في الذخيرة (١/ ٢٤٥)، وعده الذهبي في ترجمة سعيد بن بشير من مناكيره كما في الميزان (٢/ ١٢٩)، وضعفه ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٢٠)، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (١٨١٨)، وقال في الضعيفة (٥٧٧٨): منكر.

الدالة على أنه جل وعلا هو المستحق أن يعبد وحده.

وأوضح في غير هذا الموضع أن هذه نعمة عظيمة، وأنها من آياته جل وعلا، كقوله: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)، وقوله (أيحسب الأنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى)، وقوله تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها)." أضواء البيان " (٢/ ٤١٢).

وأما حكم التزاوج والنكاح بين الجن والإنس

فقد اختلف العلماء فيه إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: التحريم، وهو قول الإمام أحمد.

والقول الثاني: الكراهة، وممن كرهه الإمام مالك، وكذا كرهه الحكم بن عتيبة، وقتادة، والحسن، وعقبة الأصم، والحجاج بن أرطاة، وإسحاق بن راهويه - وقد يكون معنى " الكراهة " عند بعضهم: التحريم - وهو قول أكثر أهل العلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٩/ ٤٠): وكره أكثر العلماء مناكحة الجن.

والقول الثالث: الإباحة، وهو قول لبعض الشافعية، واختيار العلامة الوادعي فقد سئل كما في تحفة المجيب (ص٣٧٢): هل بجوز للرجل المسلم أن يتزوج بجنية مسلمة والعكس؟

فأجاب: اختلف العلماء كما في كتاب "حياة الحيوان" للدميري، والذي يظهر هو الجواز، وأما قوله تعالى: {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا

لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمةً﴾، فهذا امتنان أعظم وهو أن يتزوج الإنسي بإنسية والجني بجنية، لكن لو تزوج الإنسي بجنية فليس لدينا ما يمنع، أو إنسية تزوجت بجني فليس لدينا كذلك ما يمنع من الشرع، لكن كره الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أن تخرج المرأة حاملًا فيقال: من أين حملت؟ فيقال: إنّها متزوجة من الجن، وأقول: ربما يكون هذا فتح باب للزنا والفجور.اهـ.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:اختلف العلماء في جواز المناكحة بين بني آدم والجن فمنعها جماعة من أهل العلم، وأباحها بعضهم.

قال المناوي في شرح الجامع الصغير: ففي الفتاوى السراجية للحنفية لا تجوز المناكحة بين الإنس والجن وإنسان الماء لاختلاف الجنس، وفي فتاوى البارزي من الشافعية: لا يجوز التناكح بينهما، ورجح ابن العماد جوازه.

وقال الماوردي: وهذا مستنكر للعقول؛ لتباين الجنسين، واختلاف الطبعين، إذ الآدمي جسماني، والجني روحاني، وهذا من صلصال كالفخار، وذلك من مارج من نار، والامتزاج مع هذا التباين مدفوع، والتناسل مع هذا الاختلاف ممنوع. اهـ.

وقال ابن العربي المالكي: نكاحهم جائز عقلا، فإن صح نقلا فبها ونعمت.

قال مقيده عفا الله عنه -أي الشنقيطي-: لا أعلم في كتاب الله ولا في سنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصا يدل على جواز مناكحة الإنس الجن، بل الذي يستروح من ظواهر الآيات عدم جوازه، فقوله في هذه الآية الكريمة: (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) النحل/ ٧٢ ممتنا على بني آدم بأن أزواجهم من نوعهم وجنسهم: يفهم منه أنه ما جعل لهم أزواجا تباينهم كمباينة الإنس والجن، وهو ظاهر، ويؤيده قوله تعالى: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها

وجعل بينكم مودة ورحمة) الروم/ ٢١.

فقوله: (أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) في معرض الامتنان: يدل على أنه ما خلق لهم أزواجا من غير أنفسهم.اهـ. من أضواء البيان " (٣/ ٤٣).

وقال الشيخ ولي زار بن شاهز الدين - حفظه الله -:

أما القضية من حيث الواقع: فالكل قد جوز وقوعها، وحيث إن النصوص ليست قاطعة في ذلك - جوازا أو منعا -: فإننا نميل إلى عدم الجواز شرعا؛ لما يترتب على جوازه من المخاطر التي تتمثل في:

١- وقوع الفواحش بين بني البشر، ونسبة ذلك إلى عالم الجن، إذ هو غيب لا يمكن التحقق من صدقه، والإسلام حريص على حفظ الأعراض وصيانتها ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، كما هو مقرر في الشريعة الإسلامية.

٢- ما يترتب على التناكح بينهما من الذرية والحياة الزوجية - الأبناء لمن يكون نسبهم؟ وكيف تكون خلقتهم؟ وهل تلزم الزوجة من الجن بعدم التشكل؟ - ...

٣- إن التعامل مع الجن على هذا النحو لا يسلم فيه عالم الإنس من الأذى، والإسلام حريص على سلامة البشر وصيانتهم من الأذى.

وبهذا نخلص إلى أن فتح الباب سيجر إلى مشكلات لا نهاية لها -، وتستعصي على الحل -، أضف إلى ذلك أن الأضرار المترتبة على ذلك يقينية في النفس والعقل والعرض -، وذلك من أهم ما يحرص الإسلام على صيانته، كما أن جواز التناكح بينهما لا يأتي بأية فائدة، ولذلك فنحن نميل إلى منع ذلك شرعا، وإن كان الوقوع محتملا، وإذا حدث ذلك، أو ظهرت إحدى المشكلات من هذا الطراز: فيمكن اعتبارها حالة مرضية تعالج بقدرها، ولا يفتح الباب في

ذلك. الجن في القرآن والسنة (ص ٢٠٦).

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٨/ ٦٥): هل زواج المسلم صحيح العقيدة الواعي بدينه، هل زواجه من إحدى فتيات الجن، هل هذا ممكن يحدث؟ وإن كان ممكن حدوثه هل هذا حلال أم حرام أم مكروه؟

فأجاب: رحم الله البخاري لما سئل عن الخضر أحي هو أم ميت؟ قال: من أحالك على غائب فما أنصفك، وماذا نعلم الجن ما الجن؟ ورجل يتزوج من امرأة جنية، ماذا سيكون حال النسل إنس أو جن أو إذا غلب ماؤها .. هذا يذكرنا بترجمة محيي الدين بن عربي النكرة في كتاب «الميزان» للإمام الذهبي، بعد ما ترجمه بما كان عليه من الانحراف في تصوفه، يقول: كان يقول بعدم إمكانية تزاوج الإنس مع الجن، قال: فرئي يومًا وقد عصب جبينه، فلما سئل عن ذلك قال: اختلفت أنا وزوجتي الجنية فضربتني بالقبقاب في رأسي فَفَجَّتْني، فهذه العصابة لأن زوجته الجنية ضربته، فاعتبر ذلك الإمام الذهبي غمزًا في صدقه، وأنت كنت تقول قبل أيام أن هذا لا يمكن، خلق من طين وخلق من نار، فما بالك الآن تقول: أن زوجتك الجنية ضربتك بالقبقاب، الله أعلم عن القبقاب.اهـ.

وسئل العلامة الألباني أيضا كما في موسوعة العلامة الألباني (٨/ ٧٥): ما علاقة الإنس بالجن؟ هل يمكن للإنسي أن يتزوج جنيةً أو يرى جنيًّا أو يلبس جني إنسيًّا؟

فأجاب: يمكن أن يكون هناك علاقة ما بين إنسي وجني، وليس يهمنا هل هذا من الممكن واقعًا أو لا، إنما المهم هل هذه العلاقة إن كانت ممكنة يجوز للمسلم أن يحققها، هذا هو المهم، نحن مثلًا: لا يزال بعض الناس يشكون في

وصول الكفار اليوم إلى القمر بالذات، إلى غيره من الكواكب، نحن لا يهمنا هذا ممكن أو غير ممكن، لكن نقول: هل هذا يجوز شرعًا أم لا؟ نقول: إذا وقع جاز، هذا المثال الأخير الذي أنا آتي به.

أما ما جاء من اتصال الإنس بالجن إن وقع فلا يجوز، هذا هو المهم أن نعرف الحكم الشرعي؛ لأن الله ﷻ يقول: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} (الجن:٦) وجاء في صحيح البخاري وغيره أن الكهان في الجاهلية كانوا لهم قرناء من الجن، وأن القرين من الجن كان يصعد إلى السماء ويسترق السمع مما يجري هناك بين الملائكة فيختطف الكلمة وينزل بها فيقرها ويلقيها في أذن قرينه من الإنس لكنه يكون قد زاد فيها تسعة وتسعين كذبة، فيحدث هذا القرين الإنسي بني جنسه من البشر بمائة خبر أوحى ذلك إليه قرينه من الجن خبرًا واحدًا صحيحًا؛ لأنه سمعه من الملائكة، وبقية المائة كله كذب، فيصدق في الخبر الواحد ويكذب في سائر الأخبار.

كان هذا الاتصال بين الإنس والجن سبب استغلال الإنس من هذا القبيل من الإنس بالجن، وهذا كما يقال يعيد التاريخ نفسه في هذا الزمن، فلا بد أنكم قرأتم في الجرائد والمجلات وخاصة مجلة المسلمون أخيرًا حيث تابعت هذا الموضوع بشيء من السعة والفائدة فالشاهد: نعتقد يمكن - أخيرًا أقول -: أن يتصل الإنسي بالجني، لكن هذا لا يعني جواز ذلك، كما أنه يمكن لرجل مسلم أن يتصل بالمرأة الكافرة، لكن هل يجوز شرعًا؟ طبعًا لا يجوز شرعًا ..... فالشاهد الذي يهم من هذا السؤال: هو أن نعرف أن الاتصال وتعلق الإنس بالجن ممكن بالنظر إلى الآية والحديث وبعض الحوادث التاريخية، لكن ذلك لا يجوز إسلاميًا لما فيه من استغلال اتصالهم بالجن للإنس والانحراف بهم

عن جادة الشرع.

ختامًا أقول من أجل ما سبق: قال الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-: «من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد».اهـ.

مسألة: هل يحصل التوالد بين المتناكحين من الجن والإنس

هذه المسألة من المسائل المختلف فيها وأشهر أقوال العلماء فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: حصول التوالد بين الجن والإنس، قال شيخ الإسلام بن تيمية كما في "مجموع الرسائل المنيرية" ص (١٢٥): وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد، وهذا كثير معروف" وأصحاب هذا القول لا أعلم لهم دليلا نقليًا ولا عقليا يدل على هذا، وإنما يستدلون بقصص وحكايات يتداولها الناس، قلما يصح منها شيء وأيضا لو صحت القصة بإفادة التوالد بين الإنس والجن يبقى صعوبة إثبات التوالد المذكور كما سيأتي.

القول الثاني: عدم حصول التوالد بينهما، قال الماوردي: القول بأن أم بلقيس جنية مستنكر من العقول لتباين الجنسين واختلاف الطبعين وتفارق الحسين، لأن الآدمي جسماني والجن روحاني وخلق الله الآدمي من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار، ويمتنع الامتزاج مع هذا التباين ويستحيل التناسل مع هذه الاختلاف" حكاه القرطبي في تفسيره (١٣/ ٢١٣) وذكر الذهبي في الميزان قصة وفيها أن ابن عربي الطائي تزوج جنية ورزق منها ثلاثة أولاد، فأنكر عليه ذلك أبو محمد عبد السلام السلمي والذهبي.

وقال ابن عطية في تفسيره (٩/ ١٣٨): وما أدخل النقاش من وطء الجن وأنه يحبل المرأة من الإنس فضعيف كله.

قال السيوطي في "الأشباه والنظائر" ص (٢٥٧) وهو يتحدث عن موانع النكاح بين الجن والإنس: ومنها: أنه قد منع من نكاح الحر للأمة لما يحصل للولد من الضرر بالارقاق ولا شك أن الضرر بكونه من جنية وفيه شائبة من الجن خلقًا وخلقًا وله بهم اتصال ومخالطة أشد من ضرر الإرقاق الذي هو مرجو الزوال بكثير، فإذا منع من نكاح الأمة مع الاتحاد في الجنس للاختلاف في النوع فلأن يمنع من نكاح ما ليس من الجنس من باب أولى، وهذا تخريج قوي لم أر من تنبه له"

واستدل السيوطي أيضًا على منع التناكح بين الجن والإنس بحديث: "نهى رسول الله عن إنزاء الحمر على الخيل" وهو حديث صحيح عن علي وغيره قال السيوطي: ويقويه أيضا أنه نهى عن إنزاء الحمر على الخيل، وعلة ذلك اختلاف الجنس، وكون المتولد منها يخرج عن جنس الخيل، فيلزم منه قلتها ... وإذا تقرر المنع فالمنع من نكاح الجني الإنسية أولى وأحرى" الأشباه والنظائر ص (٢٥٧)

وقال الآلوسي في "روح المعاني" (١٩/ ١٨٩): ثم ليت شعري إذا حملت الجنية من الإنسي هل تبقى على لطافتها فلا ترى والحمل على كثافته فيرى أو يكون الحمل لطيفا مثلها فلا يريان، فإذا تم أمره تكثف وظهر كسائر بني آدم أو تكون متشكلة بشكل نساء بني آدم ما دام الحمل في بطنها وهو فيه يتغذى وينمو بما يصل إليه من غذائها وكل من الشقوق لا يخلو عن استبعاد كما لا يخفى.

وقال العلامة الألباني في السلسلة الضعيفة (١٢/ ٦٠٨): أين الدليل الشرعي والعقلي على التوالد أولا وعلى التزاوج الشرعي ثانيًا".

القول الثالث: التفصيل، فمنهم من قال: يقع التوالد إذا نكح الإنسي جنية،

ولا يقع إذا نكح الجني إنسية، ومنهم من فصل تفصيلا آخر ألا وهو: إن كانت الجنية ثقيلة تستطيع أن تحمل من الإنسي، وإن كانت خفيفة فلا تستطيع أن تحمل منه، وقالوا: إن نكح الجني إنسية فنطفته عبارة عن ريح، وشغب بعض الكتاب فقال: ولا أحد يرى إبن الإنسي من الجنية إلا أبوه.

والراجح أن الإنسي إذا نكح جنية لا يتأتى له منها أولاد لأنها تتشكل له بصورة إنسية حتى يقضي غرضه منها ثم تعود إلى أصل خلقتها، فهذا مانع من أن تحمل منه، وإذا قال فلان الإنسي: نكحت جنية وصار لي منها أولاد فهذا على حسب ما تخبره هي وتصور له ذلك، فإن كان معها أولاد كما تدعي فهم من الجن يتشكلون كأولاد الإنس وهي تكذب عليه أنهم أولاده، وتستطيع أن تظهر له أولادًا يتشكلون بصورته وهيئته حتى يظن أنهم منه وهم من الجن وقد تكون كاذبة فلا يكون معها أولاد أو تظهر له أولادًا لجن آخرين تدعي أنهم منه.

وإذا نكح الجني إنسية فلا تحمل منه لأنه يجامعها على غير خلقته التي يتوالدون منها، فإنه في حال الجماع يتصور بصورة الإنسي والطبيعة مختلفة.اهـ.

وقال الشيخ مشهور في "فتح المنان في جمع كلام شيخ الإسلام على الجان" (١/ ٤٢٥): وقد نقل جماهير الفقهاء حرمة نكاح الجنية".اهـ.

مسألة: هل على المرأة غسل إذا جامعها الجني؟

وإحساس المرأة بأنها تجامع من قبل جني يأتي على ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن تحس بذلك في نومها فلا يجب عليها الغسل إلا إذا رأت منيا، وقد لا يكون هناك وطء حقيقي من جني بل مجرد رؤيا منامية، وأما التعب الذي تشعر به بعد الاستيقاظ فقد يكون نتيجة توتر أعصابها حال رؤيتها.

الحالة الثانية: أن يتمثل لها الجني في صورة إنسي في اليقظة ويطؤها فعليها

الغسل لحصول الوطء.

الحالة الثالثة: أن تشعر بوطء في اليقظة ولكنها لا ترى الواطئ متمثلا لها بصورة آدمي، فعليها الغسل إذا رأت منيا، أما إذا لم تره وإنما شعرت بأنها تجامع كما تجامع من قبل الإنسي فقد اختلف العلماء في ذلك هل يلزمها الغسل أم لا؟ على قولين:

الأول: وجوب الغسل، وإليه ذهب الجمهور على تفصيل بينهم خلافا للحنفية، قال المرداوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الإنصاف وهو من الحنابلة: لو قالت امرأة: لي جني يجامعني كالرجل، فقال أبو المعالي: لا غسل عليها لعدم الإيلاج والاحتلام، قال في الفروع: وفيه نظر، وقد قال ابن الجوزي في قوله تعالى: {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان: فيه دليل على أن الجني يغشى المرأة كالإنس. انتهى. قلت: الصواب وجوب الغسل، واستوجهه العلامة ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التحفة وهو من الشافعية، فقد قال وهو يبين وجوب الغسل بالوطء: وجنية إن تحقق - الوطء - كعكسه على الأوجه فيهما ، وإن كان ناسيا أو مكرها. .. اهـ. وهو القول المحقق عند المالكية فقد قال العلامة الدسوقي في حاشيته على الشرح الكبير للدردير: ولو رأت امرأة في اليقظة من جني ما تراه من إنسي من الوطء واللذة، أو رأى الرجل في اليقظة أنه جامع جنية قال ابن ناجي: الظاهر أنه لا غسل على الرجل ولا على المرأة ما لم يحصل إنزال. وقال الحطاب: الظاهر أنه لا غسل عليهما ما لم يحصل إنزال أو شك فيه؛ لأن الشك في الإنزال يوجب الغسل. واعترضه البدر القرافي بأن الموافق لمذهب أهل السنة من أن الجن لهم حقيقة وأنهم أجسام نارية لهم قوة التشكل، ولقول مالك بجواز نكاح الجن وجوب الغسل على كل من الرجل والمرأة وإن لم يحصل

الإنزال ولا شك فيه، ووافقه على ذلك تلميذه عج قال شيخنا - العدوي - وهو التحقيق. اهـ. بتصرف يسير.

وذهب الحنفية إلى أنه لا غسل عليها إلا إذا تمثل لها بصورة آدمي أو حصل نزول مني لأنه لا يجب الغسل عندهم بالإيلاج إلا إذا كان من آدمي في آدمي أو في غير آدمي وحصل إنزال، قال ابن عابدين نقلا عن المحيط: لو قالت: معي جني يأتيني مرارا وأجد ما أجد إذا جامعني زوجي لا غسل عليها لانعدام سببه، وهو الإيلاج أو الاحتلام.

وقال الحصكفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدر المختار: إيلاج حشفة ... آدمي احتراز عن الجني، يعني إذا لم تنزل وإذا لم يظهر لها في صورة الآدمي؛ كما في البحر.

وقال السيوطي من الشافعية: لو وطئ الجني الإنسية فهل يجب عليها الغسل؟ لم يذكر ذلك أصحابنا، وعن بعض الحنفية والحنابلة أنه لا غسل عليها؛ لعدم تحقق الإيلاج والإنزال فهو كالمنام بغير إنزال، قال السيوطي: وهو الجاري على قواعدنا، وذهب الحنابلة إلى وجوب الغسل على المرأة لو قالت: بي جني يجامعني كالرجل، وكذا الرجل لو قال: بي جنية أجامعها كالمرأة[١].

(باب أعمار الجن)

عن ابن عمر عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال (بيما أنا مع رسول الله ﷺ على جبل من جبال تهامة إذ أقبل رجل فقال رسول الله ﷺ مشية الجن نغمة الجن فجاء حتى سلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ من أنت فقال أنا الهام بن الهيم بن لاقس بن إبليس قال بينك وبين إبليس أبوان قال نعم قال كم أتى عليك من

(١) حاشية ابن عابدين ١/ ١٠٩، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ١/ ١٢٨، الأشباه والنظائر للسيوطي ٢٥٨، كشاف القناع ١/ ١٤٤.

السنين قال أفنيت عن الدنيا إلا قليلا قال كم قال كنت في زمن قابيل حين قتل هابيل قال كنت أنا غلام ابن أعوام أدخل الآجام وأعلوا الآكام وآمر بإفساد الطعام وقطيعة الأرحام فقال رسول الله ﷺ بئس عمل الشباب المتلوم والشيخ المتوسم، ثم ذكر حديثا طويلا)[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال (كان رسول الله ﷺ في دار الأرقم مختفيا في أربعين رجلا وبضع عشرة امرأة، فدق الباب، فقال: "افتحوا، إنها لنغمة شيطان"، قال: ففتح الباب فدخل رجل قصير، فقال: السلام عليك يا نبي الله، ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك السلام ورحمة الله، من أنت؟ قال: أنا هامة بن الهيم بن لاقيس بن إبليس فذكره" مختصرا)[٢].

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: (كنت مع رسول الله ﷺ خارجا من جبال مكة، إذ أقبل شيخ يتوكأ على عكازة، فقال النبي ﷺ مشية جني ونغمته؟ قال: أجل؛ فقال النبي ﷺ من أي الجن؟ قال: أنا هامة بن الهيم أو ابن هيم بن لاقيس بن إبليس. فقال: لا أرى بينك وبينه إلا أبوين قال أجل قال: كم أتى عليك؟ قال: أكلت عمر الدنيا إلا أقلها، كنت ليالي قتل قابيل هابيل غلاما ابن أعوام، فكنت أتشوف على الآكام وأؤرش بين الأنام، فقال رسول الله ﷺ بئس العمل؟ فقال: يا رسول الله، دعني من العتب، فإني ممن آمن بنوح، وتبت على يديه، وإني عاتبته في دعوته، فبكى وأبكاني، وقال: إني والله لمن النادمين، وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين؛ ولقيت هودا، وآمنت به؛ ولقيت إبراهيم

(١) أخرجه ابن حبان في المجروحين (١/ ١٤٧)، وابن الأعرابي في معجمه (٢٠٨٧)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢٦٩)، والشجري في أماليه (١/ ٢٠١)، وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٣٥)، والسلفي في الطيوريات (٦٥١) وهو حديث باطل.

(٢) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٤/ ١٤ - ١٥) وهو حديث باطل.

وكنت معه في النار إذ ألقي فيها؛ وكنت مع يوسف إذ ألقي في الجب، فسبقته إلى قعره؛ ولقيت شعيبا وموسى، ولقيت عيسى بن مريم، فقال لي: إن لقيت محمدا فاقرأه مني السلام، وقد بلغت رسالته؛ وآمنت بك، فقال النبي ﷺ على عيسى، وعليك السلام، ما حاجتك يا هامة»؟ قال: إن موسى علمني التوراة، وعيسى علمني الإنجيل، فعلمني القرآن فعلمه وفي رواية أنه ﷺ علمه عشر سور من القرآن، وقبض رسول الله ﷺ، ولم ينعه إلينا، فلا نراه - والله أعلم - إلا حيا)[١].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال (إن فى البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان يوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا)[٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهواتف (ص٧٧، رقم ١٠١)، العقيلي في الضعفاء (٤/ ١٢٥٢)، وابن الأثير في أسد الغابة (٥/ ٣٧٩)، وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٣٥) قال العقيلي: وكلا هذين الإسنادين غير ثابت، ولا يرجع منهما إلا صحة، وليس للحديث أصل، وقال ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٣٦): هذا حديث موضوع، لا يشك فيه وذكر أن حديث ابن عمر الحمل فيه على إسحاق بن بشر، وحديث أنس الحمل فيه على محمد بن عبد الله الأنصاري، وكذا أنكره الذهبي في الميزان (٥/ ٤٤) وقال: وهو باطل بالإسنادين، وقال شيخ الإسلام كما في كتاب فوائد حديثية لإبن القيم مخطوطة (ورقة ٢١): حديث هامة بن هيم بن لاقيس بن إبليس وأنه قدم على النبي وأسلم: موضوع، وقال ابن الأثير في أسد الغابة (٥/ ٣٧٩) في ترجمة «الهامة بن الهيم بن لاقيس بن بليس»: أورده جعفر في الصحابة وقال: لا يثبت إسناد خبره، ثم أورد الحديث وقال: أخرجه أبو موسى، وتركه أولى، وإنما أخرجناه اقتداء بهم، لئلا نترك ترجمة، وأورده ابن القيم في المنار المنيف (ص ٦٨) في فصل الأحاديث التي تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه، وذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (١/ ١٧٤)، وابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٢٣٨)، والشوكاني في الفوائد المجموعة (ص ٤٩٨).

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ١٢) بإسناد صحيح.

مسألة أعمار الجن وما إذا كانوا يعيشون آلاف السنين وعشرات الآلاف كما قال بعض العلماء مسألة غيبية لا يصح الجزم فيه بشئ إلا بدليل صحيح، وقد صح وثبت أن إبليس طويل العمر، بوعد الله له: (قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين) [الحجر: ٣٦- ٣٧]، وأما بقية الجن فإن ذلك من الأمور الغيبية التي لا يصح الكلام فيها إلا بدليل من الكتاب والسنة، ولم نقف على شيء من ذلك صحيح، وأما ما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من قوله، فلا حجة فيه، لأنه لعله من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منهما أشياء وغرائب.

وقد سئل علماء اللجنة الدائمة (٢/ ١٨٤): أؤكد لكم أن التلاميذ يلقون علي أسئلة محرجة ولا أجد جوابا مقنعا، فمن ذلك سؤال يقول: هل الجن يموتون كالإنس ويدفنون؟ وهل يشملهم قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين)[1].

---

(١) أخرجه الترمذى (٥/ ٥٥٣، رقم ٣٥٥٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٥، رقم ٤٢٣٦)، والحاكم (٢/ ٤٦٣، رقم ٣٥٩٨)، والبيهقى في الكبرى (٣/ ٣٧٠، رقم ٦٣١٤)، وابن حبان (٧/ ٢٤٦، رقم ٢٩٨٠)، وأبو يعلى (١٠/ ٣٩٠، رقم ٥٩٩٠)، والطبرانى فى الأوسط (٦/ ٨٥، رقم ٥٨٧٢)، وأبو بكر الإسماعيلى فى معجم شيوخه (١/ ٥٠٣، رقم ١٥١)، وأبو الشيخ فى طبقات المحدثين بأصبهان (٤/ ٣٠٤)، والديلمى في مسند الفردوس (١/ ٤١٢، رقم ١٦٦٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث قال عنه الترمذي حسن غريب وصححه ابن حبان والحاكم، ووافقه الذهبي وقال في تاريخ الإسلام (٢٤/ ١٢٧): هذا حديث حسن عال، وحسنه النووي في المنثورات (٢٩٥)، وحسنه الحافظ في الفتح (١١/ ٢٤٠)، وقال العلامة ابن باز في تعليقه على البلوغ (٧٨٠): إسناده حسن، وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٧٥٧) حسن لذاته، صحيح لغيره، وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٣٠١).

فأجابوا: الجن يموتون كالإنس؛ لعموم قوله تعالى: {كل نفس ذائقة الموت} وأما تقدير أعمارهم فالظاهر أنه يعمهم الحديث المذكور؛ لأنهم من جملة الأمة في عموم رسالة محمد ﷺ؛ لعموم قوله: {وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين} {قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم} {يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم} {ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين} وقوله تعالى: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا} {يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} إلخ السورة.اهـ.

وقال الدكتور الأشقر (ص٢٢): لا شك أن الجن - ومنهم الشياطين - يموتون؛ إذ هم داخلون في قوله تعالى: (كلُّ من عليها فانٍ - ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام - فَبِأَيِّ آلاء ربكما تكذبان) [الرحمن: ٢٦- ٢٨]. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: (أعوذ بعزتك، الذي لا إله إلا أنت، الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون).

أما مقدار أعمارهم فلا نعلمها، إلا ما أخبرنا الله عن إبليس اللعين، أنه سيبقى حيًّا إلى أن تقوم الساعة: (قال أنظرني إلى يوم يبعثون - قال إنَّك من المنظرين) [الأعراف: ١٤- ١٥]. أما غيره فلا ندري مقدار أعمارهم، إلا أنهم أطول أعمارًا من الإنس. ومما يدّل على أنهم يموتون أن خالد بن الوليد قتل شيطانة العزى، (الشجرة التي كانت تعبدها العرب)، وأن صحابيًا قتل الجني الذي تمثل بأفعى، كما سيأتي بيانه.

(باب في ذكر القرين)

قال الله تعالى: (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)(ق/ ٢٧- ٢٩) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٢٧): {قال قرينه} قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد وقتادة وغيرهم: هو الشيطان الذي وكل به.اهـ.

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال (إذا كان أحدكم يصلي فلا يدع أحدا يمر بين يديه، فإن أبى فليقاتله، فإن معه القرين)[1].

وعن عبد الله بن مسعود قال (قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، قالوا وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير، وفي رواية:"... وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة)[2].

هناك ما يسمى القرين، وقد جعله الله تعالى مع كل أحد من الناس، وهو الذي يدفع صاحبه للشر والمعصية، باستثناء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الشوكاني في النيل (٣/ ٧): قوله (فإن معه القرين) في القاموس القرين: المقارن والصاحب، والشيطان المقرون بالإنسان لا يفارقه وهو المراد هنا قوله: (فإنما هو شيطان) قال الحافظ: إطلاق الشيطان على المار من الإنس شائع ذائع، وقد جاء في القرآن قوله تعالى: {شياطين الإنس والجن} [الأنعام: ١١٢] وسبب إطلاقه عليه أنه فعل فعل الشيطان

وقيل: معناه إنما حمله على مروره وامتناعه من الرجوع الشيطان. وقال ابن

---

(١) أخرجه مسلم (٥٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٤).

بطال: في هذا الحديث جواز إطلاق لفظ الشيطان على من يفتن في الدين. قال الحافظ: وهو مبني على أن لفظ الشيطان يطلق حقيقة على الإنسي ومجازا على الجني، وفيه بحث. وقيل: المراد بالشيطان القرين كما في الحديث الأول. وقد استنبط ابن أبي جمرة من قوله: "فإنما هو شيطان " أن المراد بالمقاتلة: المدافعة اللطيفة لا حقيقة القتال؛ لأن مقاتلة الشيطان إما هي بالاستعاذة والتستر عنه بالتسمية ونحوها، قال: وهل المقاتلة لخلل يقع في صلاة المصلي من المرور أو لدفع الإثم عن المار؟ الظاهر الثاني اهـ. قال الحافظ: وقال غيره: بل الأول أظهر؛ لأن إقبال المصلي على صلاته أولى من اشتغاله بدفع الإثم عن غيره. وقد روى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود أن المرور بين يدي المصلي يقطع نصف صلاته، وروى أبو نعيم عن عمر: "لو يعلم المصلي ما ينقص من صلاته بالمرور بين يديه ما صلى إلا إلى شيء يستره من الناس". قال: فهذان الأثران مقتضاهما أن الدفع لخلل يتعلق بصلاة المصلي ولا يختص بالمار وهما وإن كانا موقوفين لفظا فحكمهما حكم الرفع؛ لأن مثلهما لا يقال بالرأي[1].اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١٧/ ٤٢٧): ما هو القرين؟ وهل يرافق الميت في قبره؟

فأجاب: القرين هو الشيطان مسلط على الإنسان بإذن الله ﷻ، يأمره بالفحشاء وينهاه عن المعروف، كما قال ﷻ: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.

ولكن إذا منّ الله سبحانه وتعالى على العبد بقلب سليم، صادق متجه إلى

---

(١) قال الصنعاني في السبل (٢/ ٥): ولو قيل: إنه لهما معا لما بعد، فيكون لدفع الإثم عن المار الذي أفاده حديث "لو يعلم المار" ولصيانة الصلاة عن النقصان من أجرها.

الله ﷻ، مريد للآخرة، مؤثر الله على الدنيا فإن الله تعالى يعينه على هذا القرين حتى يعجز عن إغوائه.

ولذلك ينبغي للإنسان كلما نزغه من الشيطان نزع أن يستعذ بالله من الشيطان الرجيم، كما أمر الله، حيث قال تعالى: {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} . والمراد بنزغ الشيطان أن يأمرك بترك الطاعة، ويأمرك بفعل المعصية.

فإذا أحسست من نفسك الميل إلى ترك الطاعة، فذلك من الشيطان، أو الميل إلى فعل المعصية فهذا من الشيطان، فبادر بالاستعاذة بالله منه يعيذك الله ﷻ منه، وأما كون هذا القرين يمتد بأن يكون مع الإنسان في قبره، فلا، فالظاهر والله أعلم بمجرد أن يموت الإنسان يفارقه؛ لأن مهمته التي كان مسخرًا لها قد انتهت: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".اهـ.

مسألة : هل يمكن أن يسلم القرين

ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم برقم (٢٧١٤) عن عبد الله بن مسعود قال (قال رسول الله ﷺ: ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير. وفي رواية:"... وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ") وقد وقع الخلاف في معنى قوله (فأسلم) في هذا الحديث، وذكر هذا الخلاف والترجيح فيه النووي في شرح هذا الحديث فقال: (قوله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، قالوا: وإياك؟ قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير)(فأسلم) برفع الميم وفتحها، وهما روايتان

مشهورتان فمن رفع قال: معناه: أسلم أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: إن القرين أسلم، من الإسلام وصار مؤمنا لا يأمرني إلا بخير، واختلفوا في الأرجح منهما فقال الخطابي: الصحيح المختار الرفع ، ورجح القاضي عياض ، الفتح وهو المختار ، لقوله: "فلا يأمرني إلا بخير"، واختلفوا على رواية الفتح، قيل: أسلم بمعنى استسلم وانقاد، وقد جاء هكذا في غير صحيح مسلم (فاستسلم) وقيل: معناه صار مسلما مؤمنا، وهذا هو الظاهر).

وقال أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة (١/ ١٨٥): قيل أسلم أي آمن، فيكون عليه السلام مختصا بإسلام قرينه وإيمانه)، وعلى هذا يكون إسلام القرين من خصائص النبي ﷺ.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في منهاج السنة (٨/ ٢٧١): والمراد في أصح القولين استسلم وانقاد لي ومن قال حتى أسلم أنا فقد حرف معناه ومن قال الشيطان صار مؤمنا فقد حرف لفظه.اهـ.

وقال في مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٢٣):أي استسلم وانقاد، وكان ابن عيينة يرويه فأسلم بالضم ويقول: إن الشيطان لا يسلم لكن قوله في الرواية الأخرى: فلا يأمرني إلا بخير دل على أنه لم يبق يأمره بالشر وهذا إسلامه وإن كان ذلك كناية عن خضوعه وذلته لا عن إيمانه بالله كما يقهر الرجل عدوه الظاهر ويأسره وقد عرف العدو المقهور أن ذلك القاهر يعرف ما يشير به عليه من الشر. فلا يقبله بل يعاقبه على ذلك فيحتاج لانقهاره معه إلى أنه لا يشير عليه إلا بخير لذلته وعجزه لا لصلاحه ودينه؛ ولهذا قال ﷺ {إلا أن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير} .اهـ.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٨/ ٨٧): كيف

أسلم شيطان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كيف أسلم وهو ملعون؟

فأجاب: أولًا يجب أن نعلم أن الله ﷻ لما خلق الإنس والجن، ما خلقهم جميعًا شياطين كفارًا عصاةً، وإنما خلقهم على الفطرة، فكما أنه يوجد في الإنس صالحون وطالحون، فيهم من لَقَّبَهُم رب العالمين بأنهم شياطين، كذلك الجن، ولا فرق أبدًا من هذه الحيثية يوجد فيهم الصالح والطالح وهذا مذكور صراحةً في سورة الجن، وعلى لسان الجن، {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} [الجن:١١]، فكما يوجد في الإنس صالح وطالح، فكذلك يوجد في الجن صالح وطالح، فمن أسلم من الجن فهو صالح ومن لم يسلم فهو كافر أو فاسق على الأقل، ولذلك فلا إشكال على إحدى الروايتين، في قوله عليه السلام «ولكن الله أعانني عليه فأسلم»، لا إشكال في هذا؛ لأن الجن ليس كلهم كفار منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك، فإذًا حديثه [فأسلم] يشير إلى هذه الحقيقة أن من الجن الصالح ومنهم الطالح، ونحن نعلم جميعًا أن إبليس كان بصريح القرآن {إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} (الكهف:٥٠)، فمن كان من ذريته يفسق أيضًا ويخرج عن أمر ربه فهو مثله، ومن أسلم وأطاع ربه فهو جني مسلم فلا فرق إذًا بين الإنس والجن من حيث أن فيهم المؤمن والكافر، فيهم المؤمن الصالح، وفيهم المؤمن الطالح هذا جواب ما سألت وهو واضح، إن شاء الله تعالى.

مسألة: هل يشرع الدعاء بإسلام قرين الإنسان من الشياطين

لا يشرع للمسلم أن يدعو الله بإسلام قرينه؛ لأن هذا اعتداء في الدعاء بسؤال الله ما هو من خصائصه ﷺ -وهذا إن رجحنا القول بإسلام قرين النبي ﷺ، ولأن الصحابة وهم أحرص الناس على الخير وأقرب إليه منا لم ينقل عنهم

الدعاء والتوجه لله حتى يسلم قرناؤهم من الجن، ولا استعانوا بدعاء الرسول ﷺ لما سمعوا منه ذلك الحديث، فهذا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وهم من هم من علو الهمة لم ينقل عنهم أنهم فعلوا ذلك ولا أبناؤهم ونحن يجب علينا اتباع هدي هؤلاء الصحابة الكرام لأنهم فهموا هذا الدين من مصدره وتعلموه مباشرة من رسول الله ﷺ غضا طريا، ولا يجوز لنا اتباع غير سبيلهم قال تعالى: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) النساء / ١١٥.

والحديث ورد في سياق تحذير الصحابة من فتنة القرين، قال النووي: (وفي هذا الحديث: إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه، فأعلمنا بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان)، وهذا هو الواجب شرعا.

(باب مس الجن للإنس)

عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال (شكوت إلى رسول الله ﷺ نسيان القرآن، فضرب صدري بيده فقال: يا شيطان اخرج من صدر عثمان! فعل ذلك ثلاث مرات، قال عثمان: فما نسيت منه شيئا بعد أحببت أن أذكره)[1].

---

(١) قال العلامة الألباني في الصحيحة (٢٩١٨): هو من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه، وله عنه طرق أربعة:
الأولى: عن عبد الأعلى: حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي عن عبد الله بن الحكم عن عثمان بن بشر قال: سمعت عثمان بن أبي العاص يقول: شكوت إلى رسول الله ﷺ نسيان القرآن، فضرب صدري بيده فقال: فذكره. قال عثمان: "فما نسيت منه شيئا بعد، أحببت أن أذكره". أخرجه الطبراني في " المعجم الكبير " (٩/ ٣٧ / ٨٣٤٧) وقال الهيثمي في " المجمع " (٩/ ٣): "رواه الطبراني وفيه عثمان بن بشر، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات". فأقول: بلى هو معروف، فقد ترجمه البخاري في " التاريخ "، وابن أبي حاتم، وروى عن ابن معين أنه قال: "عثمان بن بشر الثقفي - ثقة". وبقية رجال الإسناد
=

قال العلامة الألباني في الصحيحة (٢٩١٨) تحت حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدم: وفي الحديث دلالة صريحة على أن الشيطان قد يتلبس

=

ثقات رجال مسلم على ضعف يسير في الطائفي، وغير عبد الله بن الحكم، والظاهر أنه البلوي المترجم في " التاريخ "، و"ثقات ابن حبان " (٧/ ٣٠)، فإنه من هذه الطبقة، فالإسناد حسن. ولعبد الله الطائفي هذا إسناد آخر أصح من هذا، وهو الطريق: الثانية: يرويه معتمر بن سليمان قال: سمعت عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي يحدث عن عمه عمرو بن أويس عن عثمان بن أبي العاص قال: استعملني رسول الله ﷺ وأنا أصغر الستة الذين وفدوا عليه من ثقيف، وذلك أني كنت قرأت سورة * (البقرة) *، فقلت: يا رسول الله! إن القرآن ينفلت مني، فوضع يده على صدري وقال: "يا شيطان! اخرج من صدر عثمان". فما نسيت شيئا أريد حفظه. أخرجه البيهقي في " دلائل النبوة " (٥/ ٣٠٨). وإسناده صحيح. الثالثة: يرويه الحسن عنه، قال: شكوت إلى النبي ﷺ سوء حفظي للقرآن، فقال: "ذاك شيطان يقال له: (خنزب)، ادن مني يا عثمان!". ثم وضع يده على صدري، فوجدت بردها بين كتفي، ثم قال: (فذكره). فما سمعت بعد ذلك شيئا إلا حفظته. أخرجه أبو نعيم في " الدلائل " (ص ٤٠٠ - ٤٠١)، وكذا البيهقي من طريق عثمان بن عبد الوهاب الثقفي: حدثنا أبي عن يونس وعنبسة عنه. قلت: وهذا إسناد صحيح لولا عنعنة (الحسن)، وهو البصري، فإنه كان يدلس، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير عثمان بن عبد الوهاب، وثقه ابن حبان (٨/ ٤٥٣). وأصل الحديث في " صحيح مسلم " بلفظ آخر، وهو في " صفة الصلاة".

الرابعة: يرويه عيينة بن عبد الرحمن: حدثني أبي عن عثمان بن أبي العاص قال: لما استعملني رسول الله ﷺ على الطائف، جعل يعرض لي شيء في صلاتي، حتى ما أدري ما أصلي! فلما رأيت ذلك رحلت إلى رسول الله ﷺ، فقال: "ابن العاص؟". قلت: نعم يا رسول الله! قال: "ما جاء بك؟". قلت: يا رسول الله! عرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أصلي! قال: "ذاك الشيطان، ادنه". فدنوت منه، فجلست على صدور قدمي، قال: فضرب صدري بيده، وتفل في فمي وقال: "اخرج عدو الله!". ففعل ذلك ثلاث مرات، ثم قال: "الحق بعملك". أخرجه ابن ماجه (٣٥٤٨) والروياني في " مسنده " (ق ١٤٨/ ١ - ٢) كلاهما بإسناد واحد عنه. وهو إسناد صحيح.

الإنسان ويدخل فيه ولو كان مؤمنًا صالحا، وفي ذلك أحاديث كثيرة، وقد كنت خرجت أحدها فيما تقدم برقم (٤٨٥) من حديث يعلى بن مرة قال: "سافرت مع رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فرأيت منه شيئاً عجبًا .. " وفيه: "وأتته امرأة فقالت: إن ابني هذا به لمم منذ سبع سنين، يأخذه كل يوم مرتين، فقال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: "أدنيه"، فأدنته منه، فتفل في فيه، وقال: اخرج عدو الله! أنا رسول الله". رواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وهو منقطع. ثم خرجته من طرق أخرى عن يعلى، جود المنذري أحدها! ثم ختمت التخريج بقولي: "وبالجملة فالحديث بهذه المتابعات جيد[1]. والله أعلم".

ثم وقفت على كتاب عجيب من غرائب ما طبع في العصر الحاضر بعنوان (طليعة " استحالة دخول الجان بدن الإنسان")! لمؤلفه (أبو عبد الرحمن إيهاب بن حسين الأثري) -كذا الأثري موضة العصر! - وهذا العنوان وحده يغني القارئ اللبيب عن الاطلاع على ما في الكتاب من الجهل والضلال، والانحراف عن الكتاب والسنة، باسم الكتاب والسنة ووجوب الرجوع إليهما، فقد عقد فصلا في ذلك، وفصلا آخر في البدعة وذمها وأنها على عمومها، بحيث يظن من لم يتتبع كلامه وما ينقله عن العلماء في تأييد ما ذهب إليه من الاستحالة أنه سلفي أو أثري - كما انتسب - مائة في المائة! والواقع الذي يشهد به كتابه أنه خلفي معتزلي من أهل الأهواء، يضاف إلى ذلك أنه جاهل بالسنة والأحاديث، إلى ضعف شديد باللغة العربية وآدابها، حتى كأنه شبه عامي، ومع ذلك فهو

---

(١) قال العلامة الألباني: وله شواهد كثيرة يزداد بها قوة، قد ساقها المؤلف الآتي ذكره، وسلم بصحته في الجملة، ولكنه ناقش في دلالته، ويأتي الرد عليه.

مغرور بعلمه، معجب بنفسه، لا يقيم وزنًا لأئمة السلف الذين قالوا بخلاف عنوانه كالإمام أحمد وابن تيمية وابن القيم، والطبري وابن كثير والقرطبي، والإمام الشوكاني وصديق حسن خان القنوجي، ويرميهم بالتقليد! على قاعدة (رمتني بدائها وانسلت)، الأمر الذي أكد لي أننا في زمان تجلت فيه بعض أشراط الساعة التي منها قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «وينطق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة»[1].
ونحوه قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فساد الدين إذا جاء العلم من الصغير، استعصى عليه الكبير، وصلاح الناس إذا جاء العلم من قبل الكبير، تابعه عليه الصغير)[2].

وما أكثر هؤلاء (الصغار) الذين يتكلمون في أمر المسلمين بجهل بالغ، وما العهد عنا ببعيد ذاك المصري الآخر الذي ألف في تحريم النقاب على المسلمة! وثالث أردني ألف في تضعيف قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين "، وفي حديث تحريم المعازف، المجمع على صحتهما عند المحدثين، وغيرهم وغيرهم كثير وكثير!! وإن من جهل هذا (الأثري) المزعوم وغباوته أنه رغم تقريره (ص ٧١ و١٣٨) أن: "منهج أهل السنة والجماعة التوقف في المسائل الغيبية عندما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه ليس لأحد مهما كان شأنه أن يضيف تفصيلا، أو أن ينقص ما ثبت بالدليل، أو أن يفسر ظاهر الآيات وفق هواه، أو بلا دليل".

أقول: إنه رغم تقريره لهذا المنهج الحق الأبلج، فإنه لم يقف في هذه

---

(١) قال العلامة الألباني: حديث صحيح مخرج من طرق فيما تقدم برقم (١٨٨٧ و٢٢٣٨ و٢٢٥٣).

(٢) قال العلامة الألباني: رواه قاسم بن أصبغ بسند صحيح كما في " الفتح " (١٣/ ٣٠١).

المسألة الغيبية عند حديث الترجمة الصحيح. بل خالفه مخالفة صريحة لا تحتاج إلى بيان، وكنت أظن أنه على جهل به، حتى رأيته قد ذكره نقلا عن غيره (ص ٤) من الملحق بآخر كتابه، فعرفت أنه تجاهله، ولم يخرجه مع حديث يعلى وغيره مما سبقت الإشارة إليه (ص ١٠٠٢). وكذلك لم يقدم أي دليل من الكتاب والسنة على ما زعمه من الاستحالة، بل توجه بكليته إلى تأويل قوله تعالى المؤيد للدخول الذي نفاه: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} (البقرة:٢٧٥) تأويلا ينتهي به إلى إنكار (المس) - الذي فسره العلماء بالجنون - وإلى موافقة بعض الأشاعرة والمعتزلة! الذين فسروا (المس) بوسوسة الشيطان المؤذية! وهذا تفسير بالمجاز، وهو خلاف الأصل، ولذلك أنكره أهل السنة كما سيأتي، وهو ما صرح به نقلا عن الفخر الرازي الأشعري (ص ٧٦ و٧٨): "كأن الشيطان يمس الإنسان فيجن "! ونقل (ص٨٩) عن غيره أنه قال: "كأن الجن مسه"! وعليه خص المس هذا بمن خالف شرع الله، فقال (ص ٢٢): "وما كان ليمس أحد (كذا غير منصوب!) إلا بالابتعاد عن النهج المرسوم "! ولو سلمنا جدلا أن الأمر كما قال، فلا يلزم منه عند العلماء ثبوت دعوى النفي، لإمكان وجود دليل آخر على الدخول كما في هذا الحديث الصحيح، بينما توهم الرجل أنه برده دلالة الآية على الدخول ثبت نفيه إياه، وليس الأمر كذلك لو سلمنا برده، فكيف وهو مردود عليه بهذا الحديث الصحيح، وبحديث يعلى المتقدم وبهما تفسر الآية، ويبطل تفسيره إياها بالمجاز. ومن جهل الرجل وتناقضه أنه بعد أن فسر الآية بالمجاز الذي يعني أنه لا (مس) حقيقة، عاد ليقول (ص ٩٣): "واللغة أجمعت على أن المس: الجنون".

ولكنه فسره على هواه فقال: أي من الخارج لا من الداخل، قال: "ألا ترى مثلا إلى الكهرباء وكيف تصعق المماس لها من الخارج ... " إلخ هرائه. فإنه دخل في تفاصيل تتعلق بأمر غيبي قياسًا على أمور مشاهدة مادية، وهذا خلاف المنهج السلفي الذي تقدم نقله عنه، ومع ذلك فقد تعامى عما هو معروف في علم الطب أن هناك جراثيم تفتك من الداخل كجرثومة (كوخ) في مرحلته الثالثة! فلا مانع عقلا أن تدخل الجان من الخارج إلى بدن الإنسان، وتعمل عملها وأذاها فيه من الداخل، كما لا مانع من خروجها منه بسبب أو آخر، وقد ثبت كل من الأمرين في الحديث فآمنا به، ولم نضربه كما فعل المعتزلة وأمثالهم من أهل الأهواء، وهذا المؤلف (الأثري) - زعم - منهم، كيف لا وقد تعامى عن حديث الترجمة، فلم يخرجه البتة في جملة الأحاديث الأخرى التي خرجها وساق ألفاظها من (ص ١١١) إلى (ص١٢٦) - وهو صحيح جدا - كما رأيت، وهو إلى ذلك لم يأخذ من مجموع تلك الأحاديث ما دل عليه هذا الحديث من إخراجه صلى الله عليه وآله وسلم للشيطان من ذاك المجنون، وهي معجزة عظيمة من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم، بل نصب خلافًا بين رواية " اخرج عدو الله " ورواية " اخسأ عدو الله "، فقد أورد على نفسه (ص ١٢٤) قول بعضهم: "إن الإمام الألباني قد صحح الحديث "، فعقب بقوله: "فهذا كذب مفترى، انظر إلى ما قاله الشيخ الألباني لتعلم الكذب: المجلد الأول من سلسلته الصحيحة ص ٧٩٥ ح ٤٨٥". ثم ساق كلامي فيه، ونص ما في آخره كما تقدم: "وبالجملة فالحديث بهذه المتابعات جيد. والله أعلم". قلت: فتكذيبه المذكور غير وارد إذن، ولعل العكس هو الصواب! وقد صرح هو بأنه ضعيف دون أي تفصيل (ص ٢٢)، واغتر به البعض! نعم، لقد شكك في دلالة

الحديث على الدخول بإشارته إلى الخلاف الواقع في الروايات، وقد ذكرت لفظين منها آنفا.

ولكن ليس يخفى على طلاب هذا العلم المخلصين أنه ليس من العلم في شيء أن تضرب الروايات المختلفة بعضها ببعض، وإنما علينا أن نأخذ منها ما اتفق عليه الأكثر، وإن مما لا شك فيه أن اللفظ الأول: "اخرج " أصح من الآخر " اخسأ "، لأنه جاء في خمس روايات من الأحاديث التي ساقها، واللفظ الآخر جاء في روايتين منها فقط! على أني لا أرى بينهما خلافًا كبيرًا في المعنى، فكلاهما يخاطب بهما شخص، أحدهما صريح في أن المخاطب داخل المجنون، والآخر يدل عليه ضمنا. وإن مما يؤكد أن الأول هو الأصح صراحة حديث الترجمة الذي سيكون القاضي بإذن الله على كتاب " الاستحالة " المزعومة، مع ما تقدم من البيان أنها مجرد دعوى في أمر غيبي مخالفة للمنهج الذي سبق ذكره. ولابد لي قبل ختم الكلام على هذا الموضوع أن أقدم إلى القراء الكرام ولو مثالًا واحد على الجهل بالسنة الذي وصفت به الرجل فيما تقدم، ولو أنه فيما سلف كفاية للدلالة على ذلك! لقد ذكر الحديث المشهور في النهي عن اتباع سنن الكفار بلفظ لا أصل له رواية ولا دراية، فقال (ص ٢٧): "وصدق رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- إذ يقول: "لتتبعن من قبلكم من الأمم حذاء القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه وراءهم. قالوا: اليهود والنصارى يا رسول الله؟ قال: فمن؟". أو كما قال -صلى الله عليه وآله وسلم- "! ومجال نقده في سياقه للحديث هكذا واسع جدًا، وإنما أردت نقده في حرف واحد منه أفسد به معنى الحديث بقوله (حذاء)، فإن هذا تحريف قبيح للحديث لا يخفى على أقل الناس ثقافة، والصواب (حذو). وليس هو

خطأ مطبعيًّا كما قد يتبادر لأذهان البعض، فقد أعاده في مكان آخر. فقال (ص ٣٤) مقرونا بخطأ آخر: "حذاء القذة بالقذة "! كذا ضبطه بفتح القاف! وإنما هو بالضم. ونحو ذلك مما يدل على جهله بالسنة قوله (ص ٢٤٠): "يقول السلف: ليس الخبر كالمعاينة " وهذا حديث مرفوع رواه جماعة من الأئمة منهم أحمد عن ابن عباس مرفوعًا، وفيه قصة. وهو مخرج في " صحيح الجامع الصغير " (٥٢٥٠).

ومن أمثلة جهله بما يقتضيه المنهج السلفي أنه حشر (ص ٧٤) في زمرة التفاسير المعتبرة " تفسير الكشاف "، و"تفسير الفخر الرازي "، فهل رأيت أو سمعت أثريًّا يقول مثل هذا، فلا غرابة بعد هذا أن ينحرف عن السنة، متأثرًا بهما ويفسر آية الربا تفسيرًا مجازيًّا! وأما أخطاؤه الإملائية الدالة على أنه (شبه أمي) فلا تكاد تحصى، فهو يقول في أكثر من موضع: "تعالى معي "! وقال (ص ١٣١): "ثم تعالى لقوله تعالى "، وذكر آية. وفي (ص ١٢٩): "فمن المستحيل أن تفوت هذه المسألة هذان الإمامان الجليلان "! و(ص١٣٠). " أضف إلى ذلك أن الإمامين ليسا طبيبان "! فهو يرفع المنصوب مرارًا وتكرارًا.

وفي الختام أقول: ليس غرضي مما تقدم إلا إثبات ما أثبته الشرع من الأمور الغيبية، والرد على من ينكرها. ولكنني من جانب آخر أنكر أشد الإنكار على الذين يستغلون هذه العقيدة، ويتخذون استحضار الجن ومخاطبتهم مهنة لمعالجة المجانين والمصابين بالصرع، ويتخذون في ذلك من الوسائل التي تزيد على مجرد تلاوة القرآن مما لم ينزل الله به سلطانًا، كالضرب الشديد الذي قد يترتب عليه أحيانًا قتل المصاب، كما وقع هنا في عمان، وفي مصر، مما صار حديث الجرائد والمجالس. لقد كان الذين يتولون القراءة على المصروعين

أفرادا قليلين صالحين فيما مضى، فصاروا اليوم بالمئات، وفيهم بعض النسوة المتبرجات، فخرج الأمر عن كونه وسيلة شرعية لا يقوم بها إلا الأطباء عادة، إلى أمور ووسائل أخرى لا يعرفها الشرع ولا الطب معًا، فهي - عندي - نوع من الدجل والوساوس يوحي بها الشيطان إلى عدوه الإنسان {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}، وهو نوع من الاستعاذة بالجن التي كان عليها المشركون في الجاهلية المذكورة في قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}. فمن استعان بهم على فك سحر -زعموا- أو معرفة هوية الجني المتلبس بالإنسي أذكر هو أم أنثى؟ مسلم أم كافر؟ وصدقه المستعين به ثم صدق هذا الحاضرون عنده، فقد شملهم جميعًا وعيد قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: "من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد"، وفي حديث آخر:".. لم تقبل له صلاة أربعين ليلة".

فينبغي الانتباه لهذا، فقد علمت أن كثيرًا ممن ابتلوا بهذه المهنة هم من الغافلين عن هذه الحقيقة، فأنصحهم - إن استمروا في مهنتهم - أن لا يزيدوا في مخاطبتهم على قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: "اخرج عدو الله"، مذكرا لهم بقوله تعالى {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (النور:٦٣). والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.اهـ. من الصحيحة.

وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٣/ ٢٩٩): إيضاح الحق في دخول الجني في الإنسي والرد على من أنكر ذلك[1].

---

(١) رد أرسل للشيخ علي الطنطاوي بتاريخ ٢/ ١١/ ١٤٠٨هـ.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد .. فقد نشرت بعض الصحف المحلية وغيرها في شعبان من هذا العام أعني عام ١٤٠٧هـ أحاديث مختصرة ومطولة عما حصل من إعلان بعض الجن -الذي تلبس ببعض المسلمات في الرياض- إسلامه عندي بعد أن أعلنه عند الأخ عبد الله بن مشرف العمري المقيم في الرياض، بعدما قرأ المذكور على المصابة وخاطب الجني وذكره بالله ووعظه وأخبره أن الظلم حرام وكبيرة عظيمة ودعاه إلى الإسلام لما أخبره الجني أنه كافر بوذي ودعاه إلى الخروج منها، فاقتنع الجني بالدعوة وأعلن إسلامه عند عبد الله المذكور، ثم رغب عبد الله المذكور وأولياء المرأة أن يحضروا عندي بالمرأة حتى أسمع إعلان إسلام الجني فحضروا عندي فسألته عن أسباب دخوله فيها فأخبرني بالأسباب ونطق بلسان المرأة لكنه كلام رجل وليس كلام امرأة، وهي في الكرسي الذي بجواري وأخوها وأختها وعبد الله بن مشرف المذكور وبعض المشايخ يشهدون ذلك ويسمعون كلام الجني، وقد أعلن إسلامه صريحا وأخبر أنه هندي بوذي الديانة، فنصحته وأوصيته بتقوى الله، وأن يخرج من هذه المرأة ويبتعد عن ظلمها، فأجابني إلى ذلك، وقال: أنا مقتنع بالإسلام، وأوصيته أن يدعو قومه للإسلام بعدما هداه الله له فوعد خيرا وغادر المرأة وكان آخر كلمة قالها: السلام عليكم، ثم تكلمت المرأة بلسانها المعتاد وشعرت بسلامتها وراحتها من تعبه. ثم عادت إلي بعد شهر أو أكثر مع أخويها وخالها وأختها وأخبرتني أنها في خير وعافية وأنه لم يعد إليها والحمد لله، وسألتها عما كانت تشعر به حين وجوده بها فأجابت بأنها كانت تشعر بأفكار رديئة مخالفة للشرع

وتشعر بميول إلى الدين البوذي والاطلاع على الكتب المؤلفة فيه ، ثم بعدما سلمها الله منه زالت عنها هذه الأفكار ورجعت إلى حالها الأولى البعيدة من هذه الأفكار المنحرفة.

وقد بلغني عن فضيلة الشيخ علي الطنطاوي أنه أنكر مثل حدوث هذا الأمر وذكر أنه تدجيل وكذب ، وأنه يمكن أن يكون كلاما مسجلا مع المرأة ولم تكن نطقت بذلك، وقد طلبت الشريط الذي سجل فيه كلامه وعلمت منه ما ذكر، وقد عجبت كثيرا من تجويزه أن يكون ذلك مسجلا مع أني سألت الجني عدة أسئلة وأجاب عنها، فكيف يظن عاقل أن المسجل يسأل ويجيب، هذا من أقبح الغلط ومن تجوبز الباطل، وزعم أيضا في كلمته أن إسلام الجني على يد الإنسي يخالف قول الله تعالى في قصة سليمان: {وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} ولا شك أن هذا غلط منه أيضا هداه الله وفهم باطل فليس في إسلام الجني على يد الإنسي ما يخالف دعوة سليمان، فقد أسلم جم غفير من الجن على يد النبي ﷺ، وقد أوضح الله ذلك في سورة الأحقاف وسورة الجن وثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال (إن الشيطان عرض لي فشد علي ليقطع الصلاة علي فأمكنني الله منه فذعته ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا فتنظروا إليه فذكرت قول أخي سليمان عليه السلام فرده الله خاسئا)[1] هذا لفظ البخاري ولفظ مسلم: «إن عفريتا من الجن جعل يفتك علي البارحة ليقطع علي الصلاة وإن الله أمكنني منه فذعته فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون أو كلكم ثم ذكرت قول أخي سليمان فرده الله خاسئا».

(١) أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

وروى النسائي على شرط البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (أن النبي ﷺ كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه فصرعه فخنقه قال رسول الله ﷺ حتى وجدت برد لسانه على يدي ولولا دعوة سليمان لأصبح موثقا حتى يراه الناس)(١) ورواه أحمد وأبو داود من حديث أبي سعيد وفيه: «فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الإبهام والتي تليها» وخرج البخاري في صحيحه تعليقا مجزوما به جـ ٤ ص ٤٨٧ من الفتح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة، قال فخليت عنه، فأصبحت، فقال رسول الله ﷺ يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله. قال: أما إنه قد كذبك وسيعود، فعرفت أنه سيعود؛ لقول رسول الله ﷺ، فرصدته فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال ولا أعود، فرحمته فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة " قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله " قال: "أما إنه قد كذبك وسيعود " فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ثم تعود قال دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: "ما فعل أسيرك البارحة " قلت: يا رسول الله، زعم أن يعلمني كلمات ينفعني الله بها

فخليت سبيله، قال: "ما هي؟ " قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير - فقال النبي ﷺ: "أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة "؟ قال: لا قال " ذاك شيطان».

وقد أخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان عن صفية رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم».

وروى الإمام أحمد رحمه الله في المسند جـ ٤ ص ٢١٦ بإسناد صحيح «أن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: يا رسول الله، حال الشيطان بيني وبين صلاتي وبين قراءتي، قال: "ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أنت حسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا " قال: ففعلت ذاك فأذهبه الله عز وجل عني).

كما ثبت في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن كل إنسان معه قرين من الملائكة وقرين من الشياطين حتى النبي ﷺ إلا أن الله أعانه عليه فأسلم فلا يأمره إلا بخير. وقد دل كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وإجماع الأمة على جواز دخول الجني بالإنسي وصرعه إياه، فكيف يجوز لمن ينتسب إلى العلم أن ينكر ذلك بغير علم ولا هدى، بل تقليدا لبعض أهل البدع المخالفين لأهل السنة والجماعة؟ فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأنا أذكر لك أيها القارئ ما تيسر من كلام أهل العلم في ذلك إن شاء الله. بيان كلام المفسرين رحمهم الله في قوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} ما نصه:

يعني بذلك يخبله الشيطان في الدنيا وهو الذي يخنقه فيصرعه " من المس " يعني: من الجنون. وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية المذكورة ما نصه: {لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} أي: الجنون. يقال مس الرجل فهو ممسوس إذا كان مجنونا. أهـ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية المذكورة ما نصه: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له وذلك أنه يقوم قياما منكرا.

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق»، رواه ابن أبي حاتم، قال: وروي عن عوف بن مالك وسعيد بن جبير، والسدي، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان نحو ذلك. انتهى المقصود من كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره على قوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} في هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان ولا يكون منه مس.اهـ.، وكلام المفسرين في هذا المعنى كثير من أراده وجده.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه إيضاح الدلالة في عموم الرسالة للثقلين الموجود في مجموع الفتاوى جـ ١٩ ص ٩ إلى ص ٦٥ ما نصه بعد كلام سبق. (ولهذا أنكر طائفة من المعتزلة كالجبائي وأبي بكر الرازي وغيرهما دخول الجن في بدن المصروع ولم ينكروا وجود الجن، إذ لم يكن ظهور هذا في المنقول عن الرسول كظهور هذا وإن كانوا مخطئين في ذلك. ولهذا ذكر

الأشعري في مقالات أهل السنة والجماعة أنهم يقولون أن الجني يدخل في بدن المصروع، كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل قلت لأبي إن قوما يزعمون أن الجني لا يدخل في بدن الإنسي فقال يا بني يكذبون هو ذا يتكلم على لسانه. وهذا مبسوط في موضعه).

وقال أيضا رَحِمَهُ اللهُ في جـ ٢٤ من الفتاوى ص ٢٧٦- ٢٧٧ ما نصه. (وجود الجن ثابت بكتاب الله وسنة رسوله واتفاق سلف الأمة وأئمتها وكذلك دخول الجني في بدن الإنسان ثابت باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة قال الله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} وفي الصحيح عن النبي ﷺ «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم».

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل: قلت: لأبي إن أقواما يقولون: إن الجني لا يدخل بدن المصروع، فقال: يا بني، يكذبون. هو ذا يتكلم على لسانه، وهذا الذي قاله أمر مشهور، فإنه يصرع الرجل فيتكلم بلسان لا يعرف معناه، ويضرب على بدنه ضربا عظيما لو ضرب به جمل لأثر به أثرا عظيما، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب ولا بالكلام الذي يقوله، وقد يجر المصروع غير المصروع ويجر البساط الذي يجلس عليه ويحول الآلات وينقل من مكان إلى مكان، ويجري غير ذلك من الأمور من شاهدها أفادته علما ضروريا بأن الناطق على لسان الإنسي والمحرك لهذه الأجسام جنس آخر غير الإنسان.

وليس في أئمة المسلمين من ينكر دخول الجني في بدن المصروع، ومن أنكر ذلك وادعى أن الشرع يكذب ذلك فقد كذب على الشرع، وليس في الأدلة

الشرعية ما ينفي ذلك). اهـ.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه [زاد المعاد في هدي خير العباد] جـ ٤ ص ٦٦ إلى ٦٩ ما نصه: الصرع صرعان:

صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية. وصرع من الأخلاط الرديئة.

والثاني: هو الذي يتكلم فيه الأطباء في سببه وعلاجه.

وأما صرع الأرواح، فأئمتهم وعقلاءهم يعترفون به ولا يدفعونه، ويعترفون بأن علاجه بمقابلة الأرواح الشريفة الخيرة العلوية لتلك الأرواح الشريرة الخبيثة فتدافع أثارها، وتعارض أفعالها وتبطلها. وقد نص على ذلك بقراط في بعض كتبه. فذكر بعض علاج الصرع. وقال: (هذا إنما ينفع من الصرع الذي سببه الأخلاط والمادة، وأما الصرع الذي يكون من الأرواح فلا ينفع فيه هذا العلاج.

وأما جهلة الأطباء وسقطهم وسفلتهم ومن يعتقد بالزندقة فضيلة فأولئك ينكرون صرع الأرواح، ولا يقرون بأنها تؤثر في بدن المصروع وليس معهم إلا الجهل، وإلا فليس في الصناعة الطبية ما يدفع ذلك، والحس والوجود شاهد به، وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط هو صادق في بعض أقسامه لا في كلها.

إلى أن قال: وجاءت زنادقة الأطباء فلم يثبتوا إلا صرع الأخلاط وحده ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتها يضحك من جهل هؤلاء وضعف عقولهم).

وعلاج هذا النوع يكون بأمرين: أمر من جهة المصروع، وأمر من جهة المعالج، فالذي من جهة المصروع:

يكون بقوة نفسه، وصدق توجهه إلى فاطر. هذه الأرواح وبارئها، والتعوذ

الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان. فإن هذا نوع محاربة، والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحا في نفسه جيدا وأن يكون الساعد قويا فمتى تخلف أحدهما لم يغن السلاح كثير طائل، فكيف إذا عدم الأمران جميعا، ويكون القلب خرابا من التوحيد والتوكل والتقوى والتوجه، ولا سلاح له.

والثاني من جهة المعالج بأن يكون فيه هذان الأمران أيضا، حتى أن من المعالجين من يكتفي بقوله: (اخرج منه) أو يقول: (بسم الله) أو يقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) والنبي ﷺ كان يقول: «أخرج عدو الله أنا رسول الله.

وشاهدت شيخنا يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التي فيه، ويقول قال لك الشيخ: أخرجي، فإن هذا لا يحل لك، فيفيق المصروع، وربما خاطبها بنفسه وربما كانت الروح ماردة فيخرجها بالضرب، فيفيق المصروع ولا يحس بألم، وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مرارا ...

إلى أن قال: وبالجملة فهذا النوع من الصرع وعلاجه لا ينكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة، وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله تكون من جهة قلة دينهم وخراب قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذكر والتعاويذ والتحصنات النبوية والإيمانية، فتلقى الروح الخبيثة الرجل أعزل لا سلاح معه وربما كان عريانا فيؤثر فيه هذا ..). انتهى المقصود من كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وبما ذكرناه من الأدلة الشرعية وإجماع أهل العلم من أهل السنة والجماعة على جواز دخول الجني بالإنسي، يتبين للقراء بطلان قول من أنكر ذلك وخطأ فضيلة الشيخ علي الطنطاوي في إنكاره ذلك، وقد وعد في كلمته أنه يرجع إلى الحق متى أرشد إليه فلعله يرجع إلى الصواب بعد قراءته ما ذكرنا، نسأل الله لنا

وله الهداية والتوفيق.

ومما ذكرنا أيضا يعلم أن ما نقلته صحيفة الندوة في عددها الصادر في ١٤/ ١٠/ ١٤٠٧ هـ ص ٨ عن الدكتور محمد عرفان من أن كلمة جنون اختفت من القاموس الطبي، وزعمه أن دخول الجني في الإنسي ونطقه على لسانه أنه مفهوم علمي خاطئ مائة في المائة. كل ذلك باطل نشأ عن قلة العلم بالأمور الشرعية وبما قرره أهل العلم من أهل السنة والجماعة، وإذا خفي هذا الأمر على كثير من الأطباء لم يكن ذلك حجة على عدم وجوده بل يدل ذلك على جهلهم العظيم بما علمه غيرهم من العلماء المعروفين بالصدق والأمانة والبصيرة بأمر الدين، بل هو إجماع من أهل السنة والجماعة، كما نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية عن جميع أهل العلم، ونقل عن أبي الحسن الأشعري أنه نقل ذلك عن أهل السنة والجماعة ونقل ذلك أيضا عن أبي الحسن الأشعري، العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله الشبلي الحنفي المتوفي سنة ٧٩٩ هـ في كتابه آكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجان في الباب الحادي والخمسين من كتابه المذكور.

وقد سبق في كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أن أئمة الأطباء وعقلاءهم يعترفون به ولا يدفعونه، وإنما أنكر ذلك جهلة الأطباء وسقطهم وسفلتهم وزنادقتهم.

فاعلم ذلك أيها القارئ وتمسك بما ذكرناه من الحق ولا تغتر بجهلة الأطباء وغيرهم ولا بمن يتكلم في هذا الأمر بغير علم ولا بصيرة، بل بالتقليد لجهلة الأطباء وبعض أهل البدع من المعتزلة وغيرهم، والله المستعان .

(تنبيه): قد دل ما ذكرناه من الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ومن كلام أهل العلم على أن مخاطبة الجني ووعظه وتذكيره ودعوته للإسلام

وإجابته إلى ذلك ليس مخالفا لما دل عليه قوله تعالى عن سليمان عليه الصلاة والسلام في سورة ص أنه قال: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} وهكذا أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وضربه إذا امتنع من الخروج كل ذلك لا يخالف الآية المذكورة بل ذلك واجب من باب دفع الصائل ونصر المظلوم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يفعل ذلك مع الإنسي ..

وقد سبق في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ: ذعت الشيطان حتى سال لعابه على يده الشريفة عليه الصلاة والسلام وقال: «لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقا حتى يراه الناس» وفي رواية لمسلم من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة» والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وهكذا كلام أهل العلم، وأرجو أن يكون فيما ذكرناه كفاية ومقنع لطالب الحق، واسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يوفقنا وسائر المسلمين للفقه في دينه، والثبات عليه، وأن يمن علينا جميعا بإصابة الحق في الأقوال والأعمال، وأن يعيذنا وجميع المسلمين من القول عليه بغير علم، ومن إنكار ما لم نحط به علما، إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسانز.اهـ. كلام العلامة ابن باز.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٢٤٠): هل هناك دليل على أن الجن يدخلون الإنس؟

فأجاب: نعم هناك دليل من الكتاب والسنة، على أن الجن يدخلون الإنس، فمن القرآن قوله تعالى: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له".

ومن السنة قوله ﷺ: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم".

وقال الأشعري في مقالات أهل السنة والجماعة: "إنهم أي أهل السنة يقولون: إن الجني يدخل في بدن المصروع". واستدل بالآية السابقة.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: "قلت لأبي: إن قومًا يزعمون أن الجني لا يدخل في بدن الإنسي فقال: يا بني يكذبون هو ذا يتكلم على لسانه".

وقد جاءت أحاديث عن رسول الله ﷺ رواها الإمام أحمد والبيهقي، أنه أتي بصبي مجنون فجعل النبي ﷺ يقول: "اخرج عدو الله، اخرج عدو الله"، وفي بعض ألفاظه: "اخرج عدو الله أنا رسول الله". فبرأ الصبي.

فأنت ترى أن في هذه المسألة دليلًا من القرآن الكريم ودليلين من السنة، وأنه قول أهل السنة والجماعة وقول أئمة السلف، والواقع يشهد به ومع هذا لا ننكر أن يكون للجنون سبب آخر من توتر الأعصاب واختلال المخ وغير ذلك.اهـ.

وسئل العلامة الوادعي كما في تحفة المجيب (ص٣٧٥): بعض من ينكر المس مثل الغزالي وغيره يقولون: لماذا لم يوجد رجل أمريكي أو سويدي أو بريطاني أو فرنسي .. الخ به مس، وبهذا يلبّسون على الناس؟

فأجاب: قولهم هذا ليس بصحيح بل هو موجود، فالرجل الأمريكي الكافر وكذلك البريطاني الكافر هو في أيدي الجن، ثم إذا أسلم واستقام ما يمكث أيامًا

إلا ويأتيه الصرع، فعندما سألنا المختصين عن هذا فقالوا: يكون راضيًا عنه عند أن كان كافرًا، فإذا التزم الشخص يحترق الشيطان فيصرعه، وهذا قد حدث لغير واحد، حتى أن شخصًا مصريًا أتى إلى هنا جن وصار يأكل التراب، فخشيت أن يضره، فلما نزلت إلى مصر فإذا الشاب سويّ في صحة طيبة، فلما سألت عنه قالوا: إذا ذهب إلى المدارس وترك الالتزام رجعت له صحته، وإذا التزم بالدين آذاه الجني.

فإذا التزم الشخص وتمسك بالدين آذاه الشيطان، بخلاف الشخص الضائع المائع الذي لا يذكر الله، فهو في قبضة الشيطان من التعامل بالربا، أو تابع للزنا، وارتكاب الفواحش والمحرمات، فالشيطان لا يتألم إلا من الصالحين، وهو أمر قد حصل وقد نطق بعضهم أنه إذا بقي هنا سيؤذيه، وإذا ذهب من هنا فلا شيء عليه منه.

مسألة: هل الجني يؤذي الإنسي ابتداءً؟

سئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٨/ ٩٦): شيخنا الجن هل يمكن أن يؤذي الإنسان ابتداء وإلا لازم يكون سحر نافخ فيه إنسي؟

فأجاب: لا ليس شرطًا.

مداخلة: .. يعني ممكن الجني يؤذي الإنسي ابتداءً.

الشيخ: أي نعم.

مداخلة: يتلبسوا دونما سبب.

الشيخ: أي نعم.اهـ.

وسئل العلامة الوادعي كما في تحفة المجيب (ص٣٧٣): هل يستطيع الجن أن يختطفوا الإنس مع الدليل؟

فأجاب: نعم فقد حدث هذا في عهد عمر، وفي غير زمن عمر، أنّهم ربما يختطفون الإنسي ويبقى عندهم ما شاء الله ثم يرجع.

مسألة: حقيقة ما يسمى بالمندل.

المندل: وهو: مصطلح لديهم - عنيتُ أهل السحر والشعوذة، قاتلهم الله - يعني: استحضار جني كافر بطريق تكرار تعويذة تسمى: عزيمة، يكون الساحر، والعياذ بالله، قد توافق على صيغة لها مع شيطان الجن، بحيث تصير كالعهد بينهما، ويكون ذلك بعد استرضاء الساحر للجني بتلبية طلباته جميعِها، ولو اشتملت على ارتكاب محرم أو تلفظ بشرك، فإذا استرضاه بذلك عاهده بالتعويذة - وهي تكون متضمنة شركًا صريحًا، وتكون غالبًا بكلمات غير عربية كالسريانية مثلًا -، وكلما تلا المعزِّم التعويذة حضر خادم المندل فيستعمله فاتح المندل، أي الساحر أو المشعوذ، في الاستدلال على غائب كمسروق أو مفقود ونحوه. وتفصيله: أن يُحضِر الساحر طفلًا لم يبلغ الحُلُم حال كونه غير متوضئ! فيكتب آية من القرآن على جبهته، وغالبًا ما يكتبون قوله تعالى: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق: ٢٢]، ثم يحمّله فنجانًا يضع فيه حبرًا أو زيتًا، ثم يقرأ المعزِّم - الساحر - العزيمةَ المتوافَق عليها، فيرى الطفل في الفنجان الجنيَّ المحضَّر، فيسأله عن المفقود فيجيبه وهو يرى صورته متمثلًا بحبرٍ أو زيت ونحوهما، فإما أن يريه الجنيُّ المفقودَ فيعرف مكانه، أو يكتب له بحروف متفرقة على لوحٍ يراه الطفل، وربما سأله عن السارق فيكتب، وهكذا. ويُلحَظ في هذه الطريقة انتشارها، فربما قام بها دجال مشعوذ، أو ساحر، أو حتى مَنْ ظاهرُه الصلاح، فيلبّس على العامة أمر دينهم، ويوهمهم بأن الجن المؤمن يخدمه بطريق المندل، فليُحذر من ذلك أشد

الحذر.

ومما يشبه فتح المندل من طرق الاستعانة المحرمة: طريقة الكف، وفيها يرى الطفل الصُّوَر في كفِّه، وقد رسم الساحر عليه مربعًا كتب حوله طلاسم، وجعل في وسطه زيتًا أو حبرًا، ثم يتلو الساحر عزيمة شركية. ومؤدّى الطريقتين واحد، وهو ادعاء كشف الغائب، ومعرفة مكان المفقود أو المسروق ونحو ذلك بطريق الاسترضاء. التحصين من كيد الشياطين (ص٣٤- ٣٥).

مسألة: حقيقة ما يسمى بالزار.

الزار أو دَقّة الزار، ويقصد به: التقرب إلى شيطان من شياطين الجن، بتلبية جميع طلباته من ذبح لغير الله تعالى، وارتكاب محرم كاختلاط رجال بنساء، وربما زانى بعضهم ببعض، وذلك ليزورهم ذلك الشيطان، فيُخرج - بزعمهم - شيطانًا آخر كان قد سبقه فتلبس في جسد إنس، (غالبًا ما تكون امرأة)، فيقام حفل توسم فيه تلك المرأة عروسًا، وتضرب من حولها الدفوف، ويُهلُّ به بالذبح تقربًا لغير الله تعالى، ويلطخ بالدم المهراق وجه تلك العروس، فتصرخ صرخة أو يصرخ منظّم الزار، مؤذِنًا بتحقق تخلّصها من الجن الذي تلبس بها. وفي هذه الأثناء - عند ضرب الدفوف وإضاءة الشموع ودوران الرجال والنساء حول العروس التي قد تعتلي متجملةً سُدّة تتوسطهم، أو تكون معتلية ظهر حصان أو جمل - في هذه الأثناء قد يختلي رجال بنساء بقصد الاستمتاع المحرم. وما سبق يكون في حالةِ كان مرض المرأة تلبُّس جنيٍّ، أما إن كانت راغبة بالولد ولا طاقة لزوجها بذلك، فقد يقوم منظّم الزار -أو من ينيبه- بتلك المهمة بدلًا عنه، ويتم الإعلان بعدها بأنها قد شفيت من عقم مزمن، أو تعافى زوجها ببركة الزار، وما قدمته من غالٍ ونفيس، لمنظِّمه ومستدعي زائر الحضرة

من الجن الصالح!! هكذا ينفد ما في الديار لإقامة الزار، وينفد ما في الجيب لمعرفة ما في الغيب، وصدق القائل في وصف الزار وتكلفته الباهظة، بقوله:

ثلاثة تشقى بهنَّ الدارُ العرسُ والمأتمُ ثم الزَّارُ

ومعلوم لديك - أخي القارئ - انتشار هذه الطريقة من طرق الاستعانة انتشار النار في الهشيم في بعض ديار المسلمين، بل إن الأدهى من ذلك كلِّه كثرةُ عرض حفلات الزار - وما يحصل بها من مخازٍ فاضحة - في عروض تلفازية وسينمائية، حتى لَيُخيَّل لمن يراها بأن ذلك هو من مسلّمات الدين، وشعائره التي لا يُعذَر المسلمُ بالجهل بها، فيتم بذلك التلبيس على المسلمين عامةً، وتنفير غير المسلمين من الالتحاق بهم فيما لو توافرت لديهم النية لذلك، أو كانوا من المؤلَّفة قلوبهم!! التحصين من كيد الشياطين (ص٣٥- ٣٧).

مسألة: حقيقة ما يسمى قياس الأثر.

قياس الأثر هو - كما سبق - طريقة من طرق الاستعانة بالجن، ويطلب الساحر فيها أثرًا من أثر المريض، كمنديل له، أو عمامة ونحو ذلك، مما يحمل ريح عرق المريض، ثم يعقد هذا المنديل من طرفه، ثم يقيس مقدار أربع أصابع من بعد العقدة، ومن ثَمّ يمسك المنديل إمساكًا محكمًا، ثم يقرأ سورة التكاثر أو أي سورة من قصار المفصّل ويرفع بها صوته، ثم يُسِرُّ بقول طِلَّسم شركي، ينادي به الجني، ويسأله أن يقصّر الأثر إن كان بالمريض مس من الجن، وأن يطوّله إن كان به عين، أو العكس، وأن يُبقيَه على ما هو عليه إن كان المرض مرضًا عضويًا أو نفسيًا، ثم يتم القياس بعد ذلك، فإن نقص عن أربع أصابع استعان بالجني أو بمن هو أعلى منه وأقدر على إخراج مَنْ مَسَّهُ من الجن، وإن زاد عَمَد إلى معالجته من العين، بطرق مقررة من اغتسال العائن ثم صب الماء

على رأس المعين بغتةً مِنْ خَلْفِه، أو يتوضأ العائن، ثم يغتسل منه المعين، أو بقراءة الرقى المشروعة في ذلك، وإن بقي الأثر على ما هو عليه - لم يزد ولم ينقص - أَمَر المريضَ بالاستطباب لدى أهل الطب".

وهذه الطرق الثلاثة السالفة، -المندل والزار وقياس الأثر- هي ولا شك طرق استعانة شركية محرّمة، وقد يكون أخطر ما فيها: الاستهزاء بدين الله تعالى، حيث استخف به المعالِجُ والمعالَجُ، فأعرضا عنه، واستبدلا الذي هو شر بالذي هو خير، وتعلّقا لدفع الضر بغير الله ﷻ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (من تعلق تميمة، فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له)[1]، فإذا تخلّى الله تعالى عن هؤلاء جميعهم، وأَذِن تعالى بإيقاع الضرر عليهم، وتركهم إلى ما وثقوا به واعتمدوا عليه من دون الله ﷻ، فلا يلومن أحدُهم إلا نفسَه.

وخلاصة ذلك أن كل استعانة صريحة بمخلوق، وطلبٍ منه، أو مناداةٍ له،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، وابن عبد الحكم في فتوح مصر (ص٢٨٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣٢٥)، وأبو يعلى (١٧٥٩)، والدولابي في الكنى (٢/ ١١٥)، وابن حبان (٦٠٨٦)، والطبراني في الكبير (١٧، رقم ٨٢٠)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٤٦٠)، والحاكم (٤/ ٢١٦ و٤١٧)، وابن عبد البر في التمهيد (١٧/ ١٦٢) من حديث عقبة بن عامر ﵁، والحديث قال عنه المنذري في الترغيب (٤/ ٣٠٧): رجاله ثقات، وكذا قال الهيثمي، وقال العلامة ابن باز كما في الفوائد العلمية من الدروس البازية (٣/ ١٦٥): سنده لا بأس به، وحسنه العلامة الألباني في غاية المرام (٢٩٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٨/ ٦٢٣): حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لجهالة خالد بن عبيد- المعافري-، وهو من رجال "التعجيل" لم يرو عنه غير حيوة بن شريح، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان، وقد تابعه ابن لهيعة كما سيأتي، وهو- وإن كان سيئ الحفظ- يصلح في المتابعات والشواهد، ومشرح بن هاعان صدوق حسن الحديث.

أو دعائه، فهو بلا ريب مما يُغضِب الربَّ سبحانه، لأنه في حقيقته عبادة لغير الله، والعياذ بالله. قال تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞} [الفاتحة: ٤]. فانظر كيف جعل سبحانه الاستعانة به استمدادًا للمعونة الإلهية، ولياذًا بالحضرة الربانية، مع التبرؤ التام من الالتجاء والتوجه لسواه تعالى، وبدهي أن ثمرة ملازمة ذلك يعود نفعه على العبد، كما أن التجرؤ على مخالفة ذلك ضرره عظيم واقع على العبد لا محالة، وقد كان من لطف الله بعباده أن أرشد إلى وجوب الاستعانة بجلاله، فهو تعالى مستغن عن خلقه قاهر فوق عباده. التحصين من كيد الشياطين (ص٣٧- ٣٨).

مسألة: حقيقة ما يسمى قراءة الزهر المرقّم

الزهر المرقّم: وهو حجر بشكل مكعب موسوم في جهاته الست بأرقام من واحد إلى ستة، وهو معروف بـ (زَهْر لعبة الطاولة)، حيث يُلقى هذا الزهر ضمن دائرة، فإن استقرَّ بها، يُقرَأ الرقم الظاهر في جهته العليا، ثم يُعمَد إلى تفسير الرقم بحسب ما تقضي به جداول الكواكب، المتوافرة لديهم: جدول (١)(٢) ... إلخ. وإن استقر الزهر خارج الدائرة، فإن الشخص -بزعمهم- سيصادف شقاقًا عما قريب!! التحصين من كيد الشياطين (ص٤٠).

مسألة: حقيقة ما يسمى بعلم الأسارير

علم الأسارير، وهو علم باحث في الاستدلال (بالخطوط الموجودة في الأكفِّ والأقدام والجباه، بحسب تقاطعها وتباين أطوالها، وتقدير المسافات بينها) يستدلون بذلك على أحوال الإنسان النفسية، وآتي أمرِه من شقاوة أو سعادة، وغنى أو فقر، ونحو ذلك، -وهو علم باطل محرم قطعا- التحصين من كيد الشياطين (ص٤٠).

مسألة: حقيقة ما يسمى بقراءة الفنجان

قراءة الفنجان: والمقصود بذلك، ادعاء تفسير أثر (القهوة المعروفة بـ: التركية) المتبقي في الفنجان، من بعد احتسائها، حيث يُدار الفنجان باليد اليسرى مرات، ومن ثَمّ يُكفأ على حافته، ليُرفع بعدها، وليشرع قارئه (المبصِّر) بقراءته بحسب ما يعرف من رموز به، فما كان من رمز في قاع الفنجان فهو يمثل المستقبل، وما كان قريبًا عند حافة الفنجان فهو حاضر محتسي القهوة، ثم إن ظهر - مثلًا - شكل يشبه حصانًا فهو عريس الهنا لمن شربت القهوة، وإن كان ما ظهر يشبه دجاجة، فهو دلالة على البشارة بالإنجاب والإخصاب، أما الدائرة فتمثل عندهم اجتماعًا لعرس مثلًا، ويعبّرون عنها بقولهم (جَمْعة على خير)، وهكذا يفسرون أثر البنّ البرازيلي أو العَدَني، سواء ولا فرق لديهم، كلٌّ بحسب حال شارب القهوة!! فإن كانت فتاة قاربت سن العنوسة، سارع القارئ يزفّ إليها بشرى مَقْدم فارس الأحلام ممتطيًا صهوة جواد لا يكبو، محمَّلًا بالورود والرياحين!! وإن كان تاجرًا بُشِّر بربح وافر في عاجل تجارته، وربما في آجلها، وإن كان طالبًا بُشِّر باجتياز الامتحان بتفوق تام على أقرانه، وما يستدعي العجب فعلًا تصديق أكثر الناس بذلك، حتى ولو بلغ أحدهم شأوًا مرموقًا في الثقافة وتبوأ منزلة مشهودًا له بها!! أما عامة الناس، فحدّثْ ولا حرج حيث صارت قراءة الفنجان - عند البعض - دأبهم في كل صباح، حيث تجتمع النسوة في دار إحداهن، ويبدأ من ثمَّ استعراض المهارات في القراءة الرمزية.

ولا يخفى أن جميع ذلك هو من ادعاء العِرافة، فإن حضر كاهن، رجل كان أو امرأة، فأخبر بما يخبره به شيطان الجن من نبإ، مدعيًا أنه يستنبطه من أثر خطوط القهوة، زاد عندها الأمر سوءًا وتحولت العرافة إلى كهانة، حيث يجزم

الناس - حال صدق الكاهن، ولو لمرة واحدة - بدوام صدقه ووجوب تصديقه، فيعتقدون أحقية اتباع رموز الفنجان، وبأن ارتسامها دال يقينًا على ما اختصّ الله تعالى بعلمه مما قُدّر للمرء في عاجل أمره وآجله! تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

"ولا شك في أن هؤلاء المتكهنين من الكَذَبة المتخرِّصين من أهل الحَدْس والتخمين، إنما جعلوا هذه الحيل علامة عندهم .... فهؤلاء الكهنة يوهمون العامة معرفة مستقبل الأمور بالقراءة في الفنجان ..... فإذا قُدّر إصابتُهم في بعض الأحيان، فإن ذلك من باب المصادفة، أو من إخبار الشياطين لهم بما تسترق من السمع، وأكثرهم كاذبون". التحصين من كيد الشياطين (ص٤٠ - ٤١).

مسألة: حقيقة ما يسمى الضرب بالحصى

الضرب بالحصى هو - اختصارًا - رمي عدد من الحَصَيات غير محدد، أو من الوَدَع (صدف لحلزونات بحرية)، تُرمى في زاوية، ثم يشرع العرّاف باستعادتها حصاتين حصاتين مثلًا، أو ثلاثة ثلاثة، ثم ينظر ما تبقّى منها بعد ذلك، فإن كان شفعًا (عددًا مزدوجًا) دل ذلك على حُسْنِ الطالع وإن كان وترًا (عددًا مفردًا) دل على سوئه!، وذلك كله من العرافة بالتخمين والحدس، فإن أصابت أحيانًا، فهو من باب المصادفة، وهو من الكهانة المحرمة، والله أعلم التحصين من كيد الشياطين (ص٤٢).

مسألة: حقيقة ما يسمى بالخط بالرمل

الخط بالرمل: وله مسميات شتى، منها: علم الرمل، وعلم الخط، وعلم الطَّرْق، وعلم الضرب، وطريقته: أن يقوم الخاطّ برسم خطوط كثيرة متفرقة على أرضٍ لينة، يرسمها بخِفَّة بالغة وعَجَلةٍ متعمَّدة، فلا يُعرف عند ذلك

عددها، ثم يمحوها خطين خطين، فإن بقي خطان مثلًا كان ذلك علامة على النجاح، وإن بقي خط واحد فهو دليل الخيبة والحرمان". وهو من العرافة المحرمة، فإن عمله كاهن استعان بإخبار شيطانه، فهو من الكهانة الشركية، ومن ادعاء العلم بالغيب الذي اختص الله تعالى بعلمه.

مسألة: الخط بالرمل علم معروف مشتهر

فهل هو الضرب على الرمل بعينه، أم أنهما متغايران؟ الظاهر، والله أعلم، أنهما متغايران، فالخط بالرمل، هو الرسم ثم الإزالة على ما سبق بيانه، - وهو المسمى بالطَّرْق - أما الضرب على الرمل، فهو رسم خطوط ونقاط تُجمع بعدها ليُستخرج من عددها جملة يستخرج منها برج شخص ما، فيقرأ الضارب بعدها في جداول لديه، وينظر في الجدول المختص بذلك البرج، فيسرد على الشخص أمورًا تتعلق به، وواضح أن هذا} [الضرب على الرمل] هو من علم التنجيم المحرم، الموقع بالشرك، وذلك لاعتقاد كلٍّ من المنجّم، والمصدّق له، بتأثير الأحوال الفلكية بالتسبب في مجريات الحوادث الأرضية، واعتقادهما بتحكم العالم العلوي - على ما يزعمون - بالعالم السفلي، ومن ذلك عموم ما يجري على الخلق من نعمة أو شقوة، ومن توفيق أو خيبة، مضاهئين بذلك قول الصابئة عبدة النجوم، والعياذ بالله تعالى.

فائدة: جاء في صحيح مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ، سؤال معاوية بن الحَكَم السُّلَمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرسول الله ﷺ عن أمور منها: الخط، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومنا رجال يخطُّون، فقال ﷺ: (كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخطُّ، فمنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذاك)[1].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (٥/ ٢٢): اختلف العلماء في معنى الخط،

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).

والصحيح أن من وافق خطُّه خطَّ النبي فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة، فلا يباح، والمقصود: أنه حرام، لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقين بها ...اهـ. فحذار أخي المسلم الحصيف، من تلبيس إبليس وجنده الضعيف، بقولهم: ما دام قد فعله نبي من الأنبياء، فما المانع من فِعْله في حقنا؟! والإجابة كما سلف: ذلك النبيُّ لا منعَ في حقه، وكذا لو علمنا موافقته، ولكن لا علم لنا بها، وقد حصل اتفاق من العلماء على النهي عنه الآن. التحصين من كيد الشياطين (ص٤٢ - ٤٣).

مسألة: حقيقة ما يسمى بحساب الطالع

حساب الطالع هو ادعاء معرفة حصول السعادة أو الشقاء لشخص ما، بطريق معرفة اسمه واسم أمه، ومعرفة ما يمثله مجموع الاسمين من الأعداد، بحسب حساب الجُمَّل، (أبجد هوز ....)، وبعد جمع تلك الأعداد، فإنها تقسم على عدد الأبراج الإثني عشر المعروفة (أولها الحَمَل، وآخرها الحوت)، ومن ثَمّ قسمتها على (١٢)، لينظر العرّاف المنجّم بعدها في باقي القسمة، فبحسب هذا الباقي ينظر في جدول لديه مطابق لترقيم باقي القسمة، فيخبره بطالعه وبحظه تبعًا لما احتواه الجدول. وهي طريقة من طرق العرافة المعتمدة على التنجيم المحرم، ثم إن كلًا من العرّاف وطالب قراءة الطالع إن اعتقد أن منزلة الكوكب من القمر تتحكم بمستقبل المرء، وذلك بحسب سعد النجم أو نحسه، فإن ذلك - ولا ريب - أمر موقع بالشرك الأكبر، والعياذ بالله تعالى. انظر كتاب التحصين من كيد الشياطين.

مسألة: حقيقة ما يسمى بالبشعة

ما يسمى بالبشعة صفتها أنه إذا كان هناك شخص متهم في سرقة ونحوها،

فإنه يؤخذ لشخص يسمى: المُبَشّع، ويقوم هذا الشخص بتسخين قطعة حديد مستديرة –طاسة– حتى تصل إلى حد الاحمرار ويطلب من المتهم لعقها، فإن لم تصبه بأذى، فهو برئ، وإن أصابته أو أبي أن يلعقها فهو مدان.

وهي طريقة منكرة لا يجوز اعتمادها في شريعة الإسلام، التي تحارب الكفر والجهل والبدعة والمنكر.

وكان لدى الرومان قديما وسائل تشبه هذه الوسيلة، مثل مصارعة بعض الحيوانات المفترسة، فإذا كان الشخص صادقا، فإن الحيوان المفترس سيجلس بجواره من دون أن يؤذيه، أما الكاذب، فسيقوم الحيوان بافتراسه، وهي خرافة شأنها شأن البشعة.

وأيضا فالبشعة هذه، تشبه ما كان يفعله الناس في الجاهلية، من "الاستقسام بالأزلام"، وقد قال الله تعالى: (وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ) المائدة/ ٣؛ وذلك أن أهل الجاهلية، كان أحدهم إذا أراد سفرًا أو غزوًا أو نحو ذلك، أَجال القداح، وهيأ الأزلام، وكانت قِداحًا مكتوبًا على بعضها: "نهاني ربّي "، وعلى بعضها: "أمرني ربّي "، فإن خرج القدح الذي هو مكتوب عليه: "أمرني ربي "، مضى لما أراد من سفر أو غزو، أو تزويج، وغير ذلك. وإن خرج الذي عليه مكتوب: "نهاني ربي "، كفّ عن المضي لذلك وأمسك" انتهى من " تفسير الطبري " (٩/ ٥١٠).

والبشعة تقوم على الظنون، والظن أكذب الحديث، وهذا يخالف شريعة الله التي تؤكد في الخصومات على ضرورة التحقق من كل دعوى، وإقامة الطالب لبينته الشرعية عليها، وإلا لفسدت حال الناس، وضاعت حقوقهم، إذا كان المدار على مجرد الدعوى، أو قول قائل، أو منام، أو استقسام بالأزلام، أو

أخبار الكهنة والعرافين، ومن ذلك الباب الفاسد: الحكم عن طريق " البشعة".

وإذا كانت طريقة التقاضي وتقصي الحقوق: أمرا محددا معلوما في الشرع، فكذلك البينات: ليست متروكة لأهواء الناس وأعرافهم، فما عده الناس بينة ودليلا، فهي مقبولة في الشرع، لا؛ بل إن الشرع حدد ذلك كله، وفاوت بين هذه البينات بحسب كل قضية؛ لئلا يقول قائل، أو يدعي مدع.

وكم وقعت فتن بين الناس، وقطعت أواصر وأرحام، وانتشرت عداوات .. بسبب هذه الطرق الجاهلية، من حكم البشعة، وقول الكاهن والعراف، وسلوم البادية، ونحو ذلك كله.

وقد سئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٢٨/ ٣٤٩): هل يتنافى مع عقيدة التوحيد ذهاب من ضلت له ضالة أو قتل له قتيل إلى ما يسمى بالملوث أو الملحس، الذي يحمي قطعة حديد في النار، فإذا لحسها المتهم بلسانه ولم تحرقه اعتبر بريئا وإن أحرقته اعتبر مجرما، أم أن ذلك يعتبر وسيلة لظهور الجريمة واكتشاف المجرم فتقاس على الكلاب البوليسية وتكون من الوسائل المباحة؟

فأجاب: لا شك أن هذا العمل باطل ومنكر ولا يجوز فعله، بل هذا وسيله إلى إحراق الألسنة وإيذاء المسلمين، وهذا شيء لا أصل له فيما نعلم في شريعة الله ولا في كلام العلماء، بل هو من الخرافات ومن أعمال المشعوذين الذين يريدون أن يأكلوا أموال الناس بالباطل، وهذا العمل لا شك في تحريمه وأنه منكر، وليس من جنس الكلاب البوليسية.

وأما صاحب الضالة فيمكن أن يسلك طريقا آخر في تتبع الآثار المعروفة عند العرب، وجاءت بها الشريعة لعله يجد ضالته أو عبده الآبق وما أشبه ذلك.

وأما القتيل الذي جهل قاتله فيمكن أيضا التعرف عليه بطرق أخرى، بسؤال أهل المعرفة بالحادث ومن كان حول مكان الحادث وما أشبه ذلك من الطرق.

أما استعمال هذه الحديدة فهذا شيء باطل لا أساس له، ولا يقاس هذا على الكلاب البوليسية؛ لأن الكلاب البوليسية لها أشياء أخرى من جهة التعرف على المجرمين بالشم والرائحة.

(باب العذر بالجهل)

هل كل من وقع في الكفر يكفر، أو في الفسق يفسق، أو في البدعة يبدع، أو في أمرٍ لعن فاعله يلعن؟

بعض ممن يتزين بزي أهل العلم في هذا الزمان زلت أقدامهم في هذه المسألة ونسبوا لأهل السنة ما هم براء منه، ووقعوا في أعراض إخوانهم من المسلمين تكفيرًا أو تبديعًا أو تفسيقًا بلا حجة ولا برهان، فلابد من بسط القول في هذه المسألة.

وبيان ذلك أن يقال: من المعلومات البديهية الاضطرارية أن هناك فرقًا بين الفعل والفاعل، فالفعل هو الحدث، والفاعل هو المحدث للحدث، فقولنا: (أكل محمد) فهنا فعل وفاعل، فالفعل هو الأكل، والفاعل هو محمد، وإن من السفسطة في العقليات أن تقول: الفعل هو الفاعل، أي أن الأكل هو محمد، ومحمد هو الأكل وأن الحدث هو المحدث، والمحدث هو الحدث، وهذا لا أظنه يصدر إلا ممن سقط عنه التكليف لآفةٍ في عقله، بل لا أظن المجنون يقول هذا، ولذلك فرق النحاة بين الفعل والفاعل، وكذلك علماء الشريعة أيضًا فرقوا بين الفعل والفاعل، بحيث قد يوصف الفعل بأوصافٍ لا تتعداه إلى فاعله، بل لا يجوز وصف الفاعل بها، وقبل الدخول في الأدلة أذكر أولًا القاعدة المقررة

عند أهل السنة والجماعة في هذا الباب، وهي قولهم: ليس من فعل الكفر يكفر، أو البدعة يبدع، أو الفسق يفسق، أو المعصية يأثم، إلا بعد توفر الشروط وانتفاء الموانع، هذا هو قولهم الذي لا يجوز نسبة غيره إليهم، فإذا فعل الإنسان كفرًا أو بدعة أو فسقًا فلابد من النظر إلى هذه المسألة باعتبارين:

الأول: باعتبار الفعل لذاته بِغَضِّ النظر عن فاعله ويعطى هذا الفعل حكمًا يخصه لا يتعداه إلى فاعله، فالكفر كفر، والبدعة بدعة، والفسق فسق، والمعصية معصية، فإذا عرفنا حكم الفعل فننظر الاعتبار الثاني وهو الفاعل، فنسأل أنفسنا: هل ينطبق حكم الفعل على الفاعل؟ الجواب: لا إلا إذا توفرت شروط انطباقه وانتفت موانعه، فقد يكون الفعل كفرًا لكن لا يكفر الفاعل لتخلف شرطٍ أو وجود مانع، وقد يكون الفعل بدعة، لكن فاعلها لا يبدع لاختلال شرط أو وجود مانع، وهكذا في الفسق والمعصية، إذًا لا تلازم بين حكم الفعل وفاعله لذاتهما، وإنما يتم التعلق بينهما بتوفر شروط معينة وانتفاء موانع معينة، إذا علم هذا فإليك الأدلة الدالة على صحة ذلك:

فمن الأدلة: حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (٤/ ٢١٠٤، رقم ٢٧٤٧) قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب من أحدكم كان على راحلته بأرضٍ فلاة ... إلى أن قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك) ففي هذا الحديث لابد من التفريق بين أمرين: بين الفعل والفاعل، فأما الفعل فهو كفر ولاشك إذ فيه تعبيد الرب وتربيب العبد، وهذا كفر، لكن هل كفر الفاعل؟ الجواب: لا لم يكفر لوجود مانعٍ وهو شدة الفرح التي أغلقت على عقله فلم يعرف معنى ما يقول، فلو كان هناك تلازم ذاتي بين الفعل والفاعل لكفر ذلك الرجل، لكن ليس كل من قال الكفر أو فعله حكم عليه بمقتضاه

وهذا واضح، فالفعل في الحديث له حكم والفاعل له حكم آخر، والله أعلم.

ومنها: أن معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قدم من الشام سجد بين يدي النبي ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: (ما هذا يا معاذ؟ قال: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك فقال رسول الله ﷺ فلا تفعلوا فإني لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي -وقال عنه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة حسن صحيح، وبعضهم قال فيه مقال، لكن على كل حال فإنه متوافق مع الأصول لا مخالف لها، فعندنا فعل وفاعل، فأما الفعل فهو السجود لغير الله تعالى، وهذا كفر لا يختلف فيه أحد من أهل العلم، وأما الفاعل الذي هو معاذ فحاشاه أن ينطبق عليه حكم فعله، ولذلك لم يحكم النبي ﷺ عليه بمقتضى فعله، بل عذره لأنه جاهل بالحكم، ففرق ﷺ بين الفعل والفاعل، فأما الفعل فأنكره بقوله: (فلا تفعلوا) وأما الفاعل فتثبت فيه وقال: (ما هذا يا معاذ)؟ فيا ليت أهل زماننا يفقهون هذا الأدب ولا يستعجلون في أمر جعل الله فيه سعة.

الثالث: حديث أبي هريرة في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (كان في من كان قبلكم رجل أسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي فحضرته الوفاة فقال لأولاده إذا مت فأحرقوني ثم ذروني في يوم ريح حتى لا يقدر عليَّ ربي فيعذبني، فبعثه الله بين يديه فقال ما حملك على ما قلت؟ فقال خوفك فقال أشهدكم أني قد غفرت له) فهذا الرجل قد وقع في أمرين عظيمين الأول إنكار البعث، والثاني إنكار القدرة، وهما كفر صريح، فالفعل كفر ولاشك، لكن هذا الرجل لم ينطبق عليه حكم فعله بدليل آخر الحديث، وذلك لوجود مانع وهو الجهل فجعل ذلك الجهل مانع من كفره وهو صريح في أنه لا تلازم بين الوقوع في الكفر

والحكم على الفاعل بمقتضاه وما ذلك إلا دليل على وجوب التفريق بين الفاعل والفعل.

الرابع: ما فعله حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنه لما همَّ النبي ﷺ بغزو قريش كتب حاطب كتابًا لهم يخبرهم بمسير الرسول ﷺ إليهم وأرسله مع ظعينة من فوضعته في قرونها، فجاء الخبر من السماء، فأرسل النبي علي بن أبي طالب والمقداد والزبير وأخبرهم بخبر هذه الظعينة وأنهم يجدونها في روضة خاخ، فأدروكها تسير على بعير لها في ذلك المكان، فسألوها عن الكتاب، فقالت ليس معي كتاب قال فأنخناها فتلمسنا فلم نرى كتابًا فقلنا ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك، فلما رأت الجد أهوت إلى حجرتها وهي متحجرة بكساء فأخرجته، فجاءوا به رسول الله ﷺ فدعا حاطبًا فقال ما هذا يا حاطب؟ فقال والله ما بي إلا أن أكون مؤمن بالله ورسوله أردت أن تكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي فقال صدق ولا تقولوا له إلا خيرًا فقال عمر دعني أضرب عنق هذا المنافق، إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فقال رسول الله ﷺ إنه قد شهد بدر وما يدريك لعل الله أطلع على من شهد بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فدمعت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم) رواه البخاري.

فانظر إلى هذا الحديث العظيم فإن حاطبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقع في أمر خطير وهو التجسس على جيوش المسلمين وموالاة الكفار ظاهرًا وهي معصية قد تصل بصاحبها إلى الكفر، إلا أنها في حق حاطب ليست بكفر؛ لأنه نفى عن نفسه موالاة الكفار في الباطن، فهي معصية فقط، ولهذا اعتبرت مكفرة في حقه؛ لأنه من أهل بدر الذين غفر الله لهم ولو كان كفرًا لما كفره حضوره بدرًا؛ لأن الكفر

والشرك لا تكفره إلا التوبة النصوح، فعذره النبي ﷺ وأمرهم ألا يقولوا له إلا خيرًا؛ لأن حكم فعله وهو المعصية لم ينطبق عليه، فحاطب لم يسمى عاصيًا بهذا الفعل بل فعله معصية، وفرق بين قولنا فعل معصية وقولنا وهو عاصٍ، فإن ما فعله حاطب لم يصبه حكمه لوجود المانع وهو شهوده بدر، فإن شهوده بدرًا جعل كالكفارة لهذه المعصية، والله أعلم.

الخامس: ما ورد في تفسير قوله تعالى: {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان} الآية، فقد روى غير واحدٍ من أصحاب الكتب المعتمدة أن عمارًا عذبته قريش عذابًا شديدًا لينال من رسول الله ﷺ فنال منه مكرهًا فأتى رسول الله ﷺ باكيًا فقال له ما يبكيك يا عمار؟ فقال فعلوا بي كذا وكذا من العذاب على أن أنال منك فنلت منك. فقال له يا عمار كيف تجد قلبك؟ قال مطمئنًا بالإيمان فقال إن عادوا فعد).

فهنا فعل وفاعل، فأما الفعل فهو النيل من الرسول ﷺ أي بالسب والشتم، وهذا الفعل لاشك أنه كفر، وأما الفاعل الذي هو هنا عمار بن ياسر رضي الله عنهما فلاشك أنه لم ينطبق عليه حكم هذا الفعل، وذلك لوجود مانع وهو الإكراه بالتعذيب الشديد، فمجرد وقوع عمار رضي الله عنه في فعل هو كفر لم يستلزم ذلك أن يكفر؛ لأنه لا تلازم بين حكم الفعل وحكم الفاعل، فالفعل شيء والفاعل شيء آخر، فلو أن من قال الكفر أو فعله انطبق عليه حكم قوله أو فعله مباشرة لاستلزم ذلك كفر من تقدم في الأدلة وهذا ضلال وخطأ عظيم والنجاة منه هو المعرفة التامة أن لا تلازم بين الفعل والفاعل كما هو مقتضى هذه القاعدة، والله أعلم.

السادس: أن الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه كانوا

يعتقدون أن ديار الإسلام ديار كفر وحرب واستباحوا ديار المسلمين وفعلوا بهم الأفاعيل، ومع ذلك لم يثبت عن أحدٍ من الصحابة والسلف فيما أعلم أنه كفرهم بهذه الأفعال والاعتقادات التي هي في ذاتها كفر، فإن استباحة الحرام المعلوم حرمته من الدين بالضرورة كفر، وهم استحلوا دماء المسلمين وديارهم وأموالهم ومع ذلك لم يكفرهم أحد فيما أعلم، بل أنزلهم الصحابة منزلة البغاة الخارجين على ولي الأمر فلم يجهزوا على جريحهم ولم يتبعوا مدبرهم ولم يستحلوا أموالهم؛ لأنهم مسلمون مع أن النبي ﷺ أمر بقتالهم وقتلهم وأخبر أنهم كلاب النار وتوعد لإن هو أدركهم ليقتلنهم قتل عاد، ولكن لم يكفرهم الصحابة والسلف الصالح لوجود مانع من موانع التكفير وهو التأويل، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا سئل عنهم أكفار هم؟ قال من الكفر فروا وإنما هم إخوان لنا بغوا علينا، أو كما قال.

فإذًا لابد من التفريق بين الفعل والفاعل كما فعل الصحابة مع الخوارج فإنهم نظروا إلى فعلهم بنظر ونظروا إلى ذواتهم بنظرٍ آخر وهذا شبه إجماع على صحة هذه القاعدة، والله أعلم.

السابع: أن رجلًا من الصحابة يقال له عياض بن حمار، وكان شاربًا للخمر، فكان كثيرًا ما يؤتى به فيجلد فيها، فأتي به مرة فنال منه بعض الحاضرين فزجره النبي ﷺ وقال (إني لا أعلم إلا أنه يحب الله ورسوله) أو كما قال ﷺ، فانظر إلى هذا الحديث مع قوله ﷺ (لعنت الخمرة على عشرة أوجه وذكر منها وشاربها)، فالشارب لها ملعون، ومع ذلك أنكر النبي ﷺ على ذلك الذي لعن عياضًا، وذلك يدل على التفريق بين الفعل والفاعل، فلاشك أن شرب الخمر موجب للعنة، لكن شارب الخمر لا نتعرض له بلعنة ولا سب وإنما نقيم عليه

الحد فقط، فالشرب شيء والشارب شيء آخر، واللعن العام شيء ولعن المعين شيء آخر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٦/ ٥١١): واللعنة تجوز مطلقا لمن لعنه الله ورسوله، وأما لعنة المعين فإن علم أنه مات كافرا جازت لعنته، وأما الفاسق المعين فلا تنبغي لعنته لنهي النبي ﷺ أن يلعن عبد الله بن حمار الذي كان يشرب الخمر، مع أنه قد لعن شارب الخمر عموما، مع أن في لعنة المعين إذا كان فاسقا أو داعيا إلى بدعة نزاعا " اهـ" انتهى.

قال شيخ الإسلام أيضا رحمه (١٠/ ٣٢٩): فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب لكونه يحب الله ورسوله، مع أنه ﷺ لعن في الخمر عشرة. ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة به، وكذلك التكفير المطلق والوعيد المطلق. ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطًا بثبوت شروط وانتفاء موانع.اهـ..

الثامن: أنه لما ظهرت الفتنة بالقول بخلق القرآن تولى كبرها المأمون –عفا الله عنه– مع المعتزلة وساموا فيها المسلمين عامة وعلمائها العذاب حتى استجاب خلق كثير وصمد بعض الأئمة من أبرزهم الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه إمام أهل السنة والجماعة، وقال كلمته المشهورة: (من قال بخلق القرآن فهو كافر) وأجمع على ذلك أهل السنة والجماعة، ومع ذلك فقد ثبت عنه أنه كان يصلي وراء المأمون ويدعو له واستغفر له في آخر حياته وحلله وسرى فعله هذا بين علماء أهل السنة ولم ينكره منهم أحد ممن يعتد به مما يدل على أن الفعل شيء والفاعل شيء آخر، فقولهم: (من قال بخلق القرآن فهو كافر) إنما هو منصب على الفعل فقط، لكن لو جاءنا رجل يقول بخلق القرآن فهذا شيء آخر

فلا نحكم عليه بمقتضى فعله إلا بعد قيام الشروط وانتفاء الموانع، بل إني لا أعلم أحدًا من أهل السنة كفر الأشاعرة مع نفيهم لكثير من صفات الله، وقد قال أهل السنة: ومن جحد صفة من صفات الله كفر، ولا أعلم أحدًا كفر المعتزلة مع نفيهم للصفات جملة وتفصيلًا وقولهم بخلق القرآن، وهذا يفيد أن التكفير العام لا يستلزم انطباقه على كل فردٍ من أفراده، فالعام شيء والمعين شيء آخر، والفعل شيء والفاعل شيء آخر.

التاسع: أن قدامة بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شرب الخمر متأولًا على عهد عمر بن الخطاب فجيء به إليه فقال (أتشربها وأنت من أصحاب رسول الله ﷺ، فاحتج بقوله تعالى {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... } الآية فقال عمر لو اتقيت الله ما شربتها، فأقام عليه الحد، ومع ذلك فإنه لم يتعرض له أحد من الصحابة بشيء من التفسيق أو التبديع مما يدل على التفريق بين الفعل والفاعل، والأدلة على ذلك كثيرة.

فهذه الأدلة تفيدك - إن شاء الله تعالى - إفادة قطعية التفريق بن الفعل والفاعل، وأنه ليس كل من فعل الكفر كفر، أو البدعة بدع، أو الفسق فسق، أو المعصية أثم، ولذلك فنحن نقرر في كثير من المناسبات أنه لا يؤثر فعل المنهي عنه إلا بذكر وعلم وإرادة.

فإن قلت: فما هي هذه الشروط التي تقول عنها إلا بتوفر الشروط وانتفاء الموانع؟ أقول: هي مقررة عند أهل العلم وأسوقها لك باختصار، وهي كما يلي:

الأول: العقل، وضده الجنون، فالعقل شرط، والجنون مانع، وبناءً عليه فلو أن فاعل ذلك ليس بعاقل فإنه لا ينطبق عليه حكم فعله.

الثاني: البلوغ، وضده الصغر، فالبلوغ شرط، والصغر مانع، وبناءً عليه فلو أن فاعل ذلك كان صغيرًا فإنه لا ينطبق عليه حكم فعله.

الثالث: العلم، وضده الجهل، فالعلم شرط، والجهل مانع، وبناءً عليه فلو أن فاعل ذلك كان جاهلًا جهلًا يعذر فيه فإنه لا ينطبق عليه حكم فعله.

الرابع: الاختيار، وضده الإكراه، فالاختيار شرط والإكراه مانع، وبناءً عليه فلو كان أن فاعل ذلك كان مكرهًا فإنه لا ينطبق عليه حكم فعله.

الخامس: القصد، وضده قول الشيء أو فعله غفلة ونسيانًا أي بلا قصد، وبناءً عليه فلو أن فاعل ذلك لم يكن قاصدًا فإنه لا ينطبق عليه حكم فعله.

السادس: عدم التأويل، وضده وجود التأويل، وبناءً عليه فلو أن فاعل ذلك كان متأولًا تأويلًا سائغًا فإنه لا ينطبق عليه حكم فعله.

إذا علمت هذا فاعلم: أن هذا الكلام إنما هو في انطباق حكم الفعل على فاعله، وأما التكفير أو التبديع بالوصف العام أو الأعم فإنه جائز بإجماع أهل السنة.

وأما تكفير المعين ولعنه وتفسيقه فإن القول الصحيح فيه عند أهل السنة أنه لا يتحقق فيه إلا بعد توفر هذه الشروط السابقة وانتفاء الموانع، والذي جعلني أنبه على هذه المسألة المهمة أمران:

الأول: أن بعض الناس ينسب إلى أهل السنة جواز تكفير المعين مطلقًا، كمن نسب إلى الإمام الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب أنه يقول بذلك، وهذا خطأ على أهل السنة وتقويل للشيخ ما لم يقله، بل الشيخ محمد - رحمه الله تعالى - موافق في هذه لأهل السنة، بل هو سيد من سادات أهل السنة والجماعة وإمام من الأئمة، ونصوصه في ذلك مشهورة معروفة عند من يقرأ

كتب الشيخ ورسائله الشخصية، بل قد ألف كتابًا حافلًا في هذه المسألة بعينها.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما في الفتاوى والمسائل (٣/ ١١): في رسالته للشريف: واما الكذب والبهتان مثل قولهم أنا نكفر بالعموم ونوجب الهجرة إلينا على من قدره على إظهار دينه وإنا نكفر من لم يكفر ولم يقاتل ومثل هذا واضعاف اضعافه وكل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به عن دين الله ورسوله وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبة عبد القادر والصنم الذي على قبر أحمد البدوي وأمثالهما لا جل جهلهم وعدم من ينبههم فكيف نكفر من لم يشرك بالله او لم يهاجر إلينا ولم يكفر ويقاتل (سبحانك هذا بهتان عظيم).

وقال في نفس المصدر (٣/ ٩): ونكفره بعد التعريف إذا عرف وأنكر.

وقال في نفس المصدر (٣/ ٣٧): والذي يدعي الإسلام وهو يفعل من الشرك الأمور العظام، فإذا عليت عليه آيات الله استكبر عنها فليس هذا بالمسلم، وأما الإنسان الذي يفعلها بجهالة، ولم يتيسر له من ينصحه، ولم يطلب العلم الذي أنزله الله على رسوله، بل أخلد إلى الأرض واتبع هواه فلا أدري ماحاله.

وقال في نفس المصدر (٣/ ١٢): علمًا أن من لم تقم عليه الحجة هو حديث العهد بالإسلام، والذي نشأ ببادية، أو يكون ذلك في مسألة خفية، مثل الصرف والعطف فلا يكفر حتى يعرف.اهـ.

وكذلك من نسب إلى شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يقول بذلك، فقد أخطأ على الشيخ خطأ بالغًا، بل قد نص هو - رحمه الله تعالى - أنه لا يكفر المعين إلا بعد ثبوت الشروط وانتفاء الموانع، وبالجملة فهذا أصل متفق عليه عند

جميع أهل السنة، وكل من يثبت عنه منهم أنه كفر أحدًا بعينه فإنما ذلك لثبوت الشروط عنده وانتفاء موانعه، والله أعلم.

الثاني: كثيرًا ممن ينتسب للعلم والفقه يستدل على كفر المعين بالدليل العام فيقول مثلًا: فلان يقول بخلق القرآن فهو إذًا كافر؛ لأن من قال بخلق القرآن فهو كافر، وهذا خطأ، فكلام الأئمة هذا عام، وأنت تريد أن تستدل على كفر المعين، فالذين قالوا هذه العبارات العامة لم يقصدوا انطباقها على كل قائليها، وإنما هو بيان منهم لحكم القول نفسه أو الفعل نفسه ويبقى انطباقها على أحدٍ بعينه مفتقرًا لاجتهادٍ آخر.

(تنبيه): فإن قيل: ما الجهل الذي يعذر به صاحبه، وهل يعم مسائل الاعتقاد والعمل، أم هو خاص بمسائل العمل فقط؟

وهذه المسألة مما كثر الكلام فيها وتشعبت فيه الآراء وتباينت فيها المذاهب وابتعد البعض عن ربط هذه المسألة بالكتاب والسنة، فجاءوا بأقوالٍ ممجوجة مخالفة للوحيين.

فاعلم - رحمك الله تعالى - أنه لا تكليف إلا بعلم، وهذه قاعدة كبرى من قواعد أهل السنة والجماعة، والأدلة عليها كثيرة جدًا وسيمر بنا طرف صالح منها إن شاء الله تعالى، ولذلك جعل الأصوليون رحمهم الله تعالى من شروط الشيء المكلف به أن يكون معلومًا لدى المكلف، أي أن يعلم المكلف أنه مأمور به أو منهي عنه ويعلم ما هيته وحقيقته الشرعية وما يتعلق به من صحة أو فساد ونحو ذلك، إذا علمت هذا فإليك الأدلة الدالة على هذا الأصل العظيم، فأقول:

الأول: قوله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا} فنفى الله تعالى

عن نفسه أن يعذب أحدًا قبل بعثة رسولٍ يهدي الناس للصراط المستقيم هداية دلالة وإرشاد ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويعلمهم ما يعبدون به ربهم ويقيم الحجة عليهم، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، أما قبل بعثة الرسول فلا عذاب ولا عقاب؛ لأن الناس حينئذٍ في جهل وضلال لا يعرفون ما أمرهم الله به وما نهاهم عنه والعقول لا تستقل بإدراك الشرع، فقبل بعثة الرسول لا عذاب؛ لأنه لا تكليف وبعد بعثته ثبت التكليف لوجود العلم حينئذٍ، إذًا لا تكليف إلا بعلمٍ ولا عقوبة إلا بعد إنذار.

وقال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} النساء:١٦٥.

وقال: {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ} الملك:٨ – ٩.

وقال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ أَلَمْ يَاتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي} الأنعام:١٣٠.

وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى} طه:١٣٤.

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:" لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين".

قال ابن كثير في التفسير (٣/ ٣١): إخبار عن عدله تعالى وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه .. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله عز وجل لا يدخل النار أحدًا إلا بعد إرسال الرسول إليه.اهـ..

وقال البغوي (٢/ ١٣٢): وذلك أن الله تعالى أجرى السنة أن لا يأخذ أحدًا إلا بعد وجود الذنب، وإنما يكون مذنبًا إذا أمر فلم يأتمر أو نهي فلم ينته، وذلك بعد إنذار الرسل. وقال أيضا (١/ ٥٠٠): وفيه دليل على أن الله تعالى لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسول.اهـ..

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ١٦٣): في تأويل قوله تعالى: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} الأنعام:١٣١. المعنى أن الله أرسل الرسل إلى عباده لأنه لا يهلك من عصاه بالكفر من القرى، والحال أنهم غافلون عن الإعذار والإنذار بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، بل إنما يهلكهم بعد إرسال الرسل إليهم، وارتفاع الغفلة عنهم بإنذار الأنبياء لهم.اهـ.

قلت: إذا كان الله سبحانه وتعالى لا يعذب عباده في الحياة الدنيا وهو العذاب الأدنى إلا بعد بلوغ نذارة الرسل إليهم .. فمن باب أولى كما دلت على ذلك نصوص عدة أن لا يعذبهم العذاب الأكبر يوم القيامة إلا بعد بلوغ نذارة الرسل إليهم .. فيقابلونها بالرد والإعراض.

قال الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان (٢/ ٣٣٦ - ٣٣٨): والآيات القرآنية مصرحة بكثرة بأن الله تعالى لا يعذب أحدًا حتى يقيم عليه الحجة بإنذار الرسل، وهو دليل على عدم الاكتفاء بما نصب من الأدلة، وما ركز في الفطرة، فمن ذلك قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} فإنه قال فيها: حتى نبعث رسولًا، ولم يقل حتى نخلق عقولًا، وننصب أدلة، ونركز فطرة.

ومن ذلك قوله تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} فصرح بأن الذي تقوم به الحجة على الناس، وينقطع به عذرهم هو إنذار الرسل، لا نصب الأدلة والخلق على الفطرة.

ومن ذلك أنه تعالى صرح بأن جميع أهل النار قطع عذرهم في الدنيا بإنذار الرسل ولم يكتف في ذلك بنصب الأدلة، كقوله تعالى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ} الملك:٩.

وقوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَاتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} الزمر:٧١.

ومعلوم أن لفظة "كلما " في قوله: {كلما ألقي فيها فوج} صيغة عموم، وأن لفظة " الذين " في قوله: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا} صيغة عموم أيضًا، لأن الموصول يعم كل ما تشمله صلته ا- هـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ أيضا (٣/ ٤٧٣): {وسيق الذين كفروا} عام لجميع الكفار، وقد تقرر في الأصول: أن الموصولات كالذي والتي وفروعهما من صيغ العموم في كل ما تشمله صلاتها .. إلى أن قال: وهو ظاهر في أن جميع أهل النار قد أنذرتهم الرسل في دار الدنيا؛ فعصوا أمر ربهم كما هو واضح.اهـ..

وفي قوله تعالى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَاتِكُمْ نَذِيرٌ} قال كذلك رَحِمَهُ اللهُ ـ أي الشنقيطي ـ: هذه الآية تدل على أن الله تعالى لا يعذب بالنار أحدًا إلا بعد أن ينذره في الدنيا .. ومعلوم أن قوله جل وعلا: {كلما ألقي فيها فوج} يعم جميع الأفواج الملقين في النار.

وقال أبو حيان في " البحر المحيط " في تفسير هذه الآية التي نحن في صددها ما نصه: و"كلما " تدل على عموم أزمان الإلقاء فتعم الملقين ا- هـ.

قلت: والمراد بالعموم هنا؛ أي جميع من يدخلون النار من أهل الكفر ومن دون استثناء فإنهم يقرون ويعترفون أن نذارة الرسل قد بلغتهم فقابلوها بالرد والإعراض، والجحود .. وأنهم ما دخلوا النار إلا بعد بلوغ نذارة الرسل إليهم ومما يدل على ذلك قوله تعالى: {وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا} أي جميع وعموم الذين اتقوا ربهم من دون استثناء .. وهي نفس صيغة العموم الواردة في قوله تعالى: {وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا} فكما لا يجوز أن نقول أن المراد من قوله {وسيق الذين اتقوا .. } بعض أو غالب الذين اتقوا وليس كل الذين اتقوا، كذلك لا يجوز أن نقول أن المراد من قوله تعالى {وسيق الذين كفروا .. } بعض أو غالب الذين كفروا؛ لتطابق الآيتين واللفظين من حيث صيغة العموم العامة والشاملة لجميع الذين اتقوا وجميع الذين كفروا.

قال الألوسي في تفسيره: واستدل بالآية على أنه لا تكليف قبل الشرع لأنهم وبخوهم بكفرهم بعد تبليغ الرسل للشرائع وإنذارهم .. وقيل وجه الاستدلال: إن الخطاب للداخلين عمومًا يقتضي أنهم جميعًا أنذرهم الرسل، ولو تحقق تكليف قبل الشرع لم يكن الأمر كذلك.اهـ..

وكذلك قوله تعالى: {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ. قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ} قّ:٢٨. أي قدمت إليكم بالوعيد والنذر عن طريق رسلي الذين أرسلتهم إليكم قبل أن تقفوا هذا الموقف العصيب الأليم، وتختصموا فيه وبالتالي فإن اختصامكم وتلاومكم الآن وبعد أن فات الأوان لا ينفعكم في شيء.

قال ابن جرير في تفسيره (٢٦/ ١٦٨): {وقد قدمت إليكم} في الدنيا قبل اختصامكم هذا بالوعيد لمن كفر بي وعصاني وخالف أمري ونهيي، في كتبي

وعلى ألسن رسلي. قال ابن عباس: إنهم اعتذروا بغير عذر، فأبطل الله حجتهم، ورد عليهم قولهم.اهـ.

وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ. قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَاتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ} غافر:٤٩ – ٥٠.

قوله تعالى: {وقال الذين في النار .. } هي أيضًا من صيغ العموم التي تفيد الاستغراق والعموم التي تعم جميع الذين في النار؛ أي قال جميع الذين في النار ومن دون استثناء {بلى} قد جاءتنا رسلنا بالبينات والنذر والآيات .. !

قال الألوسي في التفسير: {وقال الذين في النار} من الضعفاء والمستكبرين جميعًا لما ضاقت بهم الحيل، وعيت بهم العلل ..اهـ.

وكذلك قوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ أَلَمْ يَاتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} الأنعام:١٣٠.

قوله تعالى: {وقالوا شهدنا على أنفسنا} أي شهدوا على أنفسهم أن حجة الرسل قد بلغتهم وهذا خطاب موجه لجميع الإنس والجن يفيد كذلك العموم لا الغالب؛ لأن الجمع المعرف بأل يفيد العموم والاستغراق؛ أي جميع الجن والإنس يعترفون ويقرون بأن نذارة الرسل قد بلغتهم.

قال ابن كثير في التفسير: {شهدنا على أنفسنا} أي أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة.اهـ..

قال شيخ الإسلام ابن تيميه في مجموع فتاواه (١١/ ٤٠٦): من الناس من يكون جاهلًا ببعض هذه الأحكام جهلًا يُعذر به، فلا يحكم بكفر أحد حتى تقوم

عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة كما قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} . وقال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} ، ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه، أو لم يعلم أن الخمر يحرم، لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا وتحريم هذا، بل ولم يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية، والصحيح الذي تدل عليه الأدلة الشرعية أن الخطاب لا يثبت في حق أحد قبل التمكن من سماعه، وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرًا مما بعث الله به رسوله ولا يكونه هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر ولهذا اتفق الأئمة على أنه من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام فأنكر شيئًا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره، حتى يعرف ما جاء به الرسول.اهـ.

وقال ابن حزم في الأحكام (٥/ ١٠٤ - ١١٤): وأما شرائع الأبدان والاعتقاد فإنها تجب بوجهين: أحدهما البلوغ مبلغ الرجال والنساء، وهو البلوغ المخرج عن حد الصبا، والثاني بلوغ الشريعة إلى المرء، وأما الحدود فإنها تلزم من عرف أن الذي فعل حرام، وسواء علم أن فيه حدًا أم لا، وهذا لا خلاف فيه. وأما من لم يعرف أن ما عمل حرام فلا حد عليه فيه، وبرهان ذلك قوله تعالى: { وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} الأنعام:١٩. فإنما جعل الله تعالى وجوب الحجة ببلوغ النذارة إلى المرء، وقال تعالى: {وأعرض عن الجاهلين} . فأمر أن يهدر فعل الجاهل، إلى أن قال: أما من لم يبلغه ذكره ﷺ، فإن كان موحدًا فهو مؤمن على الفطرة الأولى صحيح الإيمان لا عذاب

عليه في الآخرة، وهو من أهل الجنة، وإن كان غير موحد فهو من الذين جاء النص بأنه يوقد له يوم القيامة نار، فيؤمرون بالدخول فيها، فمن دخلها نجا، ومن أبى هلك. قال الله ﷻ: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} الإسراء:١٥. فصح أنه لا عذاب على كافر أصلًا حتى تبلغه نذارة الرسول ﷺ.اهـ..

الثاني: قوله تعالى: {ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به} والقول بثبوت التكليف قبل العلم فيه تحميل لنا ما لا نطيق وهو منتفٍ شرعًا، إذ كيف تكلف بأمرٍ لا تعلمه، فهذا داخل تحت تكليف ما لا يطاق وليس في الشريعة الإسلامية شيء من التكاليف لا يطاق ولله الحمد، فالعدل الرباني يقتضي أنه لا تكليف إلا بعلم ولا عذاب إلا بعد إنذار، والله أعلم.

الثالث: حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه في فهمه لقوله تعالى: {حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر}، والشاهد منه أنه ﷺ لم يأمره بقضاء ذلك اليوم لعدم علمه بمراد الآية فارتبط التكليف بالعلم، فعدي رضي الله عنه كان جاهلًا بمراد الآية فصار جهله عذرًا عند الشارع.

الرابع: حديث ابن عمر في الصحيحين أن رجلًا صلى مع النبي ﷺ صلاة الصبح فمر على قوم في مسجد قباء وهم يصلون لغير القبلة، فقال إن النبي ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها فاستداروا كما هم إلى الكعبة)، ووجه الاستشهاد منه أنهم افتتحوا الصلاة للقبلة المنسوخة ومن شروط الصلاة استقبال القبلة، فلما بنوا على صلاتهم ولم يستأنفوها ولم يأمرهم ﷺ بقضاء هذه الصلاة دل ذلك على أنه عذرهم لعدم علمهم بالناسخ، فدل على أن الجهل بالحكم عذر فلا تكليف إلا بعلم، ويزاد على هذا أن خبر تغيير القبلة إذا كان تأخر وصوله إلى من بجوار المدينة كمن في بقاء، فإنه يعلم

يقينًا من باب أولى أنه لن يصل إلى من بمكة أو ممن بالحبشة إلا متأخرًا، ومع ذلك لم يأمر أحدًا منهم بقضاء أو إعادة مما يدل على أن الجميع يعذرون بجهلهم، فدل على أن الجهل عذر وأنه لا تكليف إلا بعلم ولا عقوبة إلا بعد إنذار، والله أعلم.

الخامس: أن النبي ﷺ (أهدى إليه رجل زق خمر فقال ﷺ ألم تعلم أنها حرمت، قال ففتح الرجل الزق فأراقه) وهو عند مسلم. فهذا الرجل جاء بهذا الخمر يهديه للنبي ﷺ بعد نزول التحريم، ومع ذلك لم يعنف على الرجل ولم يؤثمه لجهله فصار جهله عذرًا مقبولًا مما يدل على أنه لا تكليف إلا بالعلم.

السادس: في الصحيحين من حديث أنس (أن أعرابيًا دخل المسجد فبال فنهره الصحابة رضي الله عنهم فقال رسول الله ﷺ لا تزرموه ودعوه فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ بذنوبٍ من ماءٍ فأهريق عليه) فلاشك أن للمسجد حرمته وقدسيته لاسيما الحرمين، مسجد مكة والمدينة وهذه الواقعة وقعت في مسجد المدينة مع أن النبي ﷺ (غضب لما رأى بزاقًا في المسجد حتى احمر وجهه وأمر بحكها ودفنها)، وقال أيضا (البزاق في المسجد خطيئة، وكفارتها دفنها)، وهذا الأعرابي يأتي يبول في ثاني الحرمين الشريفين لاشك أنه فعل يستحق صاحبه العقوبة البليغة التي تردعه من ذلك، لكن لم يحصل شيء من ذلك؛ لأن الأعرابي لم يقصد شيئًا من ذلك وإنما فعل ذلك جاهلًا الحكم فعذره النبي ﷺ لجهله مما يدل على أن الجهل بالحكم عذر شرعي، ولذلك علمه الحكم بعده، فقال له (إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من هذا الأذى والقذر إنما هي للصلاة والتسبيح والتهليل وقراءة القرآن) والله أعلم.

السابع: روى مسلم بسنده عن معاوية بن الحكم السلمي (أنه صلى مع

النبي ﷺ فعطس رجل من القوم فقال معاوية يرحمك الله قال فرماني القوم بأبصارهم فقلت واثكل أمياه ماذا صنعت فجعلوا يضربون على أفخاذهم فلما انصرف النبي ﷺ فبأبي هو وأمي والله ما رأيت معلمًا قط أفضل منه فوالله ما كهرني ولا نهرني ولكن قال إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما التسبيح والتكبير وقراءة القرآن) وهذا مع أنه قد تقرر أن الكلام في الصلاة مبطل لها؛ لأن في الصلاة شغلًا وأن الله يحدث من أمره ما يشاء وإنه مما أحدث ألا يتكلم في الصلاة، لكن ومع كلام معاوية في الصلاة أكثر من مرة لم يأمره النبي ﷺ بالإعادة، فدل ذلك أن كلامه هذا لا أثر له وذلك لجهله بالحكم فجعل جهله مانعًا من إبطال الصلاة مما يدل على أن الجهل بالحكم عذر من الأعذار الشرعية وأنه لا تكليف إلا بعلم.

الثامن: روى البخاري ومسلم من حديث عمار بن ياسر (أن النبي ﷺ بعثه في حاجة فأجنبت قال فتمرغت في الصعيد كما تتمرغ الدابة فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا ...) الحديث، وفي بعض الروايات الصحيحة أنه كان معه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنه لم يصل، فعندنا عدة أمور:

منها: أن الطهارة الشرعية صفتها توقيفية وما فعله عمار ليس هو التيمم الشرعي فلما صلى بهذا التيمم فكأنه صلى بغير طهارة ومع ذلك لم يأمره النبي ﷺ بإعادة هذه الصلوات التي صلاها بهذه الطهارة، مما يدل على أن النبي ﷺ عذر عمارًا لجهله، فدل ذلك على أنه لا تكليف إلا بعلم.

ومنها: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقي هذه المدة ولم يصل ولم ينقل أن النبي ﷺ أمره بقضاء ذلك؛ لأن عمر كان يجهل أن التيمم رافع للحدث الأكبر، فعد النبي ﷺ

جهله هذا مانعًا من تكليفه أي من أمره بالقضاء مما يدل على أن الجهل بالحكم عذر شرعي يعذر الإنسان به في ترك الواجب أو فعل المحرم.

التاسع: قوله تعالى: {لأنذركم به ومن بلغ}، وقوله: {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} ومثل هذا في القرآن كثير ومتعدد، ليبين سبحانه أنه لا يعاقب أحدًا حتى يبلغه ما جاء به الرسول ﷺ.

العاشر: حديث المستحاضة وهن ثلاث: حمنة بنت جحش، وفاطمة بنت أبي حبيش، وزينب بنت جحش، وفي هذه الأحاديث أن أمر الاستحاضة يشكل على إحداهن حتى تدع الصلاة، ففي حديث فاطمة أنها قالت: إني امرأة أستحاض فلا أطهر أندع الصلاة، وفي حديث حمنة: إني أستحاض حيضة كثيرة شديدة تمنعني من الصلاة والصوم، وفيها أن النبي ﷺ يفتيهن بوجوب الصلاة زمن دم الاستحاضة وأنها لا تسقط وجوب الصلاة والصوم، ولم يثبت أنه ﷺ أمرهن بقضاء الصلاة والصوم الذي فاتهن مما يدل على أنه عذرهن بالجهل بهذا الحكم الشرعي مما يدل على أن الجهل عذر شرعي، والله أعلم.

الحادي عشر: أنه لما زيد في صلاة الحضر حين هاجر إلى المدينة كما في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كان من كان بعيدًا عنه مثل من كان بمكة وبأرض الحبشة يصلون ركعتين ولم يأمرهم النبي ﷺ بإعادة شيء من ذلك؛ لأنه عذرهم لجهلهم للحكم وهذا يدل على أن حكم الناسخ لا يلزم إلا لمن بلغه، والله أعلم.

الثاني عشر: ثبت في الصحيحين أنه سئل بالجعرانة عن رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وهو متضمخ بالطيب، فلما نزل عليه الوحي قال انزع عنك الجبة واغسل عنك أثر الخلوق واصنع في عمرتك ما كنت صانعًا في حجك)، وهذا

فعل محظورًا في الحج وهو لبس المخيط واستعمال الطيب، ولم يأمره النبي ﷺ في ذلك بالكفارة، مما يدل على أنه عذره للجهل فدل ذلك على أنه لا تكليف إلا بعلم، وقررنا بذلك قاعدة وهي قولنا: لا يؤثر فعل المحظور إلا بذكرٍ وعلمٍ وإرادةٍ، والله أعلم.

الثالث عشر: ثبت في الصحيحين أن أعرابيًا وهو خلاد بن رافع (دخل المسجد فصلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فرد عليه وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان صلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فرد عليه وقال ارجع فصل فإنك لم تصل ثلاثًا ثم قال والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلمني فقال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ...) الحديث المعروف باسم حديث المسيء صلاته.

والشاهد منه أن النبي ﷺ لم يأمره بإعادة الصلوات التي صلاها بهذه الطريقة الخاطئة مما يدل على أنه معذور بهذا الجهل، وأما أمره بإعادة هذه الصلاة فلأن وقتها لا يزال باقيًا فهو مخاطب بها، والتي صلاها لم تبرأ بها الذمة فأمر بإعادتها وهذا من أوضح الأدلة أن الإنسان يعذر بجهله، والله أعلم.

الرابع عشر: حديث حذيفة بن اليمان قال (قال رسول الله ﷺ - يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها، فقال له صلة ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثًا كل ذلك يعرض عنه ثم أقبل في الثالثة فقال يا صلة تنجيهم من النار، ثلاثًا) رواه

ابن ماجه والحاكم وإسناده صحيح، فهذا الحديث وإن كان يتحدث عن حال الناس في آخر الزمان لكن فيه دليل على العذر بالجهل، حيث يعم الجهل بالكتاب والسنة بموت العلماء وترئيس الجهال ودروس العلم وتفاقم البدع ويضعف نور النبوة فتخفى على الناس كثير من الأحكام الظاهرة المتواترة كوجوب الصلاة والصوم فلا يبقى عندهم إلا الإقرار الذي عليه مدار النجاة، وهذا الجهل بهذه الأحكام الظاهرة لا يلزم أن يكون عامًا لأهل الأرض، بل في زمانٍ دون زمان ومكانٍ دون مكان لحديث: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)، والله أعلم.

الخامس عشر: حديث أبي واقدٍ الليثي قال (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرةٍ فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى {اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون} لتركبن سنن من كان قبلكم) رواه الترمذي وصححه.

فالذي طلبه من الصحابة أعني من كان منهم حديث عهد بكفرٍ حكمه شرك ولاشك، ولذلك شبهه النبي ﷺ بطلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا كما لهؤلاء آلهة، وأقسم على أنه مثله ولكنهم لم ينطبق عليهم حكم قولهم هذا -حاشا وكلا-؛ وذلك لأنهم حدثاء عهد بكفرٍ، مما يدل دلالة واضحة أن جهلهم بحقيقة ما قالوا صار عذرًا لهم في ذلك، فدل على أنه لا تكليف إلا بعلم، والله أعلم.

السادس عشر: قصة سجود معاذ بين يدي النبي ﷺ وتقدمت، ووجه الاستشهاد بها أن النبي ﷺ عذر معاذًا في فعله هذا لجهله بحقيقة الأمر وعدم علمه بحكم ما فعله مما يدل على أن الجهل عذر وأنه لا تكليف إلا بعلم.

فهذه الأدلة تفيدك إفادة قطعية - إن شاء الله تعالى - أن الجهل عذر من الأعذار الشرعية، وظهر بذلك صواب القاعدة المقررة عند أهل السنة والجماعة أنه لا تكليف إلا بعلم وأما مع الجهل فإن الإنسان لا يعد مكلفًا، وما مضى هو المسألة الأولى، أي أننا نكون بذلك قد عرفنا قاعدة لا تكليف إلا بعلم وسقنا عليها ما حضرنا من الأدلة، والله أعلم.

وأما المسألة الثانية

فهي أن يقال بعد أن تقرر من الأدلة السابقة أن الجهل عذر من الأعذار

فهل هو عذر في المسائل العلمية أي العقدية والعملية أي الفقهية، أم هو عذر في الثانية دون الأولى؟

والجواب عن ذلك أن يقال: اعلم أن مذهب أهل السنة والجماعة الذي تظافرت الأدلة على نصره هو أن العذر بالجهل عام في جميع المسائل جليها ودقيقها، سواءً المسائل العلمية أو العملية، الأصولية أو الفروعية، هذا هو مذهبهم المشهور عنهم، وقد نقله غير واحدٍ ومن أشهرهم أبو العباس بن تيمية - رحمه الله تعالى -، وذكر - قدس الله روحه - أن القول بالتفريق بالجهل بين العقائد والشرائع قول مبتدع مأخوذ عن المبتدعة من المعتزلة وغيرهم، بل لو تدبرنا الأدلة السابقة لوجدنا بعضها في لب العقيدة كحديث سجود معاذ بين يدي النبي ﷺ، وحديث الأنواط، وحديث خلاد بن رافع فإنه في الصلاة وهي من الأصول، وحديث الذي قال: (إذا مت فأحرقوني) وغيرها، بل عمومات

الآيات والأحاديث قاضية بذلك، فإنها وإن وردت على أسباب خاصة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقد تقرر في الأصول أن الأصل هو البقاء على العموم حتى يرد المخصص فتلخص من هذا أن الجهل عذر في كل المسائل، أي سواءً العلمية أو العملية، والله أعلم.

وأما المسألة الثالثة فهي: ما الجهل الذي يعذر به صاحبه؟

أقول: هذا هو لب القاعدة.

اعلم - رحمك الله تعالى - أن مسألة العذر بالجهل من المسائل التي كثر فيها الخلاف قديمًا وحديثًا وحصل بسببها بعض الفرقة والنزاع بين بعض أهل العلم، وما ذلك إلا لعدم تحرير محل النزاع، ولأنه قد دخل في الكلام فيها من لم يبلغ درجة الكلام في مثل هذه المسائل، ودخل فيها ضيق العين وقليل الحياء الذي يرشق مخالفه بزخات من عفن الكلام وسوء الأدب حتى إنه لا يعرف لكبير قدرًا ولا لصغير نظرًا، بل قوله هو المقدم في الحال والمآل، وكل قولٍ يخالف قوله فهو ضلال ومحال، وهذا لا يجوز، بل هو من الكبر والجهل والاعتداء، والمقصود أن مسألة العذر بالجهل لها اعتباران:

الأول: اعتبار الجهل عذرًا شرعيًا وهذه - إن شاء الله تعالى - من أصول المسائل عند أهل السنة لكثرة أدلتها وصراحة ودلالتها، واشتهار أمرها بين العامة والخاصة، ولا أظن أحدًا منهم يخالف في ذلك، والأدلة المذكورة في رأس هذه المسألة هي غيض من فيض أدلة كثيرة لا تدع مجالًا لمنصف أن يشك في أن الجهل عذر.

والاعتبار الثاني: هو في نوع الجهل الذي يعد عذرًا شرعيًا، فهذا هو الذي كثر الخلاف فيه، مع اتفاقهم على الأول، فبعضهم يرى أن هذا النوع من الجهل

عذرًا، وبعضهم لا يراه كذلك، وخلافهم هذا - في نظري - يدرج بعضه تحت مسائل الاجتهاد التي يسوغ فيها الخلاف، ولا يجوز فيها إلزام الآخرين بأقوالنا ولا توجب المخالفة فيها عداءً ولا تدابرًا ولا تشاحنًا ولا مسابة ولا غيرها، مما لا يليق بحملة العلم وطلابه، إذا علم هذا فإني أذكر لك - إن شاء الله تعالى - طرفًا من الكلام على أنواع الجهل وتعريفاته وتفريعاته وما يتخرج على النصوص السابقة من أنواعه.

الأمر الأول: ذكر علماء اللغة رحمهم الله تعالى أن الجهل له معانٍ:

منها: خلو النفس من العلم، بمعنى أنك لا تعلم هذا الشيء أصلًا، كمن يسأل عن شيء فيقول لا أدري، فهو جاهل به، لأنه خال من علمه وهو ما يسميه المناطقة بالجهل البسيط، وهذا النوع من الجهل هو الذي تعرفه العامة، إذ هو المشهور بينهم.

ومنها: فهم الشيء على غير وجهه، فإذا فهم الإنسان قولًا أو فعلًا على غير مراد صاحبه فهو جاهل به، لكن هذا الجهل إنما ينصب على فهم المعنى لا الألفاظ، ذلك أن اللفظ قد بلغه لكنه لم يفهم معناه الفهم الذي يقصده صاحبه، وهو الذي يسميه المناقطة بالجهل المركب ويقول فيه الأصوليون هو اعتقاد الشيء على غير ما هو عليه.

ومنها: فعل الشيء على خلاف ما حقه أن يفعل عليه، وكأن هذا النوع ليس نوعًا جديدًا، بل هو نتيجة للنوع الثاني، والله أعلم.

فهذه أنواع الجهل، ينبغي مراعاتها في مسألة العذر بالجهل مع مراعاة الضوابط الآتية - إن شاء الله تعالى -.

الأمر الثاني: اعلم أن الجهل ليس صفة ذاتية لازمة للإنسان، بل هو من

العوارض التي تذهب بزوال أسبابها، فالجهل بالشيء يذهب ويزول إذا تعلمه الإنسان، إذا علم هذا فليعلم أن الله تعالى قد أمرنا برفع الجهل، وذلك في قوله تعالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} والأمر للوجوب فيما علمه واجب، وللاستحباب فيما علمه مستحب.

فتعلم كيفية الصلاة مثلًا واجب عيني، فيكون حكم رفع الجهل في هذه المسألة بعينها واجب عيني، وأما تعلم كيفية صلاة الاستسقاء مثلًا فهو سنة، فيكون حكم رفع الجهل فيها سنة، وبه تعلم أن رفع الجهل من الأحكام التكليفية؛ ذلك لأنه يكون واجبًا فيما علمه واجب وسنة فيما علمة سنة وبقاؤه واجب فيما علمه محرم وسنة فيما علمه مكروه، وفيما عدا ذلك فرفعه مباح، فجرت عليه الأحكام التكليفية الخمسة، فهو إذًا حكم تكليفي، وحيث ثبت ذلك فيجري عليه لزامًا ما يجري على الأحكام التكليفية من الشروط، فكل شرط للمطالبة بالتكليف فهو شرط للمطالبة برفع الجهل، فمن ذلك البلوغ، والعقل، والقدرة، وكذلك يسقطه ما يسقطه من الصغر والجنون والعجز عن رفعه، وهذا أمر مهم لابد من فهمه عند البحث عن مسألة العذر بالجهل والبحث في أنواعه، والله أعلم.

الأمر الثالث: وهو خلاصة هذا المبحث في هذه المسألة أن ضابط العذر بالجهل هو مراعاة القدرة على رفعه من عدمها، فالجهل الذي يشق الاحتراز منه ولا يتمكن المكلف من رفعه هو الذي يعد عذرًا من الأعذار الشرعية، أما الجهل الذي يتمكن المكلف من رفعه بيسر وسهوله لكنه فرط وأهمل فإنه لا يعذر عذرًا في الشريعة، قال شيخ الإسلام ابن تيميه في رفع الملام (ص١١٤): إن العذر لا يكون عذرًا إلا مع العجز عن إزالته، وإلا فمتى أمكن الإنسان معرفة

الحق، فقصر فيه، لم يكن معذورًا.اهـ.

ومن صور الجهل الذي يشق الاحتراز منه ولا يتمكن المكلف من رفعه: الذي أسلم في دار الحرب ولا يستطيع الهجرة منها لعذرٍ من الأعذار، فإنه إذا ترك مأمورًا أو فعل محظورًا في هذه الحالة وادعى أنه كان جاهلًا بوجوب هذا أو حرمة هذا، فإنه يقبل منه ذلك؛ لأن دار الحرب غالبًا لا يظهر فيها علم أهل الإسلام، بل هي خالية من أحاد المسلمين غالبًا فضلًا عن العلماء وطلاب العلم، فالجهل فيها مما لا يمكن المكلف رفعه، ورفع الجهل واجب على المكلف في حكم هو واجب عليه، والواجبات تسقط بالعجز عنها كما هو مقرر في القواعد، وهو عاجز عن رفع الجهل فيسقط عنه؛ لأنه لا واجب مع العجز، وهذه الصورة من النوع الأول من أنواع الجهل وهو خلو النفس عن العلم.

ومنها: من نشأ ببادية بعيدة عن العلم والعلماء ولا يمكنه الاتصال بهم، ففعل محظورًا أو ترك مأمورًا وادعى أنه كان جاهلًا بذلك، فهو معذور بهذا الجهل؛ لأنه في هذه الحالة لا يقدر على رفع الجهل عن نفسه ولا واجب مع العجز، فالجهل في البوادي البعيدة هو مما يشق التحرز منه أي أن التحرز من وقوع الجهل في هذه الأماكن من الأمور الشاقة جدًا، وهذه الصورة أيضًا من النوع الأول وهو خلو النفس عن العلم، ويمثل لذلك بحال الأعرابي الذي بال في مسجد النبي ﷺ، والأعرابي الذي جاء بزق خمرٍ فأهداه إلى النبي ﷺ، وبجهل من هاجر إلى الحبشة بزيادة صلاة الحضر فإنهم لم يعلموا بذلك إلا بعد مدة ومثلها عدم علمهم بنسخ القبلة وهم معذورون في ذلك لبعدهم عن دار العلم، وكذلك حديث خلاد بن رافع فإنه ليس من أهل المدينة وإنما من الأعراب فعذر بجهله السابق؛ لأنه كان في دارٍ بعيدة، ونحو ذلك.

ومنها: حداثة الإسلام، فإن من أسلم حديثًا يغلب عليه طابع الجهل ببعض الأحكام الشرعية سواءً العقدية أو الفقهية، فجهله هذا يكون عذرًا مانعًا من انطباق حكم فعله عليه، وعلى ذلك حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق في سياق الأدلة حديث ذات أنواط، والشاهد منه قوله: (ونحن حدثاء عهدٍ بكفرٍ) أي لا زلنا بعد لم نتفقه ولم نتعلم ولم تذهب منا عادات قومنا زمن الكفر، وذلك لحداثة الإسلام، وهذا يكون فيمن أسلم حديثًا سواءً في دار الإسلام أو في دار الكفر أوضح، لكن حتى الكافر في دار الإسلام قد لا يعرف كثيرًا من أحكام الإسلام لعدم اهتمامه بها واشتغاله بغيرها، فجهل حديث الإسلام ببعض شرائعه يشق الاحتراز منه إذ من الصعب جدًا أن تعلم الكافر قبل أن يسلم جميع الشرائع حتى لا يدخل في الإسلام إلا على بصيرة، وإنما الواجب هو النطق بالشهادتين أولًا وإن لم يك عالمًا بمعناهما عرف معناهما، وهذه الصورة أيضًا هي من النوع الأول، وهو خلو النفس عن العلم، والله ربنا أعلم.

ومنها: من نشأ في بلدةٍ من بلاد الإسلام لكن يغلب عليها البدعة كبدعة الصوفية بطرقها الضالة، أو القبورية، والكلمة فيها لعلماء السوء الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل، وكبلاد الشيعة التي لا تكاد فيها تجد للسنة طريقًا ولا كلمة ولا راية، ولا طريق للعلم الصحيح لبعده عن بلاد أهل السنة أو لاعتقاده صواب نفسه، فهذا معذور - إن شاء الله تعالى - حتى تقام عليه الحجة الرسالية؛ لأنه جاهل جهلًا لا يتمكن من رفعه عن نفسه، ولأن الجهل في هذه الأماكن مما يشق التحرز منه، وما أكثر البلاد التي تسودها البدعة بعلمائها المنحرفين الضالين الذين يمنعون نور الهدى أن يصل للناس، فأولئك عليهم وزرهم ووزر من أضلوه لأنهم دعاة فتنة وأبواب الشر، وقد رأينا بأعيننا

في بعض البلاد التي تنتسب إلى الإسلام أن نار البدعة فيها مضطربة تتوقد والناس يحترقون فيها وعلماء البدعة يفتون بجوازها وأنها من لب الشريعة وينكرون على من أنكرها وهي بدع شركية كالذبح للقبور والنذر لها ودعائها من دون الله تعالى، والناس في هذه البلاد أعني العوام منهم لم يسمعوا كلمة الحق لقلة من يذهب لهم من الدعاة ولسيطرة علماء البدعة على مناصب الإفتاء، ومنعهم دخول كتب أهل السنة لبلادهم، فمثل هؤلاء الأتباع يعذرون – إن شاء الله تعالى –؛ لأنهم يجهلون حقيقة الأمر الذي هم فيه ولا تكليف إلا بعلم ومثل جهل هؤلاء يشق التحرز منه، ولا ينبغي التعجل في إخراج أحدٍ من دائرة الإسلام بمثل ذلك، فنسأل الله تعالى أن يعين الدعاة من أهل السنة ليوصلوا كلمة الحق إلى هؤلاء الضعفاء الذين هم في حاجة إلى سماعها أكثر من حاجتهم إلى طعامهم وشرابهم، ومن العجب أنك تسمع من يهون الأمر ويقول: إن التوحيد مفهوم للجميع، وهذه كلمة جاهل لا يدري عن الواقع، والله المستعان.

فهذه بعض الصور التي يذكرها العلماء في الجهل الذي يعذر به صاحبه ويجمعها قولنا: كل جهل يشق الاحتراز منه ولا يتمكن المكلف من رفعه فيعذر به في ترك المأمور أو فعل المحظور وما لا فلا، ويتفرع عن هذه القاعدة قواعد كثيرة جدًا من أهما قولهم: أن التكليف مشروط بالقدرة على العلم والعمل، ومنها قولهم: إن الخطاب لا يثبت حكمه إلا بالبلوغ، ومنها: لا يثبت الناسخ إلا بالعلم، ومنها قولهم: ما تركه المكلف لجهله بالوجوب فإنه لا يعيده، ويعينون بالجهل أي الذي يعذر به صاحبه، ومنها قولهم: لا مؤاخذة إلا بعلم ولا عقوبة إلا بعد إنذار.

وهذه القواعد معناها: إن الأحكام الشرعية لا تثبت في حق المكلفين ولا يطالبون بها إلا بعد أن تبلغ ويتمكنوا من فهمها مطلق الفهم، وما سبق ذلك من عبادات أو معاملات فإنهم يقرون عليه ما دام المفسد قد زال ولا يؤمرون بإعادته، والله ربنا أعلى وأعلم.

بقي أن يقال: كيف العمل في حديث عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أحل بعد طلوع الفجر وقد نزل قوله تعالى: {وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر}، فعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد بلغه الدليل، ومع ذلك خالفه ولم يؤمر بالقضاء، وكذلك حديث عمار في التيمم فإنه كان يعلم أن التيمم رافع لحدث الجنابة وتيمم على صفة غير مشروعة ومع ذلك لم يأمره النبي ﷺ بإعادة الصلاة التي صلاها بهذا التيمم، والدليل قد بلغه، فما نوع الجهل في هذين الحديثين؟ أقول: إن قولنا: (بلوغ الدليل) لا نعني به مجرد بلوغ الألفاظ وسماعها، فإن ذلك لوحده لا تقوم به الحجة، بل نعني بكلمة (بلوغ الدليل) أي البلوغ التام المركب من سماع اللفظة وفهمه على وجهه الصحيح، وقلنا سابقًا: إن الجهل أنواع:

منها: خلو النفس عن العلم أصلًا

ومنها: اعتقاد الشيء على غير ما هو عليه وفعله على غير ما حقه أن يفعل، فعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلغه الدليل ولاشك وسمعه من النبي ﷺ ولكنه أخطأ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فهمه، واعتقده على غير وجهه الصحيح وظن مع ذلك صواب نفسه فعمل به ممتثلًا لا مخالفًا، فهو يوصف بالجهل في هذه المسألة، وبهذا الاعتبار لا يخرج في فهمه هذا عن حد الجهل الذي يعذر به صاحبه؛ لأنه لم يتمكن من رفعه لظنه صواب نفسه فهو جاهل، لكنه يظن أنه مصيب ولذلك لم يأمره النبي ﷺ

بالقضاء لتحقق عدم قيام الحجة عليه لجهله بمراد الدليل لا بلفظ الدليل إذ ليس كل من قرأ النص فهم المراد منه، والحجة لا تقوم إلا بالبلوغ ومطلق الفهم، ولم يكن من عادته ﷺ أن يشرح لهم المراد من كل آية تنزل، ولم يكن من عادة القوم أيضًا أن يسألوا عن ذلك إلا أحيانًا وإلا فهم في الغالب يوكلون إلى فهمهم لأنهم أهل لسان والقرآن نزل بلسانهم، وعدي رضي الله عنه فهم الخيط على وجهه الصحيح المتقرر عنده في اللغة فلذلك عمد إلى عقالين أبيض وأسود وأكل حتى تبين أحدهما من الآخر فهو لم يفهم شيئًا بعيدًا عن معنى الآية، لكن اختلف المراد بالخيط في الآية وعدي جهل اختلاف المراد بالخيط وعمل بما غلب على ظنه أنه المراد فلذلك لم يسأل رسول الله ﷺ جريًا على العادة الغالبة، لكن لما ظهرت له المخالفة سأل فأخبره النبي ﷺ أن المراد بالخيط نور الفجر وظلمة الليل ولم يؤمر بالقضاء؛ لأنه معذور بجهله، والله أعلم، وأما عمار وحديثه في التيمم فأقول فيه: إن عمارًا رضي الله عنه عنده علم جملي أن التيمم يرفع الحدث الأكبر، لكنه كان يجهل صفته أعني يجهل صفة التيمم عن الحدث الأكبر ولا يتمكن من رفع هذا الجهل في هذه الحالة لبعده عن النبي ﷺ، والصلاة لا يجوز تأخيرها عن وقتها فلم يكن منه رضي الله عنه إلا أنه اجتهد بالقياس،

فرأى أنه لما كان يلزم تعميم البدن بالماء في الاغتسال فكذلك يجب تعميم البدن بالتراب في التيمم فتمرغ وصلى بهذا التيمم ولم يؤمر بالقضاء وإنما اخبر بصفة التيمم الصحيحة لأنه كان جاهلًا بها والجاهل معذور وجهله هذا كان معناه خلو النفس من العلم، وكلا الحديثين أعن حديث عدي وحديث عمار لا يخرجان عن الضابط المتقرر وهو أن الجهل الذي يعذر به صاحبه هو الجهل الذي يشق رفعه ولا يتمكن المكلف من إزالته عن نفسه أما في حديث عدي

فلظنه صواب نفسه وأما في عمار فلبعده عن النبي ﷺ.

قال العلامة الألباني في "الصحيحة" (٧/ ١/ ١٠٥ - ١١٦): وخلاصته؛ أن الرجل النباش كان مؤمنًا موحدًا، وأن أمره أولاده بحرقه ... إنما كان إما لجهله بقدرة الله تعالى على إعادته- وهذا ما أستبعده أنا- أو لفرط خوفه من عذاب ربه، فغطى الخوف على فهمه؛ كما قال ابن الملقن فيما ذكره الحافظ (١١/ ٣١٤)، وهو الذي يترجح عندي من مجموع روايات قصته، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وسواء كان هذا أو ذاك؛ فمن المقطوع به أن الرجل لم يصدر منه ما ينافي توحيده، ويخرج به من الإيمان إلى الكفر؛ لأنه لو كان شيء من ذلك لما غفر الله له؛ كما تقدم تحقيقه من ابن عبد البر.

ومن ذلك يتبين بوضوح أنه ليس كل من وقع في الكفر من المؤمنين وقع الكفر عليه وأحاط به. ومن الأمثلة على ذلك: الرجل الذي كان قد ضلت راحلته، وعليها طعامه وشرابه، فلما وجدها قال من شدة فرحه: "اللهم! أنت عبدي وأنا ربك "!.

وفي ذلك كله رد قوي جدًا على فئتين من الشباب المغرورين بما عندهم من علم ضحل: الفئة الأولى: الذين يطلقون القول بأن الجهل ليس بعذر مطلقًا؛ حتى ألف بعض المعاصرين منهم رسالة في ذلك!

والصواب الذي تقتضيه الأصول والنصوص التفصيل؛ فمن كان من المسلمين يعيش في جو إسلامي علمي مصفى، وجهل من الأحكام ما كان منها معلومًا من الدين بالضرورة- كما يقول الفقهاء- فهذا لا يكون معذورًا؛ لأنه بلغته الدعوة وأقيمت الحجة.

وأما من كان في مجتمع كافر لم تبلغه الدعوة، أو بلغته وأسلم؛ ولكن خفي عليه بعض تلك الأحكام لحداثة عهده بالإسلام، أو لعدم وجود من يبلغه ذلك من أهل العلم بالكتاب والسنة؛ فمثل هذا يكون معذورًا.

ومثله- عندي- أولئك الذين يعيشون في بعض البلاد الإسلامية التي انتشر فيها الشرك والبدعة والخرافة، وغلب عليها الجهل، ولم يوجد فيهم عالم يبين لهم ما هم فيه من الضلال، أو وجد ولكن بعضهم لم يسمع بدعوته وإنذاره؛ فهؤلاء أيضًا معذورون بجامع اشتراكهم مع الأولين في عدم بلوغ دعوة الحق إليهم؛ لقوله تعالى: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} (الأنعام:١٩) وقوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا} (الإسراء:١٥)، ونحو ذلك من الأدلة التي تفرع منها تبني العلماء عدم مؤاخذة أهل الفترة؛ سواء كانوا أفرادًا أو قبائل أو شعوبًا؛ لاشتراكهم في العلة؛ كما هو ظاهر لا يخفى على أهل العلم والنُّهى.

ومن هنا يتجلى لكل مسلم غيور على الإسلام والمسلمين عظم المسؤولية الملقاة على أكتاف الأحزاب والجماعات الإسلامية الذين نصبوا أنفسهم للدعوة للإسلام، ثم هم مع ذلك يدعون المسلمين على جهلهم وغفلتهم عن الفهم الصحيح للإسلام، ولسان حالهم يقول- كما قال لي بعض الجهلة بهذه المناسبة

-: "دعوا الناس في غفلاتهم"! بل وزعم أنه حديث شريف!! أو يقولون- كما تقول العوام في بعض البلاد-: "كل مين على دينه، الله يعينه "! وهذا خطأ جسيم لو كانوا يعلمون، ولكن صدق من قال: "فاقد الشيء لا يعطيه "!.

والفئة الثانية: نابتة نبتت في هذا العصر؛ لم يؤتوا من العلم الشرعي إلا نزرًا يسيرًا، وبخاصة ما كان منه متعلقًا بالأصول الفقهية، والقواعد العلمية المستقاة

من الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح، ومع ذلك؛ اغتروا بعلمهم فانطلقوا يبدِّعون كبار العلماء والفقهاء، وربما كفروهم لسوء فهم أو زلة وقعت منهم، لا يرقبون فيهم (إلًّا ولا ذمة)، فلم يشفع عندهم ما عرفوا به عند كافة العلماء من الإيمان والصلاح والعلم، وما ذلك إلا لجهلهم بحقيقة الكفر الذي يخرج به صاحبه من الإيمان؛ ألا وهو الجحد والإنكار لما بلغه من الحجة والعلم؛ كما قال تعالى في قوم فرعون: {فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِين، وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ} (النمل:١٣، ١٤). وقال في الذين كفروا بالقرآن: {ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُون} (فصلت:٢٨) ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض فتاويه (١٦/ ٤٣٤ - مجموع الفتاوى):

" لا يجوز تكفير كل من خالف السنة؛ فليس كل مخطئ كافرًا، لا سيما في المسائل التي كثر فيها نزاع الأمة".

يشير إلى مثل مسألة كلام الله وأنه غير مخلوق، ورؤية الله في الآخرة، واستواء الله على عرشه، وعلوه على خلقه؛ فإن الإيمان بذلك واجب، وجحدها كفر، ولكن لا يجوز تكفير من تأولها من المعتزلة والخوارج والأشاعرة بشبهة وقعت لهم؛ إلا من أقيمت عليه الحجة وعاند.

وهذا هو المثال بين أيدينا: الرجل النباش؟ فإنه مع شكه في قدرة الله على بعثه غفر الله له؛ لأنه لم يكن جاحدًا معاندًا؛ بل كان مؤمنًا بالله وبالبعث على الجملة دون تفصيل لجهله. قال شيخ الإسلام بعد أن ساق الحديث برواية " الصحيح " وذكر أنه حديث متواتر (١٢/ ٤٩١): "وهنا أصلان عظيمان:

أحدهما: متعلق بالله تعالى؛ وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير.

والثاني: متعلق باليوم الآخر؛ وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت، ويجزيه على أعماله. ومع هذا فلما كان مؤمنًا بالله في الجملة، ومؤمنًا باليوم الآخر في الجملة، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل عملًا صالحًا- وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه-؛ غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح".

ولهذا؛ فإني أنصح أولئك الشباب أن يتورعوا عن تبديع العلماء وتكفيرهم، وأن يستمروا في طلب العلم حتى ينبغوا فيه، وأن لا يغتروا بأنفسهم، ويعرفوا حق العلماء وأسبقيتهم فيه، وبخاصة من كان منهم على منهج السلف الصالح كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وأَلْفِتُ نظرهم إلى "مجموع الفتاوى" فإنه "كُنَيْف مُلِيءَ علمًا"، وبخاصة إلى فصول خاصة في هذه المسالة الهامة "التكفير"، حيث فَرَّقَ بين التكفير المطلق وتكفير المعين، وقال في أمثال أولئك الشباب: "ولم يتدبروا أن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وأن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين؛ إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه".

يعني الذين كانوا يقولون: القرآن مخلوق. ومن قال: إن الله لا يرى في الآخرة؛ وأمثالهم.

فأقول: وملاحظة هذا الفرق هو الفيصل في هذا الموضوع الهام، ولذلك فإني أحث الشباب على قراءته وتفهمه من "المجموع " (١٢/ ٤٦٤ - ٥٠١) الذي ختمه بقوله:"وإذا عُرف هذا؛ فتكفير (المعين) من هؤلاء الجهال وأمثالهم- بحيث يحكم عليه أنه من الكفار- لا يجوز الإقدام عليه؛ إلا بعد أن

تقوم على أحدهم الحجة الرسالية التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسل، وإن كانت مقالتهم لا ريب أنها كفر، (يعني: الدعاة إلى البدعة).

وهكذا الكلام في تكفير جميع (المعينين)؛ مع أن بعض هذه البدع أشد من بعض، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض، فليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين- وإن أخطأ وغلط- حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة ".اهـ.

وسئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٢٨/ ٢١٧) عن: حكم العذر بالجهل في العقائد وغيرها؟

فأجاب: الجهل يكون فيما يمكن خفاؤه، أما الأمور الظاهرة من الدين فلا يعذر فيها الجاهل؛ كأمور التوحيد وأمور الصلاة، لو قال: ما أعرف الصلاة وهو بين المسلمين، ما أعرف أن الصلاة مشروعة، أو ما أعرف الزكاة، أو ما أعرف الصيام ما يعذر بالجهل، أو قال: ما أعرف أن الزنا محرم ما يطاع، أو قال: ما أعرف أن اللواط محرم وهو بين المسلمين، ما يطاع، أو قال: ما أعرف أن الخمر محرم ما يطاع.

أما الذي يمكن جهله مثل بعض الصفات، صفات الله التي خفيت عليه أو ما درى أنها من صفات الله فأنكرها، ثم علم وبين له ما يكفر بذلك؛ لأن مثل هذا قد يجهل بعض الصفات أو مثل بعض حقوق النبي ﷺ جهلها ما درى عن بعض الحقوق التي تخفى على العامي أو ما أشبه ذلك، أو إنسان في أطراف أمريكا أو أطراف أفريقيا في بعض المحلات البعيدة عن الإسلام، مثل هذا كأهل الفترة يبين له ولا يكفر حتى يبين له ويعلم، فإذا ما أصر على ذلك وأصر على

الكفر يقتل.

الذي يتولاه مسلم أو الدولة المسلمة تحكم به عليه، والحاصل أنه يعذر بالجهل في المسائل التي قد يخفى مثلها، ويكون حكمه حكم أهل الفترات إذا لقي الله جل وعلا.

والصحيح الذي جاءت به الأحاديث أنه يمتحن يوم القيامة ضمن أهل الفترة، فإن أجاب إلى الحق دخل الجنة، ومن عصى دخل النار، وأما في الدنيا ينظر فيه إذا ظن أنه يجهل، وولي الأمر إذا أراد أن يقيم الحد عليه يقيم التعزير عليه إن كان مثله يجهل هذا الشيء وينبهه، لكن لا يترك الحد عليه وهو بين المسلمين ممن يخفى على المسلمين مثل ما تقدم، يقول: أنا لا أعرف أن الناس يصلون، يقول: ما أدري عن الصلاة ولا أعرف الزكاة ولا أعرف الصيام ولا أعرف الجهاد، هذا لا يطاع؛ لأن هذا من التلاعب بالدين.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ١٢٧): هل يعذر الإنسان بالجهل فيما يتعلق بالتوحيد؟

فأجاب: العذر بالجهل ثابت في كل ما يدين به العبد ربه؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- قال: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} حتى قال ﷻ: {رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} ولقوله -تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا}. ولقوله -تعالى: {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون}. ولقول النبي، ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي واحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار».

والنصوص في هذا كثيرة، فمن كان جاهلا فإنه لا يؤاخذ بجهله في أي شيء

كان من أمور الدين، ولكن يجب أن نعلم أن من الجهلة من يكون عنده نوع من العناد، أي إنه يذكر له الحق ولكنه لا يبحث عنه، ولا يتبعه، بل يكون على ما كان عليه أشياخه، ومن يعظمهم ويتبعهم، وهذا في الحقيقة ليس بمعذور، لأنه قد بلغه من الحجة ما أدنى أحواله أن يكون شبهة يحتاج أن يبحث ليتبين له الحق، وهذا الذي يعظم من يعظم من متبوعيه شأنه شأن من قال الله عنهم: {إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون} . وفي الآية الثانية: {وإنا على آثارهم مقتدون} .

فالمهم أن الجهل الذي يعذر به الإنسان بحيث لا يعلم عن الحق، ولا يذكر له، هو رافع للإثم، والحكم على صاحبه بما يقتضيه عمله، ثم إن كان ينتسب إلى المسلمين، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإنه يعتبر منهم، وإن كان لا ينتسب إلى المسلمين فإن حكمه حكم أهل الدين، الذي ينتسب إليه في الدنيا.

وأما في الآخرة فإن شأنه شأن أهل الفترة يكون أمره إلى الله ﷻ يوم القيامة، وأصح الأقوال فيهم أنهم يمتحنون بما شاء الله، فمن أطاع منهم دخل الجنة، ومن عصى منهم دخل النار.

الفهرس

❊ ❊ ❊

جامع المسائل العقدية

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

دار اللؤلؤة

الجزء السادس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(باب ذكر مباحث الأمر بالمعروف والنهي عن والمنكر)

مسائل في الباب

مسألة: تعريف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المعروف في اللغة، يدور معناه غالبا على ما تعارف عليه الناس وعلموه ولم ينكروه والمنكر في اللغة، يدور معناه غالبا على ما جهله الناس واستنكروه وجحدوه.

قال في القاموس: عرفه يعرفه معرفة وعرفانا وعرفة بالكسر، وعرفانا بكسرتين مشددة الفاء، علمه، والمعروف ضد المنكر.

والنكر بالضم وبضمتين، المنكر كالنكراء، والأمر الشديد، والنكرة خلاف المعرفة، وتناكر تجاهل والقوم تعادوا، ونكر فلان الأمر كفرح نكرا محركة، ونكرا ونكورا بضمها ونكيرا، وأنكره واستنكره وتناكره جهله، والمنكر ضد المعروف.

وقال في لسان العرب:

عرف العرفان العلم والمعروف ضد المنكر

والعرف ضد النكر، يقال: أولاه عرفا أي معروفا، والمعروف والعارفة خلاف النكر، والمعرف كالعرف، وقوله تعالى: وصاحبهما في الدنيا معروفا [لقمان:١٥]، والإنكار الجحود، وقوله تعالى: إن أنكر الأصوات لصوت الحمير [لقمان:١٩]، أي أقبح الأصوات: والنكر، والنكر الأمر الشديد، والمنكر من الأمر خلاف المعروف، وقد تكرر في الحديث الإنكار والمنكر وهو ضد المعروف، وكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر، والنكر والنكراء، ممدود، المنكر، وفي التنزيل العزيز، لقد جئت شيئا نكرا

[الكهف:٧٤]، ونكر الأمر نكيرا، وأنكر إنكارا ونكرا، جهله عن كراع، وفي التنزيل العزيز: نكرهم وأوجس منهم خيفة [هود:٧٠].

وقال في المعجم الوسيط: العرف المعروف وهو خلاف النكر وما تعارف عليه الناس في عاداتهم ومعاملاتهم.

نكر فلان نكرا ونكرا ونكاره، فطن وجاد رأيه،،، والشيء جهله، وفي التنزيل العزيز: فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم [هود:٧٠]، ونكر الأمر نكاره صعب واشتد وصار منكرا، وأنكر الشيء جهله، وفي التنزيل العزيز: وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون [يوسف:٥٨]، وحقه جحده، وفي التنزيل العزيز: يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها [النحل:٨٣].

وكلمة منكر أعم من قولنا معصية فتطلق على كل فعل فيه مفسدة أو نهت عنه الشريعة. وإن كان لا يعتبر معصية في حق فاعله، إما لصغره، أو جنونه ولهذا إذا زنا المجنون أو هم بفعل الزنا أو شرب الصبي الخمر كان ما فعلاه منكرا يستحق الإنكار وإن لم يعتبر معصية في حقهما لفوات شرط التكليف وهو البلوغ في الأول والعقل في الثاني بل إن الفعل الذي يخالف ما تعارف عليه المسلمون ولم يكن فيه نص صريح من حيث الكراهة والقبح يكون فيه الاحتساب؛ لأن عرف المسلمين يتفق -في الغالب- مع قواعد الشريعة فلو أن إنسانا جاء إلى المسجد للصلاة وقد لبس إزارا من السرة إلى الركبة ووضع على عاتقه شيئا يسيرا فقط فإن هذا ينكر عليه فعله ولو لم يكن محرما؛ لأن فعله مخالف لعرف المسلمين؛ ولأن الطباع السليمة المسلمة تنفر من ذلك؛ ولأنه بفعله عرض نفسه لحديث الناس والوقوع في عرضه.

وكذلك الحال لمن لبس من الرجال الثياب الضيقة أو الخفيفة التي تحدد

العورة وتصف البشرة، أو إطالة الشعر لا لقصد السنة وإنما اقتداء بالغرب والمنحرفين فإن مثل ذلك يعتبر منكرا، لأن فيه نوعا من التشبه بالفساق وأعداء الله.

ويندرج في المنكر جميع المنكرات سواء أكانت من صغائر الذنوب أم من كبائرها، وسواء أكانت تتعلق بحق الله تعالى أم بحق الآدميين.

ولكن يجب أن نعرف بأن الذي يملك الحكم عليه بأنه منكر أو غير منكر (الشرع). لأن هذا الوصف حكم شرعي. والحاكم حقيقة هو الله سبحانه إن الحكم إلا لله [يوسف: ٦٧] فليس هناك مجال للعواطف والأهواء والأغراض. ودور العلماء في ذلك هو استنباط الحكم الشرعي من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والقواعد المستوحاة منهما، ومن ثم الحكم على هذا الأمر بأنه منكر أو غير منكر.

(تنبيه): إذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر فإنه يدخل فيه النهي عن المنكر وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف ولأنه لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر، ومثال ذلك قول الله تعالى: {لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس} [النساء: ١١٤]، فإن الأمر بالمعروف يتضمن النهي عن المنكر.

وكذلك إذا أطلق النهي عن المنكر، من غير أن يقرن بالأمر بالمعروف فإنه يدخل فيه الأمر بالمعروف وذلك لأن ترك المعروف من المنكر، ولأنه لا يتم ترك الشر إلا بفعل الخير.

ومثال ذلك قول الله تعالى: {فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء} [الأعراف: ١٦٥]، فإن نهيهم عن السوء يتضمن أمرهم بالخير.

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر فيفسر المعروف بفعل الأوامر ويفسر المنكر بترك النواهي، وأمثلة ذلك كثيرة في كتاب الله تعالى. كقوله تعالى: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله} [التوبة:٧١].

فالمعروف هو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات، والمنكر ضد المعروف وكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر، والمتبادر من المعروف الطاعات ومن المنكر المعاصي التي أنكرها الشرع ويقول ابن منظور في لسان العرب: "وقد تكرر ذكر المعروف في الحديث وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع، والمنكر ضد المعروف وهو كل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر ".

فمعنى الأمر بالمعروف الدعوة إليه والترغيب فيه وتمهيد أسبابه حتى تتوطد أركانه وتتطرق سبله ويعم الخير به.

ومعنى النهي عن المنكر الصد عنه والتنفير منه ومقاومته وأخذ السبل عليه حتى لا يقع أصلا، أو يتكرر.

فالمعروف في الشرع: كل ما يعرفه الشرع ويأمر به ويمدحه ويثني على أهله، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وفي مقدمتها توحيد الله ﷻ والإيمان به.

والمنكر في الشرع: كل ما ينكره الشرع وينهي عنه ويذمه ويذم أهله، ويدخل في ذلك جميع المعاصي والبدع، وفي مقدمتها الشرك بالله ﷻ وإنكار وحدانيته أو ربوبيته أو أسمائه أو صفاته.

وعبارات المفسرين في تفسير المعروف والمنكر، لا تتجاوز ذلك.

فقيل: المعروف: كل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد.

وقيل: المعروف: الخير كله، والمنكر جميع الشر.

وقيل: المعروف: ما عرف حسنه شرعا وعقلا، والمنكر: ما عرف قبحه شرعا وعقلا.

وقيل: المعروف: الإحسان والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه.

وقيل: المعروف طاعة الله وما يعرفه الشرع وأعمال البر كلها.

وقيل: المعروف: الإيمان، والمنكر الشرك، وقيل المعروف السنة، والمنكر البدعة.

وقيل: المعروف: خلع الأنداد ومكارم الأخلاق وصلة الأرحام.

والمنكر. عبادة الأصنام وقطع الأرحام وقيل: المعروف: الطاعات والفضائل أجمع.

وقيل: العرف، صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام وغض الأبصار والاستعداد لدار القرار.

وقيل: المعروف: عبادة وتوحيده وكل ما أتبع ذلك، والمنكر، عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك، وهذا الأقوال كلها حق ولا تنافي بينها.

وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث: (عرف) قد تكرر ذكر المعروف في الحديث، وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع، ونهى عنه، من المحسنات والمقبحات، وهو من الصفات الغالبة، أي أمر معروف بني الناس، إذا رأوه لا

ينكرونه، والمعروف النصفة وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس، والمنكر ضد ذلك جميعه.

وقال: وقد تكرر ذكر الإنكار والمنكر في الحديث، وهو ضد المعروف وكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر يقال: أنكر الشيء ينكره إنكارا فهو منكر، ونكره ينكره نكرا فهو منكور، واستنكره فهو مستنكر والنكير الإنكار، والإنكار الجحود.

وقد بين رسول الله ﷺ أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صدقة يؤجر المرء على قيامه بها، فقد روى الإمام مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه (أن أناسا من أصحاب النبي ﷺ، قالوا للنبي يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ أن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة)، ومما يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب تكفير الذنوب، قال رسول الله ﷺ كما في صحيح البخاري (فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفرها الصلاة والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

قال العيني في عمدة القاري (٧/ ٣١٤): فإن قلت ما النكتة في تعيين هذه الأشياء الخمسة؟ قلت: الحقوق لما كانت في الأبدان والأموال والأقوال فذكر من أفعال الأبدان أعلاها وهو الصلاة والصوم قال الله تعالى وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين وذكر من حقوق الأموال أعلاها وهي الصدقة ومن الأقوال أعلاها وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.اهـ.

وقال ابن العربي عارضة الأحوذي (٢/ ١٢): الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل في الدين وعمدة من عمد المسلمين، وهو فرض على جميع الناس مثنى وفرادى بشرط القدرة عليه.اهـ.

قال ابن عطية كما في تفسير القرطبي (٦/ ٢٥٣): والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين، فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه.اهـ.

وقال النووي في شرح مسلم (٢/ ٢٤): واعلم أن هذا الباب - أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدا وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم، فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله ﷻ أن يعتني بهذا الباب، فإن نفعه عظيم.

مسألة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشرائع السابقة

لقد بعث الله، جل وعلا، أنبياءه وأرسل رسله، وحملهم مهمة القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد دل قوله تعالى: {وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران: ٢١] وقوله تعالى في وصية لقمان لابنه: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان: ١٧] دلت هذه الآيات الكريمة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانا في الأمم المتقدمة.

قال الرازي في مفاتيح الغيب (٣/ ٢٧): "الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر والإيمان بالله، إن هذه الصفات الثلاث كانت حاصلة في سائر الأمم".اهـ.

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٤٧): "إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانا واجبين في الأمم المتقدمة وهما فائدة الرسالة وخلافة النبوة".اهـ.

وقال الآمدي في الإحكام (١/ ٣٠٨): "ما من أمة إلا وقد أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر كنهيهم عن الإلحاد وتكذيب أنبيائهم".اهـ.

وعندما بعث نبينا ﷺ برسالة الإسلام للناس كافة، قام بواجب الأمر بالمعروف بنفسه وكلف بعض أصحابه بالقيام به، وقد وصف الله، جل وعلا، نبيه محمد ﷺ بأنه يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك في قوله جل وعلا: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [الأعراف: ١٥٧].

وكان ﷺ كما وصفه ربه تعالى آمرا بالمعروف إذا رآه متروكا، ناهيا عن المنكر إذا وجده مفعولا. ولم يقتصر احتسابه على جانب من جوانب الحياة بل شمل جميع شئون الحياة كلها ومن أمثلة قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بنفسه وإسناده إلى غيره ما رواه في الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال (أمرني رسول الله أن آتيه بمدية -وهي الشفرة - فأتيته بها فأرسل بها، فأرهفت، ثم أعطانيها، وقال اغذ علي بها ففعلت، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة، وفيها زقاق خمر قد جلبت من الشام، فأخذ المدية مني، فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته، ثم أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه

أن يمضوا معي، وأن يعاونوني، وأمرني أن آتي إلى الأسواق كلها فلا أجد زق خمر إلا شققته، ففعلت فلم أترك في أسواقها زقا إلا شققته)[1].

وبعد وفاة الرسول ﷺ، قام خلفاؤه وأصحابه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خير قيام، وامتد اهتمام المسلمين بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قرونا طويلة، وكان من نتائج القيام بهذا الواجب العظيم أن عاش المجتمع الإسلامي في أنظف حياة وأسعدها وآمنها، لا يكاد يقع فيه منكر حتى يتتابع الإنكار له، ويتداعى المسلمون إليه فيقضى عليه في مهده، وبهذا عاش مجتمعا مهيبا، طاهرا، لا يتوقح فيه أهل الفساد، ولا يتجرأ فيه أهل المعصية، وكانت العزة فيه لله ولرسوله وللمؤمنين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والحافظين لحدود الله، حتى خلفت بعد ذلك خلوف، جعلوا الدنيا أكبر همهم، ومبلغ علمهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، فتقطع بينهم، وانفرط عقدهم، فلم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر، إلا قليل ممن رحم ربك

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٢)، والبيهقي (٨/ ٢٨٢) والحديث صححه لشواهده وطرقه العلامة الألباني في الإرواء (١٥٢٩)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٥/ ٤٠٦): إسناده حسن أو صحيح، على ما فيه من ضعف أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، كما ذكرنا تضعيفه في ١١٣، ١٤٦٤، لأن ضعفه إنما هو لتغيره وسوء حفظه، ولكن اعتضدت روايته هذه بما سبق من نحو معناها بإسناد صحيح ٥٣٩٠ من طريق ابن لهيعة عن أبي طعمة عن ابن عمر. ولذلك ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ٥: ٥٣ - ٥٤ هذا الحديث، ثم قال: "وفي رواية عن ابن عمر"، فذكر الحديث الماضي ٥٣٩٠، ثم قال: "رواه كله أحمد بإسنادين، في أحدهما أبو بكر بن أبي مريم، وقد اختلط، وفي الآخر أبو طعمة، وقد وثقه محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي، وضعفه مكحول.اهـ. وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٠/ ٣٠٧): حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم الغساني، وبقية رجاله ثقات. وبقية رجاله ثقات".

فكان ذلك سبب ما أصابهم من ذل واستعمار وفقر ودمار: {وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [النحل: ٣٣]. لقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بهما، والصبر عليهما السر فيما تحقق للمسلمين من خير وبر وحياة نظيفة ودنيا صالحة واسعة على مدى تاريخهم الطويل.اهـ. من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ضوء الكتاب والسن (ص١٧ - ٢٠).

مسألة: حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله أصل عظيم من آكد الأصول الإسلامية وأوجبها وألزمها، حتى ألحقه بعض العلماء بالأركان التي لا يقوم بناء الإسلام إلا عليها، وإنما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب للأمر بالمعروف الذي رأسه وأصله التوحيد، وللنهي عن المنكر الذي رأسه وأصله الشرك والعمل لغير الله، وشرع الجهاد لأجل ذلك، وإن كان الجهاد قدرًا زائدًا على مجرد الأمر والنهي.

إذ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله يتوقف قيام الدين، فلولاه ما قام الإسلام، ولا ظهر دين الله، ولا علت كلمته، ويتوقف أيضًا قيام الدولة الإسلامية واستقامتها وصلاحها على القيام به، كما أن صلاح العباد متوقف على القيام به.

وبيان ذلك: أن جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهي، والأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف، والنهي الذي بعث الله به رسوله هو النهي عن المنكر، وبهذا نعت الله النبي والمؤمنين فقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ} التوبة آية: ٧١، وجميع

الولايات -كولاية الحكم، وولاية الحرب، وولاية المال، وولاية الحسبة، وغيرها، إنما مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وولي الأمر إنما نُصِّب ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذا هو مقصود الولاية، ولهذا يجب على كل ولي أمر أن يستعين بأهل الصدق والعدل، فإن تعذر ذلك استعان بالأمثل فالأمثل.

بل إن صلاح العباد جميعهم يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ إن صلاح العباد ومعائشهم في طاعة الله ورسوله، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس كما قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ} آل عمران آية: ١١٠، ولا يرى تركه والمداهنة فيه إلا من أضاع حظه ونصيبه من العلم والإيمان، فما أَجَلَّ هذا الأصل وما أَعْظَمَهُ وأخطر شأنه في الإسلام؟

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات، وأجلها وأفضلها.

ولقد دل على وجوبه الكتاب والسنة، كما نقل الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم كابن عطية، والجصاص، والغزالى، وابن حزم، والنووي، وأبي المعالي الجويني وغيرهم.

وإذا تأملت نصوص الكتاب والسنة في طلب هذا الأمر العظيم ألفيت ذلك قد ورد باستفاضة كبيرة جدا مع تنوع في الأساليب التي يمكن أن نوجز لك بعضها:

١ - الأمر به.

٢- جعله من الصفات اللازمة للمؤمنين.

٣- اعتبار فعل ما يضاده من الصفات اللازمة للمنافقين.

٤- جعله سببا للخيرية في هذه الأمة.

٥- بيان أن تركه سبب لوقوع اللعن والإبعاد.

٦- بيان أن فعله سبب للنجاة.

٧- بيان أن تركه سبب للهلاك.

٨- اعتباره سببا للنصر.

٩- اعتبار تركه سببا للذم والتوبيخ.

١٠ - وصف من تركه وقعد عنه بالظلم.

١١ - نفي الإيمان عمن قعد عنه حتى بالقلب.

١٢ - الشهادة بالإيمان لفاعله، وتارة يجعله من أفضل أعمال المؤمنين.

١٣ - تارة يقرنه بعدد من الحقوق والواجبات، ويجعلها معه في سياق واحد.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الحرج والإثم عن الباقين، وإن لم يقم به أحد أثم القادرون جميعا، وفي المنكر المعين يأثم كل من علم به وكانت لديه القدرة على إنكاره فلم ينكر ولم يكن له عذر في سكوته. وينبغي هنا التفطن إلى أمرين هما:

الأول: أن الإنكار بالقلب لا ينفك عن أحد أبدا كما سيأتي.

الثاني: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يتحول إلى فرض عين وذلك إذا كان المنكر المراد رفعه أو المعروف المراد إيجاده وفعله لا يتمكن من القيام به -أي الأمر والنهي- إلا فلان بعينه، فإنه يتعين عليه .. كذلك يقال

إذا لم يعلم به غيره. وهذا يكثر وقوعه في البيوت، فإن الناس غالبا لا يطلعون على ما يدور فيها فـ (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[١].

هذا وقد دار خلاف طويل حول قوله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير) [آل عمران: ١٠٤] ومحور الخلاف هو قوله منكم هل (من) هنا بيانية أو تبعيضية؟! فذهب جماعة منهم الزجاج والرازي والبغوي إلى أنها بيانية، ورجحه من المعاصرين صاحب صفوة الآثار والمفاهيم (٤/ ٢٧٠).

قال الزجاج في تفسيره معاني القرآن (١/ ٤٥٢ - ٤٥٣): ومعنى (ولتكن منكم أمة) -والله أعلم- ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف، ولكن (من) تدخل ههنا لتخص المخاطبين من سائر الأجناس وهي مؤكدة أن الأمر للمخاطبين، ومثل هذا من كتاب الله فاجتنبوا الرجس من الأوثان [الحج: ٣٠] ليس يأمرهم باجتناب بعض الأوثان، ولكن المعنى: اجتنبوا الأوثان فإنها رجس. ومثله من الشعر قول الشاعر:

أخو رغائب يعطيها ويسألها يأبى الظلامة منه النوفل الزفر

أي: هو النوفل الزفر. لأنه قد وصفه بإعطاء الرغائب والنوفل: الكثير الإعطاء للنوافل والزفر: الذي يحمل الأثقال.

والدليل على أنهم أمروا كلهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوله جل وعلا: كنتم خير أمة [آل عمران: ١١٠].اهـ.

وقال الرازي في تفسيره (٨/ ١٦٧) بعد نقله حجة أصحاب القول الأول - وهو هذا- (إذا ثبت هذا فنقول معنى هذه الآية: كونوا أمة دعاة إلى الخير،

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٥٢٠٠)، ومسلم (١٨٢٩). من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وأما كلمة (من) فهي هنا للتبيين لا للتبعيض كقوله تعالى: فاجتنبوا الرجس من الأوثان [الحج: ٣٠] ويقال: لفلان من أولاده جند يريد بذلك جميع أولاده لا بعضهم ..).اهـ.

وقال أبو السعود في تفسيره (٢٠/ ٦٧): وقيل (من) بيانية كما في قوله تعالى: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم ... [الفتح: ٢٩] الآية، والأمر من كان الناقصة والمعنى (كونوا أمة تدعون ...) كقوله تعالى: كنتم خير أمة ... [آل عمران: ١١٠] ولا يقتضي ذلك كون الدعوة فرض عين، فإن الجهاد من فروض الكفاية مع ثبوته بالخطابات العامة.اهـ.

ويمكننا تلخيص ما يمكن أن يستدل به أصحاب هذا القول فيما يلي

١ - إيجاب الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوله: كنتم خير أمة أخرجت .... .

٢ - أنه ليس أحد من المكلفين إلا وجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد أو اللسان أو القلب.

ومما ينبغي التنبه له أن أصحاب هذا القول يقولون: إنه وإن كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبا على الكل إلا أنه متى قام به البعض سقط عن الباقين، ونظيره قوله تعالى: انفروا خفافا وثقالا [التوبة: ٤١] وقوله: {إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ...} [التوبة: ٣٩] فالأمر عام وكذا الوعيد، ثم إذا قامت به طائفة وقعت الكفاية وزال التكليف عن الباقين.

وذهب آخرون كمقاتل بن حيان، وابن جرير، وابن كثير، وابن العربي، والقرطبي، والشوكاني، إلى أنها تبعيضية.

أخرج ابن أبي حاتم برقم (١١٢٥) بإسناد حسن عن مقاتل بن حيان في

قوله: {ولتكن منكم أمة ...} [آل عمران: ١٠٤] يقول: (ليكن منكم قوم يعني: واحد أو اثنين أو ثلاثة نفر فما فوق ذلك).

وقد جوز الزجاج في معاني القرآن (١/ ٤٢٥ - ٤٥٣) هذا المعنى مع ميله إلى الأول كما هو ظاهر كلامه حيث قال: (ويجوز أن تكون أمرت منهم فرقة لأن قوله ولتكن منكم ذكر الدعاة إلى الإيمان، والدعاة ينبغي أن يكونوا علماء بما يدعون إليه، وليس الخلق كلهم علماء، والعلم ينوب فيه بعض الناس عن بعض، وكذلك الجهاد).اهـ.

وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ٢٦٧): ومن تبعيضية متعلقة بالأمر، أو بمحذوف وقع حالا من الفاعل وهو أمة أو يدعون صفتها أي: لتوجد منكم أمة داعية إلى الخير، والأمة هي الجماعة التي يؤمها فرق الناس، أي يقصدونها ويقتدون بها، أو من الناقصة وأمة اسمها. ويدعون خبرها، أي: ولتكن منكم أمة داعين إلى الخير. وأيا كان فتوجيه الخطاب إلى الكل مع إسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وأنها واجبة على الكل بحيث إن أقامها البعض سقطت عن الباقين، ولو أخل بها الكل أثموا جميعا.اهـ.

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٩٠): يقول الله تعالى: ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأولئك هم المفلحون ... والمقصود من هذه الآية: أن تكون فرقة من هذه الأمة منصوبة لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (من رأى منكم منكرا .. الحديث.اهـ.

ثم إن أصحاب هذا القول اختلفوا في التبعيض في الآية على قولين هما:

الأول: أن فائدة كلمة من هي أن في القوم من لا يقدر على الدعوة ولا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل النساء والمرضى والعاجزين.

الثاني: أن هذا التكليف مختص بالعلماء ويدل عليه وجهان

١- أن هذه الآية مشتملة على الأمر بثلاثة أشياء: الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومعلوم أن الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم بالخير وبالمعروف وبالمنكر، فإن الجاهل ربما دعا إلى الباطل، وأمر بالمنكر، ونهى عن المعروف، فثبت بهذا أن التكليف متوجه إلى العلماء، ولا شك أنهم بعض الأمة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: فلولا نفر من كل فرقة منهم طآئفة ليتفقهوا في الدين ... [التوبة: ١٢٢].

٢- أنا أجمعنا على أن ذلك واجب على سبيل الكفاية، بمعنى أنه متى قام به البعض سقط عن الباقين، وإذا كان كذلك كان المعنى: ليقم بذلك بعضكم، فكان في الحقيقة إيجابا على البعض لا على الكل والله أعلم.

وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) رواه مسلم (٧٠) من حديث أبي سعيد.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح صحيح مسلم: (قوله ﷺ "فليغيره" أمر إيجاب بإجماع الأمة، وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة وهو أيضا من النصيحة التي هي الدين.) انتهى.

وقال القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ في الفروق (٤/ ٢٥٧): "قال العلماء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الفور إجماعا فمن أمكنه أن يأمر بمعروف وجب عليه" انتهى.

وقال النووي أيضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح صحيح مسلم (٢/ ٢٣): في بيان من يجب عليه إنكار المنكر: "ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف، ثم إنه قد يتعين -أي يصير واجبا على شخص بعينه- كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو أو لا يتمكن من إزالته إلا هو، وكمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على المنكر أو تقصير في المعروف، قال العلماء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه بل يجب عليه فعله فإن الذكرى تنفع المؤمنين " انتهى.

فإنكار المنكر إذا لا يتقيد بعدد بحيث ينكر مرة أو مرتين ثم يترك؛ بل من رأى منكرا وقدر على إنكاره، وجب عليه ذلك.

لكن اختلف العلماء في مسألة الإنكار على من يظن أنه لا ينزجر عن المنكر بالإنكار عليه فمنهم من يرى وجوب الإنكار عليه إعذارا إلى الله، وتأميلا في أن ينتفع الموعوظ، وهو ظاهر كلام النووي السابق. ومنهم من يرى عدم الوجوب لكنه يستحب عنده.

قال السفاريني الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (١/ ٢١٥): هل من شرط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رجاء حصول المقصود أو لا؟ على روايتين عن الإمام أحمد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. نقل أبو الحارث الوجوب، ونقل حنبل عكسه. قال في نهاية المبتدئين: وإنما يلزم الإنكار إذا علم حصول المقصود ولم يقم به غيره، وعنه إذا رجا حصوله، وهو الذي ذكره ابن الجوزي، وقيل ينكره وإن أيس من زواله وخاف أذى أو فتنة.

وقال في نهاية المبتدئين: إنما يجوز الإنكار فيما لا يرجى زواله وإن خاف

أذى، وقيل لا، وقيل يجب. والذي ذكره القاضي في المعتمد أنه لا يجب ويخير في رفعه إلى الإمام خلافا لمن قال يجب رفعه. قال في الآداب: وإذا لم يجب الإنكار فهو أفضل من تركه، جزم به ابن عقيل. قال القاضي خلافا لأكثرهم في قولهم ذلك قبيح ومكروه إلا في موضعين: أحدهما: كلمة حق عند سلطان جائر.

والثاني: إظهار الإيمان عند ظهور كلمة الكفر. انتهى.

وقال الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين النووية: حكى القاضي أبو يعلى روايتين عن الإمام أحمد في وجوب إنكار المنكر على من يعلم أنه لا يقبل منه وصحح القول بوجوبه وهو قول أكثر العلماء، وقد قيل لبعض السلف في هذا فقال يكون لك معذرة " انتهى.

وقد قيل لبعض السلف في هذا فقال يكون لك معذرة، وهذا كما أخبر الله عن الذين أنكروا على المعتدين في السبت أنهم قالوا لمن قال لهم {لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون} [الأعراف: ١٦٤].اهـ.

وقال ابن رشد رَحِمَهُ اللَّهُ في "البيان والتحصيل": "إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم بثلاثة شروط:

أحدها: أن يكون عارفا بالمعروف والمنكر. إذ لا يأمن من أن ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر لجهله بحكمهما.

والثاني: أن لا يؤدي إنكاره المنكر إلى منكر أكبر منه مثل أن ينهاه عن شرب الخمر فيؤول نهيه عن ذلك إلى قتل نفس وما أشبه ذلك.

والثالث: أن يعلم أو يغلب على ظنه أن إنكاره المنكر مزيل له، وأن أمره

مؤثر ونافع. فالشرطان: الأول والثاني مشترطان في الجواز، والشرط الثالث مشترط في الوجوب فإذا عدم الشرط الأول والثاني لم يجز أن يأمر ولا ينهى، وإذا عدم الشرط الثالث ووجد الشرط الأول والثاني جاز له أن يأمر وينهى ولم يجب ذلك عليه" انتهى نقلا عن "المدخل" لابن الحاج (١/ ٧٠) باختصار.

وقال الغزالي في الإحياء (٢/ ٣٢٨): "إذا علم أنه لا يفيد إنكاره، ولكنه لا يخاف مكروها فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها، لكن تستحب لإظهار شعائر الإسلام وتذكير الناس بأمر الدين" انتهى.

وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به من يكفي سقط عن الناس، وإذا لم يقم به من يكفي: وجب على الناس أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، لكن لابد أن يكون بالحكمة، والرفق، واللين؛ لأن الله أرسل موسى وهارون إلى فرعون وقال: (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) طه/ ٤٤، أما العنف: سواء كان بأسلوب القول، أو أسلوب الفعل: فهذا ينافي الحكمة، وهو خلاف ما أمر الله به.

ولكن أحيانا يعترض الإنسان شيء يقول: هذا منكر معروف، كحلق اللحية مثلا، كل يعرف أنه حرام، خصوصا المواطنون في هذا البلد، ويقول: لو أنني جعلت كلما رأيت إنسانا حالقا لحيته - وما أكثرهم - وقفت أنهاه عن هذا الشيء: فاتني مصالح كثيرة، ففي هذه الحال: ربما نقول بسقوط النهي عنه؛ لأنه يفوت على نفسه مصالح كثيرة، لكن لو فرض أنه حصل لك اجتماع بهذا الرجل في دكان أو في مطعم أو في مقهى: فحينئذ يحسن أن تخوفه بالله، وتقول: هذا أمر محرم، وأنت إذا أصررت على الصغيرة صارت في حقك كبيرة، وتقول الأمر المناسب" انتهى من "لقاءات الباب المفتوح" (١١٠/ ٥).

(فرع): متى يتعين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هناك أحوال يجب فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوبا عينيا.

يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين على من تعينه الدولة للقيام به، قال نظام الدين النيسابوري كما في غرائب القرآن ورغائب الفرقان على هامش ابن جرير (٤/ ٣): إن نصب لذلك رجل تعين عليه بحكم الولاية وهو المحتسب.اهـ.

وقال الماوردي في الأحكام السلطانية (ص٢٤٠): إن فرضه متعين على المحتسب بحكم الولاية وفرضه على غيره داخل في فروض الكفاية.اهـ.

ويكون فرض عين أيضا إذا كان المعروف في موضع تطمس معالمه والمنكر يقترف فيه، ولا يعرف ذلك إلا رجل واحد، أو لا يقدر على إزالته إلا رجل واحد تعين عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال النووي في المنهاج (٢/ ٢٣): إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية ثم إنه قد يتعين إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو.اهـ.

وكذا إذا احتاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جدال واحتجاج ومناقشة كان فرض عين على من يصلح لذلك إذا لم يوجد غيره، يقول ابن العربي المالكي في أحكام القرآن، (١/ ١٢٢): الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية. . . وقد يكون فرض عين إذا عرف المرء من نفسه صلاحية النظر والاستقلال بالجدال أو عرف ذلك منه.اهـ.

وبين الإمام النووي في المنهاج (٢/ ٢٣) هذا الأمر بأسلوب آخر فقال: ثم إنه قد يتعين إذا كان لا يتمكن من إزالته إلا هو كمن يرى زوجته أو ولده .. على منكر أو تقصير في المعروف.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في كتاب الحسبة في الإسلام (ص٣٧): وهو فرض كفاية ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره.اهـ.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (١٢/ ٣٢٩): هل ما تضمنه القرآن الكريم والسنة الصحيحة من نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالبيان والإرشاد يدل على وجوب ذلك عينا على كل عالم، لا تبرأ ذمته إلا بذلك، أو هذا فرض كفاية إذا قام به بعضهم كفى عن الباقين؟

فأجابوا: الحكم في ذلك يختلف باختلاف قلة العلماء وكثرتهم وتفاوتهم في العلم والمنزلة، فقد يحتاج الناس إلى بيان الحكم الشرعي ولا يوجد بينهم من العلماء إلا واحد، فيجب عليه وجوبا عينيا أن يجيب السائل، ويرشد الحيران، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وقد يكون بينهم عدد كثير من العلماء، لكن لا يقوى على البيان والإرشاد، أو الأمر والنهي منهم إلا واحد، إما لسعة علمه أو لقوة مركزه أو لفصاحته وحسن بيانه، فيجب عليه عينا أن يقوم بالبيان والنصح والأمر والنهي، وقد يكون في البلد كثير من العلماء، وكل منهم يقوى على الأمر والنهي والبيان، فيجب عليهم البيان وجوبا كفائيا، فإن قام أحدهم بما وجب سقط عن الباقين، وإن لم يقم بذلك أحد أثموا جميعا.اهـ.

(تنبيه): شَرْط سقوط الحرج عن الباقين، إذا قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من يكفي هو أن يكون سكوته لعلمه أن هذا الواجب قد قام به من يكفي.

قال ابن النحاس في كتابه تنبيه الغافلين (ص١٥ - ١٦): "واعلم أن مقتضى فرض الكفاية، أنه إذا قام به البعض حاز الأجر الجزيل من الله تعالى، وسقط الحرج عن الباقين، ولكن يشترط في سقوط الحرج هنا أن يكون الساكت عن

الأمر والنهي إنما سكت لعلمه بقيام من قام عنه بالغرض، فإن سكت ولم يعلم بقيامه، فالظاهر -والله أعلم- أنه لا يسقط عنه الحرج؛ لأنه أقدم على ترك واجب عمدًا، كما لو أقدم على الفطر في رمضان؛ ظانًّا منه النهار باقٍ وكان ليلًا، أو جامع ظانًّا أن الفجر قد طلع وكان ليلًا، فإنه يأثم بذلك.

(تنبيه ثاني): قال العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: والإنكار بالقلب فرض على كل واحد؛ لأنه مستطاع للجميع، وهو بغض المنكر، وكراهيته، ومفارقة أهله عند العجز عن إنكاره باليد واللسان؛ لقول الله سبحانه: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) الأنعام/ ٦٨، وقال تعالى في سورة النساء: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم) الآية، النساء/ ١٤٠، وقال تعالى: (والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما) الفرقان/ ٧٢، ومعنى لا يشهدون الزور لا يحضرونه. " فتاوى الشيخ ابن باز " (٣/ ٢١٢، ٢١٣).

(فرع): هل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الفور أم على التراخي

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الأصل فيه يكون على الفور لكن هناك منكرات تحتمل التأجيل كصاحب المنكرات المتفاوتة في الصغر والكبر فتبدأ بالأكبر فالأصغر وكذلك الغضبان يُنكر عليه بعد هدوءه ونحو ذلك، وكما لو كان بحضرة المحتسب وقت وقوع المنكر من يحمل كلام المحتسب على غير محمله فيتضرر لسوء فهمه فللمحتسب أن يؤخر الإنكار حتى تحين الفرصة المناسبة وفي ذلك يقول العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: تأخير إنكار المنكر قد يكون من

باب استعمال الحكمة في الدعوة إلى الله، فقد يكون هذا الرجل الفاعل للمنكر لا يناسب أن ننكر عليه في هذا الوقت بالذات، لكن سأحتفظ لنفسي بحق الإنكار عليه ودعوته إلى الحق في وقت يكون أنسب، وهذا في الحقيقة طريق صحيح، فإن هذا الدين -كما نعلم جميعا- بدأ بالتدرج شيئًا فشيئًا، فأقر الناس على ما كانوا يفعلونه من أمور كانت في النهاية حرامًا من أجل المصلحة، فهذه الخمر مثلًا بين الله تعالى لعباده أن فيها إثمًا كبيرًا ومنافع للناس، وأن إثمها أكبر من نفعها، وبقي الناس عليها حتى نزلت آخر آية فيها تحرمها بتاتا، فإذا رأى إنسان من المصلحة أن لا يدعو هذا الرجل في هذا الوقت، أو في هذا المكان، ويؤخر دعوته في وقت آخر، أو في مكان آخر، لأنه يرى أن ذلك أصلح أو أنفع، فهذا لا بأس به.

مسألة: حد الإكراه المسقط للأمر والنهي

من المعلوم أن الإنسان يكره الأذى كالضرب، أو طول اللسان، أو الغيبة، وما من شخص يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا ويتوقع منه غالبا نوع من الأذى، لذلك كان لابد من معرفة حد المكروه الذي يسقط بسببه وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فاعلم أن مطالب الناس في هذه الدار ترجع إلى أربعة أمور يطلبها الإنسان لنفسه ومن أحب كالقرابة ونحوهم وهي:

الأول: مطلوب في النفس وهو العلم.

الثاني: مطلوب في البدن وهو الصحة.

الثالث: مطلوب في المال وهو الثروة.

الرابع: مطلوب في قلوب الناس وهو الجاه.

والمكروه في هذه الأمور الأربعة أمران:

الأول: زوال الموجود منها.

الثاني: امتناع المرتقب.

وكل واحد من هذين الأمرين يحصل بفواته الضرر، ولكي تجلى لك صورة الأمر نمثل لك على تعرض كل واحد من تلك المطالب الأربعة للزوال باعتبار ما هو حاصل وموجود منها، لا ما كان مرتقبا.

فأما العلم: فلا يمكن لأحد رفعه من قلب صاحبه، وهذا من مزايا العلم وشرفه على غيره كما هو معلوم فانتفى المحذور من هذا الوجه.

وأما البدن: فقد يقصد بالعطب الكامل وذلك بالقتل فهذا يسقط الوجوب ولا ريب، وقد يقصد بأذى دونه كالضرب أو قطع شيء من الأعضاء ونحو ذلك، وهذا على قسمين وهما:

١- القسم الأول: ما كان الأذى فيه غير معتبر كالضربة الخفيفة ونحوها. فهي غير مؤثرة ولا معتبرة في إسقاط الوجوب.

٢- القسم الثاني: ما كان الأذى فيه معتبرا كالضرب المؤثر، وقطع شيء من الأعضاء وما جرى مجرى ذلك فإن هذا يسقط الوجوب.

وأما المال فهذا على قسمين أيضا وهما:

الأول: ما كان زواله غير مؤثر ولا منظور كنقص حبيبات من بر، أو درهم من ممتلكات المحتسب وهذا على سبيل التغليب، وإلا فلا شك أن ذلك يختلف باختلاف الناس.

الثاني: ما كان زواله مؤثرا على صاحبه، كإتلاف المال، أو جزء له قيمة معتبرة منه، وهذا مسقط للوجوب.

وأما الجاه فهو على قسمين أيضا وهما:

الأول: ما كان غير معتبر، وهو ما كان بنحو غيبة تقال فيه، أو لمز أمام أحد من الخلق، أو تجهيل أو نحو ذلك كأن يخرج من داره حاسر الرأس مثلا – وإن كان هذا يتفاوت ويختلف باختلاف الأعراف وتفاوتها – أو كأن يمنع من ركوب المراكب الفاخرة التي اعتاد ركوبها ونحو ذلك فهذا كله غير معتبر. وهذا هو الذي يعبر عنه بالجاه المحض.

الثاني: ما كان معتبرا، كأن يسود وجهه ويطاف به على حمار في السوق أو نحو ذا، فإن هذا يسقط الوجوب عنه وهو ما يعبر عنه بخوارم المروءة وليس كلها مسقطا للوجوب.

وأما التمثيل لما يخاف امتناع ما هو منتظر منها فكما يلي:

ففي جانب العلم: كأن يخشى الإنكار على معلمه أو من لو أنكر عليه لحال بينه وبين التعلم فيقال في هذا إن له ثلاثة أحوال.

الأولى: أن يجد غيره فهذا لا يسقط عنه الأمر والنهي فينكر عليه أو يأمره فإن امتنع من تعليمه ذهب وتعلم من غيره.

الثاني: أن لا يجد غيره لكن العلم الذي يتلقاه منه ليس فرضا في حقه فإن هذا أيضا لا يسقط الوجوب عنه.

الثالثة: أن لا يجد غيره والعلم الذي يتعلمه منه فرض في حقه، كتعلم الوضوء والصلاة ونحو ذلك، فإن القول بسقوط الإنكار عنه متجه والله أعلم.

وأما في البدن: فكأن يترك الإنكار على الطبيب خوفا من أن لا يداويه إذا اعتل أو خاف أن يتأخر عنه فتمتنع بسببه صحته المرتقبة.

وأما في المال: فكتركه الحسبة على السلطان وأصحابه، وعلى من يواسيه

من ماله خوفا من أن يقطع إدراره في المستقبل ويترك مواساته.

وأما الجاه: فكتركه الحسبة على من يتوقع منه نصرة أو جاها في المستقبل فيخشى أن لا يحصل له ذلك الجاه أو كأن يخاف أن يقبح حاله عند السلطان الذي يتوقع منه ولاية. فإن هذا واللذين قبله لا يسقطان شيئا من وجوب الحسبة لأن هذه زيادات امتنعت.

والذي يمكن أن يستثنى من ذلك هو ما تدعو إليه الحاجة ويكون في فواته محذور يزيد على محذور السكوت على المنكر. كما إذا كان محتاجا إلى الطبيب لمرض ناجز والصحة منتظرة من معالجة الطبيب ويعلم أن في تأخره عنه شدة الضنا به وطول المرض وقد يفضي إلى الهلاك فإذا انتهى إلى هذا الحد لم يبعد أن يرخص له في ترك الحسبة.

مسألة: هل للإنسان أن يسكت عن الإنكار بيده أو بلسانه خوفا على منصبه؟!

الجواب: أن صاحب هذا المنصب إن كان بقاؤه فيه لا يقدم نفعا للمسلمين ولا لدعوتهم إما لطبيعته وإما لحال صاحبه أو غير ذلك، فإن هذا لا يجوز له أن يسكت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل بقاء هذا المنصب.

أما إن كان بقاؤه فيه ينتج منه مصالح للأمة وخدمات للدعوة إلى الله تعالى كالخطيب في منبره أو المعلم أو نحو ذلك فقد يسوغ له أن يسكت عن بعض الأمور إذا غلب على ظنه أن إنكاره لها يكون سببا في إبعاده عن هذا المنصب.

أما إن كان يؤدي إلى ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكلية فهذا لا يظهر وجهه والله أعلم.

وبالجملة فإن الأمور تقدر بقدرها ولكل حالة حكم والله المستعان، لكن ينبغي الحذر من مداخل الهوى في هذا الباب، فقد يصور المرء لنفسه أن منصبه

مهم لخدمة الدعوة ومصلحتها وإنما الذي يحركه في ذلك هواه.

(فائدة): قال تعالى: (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين) [الأنفال: ٦٥] ثم نزل قوله: الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين) [الأنفال: ٦٦] قال ابن عباس: (فكتب أن لا يفر مائة من مائتين)، قال سفيان: وقال ابن شبرمة: (وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا) رواه البخاري (٤٦٥٢).اهـ.

مسألة: هل يشترط في الخوف من لحوق المكروه غلبة الظن أو يكفي في ذلك تجويز الوقوع؟ وما ضابط ذلك

قال الغزالي في الإحياء (٢/ ٣١٦ - ٣١٧): فإن قيل: فالمكروه الذي تتوقع إصابته إن لم يكن متيقنا ولا معلوما بغالب الظن ولكن كان مشكوكا فيه، أو كان غالب ظنه أنه لا يصاب بمكروه، ولكن احتمل أن يصاب بمكروه، فهذا الاحتمال هل يسقط الوجوب حتى لا يجب إلا عند اليقين بأنه لا يصيبه مكروه، أم يجب في كل حال، إلا إذا غلب على ظنه أنه يصاب بمكروه؟! قلنا: إن غلب على الظن أنه يصاب بمكروه لم يجب، وإن غلب على الظن أنه لا يصاب وجب، ومجرد التجويز لا يسقط الوجوب فإن ذلك ممكن في كل حسبة. وإن شك فيه من غير رجحان فهذا محل النظر، فيحتمل أن يقال: الأصل الوجوب بحكم العمومات، وإنما يسقط بمكروه، والمكروه هو الذي يظن أو يعلم حتى يكون متوقعا. وهذا هو الأظهر. ويحتمل أن يقال: إنه إنما يجب عليه إذا علم أنه لا ضرر فيه عليه، أو ظن أنه لا ضرر عليه. والأول أصح، نظرا إلى قضية العمومات الموجبة للأمر بالمعروف. فإن قيل: فالتوقع للمكروه يختلف

بالجبن والجراءة فالجبان الضعيف القلب يرى البعيد قريبا حتى كأنه يشاهده ويرتاع منه. والمتهور الشجاع يبعد وقوع المكروه به بحكم ما جبل عليه من حسن الأمل حتى إنه لا يصدق به إلا بعد وقوعه، فعلى ماذا التعويل؟! قلنا: التعويل على اعتدال الطبع وسلامة العقل ...اهـ.

وإنما تؤتى الدعوات من أحد هذين الصنفين الذين ذكرهما فالمتهور يوقع نفسه ومن معه في مهالك تجهز عليهم وعلى دعوتهم وتفتح الباب على مصراعيه لعدوهم المتربص لضربهم ونسف جهودهم في الدعوة .. وهذا النوع يفسد في الغالب أكثر مما يصلح، ولا حيلة معه إلا بأن يروض نفسه ولو تكلفا، كما ينبغي له أن يستشير من هو أعقل وأعلم منه، وعليه أن يقبل المشورة.

أما ضعيف القلب والذي يخاف ظله .. ويتوهمه عدوا يطارده فعليه أن يعود نفسه على الإقدام حتى في حال خوفه لعل هذا الخوف أن يزول عنه .. وهذا النوع من الخلق لا يقل خطرا على الدعوات من الأول، ولذا فلا ينبغي أن يولى هذان على رجلين أبدا. فهذا الضعيف كم من جهاد عطل بسببه، وكم من عمل بر أو حلقة علم جمدت نتيجة لأوهامه، وبالجملة فإن مجالسة هذا الصنف - أعني الأخير - تفسد قوى النفس وتجلب الوهن والوهم والخوف من النسمات ومثل هذا والذي قبله لا يصلح أن يحمل دعوة ولا أن يوجه أمة فمن أراد السلامة فعليه اجتنابهما، وعند البخاري (٥٧٠٧) (فر من المجذوم فرارك من الأسد) بل إن مجالسة المجاذيم أهون من مجالسة صاحب الوهن إن كان وهنه متعديا كما سبق، لأن الجذام إذا أصيب به الإنسان -بإذن الله- تآكلت أطرافه وتعطلت قواها.

أما هذا الواهن الموهن فإن مجالسته سبب لتآكل قوى القلب وتلاشيها

حتى يصير صاحبها لا يقدر على تحريك ساكن.

وغالبا ما يكون الأول -أعني المتهور- أكثر صدقا من الثاني، لكنه لقلة علمه أو عقله وتجربته يتسرع فيوقع نفسه فيما هو في غنى عن الوقوع فيه.

أما الثاني فغالبا ما يكون سبب ضعفه إنما هو خوفه على نفسه أو منصبه، وهذا قد يوقعه في المداهنة كثيرا. والله المستعان.

ومما يدل على أن مجرد هيبة الناس لا تكفي في إسقاط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حديث أبي سعيد الخدري ﵁ أن رسول الله ﷺ قام خطيبا فكان فيما قال: (ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه. قال: فبكى أبو سعيد وقال: قد والله رأينا فهبنا)[١].

قال أبو المنذر إسماعيل بن عمر كما في نزهة الفضلاء (٢/ ٦٥٣): سمعت أبا عبد الرحمن العمري الزاهد يقول: إن من غفلتك عن نفسك إعراضك عن الله، بأن ترى ما يسخطه فتجاوزه، ولا تأمر ولا تنهى خوفا من المخلوق. من ترك الأمر بالمعروف خوف المخلوقين نزعت منه الهيبة، فلو أمر ولده لاستخف به.اهـ.

والحاصل أن هناك بعض الأمور بها يسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن المكلف باليد واللسان، لكن إذا سقط عنه الوجوب فليس معنى ذلك أن ينتفي في حقه ويمنع منه بل قد يكون مستحبا كما أنه يكون محرما أو مكروها في بعض الأحيان[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٨٤) وغيره، والحديث صححه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (١٦٤)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٦٨)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٨/ ٣١٨): حديث صحيح.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخالد بن عثمان السبت (ص٩٦).

مسألة: التغيير بالقلب أهميته وحقيقته وفوائده

المطلب الأول: أهمية التغيير بالقلب

المنكر لا تقره الشريعة بأي حال من الأحوال، فلابد من تغييره ولكن تغييره على مراتب، ولما كان الناس يختلفون في قدراتهم الجسمية والعقلية وغير ذلك، فإن الشارع الحكيم رتب إنكار المنكر على حسب قدرة الشخص، ولكن لا يعذر أحد من المكلفين بترك الإنكار مهما يكن من أمر، فيجب عليه أن يغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أقل الأحوال؛ لأن كل إنسان يستطيع ذلك ومن هو الذي لا يقدر على الإنكار بالقلب إلا رجل قد مرض قلبه وانتكس فهذا أمره أشد من قضية الإنكار بالقلب.

والأصل في هذا الحكم ما رواه الإمام مسلم (٤٩) بسنده عن النبي ﷺ قال: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره. ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) رواه مسلم (٥٠).

وعندما تكلم يحيى بن معاذ الرازي يوما في الجهاد وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالت له امرأة: هذا واجب وضع عنا فقال: هبي أنه وضع عنكن سلاح اليد واللسان فلم يوضع عنكن سلاح القلب فقالت له صدقت جزاك الله خيرا.اهـ. (فائدة) سلاح اللسان لا يسقط عن المرأة فعليها أن تنكر

على من تستطيع الإنكار عليه من أقاربها الرجال وأما النساء فعليها الإنكار عليهن بصفة عامة، ولهذا شواهد:

ورد عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها رأت امرأة بين الصفا والمروة عليها خميصة من صلب -أي ثوب عليه خطوط متصالبة- فقالت عائشة: (انزعي هذا من ثوبك فإن رسول الله ﷺ إذا رآه في ثوب قضبه)(١).

وأما بالنسبة للإنكار على الرجال: فقد ورد أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رأت أخاها عبد الرحمن يسرع في الوضوء ليدرك الصلاة على سعد بن أبي وقاص. فقالت: يا عبد الرحمن أسبغ الوضوء فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ويل للأعقاب من النار)(٢).

ولا شك أن إنكار المرأة بقلبها على الرجال هو الغالب وعلى النساء في بعض الحالات بخلاف الرجل فإن إنكاره في قلبه مقيد بظروف معينة، وهي عدم مقدرته على الإنكار باليد واللسان فيجب على المسلم أن يعلم أنه لا يعذر بحال بترك الإنكار بقلبه عند عجزه عن الإنكار باليد واللسان، وإذا كان قلبه لا يتحرك عند رؤيته للمنكر فعليه أن يعلم أن قلبه مريض ويحتاج إلى علاج، وأما إذا علم صدق نيته بقلبه في بغضه للمنكر وتمني زواله فإن الله سبحانه وتعالى يعطيه مثل أجر القادر عليه وعلى أسوأ الأحوال فإنه لا يأثم بتركه ذلك.

المطلب الثاني: حقيقة الإنكار بالقلب

يغلط البعض فيظن أنه ما دام كارها للمنكر فلا بأس عليه بمخالطة فاعله

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٤٠) وغيره وحسن إسناده الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤٣/ ١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٠) وغيره وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤٠/ ١٤٩).

والجلوس معه حال مواقعته المنكر أو البقاء في مكان فيه منكر في الشرع وهذا مخالف لما دل عليه القرآن والسنة. قال تعالى: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم) [النساء: ١٤٠] وهذا نهي صريح عن مجالستهم حال مواقعتهم لهذا المنكر فما دام لا يقدر على الإنكار باليد أو اللسان فلا بد إذا من مفارقته للمنكر هذا هو الصحيح.

قال الجصاص في أحكام القرآن (٢/ ٤٠٧): وفي هذه الآية دلالة على وجوب إنكار المنكر على فاعله، وأن من إنكاره إظهار الكراهة إذا لم يمكنه إزالته، وترك مجالسة فاعله والقيام عنه حتى ينتهي ويصير إلى حال غيرها.اهـ.

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٤١٨) عند هذه الآية: فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم والرضا بالكفر كفر، قال الله ﷻ: إنكم إذا مثلهم فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية .. وإذا ثبت تجنب أهل المعاصي فتجنب أهل البدع والأهواء أولى.اهـ.

وقال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تفسيره (٢/ ٩٣ - ٩٤) عند هذه الآية: وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم حتى يخوضوا في حديث غيره أي: غير الكفر بآيات الله ولا الاستهزاء بها.

إنكم إذا أي إن قعدتم معهم في الحال المذكور مثلهم لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن من حضر مجلسا يعصى الله به فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم مع القدرة، أو القيام مع عدمها.اهـ.

وقال البخاري قبل حديث رقم (٥١٨١) (باب: هل يرجع إذا رأى منكرا في الدعوة)، ثم قال: ورأى ابن مسعود صورة في البيت فرجع.

ودعا ابن عمر أبا أيوب فرأى في البيت سترا على الجدار. فقال ابن عمر: غلبنا عليه النساء. فقال: من كنت أخشى عليه فلم أكن أخشى عليك، والله لا أطعم لكم طعاما. فرجع، ثم ساق بسنده من حديث عائشة أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب فلم يدخل، فعرفت في وجهه الكراهة فقلت: يا رسول الله: أتوب إلى الله وإلى رسوله، ماذا أذنبت. فقال رسول الله ﷺ ما بال هذه النمرقة؟ قالت: فقلت: اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها. فقال رسول الله ﷺ إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة .. ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم وقال: إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة).اهـ.

وقال ابن ماجه: (باب إذا رأى الضيف منكرا رجع). وذكر حديث علي رضي الله عنه قال: (صنعت طعاما فدعوت رسول الله ﷺ فجاء فرأى في البيت تصاوير فرجع)[1].

وأورده أيضا من حديث سفينة، أبي عبد الرحمن، قال: (إن رجلا أضاف

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٧٢٤) وغيره والحديث قال عنه البزار في البحر الزخار (٢/ ١٥٧): من أحسن إسناد يروى عن علي، وإسناده صحيح، وقال الشوكاني في النيل (٦/ ٣٣١): إسناد رجاله رجال الصحيح وله شواهد، وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجه، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤/ ٤٥٤): إسناده صحيح.

علي بن أبي طالب فصنع له طعاما، فقالت فاطمة: لو دعونا النبي ﷺ فأكل معنا، فدعوه فجاء، فوضع يده على عضادتي الباب، فرأى قراما في ناحية البيت فرجع، فقالت فاطمة لعلي: الحق، فقل له ما رجعك يا رسول الله؟ قال: إنه ليس لي أن أدخل بيتا مزوقا)(١).

وقد ذهب الإمام أحمد كما في الورع (ص: ١٣٧)، وفي كشاف القناع (٥/ ١٧٠ - ١٧١) إلى أنه يخرج من الوليمة إذا وجد جدران البيت قد سترت، وكذا إذا استعمل صاحب الوليمة آنية الفضة أو الذهب، أو رأى في البيت شيئا من ذلك المستعمل.اهـ.

قال المروذي كما في الورع (ص١٣٧): قلت لأبي عبد الله: فالرجل يدعى فيرى مكحلة رأسها مفضض؟ قال: هذا يستعمل، وكل ما استعمل فاخرج منه.اهـ.

وقال المروذي كما في الورع (ص١٣٨): سألت أبا عبد الله عن الرجل يدعى فيرى فرش ديباج، ترى أن يقعد عليه أو يقعد في بيت آخر؟! قال: يخرج، قد خرج أبو أيوب وحذيفة.اهـ.

وجاء عن أبي مسلم الخولاني كما في الورع (ص١٣٩): أنه انصرف إلى منزله فإذا هو بالبيت قد ستر، فقال: إن بيتكم هذا ليجد القر فأدفئوه، وإلا فلا أبرح حتى تنزعوه، فنزعوا الستور ثم دخل.اهـ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٠)، وأبو داود (٣٧٥٥)، وابن ماجة (٣٣٦٠)، والبيهقي في الكبرى (١٤٣٣٧) والحديث قال عنه العراقي في المغني (٤/ ٢٩٣): إسناده جيد، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٢٤١١)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الصحيح غير سعيد بن جمهان فهو صدوق من رجال السنن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣١٨ - ٣١٩): وروى أبو بكر الخلال بإسناده عن محمد بن سيرين أن حذيفة بن اليمان أتى بيتا فرأى فيه حارستان، فيه أباريق الصفر والرصاص فلم يدخله وقال: من تشبه بقوم فهو منهم، وفي لفظ آخر: فرأى شيئا من زي العجم فخرج وقال: من تشبه بقوم فهو منهم.

وقال علي بن أبي صالح السواق: كنا في وليمة، فجاء أحمد بن حنبل، فلما دخل نظر إلى كرسي في الدار عليه فضة، فخرج، فلحقه صاحب الدار، فنفض يده في وجهه وقال: زي المجوس، زي المجوس، وقال في رواية صالح: (ذا كان في الدعوة مسكر أو شيء من آنية المجوس: الذهب والفضة، أو ستر الجدران بالثياب، خرج ولم يطعم).اهـ.

وقال إبراهيم الحربي كما في سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٢٦): وكان -أي الإمام أحمد- إن رأى إناء فضة أو منكر خرج.اهـ.

وقال أبو محمد بن تميم الحنبلي كما في طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٨) عند ذكره لعقيدة الإمام أحمد: وكان يتحرج أن يدخل إلى دار فيها صور، أو دعوة فيها لهو أو غناء أو جنازة يتبعها نوح أو مزمار، فإذا حضرها لم يرجع عنها. (أي الجنازة).اهـ.

وأخرج ابن جرير في تفسيره (٩/ ٣٢١) بإسناد صحيح عن هشام بن عروة قال: أخذ عمر بن عبد العزيز قوما على شراب، فضربهم وفيهم صائم. فقالوا: إن هذا صائم فتلا: {فلا تقعدوا معهم} [النساء: ١٤٠].اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٤١) عند شرحه لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الجيش الذي يغزو الكعبة فيخسف بهم: قال المهلب: في هذا الحديث أن من

كثر سواد قوم في المعصية مختارا أن العقوبة تلزمه معهم. قال: واستنبط منه مالك عقوبة من يجالس شربة الخمر وإن لم يشرب.اهـ.

وقال الإمام مالك كما في الجامع لابن أبي زيد (ص١٥٦): لا ينبغي المقام بأرض يعمل فيها بغير الحق والسب للسلف الصالح، وأرض الله واسعة، لقد أنعم الله على عبد أدرك حقا فعمل به.اهـ.

وقال العلامة ابن باز كما في الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ١٤٢): والإنكار بالقلب فرض على كل واحد، وهو بغض المنكر وكراهيته، ومفارقة أهله عند العجز عن إنكاره باليد واللسان؛ لقول الله سبحانه: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) الأنعام/ ٦٨ ..اهـ.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (١٢/ ٣٣٥): حديث "تغيير المنكر" هل المقصود لكي يتغير المنكر أن نترك المكان الذي به منكر، أم نظل، ونكرهه، وننكره بقلوبنا.

فأجابوا: المسلمون في إنكار المنكر درجات، منهم من يجب عليه إنكار المنكر بيده، كولي الأمر، ومن ينوب عنه، ممن أعطي صلاحية لذلك، كالوالد مع ولده، والسيد مع عبده، والزوج مع زوجته؛ إن لم يكف مرتكب المنكر إلا بذلك، ومنهم من يجب عليه إنكاره بالنصح، والإرشاد، والنهي، والزجر، والدعوة بالتي هي أحسن، دون اليد، والتسلط بالقوة؛ خشية إثارة الفتن، وانتشار الفوضى، ومنهم من يجب عليه الإنكار بالقلب فقط؛ لضعفه نفوذا، ولسانا، وهذا أضعف الإيمان، وقد بين النبي ﷺ ذلك في قوله (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف

الإيمان) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإذا كانت المصلحة الشرعية في بقائه في الوسط الذي فشا فيه المنكر أرجح من المفسدة، ولم يخش على نفسه الفتنة: بقي بين من يرتكبون المنكر، مع إنكاره حسب درجته، وإلا هجرهم محافظة على دينه.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في لقاءات الباب المفتوح: الذي يرى المنكر ويكرهه بقلبه، ولا يستطيع أن ينكره بلسانه فإنه معذور ويكفي هذا، ولكن إذا أنكره بقلبه فإنه لا يجوز له أن يبقى مع هؤلاء الفاعلين؛ لأن الله تعالى قال: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} [النساء:١٤٠]. وما يفعله بعض الجهال من بقائه مع أهل المنكر الذين يفعلون المنكر بين يديه؛ كشرب الدخان، أو يلعبون أشياء محرمة، ويقول: أنا أكره هذا بقلبي، نقول: هذا لا يكفي، إذا كنت تكرهه بقلبك حقًا فإن قلبك سوف ينفر منه، وإذا نفر القلب فإن الجوارح سوف تنفر منه أيضًا؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب) فعلى هذا نقول: إذا كرهته بقلبك ولم تستطع أن تنكره بلسانك؛ وجب عليك أن تغادر المحل، وإذا كنت تستطيع الإنكار بلسانك وجب عليك ذلك وإلا كنت آثمًا.اهـ.

وسئل العلامة الألباني كما في جامع تراثه المنهج والأحداث الكبرى (٩/ ٣٢٥): السائل: بالنسبة لتغيير المنكر بالقلب كيف يساهم تغيير المنكر في القلب؟ الشيخ: كيف ايش؟ السائل: كيف يساهم إنكار المنكر بالقلب في تغيير المنكر؟ الشيخ: كيف يساهم؟ السائل: نعم يساهم هو يعني يعتبر من مراتب تغيير المنكر الشيخ: نعم هو المرتبة الأخيرة كما قلنا السائل: نعم، فكيف هذا

يعني يكون له أثر في تغيير المنكر وهو في القلب؟ الشيخ: أنا ذكت آنفا أن الإنسان في بعض الأحيان يصل إلى الموت بموت شعوره بأن هذا منكر، فإذا مات هذا الشعور ما أنكر المنكر بقلبه وإذا أنكره بقلبه حيي قلبه ظل حيا، يعني الآن أنا أذكرك بأمر واقع مع الأسف الشديد، هؤلاء الناس الذين يمرون ببعض الشوارع فيرون صورا خليعة جدا وقد تكون هذه الصور أمام بيت من بيوت الله ﷻ، سينمايات مثلا، هل أنت تشعر معي أن كثيرا من الناس الذين يمرون ويرون هذه الأشياء لا يشعرون بإنكار لها إطلاقا في قلوبهم أم لا؟ طيب وبالعكس ألا تظن أيضا فيه ناس آخرين حينما يرون هذه الصور الخليعة مثلا وبخاصة أما بيت من بيوت الله ﷻ يقولون على الأقل في بلسان الحال اللهم إن هذا منكر لا نرضى به، ألا تجد هذا يختلف عن ذاك السائل: نعم أبو مالك: بس يا شيخا هو نفسه الشيخ: هو ظاهر بدو أبو مالك: والله أخونا يسأل يعني ماذا يرى ... ما يراه.

الشيخ: هو هذا، فإذن هذا الثاني غير المنكر بقلبه أما الأول فما غير فهذا هو الذي في خطر الخروج من الملة هذا الذي لا ينكر المنكر ولو بقلبه، وربما يخطر في بالي الآن شيء هو جواب ما هو أدق عما سألت عنه، تغيير المنكر بالنسبة إليك فقط، تغيير المنكر بالنسبة إليك حينما رأيت هذا المنكر وأنكرته بقلبك فهذا إنكار صالح بالنسبة إليك، أما بالنسبة للذي لم يشعر شعورك ولا أحس بإحساسك، فبلا شك هنا لا يوجد إنكار المنكر لعله هذا أوضح لك مما ذكرت آنفا وإن كان المثال أو المثالين السابقين الحقيقة هو المقصود بإنكار المنكر أن لا يموت قلب المسلم فيمر على المنكر يمر على المعروف لا يميز بين منكر وبين معروف هذا هو الإنكار المقصود بالقلب، إلا إذا كان عندك شيء آخر فنسمعه إن شاء الله السائل: نعم تفضل سائل آخر: شيخ ألا يلزم

البغض أيضا؟ الشيخ: كيف؟ سائل آخر: من لوازم إنكار المنكر بالقلب الهجر والبغض الشيخ: وهذا هو طبعا، اللهم هذا منكر لا نرضى به، يعني الأمر كما يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن هناك للقلب عمل يعني المستقر في أذهان كثير من الناس أن العمل هو عمل الجوارح فقط أي الجوارح الظاهرة، لكن الحقيقة أن القلب أيضا له عمله ولذلك فالإيمان مقره القلب، هذا الإيمان في القلب يزيد وينقص إذن فيه هناك حركة تشبه تماما الحركة المادية في القلب، لو سكت القلب مات صاحبه كذلك تماما من الناحية المعنوية الإيمانية، هذا القلب فيه عمل وفيه حركة مستمرة إما خيرا وإما شرا، فكلما فعل المسلم عملا صالحا كلما نمى هذا الإيمان في قلبه، فالقلب أيضا له عمل فمن جملة أعماله هو الإنكار بهذا القلب هذا يقوي الإيمان أيضا ولكنه قال عَلَيْهِ السَّلَامُ (أضعف الإيمان) لكن حنانيك بعض الشر أهون من بعض أبو مالك: ولعل شيخنا ما يكون من علامات الساعة في آخر الزمن، ربما يلقي بوضوح أو توضيحا على هذه المسألة الشيخ: أي نعم أبو مالك: أن الرجل يمر بالرجل وهو يزني على قارعة الطريق الشيخ: الله أكبر أبو مالك: فيقول له لو تواريت أي واريت نفسك الشيخ: أي والله أبو مالك: أي نعم الشيخ: يعني هذا في الحديث خيرهم أبو مالك: أي نعم الشيخ: من يقول لو تواريت الشيخ: خيرهم الله أكبر، نعم.

المطلب الثالث: فوائد الإنكار بالقلب وثمراته

١ - أنه أقل درجات الإنكار المطلوبة وبه يسلم المرء من العقوبة.

٢ - هذا الإنكار القلبي يدل على عدم الرضا بالمنكر وكراهيته والنفور منه، وقد جاء عن عرس بن عميرة الكندي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال (إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها وكرهها - وفي رواية - فأنكرها - كمن غاب

عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها)[(١)].

وجاء في حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند مسلم (١٨٥٤) مرفوعا: (ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم ولكن من رضي وتابع).

٣- حفظ حيوية القلب وصفائه، فإن القلب يتأثر بكثرة رؤية المنكرات، وقد يألفها إذا لم ينكرها، وتذهب حساسية القلب تجاهها فلا يصير يتألم لرؤيتها.

٤- أن هذا الإنكار القلبي يعني الرفض للمنكر والتربص به، فصاحبه -أي الإنكار بالقلب- عازم على تغييره بمجرد استطاعته.

المبحث الخامس الإنكار بالهجر

المطلب الأول: تعريف الهجر لغة وشرعا

قال الجوهري في الصحاح مسلم (١٨٥٤): الهجر: ضد الوصل. والمهاجرة من أرض إلى أرض ترك الأولى للثانية.

والتهاجر: التقاطع. والهجرتان: هجرة إلى الحبشة وهجرة إلى المدينة.اهـ.

والهجر الشرعي نوعان:

الأول: بمعنى الترك للمنكرات. ومنه قوله تعالى: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم) [النساء: ١٤٠].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ١٢٤، رقم ٤٣٤٥)، والنسائي (٥٩٩٦)، والطبراني (١٧/ ١٣٩، رقم ٣٤٥)، وابن قانع (٢/ ٣٠٩، رقم ٨٥٠)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (١/ ٣٣٣) والحديث صححه السيوطي في الجامع الصغير (٧٦٦)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٦٨٩)، وقال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/ ٧١٦): إسناده صحيح، وحسنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٦/ ٤٠١).

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٦٦، ٥٦٧): أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ بها وأقررتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه.اهـ.

ومنه قوله تعالى: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) [الأنعام: ٦٨].

قال القرطبي في تفسيره (٧/ ١٢): والخطاب مجرد للنبي ﷺ وقيل إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه وهو الصحيح. فإن العلة سماع الخوض في آيات الله وذلك يشملهم وإياه .. ودل بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكرا علم أنه لا يقبل منه فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ولا يقبل عليه.اهـ.

وورد في حديث جابر بن عبد الله -الطويل- وفيه (.. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يشرب عليها الخمر)(١).

ومن هذا الباب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.

ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم) [العنكبوت: ٢٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٩، رقم ١٤٦٩٢)، والدارمى (٢/ ١٥٣ رقم ٢٠٩٢)، والترمذى (٥/ ١١٣، رقم ٢٨٠١)، وأبو يعلى (٣/ ٤٣٥، رقم ١٩٢٥) والطبرانى فى الأوسط (١/ ٢١٣ رقم ٦٨٨)، والحاكم (٤/ ٣٢٠ رقم ٧٧٧٩)، والبيهقى فى الشعب (٥/ ١٢ رقم ٥٥٩٦)، والخطيب في تاريخه (١/ ٢٤٤) والحديث ضعفه بعض أهل العلم، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال العلامة الألباني في صحيح الترغيب (١٦٧): صحيح لغيره، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٣/ ١٩): حسن لغيره.

قال القرطبي (١٣/ ٣٣٩): وهو أول من هاجر من أرض الكفر.

وقال القرطبي أيضا (٧/ ٣٩٢) حول قوله تعالى: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) [الأنفال: ٢٥]. قال علماؤنا: فالفتنة إذا عمت هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها. وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم .. وبهذا قال السلف ﵃.اهـ. بتصرف

الثاني: الهجر على وجه التأديب والعقوبة، وهو هجر أهل المعاصي والمنكرات والمخالفات وهو بمنزلة التعزير، ويفعله إذا رآه أقوى في نفسية الفاعل من التغيير باليد واللسان أو إذا عجز عن التغيير باليد واللسان.

فإذا أظهر الإنسان المكلف معصيته أو عرف بها وأصر عليها سواء أكانت هذه المعصية فعلية أم قولية أم اعتقادية فمن السنة هجره، فالهاجر يثاب عليه؛ لأنه من أجل الله تعالى، وقد هجر النبي ﷺ كعبا وصاحبيه وأمر الصحابة بهجرهم خمسين يوما، وهجر نساءه شهرا، وهجرت عائشة ﵂ ابن أختها عبد الله بن الزبير ﵄ مدة.

روي عن الإمام أحمد كما في الآداب الشرعية (١/ ٢٥٨) أنه قال: إذا علم أنه مقيم على معصيته وهو يعلم بذلك لم يأثم إن هو جفاه حتى يرجع وإلا كيف يتبين للرجل ما هو عليه إذا لم ير منكرا ولا جفوة من صديق.اهـ.

فمن خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والآثار يتبين لنا مشروعية الهجر، وأنه سنة يثاب عليها الإنسان إذا كان ذلك لله تعالى.

المطلب الثاني: أنواع الهجر

النوع الأول: الهجر كلية. ويكون ذلك للكفار، يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) [المائدة: ٥١].

ويقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) [الممتحنة: ١].

ويقول تعالى: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) [المجادلة: ٢٢] الآية.

وغير ذلك من النصوص التي تفيد وجوب هجر الكفار وتركهم وعدم محبتهم مهما كانوا، حتى ولو كانوا من الأقربين.

النوع الثاني: هجر كلي لمدة مؤقتة كشهر أو شهرين أو أقل أو أكثر حسب ما تقتضيه مصلحة صلاحه، كما فعل النبي ﷺ وصحابته مع الثلاثة الذين خلفوا.

ويذكر في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم على بعض ثم قال: لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون [المائدة: ٧٨ - ٨١] إلى قوله

فاسقون)[١].

النوع الثالث: هجر جزئي كأن يهجره في بعض جوانب التعامل فقط

مثل هجر الزوجة في المنام فقط لتأديبها.

يقول تعالى: (واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) [النساء: ٣٤].

والهجر: أن يوليها ظهره فلا ينام معها في فراش أو تحت لحاف واحد.

وفي المسند عن حكيم بن معاوية عن أبيه في حديثه الطويل قلت: (ما حق زوجة أحدنا عليه قال: تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت)[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، وأبو داود (٤/ ١٢١، رقم ٤٣٣٦)، وابن ماجة (٤٠٠٦)، والطبراني في الكبير (١٠/ رقم ١٠٢٦٥)، والشجري في الأمالى (٢/ ٢٣١)، والطحاوي في المشكل (٢/ ٦١ - ٦٢)، والبيهقى (١٠/ ٩٣، رقم ١٩٩٨٣) والحديث ضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (١١٠٥)، وضعفه الشيخ مقبل في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (٢٩٤)، وضعفه الحويني في النافلة (رقم ٦)، وضعفه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٦/ ٢٥١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣، ٥)، وأبو داود (٢١٤٢ - ٢١٤٤)، وابن ماجه (١٨٥٠)، وابن حبان (٤١٧٥)، والحاكم (/ ١٨٧ - ١٨٨)، وابن أبي الدنيا في العيال (٤٨٨)، والبيهقي (٧/ ٢٩٥ و٣٠٥) وغيرهم من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وحسنه النووي في الرياض (١١٣)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٨/ ٢٩٠)، وقال الحافظ في التلخيص (٤/ ٧): صححه الدارقطني في العلل، وصححه العلامة الألباني في الإرواء (٧/ ٩٨)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/ ٢٧٧)، وقال الحويني في تسلية الكظيم (ح٧١): سنده حسن، وحسنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٣/ ٢١٤)، وقال الشيخ مشهور في تحقيق إعلام الموقعين (٦/ ٤٧٩): إسناده حسن.

المطلب الثالث: أقسام الناس بالنسبة للهجر

تختلف منزلة الناس من حيث المعصية فبعضهم كافر أو يصل إلى درجة الكفر، وبعضهم مبتدع وبعضهم عاص أو مخالف، إلى غير ذلك من هذه الأنواع، فالمسلم يجب أن يكون موقفه منهم بحسب معصيتهم، وسوف نورد أقسام الناس من حيث المعصية على النحو التالي:

القسم الأول: الكافر: فهذا يقاطع بالكلية كما تقدم

القسم الثاني: مبتدع: والمبتدع ينقسم إلى قسمين

أ- مبتدع يدعو إلى بدعته، فهذا يجب هجره ومقاطعته.

قال الإمام أحمد كما في الآداب الشرعية (١/ ٢٦٨) ويجب هجر من كفر أو فسق ببدعة أو دعا إلى بدعة مضلة أو مفسقة على من عجز عن الرد عليه أو خاف الاغترار به دون غيره، وقيل: يجب هجره مطلقا وهو ظاهر كلام الإمام أحمد رضي الله عنه السابق. وقطع ابن عقيل به في معتقده قال: ليكون ذلك كسرا له واستصلاحا.اهـ.

وقال الخلال كما في الآداب الشرعية (١/ ٢٦٨): حدثنا إسماعيل بن إسحاق الثقفي النيسابوري أن أبا عبد الله سئل عن رجل له جار رافضي يسلم عليه؟ قال: لا وإن سلم لا يرد عليه.اهـ.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار وإن كان في بعض أسانيدها مقال، ولكن يشد بعضها بعضا، تفيد ذلك منهما: ما رواه جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله. إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم).

وروى الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا

تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم)، وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ (صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية)، وعن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ (لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم وهم شيعة الدجال ..) الحديث، وفي رواية لأبي داود أيضا (وإن ماتوا فلا تشهدوهم).

فهذه الأحاديث تفيد مقاطعة أهل البدع والضلالات والأهواء الذين يدعون إليها ويصرون عليها، كما وردت آثار كثيرة عن السلف في هجر المبتدعة، وكتب العقيدة مليئة بذلك.

وسئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٣/ ٣٧): متى تجوز مقاطعة المبتدع؟ ومتى يجوز البغض في الله؟ وهل تؤثر المقاطعة في هذا العصر؟

فأجاب: المؤمن ينظر في هذه المقامات بنظر الإيمان ونظر الشرع، ونظر التجرد من الهوى، فإذا كان هجره للمبتدع وبعده عنه لا يترتب عليه شر أعظم، فإن هجره حق وأقل أحواله أن يكون سنة، وهكذا من أعلن المعاصي وأظهرها، أقل أحواله أن هجره سنة، فإن كان عدم الهجر أصلح، لأنه يرى أن دعوة هؤلاء المبتدعين وإرشادهم إلى السنة، وتعليمهم ما أوجب الله عليهم، أن ذلك يؤثر فيهم وأنه يفيدهم، فلا يعجل في الهجر، ومع ذلك يبغضهم في الله، كما يبغض الكافر في الله، ويبغض العصاة في الله، على قدر معاصيهم وعلى قدر البدعة، وبغض الكافر أشد، وبغض المبتدع على قدر بدعته، إذا كانت بدعته غير مكفرة، على قدرها، وبغض العاصي على قدر معصيته، ويحبه في الله على قدر إسلامه، أما الهجر ففيه تفصيل يقول ابن عبد القوي رَحِمَهُٱللَّهُ، في قصيدته

المشهورة:

وهجران من أبدى المعاصي سنة وقد قيل إن يردعه أوجب وآكد

وقيل على الإطلاق ما دام معلنا ولاقه بوجه مكفهر ملبد

وقيل على الإطلاق يعني يجب الهجر مطلقا، فالحاصل أن الأرجح والأولى النظر في المصلحة، فالنبي ﷺ هجر قوما وترك آخرين لم يهجرهم، مراعاة للمصلحة الشرعية الإسلامية، فهجر كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم، لما تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر هجرهم خمسين ليلة فتابوا فتاب الله عليهم، ولم يهجر عبد الله بن أبي بن سلول، وجماعة من المتهمين بالنفاق لأسباب شرعية اقتضت ذلك، فالمؤمن ينظر في الأصلح وهذا لا ينافي بغض الكافر في الله، وبغض المبتدع في الله، وبغض العاصي في الله، ومحبة المسلم في الله، ومحبة العاصي على قدر إسلامه، ومحبة المبتدع الذي لم يعلن بدعته على قدر ما معه من الإسلام لا ينافي ذلك، أما هجرهم فينظر للمصلحة، فإذا كان هجرهم يرجى فيه خير لهم، ويرجى أن يتوبوا من البدعة ومن المعصية، فإن السنة الهجر، وقد أوجب ذلك جمع من أهل العلم، قالوا: يجب، وإن كان هجرهم وتركه سواء، لا يترتب عليه لا شر ولا خير، فهجرهم أولى أيضا، إظهارا لأمر مشروع، وإبانة لما يجب من إظهار إنكار المنكر، هجره بأي حال أولى وأسلم، وحتى يعلم الناس خطأهم وغلطهم. الحالة الثالثة: أن يكون هجرهم يترتب عليه مفسدة، وشر أكبر، فإنه لا يهجرهم في هذه الحالة، إذا كان هذا المبتدع إذا هجر زاد شره على الناس وانطلق في الدعوة إلى البدعة، وزادت بدعه وشروره، واستغل الهجر في دعوة الناس إلى الباطل، فإنه لا يهجر بل يناقش ويحذر الناس منه، ولا يكون الناس عنه بعيدين، حتى يراقبوا عمله وحتى يمنعوه من التوسع

في بدعته، وحتى يحذروا الناس منه، وحتى يكرروا عليه الدعوة، لعل الله يهديه حتى يسلم الناس من شره، وهكذا العاصي المعلن، إذا كان تركه وهجره قد يفضي إلى انتشار شره، وتوسع شره وتسلطه على الناس، فإنه لا يهجر بل يناقش دائما وينكر عليه دائما ويحذر الناس من شره دائما، حتى يسلم الناس من شره، وحتى لا تقع الفتن بمعصيته.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في شرح لمعه الإعتقاد (ص١٥٩): المراد بهجران أهل البدع: الابتعاد عنهم، وترك محبتهم، وموالاتهم، والسلام عليهم، وزيارتهم، وعيادتهم، ونحو ذلك، وهجران أهل البدع واجب لقوله تعالى: (لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله)، ولأن النبي، ﷺ، هجر كعب بن مالك وصاحبيه حين تخلفوا عن غزوة تبوك.

لكن إن كان في مجالستهم مصلحة لتبيين الحق لهم وتحذيرهم من البدعة فلا بأس بذلك، وربما يكون ذلك مطلوبًا لقوله تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن). وهذا قد يكون بالمجالسة، والمشافهة، وقد يكون بالمراسلة، والمكاتبة، ومن هجر أهل البدع: ترك النظر في كتبهم خوفًا من الفتنة بها، أو ترويجها بين الناس فالابتعاد عن مواطن الضلال واجب، لقوله ﷺ، في الدجال: "من سمع به فلينأ عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات". رواه أبو داود وقال الألباني: وإسناده صحيح.

لكن إن كان الغرض من النظر في كتبهم معرفة بدعتهم للرد عليها فلا بأس بذلك لمن كان عنده من العقيدة الصحيحة ما يتحصن به وكان قادرًا على الرد عليهم، بل ربما كان واجبًا، لأن رد البدعة واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو

واجب.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح (سؤال رقم ١٣٤٧): إذا كان هناك رجل عليه بعض الملاحظات، سواء كانت في العقيدة أو في غيرها، وفيه خير كثير، ما هو ضابط التعامل معه والاستفادة منه إذا كان صاحب قلم سيال، أو منصب مرموق، أو لديه من الطاقات ما ليس عند غيره؟

فأجاب: إذا كان هذا الرجل مجاهرًا بما عنده من البدعة؛ فإنه لا ينبغي للإنسان أن يتعامل معه وأن يتردد عليه؛ لأنه وإن كان لا يتأثر به فقد يغتر به غيره، بمعنى: أن الناس ينخدعون ويظنون أن هذا المبتدع على حق، فالذي ينبغي ألا يتردد الإنسان على أهل البدع، مهما استفاد منهم ماليًا أو علميًا؛ لما في ذلك من التغرير بالآخرين.اهـ.

ب- المبتدع العامي: وهو الجاهل بالبدعة التي اعتنقها فمثل هذا لا يقاطع بل يتابع ويبين له الحق ويوضح له بالسبل المناسبة لتفكيره فربما كانت عودته سهلة؛ لأن ميول الجاهل في الغالب عاطفية، وإن أصر للمرة الأولى والثانية فتواصل معه المحاولة فلعله يرجع وإن أصر بعد ذلك يهجر.

قال الغزالي في الإحياء (٢/ ١٦٩): المبتدع العامي الذي لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الاقتداء به فأمره أهون فالأولى أن لا يقابح بالتغليظ والإهانة، بل يتلطف به في النصح فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن لم ينفع النصح وكان الإعراض عنه تقبيحا لبدعته، تأكد الاستحباب في الإعراض.اهـ.

(فرع): الضوابط الشرعية للهجر

قال قال الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه هجر المبتدع (ص٢٧): المبحث الثامن الضوابط الشرعية للهجر: هذا بيان (لميزان الشرع في الهجر)

وهو من أهم أبحاث هذا الواجب الشرعي، وعليه: فإذا علمنا أن الزجر بالهجر للمبتدع حتى يتوب إلى الله تعالى، قد قامت عليه أدلة بخصوصه، وأنه من أولى مفردات قاعدة الشريعة المطردة (الولاء والبراء) أي الحب والبغض في الله تعالى، وعلمنا أيضًا: أن المقصود بالهجر زجر المهجور، وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله، إلى آخر مقاصد الإسلام من مشروعية الهجر كما تقدم.

وأن الهجر الشرعي لحق الله تعالى (عبادة) من جنس الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعبادة لا بد من توفر ركنيها: الإخلاص، والمتابعة، أي بأن يكون الهجر (خالصًا صوابًا) خالصًا لله، صوابًا وفق السنة، وأن (هوى النفس) ينقض ركنية (الإخلاص)، كما أن ركن المتابعة ينقضه (عدم موافقة الهجر للمأمور به) إذا تقرر جميع ذلك فليعلم أن الشرع الشريف يزن الواقعات والأحوال الداخلة تحت قاعدته العامة (الولاء والبراء) بميزان قسط، وقسطاس مستقيم، وسطًا عدلًا بين جانبي الإفراط والتفريط، فلا تزيد عن حدها ولا تنقص عنه، فتلتقي العفوية للمبتدع بالهجر مع مقدار بدعته باعتبارات مختلفة، وما يحف بذلك من أحوال تنزل على قاعدة رعاية المصالح وتكثيرها، ودرء المفاسد وتقليلها، فنقول إذًا: الأصل في الشرع هو هجر المبتدع لكن ليس عامًا في كل حال ومن كل إنسان ولكل مبتدع وترك الهجر والإعراض عنه بالكلية، تفريط على أي حال، وهجر لهذا الواجب الشرعي المعلوم وجوبه بالنص، والإجماع، وأن مشروعية الهجر هي في دائرة ضوابطه الشرعية المبنية على رعاية المصالح ودرء المفاسد، وهذا مما يختلف باختلاف البدعة نفسها واختلاف مبتدعها واختلاف أحوال الهاجرين، واختلاف المكان والقوة والضعف، والقلة والكثرة، وهكذا من وجوه الاختلاف والاعتبار التي يرعاها

الشرع وميزانها للمسلم الذي به تنضبط

المشروعية هو مدى تحقق المقاصد الشرعية من الهجر من الزجر، والتأديب، ورجوع العامة، وتحجيم المبتدع وبدعته وضمان السنة من شائبة البدعة ..

هذا محصل الضوابط الشرعية للهجر، لكن ليحذر كل مسلم من توظيف (هوى نفسه) وتأمير (حظوظها) على نفسه، فإن هذا هلكة في الحق، وهو شر

ممن يترك الهجر عصيانًا لأنه يعصي الله تعالى بترك الهجر الشرعي للمبتدع، وإظهاره ترك الهجر باسم الشرع تحت غطاء وهمي باسم (المصلحة) و(تأليف القلوب) وهكذا، فالتزام الهجر الشرعي للمبتدع بضوابطه الشرعية لاغير، وعلى هذا التأصيل تتنزل كلمات الأئمة كالإمام أحمد وغيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢١٣) في المسلك الحق في الهجر: فإن أقوامًا جعلوا ذلك عامًا، فاستعملوا من الهجر والإنكار ما لم يؤمروا به، فلا يجب ولا يستحب، وربما تركوا به واجبات أو مستحبات وفعلوا به محرمات، وآخرون أعرضوا عن ذلك بالكلية فلم يهجروا ما أمروا بهجره من السيئات البدعية، بل تركوها ترك المعرض لا ترك المنتهي الكاره، أو وقعوا فيها، وقد يتركونها ترك المنتهي الكاره، ولا ينهون عنها غيرهم، ولا يعاقبون بالهجرة ونحوها من يستحق العقوبة عليها، فيكونون قد ضيعوا من النهي عن المنكر ما أمروا به إيجابًا أو استحبابًا، فهم بين فعل المنكر أو ترك المنهي عنه، وذلك فعل ما نهوا عنه وترك ما أمروا به، فهذا هذا، ودين الله وسط بين المغالي فيه والجافي عنه، والله سبحانه أعلم.اهـ.

فباعتبار اختلاف مرتبة البدعة من الإثم هو من عدة جهات من جهة كونها

كفرًا أو غير كفر: فالمكفرة مثل: البابية، والبهائية، والقاديانية، وغلاة البريلوية.

وغير المكفرة مثل عامة البدع في العبادات حقيقية كانت أو إضافية.

ومن جهة كون صاحبها مستترًا بها أو معلنًا لها: ففرق بين المعلن لبدعته الداعي لها، وبين الكاتم لها لأن الداعية، والمعلن لها، أظهرها فاستحق العقوبة بخلاف الكاتم فإنه ليس شرًا من المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، هذا وهم في الدرك الأسفل من النار.

ومن جهة كونها حقيقية أو إضافية: فالبدعة الحقيقية هي البدعة التعبدية المحدثة استقلالًا كصلاة الرغائب، وليست بدعة إضافية، ومثل القول بالقدر، وصلاة الألفية ليلة النصف من شعبان، وبدعة الموالد، والأعياد الحكومية، وعيد غدير خم لدى الشيعة، وهكذا.

والبدعة الإضافية: هي الأمر المبتدع مضافاً إلى ما هو مشروع أصلًا بزيادة أو نقص، مثاله: الدعاء الجماعي بعد الصلاة، فالدعاء مشروع وجعله جماعيًا بدعة مضافة لم يرد بها النص، وبناء العبادات على التوقيف، وسجود الشكر جماعة، واتخاذ التبليغ خلف الإمام سنة راتبة مع عدم الحاجة إليه، وهكذا.

ومن جهة كونها بينة أو مشكلة، أي كونها ظاهرة المأخذ فهي بدعة متمحضة كبدع المآتم والموالد، وصلاة الرغائب، أو بدعة فيها احتمال لاستشباه مأخذها، مثاله: القنوت في صلاتي العشاء والصبح فإنه كان ثم نسخ وبقي المشروع فيها عند النوازل، وشبهة الخلاف لا تصيره مشروعًا راتبًا.

والحقيقة أن هذا الوجه صوري لا حقيقي إذ البدع مشكلة المأخذ يلحق بها من الإشاعة والتعصب ما يجعلها بينة، والله أعلم.

ومن جهة اجتهاده فيها أو كونه مقلدًا: فالمجتهد مفترع للبدعة، فالزيغ

أمكن في قلبه من المقلد، وإن كان كل منهما موزورًا لكن أثم من سن سنة سيئة أعظم وزرًا، والله أعلم.

ومن جهة الإصرار عليها أو عدمه: أما الإصرار عليها فيجعلها من باب الدعوة إليها فيكون داعية معلنًا لها، وأما عدم الإصرار فهو من باب كونها فلتة، وزلة عالم، إذا كانت منه ثم لم يعاودها.

ويختلف باختلاف حال المبتدع وما فيه من خير وشر (وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا، كاللص الفقير تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته، هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة.

وفرق بين عالم تشربت نفسه بالبدع، لكنه لم يختلط بعلماء أهل السنة ولم يتلق عنهم، وبين عالم تلقى عن المبتدعة فنالت منه منالًا، ثم خالط أهل السنة وعلماءهم وجاورهم مدة بمثلها يحصل برد اليقين بل يكون عاشرهم عشرات السنين، ثم هو يبقى على مشاربه البدعية يعملها، ويدعو إليها، ويصر عليها، فهذا قامت عليه الحجة أكثر، واستبانت له المحجة فما أبصر فهو من أعظم خلق الله فجورًا، وغيظًا على أهل السنة.

فالأول في تأليف قلبه وتودده للرجوع إلى السنة مجال، أما الثاني فلا والله، بل يتعين هجره، ومنابذته وإبعاده، وإنزال العقوبات الشرعية للمبتدعة عليه، وأن يُهجر ميتًا كما هُجر حيًا فلا يصلي أهل الخير عليه، ولا يشيعون جنازته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٠٩) في حق بعض

العصاة المظهرين لفجورهم: وأما إذا أظهر الرجل المنكرات، وجب الإنكار عليه علانية، ولم يبق له غيبة، ووجب أن يعاقب علانية بما يردعه عن ذلك من هجر وغيره، فلا يسلم عليه، ولا يرد عليه السلام، إذا كان الفاعل لذلك متمكنًا من ذلك من غير مفسدة راجحة، وينبغي لأهل الخير والدين أن يهجروه ميتًا، كما هجروه حيًا، إذا كان في ذلك كف لأمثاله من المجرمين فيتركون تشييع جنازته، كما ترك النبى ﷺ على غير واحد من أهل الجرائم، وكما قيل لسمرة ابن جندب إن ابنك مات البارحة، فقال لو مات لم أصل عليه، يعني لأنه أعان على قتل نفسه، فيكون كقاتل نفسه، وقد ترك النبي ﷺ الصلاة على قاتل نفسه وكذلك هجر الصحابة الثلاثة الذين ظهر ذنبهم في ترك الجهاد الواجب حتى تاب الله عليهم، فإذا أظهر التوبة أظهر له الخير.اهـ.

وفرق في حال المهجور بين القوي في الدين وبين الضعيف فيه، فإن القوي يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ به الضعيف في الدين كما في قصة كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم.

وكذلك بالنسبة للأماكن: ففرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع، كما كثر القدر بالبصرة، والتنجيم بخراسان، والتشيع بالكوفة، وبين ما ليس كذلك.

وهذا على ما أفتى به الأئمة أحمد وغيره بناء على هذا الأصل: رعاية المصالح الشرعية.

ويختلف باختلاف الهاجرين أنفسهم في قوتهم وضعفهم وقلتهم وكثرتهم: فإذا كانت الغلبة والظهور لأهل السنة كانت مشروعية هجر المبتدع قائمة على أصلها، وإن كانت القوة والكثرة للمبتدعة - ولا حول ولا قوة إلا بالله - فلا المبتدع ولا غيره يرتدع بالهجر ولا يحصل المقصود الشرعي، لم يشرع الهجر

وكان مسلك التأليف، خشية زيادة الشر، وهذا كحال المشروع مع العدو القتال تارة، والمهادنة تارة، وأخذ الجزية تارة، كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح.

ومن أهم المهمات هنا إذا كانت الواجبات لدى أهل السنة مثل: التعليم، والجهاد، والطب، والهندسة، ونحوها متعذر إقامتها إلا بواسطتهم، فإنه يعمل على تحصيل مصلحة الجهاد، ومصلحة التعليم وهكذا، مع الحذر من بدعته، واتقاء الفتنة به وبها ما أمكن، وبقدر الضرورة، فإذا زالت عاد أهل السنة إلى الأصل في الهجر، وأبعد لمبتدع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢١٢) في جوابه المحرر في الهجر المشروع: .. فإذا لعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرًا من العكس، ولهذا كان الكلام في هذه المسائل فيه تفصيل.اهـ.

هذا وإن الناظر في أحوال المبتدعة من وجه ما هم عليه من الشناعات، وإماتة السنن، والنشاط في غير هدى والنصرة لغير حق، وأنهم يفسدون على أهل السنة صفاء الإسلام، رآهم مستحقين لما قاله الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- في أهل الكلام: (حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من أعرض عن الكتاب والسنة وأقبل على الكلام)، وإذا نظرت إلى المبتدعة بعين القدر، والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم رحمتهم، وترفقت بهم، أوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً، وأعطوا فهومًا وما أعطوا علومًا، وأعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة؟ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ولا أَبْصَارُهُمْ ولا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ

بِآيَاتِ اللهِ وحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

وختامًا: احذر المبتدع، واحذر بدعته، وأعمل الولاء والبراء معه، وتقرب إلى الله بذلك، وبهجره الهجر الشرعي منزلًا له على قواعد الشريعة وأصولها في رعاية المصالح ودفع المفاسد، وإياك ثم إياك من تأمير الهوى هجرًا أو تركًا، والسلام.اهـ.

(فرع): عقوبة من والى المبتدعة

قال الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه هجر المبتدع (ص٣٣): المبحث التاسع عقوبة من والى المبتدعة: قال أبو علي الدقاق (م سنة ٤٠٦ ه) رحمه الله تعالى: وقد شدد الأئمة النكير على من ناقض أصل الاعتقاد فترك هجر المبتدعة، وفي معرض رد شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- على (الاتحادية) قال في مجموع الفتاوى (٢/ ١٣٢): ويجب عقوبة كل من انتسب إليهم، أو ذب عنهم، أو أثنى عليهم، أو عظم كتبهم، أو عرف بمساعدتهم أو معاونتهم، أو كره الكلام فيهم، أو أخذ يعتذر لهم بأن هذا الكلام لا يدري ما هو؟ أو من قال: إنه صنف هذا الكتاب؟ وأمثال هذه المعاذير، التي لا يقولها إلا جاهل أو منافق بل تجب عقوبة كل من عرف حالهم، ولم يعاون على القيام عليهم، فإن القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات، لأنهم أفسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ والعلماء والملوك والأمراء، وهم يسعون في الأرض فسادًا ويصدون عن سبيل الله.اهـ.

فرحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية وسقاه من سلسبيل الجنة آمين، فإن هذا الكلام في غاية الدقة والأهمية وهو وإن كان في خصوص مظاهرة (الاتحادية) لكنه ينتظم جميع المبتدعة، فكل من ظاهر مبتدعًا فعظمه أو عظم كتبه، ونشرها

بين المسلمين، ونفخ به وبها، وأشاع ما فيها من بدع وضلال، ولم يكشفه فيما لديه من زيغ واختلال في الاعتقاد، إن من فعل ذلك فهو مفرط في أمره، واجب قطع شره لئلا يتعدى إلى المسلمين، وقد ابتلينا بهذا الزمان بأقوام على هذا المنوال يعظمون المبتدعة وينشرون مقالاتهم، ولا يحذرون من سقطاتهم وما هم عليه من الضلال، فاحذر أبا الجهل المبتدع هذا، نعوذ بالله من الشقاء وأهله.اهـ. من كتاب هجر المبتدع.

٣- القسم الثالث: مرتكب الكبيرة

فهذا يهجر حتى يدع تلك الكبيرة، وفيه التفصيل المتقدم في هجر المبتدع.

مسألة: مراعاة المصالح وتحقيقها

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٣ - ٣٤٥): فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ولا دفع أخف الضررين بتحصيل أعظم الضررين فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومطلوبها ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا جميعا ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعا.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٤٢٥): ومبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدنيا والدين على هذين الأصلين. وبالله التوفيق.اهـ.

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب كما في الدرر السنية (٨/ ٥٠): بسم الله الرحمن الر حيم من محمد بن عبد الوهاب: إلى من يصل إليه هذا الكتاب من الإخوان، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد يجري عندكم أمور تجري عندنا من سابق، لكن نصحنا إخواننا إذا جرى منها شيء حتى فهموها، وسببها:

أن بعض أهل الدين ينكر منكرًا، وهو مصيب، لكن يخطئ في تغليظ الأمر إلى شيء يوقع الفرقة بين الإخوان، وقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا} [سورة آل عمران آية: ١٠٢ - ١٠٣]، وقال ﷺ: "إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم"، وأهل العلم يقولون: الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يحتاج إلى ثلاث: أن يعرف ما يأمر به وينهى عنه، ويكون رفيقًا فيما يأمر به وينهى عنه، ويكون صابرًا على ما جاءه من الأذى في ذلك. وأنتم محتاجون للحرص على فهم هذا والعمل به، فإن الخلل ما يدخل على صاحب الدين إلا من قلة العمل بهذا، أو قلة فهمه، وأيضا، يذكر العلماء أن إنكار المنكر إذا صار يحصل بسببه افتراق لم يجز إنكاره، فالله الله! العمل بما ذكرت لكم والتفقه فيه، فإنكم إن ما فعلتم صار إنكاركم مضرة على الدين، والمسلم ما يسعى إلا في صلاح دينه ودنياه. وسبب هذه القالة التي وقعت بين أهل الحوطة - لو صار أهل الدين واجب عليهم إنكار المنكر - فلما غلظوا الكلام صار فيه اختلاف بين أهل الدين، فصار ذلك مضرة على الدين والدنيا، وهذا الكلام، وإن كان قصيرًا فمعناه طويل، فلازم لازم تأملوه وتفقهوا فيه، واعملوا به، فإن عملتم به صار نصرًا للدين، واستقام الأمر إن شاء الله.اهـ.

وقال العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٣/ ١١٧٥): إذًا: بارك الله فيكم تغيير المنكر مش رأسًا ترى منكرًا تبادر إنكاره بدك تعمل ماذا يقولون اليوم في العملية الحسابية؟ معادلة تقابل الحسنات بالسيئات وتوازن .. بين الحسنات والسيئات، فإذا غلب على ظنك أنه في تغييرك لهذا المنكر

ستكون الحسنات أكثر من السيئات، وأنت مأجور وأنت منفذ لهذا الحديث، أما إذا بدا لك أن السيئات والمفاسد ستكون أكثر من المصالح التي تبتغي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأمسك كما أمسك رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عن هدم الكعبة، بل كما أمسك أيامًا عن أن يقول لأصحابه: "لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء محمد، ولكن ليقل: ما شاء الله وحده".اهـ.

وقال العلامة العثيمين في لقاءات الباب المفتوح: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية وإذا لم يكن ألا واحد تعين عليه لكن يشترط ألا يتغير المنكر إلى ما هو أعظم فإن تغير المنكر إلى ما هو أعظم وجب الكف لقول الله تبارك وتعالى (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فإذا قدرنا أن شخصا يشرب الدخان فلو أنكرنا عليه لترك الدخان ولكن يذهب إلى شرب الخمر فهنا لا ننكر لأن شرب الدخان أهون من شرب الخمر وكذلك لو رأينا أحدا مغرما بالنظر إلى النساء وملاحقتهن ولو نهيناه لافتتن في الصبيان فهنا لا ننهاه ولكن مع ذلك نراقب ونحاول كل فرصة أن ننهاه عن المنكر.اهـ.

فهذا أصل عظيم جليل طلبه الشارع واعتبره قال تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين [الأنبياء: ١٠٧] وقال: يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم [الأنفال: ٢٤] وقال: يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر [البقرة: ١٨٥] وقال: يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا [النساء: ٢٨].

وقال ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) رواه مسلم (٣٥). من حديث أبي هريرة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال ﷺ (لا ضرر ولا ضرار)[١].

ومن مقررات الشريعة المتفق عليها: لزوم الدية في القتل على العامد والمخطئ، والعالم والجاهل، والصغير والكبير؛ وكذا غرام المتلفات على جميع هؤلاء تحقيقا لمصالح العباد.

ويعد تقدير المصالح وتمييزها والقدرة على الموازنة بينها وبين المفاسد من أدق المسائل المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلما كان المحتسب أقدر على معرفة ذلك وتمييزه كلما كان احتسابه أقوى وأثبت.

ويكفي في بيان أهمية هذا الجانب أن مدار بعثة الرسل وإنزال الكتب والشرائع قائم عليه، فلم تبعث الرسل وتنزل الشرائع إلا لجلب المصالح وتحصيلها من عبادة الله وحده لا شريك له وظهور شرعه ودينه ودفع المفاسد وتعطيلها. وهذه هي حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

واعلم أن أصل المصلحة: المنفعة، وهي في اصطلاح الشرع (جلب المنفعة ودفع المفسدة في نظر الشارع) فهي إما أن تكون نفعا يجلب أو ضررا يدفع.

---

(١) روي عن عبادة بن الصامت، وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وجابر، وعائشة، وعمرو بن عوف، وثعلبة بن أبي مالك القرظي، وأبي لبابة، والحديث ضعفه بعض أهل الحديث، وقواه بعضهم لشواهده الكثيرة، لذا قال عنه النووي في أربعينه: طرقه يقوي بعضها بعضا، وحسنه في الأذكار (٥٠٢)، وقال ابن الصلاح: مجموعها يقوي الحديث ويحسنه، وقد تقبله جماهير أهل العلم واحتجوا به، وعد أبو داود السجستاني هذا الحديث من الأحاديث التي يدور عليها الفقه، وهذا مشعر بأنه يراه حجة، والله أعلم، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٠٧): بعض طرقه تقوى ببعض، وصححه العلامة الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة (٢٥٠)، وصححه لشواهده الكثيرة الشيخ مشهور في تحقيقه للموافقات (٣/ ٢٠٤)، وحسنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند.

والمراد بالمنافع: اللذات والأفراح وأسبابها، وضدها المفاسد التي هي الآلام والغموم وأسبابها. وقد يعبر عنهما بالخير والشر والنفع والضر.

وطريق تحديد المصلحة إنما هو الشرع، لا القانون أو العرف أو العقل أو الذوق، فكل ما أمر به الشرع فهو مصلحة، وكل ما نهى عنه فهو مفسدة.

ثم اعلم أن المصالح الشرعية دائمة أبدية تشمل الدنيا والآخرة، كما أنها شاملة، فلا تختص بالبعض دون غيرهم، أو فئة دون الأخرى، بل تخدم الأمة عامة وتعود على الناس بحفظ ضروراتهم وحاجياتهم وما كان لهم به نفع.

الفرع الأول: أقسام المصلحة من حيث اعتبار الشارع وعدمه

تنقسم المصلحة من هذه الحيثية إلى ثلاثة أقسام وهي:

١- ما نص الشارع على اعتبارها فهي الشرعية، كمصلحة حفظ الدين والتي تقوم بنشر العلم الشرعي النافع والدعوة إلى الدين علما وعملا بالقلم واللسان والسيف والسنان؛ وكذلك تحريم كل ما يضعفه أو يضاده من العلوم الرديئة والأعمال المنحرفة والمظاهر المخالفة ولذا جاء تحريم التصوير ولعن المصورين، كما حرم رفع القبور وتجصيصها والبناء عليها والكتابة فكل مأمورات الشرع داخلة في هذا وكذا نواهيه.

٢- ما قام الشارع بإلغائه وعدم اعتباره، كمصلحة المرأة في مساواتها بالرجل في الميراث ويدخل في هذا القسم كل ما علم أن الشارع ألغى اعتباره، وإن رأى الإنسان بعقله القاصر أنه مصلحة؛ فهو ليس كذلك لمصادمته الشرع أو إخلاله بمقصد من مقاصده، أو لكونه معارضا لمصلحة أعظم.

٣- ما سكت عنه الشارع فلم يرد طلبه ولا إلغاؤه وهذا النوع هو ما يسمى بالمصالح المرسلة ولها شروط وضوابط وتفاصيل ليس هذا موضعها.

ثم إن المصلحة الشرعية الدنيوية (وهي الواقعة في الحياة الدنيا) لابد وأن يشوبها شيء من المفسدة للحوق المشقة بها سواء كانت على وجه التقدم عليها أو المقارنة أو التأخر عنها.

فالمصلحة في هذه الدار راجحة غالبة لا خالصة، بخلاف الأخروية -وهي نعيم أهل الجنة- فإنها خالصة لا كدر فيها.

وقد تعارض المصلحة الشرعية بمصلحة مرجوحة فتكون غالبة، وقد لا يعارضها غيرها فتكون راجحة كما سيأتي.

ومقصود الشارع إنما هو المصلحة الراجحة - الواقعة في الدنيا - وكذلك الخالصة وهي الواقعة في الآخرة كما تقدم.

ثم إن المصالح الشرعية تتفاوت قوة وضعفا بحسب متعلقها فهي لا تخلو من أن تكون ضرورية أو حاجية أو تحسينية ..

فالضرورية هي التي لابد من توفرها لقيام حياة الناس على الوجه المستقيم دون اضطراب كالمحافظة على الدين -وهو أعلاها- بتثبيت دعائمه ورفع ما يضاده وكالمحافظة على العقل وسلامته ومقاومة ما يفسده من مسكر ومخدر حسي أو معنوي؛ وكالمحافظة على الأعراض والأنساب ودفع كل ما يعترضها من فساد بأي صورة كان، سواء عن طريق مقارفة الفواحش، أو ما يجر إليها كالسفور والتبرج واللحن بالقول والخضوع فيه وكنشر الصور والمجلات الرديئة أو الأفلام والأغاني الماجنة؛ وكذا حفظ النفوس والمحافظة على سلامتها، ولذا حرم كل ما يضر البدن كالدخان والميتة وأنواع السموم ونحوها من الأمور الضارة.

وكذا حفظ المال وبقائه بأن شرع أنواع العقود المباحة، وبين طرق أخذ

المال وإنفاقه وحرم الربا وغيره من المحرمات المتعلقة بالمعاملات المالية كما تقدم.

والمصالح الحاجية هي التي يفتقر إليها الناس لرفع الحرج والضيق عنهم؛ أما التحسينية فكالأخذ بمحاسن الأمور والجري على مكارم الأخلاق، ومن فروع ذلك خصال الفطرة كإعفاء اللحية وقص الشارب وكتحريم المستقذرات.

فالأكل منه ما لابد منه في قيام حياة الإنسان فهو ضروري، ومنه ما لو ترك لوقع الإنسان في ضرر وحرج لكنه لا يلحق به العطب فهو حاجي، وما زاد فهو تحسيني، وعمل المحتسب يتعلق بجميع مراتب المصلحة وصورها الشرعية.

هذا وقد تكون المصالح عامة لأغلب الناس أو جميعهم، وقد تكون خاصة وقاصرة على بعض الأفراد أو الجهات.

وهي باعتبار التغير والثبات على قسمين:

الأولى: ثابتة، كالواجبات الشرعية وتحريم المحرمات.

الثانية: متغيرة حسب الأحوال زمانا ومكانا، فتكون خاضعة للاجتهاد، كمقادير التعزيرات وكاتخاذ الدواوين ومن ذلك أيضا اختلاف بعض أساليب الدعوة والتي لا يشوبها مخالفة للشرع كاتخاذ الكتب والمجلات والأشرطة والرحلات وغير ذلك من الأساليب المباحة بشرط عدم المخالفة.

أما باعتبار الوقوع فهي قسمان:

الأولى: قطعية الوقوع أو ما يقارب ذلك.

الثانية: ظنية الوقوع وهي ما يكون وقوعها جائزا أو كثيرا لكن لا يصل إلى درجة اليقين أو ما يقاربه.

الفرع الثاني: ذكر ضوابط المصلحة الشرعية

حتى تكون المصلحة معتبرة شرعا لابد من توفر شرطين:

الأول: ورود النص أو القياس بطلبها.

الثاني: أن لا تكون معارضة بمصلحة أرجح منها أو مساوية، وطريق الترجيح بين المصالح لمعرفة مراتبها يكون كالآتي:

١- تقدم الضرورية على الحاجية، كما تقدم الحاجية على التحسينية. ومن هنا يعلم أن قاعدة (درء المفاسد أولى من جلب المصالح) ليست على إطلاقها، بل هي مقيدة بأن تكون المصلحة والمفسدة في رتبة واحدة، أما إن لم يوجد التساوي فيرجح الأعلى.

٢- تقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة إن كانتا في رتبة واحدة، ومن هنا يعلم أن قاعدة المصلحة العامة على الخاصة ليست على إطلاقها، بل هي مقيدة بأن تكون المصلحتان في رتبة واحدة ومستوى متماثل.

٣- إن كانتا ضروريتين وعامتين قدمت المصلحة المتعلقة بالدين على المتعلقة بالنفس ثم العقل ثم النسل ثم المال؛ فالمصلحة المتعلقة بالدين تقدم على غيرها من الضروريات الأخرى. قال تعالى: (والفتنة أشد من القتل) [البقرة: ١٩١] وكذلك ما كان ذو مرتبة أعلى فإنه يقدم على ما دونه.

توضيح ما سبق بالمثال: من مقررات أهل السنة وجوب الجهاد مع كل أمير برا كان أو فاجرا.

فالجهاد به حفظ الدين وهو ضروري لارتفاع كلمة التوحيد أما كونه عادلا فهو حاجي، فيقدم الجهاد مع البر والفاجر لكونه ضروريا على ما كان مع العادل فقط لكون هذا الوصف في الإمام حاجي.

ثم إن الجهاد به حفظ للدين بإزهاق النفس فقدمت مصلحة حفظ الأديان

على حفظ النفوس والأبدان.

ويمكن التمثيل على تقديم المصلحة العامة على الخاصة بالمنع من تلقي الركبان، فمصلحة أهل السوق عامة، وقدمت على مصلحة المتلقي الخاصة؛ وكالنهي عن الاغتسال بالماء الراكد مع كون المغتسل منتفعا من ذلك لكنه يضر بالمصلحة العامة فيمنع منه لذلك.

الفرع الثالث: بيان نظر الشارع للنتائج واعتباره لها

تقدم عند الكلام على الحكم والفوائد من مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذكر إقامة الدين وظهور الشريعة وزوال الباطل أو التقليل منه وهذا ولا شك مطلب شرعي أصيل لابد للمحتسب من أن يضعه نصب عينيه وهو يؤدي هذه المهمة.

أما إن كان الناتج عن الأمر والنهي في بعض الحالات زيادة في المنكر الذي أردنا إزالته، أو زوال للمعروف الذي أردنا تكثيره فإن الآمر أو الناهي في هذه الحال يكون سببا في ازدياد الباطل وتقليل المعروف علم أو لم يعلم.

ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما شرع لتحقيق ما يحبه الله ورسوله، فإذا ترتب على ذلك ما هو أنكر منه وأبغض إلى الشارع فإنه لا يسوغ إنكاره؛ وإن ترك الإنكار لا يعني إقرار المنكر.

ومثاله: الإنكار على الولاة المسلمين بالخروج عليهم فإن ما يترتب عليه من المفاسد أكبر مما يجلب من المصالح وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين قال في وصفهم: (تعرفون وتنكرون فقال: لا ما صلوا، لا ما صلوا) رواه مسلم (١٨٥٤). من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال ابن العربي في القبس (ص٥٨٢): قوله: (وألا ننازع الأمر أهله) فيعني

بقوله أهله: من ملكه لا من يستحقه فإن الأمر فيمن يملكه أكثر منه فيمن يستحقه، والطاعة واجبة في الجميع لأمر النبي ﷺ، بذلك لكل أمير ولو كان عبدًا حبشيًا لما في ذلك من مصلحة الخلق فإن الخروج على من لا يستحق الأمر إباحة للدماء وإذهاب الأمن وإفساد ذات البين، فالصبر على ضرره أولى من التعرض لهذا الفساد كله، لما خرج ابن الأشعث على الحجّاج حين ظهر ظلمه وشاع تعدَّيه جاءوا إلى الحسن بن أبي الحسن البصري في جماعة من القّراء يدعونه إلى الخروج معهم فقال لهم (إن الحجاج عقوبة الله في العباد، وعقوبة الله لا تقابل بالسيف وإنما تقابل بالتوبة).اهـ.

ومن تأمل ما جرى على الإسلام من الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه.

وقد كان النبي ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات كالأصنام ولا يستطيع تغييرها ولما فتح مكة عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك، لقرب عهدهم بالإسلام. ولهذا لم يأذن بالإنكار على الأمراء باليد لما يترتب عليه من المفاسد.

والحاصل أن ما يترتب على إنكار المنكر لا يخلو من أربع حالات:

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده من المعروف، كما إذا نصحت رجلا يبيع الأغاني وينشرها، فقبل النصح، فاستبدل ذلك بالأشرطة الإسلامية.

الثانية: أن يقل المنكر وإن لم يزل بجملته كما إذا نبهت بعض أصحاب المناهج المشتملة على بعض المخالفات أو البدع على مخالفته أو بدعته، فقبل منك، فترك بعض ما هو فيه من المنكر وكما إذا نصحت من يسب الله ﷻ أو

رسوله ﷺ أو الدين، فانتهى إلى سب آحاد المؤمنين.

الثالثة: أن يزول ويخلفه ما هو مثله كما إذا نصحت رجلا عن سماع الأغاني الغربية، فانتقل منها إلى الأغاني العربية!! وكما إذا بينت لنصراني فساد عقيدة التثليث، فعرف فسادها، فانتقل إلى اليهودية مثلا .. ! وكما إذا حاورت بعض المنتسبين إلى الدعوة إلى الإسلام، وهو ذو منهج تشوبه بعض البدع أو المخالفات، فانتقل إلى منهج في الدعوة يماثله في حجم الانحراف وقدره.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه كما يقع في بعض الأحيان في صفوف النشء المقبل على الإسلام أكثر من غيرهم إذا واجه النقد المتبادل بين أوساط العاملين للإسلام فيتخلى عن الجميع وينحرف تماما، وكما إذا نصحت بعض أصحاب المهن بأن يتزين في لباسه إذا أراد المجيء إلى المسجد فيدع الصلاة فيه.

فالأولان مشروعان، والثالث موضع اجتهاد ونظر، والرابع محرم.

قال الإمام ابن القيم في إعلام الموقعين (٣/ ٤/ ٧): فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة، إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الشارع كسباق الخيل .. وكما إذا كان الرجل مشتغلا بكتب المجون فإذا نقلته عنها إلى كتب أهل البدع والضلال والسحر فدعه، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه وقلت له: إنما حرم الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة .. وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم.

ولذلك نهى النبي ﷺ عن قطع الأيدي في الغزو .. مع كون القطع حد من

حدود الله تعالى .. فنهى عنه خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض إلى الله من تعطيله أو تأخيره من لحوق صاحبه بالمشركين.

وقد نص أحمد وإسحاق والأوزاعي وغيرهم على أن الحدود لا تقام في أرض العدو.اهـ. بتصرف.

الفرع الرابع: العمل عند تعارض المصالح والمفاسد

يجب أن يكون الاحتساب بفقه ونظر فيما يصلح من هذا العمل وما لا يصلح فإذا تعارضت المصالح والمفاسد فيما يأمر به أو ينهى عنه نظر فإن كانت المصلحة راجحة والمفسدة مرجوحة، فإنه لا يعتبر المفسدة حينئذ، وعليه الاحتساب في هذه الحال.

وهذا يكون مع مراعاة ما سبق من شرطية كون المتعارضين في مرتبة واحدة ونوعية واحدة كما تقدم بيانه، وإلا فإنه يرجح ما كان متعلقا بالضروري على غيره، كما يرجح الحاجي على التحسيني.

وهذا كمن يريد شرب الخمر ليزيل به عطشا يشق عليه تحمله لكنه لا يؤدي به إلى الهلاك، فإنه يحرم عليه، لتعلق المفسدة بالضروري وهو حفظ العقل، وتعلق المصلحة بالحاجي وهو إزالة ذلك العطش بخلاف ما إذا كان العطش يؤدي به إلى الهلاك .. فإنه يشرب في هذه الحالة لتعلق ذلك بالضروري وهو حفظ النفس، ولتعلق شرب الخمر بالعقل وهو ضروري لكنه دونه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ما ملخصه: (٢٨/ ١٢٦، ١٢٩ - ١٣٤): الأمر والنهي وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر، لم يكن مأمورا به، بل يكون محرما إذاك كانت مفسدته أكثر، فإذا كان

الشخص أو الطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لا يفرقون بينهما، بل إما أن يفعلوهما جميعا، أو يتركوهما جميعا، لم يجز أن يؤمروا بمعروف، ولا أن ينهوا عن منكر، بل ينظر فإن كان المعروف أكثر أمر به وإن استلزم ما دونه من المنكر، ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه، وإن كان المنكر أغلب نهى عنه، وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف) اهـ

أما في حال كون المفسدة أرجح من المصلحة: كتعطيل الدعوة ونحو ذلك فحينئذ تفوت المصلحة وتدفع المفسدة بالشرط المتقدم.

ومن صور هذه القاعدة: ترك النبي ﷺ لعبد الله بن أبي وعدم قتله لئلا تأخذ الحمية قومه ولئلا يقول الناس: محمد يقتل أصحابه. ومن الأمثلة على ذلك إعراض المسلمات عن الدخول في مجالات الطب في جو المستشفيات المختلطة مع وجود مصلحة في ذلك إلا أن المفسدة فيه أكبر وكثيرا ما نسمع إيراد هذا الاعتراض على من رأى ما سبق (أترضى أن يطبب محارمك الرجال)؟.

يورد هذا الاعتراض وكأنه هو الخيار الوحيد!! فلماذا لا يقال بالعمل على إيجاد مستشفيات إسلامية!! ولماذا لا يطالب الناس بذلك!!؟ ولو فرض عدم الإمكان لكان هناك أمر ثالث. وهو أن يطبب نساءنا هؤلاء اللاتي ضحين بحشمتهن وقرارهن في البيوت!! لا أن نزج بفتياتنا حيث يذهب ماء وجوههن لكثرة المخالطة مع الرجال والتحدث معهم .. ! ومن أمثلة هذا النوع القول بمنع ابتعاث الصغار وسائر من لا ينطبق عليه الشروط المعروفة للسفر إلى بلاد الكفار من اعتزاز بالدين ونحوه على ما في ذلك من المصلحة وهي تحصيل بعض العلم.

ومن أمثلة ذلك منع التلقي من أصحاب البدع -المخالفين لعقيدة أهل

السنة والجماعة- في حال وجود غيرهم ممن يؤخذ عنه هذا العلم ولا يقع فيما وقعوا فيه. ومن الأمثلة أيضا على ذلك منع دخول البرلمانات ونحوها في البلاد التي تحكم القوانين مع أنه قد يوجد شيء من مصلحة في ذلك ولكن المفسدة أعظم من وجوه كثيرة لا مجال لذكرها هنا.

وقد حرمت الخمر لرجحان مفاسدها على منافعها أما إذا تساوت مقادير المصالح والمفاسد: في حال التعارض فإنه ينظر في مراتبهما من ضروري وحاجي -كما تقدم- فإن اتحدت عمل بقاعدة (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) وإلا فيقدم الأقوى منهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة (٢/ ٢١٨ - ٢١٩): وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما، فتارة يصلح الأمر، وتارة يصلح النهي، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي حيث كان المنكر والمعروف متلازمين، وذلك في الأمور المعينة الواقعة.

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقا، وينهى عن المنكر مطلقا، وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة: يؤمر بمعروفها وينهى عن منكرها، ويحمد محمودها ويذم مذمومها، بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه أو حصول منكر فوقه، ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول ما هو أنكر منه أو فوات معروف أرجح منه، وإذا اشتبه الأمر استثبت المؤمن حتى يتبين له الحق، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية ..).اهـ.

الفرع الخامس: العمل عند تزاحم المصالح

إذا تزاحمت المصالح بحيث لا يمكن القيام إلا ببعضها وتفويت ما سواها ففي هذه الحالة ينظر فيما كانت مصلحته أرجح فيقدم سواء كان التفاضل والرجحان في المرتبة، كتقديم الضروري على الحاجي والحاجي على

التحسيني وكتقديم ما يتعلق بحفظ الدين من الضروري على غيره، وتقديم ما يتعلق بالنفس من الضروري على ما تعلق بحفظ ما دونه؛ أو كان التفاضل واقعا في صورة الحكم كالواجب مع المستحب.

وهذه المسألة دقيقة جدا وكبيرة الأهمية، ذلك لسعة هذه الشريعة وشمولها، حتى أن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ شبهها بالشرائع المتنوعة فالواجبات أكبر من الأوقات وأوسع فينبغي تقديم ما هو أهم وآكد في مثل هذه الحال وأبلغ في التأثير والنفع في مجالات الدعوة المختلفة.

ومن صور هذه المسألة ازدحام بعض مجالات الدعوة عند بعض المشتغلين بها، كمن لم يتمكن إلا من القيام بشيء محدود من ذلك فأيهما يقدم العناية بتربية النشء على الإسلام أو خوض المجالات العامة؟ ويجاب عن هذا بأن الجمع بين الأمرين هو الأصل وهو المطلوب، لكن من لم يتمكن إلا من واحد منهما فإنه ينظر في حاله وحال زمانه من حيث حال الدعوة وسيرها في هذين السبيلين وحاجتها إلى الأعوان في كل منهما فيرجح على هذا الأساس.

ومن صور هذه المسألة تزاحم الأوقات بين الاشتغال بطلب العلم أو بنوافل العبادات وبين القيام بالدعوة فالمطلوب التوفيق بين هذه الأمور ومصلحة الدعوة من أهم المصالح فلا ينبغي إهمالها بل يوليها بعض اهتمامه ووقته حسب قدرته.

الفرع السادس: العمل عند تزاحم المفاسد

إذا ازدحمت المفسدتان ارتكب أيسرهما لدفع أشرهما هذا في حال التفاوت والذي يبنى على ما تقدم.

قال في المراقي (ص: ١١٧): (وارتكب الأخف من ضرين).

ومن صور هذه القاعدة: وجود هذه المراكز الإسلامية الصيفية للنساء فهو لا يخلو من مفاسد كتعود المرأة على الخروج من المنزل، وفتح الباب لأهل الشر لفتح مراكز شيطانية ونحو ذا من الأمور المحذورة!! ولكن في هذا العصر الذي دخل فيه الشر كل بيت إلا من رحم الله وتفنن فيه دعاة الفساد بشتى الأساليب وبقيت كثير من بنات المسلمين تحت تأثيرهم وما ينشرون من منكر وفساد فانشغال هؤلاء النساء بأمور خيرة خير من بقائهن فريسة لهؤلاء، فالأمر لم يعد كالسابق، إذ المرأة اليوم تشاهد التلفاز، وتقرأ الصحف والمجلات، وتخرج إلى العمل أو المدرسة فلابد وأن تعرف الشر وتشاهده، وحينما نقر أمثال تلك المراكز إنما ذلك بشروط وضوابط تلائم الحال والواقع كأن يكون الوقت معقولا لا طول فيه وأن لا يكون في جميع الأيام بل في يومين أو ثلاثة من الأسبوع وأن تعلم فيه النساء القرآن وما يناسب حالهن من معرفة أمور الطهارة والحيض والصلاة والصوم والزكاة والحج.

ويعلمن تربية الأولاد على وفق تعاليم الشرع ونحو ذلك من الأمور الهامة لهن وأن يكون الإشراف على هذه الأماكن من قبل ذوي الكفاءة والديانة.

هذا لمن دعت الحاجة لمشاركتها في ذلك إما للحاجة إلى تعليمها وإرشادها، وإما لحاجتها هي بحيث لم يتوفر لها من يربيها على الإسلام ويعلمها ما تحتاج إليه، فتستغني عن مثل هذا الخروج، أما عدا هذين الصنفين من النساء فيبقين في بيوتهن، وهذا كله مخرج على قاعدة ارتكاب أخف الضررين، وإنما يكون ذلك إذا كان لابد من الوقوع في أحدهما لا محالة، أما إذا أمكن تلافيهما فالأمر يجري على قاعدتين هما: الأولى: (الضرر يزال)، والثانية: (الضرر لا يزال بالضرر).

فاقتحام النساء المسلمات مجالات الطب بحجة ارتكاب أخف الضررين غلط ظاهر، لأن هناك وسيلة ثالثة غير ما يظن البعض! ومثل هذا يقال في تعليم أهل الصلاح لهن وجها لوجه، بحجة ارتكاب أخف الضررين، لئلا يدرسهن رجل فاسق! فهذا غير صحيح، بل يفصل الجميع عنهن ويعلمن بأسلوب آخر دون رؤيته لهن.

ومن صور ذلك إشغال من تعلق بالأغاني وسماعها بالقصائد التي تحمل المعاني الطيبة، حتى تنصرف نفسه عن ذلك الغناء، إن كان لا يتركه إلا بمثل هذا؛ مع أنه قد يشتغل بهذه القصائد عن قراءة القرآن أو الذكر.

ومن صور ذلك دفع أشرطة (الفيديو) التي تحمل مواد طيبة لمن تعلق بالتلفاز تعلقا ميؤوسا من مفارقته فيعطى أمثال تلك الأشرطة وإن كان المعطي يرى أن تلك الصور التي تظهر فيه من قبيل المحظور.

ولا يحتج على هذا بقاعدة (الضرر لا يزال بالضرر) لأن القاعدة ليس هذا محلها فالضرر الأصل فيه قاعدة (الضرر يزال) وأنه (لا يزال بالضرر) هذا فيما إذا كانت إزالته بغيره ممكنة أما في مثل تلك الصور والتي لابد فيها من الوقوع في أحد المفسدتين فإن القاعدة التي يجب إعمالها هي (ارتكاب أخف الضررين لدفع أعظمهما). كما مر بك في الأمثلة السابقة.

ومن صور هذه القاعدة الترخيص لمن عرض على السيف أن يتكلم بما يشعر السامع بالكفر بأن يتكلم بذلك شريطة أن يكون قلبه مطمئنا بالإيمان.

أما إذا تساوت المفاسد في القدر فإنه يخير بينها .. كما قال في المراقي:

وارتكب الأخف من ضرين ... وخيرن لدى استوى هذين

ذكر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حول هاتين القاعدتين:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٧ - ٦١): فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقدم أوكدهما لم يكن الآخر في هذه الحال واجبا، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة.

وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرما في الحقيقة، وإن سمى ذلك ترك واجب وسمى هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر، ويقال في مثل هذا: ترك الواجب لعذر، وفعل المحرم للمصلحة الراجحة، أو للضرورة، أو لدفع ما هو أحرم، وهذا كما يقال لمن نام عن صلاة أو نسيها إنه صلاها في غير الوقت المطلق قضاء ... وهذا -باب التعارض- باب واسع جدا لا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة، فإنه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم، فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجحون هذا الجانب وإن تضمن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون إلى السيئات فيرجحون الجانب الآخر وإن ترك حسنات عظيمة، والمتوسطون الذين ينظرون الأمرين قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة، أو يتبين لهم فلا يجدون من يغنيهم العمل بالحسنات وترك السيئات، لكون الأهواء قارنت الآراء.

فينبغي للعالم أن يتدبر أنواع هذه المسائل، وقد يكون الواجب في بعضها .. العفو عند الأمر والنهي في بعض الأشياء، لا التحليل والإسقاط؛ مثل أن يكون في أمره بطاعة فعلا لمعصية أكبر منها، فيترك الأمر بها دفعا لوقوع تلك المعصية، مثل أن ترفع مذنبا إلى ذي سلطان ظالم فيعتدي عليه في العقوبة ما يكون أعظم

ضررا من ذنبه، ومثل أن يكون في نهيه عن بعض المنكرات تركا لمعروف هو أعظم منفعة من ترك المنكرات، فيسكت عن النهي خوفا أن يستلزم ترك ما أمر الله به ورسوله مما هو عنده أعظم من مجرد ترك ذلك المنكر.

فالعالم تارة يأمر وتارة ينهى وتارة يبيح وتارة يسكت عن الأمر والنهي أو الإباحة .. فأما إذا كان المأمور والمنهي لا يتقيد بالممكن: إما لجهله وإما لظلمه ولا يمكن إزالة جهله وظلمه فربما كان الأصلح الكف والإمساك عن أمره ونهيه.اهـ.

الفرع السابع: العمل في حال اختلاط المعروف بالمنكر والمصلحة بالمفسدة

تفشت المنكرات في هذا العصر بشكل مخيف جدا .. حتى لم يسلم منها بيت من بيوت المسلمين .. ومن لم يقارف شيئا منها فإنه يمر به صباح مساء .. بل إن كثيرا من المعروف قد اختلط به شيء من المنكر .. حتى المساجد لم تسلم من ذلك!!

وقد آثرت في هذه المسألة أن أورد بعض كلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حول هذه المشكلة فهو يقول: واعلم أن من الأعمال ما يكون فيه خير لاشتماله على أنواع من المشروع، وفيه أيضا شر من بدع وغيرها، فيكون ذلك العمل خيرا بالنسبة إلى ما اشتمل عليه من أنواع المشروع، وشرا بالنسبة إلى ما اشتمل عليه من الإعراض عن الدين بالكلية كحال المنافقين والفاسقين، وهذا قد ابتلي به أكثر الأمة في الأزمان المتأخرة، فعليك هنا بأدبين: أحدهما: أن يكون حرصك على التمسك بالسنة باطنا وظاهرا في خاصتك وخاصة من يطيعك. وأعرف المعروف وأنكر المنكر.

والثاني: أن تدعو الناس إلى السنة بحسب الإمكان، فإذا رأيت من يعمل هذا

ولا يتركه إلا إلى شر منه، فلا تدع إلى ترك منكر بفعل ما هو أنكر منه، أو بترك واجب أو مندوب تركه أضر من فعل ذلك المكروه؛ ولكن إذا كان في البدعة من الخير فعوض عنه من الخير المشروع بحسب الإمكان، إذ النفوس لا تترك شيئا إلا بشيء، ولا ينبغي لأحد أن يترك خيرا إلا إلى مثله أو إلى خير منه، فإنه كما أن الفاعلين لهذه البدع معيبون قد أتوا مكروها، والتاركون أيضا لسنن مذمومون، فإن منها ما يكون واجبا على الإطلاق، ومنها ما يكون واجبا على التقييد كما أن الصلاة النافلة لا تجب ولكن من أراد أن يصليها يجب عليه أن يأتي بأركانها، وكما يجب على من أتى الذنوب من الكفارات والقضاء والتوبة والحسنات الماحية.

وكثير من المنكرين لبدع العبادات والعادات تجدهم مقصرين في فعل السنن من ذلك أو الأمر به، ولعل حال كثير منهم يكون أسوأ من حال من يأتي بتلك العبادات المشتملة على نوع من الكراهة، بل الدين هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، فلا ينهى عن منكر إلا ويؤمر بمعروف يغني عنه، كما يؤمر بعبادة الله سبحانه وينهي عن عبادة ما سواه، إذ رأس الأمر شهادة أن لا إله إلا الله، والنفوس خلقت لتعمل لا لتترك، وإنما الترك مقصود لغيره، فإن لم يشتغل بعمل صالح وإلا لم يترك العمل السيء أو الناقص ..

-إلى أن قال- إنه يحسن من بعض الناس ما يستقبح من المؤمن المسدد، ولهذا قيل للإمام أحمد عن بعض الأمراء: إنه أنفق على مصحف ألف دينار. أو نحو ذلك. فقال: دعهم، فهذا أفضل ما أنفقوا فيه الذهب، أو كما قال. مع أن مذهبه أن زخرفة المصاحف مكروهة .. فهؤلاء إن لم يفعلوا هذا وإلا اعتاضوا

بفساد لا صلاح فيه، مثل أن ينفقها في كتاب من كتب الفجور؛ من كتب الأسمار أو الأشعار أو حكم فارس والروم.

فتفطن لحقيقة الدين، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية والمفاسد بحيث تعرف ما مراتب المعروف، ومراتب المنكر، حتى تقدم أهمها عند الازدحام، فإن هذا حقيقة العلم بما جاءت به الرسل، فإن التمييز بين جنس المعروف وجنس المنكر، أو جنس الدليل وغير الدليل يتيسر كثيرا.

فأما مراتب المعروف والمنكر، ومراتب الدليل، بحيث يقدم عند التزاحم أعرف المعروفين، وينكر أنكر المنكرين، ويرجح أقوى الدليلين، فإنه هو خاصة العلماء بهذا الدين.

فالمراتب ثلاثة:

أحدهما: العمل الصالح المشروع الذي لا كراهة فيه.

الثاني: العمل الصالح من بعض وجوهه أو أكثرها، إما لحسن القصد، أو لاشتماله مع ذلك على أنواع من المشروع.

والثالث: ما ليس فيه صلاح أصلا؛ إما لكونه تركا للعمل الصالح مطلقا، أو لكونه عملا فاسدا محضا.

فأما الأول: فهو سنة رسول الله ﷺ باطنها وظاهرها، قولها وعملها، في الأمور العلمية والعملية مطلقا، فهذا هو الذي يجب تعلمه وتعليمه والأمر به، وفعله على حسب مقتضى الشريعة من إيجاب واستحباب، والغالب على هذا الضرب هو أعمال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

وأما المرتبة الثانية: فهي كثيرة جدا في طرق المتأخرين من المنتسبين إلى علم أو عبادة ومن العامة أيضا، وهؤلاء خير ممن لا يعمل عملا صالحا مشروعا

ولا غير مشروع، أو من يكون عمله من جنس المحرم، كالكفر والكذب والخيانة والجهل، ويندرج في هذا أنواع كثيرة.

فمن تعبد ببعض هذه العبادات المشتملة على نوع من الكراهة كالوصال في الصيام وترك جنس الشهوات ونحو ذلك، أو قصد إحياء ليالي لا خصوص لها كأول ليلة من رجب ونحو ذلك، قد يكون حاله خيرا من حال البطال الذي ليس فيه حرص على عبادة الله وطاعته؛ بل كثير من هؤلاء الذين ينكرون هذه الأشياء زاهدون في جنس عبادة الله من العلم النافع والعمل الصالح، أو في أحدهما - لا يحبونها ولا يرغبون فيها، لكن لا يمكنهم ذلك في المشروع فيصرفون قوتهم إلى هذه الأشياء، فهم بأحوالهم منكرون للمشروع وغير المشروع، وبأقوالهم لا يمكنهم إلا إنكار غير المشروع، ومع هذا: فالمؤمن يعرف المعروف وينكر المنكر.اهـ. كلام الشيخ من اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦١٦ - ٦٢١).

وقال في الاستقامة (٢/ ١٦٥ - ١٦٨): فأما المؤمنون فالصحو خير لهم، فإن السكر يصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ويوقع بينهم العداوة والبغضاء، وكذلك العقل خير لهم لأنه يزيدهم إيمانا.

وأما الكفار فزوال عقل الكافر خير له وللمسلمين؛ أما له فلأنه لا يصده عن ذكر الله وعن الصلاة، بل يصده عن الكفر والفسوق؛ وأما للمسلمين فلأن السكر يوقع بينهم العداوة والبغضاء فيكون ذلك خيرا للمؤمنين، وليس هذا إباحة للخمر والسكر ولكنه دفع لشر الشرين بأدناهما.

ولهذا كنت آمر أصحابنا أن لا يمنعوا الخمر عن أعداء المسلمين من التتار والكرج ونحوهم، وأقول: إذا شربوا لم يصدهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة، بل عن الكفر والفساد في الأرض، ثم إنه يوقع بينهم العداوة والبغضاء، وذلك

مصلحة للمسلمين، فصحوهم شر من سكرهم، فلا خير في إعانتهم على الصحو بل يستحب - أو يجب - دفع شر هؤلاء بما يمكن من سكر وغيره.

فهذا في حق الكفار، وفي الفساق والظلمة من إذا صحا كان في صحوه من ترك الواجبات وإعطاء الناس حقوقهم، ومن فعل المحرمات والاعتداء في النفوس والأموال ما هو أعظم من سكره، فإنه إذا كان يترك ذكر الله والصلاة في حال سكره ويفعل ما ذكرته في حال صحوه، لم يكن سكره شرا من صحوه، وإذا كان في حال صحوه يفعل حروبا وفتنا لم يكن في شربه ما هو أكثر من ذلك، ثم إذا كان في سكره يمتنع عن ظلم الخلق في النفوس والأموال والحريم، ويسمح ببذل أموال - تؤخذ على وجه فيه نوع من التحريم - ينتفع بها الناس كان ذلك أقل عذابا ممن يصحو فيعتدي على الناس في النفوس والأموال والحريم، ويمنع الناس الحقوق التي يجب أداؤها .. فعليك بالموازنة في هذه الأحوال والأعمال الباطنة والظاهرة حتى يظهر لك التماثل والتفاضل، وتناسب أحوال أهل الأحوال الباطنة لذوي الأعمال الظاهرة، لا سيما في هذه الأزمنة المتأخرة التي غلب فيها خلط الأعمال الصالحة بالسيئة في جميع الأصناف لنرجح عند الازدحام والتمانع خير الخيرين وندفع عند الاجتماع شر الشرين، ونقدم عند تلازم - تلازم الحسنات والسيئات - ما ترجح منها، فإن غالب رؤوس المتأخرين وغالب الأمة من الملوك والأمراء والمتكلمين والعلماء والعباد وأهل الأموال يقع غالبا فيهم ذلك..اهـ. انظر كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخالد بن عثمان السبت.

مسألة : التغير باليد أدلته وشروطه

المطلب الأول : تغيير المنكر باليد وأدلته

ونقصد بذلك تغيير المنكر باليد ككسر الملاهي وإراقة الخمر وإتلاف آنيته إذا لم يمكن ذلك وخلع الحرير، وتكسير الأصنام وتمزيق الصور أو طمسها وإتلاف الكتب والمجلات المضللة ونحو ذلك.

الأصل في تغيير المنكر باليد الكتاب والسنة وإجماع المسلمين على ذلك.

يقول تعالى حكاية عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون) [الأنبياء: ٥٧ - ٥٨] فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كسر الأصنام بيده، وقال تعالى حكاية عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ (وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا) [طه: ٩٧]. فأخبر سبحانه وتعالى عن كليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه أحرق العجل الذي عبد من دون الله ونسفه في اليم، ويقول تعالى آمرا نبيه أن يقول: (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) [الإسراء: ٨١]. وذلك حينما دخل مكة عام الفتح فأخذ يطعن الأصنام بعود بيده وهو يتلو هذه الآية.

وقد ثبت عند البخاري (٢٤٧٨) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده. ويقول وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا [الإسراء: ٨١])، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده) فهذا نص صريح من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتغيير المنكر باليد، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد) البخاري (٢٢٢٢)، وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كنت أسقي أبا عبيدة وأبا طلحة وأبي ابن كعب من فضيخ زهو تمر فجاءهم آت فقال: إن الخمر قد

حرمت. فقال أبو طلحة: قم يا أنس فاهرقها فأهرقتها)[١]، وفي رواية لمسلم: (فقال أبو طلحة: يا أنس قم إلى هذه الجرة فاكسرها فقمت إلى مهراس لنا فضربتها بأسفله حتى تكسرت)، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (خرج رسول الله ﷺ إلى المربد فخرجت معه فكنت عن يمينه، وأقبل أبو بكر فتأخرت له فكان عن يمينه وكنت عن يساره فأتى رسول الله ﷺ المربد، فإذا بزقاق على المربد فيها خمر. قال ابن عمر: فدعاني رسول الله ﷺ بالمدية، وما عرفت المدية إلا يومئذ، فأمر بالزقاق فشقت ثم قال لعنت الخمر وشاربها) وقد تقدم تخريجه.

وفي رواية لابن عمر أيضا قال: (أمرني رسول الله ﷺ أن آتيه بمدية وهي الشفرة فأرهفت فأتيته بها فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها وقال: اغد علي بها ففعلت، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة وفيها زقاق خمر قد جلبت من الشام فأخذ المدية مني فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطانيها، وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي وأن يعاونوني وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق إلا شققته ففعلت فلم أترك في أسواقها زقا إلا شققته) وقد تقدم تخريجه.

فهذه الأحاديث دليل واضح بالقول والفعل من الرسول ﷺ وصحابته على تغيير المنكر باليد.

الفرع الأول: المنكرات التي يجوز إتلافها باليد

للناهي عن المنكر أن يتلف الأشياء العينية المحرمة مثل الأصنام المعبودة من دون الله بشتى أنواعها وأيا كانت مادتها من خشب أو ذهب أو نحاس، فله تكسيرها وإتلافها وكذلك آلات اللهو بشتى أنواعها من عود وآلات موسيقية

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٨٢)، ومسلم (١٩٨٠).

ونحو ذلك أو الأشرطة التي سجل فيها أغاني خليعة وموسيقى ماجنة ونحو ذلك، أو الصور الخليعة المحرمة فله طمسها أو تمزيقها وإتلافها، كل ذلك يجوز له تغييره باليد وإتلافه لكن عليه أن ينظر إلى قواعد الشرع قبل الإقدام على ذلك ومراعاة المصلحة فلا يخلف ذلك منكرا أكبر منه.

قال الأثرم: سألت أبا عبد الله عن رجل كسر عودا كان مع أمه لإنسان فهل يغرمه. أو يصلحه؟ قال لا أرى عليه بأسا أن يكسره ولا يغرمه ولا يصلحه، قيل فطاعتها؟ قال: ليس لها طاعة في هذا.

وقال أبو داود: سمعت أحمد يسأل عن قوم يلعبون بالشطرنج فنهاهم فلم ينتهوا، فأخذ الشطرنج فرمى بها. قال: قد أحسن. قيل: فليس عليه شيء. قال: لا، قيل له: وكذلك إن كسر عودا أو طنبورا؟ قال: نعم. وقال عبد الله: سمعت أبي - في رجل يرى مثل الطنبور أو العود أو الطبل أو ما أشبه هذا ما يصنع به؟ قال: إذا كان مكشوفا فاكسره.

وقال المروزي: سألت أبا عبد الله عن كسر الطنبور الصغير يكون مع الصبي؟ قال يكسره أيضا. قلت: أمر في السوق فأرى الطنبور تباع أأكسره؟ قال: ما أراك تقوى، إن قويت -أي فافعل- قلت أدعى لغسل الميت فأسمع صوت الطبل؟ قال إن قدرت على كسره وإلا فاخرج ذكر ذلك كله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الطرق الحكمية (ص: ٢٧٨، ٢٧٩)، وهذه الروايات عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفيد إنكار المنكر باليد، وكسر مثل هذه المنكرات وإزالتها. وهذه مبنية على أصل الشرع.

فعن أبي الهياج الأسدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي علي بن أبي طالب: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا

سويته) رواه مسلم (٩٦٩).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (دخل النبي ﷺ البيت فوجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم فقال ﷺ أما هم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة) رواه البخاري (٣٣٥١) ..

وفي رواية لابن عباس أيضا عند البخاري (٣٣٥٢) (أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت) فهذه الأحاديث وغيرها من النصوص تبين مشروعية إزالة المنكرات باليد، على أية صورة كانت الإزالة مما يناسب ذلك المنكر إما تغييرا كليا أو جزئيا.

الفرع الثاني: هل يضمن المنكر ما أتلفه

المسألة خلافية بين العلماء فبعضهم يقول لا يضمن ما أتلفه؛ لأن ما أتلفه منكر ومحرم فثمنه حرام فلا ضمان عليه. وبعضهم يقول ما يزول به المنكر لا ضمان فيه وأما الباقي فيضمنه.

ذكر الخلال هنا في أصل الكتاب بسنده عن أبي الحصين أن شريحا أتي في طنبور فلم يقض فيه بشيء.

وقال الخلال أيضا أخبرني محمد بن أبي هارون، أن يحيى بن يزدان أبا السفر حدثهم، أنه سأل أبا عبد الله عن رجل رأى في يد رجل عودا، أو طنبورا فكسره أصاب أو أخطأ وما عليه في كسره شيء؟ فقال قد أحسن وليس عليه في كسره شيء.اهـ.

وقال في غذاء الألباب (١/ ٢٤٣ – ٢٥٥): قال ابن قدامة: وإن كسر صليبا أو مزمارا أو طنبورا أو صنما لم يضمنه.

وقال الشافعي: إن كان ذلك إذا فصل يصلح لنفع مباح، وإذا كسر لم يصلح

لنفع مباح لزمه ما بين قيمته منفصلا ومكسورا. لأنه أتلف بالكسر ما له قيمة، وإن كان لا يصلح لمنفعة مباحة لم يلزمه ضمانه.

وقال أبو حنيفة: يضمن. ولنا أنه لا يحل بيعه فلم يضمنه كالميتة. والدليل على أنه لا يحل بيعه قول النبي ﷺ: (إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام متفق عليه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١).

والذي يظهر أن الاختلاف يتعلق بالمنكر نفسه فأحيانا يكون كله منكرا، وأحيانا يجمع بين المنكر والمعروف. فإذا كان كله منكرا كالعود -آلة الغناء- فهذا يكسر ولا ضمان فيه؛ لأنه مخصص لهذا الغرض فقط ولا يمكن الاستفادة منه بشيء آخر، وإن كان فيه من هذا وذاك فالأولى إزالة المنكر وترك ما عداه. فمثلا: إذا كان فيه كتاب فيه فصول جيدة ولكن فيه فصل خبيث. فتمزق أوراق هذا الفصل ويترك الباقي. وكذلك الحال لو كان فيه مجلة فيها مقالات طيبة ولكن فيها صورة خليعة فتمزق هذه الصورة ويترك الباقي. ولكن ينبغي أن يعلم إذا كانت المصلحة تقتضي إتلاف الذي جمع بين المنكر والمعروف فإنه يتلف ولا ضمان.

فعلى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يزن هذه الأمور بميزان الشرع ثم يمضي لتنفيذ أمر الله تعالى.

المطلب الثالث: شروط تغيير المنكر باليد وضوابطه

١ - أن يكون تغييره للمنكر خالصا لوجه الله تعالى وليس هدفه من ذلك هو ردود فعل أو الانتقام أو التشفي أو نحو ذلك من حظوظ النفس.

٢ - أن يتحقق من هذا المنكر وأنه يستحق التغيير أو الإتلاف.

٣ - أن لا يتجاوز الحد المشروع إن كان من المنكرات التي يمكن إتلاف

بعضها وترك البعض الآخر.

٤- أن يباشر ذلك بنفسه إن تيسر ذلك أو يستعين بمن هو أهل لذلك. الأمر.

٥- القدرة وعدم ترتب مفسدة أكبر من جرائه، وفي مسألة التغيير للمنكر باليد خاصة إذا جعلنا ذلك لكل أحد وفي كل منكر فإن ذلك يجر من المفاسد الشيء الكثير جدا. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وليس لأحد أن يزيل المنكر بما هو أنكر منه، مثل أن يقوم واحد من الناس يريد أن يقطع يد السارق ويجلد الشارب، ويقيم الحدود، لأنه لو فعل ذلك لأفضى إلى الهرج والفساد، لأن كل واحد يضرب غيره ويدعي أنه استحق ذلك، فهذا ينبغي أن يقتصر فيه على ولي الأمر) هذا وقد نص غير واحد من أهل العلم على أنه إذا تطلب الأمر شهر سلاح فإن ذلك لا بد فيه من إذن السلطان لئلا يؤدي إلى فتنة فمسألة التغيير باليد مع وجود القدرة مشروطة بعدم ترتب مفسدة أكبر من جراء الاحتساب.

المبحث الثالث التغيير باللسان وضوابطه

من أهم وسائل تغيير المنكر تغييره باللسان وذلك بتعريف الناس بالحكم الشرعي بأن هذا محرم ومنهي عنه. فقد يرتكب المنكر لجهله به. فيمكن تغيير المنكر عن طريق الوعظ والإرشاد والنصح والتخويف وتغليظ القول والتقريع والتعنيف ونحو ذلك، فلعله يقلع عن المنكر بسبب ذلك.

ولتغيير المنكر باللسان مراتب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يسلكها أولا بأول؛ لأن الهدف الأساسي هو إصلاح الناس وليس إيذاؤهم.

المطلب الأول: التعريف

وذلك بأن يعرف مرتكب المنكر -إما بالمباشرة أو التعريض حسب الموقف- بأن هذا لا ينبغي أو حرام وأنت لست ممن يفعل ذلك بالقصد، فأنت أرفع من ذلك. ويبين له ذلك بالحكمة والرفق واللين حتى يقبل ولا ينفر، وقد ضرب الغزالي مثلا لذلك فقال في الإحياء (٧/ ٤٥): فإن المنكر قد يقدم عليه المقدم بجهله، وإذا عرف أنه منكر تركه كالسوادي يصلي ولا يحسن الركوع والسجود، فيجب تعريفه باللطف من غير عنف؛ وذلك لأن في ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحمق والتجهيل إيذاء، وقلما يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور ولاسيما بالشرع، ولذلك ترى الذي يغلب عليه الغضب كيف أن تنكشف عورة جهله والطباع أحرص على ستر عورة الجهل، فنقول له إن الإنسان لا يولد عالما ولقد كنا أيضا جاهلين بأمور الصلاة فعلمنا العلماء، ولعل قريتك خالية عن أهل العلم، أو عالمها مقصر في شرح الصلاة، وهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء، فإيذاء المسلم محذور كما أن تقريره على المنكر محذور. وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول، ومن اجتنب محذور السكوت على المنكر واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فقد غسل الدم بالبول على التحقيق.اهـ. بتصرف.

ويختلف الأسلوب من شخص لآخر ومن وقت إلى وقت، فعلى الناهي عن المنكر أن يلبس لكل حالة لبوسها، ولابد في كل الحالات من عامل مشترك ألا وهو التعريف بالرفق واللين واللطف ولا سيما إذا كانت حال الواقع في المنكر مجهولة.

ولقد كان الرسول ﷺ إذا علم شخصا ما قد وقع في محظور فإنه يخطب ويعمم ولا يخصص، كل ذلك من أجل أن لا يجرح شعور ذلك الشخص.

فقد ورد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا كره من إنسان شيئا قال: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا)، وفي رواية (إذا بلغه عن الرجل شيء)[1].

وروى الخلال هنا في أصل الكتاب: بسنده قال أخبرني عصمة بن عصام قال: حدثنا حنبل أنه سمع أبا عبد الله يقول: والناس يحتاجون إلى مداراة ورفق في الأمر بالمعروف بلا غلظة إلا رجلا مباينا معلنا بالفسق والردى فيجب عليك نهيه وإعلانه؛ لأنه يقال: ليس لفاسق حرمة، فهذا لا حرمة له.

وقال أيضا: أخبرني محمد بن علي الوراق قال: حدثني مهنا قال: قال أحمد بن حنبل، كان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون. يقولون مهلا رحمكم الله.اهـ. فهذه الآثار تبين طريقة السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في النهي عن المنكر.

المطلب الثاني: النهي بالوعظ والنصح والتخويف من الله تعالى

وهذه الدرجة تتعلق غالبا في مرتكب المنكر العارف بحكمه في الشرع بخلاف الدرجة الأولى فهي في الغالب تستعمل للجاهل في الحكم، فهذا يستعمل معه أسلوب الوعظ والنصح والتخويف من الله تعالى ويذكر له آيات الترهيب والوعيد، ولكن بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة يقول تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) [النحل: ١٢٥]، ويقول تعالى: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) [عمران: ١٥٩]. وحتى لو كان عارفا لهذه النصوص فلها تأثيرها وهذا يعتبر

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٨٨) وعنه البيهقي في الدلائل (١/ ٣١٧ - ٣١٨) وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٨٠) والحديث صححه ابن مفلح في الآداب الشرعية وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٠٦٤)، وقال العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٦١٢): صحيح على شرط الشيخين.

ذكرى. والله يقول (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) [الذاريات: ٥٥]، ويبين له ما أعد الله للطائعين، ويذكره بالموت وأنه ليس له وقت معين، بل يأتي بغتة، وربما جاء الإنسان وهو واقع في المعصية، فتكون خاتمته سيئة، ويبين له أن هدفه من نصحه وإرشاده حبه له وخوفه عليه من عذاب يوم القيامة وأنه ما فعل ذلك إلا إشفاقا عليه، حتى يطمئن له وتنفتح نفسه لسماع الموعظة وربما أعقب ذلك الإقلاع عما هو واقع به.

وينبغي أن يتدرج مع المنهي في الأحوال التالية

١ - أن يذكر بعض النصوص من القرآن والسنة المخوفة للعاصين والمذنبين، وأقوال السلف في ذلك. ويختار من ذلك القصير شديد الوقع في النفس.

٢ - تذكيره بالأمم والطوائف والأشخاص الذين وقعوا في المعصية وحل عليهم غضب الله وعذابه، والشواهد في الكتاب والسنة كثيرة جدا.

٣ - أن يذكره أن للذنوب سلبيات كثيرة، وأن ما يصيب الإنسان في نفسه وأهله وماله بسبب الذنوب.

ورد عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ (لا يزيد العمر إلا البر، ولا يرد القدر إلا الدعاء، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)[1].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٨٦)، وأحمد (٥/ ٢٧٧، رقم ٢٢٤٤٠)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٤١ - ٤٤٢)، وهناد في الزهد (١٠٠٩)، وابن ماجه (٩٠، ٤٠٢٢)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ١٦٩)، والروياني (١/ ٤٢٠، رقم ٦٤٣)، وابن حبان (٣/ ١٥٣، رقم ٨٧٢)، والطبراني (٢/ ١٠٠، رقم ١٤٤٢)، والحاكم (١/ ٦٧٠، رقم ١٨١٤)، والقضاعي (٢/ ١١٥، رقم ١٠٠١)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢/ ١٠)، والأصبهاني في الترغيب والترهيب (١/ ٢٠٢)، وعبد الغني المقدسي في الدعاء =

وقوله تعالى: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) [الشورى: ٣٠]، وغير ذلك من النصوص والآثار التي تبين عقوبة المعاصي في الدنيا والآخرة.

٤- محاولة ذكر الأدلة والشواهد الخاصة إن كان يعرف ذنبه بشكل خاص. فإذا كان معروفا بشرب الخمر ركز على عقوبة شارب الخمر والآثار الواردة في ذلك والعقوبات المترتبة عليه في الدنيا والآخرة، ثم ينتقل إلى الوعظ بشكل عام.

وليحرص كل الحرص أن تكون الموعظة سرا بينه وبينه حتى لا تأخذه العزة بالإثم فيرفض قبولها، وحتى يعلم بحق أنه ليس للناهي هدف سوى النصيحة والإشفاق عليه فقط.

ذكر ابن عبد البر في كتابه بهجة المجالس (١/ ٤٧): عن مسعر بن كدام قال: (رحم الله من أهدى إلي عيوبي في ستر بيني وبينه فإن النصيحة في الملأ تقريع).

وروى الحافظ أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٤٢، ١٤٣) بسنده عن مرة بن شرحبيل قال: سئل سلمان بن ربيعة عن فريضة فخالفه عمرو بن شرحبيل.

=

(ح١٢)، والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٦) من حديث ثوبان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والحديث ضعفه ابن عدي، وأقره ابن القيسراني في الذخيرة (٥/ ٢٧١٧)، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف الجامع (١٤٥٢، ٣٠٠٦، ٦٣٤٩). وصححه ابن حبان، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٢٨٩): إسناده صحيح، وقال البوصيري في الزوائد: سألت شيخنا أبا الفضل العراقي رَحِمَهُ اللهُ عن هذا الحديث فقال هذا حديث حسن، وصححه العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٥/ ٣٣٦)، وقال الشيخ مشهور في تعليقه على المجالسة (١٨٩٢) إسناده لين والحديث حسن.

فغضب سلمان بن ربيعة ورفع صوته فقال عمرو بن شرحبيل: والله لكذلك أنزلها الله تعالى فأتيا أبا موسى الأشعري فقال: القول ما قاله أبو ميسرة. وقال لسلمان ينبغي لك أن لا تغضب إن أرشدك رجل، وقال لعمرو: قد كان ينبغي لك أن تساوره يعني تساوره ولا ترد عليه والناس يسمعون.اهـ.

فينبغي للناهي عن المنكر أن يستخدم السبل التي تعين صاحب المنكر على أن يقلع عن معصيته. والله أعلم.

المطلب الثالث: الغلظة بالقول

وهذه المرتبة يلجأ إليها بعد استخدامه الأسلوب السهل اللين القريب، وبعد معرفته أن أسلوب اللين لم يجد عند ذلك يغلظ له القول ويشدد عليه ويزجره مع مراعاة قواعد الشرع في ذلك، فإذا أمن شره فإنه يقوم بذلك ولكن لا يقول إلا حقا، وهذا الأسلوب قد استعمله أبو الأنبياء عليه وعليهم السلام، يقول الله تعالى حكاية عنه (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) [الأنبياء: ٦٧]. فيقول اتق الله أما تخاف الله أما تستحيي ألا تعرف أن فعلك هذا فعل الفساق والفجار، وهكذا، فلعله ينزجر، وينبغي للناهي أن لا يطلق لسانه في كل ما يرد عليه، بل يحاسب نفسه على كلمة ستخرج منه، وفي الوقت نفسه عليه أن لا يتعدى، فإذا علم أن صاحبه استجاب أو أقلع وقف، وشكره على استجابته كأن يقول: جزاك الله خيرا وبارك فيك.

يقول الغزالي في الإحياء (٧/ ٤٧) ولهذه الدرجة أدبان:

أحدهما: أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف.

الثاني: أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يسترسل فيه، فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه بل على قدر الحاجة.

المطلب الرابع: التهديد والتخويف

وهذه المرتبة هي آخر المحاولات لنهيه باللسان ويعقبها بعد ذلك إيقاع الفعل.

فيقال له: لأخبرن بك السلطات لتسجنك وتعاقبك على فعلك، وهكذا يورد عليه بعض أساليب التخويف والتهديد ولكن ينبغي أن يكون هذا التهديد والتخويف في حدود المعقول عقلا وشرعا حتى يعرف أنك صادق في تهديدك؛ لأنك لو هددته بأمور غير جائزة شرعا عرف أنك غير جاد؛ لأن الآمر يجب أن يكون أقرب الناس استجابة لشرع الله تعالى.

فلا يقول له: إن لم تنته سوف أحرق بيتك بمن فيه وأسلب مالك وأفعل وأفعل، من أمور لا تجوز شرعا.

يقول الغزالي في الإحياء (٧/ ٥٠): ولا يهدد بوعيد لا يجوز له تحقيقه كقوله لأنهبن دارك أو لأضربن ولدك أو لأسبين زوجتك وما يجري مجراه بل إن ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام وإن قاله من غير عزم فهو كذب.اهـ.

هذه هي مراتب الإنكار باللسان فعلى الناهي أن يسلك هذه المراتب عند نهيه مرتبة مرتبة، ولا ينتقل من مرتبة قبل أختها؛ لأن المقصود إصلاح هذا المسلم الذي وقع في منكر، وليس المقصود الانتقام منه أو الانتصار عليه. فإن انتهى عند المرتبة الأولى فهو المطلوب وإلا انتقل للتي تليها وهكذا.

مسألة: شروط الآمر بالمعروف

قال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (٨/ ٦٥١): يشترط للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر أن يكونا على ما توجبه الشريعة وتقتضيه ولذلك شروط:

الشرط الأول: أن يكون عالما بحكم الشرع فيما يأمر به أو ينهى عنه، فلا يأمر إلا بما علم أن الشرع أمر به: ولا ينهى إلا عما علم أن الشرع نهى عنه، ولا يعتمد في ذلك على ذوق ولا عادة.

لقوله تعالى لرسوله ﷺ: {فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق} [المائدة: ٤٨].

وقوله: {ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا} [الإسراء: ٣٦].

وقوله: {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون} [النحل: ١١٦].

فلو رأى شخصا يفعل شيئا الأصل فيه الحل، فإنه لا يحل له أن ينهاه عنه حتى يعلم أنه حرام أو منهي عنه.

ولو رأى شخصا ترك شيئا يظنه الرائي عبادة، فإنه لا يحل له أن يأمره بالتعبد به حتى يعلم أن الشرع أمر به.

الشرط الثاني: أن يعلم بحال المأمور: هل هو ممن يوجه إليه الأمر أو النهي أم لا؟ فلو رأى شخصا يشك هل هو مكلف أم لا، لم يأمره بما لا يؤمر به مثله حتى يستفصل.

الشرط الثالث: أن يكون عالما بحال المأمور حال تكليفه، هل قال بالفعل أم لا؟

فلو رأى شخصا دخل المسجد ثم جلس، وشك هل صلى ركعتين، فلا ينكر عليه، ولا يأمره بهما، حتى يستفصل.

ودليل ذلك «أن النبي ﷺ كان يخطب يوم الجمعة، فدخل رجل، فجلس، فقال له النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "أصليت؟ " قال: لا قال: "قم فصل ركعتين وتجوز فيهما"».

ولقد نقل لي أنه بعض الناس يقول: يحرم أن يسجل القرآن بأشرطة، لأن ذلك إهانة للقرآن على زعمه! فينهى الناس أن يسجلوا القرآن على هذه الأشرطة، لظنه أنه منكر!! فنقول له: إن المنكر أن تنهاهم عن شيء لم تعلم أنه منكر!! فلا بد أن تعلم أن هذا منكر في دين الله.

وهذا في غير العبادات، أما العبادات، فإننا لو رأينا رجلا يتعبد بعبادة، لم يعلم أنها مما أمر الله به، فإننا ننهاه، لأن الأصل في العبادات المنع.

الشرط الرابع: أن يكون قادرا على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا ضرر يلحقه، فإن لحقه ضرر، لم يجب عليه، لكن إن صبر وقام به، فهو أفضل؛ لأن جميع الواجبات مشروطة بالقدرة والاستطاعة، لقوله تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم} [التغابن: ١٦]، وقوله: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} [البقرة: ٢٨٦].

فإذا خاف إذا أمر شخصا بمعروف أن يقتله، فإنه لا يلزمه أن يأمره، لأنه لا يستطيع ذلك، بل قد يحرم عليه حينئذ. وقال بعض العلماء: بل يجب عليه الأمر والصبر، وإن تضرر بذلك ما لم يصل إلى حد القتل. لكن القول الأول أولى، لأن هذا الأمر إذا لحقه الضرر بحبس ونحوه، فإن غيره قد يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفا مما حصل، حتى في حال لا يخشى منها ذلك الضرر.

وهذا ما لم يصل الأمر إلى حد يكون الأمر حد يكون الأمر بالمعروف من

جنس الجهاد، كما لو أمر بسنة ونهى عن بدعة، ولو سكت، لاستطال أهل البدعة على أهل السنة، ففي هذه الحال يجب إظهار السنة وبيان البدعة؛ لأنه من الجهاد في سبيل الله، ولا يعذر من تعين عليه بالخوف على نفسه.

الشرط الخامس: أن لا يترتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مفسدة أعظم من السكوت، فإن ترتب عليها ذلك، فإنه لا يلزمه، بل لا يجوز له أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر.

ولهذا قال العلماء: إن إنكار المنكر ينتج منه إحدى أحوال أربعة: إما أن يزول المنكر، أو يتحول إلى أخف منه، أو إلى مثله، أو إلى أعظم منه.

أما الحالة الأولى والثانية، فالإنكار واجب.

أما في الثالثة، فهي في محل نظر.

وأما في الرابعة، فلا يجوز الإنكار، لأن المقصود بإنكار المنكر إزالته أو تخفيفه.

مثال ذلك: إذا أراد أن يأمر شخصا بفعل إحسان، لكن يستلزم فعل هذا الإحسان ألا يصلي مع الجماعة، فهنا لا يجوز الأمر بهذا المعروف، لأنه يؤدي إلى ترك واجب من أجل فعل مستحب.

وكذلك في المنكر لو كان إذا نهى عن هذا المنكر، تحول الفاعل له إلى فعل منكر أعظم، فإنه في هذه الحال لا يجوز أن ينهى عن هذا المنكر دفعا لأعلى المفسدتين بأدناهما.

ويدل لهذا قوله تعالى: {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون} [الأنعام: ١٠٨] فإن سب آلهة المشركين، لا شك أنه أمر

مطلوب، لكن لما كان يترتب عليه أمر محظور أعظم من المصلحة التي تكون بسب آلهة المشركين، وهو سبهم لله تعالى عدوا بغير علم، نهى الله عن سب آلهة المشركين في هذه الحال.

ولو وجدنا رجلا يشرب الخمر، وشرب الخمر منكر، فلو نهيناه عن شربه، لذهب يسرق أموال الناس ويستحل أعراضهم، فهنا لا ننهاه عن شرب الخمر، لأنه يترتب عليه مفسدة أعظم.

قال العلامة العثيمين في شرح السفارينية (ص٧٠٠): ومن الشروط ألا يتغير المنكر إلى ما هو أنكر منه، وفي هذا القمام تكون أربعة أحوال إذا نهينا عن المنكر: إما أن يزول بالكلية إذا نهينا عنه، أو يقل، أو يتغير إلى منكر مساوٍ له أي مثله، أو يتغير إلى أشد.

فإذا كان يزول بالكلية أو يقل فالنهي عن هذا المنكر واجب؛ لأن إزالة المنكر والتقليل منه واجب، فيجب أن ننهى. أما إذا كان يتغير إلى مثله؛ مثل لو نهينا شخصًا عن السرقة من آخر فذهب يسرق من ثالث، فهنا تغير المنكر لكن إلى مثله مساوٍ له، فهنا لا ننهاه ما دمنا نعلم أنه لابد أن يفعل.

ولو أن هناك سلطانًا جائرًا يريد أن يضرب ضريبة على التجار، فضرب على رجل فنهيناه عن الضريبة لأنها حرام، فقال: حرام أن نأخذ من هذا إذًا نأخذ من آخر، فهذا لا ننهاه؛ لأنه لا فائدة من النهي.

ولو قال قائل: إلا يمكن أن يكون تغيره من حال إلى حال سببا لإقلاعه عنه؟ قلنا: إن صح ذلك وجب النهي، أما إذا لم يصح فيقال: ليس بواجب.

لكن هل يخير الإنسان بين أن ينهى أو يترك؟ وأيهما أرجح النهي أو الإمساك؟، الظاهر أنه ينظر إلى المصلحة.

أما إذا كان المنكر يتغير بالنهي إلى أنكر منه، فإنه لا ينهى عنه، وذلك مثل أن نرى رجلًا أحمق ينظر إلى النساء، ونعلم إننا لو نهيناه عن النظر إلى النساء لذهب يغمزهن، فهذا الثاني أنكر من الأول، ولهذا فإننا لا ننهاه عن النظر.

ويدل لهذا قوله تبارك وتعالى: (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) (الأنعام: الآية١٠٨) وجه الدلالة في الآية أن سب آلهة المشركين خير وواجب، فإذا كان يتضمن شرًا أكبر منه ترك سبهم، ولما كان سب آلهة المشركين يؤدي إلى أنهم يسبون المنزه عن كل عيب وهو الله ﷻ؛ يسبونه عدوًا بغير علم، ونحن إذا سببنا آلهتهم سببناها حقًا بعلم؛ وسببناها عدلًا بعلم وليس عدوًا بغير علم، لكن لما كان هذا يتضمن شرًا أكبر نهى الله عنه.

وقد مر شيخ الإسلام رحمه الله وصاحب له بجماعة من التتار يشربون الخمر ويسكرون، وكان شيخ الإسلام رحمه الله لا تأخذه في الله لومة لائم فقال له صاحبه: لماذا لم تنههم؟ قال: هم الآن يشربون الخمر وضررهم على أنفسهم، لكن لو نهيناهم وصاروا منتبهين، ذهبوا يقتلون رجال المسلمين، ويأخذون أموالهم، ويعتدون على أعراضهم، وهذا أعظم ضررًا من شربهم الخمر، فتركهم يشربون الخمر حتى لا يعتدوا على المسلمين، وهذا من فقهه رحمه الله، وهذا واضح عند التأمل، وليس فيه إشكال.

والحاصل أن يشترط إلا يتحول المنكر إلى ما هو أنكر منه، فإذا كان كذلك حرم النهي؛ لأن كونه ينتقل إلى مفسدة أعظم هذا حرام.

الشرط السادس: أن يكون هذا الآمر أو الناهي قائما بما يأمر به منتهيا عما ينهى عنه، وهذا على رأي بعض العلماء، فإن كان غير قائم بذلك، فإنه لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، لأن الله تعالى قال لبني إسرائيل: {أتأمرون

الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون} [البقرة: ٤٤]، فإذا كان هذا الرجل لا يصلي، فلا يأمر غيره بالصلاة، وإن كان يشرب الخمر، فلا ينهى غيره عنها، ولهذا قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

فهم استدلوا بالأثر والنظر.

ولكن الجمهور على خلاف ذلك، وقالوا: يجب أن يأمر بالمعروف، وإن كان لا يأتيه، وينهى عن المنكر، وإن كان يأتيه، وإنما وبخ الله تعالى بني إسرائيل، لا على أمرهم بالبر، ولكن على جمعهم بين الأمر بالبر ونسيان النفس.

وهذا القول هو الصحيح، فنقول: أنت الآن مأمور بأمرين: الأول: فعل البر، والثاني: الأمر بالبر. منهي عن أمرين: الأول: فعل المنكر، والثاني: ترك النهي عن فعله. فلا تجمع بين ترك المأمورين وفعل المنهيين، فإن ترك أحدهما لا يستلزم سقوط الآخر.

فهذه ستة شروط، منها أربعة للجواز، وهي الأول والثاني والثالث والخامس، على تفصيل فيه، واثنان للوجوب، وهما الرابع والسادس.

ولا يشترط أن لا يكون من أصول الآمر أو الناهي كأبيه أو أمه أو جده أو جدته، بل ربما نقول: إن هذا يتأكد أكثر، لأن من بر الوالدين أن ينهاهما عن فعل المعاصي ويأمرهما بفعل الطاعات قد يقول: أنا إذا نهيت أبي، غضب علي، وهجرني، فماذا أصنع؟

نقول: اصبر على هذا الذي ينالك بغضب أبيك وهجره، والعاقبة للمتقين، واتبع ملة إبراهيم عليه السلام، حيث عاتب أباه على الشرك، فقال: {ياأبت لم تعبد ما

لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا} إلى أن قال: {ياأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ياأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا} قال، أي: أبوه: {أراغب أنت عن آلهتي ياإبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا} [مريم: ٤٢ - ٤٦]. وقال إبراهيم أيضا لأبيه آزر: {أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين} [الأنعام: ٧٤].اهـ. كلام العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

فالشروط المتعين توفرها في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر بالتفصيل هي.

المطلب الأول: الشروط المعتبرة التي لابد من توافرها

الأول: التكليف: وهذا الشرط يخرج غير المكلف كالمجنون والصبي والمكلف في اصطلاح الفقهاء: هو البالغ العاقل، وهذا الشرط يعد من شروط الوجوب، لكن لا يعني هذا الاشتراط للتكليف أن غير البالغ لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر بل يكون ذلك مندوبا في حقه، كما هو الحال في الصلاة والصوم والحج ونحوها مما هو معلوم.

الثاني: الإسلام: الحسبة فيها نوع ولاية، ولا ولاية للكافر على المسلم؛ ثم إن الكافر لو قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه لا يقبل منه مع انتفاء شرط الإسلام، بقطع النظر عن كونه مخاطبا بفروع الشريعة أم لا، ولأن الحسبة نصرة للدين ورفع له فلا يرجى أن يكون ناصره من هو جاحد لأصله، لكن لو قام الكافر بالإنكار للمنكر فهل يبقى على المسلم إنكار له؟! والجواب عن هذا أن يقال: إن زال المنكر فليس على المسلم إنكار بعده، لأنه لا وجود للمنكر لكن إن كان المسلم عالما بالمنكر قبل إنكار الكافر له كان إنكاره متعينا

على المسلم فيلام على الترك.

أما في حال بقاء المنكر بعد إنكار الكافر له فلا شك أن هذا لا يعفى المسلم من إنكاره أبدا.

الثالث: الإخلاص وإحضار النية: لابد للمحتسب من أن يطلب بعمله وجه الله تعالى ورضاه دون أن يقصد بعمله وحسبته رياء ولا سمعة ولا منزلة في قلوب الخلق أو شيئا من دنياهم، وهذا الأمر -أعني الإخلاص- شرط في قبول سائر الأعمال الصالحة كما تقدم قال الله تعالى: فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا [الكهف: ١١٠].

ويتأكد الإخلاص في حال كون العمل بارزا ظاهرا يراه الناس ويشاهدونه، وننبه في هذا الموضع إلى مدخل شيطاني يوسوس به إبليس في نفوس بعض الغيورين فيشككهم في إخلاصهم وبالتالي يقعدهم عن القيام بمثل هذا العمل العظيم أو يقعدهم عنه ابتداء تحاشيا للشهرة أو الانزلاق بالعجب أو الرياء والسمعة كما نسمع من بعض القاعدين عنه!! فلا ينبغي الالتفات إلى شيء من هذه الوساوس ولا الركون إلى تلك الهواجس!!.

وقد يكون للرجل جهاد وعمل ضخم في مجالات الدعوة والإصلاح والتوجيه وليس له عند الله تعالى نصيب، لأنه إنما دعا إلى تجميع الناس حول نفسه فدعوته وجهاده لرفع تلك النفس.

الرابع: المتابعة: إن الغرض من الاحتساب هو إيجاد المعروف وإزالة المنكر والمعروف هو ما جاء به محمد ﷺ فعلى المحتسب أن يجعل هذا نصب عينيه، وعليه أن يعلم جيدا أن المتابعة شرط في قبول عمله لقوله تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا) [الكهف: ١١٠] والعمل

الصالح هو العمل الصائب الموافق لهديه صلوات الله وسلامه عليه، وقد أخبر النبي ﷺ في حديث حذيفة المتقدم - عن مداخلة الدخن للخير الذي يكون بعد الشر لما ذكر الفتن .. وفسره بقوله (قوم يهدون بغير هديي ويستنون بغير سنتي) فيجب أن يكون منهجنا في التغيير للانحرافات الواقعة في الأمة وإيجاد الفضيلة والخير في المجتمع سائرا على المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) [الأحزاب: ٢١] (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) [آل عمران: ٣١]. ولقد بدأ صلوات الله وسلامه عليه كغيره من الأنبياء قبله بإصلاح عقائد الناس أولا وجمعهم على عقيدة التوحيد؛ كما ربى أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين على وحدة مصدر التلقي وعلى أن كل قول غير قول الله وقوله رسوله ﷺ فإنه هو قول قابل للخطأ والصواب فلا ينظر إليه باعتبار قائله (اعرف الحق تعرف أهله، فإنما الحق لا يعرف بالرجال). فإذا بدأ المحتسب أو (الداعي) بعكس ما بدأ به رسول الله ﷺ كما لو بدأ بالجهاد أو إقامة الدولة مثلا فإنه لا يفلح في دعوته، وهذا ولا شك من ذلك الدخن الذي أخبرنا عنه ﷺ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: (ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي على الصراط المستقيم، والصراط المستقيم أقرب الطرق. وهو الموصل إلى حصول القصد).اهـ.

فكل دعوة إلى الإصلاح وكل أمر بمعروف أو نهي عن منكر لا ينتهجان ذلك المنهج السوي فلهما من المفارقة لمنهج رسول الله ﷺ والذي هو منهج أهل السنة والجماعة بقدر المخالفة له، فإن منهج أهل السنة وطريقهم لا يقتصر على مسائل الصفات فقط، أو قضايا العلم والاعتقاد، بل ذلك يكون في تلك

القضايا وغيرها من الأمور العملية وإنما كثر التدوين في مسائل الصفات خاصة ومسائل الاعتقاد عامة لكثرة المخالفين فيها أولا ثم لخطورة الخلاف في تلك المسائل ثانيا، ونحن ندعو كل مسلم إلى التمسك بذلك المنهج فهو طريق الخلاص من هذا الواقع المرير.

الخامس: العلم: تبين لك فيما سبق أنه لابد من بلوغ المطالبة بالتكليف إلى المكلف في العمل المعين وإلا فإنه لا يؤاخذ على تركه، وهذا ظاهر وهو الذي مر معك عند الكلام في شرطية العلم بالتكليف وأنه من شروط الوجوب، لكن العلم الذي نريد الحديث عنه هو العلم بما يأمر والعلم بما ينهى.

فلابد للآمر أن يعلم أن ما يأمر به هو من المعروف، كما لابد للناهي أن يعلم أن ما نهى عنه يعد من المنكر فلابد إذا أن يكون فقيها فيما يأمر به، فقيها فيما ينهى عنه، فحاله كحال الطبيب لا يمكنه العلاج حتى يفهم المرض والدواء معا.

قال الله تعالى: (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) [يوسف: ١٠٨] فدلت الآية على لزوم البصيرة وهي الدليل الواضح.

قال الإمام ابن القيم مفتاح دار السعادة (١/ ١٥٤): وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه بل لابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد أقصى ما يصل إليه السعي.

ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء).اهـ.

وإن مما يدخل في هذا العلم المطلوب: علم المحتسب بمواقع الحسبة وحدودها قال عمر بن عبد العزيز كما في الزهد لأحمد (ص: ٣٦٦) (من عمل

على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح).

وقال النووي في شرح مسلم (١/ ٢/ ٢٣): إنما يأمر وينهى من كان عالما بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه، ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء.اهـ.

بل لا يكون عمل المحتسب أو الداعي صالحا ما لم يكن بعلم وفقه كما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ .. لأن القصد والعمل إن لم يكن بعلم كان جهلا وضلالا واتباعا للهوى وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الإسلام، فلابد إذا من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما، كما لابد من العلم بحال المأمور وحال المنهي.

ولا تفهم مما سبق أن المطلوب منك عند قيامك بمهمة الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تكون عالما فقيها!! بل يكفي في ذلك أن تعلم أن هذا من المنكر فتنكره أو من المعروف فتأمر به وتدعو الناس إليه.

أما إذا اقتحم الجهال الدعوة، وترأسوا فيها، وأخذوا بالأمر والنهي بلا علم في ذلك كله، فإنهم يفسدون في هذه الحال أكثر مما يصلحون كما تقدم؛ فقد يأمر أحدهم بالمنكر وينهى عن المعروف جهلا منه، قال تعالى: (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب) [النحل: ١١٦].

وإن من أمارات الساعة ومن أسباب تعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رفع العلم كما قال ﷺ: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤسا

جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣). من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ....

هذا وقد يحمل الإقدام على الإنكار بغير علم ذوي النفوذ على الوقوف في وجه الحسبة وتعطيلها قال عبد الصمد بن المهتدي كما في نزهة الفضلاء (٢/ ٧٤٨): لما دخل المأمون بغداد، نادى بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأن الشيوخ بقوا يضربون ويحبسون، فنهاهم المأمون وقال: قد اجتمع الناس على إمام، فمر أبو نعيم، فرأى جنديا وقد أدخل يديه بين فخذي امرأة، فنهاه بعنف، فحمله إلى الوالي، فحمله الوالي إلى المأمون. قال: فأدخلت عليه بكرة وهو يسبح، فقال توضأ. فتوضأت ثلاثا ثلاثا على ما رواه عبد خير، عن علي، فصليت ركعتين، فقال: ما تقول في رجل مات عن أبوين؟ فقلت: للأم الثالث، وما بقى للأب، قال فإن خلف أبويه وأخاه؟ قلت: المسألة بحالها، وسقط الأخ، قال: فإن خلف أبوين وأخوين؟ قلت: للأم السدس وما بقى للأب. قال: في قول الناس كلهم؟ قلت: لا، إن جدك ابن عباس يا أمير المؤمنين ما حجب الأم عن الثلث إلا بثلاثة إخوة. فقال: يا هذا، من نهى مثلك عن الأمر بالمعروف؟! إنما نهينا أقواما يجعلون المعروف منكرا. ثم خرجت.

السادس القدرة: يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) [البقرة: ٢٨٦] فمن كان بوسعه القيام بالأمر والنهي لزمه ذلك ومن لا فلا.

هذا واعلم أن الناس يتفاوتون في القدرة تفاوتا كبيرا فالسلطان أقدر من غيره على القيام بذلك كما أن المتطوع أقل اقتدارا في الغالب من المنصوب للاحتساب وهكذا.

وكلما كان الإنسان أقدر كلما كان تعين ذلك عليه آكد.

فإذا كان يعجز عن القيام به بيده تعين اللسان، فإن عجز عنه تعين القلب، وقد بينا أن الإنكار بالقلب لا يسقط عنه بحال من الأحوال، كما بينا أن العجز يكون حسيا ويكون ملحقا به كخوف لحوق الأذى.

لكن لو تمكن المرء من الإنكار على الضعفاء دون الأقوياء فهل يلزمه الإنكار على من قدر عليهم؟! الجواب: نعم يلزمه ذلك. لقول الله تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم) [التغابن: ١٦] وهذا عمل بما يستطيع والله تعالى لا يكلفه ما لا يطيق (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) [البقرة: ٢٨٦].

وفي القاعدة الثامنة من قواعد ابن رجب (ص: ١٠ - ١١): من قدر على بعض العبادة وعجز عن باقيها هل يلزمه الإتيان بما قدر عليه منها أم لا)؟.اهـ.

وهذا فيه تفصيل يهمنا منه لزوم بعض العبادات التي تقبل ذلك كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلو رأى منكرين أحدهما كبير والآخر صغير وقدر على إنكار الصغير منهما دون الكبير فإن إنكار الصغيرة لا يسقط عنه.

قال الخلال هنا (باب الرجل يرى المنكر الغليظ فلا يقدر أن ينهى عنه ويرى منكرا صغيرا يقدر أن ينهي عنه كيف العمل فيهما)؟ أخبرنا سليمان بن الأشعث قال: سئل أبو عبد الله عن رجل له جار يعمل بالمنكر لا يقوى على أن ينكر عليه، وضعيف يعمل بالمنكر أيضا، ويقوى على هذا الضعيف أينكر عليه؟ قال: نعم ينكر على هذا الذي يقوى أن ينكر عليه.

المطلب الثاني: ذكر الشروط غير المعتبرة

١ - العدالة: ذهب قوم إلى اشتراط العدالة مستدلين بما يأتي:

١ - قوله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف

وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) [آل عمران: ١٠٤] قالوا: فالفاسق ليس من المفلحين، فيجب أن يكون الآمر الناهي غير فاسق.

٢- وقوله تعالى: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) [البقرة: ٤٤] فأنكر عليهم أمرهم بالشيء وواقعهم يخالفه. ولذا قال بعض الأنبياء لأقوامهم: (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) [هود: ٨٨] وقال تعالى: (لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) [الصف: ٣ - ٤].

واستدلوا بقوله ﷺ عند البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩) (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه) قالوا: فهذا كان معاقب لكونه يأمر وينهى ولا يأتمر وينتهي بنفسه.

والجواب عما استدلوا به هو

يمكن أن يجاب عن الآية الأولى بأن الفلاح المذكور حاصل حتى للفاسق فإنه لا يكون مخلدا في النار، أو يقال: بأن هذا ورد على سبيل التغليب، لأن الغالب أن لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من أصلح أحوال نفسه، فالعاقل يقدم ما يصلحها على ما يصلح غيره في الآجل.

وأما الجواب عن النصوص التي تضمنت الإنكار والوعيد لمن يأمر ولا يمتثل فيقال: قد اجتمع في هذا الموضع على المكلف واجبان:

الأول: الامتثال لأمر الله تعالى.

الثاني: حث الناس على ذلك وأمرهم به وتحذيرهم ونهيهم عما خالفه.

فإذا قصر في أحد هذين فإن ذلك لا يعني سقوط الآخر عنه فإن ترك الأمر والنهي بقي عليه الامتثال وإن ترك الامتثال بنفسه بقي عليه الأمر والنهي.

هذا وقد وقع الذم في تلك النصوص والوعيد على ارتكاب ما نهى عنه الناهي عن المنكر، ولم يقع الذم على نفس النهي عن المنكر، بل هذا يحمد ولا يذم فهو طاعة لله ﷻ وقربة، ولا شك أن وقوع المنكر ممن ينهى عنه أقبح من وقوعه ممن لا يعلم أنه منكر أو علم ولم يدع إلى تركه. وهذا لا يعني إعفاءه من الأمر والنهي كما تقدم.

وبهذا تعلم أن التوبيخ إنما وقع على نسيانهم لأنفسهم من المعروف الذي أمروا به، وليس التوبيخ على أمرهم ونهيهم.

فالتحقيق أن هذا الوعيد الشديد، ليس على الأمر بالمعروف. وإنما هو على ارتكابه المنكر عالمًا بذلك، ينصح الناس عنه، فالحق أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير ساقط عن صالح، ولا طالح، والوعيد على المعصية، لا على الأمر بالمعروف، لأنه في حد ذاته ليس فيه إلا الخير.

وقد سئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: ما الحكم في الناصح عمومًا والمدرس خصوصًا الذي يحث طلابه على شيء من الطاعات لا يفعله، كالسنن الرواتب، وينهى طلابه عن شيء يفعله من المعاصي، وهل يدخل هذا ضمن الحديث الذي ورد في ذلك؟ أفيدونا وفقكم الله.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. الواجب على العبد أن يصلح نفسه أولًا، ثم يسعى في إصلاح غيره، فهنا واجبان: واجب للنفس وواجب للغير. فالعاقل يبدأ أولًا بنفسه ثم يحاول إصلاح غيره، وقد أنكر الله ﷻ على

من يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم فقال تعالى: أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ [البقرة:٤٤] ولكن مع ذلك فالواجب على هذا الإنسان أن يأمر بالمعروف وإن كان لا يفعله، وكذلك يجب عليه أن ينهى عن المنكر وإن كان يفعله، لأنه لو ترك الأمر بالمعروف وهو لا يفعله أضاع واجبين، ولو ترك النهي عن المنكر وهو يفعله أضاع واجبين أيضًا، فإذا أضاع أحد الواجبين وجب عليه الثاني، ولو أن الإنسان لا يأمر إلا بما يفعل ولا ينهى إلا عما ترك لسقط كثير من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأضرب لهذا مثلًا برجل ينهى عن الغيبة، والغيبة هي: ذكرك أخاك بما يكره، لكن هو يغتاب الناس، هل نقول: لا تنه عن الغيبة لأنك تغتاب الناس؟ لو قلنا بهذا لكان أكثر الناس لا ينهون عن الغيبة، من الذي يسلم من الغيبة إلا من شاء الله؟ لهذا نقول: مُر بالمعروف وإن كنت لا تفعله، لكن ذلك سوف يكون حجة عليك يوم القيامة، وانهَ عن المنكر وإن كنت تفعله، ولكن هذا سيكون حجة عليك يوم القيامة.اهـ.

وقال ابن العربي في أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٢٦٦): وليس من شرطه أن يكون عدلا عند أهل السنة، وقالت المبتدعة: لا يغير المنكر إلا عدل. وهذا ساقط، فإن العدالة محصورة في قليل من الخلق، والنهي عن المنكر عام في جميع الناس).اهـ.

قال أيضا في نفس المصدر (١/ ٢٩٢): ومن المعلوم لديك أن شروط الطاعات لا تثبت إلا بالأدلة.اهـ.

وقال الجصاص في أحكام القرآن (٢/ ٣٢٠): لما ثبت وجوب فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبينا أنه فرض على الكفاية وجب أن يختلف في

لزوم فرضه البر والفاجر لأن ترك الإنسان لبعض الفروض لا يسقط عنه فروضا غيرها ألا ترى أن تركه للصلاة لا يسقط عنه فرض الصوم وسائر العبادات، فكذلك من لم يفعل سائر المعروف، ولم ينته عن سائر المناكير، فإن فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير ساقط عنه.اهـ.

وإن مما يبرهن على صحة ما ذكرنا أن العصمة من المعاصي ليست من شروط الاحتساب بالإجماع، فلو اشترط ذلك لتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جميع الأعصار، وسواء في ذلك عصر الصحابة أو من بعدهم، إذ لا أحد معصوم من المعاصي منهم بل حتى الأنبياء تقع منهم الصغائر على القول الراجح لكنهم لا يصرون عليها.

ومن أجل ذا قال الإمام مالك وسعيد بن جبير رحمهما الله كما في الجامع لابن أبي زيد (ص: ١٥٨): (لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر). وقال مالك: (ومن هذا الذي ليس فيه شيء؟).اهـ. وقال عمر بن عبد العزيز كما في سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز (ص: ٢٤٨): (لو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم أمر نفسه، ويكمل الذي خلق له من عبادة ربه، إذا لتواكل الناس الخير! وإذا لرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض).

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما في نزهة الفضلاء (١/ ١٥٩): (إني لآمركم بالأمر وما أفعله، ولكن لعل الله يأجرني فيه).

وقد نقل عن الحسن كما في تفسير القرطبي (١/ ٣٦٨) أنه قال لمطرف بن عبد الله: عظ أصحابك. فقال إني أخاف أن أقول ما لا أفعل. قال: يرحمك الله!

وأينا يفعل ما يقول! ويود الشيطان أنه قد ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر.اهـ.

ولو قال قائل إن ذلك مختص بالكبائر! قيل له: هل للزاني أو شارب الخمر مثلا أن يغزو الكفار؟! فإن قالوا: لا. فقد خرقوا الإجماع فلا زال جنود المسلمين منذ عهد الصحابة مشتملة على بعض من يقترف الكبائر، وقصة أبي محجن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم القادسية مشهورة معلومة، ولم يمنعهم أحد لا النبي ﷺ ولا أحد من بعده عن الغزو.

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٨٦): بعد أن قرر عدم اشتراط العدالة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ولكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم، ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك).اهـ. ثم ذكر جملة من الآثار الدالة على ذلك.

ويمكن أن توصف حال مثل هذا بما نقل عن أبي عثمان الحيري أنه قال:

وغير تقى يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي والطبيب مريض

هذا واعلم أن القسمة رباعية فالناس أحد أربعة أشخاص تجاه المنكر:

فالأول: من لا يأتيه وينهى عنه وهذا أعلى الأقسام.

والثاني: من لا يأتيه ولا ينهى عنه.

والثالث: من يأتيه وينهى عنه.

والرابع: من يأتيه ولا ينهى عنه.

٢- الإذن من ولي الأمر: يذهب البعض إلى شرطية إذن السلطان أو نائبه للقائم بالاحتساب! وهذا باطل لا دليل عليه من كتاب ولا سنة! بل الدليل يرده

ويرفضه!! فكل مسلم يلزمه تغيير المنكر إذا رآه أو علم به وقدر على إزالته أو تغييره فلا يختص الأمر ولا النهي بأصحاب الولايات وحدهم دون من سواهم! وقد جرى عمل السلف على ما بينت ونقل عليه إمام الحرمين الإجماع وقال كما في شرح النووي على مسلم (١/ ٢/ ٢٣): فإن غير الولاة في الصدر الأول والعصر الذي يليه كانوا يأمرون الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر مع تقرير المسلمين إياهم وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ولاية والله أعلم.اهـ.

ومن المعلوم بداهة أن الحسبة كما تكون على عامة الناس فإنها تكون على الولاة أيضا فهل يقال بشرطية إذنهم من أجل القيام بالاحتساب عليهم؟!

والحاصل أن الاحتساب لا يشترط فيه إذن الإمام كما لا يشترط فيه إيجاده وإقراره فقد أمر به رب العالمين ودعا إليه رسول الله ﷺ، فهو من مهمات الدين ومن ميراث سيد المرسلين ﷺ، نعم لو نصب السلطان رجالا يقومون على الحسبة وتعاون معهم غيرهم كان ذلك أقوى وأمضى في سبيل إزالة كثير من المنكرات وأجدى في طريق الإصلاح لكنه ليس بشرط!! لكن أحسن أحوال الحسبة وأقواها هي الحسبة التي يلتقي فيها قوة السلطان وهيبته ودعمه مع جهود المخلصين الغيورين من رعيته فإن الله تعالى أنزل القرآن هدى وشفاء، وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس والله تبارك وتعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. والحاصل أن خير صنوف الحسبة ما اجتمع فيه معونة السلاطين والأمراء الأخيار الصادقين وجهود أهل الغيرة من رعاياهم.

وهذا التفصيل الذي ذكرت إنما هو من جهة القوة والتأثير لكن إذا فقد هذا المستوى الرفيع فليس ذلك يعني تخلي المسلمين عن القيام بهذا الواجب.

فلو فرض أن الولاة عطلوها وكادوا لها وحاربوها وتربصوا بها الدوائر وبأهلها وضيقوا عليهم سبيل معاشهم ومجالات تركهم فإنه يجب على الرعية أن يقوموا بها حسب استطاعتهم كل بحسبه، وإن غضب السلطان لذلك، فإن وجودها ليس مفتقرا إلى إذنه أو رضاه ومباركته! نعم لو قيل باشتراط إذن الولاة في بعض صور الاحتساب، التي لو كانت فردية بحتة لخشي من ظهور فتنة، فقد يكون لهذا الاشتراط وجه من الصحة، ولكل حالة لبوسها، وإنما نريد التقريب.

وقد سئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٨/ ٢٠٧): هل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالذات التغيير باليد حق للجميع، أم أنه حق مشروط لولي الأمر ومن يعينه ولي الأمر؟.

فأجاب: التغيير للجميع حسب استطاعته؛ لأن الرسول ﷺ يقول -كما في صحيح مسلم- (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) لكن التغيير باليد لا بد أن يكون عن قدرة لا يترتب عليه فساد أكبر وشر أكثر، فليغير باليد في بيته على أولاده، وعلى زوجته، وعلى خدمه، وهكذا الموظف في الهيئة المختصة المعطى له صلاحيات، يغير بيده حسب التعليمات التي لديه، وإلا فلا يغير شيئا بيده ليس له فيه صلاحية؛ لأنه إذا غير بيده فيما لا يدخل تحت صلاحيته يترتب عليه ما هو أكثر شرا، ويترتب بلاء كثير وشر عظيم بينه وبين الناس، وبينه وبين الدولة.

ولكن عليه أن يغير باللسان، كأن يقول (اتق الله يا فلان، هذا لا يجوز)، (هذا حرام عليك)، (هذا واجب عليك)، يبين له بالأدلة الشرعية باللسان، أما باليد فيكون في محل الاستطاعة، في بيته، أو فيمن تحت يده، أو فيمن أذن له فيه من جهة السلطان أن يأمر بالمعروف، كالهيئات التي يأمرها السلطان ويعطيها

الصلاحيات، يغيرون بقدر الصلاحيات التي أعطوها على الوجه الشرعي الذي شرعه الله لا يزيدون عليه، وهكذا أمير البلد يغير بيده حسب التعليمات التي لديه.اهـ.

٣- الذكورة: اعتبر بعض أهل العلم الذكورة من جملة شروط الحسبة المعتبرة كما حاول أصحاب هذا القول رد ما يدل على خلاف قولهم هذا الذي اختاروه مذهبا لهم، والحقيقة التي يعرفها من اطلع على كلام أصحاب هذا المذهب هي أن اشتراطهم الذكورة هنا متعلق بتولي ولاية الحسبة والانتصاب لذلك، فيؤديها المنتصب لها على وفق مفهومها الواسع، وكلامنا هنا ليس في ذلك خاصة وإنما حديثنا عن الحسبة هنا نريد به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مطلقا، والنساء شقائق الرجال من حيث التكليف والمطالبة والعبادة إلا ما علم اختصاصه بالرجال دونهن، ثم إن الآيات والأحاديث الواردة في الحث على القيام بهذا العمل أو التحذير من تركه لا تختص بالرجال دون النساء بل على المرأة أن تأمر نساءها كما تأمر إخوانها وأخواتها وأولادها وكذلك زوجها بالمعروف كما تأمر وتنهى النساء مثلها لكن تجتنب كل ما يؤدي إلى تقليل حشمتها أو التأثير عليها في جانب الديانة أو الشرف والعفة.

ومما ينص على دخولها مع الرجل في ذلك قوله تعالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) [التوبة: ٧١] قال ابن النحاس في تنبيه الغافلين (ص ٦): وفي ذكره تعالى المؤمنات هنا دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على النساء كوجوبه على الرجال حيث وجدت الاستطاعة.اهـ.

وحينما نقول بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على النساء،

ليس معنى ذلك أن تترك المرأة بيتها وأبناءها وزوجها لتقوم بتلك المهمة كما نشاهد في هذا العصر الذي كثر فيه خروج النساء جدا حتى أشبهن الرجال من جهة عدم الاستقرار في البيوت للاشتغال بالدعوة أو غيرها!! وقد رأينا في هذا العصر من يحرض النساء على الخروج للدعوة، والتغلغل في كل إدارة أو وظيفة يتمكن من الدخول فيها؛ بل ويطالب أن يوجد في صفوف النساء داعيات يشار إليهن بالبنان كما هو حاصل بين الرجال، وهذا أمر غريب فيما أحسب على هذا الدين، وعلى طبيعة المرأة وفطرتها، والحاصل أن اشتغال المرأة بذلك المطلب إنما هو بضوابط وحدود شرعية، لا أن تكون المرأة مستوية مع الرجال في خوض مجالات الدعوة، وإنما أثر ذلك الواقع ما ألفنه من كثرة الخروج وإدمانه سواء للدراسة أو الوظيفة أو التسوق أو الخروج إلى أماكن النزهة كل ذلك أفرز في مجتمعنا هجران كثير من النساء والفتيات دورهن في أوقات كثيرة من اليوم.

والمتأمل في حال المجتمعات الغربية وما تعيشه المرأة هناك وكذلك حال النساء في بعض المجتمعات الإسلامية يدرك أن إدمان هذا الخروج أمر يصفق له أعداء الإسلام ويفرحون به .. لأنهم بذلك يستطيعون الوصول إلى فريستهم بأقرب طريق وأيسر سبيل! فعلى المرأة أن تهتم بتربية أولادها وتقوم بحق زوجها. وإن كانت غير متزوجة فعليها أن تتعلم من الأمومة والقيام على شؤون المنزل ما يكفيها بعد الزواج لا كما نشاهد من كثرة النساء والفتيات اللاتي لا يعرفن شيئا من ذلك، وكذلك عليها أن تتعلم ما تدعو الحاجة إليه من أمور الطهارة والصلاة والصوم والحج .. إلخ كما عليها أن تعي جيدا تربية الأولاد وأساليبها الصحيحة الشرعية حتى تخرج الأجيال الصالحة فإن كان عندها فضل من جهد ووقت بعد القيام بذلك كله على الوجه المطلوب وكان لديها

علم ينفع المسلمين فيحبذ أن تعلم النساء والبنات هذا العلم الذي عرفته لأن الحاجة تدعو إلى ذلك (على أن يتم ذلك حسب الضوابط الشرعية). وإنما جاء هذا الاستطراد لكثرة الخلل في تلك الجوانب.

٤- الحرية: إن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليل وبرهان على غيرة المسلم على دينه وعقيدته، وحبه وإخلاصه لهما وإنه لا يتصور انتفاء المراتب الثلاث (اليد واللسان والقلب) مجتمعة، من رجل في قلبه إيمان حي -كما تقدم- وهذا أمر يشترك فيه الحر والعبد فالعبد مكلف بأعمال القلوب كلها كالحر تماما سواء بسواء، لا فرق بينهما في ذلك البتة كالحب والبغض والإنكار بالقلب ونحو ذلك من الأمور القلبية .. كما أنه مكلف أيضا بأعمال البدن كالحر أيضا إلا ما دل الدليل على إخراج الرقيق من المطالبة به.

هذا مع كونه لم يرد دليل على تقييد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالأحرار دون الأرقاء. بل واقع الأمر على خلاف ذلك .. فإن ظاهر الآيات والأحاديث يدل على دخول الأرقاء في ذلك كقوله تعالى: والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر [التوبة: ٧١] وهذا يشمل الجميع كما هو ظاهر، لكن إن أريد بالحسبة تلك الولاية المعروفة فإن اشتراط الحرية في محله وليس كلامنا في ذلك، وإنما ذكرت هذا الشرط والذي قبله هنا لأن الكثير من أهل العلم الذين تكلموا عن الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتحدثون عنها -أي الحسبة- على أنها تلك الولاية العامة الشاملة لكثير من الجهات الحيوية في حياة الناس وأمور معاشهم فأردت التوضيح هنا لئلا يلتبس على من قرأ شيئا من ذلك لمن ذكر مثل هذه الشروط.

مسألة: الآداب المتعين توفرها في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

المطلب الأول: الرفق: لابد أن يكون المحتسب رفيقا في احتسابه ما أمكنه ذلك، لأن هذه الصفة الطيبة -أعني الرفق- هي من الصفات المحببة إلى الخلق كما يحبها الخالق جل وعلا، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف) رواه مسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها، كما قال ﷺ (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه رواه مسلم (٢٥٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وعن جرير رضي الله عنه مرفوعا: (من يحرم الرفق يحرم الخير كله) مسلم (٢٥٩٢). ثم إن هذه الصفة محببة إلى الخلق، لأن الإنسان بطبعه وفطرته يحب الإحسان ويكره الإساءة وهو يقبل من طريق الرفق ما لا يقبل من طريق العنف والشدة، بل إن الإنسان غالبا إذا أمر بعنف فإنه تأخذه العزة بالإثم فيأنف ويصر على خطئه عنادا وهو بطبعه نفور من أهل الفظاظة والغلظة ومصداق ذلك قوله تعالى: (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) [آل عمران: ١٥٩] ولذا أرشده إلى المدخل إلى نفوسهم وقلوبهم وهو ضد ذلك الوصف الرديء فقال (فاعف عنهم) وهذا لا شك إذا كان المقام يحتمل ذلك ثم أعقب ذلك بقوله: (واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) [آل عمران: ١٥٩] فاتصاف الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر بالشفقة والرحمة والخوف على مصلحة المأمور أمر ضروري لقبول دعوته.

وهكذا كان حال النبي ﷺ، قال تعالى ممتنا ببعثته: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) [التوبة: ١٢٨] بل كان -صلوات الله وسلامه عليه- يشتد عليه إعراض قومه، ويتألم

لذلك، ولهذا قال تعالى له مهونا عليه: (ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون) [النحل: ١٢٧]. وقال: (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) [الكهف: ٦] وقال (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا) [آل عمران: ١٧٦] وقال (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) [المائدة: ٤١]. وقال (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك) [الأنعام: ٣٣] وقال (ولا يحزنك قولهم) [يونس: ٦٥] وقال (ومن كفر فلا يحزنك كفره) [لقمان: ٢٣]. هذا وإن الاحتساب المثمر هو الذي يجعل المحتسب عليه ينقاد لما يطلب منه من فعل أو ترك فإن رافق ذلك وصاحبه الاقتناع بما طلب منه كان ذلك أكمل وأفضل حتى يكون له وازع من نفسه وقلبه بضرورة فعل هذا الأمر أو تركه.

قيل للإمام مالك كما في الجامع للقيرواني (ص: ١٥٦): الرجل يعمل أعمالا سيئة، يأمره الرجل بالمعروف وهو يظن أنه لا يطيعه، وهو ممن لا يخافه كالجار والأخ؟! فقال: ما بذلك بأس. ومن الناس من يرفق به فيطيع؛ قال الله ﷻ: (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) [طه: ٤٤].اهـ.

وقال الثوري كما في الجرح والتعديل (١/ ١٢٤): أؤمر بالمعروف في رفق، فإن قبل منك حمدت الله ﷻ وإلا أقبلت على نفسك).اهـ.

وقال الإمام أحمد هنا في أصل الكتاب: والناس يحتاجون إلى مداراة ورفق في الأمر بالمعروف بلا غلظة، إلا رجلا مباينا معلنا بالفسق فيجب عليك نهيه وإعلانه لأنه يقال: ليس لفاسق حرمة، فهذا لا حرمة له.اهـ. وقال أيضا في نفس المصدر السابق: كان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون يقولون: مهلا رحمكم الله.اهـ.

وقال أيضا في نفس المصدر السابق: ما أغضبت رجلا فقبل منك.اهـ. كما سئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر السابق (رقم٤٦): عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كيف ينبغي أن يأمر؟ قال: يأمر بالرفق والخضوع. ثم قال: إن أسمعوه ما يكره لا يغضب فيكون يريد ينتصر لنفسه.اهـ.

فلا يجوز أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بطيش وتخرق، وقد أنكر الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على من جانب هذا الوصف فلم يكتف بالدخول على أهل المنكر من أبوابهم -مع إمكان ذلك- وإنما عمد إلى تسلق الأسوار!! نقل ذلك الخلال هنا من طريق أبي عبد الله بن الربيع الصوفي قال: دخلت على سفيان بالبصرة فقلت: يا أبا عبد الله! إني أكون مع هؤلاء المحتسبة فندخل على هؤلاء الخبيثين ونتسلق الحيطان. قال: أليس لهم أبواب؟ قلت: بلى ولكن ندخل عليهم لكيلا يفروا. فأنكر ذلك إنكارا شديدا وعاب فعالنا فقال رجل: من أدخل ذا؟ قلت: إنما دخلت إلى الطبيب لأخبره بدائي.

فانتفض سفيان وقال: إنما أهلكنا أنا نحن سقمى ونسمى أطباء! ثم قال: لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى.اهـ. وإن من الرفق أيضا ترك التشهير بالمنصوح إلا إن اقتضى الحال والمصلحة ذلك والله المستعان.

المطلب الثاني: البدء بالنفس

قدمنا لك فيما سبق أن العدالة ليست بشرط للقيام بهذا العمل وإلا حكمنا بإبطال مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد قيل:

إذا لم يعظ الناس من هو مذنب   فمن يعظ الناس بعد محمد

وليس معنى عدم اشتراط العدالة من أجل القيام بتلك المهمة أن لا يلام من فرط فيها فارتكب محارم الله!! بل القبح للذنب في حقه أعظم وأشد من غيره. ولذا كانت عقوبته في الآخرة من نوع خاص في جهنم! إنه يدور في أمعائه كما يدور الحمار في الرحى كما جاء ذلك صريحا في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه مرفوعا: يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان: ما شأنك؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه) رواه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

ومن لطيف المناسبة هنا أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وهو غير ممتثل لما يأمر به ولا تارك لما ينهى عنه قد وقع تشبيهه في هذا الحديث بالحمار! كما أن الله عز وجل شبه حال المعرضين عن الأمر والنهي والموعظة والتذكير بالحمار أيضا فقال: (كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) [المدثر: ٥٠ - ٥١] فما أسوأ الحالين وما أحرى المسلم بالابتعاد عنهما!!

قال السفاريني في لوامع الأنوار البهية (٢/ ٤٣):

ومن نهى عما له قد ارتكب فقد أتى مما به يقضي العجب

فلو بدا بنفسه فذادها عن غيها لكان قد أفادها

وقال أيضا: إنما يصح التأديب بالسوط من صحيح البدن، ثابت القلب، قوي الذراعين، فيؤلم ضربه فيردع، فأما من هو سقيم البدن لا قوة له، فماذا ينفع تأديبه بالضرب؟ والنفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به.اهـ.

وإنما كان التشنيع على هذا الصنف من الناس لكونهم عالمين بوجوب ما

تركوا، أو بتحريم ما اقترفوا ولا أدل على علمهم بذلك من أمرهم به أو نهيهم عنه!! وقد سبق أن قدمنا لك بعض النصوص الدالة على ذم هؤلاء كقوله تعالى: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) [البقرة: ٤٤]. وقوله: (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) [الصف: ٣] بعد أن وبخهم بقوله (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) [الصف: ٢]؟ فمن أجل ذلك كله قال شعيب عليه السلام لقومه: (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) [هود: ٨٨]. فإذا امتثل الآمر ما يأمر به، وانتهى عما ينهى عنه، قبل الناس دعوته وانشرحت صدورهم بسماع كلامه أما إن اختل ذلك فإنه يكون داعيا لهم بلسانه، رادا ومنفرا لهم بحاله، وقد تنبه لهذا المعنى عمر بن عبد العزيز رحمه الله كما في سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص: ١٢٧) فحينما ولي الخلافة وأراد أن يرد المظالم إلى أصحابها بدأ بنفسه وأهل بيته أولا فوقف على المنبر وقال: أما بعد: فإن هؤلاء أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها وما كان لهم أن يعطوناها، وإني قد رأيت ذلك ليس علي فيه دون الله محاسب، وإني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي، اقرأ يا مزاحم. فجعل يقرأ كتابا كتابا ثم يأخذه عمر وبيده الجلم فيقطعه حتى نودي بالظهر. اهـ.

وإن من خبر الناس وعرف حالهم علم أنهم ينظرون لمن يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر نظرة فاحصة تختلف عن نظرهم لغيره من سائر الناس فيرقبون حاله ومقاله وجميع تصرفاته كما يحصون عليه الكبير والقطمير بل وتضخم أخطاؤه في كثير من الأوقات، وإذا عثروا على خطأ له فالويل له ولمن كان على شاكلته!!

فتقصيره -عندهم- لا يقف عليه وحده بل يتعداه إلى كل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر! ثم يصير ذلك التقصير الذي شاهدوه عصا في أيديهم يقومون بإشهارها متى ما يحلو لهم ذلك!! فالحاصل أن المحتسب يلزمه أن يكون في موضع الأسوة والقدوة الحسنة لا أن يدعو الناس باللسان ويصرفهم بالعمل والسلوك! وما أحسن ما قيل:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقول الآخر:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو سقيم

وقال ثالث:

فإنك إذا ما تأت ما أنت آمر به تلف من إياه تأمر آتيا

وقال منصور الفقيه:

إن قوما يأمرونا بالذي لا يفعلونا
لمجانين وإن هم لم يكونوا يصرعونا

وقال أبو العتاهية:

وصفت التقى حتى كأنك ذو تقى وريح الخطايا من ثيابك تسطع

المطلب الثالث: المساواة بين القرابة وغيرهم

كما يجب على المرء أن يقوم نفسه ويزكيها فإن عليه أيضا أن يعنى عناية كبرى بقرابته ومن هم تحت ولايته وقد أرشد الله تعالى رسوله ﷺ لذلك فقال: (وأنذر عشيرتك الأقربين) [الشعراء: ٢١٤].

وهذا التوجه إنما هو نابع من إدراك المحتسب لحقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنه عملية إنقاذ وتخليص للأفراد والمجتمعات من الهلاك

والعذاب الأخروي، لكن حينما يخطئ المحتسب فهم هذه الحقيقة فإنه يجور في احتسابه ويحيد!! فيهمل قرابته، ويدع الاحتساب عليهم، لوجود دافع من الدوافع في النفس لذلك كالشفقة العمياء أو العاطفة الهوجاء!! مع أنه لو تبصر لأبصر أن عين الشفقة إنما تكون في الاحتساب عليهم لتخليصهم من العقوبة المتوعدة، والحق أن هذا السلوك المعوج ينبئ عن كون نية المحتسب مشوبة!! إذ الصدق مع الله تعالى ومع الناس يمنع من سلوك هذا المسلك الرديء المردى.

قال الخلال في كتاب الأمر بالمعروف والهي عن المنكر: (باب ما ينبغي للرجل أن يفعل ويعدل في أمره ونهيه في القريب والبعيد) أخبرنا أبو عبد الله المروزي قال: قلت لأبي عبد الله: فإن كان للرجل قرابة فيرى عندهم المنكر فيكره أن يغيره أو يقول لهم فيخرج إلى ما يغتم به من أهل بيته وهو لا يرى بدا، أو يرى المنكر في غيره فيكره أن يغير للذي في قرابته. قال: إن صحت نيتك لم تبال.اهـ.

ومن آفات هذا المسلك اعتراض الناس على المحتسب بحال قرابته وأهل بيته كما يعترضون عليه بحاله إن كان غير ممتثل كما تقدم وكم يصرف مثل هذا المحتسب من القلوب عن قبول الحق والعمل به!.

قال النووي في شرح مسلم (١/ ٢/ ٢٤): ولا يتاركه أيضا لصداقته ومودته ومداهنته .. فإن صداقته ومودته توجب له حرمة وحقا، ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها، وصديق الإنسان ومحبه هو من سعى في عمارة آخرته وإن أدى إلى نقص في دنياه، وعدوه من يسعى في ذهاب أو نقص آخرته، وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه، وإنما كان إبليس عدوا

لنا لهذا، وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها.اهـ.

هذا وقد يعرض الرجل عن كثير من الاحتساب على قرابته وأهل بيته غفلة عن ذلك واشتغالا بغيرهم وهذا هو الذائع الغالب! فتجد للمحتسب أو الداعي مع الناس مجاهدات وصبرا ومتابعة وبذلا للمال والوقت والجهد في سبيل إرشادهم إلى الحق والخير، وأهله وقرابته أحوج ما يكونون إلى التوجيه والتعليم والنصح!! وهذه غفلة يقع فيها الكثير مع إخلاصهم ونصحهم.

المطلب الرابع: البدء بالأهم وتقديمه على غيره

وأهمية التدرج في ذلك حسب ما تقتضيه المصلحة.

قال بعضهم: إن اللبيب إذا بدا من جسمه مرضان مختلفان داوى الأخطر.

فالبدء بالأهم فالمهم من القواعد والمبادئ التي تحكم القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهاد فيه بذل جهد ومشقة، فينبغي على المسلم أن يوجه هذا الجهد إلى إصلاح القضايا الأكثر أهمية، والجرح الأعظم اتساعا، وذلك بأن يبدأ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر بإصلاح أصول العقيدة، فيأمر بالتوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، وينهى عن الشرك والبدع والشعوذة، ثم يأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم بقية الفرائض وترك المحرمات، ثم أداء السنن وترك المكروهات.

والبدء بالدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله ﷻ هو منهج الرسل جميعا، كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل، الآية ٣٦، وقال سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء، الآية ٢٥، وقال ﷻ: {وَاسْأَلْ

مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} الزخرف، الآية ٤٥، وقد تكررت مقولة الأنبياء عليهم السلام {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} الأعراف، الآيات ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، وسورة هود، الآيات ٥٠، ٦١، ٨٤.

وقد سار خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ على نهج إخوانه المرسلين - عليهم السلام - فقد بدأ بما بدأ به أنبياء الله، وانطلق من حيث انطلقوا، إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (الأنعام، الآيتان ١٦١ – ١٦٢).

واستمر ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة، وهو يدعو الناس إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك، قبل أن يأمرهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج، وقبل أن ينهاهم عن الربا والزنا والسرقة وقتل النفوس بغير حق.

اللهم ما كان يأمر به قومه من معالي الأخلاق، كصلة الرحم، والصدق، والعفاف، وأداء الأمانة، وحسن الجوار ونحو ذلك، ولكن الأمر الأساسي، والمحور الأهم، إنما هو الدعوة إلى التوحيد، والتحذير من الشرك.

ولما بعث النبي ﷺ معاذا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوما أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم» أخرجه البخاري ومسلم.

قال الحافظ في الفتح (٣/ ٣٥٩): وأما قول الخطابي إن ذكر الصدقة أُخر

عن ذكر الصلاة لأنها إنما تجب على قوم دون قوم وأنها لا تكرر الصلاة فهو حسن، وتمامه أن يقال بدأ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف في الخطاب، لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن النفرة.اهـ.

لذا فإن المطلوب من الداعين إلى الله تعالى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، أن يوجهوا جهودهم ويولوا اهتمامهم بمنهج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام -في الدعوة إلى الله تعالى، فيدعوا الناس إلى التوحيد أولًا وقبل أي شيء وليكن شغلهم الشاغل هو تصحيح العقيدة، وتصفيتها من شوائب الشرك والبدع والمعاصي، ولا يعني من هذا الكلام إهمال الجوانب الأخرى بحال من الأحوال، ولكن ما أريد تقريره هو أن الاهتمام بأمور العقيدة يجب أن ينال الأولوية في الدعوة إلى الله ﷻ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم الأهم فالأهم.

فتقديم الأهم فالمهم شريعة نبوية، كانت جزءا من منهجه في الدعوة العملية وهي جزء من وصيته.

إن المطلوب من الغيورين على دينهم الداعين إلى الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يوجهوا جهودهم لما يكون أكثر جدوى في سد منافذ المنكر وأن يشتغلوا بالأهم، ويمنحوه النصيب الأكبر من اهتمامهم.

يقول العز بن عبد السلام في قواعد الأحكام (١/ ١٢٣ – ١٢٤) في بيان درجات الوسائل الموصلة للمصالح: "يختلف أجر وسائل الطاعات باختلاف فضائل المقاصد ومصالحها، فالوسيلة إلى المقاصد أفضل من سائر الوسائل، فالتوسل إلى معرفة الله تعالى ومعرفة ذاته وصفاته أفضل من التوسل إلى معرفة أحكامه، والتوسل إلى معرفة أحكامه أفضل من التوسل إلى معرفة آياته،

والتوسل بالسعي إلى الجهاد أفضل من التوسل بالسعي إلى الجماعات، والتوسل بالسعي إلى الجماعات في الصلوات المكتوبات. . . . وكلما قويت الوسيلة في الأداء إلى المصلحة كان أجرها أعظم من أجر ما نقص عنها، فتبليغ رسالات الله من أفضل الوسائل، لأدائه إلى جلب كل صلاح دعت إليه الرسل، وإلى درء كل فاسد زجرت عنه الرسل، والإنذار وسيلة إلى درء مفاسد الكفر والعصيان، والتبشير وسيلة إلى جلب مصالح الطاعة والإيمان، وكذلك الأمر بالمعروف وسيلة إلى تحصيل ذلك المعروف المأمور به رتبته في الفضل والثواب مبنية على رتبة مصلحة الفعل المأمور به في باب المصالح، فالأمر بالإيمان أفضل أنواع الأمر بالمعروف، وكذلك الأمر بالفرائض أفضل من الأمر بالنوافل، والأمر بإماطة الأذى عن الطريق من أدنى مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".اهـ.

ويبين أيضا في المصدر السابق (ص ١٢٨) درجات الوسائل المؤدية إلى المفاسد ". . . وهكذا تختلف رتب الوسائل باختلاف قوة أدائها إلى المفاسد. . . وكذا النهي عن المنكر وسيلة إلى دفع مفسدة ذلك المنكر المنهي عنه ورتبته في الفضل والثواب مبنية على رتبة درء مفسدة الفعل المنهي عنه في باب المفاسد، ثم تترتب رتبه على رتب المفاسد إلى أن تنتهي إلى أصغر الصغائر، فالنهي عن الكفر بالله أفضل من كل نهي في باب النهي عن المنكر ".

وقد ضرب الغزالي في الإحياء (٢/ ٣١٤) مثلا لمن يشتغل في الأمور الأقل أهمية ويترك الأمور الخطيرة فيقول: "فمن غصب فرسه ولجام فرسه، فاشتغل بطلب اللجام وترك الفرس، نفرت عنه الطباع، ويرى مسيئا ".

ومرة أخرى نريد التأكيد على أن الاهتمام بالكليات لا يعني إهمال

الجزئيات بحال من الأحوال، وكل ما نريد تقريره أن الأمور الأكثر أهمية، يجب أن تنال الأولوية في مجال أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن معرفة الأولويات ومنازل الأعمال وما يترتب عليها فعلا أو تركا أمر ضروري للمحتسب في أزمنة تفشي وظهور المنكرات، واضمحلال الديانة في قلوب الناس وواقعهم مثل هذا الزمان الذي نعيشه اليوم، ولقد دل على ثبوت هذا المبدأ وشرعيته الكتاب والسنة، وعليه جرى عمل سلف الأمة.

وقد قص الله تعالى علينا قصص الأنبياء وأخبارهم مع أقوامهم فكان كل واحد منهم يخاطب قومه من حين بعثته إليهم بقوله: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) [الأعراف: ٥٩]. ومن المعلوم أنهم معصومون في أمور البلاغ والتشريع فطرائقهم وهديهم ومنهجهم كل ذلك معصوم ومحفوظ من وقوع الخلل في حال تبيينه للناس وتبليغه لهم عن طريق هؤلاء الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن المعروف أنهم لم يكونوا يبدؤون دعوتهم لأقوامهم بالحديث عن تحريم السكر أو الزنا أو نحو ذلك من الأمور وإنما كانوا يقررون لهم التوحيد أولا ويجعلونه منطلقا لدعوتهم ثم ينتقلون معه إلى معالجة كبرى المشكلات التي يعايشها ذلك المجتمع الذي يبعثون فيه وبعد ذلك ينتقلون إلى ما دونها وهكذا.

فهذا هو سبيلهم من أولهم إلى خاتمهم ﷺ الذي أنزل عليه قوله تعالى: (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) [يوسف: ١٠٨] وأنزل عليه قول تعالى: (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) [الأنعام: ٩٠].

فقد كان هذا المنهج هو المنهج الذي سار عليه صلوات الله وسلامه عليه في دعوته روي البخاري (٤٩٩٣) بسنده عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت (إنما نزل أول ما

نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدا. ولو نزل لا تزنوا. لقالوا لا ندع الزنا أبدا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر [القمر: ٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده).

وأخرج ابن بطة في الإبانة الكبرى (ص: ٨١٥) بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) [الفتح: ٤]: إن الله بعث نبيه ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدق بها المؤمنون زادهم الصلاة، فلما صدقوا بها زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها زادهم الصيام، فلما صدقوا به زادهم الحج، فلما صدقوا به زادهم الجهاد، ثم أكمل لهم دينهم فقال تعالى: اليوم أكملت لكم دينكم [المائدة: ٣]. قال ابن عباس: وكان المشركون والمسلمون يحجون جميعا فلما نزلت (براءة) نفي المشركون عن البيت وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين، وكان ذلك في تمام النعمة، وكمال الدين فأنزل الله تعالى (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) [المائدة: ٣] إلى قوله (الإسلام دينا).اهـ.

وبهذا التدرج كان يوصي ﷺ رسله ويأمرهم إذا بعثهم للقيام بالدعوة كما أخرج البخاري (١٤٩٦) بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله تعالى قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله تعالى قد فرض عليهم صدقة

تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم) الحديث.

هذا وقد تمثل هذا المنهج في الدعوة الأئمة من بعده ﷺ نقل ابن الجوزي في مناقب عمر بن عبد العزيز (ص: ١٢٧): أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه وهو في قائلته فأيقظه وقال: ما يؤمنك أن تؤتى في منامك، وقد رفعت إليك مظالم لم تقض حق الله فيها. قال: يا بني إن نفسي مطيتي، إن لم أرفق بها لم تبلغني؛ إني لو أتعبت نفسي وأعواني لم يك ذلك إلا قليلا حتى أسقط ويسقطوا؛ وإني لأحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي. إن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة لأنزله، ولكنه أنزله الآية والآيتين، حتى استكن الإيمان في قلوبهم. ثم قال: يا بني أما مما أنا فيه أمر هو أهم إلى من أهل بيتك، هم أهل العدة والعدد، وقبلهم ما قبلهم، فلئن جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره علي، ولكني انصف من الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجع له، فإن يرد الله تمام هذا الأمر أتمه.اهـ. فهذه حكمة بالغة لا يدركها حق إدراكها ويعمل بها كما يطلب إلا مجدد أو محتذ حذوه.

إن الفساد الذي ينخر في المجتمعات الإسلامية اليوم إنما هو حصيلة قرون متطاولة وقد عمل على تقريره وإذاعته وتعميق جذوره جبابرة ودهاقنة للفساد متتابعون! تباعدت أقطارهم واتحدت أهدافهم ومثل ذا لا يمكن أن يغير بيوم ولا سنة! وإنما يحتاج إلى مدة كافية تماما يروض فيها الناس على التوحيد والإيمان والصدق بعد أن سفت السوافي على هذه الأمور العظام، وكادت أن تأفل من عالم الواقع إن حالا كتلك لا يمكن أن تغير بجرة قلم كم يظن البعض فتجده يعمل جاهدا ومسخرا دعوته للوصول إلى ذلك القلم بأقرب طريق! إن هذا المسلك مغاير لمنهج الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في دعوتهم.

أخرج البيهقي البيهقي (٣/ ١٢٠) (٥٠٧٣) وغيره عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: (لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يوقف عنده منها كما تعلمون أنتم اليوم القرآن؛ ثم لقد رأيت اليوم رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه فينثره نثر الدقل.اهـ.

وأخرج ابن بطة في الإبانة الكبرى (رقم ١١٣٦) بسنده أيضا عن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كنا مع رسول الله ﷺ غلمانا حزاورة فنتعلم الإيمان قبل أن نتعلم القرآن فازددنا إيمانا.اهـ. فينبغي أن يبدأ بترسيخ الإيمان في النفوس أولا وتعليم الناس توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، وتصفية نفوسهم وواقعهم من الشرك ومظاهره ثم ينطلق الدعاة والمحتسبون إلى ما دونه من الأمور والتي تليه أهمية وهكذا، وهذا لا يعني أن تقتصر الدعوة في أول أمرها على التوحيد فحسب، بل يكون هو المنطلق والأساس والقاعدة التي يبني عليها الأمر بالتخلي عن سائر الانحرافات الأخرى، وهذا جلي فيما حكاه القرآن من دعوة الرسل، إذ كانوا يدعون إلى عبادة الله وحده مع كونهم ينكرون جرائم أخرى قد تفشت في أقوامهم كاللواط، ونقص المكيال والميزان، وقطع الطريق، وما إلى ذلك من الانحرافات المتنوعة، وإنما آفة هذه الحكمة التعجل الذي غالبا ما يكون ناتجا عن ضعف العلم والبصيرة، ولذا جاء في الحديث: (التأني من الله والعجلة من الشيطان)[1].

---

(١) روي عن عدة من الصحابة وضعفه بعض العلماء، وجوده ابن القيم في إعلام الموقعين (٣/ ٤٤٥)، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (١٧٩٥)، وكذا حسنه الشيخ مشهور =

وكما في الحديث الآخر: (التؤدة والاقتصاد والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة)[1].

ثم إن هذا المنهج كما يطبق في تغيير واقع المجتمعات فهو كذلك يطبق في دعوة الأفراد على حد سواء.

ولشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام نفيس جدا في هذا المقام حيث يقول في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٧ - ٦١): فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقدم أوكدهما، لم يكن الآخر في هذه الحال واجبا، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجبا في الحقيقة، وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرما في الحقيقة، وإن سمى ذلك ترك واجب وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر، ويقال في مثل هذا: ترك الواجب لعذر، وفعل المحرم للمصلحة الراجحة، أو للضرورة، أو لدفع ما هو أحرم، وهذا كما يقال لمن نام عن صلاة أو نسيها إنه صلاها في غير الوقت المطلق قضاء.

وهذا باب التعارض -باب واسع جدا لا سيما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة، وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة، فأما إذا

=

في تحقيق إعلام الموقعين (٣/ ٤٤٥).

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٠)، وعبد بن حميد في المسند (٥١٢)، والطبراني في الأوسط (١/ ٣٠٣، رقم ١٠١٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ٦٦) من حديث عبد الله بن سرجس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٤٤٦): إسناده جيد، وقال المناوي في تخريج أحاديث المصابيح (٤/ ٣٣٤): رجاله موثقون، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الترمذي.

كان المأمور والمنهي لا يتقيد بالممكن إما لجهله وإما لظلمه، ولا يمكن إزالة جهله وظلمه، فربما كان الأصلح الكف والإمساك عن أمره ونهيه كما قيل: إن من المسائل مسائل جوابها السكوت، كما سكت الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء والنهي عن أشياء حتى علا الإسلام وظهر. فالعالم في البيان والبلاغ كذلك قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التمكن، كما أخر الله سبحانه إنزال آيات وبيان أحكام إلى وقت تمكن رسول الله ﷺ تسليما إلى بيانها.

يبين حقيقة الحال هذه أن الله يقول: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا [الإسراء: ١٥]. والحجة على العباد إنما تقوم بشيئين: بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله، والقدرة على العمل به، فأما العاجز عن العلم كالمجنون أو العاجز عن العمل فلا أمر عليه ولا نهي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين أو حصل العجز عن بعضه كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالمجنون مثلا. وهذه أوقات الفترات، فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه لما جاء به الرسول شيئا فشيئا بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئا فشيئا، ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأت الشريعة جملة كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بالمستطاع، كذلك المجدد لدينه، والمحيي لسنته، لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها؛ وكذلك التائب من الذنوب، والمتعلم، والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجبا عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجبا لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداء، بل يعفو عن

الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان كما عفى الرسول عما عفى عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات، لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل، وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط، فتدبر هذا الأصل فإنه نافع.

ومن هنا يتبين سقوط كثير من الأشياء وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مسقط للأمر والنهي، وإن كان واجبا في الأصل.اهـ.

فإذا كان الشخص أو الطائفة جامعين بين منكر كبير ومنكرات دونه أنكرنا أولا المنكر الأكبر كأمور الاعتقاد، لأنها تقدم على ما دونها من الانحرافات .. لكن إن أمكن إنكار المنكر الأقل دون الأكبر لعذر صحيح يتعلق بالمحتسب، أو كانت المصلحة في ذلك عائدة على الحسبة نفسها أو المحتسب عليه فإنه ينكر الأدون في هذه الحالة؛ كالسلطان الذي يحكم القوانين ويلبس الذهب والحرير، أو يأكل الربا، أو يقامر، ولم يمكن للمحتسب أن ينكر عليه تحكيم القوانين خوفا على نفسه أو خوفا على دعوته فإنه إن أمكنه إنكار ما دون ذلك فعل؛ وكمن يسافر إلى بلد الكفار ويزني بالكافرات ويشرب الخمر هناك مع كونه قد حلق رأسه قزعا .. فلم يمكن إنكار السفر وفعل الفاحشة عليه لمصلحة تتعلق بالمسلمين، كإظهاره الشراب بين أظهرهم، وزناه في ديارهم ونسائهم!! فينكر حينئذ الأدون إن أمكن، وهكذا.

وقد يقدم المحتسب إنكار المنكر الأقل لمصلحة تقتضي ذلك في بعض الأحيان، كمن رأيته يريد الزنا أو شرب الخمر وأنت تعلم أن الرجل لا يزكي ماله، أو يتصف بمنكر هو أعظم من الزنا والشرب للمسكر دون الشرك بالله ..

ففي هذه الحال يقدم إنكار الزنا أو الشرب لإبعاده عنه قبل الوقوع فيه فالدفع أسهل من الرفع، ثم إن الطاعة أو المعصية تتعاظم باعتبارات عدة:

الأول: باعتبار الفاعل. فإذا كان الذي يقدم على المعصية ممن يقتدى به فإن هذا أخطر من إقدام الأغمار عليها. ولهذا كانت زلة العالم زلة العالم.

الثاني: باعتبار الزمان. فليس الذي يشرب المسكر في نهار رمضان كالذي يشربه في غيره وهكذا.

الثالث: باعتبار المكان. إذ المعصية أو الطاعة في الحرم أعظم منها خارجه.

الرابع: باعتبار ما يترتب على العمل من الآثار.

ولهذا كانت البدع أشد ضررا وخطرا من المعاصي الأخرى الواردة من باب الشهوات، وكذلك المعصية المتعدية أعظم من القاصرة على الفاعل.

ومن المعلوم أن المنكرات أقسام: فمنها ما يكون ظلما للناس، كالوقوع في أعراضهم، أو سفك دمائهم، أو نهب أموالهم ومنها ما يكون ظلما للنفس، كالشرب للخمر أو المخدر وغيرهما من المعاصي التي لا يتعدى ضررها على غير فاعلها. والقسم الثالث وهو ما كان يجمع بين هذا وذاك كمن يغتصب النساء، ويزني بهن، أو يأكل الربا وهذا النوع الأخير هو شر تلك الأنواع وأخطرها، ويليه الأول، وأقلها الثاني وأنت إذا تأملت النوع الأول منها رأيت أن فيه ظلما للنفس في حقيقة الأمر وباطنه؛ فإذا رأينا من يجمع بين بعض هذه الأنواع فينبغي أن نقدم الإنكار للأعظم.

هذا واعلم أن جنس فعل الواجبات أعظم وأعلى من جنس ترك المحرمات، فيكون الإنسان مستحقا للذم والإثم حال كونه تاركا واجبا من الواجبات أكثر من استحقاقه ذلك عندما يكون مرتكبا لشيء من المنهيات؛

ولهذا كانت عقوبة إبليس لما امتنع من الامتثال للأمر الطرد والإبعاد من رحمة الله بينما كانت عقوبة آدم عليه السلام لما كان ذنبه من قبل ارتكاب المحظورات الإخراج من الجنة وإهباطه إلى الأرض، وبهذا تعلم أنه إذا اجتمع في شخص ترك واجب وفعل محرم قدم الإنكار على ترك الواجب أولا هذا من حيث الجملة، وإن كان الحكم قد يختلف في بعض الصور والحالات، كما إذا كان ترك الواجب العين أقل جرما وإثما من ارتكاب المحرم المعين، كمن ترك الصلاة مع الجماعة وفي نفس الوقت هو مقدم على القتل أو ضرب أحد والديه فيقدم في هذه الحال إنكار ارتكاب المحرم لشناعته وعظمه، ومما ينبغي معرفته أيضا أن المنكرات الظاهرة تقدم في الإنكار على المنكرات المستترة، لأن العقوبة في الظاهر تعم ثم إنها تجرئ أصحاب المنكر وتغري غيرهم به بل تنقلهم إلى أعظم منه ثم إن هذا يكون سببا لظهور المنكر المستتر!! وهذا مشاهد في واقعنا فنحن نشاهد أن السفور يبدأ من ظهور العري في التلفاز والمجلات من ناحية ومن العبث بالحجاب، تارة برفع العباءة أو تقصيرها، أو ظهور ما يسمى بالنقاب الذي تخرج المرأة فيه عينيها ثم يتدرج الأمر حتى يصل إلى إظهار الوجه، ثم الساقين والذراعين وهكذا .. فحينما نسكت عن إنكار الانحراف الأول فإنه يزداد ويتعاظم وينتشر .. ومن أمثلة ذلك أن التدخين كان أمرا مستهجنا يعزر فاعله بالجلد أربعين سوطا في بعض الجهات وقد يهجر ثم تدرج الأمر حتى سكت الكثير عنه فصار أمرا مألوفا ثم وصل الأمر بالبعض إلى شرب الخمر ثم جاءت المخدرات فأنست الناس ذلك كله!!

المطلب الخامس: الصبر واحتمال الأذى

إن النصوص القرآنية والحديثية الواردة في موضوع الصبر لا يكاد يحصيها

العاد كثرة وقد أخبرنا القرآن عن لقمان بأنه أوصى ابنه بقوله: (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) [لقمان: ١٧] فأتبع حثه له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصبر؛ وما ذلك إلا لأن القيام بهذه المهمة يتطلب الكثير من المجاهدة ولحوق الأذى بالمحتسب، وهذا لا يثبت معه إلا من كان متحليا بالصبر.

فعلى المحتسب أن يصبر على ما أصابه، فإن الأذى هو الأصل في حقه! فليروض نفسه على تحمل ذلك في سبيل تبليغ الحق إلى قلوب الناس وإزالة المنكر من واقعهم، فإذا لم يروض المحتسب نفسه على ذلك منذ البداية فإنه ينقطع في أول الطريق أو وسطه! ولهذا نجد أن الله تعالى أمر رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر به، بل أمر به خاتمهم ﷺ في أول سورة أرسل فيها فقال: يا أيها المدثر - إلى قوله - ولربك فاصبر [المدثر: ١ - ٧] فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالإنذار، واختتمها بالأمر بالصبر؛ ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فعلم أنه يجب بعده الصبر.).

هذا ومن المقررات الأساسية، والمبادئ الأولية، أن أول ما يجب على المكلف العلم ثم العمل، ثم الدعوة إليه، ثم الصبر وتحمل الأذى في سبيل ذلك؛ ثم إن هذا القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يقوم بمهمة من مهام الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وقد صح عن النبي ﷺ من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (قلت يا رسول الله: أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى العبد على حسب دينه فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما

يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة)[١].

فكم من الأذى لاقاه الأنبياء وأتباعهم فصبروا قال تعالى: (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) [آل عمران: ١٤٦] وقال أيضا (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين) [الأنعام: ٣٤]. وقال موجها لنبيه ﷺ (واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون) [النحل: ١٢٧] وكلما ازداد البلاء ازداد المؤمن يقينا وثباتا، بخلاف المنافق، لأن المؤمن قد هيأ نفسه للابتلاء منذ أول خطوة في الطريق ثم إنه موقن بحسن العاقبة مع الصبر ولذا لما اجتمع الأحزاب حول المدينة، ونجم نفاق المنافقين، وظهرت خيانة اليهود من الداخل بنقض العهد لما كان ذلك قال المؤمنين: (هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) [الأحزاب: ٢٢] قالوا هذه المقالة مع كون ظواهر

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجة (٤٠٢٣)، والدارمي (٢/ ٣٢٠)، والطحاوي (٣/ ٦١)، والحاكم (١/ ٤١،٤٠)، والضياء في المختارة (١/ ٣٤٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٦٨)، وبحشل في تاريخ واسط (ص٢٨٣)، والخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ٣٧٨ - ٣٧٩)، والبيهقي (٣/ ٣٧٢ - ٣٧٣)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٢٤٤) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان، والحاكم، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٤٣)، وحسنه الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين، وصححه الحويني في النافلة تحت الحديث رقم (١٣٧)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٢/ ٢٢٧)، وحسنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣/ ٧٨) بقوله: إسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وقال العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٧): صحيح لغيره، وحسن إسناده الشيخ مشهور في طبعته (٦/ ٥٥٣).

الأمور في غير صالحهم، سواء من جهة كثرة العدو أو شدة العيش والبرد في ذلك الوقت الذي وقعت فيه تلك الواقعة. وإنما كانوا يعنون بذلك أن الله تبارك وتعالى قد وعدهم بالابتلاء وأخبرهم بوقوعه بقوله: (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) [آل عمران: ١٨٦] وبقوله أيضا: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) [البقرة: ٢١٤] وبقوله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) [آل عمران: ١٤٢]. وغير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى فكانت النتيجة رسوخ إيمان المؤمنين وثبات نفوسهم ولذا عقب تلك الآية بقوله في وصف حالهم: (زادهم إلا إيمانا وتسليما) [الأحزاب: ٢٢].

وهذا بخلاف حال المنافقين الذين قالوا لما رأوا ذلك: (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) [الأحزاب: ١٢] وقال بعضهم (يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا) [الأحزاب: ١٣ - ١٤].

وهذه سنة جارية لا تتبدل ولا تتغير على مر الزمان قال مالك كما في الجامع للقيرواني (ص١٥٥): ضرب محمد بن المنكدر وأصحاب له في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.اهـ.

وأنكر الإمام عماد الدين الجماعيلي المقدسي كما في نزهة الفضلاء (٣/

١٥٣٣) على فساق وكسر ما معهم، فضربوه حتى غشي عليه.اهـ.

وقد كان أهل العلم يوصون به غيرهم فكان من وصية عمير بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ لبنيه كما في الزهد لأحمد (ص: ٣٢): إذا أراد أحدكم أن يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر فليوطن نفسه على الأذى، وليوقن بالثواب من الله، فإنه من يثق بالثواب من الله لا يجد مس الأذى.اهـ.

وسئل الإمام أحمد كما في مسائل أبي داود (ص ٢٧٨) مثل زماننا ترجو أن لا يلزم الرجل القيام بالأمر والنهي؟ قال: إذا خاف أن ينال منه. قلت -السائل- فالصلاة تراهم لا يحسنون؟. قال: مثل هذا تأمرهم. قلت -السائل- يشتم. قال: يتحمل؛ من يريد أن يأمر وينهى لا يريد أن ينتصر بعد ذلك.اهـ.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم في فتاواه (٦/ ١٩١): ويكون مع أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصيرة وثبات على الحق، ويعلم أنه سيصيبه شيء، وإذا لم يعلم ذلك زاد البلاء فيما بعد، فإن المنكرات ما تفشت إلا بسبب أن أول شيء يوجد يتساهل به، فيكون الأول قد نسى وصار كعادة وصعب إزالته وتأتي الأمور الأخرى وهكذا ...اهـ.

المطلب السادس: الحلم: الحلم والصبر وصفان متلازمان وحد الحلم

(ضبط النفس عند هيجان الغضب) كما في أدب الدنيا والدين (ص: ٢١٥).

وقد أثنى الله على خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الوصف فقال: (إن إبراهيم لأواه حليم) [التوبة: ١١٤] كما أثنى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بعض أصحابه بذلك فقال لأشج عبد القيس: (إن فيك لخصلتين يحبهما الله عَزَّ وَجَلَّ الحلم والأناة) رواه مسلم (١٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والمحتسب هو أحوج ما يكون إلى التحلي بهذه الخصلة الكريمة، لأنه سيواجه من الناس ما يثيره كثيرا فإن كان غضوبا لا يحلم فإن البلاء سيكون أعظم في حقه!! والغالب أن لا يقبل الناس أمره ونهيه؛ بل قد يحركه الشيطان لينتقم لنفسه وينتصر لها! كما أنه يحرك صاحب المنكر أيضا لذلك! فينبغي للمحتسب أن ينزه نفسه عن ذلك كله.

وقد ثبت عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢). أنه قال: (كأني أنظر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) فأنت أيها المحتسب كيف يكون جوابك وتصرفك ومقالك إذا أمرت أحدا بشيء أو نهيته عن شيء فأجابك بما يفيد امتناعه عن إجابتك لما طلبته منه؟! ولم يزد على ذلك! كيف لو شتمك؟! بل كيف لو ضربك؟! إن الكثير من الناس لا يحتملون هذه الأحوال كلها فقد يقع بينهم وبين المحتسب عليه مشاتمة أو نحوها، ويكون ذلك أحيانا انتصارا للنفس!!.

والحاصل أنه يجب على المحتسب في مثل هذه المواقف أن يحلم فيكرر النصح والتذكير وإن رأى أن شكايته أو غير ذلك مما يدخل تحت قدرته وتصرفه أنفع فعليه فعله، لكن لا يكون شيء من ذلك انتصارا لنفسه.

هذا وقد يحمله الغضب على إنكار المنكر بمنكر أعظم كقتل المحتسب عليه -وهو لا يستحق ذلك- أو مهاجرته والمصلحة لا تقتضي الهجر أو غير ذلك مما قد يقع له بسبب الغضب.

عن يحيى بن مندة قال: سمعت عمي عبد الرحمن، سمعت محمد بن عبيد الله الطبراني يقول: قمت يوما في مجلس والدك رَحِمَهُ اللَّهُ فقلت: أيها الشيخ، فينا

جماعة ممن يدخل على هذا المشؤوم -أعني أبا نعيم الأشعري- فقال: أخرجوهم. فأخرجنا من المجلس فلانا وفلانا ثم قال: على الداخل عليهم حرج أن يدخل مجلسنا، أو يسمع منا، أو يروي عنا، فإن فعل فليس هو منا في حل.

قلت: ربما آل الأمر بالمعروف بصاحبه إلى الغضب والحدة، فيقع في الهجران المحرم، وربما أفضى إلى التكفير والسعي في الدم.

المطلب السابع: البدء بالأرفق

اعلم أن هذا المطلب مغاير للرفق الذي مضى، وهو مغاير أيضا لما تحدثنا عنه من البدء بالأهم وتقديمه على المهم في عملية الاحتساب وكذلك فإنه لا يراد به ما سنتحدث عنه إن شاء الله في درجات الإنكار ومراتبه.

وإنما نعني بذلك أنه إذا كان أمام المحتسب لإزالة المنكر أو الأمر بالمعروف طريقان أحدهما يحتاج إلى جهود وبلاء وعناء والآخر يحتاج إلى شيء أقل من ذلك فعليه أن يسلك الطريق الآخر إن كان يتحقق المطلوب به ولم يكن مشتملا على مخالفة للشرع؛ ويمكن توضيح هذا الأمر بذكر بعض الأمثلة التي تبينه فنقول: قال الله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) [الحجرات: ٩] فجعل الله ﷻ الإصلاح مقدما في ذلك، ثم شرع استعمال القوة إن لم يثمر الإصلاح المطلوب؛ وبهذا يكون قد ترقى من الأرفق إلى الأغلظ في إزالة المنكر.

ومثل ما سبق ما جاء في قوله تعالى: (فعظوهن واهجروهن في المضاجع

واضربوهن) [النساء: ٣٤] فأتي بالأمر على مراحل، وأحوال الناس تختلف في هذا فمنهم من يكفيه النظرة الدالة على الإنكار عليه ومنهم من يكفيه الإشاحة بالوجه ومنهم من تكفيه الموعظة ومنهم من يحتاج إلى الزجر والتعنيف ومنهم من لا يمتنع عن المنكر إلا بالحبس أو الضرب فمن كان يكفيه الإشاحة فلا حاجة لتعنيفه ولا لضربه وهكذا.

ثم عليك أن تعلم أن الدعوة إلى الله تكون بطريقين: طريق لين، وطريق قسوة؛ أما طريق اللين فهي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وإيضاح الأدلة في أحسن أسلوب وألطفه، فإن نجحت هذه الطريقة فبها ونعمت، وهو المطلوب، وإن لم تنجح تعين طريق القسوة بالسيف حتى يعبد الله وحده وتقام حدوده، وتمتثل أوامره وتجتنب نواهيه، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) [الحديد: ٢٥]. ففيه الإشارة إلى إعمال السيف بعد إقامة الحجة، فإن لم تنفع الكتب تعينت الكتائب، والله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وهذا إنما يكون لأهله وهم الولاة كما هو معلوم وليس ذلك لآحاد الناس لما سنبين لك إن شاء الله تعالى.

قال الإمام ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ١٥٣) عند قوله تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) [النحل: ١٢٥]: جعل الله سبحانه وتعالى مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة وهي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن.اهـ.

وهذا يتطلب من المحتسبين معرفة أحوال المحتسب عليهم ولا شك.

هذا واعلم أن الدفع بالأرفق والبدء به ليس على إطلاقه، قال الشيخ محمد بن إبراهيم في فتاوه (١٢/ ١٦٦) إذا صار الصائل على الحريم بفعل الفاحشة، ووجده على الفراش على المرأة، فإنه لو تكلم عليه ربما يهرب فوجده على هذه الحال هل يتكلم عليه حتى يهرب أو يقتله؟ المفهوم من السنة أن له قتله، ولا يصيح به ليهرب، بل يضربه في تلك الحالة، مع أن من فيه غيرة لا يمكن أن يصبر عن قتله وقصة سعد فيمن وجد رجلا مع امرأته وفيه سرور النبي ﷺ بسعد وغيرته وبين أنه أغير من سعد وأن الله أغير من النبي ﷺ.

ولكن قد علم وتقرر ما في القصة التي وقعت للرجل لما وجد رجلا بين فخذي امرأته فضربه فقتله فقال: (إنما ضربت بالسيف بين فخذيها ففتشوا فوجدوا فكان عذرا له؛ فيظهر من حديث هذا وحديث سعد أنها متى قامت البينة على هذه الحالة فليس بمضمون)[١].

مسألة: قال السفاريني في غذاء الألباب (١/ ٢٤٢): قال مثنى الأنباري: قلت لأبي عبد الله ما تقول إذا ضرب رجل رجلا بحضرتي أو شتمه فأرادني أن أشهد له عند السلطان؟ قال إن خاف أن يتعدى عليه لم يشهد، وإن لم يخف شهد.

(فائدة): قال في الآداب الكبرى: لعل كلام الإمام أحمد في الأمر يرفعه يعني مع إقامته للحد على الوجه المأمور به على الاستحباب، وإلا فقد قال الأصحاب: من عنده شهادة بحد يستحب أن لا يقيمها. ثم قال: لعل رفعه لإقامة الحد مباح، ورفعه لأجل إنكار المنكر واجب أو مستحب، والله سبحانه

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه لخالد بن عثمان السبت.

وتعالى أعلم.

ولأجل ما ذكرنا من اشتراط أمن الحيف قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا لم يخف في ذلك الأمر حيفه إذا كان ذا الإنكار حتم التأكد

(إذا) أي إنما يرفعه إلى نافذ الأمر حيث (لم يخف) الرافع علم ذلك إلى ولي الأمر (في ذلك الأمر) الذي رفعه إليه (حيفه) أي جوره وظلمه. والضمير راجع إلى ولي الأمر، فإن خاف جوره وظلمه بأن عاقبه أزيد مما يستحق أو أخذ منه مالا لم يرفعه. وقد نص سيدنا الإمام أحمد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في رواية الجماعة على أنه لا يرفعه إلى السلطان إن تعدى فيه، ذكره ابن عقيل وغيره. قال الخلال: أخبرني محمد بن أشرس، قال: مر بنا سكران فشتم ربه. فبعثنا إلى أبي عبد الله رسولا وكان مختفيا فقلنا أيش السبيل في هذا، سمعناه يشتم ربه، أترى أن نرفعه إلى السلطان؟ فبعث إلينا: إن أخذه السلطان أخاف أن لا يقيم عليه الذي ينبغي، ولكن أخيفوه حتى يكون منكم شبيها بالهارب، فأخفناه فهرب.

ولا بد لوجوب رفعه إلى ولي الأمر من شرط ثان ذكره بقوله (إذا كان ذا) أي هذا (الإنكار) الذي أنكره (حتم) أي واجب الإنكار مجزوم (التأكد) بأن كان حراما محضا أو ترك واجب بخلاف ما إذا كان المتروك مندوبا أو الفعل مكروها فإنه لا يرفع إلى ولي الأمر، وظاهر إطلاقهم لا فرق بين فرض العين والكفاية، فمتى وجبت عليه إزالته ولم تمكنه رفعه إلى ولي الأمر والله تعالى أعلم.اهـ.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (١٢/ ٣٤٤): هل شكوى الإمام للشخص الذي لا يحضر صلاة الجماعة واجبة أم يكفي نصحه فقط؟

فأجابوا: من يتخلف عن صلاة الجماعة، ولم تؤثر فيه النصيحة فإنه يجب

أن يبلغ عنه أهل الحسبة للأخذ على يده، ولا يترك؛ لأن النبي ﷺ هم أن يحرق بيوت المتخلفين عن الصلاة عليهم بالنار؛ عقوبة لهم وردعا لأمثالهم. ولما أوجب الله على المسلمين من التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر في قوله سبحانه: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} الآية من سورة التوبة.

وسئل علماء اللجنة الدائمة أيضا (١٢/ ٣٤٦): هل يبقى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبا ما لم ينته صاحب المنكر عنه، أم يكفي أن نبين له الحكم؟

فأجابوا: يستمر النصح لمرتكب المنكر حتى يظن أنه لا يجدي الاكتفاء به، فينتقل معه إلى عقوبته عليه، وذلك بالرفع إلى ولي الأمر، أو من يقوم مقامه في تأديب المنحرفين والعصاة.

وسئل علماء اللجنة الدائمة أيضا (١٢/ ٣٤٩): إذا كان رجل امتنع عن الصلاة والصوم، ونصح ورفض الصلاة والصوم، فهل يجب على من يعلم ذلك أنه يبلغ الحكومة، كهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا طمع أنهم سيلزمونه بذلك؟

فأجابوا: نعم يبلغ جهات الاختصاص بذلك لمعالجته من قبلها، وهذا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى.

(تنبيه): سئل العلامة الألباني كما في جامع تراث العلامة الألباني (٩/ ٣٥٢): هل يجوز دعوة قوم بتدرج معهم بالعمل ببعض عاداتهم ثم دعوتهم إلى السنة الصحيحة بعد ذلك؟

الشيخ: لا يكون صحيحا خير الهدى هدي محمد ﷺ رسول الله لم يدع

قومه إلى الإسلام بطريق إرضائهم لبعض العادات التي هم اعتادوها وإنما دعاهم إلى التوحيد مباشرة ومن الخطأ الفاحش جدا جدا أن يبدأ الداعية بالتوافه من الأمور، بل وبالمستحبات من الأمور بل وبالفرائض من الأمور وهو يعلم أن هؤلاء المدعوين هم أبعد ما يكون عن فهمهم لقوله تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فنحن نعتقد أو ندعي أن النبي ﷺ هو أسوتنا وهو قدوتنا في كل شيء فينبغي أن نقتدي به عليه الصلاة والسلام دعوة وأسلوبا في الدعوة ولا ينبغي أن نأتي نحن بأسلوب من عندنا لنرضي به الناس الذين حولنا مثلا الرسول ﷺ لم يدع في أول دعوته لم يدع لصالح الفقراء والمساكين الأغنياء بأن يعطوا من أموالهم للفقراء مع أنهم كانوا مستبدين بأموالهم ومبذرين فيها وكان هناك فقراء ومساكين فلم يهتم الرسول عليه السلام بجلب قلوب الناس والفقراء والمساكين وهم عادة هم الأكثرون لكي يجلب قلوب هؤلاء إليهم وإنما دعاهم جميعا فقراء وأغنياء أن يعبدوا الله ويجتنبوا الطاغوت فهذا الأسلوب الذي أنت أشرت إليه ونحوه هذا ليس من أسلوب الأنبياء والرسل نحن نعلم جميعا أن كل الرسل كانت أول كلمة تصدر منهم لأقوامهم (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) (أن يعبدوا الله ويجتنبوا الطاغوت) وهكذا.

لذلك فالشباب المسلم اليوم يدع طريقة الأنبياء والرسل في الدعوة ويخترع أسلوبا من عنده وهذا لا يليق بالداعية أبدا.

مسألة: الآداب المستحب توافرها في المحتسب

المطلب الأول: العمل على إيجاد البديل عن المنكر

إن الباطل يشغل حيزا كبيرا في نفوس أصحابه لاسيما إذا صاحب ذلك إلف المنكر واعتياده فإنه من الصعوبة بمكان على صاحبه أن يفارقه ويتخلص منه بل

إنه يشعر في بعض الأحيان أنه قد أصبح يمثل جزءا من كيانه لا يتصور الاستغناء عنه بحال من الأحوال وهذا مشاهد وملموس في واقع الكثير من الناس، إذا عرفت هذا تبين لك جليا مدى حاجة الناس إلى إيجاد بدائل تحل محل تلك المنكرات.

وأنت إذا تأملت سير التشريع الرباني رأيت أنه لم يهمل هذا الجانب بل اهتم به. فحينما حرم الله ﷻ أعياد الجاهلية أبدل المسلمين عنها بعيدين عظيمين كريمين. كما أباح لهم أضربا من اللهو المباح فيهما.

ومن هذا الباب في القرآن قول الله ﷻ: (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا) [البقرة: ١٠٤] ومما يدخل تحته أيضا قول الله تبارك وتعالى مخبرا عن قول لوط -عليه الصلاة والسلام- لقومه: أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦].

ومن السنة ما أخرجه الشيخان البخاري (٢٢٠١)، ومسلم (١٥٩٣) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ استعمل رجلا على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله ﷺ (أكل تمر خيبر هكذا؟ قال: لا والله يا رسول الله إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة، فقال رسول الله ﷺ لا تفعل، بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبا).

وقد أدرك أهل العلم أهمية هذا الجانب فظهر في بعض مقالاتهم وفتاواهم ومن ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٢٥) أن رجلا سأل ابن عباس فقال: يا ابن عباس، إني إنسان إنما معيشتي من صنعة يدي، وإني أصنع هذه

التصاوير فقال ابن عباس: لا أحدثك إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: (من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبدا، فربا الرجل ربوة شديدة واصفر وجهه. فقال: ويحك إن أبيت إلا أن تصنع، فعليك بهذا الشجر، كل شيء ليس فيه روح).

وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز -رحمهما الله- لأبيه: (يا أبت ما يمنعك أن تمضي لما تريده من العدل؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك، قال: يا بني! إني إنما أروض الناس رياضة الصعب، إني أريد أن أحيي الأمر من العدل فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعا من طمع الدنيا، فينفروا من هذه ويسكنوا لهذه) وقد خرجته في أصل الكتاب.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضا: (ما طاوعني الناس على ما أردت من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئا).

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١٣/ ١٤٣) في حوادث سنة اثنتين وثلاثين وستمائة: فيها خرب الملك الأشرف بن العادل خان الزنجاري الذي كان بالعقبية فيه خواطئ وخمور ومنكرات متعددة، فهدمه وأمر بعمارة جامع مكانه سمي جامع التوبة.اهـ.

ونقل الحافظ في الفتح الفتح (٨/ ٧١) عن المبرد أن موضع ذي الخلصة (وهو صنم دوس في الجاهلية) صار مسجدا جامعا لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم.اهـ.

وفي إنباء العمر (١/ ٢٧١) في حوادث سنة ثمانين وسبعمائة قال: الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفيها توجه شخص من أهل الصلاح يقال له: عبد الله الزيلعي إلى الجيزة، فبات بقرب أبو النمرس، فسمع حس الناقوس، فسأل عنه، فقيل له: إن

بها كنيسة يعمل فيها ذلك كل ليلة؛ حتى ليلة الجمعة، وفي يومها والخطيب يخطب على المنبر فسعى عند جمال الدين المحتسب في هدمها فقام في ذلك قياما تاما إلى أن هدمها وصيرها مسجدا.اهـ.

ومما يحسن ذكره من الوقائع في هذا الجانب أن دارا تقع على النيل في مصر يجري فيها ألوان المنكرات حتى عرفت بدار الفاسقين، فاشتراها الأمير عز الدين ايدمر الخطيري وهدمها وبني مكانها جامعا في سنة ٧٣٧هـ وسماه جامع التوبة الخطط للمقريزي (٢/ ٣١٢)، وإنباء الغمر (هامش) (٤/ ٤٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦١٦ - ٦١٧): .. إذا كان في البدعة من الخير فعوض عنه من الخير المشروع بحسب الإمكان، إذ النفوس لا تترك شيئا إلا بشيء، ولا ينبغي لأحد أن يترك خيرا إلا إلى مثله أو إلى خير منه ..

وكثير من المنكرين لبدع العبادات والعادات تجدهم مقصرين في فعل السنن من ذلك، أو الأمر به .. بل الدين هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، فلا ينهى عن منكر إلا ويؤمر بمعروف يغني عنه كما يؤمر بعبادة الله سبحانه وتعالى، وينهى عن عبادة ما سواه، إذ رأس الأمر شهادة أن لا إله إلا الله والنفوس خلقت لتعمل لا لتترك، وإنما الترك مقصود لغيره، فإن لم يشتغل بعمل صالح وإلا لم يترك العمل السيء أو الناقص.

المطلب الثاني: تقليل العلائق مع الناس إن كانت المصلحة في ذلك

وإنما طلب ذلك لئلا يكثر خوفه من انقطاعها ولكي يقطع طمعه من الخلائق البتة فلا يقع في المداهنة والمصانعة ولكن هذا الأمر ليس على إطلاقه فإن الدخول مع الناس ومخالطتهم والتعرف على أحوالهم سبب قوي جدا في

إصلاحهم والاحتساب عليهم وإنما يطلب ذلك من بعض القائمين بالاحتساب -وقد نصبوا لذلك- إن كانت الروابط والعلائق مع الناس تؤدي بهم إلى السكوت عن هؤلاء المعارف مداهنة وما شاكلها كخوفهم من مقاطعتهم لهم.

نقل عن بعض الشيوخ أنه كان له سنور، وكان يأخذ له كل يوم من قصاب شيئا لغذائه، فرأى على القصاب منكرا، فدخل الدار وأخرج السنور ثم جاء واحتسب على القصاب فقال القصاب: لا أعطيك بعد اليوم للسنور شيئا. فقال الشيخ: ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك.

المطلب الثالث: الإسرار بالنصح

إن من طبيعة الإنسان كراهيته أن يعاب وأن يخطئ أمام الآخرين، فإذا احتسبت عليه أمامهم فقد يكون ذلك سببا لتمسكه بما هو عليه من الخطأ والمخالفة.

ويتأكد هذا الأدب خاصة إذا كان المحتسب عليه أكبر سنا من المحتسب، أو أعلى مكانة في العلم أو الجاه ونحو ذلك من الأمور كحال الطالب مع شيخه والابن مع أبيه.

وقد أحسن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ حينما قال كما في ديوانه (ص: ٥٦):

تعمدني بنصحك في انفرادي ... وجنبني النصيحة في الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع ... من التوبيخ لا أرضى استماعه

وإن خالفتني وعصيت قولي ... فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

قال النووي في شرح مسلم (١/ ٢/ ٢٤): فمن ترك التشهير والإعلان بالإنكار على المعين أمام الناس إن كان الأمر لا يتطلب ذلك، فينبغي أن يسر النصيحة إليه ليتحقق القبول. قال الشافعي: من وعظ أخاه سرا فقد نصحه

وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

المطلب الرابع: قصد النصح لجميع الأمة

ومما يستحب للآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، قصده نصح جميع الخلق، بأن يريد لغيره من الخير ما يريد لنفسه.

قال الله تعالى حكاية عن عبده ورسوله نوح: وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون [الأعراف: ٦٢]، وعن نبيه هود - عليهما السلام -: ... وأنا لكم ناصح أمين [الأعراف: ٦٨] أي عرفت فيما بينكم بالنصح، فما حقي أن أتهم وأنا لكم ناصح فيما أدعوكم.

وفي الصحيحين البخاري (٥٨)، ومسلم (٥٦) من حديث زياد بن علاقة قال: سمعت جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول يوم مات المغيرة بن شعبة قام فحمد الله وأثنى عليه. وقال: عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له، والوقار والسكينة حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن ثم قال: استعفوا لأميركم فإنه كان يحب العفو ثم قال: أما بعد فإني أتيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت (أبايعك على الإسلام فشرط علي والنصح لكل مسلم، فبايعته على هذا، ورب هذا المسجد إني لكم لناصح، ثم استغفر ونزل) لفظ البخاري.

وفي صحيح مسلم (٥٥) من حديث أبي رقية تميم بن أوس الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (الدين النصيحة قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم).

المطلب الخامس: قصد رحمة الخلق والشفقة عليهم

ومما يستحب للآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر القائم في حدود الله - أعانه الله تعالى- أن يكون قصده رحمة الخلق كلهم، والشفقة عليهم، بكف

الناس عن المنكرات التي تسبب الدمار في الدنيا، والعقوبات في الآخرة.

قال الله تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) [الفتح: ٢٩] غلاظ كالأسد على فريسته. قيل: المراد بـ والذين معه جميع المؤمنين، رحماء بينهم أي يرحم بعضهم بعضا. وقيل: (متعاطفون متوادون).

وفي الصحيحين (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (إنما يرحم الله من عباده الرحماء)

وليس من مقتضى رحمة أهل المعاصي ترك الإنكار عليهم واستيفاء الحدود منهم وغير ذلك، بل من كمال الرحمة بهم الإنكار عليهم وردهم إلى المنهج القويم والصراط المستقيم.

وإذا انحرفت النفس من خلق الرحمة انحرفت إلى قسوة قلب، وإما إلى ضعف قلب وجبن، كمن لا يقدم على ذبح شاة ولا إقامة حد ولا تأديب ولد، ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك. وقد ذبح أرحم الخلق بيده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موقف واحد وثلاثمائة وستين بدنة وقطع الأيدي من الرجال والنساء، وضرب الأعناق، وأقام الحدود ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم. وكان أرحم الناس أجمعين على الإطلاق وأرأفهم.

فالعبد المطيع لله إذا سمع بأسير من أسراء المسلمين في أرض العدو رحمه وبذل نفسه وماله في تخليصه، فمن باب الأولى أنه إذا رأى أخاه مأسورا في نفسه وشيطانه وهما أعداء عدوه أن يجتهد في خلاصه. واستنقاذه منها، فإن أعراض عنه وتركوه وأسره كان ذلك من جهله بالله تعالى وبأموره.

المطلب السادس: ستر العورات والعيوب

ومما يستحب للآمر بالمعروف الناهي عن المنكر ستر عورات المسلمين

لأن ستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها سمة أهل الدين. ويكفي تنبيها على كمال الرتبة في ستر القبيح وإظهار الجميل قول الله تعالى: ﴿قول معروف ومغفرة ...﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وفي الصحيحين البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٦٤) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما، ستره الله يوم القيامة)، وفي صحيح مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة مرفوعا، (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .. الحديث).

وفي صحيح مسلم (٢٥٩٠) من حديث أبي هريرة مرفوعا: (لا يستر عبد عبدا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة)، وفي رواية: (لا يستر الله على عبد في الدنيا، إلا ستره يوم القيامة)، وغيرها من الأحاديث كثير.

قال أبو زكريا النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم - عند قوله ﷺ: (ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) وأما الستر المندوب إليه هنا فالمراد به الستر على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفا بالأذى والفساد. وأما المعروف بذلك فيستحب أن لا يستر عليه، بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر، إن لم يخف من ذلك مفسدة، لأن الستر على هذا يطمعه في الإيذاء، والفساد، وانتهاك المحرمات، وجسارة غيره على مثل فعله. وهذا كله في ستر معصية وقعت وانتقضت، أما مسألة معصية يراه عليها وهو متلبس بها فتجب المبادرة بإنكارها

عليه، ومنعه منها على من قدر على ذلك، ولا يحل تأخيرها. فإن عجز لزمه رفعها إلى ولي الأمر، إذا لم تترتب على ذلك مفسدة - كما تقدم. ثم قال: وأما الرواة، والشهود، والأمناء على الصدقات، والأوقاف، والأيتام ونحوهم فيجب جرحهم عند الحاجة، ولا يحل الستر عليهم إذا رأى منهم ما يقدح في أهليتهم. وليس هذا من الغيبة المحرمة، بل من النصيحة الواجبة. وهذا مجمع عليه.اهـ.

للعلماء في حكم الستر أقوال نوجزها فيما يلي:

ذهب الأحناف إلى أن الشاهد في حقوق الله -أسباب الحدود- مخير بين حسبتين: بين أن يشهد حسبة لله تعالى وبين أن يستر لأن كل واحد منهما أمر مندوب إليه قال الله تبارك وتعالى: {وأقيموا الشهادة لله} وفي الحديث المتقدم (من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة). فقد ندبه الشرع إلى كل واحد منهما، إن شاء اختار جهة الحسبة فأقامها لله تعالى، وإن شاء اختار جهة الستر فيستر على أخيه المسلم. انظر بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (١٤/ ٣٧٩)، والعناية شرح الهداية (١٠/ ٣٧٦).

وأما في حقوق الله تعالى من غير أسباب الحدود نحو طلاق وإعتاق وظهار وإيلاء ونحوها من أسباب الحرمات تلزمه إقامة الشهادة حسبة لله تبارك وتعالى عند الحاجة إلى إقامتها من غير طلب من أحد من العباد. انظر بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع - (١٤/ ٣٧٩).

وقال المالكية: تجب المبادرة لأداء الشهادة في حق الله إن استدام فيه التحريم كالعتق والطلاق والرضاع والوقف، وإن كان التحريم ينقضي بالفراغ من متعلقه كالزنى وشرب الخمر كان مخيرا في الرفع وعدمه، والترك أولى لما فيه من معنى الستر المطلوب في غير المجاهر بالفسق.

وفي المواق أن ستر الإنسان على نفسه وعلى غيره واجب حينئذ فيكون ترك الرفع واجبا. انظر حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (١٧/ ٢٢٥) وحاشية الصاوي على الشرح الصغير (٩/ ٣٠٣، ٤٠٤).

وقال العز بن عبد السلام من الشافعية في قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٣٢٥): وأما الشهود على هذه الجرائم، فإن تعلق بها حقوق العباد لزمهم أن يشهدوا بها وأن يعرفوا بها أربابها وإن كانت زواجرها حقا محضا لله فإن كانت المصلحة في إقامة الشهادة بها، فيشهدوا بها مثل أن يطلعوا من إنسان على تكرر الزنى والسرقة والإدمان على شرب الخمور وإتيان الذكور فالأولى أن يشهدوا عليه دفعا لهذه المفاسد، وإن كانت المصلحة في الستر عليه مثل زلة من هذه الزلات تقع ندرة من ذوي الهيئات ثم يقلع عنها ويتوب منها فالأولى أن لا يشهدوا لحديث سعيد بن المسيب أنه قال بلغنى أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أسلم يقال له هزال: «يا هزال لو سترته بردائك لكان خيرا لك». وحديث «أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم إلا الحدود». وحديث «لا يستر عبد عبدا فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة».اهـ.

وقال ابن مفلح من الحنابلة في الآداب الشرعية (١/ ٣٢٤): عدم الإنكار والتبليغ على الذنب الماضي مبني على سقوط الذنب بالتوبة، فإن اعتقد الشاهد سقوطه لم يرفعه وإلا رفعه، وأما إذا كان مصرا على المحرم لم يتب، فهذا يجب إنكار فعله الماضي وإنكار إصراره.

المطلب السابع: الاغتمام بمعصية المسلم والتأسف لتعرضه لغضب الله

ومما يستحب للآمر بالمعروف الناهي عن المنكر أن يكون مغتما بمعصية أخيه المسلم وأن يكون آسفا لتعرضه لعقاب الله، ومما يستحب للآمر

بالمعروف الناهي عن المنكر) أن يكون مغتما مما ظهر من معصية أخيه المسلم وتعرضه لعقاب الله تعالى حتى يشغله الهم عن فرحه بأجر الأمر والنهي بحيث إنه لو خير بين أجره في أمره ونهيه وبين أن أخاه لم يصب ذلك الذنب لاختار أن لا يكون أصاب الذنب، وهو النصح لله في خلقه، وهو أعظم من أجر الآمر في أمره مع إثمه. فإذا اغتم بمعصيته وشره وأحب أن يكون الله تعالى عصمه جمع الله أجره على عظته إياه، وأجره على اغتمامه بمعصيته وأجره على محبته عصمته.

المطلب الثامن: الغيرة على المسلمين

ومما يستحب للآمر بالمعروف الناهي عن المنكر بل لكل مسلم أن يكون غيورا على إخوانه المسلمين. قال الله تعالى: (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) [الأعراف: ٣٣].

وفي الصحيحين البخاري (٥٢٢٣)، ومسلم (٢٧٦١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله عَزَّ وَجَلَّ يغار وإن المؤمن يغار، وإن من غيرة الله تعالى أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه).

ولمسلم (٢٧٦١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (المؤمن يغار والله أشد غيرا).

المطلب التاسع: تواضع الآمر الناهي في أمره ونهيه

ومما يستحب للآمر بالمعروف الناهي عن المنكر أن يكون متواضعا في أمره ونهيه من غير افتخار ولا تعاظم، بل من حقوق المسلمين التواضع لهم.

وسمي التواضع متواضعا لأنه وضع شيئا من قدره الذي يستحقه وذلك ملح العبادة وغاية شرف الزاهدين، وسيما الناسكين.

قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) [المائدة: ٥٤] أي متواضعين لهم بذل لين وانقياد، لا بذل هوان فيعاشروا المؤمنين برحمة وعطف وشفقة وإخبات وتواضع. وقوله: (أعزة على الكافرين) هو من عزة القوة والمنعة والغلبة.

وقال عطاء: للمؤمنين كالوالد لولده. وعلى الكافرين كالسبع على فريسته كما في الآية الأخرى: (أشداء على الكفار رحماء بينهم) فالنفس إذا انحرفت عن خلق العزة التي وهبها الله للمؤمنين انحرفت إما إلى كبر وإما إلى ذل والعزة المحمودة بينهما، والله أعلم.

وقال تعالى: وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا [الفرقان: ٦٣] يعني سكينة ووقارا متواضعين، غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين لأن الهون -بالفتح- الرفق واللين، وبالضم -الهوان.

فالأول صفة أهل الإيمان، والثاني صفة أهل الكفران وجزاؤهم من الله النيران.

قال تعالى: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) [القصص: ٨٣].

وفي صحيح مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفتخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد).

قال أهل اللغة: (البغي التعدي والاستطالة).

قال أبو العباس بن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ١٤٨): جمع النبي ﷺ بين نوعي الاستطالة. لأن المستطيل إن استطال بحق فهو المفتخر. وإن استطال بغير حق فهو الباغي فلا يحل لا هذا ولا هذا.

قال أبو حامد في الإحياء (٣/ ٣٤٠): فإن قلت كيف التواضع للفاسق والمبتدع وقد أمرت ببغضهما، والجمع بينهما متناقض؟

فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق، إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس، والإذلال بالعلم والورع، فكم من عابد جاهل، وعالم مغرور إذا رأى فاسقا جلس إلى جانبه أزعجه ذلك.

وتنزه منه لكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه غاضب لله، وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحذر منه ممكن، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير، فإن الغضبان أيضا يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه، وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون.

والذي يخلصك من هنا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع، أو الفاسق، أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور:

أحدهما: التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك، ليصغر عند ذلك قدرك في عينك.

والثاني: أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم، واعتقاد الحق، والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى وله المنة لا لك فترى ذلك منه حتى لا تعجب نفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبر.

والثالث: ملاحظة إيهام عاقبتك وعاقبته أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له

بالحسنى حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه.

مسألة: إذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره

قال الإمام ابن القيم في إعلام الموقعين (٣/ ١٢): هذا فصل عظيم النفع جدا وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به؛ فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى البعث؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل؛ فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها.

ونحن نذكر تفصيل ما أجملناه في هذا الفصل بحول الله وتوفيقه ومعونته بأمثلة صحيحة.

المثال الأول: أن النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم؛ فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر، «وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، وقالوا: أفلا نقاتلهم؟ فقال: لا، ما أقاموا الصلاة» وقال: «من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يدا من طاعته» ومن تأمل

ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر؛ فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه؛ فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك -مع قدرته عليه- خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر، ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد؛ لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه كما وجد سواء.

فإنكار المنكر أربع درجات؛ الأولى: أن يزول ويخلفه ضده، الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته، الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله، الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه؛ فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة؛ فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله كرمي النشاب وسباق الخيل ونحو ذلك، وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيرا من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك فكان ما هم فيه شاغلا لهم عن ذلك، وكما إذا كان الرجل مشتغلا بكتب المجون ونحوها وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر فدعه وكتبه الأولى، وهذا باب واسع؛ وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد

عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم.اهـ. كلامه

مسألة: هل يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بعض الحالات

قدمنا أن أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب قطعا لكن هذا الوجوب لا يكون لازما في كل مطلوب شرعا ولا على كل فرد كل حال (فيما زاد على القلب) إذا عرفت هذا وتبينته فاعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يكون واجبا، وقد يكون مستحبا، وقد يكون محرما، وقد يكون مكروها

أما حال كونه واجبا: فهذا يحصل إذا كان العمل المأمور به من الواجبات، أو الفعل المرتكب -الذي يراد النهي عنه- معدودا من المحرمات فهنا يجب الأمر أو النهي ما لم يكن هناك عذر في تركه.

متى يسقط الوجوب: لا شك أن الإنكار بالقلب لا يسقط بحال من الأحوال، لكن الإنكار باليد واللسان قد يسقط وجوبه وذلك في واحد من ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: إذا تكاثرت الفتن والمنكرات: وهذا يكون على نوعين:

النوع الأول: ما يكون في آخر الزمان؛ وهذا النوع هو الذي تحمل عليه كثير من الأحاديث الواردة في العزلة والتي منها حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا رواه البخاري (١٩) (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن).

ومن ذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذكرت الفتنة فقال: إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم

وخفت أماناتهم وكانوا هكذا -وشبك بين أصابعه- قال ابن عمرو: فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال: الزم بيتك، وأملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة)[(١)].

ومن ذلك أيضا حديث حذيفة رضي الله عنه المشهور الذي رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧) (كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن. قلت وما دخنه؟ قال قوم يستنون بغير

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ١٢٤، رقم ٤٣٤٣)، وأحمد (٢/ ٢١٢، رقم ٦٩٨٧)، وابن أبى شيبة (٧/ ٤٤٧، رقم ٣٧١١٥)، والنسائى فى الكبرى (٦/ ٥٩، رقم ١٠٠٣٣)، والطبرانى (١٣/ ٩، رقم ٤)، والحاكم (٤/ ٣١٥، رقم ٧٧٥٨) والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبى، وقال المنذرى: في الترغيب (٣/ ٢٩٨): رواه أبو داود والنسائى بإسناد حسن، وقال العراقي في المغني (٢/ ٢٩١): إسناده حسن،، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وصححه الأرنؤوط ومن معه، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٥) وقال: ومما يلاحظ أن هذه الطرق الثلاث، ليس فيها الزيادة التي فى الطريق التي قبل هذه " الزم بيتك واملك عليك لسانك ". فالقلب يميل إلى أنها زيادة شاذة لأن الذي تفرد بها وهو هلال بن خباب فيه كلام كما سبق، فلا يحتج به إذا خالف الثقات. نعم قد جاءت هذه الزيادة فى حديث أبي ثعلبة الخشني نحو هذا، لكن لا يصح إسناده كما بينته فى المائة التي بعد الألف من " الأحاديث الضعيفة ". وإن مما يؤيد شذوذها أنني وجدت لحديث ابن عمرو هذا شاهدا من حديث أبي هريرة مثله ليس فيه الزيادة، ولفظه: "كيف بك يا عبد الله بن عمرو إذا بقيت في حثالة من الناس مرجت عهودهم وأماناتهم، واختلفوا فصاروا هكذا: وشبك بين أصابعه قال: قلت: يا رسول الله ما تأمرني؟ قال: عليك بخاصتك، ودع عنك عوامهم".اهـ.

سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، فقلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. فقلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: نعم، من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. فقلت: يا رسول الله فما ترى -وفي رواية- فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك) والأحاديث في هذا المعنى كثيرة لا تحصى.

هذا وقد حمل جماعة من السلف والخلف قوله تعالى: عليكم أنفسكم ... [المائدة: ١٠٥] على هذا المعنى، ومن ذلك ما ورد عن أبي مازن أنه قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة فإذا قوم من المسلمين جلوس، فقرأ أحدهم هذه الآية عليكم أنفسكم فقال أكثرهم: لم يجئ تأويل هذه الآية اليوم، وفي لفظ عند ابن جرير في تفسيره (١١/ ١٤٠): كنت في خلافة عثمان بالمدينة في حلقة فيهم أصحاب النبي ﷺ، فإذا فيهم شيخ يسندون إليه، فقرأ رجل عليكم أنفسكم فقال الشيخ إنما تأويلها آخر الزمان.

النوع الثاني: ما يقع من الفتن في بعض الأوقات دون التي تقع آخر الزمان: وهذا كالفتن التي وقعت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه بين أصحاب النبي ﷺ، وقد اعتزل جماعة من أصحاب النبي ﷺ حينما وقعت الفتن، ومن هؤلاء سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وسلمة بن الأكوع، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وعروة بن الزبير من التابعين.

عن عامر بن سعد قال (كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في إبله فجاءه ابن عمر، فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فجاء فنزل فقال له:

أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون في الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره وقال: اسكت. سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي) رواه مسلم (٢٩٦٥).

وقال البخاري: (باب التعرب في الفتنة) وذكر حديثين (٧٠٨٧، ٧٠٨٨): الأول: وفيه تعرب سلمة بن الأكوع بعد مقتل عثمان ..، والثاني: حديث أبي سعيد مرفوعا (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم ...) وقد تقدم ذكره قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٢ - ٤٣): والخبر دال على فضيلة العزلة لمن خاف على دينه، وقد اختلف السلف في أصل العزلة فقال الجمهور: الاختلاط أولى لما فيه من اكتساب الفوائد الدينية للقيام بشعائر الإسلام وتكثير سواد المسلمين وإيصال أنواع الخير إليهم من إعانة وإغاثة وعيادة وغير ذلك، وقال قوم: العزلة أولى لتحقق السلامة، بشرط معرفة ما يتعين .. وقال النووي: المختار تفضيل المخالطة لمن لا يغلب على ظنه أنه يقع في معصية، فإن أشكل الأمر فالعزلة أولى.

وقال غيره: يختلف باختلاف الأشخاص، فمنهم من يتحتم عليه أحد الأمرين، ومنهم من يترجح، وليس الكلام فيه، بل إذا تساويا فيختلف باختلاف الأحوال، فإن تعارضا اختلف باختلاف الأوقات، فمن يتحتم عليه المخالطة من كانت له قدرة على إزالة المنكر فيجب عليه، إما عينا وإما كفاية بحسب الحال والإمكان، وممن يترجح: من يغلب على ظنه أنه يسلم في نفسه إذا قام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وممن يستوي: من يأمن على نفسه ولكنه يتحقق أنه لا يطاع، وهذا حيث لا يكون هناك فتنة عامة، فإن وقعت الفتنة ترجحت العزلة، لما ينشأ فيها غالبا من الوقوع في المحذور، وقد تقع العقوبة

بأصحاب الفتنة فتعم من ليس من أهلها، كما قال تعالى: واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خآصة ... [الأنفال: ٢٥]. ويؤيد التفصيل المذكور حديث أبي سعيد أيضا: (خير الناس رجل جاهد بنفسه وماله ورجل في شعب من الشعاب ...) وقد تقدم في باب العزلة من كتاب الرقاق حديث أبي هريرة الذي أشرت إليه آنفا فإن أوله عند مسلم: (خير معاش الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله الحديث، وفيه: (ورجل في غنيمة) .. فإن أخذ على عمومه دل على فضيلة العزلة لمن لا يتأتى له الجهاد في سبيل الله إلا أن يكون قيد بزمان وقوع الفتن والله أعلم.اهـ. من الفتح.

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (باب العزلة راحة من خلاط السوء) وذكر حديثين:

الأول برقم (٦٤٩٤) حديث أبي سعيد (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: أي الناس خير؟ قال: رجل ..) وذكر نحو الحديث السابق. والثاني برقم (٦٤٩٥) حديث أبي سعيد مرفوعا: (يأتي على الناس زمان خير مال المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن) قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٣٠ - ٣٣٣): (ووقع في رواية مالك: (يوشك أن يكون خير مال المسلم ..) ولفظه هنا صريح في أن المراد بخيرية العزلة أن تقع في آخر الزمان ...اهـ.

والذي يظهر من استقراء النصوص أن الفتن من حيث التعلق بالزمان على قسمين:

قسم مضى، وقسم سيأتي، وأما من حيث التعلق بإمكانية ظهور الحق ومعرفته لكثير من الناس فهي أيضا على قسمين وهما:

١ - قسم يمكن معرفة الحق فيه وتمييزه، وإن أشكل على البعض.

٢- قسم يوقع الناس في الحيرة فلا يكاد يعرف فيه الحق من الباطل لاختلاط المعروف بالمنكر والمحق بالمبطل.

فالفتن التي يمكن معرفة الحق فيها، وإن أشكلت على بعض الناس، فيقال فيها: إن من أشكلت عليه الأمور تعينت عليه العزلة، وعليه يحمل اعتزال من ذكر من الصحابة. والله أعلم.

أما من أمكنه معرفة الحق، ولم يتمكن من العمل به، أو أدت مخالطته للناس إلى تكثير سواد أهل الفتنة، أو حملهم له على المشاركة، فيلزمه أن يعتزل أيضا.

ومن عرف الحق ولم يخش تفويت العمل به ولا حملهم إياه في فتنتهم .. ولا إعانتهم عليها، ولم يكثر لهم سوادا .. لكنه لو أمر ونهى لم يكن ذلك مؤثرا في حالهم ولا مغيرا لها .. فالأفضل في حقه العزلة وقد يكون هذا الحال أيضا من أسباب اعتزال بعض الصحابة فمن بعدهم.

قال الإمام البخاري في صحيحه: (باب قول النبي ﷺ هلاك أمتي على أيدي أغيلمة سفهاء) وذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا برقم (٧٠٥٨): (هلكة أمتي على يدي غلمة من قريش) قال الحافظ في الفتح (١٣/ ١٠): وأما قوله: (لو أن الناس اعتزلوهم) محذوف الجواب وتقديره لكان أولى بهم .. ويؤخذ من هذا الحديث استحباب هجران البلدة التي يقع فيها إظهار المعصية، فإنها سبب وقوع الفتن التي ينشأ عنها عموم الهلاك، قال ابن وهب عن مالك: تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهارا، وقد صنع ذلك جماعة من السلف..اهـ.

أما إن كان لا يخشى من المخالطة وقوع محذور مما سبق، وبقاؤه ينفع الناس، فهذا قد يتعين عليه البقاء وترك العزلة، وقد دل على ذلك قوله ﷺ: إن

المسلم إن كان يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)[١].

وأما القسم الثاني من الفتن، وهي التي لا يعرف الحق فيها من الباطل، حيث تلتبس فيها الأمور، وهذا الالتباس ناتج عن طبيعة الفتنة وتلونها .. أو ناتج عن عدم قدرة المعاصر لها من تمييز الحق فيها من الباطل .. وأكثر ما يكون هذا في آخر الزمان .. وعلى ذلك تنزل كثير من الأحاديث السابقة في أول الكلام .. كحديث حذيفة، وحديث أبي سعيد، وحديث ابن عمرو بن العاص، وغيرها .. والله أعلم بالصواب.

الحال الثانية: من الأحوال التي يسقط فيها وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي: العجز الحسي وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان، فإن من عجز عن القيام بعمل طولب به عجزا حسيا لم يكلف به، كمن عجز عن الجهاد لمرضه أو عرجه أو لذهاب بصره أو غير ذلك، وهذا معروف لا يحتاج إلى تعريف.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣) و(٥/ ٣٦٥)، والطيالسى (ص ٢٥٦، رقم ١٨٧٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)، والترمذى (٤/ ٦٦٢، رقم ٢٥٠٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٨، رقم ٤٠٣٢)، والطبرانى فى الأوسط (٦/ ١٠٩، رقم ٥٩٥٣)، والبغوى فى الجعديات (١/ ١٢١، رقم ٧٤٥)، وابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب (٢/ ٦٢٧ - ٦٢٨)، وأبو نعيم فى الحلية (٥/ ٦٢)، وابن قانع (٢/ ٨٣)، والبيهقى (١٠/ ٨٩، رقم ١٩٩٦١) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٤٤٩): رواته كلهم ثقات، وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥١٢): إسناده حسن، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٩٣٩)، وصحح إسناده العلامة أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٧/ ٩٤)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٩/ ٦٤): إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين.

الحال الثالثة: ما كان في معنى العجز الحسي، وذلك إذا كان يلحقه من جرائه مكروه معتبر في إسقاط الوجوب عنه، دل على ذلك حديث أبي سعيد الخدري ﵁ مرفوعا: (إن الله ليسأل العبد يوم القيامة، حتى يقول: ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره؟! فإن لقن الله عبدا حجته قال: يا رب! رجوتك وفرقت من الناس)[(١)]. فقد اعتبر النبي ﷺ ذلك حجته.

ومما يدل على هذا المعنى أيضا حديث حذيفة ﵁ مرفوعا: (لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يطيقه)[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩، رقم ١١٢٦٣) وعبد بن حميد (ص ٣٠١، رقم ٩٧٤) وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢، رقم ٤٠١٧)، وأبو يعلى (٢/ ٣٤٣، رقم ١٠٨٩)، وابن حبان (١٦/ ٣٦٨، رقم ٧٣٦٨)، والبيهقى (١٠/ ٩٠، رقم ١٩٩٧٠) والحديث قال عنه العراقي في المغني (١/ ٥٤٤): إسناده جيد، وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٦٤): إسناده لا بأس به، وحسنه الحافظ في الأمالي المطلقة (١٦٧)، وقال البوصيرى في مصباح الزجاجة (٤/ ١٨٥): إسناده صحيح، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (١٧٩٦)، وجوده العلامة الألباني في الصحيحة (٩٢٩)، وحسنه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٤٠٣)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده حسن.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٠٥، رقم ٢٣٤٩١)، والترمذى (٤/ ٥٢٢، رقم ٢٢٥٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢، رقم ٤٠١٦)، والبزار (٧/ ٢١٨، رقم ٢٧٩٠)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٣٠٧)، والدينوري في المجالسة (٨/ ١٨٨، رقم ٣٤٩٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (٨٦٦) و(٨٦٧)، والبيهقي في الشعب (١٠٨٢٤)، والبغوي في شرح السنة (٣٦٠١) والحديث قال عنه الإمام أبو حاتم الرازي: هذا حديث منكر، كما في العلل لابنه (٢/ ١٣٨، رقم ١٩٠٧)، وضعفه ابن عدي في الكامل (٥/ ٥٤)، وأقره ابن القيسراني في الذخيرة (٤/ ٢٠٣٥)، (٥/ ٢٧٣٨)، وأقره أيضا الحافظ في اللسان (٤/ ٣١٠)، وقال الشيخ مشهور في تعليقه على كتاب المجالسة: إسناده ضعيف، وقال =

المسألة الثالثة

تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]

قد يتوهم البعض من قوله تعالى عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم [المائدة: ١٠٥] أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يلزمه .. وهذا غير صحيح بل هو لازم له، والآية حجة عليه لا له!!. ذلك أن الهداية لا تتحقق إلا بفعل المأمور وترك المحظور، ومن المعلوم أن أعظم المأمورات القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن الذي يدع العمل بذلك لا يكون مهتديا!! بل كيف يكون مهتديا والرسول ﷺ جعل الإنكار بالقلب أضعف الإيمان، وقال عن الإنكار والمجاهدة للخلوف الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون: (فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) رواه مسلم (٥٠). من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وإن مما يدل على أن تارك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير مهتد: إقسام الله تعالى أن الإنسان لفي خسر ولم يستثن سوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر [العصر: ٣].

=

الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٨/ ٤٣٥): إسناده ضعيف من أجل علي بن زيد بن جدعان، وهو مع ضعفه قد خولف، فرواه غيره عن الحسن مرسلا كما سيأتي، والحسن -وهو البصري- مدلس وقد عنعنه، وأشار أبو حاتم كما في "العلل" ٢/ ٣٠٦ إلى أن عمرو بن عاصم زاد في الإسناد جندبا، وأسنده عن أبي سلمة التبوذكي عن حماد بن سلمة ليس فيه جندب.اهـ. وأما الترمذي فحسنه، وكذا حسنه البغوي، وحسنه الحافظ في الأمالي المطلقة (١٦٦)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/ ٧١٦)، وصححه لشواهده العلامة الألباني في الصحيحة (٦١٣).

وقد قال بنحو ما سبق جماعة من المفسرين منهم ابن جرير حيث قال في تفسيره (١١/ ١٥٢ - ١٥٣) حينما ذكر الأقوال في الآية السابقة: وأولى هذه الأقوال وأصح التأويلات، ما روي عن أبي بكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيها وهو يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم [المائدة: ١٠٥] الزموا العمل بطاعة الله وبما أمركم به وانتهوا عما نهاكم الله عنه لا يضركم من ضل إذا اهتديتم يقول: فإنه لا يضركم ضلال من ضل إذا أنتم لزمتم العمل بطاعة الله، وأديتم فيمن ضل من الناس ما ألزمكم الله به فيه، من فرض الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي يركبه، أو يحاول ركوبه، والأخذ على يديه إذا رام ظلما لمسلم أو معاهد، ومنعه منه فأبى النزوع عن ذلك، ولا ضير عليكم في تماديه في غيه وضلاله إذا أنتم اهتديتم وأديتم حق الله تعالى ذكره فيه، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات في ذلك بالصواب لأن الله تعالى ذكره، أمر المؤمنين أن يقوموا بالقسط، ويتعاونوا على البر والتقوى، ومن القيام بالقسط الأخذ على يدي الظالم، ومن التعاون على البر والتقوى الأمر بالمعروف، وهذا مع ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو كان للناس ترك ذلك لم يكن للأمر به معنى إلا في الحال التي رخص فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك ذلك، وهي حال العجز عن القيام به بالجوارح الظاهرة، فيكون مرخصا له تركه إذا قام حينئذ بأداء فرض الله عليه في ذلك بقلبه، وإذا كان ما وصفنا من التأويل بالآية أولى، فبين أنه قد دخل في معنى قوله: إذا اهتديتم ما قاله حذيفة وسعيد بن المسيب من أن ذلك (إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر.اهـ.

وقال الزجاج في معاني القرآن (٢/ ٢١٤): وليس يوجب لفظ هذه الآية ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعلم أنه لا يضر المؤمن كفر الكافر، فإذا

ترك المؤمن الأمر بالمعروف وهو مستطيع ذلك فهو ضال، وليس بمهتد.اهـ.

وقال النووي في شرح مسلم (٢/ ٢٢ - ٢٣): المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية: إنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم تقصير غيركم مثل قوله تعالى: ولا تزر وازرة وزر أخرى [فاطر: ١٨] وإذا كان كذلك فمما كلف به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا فعله ولم يمتثل المخاطب، فلا ضرر على الآمر الناهي لكونه أدى ما عليه، فإنما عليه الأمر والنهي لا القبول والله أعلم.اهـ. بتصرف

وقال الشنقيطي في أضواء البيان (١/ ٤٥٩): قد يتوهم الجاهل من ظاهر هذه الآية الكريمة عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن نفس الآية فيها الإشارة إلى أن ذلك فيما إذا بلغ جهده فلم يقبل منه المأمور، وذلك في قوله: إذا اهتديتم [٥/ ١٠٥] ؛ لأن من ترك الأمر بالمعروف لم يهتد، وممن قال بهذا حذيفة، وسعيد بن المسيب، كما نقله عنهما الألوسي في «تفسيره»، وابن جرير، ونقله القرطبي عن سعيد بن المسيب، وأبي عبيد القاسم بن سلام، ونقل نحوه ابن جرير عن جماعة من الصحابة، منهم ابن عمر، وابن مسعود.

فمن العلماء من قال: إذا اهتديتم، أي: أمرتم فلم يسمع منكم، ومنهم من قال: يدخل الأمر بالمعروف في المراد بالاهتداء في الآية، وهو ظاهر جدا ولا ينبغي العدول عنه لمنصف.

ومما يدل على أن تارك الأمر بالمعروف غير مهتد، أن الله تعالى أقسم أنه في خسر في قوله تعالى: والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر [١٠٣/ ١، ٢، ٣]، فالحق وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعد أداء الواجب لا يضر الآمر ضلال من

ضل، وقد دلت الآيات كقوله تعالى: واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة [٨/ ٢٥]، والأحاديث على أن الناس إن لم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، عمهم الله بعذاب من عنده.

فمن ذلك ما خرجه الشيخان في «صحيحيهما» عن أم المؤمنين أم الحكم زينب بنت جحش - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا مرعوبا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟، قال: نعم إذا كثر الخبث».

وعن النعمان بن بشير - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا، وهلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا»، أخرجه البخاري والترمذي ....

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله - ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله، ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»، ثم قال: لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن

سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون [٥/ ٧٩، ٨٠، ٨١]، ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم ليلعننكم كما لعنهم».

رواه أبو داود، والترمذي وقال: حسن، وهذا لفظ أبي داود، ولفظ الترمذي: قال رسول الله - ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم وواكلوهم، وشاربوهم ؛ فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ؛ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»، فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئا، فقال: «لا والذي نفسي بيده، حتى يأطروهم على الحق أطرا».

ومعنى تأطروهم أي: تعطفوهم، ومعنى تقصرونه: تحبسونه، والأحاديث في الباب كثيرة جدا، وفيها الدلالة الواضحة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في قوله: إذا اهتديتم، ويؤيده كثرة الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقوله تعالى: ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون [٣/ ١٠٤]، وقوله: كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر [٣/ ١١٠]. وقوله: لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، وقوله: وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر [١٨/ ٢٩]، وقوله: فاصدع بما تؤمر [١٥/ ٩٤]، وقوله: أنجينا الذين ينهون

عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون [٧/ ١٦٥]، وقوله: واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة [٨/ ٢٥].

والتحقيق في معناها: أن المراد بتلك الفتنة التي تعم الظالم وغيره هي أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بالعذاب، صالحهم وطالحهم، وبه فسرها جماعة من أهل العلم، والأحاديث الصحيحة شاهدة لذلك، كما قدمنا طرفا منها.اهـ. من أضواء البيان.

ولقد وقع الخطأ في فهمها عند بعض أهل العصر الأول .. فقام أبو بكر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وبين المراد وأزال الشبهة، روى ذلك قيس بن حازم حيث قال: قال أبو بكر الصديق بعد أن حمد الله وأثنى عليه يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونها على غير موضعها يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم وإنما سمعنا رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ولا يغيرون إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب) وقال شعبة فيه: ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي وهم أكثر ممن يعمل بها ..)[1].

(١) أخرجه أحمد رقم (١و١٦و٢٩)، والحميدي، وعبد بن حميد، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجة (٤٠٠٥)، والمروزي في مسند أبى بكر (٨٦، ٨٧، ٨٨)، والبزار (٦٥، ٦٨)، وأبو يعلى (١٣٢)، وأبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٥٢٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦٢، ٦٣)، والطحاوي في المشكل (١١٦٥، ١١٧٠)، وابن حبان (٣٠٤)، والخطابي في العزلة (ص١٠٣)، وابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف (١، ٤٠)، والطبراني في مكارم الأخلاق (٧٩)، وأبو نعيم في المعرفة (١٢٣)، والضياء في المختارة (٥٤، ٦٠) وغيرهم، والحديث صححه الترمذي، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣/ ٢٠٨)، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٠٧) =

مسألة: في ذكر شروط إنكار المنكر

المطلب الأول: كونه منكرا

المنكر كل أمر نهى عنه الشارع الحكيم سواء أكان هذا الأمر محرما أم مكروها وكل ما كان محذورا في الشرع، والحكم علي الشئ بأنه منكر أو غير منكر للشرع لأن هذا الوصف حكم شرعي. والحاكم حقيقة هو الله سبحانه إن الحكم إلا لله [يوسف: ٦٧] فليس هناك مجال للعواطف والأهواء والأغراض. ودور العلماء في ذلك هو استنباط الحكم الشرعي من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والقواعد المستوحاة منهما. ومن ثم الحكم على هذا الأمر بأنه منكر أو غير منكر.

المطلب الثاني: أن يكون موجودا في الحال

وهذا الشرط له ثلاث أحوال:

الحالة الأولى: أن يكون قد هم بفعل المنكر.

الحالة الثانية: أن يكون متلبسا بالمنكر.

الحالة الثالثة: أن يكون قد انتهى من فعل المنكر.

تفصيل هذه الأحوال:

الحالة الأولى: أن يكون قد هم بفعل المنكر: وذلك بأن توجد مقدمات وعلامات ومؤشرات تدل على وقوع المنكر مثل: أن يرى رجلا يتردد مرارا في

=

ثابت، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٩٣) إسناده صحيح، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب (٢٣١٧)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١/ ٣٦)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١/ ١٧٨): إسناده صحيح على شرط الشيخين.

أسواق النساء ويصوب النظر إلى واحدة بعينها أو رأى شابا يقف كل يوم عند باب مدرسة بنات ويصوب النظر إليهن، وليس له من حاجة غير ذلك، أو سمع رجلا يتحدث بالهاتف -هاتف الشارع- بصوت مرتفع مع امرأة ويحاول أن يرتبط معها بموعد، أو رأى رجلا يسأل بكثرة عن كيفية تصنيع الخمر، وطريقة تركيبه كل هذه الأمور تعتبر من المقدمات لفعل المنكر، فعلى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في هذه الحالات الوعظ، والنصح، والإرشاد، والتخويف بالله سبحانه وتعالى، وبعقوبته والخوف من عذابه وبطشه، ويذكر له بعض النصوص القرآنية التي تبين أن الله سبحانه وتعالى مطلع عليه يسمع كلامه ويرى مكانه. مثل قوله تعالى: (ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) [المجادلة: ٧].

ومثل قوله تعالى: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) [غافر: ١٩].

وليكن ذلك بأسلوب فيه لين وعطف وإشفاق وليس فيه تجريح أو رفع صوت أو تشهير فهذه الأمور ربما دفعته إلى حالة تأخذه فيها العزة بالإثم. وليس هناك أحسن من هذا الأسلوب في هذه الحالة. والعلم عند الله.

الحالة الثانية: أن يكون متلبسا بالمنكر: ومعنى ذلك أن تكون المعصية وصاحبها مباشر لها وقت النهي والتغيير، كمن هو جالس وأمامه كأس الخمر يشرب منه أو كمن هو أدخل امرأة أجنبية إلى داره وأغلق الباب عليهما ونحو ذلك، ففي هذه الحال يجب على الآمر بالمعروف والناهي المنكر الإنكار عليه ومنعه من ذلك طالما أنه قادر على إزالة المنكر ولم يخف على نفسه ضررا أو أذى.

قال القاضي عياض في إكمال المعلم (١/ ٢٩٠): فمن حق المغير أولا أن يكون عالما بما يغيره، عارفا بالمنكر من غيره، فقيها بصفة التغيير ودرجاته، فيغيره بكل وجه أمكنه زواله به، وغلبت على ظنه منفعة تغييره بمنزعه ذلك من فعل أو قول، فيكسر آلات الباطل، ويريق ظروف المسكر بنفسه، أو يأمر بقوله من يتولى ذلك، وينزع المغصوب من أيدى المتعمدين، بيده أو يأمر بأخذها منهم، ويمكن منها أربابها، كل هذا إذا أمكنه، ويرفق فى التغيير جهده بالجاهل، أو ذى العزة الظالم المخوف شره، إذ ذلك أدعى إلى قبول قوله، وامتثال أمره، وأسمع لوعظه وتخويفه، كما يستحب أن يكون متولى ذلك من أهل الفضل والصلاح، لهذا المعنى، ويغلظ على المغتر منهم فى غيه، والمسرف فى بطالته، إذا أمن أن يؤثر إغلاظه منكرا أشد مما غيره، أو كان جانبه محميا عن سطوة الظالم، فإن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكرا أشد منه من قتله أو قتل غيره بسببه، كف يده، واقتصر على القول باللسان، والوعظ والتخويف، فإن خاف أيضا أن يسبب قوله مثل ذلك غير بقلبه، [وكان فى سعة، وهذا هو المراد بالحديث إن شاء الله، وإن وجد من يستعين به على ذلك استعان، ما لم يؤد ذلك إلى إظهار سلاح وحرب، وليرفع ذلك إلى من له الأمر إن كان المنكر من غيره، أو يقتصر على تغييره بقلبه.اهـ.

الحالة الثالثة: أن يكون فاعل المنكر قد فعله وانتهى منه ولم يبق إلا آثاره، كمن شرب الخمر وبقيت آثاره عليه أو من عرف أنه ساكن أعزب وخرجت من عنده امرأة أجنبية ونحو ذلك، ففي هذه الحال ليس هناك وقت للنهي أو التغيير وإنما هناك محل للعقاب والجزاء على فعل هذه المعصية، وهذا الأمر -في الغالب- ليس من شأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر -المتطوع- وإنما

هو شأن ولي الأمر أو نائبه فيرفع أمره للحاكم ليصدر فيه الحكم الموافق للشرع.

قال ابن نجيم كما في البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٥/ ٤٢): وأما بعد الفراغ منها -المعصية- فليس ذلك لغير الحاكم.اهـ.

وللآمر بالمعروف أن يخوفه بالله ويحذره من الوقوع في مثل ذلك مستقبلا، ويذكره بآثار المعاصي السيئة في الدنيا والآخرة.

المطلب الثالث: أن يكون المنكر ظاهرا من غير تجسس

لقد شمل الإسلام جميع جوانب الحياة للمسلم وأعطى كل جانب منها حقه وضمن للإنسان أن يعيش في المجتمع آمنا مطمئنا محترما وموقرا طالما أنه سالك الطريق المستقيم، وأما إذا حاد عن الطريق فإن الإسلام جعل لكل أمر معوج ما يناسبه من التقويم.

ومن الأمور التي شرعها الإسلام لاحترام الإنسان وأمنه النهي عن التجسس عليه.

فلا يجوز لأحد أن يدخل عليه بيته إلا بإذنه يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون) [النور: ٢٧] حتى تسلموا وتستأذنوا وذلك أن يقول أحدهم السلام عليكم أأدخل؟ وهو من المقدم الذي معناه التأخير إنما هو حتى تسلموا وتستأذنوا.

ففي الآية نص من الله تعالى بتحريم الدخول إلى البيوت بغير إذن، بل إن الإسلام حرم أقل من ذلك وهو النظر إلى داخل البيت من أحد ثقوبه أو فتحاته. فأسقط الشارع الحكم حد القصاص والدية عمن فعل ذلك، والدليل حيث أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري (٦٩٠٢)، ومسلم (٢١٥٨) قال: قال أبو القاسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح) وما رخصت عين الجاني إلا لعظمة حرمة المسلم داخل بيته.

وإذا كان الإسلام حرم الدخول إلى البيت والنظر إلى داخله بغير إذن.

فإن الإسلام أيضا حرم التجسس. يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا) [الحجرات: ١٢] الآية. قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ خذوا ما ظهر لكم ودعوا ما ستر الله.

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٣٣٣): ومعنى الآية خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين أي لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله.اهـ.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا) رواه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣).

وفي رواية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا) رواه البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣).

ومعنى التحسس والتجسس قال بعض العلماء: الحسس بالحاء الاستماع لحديث القوم وبالجيم: البحث عن العورات، وقيل بالجيم التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر. والجاسوس صاحب سر الشر، والناموس صاحب سر الخير، وقيل بالجيم أن تطلبه لغيرك وبالحاء أن تطلبه لنفسك قاله ثعلب. وقيل هما بمعنى وهو طلب معرفة الأخبار الغائبة والأحوال.

وعلى كل فإنه إن كان وقع اختلاف في معنى التحسس والتجسس فإن العلماء متفقون على تحريم التجسس بنص الآية الكريمة ولا تجسسوا وبنص حديث رسول الله ﷺ (ولا تجسسوا) وقد سبقت الإشارة إلى موضعها.

وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنك اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم)[1].

فهذا نص صريح من الرسول ﷺ بأن التجسس وتتبع عورات المسلمين من وسائل إفساد المجتمع وقد ورد في ذلك بعض الآثار التي تبين وقوف الصحابة رضي الله عنهم عند هذا الحد، فلم يقدموا عليه بل إذا ما وقع من أحدهم ذلك لاجتهاد ظنه أنكر عليه ذلك.

من ذلك ما ورد عن عبد الرحمن بن عوف قال (حرست ليلة مع عمر بن الخطاب بالمدينة إذ تبين لنا سراج في بيت بابه مجافى على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط. فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى، قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه ولا تجسسوا وقد تجسسنا، فانصرف عمر وتركهم)، وقال أبو قلابة: حدث عمر أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته فانطلق عمر حتى دخل عليه فإذا ليس عنده إلا رجل فقال

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٨)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٤٨)، وابن حبان (٥٧٦٠)، وأبو يعلى (٧٣٨٩)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٩)، والأصبهاني في الترغيب (٦٨٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١١٨)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٤٤٧) وفي الكبرى (١٧٤٠١)، والحديث قال عنه النووي في الرياض (١٠٧٩): حديث صحيح، وقال العراقي في المغني: إسناده صحيح، وكذا قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٣٠٠)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٢٢٩٥)، وقال الشيخ مشهور في تعليقه على كتاب الموافقات (٢/ ٤٥٣): إسناده صحيح.

أبو محجن: إن هذا لا يحل لك. قد نهاك الله عن التجسس فخرج عمر وتركه).

فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر منهي عن التجسس إلا في حالات نادرة سنتحدث عنها في الفقرة التي تلي هذه، لأن من يفعل ذلك ينتهك عدة حقوق أساسية ثابتة شرعا لمن تجسس عليه، منها: حقه في حرمته في مسكنه، وحقه في حرية شخصه باطلاعه على سره، هذا من جهة ومن جهة أخرى يكون المتجسس قد استباح وسيلة محرمة للوصول إلى غاية، وسواء أكانت هذه الغاية محرمة أم مباحة، فإن ذلك محظور؛ لأنها إن كانت محرمة فالوسيلة إليها محرمة، وأما إذا كانت الغاية مشروعة فلا يصح أن يسعى إليها بوسيلة محرمة؛ لأن الغاية تأخذ حكم الوسيلة ...

موقف الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر إذا ظهرت علامات المنكر

عرفنا حكم الإسلام في التجسس وعرفنا أيضا أنه لا يجوز للمسلم أن يجاهر بالمعصية، ولكن ما هو موقف الناهي عن المنكر. إذا ظهرت أمارات المنكر وهو داخل البيت، كأن تفوح رائحة الخمر، أو تسمع آلات الموسيقى والطرب أو تسمع أصوات المغنيات والمطربات ونحو ذلك؟

فذهب بعض العلماء إلى أنه لا يجب الإنكار في هذه الحال.

قال في غذاء الألباب (١/ ٢٦٤): وأما تسور الجدران على من علم اجتماعهم على منكر فقد أنكره الأئمة مثل: سفيان الثوري وغيره وهو داخل في التجسس المنهي عنه.اهـ.

وأما الماوردي في الأحكام السلطانية (ص: ٢٥٢) فيقسم المنكر في هذه الحال إلى قسمين:

الحالة الأولى: أن يكون ذلك في انتهاك حرمة يفوت استدراكها ففي هذه

الحال يجوز للناهي أن يتجسس.

الحالة الثانية: ما خرج عن هذا الحد وقصر عن هذه الرتبة فلا يجوز التجسس عليه وكشف الأستار عنه.اهـ.

وقد استدل القائلون بعدم التجسس على أولئك بالأمر الوارد عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أنه أتي إليه برجل فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرا. فقال: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به) أخرجه أبو داود (٤٨٩٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٨٦)، وعبدالرزاق في المصنف (١٨٩٤٥)، والترمذي في العلل (ص٣٥٧)، والحاكم (٤/ ٤١٨)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٣٣٤) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال النووي في رياض الصالحين (١٥٨٠): رواه أبو داود بإسناد على شرط البخارى ومسلم، وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود، وقال العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٨٤٥): صحيح على شرط الشيخين.

وأيضا عموم الآيات والأحاديث الواردة عن النهي عن ذلك.

وذهب بعض العلماء إلى أنه في هذه الحالة يجوز التجسس عليهم واقتحام البيت إذا تحققت تلك الأمارات.

قال الخلال هنا في أصل الكتاب: أخبرني محمد بن أبي هارون أن مثنى الأنباري حدثهم. قال: سمع أحمد بن حنبل حس طبل في جواره فقام إليهم ونهاهم.

وقال أيضا: أخبرني محمد بن علي الوراق أن محمدا بن أبي حرب حدثهم قال: سألت أبا عبد الله عن الرجل يسمع المنكر في دار بعض جيرانه قال: يأمره. قلت: فإن لم يقبل؟ قال يجمع عليه الجيران ويهول عليه.

وقال أيضا: أخبرني منصور بن الوليد أن جعفر بن محمد النسائي حدثهم قال: سمعت أبا عبد الله سئل عن الرجل يمر بالقوم يغنون. قال: هذا قد ظهر عليه أن ينهاهم.اهـ.

وقال الغزالي في الإحياء (٣ - ٧/ ٣٧): إلا أن يظهر -المنكر- ظهورا يعرفه من هو خارج الدار كأصوات المزامير والأوتار إذا ارتفعت بحيث جاوز ذلك حيطان الدار فمن سمع ذلك فله دخول الدار وكسر الملاهي، وكذا إذا ارتفعت أصوات السكارى بالكلمات بالمألوفة بينهم بحيث يسمعها أهل الشوارع فهذا إظهار موجب للحسبة.اهـ.

وقال ابن الجوزي كما في غذاء الألباب (١/ ٢٦٢): من تستر بالمعصية في داره وأغلق بابه لم يجز أن يتجسس عليه، إلا أن يظهر ما يعرفه كأصوات المزامير والعيدان فلمن سمع ذلك أن يدخل ويكسر الملاهي، وإن فاحت رائحة الخمر فالأظهر جواز الإنكار.اهـ.

والقول الثاني أرجح وهو جواز التجسس ووجوب الإنكار على من جاهر بالمعصية؛ لأن النصوص الواردة في النهي عن التجسس خاصة بمن لم يجاهر بمعصيته، وأما من جاهر بمعصيته فإنه لا يشمله هذا التكريم؛ لأن فعل المجاهر ينتج عنه أمور تخالف قواعد الشرع ونوضح المسألة بما يأتي:

أولا: إن الرسول ﷺ أمر بالتستر وقال: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين) جزء من حديث رواه البخاري (٦٠٦٩).

فبفعله خالف أمر الرسول ﷺ وخرج من العافية.

ثانيا: إنه بفعله هذا يكون قد نزع الحياء الذي شرعه الإسلام للمسلمين كما في حديث البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧) عن عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (الحياء

لا يأتي إلا بخير) وحديث أيضا البخاري (٣٤٨٤) عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (إذا لم تستح فاصنع ما شئت).

ثالثا: إن هذا المجاهر قد ينتج عن فعله هذا ترويج الفاحشة وفعل المنكرات في المجتمع المسلم، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، بل المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة.

رابعا: وأما استدلالهم بخبر ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (وأنه أتي برجل تقطر لحيته خمرا فقال: إنا قد نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به).

فهذا الخبر مردود عليهم من وجهين:

الوجه الأول: إن هذا الخبر يخالف صريح وصحيح قول الرسول ﷺ حيث حدث مثل هذه الصورة وأمر الرسول ﷺ بإقامة الحد عليه، فقد ورد عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند البخاري (٦٧٧٧) (قال أتي النبي ﷺ برجل قد شرب الخمر قال اضربوه قال أبو هريرة: فمنا الضارب بنعله والضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاه الله. قال لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان) فإذا كان هذا في حق من قد شرب الخمر فما هو شأن من تقطر لحيته خمرا؟

الوجه الثاني: إن هذا الخبر لا ينفي أن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أقام الحد عليه أو أمر بإقامته.

فكان ابن مسعود يقول إننا لم نبحث عنه ولم نؤمر بالبحث عنه فلما أن ظهر لنا فعله فسوف نأخذ به. حيث قال ابن مسعود (ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به) وما أشد ظهور المنكر في هذه الصورة.

المطلب الرابع: ألا يكون المنكر من مسائل الإجتهاد

يجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ألا ينكر على الناس في

المسائل المختلف فيها خلافا سائغا كأن تكون هذه المسألة جائزة عند بعض الأئمة وممنوعة عند بعضهم والفاعل لها مقلدا لإمامه المجيز لهذه المسألة مثلا.

وللعلماء في هذه ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه لا ينكر عليه، وهو قول جمهور العلماء.

القول الثاني: أنه ينكر على المقلد دون المجتهد.

القول الثالث: أنه ينكر على كل من أخذ بقول مخالف.

يقول سفيان الثوري كما في حلية الأولياء، (٦ ص٣٦٨): إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه.

وقال أيضا كما في الفقيه والمتفقه، (٢/ ٦٩): ما اختلف فيه الفقهاء فلا أنهى أحدًا من إخواني أن يأخذ به.

وقال الإمام أحمد كما في الآداب الشرعية (١/ ١٨٧) في رواية المروذي: لا ينبغي للفقيه أن يحمل الناس على مذهبه ولا يشدد عليهم.اهـ. وله رواية أخرى خلاف ذلك، فقد قال في رواية الميموني كما في الآداب الشرعية (١/ ١٨٧): في الرجل يمر بالقوم يلعبون بالشطرنج ينهاهم ويعظهم، وقال أبو داود: سمعت أحمد سئل عن رجل مر بقوم يلعبون بالشطرنج فنهاهم فلم ينتهوا فرمى به فقال: قد أحسن.اهـ. فالإمام أحمد أقره على فعله بل أيده عليه مع الخلاف المذكور في الشطرنج.

ولأحمد رواية ثالثة: لا ينكر على المجتهد بل على المقلد، روى إسحاق ابن إبراهيم كما في الآداب الشرعية (١/ ١٨٨) عن الإمام أحمد أنه سئل عن الصلاة في جلود الثعالب، قال: إذا كان متأولا أرجو أن لا يكون به بأس، وإن

كان جاهلا ينهى ويقال له: إن النبي ﷺ نهى عن ذلك.اهـ.

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٢٨٤): فأما المختلف فيه فمن أصحابنا من قال: لا يجب إنكاره على من فعله مجتهدًا أو مقلدًا لمجتهد تقليدًا سائغًا.اهـ.

وقال مهنا كما في الآداب الشرعية، (١/ ١٦٦): سمعت أحمد يقول: من أراد أن يشرب هذا النبيذ يتبع فيه شرب من شربه فليشربه لوحده.

وسئل شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٠٧) عمن يُقلد بعض العلماء في مسائل الاجتهاد فهل يُنكر عليه أم يهجر، وكذلك من يعمل بأحد القولين؟

فأجاب: الحمد لله. مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء لم يُنكر عليه ولم يُهجر، ومن عمل بأحد القولين لم يُنكر عليه، وإذا كان في المسألة قولان، فإن كان الإنسان يظهر له رجحان أحد القولين عمل به، وإلا قلد بعض العلماء الذين يُعتمد عليهم في بيان أرجح القولين.اهـ.

وقال الخلال هنا في أصل الكتاب: أخبرنا عصمة بن عصام حدثنا حنبل قال: قلت لأبي عبد الله: ترى الرجل إذا رأى الرجل لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا يقيم أمر صلاته ترى أن تأمره بالإعادة؟ قال: يحسن صلاته أو نمسك عنه ثم قال إن كان يظن أنه يقبل منه أمره، وقال له ووعظه حتى يحسن الصلاة فإن الصلاة من تمام الدين.اهـ.

وقال أيضا في نفس المصدر السابق: أخبرني الحسن بن عبد الوهاب، أن إسماعيل بن يوسف حدثهم. قال: حدثنا يعقوب حدثنا عبد الرحمن حدثنا محمد بن النضر قال: سأل رجل الأوزاعي قال: من آمر بالمعروف وأنهى عن

المنكر؟ قال: من ترى أنه يقبل منك.اهـ. وفي الغالب من على خلاف مذهبك لا يقبل منك.

وقال الغزالي في الإحياء (٧/ ٣٧، ٣٨): فكل ما هو محل اجتهاد فلا حسبة فيه فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضب والضبع ومتروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذي ليس بمسكر وجلوسه في دار أخذها بشفعة الجوار إلى غير ذلك من مجاري الاجتهاد. نعم لو رأى الشافعي شافعيا يشرب النبيذ فهذا في محل نظر والأظهر أن له الحسبة والإنكار إذ لم يذهب أحد من المحصلين إلى أن المجتهد يجوز أن يعمل بموجب اجتهاد غيره ولا أن الذي أدى اجتهاده في التقليد إلى شخص رآه أفضل العلماء أن له أن يأخذ بمذهب غيره فينتقي من المذاهب أحبها عنده بل على كل مقلد اتباع مقلده في كل تفصيل.اهـ.

وقال أبو الحسن الماوردي في الأحكام السلطانية (ص: ٢٤١): واختلف الفقهاء من أصحاب الشافعي هل يجوز له -المحتسب- أن يحمل الناس فيما ينكره من الأمور التي اختلف الفقهاء فيها على رأيه واجتهاده أم لا؟ على وجهين: أحدهما وهو قول أبي سعيد الاصطخري أن له أن يحمل ذلك على رأيه واجتهاده، فعلى هذا يجب على المحتسب أن يكون عالما من أهل الاجتهاد في أحكام الدين ليجتهد رأيه فيما اختلف فيه.

والوجه الثاني: ليس له أن يحمل الناس على رأيه واجتهاده، ولا يقودهم إلى مذهبه لتسويغ الاجتهاد للكافة، وفيما اختلف فيه، فعلى هذا يجوز أن يكون المحتسب من غير أهل الاجتهاد إذا كان عارفا بالمنكرات المتفق عليها.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٠٧): مسئل الاجتهاد من

عمل فيها بقول بعض العلماء لم ينكر عليه ولم يهجر، ومن عمل بأحد القولين لم ينكر عليه " انتهى.اهـ.

قال أيضا في نفس المصدر السابق (٣٠/ ٨٠): إن مثل هذه المسائل الاجتهادية لا تنكر باليد، وليس لأحد أن يلزم الناس باتباعه فيها، ولكن يتكلم فيها بالحجج العلمية، فمن تبين له صحة أحد القولين: تبعه، ومن قلد أهل القول الآخر فلا إنكار عليه.اهـ.

وقال في بيان الدليل على بطلان التحليل (ص ٢١٠ - ٢١١): وقولهم مسائل الخلاف لا إنكار فيها ليس بصحيح، فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول بالحكم أو العمل.

أما الأول فإذا كان القول يخالف سنة أو إجماعا قديما وجب إنكاره وفاقا. وإن لم يكن كذلك فإنه ينكر بمعنى بيان ضعفه عند من يقول المصيب واحد وهم عامة السلف والفقهاء.

وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره أيضا بحسب درجات الإنكار.

أما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ لم ينكر على من عمل بها مجتهدا أو مقلدا.

وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد، كما اعتقد ذلك طوائف من الناس. والصواب الذي عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد ما لم يكن فيها دليل يجب العمل به وجوبا ظاهرا، مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه، فيسوغ إذا عدم ذلك فيها الاجتهاد لتعارض الأدلة المتقاربة أو لخفاء الأدلة فيها" انتهى باختصار.اهـ. بتصرف.

وقال الإمام ابن القيم في إعلام الموقعين (٣/ ٣٠٠ - ٣٠١): وقولهم: "إن مسائل الخلاف لا إنكار فيها" ليس بصحيح. . . ثم ذكر كلام شيخ الإسلام المتقدم، ثم قال: وكيف يقول فقيه: لا إنكار في المسائل المختلف فيها، والفقهاء من سائر الطوائف قد صرحوا بنقض حكم الحاكم إذا خالف كتابا أو سنة وإن كان قد وافق فيه بعض العلماء؟! وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ لم تنكر على من عمل بها مجتهدا أو مقلدا والمسائل التي اختلف فيها السلف والخلف وقد تيقنا صحة أحد القولين فيها كثير، مثل كون الحامل تعتد بوضع الحمل، وأن إصابة الزوج الثاني شرط في حلها للأول، وأن الغسل يجب بمجرد الإيلاج وإن لم ينزل، وأن ربا الفضل حرام، وأن المتعة حرام، وأن النبيذ المسكر حرام، وأن المسلم لا يقتل بكافر، وأن المسح على الخفين جائز حضرا وسفرا، وأن السنة في الركوع وضع اليدين على الركبتين دون التطبيق، وأن رفع اليدين عند الركوع والرفع منه سنة، وأن الشفعة ثابتة في الأرض والعقار، وأن الوقف صحيح لازم، وأن دية الأصابع سواء، وأن يد السارق تقطع في ثلاثة دراهم، وأن الخاتم من حديد يجوز أن يكون صداقا، وأن التيمم إلى الكوعين (مفصل الكف) بضربة واحدة جائز، وأن صيام الولي عن الميت يجزئ عنه، وأن الحاج يلبي حتى يرمي جمرة العقبة، وأن المحرم له استدامة الطيب دون ابتدائه، وأن السنة أن يسلم في الصلاة عن يمينه وعن يساره: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، وأن خيار المجلس ثابت في البيع، وأن المصراة يرد معها عوض اللبن صاعا من تمر، وأن صلاة الكسوف بركوعين في كل ركعة، وأن القضاء جائز بشاهد ويمين، إلى أضعاف ذلك من المسائل، ولهذا صرح الأئمة بنقض حكم من حكم بخلاف

كثير من هذه المسائل، من غير طعن منهم على من قال بها.

وعلى كل حال فلا عذر عند الله يوم القيامة لمن بلغه ما في المسألة من الأحاديث والآثار التي لا معارض لها إذا نبذها وراء ظهره.اهـ.

وقال النووي كما في الآداب الشرعية (٧/ ١٩٠): إن المختلف فيه لا إنكار فيه لكن إن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق.اهـ.

وقال ابن قدامة المقدسي كما في الآداب الشرعية (١/ ١٨٦): لا ينبغي لأحد أن ينكر على غيره العمل بمذهبه، فإنه لا إنكار على المجتهدات.اهـ.

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٦٦): ولا إنكار فيما يسوغ فيه خلاف من الفروع على من اجتهد فيه أو قلد مجتهدا فيه كذا ذكره القاضي والأصحاب وصرحوا بأنه لا يجوز، ومثلوه بشرب يسير النبيذ والتزوج بغير ولي، ومثله بعضهم بأكل متروك التسمية. وهذا الكلام منهم مع قولهم يحد شارب النبيذ متأولا ومقلدا أعجب لأن الإنكار يكون وعظا وأمرا ونهيا وتعزيرا وتأديبا وغايته الحد، فكيف يحد ولا ينكر عليه أم كيف يفسق على رواية ولا ينكر على فاسق؟

وذكر في المغني أنه لا يملك منع امرأته الذمية من يسير الخمر على نص أحمد لاعتقادها إباحته ثم ذكر تخريجا من أحد الوجهين في أكل الثوم أنه يملك منعها لكراهة رائحته قال وعلى هذا الحكم لو تزوج امرأة تعتقد إباحة يسير النبيذ هل له منعها على وجهين.

وذكر أيضا في مسألة مفردة أنه لا ينبغي لأحد أن ينكر على غيره العمل بمذهبه فإنه لا إنكار على المجتهدات. انتهى كلامه ..... وفي المسألة قول رابع

قال في الأحكام السلطانية: ما ضعف الخلاف فيه وكان ذريعة إلى محظور متفق عليه كربا النقد الخلاف فيه ضعيف وهو ذريعة إلى ربا النساء المتفق على تحريمه وكنكاح المتعة وربما صارت ذريعة إلى استباحة الزنا فيدخل في إنكار المحتسب بحكم ولايته.

ثم ذكر القاضي كلام أبي إسحاق وابن بطة في نكاح المتعة، وقد ذكر أبو الخطاب وغيره ما يدل على أنه يسوغ التقليد في نكاح المتعة.

وقال في الرعاية في نكاح المتعة ويكره تقليد من يفتي بها وقال في الأحكام السلطانية في موضع آخر المجاهرة بإظهار النبيذ كالخمر وليس في إراقته غرم، وقد تقدم كلامه في رواية مهنا، وذكر ابن الجوزي أنه ينكر على من يسيء في صلاته بترك الطمأنينة في الركوع والسجود مع أنها من مسائل الخلاف وقال الشيخ عبد القادر يجب أن يأمره ويعظه.

قال ابن الجوزي واشتغال المعتكف بإنكاره هذه الأشياء وتعريفها أفضل من نافلة يقتصر عليها، وذكر أيضا في المنكرات غمس اليد والأواني النجسة في المياه القليلة قال: فإن فعل ذلك مالكي لم ينكر عليه بل يتلطف به ويقول له يمكنك أن لا تؤذيني بتفويت الطهارة علي.

وفي المسألة قول خامس قال الشيخ تقي الدين والصواب ما عليه جماهير المسلمين أن كل مسكر خمر يجلد شاربه ولو شرب قطرة واحدة لتداو أو غير تداو وقال في كتاب " بطلان التحليل " قولهم ومسائل الخلاف لا إنكار فيها ليس بصحيح فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول بالحكم أو العمل أما الأول فإن كان القول يخالف سنة أو إجماعا قديما وجب إنكاره وفاقا وإن لم يكن كذلك فإنه ينكر بمعنى بيان ضعفه عند من يقول المصيب واحد وهم عامة

السلف والفقهاء.

وأما العمل إذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره أيضا بحسب الإنكار كما ذكرنا من حديث شارب النبيذ المختلف فيه وكما ينقض حكم الحاكم إذا خالف سنة وإن كان قد اتبع بعض العلماء وأما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ فلا ينكر على من عمل بها مجتهدا أو مقلدا.

وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد كما اعتقد ذلك طوائف من الناس الذي عليه الأئمة أن مسائل الاجتهاد ما لم يكن فيها دليل يجب العمل بها وجوبا ظاهرا مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه فيسوغ إذا عدم ذلك الاجتهاد لتعارض الأدلة المقاربة أو لخفاء الأدلة فيها وليس في ذكر كون المسألة قطعية طعن على من خالفها من المجتهدين كسائر المسائل التي اختلف فيها السلف وقد تيقنا صحة أحد القولين فيها مثل كون الحامل المتوفى عنها زوجها تعتد بوضع الحمل، وأن الجماع المجرد عن إنزال يوجب الغسل، وأن ربا الفضل والمتعة حرام وذكر مسائل كثيرة.

وقال أيضا في مكان آخر: إن من أصر على ترك الجماعة ينكر عليه ويقاتل أيضا في أحد الوجهين عند من استحبها، وأما من أوجبها فإنه عنده يقاتل ويفسق إذا قام الدليل عنده المبيح للمقاتلة والتفسيق كالبغاة بعد زوال الشبهة.

وقال أيضا: يعيد من ترك الطمأنينة ومن لم يوقت المسح نص عليه بخلاف متأول لم يتوضأ من لحم الإبل فإنه على روايتين لتعارض الأدلة والآثار فيه.اهـ. من الآداب الشرعية.

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب كما في الدرر السنية (٤/ ٨): فإن أراد القائل مسائل الخلاف، فهذا باطل يخالف إجماع الأمة، فما زال الصحابة ومن بعدهم ينكرون على من خالف وأخطأ كائنا من كان، ولو كان أعلم الناس وأتقاهم، وإذا كان الله بعث محمدا بالهدى ودين الحق، وأمرنا باتباعه، وترك ما خالفه؛ فمن تمام ذلك أن من خالفه من العلماء مخطئ ينبه على خطئه وينكر عليه، وإن أريد بمسائل الاجتهاد مسائل الخلاف التي لم يتبين فيها الصواب فهذا كلام صحيح، ولا يجوز للإنسان أن ينكر الشيء لكونه مخالفا لمذهبه أو لعادة الناس، فكما لا يجوز للإنسان أن يأمر إلا بعلم، لا يجوز أن ينكر إلا بعلم، وهذا كله داخل في قوله تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم).اهـ.

وقال الشوكاني في السيل الجرار (٤/ ٥٨٨): هذه المقالة -أي لا إنكار في مسائل الخلاف- قد صارت أعظم ذريعة إلى سد باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما بالمثابة التي عرفناك، والمنزلة التي بيناها لك، وقد وجب بإيجاب الله ﷻ، وبإيجاب رسوله ﷺ على هذه الأمة، الأمر بما هو معروف من معروفات الشرع، والنهي عما هو منكر من منكراته: ومعيار ذلك الكتاب والسنة، فعلى كل مسلم أن يأمر بما وجده فيهما أو في أحدهما معروفا، وينهى عما هو فيهما أو في أحدهما منكرا، وإن قال قائل من أهل العلم بما يخالف ذلك، فقوله منكر يجب إنكاره عليه أولا، ثم على العامل به ثانيا، وهذه الشريعة الشريفة التي أمرنا بالأمر بمعروفها، والنهي عن منكرها، هي هذه الموجودة في الكتاب والسنة.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في لقاء الباب المفتوح (٤٩/ ١٩٢ - ١٩٣) ردا على من قال: "المسائل الخلافية لا إنكار فيها": لو أننا قلنا: المسائل الخلافية لا

ينكر فيها على الإطلاق لذهب الدين كله؛ لأنك لا تكاد تجد مسألة إلا وفيها خلاف بين العلماء، نضرب مثلًا: رجل مس امرأةً بشهوة، وأكل لحم إبل، ثم قام ليصلي، وقال: أنا أتبع الإمام أحمد في أن مس المرأة لا ينقض الوضوء، وأتبع الشافعي في أن لحم الإبل لا ينقض الوضوء، وسأصلي على هذه الحالة .. فهل صلاته الآن صحيحة على المذهبين؟ هي غير صحيحة؛ لأنها إن لم تبطل على مذهب الإمام أحمد بن حنبل بطلت على مذهب الشافعي، وإن لم تبطل على مذهب الإمام الشافعي بطلت على مذهب الإمام أحمد؛ فيضيع دين الإنسان. والمسائل الخلافية تنقسم إلى قسمين: القسم الأول: اجتهادية يسوغ فيها الخلاف؛ بمعنى: أن الخلاف ثابت حقًا وله حكم النظر، فهذه لا إنكار فيها على المجتهد، أما عامة الناس فإنهم يلزمون بما عليه علماء بلدهم؛ لئلا ينفلت العامة؛ لأننا لو قلنا للعامي: أي قول يمر عليك لك أن تأخذ به، لم تكن الأمة أمة واحدة، ولهذا قال شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العوام على مذهب علمائهم. فمثلًا: عندنا هنا في المملكة العربية السعودية أنه يجب على المرأة أن تغطي وجهها، فنحن نلزم نساءنا بذلك، حتى لو قالت لنا امرأة: أنا سأتبع المذهب الفلاني وكشف الوجه فيه جائز، قلنا: ليس لكِ ذلك؛ لأنكِ عامية ما وصلتِ إلى درجة الاجتهاد، وإنما تريدين اتباع هذا المذهب لأنه رخصة، وتتبع الرخص حرام. أما لو ذهب عالم من العلماء الذي أداه اجتهاده إلى أن المرأة لا حرج عليها في كشف الوجه، ويقول: إن امرأتي سوف أجعلها تكشف وجهها. قلنا: لا بأس، لكن لا يجعلها تكشف الوجه في بلاد يسترون الوجوه، يمنع من هذا؛ لأنه يفسد غيره، ولأن المسألة فيها اتفاق على أن ستر الوجه أولى، فإذا كان ستر الوجه أولى فنحن إذا ألزمناه بذلك لم نكن ألزمناه بما هو حرام على

مذهبه، إنما ألزمناه بالأولى على مذهبه، ولأمر آخر وهو ألا يقلده غيره من أهل هذه البلاد المحافظة، فيحصل من ذلك تفرق وتفتيت للكلمة. أما إذا ذهب إلى بلاده فلا نلزمه برأينا، ما دامت المسألة اجتهادية وتخضع لشيء من النظر في الأدلة والترجيح بينها. القسم الثاني من قسمي الاختلاف: لا مساغ له ولا محل للاجتهاد فيه، فينكر على المخالف فيه؛ لأنه لا عذر له.اهـ.

وقال العلامة العثيمين أيضا في شرح السفارينية (ص٦٩٦، ٧٠٢): شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر مما ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فمن الشروط ما يلي: أن يكون الإنسان عالمًا بأن هذا منكر، يعني أنه قد أنكره الشرع، فلا يجوز أن يحكم بالذوق أو بالعاطفة أو ما أشبه ذلك؛ لأن المرجع في هذا إلى الشرع، والدليل على ذلك قوله تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) (الإسراء: الآية٣٦)

ونضرب مثلًا لذلك بأنه أول ما ظهرت مكبرات الصوت في المساجد، أنكرها بعض الناس، وقال: إن هذا حرام فهذا بوق اليهود تمامًا، ونحن إذا صلينا واستخدمناه فإننا نتشبه باليهود في عبادتنا ولكن الصواب أن هذا ليس من أبواق اليهود، وليس هذا إلا نقل الصوت على وجه أوسع فقط، وكما أن الإنسان يضع نظارة على عينه فتكبر الحروف، فإنه هنا يضع إمامه لاقطة تكبر الصوت، ولا فرق، إذًا فلابد أن يعلم من ينهى أن هذا الذي ينهى عنه محرم، حتى إننا رأينا أيضًا من يقول: إنه يحرم على الإنسان تحريمًا باتا قاطعًا أن يستمع إلى القرآن من الشريط المسجل؛ لأن الشريط المسجل ليس له أجر، وأنت لابد أن تستمع إلى إنسان يؤجر فتؤجر معه، وهذه تعاليل عليلة، ثم يذهب هؤلاء ينكرون حتى على أهلهم إذا دخلوا بيوتهم ورأوهم يستمعون إلى القرآن

وهذا غير صحيح.

إذًا لابد أن نعلم أن هذا الذي ننكره أنكره الشرع، ثم إننا إذا رأينا من يفعل منكرًا في رأينا، لكنه ليس منكرًا عند غيرنا، ونحن نعلم أن هذا الرجل الذي تلبس بما نراه محرمًا يرى أنه حلال، فإنه لا يلزمنا أن ننكر عليه ما دامت المسألة فيها مجال للاجتهاد.

مثال ذلك: إذا رأينا رجلا يرمي الجمرات في الليل، ونحن نرى أنه لا يرمى بالليل في أيام التشريق، وكنا نعرف أن هذا الرجل يرى أنه يجوز الرمي ليلًا، فلا يجب علينا أن ننكر عليه؛ لأن المسألة فيها مجال للاجتهاد فلا ننكر عليه.

وكذلك إذا رأينا رجلا يشرب الدخان، وهو يرى بدليل شرعي أنه حلال، فلا يجب أن ننكر عليه ما دمنا نعلم أنه يقول: إنه حلال؛ لأن هذا فيه مجال للاجتهاد.

وكذلك إذا رأينا امرأة كاشفة وجهها، وهي ترى أنه يجوز كشف الوجه للرجال الأجانب فلا ينكر عليها لأنها تعتقد أن هذا هو الدين، لكن لنا أن نمنعها إذا كانت في بلد محافظ وأهله يرون أنه لابد من تغطية الوجه، ولا يكون ذلك من جهة أنه حرام عليها في الشرع لأنها تعتقد أنه حلال، لكن من جهة أن هذا يفسد علينا النساء.

ولهذا قال العلماء رحمهم الله: يجوز أن نقر أهل الذمة على شرب الخمر ما لم يعلنوه في أسواقنا، فإن أعلنوه منعناهم للإعلان لا لأنه حرام؛ لأنهم معتقدون أنه حلال، وهذه المسألة يجب التفطن لها. صحيح أننا لا ننكر على غيرنا اجتهاده ما دامت المسألة فيها مساغ للاجتهاد، لكننا نمنع ما يكون ضررًا علينا.

إذًا لابد أن نعلم أن هذا الذي ننكره منكر، ولابد أيضًا أن يكون الذي ننكر

عليه يرى أنه منكر، فإن كان لا يرى أنه منكر، وهو مما يسوغ فيه الاجتهاد فإنه لا يلزمنا أن ننهى عنه؛ لأن الدين يسر، والصحابة رضي الله عنهم وهم أجل منا قدرًا وأحب للائتلاف والاجتماع منا، لا ينكر بعضهم على بعض في مسائل الاجتهاد، وإن كان الحاكم منهم الذي يتولى الحكم قد ينكر على غيره الاجتهاد خوفًا من أن يشيع في المجتمع، كما أنكر أحدهم على عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في مسألة المتعة؛ لأن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يرى جواز المتعة للضرورة، ولكن القول الذي عليه أهل العلم - عامتهم أو أكثرهم - أنه لا يجوز للضرورة؛ لأنه يمكن للإنسان أن يعقد النكاح عقدًا شرعيًا.

ومن الشروط: أن نعلم أن هذا الفاعل فاعل للمنكر وهو منكر في حقه؛ لأنه قد يكون منكرًا عندنا وعنده، ولكنه في حال يباح له أن يمارس هذا المحرم، والدليل على ذلك قوله تعالى: (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) (الإسراء: الآية٣٦)

مثال ذلك: (إنسان يأكل لحم ميتة) عند الجميع، لكن هذا الرجل مضطر إن لم يأكل مات، فلا ننكر عليه إذا أكل، إذًا لابد أن نعلم أن هذا الفاعل للمنكر قد فعله وهو منكر في حقه.

وكذلك نقول في الأمر بالمعروف: إنه لابد أن نعلم أن هذا التارك للمعروف تركه وهو معروف في حقه، ولهذا لما دخل الرجل والنبي ﷺ يخطب وجلس، فلم يأمره النبي ﷺ بداية، بل سأله ﷺ أولًا قال: أصليت؟ قال: لا، إذًا لا نأمر بالمعروف حتى نعرف أن هذا الذي تركه في حال يؤمر فيها؛ لأنه قد تقول لرجل دخل المسجد: قم صل، فيقول صليت، ففي هذا تسرع والأولى أن تسأله أولًا.

ومثل ذلك يقال في الواجب؛ فلو أن رجلًا أكل لحم إبل، وقام يريد أن

يصلي، وترك الوضوء مع أن وضوءه من لحم الإبل معروف، فإذا كنت أعلم أن يرى أنه لا يجب الوضوء منه فلا آمره؛ لأنه يقول: أنا لا أرى الوجوب.

إذًا لابد أن نعلم أن هذا التارك للمعروف يرى أنه معروف، أما إذا كان لا يرى أنه معروف، ويقول: الأمر ليس للوجوب فلا آمره. لكن لي أن آمره على سبيل الاستحباب، فأقول: يا أخي أنت ترى أنه ليس واجبًا، لكن الاحوط والأولى بك أن تتوضأ ..... وقول بعض العلماء رحمهم الله: لا إنكار في مسائل الاجتهاد، مبني على ما ذكرنا من الشروط؛ وذلك لأن المسائل الاجتهادية ليس فيها إنكار ما دام يسوغ فيها الاجتهاد، أما ما لا يسوغ فيه الاجتهاد فإنه ينكر على فاعله، ولو قال: لقد أدى بي اجتهادي إلى كذا وكذا، يقال: لا محل للاجتهاد والنص في صريح.

فلو قال قائل في قوله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ) (المائدة: الآية٣) لا حرج في أكل ميتة الظبي والأرنب لأن الله تعالى قال: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ) (المائدة: الآية٣) بعد أن قال: (أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ) (المائدة: الآية١) فيكون معنى الآية حرمت عليم الميتة من بهيمة الأنعام، وزعم أنه مجتهد في ذلك؟

فيجاب عليه بأن هذا لا يسوغ فيه الاجتهاد؛ لأن العلماء رحمهم الله مجمعون على أن جميع الميتات حرام، وما لا يسوغ فيه الاجتهاد لو زعم فاعله أنه مجتهد فيه، قلنا له: لا قبول.

والذين أنكروا صفات الله ﷻ إما كلية أو جزئية، ننكر عليهم. فإذا قالوا: هذا اجتهادنا، وعقولنا ترفض أن تكون لله عين أو يد أو وجه أو قدم، نقول: إن المرجع في الأمور الغيبية إلى النقل المجرد لا إلى العقول، فالشيء الغيبي عنك

كيف تحكم عقلك فيه؟! ثم هو شيء غيبي أيضًا لا يمكن إدراكه، قال تعالى: (وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) (طه: الآية١١٠) فهذا لا يسوغ فيه الاجتهاد، ثم أين الاجتهاد في هذا في عهد الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ التابعين؟

وعلى ذلك فقول بعض العلماء: (لا إنكار في مسائل الاجتهاد) ليس على إطلاقه، بل المراد ما يمكن أن يجتهد فيه، وأما ما لا يمكن ففيه الإنكار.

(فرع): هل يشرع للمحتسب حمل الناس على وجه مشتهر من أوجه الخلاف

للعلماء في ذلك قولان:

القول الأول: ليس للمحتسب أن يحمل الناس على وجه مشتهر من أوجه الخلاف.

القول الثاني: له أن يحمل الناس على وجه مشتهر من أوجه الخلاف.

وفيما يلي أعرض أقوال العلماء في ذلك.

أقوال أصحاب القول الأول:

قال الماوردي كما في الأحكام السلطانية (ص٢٤٣): فأما المتعلق بحقوق الله عَزَّ وَجَلَّ ... وإن كانوا عددا اُخْتُلِفَ في انعقاد الجمعة بهم .. الحالة الثالثة أن يرى القوم انعقاد الجمعة بهم ولا يراه المحتسب فلا يجوز له أن يعارضهم فيها .. ولا يجوز أن ينهاهم عنها ويمنعهم مما يرونه فرضًا عليهم.

وقال (ص٢٤٥): ولكن لو كانت الجماعات في بلد قد اتفق أهله على تأخير صلواتهم إلى آخره، والمحتسب يرى فضل تعجيلها فهل له أن يأمرهم بالتعجيل؟ على وجهين.

وقال: فأما الأذان والقنوت في الصلوات إذا خالف فيه رأي المحتسب فلا اعتراض له فيه بأمر ولا نهي.

ونص أيضًا في مثل ذلك على الاقتصار على مسح أقل الرأس أو العفو على قدر الدرهم من النجاسات فلا اعتراض له في شيء من ذلك بأمر ولا نهي.

وقال الشاطبي في الموافقات، (١/ ٢٣٧): ولا ينقض حكم الحاكم لمصلحة الفصل في الخصومات وإن أدى إلى الحكم بما ليس بمشروع ولو كان حكمه خطأ، إلا إذا خالف إجماعًا أو نصًا أو قاعدة شرعية.

قال الماوردي في الأحكام السلطانية (ص٢٤١): واختلف الفقهاء من أصحاب الشافعي هل يجوز له أن يحمل الناس فيما ينكره من الأمور التي اختلف الفقهاء فيها على رأيه واجتهاده أم لا؟ على وجهين .. والوجه الثاني ليس له أن يحمل الناس على رأيه واجتهاده ولا أن يقودهم إلى مذهبه لتسويغ الاجتهاد للكافة وفيما اختلف فيه.

وقال النووي في شرح مسلم (٢/ ٢٤): والأصح أنه لا يغيره .. ولم يزل الخلاف في الفروع بين الصحابة والتابعين فمن بعدهم رضي الله عنهم أجمعين، وكذلك قالوا: ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نصًا أو إجماعًا أو قياسًا جليًا.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٧٩): "... لا يقلْ أحد إنه يجب على صاحب مذهب أن يتبع مذهب غيره لكونه حاكمًا، فإن هذا ينقلب فقد يصير الآخر حاكمًا فيحكم بأن قوله هو الصواب، فهذا لا يمكن أن يكون كل واحد من القولين المتضادين يلزم جميع المسلمين اتباعه.

وقال في مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٧٨): وأما من يقول: إن الذي قلته هو قولي أو قول طائفة من العلماء المسلمين، وقد قلته اجتهادًا أو تقليدًا، فهذا باتفاق المسلمين لا تجوز عقوبته ولو كان قد أخطأ خطًا مخالفًا للكتاب

والسنة، ولو عوقب هذا لعوقب جميع المسلمين، فإنه ما منهم من أحد إلا وله أقوال اجتهد فيها أو قلد فيها وهو مخطئ فيها، فلو عاقب الله المخطئ لعاقب جميع الخلق والله تعالى يقول: "لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا"، ويقول سبحانه: "رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا" [٢٠٣]) البقرة، الآية ٢٨٦.

ويقول أيضا في مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٨٠): فكيف يسوغ لولاة الأمر أن يمكنوا طوائف المسلمين من اعتداء بعضهم على بعض وحكم بعضهم على بعض بقوله ومذهبه، هذا مما يوجب تغير الدول وانتقاضها، فإنه لا صلاح للعباد على مثل هذا.

وسُئل كما في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٧٩) عمن ولي أمر المسلمين ومذهبه لا يجوز شركة الأبدان فهل يجوز له منع الناس؟.

فأجاب: ليس له منع الناس من مثل ذلك ولا من نظائره مما يسوغ فيه الاجتهاد، وليس معه بالمنع نص من كتاب ولا سنة، ولا إجماع، ولا هو في معنى ذلك.

وقال في مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٧٢): ولا يجب على عالم من علماء المسلمين أن يقلد حاكمًا لا في قليل ولا في كثير إذا كان قد عرف ما أمر الله به رسوله، بل لا يجب على آحاد العامة تقليد الحاكم في شيء، بل له أن يستفتي من يجوز له استفتاؤه وإن لم يكن حاكمًا.

قال أبو يعلى في الأحكام السلطانية (ص٢٩٧): وأما ما اختلف الفقهاء في حظره وإباحته فلا مدخل في إنكاره إلا أن يكون مما ضعف الخلاف فيه.

أقوال أصحاب القول الثاني القائل بأن للمحتسب أن يحمل الناس على وجه مشتهر من أوجه الخلاف:

قال الماوردي في السلطانية (ص٢٤١): واختلف الفقهاء من أصحاب الشافعي هل يجوز له أن يحمل الناس فيما ينكره من الأمور التي اختلف الفقهاء فيها على رأيه واجتهاده أم لا؟

على وجهين: أحدهما: وهو قول أبي سعيد الاصطخري أن يحمل ذلك على رأيه واجتهاده.

حكي أن أبا سعيد الاصطخري من أصحاب الشافعي تقلد حسبة بغداد في أيام المقتدر فأزال سوق الدادي ومنع منها، وقال: لا يصلح إلاَّ للنبيذ المحرم وأقر سوق اللعب ولم يمنع منها.

وأما المجاهرة بإظهار النبيذ؛ فعند أبي حنيفة: أنه من الأموال التي يقر المسلمين عليها فيمتنع من إراقته ومن التأديب على إظهاره، وعند الشافعي: أنه ليس بمال كالخمر وليس في إراقته غرم، فيعتبر والي الحسبة بشواهد الحال فيه، فينهى فيه عن المجاهرة ويزجر عليها إن كان لمعاقرة، ولا يريقه عليه إلا أن يأمره بإراقته حاكم من أهل الاجتهاد. الأحكام السلطانية (ص٢٥١).

قال مهنا كما في الآداب الشرعية (١/ ١٦٦): سمعت الإمام أحمد يقول: من أراد أن يشرب هذا النبيذ يتبع فيه شرب من شربه فليشربه وحده. أي لا يجاهر بشربه.

وفي الأحكام السلطانية (ص٢٥١) لأبي يعلى: وأما المجاهرة بإظهار الملاهي المحرمة فعلى المحتسب أن يفصله حتى تصير خشبًا لتزول عن حكم الملاهي ويؤدب على المجاهرة بها ولا يكسرها إن كان خشبها يصلح لغير الملاهي.

فأما المتعلق بحقوق الله ﷻ فضربان: أحدهما: يلزم الأمر به في الجماعة

دون الانفراد كترك الجمعة في وطن مسكون .. أو أن يرى المحتسب انعقاد الجمعة بعدد لا يراه القوم، فهذا مما في استمرار تركه تعطيل الجمعة مع تطاول الزمان وبعده وكثرة العدد وزيادته، فهل للمحتسب أن يأمرهم بإقامتها اعتبارًا بهذا المعنى أم لا؟.

على وجهين لأصحاب الشافعي رضي الله عنه: أحدهما: وهو مقتضى قول أبي سعيد الاصطخري أنه يجوز أن يأمرهم بإقامتها اعتبارًا بالمصلحة لئلا ينشأ الصغير على تركها فيظن أنها تسقط مع زيادة العدد كما تسقط بنقصانه.

فقد راعى زياد مثل هذا في صلاة الناس في جامعي البصرة والكوفة، فإنهم كانوا إذا صلوا في صحنه فرفعوا من السجود مسحوا جباههم من التراب، فأمر بإلقاء الحصى في صحن المسجد الجامع، وقال: لست آمن أن يطول الزمان فيظن الصغير إذا نشأ أن مسح الجبهة من أثر السجود سُنة في الصلاة الأحكام السلطانية (ص٢٤٣، ٢٤٤).

قال ابن القيم في الطرق الحكمية (ص٢٨٠): ومن ذلك: أن ولي الأمر يجب عليه أن يمنع من اختلاط الرجال بالنساء في الأسواق والفرح، ومجامع الرجال.

وقال مالك كما في مواهب الجليل (٣/ ٤٠٥): أرى أن يتقدم إلى الصناع في قعود النساء إليهم، ولا تُترك الشابة تجلس إلى الصناع، وأما المتجالة والخادم الدون، ومن لا يتهم على القعود عنده، فلا بأس بذلك، وهو كله صواب.

وأيضا في المصدر السابق: ولا يمنعن من الخروج والمشي في حوائجهن ولو كن معتدات، وإلى المسجد، وإنما يمنعن من التبرج والتكشف والتطيب للخروج والتزين، بل يخرجن وهن منتقبات، ولا يخففن في المشي في

الطرقات، بل يلصقن بالجدران.

قال الإمام ابن القيم في الطرق الحكمية (ص٢٨٠، ٢٨١): فالإمام مسؤول عن ذلك، والفتنة به عظيمة، قال ﷺ: "ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء".

ويجب عليه منع النساء من الخروج متزينات متجملات، ومنعهن من الثياب التي يكن بها كاسيات عاريات، كالثياب الضيقة والرقاق ومنعهن من حديث الرجال في الطرقات، ومنع الرجال من ذلك.

وإن رأى ولي الأمر أن يُفسد على المرأة - إذا تجملت وتزينت وخرجت - ثيابها بحبر ونحوه فقد رخص في ذلك بعض الفقهاء وأصاب. وهذا من أدنى عقوبتهن المالية.

وله أن يحبس المرأة إذا أكثرت الخروج من منزلها ولاسيما إذا خرجت متجملة، بل إقرار النساء على ذلك إعانة لهن على الإثم والمعصية، والله سائل ولي الأمر عن ذلك، وقد منع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه النساء من المشي في طريق الرجال، والاختلاط بهم في الطريق، فعلى ولي الأمر أن يقتدي به في ذلك.

وقال الخلال في جامعه: أخبرني محمد بن يحيى الكحال: أنه قال لأبي عبدالله: أرى الرجل السوء مع المرأة؟ قال: صِح به.

وقد أخبر النبي ﷺ أن المرأة إذا تطيبت وخرجت من بيتها فهي زانية.

وتمنع المرأة إذا أصابت بخورًا أن تشهد عشاء الآخر في المسجد، فقد قال النبي ﷺ: "المرأة إذا خرجت استشرفها الشيطان".

ولاريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشر، وهو

من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة، واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا، وهو من أسباب الموت العام والطواعين المتصلة.

فمن أعظم أسباب الموت العام كثرة الزنا، بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال، والمشي بينهم متبرجات متجملات ولو علم أولياء الأمر ما في ذلك من فساد الدنيا -والرعية- قبل الدين لكانوا أشد شيء منعًا لذلك.اهـ.

وفي الآداب الشرعية، (١/ ٦٢): وإن دعا الإمام العامة إلى شيء وأشكل عليهم لزمهم سؤال العلماء فإن أفتوا بوجوبه قاموا به، وإن أخبروا بتحريمه امتنعوا عنه، وإن قالوا هو مختلف فيه، وقال الإمام يجب، لزمهم طاعته كما تجب طاعته في الحكم.

مسألة: درجات النهي عن المنكر

المبحث الأول القدرة والاستطاعة وضابطهما

المطلب الأول: القدرة والاستطاعة

إن من فضل الله تعالى على خلقه أن جعل دين الإسلام دين الواقعية، فهو لا يطالب المسلمين بأمور فوق طاقتهم لا يستطيعون فعلها أيا كان هذا المأمور به، فإما أن يسقط كلية أو يخفف إلى درجة تتناسب مع قدرات هذا الشخص، ولقد جاءت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة موضحة ذلك أوضح بيان. يقول تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} [البقرة: ٢٨٦]، ويقول تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم} [التغابن: ١٦].

ويقول تعالى: {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} [البقرة: ١٨٥].

ويقول ﷺ (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) رواه البخاري (٧٢٨٨)، فهذه النصوص الشرعية تبين بوضوح أن الإنسان لا يكلف فوق طاقته في أي أمر من أمور الشرع، وما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا جزء من أوامر الشرع، ومدار هذا البحث على حديث رسول الله ﷺ والذي يقول فيه: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) رواه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، فهذا نص صريح من المصطفى ﷺ بأن المغير للمنكر لا يلزمه إزالته بطريقة واحدة، بل عليه أن يغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أقل الأحوال.

يقول الجصاص في أحكام القرآن (٢/ ٣٦) حول قوله ﷺ (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده) أخبر النبي ﷺ أن إنكار المنكر على هذه الوجوه الثلاثة على حسب الإمكان، ودل على أنه إن لم يستطع تغييره بيده فعليه تغييره بلسانه، ثم إن لم يكن ذلك فليس عليه أكثر من إنكاره بقلبه.اهـ.

وقال النووي في شرح مسلم (٢/ ٢٥): وأما صفة النهي ومراتبه فقد قال النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه فقوله ﷺ فبقلبه معناه فليكرهه بقلبه وليس ذلك بإزالة وتغيير منه للمنكر ولكنه هو الذي في وسعه.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: هل يجب علي إنكار المنكر إذا رأيت إنسانًا مسبلًا أو حالق لحيته أو شارب دخان أو سامع أغانٍ يجب علي إنكار كل منكر كأن أكون في المسجد مثلًا في الحرم وأرى كثيرًا مسبلين؟

فأجاب: (فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) [التغابن:١٦] الواجب إنكار كل منكر على كل فاعله، لكن (فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) [التغابن:١٦] لأن كون الإنسان مثلًا في مجتمع أكثرهم حالقو لحاهم ليس من المستطاع أن الإنسان يمسك كل شخص ويقول: هذا حرام، لكن اتق الله ما استطعت، ربما إذا جمعك مجلس مع أحد من هؤلاء تنصحه.اهـ.

ويدخل في عدم القدرة ما يلي:

١- العجز الحسي. **٢**- العجز المعنوي.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يماثل الجهاد والدعوة إلى الله أو هما معا، لذا فإنه كلما تتوفر القدرة العلمية والجسمية فإن عطاءه ونفعه يكون أكثر، وكلما نقص لديه جانب من الجوانب ذات الصلة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن نفعه يكون أقل، لذا اشترط العلماء لإيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القدرة الحسية والمعنوية.

أولا: العجز الحسي: فيشترط في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر سلامة جسمه وقوته وكمال حواسه فلا يلزم الأخرس والأصم والأعمى بما لا يعلمون أنه منكر، أو لا يستطيعون إنكاره لفقد تلك الحواس أو بعضها.

كذلك ضعيف الجسم وهزيله الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه أو لا يتحمل الأذى.

وكذلك لا يلزم من يخشى على ماله وعرضه من النهب أو الانتهاك إذا أمر أو نهى أو نحو ذلك.

ثانيا: الجانب المعنوي: فيشترط في المحتسب أن يكون عالما عارفا بأحكام الشرع وعالما بالمنكرات، فيعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها،

حيث إن الحسبة أمر بمعروف ونهي عن منكر، فلابد أن يعرف حدود المعروف وحدود المنكر فإذا كان عالما فإنه يعرف مراتب كل منهما.

يقول الشيرازي في نهاية الرتبة في طلب الحسبة (ص٦): لما أن كانت الحسبة أمرا بمعروف ونهيا عن منكر وإصلاحا بين الناس وجب أن يكون المحتسب فقيها عارفا بأحكام الشريعة؛ ليعلم ما يأمر به وينهى عنه. فإن الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، ولا مدخل للعقول في معرفة المعروف والمنكر إلا بكتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ ورب جاهل يستحسن بعقله ما قبحه الشرع، ويرتكب المحظور وهو غير عالم به.اهـ.

وقال النووي في شرح مسلم (١/ ٥١): إنما يأمر وينهى من كان عالما بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها. وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء.اهـ.

إذا فليس على العامي إنكار فيما يحتاج إلى علم أو اجتهاد بل يسقط عنه الأمر والنهي في هذه الحالة. ولكن يلزمه أن ينكر الأمور التي لا يعذر أحد بجهلها كترك الصلاة وفعل الزنا وشرب الخمر ونحو ذلك.

يقول الغزالي في الإحياء (٧/ ٢٨): العامي ينبغي له أن لا يحتسب إلا في الجليات المعلومة، كشرب الخمر، والزنا، وترك الصلاة، فأما ما يعلم كونه معصية بالإضافة إلى ما يطيف به من الأفعال ويفتقر فيه إلى الاجتهاد فالعامي إن خاض فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.اهـ.

المطلب الثاني: ضابط الاستطاعة

لا شك أن ضابط الاستطاعة ليس له ميزان دقيق، فالأشخاص يختلفون،

فهذا يقدر على أمور لا يستطيعها شخص آخر، وهذا قد أعطاه الله قوة في العلم والجسم وآخر قد فقدها أو أحدهما. فالضابط الحقيقي متروك لضمير الشخص نفسه. ولكن مع ذلك ينبغي أن يكون هناك حد أدنى يقف عنده الناس حتى لا يكون مبدأ عدم القدرة وسيلة لترك الأمر والنهي فهناك أمور يجب أن لا تصد الناس عن الأمر والنهي. فمثلا الخوف من اللوم أو السب والشتم ونحو ذلك. فلا يعذر أحد من الناس بسبب ذلك لأنه بسيط وهو في ذات الله تعالى. ولقد أثنى الله سبحانه وتعالى على الذين يجاهدون في سبيله ولا يخافون فيه لومة لائم.

يقول تعالى: (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لآئم) [المائدة: ٥٤].

يقول ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٠): أي لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله تعالى وإقامة الحدود وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم ولا عذل عاذل.اهـ.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: (بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم) رواه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٨٤٠).

قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٤٨): أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى، فإن ذلك لا ينبغي أن يمنعه من تغييره.اهـ.

قال الغزالي في الإحياء (٧/ ٣٣): ولو تركت الحسبة بلوم لائم أو باغتياب فاسق أو شتمه أو تعنيفه أو سقوط المنزلة عن قلب أمثاله لم يكن للحسبة

وجوب أصلا إذ لا تنفك الحسبة عنه.اهـ. بتصرف

فينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن لا يلتفت لهذه الأمور الصغيرة فإنها تعد قشورا بسيطة تصيبه في ذات الله وهو مع ذلك لا يعتبر قدم شيئا يذكر، وكان الأولى له والأفضل أن يقدم نفسه رخيصة في سبيل الله.

ويجب أن يعرف المسلم أن عذر الشارع في عدم النهي عن المنكر إذا خاف الإنسان على نفسه رخصة، وأما طريقة العزيمة والفضل فهو أن يقدم الإنسان نفسه وما يملك من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، دون أن يتراجع عن كلمة الحق مهما كلفته؛ لأن الشارع رغب في ذلك.

وفي الحديث (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) ورد من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي أمامة، وطارق بن شهاب، وجابر ابن عبد الله، والزهري مرسلا والحديث حسنه الترمذي (٢١٧٤)، وحسنه البغوي في شرح السنة (٥/ ٣١٤)، وصححه النووي في رياض الصالحين (١١٧)، وقال السخاوي في المقاصد (٩٣) له طرق، وصححه الشوكاني في الفتح الرباني (١١/ ٥٤٤٦)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٤٩١)، وحسنه لغيره الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند.

فهذ الحديث وغيره يفيد أن الإنسان مأجور عندما يصدع بكلمة الحق ويأمر وينهى، ولو أدى ذلك إلى هلاكه وتعذيبه؛ لأن نتيجة الكلمة الصادقة عند السلطان الجائر معروفة.

يقول العمري كما في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص: ٢٦٢، ٢٦٣): لا شك أن التضحية بالنفس والنفيس في سبيل الجهر بكلمة الحق ليست بأمر سهل ترغب فيه النفوس فهي تطلب حبا قويا وإخلاصا عميقا،

وعزيمة صادقة وهمة بعيدة. ولكن مما لا شك فيه أيضا أن أصحاب العزيمة وأهل الإخلاص هم أرفعهم عند الله درجة وأعلاهم مكانة .... ثم يقول: هذه الأمة التي ألقى الله على كواهلها مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي عليها أن تصلح أمرها بنفسها لها تاريخ مشرق مجيد في الصدق والجرأة والشهامة والصدع بالحق، ولئن وجدت فيه من سكت عن المنكر وما قوي على إظهار المعروف لضعف إيمانه، فلا تستقل عدد أولي العزم وأصحاب الهمم الذين تصدوا للباطل وشهدوا بالحق في ظلال السيوف وذلك هو الذي ما زال يضمن للأمة، حياتها وبقاءها وإن فقدت كافة الأمة يوما هذه الروح -روح التضحية والفداء والتفاني- كان أشأم يوم في تاريخها وانقطعت عنها رحمة الله ولم يحل بينها وبين هلاكها شيء وسقطت في الدرك الأسفل إلى هاوية الانحطاط.اهـ.

(تنبيه) يشرع الأمر والنهي ولو خاف على نفسه الهلاك، وذلك إذا كان يترتب على ذلك هداية طائفة من الناس إذا قال كلمة الحق، أو ضلالهم إذا سكت. فهنا يشرع له أن يقول كلمة الحق ولو أدى ذلك إلى قتله، والدليل على ذلك قصة الغلام مع الملك التي رواها صهيب عن النبي ﷺ في حديثه الطويل وفيها (... فقال -الغلام- للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به قال وما هو؟ قال تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل باسم الله رب الغلام ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال باسم الله رب الغلام ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات فقال

الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام ...) رواه مسلم (٣٠٠٥).

فهذا الغلام ضحى بنفسه لعلمه أنه سيهتدي بعده آلاف الناس وقصة الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشهورة. حيث ثبت على قوله الحق في أن القرآن منزل غير مخلوق لعلمه أن الناس سيقتدون به، ولو قال إنه مخلوق تورية لضل بذلك خلق كثير.

مسألة: إذا دعي إلى مكان فيه منكرا

قال البخاري قبل حديث رقم (٥١٨١) (باب: هل يرجع إذا رأى منكرا في الدعوة)، ثم قال: ورأى ابن مسعود صورة في البيت فرجع.

ودعا ابن عمر أبا أيوب فرأى في البيت سترا على الجدار. فقال ابن عمر: غلبنا عليه النساء. فقال: من كنت أخشى عليه فلم أكن أخشى عليك، والله لا أطعم لكم طعاما. فرجع، ثم ساق بسنده من حديث عائشة أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله ﷺ قام على الباب فلم يدخل، فعرفت في وجهه الكراهة فقلت: يا رسول الله: أتوب إلى الله وإلى رسوله، ماذا أذنبت. فقال رسول الله ﷺ ما بال هذه النمرقة؟ قالت: فقلت: اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها. فقال رسول الله ﷺ إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة .. ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم وقال: إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة).اهـ.

وقال ابن ماجه: (باب إذا رأى الضيف منكرا رجع). وذكر حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (صنعت طعاما فدعوت رسول الله ﷺ فجاء فرأى في البيت تصاوير فرجع) أخرجه ابن ماجه (٢٧٢٤) وغيره والحديث قال عنه البزار في البحر

الزخار (٢/ ١٥٧): من أحسن إسناد يروى عن علي، وإسناده صحيح، وقال الشوكاني في النيل (٦/ ٣٣١): إسناد رجاله رجال الصحيح وله شواهد، وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجه، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤/ ٤٥٤): إسناده صحيح.

وأورده أيضا من حديث سفينة، أبي عبد الرحمن، قال: (إن رجلا أضاف علي بن أبي طالب فصنع له طعاما، فقالت فاطمة: لو دعونا النبي ﷺ فأكل معنا، فدعوه فجاء، فوضع يده على عضادتي الباب، فرأى قراما في ناحية البيت فرجع، فقالت فاطمة لعلي: الحق، فقل له ما رجعك يا رسول الله؟ قال: إنه ليس لي أن أدخل بيتا مزوقا)[١].

وقد ذهب الإمام أحمد كما في الورع (ص: ١٣٧)، وفي كشاف القناع (٥/ ١٧٠ - ١٧١) إلى أنه يخرج من الوليمة إذا وجد جدران البيت قد سترت، وكذا إذا استعمل صاحب الوليمة آنية الفضة أو الذهب، أو رأى في البيت شيئا من ذلك المستعمل.اهـ.

قال المروذي كما في الورع (ص١٣٧): قلت لأبي عبد الله: فالرجل يدعى فيرى مكحلة رأسها مفضض؟ قال: هذا يستعمل، وكل ما استعمل فاخرج منه.اهـ.

وقال المروذي كما في الورع (ص١٣٨): سألت أبا عبد الله عن الرجل

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٠)، وأبو داود (٣٧٥٥)، وابن ماجة (٣٣٦٠)، والبيهقي في الكبرى (١٤٣٣٧) والحديث قال عنه العراقي في المغني (٤/ ٢٩٣): إسناده جيد، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٢٤١١)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الصحيح غير سعيد بن جمهان فهو صدوق من رجال السنن.

يدعى فيرى فرش ديباج، ترى أن يقعد عليه أو يقعد في بيت آخر؟! قال: يخرج، قد خرج أبو أيوب وحذيفة.اهـ.

وجاء عن أبي مسلم الخولاني كما في الورع (ص١٣٩): أنه انصرف إلى منزله فإذا هو بالبيت قد ستر، فقال: إن بيتكم هذا ليجد القر فأدفئوه، وإلا فلا أبرح حتى تنزعوه، فنزعوا الستور ثم دخل.اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣١٨ - ٣١٩): وروى أبو بكر الخلال بإسناده عن محمد بن سيرين أن حذيفة بن اليمان أتى بيتا فرأى فيه حارستان، فيه أباريق الصفر والرصاص فلم يدخله وقال: من تشبه بقوم فهو منهم، وفي لفظ آخر: فرأى شيئا من زي العجم فخرج وقال: من تشبه بقوم فهو منهم.

وقال علي بن أبي صالح السواق: كنا في وليمة، فجاء أحمد بن حنبل، فلما دخل نظر إلى كرسي في الدار عليه فضة، فخرج، فلحقه صاحب الدار، فنفض يده في وجهه وقال: زي المجوس، زي المجوس، وقال في رواية صالح: (ذا كان في الدعوة مسكر أو شيء من آنية المجوس: الذهب والفضة، أو ستر الجدران بالثياب، خرج ولم يطعم).اهـ.

وقال إبراهيم الحربي كما في سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٢٦): وكان -أي الإمام أحمد- إن رأى إناء فضة أو منكر خرج.اهـ.

وقال أبو محمد بن تميم الحنبلي كما في طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٨) عند ذكره لعقيدة الإمام أحمد: وكان يتحرج أن يدخل إلى دار فيها صور، أو دعوة فيها لهو أو غناء أو جنازة يتبعها نوح أو مزمار، فإذا حضرها لم يرجع عنها. (أي الجنازة).اهـ.

وأخرج ابن جرير في تفسيره (٩/ ٣٢١) بإسناد صحيح عن هشام بن عروة قال: أخذ عمر بن عبد العزيز قوما على شراب، فضربهم وفيهم صائم. فقالوا: إن هذا صائم فتلا: فلا تقعدوا معهم [النساء: ١٤٠].اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٤١) عند شرحه لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الجيش الذي يغزو الكعبة فيخسف بهم: قال المهلب: في هذا الحديث أن من كثر سواد قوم في المعصية مختارا أن العقوبة تلزمه معهم. قال: واستنبط منه مالك عقوبة من يجالس شربة الخمر وإن لم يشرب.اهـ.

وقال الإمام مالك كما في الجامع لابن أبي زيد (ص١٥٦): لا ينبغي المقام بأرض يعمل فيها بغير الحق والسب للسلف الصالح، وأرض الله واسعة، لقد أنعم الله على عبد أدرك حقا فعمل به.اهـ.

وقال العلامة ابن باز كما في الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ١٤٢): والإنكار بالقلب فرض على كل واحد، وهو بغض المنكر وكراهيته، ومفارقة أهله عند العجز عن إنكاره باليد واللسان؛ لقول الله سبحانه: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) الأنعام/ ٦٨..اهـ.

فمن دُعي إلى وليمة مشتملة على منكر من المنكرات لا يخلو من ثلاث حالات:

١- أن يعلم قبل ذهابه أنَ ثمَ مُنكرًا في الوليمة وكان قادرًا على تغييره فهذا يُلبي الدعوة ويُغيَر المنكر.

٢- أن يعلم أن ثمَ منكرًا قبل ذهابه وعلم من نفسه عدم المقدرة على تغييره فهذا يحرم عليه تلبية الدعوة وحضورها مثل وجود الخمر والكفر بآيات الله

والاستهزاء بها.

٣- أن يحضر من غير علم بوجود منكر ثم يعلم به بعد حضوره فيجب عليه الإنكار حينئذٍ فإن زال المنكر جلس وإن لم يزل انصرف.

وليس للإنسان أن يحضر الأماكن التي يشهد فيها المنكرات ولا يمكنه الإنكار إلا لموجب شرعي مثل أن يكون هناك أمر يحتاج إليه لمصلحة دينه أو دنياه لا بد فيه من حضوره أو يكون مكرهًا.

مسألة: سئل علماء اللجنة الدائمة (١٢/ ٣٤٤): ما حكم الإسلام في ناس يكونون ضيوفا عندي في البيت، وفيهم من لا يقبل أن يستيقظ لصلاة الفجر، هل أتركه أو أوقظه من نومه، مع أنه يغضب غضبا شديدا عند إيقاظه، وما الحكم في ذلك؟ أفيدونا أفادكم الله.

فأجابوا: يجب عليك إيقاظ من ينام عندك لصلاة الفجر؛ لأن هذا من باب الأمر بالمعروف، فإن لم يمتثل فالواجب إخراجه من البيت؛ لأن ذلك من تمام إنكار المنكر.

سئل علماء اللجنة الدائمة أيضا (١٢/ ٣٤٤): هل شكوى الإمام للشخص الذي لا يحضر صلاة الجماعة واجبة أم يكفي نصحه فقط؟

فأجابوا: من يتخلف عن صلاة الجماعة، ولم تؤثر فيه النصيحة فإنه يجب أن يبلغ عنه أهل الحسبة للأخذ على يده، ولا يترك؛ لأن النبي ﷺ هم أن يحرق بيوت المتخلفين عن الصلاة عليهم بالنار؛ عقوبة لهم وردعا لأمثالهم. ولما أوجب الله على المسلمين من التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر في قوله سبحانه: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} التوبة الآية ٧١.

مسألة: حكم الإنكار على أهل الذمة

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٨٧): إذا فعل أهل الذمة أمرا محرما عندهم غير محرم عندنا لم نتعرض لهم وندعهم وفعلهم سواء أسروه أو أظهروه. هذا ظاهر قول أصحابنا وغيرهم لأن الله سبحانه وتعالى منعنا من قتالهم والتعرض لهم إذا التزموا الجزية والصغار وهو جريان أحكام المسلمين، ولأن المقصود إقامة أمر الإسلام وهو حاصل لا أمر دينهم المبدل المغير، ولأن الإقدام عليهم بإنكار ذلك والتعرض لهم فيه يفتقر إلى دليل والأصل عدمه لأن من كان منهم فاسقا في دينه قد يترتب عليه شيء من أحكام الدنيا فلا تصح شهادته مطلقا ولا وصيته إلى غيره ولا وصية غيره إليه.

وإن فعلوا أمرا محرما عندنا فما فيه ضرر أو غضاضة على المسلمين يمنعون منه ويدخل فيه نكاح مسلمة ويدخل فيه ما ذكره القاضي في جزء له أنهم إن تبايعوا بالربا في سوقنا منعوا لأنه عائد بفساد نقدنا فظاهر هذا أنا لا نمنعهم في غير سوقنا، والمراد إن اعتقدوا حله.

وفي الانتصار فيما إذا عقد على محرم هل يحل؟ إن أهل الذمة لو اعتقدوا بيع درهم بدرهمين يتخرج أن يقروا على وجه لنا، فظاهر هذا بل صريحه أن الأشهر منعهم مطلقا لأنهم كالمسلمين في تحريم الربا عليهم كما ذكروه في باب الربا ويدخل فيه ما ذكره القاضي وفي هذا الجزء أنه لا يجوز أن يتعلموا الرمي وكذا يمنعون مما يتأذى المسلمون به كإظهار المنكر من الخمر والخنزير وأعيادهم وصليبهم وضرب الناقوس وغير ذلك، وكذا إن أظهروا بيع مأكول في نهار رمضان كالشواء منعوا ذكره القاضي في الجزء المذكور أيضا.

وقال الشيخ تقي الدين فيما إذا أظهر أحد من أهل الذمة الأكل في رمضان

بين المسلمين ينهون عنه فإن هذا من المنكرات في دين الإسلام كما ينهون عن إظهار شرب الخمر وأكل لحم الخنزير انتهى كلامه.

وإن تركوا التميز عن المسلمين في أحد أربعة أشياء: لباسهم وشعورهم وركوبهم وكناهم ألزموا به ولا يمنعون من نكاح محرم بشرطين (أحدهما) أن لا يرتفعوا إلينا (والثاني) أن يعتقدوا حله في دينهم؛ لأن ما لا يعتقدون حله ليس من دينهم فلا يقرون عليه كالزنا والسرقة، وهذا الحكم من أصحابنا في هذه المسألة بهذا التعليل دليل على أن كل أمر محرم عندنا إذا فعلوه غير معتقدين حله يمنعون منه ويوافق هذا المعنى قولهم لا يلزم الإمام إقامة الحدود عليهم فيما يعتقدون تحريمه خاصة سواء كان الحد واجبا عليهم في دينهم أم لا استدلالا بفعله - عليه الصلاة والسلام - في رجمه اليهوديين الزانيين ولأنه محرم في دينهم.

وقد التزموا حكم الإسلام وذلك لأن تحريمه عندنا مع اعتقادهم تحريمه يصير منكرا فيتناوله أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولأنهم التزموا الصغار وهو جريان أحكام المسلمين عليهم إلا فيما اعتقدوا إباحته وما ذكر من إنكار ما هو محرم عليهم عندنا مع اعتقادهم تحريمه أعم من أن يكون التحريم عاما لنا ولهم، أو عليهم خاصة في ملتهم وقررت شريعتنا تحريمه عليهم، وذلك لاتفاق الملتين على تحريمه كما لو كان التحريم عاما لنا ولهم لعدم أثر اختصاصهم بالتحريم، إذ لا يشترط في إنكار المحرم أن يكون التحريم عاما للفاعل ولغيره وعلى هذا نمنعهم من تبايعهم الشحوم المحرمة عليهم في دينهم لأكلها أو لغيره ولأن تحريمها باق عند الإمام أحمد رَضِوَاللَّهُعَنْهُ ولهذا نص على أنه لا يجوز لنا أن نطعمهم شيئا من هذه الشحوم وعلى هذا تحرم إعانتهم على ذلك

والشهادة فيه.

وفي الصحيحين عن جابر «أن النبي ﷺ حرم بيع الخمر والميتة ولحم الخنزير والأصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال لا، هو حرام ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك قاتل الله اليهود إن الله تعالى لما حرم عليهم الشحوم أجملوها فباعوها جملة» وأجمله أي أذابه.

وثبت في السنن من حديث ابن عباس «أن الله ﷻ إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه» رواه أبو داود وغيره، والمراد ما المقصود منه الأكل فيتبعه غيره وتحريمه عام فلا يرد عبد وحيوان محرم وموطوءة الأب يرثها ابنه ونحو ذلك، واختار أبو الوفاء ابن عقيل نسخ تحريم هذه الشحوم جزم به في كتاب الروايتين له، وفيه نظر.

وفي المفيد من كتب الحنفية في باب الغصب: ويمنع الذمي من كل ما يمنع المسلم منه إلا شرب الخمر وأكل الخنزير لأن ذلك مستثنى في عقودهم، ولو غنوا وضربوا بالعيدان منعوا كما يمنع المسلمون لأن ذلك لم يستثن في عقودهم.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في فتاوى نور على الدرب: هل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون للمسلمين وغير المسلمين أم هو للمسلمين فقط جزاكم الله خيرًا؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام يشمل المسلمين وغير المسلمين لكنه يختلف في الكيفية أما المسلم

فيؤمر بكل معروف وينهى عن كل منكر وأما الكافر فإنه يدعى إلى الإسلام أولًا كما كان النبي ﷺ يفعله في بعث الدعاة إلى الله قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه وقد بعثه إلى اليمن (إنك تأتي قومًا أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أجابوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) وأما الكفار المقيمون في بلادنا الذين دخلوها أي دخلوا بلادنا إما بعهد أو أمان فإنهم ينهون عن إظهار المنكر أو إظهار شيء من شعائرهم لأن ذلك إهانة للمسلمين ولأنه هو من الشروط الذي أخذها عمر رضي الله عنه على أهل الذمة والمعاهد والمستأمن من باب أولى فينهون عن إظهار الصليب سواء على بيوتهم أو سيارتهم أو فيما يتقلدونه ولكن يتولى ذلك من يمكن أن يحصل بنهيه فائدة وأما من لا يحصل بنهيه فائدة فإنه قد لا يكون نهيه إلا زيادة في بقائهم على ما هم عليهم وإصرارهم على ذلك.

مسألة: حكم الإنكار على من يخالف مذهبه بغير دليل

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٦٣): ومن التزم مذهبا أنكر عليه مخالفته بلا دليل ولا تقليد سائغ ولا عذر كذا ذكر في الرعاية هذه المسألة وذكر في موضع آخر: يلزم كل مقلد أن يلتزم بمذهب معين في الأشهر ولا يقلد غير أهله، وقيل بلا ضرورة قال الشيخ تقي الدين رحمه الله بعد أن ذكر المسألة الأولى من كلام ابن حمدان رحمه الله هذا يراد به شيئان أحدهما أن من التزم مذهبا معينا ثم فعل خلافه من غير تقليد لعالم آخر أفتاه ولا استدلال بدليل يقتضي خلاف

ذلك ومن غير عذر شرعي يبيح له ما فعله فإنه يكون متبعا لهواه عاملا بغير اجتهاد ولا تقليد فاعلا للمحرم بغير عذر شرعي وهذا منكر.

وهذا المعنى هو الذي أراد الشيخ نجم الدين، وقد نص الإمام أحمد رضي الله عنه وغيره على أنه ليس لأحد أن يعتقد الشيء واجبا أو حراما ثم يعتقده غير واجب ولا حرام بمجرد هواه مثل أن يكون طالبا لشفعة الجوار فيعتقد أنها حق له ثم إذا طلبت منه شفعة الجوار اعتقد أنها ليست ثابتة. أو مثل من يعتقد إذا كان أخا مع جد أن الإخوة تقاسم الجد، فإذا صار جدا مع أخ اعتقد أن الجد لا يقاسم الإخوة.

وإذا كان له عدو يفعل بعض الأمور المختلف فيها كشرب النبيذ المختلف فيه ولعب الشطرنج وحضور السماع أن هذا ينبغي أن يهجر وينكر عليه، فإذا فعل ذلك صديقه اعتقد أن ذلك من مسائل الاجتهاد التي لا تنكر، فمثل هذا ممن يكون في اعتقاده حل الشيء وحرمته ووجوبه وسقوطه بحسب هواه وهو مذموم مجروح خارج عن العدالة.

وقد نص أحمد رضي الله عنه وغيره على أن هذا لا يجوز أما إذا تبين له رجحان قول على قول إما بالأدلة المفصلة إن كان يعرفها أو يفهمها، وإما بأن يرى أحد الرجلين أعلم بتلك المسألة من الآخر وهو أتقى لله فيما يقوله فيرجع عن قول إلى قول لمثل هذا، فهذا يجوز بل يجب وقد نص الإمام أحمد على ذلك.

وقال الشيخ تقي الدين في المسألة الثانية العامي هل عليه أن يلتزم مذهبا معينا يأخذ بعزائمه ورخصه؟ فيه وجهان لأصحاب أحمد وهما وجهان لأصحاب الشافعي، والجمهور من هؤلاء وهؤلاء لا يوجبون له ذلك، والذين يوجبونه يقولون إذا التزمه لم يكن له أن يخرج عنه مادام ملتزما له أو ما لم يتبين

له أن غيره أولى بالالتزام عنه.

ولا ريب أن التزام المذاهب والخروج عنها إن كان لغير أمر ديني مثل أن يلتمس مذهبا لحصول غرض دنيوي من مال أو جاه ونحو ذلك فهذا مما لا يحمد عليه بل يذم عليه في نفس الأمر ولو كان ما انتقل إليه خيرا مما انتقل عنه، وهو بمنزلة من يسلم لا يسلم إلا لغرض دنيوي، أو يهاجر من مكة إلى المدينة إلى امرأة يتزوجها أو دنيا يصيبها.

قال وأما إن كان انتقاله من مذهب إلى مذهب لأمر ديني فهو مثاب على ذلك بل واجب على كل أحد إذا تبين له حكم الله ورسوله في أمر أن لا يعدل عنه ولا يتبع أحدا في مخالفة الله ورسوله فإن الله فرض طاعة رسوله على كل أحد في كل حال قال القاضي فيمن خالف مذهبه ينكر عليه وإن جاز أن يختلف اجتهاده الأول لأن الظاهر بقاؤه عليه وإلا أظهره لينفي عنه الظن والشبهة كما ينكر على من أكل في رمضان أو طعام غيره وإن جاز أن يكون هناك عذر قال وإن علمنا من حال العامي أنه قلد من يسوغ اجتهاده لم ينكر عليه وإلا أنكرنا لأنه لا يجوز له العمل بما عنده كذا قال، والأولى أنا لا ننكر إلا مع العلم أنه لا يقلد مع الظن فيه نظر.

وقد قال ابن عقيل في معتقده ومن لم يعلم أن الفعل الواقع من أخيه المسلم جائز في الشرع أم غير جائز فلا يحل له أن يأمر ولا ينهى وكذا ذكر القاضي. وقد قال صاحب المحرر وغيره عقب حديث عائشة إن ناسا يأتوننا باللحم لا ندري أسموا عليه أم لا قال: «سموا أنتم عليه وكلوا».

قالوا: وهو دليل على أن التصرفات والأفعال تحمل على الصحة والسلامة إلى أن يقوم دليل الفساد.

مسألة: حكم الإنكار على غير المكلف للزجر والتأديب

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٦٣): ولا ينكر على غير مكلف إلا تأديبا له وزجرا قال ابن الجوزي المنكر أعظم من المعصية وهو أن يكون محذور الوقوع في الشرع فمن رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه كذلك عليه أن يمنعه من الزنا، انتهى كلامه قال المرذوي لأحمد الطنبور الصغير يكون مع الصبي؟ قال يكره أيضا، إذا كان مكشوفا فاكسره.

وذكر الشيخ تقي الدين في الكلام على حدث ابن عمر «أنه كان مع النبي ﷺ وسمع زمارة راع وسد أذنيه» قال: لم يعلم أن الرقيق كان بالغا فلعله كان صغيرا دون البلوغ والصبيان رخص لهم في اللعب ما لم يرخص فيه للبالغ. انتهى كلامه وذكر الأصحاب وغيرهم أن سماع المحرم بدون استماعه، وهو قصد السماع لا يحرم. وذكر الشيخ تقي الدين أيضا وزاد باتفاق المسلمين قال: وإنما سد النبي ﷺ أذنه مبالغة في التحفظ فسن بذلك أن الامتناع عن أن يسمع ذلك خير من السماع.

وفي المغني جواب آخره أنه أبيح للحاجة إلى معرفة انقطاع الصوت، وكذا قال في الفنون وأبيح لضرورة الاستعلام كما لو أرسل الحاكم إلى أهل الزمر من يستمع له ويستلهم خبرهم أبيح له أن يستمع لضرورة الاستعلام وكالنظر إلى الأجنبيات للحاجة.

مسألة: حكم الإنكار على من نظر إلى ما يخشى منه الوقوع في الضلال والشبهة

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٩٩): ويحرم النظر فيما يخشى منه الضلال والوقوع في الشك والشبهة، ونص الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على المنع من النظر في كتب أهل الكلام والبدع المضلة وقراءتها وروايتها وقال في رواية

المروذي لست بصاحب كلام فلا أرى الكلام في شيء إلا ما كان في كتاب الله أو حديث عن رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أو عن التابعين فأما غير ذلك فالكلام فيه غير محمود رواه الخلال وقال في رواية أحمد بن أصرم لرجل إياك ومجالسة أصحاب الخصومات والكلام وقال في روايته أيضا لرجل لا ينبغي الجدال اتق الله ولا ينبغي أن تنصب نفسك وتشتهر بالكلام لو كان هذا خيرا لتقدمنا فيه أصحاب النبي ﷺ إن جاءك مسترشد فأرشده. رواهما أبو نصر السجزي ....

وقال المروذي: قلت: لأحمد استعرت من صاحب الحديث كتابا يعني فيه أحاديث ردية ترى أن أحرقه أو أخرقه قال: نعم.

ولا يجوز تحريق الثياب التي عليها الصور ولا المرقومة للبسط والدوس، ولا كسر حلي الرجال المحرم عليهم إن صلح للنساء، ولم تستعمله الرجال.

المسألة الخامسة

حكم من يركب الحافلة أو التاكسي ولا يستطيع منع السائق من الأغاني المحرمة

سئل علماء اللجنة الدائمة (٢٦/ ٢٤١): نضطر إلى سماع الأغاني أو الموسيقى، سواء في الحافلة التي تقلنا إلى العمل يوميا، أو الحافلات والتاكسيات التي نحتاجها في السفر بعض الأحيان، فما الحكم؟

فأجابوا: "إذا كنت لا تستطيع منع الأغاني في الحافلة وأنت محتاج إلى ركوبها لبعد المسافة، ولا تجد وسيلة غيرها - فلا بأس عليك في ذلك، مع إنكار المنكر حسب استطاعتك، ولو في قلبك".

وسئلوا أيضا (٢٦/ ٢٣٦): ماذا يفعل الذي يضطر إلى ركوب سيارة تاكسي ويوجد فيها الغناء المحرم؟

فأجابوا: "يجب عليك أن تنصح لمن ركبت معهم السيارة التي يوجد بها

غناء محرم ألا يفتحوا الإذاعة على الغناء، عسى أن يستجيبوا لنصحك ويكفوا، فإن انتصحوا فالحمد لله، وإلا فانزل ودعهم في غيهم، حفظا لنفسك من سماع المنكر، وإن شق عليك النزول لأمر ما فلا حرج عليك في بقائك في السيارة".

المسألة السادسة: بلده يكثر فيها منكر معين

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٢٦٣): ينبغي أن يعرف أن كثيرا من الأمور يفعل فيها كثير من الناس خلاف الأمر الشرعي، ويشتهر ذلك بينهم ويقتدي كثير من الناس بهم في فعلهم. والذي يتعين على العارف مخالفتهم في ذلك قولا وفعلا، ولا يثبطه عن ذلك وحدته وقلة الرفيق، وقد قال الشيخ محيي الدين النووي: ولا يغتر الإنسان بكثرة الفاعلين لهذا الذي نهينا عنه ممن لا يراعي هذه الآداب، وامتثل ما قاله السيد الجليل الفضيل بن عياض: لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها، ولا تغتر بكثرة الهالكين.

وقال أبو الوفاء ابن عقيل في الفنون: من صدر اعتقاده عن برهان لم يبق عنده تلون يراعي به أحوال الرجال. {أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم} [آل عمران: ١٤٤].

كان الصديق رضي الله عنه ممن يثبت على اختلاف الأحوال فلم تتقلب به الأحوال في كل مقام زلت به الأقدام إلى أن قال: وقد يكون الإنسان مسلما إلى أن يضيق به عيش، وإنما ديننا مبني على شعث الدنيا وصلاح الآخرة فمن طلب به العاجلة أخطأ.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في "لقاءات الباب المفتوح" (١١٠/ ٥): "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به من يكفي سقط عن الناس، وإذا لم يقم به من يكفي: وجب على الناس أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن

المنكر، لكن لابد أن يكون بالحكمة، والرفق، واللين؛ لأن الله أرسل موسى وهارون إلى فرعون وقال: (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) طه/ ٤٤، أما العنف: سواء كان بأسلوب القول، أو أسلوب الفعل: فهذا ينافي الحكمة، وهو خلاف ما أمر الله به.

ولكن أحيانا يعترض الإنسان شيء يقول: هذا منكر معروف، كحلق اللحية مثلا، كل يعرف أنه حرام، خصوصا المواطنون في هذا البلد، ويقول: لو أنني جعلت كلما رأيت إنسانا حالقا لحيته -وما أكثرهم- وقفت أنهاه عن هذا الشيء: فاتني مصالح كثيرة، ففي هذه الحال: ربما نقول بسقوط النهي عنه؛ لأنه يفوت على نفسه مصالح كثيرة، لكن لو فرض أنه حصل لك اجتماع بهذا الرجل في دكان أو في مطعم أو في مقهى: فحينئذ يحسن أن تخوفه بالله، وتقول: هذا أمر محرم، وأنت إذا أصررت على الصغيرة صارت في حقك كبيرة، وتقول الأمر المناسب ".

وقال العلامة العثيمين في لقاءات الباب المفتوح أيضا: الناس ينقسمون إلى قسمين: قسم تعرف أنه يعلم الحكم، مثل الذين عاشوا عندنا يسمعون الخطباء، ويسمعون الوعاظ يقولون: هذا حرام ولا يجوز، فلا يخفى على أحد. وقسم آخر: جاهل مثل بعض الذين يأتون من الخارج يظنون أن هذا لا بأس به؛ لأنهم قد يرون علماءهم يفعلون هذا الشيء. فأما الثاني فلا بد من تنبيهه وتعليمه، وأما الأول وهو الذي تعرف إنما فعل ذلك عن علم فهذا لا يلزمك أن توقف كل واحد من الناس وتقول: تعال حلق اللحية حرام، لكن إن تيسر لك جلسة معه أو مناسبة فذكره بالله ﷻ، قل: يا أخي! اتقِ الله أنت تعرف أن حلق اللحى حرام، وأنه لا يجوز، وهل ترضى لنفسك أن تتبع هدي المشركين والمجوس وتترك

هدي محمد عليه الصلاة والسلام، وانصحه وعظه. الثاني نقول: علمه؛ لأنه يكون جاهل. الأول نقول: عظه وذكره بالله ﷻ. لكن على كل حال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] نسأل الله لنا ولكم التوفيق.

وسئل العلامة العثيمين في لقاءات الباب المفتوح أيضا: السائل: في حديث أبي سعيد الذي رواه البخاري أن النبي ﷺ قال: (من رأى منكم منكرًا ... الخ) هل الحديث على سبيل التخيير أم على سبيل الترتيب؟ وإذا كان على سبيل الترتيب، ما هو الضابط إلى الانتقال من مرحلة إلى مرحلة من الإنكار؟ الشيخ: اقرأ الحديث من أجل تعرف. السائل: قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).

فأجاب الشيخ: هل هذا ترتيب أو تخيير؟ السائل: ترتيب. الشيخ: إذًا هو على الترتيب. السائل: لأن البعض يظن أن الإحراج الذي قد يتسبب له من إنكار المنكر كأن ينكر على فتاة .... الشيخ: لا، انظر بارك الله فيك إنكار المنكر غير تغييره، التغيير لا يكون إلا لسلطة، مثلًا أنا أقول للشخص: هذا غلط، حرام، منكر، لكن لا أقدر أن أغيره، معه مثلًا ربابة فأنا أنكر عليه، ولهذا لم يأت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقيدًا بالاستطاعة لكن لا أستطيع أن أغيره، هل أقدر أن أكسرها؟ لا أقدر، فيجب ألا تختلط علينا الأمور، إنكار المنكر غير تغيير المنكر، ولذلك نقول في وقتنا الحاضر: لما كثرت الأهواء وكثر الجهل لا تغيير للمنكر باليد إلا من ذي سلطان. هذا الضابط، أنت ليس لك حق أن تغير المنكر باليد، وذلك لأننا في الوقت الحاضر لما غلب الهوى والجهل؛ قد يظن الظان أن هذا منكر وليس بمنكر، هناك أناس متشددون الآن،

كل شيء عندهم منكر، كل شيء عندهم بدعة، لو أطلقنا العنان لهؤلاء ماذا يحصل من الفساد؟ يحصل من الفساد ما لا يعلم به إلا رب العباد.

مسألة: حكم الإنكار على الزوجة الذمية

ذهب كثير من العلماء إلى أن المسلم إذا تزوج كتابية فله منعها من شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء من الشافعية والحنابلة، وهو قول جماعة من الحنفية.

قال في لبحر الرائق -حنفي- (٣/ ١١١) ناقلا عن بعض الحنفية: "إن المسلم له أن يمنع زوجته الذمية من شرب الخمر كالمسلمة لو أكلت الثوم والبصل وكان زوجها يكره ذلك، له أن يمنعها. وهذا هو الحق كما لا يخفى" انتهى.

وقال في مغني المحتاج -شافعي- (٤/ ٣١٤): "الكتابية المنكوحة كمسلمة في نفقة وقسم وطلاق، وتجبر على غسل حيض ونفاس وجنابة، وترك أكل خنزير في الأظهر، وتجبر هي ومسلمة على غسل ما نجس من أعضائها" انتهى.

وقال في الإنصاف" -حنبلي- (٨/ ٣٥٢): "تمنع الذمية من شربها مسكرا إلى أن تسكر. وليس له منعها من شربها منه ما لم يسكرها على الصحيح من المذهب. نص عليه [أي الإمام أحمد]. وعنه: تمنع منه مطلقا. وقال في "الترغيب": ومثله: أكل لحم خنزير" انتهى.

وذهب المالكية إلى أنه ليس له منعها من شرب الخمر وأكل الخنزير كما في "التاج والإكليل" (٥/ ١٣٤).

قال الإمام ابن القيم في أحكام أهل الذمة (٢/ ٨١٧): فصل إجبار الزوجة

الذمية على الطهارة: للمسلم إجبار زوجته الذمية على الغسل من الحيض وقد قال أحمد في رواية حنبل يأمرها بالغسل من الجنابة فإن أبت لم يتركها، وقد علق القول في رواية صالح في المشركة يجب عليها الغسل من الجنابة والحيض فإن لم تغتسل فلا شيء عليها الشرك أعظم قال القاضي وظاهر هذا أنه لم يوجب ذلك عليها عند امتناعها قال وهذا محمول على أنها امتنعت ولم يوجد من الزوج مطالبة بالغسل قال والدلالة على أن له إجبارها على ذلك أن بقاء الغسل يحرم عليه الوطء الذي يستحقه وكان له إجبارها عليه لاستيفاء حقه كما له إجبارها على ملازمة المنزل والتمكين من الاستمتاع ليتوصل بذلك إلى استيفاء حقه، فأما الغسل من الجنابة فهل للزوج أن يجبرها عليه فقد أطلق القول في رواية حنبل وقال يأمرها بالغسل من الجنابة فإن أبت لم يتركها وظاهر هذا أن له إجبارها وقال في رواية مهنا في رجل تزوج نصرانية فأمرها بتركه يعني شرب الخمر فإن لم تقبل ليس له أن يمنعها، وظاهر هذا يقتضي أنه لا يملك إجبارها على الغسل من الجنابة كما لم يملك إجبارها على الإمتناع من شرب الخمر لأنه يمنع من كمال الوطء ولا يمنع من أصله، وجه الرواية الأولى أن بقاء الغسل عليها يمنعه من كمال الاستمتاع فإن النفس تعاف وطء من لا تغتسل من الجنابة فيفوته بذلك بعض حقه فكان له إجبارها كما كان له في الاغتسال من الحيض ووجه الثانية أن بقاء غسل الجنابة عليها لا يحرم عليه وطأها فلم يكن له إجبارها على ذلك ويفارق هذا غسل الحيض لأن بقاءه محرم عليها وهاتان الروايتان أصل لكل ما لم يمنعه من أصل الاستمتاع لكنه يمنعه من كماله هل له إجبارها عليه أم لا على روايتين في ذلك: إحداهما له ذلك إذا كان عليها وسخ ودرن وأراد إجبارها على إزالته لأن النفس تعاف الإستمتاع مع وجوده، والثانية

ليس له ذلك، وأما أخذ الشعر وتقليم الأظفار فينظر فإن

طال الشعر واسترسل بحيث يستقذر ويمنع الاستمتاع فله إجبارها على إزالته رواية واحدة وإن لم يخرج عن حد العادة لكنه طال قليلا وكانت النفس تعافه فعلى الروايتين، وكذلك الأظفار إن طالت وخرجت عن حد العادة فصار يستقبح منظرها ويتعذر الاستمتاع معها كان له إجبارها على إزالتها رواية واحدة وإن لم يخرج عن حد العادة لكن النفس تعافها فعلى الروايتين.

(فرع): منع الزوج زوجته الكتابية من دور العبادة

وأما الخروج إلى الكنيسة والبيعة فله منعها منه نص عليه أحمد في رواية يعقوب بن بختان في الرجل تكون له المرأة النصرانية لا يأذن لها في الخروج إلى عيد النصارى أو البيعة، وقال في رواية محمد بن يحيى الكحال وأبي الحارث في الرجل تكون له الجارية النصرانية تسأله الخروج إلى أعيادهم وكنائسهم وجموعهم لا يأذن لها في ذلك

وقد علل القاضي المنع بأنه يفوت حقه من الاستمتاع وهو عليها له في كل وقت وهذا غير مراد أحمد ولا يدل لفظه عليه فإنه منعه من الإذن لها ولو كان ذلك لحقه لقال لا تخرج إلا بإذنه وإنما وجه ذلك أنه لا يعينها على أسباب الكفر وشعائره ولا يأذن لها فيه قال القاضي وإذا كان له منع المسلمة من إتيان المساجد فمنع الذمية من الكنيسة أولى، وهذا دليل فاسد فإنه لا يجوز له منع المسلمة من المساجد وأعجب من هذا أنه أورد الحديث وأجاب عنه بجوابين فاسدين: أحدهما أن المراد به صلاة العيد خاصة، والثاني المراد به منعها من الحج إلى المسجد الحرام ولا يخفى بطلان الجوابين.

(فرع): منع الزوجة الكتابية من السكر

وله منعها من السكر لأنه يتأذى به وهل له منعها من شرب ما لا يسكرها

خرجه القاضي على الروايتين فيما يمنع كمال الاستمتاع دون أصله، والمنصوص عليه في رواية مهنا أنه لا يمنعها فإنه قال في رجل تزوج نصرانية أله أن يمنعها من شرب الخمر قال يأمرها قيل له لا تقبل منه أله أن يمنعها قال لا، وظاهر هذا أنه لم يجعل له منعها فإن شربت كان له إجبارها على غسل فمها من الخمر لأنه نجس يتعذر مع ذلك تقبيلها والاستمتاع بها فيه

فإن قيل فلو أرادت المسلمة أن تشرب من النبيذ المختلف فيه ما لا يسكرها هل له منعها قيل نعم له منعها هذا الذي لا يحتمل المذهب غيره فإن أحمد يحد عليه فكيف تقر على شربها والإنكار بالحد من أقوى مراتب الإنكار، وقال القاضي إن كانا حنبليين أو شافعيين لهما منعها منه لأنهما يعتقدان تحريمه وإن كانا حنفيين فهذا لا يمنعه الاستمتاع ولكن يمنعه ماله فيخرج على الروايتين والصحيح الأول

قال وهل له منعها من الثوم والبصل والكراث يخرج على الروايتين وكذلك هل له منعها من الثياب الوسخة على الروايتين.

(فرع): أداء الزوجة الكتابية شعائرها التعبدية

وقال أحمد في رواية مهنا وقد سأله هل يمنعها أن تدخل منزله الصليب قال يأمرها فأما أن يمنعها فلا، وقال في رواية محمد بن يحيى الكحال في الرجل تكون له امرأة أو أمة نصرانية تقول اشتر لي زنارا فلا يشترى لها تخرج هي تشتري فقيل له جاريته تعمل الزنانير قال لا

قال القاضي أما قوله لا يشتري هو الزنار لأنه يراد لإظهار شعائر الكفر فلذلك منعه من شرائه وأن يمكن جاريته من عمله لأن العوض الذي يحصل لها صائر إليه وملك له وقد منع من بيع ثياب الحرير من الرجال إذا علم أنهم

يلبسونها وكذلك بيع العصير لمن يتخذه خمرا انتهى، وليس له منعها من صيامها الذي تعتقد وجوبه وإن فوت عليه الاستمتاع في وقته ولا من صلاتها في بيته إلى الشرق وقد مكن النبي وفد نصارى نجران من صلاتهم في مسجده إلى قبلتهم وليس له إلزام اليهودية إذا حاضت بمضاجعته والاستمتاع بما دون الفرج هذا قياس المذهب

وليس له حملها على كسر السبت ونحوه مما هو واجب في دينهم وقد أقررناهم عليه وليس له حملها على أكل الشحوم واللحوم المحرمة عليهم وهل له منعها من أكل لحم الخنزير يحتمل وجهين، وهل له منعها من الخلوة بابنها وأبيها وأخيها فإن كانت مجوسية فله ذلك لأنهم يعتقدون حلها لهم فليسوا بذوي محرم وإن كانت يهودية أو نصرانية فليس له منعها من ذلك إذا كانوا مأمونين عليها وإن كان له منعها من السفر معهم كما تقدم نصه وذكرنا الفرق بين الموضعين وليس له منعها من قراءة كتابها إذا لم ترفع صوتها به، فإن أرادت أن تصوم معه رمضان فهل له منعها من ذلك يحتمل وجهين

أحدهما له ذلك لأنه لا يجب عليها وله منعها منه كما له منع المسلمة من صوم التطوع ترفيها لها.

والثاني ليس له ذلك لأنه لا حق له في الاستمتاع بها في نهار رمضان وإذا لم يكن له منعها من الصوم المنسوخ الباطل فأن لا يمنعها من صوم رمضان أولى وأحرى

وقد يقال الفرق بينهما أنها تعتقد وجوب صيام دينها عليها وقد أقررناهم على ذلك فليس لنا أن نمنعهم منه بخلاف ما لا يعتقدون وجوبه

مسألة: حكم ترك الإنكار على بعض الناس ليتألفهم

سئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٩/ ٤١٨): هل يجوز ترك

الإنكار على بعض الناس في بعض المكروهات، حتى يتألفهم؟.

فأجاب: "ليس الأمر خاصا بالمكروهات بل حتى بعض المعاصي يتركها. مثل إنسان يتعاطى أشياء دون أشياء فإنه يبدأ بالأهم فالأهم، مثل: إنسان لا يصلي وهو عاق لوالديه، أو متهم بالخمر، أو بشيء آخر من المعاصي، فعلى الناصح أن يبدأ بالصلاة ويوضح له عظم مكانتها وأن تركها كفر، فإذا صلى أنكر عليه الناصح المنكرات الأخرى إذا رأى المصلحة في ذلك، وإن رأى أن إنكار الجميع عليه لا يؤثر في المقصود ورجا أن يهديه الله في الجميع فلا بأس بذلك؛ لقول الله سبحانه: (فاتقوا الله ما استطعتم) ولهذا دعا الرسول ﷺ للإسلام وترك الشرك قبل إنكار المنكرات التي هم عليها مما دون الشرك.

مسألة: حكم إنكار المنكر في الحج

سئل **العلامة** الألباني كما في جامع تراث العلامة الألباني (٩/ ٣٢٤): ما حكم من غيَّر المنكر في الحج بقوة وشدة حتى وصل به الحد إلى الضرب فهل يؤثر على حجه؟. (٠٥:٣٣:٠٠)

السائل: في طواف العمرة حصل نهي عن منكر وهو - أي المنكر - التمسح وتقبيل المقام ولكن هذا النهي كان بشدة ورفع صوت وفيه ضرب فهل يعتبر الحج هذا حجًا مبرورًا مع العلم بأن السائل تاب إلى الله وينتظر الجواب بشغف. حصل ضرب يعني في النهي عن المنكر تطور الأمر حتى حصل الضرب.

الشيخ: لكن الذي ضرب هو الحاج ولا هو المضروب.

السائل: يعني هم الاثنين في أثناء ...

الشيخ: حاجين الاثنين؟.

السائل: نعم؛ أثناء الطواف نعم أثناء الطواف في العمرة أنكر واحد على آخر فلم يستطع فضربه.

الشيخ: طبعًا هذا ليس يتماشى أبدًا مع قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ بل مع الآية: {لَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} [البقرة: ١٩٧]، لأنَّ أولًا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا ينبغي أن يكون بقسوة وبشدة وبخاصة مع أن أكثر الناس لا يعلمون، فهؤلاء ينبغي أن نعتبرهم مرضى ولأنهم بحاجة إلى معالجة برفق وحنان ورحمة، وليس بالقسوة والشدة هذا كمبدأ عام فما بالنا وفي الحج أولًا وفي المسجد الحرام ثانيًا، لا شك أن فعل هذا ليس من الحج المبرور في شيء، نعم.

مسألة: حكم الجلوس في مكان المنكر

قال الله تعالى: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم) النساء / ١٤٠.

قال الجصاص في "أحكام القرآن" (٢/ ٤٠٧): ". وفي هذه الآية دلالة على وجوب إنكار المنكر على فاعله وأن من إنكاره إظهار الكراهة إذا لم يمكنه إزالته وترك مجالسة فاعله والقيام عنه حتى ينتهي ويصير إلى حال غيرها " انتهى.

وقال: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) الأنعام / ٦٨.

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يشرب عليها الخمر) رواه أحمد (١٤٢٤١) وغيره وقد صححه العلامة الألباني في

الإرواء (٧/ ٦) والحديث صريحٌ في النهي، والعلة في ذلك أن الجلوس مع وجود ذلك المنكر فيه إشعارٌ بالرضى والإقرار عليه.

وإنكار القلب هو ما يصيبه من هم وغم وحزن على وجود المنكر، وهذا فرض عين على جميع الناس في جميع الظروف والأحوال لا يعذرون بتركه؛ لأن القلب لا سلطان لأحد عليه، والبقاء في مجلس المنكر يتنافى مع هذا الإنكار.

قال العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: "والإنكار بالقلب فرض على كل واحد، وهو بغض المنكر وكراهيته، ومفارقة أهله عند العجز عن إنكاره باليد واللسان؛ لقول الله سبحانه: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) الأنعام/ ٦٨" انتهى نقلا عن: "الدرر السنية في الأجوبة النجدية" (١٦/ ١٤٢).

وسئل علماء اللجنة الدائمة (١٢/ ٣٦٢): هل يجوز للمسلم الأكل مع المسلم الذي يأكل الحبوب والمخدرات، أم لا يجوز الأكل معه، وخاصة إذا كان جارك، وهل يجوز الكلام معه أم لا؟ وماذا نفعل في هذا الموقف؟.

فأجابوا: إذا كنت تقوى على إنكار المنكر عليهم، وترجو استجابتهم لك فاجلس معهم من أجل نصحهم ونهيهم عن المنكر، وأمرهم بالمعروف، عسى الله أن يجري الله الخير على يديك، فإن استجابوا فالحمد لله، وإلا فاعتزلهم.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: ما حكم الجلوس في مكان يوجد فيه منكر من باب إزالة المنكر؟

فأجاب: نعم يجلس، من أجل أن ينهاهم عن المنكر. السائل: حتى لو كان

المنكر موجودًا يا شيخ؟! الشيخ: كيف يزيل الإنسان إلا بهذا، كيف يزيل المنكر وهو عنده أو عالم به وينهى عنه من بعيد، لكن إذا جلس مقرًا لهم على المنكر ساكتًا على إنكاره فهو مثلهم. السائل: قد يكون -يا شيخ- غناء ويجلس معهم. الشيخ: أجلس معهم وأقول يا جماعة! اتقوا الله أوقفوا هذا الغناء، إذا وقفوا فهذا المطلوب، وإذا لم يوقفوا يقوم ويتركهم. السائل: هناك بعض الناس يحتجون بموقف حصل لبعض طلبة العلم يقول: إنه جاء مرة وكان هناك جلسة أغاني وبعد أن أكملوا قال لهم بعد ذلك: ماذا استفدنا. الشيخ: هذه من الدعوة. يعني يريد أن يبين لهم أنه لا خير في هذا المجلس.

وسئل العلامة العثيمين أيضا في لقاءات الباب المفتوح (٥٤/ ١٠١): لا يخفى مدى انتشار الدخان المحرم في كل مكان، في العمل وفي البيت وفي الأماكن العامة، والسؤال هل يجوز الجلوس مع المدخنين؟ وإذا كان الجلوس مع المدخن في منزلك أو في مجلس عام فهل تتركه وتخرج؟

فأجاب: الحمد لله، كما ذكر الأخ أن الدخان حرام للأدلة العامة على تحريمه، وهو ليس فيه نص عن الرسول بعينه، لأنه لم يحدث إلا أخيرا، لكن قواعد الشريعة عامة، والإشارة في بعض النصوص إلى تحريمه قاضية بتحريمه، فإذا صار إلى جنبك مدخن وأراد أن يدخن فانصحه بلطف ورفق، قل له: يا أخي هذا حرام ولا يحل لك، وفي ظني أنك إذا نصحته بلطف ورفق أنه سوف ينزجر، كما جرب ذلك غيرنا وجربناه نحن أيضا، فإن لم ينته عن شرب الدخان فالواجب عليك أن تفارقه لقوله تعالى: (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم) ولكن هذا في الأماكن العامة، أما إذا كان في مكان الوظيفة،

ونصحته فلم ينته، فحينئذ لا حرج عليك أن تبقى، لأنه ضرورة ولا تستطيع أن تتخلص منه.

مسألة: حكم تحطيم مكان المنكر دون علم أحد

سئل الشيخ عبد الرحمن البراك: يبنون الآن مرقصا ليليا في منطقتنا وحاولنا منع وجوده عندنا لأنه سوف يتسبب في فساد كبير في منطقتنا سواء للمسلمين أو غير المسلمين، فهل يجوز لنا أن نحطم هذا المكان إذا لم يدر بنا أحد مع العلم أن صاحب ذلك المكان سوف يخسر جميع الأموال التي استثمرها فيه؟ وهل هذا من طرق النهي عن المنكر؟

فأجاب: قال تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)، وقال ﷺ: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) رواه مسلم رقم ٧٠، وقال تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم)، وهذا المنكر الذي ورد في السؤال عن تغييره يجب تغييره قدر الاستطاعة بما يزيل المنكر ويخففه وذلك بالرفع إلى ذوي السلطة والقدرة على إزالته أو نقله عن الحي أو بمخاطبة المالك للموقع ليعدل عن استثماره في المنكر الذي يعود عليه بالضرر في العاجل والآجل ودعوته إلى استغلاله بنشاط نافع له ولأهل الحي ولا يلحقهم منه ضرر في دينهم ولا في دنياهم.

وأما التغيير بتدمير الملهى كما ورد في السؤال فإنه لا يجوز، ولو أمن من يقوم بذلك على نفسه فإن المفاسد المترتبة على هذا التصرف كثيرة من تلف أموال لا يحل إتلافها وتوجيه التهم إلى أبرياء واستجوابهم وتعذيبهم من أجل التحقيق في الحادث ثم إنه قد لا يتراجع أصحاب الملهى عن باطلهم فيسعون في

إقامته مرة أخرى وهو الأحرى، فحذار أيها الأخ الغيور من التسرع في تغيير المنكر بعدم النظر في العواقب وقد أحسنت حيث تقدمت بهذا السؤال لتكون في أمرك على بينة وقد حصل البيان، والله الهادي إلى سواء السبيل.

مسألة: التثبت في الأمور وعدم العجلة

على الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، الداعي إلى الله تعالى التأكد من كل أمر والتثبت بشأنه، وعدم التسرع والعجلة، والحرص على الرفق والأناة بالناس وملاطفتهم حال أمرهم أو نهيهم، فإن في ذلك من الخير ما لا يحصى، وهو مما لا بد منه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي دعوة الناس إلى الخير.

قال تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}، والتبين والتثبت صفة من صفات أهل اليقين من المؤمنين، يقول الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عند قوله تعالى: {قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} وخص الله بذلك القوم الذين يوقنون، لأنهم أهل التثبت في الأمور، والطالبون معرفة حقائق الأشياء على يقين وصحة، فأخبر الله جل ثناؤه أنه بين لمن كانت هذه الصفة صفته ما بين من ذلك، ليزول شكه، ويعلم حقيقة الأمر) وقد ذم الإسلام الاستعجال ونهى عنه، كما ذم الكسل والتباطؤ، ونهى عنه، ومدح الأناة والتثبت فيها.

قال تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}.

قرأ الجمهور {فَتَبَيَّنُوا} من التبين، وهو التأمل، وقرأ حمزة والكسائي (فَتَثَبَّتُوا)، والمراد من التبين التعرف والتفحص، ومن التثبت: الأناة وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر.

والدعاة إلى الله تعالى أولى بامتثال أمر الله ﷻ بالتأني والتثبت من الأقوال والأفعال، والاستيثاق الجيد من مصدرها قبل الحكم عليها.

والداعية الحصيف إذا أبصر العاقبة أمن الندامة، ولا يكون ذلك إلا إذا تدبر جميع الأمور التي تعرض له ويواجهها، فإذا كانت حقا وصوابا مضى، وإذا كانت غيا، وضلالا وظنا خاطئًا وقف حتى يتضح له الحق والصواب.

والواقع المشاهد أن عدم التثبت وعدم التأني يؤديان إلى كثير من الأضرار والمفاسد في المجتمع، قال تعالى ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

ولعظم أمر التثبت أمر الله به حتى في جهاد الكفار في سبيل الله. قال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

ومما يزيد الآية السابقة وضوحًا ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ قال: (كان رجل في غُنيمة له، فلحقه المسلمون، فقال السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غُنيمته، فأنزل الله في ذلك إلى قوله ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تلك الغُنيمة)، وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال (بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة، قال: فصبحنا القوم فهزمناهم، قال ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، قال فلما غشيناه، قال لا إله إلا الله، قال فكف عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، قال فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ، قال فقال لي «يا أبا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قال: قلت يا رسول الله، إنما كان متعوذا، قال: فقال: أقتلته بعد ما قال لا إله

إلا الله؟ قال فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم» وفي رواية قال: قلت يا رسول الله: إنما قالها خوفا من السلاح، قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا»، فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ، وفي رواية: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله: استغفر لي، قال: «وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: فجعل لا يزيده على أن يقول: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة».

ولهذا كان النبي ﷺ أعظم الناس تثبتا وأناة في الأمور، فكان ﷺ لا يقاتل أحدا من الكفار إلا بعد التأكد بأنهم لا يقيمون شعائر الإسلام، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن النبي ﷺ إذا غزا بنا قوما لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانًا كف عنهم، وإن لم يسمع أذانا أغار عليهم..»

ومن تعليمه وتربيته لأصحابه ﷺ على الأناة وعدم العجلة أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أُقيمت الصلاة فلا تأتوها تَسعون، وأتوها تمشون، وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا» ومن فقه قصة الخضر مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقصة الهدهد مع سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيرهما من التوجيهات القرآنية والنبوية، استنبط العلماء أحكامًا في الإنكار، من التثبت والتروي والاستخبار قبل الإنكار، فها هو القاضي أبو يعلى يذكر في الأحكام السلطانية، ما يتعلق بالمحتسب فيقول: (.. وإذا رأى وقوف رجل مع امرأة في طريق سالك لم تظهر منهما أمارات الريب لم يتعرض عليهما بزجر ولا إنكار، وإن كان الوقوف في مكان خال فخلوُّ المكان ريبة، فينكرها ولا يعجل في التأديب عليهما حذرا من أن تكون ذات محرم، وليقل (إذا كانت محرم فصنها

عن موقف الريب، وإن كانت أجنبية فاحذر من خلوة تؤديك إلى معصية الله ﷻ) وليكن زجره بحسب الأمارات، وإذا رأى المحتسب من هذه الأمارات ما ينكرها تأنى وفحص وراعى شواهد الحال، ولم يعجل بالإنكار قبل الاستخبار).

وبهذا يتبين لنا أنه ينبغي للآمر بالمعروف الناهي عن المنكر الداعي إلى الله تعالى على بصيرة وحكمة أن يتثبت ويتأنى في الأمور، وأن ينظر إلى المصالح العامة، وما يترتب على الكلمة التي يقولها من عواقب، وأن يحترم علماءه، ويسمع لكلامهم ويأخذ بتوجيهاتهم، ويطيع ولاة أمره في غير معصية.

وليعلم الداعي إلى الله أن التسرع والعجلة وعدم النظر قي العواقب يسبب الفشل والندامة له ولدعوته.

وأحب أن أنبه إلى أن العجلة المذمومة هي ما كان في غير طاعة الله تعالى، أما المسارعة في عمل الآخرة بالضوابط الشرعية التي شرعها الله تعالى فإنها غير داخلة في ذلك، قال تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}، وقال موسى عليه السلام: {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}.

وقد سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢٢/ ١٩٨): شاهدت امرأة تطوف وعليها قفازات فما الحكم في ذلك؟

فأجاب: إذا شاهدت المرأة امرأة أخرى تطوف وعليها قفازات فلتسألها قبل أن تنكر عليها ولتقل لها: هل أنت محرمة؟ إذا قالت نعم فلتقل لها: اخلعي القفازات؛ لأن النبي ﷺ قال في المحرمة: "لا تلبس القفازين" وإن قالت: إنها غير محرمة وإنما هذا طواف تطوع، فلا حرج عليها أن تلبس القفازين في طواف التطوع، وبهذه المناسبة أود أن أنبه على المسألة في باب الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر، وهي: أنك لا تنكر على أحد منكرا حتى تعلم أنه منكر؛ لأن إنكارك قبل ذلك تعجل وتسرع، ولهذا لم ينكر النبي ﷺ على الرجل الذي دخل والنبي ﷺ يخطب يوم جمعة وجلس لم ينكر عليه الجلوس حتى سأله: "أصليت؟" قال: لا. قال: "قم وصل ركعتين وتجوز فيهما" وانظر كيف كان هدي النبي ﷺ فيمن فعل فعلا يحتمل أنه منكر في حقه ويحتمل أنه غير منكر وهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم خير أسوة، وأما من أنكر على الشخص مجرد فعل يراه منكرا فإن هذا تسرع وتعجل.

مسألة: وعيد من يأمر بالمعروف ولا يفعله أو ينهى عن المنكر ويفعله

الواجب على كل من الآمر والمأمور اتباع الحق المأمور به، وقد ورد الوعيد الشديد والتوبيخ والزجر البليغ على من يخالف قوله فعله من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فمن ذلك:

١- قول الله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، وقول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}.

٢- قول الله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ}.

٣- ودلت السنة الصحيحة على أن من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله أنه حمار من حمر جهنم، يجرّ أمعاءه فيها، فأخرج الشيخان في صحيحهما من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ، فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا أَصَابَكَ؟ أَلَمْ

تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ» ومعنى تندلق أقتابه: تتدلى أمعاؤه والعياذ بالله، كما دل القرآن على أن المأمور إذا أعرض عن التذكرة كحمار أيضًا، قال تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ} {كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ} {فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}.

٤- وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، كُلَّمَا قُرِضَتْ رَجَعَتْ، فَقُلْتُ لِجِبْرِيلَ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ» أخرجه الإمام أحمد وابن أبي شيبة

وعن ابن عباس أنه جاء رجل فقال له: يا ابن عباس إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. فقال ابن عباس أوَ بلغت ذلك؟ فقال: أرجوه، قال: فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل. قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ} الآية، وقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} وقوله تعالى عن العبد الصالح شعيب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} الآية، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ولقد أحسن القائل:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

والقائل الآخر:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوي الناس وهو مريض

والقائل الآخر:

فإنك إذ ما تأت ما أنت آمر ... به تلق من إياه تأمر آتيا

(تنبيه): هذا الوعيد الشديد الذي ذكر في الآيات والأحاديث من اندلاق الأمعاء في النار، وقرض الشفاه بمقاريض من نار، ومقت الله ليس على الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما هو على ارتكابه المنكر عالمًا بذلك وهو ينصح الناس عنه، وعلى تركه المعروف عالمًا بذلك وهو يأمر الناس به ويرغبهم فيه ويحثهم عليه، فالوعيد على المعصية لا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه في حدّ ذاته خير وهدى، وبهذا يتبين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير ساقط عن صالح ولا طالح كما سبق، وأن العدالة لا تشترط في الآمر والناهي، وأن المسلم عليه واجبان: واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وواجب العمل بما يأمر به من المعروف، واجتناب ما ينهى عنه من المنكر، فإذا فعل واحدًا من الواجبين وترك واحدًا، أو تركهما معًا فعليه الوعيد.

وخلاصة القول: أنه لا تلازم بين أمر الإنسان بالمعروف وفعله له، ونهيه عن المنكر وتركه له، وأنه يجب على المسلم فعل ما يستطيع من ذلك، وعدم المانع فعليه الوعيد كما سبق في كلام القرطبي والنووي وغيرهما من العلماء.

مسألة: حكم إنكار المنكر على المنابر

سئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: هل يجوز لمن أراد أن ينكر المنكرات أن ينكرها على المنابر، وهل هذا هو منهج أهل السنة والجماعة؟

فأجاب: أما المنكرات إذا شاعت فلابد أن تنكر على المنابر، لكن لا يتكلم بالأشخاص أنفسهم، لأن النبي ﷺ كان إذا أراد أن ينكر على قوم قال: ما بال قوم يقولون كذا وكذا. وأما إذا كان المنكر قليلًا في الناس فلا ينبغي أن ينكر على المنابر؛ لأن إنكاره على المنابر معناه إشاعته بين الناس، كما يقول العوام: (والذي ما دري يدري) فإذا شاعت هذه الفعلة المنكرة بين الناس أنكرها على

المنابر حتى يفهم الناس، لكن لا تفعل شيئًا يوجب أن يثور الناس على ولاة الأمور وأن يكرهوهم وينبذوهم؛ لأن خطر هذا عظيم، قد يتراءى للناس أو يريه الشيطان أنه إذا فعل ذلك كان فيه ضغط على الولاة بأن يستقيموا على دين الله، ولكن الأمر ليس كذلك، هذا إذا كانت القوى متقابلة، فقد يكون هناك ضغط، كالبلاد -غير السعودية - تجد أن الولاة إنما يصلون إلى المناصب عن طريق الانتخاب، فهذا ربما يكون إعلان ما يفعله الحاكم من السوء ضغطًا عليه بحيث يستقيم حتى يرشح مرة ثانية، لكن بلاد تكون فيها القوة مع السلطة لا يستقيم به هذا الأمر إطلاقًا. وليس من الحكمة أن يثير الإنسان الرعية على رعاتها حتى تكرههم ولا تنقاد لأمرهم، أو ترى أنهم لا يستحقون أن يكونوا ولاة، مع العلم بأننا إذا نظرنا إلى من حولنا وجدنا أننا والحمد لله بخير، فبلادنا ولله الحمد يعلن فيها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كان فيه شيء من الضعف لكن لا يوجد أي بلاد غير بلادنا فيها هيئة تسمى هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كذلك أيضًا المحاكم كلها مبنية على الشرع، ماذا قال صاحب الإقناع، ماذا قال صاحب المغني، ماذا قال صاحب المجموع للنووي، ماذا قال فلان، ماذا قال فلان، لا يرجعون إلى قوانين وضعية، إنما إلى الكتاب والسنة وما استنبط منها في كتب أهل العلم، هذه نعمة عظيمة، ومن أراد الكمال في مثل هذا الزمن فليكمل نفسه أولًا قبل أن يحاول تكملة غيره، هل الشعب الآن مثلًا هل هو مكمل نفسه؟ لا. الشعوب فيها انحراف كثير، فيها كذب وغش في المعاملات، سوء أخلاق، استماع إلى الأغاني وغير ذلك، يوجد في الشعب من هذا حاله، فإذا كنا كذلك فلا ينبغي أن نريد من ولاة الأمور أن يكونوا على مستوى أبي بكر

وعمر وعثمان وعلي. وذكر: أن رجلًا من الخوارج جاء مرة إلى علي بن أبي طالب وقال له: يا علي ما بال الناس اختلفوا عليك -أظنكم تعرفون ما جرى لعلي من الفتن وخروج الخوارج عليه وغير ذلك- ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر؟ فقال له كلمة أفحمت الخارجي قال له: [رجال أبي بكر وعمر أنا وأمثالي، ورجالي أنت وأمثالك] فألقم حجرًا، وهذا صحيح. فالحاصل: أن المنكرات إذا شاعت بين الناس فلابد من إنكارها، لكن دون أن يحصل بذلك فتنة، أو تعرض لأحد، أو إيغار الصدور على ولاة الأمور، أما إذا كانت يفعلها واحد من بين مائة نفر مثلًا، أو ألف نفر فهنا نختص بهذا الرجل وننهاه ونخوفه من الله ﷻ؛ لأنك إذا أنكرت المنكر على المنابر وهو لا يفعله إلا قلة من الناس معناه: أنك أشعته بين الناس.

مسألة: حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن فوت عبادة

سئل علماء اللجنة الدائمة (١٢/ ٣٤٠): أيهما أفضل الذهاب لمكة من أجل أداء العمرة والجلوس هناك، أو القيام بالإرشاد والتوجيه في الأسواق والأماكن العامة، خصوصا في شهر رمضان المبارك الذي تزدحم فيه الأسواق وغيرها؟

وأيهما أفضل حضوري لصلاة التراويح أو تذكيري بالوعظ في الأسواق بعد صلاة العشاء مباشرة؟ نأمل من سماحتكم الإجابة عنها كتابة حتى تعم الفائدة.

فأجابوا: إذا كان تذكيرك ووعظك بتكليف وظيفي في هذا الوقت فالواجب عليك أداؤه فيه، ولا تتركه إلا لأداء فرض.

أما إذا كان تبرعا منك فإن رأيت أن المصلحة فيه عظيمة والحاجة إليه ماسة فهو مقدم على ما ذكرت.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١٥/ ٣٨): لا يخفى على فضيلتكم أهمية عمل أعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يحتاج ذلك من الوقت والمتابعة بحيث يتطلب الأمر في بعض الأحيان تأخيرهم للصلاة إلى حين خروج المساجد وتفويتهم للصلاة مع الجماعة ولكثرة كلام الناس في ذلك، نأمل من فضيلتكم تبيان ذلك بفتوى خطية.

فأجاب: لا حرج على الأعضاء إذا بقوا يوجهون الناس للصلاة ويأمرونهم بها ولو تأخروا عن الجماعة في المساجد؛ لأن عملهم هذا مصلحة عامة ودعوة للخير، فإن أدركوا آخر المساجد فصلوا معهم فذاك، وإلا صلوا وحدهم جماعة في أي مسجد.

ولا عبرة باتهام من اتهمهم بعدم المحافظة على الجماعة؛ لأن الأعضاء محل ثقة وعملهم هذا في مصلحة المسلمين، ولقد هم النبي صلي الله عليه وسلم أن يأمر بالصلاة فتقام، ثم ينطلق إلى قوم لا يشهدون الصلاة، ومعه رجال معهم حزم من حطب فيحرق على المتخلفين بيوتهم بالنار، ومعلوم أن هؤلاء الرجال لن يحضروا الصلاة التي أقيمت لأنهم مشتغلون بمصلحة تأديب المتخلفين، فمن اتهم الأعضاء بما ذكر فليبين له الحكم في ذلك، الله الموفق.

وسئل العلامة العثيمين أيضا كما في لقاءات الباب المفتوح: خرج شخص من بيته بعد إقامة الصلاة، وفي طريقه إلى المسجد وجد مجموعة من الناس لم يذهبوا إلى المسجد وشبابًا يلعبون بالكرة، فهل يجوز أن ينشغل عن الركعة الأولى بسبب أمرهم جميعًا بالصلاة، أم يكتفي بكلمات يسيرة حتى يدرك الركعة؟

فأجاب: إذا كان يأمل أن الله ينفعهم به، فلا بأس أن يبقى معهم ولو فاتته

الركعة الأولى أو الثانية، ذلك لأن إدراكه الركعة الأولى أو الثانية أمر مطلوب ولا شك، لكنه سنة، وأما بقاؤه مع هؤلاء يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فهو واجب، هذا إن رجا أن ينفعهم الله به، أما إذا كان آيسًا منهم، يعرف أن هؤلاء لا يسمعون ما يقول فليذهب وليرجع إليهم بعد الصلاة ويأمرهم وينهاهم.

مسألة: بعض الممارسات الخاطئة في تغيير المنكر

قال العلامة الفوزان في كما في المنتقى من فتاوى الفوزان: الممارسات الخاطئة في تغيير المنكر تتلخص فيما يلي:

١ - أن يقوم بتغيير المنكر من لا علم عنده بما يحل ويحرم وما هو منكر وما ليس بمنكر؛ فإن هذا يفسد أكثر مما يصلح، وقد يُحرِّم حلالًا ويُحِلُّ حرامًا. ولا يستطيع دفع الشبهات التي توجه إليه؛ فلا بد أن يكون القائم بذلك عالمًا بما يأمر عالمًا بما ينهى عنه، يستطيع المجادلة بالتي هي أحسن ودفع الشبهات التي توجه إليه من أصحاب الشهوات والمغالطات.

٢ - أو يقوم بتغيير المنكر من ليس عنده حكمة ووضع للأمور في مواضعها وترتيب للأولويات؛ فقد يقوم بإنكار منكر صغير وهناك ما هو أكبر منه وأولى بالبداءة بتغييره، أو يقوم بإنكار منكر يخلفه منكر أعظم منه؛ فلا بد من الحكمة في ذلك.

٣ - أو يقوم بتغيير المنكر بطريق العنف والشدة، ثم تقابل بمثل ذلك أو أشد؛ فلا يحصل المقصود، فلا بد أن يكون الآمر الناهي رفيقًا فيما يأمر به رفيقًا فيما ينهى عنه.

٤ - أو يقوم بإنكار المنكر وتغييره من ليس عنده صبر وتحمل فينقطع في

أول الطريق ويترك التغيير لأنه أُصيبَ باليأس، ولا بد في الآمر الناهي من الصبر والتحمل، قال تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: ٣.]، وقال تعالى عن لقمان: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} [لقمان: ١٧.].

٥- أو يقوم بذلك من لا يتقيد بدرجات الإنكار التي بينها الرسول ﷺ فربما ينزل إلى درجة وهو يستطيع التي قبلها، أو يصعد إلى درجة وهو ليس من أهلها.

٦- قد يكون من بعض الآمرين بالمعروف تسرُّع في بعض الأمور المهمة؛ بأن تكون له مبادرات لا يرجع فيها إلى أهل العلم والرأي والمشهورة الذين يقومون بدراسة الأمور ويعلمون تجاه كل شيء ما يناسبه، إن ارتكاب هذه الأخطاء أو بعضها تعوق مسيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد تُحدِث أمورًا عكسية، وقد يحصل منها نتائج غير كافية، فمثلًا الذي يقوم بإنكار المنكر الخفيف ويترك المنكر الذي هو أعظم منه لا يُنتِج عملُهُ كبير فائدة؛ فالذي يترك إنكار الشرك والبدع وينكر أكل الربا والسفور وغير ذلك من الأمور التي يوجد ما هو أعظم منها يكون قد بدأ من آخر الطريق وعالج جسمًا مقطوع الرأس وخالف منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فقد كانوا يبدؤون بإنكار الأهم فالمهم، كانوا يبدؤون بإنكار الشرك وعبادة غير الله، فإذا صححوا العقيدة أولًا؛ التفتوا إلى إنكار المعاصي الأخرى.

خذ هذا مثلًا في منهج نبينا محمد ﷺ، فقد بقي في مكة ينكر الشرك ويدعو إلى التوحيد ثلاث عشرة سنة قبل أن ينكر الربا والزنى وشرب الخمر ويأمر بالصلاة والزكاة، قد يقول قائل: هذا كان في مجتمع المشركين؛ أما نحن؛ ففي

مجتمع مسلم عنده بعض المخالفات. فنقول: إن ما كان موجودًا عند المشركين في الجاهلية يوجد اليوم في غالب بلاد المسلمين ما هو مثله أو أعظم منه من الشرك بالله المتمثل في عبادة الأضرحة والطرق الصوفية والبدع في الدين؛ فالواجب على الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر في تلك البلاد أن يهتموا بذلك وأن يبدؤوا بإنكاره بجد وعزيمة حتى تطهر البلاد منه ثم يواصلوا مسيرتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بقية المخالفات.

مسألة: مفهوم خطأ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

سئل العلامة الفوزان في كما في المنتقى من فتاوى الفوزان: يفهم كثير من الشّباب اليومَ معنى قوله تعالى: {وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ} [المائدة: ٥٤.]؛ أنهم الذين يذكرون أخطاء الحكّام على المنابر وأمام الملأ وفي الأشرطة المسجّلة، ويحصرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ذلك أيضًا؛ نرجو توجيه هؤلاء هداهم الله إلى السُّلوك الصَّحيح، وتوضيح المعنى الصحيح لهذه الآية، وبيان حكم أولئك الذين يتكلّمون في الحكّام علنًا.

فأجاب: يقول الله سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ} [المائدة: ٥٤.]؛ هذه الآية في كل من قال كلمة الحق، وجاهد في سبيل الله، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر؛ طاعة لله تعالى، ولم يترك النّصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله من أجل الناس أو من خشية الناس؛ فإنّ هذا هو الملومُ.

ولكنّ قضية النّصيحة والدّعوة إلى الله؛ كما قال الله تعالى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ

رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥.]، والله سبحانه وتعالى قال لموسى وهارون لمّا أرسلهم إلى فرعون: {فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٤.]، وقال تعالى في حق نبيّنا محمد ﷺ: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩.].

فالنّصيحة للحكّام تكون بالطُّرق الكفيلة بوصولها إليهم من غير أن يُصاحبها تشهير أو يصاحبها استنفار لعقول النّاس السّذّج والدَّهماء من الناس، والنّصيحة تكون سرًّا بين النَّاصح وبين وليِّ الأمر: إمّا بالمشافهة، وإمّا بالكتابة له، وإمّا أن يتّصل به ويبيّن له هذه الأمور، ويكون ذلك بالرِّفق، ويكون ذلك بالأدب المطلوب.

أمّا النّصيحة لولاة الأمور على المنابر وفي المحاضرات العامَّة؛ فهذه ليست بالنَّصيحة، هذا تشهير، وهذا زرع للفتنة والعداوة بين الحكّام وشعوبها، وهذا يترتّب عليه أضرار كبيرة، قد يتسلَّط الولاة على أهل العلم على الدُّعاة بسبب هذه الأفعال؛ فهذه تفرِزُ من الشُّرور ومن المحاذير أكثر ممّا يُظَنُّ فيها من الخير.

فلو رأيت على شخص عاديٍّ ملاحظة، أو وقع في مخالفة، ثم ذهب إلى الملأ، وقلت: فلان عمل كذا وكذا! لاعتُبِرَ هذا من الفضيحة وليس من النّصيحة، والنبي ﷺ قال: (مَن سترَ مسلمًا؛ ستره الله في الدّنيا والآخرة) [رواه الإمام البخاري في " صحيحه " (٣/ ٩٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه.]، وكان النبي ﷺ إذا أراد أن ينبِّهَ على شيء؛ لا يخصُّ قومًا بأعيانهم، بل يقول: (ما بالُ أقوامٍ يفعلونَ كذا وكذا)؛ لأنّ التّصريح بالأسماء يفسد أكثر ممّا يصلح، بل ربّما لا يكون فيه صلاحٌ، بل فيه مضاعفة سيّئةٍ على الفرد وعلى الجماعة.

طريق النّصيحة معروف، وأهل النّصيحة الذين يقومون بها لا بدَّ أن يكونوا على مستوىً من العلم والمعرفة والإدراك والمقارنة بين المضارِّ والمصالح والنظر في العواقب، ربّما يكون إنكار المنكر منكرًا؛ كما قال ذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك إذا أنكر المنكر بطريقة غير شرعيَّةٍ؛ فإنّ الإنكار نفسه يكون منكرًا؛ لما يولِّدُ من الفساد، وكذلك النَّصيحة ربَّما نسمِّيها فضيحة ولا نسمِّيها نصيحة، نسمِّيها تشهيرًا، نسمِّيها إثارة، ونسمِّيها زيادة شرٍّ وفتنة، إذا جاءت بغير الطّريق الشرعيِّ المأمور به.

مسألة: الفرق بين الإنكار والشماتة

سئل علماء اللجنة الدائمة (١٢/ ٣٤٢): ما حكم من تكلم في وجه شخص وأخبره بعيوبه وهو يسمع هل هو جائز؟

فأجابوا: يجوز إذا كان على وجه النصح له والإنكار عليه؛ ليرتدع عن المعصية، ويكون بأسلوب حسن حتى يقبل النصح، أما إذا كان على وجه الشماتة أو التعيير والإساءة، أو التشهير به ونحو ذلك فلا يجوز.

مسألة: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على سبيل المداهنة

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن كما في الدرر السنية (٨/ ٦٧): ولا يرى تركه والمداهنة فيه، إلا من أضاع حظه ونصيبه من العلم والإيمان، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [سورة آل عمران آية: ١١٠]. وقال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة آل عمران آية: ١٠٤].

فهذه الآيات تدل على وجوبه، وأن القائم به خير الناس وأفضلهم، وأن

الخيرية لا تحصل إلا بذلك. وفيها: أن الفلاح محصور في أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الفوز بالسعادة الأبدية.

وأما الوعيد على تركه، فمثل قوله تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} الآية [سورة المائدة آية: ٧٨ - ٧٩]. ففي هذه الآية: لعنهم على ألسن أنبيائهم، بترك النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، واللعن هو: الطرد والإبعاد عن الله وعن رحمته.

وذكر بعض المفسرين هنا حديثًا: "إن من كان قبلكم كانوا إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة، جاءه الناهي تعذيرًا، فإذا كان الغد جالسه وواكله وشاربه، كأن لم يره على خطيئة بالأمس. فلما رأى الله ذلك منهم، ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. والذي نفس محمد بيده، لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، ولتأخذنّ على يد السفيه، ولتأطرنه على الحق أطرًا، أو ليضربنّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم يلعنكم كما لعنهم".

وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال: "أوحى الله ﷻ إلى يوشع بن نون: إني مهلك من قومك أربعين ألفًا من خيارهم، وستين ألفًا من شرارهم، قال: يا رب، هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم".

وذكر أيضًا، من حديث ابن عمر: "لينقضنّ الإسلام عروة عروة، حتى لا يقال: الله الله. لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم، فيسومونكم سوء العذاب، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم.

ولتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، أو ليبعثنّ الله عليكم من لا يرحم صغيركم، ولا يوقر كبيركم". وفي المسند مرفوعًا: "يا أيها الناس، إن الله يقول: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، قبل أن تدعوني فلا أجيبكم، وتستنصروني فلا أنصركم، وتسألوني فلا أعطيكم"، وفي حديث ابن عباس: "وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا لم ترفع أعمالهم، ولم يسمع دعاؤهم"، رواه الطبراني.

وذكر الإمام أحمد، رَحِمَهُ اللَّهُ، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يوشك القرى أن تخرب وهي عامرة، قالوا: كيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فجارها أبرارها، وساد القبيلة منافقوها". والأحاديث في هذا كثيرة، تطلب من مظانها.

وترك ذلك على سبيل المداهنة، والمعاشرة، وحسن السلوك، ونحو ذلك مما يفعله بعض الجاهلين، أعظم ضررًا، وأكبر إثمًا من تركه لمجرد الجهالة. فإن هذا الصنف، رأوا أن السلوك وحسن الخلق، ونيل المعيشة لا يحصل إلا بذلك، فخالفوا الرسل وأتباعهم، وخرجوا عن سبيلهم ومنهاجهم، لأنهم يرون العقل إرضاء الناس على طبقاتهم، ويسالمونهم، ويستجلبون مودتهم ومحبتهم؛ وهذا مع أنه لا سبيل إليه، فهو إيثار للحظوظ النفسانية والدعة، ومسالمة الناس وترك المعاداة في الله وتحمل الأذى في ذاته.

وهذا في الحقيقة هو الهلكة في الآجلة، فما ذاق طعم الإيمان، من لم يوال في الله ويعاد فيه، فالعقل كل العقل، ما أوصل إلى رضى الله ورسوله، وهذا إنما يحصل بمراغمة أعداء الله، وإيثار مرضاته، والغضب إذا انتهكت محارمه. والغضب ينشأ من حياة القلب، وغيرته وتعظيمه، وإذا عدم الحياة والغيرة والتعظيم، وعدم الغضب والاشمئزاز، وسوى بين الخبيث والطيب في معاملته

وموالاته ومعاداته، فأي خير يبقى في قلب هذا؟

وفي بعض الآثار: "أن الله أوحى إلى جبرائيل، أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يا رب إن فيهم فلان العابد، قال: به فابدأ، إنه لم يتمعر وجهه فيّ قط". وذكر ابن عبد البر: "أن الله بعث ملكين إلى قرية ليدمراها، فوجدا فيها رجلًا قائمًا يصلي في مسجد، فقالا: يا رب، إن فيها عبدك فلانًا يصلي، فقال الله ﷻ: دمراها، ودمراه معهم، فإنه ما تمعر وجهه فيّ قط". انتهى.

ومن له علم بأحوال القلوب، وما يوجبه الإيمان ويقتضيه، من الغضب لله، والغيرة لحرماته وتعظيم أمره ونهيه، يعرف من تفاصيل ذلك فوق ما ذكرنا، ولو لم يكن إلا مشابهة المغضوب عليهم والضالين، في الأنس بأهل المعاصي، ومواكلتهم، ومشاربتهم، لكفى بذلك عيبًا، والله الموفق والهادي، لا إله غيره، والسلام.

وقال أيضا الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن: وأما الفرق بين المداراة والمداهنة: فالمداهنة: ترك ما يجب لله من الغيرة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتغافل عن ذلك، لغرض دنيوي، وهوى نفساني، كما في حديث: "إن من كان قبلكم كانوا إذا فعلت فيهم الخطيئة، أنكروها ظاهرًا، ثم أصبحوا من الغد يجالسون أهلها، ويواكلونهم ويشاربونهم كأن لم يفعلوا شيئا بالأمس" ١. فالاستئناس والمعاشرة، مع القدرة على الإنكار، هي المداهنة.

وثمود لو لم يدهنوا في ربهم ... لم تدْم ناقتهم بسيف قدارِ

وأما المداراة، فهي: درء الشر المفسد بالقول اللين، وترك الغلظة، أو الإعراض عنه إذا خيف شره، أو حصل منه أكبر مما هو ملابس؛ وفي الحديث: "شركم من اتقاه الناس خشية فحشه"، وعن عائشة، رضي الله عنها: "أنه استأذن على

النبي رجل، فقال: بئس أخو العشيرة هو. فلما دخل على النبي ﷺ، ألان له الكلام، فقالت عائشة: قلت فيه يا رسول الله ما قلت؟ فقال: إن الله يبغض الفحش والتفحش".

مسألة: التحذير من ترك الأمر بالمعروف إرضاء للناس

قال الشيخ حمد بن عتيق كما في الدرر السنية (٨/ ٧٤): من حمد بن عتيق: إلى من بلغه من المسلمين، ألزمهم الله شرائع الدين، وجنبهم طريق الكفار والمنافقين آمين؛ سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فالموجب للخط هو النصيحة لكم، والمعذرة من الله في إبلاغكم، فإن الله تعالى يقول: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [سورة البقرة آية: ١٥٩]، وقال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [سورة المائدة آية: ٧٨ - ٧٩].

وقد سمعتم فيما يتلى عليكم من حلول العقوبات، عند ظهور المنكرات، ولكن قد فتح الشيطان لكثير من الناس أبوابًا من الشر، في إسقاط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألقاها على أناس فيهم شبهة دين، حتى اعتقدوها أعذارًا لهم، وإنما هي من زخارف الشياطين ولكن إذا تبين أن الزاني والسارق وشارب الخمر، أحسن حالًا عند الله من هؤلاء الجنس، فهذا كاف في شناعة مذهبهم وسوء منقلبهم، فنسأل الله العفو والعافية.

ومما ينبغي أن يعلم: أن العقل على ثلاثة أنواع: عقل غريزي، وعقل إيماني مستفاد من مشكاة النبوة، وعقل نفاقي شيطاني، يظن أربابه أنهم على شيء؛

وهذا العقل هو حظ كثير من الناس بل أكثرهم، وهو عين الهلاك، وثمرة النفاق. فإن أربابه يرون أن العقل إرضاء الناس جميعهم، وعدم مخالفتهم في أغراضهم وشهواتهم، واستجلاب مودتهم، ويقولون: صلح نفسك بالدخول مع الناس، ولا تبغض نفسك عندهم؛ وهذا هو إفساد النفس، وهلاكها من أربعة أمور:

أحدها: أن فاعل ذلك قد التمس رضى الناس بسخط الله، وصار الخل في نفسه أجل من الله؛ ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس؛ فقد جاء أن الله تعالى يقول: "إذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد". فإذا ترك القادر المعروف فلم يأمر به، والمنكر فلم ينه عنه، فقد تسبب أن الله يلعنه لعنة تبلغ السابع من ولده، ومصداق ذلك قوله تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [سورة المائدة آية: ٧٨]. فقد ظهر أن هذا المداهن قد أفسد نفسه من حيث يظن أنه يصلحها.

الثاني: أن المداهن لا بد أن يفتح الله له بابًا من الذل والهوان من حيث طلب العز؛ وقد قال بعض السلف: من ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مخافة المخلوقين، نزعت منه الطاعة؛ فلو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخف بحقه، فكما هان عليه أمر الله، أهانه الله وأذله، {نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ} [سورة التوبة آية: ٦٧].

الثالث: أنها إذا نزلت العقوبات، فالمداهن داخل فيها، كما في قوله تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [سورة الأنفال آية: ٢٥]، وفي المسند والسنن عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال ﷺ: "إن من كان قبلكم إذا عمل العامل بالخطيئة، جاءه الناهي تعذيرًا إليه، فإذا كان الغد

جالسه، وواكله وشاربه، كأنه لم يره على خطيئة بالأمس. فلما رأى الله ذلك منهم، ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم {عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} . والذي نفس محمد بيده، لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، ولتأخذنّ على يد السفيه، ولتأطرنّه على الحق أطرًا، أو ليضربنّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم ". وذكر ابن أبي الدنيا عن وهب بن منبه قال: "لما أصاب داود الخطيئة، قال: يا رب اغفر لي، قال: قد غفرتها لك، وألزمت عارها بني إسرائيل، قال: لِم يا رب؟ كيف - وأنت الحكم العدل لا تظلم أحدًا - أنا أعمل الخطيئة، وتلزم عارها غيري؟! فأوحى الله إليه: أنك لما عملت لم يعيبوا عليك بالإنكار".

وذكر ابن أبي الدنيا: "أن الله أوحى إلى يوشع بن نون، إني مهلك من قومك أربعين ألفًا من خيارهم، وستين ألفًا من شرارهم، قال: يا رب، هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم". وذكر ابن عبد البر وغيره: "أن الله تعالى أمر ملكًا من الملائكة أن يخسف بقرية، فقال: يا رب، إن فيهم فلانًا الزاهد العابد، قال: به فابدأ، وأسمعني صوته، إنه لم يتمعر وجهه فيّ يومًا قط". فالنجاة عند نزول العقوبات، هي لأهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ} الآية [سورة الأعراف آية: ١٦٥].

الرابع: أن المداهن، الطالب رضى الخلق، أخبث حالًا من الزاني والسارق والشارب؛ قال ابن القيم، رحمه الله تعالى: وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأمور المحبوبة لله، وأكثر الدينين لا يعبؤون منها، إلا بما شاركهم فيه عموم الناس، وأما الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله وكتابه ودينه، فهذه الواجبات، لا يخطرن ببالهم، فضلًا عن أن يريدوا فعلها، فضلًا عن أن يفعلوها. وأقل الناس دينًا، وأمقتهم إلى الله، من ترك هذه الواجبات، وإن زهد في الدنيا جميعها. وقل أن يرى منهم من يحمر وجهه، ويتمعر في الله، ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه؛ وأصحاب الكبائر أحسن حالًا عند الله من هؤلاء. انتهى.

فلو قدر أن رجلًا يصوم النهار، ويقوم الليل، ويزهد في الدنيا كلها، وهو مع ذلك لا يغضب، ولا يتمعر وجهه ويحمر لله، فلا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، فهذا الرجل من أبغض الناس عند الله، وأقلهم دينًا؛ وأصحاب الكبائر أحسن حالا عند الله منه.

وقد حدثني من لا أتهم، عن شيخ الإسلام، إمام الدعوة النجدية، أنه قال مرة: أرى ناسًا يجلسون في المسجد على مصاحفهم، يقرؤون ويبكون، فإذا رأوا المعروف لم يأمروا به، وإذا رأوا المنكر لم ينهوا عنه، وأرى أناسًا يعكفون عندهم، يقولون: هؤلاء لحى غوانم، وأنا أقول: إنهم لحى فوائن، فقال السامع: أنا لا أقدر أقول إنهم لحى فوائن، فقال الشيخ: أنا أقول: إنهم من العمي البكم.

ويشهد لهذا: ما جاء عن بعض السلف، أن الساكت عن الحق شيطان أخرس، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق؛ فلو علم المداهن الساكت، أنه من أبغض الخلق عند الله، وإن كان يرى أنه طيب، لتكلم وصدع. ولو علم طالب رضى الخلق، بترك الإنكار عليهم، أن أصحاب الكبائر أحسن حالًا عند الله منه، وإن كان عند نفسه صاحب دين، لتاب من مداهنته ونزع. ولو تحقق من يبخل بلسانه عن الصدع بأمر الله أنه شيطان أخرس، وإن كان صائما قائمًا زاهدًا، لما

ابتاع مشابهة الشيطان بأدنى الطمع.

اللهم إنا نعوذ بك من كل عمل يغضب الرحمن، ومن كل سجية تقربنا من التشبه بالشيطان، أو نداهن في ديننا أهل الشبهات والنفاق والكفران. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

مسألة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند المعتزلة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الأصل الأخير من أصول المعتزلة الخمسة. وقد بين القاضي عبد الجبار حقيقة الأمر والنهي والمعروف والمنكر فقال: "أما الأمر: فهو قول القائل لمن دونه في المرتبة: افعل، والنهي: هو قول القائل لمن دونه: لا تفعل. وأما المعروف: فهو كل فعل عرف فاعله حسنه أو دل عليه، ولهذا لا يقال في أفعال القديم تعالى: معروف، لما لم يعرف حسنها ولا دل عليها. وأما المنكر: فهو كل فعل عرف فاعله قبحه أو دل عليه، ولو وقع من الله تعالى القبيح لا يقال: إنه منكر، لما لم يعرف قبحه ولا دل عليه".

ومعنى التعريف: أن المعروف والمنكر لابد أن يتضح أمرهما عند الشخص بأن يرى حسن المعروف ويدلل عليه، ويرى قبح المنكر ويستطيع أن يدلل عليه، وهذا بخلاف ما لو وقع من الله - افتراضًا- فعل القبيح فإنه لا يستطيع أن يدلل عليه، ولذلك فلا يوصف بالمنكر. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعتبران من فروض الكفايات عند المعتزلة إذا قام بهما من يكفي سقط عن الباقين، وحكمهما عمومًا الوجوب الكفائي.

وقد استدل المعتزلة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأدلة كثيرة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية والإجماع.

فمن القرآن الكريم: قوله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون

بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾، قال عبد الجبار: "فالله تعالى مدحنا على ذلك فلولا أنها من الحسنات الواجبات وإلا لم يفعل ذلك".

قال عبد الجبار: "وأما السنة: فهو قول النبي ﷺ: (ليس لعين ترى الله يُعصى فتطرف حتى تغير أو تنتقل) وهو حديث باطل لا يعرف.

قال: "وأما الإجماع: فلا إشكال فيه، لأنهم اتفقوا على ذلك". وقد توافق أهل السنة والمعتزلة في حكم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كونه من الواجبات على الكفاية، وهو ما قرره الله تعالى في كتابه الكريم حيث قال: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولائك هم المفلحون﴾، إلا أنه وقع خلاف بين أهل السنة والمعتزلة فيما يلي:

فقد أوجب المعتزلة الخروج على السلطان الجائر، وحمل السلاح في وجوه المخالفين لهم سواء كانوا من الكفار أو من أصحاب المعاصي من أهل القبلة.

فأما طريقة تغيير المنكر: فقد ساروا فيها عكس الحديث الذي بيَّن فيه الرسول ﷺ موقف المسلم إزاء تغيير المنكرات: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).

إذ أن تغيير المنكر عندهم يبدأ بالحسنى ثم باللسان ثم باليد ثم بالسيف، بينما الحديث يرشد إلى العكس، وهو ما يذهب إليه أهل الحق، من أن تغيير المنكر يبدأ بالفعل باليد إذا لم يترتب عليه مفاسد، والتغيير باليد هنا لا يكون بالسيف، وإنما هو إزالة المنكر بدون قتال ولا فتح باب فتنة أكبر من المنكر

المراد إزالته.

فإن لم يتمكن الشخص من التغيير باليد انتقل إلى التغيير باللسان، فإن وصل الحال إلى عدم الاستطاعة من التغيير باللسان بأن كان الشر هو الغالب على الخير، فليكتف بالتغيير بالقلب من كراهة المنكر وتمني زواله وبغضه وبغض أهله، ومع هذا فلا مكان للسيف هنا، لأن الرسول ﷺ لم يرشد إليه، ولما فيه كذلك من جر الأمة إلى ما هو أكبر من تغيير ذلك المنكر، بخلاف المعتزلة فإنهم لا يرون حرجًا في حمل السلاح لتغيير المنكر.

وأما الخروج على السلطان الجائر: فقد أوجبه المعتزلة، والواقع أن جور السلطان وارتكابه المعاصي لا يوجب الخروج عليه لما يترتب على ذلك من المفاسد ومن سفك الدماء وتفريق كلمة الأمة، فإن الإسلام لا يبيح الخروج عليه إلا عندما يظهر الكفر منه صراحة.

وأما حمل السلاح في وجوه المخالفين لهم من أهل القبلة: فلا دليل لهم على ذلك، ولا يجوز أن يستحل دم المسلم إلا بما حدده الشرع، وصاحب الكبيرة ليس بكافر، فلا يجوز قتاله واستحلال دمه ولم يأمر الشرع بذلك، فيجب على المسلم الالتزام وترك تنطع الخوارج والمعتزلة.

مسألة: قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٢٥٨): فصل في إنكار المنكر الخفي والبعيد والماضي: قال في الرعاية: ويحرم التعرض لمنكر فعل خفي على الأشهر، أو مستور، أو ماض، أو بعيد، وقيل: يجهل فاعله، ومحله انتهى كلامه.

وقال أيضا، والإنكار فيما فات ومضى إلا في العقائد والآراء قال القاضي في الماضي يشترط أن يعلم استمرار الفاعل على فعل المنكر، فإن علم من حاله

ترك الاستمرار على الفعل لم يجز إنكار ما وقع على الفعل، كذا قال فإن كان مراده أنه ندم، وأقلع وتاب، فصحيح، لكن هل يجوز في هذه الحال ويرفعه إلى ولي الأمر ليقيم الحد؟ ينبني على سقوطه بالتوبة فإن اعتقد الشاهد سقوطه لم يرفعه وإلا رفعه، وبين الحال كما قاله في المغني فيمن شهد برهن الرهن ثانيا على دين أخذه الراهن من المرتهن، وجعله الراهن رهنا بهما.

وأما إذا كان مصرا على المحرم ولم يتب، فهذا يجب إنكار الفعل الماضي وإصراره، وهل يرفعه إلى ولي الأمر؟ قد تقدم الكلام في وجوب الستر واستحبابه، والتفرقة فيه، ولهذا تقبل الشهادة عندنا بسبب قديم يوجب الحد في المشهور من المذهب، فهذا إنكار، وإقامة شهادة، وعلل المنع بما روي عن عمر: إنما شهد لضغن ولم يعلل بأن الشاهد فعل ما لا يجوز.

وقد روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم خيبتنا وأخرجتنا من الجنة» وفي لفظ: «تحاج آدم وموسى فقال له موسى: أنت آدم الذي أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة».

وفي لفظ «احتج آدم وموسى عند ربهما ﷻ فقال موسى: أنت آدم خلقك الله ﷻ بيده، ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا، فبكم وجدت الله ﷻ كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاما قال آدم: فهل وجدت فيها: {وعصى آدم ربه فغوى} [طه: ١٢١] قال: نعم، قال أفتلومني على أن عملت عملا كتبه الله ﷻ علي أن أعمله قبل أن أخلق بأربعين

سنة؟» هو في الألفاظ كلها قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى» وللبخاري في رواية «فحج آدم موسى ثلاثا» والمراد بقوله: أتلومني على أمر قدره الله ﷻ علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ هذه الكتابة في التوراة كتصريح هذه الرواية؛ لأن علم الله ﷻ وما قدره وأراده قديم، وآدم مرفوع بالاتفاق أي: غلب فظهر بالحجة.

قال في شرح مسلم: ومعنى كلام آدم إنك يا موسى تعلم أن هذا كتب وقدر علي فلا بد من وقوعه فلا تلومني على ذلك؛ لأن اللوم على الذنب شرعي لا عقلي، وإذ تاب الله ﷻ على آدم، وغفر له زال عنه اللوم، فمن لامه كان محجوجا بالشرع. فإن قيل: فالعاصي منا لو قال: هذه المعصية قدرها الله ﷻ علي لم يسقط عنه اللوم والعقوبة بذلك، وإن كان صادقا فيما قاله.

(فالجواب) أن هذا العاصي باق في دار التكليف جار عليه أحكام المكلفين من العقوبة واللوم وغيرهما، وفي زجر له ولغيره عن مثل هذا الفعل، وهو محتاج إلى الزجر ما لم يمت، فأما آدم فميت خارج عن دار التكليف، وعن الحاجة إلى الزجر، ففي القول إيذاء له، وتخجيل بلا فائدة انتهى كلامه.

وقال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: رحمة الله على موسى قال: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله لا لأجل كونها ذنبا، ولهذا احتج عليه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالقدر، وأما كونه لأجل الذنب كما يظنه طوائف من الناس فليس مرادا بالحديث، فإن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قد تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس، وأيضا فإن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ احتج بالقدر، وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين وسائر أهل الملل وسائر العقلاء.

وقال أيضا في كتاب الفرقان: وهذا الحديث قد ضلت به طائفتان طائفة كذبت به لما ظنوا أنه يقتضي رفع الذم والعقاب عمن عصى الله ﷻ لأجل القدر، وطائفة شر من هؤلاء جعلوه حجة لأهل الحقيقة الذين شهدوه أو الذين لا يرون أن لهم فعلا. ومن الناس من قال: إنما حجه؛ لأنه أبوه أو لأنه قد تاب أو لأن الذنب كان في شريعة، واللوم في أخرى، أو لأن هذا يكون في الدنيا دون الآخرة، وكل هذا باطل، ولكن وجه الحديث أن موسى عليه السلام لم يلم إياه إلا لأجل المصيبة التي لحقتهم من أجل أكله من الشجرة، فقال: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة، لم يلمه لمجرد كونه أذنب ذنبا، وتاب منه فإن موسى يعلم أن التائب من الذنب لا يلام، ولو كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل: {ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين} [الأعراف: ٢٣].

والمؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلم، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب قال تعالى: {فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك} [غافر: ٥٥]: فأمره بالصبر على المصائب، والاستغفار من المعائب انتهى كلامه.

وهو وكلام غيره يدل على أن الذنب الماضي يلام صاحبه وينكر عليه إذا لم يتب وقد تقدم ذكر الذي في شرح مسلم.

ونص الإمام أحمد رضي الله عنه في رواية عبد الله والمروذي وأبي طالب وغيرهم في الطنبور ووعاء الخمر وأشباه ذلك يكون مغطى لا نعرض له، ونص في رواية إسحاق، ومحمد بن أبي حرب أيضا على أنه ينكره ويتلفه.

وقال أبو الحسين: هل يجب إنكار المغطى؟ على روايتين أصحهما: يجب؛ لأنا تحققنا المنكر. (الثانية): لا يجب كأهل الذمة إذا أظهروا الخمر أنكر

عليهم، وإذا ستروه لم يتعرض لهم، وكذا في الترغيب أنه يجب في أصح الروايتين.

وفي معتقد ابن عقيل: ولا يكشف من المعاصي ما لم يظهر، وكذا قال ابن الجوزي: من تستر بالمعصية في داره، وأغلق بابه لم يجز أن يتجسس عليه إلا أن يظهر ما يعرفه كأصوات المزامير والعيدان فلمن سمع ذلك أن يدخل ويكسر الملاهي، وإن فاحت روائح الخمر، فالأظهر جواز الإنكار وسيأتي كلام ابن عقيل فيه في فصول اللباس.

قال ابن الجوزي: قال المفسرون والتجسس البحث عن عيب المسلمين وعوراتهم، فالمعنى لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه ليطلع عليه إذا ستره الله ﷻ. وقيل لابن مسعود: هذا الوليد بن عقبة تقطر لحيته خمرا قال: إنا نهينا عن التجسس، فإن يظهر لنا شيء نأخذ به انتهى كلامه.

وقال عبد الكريم بن الهيثم العاقولي: سمعت أبا عبد الله يسأل عن الرجل يسمع صوت الطبل والمزمار لا يعرف مكانه، فقال: وما عليك وما غاب عنك؟ فلا تفتش. ونقل يوسف وغيره وما عليك إذا لم تعرف مكانه.

وقال محمد بن أبي حرب: سألت أبا عبد الله عن الرجل يسمع المنكر في دار بعض جيرانه، قال: يأمره فإن لم يقبل يجمع عليه ويهول عليه.

ونقل جعفر فيمن يسمع صوت الغناء في الطريق. قال: هذا قد ظهر، عليه أن ينهاهم ورأي أن ينكر الطبل يعني إذا سمع صوته. وقيل له: مررنا بقوم قد أشرفوا من علية لهم يغنون فجئنا صاحب الخبر أخبرناه فقال: لم تكلموا في الموضع الذي سمعتم؟ فقيل: لا، قال: كان يعجبني أن تكلموا، ثم قال: لعل الناس كانوا يجتمعون وكانوا يشهرون. وهذا معنى ما ذكره الأصحاب في باب

الوليمة أنه لزم القادر الحضور والإنكار، وإلا لم يحضر وانصرف.

وقال القاضي في المعتمد: ولا يجب على العالم والعامي أن يكشف منكرا قد ستر، بل محظور عليه كشفه لقول الله تعالى: {ولا تجسسوا} [الحجرات: ١٢].

وقال الشيخ تقي الدين: ومن كان قادرا على إراقة الخمر وجب عليه إراقتها، ولا ضمان عليه، وأهل الذمة إذا أظهروا الخمر، فإنهم يعاقبون عليه أيضا بإراقتها، وشق ظروفها وكسر دنانها، وإن كنا لا نتعرض لهم إذا أسروا ذلك بينهم. وهذا ظاهر في إنكار المنكر المستور، ولم نجد فيه خلافا، ومعناه كلام صاحب النظم، قال في الرعاية بعد كلامه السابق: وقيل: من علم منكرا قريبا منه في دار ونحوها دخلها، وأنكره.

وقال صاحب النظم: المستتر من فعله بموضع لا يعلم به غالبا إما لبعده أو نحوه غير من حضره ويكتمه، وأما من فعله بموضع يعلم به جيرانه، ولو في داره فإن هذا معلن مجاهر غير مستتر.

مسألة: سئل العلامة الألباني كما في جامع تراث العلامة الألباني (٩/ ٣٢١): فضيلة الشيخ قوله ﷺ (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ... الحديث) قال بعضهم إن التغيير باليد لولي الأمر، أو لمن له سلطان، والتغيير بالقول للعالم، والتغيير بالقلب لعامة الناس، وقال آخرون بل كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث يشترك فيها الولي والعالم والعامة فما قول الشيخ في ذلك؟

فأجاب: الشيخ: لا شك أن القول الأول عاطل باطل، والقول الصحيح أن الحديث يعم كل المسلمين لا فرق بين حاكم ومحكوم، وبين عالم ومتعلم وجاهل لأن النبي ﷺ أولا جاء بلفظ من وهي من صيغ الشمول، (من رأى

منكم...) ومنكم أيضا من صيغ الشمول، أي أنتم يا معشر المسلمين ثم قسم هؤلاء المخاطبين بالخطاب العام الشامل لجميع المسلمين، قسمهم إلى ثلاثة مراتب من كان يستطيع إنكار المنكر بيده فهذا هو الواجب، ولا فرق بين ذلك بين حاكم ومحكوم ومن كان لا يستطيع ينزل درجة فينكر المنكر، بلسانه، ومن كان لا يستطيع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان، والحقيقة أن عجبي لا يكاد ينتهي من أناس يستغفلون الناس، ويوهمونهم أن هذا الحديث يخاطب ثلاثة طبقات، الحكام، والعلماء، وعامة الناس وهم يعلمون يقينا، أن هناك أمور تقع في دار أحد الناس وهو ليس بالحاكم، ولا هو بالعالم فيرى منكرا فيغيره بيده، وإن لم يستطع أن يغيره بيده فبلسانه فما فائدة هذا التقسيم العاطل الباطل والواقع يكذبه من كل المسلمين، لكنهم هم في الواقع، يلجأون إلى مثل هذا التقسيم، من باب معالجة منكر بمنكر آخر، يعني على مذهب أبي نواس " وداوني بالتي كانت هي الداء"، ما هو المنكر الذي يريدون أن يعالجوه به، أن كثيرا من عامة الناس تأخذهم العزة الإسلامية، والغيرة الإسلامية حينما يرون منكرا فيغيرونه بيدهم وهم ليسوا حكاما فيترتب من وراء هذا التغيير منكر أكبر، وهذا بلا شك لا يجوز لكن عدم جوازه ليس لأن هؤلاء الذين غيروا المنكر، هم ليسوا حكاما، وإنما لأن هذا التغيير يترتب منه مفسدة أكبر من المصلحة، أي لو أن المغير كان هو الحاكم نفسه، ورأى أنه يترتب من وراء تغييره لهذا المنكر، منكرا أكبر، لم يجز له أن يغيره وهو الحاكم، وهو الذي زعموا بأنه مخاطب فقط بقوله (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده)، والدليل على ذلك لما الرسول عليه السلام دخل جوف الكعبة وصلى ركعتين، كما جاء في الصحيحين، ثم خرج فأرادت السيدة عائشة أن تجهد نفسها، وأن تتكبد مشقة الصعود، إلى جوف

الكعبة، لأن الباب كما هو الآن كان عاليا ومرتفعا فقال عليه السلام لها (صلي بالحجر، فإنه من الكعبة أو من البيت وإن قومك لما بنو الكعبة قصرت بهم النفقة، ولو لا أن قومك حديثو عهد بالشرك لهدمت الكعبة، ولبنيتها على أساس إبراهيم عليه السلام)، أي أدخلت الحجر في الكعبة (ولجعلت لها بابين مع الأرض، بابا يدخلون منه وبابا يخرجون منه)، فإذن هذا هو الحاكم الأعلى بعد الله، على وجه الأرض هو رسول الله ورأى المنكر أي نصف الكعبة أو ربعها خارج ايش؟ الكعبة، فما غير لماذا؟ بين السبب (لو لا أن قومك حديثو عهد بالشرك ...) إلى نهاية الحديث، إذن هؤلاء الذين يحرفون الكلم من بعد مواضعه، ويفسرون الحديث بغير دلالته، فيقولون من رأى منكم منكرا المراد به الحكام، هم أولا يخالفون ما ذكرناه آنفا، أن كثيرا من الأحكام، سيغيرها من ليس حاكما، وهذا أمر مجمع عليه بين المسلمين كما ضربنا مثلا، رب البيت مثلا، وعلى العكس من ذلك، قالوا هذا التأويل لمنع هؤلاء الناس الغيورين على الإسلام، أن يباشروا تغير المنكر بأيديهم فكان عليهم أن يقولوا تغيير المنكر ليس منكرا، أنهم ليسوا حكاما، وإنما لأنهم يغيرون المنكر، بوسيلة يترتب من وراءها مفسدة أكبر من المصلحة، لكنهم أرادوا في الحقيقة أن ينوطوا الإصلاح، ولو شئت لقلت الإفساد، بيد الحكام أن يقولوا بأن تغيير المنكر هذا، طبعا هذا الإصلاح، وهذا الإصلاح لا يكون إلا من الحكام، وهم يعلمون أن حكام زمان اليوم، مع الأسف الشديد لا يحكمون بما أنزل الله، فإذن هم بهذا التأويل يريدون أن يعطلوا الأحكام الشرعية، وماذا عليهم لو أجروا الحديث كما هو مفهوم لدى كل عربي مَن مِن صيغ الشمول، (من رأى منكم...)، من صيغ الشمول، واستطاع أن يغير باليد دون مفسدة أكبر فليفعل، لا والله ما

يستطيع (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)، ينزل المرتبة الثانية وإن لم يستطع حتى بالكلام، فالمرتبة الثالثة، ماذا عليهم لو ما أجروا الحديث على هذا الإطلاق والشمول والعموم، لكنهم يقولون للناس والجمهور أن من كان منكم آمرا بالمعروف فليكن أمره بالمعروف ما يأتي بمنكر في سبيل ايش؟ الأمر بالمعروف، ويكون حينئذ تكون المفسدة أكبر من المصلحة التي كان يرجوها من الأمر بالمعروف فهذا هو جواب هذا السؤال وقد وضح أن الرأي الثاني الذي يقول بعموم الحديث وشموله هو الرأي الراجح، وأن الرأى الأول باطل، ولكن الرأي الثاني الذي هو الراجح يقيد بملاحظة الحكمة، في تنفيذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مسألة: المحتسب مأمور بإزالة المنكر

فله أن يحتسب على كل من اقترف شيئا من المعاصي وأن يعاقبه عليها بما يراه مناسبا، وقد يحدث أثناء ذلك تلف في المال أو في البدن فهل يضمن شيئا من ذلك؟

المسألة الأولى: حكم الضمان في إتلاف المنكرات

اختلف الفقهاء في حكم التجاوز في إتلاف المال على الوجه الآتي:

ذهب الحنفية وأحمد في إحدى الروايات عنه إلى عدم الضمان مطلقا وقال الحنابلة: لا ضمان في إتلاف خمر وخنزير، وكذا لو كسر صليبا أو مزمارا أو طنبورا أو صنما، للنهي عن بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام.

وقال صاحب المغني: وفي كسر آنية الخمر روايتان.

وذهب المالكية والشافعية وهي الرواية الأخرى عند الحنابلة إلى الضمان إذا تجاوز المحتسب القدر المحتاج إليه، قال صاحب تحفة الناظر (١٢-١٣)

من المالكية: إذا لم يقع التمكن من إراقة الخمر إلا بكسر أنابيبها وتحريق وعائها، فلا ضمان على من فعل ذلك على الوجه المتقدم في هذا النوع، وإن أمكن زوال عينها مع بقاء الوعاء سليما ولم يخف الفاعل مضايقة في الزمان ولا في المكان بتغلب فاعله مع انتفاء هذه الموانع ضمن قيمته، إن كان لأمثاله قيمة وهو ينتفع في غير الخمر.

وقال الغزالي في الإحياء (٢/ ١٦٧): وفي إراقة الخمور يتوقى كسر الأواني إن وجد إليه سبيلا وحيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر، فكسرها لزمه الضمان. وقال أيضا في نفس المصدر السابق (٢/ ١٦٧، ٤٢٤): الوالي له أن يفعل ذلك إذا رأى المصلحة فيه، وله أن يأمر بكسر الظروف التي فيها الخمر زجرا، وقد فعل ذلك في زمن رسول الله ﷺ تأكيدا للزجر، ولم يثبت نسخه، ولكن كانت الحاجة إلى الزجر والفطام شديدة، فإذا رأى الوالي باجتهاده مثل الحاجة جاز له مثل ذلك، وإذا كان هذا منوطا بنوع اجتهاد دقيق لم يكن ذلك لآحاد الرعية.

وقال ابن القيم في الطرق الحكمية (ص٢٢٨): قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه: واجبات الشريعة -التي هي حق الله تعالى- ثلاثة أقسام: عبادات، كالصلاة، والزكاة، والصيام، وعقوبات: إما مقدورة، وإما مفوضة، وكفارات.

وكل واحد من أقسام الواجبات: ينقسم إلى بدني، وإلى مالي، وإلى مركب منهما. فالعبادات البدنية: كالصلاة والصيام، والمالية: كالزكاة، والمركبة: كالحج. والكفارات المالية: كالإطعام، والبدنية: كالصيام، والمركبة: كالهدي يذبح ويقسم.

والعقوبات البدنية: كالقتل والقطع، والمالية: كإتلاف أوعية الخمر،

والمركبة: كجلد السارق من غير حرز، وتضعيف الغرم عليه، وكقتل الكفار وأخذ أموالهم.

والعقوبات البدنية: تارة تكون جزاء على ما مضى، كقطع السارق، وتارة تكون دفعا عن الفساد المستقبل، وتارة تكون مركبة، كقتل القاتل.

وكذلك المالية، فإنها منها ما هو من باب إزالة المنكر، وهي تنقسم كالبدنية إلى إتلاف، وإلى تغيير، وإلى تمليك الغير. فالأول: المنكرات من الأعيان والصور، يجوز إتلاف محلها تبعا لها، مثل الأصنام المعبودة من دون الله، لما كانت صورها منكرة: جاز إتلاف مادتها، فإذا كانت حجرا أو خشبا ونحو ذلك: جاز تكسيرها وتحريقها، وكذلك آلات الملاهي -كالطنبور- يجوز إتلافها عند أكثر الفقهاء، وهو مذهب مالك، وأشهر الروايتين عن أحمد.

قال الأثرم: سمعت أبا عبد الله يسأل عن رجل كسر عودا كان مع أمة لإنسان، فهل يغرمه، أو يصلحه؟ قال: لا أرى عليه بأسا أن يكسره، ولا يغرمه ولا يصلحه، قيل له: فطاعتها؟ قال: ليس لها طاعة في هذا.

وقال أبو داود: سمعت أحمد يسأل عن قوم يلعبون بالشطرنج، فنهاهم فلم ينتهوا، فأخذ الشطرنج فرمى به؟ قال: قد أحسن. قيل: فليس عليه شيء؟ قال: لا، قيل له: وكذلك إن كسر عودا أو طنبورا؟ قال: نعم.

وقال عبد الله: سمعت أبي -في رجل يرى مثل الطنبور أو العود، أو الطبل، أو ما أشبه هذا- ما يصنع به؟ قال: إذا كان مكشوفا فاكسره.

وقال يوسف بن موسى، وأحمد بن الحسن: إن أبا عبد الله سئل عن الرجل يرى الطنبور والمنكر: أيكسره؟ قال: لا بأس.

وقال أبو الصقر: سألت أبا عبد الله عن رجل رأى عودا أو طنبورا فكسره، ما

عليه؟ قال: قد أحسن، وليس عليه في كسره شيء.

وقال جعفر بن محمد: سألت أبا عبد الله عمن كسر الطنبور والعود؟ فلم ير عليه شيئا.

وقال إسحاق بن إبراهيم: سئل أحمد عن الرجل يرى الطنبور أو طبلا مغطى: أيكسره؟ قال إذا تبين أنه طنبور أو طبل كسره.

وقال أيضا: سألت أبا عبد الله عن الرجل يكسر الطنبور، أو الطبل: عليه في ذلك شيء؟ قال: يكسر هذا كله، وليس يلزمه شيء.

وقال المروذي: سألت أبا عبد الله عن كسر الطنبور الصغير يكون مع الصبي؟ قال: يكسر أيضا، قلت: أمر في السوق، فأرى الطنبور يباع: أأكسره؟ قال: ما أراك تقوى، إن قويت - أي فافعل - قلت: أدعى لغسل الميت، فأسمع صوت الطبل؟ قال: إن قدرت على كسره، وإلا فاخرج.

وقال: في رواية إسحاق بن منصور - في الرجل يرى الطنبور والطبل والقنينة - قال: فإذا كان طنبور أو طبل، وفي القنينة مسكر: اكسره.

وفي " مسائل صالح " قال أبي: يقتل الخنزير، ويفسد الخمر، ويكسر الصليب. وهذا قول أبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وإسحاق بن راهويه، وأهل الظاهر، وطائفة من أهل الحديث، وجماعة من السلف، وهو قول قضاة العدل.

قال أبو حصين: كسر رجل طنبورا، فخاصمه إلى شريح، فلم يضمنه شيئا.

وقال أصحاب الشافعي: يضمن ما بينه وبين الحد المبطل للصورة، وما دون ذلك: فغير مضمون، لأنه مستحق الإزالة، وما فوقه فقابل للتمول: لتأتي الانتفاع به، والمنكر إنما هو الهيئة المخصوصة، فيزول بزوالها؛ ولهذا أوجبنا

الضمان في الصائل بما زاد عن قدر الحاجة في الدفع، وكذا الحكم في البغاة في اتباع مدبرهم، والإجهاز على جريحهم، والميتة: في حال المخمصة، لا يزاد على قدر الحاجة في ذلك كله.

قال أصحاب القول الأول: قد أخبر الله سبحانه عن كليمه موسى عليه السلام: أنه أحرق العجل الذي عبد من دون الله، ونسفه في اليم، وكان من ذهب وفضة، وذلك محق له بالكلية، وقال عن خليله إبراهيم: {فجعلهم جذاذا} [الأنبياء: ٥٨] وهو الفتات، وذلك نص في الاستئصال.

وروى الإمام أحمد في مسنده " والطبراني في " المعجم " من حديث الفرج بن فضالة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله بعثني رحمة للعالمين، وهدى للعالمين، وأمرني ربي بمحق المعازف والمزامير والأوثان، والصلب وأمر الجاهلية» لفظ الطبراني. والفرج حمصي، قال أحمد في رواية: هو ثقة.

وقال يحيى: ليس به بأس، وتكلم فيه آخرون، وعلي بن يزيد: دمشقي ضعفه غير واحد.

وقال أبو مسهر -وهو بلديه- لا أعلم به إلا خيرا، وهو أعرف به، " والمحق " نهاية الإتلاف. وأيضا: فالقياس يقتضي ذلك، لأن محل الضمان: هو ما قبل المعاوضة، وما نحن فيه لا يقبلها ألبتة، فلا يكون مضمونا، وإنما قلنا: لا يقبل المعاوضة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام» وهذا نص، وقال: «إن الله إذا حرم شيئا حرم ثمنه» والملاهي محرمات بالنص، فحرم بيعها.

وأما قبول ما فوق الحد المبطل للصورة لجعله آنية: فلا يثبت به وجوب

الضمان، لسقوط حرمته، حيث صار جزء المحرم: أو ظرفا له، كما أمر به النبي ﷺ من كسر دنان الخمر، وشق ظروفها، فلا ريب أن للمجاورة تأثيرا في الامتهان والإكرام.

وقد قال تعالى: {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم} [النساء: ١٤٠].

و«سئل النبي ﷺ عن القوم: يكونون بين المشركين، يؤاكلونهم ويشاربونهم؟ فقال: هم منهم» هذا لفظه أو معناه.

فإذا كان هذا في المجاورة المنفصلة فكيف بالمجاورة التي صارت جزءا من أجزاء المحرم، أو لصيقة به؟ وتأثير الجوار ثابت عقلا وشرعا وعرفا. والمقصود: أن إتلاف المال - على وجه التعزير والعقوبة - ليس بمنسوخ.

وقد قال أبو الهياج الأسدي: قال لي علي بن أبي طالب: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ ألا أدع تمثالا إلا طمسته، ولا قبرا مشرفا إلا سويته» رواه مسلم، وهذا يدل على طمس الصور في أي شيء كانت، وهدم القبور المشرفة، وإن كان من حجارة أو آجر أو لبن.

قال المروذي: قلت لأحمد: الرجل يكتري البيت، فيرى فيه تصاوير، ترى أن يحكها؟ قال: نعم، وحجته: هذا الحديث الصحيح. وروى البخاري في صحيحه " عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت». وفي "الصحيحين": أن النبي ﷺ قال: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة». وفي " صحيح البخاري " عن عائشة: "أن رسول الله ﷺ «كان لا يترك في بيته شيئا فيه تصاليب إلا نقضه». وفي

"الصحيحين" عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية».

فهؤلاء رسل الله، صلوات الله وسلامه عليهم - إبراهيم وموسى وعيسى وخاتم المرسلين محمد ﷺ كلهم على محق المحرم وإتلافه بالكلية، وكذلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، فلا التفات إلى من خالف ذلك.

وقد قال المروذي: قلت لأبي عبد الله: دفع إلي إبريق فضة لأبيعه، أترى أن أكسره، أو أبيعه كما هو؟ قال: اكسره.

وقال: قيل لأبي عبد الله: إن رجلا دعا قوما، فجيء بطست فضة، وإبريق فضة، فكسره، فأعجب أبا عبد الله كسره. وقال: بعثني أبو عبد الله إلى رجل بشيء، فدخلت عليه، فأتي بمكحلة رأسها مفضض، فقطعتها، فأعجبه ذلك، وتبسم. ووجه ذلك: أن الصياغة محرمة، فلا قيمة لها ولا حرمة.

وأيضا: فتعطيل هذه الهيئة مطلوب، فهو بذلك محسن، وما على المحسنين من سبيل.

وكذلك لا ضمان في تحريق الكتب المضلة وإتلافها.

قال المروذي: قلت لأحمد: استعرت كتابا فيه أشياء رديئة، ترى أن أخرقه أو أحرقه؟ قال: نعم. وقد «رأى النبي ﷺ بيد عمر كتابا اكتتبه من التوراة، وأعجبه موافقته للقرآن، فتمعر وجه النبي ﷺ حتى ذهب به عمر إلى التنور فألقاه فيه» فكيف لو رأى النبي ﷺ ما صنف بعده من الكتب التي يعارض بعضها ما في القرآن والسنة؟ والله المستعان.

وقد " أمر النبي ﷺ من كتب عنه شيئا غير القرآن أن يمحوه " ثم " أذن في

كتابة سنته " ولم يأذن في غير ذلك.

وكل هذه الكتب المتضمنة لمخالفة السنة: غير مأذون فيها، بل مأذون في محقها وإتلافها، وما على الأمة أضر منها، وقد حرق الصحابة جميع المصاحف المخالفة لمصحف عثمان، لما خافوا على الأمة من الاختلاف، فكيف لو رأوا هذه الكتب التي أوقعت الخلاف والتفرق بين الأمة:

وقال الخلال: أخبرني محمد بن أبي هارون أن أبا الحارث حدثهم قال: قال أبو عبد الله: أهلكهم وضع الكتب، تركوا آثار رسول الله ﷺ وأقبلوا على الكلام.

وقال: أخبرني محمد بن أحمد بن واصل المقري قال: سمعت أبا عبد الله - وسئل عن الرأي؟ - فرفع صوته، قال: لا يثبت شيء من الرأي، عليكم بالقرآن والحديث والآثار.

وقال في رواية ابن مشيش: إن أبا عبد الله سأله رجل، فقال: أكتب الرأي؟ فقال: ما تصنع بالرأي؟ عليك بالسنن فتعلمها وعليك بالأحاديث المعروفة.

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يقول: هذه الكتب بدعة وضعها.

وقال إسحاق بن منصور: سمعت أبا عبد الله يقول: لا يعجبني شيء من وضع الكتب، من وضع شيئا من الكتب فهو مبتدع.

وقال المروذي: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا حماد بن زيد، قال: قال لي ابن عون: يا حماد، هذه الكتب تضل.

وقال الميموني: ذاكرت أبا عبد الله خطأ الناس في العلم، فقال: وأي الناس لا يخطئ؟ ولا سيما من وضع الكتب، فهو أكثر خطأ.

وقال إسحاق: سمعت أبا عبد الله - وسأله قوم من أردبيل عن رجل يقال

له: عبد الرحيم، وضع كتابا - فقال أبو عبد الله: هل أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فعل ذا؟ أو أحد من التابعين؟ وأغلظ وشدد في أمره، وقال: انهوا الناس عنه، وعليكم بالحديث. وقال في رواية أبي الحارث: ما كتبت من هذه الكتب الموضوعة شيئا قط.

وقال محمد بن زيد المستملي: سأل أحمد رجل، فقال: أكتب كتب الرأي؟ قال: لا تفعل، عليك بالحديث والآثار، فقال له السائل: إن ابن المبارك قد كتبها، فقال له أحمد: ابن المبارك لم ينزل من السماء، إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق.

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي - وذكر وضع الكتب - فقال: أكرهها، هذا أبو فلان وضع كتابا، فجاءه أبو فلان فوضع كتابا، وجاء فلان فوضع كتابا، فهذا لا انقضاء له، كلما جاء رجل وضع كتابا، وهذه الكتب وضعها بدعة، كلما جاء رجل وضع كتابا، وترك حديث رسول الله ﷺ وأصحابه، ليس إلا الاتباع والسنن، وحديث رسول الله ﷺ وأصحابه، وعاب وضع الكتب وكرهه كراهة شديدة.

وقال المروذي في موضع آخر: قال أبو عبد الله: يضعون البدع في كتبهم، إنما أحذر عنها أشد التحذير، قلت: إنهم يحتجون بمالك: أنه وضع كتابا؟ فقال أبو عبد الله: هذا ابن عون والتيمي ويونس وأيوب: هل وضعوا كتابا؟ هل كان في الدنيا مثل هؤلاء؟ وكان ابن سيرين وأصحابه لا يكتبون الحديث، فكيف الرأي؟ وكلام أحمد في هذا كثير جدا، قد ذكره الخلال في كتاب العلم.

ومسألة وضع الكتب: فيها تفصيل، ليس هذا موضعه، وإنما كره أحمد ذلك، ومنع منه: لما فيه من الاشتغال به، والإعراض عن القرآن والسنة، فإذا

كانت الكتب متضمنة لنصر القرآن والسنة والذب عنهما، وإبطال للآراء والمذاهب المخالفة لهما فلا بأس بها، وقد تكون واجبة ومستحبة ومباحة، بحسب اقتضاء الحال، والله أعلم.

والمقصود: أن هذه الكتب المشتملة على الكذب والبدعة يجب إتلافها وإعدامها، وهي أولى بذلك من إتلاف آلات اللهو والمعازف، وإتلاف آنية الخمر، فإن ضررها أعظم من ضرر هذه، ولا ضمان فيها، كما لا ضمان في كسر أواني الخمر وشق زقاقها.

قال المروذي: قلت لأبي عبد الله: لو رأيت مسكرا في قنينة أو قربة تكسر، أو تصب؟ قال: تكسر.

وقال أبو طالب: قلت نمر على المسكر القليل أو الكثير: أكسره؟ قال: نعم تكسره.

قال محمد بن حرب: قلت لأبي عبد الله: ألقى رجلا ومعه قربة مغطاة؟ قال: بريبة؟ قلت: نعم، قال تكسرها.

وقال في رواية ابن منصور - في الرجل يرى الطنبور والطبل مغطى والقنينة - إذا كان، يعني أنه يتبين أنه طنبور أو طبل، أو فيها مسكر: كسره.

وقد روى عبد الله بن أبي الهذيل، قال: «كان عبد الله بن مسعود يحلف بالله أن التي أمر بها رسول الله ﷺ حين حرمت الخمر - أن تكسر دنانها، وأن تكفأ: ثمر التمر والزبيب» رواه الدارقطني في "السنن" بإسناد صحيح.

وعن أنس بن مالك عن أبي طلحة «أنه قال: يا نبي الله، إني اشتريت خمرا لأيتام في حجري، قال: أهرق الخمر، واكسر الدنان» رواه الترمذي من حديث ليث بن أبي سليم عن يحيى بن عباد عنه.

وفي "مسند أحمد" من حديث أبي طعمة قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: «لقيت رسول الله ﷺ بالمربد، فإذا بزقاق على المربد فيها خمر، فدعا رسول الله ﷺ بالمدية - وما عرفت المدية إلا يومئذ - فأمر بالزقاق فشقت، ثم قال: لعنت الخمر وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وحاملها» الحديث. في المسند أيضا عن ضمرة بن حبيب قال: قال عبد الله بن عمر: «أمرني رسول الله ﷺ أن آتيه بمدية، فأتيته بها، فأرسل بها فأرهفت، ثم أعطانيها، وقال: اغد علي بها، ففعلت، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة، وفيها زقاق خمر، قد جلبت من الشام، فأخذ المدية مني، فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته، ثم أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي، وأن يعاونوني، وأمرني أن آتي الأسواق كلها، فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته، ففعلت، فلم أترك في أسواقها زقا إلا شققته».

وفي "الصحيحين" عن أنس بن مالك قال: "كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح، وأبا طلحة وأبي بن كعب شرابا من فضيخ وتمر، فأتاهم آت، فقال: إن الخمر قد حرمت، فقال أبو طلحة: قم يا أنس إلى هذه الجرة فاكسرها، فقمت إلى مهراس لنا، فضربتها بأسفله حتى تكسرت ".

وفي " سنن النسائي وأبي داود " عن أبي هريرة، قال: "علمت أن رسول الله ﷺ «كان يصوم في بعض الأيام التي كان يصومها، فتحينت فطره بنبيذ صنعته في دن، فلما كان المساء جئته أحملها إليه - فذكر الحديث - ثم قال: فرفعتها إليه، فإذا هو ينش، فقال: خذ هذه فاضرب بها الحائط، فإن هذا شراب من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر».اهـ. كلام العلامة ابن القيم.

وقال العلامة العثيمين في الشرح الممتع (١٠/ ٢١٩ - ٢٣٠): في سياق بيان

ما لا ضمان فيه من المحرمات: قوله: «وكسر مزمار» يعني كما لا يضمن كسر المزمار؛ لأن هذا من باب تغيير المنكر، وقد قال النبي ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده»، ولأن هذه الآلة لا يجوز الإقرار عليها وكسرها وسيلة إلى ذلك، ولكن إتلافه يضمن؛ لأن إتلافه غير كسره؛ لأن كسره يمنع من استعماله في المحرم، ولكن تبقى مادة هذا المزمار ينتفع بها في إيقاد نار، إذا كان من خشب أو في صنع قدور وأوان إذا كان من حديد، أما إتلافه بالكلية فمعناه أنه أزال عين هذا الشيء، وإزالة عينه أكثر من إزالة وصفه الذي يصح أن يكون به مزمارا، ولذلك قال المؤلف: «وكسر مزمار» ..... وما عدا الدف من آلات الزمر، فالأصل فيه التحريم؛ لأنه داخل في العموم، وما عدا ذلك ـ أيضا ـ من الأحوال التي رخص فيها فإنه حتى الدف يكون حراما؛ لأن ما خصص بحال يجب أن يتخصص بها.

إذا المزمار من آلات العزف التي لا تباح بحال، وعلى هذا فيجب إتلافه، فإذا أتلفه متلف لم يكن عليه ضمان.

ولكن من الذي يخاطب في إتلافه؟

يخاطب في إتلافه من هو بيده، ويقال له: يجب عليك أن تكسر هذا.

فإن قال: أحرقه أو أكسره؟

قلنا: إن كانت مادته يمكن أن ينتفع بها في شيء مباح فلا تحرقه، يعني بحيث يحولها إلى صندوق من خشب أو ما أشبه ذلك فلا تتلفه؛ لأن هذا إنما حرم لا لأنه خشب لكن لكونه استعمل في حرام، فإذا كان يمكن أن يحول إلى حلال فإنه لا يجوز أن يتلف؛ لأن في ذلك إتلاف مال، وأما إذا كان لا يمكن الانتفاع به فإنه يحرق؛ لأن إحراقه أبلغ في التنفير عنه؛ ولئلا تدعوه نفسه فيما بعد إلى

جمع المكسرات بعضها إلى بعض، حتى يكون منها مزمارا، ويدلنا على أن التحريق أبلغ وأنكى أن الرسول ﷺ حرق نخل بني النضير ولم يقطعه، مع أنه يمكن أن تقطع وينتفع بجذوعها وينتفع بعسبها، لكنه حرقها؛ لأنه أبلغ في الإهانة.

إذا يخاطب من هي بيده، ثم يجب على ولاة الأمور أن يكسروها ويتلفوها؛ لأنهم مسؤولون عن الأمة في هذا الشيء، وهم قادرون على أن يكسروها وليسوا عاجزين فيلزمهم أن يكسروها؛ لئلا يشيع المنكر في أمتهم، وهم إذا اتقوا الله - تعالى - في الأمة اتقت الأمة ربها فيهم، وإذا كان الأمر بالعكس صار الأمر بالعكس؛ لأن من أذل الخلق في طاعة الله أعزه الله بهذه الطاعة، وهذا شيء مسلم؛ لذلك يجب على ولاة الأمور أن يكسروا هذه الآلات؛ لأنها ضرر على المجتمع عامة، وعلى الأمن وعلى الولاة أيضا؛ لأن النفوس إذا أبعدت عن الخالق لم ترحم المخلوق، وهذه الأشياء تبعد الخلق عن الخالق؛ لأنها تلهي وتصد عن سبيل الله وعن ذكر الله وعن الصلاة.

وهل يجب على الواحد من الناس أن يكسر هذه المزامير؟

الجواب: لا؛ لأنه ليس له السلطة.

وهل يجوز أن يكسرها؟ ينظر، إن كان يترتب على ذلك ضرر أكبر فإنه لا يكسرها، كما لو حصلت فتنة في تكسيرها بأن يقوم صاحبها على هذا وينازعه ويخاصمه وربما يحصل بينهما شر، فهنا لا يكسرها ولكن إذا سمعها يهرب منها، وإن لم يكن فتنة بحيث أتى على حين غفلة ووجدها وكسرها فلا بأس، لكن مع هذا إذا كان يخشى أنه يمكن أن يتتبع حتى يعرف ويحصل الشر والفتنة، فإنه لا يجوز له أن يكسرها فضلا عن كونه يجب.

قوله: «وصليب» يعني كذلك كسر الصليب .... فإذا كسر إنسان صليبا فإنه لا يضمنه؛ لأنه لا يجوز إقراره فإن النبي ﷺ كان لا يدع شيئا فيه صليب إلا نقضه، ولكن لو أتلفه ضمن، وهل يضمنه بقيمته صليبا أو بقيمته مكسرا؟ يضمنه بقيمته مكسرا؛ لأنه ليس له قيمة شرعا.

ولكن هل للإنسان أن يكسر الصلبان التي ينصبها النصارى مثلا؟ الجواب: لا؛ لأنه ليس له ولاية حتى يمكن من كسر هذه الصلبان، ثم لو فرض أن النصراني أظهر الصليب وأعلنه في لباسه أو غير ذلك، فهنا يجب على ولاة الأمر في البلاد الإسلامية أن يمنعوهم من إظهار الصليب؛ لأنه شعار كفر، وهم يعتقدون تعظيمه دينا يدينون لله ـ تعالى ـ به.

قوله: «وآنية ذهب وفضة» آنية الذهب والفضة إذا كسرها الإنسان فإنه لا ضمان عليه؛ لأن آنية الذهب والفضة ـ على المشهور من المذهب ـ حرام مطلقا، سواء كان يستعملها صاحبها في الأكل والشرب أو للزينة أو لغير ذلك، بناء على أن آنية الذهب والفضة يحرم استعمالها واتخاذها ..... قوله: «وآنية خمر غير محترمة» آنية الخمر إذا كسرها الإنسان فلا ضمان عليه؛ لأن فيها ما لا يضمن وهو الخمر، فإن الخمر لا يضمن، حتى لو كان يساوي آلافا فأتلفه الإنسان فلا ضمان عليه؛ لأنه لا قيمة له شرعا. ولو قال قائل: ما شأن الآنية، الآنية تحفظ الخمر وغيره فهي تستعمل في الخمر وغيره؟ نقول: لأنه لما كان الخمر فيها ذهبت حرمتها لذهاب حرمة ما فيها فلا تضمن، ويثبت تبعا ما لا يثبت استقلالا، ويدل لذلك أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حرق حانوت الخمار، وهذا أبعد من آنية الخمر، وقال بعض العلماء: إنه إذا كسر آنية خمر فهو ضامن؛ لأن الآنية محترمة ويمكن إتلاف الخمر دون إتلافها، إلا إذا لم يمكن إتلاف

الخمر إلا بإتلافها، بناء على أن الأمر الذي لا يتم الأمر إلا به داخل في الأمر الذي أبيح، وهذا هو الصحيح؛ لأن الأصل في مال المسلم أنه محترم.

وقوله: «غير محترمة» هذه صفة لخمر وليست صفة لآنية، وأفادنا رَحِمَهُ اللَّهُ أن الخمر المحترمة إذا كسر آنيتها فهو ضامن، فما هي الخمر المحترمة؟ هي خمر الذمي الذي يعيش في بلاد المسلمين بالجزية فخمره محترمة، بمعنى أنه لا يحل لنا أن نريق خمره التي يشربها لكن بدون إعلان، فإذا كان ذمي في بيته يشرب الخمر فلا يجوز لنا أن ندخل بيته ونكسر أوانيه أو نريق خمره؛ لأنه يعتقد حله ولم يعلن به فيكون محترما كاحترام دم الذمي وماله، والخمر عند الذمي مال يباع ويشترى.

والمعاهد والمستأمن حكمهما حكم الذمي؛ لأن المعاهد والمستأمن قد عاهدهما المسلمون على أن لا يتعدى عليهما أحد، لكن لو أن الذمي أظهر الخمر وخرج إلينا بكؤوسه يشرب في أسواقنا، فهنا انتقض عهده ولم يكن له عهد، وخمره غير محترمة.

وذكروا ـ أيضا ـ أن من المحترم من الخمر خمر الخلال الذي يبيع الخل، فلو أنه في يوم من الأيام تخمر الخل إما لشدة الحر أو لسبب آخر فإن خمره محترم؛ وعللوا ذلك بأنه لو كان غير محترم لزم على الخلال ضرر عظيم؛ لأن هذا ماله فيتضرر بهذا.

وهذه المسألة تحتاج إلى نظر؛ لأن النبي ﷺ سئل عن الخمر تتخذ خلا فقال: لا، وهذا الخلال سوف يحبس الخمر حتى تتخلل، وربما يخللها هو بنفسه، ففيما قاله الأصحاب ـ رحمهم الله ـ في هذه المسألة نظر، فالله أعلم.

وكسر هذه الأشياء ينظر فيه للمصلحة إن كان الإنسان يمكن أن يقوم بذلك

بدون ضرر فليفعل، مثل أن يكون المكان خاليا ولا يشاهده أحد فإنه يجب أن يكسرها، وإن كان يخشى ضررا فلا يفعل، مثل أن تكون حكومة جائرة إذا كسرت هذه الأشياء وقيل: إن الذي كسرها المسلمون سجنتهم ومنعت دعوتهم إلى الخير، فحينئذ نقول: لا يجوز أن تقدم على تكسيرها؛ لأن فيه ضررا، أما إذا كان ولاة الأمور يفرحون بذلك ولم يكن ذلك على سبيل المنابذة فإن هذا قد يجب لما فيه من إزالة الإثم والعدوان.

مسألة: حكم الضمان في تلف النفوس

اختلف الفقهاء في الضمان في تلف النفوس بسبب ما يقوم به المحتسب على أقوالا:

ذهب الحنفية والحنابلة إلى أن من مات من التعزير لم يجب ضمانه، لأنها عقوبة مشروعة للردع والزجر، فلم يضمن من تلف بها كالحد، ولأنه فعل ما فعل بأمر الشرع، وفعل المأمور لا يتقيد بشرط السلامة، ولأنه استوفى حق الله تعالى بأمره، فصار كأن الله أماته من غير واسطة فلا يجب الضمان.

أما المالكية فقد قال صاحب تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكا (٥/ ٢٧٨): فإن عزر الحاكم أحدا فمات أو سرى ذلك إلى النفس فعلى العاقلة، وكذلك تحمل العاقلة الثلث فأكثر، وفي عيون المجالس للقاضي عبد الوهاب إذا عزر الإمام إنسانا فمات في التعزير لم يضمن الإمام شيئا لا دية ولا كفارة.

وذهب المحققون من فقهائهم إلى أن عدم الضمان مبني على ظن السلامة، فإن شك فيها ضمن ما سرى على نفس أو عضو، وإن ظن عدم السلامة فالقصاص.

والشافعي يرى التضمين في التعزير إذا حصل به هلاك، لأنه مشروط بسلامة العاقبة ولا يعفى من التعزير إلا أن يكون الهلاك بنحو توبيخ بكلام وصفع فلا شيء فيه ولا ضمان على من عزر غيره بإذنه، ولا على من عزره ممتنعا من أداء حق عليه، وإن أدى إلى قتله، قال الرملي: للحاكم تعزير الممتنع من أداء دين عليه بعد طلب مستحقه بحبس أو ضرب وإن زاد على التعزير بل وإن أدى إلى موته لأنه بحق ولا ضمان عليه فيه.

ولا يكون التعزير بما يقتل غالبا، فإن ضربه ضربا يقتل غالبا أو بما يقتل غالبا أو قصد قتله وجب القصاص أو دية مغلظة في ماله.

مقدار الضمان وعلى من يجب: حيث قيل بوجوب الضمان ففي قدره قولان:

الأول: لزوم كامل الدية لأنه قتل حصل من جهة الله وعدوان الضارب، فكان الضمان على العادي، كما لو ضرب مريضا سوطا فمات به، ولأنه تلف بعدوان وغيره فأشبه ما لو ألقى على سفينة موقرة حجرا فغرقها، وهو قول المالكية والحنابلة.

والثاني: عليه نصف الضمان لأنه تلف بفعل مضمون وغير مضمون، فكان الواجب نصف الدية كما لو جرح نفسه وجرحه غيره فمات وبهذا قال أبو حنيفة والشافعي في أحد قوليه. والقول الآخر: يجب من الدية بقدر ما تعدى به.

على من يجب الضمان: في غير حالات التعمد والتعدي إذا قلنا يضمن الإمام فهل يلزم عاقلته أو بيت المال؟ اختلف العلماء على قولين:

أحدهما: هو في بيت المال لأن خطأه يكثر فلو وجب ضمانه على عاقلته أجحف بهم وهو قول الحنفية ورواية عند الحنابلة.

والثانية: على عاقلته لأنها وجبت بخطئه فكانت على عاقلته، كما لو رمى صيدا فقتل آدميا. وهو قول المالكية والشافعية والرواية الثانية عند الحنابلة.

قال العلامة العثيمين في الشرح الممتع (١٤/ ٨٩): قوله: «وسراية القود مهدورة»، القود أي: القصاص، فلو اقتصصنا من الجاني ثم سرت الجناية فإنها هدر، أي: لا شيء فيها؛ لأننا نقول: أنت المعتدي، فلا شيء لك.

وهذا الضابط مبني على قاعدة عند أهل العلم وهي «ما ترتب على المأذون فليس بمضمون»، وهنا القود مأذون فيه، فإذا استقدنا من هذا الرجل، وقطعنا يده ثم سرى القود، فقد ترتب هذا على شيء مأذون فلا يكون مضمونا، ويستثنى من هذا الضابط ما إذا اقتص منه في حال يخشى فيه من السراية، مثل أن يكون في شدة حر، أو في شدة برد، أو إنسان فيه داء السكري، فإن هذا في الغالب لا يبرأ، ويخشى فيه السراية، فإذا كان كذلك، قال أهل العلم: إن السراية في هذه الحال تكون مضمونة؛ لأنها مترتبة على شيء غير مأذون فيه، فإن قلت: هو مأذون فيه في الأصل؟ فالجواب: لكنه في هذه الحال ليس مأذونا فيه، فيكون عليه الضمان .... هذا الفصل مبني على قاعدة وهي: «ما ترتب على المأذون فليس بمضمون، وما ترتب على غير المأذون فهو مضمون»، وهي من أحسن قواعد الفقه.

قوله: «وإذا أدب الرجل ولده، أو سلطان رعيته، أو معلم صبيه، ولم يسرف لم يضمن ما تلف به».

فقوله: «وإذا أدب الرجل ولده» هذه الجملة نفهم منها أربعة شروط:

فقوله: «أدب»، التأديب بمعنى التقويم والتهذيب، تقول: أدبته، أي: قومت أخلاقه وهذبتها، فكلمة «أدب» يؤخذ منها ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون هذا الولد مستحقا للتأديب، أي فعل ما يستحق التأديب عليه، أما لو ضربه بدون سبب فإنه ضامن.

الثاني: أن يكون هذا الولد قابلا للتأديب، فإن كان غير قابل، وهو الذي لم يميز، أو لا عقل له ـ أي: المجنون ـ فهذا لا ينفع فيه التأديب، بل تأديبه عدوان.

الثالث: أن يقصد المؤدب التأديب لا الانتقام لنفسه، فإن قصد الانتقام لنفسه لم يكن مؤدبا بل منتصرا، وحينئذ يضمن ما ترتب على فعله.

وكثير من الناس يضرب ولده ضربا شديدا، لا لأنه ترك خلقا فاضلا أمره به، لكن لأنه عانده وخالفه، فيضربه انتقاما لنفسه وغضبا.

الرابع: قوله: «ولده» وهذا يشمل الذكر والأنثى؛ لأن الولد في اللغة العربية يشمل الذكر والأنثى، قال الله تعالى: {يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين}، وقال تعالى: {ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد} [النساء: ١١].

وقوله: «ولده» الإضافة تقتضي الاختصاص، فيؤخذ من هذا شرط أن يكون له عليه ولاية، فإن لم يكن عليه ولاية، فلا حق له في ضربه، وإذا ترتب على ضربه شيء فإنه ضامن، لأنه لا حق له في هذا، مثل أبي أم يؤدب أولاد ابنته، فأدبهم ليس إليه، ولكنه إلى أبيهم.

وقوله: «رعيته» و«صبيه» يؤخذ منه أنه لا بد أن يكون للمؤدب ولاية التأديب، وإلا كان ضامنا.

وقوله: «أو سلطان رعيته» فلا ضمان، أيضا تراعى فيه الشروط الأربعة السابقة، والسلطان عندما يطلقه العلماء فإنهم يريدون به الرئيس الأعلى في الدولة، وقد يراد به من دون ذلك، وهو من له سلطة، فيشمل الأمير،

والمحتسب، وما أشبه ذلك؛ لأن هؤلاء لهم سلطان على من تحت ولايتهم.

فالأمير مثلا سلطانه على بلدته التي أمر فيها، والمحتسب كذلك على بلدته التي أمر فيها، فالأحسن أن نقول في المراد بالسلطان: ذو السلطة على من أدبه، سواء كان السلطان الأعلى أو من دونه، فإذا أدب رعيته، وتمت الشروط فلا ضمان عليه.

وقوله: «أو معلم صبيه» الإضافة هنا على أدنى ملابسة، يعني الصبي الذي ينتسب إليه ولو بالتعليم، فإذا أدب صبيه وتمت الشروط فلا ضمان.

واستفدنا من كلام المؤلف أن للمعلم أن يؤدب الصبيان بالضرب، والضرب لا شك أنه وسيلة من وسائل التعليم والتأديب، وقد قال أحكم المؤدبين، وأرحم المؤدبين من الناس ﷺ: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر» والفوضويون الذين يدعون التقدم الآن يقولون: لا تضرب الصغار؛ لأن الضرب ينافي التربية الحديثة! وهذه لا شك أنها خطة يراد بها أن يصبح الأولاد فوضويين، لا يستفيدون شيئا.

فطالب له عشر سنوات لن ينتفع حين يقول له المدرس: يا بني، إن التعليم طيب، فلا تضيع الوقت؛ لأن الوقت من ذهب، فاحرص وقم بالواجبات.

فيقول له الطالب: أنا حين وصلت إلى البيت، وضعت الكتب، وذهبت ألعب! فهذا لا ينفعه الكلام، لكن لو مسه بعذاب فإنه سيقوم بالواجب، ولذلك فأنا أعتقد أن هذه الخطة مع مخالفتها للشرع، ولحكمة النبي ﷺ، لا شك أنها لا تجدي.

وقوله: «وإذا أدب الرجل ولده» ظاهره العموم، وأنه ما دام تحت رعايته فإنه مسؤول عنه، كما قال النبي ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته،

فالرجل راع في أهل بيته ومسؤول في رعيته»، فما دام أنه في بيته فهو مسؤول عنه، أما إذا انفصل فليس بمسؤول عنه، إلا إن كانت ولايته عامة، كما لو كان ذا سلطان في مكانه فله أن يؤدبه.

وأما تأديب المعلم صبيه فالظاهر لي أن المعلم كل من يدرس عنده فله أن يؤدبه، حتى لو كان أكبر منه.

وقوله: «ولم يسرف» هذا هو الشرط الخامس، والإسراف مجاوزة الحد بالكمية أو بالكيفية، فإذا قدرنا أنه يتأدب بضربتين، صارت الثالثة إسرافا، وإن كان يتأدب بعشر صارت الحادية عشرة إسرافا، وكذلك بالكيفية فإذا قدرنا أنه يتأدب بضرب بسيط فلا نضربه ضربا شديدا، ولا نضربه - أيضا - في أمكنة تضره، كالوجه، والمقاتل، وشبهها فإن هذا إسراف، فالإسراف إذا مجاوزة الحد كمية أو كيفية، ويدخل في الكيفية موضع الضرب، ويدخل فيه - أيضا - أن الناس يختلفون، فتحمل الكبير للضرب ليس كتحمل الصغير.

فصارت الشروط خمسة:

الأول: أن يكون المؤدب مستحقا للتأديب.

الثاني: أن يكون المؤدب قابلا للتأديب.

الثالث: أن يقصد المؤدب بذلك التأديب، لا الانتقام لنفسه.

الرابع: أن تكون له ولاية التأديب، سواء كانت ولاية عامة أو خاصة.

الخامس: ألا يسرف، فإن أسرف كان ضامنا؛ لأنه معتد، والله تعالى يقول في النساء الناشزات: {فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن} [النساء: ٣٤]، والآية مطلقة، لكن النبي ﷺ بين أنه ضرب غير مبرح.

قوله: «ولو كان التأديب لحامل فأسقطت جنينا ضمنه المؤدب» الزوج

يتصور أن يؤدب امرأته بأن تكون ناشزة، والله تعالى قال: {فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن}.

وكذلك المعلم قد يؤدب امرأة حاملا؛ لأنه يجوز للمعلم الذكر أن يعلم النساء، وقد كان النبي ﷺ يعلم النساء، وجئن إليه مرة يطلبن منه وعظا، وقلن له: إن الرجال غلبونا عليك، فاجعل لنا من نفسك يوما تعلمنا فيه مما علمك الله، فوعدهن في بيت امرأة منهن، وأتى إليهن ـ عليه الصلاة والسلام ـ ووعظهن، وهذا ثابت في البخاري، وسواء كان المعلم أعمى أو مبصرا، لكن المبصر لا بد أن يكون بينه وبين النساء حجاب.

وكذلك السلطان يملك أن يؤدب امرأة حاملا من رعيته، فإن كان التأديب لحامل، وهي لم تتضرر، ولكن أسقطت جنينا فإن المؤدب يضمنه، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ مقدار دية الجنين، ومتى يضمن.

وظاهر كلام المؤلف أن المؤدب يضمنه مطلقا؛ لأن الجناية هنا تعدت إلى الغير، والجنين لم يفعل ما يستحق التأديب عليه حتى نقول: إنه تلف بتأديبه، فلما تعدى حكم التأديب إلى الغير صار مضمونا؛ لأن ضمان الآدمي لا يشترط فيه التحريم، فيضمن حتى لو فعل الإنسان ما يباح له، وقد سبق لنا أن الإنسان لو رمى صيدا فأصاب إنسانا ضمنه، فعلى هذا إذا أدب الرجل امرأة حاملا فأسقطت جنينا، فعليه ضمانه، وأما هي فإذا تمت الشروط الخمسة فلا ضمان.

قوله: «وإن طلب السلطان امرأة لكشف حق الله تعالى» بأن اتهمت بشيء من حقوق الله ﷻ، فطلبها وأمرها أن تحضر، فأسقطت جنينها من الروعة، فإنه يضمنه؛ لأن هذا الأمر تعدى إلى الغير.

وظاهر كلام المؤلف سواء طلبها لحق الله ﷻ وهي ظالمة، أو طلبها وهو

الظالم، أو طلبها قبل أن يتبين الأمر، فيضمنها السلطان مطلقا في الأحوال الثلاثة، ولكن بعض أصحابنا ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ قيد هذا بما إذا لم تكن ظالمة، وقال: إن كانت ظالمة فهي الجانية على نفسها، وهذا القول له وجه قوي؛ لأن طلب السلطان إياها في حال الظلم مأمور به شرعا، والقاعدة العظيمة النافعة «أن ما ترتب على المأذون فغير مضمون» لا سيما إذا كان السلطان لا يعلم عن حال المرأة، هل هي حامل أو لا؟ ولا يعلم هل هي من النساء اللاتي يفزعن بأدنى سبب، أو لا؟

ثم على القول بالضمان فظاهر كلام المؤلف أن السلطان يضمنها ضمان شخص، يعني ضمانا شخصيا، لا ضمان ولاية، بمعنى أن الدية تكون على عاقلته، وكأنما قتل شخصا عاديا.

ولكن القول الراجح ـ على القول بالضمان ـ أن الدية في بيت المال؛ لأن السلطان يتصرف لحقوق المسلمين بالولاية، فلو أننا ضمناه كل شيء يكون من تصرفه لاجتحنا ماله، ومال عاقلته، نعم لو تيقنا أن السلطان ظالم، فهنا يتوجه أن يكون الضمان عليه، أو على عاقلته، حسب ما تقتضيه الأدلة الشرعية.

قوله: «أو استعدى عليها رجل بالشرط في دعوى له فأسقطت» «استعدى» بمعنى أقام دعوى عليها، ولكنه استعان بالشرط، والشرط: جمع شرطة، كحجة جمعها حجج، والشرطة جمع شرطي.

مثاله: رجل أقام على حامل دعوى، وذهب إلى الشرطة، وقال: أنا أدعي على فلانة كذا وكذا، فقال الضابط للشرط: اذهبوا وائتوا بها، فذهب رجلان من الشرطة بلباسهما الرسمي، وقالا للمرأة: تعالي معنا، ففزعت المرأة، وأسقطت الجنين.

قوله: «ضمنه السلطان والمستعدي» أي: ضمنه السلطان في المسألة الأولى، والمستعدي في المسألة الثانية؛ لأنه هو السبب في هلاك هذا الجنين، فكان عليه الضمان.

وظاهر كلام المؤلف -أيضا- ولو كان المستعدي مستحقا للاستعداء، وكانت هي ظالمة، فإن الضمان على المستعدي.

ولكن في هذا الظاهر نظر، فإنه إذا كان على حق، ولم يعلم عن حال المرأة، فكيف نضمنه؟! أما إذا كان يعلم أن هذه المرأة من النساء اللاتي يفزعن، وأنه يخشى على حملها، فربما يقال: إن تضمينه له وجه.

وقوله: «ضمنه السلطان والمستعدي» أفلا يكون هذا ناقضا لقاعدة: «إذا اجتمع متسبب ومباشر فالضمان على المباشر»؟

فهنا عندنا متسبب وهو المستعدي، وعندنا مباشر وهم الشرط، وإنما جعلنا الضمان على المستعدي -أي: المتسبب- لأن المباشرة مبنية على السبب، وذلك أن الشرط مأمورون شرعا بأن يستجيبوا لمثل هذه الدعاوى، فهو كحكم الحاكم بشهادة الشهود الذين قالوا: إنما تعمدنا قتله، ورجعوا عن شهادتهم فالضمان على الشهود، فكذلك هنا نجعل الضمان على المستعدي؛ لأن الشرط عبارة عن آلة لهذا الرجل.

قوله: «ولو ماتت فزعا لم يضمنا» هذه المرأة لما جاءها مندوب السلطان الذي طلبها لكشف حق الله، فزعت، وماتت سريعا، فليس عليهما الضمان.

فإن قيل: كيف لا يكون عليهما الضمان، مع أنه لولا مندوب السلطان لم تمت؟

الجواب: أن مثل هذا لا يحصل به الموت عادة، وما لم يكن معتادا فليس

فيه ضمان، كما لو دخلت على شخص وسلمت عليه، وهو يهابك هيبة عظيمة، فلما صافحته وهزت يده مات، فهنا لا تضمنه؛ لأنه لم تجر العادة بأن يموت الإنسان بمثل هذا العمل.

وهناك قول آخر ـ وهو المذهب ـ أنهما ضامنان؛ لأنها هلكت بسببهما، ولكن يجاب عنه بما سبق، من أن مثل هذا الفعل ليس سببا للقتل إطلاقا، وقد جرت عادة الناس بمثله.

(باب ذكر مسائل الإسراء والمعراج)

مسائل في الباب:

مسألة: قال سبحانه وتعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية الكريمة: يمجد الله تعالى نفسه، ويعظم شأنه؛ لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه؛ فلا إله غيره ولا رب سواه، {الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} يعني: محمدا ﷺ. (ليلا)؛ أي: في جنح الليل. {من المسجد الحرام}: وهو مسجد مكة. {إلى المسجد الأقصى}: وهو بيت المقدس الذي بإيليا، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولهذا جُمِعوا له هناك كلهم، فأمهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم والرئيس المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعالى: {الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ}؛ أي: في الزروع والثمار. (لنريه)؛ أي: محمدا. {من آياتنا}؛ أي: العِظام؛ كما قال تعالى: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}، {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}؛ أي: السميع لأقوال عباده؛ مؤمنهم وكافرهم مصدقهم

ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة " اهـ.

والمعراج: مفعال من العروج؛ أي: الآلة التي يعرج فيها؛ أي: يصعد، ولا يعلم كيف هو إلا الله، وحكمه كحكم غيره من المغيبات؛ نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.

والذي عليه أئمة النقل: أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة وقبل الهجرة بسنة، وقيل بسنة وشهرين، ذكره ابن عبد البر.

مسألة: صفة الإسراء والمعراج المستفادة من النصوص

قال الحافظ ابن كثير في " تفسيره ": "والحق أنه عليه السلام أسري به يقظة لا مناما، من مكة إلى بيت المقدس، راكبا البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد؛ ربط الدابة عند الباب، ودخله، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتي بالمعراج، وهو كالسلم ذو درج يرقى فيه، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما- صلى الله وسلم عليه وعليهما وعلى سائر الأنبياء- حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام؛ أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته، وله ست مائة جناح، ورأى رفرفا أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، ثم يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار، وفرض عليه هنالك

الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفا بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء، فصلى بهم لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه أمهم ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مر بهم في منازلهم؛ جعل يسأل عنهم جبريل واحدا واحدا، وهو يخبر بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولا مطلوبا إلى الجناب العلوي؛ ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به؛ اجتمع فيه -أي: بيت المقد- هو وإخوانه من النبيين، ثم ظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذلك، ثم خرج من بيت المقدس، فركب البراق، وعاد إلى مكة بغلس. والله سبحانه وتعالى أعلم.

مسألة: هل كان الإسراء ببدنه ﷺ وروحه أو بروحه فقط

اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عَلَيْهِ السَّلَامُ وروحه أو بروحه فقط؟ على قولين:

فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناما، والدليل على ذلك قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ}؛ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام؛ فلو كان مناما؛ لم يكن فيه شيء كبير، ولم يكن مستعظما، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، وأيضا؛ فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والبدن، وقد قال تعالى: {أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا}، وأيضا قال سبحانه: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ}؛ قال ابن عباس:

"هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ". رواه البخاري. وأيضا قال سبحانه: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}، والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضا فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه.

وقال آخرون: بل أسري برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده، نقل هذا القول ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية رضي الله عنهما، ونقل عن الحسن البصري نحوه، وليس المراد بهذا القول أن الإسراء كان مناما، بل إن الروح ذاتها أسري بها، ففارقت الجسد، ثم عادت إليه. . . وهذا من خصائصه؛ فإن غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت.

والمراد بالمنام أن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة، فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء وذهب به إلى مكة، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، والفرق بين الأمرين واضح.

واستدل من قال: إن الإسراء كان بروحه لا بجسده؛ بما جاء في رواية شريك بن أبي نمر، عن أنس: "ثم استيقظت؛ فإذا أنا في الحجر ".

وقد أجيب عنه بجوابين:

أحدهما: أن هذا معدود من غلطات شريك؛ فقد غلط الحفاظ شريكا في ألفاظ من حديث الإسراء.

الثاني: أن الاستيقاظ محمول على الانتقال من حال إلى حال.

قال ابن كثير: "وهذا الحمل أحسن من التغليط. والله أعلم ".

إلى أن قال: "ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء طبق ما وقع بعد ذلك؛

فإنه ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد تقدم مثل ذلك في حديث بدء الوحي أنه رأى مثل ما وقع له يقظة مناما قبله ليكون ذلك من باب الإرهاص والتوطئة والتثبيت والإيناس. . . " والله أعلم.

مسألة: هل تكرر المعراج؟

قال الحافظ ابن كثير بعد أن ساق الأحاديث الواردة في هذا الموضوع: "وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها؛ فحصل مضمون ما اتفقت عليه من إسراء رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه؛ فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة؛ فقد أبعد وأغرب وهرب إلى غير مهرب ولم يتحصل على مطلب.

وقد صرح بعض المتأخرين بأنه عليه السلام أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء، وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات، وهذا بعيد جدا، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد؛ لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرار.

وزعم بعض الصوفية أن المعراج وقع له ﷺ ثلاثين مرة! وقال بعضهم: أربعا وثلاثين مرة!! واحدة منها بجسمه الشريف والباقي بروحه!! وقيل: كان الإسراء مرتين؛ مرة يقظة، ومرة مناما!! وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله " ثم استيقظت " وبين سائر الروايات!! وكذلك منهم من قال: بل كان مرتين؛ مرة قبل الوحي ومرة بعده!! ومنهم من

قال: بل ثلاث مرات؛ مرة قبل الوحي ومرتين بعده!! وكلما اشتبه عليهم لفظة؛ زادوا مرة للتوفيق.

قال ابن القيم: "يا عجبا لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مرارا؛ كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمسا، فيقول: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي. . . ثم يعيدها في المرة الثانية خمسين، ثم يحطها إلى خمس. . . "!! وقال ابن كثير: "وكان بعض الرواة يحذف بعض الخبر للعلم به، أو ينساه، أو يذكر ما هو الأهم عنده، أو يبسط تارة فيسوقه كله، وتارة يحذف عن مخاطبه بما هو الأنفع عنده. . . ومن جعل كل رواية إسراء على حدة كما تقدم عن بعضهم؛ فقد أبعد جدا، وذلك أن كل السياقات فيها السلام على الأنبياء، وفي كل منها يعرفه بهم، وفي كلها يفرض عليه الصلوات؛ فكيف يمكن أن يدعى تعدد ذلك؟! هذا في غاية البعد والاستحالة. والله أعلم".

مسالة: حكم الاحتفال بالإسراء والمعراج

الاحتفال بالإسراء والمعراج من الأمور البدعية، التي نسبها الجهال إلى الشرع، وجعلوا ذلك سنة تقام في كل سنة، وذلك في ليلة سبع وعشرين من رجب، وتفننوا في ذلك بما يأتونه في هذه الليلة من المنكرات وأحدثوا فيها من أنواع البدع ضروبًا كثيرة، وهذه الاحتفالات باطلة من أساسها، لأنه لم يثبت أنه أسري بالنبي ﷺ في هذه الليلة بالذات،

قال ابن قيم في زاد المعاد (١/ ٥٧): (... هذا إذا كانت ليلة الإسراء تعرف عينها، فكيف ولم يقم دليل معلوم لا على شهرها، ولا على عشرها، ولا على عينها، بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة، ليس فيها ما يقطع به، ولا شرع

للمسلمين تخصيص الليلة التي يظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره، بخلاف ليلة القدر.اهـ.

وقال أبو شامة في الباعث ص (١٧١): وذكر بعض القصاص أن الإسراء كان في رجب، وذلك عند أهل التعديل والجرح عين الكذب.اهـ.

وقال ابن رجب في لطائف المعارف ص (١٦٨): وقد روي أنه كان في شهر رجب حوادث عظيمة، ولم يصح شيء من ذلك.اهـ.

قال الحافظ في الفتح: وقد اختلف في وقت المعراج فقيل: كان قبل المبعث، وهو شاذ، إلا إن حمل على أنه وقع حينئذ في المنام، وذهب الأكثر إلى أنه كان بعد المبعث، ثم اختلفوا: فقيل: قبل الهجرة بسنة. قال ابن سعد وغيره. وبه جزم النووي، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه -فيكون في شهر ربيع الأول-.

وهو مردود، فإن في ذلك اختلافًا كثيرًا، يزيد على عشرة أقوال منها ما حكاه ابن الجوزي أنه كان قبلها بثمانية أشهر- فيكون في رجب-، وقيل بستة أشهر- فيكون في رمضان- وحكي هذا الثاني أبو الربيع بن سالم، وحكي ابن حزم مقتضى الذي قبله، لأنه قال: كان في رجب سنة اثنتي عشرة من النبوة، وقيل: بأحد عشر شهرًا، جزم به إبراهيم الحربي حيث قال: كان في ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة، ورجحه ابن المنير في شرح السيرة لابن عبد البر وقيل: قبل الهجرة بسنة وشهرين، حكماه ابن عبد البر، وقيل: بسنة وثلاثة أشهر حكاه ابن فارس، وقيل: بسنة وخمسة أشهر قاله السدي، وأخرجه من طريقة الطبري والبيهقي، فعلى هذا كان في شوال، أو في رمضان على إلغاء الكسرين منه ومن ربيع الأول، وبه جزم الواقدي، وعلى ظاهره ينطبق ما ذكره ابن قتيبة، وحكاه ابن عبد البر أنه كان قبلها بثمانية عشر شهرًا.

وعند ابن سعد عن ابن أبي سبرة أنه كان في رمضان، قبل الهجرة بثمانية عشر شهرًا، وقيل كان في رجب حكاه ابن عبد البر، وجزم به النووي في الروضة. وقيل قبل الهجرة بثلاث سنين حكاه ابن الأثير، وحكي عياض وتبعه القرطبي والنووي عن الزهري أنه كان قبل الهجرة بخمس سنين، ورجحه عياض ومن تبعه. فتح الباري (٧/ ٢٠٣).

فالاحتفال بليلة الإسراء والمعراج بدعة محدثة لم يفعلها الصحابة والتابعون، ومن تبعهم من السلف الصالح، وهم أحرص الناس على الخير والعمل الصالح.

وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان، ولا ذلك المكان، بعبادة شرعية، بل غار حراء الذي ابتديء فيه بنزول الوحي، وكان يتحراه قبل النبوة، لم يقصده هو ولا أحد من الصحابة بعد النبوة مدة مقامه بمكة، ولا خصَّ اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها، ولا خص المكان الذي ابتديء فيه بالوحي ولا الزمان بشيء.

ومن خص الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات لأجل هذا وأمثاله، كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مواسم وعبادات كيوم الميلاد، ويوم التعميد، وغير ذلك من أحواله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٩٨): وأما اتخاذ موسم غير المواسم الشرعية كبعض ليالي شهر ربيع الأول التي يقال أنها ليلة المولد، أو بعض ليالي رجب، أو ثامن عشر ذي الحجة، أو أول جمعة من رجب، أو ثامن شوال الذي يسميه الجهال عيد الأبرار، فإنها من البدع التي لم يستحبها السلف ولم يفعلوها، والله سبحانه وتعالى أعلم.اهـ.

وقال ابن الحاج في المدخل (١/ ٢٩٤): ومن البدع التي أحدثوها فيه أعني في شهر رجب ليلة السابع والعشرين منه التي هي ليلة المعراج ...اهـ.

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ في فتاواه (٣/ ٩٧ - ١٠٠) في رده على دعوة وجهت لرابطة العالم الإسلام لحضور أحد الاحتفالات بذكري الإسراء والمعراج، بعد أن سئل عن ذلك: هذا ليس بمشروع، لدلالة الكتاب والسنة والاستصحاب والعقل، ثم ذكر الأدلة.

وقال العلامة ابن باز كما في التحذير من البدع (ص٩) وهذه الليلة التي حصل فيها الإسراء والمعراج، لم يأت في الأحاديث الصحيحة تعيينها، وكل ما ورد في تعيينها فهو غير ثابت عن النبي ﷺ عند أهل العلم بالحديث، ولله الحكمة البالغة في إنساء الناس لها، ولو ثبت تعيينها لم يجز للمسلمين أن يخصوها بشيء من العبادات ولم يجز لهم أن يحتفلوا بها لأن النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم لم يحتفلوا بها، ولم يخصوها بشيء، ولو كان الاحتفال بها أمرًا مشروعًا لبينه الرسول ﷺ للأمة إما بالقول أو الفعل، ولو وقع شيء من ذلك لعرف واشتهر، ولنقله الصحابة رضي الله عنهم إلينا فقد نقلوا عن نبيهم ﷺ كل شيء تحتاجه الأمة، ولم يفرطوا في شيء من الدين، بل هم السابقون إلى كل خير، فلو كان الاحتفال بهذه الليلة مشروعًا لكانوا أسبق الناس إليه، والنبي ﷺ هو أنصح الناس للناس، وقد بلغ الرسالة غاية البلاغ، وأدى الأمانة، فلو كان تعظيم هذه الليلة والاحتفال بها من دين الإسلام لم يغفله النبي ﷺ ولم يكتمه، فلما لم يقع شيء من ذلك علم أن الاحتفال بها وتعظيمها ليسا من الإسلام في شيء . . .

مسألة: قال الشيخ صالح آل شيخ في شرح الطحاوية (٢/ ٢٥): هل لقي النبي؟ أجساد الأنبياء مع أرواحهم؟ أم إنه؟ لقي أرواحهم دون أجسادهم؟

العلماء لهم في ذلك قولان:

القول الأول: قال طائفة من أهل العلم لقي أرواحا وأجسادا، واستدلوا على ذلك بدليلين:

الدليل الأول: أن هذا هو الظاهر من الجمع - يعني من أنهم جمعوا له وأنه كلم آدم وكلم فلان وكلم فلان إلى آخره.

والدليل الثاني: أنه جاء في أحد الروايات قوله (وبعثت لي الأنبياء) وبعثة الأنبياء له، تدل على أن ذلك خاص في ذلك الموقف الخاص.

القول الثاني: أن ذلك إنما هو للأرواح دون الأجساد حاشا عيسى عليه السلام فإنه رفع إلى السماء بروحه وجسده، وفي إدريس قولان؛ إدريس عليه السلام في السماء الرابعة فيه قولان، هل كان رفعه للسماء الرابعة بروحه فقط أم كان بروحه وجسده؟ وفي ذلك خلاف عند المفسرين وعند أهل العلم مأخوذ أو تجده عند قوله تعالى ؟ورفعناه مكانا عليا؟ [مريم:٥٧] في قصة لا تثبت؛ يعني في قصة لسبب الرفع لا تثبت، والأظهر من القولين عندي أن ذلك كان بالأرواح دون الأجساد خلا عيسى عليه السلام؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين التقى بالأنبياء وصلوا معه إما أن يقال صلوا معه بأجسادهم، وقد جمعت أجسادهم له من القبور، ثم رجعت إلى القبور وبقيت أرواحهم في السماء، وإما أن يقال هي بالأرواح فقط؛ لأنه لقيهم في السماء، ومعلوم أن الرفع إنما خص به عيسى عليه السلام إلى السماء رفعا حيا، وكونهم يرفعون بأجسادهم وأرواحهم إلى السماء دائما ولا وجود لهم في القبور، هذا لا دليل عليه؛ بل يخالف أدلة كثيرة أن الأنبياء في قبورهم إلى قيام الساعة، فمعنى كونهم ماتوا ودفنوا أن أجسادهم في الأرض، وهذا هو الأصل.

ومن قال بخلافه قال هذا خاص بالنبي ﷺ أنه بعثت له الأنبياء فصلى بهم ولقيهم في السماء.

وهذه الخصوصية لابد لها من دليل واضح، وكما ذكرت لك فالدليل التأملي يعارضه، وعلى كل هما قولان لأهل العلم من المتقدمين والمتأخرين.

مسألة: قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٢/ ٣٢٠): إن الله كلم موسى وأمره بلا واسطة وكذلك كلم محمدا ﷺ وأمره ليلة المعراج وكذلك كلم آدم وأمره بلا واسطة وهي أوامر دينية شرعية.اهـ. وسئلت اللجنة الدائمة عن: كثيرا ما نسمع ونقرأ أن الصلوات الخمس فرضت على النبي ﷺ بدون واسطة وذلك بعد ما عرج به عليه الصلاة والسلام إلى السموات، والذي أشكل علي وأريد من سماحتكم تبيينه وتوضيحه هو هل أن الله ﷻ كلم محمدا ﷺ مشافهة وبذلك تكون هذه تابعة لخصوصياته عليه السلام مشتركا فيها مع أخيه موسى عليه السلام، وأن كلام الله ﷻ في الدنيا ليس خاصا لموسى عليه السلام، أفتونا جزاكم الله عنا خيرا مرشدينا في ذلك إلى الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ؟ فأجابت: نعم، أحاديث المعراج صريحة بأن الله سبحانه كلم نبيه محمدا ﷺ، وبذلك يعلم أنه عليه الصلاة والسلام كليم الله كما أن موسى كليم الله وبالله التوفيق وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.اهـ.

وقال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه: ثبت أن الله كلم محمدًا، ﷺ ليلة المعراج.

(باب متفرقات)

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٤/ ٢٢٥): يوجد بعض الناس الذين يقولون بأن الرسول ﷺ، أسري به ولم يعرج به إلى

السماء وذلك لأن الإسراء ذكر في القرآن الكريم والمعراج لم يذكر، ما هو توجيه سماحتكم جزاكم الله خيرا .

فأجاب: الإسراء ثابت بالقرآن والسنة والمعراج، ثبت بالسنة المتواترة عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه عرج به إلى السماء وجاوز السبع الطباق وجاوز السماء السابعة حتى وصل إلى موضوع يسمع فيه صرير الأقلام، وسمع من ربه جل وعلا فرضية الصلوات الخمس، فمن أنكر ذلك يعرف ويبين له بالأدلة الشرعية فإذا أصر وأنكرها كفر، نسأل الله العافية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٢٥): هل كان الإسراء بالنبي ﷺ بالجسد والروح أم بالروح فقط؟ .

فأجاب: كان الإسراء بالجسد والروح جميعا عليه الصلاة والسلام أسري بجسده وروحه، من مكة إلى الشام ومنها إلى السماء عرج به إلى السماء، حتى جاوز السبع الطباق، حتى جاوز السماء السابعة وانتهى إلى موضع يسمع فيه صرير الأقلام، وكلمه ربه وفرض عليه الصلوات الخمس، سبحانه وتعالى المقصود أنه أسري بروحه وجسده، من مكة إلى الشام ثم عرج به من الشام إلى السماء بروحه وجسده عليه الصلاة والسلام، هذا هو الصواب الذي عليه عامة أهل العلم، والقول بأنه بالروح قول شاذ مخالف للآية الكريمة والأحاديث الصحيحة.

مسألة: قال العلامة الألباني في مختصر العلو (١١٧ - ١١٨): قال الذهبي في العلو: ومن عقد أئمة السلف أن نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- عرج به إلى السموات العلى عند سدرة المنتهى، فكان منه قاب قوسين أو أدنى.

قلت: يشير إلى ما رواه سليمان بن بلال عن شريك بن عبد الله ابن أبي نمر

قال: سمعت أنس بن ملك يحدث عن ليلة أسري برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- .. قلت فذكر حديث الإسراء الطويل وفيه: "ودنا الجبار تبارك وتعالى فتدلي، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه ما شاء .. "

لكن هذه الجملة من جملة ما أنكر على شريك هذا مما تفرد به عن جماهير الثقات الذين رووا حديث المعراج، ولم ينسبوا الدنو والتدلي لله تبارك وتعالى، بل روت عائشة وابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ما يدل على أن قوله تعالى {ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى} إنما المراد به جبريل عليه الصلاة والسلام، روى مسلم (١/ ١١١) عن مسروق قال: قلت لعائشة: فأين قوله {ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى} ؟ قالت: إنما ذاك جبريل -صلى الله عليه وآله وسلم- وانظر "الأسماء والصفات" للبيهقي (ص ٤٣٨ - ٤٤١).

وقد كان المصنف رحمه الله تعالى أورد في الأصل [أي الذهبي في "العلو" (ص ٥٠) الجملة المذكورة من حديث شريك ثم أورده بطوله " ق ٢١/ ١ - ٢ - مخطوطة"، فحذفته لما أشرت إليه من النكارة، وقال المصنف في الموضع الثاني: "هذا حديث غريب" استنكره بعض العلماء ولكنه قفز القنطرة وتقرر في "الصحيح" قلت: هذا مسلم فيما لم تظهر فيه علة قادحة، وليس كذلك هنا، فتأمل.اهـ.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في موسوعته العقدية (٨/ ٢٨١): هل يحضركم ما هو الزمن الراجح في موعد إسراء النبي ومعراجه

الشيخ: لا يوجد ثابت.

مداخلة: لا يثبت لحد الآن حديث.

الشيخ: أبدًا

مداخلة: والحديث اللي بيقول ١٨ ربيع الأول إيش درجته؟

الشيخ: رواية معضلة.

مداخلة: معضلة يعني ضعيفة؟

الشيخ: نعم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٨/ ٢٨٢): هل الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- رأى ربه عَزَّ وَجَلَّ، وهل الإسراء والمعراج كان في المنام أم في اليقظة؟

الشيخ: أما الإسراء المعراج فقد كان يقظةً به عليه الصلاة والسلام، هذا لا شك ولا إشكال فيه، وإن كان هناك بعض الأقوال المرجوحة تقول: إنه كان في منام أو كان بين النوم واليقظة، ولكن الصحيح الذي لا نشك فيه أبدًا أن ذلك كان يقظةً.

وهناك أشياء كثيرة وكثيرة جدًا تدل على هذا الذي نجزم به، من ذلك أن القصة هذه العجيبة الغريبة لو كانت منامًا ولم تكن يقظة لم تكن فيها معجزة حملت بعض ضعفاء الإيمان أن يرتابوا في دينهم، وحملت المشركين على الاستهزاء بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فكل هذا وهذا يؤكد أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما أصبح وأخبر الناس بما رأى من آيات ربه الكبرى، إنما كان قد حدثهم بأنه كان ذلك يقظة، ومن هنا كان الإعجاز وكانت كرامة من جهة، وكانت الفتنة لضعفاء الإيمان والمشركين في آن واحد من جهة أخرى.

أما الشق الثاني من السؤال وهو هل رأى رسول الله -صلى الله عليه وآله

وسلم- ربه فالمسألة خلافية منذ السلف الأول، والراجح أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لم ير ربه بعينه، وإنما رآه ببصيرته وقلبه، ومما يؤكد هذا أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد سئل صراحةً: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه؟!» فهذا نفي لأن يكون رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قد رأى ربه وأكد نفيه لذلك بقوله: أن هناك نورًا يمنع الإنسان من أن يرى ربه، وهذا أيضًا جاء في حديث آخر أن حجابه النور ولولا هذا الحجاب لأحرقت سبحات وجهه تبارك وتعالى كل شيء مر به أو كما قال عليه السلام، وكل من الحديث الأول وهذا الآخر مخرج في صحيح الإمام مسلم .

فالراجح أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لم ير ربه، وهو ظاهر قوله تبارك وتعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا} (الشورى:٥١) وبهذه الآية استدلت السيدة عائشة على رد من يقول بأن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى ربه بعينيه، فقد جاء في الصحيحين من رواية مسروق رحمه الله أنه جاء إلى السيدة عائشة رضي الله عنها فقال لها: يا أم المؤمنين! هل رأى محمد ربه؟ قالت: لقد قف شعري مما قلت، قال: يا أمر المؤمنين! ارحمني ولا تعجلي علي، أليس يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى} (النجم:١٣ - ١٤) قالت رضي الله عنها: أنا أعلم الناس بذلك، لقد سألت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: «رأيت جبريل في صورته التي خلق فيها مرتين وله ستمائة جناح .. » رأيت إذًا {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} (النجم:١٣) قال: «رأيت جبريل في صورته التي خلق فيها مرتين وله ستمائة جناح وقد سد الأفق -بعظمته-» فإذًا: الضمير في الآية التي سأل مسروق عائشة عنها إنما يعود إلى جبريل وليس إلى الله تبارك وتعالى.

ولذلك فقد تابعت السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كلامها تأكيدًا لجوابها وإفادة للسائل وغيره ببعض ما في جعبتها من علم تلقته من زوجها ونبيها محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- فقالت: ثلاث من حدثكموهن فقد أعظم على الله الفرية .. من حدثكم أن محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، ثم قالت محتجة على ما قالت: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا} (الشورى:٥١) وقالت: {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} (الأنعام:١٠٣).

ثم قالت: ومن حدثكم أن محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يعلم الغيب فقد أعظم على الله الفرية، ثم تلت قوله تعالى: {قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ} (النمل:٦٥)، ثم قالت: ومن حدثكم بأن محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- كتم شيئًا أمر بتبليغه فقد أعظم على الله الفرية، ثم تلت قوله تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} (المائدة:٦٧).

مداخلة: ما هي الفرية؟

الشيخ: الكذب.

مداخلة: شيخنا بالنسبة لحديث الإسراء والمعراج! تفضلتم وقلتم أنه رأى ربه بقلبه، ما معنى رأى ربه بقلبه؟

الشيخ: ببصيرته يعني: وليس بعينه بالجارحة هذه، رؤية قلبية، يعني: ممكن تقول علمي لا يمكن تمثيله.

مداخلة: في نفس حديث عائشة: ومن زعم أن محمدًا كتم شيئًا أمر بتبليغه، فبمفهوم المخالفة: إذا لم يؤمر بتبليغه يجوز للرسول أن يكتم؟

الشيخ: أولًا مفهوم المخالفة لا يحتج به دائمًا وأبدًا، وثانيًا: ممكن أن يقال ما ليس له علاقة بالشريعة أنه ما حدث به ممكن أن يقال هذا؛ لأنه في الآية السابقة: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} (المائدة:٦٧) نعم.

مسألة: وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢٠/ ٦٨): ما رأي الشرع في نظركم فيمن قال بتفضيل ليلة الإسراء على ليلة القدر؟.

فأجاب: الذي نرى في هذه المسألة أن ليلة القدر أفضل من ليلة الإسراء بالنسبة للأمة، أما بالنسبة للرسول ﷺ فتكون ليلة الإسراء التي هي ليلة المعراج في حقه أفضل، لأنها خاصة به، ونال فيها من الفضائل ما لم ينله في غيرها، فلا نفضل ليلة القدر مطلقًا، ولا نفضل ليلة الإسراء التي هي ليلة المعراج مطلقًا، وكأن السائل يريد أن يشير إلى ما يفعله بعض الناس ليلة السابع والعشرين من رجب من الاحتفال بهذه الليلة، يظنون أنها ليلة الإسراء والمعراج، والواقع أن ذلك لم يثبت من الناحية التاريخية، فلم يثبت أن النبي ﷺ أسري به في تلك الليلة، بل إن الذي يظهر أن المعراج كان في ربيع الأول، ثم على فرض أنه ثبت أن النبي ﷺ عرج به في ليلة السابع والعشرين من رجب، فإن ذلك لا يقتضي أن يكون لتلك الليلة احتفال واختصاص بشيء من الطاعة، وعلى هذا فالاحتفال بليلة سبع وعشرين من رجب لا أصل له من الناحية التاريخية ولا الشرعية، فإذا لم يكن كذلك كان من العبث ومن البدعة أن يحتفل بتلك الليلة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٥٢): كيف رأى النبي ﷺ أحوال أهل الجنة، وأحوال أهل النار ليلة الإسراء والمعراج، مع أن الساعة لم تقم بعد؟.

فأجاب: إن النبي ﷺ أخبرنا بذلك وأنه رأى الجنة والنار، ورأى أقواما يعذبون وأقواما ينعمون، والله أعلم بكيفية ذلك؛ لأن أمور الغيب لا يدركها الحس، فمثل هذه الأمور إذا جاءت يجب علينا أن نؤمن بها كما جاءت، وأن لا نتعرض لطلب الكيفية. ولم؟ ؛ لأن عقولنا أقصر وأدنى من أن تدرك هذا الأمر، فقد أخبر النبي، ﷺ عن أمور لا يمكن إدراكها بالعقل، أخبر ﷺ: بأن الله عز وجل - ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة، ومعلوم الآن أن ثلث الليل يدور على الكرة الأرضية، فإذا انتقل من جهة حل في جهة أخرى، فقد تقول: كيف ذلك؟

فنقول: عليك أن تؤمن بما أخبرك به النبي ﷺ ولا تقل: كيف؟ ؛ لأن عقلك أدنى، وأقصر من أن يحيط بمثل هذه الأمور الغيبية، فعلينا أن نستسلم، ولا نقول: كيف؟ ولم؟، ولهذا قال بعض العلماء كلمة نافعة قال: "قل: بم أمر الله؟ ولا تقل: لم أمر الله؟ " والله ولي التوفيق.

وسئل رحمه الله كما في فتاوى نور على الدرب: عن الإسراء والمعراج بمحمد ﷺ، هل صعد إلى سدرة المنتهى بروحه وجسده أم روحه فقط؟ أفتونا جزاكم الله خيرًا؟.

فأجاب: المعراج الذي حصل للرسول ﷺ كان بجسده وروحه، قال الله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) . وقال تعالى: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) . والعبد- وكذلك الصاحب- لا يكون إلا في الروح والجسد، فالنبي

ﷺ أسري به بجسده وروحه، وعرج به إلى السماوات حتى بلغ مستوى بجسده وروحه ﷺ، ولو كان ذلك بروحه فقط ما أنكرت قريش ذلك، إذ إن المنامات يقع منها شيء كثير من جنس هذا، ولكنه كان ﷺ قد أسري به بجسده وروحه، وعرج به إلى السماوات كذلك.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: ما الرد على من قال: هل كان سلام الرسول ﷺ ليلة المعراج على الأنبياء وردهم عليه كان بالروح، أم بالجسد، أم بهما معًا؟.

فأجاب: السؤال لا ينبغي أن يصاغ على هذه الصفة، بل يقال: هل العروج بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم والإسراء به إلى بيت المقدس، هل هو بروحه، أو بروحه وجسده؟ والجواب: أنه بروحه وجسده، أسري به عليه الصلاة والسلام يقظة لا منامًا بروحه وجسده؛ لأن الله تعالى قال: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا) ولم يقل: بروح عبده وقال الله سبحانه وتعالى في سورة النجم: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) إلى آخر الآيات، كلها تدل على أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عرج به ببدنه يقظان وليس بنائم. ويدل لذلك من الواقع أن قريشًا لما أخبرهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بما رأى في تلك الليلة صاحوا عليه وكذبوه، وأنكروا ذلك غاية الإنكار، ولو كانت بروحه أو رؤيا رآها لما أنكروا هذا عليه؛ لأن العرب لا ينكرون المرائي، والإنسان يرى في منامه أنه سافر إلى أبعد مكان، وأنه فعل وفعل، مع أنه لو كان يقظان ما حصل له ذلك. فالحاصل أن القول

الراجح بل المتعين أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أسري به بروحه وجسده، يقظان وليس بنائم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: نرجو من فضيلة الشيخ إلقاء الضوء على العبر والمواعظ من الإسراء والمعراج والمشاهد التي رآها الرسول ﷺ التي تؤثر في القلوب الغافلة؟.

فأجاب: أحيل السائل إلى ما كتبه أهل العلم في ذلك؛ لأن حديث المعراج حديث طويل يحتاج إلى مجالس، ولكن ليرجع إلى ما كتبه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب البداية والنهاية في قصة المعراج، وما كتبه العلماء في الحديث على ذلك: كفتح الباري، وشرح النووي على صحيح مسلم، وغيرهما من الكتب، إنما نشير إشارة موجزة لقصة المعراج: فالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أسرى به الله تعالى ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كان نائمًا في الحجر فأسري به من هناك، والحجر هو الجزء المقتطع من الكعبة والمقوس عليه بالجدار المعروف، أسري به من هناك عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس، وجمع له الأنبياء، وصلى بهم إمامًا، ثم عرج به جبريل إلى السماء الدنيا فاستفتح ففتح له، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة. وجد في الأولى آدم، ووجد في السابعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ووصل إلى موضع لم يصله أحد من البشر، وصل إلى موضع سمع فيه صريف الأقلام التي يكتب بها القدر اليومي، إلى سدرة المنتهى، ورأى من آيات الله سبحانه وتعالى ما لو رآه أحد سواه لزاغ بصره ولخبل عقله، لكن الله سبحانه وتعالى ثبت هذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام حتى رأى من آيات ربه الكبرى. وفرض الله عليه الصلوات خمسين صلاة في كل يوم وليلة، وقيض الله

موسى عليه الصلاة والسلام حين مر به رسول الله ﷺ أن يسأل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ماذا فرض الله عليه وعلى أمته؟ فأخبره بأن الله تعالى فرض عليه خمسين صلاة في كل يوم. وليلة فقال له: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فما زال نبينا صلوات الله وسلامه عليه يراجع الله، حتى استقرت الفريضة خمس صلوات في كل يوم وليلة بدل خمسين صلاة، لكنها بنعمة الله وفضله كانت خمس صلوات بالفعل وخمسين في الميزان، أي: إذا صلينا خمس صلوات فكأننا صلينا خمسين صلاة، والحمد لله رب العالمين وفي قصة فرض الصلوات في هذه الليلة التي هي أعظم ليلة في حق الرسول عليه الصلاة والسلام، وأنها خمسون صلاة، وأنها فرضت من الله إلى رسوله بدون واسطة، في هذا دليل على عناية الله تعالى بهذه الصلوات ومحبته لها، وأنها أعظم الأعمال البدنية في الإسلام، ولهذا كان تاركها كافرًا مرتدًّا خارجًا عن الإسلام. وقد اختلف الناس في ليلة المعراج والإسراء: هل هما في ليلة واحدة، أو في ليلتين؟ وهل كان الإسراء بروحه، أو بدنه وروحه؟ والصواب أنهما في ليلة واحدة، وأنه أسري بالرسول ﷺ بروحه. وبدنه ثم انقسم الناس في ليلة المعراج: في أي ليلة هي؟ وفي أي شهر هي؟ وأقرب الأقوال أنها كانت قبل الهجرة بثلاث سنوات، وأنها كانت في ربيع الأول، وليست في رجب. ثم ابتدع الناس في هذه الليلة بدعًا لم تكن معروفة عند السلف، فصاروا يقيمون ليلة السابع والعشرين من رجب احتفالًا بهذه المناسبة، ولكن لم يصح أنها- أعني: ليلة الإسراء والمعراج- كانت في رجب، ولا أنها في ليلة سبع وعشرين منه، فهذه البدعة صارت خطأً على خطأ: خطأً من الناحية التاريخية؛ لأنها لم تصح أنها في سبع وعشرين من رجب، وخطأ من الناحية الدينية؛ لأنها بدعة، فإن الرسول

صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يحتفل بها، ولا الخلفاء الراشدون، ولا الصحابة، ولا أئمة المسلمين من بعدهم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: ما معنى قوله تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) الآية وكيف كانت صفة الإسراء بالنبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس؟.

فأجاب: معنى هذه الآية الكريمة أن الله تعالى يسبح نفسه عن كل نقص وعيب فإن سبحان اسم مصدر من سبح يسبح والتسبيح هو التنزيه والله ﷻ منزه عن كل نقص وعيب منزه عن مماثلة المخلوقين منزه عن الأنداد قال الله تعالى (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) وقال تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وقد أسرى الله تعالى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام مسجد الكعبة الذي بمكة المكرمة ليلًا إلى المسجد الأقصى الذي في فلسطين في القدس وكيفية الإسراء أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى إلى النبي ﷺ بدابة يقال لها البراق دون البغل وفوق الحمار يضع خطوه في منتهى بصره بمعنى أن خطوته بعيدة جدًا تكون بقدر منتهى بصره فوصل النبي عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس ثم عرج به من هناك إلى السماء الدنيا بصحبة جبريل ولما بلغ السماء استفتح جبريل فقيل له من هذا فقال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبًا به فنعم المجيء جاء ثم ما زال جبريل يعرج به سماء بعد سماء حتى وصل إلى السماء السابعة فوجد فيها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وهناك رفعه الله أي رفع الله نبيه محمدًا ﷺ حتى بلغ سدرة المنتهى وفرض الله عليه الصلوات خمسين صلاة كل يوم وليلة فقبل واستسلم عليه الصلاة والسلام حتى نزل راجعًا فمر بموسى فأخبره بما فرض الله عليه وعلى

أمته من الصلوات فقال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك واسأله التخفيف فما زال النبي عليه الصلاة والسلام يراجع الله ﷻ ويسأله التخفيف حتى صارت الصلوات الخمسون خمس صلوات بالفعل لكنها في الميزان خمسون صلاة ثم رجع النبي ﷺ من ليلته إلى مكة واختلفت الروايات هل صلى الفجر في مكة أو صلى في بيت المقدس وأصبح النبي ﷺ يحدث الناس به فاتخذت قريش من ذلك فرصة لإظهار كذب النبي ﷺ وقالوا كيف يمكن ذلك ولكن النبي ﷺ ألقمهم حجرًا حين قالوا إن كنت صادقًا فصف لنا بيت المقدس فرفع جبريل له بيت المقدس حتى كأن النبي ﷺ يشاهده فيصفه لقريش فألقموا حجرًا بتكذيبهم النبي ﷺ وتبين بذلك صدق النبي ﷺ وأما قوله (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) فهذا بيان للحكمة من الإسراء برسول الله ﷺ أن الله يريه من آياته العظيمة الدالة على قدرته وحكمته وتمام سلطانه وقد رأى من آيات ربه الكبرى ما يكون عبرة للمعتبرين وقوله (إنه هو السميع البصير) يعني إن الله تعالى هو السميع البصير الذي وسع سمعه كل صوت قالت عائشة رضي الله عنها حين أنزل الله تعالى (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) قالت رضي الله عنها تبارك الذي وسع سمعه الأصوات والله إني لفي طرف الحجرة وإنه ليخفي علي بعض حديثها والرب ﷻ على عرشه فوق سبع سماوات يسمع كلام هذه المرأة التي تجادل النبي ﷺ في زوجها وتشتكي إلى الله فهو ﷻ يسمع كل صوت وإن كان خفيًا قال الله تعالى (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) وإذا آمن الإنسان بهذه الصفة العظيمة صفة السمع فإن إيمانه بذلك يقتضي أن لا يُسمع الله تعالى ما يكون سببًا لغضبه على عبده وأما قوله البصير فالبصير معناه الذي أدرك ببصره

كل شيء وهو سبحانه وتعالى قد جمع بين هاتين الصفتين السمع والبصر وهما من كمال صفاته جل وعلا فما من شيء إلا والله ﷻ يراه وإن دق وخفي.

(باب ذكر مسائل كرامات الأولياء)

مسائل في الباب.

مسألة: تعريف الولاية والولي

الولي بفتح فسكون: القرب والدنو، وحصول ثان بعد أول من غير فصل يقال: تباعد بعد ولى، وكل مما يليك أي يقاربك. ويقال سقط الولي وهو المطر يلي الوسمي ويحصل بعده. والمطر الولي يقال أيضًا بوزن فعيل.

والولاء بالفتح: القرابة والنصرة يقال بينهما ولاء. وبالكسر الموالاة والمتابعة تقول أفعل هذه الأشياء على الولاء وتوالى عليه شهران. والموالاة بين شخصين تكون أيضًا مضادة للمعاداة.

والولاية بالكسر السلطان يقال وليت الأمر إليه فأنا وال. ونحن ولاة وبالفتح النصرة يقال هم على ولاية إذا اجتمعوا على النصرة. وتكون الولاية بالكسر على هذا المعنى عند الجمهور، وجعلها سيبويه اسمًا لما توليته وقمت به.

والمولى ابن العم، والعاصب، والحليف والناصر، والجار.

والولي وزان فعيل ضد العدو من وليه إذا قام به يكون بمعنى فاعل وبمعنى مفعول فمن الأول الله ولي الذين آمنوا، ومن الثاني المؤمن ولي الله للمطيع له. وكل من ولى أمر غيره فهو وليه. ويطلق على ابن العم والناصر والصديق والمحب. تقول توليته إذا جعلته وليًا. ومنه: (ومن يتولهم منكم فإنه منهم). كل هذا من الصحاح والقاموس والأساس والمصباح.

وأما تعريف الولي في الاصطلاح: فقد عرفه شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: (وقد قيل إن الولي سمي وليًا من موالاته للطاعات أي متابعته لها ويقابل الولي العدو على أساس من القرب والبعد)[(١)].

وقال الشوكاني في تفسيره: (والمراد بأولياء الله خلقه المؤمنين كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته وقد فسر سبحانه هؤلاء الأولياء بقوله: الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ [يونس: ٦٣] أي يؤمنون بما يجب الإيمان به ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من معاصي الله سبحانه)[(٢)].

وقال الدكتور إبراهيم هلال: (وهذا المعنى الذي يدور بين الحب والقرب هو الذي أراده القرآن الكريم من كلمة ولي ومشتقاتها في كل موضع أتى بها فيه سواء في جانب أولياء الله أو في جانب أولياء أعداء الله وأعداء الشيطان)[(٣)].

وقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه وسنة رسوله ﷺ أن لله أولياء من الناس وللشيطان أولياء ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فقد قال تعالى: أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

وقال تعالى: اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [البقرة: ٢٥٧].

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص: ٦).
(٢) فتح القدير (٢/ ٤٥٧).
(٣) ولاية الله والطريق إليها لإبراهيم هلال (ص: ٧١).

وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [المائدة: ٥١].

وذكر أولياء الشيطان فقال تعالى: فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ [النحل: ٩٨ – ١٠٠].

وقال تعالى: الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا [النساء: ٧٦].

وقال تعالى: إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [آل عمران: ١٧٥].

وعلى هذا فالتقسيم الصحيح للناس في هذه الحياة الدنيا هو أنهم ينقسمون إلى قسمين لا ثالث لهما وهو أن أي أحد من الإنس أو الجن في هذه الحياة إما أن يكون وليا لله وإما أن يكون عدوًا لله وليست الولاية محصورة في أشخاص معينين كما يزعم الصوفية ذلك بل ما نعتقده هو أن أي مسلم يؤمن بالله وبرسوله وينفذ أوامر الله ويجتنب نواهيه فهو ولي من أولياء الله سبحانه وتعالى.

ثم إن من شرط ولاية الله سبحانه وتعالى هو أن يؤمن الإنسان بالله وبرسوله وأن يتبع الرسول في الظاهر والباطن وكل من يدعي محبة الله وولايته بدون متابعة الرسول ﷺ فهو كاذب مفتر دجال وليس من أولياء الله بل هو من أولياء الشيطان قال تعالى: قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ [آل عمران: ٣١]

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: (ادعى قوم أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول يحبه ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول ﷺ فليس من أولياء الله وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله.

فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأنه لا يدخل الجنة إلا من كان معهم بل يدعون أنهم أبناؤه وأحباؤه.

وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله لسكناهم مكة ومجاورتهم البيت وكانوا يستكبرون على غيرهم)[(١)].

ولكن الصوفية خصصوا لولاية الله سبحانه وتعالى أعدادًا معينة في حدود الأربعين أو الثلاثمائة أو غيرها من الأعداد التي يذكرها المتصوفة لمن يطلقون عليهم أنهم أولياء الله وأصبحوا يصفونهم بأوصاف لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى حيث ادعوا بأن الأولياء يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون تصرفًا مطلقًا ويدعون ويستغاث بهم من دون الله وهذه كلها معتقدات فاسدة دخيلة على الإسلام جلبها المتصوفة من الطوائف الوثنية الضالة التي تعبد البشر من دون الله.

(وولاية الله موافقته بأن تحب ما يحب وتبغض ما يبغض وتكره ما يكره وتسخط ما يسخط وتوالي من يوالي وتعادي من يعادي)[(٢)].

(والمراد بولي الله العالم بالله المواظب على طاعته المخلص في عبادته)[(٣)].

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص: ٩).
(٢) الاستقامة (٢/ ١٢٨) لابن تيمية.
(٣) فتح الباري (١٠/ ٣٥٠) لابن حجر.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالولاية هي عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه)[١].

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فولي الله هو القريب منه المختص به)[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والولاية هي الإيمان والتقوى المتضمنة للتقرب بالفرائض والنوافل)[٣].

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فولي الله من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضاته وتقرب إليه بما أمر به من طاعته)[٤].

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهو العارف بالله حسب ما يمكن، المواظب على الطاعات المجتنب للمعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات)[٥].

فكرامات الأولياء جمع كرامة، والكرامة في اللغة: إكرام من الإكرام، وهو ما يؤتى المكرم من هبة وعطية وهي في باب الكرامة من الله.

وفي الاصطلاح عرفت كرامة الولي بأنها أمر خارق للعادة جرى على يدي ولي.

وكونه خارقا للعادة يخرج به ما ينعم الله به من النعم على عباده مما لا يدخل في كونه خارقا للعادة، فأهل الإيمان ينعم عليهم بنعم كثيرة وهي إكرام من الله؛ لكن لا تدخل في حد الكرامة، فالكرامة ضابطها أنها أمر خارق للعادة.

---

(١) الجواب الكافي (ص: ١٣٧)، وانظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٧٠٥).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٠٦).

(٣) مجموع الفوائد (١٠/ ٤٤٠).

(٤) مجموع الفوائد (١١/ ٦٢).

(٥) إتمام الدراية (ص: ٧)، وانظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٣٧٣)، (١١/ ١٦١)، وتفسير الخازن (٢/ ٤٥١).

والعادة هنا، خارق للعادة أي عادة؟ عادة أهل ذلك الزمان.

فقد يكون خارقا لعادة أناس في القرن الثاني وهو ليس بخارق لعادتنا في هذا الزمن، مثلا أن ينتقل من بلد إلى بلد في ساعة، من الشام إلى مكة أو إلى القدس في ساعة، ويصلي هنا إلى آخره، أو أن يحجب عن بعض المكروه، أو أن يكون عنده علم بحال أناس بالتفصيل يسمع كلامهم ويرى صورتهم في بلد بعيد عنه، هو في الجزيرة ويرى حالهم في الشام أو في مصر أو في خراسان أو ما أشبه ذلك.

هذه في زمن مضى كانت خوارق لعادة أهل ذلك الزمان لكنها بالنسبة لأهل هذا الزمان ليست بخارق مطلقا.

لهذا تضبط العادة في تعريف الكرامة (خارق للعادة) بأنها عادة أهل ذلك الزمن.

والمعجزة أيضا أو الآية والبرهان للنبي وخوارق السحرة والكهنة كما سيأتي فيها خرق للعادة لكن مع اختلاف الخارق واختلاف العادة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

(جرى على يدي ولي) قوله جرى يعني أنه أكرم به الولي فجرى على يديه.

وقد يكون أعطي القدرة وقد يكون الولي أحس بالشيء وجرى على يديه دون قدرة منه، إما من الملائكة أو بسبب شاءه الله.

وآخر جملة (على يدي ولي) يخرج منها ما جرى على يد الأنبياء فهي أمر خارق للعادة لكنه ليس على يدي ولي، وإنما على يدي نبي، كذلك خوارق السحرة والكهنة والمشعوذين فهي شيطانية ليست إيمانية، ولذلك لا تدخل في التعريف.

مسألة: اجتماع الولاية والعداوة في نفس الشخص

وتجتمع في المؤمن ولاية من وجه، وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه كفر

وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان. وإن كان في هذا الأصل نزاع لفظي بين أهل السنة، ونزاع معنوي بينهم وبين أهل البدع، كما تقدم في الإيمان. ولكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى - أولى من موافقته في المعنى وحده، قال تعالى: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ [يوسف: ١٠٦]. وقال تعالى: قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا [الحجرات: ١٤]، الآية. وقد تقدم الكلام على هذه الآية، وأنهم ليسوا منافقين على أصح القولين. وقال ﷺ: أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر وفي رواية: وإذا ائتمن خان، بدل: وإذا وعد أخلف. أخرجاه في الصحيحين . وحديث شعب الإيمان ... وقوله ﷺ: يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان .

فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد في النار، وإن كان معه كثير من النفاق، فهو يعذب في النار على قدر ما معه من ذلك، ثم يخرج من النار.

فالطاعات من شعب الإيمان، والمعاصي من شعب الكفر، وإن كان رأس شعب الكفر الجحود، ورأس شعب الإيمان التصديق.

وأما ما يروى مرفوعا إلى النبي ﷺ أنه قال: ما من جماعة اجتمعت إلا وفيهم ولي لله، لا هم يدرون به، ولا هو يدري بنفسه -: فلا أصل له، وهو كلام باطل، فإن الجماعة قد يكونون كفارا، وقد يكونون فساقا يموتون على الفسق[1].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (٢/ ٥٠٧).

مسألة: حكم الشهادة لمعين بالولاية

الشهادة للشخص معين بالولاية ثلاثة أقوال كما بين ذلك ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الأول: قيل لا يشهد بذلك لغير النبي، وهو قول أبي حنيفة والأوزاعي وعلي بن المديني وغيرهم.

الثاني: وقيل يشهد به لمن جاء به نص إن كان خبرا صحيحا كمن شهد له النبي ﷺ بالجنة فقط، وهذا قول كثير من أصحابنا وغيرهم.

الثالث: وقيل يشهد به لمن استفاض عند الأمة أنه رجل صالح كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وغيرهما، وكان أبو ثور يشهد لأحمد بن حنبل بالجنة قال: وفي الحديث الذي في المسند: (يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار. قالوا: بماذا يا رسول الله؟ قال بالثناء الحسن والثناء السيئ)[(١)]. وفي الصحيحين: (أن النبي مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال وجبت، وجبت، ومر عليه بجنازة فأثنوا عليها شرا فقال: وجبت، وجبت فقيل يا رسول الله ما

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٦) و(٦/ ٤٦٦)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٥١٠)، وعبد بن حميد في المنتخب (٤٤٢)، وابن ماجة (٤٢٢١)، والدولابي في الكنى (١/ ٣٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/ رقم ٣٨٢)، والفاكهي في أخبار مكة (٢٩٠٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٦٠٢)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٠٦) و(٣٣٠٧)، وابن حبان (٧٣٨٤)، والحاكم (١/ ١٢٠) و(٤/ ٤٣٦)، والبيهقي (١/ ١٢٣٠) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال الحافظ في الإصابة (٤/ ٧٧): إسناده حسن غريب، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٤١): إسناده صحيح رجاله ثقات، وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٤/ ١٧٣): حديث صحيح، وهذا إسناد محتمل للتحسين، أبو بكر بن أبي زهير الثقفي، روى عنه اثنان، وذكره ابن حبان في الثقات، ووالده أبو زهير ذكره ابن حبان في الصحابة من الثقات (٣/ ٤٥٧) وقال: كان من الوفد، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

قولك وجبت وجبت؟ قال: هذه الجنازة أثنيتم عليها الخير فقلت وجبت لها الجنة، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شرا فقلت وجبت لها النار، أنتم شهداء الله في الأرض)[١] ثم قال: والتحقيق أن هذا قد يعلم بأسباب، وقد يعلم على الظن، ولا يجوز للرجل أن يقول بما لا يعلم.

ولهذا لما قالت أم العلاء الأنصارية (لما قدم المهاجرون المدينة اقترعت الأنصار على سكناهم فصار لنا عثمان بن مظعون في السكنى فمرض فمرضناه ثم توفي، فجاء رسول الله ﷺ فدخل فقلت رحمة الله عليك أبا السائب. فشهادتي أن قد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله قد أكرمه؟ قالت: لا والله لا أدري، فقال النبي: أما هو فقد أتاه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري- وأنا رسول الله- ما يفعل بي ولا بكم، قالت: فوالله لا أزكي بعده أحدا أبدا)[٢][٣]. وإن من الناس من يظهر منه صلاح وورع وكانت حاله بينه وبين الله على العكس من ذلك. فإذا خلا بمحارم الله انتهكها كما في حديث ثوبان عن النبي أنه قال: (لأعلمن أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة. بيضا فيجعلها الله ﷻ هباء منثورا، قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا، قال: أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها)[٤] ولما أثنى رجل على آخر عند رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠١٨).

(٣) النبوات (ص: ١٠ - ١١).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥)، والرويانى (٦٥١)، والطبرانى فى الأوسط (٤٦٣٢)، وفى الصغير (٦٦٢) والحديث قال عنه المنذرى في الترغيب (٣/ ١٧٠): رواته ثقات، وقال البوصيرى في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٤٦): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وصححه =

انتهره قائلا (ويحك قطعت عنق صاحبك. ثم قال: إن كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلانا ولا أزكي على الله أحدا، حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك)(١).

وقد أخبر ﷺ عمن كان يأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويأتيه أنه (يؤتى به يوم القيامة ويدور كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه)(٢).

وكذلك رأى الصحابة رجلا من المسلمين يقاتل المشركين بقوة حتى أعمل فيهم القتل فأعجبوا لشجاعته وأثنوا عليه، فقال النبي ﷺ: (إن هذا من أهل النار فتعجب الصحابة حتى قالوا: أينا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار؟ فتبعه رجل من الصحابة فوجده قد جرح فاستعجل الموت ووضع نصاب سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه فجاء الرجل إلى النبي وقال: أشهد أنك رسول الله. قال ﷺ: وما ذاك؟ فأخبره بخبره فقال النبي ﷺ: إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وإنه من أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة)(٣).

وكذلك قتل رجل في خيبر فقيل: (هنيئا له الجنة؛ فقال رسول الله: كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها من المغانم- لم تصبها المقاسم-

---

=

العلامة الألباني في الصحيحة (٥٠٥)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٥/ ٣١٧): إسناده حسن من أجل عقبة بن علقمة بن حديج.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٩) من أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٠٧) من سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

لتشتعل عليه نارا)[1].

فها قد خفيت حقيقة هؤلاء الرجال على أصحاب النبي ﷺ مع أنهم أعظم أولياء الله؛ بل هم أعظم ولاية عند الله من أولياء اليوم والغد. فلماذا لم ينكشف لهم ما يزعم أدعياء الولاية اليوم مكاشفته، أم أن الله فضل أولياء اليوم على سلفنا الصالح وكشف لهم ما أخفاه عن أولئك!

ولقد نهانا الله تعالى عن أن يزكي الواحد منا نفسه مع كون الواحد منا أعلم بنفسه من غيره فقال فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى [النجم: ٣٢]. فكيف نستطيع أن نحكم على غيرنا بولايته وتقواه، وبصدق ظاهره وباطنه سره وعلانيته مع الله!.

مسألة: قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١١/ ٢٧٦ – ٢٨٢): وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جدا: مثل ما كان (أسيد بن حضير يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة نزلت لقراءته)، وكانت (الملائكة تسلم على عمران بن حصين)، وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها، وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما. رواه البخاري وغيره . وقصة الصديق في الصحيحين (لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا ربى من أسفلها أكثر منها فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت فرفعها إلى رسول الله ﷺ وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وخبيب بن عدي كان أسيرا عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة . وعامر بن فهيرة قتل شهيدا فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع وقال عروة: فيرون الملائكة رفعته . وخرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حسا على رأسها فرفعته فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها . وسفينة مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رسول رسول الله ﷺ فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده.

(والبراء بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه، وكان الحرب إذا اشتد على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براء أقسم على ربك فيقول: يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم فيهزم العدو فلما كان يوم القادسية قال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيدا). وخالد بن الوليد حاصر حصنا منيعا، فقالوا: لا نسلم حتى تشرب السم فشربه فلم يضره .

وسعد بن أبي وقاص كان مستجاب الدعوة ما دعا قط إلا استجيب له وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق. وعمر بن الخطاب لما أرسل جيشا أمر عليهم رجلا يسمى سارية فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر (يا سارية الجبل يا سارية الجبل فقدم رسول الجيش فسأل فقال يا أمير المؤمنين لقينا عدوا فهزمونا فإذا بصائح: يا سارية الجبل يا سارية الجبل فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله) . ولما عذبت الزبيرة على الإسلام في الله فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها؛ قال المشركون: أصاب بصرها اللات والعزى. قالت: كلا والله

فرد الله عليها بصرها. ودعا سعيد بن زيد على أروى بنت الحكم فأعمي بصرها لما كذبت عليه فقال: (اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها واقتلها في أرضها فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت) . والعلاء بن الحضرمي كان عامل رسول الله ﷺ على البحرين وكان يقول في دعائه: يا عليم يا حليم يا علي يا عظيم فيستجاب له ودعا الله بأن يسقوا ويتوضئوا لما عدموا الماء والإسقاء لما بعدهم فأجيب ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا كلهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم؛ ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات فلم يجدوه في اللحد.

وجرى مثل ذلك لأبي مسلم الخولاني الذي ألقي في النار (فإنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمى بالخشب من مدها ثم التفت إلى أصحابه فقال: تفقدون من متاعكم شيئا حتى أدعو الله ﷻ فيه فقال بعضهم: فقدت مخلاة فقال اتبعني فتبعه فوجدها قد تعلقت بشيء فأخذها) . (وطلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له: أتشهد أني رسول الله. قال ما أسمع قال أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال نعم فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائما يصلي فيها وقد صارت عليه بردا وسلاما؛ وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وقال الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله) . ووضعت له جارية السم في طعامه فلم يضره. وخببت امرأة عليه زوجته فدعا عليها فعميت وجاءت وتابت فدعا لها فرد الله عليها بصرها. وكان عامر بن عبد قيس يأخذ عطاءه ألفي درهم في كمه وما يلقاه سائل في طريقه إلا أعطاه بغير عدد ثم يجيء إلى بيته فلا يتغير عددها ولا وزنها.

ومر بقافلة قد حبسهم الأسد فجاء حتى مس بثيابه الأسد ثم وضع رجله على عنقه وقال: إنما أنت كلب من كلاب الرحمن وإني أستحي أن أخاف شيئا غيره ومرت القافلة. ودعا الله تعالى أن يهون عليه الطهور في الشتاء فكان يؤتى بالماء له بخار. ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة فلم يقدر عليه. وتغيب الحسن البصري عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله ﷻ فلم يروه. ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتا. وصلة بن أشيم (مات فرسه وهو في الغزو فقال: اللهم لا تجعل لمخلوق علي منة ودعا الله ﷻ فأحيا له فرسه، فلما وصل إلى بيته قال يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية فأخذ سرجه فمات الفرس). وجاع مرة بالأهواز فدعا الله ﷻ واستطعمه فوقعت خلفه دوخلة رطب في ثوب حرير فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زمانا. وجاء الأسد وهو يصلي في غيضة بالليل فلما سلم قال له اطلب الرزق من غير هذا الموضع فولى الأسد وله زئير. وكان سعيد بن المسيب في أيام الحرة يسمع الأذان من قبر رسول الله ﷺ أوقات الصلوات وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيره. (ورجل من النخع كان له حمار فمات في الطريق فقال له أصحابه هلم نتوزع متاعك على رحالنا فقال لهم: أمهلوني هنيهة ثم توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ودعا الله تعالى فأحيا له حماره فحمل عليه متاعه) .

ولما مات أويس القرني وجدوا في ثيابه أكفانا لم تكن معه قبل ووجدوا له قبرا محفورا فيه لحد في صخرة فدفنوه فيه وكفنوه في تلك الأثواب. وكان عمرو بن عقبة بن فرقد يصلي يومًا في شدة الحر فأظلته غمامة وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم. وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير إذا دخل بيته سبحت معه آنيته وكان هو وصاحب

له يسيران في ظلمة فأضاء لهما طرف السوط. (ولما مات الأحنف بن قيس وقعت قلنسوة رجل في قبره فأهوى ليأخذها فوجد القبر قد فسح فيه مد البصر) . وكان إبراهيم التيمي يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئا وخرج يمتار لأهله طعاما فلم يقدر عليه فمر بسهلة حمراء فأخذ منها ثم رجع إلى أهله ففتحها فإذا هي حنطة حمراء فكان إذا زرع منها تخرج السنبلة من أصلها إلى فرعها حبا متراكبا. (وكان عتبة الغلام سأل ربه ثلاث خصال صوتا حسنا ودمعا غزيرا وطعاما من غير تكلف. فكان إذا قرأ بكى وأبكى ودموعه جارية دهره وكان يأوي إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدري من أين يأتيه) . (وكان عبد الواحد بن زيد أصابه الفالج فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه ثم تعود بعده) .

مسألة: الفرق بين الكرامة والأحوال الشيطانية

من ضوابط الحكم على خرق العادة النظر في سيرة واستقامة من خرقت له:

وأما تمييز الولي الصادق الذي قد تجري على يديه الكرامات من الدعي الكاذب الذي يموه على الناس ويخدعهم، فإنما يكون ذلك بحسب صلاحه وتقواه، من قيامه بالفرائض والنوافل، واتقائه الكبائر، والصغائر، واتصافه بالصفات الكريمة، واستدامته عليها، فإن اتصف شخص بكل هذه الصفات الطيبة، وعرفت عنه، ثم حدث على يديه شيء من الخوارق فيما لا يخالف الشرع، فيجوز أن يطلق على ذلك الخارق اسم (كرامة).

أما إن كان الرجل على خلاف ذلك، مشتهرا بالفسق والفساد والضلال، وغير ذلك، فإن كل ما يجري على يديه لا يعتد به بالغا ما بلغ، والله أعلم[1].

(١) موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية (ص: ٢٣٦ - ٢٣٧)، شبهات التصوف (ص: ١٣٨).

من شروط الكرامة

قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن الفوائد في هذا الأصل أن ينظر إلى كل خارقة صدرت على يدي أحد، فإن كان لها أصل في كرامات الرسول ﷺ ومعجزاته؛ فهي صحيحة، وإن لم يكن لها أصل؛ فغير صحيحة، وإن ظهر ببادئ الرأي أنها كرامة؛ إذ ليس كل ما يظهر على يدي الإنسان من الخوارق بكرامة، بل منها ما يكون كذلك، ومنها ما لا يكون كذلك.

وبيان ذلك بالمثال أن أرباب التصريف بالهمم والتقربات بالصناعة الفلكية، والأحكام النجومية، قد تصدر عنهم أفاعيل خارقة، وهي كلها ظلمات بعضها فوق بعض، ليس لها في الصحة مدخل، ولا يوجد لها من كرامات النبي ﷺ منبع؛ لأنه إن كان ذلك بدعاء مخصوص، فدعاء النبي ﷺ لم يكن على تلك النسبة، ولا تجري فيه تلك الهيئة، ولا اعتمد على قران في الكواكب، ولا التمس سعودها أو نحوسها، بل تحرى مجرد الاعتماد على من إليه يرجع الأمر كله، والتجأ إليه، معرضًا عن الكواكب، وناهيًا عن الاستناد إليها؛ إذ قال: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر) ... الحديث[(١)] وإن تحرى وقتًا، أو دعا إلى تحريه، فلسبب بريء من هذا كله؛ كحديث التنزل، وحديث اجتماع الملائكة طرفي النهار، وأشباه ذلك) إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا الموضع مزلة قدم للعوام، ولكثير من الخواص؛ فلتتنبه له)[(٢)].

خرق العادة بمجرده لا يدل على الولاية

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (وكل من خالف شيئًا مما جاء به الرسول، مقلدًا في ذلك لمن يظن أنه ولي لله، فإنه بنى أمره على أنه ولي

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

(٢) الموافقات (٢/ ٤٤٤ - ٤٤٦).

الله، وأن ولي الله لا يخالف في شيء، ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله؛ كأكابر الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة، فكيف إذا لم يكن كذلك؟! وتجد كثيرًا من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه وليا لله أنه قد صدر عنه مكاشفه في بعض الأمور، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة؛ مثل أن يشير إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها، أو يمشي على الماء أحيانًا، أو يملأ إبريقًا من الهواء، أو ينفق بعض الأوقات من الغيب، أو يختفي أحيانًا عن أعين الناس، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه، فقضى حاجته، أو يخبر الناس بما سرق لهم، أو بحال غائب لهم أو مريض، أو نحو ذلك من الأمور، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي الله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء، أو مشى على الماء، لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ، وموافقته لأمره ونهيه.

وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور الخارقة للعادة -وإن كان قد يكون صاحبها وليا لله- فقد يكون عدوا لله، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار، والمشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي الله، بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم، وأفعالهم، وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة، وشرائع الإسلام الظاهرة.

مثال ذلك: أن الأمور المذكورة وأمثالها، قد توجد في أشخاص، ويكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلي الصلوات المكتوبة، بل يكون ملابسا للنجاسات،

معاشرا للكلاب، يأوي إلى الحمامات، والقمامين، والمقابر، والمزابل، رائحته خبيثة، لا يتطهر الطهارة الشرعية، ولا يتنظف ...)[١].

قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن هنا يعلم أن كل خارقة حدثت أو تحدث إلى يوم القيامة، فلا يصح ردها ولا قبولها إلا بعد عرضها على أحكام الشريعة، فإن ساغت هناك فهي صحيحة مقبولة في موضعها، وإلا لم تقبل إلا الخوارق الصادرة على أيدي الأنبياء عليهم السلام؛ فإنه لا نظر فيها لأحد؛ لأنها واقعة على الصحة قطعًا؛ فلا يمكن فيها غير ذلك، ولأجل هذا حكم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في ذبح ولده بمقتضى رؤياه، وقال له ابنه: يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ [الصافات: ١٠٢]، وإنما النظر فيما انخرق من العادات على يد غير المعصوم.

وبيان عرضها أن تفرض الخارقة واردة من مجاري العادات، فإن ساغ العمل بها عادة وكسبا، ساغت في نفسها، وإلا فلا؛ كالرجل يكاشف بامرأة أو عورة، بحيث اطلع منها على ما لا يجوز له أن يطلع عليه، وإن لم يكن مقصودًا له، أو رأى أنه يدخل على فلان بيته وهو يجامع زوجته ويراه عليها، أو يكاشف بمولود في بطن امرأة أجنبية؛ بحيث يقع بصره على بشرتها، أو شيء من أعضائها التي لا يسوغ النظر إليها في الحس، أو يرى صورة مكيفة مقدرة تقول له: (أنا ربك)، أو يرى ويسمع من يقول له: (قد أحللت لك المحرمات)، وما أشبه ذلك من الأمور التي لا يقبلها الحكم الشرعي على حال، ويقاس على ذلك ما سواه، وبالله التوفيق)[٢].

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص: ٦١ - ٦٢)، وانظر: ولاية الله والطريق إليها (ص: ٢٥٢ - ٢٥٤).

(٢) الموافقات (٢/ ٤٨١ - ٤٨٢) بتصرف، وانظر: مدارج السالكين (١/ ٤٨ - ٤٩).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (خرق العادة قد يقع للزنديق بطريق الإملاء والإغواء، كما يقع للصديق بطريق الكرامة والإكرام، وإنما تحصل التفرقة بينهما باتباع الكتاب والسنة)[١].

وقال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولا يجوز للولي أن يعتقد في كل ما يقع له من الواقعات والمكاشفات أن ذلك كرامة من الله سبحانه، فقد يكون من تلبيس الشيطان ومكره. بل الواجب عليه أن يعرض أقواله وأفعاله على الكتاب والسنة، فإن كانت موافقة لها، فهي حق، وصدق، وكرامة من الله سبحانه، وإن كانت مخالفة لشيء من ذلك؛ فليعلم أنه مخدوع ممكور به، قد طمع منه الشيطان؛ فلبس عليه)[٢].

وقال الدكتور تقي الدين الهلالي شيخ التوحيد والسنة في بلاد المغرب - بل في كثير من بلاد العالم الإسلامي - رحمه الله تعالى -: (.. ومن هذا تعلم أن ظهور الخوارق، وما في عالم الغيب - ليس دليلًا على صلاح من ظهرت له تلك الخوارق، ولا على ولايته لله البتة؛ فإن كل مرتاض رياضة روحية تظهر له الخوارق على أي دين كان، وقد سمعنا وقرأنا أن العباد الوثنيين من أهل الهند تقع لهم خوارق عظام)[٣].

(إذن، فيجب على كل مسلم التحقق من ذلك، ولا يجوز القطع بولاية كل من فعل خارقًا من خوارق العادات؛ لأن الغاية من خرق العادة عند المشعوذين: التلبيس على المسلمين في دينهم، كما كانت الشياطين تخدع المشركين،

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٣٨٥).
(٢) ولاية الله والطريق إليها (ص: ٢٤٩).
(٣) نقله عنه في الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (ص: ٤٦٦).

فتدخل في أجواف الأصنام وتصدر أصواتًا، يظنون أن أصنامهم تتحدث إليهم، أو تحركها الشياطين من مكانها، فيظنوا أنها تتحرك من تلقاء نفسها.

ولقد ذكر الشعراني أن الشيطان كان يدخل في أجواف الأصنام، والغربان، والعصافير، ويتكلم على ألسنتها بما شاء، حتى عبدت من دون الله)(١).

من القادر على التمييز بين (الأحوال الرحمانية) و(الأحوال الشيطانية)؟

يتمكن إبليس من الإنسان على قدر حظه من العلم، فكلما قل علمه اشتد تمكن إبليس منه، وكلما كثر العلم قل تمكنه منه؛ ولذلك لا تشتبه (الكرامة الرحمانية) بالحال (الشيطانية) إلا عند الجهال، وأهل الأهواء، بخلاف أهل العلم والبصيرة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (فإذا كان العبد من هؤلاء فرق بين حال أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، كما يفرق الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزيف، وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديء، وكما يفرق من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان، وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبي الكذاب، فيفرق بين محمد الصادق الأمين رسول الله رب العالمين، وموسى، والمسيح، وغيرهم، وبين مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وطلحة الأسدي، والحارث الدمشقي، وباباه الرومي، وغيرهم من الكذابين، وكذلك يفرق بين أولياء الله المتقين، وأولياء الشيطان الضالين)(٢).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن العباد من يرى ضوءًا أو نورًا في السماء، فإن كان في رمضان قال: رأيت ليلة القدر، وإن كان في غيره قال: فتحت لي أبواب

---

(١) الرفاعية (ص: ٩٤ – ٩٥).

(٢) الفرقان (ص: ٦٦).

السماء، وقد يتفق له الشيء الذي يطلبه، فيظن ذلك كرامة، وربما كان اختبارًا، وربما كان من خدع إبليس، والعاقل لا يساكن شيئًا من هذا، ولو كان كرامة)[١].

كان أبو ميسرة فقيه المغرب يختم كل ليلة في مسجده، فرأى ليلة نورا قد خرج من الحائط، وقال: تمل من وجهي؛ فأنا ربك، فبصق في وجهه، وقال: (اذهب يا ملعون)[٢]، فطفئ النور[٣].

(وكم اغتر قوم بما يشبه الكرامات، فقد روينا بإسناد عن حسن عن أبي عمران قال: قال لي فرقد: (يا أبا عمران، قد أصبحت اليوم وأنا مهتم بضريبتي، وهي ستة دراهم، وقد أهل الهلال وليست عندي، فدعوت، فبينما أنا أمشي على شط الفرات إذا أنا بستة دراهم، فأخذتها فوزنتها، فإذا هي ستة لا تزيد ولا تنقص)، فقال: (لا تصدق بها، فإنها ليست لك)، قلت: -أبو عمران هو إبراهيم النخعي فقيه أهل الكوفة- فانظروا إلى كلام الفقهاء، وبعد الاغترار عنهم، وكيف أخبره أنها لقطة، ولم يلتفت إلى ما يشبه الكرامة، وإنما لم يأمره بتعريفها لأن مذهب الكوفيين أنه لا يجب التعريف لما دون الدينار، وكأنه إنما أمره بالتصدق بها لئلا يظن أنه قد أكرم بأخذها وإنفاقها.

وبإسناد عن إبراهيم الخراساني أنه قال: احتجت يومًا إلى الوضوء، فإذا أنا بكوز من جوهر، وسواك من فضة، رأسه ألين من الخز، فاستكت بالسواك، وتوضأت بالماء، وتركتهما وانصرفت.

قلت: في هذه الحكاية من لا يوثق بروايته، فإن صحت دلت على قلة علم

---

(١) تلبيس إبليس (ص: ٥٢٩).

(٢) لأن الله تعالى لا يرى في الدنيا، ونور الله تعالى لا يقوم له شيء، ولما ظهر للجبل منه أدنى شيء ساخ الجبل وتدكدك، انظر: مدارج السالكين (٣/ ٢٢٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٩٦)

هذا الرجل؛ إذ لو كان يفهم الفقه علم أن استعمال السواك الفضة لا يجوز، ولكن قل علمه فاستعمله، وإن ظن أنه كرامة، والله تعالى لا يكرم بما يمنع استعماله شرعًا، إلا إن أظهر له ذلك على سبيل الامتحان)[١].

قال القشيري: (قال إبراهيم الخواص: طلبت الحلال في كل شيء حتى طلبته في صيد السمك، فأخذت قصبة، وجعلت فيها شعرا، وجلست على الماء، فألقيت الشص، فخرجت سمكة، فطرحتها على الأرض، وألقيت ثانية، فخرجت لي سمكة. إذ من ورائي لطمة لا أدري من يد من هي، ولا رأيت أحدًا وسمعت قائلًا يقول: أنت لم تصب رزقًا في شيء إلا أن تعمد إلي من يذكرنا فتقتله. قال إبراهيم: فقطعت الشعر، وكسرت القصبة، وانصرفت)[٢].

ولو أن هذا الصوفي تدبر قوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ [المائدة: ٩٦]، لجزم قاطعا بأن اللاطم لم يكن سوى إبليس؛ إذ الله لا يعاقب على صيد ما أباحه، ولا يحرم صيد الأسماك؛ لأنها تذكر الله عز وجل؛ فإنه ما من شيء إلا يسبح بحمده ويذكره، ولو تركنا ذبح الأنعام -وهي تذكر الله- تعالى -أيضا، لم يكن لنا ما يقيم قوى الأبدان.

وذكر محمد بن أبي الفضل الهمداني المؤرخ قال: حدثني أبي قال: كان السرمقاني المقرئ يقرأ على ابن العلاف، وكان يأوي إلى المسجد بدرب الزعفراني، واتفق أن ابن العلاف رآه ذات يوم في وقت مجاعة، وقد نزل إلى دجلة، وأخذ منه أوراق الخس مما يرمي به أصحابه، وجعل يأكله، فشق ذلك عليه، وأتى إلى رئيس الرؤساء، فأخبره بحاله، فتقدم إلى غلام بالقرب إلى

(١) تلبيس إبليس (ص: ٥٣٣).

(٢) الرسالة القشيرية (ص: ٨٤).

المسجد الذي يأوي إليه السرمقاني أن يعمل لبابه مفتاحًا من غير أن يعلمه، ففعل وتقدم إليه أن يحمل كل يوم ثلاثة أرطال خبزًا سميدًا، ومعها دجاجة، وحلوى سكرا، ففعل الغلام ذلك، وكان يحمله على الدوام، فأتى السرمقاني في أول يوم فرأى ذلك مطروحًا في القبلة، ورأى الباب مغلقًا فتعجب، وقال في نفسه: هذا من الجنة، ويجب كتمانه، وأن لا أتحدث به، فإن من شروط الكرامة كتمانها، وأنشدني:

من أطلعوه على سر فباح به لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

فلما استوى حاله، وأخصب جسمه، سأله ابن العلاف عن سبب ذلك، وهو عارف به، وقصد المزاح معه، فأخذ يوري ولا يصرح، ويكني ولا يفصح، ولم يزل ابن العلاف يستخبره حتى أخبره أن الذي يجده في المسجد كرامة؛ إذ لا طريق لمخلوق عليه، فقال له ابن العلاف: (يجب أن تدعو لابن المسلمة، فإنه هو الذي فعل ذلك)، فنغص عيشه بإخباره، وبانت عليه شواهد الانكسار[1].

أمثلة من الأحوال الشيطانية

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن أصحاب الأحوال الشيطانية: (وهؤلاء تقترن بهم الشياطين، وتنزل عليهم، فيكاشفون الناس ببعض الأمور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين، قال تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣]، وهؤلاء جميعًا ينتسبون على المكاشفات، وخوارق العادات، إذا لم يكونوا متبعين للرسل، فلابد أن يكذبوا، وتكذبهم شياطينهم، ولابد أن يكون في أعمالهم ما هو

---

(١) تلبيس إبليس (ص: ٥٣٣ - ٥٣٤).

إثم وفجور؛ مثل نوع من الشرك، أو الظلم، أو الفواحش، أو الغلو، أو البدع في العبادة.

ولهذا تنزلت عليهم الشياطين، واقترنت بهم، فصاروا من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]).

ومن الأحوال الشيطانية حال (عبد الله بن صياد)، الذي ظهر في زمن النبي ﷺ، وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال، لكنه كان من جنس الكهان، فقال له النبي ﷺ: (قد خبأت لك خبئا) قال: (الدخ الدخ)، وقد كان خبأ له سورة الدخان، فقال له النبي ﷺ: (اخسأ فلن تعدو قدرك)[1]، يعني إنما أنت من إخوان الكهان، والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، كما هو في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: (إن الملائكة تنزل في العنان -وهو السحاب- فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مئة كذبة من عند أنفسهم)[2].

وهذا المسيح الدجال الذي هو أعظم فتنة تمر على البشرية في تاريخها، حتى حذر جميع الأنبياء منه أممهم، وحتى قال فيه النبي ﷺ: فيما رواه أبو داود عن عمران بن حصين رضي الله عنهما: (من سمع الدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٢٩٣٠) من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢١٠).

وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه؛ مما يبعث به من الشبهات)[١]، وسوف يأتي بأعظم الخوارق:

فمنها: ما رواه حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: (معه جنة ونار، فناره جنة، وجنته نار)[٢].

ومنها: أنه يستعين بالشياطين؛ فقد روي عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (وإن من فتنته أن يقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك، أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني اتبعه؛ فإنه ربك)[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٢٩)، وأبو داود (٤٣١٩)، والبزار (٣٥٩٠)، والدولابي في الكنى (١/ ١٧٠)، والحاكم (٤/ ٥٧٦)، والطبراني (١٨/ ٢٢١) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث احتج به ابن حزم في المحلى (١/ ٥٠)، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٢٢٠): إسناده جيد، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٦٣٠١)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٠٢٤)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٣/ ١٠٧): إسناده صحيح على شرط مسلم ..

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٤).

(٣) أخرجه مطولا ومختصرا ابن ماجة (٤٠٧٧)، أبو داود (٤٣٢٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٢٩)، وفي الآحاد والمثاني (١٢٤٩)، والروياني (١٢٣٩)، وابن خزيمة في التوحيد (ص ١٢١) وغيرهم، والحديث قال عنه العلامة الألباني في ظلال الجنة (٣٩١): الحديث أخرجه ابن ماجه والآجري في الشريعة ص من طرق أخرى عن السيباني، ولي رسالة في تخريج هذا الحديث وتحقيق الكلام على فقراته التي وجدت لأكثرها شواهد تقويها، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٥/ ٢٠١): إسناده ضعيف لانقطاعه فإن السيباني لم يسمع من أبي أمامة، بينهما في الإسناد عمرو بن عبد الله السيباني الحضرمي كلما أخرجه ضمرة بن ربيعة وعطاء الخراساني كلما سيأتي، وهو الذي صوبه المزي في "التهذيب" في ترجمة زرعة السيباني، وابن حجر في النكت =

ومن فتنته أنه يأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، ويدعو البهائم فتتبعه، ويأمر الخرائب أن تخرج كنوزها المدفونة فتستجيب.

ومن فتنته أنه يقتل ذلك الشاب المؤمن فيما يظهر للناس، ثم يدعي أنه أحياه، فيقول ذلك الشاب: (والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم)[(١)].

يقول شيخ الإسلام في شأن أصحاب الأحوال الشيطانية:

(وهؤلاء تأتيهم أرواح تخاطبهم، وتتمثل لهم، وهي جن وشياطين، فيظنونها ملائكة؛ كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام.

وكان من أول ما ظهر من هؤلاء في الإسلام: المختار بن أبي عبيد الذي أخبر به النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في (صحيحه) عن النبي ﷺ أنه قال: (سيكون في ثقيف كذاب ومبير)[(٢)]، وكان الكذاب: المختار بن أبي عبيد. والمبير: الحجاج بن يوسف، فقيل لابن عمر وابن عباس: إن المختار يزعم أنه ينزل إليه، فقالا: صدق، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢].

وقال الآخر: وقيل له: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، فقال: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١][(٣)].

(والأسود العنسي الذي ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض

=

الظراف (٤/ ١٧٥) وإسماعيل بن رافع ضعيف الحديث، ولعل الوهم منه. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤١٣): هذا حديث غريب جدا من هذا الوجه، ولبعضه شواهد من أحاديث أخر.

(١) أخرجه البخاري (٧١٣٢)، ومسلم (٢٩٣٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٤٥).

(٣) الفرقان (ص: ٨٦).

الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه، حتى أعانتهم عليه امرأته، لما تبين لها كفره، فقتلوه.

وكذلك مسيلمة الكذاب، كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات، ويعينه على بعض الأمور.

وأمثال هؤلاء كثيرون؛ مثل الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة، وكانت الشياطين تخرج رجليه من القيد، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يري الناس رجالًا وركبانًا على خيل في الهواء، ويقول: هي الملائكة، وإنما كانوا جنا، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنك لم تسم الله، فسمى الله، فطعنه فقتله[1].

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها؛ مثل آية الكرسي، فإنه قد ثبت في (الصحيح) عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لما وكله النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة، وهو يمسكه فيتوب فيطلقه، فيقول له النبي ﷺ: (ما فعل أسيرك البارحة؟، فيقول: زعم أنه لا يعود، فيقول: كذبك وإنه سيعود، فلما كان في المرة الثانية، قال: دعني حتى أعلمك ما ينفعك: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ [البقرة: ٢٥٥] ... إلى آخرها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فلما أخبر النبي ﷺ قال: صدقك وهو كذوب)[2]، وأخبره أنه شيطان.

---

(١) انظر تفصيل خبره في تلبيس إبليس (ص: ٥٢٩ - ٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣١١).

ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها؛ مثل من يدخل النار بحال شيطاني، أو يحضر سماع المكاء والتصدية، فتنزل عليه الشياطين، وتتكلم على لسانه كلامًا لا يعلم، وربما لا يفقه، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه، وربما تكلم بألسنة مختلفة؛ كما يتكلم الجني على لسان المصروع، والإنسان الذي حصل له الحال لا يدري بذلك، بمنزلة المصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس، ولبسه، وتكلم على لسانه، فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال)[١].

ومن الخوارق ما لا يكون بتسبب شيطاني مباشر، وإنما يكون بطريق التعلم والحيلة، كما يفعله النصارى كثيرًا، وكما كان يفعل ابن تومرت[٢]، وكما روي عن الحلاج، من أنه (كان يدفن شيئًا من الخبز، والشواء، والحلوى في موضع من البرية، ويطلع بعض أصحابه على ذلك، فإذا أصبح قال لأصحابه: (إن رأيتم أن نخرج على وجه السياحة)، فيقوم، ويمشي الناس معه، فإذا جاءوا إلى ذلك المكان، قال له صاحبه الذي أطلعه على ذلك: (نشتهي الآن كذا وكذا)، فيتركهم الحلاج، وينزوي عنهم إلى ذلك المكان، فيصلي ركعتين، ويأتيهم بذلك، وكان يمد يده إلى الهواء، ويطرح الذهب في أيدي الناس ويمخرق، وقد قال له بعض الحاضرين يوما: (هذه الدراهم معروفة، ولكن أؤمن بك إذا أعطيتني درهما عليه اسمك واسم أبيك)، وما زال يمخرق إلى وقت صلبه)[٣].

ومن ذلك ما ذكره بعض أصحاب ابن الشباس قال: (حضرنا يومًا عنده،

---

(١) الفرقان (ص: ١٣٤ - ١٣٥)

(٢) حيل ودجل ابن تومرت (ص: ٣٩٤، ٤٠١).

(٣) تلبيس إبليس (ص: ٥٣٩).

فأخرج جديًا مشويًا، فأمرنا بأكله، وأن نكسر عظمه ولا نهشمها، فلما فرغنا أمر بردها إلى التنور، وترك على التنور طبقا، ثم رفعه بعد ساعة، فوجدنا جديا حيا يرعى حشيشا، ولم نر للنار أثرا، ولا للرماد ولا للعظام خبرا، قال: فتلطفت حتى عرفت ذلك، وذلك أن التنور يفضي إلى سرداب، وبينهما طبق نحاس بلولب، فإذا أراد إزالة النار عنه فركه فينزل عليه فيسده وينفتح السرداب، وإذا أراد أن يظهر النار أعاد الطبق إلى فم السرداب فتراءى للناس).

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: (وقد رأينا في زماننا من يشير إلى الملائكة ويقول: هؤلاء ضيف مكرمون، يوهم أن الملائكة قد حضرت، ويقول لهم: تقدموا إلي. وأخذ رجل في زماننا إبريقا جديدًا فترك فيه عسلا، فتشرب في الخزف طعم العسل، واستصحب الإبريق في سفره، فكان إذا غرف به الماء من النهر، وسقى أصحابه وجدوا طعم العسل، وما في هؤلاء من يعرف الله، ولا يخاف في الله لومة لائم، نعوذ بالله من الخذلان)(١).

مسألة: شروط الولي

لا يكون وليا لله إلا من آمن بالرسول وبما جاء به واتبعه باطنا وظاهرا ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله؛ بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران:٣١] قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ ادعى قوم أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فإن الله يحبه ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول ﷺ فليس من أولياء الله وإن كان كثير من

---

(١) تلبيس إبليس (ص: ٥٤١ - ٥٤٢)، وانظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٤٤٥، ٦١٠)، والبداية والنهاية (١٤/ ٣٦).

الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه. قال تعالى: قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ الآية [المائدة: ١٨]. وقال تعالى: وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ إلى قوله وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: ١١١، ١١٢]. وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله لسكناهم مكة ومجاورتهم البيت وكانوا يستكبرون به على غيرهم كما قال تعالى قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ [المؤمنون:٦٦، ٦٧] وقال تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ إلى قوله وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ [الأنفال:٣٠ - ٣٤] فبين سبحانه أن المشركين ليسوا أولياءه ولا أولياء بيته إنما أولياؤه المتقون. وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول جهارا من غير سر: (إن آل فلان ليسوا لي بأولياء -يعني طائفة من أقاربه- إنما وليي الله وصالح المؤمنين)[1] وهذا موافق لقوله تعالى فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين الآية. وصالح المؤمنين هو من كان صالحا من المؤمنين وهم المؤمنون المتقون أولياء الله. ودخل في ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة وكانوا ألفا وأربعمائة وكلهم في الجنة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة)[2] ومثل هذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٥/ ٣٦٦). من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٠)، وأبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠)، والنسائي في الكبرى (١١٥٠٨)، وابن حبان (٤٨٠٢) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان، والحافظ ابن حجر في الرحمة الغيثية (١١٧)، والعلامة الألباني في صحيح أبي داود، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٣/ ٩٣): إسناده =

الحديث الآخر: (إن أوليائي المتقون أيا كانوا وحيث كانوا)[1].

كما أن من الكفار من يدعي أنه ولي الله وليس وليا لله؛ بل عدو له فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يقرون في الظاهر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنه مرسل إلى جميع الإنس؛ بل إلى الثقلين الإنس والجن ويعتقدون في الباطن ما يناقض ذلك مثل ألا يقروا في الباطن بأنه رسول الله وإنما كان ملكا مطاعا ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين دون أهل الكتاب كما يقوله كثير من اليهود والنصارى أو أنه مرسل إلى عامة الخلق وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ولا يحتاجون إليه؛ بل لهم طريق إلى الله من غير جهته كما كان الخضر مع موسى أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه وينتفعون به من غير واسطة أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها وأما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها أو لم يكن يعرفها أو هم أعرف بها منه أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته ...

والمقصود هنا أن فيمن يقر برسالته العامة في الظاهر من يعتقد في الباطن ما يناقض ذلك فيكون منافقا وهو يدعي في نفسه وأمثاله أنهم أولياء الله مع كفرهم في الباطن بما جاء به الرسول ﷺ إما عنادا وإما جهلا كما أن كثيرا من النصارى واليهود يعتقدون أنهم أولياء الله وأن محمدا رسول الله؛ ولكن يقولون إنما أرسل إلى غير أهل الكتاب وأنه لا يجب علينا اتباعه لأنه أرسل إلينا رسلا قبله

=

صحيح على شرط مسلم.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥) والطبراني كما في المجمع (١٠/ ٢٣٢) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه والحديث قال عنه الهيثمي (١٠/ ٢٣٤): إسناده جيد وقال العلامة الألباني في فقه السيرة (٤٥٣): صحيح.

فهؤلاء كلهم كفار مع أنهم يعتقدون في طائفتهم أنهم أولياء الله وإنما أولياء الله الذين وصفهم الله تعالى بولايته بقوله: أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ [يونس: ٦٢، ٦٣].

ولا بد في الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويؤمن بكل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله فلا بد في الإيمان من أن تؤمن أن محمدا ﷺ خاتم النبيين لا نبي بعده وأن الله أرسله إلى جميع الثقلين الجن والإنس فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن؛ فضلا عن أن يكون من أولياء الله المتقين؛ ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ليس بمؤمن كما قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا [النساء: ١٥٠ - ١٥٢] ومن الإيمان به الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه. ووعده ووعيده وحلاله وحرامه؛ فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله ﷺ فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقا إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ فهو كافر من أولياء الشيطان ... وفي أصناف المشركين من مشركي العرب ومشركي الهند والترك واليونان وغيرهم من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة؛ ولكن ليس بمتبع للرسل ولا يؤمن بما جاءوا به ولا يصدقهم بما أخبروا به ولا يطيعهم فيما أمروا فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ولا أولياء لله وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم فيكاشفون الناس ببعض الأمور ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر

وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين. قال تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ [الشعراء:٢٢١ - ٢٢٣]. وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسل فلا بد أن يكذبوا وتكذبهم شياطينهم. ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة؛ ولهذا تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن. قال الله تعالى: وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِين [الزخرف:٣٦] وذكر الرحمن هو الذكر الذي بعث به رسوله ﷺ مثل القرآن فمن لم يؤمن بالقرآن ويصدق خبره ويعتقد وجوب أمره فقد أعرض عنه فيقيض له الشيطان فيقترن به ...[١].

وإذا كان العبد لا يكون وليا لله إلا إذا كان مؤمنا تقيا لقوله تعالى أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [يونس: ٦٢ - ٦٣] وفي صحيح البخاري الحديث المشهور - وقد تقدم - يقول الله تبارك وتعالى فيه: (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)[٢] ولا يكون مؤمنا

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الإسلام - ص٥٧ بتصرف يسير.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٥٠٢) والحديث وإن كان في صحيح البخاري ولكنه من الأحاديث القليلة جدا التي انتقدها بعض العلماء، والصواب مع الإمام البخاري كما سترى، والحديث قال عنه العراقي في المغني: انفرد به خالد القطواني وهو متكلم فيه، وقال الذهبي في ترجمة خالد بن مخلد في: (الميزان ٢/ ١٦٤ - ١٦٥) بعد أن ذكر اختلاف العلماء في درجته، وساق بعض مناكيره، موردا منها هذا الحديث: "فهذا حديث غريب جدا، ولولا هيبة الجامع الصحيح لعدوه في منكرات خالد ابن مخلد؛ وذلك لغرابة لفظه، ولأنه مما ينفرد به شريك وليس بالحافظ ولم يرو هذا المتن =

تقيا حتى يتقرب إلى الله بالفرائض فيكون من الأبرار أهل اليمين ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين فمعلوم أن أحدا من الكفار والمنافقين لا يكون وليا لله. وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته وإن قدر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفار ومن لم تبلغه الدعوة - وإن قيل إنهم لا

=

إلا بهذا الإسناد، ولا خرجه من عدا البخاري .. " اهـ. ونقل الحافظ ابن حجر بعض كلامه هذا في: (الفتح ١١/ ٣٤٩) وقال: ".. وإطلاق أنه لم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد مردود .. " ثم ذكر أن للحديث طرقا أخرى قال عنها: "يدل مجموعها على أن له أصلا". ثم ذكره عن: عائشة، وأبي أمامة، وعلي، وابن عباس، وأنس، وحذيفة، ومعاذ ابن جبل، ووهب بن منبه مقطوعا، وعزاها إلى مخرجيها، وتكلم عليها، وتعقب بعض أهل العلم في كلامهم على بعض طرقها.

وأمعن العلامة الألباني النظر في هذه الشواهد في الصحيحة (١٦٤٠): وزاد عليها شاهدا من حديث ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ودرسها سندا ومتنا سوى حديث علي؛ لعدم وقوفه على سنده وأطال النفس في ذلك إلى أن قال: "وخلاصة القول: إن أكثر هذه الشواهد لا تصلح لتقوية الحديث بها؛ إما لشدة ضعف إسنادها، وإما لاختصارها، اللهم إلا حديث عائشة، وحديث أنس بطريقيه، فإنهما إذا ضما إلى إسناد حديث أبي هريرة اعتضد بمجموعها، وارتقى إلى درجة الصحيح إن شاء الله تعالى، وقد صححه من سبق ذكره من العلماء..اهـ.

قلت الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ هو إمام هذا الشأن وإليه فيه المنتهى وطريقة البخاري في صحيحه كما هو معلوم عند أهل الصنعة إن أخرج عن متكلم فيه، هي أن ينتقي ما يعلم أنه حفظه، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه، وقديما قالوا إذ قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام فرحم الله إمام أئمة الصنعة جبل الحفظ وإمام الدنيا ولي الله أبي عبد الله البخاري، وتدبر كلمة العلامة الألباني في الصحيحة (١٦٤٠) حيث قال: وقد أطال النفس فيه -أي ابن حجر-، وحق له ذلك، فإن حديثا يخرجه الإمام البخاري في " المسند الصحيح " ليس من السهل الطعن في صحته لمجرد ضعف في إسناده، لاحتمال أن يكون له شواهد تأخذ بعضده وتقويه.

يعذبون حتى يرسل إليهم رسول - فلا يكونون من أولياء الله إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين؛ فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات لم يكن من أولياء الله. وكذلك المجانين والأطفال؛ فإن النبي ﷺ قال: (رفع القلم عن ثلاثة عن المجنون حتى يفيق وعن الصبي حتى يحتلم. وعن النائم حتى يستيقظ)[1] وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث علي وعائشة رضي الله عنهما، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول. لكن الصبي المميز تصح عباداته ويثاب عليها عند جمهور العلماء. وأما المجنون الذي رفع عنه القلم فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء. ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات؛ بل لا يصلح هو عند عامة العقلاء لأمور الدنيا كالتجارة والصناعة. فلا يصلح أن يكون بزازا ولا عطارا ولا حدادا ولا نجارا ولا تصح عقوده باتفاق العلماء.

فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته. ولا غير ذلك من أقواله بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي ولا ثواب ولا عقاب. بخلاف الصبي المميز فإن له أقوالا معتبرة في مواضع بالنص والإجماع وفي مواضع فيها نزاع. وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل وامتنع أن يكون وليا فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله؛ لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه أو نوع من تصرف مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع؛ فإنه قد علم أن

---

(١) ورد من حديث عائشة، وعلي بن أبي طالب، وأبي قتاده الأنصاري، أبي هريرة، وثوبان، وابن عباس، وشداد بن أوس، وعن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ، ولا تخلو أسانيدها من مقال، ولكنه بمجموع طرقه وشواهده صحيح وانظر نصب الراية (٢/ ٢٣٤)، والتلخيص (١/ ١٨٣، رقم ٢٦٣)، والإرواء (٢/ ٤، رقم ٢٩٧).

الكفار والمنافقين -من المشركين وأهل الكتاب- لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية كالكهان والسحرة وعباد المشركين وأهل الكتاب فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وليا لله وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطنا وظاهرا؛ بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة. أو يعتقد أن لأولياء الله طريقا إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم السلام. أو يقول: إن الأنبياء ضيقوا الطريق أو هم على قدوة العامة دون الخاصة ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان. فضلا عن ولاية الله ﷻ. فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم كان أضل من اليهود والنصارى.

وإن كان له في حال إفاقته فيه كفر أو نفاق أو كان كافرا أو منافقا ثم طرأ عليه الجنون فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق.

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحا ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحا كما قيل: كم من صديق في قباء وكم من زنديق في عباء؛ بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم ويوجدون في أهل الجهاد والسيف ويوجدون في التجار والصناع والزراع.

وقد ذكر الله أصناف أمة محمد ﷺ في قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ [المزمل: ٢٠] ....

وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ؛ بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى؛ فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ......

ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي لله لئلا يكون نبيا؛ بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقا للشرع وعلى ما يقع له مما يراه إلهاما ومحادثة وخطابا من الحق؛ بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف؟ توقف فيه. والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف طرفان ووسط؛ فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي لله وافقه في كل ما يظن أنه حدث به قلبه عن ربه وسلم إليه جميع ما يفعله ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهدا مخطئا وخيار الأمور أوساطها وهو أن لا يجعل معصوما ولا مأثوما إذا كان مجتهدا مخطئا فلا يتبع في كل ما يقوله ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده. والواجب على

الناس اتباع ما بعث الله به رسوله وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ويقول هذا خالف الشرع .... وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ. وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله ﷻ وتجب طاعتهم فيما يأمرون به؛ بخلاف الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به؛ بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله وما خالف الكتاب والسنة كان مردودا وإن كان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهدا معذورا فيما قاله له أجر على اجتهاده. لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئا وكان من الخطإ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع؛ فإن الله تعالى يقول: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [التغابن:١٦] ....

وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة هو مما اتفق عليه أولياء الله ﷻ من خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم؛ بل إما أن يكون كافرا وإما أن يكون مفرطا في الجهل. وهذا كثير في كلام المشايخ كقول الشيخ أبي سليمان الداراني: إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة. وقال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا أو قال: لا يقتدى به. وقال أبو عثمان النيسابوري من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة

ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا [النور:٥٤] وقال أبو عمرو بن نجيد: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل. وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع فيظن في شخص أنه ولي لله ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يفعله وإن خالف الكتاب والسنة فيوافق ذلك الشخص له ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه وبين أهل الجنة وأهل النار وبين السعداء والأشقياء فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين وجنده المفلحين وعباده الصالحين؛ ومن لم يتبعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولا إلى البدعة والضلال وآخرا إلى الكفر والنفاق[1].

مسألة: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء

وتفضيل الأولياء على الأنبياء هذا نشأ مع عقيدة عند المتصوفة ومن شابههم -يعني غلاة المتصوفة- وهي ما أسموه بختم الولاية.

ويعنون بختم الولاية أنه كما أن للأنبياء نبيا خاتما لهم، فكذلك للأولياء ولي خاتم لهم، وكما أن خاتم الأنبياء أفضل من جميع الأنبياء، فكذلك خاتم الأولياء هو أفضل من جميع الأولياء، وعقيدة ختم الولاية ذكرها الحكيم الترمذي في كتاب سماه (ختم الولاية) وقد طبعت منتخبات منه قديما، وأسس فيها القول بأن الأولياء يختمون، وأن الولي في باطنه قد يبلغ مقاما يتلقى فيه من الله سبحانه وتعالى مباشرة، وأن الولي قد يكون أفضل من النبي، وهذه لم ينص

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص ١٢١).

عليها ولكنها تفهم من فحوى كلامه.

ولاشك أنه غلط في ذلك غلطا فاحشا، وإن كان هو من أهل العناية بالحديث كرواية، ومن أهل الخير والصلاح كما وصفه بذلك ابن تيمية؛ لكنه غلط في هذه البدعة الكبرى التي ابتدعها في الأمة والشرور التي حدثت من القول بوحدة الوجود وتفضيل الولي على النبي والاستقاء من الله مباشرة إنما حدثت بعد هذا الكتاب وهذه النظرية الباطلة التي تبطل شريعة محمد ﷺ على الحقيقة، وهذا لم يختص به الحكيم الترمذي؛ بل تبعه عليه أناس منهم ابن عربي في كتابه (الفصوص) وفي كتابه (الفتوحات المكية)، ومنهم محمد بن عثمان المرغني السوداني الذي له طريقة معروفة عند أهل السودان (الطريقة الختمية)، ومنهم التيجاني، هؤلاء كانوا في القرن الثالث عشر، وصرح المرغني في كتابه (تاج التفاسير) صرح بهذه العقيدة، ومنهم التيجاني عند أهل المغرب فيما يعتقدون فيه ووصف به.

هؤلاء يعتقدون أن الولاية تختم؛ لكن ادعى ابن عربي أنه هو الذي ختم الأولياء، وادعى الميرغني أنه هو الذي ختم الأولياء وادعى أيضا التيجاني أنه هو الذي ختم الأولياء.

مسألة: بطلان عقيدة ختم الولاية

عقيدة ختم الولاية أو ختم الأولياء مبنية على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن النبي إنما أتى بشريعة ظاهرة، وخاتم الأولياء جاء بشريعة باطنة، فخاتم الأولياء في الظاهر مع النبي وفي الباطن مستقل عن النبي، لهذا يقولون: إن الأنبياء راعوا الظاهر واهتموا بالعبادات الظاهرة، وخاتم الأولياء وصفوة الأولياء اهتموا بالأخذ عن الله.

ولهذا ابن عربي في كتابه الفصوص لما جاء إلى حديث النبي ﷺ الذي في الصحيح أن بنيان الأنبياء تم ولم يبق فيه إلا موضع لبنة، وهو قوله ﷺ (مثلي ومثل الأنبياء من بنى بنيانا فكمله وأحسنه حتى لم يبق منه إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويقولون لم كملت هذه اللبنة- قال:- فكنت أنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) .

قال ابن عربي -قبحه الله- في هذا الموطن: وخاتم الأولياء يرى نفسه في قصر الولاية في موضع لبنتين لبنة فضة في الظاهر ولبنة ذهب في الباطن، فهو يفضل النبي في الحاجة إليه؛ لأن البنيان احتاج إلى لبنتين وذاك احتاج إلى لبنة واحدة، ولبنته الظاهرة من الفضة في متابعة النبي ظاهرا، ولبنته الذهبية في الباطن بها يأخذ من المشكاة التي تنزل الوحي على خاتم الأنبياء، يعني يأخذوا عن الله مباشرة أو كما جاء في كلامه، وقد كرر هذا في مواضع في الفصوص وخاصة في فص واحد يعني كرر الكلام وعبر عنه.

وهذا ليس خاصا بهذا الرجل بل كذلك ادعاه غيره مثل الميرغني أو التيجاني أو من شابههم كان كل منهم يعتقد في نفسه أنه خاتم الأولياء.

الأمر الثاني: أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء؛ لأن خاتم الأنبياء يأخذ عن الله بواسطة وخاتم الأولياء يأخذ مباشرة؛ ولأن خاتم الأنبياء يأخذ الناس بما يصلح ظاهرهم وخاتم الأولياء يصلح باطنهم.

ولهذا يقول مثلا الميرغني في بعض كلامه: من رآني، ومن رأى من رآني إلى خمسة أجيال فإنهم محرمون عن النار، لما في خاتم الأولياء من النور الذي قذفه الله فيه، فينبعث هذا النور فيمن رآه ورأى من رآه إلى آخره. أو كما قال.

وهذا العقيدة بها جعلوا أن للولي ما يفضل به النبي والعياذ بالله.

الأمر الثالث: أن الولي والنبي بينهما فرق من جهة أن النبي جاءه الوحي اختيارا من الله، وأما خاتم الأولياء ففاض عليه الوحي؛ لأنه استعد لذلك بتصفية باطنه، فعنده القبول والاستعداد لأن يفاض عليه، وبهذا صار خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، هذه ثلاث مجملات في تلخيص كلامهم.

وأهل السنة يعتقدون بكرامات الأولياء، لكن بالاعتقاد الصحيح، لكن عند كثيرين من الفئات التي تعتقد في الأولياء، مثل الباطنية والرافضة وغلاة الصوفية يعتقدون أن أفضل المقامات مقام الولي، ويليه الدرجة الثانية مقام النبي، ويليه مقام الرسول، وفيها يقول قائلهم:

مقـــــام النبـــــوة في بـــــرزخ فويـــــق الرســـــول ودون الـــــولي

(مقام النبوة في برزخ) يعني هو الوسط.

(فويق الرسول) الرسول تحت النبي مع أن الرسول هو أفضل من النبي، النبي تحته بقليل يعني بقليل. (فويق) يعني بينهما شيء يسير. (ودون الولي) يعني بينه وبين الولي مراتب. فالأعلى عندهم الولي ثم بعده النبي ثم الرسول.

وهذا القول في الترتيب قال به غلاة الصوفية وكما ذكرت لك النقل عنهم، وقال به أيضا أئمة مذهب الاثني عشرية مثل ما ذكرت لك في أول الكلام عن قول الخميني حيث قال (من ضروريات مذهبنا) .

(ضروريات) معناها الشيء الذي لا يحتاج إلى استدلال، الذي يحس بأحد الحواس الخمس، ما يحتاج إلى دليل ولا برهان، الشيء الضروري ما يحتاج إلى دليل وبرهان لأنه محسوس.

قال (من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل) .

يعني أن مقام الأولياء -يعني الأئمة الاثني عشر- أعلى من مقام الأنبياء. وهذا بلا شك طعن في القرآن وطعن في السنة وطعن في الصحابة، وهكذا يبلغ الأمر عند من قاله؛ لأن أفضل هذه الأمة وأحق الناس بأن يكون من الأولياء أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم العشرة المبشرون بالجنة، وهكذا، فهؤلاء هم الأولياء وهم سادة الأولياء والأصفياء وخير الصحابة رضوان الله عليهم.

وإذا كان النبي ﷺ فضل قرنه فقد فضل أبا بكر وفضل عمر.

فكيف يكون واحد من هذه الأمة يأتي ويزعم أنه أفضل من الصحابة، ثم يزعم أنه أفضل الأولياء وخاتم الأولياء، ثم يزعم أنه أفضل من الأنبياء.

لا شك أن هذا القول من صاحبه قد يحكم بكفر صاحبه؛ بل حكم كثير من العلماء بكفر من قال هذه المقالة؛ لأنها قدح في القرآن وقدح في السنة، ورفع لمقام الولي، وتهجين مقام النبي والرسول، ورفع خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء.

ولهذا مع اختصار في المقام، ذكر الطحاوي هذه الجملة وركز عليها يعني في هذه العقيدة لأنها بدأت في زمانه وهي سبب الشر في افتراق الناس مع طرق الصوفية إلى هذا الزمان، وقال (ولا نفضل أحدا من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام) ما فيه ولي يمكن أن يكون أفضل من نبي؛ بل أفضل الناس هم الأنبياء ثم يليهم الأولياء، صحابة رسول الله ﷺ وصحابة كل نبي إلى آخره.

ثم قال الطحاوي (ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء)؟ الله أعلم حيث يجعل رسالته؟ [الأنعام:١٢٤] ؟.

قال بعدها (ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات من رواياتهم)

يريد أن أهل السنة الجماعة وأهل الحديث والأثر والمتابعين للسلف الصالح يؤمنون بما جاء في الكتاب والسنة وما صحت به الرواية من كرامات الأولياء وهم يصدقون بكرامات الأولياء ولا ينفونها، وما صح عن الثقات من الروايات في بيانات كراماتهم فإنهم يصدقون بذلك ويعتقدونه ويؤمنون به؛ لأن هذا من فضل الله عليهم لأن في التصديق بهم تصديقا بما أخبر الله به في القرآن وأخبر به النبي ﷺ في السنة.

ويريد بذلك مخالفة طوائف من العقلانيين الذين أنكروا كرامات الأولياء، ويخص بالذكر منهم المعتزلة، فإنهم أنكروا كرامة الأولياء وقالوا ليس لولي كرامة لأنه لو صح أن يكون لولي كرامة لاشتبهت كرامات والأولياء بمعجزات الأنبياء، وحينئذ تشتبه الكرامة بالنبوة ويشتبه الولي بالنبي وهذا قدح في النبوة وقدح في الشريعة.

مسألة: الكرامة تبع للولاية، والأولياء جعلهم الله هم أهل الإيمان والتقوى

قال ﷻ (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٢) الذين آمنوا وكانوا يتقون) [يونس:٦٢-٦٣]، فالولي الذي يعطى الكرامة هو الموصوف بهذين الوصفين: الإيمان والتقوى.

فلو جرى الخارق على يدي من لم يوصف بالإيمان والتقوى فليس هو من الكرامة؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الولاية في أهل الإيمان والتقوى، وهم الذين يعطون الكرامة، وهاهنا سؤال: هل المبتدع أو الضال أو العاصي يعطى كرامة؟

والجواب عن ذلك: أن الأولياء -كما قرر أهل العلم- على فئتين:

* الفئة الأولى السابقون.

* والفئة الثانية المقتصدون.

فليس للظالم لنفسه المقيم على المعصية حظ في الكرامة.

لكن قد تجري الكرامة على يدي من عنده بدعة أو معصية أو ظلم لنفسه، وذلك راجع لأسباب:

السبب الأول: أن يكون ليس هو المراد بها وإنما يكون هذا المبتدع أو هذا الظالم لنفسه في جهاد مع الكافر، في جهاد مع العدو الكافر فيعطيه الله سبحانه وتعالى الكرامة لا لذاته ولكن لما يجاهد عليه، وهو الإسلام والإيمان ورد الكفر.

فيكون إعطاؤه الكرامة ليست لشخصه وإنما هي للدليل على ظهور الإيمان والإسلام على الكفر والإلحاد والشرك ونحو ذلك.

السبب الثاني: أن يكون إعطاؤه الكرامة لحاجته إليها في إيمانه أوفي دنياه، فتكون سببا له في استقامة أو في خير، فلهذا من جرى على يديه شيء في ذلك فينظر في نفسه:

- إن كان من أهل الإيمان والتقوى فيحمد الله ﷻ ويثني عليه ويلازم الاستقامة على ما أكرمه الله به.

- وإن كان من أهل البدعة أو المعصية أو الظلم للنفس، فيعلم أن في ذلك إشارة له أن يلازم سنة النبي ﷺ والإيمان والتقوى حتى تكون البشرى له في الدنيا والأخرى، وإلا يكون قد قامت عليه حجة ونعمة من الله رآها ثم أنكرها.

مسألة: كرامة الأولياء هي أمر خارق للعادة

وتشترك مع مخاريق السحرة والكهنة في أنها أمر خارق للعادة، وكذلك

معجزات الأنبياء والآيات والبراهين هي أمر خارق للعادة.

فخرق العادة في نفسه ليس مثنى عليه، فقد تخرق العادة لمبطل، وقد تخرق العادة لصالح -يعني لرجل صالح-، وقد تخرق العادة لكاهن، ساحر، وقد تخرق العادة لولي صالح.

ولهذا وجب أن يكون ثم فرقان في خرق العادة عند من حصلت له وعند الناس.

هل خرقت العادة لمؤمن تقي أو لمبطل غير متابع للسنة من السحرة والكهنة وأشباههم؟، فنعلم حينئذ الفرقان البين بين كرامة الولي وخرق العادة له وأنها خرق إيماني، خرق من الله لإكرامه وكرامته، وبين خرق العادة للساحر والكاهن والمشعوذ وأنها خارق شيطاني؛ لأن الشياطين لها قدرة في خرق عادة.

لكن ثم فرق بين خارق العادة للشياطين وخارق العادة للأولياء، وهو: أن خارق العادة للأولياء هذا:

* **أولا**: أنه من الله سبحانه وتعالى.

* **ثانيا**: وأثر من متابعة الرسول ﷺ.

* **ثالثا**: أنه خرق لعادة أهل الزمان، فهو في جنسه أعظم وأرفع من جنس خوارق السحرة.

وأما خوارق السحرة فهي:

* **أولا**: أنها من الشيطان، مخاريق شيطانية نتجت من التقرب للشياطين والتعاون معهم حتى خدمتهم الشياطين، كما قال عز من قائل في سورة الأنعام لما ذكر حشر الجن والإنس يوم القيامة قال (ويوم نحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا

ببعض) [الأنعام:١٢٨]، فاستمتع الإنسي بالشيطان الجني واستمتع الشيطان الجني بالإنسي، فهذا تقرب وهذا خدم، لهذا منشؤها من جهة الشيطان.

* **ثانيا**: أنها متابعة للمعصية والبدعة والشرك إلى آخره التي هي مخاريق السحرة.

* **ثالثا**: أنها محدودة، وفي الغالب أنها تخييل وليست حقيقة، والشيطان هو الذي يتمثل وليس من أعطي الخارق أو من جرى الخارق على يديه في ظاهر أعين الناس أنه هو الذين انتقل.

مثلا وجد في الشام ووجد في مكة في نفس الوقت، وجد في مصر في القرية الفلانية ووجد في القرية الفلانية، هذا لا يمكن أن يكون إلا من الشيطان.

مثلا مثل ما قال عبد الوهاب الشعراني في ترجمة أحد من ادعى أنهم مجاذيب ومجانين وأولياء -يعني في الثناء عليه- قال في ترجمته (وكان يخطب الجمعة في سبع قرى في مصر)، وهذا خارق عند الناس، كيف القرية هذه والقرية هذه كلهم يخطب فيهم هذا؟؟، فيكون الشيطان تمثل به وخدمه حتى يغوي الناس، وبالإضافة إلى ذلك هو مجنون ومجذوب وما شابه ذلك.

فإذن الشياطين تخدم الساحر والكاهن لكن أكثر ذلك تخييل كما قال سبحانه (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) [طه:٦٦] .

مسألة: كرامات الأولياء ترجع إلى نوعين

ترجع إلى القدرة.

* وترجع إلى التأثير.

والقدرة والتأثير قد يكونان في الأمور الكونية وقد يكونان في الأمور الشرعية.

القسم الأول: كرامات ترجع إلى القدرة: القدرة قد تكون في الكونيات وقد تكون في الشرعيات:

النوع الأول من القدرة: قدرة في الكونيات

مثال القدرة في الأمور الكونية: أن يقدره الله سبحانه وتعالى على ما لم يقدر عليه غيره من الناس؛ بأن يسمع ما لم يسمعوا، أو أن يقدر من حيث المشي أو القدرة البدنية على ما لم يقدروا، أو أنه يغلب بما لم يقدر عليه الواحد في العادة.

يعني أنه راجع إلى قدرة -يعني الكونيات- إلى قدر في السماع، في الآلات، في السمع أو في البصر أو في القوى والأركان.

هذا له مثال أو له أمثلة، فمن القدرة في السمعيات سماع سارية كلام عمر (وهو في المدينة حيث كان يخطب، فقال (يا سارية الجبل الجبل)، يعني الزم الجبل، وسارية كان في بلاد فارس وسمع الكلام، وهذا لاشك قدرة في السماع خارقة للعادة أوتيها.

وكذلك هي من جهة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قدرة في الإبصار حيث إنه أبصر ما لم يبصره غيره، فقال: يا سارية الجبل الجبل. فنظر إلى سارية ونظر إلى الجبل ونظر إلى العدو وكأن الجميع أمامه، ولهذا قال: الزم الجبل، هذه قدرة في الآلات، في السمع وفي البصر.

كذلك قد تكون القدرة في القوى -يعني هذه في الكونيات- قد تكون القدرة في القوى بأن يغلب ما لم يغلبه مثله، وبأن يمشي مثلا على الماء مثل ما حصل لسعد ومن معه، سعد بن أبي وقاص، ومثل أن ينوم نومة طويلة كأصحاب الكهف لا يتغير فيها البدن ولا يتأثر.

ومثل إحياء الفرس، يعطى قوة فيمسح على الفرس أو يأمره بأن يحيى

فيحيى له فرسه.

ومثل أن يدخل في النار فلا تؤثر فيه أو فلا تأكله النار.

المقصود هذه القدرة راجعة إلى قدر في الكونيات يكرم الله سبحانه وتعالى بها العبد بحيث تكون فيما يحصل له في ملكوت الله.

النوع الثاني من القدرة: قدرة في الشرعيات

ونقصد بالشرعيات يعني المسائل الدينية، فيكون عنده قدرة بأن يستقبل من العلم والدين ما لا يستقبله غيره من جهة الحفظ -حفظ الشريعة- أو الفهم الذي يؤتيه الله سبحانه وتعالى من خصه من أوليائه أو ما شابه ذلك، فعنده قدرة في فهم الشرعيات وفي فهم مراد الله وفي الحفظ وفيما أعطي بمزيد عن عادة أمثاله.

هذا يكون بالإكرام إذا خرج عن مقتضى العادة، صار خارقا للعادة في حال بعض الناس.

القسم الثاني: كرامات ترجع إلى التأثير: التأثير قد يكون أيضا في الكونيات وقد يكون التأثير في الشرعيات.

النوع الأول من التأثير: تأثير في الكونيات: يعني تأثير يرجع إلى تأثير في الكون بأن يؤثر في المكان الذي هو فيه، أو في أبصار الناس بأن لا يروه، مثل ما حصل مثلا للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث دخل عليه بعض الشرط لطلبه فلم يروه، دخلوا وداروا في المكان وهو جالس في وسط الدار فلم يروه، وأشباه ذلك مما فيه تأثير في قدر الآخرين.

الأول قدرة في نفسه والتأثير يكون في قدر الآخرين، التأثير في خصائص الأشياء، التأثير في خاصية الهواء، خاصية الماء ونحو ذلك، هذا قد يؤتيه الله سبحانه وتعالى بعض أوليائه لحاجتهم إليه كما ذكرنا.

النوع الثاني من التأثير: تأثير في الشرعيات: يعني أن يؤثر في ما هو مطلوب شرعا، إذا علم فإنه يقع تعليمه موقع النفع أكثر من غيره، يعني بشيء لا يستطاع عادة، يكون فيه الأمر زائد عن العادة، له قبول والكلام يقع موقعه أكثر مما اعتداده الناس في أمثال أهل العلم، كذلك تأثير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا أمر ونهى فإنه يؤثر التأثير البالغ بحيث لا يعارض، ومثل أن يؤثر في الناس في هدايتهم إذا وعظ، إذا قال لفلان من الناس افعل كذا أطاعه، إذا وعظ رق قلبه، إذا أمر بالتوبة أطيع ونحو ذلك مما هو خارج العادة.

هذا التقسيم ذكره شارح الطحاوية في هذا الموقع، وشيخ الإسلام قسمه في الواسطية -كما تعلمون- إلى أن الخوارق التي تجري على يدي الولي وتسمى كرامة:

* تارة تكون في العلوم والمكاشفات.

* وتارة تكون في القدرة والتأثيرات.

فجعل القدرة والتأثير بابا واحدا، وجعل العلم والمكاشفة جعله بابا آخر.

وهذا التقسيم أيضا ظاهر، وهي تقاسيم باعتبارات مختلفة.

المسألة السادسة: ذكرنا لكم أن الخوارق ثلاثة أقسام:

* خارق للعادة جرى على يدي نبي ورسول، وهذا يسمى آية وبرهان ومعجزة.

* وخارق للعادة جرى على يدي ولي، وهذا يسمى كرامة.

* وخارق للعادة جرى على يدي شيطان أو عاصي أو مبتدع أو من ليس مطيعا لله ومتقيا له، فهذا يسمى حالا شيطانيا.

فالفرق بين هذه الثلاثة أشياء واضح:

أولا: أن الأمر الخارق للعادة بحسب من يضاف إليه:

* فإذا أضيف إلى النبي صار اسمه آية وبرهانا ومعجزا.
* وإذا أضيف إلى الولي فإنه يسمى كرامة.
* وإذا أضيف إلى أصحاب الكهانة والسحر والشعوذة فيسمى حالا شيطانيا.

ثانيا: أن خرق العادة الذي يجري للولي لا يكون مصحوبا بدعوى النبوة، فقد يجري للأولياء أحوال عظيمة لكنها مع عدم دعوى النبوة.

فإذا ادعى مع تلك الأحوال النبوة صار شيطانا، وصار ما يساعد به إنما هو من جهة الشياطين والسحرة وأشباه ذلك.

ثالثا: أن ما تخرق به العادة للنبي أوسع بكثير وأعظم من مما تخرق به العادة للولي، فخرق العادة للولي محدود بالنسبة لخرق العادة للنبي.

وخرق العادة للسحرة والكهنة الشياطين وأهل الشعوذة وأهل العصيان الذين يدعون الأحوال هذه ليست خرقا للعادة في الحقيقة ولكنها قدرة مما أعطى الله الشيطان أن يوهم به الناس وأن يضل الناس به، من جهة التخييل تارة، ومن جهة تصوره وتشكله في صور وأشكال تارة أخرى.

أما خرق العادة بالنسبة للأنبياء، فالأنبياء يخرق الله سبحانه وتعالى لهم العادة أي عادة الجن والإنس في زمانهم، حتى يكون ما يعطوه آية وبرهانا؛ لأن الساحر والكاهن قد يعارض النبي بما أعطي من خارق للعادة بما يمكن للشياطين أن تمد به هذا الساحر والكاهن إلى آخره. لكن جعل الله الخارق للعادة بما لا يمكن للإنسي ولا للجني لو اجتمعت أن يعطوا ذلك، كما قال سبحانه (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون

بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) [الإسراء:٨٨]، فالقرآن آية، وبرهان، وهكذا آية موسى عليه السلام، الآيات التي أوليتها موسى لا تستطيعها السحرة ولا الكهنة، وكذلك ما أعطى الله سبحانه وتعالى عيسى من الآيات، وكذلك كل نبي ورسول لا يستطيعه أهل زمانهم من الإنس والجن لو اجتمعوا، فإنهم لا يستطيعون ذلك.

ولهذا صار مثلا حمل الشيء الكبير العظيم من بلد إلى بلد لا يدخل ضمن معجزات الأنبياء كما حصل في قصة سليمان عليه السلام: (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) [النمل:٣٩]، هذا حمل لمدة أن يقوم بالمقام، (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) [النمل:٤٠]، فصار جلب هذا الشيء من مكان إلى مكان، من اليمن إلى أرض سليمان عليه السلام في فلسطين، صار جلبه ليس من آيات الأنبياء ولا من براهين الأنبياء، فصار في حق الذي أوتي علما من الكتاب: كرامة.

وما قام به الجن هذا مما يقدرون عليه، فخرق الجن للعادة بما لا يستطيع البشر قصارى ما عندهم أن يأتوا به قبل أن يقوم من هذا المقام، يعني ذلك الجني الذي قال تلك الكلمة، وهذا الذي أكرم، أكرم بأن يدعو فيؤتى بالعرش إلى سليمان عليه السلام، وهذا من جهة هو كرامة لمن أعطي، ومن جهة أخرى هو أيضا آية لسليمان عليه السلام بالنظر إلى تسخير هذا الإنس والجن له مما لا يسخر معه الإنس والجن والطير لغير نبي من الأنبياء. المقصود من ذلك:

* أن خارق النبي آية وبرهان؛ لأنه يخرق عادة الجن والإنس في ذلك الزمان.

* أما خارق الولي فهو محدود بالنسبة إلى خارق النبي في أنه تخرق له

العادة التي لا يستطيعها الإنس ولا بعض الجن، لأن اجتماع الإنس والجن، هذا خاص -يعني لو أرادوا أن يحدث شيء- هذا لا يمكن لأن معجزة النبي أكبر وأعظم، وأما الولي فإنه بحسب من هو فيهم لأنها كرامة وليست آية ولا برهانا على رسالة ولا نبوة؛ بل هو خاص بما يكرم به هو.

* أما خوارق الشياطين والسحرة بما يولون به أولياء الشياطين من الإنس فهذه محدودة:

* وقد تكون تخييلا -يعني تصوير للعين-.

* وقد تكون تشكلا لكن تشكل من الجني في صورة إنسي أو في صور حيوان أو ما أشبه ذلك.

لهذا قد يظهر الجني في صورة إنسان، في صورة العبد الصالح ويكون في مكان آخر، مثل ما قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع (كان وقع بأصحابي شدة، قال: فرأوا صورتي عندهم فاستغاثوا بي، ثم أخبروني فأعلمتهم أني لم أبرح مكاني -يعني في دمشق وهم كانوا خارج دمشق-، وإنما هذا جني تصور بي) .

وهذا مما أقدر الله عليه الجن، لكن لا يقلبون الحال؛ لكن يتشكلون في صورة ينظر إليها الإنسي أن هذا هو صورة فلان، من قبيل التشكل، لكن ليس ثم مادة وقلب حقيقي. لكن قد يدخلون في جسد حيوان، قد يدخلون في جسد إنسان، هذه مسألة التلبس مسألة أخرى لكن من حيث التشكيل والتصوير هذا من جهة التخييل، أو من جهة إظهار الشيء بدون حقيقة مادية؛ لأنهم هم ليس لهم مادة يعني مثل مادة الإنسان.

لهذا صار صاحب الخوارق الشيطانية، هذا ليس بكرامة وإنما هو من جهة الشيطان، ولا يعطيه الله سبحانه وتعالى على ذنبه ومعصيته واستعانته

بالشياطين، فيستعين بالشياطين على ذلك.

رابعا: أن كرامة الولي لا تبلغ جنس آية النبي.

هذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة؛ -يعني أهل الحديث- في أنها لا تبلغ جنسها وإن شركتها، يعني اشتركت معها في الصورة فلا تبلغ جنسها.

يعني قد يدخل النار فلا يحترق، وإبراهيم عليه السلام دخل نارا فلم تضره أو صارت بردا وسلاما عليه؛ لكن لا يشتركان في الجنس، وإن اشتركوا في النوع.

يعني إن اشتركوا لكن هذه قدرها ليس كقدر هذه، صفة النار هذه ليست النار كصفة هذه، وصفة ما يحصل للولي ليس كصفة ما يعطاه النبي.

وأما الأشاعرة وطائفة فإنهم قالوا تتساوى، تتساوى الكرامة بآية وبرهان النبي والمعجزة من حيث الجنس، لكن الفرق بينهما أن النبي يقول: أنا نبي، وأما الولي فيقول: أنا تابع للنبي.

والأول مثل ما ذكرت لك هو المتعين لأن الله سبحانه وتعالى فرق بين ما يعطيه النبي من خرق العادة وما يعطيه غيره فقد قال فيما يعطيه للنبي: (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) [الإسراء:٨٨]، وأما ما يعطيه الإنسي فإنه قد يكون محدودا.

مثلا أصحاب الكهف ناموا تلك النومة، ولم يتأثروا ثلاثمائة وتسع سنين، فيه من يعيش أكثر من ذلك.

وهذا أقل مما يحصل للأنبياء في جنس ما يعطون.

مسألة: أنكرت المعتزلة وجماعات كرامات الأولياء

وقالوا: إن إثبات كرامات الأولياء يعود على معجزات الأنبياء بالإبطال؛ لأن الجميع خرق للعادة، وما عاد على معجزات الأنبياء بالإبطال فهو باطل.

فالجواب عن ذلك أن الله سبحانه أثبت هذه الأنواع الثلاث:

أثبت الآيات والبراهين التي يعطيها للأنبياء.

وأثبت سبحانه كرامات الأولياء.

وأثبت سبحانه مخاريق السحرة وتخييلات السحرة.

فكل هذه في القرآن وفي السنة، وكلها تشترك في أنها أمور خارقة للعادة، فعدم الإيمان بها هو رد للقرآن فيما دل عليه.

وقد لا تكون الدلالة عندهم قطعية وبذلك لا تدخل المسألة في الكفر؛ لكن ظاهر أن القرآن فيه هذا وهذا.

فمثلا مريم عليها السلام أعطيت أشياء وليست بنبية لأنه ليس في النساء نبية كما هو معلوم، (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) [آل عمران:٣٧]، وكذلك قصة أصحاب الكهف، وهؤلاء جميعا ليسوا بأنبياء.

المقصود من ذلك أن جنس الكرامة هذا ثابت في القرآن وفي السنة وقصه الله، فنفي الكرامة لأنها خارق للعادة هذا رد لما أثبته الله سبحانه، والله فرق بين هذا وهذا.

وأما أنها تشتبه مع خارق الأنبياء فهذا ليس بصحيح كما ذكرنا لك من الفروق السابقة لأنه ثمة فروق ما بين كرامات الأولياء وما بين معجزات الأنبياء.

وطردوا المعتزلة هذا الباب فقالوا: كل الخوارق الشيطانية وكل الخوارق التي تجري للعقل والسحر والأشياء كل هذه مما يدخل في باب خرق العادة، لا نؤمن به ويرد، وكله جريا منهم على هذا الأصل، وهو أنه يعود على آيات الأنبياء بالإبطال.

مسألة: مما يشتبه بالكرامة

الإعانة الخاصة من الله سبحانه لبعض عباده، فقد يعين الله بعض العباد بأشياء يفرج بها عنهم الهم والكرب والضيق لكن لا تدخل في باب الكرامة؛ لأنها ليست أمورا خارقة للعادة، فثم فرق بين نعم الله تعالى المتجددة مما ينجي الله به مثلا عبده من حادث أو من مرض أو نحو ذلك ولا يكون هذا الإنجاء من الخوارق للعادة.

فلذلك يفرق ما بين جنس النعم التي يعطيها الله سبحانه خاصة العباد وما بين الكرامات، فليس كل ما ينعم الله به على العبد من الأمور العظيمة كرامة؛ بل الكرامة ضابطها أنها أمر خارق للعادة جرى على يدي ولي.

ولهذا أصحاب الطرق والذين يريدون صرف وجوه الناس إليهم قد يعظمون ذكر بعض الإنعام حتى يجعلوه كرامة، فيغرون الناس بأنهم أولياء وأنهم أكرموا بكذا وكذا إلخ.

والله سبحانه ينعم على عباده بأنواع النعم الدينية، والشرعية والكونية، وهذه الأنواع من الإنعام هذه ليست دائما مما تخرق به العادة، لهذا نقول الكرامة مما تخرق به العادة.

المسألة التاسعة: الكرامة إذا أعطاها الله سبحانه الولي فإنه ليس معنى ذلك أنه مفضل وأعلى منزلة على من لم يعط الكرامة

فالكرامة إكرام وإنعام من الله للعبد لأجل حاجته إليها، وقد تكون حاجته إليها دينية وقد تكون حاجته إليها كونية دنيوية، لهذا قلت الكرامات عند الصحابة، فالمدون من الكرامات بالأسانيد الثابتة عن الصحابة أقل بكثير مما يروى عن التابعين، وهكذا فيمن بعدهم؛ لأن المرء إذا قوي إيمانه وقوي يقينه

فإنه قد يترك للابتلاء لا للتفريج كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي في الصحيحين: "يبتلى الرجل على قدر دينه، أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل"، "يبتلى الرجل على قدر دينه".

وهذا يدل على أن الله سبحانه وتعالى قد يختار للولي الصالح وللعبد الصالح الذي تعظم منزلته في ولاية الله وإكرامه ومحبته له في أن يتركه للإبتلاء، وأن يتركه لغير هذه الأمور الخارقة للعادة.

فتكون إذا هذه الخوارق للعادة وهذه الكرامات لحاجته إليها ولأنه قد يصيبه ضعف في الإيمان لو لم يعط.

فبعض الناس قد يكون عنده عبادات عظيمة وقيام وصلاة وصيام ثم إذا أصابته شدة ولم يفرج عنه فإنه قد يعود على قلبه بالضعف في الإيمان، فيكرمه الله لأجل ضعفه لا لأجل كماله.

ولهذا فإن باب الكرامة ليس معناه تفضيل من جرت له، فقد يكون مفضلا وقد لا يكون، فليست الكرامة بمجردها دليلا عند السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام؛ بل الإيمان بالكرامات -كرامات الأولياء- لأجل وجودها وأن الله سبحانه وتعالى يكرم بها عباده وأن الأدلة دلت على ذلك وليس من أجل تفضيل من حصلت له الكرامة فقد يكون أقل درجة بكثير ممن من لم تحصل له الكرامة.

إذا كان كذلك، فإنه حينئذ من دونت عنه الكرامات لا يلزم أن يكون أعلم ولا أفضل ولا أن يقتدى به ولا أن تؤخذ أقواله لأجل أنه حصلت منه الكرامة؛ بل لم يزل الصالحون إذا حصلت لهم مثل هذه الأنواع من الكرامات لم يزالوا يكتمونها ولا يشيعونها لأنها قد تكون في حقهم من الفتنة، وهم لعلمهم بالله

سبحانه وتعالى وما يستحقه من الطاعة والإنابة والإقبال عليه أن لا يفتنوا الناس بذلك.

وهذا من أسباب أن المنقول عن الصحابة من الكرامات قليل جدا، وعند التابعين أكثر، ثم هكذا، كلما ضعف الناس كلما أحبوا إذا حصل لهم أي شيء أن ينشروه وأن لا يكتموه.

لهذا نقول: الواجب على الناس أن لا يعتقدوا فيمن حصل له إكرام أو كرامة.

أن لا يعتقدوا فيه؛ بل يقولون: هذا دليل على إيمانه وتقواه إذا كان متحققا بالإيمان والتقوى، وهذا دليل على محبة الله سبحانه له. وهو يسأل لنفسه الثبات ويحرص على ذلك.

وهم أيضا لا يأمنون عليه الفتنة، وإذا مات على هذه الحال أيضا من الصلاح والطاعة فإنه يرجى له الخير ولا تتعلق القلوب به، أو يستغاث به أو يؤتى لقبره ويستنجد به أو يطلب منه تفريج الكربات أو يراعى وهو في غيبته في حال الحياة ونحو ذلك كما يفعله ضلال أصحاب الطرق الصوفية ومن يعتقدون فيه ممن ينتسبون للأولياء وربما لم يكونوا منهم.

لهذا فالواجب على المؤمن أن لا يتحدث بهذه إلا إذا رأى ثم حاجة دينية لذلك، أما إذا كانت لأجل إظهار منزلته أو لإظهار إكرام الله له ونحو ذلك، فهذا الأفضل كتمانها سيما إذا كان مع إظهارها والتحدث بها فتنة قد تصيب البعض، وإذا كان في مثل هذه الأزمنة التي يظهر فيها الجهل ويتعلق الناس بمن ظهر عليهم الصلاح لأجل الاعتقاد فيهم فإنه يجب على المؤمن أن يصد وسائل الشر وأن يسد ذرائع الشرك والغلو التي منها ذكر الكرامات وتداول ذلك.

مسألة: مما يتصل بالكرامة من المباحث مبحث الفراسة

لأن الفراسة الإيمانية بها يعلم صاحب الفراسة ما في نفس الآخرين.

والفراسة لفظ جاء في السنة: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"، والحديث حسنه جماعة من أهل العلم، -وضعفه غيرهم-وهو في الترمذي وفي غيره.

هذه الفراسة عرفت بأنها: شيء من العلم يلقى في روع المؤمن به يعلم حال من أمامه، إما حاله الإيماني وإما حاله في الصدق والكذب، وإما بمعرفة ما في نفسه ويجول في خاطره، ولهذا عرفت الفراسة أيضا بأنها نور يقذفه الله في قلب بعض عباده، بها يعلم مخبئات ما في صدور بعض الناس، والعلماء قسموا الفراسة إلى أقسام أشهرها ثلاثة:

الأول: الفراسة الإيمانية: وهي التي قد يدخلها بعضهم في باب الكرامة وليست منها.

الثاني: فراسة رياضية: يعني تحصل بالترويض وبالتعود وبتخفيف ما في النفس من العلائق، وهي التي يحصل فيها دربة عند بعض أصحاب الطرق.

الثالث: فراسة خلقية: وهذه ليست راجعه إلى استبطان ما في النفوس ولكن باعتبار الظاهر، ينظر إلى الخلق فيستدل بشكل الوجه على الخلق، ويستدل بشكل العينين على مزاج صاحبها، يستدل بشكل البدن أو شكل اليد أو تقاطيع الوجه على حاله من جهة الأخلاق.

فهذه اعتنى كثير من الناس، وصنفت فيها مصنفات عند جميع الأمم، من الأمم السابقة لأمة الإسلام، وفي أمة الإسلام أيضا لأنها فراسة خلقية، ويقولون: إنه ثم ترابط ما بين الخلق والخلق.

ومن الأئمة الذين اعتنوا بهذا الباب وتعلموه الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ وصنف طائفة من أصحاب الشافعي في الفراسة مصنفات الفراسة الخلقية.

المقصود من ذلك أن الفراسة -وهي النوع الأول الفراسة الإيمانية-، ليست من الكرامة لأنها أقرب ما تكون إلى الإلهام، والإلهام قد يكون خارقا للعادة وقد لا يكون.

فجنس الفراسة الإيمانية ليست من جنس الكرامات، وقد يكون من أنواع الفراسة ما يكون فيه خرق للعادة فيكون كالعلوم والمكاشفات التي يجريها الله سبحانه على يد أوليائه.

مسألة: كرامات الأولياء قد تجري للمجموع لا للأفراد

وهذا في حال الجهاد سواء أكان جهادا علميا أم كان جهادا بدنيا -يعني بالسنان-.

فقد يكرم الله سبحانه الأمة المجاهدة، جماعة المجاهدين من أهل العلم، يعني من الجهاد باللسان بقوة في التأثيرات الشرعية وبالنصر على من عاداهم بالملكة والحجة وبما يعلمون به مواقع الحجج وما في نفوسهم بما يكون أقوى من قدرهم في العادة، قد يكرمهم الله سبحانه بذلك وإن لم يكونوا من الملتزمين بالسنة.

وقد يكون كما ذكر بعض أهل البدع يعطى قوة وينتصر على عدوه من النصارى مثلا أو من اليهود أو من الملاحدة في أبواب المناظرات ويكشف له من مخبآت صدر الآخر ما لا يكون لأفراد الناس، ويكشف له من القوة والحجة في التأثير على الناس ما يدخل في باب التأثير في الكونيات والشرعيات كما ذكرت لك سابقا.

وكذلك في أبواب جهاد الأعداء بالسيف، فقد يؤتى طائفة من المسلمين من أهل البدع والذنوب والمعاصي بعض الكرامات إذا جاهدوا الأعداء.

وهذا ينظر فيه إلى المجموع لا إلى الفرد، والمجموع أراد نصرة القرآن والسنة ودين الله ضد من هو كافر بالله وضد من هو معارض لرسالة الرسل أو من يريد إذلال الإسلام وأهل الإسلام.

فيعطى هؤلاء بعض الكرامات وهي لا تدل على أنهم صالحون وعلى أن معتقد الأفراد أنه معتقد صالح صحيح؛ بل تدل على أن ما معهم من أصل الدين والاستجابة لله والرسول في الجملة أنهم أحق بنصر الله وبإكرامه في هذا الموطن لأنهم يجاهدون أعداء الله؟ وأعداء رسوله ﷺ.

ولهذا لا يغتر بما يذكر عن بعض المجاهدين أنهم حصلت لهم كرامات وكرامات وكرامات. وهذه الناس فيها لهم أنحاء:

منهم من يكذب ويقول هؤلاء عندهم وعندهم من البدع والخرافات وإلخ، وبالتالي الكرامة لا تكون لهم، فينفي وجود هذه الكرامات.

ومنهم من يصدق بها ويجعل هذا التصديق دليلا على أنهم صالحون وأنه لا أثر للبدعة وأن الناس يتشددون في مسائل السنة والبدعة.

وأما أهل العلم المتبعون للسلف كما قرر ذلك ابن تيمية بالتفصيل في كتابه النبوات فإنهم يعلمون أن المجاهد قد يعطى كرامة ولو كان مبتدعا، لا لذاته ولكن لما جاهد له، فهو جاهد لرفع راية الله سبحانه وتعالى ضد ملاحدة، ضد كفرة، ضد نصارى، ضد يهود، ضد وثنيين، وهذا يستحق الإكرام لأنه بذل نفسه في سبيل الله.

والبدع ذنوب، والجهاد طاعة، ومن أعظم الأعمال قربة، ومعلوم أن

الحسنات تذهب ما يقابلها من السيئات، فقد تكون في حق البعض حسنة الجهاد أعظم من سيئة بعض البدع والذنوب؛ بل الجهاد سبب في تكفير الذنوب والآثام كما قال سبحانه: (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم) [الصف:١٠-١٢] الآية.

ومعلوم أن من أعظم أسباب مغفرة الذنوب الجهاد، ومن أعظم أسباب تحقيق ولاية الله ومحبته أن يجاهد العبد، لكن هذا يكون في موازنة الحسنات والسيئات والله أعلم بنتيجة هذه الموازنة.

المقصود من ذلك أن أهل السنة والجماعة يقررون أن الكرامة هي للولي الصالح كما قال تعالى: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٢) الذين آمنوا وكانوا يتقون) [يونس:٦٢-٦٣]، وقد يعطي الله الكرامة لجمع من المسلمين، أو لفرد في جمع من المسلمين لأجل ما ذكرت لك من الحال إذا كان على غير التقوى والإيمان ومتابعة السنة أو الأخذ ببعض البدع، ولهذا لا يغتر مغتر بما يحدث من ذلك ويزن الأمور بموازينها:

- فمن نفى مطلقا فهو متجني لأنه لا علم له بذلك.

- ومن قبل مطلقا وجعلها دليلا على الصلاح والطاعة وأنه لا أثر للعقائد ولا أثر للسنة في مثل هذه المسائل هذا أيضا تجنى على الشرع وتجنى نفسه، والعلم يقضي بما ذكرته لك في ذلك.

مسألة: الواجب على المؤمنين أن يسعوا في الإيمان وفي شعبه

امتثالا للأوامر واجتنابا للنواهي- طلبا لمرضاة الله سبحانه وأن يبذلوا أنفسهم في الجهاد بأنواعه: الجهاد في العلم والجهاد في العمل والدعوة، أو

الجهاد بالسيف والسنان إذا جاء وقته، أو إذا حضره المؤمن، أن يسعوا فيه طلبا لرضا ربهم، وأن لا يلتفت العبد مهما بذل إلى حصول الكرامة أو عدم حصول الكرامة.

فمن الناس من تعلقت قلوبهم بالكرامات؛ بل بما هو دونها من الرؤى وربما الأحلام ومن القصص والحكايات والأخبار وأثر ذلك على إيمانه سلبا أو إيجابا، ضعفا أم زيادة.

وهذه الأمور نؤمن بها -يعني مسائل الكرامات-، نؤمن بها لأنها جاءت في النصوص؛ لكن العبد لا يتطلبها، لا يبحث عنها، كما ذكرت لك ربما كان الأكمل في حقه أن لا تحصل له الكرامة، وربما كان الأكمل في حقه أن يبتلى، وربما كان الأكمل في حقه أن يذل ولا يعرف ما يقضي الله سبحانه به في هذه المسائل.

ومن نظر لسيرة من نعتقد فيهم أنهم من أفضل أهل زمانهم إيمانا وتقوى ومتابعة للسنة وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ومجاهدة لأعداء الله، حصل لهم من الابتلاء والفتنة ما حصل، كما حصل لإمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل، وكذلك ما حصل لشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، فالجميع حصل لهم من البلاء والسجن والفتنة، يعني والصد والإيذاء ما حصل لهم، ومع ذلك هم أكمل ممن هم دونهم ممن حصل لبعضهم من الكرامات فيما نقل بأسانيد ثابتة.

بل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ طيف به في دمشق وهو العالم الإمام على حمار ظهره إلى السماء ووجهه إلى الأرض تنكيلا به، ومع ذلك ما ضره لا في وقته ولا فيما بعده فالتراجم طافحة بالثناء عليه، لأن هذه مسائل من الابتلاء التي يبتلي بها الله بعض

عباده كيف شاء. فالمقصود من هذا أن الميزان هو متابعة السنة.

وتحقيق الإيمان والتقوى، متابعة طريقة السلف الصالح قد يحصل معه إكرام وقد لا يحصل معه، يحصل معه ضد ذلك من الابتلاء والإيذاء، وقد يكون المبتلى أكمل ممن لم يبتل.

فالعبرة بلزوم منهج السلف الصالح وطريقة السلف الصالح، فقد يبتلى من هو من أهل البدع، وقد يبتلى من هو من أهل السنة، وقد يبتلى العاصي المذنب، وقد يبتلى التقي الناصح، وهكذا.

فإذا الميزان هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وملازمة طريقة السلف الصالح في ذلك(١).

(باب متفرقات)

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٢/ ١٨٥): يسأل عن الأولياء في بلدهم وعن طرقهم، ويرجو التوجيه من سماحة الشيخ؟ .

فأجاب: الأولياء هم المؤمنون، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأتباعهم بإحسان هم الأولياء هم أهل التقوى هم أهل الصلاح المطيعون لله ورسوله، هؤلاء هم أولياء الله سواء كانوا عربا أو عجما بيضا أو سودا، أغنياء أو فقراء، حكاما أو محكومين، هم أولياء الله، قال سبحانه وتعالى في كتابه العظيم من سورة يونس: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} هؤلاء هم أولياء الله الذين أطاعوا الله ورسوله واتقوا غضبه فأدوا حقه، وابتعدوا عما نهى عنه سبحانه وتعالى، هؤلاء هم الأولياء، وهم المسلمون الصالحون، وهم المهتدون، وهم أهل الإيمان والتقوى، ليسوا

---

(١) شرح الطحاوية للشيخ صالح آل الشيخ.

أهل الشعوذة ودعوى الخوارق الشيطانية، أو الكرامات المكذوبة، لا. هم المؤمنون، سواء أعطوا كرامة، أو ما أعطوا كرامة، أكثر الصحابة ﵃ وأرضاهم وهم أتقى الناس، وأفضل الناس بعد الأنبياء وهم أولياء الله ليس لهم كرامات خارقة؛ لأن إيمانهم قوي لا يحتاجون معه إلى خوارق، فليس من شرط الولاية أن يعطى خارقا يخرق العادة بأن يعطى طعاما من طريق لا يعرف أو شرابا من طريق لا يعرف أو أموالا أو غير ذلك لا، العلامة والصفة هي تقوى الله والإيمان بالله هذا هو الولي، إذا اتقى الله جل وعلا وأطاع أوامره وترك نواهيه، هؤلاء هم أولياء الله.

وقال سبحانه وتعالى في سورة الأنفال: {وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ} إن نافية معناه: ما أولياؤه إلا المتقون، هؤلاء هم أولياء الله أهل التقوى، الذين وحدوا الله وأخلصوا له العبادة، وآمنوا برسوله محمد ﷺ وبسائر المرسلين وصدقوا بكل ما أخبر به الله ورسوله، وانقادوا لشرع الله فأدوا ما فرض عليهم، وتركوا ما حرم عليهم، هؤلاء هم أولياء الله، ولكن مع ذلك ليس لأحد أن يعبدهم مع الله، فهم مخلوقون، ليس لهم تصرف في الكون، بل هم عبيد من عبيد الله كالملائكة كما قال سبحانه في الملائكة: {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} هؤلاء كذلك من الإنس عباد مكرمون، لا يجوز أن يعبدوا مع الله، فلا ينذر لهم ولا يتمسح بقبورهم ولا يطاف بهم، ولا يدعون مع الله، كأن يقول: يا سيدي اشفع لي أو اشف مريضي، أو أنا في حسبك، أو أنا بالله وبك أو ما أشبه ذلك، أو يقول: المدد المدد عندما يقف على قبره أو من بعيد ويتوجه إلى جهة بلده ويقول: المدد المدد يا سيدي، أو يا فلان كل هذا من الشرك الأكبر، لا يجوز لأي إنسان أن يعبد الأولياء، أو يستغيث بهم، أو ينذر لهم، أو يطلب منهم

المدد والعون والغوث، هذا لا يجوز، هذا لله وحده سبحانه وتعالى، يطلب من الله ويجوز طلبه من المخلوق الحي القادر لا بأس يكون حيا حاضرا قادرا، تقول يا أخي أغثني في هذا الأمر، أنا عندي عائلة كبيرة، وعلي دين أغثني بقرض أقرضني بكذا وكذا، أو ساعدني بكذا وكذا أو ساعدني على إصلاح السيارة تعطلت السيارة ساعدني إذا كان عنده قطع غيار، عنده معرفة يساعدك في إصلاحها، أو في المزرعة يساعدك على حصد أو على بذر، أو في عمارة بيت يساعدك على تعمير بيتك، وما أشبه ذلك من الأمور الحسية فلا بأس بهذا كان الصحابة يتعاونون يستغيث بعضهم ببعض في الحرب، يقول: أعني على كذا إذا تجمع عليهم جند من المشركين، تجمعوا وتعاونوا بصده، هكذا يتعاونون فيما ينوبهم من الحاجات والديون والحاجات الأخرى، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته» هكذا يقول ﷺ في الحديث الصحيح المتفق على صحته من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ويقول ﷺ في الحديث الصحيح الآخر: «كان الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» أخرجه الإمام مسلم في صحيحه؛ فالتعاون بين المسلمين أمر مطلوب كما قال الله ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ هذا ليس من الشرك أما إذا دعوت الميت أو الغائب الذي تعتقد أن فيه سرا أو الجبل أو الصنم أو الشجر أو الملائكة أو إنسانا حيا، ولكن تعتقد فيه أن له تصرفا ليس من جهة الأمور الحسية لا؛ وأنك لو دعوته ولو في ظهر الغيب، سمع كلامك ونفعك، وأن له خصوصية في قضاء الحاجات وأنه يعلم الغيب وأن له سرا يقضي به الحاجات، هذا هو الشرك الأكبر، هذا اعتقاد أهل الشرك في معبوداتهم من دون الله.

فالواجب التنبه لهذا الأمر، وأن يكون المؤمن عنده ميزة، عنده فرق يفرق

بين حال الميت وبين حال الحي، حال الشجرة والحجر والصنم، وحال الحي القادر الذي يسمع كلامك، أو تكاتبه مكاتبة، أو تكلمه بالهاتف تقول: ساعدني على كذا، أو بالتلكس من هذه الوسائل الجديدة، كأنه حاضر، أما أن تقول للميت أو للشجر أو للحجر أو للجن، وتطلبهم وتسألهم هذا هو شرك المشركين، هذا لا يجوز؛ لأنه يقع عن اعتقاد وعن سر فيهم، ترى أنهم أهل لأن يتصرفوا في الكون وأنه عندهم مزية خاصة يستطيعون بها كذا وكذا، وإن لم تباشرهم بالكلام وإن لم يحصل لهم قوة حسية، هذا يقع لكثير من المشركين يعتقدون في معبوداتهم أنها تتصرف في الكون، وأن لها كرامات بحيث تقضي لهم حوائجهم وتسعفهم بطلباتهم، وإن كانوا أمواتا وإن كانوا غائبين لا يسمعون ولا يعون، وهذا من الشرك الأكبر، الذي قال الله فيه سبحانه: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا}، وقال فيه سبحانه: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}، وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} {إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}، تبين أن دعاء الأموات من دون الله ودعاء الأصنام ودعاء الأشجار والأحجار كله شرك وفي الآية الأخرى قال كفر: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}. فوجب على كل من له أدنى بصيرة، وكل مكلف وكل عاقل أن يحذر الشرك بالله بجميع أنواعه وصوره وألا يدعو إلا ربه سبحانه وتعالى، ويخصه بالعبادة دون سواه جل وعلا، وأما الأمور العادية التي تقع بين الناس من طريق الأسباب الحسية، فقد عرفت أيها المستمع أن هذه لا حرج فيها، هذه أمور حسية تقع بين الناس، في أمور يحتاجون إليها،

فيقول الإنسان لأخيه، وهو يسمع كلامه، يقول: يا أخي أقرضني كذا، ساعدني على كذا، أو يكتب له أو يكلمه هاتفيا أنك تساعدني بكذا أو تشتري لي كذا، هذه أمور عادية حسية لا حرج فيها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٩٣): ماذا عن الكرامات التي وهبها الله سبحانه وتعالى لأوليائه الصالحين، وهل هناك ما يثبت أن لبعض الناس كرامة معينة، وأن هناك أدلة تثبت أن لهذا المرء كرامة وإلا لما حصل ما هو كذا وكذا؟ .

فأجاب: الكرامات للأولياء ثابتة عند أهل السنة والجماعة، ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء وأنها حق، وهي خوارق العادات التي يخرقها الله لبعض أوليائه إما لحاجة أو لإقامة حجة على أعداء الله، لنصر الدين وإقامة أمر الله عَزَّ وَجَلَّ، فتكون لأولياء الله المؤمنين، تارة لحاجتهم كأن يسهل الله له طعاما عند جوعه، أو شرابا عند ظمئه، لا يدري من أين أتى، أو في محل بعيد عن الطعام والشراب أو نحو ذلك، أو بركة في طعام تكون واضحة، أو غير ذلك من الخوارق للعادة، والميزان في ذلك أن يكون مستقيما على الكتاب والسنة لا تكون كرامة خارقة إلا إذا كان الشخص معروفا بالاستقامة على دين الله ورسوله، أما إذا كان منحرفا عن الشريعة فليست كرامة، ولكنها من خوارق الشياطين، ومن فتن الشياطين، وإنما تكون الكرامة لأولياء الله المؤمنين، الذين عرفوا بالاستقامة على دين الله، واتباع شريعته، فما خرق الله لهم من العادات تسمى كرامة، ومن ذلك قصة الصديق، والطعام الذي قدمه لأضيافه، فصاروا كلما أخذوا لقمة ربا من تحتها ما هو أكثر منها، حتى فرغوا من الأكل، وبقي الطعام أكثر مما كان، فهذا من آيات الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك ما جرى

لعباد بن بشر، وأسيد بن الحضير في عهد النبي ﷺ، لما خرجا من عنده في ليلة ظلماء، أضاءت لهما أسواطهما في الظلمة، فلما انصرف كل واحد منهما إلى بيته، أضاء له سوطه حتى وصل إلى بيته، فهذا من كرامات الله لأوليائه سبحانه وتعالى، وهكذا ما أشبه ذلك مما يقع لأولياء الله.

س: السائل: أ. أ. من السودان يقول: هل هناك أشخاص يعلمون الغيب بعد ارتضاء الله لهم غير الرسل والأنبياء؟ وما الفرق بين ذلك؟ وأيضا عن كرامات الأنبياء التي يجريها الله ﷻ على ألسنتهم، وهي في الحقيقة غائبة عن النظر، كتلك التي قالها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "يا سارية الجبل" وغير ذلك؟

ج: الغيب لا يعلمه إلا الله، لا يعلمه الرسل ولا غيرهم، وإنما يعلم الرسول ما أوحي إليه، قال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ}، وقال: عالم {الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} {إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} فقد يخبره بعض المغيبات، كما أخبر الله نبينا عن أشراط الساعة، وعن بعض أمور الجنة والنار إلى غير ذلك، فالغيب لا يعلمه إلا الله، لكنه سبحانه يطلع بعض أنبيائه ورسله على بعض الغيب، والأنبياء لهم معجزات وهي كرامات ومعجزات تدل على صدقهم وأنهم رسل الله كالعصا لموسى واليد التي أظهرها موسى لفرعون تخرج يده بيضاء من غير سوء والعصا، بينما هي عصا صارت حية تسعى، آيتان من آيات الله، ومعجزتان لموسى على أنه نبي عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك ما وقع لنبينا عليه الصلاة والسلام، ينبع الماء بين أصابعه يراه الناس في الإناء ويشربون ويأخذون في أوعيتهم، ومنها أنه ﷺ لما قدم تبوك وكانت العين تبض ماء قليلا، فتوضأ وصب الماء، رمى سهمه في البئر حتى جاشت بالماء عليه الصلاة والسلام.

كل هذه من معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأولياء الصالحون لهم كرامات، أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لهم كرامات يكرمهم الله بها، تخرق العادة، لكنها ليست معجزة إنما هي كرامة للولي الذي هو من الصالحين، وليس نبيا، كما جرى لعباد بن بشر وأسيد بن حضير في حياة النبي ﷺ لما سريا من عند النبي في آخر الليل، قاما من عنده ﷺ بعد ما سمرا عنده، وخرجا على بيوتهما في ليلة مظلمة، فأضاءت لهما أسواطهما كالسراج كل واحد سوطه صار سراجا له، هذه من آيات الله ومن كرامات أوليائه، وهكذا الطفيل الدوسي لما طلب من النبي آية يدعو بها قومه، سأل الله أن يعطيه آية، فصار نور له في جبهته في وجهه، فقال: يا رب في غير وجهي، فجعله الله في سوطه، إذا رفعه استنار فدعا قومه، فأسلموا.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٩٠): هل يصح زيارة الولي في المسجد للرجل أو للمرأة؟ وحينئذ يكون هناك شرك بالله، إذا وضعت أو حملت له في مرة قادمة خروفا لهذا الولي ومبلغا معينا من المال؟ .

فأجاب: الولي علمه عند الله عَزَّوَجَلَّ، والمؤمنون كلهم أولياء الله، فما يظنه بعض الخرافيين من أن الولي يكون له صفة أخرى زائدة على صفات أهل الإيمان، من بعض الخرافات وخرق العادات ونحو ذلك، فهذا ليس بصحيح، فكثير من الأولياء لا يجري على أيديهم خرق للعادات، فأولياء الله هم أهل الإيمان، وإن لم توجد لهم كرامات خاصة، قال الله جل وعلا: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} .

فالمؤمن ولي الله، سواء كان عربيا أو عجميا، ذكرا أو أنثى، عالما أو غير عالم، فأولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى؛ فزيارتهم في الله للمحبة في الله في

المسجد، أو في بيوتهم، التزاور بين المؤمنين سنة، قربة وطاعة. جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله ﷻ: وجبت محبتي للمتزاورين في والمتجالسين في والمتحابين في والمتباذلين في"، ويقول ﷺ: «يقول الله جل وعلا يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي ».

فالمؤمن يزوره أخوه في الله في بيته أو في المسجد، وتزوره أخته في بيته أو في المسجد، وتزوره أخته في الله إذا كانت الزيارة ليس فيها ريبة، كأن تزور أخاها أو عمها أو خالها أو قريبا لها أو جارا لها مريضا تعوده، أو تسأله عن علم، مع التحجب ومع عدم الخلوة، لا بأس بذلك. فالمؤمن يزوره إخوانه المؤمنون وتزوره أخته المؤمنة، على وجه شرعي ليس فيه ريبة ولا فتنة، مع التستر والحجاب وعدم الخلوة لمصلحة شرعية من عيادة مريض أو سؤاله عن علم أو غير هذا من المقاصد الشرعية.

أما أن يذبح له من دون الله، أو يدعى من دون الله، لظن بعض الخرافيين أنه يتصرف في الكون، هذا باطل، هذا من الشرك الأكبر سواء كان حيا أو ميتا، فالذي يتقرب لقبور الأولياء يزعم أنهم يقضون حوائجه أو أنهم يعلمون الغيب، أو أنهم يتصرفون في الكون هذا شرك أكبر، حتى ولو ما تقرب لهم، هذا الاعتقاد نفسه شرك أكبر، نسال الله العافية، فإذا ذبح لهم إبلا أو بقرا أو غنما أو دجاجا أو غير ذلك، هذا شرك أكبر أيضا، وإذا استغاث بهم، قال: يا سيدي فلان المدد أو اشفع لي، أو اقض حاجتي أو أغثني، يقوله عند قبره أو بعيدا عنه، كل هذا من الشرك الأكبر، أما إذا كان يقول لحي حاضر قادر، يقول: ساعدني على كذا، اشفع لي عند فلان، أو ساعدني على قضاء ديني، أو ساعدني على كف شر فلان

ابن فلان، حتى يشفع له، حتى يتصل به، ويقول له: دع فلانا لا يؤذ فلانا، هذه أمور عادية لا بأس بها كما قال الله جل وعلا في قصة موسى: {فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ} .

فالناس ما داموا أحياء فيما بينهم يطلب بعضهم من بعض الرفد أو العون أو المساعدة، بالمشافهة أو بالمكاتبة أو من طريق الهاتف أو من طريق البرق " البرقية " أو ما أشبهه، لا بأس بهذا. أما أنه يدعوه من دون الله، يعتقد أنه ولي لله وأنه يتصرف في الكون، يدعوه من بعيد أو يدعوه عند قبره، أو يقدم له الذبائح، أو يستغيث به أو ينذر له وهو ميت أو غائب هذا شرك أكبر؛ فيجب الحذر من هذه الأمور التي يقع فيها العامة لجهلهم، أما الأمور الحسية العادية التي يفعلها الناس فيما بينهم، كأن تقول لأخيك الحاضر: يا فلان أقرضني كذا أو ساعدني على كذا أو عاوني في إصلاح سيارتي أو في بناء بيتي، وهو حاضر يسمع كلامك، أو من طريق المكاتبة أو من طريق الهاتف، يعني التليفون، أو من طريق البرق، أو من طريق حسي، أو طرق أخرى تكلمه منه، هذا كله لا بأس به؛ لأنها أمور عادية، وقد جرى بين الناس الآن اتصالات هاتفية واتصالات رسمية، كانت لم تكن قبل ذلك وقد وقعت الآن، فإذا كان الاتصال بالشيء الحسي المعروف، سواء سمي هاتفا أو سمي باسم آخر، تلكس أو غير ذلك، كل ذلك من الأمور الحسية فيما يقدر عليه الإنسان؛ أما أن يعتقد فيه أنه يتصرف في الكون، أو أنه يعلم الغيب فهذا كفر وشرك أكبر، أو يتقرب لقبره إلى الميت يتقرب إليه بالذبائح أو يستغيث به أو ينذر له أو يذبح له قرابين، كل هذا شرك أكبر، فيجب التفريق بين ما جاز شرعا وما حرم الله شرعا. نسأل الله للجميع الهداية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٠٢): يوجد لدينا مقابر أولياء

توفوا من قديم الزمان ويعتقد الكثير من الناس عندنا بأن لهم كرامات، فهم يأتون بالحلوى والأرز، والقهوة والتمر من بلد آخر ويقولون: إن هذه من كرامات هؤلاء الأولياء، ويؤكدون بأن ما كانت معجزة النبي كانت كرامة لولي، فهل هذا الاعتقاد صحيح، وهل من المعقول أن يحصل من هؤلاء الأولياء مثل هذه الأشياء، نرجو الإفادة والتوجيه. جزاكم الله خيرا؟ .

فأجاب: كونهم يعتقدون أن الأولياء يأتونهم بكذا وكذا من الحلوى وغيرها هذا باطل، وهذا من لعب الشياطين، أما كونهم يتقربون إلى الأولياء بالحلوى إلى قبورهم، أو بالذبائح أو بغير هذا يرجون بركتهم أو شفاعتهم، هذا من الشرك الأكبر نسأل الله العافية.

فالواجب على المؤمن أن يحذر هذه الخرافات التي يفعلها كثير من الناس، فلا يجوز له أن يعتقد في المقبورين، سواء سموا أولياء أم لم يسموا أولياء، لا يجوز أن يعتقد فيهم أنهم يشفعون لمن ذبح لهم، أو دعاهم من دون الله، بل هم يشفعون لأولياء المؤمنين، المؤمن يوم القيامة، يشفع للمؤمن لا للمشرك، فالأنبياء يشفعون والملائكة يشفعون، والمؤمنون يشفعون، والأولياء يشفعون، والأفراط يشفعون لكن لمن رضي الله قوله وعمله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ ، فالشفاعة تكون لأهل التوحيد والإيمان، لا لأهل الشرك، والذي يظن أن الأولياء أو الأنبياء يشفعون للمشركين، الذين يعبدونهم مع الله ويدعونهم مع الله، فهذا غالط واعتقاده باطل، فلا يجوز أن يدعوا مع الله، ولا يسألوا الشفاعة ولا يستغاث بهم، ولا ينذر لهم ولا يذبح لهم، كل هذا من الشرك بالله ﷻ، وإذا أردت شفاعة الأنبياء والمؤمنين فعليك بطاعة الله وتوحيده، واتباع شريعته والاستقامة على دينه.

فالأنبياء والأولياء والمؤمنون يشفعون لأهل التوحيد والإيمان، كما أن الملائكة تشفع والأفراط تشفع أيضا، لكن لمن رضي الله قوله وعمله، لأهل الإيمان، لأهل التوحيد، لا لأهل الشرك بالله سبحانه وتعالى، ولكن الشياطين تلعب بكثير من الناس، وتزين لهم أن هؤلاء الأولياء يتصرفون في الكون وأنهم ينفعون ويضرون، ويشفون مرضى الناس، إذا تقربوا إليهم بالذبائح أو النذور، هذا من الشرك الأكبر وهذا من ألاعيب الشيطان، وهذا من فعل الجاهلية، قال تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ} ويتقربون لقبورهم وللأصنام التي صورت على صورهم، بقرابين من السجود والذبح وغير ذلك يزعمون أنهم بهذا يشفعون لهم عند الله، وهذا عين الكفر، وهكذا قوله سبحانه: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} يعني عبدوهم مع الله، معتقدين أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، بذبحهم لهم، وسجودهم لهم ودعائهم إياهم واستغاثتهم بهم، وهذا هو الشرك الأكبر، فيجب الحذر من هذه الخرافات والضلالات، التي هي من أعمال الشياطين، ومن أعمال المشركين فلا يدعى مع الله أحد، لا ولي ولا غيره، ولا نبي ولا غيره، ولا ملك ولا غيره، بل يدعى الله وحده، ويسأل ويطلب منه قضاء الحاجات، وتفريج الكرب سبحانه وتعالى، أما المؤمن الميت، يدعى له بالمغفرة والرحمة، والحي يدعى له بالثبات على الحق، والأنبياء يصلى عليهم، عليهم الصلاة والسلام، ويدعى الله لهم، أن يجزيهم عما قاموا به خيرا، ولا يعبدون مع الله سبحانه وتعالى، العبادة حق الله، قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}، وقال تعالى: {فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا}، وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا

يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} سماه شركا. فالواجب الحذر، وقال تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} ومن زعم أن الولي يأتي بحلوى، أو يأتي بكسوة أو يأتي بذبيحة، أو يأتي بلحم، فهو غلطان، هذا من عمل الشيطان، الشياطين هي التي تأتي بهذه الأمور، حتى تشجعهم على الشرك، وعبادة غير الله سبحانه وتعالى، نسأل الله العافية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢١١): أسألكم عن زيارة قبور الصالحين وتقبيل الحجر، يعني النصايب، هل هذا يجوز أم لا، وعن مديح المشايخ، هل هذا يجوز أم لا؛ وعن المدد أو الاستمداد من غير الله، مثل مدد يا شيخ الفلاني، هل هو في قبره يمدني أم لا؟ أفيدونا إننا غشماء عن هذه ولا ندري، هل هذا القول يجوز أم حرام؟ .

فأجاب: زيارة القبور للصالحين وللمسلمين عموما سنة، الرسول ﷺ أمر بزيارة القبور وحث عليها وقال: «إنها تذكر الآخرة» وتزهد في الدنيا وتذكر الموت، وقال عليه الصلاة والسلام. «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»؛ وكان يعلم أصحابه عليه الصلاة والسلام إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية"، وفي حديث عائشة يقول: «يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين»

وعلينا معشر المسلمين أن نعلم هذا الحكم ويشرع لنا أن نفعل ذلك بأن نزور القبور للذكرى والرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا والإحسان للموتى بالدعاء لهم، الإنسان يزورهم ويدعو لهم بالمغفرة والرحمة والعافية وليتذكر

الآخرة؛ لأنه صائر إلى ما صاروا إليه من الموت حتى يستعد للآخرة، أما تقبيل القبور فلا. ما يقبل النصايب ولا التراب ولا الجدران إن كان عليها جدران ولا القضبان إن كان هناك قضبان، كل هذا منكر لا يجوز ومن الغلو، ولا يجوز البناء على القبور.

القبور يجب أن تكون مكشوفة ليس عليها بناء، واتخاذ القباب عليها من البدع، وهكذا بناء المساجد عليها من البدع التي أنكرها الرسول ﷺ ونهى عنها قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، وقال جابر رضي الله عنه: نهى النبي ﷺ عن المشي والقعود عليها والبناء عليها والكتابة عليها، فليس لأحد أن يبني على القبور، لا قبابا ولا مساجد ولا غير ذلك وليس له أن يقبلها ولا يتبرك بترابها ولا أن يطلب من الشيخ المدد كما سيأتي، ولا يجوز أن يقول: يا رسول الله مدد مدد؛ ولا يا فلان للشيخ عبد القادر أو يا شيخ سيد بدوي أو يا حسن أو يا حسين أو يا فلان أو يا أبا حنيفة أو يا أبا فلان، كل هذا لا يجوز، المدد لا يطلب من الميت بل يطلب من الله جل وعلا ويقول: يا رب أغثني يا رب ارحمني، يا رب اشف مريضي، يا رب ارزقني، أما طلب المدد من الموتى فهو من الشرك بالله عز وجل، من الشرك الأكبر، من عمل الجاهلية فلا يقبل الحجارة ولا النصايب ولا التراب ولا أخذ التراب للبركة.

ولا يطلب المدد من المخلوق من الميت أم الحي الحاضر، تقول: يا أخي ساعدني في كذا، أعني على كذا، وتعني الحي الحاضر القادر، لا بأس لكن الميت لا نقل: المدد المدد؛ ولا نقل: اشف مريضي، انصرني على عدوي، لا يقول هذا للميت، الميت انقطع عمله، وليس له التصرف في الكون، بل التصرف لله وحده سبحانه وتعالى، وهو المتصرف في كل شيء، وهو القادر فوق عباده،

هو النافع الضار، هو المعطي المانع سبحانه وتعالى.

أما الميت فهو مرتهن بعمله ليس له تصرف، قال النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية (مثل الأوقاف التي يوقفها في حياته)، أو علم ينتفع به (كتب ألفها أو طلبة علمهم، له أجر ذلك) أو ولد صالح يدعو له».

أما كونه يتصرف في الكون، أو يمد هذا أو يضر هذا فهذا منكر لا حقيقة له، ولا صحة له؛ فالاستغاثة بالأموات والنذر لهم والتقرب إليهم بالذبائح الطلب منهم المدد والغوث كل هذا من فعل الجاهلية، من عمل أهل الشرك، وهو شرك أكبر يجب الحذر منه، ولذلك أيها السائل عليك أن تبلغ من يفعل هذا بأنه منكر وشرك يجب ترك ذلك، والتوبة إلى الله من ذلك لأن هذا من عمل الجاهلية، كذلك مديح المشايخ، المديح فيه تفصيل: ترك المديح أولى لأنه قد يسبب الغلو، وقد يعجب الممدوح بنفسه وربما أكسبه الكبر والخيلاء، ترك المديح أولى، النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب».

فالمدح فيه خطر، قال سيد الخلق عليه الصلاة والسلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»، نهى عن الزيادة في مدحه، والإطراء والغلو؛ لأن هذا قد يفضي إلى الشرك، ولهذا خاف على أمته عليه الصلاة والسلام نهاهم عن إطرائه كما فعلت النصارى حتى قالت في ابن مريم: إنه ابن الله، وحتى عبدوه من دون الله، بسبب الغلو والإطراء، فالنبي ﷺ نهى عن الإطراء، وأن لا يمدح إلا بحق، يمدح بصفاته أنه رسول الله، أنه عبد الله ورسوله، أنه الأمين أن الله بعثه رحمة، أنه يشفع للناس يوم القيامة، أنه

سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، يمدح بما وصفه الله سبحانه به عليه الصلاة والسلام، لكن لا يجوز الغلو فيه أن يعبد من دون الله أو يستغاث به أو يطلب منه المدد أو النصر على الأعداء بعد موته عليه الصلاة والسلام، لا، هذا غلو هذا إطراء منكر، والمشايخ يجب عليهم اتباع النبي ﷺ، بكراهة المدح، وأن لا يتساهلوا في هذا؛ لأن إطلاق المديح لهم من أتباعهم أو من طلبتهم، قد يفضي إلى شر وإلى عجب، وإلى خيلاء وكبر.

فينبغي للعلماء أن يكرهوا المدح وأن لا يسمحوا لأتباعهم ولا طلبتهم بالتوسع في هذا، أما المدح القليل، مما فيه التشجيع على الخير، والتقوية على الخير، والتنشيط عليه فلا بأس قد مدح النبي بعض الصحابة، وقال لعمر: الفاروق: «ما سلكت فجا إلا سلك الشيطان فجا غير فجك » يعنيه رضي الله عنه، فالمدح القليل الذي لا يخشى منه شر، لا بأس به للتشجيع على الخير، والدعوة إليه، أما التوسع في المديح والإكثار فيه، فالأولى تركه، ولو كان بحق لأنه يخشى منه الفتنة إذا كان الممدوح حيا يخشى عليه الفتنة.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٢/ ٢١٨): يقوم بعض الناس بوضع نقود ليست بسيطة على القبور، بما يسمونها قبور الأولياء ثم تجمع هذه النقود ويصرفونها لتعمير القباب وزخرفتها ووضع الأنوار عليها واستعمال مكبرات الصوت على تلك القباب لمثل دعايات ذلك الولي، كما يؤدون هناك صلاة الفريضة أحيانا داخل المقابر حول ذلك الولي، فما حكم الدين الإسلامي في مثل هذه الأفعال حفظكم الله؟ .

فأجاب: أولا: التقرب بالنقود أو بالطعام، أو بالخبز إلى القبور هذا منكر، ومن الشرك الأكبر؛ لأنها تقرب إليهم، وعبادة لهم بالصدقات يتقرب إليهم،

يرجو بهذا فضلهم وثوابهم وبركتهم مثل لو ذبح لهم، ومثل لو صلى لهم؛ لأن من تقرب بذلك يرى أنهم يصلحون لهذا الأمر، وأنه يتقرب إليهم بالصدقات، أو بالذبائح أو بغير ذلك حتى ينفعوه وحتى يشفعوا له، وحتى يبرئوا مريضه، وحتى يعطوه الولد أو إلى غير ذلك.

ثانيا: اتخاذ القباب على القبور أيضا منكر، لا يجوز البناء عليها مطلقا، بل يجب أن تبقى مكشوفة ليس عليها بناء؛ لقول النبي ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، ولما ثبت في الصحيح عن جابر رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبور، وعن القعود عليها، وعن البناء عليها، » فالرسول نهى عن البناء عليها، ونهى عن الكتابة عليها.

فالواجب أن لا يكتب عليها، وأن لا يبنى عليها لا قبة ولا غيرها.

ثالثا: الصلاة عند القبور لا تجوز، الرسول ﷺ لعن من اتخذها مساجد، وقال ﷺ: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك"، رواه مسلم في الصحيح فنهاهم أن يتخذوها مساجد، ومن صلى عند القبر فقد اتخذه مسجدا، ولو ما بنى عليه قبة، ولو ما بنى عليه مسجدا، ما دام يصلي عند القبور وبين القبور، فإنه بهذا يتخذها مسجدا؛ لأن الرسول عليه الصلاة قال: «وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا » فمن صلى في محل اتخذه مسجدا، ولهذا لا يصلى في المحل النجس، ولو صلى بين القبور، فإذا صلى عند القبور أو إلى القبر، أو في طرف المقبرة كل هذا من الاتخاذ لها مساجد، فالواجب الحذر من ذلك.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٢/ ٢٣٠): يسأل ويقول: يأتي ناس لأحد القبور لدينا من جميع البلدان، ويقفون عند القبر، بل ويقيمون لفترة لا

تقل عن أسبوع ويعملون حلقات الذكر، فكيف نوجه هؤلاء وبما توجهونهم؟ جزاكم الله خيرا وأحسن إليكم .

فأجاب: هذا بدعة، من وسائل الشرك يوجهون بأنه لا يجوز لهم هذا، والمشروع أن يأتوا للسلام والزيارة، ويسلمون على أهل القبور ويدعون لهم، ثم ينصرفون.

أما الجلوس عندهم لإقامة دروس، أو قراءة القرآن، أو لأجل الدعاء يوما أو يومين أو أقل أو أكثر فهذا لا يجوز، ليس من سنته عليه الصلاة والسلام، إنما يسلم ويدعو لهم ثم ينصرف، كان النبي ﷺ يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين"، وهكذا كان يفعل ﷺ، يزور القبور ويسلم عليهم ويدعو لهم ثم ينصرف.

أما الجلوس عندهم أسبوعا أو أسبوعين أو يوما أو يومين، للصلاة أو للدعاء أو للقراءة، أو للصدقات، هذا لا أصل له، بل هو من وسائل الشرك والغلو، فإن دعوا الأموات واستغاثوا بهم صار شركا أكبر، دعوهم أو نذروا لهم أو ذبحوا لهم، يتقربون إليهم بذلك أو استعانوا بهم هذا هو الشرك الأكبر، كما قال الله سبحانه: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}، وقال ﷻ: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} {إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} فسماه شركا ثم دعاؤهم إياهم شرك بهم، فدل ذلك على أنه لا يجوز دعاء الأموات ولا الأصنام ولا الأحجار ولا الكواكب، ولا الملائكة ولا غيره، بل يدعى الله وحده، هو الذي يدعى جل وعلا، هو الذي

يسأل سبحانه وتعالى، قال تعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا}، فالمؤمن يجتهد في دعاء ربه والضراعة إليه وسؤاله، ولا يدعو معه لا ملكا ولا نبيا، ولا شجرا، ولا حجرا، ولا صنما، ولا جنا ولا كوكبا، ولا غير ذلك. العبادة حق الله وحده.

أما الحي الحاضر الذي يسمع كلامك، أو من طريق المكاتبة، أو الهاتف تقول له: افعل كذا، وتأمره بكذا، لا بأس عن طريق الهاتف، عن طريق المكاتبة، أو حاضر عندك، تقول له افعل كذا، أصلح سيارتي، اسق نخلي، أرسل لي كذا وكذا لا بأس بهذا، هذه أمور عادية لا بأس بها، ولهذا قال الله سبحانه في قصة موسى: {فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ} يعني حاضرا عنده، يقدر على إغاثته، بخلاف دعاء الأموات، والاستغاثة بالأموات أو الغائبين، أو الجن، أو الملائكة أو الأشجار أو الأحجار، هذا كله من الشرك الأكبر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٥١): في حضرموت يذهب الناس في وقت محدود من كل سنة إلى زيارة أحد القبور، يقولون: إنه قبر النبي هود، الكائن في شعب هود، وهناك تتم الصلاة، وتتم الزيارة والقراءة، والبيع والشراء فما حقيقة ذلك، وهل قبر النبي هود هناك أم لا؟ .

فأجاب: لا شك أن هودا عليه الصلاة والسلام كان في الأحقاف، كان منزلهم هناك، بعثه الله إلى قومه هناك، ولكن لا يعلم قبره ولا يدرى عنه، وليس هناك ما يدل على وجوده، فالذين يقصدون قبرا هناك، ليس معهم حجة على أنه قبر هود، ولا يحفظ قبر معلوم للأنبياء سوى قبر نبينا محمد ﷺ فهو المحفوظ في المدينة، وهكذا قبر إبراهيم في المغارة التي في الشام في محله المعروف هناك، من دون أن يعلم عينه، لكنه موجود في المغارة المعروفة هناك في الخليل، وأما

بقية الأنبياء فلا تعلم قبورهم، لا هود ولا صالح ولا نوح ولا غيرهم كلهم لا تعلم قبورهم، فمن زعم أن قبر هود في بقعة معينة هناك، وأشار إليه بأنه في المحل المعين، فليس حجة، وليس معه دليل، فقبور الأنبياء لا تعرف، ما عدا قبر نبينا ﷺ وقبر إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم لو فرضنا أنه صحيح، وأنه قبر هود فإنه لا يجوز شد الرحال إليه، للسلام عليه أو الصلاة عنده أو غير ذلك، لكن لو مر إنسان به وهو يعلم أنه قبره، وسلم عليه فلا بأس كما يسلم على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، أما أن يزار بشد الرحال فلا، قال النبي ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى »، فلا يشد الرحال لقبر أي أحد، لا قبر هود ولا غيره، ثم لو فرض أنه مر عليه وزاره، فليس له أن يصلي عند قبره؛ لأن الصلاة لا تجوز عند القبور، فالرسول ﷺ نهى عن ذلك، قال: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك"، فالصلاة عند القبر اتخاذ له مسجدا فلا يجوز الصلاة عند القبور، ولا اتخاذها مساجد، لو فرضنا أنه علم قبر هود أو غيره، فلا يجوز للمسلمين أن يشدوا الرحال من أجل زيارة القبور، لا قبر هود ولا غيره، وليس للمسلمين أيضا أن يصلوا عند القبور، ولا أن يتخذوا عليها مساجد؛ لأن الرسول زجر عن ذلك عليه الصلاة والسلام فقال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، قالت عائشة رضي الله عنها: يحذر ما صنعوا، وقال أيضا عليه الصلاة والسلام: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك"، فصرح ﷺ أنه ينهى عن اتخاذ القبور مساجد، والصلاة عندها اتخاذ لها مساجد، فلا يجوز

لأي مسلم أن يفعل ذلك، فلا يشد الرحل إلى قبر أيا كان ولا يصلي عنده، أما إذا مر عليه أو صار في البلد وزاره للسلام على القبور هذا سنة، والنبي ﷺ قال: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة »، لكن من دون شد رحل، ومن دون أن تتخذ مساجد ويصلى عندها، أو تتخذ محل القراءة والدعاء، لا، بل يزورها ويسلم على المقبورين، ويدعو لهم وينصرف.

وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية"، وفي لفظ: «يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين"، هذه هي السنة أن تزار القبور، من دون شد رحل ويدعى لهم، ويسلم عليهم، يدعى لهم بالرحمة والمغفرة، ولك معهم وفي زيارة القبور ذكرى وعظة، فإن الزائر يتذكر الموت، وما بعد الموت ويعتبر ويدعوه هذا إلى إعداد العدة والتأهب إلى الآخرة، أما اتخاذها مساجد أو اتخاذها محلا للدعاء والقراءة، فهذا لا يجوز، وليست محلا للدعاء ولا القراءة، ولا الصلاة، ولكن يسلم عليهم ويدعو لهم في عرض السلام، ويكفي ذلك، كما علمنا الرسول ﷺ، وبين لنا وحذرنا من خلاف ذلك، فشد الرحال إلى القبور منكر، ولا يجوز، وهكذا الصلاة عندها واتخاذها مساجد، والبناء عليها واتخاذ القباب عليها، كل هذا منكر، ولا ينبغي لك أيها السائل، ولا لغيرك أن يغتر بالناس، فإن أكثر الناس اليوم ليس عندهم بصيرة، وإنما تحكمهم العادات وما ورثوه عن الآباء والأجداد، فاتخاذ المساجد على القبور اليوم في بعض الدول الإسلامية، واتخاذ القباب عليها كله منكر، هو من وسائل الشرك، والنبي ﷺ نهى عن هذا قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، يحذر من أعمالهم، وكذلك نهى عن

تجصيص القبور والقعود عليها، والبناء عليها، فلا يجوز أن تجصص ولا أن يبنى عليها، لا قبة ولا غيرها ولا يتخذ عليها مسجد، لأن هذا كله مصادم لما جاء عنه عليه الصلاة والسلام، ولأنه أيضا وسيلة من وسائل الشرك، والغلو في القبور، فالواجب على رؤساء الدول الإسلامية أن يزيلوا ما على القبور من أبنية من قباب ومساجد، وأن تكون القبور بارزة ليس عليها قبة وليس عليها مسجد، هذا هو الواجب في جميع الدول الإسلامية، الواجب عليهم جميعا أن يبرزوا القبور، وأن يزيلوا ما عليها من مساجد وقباب وأبنية، طاعة لله وللرسول ﷺ، وامتثالا لأمره، وعملا بشرعه عليه الصلاة والسلام، وأيضا في ذلك سد ذرائع الشرك وحسم موادها؛ لأن الناس إذا رأوا قبرا مشيدا معظما بالقباب والبناء والفرش غلت فيه العامة، وظنت أنه ينفع ويضر، وأنه يستجيب الداعي، وأنه يشفي المريض، وأنه يتوسط بينه وبين الله، فيقع الشرك بالله نعوذ بالله، كما قد وقع لعباد القبور في الزمن الأول، فإنهم عظموا القبور، وزعموا أنها لهم شفعاء عند الله، ودعوهم واستغاثوا بهم، وهذا هو الشرك الأكبر، نسأل الله العافية.

وهذا واقع اليوم في كثير من البلاد الإسلامية، واقع فيها هذا الغلو في القبور، كما يقع في مصر عند قبر البدوي والحسين وغيرهما، وكما يقع في الشام عند قبر ابن عربي وغيره، وكما يقع في العراق عند قبر موسى الكاظم، وأبي حنيفة وغيرهما، وكما قد يقع من بعض الجهال عند قبر النبي في المدينة عليه الصلاة والسلام، بعض الجهال من الحجاج والزوار، قد يقع منهم الشرك عند قبر النبي ﷺ، يقول: يا رسول الله اشف مريضي، انصرني، المدد المدد، اشفع لي، وهذا لا يجوز لا مع النبي ولا مع غيره من الأموات، عليه الصلاة والسلام، وإنما هذا في حياته، في حياته يقال: اشفع يا رسول الله، يعني ادع لنا، وهكذا، يوم القيامة إذا

قام الناس من قبورهم يأتيه المؤمنون ويسألونه أن يشفع لهم إلى الله حتى يحكم بينهم وحتى يدخلوا الجنة. أما بعد الموت وقبل البعث في حال البرزخ فلا يطلب منه شفاعة، ولا يجوز أن يطلب منه المدد، ولا غوث ولا نصر على الأعداء؛ لأن هذا بيد الله سبحانه وتعالى، ليس بيد الأنبياء ولا غيرهم، بل النصر والشفاء للمرضى والغوث، والمدد كله بيد الله سبحانه وتعالى، وهكذا قد يقع من بعض الجهلة عند قبر خديجة في المعلاه في مكة المكرمة إلا إذا لوحظوا ووجهوا وبين لهم ما يجب عليهم، فأنت أيها السائل ينبغي لك أن تحذر هذه المسائل، وأن تكون على بينة وأن تعلم أن القبور، لا قبر هود ولا غيره، لا يجوز أن تتخذ معابد ولا مصلى ولا مساجد، ولا أن تدعى مع الله، ولا يستغاث بأهلها ولا يطاف بقبورهم، ولا أن يبنى عليها قبة، ولا أن تفرش ولا أن تطيب، كل هذا لا يجوز؛ لأنه من وسائل الشرك، ودعاء الميت وطلب الغوث منه، والمدد وشفاء المريض، وهذا كله شرك بالله ﷻ.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٨٧): أرجو منكم التعليق على ما يقع فيه الكثير من الناس من عابدي القبور والأضرحة من صرف العمل لها وسؤال أصحابها شفاء المرضى وتفريج الكرب، فهل من مات وحالته هذه يكون خالدا في جهنم؟ وهل يعذر جاهل بهذه القضية؟ .

فأجاب: هذا سؤال عظيم، وجدير بالعناية؛ لأنه واقع في كثير من البلدان الإسلامية، وهو سؤال الأموات والاستغاثة بالأموات وطلبهم شفاء المرضى، أو النصر على الأعداء، وهذا من الشرك الأكبر، وهذا دين الجاهلية، دين أبي جهل وأشباهه من عباد القبور وعباد الأصنام، يقولون: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} ؛ كما حكى الله عنهم سبحانه وتعالى، قال الله جل وعلا:

{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ} ؛ وقال سبحانه في سورة الزمر: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، فالحاصل أن هذا العمل من الشرك الأكبر، وصاحبه إذا مات عليه يكون من أهل النار مخلدا فيها، نسأل الله العافية، إلا إذا كان لم تبلغه الدعوة، كان من أهل الفترات الذين ما بلغتهم الدعوة، وما بلغهم القرآن، ولا كلام الرسول ﷺ، فهذا حكمه إلى الله جل وعلا يوم القيامة، يمتحن يوم القيامة، فمن أجاب جوابا صحيحا دخل الجنة، ومن أجاب جوابا غير صحيح دخل النار. فالمقصود أنه يمتحن يوم القيامة، فمن أجاب بما طلب منه دخل الجنة، ومن عصى دخل النار. أما من كان في الدنيا وقد بلغه القرآن وبلغته السنة ويعيش بين المسلمين فهذا لا يعذر بدعواه الجهل، هو قد أسرف على نفسه وتساهل، ولم يسأل أهل العلم ولم يتبصر في دينه فهو مؤاخذ بأعماله السيئة الشركية، نسأل الله السلامة.

العقائد التي هي أصل الإسلام ليس فيها عذر بالجهل؛ الله جل وعلا قال عن الكفار: {إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} ما عذرهم بحسبانهم أنهم مهتدون ما عذرهم بجهلهم وقال في النصارى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}، فالحاصل أنهم بهذا كفروا، قال بعد هذا سبحانه: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} {ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} ما عذرهم بالجهل لتساهلهم وعدم عنايتهم بطلب الحق، قال سبحانه: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}، وقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم

يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار ». رواه مسلم في صحيحه، ولم يقل: "وفهم عني " أو " تبصر " أو " علم " بل علق بالسماع.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٨٩): رأيت بعض الناس يزورون القبب التي فيها مقابر الأولياء ويطلبون منهم الرحمة والخير والعافية، ما حكم الإسلام في هؤلاء؟ .

فأجاب: إن الله جل وعلا شرع لعباده ما فيه صلاحهم وما فيه نجاتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن كل ما يضرهم في الدنيا والآخرة وبعث الرسل مبشرين ومنذرين عليهم الصلاة والسلام مبشرين من أطاعهم واستقام على ما دعوا إليه بالجنة والسعادة والنصر في الدنيا والنجاة في الآخرة، ومنذرين من عصاهم بالذل في الدنيا والشقاء في الآخرة وأعظم ما بعث الله به الرسل وأهمه وأفرضه توحيد الله والإخلاص في العبادة له صرف العبادة له وحده جل وعلا، هذا أهم دعوة الرسل، هذا زبدتها إخلاص العبادة لله وحده كما قال جل وعلا: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}، وقال سبحانه: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} فهذه أعظم دعوة الرسل وأهمها، وهذا أساسها توحيد الله والإخلاص له وألا يعبد معه سواه لا نبي ولا ملك ولا شجر ولا حجر ولا صنم ولا غير ذلك، واتخاذ القباب على القبور والمساجد على القبور من وسائل الشرك، لأن هذا من تعظيم القبور، فإذا بني عليها القباب وبني عليها المساجد قصدها العامة ودعوها من دون الله، واستغاثوا بها ونذروا لها وهذا هو الشرك الأكبر، فدعاء الأموات والاستغاثة بالأموات والنذر لهم هذا هو الشرك الأكبر

هذا ضد دعوة الرسل، ضد التوحيد الذي بعث الله به الرسل فلما بعث الله نبيه محمدا ﷺ قال لقومه: «يا قومي قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » نهاهم أن يعبدوا مع الله سواه نهاهم أن يعبدوا مع الله العزى أو مناة أو اللات أو غير ذلك وأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده، قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، {فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} .

فالواجب إخلاص العبادة لله وحده ولا يجوز اتخاذ القباب على القبور ولا المساجد عليها بل يدفن الميت ويرفع قبره قدر شبر عن الأرض حتى يعرف أنه قبر ميت حتى لا يمتهن، ولا يجوز أن يدعى من دون الله ولا أن يبنى عليه قبة ولا مسجد ولكن يترك ضاحيا بارزا كما كانت قبور الصحابة في المدينة في عهد النبي ﷺ وبعده ولا يجوز أن يدعى الميت مع الله ولا يستغاث به، ولا يقال يا سيدي يا فلان أغثني أو انصرني أو أنا في حسبك وجوارك أو يطلب منه الرحمة أو المغفرة أو شيئا من أمور الخير كالرزق أو الزواج أو النجاة من النار أو دخول الجنة أو ما أشبه ذلك كل هذا كفر بالله من الشرك الأكبر، قال الله جل وعلا: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} معنى يعبدون أي: يوحدوني بالعبادة يقصدونه بالعبادة وحده سبحانه وتعالى، وقال سبحانه: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} أي: أمر ألا تعبدوا إلا إياه، وقال سبحانه: {وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، وقال سبحانه: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ} يعني المشركين، وقال سبحانه: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} سماهم كفارا، وقال ﷻ: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ

الدِّينَ} {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}، فأمر الله سبحانه بعبادته وحده جل وعلا وإخلاص العبادة له وحده سبحانه وتعالى، وأخبر أن المشركين اتخذوا من دونه أولياء يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، هم يعبدون اللات والعزى والأصنام ويدعونها ويستغيثون بها ويقولون: ما نقصد إلا أنهم يقربونا إلى الله زلفى، يشفعون لنا عند الله كما في آية يونس، ويقول سبحانه: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ} فكذبهم الله سبحانه، بقوله: {قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} وفي آية الزمر يقول جل وعلا: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ} أي: يقولون: ما نعبدهم {إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} فكذبهم الله سبحانه بقوله: {إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}، فبين أنهم لا يقربون إلى الله، بل هم كفار بهذا كاذبون، القرب من الله بدعوته سبحانه وعبادته وحده وسؤاله، هذا هو الذي يقربهم إلى الله، وينجيهم بفضله سبحانه، يا رب أغثني يا رب يسر لي الزواج بالمرأة الصالحة يا رب اقض ديني، يا رب أدخلني الجنة يا رب اغفر لي يا رب ارحمني هذا هو الذي شرعه الله، وهذا هو العبادة لله والتوحيد، أما تقول: يا سيدي البدوي ارحمني أو أنا في جوارك أو أغثني هذا هو الشرك الأكبر أو يا سيدي الحسين أو يا سيدي علي بن أبي طالب أو يا سيدي الحسن أو يا فاطمة أو ما أشبه ذلك، هذا هو الشرك الأكبر، هذا عبادة غير الله التي أنكرها الرسل وأنكرها نبينا محمد عليه السلام.

ولما خطبهم محمد ﷺ في مكة في بعض الأيام قال: «يا بني عبد المطلب

أنقذوا أنفسكم من النار لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب أنقذ نفسك فإني لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا ». فأخبرهم عليه الصلاة والسلام أنه لا يغني عنهم من الله شيئا بل لا بد من شراء أنفسهم من الله بالتوحيد والإيمان والطاعة هؤلاء أقرب الناس إليه بنته وعمه وعمته وأخبرهم أنه لا يخلصهم من الله ولا ينجيهم من عذاب الله ولا يغني عنهم من الله شيئا إلا أن يوحدوا الله ويعبدوه وحده حتى فاطمة بنته قال: «سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا ».

فالواجب على الجميع عبادة الله وحده وسؤاله وحده سبحانه والاستغاثة به وحده وأداء حقه في صلاة وزكاة وصيام وحج وبر الوالدين وصلة الرحم وترك ما حرم الله من سائر المعاصي من جنس الزنا وشرب الخمر واللواط وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم وشهادة الزور إلى غير هذا من المعاصي، يجب تركها طاعة لله وتعظيما لله وتقربا له سبحانه هذا هو الدين، وهذا الذي بعث الله به الرسل وأنزل به من الكتب، وبعث به خاتم الرسل محمدا عليه الصلاة والسلام بعثه يدعو الناس إلى توحيد الله والإخلاص له وإلى طاعة أوامره التي أمر بها عباده من صلاة وصوم وزكاة وحج وغير ذلك، ونهاهم عما حرم الله عليهم، ولهذا صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قيل: يا رسول الله من يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » من أطاع الرسول واتبع الشريعة فله الجنة ومن عصاه فله النار نسأل الله العافية.

فنصيحتي لكل من يخاف الله، لكل من يرجو الله: أن يعبد الله وحده، وأن يخصه بدعائه واستغاثته ونذره وذبحه وغير ذلك، كما يخصه بصلاته وصومه وسائر عباداته، لله وحده، هذا هو التوحيد، وهذا هو الإيمان، وهذا معنى قوله جل وعلا: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، ومعنى قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ} أي وحدوه أي خصوه بالعبادة بدعائكم وخوفكم ورجائكم وذبحكم ونذركم وصلاتكم وصومكم.

أما من يأتي أصحاب القباب ويدعوهم مع الله فعمله هذا هو الشرك الأكبر سواء كانوا أنبياء أو غيرهم، إذا قالوا: يا رسول الله أغثني؛ هذا شرك أكبر بعد وفاته ﷺ، أما في حياته يقول: أعطني كذا، أعطني من مال الله الذي عندك ساعدني من كذا لا بأس في حياته ﷺ كما يقال للملوك وغيرهم: ساعدونا، في حياتهم، لكن بعد وفاته يقول: أغثنا يا رسول الله انصرنا أو اشفع لنا هذا لا يجوز بل يطلب من الله يقول: يا رب اشفع في نبيك يا رب أغثني يا رب أنجني من النار، وهكذا لا يدعى عمر ولا الصديق ولا عثمان ولا علي ولا غيرهم، وهذا من بعد الصحابة من باب أولى لا يدعون مع الله ولا يستغاث بهم هذا حق الله، الأموات يترضى عنهم ويدعى لهم والأنبياء يتبعون ويدعى لهم لا يدعون مع الله بل العبادة حق الله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ؛ {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} ؛ {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} ؛ يقول النبي ﷺ: «من مات وهو يدعو لله ندا دخل النار»؛ نده شبيهه أي نظيره يدعوه مع الله، يستغيث به وينذر له، ويقول ﷺ: «من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار».

فالواجب الحذر من هذا الشرك والواجب البصيرة والتفقه في الدين هذا

الواجب على جميع المسلمين في كل مكان وعلى جميع المكلفين في كل مكان في البلاد العربية وغيرها في أوربا في أمريكا في أفريقيا في آسيا في كل مكان يجب على المكلفين أن يعبدوا الله وحده، يجب أن يخصوه بدعائهم ونذرهم واستغاثتهم ونحو ذلك؛ لأنهم لهذا خلقوا، خلقهم ليعبدوه ويعظموه ويخصوه بالعبادة وبه أمروا، وبهذا تعرف أيها السائل أن اتخاذ القباب منكر ومن وسائل الشرك وهكذا بناء المساجد على القبور، يقول النبي ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، يحذر ما صنعوا، متفق على صحته، وقال عليه الصلاة والسلام في حديث جندب بن عبد الله البجلي: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوها مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » رواه مسلم في الصحيح فقد بين النبي ﷺ أن الناس السابقين يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد يعظمونها يصلون عندها يدعون عندها يقرأون عندها فنهاهم عن هذا، نهاهم أن يفعلوا هذا الفعل، فوجب على العباد أن يتركوا هذا الفعل؛ لأنه وسيلة إلى الشرك إذا بني عليه المسجد أو القبة جاء الجاهل والعامي قال: هذا ولي، هذا ينفع، هذا يشفع؛ يدعوه من دون الله يستغيث به، وهذا هو الشرك الأكبر نعوذ بالله، وهكذا البناء على القبور حتى غير المساجد؛ يقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه » رواه مسلم في الصحيح زاد الترمذي وغيره وأن يكتب عليه، فالرسول نهى عن تجصيص القبر، وأن يبنى عليها وهذا يشمل القباب وغير القباب لا يبنى عليها شيء، نهى أن يجلس عليها؛ لأنه امتهان له فلا يجلس عليه لأنه امتهان ولا يبنى عليه ولا يجصص؛ لأن التجصيص والبناء عليه من وسائل التعظيم، فإذا جصص وبني عليه عظمه

الناس حتى يقع الشرك ويدعونه من دون الله ويعظمونه. فالواجب أن يكون مكشوفا كسائر القبور ولو كان قبر نبي أو صالح حتى لا يدعى من دون الله أو يخص بشيء من العبادة لكن لما خاف الصحابة أن يدعى وأن يعبد دفنوه في حجرة عائشة لئلا يعبد من دون الله ولكن أهل الغلو ما تركوا ذلك، عبدوه خارج الحجرة وفي كل مكان يستغيثون به، وينذرون له عليه الصلاة والسلام، وهذا هو الشرك الأكبر الذي نهى عنه وحذر منه وقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» لا يجوز لأحد أن يغلو فيه بالدعاء ويدعوه من دون الله أو ينذر له أو يستغيث به أو يذبح له كل هذا شرك أكبر. وهكذا غيره من الأنبياء والصالحين لا يدعون مع الله ولا يستغاث بهم؛ لأن ذلك مما حرم الله سبحانه وتعالى.

فينبغي لك يا عبد الله أن تكون على غاية من الحذر من هذا الشرك دقيقه وجليله قد عمت به البلوى في بلدان كثيرة في البلاد العربية وغيرها كما لا يخفى، على من له أدنى دراية بأحوال الناس ما يقع عند قبر البدوي والحسين والست زينب ونفيسة في مصر، وعند العيدروس في الجنوب اليمني وعند غيرها من القبور وعند قبور كثيرة، عند قبر ابن عربي في الشام وعند قبور كثيرة في العراق وغيرها، تدعى من دون الله ويستغاث بها، يجب الحذر، وهكذا من يأتي من الحجاج عند قبر النبي ﷺ أو عند قبور البقيع أو الصحابة يدعوهم من دون الله هذا منكر، وشرك أكبر، يجب الحذر من ذلك ويجب على أهل العلم أن يبينوا ما يجب، على العلماء في كل مكان وفقهم الله، أن يبينوا للناس؛ لأن الناس قد يغلب عليهم الجهل يحسبونه دينا.

فالواجب على العلماء أن يوضحوا للناس أن الواجب عبادة الله وحده

إخلاص العبادة لله وحد وأن أصحاب القبور لا يدعون مع الله ولا يستغاث بهم ولا ينذر لهم ولا يذبح لهم ولا يبنى على قبورهم ولا يتخذ عليها مساجد، فالناس في ذمة العلماء يجب على العلماء أن يبينوا وأن يوضحوا للناس شرع الله ولا سيما ما يتعلق بالتوحيد، فهو أعظم الأمور وأهمها، كما أن الشرك أعظم الذنوب، وعلى العلماء البلاغ، مثل ما على الرسل، والله يهدي من يشاء، وعلى ولاة الأمور التنفيذ، على الحكام والرؤساء والملوك ورؤساء الجمهوريات ومن له قدرة التنفيذ أن يمنع العامة من الشرك بالله ويدعوهم إلى توحيد الله والإخلاص له ويبين لهم أن هذا لا يجوز وأن الواجب عبادة الله وحده والاستغاثة بالله وحده لا بالقبور، النذر لله وحده لا لأهل القبور، فأهل القبور الدعاء لهم هم محتاجون للدعاء، يزورهم يقول: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، نسأل الله لنا ولكم العافية، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين يدعو لهم؛ كان النبي يزور القبور ويدعو لهم عليه الصلاة والسلام وكان يعلم أصحابه إذا زاروا القبور يقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين"، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ زار قبور المدينة، فقال: «السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم أنتم سلفنا ونحن بالأثر"، وكان يعلم أصحابه هذا عليه الصلاة والسلام، رواه مسلم في الصحيح. كان يعلمهم إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية"، وفي الحديث الآخر: «يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين».

فالواجب على أهل الإسلام التمسك بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه

والسير عليه في زيارة القبور وفي غيرها في جميع الأمور، كما قال الله سبحانه: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}، وقال سبحانه: {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا} .

فلذلك تجب طاعته عليه الصلاة والسلام، وما على الرسول إلا البلاغ المبين، وقال سبحانه: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ}

وقال عز وجل: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} فالخير كله في طاعة المصطفى عليه الصلاة والسلام واتباع شريعته وتعظيم أمره ونهيه، وذلك بتعظيم كتاب الله القرآن والتمسك به والأخذ بما فيه، وتعظيم السنة التي جاء بها الرسول ﷺ فإن الله أعطاه القرآن ومثله معه السنة.

فالواجب على أهل الإسلام التفقه في كتاب الله والتفقه في سنة الرسول ﷺ والعمل بهما في جميع الأحوال ولا سيما في أصل التوحيد وأصل الدين وأساسه وأعظم الأمور وهو رأس المال، نسأل الله لجميع المسلمين ولنا التوفيق والهداية والفقه في الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٢/ ٣٢٠): تقوم بعض النساء عندنا بزيارة القبور والمساجد ومن خلال الزيارة يقمن بجمع الأطفال داخل المسجد أو على القبور، ويفرقن عليهم خبزا وبعض الأشياء، ويقلن لوجه الله ثم يقمن بدعاء الولي الذي زرن لأجله ويقلن يا ولي عافني، واحفظ أولادي؟ .

فأجاب: هذا عمل خطير يجب الحذر منه، النساء ممنوعات من زيارة القبور، وإنما الإذن للرجال، يقول ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة» ولعن زائرات القبور من النساء؛ لأنهن فتنة وصبرهن قليل.

أما إذا كان مع ذلك دعوة الموتى والاستغاثة بالموتى صار شركا أكبر، وهكذا الذبح لهم، طلبهم المدد، هذا شرك أكبر من الرجال والنساء جميعا، فالذي يأتي القبور ليدعوها من دون الله، ويطلبها النصر والمدد والعون، هذا أتى شركا عظيما من الرجال والنساء جميعا، وهذا شرك المشركين، هذا شرك عباد القبور كأبي جهل وأصحابه من عباد القبور، وهكذا توزيع الصدقات إذا كان يقصد بهذا التقرب إلى الموتى بذلك، وأنه إذا تصدق ينوي التقرب بالصدقة لهم، يعتقد أنهم ينفعونه إذا تصدق عند قبورهم، وأنهم بهذه الصدقة التي يتقرب بها إليهم ينفعونه مثل لو صلى لهم، فهذا الشرك أكبر. أما إن كان فعل الصدقة عند القبر يطلب من الله ثوابها، ولكن يظن ويعتقد أنها عند القبور أفضل هذه بدعة، ما هي عند القبور أفضل، الصدقة يتصدق في بيته في أي محل، وإذا كانت عن طريق السر كانت أفضل، إلا إذا دعت الحاجة إلى الجهر، ولكن ليس محلها القبور، وإنما في الأسواق، في البيت، في أي مكان في المسجد لمن سأل، لا بأس.

والخلاصة أن زيارة النساء للقبور لا تجوز، وكونهن يذبحن للأموات أو يطلبن منهم المدد، أو الغوث أو شفاء المرضى هذا شرك أكبر، سواء وقع من امرأة أو من رجل، حتى ولو فعله في بيته ما هو عند القبور، يا سيدي فلان، يا عبد القادر يا حسين، يا علي، يا رسول الله، ولو في بيته ولو في أي مكان بعيد عن المدن والقبور، هو شرك أكبر ولو أنه في الصحراء، ما عنده أحد إذا قال: يا رسول الله: انصرني، أو يا رسول الله اشف مريضي، أو ما أشبه ذلك، فقد عبده من دون الله بهذا الدعاء، أو قال يا سيدي الحسين أو يا سيدي الحسن، أو يا سيدي علي، أو يا سيدي عبد القادر هذا من الشرك الأكبر، وهكذا إذا تقرب

بالذبائح سواء عند قبره، أو بعيدا عن قبره، يذبح من أجل التقرب إليه، يرى أنه إذا ذبح له يمده بأشياء أو يعطيه أشياء أو يحصل له أشياء، فالذبح لغير الله شرك أكبر، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}، وقال سبحانه: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، فأمر بالصلاة والنحر لله عَزَّ وَجَلَّ، قال عليه الصلاة والسلام: «لعن الله من ذبح لغير الله» والذبح عبادة عظيمة كالصلاة، فإذا ذبح لأصحاب القبور، وتقرب إليهم بذلك، يرجو شفاعتهم ويرجو أنهم يقربونه إلى الله زلفى، أو تصدق يطلب الأجر منهم، والثواب منهم، أو حج لقبورهم أو ما أشبه ذلك من المقاصد التي يفعلها يتقرب بها إلى أصحاب القبور، هو يكون بهذا قد عبدهم وجعلهم آلهة، يعبدهم مع الله بصلاته لهم، أو دعائه لهم، أو ذبحه لهم أو نذره لهم أو غير ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٣٢٣): ما هي العلاقة بين كل من مسجد الرسول ﷺ بما فيه قبره وقبر صاحبيه، ومسجد من المساجد التي توجد بها قبور، حيث إنه بعد سماعي للشيخ: عبد العزيز في هذه المسألة، فقد أوضح بأن ذلك كان خطأ عند توسعة المسجد، في عهد عبد الملك بن مروان، ولكن كثيرا من المسلمين يتساءلون، إذا كان هذا خطأ فإنه من الممكن تدارك الخطأ وعلاجه، وذلك بأن يفصل القبر عن المسجد تماما، حيث إنه لا يكفي السور؛ لأن باقي المقابر في المساجد الأخرى حولها أيضا سور، وبذلك من الصعب إقناعهم لاختلاف المسجد النبوي عن غيره، إن هذه المسألة إذا تفضلتم بحسمها، سوف تقضي قطعا على افتتان المسلمين، وسوف تمنع وتساعد على نبش القبور التي استجدت على المساجد، وندعو الله لكم بالتوفيق في بحث هذا

الموضوع، وجزاكم الله خيرا؟ .

فأجاب: لا شك أن إدخال القبر الشريف في المسجد الشريف كان سببا لفتنة بعض الناس، من وضع القبور في المساجد والبناء على القبور، وسبق في حلقات مضت بيان الواقع وهو أن الوليد بن عبد الملك وليس عبد الملك، بل الوليد في خلافته لما وسع المسجد النبوي، رأى إدخال الحجرة النبوية في المسجد، بسبب التوسعة وأنكر ذلك عليه بعض الناس، وبعض التابعين، ولكنه رأى أن التوسعة تدعو إلى ذلك، فلهذا أدخله وصار ذلك الإدخال فتنة لبعض الناس في البناء على القبور، واتخاذ المساجد عليها، وليست العلاقة بين مسجد النبي ﷺ وحجرته، مثل العلاقة التي بين المساجد والقبور الأخرى، الفرق عظيم، فإن النبي ﷺ دفن في بيته بيت عائشة، ودفن معه صاحباه: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ولم يدفن في المسجد عليه الصلاة والسلام ولا صاحباه بل كلهم دفنوا في البيت، وأما القبور الأخرى غير قبر النبي ﷺ وصاحبيه فهي تدفن في المساجد قصدا، ويظن أهلها أن هذا قربة، وأن هذا طاعة، وربما حدث المسجد بعد ذلك، يوجد قبر ثم يبنى عليه مسجد، كل هذا واقع فليس هذا كهذا، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح بل في الأحاديث الصحيحة: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » قالت عائشة رضي الله عنها: يحذر ما صنعوا. وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » رواه مسلم. ولما قالت له عليه الصلاة والسلام أم سلمة وأم حبيبة رضي الله تعالى عنهما: إنهما رأتا في أرض الحبشة كنيسة، وذكرتا ما فيها من الصور، قال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك

الصور"، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «أولئك شرار الخلق عند الله » فأخبر عن الذين يبنون على القبور مساجد، ويصورون عليها الصور، أنهم شرار الخلق؛ لأنهم فعلوا أمرا يجر الناس إلى الشرك، ويوقعهم في الشرك؛ لأن البناء على القبور وبناء المساجد عليها واتخاذ الصور عليها، كل هذا من وسائل الشرك، ولهذا حذر من ذلك النبي عليه الصلاة والسلام، وأبدى وأعاد في ذلك، والوليد حين أدخل الحجرة النبوية، لم يكن على باله هذا الأمر، ولم يظهر له أن الناس يشتبه عليهم الأمر، ويعتقدون أن هذا مثل هذا، وأن إدخال الحجرة برمتها من جنس إدخال القبور في المساجد، أو من جنس إقامة المساجد على القبور، وليس هذا كهذا، فالحاصل أن إدخال الحجرة النبوية في المسجد ليس من جنس عمل الغلاة في القبور الذين بنوا عليها المساجد، أو أحدثوها في المساجد، هذا غير هذا، فإحداث القبر في المسجد أمر لا يجوز، ومنكر ووسيلة للشرك بصاحب القبر، وهكذا كون المسجد يبنى عليه كما فعلت بنو إسرائيل، هذا أيضا لا يجوز، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح المتفق عليه: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ». فالواجب على أهل الإسلام أينما كانوا في كل مكان ألا يبنوا على القبور مساجد، وألا يبنوا عليها قبابا، ولا غيرها وأن يجعلوها ضاحية بارزة، كما كانت القبور في عهد النبي ﷺ كذلك في البقيع وغيره ليس عليها بناء، وكما هو الحال في البقيع والحمد لله، قد أزيلت عنها المباني، وهكذا في مكة، المقصود أن الواجب أن تكون بارزة ظاهرة ليس عليها بناء، هذا هو الواجب ولا يبنى عليها قباب ولا مساجد ولا غير ذلك، وأما إدخال الوليد بن عبد الملك الحجرة النبوية، فكان لأجل التوسعة، وإن كان هذا غلطا ينبغي أنه لم يقع، حذرا من هذه الفتنة التي

وقعت لبعض الناس، لكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعفا الله عنا وعنه، لم يتنبه لهذا الأمر الذي حصل للناس الآن، ولعل أسباب عدم إخراجه من المسجد بعد ذلك، أن كل وال يتولى المدينة يخشى أنه إن فعل ذلك أن يقام عليه الاحتجاج من الجهال وأن ينكر عليه، وأن يقال: أنت تبغض النبي ﷺ، وأنت وأنت، فيتهم، فلهذا ترك الناس الحجرة بعدما أدخلت، لعل هذا هو السبب والله أعلم فيما أعتقد أن الولاة الذين تولوا الإمارة بعد الوليد، لعلهم خشوا إذا أخرجوا الحجرة من المسجد، أن يقال فيهم: إنهم كيت وكيت، إنهم ليسوا يحبون النبي ﷺ، أو إنهم مقصرون في حق النبي عليه الصلاة والسلام، أو ما أشبه ذلك من الأقاويل التي يخشى منها، فلهذا ترك هذا الأمر ولم يخرج من المسجد، من أجل خوف قالة الناس، وفتنة الناس، في القيل والقال، في إخراجه من المسجد بعدما أدخل، ثم أيضا مثل ما تقدم، ليس هذا من جنس ما يفعله الناس، بل هذه حجرة برمتها بيت برمته، أدخل فليس من المسجد وليس من أرض المسجد، وليس مدفونا في المسجد، وليس المسجد مقاما عليه، بل المسجد قائم مستقل، قبل إدخال الحجرة، فالمسجد قائم، وإنما جاءت التوسعة فقط، اليسيرة التي جاءت من جهة الشرق، هذا هو الواقع فلا يجوز لأحد أن يحتج بهذا، على البناء على القبور أو إدخال القبور في المساجد، لا حجة له في هذا، بل الواجب أن تكون القبور بعيدة عن المساجد، ليست في المساجد، كما تكون في أرض مستقلة وضاحية، شامسة مكشوفة ليس عليها بناء، وليس عليها مساجد، هذا الواجب على جميع المسلمين في كل مكان، طاعة للنبي ﷺ، وامتثالا لأمره واتباعا لسنته، وحذرا من وسائل الشرك، ولهذا أبدى وأعاد عليه الصلاة والسلام، وأكثر في ذلك لئلا يقع الناس في الشرك، ومن ذلك ما تقدم في الأحاديث

الصحيحة: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ومن هذا قوله ﷺ: «ألا وإن من كان من قبلكم يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك» رواه مسلم في الصحيح من حديث جندب بن عبد الله البجلي، وهكذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيح، يقول ﷺ: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

فالواجب على أهل الإسلام أن يحذروا ذلك، وألا يحتجوا بما فعله الوليد بن عبد الملك من إدخال الحجرة النبوية، فإنه أدخل بيتا ولم يدفن في المسجد، ولم يحدث الوليد قبرا في المسجد، وإنما أدخل الحجرة اجتهادا منه للتوسعة للمسلمين، فليس هذا مثل ما أحدثه الناس، ولا ينبغي أن يقاس هذا على هذا، بل الواجب الحذر مما نهى عنه النبي ﷺ ولعن أهله الفاعلين له، ومن ذلك ما روى جابر بن عبد الله الأنصاري، رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه نهى أن تجصص القبور، وعن القعود عليها والبناء عليها.

فالرسول نهى أن يجصص القبر، ونهى أن يقعد عليه، أو يبنى عليه، وهذا يشمل القبر والمسجد وغيرها، فالواجب على جميع المسلمين طاعة النبي ﷺ، وامتثال أمره والحذر مما نهى عنه في القبور وغيرها، فلا يبنى عليها، ولا يتخذ عليها قبة ولا مسجد ولا تجصص، كل هذا مما نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام، والمقصود من هذا كله سد الذرائع للشرك، والنهي عن وسائله؛ لأن الناس إذا رأوا قبرا معظما بالقبة، والفراش ونحو ذلك، عظموه بالدعاء والاستغاثة، دعوه واستغاثوا بصاحبه فوقع الشرك.

فالواجب على المسلمين في أي مكان أن يتقوا الله، وأن يحذروا الدفن في

المساجد، أو إقامة مسجد على القبر، وإن كان قبرا عظيما وإن كان صاحبه صالحا، فالأنبياء هم أصلح الناس، ولا يجوز البناء على قبورهم، فبقية الناس من باب أولى.

فالواجب هو امتثال أمر رسول الله ﷺ والتقيد بما قاله عليه الصلاة والسلام، والحذر مما نهى عنه عليه الصلاة والسلام، والحكمة في هذا واضحة، والحكمة ظاهرة وهي سد الذرائع الموصلة للشرك، فإن وجود المسجد على القبر، أو وجود القبر في المسجد، كل ذلك من وسائل الشرك بصاحب القبر نسأل الله للجميع الهداية والتوفيق، ونسأل الله أن يبصر المسلمين ويمنحهم الفقه في الدين، وأن يعيذهم من أسباب الشرك، ووسائله وذرائعه.

أما قوله: لماذا لا يعالج الخطأ الذي وقع فيه الوليد بن عبد الملك بإدخال الحجرة النبوية في المسجد، فقد بينا أن أسباب ذلك أن كل دولة تخشى أنها إذا قامت بهذا الأمر، تتهم وأن يقال فيها إنها قصرت في حق النبي ﷺ وإنها تبغض النبي ﷺ وإنها جاهلة بالإسلام، قد يتحاشون الدخول في هذا الأمر، يقولون: ما دام قد سكت من قبلنا، فنتركه، ولأن الحكمة في ذلك والعلة في ذلك واضحة، فإنه لم يدفن في المسجد عليه الصلاة والسلام، وإنما أدخلت الحجرة برمتها، فليست هذه المسألة مثل المسائل التي وقع فيها الناس في بلدان كثيرة حيث دفنوا في المساجد، وأوجدوا قبورا في المساجد، وبنوا مساجد على القبور، هذا هو الواقع، وهذا غير ما فعله الوليد، هذا فرق عظيم، وخوف الفتنة بين المسلمين هذا هو السبب الذي جعل الناس يتركون الأمور على حالها، خشية من فتنة تقوم بين الناس، بسبب ظنهم بمن أخرجه السوء، وأنه أراد بهذا تنقصا للنبي ﷺ وصاحبيه أو أنه أراد بذلك شيئا آخر، قد لا يحمل على المعنى

الشرعي، وقد يظن به خلاف ذلك، فلعل هذا السبب الذي من أجله تركته الدول السابقة، وقد يقوم حرب فكرية وغير فكرية من أعداء الإسلام، وقد يكون هذا من أسباب بعض الفتن، التي يوجدها بعض الناس، لأتفه الأسباب، وكيف هذا وهذا مما يتعلق بقبر النبي ﷺ وصاحبيه وأكثر الخلق ليس عنده العلم الكافي، والبصيرة الكافية بهذه الأمور بل يعتقدون أن البناء على القبور، واتخاذ المساجد عليها أنه دين وقربة، بل بعضهم وكثير منهم يرى أن دعاء الأموات والاستغاثة بالأموات دين وقربة نسأل الله العافية، ولما قيل له ﷺ في حجر إسماعيل قال: «لولا أن قومك حديثو عهد بكفر، لنقضت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم» فترك نقض الكعبة وإدخال الحجر فيها خوفا من الفتنة عليه الصلاة والسلام فأبقاها على حالها، وهذا من جنس هذا.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٢/ ٣٤٠): كثر كلام الناس، واختل حول قبر سيدنا الحسين أين مكانه، وهل يستفيد المسلمون من معرفة مكانه بالتحديد؟ .

فأجاب: الصواب أنه كان بالعراق جسده؛ لأنه قتل في العراق، أما رأسه فاختلف فيه فقيل في الشام، وقيل في مصر وقيل غير ذلك، والصواب: أن الذي في مصر ليس قبره، إنما هو غلط وليس رأس الحسين، وقد ألف في هذا بعض أهل العلم، وبينوا أنه لا أصل لوجود رأسه في مصر، ولا وجه لوجوده في مصر، وإنما الأغلب أنه في الشام؛ لأنه نقل إلى يزيد بن معاوية وهو في الشام، فلا وجه للظن أنه في مصر، بل إما أنه في الشام؛ في مخازن الشام؛ وإما أعيد إلى جسده في العراق، وبكل حال فليس للناس حاجة في هذا، ليس للناس حاجة أن يعرفوا رأسه أين دفن، وأين كان، إنما الدعاء له بالمغفرة والرحمة، غفر الله له ورضي الله عنه

قتل مظلوما، فيدعى له بالمغفرة والرحمة ويرجى له خير كثير، هو وأخوه الحسن، سيدا شباب الجنة، كما قال النبي ﷺ: فهو مظلوم له الأجر العظيم، وترجى له الشهادة، مع أنه وأخاه كما تقدم جاء فيهما الحديث عن النبي ﷺ: «أنهما سيدا شباب أهل الجنة » ومن عرف قبره وسلم عليه، ودعا له فلا بأس، كما تزار القبور الأخرى إنما يزار قبره إذا عرف، مثل بقية قبور المسلمين بالدعاء لهم، والترحم عليهم؛ لقول النبي ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة » فمن زار قبر الحسين أو الحسن، أو فلان أو فلان للدعاء لهم، والترحم عليهم والاستغفار لهم، كما يفعل مع بقية القبور هذا سنة، أما زيارة القبور لدعائها من دون الله، أو الاستغاثة بها أو التمسح بترابها، هذا من المنكرات لا يجوز ولا يبنى عليها، لا قبة ولا مسجد ولا غير ذلك؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وروى جابر في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «أنه نهى عن تجصيص القبور، وعن القعود عليها وعن البناء عليها » فالرسول ﷺ نهى عن تجصيص القبر، وعن القعود عليه وعن البناء عليه، فلا يبنى عليه قبة ولا مسجد، ولا غير ذلك ولا يجوز أيضا أن يجصص أو يطيب، أو توضع عليه الستور، كل هذا ممنوع ولا يصلى عنده، يقول عليه الصلاة والسلام: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » خرجه مسلم في صحيحه عن جندب بن عبد الله البجلي، وهذا يدل على أنه لا تجوز الصلاة عند القبور، ولا اتخاذها مساجد، لماذا؟ لأنه وسيلة للشرك ووسيلة لأن يعبد من دون الله، بدعائهم والاستغاثة بهم والنذر لهم، والتمسح بقبورهم، فلهذا حذر النبي من هذا عليه الصلاة والسلام، وإنما تزار القبور فقط

بالسلام عليهم والدعاء لهم، والترحم عليهم: الدعاء لهم لا دعاؤهم من دون الله، وإنما يدعى لهم غفر الله لك يا فلان، رحمك الله رضي الله عنك، كفر الله سيئاتك. أما إذا قال يا سيدي أنا بجوارك، أنا في حسبك اشفع لي، انصرني اشف مريضي، هذا منكر لا يجوز هذا من دعاء غير الله، من أنواع الشرك الأكبر نسأل الله السلامة.

الزيارة الشرعية جائزة، أما الزيارة البدعية التي تقصدها بالتمسح بالقبور أو دعائهم أو الاستغاثة بهم، هذا منكر لا يجوز مطلقا، والزيارة الشرعية تجوز لكن من دون سفر، من دون شد الرحل إذا كان في البلد نفسه زاره في البلد، أما أن يشد الرحل يسافر لأجل زيارة القبر، هذا لا يجوز؛ لقول النبي ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى».

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٣٤٢): هل جثة الحسين في العراق أو في الشام أو في مصر؟ .

فأجاب: المعروف أن جثة الحسين في العراق وليست في مصر، وليست في الشام، وإنما دفن في العراق والذي في مصر، ليس له أصل، وإنما هي دعوى لا حقيقة لها وأقبح من ذلك وأشد من ذلك دعاؤه والاستغاثة به والطواف بقبره، هذا من أعظم المنكرات والقبائح ومن الشرك الأكبر، فإن دعاء الأموات والاستغاثة بالأموات، والنذر لهم والتقرب إليهم، بالذبائح كل ذلك من المنكرات العظيمة، ومن الشرك الأكبر سواء كان المدفون الحسين، أو غير الحسين، وهكذا ما يفعل عند قبر البدوي، أو الست زينب، أو غير ذلك كله يجب تركه، وإنما تجوز الزيارة فقط، للميت ويدعى له بالمغفرة والرحمة،

سواء كان الحسين أو غير الحسين.

أما أن يدعى الأموات من دون الله ويستغاث بهم وينذر لهم، ويطلب منهم الشفاء أو النصر على الأعداء هذا كله من عمل الجاهلية، ومن عمل المشركين الأولين، من الشرك الأكبر، وهكذا الطواف بقبورهم، رغبة فيما عندهم من السر، كما يقول عبادهم من دون الله، كل هذا منكر عظيم، والطواف عبادة عظيمة لله، ولا يجوز إلا حول الكعبة المشرفة، القبور لا يطاف بها، ولا يسأل أهلها شفاء ولا نصرا على الأعداء، ولا غير هذا وإنما يزارون إذا كانوا مسلمين، ويدعى لهم بالمغفرة والرحمة، وفي ذلك عبرة وذكرى للزائر يذكر الموت ويذكر الآخرة، أما العبادة فحق الله وحده، هو الذي يدعى ويرجى سبحانه وتعالى، كما قال ﷻ: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}، وقاله سبحانه: {فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ}، وقال ﷻ: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا}، والآيات في هذا المعنى كثيرة، كلها تدل على وجوب إخلاص العبادة لله وحده وأنه هو الذي يدعى سبحانه، ويرجى ويخاف وهو الذي يتقرب إليه بالذبائح والنذور، وغير هذا من العبادات كما قال سبحانه: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي} يعني: قل يا محمد للناس، قل يا أيها الرسول للناس: {إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي} يعني ذبحي {وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}، وقال سبحانه يخاطب نبيه عليه الصلاة والسلام: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}، ويقول النبي ﷺ فيما رواه علي رضي الله عنه: «لعن الله من ذبح لغير الله».

فالواجب على جميع المسلمين التفقه في الدين وتبصير الجاهل وتعليمه، وهذا من حق العلماء ومن واجب العلماء، أن يبصروا الناس سواء كان ذلك

فيما يتعلق بقبر الحسين، أو غيره في مصر وغير مصر. الواجب على العلماء: علماء الحق، أن يبصروا الناس، وأن يعلموهم أن دعاء الأموات، والاستغاثة بالأموات والنذر للأموات أمر منكر، بل من الشرك الأكبر، وهكذا الطواف بقبورهم، أمر منكر، الطواف عبادة لله، ولا تفعل إلا عند الكعبة عند البيت الشريف في مكة المكرمة، فالقبور لا يطاف بها، ولا يدعى أهلها من دون الله، ولا يستغاث بهم ولا ينذر لهم، ولا يذبح لهم إلا إذا كانوا مسلمين، فإنه يسلم عليهم ويدعى لهم بالمغفرة والرحمة، هكذا كان النبي ﷺ يزور البقيع ويدعو لأهله بالمغفرة والرحمة، ويقول لأصحابه يعلمهم إذا زاروا القبور، أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».

هكذا كان النبي يفعل عليه الصلاة والسلام، وهذا هو السنة في زيارة القبور، أما قبور الكفار فلا يسلم عليهم إنما تزار للعظة والذكرى إذا زارها يتذكر الآخرة، يتذكر الموت لكن لا يسلم عليهم، ولا يدعو لهم، فقد زار النبي ﷺ قبر أمه، فلم يستغفر لها، نهاه الله أن يستغفر لها؛ لأنها ماتت على دين الجاهلية، فاستأذن ربه أن يستغفر لها، فلم يأذن له سبحانه وتعالى، وإنما أذن في زيارتها للعبرة والاتعاظ، وبهذا يعلم السائل أن ما يدعى من وجود الحسين، في مصر ليس له أصل عند أهل العلم، وإنما جثته كانت في العراق، وهو قتل في العراق، ويقال إن رأسه نقل إلى يزيد في الشام فلا يدرى أين هذا الرأس، هل دفن في الشام أو أعيد إلى محله في العراق، مع جثته الحاصل أن وجود جثة الحسين في مصر أمر لا أساس له.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٣٥٠): ما حكم من يطوف بالقبر ويدعو الله عنده؟ وهذا ألاحظه كثيرا في بعض الأماكن؟ .

فأجاب: الطواف عبادة لله عَزَّ وَجَلَّ، من أفضل العبادات ولكنه يختص بالكعبة، لا يطاف بغير الكعبة، ومن طاف بالقبور يريد التقرب إلى أهلها فقد أشرك، مثل من يدعوها ويستغيث بها وينذر لأهلها.

أما إذا طاف بالقبر يقصد التقرب إلى الله يحسب أنه جائز فهذا بدعة ومنكر، وعليه التوبة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه ما قصد صاحب القبر، وإنما قصد التقرب إلى الله يظن أنه يجوز، فهذا بدعة ومنكر وعليه التوبة إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يكون بهذا مشركا، إلا إذا قصد التقرب بالطواف للميت، ليشفع له، فهذا يكون مثل قوله يا سيدي أغثني، أو اشف مريضي، أو المدد المدد، كل هذا من الشرك الأكبر، أو ينذر له؛ أو يذبح له.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٣٥١): بجوارنا الكثير من الأضرحة والقبور المرتفعة، التي أوقدت عليها السرج وتذبح لها النذور من دون الله، ويحلف بأصحابها والعياذ بالله. فإذا ما تحدثنا للناس وبينا لهم بأن هذا شرك، وأن عليهم أن يتوبوا إلى الله، قالوا بأنهم وجدوا آباءهم على هذه الحال التي وصفت فماذا تفعل إزاءهم؟ وجهونا ووجهوهم، جزاكم الله خيرا؟ .

فأجاب: الواجب عليكم وعليهم السعي عند ولاة الأمور في إزالة الأبنية التي على القبور وتركها ضاحية شامسة كما كانت القبور في بلاد أهل السنة والجماعة، من قديم الزمان ولا يجوز البناء عليها، ولا اتخاذ المساجد عليها؛ لأن الرسول نهى عن ذلك عليه الصلاة والسلام قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، وقال جابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نهى

رسول الله ﷺ عن تجصيص القبور والقعود عليها والبناء عليها » ولا يجوز لأحد من الناس أن يدعوها من دون الله أو يستغيث بأهلها، أو ينذر لهم، أو يذبح لهم، أو يطلبهم المدد، أو يتبرك بتراب قبورهم، كل ذلك منكر ومن الشرك الأكبر نعوذ بالله.

الواجب تنبيههم، وليس لهم حجة في تقليد آبائهم. هذه حجة المشركين، قال الله جل وعلا عن المشركين لما نهاهم الرسول ﷺ عن عبادة الأصنام: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}، هذه حجة باطلة، حجة ملعونة خبيثة، فلا يجوز الاحتجاج بها، هذه حجة الكفرة، إذا وجدت أباك على باطل فلا تتبع أباك، أما إذا كان على حق، فالواجب الأخذ بالحق سواء كان عليه أبوك أو غير أبيك، وأما ما يفعله الناس اليوم عند القبور، من الدعاء والاستغاثة بأهلها، والذبح لهم والطواف بقبورهم، كل هذا منكر عظيم، كل هذا من عمل أهل الشرك من عباد الأوثان.

فالواجب على المسلم أن يحذر ذلك، وأن يحذره إخوانه وينذرهم، والواجب على العلماء في كل مكان أن يحذروا الناس وأن يرشدوهم وأن يوضحوا لهم حقيقة التوحيد، وحقيقة الشرك وأنه لا يجوز لأحد أن يدعو الميت من دون الله، ولا أن يستغيث به، ولا أن يذبح له، ولا أن يطلبه المدد، ولا أن يطوف في قبره، كل ذلك من الشرك الأكبر، كونه يطوف يتقرب إلى الميت بالطواف، هذا شرك أكبر. أو يقول: يا سيدي المدد المدد، أو الغوث الغوث، هذا من الشرك الأكبر، هذا من جنس عمل أبي جهل وأشباهه من عباد القبور، عباد الأصنام. فالواجب عليكم أيها السائل أن تستمروا في النصيحة والإنكار، وأن تطلبوا من العلماء أن ينبهوهم ويوضحوا لهم ويرشدوهم حتى يتركوا هذا

الشرك وحتى يزيلوا هذه الأبنية التي على القبور، وتبقى القبور ضاحية شامسة ليس عليها بناء. نسأل الله للجميع الهداية.

س: والدي سمع من العلماء أنه لا يجوز البناء على القبور، وفي مقبرة قريبة منا توجد فيها قبور عليها بناء من الذين يدعون بالصوفية، وأنهم يقولون: إنهم يضرون وينفعون، ولا يضر ولا ينفع إلا الله سبحانه وتعالى، ويزورها الناس يوم الجمعة، وأيام الأعياد، هل ما فعل والدي على حق، أم ننهاه عن ذلك جزاكم الله خيرا؟

ج: البناء على القبور لا يجوز، والواجب إزالته وعلى الدولة والحكام أن يزيلوه، أما الأفراد فليس لهم أن يزيلوه، إلا بإذن حتى لا يكون اصطدام وفتنة بينهم وبين المسؤولين، بل على ولاة الأمور، من الأمراء والقضاة، وعلى العلماء أن ينكروا هذا المنكر، وأن يزال؛ لأن الرسول ﷺ لعن من بنى المساجد على القبور، وقال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»؛ ونهى عن تجصيص القبور والبناء عليها.

فالواجب أن يزال البناء حتى تكون شامسة بارزة، كقبور المدينة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، وحتى لا يغلى فيها، فإذا بني عليها صار من أسباب الغلو فيها، وعبادتها من دون الله وتعظيمها التعظيم غير الشرعي، فلا يبنى عليها لا قبة ولا مسجد ولا غير ذلك، وإذا وجد بناء يرفع الأمر إلى ولي الأمر المسلم، وإلى العلماء حتى يزال بطريقة شرعية، ليس فيها فتنة ولا تعرض لمشكلات تضر المجتمع، والله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٣٦٥): إن لوالدتنا أقارب، يتقربون إلى ذوي القبور وتأكل من ذبائحهم، وطلبنا منها أن تتبرأ منهم، ولكنها لم

تستجب، فما هو توجيه سماحتكم، جزاكم الله خيرا؟ .

فأجاب: الذين يتقربون إلى أصحاب القبور بالدعاء أو الاستغاثة، أو الذبائح مشركون، لا تؤكل ذبيحتهم.

فالواجب ترك ذبيحتهم، والإنكار عليهم، ودعوتهم إلى الله وتوجيههم إلى الخير لعلهم يهتدون، الله سبحانه وتعالى حرم ذبيحة الكافر إلا أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى إذا ذبحوها لغير آلهتهم، وإنما ذبحوها للحم، وذكروا اسم الله عليها. أما عباد القبور، ودعاة الأموات، المستغيثون بالأموات، هؤلاء ذبيحتهم حرام. فالواجب الحذر من أكلها مع دعوتهم إلى الله وإرشادهم وتعليمهم لعل الله يهديهم بأسبابكم.

مسألة: قال العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (٢/ ٩٣٧): الكرامة في الجملة ما يجوز إنكارها، فهي ثابتة للمؤمنين الصالحين في كل زمان وفي كل عصر، ولذلك قال قائلهم من أهل العلم:

وأثبتن للأوليا الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

إلا أنه مع الأسف الذي وقع أن الناس غلو في حكاية الكرامات عن الأولياء والصالحين بحيث أنهم أصبحوا يروون كرامات هي لو تأملنا فيها إيهانات وليست كرامات، هذا مبثوث في بطون الكتب عرفها من درسها، لكن أصل الكرامة ثابتة في الكتاب والسنة، ففي القرآن مثلًا: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ} (آل عمران: ٣٧) فهذه كرامة من الله ﷻ للسيدة مريم، كانت تجد الطعام أو الثمار الطازجة الجديدة في بيتها دون يدٍ منها.

كذلك: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا} (مريم: ٢٥)

هذه أيضًا كرامة، ثم لم تزل الكرامات تترا وتُروى وبالأحاديث الصحيحة بحيث أنه لا يمكن الإنسان أن ينكر شيئًا منها لا فيما قبل ... ولا فيما بعد الرسالة، ففي زمن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وقعت كرامات متعددة لبعض الصحابة، كذلك وقعت لمن قبلهم.

فلعلكم تذكرون معي قصة الغار: الثلاثة الذين أووا في الغار، قال عليه الصلاة والسلام: بينما ثلاثة نفر ممن قبلكم يتمشون، إذا أصابهم المطر فأووا إلى غار في جبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم، فقال بعضهم: يا هؤلاء! انظروا أعمالًا عملتموها صالحةً لله فادعوا الله بها لعل الله يفرجها عنكم.

فقال أحدهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران وامرأتي، وكان لي صبية صغار أرعى عليهم، فإذا أرحت حلبت فبدأت بأبوي قبل بنيّ، فنأى بي ذات يوم الشجر، فلما أرحت حلبت كما كنت أحلب فجئتهما فوجدتهما قد ناما، فكنت على رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومها وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون من الجوع عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر.

أي: ظل قائمًا على رؤوس أبويه متحريًا أيوقظهما ليسقيهما قبل الأولاد؟ لا، في هذا إزعاج لهما، أيسقي الأولاد وهم يتضاغون .. يصيحون جوعًا؟ لا، هذا فيه تقديم لحق الولد على الوالدين فهو حيران، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، قال في تمام دعائه وتضرعه إلى ربه: فاللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء مرضاتك ففرج عنا منها فرجةً نرى منها السماء، فانزاحت الصخرة شيئًا قليلًا.

صخرة، معناها: جبل .. جبل انحط على فم غار، ما تحركها لو كان هناك آلات كالآلات التي ترونها اليوم ما تستطيع أن تحركها، لكن الله ﷻ القادر على كل شيء استجاب دعاء هذا المتضرع وحرك الصخرة شيئًا قليلًا حتى رأوا النور، لكن ما يستطيعون الخروج، حتى قام الرجل الثاني فقال:

اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، فطلبت منها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت لها مائة دينار، فلما وقعت بين رجليها قالت: يا عبد الله! اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها وتركت لها المائة دينار، فإن كنت اللهم تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء مرضاتك ففرج عنا منها فرجة، فتحركت الصخرة أيضًا شيئًا قليلًا، لكنهم لا يستطيعون الخروج.

حتى قام الرجل الثالث، فقال: اللهم إن كنت تعلم أني كنت استأجرت أجيرًا على فرق من أرز، فلما قضى عمله عرضت عليه فرقه فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرًا ورعًاء، ثم جاءني فقال: يا عبد الله! أعطني حقي، الفرق من الأرز ... ؟ فقلت له: انظر إلى تلك البقر فاذهب وخذها، قال: يا عبد الله! اتق الله ولا تستهزئ بي، إنما لي عندك فرق من أرز، قال: اذهب وخذها فإنما تلك البقر من ذاك الفرق، فذهب واستاقها، إن كنت اللهم تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء مرضاتك ففرج عنا ما بقي، ففرج الله عنهم ما بقي فخرجوا يتمشون.

هذه كرامة ومثلها الشيء الكثير والكثير جدًا.

في عهد الصحابة جاء بعضهم شغلوا عند النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى هزيع متأخر من الليل والليل ظلمة فكانت مع أحدهم عصا، فكانت تضيء الطريق أمامه عشرة أذرع كأن هناك قنديل مصباح منير حتى وصلوا إلى الدار،

فالكرامات الصحيحة لا يمكن إنكارها إطلاقًا، ولكن كما أشرت آنفًا توسع الناس في رواية الكرامات حتى صارت إهانات.

والمذكور في الكتب وبخاصة كتاب مع الأسف الشديد طبع عشرات المرات في القاهرة، اسمه: الطبقات الكبرى للإمام الشعراني، هذا الرجل يترجم لعلماء أفاضل يكفي أنه ترجم للعشرة المبشرين بالجنة ولكبار العلماء الذين جاءوا من بعدهم، ثم أَسَفَّ وانحط في التراجم حتى وصل إلى ترجمة البدوي وأمثال هؤلاء من المعروفين من الصوفية، فيروي عنهم أشياء هي كما قلنا: إهانات، بل هي كفريات، وهذا الكتاب مطبوع عشرات الطبعات.

يذكر في ترجمة أحدهم أنه قال: تركت قولي للشيء كن فيكون عشرين سنة أدبًا مع الله! هو بعينه يعني: وصل إلى مرتبة الألوهية، بل إلى مرتبة الربوبية، تركت قولي للشيء كن فيكون عشرين سنة أدبًا مع الله! أما قبل ذلك وبعد ذلك لم يكن متأدبًا مع الله فكان يقول للشيء: كن فيكون، هذا كفر وشرك في الربوبية، هذا ما كان المشركون يشركون به: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ} (لقمان: ٢٥) هذا يذكر أن هذا من الواصلين من كبار الأولياء.

كذلك يذكر قصة ذلك الرجل الذي رئي أنه يفعل الفاحشة في الحمارة على قارعة الطريق، فأنكروا ذلك عليه فقال: هناك سفينة في البحر تغرق فأنا سددتها، هذا مذكور في الكرامات يا جماعة! أشياء كثيرة وكثيرة جدًا، نعرض نضرب صفحًا عما في هذا الكتاب من سخافات بل كفريات باسم الكرامات ... كرامات الأولياء.

وأذكر لكم قصة وقعت في حلب: ... جاء رجل من إخواننا أهل السنة قدم

طلبًا ليكون إمامًا في مسجد من المساجد هناك، فمشت المعاملة كما هي المعتاد من دائرة إلى دائرة، وصلت إلى المفتي، المفتي أرسل خلفه ليمتحنه؛ لأن هناك كانت الدعوة التي نحن نسميها بالدعوة السلفية وهم يسمونها بالدعوة الوهابية، كانت سائرة والحمد لله في سوريا خاصة في دمشق ثم في حلب، وكان هذا المفتي بلغه عن هذا الرجل اسمه أظن: أحمد المصري، كان بلغه عنه شيء من الوهابية في زمنهم، فأخذ يسأله، قال له: ما رأيك بالكرامات؟ فأجاب بجواب مختصر: أن لها أصل في الكتاب والسنة، قال له: ما رأيك بالكرامة التالية-هنا الشاهد-:

حكى القصة .. سبحان الله! كيف وصل عقل بعض المشايخ إلى الانحطاط في الدرك الأسفل .. حكى له قصة خلاصتها: أن أحد الخطباء عندما يخطب يوم الجمعة كُشِفَ؛-لأن هذا من كبار الأولياء- كشف له أن أحد الحاضرين حاقن، تقولون: حاقن؟ طيب! لكن ماذا يفعل؟! المسجد غاص بالناس، وكيف يقوم هكذا بينهم، فالخطيب كل هؤلاء يعرفهم؛ لأن ربنا كَشَف، فذهب إليه ... إذا بالخطيب يمد جبته يقول هكذا، والرجل الحاقن انفتح أمامه طريق إلى حديقة .. دخل من كُمِّ الشيخ يعني: يوصل إلى حديقة، فقضى حاجته في الحديقة وتوضأ وعاد إلى مكانه ولا أحد يشعر بهذا؛ لأن الشيخ حواه بكرامته.

المفتي سأل صاحبنا: تصدق بهذه الحكاية أو الكرامة؟ قال له: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، هذه إهانة وليست كرامة، قال له: أنت لا تصلح أن تكون إمامًا، ومثل هذا كثير وكثير جدًا.

الآن يروى عن كرامات تقع في الجهاد في بلاد الأفغان، الكرامات التي تذكر الآن ما فيها غرابة .. ما فيها استنكار، لكن كل ما في الأمر أننا بحاجة إلى التثبت

من صحتها كرواية، فكون الشهيد يشم منه رائحة المسك ما في ذلك غرابة إطلاقًا، وكون ربنا ﷻ يعنى ببعض المجاهدين فتقع القنبلة بجانبهم ولا تنفجر فالله يدافع عن الذين آمنوا، كل هذا ممكن يعني، لكن تبقى القضية يخشى أن يكون فيه زيادة تساهل أنه لمجرد أن واحد يقص قصة نحن نلتقفها ونصدق بها.

فالذي أعتقده وأدين الله به أنه يجب على كل مسلم أن يؤمن بأن الله ﷻ يكرم بعض أوليائه الصالحين الصادقين في بعض كراماته الخارقة للعادة، ولكن ذلك لا يشترط أن يعلن كل مسلم كرامة، نحن نعلم مثلًا أن أفضل الناس بعد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هم العشرة المبشرين بالجنة، وأفضلهم الخلفاء الراشدون، ما أدري عن أحد منهم شيء من هذه الكرامات فليس من الضروري أن يروى عن كل مسلم صادق أنه رئيت منه كرامة، لكن أنه قد يمكن أن يقع يمكن هذا أن يقع، والمستند حينذاك إلى صحة الرواية، كما يذاع الآن من الكرامات التي تقع في أفغانستان ما أستبعد أن صحتها؛ لأنها مقبولة وفعلًا هي كرامة من الله ﷻ لبعض هؤلاء الشهداء أو المجاهدين، ولكن ترى هل صحت أم لا؟ تبقى القضية داخلة في علم الرواية، أما من حيث الإمكان فكما قلنا في أول الكلام:

وأثبتن للأولياء الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

السائل: طيب، يبقى العاصي في بعض الأوقات يدعون أنهم يشوفون ما يحدث له في القبر.

الشيخ: هذا ممكن، لعلكم سمعتم الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن العباس رضي الله عنهما: أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مر بقبرين فقال عليه الصلاة والسلام: «أما إنهما ليعذبان وما

يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما الآخر: فكان لا يستنزه- وفي رواية-: لا يستتر من البول، ثم أمر بأن يؤتى له بغصن فشقه شقين ووضع كل شق منهما على القبر، فسألوه عن ذلك عليه الصلاة والسلام فقال: لعل الله ﷻ يخفف عنهما ما داما رطبين».

فالرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- سمع عذاب هذين المعذبين، وكانا مسلمين لكن أحدهما يسعى بالنميمة والآخر: لا يستتر، أي: يتساهل في الكشف عن عورته أمام الناس، أو لا يستنزه من البول، أي: لا يتحاشى أن يصيبه رشاش البول، ولذلك عذبا، وقال عليه الصلاة والسلام: «استنزهوا من البول فإن أكثر عذاب القبر من البول».

كذلك جاء في الصحيح: «أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مر ذات يوم راكبًا دابته فشمست به، فنزل فرأى قبرين فسأل أصحابه الذين كانوا معه: متى مات هذان؟ قال: في الجاهلية، فقال عليه الصلاة والسلام: لولا أن تدافنوا لأسمعتكم عذاب القبر» أي: إن الدابة لما شمست به عليه السلام سمعت صوت عذاب المقبورين، فلا يستبعد أن يرى بعض الناس بعض العصاة في قبورهم يعذبون؛ لأن عذاب القبر حق، ولذلك أمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من قوله: «إذا جلس أحدكم في التشهد الأخير فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب جهنم، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال» فعذاب القبر حق يمكن أن يرى بالأعين العادية أفعى تنهش منه ... ونحو ذلك، لكن يبقى كل شيء خاضع لعلم الرواية صحت الرواية أم لا؟ الذي يحدث صادق أو مهول، كل هذا ممكن أن يقال، أما الأصل فثابت.

مداخلة: طيب يا شيخ في قصة أويس القرني، وقصة أبي مسلم الخولاني، مدى صحتها؟

الشيخ: أما قصة أبو مسلم الخولاني فصحيحة، ألست تعني لما ألقي في النار؟

مداخلة: نعم.

الشيخ: فهي صحيحة، وفيه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من جعل النار بردًا وسلامًا عليه كما جعلها على إبراهيم، أما قصة أويس القرني ماذا تعني؟

مداخلة: التي قال -صلى الله عليه وآله وسلم- لعلي وعمر: «إذا رأيتم أويس القرني فاطلبا منه أن يستغفر لكما» أو كما قال -صلى الله عليه وآله وسلم-.

الشيخ: صحيح هذا.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٣/ ٩٤٥): سمعنا من أحد المشايخ يقول: ما جاز أن يكون معجزةً لنبي جاز أن يكون كرامةً لولي.

الشيخ: يكفي أن نقول: أن هذا الكلام كلام لبعض المشايخ وانتهى أمره، ليس كلامًا لله ولا حديثًا عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، لكي نهتم بمعالجته أو ببيان تزييفه، وهو من جهة أخرى كلام باطل من أصله؛ ذلك لأن من معجزات النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هذا القرآن الكريم الذي هو معجزة المعجزات كلها، كما الإشارة كذلك في بعض الأحاديث الصحيحة، فإذا أخذنا تلك الكلمة على إطلاقها: ما كان معجزةً لنبي جاز أن يكون كرامةً لولي، فقد كان القرآن معجزةً لنبينا أفيجوز أن يكون ذلك كرامةً لولي من أتباع النبي -

صلى الله عليه وآله وسلم-؟! هذا مستحيل.

نعم! على طريقة غلاة الصوفية يمكن أن يكون ذلك، لكن ما بني على فاسد فهو فاسد، لقد جاء مع الأسف في كتاب ربما أعيدت طباعته أكثر من طباعة صحيح البخاري ومسلم، وهو الكتاب المعروف بطبقات الأولياء لعبد الوهاب الشعراني، لقد ذكر في هذا الكتاب طامات وبلايا كثيرة وكثيرة جدًا تتنافى مع أصول وقواعد الشريعة الإسلامية، وأنا أعجب كيف يطبع هذا الكتاب عشرات المرات، ويروج بين المسلمين ولا رواج الصحيحين، لقد جاء فيه ما يناسب جواب الكلمة السابقة أنه زار شيخًا له، فوقف عند الباب تحت نافذة وإذا به يسمع صوتًا يشبه كأن صاحبه يتلو من القرآن الكريم لكنه حينما أنصت وفهم ما يقرأ إذا به ليس شيئًا من القرآن؛ لأنه كان يعرف الآيات القرآنية، فيتميز مثله الكلام القرآني من الكلام البشري، قال: فلما انتهى الرجل من قراءته تأكدت أنه كان يتلو كلامًا إلهيًا غير القرآن الكريم لأنه قال: اللهم أوهب ثواب ما تلوته من كلامك إلى شيخي فلان وفلان كما هي عادته، هذا مذكور في طبقات الأولياء للشعراني.

فإذًا: يمكن أن يكون هذا الكلام نشأ من تلك الضلالة التي صارت عندهم قاعدة، ونبطلها بعقيدتنا الصحيحة أن هذه القاعدة قاعدة باطلة؛ لأنها تستلزم أن يكون كلام كالقرآن الكريم من رب العالمين أن يأتي به من ليس بنبي؛ لأنهم قالوا: ما كان معجزةً لنبي جاز أن يكون كرامةً لولي، وإذا هذا نجده منصوصًا عليه في كتاب الطبقات للشعراني هذا، لذلك لا يجوز أن يغتر مسلم بمثل هذا الكلام وحسبه أن يعلم أنه كلام ما أنزل به من سلطان.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٩٥٧): سؤالي في مجال الحديث

الذي ذكره الأخ الشيخ محمد بالنسبة للقصص والأحاديث التي ترد على ألسنة بعض الشيوخ، على سبيل المثال: القصة التي سمعتها والتي وردت على لسان الشيخ عبد الحميد كشك والتي أرى يعني فيها من التناقض الكبير من حيث أنه لا أستطيع أصدق أنها نسبت أو ذكرت حتى في التاريخ، يعني القصة يقولها كما ذكر هو: إنه بعض الناس كان يشرب من قِربة كان فيها خمر، فمر عليه عمر بن الخطاب أول مرة وعندما رآه هدده بأنه سوف يجلد إن رآه يشرب الخمر مرة ثانية، فمر عنه مرة ثانية مر عنه وهو عن مسافة فرآه الرجل رأى عمر بن الخطاب فدعا الله أن يحول الخمر إلى خل، نعم فعندما سأله عمر بن الخطاب ما الذي في القربة قال: إنه خل، فشمه عمر بن الخطاب فكان خلًا فهذا في رأيي فيه نوع من التناقض ومخالفة الفقه ... قصدي إنه كان على معصية، ويدعو الله أن ينجيه من المعصية وهو يفعلها، وأيضًا يذكر عن عبد الحميد كشك أيضًا أنه يروي أو يقول بعض الأحاديث الضعيفة والتي سندها يعني غير صحيح، وسؤالي بالنسبة للمجال هذا لأنه أعلم أن عبد الحميد كشك له تأثير كبير على الشباب اليوم ويذكر الأحاديث والقصص الضعيفة، فبدنا تعليقك على المسألة هذه؟

الشيخ: الحقيقة أن هذه القصة التي نقلتها عن الرجل أنا ما مرت علي لا في الأحاديث الصحيحة ولا في الحسنة ولا في الضعيفة ولا في الموضوعة ولا في التي لا أصل لها، وحقيقة أخرى مؤسفة أن الشيخ كشك هذا لا ينكر أن أسلوبه في التأثير على عامة الناس أسلوب عجيب لكن لا أعني أن هذا الأسلوب هو أسلوب مشروع لأنه يستعمل العاطفة وإثارة عواطف الحاضرين بمثل الأمر بالصلاة على الرسول زيدوه صلاة وأسمعوني إلى أخره، لكن في النهاية أسلوبه مؤثر، لكنه مع الأسف الشديد أنه قصاص وليس بالعالم وخاصة فيما يتعلق في

مجال الحديث النبوي، فهو حواش مع كونه قصاصًا، فهو يجمع ما هب ودب من الأحاديث ويعظ الناس بها ويذكرهم فيها، وهنا تدخل كسبب يحمل مثل هذا الواعظ على الانحراف قاعدةٌ مزعومة تذكر في بعض كتب مصطلح الحديث على أنه قاعدة مسلمة لا شية فيها، وأنه يجوز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، هذه الجملة مع أنها من المختلف فيها عند علماء الحديث هل هي مسلمة أم هي مرفوضة، والذي نتبناه نحن وذكرنا ذلك في أكثر من كتاب واحد أو رسالة واحدة أن المسلم لا يجوز له أن يتقرب إلى الله تبارك وتعالى بحديث يعرف ضعفه، هذا الذي نتبناه، لكن مع أن الذين تبنوا هذه القاعدة وضعوا للعمل بها شروطًا فلما أخل جماهير المتبنين من المتأخرين لهذه القاعدة انتشرت الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

لكن نحن لنا تجارب كثيرة وكثيرة جدًا مع الذين ينتمون إلى العلم إذا حدث أحدهم بالحديث وهو نعلم يقينًا لا يدري من أين جاء هذا الحديث ولا يدري أنه صحيح أو ضعيف لكنه إذا فوجئ بالإنكار عليه وقيل له: يا أخي أنت تروي هذا الحديث وهذا الحديث ضعيف رأسًا أجاب بالقاعدة المزعومة: لكن يعمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، لكن هذه القاعدة ليست على إطلاقها هل أنت تعلم أن هذا الحديث الذي رويته آنفًا هو حديث ضعيف؟ ما يعلم شيئًا من ذلك؟ إذًا قد أخل بالقاعدة لأنها وضعت لها شروط منها أن يعلم أن هذا الحديث حديث ضعيف حتى لا يختلط عليه الضعيف بالصحيح هذه القاعدة تساعد الوعاظ والقصاص والخطباء وو أن لا يتحفظوا في رواية الحديث عن الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ لأنه إن كان الحديث صحيحًا فالحمد لله، وإن كان الحديث ضعيفًا يعمل به في فضائل الأعمال.

فالشيخ المذكور ليس عنده معرفة بالحديث ولذلك يروي في قصصه وفي مواعظه ما هب ودب من أحاديث، فلا تستغرب أن يروي ما لا أصل له إطلاقًا من الآثار التي ليست لها صلة بحديث الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-.

قصة الخمر والخل وهذه مصيبة الدهر والبحث في هذا الحقيقة يطول وبخاصة أن بعض العلماء يستجيزون رواية ما هو أخطر من مثل هذه الرواية أنه هذا دعى الله أن يتحول الخمر المحرم إلى خل محلل، لكن ما بالك والقصص كثيرة وكثيرة جدًا بأن الشخص يشرب الخمر فينكر عليه بيقول هذا بيشرب من خمر الجنة ليس من خمركم بشيء، آخر يبيع الحشيش فيقول حينما ينكر عليه أنت تظن أنا أبيع حشيش مخدر أنا أبيع ضد الحشيش المخدر، وأن كل إنسان يشتري من عندي هذا الحشيش؟ فهو يقلع عن عادته في استعمال الحشيش المخدر، وبهذا عطلوا العقل وعطلوا الشريعة، وحسبكم في ذلك قولهم: هناك شريعة وهناك حقيقة، والحقيقة تخالف الشريعة، ولهم كلمات خطيرة وخطيرة جدًا.

ولعله يعني يحسن أن أذكر لكم قصة وقعت لي شخصيًا: خرجت كعادتي في طريقي إلى إخواننا إلى حلب واتخذنا في الطريق منزلًا بتنا فيه ليلة في قرية تبعد عن دمشق نحو ٦٠ كيلو متر اسمه دير عطية، ونحن سامرون فيها ساهرون بدل أن يطرق الباب- الدار على الجادة طبقة دنيا- فبدل أن يطرق الباب تطرق النافذة فيخرج رب الدار للنظر من هذا الطارق الغريب في طرقه، بدل أن يطرق الباب يطرق النافذة، ففوجئنا بصياح صاحب الدار مرحبًا بالطارق أهلًا وسهلًا بفلان، نحن بقى اشرأبت أعيننا إلى هذا الضيف الكريم االذي احتفى به صاحب الدار هذا الاحتفاء العظيم، دخل هذا الضيف المزعوم ففوجئت به كما فوجئ

هو بي، وأعني: الرجل حشاش، تارك صلاة، لا يصوم في رمضان، يشرب الدخان في رمضان، وهو ساند ظهره لزاوية من زوايا المسجد خارج المسجد وعيناه شاخصتان مصفرتان من تأثير الحشيش فيهما، فأنا فوجئت به من جهة أن هذا رب الدار الذي نحن ضيوف عنده عم بيرحب بحشاش بفاسق فاجر إن لم يكن كافرًا، فوجئ هو بي لأنه جارنا أنا دكانتي هناك كانت بجنب هذا المسجد فكل ما خرجت للصلاة وهو يحشش يشرب دخان طبعًا فيه الحشيش، كلما رآني جلس بعيدًا عني وأخذ يتظاهر بأنه مأخوذ يعني مجذوب أخذه الحال يعني يأخذ يركع ويسجد هكذا ويقول كلام بيقولوا عنه في الشام كلام مقطع يعني كلام شو بيقولوا في اللغة العربية جملة غير تامة شو بندورة حشيش بيض باذنجان ما في جملة غير تامة.

حينئذٍ عرفت بأن رب الدار يعتقد بهذا الإنسان أنه من كبار الأولياء فارتجلت كلمة افتتحتها بالآية الكريمة {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ-الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ -لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} (يونس: ٦٤) ما هي التقوى؟ ما هو الإيمان؟ تكلمنا في هذا الصدد ثم عرجنا على أمثال هذا الدجال؛ إن هذا ليس من الإسلام في شيء، وكرامة المسلم إنما هو إيمانه بالله وتقواه لله، هذا هو فقط سواء صدر منه كرامة حقيقية أو لا قال أحد المشايخ عندنا في دمشق.

إذا رأيت شخصًا قد يطيرُ ... وفوق ما البحر قد يسيرُ

ولم يقف على حدود الشرع ... فإنه مستدرج وبدعي

وما أذكر يعني شو تكلمنا بهذا الصدد لكن ضربنا هذا الاتجاه أن يؤمن بأن الرجل الفاسق الفاجر المتظاهر بأنه مسلوب هذا من كبار الأولياء، وإذا

بصاحب الدار بيقول يا أستاذ والله نحن في هذه البلدة -وهنا العبرة- في هذه البلدة كنا كما تقول إن الإيمان والتقوى هذا هو الإسلام، لكن جاءنا الشيخ فلان وقد درس في الأزهر الشريف عشرين سنة غاب عن القرية عشرين سنة ثم جاء يعظ الناس ويعلمهم في المسجد في السهرات إلخ، فكنا نسمع منه أكثر من مرة إن لله خواص في الأمكنة والأزمنة والأشخاص كلام مرجع، والحجر الذي ما بيعجبك بيفجك بيجرحك، الحجر الذي ما بيعجبك بيفجك، إذا شفت إنسان بيشرب خمر بيحشش بيجوز هذا يكون من كبار الأولياء الصالحين بس إياك ثم إياك أن تنتقد فتقع في مشكلة مع هذا الولي الصالح ثم روى لهم القصة التالية؛ قال: كان هناك شيخ محتسب يعني يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يخرج إلى الأسواق ومعه بعض الطلبة الحريصين على مصاحبة الشيخ، كلما رأى منكرا في السوق عند بائع عند بقال عند عطار ينصح ويذكر، حتى وقف عند بقال عندنا يقولون عن البقال عطار فرآه يبيع الحشيش لشخص فأنكر عليه وبالغ في الإنكار يا فاسق يا فاجر أنت تبيع ما يضر وما لا ينفع ووإلى آخره، بيقولهم الشيخ الأزهري فما أتم هذا العالم الفاضل الذي كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ما أتم كلامه إلا أصبح كالبهيمة لا يعقل شيئًا، الشيخ البقال تعرفونه من كبار الأولياء والصالحين ولذلك لما أنكر عليه هذا العالم الفاضل كان الشيخ سلبه وأخذ عقله ولبه، احتار أتباعه في حقه فأخذوا يسألوني معالجة المشكلة التي لا يعرفون لها دواء، من شخص إلى شخص من مكان إلى مكان حتى جاؤوا إلى شخص فقال لهم هذا الرجل ما يدلكم على مشكلته إلا فلان اذهبوا عليه فإنه ذو الجناحين؛ يعني: جمع بين شريعة وبين الحقيقة اذهبوا إليه، ذهبوا إليه، قالوا له القصة كذا وكذا، قال هذا البقال- وأنا باسميه الولي

الحشاش- هذا من كبار الأولياء والصالحين علاج شيخكم تأخذونه تسترضون هذا الولي الحشاش يرضى عن الشيخ يرجع الشيخ كما كان، ذهبوا إليه ذهبوا إليه وقالوا له يا سيدنا ما تآخذ الشيخ الشيخ مش عارف مقامك- يعني كما أرشدهم ذو الجناحين المزعوم الجامع بين الحقيقة وبين الشريعة- هكذا ما زالوا يسترضونه حتى رضي الولي الحشاش عن الشيخ العالم الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، ومثل واحد كان نائم صحي وأحسوا الجماعة إنه فعلًا كلام ذو الجناحين صحيح؛ أي: رجع الشيخ كما كان، الشيخ بدوره أخذ يعتذر للولي الحشاش إنه ما تآخذنا نحن ما عرفنا مقامك ومنزلتك عند الله ﷻ.

أين العبرة: قال الولي الحشاش لهذا العالم: أنت يا شيخ بتظن إن أنا أبيع الحشيش المخدر، أنا أبيع حشيش صورته صورة حشيش لكن أثره ضد الحشيش، فما أحد بيشتري من عندي إلا ويشفى من شرب الحشيش، هكذا يعطلون أحكام الله ﷻ وعقول الناس حتى يستعبدوهم ويخضعوهم.

ونحن نعرف مشايخ في دمشق في الشام ورجل في حلب يصرحون في دروسهم العامة في المساجد الكبيرة إذا رأيت شيخًا قد علق الصليب على رقبته فلا تنكر عليه؛ لأنه يرى ما لا ترى ويعلم ما لا تعلم، والدليل على ذلك اسمعوا القصة التالية:

كان هناك شيخ له أتباع مريدين، قال لأحدهم: تعال يا ابني اذهب إئتني برأس والدك، سمعًا وطاعًا، هكذا مُعَلَّم الولد إن الشيخ إذا أمر يجب إطاعته ولو بمخالفة شرع الله، راح الولد للبيت ففصل رأس أبيه عن بدنه وهو نائم بجانب زوجته وجاء إلى شيخه فرحًا مسرورًا، لماذا؟ لأنه نفذ أمر الشيخ، فتبسم الشيخ ضاحكا قال له كليشة قال له تظن أنت أنك قتلت والدك لا، يا ابني والدك

مسافر، أما هذا صاحب أمك، أنا بآمرك تقتل أبوك؟! حاشا لله لكن هذا صاحب أمك يزني بها ولذلك أنا أمرتك أن تقتله، الناس المساكين المخدرين بهذا النوع من الأفيون الذين لا يعرفون أصحاب الأفيونات فلما بيحدث الشيخ بهذه القصة هذه وبالنتيجة هذه بتلاقي المسجد ضج بماذا بالتكبير والتعظيم والله أكبر.

هذه القصة وقعت في رمضان من رمضانات السنين قبل عشر سنوات تقريبًا، وأنا هناك جاءني أحد إخواننا بعد ما صلينا التراويح في بعض المساجد المهجورة على السنة، وكنا يومئذ نجتمع في ابتداء الدعوة في دكاني وأنا أصلح الساعات، قال لي أتعرف ماذا حدث الشيخ فلان اليوم قلت له: لا، ماذا حدث؟ ذكر لي هذه القصة ونحن في هذا الحديث يمر شخص قريب صاحبي هذا ابن خالته بالضبط ويعرف بأبو يوسف هذا من مريدي الشيخ الذي حدث بهذه القصة.

الحقيقة يا إخواننا يجب أن نحمد الله ﷻ الذي عافانا من هذا النوع من الأفيون؛ لأنه هذا أخطر من الأفيون المادي؛ الأفيون المادي صحيح بيغيب بالإنسان ولكن مش كل الزمان، أما هذا الأفيون المعنوي ضايع مسلوب رايح، والدليل في تمام القصة مر أبو يوسف أمام الدكان فناداه صاحبي وهو ابن خالته يا أبو يوسف تعال؛ دخل، قال له ما رأيك في الدرس في الليلة درس الشيخ، قال له: ما شاء الله تجليات تجليات، أنا عندنا نكتة في الشام أوفي دمشق بصورة خاصة، في دمشق في محلة خاص بالنصارى اسمها باب تومة هناك صاحب دكانة واجهتين يبيع الخمر وفي اللافتة كاتب عليها: «تجليات بقلة»، بقلة هو النصراني صاحب الدكان ومسميها بغير اسمها كما هي العادة «تجليات بقلة»

فلما هؤلاء الصوفية بيسموها ما شاء الله يقولوا تجليات نحن بُنِتْبعَها «تجليات بقلة».

الشاهد ما شاء الله بيقول أبو يوسف تجليات بقلة، قال ما رأيك بالقصة هذه قال صحيح أنتم جماعة وهابية تنكرون كرامات الأولياء، هو ذاكر في مخه أن هذه كرامة، دخل صاحبنا وهو على قد حالة في العلم مثل ابن خالته أبو يوسف دخل معه في نقاش أنا جالس وراء الطاولة أصلح الساعات، شعرت بأنه ما في فائدة من الاثنين ما في نتيجة ما في ثمرة، قلت لا بد ما أنا أدخل في الموضوع قمت وجلست بجانبهما وأخذت أتكلم مع أبو يوسف وأقول له يا أبو يوسف، بارك الله فيك انتبه؛ القصة بتدلك أنها مركبة تركيبة عندنا بيقولوا على المصيبة تركيبة، أنت ما ترى كيف الشيخ بيقول هذه أمك وهذا الرجل ما هو أبوك فهو لأنه عم يزني بها أنا أمرتك أن تذبحه تقتله وهل أنا سآمرك تذبح أبوك؟! طيب هنا مبين إنه في جهل من ناحيتين: الناحية الأولى: أن هل لغير الحاكم المسلم أن ينفذ الحدود؟ لأنه يقع فتنة بين الناس، ثانيًا هل حد الزاني المحصن أن يفصل رأسه عن بدنه ولّا أن يرجم بالحجارة حتى يموت، وشيء ثالث وأخير: ولماذا أقام الحد على الزاني هذا الرجل ويمكن يكون غير محصن وترك الأم المزني بها كما هي، فمبينه أن القصة تركيبة وما تحتاج إلى نقاش يعني ما في فائدة {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} أخيرا قلت لا يوجد عندنا سلاح غير سلاح العاطفة ولا حول ولا قوة إلا بالله، قلت له: يا أبو يوسف الآن باختصار الآن لو أنه الشيخ شيخك اللي روى لكم القصة هذه أمرك بأنك تذبح أبوك تفعل؟ سؤال محرج جدًا، ما هو المفروض بالنسبة لواحد من عامة المسلمين إذا سُئل هذا السائل يقول: أعوذ بالله أنا أقتل أبي؟ عارف ماذا قال؟!، قال: أنا ما وصلت هذا

المقام ونفر وخرج وأنا خاطبته بلغتنا السورية قولتله: عمرك إن شاء الله ما تصل، هو يعتبر أن وصوله للمقام إذا أُمِرَ من قبل الشيخ اقتل أبوك اذبحه ما شاء الله وصل، هلّا هو لم يصل فنحن قلنا له عمرك إن شاء الله ما تصل، فلذلك العلاج هو الرجوع للكتاب والسنة وليس ما قال وقيل وحكاية وإلخ.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٩٦٥): بالنسبة لبعض الزوايا للصوفيين، يضربون على الدف ويستعملون الشيش، أي نعم، شو في هذا الحكم في هذه المسألة؟

الشيخ: .. الضرب على الدف كلهو من الملاهي حرام، لكن أشد من هذا الحرام إدخال هذا الحرام في العبادة، في الذكر لله عَزَّ وَجَلَّ، فهذا حرام لا يجوز؛ لأن الإتيان بالمعصية معصية، لكن أشد من هذه المعصية التقرب إلى الله تبارك وتعالى بها.

فهؤلاء الصوفيون أو الطرقيون الذين يرقصون في الذكر ويضربون عليه بالدف، بل بالطبل، هذا يصدق فيهم قول بعض أهل العلم:

متى علم الناس في ديننا ... بأن الغناء سنة تتبع

وأن يأكل المرء أكل الحمار ... ويرقص في الجمع حتى يقع

وقالوا سكرنا بحب الإله ... وما أسكر القوم إلا القِصَع

كذلك البهائم يرقصها ريها والشبع

فيا أولى للعقول ويا أولى ... للنهى ألا منكر منكم للبدع

تهان مساجدنا بالسماع ... وتكرم مثل ذاك البيع

وكما قال آخر:

أيا جيل ابتداعٍ شر جيل ... لقد جئتموا بأمر مستحيل

أفي القرآن قال لكم إلهي كلوا مثل البهائم وارقصوا لي

حاشاه.

فإذًا: الضرب على الدف أو الطبل في الذكر، هذا أشد تحريمًا من الضرب على الدف في اللهو؛ لأنهم يصدق فيهم قول الله ربنا ﷻ في كتابه: {الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} (الأعراف: ٥١).

وقال تبارك وتعالى في حق المشركين: {وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً} (الأنفال: ٣٥).

{وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ} عبادتهم لله {عِنْدَ الْبَيْتِ} الحرام.

{إِلَّا مُكَاءً)} صفيرًا، وأنتم ترون الشباب الآن كيف يصفرون، هذا إرث ورثه الكفار بعضهم من بعض، وكان المشركون في عهد الجاهلية في بيت الله الحرام يتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق.

{وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً} هكذا اليوم يفعل بعض المسلمين ممن عرفتم ذم فقهاء المسلمين لهم، وإنكارهم عليهم أشد الإنكار، حتى أفتى بعضهم بأن المكان الذي يذكر فيه هؤلاء الرقصة الأكلة، يجب أن يحرث؛ لأنه تلوث؛ أتي فيه بمعصية الله ﷻ، ذلك الذكر الذي زعموا أنه ذكر وإنما هو لهوٌ. " الهدى والنور" (٢٠/ ٢٦: ٠١: ٠١).

أما الضرب بالشيش، هذه مصيبة المصائب، أن يكون هناك مئات الألوف من المسلمين يتوهمون أيضًا هذا الإيذاء للنفس هو معجزة، هو كرامة لهؤلاء الناس الذين يزعمون أنهم على شي من الدين، وليسوا على شيء؛ لأن الدين هو اتباع ما كان عليه الرسول عليه السلام، ولم يكن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ولا أصحابه الكرام يذكرون الله بهذه الصفة، التي عرفتم شيئًا منها من

تلك الأشعار التي أسمعتكم إياها.

فهنا حرامان اجتمعا عند هؤلاء، الضرب على الدف في الذكر، وضرب هؤلاء الناس لأنفسهم بالشيش، وهذا إيذاء للنفس يقترن به تضليل للمسلمين، وإيهامهم أن هذه كرامة، والحقيقة هي ليست أولًا بكرامة، بل هي إهانة، ثم هي تمرين يستطيع أفجر الفاجرين أن يفعل فعلهم، يستطيع ذلك أن يفعل ذلك الكافر، الكافر الذي لا يؤمن بالله ورسوله، لماذا؟ لأنه تمرين، رياضة، وأنتم لعلكم جميعًا سمعتم بعض غرائب الهندوس الوثنيين الذين يدفن أحدهم على مرأى من شهود، بل وأطباء فحاصين، حضروا خصيصًا كيف يدفن هذا في الأرض، ثم يخرج حيًا، من أين يتنفس؟ هل معنى هذا الوثني؛ لأنه عاش تحت التراب أيامًا مش ساعات، ثم خرج حيًا، هذا من أولياء الله الكبار، حاشا لله ﷻ.

هذه تمارين ورياضة، والرياضة تأتي بعجائب الأمور، أنتم مثلًا ترون حوادث كثيرة وكثيرة جدًا، حبل ممدود على البحر، نحن لو مشينا [نمشي] على جسر ضيق، أما هو يمشي على الحبل، أيش هذه كرامة؟! مالها علاقة بالكرامة أبدًا، هذا هو تمرن، ويشترك فيه الصالح والطالح والمؤمن والكافر، وعلماء المسلمين قديمًا وحديثًا لهم تجارب مع هؤلاء الناس الذين لا يعرفون من دينهم سوى هذه التمارين التي اعتادوها ثم يُضلِّلون الناس بها، مع أن العلماء يقولون:

إذا رأيت شخصًا قد يطير ... وفوق ماء البحر قد يسير
ولم يقف على حدود الشرع ... فإنه مُسْتَدْرَجٌ وبدعي

لماذا قالوا؟ قالوا: لأن .. خوارق العادات تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- معجزة. ٢- كرامة. ٣- استدراج.

المعجزة: من النبي، والكرامة: من الولي، والاستدراج: من الكافر والمنافق.

لستم بحاجة لنتحدث عن المعجزات، فهي في الكتاب والسنة ما شاء الله كثيرة، والكرامات أيضًا .. كرامات الأولياء الصادقين الصالحين، فهذه والحمد لله أيضًا كثيرة، يقول تعالى: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا} (آل عمران: ٣٧)، هذه كرامة لمريم عليها السلام، وهناك كتب مؤلفة في هذا الصدد، ومن أحسنها كتاب ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ .. شو اسمه؟

مداخلة: ...

الشيخ: نعم؟

مداخلة: القاعدة في كرامات الأولياء ...

الشيخ: لا، لا ذكرونا باسمه يا جماعة.

مداخلة: الكرامة ومعجزات الأنبياء والرسل.

الشيخ: لا.

مداخلة: القاعدة في كرامات الأولياء[1].

الشيخ: الخلاصة، أما الحديث الذي ينبغي أن نتحدث عنه هو الاستدراج، لقد جاء في أحاديث كثيرة وصحيحة، بل ومتواترة أن الدجال الأكبر في آخر الزمان يقول للسماء: أمطري، فتمطر. يقول للأرض: أنبتي نباتك، فتنبت، يقول للخرابة -أرض خربة-: أخرجي كنوزك، فتخرج وتتبعه، يقطع الرجل قسمين بالسيف، ثم يعيده حيًا، هل هذه كرامات؟ هذه خوارق عادات، يجريها الله على [يد] هذا الدجال الأكبر الذي حدثنا عنه الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقال: «ما بين خلق آدم

---

(١) الظاهر أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما أراد كتاب: "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان".

والساعة فتنة أكبر من فتنة المسيح الدجال» فها هو هذا المسيح الدجال يأتي بهذه الخوارق والعادات.

فإذًا: الخارق للعادة ما يدل على صلاح أبدًا، الصلاح هو العمل الصالح؛ لذلك قال الشاعر السابق:

إذا رأيت شخصًا قد يطير أي: يطير بدون أجنحة، مش بالطائرة، فالكفار يطيرون وسبقونا بالطيران.

إذا رأيت شخصًا قد يطير وفوق ماء البحر قد يسير

ولم يقف عند حدود الشرع فإنه مُسْتَدْرَجٌ وبدعي

فهؤلاء الذين يضربون أنفسهم بالشيش، هذه تمارين، ومن أكبر الأدلة على ذلك: أنك إذا قلت لأحدهم، هات أنا بضربك بدبوس صغير، بيقول لك: لا، ليه إذا كان هو صاحب كرامة فعلًا، خليه يأتي كرامته لأي شخص بيريد يضربه في أي مكان، يقول لك: لا، ليه؛ لأن هو مش متمرن يضرب حاله هون في الصدر، في القلب، ولا هون .. ولا هون، وإنما هون، حيث العضل، حيث اللحم، ليس حيث الأعصاب وحيث العظام.

قلتُ آنفًا: لعلماء المسلمين على مر الزمان تجارب مع هؤلاء الدجالين، من أشهرهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ الذي تحدى شيخ الرفاعيين في زمانه، والمعروفين بالبطائحيين الذي كان يتظاهر بأنه يدخل النار ولا يحترق، فتحداهم، ووصل خبر التحدي إلى أمير دمشق يومئذ، فاستدعى شيخ الطريق، وشيخ الإسلام ابن تيمية، ليشوف كيف يتجادلان وماذا يفعلان في النهاية، فتكلم شيخ الإسلام بما عنده من علم، وأن هؤلاء من أشرار الخلق، من شرار الخلق، وأنهم لا علم ولا تقوى ولا صلاح، وإنما يدجلون الناس بأمور يشترك

في فعلها الصالح والطالح، والمؤمن والكافر، وقال في جملة ما قال: إن هؤلاء يدهنون أبدانهم بمادة خاصة، وثيابهم كذلك، فيدخلون التنور ولا تحرقهم النار، وأنا أتحداهم بشرط واحد، تأمر يا حضرة الأمير أن يخلعوا هذه الثياب وتأتيهم ثياب غسيل من عندك، وتأمرهم أن يغسلوا بالماء والخل أبدانهم، ثم يلبسون هذه الثياب البياض، وأدخل أنا حينذاك معه التنور، فمن احترق منا فهو الكاذب، فلما انكشف الأمر لذاك الدجال، نكث على عقبيه.

حوادث كثيرة وكثيرة، لعله من المفيد أن أذكر لكم قصة بسيطة جدًا وقعت بي أنا، وأنا العبد الفقير، كنت سافرت إلى حلب من دمشق في سبيل الدعوة، ألقينا الدرس وانفض الناس، ويبقى عادة أربع خمس هيك من إخواننا الأصدقاء، تأخر معهم شخص ما رأيته البتة قبل تلك الساعة، جالس هناك بعيد عني، وبطنه هيك، ما هو بالبدين، نحيل، مع ذلك كرشه هيك، قلت له: (ما) هذا يا رجل؟ قال: هذه الرحمانية، أنا لأول مرة أسمع كلمة الرحمانية هناك في حلب، قلت: إيش يعني الرحمانية؟ قال: يعني الشيش، قلت: يعني أنت جئت بي لماذا، أنا أعرف، قال: نوريكم كراماتنا، قلت له: الأمر سهل، كنت أحمل يومئذ موسى ذي نصلين، كل نصل هيك طوله صغير، منشان بَرَّاية القلم، قلت له: إذًا أنا أضربك بهذه الموسى بيدي، فقال: بيدي. يعني: هو بيضرب حاله بها الموس اللي بعطيه إياه بإيده، قلت له: لا بيدي، قال: بيدي. فالناس بدءوا يتفرجوا على هالكلمة التي تتكرر من الفريقين، أنا بقول: بيدي، وهو بيقول: بيدي، بيدي .. بيدي .. بيدي .. بيدي، وأنا بطبيعة الحال أَصْبَر منه، أولًا: محق، وثانيًا مضى علي ما شاء الله من سنين وأنا أدعو الناس أشكالًا وألوانًا إلى دين الله الحق، فَكَلَّ ومَلَّ، ولذلك طلع منه آخر كلمة: شو الفرق، أنا بقول له: بيدي،

وهو بيقول لي: بيدي بيدي، وبعدين مَلَّ وكَلَّ، وقال: إيش الفرق، قلت له: ما دام ما في فرق، فبيدي .. حول الموضوع رأسًا، وهذا من تجهيلهم، نادى صاحب الدار واسمه كمان أبو أحمد، قال له: يا أبو أحمد، هات المنقل، بتقولوا المنقل أنتم تبع الفحم، فهمت أنا ماذا يريد، قلت له: يا أبو أحمد، لا تجيب المنقل، هات الكبريتة. سبحان الله، كان هو من الصوفية بيعتادوا يحطوا حطة بيضاء بدون العقال، فجاء بالكبريت، شعلت كبريتة وقمت إليه، قلت له: ترجع عن دعواك هذه الباطلة، ولا بحرقك، مسكين، وجم، يعني خرس، ما يحكي ولا كلمة، وأنا أتقدم إليه خطوة خطوة حتى اقتربت منه فعلًا حطيت الكبريت في ... في الحطة تبعه، وبدأت تلتهب، ثم أخذتها هيك فركتها، خشية إنه يزداد الشرر، عملتها هيك، قلت: روح بقى لعند الشيوخ تبعكم، قلهم هاي كرامات السلفيين.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٩٧٢): سؤال: نريد الطريقة السلفية للإنكار على المشعوذين؟

الشيخ: الطريقة السلفية معروفة: وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف، فيقال لهؤلاء: من سلفكم في هذا؟ سلفهم أمثالهم من الدجالين، أنا قلت لبعض إخواننا أن هؤلاء لا يفهمون الأدلة ولو فهموها ما رجعوا إليها، لأن ما هم عليه هو ما وجدوا عليه الآباء والأجداد، هم بلا شك من الناحية الفقهية يدَّعون المذهبية، فكل منهم ينتسب إلى مذهب من المذاهب الأربعة المتبعة اليوم، لكن هذا في الحقيقة اسمًا وشكلًا، أما حقيقةً وواقعًا فلا أحد منهم يتقيد بالأحكام الشرعية، لكن لو سألتهم: ما مذهبك؟ سيقول: أنا حنفي أو شافعي حينئذٍ يقال له: هل إمامك الشافعي قال بجواز هذا العمل؟

هناك خطتنا نرجع إلى السنة وإلى السلف، لكن هؤلاء ما يفقهون هذه الخطة المثلى، لكن هم إذا ما أعوزهم الأمر رجعوا للاحتجاج عليه بالأئمة، وقالوا لنا: أنتم خامسية وأنتم وهابية وأنتم .. فإذًا: نحن نخاطبهم بلغتهم، أولًا نقول لهم: من سلفكم في هذه الأعمال التي تأتون بها؟ ثم القضية تحتاج إلى نوع من الاختبار والامتحان العملي ... بعضهم رأى من يضرب نفسه بالشيش، هذه القضية معروفة منذ مئات السنين عن هؤلاء وأنهم جريئين جدًا في أن يطعنوا أنفسهم بأيديهم، لكنهم هم في الواقع كما يقال أحدهم يعرف كيف تؤكل الكتف، هو يعرف [كيف يضرب] نفسه بنفسه ولذلك تعود القضية إلى أمرين رياضة وممارسة فتقلب عليهم القضية ويطلب منهم أن يُطعن من أحدكم مثلاً وليس بالشيش وإنما بالموس الصغير، ... فهؤلاء يجب أن ينبهوا بخطوة عملية تبين للناس أنهم يدجلون فعلًا؛ لأن الحجة العلمية ما تفيدهم.

ولوالدي سابقة وتجربة مع بعض هؤلاء الطرقيين ثم جرت لي أيضًا حادثة: كان هناك في بلدنا الأصيلة ألبانيا .. كان هناك شيخ نقشبندي كان يأتي بمثل هذه الدعاوى الباطلة مما يدعونه بأنهم .. وأنه يفعل ويفعل ويطعن حاله بالشيش فأبي تحداه رَحِمَهُ اللهُ وقال له: أنا رجل فقير لا أملك إلا هذه الدار فمع ذلك فهي لك إن بقيت في قيد الحياة إذا ما مكنتني من أن أطعنك بهذه الموسى الصغيرة بدل الشيش الكبيرة فأبى، والسر في هذا معروف أنهم يُطعنون من أبدانهم في أماكن يعرفون أنها غير قاتلة.

وكذلك وقعت لي حادثة منذ عشر سنوات في حلب التي هي في شمال دمشق، وكان من عادتي أن أسافر إليها في سبيل الدعوة كل شهر أيامًا، فبعد أن ألقيت الكلمة أو المحاضرة وانفض الناس عادةً يتخلف ويتأخر بعض الإخوان

المقربين، ثلاثة أربعة لكن بقي أحدهم ما رأيته حتى في الجلسة ما تنبهت له، لأن الجلسة تكون عامرة لكن لما انصرفوا بقي ثلاثة أربعة ممن نعرفهم فهو برز أمامي بشخصه المجهول عندي، ثم لفت نظري شيء ناتئ هكذا، وهو نحيف وليس بدين مثلي .. مع كونه نحيل بطنه خارج، ما هذا يا أخي؟ قال: هذه الرحمانية ولأول مرة أسمع بها، قلت له: ما معنى الرحمانية؟ قال: يعني: الشيش، فهمت حينئذ أنه صوفي، قلت له: تريد تورينا بشيشك كرامة؟ قال: نعم، وسبحان الله! يومئذٍ كنت أحمل موسى كموسى والدي موس صغير له طرفين، قلت له: لا تحتاج إلى شيش ... لكن ما رأيك أن أضربك بهذه الموسى بيدي؟ قال الخبيث: لا، بيدي، قلت له: لا، بيدي، وما يسمع الحاضرون إلا هذه الكلمة تتكرر من كلينا، هو يقول: بيدي، وأنا أقول: بيدي، بيدي بيدي حتى أزعجته وأمللته، قال: ما الفرق؟ قلت له: ما دام ما في فرق فبيدي، بهت الرجل ولف ودار في الكلام ونادى صاحب البيت، قال: يا أبو أحمد! هات المنقل،- تبع الفحم- فهمت أنا ما يريد، قلت له: تريد أن ترينا كيف النار لا يؤثر فيك؟ قال: نعم، قلت له: يا أبو أحمد! لا تأتي بالمنقل ائت فقط بكبريت، سبحان الله! ما أسرع ظهور الباطل!

أتى بكبريت الرجل فهو واضع حطة هكذا .. هو بعيد قليلًا عني فقمت إليه، هو جالس في مقعده ...، أشعلت الكبريت وقلت له: سترجع عن ادعاء الباطل أو أحرقك، مسكين وجهه وجم فما نطق ولا بكلمة، كيف؟ أبدًا ما يتكلم، فبدأت أحرق الحطة تبعه فعلًا، التهبت "ففركتها" عملت لها هكذا وأصبحت هكذا فجوة وقلت له: اذهب إلى شيخك وأريه كراماتنا نحن.

هؤلاء الجماعة يريدون هكذا؛ لأن القضية قضية تمرين ليس قضية فيها أولًا

كرامة حتى قد يكون سحر أحيانًا لكن هذه ليست [سحرًا] هذه كلها تمارين، ربنا ﷻ كان ألهم أحد مشايخ الطرق في حلب .. ما ندري هو بإخلاص .. هو بهدف ما ندري ماذا كان هو؟! أصبح سلفي [انقطاع] أنه تحمله الملائكة .. خفيف تحمله الملائكة بأن يلقي في الطبل الذي يدق عليه من أجل أن يجمعوا الناس والحقيقية يريدون أن يجمعوا الشياطين التي تعينهم على المنكر، فيرموا هذا الطبل على الأرض ثم يقف هو على الطبل فلا ينبعج الطبل؛ لأنه تحمله الملائكة هكذا يوهمون الناس.

يقول هذا الرجل ولا أزال أحفظ اسمه .. اسمه حسن ويقول الأرنؤوط يعني من بلادنا ... حسن الأرنؤوط شيخ طريقة يتظاهر أنه سلفي قال: أتى مرة شيخ طريقة شاب إلى حلب وأصبح يجمع الناس في الساحات في حلب ويعملوا ذكر، حلقة الذكر على طريقتهم فالحلقة تستدعي إذًا أنه يرمي هذا الطبل ويقف عليه ويشوفه الناس كيف أنه ما هوى به الطبل، أراد هذا لكن ربنا خذله ما كاد يقف إلا انبعج الطبل وهبط .. صاحبنا موجود وفي إبان مشيخته، قال له: اذهب أنت لم تَصِلْ بعد، أتى وقلب الطبل على الوجه الثاني ووقف فصفقوا له الناس، يعني: هذا ابن طريق وابن شيخ وهكذا، قال لي: ما الحيلة في هذا؟ القضية ما فيها شيء إلا نوع من التمرين هذا الشيخ الصغير ليس متمرن بعد .. الحيلة في ذلك أنه الذي يريد أن يعمل العملية يضع الكعب تبع القدم يضعه على حرف الإطار تبع الطبل وبقية القدم [على] الجلد وبذلك لا يصير شيء .. هذا الرجل باعتبار أنه غير متمرن أتى بالكعب تبع القدم على الجلد فهوى به، وهكذا حكى لنا أشياء كثيرة وكثيرة جدًا كلها تدور حول أمور عادية تمامًا لكن تحتاج إلى تمرين وإلى نوع من الرشاقة والخفة.

أتى مرة ونحن في دمشق من ألبانيا بعض الشباب، ليس بالشباب الصالح، أرادوا أن يذهبوا للحياة في سوريا لعله أحسن من هناك وإذا به يفعل بعض هذه الأفاعيل التي يرتكبها الطرقيون، من جملتها يأكل الزجاج ويومئذ لم تكن الكهرباء هذه انتشرت في البلاد، كانت القناديل هذه تبع الزيت والفتيلة، واللمبة صنع البلد، فيأخذ اللمبة هذه [أمام] الناس ويعض عليها، نحن عندما نسمع جسمنا ماذا؟ يتقزز، يقرطها هكذا بالأسنان ويبلعها، أخي أكبر مني بسنتين توفي إلى رحمة الله، اسمه أبو أحمد يمكن بعض إخواننا أبو أحمد يعرفه، تمرن وأصبح هو الآخر يأكل زجاج لكن ليس بنفس الدعوى التي يدعيها الطرقيون.

يعني في قضايا تحتاج إلى نوع من الجرأة والممارسة، وهؤلاء الجماعة هكذا لا يغلبون إلا بأن يُؤتون على عكس ما يدعون هم، أما قضية حجة .. كتاب .. سنة .. أئمة .. علماء، لا يفهمون شيئًا من هذا إطلاقًا، لذلك فلازم نعرف كيف نجابهم ونعارضهم.

مداخلة: نقول لهم: ما دمتم أولياء .. الولي ما يحتاج إلى مقدمات من الطبل والأناشيد .. فجربوا .. أثبتوا كرماتكم بدون الطبل مثلًا ..

مداخلة: يقول لك: هذه الحضرة، لا تصبح كرامة إلا بعد الحضرة حتى يتقربوا ويصلوا .....

[كلام غير واضح يحكي فيه الحضور بعض ما يفعله الدجالون].

الشيخ: هذه من ... المصريين ... قضايا، ... ناس عندنا في دمشق يعمل حلقة هكذا يأخذ له ... ورق سورية خمسين ليرة .... على مشهد من الناس وبعد ذلك يرجعه، لا شك أن هذا من أنواع السحر، كما قال تعالى بالنسبة لسحرة فرعون: {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}

(الأعراف: ١١٦) نعم، كذلك يأخذ الخاتم من يد إنسان وإذا به أصبح في يد إنسان آخر، أشياء غريبة جدًا مع أنه رجل لا خلاق له، يمكن أنه لا يصلي ولا يصوم وإلى آخره، ولكن الفارق بين هذا أنه يتخذها مهنة .. أولئك يتخذونها كرامة وولاية.

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في فتاوى نور على الدرب: ما هي صفات الأولياء أولياء الله وكيف يكون المسلم وليًا لله عَزَّ وَجَلَّ؟.

فأجاب: أولياء الله تبارك وتعالى هم الذين تولوا أمره وقاموا بشريعته وآمنوا به جل وعلا وكانوا من أنصار دينه وقد بين الله ذلك في قوله (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (يونس: ٦٢) فهؤلاء هم أولياء الله الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره آمنوا إيمانًا تامًا ويقينًا صادقًا وكانوا يتقون يتقون معاصي الله فيقومون بالواجب ويَدَعون المحرم فهم صالحون ظاهرًا وباطنًا وما أجمل العبارة التي قالها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ (من كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا) ومن ولاية الله الحب في الله والبغض في الله بأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ويبغض المرء لا يبغضه إلا لله وأما ما يذكره بعض الناس الذين يدّعون أنهم أولياء وهم فسقة فجرة فهذا كذب وخداع وقد يُجري الله على أيدي هؤلاء من خوارق العادات ما يكون به فتنة والخوارق هذه التي تأتي لغير الأولياء إنما هي من الشياطين تأتي للمرء بأخبار الناس أو تحمله في الهواء أو ما أشبه ذلك ويقول هذا من ولاية الله وكل من ادعى ولاية الله ودعا الناس إلى تعظيمه وتبجيله فليس من أولياء الله لأن هذا تزكية للنفس وإعجاب بها وتزكية النفس من المحرمات قال الله تبارك وتعالى (فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى) (النجم: من الآية٣٢) أي لا تدّعوا

زكاءها قد يدعي الإنسان أنه زكي أو يتصور أنه زكي وهو ليس كذلك وأما قوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) فليس المراد من زكاها بلسانه وقال إنه زكي أو اعتقد زكاءه بقلبه وإنما المراد بقوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) أي فعل ما به تزكو نفسه وإنني بهذه المناسبة أحذر إخواني الذين عندهم من يدعي الولاية وهو أبعد الناس عنها لمحادته الله ورسوله فليحذر إخواني من هؤلاء وأمثالهم أهل الشعبذة واللعب بعقول الناس فإنهم لا ولاية لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: في هذا الزمن كثر من يدعي أنه من أولياء الله بحقٍ أو بغير حق فهل هناك تحديدٌ أو صفاتٌ معينة بأولياء الله لكي نفرق بين الولي والدجال نرجو الإفادة جزاكم الله خيرا؟.

فأجاب: نعم هناك تحديدٌ لا تحديد أوضح منه ولا أبين منه وهو ما ذكره الله في قوله (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فهؤلاء هم أولياء الله الذين جمعوا بين الإيمان الحقيقي في قلوبهم والتقوى الحقيقية في ظواهرهم فهم أصلحوا البواطن والظواهر فإذا رأيت الإنسان مؤمنًا بالله والإيمان له علامات ظاهرة متقيًا الله فهذا هو الولي وإذا رأيته دجالًا كذابًا فهذا ليس بولي وإن ادعى الولاية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: أسمع عن الأولياء وأسمع عن الكرامات التي تحصل لبعض الأتقياء فهل لكم أن تحدثونا عن صحة ذلك مأجورين؟.

فأجاب: أولًا يجب أن نعلم من هم أولياء الله فنقول أولياء الله تعالى من ذكرهم الله في قوله (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فمن كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا سواءٌ أشهره العامة وزعموه وليًا أم كان خفيًا على الناس لا يحب أن يظهر فالولي هو المؤمن التقي هذه واحدة

ثانيًا هل لكل ولي كرامة والجواب لا ليس لكل ولي كرامة بل من الأولياء من يعطيه الله تعالى كرامة محسوسة يشهدها بنفسه ويشهدها الناس ومن الناس من يجعل الله كرامته زيادة إيمانه وتقواه وهذه الكرامة أعظم من الكرامة الأولى الحسية لأن هذه الكرامة أنفع للعبد من الكرامة الأولى إذ أن الكرامة الأولى سببٌ لزيادة الإيمان والتقوى وأما زيادة الإيمان والتقوى فهي الغاية ولهذا نجد أن الصحابة رضي الله عنهم تقل فيهم الكرامات بالنسبة للتابعين لأن كرامات الصحابة في زيادة إيمانهم وتقواهم والتابعون ليسوا مثل الصحابة في ذلك ولهذا كثرت الكرامات في عهدهم أكثر من الكرامات في عهد الصحابة رضي الله عنهم والكرامات إما أن تكون في العلوم والمكاشفات وإما أن تكون في ظهور التأثيرات والقدرات فأما الأول فكأن يكشف للإنسان عن شيء لا يعلمه غيره كما ذكر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يخطب الناس يوم الجمعة على منبر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فسمعه الناس يقول الجبل يا سارية الجبل يا سارية فتعجبوا من ذلك فكان الأمر أن أحد القواد حوصر في مواجهةٍ بينه وبين أعدائه فكشف لعمر رضي الله عنه، عنه وهو على المنبر فخاطبه يقول الجبل يا سارية فسمعه القائد فانحاز إلى الجبل فهذا توجيه من القائد الأعلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قائد السرية أو الجيش من مكانٍ بعيد وسمعه وليس في ذلك الوقت تلفونات هوائية ولاسلكية ولكنها قدرة الله عز وجل هذه كرامة في المكاشفات كشف الله له ما لم يكن لغيره ومن ذلك أيضًا الكرامة في القدرة بأن يجعل الله تعالى للإنسان قدرةً لم تكن لغيره ومن ذلك ما يذكر في غزوات سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه كان يغزو الفرس فيفتح الله عليه بلادهم بلدًا بعد بلد حتى وصل إلى نهر دجلة فلما وصل إلى النهر وجد أن الفرس قد أغرقوا السفن وكسروا

الجسور وهربوا إلى الجانب الشرقي من النهر فتوقف سعد رضي الله عنه ماذا يصنع فدعا سلمان الفارسي رضي الله عنه وكان ذا خبرة في أحوال الفرس وما يصنعونه عند القتال فاستشاره أي أن سعدًا استشار سلمان الفارسي ماذا يصنع فقال له يا سعد ليس هناك شيء يمكن أن نصنعه إلا أن ننظر في الجيش هل عندهم من الإيمان والتقوى ما يؤهلهم للنصر أو لا، فدعني أسبر القوم وأنظر حالهم فأمهله سعد فجعل يذهب إلى الجيش ويتفقد أحوالهم وينظر أعمالهم فوجدهم رضي الله عنهم بالليل يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا وفي النهار يصلحون أحوالهم ويستعدون للقتال فرجع بعد ثلاثٍ إلى سعد بن أبي وقاص وأخبره الخبر وقال إن قوم موسى ليسوا أحق بالنصر منا فقد فلق الله لهم البحر وأنجاهم من فرعون وقومه ونحن سوف نعبر هذا النهر بإذن الله فأذّن سعدٌ رضي الله عنه بالرحيل والتقدم إلى النهر وقال إني مكبرٌ ثلاثًا فإذا كبرت الثالثة فسموا واعبروا ففعلوا فجعلوا يدخلون الماء كأنما يمشون على الصفا خيلهم ورجلهم وإبلهم حتى عبروا النهر وهو يجري يقذف بزبده فلما رآهم الفرس قال بعضهم لبعض إنكم لا تقاتلون إنسًا وإنما تقاتلون جنًا فهربوا من المدائن وهي عاصمتهم حتى دخلها المسلمون وفتح الله عليهم هذه كرامة قدروا على أمرٍ لا يقدر عليه البشر بمقتضى قدراتهم حيث خاضوا الماء والنهر يمشي هكذا ذكر المؤرخون هذه القصة هذه كرامة في القدرة وقصة عمر كرامة في المكاشفات أن الله يكشف له ما لا يدركه غيره، وتكون الكرامة في العلم بأن يفتح الله على الإنسان من العلم ما لا يفتحه على غيره ومن هؤلاء فيما نظن ما فتح الله به على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من العلم العظيم العلم بالنقل والعلم بالعقل حتى إنك لتكاد أن تشك في هذه القدرة العظيمة التي أقدره الله عليها وفتح الله عليه من العلم ،ومن الكرامات ما حصل

لمريم عليها السلام حين حملت بعيسى بن مريم ﷺ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة فجلست إلى هذا الجذع وقالت (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) قال هزي إليك وهي امرأة ماخض تهز بجذع النخلة فيهتز فرعها ومن المعلوم أن الهز بجذع النخلة حسب العادة لا يمكن أن يهتز به فرع النخلة لكن اهتز فرع النخلة وتساقط منه الرطب والنخلة لا شك أنها فوق قامة الإنسان لأنها لو كانت بقدر القامة لتناولت الرطب بيدها هذا من آيات الله وهو من كرامة مريم عليها السلام.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: نسمع عن الكرامات لبعض الناس ونسمع كثيرا في بلدنا عن هذا الموضوع بأن هذا الرجل من أولياء الله الصالحين فما حكم ذلك أيضا؟.

فأجاب: الكرامات خوارق للعادة يجريها الله عَزَّ وَجَلَّ على يد الرجل الصالح تكريما له أو إقامة دليل على أن ما عليه فهو حق فالكرامات إما لمصلحة الشخص نفسه أو لمصلحة الدين ولكنها لا تكون إلا للأولياء المتقين قال الله تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فهذا هو الولي الذي قد يظهر الله على يديه من الكرامات ما يدل على صدقه وصحة منهجه وهذه الكرامات موجودة في الأمم السابقة وموجودة في هذه الأمة ولاتزال موجودة فيها إلى يوم القيامة فمن الكرامات للأمم السابقة ما جرى لمريم بنت عمران حينما حملت بعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ

النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) فأنت ترى هذه الكرامة امرأة في فلاة من الأرض حامل أتاها المخاض يسر الله لها هذا الطعام والشراب (قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) وفي الطعام قال (هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) امرأة نفساء والمرأة ضعيفة تؤمر بأن تهز بجذع النخلة لا في رأسها والهز بالجذع لا يحرك النخلة لكن كرامة لها تحركت النخلة ثم لما تحركت تساقط الرطب رطبا جنيا لم يتأثر بسقوطه على الأرض مع أن الغالب أن الرطب إذا سقط من أعلى فإنه يفسد يتمزق بسقوطه على الأرض لكن هذا الرطب الذي تساقط على مريم تساقط عليها رطبا جنيا لم يتأثر بالأرض ولم يتمزق بها (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا) يعني كلي واشربي قريرة العين من غير خوف ولا حزن هذا من الكرامة، ومن الكرامات في الأمم السابقة ما جرى لأصحاب الكهف فتية آمنوا بربهم كرهوا ما عليه قومهم من الشرك بالله ﷻ خرجوا عن البلد فآووا إلى غار وناموا به أتدري كم ناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا وهم نيام لا يحتاجون إلى أكل ولا إلى شرب ولا إلى بول ولا إلى غائط ولم تتمزق ثيابهم ولم تنم شعورهم ولا أظفارهم بل بقوا على ما هم عليه كل هذه المدة يقلبهم الله تعالى ذات اليمين وذات الشمال لئلا يتحجر الدم على اليمين إن بقوا على اليمين دائما أو على اليسار إن بقوا على اليسار دائما ثم إنهم في كهف (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ) فلا تدخل عليهم الشمس فلا يسخنون لا يفسدون من الحر ولا البرد وهذه آية من آيات الله ﷻ كرامة من كرامات الله ومن الكرامة كرامات هذه الأمة ما يذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أرسل سرية إلى العراق وعليها رجل يقال له سارية بن الجمير فحصره العدو فكشف لعمر بن الخطاب وهو يخطب الناس يوم

الجمعة عن حال هذا القائد فسمعه الناس يقولون الجبل يا سارية الجبل يا سارية فسمع ذلك سارية فانحاز بالناس إلى الجبل فسلم وصارت العاقبة للمسلمين يقول: فأنت ترى الآن كرامة واضحة بالنسبة لعمر وبالنسبة لسارية، عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلم الرجل سارية وسارية سمع كلامه وليس هناك هاتف ولا برقية ولكنها قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ وإذا أردت أن تعرف هذه الكرامات فراجع كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ الكتاب المسمى الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وليعلم أن كثيرا ممن يدعي الولاية اليوم تكون دعواه كذبًا لأنك إذا فتشت عن حاله وجدته من أعداء الله لا من أولياء الله فكيف يدعي أنه وليٌ لله ونراه يجري على يديه الكرامات فإن قال قائل نعم إنه تجري على أيديهم خوارق قلنا هذا من أعمال الشياطين تعمل لهم الخوارق من أجل أن يضل الناس بغير علم بل من أجل أن يضل الناس عن علم ولهذا نقول إن الكرامة لا تكون إلا لولي والولي بينه الله عَزَّ وَجَلَّ في قوله (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فأنت إذا أردت أن تزن الرجل وهل هو ولي أو عدو فعليك بهذه الآية (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فإذا كان مؤمنا تقيا فهو ولي وإلا فهو دعي وليس بولي.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: يوجد لدينا في السودان فئة من الناس تسمي نفسها أهل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذه الفئة تقوم بأعمال لا أصل لها في الشرع حيث أنهم يزعمون أنهم أولياء صالحون ومن وقت لآخر يطوفون في ربوع أرجاء الوطن ويستقبلون من العامة بالهتافات والترحيب فيقدمون لهم الهدايا والقرابين مع العلم أنهم في أشد الحاجة إليها معتقدين أنها تعود عليهم بالبركة

والخير من هذه الفئة فهل يوجد في زماننا هذا بقية لأهل بيت النبي ﷺ وهل هذه الأعمال التي يقومون بها جائزة وكذلك المظاهر التي يقابلون بها؟.

فأجاب: بكل بساطة أن نقول لهؤلاء المدعين أنهم من نسل رسول الله ﷺ أكدوا لنا ذلك ببرهان قاطع من الناحية التاريخية ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ لم يبق له أولاد بلغوا وتزوجوا وأنجبوا وإنما أولاده الذين ينسبون إليه ليسوا من أولاده لصلبه وعلى هذا فنقول لكل من ادعى أنه من آل البيت من هؤلاء أكدوا لنا ذلك من الناحية التاريخية فإن عجزوا عن الإثبات تبين بطلان قولهم وكذبهم وإن ثبت ذلك من الناحية التاريخية فإننا نقول ليس كونكم من الذرية أو من آل النبي ﷺ بِمُجدٍ عنكم شيئًا إذا لم تكونوا على شريعته فإن المهم أن تكونوا على شريعة النبي ﷺ وإذا كنتم على شريعته حقًا فإن لكم حق الإسلام وحق القرابة من الرسول ﷺ ومجرد القرابة من رسول الله ﷺ لا تغني شيئًا فهذا أبو لهب عم النبي ﷺ أخو أبيه لم يغن عنه قربه من النبي ﷺ شيئًا بل أنزل الله تعالى سورة كاملة من القرآن في فضيحته إلى يوم القيامة (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) والحاصل أننا نحتاج في هذه الدعوى إلى إثباتها من الناحية التاريخية ثم إذا ثبتت ننظر إلى حال هؤلاء فإن كانوا صالحين حقًا يتمشون على شريعة النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا فإن لهم حق الإسلام وحق القرابة من الرسول ﷺ وإن لم يكونوا كذلك فإنهم دجالون ولا يستحقون شيئا ولا بركة في أعمالهم ولا في أحوالهم والظاهر مادام هؤلاء الجماعة يمشون على القرى وعلى السُّذَّج من الناس ويدعون ما يدعون الظاهر أنهم كاذبون فيما ادعوا لأنهم غير مستقيمين أيضًا على ما ينبغي منهم في شريعة الله سبحانه وتعالى وحينئذ فلا يستحقون

شيئًا من التعظيم أو الإكبار أو إتحافهم بالهدايا وغيرها.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: هل صحيح أن الصالحين والأولياء تنكشف لهم من أسرار القرآن ما لا ينكشف لغيرهم وما ليس بموجود في كتب التفاسير؟.

فأجاب: ليس هناك أحد مخصوص في فهم القرآن بل فهم القرآن يكون لكل أحد لكن كل من كان بالله أعلم وله أتقى كان أقرب إلى فهم القرآن لقول الله تبارك وتعالى (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) ولما قيل لعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هل عهد إليكم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بشيء يعني من جهة الخلافة قال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى أحدًا من عباده في كتاب الله وما في هذه الصحيفة قالوا وما في هذه الصحيفة قال العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل المسلم بالكافر لكن هناك أناس يدعون أنهم أولياء وأنه يفتح لهم في القرآن معانٍ باطنة لا يعرفها أحد ويجعلون ألفاظ القرآن رموزًا وإشارات لمعانٍ لا تفهم من ألفاظ القرآن بمقتضى اللغة العربية ولا بمقتضى الحقيقة الشرعية وهم الذين يسمون أنفسهم أهل العلم بالباطن فهؤلاء لا يقبل قولهم في تفسير القرآن لأنه كذب على الله تبارك وتعالى هل فسروا كلامه بما لا يدل عليه باللسان الذي نزل به وهو اللغة العربية قال الله تبارك وتعالى (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وقال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنْذِرِينَ بلسان عربي مبين) أي بلغة عربية فصيحة وإنني بهذه المناسبة أحث إخواني ولا سيما طلبة العلم على الحرص على فهم معاني القرآن الكريم لأن القرآن الكريم نزل للتعبد بتلاوته ولتدبر معناه والعمل به قال الله تبارك

وتعالى (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) وكثير من طلاب العلم حريصون على فهم السنة التي وردت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بحثًا وتدقيقًا ومراجعة لكلام العلماء ولكنهم مقصرون في تفسير القرآن وفهمه وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إذا قرؤوا عشر آيات من كتاب الله لا يتجاوزونها حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعًا إني أكرر الوصية لإخواني طلاب العلم أن يعتنوا بفهم القرآن الكريم وأن يراجعوا عليه كلام العلماء في تفاسيرهم وأعني بالعلماء العلماء الموثوق بهم كتفسير ابن جرير وابن كثير والقرطبي والشوكاني وما أشبههم وكذلك تفسير شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ وإن كان يوجد في مثل تفسير القرطبي بعض الشيء الذي ليس على ما ينبغي وكذلك يوجد في تفسير ابن جرير آثار ضعيفة لكن البصير يعرف كيف يتصرف.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: هل إذا مات شخص صالح ولي هل ينفع أو يضر بعد موته يعني موت هذا الشخص الولي إذا توفي هل ينفع الناس أو يضرهم أو ماذا يكون بعد وفاته؟.

فأجاب: لا شك أن أحق الناس بالولاية وأعظمهم ولاية هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد قال الله له آمرًا إياه أن يبلغ الأمة بأنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله وقد قال تبارك وتعالى (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) وأمره كذلك أن يقول للناس بأنه لا يملك لهم مثل ذلك فقال (قل إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا) فإذا كان هذا في أعظم الناس ولاية وأقربهم من الله تبارك وتعالى وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فما بالك بمن دونه من الأولياء فكل ولي أو نبي أو ملك فإنه لا يملك لأحد نفعًا

ولا ضرًا إلا ما شاء الله والذي يملك ذلك ويدبر الخلق هو الله ﷻ فإذا كان الولي لا يملك الضرر ولا النفع في حياته فكذلك أيضًا لا يملك النفع ولا الضرر بعد موته من باب أولى، لهذا الأولياء ليس لهم حق في تدبير الكون ولا في نفع الخلق ولا في ضرر الخلق والواجب على الإنسان أن يعلق ذلك بالله ﷻ وحده لأنه هو المالك له ثم إنني أقول لهذا الأخ ولغيره أنه يجب التحقق من انطباق وصف الولاية على من يوصف بها فقد يقال هذا ولي لله وهو عدو لله ﷻ لأنه يضل الناس ويصدهم عن دين الله الحق ويغريهم بما يكون على يديه من الخرافات والخزعبلات وغيرها وميزان الولاية هو ما ذكره الله تعالى بقوله: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فمن كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًّا فإذا قيل عن شخص ما إنه ولي نظرنا في إيمانه وفي تقواه لله ﷻ وهل هو مستقيم على شريعة الله ﷻ حريص على اتباع النبي ﷺ منفذ لشرع الله تعالى في قوله وفعله وإلا فإنه ليس لله بولي وإن زعم أنه ولي فإذا كان يأتي بأمور محدثه في العبادة أوفي العقيدة ويزعم أنه ولي فهو كاذب في زعمه هذا لأنه ليس بتقي والولي هو المؤمن التقي.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: ما يعتقده بعض الناس في الأولياء من النفع والضر وكشف الكربات وقضاء الحاجات سواء الأحياء أو أصحاب القبور؟.

فأجاب: هذا الإعتقاد باطل لأن الذي بيده النفع والضرر وكشف الكربات هو الله ﷻ وليس الأولياء فالأولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فضلا عن غيرهم سواء كانوا أحياء أم أمواتا وإنما الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء هو الله ﷻ فإذا كان الأنبياء وهم سادات الأولياء وفوق مرتبة

الأولياء إذا كانوا هم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فما بالك بغيرهم قال الله تعالى عن نوح (قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) وقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم (قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ) وقال له (قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا. إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنْ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) وقال تعالى (قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) فالأولياء لا يملكون لأحد شيئا لا نفعا ولا ضرا سواء كانوا أحياء أو أمواتا فلا يملكون أن يهدوا ضالا ولا أن يغنوا فقيرا ولا أن يشفوا مريضا وإنما ذلك إلى الله ﷻ هم بأنفسهم إذا أصابهم الضرر لا يملكون دفعه ولا يملكون رفعه بل هم عاجزون عن ذلك فكيف يملكون لغيرهم ذلك.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق: ماحكم الشرع في نظركم في زيارة قبور الأولياء والصالحين هل هو محرم وهل يجوز لنا أن نزورهم؟.

فأجاب: أولًا يجب أن نعرف من هو الولي الولي بينه الله ﷻ في قوله (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فكل من كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا وليس كل من ادعى الولاية يكون وليًا وهذه نقطة يجب أن يعرفها كل أحد وذلك لأن بعض الناس يستغفلون العامة ويدعون أنهم أولياء وربما يؤيدون دعواهم بخدمة الشياطين لهم فيظن العامة أن هذا من باب الكرامات وهو في الحقيقة من باب الإهانات ثانيًا بالنسبة لزيارة القبور زيارة القبور عمومًا مستحبة فعلها النبي عليه الصلاة والسلام وأمر بها وأخبر عن

فائدتها فقال (زوروا القبور فإنها تذكر الآخرة) والإنسان إذا زار القبر بل إذا زار القبور تذكر الآخرة حيث يتذكر أن هذا هو مثواه وأنه لا بد أن يحله كما حله من قبله ويتذكر أن هؤلاء الذين صاروا مرتهنين في قبورهم كانوا بالأمس على ظهر الأرض يمشون عليها ويتمتعون بما فيها من نعم الله كما يمشي عليها هو الآن ويتمتع بما فيها من نعم الله فيتذكر ويخاف ويعمل لهذا اليوم المحتوم الذي لا بد منه ولهذا كانت زيارة القبور سنة مستحبة ولكن يجب أن نعلم أن زيارة القبور ليس من أجل أن ننتفع بزيارتهم انتفاعًا ماديًا من كشف الكربات وإغاثة اللهفات وانتفاء المضرات ولكن من أجل أن ندعو الله لهم لأننا نقول عند زيارة القبور السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم وأما دعاء أصحاب القبور فهو شرك أكبر مخرج عن الملة لأن هؤلاء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا لغيرهم وأما التبرك بترابهم أو التمسح بقبورهم فإنه بدعة منكرة وقد تصل إلى حد الكفر بحسب اعتقاد الفاعل وزيارة القبور سنة بالنسبة للرجال فقط أما النساء فلا يسن لهن زيارة القبور بل إن النبي ﷺ (لعن زائرات القبور) ولا يرد على هذا ما أخرجه مسلم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (أن النبي ﷺ أمرها أن تقول السلام عليكم دار قوم مؤمنين إلى آخره) فإن المراد بذلك من مرت بمقبرة بدون قصد الزيارة فإنه لا حرج عليها أن تسلم على أهل القبور وتدعو لهم والشأن فيمن خرجت من بيتها إلى زيارة المقبرة فإن هذا حرام عليها بل من كبائر الذنوب (لأن النبي ﷺ لعن زائرات القبور) .

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: ما حكم زيارة الأولياء سواءٌ كانوا أحياء

أم أمواتًا نرجو الإفادة؟.

فأجاب: كلمة الأولياء لا ينبغي أن نطلقها إلا على من تحققت فيه الولاية التي بينها الله ﷻ في قوله ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وليست الولاية بالدعاية أو بملابس معينة أو بهيئةٍ معينة ولكنها بالإيمان والتقوى وكثيرٌ ممن يدعي الولاية يكون دجالًا كذابًا يدعو إلى تعظيم نفسه وإلى سيطرته على عقول الخلق بغير الحق فمثل هذا لا يستحق أن يزار ولا أن تلبى دعوته حتى يستقيم على أمر الله ويرجع إلى دين الله ويسلم الناس من شره ودجله وإذا عرفنا أن هذا الرجل من المؤمنين المتقين الذي لا يزكي نفسه ولا يدعي الولاية كان له حق على إخوانه المسلمين أن يحبوه في الله وأن يحترموه الاحترام اللائق به حتى يكون ذلك تشجيعًا له على مضيه فيما هو عليه من الإيمان والتقوى وحثًا لغيره أن يكون مثله في إيمانه وتقواه وأما زيارة الأولياء بعد الموت كما قال السائل فإن الأولياء الصادقين المتصفين بالإيمان والتقوى إذا ماتوا كانت زيارتهم كغيرهم لا تختلف عن غيرهم لأنهم هم محتاجون إلى الدعاء لهم كما أن غيرهم من المسلمين محتاجٌ إلى الدعاء له وليس في زيارة قبورهم مزيةٌ على زيارة غيرهم من حيث النفع أو الضرر لأنهم هم بأنفسهم محتاجون إلى عفو الله ومغفرته وليس لهم من الأمر شيء وما يفعله بعض العامة الجهلة من التردد على قبور من يسمونهم أولياء أو يعتقدونهم أولياء للاستشفاء بتراب القبر أو التبرك بالدعوة عنده أو ما أشبه ذلك فكل هذا من البدع بل قد تكون وسيلةً إلى الشرك بهم ودعائهم مع الله ﷻ.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق: فضيلة الشيخ في أغلب الأوقات عندما أستمع لأحد العلماء وهو يؤدي الصلاة من خلال المذياع يخطر في قلبي بأنه

سيقرأ في الركعة الأولى خواتيم سورة البقرة مثلا وفي الركعة الثانية خواتيم سورة التوبة وأتكلم بذلك فيأتي كما قلت وهذا يحدث لي كثيرا ولا أقول بأني أعلم الغيب حاشا فلا يعلم الغيب إلا الله ﷻ ولكن هل تعتبر هذه مكرمة لي من الله؟.

فأجاب: هذه ليست مكرمة وليست علم غيب ولكنها ظن يقع في قلب الإنسان أن يكون كذا وكذا فيكون ولا سيما إذا كان هذا الإمام قد اعتاد أنه إذا قرأ خواتيم سورة البقرة قرأ خواتيم سورة التوبة فإن سامعه يتوقع أنه بعد قراءته لخواتيم سورة البقرة أن يقرأ خواتيم سورة التوبة وليس كل ظن يقع كما ظنه الظان يكون كرامة للإنسان أو علم غيب لأن الكرامة أمر خارق للعادة يظهره الله تبارك وتعالى على يد ولي من أوليائه وهذا الظن الذي يستفاد من القرائن ليس بأمر خارق للعادة.

(باب ذكر مسائل السحر)

مسائل في الباب

مسألة: تعريف السحر

السحر لغة: هو الأخذة، وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر، والجمع أسحار، وسحور. وسحره يسحره سَحرًا وسِحرًا وسَحّره، ورجل ساحر من قوم سحرة وسُحّار، وسَحّار من قوم سحّارين، ولا يكسر."

والسحر أيضا: البيان في فطنة كما جاء في الحديث أنه صلىالله عليه وسلم قال: "إن من البيان لسحرا"

قال ابن الأثير: يعني إن من البيان لسحرا: أي منه ما يصرف قلوب السامعين وإن كان غيرحق. وقيل معناه إن من البيان ما يكسب من الإثم ما يكتسبه الساحر

بسحره فيكون في معرض الذم. ويجوز أن يكون في معرض المدح، لأنه تستمال به القلوب ويرضى به الساخط ويستنزل به الصعب.

قال الأزهري: وأصل السَّحر: صرف الشي عن حقيقته إلى غيره فكأن الساحر لما أرى الباطل في صورة الحق وخيّل الشيء على غير حقيقته قد سحر الشيء عن وجهه أي صرفه.

قال الفراء: في قوله تعالى: {فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} معناه فأنى تصرفون.

كما يأتي السحر ويراد به الخديعة. يقال سحره بالطعام والشراب: أي خدعه، والسحور المفسد من الطعام أو المكان.

يقال: سحر المطر الطين والتراب: أفسد فلم يصلح للعمل.

السحر في الإصطلاح:

عرف السحر اصطلاحا بتعاريف كثيرة مختلفة متباينة، ذلك لكثرة الأنواع الداخلة تحته ولا يتحقق قدر مشترك بينها يكون جامعًا لها مانعًا لغيرها.

ولاختلاف المذاهب فيه بين الحقيقة والتخييل. فمثلا البعض يعرفه بتعاريف لا تصدق إلا على ما لا حقيقة له من أنواع السحر، أو ما هو سحر في اللغة.

ومن هؤلاء أبو بكر الرازي حيث قال: "هو كل أمر خفي سببه وتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخدع".

وعرفه البعض بماله حقيقة وأثر كابن قدامة حيث قال: "السحرعزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين امرء وزوجه ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه".

وعرفه أحد العلماء المعاصرين - تعريفًا جمع فيه القسمين. فقال: "هو

عبارة عن أمور دقيقة موغلة في الخفاء يمكن اكتسابها بالتعلم تشبه الخارق للعادة وليس فيها تحد، أو تجري مجرى التمويه والخداع تصدر من نفس شريرة تؤثر في عالم العناصر بغير مباشرة أو بمباشرة".

ونستخلص من هذه التعاريف وغيرها تعريفًا لعله يكون جامعًا بلفظ موجز إن شاء الله.

فنقول: السحر: هو كل ما فيه مخادعة أوتأثير في عالم العناصر نتيجة الاستعانة بغير الله من شيطان أو نحوه، يشبه الخارق للعادة وليس فيه تحد يمكن اكتسابه بالتعلم.

مسألة: أنواع السحر

السحرأنواع كثيرة منها: ماله حقيقة، ومنها ما ليس له حقيقة، ومنها ما هو سحر في اللغة "هو السحر المجازي"، ولذا اختلفت تقسيمات العلماء للسحر فبعضهم جمع الجميع كالرازي وبعضهم اقتصر على ما هو سحر في عرف الشرعوبعضهم اقتصر على ماله حقيقة فقط. وإليك شيئًا من هذه الأنواع بشيء من الإيجاز.

القسم الأول:- ما هو سحر في الشرع - ومنه ماله حقيقة، ومنه ما ليس له حقيقة - ومن أنواعه ما يلي:

النوع الأول: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية. ذلك أن الوهم والنفس لهما تأثير على الإنسان، وبناءً على ذلك يقوم الساحر بأقوال وأفعال مخصوصة تقوي النفس حتى تؤثر في الآخرين بقدرة الله تعالى.

وقد ذكر الرازي وجوها كثيرة تؤكد أن للوهم والنفس تأثيرًا، منها:

الأول: أن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجذع الموضوع على وجه

الأرض ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدودًا على نهر أو نحوه ذلك أن توهم السقوط متى قوي أوجبه.

الثاني: قد أجمع الأطباء على نهي المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر خشية أن يؤثر هذا على نفسه فيستمر رعافه وعلى نهي المصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران لأن هذا يؤثر في نفسه فيتمادى به صرعه.

كل ذلك دليل على أن التصورات النفسية التي تعرض للنفس تؤثر في صاحبها.

الثالث: التجربة والعيان شاهدان بأن هذه التصورات مبادئ قريبة لحدوث الكيفيات في الأبدان فإن الغضبان تشتد سخونة مزاجه حتى إنه يفيده سخونة قوية. وذلك دليل على أن النفوس لها تأثير في بدن صاحبها وإذا جاز كون التصورات مبادئ لحدوث الحوادث في البدن فأي استبعاد من كونها مبادئ لحدوث الحوادث خارج البدن.

الرابع: ومما يؤكد أن النفس قد تؤثر بالآخرين الإصابة بالعين

وقد اتفق النقل والعقل على ذلك. قال ﷺ: "العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين".

ثم قال: "النفس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جدًا تستغني في هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات ... وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات.

وتحقيقه أن النفس إذا كانت متعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السماوات صارت كأنها روح من الأرواح السماوية فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم، وإذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه اللذات البدنية فحينئذ لا

يكون لها تأثير البتة إلا في هذا البدن ... ثم أرشد إلى أنه لا بد لمزاولة هذه الأعمال من انقطاع المألوفات والمشتهيات وتقليل الغذاء والانقطاع عن مخالطة الخلق، وكلما كانت هذه الأمور أكثر كان ذلك التأثير أقوى".

والحق أن هذا الساحر لم يؤثر على الآخرين بنفسه فقط بل هناك معين، وهذا المعين إنما هو شيطان، ذلك أن الساحر عندما خرج عن حد الاعتدال المشروع في تلبية رغبات الروح والجسد وأشقى نفسه في معصية الله، تعلت روحه على بدنه وقويت حتى أصبح من السهل على الأرواح التعامل معها، ومن ثم تولتها الأرواح الشيطانية لكونها خبيثة ورغبتها في هذا السلوك، وذلك بتحقيق أمور لا تستطيعها في حال اعتدالها، لتستمر في هذا الطريق الباطل مع عدم شعورها بعون تلك الأرواح. ولذا يمكن أن يطلق على ما تحققه من أمور أحوال شيطانية أعاذنا الله منها.

النوع الثاني: السحر الذي يستعان فيه بالكواكب ومنه

- سحر الكلدانيين وأهل بابل وغيرهم، وهؤلاء كانوا قوما صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويعتقدون أنها المدبرة للعالم وأن حوادث العالم كلها من أفعالها، ومنها يصدر كل مظهر خير وشر، وقد بعث الله إليهم إبراهيم عليه السلام مبطلًا لمقالتهم ونظرًا لاعتقادهم أنها مدبرة من دون الله فهم يزعمون أن لها ادراكات روحانية فإذا قوبلت ببخور خاص ولباس خاص على الذي يباشر البخور مع إقدامه على أفعال خاصة، وألفاظ يخاطب بها الكواكب كانت روحانية الفلك مطيعة له متى ما أراد شيئًا فعلته له على حد زعمهم. والحق أن الروحانيات التي قضت حوائجهم إنما هي الشياطين أعاذنا الله منها ليستمروا في باطلهم فيضلوا ويضلوا.

- ومنه نوع يسمى بالطلاسم: وهو عبارة عن نقش أسماء خاصة لها تعلق بالأفلاك والكواكب - على زعم أهلها - في جسم من المعادن أو غيرها تحدث به خاصية ربطت في مجاري العادات، ولا بد مع ذلك من نفس صالحة لهذه الأعمال فإن بعض النفوس لا تجري الخاصية المذكورة على يده

وهذا النوع من السحر يحصل في الغالب إما من محتال ذكي مع مغفل فنتيجة تصديقه يحصل الشعور النفسي بتأثيره. وأما من صاحب علاقة بالشياطين، وإنما يستعمل هذا الطلسم لإخفاء ضلاله وكفره وكلاهما محرم. فالأول كذب وغش، والثاني شرك ظاهر من فاعله. وعليه فليس للكواكب فيه أي أثر.

- ومنه: النظر في حركات الأفلاك ودورانها وطلوعها وغروبها واقترابها وافتراقها معتقدين أن لكل نجم منها تأثير حال انفراده كما أن له تأثيرًا حال اجتماعه بغيره، على الحوادث الأرضية من غلاء الأسعار ورخصها ووقوع الحوادث وهبوب الرياح ونحو ذلك وقد ينسبون إليه ذلك مطلقًا

- ومنه النظر في منازل القمر الثمانية والعشرين معتقدين التأثير، في اقتران القمر بكل منها ومفارقته وان في تلك المقارنة أو المفارقة سعودًا أو نحسًا أوتأليفا أو تفريقًا وغير ذلك.

- ومنه ما يفعله من يستخدم الأرقام لحروف أبجد هوز.... المسمى بعلم الحرف. وهو أن يكتب حروف أبجد هوز ... الخ. ويجعل لكل حرف منها قدرًا من العدد معلومًا ويجري على ذلك أسماء الآدميين والأزمنة والأمكنة وغيرها ويجمع جمعًا معروفًا عنده ويطرح طرحًا خاصًا ويثبت إثباتًا خاصًا، وينسبه إلى الأبراج الاثني عشر المعروفة عند أهل الحساب، ثم يحكم على تلك القواعد

بالسعود والنحوس وغيرها مما يوحيه إليه الشيطان وكثير منهم يفرق بين المرء وزوجته بذلك بدعوى أنهم إن جمعهم بيت لا يعيش أحدهم، وقد يتحكم بذلك في الغيب فيدعي أن هذا يولد له وهذا لا. وهذا يكون غنيًا وهذا يكون فقيرا ونحو ذلك. كأنه هو الكاتب ذلك للجنين في بطن أمه لا والله لا يدريه الملك الذي يكتب حتى يسأل ربه فكيف بهذا الكاذب المفترى ولا شك في تحريم هذا العمل وكذب مدعيه وأن أحكامه رجم بالغيب.

النوع الثالث: الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهم الجن

وهم على قسمين مؤمنين - وكفار، وهم الشياطين. أما المؤمنون فمن المعلوم أنهم لا يعملون فعل محرم أو يعينون عليه. إذا فالاستعانة إنما هي بالشياطين.

واتصال النفوس الناطقة بها سهل، لما بينهما من المشابهة والقرب. وهذا الاتصال يحصل بشي من الرقى والدخن والتجريد.

قال الرازي: "إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل تسخير الجن".

وعندما يتحقق الاتصال تحصل الاستعانة ثم الإعانة لكن ذلك لا يكون دون الشرك بالله تعالى.

وأصحاب هذا النوع قد يخفون استعانتهم بالشياطين بما يزعمونه من أن لكل نوع من الملائكة أسماء أمروا بتعظيمها ومتى أقسم عليهم بها أطاعوا وفعلوا ما طلب منهم ولا يخفى بطلان هذا الزعم، وأن ما يحصل من تعظيم وقسم إنما هو متوجه إلى الشياطين.

النوع الرابع: العقد والنفث فيه

قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾

والنفاثات في العقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن في كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر وذلك إذا كان المسحور غير مباشر، أما إذا كان مباشرًا فينفثن عليه مباشرة. وذلك كله بعد أن تكيف نفس الساحر بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري. ويطلق البعض على هذا النوع الرقى لشبهها بها في الصورة ومن هذا النوع سحر لبيد بن ألاعصم اليهودي للرسول ﷺ والشرك في هذا النوع ظاهر ذلك أنه استعانة بالأرواح الخبيثة وهم الشياطين.

النوع الخامس: الهيمياء بكسر الهاء على وزن كبرياء

وهو ما تركب من خواص سماوية تضاف لأحوال الأفلاك يحصل لمن عمل له شيء من ذلك أمور معلومة عند السحرة، وقد يبقى له إدراك وقد يسلبه بالكلية فتصير أحواله كحالات النائم من غير فرق حتى يتخيل مرور السنين الكثيرة في الزمن اليسير وحدوث الأولاد وإنقضاء الأعمار وغير ذلك في ساعة ونحوها من الزمن اليسير، ومن لم يعلم له ذلك لا يجد شيئا مما ذكر وكل ما يتصوره المسحور في هذه الحالة من الأوهام التي لا حقيقة لها.

النوع السادس: السيمياء: بكسر السين

وهو عبارة عما تركب من خواص أرضية كدهن خاص أو كلمات خاصة توجب إدارك الحواس الخمسة أو بعضها بما له وجود حقيقي، أو بما هو تخييل صرف.

وهذا النوع تخييلي. يأتي بأحد أمرين إما بتأثير عقاقير بخواصها. وهذا ليس

سحرًا في الشرع. وإما بكلمات خاصة، وهذا لا يحصل بمجرد الكلام وإنما هو بمعين من الشياطين يكون منه التخييل على الحواس بعد ذلك الكلام الذي يستدعي به الساحر ذلك المعين وهذا الكلام تذلل للشياطين يعاوضون عنه الساحر بما يريد من الخداع. ولا شك في حرمته لكونه شركًا.

القسم الثاني: ماسحر في اللغة

وهو "السحر المجازي" ومداره على قوة البيان وخفة اليد، والحيل والاكتشافات التي سبق بها الساحر عصره وإنما أدخل هذا القسم في فن السحر للطافة مأخذه، ذلك أن السحر في اللغة عبارة عما خفي ولطف سببه. وهو أنواع منها:

الأول: الأخذ بالأبصار والشعبذة، وهذا النوع مبني على مقدمات. أحدها: أن أغلاط البصر كثيرة ومن أمثلة ذلك أن راكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة والشط متحركًا ومثلها السيارة ونحوها. وذلك دليل على أن الساكن يرى متحركًا والمتحرك يرى ساكنًا.

ثانيها: أن القوة الباصرة إنما تقف على المحسوسات وقوفًا تامًا إذا أدركت المحسوسات في زمان له مقدار ما، أما إذا أدركت المحسوس في زمان قصير جدًا ثم أدركت بعده محسوسًا آخر وهكذا فانه يختلط البعض بالبعض.

وثالثها: أن النفس إذاكانت مشغولة بشيء فربما حضر عند الحس شيء آخر ولا يشعر الحس به ألبتة. مثاله: أن الإنسان عند دخوله على السلطان قديلقاه إنسان آخر ويتكلم معه فلا يعرفه ولا يفهم كلامه، إذ إن قلبه مشغول بشيء آخر. ثم بعد أن فصّل الرازي في تلك المقدمات قال: إذا عرفت هذه المقدمات سهل عند ذلك تصور كيفية هذا النوع من السحر، وذلك أن المشعبذ الحاذق يظهر

عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه عمل شيئا آخر بسرعة شديدة فيبقى ذلك العمل خفيًا لتفاوت الشيئين.

أحدهما: اشتغالهم بالأمر الأول والثاني: سرعة الإتيان بهذا العمل الثاني وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غيرما انتظروه فيتعجبون منه جدًا ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه لفطن الناظرون لكل ما يفعله.

وهذا النوع - كما نرى - تخييل لا حقيقة له وهو محرم، لما يتضمنه من الكذب والخداع وقد قال البعض بأن سحر سحرة فرعون من هذا النوع والأظهر والله أعلم أنه ليس من هذا النوع ذلك أن سحرة فرعون لم يكن منهم حركات سوى إلقاء الحبال والعصي ثم تراءى للناس أنها متحركة فكان سحرهم بفعل آخر أثر على الأعين، وهو من نوع الاستخدامات.

الثاني: الاستعانة بخواص الأدوية والأطعمة والملابس ونحوها. وهو ضرب من الاحتيال يقوم به بعض من يدعي السحر.

فمن ذلك أن يدعي القدرة على فعل أمور خارقة، فيستخدم خواص بعض المواد التي خلقها الله مما عرف خاصيته ولم يعلمه بقية الناس.

ومن أمثلة ذلك دخول بعض هؤلاء النار بعد أن يدهنوا جلودهم بمواد لها خاصية مقاومة النار، أو يلبس ثياب لا تحرقها النار، فيظن الرائي الجاهل أنه فعل أمرًا خارقًا، ولو علم بما فعل لزال العجب، كذلك من هذا النوع أن يجعل في طعام من يريد إيذاءه بعض الأدوية أو الأطعمة المبلدة المزيلة للعقل أو الدخن المسكرة، فإذا تناولها الضحية تبلد عقله وقلت فطنته فيتصرف تصرفًا

غيرسليم فيقول الناس إنه مسحور، وقد يستعين بهذه الأدوية ونحوها في مسك الحيات، ثم يزعم أمام جهلة الناس أنها أحوال له.

الثالث: السعي بالنميمة وإغراء بعض الناس ببعض من وجوه لطيفة خفية وهذا شائع بين الناس وخصوصًا ضعاف الإيمان منهم.

قال أبو الخطاب في عيون المسائل: "ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس"

وإنما أطلق على النميمة للإفساد سحرًا، لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بوسيلة خفية كاذبة.

وقال ابن كثير: "النميمة على قسمين تارة تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين فهذا حرام متفق عليه، فأما إذا كانت على وجه الإصلاح بين الناس ... أو على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة فهذا أمر مطلوب كما فعل نعيم بن مسعود".

الرابع: تعليق القلب

وهو أن يدعي الساحر أنه قد عرف اسم الله الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور فإذا اتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك، وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة، وإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر من أن يفعل ما يشاء.

قال الرازي: "وإن من جرب الأمور وعرف أحوال أهل العلم علم أن لتعلق القلب أثرًا عظيمًا في تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار".

مسألة: اختلاف أهل القبلة في حقيقة السحر

اعلم رحمني الله وإياك أن للسحر حقيقة وأثرًا ثابتًا بالكتاب والسنة.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ "ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة ... " وقال أيضًا: "وعندنا أنه حق وله حقيقة يخلق الله عندها ما يشاء" وقال المازري: "مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة خلافًا لمن أنكر ذلك ... " وقال الإمام ابن القيم: "وقد دل قوله تعالى: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}

وحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على تأثير السحر وأن له حقيقة.

أدلة أهل السنة

لقد استدل أهل السنة على أن للسحر حقيقة وأثرًا بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة، ومن الواقع وإليك شيئا منها:

أولا : الأدلة من الكتاب منها ما يلي

- قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}

وجه الاستدلال: الآية تدل على أن للسحر حقيقة من وجوه الأول: أن الله سبحانه وتعالى قد أخبر فيها عن السحر وأنه مما يعلم ويتعلم وأن متعلمه يكفر بذلك وهذه الصفات لا تكون إلا لماله حقيقة، مما يدل على أن له حقيقة.

الثاني: أن الله تعالى قد أخبر في هذه الآية بأن للسحر آثارًا محسوسة كالتفريق بين المرء وزوجه والأثر دليل على وجود المؤثر وأن له حقيقة.

الثالث: كما أخبر الله تعالى في هذه الآية بأن للسحر ضررًا لا يتحقق إلا بإذنه، والاستثناء دليل على حصول الآثار بسببه والضرر أو الأثر لا يكون إلا مماله حقيقة.

- قوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}

وجه الاستدلال: أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ في هذه السورة بالاستعاذة من شر النفاثات في العقد وهن السواحر كما فسرها جمهور المفسرين مما يدل على أن للسحر حقيقة وأثرا إضافة إلى ذلك أن هذه السورة وسورة الناس باتفاق جمهور المفسرين سبب نزولهما سحر لبيد بن الأعصم اليهودي لرسول الله ﷺ ولو لم يكن له حقيقة وأثر لما أنزلت هاتان السورتان لإبطال أثره.

ثانيًا: الأدلة من السنة وهي كثيرة منها ما يلي:

- أخرج البخاري بسنده إلى عيسى بن يونس عن هشام عن أبيه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم، أو ذات ليلة – وهو عندي لكنه دعا ودعا، ثم قال "يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه. أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل؟ قالا: مطبوب

قال: ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم. قال في أي شيء؟ قال في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال في بئر ذروان.فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة كأن مائها نقاعة الحنا وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين قلت يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال قد

عافاني الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شرًا فأمر بها فدفنت

وفي رواية لمسلم "فقلت يا رسول الله أفلا أحرقته"

ويقول الإمام النووي عن الروايتين: "كلاهماصحيح: فطلبت أن يخرجه ثم يحرقه والمراد إخراج السحر".

وفي رواية عمرة عن عائشة "فنزل رجل فاستخرجه" وفيه من الزيادة أنه "وجد في الطلعة تمثالًا من شمع تمثال رسول الله ﷺ وإذا فيه إبر مغروزة، وإذابه وتر فيه إحدى عشرة عقدة فنزل جبريل بالمعوذتين فكلما قرأ آية انحلت عقدة وكلما نزع إبرة وجد لها ألما ثم يجد بعدها راحة"

وجه الاستدلال: الحديث كما نرى يروي واقعة سحره عليه الصلاة والسلام ابتداءً من تغيرعادته ﷺ حتى إنه يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله وانتهاءً بقراءة المعوذتين وحل العقد ونزع الإبر وما بين ذلك من دعائه صلىالله عليه وسلم ثم نزول الملكين ونقاشهما فيما حصل له ﷺ ثم ذهابه إلى البئر في جماعة من أصحابه وإخبار عائشة فيما حصل. وطلبها رضي الله عنها استخراجه، قوله ﷺ "إن الله شفاني" كل هذا لا يكون إلا فيما له حقيقة وأثر بيّن.

- ما رواه البخاري بسنده إلى أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:"اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات"

وجه الاستدلال: أن الرسول ﷺ أمرنا باجتناب السبع الموبقات وعد منها السحر بل جعله في المرتبة الثانية بعد الشرك بالله. مما يدل على أن له حقيقة.

- قول الرسول ﷺ: "من تصّبح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم

سم ولا سحر"

وجه الاستدلال: أن الرسول ﷺ أرشدنا إلى ما فيه وقاية من السحر ولايتوقى إلاشيء له حقيقة وأثر بين، كما أنه قارنه بالسم والسم متفق بأن له حقيقة وأثرًا فكذلك إذًا السحر.

ثالثًا: الدليل من الواقع: كذلك من أدلة أهل السنة على أن للسحر حقيقة: الواقع المشاهد وما اشتهر بين الناس من عقد الرجل عن امرأته حين يتزوجها فلا يقدرعلى إتيانها. وحل عقده فيقدر عليها بعد عجز عنها حتى صار متواترًا لا يمكن جحده.

وروى من أخبار السحرة ما لا يكاد يمكن التواطؤ على الكذب فيه.

كل هذا دليل ظاهر على أن للسحر حقيقة والله أعلم.

القول الثاني: وهو قول عامة المعتزلة.

وجماعة من العلماء كأبي منصور الماتريدي وابن حزم وأبي جعفر الأسترابادي من الشافعية وأبي بكر الجصاص، وغيرهم.

ويتلخص رأيهم في أن السحر لا حقيقة له وإنما هو تمويه وتخييل فلا تأثير له لا في مرض ولا حل ولا عقد ولاغير ذلك، وعلى ذلك فهم ينكرون من أنواع السحر ما كان له حقيقة ويجعلونه ضربًا واحدًا وهو سحر التخييل.

يقول القاضي عبد الجبار:"إن السحر في الحقيقة لا يوجب المضرة لأنه ضرب من التمويه والحيلة..."

ويقول أبو منصور الماتريدي: "والأصل أن الكهانة محمول أكثرها على الكذب والمخادعة والسحر على التشبيه والتخييل"

ويقول ابن حزم: "...وقد نص الله ﷻ على ما قلنا فقال تعالى: {فَإِذَا

حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} فأخبر الله تعالى أن عمل أولئك السحرة إنما كان تخيلًا لا حقيقة ... "

وقال ابن حجر: "واختلف في السحر: فقيل هو تخييل فقط ولا حقيقة له وهذا اختيار أبي جعفر الاستراباذي من الشافعية وأبي بكر الرازي من الحنفية وابن حزم الظاهري وطائفة"

وقد أيدوا قولهم هذا بشبهات نقلية وعقلية.

وإليك شيئًا منها مع المناقشة:

أولا: الشبهات النقلية منها، ما يلي

الشبهة الأولى: قوله تعالى: {فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}

وجه الاستدلال: قالوا الآية تدل على أن السحرة حاولوا إرهاب الناس وتخويفهم بأن خيلوا لأعين الناظرين أمرًا لا حقيقة له مما يدل على أن السحر لا حقيقة له.

الشبهة الثانية: قوله تعالى: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}

الشبهة الثالثة: قوله تعالى: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}

وجه الاستدلال: يقول ابن حزم:"وقد نص الله ﷻ على ما قلنا فقال تعالى {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}، فأخبر تعالى: أن عمل أولئك السحرة إنما كان تخييلا لا حقيقة له.

وقال تعالى {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}، فأخبر

تعالى أنه كيد لا حقيقة له.

الجواب يقال لهم:

أولًا: الآيات دليل على أن للسحر حقيقة إذ إنها دلت على أن للسحر أثرًا في نظر المسحور حتى تخيل الشيء عليخلاف ما هو عليه وهو تأثير في إحساسهم، وإذا جاز، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم؟ وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير الواقع في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟ وعليه فالآيات حجة عليكم لا لكم.

ثانيًا: على التسليم بدلالة الآيات على التخييل فقط فإن هذا لا يمنع أن يكون غير التخييل من جملة السحر؛ لأنها لم تحصر السحر في التخييل، وإنما دلت على أن سحر سحرة فرعون ونحوهم كان من هذا النوع ونحن لاننكر أن يكون التخييل من أنواع السحر وعلى ذلك فلا حجة في الآيات على نفي حقيقة السحر وتأثيرهوالله أعلم.

ثانيا: الشبهات العقلية: منها ما يلي:

الشبهة الأولى: قالوا إن في القول بأن للسحر أثرًا خارقًا للعادة يلزم منه أن يكون هناك موجودًا مثلًا لله تعالى. كما أنه لا يمكن العلم معه بالفرق بين ما يختص الله بالقدرة عليه وبين مقدور العباد.

الجواب: يقال لهم هذه الشبهة باطلة ولا يلزم من القول بأن للسحر أثرًا ما زعمتم، ذلك أن أهل السنة لما قالوا بأن للسحر أثرًا لم يطلقوا القول بحصول كل أثر أو بحصول أثر يصل إلى مرتبة الخلق والإيجاد، ذلك أن الموجد الحق هو الله وحده لا شريك له.

قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ....الآية} وقال تعالى {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ

فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} وقال تعالى {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ ٠٠٠الآية} والقول بأن أثر السحر يصل إلى درجة الخلق شرك في الربوبية. أعاذنا الله منه.

وإنما قالوا له أثر على النفس والبدن يؤدي إلى المرض.

فهو سبب قد ربط الله به بعض المسببات في حدود قدرة الخلق من الجن والإنس وبما أن قدرة الشياطين تختلف عن قدرة الإنس لذا قد يظن الجاهل أن حصول الأثر المناقض للعادة فوق قدرة الخلق والواقع أنه في حدود قدرة الخلق من الجن والإنس ولذا يمكن معارضته بمثله وأقوى منه.

وإذا كان كذلك فلن يلزم من القول بان للسحر أثرًا ما زعمتم. والله أعلم.

الشبهة الثانية: يروي الرازي عن القاضي أنه قال: "أنا لو جوزنا ذلك" لتعذر الاستدلال بالمعجزات على النبوات لأنا لو جوزنا استحداث الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية لم يمكنا القطع بأن هذه الخوارق التي ظهرت على أيدي الأنبياء عليهم السلام صدرت عن الله تعالى بل يجوز فيها أنهم أتوا بها عن طريق السحر وحينئذ يبطل القول بالنبوات من كل الوجوه.

الجواب: يقال لهم العادة تنخرق على يد النبي والولي والساحر.

ولكن النبي يتحدى بها الخلق ويستعجزهم عن مثلها ويخبر عن الله تعالى بخرق العادة بها لتصديقه فلو كان كاذبًا لم تنخرق العادة على يديه. ولذا لا يمكن معارضته بمثله أو أقوى منه؛ إذ إنّه ليس في مقدور الجن والإنس.

قال تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الأَنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}

أما الولي والساحر: فلا يتحديان الخلق ولا يستدلان على نبوة ولو ادعيا شيئًا من ذلك لم تنخرق العادة لهما.

وأما الفرق بين الولي والساحر فمن وجوه منها:

الأول: وهو المشهور، إجماع المسلمين على أن السحر لا يظهر إلا على فاسق أو كافر، والكرامة لا تظهر إلا على ولي.

الثاني: أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم لساحر ما يريد.

والكرامة لا تفتقر إلى شيئ من ذلك. وفي كثير من الأوقات تقع الكرامة اتفاقا من غير أن يستدعيها أو يشعر بها.

الثالث: أن ما يأتي به السحرة، يمكن معارضته بمثله وأقوى منه كما هو الواقع بخلاف الكرامات فهي كالمعجزات لا يمكن لأحد أن يعارضها بمثلها أو أقوى منها.

الرابع: إن مايأتي به السحرة لا يخرج عن كونه مقدورًا للإنس والجن بخلاف الكرامات فهي كالمعجزات لا يقدر عليها إلا الله.

الشبهة الثالثة: يروي الرازي عن القاضي أنه قال:" ... لو جوزنا أن يكون في الناس من يقدر عليخلق الجسم والحياة والألوان لقدر ذلك الإنسان على تحصيل الأموال العظيمة من غير تعب. لكنا نرى من يدعي السحر متوصلاً إلى اكتساب الحقير من المال بجهد جهيد فعلمنا كذبه."

الجواب: يقال لهم هذه الشبهة باطلة ولا تلزمنا لأنا لم نطلق الحكم بحصول كل تأثير مهما كان بل قلنا في نطاق معين لا يتجاوز التصرف في الأعراض من باب التأثير على القلوب بالحب والبغض وعلى الأبدان بالألم والسقم. أما أن يقلب الجماد حيوانًا أو عكسه أو الحديد ذهبًا أو نحوه فليس في مقدور الساحر.

وبذلك يزول اللبس وتبطل هذه الشبهة. والله أعلم.

والأظهر في هذه المسألة -والله أعلم- أن السحر المذموم صاحبه ليس كله حقيقة وليس كله تخييلًا. بل منه ما هو حقيقة كما دلت عليه أدلة أهل السنة، ومنه ما هو تخييل كما دلت عليه الآيات التي استدل بها المخالفون. وبذلك يتضح عدم التعارض بين الأدلة النقلية. وعلى هذا جماهير العلماء من المسلمين. والله أعلم.

مسألة: حكم تعلم السحر وتعليمه

اختلف أهل القبلة في حكم تعلم السحر وتعليمه على أقوال.

الأول: أهل السنة، قالوا إن تعلم السحر وتعليمه حرام. قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ "... فإن تعلم السحر وتعليمه حرام لا نعلم فيه خلافًا بين أهل العلم"

لكن ما هي درجة هذا التحريم؟

إن قصد من تعلمه العمل به وكان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر، أو تعلمه معتقدًا إباحته فهو كفر، وإلا فهو فسق.

قال الإمام الشافعي: "إذا تعلم السحر قيل له صف لنا سحرك؟ فإن وصف ما يستوجب الكفر مثل سحر أهل بابل من التقرب للكواكب وأنها تفعل ما يطلب منها فهو كافر وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر وإلا فلا.

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتكلم عن السحر: "... وأما تعلمه وتعليمه فحرام فإن تضمن ما يقضي الكفر كفر وإلا فلا".

وقال أبو حيان: "وأما حكم السحر فما كان منه يعظم به غير الله من الكواكب والشياطين وإضافة ما يحدثه الله إليها فهوكفر إجماعًا لا يحل تعليمه ولا العمل به وكذا ما قصد بتعلمه سفك الدماء والتفريق بين الزوجين

والأصدقاء، وأما إذا كان لا يعلم منه شيئا من ذلك بل يحتمل فالظاهر أنه لا يحل تعلمه والعمل به ... "

وقال الشيخ سليمان بن عبد الوهاب: "وقد نص أحمد على أنه يكفر بتعلمه وتعليمه.

الأدلة: وقد أيدوا قولهم بأدلة كثيرة منها ما يلي:

الأول: قوله تعالى {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ... الآية}

قال ابن حجر:"فإن ظاهرها أنهم كفروا بذلك، ولا يكفر بتعليم الشيء إلا وذلك الشيء كفر".

الثاني: قوله تعالى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ... الآية}.

قال ابن حجر: "الآية فيها إشارة إلى أن تعلم السحر كفر".

الثالث: قوله تعالى {... وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ... الآية}.

قال الشوكاني: "الآية فيها تصريح بأن السحر لا يعود على صاحبه بفائدة ولا يجلب إليه منفعة بل هو ضرر محض وخسران بحت"

وإذا كان كذلك فتعلمه لا يجوز. لأنه وسيلة إلى هذا الضرر والخسران

الرابع: قوله تعالى {... وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} .

قال أبو جعفر:".... قد دللنا فيما مضى على أن معنى "شروا" باعوا فمعنى الكلام إذا ولبئس ماباعه نفسه من تعّلم السحر لو كان يعلم سوء عاقبته"

الخامس: ما روى عبد الرّزّاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله

ﷺ: "من تعلم شيئًا من السحر قليلًا كان أو كثيرًا كان آخر عهده من الله".

القول الثاني: جواز تعلم السحر عند الضرورة:

قال ابن حجر: "وقد أجاز بعض العلماء تعلم السحر لأمرين، إما لتمييز ما فيه كفر من غيره، وإما لإزالته عمن وقع فيه".

ثم قال ابن حجر: فأما الأول: فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد فإذا سلم الاعتقاد فمعرفة الشيء بمجرده لا يستلزم منعًا كمن يعرف كيفية عبادة أهل الأوثان للأوثان، لأن كيفية ما يعمله الساحر إنما هي حكاية قول أو فعل بخلاف تعاطيه والعمل به.

وأما الثاني: فإن كان لا يتم كما زعم بعضهم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق فلا يحل أصلا وإلا جاز للمعنى المذكور".

القول الثالث جواز تعلم السحر مطلقًا: والى هذا ذهب الرازي في تفسيره حيث قال: "العلم بالسحر غيرقبيح ولا محظور اتفق المحققون على ذلك لأن العلم لذاته شريف وأيضا لعموم قوله تعالى {... هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ... الآية}

ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة، والعلم بكون المعجز معجزًا واجب وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب. فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبًا وما يكون واجبًا كيف يكون حرامًا وقبيحًاوهذا قول باطل ولذا رد عليه بعض الأئمة كابن كثير في تفسيره حيث قال - بعد أن عرض رأيه-" وفي كلام الرازي نظر من وجوه أحدها: قوله: العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور اتفق المحققون على ذلك.

أ- أما قوله"ليس بقبيح: إن عنى به ليس بقبيح عقلًا فمخالفوه من المعتزلة

يمنعون هذا وإن عني أنه ليس بقبيح شرعًا ففي الكتاب والسنة ما يبطل زعمه، فمن الكتاب قوله تعالى {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ... الآية}

ففي هذه الآية تبشيع لتعلم السحر. ومن السنة ما في الصحيح "من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد".

وفي السنن:"من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر ... الحديث" تبشيع لتعلم السحر أيضا.

ب- وأما قوله "لا محظور" فيقال: كيف لا يكون محظورًا مع ما ذكرناه من الآية والحديث وما ورد فيهما من التبشيع له.

ج- وأما قوله "اتفق المحققون على ذلك" فيقال: اتفاق المحققين يقتضي أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم وأين نصوصهم على ذلك؟

ثانيًا: أ- أن إدخال السحر في عموم قوله تعالى {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ... الآية}

فيه نظر، لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين العلم الشرعي والعلم بالسحر ليس من العلم الشرعي فلم قلت أنه منه؟

ب- ثم ترقيته إلى وجوب تعلمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به: ضعيف بل فاسد لما يلي:

- إن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هي القرآن العظيم الذي

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، والعلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلًا.

- أن من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم كانوا يعلمون المعجز ويفرقون بينه وبين غيره ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموهوبذلك يتبين بطلان قوله. والله أعلم.

كما تعقبه الألوسي في تفسيره.

وبذلك يتضح أن القول الأول هو الصحيح للأدلة الدالة من الكتاب والسنة.

وأما القول الثاني: فيمكن إرجاعه إلى القول الأول، كما تعقبه ابن حجر بأنه يشترط سلامة الاعتقاد في الأول وأن لا يكون بنوع فيه كفر في الثاني.

وأما القول الثالث: فلا صحة له كما رد عليه ابن كثير والألوسي.

مسألة: حكم العمل بالسحر

محرم بالكتاب والسنة بلاخلاف بين أهل العلم ولكن ما هي درجة هذا التحريم؟

إن كان فيه اعتقاد أوقول أوفعل يقتضي الكفر مثل: اعتقاد أن الكواكب السبعة أو غيرها مدبرة مع الله.

أو أن الساحر قادر على خلق الأجسام أو اعتقد أن فعله مباح أو تضمن تقربًا إلى الشياطين بشيء من الأوراد الكفرية، أو الذبح لها ونحو ذلك فهو كفر.

أما إذا لم يكن فيه شيء من ذلك وهو ما يسمى بالسحر المجازي مثل: السحر بالأدوية والتدخين، وسقيا شيء يضر، أو بالحركات الخفية ونحو ذلك فليس بكفر وإنما هو فسق.

يقول النووي: "علم السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عده النبي ﷺ من السبع الموبقات، ومنه ما يكون كفرًا ومنه ما لا يكون كفرًا، بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كافر، وإلا فلا"

ويقول ابن قدامة: "والساحر الذي يركب المكنسة وتسيربه في الهواء ونحوه يكفر ويقتل، فأما السحر بالأدوية والتدخين وسقيا شيء يضر فلا يكفر"

الأدلة: وهي كثيرة منها ما يلي:

- "ما سبق ذكره آنفا في أدلة الجمهور الدالة على تحريم تعلم السحر تعليمه، ذلك أن كل دليل يدل على تحريم تعلم السحر فدلالته على تحريم العمل به أولى.

- "ومن الأدلة أيضا قوله تعالى {وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}

وجهة الدلالة: أن الله سبحانه وتعالى نفى الفلاح عن الساحر نفيًا عامًا حيث توجه وسلك وذلك دليل كفره، لأن الفلاح لا ينفى بالكلية نفيًا عامًا إلا عمن لا خير فيه وهو الكافر، ذلك أنه قد عرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أن لفظه "لا يفلح" يراد بها الكافر. كقوله تعالى {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} وقوله تعالى {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

- قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}

وجه الدلالة: أن الآية تدل على نفي الإيمان عن السحرة، إذ إن لو حرف امتناع، فيثبت نقيضه وهو الكفر

قال ابن عباس: "كل شيء في القرآن لو فإنه لا يكون أبدًا".

وقال الشوكاني: "ولو أنهم آمنوا واتقوا ما وقعوا فيه من السحر والكفر"

وقال ابن كثير:"وقد استدل بقوله {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا} من ذهب إلى تكفير الساحر كما هو رواية الإمام أحمد وطائفة من السلف"

- قوله ﷺ: "من أتى عرافًا أوساحرًا أو كاهنًا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد" في الحديث - كما نرى - تحذير من إتيان العرافين أو السحرة أو الكهنة وتصديقهم - مشيرًا إلى أن تصديقهم كفر بما أنزل على محمد ﷺ وإذا كان هذا حال الآتي فكيف حال المأتي.

والكفر هنا ظاهره الكفر الحقيقي وهو الكفر الأكبر، وقيل الكفر المجازي وهو الكفر الأصغر، وقيل من اعتقد أن العراف أو الساحر أو الكاهن يعرفان الغيب ويطلعان على الأسرار الإلهية كان كافرًا كفرًا أكبر كمن اعتقد تأثير الكواكب، وإلا فلا.

- قوله ﷺ: "ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له.... الحديث"

في الحديث إشارة إلى براءة المصطفى ﷺ ممن يفعل شيئا من هذه الأفاعيل التي منها السحر ولا يتبرأ ﷺ من فاعل فعل مباح.

- قوله ﷺ: "اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله ما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات" في هذا الحديث - قد عد المصطفى ﷺ السحر من السبع الموبقات وأمر باجتنابها لما يترتب على فعلها من ضرر في الدنيا وعذاب في الآخرة.

قوله ﷺ: "من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق بشيء وكل إليه"

وجه الدلالة: أن في الحديث تصريحًا بأن فاعل السحر قد أشرك.

هذا شيئ من الأدلة من الكتاب والسنة. كلها صريحة بتحريم السحر وعده إما كفرًا أو معصية كبيرة - مما يدل على أن السحر قد يكون كفرًا، وذلك إذا كان فيه ما يقتضي الكفر، ويكون فسقًا إذا لم يكن فيه شيء من ذلك. وهو السحر المجازي والله أعلم.

مسألة: عقوبة الساحر

نظرًا لتعدد أنواع السحر لذا اختلف العلماء في عقوبة الساحر على قولين:

القول الأول: وهو ما ذهب إليه جمهور أهل السنة من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار ورواية عن الإمام الشافعي أنه متى ما ثبتت جريمة السحر بحق إنسان بإقرار أو بيّنه وجب قتله مطلقًا من غير استتابة إلا أن يأتي تائبًا قبل أن يقدر عليه.

يقول الإمام أبو حنيفة: "يقتل الساحر إذا علم أنه ساحر ولا يستتاب ولا يقبل قوله إني أترك السحر وأتوب منه."فإذا أقرّ أنه ساحر فقد حل دمه، وإن شهد عليه شاهدان أنه ساحر فوصفوا ذلك بصفة يعلم أنه ساحر قتل ولا يستتاب، وإن أقرّ فقال: كنت أسحر وتركت هذا منذ زمان قبل منه ولم يقتل.

وكذا لو شهد عليه أنه كان مرة ساحر وأنه ترك منذ زمان لم يقتل إلا أن يشهدوا أنه الساعة ساحر وأقرّ بذلك فيقتل.

وحكى محمد بن شجاع عن علي الرازي. قال: سألت أبا يوسف عن قول أبي حنيفة في الساحر: يقتل ولا يستتاب. لمَ لم يكن ذلك بمنزلة المرتد؟ فقال

الساحر جمع مع كفره السعي في الأرض بالفساد والساعي بالفساد إذا قتل قتل.

وقال الإمام مالك: "الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب ولا تقبل توبته بل يتحتم قتله كالزنديق"

وقال أيضًا: "فإذا جاء الساحر أو الزنديق تائبًا قبل أن يشهدوا عليهما قبلت توبتهما"

وقال ابن قدامة:" ... وحد الساحر القتل روي ذلك عن عمر وعثمان ابن عفان وابن عمر وحفصة وجندب بن عبد الله وجندب بن كعب وقيس ابن سعد وعمر بن عبد العزيز وهو قول أبي حنيفة ومالك ... إلى أن قال: وهل يستتاب الساحر؟ فيه روايتان: أحدهما: لا يستتاب، وهو ظاهر ما نقل عن الصحابة فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه استتاب ساحرًا.

وقال عياض: "وبقول مالك قال أحمد وجماعة من التابعين"

وقال القرطبي: "اختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم ... فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرًا يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته؛ لأنه أمر يستسر به كالزنديق والزاني ... وهو قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحاق والشافعي وأبي حنيفة.

وقد أيدوا قولهم بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة وأفعال الصحابة والتابعين منها ما يلي:

الأول: قال تعالى {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ... الآية}

وجه الدلالة: أن الآية تدل على أن السحر كفر من وجوه - أحدها: نفي الكفر عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في معرض اتهامه بالسحر وإثباته للشياطين لتعليمهم الناس السحر دليل على أن السحر كفر.

ثانيها: تحذير الملكين من تعلم السحر بأنه كفر. وعليه فإن الساحر يقتل لأنه كافر.

الثاني: قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه الترمذي عن الحسن عن جندب أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "حد الساحر ضربة السيف"(١).

ولجندب راوي الحديث قصة توضح معنى الحديث وتؤكده وهي: أن ساحرًا كان عند الوليد بن عقبة يلعب فذبح إنسانًا وأبان رأسه فعجبنا فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدي فقتله. فثبت بهذا أن عقوبة الساحر هي القتل.

الثالث: ما روي عن بجالة بن عبدة قال: كنت كاتبًا لجزي بن معاوية عم

---

(١) أخرجه الترمذي (/ ٠، رقم ٠)، وابن عدي في الكامل (/)، والدارقطنى (/)، والحاكم (/ ٠، رقم ٠)، والبيهقى في الكبرى (/ ، رقم)، والحديث ضعفه الترمذي بقوله: هذا حديث لا نعرفه إلا مرفوعا من هذا الوجه وإسمعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري قال وكيع هو ثقة ويروي عن الحسن أيضا والصحيح عن جندب موقوف، وقال في العلل: سألت عنه محمدا يعني البخاري فقال: هذا لا شيء وإسماعيل ضعيف جدا اهـ وضعفه ابن عدي، والبيهقي، وقال ابن المنذر في الإقناع (/): في إسناده مقال، وضعفه ابن العربي في العارضة (/)، والضياء في السنن والأحكام (/)، وقال ابن القيم في الزاد (/): الصحيح أنه موقوف على جندب بن عبد الله، وكذا قال ابن كثير في إرشاد الفقيه (/)، وقال الحافظ في الفتح (٠/): في سنده ضعف، وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (/): ورد مرفوعا وموقوفا، والصحيح أنه موقوف، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة ().

(تنبيه) قول الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (/): فيه إسماعيل بن مسلم المكي حديثه حسن، ومن تكلم فيه فإنما تكلم من قبل حفظه. متعقب بما تقدم.

الأحنف بن قيس فأتى كتاب عمر قبل موته بسنة "أن اقتلوا كل ساحر وساحرة ... " فقتلنا ثلاث سواحر في يوم.

الرابع: ماروي عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة زوج النبي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها وكانت قد دبّرتها فأمرت بها فقتلت رواه مالك في الموطأ.

الخامس: ما ذكره ابن حزم عن يحي بن أبي كثير قال: إن غلامًا لعمر بن عبد العزيز أخذ ساحرة فألقاها في الماء فطفت فكتب إليه عمر بن عبد العزيز إن الله لم يأمرك أن تلقيها في الماء فإن اعترفت فاقتلها.

كما روي قتل السحرة عن غير هؤلاء من الصحابة والتابعين من الصحابة: عثمان وابن عمر وأبي موسى وقيس بن سعد، ومن التابعين سبعة منهم عمر بن عبد العزيز.

وكما نرى قتل الساحر مذهب عدد من كبار الصحابة ولم يعلم لهم مخالف من الصحابة.

وعند علماء الأصول أن الصحابي إذا قال قولًا أو فعله واشتهر ولم يعلم له مخالف فإنه يعد إجماعًا سكوتيًاويؤكد هذا أنه مذهب جماعة من التابعين قال ابن قدامة - بعد أن ذكر من قال بوجوب قتل الساحرمن الصحابة وهذا اشتهر فلم ينكر فكان إجماعا.

وبذلك ثبت في الكتاب والسنة والإجماع من الصحابة والتابعين قتل الساحر مطلقًا عند الجمهور.

قال الإمام الشنقيطي: "فهذه الآثار التي لم يعلم أن أحدًا من الصحابة أنكرها على من عمل بها مع اعتضادها بالحديث المرفوع المذكور هي حجة من

قال بقتله مطلقًا، والآثار المذكورة والحديث فيهما الدلالة على أنه يقتل ولو لم يبلغ به سحره الكفر لأن الساحر الذي قتله جندب كان سحره من نوع الشعوذة ... وقول عمر: "اقتلوا كل ساحر" يدل على ذلك بصيغة العموم.

القول الثاني: وهو مذهب الإمام الشافعي وابن المنذر ورواية عن الإمام أحمدأن الساحر إذا عمل بسحره ما يبلغ الكفر وجب قتله كفرًا بعد الاستتابة أما إذا لم يبلغ الكفر وقتل نفسًا قتل قصاصًا. وما سوى ذلك يعزر. يقول السبكي "وأما مذهب الشافعي فحاصله أن الساحر له ثلاثة أحوال حال يقتل كفرًا، وحال يقتل قصاصًا، وحال لا يقتل أصلًا بل يعزر. أما الحالة التي يقتل فيها كفرًا فقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أن يعمل بسحره ما يبلغ الكفر. وشرح أصحابه ذلك بثلاثة أمثلة - أحدها: أن يتكلم بكلام هو كفر، ولاشك أن ذلك موجب للقتل ومتى تاب منه قبلت توبته وسقط عنه القتل وهو يثبت بالإقرار وبالبينة.

المثال الثاني: أن يعتقد ما يوجب الكفر مثل التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل بأنفسها، فيجب عليه أيضًا القتل ... وتقبل توبته. ولا يثبت هذا القسم إلا بالإقرار.

المثال الثالث: أن يعتقد أنه حق يقدر به على قلب الأعيان فيجب عليه القتل ... ولا يثبت ذلك أيضًا إلا بالإقرار، وإذا تاب قبلت توبته وسقط عنه القتل. وأما الحالة التي يقتل فيها قصاصًا فإذا اعترف أنه قتل بسحره إنسانا ... وأنه مات به وأن سحره يقتل غالبًا فها هنا يقتل قصاصًا ولا يثبت هذه الحالة إلا الإقرار ولا يسقط القصاص بالتوبة. وأما الحالة التي لا يقتل فيها أصلًا ولكن يعزر فهي ما عدا ذلك.

وقال القرطبي: "نقل عن ابن المنذر أنه قال: "إذا أقر الرجل أنه سحر بكلام

يكون كفرًا وجب قتله إن لم يتبت وكذلك لو ثبتت عليه بينة، ووصفت البينة كلامًا يكون كفرًا وإن كان الكلام الذي ذكر أنه سحر به ليس بكفر لم يجز قتله، فإن كان أحدث في المسحور جناية توجب القصاص اقتص منه إن عمد ذلك".

أدلتهم: وقد استدل الشافعي ومن وافقه على هذا القول بأدلة منها ما يلي:

- ما رواه الشافعي في مسنده من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إيمان أو زنا بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس".

يقول السبكي: بعد إيراد الحديث - "القتل" في الحالة الأولى بقوله "كفر بعد إيمان، وفي الحالة الثالثة بقوله "أو قتل نفس بغير نفس" وامتنع في الثانية لأنها ليست بإحدى الثلاث، فلا يحل دمه عملًا بصدر الحديث.

- ما روي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها باعت مدبرة لها سحرتها.

وجه الدلالة: أنه لو وجب قتلها تأجل بيعها قاله ابن المنذر وغيره.

- ما ورد في الصحيحين وغيرهما: أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يقتلهفوجب أن يكون المؤمن كذلك لقوله عليه الصلاة والسلام: "لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين".

- ما وراه ابن حزم عن ربيعة بن عطاء أن "رجلًا عبدًا سحر جارية عربية فكانت تتبعه فرفع إلى عروة بن محمد وكان عامل عمر بن عبد العزيز فكتب إليه عمر بن عبد العزيز أن يبيعه بغير أرضها وأرضه ثم أمره أن يدفع ثمنه إليه" فعمر كما نرى أمر بتعزير فقط دليل على أنه لا يقتل. وقد استدل به الشافعية على الحالة الثالثة. مما ذكرنا يظهر -والله أعلم- أنه لا خلاف في قتل الساحر الذي بلغ بسحره الكفر أو قتل بسحره نفسًا اللهم - إلا أن الجمهور قالوا يقتل

حدًا والشافعي ومن معه قالوا: يقتل كفرًا أو قصاصًا.

وإنما الخلاف في الساحر الذي لم يبلغ بسحره الكفر ولم يقتل نفسًا. فالجمهور - كما نرى- قالوا بقلته مطلقًا. والشافعي ومن معه قالوا لا يقتل، إنما يعزر. وقد رجح البعض رأي الجمهور - لاتفاق الكتاب والسنة وفعل الصحابة له من غير نكير. ولذا أجابوا عن أدلة الشافعي ومن معه بما يلي:

أما الدليل الأول: فأجيب عنه: بأن الساحر عند الجمهور كافر، ذلك أن السحر في الشرع لا يتحقق إلا بالتقرب إلى الشياطين وعبادة الكواكب ونحوه، وذلك عين الكفر، وعليه فهو حلال الدم وعلى فرض أنه ليس بكافر فإن هذا الدليل عام.

وأدلة قتل الساحر خاصة. والخاص يقضي على العام.

أما الدليل الثاني: فقيل لعل الأمة التي سحرت عائشة كان سحرها ليس فيه كفر كالأدوية ونحوها. أو أن السحر لم تعلمه وإنما عمل لها أو أنها تابت فسقط عنها القتل والكفر بتوبتها.

أما الدليل الثالث: فأجيب عنه بما يلي:

- الرسول ﷺ لم يترك قتل لبيد لأنه ليس بواجب وإنما ترك قتله خشية أن تثار فتنة بين الناس، وهي أعظم من قتل واحد. وهو ما أشار إليه النبي ﷺ في قوله: "قد عافاني الله فكرهت أن أثير على الناس شرًا".

أو يكون في قتله تنفير عن الدخول في الإسلام.

قال القرطبي: "لا حجة على مالك من هذه القصة؛ لأن ترك قتل لبيد بن الأعصم كان لخشية أن يثير بسبب قتله فتنة، أو لئلا ينفر الناس عن الدخول في الإسلام وهو من جنس ما راعاه ﷺ من منع قتل المنافقين حيث قال: "لا

يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه" .

- على فرض أنه ﷺ ترك قتله لأنه ليس بواجب فوجب أن يكون المؤمن كذلك، لقوله ﷺ: "لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم" يقال استدلال غير مسلم؛ لأن المراد بالحديث: المنقادون للدين الإسلامي فأصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ويدل على ذلك أول الحديث قال ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ... حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين" وعلى هذا فليس المراد أهل الكتاب.

وأما الدليل الرابع: فأجيب عنه بما يلي:

- أن هذا الخبر غير صحيح؛ لأنه يتنافى مع رأي عمر إذ إنه من أصحاب القول الأول.

- على فرض صحة هذا الخبر فإنه مؤول بالسحر المجازي الذي يقوم على حسن البيان ونعومة الألفاظ التي تستمال بها القلوب. وهو ما أشار إليه النبي ﷺ في قوله: "إن من البيان لسحرا". ويؤكد ذلك استدلال الشافعية به على الحالة الثالثة، وهي التعزير. ورجح البعض رأي الشافعي ومن معه، بأن دماء المسلمين حرام إلا بيقين ولا يقين مع الإختلاف وأقول: الذي يظهر- والله أعلم- أن الخلاف بين الجمهور والشافعي ومن معه فيما يتأتى به السحر الحقيقي. فالجمهور: يرون أن السحر الحقيقي لايتأتى إلا بالتقرب إلى الشياطين وعبادة الكواكب ونحو ذلك، وذلك عين الكفر. ولذا كان حقه القتل مطلقًا والشافعي ومن معه يظنون أنه يتأتى بدون الشرك ولذا فصّلوا فيه. والحق

أن السحر أنواع، الأول: ماله حقيقة والثاني سحر التخييل وهذان يطلق عليهما السحر الحقيقي، ولا يتأتيان إلا بقول أو فعل أواعتقاد مكفر كالتقرب إلى الشياطين وعبادة الكواكب ونحو ذلك ولذا فهو كفر يقتل صاحبه.

الثالث: السحر المجازي: وهذا يتأتى بالأدوية وبالكلام وخفة الحركة ونحو ذلك ولذا فهو ليس بكفر بل معصية حق صاحبها التعزير إذا لم يقتل نفسًا والله أعلم.

حكم المرأة الساحرة: اختلف في حكمها. فذهب الأئمة الثلاثة أحمد والشافعي ومالك إلى أن حكم المرأة الساحرة حكم الرجل.

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن حكمها الحبس حتى ترجع إلى الإسلام بالتوبة، لأنها مرتدة أو تموت.

والأظهر -والله أعلم- الأول: بدليل قول عمر: "اقتلوا كل ساحر وساحرة" حيث لم يفرق بينهما، ولأن لفظ من في قوله ﷺ: "من بدل دينه فاقتلوه" تشمل الأنثى على أظهر القولين وأصحهما إن شاء الله تعالى.

مسألة: حكم ساحر أهل الكتاب

ذهب الإمام أبوحنيفة إليأنه يقتل لعموم ما تقدم من الأخبار التي دلت على قتل الساحر المسلم ولأنه جناية أوجبت قتل المسلم فأوجبت قتل الذمي كالقتل.

وذهب الأئمة الثلاثة: مالك والشافعي وأحمد، وابن شهاب الزهري إليأنه لا يُقتل إلا أن يقتل بسحره، وهو مما يقتل غالبًا لما يلي:

- أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ فلم يقتله
- أن الكتابي مشرك، والشرك أعظم من السحر ولا يقتل به وقد رجح

البعض رأي الجمهور، ولذا أجابوا عن أدله أبي حنيفة بما يلي:

- أما الأخبار التي وردت في قتل الساحر المسلم، فلأن المسلم يكفر بسحره. والكتابي كافر أصلى.

- أما قوله "بأن السحر جناية أوجبت قتل المسلم فأوجبت قتل الذمي، كالقتل. فيقال: هذا القياس ينتقض باعتقاد الكفر والتكلم به. وينتقض بالزنى من المحصن فإنه لا يقتل به الذمي ويقتل به المسلم.

- ورجح البعض رأي أبي حنيفة وأجابوا عن استدلال الجمهور بقصة لبيد أنه ﷺ لم يقتله، لأنه لا ينتقم لنفسه، ولأنه خشي أن تثور بسبب قتله فتنه، ولئلا يكون في قتله تنفير عن الإسلام.ولعل قول الجمهور أولى، لأنه غير مسلم فلا يؤاخذ بمخالفة تعاليم الإسلام. ما لم يكن في ذلك نقض للعهد.

مسألة: توبة الساحر

ذكرنا آنفا عند الكلام على عقوبة الساحر أن مذهب الإمام أبي حنيفة، ومالك وأبي ثور ورواية عن أحمد، وعدد من كبار الصحابة، وجماعة من التابعين أن الساحر يقتل بدون استتابة وذكرنا جملة من أقوالهم التي تؤكد ذلك وقد استدلوا على ذلك بأدلة منها:

الأول: قوله تعالى: {فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ... الآية} وجه الدلالة: أن الآية دلت على أن الكفار لاينفعهم الإيمان بعد رؤية العذاب. فكذلك الساحر بعد الشهادة عليه قد رأى البأس فلا ينفعه الإيمان ولا تقبل توبته،

الثاني: قوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا ... إلى قوله تعالى- إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ

فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} وجه الدلالة: أن الله أطلق في هذه الآية الحكم على المحاربين والذين يسعون في الأرض فسادًا إلا من تاب قبل أن يقدر عليه. ومثل ذلك الساحر، إذ هو من الذين يسعون في الأرض بالفساد - إذا تاب قبل أن يقدر عليه قبلت توبته وإلا فلا.

الثالث: فعل الصحابة في السحرة حيث قتلوهم من غير استتابة.

الرابع: أن السحر أمر باطن لا يظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزنديق.

الخامس: أن السحر معنى في القلب، وعلم لا يزول بالتوبة، فيشبه من لم يتب.

وذهب الإمام الشافعي، ورواية عن الإمام أحمد إلى أن الساحر يستتاب ويمهل ثلاثة أيام فإن تاب قبلت منه.

وقد استدلوا بأدلة منها:

الأول: قوله تعالى {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ} .

وجه الدلالة: أن الله تعالى علق الغفران على الانتهاء عن الكفر والانتهاء لا يكون إلا بالتوبة. وعليه فالسحر كغيره من أنواع الكفر الانتهاء عنه بالتوبة سبب للمغفرة.

الثاني: قوله تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

وجه الدلالة: الآيات تدل على الوعيد باللعنة والخلود بالنار للمرتد، إلا من

تاب وذلك دليل على قبول توبة المرتد. وإذا كان كذلك فالساحر كغيره من المرتدين يستتاب وتقبل توبته.

يقول القرطبي:" ويدخل في الآية بالمعنى كل من راجع الإسلام وأخلص"..

الثالث: أن الله تعالى قد أخبر أن سحرة فرعون قد آمنوا وقبل توبتهم، قال تعالى عنهم: {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ...} الآية وعليه فإن المعرفة بالسحر لا تمنع قبول التوبة.

الرابع: أن ذنب الساحر ليس بأعظم من الشرك، والمشرك يستتاب.

الخامس: أن الساحر لو كان كافرًا فأسلم صح إسلامه وتوبته.

السادس: أن الكفر والقتل إنما هو بعمله السحر لا بعلمه بدليل الساحر إذا أسلم. والعمل به يمكن التوبة منه، وكذلك اعتقاد ما يكفر باعتقاده يمكن التوبة منه كالشرك ولعل القول الأول هو الأولى لظاهر عمل الصحابة، وأما قياسه على المشرك فلا يصح لأنه أكثر فسادًا وكذلك لا يصح قياسه على ساحر أهل الكتاب أو الكافر لأن الإسلام يجب ما قبله.

وهذا الخلاف - إنما هو في ثبوت حكم التوبة في الدنيا من سقوط القتل ونحوه. أما فيما بينه وبين الله تعالى وسقوط عقوبة الدار الآخرة عنه فلا خلاف في صحة توبته إن كان صادقًا فإن الله تعالى لم يسد باب التوبة عن أحد من خلقه، ومن تاب إلى الله قبل توبته لا خلاف في ذلك.

مسألة: هل يجوز الذهاب للسحرة بغرض حل السحر عن المسحور

اختلفت أقوال الناس في ذلك فمنهم من قال بالجواز إذا كان الغرض الإصلاح لا الإفساد ومنهم من قال بأنه لايجوز إطلاقًا الذهاب إليهم بأي شكل

من الأشكال.

وإذا نظرت إلى نصوص الشريعة تجد أنها جاءت واضحة في بيان النهي عن الذهاب للسحرة سواء كان للإفساد أو الإصلاح.

فلا يجوز حل السحر بالسحر، وإنما يحل السحر بالقرآن الكريم والأدعية النبوية، والأدوية المباحة.

أما السحر فهو كفر، فلا يجوز فعله، ولا الذهاب إلى الساحر طلبا للشفاء، وقد سئل النبي ﷺ عن النشرة وهي حل السحر فقال: (هو من عمل الشيطان)[1].

قال الإمام ابن القيم في فتاوى إمام المفتين (ص٢٠٧، ٢٠٨): والنشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: حل سحر بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، فإن السحر من عمله، فيتقرب إليه الناشر والمنتشر بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٤)، وعبد الرزاق (١٩٧٦٢)، وأبو داود (٣٨٦٨)، والبيهقي (٩/ ٣٥١)، والمزي في تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٤١)، وعلقه البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٥٣) من حديث جابر ﵁، والحديث قال عنه البيهقي: روي مرسلا وهو أصح، وقال الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (ص٩٤، رقم ٨٨): إذا نظرت إلى رجال هذا الحديث وجدتهم رجال الصحيح إلا عقيل بن معقل وقد وثقه ابن معين ولكن العلائي في جامع التحصيل يقول في ترجمة وهب: قال ابن معين: لم يلق جابر بن عبد الله إنما هو كتاب، وقال في موضع آخر هو صحيفة ليست بشيء، أما النووي فقال في المجموع (٩/ ٦٧): إسناده صحيح، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٦٣): إسناده جيد، وكذا قال العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٣/ ٢٨٠)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٧٦٠)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٢/ ٤٠): إسناده صحيح.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة، فهذا جائز، بل مستحب " انتهى.

وقال العلامة العثيمين في "القول المفيد" (٢/ ٧٠): "وهذا الحديث بين فيه الرسول ﷺ حكم النشرة، وأنها من عمل الشيطان، وهذا يغني عن قوله إنها حرام، بل هذا أشد من قوله إنها حرام، لأن ربطها بعمل الشياطين يقتضي تقبيحها، والتنفير عنها، فهي محرمة " انتهى.

وقد حكى بعض أهل العلم عن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللهُ أنه يرى جواز حل السحر بالسحر للضرورة(١)،ومع ذلك فقد أجاب الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ عن

---

(١) قال البخاري في صحيحه (باب هل يستخرج السحر) وقال قتادة قلت لسعيد بن المسيب رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه أو ينشر قال لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه.

قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٣): كذا أورد الترجمة بالاستفهام إشارة إلى الاختلاف وصدر بما نقله عن سعيد بن المسيب من الجواز إشارة إلى ترجيحه قوله وقال قتادة قلت لسعيد بن المسيب الخ وصله أبو بكر الأثرم في كتاب السنن من طريق أبان العطار عن قتادة ومثله من طريق هشام الدستوائي عن قتادة بلفظ يلتمس من يداويه فقال إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع وأخرجه الطبري في التهذيب من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأسا إذا كان بالرجل سحر أن يمشي إلى من يطلق عنه فقال هو صلاح قال قتادة وكان الحسن يكره ذلك يقول لا يعلم ذلك إلا ساحر قال فقال سعيد بن المسيب إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع وقد أخرج أبو داود في المراسيل عن الحسن رفعه النشرة من عمل الشيطان ووصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر قال بن الجوزي النشرة حل السحر عن المسحور ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر وقد سئل أحمد عمن يطلق السحر عن المسحور فقال لا بأس به وهذا هو المعتمد ويجاب عن الحديث والأثر بأن قوله النشرة من عمل الشيطان إشارة إلى أصلها ويختلف الحكم بالقصد فمن قصد بها خيرا كان خيرا وإلا فهو شر ثم الحصر المنقول عن الحسن ليس على ظاهره لأنه قد ينحل بالرقى والأدعية والتعويذ =

=

ولكن يحتمل أن تكون النشرة نوعين.اهـ.
وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٧٢): هل يسأل الساحر حل سحره؟ فأجاز سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري، وقال عامر الشعبي: لا بأس بالنشرة، وكره ذلك الحسن البصري، وفي الصحيح عن عائشة: أنها قالت: يا رسول الله، هلا تنشرت، فقال: "أما الله فقد شفاني، وخشيت أن أفتح على الناس شرا" وحكى القرطبي عن وهب: أنه قال: يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه فإنه يذهب ما به، وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته.
قلت: أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله ﷺ في إذهاب ذلك وهما المعوذتان، وفي الحديث: "لم يتعوذ المتعوذون بمثلهما" وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان.اهـ.
وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٦/ ١/ ٦١١، ٦١٣ - ٦١٥): و"النشرة: الرقية. قال الخطابي: "النشرة: ضرب من الرقية والعلاج، يعالج به من كان يظن به مس الجن".
قلت: يعني الرقى غير المشروعة، وهي ما ليس من القرآن والسنة الصحيحة وهي التي جاء إطلاق لفظ الشرك عليها في غير ما حديث، وقد يكون الشرك مضمرًا في بعض الكلمات المجهولة المعنى، أو مرموزًا له بأحرف مقطعة، كما يرى في بعض الحجب الصادرة من بعض الدجاجلة، وعلى الرقى المشروعة يحمل ما علقه البخاري عن قتادة قال: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب (أي سحر) أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه. ووصله الحافظ في " الفتح " (١٠/ ٢٣٣) من رواية الأثرم وغيره من طرق عن قتادة عنه. ورواية قتادة أخرجها ابن أبي شيبة (٨/ ٢٨) بسند صحيح عنه مختصرًا.
هذا ولا خلاف عندي بين الأثرين، فأثر الحسن يحمل على الاستعانة بالجن والشياطين والوسائل المرضية لهم كالذبح لهم ونحوه، وهو المراد بالحديث، وأثر سعيد على الاستعانة بالرقى والتعاويذ المشروعة بالكتاب والسنة، وإلى هذا مال البيهقي في " السنن"، وهو المراد بما ذكره الحافظ عن الإمام أحمد أنه سئل عمن يطلق السحر عن المسحور؟ فقال: "لا بأس به ".وأما قول الحافظ: "ويختلف الحكم بالقصد، فمن قصد بها خيرا، وإلا فهو شر ".

=

هذا بقوله في القول المفيد (٢/ ٧٣): "ولكن على كل حال حتى ولو كان ابن المسيب، ومن فوق ابن المسيب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز، فلا يلزم من ذلك أن يكون جائزا في حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسنة، وقد سئل الرسول ﷺ عن النشرة، فقال: (هي من عمل الشيطان) انتهى.

وقد فهم بعضهم من تجويز الإمام أحمد للنشرة أنه أجاز حل السحر بالسحر، وإنما كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرقية الشرعية المباحة.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله في "تيسير العزيز الحميد" (٤١٩): "وكذلك ما روي عن الإمام أحمد من إجازة النشرة، فإنه محمول على ذلك -أي النشرة بالرقية الشرعية- وغلط من ظن أنه أجاز النشرة السحرية، وليس في كلامه ما

=

قلت: هذا لا يكفي في التفريق، لأنه قد يجتمع قصد الخير مع كون الوسيلة إليه شر، كما قيل في المرأة الفاجرة:

كَكفالة الأيتام من كسب فرجها ... لكِ الويل لا تزني ولا تتصدقي.

ومن هذا القبيل معالجة بعض المتظاهرين بالصلاح للناس بما يسمونه بـ"الطب الروحاني " سواء كان ذلك على الطريقة القديمة من اتصاله بقرينة من الجن كما كانوا عليه في الجاهلية، أو بطريقة ما يسمى اليوم باستحضار الأرواح، ونحوه عندي التنويم المغناطيسي، فإن ذلك كله من الوسائل التي لا تشرع لأن مرجعها إلى الاستعانة بالجن التي كانت من أسباب ضلال المشركين كما جاء في القرآن الكريم: {وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا} أي خوفا وإثمًا، وادعاء بعض المبتلين بالاستعانة بهم أنهم إنما يستعينون بالصالحين منهم، دعوى كاذبة لأنهم مما لا يمكن- عادة- مخالطتهم ومعاشرتهم، التي تكشف عن صلاحهم أو طلاحهم، ونحن نعلم بالتجربة أن كثيرًا ممن تصاحبهم أشد المصاحبة من الإنس، يتبين لك أنهم لا يصلحون، قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم} هذا في الإنس الظاهر، فما بالك بالجن الذين قال الله تعالى فيهم: {إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم}.

يدل على ذلك، بل لما سئل عن الرجل يحل السحر قال: قد رخص فيه بعض الناس. قيل: إنه يجعل في الطنجير ماء ويغيب فيه، فنفض يده وقال: لا أدري ما هذا! قيل له: أفترى أن يؤتى مثل هذا؟ قال: لا أدري ما هذا. وهذا صريح في النهي عن النشرة على الوجه المكروه، وكيف وهو الذي روى الحديث (أنها من عمل الشيطان)، لكن لما كان لفظ النشرة مشتركا بين الجائزة والتي من عمل الشيطان ورأوه قد أجاز النشرة ظنوا أنه قد أجاز التي من عمل الشيطان، وحاشاه من ذلك" انتهى.

وقد صرح كثير من العلماء بتحريم حل السحر بالسحر، وأن الضرورة لا تبيح ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: والمسلمون وإن تنازعوا في جواز التداوي بالمحرمات كالميتة والخنزير، فلا يتنازعون في أن الكفر والشرك لا يجوز التداوي به بحال، لأن ذلك محرم في كل حال، وليس هذا كالتكلم به عند الإكراه، فإن ذلك إنما يجوز إذا كان قلبه مطمئنا بالإيمان، والتكلم به إنما يؤثر إذا كان بقلب صاحبه، ولو تكلم به مع طمأنينة قلبه بالإيمان لم يؤثر، والشيطان إذا عرف أن صاحبه مستخف بالعزائم لم يساعده، وأيضا فإن المكره مضطر إلى التكلم له ولا ضرورة إلى إبراء المصاب به لوجهين:

أحدهما: أنه قد لا يؤثر أكثر مما يؤثر من يعالج بالعزائم، فلا يؤثر، بل يزيده شرا.

والثاني: أن في الحق ما يغني عن الباطل " انتهى من مجموع الفتاوى (١٩/ ٦١).

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال بعض الحنابلة: يجوز الحل

بسحر للضرورة والقول الآخر أنه لا يحل، وهذا الثاني هو الصحيح .... والسحر حرام وكفر، أفيعمل الكفر لتحيا نفوس مريضة أو مصابة! " انتهى من "فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم" (١/ ١٦٥).

وقال الشنقيطي في أضواء البيان (٤/ ٤٦٥): التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه في هذه المسألة: أن استخراج السحر إن كان بالقرآن كالمعوذتين، وآية الكرسي، ونحو ذلك مما تجوز الرقية به فلا مانع من ذلك، وإن كان بسحر أو ألفاظ أعجمية أو بما لا يفهم معناه، أو بنوع آخر مما لا يجوز فإنه ممنوع، وهذا واضح، وهو الصواب إن شاء الله تعالى كما ترى انتهى.

وسئل العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ عن حكم علاج السحر بالسحر عند الضرورة؟

فأجاب: "لا يجوز علاج السحر بالسحر، لأن النبي ﷺ سئل عن النشرة فقال: (هي من عمل الشيطان) والنشرة هي حل السحر بالسحر؛ ولأن حلها بالسحر يتضمن دعوة الجن والاستعانة بهم، وهذا من الشرك الأكبر؛ ولهذا أخبر الله سبحانه عن الملكين أنهما يقولان لمن يريد التعلم منهما ما نصه: (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) البقرة/ ١٠٢، وقبلها قوله تعالى: (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) البقرة/ ١٠٢. ثم قال سبحانه: (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الأخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون *ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون)

البقرة/ ١٠٢،١٠٣.

وفي هاتين الآيتين تحذير من تعلم السحر وتعليمه من وجوه كثيرة، منها: أنه من عمل الشيطان، ومنها: أن تعلمه كفر ينافي الإيمان، ومنها: أنه قد يحصل به التفريق بين المرء وزوجه، وهذا من أعظم الظلم والفساد في الأرض، ومنها: أنه لا يقع شيء من الضرر ولا غيره إلا بإذن الله، والمراد بالإذن هنا الإذن الكوني القدري، ومنها: أن هذا التعلم يضرهم ولا ينفعهم، ومنها: أن من فعله ليس له عند الله من خلاق • والمعنى: ليس له حظ ولا نصيب من الخير • وهذا وعيد عظيم يوجب الحذر من تعلم السحر وتعليمه، ومنها: ذمه سبحانه من تعاطي هذا السحر بقوله تعالى: (ولبئس ما شروا به أنفسهم) والمراد بالشراء هنا البيع •• ومنها: إخباره سبحانه أن هذا العمل ينافي الإيمان والتقوى.

وبهذه الوجوه يظهر لكل مسلم شدة تحريم تعلم السحر وتعليمه، وكثرة ما فيه من الفساد والضرر، وأنه مع هذا كفر بعد الإيمان، وردة عن الإسلام، نعوذ بالله من ذلك، فالواجب الحذر من ذلك، وأن يكتفي المسلم بالعلاج الشرعي وبالأدوية المباحة بدلا من العلاج بما حرمه الله عليه شرعا، والله ولي التوفيق " انتهى.

وسئلت اللجنة الدائمة عن حكم حل السحر بسحر مثله.

فأجابت: "لا يجوز ذلك، والأصل فيه ما رواه الإمام أحمد وأبو داود بسنده عن جابر رضي الله عنهما قال: سئل رسول الله ﷺ عن النشرة فقال: (هي من عمل الشيطان).

وفي الأدوية الطبيعية، والأدعية الشرعية، ما فيه كفاية: (فإن الله ما أنزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله)، وقد أمر رسول الله ﷺ

بالتداوي، ونهى عن التداوي بالمحرم، فقال ﷺ: (تداووا ولا تتداووا بحرام)، وروي عنه ﷺ أنه قال: (إن الله لم يجعل شفاءكم في حرام) " انتهى . "فتاوى مهمة لعموم الأمة" (١٠٧،١٠٦) .

وقال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين حفظه الله: "لا يجوز حل السحر بسحر مثله، وذلك بأن يطلب من الساحر نفسه أن يبطل عمله الذي هو السحر، فإن في ذلك إقرارا له، وإبقاء لعمله، مع أن الواجب قتله متى عرف وتحقق أنه ساحر، فإن حده ضربة بالسيف، وكذا لا يجوز الذهاب إلى ساحر آخر لطلب حل ذلك السحر لما في ذلك من إبقائه وتقريره الذي هو كرضى بفعله " انتهى.

وسئل الدكتور صالح الفوزان حفظه الله"كما في المنتقى من فتاواه (٢/ ١٣٢،١٣٣ عن حكم حل السحر بسحر مثله؟

فأجاب: "أما قضية حل السحر بسحر مثله فقد نص كثير من العلماء على أن ذلك لا يجوز، لأن التداوي إنما يكون بالحلال والمباح، ولم يجعل الله شفاء المسلمين فيما حرم عليهم، وقال النبي ﷺ: (تداووا ولا تداووا بحرام) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم)، ومن أعظم المحرمات السحر فلا يجوز التداوي به ولا حل السحر به، وإنما السحر يحل بالأدوية المباحة وبالآيات القرآنية والأدعية المأثورة[1]،هذا الذي

---

(١) الرقية الشرعية هي ما اجتمع فيها ثلاثة أمور:

١ - أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته أو المأثور عن النبي ﷺ.

٢ - ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية شرطا وهو أن تكون باللسان العربي وما يعرف معناه: فكل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقي به فضلا عن أن يدعو به ولو عرف معناه لأنه يكره الدعاء بغير العربية، وإنما يرخص لمن لا يحسن العربية، فأما جعل الألفاظ =

يجوز حل السحر به " انتهى.

(باب مترفقات)

مسألة: قال العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٣/ ٢٧٤): الحمد لله، وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فنظرًا لكثرة المشعوذين في الآونة الأخيرة ممن يدَّعون الطب ويعالجون عن طريق السحر أو الكهانة، - وانتشارهم في بعض البلاد، واستغلالهم للسذج من الناس ممن يغلب عليهم الجهل - رأيت من باب النصيحة لله ولعباده أن أبين ما في ذلك من خطر عظيم على الإسلام والمسلمين لما فيه من التعلّق بغير الله تعالى ومخالفة أمره وأمر رسوله ﷺ.

فأقول مستعينًا بالله تعالى يجوز التداوي اتفاقا، وللمسلم أن يذهب إلى دكتور أمراض باطنية أو جراحية أو عصبية أو نحو ذلك " ليشخص له مرضه ويعالجه بما يناسبه من الأدوية المباحة شرعًا حسبما يعرفه في علم الطب؛ لأن ذلك من باب الأخذ بالأسباب العادية ولا ينافي التوكل على الله، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى الداء وأنزل معه الدواء عرف ذلك من عرفه وجهله من جهله، ولكنه سبحانه لم يجعل شفاء عباده فيما حرمه عليهم.

فلا يجوز للمريض أن يذهب إلى الكهنة الذين يدَّعون معرفة المغيبات

=

الأعجمية شعارا فليس من دين الإسلام.

٣ - أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى.

فإذا كانت هذه الشروط الثلاثة مجتمعة في الرقية فهي الرقية الشرعية، وقد قال ﷺ: "لا بأس بالرقى ما لم تكن شركا ". رواه مسلم.

وإن أنفع الرقية وأكثرها تأثيرا رقية الإنسان نفسه، وذلك لما ورد في النصوص على عكس ما اشتهر عند كثير من الناس من البحث عن قارئ ولو كان عاميا أو مشعوذا.

ليعرف منهم مرضه، كما لا يجوز له أن يصدقهم فيما يخبرونه به فإنهم يتكلمون رجمًا بالغيب، أو يستحضرون الجن ليستعينوا بهم على ما يريدون، هؤلاء حكمهم الكفر والضلال إذا ادعوا علم الغيب، وقد روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «من أتى عرَّافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا» وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافا كاهنًا فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ» رواه أبو داود وخرَّجه أهل السنن الأربع وصححه الحاكم عن النبي ﷺ بلفظ: «من أتى عرافا أو كاهنا فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له ومن أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقوله فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد.

ففي الأحاديث الشريفة النهي عن إتيان العرافين والكهنة والسحرة وأمثالهم وسؤالهم وتصديقهم والوعيد على ذلك، فالواجب على ولاة الأمور وأهل الحسبة وغيرهم ممن لهم قدرة وسلطان إنكار إتيان الكهان والعرافين ونحوهم، ومنع من يتعاطى شيئًا من ذلك في الأسواق وغيرها والإنكار عليهم أشد الإنكار، والإنكار على من يجيء إليهم، ولا يجوز أن يغتر بصدقهم في بعض الأمور، ولا بكثرة من يأتي إليهم من الناس فإنهم جهال لا يجوز اغترار الناس بهم؛ لأن الرسول ﷺ قد نهى عن إتيانهم وسؤالهم وتصديقهم لما في ذلك من المنكر العظيم والخطر الجسيم والعواقب الوخيمة ولأنهم كذبة فجرة، كما أن في هذه الأحاديث دليلا على كفر الكاهن والساحر لأنهما لا يتوصلان إلى مقصدهما إلا بخدمة الجن وعبادتهم من دون الله وذلك كفر بالله وشرك به

سبحانه والمصدق لهم في دعواهم علم الغيب يكون مثلهم، وكل من تلقى هذه الأمور عمن يتعاطاها فقد برئ منه رسول الله ﷺ، ولا يجوز للمسلم أن يخضع لما يزعمونه علاجًا كتمنمتهم بالطلاسم أو صب الرصاص ونحو ذلك من الخرافات التي يعملونها، فإن هذا من الكهانة والتلبيس على الناس، ومن رضي بذلك فقد ساعدهم على باطلهم وكفرهم. كما لا يجوز أيضًا لأحد من المسلمين أن يذهب إليهم ليسألهم عمن سيتزوج ابنه أو قريبه أو عما يكون بين الزوجين وأسرتيهما من المحبة والوفاء أو العداوة والفراق ونحو ذلك؛ لأن هذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

والسحر من المحرمات الكفرية كما قال الله ﷻ في شأن الملكين في سورة البقرة: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠٢]

فدلت هذه الآيات الكريمة على أن السحر كفر وأن السحرة يفرقون بين المرء وزوجه. كما دلت على أن السحر ليس بمؤثر لذاته نفعًا ولا ضرًا وإنما يؤثر بإذن الله الكوني القدري لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخير والشر، ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين ولبسوا بها على ضعفاء العقول، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

كما دلت الآية الكريمة على أن الذين يتعلمون السحر إنما يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم وأنه ليس لهم عند الله من خلاق أي: (من حظ ونصيب)،

وهذا وعيد عظيم يدل على شدة خسارتهم في الدنيا والآخرة، وأنهم باعوا أنفسهم بأبخس الأثمان، ولهذا ذمهم الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله {وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠٢] والشراء هنا بمعنى البيع.

نسأل الله العافية والسلامة من شر السحرة والكهنة وسائر المشعوذين، كما نسأله سبحانه أن يقي المسلمين شرهم، وأن يوفق حكام المسلمين للحذر منهم وتنفيذ حكم الله فيهم حتى يستريح العباد من ضررهم وأعمالهم الخبيثة إنه جواد كريم.

وقد شرع الله سبحانه لعباده ما يتقون به شر السحر قبل وقوعه، وأوضح لهم سبحانه ما يعالج به بعد وقوعه رحمة منه لهم، وإحسانًا منه إليهم، وإتمامًا لنعمته عليهم.

وفيما يلي بيان للأشياء التي يتقى بها خطر السحر قبل وقوعه، والأشياء التي يعالج بها بعد وقوعه من الأمور المباحة شرعًا.

أما ما يتقى به خطر السحر قبل وقوعه فأهم ذلك وأنفعه هو: التحصن بالأذكار الشرعية والدعوات والتعوذات المأثورة، ومن ذلك قراءة آية الكرسي خلف كل صلاة مكتوبة بعد الأذكار المشروعة بعد السلام، ومن ذلك قراءتها عند النوم، وآية الكرسي هي أعظم آية في القرآن الكريم وهي قوله سبحانه: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥]

ومن ذلك قراءة: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} [الفلق: ١] و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} [الناس: ١] خلف كل صلاة مكتوبة، وقراءة هذه السور الثلاث ثلاث مرات في أول النهار بعد صلاة الفجر، وفي أول الليل بعد صلاة المغرب، وعند النوم، ومن ذلك قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة في أول الليل وهما قوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: ٢٨٥] إلى آخر السورة. وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ آية الكرسي في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح» وصح عنه أيضًا ﷺ أنه قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» والمعنى والله أعلم: كفتاه من كل سوء.

ومن ذلك الإكثار من التعوذ: بكلمات الله التامات من شر ما خلق في الليل والنهار، وعند نزول أي منزل في البناء أو الصحراء أو الجو أو البحر لقول النبي ﷺ: «من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» ومن ذلك أن يقول المسلم في أول النهار وأول الليل ثلاث مرات: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم» لصحة الترغيب في ذلك عن رسول الله ﷺ، وأن ذلك سبب للسلامة من كل سوء.

وهذه الأذكار والتعوذات من أعظم الأسباب في اتقاء شر السحر وغيره من الشرور لمن حافظ عليها بصدق وإيمان وثقة بالله واعتماد عليه وانشراح صدر لما دلت عليه، وهي أيضًا من أعظم السلاح لإزالة السحر بعد وقوعه مع الإكثار

من الضراعة إلى الله وسؤاله سبحانه أن يكشف الضرر ويزيل البأس.

ومن الأدعية الثابتة عنه ﷺ في علاج الأمراض من السحر وغيره - وكان قيل يرقي بها أصحابه -: «اللهم رب الناس أذهب البأس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقمًا» يقولها ثلاثًا، ومن ذلك الرقية التي رقى بها جبرائيل النبي ﷺ وهي قوله: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك بسم الله أرقيك» وليكرر ذلك ثلاث مرات.

ومن علاج السحر بعد وقوعه أيضًا وهو علاج نافع للرجل إذا حبس من جماع أهله أن يأخذ سبع ورقات من السدر الأخضر فيدقها بحجر أو نحوه ويجعلها في إناء ويصب عليه من الماء ما يكفيه للغُسل ويقرأ فيها: آية الكرسي، و{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} [الكافرون: ١] و{قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} [الفلق: ١] و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} [الناس: ١] وآيات السحر التي في سورة الأعراف وهي قوله سبحانه: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ - فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ - فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ} [الأعراف: ١١٧ - ١١٩] والآيات في سورة يونس وهي قوله سبحانه: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ - فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ - فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ - وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [يونس: ٧٩ - ٨٢] والآيات في سورة طه: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى - قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى - فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى - قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى - وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا

كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [طه: ٦٥ - ٦٩] وبعد قراءة ما ذكر في الماء يشرب منه ثلاث حسوات ويغتسل بالباقي وبذلك يزول الداء إن شاء الله، وإن دعت الحاجة لاستعماله مرتين أو أكثر فلا بأس حتى يزول الداء.

ومن علاج السحر أيضًا -وهو من أنفع علاجه- بذل الجهود في معرفة موضع السحر في أرض أو جبل أو غير ذلك، فإذا عرف واستخرج وأتلف بطل السحر.

هذا ما تيسر بيانه من الأمور التي يتقى بها السحر ويعالج بها، والله ولي التوفيق.

وأما علاجه بعمل السحرة الذي هو التقرب إلى الجن بالذبح أو غيره من القربات فهذا لا يجوز؛ لأنه من عمل الشيطان بل من الشرك الأكبر. فالواجب الحذر من ذلك، كما لا يجوز علاجه بسؤال الكهنة والعرافين والمشعوذين واستعمال ما يقولون لأنهم لا يؤمنون، ولأنهم كذبة فجرة يدعون علم الغيب ويلبسون على الناس، وقد حذر الرسول من إتيانهم وسؤالهم وتصديقهم كما سبق بيان ذلك في أول هذه الرسالة، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه سُئل عن النشرة فقال: «هي من عمل الشيطان» رواه الإمام أحمد وأبو داود بإسناد جيد. والنشرة هي: حل السحر عن المسحور، ومراده خياله بكلامه هذا النشرة التي يتعاطاها أهل الجاهلية، وهي: سؤال الساحر ليحل السحر، أو حله بسحر مثله من ساحر آخر.

أما حله بالرقية والتعوذات الشرعية والأدوية المباحة فلا بأس بذلك كما تقدم. وقد نص على ذلك العلامة ابن القيم، والشيخ عبد الرحمن بن حسن في فتح المجيد -رحمة الله عليهما- ونص على ذلك أيضًا غيرهما من أهل العلم.

والله المسئول أن يوفق المسلمين للعافية من كل سوء، وأن يحفظ عليهم دينهم، ويرزقهم الفقه فيه، والعافية من كل ما يخالف شرعه، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في مجموع فتاواه أيضا (٣/ ٢٦٨): ما العلامات التي يعرف بها الساحر، والكاهن والمشعوذ؟ (١).

فأجاب: يعرفون بما يقولون من الكلام الباطل، والأعمال الباطلة، يعرفون بدعواهم الباطلة المخالفة للشرع، فهذا دليل ظاهر، فيعرف المشعوذ والكاهن والرمال والمنجم والساحر، بأعمالهم التي يعملونها كل واحد يعرف بعمله. فالذي يدعي علم الغيب أو يدعي أشياء لا أساس لها، هذه من الدلائل على أنه يستخدم الجن، ويستعين بالجن، أو كذاب، يكذب على الناس لأكل أموالهم، وهكذا الذي يستعمل أشياء تضر الناس، ينبغي أن يرفع أمره إلى الجهة المختصة كالهيئة أو المحكمة؛ لأنه قد يتعاطى السحر، وقد يتعاطى أشياء تضر الناس بغير علم، لجهله وعدم بصيرته.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٢٧٧): هل الساحر الذي يعلم بأنه ساحر، يكفر كفر المعين أم كفر العمل؟.

فأجاب: إذا عرف أنه ساحر فهو كافر عند أهل العلم، يجب قتله ولا يستتاب، ويجب على ولي الأمر ولي أمر المسلمين، أن يقتله لقول الله عَزَّ وَجَلَّ، في الملكين اللذين يعلمان السحر: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ} يعلمانه: بأن ما يقال لك فتنة، وأنه كفر، فالواجب على العبد أن يحذر السحر، وتعاطيه والعمل به كله شر، وكله ضرر وكله كفر، وقال في السحرة سبحانه: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ} فدل على أن عملهم ضد الإيمان، وضد التقوى.

فالواجب على ولاة الأمور، إذا عرفوا أن فلانا ساحر، أو فلانة الواجب قتلهم، لما فيهم من الشر ولما في بقائهم من الشر والفساد، وقد ثبت عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه كتب إلى عماله في الشام أن يقتلوا السحرة، وثبت عن حفصة أم المؤمنين أنها قتلت ساحرة، كانت عندها تخدمها قتلتها، فالمقصود أن السحرة شرهم عظيم، وفسادهم كبير.

فالواجب على ولاة أمر المسلمين أنهم إذا عرفوا ذلك، وثبت عندهم ذلك، أن يحكموا عليهم بالإعدام، لما في ذلك من الخير العظيم، للمسلمين ولما في بقائهم من الشر على المسلمين.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٢٧٨): عن رجل، يقول إنه سحره ثلاث مرات. واكتشف ذلك السحر. هل له قتله؟ (٢).

فأجاب: ليس له قتله، ولكن يحاكمه إلى المحكمة التي عندهم أو إلى أمير بلده، إن كان بلده فيه أمير حتى ينظر في الأمر، وحتى تجرى عليهم الأحكام التي تجرى على أمثالهم، إن كانت محكمة شرعية ففيها الكفاية والحمد لله، وإن كانت محاكم قانونية ليست محاكم شرعية طلب من ولاة الأمور أن ينظروا في الأمر، الذي ينصفه من هذا الرجل، هذا الساحر ويزيل عنه السحر، بالطريقة التي ليس فيها ظلم ولا عدوان على أحد، بل بالطريقة التي يرجع فيها لأهل العلم وأهل الشرع، حتى ينظروا في أمرهم وحتى يحكموا بينهم وإن كان في غير محكمة، يعني تحال إلى العالم الشرعي، حتى ينظر في الأمر، أو يصلح بينهم وبينه بصلح يحصل به المقصود، من استسماحه أو إعطائه مالا يرضيه، أو فك السحر بغير السحر عنه، إن كان السحر لا يزال، أو ما أشبه ذلك. المقصود

يرجع إلى أعيان الناس وكبار الناس والمسؤولين في البلد، حتى يصلحوا بينه وبينه ويحلوا مشكلته، إن كان ما فيه محكمة شرعية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٢٨٠): في قريتنا رجل يحفظ القرآن الكريم كاملا، ويؤم الناس في الصلاة، ولكنه يعمل بعض أعمال السحر، ويقول إنها أعمال حب فقط، أي جمع بين اثنين، فهل تحل الصلاة وراءه، وإن لم يكن فهل ننصرف عنه إلى مسجد آخر؟ جزاكم الله خيرا.

فأجاب: إذا عرف أنه يتعاطى السحر يجب أن يرفع أمره إلى المحكمة حتى يستتاب وحتى تحكم المحكمة بما يقتضيه الشرع المطهر، والصواب أيضا أنه لا يستتاب بل يقتل ولا يصلى خلفه، الساحر كافر إذا ثبت السحر عند المحكمة، والمحكمة أعلم بهذا، فارفعوا أمره إلى المحكمة ولا تصلوا خلفه، واطلبوا من المسؤولين في الأوقاف، أن يعينوا بدلا منه، من أهل الخير، ولا يجوز لكم الصلاة خلفه، ولا تركه، بل يجب الرفع عنه، للمحكمة حتى تعمل معه ما يلزم، من جهة إثبات سحره والحكم عليه بما يقتضي الحكم الشرعي فنسأل الله السلامة والعافية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٢٨٨): سمعت من بعض طلبة العلم إنكاره للسحر، حتى إنه قال: ائتوا بالسحرة ليسحروني إن كانوا صادقين، توجيهكم لو سمحتم ولا سيما إذا كانت هذه العبارة من شخص مشهور وله شعبية لا بأس بها؟.

فأجاب: هذا جهل وغلط، هذه العبارات تصدر عن جهل، فقد سحر النبي ﷺ وهو أفضل الخلق، وقد صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه سحر، وعافاه الله من ذلك وشفاه الله سبحانه وتعالى، هذا شيء معروف وأجمع

المسلمون على أنه يقع بإذن الله سبحانه وتعالى، لكن بعضه يؤثر على المريض وبعضه بالتخييل كما تقدم.

مسألة: سئل العلامة الألباني كما في موسوعته في العقيدر (٣/ ١١٠٥): الرجل المسحور هل يجوز إزالة السحر عنه بسحر؟

الشيخ: لا، إلا على مذهب واحد، وهو مذهب الخِمِّيْر السكير أبو نواس الذي قال: وداوني بالتي كانت هي الداء.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في نفس المصدر السابق (٣/ ١١٠٥): سحر سحرة فرعون، كان سحرًا بتسخير الشياطين أم كان سحرًا من النوع الآخر؟

الشيخ: هو الظاهر الأول {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} (الأعراف: ١١٦)، تخييل ... ولهذا يقول المفسرون في قوله تعالى: {وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ} (البقرة: ١٠٢) هذان الملكين ربُنا أنزلهم في زمن كان انتشر السحر عند الملوك، ويستخدمون السحرة كما جاء في قصة الغلام مع الساحر، معروفة هذه القصة في صحيح مسلم، كان هناك ملك مستعبد لشعبه وشعر بأنه الساحر الذي كان يستعين به على استرقاق شعبه أسن وشاخ، فهو يريد بديله، فأمره بأن يختار له غلامًا من الشعب ذكيًا لكي يكون خليفته من بعده، فاختار غلامًا، فكان هذا الغلام يخرج كل يوم صباحًا من بيته إلى الساحر يتعلم منه السحر.

ذات يوم وقع بصره في الطريق على راهب في صومعة منزوية عن الطريق، فحوَّل إليه، فكلمه الراهب فأعجبه كلامه، ووجد له حلاوة في قلبه، فصار كل يوم يتردد على هذا الراهب صباح مساء، فإذا خرج من دار أبيه صباحًا حول

عليه وتأخر بمجيئه إلى معلمه الساحر، فعاقبه وضربه لماذا تتأخر، وحينما ينصرف من الساحر ليعود إلى دار أبيه حول على الراهب فتأخر عن الدار فضربه الوالد، وهكذا هو بين ضاربين.

ذات يوم خرج كعادته من بيته ويمشي في الطريق وإذا الطريق واقف والناس واقفين هنا وهنا، نظر وإذا أفعى قطعت الطريق على الناس، ولا أحد يتجرأ للسير، فرفع الغلام يديه ودعا وقال: اللهم إن كان الراهب على حق فاصرف عنا هذه الآفة، فما كاد يتم كلامه إلا انصرفت الآفة، وانتبه الناس الذين حوله واعتقدوا، تعرف يومئذ الناس يعتقدون بهذه الأشياء كثيرًا، صاروا يتبركون به.

وشاع خبر هذا الغلام، عند الملك وزير أعمى، بلغه خبر هذا الغلام المبارك، فأرسل إليه أو جاء إليه وقال له: عافني أو اشفني، قال: ربك هو الذي يعافيك، لكني أدعو لك ربي أن يعافيك، فدعا له فشفاه، ورجع بصيرًا، لكن هذا الشفاء العاجل كان مرِّبيًا للوزير ومُذكِّرًا له بضلال ملكه الذي كان مستعبدًا له ولمن دونه، فصار يعبد الله لا شريك له.

فلما دخل على الملك ورآه بصيرًا سأله عن السبب، قال: ربِّ عافاني، فعرف الملك أنه كفر به، فسأله: فدله على الغلام، وهنا كان الراهب أوعز إلى الغلام بأنك ستبتلى بي، فإذا سئلت عني فلا تخبر، الملك لما رأى الوزير كفر به وآمن بربه بعد أن عاد بصيرًا فقتله لكن بعد أن سأله من أين هذا؟ قال: من الغلام، أرسل وراء الغلام، واستجوبه واستنطقه فصارحه بأن الله ﷻ هو الذي شفاه، فعرف الملك أن الغلام هو سبب إضلال وزيره، فأمر بقتله بطريقة غريبة جدًا، وهي: أمر الجند أن يأخذوه إلى أعلى قمة في جبل ويرموه من أعلى الجبل إلى الأسفل فيموت شر ميتة.

فصعدوا ولما هموا بقذفه قال: اللهم اكفنيهم كيف شئت، فاضطرب الجبل من تحتهم فوقعوا جميعًا هلكى موتى، وهو مشى وكأنه يمشي في سهل حتى وصل إلى الملك، استغرب الملك، قال له: ربي كفاني شرهم.

فأمر جندًا بأن يركبوه في قرقور سفينة صغيرة وأن يتوسطوا به البحر ثم يقذفوه في البحر، فأخذوه ولما هموا بقذفه قال: اللهم اكفنيهم كيف شئت، فاطَّرب المركب أو القرقور ووقعوا جميعًا في البحر ورجع هو يمشي إلى الملك، فاغتاظ الملك جدًا وعرف أنه ليس له سبيل إلى قتله، وصارحه الغلام بذلك فقال له: لن تستطيع الوصول إلي إلى قتلي إلا إذا فعلت ما آمرك به، الغلام الآن بيحكي من فوق، يتعالى على الملك إلا إذا فعلت ما آمرك به، قال له: ماذا؟ قال: تدعو الناس لميعاد يوم عظيم، وتضعني على الخشبة، ثم تأخذ سهمًا من كنانتي وتقف بعيدًا عني وترميني به، وتقول: باسم الله رب الغلام، فإذا فعلت ذلك قتلتني وإلا لا سبيل لك إلي، فعل الملك ذلك واجتمعت الأمة في ساحة كبيرة جدًا، ونصبوا الغلام على خشبة ووقف الملك أمامه، واستل سهمًا من كنانته، ثم وقف بعيدًا عنه ورماه بسهم قائلًا: بسم الله رب الغلام، فأصابه في صدره، فوضع يده هكذا ومات، لكن الشعب لما سمعوا الملك يقول: بسم الله رب الغلام كفروا به، وآمنوا بالرب سبحانه وتعالى.

وهنا أدرك الملك مكر الغلام به، وأنه بفدائه بنفسه فدى شعبه من الإيمان به إلى الإيمان بربه تبارك وتعالى، هنا جاءت قصة الأخدود، فحفر الأخدود وأوقد النار وجاء دور امرأة تحمل صبيًا لها، فلما أوقفت بجانب النار ضعفت طبيعتها كأم، فقال لها الغلام: اصبري يا أماه! فقذفت نفسها، وهنا جاء قوله تعالى: {قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَى

مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ} (البروج:٤ - ٧) فالشاهد في قصة هاروت وماروت كان الملوك يومئذ يستعينون بالسحرة، فربنا ﷻ أنزل الملكين ليجعلوا علم السحر علمًا عامًا يعرفه الشعب برمته، حتى يعرفوا أن هؤلاء السحرة ما يأتون بشيء فوق طاقة بشر، إنما يختصون بعلم دون سائر البشر، فلما عرفوا بطريق تعليم الملائكة أو الملكين لهم طريق السحر صاروا ما عاد ينغشوا بسحر السحرة، فنجوا من كيدهم ومن ضلالهم، فهذا هو السحر في الغالب يعني عبارة عن تخييل، لكن إذا تعاون شيطان الإنس مع شيطان الجن كان تأثيره أشد وضرره أكبر، أي نعم.

السؤال: هذا الطفل الثاني بعد سيدنا عيسى عليه السلام الذي تكلم وهو في المهد؟

الشيخ: أي نعم.

مداخلة: والثالث من يا شيخ.

الشيخ: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى عليه السلام، وهذا، وغلام جريج، جريج الراهب الذي اتهم بامرأة بغي.

وسئل رحمه الله كما في نفس المصدر السابق (٣/ ١١٢٠): ما هو حكم الحيل، التي تسمى خفة اليد، ويقوم بها بعض الناس ...

مثلًا أن يخرج المال من جيبك دون أن تشعر، ثم يخرجه من وراء أذنه بطريقة [معينة]، فهل هذا من السحر؟ وبالتالي هل يكفر صاحبه؟ ...

الشيخ: لا هذا ليس من السحر، لكنه من الدجل، الذي يَنهى عنه الشارع الحكيم. نعم.

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ١٧٤): عن السحر

وحكم تعلمه؟.

فأجاب: السحر قال العلماء: هو في اللغة "عبارة عن كل ما لطف وخفي سببه" بحيث يكون له تأثير خفي لا يطلع عليه الناس، وهو بهذا المعنى يشمل التنجيم، والكهانة، بل إنه يشمل التأثير بالبيان والفصاحة كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان لسحرًا» . فكل شيء له أثر بطريق خفي فهو من السحر.

وأما في الاصطلاح فعرفه بعضهم بأنه: "عزائم ورقى وعقد تؤثر في القلوب والعقول والأبدان فتسلب العقل، وتوجد الحب والبغض وتفرق بين المرء وزوجه وتمرض البدن وتسلب تفكيره ".

وتعلم السحر محرم، بل هو كفر إذا كانت وسيلته الإشراك بالشياطين قال الله - تبارك وتعالى -: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} فتعلم هذا النوع من السحر - وهو الذي يكون بواسطة الإشراك بالشياطين - كفر، واستعماله أيضًا كفر وظلم وعدوان على الخلق، ولهذا يقتل الساحر إما ردة وإما حدًا فإن كان سحره على وجه يكفر به فإنه يقتل ردة وكفرًا، وإن كان سحره لا يصل إلى درجة الكفر فإنه يقتل حدًا دفعًا لشره وأذاه عن المسلمين.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٧٥): هل للسحر حقيقة؟.

فأجاب: للسحر حقيقة ولا شك وهو مؤثر حقيقة، لكن كونه يقلب الشيء

أو يحرك الساكن، أو يسكن المتحرك هذا خيال وليس حقيقة، انظر إلى قول الله تعالى في قصة السحرة من آل فرعون يقول الله تعالى: {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}

قال: {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ} كيف سحروا أعين الناس؟

سحروا أعين الناس حين صار الناس ينظرون إلى حبال السحرة وعصيهم كأنها ثعابين تمشي كما قال الله تعالى: {يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} فالسحر في قلب الأشياء، وتحريك الساكن، أو تسكين المتحرك ليس له أثر، لكن في كونه يسحر أو يؤثر على المسحور حتى يرى الساكن متحركًا والمتحرك ساكنًا، أثره ظاهر جدًا، إذًا فله حقيقة ويؤثر على بدن المسحور وحواسه وربما يهلكه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٧٦): هل للسحر حقيقة؟ وهل سحر النبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟.

فأجاب: السحر ثابت ولا مرية فيه وهو حقيقة، وذلك بدلالة القرآن الكريم، والسنة.

أما القرآن الكريم فإن الله تعالى ذكر عن سحرة فرعون الذين ألقوا حبالهم وعصيهم، وسحروا أعين الناس، واسترهبوهم حتى إن موسى، عليه الصلاة والسلام، كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى وحتى أوجس في نفسه خيفة فأمره الله تعالى أن يلقي عصاه فألقاها فإذا هي حية تسعى تلقف ما يأفكون، كما حكى الله -عَزَّ وَجَلَّ- ذلك عنه فقال: {قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ

تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ وهذا أمر لا إشكال فيه، وأما السنة ففيها أحاديث متعددة في ثبوت السحر وتأثيره.

وأما أن النبي ﷺ سحر فنعم فقد ثبت من حديث عائشة وغيرها أن «النبي، ﷺ، سحر وأنه كان يخيل إليه أنه أتى الشيء وهو لم يأته» ولكن الله تعالى أنزل عليه سورتي: قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس فشفاه الله بهما.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٧٦): عن حكم حل السحر عن المسحور "النشرة"؟.

فأجاب: فأجاب قائلًا: حل السحر عن المسحور "النشرة" الأصح فيها أنها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أن تكون بالقرآن الكريم، والأدعية الشرعية، والأدوية المباحة فهذه لا بأس بها لما فيها من المصلحة وعدم المفسدة، بل ربما تكون مطلوبة؛ لأنها مصلحة بلا مضرة.

القسم الثاني: إذا كانت النشرة بشيء محرم كنقض السحر بسحر مثله فهذا موضع خلاف بين أهل العلم: فمن العلماء من أجازه للضرورة.

ومنهم من منعه «لأن النبي، ﷺ، سئل عن النشرة فقال: "هي من عمل الشيطان»[(١)]، وإسناده جيد رواه أبو داود، وعلى هذا يكون حل السحر بالسحر

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٤)، وعبد الرزاق (١٩٧٦٢)، وأبو داود (٣٨٦٨)، والبيهقي (٩/ ٣٥١)، والمزي في تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٤١)، وعلقه البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٥٣) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث قال عنه البيهقي: روي مرسلا وهو أصح، وقال الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (ص٩٤، رقم ٨٨): إذا نظرت إلى رجال هذا الحديث وجدتهم رجال الصحيح إلا عقيل بن معقل وقد وثقه ابن معين ولكن العلائي في جامع التحصيل يقول في ترجمة وهب: قال ابن معين: لم يلق جابر بن =

محرمًا، وعلى المرء أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والتضرع لإزالة ضرره، والله سبحانه وتعالى يقول:: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} .

ويقول: الله تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} . والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٧٥): عن حكم التوفيق بين الزوجين بالسحر؟.

فأجاب: هذا محرم ولا يجوز، وهذا يسمى بالعطف، وما يحصل به التفريق يسمى بالصرف وهو أيضًا محرم وقد يكون كفرًا وشركًا قال الله تعالى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} .

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٧٨): عن أقسام السحر؟ وهل الساحر كافر؟.

فأجاب: السحر ينقسم إلى قسمين:

الأول: عقد ورقى، أي قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى الإشراك بالشياطين فيما يريد لضرر المسحور، قال الله تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ

=

عبد الله إنما هو كتاب، وقال في موضع آخر هو صحيفة ليست بشيء، أما النووي فقال في المجموع (٩/ ٦٧): إسناده صحيح، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٦٣): إسناده جيد، وكذا قال العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٣/ ٢٨٠)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٧٦٠)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٢/ ٤٠): إسناده صحيح.

عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} . الآية.

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور، وعقله، وإرادته، وميله وهو ما يسمى عندهم بالعطف، والصرف، فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء والصرف بالعكس من ذلك، فيؤثر في بدن المسحور بإضعافه شيئًا فشيئًا حتى يهلك، وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه."

وكفر الساحر" اختلف فيه أهل العلم: فمنهم من قال: يكفر. ومنهم من قال: لا يكفر.

ولكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبين به حكم هذه المسألة: فمن كان سحره بواسطة الشياطين فإنه يكفر، ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير فإنه لا يكفر ولكنه يعتبر عاصيًا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٧٩): هل قتل الساحر ردة أو حد؟.

فأجاب: قتل الساحر قد يكون حدًا، وقد يكون ردة بناء على التفصيل السابق في كفر الساحر فمتى حكمنا بكفره فقتله ردة، وإذا لم نحكم بكفره فقتله حد.

والسحرة يجب قتلهم سواء قلنا بكفرهم أم لا، لعظم ضررهم وفظاعة أمرهم، فهم يفرقون بين المرء وزوجه، وكذلك العكس فهم قد يعطفون فيؤلفون بين الأعداء ويتوصلون بذلك إلى أغراضهم، كما لو سحر امرأة ليزني بها، فيجب على ولي الأمر قتلهم بدون استتابة، ما دام أنه حد؛ لأن الحد إذا بلغ

الإمام، لا يستتاب صاحبه، بل يقام بكل حال، أما الكفر فإنه يستتاب صاحبه، وبهذا نعرف خطأ من أدخل حكم المرتد في الحدود، وذكروا من الحدود حد الردة؛ لأن قتل المرتد ليس من الحدود لأنه إذا تاب انتفى عنه القتل، ثم إن الحدود كفارة لصاحبها وليس بكافر، والقتل بالردة ليس بكفارة وصاحبه كافر لا يصلى عليه، ولا يغسل ولا يدفن في مقابر المسلمين.

فالقول بقتل السحرة موافق للقواعد الشرعية؛ لأنهم يسعون في الأرض فسادًا، وفسادهم من أعظم الفساد، وإذا قتلوا سلم الناس من شرهم، وارتدع الناس عن تعاطي السحر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٧٩): هل ثبت أن النبي ﷺ، سحر؟.

فأجاب: نعم ثبت في الصحيحين وغيرهما أن النبي، ﷺ سحر، لكن لم يؤثر عليه من الناحية التشريعية أو الوحي، إنما غاية ما هنالك أنه وصل إلى درجة يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يكن فعله، وهذا السحر الذي وضع كان من يهودي يقال له: لبيد بن الأعصم وضعه له، ولكن الله تعالى أنجاه منه حتى جاءه الوحي بذلك وعوذ بالمعوذتين عليه الصلاة والسلام،ولا يؤثر هذا السحر على مقام النبوة؛ لأنه لم يؤثر في تصرف النبي، ﷺ، فيما يتعلق بالوحي والعبادات.

وقد أنكر بعض الناس أن يكون النبي، ﷺ، سحر، بحجة أن هذا القول يستلزم تصديق الظالمين الذين قالوا: {إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا} .

ولكن هذا لا شك أنه لا يستلزم موافقة هؤلاء الظالمين بما وصفوا به النبي، ﷺ؛ لأن أولئك يدعون أن الرسول، ﷺ، مسحور فيما يتكلم به من الوحي، وأن ما جاء به هذيان كهذيان المسحور، وأما السحر الذي وقع للرسول، ﷺ،

فلم يؤثر عليه في شيء من الوحي ولا في شيء من العبادات، ولا يجوز لنا أن نكذب الأخبار الصحيحة بمجرد فهم سيّء فهمه مَن فهمه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في فتاوى نور على الدرب: ما حكم فعل السحر وتعلمه؟.

فأجاب: السحر نوعان: نوع يكون كفرًا، ونوع يكون فسقًا. فالسحر الذي يكون بالاستعانة بالشياطين والأرواح الخبيثة هذا كفر؛ لقول الله تبارك وتعالى: (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ) . والنوع الثاني يكون فسقًا، وهو السحر بالأعشاب ونحوها مما يضر المسحور، فهذا عدوان وفسق، لكن لا يصل بصاحبه إلى حد الكفر. وأيًا كان الساحر فإنه يجب قتله؛ لقول النبي ﷺ: (حد الساحر ضربة بالسيف) . ولأن عدوانه وضرره عظيم على الأمة. ثم إن كان كافرًا- أي: إن كان سحره مكفرًا- فإنه لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه ولا يدفن مع المسلمين، وإن كان غير مكفر فإنه يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن مع المسلمين.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: ما حكم الذهاب للسحرة والدجالين والكهنة؟.

فأجاب: الذهاب إلى هؤلاء محرم، ولا يحل الذهاب إليهم، ولا خير فيهم، وقد قال الله تبارك وتعالى: (وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) . والكهنة كذابون؛ لأنهم لهم عملاء من الجن يسترقون السمع ويخبرونهم، ثم يكذبون مع ما أخبروا به من أخبار السماء، يكذبون كذبات كثيرة مائة كذبة أو أكثر أو أقل، فهم كذبة لا يجوز الذهاب إليهم. وقد قال النبي ﷺ: (من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد) . وإنما كان ذلك كفرًا لأنه تكذيب لقول الله تعالى: (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) .

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: هل يؤثر السحر لدرجة أنه يوقف مشروع الزواج؟ وإذا كان هذا التأثير صحيحًا فهل له علاج من الكتاب والسنة دون الذهاب للدجالين والمشعوذين؟ نرجو التوجيه مأجورين.

فأجاب: الجواب على هذا السؤال: أن السحر بلا شك يؤثر تأثيرًا مباشرًا بدليل القرآن والواقع، أما القرآن فقد قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ . وقوله تعالى في قصة موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ . وأما الواقع فشاهدٌ بذلك، فإن السحر يؤثر في المسحور، يؤثر في عقله وفي بدنه وفي فكره وفي اتجاهه. والسحر من كبائر الذنوب، بل شعبةٌ منه تكون من الكفر المخرج من الملة، وعلى هذا فالواجب على المسلمين البعد عن السحر والحذر منه اتقاءً لعقاب الله ورحمةً بعباد الله. وأما العلاج بالنسبة للمسحور فيكون بقراءة القرآن: يقرأ على المصاب بالآيات بآيات الحماية، مثل: آية الكرسي، قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، وغيرها من الآيات التي فيها الحماية من شر الخلق. أو يؤتى بماء فيدق سبع ورقات من ورق السدر وتوضع في هذا الماء، ويقرأ فيه أو ينفث فيه بمثل قوله تعالى: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ وغيرها من الآيات التي تفيد بطلان السحر، ويسقى المريض المصاب بالسحر. وكذلك يمكن أن يعالج المريض بالسحر بالأدوية المباحة المتخذة من الأشجار أو غيرها. وكذلك يعالج السحر بحل السحر، بأن يوصل إلى المكان الذي فيه السحر، وتؤخذ الوسيلة التي جعل فيها السحر فتنقض وتحرق، وما أشبه ذلك من أنواع الحلول المباحة. وأما الذهاب إلى السحرة لحل السحر: فإن كان ذلك لضرورة فقد اختلف العلماء في جوازه، فمنهم من أجاز ذلك

وقال: إن الضرورة تبيح المحرم، ولا شك أن المصاب بالسحر إذا نقض سحره يزول ضرره، فما كان وسيلة لأمرٍ نافع بدون أن يتضمن ضررًا في الدين فإنه لا بأس به؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾، وقد ذهب إلى هذا بعض التابعين ومنهم من منع الذهاب إلى السحرة لحل السحر، واستدل بأن النبي ﷺ سئل عن النشرة فقال: (هي من عمل الشيطان)، وبأنه إذا فتح الباب للناس صار وسيلةً لإغراء السحرة واتفاقهم على هذا العمل، فأحدهم يسحر والثاني يحل السحر، وما يحصل من المكاسب تكون بينهما؛ لأنه من المعلوم أن المصاب بالسحر سوف يبذل الشيء الكثير لأجل التخلص منه، وفي هذا مفسدةٌ عظيمة. والحقيقة أننا إذا نظرنا إلى الضرورة الشخصية المعينة مِلْنا إلى الإباحة، أي: إباحة حل السحر بالسحر للضرورة، كما ذهب إلى ذلك من ذهب من السلف والخلف. وإذا نظرنا إلى المصلحة العامة مِلْنا إلى القول بالمنع، لا سيما وأنه مؤيدٌ بالحديث الذي أشرنا إليه: أن النبي ﷺ سئل عن النشرة فقال: (هي من عمل الشيطان)، والمسألة عندي فيها توقف. والعلم عند الله.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق: تقول بأن لها ابنة متزوجة، وهذه الابنة تكره زوجها وزوجها يحبها، وهي الآن حامل وعند أهلها، وهي تكره أن ترى هذا الزوج، ويقال بأن هناك كاتبًا يكتب كتابًا يسمى بالعطف أن يجعل الزوجة تحب زوجها، فهل هذا العمل جائز؟.

فأجاب: لا يجوز للمرأة أن تعمل عملًا يكون به عطف الزوج عليها، ولا يجوز للزوج أن يعمل عملًا يكون به عطف الزوجة عليه؛ لأن هذا نوع من السحر، ولكن الطريق إلى ذلك أن تسأل الله عَزَّوَجَلَّ دائمًا أن يحبب زوجها إليها

وأن يؤلف بينهما، وتقرأ من القرآن ما يعينها على التحول من الكراهية إلى المحبة، وتستعين بأهل الخير والصلاح أن يقرؤوا عليها لتحويل بغضها إلى محبة. هذا ما أراه واجبًا عليها، ونسأل الله تعالى أن يؤلف بينها وبين زوجها وأن يبارك لهما وعليهما وأن يجمع بينهما في الخير.

(باب ذكر الكهان)

الكهان: جمع كاهن، والكهنة أيضًا جمع كاهن، وهم قوم يكونون في أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، وتتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما كان في السماء، تسترق السمع من السماء، وتخبر الكاهن به، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس، فإذا وقع مما أخبر به شيء، اعتقده الناس عالمًا بالغيب، فصاروا يتحاكمون إليهم، فهم مرجع للناس في الحكم، ولهذا يسمون الكهنة، إذ هم يخبرون عن الأمور في المستقبل، يقولون: سيقع كذا وسيقع كذا، وليس من الكهانة في شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب، فإن الأمور التي تدرك بالحساب ليست من الكهانة في شيء، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر، فهذا ليس من الكهانة، لأنه يدرك بالحساب، وكما لو أخبر أن الشمس تغرب في ٢٠ من برج الميزان مثلًا في الساعة كذا وكذا، فهذا ليس من علم الغيب، وكما يقولون: إنه سيخرج في أول العام أو العام الذي بعده مذنب (هالي)، وهو نجم له ذنب طويل، فهذا ليس من الكهانة في شيء، لأنه من الأمور التي تدرك بالحساب، فكل شيء يدرك بالحساب، فإن الإخبار عنه ولو كان مستقبلًا لا يعتبر من علم الغيب، ولا من الكهانة.

وهل من الكهانة ما يخبر به الآن من أحوال الطقس في خلال أربع وعشرين

ساعة أو ما أشبه ذلك؟

الجواب: لا، لأنه أيضًا يستند إلى أمور حسية، وهي تكيف الجو، لأن الجو يتكيف على صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم، فيكون صالحًا لأن يمطر، أو لا يمطر، ونظير ذلك في العلم البدائي إذا رأينا تجمع الغيوم والرعد والبرق وثقل السحاب، نقول يوشك أن ينزل المطر.

فالمهم أن ما استند إلى شيء محسوس، فليس من علم الغيب، وإن كان بعض العامة يظنون أن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون: إن التصديق بها تصديق بالكهانة.

والشيء الذي يدرك بالحس إنكاره قبيح، كما قال السفاريني:

فكل معلوم بحس أو حجا فنكره جهل قبيح بالهجا

فالذي يعلم بالحس لا يمكن إنكاره ولو أن أحدًا أنكره مستندًا بذلك إلى الشرع، لكان ذلك طعنًا بالشرع.

روى مسلم في (صحيحه) عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: (من أتى عرافًا، فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يومًا)[1].

قوله: (من): شرطية، فهي للعموم.

والعراف: صيغة مبالغة من العارف، أو نسبة، أي: من ينتسب إلى العرافة.

والعراف قيل: هو الكاهن، وهو الذي يخبر عن المستقبل.

وقيل: هو اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يستدل على

---

(١) أخرجه مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة».

معرفة الغيب بمقدمات يستعملها، وهذا المعنى أعم، ويدل عليه الاشتقاق، إذ هو مشتق من المعرفة، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور وادعى بها المعرفة.

قوله: (فسأله، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا). ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يومًا، ولكنه ليس على إطلاقه، فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن يسأله سؤالًا مجردًا، فهذا حرام لقول النبي ﷺ: (من أتى عرافًا .....)، فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه، إذ لا عقوبة إلا على فعل محرم.

القسم الثاني: أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله: فهذا كفر لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن، حيث قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ [النمل: ٦٥].

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره: هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله، فهذا لا بأس به، ولا يدخل في الحديث.

وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد، فقال: (ماذا خبأت لك؟ قال: الدخ فقال: اخسأ، فلن تعدو قدرك)[1]، فالنبي ﷺ سأله عن شيء أضمره، لأجل أن يختبره، فأخبره به.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور يتبين بها كذبه وعجزه، وهذا مطلوب، وقد يكون واجبًا.

وإبطال قول الكهنة لا شك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجبًا، فصار السؤال هنا ليس على إطلاقه، بل يفصل فيه هذا التفصيل على حسب ما دلت عليه

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٢٩٣٠) من حديث عبد الله بن عمر.

الأدلة الشرعية الأخرى.

وقد ذكر شيخ الإسلام أن الجن يخدمون الإنس في أمور، والكهان يستخدمون الجن ليأتوهم بخبر السماء، فيضيفون إليه من الكذب ما يضيفون، وخدمة الجن للإنس ليست محرمة على كل حال، بل هي على حسب الحال.

فالجني يخدم الإنس في أمور لمصلحة الإنس، وقد يكون للجن فيها مصلحة، وقد لا يكون له فيها مصلحة، بل لأنه يحبه في الله ولله، ولا شك أن من الجن مؤمنين يحبون المؤمنين من الإنس، لأنه يجمعهم الإيمان بالله.

وقد يخدمونهم لطاعة الإنس لهم فيما لا يرضي الله ـ عز وجل ـ، إما في الذبح لهم، أو في عبادتهم، أو ما أشبه ذلك.

والأغرب من ذلك أنهم ربما يخدمون الإنس لأمر محرم من زنا أو لواط، لأن الجنية قد تستمتع بالإنسي بالعشق والتلذذ بالاتصال، أو بالعكس، وهذا أمر معلوم مشهود، حتى ربما كان الجني الذي في الإنسان ينطق بذلك، كما يعلم من الذين يقرؤون على المصابين بالجن.

والنبي ﷺ حضر إليه الجن وخاطبهم وأرشدهم، ووعدهم بعطاء لا نظير له، فقال لهم: (كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحمًا، وكل بعرة، فهي علف لدوابكم)[1] ... قوله: (فصدقه). ليس في (صحيح مسلم)، بل الذي في (مسلم): (فسأله، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)، وزيادتها في نقل المؤلف، إما لأن النسخة التي نقل منها بهذا اللفظ (فصدقه)، أو أن المؤلف عزاه إلى (مسلم) باعتبار أصله، فأخذ من (مسلم): (فسأله)، وأخذ من أحمد: (فصدقه).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٥٠).

قوله: (لم تقبل له صلاة أربعين ليلة). نفي القبول هنا هل يلزم منه نفي الصحة أو لا؟

نقول: نفي القبول إما أن يكون لفوات شرط، أو لوجود مانع، ففي هاتين الحالين يكون نفي القبول نفيًا للصحة، كما لو قلت: من صلى بغير وضوء لم يقبل الله صلاته، ومن صلى في مكان مغصوب لم يقبل الله صلاته عند من يرى ذلك.

وإن كان نفي القبول لا يتعلق بفوات شرط ولا وجود مانع، فلا يلزم من نفي القبول نفي الصحة، وإنما يكون المراد بالقبول المنفي: إما نفي القبول التام، أي: لم تقبل على وجه التمام الذي يحصل به تمام الرضا وتمام المثوبة.

وإما أن يراد به أن هذه السيئة التي فعلها تقابل تلك الحسنة في الميزان، فتسقطها، ويكون وزرها موازيًا لأجر تلك الحسنة، وإذا لم يكن له أجر صارت كأنها غير مقبولة، وإن كانت مجزئة ومبرئة للذمة، لكن الثواب الذي حصل بها قوبل بالسيئة فأسقطته.

ومثله قوله ﷺ: (من شرب الخمر، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا)[1].

وقوله: (أربعين يومًا). تخصيص هذا العدد لا يمكننا أن نعلله، لأن الشيء المقدر بعدد لا يستطيع الإنسان غالبًا أن يعرف حكمته، فكون الصلاة خمس صلوات أو خمسين لا نعلم لماذا خصصت بذلك، فهذا من الأمور التي يقصد

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٩)، وابن ماجه (٣٣٧٧)، والحاكم (٤/ ١٦٢)، وابن حبان (١٢/ ١٨٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال الحاكم حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال البغوي في ((شرح السنة)) (٦/ ١١٨): حسن، وقال أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (١١/ ٤٤): إسناده صحيح، وصححه الألباني في ((صحيح ابن ماجه، وقال الأرنؤوط (٤/ ٤٦٦): إسناده صحيح.

بها التعبد لله، والتعبد لله بما لا تعرف حكمته أبلغ من التعبد له بما تعرف حكمته، لأنه أبلغ في التذلل، صحيح أن الإنسان إذا عرف الحكمة اطمأنت نفسه أكثر، لكن كون الإنسان ينقاد لما لا يعرف حكمته دليل على كمال الانقياد والتعبد لله ﷻ، فهو من حيث العبودية أبلغ وأكمل، أما ذاك، فهو من حيث الطمأنينة إلى الحكم يكون أبلغ، لأن النفس إذا علمت بالحكمة في شيء اطمأنت إليه بلا شك، وازدادت أخذًا له وقبولًا، فهناك أشياء مما عينه الشرع بعدد أو كيفية لا نعلم ما الحكمة فيه، ولكن سبيلنا أن نكون كما قال الله تعالى عن المؤمنين: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ [الأحزاب: ٣٦].

فعلينا التسليم والانقياد وتفويض الأمر إلى الله تعالى.

ويؤخذ من الحديث: تحريم إتيان العراف وسؤاله، إلا ما استثني، كالقسم الثالث والرابع، لما في إتيانهم وسؤالهم من المفاسد العظيمة، التي ترتب على تشجيعهم وإغراء الناس بهم، وهم في الغالب يأتون بأشياء كلها باطلة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: (من أتى كاهنًا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)[1] رواه أبو داود.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٨، ٤٧٦)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٥٢ - ٢٥٣)، والدارمي (١١٣٦)، والبخاري في تاريخه (٣/ ١٦ - ١٧)، وأبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجة (٦٣٩)، والنسائي في الكبرى (٩٠١٧)، وابن الجارود (١٠٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٤٥)، وفي شرح مشكل الآثار (٦١٣٠)، والعقيلي في الضعفاء (١/ ٣١٨)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٦٣٧)، والبيهقي (٧/ ١٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث أشار الترمذي إلى ضعفه في سننه، وقال في العلل الكبير (١/ ٩١): سألت محمدا عن هذا الحديث فلم يعرفه إلا من هذا الوجه وضعف هذا الحديث جدا، وضعفه النووي في الخلاصة، وقال الحافظ في التلخيص (٣/ =

قوله: (من أتى كاهنًا). تقدم معنى الكهان، وأنهم كانوا رجالًا في أحياء العرب تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بما سمعت من أخبار السماء.

قوله: (فصدقه). أي: نسبه إلى الصدق، وقال: إنه صادق، وتصديق الخبر يعني: تثبيته وتحقيقه، فقال: هذا حق وصحيح وثابت.

قوله: (بما يقول). (ما) عامة في كل ما يقول: حتى ما يحتمل أنه صدق، فإنه لا يجوز أن يصدقه، لأن الأصل فيهم الكذب.

قوله (فقد كفر بما أنزل على محمد)، أي: بالذي أنزل، والذي أنزل على محمد ﷺ القرآن أنزل إليه بواسطة جبريل، قال تعالى: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٣]، وقال تعالى: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ [النحل: ١٠٢]، وبهذا نعرف أن القول الراجح في الحديث القدسي أنه من كلام الله تعالى معنى، وأما لفظه، فمن الرسول ﷺ، لكنه حكاه عن الله، لأننا لو لم نقل بذلك لكان الحديث القدسي أرفع سندًا من القرآن ...

=

٣٨٩): وقال البزار هذا حديث منكر وحكيم لا يحتج به وما انفرد به فليس بشيء، وضعفه ابن عدي، والعقيلي، وقال المناوي في الفيض (٦/ ٢٣): قال البغوي: سنده ضعيف، وقال ابن سيد الناس: فيه أربع علل التفرد عن غير ثقة وهو موجب للضعف وضعف رواته والانقطاع ونكارة متنه وأطال في بيانه، وقال الذهبي في الكبائر: ليس إسناده بالقائم، وقال المنذري: رووه كلهم من طريق حكيم الأثرم عن ابن تميمة وهو طريق خالد عن أبي هريرة وسئل ابن المديني من حكيم فقال: أعيانا، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٥/ ١٦٤): حديث محتمل للتحسين، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، أما العراقي فقال في الأمالي: حديث صحيح، وصححه الذهبي كما في الفيض، وصححه العلامة الألباني في الجامع الصحيح (٥٩٤٢)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وتعقب الحويني في غوث المكدود (١/ ١٠٤، رقم ١٠٧) كل من ضعفه وقال: إسناده حسن.

ولأنه لو كان من كلام الله لفظًا، لوجب أن تثبت له أحكام القرآن، لأن الشرع لا يفرق بين المتماثلين، وقد علم أن أحكام القرآن لا تنطبق على الحديث القدسي ولا يتعبد بتلاوته ولا يقرأ في الصلاة، ولا يعجز لفظه، ولو كان من كلام الله، لكان معجزًا، لأن كلام الله لا يماثله كلام البشر، وأيضًا باتفاق أهل العلم فيما أعلم أنه لو جاء مشرك يستجير ليسمع كلام الله وأسمعناه الأحاديث القدسية، فلا يصح أن يقال: إنه سمع كلام الله

فدل هذا على أنه ليس من كلام الله، وهذا هو الصحيح، وللعلماء في ذلك قولان: هذا أحدهما، والثاني: أنه من قول الله لفظًا.

فإن قال قائل: كيف تصححون هذا والنبي ﷺ ينسب القول إلى الله، ويقول: قال الله تعالى: ومقول القول هو هذا الحديث المسوق.

قلنا: هذا كما قال الله تعالى عن موسى وفرعون وإبراهيم: قال موسى، قال فرعون، قال إبراهيم مع أننا نعلم أن هذا اللفظ ليس من كلامهم ولا قولهم، لأن لغتهم ليست اللغة العربية، وإنما نقل نقلًا عنهم، ويدل هذا أن القصص في القرآن تختلف بالطول والقصر والألفاظ، مما يدل على أن الله سبحانه ينقلها بالمعنى، ومع ذلك ينسبها إليهم، كما قال تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي [الزخرف: ٢٦،٢٧]، وقال عن موسى: قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ [الأعراف: ١٢٨]، وقال عن فرعون: قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ [الشعراء: ٣٤].

قوله: (بما أنزل على محمد). ذكر أهل السنة أن كل كلمة وصف فيها القرآن بأنه منزل أو أنزل من الله، فهي دالة على علو الله ـ سبحانه وتعالى ـ بذاته، وعلى أن القرآن كلام الله، لأن النزول يكون من أعلى، والكلام لا يكون إلا من

متكلم به.

قوله: (كفر بما أنزل على محمد). وجه ذلك: أن ما أنزل على محمد قال الله تعالى فيه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وهذا من أقوى طرق الحصر، لأن فيه النفي والإثبات، فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، فهو كافر كفرًا أكبر مخرجًا من الملة، وإن كان جاهلًا ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب، فكفره كفر دون كفر.

وللأربعة، والحاكم ـ وقال: (صحيح على شرطهما) عن أبي هريرة: ((من أتى عرافًا أو كاهنًا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)) (١).

قوله: (وللأربعة والحاكم). الأربعة هم: أبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم ليس من أهل (السنن)، لكن له كتاب سمي (صحيح الحاكم).

قوله: (صحيح على شرطهما)، أي: شرط البخاري ومسلم، لكن قول (على شرطهما) هذا على ما يعتقد، وإلا، فقد يكون الأمر على خلاف ذلك.

ومعنى قوله: (على شرطهما)، أي: أن رجاله رجال (الصحيحين)، وأن ما اشترطه البخاري ومسلم موجود فيه.

ونحن لا ننكر أن هناك أحاديث صحيحة لم يذكرها البخاري ومسلم، لأنهما لم يستوعبا الصحيح كله، وهذا أمر واقع، ولكن ينظر في قول من قال: إن هذا الحديث على شرطهما، فقد تكون فيه علة خفية خفيت على هذا القائل، ويكون البخاري ومسلم علماها وتركا الحديث من أجلها.

قوله: (صحيح). يقولون الحاكم ممن يتساهل بالتصحيح، ولهذا قالوا: لا

عبرة بتصحيح الحاكم، ولا بتوثيق ابن حبان، ولا بوضع ابن الجوزي، ولا بإجماع ابن المنذر.

وهذا القول فيه مجازفة في الحقيقة، لأن كلمة (لا عبرة)، أي: لا يلتفت إليه، والصواب أنه لا يؤخذ مقبولًا في كل حال، مع أني تدبرت كلام ابن المنذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ووجدت أنه دائمًا إذا نقل الإجماع يقول: إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم، وهو بهذا قد احتفظ لنفسه، ولا يكلف الله نفسًا إلى وسعها.

ولكننا مع ذلك نقول: إذا كان الرجل ذا اطلاع واسع، فقد يكون هذا القول إجماعًا، أما إذا كان هذا الرجل لا يعرف إلى ما حوله، فإن قوله هذا لا يكون إجماعًا ولا يوثق به، ولا نحكم بأنه إجماع.

مثاله: فلو قال رجل: لم يدرس إلا المذهب الحنبلي في مسألة، وقال هذا إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم، فإن قوله هذا لا يعتبر، لأنه لم يحفظ إلا قولًا قليلًا من أقوال أهل العلم.

قوله: (من أتى عرافًا أو كاهنًا). (أو) يحتمل أن تكون للشك، ويحتمل أن تكون للتنويع، فالحديث الأول بلف عراف، والثاني بلفظ كاهن، والثالث جمع بينهما، فتكون "أو" للتنويع.

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا.

وعن عمران بن حصين مرفوعًا: (ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهنًا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ). رواه البزار بإسناد جيد.

... أن حديث أبي هريرة: (من أتى عرافًا أو كاهنًا) أنه موقوف، لأنه قال عن أبي هريرة، لكنه لما قال في الذي بعده: (موقوفًا) ترجح عندنا أن الحديث الذي

قبله مرفوع.

قوله: (ليس منا). تقدم الكلام على هذه الكلمة، وأنها لا تدل على خروج الفاعل من الإسلام، بل على حسب الحال.

قوله: (مرفوعًا) أي: إلى النبي ﷺ.

قوله: (تطير) التطير: هو التشاؤم بالمرئي أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير، لأن العرب كانوا يتشاءمون أو يتفاءلون بها.

ومنه ما يحصل لبعض الناس إذ شرع في عمل، ثم حصل له في أوله تعثر تركه وتشاءم، فهذا غير جائز، بل يعتمد على الله ويتوكل عليه، وما دمت أنك تعلم أن في هذا الأمر خيرًا، فغامر فيه، ولا تشاءم، لأنك لم توفق فيه لأول مرة، فكم من إنسان لم يوفق في العمل أول مرة، ثم وفق في ثاني مرة أو ثالث مرة؟!

ويقال: إن الكسائي - إمام النحو - طلب النحو عدة مرات، ولكنه لم يوفق، فرأى نملة تحمل نواة تمر، فتصعد بها إلى الجدار، فتسقط، حتى كررت ذلك عدة مرات، ثم صعدت بها إلى الجدار وتجاوزته، فقال: سبحان الله! هذه النملة تكابد هذه النواة حتى نجحت، إذًا أنا سأكابد علم النحو حتى أنجح. فكابد، فصار إمام أهل الكوفة في النحو.

قوله: (أو تطير له). بالبناء للمفعول، أي: أمر من يتطير له، مثل أن يأتي شخص، ويقول: سأسافر إلى المكان الفلاني، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طيرك لأنظر: هل هذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلك، فقد تبرأ منه الرسول ﷺ.

وقوله: (من تطير) يشمل من تطير لنفسه، أو تطير لغيره.

وقوله: (أو تكهن أو تكهن له). سبق أن الكهانة ادعاء علم الغيب في

المستقبل، يقول سيكون كذا وكذا، وربما يقع، فهذا متكهن، ومن الغريب أنه شاع الآن في أسلوب الناس قولهم: تكهن بأن فلانًا سيأتي، ويطلقون هذا اللفظ الدال على عمل محرم على أمر مباح، وهذا لا ينبغي، لأن العامي الذي لا يفرق بين الأمور يظن أن الكهانة كلها مباحة، بدليل إطلاق هذا اللفظ على شيء مباح معلوم إباحته.

قوله: (أو تكهن له)، أي: طلب من الكاهن أن يتكهن له، كأن يقول للكاهن: ماذا يصيبني غدًا، أو في الشهر الفلاني، أو في السنة الفلانية، وهذا تبرأ منه الرسول ﷺ.

قوله: (أو سحر أو سحر له). تقدم تعريف السحر، وتقدم بيان أقسامه.

قوله: (أو سحر له)، أي: طلب من الساحر أن يسحر له، ومنه النشرة عن طريق السحر، فهي داخلة فيه، وكانوا يستعملونها على وجوه متنوعة، منها أنهم يأتون بطست فيه ماء، ويصبون فيه رصاصًا، فيتكون هذا الرصاص بوجه الساحر، أي: تكون صورة الساحر في هذا الرصاص، ويسمونها العامة عندنا (صب الرصاص)، وهذا من أنواع السحر المحرم، وقد تبرأ رسول الله من فاعله.

الشاهد من هذا الحديث: قوله: (ومن أتى كاهنًا ....) إلخ، وقوله: (ورواه الطبراني في (الأوسط) بإسناد حسن من حديث ابن عباس ...) إلخ، فيكون هذا مقويًا للأول.

قال البغوي: (العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك)[1].

---

(١) ((شرح السنة)) (١٢/ ١٨٢).

وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

[قوله: (قال البغوي: العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات ...).

العراف: صيغة مبالغة فإما أن يراد بها الصيغة، وإما أن يراد بها النسبة.]

وهو الذي يدعي معرفة تتعلق بعلم الغيب، فيدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها.

وظاهر كلام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه شامل لمن ادعى معرفة المستقبل والماضي، لأن مكان المسروق يعلم بعد السرقة، وكذلك الضالة قد حصل الضياع، ولكن المسألة ليست اتفاقية بين أهل العلم، ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقيل: هو"، أي: العراف الكاهن.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

قوله: (وقيل: هو الذي يخبر عما في الضمير)، أي: أن تضمر شيئًا فتقول: ما أضمرت؟ فيقول: أضمرت كذا وكذا.

أو المغيبات في المستقبل، تقول: ماذا سيحدث في الشهر الفلاني في اليوم الفلاني؟ ماذا ستلد امرأتي؟ متى يقدم ولدي؟ وهو لا يدري.

والخلاصة: أن العلماء اختلفوا في تعريف العراف، فقيل: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها، فيكون شاملًا لمن يخبر عن أمور وقعت.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقال أبو العباس ابن تيمية: (العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال

ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق)[1].

قوله: (وقال أبو العباس ابن تيمية). هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، يكنى بأبي العباس، ولم يتزوج، ولم يتركه من باب الرهبانية، ولكنه والله أعلم كان مشغولًا بالجهاد العلمي مع قلة الشهوة، وإلا لو كان قوي الشهوة لتزوج، وليس كما يدعي المزورون أن له ولدًا مدفونًا إلى جانبه في دمشق، فإنه غير صحيح قطعًا.

وظاهر كلام الشيخ: أن شيخ الإسلام جزم بهذا، ولكن شيخ الإسلام قال: وقيل العراف، وذكره بقيل، ومعلوم أن ما ذكر بقيل ليس مما يجزم بأن الناقل يقول به، صحيح أنه إذا نقله ولم ينقضه، فهذا دليل على أنه ارتضاه.

وعلى كل حال، فشيخ الإسلام ساق هذا القول وارتضاه، ثم قال: ولو قيل: إنه اسم خاص لبعض هؤلاء الرمال والمنجم ونحوهم، فإنهم يدخلون فيه بالعموم المعنوي، لأن عندنا عمومًا معنويًا، وهو ما ثبت عن طريق القياس، وعمومًا لفظيًا، وهو ما دل عليه اللفظ، بحيث يكون اللفظ شاملًا له.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن استخدام الإنس للجن له ثلاث حالات.

الحال الأولى: أن يستخدم في طاعة الله، كأن يكون له نائبًا في تبليغ الشرع، فمثلًا: إذا كان له صاحب من الجن مؤمن يأخذ عنه العلم، ويتلقى منه، وهذا شيء ثبت أن الجن قد يتعلمون من الإنس، فيستخدمه في تبليغ الشرع لنظرائه من الجن، أو في المعونة على أمور مطلوبة شرعًا، فهذا لا بأس به، بل إنه قد يكون أمرًا محمودًا أو مطلوبًا، وهو من الدعوة إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، والجن حضروا

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) (٣٥/ ١٣٧).

النبي ﷺ وقرأ عليهم القرآن، وولوا إلى قومهم منذرين، والجن فيهم الصلحاء والعباد والزهاد والعلماء، لأن المنذر لابد أن يكون عالمًا بما ينذر، عابدًا مطيعًا لله ـ سبحانه ـ في الإنذار.

الحال الثانية: أن يستخدمهم في أمور مباحة، مثل أن يطلب منهم العون على أمر من الأمور المباحة، قال: فهذا جائز بشرط أن تكون الوسيلة مباحة، فإن كانت محرمة، صار حرامًا، كما لو كان الجني لا يساعده في أموره إلا إذا ذبح له أو سجد له أو ما أشبه ذلك ...

الحالة الثالثة: أن يستخدمهم في أمور محرمة، كنهب أموال الناس وترويعهم، وما أشبه ذلك، فهذا محرم، ثم إن كان الوسيلة شركًا صار شركًا، وإن كان وسيلته غير شرك صار معصية، كما لو كان هذا الجني الفاسق يألف هذا الإنسي الفاسق ويتعاون معه على الإثم والعدوان، فهذا يكون إثمًا وعدوانًا، ولا يصل إلى حد الشرك.

ثم قال: إن من يسأل الجن، أو يسأل من الجن، ويصدقهم في كل ما يقولون، فهذا معصية وكفر، والطريق للحفظ من الجن هو قراءة آية الكرسي، فمن قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، كما ثبت ذلك عنه ﷺ(١)، وهي: اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقرة: ٢٥٥]

فيه مسائل:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣١١).

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن. الثانية: التصريح بأنه كفر. الثالثة: ذكر من تكهن له. الرابعة: ذكر من تطير له. الخامسة: ذكر من سحر له. السادسة: ذكر من تعلم أباجاد.

فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن. يؤخذ من قوله: "من أتى كاهنًا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد"، ووجهه: أنه كذب بالقرآن وهذا من أعظم الكفر.

الثانية: التصريح بأنه كفر. تؤخذ من قوله: (فقد كفر بما أنزل على محمد).

الثالثة: ذكر من تكهن له. تؤخذ من حديث عمران بن حصين، حيث قال: (ليس منا)، أي: إنه كالكاهن في براءة النبي ﷺ منه.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف. وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم:

القول الأول: أن العراف هو الكاهن، فهما مترادفان، فلا فرق بينهما.

القول الثاني: أن العراف هو الذي يستدل على معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها، فهو أعم من الكاهن، لأنه يشمل الكاهن وغيره، فهما من باب العام والخاص.

القول الثالث: أن العراف يخبر عن أمور بمقدمات يستدل عليها، والكاهن هو الذي يخبر عما في الضمير، أو عن المغيبات في المستقبل.

فالعراف أعم، أو أن العراف يختص بالماضي، والكاهن بالمستقبل، فهما متباينان، والظاهر أنهما متباينان، فالكاهن من يخبر عن المغيبات في المستقبل والعراف من يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان

الضالة ونحو ذلك[1].

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٨/ ٩١): من هم الرمالون؟.

فأجاب: الرمالون: هم الذين يضربون في التراب ويخطون خطوطا وربما يضعون عليها ودعا أو حجارة أو كذا أو كذا، ويقولون: إنه يقع كذا أو يقع كذا، أو يصير كذا ويصير كذا، يشبهون بذلك على الناس ويدعون به علم الغيب، وذلك باطل، ولا يجوز إقرارهم عليه ولا تصديقهم، بل يجب على ولاة الأمر منعهم من ذلك وعقابهم بما يقتضيه الشرع المطهر، وقد روى الإمام أحمد رحمه الله بإسناد حسن، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت (١) » . والعيافة: زجر الطير، كما تفعل العرب في الجاهلية، إذا مر بهم الغراب ينعق قالوا: يكون كذا ويكون كذا، أو رأوا حمارا مشوها أو دابة مشوهة أو إنسانا مشوها تطيروا بهذا ورجعوا عن حاجاتهم، هذه من عيافة الجاهلية.

والطرق: هو الخطوط في الأرض، يخطون في الرمل وفي التراب، وربما حفروا أشياء، وربما وضعوا ودعا أو حجرا أو نوى يزعمون: أنه بهذا يكون كذا وكذا.

والجبت: هو الشيء الذي لا خير فيه، ويطلق على الصنم، وعلى السحر، وعلى كل ما لا خير فيه.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٨/ ٩٢): سمعنا أن من السحر الخداع، كالذي يقوم بسحب السيارة بشعرة من شعره، فهل الساحر يقوم بسحر أعين الجالسين معه فقط، أم يتعدى سحره إلى أعين الحاضرين معه وغير

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد للعلامة العثيمين بتصرف (٢/ ٥٨).

الحاضرين؟ ذلك لأننا نشاهد في منازلنا وعبر شاشات التلفاز من يقوم بسحب سيارة بشعره أو بفمه، ونحن لم نكن بجواره حتى يسحر أعيننا فعلى أي شيء يدل ذلك؟ جزاكم الله خيرا.

فأجاب: الساحر يسحر المشاهدين الذين يشهدون عمله، وقد يكون هناك من يساعده في هذه العملية ولا يراه المشاهدون من الشياطين الذين يساعدونه، فهم يروننا ولا نراهم، وقد يكون سحر العين بما فعل من الشعوذة مثل من يخرج من جيبه أو فمه طائرا أو بيضة أو غير ذلك في أعين الناس، والأمر بخلاف ذلك، كما قال الله ﷻ في سحرة فرعون في سورة الأعراف: {قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} (١) وقال في سورة طه: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى} (٢) {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} (٣)

وقد يكون ذلك فيما يجره من الأثقال بشعرة أو شعرتين مما ساعده فيه الشياطين، وهم لا يرون، ولكنهم يجرونها معه ويساعدونه وهم لا يرون، بل لهم طرق أخرى مكنهم الله منها بحيث لا نراهم، وهم يفعلون الشيء الذي يساعد أولياءهم من الإنس، كما قال الله سبحانه وتعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} (٤) نسأل الله العافية.

وسئل رحمه الله كما في فتاوى نور على الدرب (٣/ ٣٣٥): يسأل عن الكهان والمشعوذين، حيث انتشر أمرهم حتى بين الطلبة في الامتحانات، وبين أولئك الذين يبحثون عن عمل ولا يجدون، فهؤلاء يكتبون لهم أوراقا ويأمرونهم

بأشياء وأشياء يعتقدون من ورائها أنها ستكون مجلبة للعمل، ويرجون من سماحة الشيخ التوجيه جزاكم الله خيرا؟.

فأجاب: قد أوضح النبي عليه الصلاة والسلام حكم الكهان والمنجمين والعرافين ومن في حكمهم ممن يدعي علم الحوادث وعلم المستقبل بالتنجيم أو بضرب الحصى أو بغير هذا من الطرق الخفية التي يزعم أنها تطلعه على علم الغيب، وقد أوضح النبي ﷺ أن حكم هؤلاء أنهم لا يجوز أن يؤتوا، ولا أن يسألوا ولا أن يصدقوا، فقد ثبت في صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ أنه قال:: «من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» هذا الحديث الصحيح يدل على تحريم مجرد السؤال من دون تصديق، فكيف إذا كان مع التصديق، فلا يجوز سؤال الكهان ولا إتيانهم ولا تصديقهم، وفي الحديث الثاني يقول عليه الصلاة والسلام: «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» أخرجه أهل السنن بإسناد صحيح.

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من سحر أو سحر له، أو تكهن أو تكهن له، أو تطير أو تطير له».

فالذين يدعون علم المغيبات، أو الحظ أو الكف، أو متى ينجح فلان، أو متى يقبل في وظيفة أو غير هذا، من هؤلاء وأشباههم كل ذلك مما حرم الله سؤالهم إياه واللجوء إليهم أو تصديقهم، وإنما المؤمن يسأل ربه التوفيق والتسهيل والتيسير، يسأل ربه أن يقضي له حاجته من نجاح في اختبار، من حصول وظيفة تنفعه إلى غير ذلك، أما إتيان الكهان الذين يدعون علم الغيب بأي طريقة فلا يجوز إتيانهم، ولا سؤالهم ولا تصديقهم؛ لما ثبت في حقهم من الأحاديث الصحيحة التي سبق بعضها، والله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٣٩): يوجد أشخاص يقال لهم عرافون، ويدعون أنهم يعرفون علم الغيب، ما حكم الدين في ذلك، وهل يمكن تصديقهم؟.

فأجاب: العرافون الكهنة والسحرة لا يجوز تصديقهم، ولا سؤالهم ولا إتيانهم، بل يجب الحذر منهم والإنكار عليهم، ويجب على ولاة الأمر من المسلمين تتبعهم وعقابهم بما يردعهم وأمثالهم، وإذا ادعوا علم الغيب يستتابون فإن تابوا وإلا قتلهم ولي الأمر؛ لأن دعوى علم الغيب كفر أكبر، وقد قال النبي ﷺ: «من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»، هذا مجرد سؤال من دون تصديق، فكيف إذا صدقه، فإذا صدقه صار الإثم أعظم، وقال عليه الصلاة والسلام: «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»، فإذا صدقه في العلم للغيب كفر مثله، فالذي يدعي علم الغيب، أو يصدق من يدعي علم الغيب يكفر كفرا أكبر نعوذ بالله، يستتاب فإن تاب وإلا قتل، يعني يستتيبه ولي الأمر، السلطان أو نائبه من القضاة، فإن تاب وإلا قتل كافرا، نسأل الله العافية، وقال أيضا عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من تطير أو تطير له، أو سحر أو سحر له، أو تكهن أو تكهن له».

فهؤلاء لا يسألون ولا يؤتون ولا يصدقون، بل يجب الإنكار عليهم، والتحذير منهم كما تقدم، وفق الله الجميع.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٤٢): ما حكم الذهاب إلى الكهان والعرافين، وتصديق ما يقولون؟ فلدي أخ يذهب إليهم، ويستشيرهم في ذلك، أفتونا مأجورين؟.

فأجاب: هذا منكر عظيم، لا يجوز الذهاب إلى الكهان والعرافين والمنجمين لا يجوز؛ لأن الرسول ﷺ زجر عن هذا وقال: «من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»، وقال ﷺ: «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»، وقال: «ليس منا من سحر أو سحر له، أو تكهن أو تكهن له، أو تطير أو تطير له»

فالواجب الحذر من هذا العمل، وعدم السماح بذهابه إليهم، ونصيحته وتوجيهه؛ لأن هذا قد يجره إلى شر عظيم، قد يصدقهم، وقد يسألهم. فالواجب الحذر، لا يجوز سؤالهم ولا تصديقهم، نسأل الله العافية.

س: السائل: ح. م. س. من سوريا يقول: هل يجوز للمؤمن أن يذهب إلى عراف من أجل مشكلة ما اشتكى منها؟ علما بأن هذا العراف يفتتح بالقرآن الكريم، فأريد منكم التوجيه مأجورين؟

ج: العرافون: هم الذين يدعون علم المغيبات، وعلم الحوادث بطرق غير شرعية، هؤلاء لا يؤتون يقول النبي ﷺ: «من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» رواه مسلم في الصحيح، ويقول ﷺ: «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد» عليه الصلاة والسلام، فلا يجوز إتيان العرافين ولا الكهنة، ولا المنجمين ولا السحرة، ولا يجوز سؤالهم ولا تصديقهم، بل يجب الحذر منهم، والإنكار عليهم ورفع أمرهم إلى الجهات المسؤولة حتى يعاقبوا بما يستحقون.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٤٤): والدتي كانت تصدق السحرة والكهان والمشعوذين ولكنها كانت لا تعلم أن هذا حرام، وفيه إثم عظيم، وتوفيت وهي على جهلها بذلك، فهل يلحقها إثم، وهل يجوز لي أن

أحج عنها، عسى الله أن يغفر لها، مع العلم أنها كانت تصوم وتصلي، أفيدونا جزاكم الله خيرا؟.

فأجاب: إذا كانت والدتك موحدة تعبد الله وحده، ولا تتعلق بأصحاب القبور، ولا تدعوهم من دون الله، ولا تستغيث بالأولياء والأنبياء، ولكنها قد تصدق بعض السحرة بما يخبرون به، أو بعض الكهنة عن جهل منها، فنرجو أن إسلامها باق، إذا كنت لا تعلم منها ما يوجب كفرها من دعاء الأموات، والاستغاثة بالأموات، أو أن السحرة يعلمون الغيب، أما إن كانت تصدق أن السحرة يعلمون الغيب، أو تدعو الأموات أو تستغيث بالأموات، كابن علوان وغيره فهذا كفر أكبر، لا يدعى لها ولا يحج عنها، أما إذا كنت تعلم منها أنها لا تفعل ذلك، بل هي موحدة لا تعبد إلا الله، ولا تدعو إلا الله، ولا تعتقد أن أحدا يعلم الغيب، ولكنها قد تصدق بعض أخبار المشعوذين الذين يسمون بالسحرة أو الكهنة جهلا منها فلا حرج في الحج عنها والدعاء لها إن شاء الله.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٤٥): يوجد في بلادنا بعض الرجال والنساء يدعون أنهم في أثناء الليل ينزلون إلى القبور، أو بمعنى أصح أنهم يعلمون من أقوال الموتى، وماذا يعانون في قبورهم من العذاب، إذا كانوا مذنبين أو من نعيم، إذا كانوا صالحين، ويقولون أيضا لأهل الميت: إن ميتك فلانا كذا وكذا، وهو يعذب في القبر بسبب سيئة أصابها وعليك أن تقضي عنه دينه، وحاول أن تكفر عنه. أفيدونا عن هؤلاء هل يتكلمون بالصدق، أو أنهم من المشعوذين الذين يريدون ابتزاز أموال الناس، جزاكم الله عنا خيرا، وإذا كان هؤلاء يتكلمون افتراء وكذبا فما يجب علينا نحوهم؟.

فأجاب: هؤلاء يعتبرون من الكذابين والمشعوذين والذين يريدون أن يبتزوا

أموال الناس بالباطل، أو أن يعظمهم الناس ويقولون عنهم إنهم يعلمون الغيب، هذا لا يعلمه إلا الله، والله أخفى عن الناس عذاب المقبورين ونعيمهم، فالذي يدعي أنه يعرف المعذب من المنعم كذاب أشر، يجب أن يهجر ويزجر ويعاقب، إن كان في دولة مسلمة حتى يتوب من عمله السيئ، ولا يصدق ولا يلتفت إليه بالكلية؛ لأنه مجرم كاذب، نسأل الله السلامة والعافية.

س: تسأل المستمعة من اليمن وتقول: البعض من الناس، يزعمون بأنهم يشاهدون الموتى، وما آلوا إليه، وما آل إليه مصيرهم، ويقومون بإخبار أهل الميت، أين مصير أبنائهم، أو ميتهم ويخبرونهم بأن الميت يقول لهم أن يفعلوا أشياء يذكرونهم بها، فهل هذا العمل صحيح؟ وما نصيحتكم سماحة الشيخ؟

ج: هذا باطل، وهؤلاء كذابون، ودجالون، ومن ادعى هذا فهو كافر، يدعي أنه يعلم الغيب، هذا لا يجوز، هذا باطل، ولا يصدقون، والعياذ بالله، فلا يعلم حال الموتى ومنازلهم عند الله، إلا الله سبحانه وتعالى، لكن المؤمن يرجى له الخير، والكافر إلى النار نسأل الله العافية، والمؤمن مشهود له بالخير ومصيره إلى الجنة، لكن أخبارهم وأنه جرى عليهم كذا، وأن منازلهم في الجنة كذا، هذا لا يقوله عاقل، هذا كذاب، ولكن المؤمنون موعودون الجنة، ومنازلهم الجنة، وأرواحهم في الجنة في شكل طير، أرواحهم تكون طيورا في الجنة، كما جاء في الحديث، والشهداء تكون في أجواف طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش فمن يقول: إنه يعلم أحوال الموتى وما هي شؤونهم ومنازلهم بأنه يشاهد ذلك فهذا كذاب دجال يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٥٠): يقول السائل: إن له أختا

كانت مع رجل وطلقها بسبب والدته، ثم إنها بعد الطلاق أصيبت بحالة مرضية، أرغمه والده ووالدته إلى الذهاب بها إلى أحد الأشخاص يعتقد أنه مشعوذ، ومنذ ذلك الوقت وهو يفكر في أمره، ويرجو من سماحتكم توجيهه كيف يتصرف؟ وهل يكون قد وقع في الإثم؟.

فأجاب: نعم لا يجوز له ذلك، ليس له طاعة والديه فيما حرم الله، والذهاب بأخته لمشعوذ لا يجوز؛ لأن الرسول ﷺ نهى عن إتيان الكهان، وعن سؤالهم، والمشعوذين من العرافين والمنجمين والكهنة، فلا يجوز إتيانهم ولا سؤالهم، وإذا أمره بذلك والده لم يجز له طاعته؛ لأن الرسول ﷺ قال: «إنما الطاعة في المعروف»، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». فيعتذر ويقول: يا والدي هذا لا يجوز، لكن نذهب بها لمن يقرأ عليها من الطيبين، أو امرأة صالحة تقرأ عليها، رجل صالح يقرأ عليها، بدون خلوة أو إلى الطبيب، أما إلى المشعوذين من كهنة ومنجمين وسحرة ونحو ذلك فهذا لا يجوز، فإنه لا يجوز إتيانهم ولا سؤالهم ولا العلاج عندهم بالكلية، بل يجب على ولي الأمر أن يمنعهم من ذلك، وأن يؤدبهم حتى يرتدعوا عن تعاطي العلاج، لذا عليك التوبة والندم، والعزم ألا تعود في هذا الشيء، وإذا صدقت التوبة بالندم على الماضي والإقلاع من الذنب، والعزم الصادق ألا تعود فيه، فإن الله يغفر لك سبحانه وتعالى، والإنسان إذا قلق من أجل خوف الله والرغبة فيما عنده فهو على خير عظيم.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٥٩): ما رأيكم فيما يقوله صاحب الودع وقارئة الفنجان، وقراءة الكف، ما حكم هذه الأشياء؟.

فأجاب: كل هذه بدعة، كل هذه أمور لا صحة لها، صاحب الفنجان وقراءة

الكف، والرمي بالودع، أي الضرب بالودع، أو بالحصى كله من تعاطي علم الغيب، كله باطل منكر ولا صحة له، بل هو دجل وكذب وافتراء، ويدعون علم الغيب، بأشياء أخرى غير هذا كذبا، وإنما يعتمدون على ما يقول لهم أصحابهم من الجن، فإن بعضهم يستخدم الجن، ويقول ما تقول له الجن فيصدقون ويكذبون، يصدقون في بعض الأشياء التي اطلعوا عليها في بعض البلدان، أو سرقوها من السمع، ويكذبون في الغالب، والأكثر يكذبون ويتحيلون على الناس حتى يأخذوا أموالهم بالباطل وهكذا من جنس الذين يخدمونهم، قد يكذبون أيضا ويفترون فيقولون هذا كذا وهذا كذا وهم كذبة، إنما يأكلون أموال الناس بالباطل، وعلم الغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٦٠): توجد امرأة تقوم بنثر الودع أمامها، وتخبر أنه سوف يحدث كذا وكذا من الأمور الغيبية ولكنها لا تقول إنها تعلم الغيب، لكن تقول: إن ما تفعله مجرد تسلية، وأن ما تقول قد يحدث وقد لا يحدث، ما حكم ذلك؟.

فأجاب: لا يجوز لها هذا العمل، هذا من عمل أهل السحر والشعوذة، لا يجوز هذا، بل يجب الإنكار عليها ومنعها من هذا العمل، وإخبارها أن هذا لا يجوز وأن هذا يفضي إلى دعواها علم الغيب والتلبيس على الناس هذا لا يجوز فالواجب على هذه المرأة أن تخاف الله وتراقب الله وتحذر هذا العمل السيئ الذي أنكره النبي ﷺ وحذر منه، يقول ﷺ: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له».

فالواجب الحذر من هذا العمل السيئ وهو وسيلة إلى دعوى علم الغيب وهو وسيلة للتلبيس على الناس، نسأل الله للجميع العافية والهداية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا الشخص يشتكي من كثرة هؤلاء المشعوذين في بلده السودان، ويقول: إذا تحقق ما يقولون، هل في هذا علم بالغيب أم لا؟

فأجاب: كله باطل، وقد يتكرر لأنه شيء يوجد في بلادهم، قد يخبرون عن إنسان فعل كذا، وفعل كذا وهم قد شاهدوه في بلاد أخرى، من السودان أو أشياء أخبرهم بها الجن، أن هذا وقع في بلد كذا، وعمله كذا، وصار كذا، هم يأخذون عن الجن أخبارا ألقتها الجن في بعض البلدان، فيخبرون بها أولياءهم، هذا كله لا صحة له ولا يحكى فيه بأنهم يعلمون الغيب أبدا، علم الغيب إلى الله سبحانه وتعالى، ولكن هناك أمور تقع في بعض البلدان، فينقلها الجن بعضهم إلى بعض، أو فيه استراق من السماء، كونهم يسمعونها من الملائكة، إذا استرقوا السمع من السماء، فينقلونها إلى أوليائهم من الإنس، فقد تكون حقا سمعوه، ما لبس عليهم فيه، فيقع ويظن الناس أن كل ما فعلوه وقالوه صحيح، ويكذبون مع ذلك الكذب الكثير، كما في الحديث: «إنهم يكذبون معه مائة كذبة"، وفي بعض الروايات: "أكثر من مائة كذبة»، فلا يلتفت إليهم؛ لأن عمدتهم الكذب أو الاستعانة بالجن في كذب الجن وفيما يتعاطونه من الباطل الذي يشوشون به على الناس، نسأل الله العافية، والجن كالإنس فيهم الكافر وفيهم المبتدع وفيهم الفاسق وفيهم الطيب، فالفساق للفساق، والكفار للكفار، والطيبون للطيبين، فالجن الذين يخدمون بعض شياطين الإنس بإخبارهم ببعض المغيبات التي سمعوها من السماء أو سمعوها من بعض البلدان، هؤلاء لأنهم خدموهم بعبادتهم من دون الله، والذبح لهم ونحو ذلك، فالجن يخدمون بهذه الأخبار وهذه الأسرار التي يكذبون فيها، وقد يصدقون فيها شيئا قليلا فيظنهم الناس صادقين في البقية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٦٢): ما حكم قراءة الكف، سواء كان ذلك جدا أو هزلا؟.

فأجاب: هذه باطلة ومن الكهانة ولا يجوز، الكف والفنجان وأشباه ذلك وضرب الحصى والودع، كل هذا ضلال ومن دعوى علم الغيب، فإذا زعم أنه يعلم الغيب بهذه الأمور صار كافرا كفرا أكبر، نعوذ بالله؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله، ولا يعلم بضرب الحصى ولا بقراءة الكف ولا الفنجان، ولا بغير ذلك مما يتعاطاه المشعوذون، علم الغيب إلى الله سبحانه وتعالى، فمن زعم أنه بقراءة الكف أو ضرب الحصى أو الحساب بالأصابع أو بأي شيء من الأشياء أنه يعلم الغيب كل هذا من الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ، والله يقول سبحانه: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ}، ويقول جل وعلا في كتابه العظيم لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} . فمن ادعى علم الغيب بعمل الكف أو الحصى أو الودع، أو غير هذا من الحسابات فكله باطل وكله كفر وضلال، نسأل الله العافية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٦٤): يزعم أحد الدجالين بأنه يستطيع أن يتعرف على السارق، بعد أن يسرق وذلك بأمور، لا يعلمها كثير من الناس، منها بأنه يأمر بإحضار، صحن ماء وطفل دون سن البلوغ، ويكون قد رضع من ثديي أمه حولين كاملين، ولم يخفه كلب، ثم يقوم بقراءة شيء من القرآن، وبعض الكلمات التي لا تفهم، ثم يسأل الطفل هل رأيت شيئا في الماء، الذي في الصحن فيصف الطفل السارق بالتفاصيل وأين أخفى المسروقات، فما حكم الشرع في مثل هذا، وهل تجوز الصلاة خلفه؟ وهل يجوز لنا أن نقوم بوصله في السراء، والضراء، علما بأننا نصحناه، ولكنه لا يقبل النصيحة، ويقول

بأنه على حق؟.

فأجاب: هذا من باب التلبيس والخداع والكذب، وإنما هو يستخدم الجن، ويسأل الجن وقد يخبرونه، وقد يطلعون على السارق، ويخبرونه ومثل هذا لا يصلى خلفه، يجب أن يرفع أمره إلى المحكمة، أو إلى الهيئة، أو للإمارة حتى يردع عن هذا العمل؛ لأن هذا من باب دعوى علم الغيب، وذكر الطفل والصبي، كل هذا من باب التلبيس والخداع، وإنما الحقيقة أنه يسأل الجن، ويستعين بالجن، ويخبر عنهم وقد يغلطون وقد يصدقون.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٦٩): بعض العامة يقولون: إن سيدي فلانا قد ظهر من قبره نور، وإن سيدي فلانا يضع الجمر على لسانه فلا يحرقه، وإن سيدي فلانا نادى ولده في بلد آخر فسمعه ابنه ولبى النداء، وأن الكاهن فلانا سئل عن بهيمة مسروقة فدل على مكانها، وعندما نقول لهم: بأن هذه من أفعال الشيطان، بعضهم يكذب وينكر ذلك، والبعض يقول أقوالا قبيحة. فهل نجتنبهم لأنهم يسخرون من أهل التوحيد ودعاته، أم نجابهم، رغم ما سنتعرض له من أذى وسخرية، أفيدونا جزاكم الله خيرا؟.

فأجاب: كل هذا خرافات يجب الإنكار على من فعله، ولا يجوز التساهل في ذلك وعليكم الصبر، وأن يكون الكلام بالحكمة والأسلوب الحسن، لعل الله أن يهديهم بأسبابكم، فإن هذه من شعوذة الشيطان وتزيينه الباطل، خرج من قبر فلان نور، أو أنه كلم أباه في المحل الفلاني وأجاب، أو البهيمة موجودة في محل كذا، هذه من أعمال الشياطين، والشياطين يتناقلون الأخبار ويوصي بعضهم بعضا بالباطل، فلا يجوز الاحتجاج بهم ولا الاغترار بهم، والكهنة هم عباد الشياطين، لهم أصحاب من الجن يخبرونهم ويخبرون الناس، والنبي عليه

الصلاة والسلام قال: «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»، فلا يجوز تصديق مثل هذه الخرافات، ولا يجوز الأخذ بها، بل يجب إنكارها والتحذير منها، والله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٧٠): سمعت خبرا بأن هناك امرأة تتعامل مع الجن، وأخبرها الجن بأنها ستكون وسيطة خير بين الجن والإنس لتعالج الأمراض المستعصية في الإنس والتي عجز عنها طب الإنس، والمرأة هي الوسيط والجن يعطون الأدوية، ويعملون العمليات لبني الإنسان، ولكن الإنسان لا يراهم. ما رأي سماحتكم في مثل هذا؟.

فأجاب: ليس لهذا أصل ولا يعتمد عليه، فإن أخبار الجن وأخبار العجائز، وأخبار من يخدم الجن لا يوثق بها، ولا يعتمد عليها، ولا يجوز أن يعتمد على قول عجوز أو شيخ أو شاب أو غير ذلك، ينقل عن الجن أشياء بل يجب أن يحذر منهم، وألا يستخدمهم في شيء؛ لأنهم إذا استخدموه قد يجرونه إلى الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، إذا كانوا غير مؤمنين وليس المؤمن منهم معروفا معرفة يقينية فقد يكون منافقا، وقد يكون يدس السم في الدسم؛ لأنك لا تعرفهم ولا تخالطهم مخالطة جهرية، وتعرف أحوالهم وأحوال قرنائهم من الأخيار، حتى تعرف الثقة من غير الثقة، فالحاصل أن بيننا وبينهم جهلا كبيرا، وأخلاقا متباينة، وصفات متباينة لا نستطيع معها أن نتحقق ما هم عليه ومن عرفنا منهم بما يظهره من الإيمان ندعو له بالتوفيق وندعو له بالصلاح، ولكن لا نثق به ولا نطمئن إليه في أن نأخذ منه طبا أو غير ذلك، أو نستشيره في شيء أو ما أشبه ذلك فإن هذا قد يفضي إلى دعوى علم الغيب، وقد يبتلى الإنسان بذلك ويظن أن عنده شيئا من علم الغيب بواسطة الجن وقد يدعو إلى ذلك، فيكون ممن قال

الله فيهم جل وعلا: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} . فهو مع الجن على خطر فقد يستخدمونه في الشرك، وقد يستخدمونه في البدع، وقد يستخدمونه في المعاصي فيضر نفسه وهو لا يدري، ويضر غيره وهو لا يدري، فلا تجوز المعاملة معهم في الطب ولا في غيره، بل من عرف منهم أحدا أو اتصل به أحد يدعوهم إلى الله، يعلمه الخير، يدعوه على توحيد الله، وإلى طاعة الله وينصحه أن يعلم من عنده الخير وطاعة الله ﷻ، ولا يطمئن إليه في شيء ولا يطلب منه شيئا للناس؛ لأنه قد ينقل منه شيئا يضر الناس، وقد يعطيه شيئا طيبا ثم يغشه بعد ذلك، فالحاصل أنه على خطر لأنك لا تعلم أحوالهم على اليقين وهم يرونك ولا تراهم ويخفون عنك أشياء كثيرة وقد يدعون الإيمان وهم منافقون وقد يتصلون بك لأغراض أخرى حتى يأخذوها منك ثم يفعلوا بك ما يريدون، فأنت على خطر فالواجب الحذر منهم إلا بالدعوة إلى الله ﷻ، وتبصيرهم بالحق ودعوتهم إليه وإرشادهم.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٧٢): توجد امرأة في قرية، وملقبة مصاصة، يذهب إليها الرجال والنساء، وكل واحد يشتكي مرضا في بطنه أو ظهره أو صدره وكل واحد يعطيها مبلغ مائة ريال، وإذا كان المريض يشتكي من بطنه، ترقده على ظهره وتمص بطنه بفمها، يعني تجعل فمها على بطنه وصدره أو ظهره، وتمص مثل المحجم، دون أن تستعمل شيئا بفمها، وبعد ذلك تخرج من فمها حصاة أو عرقا أو غير ذلك، هل هذا الأمر صحيح أفيدونا جزاكم الله خيرا؟.

فأجاب: هذه المرأة المسؤول عنها يظهر أنها دجالة وأنها تعمل أعمالا تغر بها الناس؛ ليظنوا أن عندها علما، وأن عندها شيئا خارقا، أو شيئا لا يعرفه

الأطباء، فتعمل ما ذكر من مص بطن الرجل ثم إخراج أشياء من فمها كحصى أو نحوه، هذه إما أن تكون تستخدم الجن، وتلعب على أبصار الحاضرين، فتريهم أنها تخرج من بطنه شيئا، وليس هناك شيء، وإنما هو تقمير على عيون الناس، وسحر لأعينهم، كما فعل السحرة في وقت موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون وإما أن تكون تجعل في فمها شيئا عند مجيئها للمريض، من حصى أو غيره وتخرجه عندما تمص بطنه لتري الناس أن هذا شيء خرج من بطنه، والذي نرى في هذه وأمثالها أنه لا يجوز أن يذهب إليها ولا أن تستطب؛ لأن هذه وأشباهها من المشعوذين، وممن يتلاعب على الناس بالكذب، أو باستخدام الجن وتعاطي ما حرم الله ﷻ من الشرك وغيره من المنكرات التي تفعل مع الجن بسؤالهم عن مرض الشخص الذي يراد تطبيبها له، فالحاصل أن هذه المرأة يظهر من عملها هذا أنها دجالة، وأنها متلاعبة، وأنها كذابة أو مستخدمة للجن، فلا يجوز إتيانها، ولا أشباهها، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:: «من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوما» أخرجه مسلم في الصحيح، وفي لفظ آخر: «من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد» ﷺ، فهذه وأشباهها من العرافين الذين يكذبون ويتعاطون أمورا لا صحة لها، بل هي أشياء مكذوبة أو مأخوذة عن الجن لتغرير الناس وإدخال السوء عليهم من دون أن يعلموا الحقيقة، والله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٧٦): هل الرسول عليه الصلاة والسلام قال في أحد أحاديثه: إنه كان أحد الأنبياء يخط بالحصى، وهل يجوز الآن فعل هذا الأمر؟.

فأجاب: نعم، أخبر النبي ﷺ أنه كان هناك نبي يخط، أما نحن فليس لنا أن نخط؛ لأننا لا نعلم الشيء الذي فعله النبي، فالخطوط الآن التي يفعلها الناس ضرب من الغيب، ولا يجوز تعاطيها ولا فعلها، يعني يجب ترك ذلك.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٧٧): أنا امرأة مصابة بالعين منذ ست سنوات، ولم يفد معي أي علاج، والآن أخبرتني امرأة عن رجل لديه بعض العلاج، وأنا أتعالج عنده دون علم زوجي، فما رأي سمحاتكم فيمن يستعمل القراءة وفيها استعمال بفتش الكتاب، ويحتوي هذا الكتاب على جمع الجن وتفريقهم، إذا من أين هذا المرض، هل هو منهم أو من غيرهم، وغير ذلك من علاجات ضدهم، أي طردهم إن كان منهم المرض أو غيرهم، جزاكم الله خيرا؟.

فأجاب: هذا العلاج عند مثل هذا الرجل لا يجوز، وهذا يسمى عرافا ويسمى كاهنا، فلا يجوز المجيء إليه ولا سؤاله ولا العلاج عنده، ولا يجوز لك أن تفعلي هذا حتى لو أذن لك الزوج، فكيف وهو لم يعلم، لا يجوز لك أبدا، حتى لو قال لك الزوج، لم يجز لك طاعته فيما حرم الله، وقد قال النبي ﷺ: «من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» رواه مسلم في الصحيح. وقال عليه الصلاة والسلام: «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد»، «ولما سئل عن العرافين والكهنة؟ قال: لا تأتوهم».

فالواجب عليك التوبة إلى الله، وعدم المجيء إليه لأنه بهذا العمل كاهن، يستعين بالجن ويعبدهم من دون الله، فإنهم لا ينفعونه ولا يطيعونه إلا إذا تقرب إليهم بالذبح لهم، أو النذر لهم أو دعائهم، أو الاستغاثة بهم أو نحو ذلك وهذا من الشرك الأكبر، فليس لك أن تعالجي عند هذا وأمثاله، وعليك التوبة إلى الله

سبحانه وتعالى، وسؤاله جل وعلا أن يشفيك مما أصابك، ولا مانع من العلاج عند الأطباء المعروفين، وعند الأخيار من الناس الذين يقرءون عليك، وينفثون عليك بالآيات القرآنية والدعوات النبوية، وإذا تيسرت امرأة صالحة، ذات علم تقرأ عليك نفعت إن شاء الله، فإن لم تتيسر فرجل صالح يقرأ عليك، وينفث عليك ولكن لا يخلو بك، بل يقرأ عليك وعندك زوجك، أو أمك أو أختك أو نحو ذلك؛ لأن الخلوة لا تجوز، فلا يجوز للرجل أن يخلو بالمرأة الأجنبية التي ليست محرما له، أو يقرأ لك في ماء وتشربينه أو تغتسلين به، كل هذا لا بأس به والحمد لله، وإذا عرفتم من يتهم بالعين تتصلون به، وتطلبون منه أن يغسل لكم، يغسل وجهه ويديه ويتمضمض في الماء، ثم تغتسلين به، وينفع بإذن الله، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «العين حق وإذا استغسلتم فاغسلوا»، يعني إذا قيل لمن يتهم بالعين: اغسل لنا وجهك ويديك فلا يمتنع، يغسل لهم أطرافه فذلك ينفع بإذن الله، إذا صب على المعين كما أمر بذلك النبي عليه الصلاة والسلام، وأما إتيان الكهان والمنجمين ومن يستخدم الجن فلا يجوز أبدا لا من جهة العين ولا من جهة غيرها من الأمراض.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٧٩): يوجد عند بعض الناس في وادي قديد إناء مصنوع من النحاس، ويسمونه طاسة السم، وعندما يمرض إنسان فإنه يذهب إلى من توجد عنده هذه الطاسة ويملؤها بالماء ويشرب ذلك الماء معتقدا أنه يوجد شفاء في هذه الماء ولا سيما إذا كان هذا المرض في المعدة، فقد لاحظت وجود صور محفورة على الإناء وهي للعقرب والحصان والقط والغزال والحمير -أجلكم الله- والحية والثعلب والفيل، والأسد وللرجال وبعض صور أخرى لا أعرفها، وهي جميعها منقوشة نقشا على هذا

الإناء، كما توجد أسماء وكتابات مثل الشهيد وهكذا، ما توجيهكم جزاكم الله خيرا؟.

فأجاب: هذه الطاسة التي أشار لها السائل طاسة منكرة وفيها من دلائل المنكرات، هذه الصور التي ذكرها السائل، ولا نعلم أن أي طاسة من حديد أو نحاس أو ذهب أو فضة يحصل بها شفاء أمراض المعدة، وإنما هي دعوى يدعيها صاحب الطاسة، وإنما الظاهر والله أعلم أنه يستخدم الجن، ويعمل شعوذة يزعم بها أنه يعالج حتى يأخذ أموال الناس بالباطل، حتى يغرهم بأنه يعالجهم بهذه الطاسة، فالواجب أن تصادر هذه الطاسة، وأن يعالج الأمر بتأديب صاحبها ومعرفة الحقيقة التي يتعاطاها حتى يقام عليه ما يستحق من التعزير، وهذا واجب على المسؤولين قي قديد، الأمير والقاضي والهيئة يجب أن يرفع الأمر إلى المحكمة والهيئة والإمارة؛ حتى يقوموا بما يجب في هذا الموضوع، ولا يجوز السكوت عن صاحب هذه الطاسة؛ لأن عمله منكر لا وجه له من الشرع، وعليك أيها السائل أن تقوم بهذا الأمر، أنت وإخوانك العارفون بهذا الأمر، حتى تخلصوا بلدكم من هذا المنكر، وحتى يقضى على هذه المفسدة وهذا الشر بأسبابكم إن شاء الله.

مسألة: سئل العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (٣/ ٨٩٥): هل قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «قد كان نبي يخط .. » فيه جواز هذا الفعل؟.

الشيخ: نعم، المعنى أن الله تبارك وتعالى كان قد جعل لبعض الأنبياء وفي بعض الأقوال ولم يرد في الأحاديث أنه يونس عليه السلام كان قد جعل له وسيلة يتوصل بها إلى معرفة بعض المغيبات، بواسطة الضرب على الرمل، فالنبي -

صلى الله عليه وآله وسلم- ربط إصابة الرمال بأن يوافق معجزة ذلك النبي، وهذا كما يقول العلماء من باب التعليق بالمحال، قال عليه السلام: «فمن وافق خطُه خط ذاك النبي فذاك هو المصيب» ولا شك أن هذه الموافقة لا يمكن الوصول إليها؛ لأن ذلك النبي أولًا كانت هذه المعجزة خاصة به، وثانيًا: هو لم يدع كتابًا يتخذ وسيلة لمعرفة طريقة الضرب بالرمل ليكتشف بهذه الطريقة شيئًا من الغائب فهو من باب التعجيز في المحال، قد كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه هذا الرمال خط ذلك النبي فذاك هو المصيب، وهذا أمر مستحيل.

مداخلة: [بعضهم يرسم] خطوط كثيرة في الأرض [ثم يمسح] خطين خطين، فإذا بقي في الأخير خطان فهذا علامة النجاح، وإن بقي الخط فهذا علامة الفشل.

الشيخ: علامة النجاح في ماذا؟

مداخلة: في الأمر الذي أتى هذا الرجل [من أجله]

الشيخ: لمعرفة الغيب يعني.

مداخلة: فهل هذا مباح للأثر وارد عن النبي بهذه الطريقة أو هذا من طريقة الكهان؟

الشيخ: لا هذا .. ليس عن الرسول طريقة معينة في هذا، كيف يمكن أن يدع لنا طريقة وهو يعلق إصابة الرمال بأن يوافق خط ذلك النبي ثم .. هذا أسلوب من أساليب الرسول عليه السلام وإلا فنحن نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} (الجن: ٢٦ - ٢٧) فلا يمكن الوصول إلى الأمور الغيبية باتخاذ وسائل لم يشرعها ربنا تبارك وتعالى، فسواء كانت هذه الصورة ولأول مرة أنا أسمعها أو صور أخرى مما

يتعاطاها الرمالون هؤلاء أو المنجمون فالمهم أنهم يحاولون بذلك الوصول إلى معرفة بعض المغيبات إن لم يكونوا كما أعتقد يدجلون على الناس ويموهون عليهم، أي: أنهم يعلمون أنهم ليس عندهم طريقة متوارثة مثلًا حتى تتصل بذاك النبي، بهذه الطريقة يعرفون بعض المغيبات، هم يعلمون أنهم يدجلون على الناس ويدلسون عليهم ابتغاء مادة عاجلة فعلًا، فلا يجوز هذا التعاطي ولذلك قال عليه السلام في بعض الأحاديث الأخرى: «من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» وكأنه عليه السلام يشير في هذا الحديث إلى الآية السابقة وهي قوله تعالى: {فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} (الجن: ٢٦ - ٢٧) فهذا الكاهن أو العراف أو الرمال ليس رسول يمكن أن يوحي الله إليه بشيء من علمه بالغيب تبارك وتعالى؛ لهذا كان تعاطي هذا الضرب بالرمل أو أي وسيلة مما فيه التدجيل على الناس هو [كفر] بمثل هذه الآية الكريمة.

مداخلة: مخرج من الملة؟

الشيخ: هذا يختلف بين الكفر العملي والكفر الاعتقادي، فإن كان مستحلًا ذلك بقلبه فهو كفر الخروج عن الملة، وإن كان يعتقد بأن ذلك لا يجوز كما يأكل المرابي الربا ويسرق السارق وإلى آخره كل هؤلاء في المنزلة سواء، من استحل بقلبه شيئًا من المحرمات فهو كافر كفر ردة، ومن اقتصر استحلاله على العلم دون الاستحلال القلبي فهو كفر معصية وليس كفر ردة.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٣/ ٨٩٧): بعضهم يقول: يتكون في الكفين الرقم تسعة وتسعين، يعني: جمع الرقم في خطين في الكف الأيمن بعدد ثمانية عشر، وفي الأيسر بواحد وثمانين، مجموعهما: تسعة وتسعين، وهي

يقول: هذه أسماء الله الحسنى، وبعض الناس يقرؤون الكف، فما حكم ذلك؟

الشيخ: هذا مما لا يلتفت إليه؛ لأن أسماء الله الحسنى أكثر من تسعة وتسعين اسمًا، والحديث الذي جاء في صحيح البخاري ومسلم من قوله عليه الصلاة والسلام: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة» فهذا الحديث لا يعني: أنه ليس لله تبارك وتعالى أسماء أخرى، وإنما يعني: أن هذه التسعة وتسعين اسمًا من أحصاها، أي: من استخرجها من الكتاب والسنة وعمل بمعانيها فكان ذلك بشارة له بدخول الجنة، وإلا فقد جاء في بعض الأحاديث الصحيحة أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- سأل ربه بكل اسم سمى به نفسه أو علمه بعض خلقه، أو استأثر هو تبارك وتعالى بعلمه، فأسماء الله ﷻ ليست محصورة بهذا العدد الذي زعم.

(باب ذكر مسائل التنجيم)

مسائل في الباب.

مسألة: التنجيم في اللغة هو: طلب العلم بالنجوم فالتاء في لفظ التنجيم للطلب فهو تفعيل منه.

واصطلاحا هو كما عرفه بعض المحققين بأنه الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية؛ كتغيرالأسعار، أو حدوث الأمراض والوفيات، أو السعود والنحوس. وهذا ما يسمى بعلم التأثير، وهو على نوعين:

النوع الأول: أن يدعي المنجم أن الكواكب فاعلة مختارة، وأن الحوادث تجري بتأثيرها، وهذا كفر بإجماع المسلمين؛ لأنه اعتقاد أن هناك خالق غير الله، وأن أحدا يتصرف في ملكه بغير مشيئته وتقديره سبحانه وتعالى.

النوع الثاني: الاستدلال بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها على حدوث

الحوادث، وهذا لا شك أنه من ادعاء علم الغيب، وهو من السحر، كما قال النبي ﷺ: (من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر؛ زاد ما زاد)[1].

والمنجم الذي يستدل بحركة النجوم وبمواقع النجوم على الحوادث الأرضية والسُعد والنُحس هو من جنس العراف بل هو عراف، وفي الحديث (من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما)، رواه مسلم، لأن الكاهن والعراف يدعي بما يدعيه علم الغيب، ثم إذا قال المنجم إن المولود إذا ولد في نجم كذا يحصل له سعد أو نحس، أو أن ذلك علامة على سعادته أو شقاوته، فذلك من الرجم بالغيب، ولا يمكن أن يعرف ذلك بالتجربة، فإنه يولد في الوقت الواحد ويحدث في الوقت الواحد أنواع من الأضداد، فيحدث في الوقت الخير والشر، ويولد في النجم الواحد من يكون سعيدًا ومن يكون شقيًا ومن يكون صالحًا ومن يكون فاسدًا، وفي الحديث أيضا: (من أتى كاهنًا أو عرافًا فسأله عن شيء فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣١١، رقم ٢٨٤١)، وأبو داود (٤/ ١٥، رقم ٣٩٠٥)، وابن أبى شيبة (٥/ ٢٣٩، رقم ٢٥٦٤٦)، وابن ماجه (٢/ ١٢٢٨، رقم ٣٧٢٦)، والبيهقى (٨/ ١٣٨، رقم ١٦٢٩٠) والحديث قال عنه النووي في الرياض (ص٤٨٤): إسناده صحيح، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٣): إسناده صحيح، وصححه الذهبي في المهذب (٦/ ٣٢٣٣)، وقال العراقي في المغني (٤/ ١٤٤): إسناده صحيح، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٤١٨): إسناده جيد، وجوده العلامة الألباني في الصحيحة (٧٩٣)، وصححه العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٢/ ١٢٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٦٦٤)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣/ ٤٥٤): إسناده صحيح.

على محمد)[١].

مسألة: قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله في كتاب التمهيد لشرح كتاب التوحيد (١/ ٤٨٢ - ٤٨٥): والتنجيم الذي يتعاطاه الناس ثلاثة أنواع:

الأول: التنجيم الذي هو اعتقاد أن النجوم فاعلة مؤثرة بنفسها، وأن الحوادث الأرضية منفعلة ناتجة عن النجوم وعن إرادات النجوم، وهذا تأليه للنجوم، وهو الذي كان يصنعه الصابئة ويجعلون لكل نجم وكوكب صورة

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٨، ٤٧٦)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٥٢ - ٢٥٣)، والدارمي (١١٣٦)، والبخاري في تاريخه (٣/ ١٦ - ١٧)، وأبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجة (٦٣٩)، والنسائي في الكبرى (٩٠١٧)، وابن الجارود (١٠٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٤٥)، وفي شرح مشكل الآثار (٦١٣٠)، والعقيلي في الضعفاء (١/ ٣١٨)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٦٣٧)، والبيهقي (٧/ ١٩٨) والحديث أشار الترمذي إلى ضعفه في سننه، وقال في العلل الكبير (١/ ٩١): سألت محمدا عن هذا الحديث فلم يعرفه إلا من هذا الوجه وضعف هذا الحديث جدا، وضعفه النووي في الخلاصة، وقال الحافظ في التلخيص (٣/ ٣٨٩): وقال البزار هذا حديث منكر وحكيم لا يحتج به وما انفرد به فليس بشيء، وضعفه ابن عدي، والعقيلي، وقال المناوي في الفيض (٦/ ٢٣): قال البغوي: سنده ضعيف، وقال ابن سيد الناس: فيه أربع علل التفرد عن غير ثقة وهو موجب للضعف وضعف رواته والانقطاع ونكارة متنه وأطال في بيانه، وقال الذهبي في الكبائر: ليس إسناده بالقائم، وقال المنذري: رووه كلهم من طريق حكيم الأثرم عن ابن تميمة وهو طريق خالد عن أبي هريرة وسئل ابن المديني من حكيم فقال: أعيانا، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٥/ ١٦٤): حديث محتمل للتحسين، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، أما العراقي فقال في الأمالي: حديث صحيح، وصححه العلامة الألباني في الجامع الصحيح (٥٩٤٢)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وتعقب الحويني في غوث المكدود (١/ ١٠٤، رقم ١٠٧) كل من ضعفه وقال: إسناده حسن.

وتمثالا، تحل فيها أرواح الشياطين، فتأمر أولئك بعبادة تلك الأصنام والأوثان، وهذا بالإجماع كفر أكبر وشرك كشرك قوم إبراهيم.

والنوع الثاني من التنجيم: هو ما يسمى علم التأثير، وهو الاستدلال بحركة النجوم والتقائها وافتراقها، وطلوعها وغروبها، على ما سيحصل في الأرض، فيجعلون حركة النجوم دالة على ما سيقع مستقبلا في الأرض، والذي يفعل هذه الأشياء ويستدل بها يقال له: المنجم، وهو من أنواع الكهان؛ لأنه يخبر بالأمور المغيبة عن طريق الاستدلال بحركات الأفلاك وتحرك النجوم، وهذا النوع محرم وكبيرة من الكبائر، وهو نوع من الكهانة وكفر بالله- جل وعلا-؛ لأن النجوم ما خلقت لذلك وهؤلاء تأتيهم الشياطين، فتوحي إليهم بما يريدون وبما سيحصل في المستقبل ويجعلون حركة النجوم دليلا على ذلك.

وقد أبطل قول المنجمين في أشياء كثيرة من الواقع ونحو ذلك كما في فتح عمورية في قصيدة أبي تمام المشهورة: السيف أصدق أنباء من الكتب. . . وغيرها.

النوع الثالث مما يدخل في اسم التنجيم: ما يسمى بعلم التسيير، وهو أن يتعلم منازل النجوم وحركاتها، لأجل أن يعلم القبلة، والأوقات، وما يصلح من الأوقات للزرع وما لا يصلح، والاستدلال بذلك على وقت هبوب الرياح، وعلى الوقت الذي جرت سنة الله ألا ينزل فيه من المطر كذا، ونحو ذلك. فهذا يسمى علم التسيير، وقد رخص فيه بعض العلماء، وسبب الترخيص فيه: أنه يجعل النجوم وحركتها والتقاءها وافتراقها، وطلوعها أو غروبها، يجعل ذلك وقتا وزمنا، لا يجعله سببا، فيجعل هذه النجوم علامة على زمن يصلح فيه كذا وكذا، والله -جل وعلا- جعل النجوم علامات كما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ

وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فهي علامة على أمور كثيرة، كأن يعلم- مثلا- أنه بطلوع النجم الفلاني يدخل وقت الشتاء، فدخول الوقت ليس بسبب طلوع النجم، ولكن حين طلع استدللنا بطلوعه على دخول الوقت، وإلا فهو ليس بسبب لحصول البرد، وليس بسبب لحصول الحر، وليس بسبب للمطر، وليس بسبب لمناسبة غرس النخل أو زرع المزروعات ونحو ذلك، ولكنه وقت، فإذا كان على ذلك فلا بأس به قولا أو تعلما؛ لأنه يجعل النجوم وظهورها وغروبها أزمنة وذلك مأذون به.

مسألة: معرفة أحوال الطقس هل تدخل في التنجيم أو ادعاء علم الغيب؟

معرفة أحوال الطقس لا تدخل في التنجيم أو ادعاء علم الغيب، وإنما تبنى على أمور حسية وتجارب، ونظر في سنن الله الكونية. وكذلك معرفة أوقات الكسوف والخسوف، أو توقع هبوب الرياح، أو نزول الأمطار.

جاء في فتاوى اللجنة الدائمة: "قد يعرف وقت خسوف القمر وكسوف الشمس عن طريق حساب سير الكواكب، ويعرف به كذلك كون ذلك كليا أو جزئيا، ولا غرابة في ذلك؛ لأنه ليس من الأمور الغيبية بالنسبة لكل أحد، بل غيبي بالنسبة لمن لا يعرف علم حساب سير الكواكب، وليس بغيبي بالنسبة لمن يعرف ذلك العلم، ولا ينافي ذلك كون الكسوف أو الخسوف آية من آيات الله تعالى التي يخوف بها عباده ليرجعوا إلى ربهم ويستقيموا على طاعته "

وجاء فيها أيضا: "معرفة الطقس أو توقع هبوب رياح أو عواصف أو توقع نشوء سحاب أو نزول مطر في جهة مبني على معرفة سنن الله الكونية، فقد يحصل ظن لا علم لمن كان لديه خبرة بهذه السنن عن طريق نظريات علمية أو تجارب عادية عامة فيتوقع ذلك ويخبر به عن ظن لا علم فيصيب تارة ويخطئ

أخرى " انتهى

وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "وليس من الكهانة في شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب؛ فإن الأمور التي تدرك بالحساب ليست من الكهانة في شيء، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر؛ فهذا ليس من الكهانة لأنه يدرك بالحساب، وكما لو أخبر أن الشمس تغرب في ٢٠من برج الميزان مثلا في الساعة كذا وكذا؛ فهذا ليس من علم الغيب، لأنه من الأمور التي تدرك بالحساب؛ فكل شيء يدرك بالحساب، فإن الإخبار عنه ولو كان مستقبلا لا يعتبر من علم الغيب، ولا من الكهانة.

وهل من الكهانة ما يخبر به الآن من أحوال الطقس في خلال أربع وعشرين ساعة أو ما أشبه ذلك؟

الجواب: لا؛ لأنه أيضا يستند إلى أمور حسية، وهي تكيف الجو؛ لأن الجو يتكيف على صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم؛ فيكون صالحا لأن يمطر، أو لا يمطر، ونظير ذلك في العلم البدائي إذا رأينا تجمع الغيوم والرعد والبرق وثقل السحاب، نقول: يوشك أن ينزل المطر.

فالمهم أن ما استند إلى شيء محسوس؛ فليس من علم الغيب، وإن كان بعض العامة يظنون أن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون: إن التصديق بها تصديق بالكهانة." انتهى من "القول المفيد شرح كتاب التوحيد".

وينظر: "الفتاوى الكبرى" لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٤٢٤) فيما يتعلق بمعرفة أهل التقاويم والحساب لأوقات الكسوف والخسوف، وأول الربيع، وأول الشتاء ونحو ذلك مما يعرف بالحساب، ولا يدخل في علم الغيب.

(تنبيه) للمنجمين طريقة في الإخبار عن حالة الجو تختلف عن طريق علماء

الأرصاد الجوية، وهي أنهم قسموا البروج إلى هوائية، وترابية، ومائية، ونارية، ويحدد المنجم حالة الجو بحسب وقوع النجم الطالع في أحد أنواع هذه البروج الأربعة ومناظرة الكواكب له مناظرة معينة زعموا أن وقوع الطالع في برج هوائي مثلًا يدل على الرياح ونحو ذلك، وفي المائي على الرطوبة والأمطار ونحو ذلك ... وهكذا كتاب الأحكام لابن الفرخان (ق٢٦/ ب).

وهذا كما ترى ليس من جنس الاستدلال من انتقال الشمس في البروج الفلكية على الفصول الأربعة وعلى أوقات الحر والبر والأمطار والرياح -كما يفعله العرب- الذي يدخل في علم التسيير الذي قدمنا القول بجوازه، بل هذا يعتمد على الوهم والظن والكذب، فمن أين لهم تقسيم البروج إلى هذه الأقسام الأربعة؟ بالإضافة إلى ذلك فهم يجزمون بنزول الأمطار، أو بمجيء ريح أو نحو ذلك، إذا استدلوا بترهاتهم هذه على شيء من ذلك.

وتوقع حالة الجو -كما هو معروف اليوم- يجب أن يسلم من هذه الادعاءات، حتى يكون القول به جائزًا.

مسألة: الحكمة من خلق النجوم

خلق الله النجوم لحكمة سامية، أرشدنا الله تعالى إليها، ووردت هذه الحكم مجموعة فيما رواه البخاري (٤/ ٢٢٤ - ٢٢٥) تعليقًا أن قتادة قال: (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) (الملك:٥)، خلق هذه النجوم لثلاث: جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف مالا علم له به)، ومن هذا تبين أن الحكم التي اتضحت لنا من خلق النجوم ثلاث، وهي:

١- أن تكون زينة للسناء: وقد دلت نصوص القرآن الكريم على هذه

الحكمة في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا * وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾، أي: زينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها وأبصرها، وقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾،وقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

٢- أن تكون رجومًا للشياطين: وقد دلت نصوص القرآن الكريم على هذه الحكمة أيضًا في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، وقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ * وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾، وقوله حكاية عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾.

وبينها النبي ﷺ فيما رواه مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنهم بينما هم جلوس مع رسول الله

ﷺ رمي بنجم فاستنار. فقال لهم رسول الله ﷺ: "ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: وُلد الليلة رجل عظيم ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: "فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال، قال: فيستخبر بعض أهل السماوات بعضًا، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون به، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون).

٣- أن تكون علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر: وكذلك جعل الله تعالى هذه النجوم أدلة في البر والبحر للناس ليهتدوا بها إذا ضلوا الطريق أو تحيروا فيه، كما قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)، وقال: (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ).

هذه هي الحكم التي من أجلها خلقت النجوم، فمن الواجب أن تجعل النجوم فيما جعلت من أجله، لا يتجاوز بها ذلك، كما قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به).

مسألة: يلحق بالتنجيم حروف أبي جاد، والاستدلال بها على المغيبات

أرباب هذه الطريقة يزعمون أن لهذه الحروف علاقة ورابطة قوية بحياة الإنسان ومستقبله، وبالكون وما يحدث فيه من الحوادث، ويزعمون أنهم يعرفون حوادث هذا العالم من هذه الحروف. وطريقتهم في ذلك أنهم يكتبون

حروف أبي جاد، ويجعلون لكل حرف منها قدرًا من العدد معلومًا عندهم، ويجرون على ذلك أسماء الآدميين والأزمنة والأمكنة وغيرها، ثم يجرون على هذه الأعداد عملية حسابية من جمع وطرح بطريقة ما وينسب العدد الباقي من هذه العملية إلى الأبراج الاثنى عشر، ثم يقضون بالسعود والنحوس، وبأوقات الحوادث والملاحم، وبمدد الملك وأعمار الناس، إلى آخر ذلك من أمور الغيب، على وفق ما أصله لهم أسلافهم، وأملاه عليهم شيطانهم، ومن ذلك ما فعله يعقوب بن إسحاق الكندي، الذي عمل تسييرًا لهذه الأمة، وزعم أنها تنقضي عام ثلاث وتسعين وسبعمائة، وزعم بعض أتباعه أنه استخرج ذلك من حساب الجمل الذي للحروف التي في أوائل السور.

ويدخل ضمن هذه الصناعة ما يسميه الرافضة بعلم أسرار الحروف، وأهم مؤلف فيه عندهم كتاب الجفر، المنسوب كذبًا وبهتانًا إلى جعفر الصادق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونسبته إليه كذب عليه باتفاق أهل العلم به، إذ أن واضع هذا الكتاب هو هارون بن سعيد العجلي، وهو رأس الزيدية وكان له كتاب يزعم أنه يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم، ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص، وقع ذلك لجعفر الصادق ونظائره عن طريق الكشف والكرامة كما يزعمون، ويزعمون أنه كان مكتوبًا عند جعفر في جلد جفر صغير، فرواه عنه هارون العجلي وكتبه، وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب فيه، وصار هذا الاسم علمًا على هذا الكتاب عندهم، وهذا الكتاب لم تتصل روايته، ولا عرف عينه وإنما تظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل ويزعمون أن هذا الكتاب مشتمل على حوادث الأزمان على مر العصور، عرفت عن طريق علم الحروف المتعلق بآثار النجوم.

ومما يتشبثون به لتعضيد هذا المعتقد عندهم ما رواه الكليني عن أبي عبدالله جعفر الصادق أنه قال: (وإن عندنا الجفر، وما يدريهم ما الجفر؟ فقيل له: ما الجفر؟ قال: وعاء من أدم فيه علم النبيين والوصيين، وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل). وما رواه أيضًا أن أبا عبدالله سئل عن الجفر، فقال: (هو جلد ثور[1] مملوء علمًا)، وتارة يذكرون أن هذا العلم مأثور عن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد نقل اليزدي الحائري عن كتاب الينابيع: (أما آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فهو نبي مرسل خلقه الله تعالى بيده ونفخ فيه من روحه فأنزل عليه عشر صحائف، وهو أول من تكلم في علم الحروف، وله كتاب سفر الخفايا، وهو أول كتاب في الدنيا في علم الحروف -ثم ذكر أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ورثه لأبنائه من بعده، وأبناؤه ورثوه لمن بعدهم وهكذا إلى أو قال: ثم ورث هذا العلم عن أبيه جعفر الصادق وهو الذي حل معاقد رموزه، وفك طلاسم كنوزه). ثم ذكر أن له كتاب الجفر الأكبر، والجفر الأصغر، وأن الجفر الأكبر إشارة إلى المصادر الوفقية التي هي من أ، ب، ت، ث ... إلى آخرها، وأنها ألف وفق، وأن الجفر الأصغر إشارة إلى المصادر الوفقية التي هي مركبة من أبجد إلى قرشت، وهي سبعمائة وفق.

وهذا كله من أكاذيب الرافضة على آل بيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الكتاب كما ذكرت آنفًا نسب كذبًا إلى جعفر الصادق رَحِمَهُ اللهُ، وليس لهم برهان على إثباته سوى القول المجرد عن الدليل، بل قد نفى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يكون هو وذريته مخصوصين بشيء من الوحي دون الناس، وذلك فيما رواه البخاري (١٦٠٤): (أنه قيل لعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هل عندكم شيء من الوحي، إلا ما في كتاب الله؟ قال لا والذي فلق الحبة وبرًا النسمة ما أعلمه، إلا فهمًا يعطيه الله

---

(١) (تنبيه) هذا مخالف لأصل التسمية، إذ أن الجفر ولد الماعز، لا الثور فتنبه.

رجلًا في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت وما في هذه الصحيفة؟ قال العقل - أي الدية-، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر).

أما نسبة هذا العلم إلى آدم عليه السلام فليست صحيحة، إذ أن كل ما روي في ذلك عن آدم عليه السلام من أنه كان عالمًا بحروف أبي جاد وأن الله أنزلها عليه فقد نقلت عن أخبار إسرائيلية ضعيفة، لا يوثق بها.

وقد ورد أن هذه الصناعة مأثورة عن فلاسفة اليونان، الصابئة الذي يعبدون الأوثان، فقد جعل أرسطو في آخر كتاب (السياسة) فصلًا في حساب الجمل وادعى أنه يعرف بها الغالب من المغلوب ونحو ذلك من أمور الغيب[1].

والذي ينبغي أن يعلم في هذا الموضع أن هذه الحروف ليست أسماء المسميات، ولا علاقة لها بمستقبل الإنسان ولا بحياته، وإنما ألفت ليعرف تأليف الأسماء من حروف المعجم بعد معرفة حروف المعجم، ثم إن كثيرًا من أهل الحساب صاروا يجعلونها علامات على مراتب العدد، فيجعلون الألف واحد، والباء اثنين، والجيم ثلاثة ... وهكذا، ثم أخذ هؤلاء هذا الاصطلاح، ولفقوا عليه الأباطيل، وادعوا أنه علم، وأن به تعرف الأمور الغيبية، وربطوه بالتنجيم، لخفاء بطلان التنجيم على كثير من الناس، والعلم لا يؤخذ عن مثل هذه الظريات الفاسدة، ولا من هذه العقليات الجاهلية الباطلة، بل لابد فيه من عقد مصدق، ونقل محقق[2]، وهذا الذي يزعمونه ما هو إلا ادعاء علم استأثر الله به، وهذا بلا شك من أعظم الشرك في الربوبية، ومن صدقه به واعتقد فيه كفر -والعياذ بالله-، كما قال ابن عباس منكرًا على الذين يتخذون هذه الصناعة: (إن

(١) مقدمة ابن خلدون (ص١١٤).

(٢) انظر مجموعة المسائل": (١/ ٣٨٦ - ٣٨٧).

قومًا يحسبون أبا جاد، وينظرون في النجوم، ولا أرى لمن فعل ذلك من خلاق)(١).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١١/ ٢٦/ رقم ١٩٨٠٥)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٣٩) وإسناده صحيح.

(تنبيه) قال الشيخ مشهور في تعليقه على الموافقات (٤/ ٢٤٠): قال ابن كثير في "تفسيره" "١/ ٧٦" عن هذه الحروف المقطعة: "وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم؛ فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره".

-وأما ما أخرجه- ابن إسحاق في "السيرة" "١/ ٥٤٥، تهذيب ابن هشام"، وأخرجه أيضًا البخاري في "التاريخ الكبير" "٢/ ٢٠٨"، وابن جرير في "التفسير" "١/ ٩٢ - ٩٣/ رقم ٢٤٦، ط شاكر"، والداني في "البيان في عد آي القرآن" "٣٣٠ - ٣٣١" من طريق ابن إسحاق: حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رئاب؛ قال: "مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من اليهود برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو يتلو صدر سورة البقرة: {الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ}؛ فأتى أخاه حيي بن أخطب في رجال من اليهود، فقال: تعلمون والله لقد سمعت محمدًا يتلو فيما أنزل عليه: {الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ} فقالوا: أنت سمعت؟ قال: نعم. فمشى حيي في أولئك النفر إلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فقالوا له: ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك: {الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ}. فقال: "بلى". قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما بين النبي فيهم مدة ملكه، وأجل أمته غيرك. الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون؛ فهذه إحدى وسبعون. قال: يا محمد! هل مع هذا غيره؟ قال: "نعم، {المص}". قالوا: هذه أطول وأثقل؛ الألف واحدة، واللام ثلاثة، والميم أربعون، والصاد ستون؛ فهذه إحدى وثلاثون ومائة، هل مع هذا غيره؟ قال: "نعم، {الر}". قال: هذه أثقل وأطول؛ الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، هذه إحدى ومائتا سنة، هل مع هذا غيره؟ قال: "نعم، {المر}". قال: هذا أثقل وأطول؛ الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان؛ فهذه إحدى وسبعون ومائتان. ثم قال: لبس علينا أمرك حتى ما يدرى أقليلًا أعطيت أم كثيرًا. ثم قال: قوموا عنه. ثم قال أبو ياسر لأخيه ومن معه: ما يدريكم لعله قد جمع لمحمد هذا كله إحدى وسبعون، وإحدى وثلاثون ومائة، =

=

وإحدى وثلاثون ومائتنان، وإحدى وسبعون ومائتان؛ فذلك سبعمائة وأربع سنين. فقالوا: لقد تشابه علينا أمره".

وإسناده ضعيف جدًّا، بل موضوع، آفته الكلبي، وهو محمد بن السائب، متهم بالكذب، وشيخه أبو صالح باذام، مولى أم هانئ، وهو ضعيف، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس؛ كما في "جامع التحصيل" "رقم ٥٥".

وحكم عليه ابن كثير بالضعف؛ فقال في "تفسيره" "١/ ٣٩، ط الشيخ مقبل": "فهذا مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به"، وتابعه عليه الشوكاني في "فتح القدير" "١/ ٣١"، وقد تكلمت بإسهاب ولله الحمد على تفسير ابن عباس من طريق الكلبي في كتابي "كتب حذر منها العلماء" "٢/ ٢٥٩ وما بعدها، المجموعة الأولى"؛ فراجعه إن شئت، والله الهادي.

وأورده البخاري من وجه آخر فيه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، وهو مجهول، وهذا مردود من جهة متنه، وهذا ما قرره ابن حجر؛ فقال رحمه الله تعالى: "وهذا باطل لا يعتمد عليه؛ فقد ثبت عن ابن عباس ﵄ الزجر عن عد أبي جاد، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر، وليس ذلك ببعيد؛ فإنه لا أصل له في الشريعة". نقله عنه السيوطي في "الإتقان" "٢/ ١١".

قلت: أشار الحافظ إلى ما أخرجه عبد الرزاق في "المصنف" "١١/ ٢٦/ رقم ١٩٨٠٥"، والبيهقي في "الكبرى" "٨/ ١٣٩"، عن ابن عباس بسند صحيح، قال: "إن قومًا ما يحسبون أبا جاد وينظرون في النجوم، ولا أدري لمن فعل ذلك من خلاق".

وقال الشوكاني عقبه: "فانظر ما بلغت إليه أفهامهم من هذا الأمر المختص بهم من عدد الحروف مع كونه ليس من لغة العرب في شيء، وتأمل أي موضع أحق بالبيان من رسول الله ﷺ من هذا الموضع؛ فإن هؤلاء الملاعين قد جعلوا ما فهموه عند سماع: {الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ} من ذلك العدد موجبًا للتثبيط عن الإجابة له، والدخول في شريعته، فلو كان لذلك معنى يعقل ومدلول يفهم؛ لدفع رسول الله ﷺ ما ظنوه بادئ بدء حتى لا يتأثر عنه ما جاءوا به من التشكيك على من معهم".

ولا داعي بعد بيان وضع هذه القصة إلى تحميلها ما لا تحتمل من مثل قول صاحب "التحرير والتنوير" "١/ ١٩٤ - ١٩٥": "وليس في جواب رسول الله ﷺ إياهم بعدة حروف أخرى من هذه الحروف المتقطعة في أوائل السور تقرير لاعتبارها رموزًا لأعداد

=

=

مدة هذه الأمة، وإنما أراد إبطال ما فهموه بإبطال أن يكون مفيدًا لزعمهم على نحو الطريقة المسماة بالنقض في الجدل، ومرجعها إلى المنع والمانع لا مذهب له، وأما ضحكه ﷺ فهو تعجيب من جهلهم"، ومن مثل قول الأمير الصنعاني في "رسالة شريفة فيما يتعلق بالأعداد للحروف والأوفاق" "ص١٥" قال بعد أن ساق القصة: "فهذا دليل أن ذلك كان من عرف اليهود واصطلاحهم، ومن المعلوم قطعًا أنه لم يكن ذلك من لغة العرب كما يعلم قطعًا أن العرب لم تعارض القرآن، فما هو إلا من علم اليهود ومن أوضاع أسحارهم، وقد ثبت عن ابن عباس النهي عن عد أبي جاد والإشارة إلى أن ذلك من السحر".

ثم قال: "فإن قلت: فقد قرر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- حيي بن أخطب على تفسير تلك الحروف بالأعداد.

قلت: أما أولًا؛ فمعلوم أن تلك الحروف ليست موضوعة للأعداد في العربية، وقد علم أنه تعالى أنزل القرآن عربيًّا؛ فلا يفسر العربي إلا بالأوضاع العربية لا بالأوضاع العبرانية.

وأما ثانيًا؛ فقد علم مخالفته -صلى الله عليه وآله وسلم- لليهود في أفعالهم وأقوالهم؛ فسكوته عن الإنكار هذا كسكوته عن الإنكار إذا مروا إلى كنائسهم.

وأما ثالثًا؛ فلأنهم منكرون أنه كلام الله فهم فسروا على تسليم أنه كلام كاذب عندهم.

وأما رابعًا؛ فلأنه يحتمل أن سكوته أراده لإغاظتهم وتحزينهم، فإنه يعلم أن بقاءه يومًا واحدًا مما يسوءهم ويحزنهم فضلًا عن أعوام.

وأما خامسًا؛ فلأنه معلوم أن هذا ليس من لغته ولا لغة قومه، فكأنه يقول: إذا كان عرفًا لكم ولغة عندكم؛ فأنتم تعلمون أنه ليس لغة لنا ولا هو عرفنا، وإنما هو شيء جئتم به من تلقاء أنفسكم، فلا ينكر عليهم أن يتعارفوا بينهم بأي لفظ. فإن قلت: ومن أين علمنا أنه ليس من لغته ولا لغة قومه؟

قلت: عرفناه بأنه لم يأت حرف واحد عن صحابي ولا تابعي بهذا، مع أنه قد نقل إلينا تفاسيرهم لكلام الله، بل هذا معلوم يقينًا أنه من لغة العرب؛ فقد دونها أئمة اللغة وبذلوا فيها وسعهم وتتبعوها في البوادي وغيرها، ولا تجد كتابًا لغويًّا فيه شيء من هذا، وأن الحرف مسماه كذا من العدد هذا أمر مقطوع بعدم وقوعه لغة؛ فتعين أنه أمر اصطلاحي لا حجر فيه ولا ضير على متعاطيه، ونهى ابن عباس عنه، وأنه من السحر يدل أنه عرف

=

مسألة: يلحق بالتنجيم الخط على الرمل وما يلحق به والاستدلال به على المغيبات

إن هؤلاء المنجمين -الذين يعتمدون على الحدس والتخمين- استنبطوا من التنجيم صناعة، سموها خط الرمل، والواقع أنها رجم بالغيب، وسموها بهذا الاسم نسبة إلى المادة التي يستخدمونها في عملهم، وطريقة هذه الصناعة أنهم جعلوا من النقط والخطوط ستة عشر شكلًا، ميزوا كلًا منها باسم وشكل يختلف عن غيرها، وقسموها إلى سعود ونحوس وشأنهم في ذلك شأنهم في الكواكب(١)، ومسائل هذه الصناعة تخمينية يزعمون أنها مبنية على تجارب، ويربطونها بالنجوم، ويقولن: إن البروج الاثنى عشر يقتضي كل منها شكلًا معينًا من الأشكال التي اصطلحوا عليها، وقالوا: إنه حين السؤال عن المطلوب تقتضي أوضاع البروج قوى الشكل المعين الذي يرسمه الرمّال على الرمل، وتلك الأشكال تدل على أحكام مخصوصة تناسب أوضاع البروج(٢).

وهذا كله ظن مبني على ظن، وتعلق بأمر غائب لا يمكن التحقق منه وكان لنبي من الأنبياء في سالف الزمان خط مخصوص أوحاه الله إليه، إلا أن علم ذلك النبي لا يعلم أحد كيفيته، وعلم هؤلاء مخالف لعلم ذلك النبي فعلم هؤلاء -كما ذكرت- مبني على علم التنجيم، والتنجيم وما بني عليه ظن وتخمين.

وقد نهى النبي ﷺ عن العمل به وذلك فيما رواه الإمام أحمد في "مسنده" وغيره عن قبيصة بن المخارق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (العيافة والطيرة

=

أنه اصطلاح لليهود يستعملونه في الأسحار".

(١) انظر مقدمة ابن خلدون (ص١١٢).

(٢) انظر مفتاح دار السعادة ومصباح السيادة (١/ ٣٦٠).

والطرق من الجبت)[1] والطرق: هو الخط على الرمل على قول والجبت: كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك.

كما بين عدم إدراك هذا العلم، وبطلان ما عليه الناس الذي يدعون معرفته، وذلك فيما رواه الإمام مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي قال: قلت: ومنا رجال يخطون. قال: "كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خذه فذاك".

كذلك بالإضافة إلى الأدلة على تحريم التنجيم، وعلى فساده، إذ أن هؤلاء بنوا أحكامهم على تأثيرات النجوم ودلالاتها المزعومة، فيكون فرعًا منه، ولا حقًا به، وآخذًا حكمه.

واستدل أرباب هذه الصناعة على جواز وصحة صناعتهم بقول النبي ﷺ: "كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك"، قالوا: إن علم الرمل ثبت عن إدريس عليه السلام، فهو المعلم الأول، وكان علم الرمل من معجزاته كما في شرح

(١) أخرجه ابن سعد (٧/ ٣٥)، وأحمد (٣/ ٤٧٧، رقم ١٥٩٥٦)، (٥/ ٦٠، رقم ٢٠٦٢٢)، وعبد الرزاق في المصنف (١٩٥٠٢)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣١١، رقم ٢٦٤٠٣)، وأبو داود (٤/ ١٦، رقم ٣٩٠٧)، وأبو إسحاق الحربي في غريب الحديث (٣/ ١١٧٧)، والدولابي في الكنى (١/ ٨٦)، والطبراني (١٨/ ٣٦٩، رقم ٩٤١)، والنسائى فى الكبرى (٦/ ٣٢٤، رقم ١١١٠٨)، وابن حبان (١٣/ ٥٠٢، رقم ٦١٣١)، والبيهقى (٨/ ١٣٩، رقم: ١٦٢٩٢)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/ ١٥٨)، والخطيب في تاريخه (١٠/ ٤٢٥)، والبغوي في شرح السنة (٣٢٥٦) والحديث قال عنه النووي في الرياض (٤٨٤): إسناده حسن، وكذا حسن إسناده ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٢)، وسكت عنه أبو داود والمنذري، وضعفه العلامة الألباني في غاية المرام (٣٠١)، والمشكاة (٤٥٨٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٥/ ٢٥٦): إسناده ضعيف. حيان غير منسوب، قيل: هو حيان بن العلاء، وقيل: حيان أبو العلاء، وقيل: حيان بن عمير، وقيل: حيان بن مخارق أبو العلاء، لم يذكروا في الرواة عنه غير عوف: وهو ابن أبي جميلة الأعرابي، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان.

لب الألباب (ق٢). وهذا دليل يدل على بطلان هذا العلم، وعلى تحريم هذه الصناعة، ولا يدل على إباحتها مطلقًا، حيث إن العلماء بينوا معنى هذا العلم، وباتضاح المعنى تتضح الدلالة.

قال الخطابي في معالم السنن (١٢/ ٣٧٤): بعد سرد هذا الحديث: يحتمل أن يكون معناه الزجر عنه، إذ كان من بعده لا يوافق خطه، ولا ينال حظه من الصواب، لأن ذلك إنما كان آية لذلك النبي، فليس لمن بعده أن يتعاطاه طمعًا في نيله.اهـ.

وقال النووي في المنهاج (٥/ ٢٣): اختلف العلماء في معناه، والصحيح أن معناه من وافق خطه فهو مباح له، ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح، والمقصود أنه حرام، لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة، وليس لنا يقين بها، وإنما قال النبي ﷺ: "فمن وافق خطه فذاك" ولم يقل: هو حرام بغير تعليق على الموافق لئلا يتوهم متوهم أن هذا النهي يدخل فيه ذاك النبي الذي كان يخط، فحافظ النبي ﷺ على حرمة ذاك النبي مع بيان الحكم في حقنا. والمعنى أن ذلك النبي لا مانع في حقه، وكذا لو علمتم موافقته، ولكن لا علم لكم بها.

وقال القاضي عياض: المختار أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته فيما يقول، لا أنه أباح ذلك لفاعله. قال: ويحتمل أن هذا نسخ في شرعنا. ثم قال النووي: (فحصل من مجموع كلام العلماء فيه الاتفاق على النهي عنه الآن.اهـ.

وقال ابن خلدون في المقدمة (ص١١٢): ليس في الحديث دليل على مشروعية خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه، لأن معنى الحديث كان نبي يخط فيأتيه الوحي عند ذلك الخط، ولا استحالة أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء، فمن وافق خطه فهو ذاك، أي: فهو صحيح من بين الخط بما

عضده من الوحي لذلك النبي الذي عادته أن يأتيه الوحي عند الخط، وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجردًا من غير موافقة وحي فلا.اهـ.

وقال ابن حجر الهيثمي في الفتاوى الحديثية (ص١١٧ - ١١٨): تعلم الرمل وتعليمه حرام شديد التحريم وكذا فعله لما فيه من إيهام العوام أن فاعله يشارك الله في غيبه وما استأثر بمعرفته ... والحديث المذكور في مسلم يجب أن يحل على ما يطابق القرآن، وما اتفق عليه إجماع أهل السنة، وذلك بأن يحمل على الإنكار، لا الإخبار، لأن الحديث خرج جوابًا على سؤال من اعتقد علم الخط على ما اعتقدت العرب، فكان جوابه ﷺ بأن ذلك من خواص علوم الأنبياء بما يقتضي الإنكار على من يتشبه به من الناس إذ هو من خصوصياتهم، ومعجزاته الدالة على النبوة، فهو كلام ظاهره الخبر، والمراد به الإنكار، ومثله في القرآن والسنة كثير.

أو يحمل على أنه علق الحل بالموافقة بخط ذلك النبي، وهي غير واقعة في ظن الفاعل، إذ لا دليل عليها إلا بخبر معصوم، وذلك لم يوجد، فبقى النهي على حاله، لأنه علق الحل بشرط، ولم يوجد، وهذا أولى من الأول.

أو يحمل على أنه أراد فمن وافق خطه فذاك الذي تجدون إصابته لا أنه يريد إباحة ذلك لفاعله على ما تأوله بعضهم، وهذا يدل على أنه ليس على ظاهره، وإلا لوجب لمن وافق خطه أن يعلم علم المغيبات التي كان يعلمها ذلك النبي، وأمر بها في خطه، من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم، وحينئذ يلزم مساواته له في النبوة، فلما بطل حمله له على ظاهره لزم تأويله، وعلم أن الله تعالى خص ذلك النبي عليه السلام بالخط، وجعله علامة لما يأمره به وينهاه عنه، كما جعل لنوح عليه السلام من فور التنور علامة الغرق لقومه، وفقد الحوت علامة

لموسى على لقاء الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما في سورة الفتح علامة لنبينا ﷺ على حضور أجله، ومثله كثير.اهـ.

فتبين من كلام هؤلاء العلماء أن الحديث يدل على تحريم العمل بعلم الخط، لا على جوازه، كما يدل على بطلان طريقة الناس في علم الرمل، وفسادها، وذلك لأن الإباحة في هذا العلم معلقة بشرط لا يتحقق، فأدى ذلك إلى عدم الإباحة، فإن ذلك النبي له خط مخصوص ليس كخط هؤلاء، أوحاه الله إليه، وهو مؤيد بالوحي فيما يذكره من المغيبات، ولا سبيل إلى العلم بموافقة ذلك الخط، لأن الموافقة تقتضي العلم به، والعلم يكون بأحد طريقين:

أحدهما: النص الصريح الصحيح في بيان كيفية هذا العلم.

والثاني: النقل -الصحيح- من زمن ذلك النبي إلى زمن النبي ﷺ، وكلا الأمرين منتفٍ.

فدل ذلك على بطلان ما عليه الناس من الخط على الرمل بعد ذلك النبي، وينبغي أن يعلم في هذا المقام أن الأنبياء لا يدعون علم الغيب، ولا يخبرون الناس أنهم يعلمون الغيب، وما أخبروا الناس به من الغيب إنما هو من إيحاء الله إليهم فلا ينسبونه إلى أنفسهم.

ومما يدخل في علم الرمل، ويأخذ حكمه علم الأسارير وهو علم باحث عن الاستدلال بالخطوط الموجودة في الأكف والأقدام والجباه بحسب التقاطع والتباين والطول والعرض والقصر، وبحسب ما بينها من الفروج المتسعة، أو المتضايقة على أحوال الإنسان من طول الأعمار وقصرها، والسعادة والشقاوة، والغنى والفقر، وما شابه ذلك.

ويلحق به أيضًا ما يسمى بقراءة الفنجان، قال العلامة عبدالعزيز بن باز كما

في مجلة البحوث الإسلامية، عدد (٢٠ ص٧ - ١١): وقد ظهر من أقواله ﷺ، ومن تقريرات الأئمة من العلماء، وفقهاء هذه الأمة، أن علم النجوم، والخط على الرمل، وما يسمى بالطالع، وقراءة الكف، وقراءة الفنجان ومعرفة الخط، وما أشبه ذلك كلها من علوم الجاهلية، ومن الشرك الذي حرمه الله ورسوله، ومن أعمالهم التي جاء الإسلام بإبطالها، والتحذير من فعلها، أو إتيان من يتعاطاها وسؤاله عن شيء منها، أو تصديقه فيما يخبر به من ذلك، لأنه من علم الغيب الذي استأثر الله به.

مسألة: حكم تعلم علم الفلك

علم الفلك هو علم مداره الأجرام العلوية، أي الشمس والقمر والكواكب السيارة والكواكب الثابتة وتوابعها ونحو ذلك، وهو قسمان نظري وعملي، فالأول يصف تلك الأجرام، ويعين لنا أبعادها عن الشمس وحركاتها وفصولها السنوية، وهيآتها، والثاني يبحث عن كيفية رصد تلك الأجرام.

أما حكم تعلم هذا العلم فقد اتفق الفقهاء على اعتبار النجوم من الدلائل التي تدل على جهة القبلة عند خفائها، وعلى أنها من أقوى الأدلة على ذلك، وعلى ضرورة أن يتعلمها المسافر[1] مستدلين بقوله تعالى: {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}.

واتفقوا أيضًا على أن المواقيت تؤخذ من الأهلة، وأنها هي المعتبرة في مواقيت الناس ومواقيت العبادات[2]، كما أن الشمس دليل على أوقات

(١) الفروع (١/ ٢٨١)، وروضة الطالبين (١/ ٢١٧)، والمجموع (٣/ ١٨٧)، وكفاية الأخبار (١/ ٥٩)، والمبدع (١/ ٤٠٦)، والإنصاف للمرادي (٢/ ١٢، ١٣)، ورسالة القواعد والضوابط للأعمال الفلكية (ق٢أ).
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٥/ ١٣٢ - ١٣٣).

الصلوات[١].

كما ذهب العلماء إلى أن ما يمكن معرفته عن طريق الحس أو المشاهدة أو الحساب أو نحو ذلك يجوز تعلمه كالعلم بأسماء الكواكب، ومناظرها، ومطالعها، ومساقطها، ومعرفة بعد الكواكب عن الأرض، ومقدار ما تقطعه الكواكب في أفلاكها، ومعرفة منازل القمر، والبروج الاثنى عشر، ودرجات الفلك ونحو ذلك[٢]، واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

قول الله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، وقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، وقوله: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، وقوله: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}، وقوله: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

---

(١) الفروع للقرافي (٤/ ٢٥٨)، وتهذيب الفروع والقواعد السنية (٤/ ٢٨٥).

(٢) معالم السنن (٥/ ٣٧٢)، والفصل في الملل والأهواء والنحل (٥/ ١٤٨)، وحكم علم النجوم (ق٢أ)، وشرح السنة (١٢/ ١٨٣)، ورسالة القواعد والضوابط للأعمال الفلكية (ق١أ).

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، وقوله: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}، وقوله: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا}، وقوله تعالى: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا}، وقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا}، وقوله: {خَلَقَ الْأِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}، وغيرها من الآيات.

وما رواه البيهقي والخطيب البغدادي رحمهما الله عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (أحب عباد الله إلى الله رعاة[1] الشمس والقمر الذين يحببون عباد الله إلى الله ويحببون الله إلى عباده)[2].

ومارواه مالك والخطيب البغدادي رحمهما الله عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال:

(١) أصل الرعاة حفاظ الماشية، وتطلق على الأمير والحاكم لقيامهم بتدبير الناس، والمراد بهم هنا المؤذنون، لأنهم يراعون طلوع الفجر والشمس وزوالها ونحو ذلك. انظر: "فيض القدير": (٥/ ٣١٣).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٣٧٩)، والخطيب في حكم علم النجوم (ق٢/ ب) والحديث ضعفه ابن المنذر في الترغيب والترهيب (١/ ١٥٠) وذكر له طريقًا آخر عن أبي أوفى رواه الطبراني والبزار والحاكم وقال فيه ابن المنذر: فرد به ابن عيينة عن مسعر، وحدث به غيره، وهو حديث غريب صحيح وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٣٢٦): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه جنادة بن مروان، قال الذهبي: اتهمه أبو حاتم، وقال المناوي في الفيض (٥/ ٣١٣): فيه الوليد بن مروان، أورده الذهبي في الضعفاء، وقال: مجهول، وجنادة بن مروان ضعفه أبو حاتم واتهمه في الحديث، والحارث بن نعمان، قال البخاري: منكر الحديث، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف (٤٧٩٧).

سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة)[1].

(١) قال الشيخ مشهور في تعليقه على الموافقات (٢/ ١١٦): أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٩٢ بلاغا، والحديث ضعيف. قال ابن عبد البر في "الاستذكار" (٧/ ١٦١): "وهذا الحديث لا أعرفه بوجه من الوجوه في غير "الموطأ" ومن ذكره إنما ذكره عن مالك في "الموطأ"، إلا ما ذكره الشافعي [في "الأم" (١/ ٢٥٥) في كتاب الاستسقاء، ومن طريقه البيهقي في "المعرفة" (٥/ ٢٠٠/ رقم ٧٢٨١ - ط قلعجي) عن إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن إسحاق بن عبد الله، أن النبي ﷺ قال: "إذا أنشأت بحرية ثم استحالت شامية، فهو أمطر لها" وابن أبي يحيى مطعون عليه متروك، وإسحاق ابن عبد الله هو ابن أبي فروة ضعيف أيضا متروك الحديث". ثم قال: "وهذا الحديث لا يحتج به أحد من أهل العلم بالحديث؛ لأنه ليس له إسناد". وقال: "وقال الشافعي في حديثه هذا: "بحرية" بالنصب، كأنه يقول: "إذا ظهرت السحاب بحرية من ناحية البحر، ومعنى نشأت: ظهرت وارتفعت" وقال: "وناحية البحر بالمدينة الغرب"، ثم تشاءمت، أي: أخذت نحو الشام، والشام من المدينة في ناحية الشمال، يقول: إذا مالت السحابة الظاهرة من جهة الغرب إلى الشمال -وهو عندنا البحرية- ولا تميل كذلك إلا بالريح النكباء التي بين الغرب والجنوب هي القبلة، فإنها يكون ماؤها غدقا، يعني: غزيرًا معينًا؛ لأن الجنوب تسوقها وتستدرها، وهذا معروف عند العرب وغيرهم".
ونحوه في "التمهيد" (٢٤/ ٣٧٧) أيضا، واستدرك ابن الصلاح في "رسالته في وصل بلاغات مالك الأربعة في الموطأ" (ص١١ - ١٣) على ابن عبد البر، فوصله من طريق ابن أبي الدنيا في كتابه "المطر" عن الواقدي، قال: "وفيه استدراك على الحافظين حمزة بن محمد وابن عبد البر، وليس إسناده بذاك".
قلت: وأخرجه أبو الشيخ في "العظمة" (٤/ ١٢٤٧ - ١٢٤٨/ رقم ٧٢٢)، والطبراني في "الأوسط" " (٨/ ٣٧٠ - ٣٧١/ رقم ٧٧٥٣) من طريق الواقدي عن عبد الحكيم بن عبد الله بن أبي فروة عن عوف بن الحارث عن عائشة به مرفوعا نحوه، قال الطبراني: "تفرد به الواقدي". قلت: وهو متروك، وعوف مقبول، وابن أبي فروة فيه كلام، فالحديث ضعيف جدا وانظر: "المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير" "ص ٢٨٢ - ٢٨٣" لابن قتيبة، و"الأنواء" له ص ١٧٠"، و"كنز العمال" "٧/ ٨٣٨"، و"الهيئة =

وما أخرجه أيضًا عن ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا أنه قال في قوله تعالى: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}: (هي ثمانية وعشرين منزلًا ينزلها القمر في كل شهر أربعة عشر منها شامية، وأربعة عشر منها يمانية ...)[١]، وإجماع السلف على القول باستدارة الفلك[٢].

أما تعلم ما زاد على ما يحتاجه الإنسان مما لا يحتاجه فقد كرهه بعض العلماء كابن رجب الحنبلي، وغيره، كما كره قتادة تعلم منازل القمر، وأنكر الإمام أحمد الاستدلال بالجدي على القبلة، وقال: "إنما ورد ما بين المشرق والمغرب القبلة"، وأنكر ابن مسعود على من قال: إن الفلك يدور، كما أنكر الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ على المنجمين قولهم: إن الزوال يختلف في البلدان[٣].

وهذه الأقوال وما في معناها محمولة على أمرين:

الأمر الأول: على تعلم ما لا فائدة فيه في عصرهم. والاستغلال بما لا فائدة فيه لا شك في كراهته لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}.

الأمر الثاني: يحمل نهيهم هذا على أنهم لمسوا ممن تكلم في ذلك أنه أراد أن يبني على قوله هذا الشبهات، أو أراد التشكيك في قبلة المسلمين، أو نحو ذلك فأنكروا عليه، ومن كان بهذه الصفة لا بد من الإنكار عليه[٤].

=

السنية" "ق١٠/ أ" للسيوطي، والفائق" "٣/ ٥٦"، و"النهاية" "٢/ ٤٣٧ و٣/ ٣٤٦" و"غريب الحديث" "٢/ ١٤٧" لابن الجوزي، و"توجيه النظر" "١/ ٤٠٨ و٢/ ٩١٣ - ٩٢٨".

(١) أخرجه الخطيب في حكم علم النجوم (ق٣/ أ).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٦/ ٥٨٦).

(٣) فضل علم السلف على علم الخلف (ص١٣٢ - ١٣٤).

(٤) فضل علم السلف على علم الخلف (ص١٣٤ - ١٣٥).

وأما الاستدلال -بحديث ابن عمر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبر ثم انتهوا)[1] على عدم جواز تعلم ما زاد على الاهتداء فلا يصح، إذ إن هذا -الحديث- ضعيف، لو صح لم يكن فيه حجة لأن المراد النهي عن علم التأثير لا التسيير.

أما إذا لمست مصلحة في تعلم شيء من ذلك، فلا بأس في تعلمه، بشرط أن لا يتعارض مع تعلم ما هو أوجب منه، وأن يسخر هذا العلم في طاعة الله بناءً على ما دلت عليه الأدلة السابقة.

أما بالنسبة لصحة هذا العلم وفساده فينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما تشهد الأدلة النقلية على صحته، مثل دوران الشمس والقمر في الفلك، وأن لكل منهما فلكًا يجري فيه، كما قال تعالى: {لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، وكالقول بأن الأفلاك مستديرة لانعقاد الإجماع عليه، ونحو ذلك، فهذا لاشك في صحته، ويجب الإيمان به لدلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه، إذ إن المسائل المنصوص عليها بكتاب أو سنة أو إجماع تعتبر من جملة المسائل الشرعية التي يجب على المسلمين الإيمان بها، ولا يحيدون عنها، حتى وإن خالفها جميع الفلكيين.

القسم الثاني: ما كان مخالفًا لنصوص الكتاب أو السنة أو الإجماع، مثل القول بأن الشمس ثابتة لا تتحرك ونحو هذا، فهذا لا شك في فساده.

---

(١) أخرجه الخطيب في حكم علم النجوم (ق٢/ ب) قال المناوي في الفيض (٣/ ٢٥٦): قال عبد الحق: وليس بإسناده مما يحتج به، وقال ابن القطان: فيه من لا أعرفه، وضعفه العلامة الألباني ضعيف الجامع (٢٤٥٥).

القسم الثالث: ما لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ، ولا في شواهد العيان ما يدل على قبوله، أو رده، فهذا لا يحكم بصحته ولا بفساده، بل يكون موقوفًا فيه، حتى يوجد من الأدلة العلمية ما يقتضي صحته أو فساده(١).

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ١٨٥): عن أقسام علم النجوم؟.

فأجاب: علم النجوم ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: علم يستدل به على الحوادث الأرضية، فهذا محرم، فيستدل مثلًا باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني على أنه سيحدث كذا وكذا، ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم أنه سيكون سعيدًا، وفي هذا النجم الآخر بأنه سيكون شقيًا، فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضية ليس للنجوم بها علاقة ولهذا في حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة على أثر سماء من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: "هل تدرون ماذا قال ربكم"؟

قالوا: الله ورسوله أعلم. قال:» «" قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فمن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا - والباء للسببية - فإنه كافر بي مؤمن بالكوكب، ومن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب» . فالنجوم لا تأتي بالمطر ولا الرياح، ومنه نعرف خطأ الذين يقولون: إذا طلع النجم الفلاني ازداد هبوب الرياح لأن النجوم لا صلة لها بالرياح.

القسم الثاني: علم يستدل به على الجهات والأوقات، فهذا جائز وقد يكون

---

(١) مجموع الفتاوى المصرية (١/ ٣٢٢)، والأدلة النقلية والحسية على إمكان الصعود إلى الكواكب (ص٤٣، ٧٤).

واجبًا كما قال الفقهاء:

"إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم، والشمس، والقمر ".

قال الله تعالى: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} سورة النحل، الآية "١٥".

فلما ذكر الله ﷻ العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات الأفقية فقال تعالى: {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} سورة النحل، الآية "١٦".

فالاستدلال بهذه النجوم على الأزمنة والأمكنة لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت المطر، أو وقت الربيع، والعرب في الجاهلية يتشاءمون بالأنواء ويتفاءلون بها، فبعض النجوم يقولون: هذا نجم نحس لا خير فيه، وبعضها بالعكس يقولون: هذا نجم سعود وخير، ولهذا إذا أمطروا قالوا:

مطرنا بنوء كذا، ولا يقولون: مطرنا بفضل الله ورحمته، مع أن النجم ليس سببًا للمطر.

ألسنا نجد هذا النوء بعينه سنة يكون فيه مطر وفي سنة أخرى لا يكون فيه مطر؟! ونجد السنوات تمر بدون مطر مع وجود النجوم الموسمية التي كانت كثيرًا ما يكون في زمنها الأمطار، فالنوء لا تأثير له فقولنا: طلع هذا النجم كقولنا: طلعت الشمس فليس له إلا طلوع وغروب، والنوء وقت تقدير وهو يدل على دخول الفصول فقط.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٨٧): عن حكم تعلم علم النجوم؟ وما الحكمة من خلقها؟.

فأجاب: علم النجوم على نوعين:

النوع الأول: علم التأثير وهذا النوع ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة، بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث فهذا شرك مخرج عن الملة؛ لأنه جعل المخلوق خالقًا فادعى أن مع الله خالقًا آخر.

القسم الثاني: أن يستدل بحركاتها وتنقلاتها على ما يحدث في المستقبل مثل أن يعتقد أن فلانًا ستكون حياته شقاء؛ لأنه ولد في النجم الفلاني، ونحو ذلك فهذا قد ادعى علم الغيب ودعوى علم الغيب كفر مخرج من الملة لأنه تكذيب لقوله تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ} سورة النمل، الآية "٦٥"

وهذا من أقوى أنواع الحصر لأنه بالنفي والاستثناء، فإذا ادعى علم الغيب فقد كذب القرآن.

القسم الثالث: أن يعتقد أنها سبب لحدوث الخير والشر أي إنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئًا إلا بعد وقوعه فهذا شرك أصغر لأنه أضاف الحوادث إلى ما ليس سببًا لها شرعًا ولا حسًا.

فإن قيل: ينتقض هذا بما ثبت عن النبي، ﷺ «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده» فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

فالجواب: أن هذا لا يدل على أن للكسوف تأثيرًا في الحوادث من الجدب والقحط والحروب ولذلك قال النبي، ﷺ: «إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته». لا في ما مضى، ولا في المستقبل، وإنما يخوف الله بهما العباد لعلهم يرجعون.

النوع الثاني: علم التسيير بأن يستدل بسيرها على شيء ما فهذا على قسمين:

القسم الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية فهذا مطلوب، وإذا كان على مصالح دينية واجبة كان ذلك واجبًا، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على جهة القبلة، فالنجم الفلاني يكون ثلث الليل قبلة، والنجم الفلاني يكون ربع الليل قبله فهذا فيه فائدة عظيمة.

القسم الثاني: أن يستدل بها على المصالح الدنيوية وهذا لا بأس به وهو نوعان:

النوع الأول:أن يستدل بها على الجهات، كمعرفة أن القطب يقع شمالًا، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالًا وهكذا، فهذا جائز قال تعالى: {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} سورة النحل، الآية "١٦".

النوع الثاني: أن يستدل بها على الفصول؛ وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر، فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون، والذين كرهوه قالوا: يخشى إذا قيل طلع النجم الفلاني فهو وقت الشتاء، أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد، أو بالحر، أو بالرياح. والصحيح عدم الكراهة.

أما الحكمة من خلقها فالله ﷻ قد خلق هذه النجوم لحكم كثيرة منها:

الأولى: زينة للسماء قال تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} سورة الملك، الآية "٥"

ولا يلزم من ذلك أن تكون النجوم مرصعة في السماء.

فإن قيل: فما الجواب عن قوله تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا} سورة الملك، الآية "٥".

قلنا: إنه لا يلزم من تزيين الشيء بالشيء أن يكون ملاصقًا له، أرأيت لو أن رجلًا عمر قصرًا وجعل حوله ثريات من الكهرباء كبيرة وجميلة وهي حول

القصر وليست على جدرانه فالناظر إلى القصر من بعد يرى أنها زينة له وإن لم تكن ملاصقة له.

الثانية: أنها رجوم للشياطين، أي لشياطين الجن الذين يسترقون السمع، فهم لهم قوة عظيمة نافذة قال تعالى عن عملهم لسليمان: {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} سورة ص، الآيتان "٣٧ – ٣٨"

وقال تعالى: {قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ} سورة النمل، الآية "٣٩" أي من سبأ إلى الشام، وهوعرش عظيم لملكة سبأ فهذا يدل على قوته، وسرعته ونفوذه.

قال تعالى عن الجن: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} سورة الجن، الآية " ٩ ".

الثالثة: علامات يهتدى بها قال تعالى: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} سورة الجن، الآية " ٩ ".

فالعلامات: تشمل كل ما جعل الله في الأرض من علامة كالجبال، والأنهار والطرق وهن علامات أرضية، ثم ذكر العلامة الأفقية في قوله تعالى: {وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} سورة النجم، الآية "١٦".

والنجم اسم جنس يشمل كل ما يهتدى به ولا يختص بنجم معين؛ لأن لكل قوم طريقة في الاستدلال بهذه النجوم على الجهات سواء جهة القبلة، أو المكان برًا أو بحرًا، وهذه نعمة من الله أن جعل أشياء علوية لا يحجب دونها شيء لأنك في الليل لا تشاهد جبالًا، ولا أودية، ولا رملًا وهذا من تسخير الله تعالى. قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} سورة

الجاثية، الآية "١٣".

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٩٠): عن التنجيم وحكمه؟.

فأجاب: التنجيم مأخوذ من النجم، وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، بمعنى أن يربط المنجم ما يقع في الأرض، أو ما سيقع في الأرض بالنجوم بحركاتها، وطلوعها، وغروبها، واقترانها، وافتراقها وما أشبه ذلك، والتنجيم نوع من السحر والكهانة وهو محرم؛ لأنه مبني على أوهام لا حقيقة لها، فلا علاقة لما يحدث في الأرض بما يحدث في السماء، ولهذا كان من عقيدة أهل الجاهلية أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم، فكسفت الشمس في عهد النبي ﷺ، «في اليوم الذي مات فيه ابنه إبراهيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فخطب النبي ﷺ، الناس حين صلى الكسوف وقال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته» فأبطل النبي ﷺ، ارتباط الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية، وكما أن التنجيم بهذا المعنى نوع من السحر والكهانة فهو أيضًا سبب للأوهام والانفعالات النفسية التي ليس لها حقيقة ولا أصل، فيقع الإنسان في أوهام، وتشاؤمات، ومتاهات لا نهاية لها.

وهناك نوع آخر من التنجيم وهو أن الإنسان يستدل بطلوع النجوم على الأوقات، والأزمنة، والفصول، فهذا لا بأس به ولا حرج فيه، مثل أن نقول: إذا دخل نجم فلان فإنه يكون قد دخل موسم الأمطار، أو قد دخل وقت نضوج الثمار وما أشبه ذلك، فهذا لا بأس به ولا حرج فيه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٩١): ما العلاقة بين التنجيم والكهانة؟ وأيهما أخطر؟.

فأجاب: العلاقة بين التنجيم والكهانة أن الكل مبني على الوهم والدجل، وأكل أموال الناس بالباطل، وإدخال الهموم والغموم عليهم وما أشبه ذلك.

وبالنسبة لخطرهما على المسلمين فهذا ينبني على شيوع هذا الأمر بين الناس فقد يكون في بعض البلاد لا أثر للتنجيم عندهم إطلاقًا ولا يهتمون به ولا يصدقون به، ولكن الكهانة منتشرة بينهم فتكون أخطر، وقد يكون الأمر بالعكس. لكن من حيث واقع الكهانة والتنجيم فإن الكهانة أخطر.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٩٢): رعاه الله-: عن حكم الاستسقاء بالأنواء؟ .

فأجاب: الاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر وله صورتان

الصورة الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا أسقنا أو أغثنا وما أشبه ذلك، فهذا شرك أكبر قال الله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} وقال الله تعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} وقال ﷻ: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ} وهذا شرك في العبادة والربوبية.

الصورة الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذا النوء ولو لم يدعها على أنها هي الفاعلة لنفسها دون الله، بأن يعتقد أنها هي التي تنزل المطر دون الله فهذا شرك أكبر في الربوبية.

القسم الثاني: شرك أصغر وهو أن يجعل هذه الأنواء سببًا، والله هو الخالق الفاعل، وإنما كان شركًا أصغر؛ لأن كل من جعل سببًا لم يجعله الله سببًا لا

بوحيه ولا بقدره، فهو مشرك شركًا أصغر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٩٣): عن حكم ربط المطر بالضغط الجوي والمنخفض الجوي؟.

فأجاب: تعليق المطر بالضغط الجوي، والمنخفض الجوي -وهو وإن كان قد يكون سببًا حقيقيًّا- ولكن لا ينبغي فتح هذا الباب للناس، بل يقال: هذا من رحمة الله، هذا من فضله ونعمته، قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ} وقال عَزَّ وَجَلَّ: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ} فتعليق المطر بالمنخفضات الجوية من الأمور الجاهلية التي تصرف الإنسان عن تعلقه بربه.

وليعلم أن النسبة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: نسبة إيجاد وهذه شرك أكبر.

القسم الثاني: نسبة سبب وهذه شرك أصغر.

القسم الثالث: نسبة وقت وهذه جائزة. والله أعلم.

❋ ❋ ❋

الفهرس

جامع المسائل العقدية

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

دار اللؤلؤة

الجزء السابع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(باب ذكر مسائل الإيمان)

مسألة : يشترط في العبادات حتى تقبل عند الله ﷻ

ويؤجر عليها العبد أن يتوفر فيها شرطان

الشرط الأول: الإخلاص لله ﷻ، قال تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) سورة البينة/ ٥، ومعنى الإخلاص هو: أن يكون مراد العبد بجميع أقواله وأعماله الظاهرة والباطنة ابتغاء وجه الله تعالى، قال تعالى: (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) سورة الليل/ ١٩

وقال تعالى: (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) الإنسان/ ٩.

وقال تعالى: (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) سورة الشورى/ ٢٠

وقال تعالى: (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) سورة هود/ ١٥ - ١٦

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" رواه البخاري (بدء الوحي/ ١)

وجاء عند مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تبارك وتعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه" رواه مسلم في الزهد والرقائق.

الشرط الثاني: موافقة العمل للشرع الذي أمر الله تعالى أن لا يعبد إلا به وهو

متابعة النبي ﷺ فيما جاء به من الشرائع فقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد" رواه مسلم (٣٢٤٣)، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٦): هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أن حديث "إنما الأعمال بالنيات" ميزان للأعمال في باطنها، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى، فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله، فليس من الدين في شيء.اهـ.وأمر النبي ﷺ باتباع سنته وهديه ولزومهما قال عليه الصلاة والسلام: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ... وحذر من البدع فقال: "وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة)[1].

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجة (٤٢)، والدارمي (٩٥)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد: (١/ ٧٤ - ٧٥)، والآجري في الشريعة (ص٤٦ - ٤٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٧ - ١٩)، وأبو عبيد في الخطب والمواعظ (٢)، والحاكم: (١/ ٩٥)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٠٥)، وابن وضاح في البدع (ص٢٣، ٢٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٢٢٠، ٢٢١ و١٠/ ١١٤، ١١٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٦٩) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، والحديث صححه الترمذي، وصححه البزار كما في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٢٤)، وحسنه البغوي في شرح السنة، وقال أبو نعيم في المستخرج على صحيح مسلم: حديث جيد من صحيح حديث الشاميين كما في جامع العلوم والحكم (ص٢٢٦)، وصححه ابن حبان والحاكم، وقال الجوزقاني في الأباطيل والمناكير (١/ ٤٧٢): صحيح ثابت مشهور، وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٦٤): ثابت صحيح، وقال شيخ الاسلام الانصاري هو أجود حديث في أهل الشام وأحسنه كما في تحفة الطالب (٤٦)، وصححه الضياء المقدسي في جزء في اتباع السنن =

=

واجتناب البدع (رقم ٢)، وصححه شيخ الإسلام في الإقتضاء (٢/ ٨٣)، وحسنه ابن القيم في أعلام الموقعين (٤/ ١١٩)، وجوده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٣١٣)، وقال العراقي في الباعث على الخلاص (رقم ١): صحيح مشهور، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة وانظر الصحيحة (٩٣٧)، وحسنه الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٥/ ٢٤ - ٢٥)، وصححه الحويني في تخريج فضائل القرآن (ص٦٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: حديث صحيح ورجاله ثقات.

(تنبيه) قال ابن حزم في الإحكام في أصول الأحكام (٦/ ٧٦ - ٧٨): " " وأما قوله عليه السلام: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين" فقد علمنا أنه عليه السلام لا يأمر بما لا يقدر عليه، ووجدنا الخلفاء الراشدين بعده عليه السلام قد اختلفوا اختلافا شديدا، فلا بد من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها:

* إما أن نأخذ بكل ما اختلفوا فيه، وهذا ما لا سبيل إليه، ولا يقدر أحد عليه، إذ فيه الشيء وضده، ولا سبيل إلى أن يورث أحد الجد دون الإخوة، بقول أبي بكر وعائشة، ويورث الثلث فقط وباقي ذلك للإخوة على قول عمر، ويورثه السدس وباقيه للإخوة على مذهب علي، وهكذا في كل ما اختلفوا فيه، فبطل هذا الوجه، لأنه ليس في استطاعة الناس أن يفعلوه. فهذا وجه.

* أو يكون مباحا لنا أن نأخذ بأي ذلك شئنا، وهذا خروج عن الإسلام، لأنه يوجب أن يكون دين الله تعالى موكولا إلى اختيارنا، فيحرم كل واحد منا ما يشاء ويحل ما يشاء، ويحرم أحدنا ما يحلله الآخر، وقول الله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم) وقوله تعالى: (تلك حدود الله فلا تعتدوها) وقوله تعالى: (ولا تنازعوا) ـ: يبطل هذا الوجه الفاسد، ويوجب أن ما كان حراما حينئذ فهو حرام إلى يوم القيامة، وما كان واجبا يومئذ فهو واجب إلى يوم القيامة، وما كان حلالا يومئذ فهو حلال إلى يوم القيامة.

وأيضا فلو كان هذا، لكنا إذا أخذنا بقول الواحد منهم فقد تركنا قول الآخر منهم، ولا بد من ذلك، فلسنا حينئذ متبعين لسنتهم، فقد حصلنا في خلاف الحديث المذكور وحصلوا فيه شاؤا أو أبوا.

ولقد أذكرنا هذا مفتيا كان عندنا بالأندلس، وكان جاهلا، فكانت عادته أن يتقدمه رجلان، كان مدار الفتيا عليهما في ذلك الوقت، فكان يكتب تحت فتياهما: أقول بما

=

=

قاله الشيخان، فقضي أن ذينك الشيخين اختلفا، فلما كتب تحت فتياهما ما ذكرنا، قال له بعض من حضر: إن الشيخين اختلفا؟! فقال: وأنا أختلف با ختلافهما!!

قال أبو محمد: فإذ قد بطل هذان الوجهان فلم يبقى إلا الوجه الثالث، وهو:

* وأخذ ما أجمعوا عليه، وليس ذلك إلا فيما أجمع عليه سائر الصحابة رضوان الله عليهم معهم، وفي تتبعهم سنن النبي ﷺ والقول بها.

وأيضا فإن رسول الله ﷺ إذا أمر باتباع سنن الخلفاء الراشدين لا يخلو ضرورة من أحد وجهين:

* إما أن يكون عليه السلام أباح أن يسنوا غير سننه، فهذا ما لا يقوله مسلم، ومن أجاز هذا فقد كفر وارتد وحل دمه وماله، لأن الدين كله إما واجب أو غير واجب، وإما حرام وإما حلال، لا قسم في الديانة غير هذه الأقسام أصلا، فمن أباح أن يكون للخلفاء الراشدين سنة لم يسنها رسول الله ﷺ، فقد أباح أن يحرموا شيئا كان حلالا على عهده عليه السلام إلى أن مات، أو أن يحلوا شيئا حرمه رسول الله ﷺ، أو أن يوجبوا فريضة لم يوجبها رسول الله ﷺ، أو أن يسقطوا فريضة فرضها رسول الله ﷺ ولم يسقطها إلى أن مات، وكل هذه الوجوه من جوز منها شيئا فهو كافر مشرك بإجماع الأمة كلها بلا خلاف. وبالله تعالى التوفيق. فهذا الوجه قد بطل ولله الحمد.

* وأما أن يكون أمر باتباعهم في اقتدائهم بسنته عليه السلام، فهكذا نقول، ليس يحتمل هذا الحديث وجها غير هذا أصلا.اهـ.

وقال العلامة أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري في كتابه الماتع " تحرير بعض المسائل على مذهب الأصحاب " (٢٦ـ ٢٧): "قوله ﷺ: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين " صريح في أن سنة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم حجة ولو لم يوافقهم سائر الصحابة. وسنتهم هي ما يمضونه من أحكام في خلافتهم لم يعارضها نص صحيح غاب عنهم.

فإن اختلفوا فيسعنا الاجتهاد، وإن مضت سنة أحدهم ولم ينقضها الآخر فالانقياد لهذه السنة واجب.

وأبو محمد ـ يعني ابن حزم ـ يقول: إنهم لن يسنوا خلاف سنة رسول الله ﷺ ونحن نقول قد لا تنقل إليهم سنة فيجتهدون، كالعول سنة ماضية باجتهاد عمر رضي الله عنه، وقلت سنة ماضية لقوله ﷺ: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين " فإن بان لنا نص صحيح

=

=

غاب عنهم صرنا إليه.
ولست أسمي هذا إجماعا لأنهم رضي الله عنهم ليسوا كل المؤمنين، ولكنني أسميه دليلا، لأن طاعة سنتهم معنى قوله ﷺ: عليكم بسنتي ... الحديث "ا. هـ
وقال العلامة العثيمين في لقاءات الباب المفتوح: الخلفاء الأربعة هم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي باتفاق المسلمين وهم خلفاء راشدون لا شك، ولاسيما أبو بكر وعمر؛ لأن الرسول ﷺ قال: (إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا) وقال: (اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر و عمر) ولهم سنة متبعة لا شك في هذا بأمر النبي ﷺ، لكن سنة الرسول ﷺ مقدمة على سنتهم إذا ثبتت السنة عن الرسول ﷺ، ولا عبرة بقول واحد منهم، ولا بقول جميعهم! مع أن هذا قد يكون مستحيلًا أن يتفقوا جميعًا على مخالفة سنة الرسول ﷺ. أما أن تخفى على بعضهم السنة فهذا قد يقع، فهذا حديث الطاعون حين سافر عمر بن الخطاب إلى الشام وفي أثناء الطريق قيل له: إن هناك طاعونًا، فتوقف رضي الله عنه واستشار الصحابة الذين معه من المهاجرين والأنصار، ولم يكن عند أحدهم أثر عن النبي ﷺ، ولكن استقر الرأي على أن يرجع إلى المدينة وألا يخاطر بالمسلمين، فأذن بالرحيل، فجاءه أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه الذي قال فيه النبي ﷺ: (أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح) وكان عمر بن الخطاب يجله ويقدره، حتى قال حين طعن: لو كان أبو عبيدة حيًا لجعلته خليفة من بعدي؛ لأن الرسول ﷺ جعله أمين هذه الأمة، فقال: [يا أمير المؤمنين! كيف ترجع أتفر من قدر الله؟ قال: نعم، أفر من قدر إلى قدر الله!] أي: إن ذهبت إلى الشام فبقدر الله، وإن رجعت إلى المدينة فبقدر الله، ثم ضرب له مثلًا قال: [لو كان لك إبل في وادٍ له عدوتان -أي: شعبتان- إحداهما مخصبة والثانية مجدبة، بأي العدوتين ترعاها؟ قال: بالمخصبة، قال: أبقدر الله؟ قال: نعم، قال: إذًا تركت المجدبة بقدر الله، ورعيت المخصبة بقدر الله] وفي أثناء ذلك جاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وكان قد ذهب في حاجة له، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في الطاعون: (إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليها، وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فرارًا منه) ولا شك أن مثل هذا يُسَرُّ به أمير المؤمنين ويُسَرُّ به المؤمنون جميعًا، فالحاصل أن السنة قد تخفى على بعض الخلفاء، فيقول قولًا أو يفعل فعلًا يخالفها من غير قصد منه، لكن كون الأربعة يتفقون على مخالفة السنة هذا بعيد ولا أذكر له مثالًا، وإن كان! فإذا تعارضت سنة أي شخص من هذه الأمة مع سنة رسول الله ﷺ فالواجب

=

قال الإمام ابن القيم في الروح (١/ ١٣٥): فإن الله جعل الإخلاص والمتابعة سببا لقبول الأعمال فإذا فقد لم تقبل الأعمال.اهـ.

قال تعالى (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) قال الفضيل: أحسن عملا، أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا علي، وما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة.

وهناك ثلاث أحاديث تزيد الأمر وضوحا وهي:

الحديث الأول (عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمته فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال هو جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأالقرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار) رواه مسلم فهولاء الثلاثة حققو شرطا واحد وهو المتابعة ولم يحققوا الشرط الثاني وهو الإخلاص فلم يقبل عملهم.

=

تقديم سنة الرسول ﷺ.

الحديث الثاني (عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألون عن عبادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا وأين نحن من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبدا وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) متفق عليه فهولاء الثلاثة حققوا شرطا واحد وهو الإخلاص ولم يحققوا الشرط الثاني وهو المتابعة فلم يقبل عملهم.

الحديث الثالث (عن ابن عمر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "بينما ثلاثة نفر يماشون أخذهم المطر فمالوا إلى غار في الجبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها لله صالحة فادعوا الله بها لعله يفرجها. فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران ولي صبية صغار كنت أرعى عليهم فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي وإنه قد نأى بي الشجر فما أتيت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء ففرج الله لهم حتى يرون السماء قال الثاني: اللهم إنه كان لي بنت عم أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء فطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار فلقيتها بها فلما قعدت بين رجليها. قالت: يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم فقمت عنها. اللهم فإن كنت تعلم أني

فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها ففرج لهم فرجة وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز فلما قضى عمله قال: أعطني حقي. فعرضت عليه حقه فتركه ورغب عنه فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا وراعيها فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني وأعطني حقي. فقلت: اذهب إلى ذلك البقر وراعيها فقال: اتق الله ولا تهزأ بي. فقلت: إني لا أهزأ بك فخذ ذلك البقر وراعيها فأخذ فانطلق بها. فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج ما بقي ففرج الله عنهم) متفق عليه فهولاء الثلاثة حققوا شرطي قبول العمل الإخلاص والمتابعة فقبل عملهم.

قال المصنف: قال ﷻ: (إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ اَلَّذِينَ آمَنُوا بِاَللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اَللهِ أُولَئِكَ هُمُ اَلصَّادِقُونَ).

وقال: (إِنَّ اَللهَ اِشْتَرَى مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ اَلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اَللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي اَلتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اَللهِ).

ثم وصفهم بأعمالهم فقال: (اَلتَّائِبُونَ اَلْعَابِدُونَ اَلْحَامِدُونَ اَلسَّائِحُونَ اَلرَّاكِعُونَ اَلسَّاجِدُونَ اَلْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ اَلْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اَللهِ وَبَشِّرِ اَلْمُؤْمِنِينَ).

وقال: (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا اَلصَّلَاةَ وَآتَوُا اَلزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ).

وقال: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ اَلْكَلِمُ اَلطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ اَلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ).

مسائل في الإيمان

المسألة الأولى: حقيقة الإيمان

مسألة الإيمان من مسائل العقيدة الجليلة التي وقع الاختلاف فيها، والافتراق عليها قديمًا في المسلمين؛ ومن ثم ترتب عليها اختلافات أخر في

مسائل وثيقة الصلة بمسألة الإيمان، ومسائل الإيمان يعبر عنها العلماء بمسألة (الأسماء والأحكام) بمعنى: اسم العبد في الدنيا هو هل مؤمن أو كافر أو ناقص الإيمان ... ؟ وحكمه في الآخرة أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار، أم ممن يدخل النار ثم يخرج منها ويخلد في الجنة؟ ولأهمية هذه المسائل ضمنها أهل السنة والجماعة في مباحث العقيدة الكبار، قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص: ٣٠) مبينًا أهمية هذه المسألة: (وهذه المسائل، أعني مسائل الإسلام والإيمان، والكفر والنفاق مسائل عظيمة جدًا، فإن الله ﷻ علّق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة، واستحقاق الجنة والنار، والاختلاف في مسمياتها أول اختلاف وقع في هذه الأمة، وهو خلاف الخوارج للصحابة حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الإسلام بالكلية، وأدخلوهم في دائرة الكفر، وعاملوهم معاملة الكفار، واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم، ثم حدث بعدهم خلاف المعتزلة وقولهم بالمنزلة بين المنزلتين.

ثم حدث خلاف المرجئة وقولهم: إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان، وقد صنّف العلماء قديمًا وحديثًا في هذه المسائل تصانيف متعددة، وممن صنّف في الإيمان من أئمة السلف: الإمام أحمد، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن أسلم الطوسي، -رحمهم الله تعالى- وكثرت فيه التصانيف بعدهم من جميع الطوائف[1].

---

(١) فالإيمان عند أهل السنة والجماعة اعتقاد وقول وعمل الإيمان أصله في القلب: قال ﷻ: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) [الحجرات: ٨]، وقال تعالى: (وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) [الحشر: ٧]، وقال أيضًا: (أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ) [المجادلة: ٢٢] وقال أيضًا: (إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ) [النحل: ١٠٦]، وقال ﷺ: (يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه) أخرجه أحمد =

=

(٤/ ٤٢٠، رقم ١٩٧٩١)، وأبو داود (٤/ ٢٧٠، رقم ٤٨٨٠)، والبيهقى (١٠/ ٢٤٧، رقم ٢٠٩٥٣)، وابن أبى الدنيا فى الصمت (ص ١٢١، رقم ١٦٨)، وفي الغيبة (٢٩)، وأبو يعلى (١٣/ ٤١٩، رقم ٧٤٢٣)، وعلقه الدارقطني في (العلل) (٦/ ٣٠٩) من حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والحديث قال عنه العراقي في المغني: إسناده جيد، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٩٣): رواه أبو يعلى ورجاله ثقات، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٣٠١): له شاهد يتحسن به، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٧٩٨٤)، وقال الحويني في تحقيق كتاب الصمت (١٢١/ ، ح ١٦٨): إسناده ضعيف، وهو حديث صحيح، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن.

إلى غير ذلك من الأدلة الصريحة في أن إيمان القلب شرط في الإيمان، ولا يصح الإيمان بدونه، وأنه إذا وجد سرى ذلك إلى الجوارح ولابد، وإيمان القلب ليس مجرد العلم والمعرفة والتصديق بالله عَزَّ وَجَلَّ، وخبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بل لابد مع ذلك من الانقياد والاستسلام، والخضوع والإخلاص، مما يدخل تحت عمل القلب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولابد فيه من شيئين: تصديق القلب وإقراره ومعرفته، ويقال لهذا: قول القلب، قال الجنيد بن محمد: التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب فلا بد فيه من قول القلب وعمله، ثم قول البدن وعمله، ولا بد فيه من عمل القلب، مثل حب الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها جزءًا من الإيمان ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن ضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر، والعمل بالإيمان المطلق ...

ويقول أيضًا: الإيمان أصله معرفة القلب وتصديقه وقوله، والعمل تابع لهذا العلم والتصديق ملازم له، ولا يكون العبد مؤمنًا إلا بها.

=

=

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا شدة الترابط بين الأصل والفرع: (إذا قام بالقلب التصديق به، والمحبة له (قول القلب، وعمله) لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة، والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه، ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضًا تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه).

ويقول الإمام المروزي في تعظيم قدر الصلاة: أصل الإيمان التصديق بالله، وبما جاء من عنده، وعنه يكون الخضوع لله لأنه إذا صدق بالله خضع له، وإذا خضع أطاع .. ومعنى التصديق هو المعرفة بالله، والاعتراف له بالربوبية، بوعده، ووعيده، وواجب حقه، وتحقيق ما صدق به من القول والعمل .. ومن التصديق بالله يكون الخضوع لله، وعن الخضوع تكون الطاعات، فأول ما يكون عن خضوع القلب لله الذي أوجبه التصديق من عمل الجوارح والإقرار باللسان.

ويقول أيضًا وإنما المعرفة التي هي إيمان، هي معرفة تعظيم الله، وجلاله، وهيبته، فإذا كان كذلك، فهو المصدق الذي لا يجد محيصًا عن الإجلال، والخضوع لله بالربوبية، فبذلك ثبت أن الإيمان يوجب الإجلال لله، والتعظيم له، والخوف منه، والتسارع إليه بالطاعة على قدر ما وجب في القلب من عظيم المعرفة.

ويقول: أصل الإيمان هو التصديق، وعنه يكون الخضوع، فلا يكون مصدقًا إلا خاضعًا، ولا خاضعًا إلا مصدقًا، وعنهما تكون الأعمال.

يتضح لنا من النقل السابق أن العلم والمعرفة والتصديق (أي قول القلب)، إن لم يصحبها الانقياد والاستسلام والخضوع، (أي عمل القلب والجوارح) لم يكن المرء مؤمنًا، بل تصديق هذا شر من عدمه لأنه ترك الانقياد مع علمه ومعرفته.

والدليل على أن التصديق والمعرفة فقط لا تنفع صاحبها وصف الله به إبليس بقوله: خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ [الأعراف: ١٢] وقوله: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [ص: ٨٢]، فأخبر أنه قد عرف أن الله خلقه، ولم يخضع لأمره فيسجد لآدم كما أمره، فلم ينفعه معرفته إذ زايله الخضوع.

والدليل على ذلك أيضًا شهادة الله على قلوب بعض اليهود أنهم يعرفون النبي ﷺ وما أنزل إليهم كما يعرفون أبناءهم، فلا أحد أصدق شهادة على ما في قلوبهم من الله، إذ

=

=

يقول لنبيه: فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ [البقرة: ٨٩]، وقال: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ [البقرة: ١٤٦]، وقال: لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [البقرة: ١٤٦] فشهد على قلوبهم بأنها عارفة عالمة بالنبي ﷺ ولم يوجب لهم اسم الإيمان بمعرفتهم وعلمهم بالحق إذ لم يقارن معرفتهم التصديق والخضوع لله ولرسوله بالتصديق له والطاعة.

ومما يجدر ذكره أن بعض السلف يطلق التصديق أو اعتقاد القلب ويقصد به قول القلب وعمله جميعًا، أو عمل القلب وحده.

يقول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما من زعم أن الإيمان الإقرار، فما يقول في المعرفة؟ هل يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار؟ وهل يحتاج أن يكون مصدقًا بما عرف؟ فإن زعم أنه يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار، فقد زعم أنه من شيئين، وإن زعم أنه يحتاج أن يكون مقرا ومصدقا بما عرف، فهو من ثلاثة أشياء، وإن جحد وقال: لا يحتاج إلى المعرفة والتصديق فقد قال قولًا عظيمًا فالملاحظ من كلام الإمام أحمد أنه يعني بالتصديق عمل القلب ويعني بالمعرفة قول القلب، أما الإقرار فقول اللسان. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٣٩٧): فأراد أحمد بالتصديق أنه مع المعرفة به صار القلب مصدقا له، تابعًا له، محبًا له، معظمًا له .. وهذا أشبه بأن يحمل عليه كلام الإمام أحمد.

وقال الإمام أبو ثور كما شرح أصول اعتقاد أهل السنة: لما سئل عن الإيمان ما هو؟: (فاعلم يرحمنا الله وإياك أن الإيمان تصديق بالقلب والقول باللسان وعمل بالجوارح، وذلك أنه ليس بين أهل العلم خلاف في رجل لو قال: أشهد أن الله عَزَّ وَجَلَّ واحد، وأن ما جاءت به الرسل حق، وأقر بجميع الشرائع، ثم قال: ما عقد قلبي على شيء من هذا ولا أصدق به أنه ليس بمسلم ولو قال: المسيح هو الله، وجحد أمر الإسلام، قال لم يعتقد قلبي على شيء من ذلك أنه كافر بإظهار ذلك وليس بمؤمن، فلما لم يكن بالإقرار إذا لم يكن معه التصديق مؤمنًا ولا بالتصديق إذا لم يكن معه الإقرار مؤمنًا، حتى يكون مصدقًا بقلبه مقرًا بلسانه فإذا كان تصديق بالقلب وإقرار باللسان كان عندهم مؤمنًا وعند بعضهم لا يكون حتى يكون مع التصديق عمل، فيكون بهذه الأشياء إذا اجتمعت مؤمنًا ....اهـ.

ثم رد على من أخرج العمل من الإيمان فالغالب أنه يقصد بالتصديق هنا (قول القلب

=

المسألة الثانية: تعريف الإيمان

الإيمان لغة: مصدر آمن يؤمن إيمانًا فهو مؤمن، وأصل آمن أأمن بهمزتين لينت الثانية، وهو من الأمن ضد الخوف.

قال الراغب في المفردات (ص ٣٥): أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف.

وقال شيخ الإسلام في الصارم المسلول (ص ٥١٩): .. فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والإنقياد.اهـ.

وقد عرف الإيمان في اللغة بعدة تعريفات: فقيل هو التصديق[1]، وقيل هو

=

وعمله) والله أعلم.

يقول ابن تيمية مجموع الفتاوى: وكذلك قول من قال: اعتقاد بالقلب، وقول باللسان وعمل بالجوارح، جعل القول والعمل اسمًا لما يظهر، فاحتاج أن يضم إلى ذلك اعتقاد القلب، ولا بد أن يدخل في قوله: اعتقاد القلب، أعمال القلب المقارنة لتصديقه، مثل حب الله، وخشية الله والتوكل عليه، ونحو ذلك، فإن دخول أعمال القلب في الإيمان أولى من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها.اهـ.

ويقول الإمام ابن القيم في الصلاة وحكم تاركها موضحًا ذلك: ونحن نقول: الإيمان هو التصديق، ولكن ليس التصديق مجرد اعتقاد صدق المخبر دون الانقياد له، ولو كان مجرد اعتقاد التصديق إيمانًا لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود الذين عرفوا أن محمدًا رسول الله ﷺ - كما يعرفون أبناءهم مؤمنين صادقين.

(١) قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ٣٩٧): الإيمان في اللغة هو التصديق الجازم الذي يتبعه عمل يأمن معه المؤمن الغائلة أو العقوبة إلى آخره. وقولنا التصديق الذي معه عمل هذا تحصيل حاصل؛ لأنه إذا كان الشيء يلزم منه العمل فإنه لا يطلق لفظ مصدقا في اللغة على من صدق حتى يعمل، مثاله: أتى شخص وقال لآخر سيارتك الآن تسرق، فقال له الآخر: جزاك الله خيرا، قال: لك فيها أموال ولك فيها

=

الثقة، وقيل هو الطمأنينة، وقيل هو الإقرار.

وقد اختار شيخ الإسلام في تعريف الإيمان اللغوي أنه بمعنى الإقرار، لأنه رأى لفظة أقر أصدق في الدلالة على معنى الإيمان من غيرها من الألفاظ التي فسر بها الإيمان، لأمور وأسباب ذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم إنه ناقش باستفاضة وافية وبتحقيق متين قول من ادعى أن الإيمان مرادف للتصديق، وذكر فروقًا بين التصديق والإيمان تمنع دعوى الترادف بينهما، ثم خلص من ذلك إلى أن أولى تفسير لغوي للإيمان هو الإقرار. الفتاوى (٧/ ٢٩٠ - ٢٩٣) و (٧/ ٥٢٩ - ٥٣٤)[1].

=

أشياء وهي الآن تسرق، قال الآخر: جزاك الله خيرا وجلس ولم يتحرك، فهل يعتبر في اللغة مصدقا؟ إذا كان قد صدق الخبر فإنه لابد أن يتبعه بعمل يدل على صدقه؛ لأن الناس لا يفرطون بأموالهم ولا يفرطون بما فيه قوام حياتهم، فإذا مكث وقال أنا مصدق، وهو ما ذهب، ما أتبعه عمل، فلا يسمى مصدقا في اللغة، ليس في الشرع -فقط-، لا يسمى مصدقا في اللغة -أيضا- ودل على هذا الأصل قول الله عَزَّوَجَلَّ في قصة إبراهيم الخليل مع ابنه إسماعيل في سورة الصافات قال {قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين} [الصافات: ١٠٢-١٠٣]، لاحظ العمل {فلما} و {لما} انتبه لكلمة {لما}، {فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن ياإبراهيم * قد صدقت الرؤيا} [الصافات: ١٠٣-١٠٥]، رؤيا الأنبياء حق، إذا رآها النبي صدق بأنها وحي من الله عَزَّوَجَلَّ لكن متى صار مصدقا بالرؤيا؟ لما امتثل دلالتها {فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن ياإبراهيم * قد صدقت الرؤيا} وهذا تصديق لغوي وهو أيضا تصديق شرعي، إذا فالإيمان في العرف لو أرجعناه إلى التصديق فإن حقيقة التصديق أن يكون معه عمل، فلا يسمى مصدقا من ليس يعمل أصلا فيما صدق به.

(١) الإيمان له في لغة العرب استعمالان:

١ - فتارة يتعدى بنفسه فيكون معناه التأمين أي إعطاء الأمان، وآمنته ضد أخفته، وفي

=

=

الكتاب العزيز: الَّذِي (أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) [قريش: ٤] فالأمن ضد الخوف وفي الحديث الشريف عند مسلم (٢٥٣١) من حديث أبي موسى الأشعري ﵁ مرفوعا (النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت النجوم، أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى الأمة ما توعد).

قال ابن الأثير الأمنة في هذا الحديث جمع أمين، وهو الحافظ وقوله ﷻ: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا [البقرة: ١٢٥] قال أبو إسحاق: أراد ذا أمن فهو آمن وأمن وأمين وفي الكتاب العزيز: وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ [التين: ٣] أي الآمن يعني مكة.

وقوله ﷻ: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ [الدخان: ٥١] أي قد أمنوا فيه الغير واستأمن إليه: دخل في أمانة، وقد أمنه وآمنه وقرئ في سورة براءة: (إنهم لا إيمان لهم) [التوبة: ١٢] أي أنهم إن أجاروا وأمنوا المسلمين لم يفوا وغدروا، والإيمان هاهنا الإجارة والأمنة والأمانة نقيض الخيانة وفي الحديث: (المؤذن مؤتمن) مؤتمن القوم: الذي يثقون فيه ويتخذونه أمينًا حافظًا، تقول: اؤتمن الرجل فهو مؤتمن، يعني أن المؤذن أمين الناس على صلاتهم وصيامهم والمؤمن من أسماء الله تعالى. قيل: في صفة الله الذي أمن الخلق من ظلمه وقيل: المؤمن الذي آمن أولياءه عذابه وقيل: المؤمن الذي يصدق عباده ما وعدهم قال ابن الأثير: (في أسماء الله تعالى المؤمن وهو الذي يصدق عباده وعده فهو من الإيمان التصديق، أو يؤمنهم في القيامة عذابه، فهو من الأمان ضد الخوف).

٢- وتارة يتعدى بالباء أو الكلام فيكون معناه التصديق. وفى التنزيل: (وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) [يوسف: ١٧] أي بمصدق، آمنت بكذا، أي صدقت. والمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر، والأصل في الإيمان الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله عليها، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه فقد أدى الأمانة، وهو مؤمن، ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مؤد للأمانة التي ائتمنه الله عليها، وهو منافق.

قال الزجاج: أما قوله ﷻ: (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا) [الأحزاب: ٧٢] والذي عندي فيه أن الأمانة ههنا النية التي يعتقدها الإنسان فيما يظهره باللسان من

=

=

الإيمان، ويؤديه من جميع الفرائض في الظاهر، لأن الله ﷻ ائتمنه عليها ولم يظهر عليها أحدًا من خلقه، فمن أضمر التوحيد والتصديق مثل ما أظهر فقد أدى الأمانة، ومن أضمر التكذيب، وهو مصدق باللسان في الظاهر فقد حمل الأمانة ولم يؤدها، وقوله ﷻ: (يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) [التوبة: ٦١]، وقال ثعلب: يصدق الله ويصدق المؤمنين. ومنه قوله ﷻ: (قُولُواْ آمَنَّا بِاللهِ) [البقرة: ١٣٦]، و(أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ) [البقرة: ٧٥]، ويفهم من الكلام السابق، أن التصديق كما يكون بالقلب واللسان يكون بالجوارح أيضًا، ومنه قوله ﷺ عند البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا (والفرج يصدق ذلك أو يكذبه).

قال الجوهري: والصديق بوزن السكيت: الدائم التصديق، ويكون الذي يصدق قوله بالعمل. نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف لمحمد بن عبد الله بن علي الوهيبي (١/ ٣١).

ولكن لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى رأي آخر في معنى الإيمان اللغوي، وهو من آرائه السديدة، واختياراته الموفقة؛ حيث اختار معنى (الإقرار) للإيمان. لأنه رأى أن لفظة (أقر) أصدق في الدلالة والبيان على معنى الإيمان الشرعي من غيرها؛ لأمور وأسباب ذكرها ثم ناقشها بالمعقول، ورد بتحقيق علمي رصين قول من ادعى: أن الإيمان مرادف للتصديق، وذكر فروقًا بينهما؛ تمنع دعوى الترادف.

وقال في مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٨): ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار؛ لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد فيما أخبر والانقياد له فيما أمر كما أن الإقرار بالله هو الاعتراف به والعبادة له فالنفاق يقع كثيرا في حق الرسول وهو أكثر ما ذكره الله في القرآن من نفاق المنافقين في حياته والكفر هو عدم الإيمان سواء كان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أو إعراض؛ فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر.اهـ.

وقال رحمه الله أيضا في مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٨): مثال ذلك أن " المرجئة " لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله أخذوا يتكلمون في مسمى " الإيمان " و " الإسلام " وغيرهما بطرق ابتدعوها مثل أن يقولوا: "الإيمان في اللغة " هو التصديق والرسول إنما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها فيكون مراده بالإيمان التصديق؛ ثم قالوا: والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب فالأعمال ليست من الإيمان ثم

=

=

عمدتهم في أن الإيمان هو التصديق قوله: {وما أنت بمؤمن لنا} أي بمصدق لنا . فيقال لهم: "اسم الإيمان " قد تكرر ذكره في القرآن والحديث أكثر من ذكر سائر الألفاظ وهو أصل الدين وبه يخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ ويفرق بين السعداء والأشقياء ومن يوالي ومن يعادي والدين كله تابع لهذا؛ وكل مسلم محتاج إلى معرفة ذلك؛ أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا كله . ووكله إلى هاتين المقدمتين ؟ . ومعلوم أن الشاهد الذي استشهدوا به على أن الإيمان هو التصديق أنه من القرآن . ونقل معنى الإيمان متواتر عن النبي ﷺ أعظم من تواتر لفظ الكلمة فإن الإيمان يحتاج إلى معرفة جميع الأمة فينقلونه بخلاف كلمة من سورة . فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبنيا على مثل هذه المقدمات ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم وسلكوا السبل وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ومن الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات فهذا كلام عام مطلق . ثم يقال: "هاتان المقدمتان " كلاهما ممنوعة فمن الذي قال: إن لفظ الإيمان مرادف للفظ التصديق ؟ وهب أن المعنى يصح إذا استعمل في هذا الموضع فلم قلت: إنه يوجب الترادف ؟ ولو قلت: ما أنت بمسلم لنا ما أنت بمؤمن لنا صح المعنى لكن لم قلت: إن هذا هو المراد بلفظ مؤمن ؟ وإذا قال الله: {وأقيموا الصلاة} . ولو قال القائل: أتموا الصلاة ولازموا الصلاة التزموا الصلاة افعلوا الصلاة كان المعنى صحيحا . لكن لا يدل هذا على معنى: أقيموا . فكون اللفظ يرادف اللفظ؛ يراد دلالته على ذلك . ثم يقال: ليس هو مرادفا له وذلك من وجوه: (أحدها: أن يقال للمخبر إذا صدقته: صدقه ولا يقال: آمنه وآمن به . بل يقال: آمن له كما قال: {فآمن له لوط} وقال: {فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه} وقال فرعون: {آمنتم له قبل أن آذن لكم} وقالوا لنوح: {أنؤمن لك واتبعك الأرذلون} وقال تعالى: {قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين} . فقالوا: {أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون} وقال: {وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون} . فإن قيل: فقد يقال: ما أنت بمصدق لنا . قيل: اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه إذا ضعف عمله إما بتأخيره أو بكونه اسم فاعل أو مصدرا أو باجتماعهما فيقال: فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه ثم إذا ذكر باسم الفاعل قيل: هو عابد لربه متق لربه خائف لربه وكذلك تقول: فلان يرهب الله ثم تقول: هو راهب لربه وإذا ذكرت الفعل وأخرته تقويه باللام كقوله: {وفي نسختها هدى ورحمة

=

=

للذين هم لربهم يرهبون} وقد قال: {فإياي فارهبون} فعداه بنفسه وهناك ذكر اللام فإن هنا قوله: {فإياي} أتم من قوله: فلي . وقوله هنالك {لربهم} أتم من قوله: ربهم فإن الضمير المنفصل المنصوب أكمل من ضمير الجر بالياء وهناك اسم ظاهر فتقويته باللام أولى وأتم من تجريده؛ ومن هذا قوله: {إن كنتم للرؤيا تعبرون} ويقال: عبرت رؤياه وكذلك قوله: {وإنهم لنا لغائظون} وإنما يقال: غظته لا يقال: غظت له ومثله كثير فيقول القائل: ما أنت بمصدق لنا أدخل فيه اللام لكونه اسم فاعل وإلا فإنما يقال: صدقته لا يقال: صدقت له ولو ذكروا الفعل لقالوا: ما صدقتنا وهذا بخلاف لفظ الإيمان فإنه تعدى إلى الضمير باللام دائما؛ لا يقال: آمنته قط وإنما يقال: آمنت له كما يقال: أقررت له فكان تفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق مع أن بينهما فرقا . (الثاني: أنه ليس مرادفا للفظ التصديق في المعنى فإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة: صدقت كما يقال: كذبت . فمن قال: السماء فوقنا قيل له: صدق كما يقال: كذب وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب لم يوجد في الكلام أن من أخبر عن مشاهدة؛ كقوله: طلعت الشمس وغربت أنه يقال: آمناه كما يقال: صدقناه ولهذا؛ المحدثون والشهود ونحوهم؛ يقال: صدقناهم؛ وما يقال آمنا لهم؛ فإن الإيمان مشتق من الأمن . فإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر؛ ولهذا لم يوجد قط في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في هذا النوع؛ والاثنان إذا اشتركا في معرفة الشيء يقال: صدق أحدهما صاحبه ولا يقال: آمن له لأنه لم يكن غائبا عنه ائتمنه عليه ولهذا قال: {فآمن له لوط} {أنؤمن لبشرين مثلنا} . {آمنتم له} . {يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين} فيصدقهم فيما أخبروا به . مما غاب عنه وهو مأمون عنده على ذلك فاللفظ متضمن معنى التصديق ومعنى الائتمان والأمانة؛ كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق ولهذا قالوا: {وما أنت بمؤمن لنا} أي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا صادقين؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك . فلو صدقوا لم يأمن لهم . (الثالث: أن لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق فإنه من المعلوم في اللغة أن كل مخبر يقال له: صدقت أو كذبت ويقال: صدقناه أو كذبناه ولا يقال لكل مخبر: آمنا له أو كذبناه؛ ولا يقال أنت مؤمن له أو مكذب له؛ بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر . يقال: هو مؤمن أو كافر والكفر لا يختص بالتكذيب؛ بل لو قال: أنا أعلم إنك صادق لكن لا أتبعك بل

=

فالمختار أن لفظة آمن لغة بمعنى أقر، والإيمان لغة هو الإقرار القلبي، وهذا الإقرار مشتمل على أمرين:

١- اعتقاد القلب وهو تصديقه بالأخبار.

٢- عمل القلب وهو إذعانه وانقياده للأوامر. هذا من جهة اللغة.

أما شرعًا: فهو كما عرفه المصنف، وهو مجمع عليه بين أهل السنة قال الآجري في الشريعة (ص١١٩): "اعلموا رحمنا الله وإياكم أن الذي عليه علماء

=

أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم؛ فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط بل إذا كان الكفر يكون تكذيبا ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعا بلا تكذيب؛ فلا بد أن يكون الإيمان تصديقا مع موافقة وموالاة وانقياد لا يكفي مجرد التصديق؛ فيكون الإسلام جزء مسمى الإيمان كما كان الامتناع من الانقياد مع التصديق جزء مسمى الكفر فيجب أن يكون كل مؤمن مسلما منقادا للأمر وهذا هو العمل فإن قيل: فالرسول ﷺ فسر الإيمان بما يؤمن به . قيل: فالرسول ذكر ما يؤمن به لم يذكر ما يؤمن له وهو نفسه يجب أن يؤمن به ويؤمن له فالإيمان به من حيث ثبوته غيب عنا أخبرنا به وليس كل غيب آمنا به علينا أن نطيعه وأما ما يجب من الإيمان له فهو الذي يوجب طاعته والرسول يجب الإيمان به وله فينبغي أن يعرف هذا وأيضا فإن طاعته طاعة لله وطاعة الله من تمام الإيمان به .. إلى آخر كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال العلامة العثيمين في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٢٢٩): أكثر أهل العلم يقولون: إن الإيمان في اللغة: التصديق، ولكن في هذا نظر! لأن الكلمة إذا كانت بمعنى الكلمة؛ فإنها تتعدى بتعديها، ومعلوم أن التصديق يتعدى بنفسه، والإيمان لا يتعدى بنفسه؛ فنقول مثلًا: صدقته، ولا تقول آمنته! بل تقول: آمنت به، أو آمنت له، فلا يمكن أن نفسر فعلًا لازمًا لا يتعدى إلا بحرف الجر بفعل متعد ينصب المفعول به بنفسه، ثم إن كلمة (صدقت) لا تعطي معنى كلمة (آمنت) فإن (آمنت) تدل على طمأنينة بخبره أكثر من (صدقت) ولهذا؛ لو فسر (الإيمان) بـ (الإقرار) لكان أجود؛ فنقول: الإيمان: الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق، فتقول أقر به، كما تقول: آمن به، وأقر له كما تقول: آمن له.

المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح. ثم اعلموا أنه لا تجزىء المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقًا، ولا تجزىء معرفة القلب ونطق اللسان حتى يكون عمل بالجوارح، فإذا كملت فيه هذه الثلاث الخصال كان مؤمنًا، دل على ذلك الكتاب والسنة وقول علماء المسلمين.اهـ.

فالإيمان شرعا هو التصديق الجازم، والإقرار الكامل، والاعتراف التام؛ بوجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه وحده العبادة، واطمئنان القلب بذلك اطمئنانًا تُرى آثاره في سلوك الإنسان، والتزامه بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، وأن محمد بن عبد الله ﷺ رسول الله، وخاتم النبيين، وقبول جميع ما أخبر به ﷺ عن ربه جل وعلا وعن دين الإسلام؛ من الأمور الغيبية، والأحكام الشرعية، وبجميع مفردات الدين، والانقياد له ﷺ بالطاعة المطلقة فيما أمر به، والكف عما نهى عنه ﷺ وزجر؛ ظاهرًا وباطنًا، وإظهار الخضوع والطمأنينة لكل ذلك.

وملخصه: (هو جميع الطاعات الباطنة والظاهرة) الباطنة: كأعمال القلب، وهي تصديق القلب وإقراره، الظاهرة: أفعال البدن من الواجبات والمندوبات.

ويجب أن يتبع ذلك كله: قول اللسان، وعمل الجوارح والأركان، ولا يجزئ واحد من الثلاث إلا بالآخر؛ لأن أعمال الجوارح داخلة في مسمى الإيمان، وجزء منه.

فمسمى الإيمان عند أهل السنة والجماعة؛ كما أجمع عليه أئمتهم وعلماؤهم، هو: (تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان؛ يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية)

خلاصة ما سبق من حقيقة الإيمان الشرعي أنها مركبة من قول وعمل، والقول قسمان: قول القلب، وهو الاعتقاد، وقول اللسان، وهو التكلم بكلمة الإسلام.

والعمل قسمان: عمل القلب: وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح.

وقد خالف أهل السنة في تعريف الإيمان فرقتان: المرجئة والوعيدية.

أولا: المرجئة: المرجئة: وصف أطلق على كل من آخر العمل عن الإيمان ولم يدخله في مسماه. وكلمة المرجئة مشتقة من الإرجاء وهو على معنيين:

المعنى الأول: الإرجاء بمعنى التأخير، والمعنى الثاني: الإرجاء بمعنى إعطاء الرجاء، ويصدق هذا الوصف على المرجئة بكلا المعنيين، لأنهم أخروا العمل عن الإيمان، كما أنهم يعطون الرجاء للفاسق، وفي هذا الأخير يتفق من لم يكن غاليا منهم مع السلف الذين يقولون إن الفاسق تحت المشيئة.

والمرجئة عموما أخرجوا العمل عن مسمى الإيمان ولهم في تعريف الإيمان أقوال هي:

١ - الجهمية: أتباع الجهم بن صفوان ومن وافقهم من القدرية وغيرهم الذي كان يزعم أن الإيمان هو معرفة القلب، وأنه لا يتبعض ولا يتفاضل فيه أهله، فالإيمان عندهم هو المعرفة بالله، والكفر الجهل به، وفساد هذا القول بيِّن ظاهر جدًا، فإن لازم هذا القول أن يكون إبليس وفرعون وغيرهما من رءوس الضلال مؤمنين كاملي الإيمان[1].

---

(١) ذهب جهم ومن وافقه إلى أن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط، وأن قول اللسان وعمل القلب والجوارح ليس من الإيمان، وأن الإيمان شيء واحد لا يتفاضل ولا يستثنى منه.

وهذا أفسد قول قيل في الإيمان، ولهذا كفر أحمد ووكيع وغيرهما من قال بذلك.

=

=

قال الأشعري في المقالات (١/ ٢١٤): اختلفت المرجئة في الإيمان ما هو؟ وهم اثنتا عشرة فرقة: فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن الإيمان بالله هو المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاء من عند الله فقط، وأن ما سوى المعرفة من الإقرار باللسان والخضوع بالقلب والمحبة لله ولرسوله والتعظيم لهما والخوف منهما والعمل بالجوارح فليس بإيمان، وزعموا أن الكفر بالله هو الجهل به، وهذا قول يحكى عن جهم بن صفوان.اهـ.
وقال الشهرستاني في الملل والنحل (١/ ٧٤) في بيان أقوال جهم: ومنها قوله: من أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده؛ لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد، فهو مؤمن. قال: والإيمان لا يتبعض، أي لا ينقسم إلى عقد وقول وعمل. قال: ولا يتفاضل أهله فيه، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد؛ إذ المعارف لا تتفاضل. وكان السلف كلهم من أشد الرادين عليه، ونسبته إلى التعطيل المحض.اهـ.
وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٩) بعد نقل كلام الأشعري عن فرق المرجئة: فهذه الأقوال التي ذكرها الأشعري عن المرجئة يتضمن أكثرها أنه لابد في الإيمان من بعض أعمال القلوب عندهم، وإنما نازع في ذلك فرقة يسيرة كجهم والصالحي.اهـ.
وقال أيضا في مجموع الفتاوى (٧/ ٣٠٧): ولابد أن يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله، وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس إيمانا البتة، بل هو كتصديق فرعون واليهود وإبليس، وهذا هو الذي أنكره السلف على الجهمية. قال الحميدى: سمعت وكيعا يقول: أهل السنة يقولون: الإيمان قول وعمل، والمرجئة يقولون: الإيمان قول، والجهمية يقولون: الإيمان المعرفة. وفى رواية أخرى عنه: وهذا كفر. قال محمد بن عمر الكلابي: سمعت وكيعا يقول: الجهمية شر من القدرية. قال: وقال وكيع: المرجئة الذين يقولون الإقرار يجزئ عن العمل، ومن قال هذا فقد هلك، ومن قال: النية تجزئ عن العمل فهو كفر، وهو قول جهم، وكذلك قال أحمد بن حنبل.اهـ.
وقال في مجموع الفتاوى (٧/ ١٢٠): بل قد كفر أحمد بن حنبل ووكيع وغيرهما من قال بقول جهم في الإيمان.اهـ.
وقال مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٧): وأما جهم فكان يقول: إن الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتكلم به، وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأمة وأئمتها، بل

=

=

أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول، ولكن هو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه، ولكن قالوا مع ذلك: إن كل من حكم الشرع بكفره حكمنا بكفره واستدللنا بتكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة.اهـ.

ويلاحظ هنا أن شيخ الإسلام يسوي بين القول بأن الإيمان هو المعرفة، والقول بأنه مجرد التصديق، وقد قال مجموع الفتاوى (٧/ ٣٩٨ -٤٠٠) في بيان ذلك: وأيضا فإن الفرق بين معرفة القلب وبين مجرد تصديق القلب الخالي عن الانقياد الذي يُجعل قول القلب، أمرٌ دقيق، وأكثر العقلاء ينكرونه. وبتقدير صحته، لا يجب على كل أحد أن يوجب شيئين لا يتصور الفرق بينهما، وأكثر الناس لا يتصورون الفرق بين معرفة القلب وتصديقه، ويقولون: إن ما قاله ابن كلاب والأشعري من الفرق كلام باطل لا حقيقة له، وكثير من أصحابه اعترف بعدم الفرق... إلى أن قال: (والمقصود هنا أن الإنسان إذا رجع إلى نفسه عسُر عليه التفريق بين علمه بأن الرسول صادق، وبين تصديق قلبه تصديقا مجردا عن انقياد وغيره من أعمال القلب بأنه صادق.اهـ.

والحاصل أن جهما ومن وافقه يرون أن الإيمان هو مجرد المعرفة أو التصديق، وأن ذلك ينفع صاحبه ولو لم يتكلم قط بالإسلام، ولا فعل شيئا من واجباته. ومع ذلك فقد التزم جهم بتكفير من كفره الشرع كإبليس وفرعون، زاعما أنه لم يكن في قلبيهما شيء من المعرفة بالله.

ولاشك أن إلزام الجهمية بالقول بإيمان إبليس وفرعون لوجود التصديق منهما- كما سيأتي- إلزام لا محيد لهم عنه، ولهذا اضطربوا في الجواب عنه.

قال الإمام ابن القيم مفتاح دار السعادة (١/ ٩٤): ومن قال إن الإيمان هو مجرد اعتقاد صدق الرسول فيما جاء به وإن لم يلتزم متابعته، وعاداه وأبغضه، وقاتله، لزمه أن يكون هؤلاء كلهم مؤمنين، وهذا إلزام لا محيد عنه، ولهذا اضطرب هؤلاء في الجواب عن ذلك لما وَرد عليهم، وأجابوا بما يستحي العاقل من قوله، كقول بعضهم: إن إبليس كان مستهزئا ولم يكن يقر بوجود الله ولا بأن الله ربه وخالقه، ولم يكن يعرف ذلك، وكذلك فرعون وقومه لم يكونوا يعرفون صحة نبوة موسى، ولا يعتقدون وجود الصانع، وهذه فضائح نعوذ بالله من الوقوع في أمثالها، ونصرة المقالات وتقليد أربابها تحمل على أكثر من هذا، ونعوذ بالله من الخذلان.اهـ.

وقد دلت الأدلة على أن إبليس كان عارفا بالله، مصدقا بربوبيته، وكذلك كان فرعون،
=

٢- الأشاعرة قالوا إن الإيمان هو تصديق القلب فقط، وربما جنح متكلموهم فيه إلى قول الجهمية بأنه معرفة القلب، ومنهم من قال إنه لا يزيد ولا ينقص كالباقلاني والجويني والرازي وعليه أكثر الماتريدية، ومنهم من قال: إن التصديق القلبي يقبل الزيادة والنقصان من حيث القوة والضعف لوضوح الأدلة والبراهين عليه وقال بهذا الأيجي والغزالي[1].

=

كما قال سبحانه عن إبليس: (قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [الحجر: ٣٩]، وقال: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ).

وقال عن فرعون وقومه: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) [النمل: ١٤]، وقال حاكيًا قول موسى ﷺ لفرعون: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا) [الإسراء: ١٠٢]، فدل هذا على أن إبليس وفرعون كانا مصدقين، وأن الكفر لا يختص بالتكذيب، أو الجهل، كما زعم جهم ومن وافقه. الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل وكشف شبهات المعاصرين لمحمد بن محمود آل خضير (١/ ١٩٩).

(١) أما أبو الحسن الأشعري - إمام الطائفة - فقد اشتهر عنه القولان: موافقة السلف، وموافقة جهم. فقد نصر قول السلف في كتابيه: مقالات الإسلاميين، والإبانة. قال في حكاية ما عليه أصحاب الحديث وأهل السنة في مقالات الإسلاميين (١/ ٣٤٧-٣٥٠): ويقرون بأن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ولا يقولون: مخلوق، ولا غير مخلوق ... ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار، ولا يحكمون بالجنة لأحد من الموحدين حتى يكون الله سبحانه ينزلهم حيث شاء. ويقولون: أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم. ويؤمنون بأن الله سبحانه يخرج قوما من الموحدين من النار، على ما جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ.... ثم قال: هذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه. وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وبه نستعين، وعليه نتوكل، وإليه المصير.اهـ.

وقال في الإبانة (ص٥٢، ٥٩): فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي

=

=
بها تدينون. قيل له: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب الله ربنا وبسنة نبينا محمد ﷺ وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم، وجليل معظم، وكبير مفهم، وجملة قولنا أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاءوا به من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا نرد من ذلك شيئا) ثم سرد جملة من الاعتقاد، ثم قال: (وأن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ونسلّم الروايات الصحيحة في ذلك عن رسول الله ﷺ، التي رواها الثقات عدل عن عدل حتى تنتهي الرواية إلى رسول الله ﷺ... وقال: ونقول: إن الإسلام أوسع من الإيمان، وليس كل إسلام إيمانا.اهـ.

فهذا قوله الموافق لأهل السنة، وأما قوله الآخر، فقد سبقت حكايته في قول شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٤): وقد ذكر الأشعري في كتابه الموجز قول الصالحي هذا وغيره ثم قال: والذي أختاره في الأسماء قول الصالحي.اهـ.

وقال أبو المعين النسفي في تبصرة الأدلة (٢/ ٧٩٩) بعد نقل مذهب الصالحي: وقد قال الأشعري في بعض كتبه: إن الذي أختاره في الإيمان هو ما ذهب إليه الصالحي.اهـ.

وقول الصالحي على ما حكاه الأشعري في المقالات (١/ ٢١٤): أن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، والكفر هو الجهل به فقط، فلا إيمان بالله إلا المعرفة به، ولا كفر بالله إلا الجهل به، وأن قول القائل: إن الله ثالث ثلاثة ليس بكفر، ولكنه لا يظهر إلا من كافر، وذلك أن الله سبحانه أكفر من قال ذلك، وأجمع المسلمون أنه لا يقوله إلا كافر. وزعموا أن معرفة الله هي المحبة له وهي الخضوع لله ... والإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص، وهو خصلة واحدة، وكذلك الكفر. والقائل بهذا القول أبو الحسين الصالحي.اهـ.

وقد نص شيخ الإسلام في مواضع من كتبه على أن الأشعري نصر قول جهم في الإيمان، ومن ذلك قوله في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٨٢): وبهذا وغيره يتبين فساد قول جهم والصالحي ومن اتبعهما في الإيمان كالأشعري في أشهر قوليه، وأكثر أصحابه، وطائفة
=

=

من متأخري أصحاب أبي حنيفة، كالماتريدي ونحوه، حيث جعلوه مجرد تصديق في القلب، يتساوى فيه العباد، وأنه إما أن يُعدم وإما أن يوجد، لا يتبعض، وأنه يمكن وجود الإيمان تاما في القلب مع وجود التكلم بالكفر والسب لله ورسوله طوعا من غير إكراه، وأن ما عُلم من الأقوال الظاهرة أن صاحبه كافر فلأن ذلك مستلزم عدم ذلك التصديق الذي في القلب ... وأن الأعمال الصالحة الظاهرة ليست لازمة للإيمان الباطن الذي في القلب، بل يوجد إيمان القلب تاما بدونها، فإن هذا القول فيه خطأ من وجوه ....اهـ.

وقوله في مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٥): والمرجئة ثلاثة أصناف: الذين يقولون: الإيمان مجرد ما في القلب، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة، كما قد ذكر أبو الحسن الأشعري أقوالهم في كتابه، وذكر فرقا كثيرة يطول ذكرهم، لكن ذكرنا جمل أقوالهم. ومنهم من لا يدخلها في الإيمان كجهم ومن اتبعه كالصالحي، وهذا الذي نصره هو وأكثر أصحابه.

والقول الثاني: من يقول: هو مجرد قول اللسان، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية.

والثالث: تصديق القلب وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم).اهـ.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ١٢٠): وأبو الحسن الأشعري نصر قول جهم في الإيمان، مع أنه نصر المشهور عن أهل السنة من أنه يُستثنى في الإيمان، فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأنه نصر مذهب أهل السنة في أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة، ولا يخلدون في النار، وتقبل فيهم الشفاعة ونحو ذلك.

وهو دائما ينصر في المسائل التي فيها النزاع بين أهل الحديث وغيرهم قولَ أهل الحديث، لكنه لم يكن خبيرا بمآخذهم، فينصره على ما يراه هو من الأصول التي تلقاها عن غيرهم، فيقع في ذلك من التناقض ما ينكره هؤلاء وهؤلاء، كما فعل في مسألة الإيمان، ونصر فيها قول جهم مع نصرِه للاستثناء، ولهذا خالفه كثير من أصحابه في الاستثناء، كما سنذكر مأخذه في ذلك، واتبعه أكثر أصحابه على نصر قول جهم في ذلك.

ومن لم يقف إلا على كتب الكلام ولم يعرف ما قاله السلف وأئمة السنة في هذا الباب، فيظن أن ما ذكروه هو قول أهل السنة، وهو قول لم يقله أحد من أئمة السنة، بل قد كفر أحمد بن حنبل ووكيع وغيرهما من قال بقول جهم في الإيمان الذي نصره أبو الحسن، وهو عندهم شر من قول المرجئة.اهـ.

=

=

وقال أيضا في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٩): وقال أبو عبدالله الصالحي: إن الإيمان مجرد تصديق القلب ومعرفته، لكن له لوازم، فإذا ذهبت دل ذلك على عدم تصديق القلب، وإن كل قول أو عمل ظاهر دل الشرع على أنه كفر، كان ذلك لأنه دليل على عدم تصديق القلب ومعرفته، وليس الكفر إلا تلك الخصلة الواحدة، وليس الإيمان إلا مجرد التصديق الذي في القلب والمعرفة.

وهذا أشهر قولي أبى الحسن الأشعري، وعليه أصحابه كالقاضي أبي بكر وأبي المعالي وأمثالهما، ولهذا عدَّهم أهل المقالات من المرجئة.

والقول الآخر عنه كقول السلف وأهل الحديث: إن الإيمان قول وعمل، وهو اختيار طائفة من أصحابه، ومع هذا فهو وجمهور أصحابه على قول أهل الحديث في الاستثناء في الإيمان. والإيمان المطلق عنده ما يحصل به الموافاة، والاستثناء عنده يعود إلى ذلك، لا إلى الكمال والنقصان والحال.اهـ.

قلت: وممن عد الأشاعرة من المرجئة: ابن حزم في الفصل (٣/ ٢٢٧).

ونقل الشهرستاني في الملل والنحل (١/ ٨٨) عن الأشعري قوله: الإيمان هو التصديق بالجنان. وأما القول باللسان والعمل بالأركان ففروعه، فمن صدق بالقلب، أي أقر بوحدانية الله تعالى، واعترف بالرسل تصديقا لهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى بالقلب، صح إيمانه، حتى لو مات عليه في الحال كان مؤمنا ناجيا، ولا يخرج من الإيمان إلا بإنكار شيء من ذلك.

(فرع): ثمة طائفة من الأشاعرة وافقت السلف في الإيمان، كأبي علي الثقفي، وأبي العباس القلانسي. قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ١١٩): فأما أبو العباس القلانسي وأبو على الثقفي وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ القاضي أبي بكر وصاحب أبي الحسن، فإنهم نصروا مذهب السلف، وابن كلاب نفسه، والحسين بن الفضل البجلي ونحوهما، كانوا يقولون: هو التصديق والقول جميعًا، موافقة لمن قاله من فقهاء الكوفيين، كحماد بن أبى سليمان ومن اتبعه مثل أبى حنيفة وغيره.

وقال في مجموع الفتاوى (٧/ ١٤٣): قال أبو القاسم الأنصاري شيخ الشهرستاني في شرح الإرشاد لأبي المعالي، بعد أن ذكر قول أصحابه، قال: وذهب أهل الأثر إلى أن الإيمان جميع الطاعات، فرضها ونفلها، وعبروا عنه بأنه إتيان ما أمر الله به فرضا ونفلا، والانتهاء عما نهى عنه تحريما وأدبا، قال: وبهذا كان يقول أبو علي الثقفي من متقدمي

=

=

أصحابنا، وأبو العباس القلانسي، وقد مال إلى هذا المذهب أبو عبد الله بن مجاهد. قال: وهذا قول مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ومعظم أئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين.اهـ.

وقال ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (١/ ١٣٠): وإلى مذهب السلف ذهب الإمام الشافعي ومالك وأحمد والبخاري وطوائف من أئمة المتقدمين والمتأخرين. ومن الأشاعرة: الشيخ أبو العباس القلانسي، ومن محققيهم الأستاذ أبو منصور البغدادي، والأستاذ أبو القاسم القشيري، وهؤلاء يصرحون بزيادة الإيمان ونقصانه ....اهـ.

القول المعتمد عند الأشاعرة: وأعني بذلك ما استقر عليه المذهب الأشعري، ودوَّنه المتأخرون في كتبهم، مما أصبح يدرَّس في كثير من الجامعات والمعاهد، بغض النظر عن رأي الأشعري، أو المتقدمين من أصحابه.

وحاصل ما ذهبوا إليه: أن الإيمان هو التصديق بالقلب، وأن قول اللسان شرط لإجراء الأحكام في الدنيا، وأن عمل الجوارح شرط كمال في الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وهذه بعض النقولات التي توضح مذهبهم:

قال الجرجاني في شرح المواقف (٨/ ٣٥١): المقصد الأول في حقيقة الإيمان: اعلم أن الإيمان في اللغة) هو (التصديق) مطلقا (قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف: وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا [يوسف: ١٧] أي بمصدق فيما حدثناك به، وقال عليه الصلاة والسلام: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ» أي تصدق)، ويقال: فلان يؤمن بكذا، أي يصدقه ويعترف به. (وأما في الشرع وهو متعلق ما ذكرنا من الأحكام) يعني الثواب على التفاصيل المذكورة (فهو عندنا) يعني أتباع الشيخ أبي الحسن (وعليه أكثر الأئمة كالقاضي والأستاذ) ووافقهم على ذلك الصالحي وابن الراوندي من المعتزلة (التصديق للرسول فيما علم مجيئه به ضرورة، تفصيلا فيما علم تفصيلا وإجمالا فيما علم إجمالا) فهو في الشرع تصديق خاص (وقيل:) الإيمان (هو المعرفة تقوم بالله) وهو مذهب جهم بن صفوان) انتهى.

وقال الشيخ إبراهيم اللقاني في جوهرة التوحيدإتحاف المريد (ص٨٩، ٩٢):

وفُسِّر الإيمان بالتصديقِ والنطقُ فيه الخُلْفُ بالتحقيقِ

=

=

فقيل شرط كالعملْ وقيل بل شطرٌ والإسلام اشرحنَّ بالعملْ
مثال هذا الحج والصلاةُ كذا الصيام فادْرِ والزكاةُ
ورُجِّحت زيادةُ الإيمانِ بما تزيدُ طاعةُ الإنسانِ
ونقصُه بنقصِهِ وقيلَ لا وقِيل لا خُلْفَ كذا قَد نُقِلا

وقال ابنه الشيخ عبد السلام في شرحه المسمى بإتحاف المريد: (وفُسِّر الإيمان) أي حدَّه جمهور الأشاعرة والماتريدية وغيرهم (بالتصديق) المعهود شرعا، وهو تصديق نبينا محمد ﷺ في كل ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة، أي فيما اشتهر بين أهل الإسلام وصار العلم به يشابه العلم الحاصل بالضرورة، بحيث يعلمه العامة من غير افتقار إلى نظر واستدلال، وإن كان في أصله نظريا، كوحدة الصانع، ووجوب الصلاة ونحوها، ويكفي الإجمال فيما يلاحظ إجمالا كالإيمان بغالب الأنبياء والملائكة، ولابد من التفصيل فيما يلاحظ كذلك، وهو أكمل من الأول، كالإيمان بجمع من الأنبياء والملائكة كآدم ومحمد وجبريل عليهم الصلاة والسلام، فلو لم يصدق بوجوب الصلاة ونحوها عند السؤال عنه يكون كافرا ... وبيَّنَ أن الخلاف في النطق بالشهادتين هو في حق المتمكن القادر، أما العاجز كالأخرس ومن اخترمته المنية قبل النطق من غير تراخ، فهو مؤمن ناج. ثم قال: (فقال محققو الأشاعرة والماتريدية وغيرهم: النطق من القادر (شرط) في إجراء أحكام المؤمنين الدنيوية عليه لتناط به تلك الأحكام، هذا فهم الجمهور، وعليه فمن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه لا لعذر منعه ولا لإباء، بل اتفق له ذلك فهو مؤمن عند الله غير مؤمن في أحكام الشرع الدنيوية. ومن أقر بلسانه ولم يصدق بقلبه كالمنافق، فبالعكس، حتى نطّلع على باطنه فنحكم بكفره.

أما الآبي فكافر في الدارين، والمعذور مؤمن فيهما.

وقيل إنه شرط في صحة الإيمان، وهو فهْمُ الأقل، والنصوص معاضدة لهذا المذهب كقوله تعالى: أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ [المجادلة: ٢٢] وقوله عليه الصلاة والسلام: (اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ).اهـ.

والمعتمد عندهم هو القول الأول، أي أن قول اللسان شرط لإجراء الأحكام الدنيوية، كما صرح بذلك الصاوي والبيجوري وابن الأمير كما في شرح الصاوي على الجوهرة (ص١٣٢)، وشرح البيجوري (ص٤٥)، وحاشية ابن الأمير على إتحاف المريد

=

=
(ص٩٢)، وشرح أم البراهين لأحمد عيسى الأنصاري (ص٨٣).
(تنبيه): قول الأشاعرة السابق عن الآبي، وكفره في الدارين، يدل على خطأ من ألزمهم القول بإيمان أبي طالب؛ لأنه مصدق. قال البيجوري في تحفة المريد (ص٤٥): وأما الآبي بأن طُلب منه النطق بالشهادتين، فأبى، فهو كافر فيهما، ولو أذعن في قلبه، فلا ينفعه ذلك ولو في الآخرة.اهـ.
وقد سبق -عن أهل السنة- أن من لم ينطق بالشهادتين مع القدرة وعدم المانع فهو كافر ظاهرا وباطنا. فقول اللسان ركن في حقيقة الإيمان- وليس شرطا لإجراء الأحكام في الدنيا فقط- بل لا يُتصور وجود الإيمان بدونه إلا في حال العذر كالخرس، فتقوم الإشارة مكانه. وأما الخوف فليس مانعا من النطق به؛ إذ لا يشق النطق به سرا.
وبالجملة فحيث قام الإيمان بالقلب امتنع ألا يتكلم بالشهادتين مع القدرة، ولا عبرة في هذا بقول جهم ولا من وافقه.
وأما عمل الجوارح: فهو شرط كمال الإيمان عند الأشاعرة.
قال في إتحاف المريد(ص٩٢): وقوله: (كالعمل): تشبيه في مطلق الشرطية، يعني أن المختار عند أهل السنة في الأعمال الصالحة أنها شرط كمال للإيمان، فالتارك لها أو لبعضها من غير استحلال ولا عناد ولا شك في مشروعيتها مؤمن فوَّت على نفسه الكمال، والآتي بها ممتثلا محصل لأكمل الخصال.اهـ.
وقال الصاوي في شرحه على الجوهرة (ص١٣٢): لأن المختار عند أهل السنة -يعني الأشاعرة- أن الأعمال الصالحة شرط كمال للإيمان.
(فرع): الفرق بين تصديق الأشاعرة ومعرفة جهم.
سبق أن شيخ الإسلام ينسب إلى جهم أن الإيمان هو المعرفة، أو التصديق، ويقرر أن الفرق بين معرفة القلب وبين مجرد التصديق الخالي من الانقياد، أمر دقيق، وأكثر العقلاء ينكرونه.
كما أنه نسب إلى الأشعري في أحد قوليه، وإلى أكثر أصحابه أنهم نصروا قول جهم في الإيمان، وسمى من هؤلاء: الباقلاني، والجويني، والرازي.
لكن هل ينطبق هذا على متأخري الأشاعرة؟ وهل يثبتون تصديقا مجردا من أعمال القلوب؟
والحق أن الناظر في كتب هؤلاء المتأخرين يتبين له أنهم لا يثبتون تصديقا مجردا عن
=

=

أعمال القلوب، بل يدخلون في التصديق: الإذعان والانقياد والقبول والرضى، ويفرقون بينه وبين المعرفة التي أثبتها جهم، كما أنهم يقررون كفر كثير من المشركين وأهل الكتاب الذين كانوا يعرفون الحق ولا ينقادون له.

ومن أقوالهم في تعريف التصديق:

قال في إتحاف المريد (ص٨٧ – ٩١): وهو تصديق نبينا محمد ﷺ في كل ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة ... والمراد من تصديقه ﷺ: قبول ما جاء به مع الرضا بترك التكبر والعناد، وبناء الأعمال عليه، لا مجرد وقوع نسبة الصدق إليه في القلب من غير إذعان وقبول له، حتى يلزم الحكم بإيمان كثير من الكفار الذين كانوا عالمين بحقيقة نبوته عليه الصلاة والسلام وما جاء به، لأنهم لم يكونوا أذعنوا لذلك ولا قبلوه ولا بنوا الأعمال الصالحة عليه، بحيث صار يطلق عليه اسم التسليم كما هو مدلوله الوضعي.اهـ..

وقال البيجوري في شرحه (ص٤٣): والمراد بتصديق النبي في ذلك: الإذعان لما جاء به والقبول له، وليس المراد وقوع نسبة الصدق إليه في القلب من غير إذعان وقبول له حتى يلزم الحكم بإيمان كثير من الكفار الذين كانوا يعرفون حقيقة نبوته ورسالته ﷺ، مصداق ذلك قوله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ} [البقرة: ١٤٦] قال عبد الله بن سلام: لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ومعرفتي لمحمد أشد.اهـ.

وقال الدردير في شرحه على الخريدة (ص٧٢): والمراد من تصديقه عليه الصلاة والسلام: الإذعان والقبول لما جاء به بحيث يقع عليه اسم التسليم من غير تكبر وعناد، لا مجرد وقوع نسبة الصدق إليه في القلب من غير إذعان وقبول حتى يلزم الحكم بإيمان كثير من الكفار الذين كانوا عالمين بحقيقة نبوته عليه الصلاة والسلام وما جاء به؛ لأنهم لم يكونوا أذعنوا لذلك ولا قبلوه بحيث يطلق عليه اسم التسليم. وعلى هذا فالإيمان الشرعي هو حديث النفس التابع للمعرفة، أي الإدراك الجازم، بناء على الصحيح من أن إيمان المقلد صحيح. فالإذعان والقبول والتصديق والتسليم عبارات عن شيء واحد، وهو حديث النفس المذكور، فيكون الإيمان فعلا من أفعال النفس، وليس من قبيل العلوم والمعارف، ويظهر من كلام بعضهم أنه الراجح) ثم ذكر ما ذهب إليه التفتازاني وكثير من المحققين من أن التصديق هو نفس الإدراك، فيكون من قبيل العلوم

=

=

والمعارف.اهـ.

وفي حاشية السيالكوتي على شرح المواقف (٨/ ٣٥٢) بعد أن ذكر أن التصديق كسبي اختياري، قال: (والإيمان الشرعي يجب أن يكون من الأول، فإن النبي ﷺ إذا ادعى النبوة وأظهر المعجزة فوقع صدقه في قلب أحد ضرورة من غير أن ينسب إليه اختيار، لا يقال في اللغة: إنه صدقه، فلا يكون إيمانا شرعيا، كذا في شرح المقاصد. وفيه بحث، فإن من حصل له تصديق بلا اختيار إذا التزم العمل بموجبه يكون إيمانا اتفاقا، ولو صدق النبي ﷺ بالنظر في معجزاته اختيارا، ولم يلتزم عمل بموجبه، بل عانده فهو كافر اتفاقا. فعلم أن المعتبر في الإيمان الشرعي هو اختيار في التزام موجب التصديق لا في نفسه، وهذا هو التسليم الذي اعتبره بعض الفضلاء أمرا زائدا على التصديق فليتأمل.اهـ.

والحاصل أن الأشاعرة يشترطون في الإيمان: الإذعان والانقياد والقبول وترك العناد والتكبر، لكنهم يجعلون ذلك نفس (التصديق)، ثم يتكلفون في إيجاد الفرق بين (المعرفة) و (التصديق) ولو قالوا: إن التصديق يجب أن يصحبه إذعان وانقياد وقبول، لسهل الأمر، لكنهم يعلمون أن ذلك مبطل لأصلهم الذي بنوا عليه إخراج العمل من الإيمان، وهو الزعم بأن الإيمان لُغوي، وأن الشرع لم يغير معناه الذي هو التصديق، ولم يتصرف فيه، وأن الإيمان شيء واحد، ولهذا لما نقل شيخ الإسلام عن بعضهم القول بأنهم: (اختلفوا في إضافة ما لا يدخل في جملة التصديق إليه لصحة الاسم، فمنها ترك قتل الرسول، وترك إيذائه، وترك تعظيم الأصنام، فهذا من التروك. ومن الأفعال: نصرة الرسول، والذب عنه، وقالوا: إن جميعه يضاف إلى التصديق شرعا. وقال آخرون: إنه من الكبائر، لا يخرج المرء بالمخالفة فيه عن الإيمان).

علق شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ١٤٥) بقوله: قلت: وهذان القولان ليسا قول جهم، لكن من قال ذلك فقد اعترف بأنه ليس مجرد تصديق القلب، وليس هو شيئا واحدا، وقال: إن الشرع تصرف فيه، وهذا يهدم أصلهم، ولهذا كان حذاق هؤلاء كجهم والصالحي وأبي الحسن والقاضي أبي بكر على أنه لا يزول عنه اسم الإيمان إلا بزوال العلم من قلبه... ثم نقل عن أبي المعالي الجويني وأبي القاسم الأنصاري شارح الإرشاد ما يفيد أن الإيمان هو التصديق بالقلب، إلا أن الشرع أوجب ترك العناد، وعليه فكفر اليهود العالمين بنبوة محمد ﷺ هو من هذا الباب، أي كفروا عنادا وبغيا وحسدا.

ثم قال شيخ الإسلام: والحذاق في هذا المذهب كأبي الحسن والقاضي ومن قبلهم من

=

=

أتباع جهم عرفوا أن هذا تناقض يفسد الأصل، فقالوا: لا يكون أحد كافرا إلا إذا ذهب ما في قلبه من التصديق، والتزموا أن كل من حكم الشرع بكفره فإنه ليس في قلبه شيء من معرفة الله ولا معرفة رسوله، ولهذا أنكر هذا عليهم جماهير العقلاء وقالوا: هذا مكابرة وسفسطة.اهـ.

بطلان مذهب من جعل عملَ القلب نفسَ التصديق: قد تبين مما سبق أن متأخري الأشاعرة أثبتوا عمل القلب، من القبول والانقياد والإذعان، لكنهم جعلوا ذلك نفس التصديق، كما في قول الدردير: (فالإذعان والقبول والتصديق والتسليم عبارات عن شيء واحد)، وسبقت الإشارة إلى أن هذا مذهب أبي الحسين الصالحي، وأن شيخ الإسلام جزم بفساد هذا القول، واعتبره ضلالا بينا، قال في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٤): والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان؛ فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا، وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بيِّن.اهـ.

وإدخال عمل القلب في التصديق، باطل لأمور كثيرة أظهرها ما يترتب على ذلك من القول بأنَّ من كان كفره من جهة انتفاء عمل القلب، كإبليس وفرعون واليهود العالمين بنبوة محمد ﷺ، فليس في قلبه شيء من التصديق، لأنه إذا كان عملُ القلب هو نفس التصديق، كان انتفاؤه يعني انتفاء التصديق، ويلزم على ذلك أنَّ هؤلاء المذكورين ليسوا مصدقين، وأنه لا يزول اسم الإيمان عن أحد إلا بزوال العلم والتصديق من قلبه. وهذا الذي اعتمده الحذاق في هذا المذهب كأبي الحسن والقاضي أبي بكر، كما سبق.

وأما المتأخرون فقد وقعوا في التناقض الذي أشار إليه شيخ الإسلام، فأثبتوا العلم والتصديق لكثير من المشركين وأهل الكتاب، ونفوا عنهم الإذعان والانقياد، مع قولهم: إن التصديق هو نفس الإذعان والانقياد! وهؤلاء يلزمهم أن يقولوا: إنَّ الإيمان الواجب في القلب أمران: التصديق، والعمل، وأنه قد يوجد التصديق من غير العمل، لكنَّ هذا يفسد الأصل الذي بنوا عليه مذهبهم، وهو أن الإيمان مجرد التصديق، وأنه شيء واحد، وأن الشرع لم يتصرف فيه! وهذا الاضطراب جزاء من أعرض عن نصوص الكتاب والسنة، والتمس الهدى في غيرهما من الآراء الكلامية، والقواعد المنطقية. وهذا ما سيظهر أيضا من خلال عرض مفهوم الكفر عندهم.

الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل وكشف شبهات المعاصرين لمحمد بن محمود آل خضير (١/ ٢٢٥، ٢٣٨، ٢٥١).

٣- الماتريدية ورواية عن أبي حنيفة: بأن الإيمان تصديق القلب، أما الإقرار باللسان فركن زائد فيه ليس بأصلي، حيث يسقط بالإكراه ونحوه(١).

(١) أما أبو منصور الماتريدي - شيخ الطائفة - فقد ذهب إلى أن الإيمان هو التصديق، وأن قول اللسان شرط لإجراء الأحكام الدنيوية فقط، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، ولا يستثنى فيه.

قال الماتريدي في كتاب التوحيد (ص٣٣٢): ثم قد ثبت بأدلة القرآن وما عليه أهل الإيمان، والذي جرى به من اللسان أن الإيمان هو التصديق.اهـ.

وقال في نفس المصدر (ص٣٨٨): الأصل عندنا قطع القول بالإيمان وبالتسمي به بالإطلاق، وترك الاستثناء فيه؛ لأن كل معنى مما باجتماع وجوده تمام الإيمان عنده، مما إذا استثني فيه لم يصح ذلك المعنى.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٥١٠): وقد ذهب طائفة من متأخري أصحاب أبي حنيفة كأبي منصور الماتريدي وأمثاله إلى نظير هذا القول في الأصل، وقالوا: إن الإيمان هو ما في القلب، وأن القول الظاهر شرط لثبوت أحكام الدنيا.اهـ.

وقال ملا علي القاري في شرح الفقه الأكبر (ص١٢٥): وذهب جمهور المحققين إلى أن الإيمان هو التصديق بالقلب، وإنما الإقرار شرط لإجراء الأحكام في الدنيا ... وهذا هو اختيار الشيخ أبي منصور الماتريدي.اهـ.

وقد سار الماتريدية على ما أصَّله شيخهم إلا أن منهم من جعل قول اللسان ركنا في الإيمان، ومنهم من أثبت الزيادة والنقصان، بل نُسب ذلك إلى جمهورهم- وليس كذلك- كما اشترطوا اشتمال التصديق على الإذعان والقبول، ومنهم من جوز الاستثناء.

قال التفتازاني كما في شرح العقائد النسفية (ص٧٨): وليس حقيقة التصديق أن يقع في القلب نسبة الصدق إلى الخبر أو المخبر من غير إذعان وقبول، بل هو إذعان وقبول لذلك بحيث يقع عليه اسم التسليم.اهـ.

وقال النسفي كما شرح العقائد النسفية (ص٧٨): والإيمان هو التصديق بما جاء به من عند الله تعالى والإقرار به) قال شارحه: (وهذا الذي ذكره من أن الإيمان هو التصديق والإقرار مذهب بعض العلماء، وهو اختيار الإمام شمس الأئمة وفخر الإسلام رحمهما الله.اهـ.

=

٤ – مرجئة الفقهاء أبو حنيفة وأصحابه: قالوا الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان وهو لايزيد ولا ينقص، وهو قول الشمرية والنجارية والغيلانية، ووافقهم في هذا بعض الماتريدية[1].

=

فالنسفي- وهو ماتريدي- اختار هنا قول مرجئة الفقهاء، وجعل الإقرار جزءا من الإيمان.

وأما عمل الجوارح، فقد أخرجوه من الإيمان، ومنهم من صرح بأنه من كمال الإيمان.

قال الملا علي القاري في شرح الفقه الأكبر (ص١٠٣): وأما العمل بالأركان فهو من كمال الإيمان، وجمال الإحسان.اهـ.

الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل وكشف شبهات المعاصرين لمحمد بن محمود آل خضير (١/ ٢٦٧).

(١) المقصود بمرجئة الفقهاء: من نسب إليه الإرجاء من الفقهاء، كحماد بن أبي سليمان، وأبي حنيفة رحمهما الله ومن تبعهما، وقد ذهبوا إلى أن الإيمان تصديق بالقلب، وقول باللسان، وأخرجوا العمل من مسماه، وزعموا أنه لا يزيد ولا ينقص، ولا يستثنى منه، مع قولهم إن مرتكب الكبيرة معرض للوعيد، وهو تحت المشيئة، كما هو القول عند أهل السنة والجماعة.

قال أبو حنيفة في كتاب الوصية المنسوب إليه نقلا عن شرح الفقه الأكبر لملا علي القاري (ص١٢٤): الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجنان، والإقرار وحده لا يكون إيمانا؛ لأنه لو كان إيمانا لكان المنافقون كلهم مؤمنين، وكذلك المعرفة وحدها أي مجرد التصديق لا يكون إيمانا؛ لأنها لو كانت إيمانا لكان أهل الكتاب كلهم مؤمنين. قال الله تعالى في حق المنافقين: (وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) [المنافقون: ١]، أي في دعواهم الإيمان حيث لا تصديق لهم. وقال الله تعالى في حق أهل الكتاب: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ) [البقرة: ١٤٦].اهـ.

وقال في الفقه الأكبر المنسوب إليه أيضا -ونسبة كتاب الفقه الأكبر هذا إلى أبي حنيفة لا تصح، كما بينه الدكتور عبد العزيز ابن أحمد الحميدي في براءة الأئمة الأربعة من مسائل المتكلمين المبتدعة (ص٤٦ – ٧١) لكن القول بالإرجاء ثابت عن أبي حنيفة، أثبته معاصروه، ومن جاء بعده- مع شرحه لملا علي القاري (ص١٠٢ – ١٢٩): ولا

=

=

نكفر مسلما بذنب من الذنوب وإن كانت كبيرة، إذا لم يستحلها، ولا نزيل عنه اسم الإيمان. ونسميه مؤمنا حقيقة، ويجوز أن يكون مؤمنا فاسقا غير كافر.. ثم قال: ولا نقول: إن المؤمن لا تضره الذنوب، ولا نقول: إنه لا يدخل النار، ولا نقول: إنه يخلد فيها وإن كان فاسقا بعد أن يخرج من الدنيا مؤمنا، ولا نقول: إن حسناتنا مقبولة وسيئاتنا مغفورة كقول المرجئة، ولكن نقول: من عمل حسنة بجميع شرائطها خالية عن العيوب المفسدة والمعاني المبطلة، ولم يبطلها بالكفر والردة حتى خرج من الدنيا مؤمنا، فإن الله تعالى لا يضيعها بل يقبلها منه ويثيبه عليها. وما كان من السيئات دون الشرك والكفر ولم يتب عنها صاحبها حتى مات مؤمنا، فإنه في مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه بالنار، وإن شاء عفا عنه ولم يعذبه بالنار أصلا... إلى أن قال: (وإيمان أهل السماء والأرض لا يزيد ولا ينقص من جهة المؤمن به، ويزيد وينقص من جهة اليقين والتصديق. والمؤمنون مستوون في الإيمان والتوحيد، متفاضلون في الأعمال.اهـ.

وقال في الوصية نقلًا عن شرح الفقه الأكبر (ص١٢٧): ثم الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ لأنه لا يتصور زيادة الإيمان إلا بنقصان الكفر، ولا يتصور نقصان الإيمان إلا بزيادة الكفر، فكيف يجوز أن يكون الشخص الواحد في حالة واحدة مؤمنا وكافرا، والمؤمن لا مؤمن حقا. وليس في إيمان المؤمن شك، كما أنه ليس في كفر الكافر شك ....اهـ.

وقال أيضا في الوصية نقلًا عن شرح الفقه الأكبر (ص١٣٠): ثم العمل غير الإيمان، والإيمان غير العمل، بدليل أن كثيرا من الأوقات يرتفع العمل من المؤمن، ولا يجوز أن يقال: يرتفع عنه الإيمان، فإن الحائض ترتفع عنها الصلاة ولا يجوز أن يقال: يرتفع عنها الإيمان، أو أمر لها بترك الإيمان ....اهـ.

وقال الطحاوي كما في شرح العقيدة الطحاوية (٣٣١): في عقيدته المشهورة التي ذكر أنها عقيدة أبي حنيفة وصاحبيه رحمهم الله (والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، وجميع ما صح عن رسول الله من الشرع والبيان كله حق. والإيمان واحد وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى.اهـ.

وقد عد أصحاب المقالات أبا حنيفة وأصحابه من المرجئة لإخراجهم العمل من مسمى الإيمان ونفيهم الزيادة والنقصان، واشتد إنكار السلف عليهم لذلك.

قال الأشعري في المقالات (١/ ٢١٩) في عد فرق المرجئة: والفرقة التاسعة من

=

=
المرجئة: أبو حنيفة وأصحابه، يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله، والإقرار بالله، والمعرفة بالرسول، والإقرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير.اهـ.
وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٤): والمرجئة الذين قالوا: الإيمان تصديق القلب وقول اللسان، والأعمال ليست منه، كان منهم طائفة من فقهاء الكوفة وعبادها، ولم يكن قولهم مثل قول جهم. فعرفوا أن الإنسان لا يكون مؤمنا إن لم يتكلم بالإيمان مع قدرته عليه، وعرفوا أن إبليس وفرعون وغيرهما كفار مع تصديق قلوبهم. لكنهم إذا لم يدخلوا أعمال القلوب في الإيمان لزمهم قول جهم، وإن أدخلوها في الإيمان لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضا؛ فإنها لازمة لها. ولكن هؤلاء لهم حجج شرعية بسببها اشتبه الأمر عليهم.اهـ.
وقال في نفس المصدر السابق (٧/ ٥٠٧): وأنكر حماد بن أبى سليمان ومن اتبعه تفاضل الإيمان ودخول الأعمال فيه والاستثناء فيه، وهؤلاء من مرجئة الفقهاء. وأما إبراهيم النخعي إمام أهل الكوفة شيخ حماد بن أبى سليمان وأمثاله، ومن قَبله من أصحاب ابن مسعود، كعلقمة والأسود، فكانوا من أشد الناس مخالفة للمرجئة، وكانوا يستثنون في الإيمان، لكن حماد بن أبى سليمان خالف سلفه، واتبعه من اتبعه، ودخل في هذا طوائف من أهل الكوفة ومن بعدهم. ثم إن السلف والأئمة اشتد إنكارهم على هؤلاء، وتبديعهم وتغليظ القول فيهم، ولم أعلم أحدا منهم نطق بتكفيرهم، بل هم متفقون على أنهم لا يكفرون في ذلك. وقد نص أحمد وغيره من الأئمة على عدم تكفير هؤلاء المرجئة. ومن نقل عن أحمد أو غيره من الأئمة تكفيرا لهؤلاء، أو جعل هؤلاء من أهل البدع المتنازع في تكفيرهم فقد غلط غلطا عظيما.... إلى أن قال: (وهؤلاء المعروفون مثل حماد بن أبى سليمان وأبي حنيفة وغيرهما من فقهاء الكوفة، كانوا يجعلون قول اللسان واعتقاد القلب من الإيمان، وهو قول أبى محمد بن كلاب وأمثاله، لم يختلف قولهم في ذلك، ولا نقل عنهم أنهم قالوا: الإيمان مجرد تصديق القلب.اهـ.
وقال في مجموع الفتاوى أيضا (١٨/ ٢٧١): والحزب الثاني - أي: من القائلين بأن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل والحزب الأول هم الخوارج والمعتزلة- وافقوا أهل السنة على أنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد، ثم ظنوا أن هذا لا يكون إلا مع وجود كمال الإيمان؛ لاعتقادهم أن الإيمان لا يتبعض، فقالوا كل فاسق فهو كامل الإيمان، وإيمان الخلق متماثل لا متفاضل، وإنما التفاضل في غير الإيمان من الأعمال
=

=

وقالوا الأعمال ليست من الإيمان؛ لأن الله فرق بين الإيمان والأعمال في كتابه ثم قال الفقهاء المعتبرون من أهل هذا القول إن الإيمان هو تصديق القلب وقول اللسان، وهذا المنقول عن حماد بن أبى سليمان ومن وافقه كأبي حنيفة وغيره.اهـ.

وحاصل ما عليه مرجئة الفقهاء هو ما يلي:

١- أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان.

٢- إخراج العمل الظاهر من مسمى الإيمان.

٣- أن الإيمان لا يتبعض ولا يزيد ولا ينقص.

٤- أن أهله متساوون في أصله، وأن التفاضل إنما يقع في غير الإيمان.

٥- أنه لا يستثنى فيه.

٦- أما أعمال القلوب، فظاهر كلامهم أنها ليست من الإيمان، وهو ظاهر ما نقله أصحاب المقالات عنهم أيضا، وقد سبق قول شيخ الإسلام عنهم: (لكنهم إذا لم يدخلوا أعمال القلوب في الإيمان لزمهم قول جهم، وإن أدخلوها في الإيمان لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضا؛ فإنها لازمة لها).

وقال في مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٥): والمرجئة ثلاثة أصناف: الذين يقولون: الإيمان مجرد ما في القلب، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة، كما قد ذكر أبو الحسن الأشعري أقوالهم في كتابه، وذكر فرقا كثيرة يطول ذكرهم، لكن ذكرنا جمل أقوالهم، ومنهم من لا يدخلها في الإيمان كجهم ومن اتبعه كالصالحي، وهذا الذي نصره هو وأكثر أصحابه.

والقول الثاني: من يقول: هو مجرد قول اللسان، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية.

والثالث: تصديق القلب وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم.

وهؤلاء غلطوا من وجوه: أحدها: ظنهم أن الإيمان الذي فرضه الله على العباد متماثل في حق العباد، وأن الإيمان الذي يجب على شخص يجب مثله على كل شخص... إلى أن قال -بعد استطراد-: الوجه الثاني من غلط المرجئة: ظنهم أن ما في القلب من الإيمان ليس إلا التصديق فقط دون أعمال القلوب كما تقدم عن جهمية المرجئة.

الثالث: ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاما بدون شيء من الأعمال، ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب، ولا يجعلونها لازمة له، والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع أن

=

٥- الكرامية وهو قول ابن كلاب والرقاشي؛ بأن الإيمان الإقرار باللسان فحسب. ومن لوازمه الباطلة اعتبار المنافقين مؤمنين[١] !.

=

يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر.اهـ.

فصرح بأن الجهمية يخرجون أعمال القلوب من الإيمان، وهذا يذكره في مواضع، أما مرجئة الفقهاء فتراه لا يجزم هنا بقولهم في هذه المسألة، لكنه قال في موضع آخر وهو منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٨٨): وعند الجهمية الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه، هذا قول جهم والصالحي والأشعري في المشهور عنه وأكثر أصحابه، وعند فقهاء المرجئة: هو قول اللسان مع تصديق القلب، وعلى القولين أعمال القلوب ليست من الإيمان عندهم كأعمال الجوارح، فيمكن أن يكون الرجل مصدقا بلسانه وقلبه مع كراهة ما نَّزل الله.اهـ.

وقال أيضا: (ومن هنا غلطت الجهمية والمرجئة، فإنهم جعلوا الإيمان من باب القول كما في جامع المسائل (٥/ ٢٤٦): إما قول القلب الذي هو علمه، أو معنى غير العلم عند من يقول ذلك، وهذا قول الجهمية ومن تبعهم كأكثر الأشعرية، وبعض متأخري الحنفية. وإما قول القلب واللسان، كالقول المشهور عن المرجئة، ولم يجعلوا عمل القلب مثل حب الله ورسوله ومثل خوف الله من الإيمان، فغلطوا في هذا الأصل.اهـ.

ومما يرجح أنهم لا يدخلون أعمال القلوب في الإيمان، ما قاله الطحاوي- وسبق نقله- أن الإيمان واحد وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ولا شك أن الخشية والتقى من أعمال القلوب، وقد دخلها التفاضل لأنها ليست من الإيمان.

وسبق أيضا قول شيخ الإسلام عنهم: "وإيمان الخلق متماثل لا متفاضل، وإنما التفاضل في غير الإيمان من الأعمال. وقالوا: الأعمال ليست من الإيمان".

فحيث أثبتوا التفاضل في أعمال القلوب، دل ذلك على أنها خارجة عن مسمى الإيمان عندهم. الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل وكشف شبهات المعاصرين لمحمد بن محمود آل خضير (١/ ٢٧١).

(١) ذهبت الكرامية إلى أن الإيمان قول باللسان فقط، وأنه شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، ولا يستثنى فيه.

قال الأشعري في المقالات (١/ ٢٣٣): والفرقة الثانية عشرة من المرجئة: الكرامية،

=

=

أصحاب محمد بن كرَّام، يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان إيمانا، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله كانوا مؤمنين على الحقيقة، وزعموا أن الكفر بالله هو الجحود والإنكار له باللسان.اهـ.

الكرامية تسمي المنافق مؤمنا، ولكنهم يحكمون بأنه مخلد في النار

وقال ابن منده في كتاب الإيمان (١/ ٣٣١): وقالت طائفة منهم - أي المرجئة -: الإيمان فعل اللسان دون القلب، وهم أهل الغلو في الإرجاء.اهـ.

وقال ابن حزم في الفصل (٣/ ٢٢٧): وذهب قوم إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان بالله تعالى، وإن اعتقد الكفر بقلبه، فإذا فعل ذلك فهو مؤمن من أهل الجنة، وهذا قول محمد بن كرام السجستاني وأصحابه.اهـ.

وقد حكى ابن حزم عن ابن كرام وأصحابه أنهم يقولون: من اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن عند الله ﷻ، ولي له ﷻ، من أهل الجنة، ثم ذكر أن بعض الكرامية تقول ذلك، وسمى منهم محمد بن عيسى الصوفي الألبيري، ثم قال: (وقالت طائفة من الكرامية: المنافقون مؤمنون مشركون من أهل النار. انتهى من الفصل (٥/ ٧٣، ٧٤). وقد ذكر شيخ الإسلام في مواضع من كتبه أن نسبة القول بإيمان المنافق عند الله ونجاته في الآخرة إلى الكرامية، غلط عليهم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ١٤١): والكرامية توافق المرجئة والجهمية في أن إيمان الناس كلهم سواء، ولا يستثنون في الإيمان، بل يقولون: هو مؤمن حقا، لمن أظهر الإيمان، وإذا كان منافقا فهو مخلد في النار عندهم، فإنه إنما يدخل الجنة من آمن باطنا وظاهرا، ومن حكى عنهم أنهم يقولون: المنافق يدخل الجنة، فقد كذب عليهم، بل يقولون: المنافق مؤمن؛ لأن الإيمان هو القول الظاهر، كما يسميه غيرهم مسلما؛ إذ الإسلام هو الاستسلام الظاهر، ولا ريب أن قول الجهمية أفسد من قولهم من وجوه متعددة شرعا ولغة وعقلا، وإذا قيل: قول الكرامية قول خارج عن إجماع المسلمين، قيل: وقول جهم في الإيمان قول خارج عن إجماع المسلمين قبله، بل السلف كفروا من يقول بقول جهم في الإيمان.اهـ.

وقال في مجموع الفتاوى (٧/ ٢١٥): فالمؤمن المستحق للجنة لابد أن يكون مؤمنا في الباطن، باتفاق جميع أهل القبلة حتى الكرامية الذين يسمون المنافق مؤمنا، ويقولون: الإيمان هو الكلمة، يقولون: إنه لا ينفع في الآخرة إلا الإيمان الباطن.

=

=

وقد حكى بعضهم عنهم أنهم يجعلون المنافقين من أهل الجنة، وهو غلط عليهم، إنما نازعوا في الاسم لا في الحكم، بسبب شبهة المرجئة في أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل.اهـ.

ويشير شيخ الإسلام بكلامه عن شبهة المرجئة، إلى أن الكرامية جعلوا الإيمان شيئا واحدا هو القول، ولم يضيفوا إليه الاعتقاد فرارا من القول بتبعيضه وتجزئته.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٣٩٤): مع أن الكرامية لا تنكر وجوب المعرفة والتصديق، ولكن تقول: لا يدخل في اسم الإيمان، حذرا من تبعضه وتعدده؛ لأنهم رأوا أنه لا يمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه، بل ذلك يقتضي أن يجتمع في القلب إيمان وكبر- لعل الصواب: وكفر- واعتقدوا الإجماع على نفي ذلك، كما ذكر هذا الإجماع الأشعري وغيره.

وهذه الشبهة التي أوقعتهم مع علم كثير منهم وعبادته وحسن إسلامه وإيمانه، ولهذا دخل في إرجاء الفقهاء جماعة هم عند الأمة أهل علم ودين، ولهذا لم يكفر أحد من السلف أحدا من مرجئة الفقهاء، بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال، لا من بدع العقائد، فإن كثيرا من النزاع فيها لفظي، لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب. فليس لأحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله، لاسيما وقد صار ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام من أهل الإرجاء وغيرهم، وإلى ظهور الفسق، فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ سببا لخطأ عظيم في العقائد والأعمال، فلهذا عظم القول في ذم الإرجاء.اهـ.

شذوذ قول الكرامية: وقد تبين مما سبق أن الكرامية جمعوا بين بدعة الإرجاء وإخراج العمل من الإيمان، وبين الشذوذ اللفظي في تسميتهم المنافق مؤمنا.

قال شيخ الإسلام مقارنا بين قول جهم في إخراج أعمال القلوب من الإيمان، وبين قول الكرامية في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٠): وهذا القول شاذ - أي قول جهم - كما أن قول الكرامية الذين يقولون هو مجرد قول اللسان شاذ أيضا.. إلى أن قال: وقول ابن كرام فيه مخالفة في الاسم دون الحكم، فإنه وإن سمى المنافقين مؤمنين، يقول: إنهم مخلدون في النار، فيخالف الجماعة في الاسم دون الحكم. وأتباع جهم يخالفون في الاسم والحكم جميعا.اهـ..

الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل وكشف شبهات المعاصرين لمحمد بن محمود آل خضير (١/ ٢١٧).

فهذه الأقوال المشهورة في الإيمان وزيادته ونقصانه

فجميع هذه الطوائف أخرجت العمل من مسمى الإيمان، فبالتالي أنكروا زيادة الإيمان ونقصانه، ومن قال بالزيادة والنقصان فإنما نظر إلى أن تصديق القلب يقوى ويضعف بقوة الأدلة ووضوح البراهين، وهذا وإن كان وجها في الزيادة والنقصان في الإيمان إلا أنه ليس هو المقصود فقط في كلام السلف بل الزيادة والنقصان في كلامهم تقع على ما في القلب والجوارح.

ثانيًا: الوعيدية والمراد بهم: هم من قطع بإنفاذ الوعيد في أهل الإيمان والإسلام، ولم ير لأهل الفسق في الرحمة نصيب ولا رجاء، والمراد بهم هنا: المعتزلة والخوارج.

والخوارج والمعتزلة قالوا: إن الإيمان هو جميع الطاعات الواجبة وهو لا يزيد ولا ينقص، ومن أخل بشيء من الواجبات أو ارتكب شيئًا من المنهيات، فقد خرج من الإسلام ودخل في الكفر عند الخوارج، أما المعتزلة فعندهم أنه خرج من الإسلام ولم يدخل في الكفر فهو في منزلة بين المنزلتين، والخوارج والمعتزلة وافقوا السلف في تعريف الإيمان بإدخال الأعمال في مسمى الإيمان إلا أنهم خالفوا السلف بأن جعلوا الأعمال شرطًا في صحة الإيمان، فمن أخل بشيء من الواجبات أو ارتكب شيئًا من المنهيات عند الخوارج خرج من الإيمان ودخل في الكفر، وعند المعتزلة هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر[1].

---

(١) ذهب الخوارج والمعتزلة إلى أن الإيمان قول وعمل، لكنه لا يزيد ولا ينقص ولا يستثنى فيه، وهو شيء واحد إن ذهب بعضه ذهب كله. وهذا ما دعاهم إلى القول بتخليد مرتكب الكبيرة في النار، لكنهم اختلفوا في حكمه في الدنيا، فقالت الخوارج بكفره، وقالت المعتزلة إنه في منزلة بين المنزلتين.

=

=

قال الإمام ابن منده في كتاب الإيمان (١/ ٣٣١) في معرض بيانه لاختلاف الناس في الإيمان ما هو: وقالت الخوارج: الإيمان فعل الطاعات المفترضة كلها بالقلب واللسان وسائر الجوارح.اهـ.

وقال القاضي أبو يعلى في مسائل الإيمان (ص١٥٦): وأن الإيمان الشرعي جميع الطاعات الباطنة والظاهرة، الواجبة والمندوبة، وهذا قول أكثر المعتزلة، وقال منهم أبو هاشم والجبائي: إن ذلك مختص بالواجبات دون التطوع.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٥١٠): ثم قالت الخوارج والمعتزلة: الطاعة كلها من الإيمان فإذا ذهب بعض الإيمان، فذهب سائره، فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان.اهـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى (٧/ ٥١٠): وأصل نزاع هذه الفرق في الإيمان من الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم أنهم جعلوا الإيمان شيئا واحدا إذا زال بعضه زال جميعه، وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه، فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه كما قال النبي ﷺ: (يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من الإيمان).

وفي مجموع الفتاوى (٧/ ٤١٤): هذا ويرى الخوارج والمعتزلة أن الإسلام والإيمان شيء واحد.اهـ.

قولهم في أصحاب الذنوب: سبق تقرير أن أهل السنة لا يكفرون أصحاب المعاصي ولا يسلبونهم اسم الإيمان بالكلية، أما الخوارج فقد ذهبوا إلى كفر مرتكب الكبيرة وخلوده في النار وأنه يعذب فيها عذاب الكفار.

قال أبو الحسن الأشعري في مقالات الإسلاميين (١/ ١٦٨) في بيان معتقدهم: وأجمعوا على أن كل كبيرة كفر، إلا النجدات فإنها لا تقول بذلك، وأجمعوا على أن الله سبحانه يعذب أصحاب الكبائر عذابا دائما إلا النجدات أصحاب نجدة.اهـ.

وفي نفس المصدر السابق (١/ ١٧٥) أما النجدات فقالوا: لا ندري لعل الله يعذب المؤمنين بذنوبهم، فإن فعل فإنما يعذبهم في غير النار، بقدر ذنوبهم، ولا يخلدهم في العذاب، ثم يدخلهم الجنة، وزعموا أن من نظر نظرة صغيرة أو كذب كذبة صغيرة، ثم أصر عليها فهو مشرك، وأن من زنى وسرق وشرب الخمر غير مصر فهو مسلم.اهـ.

وقال الشهرستاني في الملل والنحل (١/ ١٠٧): وكبار فرق الخوارج ستة: الأزارقة، والنجدات، والصفرية، والعجاردة، والإباضية، والثعالبة، والباقون فروعهم، ويجمعهم

=

=

القول بالتبرؤ من عثمان وعلي، ويقدمون ذلك على كل طاعة، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك، ويكفرون أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقا واجبا.اهـ.

وذكر الدكتور غالب العواجي في كتاب فرق معاصرة (١/ ١٠٩) أن أكثر الخوارج على تكفير العصاة كفر ملة، وأنهم خارجون عن الإسلام مخلدون في النار مع سائر الكفار. بينما ذهبت الإباضية إلى أنهم كفار كفر نعمة، ومع هذا فإنهم يحكمون على صاحب المعصية بالنار إذا مات عليها، ويحكمون عليه في الدنيا بأنه منافق، ويجعلون النفاق مرادفا لكفر النعمة.اهـ.

وأما المعتزلة فمشهور قولهم في أصحاب الكبائر أنهم ليسوا مؤمنين ولا كفارا، بل هم بمنزلة بين المنزلتين، لكنهم مخلدون في النار، كما تقول الخوارج، غير أنهم قالوا: إن عذابهم ليس كعذاب الكفار.

قال الأشعري في المقالات (١/ ٣٣١): وكانت المعتزلة بأسرها قبله - أي قبل الجبائي - إلا الأصم، تنكر أن يكون الفاسق مؤمنا، وتقول: إن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر، وتسميه منزلة بين المنزلتين، وتقول: في الفاسق إيمان لا نسميه به مؤمنا، وفي اليهودي إيمان لا نسميه به مؤمنا.اهـ.

وقال في نفس المصدر السابق (١/ ٢٤٠): وأما الوعيد: فقول المعتزلة فيه وقول الخوارج قول واحد؛ لأنهم يقولون: إن أهل الكبائر الذين يموتون على كبائرهم في النار خالدين فيها مخلدين، غير أن الخوارج يقولون: إن مرتكبي الكبائر ممن ينتحل الإسلام يعذبون عذاب الكافرين، والمعتزلة يقولون: إن عذابهم ليس كعذاب الكافرين.اهـ.

وحكَى عنهم اختلافا كثيرا في تحديد الصغيرة والكبيرة، وفي غفران الصغائر باجتناب الكبائر، وغير ذلك مما لا حاجة لذكره.

ولا شك أن قول الخوارج والمعتزلة من البدع المشهورة المخالفة للكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٢): ينبغي أن يعرف أن القول الذي لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحد من أهل السنة هو القول بتخليد أهل الكبائر في النار، فإن هذا القول من البدع المشهورة، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان، واتفقوا

=

أما عند السلف فإن الأعمال من الإيمان، فمن أخل بشئ من الواجبات أو ارتكب شيئًا من المنهيات نقص إيمانه عن القدر الواجب، وعرض نفسه للعقوبة ولم يستحق اسم الإيمان المطلق إلا أنه لا يخرج من الإيمان إلا بارتكاب عمل كفري.

قال شيخ الإسلام في المجموع (٧/ ٥١٠): وأصل نزاع هذه الفرق في الإيمان من الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم أنهم جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا، إذا زال بعضه زال جميعه، وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه فلم يقولوا بذهاب بعض وبقاء بعض، كما قال النبي ﷺ: (يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان).

وقال في شرح الأصفهانية (١٣٧ - ١٣٨): وأصل هؤلاء أنهم ظنوا أن الشخص الواحد لا يكون مُستحقًا للثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والحمد والذم. بل إما لهذا وإما لهذا، فأحبطوا جميع حسناته بالكبيرة التي فعلها ...اهـ.

وأصل ذلك أن طريقة أهل البدع في تلقي النصوص سواء كانوا من الوعيدية من الخوارج والمعتزلة، أو من المرجئة على تنوع مراتبهم وأصنافهم، فهم لا يجمعون بين نصوص الوعد والوعيد؛ بل إنهم - في استدلالهم، ينفردون فيهما بما يؤيد مذاهبهم.

أ-فالوعيدية يستدلون بنصوص الوعيد، ويهملون نصوص الوعد، أو لا يجمعونها مع نصوص الوعيد في التلقي والاستدلال.

=

أيضا على أن نبينا ﷺ يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته، ففي الصحيحين عنه أنه قال ﷺ: (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ). الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل وكشف شبهات المعاصرين.

ب-وكذلك المرجئة يعوّلون على نصوص الوعد، دون اعتبار للنصوص الواردة في الوعيد، وجمعها في التلقي والاستدلال مع نصوص الوعد. فكلاهما آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض.

أما أهل السنة والجماعة فآمنوا بالكتاب كله، وعولَّوا على النصوص جميعها، فنظروا إلى نصوص الوعيد مع نصوص الوعد، فلم يضطربوا ولم يفرقوا بين المتماثلات وإنما كانوا الأمة الوسط، وأسعد الفريقين بالمذهب الحق.

المسألة الثالثة: هل الخلاف بين أهل السنة ومرجئة الفقهاء حقيقي أم لفظي؟

ومنشأ النزاع في ذلك أن هؤلاء المرجئة، مع قولهم بإخراج العمل من الإيمان، ونفي الزيادة والنقصان عنه، ومنع الاستثناء فيه، إلا أنهم كانوا مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار، ثم يخرجهم بالشفاعة، كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك. وعلى أنه لابد في الإيمان أن يتكلم بلسانه، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة، وتاركها مستحق للذم والعقاب.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٨): وحدثت المرجئة وكان أكثرهم من أهل الكوفة ولم يكن أصحاب عبد الله من المرجئة ولا إبراهيم النخعي وأمثاله فصاروا نقيض الخوارج والمعتزلة فقالوا: إن الأعمال ليست من الإيمان وكانت هذه البدعة أخف البدع فإن كثيرا من النزاع فيها نزاع في الاسم واللفظ دون الحكم؛ إذ كان الفقهاء الذين يضاف إليهم هذا القول مثل حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة وغيرهما هم مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار ثم يخرجهم بالشفاعة كما جاءت

الأحاديث الصحيحة بذلك وعلى أنه لا بد في الإيمان أن يتكلم بلسانه . وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة وتاركها مستحق للذم....اهـ.

ولهذا ذهب بعض أهل العلم إلى أن الخلاف بينهم وبين أهل السنة خلاف في الاسم واللفظ دون الحكم، وذهب آخرون إلى أنه خلاف حقيقي في الاسم واللفظ والحكم.

تحقيق قول شيخ الإسلام في هذه المسألة

عزا بعض الباحثين إلى شيخ الإسلام أنه ممن يرى النزاع بين أهل السنة ومرجئة الفقهاء نزاعا لفظيا، على ما هو المتبادر من بعض كلامه.

والتحقيق في ذلك أن شيخ الإسلام له عبارات متنوعة في تناول هذه المسألة

١- فتارة يقول عن الخلاف في الأعمال هل هي من الإيمان وفي الاستثناء ونحو ذلك: إن عامته نزاع لفظي.

٢- وتارة يقول: هذه البدعة أخف البدع فإن كثيرا من النزاع فيها نزاع في الاسم واللفظ دون الحكم كما مر قريبا.

٣- وتارة يشير إلى أن ذلك من بدع الأقوال والأفعال لا العقائد. فقال في مجموع الفتاوى (٧/ ٣٩٤): ولهذا دخل في إرجاء الفقهاء جماعة هم عند الأمة أهل علم ودين، ولهذا لم يكفر أحد من السلف أحدا من (مرجئة الفقهاء) بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال، لا من بدع العقائد؛ فإن كثيرا من النزاع فيها لفظي، لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب، فليس لأحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله، لاسيما وقد صار ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام من أهل الإرجاء وغيرهم، وإلى ظهور الفسق، فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ سببا لخطأ عظيم في العقائد والأعمال، فلهذا عظم القول في ذم الإرجاء

حتى قال إبراهيم النخعي: لفتنتهم يعنى المرجئة أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة.. وذكر آثارا في ذم المرجئة.اهـ.

وهذه المواضع الثلاثة لا تعارض بينها، فإنَّ فيها إقرارا بأن هذا النزاع منه ما هو حقيقي، ومنه ما هو لفظي وهو الغالب والأكثر، لكنه صرح في موضعٍ بأن هذا النزاع كثير منه معنوي، فقال مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٤): ثم بعد ذلك تنازع الناس في اسم المؤمن والإيمان نزاعا كثيرا، منه لفظي، وكثير منه معنوي، فإن أئمة الفقهاء لم ينازعوا في شيء مما ذكرناه من الأحكام، وان كان بعضهم أعلم بالدين وأقوم به من بعض، ولكن تنازعوا في الأسماء، كتنازعهم في الإيمان هل يزيد وينقص، وهل يستثنى فيه أم لا، وهل الأعمال من الإيمان أم لا، وهل الفاسق الملي مؤمن كامل الإيمان أم لا؟. وما بعدها...اهـ. وهذا يمكن حمله على عموم النزاع الواقع بين الناس في مسألة الإيمان، فيدخل في ذلك خلاف الجهمية والخوارج والمعتزلة، ولاشك أن النزاع حينئذ يكون أكثره معنويا.

٤- وتارة يبين شيخ الإسلام أن الخلاف إنما يكون لفظيًا مع من أقرَّ بأن أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب، بحيث إذا انتفى اللازم انتفى الملزوم.

وهذا يذكره في مواضع، ومع هذا فقد غفل كثير من الباحثين عن الإشارة إليه.

ومن هذه المواضع قوله في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٧٧). وقيل لمن قال دخول الأعمال الظاهرة في اسم الإيمان مجاز: نزاعك لفظي، فإنك إذا سلمت أن هذه لوازم الإيمان الواجب الذي في القلب وموجباته، كان عدم اللازم موجبا لعدم الملزوم، فيلزم من عدم هذا الظاهر عدم الباطن، فإذا اعترفت بهذا كان النزاع لفظيا. وإن قلت ما هو حقيقة قول جهم وأتباعه، من أنه يستقر الإيمان

التام الواجب في القلب مع إظهار ما هو كفر وترك جميع الواجبات الظاهرة، قيل لك: فهذا يناقض قولك أن الظاهر لازم له وموجب له، بل قيل: حقيقة قولك أن الظاهر يقارن الباطن تارة، ويفارقه أخرى، فليس بلازم له ولا موجب ومعلول له، ولكنه دليل إذا وجد دل على وجود الباطن، وإذا عدم لم يدل عدمه على العدم، وهذا حقيقة قولك.اهـ.

وقال في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٨٤): وهذا يلزم كل من لم يقل إن الأعمال الظاهرة من لوازم الإيمان الباطن. فإذا قال: إنها من لوازمه وأن الإيمان الباطن يستلزم عملا صالحا ظاهرا، كان بعد ذلك قوله: إن تلك الأعمال لازمة لمسمى الإيمان أو جزءا منه نزاعا لفظيا كما تقدم.اهـ.

وقال في مجموع الفتاوى (٧/ ٢٠٢): وللجهمية هنا سؤال ذكره أبو الحسن في كتاب (الموجز)، وهو أن القرآن نفى الإيمان عن غير هؤلاء كقوله: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ [الأنفال: ٢]، ولم يقل إن هذه الأعمال من الإيمان. قالوا: فنحن نقول: من لم يعمل هذه الأعمال لم يكن مؤمنا؛ لأن انتفاءها دليل على انتفاء العلم من قلبه. والجواب عن هذا من وجوه:

أحدها: أنكم سلمتم أن هذه الأعمال لازمة لإيمان القلب فإذا انتفت لم يبق في القلب إيمان، وهذا هو المطلوب، وبعد هذا فكونها لازمة أو جزءا نزاع لفظي.

الثاني: أن نصوصا صرحت بأنها جزء كقوله: (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً).اهـ.

وقال في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٤): والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان، فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق،

فهذا ضلال بين، ومن قصد إخراج العمل الظاهر، قيل لهم: العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه، وانتفاء الظاهر دليل انتفاء الباطن، فبقي النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الإيمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان؟ والتحقيق أنه تارة يدخل في الاسم، وتارة يكون لازما للمسمى، بحسب إفراد الاسم واقترانه ...اهـ.

وقال في شرح الأصفهانية (ص١٨١): ولما كان إيمان القلب له موجبات في الظاهر، كان الظاهر دليلا على إيمان القلب ثبوتا وانتفاء، كقوله تعالى: لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ [المجادلة: ٢٢]، وقوله ﷻ: وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ [المائدة: ٨١] وأمثال ذلك. وبعد هذا فنزاع المنازع في أن الإيمان في اللغة هل هو اسم لمجرد التصديق دون مقتضاه، أو اسم للأمرين يؤول إلى نزاع لفظي. وقد يقال: إن الدلالة تختلف بالإفراد والاقتران. والناس منهم من يقول: إن أصل الإيمان في اللغة التصديق، ثم يقول: والتصديق يكون باللسان ويكون بالجوارح، والقول يسمى تصديقا، والعمل يسمى تصديقا، كقول النبي ﷺ: (العَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالأُذُنُ تَزْنِي وَزِنَاهَا السَّمْعُ وَالْيَدُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْمَشْيُ وَالْقَلْبُ يَتَمَنَّى وَيَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ)، وقال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن بما وقر في القلب وصدقه العمل، ومنهم من يقول: بل الإيمان هو الإقرار وليس هو مرادفا للتصديق ... وإنما المقصود أن فقهاء المرجئة خلافهم مع الجماعة خلاف يسير، وبعضه لفظي، ولم يعرف بين الأئمة المشهورين بالفتيا خلاف إلا في هذا، فإن ذلك قول طائفة من فقهاء الكوفيين

كحماد بن أبي سليمان وصاحبه أبي حنيفة وأصحاب أبي حنيفة.اهـ.

وقال في مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩٧): وهذا التصديق له لوازم داخلة في مسماه عند الإطلاق، فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم، ويبقى النزاع لفظيا: هل الإيمان دال على العمل بالتضمن أو باللزوم؟ ومما ينبغي أن يعرف أن أكثر التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة هو نزاع لفظي، وإلا فالقائلون بأن الإيمان قول من الفقهاء، كحماد بن أبى سليمان، وهو أول من قال ذلك، ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد، وإن قالوا: إن إيمانهم كامل كإيمان جبريل[1]، فهم يقولون: إن الإيمان بدون العمل المفروض ومع فعل المحرمات

---

(١) نقل بعض الحنفية عن أبي حنيفة قوله: إيماني كإيمان جبريل، ولا أقول: مثل إيمان جبريل؛ وعللوا ذلك بأن إيمان جبريل يزيد في الصفة من كونه عن مشاهدة، فيحصل به زيادة الاطمئنان، وبه يحصل زيادة القرب ورفع المنزلة. ونقل بعضهم عنه كراهة ذلك، قال ابن عابدين: (لكن ما نقل عن الإمام هنا يخالفه ما في الخلاصة من قوله: قال أبو حنيفة: أكره أن يقول الرجل إيماني كإيمان جبريل، ولكن يقول: آمنت بما آمن به جبريل اهـ. وكذا ما قاله أبو حنيفة في كتاب العالم والمتعلم: إن إيماننا مثل إيمان الملائكة لأنا آمنا بوحدانية الله تعالى وربوبيته وقدرته، وما جاء من عند الله ﷻ بمثل ما أقرت به الملائكة وصدقت به الأنبياء والرسل، فمن ها هنا إيماننا مثل إيمانهم، لأنا آمنا بكل شيء آمنت به الملائكة مما عاينته من عجائب الله تعالى ولم نعاينه نحن، ولهم بعد ذلك علينا فضائل في الثواب على الإيمان وجميع العبادات الخ) حاشية ابن عابدين (٣/ ٢٧٤)، البحر الرائق (٣/ ٣١٠). قلت: وقد روى ابن عدي في الكامل (٧/ ٩) بإسناده إلى غسان بن الفضل قال: ثنا حماد بن زيد قال: قلت لأبي حنيفة إن جابرا - أي الجعفي - روى عنك وأنك تقول: إيماني كإيمان جبريل وميكائيل. قال: ما قلت هذا، ومن قال هذا فهو مبتدع، قال: فذكرت ذلك لمحمد بن الحسن صاحب الرأي قول حماد بن زيد، فقال: صدق حماد إن أبا حنيفة كان يكره أن يقول ذلك). وروى عن علي =

يكون صاحبه مستحقا للذم والعقاب كما تقوله الجماعة. ويقولون أيضا بأن من أهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة. والذين ينفون عن الفاسق اسم الإيمان من أهل السنة متفقون على أنه لا يخلد في النار، فليس بين فقهاء الملة نزاع في أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطنا وظاهرا بما جاء به الرسول وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد وأنه يدخل النار منهم من أخبر الله ورسوله بدخوله إليها ولا يخلد منهم فيها أحد ولا يكونون مرتدين مباحي الدماء.اهـ.

ومن خلال هذه النقولات يتضح أن شيخ الإسلام يرى الخلاف لفظيا مع من أقر بالتلازم بين الظاهر والباطن، وأن العمل الظاهر لازم للإيمان الباطن لا ينفك عنه، بحيث إذا انتفى اللازم انتفى الملزوم، وأما من يرى العمل ثمرة تقارن الباطن تارة وتفارقه أخرى، فهذا قائل بقول جهم، والنزاع معه حقيقي بلا ريب.

وقول شيخ الإسلام: (خلافهم مع الجماعة خلاف يسير، وبعضه لفظي)، وقوله: (أن أكثر التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة هو نزاع لفظي) ونحو هذا من كلامه، يدل على أن الخلاف مع مرجئة الفقهاء -وإن قالوا بالتلازم- حقيقي في بعض المسائل، ولعله يشير إلى قولهم في الاستثناء، أو تجويزهم أن يقول أفسق الناس: إن إيمانه كإيمان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ! وقد ترتب على قولهم في الاستثناء

=

بن الجعد قال: سمعت أبا يوسف يقول: من قال: إيماني كإيمان جبريل فهو صاحب بدعة) الكامل (٧/ ١٤٥). وقال شيخ الإسلام: (وقد ذكر بعض من صنف في هذا الباب من أصحاب أبى حنيفة، قال: وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد كرهوا أن يقول الرجل: إيماني كإيمان جبريل وميكائيل- قال محمد: لأنهم أفضل يقينا- أو إيماني كإيمان جبريل، أو إيماني كإيمان أبى بكر، أو كإيمان هذا، ولكن يقول: آمنت بما آمن به جبريل وأبو بكر) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤١).

مذهب شنيع، وهو تكفير المستثني، بحجة أنه شاك في إيمانه، ولهذا منع بعض الحنفية من تزويج القائل بالاستثناء؛ لكن المحققين منهم على خلافه.

قال ابن نجيم في البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٣/ ١١٠): وقال الرستغفني: لا تجوز المناكحة بين أهل السنة والاعتزال. وقال الفضل: لا يجوز بين من قال: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى؛ لأنه كافر. ومقتضاه منع مناكحة الشافعية، واختلف فيها هكذا، قيل: يجوز، وقيل: يتزوج بنتهم ولا يزوجهم بنته، وعلله في البزازية بقوله: تنزيلا لهم منزلة أهل الكتاب. وقد قدمنا في باب الوتر والنوافل إيضاح هذه المسألة، وأن القول بتكفير من قال: أنا مؤمن إن شاء الله غلط، ويجب حمل كلامهم على من يقول ذلك شاكا في إيمانه، والشافعية لا يقولون به، فتجوز المناكحة بين الحنفية والشافعية بلا شبهة. وأما المعتزلة فمقتضى الوجه حل مناكحتهم؛ لأن الحق عدم تكفير أهل القبلة، كما قدمنا نقله عن الأئمة في باب الإمامة.اهـ. والحاصل أن إرجاء الفقهاء يحتمل أمرين:

الأول: عدم إثبات التلازم بين الظاهر والباطن، والقائل بهذا خلافه مع أهل السنة خلاف حقيقي جوهري.

والثاني: إثبات التلازم بين الظاهر والباطن، والتسليم بأن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم، والقائل بهذا خلافه مع أهل السنة أكثره لفظي، وبدعته في إخراج العمل من مسمى الإيمان، من بدع الأقوال والأفعال، لا من بدع العقائد.

هذا تحرير مذهب شيخ الإسلام، في هذه المسألة، حسبما ظهر لي من تتبع كلامه في مواطن كثيرة من كتبه.

ومن ذهب إلى أن الخلاف بين أهل السنة ومرجئة الفقهاء خلاف صوري:

ابن أبي العز الحنفي في شرحه على الطحاوية (٢/ ٥٠٨) حيث قال:

والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة خلاف صوري؛ فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب، أو جزءا من الإيمان، مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، بل هو في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه: نزاع لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد[1].اهـ.

---

(١) قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (٢/ ٢٤): الشارح ابن أبي العز على جلالة قدره وعلو كعبه ومتابعته للسنة ولأهل السنة والحديث فإنه قرر أن الخلاف لفظي وصوري، وسبب ذلك أن جهة النظر إلى الخلاف منفكة فمنهم من ينظر إلى الخلاف بأثره في التكفير، ومنهم من ينظر إلى الخلاف بأثره في الاعتقاد، فمن نظر إلى الخلاف بأثره في التكفير قال الخلاف صوري، الخلاف لفظي، لأن الحنفية الذين يقولون هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان هم متفقون مع أهل الحديث والسنة مع أحمد والشافعي على أن الكفر والردة عن الإيمان تكون بالقول وبالاعتقاد وبالعمل وبالشك، فهم متفقون معهم على أن من قال قولا يخالف ما به دخل في الإيمان فإنه يكفر، ومن اعتقد اعتقادا يخالف ما به دخل في الإيمان فإنه يكفر، وإذا عمل عملا ينافي ما دخل به في الإيمان فإنه يكفر، وإذا شك أو ارتاب فإنه يكفر، بل الحنفية في باب حكم المرتد في كتبهم الفقهية أشد في التكفير من بقية أهل السنة مثل الحنابلة والشافعية ونحوهم، فهم أشد منهم، حتى إنهم كفروا بمسائل لا يكفر بها بقية الأئمة كقول القائل مثلا سورة صغيرة فإنهم يكفرون بها، أو مسيجد أو نحو ذلك أو إلقاء كتاب فيه آيات فإنهم يكفرون إلى آخر ذلك.

فمن نظر -مثل ما نظر الشارح، ونظر جماعة من العلماء- من نظر في المسألة إلى جهة الأحكام وهو حكم الخارج من الإيمان قال الجميع متفقون، سواء كان العمل داخلا في المسمى أو خارجا من المسمى فإنه يكفر بأعمال ويكفر بترك أعمال، فإذا لا يترتب عليه على هذا النحو دخول في قول المرجئة الذين يقولون: بلا عمل ينفع، ولا يخرج من الإيمان بأي عمل يعمله، ولا يدخلون مع الخوارج في أنهم: يكفرون بأي عمل أو بترك أي واجب أو فعل أي محرم، فمن هذه الجهة إذا نظر إليها تصور أن الخلاف ليس بحقيقي؛ بل هو لفظي وصوري.

الجهة الثانية التي ينظر إليها وهي أن العمل -عمل الجوارح والأركان- هو مما أمر الله
=

=

ﷻ به في أن يعتقد وجوبه أو يعتقد تحريمه من جهة الإجمال والتفصيل، يعني أن الأعمال التي يعملها العبد لها جهتان: جهة الإقرار بها، وجهة الامتثال لها، وإذا كان كذلك فإن العمل بالجوارح والأركان، فإنه إذا عمل: فإما أن نقول: إن العمل داخل في التصديق الأول؛ التصديق بالجنان، وإما أن نقول: إنه خارج عن التصديق بالجنان، فإذا قلنا إنه داخل في التصديق بالجنان -يعني العمل بالجوارح باعتبار أنه إذا أقر به امتثل- فإنه يكون التصديق إذا ليس تصديقا، وإنما يكون اعتقادا شاملا للتصديق وللعزم على الامتثال، وهذا ما خرج عن قول وتعريف الحنفية.

والجهة الثانية أن العمل يمتثل فعلا فإذا كان كذلك كان التنصيص على دخول العمل في مسمى الإيمان هو مقتضى الإيمان بالآيات وبالأحاديث، لأن حقيقة الإيمان فيما تؤمن به من القرآن في الأوامر والنواهي في الإجمال والتفصيل أنك تؤمن بأن تعمل، وتؤمن بأن تنتهي، وإلا فلو لم يدخل هذا في حقيقة الإيمان لم يحصل فرق ما بين الذي دخل في الإيمان بيقين والذي دخل في الإيمان بنفاق.

يبين لك ذلك أن الجهة هذه وهي جهة انفكاك العمل عن الاعتقاد، انفكاك العمل عن التصديق هذه حقيقة داخلة فيما فرق الله ﷻ به فيما بين الإسلام والإيمان.

ومعلوم أن الإيمان إذا قلنا إنه إقرار وتصديق فإنه لابد له من إسلام وهو امتثال الأوامر والاستسلام لله بالطاعات، لهذا نقول إن مسألة الخلاف هل هو لفظي أو هو حقيقي راجعة إلى النظر في العمل، هل العمل داخل امتثالا فيما أمر الله ﷻ به أم لم يدخل امتثالا فيما أمر الله ؟ به؟ والنبي ﷺ بين أنه يأمر بالإيمان "آمركم بالإيمان بالله وحده"، والله ﷻ أمر بالإيمان (يا أيها الذين آمنوا آمنوا) [النساء: ١٣٦]. فالإيمان مأمور به، وتفاصيل الإيمان بالاتفاق بين أهل السنة وبين مرجئة الفقهاء يدخل شعب الإيمان، يدخل فيها الأعمال الصالحة؛ لكنها تدخل في المسمى من جهة كونها مأمورا بها، فمن امتثل الأمر على الإجمال والتفصيل فقد حقق الإيمان، وإذا لم يمتثل الأمر على الإجمال والتفصيل فإنه بعموم الأوامر لا يدخل في الإيمان، وهذه يكون فيها النظر مشكلا من جهة:

هل يتصور أن يوجد أحد يؤمن بالإيمان، يؤمن بما أنزل الله ﷻ ولا يفعل خيرا البتة، لا يفعل خيرا قط، لا يمتثل واجبا ولا ينتهي عن محرم مع اتساع الزمن وإمكانه؟ في الحقيقة هذا لا يتصور أن يكون أحد يقول أنا مؤمن ويكون إيمانه صحيحا ولا يعمل

=

وهذا موافق لما قرره شيخ الإسلام، من جعل الخلاف مع هؤلاء المرجئة لفظيًا، إذا أقروا بأن أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب.

ومنهم: الحافظ الذهبي، فقد قال في سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٣٣): قال معمر: قلت لحماد: كنت رأسا وكنت إماما في أصحابك، فخالفتهم فصرت تابعا. قال: إني أن أكون تابعا في الحق، خير من أن أكون رأسا في الباطل.

قلت: يشير معمر إلى أنه تحول مرجئا إرجاء الفقهاء، وهو أنهم لا يعدّون

=

صالحا مع إمكانه، لا يعمل أي جنس من الطاعات خوفا من الله ﷻ، ولا ينتهي عن أي معصية خوفا من الله سبحانه وتعالى، هذا لا يتصور.

ولهذا حقيقة المسألة ترجع إلى الإيمان بالأمر، الأمر بالإيمان في القرآن وفي السنة كيف يؤمن به؟ كيف يحققه؟ يحقق الإيمان بعمل، بجنس العمل الذي يمتثل به، فرجع إذا أن يكون الامتثال داخل في حقيقة الإيمان بأمره، وإلا فإنه حينئذ لا يكون فرقا بين من يعمل ومن لا يعمل، لهذا نقول إن الإيمان الحق بالنص، بالدليل يعني بالكتاب والسنة بالله وبرسوله ﷺ وبكتابه لابد له من امتثال، وهذا الامتثال لا يتصور أن يكون غير موجود للمؤمن، أن يكون مؤمن ممكن أن يعمل ولا يعمل البتة، وإذا كان كذلك، كان إذا جزءا من الإيمان لـ:

أولا لدخوله في تركيبه، والثاني أنه لا يتصور في الامتثال للإيمان والإيمان بالأمر أن يؤمن ولا يعمل البتة، إذا فتحصل من هذه الجهة أن الخلاف ليس صوريا من كل جهة؛ بل ثم جهة فيه تكون لفظية، وثم جهة فيه تكون معنوية، والجهات المعنوية والخلاف المعنوي كثيرة متنوعة، لهذا قد ترى من كلام بعض الأئمة من يقول أن الخلاف بين مرجئة الفقهاء وبين أهل السنة صوري؛ لأنهم يقولون العمل شرط زائد لا يدخل في المسمى، وأهل السنة يقولون لا هو داخل في المسمى فيكون إذا الخلاف صوري، من قال الخلاف صوري فلا يظن أنه يقول به في كل صور الخلاف، وإنما يقول به من جهة النظر إلى التكفير وإلى ترتب الأحكام على من لم يعمل، أما من جهة الأمر، من جهة الآيات والأحاديث والاعتقاد بها والإيقان بالامتثال فهذا لابد أن يكون الخلاف حينئذ حقيقيا.

الصلاة والزكاة من الإيمان، ويقولون: الإيمان إقرار باللسان، ويقين في القلب، والنزاع على هذا لفظي إن شاء الله، وإنما غلو الإرجاء من قال: لا يضر مع التوحيد ترك الفرائض. نسأل الله العافية.اهـ.

وصرح بعض أهل العلم بأن الخلاف حقيقي جوهري، بإطلاق:

فقال الشيخ ابن باز ضمن مجموع فتاوى ومقالات الشيخ (١/ ٢٦٥) معلقا على قول الطحاوي في عقيدته المشهورة: (والإيمان هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان): (هذا التعريف فيه نظر وقصور، والصواب الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصر، وقد ذكر الشارح ابن أبي العز جملة منها فراجعها إن شئت. وإخراج العمل من الإيمان هو قول المرجئة، وليس الخلاف بينهم وبين أهل السنة فيه لفظيًا، بل هو لفظي ومعنوي، ويترتب عليه أحكام كثيرة، يعلمها من تدبر كلام أهل السنة وكلام المرجئة، والله المستعان.اهـ.

وقال العلامة الألباني في تعليقه على الطحاوية (ص٤٢) معلقا على كلام الطحاوي أيضا: هذا مذهب الحنفية والماتريدية، خلافًا للسلف وجماهير الأئمة كمالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وغيرهم، فإن هؤلاء زادوا على الإقرار والتصديق: العمل بالأركان، وليس الخلاف بين المذهبين اختلافًا صوريًا كما ذهب إليه الشارح رحمه الله تعالى، بحجة أنهم جميعًا اتفقوا على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الإيمان، وأنه في مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. فإن هذا الاتفاق وإن كان صحيحًا، فإن الحنفية لو كانوا غير مخالفين للجماهير مخالفة حقيقية في إنكارهم أن العمل من الإيمان، لاتفقوا معهم على

أن الإيمان يزيد وينقص وأن زيادته بالطاعة، ونقصه بالمعصية، مع تضافر أدلة الكتاب والسنة والآثار السلفية على ذلك، وقد ذكر الشارح طائفة طيبة منها (ص٣٤٢ - ٣٤٤) ولكن الحنفية أصروا على القول بخلاف تلك الأدلة الصريحة في الزيادة والنقصان، وتكلفوا في تأويلها تكلفًا ظاهرًا، بل باطلًا، ذكر الشارح (ص٣٤٢) نموذجًا منها، بل حكى عن أبي المعين النسفي أنه طعن في صحة حديث: (الإيمان بضع وسبعون شعبة ..) مع احتجاج كل أئمة الحديث به، ومنهم البخاري ومسلم في صحيحيهما، وهو مخرج في الصحيحة (١٧٦٩) وما ذلك إلا لأنه صريح في مخالفة مذهبهم! ثم كيف يصح أن يكون الخلاف المذكور صوريًا، وهم يجيزون لأفجر واحد منهم أن يقول: إيماني كإيمان أبي بكر الصديق! بل كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبريل وميكائيل عليه الصلاة والسلام! كيف وهم بناء على مذهبهم هذا لا يجيزون لأحدهم - مهما كان فاجرًا فاسقًا - أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، بل يقول: أنا مؤمن حقًا! والله ﷻ يقول: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) [الأنفال: ٢ - ٤]، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلا) [النساء: ١٢٢] وبناء على ذلك كله اشتطوا في تعصبهم، فذكروا أن من استثنى في إيمانه فقد كفر! وفرعوا عليه أنه لا يجوز للحنفي أن يتزوج بالمرأة الشافعية! وتسامح بعضهم- زعموا - فأجاز ذلك دون العكس، وعلل ذلك بقوله: تنزيلًا لها منزلة أهل الكتاب! وأعرف شخصًا من شيوخ الحنفية خطب ابنته رجل من شيوخ الشافعية، فأبى قائلًا: لولا أنك شافعي! فهل بعد هذا مجال للشك في أن الخلاف حقيقي؟ ومن

شاء التوسع في هذه المسألة فليرجع إلى كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية: (الإيمان) فإنه خير ما ألف في هذا الموضوع.اهـ.

الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل وكشف شبهات المعاصرين لمحمد بن محمود آل خضير (١/ ٢٧١، ٢٨٣).

المسألة الرابعة: العمل ركن من أركان الإيمان

المتقرر عند أهل السنة والجماعة هو تلازم عمل الجوارح الظاهرة وأعمال القلوب الباطنة لا يمكن تصور وجود أحدهما دون الآخر، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتاوى (٧/ ٢٢١): "والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه".اهـ.، وبهذا صرح أئمة الدين وحكوه عقيدة لأهل السنة، ولنذكر عددًا ممن قرر ذلك:

١- قال أبو جعفر الطبري في تهذيب الآثار مسند ابن عباس (٢/ ٦٨٥) وذكر من حيث الأثر أحاديث مرسلة عن النبي ﷺ (أن الإيمان قول وعمل) فقال: "فأخبر النبي ﷺ أن اسم الإيمان المطلق، إنما هو للمعرفة بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح، دون بعض ذلك وأما من النظر مما لا يدفع صحته ذُو فطره صحيحة، وذلك الشهادةُ لقول قائل قال قولًا أو وَعَد عِدَةً، ثم أنجز وعده، وحقَّق بالفعل قولَه "صدَّق فلانٌ قولَه بفعلِه"، ولا يدفعُ مع ذلك ذو معرفة بكلام العرب، صحة القول بأن الإيمان التصديقُ فإذا كان الإيمان في كلامها التصديق، والتصديق يكونُ بالقلب واللسان والجوارح، وكان تصديق القلب العزم والإذعان، وتصديق اللسان الإقرار، وتصديق الجوارح السَّعي والعمل؛ كان المعنى الذي به يستحق العبد المدحَ والولاية من المؤمنين، هو إتيانه بهذه المعاني الثلاثة، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر، وعمل

على غير علم منه ومعرفة بربه، أنه لا يستحق اسم مؤمن وأنه لو عرف وعلم وجحد بلسانه وكذَّب وأنكر ما عرف من توحيد ربه، أنه غير مستحق اسم مؤمن. فإذا كان ذلك كذلك، وكان صحيحًا أنه غيرُ مُستحقٍ غيرُ المُقِر اسمَ مؤمن، ولا المُقِرُّ غير العارف مستحق ذلك، كان كذلك غير مستحق ذلك بالإطلاق: العارف المُقِر غير العامل، إذ كان ذلك أحد معاني الإيمان التي بوجود جميعها في الإنسان يستحق اسم مؤمن بالإطلاق".

٢- وقال الإمام محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥١٧): "ولو أقر، ثم لم يؤد حقه، كان كمن جحده في المعنى، إذ استويا في الترك للأداء، فتحقيق ما قال أن يؤدي إليه حقه، فإن أدى جزءًا منه، حقق بعض ما قال، ووفّى ببعض ما أقر به، وكلما أدى جزءًا، ازداد تحقيقًا لما أقرَّ به، وعلى المؤمن الأداء أبدًا لما أقر به، حتى يموت".

٣- وقال سهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما نقله شيخ الإسلام في الفتاوى (٧/ ١٧١) مقرًا له أنه سئل عن الإيمان ما هو ؟ فقال: "هو قول ونية وعمل وسنة؛ لأن الإيمان إذا كان قولًا بلا عمل فهو كفر، وإذا كان قولًا وعملًا بلا نية فهو نفاق، وإذا كان قولًا وعملًا ونية بلا سنة فهو بدعة". وانظر(الإبانة: ٢/ ٨١٤).

٤- وقال أبو طالب المكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما نقله شيخ الإسلام في الفتاوى (٧/ ٣٣٣): " الإيمان والإسلام أحدهما مرتبط بالآخر فهما كشيء واحد، لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه - ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه من حيث اشترط الله للأعمال الصالحة الإيمان ؛ واشترط للإيمان الأعمال الصالحة؛ فقال في

تحقيق ذلك: فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وقال في تحقيق الإيمان بالعمل: ومن يأته مؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجت العلى فمن كان ظاهره أعمال الإسلام ولا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق نفاقًا ينقل عن الملة، ومن كان عقده الإيمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفرًا لا يثبت معه توحيد ؛ ومن كان مؤمنا بالغيب مما أخبرت به الرسل عن الله عاملًا بما أمر الله فهو مؤمن مسلم ... فلا إيمان إلا بعمل ولا عمل إلا بعقد. ومَثَلُ ذلك مَثَلُ العمل الظاهر والباطن أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وعمل الجوارح. ومثله قول رسول الله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات)؛ أي لا عمل إلا بعقد وقصد، لأن إنما تحقيق للشيء ونفي لما سواه؛ فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات، وعمل القلوب من النيات. فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان لا يصح الكلام إلا بهما؛ لأن الشفتين تجمع الحروف، واللسان يظهر الكلام، وفي سقوط أحدهما بطلان الكلام، وكذلك في سقوط العمل ذهاب الإيمان).

٥- وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في شرح السنة للبغوي (١/ ١١): "أصل الإسلام: الاستسلام والانقياد، وأصل الإيمان: التصديق. وقد يكون المرء مستسلمًا في الظاهر غير منقاد في الباطن، ولا يكون صادقَ الباطن غير منقاد في الظاهر".

٦- وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح السنة (١/ ١٠): "والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإيمان والإسلام جميعًا، ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى (إن الدين عند الله الإسلام) (ورضيت لكم الإسلام دينًا) (ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه)، فأخبر أن الدين الذي رضيه ويقبله من عباده هو الإسلام،

ولن يكون الدّينُ في محل القبول والرضى إلا بانضمام التصديق إلى العمل".

٧- وكذا قال الآجري في الشريعة، وقال أيضا في كتابه الأربعين حديثًا (١٣٥-١٣٧): " اعلموا رحمنا الله وإياكم أن الذي عليه علماء المسلمين: أن الإيمان واجب على جميع الخلق: وهو التصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح ... ولا تجزئ معرفة بالقلب والنطق باللسان حتى يكون معه عمل بالجوارح . فإذا كملت الخصال الثلاث كان مؤمنًا ... فالأعمال بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللسان. فمن لم يصدق الإيمان بعمله وبجوارحه مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد أشباه لهذه، ورضي لنفسه المعرفة والقول دون العمل لم يكن مؤمنًا، ولم تنفعه المعرفة والقول".

٨- وقال ابن بطة العكبري في الإبانة (٢/ ٧٩٥): " فقد تلوت عليكم من كتاب الله ﷻ ما يدل العقلاء من المؤمنين أن الإيمان قول وعمل، وأن من صدق بالقول وترك العمل كان مكذبًا وخارجًا من الإيمان. وأن الله لا يقبل قولًا إلا بعمل، ولا عملًا إلا بقول).

٩- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٧/ ٣٦٣).: "وقول القائل: الطاعات ثمرات التصديق الباطن، يراد به شيئان يراد به أنها لوازم له، فمتى وجد الإيمان الباطن وجدت وهذا مذهب السلف وأهل السنة. ويراد به أن الإيمان الباطن قد يكون سببًا، وقد يكون الإيمان الباطن تامًا كاملًا وهي لم توجد، وهذا قول المرجئة من الجهمية وغيرهم".

وقال في الفتاوى أيضا (٧/ ١٢٨): "بل القرآن والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق، وهذا في القرآن أكثر بكثير من معنى الصلاة والزكاة، فإن تلك إنما فسرتها السنة، والإيمان بين

معناه الكتاب والسنة وإجماع السلف".

وقال في الفتاوى (٧/ ٦٢١): وقد تبين أن الدين لابد فيه من قول وعمل، وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنًا بالله ورسوله بقلبه أو بقلبه ولسانه ولم يؤد واجبًا ظاهرًا، ولا صلاة ولا زكاة ولا صيامًا ولا غير ذلك من الواجبات، لا لأجل أن الله أوجبها، مثل أن يؤدي الأمانة و يصدق الحديث، أو يعدل في قسمه وحكمه، من غير إيمان بالله ورسوله، لم يخرج بذلك من الكفر، فإن المشركين وأهل الكتاب يرون وجوب هذه الأمور، فلا يكون الرجل مؤمنًا بالله ورسوله مع عدم شيء من الواجبات التي يختص بإيجابها محمد ﷺ).

وقال في الفتاوى (٧/ ٦١١): "ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنًا إيمانًا ثابتًا في قلبه؛ بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ولا يصوم من رمضان ولا يؤدي لله زكاة ولا يحج إلى بيته، فهذا ممتنع، ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقته لا مع إيمان صحيح، ولهذا إنما يصف سبحانه بالامتناع عن السجود الكفار".

وقال في الفتاوى (٧/ ٥٠٥): والمأثور عن الصحابة وأئمة التابعين وجمهور السلف وهو مذهب أهل الحديث وهو المنسوب إلى أهل السنة أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وأنه يجوز الاستثناء فيه كما قال عمير بن حبيب الخطمي وغيره من الصحابة: الإيمان يزيد وينقص فقيل له: وما زيادته ونقصانه ؟ فقال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته . وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه . فهذه الألفاظ المأثورة عن جمهورهم . وربما قال بعضهم وكثير من المتأخرين: قول وعمل ونية وربما قال آخر: قول وعمل ونية واتباع السنة؛ وربما قال: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل

بالأركان أي بالجوارح . وروى بعضهم هذا مرفوعا إلى النبي ﷺ في النسخة المنسوبة إلى أبي الصلت الهروي عن علي بن أبي موسى الرضا وذلك من الموضوعات على النبي ﷺ باتفاق أهل العلم بحديثه . وليس بين هذه العبارات اختلاف معنوي ولكن القول المطلق والعمل المطلق؛ في كلام السلف يتناول قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح فقول اللسان بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين وهذا لا يسمى قولا إلا بالتقييد . كقوله تعالى: {يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم} وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب هي من أعمال المنافقين؛ التي لا يتقبلها الله.

فقول السلف: يتضمن القول والعمل الباطن والظاهر؛ لكن لما كان بعض الناس قد لا يفهم دخول النية في ذلك؛ قال بعضهم: ونية . ثم بين آخرون: أن مطلق القول والعمل والنية لا يكون مقبولا إلا بموافقة السنة . وهذا حق أيضا فإن أولئك قالوا: قول وعمل ليبينوا اشتماله على الجنس ولم يكن مقصودهم ذكر صفات الأقوال والأعمال؛ وكذلك قول من قال: اعتقاد بالقلب؛ وقول باللسان وعمل بالجوارح . جعل القول والعمل اسما لما يظهر؛ فاحتاج أن يضم إلى ذلك اعتقاد القلب ولا بد أن يدخل في قوله: اعتقاد القلب أعمال القلب المقارنة لتصديقه مثل حب الله وخشية الله؛ والتوكل على الله ونحو ذلك . فإن دخول أعمال القلب في الإيمان أولى من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها.

١٠- وقال الإمام ابن القيم في الفوائد (٢٨٣): "الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية . ولا يجزىء

باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذّر بعجز أو إكراه وخوف هلاك. فتخلف العمل ظاهرًا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان".

وقال أيضا في الفوائد (٢٠٤): "فكل إسلام ظاهر لا ينفذُ صاحبُه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة، فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن. وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبُها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت، فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم يُنْجه ذلك من النار، كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقة الإيمان لم يُنْجه من النار".

١١- وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في الدرر السنية: ١/ ١٢٤) وذكر قول وهب بن منبه - مفتاح الجنة لا إله إلا الله ولابد لها من أسنان فإن جاء بالأعمال وإلا لم يفتح له - قال: "إذا فهمت ذلك فالمسألة الأولى واضحة، مراده الرد على من ظن دخول الجنة بالتوحيد وحده بدون الأعمال.

١٢- وقال سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ في شرح كشف الشبهات (١٢٦): "بل إجماع بين أهل العلم (أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل)، فلا بد من الثلاثة، لابد أن يكون هو المعتقد في قلبه، ولابد أن يكون هو الذي ينطق به لسانه، ولابد أن يكون هو الذي تعمل به جوارحه، فإن اختل شيء من هذا لو وحّد بلسانه دون قلبه ما نفعه توحيده، ولو وحد بقلبه وأركانه دون لسانه ما نفعه ذلك، ولو وحَّد بأركانه دون الباقي لم يكن الرجل مسلمًا، هذا إجماع أن الإنسان لابد أن يكون موحدًا باعتقاده ولسانه وعمله. فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند إذا اعتقد ولا نطق ولا عمل بالحق بأركانه فهذا كافر عند جميع الأمة".

١٣- وقال الشيخ حافظ الحكمي في معارج القبول (٢/ ٢٣): "ومحال أن ينتفي انقياد الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب، قال النبي ﷺ: (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، إلا وهي القلب).

١٤- سئل سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز في حوارٌ أَجرتْه مع سماحة الشيخ مجلة المشكاة المجلد الثاني (الجزء الثاني ص: ٢٧٩، ٢٨٠): المشكاة: ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح عندما تكلم عن مسألة الإيمان والعمل، وهل هو داخل في المسمى ذكر أنه شرط كمال، قال الحافظ: والمعتزلة قالوا هو العمل والنطق والاعتقاد، والفارقُ بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطًا في صحته، والسلف جعلوها شرطًا في كماله[1].

---

(١) سئل الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ٣٤٨): هل القول أن العمل شرط في صحة الإيمان صحيح، وإذا كان غير صحيح نرجو ذكر السبب، وكذلك القول إن العمل شرط في كمال الإيمان؟

فأجاب: كلمة (شرط) لا يدخلها أهل السنة في الكلام على مسمى الإيمان، الإيمان له حقيقة، وحقيقته التي يقوم عليها هي أركانه وليست شروطه، الشرط يسبق المشروط، أما الأركان فهي ما تقوم عليه حقيقة الشيء... فالإيمان قول وعمل: قول اللسان، تصديق الجنان، عمل الأركان. هذه أركان للإيمان (القول والعمل والإعتقاد) وليست شروطا؛ لأن الشروط خارجة عن المسمى، والسلف أجمعوا على أن مسمى الإيمان: الإعتقاد والقول والعمل. وبه تميزوا عن باقي الفرق الأخرى، لهذا إدخال كلمة شرط تدل على عدم فهم حقيقة معنى الركن وحقيقة معنى الشرط، قبل أن يبحث هل هو شرط كمال أو شرط صحة، هذا ليس بحثا صحيحا لأنه:

* عندنا -أهل السنة- أن العمل ركن في الإيمان.
* عند الخوارج العمل شرط في صحة الإيمان.
* وعند المعتزلة أنه شرط في الصحة.

=

فأجاب سماحة الشيخ: لا، هو جزء، ما هو بشرط كمالٍ، هو جزء من الإيمان . هذا قول المرجئة المرجئة يرون الإيمان قولٌ وتصديقٌ فقط، والآخرون يقولون: المعرفة، وبعضهم يقول التصديق وكل هذا غلطٌ الصواب عند أهل السنة أن الإيمان قولٌ وعملٌ وعقيدةٌ، كما في الواسطية، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

المشكاة: المقصود بالعمل جنس العمل ؟ سماحة الشيخ: من صلاةٍ وصومٍ وغيرهما، عمل القلب من خوفٍ ورجاءٍ.اهـ.

١٥- وقال العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٤/ ٢٨-٢٩): إن الإيمان بدون عمل لا يفيد؛ فالله ﷻ حينما يذكر الإيمان يذكره مقرونًا

=

عندنا ليست كذلك؛ بل العمل ركن من الأركان.

إذا نظرت إلى أنواع الحكم التكليفي والحكم الوضعي وماهية المسميات التي تدل على الأسماء بان لك أن الركن هو ما يقوم عليه الشيء؛ يعني لا يمكن أن يتصورالشيء إلا به، والشرط هو مصحح للأركان.... فالذي يتكلم في الإيمان وإذا تكلم عن العمل أتى بكلمة شرط فإنه لم يفهم مذهب السلف لأن الشرط، لا يمكن أن تقول الإيمان قول وعمل وتقول العمل شرط، كيف يكون الإيمان قول وعمل، ويكون العمل شرط؟ الشرط خارج عن الحقيقة.

فإذا كانت حقيقة الإيمان قول وعمل، باتفاق السلف، بالإجماع، بإجماع السلف، حتى إن البخاري ذكروا عنه أنه لم يرو في كتابه لمن لم يقل الإيمان قول وعمل.

إذا كان الإيمان قول وعمل معناه هذه حقيقة الإيمان، فكيف يجعل العمل شرط؟

فإذا جعلنا العمل شرطا معناه أخرجناه من كونه ركنا وجعلناه شرطا للقول أو شرطا للإعتقاد، فإما أن ندخل في مذهب المرجئة أو ندخل في مذهب الخوارج والمعتزلة، وهذه مسائل مهمة تبين لك ضرورة الاتصال بعلم أصول الفقه وتعريفات الأشياء حتى يفهم معنى اللفظ ودلالته، وهذا كتفصيل للإجمال الذي به غلطنا المحشي للطحاوية على حاشيته.

بالعمل الصالح؛ لأننا لا نتصور إيمانًا بدون عمل صالح، إلا أن نتخيله تخيلًا، آمن من هنا، قال: أشهد ألا إله إلا الله ومحمد رسول الله، ومات من هنا، هذا نستطيع أن نتصوره، لكن إنسان يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ويعيش دهره مما شاء الله ولا يعمل صالحًا؛ فعدم عمله الصالح هو دليل أنه يقولها بلسانه، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه؛ فذكر الأعمال الصالحة بعد الإيمان ليدل على أن الإيمان النافع هو الذي يكون مقرونًا بالعمل الصالح.اهـ. كلام الألباني.

وقد حكى جماعة ممن لا يسع رد قولهم من الأئمة الإجماع على أن الإيمان بلا عمل لا يصح ولا يجزئ أو نسبوه لأهل السنة وفقهاء الملة، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (١/ ٣٩) عند قوله تعالى (يؤمنون بالغيب) وذكر قول من قال يؤمنون أي يصدقون فقال: "قال ابن جرير: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولًا واعتقادًا وعملًا، وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإيمان بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل. قلت أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين)، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين)، وكذلك إذا استعمل مقرونًا مع الأعمال كقوله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات). فأما إذا استعمل مطلقًا، فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا وقولًا وعملًا. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة وغير واحد إجماعًا أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص.اهـ. وإليك نصوص الأئمة في ذلك.

١- قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (الإبانة لابن بطة ٢/ ٨٠٧): قال: "لا يستقيم

الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة. وكان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل، والعمل من الإيمان، والإيمان من العمل، وإنما الإيمان اسم يجمع هذه الأديان اسمها، ويصدقه العمل، فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصدق بعمله فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها. ومن قال بلسانه ولم يعرف بقلبه ولم يصدقه بعمله لم يقبل منه وكان في الآخرة من الخاسرين".

٢- وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ (ابن بطة في الإبانة ١/ ٣٣٣): "كان الفقهاء يقولون: لا يستقيم قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة".

وقال أيضًا (شرح أصول الاعتقاد للالكائي ٥/ ٩٨٠): " أهل السنة يقولون: الإيمان قول وعمل مخافة أن يزكوا أنفسهم، لا يجوز عمل إلا بإيمان، ولا إيمان إلا بعمل، فإن قال: من إمامك في هذا؟ فقل سفيان الثوري".

٣- وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ(السنة لعبد الله بن أحمد: ١/ ٣٤٦ و الشريعة للآجري: ١/ ٢٧١): "الإيمان قول وعمل. قال: أخذناه ممن قبلنا: قول وعمل، وأنه لا يكون قول إلا بعمل".

٤- وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ (شرح أصول الاعتقاد للالكائي: ٥/ ٨٨٦): "وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم أن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر". وانظر [مجموع الفتاوى: ٧/ ٣٠٨]

٥- وقال الحميدي رَحِمَهُ اللَّهُ (السنة للخلال: ٥٨٦،شرح أصول الاعتقاد للالكائي: ٥/ ٨٨٧) ونقله شيخ الإسلام في (الفتاوى: ٧/ ٢٠٩) عنه مقرًا له

حيث قال: "أُخبرتُ أن ناسًا يقولون: من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئًا حتى يموت، أو يصلي مستدبر القبلة حتى يموت، فهو مؤمن ما لم يكن جاحدًا إذا علم أن تركه ذلك في إيمانه، إذا كان يقر بالفرائض واستقبال القبلة. فقلت: هذا الكفر الصراح، وخلاف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلماء المسلمين. قال الله جل وعز (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة(. قال حنبل: سمعت أبا عبدالله -يعني أحمد بن حنبل- يقول: من قال هذا فقد كفر بالله، ورد على الله أمره وعلى الرسول ما جاء به".

٦- وقال أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللهُ في كتاب الإيمان (٦٥،٦٦): " فلم يجعل الله للإيمان حقيقة إلا بالعمل على هذه الشروط، والذي يزعم أنه بالقول خاصة يجعله مؤمنًا حقًا، وإن لم يكن هناك عمل فهو معاند لكتاب الله والسنة ... أفلست تراه تبارك وتعالى، قد امتحنهم بتصديق القول بالفعل ؟ ولم يرض منهم بالإقرار دون العمل ؟ حتى جعل أحدهما من الآخر، فأي شيء يتبع بعد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومنهاج السلف بعده الذين هم موضع القدوة والإمامة؟!. فالأمر الذي عليه السنة عندنا ما نص عليه علماؤنا مما اقتصصنا في كتابنا هذا: أن الإيمان بالنية والقول والعمل جميعًا".

٧- قال الحافظ ابن رجب فتح الباري (١/ ٢١) وذكر تكفير تارك الصلاة: "وحكاه إسحاق بن راهوية إجماعًا منهم، حتى إنه جعل قول من قال لا يكفر بترك هذه الأركان أنها من أقوال المرجئة". (انظر تعظيم قدر الصلاة: ٢/ ٩٢٩)

٨- وقال أبو طالب المكي رَحِمَهُ اللهُ فيما نقله شيخ الإسلام عنه في الفتاوى (٧/ ٣٣٦): "وأيضًا الأمة مجتمعة أن العبد لو آمن بجميع ما ذكره من عقود

القلب في حديث جبريل من وصف الإيمان ولم يعمل بما ذكره من وصف الإسلام أنه لا يسمى مؤمنًا، وأنه إن عمل بجميع ما وصف به الإسلام، ثم لم يعتقد ما وصفه من الإيمان أنه لا يكون مسلمًا، وقد أخبرنا النبي ﷺ أن أمته لا تجتمع على ضلالة".

٩- وقال الحافظ ابن أبي زيد القيرواني مالك الصغير كما في اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (١٥٢،١٥٠): "فصل فيما أجمعت عليه الأمة من أمور الديانة ومن السنن التي خلافها بدعةٌ وضلالة: ... وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد ذلك بالطاعة، وينقص بالمعصية نقصًا عن حقائق الكمال لا محبط للإيمان، ولا قول إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بموافقة السنة".

١٠- وقال الآجري في كتابه الأربعين حديثًا (١٣٥-١٣٧): " اعلموا رحمنا الله وإياكم أن الذي عليه علماء المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق: وهو التصديق القلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح ... ولا تجزئ معرفة بالقلب والنطق باللسان حتى يكون معه عمل بالجوارح، فإذا كملت الخصال الثلاث كان مؤمنًا حقًا، دل على ذلك الكتاب والسنة وقول علماء المسلمين ... فالأعمال بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللسان. فمن لم يصدق الإيمان بعمله وبجوارحه مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد أشباه لهذه، ورضي لنفسه المعرفة والقول دون العمل لم يكن مؤمنًا ولم تنفعه المعرفة والقول، وكان تركه للعمل تكذيبًا منه لإيمانه، وكان العمل بما ذكرنا تصديقًا منه لإيمانه، فاعلم ذلك . هذا مذهب العلماء المسلمين قديمًا وحديثًا".

١١- وقال ابن بطة في الإبانة (٢/ ٧٦٠) باب بيان الإيمان وفرضه وأنه تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح والحركات، لا يكون العبد مؤمنا إلا بهذه الثلاث.

قال الشيخ: اعلموا رحمكم الله أن الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه فرض على القلب المعرفة به، والتصديق له ولرسله ولكتبه، وبكل ما جاءت به السنة، وعلى الألسن النطق بذلك والإقرار به قولا، وعلى الأبدان والجوارح العمل بكل ما أمر به، وفرضه من الأعمال لا تجزئ واحدة من هذه إلا بصاحبتها، ولا يكون العبد مؤمنا إلا بأن يجمعها كلها حتى يكون مؤمنا بقلبه، مقرا بلسانه، عاملا مجتهدا بجوارحه، ثم لا يكون أيضا مع ذلك مؤمنا حتى يكون موافقا للسنة في كل ما يقوله ويعمله، متبعا للكتاب والعلم في جميع أقواله وأعماله، وبكل ما شرحته لكم نزل به القرآن، ومضت به السنة، وأجمع عليه علماء الأمة، فأما فرض المعرفة على القلب، فما قاله الله ﷻ في سورة المائدة: {يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم} [المائدة: ٤١]. وقال في سورة النحل: {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا} [النحل: ١٠٦]، الآية.

وقال ﷻ: {إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا} . فهذا بيان ما لزم القلوب من فرض الإيمان لا يرده ولا يخالفه ويجحده إلا ضال

مضل. وأما بيان ما فرض على اللسان من الإيمان، فهو ما قال الله ﷻ في سورة البقرة: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا} . وقال في سورة آل عمران: {قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب} . إلى آخر الآية، وقال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، وأني رسول الله".

١٢- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح العمدة (٢/ ٨٦): "الإيمان عند أهل السنة و الجماعة: قولٌ و عملٌ كما دل عليه الكتاب و السنة وأجمع عليه السلف، وعلى ما هو مقرر في موضعه.

فالقول تصديق الرسول، والعمل تصديق القول. فإذا خلا العبد عن العمل بالكلية لم يكن مؤمنًا ... و أيضا فإن حقيقة الدين هو الطاعة و الانقياد، و ذلك إنما يتم بالفعل لا بالقول فقط فمن لم يفعل لله شيئا فما دان لله دينًا و من لا دين له فهو كافر".

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا في الاستقامة (٢/ ٣٠٩) وذكر مقولة بعض السلف [لا يُقبل قول إلا بعمل: "وهذا فيه ردٌ على المرجئة الذين يجعلون مجرد القول كافيًا، فأخبر أنه لابد من قول وعمل؛ إذ الإيمان قول وعمل، لا بد من هذين كما بسطناه في غير هذا الموضع، وبيّنا أن مجرد تصديق القلب ونطق اللسان، مع البغض لله وشرائعه، والاستكبار على الله وشرائعه، لا يكون إيمانًا ـ باتفاق المؤمنين ـ حتى يقترن بالتصديق عمل صالح. وأصل العمل عمل القلب، وهو الحب والتعظيم المنافي للبغض والاستكبار".اهـ.

١٣- وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كشف الشبهات (١٢٦): " لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيءٌ من هذا لم يكن الرجل مسلمًا. فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما".

قال أيضًا كما في الدرر السنية (٢/ ١٢٤): " لا خلاف بين الأمة أن التوحيد لا بد أن يكون: بالقلب الذي هو العلم، واللسان الذي هو القول، والعمل الذي هو تنفيذ الأوامر والنواهي.، فإن أخل بشيء من هذا، لم يكن الرجل مسلمًا. فإن أقر بالتوحيد ولم يعمل به؛ فهو: كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما".

١٤- وقال الشيخ سليمان ابن سحمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في الدرر السنية (٢/ ٣٦٢،٣٦٠) في معرض كلامه عن نواقض الإسلام: "ذكر بعضهم أنها قريب من أربعمائة ناقض، ولكن الذي أجمع عليه العلماء، هو ما ذكره شيخ الإسلام وعلم الهداة الأعلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، من نواقض الإسلام، وأنها عشرة ... العاشر: الإعراض عن دين الله، لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى: (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون([السجدة: ٢٢]".

١٥- وقال سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ في شرح كشف الشبهات (١٢٦): "بل إجماع بين أهل العلم (أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل)، فلا بد من الثلاثة، لابد أن يكون هو المعتقد في قلبه، ولابد أن يكون هو الذي ينطق به لسانه، ولابد أن يكون هو الذي تعمل به جوارحه ... هذا إجماع أن الإنسان لابد أن يكون موحدًا باعتقاده ولسانه وعمله... إذا اعتقد ولا نطق ولا عمل بالحق بأركانه فهذا كافر عند جميع الأمة".

وقد صرّح جماعة كثير من أئمة الهدى والدين أنه لا إيمان إلا بعمل حتى صار أصلًا تبنى عليه كتب العقيدة التي يصنفها الأئمة، وشعارًا يُرد فيه على المرجئة الذين يقولون بتخلف العمل عن القول في الإيمان؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الاستقامة (٢/ ٣٠٩): "وقد روى ابن شاهين واللالكائي عن سعيد بن جبير، قال: [لا يُقبل قول إلا بعمل، ولا يُقبل قول وعمل إلا بنيّة، لا يُقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة]، ورويا عن الحسن البصري مثله، ولفظ ما روي عن الحسن: [لا يصلح] مكان [لا يُقبل]. وهذا فيه ردٌ على المرجئة الذين يجعلون مجرد القول كافيًا، فأخبر أنه لابد من قول وعمل؛ إذ الإيمان قول وعمل، لا بد من هذين"أ.هـ، وسأذكر أقوال أئمة التابعين ومن بعدهم في ذلك، ثم أسوق ما ذكر في كتب الاعتقاد التي صنفت لبيان ما لا يسع مخالفته في الاعتقاد عند أهل السنة:

(أ) أقوال بعض الأئمة

١- قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ (شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/ ٥٧): "لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يقبل عمل إلا بقول، ولا يقبل قول وعمل إلا بنية، ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بنية موافقة للسنة).

٢- ومثله عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أخرجه عنه المصنف هنا في، وابن بطة في (الإبانة: ٢/ ٨٠٣)، واللالكائي في (شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ٥٧).

وقال أيضًا كما في تفسير الطبري (٢٢/ ٨٠) عند قوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه(: " "لا يقبل الله قولًا إلا بعمل، من قال وأحسن العمل قبل الله منه".وفي اقتضاء العلم للعمل (١٧٧) قال: "من قال حسنًا وعمل صالحًا رفعه العمل، وذلك بأن الله تعالى يقول (إليه يصعد الكلم

الطيب والعمل الصالح يرفعه).

٣- وقال زيد بن أسلم مولى عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في كتاب الإيمان لابن أبي شيبة (٤٥): "لا بد لأهل هذا الدين من أربع: دخولٌ في دعوة المسلمين، ولابد من الإيمان وتصديق بالله وبالمرسلين أولِهم وآخرِهم، وبالجنة وبالنار، وبالبعث بعد الموت، ولابد من أن تعمل عملًا تصدق به إيمانك).

٤- وقال ميمون بن مهران كما في تهذيب الكمال (٢٩/ ٢١٧-معلقًا) لأصحابه عن راهب نصراني رآه: "فيكم من بلغ من العبادة ما بلغ هذا الراهب؟ قالوا: لا. قال: فما ينفعه ذلك ولم يؤمن بمحمد ﷺ. قالوا: لا ينفعه شيء. قال: كذلك لا ينفع قول إلا بعمل".

٥- وقال الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في الفتاوى لشيخ الإسلام (٧/ ٢٩٥): "كنا نقول الإسلام بالإقرار، والإيمان بالعمل. والإيمان قول وعمل قرينان لا ينفع أحدهما إلا بالآخر". قال شيخ الإسلام بعده: "رواه أبو عمرو الطلمنكي بإسناده المعروف".

٦- الأوزاعي ومالك بن أنس وسعيد بن عبد العزيز، قال الوليد بن مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي: ٤/ ٨٤٨،عقيدة السلف للصابوني: ٦٩): "سمعت الأوزاعي ومالك بن أنس وسعيد بن عبد العزيز ينكرون قول من يقول: إن الإيمان قول بلا عمل، ويقولون: لا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بإيمان".

٧- وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عقيدته (السنة لعبد الله بن أحمد: ١/ ٣٣٧،الحلية لأبي نعيم: ٧/ ٣٢،الإبانة لابن بطة: ١/ ٣٣٣،شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/ ١٥١): "الإيمان قول وعمل ونية، يزيد وينقص: يزيد

بالطاعة وينقص بالمعصية، ولا يجوز [أو لا يقبل] القول إلا بالعمل، ولا يجوز القول والعمل إلا بالنية، ولا يجوز القول والعمل والنية إلا بموافقة للسنة".

٨- وقال الحميدي في كتاب (أصُول السُنَّة- بمسنده: ٢/ ٥٤٦): "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، لا ينفع قول إلا بعمل، ولا عمل وقول إلا بنية، ولا قول وعمل ونية إلا بسنة".

٩- وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ(السنة لعبد الله بن أحمد: ١/ ٣٤٦): "الإيمان قول وعمل. قال: أخذناه ممن قبلنا: قول وعمل، وأنه لا يكون قول إلا بعمل".

١٠- وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ (الإيمان لأبي يعلى: ١٥٣): "الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، إذا

عملت الحسن زاد، وإذا ضيعت نقص، الإيمان لا يكون إلا بعمل". وأسند الخلال في كتابه (السنة: ٣/ ٥٦٦) إلى الإمام العبارة الأخيرة التي هي موطن الشاهد.

١١- وقال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الإيمان (٦٥): "فلم يجعل الله للإيمان حقيقة إلا بالعمل على هذه الشروط، والذي يزعم أنه بالقول خاصة يجعله مؤمنًا حقًا وإن لم يكن هناك عمل فهو معاند لكتاب الله والسنة".

١٢- وقال الفضيل بن عياض ومحمد بن مسلم الطائفي رحمهما الله (السنة لعبد الله بن أحمد: ١/ ٣٣٧): "لا يصلح قول إلا بعمل".

١٣- وقال أبو طالب المكي كما في مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٣٣٤): "لا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بعقد، ومَثَلُ ذلك مَثَلُ العمل الظاهر والباطن أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وعمل الجوارح. ومثله قول رسول

الله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات)؛ أي لا عمل إلا بعقد وقصد، لأن (إنما) تحقيق للشيء ونفي لما سواه، فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وعمل القلوب من النيات، فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان لا يصح الكلام إلا بهما؛ لأن الشفتين تجمع الحروف واللسان يظهر الكلام، وفي سقوط أحدهما بطلان الكلام وكذلك في سقوط العمل ذهاب الإيمان".

١٤- وقال أبو جعفر الطبري في تهذيب الآثار- مسند ابن عباس(٢/ ٦٨٥) " ... إذا كان ذلك كذلك، وكان صحيحًا أنه غيرُ مُستحقٍ غيرُ المُقِر اسمَ مؤمن، ولا المُقِرُّ غير العارف مستحق ذلك، كان كذلك غير مستحق ذلك بالإطلاق العارف المُقِر غير العامل، إذ كان ذلك أحد معاني الإيمان التي بوجود جميعها في الإنسان يستحق اسم مؤمن بالإطلاق".

(ب) تقرير أهل السنة في كتب العقائد من أنه لا يقبل إيمان إلا بعمل

١- قال المزني تلميذ الشافعي رحمهما الله في كتابه شرح السنة له (٨١): "والإيمان قول وعمل، وهما سيّان ونظامان وقرينان لا نفرق بينهما، لا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بإيمان".

٢- وقال أبو عمر العدني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الإيمان (٧٩): "باب ملازمة العمل للإيمان"، ثم ذكر حديث محمد بن علي مرسلًا "الإيمان بالله والعمل قرينان لا يصلح واحد منهما إلا مع صاحبه".

٣- قال أبو زيد القيرواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الرسالة (٣٨):"... وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها، فيكون فيها النقص وبها الزيادة. ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة".

٤- وقال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا في كتابه أصول السنة (٢٠٧): "الإيمان بالله هو: باللسان والقلب، وتصديق ذلك بالعمل، فالقول والعمل قرينان لا يقوم أحدهما إلا بصاحبه".

٥- قال الآجري في كتابه الأربعين حديثًا (١٣٥): "الذي عليه علماء المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق: وهو التصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح ...

لا تجزئ معرفة بالقلب والنطق باللسان حتى يكون معه عمل بالجوارح".

٦- وقال ابن بطة العكبري في الإبانة (٢/ ٧٩٥): " (فقد تلوت عليكم من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ما يدل العقلاء من المؤمنين أن الإيمان قول وعمل، وأن من صدق بالقول وترك العمل كان مكذبًا وخارجًا من الإيمان وأن الله لا يقبل قولًا إلا بعمل، ولا عملًا إلا بقول".

المسألة الخامسة: هل الإيمان مخلوق

هذه المسألة تفرعت عن مسألة خلق القرآن زمن محنة الجهمية والفتنة المشهورة فهي وليدة هذه الفتنة ومنها نشأ النزاع فيها هل الإيمان مخلوق أم لا؟ قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٦٥٥) لما سئل: هل الإيمان مخلوق أم غير مخلوق؟.

فأجاب: أن هذه المسألة نشأ النزاع فيها لما ظهرت محنة الجهمية في القرآن هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟ وهي محنة الإمام أحمد وغيره من علماء المسلمين، وقد جرت بها أمور يطول وصفها هنا، لكن لما ظهر القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأطفأ الله نار الجهمية المعطلة، صارت طائفة يقولون أن كلام الله الذي أنزله مخلوق، ويعبرون عن ذلك باللفظ، فصاروا

يقولون ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، أو تلاوتنا أو قراءتنا مخلوقة، وليس مقصودهم مجرد كلامهم وحركاتهم بل يدخلون فيه نفس كلام الله الذي نقرؤه بأصواتنا وحركاتنا، وعارضهم طائفة أخرى فقالوا: ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة. فرد الإمام أحمد على الطائفتين وقال: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع. وتكلم الناس حينئذ بالإيمان فقالت طائفة: الإيمان مخلوق وأدرجوا في ذلك ما تكلم الله به من الإيمان مثل (قول لا إله إلا الله)، فصار مقتضى قولهم أن هذه الكلمة مخلوقة، ولم يتكلم الله بها، فبدع الإمام أحمد هؤلاء، وقال: قال النبي ﷺ (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها: قول لا إله إلا الله) أفيكون قول لا إله إلا الله مخلوقا؟. ومراده أن من قال: إن ألفاظنا وتلاوتنا وقراءتنا للقرآن مخلوقة، كان مقتضى كلامه أن الله لم يتكلم بالقرآن الذي أنزله. وأن القرآن المنزل ليس هو كلام الله.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى (٧/ ٦٦٤): وإذا قال: الإيمان مخلوق أو غير مخلوق؟ قيل له: ما تريد (بالإيمان)؟ أتريد شيئا من صفات الله وكلامه، كقول (لا إله إلا الله) و (إيمانه) الذي دل عليه اسمه المؤمن، فهو غير مخلوق. أو تريد شيئا من أفعال العباد وصفاتهم فالعباد كلهم مخلوقون، وجميع أفعالهم وصفاتهم مخلوقة، ولا يكون للعبد المحدث المخلوق صفة قديمة غير مخلوقة، ولا يقول هذا من يتصور ما يقول، فإذا حصل الاستفسار والتفصيل ظهر الهدى وبان السبيل، وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، وأمثالها مما كثر فيه تنازع الناس بالنفي والإثبات إذا فصل فيها الخطاب، ظهر الخطأ من الصواب. والواجب على الخلق أن ما أثبته الكتاب والسنة أثبتوه، وما نفاه الكتاب والسنة نفوه، وما لم ينطق به الكتاب والسنة لا

بنفي ولا إثبات استفصلوا فيه قول القائل: فمن أثبت ما أثبته الله ورسوله، فقد أصاب، ومن نفى ما نفاه الله ورسوله فقد أصاب، ومن أثبت ما نفاه الله أو نفى ما أثبته الله فقد لبس دين الحق بالباطل، فيجب أن يفصل ما في كلامه من حق أو باطل، فيتبع الحق ويترك الباطل، وكل من خالف الكتاب والسنة فإنه مخالف أيضا لصريح المعقول، فإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، كما أن المنقول عن الأنبياء عليهم السلام لا يخالف بعضه بعضا، ولكن كثيرا من الناس يظن تناقض ذلك، وهؤلاء من الذين اختلفوا في الكتاب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦]، ونسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: من قال: الإيمان مخلوق كفر، ومن قال: غير مخلوق ابتدع. فقيل: بالوقف مطلقا، وقيل: أقواله قديمة وأفعاله مخلوقة. قال ابن حمدان في نهاية المبتدئين: وهو أصح، ونقله عن ابن أبي موسى وغيره.

ونقل الإمام الحافظ ابن رجب في طبقات الأصحاب في ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي -قدس الله روحه- ما لفظه قال: روي عن إمامنا أحمد رضي الله عنه أنه قال: من قال: الإيمان مخلوق فهو كافر، ومن قال: قديم فهو مبتدع. قال الحافظ عبد الغني: وإنما كفر من قال بخلقه؛ لأن الصلاة من الإيمان، وهي تشتمل على قراءة وتسبيح وذكر الله عز وجل ومن قال بخلق ذلك كفر، وتشتمل على قيام وقعود وحركة وسكون ومن قال بقدم ذلك ابتدع. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار (١/ ٤٤٦).

المسألة السادسة: حكم إيمان المقلدين

عقد السفاريني فصلًا في ذكر الخلاف في صحة إيمان المقلد في العقائد وعدمها وفي جوازه وعدمه شارحا قوله في منظومته:

وكـل مـا يطلـب فيـه الجـزم ... فمنـع تقليـد بـذاك حـتم

لأنـه لا يكتفـى بـالظن ... لـذي الحجى في قـول أهـل الفـن

وقيـل يكفـي الجـزم إجماعـا بمـا ... يطلـب فيـه عنـد بعـض العلمـا

فالجـازمون مـن عـوام البـشر ... فمسـلمون عنـد أهـل الأثـر

فقال في لوامع الأنوار البهية (١/ ٢٦٧): (وكل ما) أي حكم ومطلوب مما عنه الذكر الحكمي، وهو المعنى الذي يعبر عنه بالكلام الخبري، وهو ما أنبأ عن أمر في نفسك من إثبات أو نفي، والمراد هنا كل اعتقاد (يطلب فيه) أي ذلك الاعتقاد من معرفة الله تعالى، وما يجب له ويستحيل عليه، ويجوز (الجزم) بأن يجزم به جزما لا يحتمل متعلقه النقيض عنده لو قدره في نفسه، فإن طابق الواقع فهو اعتقاد صحيح وإلا ففاسد، فما كان من هذا الباب (فمنع تقليد) وهو لغة وضع الشيء في العنق حال كونه محيطا به، وذلك الشيء يسمى قلادة وجمعها قلائد، وعرفا أخذ مذهب الغير يعني اعتقاد صحته واتباعه عليه بلا دليل، فإن أخذه بالدليل فليس بمقلد له فيه، ولو وافقه فالرجوع إلى قوله ﷺ ليس بتقليد. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- في المسودة: التقليد قبول القول بغير دليل، فليس المصير إلى الإجماع بتقليد، لأن الإجماع دليل، ولذلك يقبل قول النبي ﷺ، ولا يقال تقليد، وقد قال الإمام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في رواية أبي الحارث من قلد الخبر رجوت أن يسلم إن شاء الله تعالى فأطلق اسم التقليد على من صار إلى الخبر، وإن كان حجة بنفسه. انتهى ملخصا. (بذاك) أي بما يطلب فيه الجزم ولا يُكْتَفَى فيه بالظن (حتم) بفتح الحاء المهملة وسكون التاء المثناة

فوق أي لازم واجب، قال علماؤنا وغيرهم يحرم التقليد في معرفة الله تعالى، وفي التوحيد والرسالة، وكذا في أركان الإسلام الخمس، ونحوها مما تواتر واشتهر، عند الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والأكثر وذكره أبو الخطاب عن عامة العلماء، وذكر غيره أنه قول الجمهور قاله في شرح التحرير، قال: وأطلق الحلواني من أصحابنا وغيره منع التقليد في أصول الدين، واستدلوا لتحريم التقليد بأمره سبحانه وتعالى بالتدبر والتفكر والنظر.

وفي صحيح ابن حبان لما نزل في آل عمران: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الآيات [آل عمران: ١٩٠] قال ﷺ: (ويل لمن قرأهن ولم يتدبرهن، ويل له، ويل له) والإجماع على وجوب معرفة الله تعالى، ولا تحصل بتقليد لجواز كذب المخبر، واستحالة حصولها، كمن قلد في حدوث العالم، وكمن قلد في قدمه، ولأن التقليد لو أفاد علما، فإما بالضرورة، وهو باطل، وإما بالنظر، فيستلزم الدليل والأصل عدمه، والعلم يحصل بالنظر، واحتمال الخطأ لعدم مراعاة القانون الصحيح، ولأن الله تعالى ذم التقليد بقوله تعالى إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ [الزخرف: ٢٢] ولقوله تعالى: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللهُ [محمد: ١٩] فألزم الشارع بالعلم، ويلزمنا نحن أيضا؛ لقوله: وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [الأعراف: ١٥٨].

فتعين طلب اليقين في الوحدانية، ويقاس عليها غيرها، والتقليد لا يفيد إلا الظن، ولهذا قال معللا للمنع عنه بقوله (لأنه) أي الشأن والأمر والقصة (لا يكتفى) في أصول الدين، ومعرفة الله رب العالمين (بالظن) الذي هو ترجيح أحد الطرفين على الآخر، فالراجح هو الظن، والمرجوح الوهم، فلا يكتفى به في أصول الدين (لذي) أي لصاحب (الحجى) كإلى أي العقل والفطنة (في قول

أهل الفن) من الأئمة وعلماء المنقول والمعقول من الأصوليين والمتكلمة وغيرهم.

قال العلامة ابن حمدان في نهاية المبتدئين: كل ما يطلب فيه الجزم يمتنع التقليد فيه، والأخذ فيه بالظن لأنه لا يفيده، وإنما يفيده دليل قطعي، قال: في شرح مختصر التحرير: وأجازه - يعني في التقليد في أصول الدين - جمع، قال بعضهم: ولو بطريق فاسد.

قال العلامة ابن مفلح: وأجازه بعض الشافعية لإجماع السلف على قبول الشهادتين من غير أن يقال لقائلها هل نظرت؟ وسمعه الإمام ابن عقيل، عن أبي القاسم ابن التبان المعتزلي قال: وإنه يكتفى بطريق فاسد، وقال هذا المعتزلي: إذا عرف الله، وصدق رسوله، وسكن قلبه إلى ذلك، واطمأن به، فلا علينا من طريق تقليد كان أو نظرا أو استدلالا، وإلى هذا الإشارة بقوله (وقيل يكفي) في أصول الدين (الجزم) ولو تقليدا (إجماعا) (ب) كل (ما) أي حكم (يطلب) بضم أوله مبنيا لما لم يسم فاعله، ونائب الفاعل مضمر يعود على الجزم (فيه) أي فيه ذلك المطلوب من أصول الدين (عند بعض العلماء) من علماء مذهبنا والشافعية والمعتزلة وغيرهم.

قال العنبري وغيره يجوز التقليد في أصول الدين، ولا يجب النظر اكتفاء بالعقد الجازم، لأنه ﷺ كان يكتفي في الإيمان من الأعراب وليسوا أهلا للنظر بالتلفظ بكلمتي الشهادة المنبئ عن العقد الجازم، ويقاس غير الإيمان من أصول الدين عليه.

وقال العلامة ابن حمدان في نهاية المبتدئين: وقيل يكفي الجزم يعني بالظن إجماعا بما يطلب فيه الجزم، (فالجازمون) حينئذ بعقدهم، ولو تقليدا (من

عوام البشر) الذين ليسوا بأهل للنظر والاستدلال، بما لا يتم الإسلام بدونه (ف) على الصواب هم (مسلمون عند أهل الأثر) وأكثر النظار والمحققين وإن عجزوا عن بيان ما لم يتم الإسلام إلا به.

وقال ابن حامد من علمائنا: لا يشترط أن يجزم عن دليل - يعني بل يكفي الجزم ولو عن تقليد، وقيل الناس كلهم مؤمنون حكما في النكاح والإرث وغيرهما، ولا يدرى ما هم عند الله، انتهى.

وقال العلامة المحقق ابن قاضي الجبل من علمائنا في أصوله: قال ابن عقيل: القياس النقلي حجة يجب العمل به، ويجب النظر والاستدلال به بعد ورود الشرع، قال: ولا يجوز التقليد، والحق الذي لا محيد عنه، ولا انفكاك لأحد منه صحة إيمان المقلد تقليدا جازما صحيحا، وأن النظر والاستدلال ليسا بواجبين، وأن التقليد الصحيح محصل للعلم والمعرفة، نعم يجب النظر على من لا يحصل له التصديق الجازم أول ما تبلغه الدعوة.

قال بعض علماء الشافعية: اعلم أن وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لا يشترط فيه أن يكون عن نظر واستدلال، بل يكفي اعتقاد جازم بذلك، إذ المختار الذي عليه السلف وأئمة الفتوى من الخلف وعامة الفقهاء، صحة إيمان المقلد، قال: وأما ما نقل عن الإمام الشيخ أبي الحسن الأشعري من عدم صحة إيمان المقلد، فكذب عليه كما قاله الأستاذ أبو القاسم القشيري.

ثم قال: ومما يرد على زاعمي بطلان إيمان المقلد أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فتحوا أكثر العجم، وقبلوا إيمان عوامهم، كأجلاف العرب، وإن كان تحت السيف، أو تبعا لكبير منهم أسلم، ولم يأمروا أحدا منهم بترديد نظر،

ولا سألوه عن دليل تصديقه، ولا أرجئوا أمره حتى ينظر والعقل يجزم في نحو هذا بعدم وقوع الاستدلال منهم لاستحالته حينئذ، فكان ما أطبقوا عليه دليلا أي دليل على إيمان المقلد، وقال: إن التقليد أن يسمع من نشأ بقمة جبل الناس يقولون للخلق رب خلقهم، وخلق كل شيء من غير شريك له، ويستحق العبادة عليهم، فيجزم بذلك إجلالا لهم عن الخطأ، وتحسينا للظن بهم، فإذا تم جزمه بأن لم يجز نقيض ما أخبروا به، فقد حصل واجب الإيمان، وإن فاته الاستدلال لأنه غير مقصود لذاته بل للتوصل به للجزم وقد حصل.

وقال الإمام النووي: الآتي بالشهادتين مؤمن حقا، وإن كان مقلدا على مذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف، لأنه ﷺ اكتفى بالتصديق بما جاء به ولم يشترط المعرفة بالدليل، وقد تظاهرت بهذا الأحاديث الصحاح التي يحصل بمجموعها التواتر والعلم القطعي، انتهى.

وبما تقرر تعلم أن النظر ليس بشرط في حصول المعرفة مطلقا، وإلا لما وجدت بدونه لوجوب انتفاء المشروط بانتفاء الشرط، لكنها قد توجد فظهر أن النظر لا يتعين على كل أحد، وإنما يتعين على من لا طريق له سواه، بأن بلغته دعوة النبي ﷺ أول ما بلغته دعوته، وصدق به تصديقا جازما بلا تردد، فمع صحة إيمانه بالاتفاق لا يأثم بترك النظر، وإن كان ظاهر ما تقدم الإثم مع حصول الإيمان، لأن المقصود الذي لأجله طلب النظر من المكلف وهو التصديق الجازم قد حصل بدون النظر فلا حاجة إليه، نعم في رتبته انحطاط، وربما كان متزلزل الإيمان فالحق أنه يأثم بترك النظر وإن حصل له الإيمان، ومن ثم نقل بعضهم الإجماع على تأثيمه لأن جزمه حينئذ لا ثقة به، إذ لو عرضت له شبهة عكرت عليه، وصار مترددا بخلاف الجزم الناشئ عن

الاستدلال، فإنه لا يفوت بذلك، والله تعالى ولي التوفيق.

(تنبيهات)

الأول: في مسألة التقليد ثلاثة أقوال، (أولها) النظر واجب، ... رجحه الإمام الرازي، وأبو الحسن الآمدي.

(الثاني) ليس بواجب والتقليد جائز، ...

(الثالث) التقليد حرام ويأثم بترك النظر والاستدلال، ومع إثمه بترك النظر، فإيمانه صحيح، ...

وثَم قول (رابع) وهو أن النظر حرام؛ لأنه مظنة الوقوع في الشبه والضلال لاختلاف الأذهان بخلاف التقليد، فيجب بأن يجزم المكلف عقده بما يأتي به الشرع من العقائد الدينية، ولكن قد علم مما مر أن الرجوع إلى الكتاب والسنة ليس بتقليد، وإن سمي تقليدا فمجاز، ومنه قول الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ومن قلد الخبر رجوت أن يسلم إن شاء الله تعالى.

وقد قال أبو حامد الغزالي في كتابه (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة): من ظن أن مدرك الإيمان الكلام والأدلة المحررة والتقسيمات المرتبة فقد أبعد، لا بل الإيمان نور يقذفه الله في قلوب عباده عطية وهدية من عنده، تارة بتنبيه في الباطن لا يمكن التعبير عنه، وتارة بسبب رؤيا في المنام، وتارة بقرينة حال رجل متدين وسراية نوره إليه عند صحبته ومجالسته، وتارة بقرينة حال ... وأمثالهم أكثر من أن تحصى، ولم يشتغل واحد منهم قط بكلام وتعلم الأدلة، بل كان يبدو نور الإيمان أولا بمثل هذه القرائن في قلوبهم لمعة بيضاء ثم لا يزال يزداد وضوحا وإشراقا بمشاهدة تلك الأحوال العظيمة، وبتلاوة القرآن، وتصفية القلوب - إلى أن قال: والحق الصريح أن كل من اعتقد أن كل ما جاء

به الرسول واشتمل عليه القرآن حق، اعتقادا جازما، فهو مؤمن، وإن لم يعرف أدلته.

قال: فالإيمان المستفاد من الأدلة الكلامية ضعيف جدا، مشرف على التزلزل بكل شبهة، انتهى فإن قيل: إن النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم كانوا يعلمون أن العوام وأجلاف العرب يعلمون الأدلة إجمالا، كما أجاب به الأعرابي الأصمعي عن دليل سؤاله: بم عرفت ربك؟ فقال البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، ألا تدل على اللطيف الخبير.

فلذلك لم يلزموهم بالنظر، ولا سألوهم عنه، ولا أرجئوا أمرهم فلما كان كذلك، لم يكن اكتفاؤهم بمجرد الإقرار دليلا على عدم وجوب النظر على الأعيان، ولا على أن تاركه غير آثم. فالجواب: ما ذكروه دعوى بلا دليل، وحكاية الأعرابي لا تدل على أن جميع الأجلاف والعوام كانوا عالمين بالأدلة إجمالا، فإن المثال الجزئي لا يصحح القواعد الكلية، والعقول مختلفة الأمزجة متفاوتة أشد تفاوت، فوجود فرد من الأعراب قوي العقل نافذ البصيرة لا يدل على أن كل الأعراب والأجلاف كذلك بلا خفاء.

ويوضحه أن من الذين أسلموا في عهدهم كانوا يكونون عجما ونساء، وقبلوا منهم الإسلام ولم يأمروهم بالنظر ولم يرجئوهم، أيضا كان أهل الشرك من قريش يجادلون ويناضلون عن آلهتهم، و: إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ [الصافات: ٣٦]، وقالوا أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ [ص: ٥]، ...

(الثاني) ... أن التقليد الصحيح محصل للعلم، بمعنى أن المقلد تقليدا

صحيحا لا يصدق بما ألقي إليه من العقائد إلا بعد انكشاف صدقها عنده من غير أن يكون له دليل عليها، وقد جاء في محكم الذكر فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ [الأنعام: ١٢٥] ...

(الثالث) قد نقل عن أبي الحسن الأشعري أنه لا بد من انبناء الاعتقاد في كل مسألة من الأصول على دليل عقلي، لكن لا يشترط الاقتدار على التعبير عنه، وعلى مجادلة الخصوم، ودفع الشبه، قال السعد التفتازاني في (شرح المقاصد): هذا هو المشهور عن الأشعري حتى حكي عنه أن من لم يكن كذلك لم يكن مؤمنا. انتهى.

قال في جمع الجوامع: وعن الأشعري لا يصح إيمان المقلد. قال شارحه: وشنَّع عليه أقوام بأنه يلزمه تكفير العوام، وهم غالب المؤمنين، وقال القشيري: مكذوب عليه.

قال التاج السبكي: والتحقيق أنه إن كان التقليد أخذا لقول الغير بغير حجة مع احتمال شك أو وهم بأن لا يجزم به، فلا يكفي إيمان المقلد قطعا؛ لأنه لا إيمان مع أدنى تردد فيه، وإن كان التقليد أخذا لقول الغير بغير حجة لكن جزما فيكفي إيمان المقلد عند الأشعري وغيره خلافا لأبي هاشم المعتزلي في قوله: لا يكفي بل لا بد لصحة الإيمان من النظر.

وقد وافق النقل عن الأشعري جماعة منهم القاضي، وإمام الحرمين وغيرهما، قالوا: قال الجمهور بعدم صحة الاكتفاء بالتقليد في العقائد الدينية حتى زعم بعضهم أنه مجمع عليه، وعزاه ابن القصار للإمام مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والمشهور نقل بعضهم عن الجمهور عدم جواز التقليد في العقائد الدينية وأنهم اختلفوا في المقلد، منهم من قال: إنه مؤمن إلا أنه عاص بترك المعرفة

التي ينتجها النظر الصحيح، ومنهم من فصَّل فقال: هو مؤمن عاص، إن كان فيه أهلية لفهم النظر الصحيح، وغير عاص إن لم يكن فيه أهلية ذلك، ومنهم من نقل عن طائفة أن من قلد القرآن والسنة القطعية صح إيمانه لاتباعه القطعي، ومن قلد غير ذلك لم يصح إيمانه لعدم أمن الخطأ على غير المعصوم، ومنهم من جعل النظر والاستدلال شرطا للكمال، ومنهم من حرم النظر كما مر ذلك.

قال الجلال المحلي في شرح (جمع الجوامع): وقد اتفقت الطرق الثلاث - يعنى الموجبة للنظر، والمجوزة له، والمحرمة - على صحة إيمان المقلد، انتهى.

وعبارة الآمدي في (الأبكار) اتفق الأصحاب على انتفاء كفر المقلد، وأنه ليس للجمهور إلا القول بعصيانه بترك النظر إن قدر عليه مع اتفاقهم على صحة إيمانه وأنه لا يعرف القول بعدم صحة إيمان المقلد إلا لأبي هاشم بن أبي علي الجبائي من المعتزلة محتجا بأن من لم يعرف الله سبحانه وتعالى بالدليل فهو كافر. قال الآمدي: وأصحابنا مجمعون على خلافه ...

هذا حاصل ما أجيب به عن الأشعري حتى قال بعض الأشاعرة عن الأشعري لا يكاد يكون في العوام مقلد. وعبارة (شرح المقاصد) ذهب كثير من العلماء، وجميع الفقهاء إلى صحة إيمان المقلد، وترتيب الأحكام عليه في الدنيا والآخرة، ومنعه الشيخ أبو الحسن، والمعتزلة، وكثير من المتكلمين، احتج القائلون بالصحة بأن حقيقة الإيمان التصديق، وقد وجدت من غير اقترانه بموجب من موجبات الكفر، فإن قيل: لا يتصور التصديق بدون العلم لأنه إما ذاتي للتصديق أو شرط له، ولا علم للمقلد لأنه اعتقاد جازم مطابق مستند إلى سبب من ضرورة أو استدلال، فأجاب بأن المعتبر في التصديق هو اليقين، أعني

الاعتقاد الجازم المطابق بل ربما يكتفي بالمطابقة، ويجعل الظن الغالب الذي لا يخطر معه النقيض بالبال في حكم اليقين. انتهى.

(الرابع) قال السعد: اعلم بأن القائلين بعدم صحة إيمان المقلد أو ليس بنافع اختلفوا، فمنهم من قال: لا يشترط ابتناء الاعتقاد (على استدلال عقلي) في كل مسألة بل يكفي ابتناؤه على قول من عرفت رسالته بالمعجزة مشاهدة أو تواترا، أو على الإجماع، ومنهم من قال: لا بد من ابتناء الاعتقاد في كل مسألة من الأصول على دليل عقلي، لكن لا يشترط الاقتدار على التعبير عنه ولا على مجادلة الخصوم ...

ومنهم من قال: لا بد مع ابتناء الاعتقاد على الدليل العقلي من الاقتدار على مجادلة الخصوم، وحل ما يورد عليه من الإشكالات - قال: وإليه ذهب المعتزلة فلم يحكموا بإيمان من عجز عن شيء من ذلك بل يحكم أبو هاشم بكفره.

وذكر عن العنبري وغيره من شيوخ المعتزلة جواز التقليد في أصول الدين، وأنه لا يجب النظر اكتفاء بالعقد الجازم. فعليه المعول. واتضح أن المرجح صحة إيمان المقلد عند محققي كل طائفة بشرط الجزم وعدم التزلزل والشك، على أنا نقول: المختار أن الراجع إلى أخبار الرسول، والكتاب المنزل، والإجماع ليس بمقلد، فمن شهد لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة، ونهج سبيل المسلمين من فعل المأمور، وترك المحظور، ولم يأت بمكفر، فهو المؤمن، وبالله التوفيق.

ويؤيد هذا ما أخرجه الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر في كتابه (تبيين كذب المفتري، فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري) بسنده المتصل إلى

أبي حازم عمر بن أحمد العبدوي الحافظ أنه قال: سمعت أبا علي طاهر بن أحمد السرخسي يقول: لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري - رحمه الله تعالى - في داري ببغداد، دعاني فأتيته، فقال: اشهد علي أني لا أكفر أحدا من أهل القبلة، لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف عبارات (١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لمحمد بن أحمد السفاريني - بتصرف - ١/ ٢٦٧

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: والذين أوجبوا النظر من الطوائف العامة نوعان: أحدهما: من يقول: إن أكثر العامة تاركوه وهؤلاء على قولين فغلاتهم يقولون: إن إيمانهم لا يصح وأكثرهم يقولون يصح إيمانهم تقليدا مع كونهم عصاة بترك النظر وهذا قول جمهورهم قد ذكر هذا طوائف من الحنفية وغيرهم كما ذكر من ذكر من الحنفية في شرح الفقه الأكبر فقالوا: قال أبو حنيفة وسفيان ومالك والأوزاعي وعامة الفقهاء وأهل الحديث بصحة إيمان المقلد ولكنه عاص بترك الاستدلال ... والنوع الثاني من موجبي النظر - وهم جمهورهم - يقولون: إنه متيسر على العامة كما يقوله القاضي أبو بكر والقاضي أبو يعلى وغيرهما ممن يقول ذلك.اهـ. كلام السفاريني.

وقال العلامة العثيمين في شرح السفارينية (ص٣٠٧): انتقل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من ذكر الصفات إلى ذكر بعض الأحكام في التقليد، ومن المعلوم أن إدراك المعلومات قد يكون عن اجتهاد ونظر في الأدلة، فهذا الذي يتوصل إليه الإنسان باجتهاده ونظره، يجب عليه أن يعتقده أو يعمل بمقتضاه، لكن بشرط أن يكون من أهل الاجتهاد ذوي العلم؛ وليس من أهل الاجتهاد ذوي الجهل؛ لأن اجتهاد ذوي الجهل خطأ على كل حال، حتى لو أصاب ذو الجهل فهو مخطئ، لأن

استعمال اجتهاده مع عدم القدرة والأهلية خطأ.

فلو قال قائل: رجل وجب عليه إعتاق رقبة، فقال شخص: اذهب إلى السجناء وأخرج واحدا محبوسا بدينه، ولو كان دينه عشرة ريالات، فأوف عنه الريالات فتكون قد أعتقت رقبة؛ لأنك فككته من الأسر، أي من اسر الحبس، والفقهاء رحمهم الله يقولون: إنه يجوز صرف الزكاة في فكاك الأسير، فهذا صار فقيها من وجه وجاهلا من وجه آخر، واجتهاده هذا اجتهاد في غير محله.

ومثل ذلك أيضًا: إذا أنقذ إنسان شخصا من الغرق، وكان عليه عتق رقبة كفارة عن قتل أو ظهار أو جماع في رمضان، فأفتاه جاهل بان إنقاذ صاحبه من الغرق عتق رقبة، فهذا الاجتهاد غير مقبول لأنه عن جهل.

ومثال آخر: إذا قام الإمام إلى خامسة فنبهه المصلون بقولهم: (سبحان الله) فأبى وأصر على أن يكمل الخامسة، فلما سلم التفت إلى الجماعة ينكر عليهم تصرفهم وجهلهم، مدعيا أن الفقهاء قالوا: إذا شرع الإمام في القراءة حرم الرجوع، فكيف يلحون عليه أن يرجع وقد شرع في القراءة؟!، والحقيقة انه هو الجاهل لأن الفقهاء رحمهم الله يقولون: إذا شرع في القراءة حرم الرجوع فيما إذا ترك التشهد الأول، أما إذا قام إلى زائدة فيرجع ولو كان قد ركع.

والمهم في ذلك أن مثل هذا المجتهد لا يعتبر اجتهاده مطلقا ولا يقبل، لكن المجتهد الذي فيه أهلية الاجتهاد، وعنده علم وبصر في كلام أهل العلم فالمؤلف يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكل ما يطلب فيه الجزم فمنع تقليد بذاك حتم، يعني يجب أن يجتهد الإنسان فيما يطلب فيه الجزم، وعلى ذلك فكل شيء يطلب فيه الجزم فلا تقلد فيه، بل يجب أن تعرف الحكم من الكتاب والسنة.

وعلى هذا فالعوام الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ولا يعرفون الدليل لكن لما سمعوا العلماء يقولون بهذا آمنوا به، فعلى كلام المؤلف يكون إيمانهم ليس بصحيح، لأن الذي يطلب فيه الجزم لابد أن يكون عن اجتهاد، ولا يصح أن يكون عن تقليد، لكن هذا القول ضعيف جدا، ولهذا قال: وقيل يكفي الجزم إجماعا بما يطلب فيه عند بعض العلما.

يعني قال بعض العلماء رحمهم الله: بل يصح التقليد فيما يطلب فيه الجزم، وهذا القول هو الراجح، وسيأتي إن شاء الله دليل هؤلاء ودليل هؤلاء ومناقشة الأدلة.

فالمسائل العلمية؛ كالوضوء والصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك، يجوز فيها التقليد بالاتفاق، ولا يمكن أن يلزم الإنسان الناس بالاجتهاد في هذا؛ لأن الاجتهاد في هذا صعب، والعامة لا يمكن أن يقرؤوا كتب الفقه.

أما مسائل العقيدة التي يجب على الإنسان فيها الجزم فقد اختلف العلماء رحمهم الله؛ هل يجوز فيها التقليد أو لابد من الوقوف على الدليل؟

ولا شك أن الوقوف على الدليل أولى حتى في المسائل العملية؛ لأن الإنسان إذا بنى عقيدته أو عمله على الدليل استراح، وصار يعلم انه يمشي في طريق صحيح، لكن إذا لم يمكن الوقوف على الدليل ففي التقليد خلاف بين أهل العلم رحمهم الله؛ فمنهم من قال: إنه يكفي، ومنهم من قال: انه لا يكفي، ولكن الحقيقة انه لا يمكن أن نقول: إن جميع مسائل العقيدة يجب فيها اليقين؛ لأن من مسائل العقيدة ما اختلف فيه العلماء رحمهم الله، وما كان مختلفا فيه بين أهل العلم فليس يقينيا؛ لأن القين لا يمكن نفيه أبدا.

فمثلا اختلف العلماء رحمهم الله في عذاب القبر؛ هل هو واقع على البدن

أو على الروح؟

واختلف أيضًا العلماء رحمهم الله أيضًا في الذي يوزن؛ هل هي الأعمال أو صحائف الأعمال أو صاحب العمل؟

واختلف العلماء رحمهم الله أيضًا في الجنة التي اسكنها آدم؛ هل هي جنة الخلد أم جنة في الدنيا؟

واختلف العلماء رحمهم الله أيضًا في رؤية النبي ﷺ ربه؛ هل رآه بعينه – يعني في الحياة – أم رآه بقلبه؟

واختلف العلماء رحمهم الله في النار؛ هل هي مؤبدة أم مؤمدة؟

وكل هذه المسائل من العقائد، والقول بان العقيدة ليس فيها خلاف على الإطلاق غير صحيح، فإنه يوجد من مسائل العقيدة ما يعمل فيه الإنسان بالظن.

فمثلا في قوله تعالى في الحديث القدسي (من تقرب إلى شبرا تقربت منه ذارعا)، لا يجزم الإنسان بان المراد بالقرب القرب الحسي، فإن الإنسان لا شك انه ينقدح في ذهنه أن المراد بذلك القرب المعنوي.

وقوله تعالى: (من أتاني يمشي أتيته هرولة) هذا أيضًا لا يجزم الإنسان بان الله يمشي مشيا حقيقيا هرولة، فقد ينقدح في الذهن أن المراد الإسراع في إثابته، وان الله تعالى إلى الإثابة أسرع من الإنسان إلى العمل، ولهذا اختلف علماء أهل السنة في هذه المسالة، بل إن إذا قلت بهذا أو هذا فلست تتيقنه كما تتيقن نزول الله ﷻ، الذي قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا) فهذا ليس عند الإنسان شك في انه نزول حقيقي، وكما في قوله: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (طه: ٥) فلا يشك إنسان انه استواء حقيقي.

والحاصل أن مسائل العقيدة ليست كلها مما لابد فيه من اليقين؛ لأن اليقين

أو الظن حسب تجاذب الأدلة، وتجاذب الأدلة حسب فهم الإنسان وعلمه. فقد يكون الدليلان متجاذبين عند شخص، ولكن عند شخص آخر ليس بينهما تجاذب إطلاقا، لأنه قد اتضح عنده أن هذا له وجه وهذا له وجه، فمثل هذا الأخير ليس عنده إشكال في المسالة بل عنده يقين، وأما الأول فيكون عنده إشكال وإذا رجح أحد الطرفين فإنما يرجحه بغلبة الظن.

ولهذا لا يمكن أن نقول إن جميع مسائل العقيدة مما يتعين فيه الجزم ومما لا خلاف فيه؛ لأن الواقع خلاف ذلك، ففي مسائل العقيدة ما فيه خلاف، وفي مسائل العقيدة ما لا يستطيع الإنسان أن يجزم به، لكن يترجح عنده.

إذا هذه الكلمة التي نسمعها بان مسائل العقيدة لا خلاف فيها، ليس على إطلاقها؛ لأن الواقع يخالف ذلك.

كذلك مسألة العقيدة بحسب اعتقاد الإنسان، فليس كل مسائل العقيدة مما يجزم فيه الإنسان جزما لا احتمال فيه، فهناك بعض المسائل - أحاديث أو آيات - قد يشك الإنسان فيها، كقوله تعالى: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) (القلم: الآية ٤٢) هذه من مسائل العقيدة، وقد اختلف فيها السلف؛ هل المراد ساقه ﷻ أو المراد الشدة؟ -ولكن لم يختلفوا في إثبات الساق لله ﷻ فتنبه-، وعلى هذا فقس.

وقوله: (كل ما يطلب فيه الجزم) يريد بذلك مسائل العقيدة وغير العقيدة، فكل شيء يطلب فيه الجزم (فمنع تقليد بذاك حتم)، ومما يجب فيه الجزم أن نجزم أن الصلوات الخمس مفروضة، ولهذا لو أنكر إنسان فرضية الصلوات الخمس كفر، فيجب أن نجزم بأنها مفروضة، وان الزكاة مفروضة، وان الصيام مفروض، وان الحج مفروض وجوبا. فهل نقول انه لا يجوز أن يقلد العامي

شخصا في ذلك وهو لا يدري؟

ذكر المؤلف هذا قال: (فمنع تقليد بذاك حتم) وعلل:

لأنه لا يكتفى بالظن لذي الحجى في قول أهل الفن

لأن التقليد ظن، ولهذا تقول للمقلد: هل تجزم بهذا؟ فيقول لك: لا. بل يقوله فلان. إذا ليس عنده جزم، فالتقليد يفيد الظن، ولولا حسن ظن المقلد بالمقلد ما قلده.

وعلى هذا فكل شيء يطلب فيه الجزم فلا تقلد فيه، لأن هذا ينافي المطلوب، وهو الجزم، والتقليد يفيد الظن فلا يجوز أن نقلد.

ثم قال المؤلف رحمه الله تعالى:

وقيل يكفي الجزم إجماعا بما يطلب فيه عند بعض العلما

وهذا قول ثان في هذه المسالة؛ وهو انه يكفي الجزم بما يطلب فيه الجزم، ولو عن طريق التقليد؛ فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر هذا مما يجب فيه الجزم، ولكن العامي لا يدرك ذلك بدليله ومع ذلك نصحح إيمانه، ونقول إنه مؤمن وإن كان لا يدرك ذلك بدليله.

ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقيل يكفي الجزم إجماعا) يعني انه إذا وجد الجزم حصل المقصود بالإجماع.

وقوله: (بما يطلب فيه)، نائب فاعل (يطلب) يعود على الجزم، يعني يكفي الجزم بما يطلب فيه الجزم بالإجماع، وقائل هذا بعض العلماء ولهذا قال: (عند بعض العلما)

وهذا القول هو الصحيح، والدليل على ذلك أن الله أحال على سؤال أهل العلم في مسالة من مسائل الدين التي يجب فيها الجزم، فقال: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ

إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) (الأنبياء: ٧)، وواضح إننا نسألهم لنأخذ بقولهم، ومعلوم أن الإيمان بان الرسل رجال هو من العقيدة، ومع ذلك أحالنا الله فيه إلى أهل العلم.

وقال تعالى: (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) (يونس: الآية ٩٤) وإنما يسألهم ليرجع إليهم، وإذا كان هذا الخطاب للرسول ﷺ ولم يشك، فنحن إذا شككنا في شيء من أمور الدين فنرجع إلى الذين يقرؤون الكتاب، أي إلى أهل العلم لنأخذ بما يقولون. وهذا عام يشمل مسائل العقيدة.

ثم إننا لو ألزمنا العامي بترك التقليد والتزام الأخذ بالاجتهاد لألزمناه بما لا يطيق، وقد قال الله تعالى: (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة: الآية ٢٨٦) وقال: (أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) (المؤمنون: ٦١) (وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (المؤمنون: الآية ٦٢)

فالصواب المجزوم به هو القول الثاني؛ وهو أن ما يطلب فيه الجزم يكتفى فيه بالجزم، سواء عن طريق الدليل أو عن طريق التقليد.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالجازمون من عوام البشر) يعني الذين يجزمون بما يعتقدون من العوام الذين ليس عندهم علم لأنهم عوام، قال: (فمسلمون) يعني فهم مسلمون وإن كانوا لم يأخذوا ما يطلب فيه الجزم عن طريق الاجتهاد.

ثم قال: (عند أهل الأثر) وكفى بأهل الأثر قدوة، فأهل الأثر يرون انه يجوز التقليد فيما يطلب فيه الجزم، والمقصود أن يحصل الجزم سواء عن طريق التقليد أو عن طريق الاجتهاد، وإذا كان هذا هو ما يراه أهل الأثر فهو الذي نراه نحن وهو الصحيح.

بقي في كلام المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ إشكال في قوله (فمسلمون) فهو خبر لقوله (فالجازمون) ودخلت الفاء في الخبر لأن (الجازمون) فيه (ال) الموصولة، والموصول يشبه الشرط في العموم، فيجوز أن تدخل الفاء في الخبر إذا كان المبتدأ اسما موصولا.

ومنه قول النحويين في المثال: (الذي يأتيني فله درهم)، ودليل ذلك في القرآن: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ) (البقرة: الآية ٢٧٤) فهنا جاءت الفاء في خبر المبتدأ الموصول لأنه يشبه الشرط في العموم.

(باب ذكر مسائل زيادة الإيمان ونقصانه)

مسائل في الباب

المسألة الأولى: زيادة الإيمان ونقصانه

لقد جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وكذا في السنة نصوص كثيرة[1] تدل على زيادة الإيمان ونقصانه وأن أهله متفاضلون فيه بعضهم أكمل إيمانًا من بعض، منهم السابق بالخيرات، ومنهم المقتصد، ومنهم الظالم لنفسه، منهم المحسن، ومنهم المؤمن، ومنهم المسلم، ليسوا في الدين سواء في مرتبة واحدة، بل فضل الله بعضهم على بعض ورفع بعضهم فوق بعض درجات.

لذا أجمع أهل السنة على أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص.

قال يحيى بن سعيد القطان كما في مسائل الإمام أحمد لابن هانئ (٢/

---

(١) انظر هذه النصوص في كتاب زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه (ص٣٥-١٠٥).

١٦٢): (ما أدركت أحدًا من أصحابنا، إلا على سنتنا في الإيمان، ويقولون: الإيمان يزيد وينقص).

وقال عبد الرازق الصنعاني كما في شرح أصول الاعتقاد (٥/ ٩٥٨): (لقيت اثنين وستين شيخا .. فذكر عددا منهم ثم قال: كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص).

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام كما في كتاب الإيمان لابن تيمية (ص: ٢٩٣): (هلم تسمية من كان يقول الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ... فسمى أكثر من مائة وثلاثين رجلا من أهل العلم من الصحابة وغيرهم .. ثم قال: هؤلاء كلهم يقولون الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وهو قول أهل السنة، والمعمول به عندنا).

وقال إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في طبقات الحنابلة (١/ ١٣٠): (أجمع تسعون رجلا من التابعين وأئمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفي عليها رسول الله ﷺ ... فذكر أمورًا منها: الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية).

وقال أمير المؤمنين في الحديث أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في الفتح (١/ ٤٧): (لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدًا يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص).

وقال يعقوب بن سفيان الفسوي كما في شرح اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٦٣): (الإيمان عندنا أهل السنة الإخلاص لله بالقلوب والألسنة، والجوارح، وهو قول وعمل، يزيد وينقص، على ذلك وجدنا كل من أدركنا من عصرنا بمكة والمدينة والشام والبصرة والكوفة، ثم ذكر منهم بضعًا وثلاثين).

وقال سهل بن المتوكل الشيباني كما في شرح اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٦٤): (أدركت ألف أستاذ وأكثر كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ..).

وقال ابن جرير في صريح السنة (٢٥): وأما القول في الإيمان هل قول وعمل يزيد وينقص، أم لا زيادة فيه ولا نقصان؟ فإن الصواب فيه قول من قال: هو قول وعمل يزيد وينقص، وبه جاء الخبر عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وعليه مضى أهل الدين والفضل).

وقال ابن عبدالبر في التمهيد (٩/ ٢٣٨): (أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية).

وقال ابن أبي زيد القيرواني في كتابه كما (اجتماع الجيوش الإسلامية (١٥٠): (فصل فيما أجمعت عليه الأمة من أمور الديانة ومن السنن التي خلافها بدعة وضلالة .. فذكر أمورًا منها: أن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد ذلك بالطاعة وينقص بالمعصية نقصًا عن حقائق الكمال لا محبط للإيمان، ولا قول إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بموافقة السنة).

وقال ابن بطال المالكي كما في المنهاج (١/ ١٤٦): (مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص).

وقال الحافظ عبدالغني المقدسي في عقيدته (ص٣٠ - ٤٩): (اعلم وفقنا الله وإياك .. أن صالح السلف وخيار الخلف وسادات الأئمة وعلماء الأمة اتفقت أقوالهم وتطابقت آراؤهم فذكر أمورًا ثم قال: والإيمان بأن الإيمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية) ثم أورد بعض النصوص الدالة

على ذلك.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٧/ ٦٧٢): (وأجمع السلف أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص).

وقال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٤٢١): (.. فإنه بإجماع السلف: يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية).

وقال السفاريني في شرح ثلاثيات المسند (٢/ ٢١٨): (والذي اعتمده أئمة الأثر وعلماء السلف: أن الإيمان: تصديق بالجنان وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان).

(فرع): أقوال السلف في أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص

وبعد هذه النقول السابقة المبينة لإجماع أهل السنة والجماعة على زيادة الإيمان ونقصانه، وأنهم متضافرون على قول واحد فيه، أذكر جملة من النقول عن بعض الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن نقل عنه ذلك، ذاكرًا أقوال الصحابة أولًا، فالتابعين، فمن بعدهم، مرتبًا لهم حسب وفياتهم عدا الصحابة فلم أراع في ترتيبهم ذلك:

١- كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لأصحابه: (هلموا نزداد إيمانا) وفي لفظ: (تعالوا نزداد إيمانا).

٢- وقال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اجلسوا بنا نزداد إيمانا)، وكان يقول في دعائه: (اللهم زدني إيمانا ويقينا وفقها).

٣- وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: (اجلسوا بنا نؤمن ساعة).

قال ابن حجر في الفتح (١/ ٤٨) مبينا وجه دلالته على زيادة الإيمان ونقصانه: ووجه الدلالة منه ظاهرة، لأنه لا يحمل على أصل الإيمان لكونه كان

مؤمنًا وأي مؤمن، وإنما يحمل على إرادة أنه يزداد إيمانا بذكر الله تعالى... أما قول ابن العربي عنه: لا تعلق فيه للزيادة معللًا ذلك: أن معاذًا إنما أراد تجديد الإيمان، لأن العبد يؤمن في أول مرة فرضًا، ثم يكون أبدا مجددا كلما نظر أو فكر.

فغير صحيح، لأن الإيمان الذي ينجم عن النظر والتفكر بعد تحقق أصل الإيمان، يعد في الحقيقة زيادة إيمان، فما سماه ابن العربي هنا تجدد إيمان هو في واقع أمره زيادة إيمان وإن سمي بغير اسمه.

ولذا تعقبه الحافظ بقوله: وما نفاه أولًا أثبته آخرا، لأن تجدد الإيمان إيمان.

٤- وكان عبدالله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول: تعالوا نؤمن ساعة، تعالوا فلنذكر الله ونزدد إيمانا بطاعته، لعله يذكرنا بمغفرته).

٥- وعن أبي الدرداء عويمر الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (الإيمان يزداد وينقص)، وروي عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (من فقه العبد أن يعلم أمزداد هو أو منتقص، وإن من فقه العبد أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه).

٦- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (الإيمان يزداد وينقص).

وروي عنه وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهما قالا: (الإيمان يزيد وينقص).

٧- وعن جندب بن عبدالله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتيانا حزاورة فتعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا).

٨- وعن عمير بن حبيب الخطمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (الإيمان يزيد وينقص، فقيل: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله عَزَّ وَجَلَّ وحمدناه وسبحناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا، فذلك نقصانه) قال ابن القيم في تهذيب السنن (٧/ ٥٦): (وأقدم من روي عنه زيادة الإيمان ونقصانه من الصحابة عمير بن حبيب

الخطمي) ولم يتبين لي وجه هذه الأقدمية، ولم أقف على تاريخ وفاة عمير ﵁، وإنما عد ممن أسلم قبل الفتح، وفي الذين نقل عنهم من الصحابة ذلك عبدالله بن رواحة وكان قد استشهد في غزوة مؤتة في حياة رسول الله ﷺ.

وعن عقبة بن عامر الجهني ﵁ قال: (إن الرجل ليتفضل بالإيمان كما يتفضل ثوب المرأة).

ولعل التشبيه بثوب المرأة هو لكونه ضافيا وافيا، وقد تقدم معنا الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ(١) حيث قال: (بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضوه عليَّ وعليهم قمص ..) الحديث، ثم فسر القمص بالدين.

١٠- وعن عمار بن ياسر ﵁ قال: (ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنفاق من الإقتار، والإنصاف من النفس، وبذل السلام للعالم).

١١- وعن علقمة بن قيس النخعي ﵀ أنه كان يقول لأصحابه: (امشوا بنا نزدد إيمانا).

١٢- وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عدي بن عدي أحد عماله على الجزيرة: (أما بعد: فإن للإيمان حدودا وشرائع وفرائض، من استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان) علقه البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه قبل حديث (٨)، وقال ابن حجر في الفتح (١/ ٤٧) مبينا سبب ذكر البخاري له: (والغرض من هذا الأثر أن عمر بن عبدالعزيز كان ممن يقول بأن الإيمان يزيد وينقص، حيث قال: استكمل ولم يستكمل).

١٣- وعن مجاهد بن جبر قال: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص).

١٤- وقال عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي: (الإيمان قول وعمل، يزيد

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣)، ومسلم (٦٣٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

وينقص فمن زعم أن الإيمان يزيد ولا ينقص فاحذروه فإنه مبتدع).

(وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإيمان أيزيد؟ قال: نعم حتى يكون كالجبال قيل: فينقص؟ قال: نعم حتى لا يبقى منه شيء).

١٥- وقال سفيان الثوري: (الإيمان يزيد وينقص).

١٦- وكتب حماد بن زيد إلى جرير بن عبدالحميد: (بلغني أنك تقول في الإيمان بالزيادة، وأهل الكوفة يقولون بغير ذلك، أثبت على ذلك ثبتك الله).

١٧- وثبت عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول بزيادة الإيمان ونقصانه من طرق متعددة يأتي ذكرها في مسألة مستقلة.

١٨- وقال عبدالله بن المبارك: (الإيمان قول وعمل، والإيمان يتفاضل).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى) (٧/ ٥٠٦): (وبعضهم أي: السلف عدل عن لفظ الزيادة والنقصان إلى لفظ التفاضل. فقال أقول: الإيمان يتفاضل ويتفاوت، ويروى هذا عن ابن المبارك، وكان مقصوده الإعراض عن لفظ وقع فيه النزاع إلى معنى لا ريب في ثبوته).اهـ.

ولا ريب كذلك في ثبوت لفظ الزيادة والنقصان عند السلف؛ فالزيادة مصرح بها في القرآن، والنقصان مصرح به في السنة كما تقدم بيانه، ولعل سبب عدول ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن لفظ الزيادة والنقصان هو استحسانه لكلمة (التفاضل) لا لسبب آخر، كما أنه روي ذلك عن بعض السلف، فقد ساق الخلال في السنة (٣/ ٥٨٠، رقم ١٠٠٥) بسنده إلى محمد بن أبان قال قلت لعبدالرحمن بن مهدي: الإيمان قول وعمل؟ قال: نعم. قلت: يزيد وينقص؟ قال يتفاضل كلمة أحسن من كلمة.اهـ.

فهذا هو وجه عدول ابن مهدي عن كلمة الزيادة والنقصان كما هو

منصوصه على ذلك، فلعل ذلك أيضًا هو سبب عدول ابن المبارك عن هذه الكلمة، والله أعلم.

وقد كان من السلف من ينكر على من عدل عن لفظة الزيادة والنقصان لثبوتها كما قد روى ذلك عبدالرحمن بن مهدي نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (أنا أقول الإيمان يتفاضل، وكان الأوزاعي يقول: ليس هذا زمان تعلم، هذا زمان تمسك).

ثم وقفت على أثر عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد يفهم منه سبب اختيار ابن المبارك للفظة (يتفاضل) فقد قال ابن هانئ في مسائله (٢/ ١٢٧): (سمعت أبا عبدالله ابن أبي رزمة ما كان أبوك يقول عن عبدالله بن المبارك في الإيمان؟ قال: كان يقول: الإيمان يتفاضل، قال أبو عبدالله: يا عجباه، إن قال لكم يزيد وينقص رجمتموه، وإن قال يتفاضل تركتموه، وهل شيء يتفاضل إلا وفيه الزيادة والنقصان).اهـ.

وعلى كلٍّ فابن المبارك عدل عن ذلك، وصار يصرح بزيادة الإيمان، لكونها منصوصًا عليها في القرآن، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لم أجد بدا من الإقرار بزيادة الإيمان إزاء كتاب الله).

ذكر ذلك لما قال له المستملي: يا أبا عبدالرحمن: إن ها هنا قومًا يقولون: الإيمان لا يزيد، فسكت عبدالله، حتى سأله ثلاثا. فأجابه، فقال: لا تعجبني هذه الكلمة منكم أن ها هنا قوما، ينبغي أن يكون أمركم جمعا، ثم ساق ابن المبارك بسنده قول عمر بن الخطاب: (لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم) ثم قال: بلى إن الإيمان يزيد، بلى إن الإيمان يزيد ثلاثا، وقال: (لم أجد بدا من الإقرار بزيادة الإيمان إزاء كتاب الله) رواه إسحاق بن راهويه في

مسنده (٣/ ٦٧١).

(وقال له شيبان بن فروخ: ما تقول فيمن يزني ويشرب الخمر ونحو هذا أمؤمن هو؟ قال ابن المبارك: لا أخرجه من الإيمان: فقال شيبان: على كبر السن صرت مرجئا؟ فقال له ابن المبارك: يا أبا عبدالله إن المرجئة لا تقبلني أنا أقول الإيمان يزيد والمرجئة لا تقول بذلك، والمرجئة تقول: حسناتنا متقبلة، وأنا لا أعلم تقبلت مني حسنة) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٦٧٠).

بل قد وجد في كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ التصريح بنقصان الإيمان. كما روى ذلك النجاد في (الرد على من يقول القرآن مخلوق (٥٤) عن علي بن الحسن بن شقيق قال سمعت عبدالله بن المبارك يقول: (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص).

وروى إسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٦٧٠) عن محمد بن أعين قال: (قال ابن المبارك وذكر له الإيمان فقال: قوم يقولون إيمانا مثل جبريل وميكائيل. أما فيه زيادة أما فيه نقصان، هو مثله سواء، وجبريل ربما صار مثل الوضع من خوف الله تعالى. وذكر أشباه ذلك).

قلت: أي ذكر أشباه ذلك من أساليب الإنكار على المرجئة القائلين بعدم زيادة الإيمان ونقصانه، وأن أهله فيه سواء، وبهذا يعلم أن ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يقول بزيادة الإيمان ونقصانه كغيره من أئمة أهل السنة والجماعة، رحم الله الجميع.

١٩- وقال خالد بن الحارث: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص).

٢٠- وقال جرير بن عبدالحميد: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص).

٢١- وقال وكيع بن الجراح: (الإيمان يزيد وينقص).

٢٢- وحسّن يحيى بن سعيد القطان: (الزيادة والنقصان ورآه) قاله الإمام

أحمد.

ونقدم في صدر هذا المبحث قول يحيى: (ما أدركت أحدا من أصحابنا إلا على سنتنا في الإيمان ويقولون: الإيمان يزيد وينقص).

٢٣- وقال ابن عيينة: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة: يا أبا محمد لا تقولن يزيد وينقص؛ فغضب وقال: اسكت يا صبي بل ينقص حتى لا يبقى منه شيء).

(وقيل له: هل الإيمان يزيد وينقص؟ قال: فأي شيء إذن).

وسئل أيضًا عن الإيمان فقال: (قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد ما شاء الله، وينقص حتى ما يبقى منه يعني مثل هذه وأشار بيده).

٢٤- وقال النضر بن شميل: (الإيمان قول وعمل، والإيمان يتفاضل).

٢٥- وقال الإمام محمد بن إدريس الشافعي (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص).

وروي أن اثنين تناظرا عند الشافعي في هذه المسألة فذهب أحدهما إلى القول بعدم زيادة الإيمان ونقصانه، فحمي الشافعي وتقلد المسألة على أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

٢٦- وقال عبدالرزاق الصنعاني: (سمعت معمرا وسفيان الثوري ومالك بن أنس، وابن جريج، وسفيان بن عيينة يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص).

وفي رواية أن عبدالرزاق قال: (وأنا أقول ذلك، الإيمان قول وعمل والإيمان يزيد وينقص، فإن خالفتهم فقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين).

٢٧- وقال عبدالله بن الزبير الحميدي: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص،

لا ينفع قول إلا بعمل، ولا عمل ولا قول إلا بنية، ولا قول وعمل بنية إلا بسنة).

٢٨- وقال إسحاق بن راهويه: (الإيمان يزيد وينقص حتى لا يبقى منه شيء).

٢٩- وأما قول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل في زيادة الإيمان ونقصانه فكثيرة جدا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الإيمان بعضه أفضل من بعض، يزيد وينقص، وزيادته في العمل، ونقصانه في ترك العمل، لأن القول هو مقر به).

وقال: (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، إذا عملت الخير زاد، وإذا ضيعت نقص).

وسُئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن زيادة الإيمان ونقصانه فقال: (يزيد حتى يبلغ أعلى السموات السبع، وينقص حتى يصير إلى أسفل السافلين السبع)

وأقواله غير ما ذكرت كثيرة يطول ذكرها[1].

٣٠- وقال أبو زرعة الرازي: (الإيمان عندنا قول وعمل، يزيد وينقص، ومن قال غير ذلك فهو مبتدع مرجئ).

٣١- وقال أبو حاتم الرازي: (مذهبنا واختيارنا وما نعتقده وندين الله به

---

(١) انظرها في السنة للخلال (٢/ ٦٥٥ (٩٥٧) و (٢/ ٦٧٦ (١٠٠٤) و (٢/ ٦٨٠ (١٠١٠)، و (٢/ ٦٨٣) (١٠٢٠) و (٢/ ٦٨٩) (١٠٣٢) ومسائل الإمام أحمد لأبي داود (ص: ٢٧٢)، ومسائل الإمام أحمد لابن هانئ (٢/ ١٥٦، ١٦٢، ١٦٤) و ((الشريعة)) للآجري (ص١١٤، ١٢٩)، و ((الإبانة)) لابن بطة (٢/ ٨٥١) (١١٤٦)، (٢/ ٨٧٥) (١١٩٩)، و ((طبقات الحنابلة)) لابن أبي يعلى (١/ ٢٤، ٢٥، ١٣٠، ١٣١، ٢٩٥، ٣١٣، ٣٤٣)، و ((مناقب الإمام أحمد)) لابن الجوزي (ص: ٢٠١)، وغيرها مما يطول ذكره.

ونسأله السلامة في الدين والدنيا: أن الإيمان قول وعمل .. يزيد وينقص).

هذه بعض أقوال السلف الصالح أهل السنة والجماعة في زيادة الإيمان ونقصانه، والأمر كما قال شيخ الإسلام: (والآثار في هذا كثيرة، رواها المصنفون في هذا الباب عن الصحابة والتابعين في كتب كثيرة معروفة) (٨) انظر تخريج كل هذه الآثار في كتاب زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه لعبد الرزاق البدر(ص ١١٠).

المسألة الثانية: كيفية زيادة الإيمان ونقصانه

الإيمان الذي أمر الله به عباده، والذي يكون من عباده المؤمنين يزيد وينقص من أوجه متعددة، فهو يزيد وينقص من جهة معرفة القلب وتصديقه وأعماله، ومن جهة أقوال اللسان وأعماله، ومن جهة الأعمال الظاهرة، ومن أوجه أخرى غيرها، وفي هذه الأوجه أبلغ رد على من أنكر زيادة الإيمان ونقصانه إجمالًا، أو أنكر ذلك في بعض جوانبه، كتصديق القلب أو معرفته أو غير ذلك.

وقد بسط شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الإيمان هذه الأوجه بسطًا وافيًا وأحسن في بيانها وذكر أدلتها١ فسأذكر في هذا الفصل الأوجه التي ذكرها شيخ الإسلام مع شيء من التصرف في العبارة، وزيادة بيان في بعض المواضع، وزيادة في بعض الأدلة، وذلك حسب ما يقتضيه المقام وتدعو إليه الحاجة وفيما يلي ذكر هذه الأوجه مجملة ثم يأتي بعد ذلك تفصيلها.

١ - أن الإيمان يزيد وينقص من جهة الإجمال والتفصيل فيما أمروا به.

٢ - أنه يزيد وينقص من جهة الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم.

٣ - أنه يزيد وينقص من جهة علم القلب وتصديقه.

٤- أنه يزيد وينقص من جهة المعرفة القلبية وهي دون التصديق.

٥- إنه يزيد وينقص من جهة عمل القلب كالمحبة والخوف والرجاء وغيرها.

٦- أنه يزيد وينقص من جهة أعمال الجوارح الظاهرة.

٧- أنه يزيد وينقص من جهة استحضار الإنسان لأوامر الدين الحنيف وعدم الغفلة عنها والثبات والدوام عليها.

٨- أنه يزيد وينقص من جهة أن الإنسان قد يكون منكرًا ومكذبًا بأمور، لا يعلم أنها من الإيمان، ثم يتبين له بعد أنها منه، فيزداد بذلك إيمانه.

٩- أنه يزيد وينقص في هذه الأمور من جهة الأسباب المقتضية لها.

فهذه أوجه زيادة الإيمان ونقصانه على وجه الإجمال، أما التفصيل لها فكما يلي:

الوجه الأول: الإجمال والتفصيل فيما أمروا به، فإنه وإن وجب على جميع الخلق الإيمان بالله ورسوله، ووجب على كل أمة التزام ما يأمرهم به رسولهم، فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله وإتمام الشرع، ولا يجب على كل عبد أن يؤمن إيمانًا مفصلًا بكل ما أخبر به الرسول إن لم يبلغه تفاصيل ذلك، فمن بلغه وجب عليه أن يؤمن به إيمانًا مفصلًا، فإن من عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الإيمان المفصل بذلك ما لا يلزم غيره. فلو آمن رجل بالله وبالرسول باطنًا وظاهرًا، ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين، مات مؤمنًا بما وجب عليه الإيمان، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع منه مثل إيمان من عرف الشرائع بتفاصيلها فآمن بها وعمل بها، بل إيمان هذا الأخير أكمل وجوبا ووقوعًا، لأن ما وجب عليه من الإيمان أكمل وكذلك ما وقع منه

أكمل، وبهذا يعلم أنه ليس من التزم طاعة الرسول مجملًا، ومات قبل أن يعرف تفصيل ما أمره به، كمن عاش حتى عرف ذلك مفصلًا وأطاعه فيه، فليس إيمان من آمن بالرسول مجملًا من غير معرفة منه بتفاصيل أخباره، كمن عرف ما أخبر به عن الله وأسمائه وصفاته، والجنة والنار والأمم، وآمن به في ذلك كله، فشتان ما بين هذا وذاك.

وقول الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة: ٣] المراد به إكمال التشريع بالأمر والنهي، وليس المراد به أن كل واحد من الأمة وجب عليه ما يجب على سائر الأمة، وأنه فعل ذلك، بل لقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه وصف النساء بأنهن (ناقصات عقل ودين)[١]، وجعل نقصان عقلها أن شهادة امرأتين شهادة رجل واحد، ونقصان دينها أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي، وهذا النقصان ليس هو نقصًا مما أمرت به، فلهذا لا تعاقب عليه لأنها لم تؤمر به، لكن من أمر بالصلاة والصوم ففعله كان دينه كاملًا بالنسبة إلى هذه الناقصة الدين، والتي تترك الصلاة والصوم حال حيضها، وإن كانت مأمورة بهذا الترك، فذاك إيمانه أكمل من هذه للتفاوت بينهما في المأمور به. فهذا وجه من أوجه الزيادة والنقصان في الإيمان.

وذكر شيخ الإسلام نحو ما تقدم في شرحه للعقيدة الأصفهانية (١٣٩) ثم قال: (فصار النقص في الدين والإيمان نوعين نوعا لا يذم العبد عليه لكونه لم يجب عليه لعجزه عنه حسًا أو شرعًا، وإما لكونه مستحبًا ليس بواجب، ونوعا يذم عليه وهو ترك الواجبات) ... أي دون عذر.

الوجه الثاني: الإجمالي والتفصيل فيما وقع منهم، فإن الناس وإن تساووا في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨)، ومسلم (٢٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وجوب الإيمان عليهم جميعا، فهم متفاوتون في القيام به:

١- فمنهم من يطلب علم ما أمر به وما وجب عليه فيتعلمه ويعمل به، فيجمع بين العلم والعمل.

٢- ومنهم من يطلب علم ما أمر به فيتعلمه ويؤمن به ويصدق، ولكن لا يعمل به.

٣- ومنهم من يؤمن بما جاء به رسول الله ﷺ مطلقًا ولا يكذبه قط، لكنه يعرض عن معرفة أمره ونهيه ويعرض عن طلب العلم الواجب عليه بل يتبع هواه فلا يتعلم الواجب عليه ولا يعمل به.

فهؤلاء الثلاثة وإن اشتركوا في الوجوب، فإنهم متفاوتون في الإيمان تفاوتًا عظيمًا فالأول منهم وهو الذي طلب علم التفصيل وعمل به إيمانه أكمل من إيمان الثاني الذي عرف ما يجب عليه والتزمه وأقرّ به، لكنه لم يعمل به وهو خائف من عقوبة ربه على ترك العمل معترف بذنبه، وهذا الثاني إيمانه أكمل من إيمان الثالث الذي لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول ﷺ ولا عمل بذلك ولا هو خائف أن يعاقب، بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به رسول الله ﷺ، مع أنه مقر بنبوته باطنًا وظاهرًا.

وهذا التفاوت بينهم في الإيمان إنما هو فيما وقع منهم، لا في ما أمروا به لأنهم متساوون في وجوبه عليهم جميعًا، وبهذا يتبين أن الإيمان يزيد وينقص من جهة قيام المؤمنين به ووقوعه منهم، فكلما علم القلب ما أخبر به الرسول فصدقه، وما أمر به فالتزمه، كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك، وإن كان معه التزام عام وإقرار عام، وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها، فآمن بها، كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء بل آمن بها إيمانًا مجملًا، أو

عرف بعضها، وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته، كان إيمانه بها أكمل.

وبالجملة فإنه كلما ازداد المسلم قيامًا بأوامر هذا الدين والتزامًا لأحكامه، زاد إيمانه بذلك، وكان أكمل من غيره ممن لم يقم بذلك، وهذه الزيادة في الإيمان إنما وقعت من جهة قيام المؤمنين به ووقوعه منهم.

الوجه الثالث: إن العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت وأبعد عن الشك والريب، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه، فإن الإنسان يجد في نفسه أن علمه بمعلومه يتفاضل حاله فيه، كما يتفاضل حاله في سمعه لمسموعه، ورؤيته لمرئيه، وحبه لمحبوبه، وكراهيته لمكروهه، ورضاه بمرضيه، وبغضه لبغيضه، ولا ينكر التفاضل في هذه أحد، بل من أنكر التفاضل فيها كان مسفسطا مكذبا للأمور المسلمات.

فالعلم والتصديق يتفاضل ويتفاوت كما يتفاضل سائر صفات الحي من القدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، بل سائر الأعراض من الحركة والسواد والبياض ونحو ذلك، فإذا كانت القدرة على الشيء تتفاوت فكذلك الإخبار عنه يتفاوت، وإذا قال القائل العلم بالشيء الواحد لا يتفاضل كان بمنزلة قوله القدرة على المقدور الواحد لا تتفاضل، وقوله ورؤية الشيء الواحد لا تتفاضل.

ومن المعلوم أن الهلال المرئي يتفاضل الناس في رؤيته، فهم وإن اشتركوا فيها، فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض، وكذلك سمع الصوت الواحد يتفاضلون في إدراكه، وكذلك الكلمة الواحدة يتكلم بها الشخصان ويتفاضلان في النطق بها، وكذلك شمّ الرائحة الواحدة وذوق النوع الواحد من الطعام

يتفاضل الشخصان فيه، فما من صفة من صفات الحي وأنواع إدراكاته وحركاته، بل وغير صفات الحي، إلا وهي تقبل التفاضل والتفاوت إلى ما لا يحصره البشر، وهذا مما لا يختلف فيه اثنان، فإذا كان ذلك كذلك فإن علم القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من هذا بكثير، فالمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الرب وكلامه، يتفاضل الناس في معرفتها، أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها، وهكذا سائر أمور الإيمان.

ومما يوضح هذا الوجه في التفاضل في تصديق القلب، أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، فمن آمن وصدق بأن الله حق، ورسوله حق، والجنة حق، والنار حق، وأوجب له هذا التصديق محبة الله وخشيته والرغبة في الجنة، والهرب من النار، فإيمان هذا أكمل ممن آمن وصدق بهذه الأمور إلا أن إيمانه لم يوجب له ذلك.

قال النووي في شرح مسلم (١/ ١٤٨) بعد أن ذكر قول من قال إن التصديق لا يزيد ولا ينقص وإنه متى قبل الزيادة كان شكًا وكفرًا، قال: (والأظهر والله أعلم أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريهم الشبه، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيّرة وإن اختلفت عليهم الأحوال، وأما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم ونحوهم فليسوا كذلك، فهذا مما لا يمكن إنكاره ..).

وقال النووي أيضًا في شرح البخاري (١/ ٢٢٦): (والناس يتفاضلون في تصديق القلب على قدر علمهم ومعاينتهم فمن زيادته بالعلم قوله تعالى: أَيُّكُمْ

زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ومن المعاينة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ فجعل له مزية على علم اليقين والله أعلم).

ونقله عنه الحافظ في الفتح (١/ ٤٦) ثم قال: (ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل، حتى إنه يكون في بعض الأحيان الإيمان أعظم يقينًا وإخلاصًا وتوكلًا منه في بعضها، وكذلك في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها).

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦/ ٤٨٠): (إن التصديق نفسه يتفاضل كنهه، فليس ما أثنى عليه البرهان بل تشهد له الأعيان، وأميط عنه كل أذى وحسبان، حتى بلغ أعلى درجات الإيقان، كتصديق زعزعته الشبهات، وصدقته الشهوات، ولعب به التقليد، ويضعف لشبه المعاند العنيد، وهذا أمر يجده من نفسه كل منصف رشيد).

وقال ابن رجب جامع العلوم والحكم (٢٨): (والتصديق القائم بالقلوب يتفاضل، وهذا هو الصحيح، وهو أصح الروايتين عن أبي عبدالله أحمد بن حنبل، فإن إيمان الصديقين الذي يتجلى الغيب لقلوبهم حتى يصير كأنه شهادة بحيث لا يقبل التشكيك والارتياب ليس كإيمان غيرهم ممن لا يبلغ هذه الدرجة بحيث لو شكك لدخله الشك ...).

لم أقف على نقل للإمام أحمد رأى فيه أن التصديق لا يتفاضل، وإنما الذي نقل عن الإمام فيه روايتان فيما اطلعت عليه هو: (المعرفة القلبية) كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وكما سيأتي في الوجه التالي، فعلّ الحافظ ابن رجب قصد بالروايتين عنه في التصديق ما جاء عنه في المعرفة والله أعلم.

وقال الكرخي كما في تفسير أبي السعود (٣/ ٤): (إن نفس التصديق يقبل

القوة، وهي التي عبر عنها بالزيادة للفرق المميز بين يقين الأنبياء ويقين آحاد الأمة وكذا من قام عليه دليل واحد ومن قامت عليه أدلة كثيرة، لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه).

فبهذا البيان والنقول يتضح بما لا مجال للشك فيه أن التصديق نفسه يقبل الزيادة والنقصان، فتأمل هذا الوجه جيدا فقد اشتمل على أوضح رد وأجلى بيان لبطلان قول من قال إن التصديق لا يزيد ولا ينقص، وإن نقصانه يقتضي الشك والكفر ...

الوجه الرابع: إن المعرفة القلبية - وهي دون التصديق[1] - يتفاضل الناس فيها، فهي تختلف من حيث الإجمال والتفصيل، والقوة والضعف، ودوام الحضور والغفلة؛ فليست المعرفة المستحضرة الثابتة التي يثبت الله صاحبها كالمجملة التي غفل عنها صاحبها، وإذا حصل له ما يريبه فيها ارتاب ثم رغب إلى الله في كشف الريب.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٠٨): (وكذلك المعرفة التي في القلوب تقبل التفاضل على الصحيح عند أهل السنة، وفي هذا نزاع، فطائفة من المنتسبين إلى السنة تنكر التفاضل في هذا كله كما يختار ذلك القاضي أبو بكر وابن عقيل وغيرهما، وقد حكي عن أحمد في التفاضل في المعرفة روايتان).

وقال شيخ الإسلام درء التعارض (٧/ ٤٥١): (وقد ذكر القاضي أبو يعلى في ذلك عن أحمد روايتين).

---

(١) لمعرفة الفرق بين المعرفة والتصديق انظر: رسالة الإمام أحمد للجوزجاني ضمن السنة للخلال، وانظرها وشرح شيخ الإسلام لها في الفتاوى (٧/ ٣٩٠، وما بعدها)، قال شيخ الإسلام في شرحها (٧/ ٣٩٥): "وأحمد فرق بين المعرفة التي في القلب وبين التصديق الذي في القلب ...".

وكلتا الروايتين ثابتتان عن الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسند صحيح، أما الرواية الأولى فقد خرجها الخلال في السنة (٢/ ٦٧٧) من طريق أبي بكر محمد بن علي أن يعقوب بن بختان حدثهم قال: سألت أبا عبدالله عن المعرفة والقول تزيد وتنقص؟ قال: لا، قد جئنا بالقول والمعرفة وبقي العمل.

وأما الرواية الثانية فخرجها أيضًا الخلال في السنة (٢/ ٦٧٦) من طريق المروذي قال: قلت لأبي عبدالله في معرفة الله عَزَّوَجَلَّ في القلب يتفاضل فيه؟ قال: نعم، قلت: ويزيد؟ قال: نعم ... ولا تعارض بين هاتين الروايتين عن الإمام، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ جزم في الرواية الأولى بالإتيان بالمعرفة والقول، وهذا مما لا يجوز لمسلم أن يرتاب فيه إذ إن من شك في إتيانه بالمعرفة والقول يكفر، لكن المعرفة تختلف من شخص لآخر قوةً وضعفًا بحسب قوة الأدلة وكثرة النظر، وهذا ما بينه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرواية الثانية، حيث بيّن أن الناس يتفاضلون في المعرفة وأنها تزيد، وهذا لا يتنافى مع الجزم بالإتيان بالمعرفة، لأن القدر الواجب من المعرفة يجزم به المسلم، ولا يمكن أن يجزم بأنه بلغ أعلى درجات المعرفة، لأن المعرفة درجات والناس متفاضلون فيها، والله أعلم.

ثم وقفت على كلام نحوه للقاضي أبي يعلى في التوفيق بينهما، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الروايتين والوجهين (القرآن ٢٥١/ ب) بعد أن أشار إلى هاتين الروايتين: (وعندي أن المسألة ليست على روايتين وإنما هي على اختلاف حالين، فالموضع الذي قال لا تزيد ولا تنقص يعني به نفس المعرفة، لأن المعرفة هي: معرفة المعلوم على ما هو به، وذلك لا يختلف بحال ... والموضع الذي قال: تزيد وتنقص يعني بالزيادة في معرفة الأدلة، وذلك قد يزيد وينقص، فمنهم من يعرف الشيء من جهة واحدة، ومنهم من يعرفه من جهات

كثيرة).

ثم إن مما يوضح لنا هذا الوجه، أعني التفاضل في المعرفة ويبينه أن معرفة الإنسان بالشيء إن عاينه تختلف عن معرفته به إن لم يعاينه وإن كان جازمًا بصدق من أخبره. ولهذا قال النبي ﷺ: (ليس الخبر كالمعاينة)[1] فإن موسى لما أخبره ربه أن قومه عبدوا العجل، لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها، وليس ذلك لشك موسى في خبر الله، لكن المخبر وإن جزم بصدق المخبر، فقد لا يتصور المخبر به في نفسه كما يتصوره إذا عاينه، بل يكون قلبه مشغولًا عن تصور المخبر به، وإن كان مصدقًا به، ومعلوم أنه عند المعاينة يحل له من تصور المخبر به ما لم يكن عند الخبر.

فالزيادة والنقصان في الإيمان شاملة لمعرفة القلوب لتفاضل الناس فيها، من جهة الإجمال والتفصيل، والقوة والضعف، والذكر والغفلة، فمعرفة الله وأسمائه وصفاته، وأنه بكل شيءٍ عليم، وعلى كل شيءٍ قدير، وأنه غفور رحيم، عزيز حكيم، شديد العقاب، إلى غير ذلك من صفاته، كل ذلك داخل في الإيمان، إذ لا يمكن لمسلم أن يقول إنه ليس من الإيمان، ومعلوم أن الناس متفاوتون في معرفتها وغير متماثلين، بل لا يمكن لأحد أن يدعي تماثل الناس في

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٧١، رقم ٢٤٤٧)، وابن حبان (١٤/ ٩٦، رقم ٦٢١٣)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٥٤)، والحاكم (٢/ ٣٥١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال الزركشي في اللآلئ المنثورة (٧٨): إسناده صحيح، وحسنه ابن حجر في موافقة الخبر الخبر (٢/ ١٣٨)، وقال محمد الغزي في إتقان ما يحسن (٢/ ٤٧٥): إسناده جيد، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٤) وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٦٣٢).

ذلك.

ثم من المعلوم أيضًا أن الناس يتفاضلون في معرفة الملائكة وصفاتهم، ويتفاضلون في معرفة الروح وصفاتها، وفي معرفة الجن وصفاتهم، وفي معرفة الآخرة وما بها من نعيم وعذاب، بل ويتفاضلون في معرفة أبدانهم وصفاتها وصحتها ومرضها وما يتبع ذلك، فإن كانوا متفاضلين في ذلك كله، فتفاضلهم في معرفة الله أعظم وأعظم[1].

قال شيخ الإسلام في الفتاوى (٦/ ٤٧٩): ولا ريب أن المؤمنين يعرفون ربهم في الدنيا، ويتفاوتون في درجات العرفان، والنبي ﷺ أعلمنا بالله وقد قال: (لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)[2] وهذا يتعلق بمعرفة زيادة المعرفة ونقصها المتعلقة بمسألة زيادة الإيمان ونقصه.اهـ..

وقال ابن قاضي الجبل في أصوله فيما نقله عنه ابن النجار في شرح (الكوكب المنير (١٨): الأصح التفاوت، فإنا نجد بالضرورة الفرق بين كون الواحد نصف الاثنين، وبين ما علمناه من جهة التواتر مع كون اليقين حاصل فيهما.اهـ..

قال السبكي في رسالة له ألفها في الاستثناء نقل أكثرها الزبيدي في الإتحاف (٢/ ٢٨٠): والمعرفة يتفاوت الناس فيها تفاوتًا كثيرًا .. وأعلى الخلق معرفة النبي ﷺ ثم الأنبياء والملائكة على مراتبهم وأدنى المراتب الواجب الذي لا بد منه في النجاة من النار وفي عصمة الدم، وبين ذلك وسائط كثيرة منها واجب ومنها ما ليس بواجب وكل ذلك داخل في اسم الإيمان.اهـ.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٧/ ٢٤٣، ٤١٤، ٥٦٩).

(٢) جزء من حديث رواه مسلم (١١١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وبهذا يتبين أن المعرفة القلبية تقبل الزيادة والنقصان وبالله التوفيق.

فائدة جليلة: تنازع الناس في المعرفة القلبية هل حصلت بالشرع أو بالعقل؟

قال شيخ الإسلام في درء التعارض (٧/ ٤٥٨) بعد أن نقل الخلاف في ذلك: وحقيقة المسألة: أن المعرفة منها ما يحصل بالعقل، ومنها ما لا يعرف إلا بالشرع، فالإقرار الفطري: كالإقرار الذي أخبر الله به عن الكفار، قد يحصل بالعقل كقوله تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ) [لقمان: ٢٥].

وأما ما في القلوب من الإيمان المشار إليه في قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الشورى: ٥٢] فلا يحصل إلا بالوحي ..).

الوجه الخامس: إن أعمال القلوب كالمحبة والخشية والخشوع والذل والإنابة والتوكل والحياة والرغبة والرهبة والخوف والرجاء وغيرها، يتفاضل الناس فيها تفاضلًا عظيمًا، وهي جميعها من أعمال الإيمان كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق سلف هذه الأمة.

فالمحبة مثلًا الناس متفاوتون فيها، ما بين أفضل الخلق محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام وهما خليلا الله وأشد الناس محبة له، إلى أدنى الناس درجة في الإيمان كمن في قلبه مثقال ذرة من إيمان، وبين هذين الحدين من الدرجات ما يحصيه إلا رب الأرض والسماوات، فإنه ليس في أجناس المخلوقات ما يتفاضل بعضه على البعض كبني آدم.

بل إن التفاضل في المحبة يعلمه كل إنسان من نفسه بحسب الحب الذي قام

في قلبه لأي محبوب كان، سواء كان حبًا لولده أو لامرأته أو لرياسته أو لصديقه أو غير ذلك، فإن حبه لهذه الأشياء على درجات، فالحب أوله علاقة لتعلق القلب بالمحبوب، ثم صبابة لانصباب القلب نحوه، ثم غرام للزومه القلب كما يلزم الغريم غريمه، إلى غير ذلك من درجات الحب وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه فإنه قد يكون الشيء الواحد يحبه تارة أكثر مما يحبه تارة، فإذا علم تفاضل الناس في حب هذه الأشياء من محبوباتهم، فتفاضلهم في حب الله أعظم.

وقد دل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على تفاضل الناس فيه قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) [التوبة: ٢٤].

فهاتان الآيتان فيهما دلالة على تفاضل الناس في المحبة، ففي قوله أَشَدُّ حُبًّا في الآية الأولى وقوله: أَحَبَّ في الآية الثانية أعظم دلالة على ذلك، لاستخدام أفعل التفضيل فيهما الدال صراحة على التفاضل.

وفي الصحيحين البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار).

وفيهما البخاري (١٥) ومسلم (٤٤) عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين).

وفي صحيح البخاري (٦٦٣٢) عن عبدالله بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إليّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر).

فهذه الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، فيها أوضح دلالة على تفاضل الناس في المحبة. فقد ذكر فيه كلمة (أحب) الدالة على التفاضل تصريحًا، فمن أنكر ذلك وقال بخلافه، فقد خالف الكتاب والسنة، بل وخالف اللغة والعقل والحس.

وكما أن الناس يتفاضلون في المحبة وهي عمل قلبي، فهم كذلك يتفاضلون في سائر أعمال القلوب من خشية وإنابة وتوكل ورجاء وخوف وحياء وغير ذلك، فهذه كلها يتفاضل الناس فيها تفاضلًا عظيمًا، وهذا من الأمور المعلومة الظاهرة، والأدلة في الكتاب والسنة كثيرة منها:

قول الله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) [فاطر: ٢٨].

وقوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [الأنفال: ٢].

وقوله: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: ١٦].

وقوله: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨].

وقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} [الإسراء: ٥٧]

وقوله: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢].

وقوله: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال: ٢٩].

وقوله: {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠].

حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري (٤٤)، ومسلم (٤٩٩) قال: قال رسول الله ﷺ (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير) الحديث .

وحديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان)[1].

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، والطبراني في الكبير (٧٦١٣، ٧٧٣٧، ٧٧٣٨)، وفي الشاميين (١٢٦٠، ٣٤٤٧)، والبيهقي في الاعتقاد (١٧٨-١٧٩)، والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٥٤)، والشجري في الآمالي (٢/ ١٤٠، ١٥٠، ١٥٢) والحديث حسن إسناده لذاته وصححه بشاهد له العلامة الألباني في الصحيحة (٣٨٠)، وحسنه الحويني =

وحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البخاري (٩)، ومسلم (١٦١) قال: قال رسول الله ﷺ: (والحياء شعبة من الإيمان).

وحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند البخاري (٢٠) قالت: قال رسول الله ﷺ: (إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا).

وغيرها من الأحاديث ففي هذه النصوص أوضح دلالة على تفاضل الناس في أعمال القلوب وتفاوتهم فيها.

ثم إن النصوص الواردة في ذلك كثيرة، ولو تتبعتها وذكرت كل عمل من الأعمال القلبية بأدلته لطال المقام، والأمر لا يحتاج إلى ذلك، لأن كل إنسان يحس ذلك ويلمسه في نفسه، فإن الإنسان يجد نفسه في وقت أشد حياء منه في الوقت الآخر، وفي وقت أشد خوفًا منه في الوقت الآخر، وهكذا سائر أعمال القلب، فإن الإنسان يحس في نفسه تفاوته من وقت لآخر فيها.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٦٣): فإنه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن، أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه والتوكل عليه والإخلاص له، وفي سلامة القلوب من الرياء والكبر والعجب، ونحو ذلك، والرحمة للخلق والنصح لهم .. ثم ذكر بعض نصوص الكتاب والسنة الدالة على ذلك، ثم قال: وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه، فإنه قد يكون الشيء الواحد يحبه تارة أكثر مما يحبه تارة، ويخافه تارة أكثر مما يخافه تارة.

=

في النافلة تحت الحديث رقم (١٥٦) بقوله: هذا سند حسن لأجل القاسم بن عبد الرحمن، وحسنه الشيخ مشهور في تعليقه على الموافقات (٢/ ١٨٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٧/ ٦٩): حديث صحيح، وهذا إسناده حسن.

وبيّن في موضع آخر أن هذا هو قول أهل السنة والجماعة، فقال في مجموع الفتاوى (٦/ ٤٧٩): والذي مضى عليه سلف الأمة وأئمتها أن نفس الإيمان الذي في القلوب يتفاضل ..اهـ.

وقال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في الدرر السنية (١/ ١٠٦) ومجموع مؤلفات الشيخ قسم الفتاوى (ص: ٥١): وأما كون الذي في القلب والذي في الجوارح يزيد وينقص فذاك شيء معلوم، والسلف كانوا يخافون على الإنسان إذا كان ضعيف الإيمان النفاقَ أو سلبَ الإيمان كله.

الوجه السادس: إن الأعمال الظاهرة يتفاضل الناس فيها وتزيد وتنقص وهذا شامل لأعمال اللسان، كالتسبيح والتكبير والاستغفار والذكر وقراءة القرآن وغيرها، وشامل لأعمال الجوارح، كالصلاة والحج والجهاد والصدقة وغيرها. فهذه الأعمال الظاهرة هي من الإيمان، وداخله في مسماه، والتفاضل يقع فيها كما يقع في الأعمال الباطنة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٦٢): وهذا مما اتفق الناس على دخول الزيادة فيه والنقصان، لكن نزاعهم في دخول ذلك في مسمى الإيمان ...اهـ.

وقال في مجموع الفتاوى (٦/ ٤٧٩): وأما زيادة العمل الصالح الذي على الجوارح ونقصانه فمتفق عليه وإن كان في دخوله في مطلق الإيمان نزاع وبعضه لفظي مع أن الذي عليه أئمة أهل السنة والحديث -وهو مذهب مالك والشافعي وغيرهم- أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.اهـ.

أما الأدلة على تفاضل الناس في الأعمال الظاهرة: أعمال اللسان، وأعمال الجوارح فكثيرةٌ جدًا.

فمن أدلة تفاضل الناس في أعمال اللسان

قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا} [الأحزاب: ٤٢].

وقول الله تعالى: {وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ} [آل عمران: ٤١].

وقوله: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: ١٩١].

وقوله: {وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٣٥].

وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ} [فاطر: ٢٩].

وقوله: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨].

وفي الصحيحين البخاري (٦٠٤٤) واللفظ له، ومسلم (١٨٥٩) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت).

وفي الترمذي: وغيره عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها)[1]، فهذه النصوص فيها أوضح دلالة على تفاضل

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٢، رقم ٦٧٩٩)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (ص٣٧)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٩٨)، وأبو داود (٢/ ٧٣، رقم ١٤٦٤)، والترمذي (٥/ ١٧٧، رقم =

الناس في أعمال اللسان، إذ هم ليسوا سواء في القيام بأعماله، بل متفاوتون.

ومن أدلة تفاضل الناس في أعمال الجوارح: قول الله تعالى: {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: ٢٣٨].

وقوله: {قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} [إبراهيم: ٣١].

وقوله: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون: ١ - ١١].

وحديث الشعب، .. فيه جعل النبي ﷺ إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان[1]، وقوله ﷺ: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ..) الحديث[1] فهذه

=

٢٩١٤)، والنسائى فى الكبرى (٥/ ٢٢، رقم ٨٠٥٦)، وابن الضريس في فضائل القرآن (١١١)، والفريابي في فضائل القرآن (٦٠، ٦١)، وابن حبان (٣/ ٤٣، رقم ٧٦٦)، والحاكم (١/ ٧٣٩، رقم ٢٠٣٠)، والبيهقى (٢/ ٥٣، رقم ٢٢٥٣)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٤٣٥)، والآجري في أخلاق حملة القرآن (ص١٥) والحديث صححه الترمذي، وابن حبان، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٢٤٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ٤٠٤): صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن من أجل عاصم، وهو ابن أبي النجود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وقال الحويني في تحقيق تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٤): سنده حسن لأجل عاصم بن أبي النجود.

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النصوص فيها ذكر جملة من الأعمال الإيمانية كالصلاة والزكاة، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وتغيير المنكر باليد على حسب الاستطاعة، وإماطة الأذى عن الطريق فهذه كلها من الأعمال الإيمانية التي تكون بالجوارح، وما من شك في أن الناس متفاضلون في هذه الأعمال أداء لها ومحافظة عليها وقيامًا بها، فهم ليسوا في ذلك على درجة واحدة، بل بينهم فيها تفاوت عظيم.

الوجه السابع: إن الإيمان يتفاضل ويزيد وينقص من جهة استحضار الإنسان بقلبه لأمور الإيمان، وذكره لها، ودوامه وثباته عليها، بحيث لا يكون غافلًا عنها، فإن من كان كذلك أكمل إيمانًا ممن صدق بالمأمور به وغفل عنه.

وذلك لأن الغفلة تضاد كمال العلم والتصديق والذكر، وأما دوام الاستحضار وعدم الغفلة فإنه يكمل العلم واليقين ويقوي الإيمان، فالعالم بالشيء في حالة غفلته عنه دون العالم بالشيء حال ذكره له، والعلم وإن كان في القلب فالغفلة تنافي تحققه.

فالغفلة وعدم استحضار الأوامر، لها أثر في نقص كمال الإيمان وضعفه ولهذا قال عمير بن حبيب الخطمي رضي الله عنه: (إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه)، وكان معاذ بن جبل يقول لأصحابه (اجلسوا بنا نؤمن ساعة)[٢]، وهذا يدلنا على أن الحذر من الغفلة، واستحضار الإيمان سبب لزيادة الإيمان، وعدم ذلك سبب لنقصه. ولهذا فإن الله الكريم نبه في مواضع كثيرة من كتابه على أهمية الذكرى وعظم شأنها، وخطر الغفلة وشدة ضررها، ومن ذلك قوله: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ

=

(١) أخرجه مسلم (١٨٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه والذي قبله.

الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥]

وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: ٣٧] ومعنى شهيد أي: حاضر القلب وليس بغافل.

وقوله: {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى} [الأعلى: ١١].

وقوله: {وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨].

وقوله: {وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف: ٢٠٥] وغيرها من الآيات.

الوجه الثامن: إن الإنسان قد يكون مكذبًا ومنكرًا لأمور لا يعلم أنها من الإيمان، ولو كان عالمًا بأنها منه لم يكذب ولم ينكر، فإذا تبين له بعد أنها من الإيمان، وظهر له ذلك بوجه من الوجوه، فإنه يصدق بما كان مكذبًا به، ويعرف ما كان منكرًا له، وهذا تصديق جديد، وإيمان جديد، ازداد به إيمانه، وهو لم يكن قبل ذلك كافرًا بل جاهلًا.

وهذا يحصل لكثير من الناس ولا سيما أهل العلوم والعبادات، فإنه يقوم بقلوبهم من التفصيل أمور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول ﷺ وهم لا يعرفون أنها تخالف، فإذا عرفوا رجعوا.

وكل من ابتدع في الدين قولًا أخطأ فيه، أو عمل عملا أخطأ فيه، وهو مؤمن بالرسول ﷺ مصدق بما جاء به ثم عرف ما قاله وآمن به وترك ما كان عليه من خطأ، فهو من هذا الباب، وكل مبتدع قصده متابعة الرسول فهو من هذا الباب، فمن علم ما جاء به الرسول وعمل به، أكمل ممن أخطأ ذلك، ومن علم الصواب بعد الخطأ وعمل به أكمل ممن لم يكن كذلك.

فهذا أحد أوجه زيادة الإيمان ونقصانه، وهو وإن أشبه الوجه الأول وهو

المجمل والمفصل من جهة أنه تجدد عند هذا وهذا شيء من معارف الإيمان وعلومه مما لم يكن قبل عندهما، إلا أنهما مختلفان من جهة أن صاحب الوجه الأول كان قلبه خاليًا من تكذيب وتصديق لشيءٍ من التفاصيل وعن معرفة وإنكار لشيء من ذلك، أما صاحب هذا الوجه فهو مكذب بشيء من التفاصيل منكر لها لجهله أنها من الإيمان وبهذا يظهر الفرق بين الوجهين.

الوجه التاسع: إن التفاضل يحصل من هذه الأمور من جهة الأسباب المقتضية لها، فمن كان مستندًا في تصديقه ومحبته على أدلة توجب اليقين ولا تدع مجالًا للشبه العارضة، بل تدحضها وتبين فسادها، فهو ليس بمنزلة من كان تصديقه لأسباب دون ذلك، فإن تصديقه قد يتزعزع ويداخله الشك والريب لضعف أسباب التصديق عنده وكذلك من جعل له علومًا ضرورية قوي تمكنها في نفسه بحيث لا يمكنه دفعها عن نفسه، لم يكن بمنزلة من تعارضه الشبه ويريد إزالتها بالنظر والبحث وقد لا يستطيع.

ولا يستريب عاقل أن العلم بكثرة الأدلة وقوتها، وبفساد الشبه المعارضة لذلك وبطلانها ليس كالعلم الذي هو مستند على دليل واحد أو دليلين من غير معرفة بالشبه المعارضة له، وفسادها.

فالشيء كلما قويت أسبابه، وتعددت وانقطعت موانعه واضمحلت كان أوجب لكماله وقوته وتمامه، والعكس بالعكس.

فهذه الأوجه التسعة تبين تفاضل الناس فيما يقوم بالقلب واللسان والجوارح، وبالتأمل قد يظهر غيرها.

ثم إن هذه الأوجه التسعة تتلخص في وجهين اثنين هما:

١ - إن الإيمان يتفاضل من جهة أمر الرب.

٢- إن الإيمان يتفاضل من جهة فعل العبد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٣/ ١٨، ٥١/ ٢٧٧): وذلك أن أصل أهل السنة أن الإيمان يتفاضل من وجهين: من جهة أمر الرب، ومن جهة فعل العبد.

أما الأول فإنه ليس الإيمان الذي أمر به شخص من المؤمنين هو الإيمان الذي أمر به كل شخص، فإن المسلمين في أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار من الإيمان، ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك، وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة، فكان الإيمان في أول الأمر الإيمان بوجوب استقبال الكعبة، فقد تنوع الإيمان في الشريعة الواحدة. وأيضًا فمن وجب عليه الحج والزكاة أو الجهاد يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره إلا مجملا، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل، وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان.

والنوع الثاني: هو تفاضل الناس في الإتيان به مع استهوائهم في الواجب وهذا الذي يظن أنه محل النزاع وكلاهما محل النزاع

وهذا أيضًا يتفاضلون فيه فليس إيمان السارق والزاني والشارب كإيمان غيرهم، ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه مثل دين هذا وبره وتقواه، بل هذا أفضل دينًا وبرًا وتقوى فهو كذلك أفضل إيمانًا ...اهـ. زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه لعبدالرزاق البدر بتصرف (ص١٣٦).

وقال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (١/ ٤٩ - ٥٢) بقوله: الإيمان عند

أهل السنة والجماعة هو "الإقرار بالقلب، والنطق باللسان، والعمل بالجوارح" فهو يتضمن الأمور الثلاثة:

١- إقرار بالقلب. ٢- نطق باللسان. ٣- عمل بالجوارح.

وإذا كان كذلك فإنه سوف يزيد وينقص، وذلك لأن الإقرار بالقلب يتفاضل فليس الإقرار بالخبر كالإقرار بالمعاينة، وليس الإقرار بخبر الرجل كالإقرار بخبر الرجلين وهكذا، ولهذا قال إبراهيم، عليه الصلاة والسلام: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} .

فالإيمان يزيد من حيث إقرار القلب وطمأنينته وسكونه، والإنسان يجد ذلك من نفسه فعندما يحضر مجلس ذكر فيه موعظة، وذكر للجنة والنار يزداد الإيمان حتى كأنه يشاهد ذلك رأي العين، وعندما توجد الغفلة ويقوم من هذا المجلس يخف هذا اليقين في قلبه.

كذلك يزداد الإيمان من حيث القول فإن من ذكر الله عشر مرات ليس كمن ذكر الله مائة مرة، فالثاني أزيد بكثير.

وكذلك أيضا من أتى بالعبادة على وجه كامل يكون إيمانه أزيد ممن أتى بها على وجه ناقص.

وكذلك العمل فإن الإنسان إذا عمل عملا بجوارحه أكثر من الآخر صار الأكثر أزيد إيمانا من الناقص، وقد جاء ذلك في القرآن والسنة - أعني إثبات الزيادة والنقصان قال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} . وقال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ

كَافِرُونَ}. وفي الحديث الصحيح عن النبي، ﷺ، قال: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن». فالإيمان إذا يزيد وينقص.

ولكن ما سبب زيادة الإيمان

للزيادة أسباب:

السبب الأول: معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، فإن الإنسان كلما ازداد معرفة بالله، وبأسمائه، وصفاته ازداد إيمانا بلا شك، ولهذا تجد أهل العلم الذين يعلمون من أسماء الله وصفاته ما لا يعلمه غيرهم تجدهم أقوى إيمانا من الآخرين من هذا الوجه.

السبب الثاني: النظر في آيات الله الكونية، والشرعية، فإن الإنسان كلما نظر في الآيات الكونية التي هي المخلوقات ازداد إيمانا قال تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}. والآيات الدالة على هذا كثيرة، أعني الآيات الدالة على أن الإنسان بتدبره وتأمله في هذا الكون يزداد إيمانه.

السبب الثالث: كثرة الطاعات، فإن الإنسان كلما كثرت طاعاته ازداد بذلك إيمانا سواء كانت هذه الطاعات قولية، أم فعلية، فالذكر يزيد الإيمان كمية وكيفية، والصلاة والصوم، والحج تزيد الإيمان أيضا كمية وكيفية.

أما أسباب النقصان فهي على العكس من ذلك:

فالسبب الأول: الجهل بأسماء الله وصفاته يوجب نقص الإيمان لأن الإنسان إذا نقصت معرفته بأسماء الله وصفاته نقص إيمانه.

السبب الثاني: الإعراض عن التفكر في آيات الله الكونية والشرعية، فإن هذا يسبب نقص الإيمان، أو على الأقل ركوده وعدم نموه.

السبب الثالث: فعل المعصية فإن للمعصية آثارا عظيمة على القلب وعلى

الإيمان ولذلك قال النبي، ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». الحديث.

السبب الرابع: ترك الطاعة، فإن ترك الطاعة سبب لنقص الإيمان، لكن إن كانت الطاعة واجبة وتركها بلا عذر، فهو نقص يلام عليه ويعاقب، وإن كانت الطاعة غير واجبة، أو واجبة لكن تركها بعذر فإنه نقص لا يلام عليه، ولهذا جعل النبي، ﷺ، النساء ناقصات عقل ودين وعلل نقصان دينها بأنها إذا حاضت لم تصل ولم تصم، مع أنها لا تلام على ترك الصلاة والصيام في حال الحيض بل هي مأمورة بذلك، لكن لما فاتها الفعل الذي يقوم به الرجل صارت ناقصة عنه من هذا الوجه.

المسألة الثالثة: قول الإمام مالك في زيادة الإيمان ونقصانه

لقد جاء عن الإمام مالك رحمه الله تعالى في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه روايتان، قال في إحداهما: إن الإيمان يزيد أما النقصان فتوقف فيه وطلب من السائل أن يكف عن السؤال عنه، لأنه لم يجد عليه دليلا من كتاب الله.

أما الرواية الأخرى: فقد جاءت عنه من طرق متعددة صحيحة، قال فيها: إن الإيمان يزيد وينقص، كقول أهل السنة والجماعة سواء.

ولهذا خصصت هذا الفصل لدراسة الرواية الواردة عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أن الإيمان يزيد مع التوقف في النقصان، وذكر ما قاله أهل العلم من تعليلات لقوله هذا، وبيان الصواب منها، مع ذكر الروايات الأخرى الثابتة عنه في أن الإيمان يزيد وينقص.

ولنبدأ أولًا بالرواية الأولى التي فيها قوله أن الإيمان يزيد وتوقف في النقصان، فهذه الرواية جاءت عنه من ثلاث طرق:

الأولى- من طريق عبدالله بن وهب: قال (سئل مالك بن أنس عن الإيمان؟

فقال: قول وعمل، قلت أيزيد وينقص؟ قال: قد ذكر الله سبحانه في غير آي من القرآن أن الإيمان يزيد، فقلت له: أينقص؟ قال: دع الكلام في نقصانه وكف عنه. فقلت بعضه أفضل من بعض؟ قال: نعم) رواه ابن عبدالبر في الانتقاء (ص: ٣٣).

الثانية – من طريق ابن القاسم: قال ابن عبدالبر في التمهيد (٩/ ٢٥٢): (وقد روى ابن القاسم عن مالك أن الإيمان يزيد، ووقف في نقصانه)، ونقله عن شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٧/ ٣٣١).

وقال القاضي عياض في ترتيب المدارك (٢/ ٤٣): (قال ابن القاسم: كان مالك يقول: الإيمان يزيد، وتوقف عن النقصان، وقال: ذكر الله زيادته في غير موضع فدع الكلام في نقصانه وكف عنه)، ونقله عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٢).

الثالثة – من طريق إسماعيل بن أبي أويس: قال: سئل مالك عن الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: يزيد وينقص وذلك في كتاب الله، فقيل له: وينقص يا أبا عبدالله؟ قال: ولا أريد أن أبلغ هذا) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى "القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم" (ص: ٤٣٨).

فهذا ما وقفت عليه مما نقل عنه رَحِمَهُ اللَّهُ في أن الإيمان يزيد مع التوقف في النقصان، ولم أقف فيما اطلعت عليه من روايات عن الإمام أنه جزم بعدم نقص الإيمان، وإنما الذي ورد عنه في بعض الروايات التوقف في القول بنقص الإيمان، وفرّق بين الجزم بنفي الشيء، وبين التوقف فيه، وبهذا يتبين خطأ قول الزبيدي عندما أورد قول مالك هذا (أي: توقفه في النقصان) في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٥٦) ثم أورد بعده ما روي عن أبي حنيفة من طريق غسان

وجماعة من أصحابه أنه قال: (الإيمان يزيد ولا ينقص). ثم قال الزبيدي: (وهو بعينه قول مالك). فهذا خطأ بيِّن إذ أن مالكًا رَحِمَهُ اللَّهُ إنما جاء عنه التوقف بالنقصان لا الجزم بعدمه، والفرق بين الأمرين ظاهر.

فهو رَحِمَهُ اللَّهُ كان متوقفا في القول بنقص الإيمان لعدم بلوغ النص إليه، ثم لما بلغه ذلك جزم بنقص الإيمان، كما هو ثابت عنه من طرق متعددة.

أما توقفه في النقصان في هذه الرواية فقد ذكر له أهل بعض التعليلات:

١- قيل إنه توقف في بعض الروايات عن القول بالنقصان، لأن التصديق بالله تعالى ورسوله ﷺ لا ينقص؟ إذ لا يجوز نقصان التصديق، لأنه إذا نقص صار شكا وخرج عن اسم الإيمان، قاله ابن بطال في شرح صحيح البخاري (١/ ٥٧).

٢- وقال بعض أهل العلم: إنما توقف مالك عن القول بنقصان الإيمان خشية أن يتأول عليه موافقة الخوارج الذين يكفرون أهل المعاصي من المؤمنين بالذنوب. شرح صحيح مسلم للنووي (١/ ١٤٦).

٣- وقيل: إنه توقف في ذلك لأنه وجد ذكر الزيادة في القرآن ولم يجد ذكر النقص.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى (٧/ ٥٠٦): (وكان بعض الفقهاء من أتباع التابعين لم يوافقوا في إطلاق النقصان عليه، لأنهم وجدوا ذكر الزيادة في القرآن، ولم يجدوا ذكر النقص، وهذه إحدى الروايتين عن مالك) فهذا جملة ما وقفت عليه من تعليلات لهذه الرواية، والذي أراه صوابا من هذه التعليلات الثالث منها، وهو أنه توقف عن القول بالنقص لعدم وقوفه على النص، لأمور:

أولًا: إن هذا هو اللائق به رَحِمَهُ اللَّهُ والأنسب لمقامه، فما وجده في الكتاب

والسنة قال به، وما لم يجده لم يقل به، وهذا هو شأن العلماء المحققين من أهل السنة والجماعة لا يصدرون في أقوالهم وأعمالهم إلا عن كتاب أو سنة، وكثيرا ما كان يتمثل رَحِمَهُ اللَّهُ بقول الشاعر:

وخير أمور الدين ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع

ثانيًا: أن هذا هو منصوصه رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد نص في جميع الروايات المتقدمة أنه إنما قال بالزيادة لوجودها في القرآن، ولما لم يجد للنقص ذكرا توقف عنه، ففي رواية ابن وهب قال: (قد ذكر الله سبحانه في غير آي من القرآن أن الإيمان يزيد).

وفي رواية ابن القاسم قال: (قد ذكر الله زيادته في غير موضع، فدع الكلام في نقصانه وكفّ عنه).

وفي رواية ابن أبي أويس قال: (وذلك في كتاب الله).

فظاهر من هذه الروايات أنه إنما قال بالزيادة لورود النص فيها، أما النقص فتوقف عن القول به لعدم وقوفه على النبي ﷺ فيه.

ثالثًا: يؤكد ذلك أنه ورد عنه روايات متعددة صحيحة ... فيها القول بزيادة الإيمان ونقصانه، فلعل هذا بعد أن تبين له النص في النقص كحديث: (ما رأيت من ناقصات عقل ودين)[1] أو وقف على بعض الآثار الكثيرة عن الصحابة والتابعين، والتي فيها التصريح بالزيادة والنقصان، أو غير ذلك، فصار يقول به لوقوفه على النص فيه.

رابعًا: أن هذا ما رآه شيخ الإسلام ابن تيمية ذو الفهم الثاقب، والاطلاع الواسع والعناية الفائقة بأقوال السلف، فهو من أعلم الناس بأقوالهم وأفهمهم

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨)، ومسلم (٢٥٢). من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لها، وإن النفس لتطمئن كثيرًا وغالبًا لما يختاره ويراه لدقة فهمه وشدة تحريه، وقد تقدم من قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليل رواية مالك هذه بأنه توقف لأنه لم يجد التنصيص على النقصان في القرآن، أما التعليل الأول والثاني فـ ... غير سديدين.

أما الأول: وهو أنه توقف في النقص لأن التصديق لا ينقص فغير صحيح بل باطل، لأن التصديق يعتريه النقص كما تعتريه الزيادة ... فقول: أن نقصان التصديق شك ليس من قول أهل السنة والجماعة في شيء، فغير لائق أن يتأول قول مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا القول الباطل، ويترك السبب الذي جاء عنه هو في تعليل تركه للقول بنقصان الإيمان.

أما الثاني: وهو أنه توقف حتى لا يفهم منه موافقة الخوارج الذين يكفرون أهل المعاصي من المؤمنين بالذنوب، فبعيد جدا، لأن القول بنقص الإيمان لا يفهم منه ألبتة كفر من نقص إيمانه إلا على مذهب الخوارج وغيرهم من القائلين بأن الإيمان كل واحد لا يتجزأ إذا ذهب بعضه ذهب كله، وهو قول باطل بلا ريب ترده نصوص الكتاب والسنة.

أما أهل السنة والجماعة فالإيمان عندهم له أجزاء وأبعاض وشعب والناس متفاوتون في القيام بها، فهو يزيد بزيادتها وينقص بنقصها، فإماطة الأذى عن الطريق إيمان كما في حديث الشعب[(١)]، وترك إماطته نقص في كمال الإيمان المستحب ولا يقال إن فعله هذا كفر لتركه شيئًا من أمور الإيمان، ولا يفهم هذا منه، ثم لو فهم هذا ممن انحرفت فطرهم وسادت فيهم البدع والخرافات، فلا يليق أن ينسب إليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه ترك ما جاء الدليل مصرحًا به حتى لا يفهم كلامه على غير مراده، فلو كان ذلك كذلك وطرد هذا الأمر على بقية أمور الاعتقاد

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (١٦٢). من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لضاع الدين.

فهل يترك القول بأن الله سميع بصير عليم خبير وأنه مستو على عرشه وأن له يدا وقدما وغير ذلك من أوصاف كماله سبحانه وتعالى حتى لا يقال مجسمة؟!

أو يترك العناية بالأحاديث وتتبع الآثار والتنقيب عنها وفهمها حتى لا يقال حشوية؟! أو يترك الاستثناء في الإيمان بأن يقال: أنا مؤمن أو أنا مؤمن حقًا حتى لا يقال شكاكا؟! وغير ذلك مما يطول ذكره.

وهل لا نروي قول النبي ﷺ: لا يؤمن أحدكم كذا في أحاديث كثيرة حتى لا يفهم من ذلك أنا نرى ما يراه الخوارج وغيرهم من خروج مرتكب الكبيرة من الإيمان؟!

ولقد فهم المبتدعة من كلام الله في كتابه وكلام رسوله ﷺ في الثابت عنه ما يوافق مذاهبهم، وليس العيب في النص تنزه كلام الله ورسوله عن ذلك، بل العيب في فهمهم على حد قول الشاعر:

وكم من عائب قولًا صحيحًا وآفته من الفهم السقيم

ولم يمنع فهمهم من نص شرعي موافقة مذهبهم أن يتلى النص ويبلغ ويتداول.

وعليه فليس من اللائق أبدًا أن يؤول قول الإمام على ذلك وأن يفهم من قوله هذا الفهم الفاسد، ولو كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يخشى ما فهمه هؤلاء لقال بما جاء به النص: (الإيمان يزيد وينقص) ثم بين للسائل أنه لا يلزم من القول بنقصه أنه يكفر، إذ لا تلازم بينهما، أو نحو هذا مما يبين السبيل ويزيل الإشكال إن وجد. والله أعلم.

وعلى كلٍّ فالإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ نص على أنه من ترك القول بالنقص لعدم ورود

النص، فلا حاجة بنا بعد إلى مثل هذه التعليلات، وأيضًا فالإمام ثبت عنه القول بزيادة الإيمان ونقصانه وترك قوله الأول، بل إن قوله الأخير هو المعروف عنه عند أهل العلم كما قال أحمد بن القاسم: تذاكرنا من قال: الإيمان يزيد وينقص فعدّ الإمام أحمد غير واحد ثم قال: ومالك بن أنس يقول: يزيد وينقص، فقلت له إن مالكا يحكون عنه أنه قال: يزيد ولا ينقص. فقال: بلى قد روي عنه يزيد وينقص كان ابن نافع يحكيه عن مالك، فقلت له: ابن نافع يحكيه عن مالك؟ قال: نعم[1].

والروايات الواردة عنه رَحِمَهُ اللَّهُ في أن الإيمان يزيد وينقص كثيرة، ... منها:

أولًا - رواية عبدالرزاق:

قال عبدالرزاق: (سمعت معمرًا وسفيان الثوري ومالك بن أنس، وابن جريج وسفيان بن عيينة يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص)[2].

وقال: (لقيت اثنين وستين شيخا منهم معمر ... ومالك بن أنس ... كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص)[3].

ثانيا - رواية إسحاق بن محمد الفروي: قال: (كنت عند مالك بن أنس فسمعت حماد بن أبي حنيفة يقول لمالك يا أبا عبدالله إن لنا رأيا نعرضه عليك فإن رأيته غير ذلك كففنا عنه، قال: وما هو؟ قال: يا أبا عبدالله لا نكفر أحدا بذنب، الناس كلهم مسلمون عندنا.، قال: ما أحسن هذا، ما بهذا بأس. فقام إليه داود بن أبي زنبر وإبراهيم بن حبيب وأصحاب له فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عبدالله

---

(١) أخرجه الخلال في السنة (٣/ ٥٩١) (١٠٤٣) بتصرف.

(٢) أخرجه الآجري في الشريعة (ص: ١١٣)، وابن عبدالبر في الانتقاء (ص: ٣٤).

(٣) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ١٠٢٩).

إن هذا يقول بالإرجاء، قال: ديني مثل دين جبريل وميكائيل والملائكة المقربين، قال: لا والله: الإيمان يزيد وينقص (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) [الفتح: ٤]، وقال إبراهيم (أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) [البقرة: ٢٦٠] فطمأنينة قلبه زيادة في إيمانه)(١).

ثالثًا - رواية ابن نافع: قال: كان مالك بن أنس يقول: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص)(٢).

رابعًا - رواية معن بن عيسى: أشار إليها ابن عبدالبر في التمهيد (٩/ ٢٥٢) ونقلها عنه شيخ الإسلام في الفتاوى (٧/ ٣٣١) ولم أقف عليها مسندة.

خامسًا - رواية أبي عثمان سعيد بن داود بن أبي زنبر الزنيري: قال كان مالك يقول: (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص)(٣).

سادسًا - رواية سويد بن سعيد بن سهل الهروي: قال: (سمعت مالك بن أنس وحماد بن زيد .. وجميع من حملت عنهم العلم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ..)(٤).

فالقول بأن الإيمان يزيد وينقص ثابت عنه رَحِمَهُ اللهُ من طرق متعددة، ولذا قال

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٦٠، رقم ١٧٤٣).

(٢) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٣١٧) (٦٣٦) والخلال في السنة (٣/ ٦٠٨، رقم ١٠٨٢)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٧)، والآجري في الشريعة (ص: ١١٤) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٥٩) (١٧٤٢)، وابن عبدالبر في الانتقاء (ص: ٣٦).

(٣) أخرجه الخلال في السنة (٣/ ٥٨٢، رقم ١٠١٤).

(٤) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٦)، وفي الأسماء والصفات (١/ ٦٠٥، رقم ٥٤٢).

ابن عبدالبر في التمهيد (٩/ ٢٥٢) بعد أن أشار إلى رواية ابن القاسم عنه في أن الإيمان يزيد مع التوقف في النقصان، قال: (وروى عنه عبدالرزاق، ومعمر بن عيسى، وابن نافع، وابن وهب أنه يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وعلى هذا مذهب الجماعة من أهل الحديث والحمد لله).

وقال القاضي عياض في ترتيب المدارك (٢/ ٤٣): (قال غير واحد: سمعت مالكا يقول الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وبعضه أفضل من بعض).

وخلاصة الكلام في هذا الفصل أن مالكا رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يقول إن الإيمان يزيد ولا يقول ينقص متوقفًا في ذلك لا منكرًا له، ثم بان له بعد ذلك وظهر من خلال تأمله للنصوص وإعادة النظر فيها أنه ينقص، مستدلًا على ذلك بنصوص القرآن المصرحة بالزيادة نفسها، إذ إن ما دل على الزيادة تصريحًا يدل على النقصان لزومًا.

قال ابن رشد في المقدمات (١/ ٣٧): (وقد روي عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يطلق القول بزيادة الإيمان وكف عن إطلاق نقصانه، إذ لم ينص الله تعالى إلا على زيادته، فروي عنه أنه قال عند موته لابن نافع وقد سأله عن ذلك: قد أبرمتموني إني تدبرت هذا الأمر فما من شيء يزيد إلا وينقص، وهو الصحيح والله سبحانه وتعالى أعلم). وقول ابن رشد هذا فيه تحرير جيد لموقف مالك من هذه المسألة، ألا أن قوله عنه أنه قال ذلك عند موته فيه نظر ...، إذ إن الروايات المتقدمة عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أن الإيمان يزيد وينقص من طريق غير واحد من أصحابه لا تفيد ذلك وليس فيها تصريح به، سيما رواية ابن نافع المعينة هنا وقد تقدمت معنًا ولفظها: (كان مالك يقول الإيمان يزيد وينقص) فليس فيها ما يفيد أن ذلك إنما كان عند موته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم إن تعدد الروايات عنه في ذلك من طريق

عبدالرزاق ومعمر وابن نافع وغيرهم من أصحابه تفيد أن قوله إن الإيمان يزيد وينقص لم يكن قال به عند موته فقط بل قبل ذلك، فلست أدري على ماذا استند ابن رشد في قوله هذا؟ والذي أراه أنه لا مستند له، فجميع الذين رووه من طريق نافع ممن تقدم ذكرهم في التخريج لم يذكر أحد منهم ما أشار إليه ابن رشد، ثم إن الروايات الأخرى عنه في أن الإيمان يزيد وينقص تدل على عدم صحة هذا كما هو ظاهر مما تقدم، والله أعلم.

وعلى كل فهذا القول أعني قول مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الإيمان يزيد وينقص) هو الأخير من أقواله وهو المشهور عنه عند أصحابه وغيرهم لا الأول، أما قول الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٥٦): (وتوقف مالك عن القول بنقصانه، هذا هو المشهور من مذهبه) فغير صحيح، إلا إن كان يعني بالشهرة شهرته عند أهل البدع فنعم، فهم يتتبعون ما وافق أهواءهم من النصوص وأقوال أهل العلم ويأخذون به ويعدونه صحيحا مشهورا ويدعون ما سواه.

فالمشهور عن مالك هو القول بأن الإيمان يزيد وينقص، ولهذا لما عدد الإمام أحمد من قال الإيمان يزيد وينقص من أهل العلم عدّ منهم مالكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع علمه أنه روي عنه القول بأن الإيمان يزيد مع التوقف في النقصان.

ولما عدد عبدالرزاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ القائلين بأن الإيمان يزيد وينقص عدّ منهم مالكًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهكذا صنع أبو عبيد وغيرهم من أهل العلم، وما ذاك إلا لأنه المشهور عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٧/ ٥٠٦) بعد أن أشار إلى توقف مالك في النقصان: (والرواية الأخرى عنه، وهو المشهور عند أصحابه كقول سائرهم إنه يزيد وينقص).

رواية غريبة: قد ذكر القاضي عياض في ترتيب المدارك (٢/ ٤٢) رواية غريبة عن مالك في ذلك فقال: (قال زهير بن عباد: قلت لمالك ما قولك في صنفين عندنا بالشام اختلفوا في الإيمان فقالوا: يزيد وينقص؟ قال بئس ما قالوا ...) إلى آخر سياق هذه الرواية وهو طويل. وهذا غريب جدًا، بل لا يثبت عن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ لا سيما أن القاضي عياض ذكره مرسلًا هكذا. ولم يذكر من خرجه ولم يذكر له سندًا، فعلى هذا لا يكون صحيحًا، ولا تصح نسبته إليه، كيف وهو مخالف للصحيح الثابت عنه رَحِمَهُ اللَّهُ، اللهم إلا أن يكون في الرواية تحريف أو سقط، والله أعلم .. زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه لعبد الرزاق البدر بتصرف (ص٢٧٧).

المسألة الرابعة: حكم الاستثناء في الإيمان

من كان مذهبه أن الإيمان يزيد وينقص وأن أهله يتفاضلون فيه، يرى الاستثناء في الإيمان على اعتبار أنه لا يقطع بتكميل الإيمان وبالإتيان به على الدرجة العالية المطلوبة، بخلاف من يرى أن الإيمان شيء واحد لا يتجزأ ولا يزيد ولا ينقص، وأن أهله فيه سواء؛ فصاحب هذا القول يرى عدم جواز الاستثناء في الإيمان ويقطع بإيمانه، بل ويعد من استثنى في إيمانه شاكًا، وبهذا يعلم مدى صلة هذه المسألة بمسألة زيادة الإيمان ونقصانه، وإن كان الجميع يعدها من مسائل الإيمان ومباحثه المهمة.

ومما يوضح قوة صلة هذه المسألة بسابقتها؛ أن هذه المسألة تبحث دائمًا في كتب العقيدة تلو مسألة زيادة الإيمان ونقصانه للارتباط بين المسألتين ولتعلق نتائج كلٍّ بنتائج الأخرى، وهذا يعلم بمطالعة كتب العقيدة.

ثم بين المسألتين ارتباط من جهة أخرى؛ وهي أن كلتا المسألتين حدث

الخوض فيهما بسبب الإرجاء الذي نشأ في الأمة بفعل أهل الأهواء، ولهذا ذمّ سلف الأمة الإرجاء وما يشتمل عليه من عقائد منحرفة، منها عدم القول بزيادة الإيمان ونقصانه، ومنها القطع بالإيمان عند الله وبكمال الإيمان.

يقول محمد بن الحسين الآجري في الشريعة (ص١٤٦): احذروا رحمكم الله قول من يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل، ومن يقول: أنا مؤمن عند الله، وأنا مؤمن مستكمل الإيمان، هذا كله مذهب أهل الإرجاء، ثم ساق بسنده إلى الأوزاعي أنه قال: (ثلاث هن بدعة: أنا مؤمن مستكمل الإيمان، وأنا مؤمن حقًا، وأنا مؤمن عند الله تعالى.اهـ.

وأول الخوض في مسألة الاستثناء هذه وسببه هم المرجئة، بل إن أصل الإرجاء وأُس نشأته هو ترك الاستثناء في الإيمان، كما قال عبدالرحمن بن مهدي رَحِمَهُ اللَّهُ: (إذا ترك الاستثناء فهو أصل الإرجاء)، وفي لفظ آخر له (أول الإرجاء ترك الاستثناء)، وفي لفظ ثالث له: (أصل الإرجاء من قال إني مؤمن)[1].

ولهذا كان أئمة السلف كالإمام أحمد وغيره يكرهون سؤال الرجل لغيره أمؤمن أنت؟ ويكرهون الجواب عن ذلك؛ لأن هذه بدعة أحدثها المرجئة ليحتجوا بها لقولهم، فإن الرجل يعلم من نفسه أنه ليس بكافر، بل يجد قلبه مصدقًا بما جاء به الرسول، فيقول: أنا مؤمن، فيثبت أن الإيمان هو التصديق، لأنه يجزم بأنه مؤمن، ولا يجزم بأنه فعل كما أمر به، فلما علم السلف مقصدهم ذلك صاروا يكرهون الجواب أو يفصلون فيه[2] بل ويعدون السؤال هذا بدعة

---

(١) الشريعة (ص: ١٣٦)، والإبانة (٢/ ٨٧١)، والسنة للخلال (٣/ ٥٩٨)، وتهذيب الآثار للطبري (رقم١٠٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٤٤٨ - ٤٤٩).

محدثة، وما أروع ما قاله الأوزاعي كما في الشريعة (ص: ١٣٩) وذلك حينما سُئل عن الرجل يسأل الرجل أمؤمن أنت؟ فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن المسألة عما تسأل عنه بدعة والشهادة به تعمق لم نكلفه في ديننا، ولم يشرعه نبينا، ليس لمن يسأل عن ذلك فيه إمام، القول به جدل والمنازعة فيه حدث، ولعمري ما شهادتك لنفسك بالتي توجب لك تلك الحقيقة إن لم تكن كذلك، وما تركك الشهادة لنفسك بها بالتي تخرجك من الإيمان إن كنت كذلك، وإن الذي يسألك عن إيمانك ليس بشك في ذلك منك، ولكنه يريد أن ينازع الله تبارك وتعالى علمه في ذلك حتى تزعم أن علمه وعلم الله في ذلك سواء فاصبر نفسك على السنة وقف حيث وقف القوم، وقل فيما قالوا وكف عما كفوا واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم، وقد كان أهل الشام في غفلة من هذه البدعة حتى قذفها إليهم بعض أهل العراق ممن دخل في تلك البدعة بعدما رد عليهم فقهاؤهم وعلماؤهم فأشربها قلوب طوائف منهم واستحلتها ألسنتهم وأصابهم ما أصاب غيرهم من الاختلاف، ولست بآيس أن يدفع الله عَزَّ وَجَلَّ شر هذه البدعة إلى أن يصيروا إخوانًا في دينهم ولا قوة إلا بالله.

ثم قال: لو كان هذا خيرًا ما خصصتم به دون أسلافكم فإنه لم يدخر عنهم شيء خبيء لكم دونهم لفضل عندكم، وهم أصحاب نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين اختارهم الله له وبعثه فيهم ووصفه بهم فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا ...﴾ [الفتح: ٢٦]، إلى آخر السورة) اهـ ي رَحِمَهُ اللَّهُ ما أروع بيانه، وما أجود نصحه وتبيانه، ولا والله لا خير فيمن لم يسعه ما وسعهم فإنهم عن علم ثاقب وقفوا، وعن بصيرة نيرة كفوا، والخير كل الخير في اتباعهم.

ثم إن الآثار المروية عن السلف يرحمهم الله في ذم الإرجاء بعامة، وفي ذم ترك الاستثناء وذم سؤال الناس عن إيمانهم بخاصة كثيرة جدًا، وكذلك النصوص عنهم في تبديع أهل هذه المسائل كثيرة، ثم إنه لما خاض هؤلاء في هذه المسألة بباطل، وقلبوا فيها الأمور، وناقضوا الحقائق، لزم أهل الحق أن يتصدوا لهذا التيار وأن يجابهوا هذا الباطل بدحضه ورده وإحقاق الحق مكانه، لهذا كثر كلام أهل السنة في هذه المسألة وطال نقاشهم وردهم لهذا الباطل في كتبهم المفيدة ورسائلهم العديدة فنفع الله بها من شاء من خلقه.

بيان قول أهل السنة في الاستثناء ومأخذهم فيه وأدلتهم عليه.

إن مجمل قول أهل السنة والجماعة في هذه المسألة هو أن الاستثناء في الإيمان جائز مشروع؛ لأن الإيمان عندهم شامل للاعتقادات والأقوال والأعمال، فإذا سئل أحدهم هذا السؤال استثنى في إيمانه مخافة عدم تكميل الأعمال التي بكمالها يكمل الإيمان؛ فيقول أحدهم إذا أجاب: أنا مؤمن إن شاء الله، أو مؤمن أرجو، أو نحو ذلك، وليس هذا منهم شكًا في أصل الإيمان معاذ الله، فهم أعلى وأرفع من ذلك، وإنما هو ترك لتزكية النفس والشهادة لها بتكميل الأعمال، لهذا وقع منهم الاستثناء في الإيمان.

ولهم على ذلك دلائل وشواهد كثيرة من الكتاب والسنة وعلى هذا مضى مذهبهم واتفقت كلمتهم.

قال الوليد بن مسلم كما في السنة (١/ ٣٤٧) لعبد الله بن أحمد، والإبانة لابن بطة (٢/ ٨٧٣): (سمعت أبا عمرو يعني الأوزاعي ومالك بن أنس وسعيد بن عبدالعزيز ينكرون أن يقول: أنا مؤمن، ويأذنون في الاستثناء أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله).

وقال البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢١٢): (وقد روينا هذا - يعني الاستثناء في الإيمان - عن جماعة من الصحابة والتابعين والسلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أجمعين).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٣٨، ٤٣٩): (وأما مذهب سلف أصحاب الحديث كابن مسعود وأصحابه، والثوري، وابن عيينة، وأكثر علماء الكوفة، ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء أهل البصرة، وأحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة؛ فكانوا يستثنون في الإيمان، وهذا متواتر عنهم ...).

وقال في مجموع الفتاوى أيضا (٧/ ٥٠٥): (والمأثور عن الصحابة وأئمة التابعين وجمهور السلف، وهو مذهب أهل الحديث، وهو المنسوب إلى أهل السنة؛ أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأنه يجوز الاستثناء فيه).

وقال في مجموع الفتاوى أيضا (٧/ ٦٦٦): (الاستثناء في الإيمان سنة عند أصحابنا وأكثر أهل السنة).

وأما مأخذ السلف في الاستثناء، ووجه استثنائهم في الإيمان، فالمتأمل لأقوالهم الواردة في ذلك يجد أنهم عندما كانوا يستثنون يلحظون أمورًا أربعة - وإن كان في بعضها نوع تداخل ... وهي:

١ - أن الإيمان المطلق الشامل لكل ما أمر الله به والبعد عن كل ما ينهى عنه، ولا يدعي أحد إنه جاء بذلك كله على التمام والكمال.

٢ - أن الإيمان النافع هو المتقبل عند الله.

٣- البعد عن تزكية النفس، وليس هناك تزكية لها أعظم من التزكية

بالإيمان.

٤- أن الاستثناء يكون في الأمور المتيقنة غير المشكوك فيها كما جاءت بذلك السنة.

فهذا مجمل الأمور التي كان يستثني من أجلها السلف في إيمانهم، وتفصيل هذه الأمور كما يلي:

١- فالمأخذ الأول: للسلف في استثنائهم في الإيمان هو اعتبارهم أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله، وترك المحرمات كلها، فإذا قال الرجل: أنا مؤمن، بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به وترك كل ما نهوا عنه، فيكون من أولياء الله[1]. ولا يدعي مسلم عاقل هذا لنفسه.

لهذا كان السلف يستثنون مخافة واحتياطًا أن لا يكونوا كملوا الأعمال وأتوا بها على وجهها المطلوب، فقول أنا مؤمن عندهم كقول أنا وليّ أو أنا تقيّ، ولا يجزم أحد أنه كمل مراتب التقوى، وأتم مراتب الولاية إلا من خسف عقله وقلّ خوفه، فكذلك لا يجزم أنه كمل مراتب الإيمان وأتم درجاته، فعندئذ لزمه الاستثناء في إيمانه مخافة واحتياطًا.

فهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون في الإيمان؛ لأن الإيمان عندهم قول وعمل، والقول كل يجزم أنه أتى به، وأما العمل فلا، إذ الناس متفاوتون في القيام به تفاوتًا عظيمًا، وأقوال السلف في هذا كثيرة.

قال الإمام أحمد: (أذهب إلى حديث ابن مسعود في الاستثناء في الإيمان، لأن الإيمان قول وعمل، والعمل الفعل، فقد جئنا بالقول ونخشى أن نكون قد

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٤٦).

فرطنا في العمل، فيعجبني أن نستثني في الإيمان بقول: أنا مؤمن إن شاء الله)[1].

وقال كما في السنة للخلال (٣/ ٦٠١): (لو كان القول كما تقول المرجئة أن الإيمان قول ثم استثنى بعد على القول لكان هذا قبيحًا أن تقول لا إله إلا الله إن شاء الله ولكن الاستثناء على العمل).

وقال كما في السنة للخلال (٣/ ٥٩٧): (لا نجد بدًا من الاستثناء؛ لأنه إذا قال: أنا مؤمن، فقد جاء بالقول، فإنما الاستثناء بالعمل لا بالقول).

وقال له رجل: قيل لي أمؤمن أنت؟ قلت: نعم. هل علي في ذلك شيء هل الناس إلا مؤمن وكافر؟ فغضب أحمد وقال: هذا كلام الإرجاء، قال الله ﷻ: (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ) [التوبة: ١٠٦] من هؤلاء؟ ثم قال أحمد: أليس الإيمان قولًا وعملًا؟ فقال الرجل: بلى، قال فجئنا بالعمل؟ قال: لا قال: كيف تعيب أن تقول إن شاء الله وتستثنيب[2]؟.

وعن الميموني أنه سأل أبا عبدالله عن قوله ورأيه في مؤمن إن شاء الله. قال: (أقول مؤمن إن شاء الله ومؤمن أرجو؛ لأنه لا يدري كيف أداؤه للأعمال على ما افترضت عليه أم لا)[3].

وقال الإمام أحمد كما في السنة لعبدالله (١/ ٣٠٨): (إنما نصير الاستثناء على العمل؛ لأن القول قد جئنا به).

---

(١) أخرجه الخلال في السنة (٣/ ٦٠٠)، وابن هانئ في مسائله (٢/ ١٦٢)، وذكره شيخ الإسلام، وانظر: الفتاوى (٧/ ٤٤٧).

(٢) أخرجه الخلال في السنة (٣/ ٥٩٧)، وأبو داود في مسائله (ص: ٢٧٣)، وبنحوه الآجري في الشريعة (ص: ١٣٧).

(٣) أخرجه الخلال في السنة (٣/ ٦٠١) وذكره شيخ الإسلام الفتاوى (٧/ ٤٤٨)، وانظر تعليق شيخ الإسلام عليه.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٤٨) بعد أن ذكر طائفة من هذه النقول: (ومثل هذا كثير في كلام أحمد وأمثاله).

وقال الآجري في الشريعة (ص١٣٦): (.. هذا طريق الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، عندهم أن الاستثناء في الأعمال، لا يكون في القول، والتصديق بالقلب، وإنما الاستثناء في الأعمال الموجبة لحقيقة الإيمان، والناس عندهم على الظاهر مؤمنون، به يتوارثون، وبه يتناكحون، وبه تجري أحكام ملة الإسلام، ولكن الاستثناء منهم على حسب ما بيناه لك، وبينه العلماء من قبلنا. روي في هذا سنن كثيرة).

٢- وأما المأخذ الثاني: فهو الاستثناء بالنظر إلى تقبل الأعمال من الله تعالى، إذ إن من قام بالعمل وأتى به لا يدري هل تقبل منه عمله أو لا؟

قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وقد سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ عن هؤلاء فقالت: يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر، ويخاف أن يعذب؟ قال: (لا، يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه)[1].

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجة (٤١٩٨)، والحاكم (٢/ ٣٩٣، ٣٤٩)، والطبري (١٨/ ٢٦)، والبيهقي في الشعب الإيمان (١/ ٤٧٧)، والبغوي في تفسيره (٦/ ٢٥) وغيرهم والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه ابن العربي في العارضة (٦/ ٢٥٨)، ونقل العراقي في المغني تصحيح الحاكم ثم قال: قلت: بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب، وكذا قال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند، وقال العلامة الألباني في الصحيحة (١٦٢): فيه علة، وهي الانقطاع بين عبد الرحمن وعائشة فإنه لم يدركها كما في التهذيب، لكن يقويه حديث أبي هريرة الذي أشار إليه الترمذي فإنه موصول وقد وصله ابن جرير حدثنا ابن حميد قال: حدثنا =

وهكذا كان دأب السلف الصالح من صحابة وتابعين، يقومون بالأعمال الكثيرة الجليلة، ثم يخافون أن لا تكون قد تقبلت منهم.

قال ابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٧٢، ٨٧٣): (فهذه سبيل المؤمنين وطريق العقلاء من العلماء لزوم الاستثناء والخوف والرجاء لا يدرون كيف أحوالهم عند الله ولا كيف أعمالهم أمقبولة هي أم مردودة؟ قال الله ﷻ: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [المائدة: ٢٧] وأخبر عن عبده الصالح سليمان عليه السلام في مسألته إياه وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ [النمل: ١٩]، أفلا تراه كيف يسأل الله الرضا منه بالعمل الصالح لأنه قد علم أن الأعمال ليست بنافعة وإن كانت في منظر العين صالحة إلا أن يكون الله ﷻ قد رضيها وقبلها، فهل يجوز لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يجزم أن أعماله الصالحة من أفعال الخير وأعمال البر كلها مرضية وعنده زكية ولديه مقبولة، هذا لا يقدر على حتمه وجزمه إلا جاهل مغتر بالله، نعوذ بالله من الغرة بالله والإصرار على معصية الله، أما ترون رحمكم الله إلى الرجل من المسلمين قد صلى الصلاة فأتمها وأكملها وربما كانت في جماعة وفي وقتها وعلى تمام طهارتها فيقال له: صليت؟ فيقول: قد صليت إن قبلها الله، وكذلك القوم يصومون شهر رمضان؛ فيقولون في آخره: صمنا إن كان الله قد تقبله منا،

=

الحكم بن بشير قال: حدثنا عمر بن قيس عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قالت عائشة: الحديث نحوه، وهذا سند رجاله ثقات غير ابن حميد، وهو محمد بن حميد بن حيان الرازي وهو ضعيف مع حفظه، لكن لعله توبع، فقد أخرج الحديث ابن أبي الدنيا وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه كما في الدر المنثور (٥/ ١١) وابن أبي الدنيا من طبقة شيوخ ابن جرير، فاستبعد أن يكون رواه عن شيخه هذا، والله أعلم.اهـ. وانظر علل الدارقطني (١١/ ١٩٣ رقم ٢٢١٦).

وكذلك يقول من قدم من حجه بعد فراغه من حجه وعمرته، وقضاء جميع مناسكه إذا سئل عن حجه إنما يقول: قد حججنا ما بقي غير القبول، وكذلك دعاء الناس لأنفسهم ودعاء بعضهم لبعض: اللهم تقبل صومنا وصلاتنا وزكاتنا، وبذلك يلقى الحاج فيقال له: قبل الله حجك وزكى عملك، وكذا يتلاقى الناس عند انقضاء شهر رمضان فيقول بعضهم لبعض: قبل الله منا ومنك، بهذا مضت سنة المسلمين وعليه جرت عادتهم وأخذه خلفهم عن سلفهم، فليس يخالف الاستثناء في الإيمان ويأبى قبوله إلا رجل خبيث مرجئ ضال قد استحوذ الشيطان على قلبه نعوذ بالله منه).اهـ.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٩٦): (وخوف من خاف من السلف أن لا يتقبل منه، لخوفه أن لا يكون أتى بالعمل على وجهه المأمور، وهذا أظهر الوجوه في استثناء من استثنى منهم في الإيمان وفي أعمال الإيمان كقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله، وصليت إن شاء الله، لخوف أن لا يكون أتى بالواجب على الوجه المأمور به، لا على جهة الشك فيما بقلبه من التصديق).

وسُئل ابن المبارك فقيل له: (إن قومًا يقولون: إن سفيان الثوري حين كان يقول إن شاء الله كان ذاك منه شك، فقال ابن المبارك: أترى سفيان كان يستثني في وحدانية الرب أو في محمد ﷺ، إنما كان استثناؤه في قبول إيمانه وما هو عند الله) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٦٧٠).

وقد نقل الإمام أحمد عن سليمان بن حرب أنه كان يستثني ويحمل هذا على التقبل يقول: (نحن نعمل، ولا ندري يتقبل منا أو لا؟) رواه الخلال في السنة (٣/ ٥٩٧)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٧٣).

فهذا وجه من أوجه الاستثناء عند السلف الصالح وهو النظر إلى التقبل، وهو في الحقيقة عند التأمل يعود إلى الوجه الأول، وهو النظر إلى الأعمال وتكميلها؛ لأن القبول متعلق بالإتيان بالأعمال على الوجه المطلوب، فمن كان عمله كذلك قبل منه. لذا يقول شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٤٧) عقب ذكره لأثر سليمان بن حرب المتقدم: (والقبول متعلق بفعله كما أمر، فكل من اتقى الله في عمله، ففعله كما أمر فقد تقبل منه لكن هو لا يجزم بالقبول، لعدم جزمه بكمال الفعل) ثم ذكر حديث عائشة المتقدم.

٣- المأخذ الثالث: في الاستثناء عند السلف، هو البعد عن تزكية النفس، وليس هناك تزكية للنفس وراء الشهادة لها بالإيمان، الذي قال الله في وصف أهله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) [الأنفال: ٢ - ٤] فمن قال عن نفسه إنه مؤمن فقد زكاها بأعظم تزكية ونعتها بأكمل الصفات وأجملها، والله قد نهى عن ذلك في محكم تنزيله، قال تعالى: (فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) [النجم: ٣]، قال الحسن كما في تفسير البغوي (٤/ ٢٥٣) في معنى الآية: (علم الله من كل نفس ما هي صانعة وإلى ما هي صائرة، فلا تزكوا أنفسكم فلا تبرئوها عن الآثام ولا تمدحوها بحسن أعمالها).

فإذا علم أن الله قد نهى عباده عن الثناء على أنفسهم وتزكيتها، فأي وصف وثناء أبلغ من الثناء عليها بالإيمان وأي تزكية أعظم من هذا، يقول الخليل النحوي: (إذا قلت إني مؤمن فأي شيء بقي) رواه الخلال في السنة (٣/ ٥٦٨)

وعبدالله في السنة (١/ ٣١٦)، واللالكائي في شرح الاعتقاد (٥/ ٩٦١).

ومن لطيف ما روي في هذا (أن أعرابيًا سئل أمؤمن أنت؟ فقال: أزكي نفسي) رواه اللالكائي في شرح الاعتقاد (٥/ ١٠٠٧).

وتأمل كيف وفق هذا الأعرابي بفطرته السليمة إلى هذا الفقه المسدد، الذي لا يتهيأ مثله لمن شغل أوقاته بالفلسفات الكلامية والآراء المنطقية، التي هي أشد ما يكون خطرًا على الإيمان والفطر.

فينبغي للعقلاء أهل الإيمان أن يتجنبوا قول ما فيه تزكية نفوسهم، كما قال ابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٦٢) في ذكر بعض أوصاف أهل الإيمان: (اعلموا رحمنا الله وإياكم أن من شأن المؤمنين وصفاتهم وجود الإيمان فيهم، ودوام الإشفاق على إيمانهم، وشدة الحذر على أديانهم، فقلوبهم وجلة من خوف السلب، قد أحاط بهم الوجل، لا يدرون ما الله صانع بهم في بقية أعمارهم، حذرين من التزكية، متبعين لما أمرهم به مولاهم الكريم حين يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

فهذا مأخذ ثالث للسلف في الاستثناء، يستثنون مخافة تزكية النفس، فكلمة مؤمن تعدل عندهم كلمة بر وتقي ومن أهل الجنة.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٤٦): (فإذا قال الرجل: أنا مؤمن، بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به، وترك كل ما نهوا عنه، فيكون من أولياء الله، وهذا من تزكية الإنسان لنفسه، وشهادته لنفسه بما لا يعلم، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة؛ فشهادته لنفسه بالإيمان كشهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحال، وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون).

٤- المأخذ الرابع: هو أن الاستثناء يجوز في الأمور المتيقنة التي لا شك فيها، وقد جاءت السنة بمثل هذا لما فيه من الحكمة.

قال الإمام أحمد: قول النبي ﷺ حين وقف على المقابر فقال: (وإنا إن شاء الله بكم لاحقون)[١]، وقد نعيت إليه نفسه أنه صائر إلى الموت، وفي قصة صاحب القبر (عليه حييت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله)[٢]، وفي قول النبي ﷺ: (إني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا)[٣]، وفي مسألة الرجل للنبي ﷺ أحدنا يصبح جنبًا يصوم فقال: (إني لأفعل ذلك ثم أصوم) فقال: إنك لست مثلنا أنت قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، فقال: (والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله)[٤]، وهذا كثير.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أبي هريرة رضي الله أخرجه أحمد (٢/ ص٣٦٤، ٦/ ص١٣٩)، وابن ماجة (٤٢٦٢، ٤٢٦٨)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١٤٤٩)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٧٦-٢٧٧)، والطبري في تفسيره (١٨/ ٧٧)، والآجري في الشريعة (ص ٣٩٢)، وابن منده في الإيمان (١٠٦٨) والحديث قال عنه الطبري في مسند عمر (٢/ ٥٠٣): إسناده صحيح، وقال ابن الملقن في شرح البخاري (٢٩/ ٦٠٤): إسناده جيد، وصححه الإمام ابن القيم في الروح (ص١٦٥)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ٣٤٩): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (١٩٦٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند: إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وقال العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٣٣١): صحيح على شرط الشيخين، قلت وللحديث شاهد صحيح من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (١١١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ودخل عليه -أي الإمام أحمد- شيخ فسأله عن الإيمان فقال: قول وعمل، فقال له: يزيد، قال: يزيد وينقص. فقال له: أقول مؤمن إن شاء الله؟ قال نعم، فقال له: إنهم يقولون لي: إنك شاك. قال: بئس ما قالوا. ثم خرج فقال: ردوه، فقال: أليس يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، قال: نعم. قال هؤلاء مستثنون، قال له: كيف يا أبا عبدالله؟ قال: قل لهم: زعمتم أن الإيمان قول وعمل، فالقول قد أتيتم به، والعمل فلم تأتوا به، فهذا الاستثناء لهذا العمل، فقيل له: فيستثنى في الإيمان؟ قال: نعم، أقول: أنا مؤمن إن شاء الله، استثني على اليقين لا على الشك، ثم قال: قال الله ﷻ: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [الفتح: ٢٧] فقد علم تبارك وتعالى أنهم داخلون المسجد الحرام) رواه الخلال في السنة (٣/ ٥٩٥، ٥٩٦).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٥٢) معلقًا على كلام أحمد هذا منبهًا على ما فيه من فوائد: (فقد بين أحمد في كلامه أنه يستثني مع تيقنه بما هو الآن موجود فيه، يقوله بلسانه وقلبه لا يشك في ذلك، ويستثني لكون العمل من الإيمان وهو لا يتيقن أنه أكمله بل يشك في ذلك، فنفى الشك وأثبت اليقين فيما يتيقنه من نفسه وأثبت الشك فيما لا يعلم وجوده، وبيّن أن الاستثناء مستحب لهذا الثاني الذي لا يعلم هل أتى به أم لا، وهو جائز أيضًا لما يتيقنه، فلو استثنى لنفس الموجود في قلبه جاز كقول النبي ﷺ: (والله لأرجو أن أكون أخشاكم لله) وهذا أمر موجود في الحال ليس بمستقبل وهو أخشانا، فإنه لا يرجو أن يصير أخشانا لله، بل هو يرجو أن يكون حين هذا القول أخشانا لله، كما يرجو المؤمن إذا عمل عملًا أن يكون الله تقبله منه ويخاف أن لا يكون تقبله منه).اهـ.

و في السنة للخلال (٣/ ٥٩٣ - ٥٩٤) عن محمد بن الحسن بن هارون قال: (سألت أبا عبدالله عن الاستثناء في الإيمان؟ فقال: نعم الاستثناء على غير معنى شك مخافةً واحتياطًا للعمل، وقد استثنى ابن مسعود وغيره وهو مذهب الثوري، قال الله ﷻ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [الفتح: ٢٧]، وقال النبي ﷺ لأصحابه: (إني لأرجو أن أكون أتقاكم لله) وقال في البقيع: (عليه تبعث إن شاء الله).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٥٠) موضحًا كلام الإمام أحمد هذا: (فقد بين أحمد أنه يستثني مخافة واحتياطًا للعمل، فإنه يخاف أن لا يكون قد كمل المأمور به، فيحتاط بالاستثناء وقال على غير معنى شك يعني من غير شك مما يعلمه الإنسان من نفسه، وإلا فهو يشك في تكميل العمل الذي خاف أن لا يكون كمله، فيخاف من نقصه ولا يشك في أصله).اهـ..

وقال الفضل بن زياد كما في الشريعة (ص: ١٣٢) سمعت أبا عبدالله يقول: إذا قال أني مؤمن إن شاء الله ليس هو بشاك، قيل له: إن شاء الله ليس هو شكًا؟ قال: معاذ الله أليس قد قال الله ﷻ: (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) [الفتح: ٢٧] وفي علمه أنهم يدخلون، وصاحب القبر إذ قال: (عليه تبعث إن شاء الله) فأي شك هاهنا وقال النبي ﷺ: (وإنا إن شاء الله بكم لاحقون).

وقال حرب بن إسماعيل كما في السنة للخلال (٣/ ٥٩٥) سمعت أحمد يقول في التسليم على أهل القبور أنه قال: (وإنا إن شاء الله بكم لاحقون) قال هذا حجة في الاستثناء في الإيمان؛ لأنه لا بدّ من لحوقهم ليس فيه شك، وقال الله ﷻ: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ [الفتح: ٢٧] وهذه حجة أيضًا لأنه لابد داخلوه.

وقال أبو بكر الأثرم كما في الشريعة (ص: ١٣٧): (سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل سُئل عن الاستثناء في الإيمان ما تقول فيه؟ قال: أما أنا فلا أعيبه، قال أبو عبدالله: إذا كان تقول أن الإيمان قول وعمل فاستثني مخافة واحتياطًا، ليس كما يقولون على الشك، إنما يستثنى للعمل، قال الله ﷻ: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ [الفتح: ٢٧] فهذا استثناء بغير شك، وقال النبي ﷺ: ((إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله ﷻ)) (١٠) قال: هذا كله تقوية للاستثناء في الإيمان).

وقال المروذي كما في الإبانة (٢/ ٩٠٥): (قيل لأبي عبدالله إن استثنيت في إيماني أكن شاكًا؟ قال: لا).

وقال حماد بن زيد كما في السنة لعبد الله (١/ ٣٤٧): (يسموننا الشكاك، والله ما شككنا في ديننا قط، ولكن جاءت أشياء، أليس ذكر أن اليسير من الرياء شرك، فأينا لم يراء؟).

فبهذه النقول الجليلة والأقوال الجميلة، يندفع عن أهل السنة والجماعة شناعة المشنعين من أهل البدع والأهواء بأنهم شكّاك، وحاشاهم رحمهم الله، بل هم أهل دين وورع وعلم ويقين.

وبعد، فهذه وجوه أربعة من أجلها استثنى من استثنى من السلف في إيمانه، وملخص هذه الوجوه ما ذكره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٣/ ٤١) بقوله: (فإذا كان مقصوده - أي المستثني في إيمانه - إني لا أعلم أني قائم بكل ما أوجب الله علي، وأنه يقبل أعمالي، ليس مقصوده الشك فيما في قلبه فهذا استثناؤه حسن، وقصده أن لا يزكي نفسه، وأن لا يقطع بأنه عمل عملًا كما أمر فقبل منه، والذنوب كثيرة والنفاق مخوف على عامة الناس).

فجمع رَحِمَهُ اللَّهُ في كلمته هذه الجامعة الوجوه الأربعة التي كان يلحظها السلف عند استثنائهم في الإيمان، وعلى كل فهذا ما كان يستثنى السلف لأجله في إيمانهم ولم يكن أحد من السلف يستثني في إيمانه بحسب الموافاة كما يظنه بعض أهل الأهواء بل هذا من الغلط عليهم، وفي بيان سبب هذا الغلط يقول شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٣٦): (فهؤلاء لما اشتهر عندهم عن السلف أنهم يستثنون في الإيمان، ورأوا أن هذا لا يمكن إلا إذا جعل الإيمان هو ما يموت العبد عليه، وهو ما يوافي به العبد ربه، ظنوا أن الإيمان عند السلف هو هذا، فصاروا يحكون هذا عن السلف، وهذا القول لم يقل به أحد من السلف، ولكن هؤلاء حكوه عنهم بحسب ظنهم، لما رأوا أن قولهم لا يتوجه إلا على هذا الأصل ..).

أقوال السلف في الاستثناء مع التوفيق بينها

السلف لهم في الاستثناء صيغ متعددة، فمنهم من يستثني بقول: إن شاء الله، أو أرجو، أو آمنت بالله، أو لا إله إلا الله أو نحو ذلك من الصيغ، وجميع هذه الصيغ مؤداها واحد، وهو عدم القطع بالإيمان المطلق الكامل، وتفويض ذلك إلى الله سبحانه، وفيما يلي أنقل بعض ما ورد عن السلف في ذلك، مصنفًا أقوالهم حسب الصيغ الواردة عنهم في الاستثناء.

١- استثناؤهم بقول: (إن شاء الله)

(أ) عن عبدالرحمن بن عصمة كما في السنة لعبد الله (١/ ٣٤٩) قال: (كنت عند عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأتاها رسول معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهدية فقال: أرسل بها إليك أمير المؤمنين، فقالت: أنتم المؤمنون إن شاء الله تعالى، وهو أميركم وقد قبلت هديته).

(ب) وعن الإمام أحمد كما في السنة لعبد الله (١/ ٣١٠) قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: (إذا سئل أمؤمن أنت إن شاء الله لم يجبه، وسؤالك إياي بدعة، ولا أشك في إيماني، وقال: إن شاء الله ليس يكره، وليس بداخل في الشك).

(ج) وقال جرير بن عبدالحميد: (كان الأعمش ومنصور ومغيرة وليث وعطاء بن السائب وإسماعيل بن خالد وعمارة بن القعقاع والعلاء بن المسيب وابن شبرمة وسفيان الثوري وأبو يحيى - صاحب الحسن - وحمزة الزيات يقولون: نحن مؤمنون إن شاء الله، ويعيبون من لم يستثن) رواه عبدالله في السنة (١/ ٣٣٥)، والآجري في الشريعة (ص: ١٣٩)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٧١).

(د) وسئل أحمد كما في السنة للخلال (٣/ ٥٩٤) (ما تقول في الاستثناء في الإيمان؟ قال: نحن نذهب إليه، قيل: الرجل يقول أنا مؤمن إن شاء الله؟ قال: نعم).

(وسُئل كما في السنة للخلال (٣/ ٦٠٢) عن الرجل يقال له: أمؤمن أنت؟ قال: سؤاله إياك بدعة، يقول: إن شاء الله).

(وسئل كما في السنة للخلال (٣/ ٦٠٢) عن الرجل يسألني: مؤمن أنت؟ قال: تقول: نعم إن شاء الله).

٢- استثناؤهم بقول: (أرجو)

(أ) عن سعيد بن جبير قال: (سألت ابن عمر، قال: قلت: أغتسل من غسل الميت؟ قال: مؤمن هو؟ قلت: أرجو، قال: فتمسح بالمؤمن ولا تغتسل منه)[1].

(ب) عن إبراهيم النخعي قال: (قال رجل لعلقمة: أمؤمن أنت؟ قال:

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢٦٧)، وعبدالله في السنة (١/ ٣٢١).

أرجو)[١].

(ج) وعن إبراهيم النخعي (عن علقمة - وتكلم عنده رجل من الخوارج بكلام كرهه - فقال علقمة: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) [الأحزاب: ٥٨] فقال له الخارجي: أَوَمنهم أنت؟ فقال: أرجو)[٢].

(د) وعن الحسن بن عبيدالله قال: (قال إبراهيم النخعي: إذا قيل لك: أمؤمن أنت؟ فقل: أرجو)[٣].

(هـ) (وسُئل الإمام أحمد كما في السنة للخلال (٣/ ٦٠٢) عمن يقال له أنت مؤمن؟ فقال: سؤاله إياك بدعة، وقل: أنا مؤمن أرجو).

٣- استثناؤهم بقول: (آمنت بالله وملائكته ..)

(أ) عن علقمة بن الأسود قال: (قال رجل عند عبدالله: إني مؤمن. قال: قل: إني في الجنة، ولكنا نقول: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله)[٤].

(ب) وعن ابن طاووس عن أبيه (أنه كان إذا قيل له: أمؤمن أنت؟ قال: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولا يزيد على هذا)[٥].

---

(١) رواه أبو عبيد في الإيمان (ص: ٦٨)، وابن أبي شيبة في الإيمان (ص: ٩)، وفي المصنف (١١/ ١٥)، وعبدالله في السنة (١/ ٣٤٠)، والآجري في الشريعة (ص: ١٣٦).

(٢) رواه عبدالله في السنة (١/ ٣٢٢)، والآجري في الشريعة (ص: ١٤١)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٧٠).

(٣) رواه عبدالله في السنة (١/ ٣٤٠)، والطبري في تهذيب الآثار (برقم ١٠٠٠)، والآجري في الشريعة (ص: ١٤١)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٧٩).

(٤) رواه أبو عبيد في الإيمان (ص: ٦٧)، وابن أبي شيبة في الإيمان (ص: ٩)، وعبدالله في السنة (١/ ٣٢٢).

(٥) رواه عبدالله في السنة (١/ ٢٣)، والآجري في الشريعة (ص: ١٤٢)، وابن بطة في الإبانة
=

(ج) وعن سفيان بن محل قال: قال لي إبراهيم: (إذا قيل لك: أمؤمن أنت فقل: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله)[١].

(د) وعن عبدالرحمن بن بكير السلمي قال: (كنت عند محمد بن سيرين وعنده أيوب فقلت له: يا أبا بكر يقول لي: أمؤمن أنت؟ أقول: مؤمن، فانتهرني أيوب، فقال محمد: وما عليك أن تقول آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله)[٢].

(هـ) وعن حبيب بن الشهيد قال: قال محمد بن سيرين: (إذا قيل لك: أنت مؤمن؟ فقل: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق)[٣].

(و) وعن أحمد بن أصرم المزني كما السنة للخلال (٣/ ٦٠١) أن أبا عبدالله قيل له: إذا سألني الرجل أمؤمن أنت؟ فقال: سؤاله إياك بدعة، لا شك في إيماننا. قال المزني: وحفظي أن أبا عبدالله قال: أقول كما قال طاووس: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله).

٤- استثناؤهم بقول (لا إله إلا الله)

(أ) عن سوار بن شبيب قال (جاء رجل إلى ابن عمر فقال: إن هاهنا قومًا يشهدون علي بالكفر، قال: ألا تقول لا إله إلا الله فتكذبهم)[٤].

=

(٢/ ٨٧٨).

(١) رواه أبو عبيد في الإيمان (ص: ٦٨)، وعبدالله في السنة (١/ ٣٢٠)، والآجري في الشريعة (ص: ١٤١)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٧٨).

(٢) رواه عبدالله في السنة (١/ ٣٢٠) وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٧٨).

(٣) رواه عبدالله في السنة (١/ ٣٢٠)، والآجري في الشريعة (ص: ١٤١)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٧٩).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في الإيمان (ص: ١٠)، وفي المصنف (١١/ ٣٠).

(ب) وعن الحسن بن عمرو عن إبراهيم النخعي قال: (إذا قيل لك: أمؤمن أنت؟ فقل: لا إله إلا الله)[١].

فجميع هذه النقول تدل بوضوح على أن الاستثناء في الإيمان سنة ماضية عند السلف الصالح بصيغ مختلفة، مدارها على البعد عن تزكية النفس والشهادة لها بتكميل الأعمال وإتمام الإيمان، ولا يشكل على هذا ما نقل عن بعض السلف أنه أجاب بأنه مؤمن دون استثناء مثل:

١- ما نقل عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه خطبهم فقال: (أنتم المؤمنون وأنتم أهل الجنة، والله إني لأطمع أن يكون عامة من تصيبون بفارس والروم في الجنة، فإن أحدهم يعمل الخير فيقول: أحسنت بارك الله فيك أحسنت رحمك الله، والله يقول: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [الشورى: ٢٦])[٢].

فهذا الأثر خوطب فيه الجماعة ولم يعين به شخص، وفي آخره رجع إلى الاستثناء في دخول الجنة فقال: (إني لأطمع) كما في شعب الإيمان (١/ ٢١٤).

٢- وعن ابن أبي كثير عن رجل لم يسمه عن أبيه قال: (سمعت ابن مسعود يقول: أنا مؤمن)[٣]، وإسناد هذا الأثر ضعيف فالرجل الذي لم يسم وأبوه مجهولان.

٣- وعن عبدالله بن يزيد الأنصاري قال: (تسموا باسمكم الذي سماكم الله

---

(١) رواه عبدالله في السنة (١/ ٣٢١)، والآجري في الشريعة (ص: ١٤١)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٧٨).

(٢) رواه الحاكم (٢/ ٤٤٤)، والبيهقي في الشعب (١/ ٢١٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٢٩)، وفي كتاب الإيمان (ص: ١٠).

بالحنيفية والإسلام والإيمان)[١].

٤- وعن أبي عبدالرحمن الشيباني قال: (لقيت عبدالله بن معقل فقلت له: إن أناسًا من أهل الصلاح يعيبون علي أن أقول: أنا مؤمن، فقال عبدالله: لقد خبت وخسرت إن لم تكن مؤمنًا)[٢].

٥- وعن إبراهيم التيمي قال: (وما على أحدكم أن يقول: أنا مؤمن، فوالله لئن كان صادقًا لا يعذبه الله على صدقه، وإن كان كاذبًا لما دخل عليه من الكفر أشد عليه من الكذب)[٣].

ومراده بـ (أنا مؤمن) أصل الإيمان كما يدل على ذلك آخر كلامه قوله: (لما دخل عليه من الكفر ...).

٦- وعن أبي عبدالرحمن السلمي قال: (إذا سئل أحدكم: أمؤمن أنت؟ فلا يشك في إيمانه)[٤].

٧- وعن سيف بن ميمون قال: قلت لعطاء: (إن قبلنا قومًا نعدهم من أهل الصلاح إن قلنا: نحن مؤمنون عابوا ذلك علينا، قال: فقال عطاء: نحن المسلمون المؤمنون، وكذلك أدركنا أصحاب رسول الله ﷺ يقولون)[٥].

فهذه الآثار لا تشكل على ما ذكرته آنفًا من أن مذهب السلف هو جواز الاستثناء في الإيمان، لأنها لا تخلو من أحد أمور:

١- إما أن تكون ضعيفة الإسناد غير ثابتة عن الصحابي أو التابعي المروية

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٣٠)، وفي كتاب الإيمان (ص: ١٠).
(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٢٩)، وفي كتاب الإيمان (ص: ١٠).
(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ١٥)، وفي كتاب الإيمان (ص: ٢٣).
(٤) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٢٩)، وفي كتاب الإيمان (ص: ٩).
(٥) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٣٥)، وفي كتاب الإيمان (ص: ١٦).

عنه كما في بعض الآثار المتقدمة.

٢- أو أن يكون قاله على سبيل التعميم كما في الأثر الأول، وهذا لا إشكال فيه إذ أهل القبلة كلهم مؤمنون باعتبار الظاهر منهم، وبذلك يتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بالأخوة الإيمانية.

٣- أو أن يكون قصد بذلك أصل الإيمان لا تمامه وكماله، بل هذا هو مقصودهم عند إطلاق القول (أنا مؤمن) أو (أنت مؤمن)، لأن اسم الإيمان عند السلف على ضربين: مطلق ومقيد.

فإذا استعمل مطلقًا شمل جميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الظاهرة والباطنة.

وإذا استعمل مقيدًا يكون متناولًا لأصل الإيمان وأساسه، وهو الإيمان الباطن بأركانه الستة الواردة في حديث جبريل المشهور[(١)].

وللإيمان عندهم أصل وفرع؛ فأصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله، وفرعه الأعمال الظاهرة بأنواعها[(٢)].

وعلى هذا فإن من استثنى من السلف في إيمانه قصد به الإيمان التام الكامل المقبول عند الله، ومن لم يستثن قصد الإيمان الباطن الذي هو أصل الإيمان وأساسه وهذا لا استثناء فيه.

وعلى هذا ينبغي لمن سئل هل هو مؤمن أو لا؟ أن يستفصل من السائل ماذا يريد بالإيمان؟ هل يريد بذلك الإيمان الكامل التام المقبول عند الله الذي أهله يقينًا في الجنة؟ أو يريد الإيمان المقيد الذي هو أصل الإيمان وأساسه؟

---

(١) الحديث في الصحيحين البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٦٤٢ وما بعدها).

فإن أراد الأول فلا بد من الاستثناء، وإن أراد الثاني فلا استثناء، وتأكيدًا لما ذكرت أنقل بعض أقوال السلف المؤكدة لذلك والمؤيدة له، والمبينة أن مقصودهم بترك الاستثناء في الإيمان أصله، وبالاستثناء فيه تمامه وكماله.

فعن تمام بن نجيح قال سأل رجل الحسن البصري عن الإيمان فقال: (الإيمان إيمانان فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن، وإن كنت تسألني عن قول الله ﷻ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ – ٤] فوالله ما أدري أنا منهم أم لا)(١).

قال البيهقي في الاعتقاد (ص١٢٠) معلقًا: (فلم يتوقف الحسن في أصل إيمانه في الحال، وإنما توقف في كماله الذي وعد الله ﷻ لأهله الجنة بقوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤]).

وقال سفيان الثوري: (الناس عندنا مؤمنون في الأحكام والمواريث ونرجو أن يكونوا كذلك، ولا ندري ما حالنا عند الله ﷻ)(٢).

وفي الشعب (١/ ٢١٩).عن وكيع قال: (كان سفيان الثوري يقول أنا مؤمن وأهل القبلة كلهم مؤمنون في النكاح والدية والمواريث، ولا يقول مؤمن عند الله ﷻ) .

و في الشعب (١/ ٢١٩) عن قتيبة بن سعيد قال: (هذا قول الأئمة المأخوذ

---

(١) رواه البيهقي في الاعتقاد (ص: ١٢٠)، وفي الشعب (١/ ٢١٨).

(٢) رواه عبدالله في السنة (١/ ٣١١)، وأبو داود في مسائل الإمام أحمد (ص: ٢٧٤)، والآجري في الشريعة (ص: ١٣٨)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٧٢).

في الإسلام والسنة بقولهم ونقول: الناس عندنا مؤمنون بالاسم الذي سماهم الله في الإقرار والحدود والمواريث، ولا نقول: حقًا، ولا نقول: عند الله ولا نقول: كإيمان جبريل وميكائيل؛ لأن إيمانهم متقبل).

وفي السنة للخلال (٣/ ٥٧٤) عن إسماعيل بن سعيد قال: (سألت أحمد من قال: أنا مؤمن عند نفسي من طريق الأحكام والمواريث ولا أعلم ما أنا عند الله ﷻ، قال: ليس هذا بمرجئ).

فبهذه النقول يعلم ما سبق ذكره عن مذهب السلف أنهم يجوزون الاستثناء باعتبار، ويمنعونه باعتبار، حسب مراد القائل بكلمة الإيمان.

ولهذا كان من السلف من يرى أن الاستثناء وتركه سواء على المعنى الذي أشرت إليه.

قال الأوزاعي: (من قال أنا مؤمن فحسن، ومن قال: أنا مؤمن إن شاء الله فحسن، لقول الله ﷻ: (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ) [الفتح: ٢٧]. وقد علم أنهم داخلون)(١).

ولا يتنافى هذا مع ما جاء عن بعضهم من كراهة ترك الاستثناء كما روي ذلك عن سفيان الثوري أنه ينكر ويكره أن يقول: (أنا مؤمن)، وعن جمع من السلف أنهم كانوا يعيبون من لا يستثني.

قال أبو عبيد في كتاب الإيمان (ص: ٦٨): (وإنما كراهتهم عندنا أن يثبتوا الشهادة بالإيمان مخافة ما أعلمتكم في الباب الأول من التزكية والاستكمال عند الله، وأما على أحكام الدنيا فإنهم يسمون أهل الملة جميعًا مؤمنين؛ لأن ولايتهم وذبائحهم وشهاداتهم ومناكحتهم وجميع سنتهم إنما هي على الإيمان، ولهذا

---

(١) رواه أبو عبيد في الإيمان (ص: ٦٩)، وبنحوه الخلال في السنة (٣/ ٥٩٨).

كان الأوزاعي يرى الاستثناء وتركه جميعًا واسعين).

ولكن لما كان ترك الاستثناء شعارًا للمرجئة، ومتضمنًا لتزكية النفس والثناء عليها وهذا منهي عنه شرعًا، فإني أرى أن لزوم الاستثناء أولى وأكمل، وأن لا يترك الاستثناء إلا إذا بين المقصود والمراد.

ولهذا كان الإمام أحمد لا يعجبه ترك الاستثناء كما في السنة للخلال (٣/ ٥٩٨)، بل قال مرة كما في السنة للخلال (٣/ ٥٦٦) لحسين بن منصور: من قال من العلماء: أنا مؤمن؟ قلت: ما أعلم رجلًا أثق به، قال: لم تقل شيئًا لم يقله أحد من أهل العلم قبلنا .

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٤٩): (... ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقول: أنا مؤمن بلا استثناء إذا أراد ذلك - أي أصل الإيمان - لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه) .

ولم يكن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ ينكر على من ترك الاستثناء إذا لم يكن قصده قصد المرجئة أن الإيمان مجرد القول، قال الأثرم كما في مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٥، ٦٦٩): (قلت لأبي عبدالله: فكأنك لا ترى بأسًا أن لا يستثني، فقال: إذا كان ممن يقول: الإيمان قول وعمل فهو أسهل عندي، ثم قال أبو عبدالله: إن قومًا تضعف قلوبهم عن الاستثناء، فتعجب منهم) .

ما ورد عن السلف من تبديع السؤال بـ (أمؤمن أنت)

لما كان المرجئة هم أول من أثار مسألة الاستثناء في الإيمان؛ لحاجة في نفوسهم ولمقصد سيء في صدورهم، وهو دعم قولهم في الإيمان وأنه التصديق وحده وأن العمل خارج من مسماه، ولما أكثروا من طرح هذه المسألة بين

الناس بغية تحقيق ذاك المقصد، أنكر عليهم السلف ذلك أشد الإنكار وحاربوا مقالتهم أقوى محاربة، ولهذا كثرت أقوالهم رحمهم الله المبينة للجواب الشرعي على هذه المسألة البدعية، ونصوا رحمهم الله على كراهة هذه المسألة وأنها من بدع المرجئة السيئة.

وأقوالهم رحمهم الله في ذم هذه المسألة وتبديع قائلها كثيرة جدًا، حتى إن بعض من صنف في العقيدة على رسم السنة أفرد بابًا في مصنفه في هذا الموضوع على الخصوص كالآجري في الشريعة (ص: ١٤٠) فقد أفرد بابًا (فيمن كره من العلماء لمن سأل غيره فيقول له: أنت مؤمن هذا عندهم مبتدع رجل سوء).

وكذلك فعل ابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٧٧) فقد أفرد بابًا بعنوان: (سؤال الرجل لغيره أمؤمن أنت؟ وكيف الجواب له؟ وكراهية العلماء هذا السؤال وتبديع السائل عن ذلك).

وقد أوردا رحمهما الله في هذين البابين نصوصًا كثيرة عن السلف رحمهم الله في ذم المرجئة وتبديعهم في مقالتهم هذه، صيانة منهم للمعتقد وحفاظًا على الديانة.

قال ابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٨٣) في نهاية الباب المذكور: (فقد ذكرت في هذا الباب من كلام أئمة المسلمين وقول الفقهاء والتابعين ما إن عمل به المؤمن أراح به نفسه من خصومة المرجئ الضال، وأزاح به علته، وكان لدينه بذلك صيانة ووقاية والله أعلم).

ولما كان الأمر بهذه المثابة خصصت هذا الموضوع بهذا المبحث لأنقل فيه بعض ما ورد عن السلف في ذلك تحذيرًا من هذه المقالة السيئة المبتدعة، وتبصيرًا بالحق والسنة.

١- ففي الإبانة (٢/ ٨٨٣) (سأل رجل ميمون بن مهران قال: فقال لي: أمؤمن أنت؟ قال: قل: آمنت بالله وملائكته وكتبه، قال: لا يرضى مني بذلك، قال: فردها، فقال: لا يرضى، فردها عليه ثم ذره في غيظه يتردد).

٢ –عن إبراهيم النخعي قال: (سؤال الرجل الرجل أمؤمن أنت؟ بدعة)[١].

وسأله رجل كما في السنة لعبد الله (١/ ٣٣٩): أمؤمن أنت؟ فقال: (ما أشك في إيماني، وسؤالك إياي عن هذا بدعة).

٣- وقال الإمام أحمد سمعت سفيان بن عيينة يقول: (إذا سئل أمؤمن أنت؟ إن شاء لم يجبه، أو يقول: سؤالك إياي بدعة، ولا أشك في إيماني)[٢].

٤- وقيل له الرجل يقول: مؤمن أنت؟ فقال: (فقل: ما أشك في إيماني وسؤالك إياي بدعة، وتقول ما أدري أنا عند الله ﷻ شقي أم سعيد، مقبول العمل أم لا؟)[٣].

٥- وسئل الإمام أحمد كما في في السنة للخلال (٣/ ٦٠١) عن الرجل يقال له: (أمؤمن أنت؟ قال: سؤاله إياك بدعة، ويقول: إن شاء الله).

٦- وقال الإمام الآجري في الشريعة (ص: ١٤٠): (إذا قال لك رجل: أنت مؤمن؟ فقل: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والموت والبعث من بعد الموت والجنة والنار، وإن أحببت أن لا تجيبه تقول له: سؤالك إياي بدعة، فلا أجيبك، وإن أجبته، فقلت: أنا مؤمن إن شاء الله على النعت الذي

---

(١) رواه عبدالله في السنة (١/ ٣٢١)، والآجري في الشريعة (ص: ٧٦٥)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٨٠).

(٢) رواه عبدالله في السنة (١/ ٣١٠)، والخلال في السنة (٣/ ٦٠٢)، والآجري في الشريعة (ص: ١٣٨)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٨١).

(٣) رواه عبدالله في السنة (١/ ٣٣٨)، والآجري في الشريعة (ص: ١٤٠).

ذكرناه فلا بأس به، واحذر مناظرة مثل هذا، فإن هذا عند العلماء مذموم، واتبع من مضى من أئمة المسلمين تسلم إن شاء الله تعالى).

وبهذه النقول الطيبة عن سلف الأمة يعلم أن من البدع الحوادث ومن الأقوال المبتدعة سؤال الرجل أخاه أمؤمن أنت؟ فالواجب على المسلم العاقل أن يحبس نفسه على السنة، وأن يحذر من البدعة، وأن يقف حيث وقف القوم، ويقول فيما قالوا، ويكف عما كفوا، ويسلك سبيل السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه لعبدالرزاق البدر بتصرف (ص٤٥٥).

(فرع): قول الأشاعرة في الاستثناء في الإيمان

اختلف الأشاعرة في الاستثناء، ومن جوَّزه منهم فباعتبار الموافاة، ومرادهم أن الإيمان هو ما مات عليه العبد، ويوافي به ربه، وهذا مجهول للعبد فيستثني لذلك.

قال البغدادي في كتاب أصول الدين (ص٢٥٣): (والقائلون بأن الإيمان هو التصديق من أصحاب الحديث مختلفون في الاستثناء فيه، فمنهم من يقول به، وهو اختيار شيخنا أبي سهل محمد بن سليمان الصعلوكي وأبي بكر محمد بن الحسين بن فورك. ومنهم من ينكره، وهذا اختيار جماعة من شيوخ عصرنا، منهم أبو عبد الله ابن مجاهد، والقاضي أبو بكر محمد بن الطيب الأشعري، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفرائيني. وكل من قال من أهل الحديث بأن جملة الطاعات من الإيمان، قال بالموافاة[1]، وقال: كل من وافى ربه على الإيمان فهو المؤمن، ومن وافاه بغير الإيمان الذي أظهره في الدنيا عُلم في عاقبته

(١) القول بالموافاة ليس قولا لأحد من السلف، كما سيأتي.

أنه لم يكن قط مؤمنا. والواحد من هؤلاء يقول: أعلم أن إيماني حق، وضده باطل، وإن وافيت ربي عليه كنت مؤمنا حقا، فيستثني في كونه مؤمنا، ولا يستثني في صحة إيمانه).اهـ..

وقال الجويني في الإرشاد (ص٣٣٦) بعد تقرير أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص: (فإن قيل: قد أُثر عن سلفكم ربط الإيمان بالمشيئة وكان إذا سئل الواحد منهم عن إيمانه قال: إنه مؤمن إن شاء الله، فما محصول ذلك؟ قلنا: الإيمان ثابت في الحال قطعا لا شك فيه، ولكن الإيمان الذي هو عَلم على الفوز وآية النجاة، إيمان الموافاة، فاعتنى السلف به وقرنوه بالمشيئة، ولم يقصدوا التشكيك في الإيمان الناجز).اهـ.

ومن كلام الأشاعرة في مسألة الموافاة، قول القرطبي في تفسيره (١/ ٢٣٩): (قال علماؤنا رحمة الله عليهم: المؤمن ضربان: مؤمن يحبه الله ويواليه، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه، بل يبغضه ويعاديه، فكل من علم الله أنه يوافي بالإيمان، فالله محب له، موال له، راض عنه. وكل من علم الله أنه يوافي بالكفر، فالله مبغض له، ساخط عليه، معادٍ له، لا لأجل إيمانه، ولكن لكفره وضلاله الذي يوافي به. والكافر ضربان: كافر يعاقب لا محالة، وكافر لا يعاقب. فالذي يعاقب هو الذي يوافي بالكفر، فالله ساخط عيه معادٍ له. والذي لا يعاقب هو الموافي بالإيمان، فالله غير ساخط على هذا ولا مبغض له، بل محب له موال، لا لكفره لكن لإيمانه الموافي به. فلا يجوز أن يطلق القول وهي:

بأن المؤمن يستحق الثواب، والكافر يستحق العقاب، بل يجب تقييده بالموافاة. ولأجل هذا قلنا: إن الله راضٍ عن عمر في الوقت الذي كان يعبد الأصنام، ومريد لثوابه ودخوله الجنة، لا لعبادته الصنم، لكن لإيمانه الموافي به. وإن الله تعالى ساخط على إبليس في حال عبادته، لكفره الموافي به.

وخالفت القدرية في هذا وقالت: إن الله لم يكن ساخطًا على إبليس وقت عبادته، ولا راضيًا عن عمر وقت عبادته للصنم. وهذا فاسد، لما ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافى به إبليس لعنه الله، وبما يوافى به عمر فيما لم يزل، فثبت أنه كان ساخطًا على إبليس محبًا لعمر ...).اهـ..

والقول بالموافاة نسبه شيخ الإسلام إلى الأشعري وابن فورك، وبسط الكلام في ذلك في كتابه الإيمان الكبير، ومما قاله في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٢٩ - ٤٣٢): (والذين أوجبوا الاستثناء لهم مأخذان: أحدهما: أن الإيمان هو ما مات عليه الإنسان، والإنسان إنما يكون عند الله مؤمنا وكافرا باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه. وما قبل ذلك لا عبرة به. قالوا: والإيمان الذي يتعقبه الكفر، فيموت صاحبه كافرا، ليس بإيمان، كالصلاة التي يفسدها صاحبها قبل الكمال، وكالصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب، وصاحب هذا هو عند الله كافر؛ لعلمه بما يموت عليه. وكذلك قالوا في الكفر، وهذا المأخذ مأخذ كثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم، ممن يريد أن ينصر ما اشتهر عن أهل السنة والحديث من قولهم: أنا مؤمن إن شاء الله، ويريد مع ذلك أن الإيمان لا يتفاضل، ولا يشك الإنسان في الموجود منه، وإنما يشك في المستقبل، وانضم إلى ذلك أنهم يقولون: محبة الله ورضاه وسخطه وبغضه قديم، ثم هل ذلك هو الإرادة أم صفات أخر؟ لهم في ذلك قولان.

قالوا: والله يحب في أزله من كان كافرا، إذا علم أنه يموت مؤمنا. فالصحابة ما زالوا محبوبين لله وإن كانوا قد عبدوا الأصنام مدة من الدهر، وإبليس ما زال الله يبغضه، وإن كان لم يكفر بعد. وهذا على أحد القولين لهم، فالرضى والسخط يرجع إلى الإرادة، والإرادة تطابق العلم، فالمعنى: ما زال الله يريد أن

يثيب هؤلاء بعد إيمانهم، ويعاقب إبليس بعد كفره، وهذا معنى صحيح؛ فإن الله يريد أن يخلق كل ما علم أنه سيخلقه. وعلى قول من يثبتها صفات أخر، يقول: هو أيضا حبه تابع لمن يريد أن يثيبه، فكل من أراد إثابته فهو يحبه، وكل من أراد عقوبته فإنه يبغضه، وهذا تابع للعلم، وهؤلاء عندهم: لا يرضى عن أحد بعد أن كان ساخطا عليه، ولا يفرح بتوبة عبد بعد أن تاب عليه، بل ما زال يفرح بتوبته، والفرح عندهم إما الإرادة، وإما الرضى، والمعنى: ما زال يريد إثابته، أو يرضى عما يريد إثابته. وكذلك لا يغضب عندهم يوم القيامة دون ما قبله، بل غضبه قديم، إما بمعنى الإرادة وإما بمعنى آخر.

فهؤلاء يقولون: إذا علم أن الإنسان يموت كافرا، لم يزل مريدا لعقوبته، فذاك الإيمان الذي كان معه باطل لا فائدة فيه، بل وجوده كعدمه، فليس هذا بمؤمن أصلا. وإذا علم أنه يموت مؤمنا، لم يزل مريدا لإثابته، وذاك الكفر الذي فعله، وجوده كعدمه، فلم يكن هذا كافرا عندهم أصلا.

فهؤلاء يستثنون في الإيمان بناء على هذا المأخذ، وكذلك بعض محققيهم يستثنون في الكفر، مثل أبي منصور الماتريدي، فإن ما ذكروه مطرد فيهما، ولكن جماهير الأئمة على أنه لا يُستثنى في الكفر، والاستثناء فيه بدعة لم يعرف عن أحد من السلف، ولكن هو لازم لهم ... إلى أن قال: وهذا القول قاله كثير من أهل الكلام أصحاب ابن كُلاب، ووافقهم على ذلك كثير من أتباع الأئمة، لكن ليس هذا قول أحد من السلف، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا كان أحد من السلف الذين يستثنون في الإيمان يعللون بهذا، لا أحمد ولا من قبله).

وقال في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٣٥): (وكثير من أهل الكلام في كثير مما ينصره، لا يكون عارفا بحقيقة دين الإسلام في ذلك، ولا ما جاءت به السنة، ولا

ما كان عليه السلف، فينصر ما ظهر من قولهم بغير المآخذ التي كانت مآخذهم في الحقيقة، بل بمآخذ أخر، قد تلقوها عن غيرهم من أهل البدع، فيقع في كلام هؤلاء من التناقض والاضطراب والخطأ ما ذم به السلف مثل هذا الكلام وأهله، فإن كلامهم في ذم مثل هذا الكلام كثير. والكلام المذموم هو المخالف للكتاب والسنة، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل وكذب، فهو مخالف للشرع والعقل وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا [الأنعام: ١١٥].

فهؤلاء لما اشتهر عندهم عن أهل السنة أنهم يستثنون في الإيمان، ورأوا أن هذا لا يمكن إلا إذا جُعل الإيمان هو ما يموت العبد عليه، وهو ما يوافي به العبد ربه، ظنوا أن الإيمان عند السلف هو هذا، فصاروا يحكون هذا عن السلف. وهذا القول لم يقل به أحد من السلف، ولكن هؤلاء حكوه عنهم بحسب ظنهم، لمّا رأوا أن قولهم لا يتوجه إلا على هذا الأصل، وهم يدَّعون أن ما نصروه من أصل جهم في الإيمان هو قول المحققين والنظار من أصحاب الحديث).

ونقل شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٣٧) عن أبي القاسم الأنصاري شارح "الإرشاد" فيما حكاه عن أبي إسحاق الإسفرائيني، لما ذكر قول أبي الحسن الأشعري وأصحابه في الإيمان، وصحح أنه تصديق القلب، قال: ومن أصحابنا من قال بالموافاة وشرط في الإيمان الحقيقي أن يوافي ربه به ويختم عليه، ومنهم من لم يجعل ذلك شرطا فيه في الحال.

ثم قال - أي الأنصاري -: والذي اختاره المحققون أن الإيمان هو التصديق، وقد ذكرنا اختلاف أقوالهم في الموافاة، وأن ذلك هل هو شرط في صحة الإيمان وحقيقته في الحال، وكونه معتدا عند الله به، وفى حكمه. فمن قال: إن ذلك شرط فيه، يستثنون في الإطلاق في الحال، لا أنهم يشكون في حقيقة

التوحيد والمعرفة، لكنهم يقولون: لا يدرى أي الإيمان الذي نحن موصوفون به في الحال، هل هو معتد به عند الله؟ على معنى أنا ننتفع به في العاقبة، ونجتني من ثماره).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٣٩): (وأما الموافاة فما علمت أحدا من السلف علل بها الاستثناء، ولكن كثير من المتأخرين يعلل بها من أصحاب الحديث، من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم، كما يعلل بها نظارهم كأبي الحسن الأشعري، وأكثر أصحابه، لكن ليس هذا قول سلف أصحاب الحديث).

وقال في مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٨٢): (وهؤلاء يقولون إن حب الله وبغضه ورضاه وسخطه وولايته وعداوته إنما يتعلق بالموافاة فقط، فالله يحب من علم أنه يموت مؤمنا، ويرضى عنه ويواليه بحب قديم وموالاة قديمة، ويقولون: إن عمر حال كفره كان وليا لله، وهذا القول معروف عن ابن كلاب ومن تبعه كالأشعري وغيره.

وأكثر الطوائف يخالفونه في هذا، فيقولون بل قد يكون الرجل عدوا لله ثم يصير وليا لله، ويكون الله يبغضه ثم يحبه، وهذا مذهب الفقهاء والعامة، وهو قول المعتزلة والكرامية والحنفية قاطبة وقدماء المالكية والشافعية والحنبلية.

وعلى هذا يدل القرآن، كقوله: قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [آل عمران: ٣١]، ووَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ [الزمر: ٧]، وقوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ [النساء: ١٣٧]، فوصفهم بكفر بعد إيمان، وإيمان بعد كفر، وأخبر عن الذين كفروا أنهم كفار، وأنهم إن انتهوا يُغفر لهم ما قد سلف، وقال: فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ

[الزخرف: ٥٥]، وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

وفي الصحيحين في حديث الشفاعة، تقول الأنبياء: (إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ)[1].

وقال ابن حزم في الفصل (٤/ ٤٨): (وأما قولهم: إن الله تعالى لا يسخط ما رضي، ولا يرضى ما سخط، فباطل وكذب، بل قد أمر الله تعالى اليهود بصيانة السبت وتحريم الشحوم، ورضي لهم ذلك، وسخط منهم خلافه، وكذلك أحل لنا الخمر، ولم يلزمنا الصلاة ولا الصوم برهة من زمن الإسلام، ورضي لنا شرب الخمر وأكل رمضان والبقاء بلا صلاة، وسخط تعالى بلا شك المبادرة بتحريم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ثم فرض علينا الصلاة والصوم، وحرم علينا الخمر، فسخط لنا ترك الصلاة وأكل رمضان وشرب الخمر، ورضي لنا خلاف ذلك، وهذا لا ينكره مسلم. ولم يزل الله تعالى عليما أنه سيحل ما كان أحل من ذلك مدة كذا، وأنه سيرضى منه، ثم أنه سيحرمه ويسخطه، وأنه سيحرم ما حرم من ذلك ويسخطه مدة، ثم أنه يحله ويرضاه، كما علم أنه سيحيي من أحياه مدة كذا، وأنه يعز من أعزه مدة، ثم يذله، وهكذا جميع ما في العالم من آثار صنعته لا يخفى ذلك على من له أدنى حس، وهكذا المؤمن يموت مرتدا، والكافر يموت مسلما؛ فإن الله تعالى لم يزل يعلم أنه سيسخطه فعل الكافر ما دام كافرا، ثم أنه يرضى عنه إذا أسلم، وأن الله تعالى لم يزل يعلم أنه يرضى عن أفعال المسلم وأفعال البر، ثم أنه يسخط أفعاله إذا ارتد أو فسق، ونص القرآن يشهد بذلك،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧٨] فصح يقينا أن الله تعالى يرضى الشكر ممن شكره فيما شكره، ولا يرضى الكفر ممن كفر إذا كفر متى كفر كيف كان انتقال هذه الأحوال من الإنسان الواحد).اهـ..

وبهذا يظهر الفرق بين من استثنى من السلف لأجل خوف العاقبة وتغيَّر الحال، وبين القول بالموافاة، الذي ذهب إليه الأشاعرة، وتضمَّن القولَ بأن الإيمان هو ما مات عليه العبد، وأن الإنسان إنما يكون عند الله مؤمنا وكافرا باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه، وما قبل ذلك لا عبرة به، وتضمن أيضا: أن حب الله وبغضه، ورضاه وسخطه وولايته وعداوته إنما يتعلق بالموافاة فقط.

وسر المسألة كما بين شيخ الإسلام أن الأشاعرة ينفون الأفعال الاختيارية، ويثبتون رضا ومحبة قديمة بمعنى الإرادة، وعندهم أن الله لا يرضى عن أحد بعد أن كان ساخطا عليه، ولا يفرح بتوبة عبد بعد أن تاب عليه، وأما أهل السنة فقد أخذوا بما دلت عليه النصوص من أن الله تعالى، يحب من شاء إذا شاء، ويرضى عمن شاء متى شاء، ويسخط عمن شاء، وقت ما يشاء، سبحانه، فمحبته ورضاه وسخطه صفات تتعلق بمشيئته.

والحاصل: أن القول بأن الإيمان هو ما وافى به العبد ربه، وتعليل الاستثناء بذلك، قول محدث، لا دليل عليه، وقد مضى ذكر الاعتبارات التي بنى عليها السلف قولهم في الاستثناء. الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل وكشف شبهات المعاصرين لمحمد بن محمود آل خضير (١/ ٢٤١).

(فرع): عرفنا في الفرع السابق أن الأشاعرة والكلابية ذهبوا إلى إيجاب الاستثناء في الإيمان باعتبار الموافاة، وسبق بيان بطلان هذا القول وبعده عن

الصواب، فعلى الضد لهؤلاء وفي المقابل لهم ذهبت الماتريدية بل والأحناف عمومًا إلى عدم جواز الاستثناء في الإيمان لما يقتضيه في نظرهم من الشك في الإيمان[١] وعدوا من يستثني شاكًا في إيمانه، وصار بعضهم يلمز السلف بأنهم شكاك، بل غلا بعضهم في ذلك فمنع تزويج أو أكل ذبيحة من يستثني في إيمانه.

كما قال أبو بكر الفضلي: "من قال أنا مؤمن إن شاء الله فهو كافر لا تجوز المناكحة معه".

وقال أبو حفص السفكردري وبعض أئمة خوارزم من الحنفية كما في البحر الرائق (٢/ ٤٦): "لا ينبغي للحنفي أن يزوج بنته من رجل شافعي المذهب ولكن يتزوج من الشافعية تنزيلًا لهم منزلة أهل الكتاب بحجة أن الشافعية يرون جواز الاستثناء في الإيمان وهو كفر".

وجاء في كتب بعضهم كما في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٧٨): "لا يصلى خلف شاك في إيمانه يقصدون بذلك من يستثني في إيمانه".

قلت: وهذا التصرف المشين والغلو المفرط ليس عامًا في جميع الأحناف القائلين بهذا القول بل منهم من استنكره على قائله ووصفه بأنه جرأة عظيمة وتعصب لا يرضاه الله تعالى كما قال الفرهاري: "وقد بالغ بعض الحنفية في المنع حتى قال الفضلى: "لا يجوز نكاح المرأة الشافعية لأنهم كفروا بالإستثناء"وهذه جرأة عظيمة وتعصب لا يرضاه الحق سبحانه[٢]".

ثم إن لأهل هذا القول شبه متنوعة يعترضون بها على من أجاز الاستثناء

---

(١) انظر التوحيد للماتريدي (ص ٣٨٨) وتأويلات أهل السنة له (ص ٢٦٥)، وبحر الكلام (ص٤٠)، والنبراس (ص ٤١٨)، والجوهرة المنيفة (ص ٥) والبداية من الكفاية (ص ١٥٥) وتحفة القاري (ص ٥٢) وغيرها.

(٢) النبراس شرح العقائد (ص ٤٢٠).

وقال بمشروعيته لا نطيل بذكرها.

هـذا وقـد ادعـى بعـضهم- كالـسبكي في رسـالته التـي صـنَّفها في مـسألة الاستثناء، وأبـي عذبـة في كتابـه الـذي صنَّفه لبيـان المسائل المختلـف فيهـا بـين الأشـاعرة والماتريديـة - أن الخـلاف في هـذه المـسألة بـين الأشـاعرة القـائلين بوجوب الاستثناء نظرًا للموافاة، وبين الماتريدية القـائلين بعـدم جـواز الاسـتثناء مطلقًـا لمـا يقتـضيه في نظـرهم مـن الـشك والريـب في الإيمـان لفظـي ولـيس حقيقيًا[١].

والحق أن الخلاف بين الطائفين جوهري حقيقي وليس لفظيًا فقـط، وذلـك لأن الماتريدية لـم يرتضوا ما ذهـب إليـه الأشـاعرة مـن إيجاب للاستثناء باعتبـار الموافـاة، فالطائفتـان وإن كـان بينهمـا اتفـاق في أنـه لا يقـال أنـا مـؤمن إن شـاء الله للشك في ثبوت الإيمان للحال، فإن بينهما خلافًا في جواز إطـلاق هـذا الاسـتثناء بـالنظر إلـى إيمـان المـآل والموافـاة، فلـم يجـوزه الماتريديـة وأوجبـه الأشـاعرة، وعلل الماتريدية عدم تجويزه "بأن النفس قد تعتاد التردد في إيمان الحـال بـسبب ترددهـا في ثبـوت الإيمـان واسـتمراره، وهـذه مفسدة قـد تجـر آخـر الحيـاة إلـى الاعتياد به، خصوصًا والشيطان متبتل بالإنسان لا شغل لـه سـواه، فيجـب حينئـذ تركه"[٢].

فإيمان الموافاة الذي يوجب الأشاعرة الاستثناء نظرًا إليه لا يجيز الماتريديـة الاستثناء لأجلـه، فكيـف يقـال بعدئـذ إن الخـلاف بينهمـا لفظـي، ومـن المعلـوم أيـضًا أن بعـض الماتريديـة لا يجيـز الـصلاة خلـف المـستثني ولا أكـل ذبيحتـه

---

(١) انظر إتحاف السادة المتقين للزبيدي (٢/ ٢٧٨)، والروضة البهية لأبي عذبة (ص ٩) .
(٢) انظر المسامرة شرح المسايرة لابن أبي شريف (ص ٣٨٦ وما بعدها) .

ويعدونه شاكًا في إيمانه دون تمييز منهم بين إيمان موافاة أو غيره.

وعلى كل فسواء أكان الخلاف بينهما حقيقيًا أو لفظيًا فإن الطائفتين غالطتان فيما ذهبتا إليه، ولم تصب أي واحدة منهما الحق، وإنما الذي أصاب الحق في هذا وناله هم أهل السنة والجماعة، وقد سبق شرح مذهبهم وبيانه والتدليل عليه، وإبطال ما خالفه من الأقوال المحدثة، وبالله وحده التوفيق.

المسألة الخامسة: الاستثناء في الإسلام

لقد كان الحديث فيما سبق كله منصبًا حول بيان حكم الاستثناء في الإيمان، وأما الحديث في هذا المبحث فسيكون عن بيان حكم الاستثناء في الإسلام، وقد علمنا فيما مضى أن هناك فرقا بين الإسلام والإيمان، وبين المسلم والمؤمن، وأن الناس في الدين طبقات منهم المحسن ومنهم المؤمن ومنهم المسلم، وأن أكملهم دينًا المحسن ثم المؤمن ثم المسلم.

فالإسلام هو أقل هذه الدرجات، وليس وراءه إلا الكفر، فمن لم يكن مسلمًا فهو كافر، وأما من لم يكن مؤمنًا فقد يكون مسلمًا، ولهذا لما ادعى بعض الأعراب درجة الإيمان التي لما يصلوا إليها وإنما كانوا مسلمين فقط، رد الله عليهم قولهم هذا بقوله سبحانه: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...﴾ فهؤلاء الأعراب ليسوا منافقين، إذ لا يلزم من نفي الإيمان عنهم أن يكونوا منافقين من أهل الدرك الأسفل من النار، بل المراد أنهم لم يأتوا بالإيمان الواجب الذي يستحقون معه أن يوصفوا بالمؤمنين، فنفي عنهم الإيمان لذلك، وإن كانوا مسلمين معهم من الإيمان ما يثابون عليه[١].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/ ٢٤٣).

ولما تذكر درجات الدين هذه يراد بالإسلام من أتى بالأعمال الظاهرة مع شيء من الإيمان يصحح عمله كحال الأعراب المذكورين في الآية المتقدمة، وكحال الرجل الذي قال عنه سعد بن أبي وقاص إني لأراه مؤمنًا، فقال له النبي ﷺ أو مسلمًا.

فمن دخل في هذا الدين ونطق بالشهادتين فهو المسلم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، فمثل هذا يقال عنه مسلم، وكل أحد يصح أن يعبر عن نفسه بذلك بدون أن يستثني كما أرشد لذلك النبي -ﷺ- في حديث سعد، وكما أرشد إلى ذلك الأعراب كما تقدم في الآية.

وبهذا يعلم أن الصحيح في مسألة حكم الاستثناء في الإسلام أن يقال: مسلم بدون استثناء، وهذا هو المشهور عن سلف الأمة في هذه المسألة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمشهور عند أهل الحديث أنه لا يستثنى في الإسلام، وهو المشهور عن أحمد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد روي عنه فيه الاستثناء"(١).

قلت: وإنما كان السلف لا يستثنون في الإسلام لأسباب أهمها أمران:

الأول: ورد ما يرشد إلى ذلك في نصوص الشرع المطهر، كما في آية الحجرات، وحديث سعد وقد تقدما، وكما في قوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.

فهذه النصوص فيها إشارة إلى جواز قول: مسلم بدون استثناء، وآية الحجرات واضحة صريحة في الدلالة على ذلك، ولهذا احتج بها على ذلك غير واحد من أهل العلم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٣) وسيأتي قريبًا توجيه رواية أحمد التي جوز فيها الاستثناء في الإسلام.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٢٥٣): "وهذه الآية - أي: آية الحجرات- مما احتج بها أحمد بن حنبل وغيره على أنه يستثنى في الإيمان دون الإسلام، وأن أصحاب الكبائر يخرجون من الإيمان إلى الإسلام، قال الميموني: سألت أحمد بن حنبل عن رأيه في أنا مؤمن إن شاء الله؟ فقال: أقول: مؤمن إن شاء الله، وأقول: مسلم ولا استثني، قال: قلت لأحمد؟ تفرق بين الإسلام والإيمان؟ فقال لي: نعم. فقلت له: بأي شيء تحتج؟ قال لي: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا} وذكر أشياء".اهـ..

الأمر الثاني: أن كل من نطق بالشهادتين صار بذلك مسلمًا له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ويكون متميزًا عن اليهود والنصارى تجري عليه أحكام الشرع الجارية على المسلمين، وهذا القدر كل أحد يجزم به بلا استثناء في ذلك.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤١٥): "ولما كان كل من أتى بالشهادتين صار مسلمًا متميزًا عن اليهود والنصارى تجري عليه أحكام الإسلام التي تجري على المسلمين، كان هذا مما يجزم به بلا استثناء فيه".اهـ..

لهذا كان المشهور عن السلف الصالح عدم الاستثناء في الإسلام كما ذكر ذلك شيخ الإسلام فيما تقدم، ومما ورد عنهم في ذلك:

١- ما رواه هشام الأزدي عن الحسن البصري ومحمد بن سيرين: أنهما كان يقولان مسلم ويهابان مؤمن[1].

وقال أبو بكر المروزي: قيل لأبي عبد الله نقول نحن المؤمنون؟ قال: نقول

---

(١) رواه عبد الله في السنة (١/ ٣٢٢) والخلال في السنة (٥٣/ ٦٠٣ ح ١٠٧٥) والآجري في الشريعة (ص ١٣٩) وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٧٤) واللالكائي في شرح الاعتقاد (٤/ ٨١٥).

نحن المسلمون[١].

وقال أيضًا: قيل لأبي عبد الله نقول: إنا مؤمنون؟ قال: لا، ولكن نقول: إنا مسلمون[٢].

وقال الأثرم: قلت لأبي عبد الله: فأما إذا قال أنا مسلم فلا يستثنى؟ فقال: لا يستثني إذا قال: أنا مسلم٤.

أما ما ذكره شيخ الإسلام عن أحمد بن حنبل أن له روايتين في المسألة: إحداهما بتجويز الاستثناء في الإسلام، فسببه عائد إلى أن للإمام أيضًا روايتين في تعريف الإسلام: إحداهما: أن الإسلام هو الكلمة، والأخرى: أنه أعمال الإسلام الظاهرة كاملة. فإن أريد به الكلمة فلا استثناء، وإن أريد به الأعمال الظاهرة كلها فلا بد من الاستثناء؟ لأن الجزم بفعلها وإتمامها كالجزم بالإيمان سواء.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤١٥): "وأحمد إنما منع الاستثناء فيه- أي الإسلام- على قول الزهري هو: الكلمة، هكذا نقل الأثرم والميموني وغيرهما عنه. وأما على جوابه الآخر الذي لم يختر فيه قول من قال: الإسلام الكلمة فيستثني في الإسلام كما يستثني في الإيمان، فإن الإنسان لا يجزم بأنه فعل كل ما أمر به من الإسلام فإذا أريد بالإسلام الكلمة فلا استثناء فيه، كما نص عليه أحمد وغيره، وإذا أريد به من فعل الواجبات الظاهرة كلها، فالاستثناء فيه كالاستثناء في الإيمان. ولما كان كل من أتى بالشهادتين صار مسلمًا متميزًا عن اليهود والنصارى تجري عليه أحكام الإسلام التي تجري على

(١) رواه الخلال في السنة (٣/ ٦٠٢ ح ١٠٧٣)، والآجري في الشريعة (ص ١٣٩).

(٢) رواه ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (٢/ ١٤) وهو والأثر الذي قبله ذكرهما شيخ الإسلام انظر الفتاوى (٧/ ٤٤٩).

المسلمين، كان هذا مما يجزم به".اهـ..

وقال في مجموع الفتاوى (٧/ ٢٥٩):".. لكن الإسلام الذي هو أداء الخمس كما أمر به يقبل الاستثناء، فالإسلام الذي لا يستثنى فيه الشهادتان باللسان فقط فإنها لا تزيد ولا تنقص فلا استثناء فيها".اهـ..

وقال العلامة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في شرح الطحاوية: هل الإسلام مثل الإيمان يزيد وينقص؟ أم أنَّ الإسلام شيءٌ واحد، والإيمان هو الذي يزيد وينقص؟

وهذا بَحَثَهُ أهل العلم واختلفوا فيه، هل الإسلام مثل الإيمان يزيد وينقص؟

أم أنَّ الإسلام شيءٌ واحد، والإيمان هو الذي يزيد وينقص؟ أم أنَّ كلًا منهما شيء واحد؟ أم العكس؟ على أقوال متنوعة، والذي ينطبق على طريقة أهل السنة والجماعة، وإن لم يُصَرِّحْ به الأوائل؛ لكن صَرَّحَ به المتأخرون مثل ابن تيمية ونحوه من أهل العلم، أنَّ الإسلام يزيد وينقص باعتبار الاستسلام، وأنَّ الإسلام له كمال وله نقص، وهذا ظاهر باعتبار الاستسلام.

فإذا نظرنا إلى إسلام الوجه والعمل والقلب أو القصد لله، فالناس في ذلك متباينون تباينًا شديدًا.

وإذا نظرنا إلى التقسيم السالف وهو أنَّ الإسلام ينقسم إلى إسلام وإيمان وإحسان، والناس في الصلاة مختلفو المراتب وفي الصدقة الواجبة الزكاة مختلفو المراتب، وأنَّ الناس في الصيام مختلفو المراتب، وفي الحج مختلفو المراتب، ثُمَّ في الإيمان أيضًا مختلفو المراتب، فلابد أن يكون ما تَكَوَّنْ من هذه مُتَفَاضِلَا.

ولذلك ليس من كان وصفه الإسلام على مرتبة واحدة، كذلك ليس كل

مؤمن على مرتبة واحدة. فأهل الإيمان في الإيمان متفاوتو المراتب، وكذلك أهل الإسلام في الإسلام متفاوتو المراتب؛ لأنَّ الإسلام الذي هو الاستسلام يقبل التفاوت ويقبل الزيادة والنقص.

المسألة السادسة: العلاقة بين الإيمان والإسلام

لقد اختلف السلف في حقيقة الإيمان والإسلام، هل هما متغايران؟ أو إنهما مترادفان؟ وقد تنوعت أقوالهم في ذلك على النحو التالي:

١ - أن الإسلام والإيمان مترادفان لا فرق بينهما، وهذا قول البخاري، ومحمد بن نصر المروزي، والمزني، وابن منده، والمروزي، وابن عبدالبر، والبغوي، وابن أبي يعلى.

٢ - أن الإسلام هو الكلمة، والإيمان هو العمل. وهذا قول الزهري.

٣ - أن كلًا منهما يعرف بما عرفه به النبي ﷺ في حديث جبريل. وقد ذكره ابن أبي العز ولم ينسبه إلى أحد.

٤ - أن الإسلام اسم لما ظهر من الأعمال، والإيمان اسم لما بطن من الاعتقاد. وهو قول الخطابي.

٥- أنهما إذا اجتمعا أريد بالإسلام الأعمال الظاهرة، وبالإيمان الاعتقادات والأعمال الباطنة، وأما إذا افترقا فإن كلًا منهما يدل على ما يدل عليه الآخر. وهذا قول الإسماعيلي، وابن الصلاح، وابن تيمية، وابن رجب، وابن أبي العز.

والقول الأخير هو القول الراجح، قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوي (٧/ ٣٥٨ - ٣٥٩): وقال أبو سليمان الخطابي: مما أكثر ما يغلط الناس في " هذه المسألة " فأما الزهري فقال: الإسلام الكلمة والإيمان العمل واحتج بالآية وذهب غيره إلى أن الإسلام والإيمان شيء واحد، فاحتج بقوله: {فأخرجنا من

كان فيها من المؤمنين} {فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} قال الخطابي: وقد تكلم رجلان من أهل العلم وصار كل واحد منهما إلى قول واحد من هذين ورد الآخر منهما على المتقدم وصنف عليه كتابا يبلغ عدد أوراقه المائتين، قال الخطابي: والصحيح من ذلك أن يقيد الكلام في هذا ولا يطلق؛ وذلك أن المسلم قد يكون مؤمنا في بعض الأحوال ولا يكون مؤمنا في بعضها والمؤمن مسلم في جميع الأحوال فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا وإذا حملت الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات واعتدل القول فيها ولم يختلف شيء منها. " قلت ": الرجلان اللذان أشار إليهما الخطابي أظن أحدهما - وهو السابق - محمد بن نصر فإنه الذي علمته بسط الكلام في أن الإسلام والإيمان شيء واحد من أهل السنة والحديث وما علمت لغيره قبله بسطا في هذا، والآخر الذي رد عليه أظنه - (بياض بالأصل) - لكن لم أقف على رده؛ والذي اختاره الخطابي هو قول من فرق بينهما كأبي جعفر وحماد بن زيد وعبد الرحمن بن مهدي وهو قول أحمد بن حنبل وغيره؛ ولا علمت أحدا من المتقدمين خالف هؤلاء فجعل نفس الإسلام نفس الإيمان؛ ولهذا كان عامة أهل السنة على هذا الذي قاله هؤلاء كما ذكره الخطابي.

وقال صاحب كتاب مسألة الإيمان (ص٢٣): هل الإسلام هو الإيمان؟ وهل الإيمان هو الإسلام؟ أو غيره. فهذا مما افترقت فيه الطوائف، كافتراقهم في مسمى الإيمان.

فقالت الوعيدية: إن الإسلام هو الإيمان والعكس صحيح كما في جامع العلوم والحكم (ص٢٦)..

وقيل: الإسلام هو الكلمة أي كلمة التوحيد بالشهادتين. والإيمان هو

العمل.

وهذان القولان لهما وجه صحيح يتضح عند التحقيق في معناهما.

وذهب الأشاعرة إلى أن الإيمان خصلة من خصال الإسلام، بأن كل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمانا[1]، وهذا القول فيه حق وباطل.

والقول الصواب الذي عليه أهل التحقيق القول بالتفصيل، وهو إجمالًا: الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، ومعناه: أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا في نص واحد من كتاب أو سنة فإن لكل واحد منهما معنى يختص به. فالإسلام: الأعمال الظاهرة ومنها الشهادتان والصلاة .. والإيمان: الأعمال الباطنة من الاعتقادات كالتوكل والخوف والمحبة والرغبة والرهبة وغيرها، وقد دل على هذا دلائل كثيرة منها اكتفاءً واختصارًا:

قوله تعالى في سورة الحجرات: (قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) [الحجرات: ١٤] فاجتمعا في نص واحد، ونفى عنهم الإيمان، وأثبت لهم الإسلام؛ فدل على افتراقهما أنهم مسلمون لكن لم يبلغوا أن يكونوا مؤمنين.

وحديث جبريل عليه السلام المشهور وفيه ذكر الإسلام: بالأركان الخمسة، والإيمان: بالأصول الستة.

فإنهما اجتمعا في نص واحد، أجاب النبي ﷺ لكلٍ بمعنى غير الآخر؛ فدل على افتراقهما.

---

(١) وهو قول أبي بكر الباقلاني نقله عنه بلفظه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ١٥٤) وما بعدها وقال قبله: (فصل: قال الذين نصروا مذهب جهم في الإيمان من المتأخرين كالقاضي أبي بكر وهذا لفظه ..).اهـ. فذكره.

وأركان الإسلام الخمسة أعمال ظاهرة، وأصول الإيمان الستة أعمال باطنة، ولا بد منهما جميعًا.

وحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: (أعطى رسول الله ﷺ رهطًا وسعد جالسٌ، فترك رجلًا هو أعجبهم إليَّ، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا. فقال: أو مسلمًا مالك عن فلان، ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي، فقلت: مثل ذلك وأجابني بمثله، ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، وعاد ﷺ ثم قال: يا سعد إني لأُعطي الرجل، وغيره أحب إليَّ منه، خشية أن يكبه الله في النار)(١)، ووجه الدلالة كما في دلالة آية الحجرات، بتفريقه ﷺ بين المؤمن والمسلم في نص واحد، مما يدل أن لكل منهما معنى يختص به، ومن هنا قال الحافظ بن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٢٨): قال المحققون من العلماء: كل مؤمن مسلم، فإن من حقَّق الإيمان، ورسخ في قلبه، قام بأعمال الإسلام، كما قال ﷺ: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)(٢)، فلا يتحقق القلب بالإيمان إلا وتنبعث الجوارح بالأعمال.

وليس كل مسلم مؤمنًا، فإنه قد يكون الإيمان ضعيفًا فلا يتحقق القلب به تحقيقًا تامًا، مع عمل جوارحه أعمال الإسلام فيكون مسلمًا، وليس بمؤمن الإيمان التام. اهـ.

ومعنى افتراقهما: أن يأتي أحدهما في نص دون الآخر، فعندئذٍ يكون أحدهما بمعنى الآخر، فالإسلام هو الإيمان والعكس صحيح.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

ولهذا أدلة كثيرة في الوحيين: منها قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وفي أولها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. فاقتضينا أن الدين عند الله الإيمان، ومن يبتغ غير الإيمان دينًا فلن يقبل منه.

ومنه قوله تعالى في خطابه للمؤمنين في آيات كثيرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ فإن الخطاب أيضًا متوجه للذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، مما يدل على تناول أحدهما الآخر عند الانفراد.

وحديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان)[١]، وفي لفظ آخر: (الإيمان بضع وسبعون)[٢].

فإن الإيمان هنا متناول للإسلام لاشتماله على الصلاة والصيام والحج والزكاة.

ولما في حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يرفعه إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[٣].

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن)[٤].

ففي كلا الحديثين المسلم يشمل المؤمن، مما يدل على أنهما بمعنى واحد عند الاجتماع.

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).
(٢) أخرجه مسلم (٣٥).
(٣) أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠).
(٤) أخرجه البخاري (١٩).

ومن أصرح الأدلة من السنة على كون افتراقهما يُصِّيرُ معناهما واحدًا حديث وفد عبد القيس، المتفق على صحته من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنهم جاؤوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: يا رسول الله، إن بيننا وبينك هذا الحي من مضر ولا نستطيع أن نأتيك إلا في الأشهر الحرم، فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا، وندخل به الجنة؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: تشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، وتصوموا رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس)[1].

فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرهم في الحديث - في هذا الحال المهم، والسؤال الأهم - عن الإيمان بأركان الإسلام، فدل على أنهما بمعنى واحد، مما يفيد أن أحدهما يغني عن الآخر عند الافتراق.اهـ. بتصرف.

وقال العلامة العثيمين في شرح السفارينية (١/ ٣٩٣): إذا ذكر الإيمان والإسلام في سياق واحد فالإيمان غير الإسلام، وإن أفرد أحدهما عن الآخر صار بمعنى واحد، فهما من باب إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، إذًا لا نقول: الإيمان غير الإسلام، ولا نقول: الإيمان هو الإسلام؛ لأننا إذا أطلقنا أخطأنا، فلابد من التفصيل على النحو التالي:

فإن ذكرا في سياق واحد فالإيمان غير الإسلام، والدليل: حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة جبريل، حين أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: أخبرني عن الإيمان، فأخبره بما يخالف ما أخبره به عن الإسلام؛ لأنهما ذُكرا في سياق واحد، فجعل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الإسلام الأعمال الظاهرة، وجعل الإيمان

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣) وهذا لفظه، ومسلم (١٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الأعمال الباطنة، فقال: (الإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت)) وقال في الإيمان: (أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره).

وإن ذُكر أحدهما منفردًا عن الآخر دخل هذا في هذا، مثاله: قوله تعالى: (وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإسلام دِينًا) (المائدة: الآية٣)، فالإسلام هنا يشمل الإسلام والإيمان.

فإذا قال قائل: من قال إن الإيمان دين؟ فنقول: قاله النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ حين قال: (أتدرون من السائل؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)، ومما علمهم الإيمان، إذًا (رضيت لكم الإسلام دينا) يشمل الإيمان والإسلام؛ لأنه أُفرد أحدهما عن الآخر، وقال تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسلام) (آل عمران: الآية١٩)، وهنا يدخل الإيمان؛ لأن الإيمان من الدين ولا شك.

فإن قال قائل: قال الله تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات: الآية١٤)) فما الجواب عن هذه الآية؟

فالجواب: إنهما هنا ذُكرا في سياق واحد ففرق الله بينهما، وقد اختلف المفسرون رحمهم الله في هؤلاء الأعراب؛ هل هم مؤمنون ضعيفو الإيمان، أو هم منافقون؟ فمن المفسرين من قال: إنهم منافقون، وقالوا: إن قوله: (وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) (الحجرات: الآية١٤)) يعني الإسلام الظاهر، فإن المنافقين مسلمون ظاهرًا.

ومنهم من قال: بل هم مسلمون حقيقة لكن إيمانهم ليس تامًا، لم يتعمق في قلوبهم، بدليل قوله: (وَلَمَّا يَدْخُلِ لإيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات: الآية١٤) و

(لما) هذه تدل على قرب الشيء، كما قال تعالى: (بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ) (صّ: الآية٨)) وكون الإيمان قريبًا من دخول قلوبهم يدل على انتفاء النفاق عنهم؛ لأن المنافقين نفى الله عنهم الإيمان نهائيًا، فقال: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) (البقرة: ٨) وهؤلاء لم ينف الله الإيمان عنهم، بل قال: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ فِي قُلُوبِكُم) (الحجرات: الآية١٤).

وهذا القول الثاني أقرب من الأول وإن كان الأول محتملًا، إذًا هنا فرق بين الإسلام والإيمان.

وقال الله تعالى: (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الذاريات: ٣٥) (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (الذاريات: ٣٦) هذه الآية استدل بها بعض العلماء ممن يقولوا: إن الإسلام هو الإيمان مطلقًا لأن الله قال: (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الذاريات: ٣٥) (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِين) والحقيقة أن هذه الآية دليل عليهم وليست دليلًا لهم؛ لأن الله قال: (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِين)، والبيت هو بيت لوط، ومن بينهم امرأته، وامرأته ليست مؤمنة ولكنها مسلمة، ولهذا قال الله تعالى: (ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا) (التحريم: الآية١٠)، أي أظهرتا الإسلام وهما كافرتان، فامرأة لوط كانت كافرة هلكت مع قومها، فالآية فيها أن البيت مسلم، لكن ليس فيها أن من في البيت مسلمون.

وعلى ذلك فليس في الآية دليل على ما ذهبوا إليه، بل نقول: إن الآية تدل على أن الإيمان غير الإسلام؛ لأن الله اخرج من كان فيها من المؤمنين وبين أنه لم يسلم أحد في هذه القرية بأكملها - ورسولهم بينهم يدعوهم.اهـ.

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (١/ ١/ ٢٨٨، ٢٩٠): تحت الحديث

(أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص) وفي الحديث أيضًا إشارة إلى أن مسمى الإسلام غير الإيمان، وقد اختلف العلماء في ذلك اختلافا كثيرًا، والحق ما ذهب إليه جمهور السلف من التفريق بينهما لدلالة الكتاب والسنة على ذلك فقال تعالى: {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} وحديث جبريل في التفريق بين الإسلام والإيمان معروف مشهور، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتاب " الإيمان " (ص ٣٠٥ طبع المكتب الإسلامي).

"والرد إلى الله ورسوله في مسألة الإسلام والإيمان يوجب أن كلا من الاسمين وإن كان مسماه واجبًا، ولا يستحق أحد الجنة إلا بأن يكون مؤمنًا مسلمًا، فالحق في ذلك ما بينه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في حديث جبريل، فجعل الدين وأهله ثلاث طبقات: أولها الإسلام، وأوسطها الإيمان، وأعلاها الإحسان، ومن وصل إلى العليا، فقد وصل إلى التي تليها، فالمحسن مؤمن، والمؤمن مسلم وأما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمنًا".

ومن شاء بسط الكلام على هذه المسألة مع التحقيق الدقيق فليرجع إلى الكتاب المذكور، فإنه خير ما ألف في هذا الموضوع.

(باب ذكر مسائل الكفر)

مسائل في الباب

المسألة الأولى: حقيقة الكفر

(فرع): تعريف الكفر

الكفر لغة: الستر والتغطية قال أبو عبيد في غريب الحديث (٣/ ١٣).: وأما الكافر فيقال والله أعلم: إنما سمي كافرا لأنه متكفّر به كالمتكفّر بالسلاح وهو

الذي قد ألبسه السلاح حتى غطّى كل شيء منه، وكذلك غطى الكفر قلب الكافر، ولهذا قيل لليل: كافر؛ لأنه ألبس كل شيء. قال لبيد يذكر الشمس:

حتـــى إذا ألقـــت يـــدا في كـــافر وأجـــنّ عـــورات الثغـــور ظلامُهـــا

وقال أيضًا: في ليلة كفر النجومَ غمامُها.

ويقال: الكافر سمي بذلك للجحود، كما يقال: كافرني فلان حقي إذا جحده حقه.اهـ..

وقال ابن قتيبة في غريب الحديث (١/ ٢٤٧): (أما الكافر، فهو من قولك: كفَرْت الشيء إذا غطَّيْته، ومنه يقال: تكفّر فلان في السّلاح إذا لَبِسَه. وقال بعضهم: ومنه كافور النَّخْل وهو قشر الطَّلْعة تقديره فاعُول لأنَّه يغطّي الكُفُرَّى. ومنه قيل: ليلٌ كافر لأنَّه يسْتُر كل شيء. قال لبيد وذكر الشمس:

حتـــى إذا ألقـــت يـــدًا في كـــافِر وأجـــنَّ عَـــوْراتِ الثّغـــور ظَلَامُهـــا

قوله: ألقت يدًا في كافر، أي دخل أولها في الغور، وهو مثل قول الآخر يصف ظليما أو نعامة:

فتـــذكَّرا ثَقَـــلًا رشـــيدًا بعـــدما ألقَـــتْ ذُكـــاء يمينهـــا في كـــافر

وذُكاء: هي الشمس، ومنه يقال للصُّبْح: ابن ذُكاء؛ لأنَّ ضوءه من الشمس، فكأن الأصل في قولهم: كافر، أي ساتر لِنِعَم الله عليه. وكان بعض المُحَدِّثين يذهب في قول رسول الله ﷺ: (لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ)[1] إلى التكفُّر في السلاح، يريد: ترجعوا بعد الولاية أعداء يتكفَّر بعضكم لبعض في الحرب.اهـ.

وقال الأزهري في تهذيب اللغة (١٠/ ١٩٤): وقال الليث: يقال: إنه سُمِّيَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٦٥).

الكافر كافرًا لأن الكُفر غطّى قلبه كلَّه.

قلت: ومعنى قول الليث: قيل له كافر لأن الكفر غطَّى قلبه، يحتاج إلى بيان يدلُّ عليه، وإيضاحه أن الكفر في اللغة معناه التَّغطية، والكافر ذو كفر أي ذو تغطية لقلبه بكفره، كما يقال للابس السِّلاح: كافر وهو الذي غطاه السلاح.

ومثله رجل كاسٍ: ذو كسوة، وماء دافق: ذو دَفق.

وفيه قول آخر: وهو أحسن مما ذهب إليه الليث. وذلك أن الكافر لما دعاه الله جل وعز إلى توحيده فقد دعاه إلى نعمة يُنعم بها عليه إذا قبلها، فلما ردَّ ما دعاه إليه من توحيده كان كافرًا نعمة الله أي مغطيًا لها بإبائه حاجبًا لها عنه.

وأخبرني المنذري عن الحراني عن ابن السكيت أنه قال: إذا لبس الرجل فوق درعه ثوبا فهو كافرٌ، وقد كفر فوق درعه. قال: وكل ما غطى شيئًا فقد كفره، ومنه قيل لليل: كافر لأنه ستر بظلمته كل شيء وغطاه. قال: ومنه سُمِّي الكافر كافرًا لأنه ستر نعم الله.

قلت: ونعم الله جل وعز: آياته الدالة على توحيده. والعرب تقول للزارع: كافر لأنه يكفر البذر المبذور في الأرض بتراب الأرض التي أثارها ثم أمرَّ عليها مالَقَه، ومنه قول الله ﷻ: كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ [الحديد: ٢٠] أي أعجب الزُّراع نباته مع علمهم به فهو غاية ما يستحسن، والغيث هاهنا: المطر، والله أعلم.اهـ..

والكفر شرعا: ضد الإيمان، فيكون قولا وعملا واعتقادا وتركا، كما أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، وهذا مما اتفق عليه أهل السنة والجماعة، خلافا لمن حصر الكفر في التكذيب أو الجحود بالقلب أو بالقلب واللسان، ونفى أن يكون بالعمل أو بالترك.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٣٥): الكفر عدم الإيمان بالله ورسوله، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب أو إعراض عن هذا حسدا أو كبرا أو اتباعا لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة.اهـ.

وقال ابن حزم في الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٤٩): وهو في الدين صفة من جحد شيئا مما افترض الله تعالى الإيمان به بعد قيام الحجة عليه، ببلوغ الحق إليه، بقلبه دون لسانه، أو بلسانه دون قلبه، أو بهما معا، أو عمل عملا جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان.اهـ.

وقال الإمام إسحاق بن راهوية كما في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٩٣٠): ومما أجمعوا على تكفيره وحكموا عليه كما حكموا على الجاحد، فالمؤمن الذي آمن بالله تعالى ومما جاء من عنده ثم قتل نبيا أو أعان على قتله، ويقول: قتل الأنبياء محرم، فهو كافر.اهـ..

وقال البربهاري في شرح السنة (ص٨١): ولا يخرج أحد من أهل القبلة من الإسلام حتى يرد آية من كتاب الله، أو يرد شيئا من آثار رسول الله ﷺ، أو يذبح لغير الله، أو يصلي لغير الله، وإذا فعل شيئا من ذلك فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في الصارم المسلول (٣/ ٩٧٥): فمن قال بلسانه كلمة الكفر من غير حاجةٍ عامدًا لها عالمًا بأنها كلمة الكفر، فإنه يكفر بذلك ظاهرا وباطنا، ولا يجوز أن يقال إنه في الباطن يجوز أن يكون مؤمنا، ومن قال ذلك فقد مرق من الإسلام.اهـ.

وقال في المصدر السابق (٣/ ٩٥٥): إن سب الله أو سب رسوله: كفر

ظاهرا وباطنا، سواء كان الساب يعتقد أن ذلك محرم أو كان مستحلا له، أو كان ذاهلا عن اعتقاده، وهذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل.اهـ..

وقال أيضا في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٦): فمن صدق الرسول، وأبغضه وعاداه بقلبه وبدنه، فهو كافر قطعا بالضرورة.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في الصلاة وحكم تاركها (ص٤٥): وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية، فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختيارا، وهي شعبة من شعب الكفر، فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف.اهـ.

وقال العلامة الألباني كما فس سلسلة الهدى والنور (شريط رقم ٥١٨): وأصل الكفر -كما تعلمون- من: الكَفْرِ، وهو التغطية؛ لذلك [فالزُّرَّاع] يُسمُّون بالكُفَّار؛ يُعجب الكفار نباته؛ أي: الزُّرَّاع، فلما كان الزَّارِع يستر الحب بالحرث وبالتراب، كذلك الكافر يستر الحق بباطله؛ فمن كان بهذه المثابة فهو الذي يكفُر ويكون مخلَّدًا في النَّار، أما من لم تأته الدعوة ولم تظهر له الحُجَّة، ثمَّ ظلَّ على كفره وعلى ضلاله؛ فهذا يعتبر عند علماء المسلمين من أهل الفَترة؛ ولذلك فأهل الفترة لا يُحكم لهم لا بإسلام، ولا بكفر، لهم معاملة خاصة عند الله - تبارك وتعالى-. ونكتفي بهذه الإشارة إلى هؤلاء.

والمهم: فلله الحجة البالغة على الناس، فلا يجوز المبادة إلى تكفير -إذن- إنسان ظهر منه ما يحملنا على أن نقتنع بأنه كفر بـ: "لا إله إلا الله"؛ فلابدَّ من إقامة الحجة عليه؛ فإن جحدها أُلحِقَ بالكفار؛ وإن خضع لها؛ فهو لا يزال في الإسلاميين.

(فرع): أنواع الكفر

النوع الأول: الكفر الأكبر

وهو يناقض الإيمان، ويخرج صاحبه من الإسلام، ويوجب الخلود في النار، ويكون بالاعتقاد، وبالقول، وبالفعل، وبالشك والريب، وبالترك، وبالإعراض، وبالاستكبار.

ولهذا الكفر خمسة أنواع

١- كفر التكذيب، وهو اعتقاد كذب الرسل عليهم السلام، فمن كذبهم فيما جاؤوا به ظاهرا أو باطنا فقد كفر، والدليل قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَما جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ) [العنكبوت: ٦٨].

٢- كفر الإباء والاستكبار، وذلك بأن يكون عالما بصدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، لكن لا ينقاد لحكمه ولا يذعن لأمره، استكبارا وعنادا، والدليل قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) [البقرة: ٣٤].

٣- كفر الشك، وهو التردد، وعدم الجزم بصدق الرسل، ويقال له كفر الظن، وهو ضد الجزم واليقين.

والدليل قوله تعالى: (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ الساعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سواكَ رَجُلًا لَكِنا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) [الكهف: ٣٥ - ٣٨].

٤- كفر الإعراض، والمراد الإعراض الكلي عن الدين، بأن يعرض بسمعه

وقلبه وعلمه عما جاء به الرسول ﷺ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

٥- كفر النفاق، والمراد النفاق الاعتقادي بأن يظهر الإيمان ويبطن الكفر، والدليل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

النوع الثاني: الكفر الأصغر

والكفر الأصغر غير مخرج من الملة، وهو ما لا يناقض أصل الإيمان؛ بل ينقصه ويضعفه، ولا يسلب صاحبه صفة الإسلام وحصانته، وهو المشهور عند العلماء بقولهم: (كفر دون كفر) ويكون صاحبه على خطر عظيم من غضب الله ﷻ إذا لم يتب منه؛ وقد أطلقه الشارع على بعض المعاصي والذنوب على سبيل الزجر والتهديد؛ لأنها من خصال الكفر، وهي لا تصل إلى حد الكفر الأكبر، وما كان من هذا النوع فمن كبائر الذنوب.

وهو مقتض لاستحقاق الوعيد والعذاب إن شاء الله ذلك، دون الخلود في النار، وأنواع الكفر الأصغر كثيرة يتعذر حصرها؛ فكل ما جاءت به النصوص الشرعية من تسميته كفرًا، ولم يصل إلى حد الكفر الأكبر، أو النفاق الأكبر، أو الشرك الأكبر، أو الفسق الأكبر، أو الظلم الأكبر؛ فهو كفر أصغر.

قال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (١/ ٤٣): الشرك أنواع ثلاثة، والحقيقة أنه نوعان: شرك أكبر، وشرك أصغر.

فالشرك الأكبر هو ما يتضمن صرف العبادة لغير الله أو بعضها، أو يتضمن جحد شيء مما أوجب الله من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة كالصلاة، وصوم رمضان، أو يتضمن جحد شيء مما حرم الله، مما هو معلوم من الدين

بالضرورة كالزنا والخمر ونحوها، أو يتضمن طاعة المخلوق في معصية الخالق على وجه الاستحلال لذلك، وأنه يجوز أن يطاع فلان أو فلانة، فيما يخالف دين الله ﷻ، من رئيس أو وزير أو عالم أو غيرهم فكل ما يتضمن صرف بعض العبادة لغير الله كدعاء الأولياء والاستغاثة بهم والنذر لهم، أو يتضمن استحلال ما حرم الله، أو إسقاط ما أوجب الله، كاعتقاد أن الصلاة لا تجب أو الصوم لا يجب أو الحج مع الاستطاعة لا يجب، أو الزكاة لا تجب، أو اعتقد أن مثل هذا غير مشروع مطلقا، كان هذا كفرا أكبر، وشركا أكبر؛ لأنه يتضمن تكذيب الله ورسوله.

وهكذا لو اعتقد حل ما حرم الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة كاستحلال الزنا والخمر، وعقوق الوالدين، أو استحل قطع الطريق أو اللواط أو أكل الربا، وما أشبه ذلك من الأمور المعروف تحريمها بالنص والإجماع- إذا اعتقد حلها كفر إجماعا، نسأل الله العافية وصار حكمه حكم المشركين شركا أكبر، وهكذا من استهزأ بالدين، وسخر به حكمه حكمهم، وكفره كفر أكبر، كما قال الله سبحانه وتعالى: {قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} {لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} وهكذا لو استهان بشيء مما عظمه الله احتقارا له، وازدراء له، كأن يستهين بالمصحف، أو يبول عليه، أو يطأ عليه، أو يقعد عليه، أو ما أشبه ذلك استهانة به، كفر إجماعا؛ لأنه بذلك يكون متنقصا لله، محتقرا له؛ لأن القرآن كلامه سبحانه وتعالى، فمن استهان به فقد استهان بالله ﷻ، وهذه الأمور قد أوضحها العلماء في باب حكم المرتد، ففي كل مذهب من المذاهب الأربعة ذكروا بابا سموه: باب حكم المرتد، أوضحوا فيه جميع أنواع الكفر والضلال، وهو باب جدير بالعناية، ولا سيما في هذا العصر الذي كثرت

فيه أنواع الردة، والتبس الأمر في ذلك على كثير من الناس، فمن عني به حق العناية عرف نواقض الإسلام، وأسباب الردة، وأنواع الكفر والضلال.

والنوع الثاني الشرك الأصغر، وهو ما ثبت بالنصوص تسميته شركا، لكنه لم يبلغ درجة الشرك الأكبر، فهذا يسمى شركا أصغر مثل: الرياء والسمعة كمن يقرأ يرائي، أو يصلي يرائي، أو يدعو إلى الله يرائي ونحو ذلك فقد ثبت في الحديث أنه ﷺ قال: « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال: الرياء يقول الله عز وجل يوم القيامة للمرائين: اذهبوا إلى من كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء؟" رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح عن محمود بن لبيد الأشهلي الأنصاري رضي الله عنه ورواه الطبراني أيضا والبيهقي وجماعة مرسلا عن محمود المذكور وهو صحابي صغير لم يسمع من النبي ﷺ ولكن مرسلات الصحابة صحيحة وحجة عند أهل العلم، وبعضهم حكاه إجماعا. ومن ذلك قول العبد: ما شاء الله وشاء فلان، أو لولا الله وفلان، أو هذا من الله ومن فلان.

هذا كله من الشرك الأصغر، كما في الحديث الذي رواه أبو داود بإسناد صحيح عن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: "لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان » ومن هذا ما رواه النسائي عن قتيلة « أن اليهود قالوا لأصحاب النبي ﷺ: إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، وتقولون: والكعبة فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة وأن يقولوا ما شاء الله ثم شاء محمد » وفي رواية للنسائي أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما « أن رجلا قال: يا رسول الله ما شاء الله وشئت. فقال: أجعلتني لله ندا ما شاء الله وحده » ومن ذلك ما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله

تعالى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} قال: هو الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، وقول: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانا . هذا كله به شرك رواه ابن أبي حاتم بإسناد حسن.

فهذا وأشباهه من جنس الشرك الأصغر. وهكذا الحلف بغير الله، كالحلف بالكعبة، والأنبياء والأمانة وحياة فلان، وبشرف فلان ونحو ذلك، فهذا من الشرك الأصغر؛ لما ثبت في المسند بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: "من حلف بشيء دون الله فقد أشرك » وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي رحمهم الله بإسناد صحيح عن ابن عمر ﵄ أن النبي ﷺ قال: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » وهذا يحتمل أن يكون شكا من الراوي، ويحتمل أن أو بمعنى الواو، والمعنى: فقد كفر وأشرك. ومن هذا ما رواه الشيخان عن عمر رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: "من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وهذه أنواع من الشرك الأصغر، وقد يكون أكبر على حسب ما يكون في قلب صاحبه، فإذا كان في قلب الحالف بالنبي أو البدوي أو الشيخ فلان، أنه مثل الله، أو أنه يدعى مع الله، أو أنه يتصرف في الكون مع الله أو نحو ذلك، صار شركا أكبر بهذه العقيدة، أما إذا كان الحالف بغير الله لم يقصد هذا القصد، وإنما جرى على لسانه من غير هذا القصد لكونه اعتاد ذلك، كان ذلك شركا أصغر.

وهناك شرك يقال له: الشرك الخفي ذكر بعض أهل العلم أنه قسم ثالث، واحتج عليه بقوله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري: أن النبي ﷺ قال: "ألا

أنبئكم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: الشرك الخفي يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل إليه » خرجه الإمام أحمد .

والصواب: أن هذا ليس قسما ثالثا، بل هو من الشرك الأصغر، وهو قد يكون خفيا؛ لأنه يقوم بالقلوب، كما في هذا الحديث، وكالذي يقرأ يرائي، أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يرائي، أو يجاهد يرائي، أو نحو ذلك.

وقد يكون خفيا من جهة الحكم الشرعي بالنسبة إلى بعض الناس كالأنواع التي في حديث ابن عباس السابق. وقد يكون خفيا وهو من الشرك الأكبر كاعتقاد المنافقين.. فإنهم يراءون بأعمالهم الظاهرة، وكفرهم خفي لم يظهروه، كما في قوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا} {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ} الآية، والآيات في كفرهم وريائهم كثيرة، نسأل الله العافية.

وبما ذكرنا يعلم أن الشرك الخفي لا يخرج عن النوعين السابقين: شرك أكبر، وشرك أصغر، وإن سمي خفيا. فالشرك يكون خفيا ويكون جليا.

فالجلي: دعاء الأموات والاستغاثة بالأموات والنذر لهم، ونحو ذلك.

والخفي: ما يكون في قلوب المنافقين يصلون مع الناس، ويصومون مع الناس، وهم في الباطن كفار يعتقدون جواز عبادة الأوثان والأصنام، وهم على دين المشركين. فهذا هو الشرك الخفي؛ لأنه في القلوب.

وهكذا الشرك الخفي الأصغر، كالذي يقصد بقراءته ثناء الناس، أو بصلاته أو بصدقته أو ما أشبه ذلك، فهذا شرك خفي، لكنه شرك أصغر.

فاتضح بهذا أن الشرك شركان: أكبر، وأصغر، وكل منهما يكون خفيا: كشرك المنافقين.. وهو أكبر، ويكون خفيا أصغر كالذي يقوم يرائي في صلاته أو صدقته أو دعائه لله، أو دعوته إلى الله أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر أو نحو ذلك.

فالواجب على كل مؤمن: أن يحذر ذلك، وأن يبتعد عن هذه الأنواع، ولا سيما الشرك الأكبر، فإنه أعظم ذنب عصي الله به، وأعظم جريمة وقع فيها الخلق، وهو الذي قال الله سبحانه وتعالى فيه: {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وقال فيه سبحانه وبحمده: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ} وقال فيه سبحانه أيضا: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} فمن مات عليه فهو من أهل النار جزما، والجنة عليه حرام، وهو مخلد في النار أبد الآباد نعوذ بالله من ذلك.

أما الشرك الأصغر فهو أكبر من الكبائر، وصاحبه على خطر عظيم، لكن قد يمحى عن صاحبه برجحان الحسنات، وقد يعاقب عليه ببعض العقوبات لكن لا يخلد في النار خلود الكفار، فليس هو مما يوجب الخلود في النار، وليس مما يحبط الأعمال، ولكن يحبط العمل الذي قارنه.

فالشرك الأصغر يحبط العمل المقارن له، كمن يصلي يرائي فلا أجر له، بل عليه إثم.

وهكذا من قرأ يرائي فلا أجر له. بل عليه إثم، بخلاف الشرك الأكبر، والكفر الأكبر فإنهما يحبطان جميع الأعمال، كما قال تعالى: {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} فالواجب على الرجال والنساء، وعلى العالم والمتعلم، وعلى كل مسلم، أن يعنى بهذا الأمر ويتبصر فيه، حتى يعلم حقيقة

التوحيد بأنواعه، وحتى يعلم حقيقة الشرك بنوعيه: الأكبر والأصغر، وحتى يبادر بالتوبة الصادقة مما قد يقع منه من الشرك الأكبر، أو الشرك الأصغر، وحتى يلزم التوحيد، ويستقيم عليه، وحتى يستمر في طاعة الله، وأداء حقه، فإن التوحيد له حقوق، وهي أداء الفرائض، وترك المناهي، فلا بد مع التوحيد من أداء الفرائض، وترك المناهي، ولا بد أيضا من ترك الإشراك كله: صغيره وكبيره.

فالشرك الأكبر ينافي التوحيد، وينافي الإسلام كليا. والشرك الأصغر ينافي كماله الواجب، فلا بد من ترك هذا وهذا.

فعلينا جميعا أن نعنى بهذا الأمر، ونتفقه فيه، ونبلغه للناس بكل عناية وبكل إيضاح حتى يكون المسلم على بينة من هذه الأمور العظيمة.اهـ.

وقد سئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: فضيلة الشيخ: سمعت من أحد العلماء قوله: إن الكفر اعتقادي وعملي، وأن العملي يكون كفرًا أصغر فقط لا يدخل فيه الكفر الأكبر، سواءً ترك الصلاة أو فعل أي فعل آخر؟

فأجاب: هذه قاعدة عند بعض العلماء أن الكفر لا يكون إلا عن اعتقاد، وأما كفر العمل فلا؛ لكن الصحيح خلاف ذلك، الصحيح أنه قد يكون الكفر عمليًا كترك الصلاة مثلًا؛ لأن القرآن والسنة وأقوال الصحابة تدل على أن تارك الصلاة كافر كفرًا مخرجًا عن الملة مع اعتقاده للوجوب، هذا هو القول الراجح. ولكن بهذه المناسبة أنا لا أود من إخواننا وشبابنا أن يكون أكبر همهم أن يبحثوا عن كفر الحكام أو غير الحكام؛ كأنهم لم يُخْلَقوا إلا للبحث عن هذا كافر أو غير كافر، عليهم أن يبحثوا في بيان حدود ما أنزل الله على رسوله، من

العبادات وغير العبادات، أما مسألة أن يشغلوا أنفسهم بأن هذا كافر، أو غير كافر فهذا غلط، وإضاعة للوقت ولا فائدة فيه، حتى لو وصلوا في النهاية إلى كفر حاكم من الحكام فماذا يفعلون؟ لن يستطيعوا أن يعملوا شيئًا إلا الفتنة، وزوال الأمن، وحصول الشر الذي لا نهاية له، مع أنهم أيضًا ربما يكفرون الحاكم بأهوائهم لا بمقتضى الدليل، عندهم -مثلًا- عاطفة دينية أو غير دينية يقولون: هذا كافر، وليس من قال الكفر أو فعل الكفر؛ يكون كافرًا، دلَّ على ذلك القرآن والسنة. ففي القرآن: يقول الله ﷻ: مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [النحل: ١٠٦] فرفع حكم الكفر عن المكره مع أنه يقول كلمة الكفر، ويفعل فعل الكفر. وفي السنة: أخبر النبي ﷺ عن (رجل كان مسرفًا على نفسه فأوصى أهله إذا مات أن يُحْرِقوه ويذروه في اليم وقال: لئن قَدِرَ الله عليَّ لَيُعَذِّبَنِّي عذابًا لا يُعَذِّبُه أحدًا، فلما فعلوا جمعه الله ﷻ وسأله لماذا فعلت؟ قال: يا رب! فعلت ذلك خوفًا منك) مع العلم بأنه في هذه الحال حين أوصى كان شاكًا في قدرة الله، يظن أن الله لا يقدر أن يعيده. وكذلك أخبر أن: (الله يفرح بتوبة عبده المؤمن كفرح الرجل الذي أضاع ناقته وعليها طعامه وشرابه، فاضطجع تحت شجرة ينتظر الموت فإذا بالناقة، فأخذ بخطامها وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح) وهذه الكلمة: (اللهم أنت عبدي وأنا ربك) كلمة كفر لا شك فيها؛ لكن لما كانت خطأ من شدة الفرح عُفِي عنه.

فنصيحتي التي أدين الله بها، وأرجو لأبنائنا وشبابنا أن يعملوا بها: ألا يكون أكبر همهم وشغلهم هو هذا، أي: ما تقول في الحاكم الفلاني؟ والحاكم الفلاني كافر، وما أشبه ذلك؛ لأن هذا لا يغني شيئًا، ولنا مثل قريب فيما حصل في الجزائر مثلًا

ما الذي حصل في الجزائر ؟ حصل أن قُتِل خمسون ألفًا في ثلاث سنوات، بغير حق، سواءً من الحكومة تقتُل هؤلاء أو منهم يقتلون من هو معصوم الدم، كل هذا من الشر والبلاء. فلذلك يجب أن يُعرِض الشباب وأهل الخير عن هذا إطلاقًا؛ لأنه لا يفيد أبدًا وإنما يُحْدِث الشر والفتنة والفوضى، والحمد لله ما دمنا لا نستطيع أن نغير شيئًا حتى لو رأينا كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان، فما الفائدة؟! ثم علينا أن نفكر وننظر إلى كل البلاد التي حصلت فيها الثورة ما ازدادت بعد الثورة إلا شرًا في دينها ودنياها. السائل: ما حكم تارك الصلاة يا شيخ؟ الشيخ: تارك الصلاة عندي لا شك فيه أنه كافرٌ كفرًا مخرجًا عن الملة، حتى لو قال: أنا أشهد أنها فرض، وأنها ركن من أركان الإسلام؛ لكنه لا يصليْ فهذا كافر.

(فرع): ضابط التفريق بين الكفر الأكبر والأصغر

الشرك والكفر الأكبر المخرج من الملة هو ما ناقض أصل الدين الذي هو توحيد الله والالتزام بالشريعة إجمالًا.

أما الشرك والكفر الأصغر فيكون بما دون ذلك، بحيث لا ينقض أصل الدين، ولا يكون أيضًا من اللمم المعفو عنه كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] فكل ما ثبت بنص أنه شرك، لكن دلت الدلائل على أنه ليس شركًا مخرجًا من الملة فهو شرك أصغر، وكل ما ثبت بنص أنه كفر، لكن دلت الدلائل على أنه ليس كفرًا مخرجًا من الملة فهو كفر دون كفر، وكذا ما ورد فيه الوعيد بنحو ليس منا، أو تبرأ منه الرسول ﷺ، أو نفى عنه وصف الإيمان، فكل ذلك من الكبائر.

ولهذا عمم الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول بأن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنًا فقال

كما في مجموع الفتاوى (٧/ ٣٥٢ - ٣٥٣): من أتى هذه الأربعة: الزنا والسرقة وشرب الخمر والنهبة التي يرفع الناس فيها أبصارهم إليه، أو مثلهن أو فوقهن فهو مسلم، ولا أسميه مؤمنًا، ومن أتى دون الكبائر نسميه مؤمنًا ناقص الإيمان.اهـ.

يقول الإمام محمد بن نصر المروزي تعليقًا على كلام الإمام أحمد السابق كما في مجموع الفتاوى (٧/ ٣٥٢ - ٣٥٣): صاحب هذا القول يقول: لما نفى عنه النبي ﷺ الإيمان نفيته عنه كما نفاه عنه الرسول ﷺ، والرسول لم ينفه إلا عن صاحب كبيرة، وإلا فالمؤمن الذي يفعل الصغيرة هي مكفرة بفعله للحسنات واجتنابه للكبائر، لكنه ناقص الإيمان عمن اجتنب الصغائر، فما أتى بالإيمان الواجب، ولكن خلطه بسيئات كفرت عنه بغيرها، ونقصت بذلك درجته عمن لم يأت بذلك.اهـ.

والكبيرة إما أن تتعلق بالشرك على نحو لا يناقض أصل التوحيد، وإما أن تتعلق بعدم الالتزام بالشريعة، ولكن على نحو لا يتناقض أصل الالتزام بها، سواء كان ذلك من جهة المعصية أو من جهة البدعة، فإن من زنى أو سرق لم يلتزم بأمر الله له باجتناب ذلك، لكنه لم ينقض أصل التزامه بأمر الله بالكلية، وكذلك من علم الحق المخالف لبدعته فأصر عليه تغليبًا لشبهته فإنه لا يقال إنه استسلم لله بقبول خبرة استسلامًا تامًا، لكنه مع ذلك لم يرده تكذيبًا واستحلالًا، بل لشبهة عرضت له.

فأما الشرك فنحو الرياء، كما ورد بذلك النص عن رسول الله ﷺ وذلك بأن يكون أصل العمل لله، لكن دخل عليه الشرك في تزيينه للناس.

قال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٣٤٤): وأما الشرك الأصغر

فكيسير الرياء، والتصنع للخلق والحلف بغير الله كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (من حلف بغير الله فقد أشرك)[(١)] وقول الرجل للرجل (ما شاء الله وشئت) و

(١) أخرجه الطيالسى (ص ٢ ٥٧، رقم ١٨٩٦)، وأحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، والترمذى (٤/ ١١٠، رقم ١٥٣٥)، وأبو داود (٣/ ٢٢٣، رقم ٣٢٥١)، وأبو عوانة (٤/ ٤٤، رقم ٥٩٦٧)، وابن حبان (١٠/ ١٩٩، رقم ٤٣٥٨)، والحاكم (١/ ٦٥، رقم ٤٥)، والبيهقى (١٠/ ٢٩، رقم ١٩٦١٤)، والضياء (١/ ٣١٣، رقم ٢٠٥) كلهم من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه المصنف في أحكام أهل الذمة (٣/ ١٢٩٢)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٩/ ٤٥٨)، وصححه ابن كثير في مسند الفاروق (١/ ٤٣١)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وصححه العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (١/ ٤٥)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٧٣٤)، ثم عاد وقال في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (رقم٢٦٨): هذا الحديث إذا نظرت إلى سنده وجدتهم رجال الصحيح، ولكنه منقطع قال البيهقي (١٠ص٢٩): وهذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من بن عمر، أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أنبأ أحمد بن جعفر هو القطيعي ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن منصور عن سعد بن عبيدة قال: كنت عند عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقمت وتركت رجلا عنده من كندة فأتيت سعيد بن المسيب قال فجاء الكندي فزعا فقال جاء بن عمر رجل فقال احلف بالكعبة قال لا ولكن أحلف برب الكعبة فإن عمر كان يحلف بأبيه فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا تحلف بأبيك فإنه من حلف بغير الله فقد أشرك. وجاء بيان المجهول أنه محمد الكندي كما في "مسند أحمد" (ج٢ص٦٩) ومحمد الكندي ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٨/ ١٣٢) وهو مجهول، قاله أبو حاتم.اهـ.وكذا قال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٨/ ٥٠٣): رجاله ثقات رجال الشيخين، إلا أن سعد بن عبيدة ثم يسمع هذا الحديث من ابن عمر مباشرة، بل كان في مجلسه مع رجل من كندة ثم خرج سعد إلى عند سعيد بن المسيب، فسمعه الكندي من ابن عمر، ثم جاء فحدث به سعد بن عبيدة، كذا بينه منصور بن المعتمر فيما يأتي برقم (٥٣٧٥) و (٥٥٩٣)، ولعل هذا أصح من صنيع الأعمش وغيره حيث اختصروه، فأوهموا أنه من =

(هذا من الله ومنك) و (أنا بالله وبك)، و (مالي إلا الله وأنت) و (أنا متوكل على الله وعليك) و (ولولا أنت لم يكن كذا وكذا). وقد يكون هذا شركا أكبر بحسب قائله ومقصده).اهـ.

والشرك الأصغر وإن كان من الكبائر، لكنه على مراتب، وبعضها أكبر من بعض، كما في الحديث: (ألا أنبؤكم بأكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين ... الحديث)[١] وعليه يفهم قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا)[٢] فمراده: أن الشرك بالحلف بغير الله وإن كان من الكبائر لكنه أكبر من الحلف الكاذب، وعلى هذا يمكن أن يفهم قول الإمام

=

مسموعات سعد بن عبيدة، عن ابن عمر فعلى رواية منصور يكون في إسناد الخبر راو مبهم، وهو الرجل الكندي، لكن سمي في الرواية التي ستأتي برقم (٥٣٧٥) محمدا الكندي، وقد ذكر ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" ٨/ ١٣٢ في هذه الطبقة راويا يسمى محمدا الكندي، وقال: روى عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مرسل، روى عنه عبد الله بن يحيى التوأم، سمعت أبي يقول ذلك، وسمعته يقول: هو مجهول، وسيأتي برقم (٥٢٢٢) و (٥٢٥٦) من طريق الأعمش عن سعد بن عبيدة ما يفيد أن هذا الأخير كان في مجلس ابن عمر عندما حدث بهذا الحديث، ولعل الأعمش اختصره، على أن أئمة الجرح والتعديل كالإمامين أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين قد قدموا منصورا على الأعمش إذا اختلفا، كما أن الأعمش موصوف بالتدليس، وهو هناك قد عنعنه. ولكل ما سلف أشار الطحاوي في "شرح مشكل الآثار" بإثر الحديث (٨٣١) إلى فساد إسناده، وقال البيهقي في "السنن" ١٠/ ٢٩: هذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من ابن عمر.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٨/ ٤٦٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٧٩)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٨٣) والأثر احتج به ابن حزم في المحلى (٨/ ٣٣)، وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٦٠٧) والهيثمي في المجمع (٤/ ١٧٧): رواته رواة الصحيح، وصححه العلامة الألباني في الإرواء (٢٥٦٢).

محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب التوحيد: عن الشرك الأصغر إنه أكبر من الكبائر، وهو كقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في إعلام الموقعين (٤/ ٣٠٤) عن الشرك الأصغر إن رتبته فوق رتبة الكبائر (٤)، ولا يلزم من قولهما إخراج الشرك الأصغر عن مسمى الكبائر، بل كأنه أكبر من جميعها.

ومما يبين ذلك: أن الشرك الأصغر لا يختص عن الكبائر بحكم يثبت له دونها فيما يتعلق بأحكام الوعيد، وأما القول بأن الشرك الأصغر لا يغفره الله، ولا يدخل تحت المشيئة - وإن دخل تحت الموازنة - فلا يصح، ولا دليل على تخصيصه بذلك، لأن المراد على الراجح بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] الشرك الأكبر، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وكقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]. والذين يقولون بالموازنة كالإمامين ابن حزم وابن القيم رحمهما الله، لا يلتزمون تحديد شيء من الذنوب بأنه لا تغفر ولا تدخل تحت المشيئة، لا الشرك الأصغر ولا غيره من الكبائر، وإنما يعممون القول بأن من رجحت سيئاته بحسناته لابد أن يعذب[1].

ثم إن هناك دلالات تفصيلية أن المراد بالنص الشرك أو الكفر الأصغر، من ذلك صريح النص عليه - وهذه أقوى دلالة - ذلك كما في قول الرسول ﷺ: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء)[2].

---

(١) الفصل (٤/ ٤٧ - ٥٣)، وطريق الهجرتين (ص/ ٣٨٤ - ٣٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)، والطبراني (٤/ ٢٥٣)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٢٤) والبيهقي في الشعب (٦٨٣١)، وأبو محمد الضراب في ذم الرياء (٣١) من حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث قال عنه المنذري في الترغيب: إسناده جيد، =

ومن ذلك دلالة نصوص أخرى -وهذا باب واسع- ومنه قول الرسول ﷺ: (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر)[١]، وقوله ﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)[٢] .. مع قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ [الحجرات: ٩] فالكفر المراد في الحديث ليس الكفر المخرج من الملة، وإلا لما أثبت الله لمن تقاتلوا وصف الإيمان الذي هو في الآية الإسلام الظاهر.

ومن ذلك قول الرسول ﷺ: (من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما)[٣]، وفي روايةٍ (إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما)[٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٣٥٥) في معنى هذا الحديث: فقد سماه أخاه حين القول، وقد أخبر أن أحدهما باء بها، فلو خرج عن الإسلام بالكلية لم يكن أخاه.اهـ.

ومن ذلك أيضًا عدم ترتب حد الردة على فاعله، وإن أقيم عليه حد العصاة،

=

وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٢٩٣): إسناده صحيح ومحمود بن لبيد مختلف في صحبته، وقال العراقي في المغني: رجاله ثقات، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٧): رجاله رجال الصحيح، وحسنه الحافظ في بلوغ المرام، وقال السيوطي في البدور السافرة (٢٣٣): إسناده جيد، وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (١/ ٤٤): إسناده صحيح، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٩٥١).

(١) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥) من حديث جرير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٠٣)، ومسلم (٦٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم (٦٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

كما في الزاني والسارق مع نفي الإيمان عنهما...

ومن الدلالات أيضًا على الشرك والكفر الأصغر ما فهمه الصحابة من النص، فإنهم أعلم الأمة بمعاني نصوص الكتاب والسنة، ومن ذلك حديث (الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل)[(١)] فإن آخر الحديث - على الصحيح -هو من قول ابن مسعود رضي الله عنه- وهذا مذكور عن جمع من المحدثين

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٩)، والطيالسي (٣٥٦)، وأبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٠٩)، وأبو يعلى (٥٢١٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١/ ٣٥٨) و (٢/ ٣٠٤)، والشاشي (٦٥٥)، وابن حبان (٦١٢٢)، والبغوي في شرح السنة (٣٢٥٧)، والبيهقي (٨/ ١٣٩) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٤٢٩) وقال الشيخ شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وكذا قال الأرنؤوط ومن معه (٦/ ٢١٣).

(تنبيه) قال الخطابي: قوله: وما منا إلا، معناه: إلا من يعتريه التطير ويسبق إلى قلبه الكراهة فيه، فحذف اختصارا للكلام واعتمادا على فهم السامع.

قال الترمذي كما في ترتيب علل الترمذي (ص٢٦٥): قال محمد: وكان سليمان بن حرب ينكر هذا الحديث أن يكون عن النبي ﷺ لهذا الحرف وما منا وكان يقول: هذا كأنه عن عبد الله بن مسعود قوله.اهـ.وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢١٣): وقوله: (وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل) من كلام ابن مسعود أدرج في الخبر، وقد بينه سليمان بن حرب شيخ البخاري فيما حكاه الترمذي عن البخاري، عنه.اهـ.وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٤٢٩): قال الترمذي: "حسن صحيح، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: كان سليمان بن حرب يقول في هذا الحديث: "وما منا ولكن الله يذهبه بالتوكل " قال: هذا عندي قول عبد الله بن مسعود"، قلت: يعني أن هذا القدر من الحديث مدرج ليس مرفوعا و كأنه لهذا لم يورده السيوطي بتمامه و إنما أورد الجملة الأولى منه اعتمادا على كلام ابن حرب. قال الشارح المناوي: "لكن تعقبه ابن القطان بأن كل كلام مسوق في سياق، لا يقبل دعوى درجه إلا بحجة". قلت: ولا حجة هنا في الإدراج فالحديث صحيح بكامله.

- ومعناه: وما منا إلا ويقع له شيء من التطير.

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الإيمان (ص٤٣): وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك، ووجوبهما بالمعاصي، فإن معناها عندنا ليست تُثبت على أهلها كفرا ولا شركا يزيلان الإيمان عن صاحبه، إنما وجوبها أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار والمشركون.اهـ.

والأصل الذي اعتمده أهل السنة في هذا الباب أن (الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان، وهذا من أعظم أصول أهل السنة، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والقدرية، ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل[١].

وقال العلامة العثيمين في القول المفيد (٢/ ٢١٦) في شرح حديث (اثْنَتَانِ فِي الناسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ ...)[٢]: قوله: (كفر) أي هاتان الخصلتان كفر، ولا يلزم من وجود خصلتين من الكفر في المؤمن أن يكون كافرا، كما لا يلزم من وجود خصلتين في الكافر من خصال الإيمان كالحياء والشجاعة والكرم أن يكون مؤمنا. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٠٨، ٢٠٩): بخلاف قول رسول الله ﷺ: (بَيْنَ الرَّجُلِ والشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاةِ)[٣] فإنه أتى بأل الدالة على الحقيقة، فالمراد بالكفر هنا الكفر المخرج عن الملة، بخلاف مجيء (كفر) نكرة، فلا يدل على الخروج عن الإسلام[٤].اهـ.

---

(١) الصلاة لابن القيم (ص٥١)، وينظر مجموع الفتاوى (٧/ ٣٥٣ - ٣٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٤) سئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٤/ ٤٠٢): سؤال: آخر سؤال يا =

=

شيخ عندي هو ذكرت اليوم الصبح في نقاش عن قضية تارك الصلاة في حديث صحيح مسلم عن جابر: «بين المرء والكفر ترك الصلاة»، وذكرت أن هناك أحاديث جاءت فيها: كسباب المسلم فسوق وقتاله كفر وغيره من الأحاديث، لكن لم يرد لفظ الكفر بأل التعريف إلا في قضية الصلاة في هذا الحديث.

الشيخ: نعم.

مداخلة: فعلى معاني "أل" في اللغة سواء كانت الاستغراق أم العهد على ماذا نخرجه؟ أليس الكفر العهدي الذي هو الكفر الخروج من الملة، أو الاستغراق فإن هذا أشد في الحجة، فكيف يرد على المستدل بهذا الحديث على أن الكفر المقصود به هو الكفر الأكبر؟

الشيخ: والحديث ماذا يقول؟

مداخلة: «بين المرء والكفر والشرك ترك الصلاة».

الشيخ: وأين التعريف؟ الاستغراق والشمول أين؟

مداخلة: «بين الكفر والشرك» هذا في كلمة الكفر والشرك، هذا ليس فيه استغراق؟

الشيخ: لو كان كفرًا لو أراد كفرًا عمليًا ما يختلف التعبير.

مداخلة: لكن جزاك الله خيرًا سمعت لك في كلام قديم أنه دائمًا يؤخذ بالحكم بالأعلى فالأعلى... فهنا عندنا الآن فقد كفر هذا ممكن يحمل على العملي، لكن أسأل الآن الكفر والشرك، علمًا بأنه ليس هناك حديث نص عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه الكفر أو الشرك إلا في قضية ترك الصلاة، أفلا يمكن الاستدلال به على كفر تارك الصلاة كفرًا اعتقاديًا؟

الشيخ: أظنك تعلم أنه إذا كان الحديث له دلالة ظاهرة ينصرف الذهن إليها، ولكن إذا قام مانع شرعي يمنع من أن ينصرف الذهن إلى هذه الدلالة الظاهرة فهنا يأتي ما يسمى بالتأويل والتوفيق بين الأحاديث، يعني: مثلًا قوله عليه الصلاة والسلام: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» فإذا نظرنا إلى هذا الإطلاق أليس يعني ذلك أنه كافر؛ لأنه نفى مطلق الإيمان؟

مداخلة: الإيمان هنا نكرة.

الشيخ: نعم، نكرة ألا تفيد الشمول؟

=

وقال **العلامة** العثيمين أيضا في تعريف الشرك الأصغر كما في مجموع فتاواه (٢/ ٢٠٣): كل عمل قولي أو فعلي أَطلق عليه الشرع وصف الشرك، ولكنه لا يخرج من الملة، مثل الحلف بغير الله.اهـ.

ولـيُعلم أن من صور الشرك الأصغر، كالحلف بغير الله، والرياء، والاستسقاء بالأنواء، قد تصير من الشرك الأكبر، في بعض الحالات، قال العلامة العثيمين في القول المفيد (٢/ ٣٢٥): والحلف بغير الله شرك أكبر إذا

=

مداخلة: تفيد الشمول بلى.

الشيخ: فإذًا! فنفى الإيمان مطلقًا، لا إيمان مطلقًا لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له.... ولكن لما الإنسان يجمع بين هذا النص وبين نص آخر، يضطر أن يقول: لا إيمان كاملًا، لا دين كاملًا، وعلى هذا تؤولت كثير من الأحاديث، كمثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم عند جمهور الأئمة: «من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له إلا من عذر» فلا صلاة له، هذا نفي للصلاة، أي: تكون الصلاة باطلة، لكن الذين يقولون بأن هذه الصلاة مع الجماعة فريضة لكن ليست شرطًا أو ركنًا من أركان الصلاة، يضطرون أن يفسروا هذا الحديث على ضوء الأحاديث الأخرى، صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، وليس القصد الآن هنا تحرير القول بمثل هذا الحديث، وإنما المقصود التذكير بأساليب العلماء في سبيل التوفيق بين حديث يدل بظاهره على شيء ثم لما يضمون إليه الأحاديث الأخرى يضطرون أن يخرجوا عن هذه الدلالة الظاهرة ويفهموا أن دلالة الحديث على ضوء الأحاديث الأخرى.

وما أكثر الأحاديث بهذا الصدد، مثلًا: «لا يدخل الجنة قتات» ما الذي يتبادر للذهن؟ لا يدخل أبدًا، لكن عندما تأتي للأحاديث التي تفيد عدم خلود المسلم مهما كان عاصيًا في النار، ويذكر مثلًا حديث الشفاعة ونحو ذلك: «وأخرجوا من النار من كان في ... » كل هذه الأحاديث لما تجمع مع مثل حديث: «لا يدخل الجنة قتات» أو نمام أو ديوث أو .. إلى آخره، يضطر أن يفهم الحديث على غير المتبادر إلى الذهن، قد يكون الحديث المشهور هكذا؛ لأنه لا يوجد في الشريعة مطلقًا أن الإنسان يكفر بترك عمل، وهو يؤمن بأن هذا العمل واجب.

اعتقد أن المحلوف به مساوٍ لله تعالى في التعظيم والعظمة، وإلا فهو شرك أصغر.

(فرع): قواعد في معرفة أنواع الكفر

١- الكفر حكم شرعي محضٌ مرده إلى الله في كتابه، وإلى رسوله ﷺ في سنته الصحيحة الثابتة عنه، وليس مبناه على الهوى والتشهي وسوء الظن أو فاسد الفهم، فمن كفَّرهم الله أو كفَّرهم رسوله ﷺ عينًا أو جنسًا أو وصفًا وجب تعَّين تكفيرهم، وما لا فلا، وليس لأحد ابتداء تكفيرهم دون مستند شرعي صحيح وصريح.

فممن كُفِّر في النص الشريف وحيًا على سبيل التعيين: إبليس وفرعون.

وممن كُفِّر جنسًا: المشركون واليهود والنصارى والمجوس ونحوهم.

وممن كُفِّر وصفًا: المستهزئ بالله أو بآياته أو برسوله، ونحوهم.

٢- أن الكفر كالإيمان له شعب كثيرة، ولما كان الكفر شعبًا كثيرة، فإن هذه الشعب متفاوتة، الكفر فيها درجات، فمنها الكفر الأكبر كسب الله ورسوله ودينه، ومنها الكفر الأصغر؛ كسب المسلم وقتله والنياحة، كما أن الكفر الأكبر، شعبه متفاوتة أيضًا تفاوتًا واضحًا، وكل من نوعي الكفر الأكبر والأصغر على مراتب بعضها أشد من بعض.

٣- أن الكفر نوعان: كفر أكبر مخرج عن الملة، ومحبط للعمل، وموجب للخلود في النار، ولا يُغفر لصاحبه، وينفى عن صاحبه اسم الإيمان أصلًا وكمالًا.

وكفر أصغر لا يخرج من الملة ولا يحبط العمل ولا يوجب الخلود في النار، وهو تحت مشيئة الله في مغفرته، ولا ينافي أصل الإيمان، بل ينافي كماله الواجب،

وهو حكم الكبائر من الذنوب، كالنياحة على الميت، والطعن في الأنساب، وقتال المسلم .. الخ. - كما أن الشرك والظلم والفسق والنفاق نوعان أكبر وأصغر. وهذا الأمر مشهور معروف بين العلماء قد تواردوا عليه.

٤- أنه هناك علاقة بين الكفر الأكبر والشرك الأكبر، وهي علاقة عموم وخصوص، فكل شرك كفر وليس كل كفر شركًا.

فالذبح لغير الله والنذر له والخوف منه خوف عبادة؛ شرك مع الله في تلك العبادات، وهو كفر أكبر مخرج عن الملة، ومناقض للإيمان.

أما سب الله ورسوله ودينه أو الاستهزاء بشرعه أو بالمصحف ونحو ذلك فهو كفر مخرج عن الملة، ولا يعد شركًا في الاصطلاح.

وكذلك الإعراض أو الاستكبار أو الشك والارتياب فهو كفر أكبر ولا يُسمى شركًا.

٥- أن أهل السنة والجماعة يعظمون لفظ التكفير جدًا، ويجعلونه حقًا لله ولرسوله ﷺ فقط، فلا يجوز ولا يسوغ عندهم تكفير أحدٍ إلا من كفره الله أو كفره رسوله، لذا فإن أهل السنة والجماعة يفرقون بين الكفر المطلق والكفر المُعيَّن، ولهم شروط وضوابط وتورَّع وديانة في إيقاعه على المعينين، فإنهم يرون كفر المعين يقع عليه بنفسه، وأهم هذه الشروط في إيقاع الكفر الأكبر عليه بلوغ الحجة عليه، واندفاع الشبهة عنه.

المسألة الثانية: حكم تكفير المعين

قال العلامة العثيمين في القواعد المثلى (ص٨٧): يجب قبل الحكم على المسلم بكفر أو فسق أن ينظر في أمرين:

أحدهما: دلالة الكتاب أو السنة على أن هذا القول أو الفعل موجب للكفر

أو الفسق.

الثاني: انطباق هذا الحكم على القائل المعين أو الفاعل المعين بحيث تتم شروط التكفير أو التفسيق في حقه وتنتفي الموانع.اهـ.

هذه المسألة من المسائل العظيمة في مذهب أهل السنة في الحكم على الناس، فلا تكون أحكامهم مبنية على ظنون وأوهام أو دعاوي لا يملكون عليها بينات، وهذه من رحمة الله وتيسيره على عباده ومن باب تكليفهم بما يطيقون ويستطيعون، وكل ما سبق المقصود به الحكم الدنيوي على الشخص بالإسلام أو الكفر، أما الحكم على الحقيقة فلا سبيل إليه، يقول الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في الموافقات (٢/ ٢٧١) مبينًا أهمية هذا الأصل وخطورة إهماله: (إن أصل الحكم بالظاهر مقطوع به في الأحكام خصوصًا، وبالنسبة إلى الاعتقاد في الغير عمومًا، فإن سيد البشر مع إعلامه بالوحي يجري الأمور على ظواهرها في المنافقين وغيرهم، وإن علم بواطن أحوالهم، ولم يكن ذلك بمخرجه عن جريان الظواهر على ما جرت عليه. لا يقال: إنما كان ذلك من قبيل ما قال: (خوفًا من أن يقول الناس أن محمدًا يقتل أصحابه)[1] فالعلة أمر آخر لا ما زعمت، فإذا عدم ما علل به فلا حرج، لأنا نقول: هذا أدل الدليل على ما تقرر، لأن فتح هذا الباب يؤدي إلى أن لا يحفظ ترتيب الظواهر فإن من وجب عليه القتل بسبب ظاهر، فالعذر فيه ظاهر واضح، ومن طلب قتله بغير سبب ظاهر بل بمجرد أمر غيبي ربما شوش الخواطر وران على الظواهر، وقد فهم من الشرع سد هذا الباب جملة ألا ترى إلى باب الدعاوي المستند إلى أن البينة على

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. بلفظ: (دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه).

المدعي واليمين على من أنكر، ولم يستثن من ذلك أحدًا حتى إن رسول الله ﷺ احتاج في ذلك إلى البينة، فقال من يشهد لي؟ حتى شهد له خزيمة بن ثابت فجعلها الله شهادتين[1] فما ظنك بآحاد الأمة، فلو ادعى أكذب الناس على

(١) يشير المصنف إلى حديث (عمارة بن خزيمة الأنصاري، أن عمه حدثه -وهو من أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ ابتاع فرسا من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه، وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي، قال: "أو ليس قد ابتعته منك؟ " قال الأعرابي: لا والله ما بعتك. فقال النبي ﷺ: "بل قد ابتعته منك". فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدا يشهد أني بايعتك. فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك! إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقا. حتى جاء خزيمة، فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول هلم شهيدا يشهد أني بايعتك. قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: "بم تشهد؟" فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٥)، والنسائي (٧/ ٣٠١)، وأبو داود (٣/ ٣٠٨) (٣٦٠٧)، والحاكم (٢/ ٢١)، والبيهقي (٧/ ٦٦)، والطبراني في "الكبير" (٢٢/ ٣٧٩) (٩٤٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٠٨٥)، والشيخ في الأخلاق (٤٥ - ٤٦)، والطحاوي في الشرح (٤/ ١٢٦)، والخطيب في المبهمات (ص١٢٠)، وابن بشكوال في الغوامض (رقم١٠٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (ج٥/ ق٦١٢) والحديث قال عنه ابن عبد الهادي في التنقيح (٣/ ٥٤٥): ثابت صحيح، وقال ابن كثير في تحفة الطالب (٢٤٨): إسناده صحيح حجة، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٧/ ٦٦٢)، وصححه الحافظ ابن حجر في موافقة الخبر الخبر (٢/ ١٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/ ٣٤١): إسناده صحيح كالشمس، وصححه الألباني في الإرواء (٥/ ١٢٧)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٥٢٧)، وقال الحويني في فضائل القرآن (ص٦٢): =

أصلح الناس لكانت البينة على المدعي، واليمين على من أنكر وهذا من ذلك والنمط واحد، فالاعتبارات الغيبية مهملة بحسب الأوامر والنواهي الشرعية.اهـ.

واستند أهل السنة في تقريرهم لهذا الأصل العظيم إلى أدلة كثيرة منها:

١- قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [النساء: ٩٤] قال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٥٠١): والمراد هنا لا تقولوا لمن ألقى بيده إليكم واستسلم لست مؤمنًا فالسلم والسلام كلاهما بمعنى الاستسلام، وقيل هما بمعنى الإسلام: أي لا تقولوا لمن ألقى إليكم التسليم فقال السلام عليكم: لست مؤمنًا والمراد نهي المسلمين عن أن يهملوا ما جاء به الكافر مما يستدل به على إسلامه ويقولوا إنه إنما جاء بذلك تعوذًا وتقية.اهـ.

وقال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب في كشف الشبهات (٤٩): فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت. فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قُتل لقوله تعالى: {فَتَبَيَّنُوا}، ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى. وكذلك الحديث الآخر وأمثاله. معناه ما ذكرناه أن من أظهر التوحيد والإسلام وجب الكف عنه. إلى أن يتبين منه ما يناقض ذلك، والدليل على هذا أن رسول الله ﷺ قال: "أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟".اهـ.

=

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد، ورجاله باتفاق الشيخين ثقات، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، وله طرق أخرى وشواهد، ذكرتها في "التسلية".

(تنبيه) قول ابن حزم في المحلى (٨/ ٣٤٧) عن هذا الحديث: لايصح متعقب بتصحيح كل من ذكرنا فتنبه.

٢- واستدلوا بقوله ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله)[(١)].

والشاهد من الحديث قوله (وحسابهم على الله).

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٨٣): وأما في الآخرة فحسابه على الله عز وجل، فإن كان صادقًا أدخله الله بذلك الجنة، وإن كان كاذبًا فإنه من جملة المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

وقال الحافظ في الفتح (١/ ٧٧): أي أمر سرائرهم .. وفيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة والحكم بما يقتضيه الظاهر.اهـ.

وقال الإمام البغوي في شرح السنة (١/ ٧٠): وفي الحديث دليل على أن أمور الناس في معاملة بعضهم بعضًا إنما تجري على الظاهر من أحوالهم دون باطنها، وأن من أظهر شعار الدين أجري عليه حكمه، ولم يكشف عن باطن أمره، ولو وجد مختون فيما بين قتلى غلف، عزل عنهم في المدفن، ولو وجد لقيط في بلد المسلمين حكم بإسلامه.اهـ.

٣- واستدلوا أيضًا بقصة أسامة رضي الله عنه المشهورة قال: (بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلًا فقال: لا إله إلا الله فطعنته فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أقال لا إله إلا الله وقتلته قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا، فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني أسلمت

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يومئذ)[(١)].

والحديث فيه زجر شديد وتحذير من الإقدام على قتل من تلفظ بالتوحيد وتحذير صريح من تجاوز الظاهر والحكم على ما في القلب دون بينة.

قال النووي في شرح مسلم (٢/ ١٠٤، ١٠٧): وقوله ﷺ: (أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا)؟ الفاعل في قوله: (أقالها) هو القلب، ومعناه أنك إنما كلفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان، وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه فأنكر عليه امتناعه من العمل بما ظهر باللسان، وقال أفلا شققت عن قلبه لتنظر، هل قالها القلب واعتقدها وكانت فيه أم لم تكن فيه بل جرت على اللسان فحسب، يعني وأنت لست بقادر على هذا فاقتصر على اللسان فحسب ولا تطلب غيره... وقال أيضًا في تعليقه على قوله ﷺ (أفلا شققت عن قلبه؟): وفيه دليل على القاعدة المعروفة في الفقه والأصول أن الأحكام فيها بالظاهر والله يتولى السرائر.

٤- ومن الأحاديث العظيمة في هذا الباب حديث جارية معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول الله ﷺ: (أفلا أعتقها؟ قال: ائتني بها فأتيته بها فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة)[(٢)].

قال شيخ الإسلام في تعليقه على هذا الحديث في كتاب الإيمان الكبير (ص٣٩٨): فإن الإيمان الذي علقت به أحكام الدنيا، هو الإيمان الظاهر وهو الإسلام، فالمسمى واحد في الأحكام الظاهرة، ولهذا لما ذكر الأثرم لأحمد

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

احتجاج المرجئة بقول النبي ﷺ: (أعتقها فإنها مؤمنة) أجابه بأن المراد حكمها في الدنيا حكم المؤمنة، لم يرد أنها مؤمنة عند الله تستحق دخول الجنة بلا نار إذا لقيته بمجرد هذا الإقرار.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في كتاب الإيمان الكبير أيضا (ص١٠٩): روى ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي حدثنا أبي حدثنا ميمون حدثنا أبو عثمان بن الشافعي سمعت أبي يقول ليلة للحميدي: ما يحتج عليهم يعني أهل الإرجاء بآية أحج من قوله: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} وقال الشافعي رضي الله عنه في كتاب الأم في باب النية في الصلاة يحتج بأن لا تجزئ صلاة إلا بنية بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ {إنما الأعمال بالنيات} ثم قال وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاث إلا بالآخر وقال حنبل حدثنا الحميدي قال وأخبرت أن ناسا يقولون من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئا حتى يموت ويصلي مستدبر القبلة حتى يموت؛ فهو مؤمن ما لم يكن جاحدا إذا علم أن تركه ذلك فيه إيمانه إذا كان مقرا بالفرائض واستقبال القبلة فقلت: هذا الكفر الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين . قال الله تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} الآية وقال حنبل: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: من قال هذا فقد كفر بالله ورد على أمره وعلى الرسول ما جاء به عن الله قلت وأما احتجاجهم بقوله للأمة {أعتقها فإنها مؤمنة} فهو من حججهم المشهورة وبه احتج ابن كلاب وكان يقول الإيمان هو التصديق والقول جميعا فكان قوله أقرب من قول جهم وأتباعه وهذا لا حجة فيه؛ لأن

الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان في الباطن الذي يكون صاحبه من أهل السعادة في الآخرة فإن المنافقين الذين قالوا {آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين} هم في الظاهر مؤمنون يصلون مع الناس ويصومون ويحجون ويغزون والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ ولم يحكم النبي ﷺ في المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر لا في مناكحتهم ولا موارثتهم ولا نحو ذلك؛ بل لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول - وهو من أشهر الناس بالنفاق - ورثه ابنه عبد الله وهو من خيار المؤمنين وكذلك سائر من كان يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون؛ وإذا مات لأحدهم وارث ورثوه مع المسلمين وقد تنازع الفقهاء في المنافق الزنديق الذي يكتم زندقته هل يرث ويورث ؟ على قولين والصحيح أنه يرث ويورث وإن علم في الباطن أنه منافق كما كان الصحابة على عهد النبي ﷺ لأن الميراث مبناه على الموالاة الظاهرة لا على المحبة التي في القلوب فإنه لو علق بذلك لم تمكن معرفته والحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها وهو ما أظهره من موالاة المسلمين؛ فقول النبي ﷺ {لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم} لم يدخل فيه المنافقون وإن كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار؛ بل كانوا يورثون ويرثون؛ وكذلك كانوا في الحقوق والحدود كسائر المسلمين....اهـ.

وقال في نفس المصدر أيضا (ص٢٠٣): يجب أن يفرق بين أحكام المؤمنين الظاهرة التي يحكم فيها الناس في الدنيا، وبين حكمهم في الآخرة بالثواب والعقاب، فالمؤمن المستحق للجنة لابد أن يكون مؤمنًا في الباطن باتفاق جميع أهل القبلة.اهـ.

وسئل علماء اللجنة الدائمة -المجموعة الثانية-(٢/ ٤٨): توجد جماعة تسمي نفسها (جماعة المسلمين)، ولقد تناقشت مع أحد أفرادها واختلفت معه في فكرتين من أفكار هذه الجماعة:

الفكرة الأولى: فكرة التوقف والتبين. فهذه الجماعة لا تحكم على إنسان بإيمان ولا بكفر حتى يناقشوه، ولو كان يؤدي كافة شعائر وأركان الإسلام.

الفكرة الثانية: اعتبار كافة مساجد الأرض حاليا ما عدا المساجد الثلاثة (الحرام، النبوي، الأقصى) مساجد ضرار، لذلك فهم لا يصلون في غير هذه المساجد.

نرجو منكم التكرم بإلقاء الضوء على هاتين الفكرتين، حتى يتبين الرشد من الغي.

فأجابوا: أولا: هذا المذهب باطل، لأن الأصل في المسلم العدالة وصحة المعتقد، ما لم يتبين منه خلاف ذلك، وقد أنكر النبي ﷺ على أسامة بن زيد قتله للرجل الذي نطق بالشهادة ظنا منه أنه إنما نطق بها خوفا من القتل، وقال له: «أشققت عن قلبه» .

ثانيا: مساجد المسلمين في الأرض كلها مساجد محترمة، والصلاة فيها صحيحة..ا.هـ

وقال العلامة الألباني في صحيح موارد الظمآن (١/ ٤٩٦) معلقا على حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (.... وأنا آمركم بخمس أمرني الله بها: بالجماعة، والسمع، والطاعة والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فمن فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثا جهنم» قال رجل:

وإن صام وصلى؟ قال: وإن صام وصلى، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله)[1].

الربقة في الأصل: عروة في حبل، تجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها، فاستعارها للإسلام، يعني: ما يشد به المسلم نفسه من عرى الإسلام؛ أي: حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه، قاله ابن الأثير.

قلت: هذا النص من عشرات النصوص التي تدين فرقة التكفير بالضلال والخروج، ففيه الأمر بهذه الخمس الّتي لم يقوموا بشيء منها؛ فقد خرجوا عن الجماعة، وعن السمع والطاعة، ولم يهاجروا. ولم يجاهدوا، بل، لقد هاجر بعضهم إلى بلاد الكفر لتكفير المسلمين وبخاصة حكامهم!!

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، والطيالسي (١١٦١)، والبخاري في تاريخه (٢/ ٢٦٠)، وابن سعد في الطبقات (٤/ ٣٥٩)، وأبو يعلى (١٥٧١)، والترمذي (٢٨٦٣، ٢٨٦٤)، والنسائي في الكبرى (١١٣٤٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٥١٠)، وابن خزيمة (٩٣٠)، وابن حبان (٦٢٣٣)، والحاكم (١/ ١١٧)، والبغوي في شرح السنة (٢٤٦٠)، وابن طهمان في مشيخته (٢٠٠)، وابن منده في الإيمان (رقم ٢١٢)، والآجري في الشريعة (ص٨)، وغيرهم والحديث قال عنه الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب قال محمد بن إسماعيل الحارث الأشعري له صحبة وله غير هذا الحديث، وألزم الإمام الدارقطني به مسلم كما في الإلزامات والتتبع (١٣٠)، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وحسنه البغوي في شرح السنة (٥/ ٣٠٤)، وصححه ابن العربي في العارضة (٦/ ٨)، وصححه الإمام ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ٢٠٨)، وحسنه ابن كثير في تفسيره (١/ ٨٧)، وصححه العراقي في المستخرج على المستدرك (٨٩)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (١٧٢٤)، وقال العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٣/ ٤٥٠ - ٤٥٢) هذا حديث صحيح على شرط مسلم، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند، وصححه العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢٢).

فإن تعللوا ونفوا أن ينطبق الحديث عليهم؛ سألناهم: ما قولكم بمن ترك واحدة من هذه الأوامر؟ أيكفر بذلك كفر ردة، وإن لم يستحل ذلك بقلبه، بل هو معترف بذنبه؟! فإن أجابوا بالإيجاب التزموا مذهبهم الخارج عن الجماعة، وكفروا أنفسهم بأنفسهم؛ لأنهم لابد أن يعترفون أنهم مخلون بكثير من الأوامر من هذه الخمس وغيرها! وإن أجابوا سلبًا؛ فقد نقضوا مذهبهم، وذلك ما نبغي، هداهم الله!.اهـ.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٤/ ٢٥٢): الحكم على المعين بالتكفير لمن يكون؟ أهو للعلماء أم لغيرهم؟ وما هي شروطه؟ وما هي موانعه؟

فأجاب: أولًا بلا شك، هذا الحكم يكون لأهل العلم وليس لأهل الجهل، وثانيًا: بعد تلك الكلمة التي كان فيها شيء من الطول وفرقنا بين الكفر الاعتقادي والكفر العملي، فالعالم الذي ليس لأحد سواه أن يتولى إصدار الحكم بتكفير مسلم لا شك أنه سيكون مستحضرًا لقسمي الكفر: الكفر الاعتقادي، والكفر العملي. فقبل أن يصدر حكمه بالكفر الاعتقادي يجب أن يدرس المسألة المتعلقة بالذي يراد تفكيره على ضوء: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء: ١٥)، هذه الآية مهمة جدًا، ذلك لأن المسلم حقًا قد يخفى عليه حكم ما فيقع في الكفر المخرج عن الملة، لكن هو لا يدري ولا يشعر، ولذلك فلا يجوز أن نحكم على مسلم بعينه أنه كفر ولو كان وقع في الكفر كفر ردة إلا بعد إقامة الحجة عليه؛ لأنه {لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} (الأنعام: ١٤٩)، {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء: ١٥).

وهنا يحسن بي أن أذكر بحديث رغم كونه مرويًا في أصح الكتب بعد كتاب الله وهو صحيح البخاري مع ذلك فقلما تسمع هذا الحديث من عالم أو واعظ

أو مرشد، مع أن له صلة قوية جدًا جدًا بمثل هذا السؤال، أعني بهذا الحديث قوله عليه السلام: «كان فيمن قبلكم رجل حضرته الوفاة فجمع أولاده حوله، فقال لهم: أي أب كنت لكم، قالوا: خير أب، قال: فإني مذنب مع ربي، ولئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا شديدًا» كفر هذا ولَّا ليس بكفر؟ كفر؛ لأنه شك في قدرة الله عز وجل يصدق عليه قوله تعالى في آخر سورة يس: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} (يس: ٧٨) إلى آخر الآيات، هذا الرجل قال: «ولئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا شديدًا؛ فإذا أنا مت فخذوني وحرقوني في النار، ثم اجعلوني قسمين، قسم ذروني في الريح، وقسم في البحر» لماذا؟ واضح، هه حتى يضل على ربه زعم، «فحرقوه بالنار، ونصفه من رماده ذروه في الريح، والآخر في البحر. فقال الله عز وجل لذراته: كوني فلانًا فكانت بشرًا سويًا، قال الله عز وجل: أي عبدي ما حملك على ما فعلت؟ قال: يا ربي خشيتك، قال: اذهب فقد غفرت لك» فنحن يجب أن نلاحظ هذا الذي نريد أن نصدر الحكم بالكفر عليه لعله معذور، لعله معذور، فنحاول إذًا قبل إصدار هذا الحكم أن نلتمس لكفره عذرًا، لا لنقره على كفره، وإنما لننقذ أنفسنا من تكفيره، أظن في فرق كبير بين الأمرين.اهـ.

وبعد هذا التقرير الواضح لهذا الأصل القطعي ترد بعض التساؤلات التي قد يظن أنها مخالفة لهذا الأصل ومنها:

أ - لماذا حصل الخلاف في قبول توبة الزنديق[1]، مع أن الأصل يقتضي أخذه على ظاهره؟

ب- ما ذكر من أدلة ينطبق على من أظهر الإسلام، أو من أقر بالإسلام

(١) وهو المنافق إذا ظهر نفاقه، انظر الإيمان (ص٢٠٣)، وجامع العلوم والحكم (ص٨٣).

ونطق بالشهادتين من الكفار لكن هل ينطبق هذا الكلام على المسلم إذا أظهر الكفر فيحكم بكفره بمجرد ذلك بناءًا على هذا الأصل؟.

وللجواب عن ذلك يقال

أما الأول فقد اختلف العلماء فيه فذهب بعضهم إلى قبول توبته وهو قول الشافعي وإحدى الروايتين عن أحمد، والبغوي والنووي وحكاه الخطابي عن أكثر العلماء رحمهم الله، وذهب مالك وأبو حنيفة في إحدى الروايتين عنه والرواية الأخرى عن أحمد وابن تيمية وتلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ إلى عدم قبول توبته[١].

ولا نريد أن ندخل في تفاصيل أدلة الفريقين ولا في الترجيح، وإنما الذي يهمنا هنا، قول من قال بقتله بعدما يظهر التوبة، هل ينافي الحكم بالظاهر؟.

الواقع أن من تأمل أقوال العلماء في هذه المسألة وجد أنه لا خلاف بينهم في مناط الحكم وهو اعتبار الظاهر في الحكم على الناس، وإنما اختلفوا في تحقيق ذلك المناط، فيما يتعلق بالزنديق فمنهم من يرى ظاهره الإسلام لتظاهره بذلك مستدلًا بالأدلة السابقة التي ذكرناها، ومنهم من يرى أن ظاهره خداع المسلمين لا الرجوع إلى الإسلام، ولهذا لم يجزم من قال بقتله أنه لابد أن يكون كافرًا في الباطن[٢].

قال الإمام ابن القيم في أعلام الموقعين (٣/ ١٤٢) والزنديق بالعكس من

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم (ص٨٣)، وشرح السنة (١/ ٦٩) وأعلام الموقعين (٣/ ١٤٤)، وانظر أقوالًا أخرى في مسلم بشرح النووي (١/ ٢٠٧)، والمغني (٨/ ١٢٦- ١٢٨).

(٢) قال ابن قدامة في المغني (٨/ ١٢٨): وفي الجملة فالخلاف بين الأئمة في قبول توبتهم في الظاهر من أحكام الدنيا. وأما قبول الله تعالى لها في الباطن وغفرانه لمن تاب وأقلع ظاهرًا أم باطنًا فلا خلاف فيه.

الكافر الأصلي إذا تاب فإنه كان مخفيًا لكفره مستترًا به، فلم نؤاخذه بما في قلبه إذا لم يظهر عليه، فإذا ظهر على لسانه وآخذناه به فإذا رجع لم يرجع عن أمر كان مظهرًا له غير خائف من إظهاره، وإنما رجع خوفًا من القتل.. ثم ذكر قاعدة مهمة تنسجم مع قاعدة الحكم بالظاهر فقال: وههنا قاعدة يجب التنبيه عليها لعموم الحاجة إليها، وهي أن الشارع إنما قبل توبة الكافر الأصلي من كفره، بالإسلام لأنه ظاهر لا يعارضه ما هو أقوى منه، فيجب العمل به، لأنه مقتض لحقن الدم والمعارض منتف، فأما الزنديق فإنه قد أظهر ما يبيح دمه، فإظهاره بعد القدرة عليه التوبة والإسلام لا يدل على زوال ذلك الكفر المبيح لدمه دلالة قطعية ولا ظنية، أما انتفاء القطع فظاهر، وأما انتفاء الظن فلأن الظاهر إنما يكون دليلًا صحيحًا إذا لم يثبت أن الباطن بخلافه، فإذا قام دليل على الباطن لم يلتفت إلى ظاهر قد علم أن الباطن خلافه وإذا عرف هذا فهذا الزنديق قد قام الدليل على فساد عقيدته، وتكذيبه واستهانته بالدين، وقدحه فيه، فإظهاره الإقرار والتوبة بعد القدرة عليه ليس فيه أكثر مما كان يظهره قبل هذا.

وهذا القدر قد بطلت دلالته بما أظهره من الزندقة، فلا يجوز الإعتماد عليه لتضمنه إلغاء الدليل القوي وإعمال الضعيف الذي قد ظهر بطلان دلالته[1]

ب- أما التساؤل الآخر: حول المسلم إذا ظهر منه الكفر: فيقال فيه إن هناك فرقًا بين الحكم بإسلام المعين والحكم بكفره فالحكم بإسلامه يكفي فيه الإقرار والظاهر، وهو إسلام حكمي قد يكون معه المعين منافقًا في الباطن.

أما الكفر فليس حكمًا على الظاهر فقط، وإنما هو حكم على الظاهر

---

(١) وانظر تفصيلًا لذلك في الصارم المسلول (٣٤٥ - ٣٥٨)، وقد ذكر شيخ الإسلام عددًا من الأدلة في قتل المنافق إذا تبين نفاقه فليراجع.

والباطن بحيث لا يصح أن نحكم على معين بالكفر مع احتمال أن يكون غير كافر على الحقيقة. ولذلك لابد من النظر للعمل الذي عمله هذا المعين هل هو أمر لا يحتمل غير الكفر؟ أم أمر يحتمل الكفر وعدمه؟ أم أن الأمر كفر في ظاهره ولكن يحتمل أن يكون معذورًا بجهل أو تأول. انظر كتاب نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف (١/ ٢٠١).

(فرع) الفرق بين تكفير المعين والتكفير المطلق

أولا: تكفير المعين: مذهب أهل السنة وسط بين من يقول لا نكفر من أهل القبلة أحدًا، وبين من يكفر المسلم بكل ذنب دون النظر إلى توفر شروط التكفير وانتفاء موانعه، ويتلخص مذهب أهل السنة في أنهم يطلقون التكفير على العموم مثل قولهم من استحل ما هو معلوم من الدين بالضرورة كفر، ومن قال القرآن مخلوق، أو أن الله لا يرى في الآخرة كفر، ولكن تحقق التكفير على المعين لابد له من توفر شروط، وانتفاء موانع، فلا يكون جاهلًا ولا متأولًا ولا مكرهًا .. الخ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه في مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٦٥): فقد يكون الفعل أو المقالة كفرًا، ويطلق القول بتكفير من قال تلك المقالة، أو فعل ذلك الفعل، ويقال من قال كذا، فهو كافر، أو من فعل ذلك، فهو كافر، لكن الشخص المعين الذي قال ذلك القول أو فعل ذلك الفعل لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها، وهذا الأمر مطرد في نصوص الوعيد عند أهل السنة والجماعة، فلا يشهد على معين من أهل القبلة بأنه من أهل النار، لجواز أن لا يلحقه، لفوات شرط أو لثبوت مانع.اهـ.

فإذا توفرت الشروط وانتفت الموانع حكم بردته فيستتاب فإن تاب وإلا

قتل، وسنبحث في هذه الفقرة:

أ - النصوص المحذرة من إطلاق التكفير على المعين دون بينة وتطبيقات السلف لذلك.

ب- نصوص تدل على تكفير المعين إذا توفرت الشروط وانتفت الموانع وتطبيقات السلف لذلك.

أ- قال ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية (٣٥٧، ٣٥٨): وأما الشخص المعين، إذا قيل هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة، فإنه من أعظم البغي أن يشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده في النار، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت، ولهذا ذكر أبو داود في سننه في كتاب الأدب، باب النهي عن البغي، وذكر فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله يقول (كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول أقصر، فوجده يومًا على ذنب، فقال له أقصر، فقال خليني وربي، أبعثت علي رقيبًا؟ فقال والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد أكنت بي عالمًا؟ أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتي وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده، لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته)[1] وهو حديث حسن، ولأن

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٣، ٣٦٢)، وأبو داود (٤٩٠١)، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٤٥)، وابن حبان (٥٧١٢)، والبيهقي في الشعب (٦٦٨٩)، والمزي في تهذيب الكمال (١٣/ ٣٢٦) والحديث صححه ابن حبان، وقال العراقي في المغني (٤/ ١٨٧): إسناده جيد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٥٥)، وقال العلامة الوادعي في =

الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدًا مخطئًا مغفورًا له، ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله.اهـ.

ومن الأحاديث المحذرة من تكفير المسلم قوله ﷺ: (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما)(١).

قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٦٦): والتحقيق أن الحديث سيق لزجر المسلم من أن يقول ذلك لأخيه المسلم وقيل معناه رجعت عليه نقيصته لأخيه ومعصية تكفيره فمعنى الحديث فقد رجع عليه تكفيره، فالراجع التكفير لا الكفر، فكأنه كفر نفسه لكونه كفر من هو مثله.. وقال القرطبي رحمه الله: والحاصل أن المقول له إن كان كافرًا كفرًا شرعيًا فقد صدق القائل وذهب بها المقول له، وإن لم يكن رجعت للقائل معرة ذلك القول وإثمه.اهـ.

وهذا الوعيد والزجر إن لم يكن مع الكفر بينة كما ذكر القرطبي، ولم يكن متأولًا ومن فقه البخاري أن وضع هذا الحديث (١٠/ ٥١٥-فتح) تحت باب (من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال) ثم ذكر بعده بابًا آخر بعنوان (باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولًا أو جاهلًا) ثم ذكر بعض الأحاديث الدالة على المقصود.

=

الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (١/ ٤٤٨): حديث حسن، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٨/ ٢٦٧): إسناده صحيح، وقال الحويني في صحيح القصص (٣١): حديث صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٤/ ٤٧): إسناده حسن ومتنه غريب، عكرمة وإن كان من رجال مسلم فيه كلام ينزله عن رتبة الصحيح وقد روي أحاديث غرائب لم يشركه فيها أحد.

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠) من حديث ابن عمر رض الله عنهما.

ومن الأدلة التي يمكن الاستدلال بها للتحذير من التكفير موقف السلف من أحاديث الوعيد لمن ارتكب الكبائر وعدم إنفاذها على الأعيان من مثل قوله ﷺ (لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه)[١] ولعنه شارب الخمر، والواصلة والمستوصلة والراشي والمرتشي وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] إلى غير ذلك من الأدلة، فهذه الأدلة القول بموجبها واجب على العموم والإطلاق من غير أن يعين شخصًا من الأشخاص فيقال: ملعون أو مستحق للنار، لإمكان التوبة، أو الحسنات الماحية أو المصائب المكفرة وغيرها من مكفرات الذنوب بل عد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٨٧،٣٨٨) القول بلحوق الوعيد لكل فرد من الأفراد بعينه، أقبح من قول الخوارج المكفرين بالذنوب والمعتزلة وغيرهم، والتكفير هو من الوعيد بل أشد أنواع الوعيد فإذا كان هذا التحذير فيما دون الكفر، فالتحذير من إطلاق الكفر على التعيين أشد والله أعلم.

وقد التزم أهل السنة بموجب هذه التوجيهات فعرفوا باحتياطهم في التكفير رغم أن أغلب الفرق باستثناء المرجئة تتساهل في المسألة، بل وتكفر أهل السنة أما أهل السنة فالتزموا الضوابط الشرعية، يقول شيخ الإسلام في الرد على البكري (ص ٢٦٠): فلهذا كان أهل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم، وإن كان ذلك المخالف يكفرهم، لأن الكفر حكم شرعي، فليس للإنسان أن يعاقب بمثله، كمن كذب عليك وزنى بأهلك، ليس لك أن تكذب عليه وتزني بأهله، لأن الكذب والزنا حرام لحق الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٩٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٩): إني من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة وفاسقًا أخرى، وعاصيًا أخرى.اهـ..

وقال أيضا في الرد على البكري (ص ٤٦): ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاه الذين نفوا أن الله تعالى فوق العرش لما وقعت محنتهم أنا لو وافقتكم كنت كافرًا، لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال، وكان هذا خطابًا لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم.اهـ.

فهذا أنموذج عظيم للتطبيق العملي لهذا المبدأ وفيه رد عملي على أدعياء العلم من المبتدعة الذين يزعمون أن شيخ الإسلام يكفر المسلمين إلى آخر هذا الكلام المستند إلى الهوى والتعصب.

وإليك أنموذجًا آخر للتطبيق العملي لهذا المنهج وهو موقف الإمام أحمد إمام أهل السنة رَحِمَهُ اللَّهُ من أعيان الجهمية ممن آذوه، ودعوا الناس إلى بدعتهم مثل قولهم إن القرآن مخلوق، وإن الله لا يرى في الآخرة وغير ذلك، ويدعون الناس إلى ذلك ويمتحنونهم ويعاقبونهم، إذا لم يجيبوهم ويكفرون من لم يجبهم، حتى إنهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقر بقول الجهمية: إن القرآن مخلوق، وغير ذلك، ولا يولون متوليًا ولا يعطون رزقًا من بيت المال إلا لمن يقول ذلك، ومع هذا فالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ ترحم عليهم واستغفر لهم لعلمه بأنهم لم يبين لهم أنهم مكذبون للرسول ﷺ ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطأوا، وقلدوا من قال لهم ذلك[1].

يتبين مما سبق أن أهل السنة يطلقون التكفير بالعموم، وكذلك الوعيد ولكن الحكم على المعين بالكفر والوعيد لابد فيه من الدقة والاحتياط للتأكد

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٨، ٣٤٩)، وانظر نصًا شبيهًا (١٢/ ٤٨٨، ٤٨٩).

من توفر الشروط وانتفاء الموانع.

لكن ظن بعض المتوهمين -بسبب قراءتهم لهذه النصوص وأمثالها- أن أهل السنة لا يكفرون المعين، هكذا بالإطلاق، وظنهم هذا شبيه بظن من اعتقد أن أهل السنة يتساهلون في مسألة التكفير، وكلا الظنين خطأ.

ب- نصوص تدل على تكفير المعين إذا توفرت الشروط وانتفت الموانع، وتطبيقات السلف لذلك.

من تأمل كلام أهل السنة في هذه المسألة يتضح له تحفظهم من إطلاق التكفير إلا إذا قامت الحجة على المعين ويفهم من ذلك بداهة أنه إذا قامت الحجة على المعين وأصر على عمل الكفر فإنه يحكم بكفره ويستتاب فإن تاب وإلا قتل انظر قول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٠٠، ٥٠١): إذا عرف هذا فتكفير (المعين) من هؤلاء الجهال وأمثالهم بحيث يحكم عليه بأنه من الكفار- لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية، التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسل، وإن كانت هذه المقالة لا ريب أنها كفر، وهكذا الكلام في تكفير جميع (المعينين) مع أن بعض هذه البدع أشد من بعض وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض، فليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين، وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزال إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة.اهـ.

إذًا إذا قامت الحجة وزالت الشبهة وتيقنا من إصراره وتكذيبه فلابد من تكفيره وهذا أمر معروف ومجمع عليه لدى علماء الأمة قاطبة.

ولذلك ذكر الفقهاء في كتبهم (كتاب المرتد) وذكروا فيه الأحكام المترتبة

على من ارتد عن دينه من نكاح وإرث، ونحوه، وتصرفات المرتد في ردته من بيع وهبة وعتق .. وكذلك الأشياء التي يصير بها المسلم كافرًا واستتابته فإذا لم يتب قتل إجماعًا[١].

وهكذا فعل السلف مع من سب الرسول ﷺ أو من لم يرض بحكم الرسول ﷺ[٢]، أو مع أعيان الجهمية كالجعد بن درهم وغيلان الدمشقي[٣]، وما ورد من قتل السحرة[٤] .. الخ. وأيضًا أصحاب رسول ﷺ قاتلوا بني حنيفة، وقد أسلموا مع النبي ﷺ وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويؤذنون ويصلون، فإن قال: إنهم يقولون: إن مسيلمة نبي، فقل هذا هو المطلوب، إذا كان من رفع رجلًا إلى رتبة النبي ﷺ كفر وحل ماله ودمه، ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة، فكيف بمن رفع شمسان أو يوسف[٥] أو صحابيًا أو نبيًا إلى مرتبة جبار السموات والأرض؟ ويقال أيضًا: الذين حرقهم علي رضي الله عنه وتعلموا العلم من الصحابة، ولكنهم اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان وأمثالهما، فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم؟ أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين؟ .. ويقال أيضًا: بنو عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمان بني العباس، كلهم يشهدون بألسنتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويدعون الإسلام، ويصلون الجمعة والجماعة، فلما

---

(١) انظر المغني لابن قدامة (ص: ١٢٣) وما بعدها.
(٢) انظر الصارم المسلول (ص: ٥٩) وما بعدها.
(٣) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢/ ٣١٩)، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص: ١١٨)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص٣٥٢، ٣٥٣).
(٤) انظر فتح المجيد (ص: ٢٩١، ٢٩٢).
(٥) من الطواغيت التي كانت تعبد في نجد قديمًا، كشف الشبهات (ص: ٤٠).

أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين ويقال أيضًا: الذين قال الله فيهم: (يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ) [التوبة: ٧٤] أما سمعت الله كفرهم بكلمة مع كونهم في زمن الرسول ﷺ ويجاهدون معه ويصلون معه ويزكون ويحجون ويوحدون، وكذلك الذين قال الله فيهم: (قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) [التوبة: ٦٥ – ٦٦]، فهؤلاء الذين صرح الله فيهم، أنهم كفروا بعد إيمانهم، وهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزاح .. .

وبهذه الأمثلة والتطبيقات تتضح الصورة لمريد الحق إن شاء الله.

والخلاصة أن من أظهر شيئًا من مظاهر الكفر لا يكفر حتى تقام عليه الحجة للتأكد من دوافعه لهذا العمل فإذا زالت الشبهة وأصر استتيب فإن تاب وإلا قتل. انظر كتاب نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف (١/ ٢٠٩).

المسألة الثالثة: كيفية قيام الحجة

(فرع): التكفير والتعذيب لا يكون إلا بعد قيام الحجة

استدل أهل السنة بأدلة كثيرة على أن التكفير، والتعذيب لا يكون إلا بعد قيام الحجة ومنها قوله تعالى: (وَمَا كُنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) [الإسراء: ١٥] وقوله ﷻ: (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلناسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) [النساء: ١٦٥] وقوله تعالى: (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ) [الملك: ٨ – ٩] وقال تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ

مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ) [الأنعام: ١٣٠] وقوله تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) [القصص: ٥٩]. وقوله تعالى: (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) [فاطر: ٣٧].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوي (١٢/ ٤٩٣، ٤٩٤): الكتاب والسنة قد دلا على أن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد إبلاغ الرسالة، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأسًا، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية.. ثم ذكر عددًا من الأدلة ... إلى أن قال: فمن قد آمن بالله ورسوله، ولم يعلم بعض ما جاء به الرسول، فلم يؤمن به تفصيلًا، أما أنه لم يسمعه، أو سمعه من طريق لا يجب التصديق بها، أو اعتقد معنى آخر لنوع من التأويل الذي يعذر به، فهذا قد جعل فيه من الإيمان بالله ورسوله ما يوجب أن يثيبه الله عليه، وما لم يؤمن به[1] لم تقم عليه به الحجة التي يكفر مخالفها.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (ص٣٨٤) بعدما ذكر هذه الآيات: وهذا كثير في القرآن يخبر أنه إنما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة.اهـ.

وقال الإمام الذهبي في الكبائر (ص١٢): فلا يأثم أحد إلا بعد العلم وبعد قيام الحجة عليه، والله لطيف رؤوف بهم، قال تعالى: (وَمَا كُنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى

(١) أي: تفصيلًا.

نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقد كان سادة الصحابة بالحبشة ينزل الواجب والتحريم على النبي ﷺ فلا يبلغهم إلا بعد أشهر، فهم في تلك الأمور معذورون بالجهل حتى يبلغهم النص، وكذا يعذر بالجهل من لم يعلم حتى يسمع النص والله أعلم.اهـ.

لكن قد يقول قائل: إن هذه الأدلة المستدل بها تنفي العذاب في الدنيا فقط؟ فيقال أولًا: أنه خلاف ظاهر القرآن، لأن ظاهر القرآن انتفاء التعذيب مطلقًا، فهو أعم من كونه في الدنيا، وصرف القرآن عن ظاهره ممنوع إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

الوجه الثاني: أن القرآن دل في آيات كثيرة على شمول التعذيب المنفي في الآية للتعذيب في الآخرة، كقوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قالوا بلى﴾ [الملك: ٨ – ٩] وهو دليل على أن جميع أفواج أهل النار ما عذبوا في الآخرة إلا بعد إنذار الرسل[١].

ويمكن أن يقال ثالثًا: إن هذه النصوص إذا نفت التعذيب الدنيوي فالأخروي من باب أولى والله أعلم.

إذًا لا تقوم الحجة إلا بإرسال الرسل وإنزال الكتب وبلوغ ذلك إلى المعين.

لقد أرسل الله الرسل عليهم السلام مبشرين ومنذرين، وأقام سبحانه للناس أسباب الهداية، ومن تمام حكمته وعدله أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٣٤).

أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار)[١].

وتوضيحًا لما سبق ذكره نختار نبذة من مقولات العلماء على النحو الآتي:

قال ابن حزم في الفصل (٤/ ١٠٥): قال الله تعالى (لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ) [الأنعام: ١٩]، وقال ﷻ (وَمَا كُنا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) [الإسراء: ١٥].

فنص تعالى على أن النذارة لا تلزم إلا من بلغته، لا من لم تبلغه، وأنه تعالى لا يعذب أحدًا حتى يأتيه رسول من عند الله ﷻ، فصح بذلك أنه من لم يبلغه الإسلام أصلًا فإنه لا عذاب عليه، وهكذا جاء النص عن رسول الله ﷺ، (أنه يؤتى يوم القيامة بالشيخ الخرف، والأصم، ومن كان في الفترة، والمجنون، فيقول المجنون يارب أتاني الإسلام، وأنا لا أعقل، ويقول الخرف والأصم، والذي في الفترة أشياء ذكرها، فيوقد لهم نار، ويقال لهم: أدخلوها، فمن دخلها وجدها بردًا وسلامًا)[٢]، وكذلك من لم يبلغه الباب من واجبات الدين، فإنه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠).

(٢) هذا الحديث روي عن أنس بن مالك وأبي سعيد الخدري و معاذ بن جبل والأسود بن سريع وأبي هريرة والحديث قال عنه ابن القيم في أحكام أهل الذمة (٤٤٥-٤٤٦): أن أحاديث هذا الباب قد تضافرت وكثرت بحيث يشد بعضها بعضًا، وقد صحح الحفاظ بعضها كما صحح البيهقي وعبد الحق وغيرهما حديث الأسود بن سريع. وحديث أبي هريرة إسناده صحيح متصل، ورواية معمر له عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة " موقوفًا " لا تضره، فإنا إن سلكنا طريق الفقهاء والأصوليين في الأخذ بالِزيادة من اِلثقة فظاهر، وِإن سلكنا طريق الترجيح - وهي طريقة المحدثين - فليس مَن رَفعهُ بدونِ من وَقفه في الحفظ والإتقان.اهـ. وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٤٣٤) و(٢٤٦٨)، وصححه العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٦/ ٨٩)، وحسنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٦/ ٢٢٨).

(تنبيه) قال ابن القيم في أحكام أهل الذمة (٤٤٥-٤٤٦) قال أبو عُمرَ بن عبد البر في " الاستذكار"، وقد ذكر بعض هذه الأحاديث: وهذه الأحاديث كلها ليست بالقوية، ولا =

=

تقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب، لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء، وكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين، واللّه لا يكلف نفسًا إلا وسعها؟ ولا يخلو من مات في الفترة من أن يكون كافرًا أو غير كافر، فإن مات كافرًا جاحدًا فإن الله حرم الجنة علِى الكافرين، فكيف يمتحنون؟ وإن كان معذورًا بأنه لم يأته نذير ولا رسول فكيف يؤمر أن يقتحم النار وهي أشد العذاب؟ والطفل ومن لا يعقل أحرى بألا يمتحن بذلك.

فالجواب من وجوه: أحدها: أن أحاديث هذا الباب قد تضافرت وكثرت بحيث يشد بعضها بعضًا، وقد صحح الحفاظ بعضها كما صحح البيهقي وعبد الحق وغيرهما حديث الأسود بن سريع. وحديث أبي هريرة إسناده صحيح متصل، ورواية معمر له عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة " موقوفًا " لا تضره، فإنا إن سلكنا طريق الفقهاء والأصوليين في الأخذ بالِزيادة من اِلثقة فظاهر، وِإن سلكنا طريق الترجيح - وهي طريقة المحدثين - فليس مَن رَفعهُ بدونِ من وَقفه في الحفظ والإتقان.

الوجه الثاني: أن غاية ما يقدر فيه أنه موقوف على الصحابي، ومثل هذا لا يقدم عليه الصحابي بالرأي والاجتهاد، بل يجزم بأن ذلك توقيف لا عن رأي.

الوجه الثالث: أن هذه الأحاديث يشد بعضها بعضًا، فإنها قد تعددت طرقها، واختلفت مخارجها، فيبعد كل البعد أن تكون باطلة على رسول اللّه ﷺ لم يتكلم بها وقَد رواها أئمة الإسلام ودونوها ولم يطعنوا فيها.

الوجه الرابع: أنها هي الموافقة للقرآن وقواعد الشرع، فهي تفصيل لما أخبر به القرآن أنه لا يعذب أحد إلا بعد قيام الحجة عليه، وهؤلاء لم تقم عليهم حجة الله في الدنيا، فلا بد أن يقيم حجته عليهم، وأحق المواطن أن تقام فيه الحجة يوم يقوم الأشهاد، وتسمع الدعاوى، وتقام البينات، ويختصم الناس بين يدي الرب، وينطق كل أحد بحجته ومعذرته، فلا تنفع الظالمين معذرتهم وتنفع غيرهم.

الوجه الخامس: أن القول بموجبها هو قول أهل السنة والحديث كما حكاه الأشعري عنهم في " المقالات " وحكى اتفاقهم عليه وإن كان قد اختار هو فيها أنهم مردودون إلى المشيئة، وهذا لا ينافي القولَ بامتحانهم، فإن ذلك هو موجب المشيئة.

الوجه السادس: أنه قد صح بذلك القول بها عن جماعة من الصحابة، ولم يصح عنهم إلا هذا القول. والقول بأنهم خدم أهل الجنة صح عن سلمان، وفيه حديث مرفوع قد

=

=

تقدم؛ وأحاديث الامتحان أكثر وأصح وأشهر.
الوجه السابع: قوله: "وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب ".
جوابه أنه - وإن أنكرها بعضهم - فقد قبلها الأكثرون، والذين قبلوها أكثر من الذين أنكروها وأعلم بالسنة والحديث.
وقد حكى فيه الأشعري اتفاق أهل السنة والحديث، وقد بينا أنه مقتضى قواعد الشرع.
الوجه الثامن: أنه قد نص جماعة من الأئمة على وقوع الامتحان في الدار الآخرة، وقالوا: لا ينقطع التكليف إلا بدخول دار القرار، ذكره البيهقي عن غير واحد من السلف.
الوجه التاسع: ما ثبت في " الصحيحين " من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رضي الله عنهما في الرجل الذي هو آخر أهل الجنة دخولًا إليها: أن الله تعالى يأخذ عهوده ومواثيقه ألا يسأله غير الذي يعطيه، وأنه يخالفه ويسأله غيره، فيقول الله له: ما أغدرك! وهذا الغدر منه لمخالفته العهد الذي عاهده ربه عليه، وهذه معصية منه.
الوجه العاشر: قد ثبت أنه سبحانه يأمرهم في القيامة بالسجود، ويحول بين المخالفين وبينه: وهذا تكليف بما ليس في الوسع قطعًا، فكيف ينكر التكليف بدخول النار اختيارًا؟
الوجه الحادي عشر: أنه قد ثبت امتحانهم في القبور وسؤالهم وتكليفهم الجواب: وهذا تكليف بعد الموت برد الجواب.
الوجه الثاني عشر: أن أمرهم بدخول النار ليس عقوبة لهم، وكيف يعاقبهم على غير ذنب؟ وإنما هو امتحان واختبار لهم: هل يطيعونه أو يعصونه؟ فلو أطاعوه ودخلوها لم تضرهم وكانت عليهم بردًا وسلامًا، فلما عصوه وامتنعوا من دخولها استوجبوا عقوبة مخالفة أمره. والملوك قد تمتحن من يظهر طاعتهم هل هو منطو عليها بباطنه، فيأمرونه بأمر شاق عليه في الظاهر هل يوطن نفسه عليه أم لا، فإن أقم عليه ووطن نفسه على فعله أعفوه منه، وإن امتنع وعصى ألزموه به أو عاقبوه بما هو أشد منه.
وقد أمر اللّه سبحانه الخليل بذبح ولده ولم يكن مراده سوى توطين نفسه على الامتثال والتسليم وتقديم محبة اللّه على محبة الولد، فلما فعل ذلك رفع عنه الأمر بالذبح.
وقد ثبت أن الدجال يأتي معه بمثال الجنة والنار وهي نار في رأي العين ولكنها لا تحرق، فمن دخلها لم تضره: فلو أن هؤلاء يوطنون أنفسهم على دخول النار التي أمروا بدخولها طاعة لله ومحبةَ له وإيثارًا لمرضاته وتقربًا إليه بتحمل ما يؤلمهم لكان هذا الإقدام والقصد منهم لمرضاته ومحبته يقلب تلك النار بردًا وسلامًا كما قلب قصد

=

=

الخليل التقرب إلى ربه وإيثار محبته ومرضاته وبذل نفسه وإيثاره إياه على نفسه تلك النار بأمر اللّه بردًا وسلامًا.

فليس أمره سبحانه إياهم بدخول النار عقوبة ولا تكليفًا بالممتنع، وإنما هو امتحان واختبار لهم هل يوطنون أنفسهم على طاعته أو ينطوون على معصيته ومخالفته. وقَد علم سبحانه ما يقع منهم، ولكنه لا يجازيهم على مجرد علمه فيهم ما لم يحصل معلومُه الذي يترتب عليهم به الحجة، فلا أحسن من هذا يفعله بهم وهو محض العدل والحكمة.

الوجه الثالث عشر: أن هذا مطابق لتكليفه عباده في الدنيا، فإنه سبحانه لم يستفد بتكليفهم منفعة تعود إليه، ولا هو محتاج إليه، وإنما امتحنهم وابتلاهم ليتبين من يؤثر رضاه ومحبته ويشكره ممّن يكفر به ويؤثر سخطه: قد علم منهم من يفعل هذا وهذا، ولكنه بالابتلاء ظهر معلومه الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، وتقوم عليهم به الحجة. وكثير من الأوامر التي أمرهم بها في الدنيا نظير الأمر بدخول النار، فإن الأمر بإلقاء نفوسهم بين سيوف أعدائهم ورماحهم، وتعريضهم لأسرهم لهم وتعذيبهم واسترقاقهم، لعله أعظم من الأمر بدخول النار.

وقد كلف اللّه بني إسرائيل قتل أنفسهم وأولادهم وأزواجهم وإخوانهم لما عبدوا العجل لما لهم في ذلك من المصلحة؛ وهذا قريب من التكليف بدخول النار.

وكلف على لسان رسوله المؤمنين إذا رأوا نار الدجال أن يقعوا فيها - لما هم في ذلك من المصلحة - وليست في الحقيقة نارًا وإن كانت في رأي العين نارًا؛ وكذلك النار التي أمروا بدخولها في الآخرة إنما هي برد وسلام على من دخلها، فلو لم يأتِ بذلك أثر لكان هذا هو مقتضى حكمته وعدله، وموجب أسمائه وصفاته.

الوجه الرابع عشر: أن القائل قائلان: قائل إنه سبحانه يفعل بمحض المشيئة والإرادة من غير تعليل ولا غاية مطلوبة بالفعل، وقائل بمراعاة الحكم والغايات المحمودة والمَصالح. وعلى المذهبين فلا يمتنع الامتحان في عَرَصات القيامة.

بل على القول الأول هو ممكن جائز لا يتوقف العلم به على أمر غير إخبار الصادق.

وعلى المذهب الثاني هو الذي لا يليق بالرب سواه ولا تقتضي أسماؤه وصفاته غيره، فهو متعين.

الوجه الخامس عشر: قوله: "وليس ذلك في وسع المخلوقين" .

=

=

جوابه من وجهين: أحدهما: أنه في وسعهم وإن كان يشق عليهم، وهؤلاء عباد النار يتهافتون فيها ويلقون أنفسهم فيها طاعة للشيطان، ولم يقولوا: "ليس في وسعنا" مع تألمهم بها غاية الألم فعباد الرحمن إذا أمرهم أرحم الراحمين بطاعته باقتحامهم النار كيف لا يكون في وسعهم وهو إنما يأمرهم بذلك لمصلحتهم ومنفعتهم؟ والثاني: أنهم لو وطنوا أنفسهم على اتباع طاعته ومرضاته لكانت عين نعيمهم ولم تضرهم شيئًا.

الوجه السادس عشر: أن أمرهم باقتحام النار المفضية بهم إلى النجاة منها بمنزلة الكي الذي يحسم الداء، وبمنزلة تناول الدواء الكريه الذي يعقب العافية، وليس من باب العقوبة في شيء.

فإن اللّه سبحانه اقتضت حكمته وحمده وغناه ورحمته ألا يعذب من لا ذنب له، بل يتعالى ويتقدس عن ذلك كما يتعالى عما يناقض صفات كماله.

فالأمر باقتحام النار للخلاص منها هو عين الحكمة والرحمة والمصلحة: حتى لو أنهم بادروا إليها طوعًا واختيارًا ورضىً حيث علموا أن مرضاته في ذلك قبل أن يأمرهم به لكان ذلك عين صلاحهم وسبب نجاتهم؛ فلم يفعلوا ذلك ولم يمتثلوا أمره وقد تيقنوا وعلموا أن فيه رضاه وصلاحهم، بل هان عليهم أمره وعزت عليهم أنفسهم أن يبذلوا له منها هذا القدر الذي أمرهم به رحمة وإحسانًا لا عقوبة.

الوجه السابع عشر: أن أمرهم باقتحام النار كأمر المؤمنين بركوب الصراط الذي هو أدق من الشعرة وأحد من السيف. ولا ريب أن ركوبه من أشق الأمور وأصعبها حتى إن الرسل لتشفق منه وكل منهم يسأل اللّه السلامة! فركوب هذا الجسر الذي هو في غاية المشقة كاقتحام النار، وكلاهما طريق إلى النجاة.

الوجه الثامن عشر: قوله: "ولا يخلو من مات في الفترة من أن يكون كافرًا أو غير كافر، فإن كان كافرًا فإن اللّه حرم الجنة على الكافرين، وإن كان معذورًا بأنه لم يأته رسول فكيف يؤمر باقتحام النار؟ " .

جوابه من وجوه: أحدها: أن يقال: هؤلاء لا يحكم لهم بكفر ولا إيمان، فإن الكفر هو جحود ما جاء به الرسول، فشرط تحققه بلوغ الرسالة، والإيمان هو تصديق الرسول فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، وهذا أيضًا مشروط ببلوغ الرسالة، ولا يلزم من انتفاء أحدهما وجود الآخر إلا بعد قيام سببه، فلما لم يكن هؤلاء في الدنيا كفارًا ولا مؤمنين كان لهم في الآخرة حكم آخر غير حكم الفريقين.

=

معذور لا ملامة عليه.اهـ.

ويقول الشاطبي: جرت سنته سبحانه في خلقه، أنه لا يؤاخذ بالمخالفة إلا بعد إرسال الرسل، فإذا قامت الحجة عليهم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولكلٍ جزاء مثله.

كما أنه تعالى أنزل القرآن برهانًا في نفسه على صحة ما فيه، وإقامة للحجة وزاد على يدي رسوله عليه الصلاة والسلام من المعجزات ما في بعضه كفاية.اهـ. من الموافقات (٣/ ٣٧٧) بتصرف يسير.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ٣٠٩-٣١٤): وهذا أصل لابد من إثباته، وهو أنه قد دلت النصوص على أن الله لا يعذب إلا من أرسل إليه رسولًا تقوم به الحجة عليه... ثم ساق النصوص القرآنية الدالة على ذلك ... ثم قال: وإذا كان كذلك، فمعلوم أن الحجة إنما تقوم بالقرآن على من بلغه، كقوله تعالى: (لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ)

=

فإن قيل: فأنتم تحكمون لهم بأحكام الكفار في الدنيا من التوارث والولاية والمناكحَة.
قيل: إنما نحكم لهم بذلك في أحكام الدنيا لا في الثواب والعقاب، كما تقدم بيانه.
الوجه الثاني: سلمنا أنهم كفار، لكن انتفاء العذاب عنهم لانتفاء شرطه وهو قيام الحجة عليهم، فإن اللّه تعالى لا يعذب إلا من قامت عليه حجته.
الوجه الثالث: قوله: "وإن كان معذورًا كيف يؤمر أن يقتحم النار وهي أشد العذاب؟) فالذي قال هذا يوم الأمر عقوبة لهم، وهذا غلط، وإنما هو تكليف واختبار، فإن بادروا إلى الامتثال لم تضرهم النار شيئًا.
الوجه التاسع عشر: قوله: "كيف يمتحن الطفل ومن لا يعقل؟ " كلام فاسد فإن اللّه سبحانه يوم القيامة ينشئهم عقلاء بالغين، ويمتحنهم في هذه الحال، ولا يقع الامتحان بهم وهم على الحالة التي كانوا عليها في الدنيا.
فالسنة وأقوال الصحابة وموجب قواعد الشرع وأصوله لا ترد بمثل ذلك. والله أعلم.

[الأنعام: ١٩]. فمن بلغه بعض القرآن دون بعض، قامت الحجة عليه بما بلغه دون ما لم يبلغه... ثم قال: والذي عليه السلف والأئمة أن الله تعالى لا يعذب إلا من بلغته الرسالة، ولا يعذب إلا من خالف الرسل كما دل عليه الكتاب والسنة، ومن لم تقم عليه الحجة في الدنيا بالرسالة كالأطفال، والمجانين وأهل الفترات، فهؤلاء فيهم أقوال، أظهرها ما جاءت به الآثار أنهم يمتحنون يوم القيامة، فيبعث إليهم من يأمرهم بطاعته، فإن أطاعوه استحقوا الثواب، وإن عصوه استحقوا العذاب.اهـ.

ويقرر الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (ص ٤١٤)أن العذاب يستحق بسببين، أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها، والثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها، فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد، وأما الجهل مع عدم قيام الحجة، وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

ومن الفوائد التي أوردها ابن العراقي في طرح التثريب (٧/ ١٦٠) في شرحه لحديث (لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ..) قوله: ومفهومه إن لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور على ما تقرر في الأصول أن لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح.اهـ.

وأورد الشنقيطي في أضواء البيان (٣/ ٤٨١) مسألة: هل يعذر المشركون بالفترة أم لا؟ ثم قال: والتحقيق أنهم معذورون بالفترة في الدنيا، وأن الله يوم القيامة يمتحنهم بنار يأمرهم باقتحامها، فمن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا، ومن امتنع دخل النار وعذب فيها، وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا؛ لأن الله يعلم ما كانوا عاملين لو

جاءتهم الرسل.اهـ.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٥/ ٧٣٥): ما هو الضابط بالنسبة للعذر بالجهل بالتوحيد وهل قراءة وتلاوة القرآن تكفي لإزالة هذا العذر؟

فأجاب: أولًا الضابط سواءً كان يحسن قراءة القرآن أولًا، ويفهمه ثانيًا، أو كان يقرأه ولا يفهمه، أولا يحسن لا فهمه ولا قراءته، فالضابط في ذلك هو أن يعيش المسلم في جو إسلامي صحيح، وتكون العقائد منتشرة في ذلك الجو حتى صارت من قسم ما يسميه علماء الأصول بالمعلوم من الدين بالضرورة.

ولعل جميع الحاضرين يذكرون حديث الجارية التي كانت ترعى غنمًا لرجل في أحد وأن الذئب سطى على الغنم ... فلما بلغه الخبر قال الرجل معتذرًا لنفسه عما فعل بقوله: قال الرجل أغضب كما يغضب البشر فصككتها صكة، يقول الرسول عليه السلام وعليه عتق رقبه فأمره عليه السلام بأن يأتي بها فقال: لها أين الله؟ فقالت: في السماء فقال: من أنا؟ قالت أنت رسول الله، قال أعتقها فإنها مؤمنة، الشاهد من الحديث أن كون الله عز وجل في السماء في عقيدة قرآنية منصوص عليها في القرآن في غير ما آية صريحة وعقيدة سنية نبوية عليها أحاديث كثيرة جدًا، ولكن الآن كثير من المجتمعات الإسلامية، لا تعتقد العقيدة الإسلامية فالرجل الذي يعيش في هذا الجو يكون معذورًا؛ لأن الحجة لم تبلغه بخلاف من كان في مجتمع آخر عقيدة التوحيد هي فاشية ومنتشرة في ذلك المجتمع الذي أشبه ما يكون بالمجتمع الأول النبوي والذي فيه الجارية وهي راعية الغنم عرفت هذه العقيدة، هل هي درست القرآن، هل هي درست حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، ذلك مما يستبعد عادةً من راعية غنم، لكن هي تعيش مع

أهل بيت: سيدها وسيدتها فهي تسمع منهم وتتفقه على أيديهم، فتعلم ما لم تكن من قبل تعلم.

وإذا ضممنا إلى هذا الحديث وإلى هذا المعنى قول الله تبارك وتعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء: ١٥) وفهمنا الآية الكريمة فهمًا صحيحا، وليس فهمًا جامدًا على لفظها دون مرامها ومعناها، وأعني بذلك أن الآية لا تعني فقط بقوله تعالى {حتى نبعث رسولا} أي أن كل جماعة وكل طائفة وفي كل عصر يأتيها رسول، قد يأتيها رسول، وقد يأتيها دعوة الرسول، المهم إذًا أن الآية ليست تعني فقط شخص الرسول وإنما تعني دعوة الرسول؛ ومن الأدلة على ذلك أن الرسول قد يأتي قومًا فيكون فيه المجنون، ويكون فيه المصروع، ويكون فيه غير البالغ، والأصم وإلخ، وهؤلاء جاءهم الرسول، ولكن ما جاءتهم دعوة الرسول، وعلى العكس من ذلك، أمثالنا نحن أتباع محمد عليه السلام، نحن ما جاءنا محمد، مباشرة لكن جاءتنا دعوة محمد إذًا من وصلته دعوة محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- على نقاوتها وعلى حقيقتها فقد بلغته الحجة، ولا يعذر بالجهل على ما وضحت آنفًا.

من هنا أنا قلت أكثر من مرة أن كثيرًا من الأوروبيين والأمريكيين الذين يفتنون بدعاةٍ منحرفين عن الكتاب والسنة ولنضرب على ذلك مثلًا بطائفة القاديانية؛ لأن هؤلاء من الطوائف التي لها نشاط شديد جدًا في الدعوة إلى ما يعتقدون من دينهم، ولذلك فقط استطاعوا أن يؤثروا على الألوف المؤلفة من الإنجليز والألمان والأمريكان وإلخ، ترى وهنا الشاهد هؤلاء الذين اتبعوا الدعوة القاديانية هل بلغتهم حجة الإسلام؟ الجواب: لا بلغتهم حجة القاديانية وليست حجة الإسلام، فلله الحجة البالغة وهي مناط التكليف إيجابًا وسلبًا،

فالضابط إذًا بلوغ الدعوة الصحيحة إلى الأفراد فمن بلغته فقد أقيمت عليه الحجة ومن لا فلا، لكن الذي يضبط الموضوع هو ملاحظة المجتمع الذي يعيش فيه هؤلاء الأفراد؛ فإن كان المجتمع مجتمع أهل السنة والجماعة كما كانوا يقولون قديمًا ولا نرى استعمال هذه الكلمة حديثًا؛ لأنها في عرف المقلدين إنما تعني الأشاعرة والماتريدية وإنما نعني من بلغتهم دعوة السلفية وما كان عليه السلف الصالح فهذا قد أقيمت عليه الحجة ولكن في اعتقادي أن هؤلاء قلة في العالم الإسلامي كله، في اعتقادي أظن يكفي هذا جوابًا على سؤالك.اهـ.

وسئل أيضا العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٥/ ٧٦٣): من ناحية الأموات الذي قلت لك أنهم ماتوا على عقيدة دعاء الأموات والأولياء ... فالدعاء لهم إذا كان يعتقدون الضر والنفع بالأولياء بغير الله، وماتوا على هذا، إنما هم لا يعرفون حقيقة التوحيد، فالذي عرفوه هو هذا من العلماء.

فأجاب: أنا أجبتك عن هذا في ظني، قلت: أن هؤلاء ما دام أنهم كانوا يحافظون على أركان الإسلام، لكن فيهم جهل، والمسؤول عنهم هم هؤلاء الجهلة من أهل العلم، الذين هم يضللونهم، فهؤلاء الذين ماتوا، فالأصل فيهم أنهم مسلمون، فيعاملون معاملة المسلمين، فهم يدفنون في مقابر المسلمين، وبالتالي إذا مر المار بقبورهم يقول: السلام عليكم أهل الديار من المسلمين، ويترحم عليهم ويدعو لهم بالمغفرة والرحمة، ثم أَمْرُهم إلى الله تبارك وتعالى؛ لأن الله ﷻ يقول: {إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} (النساء: ٤٨)، ثم لا يؤاخذ المشرك إلا بعد أن تكون قد بلغته الدعوة، {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء: ١٥)، فربنا ﷻ من فضله ورحمته بعباده

أنه يقبل عذر العبد، فإذا كان أحد هؤلاء المسلمين الخرافيين، فلنسميهم، إذا كان هؤلاء الخرافيين من المسلمين ضل سواء السبيل، ولم يكن هناك من ينبئه ويحذره وينهاه عن ضلاله، فهو يكون معذورًا عند ربه تبارك وتعالى، ولا يؤاخذهم مؤاخذة الذي أقيمت الحجة عليه {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء: ١٥).... إلخ.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: هل مَن وقع في الشرك الأكبر؛ مثل: مَن استغاث بغير الله، أو نَذَر نَذْرًا لغير الله، هل يقال: إنه كافر، أم يقال: لا بد من قيام الحجة عليه؟

فأجاب: كلُّ إنسان يقع في شرك ومثله يجهله فإنه لا يُحكم بشركه حتى تقوم عليه الحجة، كما أنَّ مَن وقع في معصية دون الشرك فإنه لا يُعاقب عليها إذا كان مثله يجهلها؛ فلو أن رجلًا زَنا وهو قريب عهد بالإسلام ولا يعلم أن الزنا حرام فإننا لا نقيم عليه الحد؛ لأنه جاهل، وكذلك الذي يستغيث بغير الله أو يدعو غير الله وهو جاهل ونعلم أن مثله يجهله فإنه لا يُحكم بكفره؛ لأن الآياتِ الصريحةَ كثيرة في أنه لا يُحكم بالكفر إلا بعد العلم، يقول الله ﷻ: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ [القصص: ٥٩] ولا ظُلْم إلا بالعناد والمُشاقَّة. ويقول تعالى: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ [النساء: ١٦٥]، فبيَّن أنه لا حجة للخلق على الله إلا إذا أرسل الرسول، وأعلمهم بأن هذا حرام وهذا شرك. وقال تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [النساء: ١١٥]. وقال

الله تبارك وتعالى: وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [التوبة: ١١٥]. والآيات في هذا المعنى كثيرة. والإنسان لا يعرف ما حرَّم الله سبحانه وتعالى إلا بعلم مِن قِبَل الرسل. فإذا كان هذا الإنسان مسلمًا يصلي، ويصوم، ويزكي، ويحج، ويستغيث بغير الله وهو لا يدري أنه حرام، فهو مسلم؛ لكن بشرط أن يكون مثله يجهله، بحيث يكون حديث عهد بالإسلام، أو في بلادٍ انتشر فيها هذا الشيء، وصار عندهم كالمباح، وليس عندهم علماء يبينون لهم. أما لو كان في بلدٍ التوحيدُ فيها ثابتٌ مطمئنٌ فإن ادعاءَ الجهلَ قد يكون كاذبًا فيه.اهـ.

وقال الشيخ أيضا في لقاءات الباب المفتوح (٣٣ / السؤال رقم ١٢): ولكن يبقى النظر إذا فرط الإنسان في طلب الحق، بأن كان متهاونا، ورأى ما عليه الناس ففعله دون أن يبحث فهذا قد يكون آثما، بل هو آثم بالتقصير في طلب الحق، وقد يكون غير معذور في هذه الحال، وقد يكون معذورا إذا كان لم يطرأ على باله أن هذا الفعل مخالفة، وليس عنده من ينبهه من العلماء، ففي هذه الحال يكون معذورا، ولهذا كان القول الراجح: أنه لو عاش أحد في البادية بعيدا عن المدن، وكان لا يصوم رمضان ظنا منه أنه ليس بواجب، أو كان يجامع زوجته في رمضان ظنا منه أن الجماع حلال: فإنه ليس عليه قضاء؛ لأنه جاهل، ومن شرط التكليف بالشريعة أن تبلغ المكلف فيعلمها .

فالخلاصة إذا أن الإنسان يعذر بالجهل، لكن لا يعذر في تقصيره في طلب الحق.اهـ.

ومن خلال ما أوردناه من نصوص يتقرر أن العذاب والمؤاخذة لا يقع إلا بعد النذارة وقيام الحجة، وأن أهل الفترة ومن في حكمهم يمتحنون يوم القيامة،

كما جاءت بذلك الأحاديث والله تعالى أعلم.

(فرع): كيفية قيام الحجة على المعين

لقد أكد العلماء على ضرورة بلوغ الحجة للمعين، وثبوتها عنده وتمكنه من معرفتها، وكل ذلك لا يتم إلا بوجود من يحسن إقامة الحجة.

قال شيخ الإسلام في في مجموع الفتاوي (٢٣/ ٣٤٦): وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها: قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها، فمن كان من المؤمنين مجتهدًا في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم طريق الهجرتين (ص٣٨٤) وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة، وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل[1].اهـ.

وقال في مدارج السالكين (٢/ ٢٣٩): فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به، سواء علم أو جهل، فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه، فقصر عنه ولم يعرفه، فقد قامت عليه الحجة، والله سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه.اهـ.

وقال ابن حزم في الإحكام (١/ ٦٧): وكل ما قلناه فيه أنه يفسق فاعله أو يكفر بعد قيام الحجة، فهو ما لم تقم الحجة عليه، معذور مأجور وإن كان

---

(١) كلام الإمام ابن القيم في الحكم الأخروي، لكن الشاهد منه قوله وعدم التمكن من معرفتها.

مخطئا، وصفة قيام الحجة عليه أن تبلغه فلا يكون عنده شيء يقاومها وبالله التوفيق.اهـ.

ويقول العلامة سليمان بن سحمان كما في منهاج الحق والاتباع (ص٦٨) كلامًا متينًا مهما حول من يقيم الحجة: الذي يظهر لي والله أعلم أنها لا تقوم الحجة إلا بمن يحسن إقامتها، وأما من لا يحسن إقامتها كالجاهل الذي لا يعرف أحكام دينه ولا ما ذكره العلماء في ذلك، فإنه لا تقوم به الحجة.اهـ.

إذًا خلاصة ما سبق أن يقال، لابد من قيام حجة صحيحة تنفي عمن تقام عليه أي شبهة أو تأويل، وبذلك ندرك عظم المسئولية الملقاة على عاتق العلماء والدعاة ممن يحسن إقامة الحجة، ليقيموا الحجة على الخلق ويزيلوا الشبه عنهم.

وقد يشكل على البعض: كيف تقوم الحجة على من قضى الله تعالى بخذلانه وحرمانه؟ والجواب من وجوه.

قال ابن القيم في شفاء العليل (ص١٧٣): فإن قيل كيف تقوم حجته عليهم، وقد منعهم من الهدى، وحال بينهم وبينه، قيل: حجته قائمة عليهم بتخليته بينهم وبين الهدى، وبيان الرسل لهم، وإراءتهم الصراط المستقيم حتى كأنهم يشاهدونه عيانًا، وأقام لهم أسباب الهداية باطنًا وظاهرًا، ولم يحل بينهم وبين تلك الأسباب، ومن حال بينه وبينها منهم بزوال عقل، أو صغر لا تمييز معه، أو كونه بناحية من الأرض لم تبلغه دعوة رسله، فإنه لا يعذبه حتى يقيم عليه حجته، فلم يمنعهم من هذا الهدى، ولم يحل بينهم وبينه، نعم قطع عنهم توفيقه، ولم يرد من نفسه إعانتهم والإقبال بقلوبهم إليه، فلم يحل بينهم وبين ما هو مقدور لهم، وإن حال بينهم وبين ما لا يقدرون عليه، وهو فعله ومشيئته

وتوفيقه.اهـ.

وإقامة الحجة ليس لكل مسألة مطلقًا، فهناك أمور كالمسائل الظاهرة مما هو معلوم من الدين بالضرورة لا يتوقف في كفر قائلها، ولذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما في الدرر السنية (٨/ ٢٤٤): ومسألة تكفير المعين مسألة معروفة، إذا قال قولًا يكون القول به كفرًا، فيقال من قال بهذا القول فهو كافر، لكن الشخص المعين إذا قال ذلك لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها، وهذا في المسائل الخفية التي قد يخفى دليلها على بعض الناس وأما ما يقع منهم في المسائل الظاهرة الجلية، أو ما يعلم من الدين بالضرورة فهذا لا يتوقف في كفر قائله.اهـ.

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم في فتاواه (١/ ٧٤): إن الذين توقفوا في تكفير المعين، في الأشياء التي قد يخفى دليلها، فلا يكفر حتى تقوم عليه الحجة الرسالية من حيث الثبوت والدلالة، فإذا أوضحت له الحجة بالبيان الكافي كفر سواء فهم، أو قال: ما فهمت، أو فهم وأنكر، ليس كفر الكفار كله عن عناد وأما ما علم بالضرورة أن رسول الله جاء به وخالفه، فهذا يكفر بمجرد ذلك، ولا يحتاج إلى تعريف سواء في الأصول أو الفروع ما لم يكن حديث عهد بالإسلام.اهـ.

وإذا أردنا أن نتحدث عن الضابط في قيام الحجة على المعين، فيمكن القول بأن الأصل أنه لا تكفير للمعين إلا إذا كانت الحجة الرسالية قد بلغته، وقد يراد ببلوغ الحجة الرسالية مجرد البلوغ العام الذي تقوم به الحجة بأصل الدين الذي هو عبادة الله والتقرب إليه وحده والإتباع المجمل للشريعة، وقد يراد ببلوغ الحجة ما يتعلق بتفاصيل الحجة الرسالية، والإتباع المفصل للشريعة بفعل

الأوامر واجتناب النواهي، فلابد فيه لإقامة الحجة من الإبلاغ التفصيلي، فمن لم تبلغه حجة الله بشيء من تلك الأمور، لم يكن مكلفًا، فالحجة الرسالية على التفصيل شرط في التكليف، وأما الإقرار بأصل الدين الشهادتين علمًا وعملًا فهو كاف في قيام الحجة في استحقاق الله وحده للعبادة دون غيره، ومجمل الإتباع للشريعة.

وأما شرط قيام الحجة على الخلق فالحجة على العباد إنما تقوم بشيئين: بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله، والقدرة على العمل به، فأما العاجز عن العلم كالمجنون، أو العاجز عن العمل، فلا أمر عليه ولا نهي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين، أو حصل العجز عن بعضه، كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله، كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالمجنون مثلًا، وهذه أوقات الفترات[1].

ومما يجدر ذكره هاهنا أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأشخاص، كما قال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (ص: ٤١٤): إن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب، ولم يحضر ترجمان يترجم له.اهـ.

كما ينبغي أن يفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة، كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما في مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٣/ ١٢، ١٣): (وأصل الإشكال أنكم لم تفرقوا بين قيام الحجة وفهم الحجة، فإن أكثر

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٠/ ٥٩)، وانظر مجموع الفتاوى (١٩/ ١٧).

الكفار والمنافقين لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم، كما قال تعالى (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) [الفرقان: ٤٤].

وقيام الحجة وبلوغها نوع، وفهمهم إياها نوع آخر، وكفرهم ببلوغها إياهم وإن لم يفهموها نوع آخر، فإن أشكل عليكم ذلك، فانظروا قول ﷺ في الخوارج: (أينما لقيتموهم فاقتلوهم)[1] مع كونهم في عصر الصحابة، ويحقر الإنسان عمل الصحابة معهم وقد بلغتهم الحجة، ولكن لم يفهموها.

ويقول أيضًا كما في الدرر السنية (٨/ ٧٩): من المعلوم أن قيام الحجة ليس معناه أن يفهم كلام الله ورسوله مثل فهم أبي بكر رضي الله عنه، بل إذا بلغه كلام الله ورسوله، وخلا من شيء يعذر به فهو كافر، كما كان الكفار كلهم تقوم عليهم الحجة بالقرآن، مع قول تعالى: (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ) [الإسراء: ٤٦] وقوله: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) [الأنفال: ٢٢].

ومقصود الشيخ الإمام من فهم الحجة ها هنا: أي الفهم الذي يقتضي الانتفاع والتوفيق والاهتداء، كما مثل له بفهم الصديق رضي الله عنه، وأما قيام الحجة فتقضي الإدراك وفهم الدلالة، والإرشاد، وإن لم يتحقق توفيق أو انتفاع، كما قال الله تعالى (وَأَما ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) [فصلت: ١٧].

ومما يؤكد ذلك ما سطره تلميذه الشيخ حمد بن ناصر بن معمر رحمه الله حيث قال كما في مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٤/ ٦٣٨): وليس المراد بقيام

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٣١)، ومسلم (١٠٦٦).

الحجة أن يفهمها الإنسان فهمًا جليًا كما يفهمها من هداه الله ووفقه، وانقاد لأمره، فإن الكفار قد قامت عليه حجة الله مع إخباره بأنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه.اهـ.

وسئل **العلامة** الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٥/ ٩٢٥): هل تكفي إقامة الحجة على أهل الشرك وسائر أهل البدع أم لابد من فهمها؟ وماهو ضابط هذا الفهم؟ والله تعالى يقول: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً} -وذلك في الكفار- {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}؟

فأجاب: لا شك أن حجة الله تبارك وتعالى إذا قُدِمت لبعض الناس من الأعاجم باللغة العربية التي لا يفهمونها فلم تقم الحجة عليهم، ومن أجل ذلك قال الله ﷻ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}، فإذا أقام العالِم حجة الله على عباده ولم يفهموها بسبب عُجمة طرأت على لسانهم العربي، أو بسبب أنهم أعاجم فلا بد لهذا العالم حينذاك أن يشرح لهم حجة الله تبارك وتعالى حتى تتبين لهم، فإذا تبينت لهم الحجة ثم جحدوها بعد أن استيقنتها أنفسهم حين ذلك يُحكم عليهم بأنهم كفار وبأنهم مخلدون في النار، أما مجرد تلاوة الحجة على ناس لا يفقهونها فذلك مما لا تقوم به الححة باتفاق أهل العلم، والله ﷻ حينما قال: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} فإنما يعني رسولًا بلسان قومهم ليفهموا عليه ما يخاطبهم به من الوحي الذي أنزل عليه من ربه تبارك وتعالى، ولذلك تأكيدًا لهذا المعنى جاء قوله عليه الصلاة والسلام كما رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «ما من رجل من هذه الأمة من يهودي أو نصراني يسمع بي ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» ففي هذا الحديث

قوله صلى الله عليه وآله وسلم في كل كافرٍ على وجه الأرض يبلغه خبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما كان هو عليه السلام في دعوته على حقيقتها ثم يكفر بها؛ فهو في النار، فقوله عليه الصلاة والسلام: «يسمع بي» إنما يعني دعوته الحق، ولا يعني بطبيعة الحال لو سمع أحد الكفار الأوروبيين مثلًا أو الأمريكيين أو غيرهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بطريق القساوسة والرهبان والمستشرقين الذين يتحدثون عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بالأكاذيب، ولا يحدثون أقوامهم بحقيقة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأخلاق والشمائل فيما يتعلق بشخصه ثم هم لا يتحدثون بحقيقة دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأنها دعوة التوحيد وأنها دعوة الإصلاح في كل ميادين الحياة وإنما يحدثون أقوامهم على خلاف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شخصه وفي دعوته، فلا يكون والحالة هذه أولئك الناس قد سمعوا به عليه الصلاة والسلام حقًا ولذلك فلا يشملهم الوعيد المذكور في آخر الحديث.

أعيد ذكر هذا الحديث لأهميته في هذا الموضوع، فإن كثيرًا من الناس يتوهمون أنه من مجرد بلوغ القرآن الكريم بسبب الإذاعات العربية إلى تلك الشعوب الكافرة، قد قامت حجة الله تبارك وتعالى عليهم ولذلك فليس على المسلمين أن يعملوا شيئًا من تبليغ الدعوة، ليس الأمر كذلك، فإن القرآن إنما نزل بلسان عربي مبين، وأولئك الناس لا يفقهون منه شيئًا، كيف وكثير من العرب أنفسهم من عامتهم هم عادوا أشباه الأعاجم لا يفهمون كثيرًا مما يتلى عليهم من كتاب ربهم فكيف يقال بأن حجة الله تبارك وتعالى قد قامت على أولئك الأوروبيين وأمثالهم من الأعاجم لمجرد أنهم يسمعون كل يوم صباحًا

ومساءَ تلاوة القرآن من الإذاعات العربية، فلا جرم أنه يجب على طائفة من المسلمين أن يبلّغوا شريعة الإسلام بلغة أولئك الأقوام، وعلى هؤلاء أن يكونوا من أهل العلم حقًا يحسنون ترجمة القرآن، ترجمة معنوية وليس ترجمة لفظية، هذا هو جواب ذاك السؤال الهام.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: بعض الإخوة ذهبوا بدعوة صلة أرحامهم في جنوب اليمن وأرحامهم هؤلاء تربوا وترعرعوا على أيدي علماء الصوفية ومما علموهم قالوا: إذا جاءكم أي شخص من الحجاز أو من نجد أو كان موحدًا فهذا يعتبر وهابيًا فلا تقبل منه، وأردنا أن ندعوهم إلى التوحيد فلم يقبلوا منا هذه الدعوة، فهل هذه حجة؟ وهل يشترط مع إقامة الحجة فهم الحجة أم لا؟

فأجاب: لا شك أنه إذا قيل لهم: هذا هو الحق وهذا هو كتاب الله، وهذه هي سنة رسول الله ﷺ أنه قد قامت عليهم الحجة؛ لأنهم عرب يفهمون بمجرد ما يسمعون، أما لو كان أعجميًا وكنت تتكلم أمامه باللغة العربية وهو لا يفهمها؛ فإن الحجة لم تقم عليه؛ لأنه لا يفهم ما تقول، فإذا كان يعلم ما تقول، وأتيت بالكتاب والسنة دليلًا ولكنه أصر وقال: سأتبع مشايخي فقد قامت عليه الحجة، ويكون هذا كالذين قال الله عنهم: وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ [الزخرف: ٢٣] إذًا نقول: سمونا ما شئتم، وهابية، أو حنبلية، أو نجدية، أو حجازية، أو ما شئتم، ألستم تؤمنون بالله ورسوله؟! ألستم ترون أن القرآن دليل، وأن السنة دليل؟! ولكن يبدو أن بعض الدعاة يكون منه انفعال، وإذا قالوا: نحن لا نأخذ منكم أنتم وهابية، ينفر منهم، أو يرد عليهم بالمثل، ويقول: أنتم ضلال، وأنتم

فيكم كذا وكذا، فلا يحصل منه الدعوة بالحكمة.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين أيضا في لقاءات الباب المفتوح: مسألة فهم الحجة شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وكذلك ابن القيم وابن العربي المالكي رحمهم الله- يقولون: وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها كلامه هذا في الفتاوى. اختلف الدارسون لكتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه القضية أيضًا، وحاولت أن أفهمها ويسر الله لي بعض النقولات الخفيفة التي سأعرضها عليكم ليتجلي الأمر أكثر: رأى بعض طلبة الشيخ رحمهم الله أن الشيخ لا يشترط لقيام الحجة فهمها، ونقلوا عنه بعض النقولات منها: فإن حجة الله هو القرآن فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحجة، وقيام الحجة وبلوغها نوع، وقد قامت عليهم أي: الكفار والمنافقين وفهمهم إياها نوع آخر. ثم وجد نص آخر للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة للشريف يقول فيها: وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبة عبد القادر والصنم الذي على قبر أحمد البدوي وأمثالهما لأجل جهلهم وعدم من ينبههم وفي رواية: عدم من يفهمهم. ثم في قول آخر: فإذا كان المعين يكفر إذا قامت عليه الحجة، فمن المعلوم أن قيامها ليس معناه أن يفهم كلام الله ورسوله مثل فهم أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بل إذا بلغه كلام الله ورسوله وخلا من شيء يعذر به فهو كافر. وآخرها ما وقفت على كلام للشيخ أخرجه محمد رشيد رضا في طبعة الرسائل النجدية: وليس المراد بقيام الحجة أن يفهمها الإنسان فهمًا جليًا كما يفهمها من هداه الله ووفقه وانقاد لأمره، فالرجاء البيان حفظك الله.

فأجاب: الذي نراه: أن الحجة لا تقوم إلا إذا بلغت المكلف على وجه

يفهمها، لكن نعرف أن أفهام الناس تختلف، من الناس من يفهم من هذا النص معنىً جليًا مثل الشمس، ومعنىً لا يحتمل عنده أي شك، ومن الناس من يفهم النص فهمًا أوليًا مع احتمال شك في قلبه، فالأول في قمة المعرفة والعلم، والثاني في أول العلم، والثاني قد قامت عليه الحجة لا شك؛ لأنه فهم منه ما يراد به، لكن ليس على الفهم التام الذي فهمته الطائفة الأولى كأبي بكر وعمر، وأما من بلغه النص ولكنه لم يعرف منه معنىً أصلًا كرجل أعجمي بلغه النص باللغة العربية ولكن لا يدري ما معنى هذا النص، فهذا لم تقم عليه الحجة بلا شك، ودليل هذا قول الله تبارك وتعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [إبراهيم: ٤] أي: بعد البيان بهذا اللسان الذي يفهمونه يضل الله من يشاء، فلا يقبل ويهدي من يشاء فيقبل. وأي فائدة لرجل أعجمي يُقرأ عليه القرآن من لسان عربي وهو لا يدري ما هو، أنت الآن لو أتى إليك رجل أعجمي وأنت عربي لا تفهم الأعجمية ثم كلمك بخطبة خمس صفحات أو أكثر لا تفهم منها شيئًا إطلاقًا فكذلك العجم بالنسبة للعرب. فالذي نرى: أنه لا بد من بلوغ الحجة وفهم معناها على وجه يتبين له الحق، وأما قوله تعالى: لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام: ١٩] فلا شك أن القرآن نزل بلفظ ومعنى، فالمراد من بلغه لفظه ومعناه، أو ومن بلغه من أهل هذه اللغة الذين تقوم عليهم الحجة إذا بلغهم القرآن بمجرد وصوله إليهم، وهذا القول هو الذي تدل عليه الأدلة بخصوصها وأدلة أخرى بعمومها مثل قوله تعالى: لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا [البقرة: ٢٨٦] وقوله: فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [التغابن: ١٦] ومن المعلوم أن من لا يعرف المعنى فإنه ليس بوسعه أن يقبله، لكن على من بلغه أن الرسول محمدًا ﷺ قد بعث، وأن دينه نسخ الأديان كلها،

يجب عليه أن يبحث، وهنا قد يفرط في البحث فلا يكون معذورًا لتفريطه. فلا يكون معذورًا لتفريطه.اهـ.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية: أن تكفير المعين يشترط فيه إقامة الحجة، وإقامة الحجة شرط في أمرين:

الأول: في العذاب الأخروي؛ يعني في استحقاق العذاب الأخروي.

والثاني: في استحقاق الحكم الدنيوي.

والدليل على ذلك قول الله ﷻ {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} [الإسراء: ١٥] وكذلك قوله {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى} فشرط لتولية المشاق ما تولى وجعل جهنم له وساءت مصيرا أن يكون تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} [النساء: ١١٥]، وكذلك قوله ﷻ {وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون} [التوبة: ١١٥]، وكذلك قوله ﷻ {وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله} [الجاثية: ٢٣]، وكذلك قوله ﷻ {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه} [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، فهذه كلها فيها اشتراط العلم وإقامة الحجة، وكل رسول بعث لإقامة الحجة على العباد، إذا تبين هذا فإن إقامة الحجة تحتاج:

إلى مقيم، وإلى صفة، أما المقيم: فهو العالم بمعنى الحجة، العالم بحال الشخص واعتقاده، وأما صفة الحجة: فهي أن تكون حجة رسالية بينة، قال ﷻ {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم} [إبراهيم: ٤] واشترط أهل

العلم أن تكون الحجة رسالية؛ يعني أن تكون قول الله ﷻ وقول رسوله ﷺ، يعني أما إن كانت عقلية وليس المأخذ العقلي من النص فإنه لا يكتفى به في إقامة الحجة؛ بل لابد أن تكون الحجة رسالية، لهذا يعبر ابن تيمية ويعبر ابن حزم وجمع بأن تكون الحجة رسالية؛ والسبب لأنها يرجع فيها من لم يأخذ بالحجة إلى رد ما جاء من الله ﷻ ومن رسوله ﷺ.

وأما فهم الحجة فإنه لا يشترط في الأصل، ومعنى عدم اشتراطه: أننا نقول ليس كل من كفر فإنه كفر عن عناد، بل ربما كفر بعد إبلاغه الحجة وإيضاحها له لأن عنده مانع من هوى أو ضلال منعه من فهم الحجة، قال الله ﷻ {وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه}، والآيات في هذا المعنى متعددة.

ما معنى فهم الحجة؟ يعني أن يفهم وجه الاحتجاج بقوة هذه الحجة على شبهته،

فهوعنده شبهة في عبادة غير الله، عنده شبهة في استحلاله لما حرم مما أجمع على تحريمه؛ لكن يبلغ بالحجة الواضحة بلسانه ليفهم معنى هذه الحجة، فإن بقي أنه لم يفهم كون هذه الحجة راجحة على حجته فإن هذا لا يشترط-يعني في الأصل؛ لكن في بعض المسائل جعل عدم فهم الحجة -يعني كون الحجة راجحة على ما عنده من الحجج- جعل مانعا من التكفير كما في بعض مسائل الصفات.

يعني أن أهل السنة والجماعة من حيث التأصيل اشترطوا إقامة الحجة ولم يشترطوا فهم الحجة في الأصل؛ لكن في مسائل اشترطوا فيها فهم الحجة، وهذا الذي يعلمه من يقيم الحجة وهو العالم الراسخ في علمه الذي يعلم حدود ما

أنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ[(١)].اهـ.

---

(١) وسئل الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية أيضا: لماذا كفر أئمة الهدى القائلين بخلق القرآن مع أنهم متأولون، ولم يكفروا القائلين بإنكار الأسماء والصفات أو بعضها لأنهم متأولة؟

فأجاب: هذه مسألة كبيرة في مسألة التكفير، تكفير الفرق يقال به من جهة الوعيد والتنفير من هذا القول؛ لكن تكفير المعين، يعني تكفير المعتزلة لا يعني أننا نكفر الأفراد، تكفير من قال بخلق القرآن لا يعني نكفر كل من قال به، تكفير من أنكر الأسماء والصفات ليس معناه أنه كل فرد أنكر يكفر، ليس كذلك.

ولذلك أهل السنة والجماعة أجمعوا على عدم تكفير من تأول الصفات لأن ثم شبه.

والتكفير إخراج من الدين والإخراج من الدين لابد أن يكون بأمر يقيني في قوة ما به دخل إلى الإسلام أو ما به صار مسلما وصار مؤمنا.

وهذه المسائل التي فيها تأويل أو اشتباه لو كفر بعض الأمة بعضا فيها لصار هناك تكفير كبير، وهذا لم يعمله أحد من أئمة الإسلام.

فلذلك هناك تكفير بالنوع وهذا وعيد ولأجل إطلاق النصوص وحماية للشريعة.

فإذا جاء المعين لابد في حقه من إقامة الحجة ورد الشبهة والجواب عن شبهته.

قالوا حتى في مسائل الأسماء والصفات يشترط فيها الفهم.

يعني في تأويل الأسماء والصفات لا يقول أقمت الحجة وهذه لا يشترط فيها الفهم.

كما هو القول المعروف الصحيح أن الذي يشترط إقامة الحجة في التكفير أو في التبديع أو في التفسيق إلى آخره، أما فهم الحجة فلا يشترط.

قالوا إلا في الأسماء والصفات فلابد أن يفهم لأن الشبهة فيها قوية وقال بها عدد من المنتسبين إلى الحديث والسنة، وفيها نوع اشتباه.

وهذه الكلمة وهي استثناء الأسماء والصفات قالها بعض أئمة الدعوة كما هو موجود في الدرر السنية وفي غيرها، فينتبه لهذا الأصل.اهـ.

وقال الشيخ في شرح كشف الشبهات: وهنا بحث في أنهم إذا لم يفهموا فإنهم لا يُعذرون بذلك لأن فهم الحجة ليس بشرط؛ بل الشرط هو إقامة الحجة في التكفير يعني لا يكفر إلا من قامت عليه الحجة الرسالية التي يكفر من أنكرها أو ترك مقتضاها.

وأما فهم الحجة فإنه لا يشترط لهذا قال الشيخ هنا رَحِمَهُ اللَّهُ (ما فهموا ولن يفهموا) وإذا =

=

كانوا لم يفهموا فإنه لا يعني أنه يسلب عنهم الحكم بالشرك الأكبر؛ لأن فهم الحجة ليس بشرط.

وهذا مبحث بحثه علماء الدعوة والعلماء قبلهم هل فهم الحجة شرط أم ليس بشرط والله جل وعلا قال في كتابه (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ) ([٦٣]) يعني جعلنا على قلوبهم أكنة أغطية وحجب أن يفهموا هذا البلاغ وهذا الإنذار (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ) فدل على أن المشرك لم يفقه الكتاب ولم يفقه السنة يعني لم يفهم، وتحقيق المقام هنا لأن بعض الناس قال كيف لا تشترطون فهم الحجة وكيف تقام الحجة بدون فهم، وتفصيل الكلام هنا أن فهم الحجة نوعان:

النوع الأول فهم لسان، والنوع الثاني فهم احتجاج.

أما فهم اللسان فهذا ليس الكلام فيه فإنه شرط في بلوغ الحجة لأن الله جل وعلا قال (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)[إبراهيم: ٤]، والله جل وعلا جعل هذا القرآن عربيا لتقوم الحجة به على من يفقه اللسان العربي.

وإذا كان كذلك فإن فهم اللسان هذا لابد منه؛ يعني إذا أتاك رجل يتكلم بغير العربية فأتيت بالحجة الرسالية باللغة العربية، وذاك لا يفهم منها كلمة، فهذا لا تكون الحجة قد قامت عليه بلسان لا يفهمه، حتى يَبْلُغُه بما يفهمه لسانه.

والنوع الثاني من فهم الحجة هو فهم احتجاج يفهم أن تكون هذه الحجة التي في الكتاب والسنة حجة التوحيد أو في غيره ارجح وأقوى واظهر وأبين أو هي الحجة الداحضة لحجج الآخرين، وهذا النوع لا يشترط؛ لأنه جل وعلا بين لنا وأخبر أن المشركين لم يفقهوا الحجة فقال جل وعلا (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ) وقال سبحانه ؟وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا؟[الكهف: ١٠١]، ؟أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ؟[الفرقان: ٤٤]، فهم لا يسمعون سمع فائدة، وإن سمعوا سمع أُذُن ولا يستطيعون أن يسمعوا سمع الفائدة وإن كانوا يسمعون سمع الأذن، وقد قال جل وعلا ؟وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ؟[الأنفال: ٢٣]، وقال سبحانه (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)[الأنبياء: ٢]، (إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) حتى وصفهم بأنهم يستمعون وليس فقط يسمعون بل يستمعون يعني ينصتون ومع ذلك نفى عنهم السمع بقوله (وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) وبقوله (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ)[الفرقان: ٤٤]،

=

=

وقوله جل وعلا في سورة تبارك ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك: ١٠].

فإذن هم سمعوا سمع لسان لكن لم يسمعوا الحجة سمع قلب وسمع فهم للحجة يعني أنها راجحة فلم يفهموا الحجة ولكنهم فهموها فهم لسان فهموها لأنها أقيمت عليهم بلسانهم الذي يعلمون معه معاني الكلام ولكن لم يفهموها بمعنى أن الحجة هذه راجحة على غيرها، ولهذا قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.اهـ.

وقال الشيخ في شرح مسائل الجاهلية: المسألة الخامسة عشرة (اعتذارهم عن اتباع ما أتاهم الله بعدم الفهم، كقولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾[هود: ٩١]) ونحو ذلك من الآيات، فبين ذلك جل وعلا بأن ذلك وهو عدم الفقه وعدم الفهم بسبب الطبع على قلوبهم وبسبب جعل الأكنة على القلوب، وأن ذلك أيضا كان عدلا من الله جل وعلا، وذلك لأنه بسبب كفرهم بالله جل وعلا.

وهذه المسألة مسألة عظيمة ألا وهي أن المشركين وأهل الجاهلية على اختلاف ملل الجاهليات ونحلهم يعتذرون عن اتّباع الحق ويكون عذرهم هو أنهم لم يفقهوا ما قيل لهم ولم يعلموه، يريدون بذلك أنهم لم يفقهوا الحجة فقه من يستجيب لها، ولم يعلموا أن تلك الحجج التي جاءت بها الرسل أو جاء بها الأنبياء أنها غالبة وأنها مقدمة على الحجج التي يحتجُّ بها أولئك فعند المشركين حجج وعلم والرسل والأنبياء جاءوا بحجج وعلم فلم يفقه أهل الجاهليات أن حجج الأنبياء والمرسلين أدلَّ على المراد من حجج المشركين.

ولبيان ذلك نقول إن الحجة لا بد من إقامتها فالله جل وعلا ما بعث رسول إلا لأجل إقامة الحجة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥]، وقال سبحانه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥]، فمن كمال عدل الله تبارك وتعالى ومن كمال حُكمه وحِكمته أنه جل وعلا ما عذّب أحدا حتى يقيم عليه الحجة، ولذلك بعث الله المرسلين وبعث الأنبياء لكي تنقطع حجج الناس بل إنّ الله جل وعلا أخذ على ابن آدم أو على بني آدم العهد لمّا أخرجهم من ظهور آبائهم ألاّ يكذبوا بتوحيد الله جل وعلا كما قال سبحانه ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢]، إلى أن قال ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ

=

=
أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)[الأعراف: ١٧٢-١٧٣]، فالله جل جلاله أقام الحجج المتنوعة حجج مسموعة وحججا مرئية، وهم اعتذروا عن الاتباع بعدم فهم الحجة، قال سبحانه مخبرا عن قولهم (يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ)[هود: ٩١]، وقال سبحانه (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ) وقال سبحانه مخبرا عن قول اليهود أنهم قالوا (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) وتقرير هذا أن فهم الحجة له نوعان:

النوع الأول: أن يفهم معناها؛ يعني أن يقيم الحجة من يفهم معنى الحجة، بأن يكون بلسان المخاطب، وأن يفهم المراد من الحجة، وهذا النوع متفق على أنه لابد منه، فإن الله جل جلاله ما بعث رسوله إلا بلسان قومه يبين لهم، كل رسول بعث بلسان قوم ذلك الرسول، يتكلم بلغتهم ويتكلم بلسانهم حتى يبين لهم الحجة، وحتى يفهموا معناها، وهذا متفق على أنه لا بد منه؛ لأنه إذا خوطب أحد بغير اللسان الذي يفهمه لم يكن ثَم إقامة للحجة، فإذن هذا النوع رجع إلى أنه في يعني إقامة الحجة، فإقامة الحجة لا يكون إلا بفهم معناها في هذا النوع.

النوع الثاني: فهم الحجة الفهم الذي يتبعه استجابة للحجة، فإن من فهم الحجة فهما مستقيما كاملا لابد أن ينقاد لها وهذا هو الذي لا يشترط في إقامة الحجة، فلم يكن لأولئك عذر بقولهم (مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ)، (مَا نَفْقَهُ) يعني ما نعلم ولا نفهم أن هذا الذي تقول أرجح من قولنا، ولا نفهم أن علمك الذي أوتيت به أرجح من علمنا، وهذا النوع هو الذي حرمه المشركون في أنهم لم يفهموا فهم استجابة، لم يفهموا الحجة من جهة كونها أرجح من حجتهم، ولكن الحجة فهموا معناها.

فإذن فهم الحجة معناها.

النوع الأول لابد منه، وأما النوع الثاني وهو أن تفهم فهم من يستجيب، فإن هذا لا يشترط في إقامة الحجة، فإن الحجة تقوم ولو زعم الزاعمون أنهم لم يفهموا معناها إذا بينت لهم ألفاظها وكانت بلسانهم وبين لهم معناها من أهل العلم والفهم لبيان المعنى.

لهذا قال جل وعلا مخبرا عن قول المشركين (قُلُوبُنَا غُلْفٌ) وقال (مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ) ولم يمنعهم هذا الاحتجاج بأنهم ما فقهوا ولا فهموا بأن تكون الحجة قد أقيمت عليهم، وإذْ أعرضوا حلّ عليهم سخط الرب جل وعلا، وأيضا أخبر سبحانه أن قريش بل والعرب جُعلت على قلوبهم أكنة قال سبحانه (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ) جعل الله جل وعلا على قلوب المشركين أكنة تحجب الفقه وتمنع الفهم، حواجز تمنع
=

=

ذلك أن يفقهوا يعني أن يفهموا، هذا الفهم إنما فهم موقع الاحتجاج؛ فهم رجحان الحجة على ما عندهم من الحجج، وهذا كل طائفة من طوائف الشرك والجاهلية تحتج بهذا بأنه ما فهمت بأنهم ما يريدون أن ينسبوا إلى أنفسهم أنهم ردوا الحجة عنادا واستكبارا.

ولهذا قال أئمتنا إن إقامة الحجة شرط وأما فهم الحجة فلا يشترط. فليس كفر كل من كفر عن عناد وتكذيب؛ لأن أولئك لم يفهموا وجه الحجة الفهم الذي يجعلهم يقدمونها على حجتهم، ولكنهم فهموا تلك الكلمات وفهموا دلائلها وفهموا معناها.

قال الشيخ –محمد بن عبد الوهاب–رحمه الله تعالى هاهنا (فأكذبهم الله جل وعلا في ذلك) يعني فيما احتجوا به من أنهم ما فقهوا يعني أكذبهم في أنهم فهموا المعنى، ولكنه جعلت على قلوبهم أكنة أن يفقهوه الفقه النافع، وهو سبحانه كثيرا في القرآن ينسب الفعل إلى من ينتفع به، فقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أكذبهم الله) يعني في أنهم ما فقهوا الفقه الذي هو بمعنى فهم المعنى وبين أنهم فهموا المعنى، ولكنه الله جل وعلا بين أنه جعل على قلوبهم أكنة وكثيرا في القرآن ما يأتي نسبة الفعل إلى من ينتفع به، قال سبحانه ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾[فاطر: ١٨]، فأخبر سبحانه في هذه الآية أن النبي ﷺ إنما ينذر الذين يخشون ربهم بالغيب مع أنه عليه الصلاة والسلام نذير للعالمين، لكن أضيف إلى أولئك الإنذار لأنهم هم الذين انتفعوا به (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ) لأنهم هم الذين اتفعوا بذلك.

فهنا في قول الشيخ فأكذبهم الله جل وعلا في ذلك، وبيّن سبحانه أن سبب عدم الفقه هو الطبع على القلوب، يعني عدم الفقه الذي هو في ترجيح الحجة، الفهم الذي يترتب عليه ترجيح حجة المرسلين على ما عندهم من الأوهام والحجج، وبيّن سبحانه أن ذلك الطبع بسبب كفرهم، عدلا منه جل وعلا وحكمة، وهذا في كل أهل جاهلية يأتون بمثل هذا. وهذه المسألة موسومة في كتب العلماء بمسألة إقامة الحجة وفهم الحجة، وتبيّن لك أن الصواب تقسيم فهم الحجة إلى قسمين؛ لأن من أهل السنة في هذا القرن من اعترض على أئمتنا على عدم اشتراط فهم الحجة لأنه قال لابد من فهم الحجة، كيف تقام الحجة على من لم يفهمها؟ والعلماء بينوا لكن هؤلاء ما انتبهوا إلى أنّ فهم الحجة بالمعنى الأول الذي ذكرناه وهو فهم المعنى، وفهم مدلولات الكلام وفهم الاستدلال ووجه الاستدلال هذا لا بد منه، أما الفهم الذي هو معرفة رجحان هذه الحجة على

=

=

غيرها وقطع الشبه جميع الشبه فهذا لا يشترط كما بينه الأئمة.اهـ. كلام الشيخ صالح.
وقال صاحب كتاب ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة (ص٣٣١): وهنا قد يقول قائل: إن المناط في قيام الحجة على المعين مطلقا هو مجرد بلوغها، ولا فرق في ذلك بين أن يكون عنده شبهة أولا يكون. ومقتضى ذلك ألا يعذر أحد بالشبهة بعد بلوغ الحجة الرسالية، ويستند من يقول هذا القول إلى أن الله قد حكم بالكفر على من وصفهم بأنهم لا يفقهون، وأنهم لا يعلمون، وأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ونحو ذلك. ومن ذلك قول الله تعالى: (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) [الإسراء: ٤٦]. وقول الله تعالى: (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) [الفرقان: ٤٤].
وقوله تعالى: (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) [الأنفال: ٢٢ - ٢٣]. وقوله تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون_ [الأعراف: ١٧٩] وقوله تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥]. ونحو ذلك من الآيات مما في هذا المعنى كثيرة.
والجواب أن هذا بحمد الله لا يعارض إعذار المتأول، ويتبين ذلك بوجهين:
الأول: أن هناك فرقا بين فهم الدلالة وفهم الهداية، فليس كل من بلغته الحجة وفهمها يهتدي بها، لكن الله قد جعل فهم الدلالة شرطا في تكليف عموم الناس، مؤمنهم وكافرهم، ولم يجعل فهم الهداية والتوفيق إلا لمن أراد لهم ذلك.
فالفهم المشروط في قيام حجة الله على العباد غير الفهم الذي هو مقتضى هداية الله تعالى وتوفيقه، والشبهة التي تتعلق بفهم الحجة غير الشبهة التي هي لعدم الهداية ولو بلغت الحجة، وهذا فرق ظاهر، يبين ذلك أن الآيات التي قد يستدل بها من لا يفرق بين هذين الأمرين كلها فيما يتعلق بنفي العلم والعقل الذي هو مقتضى الهداية، ولذلك فإن الله كما نفى عمن حكم بكفرهم في تلك الآيات العلم والفهم، فقد نفى عنهم أنهم يسمعون أو يبصرون. ومعلوم أن السمع والبصر المنفي هنا هو مقتضى الهداية، لا أنهم

=

=

صم لا يسمعون شيئا عمي لا يرون شيئا. فكذلك العقل والفهم المنفي عنهم، هو مقتضى الهداية والتوفيق، لا أنهم مجانين لا يعرفون شيئا، ولا يفهمون ما يقال لهم.

قال الإمام ابن القيم في شفاء العليل (ص٩٧) في تفسير قوله تعالى: (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) [الأنفال: ٢٣]. (أخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعا تقوم به عليهم حجته.اهـ.

وقال السعدي في تفسيره (٣/ ١٥٥): والسمع الذي نفاه الله عنهم، سمع المعنى المؤثر في القلب، وأما سمع الحجة فقد كانت حجة الله تعالى عليهم بما سمعوه من آياته، وإنما لم يسمعهم السماع النافع، لأنه لم يعلم فيهم خيرا يصلحون به لسماع آياته.اهـ. ثم يقال أيضا: إن الشبهة التي تحصل للكافر بل وللمبتدع الضال الذي لم يكفر ببدعته ليست ابتداء من الله بعبده، بل لا تكون إلا جزاء على إعراض العبد عن الحق بعد تبينه له وقيام الحجة به عليه، ومعرفة هل الشبهة لأجل عدم الفهم حقيقة أم لأجل عدم الهداية إلى الفهم مما لا يمكن الاطلاع عليه، لأنه أمر باطن لا يعلم، ونحن إنما نحكم على الظاهر، وإذا ثبت أن من حصلت له شبهة من جهة عدم الفهم فهو معذور كان هذا هو الأصل الذي يعتمد عليه في حكم الظاهر، لأنه هو الظاهر.

الثاني: إن من القواعد الشرعية المقررة أن المؤاخذة والتأثيم لا تكون على مجرد المخالفة ما لم يتحقق القصد إليها، والمتأول في حقيقته مخطئ غير متعمد للمخالفة، بل هو يعتقد أنه على حق، وذلك هو قصده ونيته، وقد قال تعالى: وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم [الأحزاب: ٥]. وهذا عام في كل خطأ، لأنه يكون عن غير قصد ولا تعمد. وقد جاء في صحيح مسلم أنه لما نزل قول الله تعالى: ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا [البقرة: ٢٨٦] قال الله: قد فعلت. فدل هذا على أن من أخطأ أو نسي فإنه غير مؤاخذ لوعد الله له بذلك وعفوه عن عباده. وقال الله تعالى: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) [البقرة: ٢٢٥]، وفي آية أخرى: (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) [المائدة: ٨٩] وهذا ليس خاصا بالخطأ في اليمين، بل هي قاعدة عامة في كل خطأ لايمكن العلم بالحق فيه إلا من جهة الحجة الرسالية. فتبين من كل ما سبق أنه لابد قبل الحكم على المعين من التحقق من قصد المعين بضوابطه الشرعية، وأن ذلك ركن مشروط في الحكم عليه مع تحقق

=

=

المخالفة في الظاهر، ثم يقال بعد تقرير هذا: إذا كان تحقق القصد إلى المخالفة شرطا في التأثيم والمؤاخذة، فقد لا يكفي مجرد بلوغ الحجة في إزالة الشبهة، فقد يتأول من عنده شبهة تلك الحجة لتوافق شبهته، غير قاصد تكذيب الرسول ﷺ ولا رد الشريعة، ولكنه يظن أن ذلك هو مفهوم الحجة، ومثل هذا معذور إذا تأول، لأنه في الحقيقة مخطئ فكيف يقال مع هذا إن مجرد بلوغ الحجة كاف في قيامها على المعين مطلقا، وعدم إعذاره إذا كان له شبهة؟

وهذا الذي تقرر من الإعذار بالشبهة، ولو مع بلوغ الحجة إذا تأولها المتأول، بحيث نعلم من حاله أنه غير مكذب لها ولا مستحل مخالفتها هو منهج سلف الأمة وأئمتها، وقد يطلقون القول بكفر من قال كذا، كما أطلق الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول بكفر من قال بخلق القرآن لكنهم لا يلتزمون بذلك في الحكم على كل معين لأن الكلام في حكم القول من جهة وصفه الشرعي غير الحكم على المعين بذلك الحكم، ولو تلبس بما هو كفر في الشرع ولو لم تكن الشبهة عذرا معتبرا للزوم تكفير المتكلمين بتأويلهم لنصوص الصفات، وحملهم لها على المجاز، وأنها ليست ثابتة لله على الحقيقة، لظنهم أن ذلك يستلزم تشبيه الله بخلقه، فردهم لنصوص الصفات مبني على إرادة التنزيه لله عن مشابهة خلقه حسب ظنهم وعلى هذا فهم لم يريدوا رد تلك النصوص تكذيبا بها، فرد النصوص كفر، لكن من تحقق منه ذلك قد يكون مكذبا بالنص فيكون كافرا، وقد يكون له شبهة فلا يكون مكذبا فلابد من التفريق بين التكفير المطلق وتكفير المعين ولذلك لم يكفر الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كل من دعا إلى القول بخلق القرآن بعينه، مع قوله إن القول بخلق القرآن كفر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨٧ - ٤٨٩): إن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين، إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه.

فإن الإمام أحمد مثلا قد باشر الجهمية الذين دعوه إلى خلق القرآن، ونفي الصفات وامتحنوه وسائر علماء وقته، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب والحبس والقتل والعزل عن الولايات وقطع الأرزاق ورد الشهادة وترك تخليصهم من أيدي العدو، بحيث كان كثير من أولي الأمر إذا ذاك من الجهمية

=

=

من الولاة والقضاة وغيرهم، يكفرون كل من لم يكن جهميا موافقا لهم على نفي الصفات، مثل القول بخلق القرآن، ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر).

إلى أن قال: (ومعلوم أن هذا من التجهم، فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها، وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب، ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم، فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع. وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية الذين كانوا يقولون: القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة، فأما أن يذكر عنه في المسألة روايتان ففيه نظر، أو يحمل الأمر على التفضيل فيقال: من كفره بعينه فلقيام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير وانتفت موانعه، ومن لم يكفره بعينه فلانتفاء ذلك في حقه. هذا مع إطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم.اهـ.

وقال في المسائل الماردينية (ص١٢٦) عن نفس المسألة: فالإمام أحمد رضي الله تعالى عنه ترحم عليهم واستغفر لهم لعلمه بأنه لم يتبين لهم أنهم مكذبون للرسول ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطئوا وقلدوا من قال ذلك لهم.اهـ.

فهذا الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ لم يكفر من أطلق القول بتكفيرهم على العموم، مع أنه قد بلغهم حجة الله في ذلك وجادلهم وعرفوا ما عنده مما يبين حكم الله فيما يقولونه من الكفر، وكان هو في وقته عالم وعلم الأمة، وإمام أهل السنة، فلم يكن المانع من تكفيرهم إلا ما عرفه الإمام أحمد من حالهم، وأنهم لم يقصدوا التكذيب بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنما ظنوا أن قولهم هو الحق، لما عرض لهم من الشبه في ذلك، فعذرهم ولم يكفرهم بأعيانهم، مع قيامه بحجة الله وبيان أن قولهم كفر، ولهذا لم يكفر الإمام ابن تيمية الذين جادلوه من الجهمية في عصره مع أن قولهم كفر، ويحكى ذلك عن نفسه فيقول في الرد على البكري (ص: ٢٥٩): كنت أقول للجهمية من الحلولية - ليس المقصود بالحلولية هنا أهل الحلول والاتحاد، وإنما المقصود الجهمية الذين ينفون أسماء الله وصفاته وكونه على العرش استوى-، والنفاة الذين نفوا أن الله فوق العرش لما وقعت محنتهم: أنا لو وافقتكم كنت كافرا لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال، وكان هذا خطابا لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم. وأصل جهلهم

=

(فرع): قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص

أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص فالمسألة نسبية فقد تقوم الحجة على أهل هذا البلد لانتشار العلم والعلماء، ولا تقوم على بلد آخر لضعف من يدعو ويبلغ، وقد تقوم الحجة على هذا الشخص لعلمه وفهمه، ولا تقوم على آخر لعدم تمكنه من العلم لأنه حديث عهد

=

شبهات عقلية حصلت لرؤوسهم، في قصور من معرفة المنقول الصحيح والمعقول الصريح الموافق له.اهـ.

وما وصف به الإمام ابن تيمية هؤلاء من الجهل إنما هو ما حصل لهم من الشبهات التي اقتضت ما قالوه من الكفر، لا أنهم جهال لم تبلغهم الحجة. كيف وقد جادلهم في ذلك، وبين حكم الله فيما قالوه، وبين لهم أن قولهم كفر.

وعلى هذا فقيام الحجة لا يكفي فيه مجرد بلوغها، بل لابد مع ذلك من فهم تلك الحجة، وألا تعرض للمعين شبهة معتبرة تمنعه من اعتقاد ما هو مقتضى تلك الحجة، وإلا كان معذورا إذا تأولها، لا فرق في ذلك بين الشبهة في المقالات الخفية وغيرها، ولا الشبهة عند من نشأ ببادية أو كان حديث عهد بإسلام أو لم يكن كذلك، وذلك أن كون المقالة خفية من الأمور النسبية التي تختلف بحسب أحوال الناس، فلا بد من اعتبار تلك الأحوال، والتبين والتثبت من تحقق شروط التكفير وانتفاء موانعه قبل المعين، وهذا الذي تقرر هو منهج أهل السنة، الذين هم أعلم الناس بالحق وأرحمهم بالخلق، وأما غيرهم من الفرق فقد أسرفوا في تكفير مخالفيهم، بناء على ما قرروه من أن ما هم عليه أصول لا يعذر أحد بمخالفتها لشبهة أو لغير شبهة. وقد تهافتوا في ذلك من غير ضابط، حتى كفروا مخالفيهم بالجزئيات الخفية فضلا عن الظاهرة، وبالإلزام فضلا عن الالتزامات، بل أكثر ما يكفرون به ليس كفرا في الأصل وحكم الشرع، وعدم الجزم بتكفير من تأول لشبهة، ولو كان تأوله كفرا مبني على أصل، وهو أن من تحقق منه ذلك ثبت له وصف الإسلام بيقين، والحكم عليه بالكفر، مع ظهور ما يدل على أن قصده ليس تكذيب الرسول ﷺ ولا مضادة الشريعة مجازفة وتهور من غير بينة ولا برهان. وأحكامنا مبينة على الظاهر، وظاهر من كان كذلك لا قطع فيه بالكفر.

بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة ونحو ذلك.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوي (١١/ ٤٠٧): وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرًا مما يبعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر، ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام، فأنكر شيئًا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول.

وقال أيضًا في مجموع الفتاوى (١١/ ٤٠٧): ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه، أو لم يعلم أن الخمر يحرم لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا وتحريم هذا بل ولم يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية.

وقد فصل في هذا المعنى، وزاده إيضاحًا الإمام الخطابي حيث قال في معالم السنن للخطابي (٢/ ٨): وهل إذا أنكرت طائفة من المسلمين في زماننا فرض الزكاة، وامتنعوا عن أدائها يكون حكمهم حكم أهل البغي؟.

قلنا: لا، فإن من أنكر فرض الزكاة في هذه الأزمان كان كافرًا بإجماع المسلمين والفرق بين هؤلاء وأولئك أنهم إنما عذروا لأسباب وأمور لا يحدث مثلها في هذا الزمان، منها قرب العهد بزمان الشريعة الذي كان يقع فيه تبديل الأحكام بالنسخ، ومنها أن القوم كانوا جهالًا بأمور الدين وكان عهدهم بالإسلام قريبًا فدخلتهم الشبهة فعذروا، فأما اليوم وقد شاع دين الإسلام، واستفاض في المسلمين علم وجوب الزكاة حتى عرفها الخاص والعام واشترك فيه العالم والجاهل، فلا يعذر أحد بتأول يتأوله في إنكارها، وكذلك الأمر في كل

من أنكر شيئا مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين إذا كان علمه منتشرًا كالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان والاغتسال من الجنابة وتحريم الزنا والخمر ونكاح ذوات المحارم ونحوها من الأحكام إلا أن يكون رجلًا حديث عهد بالإسلام ولا يعرف حدوده فإنه إذا أنكر شيئًا منها جهلًا به لم يكفر وكان سبيله سبيل أولئك القوم في بقاء اسم الدين عليه، فأما ما كان الإجماع فيه معلومًا من طريق علم الخاصة كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها وأن القاتل عمدًا لا يرث، وأن للجدة السدس وما أشبه ذلك من الأحكام فإن من أنكرها لا يكفر بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها في العامة.اهـ.

ومثال ذلك ما قاله الإمام ابن قدامة في المغني (ص: ١٣١ - ١٣٢) في حكم من جحد وجوب الصلاة: ولا خلاف بين أهل العلم في كفر من تركها جاحدًا لوجوبها إذا كان ممن لا يجهل مثله ذلك، فإن كان ممن لا يعرف الوجوب كحديث الإسلام والناشيء بغير دار الإسلام أو بادية بعيدة عن الأمصار وأهل العلم، لم يحكم بكفره، وعرف ذلك وتثبت له أدلة وجوبها فإن جحدها بعد ذلك كفر، وأما الجاحد لها ناشئا في الأمصار بين أهل العلم فإنه يكفر بمجرد جحدها، وكذلك الحكم في مباني الإسلام كلها وهي الزكاة والصيام، والحج لأنها مبادئ الإسلام وأدلة وجوبها لا تكاد تخفى إذ كان الكتاب والسنة مشحونين بأدلتها والإجماع منعقد عليها، فلا يجحدها إلا معاند للإسلام يمتنع من التزام الأحكام غير قابل لكتاب الله تعالى ولا سنة رسوله ولا إجماع أمته، إلى أن يقول: وكذلك كل جاهل بشيء يمكن أن يجهله لا يحكم بكفره حتى يعرف ذلك وتزول الشبهة ويستحله بعد ذلك.

ويمكن أن نستخلص من أقوال الأئمة السابقة ما يلي

أ- اتفاق الأئمة على أن حديث العهد بالإسلام أو من نشأ ببادية بعيدة يعذر بجهل الأحكام الظاهرة المتواترة كوجوب الصلاة والزكاة وتحريم شرب الخمر .. الخ.

ب- أن من أنكر هذه الأمور في دار إسلام وعلم ولم يكن حديث عهد بإسلام أنه يكفر بمجرد ذلك، وبذلك ندرك خطأ من يظن أن الجاهل لا يكفر مطلقًا.

ج- أن هناك أحكامًا ظاهرة متواترة مجمع عليها ومسائل خفية غير ظاهرة ولكنها لا تعرف إلا من طريق الخاصة من أهل العلم. فهذه من أنكرها من العامة لا يكفر، ولكن من أنكرها من الخاصة يكفر إذا كان مثله لا يجهلها.

د- أيضًا يمكن أن يقاس على حديث العهد بالإسلام ومن نشأ ببادية بعيدة، من ينشأ في بلاد يكثر فيها الشرك والانحراف وتضعف بينهم دعوة التوحيد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على البكري (ص٣٧٦). بعدما ذكر بعض أنواع الشرك: وإن ذلك من الشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ مما يخالفه.اهـ.

وقول الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب كما في مجموعة الشيخ فتاوى ومسائل (٩/ ١١): وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبر عبد القادر، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي، وأمثالهما، لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم ...اهـ.

وقول الإمام عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب كما في الهدية السنية (٤٦، ٤٧) عن بعض من يعمل الشرك إنه لا يكفر: لعدم من يناضل في هذه المسألة في

وقته بلسانه، وسيفه وسنانه، فلم تقم عليه الحجة ولا وضحت له المحجة.اهـ.

وقال العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٥/ ٦٢٧): أنا لا أكفر هؤلاء العامة الذين يطوفون حول القبور لغلبة الجهل، بل وقلت- ولعل الأخ أبو الحسن يذكر هذا: أنني أتعجب من بعض العلماء الذين يقولون بأنه لا يوجد اليوم أهل فترة، فأنا أقول أهل الفترة موجودون خاصة في بلاد الكفر أوروبا وأمريكا ووإلى آخره، بل أنا أقول قولة ما أظن أحد يقولها اليوم، أنا أقول: أهل الفترة موجودون بين ظهرانينا، وأعني هؤلاء الجهلة الذين يجدون من يؤيد ضلالهم: استغاثتهم بغير الله، والنذر لغير الله والذبح لغير الله، ويسمون هذه الشركيات كلها بالتوسل، والتوسل كما تعلمون نوعان، فهؤلاء من أين لنا أن نكفرهم وهم لم تبلغهم دعوة الكتاب والسنة، أعني هؤلاء العامة والمضللين من بعض الخاصة، والبعض الآخر قد يوجدون في بلد، ولا يوجدون في بلد آخر، هذا الكلام الذي تلوته علي آنفًا أنا متأثر به جدًا جدًا، حتى قلت أن أهل الفترة اليوم يعيشون بين ظهرانينا يصلون معنا، ويصومون، ويحجون، لكن هم ما يفقهون ماذا يقولون حينما يقولون أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله وهو كما أشرتم في كلامكم، فيما قرأتم؛ لا بد قبل كل شيء من تحققنا من حال هذا المتكلم بأنه عالم بما يقول ويعني ما يقول، فإذا انتفى أحد الأمرين لم يجز لنا بحقه إلا التعزير.اهـ.

وسئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٢٨/ ٢١٧) عن: حكم العذر بالجهل في العقائد وغيرها؟

فأجاب: الجهل يكون فيما يمكن خفاؤه، أما الأمور الظاهرة من الدين فلا يعذر فيها الجاهل؛ كأمور التوحيد وأمور الصلاة، لو قال: ما أعرف الصلاة وهو

بين المسلمين، ما أعرف أن الصلاة مشروعة، أو ما أعرف الزكاة، أو ما أعرف الصيام ما يعذر بالجهل، أو قال: ما أعرف أن الزنا محرم ما يطاع، أو قال: ما أعرف أن اللواط محرم وهو بين المسلمين، ما يطاع، أو قال: ما أعرف أن الخمر محرم ما يطاع.

أما الذي يمكن جهله مثل بعض الصفات، صفات الله التي خفيت عليه أو ما درى أنها من صفات الله فأنكرها، ثم علم وبين له ما يكفر بذلك؛ لأن مثل هذا قد يجهل بعض الصفات أو مثل بعض حقوق النبي ﷺ جهلها ما درى عن بعض الحقوق التي تخفى على العامي أو ما أشبه ذلك، أو إنسان في أطراف أمريكا أو أطراف أفريقيا في بعض المحلات البعيدة عن الإسلام، مثل هذا كأهل الفترة يبين له ولا يكفر حتى يبين له ويعلم، فإذا ما أصر على ذلك وأصر على الكفر يقتل.

الذي يتولاه مسلم أو الدولة المسلمة تحكم به عليه، والحاصل أنه يعذر بالجهل في المسائل التي قد يخفى مثلها، ويكون حكمه حكم أهل الفترات إذا لقي الله جل وعلا.

والصحيح الذي جاءت به الأحاديث أنه يمتحن يوم القيامة ضمن أهل الفترة، فإن أجاب إلى الحق دخل الجنة، ومن عصى دخل النار، وأما في الدنيا ينظر فيه إذا ظن أنه يجهل، وولي الأمر إذا أراد أن يقيم الحد عليه يقيم التعزير عليه إن كان مثله يجهل هذا الشيء وينبهه، لكن لا يترك الحد عليه وهو بين المسلمين ممن يخفى على المسلمين مثل ما تقدم، يقول: أنا لا أعرف أن الناس يصلون، يقول: ما أدري عن الصلاة ولا أعرف الزكاة ولا أعرف الصيام ولا أعرف الجهاد، هذا لا يطاع؛ لأن هذا من التلاعب بالدين.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح (٤٨ / السؤال رقم ١٥): ما رأي فضيلتكم بمن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم يذبح لغير الله، فهل يكون مسلما ؟ مع العلم أنه نشأ في بلاد الإسلام ؟ .

فأجاب: الذي يتقرب إلى غير الله بالذبح له مشرك شركا أكبر، ولا ينفعه قول "لا إله إلا الله" ولا صلاة ولا غيرها اللهم إلا إذا كان ناشئا في بلاد بعيدة لا يدرون عن هذا الحكم، فهذا معذور بالجهل، لكن يعلم كمن يعيش في بلاد بعيدة يذبحون لغير الله، ويذبحون للقبور ويذبحون للأولياء وليس عندهم في هذا بأس ولا علموا أن هذا شرك أو حرام فهذا يعذر بجهله، أما إنسان يقال له: هذا كفر فيقول لا ولا أترك الذبح للولي فهذا قامت عليه الحجة فيكون كافرا.

السائل: فإذا نصح وقيل له إن هذا شرك، فهل أطلق عليه إنه "مشرك" و "كافر"؟.

الشيخ: نعم، مشرك، كافر، مرتد، يستتاب، فإن تاب وإلا قتل .

السائل: وهل هناك فرق بين المسائل الظاهرة والمسائل الخفية ؟ .

الشيخ: الخفية تبين، مثل هذه المسألة، لو فرضنا أنه يقول: أنا أعيش في قوم يذبحون للأولياء، ولا أعلم أن هذا حرام: فهذه تكون خفية؛ لأن الخفاء والظهور أمر نسبي، قد يكون ظاهرا عندي ما هو خفي عليك، وظاهر عندك ما هو خفي علي .

السائل: وكيف أقيم الحجة عليه ؟ وما هي الحجة التي أقيمها عليه ؟ .

الشيخ: الحجة عليه ما جاء في قوله تعالى: (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت) الأنعام/ ١٦٢، ١٦٣، وقال تعالى: (إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر) الكوثر/ ١، ٢، فهذا

دليل على أن النحر للتقرب والتعظيم عبادة، ومن صرف عبادة لغير الله: فهو مشرك

فإذا بلغت الحجة وقيل له: هذا الفعل الذي تفعله شرك، ففعله: لم يعذر .

السائل: إذن يعرف ؟ .

الشيخ: نعم، لا بد أن يعرف .

السائل: هناك شبهة وهي أنه يقال إن فعله شرك وهو ليس بمشرك ! فكيف نرد؟.

الشيخ: هذا صحيح، ليس بمشرك إذا لم تقم عليه الحجة، أليس الذي قال: (اللهم أنت عبدي وأنا ربك) قال كفرا ؟ ومع ذلك لم يكفر؛ لأنه أخطأ من شدة الفرح، وأليس المكره يكره على الكفر فيكفر ظاهرا لا في قلبه، وقلبه مطمئن بالإيمان ؟ والعلماء الذين يقولون "كلمة كفر دون صاحبها" هذا إذا لم تقم عليه الحجة، ولم نعلم عن حاله، أما إذا علمنا عن حاله: فما الذي يبقى ؟ نقول: لا يكفر ؟ معناه: لا أحد يكون كافرا ؟ أي لا يبقى أحد يكفر، حتى المصلي الذي لا يصلي نقول: لا يكفر ؟ حتى ابن تيمية يقول إذا بلغته الحجة: قامت عليه الحجة ولا يكفي مجرد بلوغ الحجة حتى يفهمها؛ لأنه لو فرضنا أن إنسانا أعجميا وقرأنا عليه القرآن صباحا ومساء لكن لا يدري ما معناها: فهل قامت عليه الحجة ؟ قال تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) إبراهيم/ ٤ .اهـ.

إذًا الحجة تختلف من بلد إلى آخر ومن زمن إلى آخر، وكذلك تختلف الأنظار والاجتهادات بالنسبة لقيام الحجة على الأشخاص، فقد يرى شخص أن الحجة قائمة على فلان أو على أهل البلد الفلاني، لانتشار العلماء والدعاة

وطلبة العلم والكتب والأشرطة والمذياع وما يشبه ذلك، وقد يرى آخر أنه رغم انتشار الدعاة وطلبة العلم إلا أنهم لا يعتنون بمسائل التوحيد والشرك، أو أنهم أنفسهم مصابون بهذا الداء، فمن أين يعرف أهل بلدهم حقيقة التوحيد؟

وأعظم ما يؤدي إلى هذا الاختلاف واللبس أمران أحدهما: التقصير في الدعوة إلى الله وإقامة الحجة على الجهال والبدء بالأهم فالمهم، والثاني: عدم وجود السلطة التي تقيم الحجة وتستتيب من يصر، والتي بها يتضح للناس من قامت عليه الحجة ومن لم تقم، ولعل هذا من أبرز أسباب كثرة الكلام حول هذه المسألة بين المتأخرين والله أعلم. انظر كتاب نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف.

(فرع): عدم التكفير بكل ذنب

من الأصول المجمع عليها عند أهل السنة: أنهم لا يكفرون أحدًا من أهل القبلة بذنب- ما لم يستحله، ويقصدون بالذنب - الذي لا يكفر صاحبه- فعل الكبائر أو الصغائر أو ترك الواجبات، خلافًا للوعيدية، الذين يكفرون أهل الكبائر، وبعضهم يكفر أهل الصغائر، لكن قد يفهم البعض من عبارات السلف في ذلك أنهم لا يكفرون بكل ذنب، مطلقًا، فدفعًا لهذا اللبس (امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنا لا نكفر أحدًا بذنب، بل يقال: لا نكفرهم بكل ذنب، كما تفعله الخوارج وفرق بين النفي العام، ونفي العموم)[١].

فالنفي العام قد يفهم منه عدم تكفير المعين مطلقًا مهما عمل من الذنوب، ولو عمل النواقض، أما نفي العموم، فيفهم منه أنهم يكفرون ببعض الذنوب، ولا يكفرون ببعضها فمن الذنوب التي يكفر مرتكبها نواقض الإسلام الكبرى

---

(١) شرح الطحاوية (ص: ٣٥٦).

المعلومة، ومن ذلك - أيضًا - الخلاف المشهور عند أهل السنة في التكفير بترك الأركان وخاصة الصلاة، أما الذنوب التي لا يكفرون بها ففعل الكبائر وترك الواجبات ما لم يستحل الكبائر، أو ينكر الواجبات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية: وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج؛ بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه وتعالى في آية القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقال: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِين * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩-١٠]

قال الشيخ خليل الهراس رَحِمَهُ اللهُ في شرح كلام شيخ الإسلام المتقدم (ص ٢٣٣): ومع أن الإيمان المطلق مركَّب من الأقوال والأعمال والاعتقادات؛ فهي ليست كلها بدرجة واحدة؛ بل العقائد أصلٌ في الإيمان، فمَن أنكر شيئًا مما يجب اعتقاده في الله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر أو مما هو معلومٌ من الدين بالضرورة؛ كوجوب الصلاة، والزكاة، وحرمة الزنا والقتل إلخ؛ فهو كافرٌ، قد خرج من الإيمان بهذا الإنكار.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في شرح الواسطية (٢/ ٢٣٧) في شرحه لكلام ابن تيمية المتقدم: فالمسلم عند أهل السنة والجماعة لا يكفر بمطلق المعاصي والكبائر.

والفرق بين الشيء المطلق ومطلق الشيء: أن الشيء المطلق يعني الكمال، ومطلق الشيء؛ يعني: أصل الشيء.

فالمؤمن الفاعل للكبيرة عنده مطلق الإيمان؛ فأصل الإيمان موجود عنده لكن كماله مفقود، فكلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ دقيق جدًا.

آية القصاص هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] والمراد ب (أخيه) هو المقتول، ووجه الدلالة من هذه الآية على أن فاعل الكبيرة لا يكفر أن الله سمى المقتول أخًا للقاتل، مع أن قتل المؤمن كبيرة من كبائر الذنوب.

وقال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ [الحجرات: ٩-١٠] (اقتتلوا) جمع، و (بينهما) مثنى، و (طائفتان) مثنى؛ فكيف يكون مثنى وجمع ومثنى آخر والمرجع واحد؟! نقول: لأن قوله: (طائفتان): الطائفة عدد كبير من الناس، فيصح أن أقول: اقتتلوا، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢]، ولم يقل: لم تصل. فالطائفة أمة وجماعة، ولهذا عاد الضمير إليها جمعًا فيكون الضمير في قوله (اقتتلوا) عائدًا على المعنى، وفي قوله: (بينهما) عائدًا على اللفظ.

فهاتان الطائفتان من المؤمنين اقتتلوا، وحمل السلاح بعضهم على بعض، وقتال المؤمن للمؤمن كفر، ومع هذا قال الله تعالى بعد أن أمر بالصلح بينهما للطائفة الثالثة التي لم تدخل القتال: وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا

بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [الحجرات: ٩]، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [الحجرات ١٠]، فجعل الله تعالى الطائفة المصلحة إخوة للطائفتين المقتتلتين.

وعلى هذا؛ ففي الآية دليل على أن الكبائر لا تخرج من الإيمان.

وعلى هذا؛ لو مررت بصاحب كبيرة؛ فإني أسلم عليه؛ لأن النبي ﷺ ذكر من حقوق المسلم على المسلم (إذا لقيته فسلم عليه)[1]، وهذا الرجل ما زال مسلمًا، فأسلم عليه؛ إلا إذا كان في هجره مصلحة؛ فحينئذ أهجره للمصلحة؛ كما جرى لكعب بن مالك وصاحبيه الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فهجرهم المسلمون خمسين ليلة حتى تاب الله عليهم[2]، وهل نحبه على سبيل الإطلاق أو نكرهه على سبيل الإطلاق؟ نقول: لا هذا ولا هذا؛ نحبه بما معه من الإيمان، ونكرهه بما معه من المعاصي، وهذا هو العدل.اهـ.

وقال العلامة الألباني في التعليق على متن الطحاوية (ص٦١ - ٦٣): معلِّقًا على قول صاحب الطحاوية: (ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله)

قلت: يعني استحلالًا قلبيًا اعتقاديًا، وإلا فكل مذنب مستحل لذنبه عمليًا، أي: مرتكب له، ولذلك فلا بد من التفريق بين المستحل اعتقادًا فهو كافر إجماعًا، وبين المستحل عملًا لا اعتقادًا، فهو مذنب يستحق العذاب اللائق به، إلا أن يغفر الله له، ثم ينجيه إيمانه، خلافًا للخوارج والمعتزلة الذين يحكمون

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) قصة كعب بن مالك رضي الله عنه في الصحيحين رواها البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

عليه بالخلود في النار، وإن اختلفوا في تسميته كافرًا أو منافقًا.

وقد نبتت نابتة جديدة اتبعوا هؤلاء في تكفيرهم جماهير المسلمين رؤوسًا ومرؤوسين، اجتمعت بطوائف منهم في سوريا ومكة وغيرها، ولهم شبهات كشبهات الخوارج، مثل النصوص التي فيها من فعل كذا فقد كفر، وقد ساق الشارح رحمه الله تعالى طائفة منها هنا، ونقل عن أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص - أن الذنب أي ذنب كان هو كفر عملي لا اعتقادي، وأن الكفر عندهم على مراتب: كفر دون كفر كالإيمان عندهم، ثم ضرب على ذلك مثالًا هامًا طالما غفلت عن فهمه النابتة المشار إليها فقال رحمه الله تعالى (ص ٣٦٣): وهنا أمر يجب أن يُتفطن له، وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرًا ينقل عن الملة، وقد يكون معصية: كبيرة أو صغيرة.

ويكون كفرًا: إما مجازيًا وإما كفرًا أصغر على القولين المذكورين، وذلك بحسب حال الحاكم؛ فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، وأنه مخير فيه، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله: فهذا كفر أكبر، وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله، وعلمه في هذه الواقعة، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا عاص، ويسمى كافرًا كفرًا مجازيًا، أو كفرًا أصغر، وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأه، فهذا مخطئ له أجر على اجتهاده، وخطؤه مغفور.

(فرع): اعتبار المقاصد

إن مما ينبغي مراعاته في موضوع نواقض الإيمان: مسألة اعتبار المقاصد، فينظر إلى قصد ومراد من قد يكون متلبسًا بكفر، مع النظر في نفس الوقت إلى ما ظهر منه من قول أو فعل، فهناك ارتباط وتلازم بين الباطن (القصد) والظاهر

ومما أورده ابن تيمية في اعتبار المقاصد قوله في الصارم المسلول (ص١٧٩، ١٨٠): ولما قال النبي ﷺ (من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي) قال له سعد بن معاذ (أنا أعذرك، إن كان من الأوس ضربت عنقه ..)[1] والقصة مشهورة فلما لم ينكر ذلك عليه، دل على أن من آذى النبي ﷺ وتنقصه يجوز ضرب عنقه، والفرق بين ابن أبيّ وغيره ممن تكلم في شأن عائشة، أنه كان يقصد بالكلام فيها عيب رسول الله ﷺ والطعن عليه، وإلحاق العار به، ويتكلم بكلام ينتقصه به، فلذلك قالوا: نقتله، بخلاف حسان ومسطح وحمنة، فإنهم لم يقصدوا ذلك، ولم يتكلموا بما يدل على ذلك، ولهذا إنما استعذر النبي ﷺ من ابن أبيّ دون غيره.اهـ.

ويقول أيضًا في الصارم المسلول (ص٥٦٢): فإن سب موصوفًا بوصف أو مسمى باسم، وذلك يقع على الله سبحانه، أو بعض رسله خصوصًا أو عمومًا، ولكن قد ظهر أنه لم يقصد ذلك، إما لاعتقاده أن الوصف أو الاسم لا يقع عليه، أو لأنه وإن كان يعتقد وقوعه عليه، لكن ظهر أنه لم يرده لكون الاسم في الغالب لا يقصد به ذلك بل غيره، فهذا القول وشبهه حرام في الجملة، يستتاب صاحبه منه إن لم يعلم أنه حرام، ويعزر مع العلم تعزيزًا بليغًا لكن لا يكفر بذلك ولا يقتل، وإن كان يخاف عليه الكفر.اهـ.

ويقول في الرد على البكري (ص: ٣٤١، ٣٤٢): إن المسلم إذا عنى معنى صحيحًا في حق الله تعالى، أو الرسول ﷺ، ولم يكن خبيرًا بدلالة الألفاظ، فأطلق لفظًا يظنه دالًا على ذلك المعنى، وكان دالًا عل غيره أنه لا يكفر ... وقد قال تعالى: (لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا) [البقرة: ١٠٤] وهذه العبارة كانت مما يقصد به

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

اليهود إيذاء النبي ﷺ، والمسلمون لم يقصدوا ذلك فنهاهم الله تعالى عنها، ولم يكفرهم بها.اهـ.

ولما تحدث السبكي في فتاواه (٢/ ٥٩١، ٥٩٢) عن مسألة إيذاء النبي ﷺ بقول أو نحوه، قال: (لكن الأذى على قسمين أحدهما: يكون فاعله قاصدًا لأذى النبي ﷺ، ولاشك أن هذا يقتضي القتل، وهذا كأذى عبدالله بن أبي في قصة الأفك، والآخر أن لا يكون فاعله قاصدًا لأذى النبي ﷺ مثل كلام مسطح وحمنة في الإفك، فهذا لا يقتضي قتلًا.

ومن الدليل على أن الأذى لابد أن يكون مقصودًا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. فهذه الآية في ناس صالحين من الصحابة، لم يقتض ذلك الأذى كفرًا، وكل معصية ففعلها مؤذي، ومع ذلك فليس بكفر، فالتفصيل في الأذى الذي ذكرناه يتعين.اهـ.

وإذا أشرنا إلى مسألة اعتبار المقاصد في موضوع نواقض الإيمان، فإن هذه المسألة لا تنفك عن مسألة الإرتباط والتلازم بين الظاهر والباطن.

يقول ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٨٢) موضحًا هذا التلازم: إذا نقصت الأعمال الظاهرة الواجبة، كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلا يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب أن تعدم الأعمال الظاهرة الواجبة، بل يلزم من وجود هذا كاملًا وجود هذا كاملًا، كما لزم من نقص هذا، نقص هذا، إذ تقدير إيمان تام في القلب بلا ظاهر من قول وعمل، كتقدير موجب بلا موجبه، وعلة تامة بلا معلولها، وهذا ممتنع.اهـ.

ويقول أيضًا في مجموع الفتاوى (٧/ ٦١٦): إن جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب، وإنّ إيمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع،

سواء جعل الظاهر من لوازم الإيمان أو جزءًا من الإيمان.اهـ.

كما يقرر في شرح الأصفهانية (ص: ١٤٢)أن الإيمان القلبي لما كان له موجبات في الظاهر، فإن الظاهر دليل على إيمان القلب ثبوتًا وانتفاء، كقوله تعالى: (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ) [المجادلة: ٢٢]، وقوله ﷻ (وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء) [المائدة: ٨١].

ويقول الشاطبي في الموافقات (١/ ٢٣٣): الأعمال الظاهرة في الشرع دليل على ما في الباطن، فإن كان الظاهر منخرماً، حكم على الباطن بذلك، أو مستقيمًا حكم على الباطن بذلك أيضًا، وهو أصل عام في الفقه، وسائر الأحكام العاديات، والتجريبيات، بل الالتفات إليها من هذا الوجه نافع في جملة الشريعة جدًا.اهـ.

وهذا التلازم بين الظاهر والباطن، ليس تلازمًا بإطلاق، فقد لا يكون العمل الظاهر مستلزمًا لإيمان القلب (الباطن) حقيقة، كما هو الشأن في حال المنافقين، ومن ثم فيتعين عدم الخلط بين أحكام الدنيا، وأحكام الآخرة فالمنافق مثلًا في أحكام الدين تجري عليه أحكام أهل الإسلام الظاهرة، وإن كان في الحقيقة وفي الحكم الأخروي من الكافرين، وفي الدرك الأسفل من النار، وإليك أقوال أهل العلم في هذه المسألة على النحو التالي:

يقول الإمام الشافعي في الأم (١/ ٢٥٩): وإنما كلف العباد الحكم على الظاهر من القول والفعل، وتولى الله الثواب على السرائر دون خلقه، وقد قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ

اللهِ [المنافقون: ١ - ٢].اهـ.

ثم قال في نفس المصدر (١/ ٢٦٠): وأحكام الله ورسوله تدل على أنه ليس لأحد أن يحكم على أحد إلا بظاهر، والظاهر ما أقر به، أو قامت به بينة تثبت عليه.اهـ.

ويقول أيضًا في نفس المصدر (٦/ ١٥٧): أخبر ﷻ عن المنافقين بالكفر، وحكم فيهم بعلمه من أسرار خلقه ما لا يعلمه غيره بأنهم في الدرك الأسفل من النار، وأنهم كاذبون بأيمانهم، وحكم فيهم جلّ ثناءه في الدنيا بأن ما أظهروا من الإيمان، وإن كانوا به كاذبين لهم جنة من القتل، وهم المسرون الكفر المظهرون الإيمان وبيّن رسول الله ﷺ - إذ حقن الله تعالى دماء من أظهر الإيمان بعد الكفر - أن لهم حكم المسلمين من الموارثة والمناكحة وغير ذلك من أحكام المسلمين، فكان بيّنًا في حكم الله ﷻ في المنافقين، ثم حكم رسول الله صلى الله عيه وسلم أن ليس لأحد أن يحكم على أحد بخلاف ما أظهر من نفسه، وأن الله ﷻ إنما جعل للعباد الحكم على ما أظهر، لأن أحدًا لا يعرف ما غاب إلا ما علمه الله ﷻ.اهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميه في مجموع الفتاوى (٧/ ٦١٧): إن كثيرًا من الفقهاء يظن أن من قيل هو كافر، فإنه يجب أن تجري عليه أحكام المرتد ردةً ظاهرة، فلا يرث ولا يورث، ولا يناكح وليس الأمر كذلك، فإنه قد ثبت أن الناس كانوا (ثلاث أصناف) مؤمن، وكافر مظهر للكفر، ومنافق مظهر للإسلام مبطن للكفر، وكان في المنافقين من يعلمه الناس بعلامات ودلالات، بل من لا يشكون في نفاقه، ومن نزل القرآن ببيان نفاقه - كابن أبيّ وأمثاله ومع هذا فلما مات هؤلاء ورثهم ورثتهم المسلمون، وكان إذا مات له ميت، آتوهم ميراثه،

وكانت تعصم دماءهم، حتى تقوم السنة الشرعية على أحدهم بما يوجب عقوبته.اهـ.

ويقول أيضًا في مجموع الفتاوى (٧/ ٦٢٠، ٦٢١): وبالجملة فأصل هذه المسائل أن تعلم أن الكفر نوعان:

كفر ظاهر وكفر نفاق، فإذا تكلم في أحكام الآخرة كان حكم المنافق حكم الكفار، وأما في أحكام الدنيا فقد تجري على المنافق أحكام المسلمين.اهـ.

ولما عرض ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٣٢، ٤٣٣) مسألة الحكم على أولاد الكفار أقوال العلماء فيها قال بعد ذلك: ومنشأ الاشتباه في هذه المسألة: اشتباه أحكام الكفر في الدنيا بأحكام الكفر في الآخرة، فإن أولاد الكفار لما كانوا يجري عليهم أحكام الكفر في أمور الدنيا، مثل ثبوت الولاية عليهم لآبائهم، وحضانة آبائهم لهم، وتمكين آبائهم من تعليمهم وتأديبهم، والموارثة بينهم وبين آبائهم، واسترقاقهم إذا كان آباؤهم محاربين. وغير ذلك، صار من يظن أنهم كفار في نفس الأمر كالذي تكلم بالكفر وعمل به فإذا عرف أن كونهم ولدوا على الفطرة لا ينافي أن يكونوا تبعًا لآبائهم في أحكام الدنيا زالت الشبهة.

وقد يكون في بلاد الكفر من هو مؤمن في الباطن يكتم إيمانه من لا يعلم المسلمون حاله، إذا قاتلوا الكفار، فيقتلونه، ولا يغسل ولا يصلى عليه ويدفن مع المشركين، وهو في الآخرة من المؤمنين أهل الجنة، كما أن المنافقين تجري عليهم أحكام المسلمين، وهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، فحكم الدار الآخرة غير حكم الدار الدنيا.اهـ.

وقال الشاطبي في الموافقات (٢/ ٢٧١): إن أصل الحكم بالظاهر مقطوع

به في الأحكام خصوصًا، وبالنسبة إلى الاعتقاد في الغير عمومًا أيضًا، فإن سيد البشر ﷺ مع إعلامه بالوحي، يجري الأمور على ظواهرها في المنافقين وغيرهم، وإن علم بواطن أحوالهم، ولم يكن ذلك بمخرجه عن جريان الظواهر على ما جرت عليه.اهـ.

فإذا تقرر ما سبق، فإن القصد (الباطن) مع الظاهر في مسألة التكفير، له أحوال متنوعة، فقد يكون القصد مكفرًا دون أن يدل عليه العمل الظاهر، ومرة يكون العمل الظاهر قاطعًا في كفر الباطن، ومرة ثالثة يتلبس المعين بما هو كفر قطعًا لكن يمنع من تكفيره الإحتمال في قصده، وحالة رابعة حيث يأتي المعين بقول مجمل، أو فعل مشكل يحصل التردد في قصده ومراده، مما يوقع ترددًا وتوقفًا وإختلافًا بين العلماء في تكفيره.

فمثال الحالة الأولى التي يكون فيها القصد مكفرًا، لكن لايدل عليه العمل الظاهر، أعمال المنافقين التي هى في الظاهر طاعات، مع أنهم كفار حقيقة، لعدم إخلاصهم لله تعالى، قال تعالى: (وَمِنَ الناسِ مَن يَقُولُ آمَنا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) [البقرة: ٨]، وإن كانوا في الظاهر تجري عليهم أحكام الإسلام كما سبق، ومثال الحالة الثانية التي يكون فيها العمل الظاهر قاطعًا في كفر الباطن فمثل سب الله تعالى، وسب رسوله ﷺ ونحوها؛ لأن هذا السب لنفس الأمر كفر بذاته؛ ولا يقع من مؤمن بالله تعالى ورسوله ﷺ؛ ولذا يقول ابن تيمية في الصارم المسلول (ص: ٥١٢): إن سب الله أو سب رسوله كفر ظاهرًا وباطنًا، سواء كان الساب يعتقد أن ذلك محرم أو كان ذاهلًا عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل[1].اهـ.

---

(١) سئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٥/ ٦٠٥): هناك أناس يشتمون =

=

الذات الأهلية ورسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- والدين فهل يخرج هؤلاء من ملة الإسلام، وما التصرف الذي ينبغي أن يكون؟

فأجاب: أما هل يخرج من ملة الإسلام من يسب الذات الإلهية هذا بلا شك ما يحتاج إلى سؤال فضلًا عن جواب؛ لأنه هو الكفر الذي ذر قرنه، ولكن الذي يمكن أن يقال في مثل هذه المناسبة: أن من صدرت منه كلمة الكفر له حالة من حالتين:

إما أن يعني ما يقول، وإما أنه لا يدري ما يقول ففي الحالة الأولى الجواب السابق أنه كافر مرتد عن دينه، ولو كان هناك حاكم مسلم يحكم بما أنزل الله فهذا يصدق عليه قوله عليه السلام: «من بدل دينه فاقتلوه» لو أن مسلمًا يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، لكن مثل القاديانية أنكر أن يكون محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- خاتم الأنبياء هذا يقتل؛ لأنه أنكر شيئًا معلومًا من الدين بالضرورة، ما بالك من سب الذات الإلهية؟! ما بالك من سب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-؟! إلى آخره، فلا شك أن هذا يعتبر مرتدًا وأنه يقتل ردةً، هذا في الحالة الأولى إذا كان يعني ما يقول.

أما إن كان لا يعني ما يقول فهنا لا بد من شيء من التفصيل، إما أن يكون أعجميًا يقول كلمة عربية لا يفقه معناها وهي الكفر أو أن يكون عربيًا مستعجمًا .. نسي اللغة العربية وما عاد يفقه فتكلم بكلمة الكفر وهو لا يفهم أنها كلمة كفر، وهذا المثال في بعض الكلمات السابقة سمعتم قول الرسول عليه السلام: «من حلف بغير الله فقد كفر» فما أكثر ما نسمع من المسلمين الحلف بغير الله كيف؟ لأنهم يجهلون أن الحلف بغير الله كفر، فهل هذا يحكم بكفره؟ هذا يدخل على التفصيل السابق: إن كان يعني فهو كافر، وإن كان لا يعني فهنا يأتي البيان.

لا بد أن يذكر هذا الإنسان بأن هذا الكلام الذي يقوله هو كفر فعليه أن يرجع عنه وإلا قطع رأسه، جاء في مسند الإمام أحمد بالسند الصحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه: «أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- خطب يومًا في أصحابه فقام رجل وقال له: ما شاء الله وشئت يا رسول الله! فقال عليه السلام: أجعلتني لله ندًا قل: ما شاء الله وحده» أجعلتني لله ندًا، أي: شريكًا، ترى! هذا الصحابي الذي جلس في مجلس نبيه وقد آمن به وأنقذه الله به من الشرك إلى التوحيد لما قال له الرسول عليه السلام: «أجعلتني لله ندًا» شريكًا، ترى! هل قصد أن يجعل رسول الله شريكًا مع الله؟ الجواب: لا؛ لذلك اكتفى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بتذكير هذا الرجل أن هذه الكلمة التي

=

=

قلتها هي كلمة كفر لكن أنا أدري أنك لا تعني ما تقصد؛ ولذلك اكتفى بتذكيره ولم يطبق عليه حكم المرتد عن دينه؛ لأنه ما كان قاصدًا لما يقول.
فمن نطق إذًا بكلمة الكفر وهو يدري ما يقول فهو المرتد وحكمه القتل، ومن كان لا يدري لسبب أنه لم يعرف الدقة في المعنى الذي تضمنه كلامه كما في حديث ابن عباس أو قال كلمة الكفر وهو يدري ما يقول لكنه قالها مضطرًا، هذه صورة أخرى: فهو لا يكفر وفي ذلك نزل قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ} (النحل: ١٠٦).
كما جاء في كتب التفسير ولو أنه في السند شيء من الضعف لكن الآية معناها واضح جدًا، وهذه الرواية توضح هذا المعنى أو تزيده بيانًا وتوضيحًا أن المشركين لما أخذوا بلالًا وعدي بن حاتم الطائي وعذبوهما عذابًا شديدًا، أما بلال فذلك الرجل الصبور الذي كان تحت العذاب الشديد يطلبون منه الإشراك بالله فما يكون منه إلا أن يقول: أحد أحد، وهم يعذبونه أشد العذاب عمار بن ياسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يصبر فعرضوا عليه لما جسوا نبضه وأن صبره نفد عرضوا عليه أنه يسب الرسول ويشتمه كما هم يشتمونه حتى يتركوا سبيله، فوافقهم فقال عن الرسول بأنه ساحر شاعر كذاب، فأطلقوا سبيله، لكن سرعان ما انتبه لخطئه فجاء إلى الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ فذكر له ما فعل، وهذا من قوة إيمانه، فقال له عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئنًا بالإيمان، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ:
فإن عادوا فعد» فإن عادوا إلى تعذيبك ولم تجد مخلصًا من العذاب إلا بأن تشتمني وقلبك عامر بالإيمان .. مطمئن بالإيمان فاتخذ هذه الوسيلة ما دام أنك لا تزال في إيمانك، إذًا: كلمة الكفر لا يدان بها القائل إلا بهذا التفصيل الذي لا
بد منه، نعم.
مداخلة: من قالها في الغضب؟
الشيخ: كذلك يا أخي! لا يؤاخذ .. ربنا عَزَّ وَجَلَّ ذكر في القرآن الكريم قصة موسى مع قومه حينما ذهب لمناجاة ربه، ولما رجع وفي يده الألواح من التوراة وأخبر الخبر من أخيه موسى بأن قومه عبدوا العجل من بعده أخذ الألواح وضربها أرضًا، لو فعل هذا مسلم بالقرآن الكريم عامدًا متعمدًا يكفر فكليم الله .. كلام الله الذي هو التوراة ما يفعل هذا عامدًا، إذًا: الغضب أيضًا عذر لذلك كان من رأي بعض العلماء وهو الصواب أن حكم القاضي غضبان لا ينفذ، مطلق زوجته وهو غضبان لا ينفذ طلاقه، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان» لماذا؟ لأن الغضب يحول بين صاحبه وبين التفكير
=

=

السليم، كذلك قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا طلاق في إغلاق» الإغلاق فسر بمعنيين:
المعنى الأول: الإكراه فإذا واحد أكره رجلًا لغاية في نفسه أن يطلق زوجته وهذا يقع كثيرًا فذهب يطلقها، لا يقع هذا الطلاق؛ لأنه مكره.
فسر بالمعنى الثاني وهو الإغلاق، أي: الغضب، فإذا غضب الإنسان من زوجته في ظرف ما في حالة ما وذهب يطلقها هذا الطلاق لغو لا قيمة له، وقصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الألواح أكبر دليل على أن صاحب الغضب لا يؤاخذ ولكن هذا الغضوب ينصح بأن يملك أعصابه، ونحن ننصح هؤلاء الذين يسارعون إلى تطليق زوجاتهم بحالة غضبية ننصحهم: يا جماعة اتقوا الله، وتذكروا قول الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب» فنقول لهم: قد تسأل بعض الناس عن طلاقك لزوجتك في حالة الغضب فيطلقها منك وأنت تثق بعلمه لكن فيما بعد تندم ولات حين مندم؛ لذلك لا تغضب.
ويعجبني في هذه المناسبة حديث في صحيح البخاري: «أن رجلًا جاء إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال له: أوصني يا رسول الله، قال: لا تغضب» كأنه وجدها كلمة ليس لها قيمة «قال: يا رسول الله أوصني، قال: لا تغضب، قال: يا رسول الله أوصني، قال له: لا تغضب» ثلاث مرات، كأن الرجل في الأخير فاء لنفسه وطبقها في حياته، قال: فوجدت الخير كله في ترك الغضب؛ لذلك الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب.اهـ.
وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ١٥٢): رجل سب الدين هو في حالة غضب شديد، فما حكمه ؟ وما هي شروط التوبة من هذا الفعل ؟ وهل ينفسخ نكاح زوجته ؟.
فأجاب: الحكم فيمن سب الدين الإسلامي أنه يكفر، فإن سب الدين والاستهزاء به ردة عن الإسلام وكفر بالله عَزَّ وَجَلَّ وبدينه، وقد حكى الله عن قوم استهزؤوا بدين الإسلام حكى الله عنهم أنهم كانوا يقولون: إنما كنا نخوض ونلعب، فبين الله عَزَّ وَجَلَّ أن خوضهم هذا ولعبهم استهزاء بالله وآياته ورسوله، وأنهم كفروا به فقال تعالى: (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) التوبة/ ٦٥، ٦٦ .
فالاستهزاء بدين الله، أو سب دين الله، أو سب الله ورسوله، أو الاستهزاء بهما كفر

=

=

مخرج عن الملة
ومع ذلك فإن هناك مجالا للتوبة منه، لقول الله تعالى: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) الزمر/ ٥٣ .
فإذا تاب الإنسان من أي ردة كانت توبة نصوحا استوفت شروط التوبة الخمسة، فإن الله يقبل توبته . وشروط التوبة الخمسة هي:
الشرط الأول: الإخلاص لله بتوبته، بأن لا يكون الحامل له على التوبة رياء أو سمعة، أو خوفا من مخلوق، أو رجاء لأمر يناله من الدنيا فإذا أخلص توبته لله وصار الحامل له عليها تقوى الله ﷻ والخوف من عقابه ورجاء ثوابه، فقد أخلص لله تعالى فيها.
الشرط الثاني: أن يندم على ما فعل من الذنب، بحيث يجد في نفسه حسرة وحزنا على ما مضى، ويراه أمرا كبيرا يجب عليه أن يتخلص منه .
الشرط الثالث: أن يقلع عن الذنب وعن الإصرار عليه؛ فإن كان ذنبه ترك واجب قام بفعله وتداركه إن أمكن، وإن كان ذنبه بإتيان محرم أقلع عنه، وابتعد عنه، ومن ذلك إذا كان الذنب يتعلق بالمخلوقين، فإنه يؤدي إليهم حقوقهم أو يستحلهم منها.
الشرط الرابع: العزم على أن لا يعود في المستقبل، بأن يكون في قلبه عزم مؤكد ألا يعود إلى هذه المعصية التي تاب منها.
الشرط الخامس: أن تكون التوبة في وقت القبول، فإن كانت بعد فوات وقت القبول لم تقبل، وفوات وقت القبول عام وخاص:
أما العام؛ فإنه طلوع الشمس من مغربها، فالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها لا تقبل، لقول الله تعالى: (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون) الأنعام/ ١٥٨ .
وأما الخاص؛ فهو حضور الأجل، فإذا حضر الأجل فإن التوبة لا تنفع لقول الله تعالى: (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار) النساء/ ١٨ .
أقول: إن الإنسان إذا تاب من أي ذنب – ولو كان ذلك سب الدين – فإن توبته تقبل إذا استوفت الشروط التي ذكرناها .
ولكن ليعلم أن الكلمة قد تكون كفرا وردة، ولكن المتكلم بها قد لا يكفر بها، لوجود
=

ويقول أيضًا في مجموع الفتاوى (٧/ ٦١٦): لو أخذ يلقي المصحف في الحش، ويقول أشهد أن ما فيه كلام الله، أو جعل يقتل نبيًا من الأنبياء، ويقول أشهد أنه رسول الله، ونحو ذلك من الأفعال التي تنافي إيمان القلب، فإذا قال أنا مؤمن بقلبي مع هذه الحال كان كاذبًا فيما أظهره من القول.اهـ.

ومثال الحالة الثالثة والتي يقوم بالمعين ما هو كفر قطعًا، لكن يمنع من تكفيره الاحتمال في قصده، ما جاء في الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: (كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فو الله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا، فلما مات، فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما

=

مانع يمنع من الحكم بكفره، فهذا الرجل الذي ذكر عن نفسه أنه سب الدين في حال غضب، نقول له: إن كان غضبك شديدا بحيث لا تدري ماذا تقول، ولا تدري حينئذ أأنت في سماء أم في أرض، وتكلمت بكلام لا تستحضره ولا تعرفه، فإن هذا الكلام لا حكم له، ولا يحكم عليك بالردة، لأنه كلام حصل عن غير إرادة وقصد، وكل كلام حصل عن غير إرادة وقصد فإن الله سبحانه وتعالى لا يؤاخذ به، يقول: الله تعالى في الأيمان: (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) المائدة/ ٨٩ .

فإذا كان هذا المتكلم بكلمة الكفر في غضب شديد لا يدري ما يقول، ولا يعلم ماذا خرج منه، فإنه لا حكم لكلامه، ولا يحكم بردته حينئذ، وإذا لم يحكم بالردة فإن الزوجة لا ينفسخ نكاحها منه، بل هي باقية في عصمته .

ولكن ينبغي للإنسان إذا أحس بالغضب أن يحرص على مداواة هذا الغضب بما أوصى به النبي ﷺ، حين سأله رجل، فقال له: يا رسول الله، أوصني قال: (لا تغضب) فردد مرارا، قال: (لا تغضب) . فليحكم الضبط على نفسه، وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا كان قائما فليجلس، وإذا كان جالسا فليضطجع، وإذا اشتد به الغضب فليتوضأ، فإن هذه الأمور تذهب غضبه . وما أكثر الذين ندموا ندما عظيما على تنفيذ ما اقتضاه غضبهم، ولكن بعد فوات الأوان".

فيك منه، ففعلت فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يارب خشيتك، فغفر له)[١]، ففي هذا الحديث نجد أن هذا الرجل قد شك في قدرة الله تعالى، وبعث الأجساد وهذا كفر بالاتفاق، لكن الله تعالى قد غفر له حيث كان مؤمنًا بالله واليوم الآخر على سبيل الإجمال والذي حمله على فعله هو جهله، وخشيته من الله ﷻ.

ومثال الحالة الرابعة حيث يتلبس المعين بقبول مجمل أو فعل مشكل يحصل التردد في قصده ومراده، ما أورده القاضي عياض حيث قال: وقد اختلف أئمتنا في رجل أغضبه غريمه، فقال له: صل على النبي محمد، فقال له الطالب: لا صلى الله على من صلى عليه، فقيل لسحنون: هل هو كمن شتم النبي ﷺ، أو شتم الملائكة الذين يصلون عليه، قال: لا، إذا كان على ما وصفت من الغضب؛ لأنه لم يكن مضمرًا الشتم.

وقال أبو إسحاق البرقي، وأصبغ بن الفرج: لا يقتل، لأنه إنما شتم الناس، وهذا نحو قول سحنون؛ لأنه لم يعذره بالغضب في شتم النبي ﷺ، ولكنه لما احتمل الكلام عنده، ولم تكن معه قرينة على شتم النبي ﷺ، أو شتم الملائكة صلوات الله عليهم، ولا مقدمة يحمل عليها كلامه، بل القرينة تدل على أن مراده الناس غير هؤلاء، لأجل قول الآخر له: صل على النبي، فحمل قوله وسبه لمن يصلي عليه الآن لأجل أمر الآخر له بهذا عند غضبه، وذهب الحارث بن مسكين القاضي وغيره في مثل هذا إلى القتل[٢].

المسألة الرابعة: الصلاة على من مات من أهل القبلة

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) الشفا (٢/ ٩٧٩، ٩٨٠)، وانظر إعلام الموقعين لابن القيم (٣/ ١٠٨).

قال الإمام الطحاوي في عقيدته (٢/ ٥٢٩): ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة، وعلى من مات منهم.

وقرر قوام السنة الأصفهاني هذه المسألة في الحجة (٢/ ٤٧٧) بقوله: فمن مذهبهم الصلاة على من مات من أهل القبلة.

وقال المصنف هنا: وأهل السنة لا يحجبون الاستغفار عن أحد من أهل القبلة ولا يرون أن تترك الصلاة على من مات منهم وإن كان من أهل الإسراف على نفسه، وقال ﷻ لنبيه عليه الصلاة والسلام (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) محمد الآية (١٩)، (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) التوبة آية (١٠٣).

وقد شرح شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الأصل شرحًا مفصلًا في "منهاج السنة" (٥/ ٢٣٥ - ٢٤١) فقال: وأما الاستغفار للمؤمنين عموما فقد قال تعالى: {واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات} [سورة محمد: ١٩]، وقد أمر الله بالصلاة على من يموت. وكان النبي ﷺ يستغفر للمنافقين حتى نهي عن ذلك. فكل مسلم لم يعلم أنه منافق جاز الاستغفار له والصلاة عليه، وإن كان فيه بدعة أو فسق، لكن لا يجب على كل أحد أن يصلي عليه. وإذا كان في ترك الصلاة على الداعي إلى البدعة والمظهر للفجور مصلحة من جهة انزجار الناس، فالكف عن الصلاة كان مشروعا لمن كان، يؤثر ترك صلاته في الزجر بأن لا يصلى عليه. كما قال النبي ﷺ فيمن قتل نفسه: "«صلوا على صاحبكم»"، وكذلك قال في الغال: "«صلوا على صاحبكم»"، وقد قيل لسمرة بن جندب: إن ابنك لم ينم البارحة. فقال: أبشما[١]؟ قالوا: بشما. قال: لو مات لم أصل عليه.

(١) قال ابن الأثير في النهاية: البشم: التخمة من الدسم.

يعني: لأنه يكون قد قتل نفسه.

وللعلماء هنا نزاع: هل يترك الصلاة على مثل هذا الإمام فقط، لقوله ﷺ: "«صلوا على صاحبكم» "؟ أم هذا الترك يختص بالنبي ﷺ؟ أم مشروع لمن تطلب صلاته؟ وهل الإمام هو الخليفة أو الإمام الراتب؟ وهل هذا مختص بهذين أم هو ثابت لغيرهما؟ فهذه كلها مسائل تذكر في غير هذا الموضع.

لكن بكل حال المسلمون المظهرون للإسلام قسمان: إما مؤمن، وإما منافق. فمن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له. ومن لم يعلم ذلك منه صلي عليه. وإذا علم شخص نفاق شخص لم يصل هو عليه، وصلى عليه من لم يعلم نفاقه.

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يصلي على من لم يصل عليه حذيفة، لأنه كان في غزوة تبوك قد عرف المنافقين، الذين عزموا على الفتك برسول الله - ﷺ.

واعلم أنه لا منافاة بين عقوبة الإنسان في الدنيا على ذنبه وبين الصلاة عليه والاستغفار له ؛ فإن الزاني والسارق والشارب وغيرهم من العصاة تقام عليهم الحدود، ومع هذا فيحسن إليهم بالدعاء لهم في دينهم ودنياهم ؛ فإن العقوبات الشرعية إنما شرعت رحمة من الله بعباده، فهي صادرة عن رحمة الله وإرادة الإحسان إليهم.

ولهذا ينبغي لمن يعاقب الناس على الذنوب أن يقصد بذلك الإحسان إليهم والرحمة لهم، كما يقصد الوالد تأديب ولده، وكما يقصد الطبيب معالجة المريض ؛ فإن النبي ﷺ قال: "«إنما أنا لكم بمنزلة الوالد»" . وقد قال تعالى: {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم} [سورة الأحزاب: ٦] وفي قراءة أبي: وهو أب لهم. والقراءة المشهورة تدل على ذلك: فإن نساءه إنما كن

أمهات المؤمنين تبعا له، فلولا أنه كالأب لم يكن نساؤه كالأمهات. والأنبياء أطباء الدين، والقرآن أنزله الله شفاء لما في الصدور، فالذي يعاقب الناس عقوبة شرعية إنما هو نائب عنه وخليفة له، فعليه أن يفعل كما يفعل على الوجه الذي فعل.

ولهذا قال تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله} [سورة آل عمران: ١١٠] قال أبو هريرة: كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل تدخلونهم الجنة. أخبر أن هذه الأمة خير الأمم لبني آدم: فإنهم يعاقبونهم بالقتل والأسر، ومقصودهم بذلك الإحسان إليهم، وسوقهم إلى كرامة الله ورضوانه، وإلى دخول الجنة.

وهكذا الرد على أهل البدع من الرافضة وغيرهم: إن لم يقصد فيه بيان الحق وهدى الخلق ورحمتهم والإحسان إليهم، لم يكن عمله صالحا. وإذا غلظ في ذم بدعة ومعصية كان قصده بيان ما فيها من الفساد ليحذرها العباد، كما في نصوص الوعيد وغيرها. وقد يهجر الرجل عقوبة وتعزيرا، والمقصود بذلك ردعه وردع أمثاله، للرحمة والإحسان، لا للتشفي والانتقام.

كما هجر النبي ﷺ أصحابه الثلاثة الذي خلفوا لما جاء المتخلفون عن الغزاة يعتذرون ويحلفون وكانوا يكذبون. وهؤلاء الثلاثة صدقوا وعوقبوا بالهجر، ثم تاب الله عليهم ببركة الصدق.

وهذا مبني على مسألتين: إحداهما: أن الذنب لا يوجب كفر صاحبه، كما تقوله الخوارج، بل ولا تخليده في النار ومنع الشفاعة فيه، كما يقوله المعتزلة.

الثاني أن المتأول الذي قصده متابعة الرسول لا يكفر، بل ولا يفسق إذا اجتهد فأخطأ. وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية. وأما مسائل العقائد

فكثير من الناس كفر المخطئين فيها.

وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن أحد من أئمة المسلمين، وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع، الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم، كالخوارج والمعتزلة والجهمية، ووقع ذلك في كثير من أتباع الأئمة، كبعض أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم.

وقد يسلكون في التكفير ذلك ؛ فمنهم من يكفر أهل البدع مطلقا، ثم يجعل كل من خرج عما هو عليه من أهل البدع. وهذا بعينه قول الخوارج والمعتزلة الجهمية. وهذا القول أيضا يوجد في طائفة من أصحاب الأئمة الأربعة، وليس هو قول الأئمة الأربعة ولا غيرهم، وليس فيهم من كفر كل مبتدع، بل المنقولات الصريحة عنهم تناقض ذلك، ولكن قد ينقل عن أحدهم أنه كفر من قال بعض الأقوال، ويكون مقصوده أن هذا القول كفر ليحذر، ولا يلزم إذا كان القول كفرا أن يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل ؛ فإن ثبوت الكفر في حق الشخص المعين، كثبوت الوعيد في الآخرة في حقه، وذلك له شروط وموانع، كما بسطناه في موضعه.

وإذا لم يكونوا في نفس الأمر كفارا لم يكونوا منافقين، فيكونون من المؤمنين، فيستغفر لهم ويترحم عليهم. وإذا قال المؤمن: {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} [سورة الحشر: ١٠] يقصد كل من سبقه من قرون الأمة بالإيمان، وإن كان قد أخطأ في تأويل تأوله فخالف السنة، أو أذنب ذنبا، فإنه من إخوانه الذين سبقوه بالإيمان، فيدخل في العموم، وإن كان من الثنتين والسبعين فرقة، فإنه ما من فرقة إلا وفيها خلق كثير ليسوا كفارا، بل

مؤمنين فيهم ضلال وذنب يستحقون به الوعيد، كما يستحقه عصاة المؤمنين، والنبي ﷺ لم يخرجهم من الإسلام، بل جعلهم من أمته، ولم يقل: إنهم يخلدون في النار. فهذا أصل عظيم ينبغي مراعاته؛ فإن كثيرا من المنتسبين إلى السنة فيهم بدعة، من جنس بدع الرافضة والخوارج. وأصحاب الرسول ﷺ علي بن أبي طالب وغيره لم يكفروا الخوارج الذين قاتلوهم، بل أول ما خرجوا عليه وتحيزوا بحروراء، وخرجوا عن الطاعة والجماعة، قال لهم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إن لكم علينا أن لا نمنعكم مساجدنا ولا حقكم من الفيء. ثم أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نحو نصفهم، ثم قاتل الباقي وغلبهم، ومع هذا لم يسب لهم ذرية، ولا غنم لهم مالا، ولا سار فيهم سيرة الصحابة في المرتدين، كمسيلمة الكذاب وأمثاله، بل كانت سيرة علي والصحابة في الخوارج مخالفة لسيرة الصحابة في أهل الردة، ولم ينكر أحد على علي ذلك، فعلم اتفاق الصحابة على أنهم لم يكونوا مرتدين عن دين الإسلام. انتهى.

وقال رَحِمَهُ اللهُ موضحًا مذهب الإمام أحمد في تكفير أهل البدع، وأنه مع تكفيره للجهمية من حيث العموم فإنه ما كان يكفر أعيانهم بل كان يدعو لولاة الأمور الذين انتصروا لقول الجهمية ويستغفر لهم؛ قال: (... بل لا يختلف قوله أنه لا يكفر المرجئة الذين يقولون: الإيمان قول بلا عمل، ولا يكفر من يفضل عليا على عثمان، بل نصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم. وإنما كان يكفر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته؛ لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول (ظاهرة بينة؛ ولأن حقيقة قولهم تعطيل الخالق، وكان قد ابتلي بهم حتى عرف حقيقة أمرهم، وأنه يدور على التعطيل، وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة، لكن ما كان يكفر أعيانهم، فإن الذي يدعو

إلى القول أعظم من الذي يقول به، والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط، والذي يكفر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه، ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية: أن القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة، وغير ذلك ويدعون الناس إلى ذلك، ويمتحنونهم، ويعاقبونهم، إذا لم يجيبوهم، ويكفرون من لم يجبهم، حتى أنهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقر بقول الجهمية: أن القرآن مخلوق، وغير ذلك، ولا يولون متوليًا ولا يعطون رزقًا من بيت المال إلا لمن يقول ذلك، ومع هذا فالإمام أحمد رحمه الله تعالى ترحم عليهم، واستغفر لهم، لعلمه بأنهم لم يبين لهم أنهم مكذبون للرسول، ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطأوا، وقلدوا من قال لهم ذلك). "الفتاوى" (٢٣/ ٣٤٨ - ٣٤٩).

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (٢/ ٤٢٣): أهل القبلة هم من يوصف بالإسلام، والذين يوصفون بالإسلام أنواع:

* النوع الأول: المؤمنون الصالحون.
* النوع الثاني: مسلم له فجور بمعاص مختلفة.
* النوع الثالث: مسلم له فجور بمعاص خاصة يأتي بيانها.
* النوع الرابع: المنافق.

أما القسم الأول: فالصلاة على من مات منهم قربة وحق، في أنه إذا مات المسلم المسدد أن يصلى عليه وأن تشهد الصلاة عليه وأن تشهد جنازته لأن هذا من حق المسلم على المسلم.

وأما القسم الثاني: أن تكون الصلاة على من له فجور عام؛ يعني المعاصي المختلفة، هو ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا وعرف بذلك في معاص

مشهورة عنه، فهذا يصلى أيضا عليه بإطلاق، ولا يشرع التخلف عن الصلاة عليه إذا كان غير داع ومعلن لهذا الفجور بدعوة غيره إليه.

وأما القسم الثالث: من أهل الإسلام هو من له فجور بكبائر خاصة، وهي التي جاء الدليل بأن يترك طائفة الصلاة عليه، مثل الغال، ومثل من قتل نفسه، وأشباه هذه الذنوب، ومن أقيم عليه الحد -حد القتل- وأشباه ذلك، فهذا يصلي عليه بعض المسلمين ويترك الصلاة عليه أهل الشارة والعلم، كما جاءت بذلك السنة عن النبي ﷺ.

وأما القسم الرابع: أهل النفاق، فالنفاق قسمان

القسم الأول: نفاق يعلمه كل أحد، وهذا لا يكون في المسلمين لأنه يكون زنديقا؛ يعني معلن الاستهزاء بالله سبحانه وتعالى في كتبه أو في قصائده أو نحو ذلك، معلن عدم الإيمان بالقرآن ولا بالمعاد وأشباه ذلك فهذه زندقة ظاهرة.

والقسم الثاني نفاق خفي يعلمه البعض ولا يعلمه البعض.

أما القسم الأول وهو الظاهر فهو لا يجوز الصلاة على من كان زنديقا أو منافقا وذلك لقول الله تعالى في المنافقين (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) [التوبة: ٨٠]، إلى آخر الآية، وقال أيضا لنبيه ﷺ (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) [التوبة: ٨٤]، فمن كان معلوما ظاهرا النفاق منه -الزندقة، محاربة الدين والزندقة الظاهرة، الكفر الظاهر مما يكون معه المرء منافقا خالص النفاق- فهذا لا يصلى عليه فيجب على المسلمين أن لا يصلوا عليه؛ لأنه حينئذ لا يكون من أهل القبلة بالوصف العام.

وأما القسم الثاني وهو من نفاقه ملتبس، هل هو منافق أم ليس بمنافق؟

فهذا من علم نفاقه بيقين له أن لا يصلي عليه، إذا حضر في المسجد أو نحو ذلك، فإنه إذا علم نفاقه بيقين فإنه لا يصلي عليه ويترك البقية يصلون لأن الصلاة عليه هي باعتبار الإسلام الظاهر ولم يظهر منه ما يخالف هذا الأصل، ويدل على ذلك أن عمر كان لا يصلي على من لا يعلم حاله إلا إذا صلى عليه حذيفة؛ لأن حذيفة بن اليمان أخبره النبي ﷺ بأسماء المنافقين، فكان عمر بن الخطاب الخليفة الراشد ينظر هل يصلي عليه حذيفة أم لا يصلي عليه؟

فإن صلى عليه حذيفة أو توجه للصلاة عليه أو لم يحكم عليه فإنه يصلي عليه.

وهذا يدل على التفريق في هذه المسائل، ما بين ما يعلم من حال المنافق وما لا يعلم، فمن علم حاله لم يصل عليه ومن لم يعلم فإنه يصلي عليه، ولا يلزم من علم أن يعلن وينهى الآخرين عن الصلاة عليه؛ لأن الأصل هو ظاهر الإسلام.

وقد قرر الأئمة من أهل السنة أن المنافق له أحكام المسلمين؛ لأن له حكم الإسلام الظاهر فيرث ويورث ويصلي عليه من لا يعلم حاله ونحو ذلك مما هو من آثار الإسلام الظاهر.

(باب نفي كمال الإيمان بالذنوب)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس أبصارهم إليها وهو مؤمن)[1].

---

(١) إسناد المصنف ضعيف، ولكن الحديث صحيح فقد أخرجه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (ما خطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا قال: لا إيمان لمن لا أمانة له)(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (ما هو بمؤمن من لا يأمن جاره بوائقه)(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥)، وابن أبي شيبة (١١/ ١١)، وعبد بن حميد (١١٩٨)، وأبو يعلى (٢٨٦٣)، والبزار (١٠٠- كشف)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٤٩٣)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٨٠٥)، والدولابي في الكنى والأسماء (٢/ ١٥٤)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (ص٢٧)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٢٢١)، والطبراني في الأوسط (٢٦٢٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (٨٤٩، ٨٥٠)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٢٨٨) و (٩/ ٢٣١)، وفي الشعب (٤٣٥٤)، والخطيب في موضح الأوهام (٢/ ١٧٤)، وقوام السنة في الترغيب (١/ ٥٩، ١٢٩)، والبغوي في شرح السنة (٣٨) من طرق عن أبي هلال الراسبي، وله شواهد عن ابن عمر وأبي أمامة وابن عباس وأبي هريرة وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والحديث صححه ابن حبان، وحسنه البغوي، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٧١٧٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٩/ ٣٧٦): حديث حسن، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي هلال - وهو محمد بن سليم الراسبي- فقد روى له أصحاب السنن وعلق له البخاري، وضعفه البخاري والنسائي وابن سعد وغيرهم، ووثقه أبو داود، وقال ابن معين: صدوق، وقال مرة: ليس به بأس. قلنا: فهو ضعيف يعتبر به، وحديثه هذا لم يتفرد به، بل روي من طرق اخرى عن أنس، وهي -وإن كانت ضعيفة- يشد بعضها بعضا فيتحسن الحديث إن شاء الله تعالى.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨)، وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ٩)، والخرائطي في المكارم (رقم ٤٤٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (ق ٧٥/ ١) والحديث قال عنه العراقي في المغني: إسناده ضعيف، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٨٤١)، وقال الحويني في تحقيق كتاب الصمت (٤٧/ رقم ٩): سنده لين وآخره صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٠/ ٣٤٣): إسناده ضعيف لضعف علي بن مسعدة الباهلي، قلت يشهد له ما أخرجه مسلم (٧٣) عن أبي هريرة مرفوعا (لا يدخل الجنة من لا يأمن =

وعن عبد الرحمن عن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس المؤمن باللعان ولا الطعان، وبالفاحش ولا بالبذيء)[1].

=

جاره بوائقه).

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٤، رقم ٣٨٣٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ١٨)، وفي الإيمان (٧٩)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٣١٢)، والترمذى (٤/ ٣٥٠، رقم ١٩٧٧)، وأبو يعلى (٩/ ٢٠، رقم ٥٠٨٨)، والبزار (٥/ ٢٩٦، رقم ١٩١٤)، وابن حبان (١/ ٤٢١، رقم ١٩٢)، والطبرانى في الكبير (١٠/ ٢٠٧، رقم ١٠٤٨٣)، وفى الأوسط (٢/ ٢٢٥، رقم ١٨١٤)، والحاكم (١/ ٥٧، رقم ٢٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٣٥) و (٥/ ٥٨)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤/ ٢٩٣، رقم ٥١٤٩) والحديث قال عنه قال الحافظ فى البلوغ (١/ ٣٠٥): حسنه الترمذى، وصححه الحاكم –وأقره الذهبي– ورجح الدارقطنى وقفه، وقال العراقي في المغني: إسناده صحيح، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٣٢٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وقال الحويني في تحقيق كتاب الصمت (١٨٣، ١٨٦ / ، ح ٣٢١، ٣٣٠): حديث صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٦/ ٣٩١): حديث صحيح، ولكن هذا الإسناد منكر، ذكر الخطيب في "تاريخ بغداد" ٥/ ٣٣٩ أن أبا بكر بن أبي شيبة ذكر حديث محمد بن سابق عن إسرائيل، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، مرفوعا: "ليس المؤمن بالطعان"، فقال: إن كان حفظه فهو حديث غريب، ثم نقل عن علي ابن المديني أنه قال في هذا الإسناد: هذا منكر من حديث إبراهيم عن علقمة، وإنما هذا من حديث أبي وائل، عن غير الأعمش، ونقل ذلك الحافظ ابن حجر في التهذيب (٩/ ١٧٥)، وقال الذهبي في الميزان (٣/ ٥٥٥): ومما ينكر لمحمد بن سابق حديثه عن إسرائيل، عن الأعمش، عن إبراهيم ... فذكره. قال الخطيب: رواه ليث بن أبي سليم، عن زبيد اليامي، عن أبي وائل، عن عبد الله، إلا أنه وقفه ولم يرفعه .. وقال الدارقطني في العلل (٥/ ٩٢ – ٩٣): يرويه زبيد، عن أبي وائل، واختلف عنه، فرفعه خالد بن عبد الله من رواية إبراهيم بن زكريا عنه، عن ليث، عن زبيد، ووقفه زهير ومعتمر عن ليث، وروي عن فضيل بن عياض، عن ليث، مرفوعا وموقوفا، والموقوف أصح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر)(١).

مسائل في الباب

المسألة الأولى: فقه أحاديث هذا الباب

ما ورد من الذنوب تسميته كفرا، أو فيه نفي الإيمان عن صاحبه أو البراءة منه

أمثال قوله ﷺ: (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر)(٢)، وقوله: (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)(٣)، وقوله: (ثنتان في أمتي هما بهم كفر الطعن في النسب، والنياحة على الميت)(٤)، وقوله: (من حمل علينا السلاح، فليس منا، ومن غشنا، فليس منا)(٥)، وغيرها من النصوص الكثيرة.

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الإيمان (ص٨٤): إن الآثار

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٩)، والترمذي (٣٩٠٦) ابن أبي شيبة ١٢/ ١٦٣، والنسائي في "الكبرى" (٨٣٣٣)، والطبراني (١٢٣٣٩) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٣/ ٣٥١): إسناده صحيح، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس فس الصحيحين (٦٠٥)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٥/ ٢٧): إسناده صحيح على شرط الشيخين.
وللحديث شواهد عن أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (٧٦)، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند مسلم (٧٧)، وعن البراء رضي الله عنه عند والبخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٠٢)، ومسلم (٦٦) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم (٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم (١٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

جاءت بالتغليظ على أربعة أنواع: فاثنان منها فيها نفي الإيمان والبراءة من النبي ﷺ، والآخران فيها تسمية الكفر وذكر الشرك، وكل نوع من هذه الأحاديث تجمع أحاديث ذوات عدة.اهـ.

فأهل السنة والجماعة لا يسلبون وصف الإيمان من العبد إذا عمل عملًا ما من المحذورات لا يكفر الله فاعله، أو ترك ما لا يكفر تاركه من الواجبات، ولا يخرجونه من الإيمان إلا بفعل ناقض من نواقضه.

ومرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان؛ فهو في الدنيا مؤمن ناقص الإيمان؛ مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، وفي الآخرة تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه.

أي: إن مرتكب الكبيرة - عندهم - له حكمان؛ حكم في الدنيا، وحكم في الآخرة.

حكمه في الدنيا: أنه مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، ولا يصح أن يعطى اسم الإيمان المطلق؛ بل يكون معه مطلق الإيمان، وهو حد الإسلام.

فإن كان الذنب الذي ارتكبه، لا حد فيه، وتاب منه، قبل الله تعالى توبته بفضله ومنه سبحانه أو فيه حد، وأقيم عليه الحد؛ فهو كفارة له، ويصبح حكمه حكم عامة المسلمين.

حكمه في الآخرة: أنه يكون تحت المشيئة، إن لم يتب من كبيرته؛ فأمره إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة برحمته وفضله، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه وذلك بعدله سبحانه وتعالى؛ لأنه مستحق للعقاب، ولكنه لا يستحق الخلود في النار؛ بل يخرج من النار بما معه من الإيمان، وإن كان مثقال ذرة.

لأن الإيمان عند أهل السنة والجماعة؛ يقبل التبعيض والتجزئة، وبقليله يخرج الله من النار من دخلها بفضله ورحمته، ولذلك فإنهم لا يكفرون أحدًا من أهل القبلة بكل ذنب؛ إلا بذنب يزول به أصل الإيمان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾.

أي: إن العبد إذا مات على الشرك؛ فإن الله تعالى لا يغفر له، والمشرك مخلد في نار جهنم -والعياذ بالله- وإذا مات على ما دون الشرك من المعاصي من الكبائر؛ فإنه يدخل تحت مشيئة الله سبحانه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فسمى الله المقتول أخًا للقاتل: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: أن القتل كبيرة من الكبائر، ومع ذلك فإن الله تعالى لم يسلب عن هؤلاء المقاتلين اسم الإيمان وسماهم المؤمنين وإخوة في الدين رغم الاقتتال وبغي بعضهم على بعض؛ فالإيمان والأخوة الإيمانية لا يزولان مع القتال كغيره من الكبائر التي هي دون الشرك. وقال الله تعالى: (قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ). وفي الباب أحاديث كثيرة تقدم بعضها.

وهذه أقوال بعض الأئمة في ذلك

قال الإمام أبو حنيفة كما في متن الفقه الأكبر: ولا نكفر مسلمًا بذنب من الذنوب، وإن كانت كبيرة، إذا لم يستحلها.

وقال الإمام مالك كما في حلية الأولياء (٦/ ٣٢٥): لو أن رجلًا ركب الكبائر كلها بعد أن لا يشرك بالله؛ ثم تخلى من هذه الأهواء والبدع؛ دخل الجنة.

وقال الإمام الشافعي في الأم (٤/ ١٦٩): من تولى يوم الزحف، لا منحرفًا لقتال، ولا متحيزًا إلى فئة؛ خفت عليه - إلا أن يعفو الله - أن يكون قد باء بسخط من الله).

وقال الإمام أحمد بن حنبل كما في طبقات الحنابلة (١/ ٣٤٣): يخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام، ولا يخرجه من الإسلام شيء إلا الشرك بالله العظيم، أو برد فريضة من فرائض الله ﷻ جاحدًا بها؛ فإن تركها كسلًا، أو تهاونًا كان في مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه.

وعقد الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا في صحيحه قطع فيه بأن المعاصي لا يكفر مرتكبها، قال: (باب: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك؛ لقول النبي ﷺ: (إنك امرؤ فيك جاهلية) وقول الله تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} [النساء: ٤٨].

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي - رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عقيدته: ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله.

وقال الإمام أبو بكر الإسماعيلي في اعتقاد أهل الحديث (ص٤٣): ويقولون: إن أحدًا من أهل التوحيد ومن يصلي إلى قبلة المسلمين؛ لو ارتكب

ذنبًا، أو ذنوبًا كثيرة، صغائر، أو كبائر مع الإقامة على التوحيد لله، والإقرار بما التزمه وقبله عن الله؛ فإنه لا يكفر به، ويرجون له المغفرة، قال تعالى: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ}.

وقال الإمام ابن بطة في الإبانة الصغرى (ص٢٩٢): وقد أجمعت العلماء - لا خلاف بينهم - أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بمعصية؛ نرجو للمحسن، ونخاف على المسئ.

وقال الإمام الصابوني في عقيدة السلف (ص٢٧٦): ويعتقد أهل السنة: أن المؤمن وإن أذنب ذنوبًا كثيرة صغائر كانت، أو كبائر؛ فإنه لا يكفر بها، وإن خرج من الدنيا غير تائب منها، ومات على التوحيد والإخلاص؛ فإن أمره إلى الله ﷻ إن شاء عفا عنه، وأدخله الجنة يوم القيامة سالمًا غانمًا، غير مبتلى بالنار، ولا معاقب على ما ارتكبه من الذنوب، واكتسبه ثم استصحبه - إلى يوم القيامة - من الآثام والأوزار، وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها؛ بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار.

وقال الإمام البغوي في شرح السنة (١/ ١٠٣): اتفق أهل السنة على أن المؤمن لا يخرج عن الإيمان بارتكاب شيء من الكبائر، إذا لم يعتقد إباحتها، وإذا عمل شيئًا منها؛ فمات قبل التوبة، لا يخلد في النار؛ كما جاء به الحديث؛ بل هو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه بقدر ذنوبه، ثم أدخله الجنة برحمته.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الواسطية) (ص٨١): من أصول أهل السنة والجماعة: أن الدين والإيمان قول وعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وهم مع

ذلك: لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، كما يفعله الخوارج؛ بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي؛ كما قال سبحانه في آية القصاص: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ} ولا يسلبون الفاسق الملي الإسلام بالكلية، ولا يخلدونه في النار، كما تقوله المعتزلة؛ بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق؛ كما في قوله تعالى: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ} وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق؛ كما في قوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته؛ فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم.

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا كما في مجموع الفتاوى (١١/ ٦٤٦): عن النساء اللاتي يتعممن بالعمائم الكبار، لا يرين الجنة، ولا يشممن رائحتها، وقد روي في الحديث عن رسول الله ﷺ: (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) ؟

فأجاب: قد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال (صنفان من أهل النار من أمتي لم أرهما بعد نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، على رءوسهن مثل أسنمة البخت، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، ورجال معهم سياط مثل أذناب البقر يضربون بها عباد الله) ومن زعم أن هذا الحديث ليس بصحيح بما فيه من الوعيد الشديد فإنه جاهل ضال عن الشرع، يستحق العقوبة التي تردعه وأمثاله من الجهال الذين يعترضون على الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

والأحاديث الصحيحة في الوعيد كثيرة مثل قوله: (من قتل نفسا معاهدة بغير حقها لم يجد رائحة الجنة، وريحها يوجد من مسيرة أربعين خريفا) ومثل قوله

الذي في الصحيح (لا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كبر) ومثل قوله في الحديث الصحيح (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وفقير مختال) وفي القرآن من آيات الوعيد ما شاء الله، كقوله (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين)

وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين أن الوعيد في الكتاب والسنة لأهل الكبائر موجود ولكن الوعيد الموجود في الكتاب والسنة قد بين الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ أنه لا يلحق التائب بقوله (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) أي لمن تاب .

وقال في الآية الأخرى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فهذا في حق من لم يتب، فالشرك لا يغفر، وما دون الشرك إن شاء الله غفره، وإن شاء عاقب عليه، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (ما يصيب المؤمن من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا غم، ولا حزن، ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) ولهذا لما نزل قوله (من يعمل سوءا يجز به) قال أبو بكر يا رسول الله؛ قد جاءت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا ؟ فقال يا أبا بكر ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللأوى ؟ فذلك مما تجزون به) فالمصائب في الدنيا يكفر الله بها من خطايا المؤمن ما به يكفر وكذلك الحسنات التي يفعلها، قال الله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات)، وقال النبي ﷺ (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر) فالله تعالى لا يظلم عبده شيئا كما قال (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فالوعيد

ينتفي عنه إما بتوبة، وإما بحسنات يفعلها تكافئ سيئاته، وإما بمصائب يكفر الله بها خطاياه، وإما بغير ذلك.اهـ.

وقال الإمام ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٤٤٢): إن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرًا ينقل عن الملة بالكلية، كما قالت الخوارج؛ إذ لو كفر كفرًا ينقل عن الملة؛ لكان مرتدًا يقتل على كل حال، ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنى والسرقة وشرب الخمر، وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام. ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود في النار مع الكافرين.اهـ.

وقال العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٤/ ١٩٨): تعلمون أن أهل السنة أجمعوا على عدم تكفير مرتكب الكبيرة وقد جعل العلماء الحكم بغير ما أنزل الله من كبائر الذنوب، كما صرح بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وكما نقل إجماع أهل العلم حافظ أهل المغرب ابن عبد البر، ومن ثم فإذا ثبت الإجماع فهل يسوغ لأحد أن يخالف في هذه المسألة الخطيرة؟ وقبل ذلك ألا ترون أن الخطأ في هذه المسألة يجلب على المسلمين شرور كثيرة وفتن مدلهمة وكبيرة.اهـ.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (٢/ ٢٧): هل يجوز أن نعتقد كفر النساء الكاسيات العاريات لقول النبي ﷺ: (لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها) الحديث ؟

فأجابوا: يكفر من اعتقد حل ذلك منهن بعد البيان والتعريف بالحكم، ومن لم تستحل ذلك منهن ولكن خرجت كاسية عارية فهي غير كافرة، لكنها مرتكبة لكبيرة من كبائر الذنوب، ويجب الإقلاع عنها، والتوبة منها إلى الله، عسى أن

يغفر الله لها، فإن ماتت على ذلك غير تائبة فهي تحت مشيئة الله كسائر أهل المعاصي؛ لقول الله ﷻ: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) " انتهى.

وجاء فيها أيضا (١٧/ ١٠٤): من استحل منهن ذلك اللباس فهن كافرات مخلدات في النار إذا متن على ذلك، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن لبسن ذلك اللباس مع اعتقادهن تحريمه فقد ارتكبن كبيرة من كبائر الذنوب، لكن لا يخرجن بها من ملة الإسلام، وهن تحت مشيئة الله: إن شاء الله غفر لهن، وإن شاء عذبهن مما ارتكبن من السيئات، فلا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها إلا بعد سابقة عذاب .

وهذا مذهب أهل السنة، وفيه جمع بين نصوص الوعد والوعيد، وهو وسط بين مذاهب المرجئة والخوارج والمعتزلة.

وقال العلامة ابن باز كما في "مجموع فتاوى (٦/ ٣٥٦): أما قوله ﷺ: (لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها) فهذا وعيد شديد، ولا يلزم من ذلك كفرهن ولا خلودهن في النار كسائر المعاصي إذا متن على الإسلام، بل هن وغيرهن من أهل المعاصي، كلهم متوعدون بالنار على معاصيهم، ولكنهم تحت مشيئة الله إن شاء سبحانه عفا عنهم وغفر لهم، وإن شاء عذبهم، كما قال ﷻ في سورة النساء في موضعين (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، من دخل النار من أهل المعاصي فإنه لا يخلد فيها خلود الكفار، بل من يخلد منهم كالقاتل والزاني، والقاتل نفسه لا يكون خلوده مثل خلود الكفار بل هو خلود له نهاية عند أهل السنة والجماعة، خلافا للخوارج والمعتزلة ومن سار على نهجهم من أهل البدع؛ لأن الأحاديث الصحيحة قد تواترت عن رسول الله

ﷺ دالة على شفاعته ﷺ في أهل المعاصي من أمته، وأن الله ﷻ يقبلها منه ﷺ عدة مرات، في كل مرة يحد له حدا فيخرجهم من النار، وهكذا بقية الرسل والمؤمنون والملائكة والأفراط، كلهم يشفعون بإذنه سبحانه، ويشفعهم ﷻ فيمن يشاء من أهل التوحيد الذين دخلوا النار بمعاصيهم وهم مسلمون، ويبقى في النار بقية من أهل المعاصي لا تشملهم شفاعة الشفعاء، فيخرجهم الله سبحانه برحمته وإحسانه، ولا يبقى في النار إلا الكفار فيخلدون فيها أبد الآباد كما قال ﷻ في حق الكفرة: (كلما خبت زدناهم سعيرا)، وقال تعالى (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا)، وقال سبحانه في الكفرة من عباد الأوثان (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار)، وقال تعالى (إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم)، (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) والآيات في هذا المعنى كثيرة، نسأل الله العافية والسلامة من حالهم.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: فضيلة الشيخ جزاكم الله خيرًا: في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين أن الرسول ﷺ قال: (من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بسمٍ فسمه بيده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا) ماذا يقصد بهذه الأبدية؟ هل هي خاصة بقاتل نفسه؟ وهل يجوز الترحم على من فعل ذلك بنفسه؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى

آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. هذا سؤال مهم جدًا، وذلك أنه يأتي في الكتاب والسنة أحيانًا نصوص فيها فتح باب الرجاء والأمل الواسع، مثل أن تكون أعمال صالحة يترتب عليها تكفير السيئات، أو دخول الجنة أو ما أشبه ذلك، فيفرح الإنسان ويستبشر بذلك ويقول: إذًا لا تضرني معصية ما دام هذا العمل اليسير يكفر عني السيئات، أو يكون سببًا في دخولي الجنة، فأعمل ما شئت من المعاصي، وتأتي أحيانًا نصوص فيها وعيد شديد على بعض المعاصي أو بعض الكبائر، بل هي كبائر في الواقع ولكنها لا تخرج من الإسلام، فتجد الرجل يستحسر ويتوقف ويقول: ما هذا؟ ولذلك انقسم أهل القبلة -أي: المسلمون الذين ينتسبون إلى الإسلام- تجاه هذه النصوص إلى ثلاثة أقسام: - قسم غلَّب جانب نصوص الرجاء وقال: لا تضر مع الإسلام معصية، وهؤلاء هم المرجئة، يغلبون جانب الرجاء على جانب الخوف، ويقولون: أنت مؤمن، اعمل ما شئت فلا يضرك مع الإيمان معصية. - وقسم غلب نصوص التخويف والزجر وقال: إن فاعل الكبائر مخلد في نار جهنم أبدًا، ولو كان مؤمنًا، ولو كان يصلي ويزكي ويصوم ويحج، وهؤلاء هم الوعيدية من المعتزلة والخوارج، قالوا: إن الإنسان لو فعل كبيرة كقتل نفسه مثلًا، أو قتل نفس غيره، أو زنا، أو سرق، فهو خالدٌ مخلد في نار جهنم .. وكل هؤلاء جانبوا الصواب، لا الأولون ولا هؤلاء. و أهل السنة والجماعة وسط في ذلك، قالوا: نأخذ بالنصوص كلها؛ لأن الشريعة واحدة وصادرة عن مصدر واحد وهو الله ﷻ، إما في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، فإذا كان الأمر كذلك فإنه يكمل بعضها بعضًا، ويقيد بعضها بعضًا، ويخصص بعضها بعضًا، فيأتي نص عام ونص خاص؛ فيجب أن نحمل العام على الخاص ونخصصه به، ويأتي نص مطلق ونص مقيد؛ فيجب أن نحمل

المطلق على المقيد؛ لأن الشريعة واحدة، والمشرع واحد، فإذا كان كذلك فلا يمكن أن نأخذ بجانب دون آخر. وبناءً على هذا يسلم الإنسان من إشكالات كثيرة، فيقال: إنه ورد في القرآن قوله تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا [النساء: ٩٣] هذه خمس عقوبات: ١- جزاؤه جهنم. ٢- خالدًا فيها. ٣- غضب الله عليه. ٤- لعنه. ٥- أعد له عذابًا عظيمًا. عندما تقرأ هذه الآية تقول: إن قاتل المؤمن عمدًا مخلد في النار، ولا يمكن أن يخرج منها؛ لأن الله قال: وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ [النساء: ٩٣] ومن لعنه الله فقد طرده وأبعده من رحمته، وهذا يقتضي أنه لا يمكن أن يخرج من النار إلى الجنة أبدًا، وكذلك ما أشار إليه السائل فيمن قتل نفسه، أنه خالد مخلدًا أبدًا، صرح في الحديث بالتأبيد، وهذا يقتضي ألا يخرج منها؛ لأن هذا خبر من الرسول ﷺ، وخبر الرسول صدق لا يمكن أن يعتريه الكذب، ولا يمكن أن يتخلف مدلوله. ولهذا نقول: هذه الأشياء تكون سببًا لذلك، قتل النفس سبب للخلود المؤبد في نار جهنم، كما قال الرسول ﷺ، ولكن هناك موانع من الخلود دلت عليها النصوص الشرعية؛ منها: أن يكون الإنسان معه شيء من الإيمان ولو أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، فإنه لا يخلد في النار، فنحمل هذه النصوص على هذه النصوص، ونقول: نصوص الوعيد جاءت عامة من أجل التنفير من هذا العمل والهروب منه، ولكن ليس هناك خلود مؤبد إلا للكافرين.. هذا وجه. الوجه الثاني: قال بعض العلماء: هذه النصوص على ظاهرها، وذلك أنه قد يصاب الذي يقتل نفسه بالانسلاخ من الإيمان، فيكون حين قتل نفسه غير مؤمن، وإذا كان غير مؤمن فهو كافر خالد في النار؛ لأنه إذا نحر نفسه فإن كان مجنونًا فلا شيء عليه، وإن كان عاقلًا فلابد

أنه فعل ذلك لسبب، وهذا السبب في الغالب لكي يستريح من النكبة أو الضائقة التي ألمت به، ومن زعم أنه إذا قتل نفسه نجا من الضائقة التي ألمت به فقد أنكر البعث، وأنكر عقوبة الآخرة، وإذا أنكر البعث وعقوبة الآخرة كان بذلك كافرًا، فيكون مستحقًا للخلود المؤبد في النار؛ لأنه ليس من المعقول أن شخصًا يعدم نفسه ليستريح مما هو فيه إلا لظنه أن ينتقل إلى ما فيه الراحة له، ولا يمكن أن يكون أريح له وقد قتل نفسه، فيكون شاكًا أو مترددًا أو جاحدًا لعذاب الآخرة، وبذلك يكون كافرًا. وعلى كل حال يجب أن نعلم أن الكتاب والسنة صدرت من عند الله وحده، منها ما هو من كلامه جل وعلا وهو القرآن، ومنها ما هو من كلام رسول الله ﷺ، وأن نصوص الكتاب والسنة بعضها يقيد بعضًا، ويخصص بعضها بعضًا، ولا تناقض بين نصوص الكتاب والسنة أبدًا. وأما مسألة الترحم عليه فيجوز الترحم عليه؛ لأنه ليس بكافر.اهـ.

وللأئمة وأهل العلم من أهل السنة عدة أقوال في توجيه هذه الآثار التي ظاهرها نفي الإيمان عن العاصي أو التبرؤ منه، وبتتبع أقوالهم يتبين اتفاقهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية؛ وذلك لثبوت الحدود الشرعية في بعض تلك الكبائر المنصوص عليها مثلا، مما يجعلنا نقطع بعدم إرادتهم الكفر المخرج أن الزاني والسارق وشارب الخمر لا يقتل -إلا الزاني المحصن- بل يقام عليه الحد، مما يدل على أنه ليس بمرتد.

عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند النبي ﷺ في مجلسه، فقال: (تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا ولا تزنوا، فمن وفّى منكم أجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك

شيئا فستر الله عليه، فهو إلى الله ﷻ إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه)[١]، وأهم الأقوال الواردة في توجيه هذه النصوص على مذهبين:

أولا: مذهب من رأى التوقف عن تفسير هذه الأحاديث وإمرارها كما جاءت، وهذا مروي عن جمع من الأئمة وأهل العلم، منهم:

١- الإمام الزهري: فقد قال لما سئل عنها كما في السنة للخلال (ص ٥٧٩): (من الله ﷻ العلم، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم).

٢- الإمام أحمد: قال كما في طبقات الحنابلة (١/ ٢٧) في حديث: (من غشنا فليس منا): (يروى الحديث كما جاء، وكما روى تصدقه وتقبله، وتعلم أنه كما روي ... فاتبع الأثر ولا تجاوزه).

وقال كما في السنة للخلال (ص: ٥٧٨).: (لا أدري إلا على ما روي).

٣- الإمام البغوي: قال في شرح السنة (١/ ٩١).: (القول ما قال الرسول ﷺ، والعلم عند الله ﷻ).

ثانيا: مذهب من فسر هذه الأحاديث، ورأى أن المقصود بنفي الإيمان إنما هو نفي كماله، لا أصله وحقيقته. وعلى هذا القول كثير من الأئمة والعلماء، منهم:

١- الإمام الطبري: حيث قال كما في الفتح (١٢/ ٦٠): (ينزع عنه اسم المدح الذي سمى الله به أولياءه، فلا يقال في حقه مؤمن، ويستحق اسم الذم، فيقال: سارق وزان وفاجر وفاسق). وهذا القول مروي عن الحسن البصري كذلك.

٢- أبو عبيد القاسم بن سلام: حيث قال في كتاب الإيمان (ص٨٩): (الذي عندنا في هذا الباب كله أن المعاصي والذنوب لا تزيل إيمانًا ولا توجب كفرا،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٤)، ومسلم (١٧٠٩).

ولكنها إنما تنفي من الإيمان حقيقته وإخلاصه الذي نعت الله به أهله).

٣- النووي: حيث قال في شرح مسلم (١/ ٢٤١): (القول الصحيح الذي عليه المحققون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان. وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله ومختاره).

وقد زاد شيخ الإسلام ابن تيمية قيدا على ما ذكره هؤلاء العلماء، وهو أن المراد هو نفي الكمال الواجب الذي يذم تاركه، كما رد قول المرجئة بأن المراد من نفي الإيمان بأنه ليس من خيارنا، وقول الخوارج بأنه صار كافرا، وقول المعتزلة بأنه لم يبق معه من الإيمان شيء وهو مستحق للخلود في النار لا يخرج منها، ثم رد قول من تأول نفي الإيمان بأنه نفي الكمال المستحب، وقال فيمجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٣ - ٦٥٤): (ولكن يقتضي نفي الكمال الواجب، وهذا مطرد في سائر ما نفاه الله ورسوله فإنه لا ينفي مسمى الاسم إلا لانتفاء بعض ما يجب في ذلك، لا لانتفاء بعض مستحباته. فيفيد هذا الكلام أن من فعل ذلك، فقد ترك الواجب الذي لا يتم الإيمان الواجب إلا به، وإن كان معه بعض الإيمان).

وبهذا تتبين خطورة ركوب المعاصي، والغفلة عن تعاهد الإيمان بما يقويه ويزيد فيه، وهذا لا يتم إلا بفعل الطاعات وترك المنهيات. ولهذا جاء التشديد على فاعلها، والتوعد على فعلها بالعذاب، بل إن وصف بعض المعاصي بالكفر لدليل على عظيم خطرها على الإيمان؛ إذ هي كما ورد عن بعض السلف قوله: (المعاصي بريد الكفر) هذا بالإضافة إلى ما في ارتكابها من التشبه بالكفار في أعمالهم، وقد نهينا نحن معشر المؤمنين عن التشبه بهم.

المسألة الثانية: اجتماع الإيمان وبعض شعب الكفر في الشخص الواحد

استدل أهل السنة على كون الشخص الواحد قد يجتمع فيه الإيمان وبعض شعب الكفر أو النفاق بأدلة من الكتاب والسنة، وبما هو واقع مشاهد لا يخفى على أحد. ومنها قول الله ﷻ: (هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ) [آل عمران: ١٦٧]، فأثبت لهم إيمانًا وكفرًا، غير أنهم أقرب إلى الكفر.

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٢٥): استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان.

وقال السعدي في تفسيره (١/ ٤٥٤) في هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان. وقد يكون إحداهما أقرب من الأخرى.اهـ.

وقوله تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ) [يوسف: ١٠٦].

قال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٢٨٢): أثبت لهم الإيمان به مع مقارنة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله، لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله، وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم من الإيمان بالرسل واليوم الآخر، فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.اهـ.

ومنها قوله ﷺ: (أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا ائتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر)[١].

فقوله (ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها) تدل على اجتماع إيمان هذا الشخص مع شعبة من شعب النفاق دون أن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

يكون منافقًا خالصًا.

ومنها أحاديث الشفاعة، وأنه يخرج من النار من كان في قلبه ذرة من إيمان التي تدل على أنهم استحقوا النار بمعاصيهم - وهي من شعب الكفر - ثم استحقوا الجنة بإيمانهم.

ثم إن الواقع يؤكد على وجود مؤمنين اجتمع فيهم إيمان ونفاق، وطاعة وفجور، وسنة وبدعة، ولا ينكر هذا إلا مكابر.

قال ابن حزم في الفصل لابن حزم (٣/ ٢٧٧): هذا الذي أنكروه - أي أهل البدع- لا نكرة فيه، بل هو أمر موجود مشاهد، فمن أحسن من وجه وأساء من وجه آخر، كمن صلى ثم زنى، فهو محسن محمود، ولي لله فيما أحسن فيه من صلاة، ومسيء مذموم عدو لله فيما أساء فيه من الزنا، قال الله ﷻ: (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا) [التوبة: ١٠٢]. فبالضرورة ندري أن العمل الذي شهد الله ﷻ له أنه عمل صالح، فإنه عامله فيه محمود محسن مطيع لله. وأن العمل الذي شهد الله ﷻ أنه سيء، فإن عامله فيه مذموم مسيء عاص لله تعالى.اهـ.

وقال علماء اللجنة الدائمة (٢٨/ ٤٣٥): الإيمان يتجزأ، فهو يزيد وينقص، كما قال تعالى {وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون}، وقال تعالى: {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى}، وذهاب بعض الإيمان لا يكون ذهابا لجميعه؛ لأن القول بأن ذهاب بعض الإيمان ذهاب لجميعه مذهب الخوارج، وهو قول غير صحيح؛ لأن الله يقول {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا}، فأثبت لهم الإيمان مع وجود القتال بينهم، وقال تعالى: {فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان}، فسماه أخاه مع أنه قاتل،

فمذهب أهل السنة أن الإنسان يجتمع فيه إيمان وفسق، وطاعة ومعصية، فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.اهـ.

ولما قعد أهل السنة هذا الأصل، فإنهم اعتمدوا في ذلك التفصيل دون الإطلاق، ووضعوا ضوابط وشروطًا لهذه المسألة حتى تنحصر الأنواع في إطار شرعي متين. ولا تتميع المسألة حتى يخوض فيها من يشاء كيفما شاء ومن هذه الضوابط:

١- الحديث عن الشعب وليس عن الأصل: إذا قال أهل السنة إن الشخص قد يجتمع فيه إيمان وكفر، أو إيمان ونفاق، فليس مقصودهم أصل الكفر أو أصل النفاق، إنما المقصود شعبهما التي لا تضاد أصل الدين، لهذا فصل ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في مدارج السالكين (١/ ٢٨٢) معنى الشرك المذكور في قوله تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ) [يوسف: ١٠٦] أنه إن كان هذا الشرك يتضمن تكذيبًا لرسل الله عليهم السلام، فإن الإيمان الذي معهم لا ينفعهم، أما إن كان متضمنًا للتصديق برسل الله عليهم السلام، فإن الإيمان الذي معهم ينفعهم في عدم الخلود في النار دون دخولها.اهـ.

كما أنه لما لم يفهم أحد مبتدعة العراق هذه المسألة، حاول أن يبرر ما عليه قومه من الشرك بعبادة غير الله من المقبورين والذبح لهم، حاول أن ينفي عنهم الشرك بهذا الأصل الذي أثر عن السلف، وهو أن اجتماع الإيمان وبعض شعب الكفر في الشخص الواحد لا يلزم منه كفر هذا الشخص.

فرد عليه الشيخ ابن سحمان في الضياء الشارق في رد شبهات الماذق المارق (ص٣٧٦) بقوله: وأما قوله - أي العراقي - (والمسلم قد يجتمع فيه الكفر والإسلام والشرك والإيمان، ولا يكفر كفرًا ينقله عن الملة) فأقول - أي الشيخ

ابن سحمان-: نعم، هذا فيما دون الشرك، والكفر الذي يخرج عن الملة. ثم سرد بعض الشعب الشركية والكفرية، وبين أنها هي التي قد تجتمع مع الإيمان في شخص واحد، ولا يخرج من الملة بذلك.

ومفهوم كلامه في الرد على العراقي أن ما كان شركًا أكبر، أو كفرًا أكبر مما يخرج عن الملة لا يمكن أن يجتمع مع الإيمان الذي ينجو به العبد من الكفر في الدنيا، وينجو به من الخلود في النار يوم القيامة، فإنهما نقيضان، والنقيضان لا يجتمعان.

وقال العلامة العثيمين في القول المفيد (١/ ١٧١-١٧٢): تعليقا على قول الإمام (ولابن أبي حاتم عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأى رجلا في يده خيط من الحمى، فقطعه، وتلا قوله: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ}) وقوله: وتلا قوله تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ} أي وتلا حذيفة هذه الآية والمراد بها المشركون الذين يؤمنون بتوحيد الربوبية ويكفرون بتوحيد الألوهية.

وقوله: "وهم مشركون" في محل نصب على الحال من أكثر؛ أي: وهم متلبسون بالشرك، وكلام حذيفة في رجل مسلم لبس خيطا لتبريد الحمى أو الشفاء منها وفيه دليل على أن الإنسان قد يجتمع فيه إيمان وشرك، ولكن ليس الشرك الأكبر؛ لأن الشرك الأكبر لا يجتمع مع الإيمان، ولكن المراد هنا الشرك الأصغر، وهذا أمر معلوم.اهـ.

٢- قيام شعبة من الكفر أو أكثر بالعبد لا يلزم منه كفره بالضرورة: وذلك أن من ثبت له عقد الإسلام لا يحكم بكفره بمجرد صدور فعل كفري عنه حتى تثبت في حقه التكفير، كإثبات أن الفعل الكفري الذي صدر عنه يعتبر ناقضًا

للإسلام بلا نزاع، كما أن هذا الحكم بالتكفير منوط بعدم وجود موانع في حق ذلك الشخص، سواء كانت جبلية أو مكتسبة، أما ما لا يعتبر من الأعمال الكفرية ناقضًا للإسلام، فالأدلة تدل على إمكان اجتماعهما بالإيمان في الشخص الواحد دون أن يكون كافرًا بذلك، وذلك ما كان من باب (كفر دون كفر).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٣٥٠): قد يكون في الناس من معه شعبة من شعب الإيمان، وشعبة من شعب الكفر أو النفاق، ويسمى مسلمًا كما نص عليه أحمد. وتمام هذا أن الإنسان قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان، وشعبة من شعب النفاق. وقد يكون مسلمًا وفيه كفر دون الكفر الذي ينقل عن الإسلام بالكلية، كما قال ابن عباس وغيره: كفر دون كفر. وهذا قول عامة السلف، وهو الذي نص عليه أحمد وغيره قال في السارق والشارب ونحوهم ممن قال فيه النبي ﷺ: إنه ليس بمؤمن إنهم يقال لهم مسلمون لا مؤمنون. واستدلوا بالقرآن والسنة على نفي اسم الإيمان مع إثبات اسم الإسلام، وبأن الرجل قد يكون مسلمًا ومعه كفر لا ينقل عن الملة، بل كفر دون كفر.

٣- قيام شعبة من الإيمان أو أكثر بالعبد لا يلزم منه تسميته مؤمنًا:

وهذا الضابط له صورتان:

الصورة الأولى: من لم يستوف جميع خصال الإيمان الواجب الذي بموجبه يكون من أهل الجنة ابتداء، فهذا لا يسمى مؤمنًا وإن قامت به بعض شعب الإيمان دون بعضها الآخر، وذلك لما قد يعتريه من ضعف، فيعصي الله تعالى بفعل محرم أو بترك واجب، ولهذا قال الله تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل

لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) [الحجرات: ١٤].

وروى البخاري بسنده إلى سعد بن أبي وقاص (أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعد جالس، فترك رسول الله ﷺ رجلًا هو أعجبهم إلي، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان؟، فوالله إني لأراه مؤمنا، فقال: أو مسلما ... الحديث)[1].

الصورة الثانية: وهي تنطبق على المنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر فمن علم منه النفاق، لا يسمى مؤمنًا ولا مسلمًا وإن قام بظاهره كثير من الشعب الإيمانية كالشهادتين وأركان الإسلام الأخرى ... الخ.

(فرع): اجتماع الإيمان وبعض شعب الكفر في الشخص الواحد وأثره في مسألة الولاء والبراء

إن الله عقد الأخوة والمحبة والموالاة والنصرة بين المؤمنين، ونهى عن موالاة الكافرين كلهم، فكان من الأصول المتفق عليها بين المسلمين أن كل مؤمن موحد تارك لجميع المكفرات التي دلت عليها الشريعة بلا نزاع من أحد، فإن محبته وموالاته ونصرته واجبة.

وكل من كان بخلاف ذلك، وجب التقرب إلى الله ببغضه ومعاداته، بل وجهاده باللسان واليد بحسب القدرة والإمكان. قال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ) [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ

(١) أخرجه البخاري (٢٧)، ورواه مسلم (١٥٠).

جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [التوبة: ٧٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١/ ١٦٠ - ١٦١): الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه، ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معاديًا له، كما قال تعالى: (لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ) [الممتحنة: ١]. فمن عادى أولياء الله فقد عاداه، ومن عاداه فقد حاربه، فلهذا قال: (ومن عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة)[1].اهـ.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) والحديث قال عنه العراقي في المغني: انفرد به خالد القطواني وهو متكلم فيه، واستنكره الذهبي، فقال في ترجمة خالد بن مخلد في: (الميزان ٢/ ١٦٤ - ١٦٥) بعد أن ذكر اختلاف العلماء في درجته، وساق بعض مناكيره، موردا منها هذا الحديث: "فهذا حديث غريب جدا، ولولا هيبة الجامع الصحيح لعدوه في منكرات خالد ابن مخلد؛ وذلك لغرابة لفظه، ولأنه مما ينفرد به شريك وليس بالحافظ ولم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد، ولا خرجه من عدا البخاري .. " اهـ. ونقل الحافظ ابن حجر بعض كلامه هذا في: (الفتح ١١/ ٣٤٩) وقال:".. وإطلاق أنه لم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد مردود .. " ثم ذكر أن للحديث طرقا أخرى قال عنها: "يدل مجموعها على أن له أصلا". ثم ذكره عن: عائشة، وأبي أمامة، وعلي، وابن عباس، وأنس، وحذيفة، ومعاذ ابن جبل، ووهب بن منبه مقطوعا، وعزاها إلى مخرجيها، وتكلم عليها، وتعقب بعض أهل العلم في كلامهم على بعض طرقها، وأمعن العلامة الألباني النظر في هذه الشواهد في الصحيحة (١٦٤٠): وزاد عليها شاهدا من حديث ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ودرسها سندا ومتنا سوى حديث علي؛ لعدم وقوفه على سنده وأطال النفس في ذلك إلى أن قال: "وخلاصة القول: إن أكثر هذه الشواهد لا تصلح لتقوية الحديث بها؛ إما لشدة ضعف إسنادها، وإما لاختصارها، اللهم إلا حديث =

أما من لم يصف له اتباع أوامر الله تعالى بالطاعة التامة والانقياد الكامل، بل ترك بعض ما وجب عليه أو فعل بعض ما حرم عليه مع وجود الإيمان بالله والقيام ببعض ما أمر الله به، فإن هذا لا يكون وليا لله من كل وجه بما معه من إيمان وبعض العمل الصالح، كما لا يكون عدوا لله من كل وجه بسبب تقصيره في حق الله تعالى بترك الواجب وفعل المحرم.

والذي تقرر عند أهل السنة أن كل شخص اجتمع فيه إيمان وكفر، أو إيمان ونفاق، أو طاعة ومعصية، فإنه يكون قد اجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة، فيكون محبوبًا من وجه ومبغوضًا من وجه، والحكم العام يكون للغالب بحسب قربه من الكفر أو الإيمان أو بعده عنهما.

قال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٢٨١ - ٢٨٢): أهل السنة متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين، ويكون محبوبًا ومبغوضًا له من وجهين أيضًا، بل يكون فيه إيمان

=

عائشة، وحديث أنس بطريقيه، فإنهما إذا ضما إلى إسناد حديث أبي هريرة اعتضد بمجموعها، وارتقى إلى درجة الصحيح إن شاء الله تعالى، و قد صححه من سبق ذكره من العلماء..اهـ.

قلت الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ هو إمام هذا الشأن وإليه فيه المنتهى وطريقة البخاري في صحيحه كما هو معلوم عند أهل الصنعة إن أخرج عن متكلم فيه، هي أن ينتقي ما يعلم أنه حفظه، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه، وقديما قالوا إذ قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام فرحم الله إمام أئمة الصنعة جبل الحفظ وإمام الدنيا ولي الله أبي عبد الله البخاري، وتدبر كلمة العلامة الألباني في الصحيحة (١٦٤٠) حيث قال: وقد أطال النفس فيه -أي ابن حجر-، وحق له ذلك، فإن حديثا يخرجه الإمام البخاري في "المسند الصحيح" ليس من السهل الطعن في صحته لمجرد ضعف في إسناده، لاحتمال أن يكون له شواهد تأخذ بعضده وتقويه.

ونفاق، وإيمان وكفر، ويكون إلى أحدهما أقرب منه للآخر فيكون من أهله.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٠٨): إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، كاللص تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته، وهذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة، وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم.اهـ.

فالموالاة والمعاداة لا دخل لحظوظ النفس فيها كالقرابة والنسب والجاه، وإنما هذه الأعراض تابعة لأصل الولاء والبراء اللذين يجب أن يتمحضا لله. فالنظر إلى أعمال الناس ومدى قربهم من مرضاة الله أو بعدهم عنه هو المناط الذي ترتكز عليه الموالاة أو المعاداة.

أما درجات هذه الموالاة أو المعاداة، فتتحدد بما يترجح لدى الشخص من خير أو شر، فمن ترجح جانب الخير عنده، فهذا يوالى بدرجة أكبر من درجة معاداته والعكس.

ومما يعتبر كذلك في هذه المسألة جانب المصلحة والمفسدة من جهة تقدير الدعاة والمصلحين؛ حتى لا ينفر الناس من الدعوة والقائمين عليها.

قال الشيخ محمد بن عبد اللطيف كما في مجموعة الرسائل النجدية (٢/ ١/ ١٣٧): وأما من ظاهره الإسلام منهم، ولكن ربما قد يوجد فيهم من الكفر العملي الذي لا يخرج من الملة وفيهم شيء من أمور الجاهلية، ومن أنواع المعاصي - صغائر كانت أو كبائر -، فلا يعاملون معاملة المرتدين، بل يعاملون

برفق ولين، ويبغضون على ما معهم من هذه الأوصاف، وليعلم أن المؤمن تجب موالاته ومحبته على ما معه من الإيمان، ويبغض ويعادى على ما معه من المعاصي. وهجره مشروع إن كان فيه مصلحة وزجر وردع، وإلا فيعامل بالتأليف وعدم التنفير، والترغيب في الخير برفق ولطف ولين؛ لأن الشريعة مبنية على جلب المصالح ودفع المضار.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٣/ ١٥): عن الموالاة والمعاداة؟ وعن حكم هجر المسلم؟

فأجاب: إن الموالاة والمعاداة يجب أن تكون لله ﷻ، فإن من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فقد سلك الطريق التي بها تنال ولاية الله ﷻ، أما من كانت ولايته ومعاداته وحبه وبغضه للهوى، أو للتقليد الأعمى، فقد حرم خيرا كثيرا، وربما يقع في أمر كبير، فقد يعادي وليا من أولياء الله ﷻ، فيكون حربا لله تعالى، كما في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «قال الله ﷻ: من عادى لي وليا فقد آذنته في الحرب ... الحديث».

وربما يحب ويوالي عدوا من أولياء الله ﷻ، فيقع في أمر كبير وخطر عظيم كما قال الله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ}، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ} .

وهجر المسلم في الأصل حرام، بل من كبائر الذنوب إذا زاد على ثلاثة أيام،

فقد صح عن النبي - أنه قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة، يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» متفق عليه، وروى أبو داود والنسائي بإسناده قال المنذري: إنه على شرط البخاري وسلم: «فمن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار» ومن المعلوم أن المسلم لا يخرج عن الإسلام بالمعاصي وإن عظمت، ما لم تكن كفرا، وعلى هذا فلا يحل هجر أصحاب المعاصي، إلا أن يكون في هجرهم مصلحة بإقلاعهم عنها، وردع غيرهم عنها؛ لأن المسلم العاصي ولو كانت معصيته كبيرة أخ لك؛ فيدخل في قوله: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث" ومن الأدلة على أن العاصي أخ للمطيع، وإن عظمت معصيته قوله تعالى فيمن قتل مؤمنا عمدا: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ} فجعل الله القاتل عمدا أخا للمقتول، مع أن القتل -قتل المؤمن عمدا- من أعظم الكبائر، وقوله تعالى في الطائفتين المقتتلتين من المؤمنين: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} . إلى قوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} فلم يخرج الله الطائفتين المقتتلتين من الإيمان، ولا من الأخوة الإيمانية، فإن كان في الهجر مصلحة، أو زوال مفسدة، بحيث يكون رادعا لغير العاصي عن المعصية أو موجبا، لإقلاع العاصي عن معصيته كان الهجر حينئذ جائزا، بل مطلوبا طلبا لازما، أو مرغبا فيه، حسب عظم المعصية التي هجر من أجلها، ودليل ذلك قصة كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم وهم الثلاثة الذين خلفوا؛ فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهجرهم، ونهى عن تكليمهم، فاجتنبهم الناس، حتى إن كعبا رضي الله عنه دخل على ابن عمه أبي قتادة رضي الله عنه وهو أحب الناس إليه، فسلم عليه فلم يرد عليه السلام، فصار بهذا الهجر من المصلحة العظيمة لهؤلاء الثلاثة من الرجوع إلى الله عز وجل، والتوبة

النصوح والابتلاء العظيم، ولغيرهم من المسلمين ما ترجحت به مصلحة الهجر على مصلحة الوصل.

أما اليوم، فإن كثيرا من أهل المعاصي لا يزيدهم الهجر إلا مكابرة وتماديا في معصيتهم، ونفورا وتنفيرا عن أهل العلم والإيمان؛ فلا يكون في هجرهم فائدة لهم ولا لغيرهم، وعلى هذا فنقول: إن الهجر دواء يستعمل حيث كان فيه الشفاء، وأما إذا لم يكن فيه شفاء أو كان فيه إشفاء، وهو الهلاك فلا يستعمل.

فأحوال الهجر ثلاث

إما أن تترجح مصلحته فيكون مطلوبا.

وإما أن تترجح مفسدته فينهى عنه بلا شك.

وإما أن لا يترجح هذا ولا هذا، فالأقرب النهي عنه؛ لعموم قول النبي، ﷺ: «لا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة» .

أما الكفار المرتدون فيجب هجرهم والبعد عنهم، وأن لا يجالسوا ولا يواكلوا، إذا قام الإنسان بنصحهم ودعوتهم إلى الرجوع إلى الإسلام فأبوا، وذلك لأن المرتد لا يقر على ردته، بل يدعى إلى الرجوع إلى ما خرج منه، فإن أبى وجب قتله، وإذا قتل على ردته، فإنه لا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن مع المسلمين، وإنما يرمى بثيابه، ورجس دمه في حفرة بعيدا عن المقابر الإسلامية في مكان غير مملوك.

وأما الكفار غير المرتدين فلهم حق القرابة إن كانوا من ذوي القربى، كما قال تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ} ، وقال في الأبوين الكافرين المشركين: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ} .

المسألة الثالثة: حكم الفاسق الملي

المقصود به الفاسق من أهل القبلة، والنزاع في اسمه وحكمه هو أول خلاف ظهر في الإسلام في مسائل أصول الدين.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٤٧٨): وبتحقق هذا المقام يزول الاشتباه في هذا الموضع، ويعلم أن في المسلمين قسما ليس هو منافقا محضا في الدرك الأسفل من النار، وليس هو من المؤمنين الذين قيل فيهم: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصادِقُونَ) [الحجرات: ١٥]، ولا من الذين قيل فيهم: (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) [الأنفال: ٤] فلا هم منافقون ولا هم من هؤلاء الصادقين المؤمنين حقا، ولا من الذين يدخلون الجنة بلا عقاب، بل له طاعات ومعاص، وحسنات وسيئات، ومعه من الإيمان ما لا يخلد معه في النار، وله من الكبائر ما يستوجب دخول النار.

وهذا القسم قد يسميه بعض الناس: الفاسق الملي وهذا مما تنازع الناس في اسمه وحكمه، والخلاف فيه أول خلاف ظهر في الإسلام في مسائل أصول الدين.اهـ..

وأهل السنة لا يكفرون هذا الصنف، ولا يحكمون بخلوده في النار، بل يرون أنه تحت المشيئة،، لكنهم تنازعوا في اسمه، هل يطلق عليه مؤمن أم لا؟

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٣٥٤): وأما أهل السنة والجماعة والصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر طوائف المسلمين من أهل الحديث والفقهاء وأهل الكلام من مرجئة الفقهاء والكرامية والكلابية والأشعرية والشيعة، مرجئهم وغير مرجئهم، فيقولون: إن الشخص الواحد قد

يعذبه الله بالنار ثم يدخله الجنة، كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة.

وهذا الشخص الذي له سيئات عذب بها وله حسنات دخل بها الجنة، وله معصية وطاعة، باتفاق فإن هؤلاء الطوائف لم يتنازعوا في حكمه، لكن تنازعوا في اسمه. فقالت المرجئة، جهميتهم وغير جهميتهم: هو مؤمن كامل الإيمان.

وأهل السنة والجماعة على أنه مؤمن ناقص الإيمان، ولولا ذلك لما عذب، كما أنه ناقص البر والتقوى باتفاق المسلمين.

وهل يطلق عليه اسم مؤمن؟ هذا فيه القولان، والصحيح التفصيل:

فإذا سئل عن أحكام الدنيا كعتقه في الكفارة، قيل: هو مؤمن. وكذلك إذا سئل عن دخوله في خطاب المؤمنين.

وأما إذا سئل عن حكمه في الآخرة، قيل: ليس هذا النوع من المؤمنين الموعودين بالجنة، بل معه إيمان يمنعه الخلود في النار، ويدخل به الجنة بعد أن يعذب في النار، إن لم يغفر الله له ذنوبه، ولهذا قال من قال: هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، أو مؤمن ناقص الإيمان.

والذين لا يسمونه مؤمنًا من أهل السنة ومن المعتزلة يقولون: اسم الفسوق ينافي اسم الإيمان لقوله: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١] وقوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ [السجدة: ١٨] وقد قال النبي ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[1].اهـ.

وقال أيضا في الواسطية (ص١١٤): ولا يسلبون الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية، ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة، بل الفاسق يدخل في اسم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الإيمان[١] في مثل قوله تعالى: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} [النساء: ٩٢] وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال: ٢]، وقوله: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن)[٢]، ويقولون: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم.اهـ.

والفرق بين مطلق الشيء، والشيء المطلق، أن الشيء المطلق هو الشيء الكامل، ومطلق الشيء يعني أصل الشيء وإن كان ناقصا. فالفاسق لا يعطى الاسم المطلق في الإيمان وهو الاسم الكامل، ولا يسلب مطلق الاسم، فلا نقول: ليس بمؤمن، بل نقول: ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة وهو المذهب العدل الوسط، وخالفهم في ذلك طوائف: المرجئة يقولون: مؤمن كامل الإيمان، والخوارج يقولون: كافر، والمعتزلة في منزلة بين المنزلتين[٣].

---

(١) في نسخ الواسطية المطبوعة: (الإيمان المطلق)، وهو مشكل، وقد حمله الشيخ ابن عثيمين على أن المراد إذا أطلق الإيمان، وليس المراد الإيمان الكامل. انظر: شرح الواسطية لابن عثيمين (٢/ ٦٤٨). وما أثبته هو الموافق لما في مجموع الفتاوى، ولما في النسخة المخطوطة للواسطية، كما قال الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف في تحقيقه لـ شرح الواسطية للهراس، هامش: (ص٢٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٧٨) ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) شرح الواسطية للشيخ ابن عثيمين (٢/ ٦٥١)، وقال ابن القيم: فالإيمان المطلق لا يطلق إلا على الكامل الكمال المأمور به، ومطلق الإيمان يطلق على الناقص والكامل، =

الإيمان المنفي عن الزاني والسارق: قد تبين أن الشارع ينفي الإيمان المطلق عن أصحاب الذنوب، كالزاني والسارق وشارب الخمر، ولا ينفي عنهم مطلق الإيمان، ولهذا فهم مسلمون مصدقون، ولديهم من أعمال القلب والجوارح ما يصحح إيمانهم، ويدفع الكفر والنفاق عنهم.

وقد دلت السنة الصحيحة على أن الإيمان يرتفع عن الزاني حين يزني، كما قال النبي ﷺ: (إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان كان عليه كالظلة فإذا انقطع رجع إليه الإيمان)[1]، والمقصود بهذا الإيمان: الخشية والنور والخشوع، لا أن التصديق يذهب، أو أن عمل القلب يزول بالكلية، فالزاني حين يزني، لابد أن يعتقد حرمة الزنا، وأن يبغضه، ويكرهه، ويخاف من عاقبته، وهكذا السارق وشارب الخمر ونحوهما، وبهذا يبقى لهم أصل الإيمان.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٧/ ٣١): ومن أتى الكبائر مثل الزنا أو السرقة أو شرب الخمر وغير ذلك، فلابد أن يذهب ما في قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور، وإن بقي أصل التصديق في قلبه، وهذا من الإيمان

=

ولهذا نفى النبي ﷺ الإيمان المطلق عن الزاني وشارب الخمر والسارق ولم ينف عنه مطلق الإيمان، وقال: (والمقصود الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان. فالإيمان المطلق يمنع دخول النار ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها).ا. هـ. من بدائع الفوائد (٤/ ٢٢٧).

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٢٢، رقم ٤٦٩٠)، وابن منده في الإيمان (٥١٩)، والحاكم (١/ ٧٢، رقم ٥٦)، والبيهقى فى الشعب (٤/ ٣٥٢، رقم ٥٣٦٤) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبى، وسكت عليه أبو داود هو والمنذري، وصححه الحافظ في الفتح (١٢/ ٦٢)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٥٨٦)، وفي الصحيحة (٥٠٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٧/ ٧٦): إسناده صحيح.

الذي ينزع منه عند فعل الكبيرة، كما قال النبي ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن)(١) فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) [الأعراف: ٢٠١]، فإذا طاف بقلوبهم طائف من الشيطان تذكروا فيبصرون، قال سعيد بن جبير: هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله فيكظم الغيظ. وقال ليث عن مجاهد: هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه، والشهوة والغضب مبدأ السيئات، فإذا أبصر رجع، ثم قال: (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ) [الأعراف: ٢٠٢] أي وإخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي ثم لا يقصرون، قال ابن عباس: لا الإنس تقصر عن السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم، فإذا لم يُبصر بقي قلبه في غي والشيطان يمده في غيه، وإن كان التصديق في قلبه لم يكذّب، فذلك النور والإبصار وتلك الخشية والخوف يخرج من قلبه، وهذا كما أن الإنسان يُغمض عينيه فلا يرى شيئا وإن لم يكن أعمى، فكذلك القلب بما يغشاه من رَيْن الذنوب لا يبصر الحق وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر، وهكذا جاء في الآثار... وأورد آثارا عن الحسن وابن عباس وأبي هريرة، ثم قال: وفى حديثٍ عن أبى هريرة مرفوع إلى النبي ﷺ: (إذا زنى الزاني خرج منه الإيمان كان كالظلة فإذا انقطع رجع إليه الإيمان) وهذا إن شاء الله يبسط في موضع آخر.اهـ.

فبين أن الذي يرتفع عن الزاني هو النور والخشية والخشوع، مع بقاء التصديق في قلبه، وبين في موضع آخر اشتراط وجود عمل القلب، من بغض المعصية وكراهيتها، والخوف من الله حال ارتكابها، ليبقى عقد الإيمان، فقال في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٧٨) ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قاعدة في المحبة (ص١٠٤): الإنسان لا يفعل الحرام إلا لضعف إيمانه ومحبته، وإذا فعل مكروهات الحق فلضعف بعضها في قلبه أو لقوة محبتها التي تغلب بعضها، فالإنسان لا يأتي شيئا من المحرمات كالفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، والشرك بالله ما لم ينزل به سلطانا، والقول على الله بغير علم، إلا لضعف الإيمان في أصله أو كماله، أو ضعف العلم والتصديق، وإما ضعف المحبة والبغض، لكن إذا كان أصل الإيمان صحيحا وهو التصديق، فإن هذه المحرمات يفعلها المؤمن مع كراهته وبغضه لها، فهو إذا فعلها لغلبة الشهوة عليه، فلا بد أن يكون مع فعلها فيه بغض لها، وفيه خوف من عقاب الله عليها، وفيه رجاء لأن يخلص من عقابها، إما بتوبة وإما حسنات، وإما عفو، وإما دون ذلك، وإلا فإذا لم يبغضها ولم يخف الله فيها ولم يرج رحمته، فهذا لا يكون مؤمنا بحال، بل هو كافر أو منافق.اهـ.

وقال في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٧): (وأيضا فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[١] وفى رواية: (وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة خردل)[٢] فهذا يبين أن القلب إذا لم يكن فيه بغضُ ما يكرهه الله من المنكرات، كان عادما للإيمان، والبغض والحب من أعمال القلوب،

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. ولفظه: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل).

ومن المعلوم أن إبليس ونحوه يعلمون أن الله ﷻ حرم هذه الأمور، ولا يبغضونها، بل يدعون إلى ما حرم الله ورسوله.اهـ.

(تنبيه): وقع في كلام بعض أهل العلم أن المراد بنفي الإيمان الوارد في بعض النصوص: هو نفي الكمال، وهذا لابد أن يقيّد بالكمال الواجب، وإلا فتارك الكمال المستحب، لا ينفى عنه الإيمان، وإلا للزم نفي الإيمان عن أكثر الناس.

فمن الأول: قول النووي: باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله.

فمن قال: إن المنفي هو الكمال، فإن أراد أنه نفي الكمال الواجب الذي يُذم تاركه، ويتعرض للعقوبة، فقد صدق. وإن أراد أنه نفي الكمال المستحب، فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله، ولا يجوز أن يقع؛ فإن من فعل الواجب كما وجب عليه، ولم ينتقص من واجبه شيئا، لم يجز أن يقال: ما فعله، لا حقيقة ولا مجازا، فإذا قال للأعرابي المسيء في صلاته (ارجع فصل فإنك لم تصل)[1]، وقال لمن صلى خلف الصف وقد أمره بالإعادة: (لا صلاة لفذ خلف الصف)[2] كان لترك واجب[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مطولا ومختصرا أحمد (٤/ ٢٣، رقم ١٦٣٤٠)، وابن سعد في الطبقات (٥/ ٥٥١)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٩٣) و (١٤/ ١٥٦)، وابن ماجه (٨٧١) و (١٠٠٣)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٢٧٥ - ٢٧٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٦٧٨)، وابن خزيمة (٥٩٣، ٦٦٧، ٨٧٢، ١٥٦٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٩٠١)، وفي شرح معاني الآثار (١/ ٣٩٤)، وابن حبان (١٨٩١، ٢٢٠٢، ٢٢٠٣)، والبيهقي في السنن (٣/ ١٠٥)، وابن عساكر (٣٨/ ٤٢١) والحديث حسنه الإمام أحمد كما في التنقيح لابن عبد الهادي (٢/ ٢٤)، والبدر المنير (٤/ ٤٧٤)، وقال
=

فائدة: في مراتب النفي: قال العلامة العثيمين القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ١٦١): ونفي الشيء له ثلاث حالات: فالأصل أنه نفي للوجود، وذلك مثل: (لا إيمان لعابد صنم)، فإنْ منعَ مانعٌ من نفي الوجود، فهو نفي للصحة، مثل: (لا صلاة بغير وضوء)، فإن منع مانع من نفي الصحة، فهو نفيٌ للكمال، مثل: (لا صلاة بحضرة الطعام)، فقوله: (لا يؤمن أحدكم) نفي للكمال الواجب، لا المستحب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لا ينفى الشيء إلا لانتفاء واجب فيه، ما لم يمنع من ذلك مانع.

(باب كفر دون كفر وشرك دون شرك)

مسائل في الباب

مسألة: تفسير قوله تعالى (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ).

قال الله تعالى {هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله

=

النووي في الخلاصة (٢/ ٧١٨)، وفي المجموع (٤/ ٢٩٨): إسناده حسن، وقال ابن عبد الهادي في تنقيحه (٢/ ٢٤): إسناده قوي، وكذا قال الذهبي في تنقيحه (١/ ٢٦٣)، وقال في المهذب (٢/ ١٠٣٦): إسناده صالح، وقال ابن القيم في إعلام الموقعين (٤/ ١٨٦): إسناده صحيح، وقال ابن كثير في إرشاد الفقيه (١/ ١٧٦): إسناده حسن، وقال البوصيرى (١/ ١٠٨): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٥٣٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المحلى (٤/ ٥٣): إسناده صحيح، وخرجه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٩٩٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٦/ ٢٢٥): إسناده صحيح، وقال الشيخ مشهور في تحقيق إعلام الموقعين (٤/ ١٨٦): إسناده صحيح رجاله ثقات.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤) وما بعدها.

ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون}[1] [الأعراف: ١٨٩- ١٩٠].

(١) قال العلامة العثيمين في القول المفيد (٢/ ٢٩٩): قوله: {فلما آتاهما} الضمير يعود على ما سبق من النفس وزوجها، ولهذا ينبغي أن يكون الشرح من قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [الأعراف: من الآية١٨٩].
قوله: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} فيها قولان:
الأول: أن المراد بالنفس الواحدة: العين الواحدة؛ أي: من شخص معين، وهو آدم عليه السلام، وقوله: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} أي: حواء؛ لأن حواء خلقت من ضلع آدم.
الثاني: أن المراد بالنفس الجنس، وجعل من هذا الجنس زوجه، ولم يجعل زوجه من جنس آخر، والنفس قد يراد بها الجنس؛ كما في قوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [آل عمران: من الآية١٦٤]؛ أي: من جنسهم.
قوله: {لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} سكون الرجل إلى زوجته ظاهر من أمرين:
أولا: لأن بينهما من المودة والرحمة ما يقتضي الأنس والاطمئنان والاستقرار.
ثانيا: سكون من حيث الشهوة، وهذا سكون خاص، لا يوجد له نظير حتى بين الأم وابنها.
قوله: {لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} تعليل لكونها من جنسه أو من النفس المعينة.
قوله: {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا} أي: جامعها، وعبارة القرآن والسنة التكنية عن الجماع، قال تعالى: {أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ} [النساء: من الآية٤٣]، وقال: {اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ} [النساء: من الآية٢٣]، وقال تعالى: {وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ} [النساء: من الآية٢١]، كأن الاستحياء من ذكره بصريح اسمه أمر فطري، ولأن الطباع السليمة تكره أن تذكر هذا الشيء باسمه إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فإنه قد يصرح به، كما في قوله -صلى الله عليه وسلم عند البخاري- لماعز وقد أقرَّ عنده بالزنى (أنِكْتَها) لا يكني؛ لأن الحاجة هنا داعية للتصريح حتى يتبين الأمر جليا، ولأن الحدود تدرأ بالشبهات.
وتشبيه علو الرجل المرأة بالغشيان أمر ظاهر، كما أن الليل يستر الأرض بظلامه، قال تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} [الليل: ١]، وعبر بقوله: "تغشاها" ولم يقل: غشيها؛ لأن تغشى أبلغ، وفيه شيء من المعالجة، ولهذا جاء في الحديث: (إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها) أخرجه البخاري، الجلوس بين شعبها الأربع هذا غشيان، و
=

=

"جهدها" هذا تغشي.

قوله: {حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا} الحمل في أوله خفيف: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة.

قوله: "فَمَرَّتْ بِهِ": المرور بالشيء تجاوزه من غير تعب ولا إعياء، والمعنى: تجاوزت هذا الحمل الخفيف من غير تعب ولا إعياء.

قوله: "فلما أثقلت": الإثقال في آخر الحمل.

قوله: "دعوا الله"، ولم يقل: دعيا؛ لأن الفعل واوي؛ فعاد إلى أصله.

قوله: "الله ربهما": أتى بالألوهية والربوبية؛ لأن الدعاء يتعلق به جانبان:

الأول: جانب الألوهية من جهة العبد أنه داع، والدعاء عبادة.

الثاني: جانب الربوبية؛ لأن في الدعاء تحصيلا للمطلوب، وهذا يكون متعلقا بالله من حيث الربوبية.

والظاهر أنهما قالا: اللهم ربنا، ويحتمل أن يكون بصيغة أخرى.

قوله: {لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا} أي: أعطيتنا.

وقوله: {صَالِحًا} ؛ هل المراد صلاح البدن، أو المراد صلاح الدين، أي: لئن آتيتنا بشرا سويا، ليس فيه عاهة ولا نقص، أو صالحا بالدين؛ فيكون تقيا قائما بالواجبات؟

الجواب: يشمل الأمرين جميعا، وكثير من المفسرين لم يذكر إلا الأمر الأول، وهو الصلاح البدني، لكن لا مانع من أن يكون شاملا للأمرين جميعا.

قوله: {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} أي: من القائمين بشكرك على هذا الولد الصالح. والجملة هنا جواب قسم وشرط، قسم متقدم، وشرط متأخر، والجواب فيه للقسم؛ ولهذا جاء مقرونا باللام: لنكونن.

قوله: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا} هنا حصل المطلوب، لكن لم يحصل الشكر الذي وعدا الله به، بل جعلا له شركاء فيما آتاهما.

وقوله: {جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا} [الأعراف: من الآية ١٩٠] هذا جواب "لما". والجواب متعقب للشرط وهذا يدل على أن الشرك منهما حصل حين إتيانه وهو صغير، ومثل هذا لا يعرف أيصلح في دينه في المستقبل أم لا يصلح؟ ولهذا كان أكثر المفسرين على أن المراد بالصلاح، الصلاح البدني.

فمعاهدة الإنسان ربه أن يفعل العبادة مقابل تفضل الله عليه بالنعمة الغالب أنه لا يفي بها؛ ففي سورة التوبة قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ

=

=

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [التوبة: ٧٥، ٧٦]، وفي هذه الآية قال تعالى: {لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ} [الأعراف: من الآية١٨٩، ١٩٠] فكانا من المشركين لا من الشاكرين، وبهذا نعرف الحكمة من نهي النبي ﷺ عن النذر؛ لأن النذر معاهدة مع الله ﷻ، ولهذا (نهى النبي ﷺ عن النذر، وقال: "إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل) أخرجه مسلم، وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى تحريم النذر، وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يميل إلى تحريم النذر؛ لأن رسول الله ﷺ نهى عنه، ونفى أنه يأتي بخير.

إذن ما الذي نستفيد من أمر نهى عنه الرسول ﷺ، وقال: إنه لا يأتي بخير؟

الجواب؛ لا نستفيد إلا المشقة على أنفسنا، وإلزام أنفسنا بما نحن منه في عافية، ولهذا؛ فالقول بتحريم النذر قول قوي جدا، ولا يعرف مقدار وزن هذا القول إلا من عرف أسئلة الناس وكثرتها، ورأى أنهم يذهبون إلى كل عالم لعلهم يجدون خلاصا مما نذروا.

فإن قيل: هذا الولد الذي آتاهما الله ﷻ كان واحدا؛ فكيف جعلا في هذا الولد الواحد شركا بل شركاء؟

فالجواب: أن نقول هذا على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يعتقدا أن الذي أتى بهذا الولد هو الولي الفلاني، والصالح الفلاني، ونحو ذلك، فهذا شرك أكبر؛ لأنهما أضافا الخلق إلى غير الله.

ومن هذا أيضا ما يوجد عند بعض الأمم الإسلامية الآن؛ فتجد المرأة التي لا يأتيها الولد تأتي إلى قبر الولي الفلاني، كما يزعمون أنه ولي الله -والله أعلم بولايته-، فتقول: يا سيدي فلان! ارزقني ولدا.

الوجه الثاني: أن يضيف سلامة المولود ووقايته إلى الأطباء وإرشاداتهم، وإلى القوابل وما أشبه ذلك، فيقولون مثلا: سلم هذا الولد من الطلق؛ لأن القابلة امرأة متقنة جيدة؛ فهنا أضاف النعمة إلى غير الله، وهذا نوع من الشرك، ولا يصل إلى حد الشرك الأكبر؛ لأنه أضاف النعمة إلى السبب ونسي المسبب، وهو الله ﷻ.

الوجه الثالث: أن لا يشرك من ناحية الربوبية، بل يؤمن أن هذا الولد خرج سالما بفضل الله ورحمته، ولكن يشرك من ناحية العبودية؛ فيقدم محبته على محبة الله ورسوله

=

=

ويلهيه عن طاعة الله ورسوله، قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن: ١٥]؛ فكيف تجعل هذا الولد ندا لله في المحبة، وربما قدمت محبته على محبة الله، والله هو المتفضل عليك به؟!

وفي قوله: "فلما آتاهما" نقد لاذع؛ أن يجعلا في هذا الولد شريكا مع الله، مع أن الله هو المتفضل به، ثم قال: {فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الأعراف: من الآية١٩٠] أي: ترفع وتقدس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها.

ومن تأمل الآية وجدها دالة على أن قوله: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} أي: من جنس واحد، وليس فيها تعرض لآدم وحواء بوجه من الوجوه، ويكون السياق فيها جاريا على الأسلوب العربي الفصيح الذي له نظير في القرآن؛ كقوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ} [آل عمران: من الآية١٦٤] أي: من جنسهم، وبهذا التفسير الواضح البين يسلم الإنسان من إشكالات كثيرة.

أما على القول الثاني بأن المراد بقوله تعالى: {مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} آدم {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} [الأعراف: من الآية١٨٩] حواء، فيكون معنى الآية خلقكم من آدم وحواء. فلما جامع آدم حواء حملت حملا خفيفا، فمرت به، فلما أثقلت دعوا -أي آدم وحواء- الله ربهما: {لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا} [الأعراف: من الآية١٨٩، ١٩٠] فأشرك آدم وحواء بالله، لكن قالوا: إنه إشراك طاعة لا إشراك عبادة، {فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الأعراف: من الآية١٩٠] وهذا التفسير منطبق على المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسنبين -إن شاء الله تعالى- وجه ضعفه وبطلانه.

وهناك قول ثالث: أن المراد بقوله تعالى: {مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} أي: آدم وحواء، {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا} انتقل من العين إلى النوع؛ أي: من آدم إلى النوع الذي هم بنوه، أي: فلما تغشى الإنسان الذي تسلسل من آدم وحواء زوجته ... إلى آخره، ولهذا قال تعالى: {فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الأعراف: من الآية١٩٠] بالجمع ولم يقل عما يشركان، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} [الملك: من الآية٥] أي: جعلنا الشهب الخارجة منها رجوما للشياطين، وليست المصابيح نفسها، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً} [المؤمنون: ١٢، ١٣] أي: جعلناه بالنوع، وعلى هذا فأول الآية في آدم

=

وعن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال (لما حملت حواء، طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث[1]؛ فإنه يعيش؛ فسموه عبد الحارث، فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره)[2] وهو حديث

=

وحواء، ثم صار الكلام من العين إلى النوع.

وهذا التفسير له وجه، وفيه تنزيه آدم وحواء من الشرك، لكن فيه شيء من الركاكة لتشتت الضمائر.

وأما قوله تعالى: {فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} فجمع لأن المراد بالمثنى اثنان من هذا الجنس، فصح أن يعود الضمير إليهما مجموعا؛ كما في قوله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا} [الحجرات: من الآية٩]، ولم يقل: اقتتلتا؛ لأن الطائفتين جماعة.

(١) الحارث: قيل هو من أسماء إبليس، قال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٣٩): كان اسم إبليس حيث كان مع الملائكة عزازيل ثم إبليس بعد... ومن أسمائه الحارث والحكم، وكنيته أبو مرة. وفي كتاب "ليس لابن خالويه" كنيته أبو الكروبيين.

(٢) أخرجه أحمد(٥/ ١١)، وابن جرير في تفسيره (٦/ ١٤٤)، والترمذي (٣٠٧٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٤)، والروياني في مسنده (٢/ ٥٢)، جميعهم من طريق: عبد الصمد بن عبد الوارث، عن عمر بن إبراهيم، عن قتادة، عن الحسن البصري، عن سمرة، به مرفوعا.

وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣١) عن أبي زرعة الرازي، عن هلال بن الفياض، عن عمر بن إبراهيم، به . مرفوعا .

وأخرجه ابن مردويه كما في تفسير الحافظ ابن كثير (٢/ ٢٨٦)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢١٥)، وابن عدي في الكامل (٥/ ٤٣) جميعهم من طريق شاذ بن فياض، عن عمر بن إبراهيم، عن قتادة، به مرفوعا.

قال الحافظ ابن كثير، في تفسيره (٢/ ٢٨٦): " وشاذ هو هلال، وشاذ لقبه".

والحديث صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: " حسن غريب ،لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث عمر بن إبراهيم، عن قتادة . ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه . عمر بن إبراهيم شيخ بصري".أهـ

قلت: الحديث لا يصح مرفوعا، وهو معلول من أوجه، وهاك تفصيلها:

=

=

العلة الأولى: أنه من رواية "عمر بن إبراهيم" وهو: العبدي أبو حفص البصري، صاحب الهروي، وهو ضعيف في روايته عن قتادة .
قال الإمام أحمد: يروي عن قتادة أحاديث مناكير يخالف. وقال ابن عدي: يروي عن قتادة أشياء لا يوافق عليها، وحديثه خاصة عن قتادة مضطرب. وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: يخطئ ويخالف، وذكره في الضعفاء فقال: كان ممن يتفرد عن قتادة بما لا يشبه حديثه؛ فلا يعجبني الاحتجاج به إذا انفرد، فأما فيما روى عن الثقات فإن اعتبر به معتبر لم أر بذلك بأسا . انظر: تهذيب التهذيب (٧/ ٣٧٣).
وقد توبع عمر بن إبراهيم في روايته عن قتادة من طريقين، غير أنهما لا يصح اعتبارهما:
الطريق الأول: أخرجه ابن مردويه [كما في تفسير الحافظ ابن كثير (٢/ ٢٨٦)] من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة، به . مرفوعا.
والمعتمر هو: ابن سليمان بن طرخان . والإسناد رجاله ثقات؛ إلا أني لم أقف على الرواة بين ابن مردويه، والمعتمر .
الطريق الثاني: أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٢٩٨) من طريق سليمان الشاذكوني، عن غندر، عن شعبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، به . مرفوعا .
قال ابن عدي: " وهذا من حديث شعبة، عن قتادة منكر، لا أعرفه إلا من حديث الشاذكوني، عن غندر، عنه، وإنما يروي هذا عن قتادة: عمر بن إبراهيم".أهـ
والشاذكوني هو: سليمان بن داود المنقري - نسبة إلى منقر بن عبيد بن قيس بن غيلان - البصري، قال البخاري: فيه نظر. وكذبه ابن معين في حديث ذكر له عنه، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال النسائي: ليس بثقة، وقد ساق له ابن عدى أحاديث خولف فيها ثم قال: وللشاذكونى حديث كثير مستقيم، وهو من الحفاظ المعدودين، وما أشبه أمره بما قال عبدان: ذهبت كتبه فكان يحدث حفظا فيغلظ. انظر: لسان الميزان (٣/ ٨٤- ٨٥).
العلة الثانية: أن الحديث قد روي من قول سمرة رضي الله عنه موقوفا عليه. أخرجه ابن جرير في تفسيره (٦/ ١٤٤) قال حدثني محمد بن عبد الأعلى، قال حدثنا معتمر، عن أبيه قال: حدثنا أبو العلاء يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن سمرة رضي الله عنه، أنه حدث أن آدم عليه السلام سمى ابنه عبد الحارث .
وأخرجه عن محمد بن عبد الأعلى، قال: حدثنا المعتمر، عن أبيه قال: حدثنا ابن علية،
=

=

عن سليمان التيمي، عن أبي العلاء، عن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمى آدم ابنه عبد الحارث .
وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٨٣) قال: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة، ثنا أبو الجماهر، ثنا سعيد بن بشير، حدثني عمران، عن عقبة، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمياه عبد الحارث، في قوله: {فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون} والأثر صحيح من رواية ابن جرير .
العلة الثالثة: أن في سماع الحسن من سمرة خلاف مشهور بين علماء الحديث، ثم هو مدلس ولم يصرح في هذا الحديث بسماعه من سمرة، قال الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/ ٢٨١): " كان الحسن كثير التدليس؛ فإذا قال في حديث (عن فلان) ضعف احتجاجه".أهـ
العلة الرابعة: أن الحديث قد روي عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله، وهذا يدل على أن أصله من الإسرائيليات المتلقفة عن مسلمة أهل الكتاب .
أخرج أثر أبي: ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٣) قال: حدثنا أبى، ثنا أبو الجماهر، أنبا سعيد بن بشير، عن عقبة، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: " لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال: أتطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سميه عبد الحارث، فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالث فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم وإلا فإنه يكون بهيمة، فهيبهما فأطاعاه".
والأثر في إسناده: "سعيد بن بشير الأزدي، أبو عبد الرحمن " وهو ضعيف، كما في التقريب (١/ ٢٨٤).
العلة الخامسة: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه، وقد فسر قوله تعالى: {جعلا له شركاء فيما آتاهما} فقال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم وعنه قال: عني بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده .
وعنه قال: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوا ونصروا .
ذكر ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٨٦) من طرق عنه، ثم قال: " وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم، مثل كعب أو وهب بن منبه، وغيرهما".أهـ

=

ضعيف لا يثبت كما في الحاشية.

ذكر مذاهب العلماء في تفسير الآية والحديث

اتفق المفسرون على تنزيه مقام آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشرك، وأن ذلك لم يقع منه، ولا من الأنبياء قط، وقد عدوا هذه الآية -والحديث الوارد في تفسيرها- من مشكلات التفسير، ولهم في تأويلهما أقوال خلاصتها راجعة إلى مذهبين:

الأول: مذهب قبول الحديث، وإجراء الآية على ظاهرها في قصة آدم وحواء وهذا رأي الجمهور من المفسرين[(١)]، حيث ذهبوا إلى أن الآية معني بها آدم وحواء عليهما السلام حيث سميا ابنهما عبد الحارث، روي ذلك عن: أبي بن كعب[(٢)]، وسمرة بن جندب[(٣)]، وابن عباس[(٤)]، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وعن عكرمة، ومجاهد،

=

والحديث ضعفه ابن عدي في الكامل (٦/ ٨٧)، وابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ (٤/ ١٩٧١)، وقال الذهبي في الميزان (٣/ ١٧٩): حديث منكر، وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٦): هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه ثم ذكرها، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٣٤٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٣/ ٣٠٥): إسناده ضعيف، عمر بن إبراهيم- وهو العبدي أبو حفص البصري- في روايته عن قتادة ضعف، والحسن مشهور بالتدليس ولم يذكر سماعه من سمرة.

(١) نسبه للجمهور ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٣) وإسناده ضعيف .

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٦/ ١٤٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٨٣) وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٦/ ١٤٤-١٤٥)، من ثلاثة طرق:

الأول: قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: " كانت حواء تلد لآدم فتعبدهم لله وتسميه عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاها إبليس وآدم فقال: إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه لعاش، فولدت له رجلا فسماه " عبد الحارث " ففيه أنزل

=

وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وبكر بن عبد الله المزني.

وهو اختيار جمع من المفسرين كما سيأتي ذكرهم، واختلف هؤلاء في معنى الشرك المضاف إلى آدم وحواء عليهما السلام على أقوال:

القول الأول: أنه كان شركا في التسمية، ولم يكن شركا في العبادة، وهذا هو المروي عن قتادة، وسعيد بن جبير، والسدي، واختيار ابن جرير الطبري، وأبي

=

الله تبارك وتعالى: {هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون}".

وهذا الطريق: ضعيف، فيه: "محمد بن حميد الرازي " ضعيف، التقريب (٢/ ١٦٥)، وفيه " محمد بن إسحاق " مدلس، التقريب (٢/ ١٥٣)، وفيه " داود بن الحصين " ثقة إلا في عكرمة فإن له عنه مناكير، التقريب (١/ ٢٢٧).

الطريق الثاني: قال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي قال: حدثني عمي قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، .... فذكره بنحوه.

وهذا الطريق: ضعيف جدا؛ فإنه مسلسل بالعوفيين، وهي سلسلة واهية باتفاق النقاد من المحدثين.

الطريق الثالث: قال ابن جرير: حدثنا القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثنا حجاج، عن ابن جريج قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما، .... فذكره بنحوه.

وهذا الطريق: ضعيف أيضا، فيه: "الحسين بن داود " وهو سنيد، ضعيف، التقريب (١/ ٣٢٣)، وفيه " ابن جريج " ثقة إلا أنه يدلس ويرسل، وقد أرسله عن ابن عباس، التقريب (١/ ٤٨٢).

وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٤)، وسعيد بن منصور في سننه (٥/ ١٧٣)، كلاهما من طريق خصيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، به.

وخصيف: هو ابن عبد الرحمن الجزري، صدوق سيئ الحفظ. التقريب (١/ ٢٢٠) والأثر حسن بمجموع طرقه، والله تعالى أعلم.

المظفر السمعاني، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، والسيوطي، والآلوسي، والإمام محمد بن عبد الوهاب، وعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

قال البغوي في تفسيره (٢/ ٢٢١): جعلا له شريكا إذ سمياه عبد الحارث، ولمن يكن هذا إشراكا في العبادة، ولا أن الحارث ربهما؛ فإن آدم كان نبيا معصوما من الشرك، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمة، وقد يطلق اسم العبد على من يراد به أنه معبود هذا، كالرجل إذا نزل به ضيف يسمي نفسه عبد الضيف، على وجه الخضوع، لا على وجه أن الضيف ربه، ويقول للغير أنا عبدك، وقال يوسف عليه السلام لعزيز مصر: {إنه ربي أحسن مثواي} [يوسف: ٢٣] ولم يرد به أنه معبوده، كذلك هذا.اهـ.

القول الثاني: أنه كان شركا في الطاعة، ولم يكن شركا في العبادة، وهذا هو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة.

القول الثالث: أن الإشراك وقع من حواء لا من آدم عليه السلام، ولم يشرك آدم قط، وأما قوله: {جعلا له شركاء فيما آتاهما} بصيغة التثنية فلا ينافي ذلك؛ لأنه قد يسند فعل الواحد إلى الاثنين، بل إلى جماعة، وهو شائع في كلام العرب .

وهذا قول القنوجي كما في تحفة الأحوذي (٨/ ٣٦٧).

واعترض: بأن الله تعالى قال {جعلا} حيث نسب الجعل إليهما، والأصل حمل اللفظ على ظاهره، وبأن آدم عليه السلام قد أقر حواء على ذلك، وبأن في حديث سمرة رضي الله عنه التصريح بأنهما سمياه بذلك معا[1].

واستدل القائلون بأن الآية معني بها آدم وحواء عليهما السلام بأدلة منها:

الدليل الأول: حديث سمرة رضي الله عنه، حيث أورده أصحاب هذا المذهب

---

(١) روح المعاني (٩/ ١٨٩).

وجعلوه عمدة في تفسير الآية، وقد صرح بعضهم بصحته، والبعض الآخر أورده وسكت عنه، وهو مشعر باعتماده له.

الدليل الثاني: أن هذا المذهب هو المروي عن سمرة، وأبي بن كعب، وابن عباس رضي الله عنهم، ومثل هذا لا يقال بالرأي، فدل على أن للقصة أصل؛ فيكون لها حكم الرفع[(١)].

الدليل الثالث: إجماع الحجة من أهل التأويل على أن المعني بالآية آدم وحواء.

حكى الإجماع ابن جرير[(٢)] في تفسيره (٦/ ١٤٧).

واعترض على هذا المذهب بقوله تعالى في آخر الآية: {فتعالى الله عما يشركون} بصيغة الجمع، فلو كان المراد آدم وحواء عليهما السلام لقال يشركان، بصيغة التثنية، وفي هذا دلالة واضحة بأن الآية معني بها الذرية لا آدم

---

(١) روح المعاني (٩/ ١٨٩).

(٢) ابن جرير يرى أن الإجماع ينعقد بقول الأكثرين، ولا يعتد بمخالفة الواحد والاثنين، ويعده شذوذا، نقل هذا المذهب عن ابن جرير أبو إسحاق الشيرازي في اللمع (٢/ ٧٠٤)، وإمام الحرمين في البرهان (١/ ٧٢١)، وأبو يعلى في العدة (٤/ ١١١٩)، وابن قدامة في روضة الناظر (٢/ ٤٧٣)، وهو أيضا قول أبي بكر الرازي الحنفي المعروف بالجصاص وأبي الحسين الخياط من المعتزلة وابن حمدان من الحنابلة، ومال إليه أبو محمد الجويني وحكاه الباجي عن ابن خويز منداد من المالكية،، وذكر ابن قدامة والطوفي وغيرهما أن الإمام أحمد أومأ إليه في رواية، وهو ظاهر صنيع ابن المنذر في كتابه الإجماع، وأما الجمهور من العلماء فإن الإجماع لا ينعقد عندهم إذا كان في المسألة قول آخر، ولو كان القائل به واحدا، وبهذا تعرف أن ما حكاه ابن جرير من الإجماع إنما يعني به قول الجمهور في الغالب، وعليه فلا يصح دعوى الإجماع في تأويل هذه الآية، والله تعالى أعلم.

وحواء .

وقد أجاب بعض أصحاب هذا المذهب عن هذا الاعتراض بأن آخر الآية معني بها مشركو العرب من عبدة الأوثان، وأن الخبر عن آدم وحواء قد انقضى عند قوله: {جعلا له شركاء فيما آتاهما} وهذا رأي ابن جرير الطبري، والسيوطي، وهو المروي عن السدي، وأبي مالك.

المذهب الثاني: مذهب تضعيف الحديث، وتأويل الآية في غير آدم وحواء: حيث ذهب آخرون إلى تضعيف حديث سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأن الشرك المذكور في الآية معني به غير آدم وحواء عليهما السلام، واختلف هؤلاء بالمعني به على أقوال:

القول الأول: أن الشرك نسب إلى آدم وحواء، والمعني به أولادهما، كاليهود والنصارى، والمشركين وآدم وحواء بريئان من الشرك، والآية فيها انتقال من ذكر النوع إلى الجنس؛ فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل الكلام إلى الجنس من أولادهما، وقد اشتهر هذا القول عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ .

وروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - في إحدى الروايات عنه[1].

قال الحسن في تفسير الآية: " كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم".

وعنه قال: " عني بهذا ذرية آدم من أشرك منهم بعده".

وعنه قال: " هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوا ونصروا[2]".

واختار هذا القول جمع من المفسرين، والمحققين، منهم الزمخشري، وأبو عبد الله القرطبي، والنسفي، وابن جزي، وابن القيم، وابن كثير، والثعالبي، وأبو

---

(١) عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، في هذه الآية قال: "ما أشرك آدم، إن أولها شكر، وآخرها مثل ضربه الله لمن بعده". أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٣).

(٢) انظر تفسيره عبد الرزاق (٢/ ٢٤٥)، وتفسير الطبري (٦/ ١٤٧).

السعود، والمباركفوري، والسعدي، والشنقيطي.

قال الزمخشري[1] في الكشاف (٢/ ١٨٠): في قوله تعالى {جعلا له شركاء}: " أي جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك فيما آتاهما، أي آتى أولادهما، وآدم وحواء بريئان من الشرك، ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبد مناة، وعبد شمس، وما أشبه ذلك، مكان عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم".اهـ.

---

(١) الزمخشري معتزليا فتنبه وكن من كشافه على حذر، قال البلقيني استخرجت ما في الكشاف من دسائس الاعتزال بالمناقيش، قلت مثل قوله (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) (آل عمران: ١٨٥)، قال الزمخشري أي: فوز أعظم من دخول الجنة والنجاة من النار؟! وهذا كلام طيب. لكنه يريد نفي رؤية الله ﷻ؛ كما قال الأئمة قلت وتفسيره جيد في نواحي، ناحية اللغة والبلاغة ووجوه التفسير؛ لكنه مشحون بالاعتزال والقدح في أهل السنة؛ فلا يصلح أن يقرأه إلا متمكن في العلم، يأخذ مما فيها من الفوائد ويتجنب ما فيه من المخاطر؛ لا سيما وأن أسلوبه بليغ ولاذع، ربما يتأثر به الإنسان غير المتمكن.اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر عنه: "معتزلي داعيا الى بدعته فكن حذرا من كشافه"، وقال أبو حيان وقد مدح الكشاف وما فيه من لطيف المعنى ثم قال:

ولكنه فيه مجال لناقد ... وزلات سوء قد أخذن المخانقا

فيثبت موضوع الأحاديث جاهلًا ... ويغزو إلى المعصوم ما ليس لا ئقًا

وينسب ابداء المعاني لنفسه ... ليوهم اغمارا وأن كان سارقًا

ويسهب في المعنى الوجيز دلالة ... بتكثير ألفاظ تسمى الشقاشقا

يقول فيها الله ما ليس قائلًا ... وكان محبًا في المخاطب وامقا

ويشتم أعلام الأئمة ضلة ... ولا سيما أن أو لجوه المضائقا

لئن لم تداركه من الله رحمة ... لسوف يرى للكافرين مرافقًا

وقال الحافظ ابن كثير: " وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين[١]، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس؛ كما في قوله تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين} [المؤمنون: ١٢-١٣]، وقال تعالى {ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين} [الملك: ٥] ومعلوم أن المصابيح -وهي النجوم التي زينت بها السماء- ليست هي التي يرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن، والله أعلم "[٢].اهـ.

واعترض على هذا القول بأن فيه تشتيت للضمائر، والأصل اتساق الضمائر وعودها لمذكور واحد[٣].

القول الثاني: أن الآية معني بها المشركون من بني آدم عموما، وليس فيها تعرض لآدم وحواء بوجه من الوجوه، وهذا اختيار النحاس، والقفال، وابن حزم، وابن العربي، والرازي، وابن المنير، والقاسمي، وابن عثيمين.

قال القفال كما في تفسير الرازي[٤] (١٥/ ٧١): " ذكر الله تعالى هذه القصة

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: الأولاد .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٧)، والبداية والنهاية (١/ ٨٩).

(٣) القول المفيد (٣/ ٦٣).

(٤) اعلم رحمني الله وإياك أن ا لرازي رحمه الله تعالى من أئمة الأشاعرة وعلماء الكلام الذين جانبوا منهج أهل السنة والجماعة في كثير من أبواب الاعتقاد، ولقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرازي وأمثاله: أوتوا ذكاء ولم يؤتوا زكاة. ولقد تصدى له رَحِمَهُ اللهُ في كتابه" بيان تلبيس الجهمية" وبين أحواله وتناقضه وقواعده التي أسس عليها بنيانه - وهي أوهن من بيت العنكبوت، كما خصص له جزءا كبيرا من كتابه " درء تعارض =

=

العقل والنقل"وأما تفسير الرازي فإنه يعتبر مرجعا كبيرا في علم الكلام عموما وفي العقيدة الأشعرية خصوصا، ثم إنه انشغل بذكر أقوال المعتزلة المذمومة والرد عليها، إلا أن رده لم يكن كافيا ولا شافيا، فقد قال الحافظ ابن حجر ـ كما في " لسان الميزان": وكان يعاب بإيراد الشبهة الشديدة، ويقصر في حلها، حتى قال بعض المغاربة: يورد الشبهة نقدا ويحلها نسيئة. اهـ. وأورد ابن حجر في: لسان الميزان" أيضا عن الرازي في تفسيره أنه: يورد شبهات المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السنة على غاية من الوهاء. اهـ. ثم إن الرازي في تفسيره أكثر من الاستطراد في الفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة، وعرض كثيرا لأقوال الفلاسفة بالرد والتفنيد، ولكنه كان يصوغ أدلته على نمط استدلالاتهم العقلية لا على الطريقة السلفية المرضية. والرجل لم يكن عالما بعقيدة السلف الصالح تخبط في باب الأسماء والصفات تخبطا شديدا ولقب القائلين بمذهب السلف بلقب "المجسمة" وفي الجملة فإن تفسير الرازي لا ينصح به طالب العلم الذي لم يتضلع من علم العقيدة وفهم منهج السلف الصالح الذي قرره أئمة أهل السنة والجماعة ومن أعظمهم الإمام شيخ اللإسلام ا بن تيمية رحمه الله تعالى .. وهناك من التفاسير الموافقة لمعتقد السلف الصالح ما يغني عن تفسير الرازي وأمثاله، فتنبه وكن على حذر، هذا وليعلم أن الرازي في خواتيم حياته قد من الله تعالى عليه بالتوبة من اعتقاده الفاسد وبالرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح من أئمتنا.

قال عنه الذهبي في السير (٢١/ ٥٠١): وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة، والله يتولى السرائر.اهـ.

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره" أضواء البيان" ما نصه (٧/ ٣٨٣): واعلم أيضا أن الفخر الرازي الذي كان في زمانه أعظم أئمة التأويل ورجع عن ذلك المذهب إلى مذهب السلف معترفا بأن طريق الحق هي اتباع القرآن في صفات الله. وقد قال ذلك في كتابه: أقسام اللذات: لقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فلم أجدها تروي غليلا، ولا تشفي عليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات:

{الرحمن على العرش استوى}، {إليه يصعد الكلم الطيب}، والنفي: {ليس كمثله

=

على تمثيل ضرب المثل، وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم، وقولهم بالشرك، وتقرير هذا الكلام، كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها، إنسانا يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته، وظهر الحمل؛ دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولدا صالحا سويا لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك؛ فلما آتاهما الله ولدا صالحا سويا جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما؛ لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع، كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام، ثم قال تعالى: {فتعالى الله عما يشركون} أي تنزه الله عن ذلك الشرك ".اهـ.

واعترض هذا القول

١- بأن قوله تعالى {هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها} لا يصح حمله على غير آدم وحواء - عليهما السلام .

٢- وبقوله {دعوا الله ربهما} فإن كل مولود يولد بين الجنسين لا يكون منهما عند مقاربة وضعه هذا الدعاء[1].

=

شيء}، {هل تعلم له سميا}، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. اهـ. وقد بين هذا المعنى في أبياته المشهورة التي يقول فيها:

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

إلى أخر الأبيات.

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٤٠١).

القول الثالث: أن المشركين كانوا يقولون: إن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعبد الأصنام ويرجع في طلب الخير ودفع الشر إليها، فذكر تعالى قصة آدم وحواء عليهما السلام وحكى عنهما أنهما قالا: {لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين} أي ذكرا أنه تعالى لو آتاهما ولدا سويا صالحا لاشتغلوا بشكر تلك النعمة، ثم قال: {فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء} فقوله: {جعلا له شركاء} ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الإنكار والتبعيد والتقرير، والمعنى: أجعلا له شركاء فيما آتاهما؟ ثم قال: {فتعالى الله عما يشركون} أي تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك وينسبونه إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذكر هذا التأويل: الفخر الرازي في تفسيره (١٥/ ٧١).

ويرده: أن الآية وردت بصيغة الخبر، وحملها على معنى الاستفهام يفتقر إلى دليل، وليس ثمة دليل .

القول الرابع: أن الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم آل قصي، والمراد من قوله: {هو الذي خلقكم من نفس واحدة} قصي، وجعل من جنسها زوجها، عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلا له شركاء فيما آتاهما، حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد اللات، وجعل الضمير في {يشركون} لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك .

ذكر هذا التأويل: الزمخشري واستحسنه، واختاره البيضاوي، وأشار إليه الفخر الرازي في تفسيره.

الإيرادات والاعتراضات على هذا القول، قال ابن جزي في التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٣١٦): " وهذا القول بعيد لوجهين أحدهما أن الخطاب على هذا

خاص بذرية قصي من قريش، والظاهر أن الخطاب عام لبني آدم، والآخر أن قوله {وجعل منها زوجها}، فإن هذا يصح في حواء؛ لأنها خلقت من ضلع آدم، ولا يصح في زوجة قصي ".اهـ.

القول الخامس: أن الضمير في قوله {جعلا} راجع إلى الولد الصالح، والمعنى جعل ذلك الولد الصالح - الذي رزقهما الله إياه - جعل لله شركاء، وإنما قال: {جعلا}؛ لأن حواء كانت تلد في كل بطن ذكرا وأنثى .

ذكر هذا التأويل الجصاص في أحكام القرآن (٣/ ٤٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣١).

استدل القائلون بأن الآية معني بها غير آدم وحواء عليهما السلام بأدلة منها:

الدليل الأول: قوله تعالى في آخر الآية {فتعالى الله عما يشركون} وهذا يدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة، ولو كان المراد آدم وحواء عليهما السلام لعبر عنهما بصيغة التثنية[1].

الدليل الثاني: أنه تعالى قال بعد هذه الآية {أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون} وهذا يدل على أن المقصود من هذه الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى، وليس المراد بها آدم وحواء عليهما السلام .

الدليل الثالث: لو كان المراد إبليس لقال أيشركون "من" لا يخلق شيئا، ولم يقل "ما"؛ لأن العاقل إنما يذكر بصيغة "من" لا بصيغة "ما".

الدليل الرابع: أن هذا القول فيه تنزيه لمقام آدم عليه السلام من الشرك، والقول

---

(١) انظر معاني القرآن، للنحاس (٣/ ١١٦)، والكشاف (٢/ ١٨٠)، ومفاتيح الغيب (١٥/ ٧٠، ٧٣)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢١٥)، وتفسير النسفي (٢/ ١٣٠)، والتسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٣١٦)، وأضواء البيان (٢/ ٣٤٣)، والقول المفيد على كتاب التوحيد (٣/ ٦٨).

الذي فيه تنزيه لمقام الأنبياء وإجلال لمقامهم، مقدم في التفسير على القول الذي فيه قدح بعصمتهم، وحط من منزلتهم[١].

الدليل الخامس: أن المروي عن سمرة رضي الله عنه في تفسير الآية لم يثبت بسند صحيح، وعليه فلا يصح حمل الآية على أمور مغيبة لم يثبت فيها دليل من كتاب أو سنة.

الدليل السادس: أنه لو كانت هذه القصة في أدم وحواء، لكان حالهما إما أن يتوبا من ذلك الشرك أو يموتا عليه فإن قلنا ماتا عليه، كان هذا القول فيه فرية عظيمة؛ لأنه لا يجوز موت أحد من الأنبياء على الشرك، وإن كان تابا من الشرك، فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا، ثم لا يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها، كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة هو وزوجه وتابا من ذلك.

الدليل السابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة[٢] - التي عصى الله تعالى بالأكل منها في الجنة - فلو كان وقع منه الشرك، لكان اعتذاره منه أقوى وأولى وأحرى[٣].

الدليل الثامن: أن الله تعالى أسند فعل الذرية إلى آدم وحواء ؛لأنهما أصل لذريتهما، كما في قوله تعالى: {ولقد خلقناكم ثم صورناكم} [الأعراف: ١١] أي بتصويرنا لأبيكم آدم؛ لأنه أصلهم، بدليل قوله بعده {ثم قلنا للملآئكة

---

(١) انظر أحكام القرآن، لابن العربي (٢/ ٣٥٥)، ومفاتيح الغيب (١٥/ ٧١)، والتسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٣١٦)، والقول المفيد على كتاب التوحيد (٣/ ٦٧).
(٢) أخرجه البخار(٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).
(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد (٣/ ٦٧).

اسجدوا لآدم}[١].

الإيرادات والاعتراضات على هذا المذهب وأدلته

١ - اعترض القاضي ابن عطية على الاستدلال بقوله تعالى {فتعالى الله عما يشركون} وأن المراد بها مشركو العرب، قائلا في المحرر الوجيز (٢/ ٤٨٧): "وهذا تحكم لا يساعده اللفظ، ويتجه أن يقال تعالى الله عن ذلك اليسير المتوهم من الشرك في عبودية الاسم، ويبقى الكلام في جهة أبوينا آدم وحواء عليهما السلام وجاء الضمير في " يشركون " ضمير جمع؛ لأن إبليس مدبر معهما تسمية الولد عبد الحارث".اهـ (

٢ - واعترض أيضا: بأن هذا المذهب يرده قوله تعالى: {جعلا} بصيغة التثنية، فلو كان المراد المشركين من ذرية آدم عليه السلام لورد اللفظ بصيغة الجمع .

وقد أجاب الفخر الرازي عن هذا الاعتراض فقال في مفاتيح الغيب (١٥/ ٧٢): "فإن قيل: فعلى هذا التأويل ما الفائدة في التثنية في قوله: {جعلا} ؟ قلنا لأن ولده قسمان ذكر وأنثى؛ فقوله {جعلا} المراد منه الذكر والأنثى، مرة عبر عنهما بلفظ التثنية؛ لكونهما صنفين ونوعين، ومرة عبر عنهما بلفظ الجمع، وهو قوله تعالى {فتعالى الله عما يشركون}".

مسألة: ليس كل كفر ينقل عن الملة

قبل الخوض في هذه المسألة نذكر بعض الأمور

١ - أن المتقرر عند أهل السنة والجماعة ان من ثبت إسلامه بيقين أنه لا يخرج منه إلا بيقين وعليه فإذا اشتبه على المرء تكفير شخص فالأصل أنه مسلم ولا يخرج عن ذلك إلا بدليل واضح صريح.

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٣٤١).

٢- أن أهل السنة يرون الكفر نوعان كفر أكبر يخرج عن الملة وكفر أصغر لا يخرج عن الملة وسبق بيان ذلك، كما أنهم يرون أن الكفر قد يكون اعتقاديًا وقد يكون عمليا.

٣- أهل السنة يخالفون سائر أهل البدع في كونهم غير متشوفين ولا متعطشين للتكفير ولذلك نرى كثيرا من أهل البدع يكفر بعضهم بعضا ويكفرون أهل السنة وليس الأمر كذلك عند أهل السنة فلم يكفر أهل السنة الخوارج ولا المفضلة من الشيعة ولا الأشاعرة ولا الماتريدية، مع أنهم كفروا أهل السنة ولننظر كيف كفر الخوارج الصحابة وكفروا عليًا رضي الله عنه، قال الأشعرى وغيره: أجمعت الخوارج على تكفير علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومع هذا لما سئل علي رضي الله عنه عن أهل الجمل وفي رواية "عن أهل النهر" أمشركون هم؟ وفي رواية عبد الرزاق "أكفار هم" قال من الشرك فروا قيل: أمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا قيل: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا" رواه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق ومحمد بن نصر والبيهقي في السنن الكبرى من طرق وإسناده صحيح رواه عن علي حكيم بن جابر، وطارق بن شهاب، والحسن وأبو وائل.

وذلك أن أهل السنة أهل علم وعدل وليست أحكامهم مبنية على الرأي والتشهي وحظوظ النفس أو ردود الفعل ولذلك نجد هؤلاء يكفر بعضهم بعضًا وكلما انشقت فرقة من الخوارج كفروها وكفرتهم، ولذلك لما اتفق اهل الأهواء على مبدأ التكفير اتفقوا على القول بالسيف.

قال أبو قلابة: (ما ابتدع قوم بدعة إلا استحلوا السيف) رواه اللالكائي (١/ ١٣٤). وقال أيوب السختياني: (الخوارج اختلفوا في الاسم واجتمعوا على

السيف) وكان يسمي أهل الأهواء كلهم خوارج.

والغريب أنهم جميعا يرفعون راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو أصل من أصول المعتزلة الخمسة، ويعنون به الخروج بالسيف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستقامة (١/ ٣٣٠): فإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مستلزما من الفساد أكثر مما فيه من الصلاح لم يكن مشروعا وقد كره أئمة السنة القتال في الفتنة التي يسميها كثير من اهل الأهواء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن ذلك إذا كان يوجب فتنة هي اعظم فسادا مما في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدفع أدنى الفسادين باعلاهما بل يدفع أعلاهما باحتمال أدناهما كما قال النبي ﷺ (ألا انبئكم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين)[1].اهـ.

والغريب أن سيوفهم مسلولة على المسلمين وإلا فأكثر أهل الأهواء

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٤، رقم ٢٧٥٤٨)، وهناد في الزهد (١٣١٠)، وأبو داود (٤/ ٢٨٠، رقم ٤٩١٩)، والترمذى (٤/ ٦٦٣، رقم ٢٥٠٩)، والبخاري في "الأدب المفرد (١٠٦)، وابن حبان (١١/ ٤٨٩، رقم ٥٠٩٢)، والطبراني في مكارم الأخلاق (٧٥)، والبيهقي في الآداب (١١٧)، وفي الشعب (١١٠٨٨)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٣٨) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وقال البزار كما في الدراية (٢/ ٢٧٠): إسناده صحيح، وأقره الحافظ، وقال ابن عبد البر في الإستذكار (٧/ ٢٨٤): طرقه حسان، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٢٥٩٥)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٠٥٤)، وقال الحويني في شفاء الزمين (ص١٥٥، ح ٩٧): إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤٥/ ٥٠٠): إسناده صحيح.

يقعدون عن الجهاد في سبيل الله وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المشروعين وتعليم الناس ونصح المسلمين فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد عندهم مخصوص بأولياء الأمور من العلماء والأمراء فتجدهم هذا هو شغلهم وهذا همهم وهو منهج من سبق من أهل الأهواء الذين يطعنون في علماء الصحابة وأمرائهم كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

ولا شك أن الحكم بغير ما أنزل الله من أعظم ما ابتليت به بلاد المسلمين وهو من أعظم أسباب خذلانهم وتفرقهم وانتشار الشر فيهم وانتشار الفتن والأحقاد وضرب القلوب بعضها ببعض ونزع الخير والهداية والنصر والتمكين وقد اتفق أهل العلم على أن من أعرض عن حكم الله جاحدا له أو معتقدا جواز الحكم بغيره أو اعتقد أن غيره أفضل منه فهو كافر كفرًا أكبر مخرج عن الملة.

وأما من حكم بغير ما أنزل الله مع إقراره بحكم الله وتصديقه به وأنه الأفضل وأن ما يفعله محرم فهذا كافر كفرًا أصغر عند عامة أهل السنة من الصحابة والتابعين والأئمة المشهورين.

وهذا بيان ما قرره أهل السنة في هذا الباب

أولًا: النجاشي يحكم بغير ما أنزل الله ولم يكفره النبي ﷺ:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة النبوية (٥/ ١١٢ ١١٣): وكذلك النجاشي هو وإن كان ملك النصارى فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام بل إنما دخل معه نفر منهم ولهذا لما مات لم يكن هناك من يصلي عليه فصلى عليه النبي ﷺ بالمدينة خرج بالمسلمين إلى المصلى فصفهم صفوفا وصلى عليه وأخبرهم بموته يوم مات وقال إن أخا لكم صالحا من أهل الحبشة مات وكثير من شرائع الإسلام أو أكثرها لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك فلم

يهاجر ولم يجاهد ولا حج البيت بل قد روى أنه لم يكن يصلي الصلوات الخمس ولا يصوم شهر رمضان ولا يؤدي الزكاة الشرعية لأن ذلك كان يظهر عند قومه فينكرونه عليه وهو لا يمكنه مخالفتهم ونحن نعلم قطعا أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن، والله قد فرض على نبيه بالمدينة أنه إذا جاءه أهل الكتاب لم يحكم بينهم إلا بما أنزل الله إليه وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه وهذا مثل الحكم في الزنا للمحصن بحد الرجم وفي الديات بالعدل والتسوية في الدماء بين الشريف والوضيع النفس بالنفس والعين بالعين وغير ذلك، والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكم بحكم القرآن فإن قومه لا يقرونه على ذلك وكثيرا ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضيا بل وإماما وفي نفسه أمور من العدل يريد أن يعمل بها فلا يمكنه ذلك بل هناك من يمنعه ذلك ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.اهـ.

ثانيًا: آثار الصحابة والتابعين والأئمة المتقدمين في تفسير الآيات

أولا: هو تفسير عامة الصحابة: قال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٣٣٦): وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة في قوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال ابن عباس: ليس بكفر ينقل عن الملة بل إذا فعله فهو به كفر وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر وكذلك قال طاووس وقال عطاء: هو كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق ...اهـ.

ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

١ - عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق" رواه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٣٥٧) برقم (١٢٠٦٣)،

وروى ابن جرير والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥٢١ - ٥٢٢) برقم (٥٧١، ٥٧٢) من طريق سفيان عن معمر بن راشد عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال: هي به كفر وليس كفرا بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وروى من طريق معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال: قال رجل لابن عباس في هذه الآيات: (ومن لم يحكم بما أنزل الله) فمن فعل هذا فقد كفر؟ قال ابن عباس: إذا فعل ذلك فهو به كفر وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر وبكذا وكذا"

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير عن طاوس عن ابن عباس في قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه ورواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينة وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥٢١) برقم (٥٦٩)

وقد ثبت هذا عن ابن عباس من عدة طرق واحتج به الأئمة كالإمام أحمد وغيره كما سيأتي.

عطاء وطاووس رحمهما الله:

٢- عن عطاء قوله: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) قال: كفر دون كفر وفسق دون فسق وظلم دون ظلم" رواه ابن جرير في تفسيره من طرق (١٠/ ٣٥٦) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥٢٢) برقم (٥٧٥)

٣- عن طاوس: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال: ليس بكفر ينقل عن الملة" رواه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٣٥٦) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥٢٢) برقم (٥٧٤)

٤- الإمام أحمد بن حنبل: قال ابن تيمية: (وإذا كان من قول السلف أن الانسان يكون فيه إيمان ونفاق فكذلك فى قولهم أنه يكون فيه إيمان وكفر ليس هو الكفر الذى ينقل عن الملة كما قال إبن عباس وأصحابه فى قوله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون قالوا كفروا كفرا لا ينقل عن الملة وقد اتبعهم على ذلك أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة) مجموع الفتاوى (٧/ ٣١٢) (كتاب الإيمان).

وذكر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٥٢٧ - ٥٢٨) برقم (٥٨٠) عن الشالنجي إسماعيل بن سعيد أنه سأل احمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهده إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم هل يكون مصرًا من كانت هذه حاله؟! قال: هو مصر مثل قوله: "لا يزني حين يزني وهو مؤمن " يخرج من الإيمان، ويقع في الإسلام ومن نحو قوله: "ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن"، "ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن" ومن نحو قول ابن عباس في قوله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فقلت له: ما هذا الكفر؟ قال: كفر لا ينقل عن الملة مثل الإيمان بعضه دون بعض فكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه "

٥- عبد العزيز الكناني: سئل عبد العزيز بن يحيى الكناني عن هذه الآيات فقال: إنها تقع على جميع ما أنزل الله لا على بعضه فكل من لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق فأما من حكم بما أنزل الله من التوحيد وترك

الشرك ثم لم يحكم بجميع ما أنزل الله من الشرائع لم يستوجب حكم هذه الآيات " تفسير البغوي (١/ ٦٠) مدارج السالكين (١/ ٣٣٦)

٦- محمد بن نصر المروزي: قال في تعظيم قدر الصلاة بعد أن ذكر الآثار في تفسير الآية وختمها بأثر عطاء فقال (٢/ ٥٢٣): (وقد صدق عطاء قد يسمى الكافر ظالمًا ويسمى العاصي من المسلمين ظالمًا، فظلم ينقل عن ملة الإسلام وظلم لا ينقل)

ثالثًا: أقوال المفسرين من أهل السنة

١- قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره (١٠/ ٣٥٧): (وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: نزلت هذه الآيات في كفار أهل الكتاب لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات ففيهم نزلت وهم المعنيون بها وهذه الآيات سياق الخبر عنهم فكونها خبرا عنهم أولى، فإن قال قائل: فإن الله تعالى ذكره قد عم بالخبر بذلك عن جميع من لم يحكم بما أنزل الله فكيف جعلته خاصا؟

قيل: إن الله تعالى عم بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به هو بالله كافر كما قال ابن عباس لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي)

٢- قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) لأنهم جحدوا حكم الله قصدا منهم وعنادا وعمدا وقال هاهنا (فأولئك هم الظالمون) لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعض) تفسير

ابن كثير (٢/ ٨٦)

٣- قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر وقد يكون كفرًا ينقل عن الملة وذلك إذا اعتقد حله وجوازه، وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب ومن أعمال أهل الكفر قد استحق من فعله العذاب الشديد) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٨٨)

أقوال بقية المفسرين

١- قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفصل الخطاب أن من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا له وهو يعلم أن الله أنزله كما فعلت اليهود فهو كافر ومن لم يحكم به ميلا إلى الهوى من غير جحود فهو ظالم وفاسق) زاد المسير (٢/ ٣٦٦)

٢- قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي معتقدا ذلك ومستحلا له فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب محرم فهو من فساق المسلمين وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ١٧٩)

رابعًا: أقوال المحققين من أهل السنة

١- ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أ - سبق نقل كلامه في النجاشي وهو واضح وصريح في التفريق.

ب - وقال أيضًا: (ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله سبحانه وتعالى كسوالف البادية وكأوامر المطاعين فيهم ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة.

وهذا هو الكفر فإن كثيرا من الناس أسلموا ولكن مع هذا لا يحكمون إلا بالعادات الجارية لهم التي يأمر بها المطاعون فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز الحكم إلا بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار وإلا كانوا جهالا كمن تقدم أمرهم.

وقد أمر الله المسلمين كلهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول فقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وذلك خير وأحسن تأويلا)

وقال تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم فقد أقسم الله بنفسه أنه لا يؤمن وأما من كان ملتزما لحكم الله ورسوله باطنا وظاهرا لكن عصى واتبع هواه فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة.

وهذه الآية مما يحتج بها الخوارج على تكفير ولاة الأمر الذين لا يحكمون بما أنزل الله ثم يزعمون أن اعتقادهم هو حكم الله وقد تكلم الناس بما يطول ذكره هنا وما ذكرته يدل عليه سياق الآية.

والمقصود أن الحكم بالعدل واجب مطلقا في كل زمان ومكان على كل أحد ولكل أحد والحكم بما أنزل الله على محمد ﷺ هو عدل خاص وهو أكمل أنواع العدل وأحسنها والحكم به واجب على النبي ﷺ وكل من اتبعه ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر) منهاج السنة النبوية (٥/ ١٣٠ - ١٣١)

٢- ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر التأويلات للآية وأقوال السلف: (والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصيانا؛ لأنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله تعالى فهذا كفر أكبر وإن جهله وأخطأه: فهذا مخطيء له حكم المخطئين) مدارج السالكين (١/ ٣٣٧)

٣- ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال في شرح الطحاوية (ص ٣٢٣ - ٣٢٤): (وهنا أمر يجب أن يتفطن له وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرًا ينقل عن الملة وقد يكون معصية كبيرة او صغيرة ويكون كفرًا إما مجازيًا وإما كفرًا اصغر على القولين المذكورين وذلك بحسب حال الحاكم فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب وأنه مخير فيه أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعلمه في هذه الواقعة وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص ويسمى كافرًا كفرًا مجازيًا أو كفر اصغر، وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأه فهذا مخطيء له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور)

٤- الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٥- الشيخ محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٦- الشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأقوال هؤلاء العلماء الثلاثة مشهورة، وسيأتي بعضها.

(فرع) حكم التشريع العام القوانين الوضعية واختلاف العلماء المعاصرين فيه

اختلف علماء أهل السنة المعاصرون في هذه المسألة على قولان.

القول الأول: قال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (٤/ ١٧٣-١٧٤):"... هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، ويفخرون بذلك آباء وأبناء، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقي هذا الياسق العصري، ويحقرون من يخالفهم في ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم رجعيًا وجاحدًا إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة... إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، وهي كفر بواح، لا خفاء فيه ولا مداورة".اهـ.

وقال الشيخ محمود شاكر في حاشيته تفسير الطبري (١٠/ ٣٤٨، ٣٤٩) في رده على من استدل ببعض الآثار عن السلف في عدم تكفيرهم الأمراء الذين حكموا بغير ما أنزل الله مع اعترافهم بالذنب، وتطبيق ذلك، على من يحكمون القوانين في عصرنا، قال: "وإذن، فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعه زماننا، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبته عن دينه، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه...".اهـ.

وتكلم الشيخ محمد بن إبراهيم في فتاواه (١٢/ ٢٩٠) عن حالات الحكم بغير ما أنزل الله المخرجة من الملة ومما ذكر تحكيم القوانين الوضعية، وقال:"... فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار المسلمين مهيئة مكملة، ومفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب، ومن أحكام ذلك القانون وتلزمهم به وتقرهم

عليه، وتحتمه عليهم، فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة للشهادة بأن محمدًا رسول الله بعد هذه المناقضة....."،اهـ.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان (٣/ ٢٥٩): وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور: أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله صلى الله عليهم وسلم، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم.

(تنبيه) اعلم أنه يجب التفصيل بين النظام الوضعي الذي يقتضي تحكيمه الكفر بخالق السموات والأرض، وبين النظام الذي لا يقتضي ذلك.

وإيضاح ذلك أن النظام قسمان: إداري، وشرعي. أما الإداري الذي يراد به ضبط الأمور وإتقانها على وجه غير مخالف للشرع، فهذا لا مانع منه، ولا مخالف فيه من الصحابة، فمن بعدهم. وقد عمل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من ذلك أشياء كثيرة ما كانت في زمن النَّبي ﷺ. ككتبه أسماء الجند في ديوان لأجل الضبط، ومعرفة من غاب ومن حضر كما قدمنا إيضاح المقصود منه في سورة بني إسرائيل في الكلام على العاقلة التي تحمل دية الخطأ، مع أن النَّبي ﷺ لم يفعل ذلك، ولم يعلم بتخلف كعب بن مالك عن غزوة تبوك إلا بعد أن وصل تبوك ﷺ. وكاشترائه ـ أعني عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ دار صفوان بن أمية وجعله إياها سجنًا في مكة المكرمة، مع أنه ﷺ لم يتخذ سجنًا هو ولا أبو بكر. فمثل هذا من الأمور الإدارية التي تفعل لإتقان الأمور مما لا يخالف الشرع ـ لا بأس به. كتنظيم شؤون الموظفين، وتنظيم إدارة الأعمال على وجه لا يخالف الشرع. فهذا النوع من الأنظمة الوضعية لا بأس به، ولا يخرج عن قواعد الشرع من مراعاة

المصالح العامة، وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالقي السموات والأرض فتحكيمه كفر بخالق السموات والأرض. كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف، وأنهما يلزم استواؤهما في الميراث. وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان، ونحو ذلك.

فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم: وأديانهم - كفر بخالق السموات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه من خلق الخلائق كلها وهو أعلم بمصالحها سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علوًا كبيرًا {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ} [٤٢/ ٢١]، {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالًا قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ} [١٦/ ١١٦]، وقد قدمنا جملة وافية من هذا النوع في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...} الآية [١٧/ ٩].اهـ. كلام الشنقيطي.

وقال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في كتابه "التمهيد لشرح كتاب التوحيد" (ص٤٢٨ - ٤٢٩): قوله: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠] [المائدة: ٥٠] وحكم الجاهلية هو: أن يحكم بعضهم على بعض، بأن يسن البشر شريعة فيجعلونها حكما، والله -جل وعلا- هو الذي خلق العباد، وهو أعلم بما يصلحهم، وما فيه العدل في الفصل بين الناس في أقضيتهم وخصوماتهم، فمن حاكم إلى شرائع الجاهلية فقد حكم البشر، ومعنى ذلك أنه اتخذه مطاعا من دون الله، أو جعله

شريكا لله -جل وعلا- في عبادة الطاعة، والواجب أن يجعل العبد حكمه وتحاكمه إلى الله -جل وعلا- دون ما سواه، وأن يعتقد أن حكم الله -جل وعلا- هو أحسن الأحكام، {أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا} [الأنعام: ١١٤] وقال هنا: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠] فدل على أن حكم غيره إنما هو - كما قال طائفة - زبالة أذهان ونحاتة أفكار لا تساوي شيئا عند من عقل تصرف الله -جل وعلا- في ملكه وملكوته وأن ليس ثم حكم إلا حكم الرب -جل وعلا-.

وهذه المسألة - أعني مسألة التحاكم إلى غير شرع الله من المسائل التي يقع فيها خلط كثير، خاصة عند الشباب في هذه البلاد وفي غيرها، وهي من أسباب تفرق المسلمين؛ لأن نظر الناس فيها لم يكن واحدا، والواجب أن يتحرى طالب العلم ما دلت عليه الأدلة وما بين العلماء من معاني تلك الأدلة وما فقهوه من أصول الشرع والتوحيد وما بينوه في تلك المسائل.

ومن أوجه الخلط في ذلك: أنهم جعلوا المسألة - مسألة الحكم والتحاكم - واحدة، يعني: جعلوها صورة واحدة، وهي متعددة الصور، فمن صورها: أن يكون هناك تشريع لتقنين مستقل، يضاهى به حكم الله -جل وعلا-. هذا التقنين من حيث وضعه كفر، والواضع له، والمشرع والسان لذلك، وجاعل هذا التشريع منسوبا إليه وهو الذي حكم بهذه الأحكام، هذا المشرع كافر، وكفره ظاهر؛ لأنه جعل نفسه طاغوتا، فدعا الناس إلى عبادته، عبادة الطاعة وهو راض، وهناك من يحكم بهذا التقنين - وهذه الحالة الثانية - فالمشرع حالة، ومن يحكم بذلك التشريع حالة، ومن يتحاكم إليه حالة، ومن يجعله في بلده من جهة الدول هذه حالة رابعة.

فصارت عندنا الأحوال أربعا: المشرع، ومن أطاعه في جعل الحلال حراما والحرام حلالا ومناقضة شرع الله؛ هذا كافر. ومن أطاعه في ذلك فقد اتخذه ربا من دون الله. والحاكم بذلك التشريع فيه تفصيل: فإن حكم مرة أو مرتين أو أكثر من ذلك ولم يكن ذلك ديدنا له وهو يعلم أنه عاص بتحكيم بغير شرع الله، فهذا له حكم أمثاله من أهل الذنوب، ولا يكفر حتى يستحل؛ ولهذا تجد أن بعض أهل العلم يقول: الحاكم بغير شرع الله لا يكفر إلا إذا استحل، وهذا صحيح، ولكن لا تنزل هذه الحالة على حالة التقنين والتشريع، كما قال ابن عباس: ليس الكفر الذي تذهبون إليه، هو كفر دون كفر، يعني: أن من حكم في مسألة أو في مسألتين بهواه بغير شرع الله وهو يعلم أنه عاص ولم يستحل، هذا كفر دون كفر.

أما الحاكم الذي لا يحكم بشرع الله بتاتا ويحكم دائما ويلزم الناس بغير شرع الله، فهذا من أهل العلم من قال: يكفر مطلقا ككفر الذي سن القانون؛ لأن الله -جل وعلا- قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠] فجعل الذي يحكم بغير شرع الله مطلقا طاغوتا وقال: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠].

ومن أهل العلم من. قال: حتى هذا النوع لا يكفر حتى يستحل؛ لأنه قد يعمل ذلك ويحكم وهو يعتقد في نفسه أنه عاص، فله حكم أمثاله من المدمنين على المعصية الذين لم يتوبوا منها. والقول الأول - وهو أن الذي يحكم دائما بغير شرع الله ويلزم الناس بغير شرع الله أنه كافر - هو الصحيح - عندي - وهو قول الجد الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالته تحكيم القوانين "؛ لأنه لا يصدر في الواقع من قلب قد كفر بالطاغوت، بل لا يصدر إلا ممن عظم القانون، وعظم الحكم بالقانون.

الحال الثالثة: حال المتحاكمين، يعني: الذي يذهب هو وخصمه ويتحاكمون إلى قانون، فهذا فيه تفصيل - أيضا -، وهو: إن كان يريد التحاكم إلى الطاغوت، وله رغبة في ذلك، ويرى أن الحكم بذلك سائغ ولا يكرهه، فهذا كافر أيضا: لأنه داخل في هذا الآية، ولا تجتمع - كما قال العلماء - إرادة التحاكم إلى الطاغوت مع الإيمان بالله، بل هذا ينفي هذا، والله -جل وعلا- قال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ} [النساء: ٦٠]

وأما إن كان لا يريد التحاكم ولا يرضاه، وإنما أجبر على ذلك، كما يحصل في البلاد الأخرى، من إلزامه بالحضور مع خصمه إلى قانوني أو إلى قاض يحكم بالقانون، أو أنه علم أن الحق له في الشرع فرفع الأمر إلى القاضي في القانون لعلمه أنه يوافق حكم الشرع، فهذا الذي رفع أمره في الدعوى على خصمه إلى قاض قانوني لعلمه أن الشرع يعطيه حقه وأن القانون وافق الشرع في ذلك، فهذا الأصح أيضا - عندي - أنه جائز.

وبعض أهل العلم يقول: يتركه ولو كان الحق له، والله -جل وعلا- وصف المنافقين بقوله: {وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ} [النور: ٤٩][النور: ٤٩] فالذي يرى أن الحق ثبت له في الشرع وما أجاز لنفسه أن يترافع إلى غير الشرع إلا لأنه يأتيه ما جعله الله -جل وعلا- له مشروعا، فهذا لا يدخل في إرادة التحاكم إلى الطاغوت فهو كاره ولكنه حاكم إلى الشرع، فعلم أن الشرع يحكم له فجعل الحكم الذي عند القانوني وسيلة للوصول إلى الحق الذي ثبت له شرعا.

الحال الرابعة: حال الدولة التي تحكم بغير الشرع، تحكم بالقانون، فالدول التي تحكم بالقانون - أيضا - فقد فصل الشيخ محمد بن إبراهيم الكلام في هذه

المسألة في فتاويه، وخلاصة قوله: أن الكفر بالقانون فرض، وأن تحكيم القانون في الدول إن كان خفيا نادرا فالأرض أرض إسلام، يعني: أن الدولة دولة إسلام، فيكون له حكم أمثاله من الشركيات التي تكون في الأرض، قال: وإن كان ظاهرا فاشيا، فالدار، دار كفر، يعني: الدولة دولة كفر، فيصبح الحكم على الدولة راجع إلى هذا التفصيل:

إن كان تحكيم القانون قليلا وخفيا، فهذه لها حكم أمثالها من الدول الظالمة، أو التي لها ذنوب وعصيان ووجود بعض الشركيات في دولتها، وإن كان ظاهرا فاشيا - والظهور يضاده الخفاء، والفشو يضاده القلة - قال: فالدار دار كفر، وهذا التفصيل هو الصحيح؛ لأننا نعلم أنه صار في دول الإسلام تشريعات غير موافقة لشرع الله -جل وعلا- والعلماء في الأزمنة الأولى ما حكموا على الدار بأنها دار كفر ولا على تلك الدول بأنها دول كفرية إلا لأن الشرك له أثر في الدار، وإذا قلنا: الدار فنعني الدولة، فمتى كان التحاكم إلى الطاغوت ظاهرا فاشيا فالدولة دولة كفر، ومتى كان قليلا خفيا أو كان قليلا ظاهرا وينكر، فالأرض أرض إسلام، والدار دار إسلام، والدولة دولة إسلام، فهذا التفصيل يتضح به هذا المقام وبه تجمع بين كلام العلماء ولا تجد مضادة بين قول عالم وعالم ولا تشتبه المسألة - إن شاء الله تعالى -.اهـ. كلام الشيخ صالح.

القول الثاني:

قال العلامة الألباني في التحذير من فتنة التكفير.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا

إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله

أما بعد: فإن مسألة التكفير عموما - لا للحكام فقط بل وللمحكومين أيضا - هي فتنة عظيمة قديمة تبنتها فرقة من الفرق الإسلامية القديمة وهي المعروفة ب (الخوارج) ومع الأسف الشديد فإن البعض من الدعاة أو المتحمسين قد يقع في الخروج عن الكتاب والسنة ولكن باسم الكتاب والسنة

والسبب في هذا يعود إلى أمرين اثنين:

أحدهما هو: ضحالة العلم.

والأمر الآخر - وهو مهم جدا -: أنهم لم يتفقهوا بالقواعد الشرعية والتي هي أساس الدعوة الإسلامية الصحيحة التي يعد كل من خرج عنها من تلك الفرق المنحرفة عن الجماعة التي أثنى عليها رسول الله ﷺ في غير ما حديث بل والتي ذكرها ربنا ﷻ وبين أن من خرج عنها يكون قد شاق الله ورسوله وذلك في قوله ﷻ: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} (١١٥ - النساء). فإن الله - لأمر واضح عند أهل العلم - لم يقتصر على قوله (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى... نوله ما تولى... {وإنما أضاف إلى مشاقة الرسول اتباع غير سبيل المؤمنين فقال: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} (١١٥ - النساء) فاتباع سبيل المؤمنين أو عدم اتباع سبيلهم أمر هام جدا إيجابا وسلبا فمن اتبع سبيل المؤمنين: فهو الناجي عند رب العالمين ومن خالف سبيل المؤمنين: فحسبه جهنم وبئس المصير، من هنا ضلت طوائف كثيرة جدا - قديما وحديثا - لأنهم لم يكتفوا بعدم التزام سبيل المؤمنين فحسب ولكن ركبوا

عقولهم واتبعوا أهواءهم في تفسير الكتاب والسنة ثم بنوا على ذلك نتائج خطيرة جدا خرجوا بها عما كان عليه سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم جميعا.

وهذه الفقرة من الآية الكريمة: (ويتبع غير سبيل المؤمنين) أكدها عليه الصلاة والسلام تأكيدا بالغا في غير ما حديث نبوي صحيح، وهذه الأحاديث - التي سأورد بعضا منها - ليست مجهولة عند عامة المسلمين - فضلا عن خاصتهم - لكن المجهول فيها هو أنها تدل على ضرورة التزام سبيل المؤمنين في فهم الكتاب والسنة ووجوب ذلك وتأكيده، وهذه النقطة يسهو عنها - ويغفل عن ضرورتها ولزومها - كثير من الخاصة فضلا عن هؤلاء الذين عرفوا ب (جماعة التكفير) أو بعض أنواع الجماعات التي تنسب نفسها للجهاد وهي في حقيقتها من فلول التكفير، فهؤلاء وأولئك قد يكونون في دواخل أ نفسهم صالحين ومخلصين ولكن هذا وحده غير كاف ليكون صاحبه عند الله ﷻ من الناجين المفلحين

إذ لابد للمسلم أن يجمع بين أمرين اثنين:

صدق الإخلاص في النية لله ﷻ، وحسن الاتباع لما كان عليه النبي ﷺ، فلا يكفي إذا أن يكون المسلم مخلصا وجادا فيما هو في صدده من العمل بالكتاب والسنة والدعوة إليهما بل لا بد - بالإضافة إلى ذلك - من أن يكون منهجه منهجا سويا سليما وصحيحا مستقيما ولا يتم ذلك على وجهه إلا باتباع ما كان عليه سلف الأمة الصالحون رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فمن الأحاديث المعروفة الثابتة التي تؤصل ما ذكرت وقد أشرت إليها آنفا حديث الفرق الثلاث والسبعين ألا وهو قوله عليه الصلاة والسلام: [افترقت اليهود على إحدى

وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة] قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال:] الجماعة [وفي رواية: (ما أنا عليه وأصحابي) فنجد أن جواب النبي ﷺ يلتقي تماما مع الآية السابقة: (ويتبع غير سبيل المؤمنين). فأول ما يدخل في عموم الآية هم أصحاب الرسول ﷺ إذ لم يكتف الرسول ﷺ في هذا الحديث بقوله: (ما أنا عليه. . .) - مع أن ذلك قد يكون كافيا في الواقع للمسلم الذي يفهم حقا الكتاب والسنة - ولكنه عليه الصلاة والسلام يطبق تطبيقا عمليا قوله سبحانه وتعالى في حقه ﷺ أنه: (بالمؤمنين رءوف رحيم) (١٢٨ - التوبة) فمن تمام رأفته وكمال رحمته بأصحابه وأتباعه أن أوضح لهم صلوات الله وسلامه عليه أن علامة الفرقة الناجية: أن يكون أبناؤها وأصحابها على ما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى ما كان عليه أصحابه من بعده، وعليه فلا يجوز أن يقتصر المسلمون عامة والدعاة خاصة في فهم الكتاب والسنة على الوسائل المعروفة للفهم كمعرفة اللغة العربية والناسخ والمنسوخ وغير ذلك بل لا بد من أن يرجع قبل ذلك كله إلى ما كان عليه أصحاب النبي ﷺ لأنهم - كما تبين من آثارهم ومن سيرتهم - أنهم كانوا أخلص لله ﷻ في العبادة وأفقه منا في الكتاب والسنة إلى غير ذلك من الخصال الحميدة التي تخلقوا بها وتأدبوا بآدابها ويشبه هذا الحديث تماما - من حيث ثمرته وفائدته - حديث الخلفاء الراشدين المروي في السنن من حديث العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا: كأنها موعظة مودع فأوصنا يا رسول الله قال: (أوصيكم بالسمع والطاعة وإن ولي عليكم عبد حبشي وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم

بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ. . .) وذكر الحديث، والشاهد من هذا الحديث هو معنى جوابه على السؤال السابق إذ حض ﷺ أمته في أشخاص أصحابه أن يتمسكوا بسنته ثم لم يقتصر على ذلك بل قال: (وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي) فلا بد لنا والحالة هذه من أن ندندن دائما وأبدا حول هذا الأصل الأصيل إذا أردنا أن نفهم عقيدتنا وأن نفهم عبادتنا وأن نفهم أخلاقنا وسلوكنا

ولا محيد عن العودة إلى منهج سلفنا الصالح لفهم كل هذه القضايا الضرورية للمسلم حتى يتحقق فيه - صدقا - أنه من الفرقة الناجية، ومن هنا ضلت طوائف قديمة وحديثة حين لم يتنبهوا إلى مدلول الآية السابقة وإلى مغزى حديث سنة الخلفاء الراشدين وكذا حديث افتراق الأمة فكان أمرا طبيعيا جدا أن ينحرفوا كما انحرف من سبقهم عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومنهج السلف الصالح، ومن هؤلاء المنحرفين: الخوارج قدماء ومحدثين، فأن أصل فتنة التكفير في هذا الزمان - بل منذ أزمان - هو آية يدندنون دائما حولها ألا وهي قوله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (٤٤ - المائدة) فيأخذونها من غير فهوم عميقة ويوردونها بلا معرفة دقيقة، ونحن نعلم أن هذه الآية الكريمة قد تكررت وجاءت خاتمتها بألفاظ ثلاثة وهي: (فأولئك هم الكافرون) (فأولئك هم الظالمون) [٤٥ - المائدة] (فأولئك هم الفاسقون) [٤٧ - المائدة]

فمن تمام جهل الذين يحتجون بهذه الآية باللفظ الأول منها فقط: (فأولئك هم الكافرون): أنهم لم يلموا على الأقل ببعض النصوص الشرعية - قرآنا أم سنة - التي جاء فيها ذكر لفظة (الكفر) فأخذوها بغير نظر على أنها تعني

الخروج من الدين وأنه لا فرق بين هذا الذي وقع في الكفر وبين أولئك المشركين من اليهود والنصارى وأصحاب الملل الأخرى الخارجة عن ملة الإسلام، بينما لفظة الكفر في لغة الكتاب والسنة لا تعني - دائما - هذا الذي يدندنون حوله ويسلطون هذا الفهم الخاطئ المغلوط عليه، فشأن لفظة (الكافرون) من حيث إنها لا تدل على معنى واحد هو ذاته شأن اللفظين الآخرين: (الظالمون) و (الفاسقون) فكما أن من وصف أنه ظالم أو فاسق لا يلزم بالضرورة ارتداده عن دينه فكذلك من وصف بأنه كافر سواء بسواء، وهذا التنوع في معنى اللفظ الواحد هو الذي تدل عليه اللغة ثم الشرع الذي جاء بلغة العرب - لغة القرآن الكريم، فمن أجل ذلك كان الواجب على كل من يتصدى لإصدار الأحكام على المسلمين - سواء كانوا حكاما أم محكومين - أن يكون على علم واسع بالكتاب والسنة وعلى ضوء منهج السلف الصالح

والكتاب والسنة لا يمكن فهمهما - وكذلك ما تفرع عنهما - ألا بطريق معرفة اللغة العربية وآدابها معرفة دقيقة، فإن كان لدى طالب العلم نقص في معرفة اللغة العربية فإن مما يساعده في استدراك ذلك النقص الرجوع إلى فهم من قبله من الأئمة والعلماء وبخاصة أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية، ولنرجع إلى الآية: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فما المراد بالكفر فيها؟ هل هو الخروج عن الملة؟ أو أنه غير ذلك؟

فأقول: لا بد من الدقة في فهم هذه الآية فإنها قد تعني الكفر العملي وهو الخروج بالأعمال عن بعض أحكام الإسلام

ويساعدنا في هذا الفهم حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما الذي أجمع المسلمون جميعا - إلا من كان من تلك الفرق الضالة - على أنه

إمام فريد في التفسير، فكأنه طرق سمعه يومئذ ما نسمعه اليوم تماما من أن هناك أناسا يفهمون هذه الآية فهما سطحيا من غير تفصيل فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ليس الكفر الذي تذهبون إليه وإنه ليس كفرا ينقل عن الملة وهو كفر دون كفر " ولعله يعني بذلك الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم كان من عواقب ذلك أنهم سفكوا دماء المؤمنين وفعلوا فيهم ما لم يفعلوا بالمشركين: فقال: ليس الأمر كما قالوا أو كما ظنوا وإنما هو كفر دون كفر، هذا الجواب المختصر الواضح من ترجمان القرآن في تفسير هذه الآية هو الحكم الذي لا يمكن أن يفهم سواه من النصوص التي أشرت إليها قبل، ثم إن كلمة (الكفر) ذكرت في كثير من النصوص القرآنية والحديثية ولا يمكن أن تحمل - فيها جميعا - على أنها تساوي الخروج من الملة، من ذلك مثلا الحديث المعروف في الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر). فالكفر هنا هو المعصية التي هي الخروج عن الطاعة ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام - وهو أفصح الناس بيانا - بالغ في الزجر قائلا: (. . . وقتاله كفر) ومن ناحية أخرى هل يمكن لنا أن نفسر الفقرة الأولى من هذا الحديث (سباب المسلم فسوق) على معنى الفسق المذكور في اللفظ الثالث ضمن الآية السابقة: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)؟

والجواب: أن هذا قد يكون فسقا مرادفا للكفر الذي هو بمعنى الخروج عن الملة وقد يكون الفسق مرادفا للكفر الذي لا يعني الخروج عن الملة وإنما يعني ما قاله ترجمان القرآن إنه كفر دون كفر وهذا الحديث يؤكد أن الكفر قد يكون بهذا المعنى وذلك لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا

بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله). إذ قد ذكر ربنا ﷻ هنا الفرقة الباغية التي تقاتل الفرقة المحقة المؤمنة ومع ذلك فلم يحكم على الباغية بالكفر مع أن الحديث يقول: (. . . وقتاله كفر) إذا فقتاله كفر دون كفر كما قال ابن عباس في تفسير الآية السابقة تماما فقتال المسلم للمسلم بغي واعتداء وفسق وكفر ولكن هذا يعني أن الكفر قد يكون كفرا عمليا وقد يكون كفرا اعتقاديا، من هنا جاء هذا التفصيل الدقيق الذي تولى بيانه وشرحه الإمام - بحق - شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتولى ذلك من بعده تلميذه البار ابن قيم الجوزية إذ لهما الفضل في التنبيه والدندنة على تقسيم الكفر إلى ذلك التقسيم الذي رفع رايته ترجمان القرآن بتلك الكلمة الجامعة الموجزة فابن تيمية ي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتلميذه وصاحبه ابن قيم الجوزية: يدندنان دائما حول ضرورة التفريق بين الكفر الاعتقادي والكفر العملي وإلا وقع المسلم من حيث لا يدري في فتنة الخروج عن جماعة المسلمين التي وقع فيها الخوارج قديما وبعض أذنابهم حديثا

وخلاصة القول: إن قوله ﷺ (. . . وقتاله كفر) لا يعني - مطلقا - الخروج عن الملة، والأحاديث في هذا كثيرة جدا فهي جميعا حجة دامغة على أولئك الذين يقفون عند فهمهم القاصر للآية السابقة ويلتزمون تفسيرها بالكفر الاعتقادي، فحسبنا الآن هذا الحديث لأنه دليل قاطع على أن قتال المسلم لأخيه المسلم هو كفر بمعنى الكفر العملي وليس الكفر الاعتقادي فإذا عدنا إلى (جماعة التكفير) أو من تفرع عنهم وإطلاقهم على الحكام وعلى من يعيشون تحت رايتهم بالأولى وينتظمون تحت إمرتهم وتوظيفهم الكفر والردة فإن ذلك مبني على وجهة نظرهم الفاسدة القائمة على أن هؤلاء ارتكبوا

المعاصي فكفروا بذلك، ومن جملة الأمور التي يفيد ذكرها وحكايتها: أنني التقيت مع بعض أولئك الذين كانوا من (جماعة التكفير) ثم هداهم الله ﷻ: فقلت لهم: ها أنتم كفرتم بعض الحكام فما بالكم تكفرون أئمة المساجد وخطباء المساجد ومؤذني المساجد وخدمة المساجد؟ وما بالكم تكفرون أساتذة العلم الشرعي في المدارس وغيرها؟

قالوا: لأن هؤلاء رضوا بحكم هؤلاء الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله

فأقول: إذا كان هذا الرضى رضى قلبيا بالحكم بغير ما أنزل الله فحينئذ ينقلب الكفر العملي إلى كفر اعتقادي. فأي حاكم يحكم بغير ما أنزل الله وهو يرى ويعتقد أن هذا هو الحكم اللائق تبنيه في هذا العصر وأنه لا يليق به تبنيه للحكم الشرعي المنصوص في الكتاب والسنة فلا شك أن هذا الحاكم يكون كفره كفرا اعتقاديا وليس كفرا عمليا فقط ومن رضي ارتضاءه واعتقاده: فإنه يلحق به، ثم قلت لهم: فأنتم - أولا - لا تستطيعون أن تحكموا على كل حاكم يحكم بالقوانين الغربية الكافرة - أو بكثير منها - أنه لو سئل عن الحكم بغير ما أنزل الله؟ لأجاب: بأن الحكم بهذه القوانين هو الحق والصالح في هذا العصر وأنه لا يجوز الحكم بالإسلام لأنهم لو قالوا ذلك لصاروا كفارا حقا دون شك ولا ريب فإذا انتقلنا إلى المحكومين وفيهم العلماء والصالحون وغيرهم فكيف تحكمون عليهم بالكفر بمجرد أنهم يعيشون تحت حكم يشملهم كما يشملكم أنتم تماما؟ ولكنكم تعلنون أن هؤلاء كفار مرتدون والحكم بما أنزل الله هو الواجب ثم تقولون معتذرين لأنفسكم: إن مخالفة الحكم الشرعي بمجرد العمل لا يستلزم الحكم على هذا العامل بأنه مرتد عن دينه وهذا عين ما يقوله

غيركم سوى أنكم تزيدون عليهم - بغير حق - الحكم بالتكفير والردة ومن جملة المسائل التي توضح خطأهم وضلالهم أن يقال لهم: متى يحكم على المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله - وقد يكون يصلي - بأنه ارتد عن دينه؟ أيكفي مرة واحدة؟ أو أنه يجب أن يعلن أنه مرتد عن الدين؟

إنهم لن يعرفوا جوابا ولن يهتدوا صوابا فنضطر إلى أن نضرب لهم المثل التالي فنقول: قاض يحكم بالشرع هكذا عادته ونظامه لكنه في حكومة واحدة زلت به القدم فحكم بخلاف الشرع أي: أعطى الحق للظالم وحرمه المظلوم فهذا - قطعا - حكم بغير ما أنزل الله؟ فهل تقولون بأنه: كفر كفر ردة؟ سيقولون: لا لأن هذا صدر منه مرة واحدة.

فنقول: إن صدر نفس الحكم مرة ثانية أو حكم آخر وخالف الشرع أيضا فهل يكفر؟ ثم نكرر عليهم: ثلاث مرات أربع مرات متى تقولون: أنه كفر؟ لن يستطيعوا وضع حد بتعداد أحكامه التي خالف فيها الشرع ثم لا يكفرونه بها

في حين يستطيعون عكس ذلك تماما إذا علم منه أنه في الحكم الأول استحسن الحكم بغير ما أنزل الله - مستحلا له - واستقبح الحكم الشرعي فساعتئذ يكون الحكم عليه بالردة صحيحا ومن المرة الأولى، وعلى العكس من ذلك: لو رأينا منه عشرات الحكومات في قضايا متعددة خالف فيها الشرع وإذا سألناه: لماذا حكمت بغير ما أنزل الله ﷿؟ فرد قائلا: خفت وخشيت على نفسي أو ارتشيت مثلا فهذا أسوأ من الأول بكثير ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نقول بكفره حتى يعرب عما في قلبه بأنه لا يرى الحكم بما أنزل الله ﷿ فحينئذ فقط نستطيع أن نقول: إنه كافر كفر ردة، وخلاصة الكلام: لا بد من معرفة أن الكفر - كالفسق والظلم - ينقسم إلى قسمين، كفر وفسق وظلم يخرج من الملة

وكل ذلك يعود إلى الاستحلال القلبي، وآخر لا يخرج من الملة يعود إلى الاستحلال العملي فكل المعاصي - وبخاصة ما فشا في هذا الزمان من استحلال عملي للربا والزنى وشرب الخمر وغيرها - هي من الكفر العملي فلا يجوز أن نكفر العصاة المتلبسين بشيء من المعاصي لمجرد ارتكابهم لها واستحلالهم إياها عمليا إلا إذا ظهر - يقينا - لنا منهم - يقينا - ما يكشف لنا عما في قرارة نفوسهم أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله اعتقادا فإذا عرفنا أنهم وقعوا في هذه المخالفة القلبية حكمنا حينئذ بأنهم كفروا كفر ردة، أما إذا لم نعلم ذلك فلا سبيل لنا إلى الحكم بكفرهم لأننا نخشى أن نقع تحت وعيد قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما)، والأحاديث الواردة في هذا المعنى كثيرة جدا أذكر منها حديثا ذا دلالة كبيرة وهو في قصة ذلك الصحابي الذي قاتل أحد المشركين فلما رأى هذا المشرك أنه صار تحت ضربة سيف المسلم الصحابي قال: أشهد أن لا إله إلا الله فما بالاها الصحابي فقتله فلما بلغ خبره النبي ﷺ أنكر عليه ذلك أشد الإنكار فاعتذر الصحابي بأن المشرك ما قالها إلا خوفا من القتل وكان جوابه ﷺ: (هلا شققت عن قلبه؟). أخرجه البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه، إذا الكفر الاعتقادي ليس له علاقة أساسية بمجرد العمل إنما علاقته الكبرى بالقلب، ونحن لا نستطيع أن نعلم ما في قلب الفاسق والفاجر والسارق والزاني والمرابي... ومن شابههم إلا إذا عبر عما في قلبه بلسانه أما عمله فينبئ أنه خالف الشرع مخالفة عملية

فنحن نقول: إنك خالفت وإنك فسقت وإنك فجرت لكن لا نقول: إنك كفرت وارتدت عن دينك حتى يظهر منه شئ يكون لنا عذر عند الله عز وجل في

الحكم بردته ثم يأتي الحكم المعروف في الإسلام عليه ألا وهو قوله عليه الصلاة والسلام: (من بدل دينه فاقتلوه) ثم قلت - وما أزال أقول - لهؤلاء الذين يدندنون حول تكفير حكام المسلمين: هبوا أن هؤلاء الحكام كفار كفر ردة وهبوا أيضا أن هناك حاكما أعلى على هؤلاء فالواجب - والحالة هذه - أن يطبق هذا الحاكم الأعلى فيهم الحد

ولكن الآن: ماذا تستفيدون أنتم من الناحية العملية إذا سلمنا -جدلا- أن هؤلاء الحكام كفار كفر ردة؟ ماذا يمكن أن تصنعوا وتفعلوا؟

إذ قالوا: ولاء وبراء فنقول: الولاء والبراء مرتبطان بالموالاة والمعاداة - قلبية وعملية - وعلى حسب الاستطاعة فلا يشترط لوجودهما إعلان التكفير وإشهار الردة بل إن الولاء والبراء قد يكونان في مبتدع أو عاص أو ظالم، ثم أقول لهؤلاء ها هم هؤلاء الكفار قد احتلوا من بلاد الإسلام مواقع عدة ونحن مع الأسف ابتلينا باحتلال اليهود لفلسطين فما الذي نستطيع نحن وأنتم فعله مع هؤلاء؟ حتى تقفوا أنتم - وحدكم - ضد أولئك الحكام الذين تظنون أنهم من الكفار؟ هلا تركتم هذه الناحية جانبا وبدأتم بتأسيس القاعدة التي على أساسها تقوم قائمة الحكومة المسلمة وذلك باتباع سنة رسول الله ﷺ التي ربى أصحابه عليها ونشأهم على نظامها وأساسها، نذكر هذا مرارا ونؤكده تكرارا: لا بد لكل جماعة مسلمة من العمل بحق لإعادة حكم الإسلام ليس فقط على أرض الإسلام بل على الأرض كلها وذلك تحقيقا لقوله تبارك وتعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (٩ - الصف). وقد جاء في بعض بشائر الأحاديث النبوية أن هذه الآية ستتحقق فيما بعد، فلكي يتمكن المسلمون من تحقيق هذا النص القرآني

والوعد الإلهي فلا بد من سبيل بين وطريق واضح فهل يكون ذلك الطريق بإعلان ثورة على هؤلاء الحكام الذين يظن هؤلاء أن كفرهم كفر ردة؟ ثم مع ظنهم هذا - وهو ظن غالط خاطئ - لا يستطيعون أن يعملوا شيئا، إذا ما هو المنهج؟ وما هو الطريق؟ لا شك أن الطريق الصحيح هو ما كان رسول الله ﷺ يدندن حوله ويذكر أصحابه به في كل خطبة: (وخير الهدي هدي محمد ﷺ) فعلى المسلمين كافة - وبخاصة منهم من يهتم بإعادة الحكم الإسلامي - أن يبدؤوا من حيث بدأ رسول الله ﷺ وهو ما نوجزه نحن بكلمتين خفيفتين: (التصفية والتربية)

ذلك لأننا نعلم حقائق ثابتة وراسخة يغفل عنها - أو يتغافل عنها - أولئك الغلاة الذين ليس لهم إلا إعلان تكفير الحكام ثم لا شيء، وسيظلون يعلنون تكفير الحكام ثم لا يصدر منهم - أو عنهم - إلا الفتن والمحن والواقع في هذه السنوات الأخيرة على أيدي هؤلاء بدءا من فتنة الحرم المكي إلى فتنة مصر وقتل السادات وأخيرا في سوريا ثم الآن في مصر والجزائر - منظور لكل أحد -: هدر دماء من المسلمين الأبرياء بسبب هذه الفتن والبلايا وحصول كثير من المحن والرزايا

كل هذا بسبب مخالفة هؤلاء لكثير من نصوص الكتاب والسنة وأهمها قوله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) (٢١ - الأحزاب) إذا أردنا أن نقيم حكم الله في الأرض - حقا لا ادعاء - هل نبدأ بتكفير الحكام ونحن لا نستطيع مواجهتهم فضلا عن أن نقاتلهم؟ أم نبدأ - وجوبا - بما بدأ به الرسول عليه الصلاة والسلام؟ لاشك أن الجواب: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. . .) ولكن بماذا بدأ رسول

الله ﷺ؟

من المتيقين عند كل من اشتم رائحة العلم أنه ﷺ بدأ بالدعوة بين الأفراد الذين كان يظن فيهم الاستعداد لتقبل الحق ثم استجاب له من استجاب من أفراد الصحابة - كما هو معروف في السيرة النبوية - ثم وقع بعد ذلك التعذيب والشدة التي أصابت المسلمين في مكة ثم جاء الأمر بالهجرة الأولى والثانية حتى وطد الله عز وجل الإسلام في المدينة المنورة وبدأت هناك المناوشات والمواجهات وبدأ القتال بين المسلمين وبين الكفار من جهة ثم اليهود من جهة أخرى. . . هكذا

إذا لا بد أن نبدأ نحن بتعليم الناس الإسلام الحق كما بدأ الرسول عليه الصلاة والسلام لكن لا يجوز لنا الآن أن نقتصر على مجرد التعليم فقط فلقد دخل في الإسلام ما ليس منه وما لا يمت إليه بصلة من البدع والمحدثات مما كان سببا في تهدم الصرح الإسلامي الشامخ، فلذلك كان الواجب على الدعاة أن يبدءوا بتصفية هذا الإسلام مما دخل فيه هذا هو الأصل الأول: (التصفية)

وأما الأصل الثاني: فهو أن يقترن مع هذه التصفية تربية الشباب المسلم الناشئ على هذا الإسلام المصفى، ونحن إذا درسنا واقع الجماعات الإسلامية القائمة منذ نحو قرابة قرن من الزمان وأفكارها وممارساتها لوجدنا الكثير منهم لم يستفيدوا - أو يفيدوا - شيئا يذكر برغم صياحهم وضجيجهم بأنهم يريدونها حكومة إسلامية مما سبب سفك دماء أبرياء كثيرين بهذه الحجة الواهية دون أن يحققوا من ذلك شيئا فلا نزال نسمع منهم العقائد المخالفة للكتاب والسنة والأعمال المنافية للكتاب والسنة فضلا عن تكرارهم تلك المحاولات الفاشلة المخالفة للشرع وختاما أقول: هناك كلمة لأحد الدعاة - كنت أتمنى من أتباعه

أن يلتزموها وأن يحققوها - وهي: (أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم لكم على أرضكم)

لأن المسلم إذا صحح عقيدته بناء على الكتاب والسنة فلا شك أنه بذلك ستصلح عبادته وستصلح أخلاقه وسيصلح سلوكه. . . الخ لكن هذه الكلمة الطيبة - مع الأسف - لم يعمل بها هؤلاء الناس فظلوا يصيحون مطالبين بإقامة الدولة المسلمة. . . لكن دون جدوى ولقد صدق فيهم - والله - قول الشاعر: ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس لعل فيما ذكرت مقنعا لكل منصف ومنتهى لكل متعسف. والله المستعان.

* تقريظ سماحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه أما بعد.

فقد اطلعت على الجواب المفيد الذي تفضل به صاحب الفضيلة الشيخ محمد ناصرالدين الألباني وفقه الله المنشور في صحيفة المسلمون الذي أجاب به فضيلته من سأله عن: "تكفير من حكم بغير ما أنزل الله من غير تفصيل "

فألفيتها كلمة قيمة أصاب فيها الحق وسلك فيها سبيل المؤمنين وأوضح وفقه الله أنه لا يجوز لأحد من الناس أن يكفر من حكم بغير ما أنزل الله بمجرد الفعل من دون أن يعلم أنه استحل ذلك بقلبه واحتج بما جاء في ذلك عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وعن غيره من سلف الأمة ولاشك أن ما ذكره في جوابه في تفسير قوله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) و (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) و: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) هو الصواب وقد أوضح أن الكفر كفران: أكبر وأصغر

كما أن الظلم ظلمان وهكذا الفسق فسقان: أكبر وأصغر فمن استحل الحكم بغير ما أنزل الله أو الزنى أو الربا أو غيرها من المحرمات المجمع على تحريمها فقد كفر كفرا أكبر وظلم ظلما أكبر وفسق فسقا أكبر:

ومن فعلها بدون استحلال كان كفره كفرا أصغر وظلمه ظلما أصغر وهكذا فسقه لقول النبي ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) أراد بهذا ﷺ الفسق الأصغر والكفر الأصغر وأطلق العبارة تنفيرا من هذا العمل المنكر وهكذا قوله ﷺ: (اثنتان في الناس هما بهما كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت) أخرجه مسلم في صحيحه وقوله ﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) أخرجه البخاري ومسلم من حديث جرير رضي الله عنه والأحاديث في هذا المعنى كثيرة فالواجب على كل مسلم ولا سيما أهل العلم التثبت في الأمور والحكم فيها على ضوء الكتاب والسنة وطريق سلف الأمة والحذر من السبيل الوخيم الذي سلكه الكثير من الناس لإطلاق الأحكام وعدم التفصيل وعلى أهل العلم أن يعتنوا بالدعوة إلى الله سبحانه بالتفصيل وإيضاح الإسلام للناس بأدلته من الكتاب والسنة وترغيبهم في الاستقامة عليه والتواصي والنصح في ذلك مع الترهيب من كل ما يخالف أحكام الإسلام، وبذلك يكونون قد سلكوا مسلك النبي ﷺ ومسلك خلفائه الراشدين وصحابته المرضيين في إيضاح سبيل الحق والإرشاد إليه والتحذير مما يخالفه عملا بقول الله سبحانه: (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين). وقوله عز وجل: (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين). وقوله سبحانه: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) وقول النبي ﷺ: (من

دل على خير فله مثل أجر فاعله) وقوله ﷺ: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا). وقول النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه لما بعثه إلى اليهود في خيبر: (ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم) متفق على صحته

وقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلى توحيد الله والدخول في الإسلام بالنصح والحكمة والصبر والأسلوب الحسن حتى هدى الله على يديه وعلى يد أصحابه من سبقت له السعادة ثم هاجر إلى المدينة عليه الصلاة والسلام واستمر في دعوته إلى الله سبحانه هو وأصحابه رضي الله عنهم بالحكمة والموعظة الحسنة والصبر والجدال بالتي هي أحسن حتى شرع الله له الجهاد بالسيف للكفار فقام بذلك عليه الصلاة والسلام هو وأصحابه رضي الله عنهم أكمل قيام فأيدهم الله ونصرهم وجعل لهم العاقبة الحميدة، وهكذا يكون النصر وحسن العاقبة لمن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم إلى يوم القيامة والله المسؤول أن يجعلنا وسائر إخواننا في الله من أتباعهم بإحسان وأن يرزقنا وجميع إخواننا الدعاة إلى الله البصيرة النافذة والعمل الصالح والصبر على الحق حتى نلقاه سبحانه إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

* تقريظ العلامة الشيخ محمد العثيمين رحمه الله على كلمتي الألباني و بن باز

والذي فهم من كلام الشيخين: أن الكفر لمن استحل ذلك وأما من حكم به على أنه معصية مخالفة: فهذا ليس بكافر لأنه لم يستحله لكن قد يكون خوفا

أو عجزا أو ما أشبه ذلك وعلى هذا فتكون الآيات الثلاث أي قوله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وقوله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) وقوله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) [سورة المائدة الآيات: ٤٧، ٤٥، ٤٤] منزلة على أحوال ثلاث:

١- من حكم بغير ما أنزل الله بدلا عن دين الله فهذا كفر أكبر مخرج عن الملة لأنه جعل نفسه - مشرعا مع الله ﷻ ولأنه كاره لشريعته

٢- من حكم به لهوى في نفسه أو خوفا عليها أو ما أشبه ذلك فهذا لا يكفر ولكنه ينتقل - إلى الفسق

٣- من حكم به عدوانا وظلما - وهذا لا يتأتى في حكم القوانين ولكن يتأتى في حكم خاص مثل أن يحكم على إنسان بغير ما أنزل الله لينتقم منه - فهذا يقال إنه: ظالم فتنزل الأوصاف على حسب الأحوال، ومن العلماء من قال: إنها أوصاف لموصوف واحد وأن كل كافر ظالم وكل كافر فاسق واستدلوا بقوله تعالى: (والكافرون هم الظالمون) وبقوله تعالى: (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار). وهذا هو الفسق الأكبر، ومهما كان الأمر فكما أشار الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ أن الإنسان ينظر ماذا تكون النتيجة؟ ليست المسألة نظرية لكن المهم التطبيق العملي ما هي النتيجة؟ وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.اهـ.

وللعلامة ابن باز شريط مسجل بعنوان "الدمعة البازية" الذي تضمن تسجيلًا لمجلس علمي ناقش فيه مجموعة من الدعاة والمشايخ ذائعي الصيت الإمام ابن باز في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله؛ ليقول بالتكفير المطلق بدون

تفصيل، وأُتي الشيخ من بين ويديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثابتًا راسخًا كالطود الأشم لا يتزعزع ولا يجزع ولا يلين، فكان يؤكد بأن الحكم بغير ما أنزل الله: لو بدل، أو وضع القوانين العامة لا يكفر، ما لم يكن ثمّت استحلال.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ١١١): عن حكم من حكم بغير ما أنزل الله؟

فأجاب: أقول وبالله تعالى أقول وأسأله الهداية والصواب إن الحكم بما أنزل الله تعالى من توحيد الربوبية؛ لأنه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضى ربوبيته، وكمال ملكه وتصرفه، ولهذا سمى الله تعالى المتبوعين في غير ما أنزل الله تعالى أربابًا لمتبعيهم فقال سبحانه: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) فسمى الله تعالى المتبوعين أربابًا حيث جعلوا مشرعين مع الله تعالى، وسمى المتبعين عبادًا حيث إنهم ذلوا لهم وأطاعوهم في مخالفة حكم الله-سبحانه وتعالى.

وقد قال عدي بن حاتم لرسول الله ﷺ .: إنهم لم يعبدوهم فقال النبي، ﷺ: "بل إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم".

إذا فهمت ذلك فاعلم أن من لم يحكم بما أنزل الله، وأراد أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله وردت فيه آيات بنفي الإيمان عنه، وآيات بكفره وظلمه، وفسقه.

فأما القسم الأول: فمثل قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا

بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالًا بعيدًا، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودًا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا.أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولًا بليغًا.وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيماً.فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا) فوصف الله تعالى هؤلاء المدعين للإيمان وهم منافقون بصفات:

الأولى: أنهم يريدون أن يكون التحاكم إلى الطاغوت، وهو كل ما خالف حكم الله تعالى ورسوله، ﷺ، لأن ما خالف حكم الله ورسوله فهو طغيان واعتداء على حكم من له الحكم وإليه يرجع الأمر كله وهو الله قال الله تعالى : (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين).

الثانية: أنهم إذا دُعُوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدوا وأعرضوا.

الثالثة: أنهم إذا أصيبوا بمصيبة بما قدمت أيديهم، ومنها أن يعثر على صنيعهم جاؤوا يحلفون أنهم ما أرادوا إلا الإحسان والتوفيق كحال من يرفض اليوم أحكام الإسلام ويحكم بالقوانين المخالفة لها زعمًا منه أن ذلك هو الإحسان الموافق لأحوال العصر.

ثم حذر سبحانه هؤلاء المدعين للإيمان المتصفين بتلك الصفات بأنه- سبحانه- يعلم ما في قلوبهم وما يكنونه من أمور تخالف ما يقولون، وأمر نبيه أن

يعظهم ويقول لهم في أنفسهم قولًا بليغًا، ثم بين أن الحكمة من إرسال الرسول أن يكون هو المطاع المتبوع لا غيره من الناس مهما قويت أفكارهم واتسعت مداركهم، ثم أقسم تعالى بربوبيته لرسوله التي هي أخص أنواع الربوبية والتي تتضمن الإشارة إلى صحة رسالته، ﷺ، أقسم بها قسمًا مؤكدًا أنه لا يصلح الإيمان إلا بثلاثة أمور:

الأول: أن يكون التحاكم في كل نزاع إلى رسول الله، ﷺ.

الثاني: أن تنشرح الصدور بحكمه ولا يكون في النفوس حرج وضيق منه.

الثالث: أن يحصل التسليم التام بقبول ما حكم به وتنفيذه بدون توان أو انحراف.

وأما القسم الثاني: فمثل قوله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وقوله: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) وقوله: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) وهل هذه الأوصاف الثلاثة تتنزل على موصوف واحد؟ بمعنى أن كل من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر ظالم، فاسق، لأن الله تعالى وصف الكافرين بالظلم والفسق فقال تعالى: (والكافرون هم الظالمون) وقال تعالى: (إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) فكل كافر ظالم فاسق، أو هذه الأوصاف تتنزل على موصوفين بحسب الحامل لهم على عدم الحكم بما أنزل الله؟ هذا هو الأقرب عندي والله أعلم.

فنقول: من لم يحكم بما أنزل الله استخفافًا به، أو احتقارًا له، أو اعتقادًا أن غيره أصلح منه، وأنفع للخلق فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة، ومن هؤلاء من يضعون للناس تشريعات تخالف التشريعات الإسلامية لتكون منهاجًا يسير

الناس عليه، فإنهم لم يضعوا تلك التشريعات المخالفة للشريعة الإسلامية إلا وهم يعتقدون أنها أصلح وأنفع للخلق، إذ من المعلوم بالضرورة العقلية، والجبلة الفطرية أن الإنسان لا يعدل عن منهاج إلى منهاج يخالفه إلا وهو يعتقد فضل ما عدل إليه ونقص ما عدل عنه. (ومن لم يحكم بما أنزل الله وهو لم يستخف به، ولم يحتقره، ولم يعتقد أن غيره أصلح منه، وأنفع للخلق، وإنما حكم بغيره تسلطًا على المحكوم عليه، أو انتقامًا منه لنفسه أو نحو ذلك، فهذا ظالم وليس بكافر وتختلف مراتب ظلمه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم.

ومن لم يحكم بما أنزل الله لا استخفافًا بحكم الله، ولا احتقارًا، ولا اعتقادًا أن غيره أصلح، وأنفع للخلق، وإنما حكم بغيره محاباة للمحكوم له، أو مراعاة لرشوة أو غيرها من عرض الدنيا فهذا فاسق، وليس بكافر، وتختلف مراتب فسقه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله: إنهم على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل ويعتقدون تحليل ما حرم، وتحريم ما أحل الله اتباعًا لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحرام وتحريم الحلال - كذا العبارة المنقولة عنه - ثابتًا لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ١١٥): هل هناك فرق في

المسألة المعينة التي يحكم فيها القاضي بغير ما أنزل الله وبين المسائل التي تعتبر تشريعًا عامًا؟

فأجاب: نعم هناك فرق فإن المسائل التي تعتبر تشريعًا عامًا لا يتأتى فيها التقسيم السابق وإنما هي من القسم الأول فقط، لأن هذا المشرع تشريعًا يخالف الإسلام إنما شرعه لاعتقاده أنه أصلح من الإسلام وأنفع للعباد كما سبقت الإشارة إليه.

والحكم بغير ما أنزل الله ينقسم إلى قسمين

أحدهما: أن يستبدل هذا الحكم بحكم الله تعالى بحيث يكون عالمًا بحكم الله، ولكنه يرى أن الحكم المخالف له أولى وأنفع للعباد من حكم الله، أو أنه مساو لحكم الله، أو أن العدول عن حكم الله إليه جائز فيجعله القانون الذي يجب التحاكم إليه فمثل هذا كافر كفرًا مخرجًا عن الملة لأن فاعله لم يرض بالله ربًا ولا بمحمد رسولًا ولا بالإسلام دينًا وعليه ينطبق قوله تعال: (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون) وقوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وقوله تعالى: (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم أسرارهم * فكيف إذ توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) ولا ينفعه صلاة، ولا زكاة، ولا صوم، ولا حج؛ لأن الكافر ببعض كافر به كله قال الله ـ تعالى-: (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) وقال سبحانه: (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن

ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلًا . أولئك هم الكافرون حقًا وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا)

الثاني: أن يستبدل بحكم الله تعالى حكمًا مخالفًا له في قضية معينة دون أن يجعل ذلك قانونًا يجب التحاكم إليه فله ثلاث حالات:

الأولى: أن يفعل ذلك عالمًا بحكم الله تعالى معتقدًا أن ما خالفه أولى منه وأنفع للعباد، أو أنه مساو له، أو أن العدول عن حكم الله إليه جائز فهذا كافر كفرًا مخرجًا عن الملة لما سبق في القسم الأول.

الثانية: أن يفعل ذلك عالمًا بحكم الله معتقدًا أنه أولى وأنفع لكن خالفه بقصد الإضرار بالمحكوم عليه أو نفع المحكوم له، فهذا ظالم وليس بكافر وعليه يتنزل قول الله – تعالى-: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)

الثالثة: أن يكون كذلك لكن خالفه لهوى في نفسه أو مصلحة تعود إليه فهذا فاسق وليس بكافر وعليه يتنزل قول الله تعالى -: (ومن لم يحكم بما أنزل فأولئك هم الفاسقون)

وهذه المسألة أعني مسألة الحكم بغير ما أنزل الله من المسائل الكبرى التي ابتلي بها حكام هذا الزمان فعلى المرء أن لا يتسرع في الحكم عليهم بما لا يستحقونه حتى يتبين له الحق لأن المسألة خطيرة -نسأل الله تعاليأن يصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانتهم كما أن على المرء الذي آتاه الله العلم أن يبينه لهؤلاء الحكام لتقوم الحجة عليهم وتبين المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، ولا يحقرن نفسه عن بيانه، ولا يهابن أحدًا فيه فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. والله ولي التوفيق.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ١١٧): عن حكم طاعة الحاكم الذي لا يحكم بكتاب الله وسنة رسوله، ﷺ؟

فأجاب: الحاكم الذي لا يحكم بكتاب الله وسنة رسوله تجب طاعته في غير معصية الله ورسوله، ولا تجب محاربته من أجل ذلك، بل ولا تجوز إلا أن يصل إلى حد الكفر فحينئذ تجب منابذته، وليس له طاعة على المسلمين.

والحكم بغير ما في كتاب الله وسنة رسوله يصل إلى الكفر بشرطين:

الأول: أن يكون عالمًا بحكم الله ورسوله، فإن كان جاهلًا به لم يكفر بمخالفته.

الثاني: أن يكون الحامل له على الحكم بغير ما أنزل الله اعتقاد أنه حكم غير صالح للوقت وأن غيره أصلح منه، وأنفع للعباد، وبهذين الشرطين يكون الحكم بغير ما أنزل الله كفرًا مخرجًا عن الملة لقوله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)، وتبطل ولاية الحاكم، ولا يكون له طاعة على الناس، وتجب محاربته، وإبعاده، عن الحكم.

أما إذا كان يحكم بغير ما أنزل الله وهو يعتقد أن الحكم به أي بما أنزل الله هو الواجب، وأنه أصلح للعباد، لكن خالفه لهوى في نفسه أو إرادة ظلم المحكوم عليه، فهذا ليس بكافر بل هو إما فاسق أو ظالم، وولايته باقية، وطاعته (في غير معصية الله ورسوله) واجبة، ولا تجوز محاربته أو إبعاده عن الحكم بالقوة، والخروج عليه، لأن النبي ﷺ نهى عن الخروج على الأئمة إلا أن نرى كفرًا صريحًا عندنا فيه برهان من الله تعالى..اهـ.

وقال العلامة العثيمين في القول المفيد (٢/ ٢٢٣): لقد وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف:

قال تعالى: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون [المائدة: ٤٥].

وقال تعالى: ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون [المائدة: ٤٧].

واختلف أهل العلم مع ذلك:

فقيل: إن هذه الأوصاف لموصوف واحد، لأن الكافر ظالم، لقوله تعالى: والكافرون هم الظالمون [البقرة: ٢٥٤]، وفاسق، لقوله تعالى: وأما الذين فسقوا فمأواهم النار [السجدة: ٢٠]، أي: كفروا.

وقيل: إنها لموصوفين متعددين، وإنها على حسب الحكم، وهذا هو الراجح.

فتكون كافرا في ثلاثة أحوال

أ- إذا اعتقدت جواز الحكم بغير ما أنزل الله، بدليل قوله تعالى: أفحكم الجاهلية يبغون [المائدة: ٥٠]، فكل ما خالف حكم الله، فهو من حكم الجاهلية، بدليل الإجماع القطعي على أنه لا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله فالمحل والمبيح للحكم بغير ما أنزل الله مخالف لإجماع المسلمين القطعي، وهذا كافر مرتد، وذلك كمن اعتقد حل الزنا أو الخمر أو تحريم الخبز أو اللبن.

ب- إذا اعتقدت أن حكم غير الله مثل حكم الله.

جـ- إذا اعتقدت أن حكم غير الله أحسن من حكم الله.

بدليل قوله تعالى: ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون [المائده: ٥٠]،

فتضمنت الآية أن حكم الله أحسن الأحكام، بدليل قوله تعالى مقررا ذلك: أليس الله بأحكم الحاكمين [التين: ٨]، فإذا كان الله أحسن الحاكمين أحكاما وهو أحكم الحاكمين؛ فمن ادعى أن حكم غير الله مثل حكم الله أو أحسن فهو كافر لأنه مكذب للقرآن.

ويكون ظالما: إذا اعتقد أن الحكم بما أنزل الله أحسن الأحكام، وأنه أنفع للعباد والبلاد، وأنه الواجب تطبيقه، ولكن حمله البغض والحقد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل الله، فهو ظالم.

ويكون فاسقا: إذا كان حكمه بغير ما أنزل الله لهوي في نفسه مع اعتقاده أن حكم الله هو الحق، لكن حكم بغيره لهوى في نفسه، أي محبة لما حكم به لا كراهية لحكم الله ولا ليضر أحدا به، مثل: أن يحكم لشخص برشوة رشي إياها، أو لكونه قريبا أو صديقا، أو يطلب من ورائه حاجة، وما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأمثل والواجب اتباعه، فهذا فاسق، وإن كان أيضا ظالما، لكن وصف الفسق في حقه أولي من وصف الظلم.

أما بالنسبة لمن وضع قوانين تشريعية مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله، فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين، فهو كافر لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله، وعندما نقول بأنه كافر، فنعني بذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر.

ولكن قد يكون الواضع له معذورا، مثل أن يغرر به كأن يقال: إن هذا لا يخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسلة، أو هذا مما رده الإسلام إلى الناس ...

ومن سن قوانين تخالف الشريعة وادعى أنها من المصالح المرسلة، فهو

كاذب في دعواه؛ لأن المصالح المرسلة والمقيدة إن اعتبرها الشرع ودل عليها فهي حق ومن الشرع، وإن لم يعتبرها، فليست مصالح، ولا يمكن أن تكون كذلك، ولهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمى بالمصالح المرسلة، بل ما اعتبره الشرع، فهو مصلحة، وما نفاه، فليس بمصلحة، وما سكت عنه، فهو عفو ....اهـ.

وسئل العلامة العثيمين أيضا كما في في شريط "التحرير في مسألة التكفير" بتاريخ (٢٢/ ٤/ ١٤٢٠): يسأل أبو الحسن مصطفى ابن إسماعيل السليماني من مأرب باليمن في يوم الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ألف وأربعمائة وعشرين من الهجرة، فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سؤالي حول مسألة كثر فيها النزاع بين طلبة العلم وكثر بها أيضا الاستدلال ببعض الكلمات لفضيلة الوالد العلامة محمد بن صالح العثيمين حفظه الله تعالى.

فضيلة الشيخ سلمكم الله، هنا كثير من طلبة العلم يدندنون حول الحاكم الذي يأتي بشريعة مخالفة لشريعة الله ﷻ يأمر الناس بها ويلزمهم بها وقد يعاقب المخالف عليها ويكافئ أو يجازي بالخير وبالعطاء الملتزم بها. وهذه الشريعة في كتاب الله وفي سنة نبيه عليه الصلاة والسلام تعتبر مخالفة و مصادمة لنصوص الكتاب والسنة. هذه الشريعة إذا الزم هذا الحاكم بها الناس مع أنه يعترف أن حكم الله هو الحق وما دونه هو الباطل وأن الحق ما جاء في الكتاب والسنة ولكنه لشبهة أو لشهوة جرى إلزام الناس بهذه الشريعة، كما وقع مثل ذلك كثيرا في بني أمية وفي بني العباس وفي أمراء الجور الذين ألزموا الناس بأمور لا تخفى على مثلكم بل لا تخفى على كثير من الناس عندما ألزموا الناس بما لا يرضي

الله ﷻ كالأمور الوراثية وجعلوا الملك عاضا بينهم كما أخبر النبي ﷺ وقربوا شرار الناس وأبعدوا خيارهم وكان من يوافقهم على ما هم فيه من الباطل قربوه ومن يأمرهم وينهاهم ربما حاربوه إلى آخره ... فلوا أن الحاكم في هذا الزمان فعل مثل هذه الشريعة هل يكون كافرا بهذه الشريعة إذا ألزم الناس بها مع اعترافه أن هذا مخالف للكتاب والسنة وأن الحق في الكتاب والسنة، هل يكون بمجرد فعله هذا كافرا أم لا بد أن ينظر إلى اعتقاده بهذه المسالة؟ كمن مثلًا يلزم الناس بالربا وكمن يفتح البنوك الربوية في بلاده، و يأخذ من البنك الدولي كما يقولون قروضًا ربوية، ويحاول أن يؤقلم اقتصادها على مثل هذا الشيء، ولو سألته قال: الربا حرام ولا يجوز، لكن يعتذر باعتذارات .. قد تكون الاعتذارات مقبولة وقد لا تكون. فهل يكفر بمثل ذلك أم لا؟ ومع العلم أن كثيرًا من الشباب ينقلون عن فضيلتكم أنكم تقولون أن من فعل ذلك يكون كافرًا. ونحن نلاحظ في بلاد الدنيا كلها أن هذا شيء موجود بين مقل و مستكثر نسأل الله العفو والعافية.

نريد من فضيلتكم الجواب على ذلك عسى أن ينفع الله سبحانه وتعالى به طلاب العلم وينفع الله ﷻ به الدعاة إلى الله ﷻ لأنه لا يخفى عليكم أن الخلاف كم يؤثر في صفوف الدعوة إلى الله ﷻ، والله سبحانه وتعالى المسؤول أن يتقبل من الجميع صالح الأعمال.

فأجاب العلامة العثيمين: الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله و أصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد: ففي هذا اليوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول عام عشرين وأربعمائة وألف استمعت إلى شريط مسجل باسم أخينا أبى الحسن في مأرب ابتدأه بالسلام علي

فأقول عليك السلام ورحمة الله وبركاته، وما ذكره من جهة التكفير فهي مسألة كبيرة عظيمة، ولا ينبغي إطلاق القول فيها إلا مع طالب علم يفهم ويعرف الكلمات بمعانيها ويعرف العواقب التي تترتب على القول بالتكفير أو عدمه. أما عامة الناس فإن إطلاق القول بالتكفير أو عدمه في مثل هذه الأمور تحصل منه مفاسد. والذي أرى أولًا أن لا يشتغل الشباب في هذه المسألة وهل الحاكم كافر أو غير كافر وهل يجوز أن نخرج عليه أو لا يجوز.

على الشباب أن يهتموا بعباداتهم التي أوجبها الله عليهم أو ندبهم إليها، و أن يتركوا ما نهاهم الله عنه كراهة أو تحريمًا، وأن يحرصوا على التآلف بينهم والاتفاق، و أن يعلموا أن الخلاف في مسائل الدين والعلم قد جرى في عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ و لكنه لم يؤد إلى الفرقة و إنما القلوب واحدة والمنهج واحد.

أما فيما يتعلق بالحكم بغير ما أنزل الله فهو كما في الكتاب العزيز ينقسم إلى ثلاثة أقسام كفر وظلم وفسق على حسب الأسباب التي بني عليها هذا الحكم:

١ - فإذا كان الرجل يحكم بغير ما أنزل الله تبعًا لهواه مع علمه بأن الحق فيما قضى الله به فهذا لا يكفر لكنه بين فاسق وظالم.

٢- وأما إذا كان يشرع حكمًا عامًا تمشي عليه الأمة ويرى أن ذلك من المصلحة وقد لُبّس عليه فيه فلا يكفر أيضًا لأن كثيرًا من الحكام عندهم جهل في علم الشريعة ويتصل بهم من لا يعرف الحكم الشرعي وهم يرونه عالمًا كبيرًا فتحصل بذلك المخالفة.

٣- وإذا كان يعلم الشرع ولكنه حكم بهذا أو شرع هذا وجعله دستورًا يمشي الناس عليه يعتقد أنه ظالم في ذلك وان الحق فيما جاء به الكتاب والسنة فإننا لا نستطيع أن نكفر هذا، وإنما نكفر من يرى أن حكم غير الله أولى أن يكون

الناس عليه أو هو مثل حكم الله ﷻ فإن هذا كافر لأنه مكذب لقول الله تبارك وتعالى: (أليس الله بأحكم الحاكمين)، وقوله: (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) ثم هذه المسائل لا يعني أننا إذا كفّرنا أحدا فإنه يجب الخروج عليه لأن الخروج تترتب عليه مفاسد عظيمة أكبر من السكوت، و لا نستطيع الآن أن نضرب أمثالًا فيما وقع في الأمة العربية وغير العربية. وإنما إذا تحقق لدينا جواز الخروج عليه شرعا فإنه لابد من استعداد وقوة تكون مثل قوة الحاكم أو أعظم. وأما أن يخرج الناس عليه بالسكاكين والرماح ومعه القنابل والدبابات وما أشبه هذا فإن هذا من السفه بلا شك وهو مخالف للشريعة). انتهى كلام الشيخ رحمه الله تعالى.اهـ.

وسئل العلامة الفوزان حفظه الله كما في من محاضرة للشيخ بعنوان "التكفير بين الإفراط والتفريط"(الدقيقة ٥٨: ٤٠): من أصعب المسائل فضيلة الشيخ، مشكلة عند الشباب، أو بعض الشباب، مسألة تحكيم القوانين الوضعية، فنرجو التوضيح فيها حفظكم الله تعالى؟

فأجاب: هذا وضَّحه العُلماء، وأقربُ شيء «تفسير ابن كثير» رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: الذي يحكم بغير ما أنزل الله، إن كان يرى أنه أحسن من كتاب الله، أو أن حكمه أحسن من حكم الله، أو أن حكم غير الله مساوٍ لحكم الله، وأنّه مخير، إن شاء حكم بما أنزل الله أو حكم بغيره على التخيير: فهذا يحكم بكفره، بلا شك هذا كافر بالإجماع.

أما إذا كان يعتقد أن حكم الله هو الحق، وأن القانون باطل، ولكنه يحكم به لِهَوىً في نفسه، أو طمع ينالُه: فهذا ظالم وفاسق لكن، لا يُحكم بكفره، لأنه يعتقد أن حكم الله هو الواجبُ، وأن حكم غيره باطل، ولكنه فعل هذا إما

لتحصيل وظيفة، وإما لطمع من المطامع وهو عقيدتُه باقية، عقيدته في كتاب الله، وأنه هو الحق، وأنه هو الواجب الحكم به أعقيدته باقية، فهذا يفسّق ولا يحكم بكفره، لأن هذا كُفر عَملي. نعم. اهـ

وسئل العلامة الفوزان حفظه الله أيضا كما في شرح نواقض الإسلام (شريط رقم ٦ الوجه ٢): قلتم سلمكم الله أن الذي يظهر من الشرك بالله تعالى يعتبر مشركًا كالذي يذبح لغير الله وكالذي ينذر لغير الله، والسؤال ومن يعتبر الحكم بالقوانين الوضعية فلا يحكم عليه بالشرك والحالة هذه ؟

فأجاب: لا ما يحكم عليه على طول حتى نستفصل منه ما الذي حمله على هذا وما الذي ونشوف هل هو يعتقد هذا أو لا يعتقده وهل يستبيح هذا الشئ أو ما يستبيحه، لا بد من التفصيل هذا، ولا تأخذوا منهج التكفير ومنهج الخوارج على طول وكل كافر، لازم من التفصيل نعم.اهـ.

وسئل أيضا في نفس المصدر السابق: ما الحكم فيمن شرع شريعة عامة للناس بغير ما أنزل الله ثم ألزمهم بها؟

فأجاب: إن كان يعتقد أن هذه الشريعة اللي حطها أو النظام اللي حطه مساوي أو أحسن أو جائز فهو مرتد عن دين الإسلام.اهـ.

وسئل أيضا في نفس المصدر السابق: فضيلة الشيخ وفقكم الله، من حكم بالقوانين الوضعية وفتح المحاكم القانونية وأجبر الناس على التحاكم بها في أكثر الأمور ما عدا الأحوال الشخصية فهل هذا يعد كافرا ؟

فأجاب: على التفصيل الذي سبق، التفصيل الذي سبق عام، إذا كان يرى أن هذا جائز أو أنه مخير أو أن القوانين أحسن فهذا لا شك في كفره . نعم.اهـ.

وسئل الشيخ عبد المحسن العباد البدر - حفظه الله -: في المسجد النبوي

في درس شرح سنن أبي داود بتاريخ: ١٦/ ١١/ ١٤٢٠: هل استبدال الشريعة الإسلامية بالقوانين الوضعية كفر في ذاته؟ أم يحتاج إلى الاستحلال القلبي والاعتقاد بجواز ذلك؟ وهل هناك فرق في الحكم مرة بغير ما أنزل الله، وجعل القوانين تشريعًا عامًا مع اعتقاد عدم جواز ذلك؟

فأجاب: "يبدو أنه لا فرق بين الحكم في مسألة، أو عشرة، أو مئة، أو ألف - أو أقل أو أكثر - لا فرق؛ ما دام الإنسان يعتبر نفسه أنه مخطئ، وأنه فعل أمرًا منكرًا، وأنه فعل معصية، وانه خائف من الذنب، فهذا كفر دون كفر. وأما مع الاستحلال - ولو كان في مسألة واحدة، يستحل فيها الحكم بغير ما أنزل الله، يعتبر نفسه حلالًا -؛ فإنه يكون كافرًا".اهـ.

وقال الشيخ عبد الله الغنيمان: توضيح وبيان من الشيخ عبد الله الغنيمان

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وآله وصحبه وبعد:

ففي سنة أربع وعشرين وأربعمائة وألف حضر عندي شباب من دولة الكويت، فسئلوا أسئلة عامة في التحاكم والقيام للمخلوق على وجه التعظيم والذل والخضوع، وعن تشريع القوانين والمشاركة في ذلك، وعن الصلاة خلف من فعل ذلك، وعن الطواف على القبر ونحوه وغير ذلك.

فأجبتهم جوابًاعامًا بدون تفصيل، ثم أخذوا هذه الأسئلة مع الجواب، وذهبوا يطبقونها على أناس معينين ويحكمون عليهم بالكفر والخروج من الإسلام، وينسبون ذلك إلى المجيب على الأسئلة، وهذا أمر عظيم وخطر، وهو مسلك الخوارج الذين يكفرون بالكبائر، وأنا أبرأ من ذلك، ولا أحل لأحد ينسب إليَّ تكفير من يتحاكم إلى القوانين أو يشارك في سن القوانين بلا تفصيل،

كما فعل المشار إليهم، فقد أقدموا على أمر لايجوز لطالب علم أن يفعله، فهم مخطئون في ذلك وآثمون، والفرق بين الحكم العام والحكم على المعين: فالمعيّن لابد من تفصيل فيه، والنظر إلى علة ذلك وسببه، ولابد من معرفة الحامل لذلك، ثم أقامة الدليل وإزالة الشبهة، ولهذا جاءت تفسيرات الصحابة وغيرهم بالتفصيل في قوله تعالى {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} فقالوا: كفر دون كفر، وقالوا: ليس الكفر بالله واليوم الآخر، فالذي يتحاكم إلى غير شرع الله تعالى من أجل الدنيا أو لغرض من الأغراض وهو يرى أنه عاصٍ في ذلك ويعتقد وجوب الحكم بشرع الله؛ لايكون بذلك كافرًا الكفر الذي يخرج من الدين الإسلامي، ومثل ذلك من يشارك في سن القانون.

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} قال: هي به كفر، وليس كفرًا بالله وملائكته ورسله.

ورواه الحاكم في ((المستدرك)) {٢/ ٣١٣} من طريق سفيان بن حجير عن طاووس عن ابن عباس قال: إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، إنه ليس كفرا ينقل عن الملة {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} كفر دون كفر، ثم قال ((هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)).

وقال الذهبي: ((صحيح))، وهشام قال الحفاظ: ((صدوق له أوهام)).

وقال ابن جرير أخبرنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال سئل ابن عباس عن قوله {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} قال هي به كفر.

قال ابن طاووس: ليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وروى ابن جرير بسنده عن عطاء في قوله {ومن لم يحكم بما أنزل الله

فأولئك هم الكافرون}، {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون}، {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} قال: كفر دون كفر، وفسق دون فسق، وظلم دون ظلم.

وروى عن طاووس: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} قال: ليس بكفر ينقل عن الملة.

وقال البغوي: وقال ابن عباس وطاووس: ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله؛ فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر.

وقال عطاء: هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

وسئل عبد العزيز بن يحيى الكناني عن هذه الآيات، فقال: إنها تقع على جميع ما أنزل الله، لا على بعضه، فكل من لم يحكم بجميع ما أنزل الله؛ فهو كافر ظالم فاسق، وأما من حكم بما أنزل الله من التوحيد وترك ثم لم يحكم بجميع ما أنزل الله من الشرائع؛ لم يستوجب حكم هذه الآيات.

وقال عكرمة: معناه ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به؛ فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به؛ فهو ظالم فاسق.

وقال العلماء: هذا إذا رد نص حكم الله عيانا عمدا، فأما من خفي عليه أو أخطأ في تأويله فلا)) انتهى (٣/ ٦١).

وقال ابن العربي: المسألة الحادية عشرة قوله: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} اختلف فيه المفسرون، فمنهم من قال: الكافرون والظالمون والفاسقون كله لليهود. ومنهم من قال: الكافرون للمشركين، والظالمون لليهود، والفاسقون للنصارى، وبه أقول؛ لأنه ظاهر الآيات، وهو اختيار ابن عباس وجابر بن زيد وابن أبي زائدة، وابن شبرمة.

وقال طاووس وغيره: ليس بكفر ينقل عن الملة ولكنه كفر دون كفر.

وهذا يختلف إن حكم بما عنده على أنه من عند الله، فهو تبديل يوجب الكفر، وإن حكم به هوى ومعصية؛

فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل السنة في الغفران للمذنبين) انتهى.

وقال القرطبي: قوله تعالى ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، والظالمون، والفاسقون، نزلت كلها في الكفار ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء وعلى هذا المعظم فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة، وقيل فيه إضمار أي ومن لم يحكم أنزل الله ردًا للقرآن وجحداً لقول الرسول ﷺ فهو كافر قاله ابن عباس، ومجاهد فالآية عامة على هذا.

قال ابن مسعود والحسن هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار أي معتقدا ذلك ومستحلا له فأما من فعل ذلك وهو معتقدا أنه راكبُ محرمٍ فهو من فساق المسلمين وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، انتهى المقصود منه تفسير القرطبي.

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحكم بغير ماأنزل الله إلى قسمين قسم مخرج من الملة وهو ستة أقسام أحدهما أن يجحد حكم الله وينكره والثاني ألا يجحده ولا ينكره ولكن اعتقد أن حكم غير الله هو أحسن منه، والثالث أن يعتقد أن حكم غير الله تعالى مثل حكم الله، والرابع أن يعتقد جواز حكم غير الله، والخامس أن يجعل محاكم لعموم الناس يلزمهم بحكمها تستمد أحكماها من القوانين الوضعية، السادس ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل يسمونها سلومهم وهذه كلها تخرج من الملة.

والثاني ما لا يخرجه من الملة وهو أن يحمله حب الدنيا على حكم بغير ما

أنزل الله مع اعتقاده بأنه مرتكب ذنبا كبيرا فهذا كفر دون كفر ولا يخرج من الملة.

وقالت لجنة الفتوى في المملكة العربية السعودية رقم (٥٧٤١) جواب سؤال: من لم يحكم بما أنزل الله هل هو مسلم أم كافر كفرًا أكبر؟

الحمد لله قال تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وقال تعالى [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون] وقال تعالى [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون] لكن إن استحل ذلك واعتقده جائزا فهو كفر أكبر وظلم أكبر وفسق أكبر يخرج من الملة، أما إن فعل ذلك من أجل رشوة أو مقصدًا وهو يعتقد تحريم ذلك فإنه آثم يعتبر كافرًا كفرًا أصغر وظالم ظلما أصغر وفاسقا فسقا أصغر لا يخرجه من الملة كما وضح ذلك أهل العلم في تفسر الآيات".

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ ليس لأحد أن يحكم بغير ما أنزل الله بل هذا منكر عظيم وجريمة شنيعة.

أما كونه كفرًا مخرجًا من الملة، فهذا محل التفصيل عند أهل العلم، فمن فعل الحكم بغير ما أنزل الله يستجيزه ويرى أنه لا بأس به أو يرى أنه مثل حكم الله، أو يرى أشنع من ذلك أن الشريعة لا تناسب اليوم وأن القوانين أنسب منها وأصلح هذا كله كفر كفر أكبر على جميع الأحوال الثلاثة.

ومن زعم أن حكم غير الله أحسن من حكمه أو مثل حكمه في أي وقت كان أو يجوز الحكم بغير ما أنزل الله ولو قال أن الشريعة أفضل وأحسن ففي هذه الأحوال الثلاث يكون قائل ذلك كافرًا، وهكذا معتقد ذلك، من اعتقد أن حكم غير الله جائز أو مماثل لحكم الله أو أفضل من حكم الله فهو مرتد عند جميع

أهل الإسلام.

أما من فعل ذلك لغرض من الأغراض وهو يعلم أنه مخطئ وأنه مجرم ولكن فعل ذلك لغرض الرشوة أو مجاملة قوم أو لأسباب أخرى الله يعلم من قلبه ينكر هذا وأنه يرى أنه باطل وأنه معصية هذا لا يكفر بذلك يكون عاصيًا ويكون كافرًا كفرًا دون كفر وظالما دون ظلم وفسقا دون فسق كما قال ابن عباس "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ"ومجاهد بن جبر وجماعة آخرون وهو معروف عند أهل العلم وإن أطلق من أطلق كفره فمراده كفر دون كفر، انتهى فتاوى نور على الدرب (٤/ ١٢٧).

وبهذا يتبين خطأ هؤلاء الذين سجلوا ذلك الجواب المجمل وصاروا ينشرونه بين الناس ويحكمون عليهم بموجب ذلك الجواب المجمل ولا أحل لأحد أن ينسب ذلك إلي كما فعل هؤلاء الذين خالفوا قاعدة أهل السنة في الحكم العام لا يطبق على معين، فمثلًا أهل السنة يقولون الشرك بالله تعالى كفر يخرج من الدين ولكن إذا وقع من معين فلا يحكم عليه بأنه خرج من الإسلام حتى يبين له أنه فعله شرك يخرج فاعله أن يكون مسلما وتزال عنه الشبه التي يتعلق بها فإذا عرف ذلك وأصرَّ على فعله بعد ذلك هناك يحكم عليه.

قال شيخ الإسلام محمد عبد الوهاب رحمه الله تعالى: وأما التكفير فأنا أكفر من عرف دين الرسول ﷺ ثم بعد ما عرفه سبه ونهى الناس عنه وعادى من فعله فهذا هو الذي أكفره. انتهى الدرر السنية (١/ ١٠٢).

وقال أيضا: وإذ لا نكفر من عبد الصنم الذي على [قبر] عبد القادر، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي، وأمثالهم لأجل جهلهم وعدم من ينبههم، فكيف نكفر من لم يشرك بالله، انتهى الدرر (١/ ١٠٤).

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القسم الثالث أشياء تكون غامضة فهذه لا يكفُر الشخص فيها ولو بعد ما أقيمت عليه الأدلة سواء كانت في الفروع أو الأصول ومن أمثلة ذلك الرجل الذي أوصى أهله أن يحرقوه إذا مات. انتهى الفتاوى (١/ ٧٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأصل ذلك المقالة التي هي كفر بالكتاب والسنة والإجماع يقال هي كفر قولا يطلق كما دل على ذلك الدلائل الشرعية فإن الإيمان من الأحكام المتلقاة عن الله ورسوله، ليس ذلك مما يحكم فيه الناس بظنونهم وأهوائهم، ولا يجب أن يحكم في كل شخص قال ذلك بأنه كافر حتى يثبت في حقه شروط التكفير وتنتفي موانعه. انتهى مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٦٥)..اهـ. بيان الشيخ عبد الله الغنيمان.

وقال الدكتور ربيع بن هادي المدخلي -حفظه الله-: الحكم بغير ما أنزل الله بشروطه يكون كفرا إذا كان يرى أن الحكم بغير ما أنزل الله جائز هذا كفر لأن الله تبارك وتعالى لا شريك له في الحكم ولا يشرك في حكمه أحدا سبحانه وتعالى، إذا كان يعتقد أن الحكم بغير ما أنزل الله أفضل من الحكم بما أنزل الله ولو كان يعرف أن هذا حق يعرف أن ما أنزل الله حق ولكن هذه القوانين أفضل من الشرائع الإسلامية التي شرعها الله تبارك وتعالى فهذا كفر هذا يسمى كفر {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} وقال: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون وقال: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)

فالمصطلح القرآني والنبوي يسمي الحكم بغير ما أنزل الله كفرا، قد يكون كفرا أصغرا إذا كان معترف بحاكمية الله ومعترف أنه ظالم في حكمه بغير ما أنزل

الله هذا كفرا أصغر، فإذا كان.. لا يعترف بحاكمية الله ويستحل الحكم بغير ما أنزل الله ويرى أن الحكم بغير ما أنزل الله أفضل من الحكم بما أنزل الله فهذا كافر كفرا أكبر يخرج من دائرة الإسلام).اهـ. من شريط السنة بين الغلو والتقصير.

وسئل أيضا -حفظه الله-: ما هي الضوابط الشرعية في تكفير من يحكم بغير ما أنزل الله ؟

فأجاب: الضوابط الشرعية تكلم عليها الكثير من العلماء ومحورها تفسير ابن عباس رضي الله عنه (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فإن كان غير مستحل فهو قد وقع في الكفر لكنه كفر دون كفر.

وإن كان مستحلا فقد وقع في الكفر الأكبر الذي يخرجه من دائرة الإسلام هذا خلاصة ما يقوله العلماء في هذا الباب..اهـ. من شريط الدرر السلفية في مشابهة الرافظة القطبية.

وقال أيضا حفظه الله: الآن قضية التكفير يعني علماء الأمة في العالم يخالفون اتجاه سيد قطب ومن قلده وكتب الشيخ الألباني كتابة تكتب بماء الذهب وجاء الشيخ ابن باز وبنى عليها وأيدها وجاء الشيخ ابن عثيمين وأيد الجميع فمثل هذه القضية قولهم فاصل، هم أعلم علماء الأمة واتقاهم وأفضلهم إن شاء الله، والله إذا زهدنا في هؤلاء فلنتعلق في علماء الخرافات والبدع والضلالات إلا أن نتعلق بهؤلاء.

وهذا واقع الآن في قضية التكفير الإمام سيد قطب!!! رجل جاهل ضال، إمام التكفيريين في الدنيا هو سيد قطب عرفتم، وإن جاء كتاب هم تلاميذ سيد قطب وأفراخه كثرت الكتابات في التكفير.... فمحور هذه كلها ومنبعها

الأساسي هو كتابات سيد قطب فالإمام الحقيقي لهؤلاء هو هذا الرجل.اهـ. من شريط من القلب إلى القلب

وسئل الشيخ صالح بن سعد السحيمي: يقول السائل من لم يحكم بما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله هو الحق والواجب الذي لا يجوز العدول عنه ولكنه يتعذر بضغوط خارجية هل يجوز الحكم بتكفيره والخروج عليه أم لا ؟

هو التفصيل كما ذكر مشايخنا - وفقهم الله – في أن من حكم مستحلا سواء مفضلا أو مساويا حُكْمَ غير الله بحكم الله فهذا لا شك في كفره ومروقه من الدين قولا واحدا، وأما من حكم بغير ما أنزل الله تحت غلبة الهوى أو الشهوة أو الضغوط كما أشار السائل يعني أجبر على ذلك أو هدد في نفسه أو ماله أو فرض عليه ذلك فرضا كحال الذين يعيشون الآن في الدول التي لا تحكم شرع الله وهذا الشخص موظف في هذه الجهة أو تلك فحكم بهذا القانون الوضعي مكرها أو مضطرا أو مجبرا أو مشتهيا يعني غلبته شهوته أو هواه مع اعتقاده بقرارة نفسه أن الواجب هو حكم الله وأن حكم الله يجب تطبيقه وأنه آثم يعتقد أنه آثم في عمله هذا ويعترف بذنبه ويستغفر الله فلا شك أنه آثم وأنه مرتكب لمعصية وكبيرة من سائر الكبائر التي عليها الوعيد الشديد وهو الذي عبر عنه ابن عباس رَضِوَاللَّهُ عَنْهُ أنه كفر دون كفر.

هناك حالات يعني لا أدري الوقت لا يتسع لتفصيلها يمكن نذكرها في نقاط من حكم مطلقا فيمكن نقسمه إلى سبعة أصناف:

رجل حكم بغير ما أنزل الله معتقدا أن حكم غير الله أفضل فهذا كافر أيضا.

رجل حكم معتقدا أن حكم غير الله مساو لحكم الله فهو كافر أيضا.

رجل يرى جواز تحكيم القانون الوضعي منضما إلى شرع الله وكأنه يستوي

هذا وذاك فهذا كذلك لا شك في كفره.

ومن كان دون ذلك من مَن غلبته شهوته أو حكم بجهل ولم يكلف نفسه البحث في الوصول إلى الحق وما إلى ذلك فهذا يأثم ومرتكب لكبيرة والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد.اهـ. من شريط منهج أهل السنة والجماعة في التكفير

وسئل أيضا –حفظه الله-: يقول السائل ما حكم من حَكَّمَ القوانين الوضعية وهل فعله هذا يدل على أنه يعتقد فضلها على الشرع أم يدخل فيه التفصيل ؟

فأجاب: باختصار أقول يدخل فيه التفصيل لأننا لسنا مأمورين عن التنقيب عن ما في قلوب الناس فلهم نفس الأحوال التي تنطبق على من يطبق القانون الوضعي سواء المقل منه أو المكثر فتنطبق عليه التفصيل المعروف عند السلف وهو أنه إن كان مستحلا أو يعتقد التسوية أو التفضيل في هذه الأحوال الثلاثة يكفر ويخرج من الملة سواء حَكَمَ في قضية أو قضايا، وإن اعتقد أنه مخطئ وأنه مذنب وأن حكم الله أفضل ولكن غلب عليه هواه أو غلبته نفسه أو ظروف عصره فهو عاصي كسائر العصاة كمن يفعل أي ذنب من الذنوب كمن يزني أو يشرب الخمر لا يعتبر أعظم جرما من هؤلاء فهو واحد منهم واحد من هؤلاء العصاة وكذلك يكون عاصيا من حكم بجهل وهو قادر على العلم ولكن أهمل وترك وحكم بجهل وغلبه الكسل والسكون، فلابد من هذا التفصيل يعني ثلاث أحوال يكفر بها .

الأول: إذا اعتقد التفضيل .

الثاني: إذا اعتقد التسوية .

الثالث: إذا استحل يعني ما يعتقد التسوية لكن يقول هذا يجوز جائز شرعا.

أما إن كما قلت إن فعل وهو معترف بتقصيره وبأن حكم الله هو الذي يجب

وهو المتعين وأن فعله هذا ذنب من الذنوب ومعصية من المعاصي وأن الواجب عليه التطبيق لكن غلبه هواه أو غلبته نفسه أو غلبه عصره أو غلبه منصبه أو نحو ذلك هذا كقاض سولت له نفسه وهو عالم بالشريعة لكن سولت له نفسه الميل مع أحد الخصوم هل نكفره بذلك؟ لا لا نكفره وإنما هو عاص مؤمن عاص.

قال السائل: بعض الناس يقول أسير على هذا التفصيل وأفصل هذا التفصيل ولكن في الذي يغير جميع شرع الله هذا ما غيره ما بدله إلا لأنه يرى النقص أو التفضيل.

الجواب: ما نستطيع أن نلزمه بهذا إلا إذا صرح به .

السائل: حتى لو غير جميع شرع الله ؟

الجواب: والله ما نستطيع أن نلزمه بهذا ما نستطيع أن نلزمه بهذا إلا إذا قال تطبيق الشريعة لا يصلح أو اعتقد التسوية حتى لو اعتقد التسوية مو فقط يفضل المفضل ما فيه كلام لكن حتى لو قال يجوز هذا وذاك هذا يكفر.اهـ. من شريط أجوبة على أسئلة مهمة.

وسئل الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله الراجحي حفظه الله: ما حكم الشريعة في الحاكم الذي يحكم بالقوانين الوضعية الفرنسية مع العلم أنه يدعي الإسلام ويصلي ويصوم ويحج ماذا يقال عنه ؟

فأجاب: إذا كان يعتقد أنه يجوز الحكم بالقوانين الفرنسية فإنه كافر إذا اعتقد أنه يجوز له أما إذا لم يعتقد هذا أو كان له شبهة فلابد من قيام الحجة عليه وذهب بعض أهل العلم إلى أنه إذا غير الدين في جميع أمور الدولة فإنه يكون كافرا لأنه بدل الدين وذهب إلى هذا الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره والشيخ

محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة تحكيم القوانين قال إذا بدل الدين كله رأسا على عقب في جميع شؤون الدولة في كل شيء لا في البعض إنه يكون كافرا لأنه بدل الدين وقال آخرون إنه لابد أيضا من قيام الحجة عليه لأنه قد يكون جاهلا قد يكون عنده شبهة اختار هذا سماحة شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز رحمة الله عليه.اهـ. من شريط شرح نواقض الإسلام.

وسئل الشيخ محمد أمان بن علي الجامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل يعتبر الحكم بغير ما أنزل الله كفرا بواحا أم لا؟

فأجاب: فصَّل أهل العلم الجواب على هذا السؤال عند قوله تعالى {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} {الظالمون} {الفاسقون} وصف الله الحكم أو الذين يحكمون بغير ما أنزل الله بالكفر والظلم والفسق، ما نوع هذا الكفر؟ وما نوع ذلك الفسق والظلم؟ وهل هناك فرق بين الكفر والفسق والظلم؟

الجواب: أولا: لا فرق بين هذه العناوين الثلاثة:

الفسق: الخروج عن طاعة الله، والخروج على دين الله وعلى شريعة الله ذلك هو الكفر .

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، من حكم بغير ما أنزل الله وضع الحكم في غير موضعه ذلك ظلم وفسق وكفر، إذا المعاني الثلاثة أو العبارات أو العناوين الثلاثة لمعنى واحد لا خُلف بينها، لكن ما نوع هذا الكفر يروى عن عبدالله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر دون كفر هكذا روى غير واحد عن ابن عباس هذا التفسير ولكن الذي تطمئن إليه النفس ما ذكره شارح الطحاوية نقلا من أهل العلم وغيره أيضا من التفصيل هنا، أي من حكم بغير ما

أنزل الله معتقدا أن الحكم الوضعي أو السواليف أو التقاليد والعادات أحسن وأمثل مما أنزل الله أو أن ذلك يساوي ما أنزل الله في العدالة والحسن وأنه أنسب للأمة من اعتقد هذا الاعتقاد إما بأن فضل الأحكام الوضعية المستوردة أو السواليف التي عند أهل البادية والتقاليد والعادات في التحليل والتحريم ورأى أن ذلك أنسب وأرحم وأوفق للأمة خصوصا في هذا الوقت من اعتقد هذا الاعتقاد يكفر كفرا بواحا قبل أن يُصدر الحكم نفسه لهذا الاعتقاد لتفضيل آراء الناس وتقاليد الناس وسواليفهم على ما أنزل الله أو لجعله ذلك مساويا ما أنزل الله ما لم يؤمن بأن ما أنزل الله هو الحق وحده وأن ما أنزل الله هو الخير وحده إن اعتقد التفضيل أو المساواة بينهما فهذا كفر بواح لا خلاف في ذلك فيما أعلم.

النوع الثاني: إنسان حكم بغير ما أنزل الله مما وصفنا معتقدا أنه مخطئ وأنه ظالم وأنه مذنب في هذا التصرف وأن ما أنزل الله أحسن وحق هو الحق وحده لكن غلبته البيئة التي يعيش فيها ونفسه الأمارة بالسوء والخوف من مخالفة البيئة التي يعيش فيها بيئة غير إسلامية أصدر الحكم بغير ما أنزل الله وهو معتقد أن ما أنزل الله هو الحق وحده هذا كفره كفر دون كفر غير بواح أي لا ينقله من الملة لو مات على ذلك يعد من عصاة الموحدين من أصحاب الكبائر ليس بكافر كفرا اعتقاديا بل كفره كفر عملي والكفر العملي لا ينقل الإنسان من الملة.

الثالث: قاضي وحاكم اجتهد ليحكم بما أنزل الله ولكنه أخطأ باجتهاده فأصدر الحكم بغير ما أنزل الله فهذا يثاب على اجتهاده وبذله للمجهود ليحكم بما أنزل الله ولا يؤاخذ بخطئه لأنه مجتهد.

من هنا نعلم أن كثير من كبار علماء المسلمين وأئمتهم الذين اجتهدوا ليفهموا نصوص الصفات كما أراد الله وكما أراده رسول الله عليه الصلاة والسلام أو في باب العبادة ولكنهم أخطئوا ولم يجدوا من يوجههم ووقعوا في التأويل كثيرا ووقعوا في كثير من البدع وربما في بعض الأمور الشركية وهم غير قاصدين ظنا منهم إنما هم على ما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام أمثال هؤلاء يعذرون لأنهم اجتهدوا ليأخذوا الحق من كتاب الله ومن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام وليعملوا بالكتاب والسنة ولكنهم أخطئوا في اجتهادهم .

هذا بالاختصار هو الجواب على هذا السؤال هل يعتبر الحكم بغير ما أنزل الله كفرا بواحا؟ وقبل أن أترك هذا الموضوع أريد أن أنبه أن الحكم بغير ما أنزل الله لا يعني أبدا الحكم بالقوانين المنظمة الوضعية المستوردة من الشرق والغرب فقط بل أي شيء يخالف ما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا حكمت به كالسواليف المعروفة عند أهل البادية في التحليل والتحريم والتقاليد والعادات كالذين يحرمون الإرث على النساء فيجعلون الإرث في عاداتهم للرجال فقط أو يجعلون الإرث للولد البكر إذا كان ذكرا ومن هذا القبيل من حكم بغير هذه العادات والتقاليد والسواليف لا فرق بينه وبين الذين يحكمون بالقوانين الوضعية المستوردة فليفهم هذا لأن قوله تعالى {ومن لم يحكم بما أنزل الله} شامل لهذه المعاني كلها وبالله التوفيق .).اهـ. من شريط توجيهات للشباب.

(باب ذكر مباحث النفاق)

مسائل في الباب:

المسألة الأولى: تعريف النفاق

اختلف علماء اللغة في أصل النفاق، فقيل: إن ذلك نسبةً إلى النفق وهو

السرب في الأرض، لأن المنافق يستر كفره ويغيبه، فتشبه بالذي يدخل النفق يستتر فيه.

وقيل: سمي به من نافقاء اليربوع، فإن اليربوع له جحر يقال له: النافقاء، وآخر يقال له: القاصعاء، فإذا طلب من القاصعاء قصع فخرج من النافقاء، كذا المنافق يخرج من الإيمان من غير الوجه الذي يدخل فيه، وقيل: نسبة إلى نافقاء اليربوع أيضًا، لكن من وجه آخر وهو إظهاره غير ما يضمر، وذلك: أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض ترك قشرة رقيقة حتى لا يعرف مكان هذا المخرج، فإذا رابه ريب دفع ذلك برأسه، فخرج، فظاهر جحره تراب كالأرض، وباطنه حفر، فكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر.

ولعل النسبة إلى نافقاء اليربوع كما قال المصنف أرجح من النسبة إلى النفق (لأن النفق ليس فيه إظهار شيء، وإبطال شيء آخر، كما هو الحال في النفاق، وكونه مأخوذًا من النافقاء باعتبار أن المنافق يظهر خلاف ما يبطن، أقرب من كونه مأخوذًا منه باعتبار أنه يخرج من غير الوجه الذي دخل فيه، لأن الذي يتحقق فيه الشك الكامل بين النافقاء والنفاق هو إظهار شيء وإخفاء شيء آخر، إضافة إلى أن المنافق لم يدخل في الإسلام دخولًا حقيقيًا حتى يخرج منه.

أما النفاق في الاصطلاح الشرعي فهو: القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد، كما في عارضة الأحوذي (١٠/ ٩٧)، أو هو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وإن كان أصله في اللغة معروفًا كما سبق. والمنافق لابد وأن تختلف سريرته وعلانيته وظاهره وباطنه، ولهذا يصفهم الله في كتابه بالكذب كما يصف المؤمنين بالصدق، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

[البقرة: ١٠]، وقال: ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وأمثال هذا كثير، إذا أخص وأهم ما يميز المنافقين الاختلاف بين الظاهر والباطن، وبين الدعوى والحقيقة كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، قال الإمام الطبري في تفسيره (١/ ٢٦٨): أجمع جميع أهل التأويل على أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل النفاق، وأن هذه الصفة صفتهم.اهـ.، وقد يطلق بعض الفقهاء لفظ الزنديق على المنافق، قال شيخ الإسلام في الإيمان الأوسط (ص١٣): ولما كثرت الأعاجم في المسلمين تكلموا بلفظ (الزنديق) وشاعت في لسان الفقهاء وتكلم الناس في الزنديق: هل تقبل توبته؟ ... والمقصود هنا: أن (الزنديق) في عرف هؤلاء الفقهاء، هو المنافق الذي كان على عهد النبي ﷺ، وهو أن يظهر الإسلام ويبطن غيره، سواء أبطن دينًا من الأديان: كدين اليهود والنصارى أو غيرهم، أو كان معطلًا جاحدًا للصانع، والمعاد، والأعمال الصالحة.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (ص٣٧٤) في بيان مراتب المكلفين في الدار الآخرة وطبقاتهم: الطبقة الخامسة عشر: طبقة الزنادقة، وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله، وهؤلاء المنافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار.اهـ.

المسألة الثانية: أنواع النفاق

النفاق كالكفر والشرك والفسق، درجات ومراتب؛ منها ما هو مخرج من الإسلام، ومنها غير مخرج منه:

أولًا: النفاق الأكبر؛ المخرج من الملة، والموجب للخلود في الدرك الأسفل من النار: هو إبطان الكفر في القلب، وإظهار الإيمان على اللسان

والجوارح، ويترتب على هذا النوع ما يترتب على الكفر الأكبر؛ من حيث انتفاء الإيمان عن صاحبه، وخلوده في جهنم؛ لكن المنافق أشد عذابًا من الكافر؛ لأنه في الدرك الأسفل من النار إذا مات عليه.

والمنافق: إذا لم يظهر ما في باطنه من مخالفة الدين، وأظهر الأعمال الظاهرة من الإسلام؛ فهو في الظاهر مسلم، وتجري عليه أحكام الإسلام الظاهرة في الدنيا، ويعامل معاملة المسلمين؛ لأننا لم نؤمر بالشق عن ما في القلوب، وهذا في الأصل خارج عن نطاق وقدرة ابن آدم، لأن الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان الباطن الذي يكون صاحبه من المؤمنين حقًا.

والنفاق: إذا أطلق ذكره في القرآن؛ فإن المراد به النفاق الأكبر المنافي للإيمان؛ بخلاف الكفر فإنه يأتي - أحيانًا - بمعنى الكفر الأصغر، وكذلك الظلم والفسق والشرك، أما في السنة فقد ورد النفاق الأصغر، والمنافقون شر وأسوأ أنواع الكفار؛ لأنهم زادوا على كفرهم الكذب والمراوغة والخداع للمؤمنين، ولذلك أخبرنا الله تعالى عن صفاتهم في القرآن بالتفصيل، ووصفهم بصفات الشر كلها؛ لكي لا يقع المؤمنون في حبائلهم وخداعهم، ومن صفاتهم:

* الكفر وعدم الإيمان.

* التولي والإعراض عن حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ.

* الاستهزاء بالدين وأهله والسخرية منهم.

* الميل بالكلية إلى أعداء الدين، ومظاهرتهم ومناصرتهم على المؤمنين والمسلمين.

ومن أنواع النفاق الكثيرة: من أظهر الإسلام وهو مكذّب بما جاء به الله، أو

بعض ما جاء به الله، أو كذّب الرسول ﷺ، أو بعض ما جاء به الرسول، وكمثل من لم يعتقد وجوب طاعته ﷺ، أو أبغض الرسول ﷺ، أو آذى الرسول ﷺ، أو كره الانتصار لدين الرسول ﷺ أو سُرّ بكسر راية الدين، أو الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين؛ لأجل إيمانهم وطاعتهم لله تعالى ولرسوله ﷺ، أو التولي والإعراض عن الشرع ... إلى غير ذلك من الاعتقادات الكفرية المخرجة من الملة، وهذا الصنف من المنافقين موجودون في كل زمان ومكان.

ثانيًا: النفاق الأصغر؛ غير المخرج من الملة: هو النفاق العملي، واختلاف السر والعلانية في الواجبات، وذلك بعمل شيء من أعمال المنافقين؛ مع بقاء أصل الإيمان في القلب وصاحبه لا يخرج من الملة، ولا يُنفى عنه مطلق الإيمان، ولا مسمى الإسلام، وهو معرّض للعذاب كسائر المعاصي، دون الخلود في النار، وصاحبه ممن تناله شفاعة الشافعين بإذن الله.

وهذا النوع من النفاق مقدمة وطريق للنفاق الأكبر؛ لمن سلكه وكان ديدنه.

وأمثلة ذلك: الكذب في الحديث، وإخلاف الوعد، وخيانة الأمانة، والفجور في الخصومة، والغدر بالعهود، وكالرياء الذي لا يكون في أصل العمل، وإظهار المودة للغير والقيام له بالخدمة مع إضمار عكسه في النفس.

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨). من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩). من

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار) رواه البخاري (١٧)، ومسلم (٧٤). من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه؛ مات على شعبة من نفاق) رواه مسلم (١٩١٠). من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتختلف عبارات الأئمة في إيضاح هذين النوعين، فبعض الأئمة كالإمام الترمذي، وابن العربي المالكي، والحافظ ابن كثير، وابن حجر يقسمون النفاق إلى نفاق اعتقادي، وهو المخرج من الملة وإلى نفاق عملي، قال الإمام الترمذي كما في عارضة الأحوذي (١٠/ ١٠٠) في تعليقه على حديث: (أربع من كن فيه كان منافقًا) وإنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل، وإنما نفاق التكذيب على عهد رسول الله ﷺ هكذا روي عن الحسن البصري شيئًا من هذا أنه قال: النفاق نفاقان، نفاق عمل ونفاق التكذيب.اهـ. والمقصود بنفاق التكذيب أن يظهر الإيمان بلسانه أو فعله وهو مكذّب بقلبه كالمنافقين على عهد رسول الله ﷺ.

وقال ابن العربي كما في عارضة الأحوذي (١٠/ ١٠٠): النفاق هو إظهار القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد وهي قسمان:

أحدهما: أن يكون الخبر أو الفعل في توحيد الله وتصديقه أو يكون في الأعمال، فإن كان في التوحيد كان صريحًا، وإن كان في الأعمال كانت معصية، وكان نفاقًا دون نفاق كما تقدم القول في كفر دون كفر.اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧): النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب.اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (١/ ٨٩): والنفاق لغةً: مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان في الترك اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر، وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والترك، وتتفاوت مراتبه.اهـ.

وبعض الأئمة كالإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم والحافظ ابن رجب يعبرون عن ذلك بتقسيم النفاق إلى الأكبر المخرج من الملة وإلى نفاق أصغر غير مخرج من الملة، يقول شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٣٤ - ٤٣٥): فمن النفاق ما هو أكبر، يكون صاحبه فى الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد الله بن أبيّ وغيره؛ بأن يظهر تكذيب الرسول أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك، مما لا يكون صاحبه إلا عدوًا لله ورسوله ... وأما النفاق الأصغر، فهو النفاق فى الأعمال ونحوها؛ مثل أن يكذب إذا حدث، ويخلف إذا وعد، ويخون إذا ائتمن، أو يفجر إذا خاصم..اهـ.

وقال أيضًا في الإيمان الأوسط (ص: ٦٦): والنفاق كالكفر نفاق دون نفاق، ولهذا كثيرًا ما يقال: كفر ينقل عن الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر، كما يقال: الشرك شركان أصغر، وأكبر.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٣٧٦) في بيان أقسام النفاق: وهو نوعان: أكبر، وأصغر؛ فالأكبر: يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو

في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذّب به.اهـ..

وبين القولين تقارب فمن حصر النفاق المخرج من الملة بالنفاق الاعتقادي، فلعله قصد بذلك نفاق التكذيب، وهو أن يظهر الإيمان وهو مكذب بقلبه، أما إن كان المرء في الأصل مؤمنًا بالله غير مكذب وطرأ النفاق على بعض الأعمال المتعلقة بفروع الإيمان، فهذا نفاق العمل، وهناك احتمال آخر وهو أن يقصد بحصر ذلك بالنفاق الاعتقادي اقتران المكفرات العملية الصادرة من المنافقين بالجانب الاعتقادي، في الغالب، والأقرب للصواب والله أعلم تقسيم النفاق إلى أكبر وأصغر لسببين:

الأول: لأن النفاق الأكبر لا يختص بالجانب الاعتقادي فقط، ولذلك حين ذكر القرآن صفات المنافقين ذكر منها تنقيصهم للرسول ﷺ، وسخريتهم بالمؤمنين، ومناصرتهم للكفار ونحو ذلك. وهذه الأمور وإن اقترنت غالبًا بفساد اعتقادي إلا أن ذلك ليس بلازم.

الثاني: ليس كل نفاق اعتقادي يخرج من الملة، فقد يكون ذلك من جنس يسير الرياء ونحوه.

وإليك إيضاحا لنوعي النفاق

أولا: النفاق الأصغر: والأصل في ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو وأبي هريرة وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهما، في ذكر آية المنافق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان).

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا

ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر).

قال النووي شرح مسلم (٢/ ٤٦ - ٤٧) في شرح هذا الحديث: هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلا من حيث إن هذه الخصال توجد في المسلم المصدق الذي ليس فيه شك، وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر، ولا هو منافق يخلد في النار فإن إخوة يوسف ﷺ جمعوا هذه الخصال وكذا وجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كله، وهذا الحديث ليس فيه بحمد الله تعالى إشكال، ولكن اختلف العلماء في معناه، فالذي قاله المحققون والأكثرون وهو الصحيح المختار: أن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم، فإن النفاق إظهار ما يبطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر، ولم يرد النبي ﷺ، وقوله بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار، قال ﷺ: (كان منافقا خالصا) معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال، قال بعض العلماء هذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه فأما من يندر ذلك منه فليس داخلا فيه، فهذا هو المختار في معنى الحديث.اهـ.

وقال الخطابي كما في شرح السنة (١/ ٧٦)، و جامع العلوم والحكم (ص٤٠٧): هذا القول إنما خرج على سبيل الإنذار للمرء المسلم، والتحذير له أن يعتاد هذه الخصال، فتفضي به إلى النفاق، لا أن من بدرت منه هذه الخصال، أو فعل شيئا من ذلك من غير اعتياد أنه منافق.اهـ.

وقال الخطابي أيضا كما في الفتح (١/ ٩٠): ويدل عليه التعبير بإذا، فإنها تدل على تكرار الفعل، فتعقبه الحافظ ابن حجر فقال: والأولى ما قاله الكرماني: إن حذف المفعول من (حدث) يدل على العموم، أي: إذا حدث في كل شيء كذب فيه، أو يصير قاصرا، أي: إذا وجد ماهية الحديث كذب، وقيل: محمول على من غلبت عليه هذه الخصال وتهاون بها واستخف بأمرها، فإن من كان كذلك كان فاسد الاعتقاد غالبا.اهـ.

وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٤٠٦) بعدما شرح هذه الخصال: وحاصل الأمر أن النفاق الأصغر كله يرجع إلى اختلاف السريرة والعلانية كما قاله الحسن.اهـ.

ومن هذا الباب الإعراض عن الجهاد فإنه من خصال المنافقين، قال النبي ﷺ: (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق)، ومن ذلك ما رواه البخاري (٧١٧٨) في (باب ما يكره من ثناء السلطان، وإذا خرج قال غير ذلك): قال أناس لعبدالله بن عمر: (إنا ندخل على سلطاننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم، قال: كنا نعدها نفاقا) وهذا هو النفاق الذي خافه الصحابة على أنفسهم، يقول ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٤٠٨): ولما تقرر عند الصحابة رضي الله عنهم أن النفاق هو اختلاف السر والعلانية خشي بعضهم على نفسه أن يكون إذا تغير عليه حضور قلبه ورقته وخشوعه عند سماع الذكر، برجوعه إلى الدنيا والاشتغال بالأهل والأولاد والأموال أن يكون ذلك منه نفاقا، كما في صحيح مسلم عن حنظلة الأسدي: أنه مر بأبي بكر وهو يبكي، فقال: ما لك؟ قال: نافق حنظلة يا أبا بكر، نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأي عين، فإذا رجعنا، عافسنا الأزواج

والضيعة فنسينا كثيرا، قال أبو بكر: فالله إنا لكذلك، فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: مالك يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة يا رسول الله، وذكر له مثل ما قال لأبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي، لصافحتكم الملائكة على مجالسكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة)، ومما ورد في هذا المعنى أي: خوف الصحابة من النفاق ما قاله ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل[١]، يقول الحافظ ابن حجر في (فتح الباري (١/ ١١١) في تعليقه على هذا الأثر: والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلهم عائشة وأختها أسماء وأم سلمة والعبادلة الأربعة وأبو هريرة وعقبة بن الحارث والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة أجل من هؤلاء كعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشعر به مما يخالف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى رضي الله عنهم.اهـ.

وخلاصة القول في النفاق الأصغر: أنه نوع من الاختلاف بين السريرة والعلانية مما هو دون الكفر، وذلك كالرياء الذي لا يكون في أصل العمل، وكإظهار مودة الغير والقيام بخدمته مع إضمار بغضه والإساءة إليه وكالخصال

---

(١) رواه البخاري معلقا بصيغة الجزم قبل حديث رقم (٤٨)، ورواه موصولا الخلال في السنة (٣/ ٦٠٧ - ٦٠٨)، ومحمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٣٤). وانظر تغليق التعليق (٢/ ٥٢ - ٥٣).

الواردة في حديث شعب النفاق ونحو ذلك، فعلى المسلم الحذر من الوقوع في شيء من ذلك.

ثانيا: النفاق الأكبر: سبقت الإشارة إلى تعريفه عند الكلام عن أنواع النفاق، ويمكن اختصار تعريفه، بتعريف ذكره الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٤٠٣) حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: النفاق الأكبر وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار.اهـ.، ومن الآيات في تكفيرهم، ومصيرهم في الآخرة، قوله تعالى: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) [البقرة: ٨]، وقوله ﷻ: (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) [النساء: ١٣٨]، وقوله سبحانه: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) [النساء: ١٤٥]، وقوله تعالى: (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها) [التوبة: ٦٨]، وقوله تعالى: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا) [التوبة: ٧٣ – ٧٤]، وقوله عن طائفة من المنافقين من أسوأ أنواع الكفار، ومصيرهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، لأنهم زادوا على كفرهم، الكذب والمراوغة والخداع للمؤمنين، ولذلك فصل القرآن الحديث حولهم وحول صفاتهم لكي لا يقع المؤمنون في حبائلهم وخداعهم.

صور النفاق الأكبر: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض هذه الصور فقال في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٣٤): فمن النفاق ما هو أكبر، ويكون صاحبه

في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبدالله بن أبي وغيره، بأن يظهر تكذيب الرسول أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك: مما لا يكون صاحبه إلا عدوا لله ورسوله، وهذا القدر كان موجودا في زمن رسول الله ﷺ، ومازال بعده، بل هو أكثر منه على عهده.اهـ.

وقال في الإيمان الأوسط (ص١٨٠): فأما النفاق المحض الذي لا ريب في كفر صاحبه، فإنه لا يرى وجوب تصديق الرسول ﷺ فيما أخبر به، ولا وجوب طاعته فيما أمر به، وإن اعتقد مع ذلك أن الرسول عظيم القدر- علما وعملا- وأنه يجوز تصديقه وطاعته لكنه يقول: إنه لا يضر اختلاف الملل إذا كان المعبود واحدا، ويرى أنه تحصيل النجاة والسعادة بمتابعة الرسول وبغير متابعته، إما بطريق الفلسفة والصبو، أو بطريق التهود والتنصر.اهـ.

ونقل هذه الأنواع الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال كما في مجموعة التوحيد)) (ص٧): فأما النفاق الاعتقادي فهو ستة أنواع، تكذيب الرسول، أو تكذيب بعض ما جاء به الرسول، أو بغض الرسول أبو بغض ما جاء به الرسول، أو المسرة بانخفاض دين الرسول، أو الكراهية بانتصار دين الرسول، فهذه الأنواع الستة صاحبها من أهل الدرك الأسفل من النار.اهـ.

فيتحصل مما ذكره هذان الإمامان -بعد دمج الأنواع المتشابهة أو المتقاربة- خمس صفات أو أنواع وهي:

١- تكذيب الرسول ﷺ، أو تكذيب بعض ما جاء به.

٢- بغض الرسول ﷺ، أو بغض ما جاء به.

٣- المسرة بانخفاض دين الرسول ﷺ، أو الكراهية بانتصار دين الرسول ﷺ.

٤- عدم اعتقاد وجوب تصديقه فيما أخبر.

٥- عدم اعتقاد وجوب طاعته فيما أمر.

انظر كتاب نواقض الإيمان الاعتقادية، وكتاب الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة.

(باب معنى الأحاديث التي فيها ذكر البراءة)

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من شهر علينا السلاح فليس مني)[(١)].

وعبد الرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (من انتهب نهبة فليس منا)[(٢)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من غشنا فليس منا)[(٣)].

وعن بريدة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ليس منا من حلف بالأمانة، ومن خبب على امرئ زوجته أو مملوكه فليس هو منا)[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٩/ رقم ٢٩٤١٢)، والداني في الفتن (رقم ٨٨) وإسناده ضعيف، ومتن الحديث صحيح فقد أخرجه ابن ماجة (٢٥٧٧) عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من شهر علينا السلاح فليس منا)، وهو عند البخاري (٧٠٧١) ومسلم (١٠٠) بلفظ (من حمل علينا السلاح فليس منا).

(٢) أخرجه أحمد (٣٤/ ٢٢٤-٢٢٥-الرسالة)، والدارمي (١٩٩٥)، وأبو داود (٢٧٠٣)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٣١١)، وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ١٦٧-١٦٨) والحديث له شواهد عن عدة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد صححه بمجموع طرقه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٧٤٨٦)، وصححه لغيره الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٤/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٠١).

(٤) أخرجه أحمد (٣٨/ ٨٢-الرسالة)، وأبو داود (٣/ ٢٢٣، رقم ٣٢٥٣)، والبزار (١٥٠٠ - كشف)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٣٤٢)، وابن حبان (٤٣٦٣)، =

مسائل في الباب

موانع التكفير

المسألة الأولى: المانع الأول الجهل

الجهل يأتي بعدة معاني منها: خلو النفس من العلم وهو المشهور، ومنها: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، ومنها: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا[١]، ومنه قوله سبحانه: {فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة}، ومقصود العلماء بالجهل الذي يعذر صاحبه أو لا يعذر، أن يقول قولًا أو يفعل فعلًا بخلاف ما حقه أن يفعل، أو يعتقد اعتقادًا بخلاف ما هو عليه من الحق. والعذر بالجهل – كما هو معلوم – له حالات، فهو يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، والأشخاص يختلفون فمنهم من قامت عليه الحجة، ومنهم من لم تقم عليه باعتباره – مثلًا – حديث عهد بإسلام أو نشأ ببادية بعيدة، وكذلك الجهل يختلف إن كان جهلًا بما هو معلوم من الدين بالضرورة أو ما دون ذلك، وهل يفرق في ذلك بين أصول وفروع؟ كل

=

والحاكم (٤/ ٢٩٨)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٣٠، رقم ١٩٦٢١)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٤/ ٣٥) والحديث صححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وقال النووي في الرياض (٤٩٣) وفي الأذكار (٣١٦): إسناده صحيح، وكذا قال المنذري في الترغيب (٣/ ١٢٤)، وصححه العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٣/ ١٤٤)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٩٤)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٨٤)، وصححه العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ٦٠٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٨/ ٨٢): إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير الوليد بن ثعلبة الطائي فقد روى له أبو داود وابن ماجه والنسائي في "عمل اليوم والليلة"، وهو ثقة.

(١) انظر المفردات ١٠٢، والتعريفات ٨٤. ولسان العرب ١١/ ١٢٩.

هذه المسائل سنشير إليها في هذا المبحثمن خلال الأدلة وكلام العلماء، وسنبدأ أولًا: بذكر أدلة العذر بالجهل بشكل عام، ثم نناقش هل هذه الأدلة شاملة لكل جهل، أم لا؟

أدلة العذر بالجهل

١- لعل من أشهر الأدلة وأصرحها في هذه المسألة حديث الرجل من بني إسرائيل الذي أمر أهله بإحراقه، و إليك نصه، عن أبي هريرة رَضِحَالِلَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال اجمعي ما فيك منه، ففعلت فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له) رواه البخاري ومسلم عن عدة من الصحابة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١/ ٤٠٩) معلقًا على هذا الحديث: (فهذا الرجل ظن أن الله لا يقدر عليه إذا تفرق هذا التفرق، فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك، وكل واحد من إنكار قدرة الله تعالى، وإنكار معاد الأبدان و إن تفرقت كفر، لكنه كان مع إيمانه بالله وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلًا بذلك، ضالًا في هذا الظن مخطئًا، فغفر الله له ذلك، والحديث صريح في أن الرجل طمع أن لا يعيده إذا فعل ذلك، وأدنى هذا أن يكون شاكًا في المعاد، وذلك كفر إذا قامت حجة النبوة على منكره حكم بكفره)، وقال في موضع آخر من مجموع الفتاوى (١/ ٤٩١): فهذا الرجل كان قد وقع له الشك، والجهل في قدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم بعدما أحرق وذري، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك، وهذان أصلان عظيمان: أحدهما متعلق بالله تعالى، وهو الإيمان

بأنه على كل شيء قدير. "والثاني": متعلق باليوم الآخر، وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت، ويجزيه على أعماله، ومع هذا فلما كان مؤمنًا بالله في الجملة، ومؤمنًا باليوم الآخر في الجملة، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل عملًا صالحًا وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه غفر الله له بما كان فيه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح.اهـ. وقال الإمام الخطابي كما في الفتح (٦/ ٥٢٣): قد يستشكل هذا فيقال: كيف يغفر له وهو منكر للبعث والقدرة على إحياء الموتى؟ والجواب أنه لم ينكر البعث وإنما جهل فظن أنه إذا فعل به ذلك لا يعاد فلا يعذب، وقد ظهر إيمانه باعترافه بأنه إنما فعل ذلك من خشية الله.اهـ. وأيضًا فإنه قال: ليعذبني وهذا اعتراف منه بالعذاب في اليوم الآخر. وقال الحافظ ابن عبد البر التمهيد (١٨/ ٤٧،٤٦): وأما جهل هذا الرجل المذكور في هذا الحديث بصفة من صفات الله في علمه وقدرته، فليس ذلك بمخرجه من الإيمان) ثم استدل على ذلك بسؤال الصحابة - رضي الله عنهم - عن القدر ثم قال: (ومعلوم أنهم إنما سألوه عن ذلك وهم جاهلون به، وغير جائز عند أحد من المسلمين أن يكونوا بسؤالهم عن ذلك كافرين، .... ولم يضرهم جهلهم به قبل أن يعلموه.اهـ.. وقال الإمام ابن القيم مدارج السالكين (١/ ٣٦٧) في معرض حديثه عن حكم من جحد فرضًا من فرائض الإسلام: وأما من جحد ذلك جهلًا، أو تأويلًا يعذر فيه صاحبه فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذي جحد قدرة الله عليه، وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح، ومع هذا فقد غفر الله له، ورحمه لجهله، إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادًا أو تكذيبًا.اهـ. وقال ابن حزم في الفصل (٣/ ٢٥٢) بعدما ذكر الحديث: فهذا إنسان جهل إلى أن مات أن الله عز وجل يقدر

على جمع رماده وإحيائه، وقد غفر له لإقراره وخوفه وجهله.اهـ. وقال ابن الوزير إيثار الحق على الخلق (٤٣٦) في تعليقه على الحديث: وإنما أدركته الرحمة لجهله وإيمانه بالله والمعاد ولذلك خاف العقاب، وأما جهله بقدرة الله تعالى على ما ظنه محالًا فلا يكون كفرًا إلا لو علم أن الأنبياء جاءوا بذلك وأنه ممكن مقدور ثم كذبهم أو أحدًا منهم لقوله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا} وهذا أرجى حديث لأهل الخطأ في التأويل.اهـ.

إذًا يمكن أن نستخلص من كلام الأئمة أمرين مهمين

الأول: أن عمل هذا الرجل هو كفر لأن فيه إنكارًا لقدرة الله تعالى على إعادته بعدما يحرق، ولكنه عذر بسبب جهله الذي قاده إلى هذا الظن الفاسد.
الثاني: أن هذا الرجل معه أصل الإيمان وهذا واضح في الحديث، وهكذا فهم الأئمة، انظر إلى قول شيخ الإسلام في النص السابق: (.... فلما كان مؤمنًا بالله في الجملة، ومؤمنًا باليوم الآخر في الجملة، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل صالحًا – وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه – غفر الله له بما كان فيه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح)، وقول الخطابي: (.... وقد ظهر إيمانه باعترافه بأنه إنما فعل ذلك من خشية الله)، وقول ابن حزم الفصل (٣/ ٢٥٢): ... وقد غفر له لإقراره وخوفه وجهله.اهـ.

وقد ذكر بعض العلماء بعض التأويلات لهذا الحديث بخلاف ما سبق ولن نطول بذكرها لضعفها.

٢- ومن الأدلة أيضًا حديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليسري على كتاب الله ﷻ في ليلة، فلا يبقي في الأرض منه

آية، وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله فنحن نقولها" فقال له صلة ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة ثم ردها عليه ثلاثًا كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صلة تنجيهم من النار ثلاثًا)[1]، هذا الحديث و إن كان يتحدث عن حال الناس في آخر الزمان، حيث لا يدري ما صلاة ولا صيام، فإن فيه دليلًا على العذر بالجهل حيث ينطبق الحديث على بعض الأمكنة أو الأزمنة حيث ينتشر الجهل ويضعف نور النبوة، فتخفى على بعض الناس كثير من الأحكام الظاهرة المتواترة كوجوب الصلاة والصوم، ولكن لابد من الإقرار الذي عليه مدار النجاة، لأنه بدون الإقرار لا يكونون مسلمين. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١/ ٤٠٧): وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرًا مما بعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر، ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم و الإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام فأنكر هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول،

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٤٠٤٩)، والبزار (٢٨٣٨)، والحاكم (٤/ ٤٧٣)، والبيهقي في الشعب (٢٥٢٨) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال البوصيري في الزوائد (١/ ٢٤٧): إسناده صحيح رجاله ثقات، وقوى إسناده الحافظ في الفتح (١٣/ ١٦)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٨٧)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٣٠٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٥/ ١٧٣): إسناده صحيح.

ولهذا جاء في الحديث: "يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة" ثم ذكر بقية الحديث.اهـ.

قال العلامة العثيمين في القول المفيد (١/ ٢٠٤): الجهل نوعان: جهل يعذر فيه الإنسان، وجهل لا يعذر فيه، فما كان ناشئا عن تفريط وإهمال مع قيام المقتضي للتعلم، فإنه لا يعذر فيه، سواء في الكفر أو في المعاصي، وما كان ناشئا عن خلاف ذلك، أي أنه لم يهمل ولم يفرط ولم يقم المقتضي للتعلم بأن كان لم يطرأ على باله أن هذا الشيء حرام فإنه يعذر فيه فإن كان منتسبا إلى الإسلام، لم يضره، وإن كان منتسبا إلى الكفر، فهو كافر في الدنيا، لكن في الآخرة أمره إلى الله على القول الراجح، يمتحن، فإن أطاع دخل الجنة، وإن عصى دخل النار.

فعلى هذا من نشأ ببادية بعيد ليس عنده علماء ولم يخطر بباله أن هذا الشيء حرام، أو أن هذا الشيء واجب، فهذا يعذر، وله أمثلة:

منها: رجل بلغ وهو صغير وهو في بادية ليس عنده عالم، ولم يسمع عن العلم شيئا، ويظن أن الإنسان لا تجب عليه العبادات إلا إذا بلغ خمس عشرة سنة، فبقي بعد بلوغه حتى تم له خمس عشرة سنة وهو لا يصوم ولا يصلي ولا يتطهر من جنابه، فهذا لا نأمره بالقضاء لأنه معذور بجهله الذي لم يفرط فيه بالتعلم ولم يطرأ له على بال، وكذلك لو كانت أنثى أتاها الحيض وهي صغيرة وليس عندها من تسأل ولم يطرأ على بالها أن هذا الشيء واجب إلا إذا تم لها خمس عشرة سنة، فإنها تعذر إذا كانت لا تصوم ولا تصلي، وأما من كان بالعكس كالساكن في المدن يستطيع أن يسأل، لكن عنده تهاون وغفلة، فهذا لا يعذر، لأن الغالب في المدن أن هذه الأحكام لا تخفى عليه، ويوجد فيها علماء يستطيع أن يسألهم بكل سهولة، فهو مفرط، فيلزمه القضاء ولا يعذر

بالجهل.اهـ.

إذًا أمثال هؤلاء عذروا بجهلهم لأن الحجة لم تقم عليهم.

٣- ومن ذلك حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حديثو عهد بكفر – وكانوا أسلموا يوم الفتح- قال: فمررنا بشجرة قلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كمالهم ذات أنواط وكان للكفار سدرة يعفكون حولها ويعلقون بها أسلحتهم يدعونها ذات أنواط فلما قلنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم قال الله أكبر قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى {اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون} لتركبن سنن من كان قبلكم)[1].

واضح من هذه الحادثة أن الذي طلبه الصحابة هو شرك، ولذلك شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلب بني إسرائيل لموسى أن يجعل لهم إلهًا بل وأقسم على أنه مثله، ولكنهم لم يكفروا بطلبهم لأنهم حدثاء عهد بكفر[2]، قال الإمام ابن القيم رحمه الله في إغاثة اللهفان (١/ ٢٢٤) في تعليقه على هذا الحديث: (فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذ إله مع الله تعالى، مع أنهم

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨، رقم ٢١٩٥٠)، والترمذي (٢١٨٠) والنسائي في الكبرى (١١١٨٥)، والطيالسي في مسنده (١٣٤٦)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٠١)، والطبرانى (٣/ ٢٤٤، رقم ٣٢٩٢)، والحميدى (٢/ ٣٧٥، رقم ٨٤٨)، وابن حبان (١٥/ ٩٤، رقم ٦٧٠٢)، وأبو يعلى (١٤٤١)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٧) وغيرهم والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان، وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان (٢/ ٤١٨) ثابت، وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٣/ ٣٣٧): إسناده صحيح، وصححه العلامة الألباني في المشكاة (٥٣٣٥)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) انظر كلام سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز في حاشية فتح المجيد ١٤٦.

لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بالعكوف حول القبر، والدعاء به، ودعائه، والدعاء عنده ...؟ قال بعض أهل العلم من أصحاب مالك[1]: (فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس، ويعظمونها، ويرجون البرء والشفاء من قبلها، ويضربون بها المسامير والخرق، فهي ذات أنواط فاقطعوها.اهـ. وقال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب في كشف الشبهات (ص٤٦،٤٥): ... وكذلك لا خلاف في أن الذين نهاهم النبي ﷺ لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا، وهذا هو المطلوب، ولكن القصة تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك وهو لا يدري عنها فتفيد لزوم التعلم والتحرز... وتفيد أيضًا أن المسلم المجتهد إذا تكلم بكلام كفر وهو لا يدري فنبه على ذلك فتاب من ساعته أنه لا يكفر كما فعل بنو إسرائيل والذين سألوا النبي ﷺ.اهـ.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في فتح المجيد (ص١٤٥): ... وفيها (أي الحادثة): أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبهم كطلب بني إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط، فالمشرك مشرك، و إن سمي شركه ما سماه، كمن يسمي دعاء الأموات والذبح والنذر لهم ونحو ذلك تعظيمًا ومحبة، فإن ذلك هو الشرك، و إن سماه ما سماه، وقس على ذلك.اهـ.

وأخيرًا مما ينبغي التنبيه إليه الإشارة إلى أن طلب الصحابة رضي الله عنهم - كما يظهر - ليس فيه ما يدل على أنهم أرادوا عبادة هذه الشجرة من دون الله ولكن لحداثة عهدهم بالإسلام ظنوا أن اتخاذ شجرة ليتبركوا بها ويعلقوا عليها

---

(١) هو أبو بكر الطرطوشي وكلامه هذا في كتابه الحوادث والبدع ص١٠٥.

أسلحتهم لا ينافي التوحيد، (فبين لهم أن ما طلبوا من التبرك ولو لم يكن صلاة ولا صيامًا ولا صدقة هو الشرك بعينه) [(١)]،

قال الشوكاني في الدر النضيد (ص٩): ولم يكن من قصدهم أن يعبدوا تلك الشجرة أو يطلبوا منها ما يطلبه القبوريون من أهل القبور فأخبرهم ﷺ أن ذلك بمنزلة الشرك الصريح و أنه بمنزلة طلب آلهة غير الله تعالى.اهـ. وهناك أحاديث أخرى في الباب لن نطول بذكرها.

فعموم الآيات السابقة إضافة إلى الأحاديث المذكورة تقرر مسألة العذر بالجهل، وهذا أمر مجمع عليه، وإنما خالف بعض العلماء وبعض الباحثين بقولهم: إن مسائل أصول الدين وخاصة التوحيد والشرك لا يعذر فيها بالجهل، وسنذكر أبرز أدلتهم ثم رد العلماء عليهم ممن يرى أن الأدلة عامة لأصول الدين وغيرها.

لكن قبل ذكر أدلة الفريقين والمناقشة يحسن بنا أن نذكر – بشيء من الاختصار – بعض المسائل المهمة المتعلقة بهذه القضية، لأنه باتضاحها، يمكن بناء تصور صحيح عن هذه القضية، ويمكن – أيضًا– إدراك كثير من أسباب اللبس في فهمها والله أعلم.

المسألة الأولى: مجرد النطق بالشهادتين كاف في الحكم بإسلام الشخص: بوب الإمام ابن منده في كتابه الإيمان (١/ ١٩٨) (ذكر ما يدل على أن قول لا إله إلا الله يوجب اسم الإسلام ويحرم مال قائلها ودمه، وذكر فيه حديث المقداد رضي الله عنه عند البخاري ومسلم، قال (قلت يا رسول الله أرأيت إن اختلفت أنا ورجل من المشركين ضربتين فقطع يدي، فلما هويت إليه لأضربه قال: لا إله إلا الله،

---

(١) حاشية فتح المجيد (سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله)، ١٤٦.

أأقتله؟ أم أدعه؟ قال: "بل دعه).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في فتح المجيد (ص٨٩): وقد علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة، أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلمًا والعدو وليًا، والمباح دمه وماله: معصوم الدم والمال ....اهـ.

وقال ابن الصلاح كما في شرح مسلم للنووي (١/ ١٤٨): ...وحكم الإسلام في الظاهر يثبت بالشهادتين ....اهـ.

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (ص٧٢): ومن المعلوم بالضرورة أن النبي ﷺ كان يقبل من كل من جاءه يريد الدخول في الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك ويجعله مسلمًا.اهـ.

ويقول أيضًا (ص٢٣): من أقر صار مسلمًا حكمًا.اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٦٧): وفي حديث ابن عباس من الفوائد [حديث بعث معاذ إلى اليمن]. الاقتصار في الحكم بإسلام الكافر إذا أقر بالشهادتين.اهـ.

وقال أيضًا في نفس المصدر (١/ ٦١): ...أما بالنظر إلى ما عندنا -[أي في الدنيا]- فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقر أجريت عليه الأحكام في الدنيا ولم يحكم عليه بكفر إلا إن اقترن به فعل يدل على كفره كالسجود للصنم.اهـ.

فهذه النصوص عن الأئمة واضحة في تقرير هذا الأصل، وأهمية تقرير هذا الأصل هنا تكمن في أن بعض الباحثين يخلطون بين الحكم الدنيوي والأخروي، فيظنون أنه يلزم من الحكم بإسلام الشخص، الحكم له بالنجاة في الآخرة، أو يظنون أن الشروط التي ذكرها العلماء لكلمة التوحيد من العلم

والاخلاص واليقين..الخ، لا يحكم بإسلام الشخص إلا بعد فهم هذه الشروط، ولكن الحقيقة أن مجرد النطق بكلمة التوحيد لا ينجي العبد عند الله إلا بالإتيان بشروطها.

أما بالنسبة للحكم الدنيوي فمجرد النطق كاف في الحكم بإسلام المرء حتى يتبين لنا ما يناقض ذلك- بعد قيام الحجة وبذلك ندرك الخطأ الذي وقع فيه من يرى أن من يقعون في شئ من الشرك من نذر وذبح لغير الله وطواف على القبور ممن شهد بشهادة التوحيد كفار أصليون باعتبارهم لم يفهموا التوحيد.

المسألة الثانية: خطأ التقسيم إلى أصول لا يعذر بالجهل بها

وفروع يعذر الجاهل بها: كثيرًا ما يقال: هذه من مسائل العقيدة التي لا يعذر من يجهلها، أو من مسائل الأصول، أو هذه مسألة قطعية لا عذر فيها ونحو ذلك، وهذا التعبير غير دقيق وغير منضبط فمن قال: هذه من مسائل الأصول التي لا يعذر جاهلها، يقال له: ماذا تقصد بمسائل الأصول؟ فإن قال: مسائل الأصول هي مسائل العقيدة، ومسائل الفروع هي مسائل العمل، يقال له: هناك من مسائل العمل كوجوب الصلاة والزكاة وتحريم الفواحش..الخ، ما هو أعظم من كثير من مسائل الاعتقاد وأقوى وأوضح دليلًا ولا يعذر من يجهلها في دار الإسلام وهناك من مسائل الاعتقاد، اختلف السلف فيها ولم يورث اختلافهم تضليلًا ولا تبديعًا ولا تفسيقًا، كمسألة: هل رأى محمد ﷺ ربه ليلة الإسراء والعذاب في القبر على الروح وإلا على الروح والبدن،وهل إبليس من الجن أو الملائكة...الخ...

وإن قال: الأصول هي المسائل القطعية (أو ما هو معلوم من الدين بالضرورة) والفروع ليست قطعية، فيقال له كون المسألة قطعية أو ظنية أمر

نسبي إضافي، قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٣/ ١١٨): فكون الشيء معلومًا من الدين ضرورة أمر إضافي، فحديث العهد بالإسلام ومن نشأ ببادية بعيدة قد لا يعلم هذا بالكلية، فضلًا عن كونه يعلمه بالضرورة، وكثير من العلماء يعلم بالضرورة أن النبي ﷺ سجد للسهو، وقضى بالدية على العاقلة، وقضى أن الولد للفراش، وغير ذلك مما يعلمه الخاصة بالضرورة، وأكثر الناس لا يعلمه البتة.اهـ.

ولكن مما ينبغي التنبيه إليه، أن هناك أمورًا تعلم من الدين بالضرورة بلا خلاف، وأمورًا لا تعلم من الدين بالضرورة بلا خلاف، ويبقى بينهما أمور ومسائل تختلف حولها الأنظار والأفهام، ولذلك يمكن أن نقول: إن هذا التعبير غير دقيق لأننا لا نستطيع أن نضع حدًا منضبطًا لا يختلف حوله والله أعلم.

المسألة الثالثة: في حال حكاية مذاهب العلماء في هذه المسألة أو في غيرها، يجب التفريق بين النصوص المطلقة والمقيدة فمثلًا يستدل البعض بقول عالم من العلماء:

إن من نذر أو استغاث بغير الله فهو كافر مشرك حلال الدم والمال ...الخ، فيقول هذا المستدل إن مذهب هذا العلم عدم العذر بالجهل في مسائل العقيدة أو التوحيد سواء في دار الإسلام أو غيرها، والدليل أنه قال كافر، مشرك ولم يقل ما لم تقم عليه الحجة أو نحو ذلك، وقد يرد على هذا الاستدلال، بأن هذا النص عام، وليس فيه تعيين شخص معين، فعند التعيين لابد من قيام الحجة، والعالم لم ينف ذلك، والصحيح في مثل هذه النصوص: أنه لا يجوز نسبة قول أو رأي لعالم في مسألة ما إلا بجمع النصوص المختلفة عنه في هذه المسألة أو تلك، ثم بعد ذلك استخلاص رأيه، كما أنه لا يلزم أن يقال في كل نص من

النصوص العامة: ما لم تقم عليه الحجة، لأن العلماء في كثير من الأحيان لا يذكرون الأعذار، فهم حين يقولون من فعل كذا فقد كفر، لا يقولون إلا إن كان متأولًا أو جاهلًا أو مكرهًا.. الخ، ولعل هذا يشبه قولهم: إن الزاني والسارق وشارب الخمر لا يكفرون، لا يلزم أن يقال في كل نص إلا إن كان مستحلًا والله أعلم.

المسألة الرابعة: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص

فالمسألة نسبية فقد تقوم الحجة على أهل هذا البلد لانتشار العلم والعلماء، ولا تقوم على بلد آخر لضعف من يدعو ويبلغ، وقد تقوم الحجة على هذا الشخص لعلمه وفهمه، ولا تقوم على آخر لعدم تمكنه من العلم لأنه حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة ونحو ذلك.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوي (١١/ ٤٠٧): وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرًا مما يبعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر، ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام، فأنكر شيئًا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول.اهـ.

وقال أيضًا في المرجع السابق (١١/ ٤٠٧): ...ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه،أو لم يعلم أن الخمر يحرم لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا وتحريم هذا. بل ولم يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية.اهـ.

وقد فصل في هذا المعنى، وزاده إيضاحًا الإمام الخطابي حيث قال كما في

شرح مسلم للنووي (١/ ١٧٣): ...وهل إذا أنكرت طائفة من المسلمين في زماننا فرض الزكاة، وامتنعوا عن أدائها يكون حكمهم حكم أهل البغي؟ قلنا: لا، فإن من أنكر فرض الزكاة في هذه الأزمان كان كافرًا بإجماع المسلمين والفرق بين هؤلاء وأؤلئك أنهم إنما عذروا لأسباب وأمور لا يحدث مثلها في هذا الزمان، منها قرب العهد بزمان الشريعة الذي كان يقع فيه تبديل الأحكام بالنسخ، ومنها أن القوم كانوا جهالًا بأمور الدين وكان عهدهم بالإسلام قريبًا فدخلتهم الشبهة فعذروا، فأما اليوم وقد شاع دين الإسلام، واستفاض في المسلمين علم وجوب الزكاة حتى عرفها الخاص والعام واشترك فيه العالم والجاهل، فلا يعذر أحد بتأول يتأوله في إنكارها، وكذلك الأمر في كل من أنكر شيئا مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين إذا كان علمه منتشرًا كالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان والاغتسال من الجنابة وتحريم الزنا والخمر ونكاح ذوات المحارم ونحوها من الأحكام إلا أن يكون رجلًا حديث عهد بالإسلام ولا يعرف حدوده فإنه إذا أنكر شيئًا منها جهلًا به لم يكفر وكان سبيله سبيل أولئك القوم في بقاء اسم الدين عليه، فأما ما كان الإجماع فيه معلومًا من طريق علم الخاصة كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها و أن القاتل عمدًا لا يرث، و أن للجدة السدس وما أشبه ذلك من الأحكام فإن من أنكرها لا يكفر بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها في العامة.اهـ.

ومثال ذلك ما قاله ابن قدامة في المغني (٩/ ١١): في حكم من جحد وجوب الصلاة: ولا خلاف بين أهل العلم في كفر من تركها جاحدًا لوجوبها إذا كان ممن لا يجهل مثله ذلك، فإن كان ممن لا يعرف الوجوب كحديث الإسلام والناشيء بغير دار الإسلام أو بادية بعيدة عن الأمصار و أهل العلم، لم يحكم

بكفره، وعرف ذلك وتثبت له أدلة وجوبها فإن جحدها بعد ذلك كفر، و أما الجاحد لها ناشئا في الأمصار بين أهل العلم فإنه يكفر بمجرد جحدها، وكذلك الحكم في مباني الإسلام كلها وهي الزكاة والصيام، والحج لأنها مبادئ الإسلام وأدلة وجوبها لا تكاد تخفى إذ كان الكتاب والسنة مشحونين بأدلتها و الإجماع منعقد عليها، فلا يجحدها إلا معاند للإسلام يمتنع من التزام الأحكام غير قابل لكتاب الله تعالى ولا سنة رسوله ولا إجماع أمته، إلى أن يقول: وكذلك كل جاهل بشيء يمكن أن يجهله لا يحكم بكفره حتى يعرف ذلك وتزول الشبهة ويستحله بعد ذلك.اهـ.

ويمكن أن نستخلص من أقوال الأئمة السابقة ما يلي:

أ- اتفاق الأئمة على أن حديث العهد بالإسلام أو من نشأ ببادية بعيدة يعذر بجهل.

الأحكام الظاهرة المتواترة كوجوب الصلاة والزكاة وتحريم شرب الخمر.. الخ.

ب- أن من أنكر هذه الأمور في دار إسلام وعلم ولم يكن حديث عهد بإسلام أنه يكفر بمجرد ذلك، وبذلك ندرك خطأ من يظن أن الجاهل لا يكفر مطلقًا.

ج- أن هناك أحكامًا ظاهرة متواترة مجمع عليها ومسائل خفية غير ظاهرة ولكنها لا تعرف إلا من طريق الخاصة من أهل العلم. فهذه من أنكرها من العامة لا يكفر، ولكن من أنكرها من الخاصة يكفر إذا كان مثله لا يجهلها.

د- أيضًا يمكن أن يقاس على حديث العهد بالإسلام ومن نشأ ببادية بعيدة، من ينشأ في بلاد يكثر فيها الشرك والانحراف وتضعف بينهم دعوة التوحيد، قال

شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على البكري (ص٣٧٦): بعدما ذكر بعض أنواع الشرك: ... و إن ذلك من الشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ مما يخالفه.اهـ.

وقال الإمام المجدد في فتاوى ومسائل (٩/ ١١): ... و إذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبر عبد القادر، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي، وأمثالهما، لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم...اهـ.

وقال الإمام عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في الهدية السنية (ص٤٦، ٤٧)، عن بعض من يعمل الشرك إنه لا يكفر (لعدم من يناضل في هذه المسألة في وقته بلسانه، وسيفه وسنانه، فلم تقم عليه الحجة ولا وضحت له المحجة.....اهـ.

إذًا الحجة تختلف من بلد إلى آخر ومن زمن إلى آخر، وكذلك تختلف الأنظار والاجتهادات بالنسبة لقيام الحجة على الأشخاص، فقد يرى شخص أن الحجة قائمة على فلان أو على أهل البلد الفلاني، لانتشار العلماء والدعاة وطلبة العلم والكتب والأشرطة والمذياع وما يشبه ذلك، وقد يرى آخر أنه رغم انتشار الدعاة وطلبة العلم إلا أنهم لا يعتنون بمسائل التوحيد والشرك، أو أنهم أنفسهم مصابون بهذا الداء، فمن أين يعرف أهل بلدهم حقيقة التوحيد؟

وأعظم ما يؤدي إلى هذا الاختلاف واللبس أمران أحدهما: التقصير في الدعوة إلى الله وإقامة الحجة على الجهال والبدء بالأهم فالمهم، والثاني: عدم وجود السلطة التي تقيم الحجة وتستيب من يصر، والتي بها يتضح للناس من

قامت عليه الحجة ومن لم تقم، ولعل هذا من أبرز أسباب كثرة الكلام حول هذه المسألة بين المتأخرين والله أعلم.

المسألة الخامسة: كيفية قيام الحجة على المعين

وقد تقدمت هذه المسألة بالتفصيل في الأبواب السابقة.

المسألة الثانية: المانع الثاني: الخطأ

أولا: المراد به لغة واصطلاحًا

الخطأ والخطاء: ضد الصواب، وقد أخطأ، قال تعالى: {وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به} عداه بالباء لأنه في معنى عثرتم أو غلطتم، وأخطأ الطريق، عدل عنه، وأخطأ الرامي الغرض: لم يصبه.. والخطأ: مالم يتعمد، والخطأ: ما تعمد، وقال الأموي: المخطيء: من أراد الصواب فصار إلى غيره، والخاطيء: من تعمد ما لا ينبغي، والخطيئة الذنب على عمد، والخطء: الذنب في قوله تعالى: {إن قتلهم كان خطئًا كبيرًا} أي إثمًا، وقال تعالى: فيما حكاه عن أخوة يوسف: {إنا كنا خاطئين} آي آثمين[1]، وقال الراغب في المفردات (ص١٥٣): الخطأ: العدول عن الجهة) ثم ذكر بعض صور الخطأ ومنها: (أن يريد ما يحسن فعله، ولكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال أخطأ فهو خطيء، وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل، وهذا المعنى بقوله ﷺ (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان)، وبقوله: "(من اجتهد فأخطأ فله أجر)، {ومن قتل مؤمنًا خطأ فتحرير رقبة} إلى أن يقول: وجملة الأمر أن من أراد شيئًا فاتفق منه غيره يقال: أخطأ، وإن وقع منه كما أراده يقال: أصاب، وقد يقال: لمن فعل فعلا لا يحسن

---

(١) لسان العرب ١/ ٦٥-٦٨، وانظر مختار الصحاح ١٧٩، ١٨٠، والنهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٥،٤٤، المعجم الوسيط ١/ ٢٣٢.

أو أراد إرادة لا تجمل إنه أخطأ.اهـ.

والخلاصة أن معنى الخطأ في اللغة: أن يريد ويقصد أمرًا، فيقع في غير ما يريد، أما الخطء: فهو الإثم أو الذنب المتعمد والله أعلم.

أما معنى الخطأ في الاصطلاح: فهو قريب من المعنى اللغوي، قال الحافظ ابن رحب في جامع العلوم والحكم (ص٣٥٢): الخطأ: هو أن يقصد بفعله شيئًا فيصادف فعله غير ما قصده، مثل أن يقصد قتل كافر فصادف قتله مسلمًا.اهـ. أو يظن أن الحق في جهته، فيصادف غير ذلك، وقال الجرجاني في التعريفات (ص١٠٤): الخطأ وهو ما ليس للإنسان فيه قصد.. كما إذا رمى شخصًا ظنه صيدًا أو حربيا فإذا هو مسلم...اهـ. وهناك تعريفات أخرى قريبة مما ذكر وحاصلها أن الخطأ في الاصطلاح: (كل ما يصدر عن المكلف من قول أو فعل خال عن إرادته وغير مقترن بقصد منه.

٢- الفرق بينه وبين الجهل: الجهل يأتي بعدة معانى منها: خلو النفس من العلم وهو المشهور، ومنها: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، ومنها: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا[1]، ومنه قوله سبحانه: {فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة}. وقد سبق الكلام عن أدلة أهل العلم في العذر بالجهل، ومقصودهم بالجهل الذي يعذر صاحبه: أن يقول قولًا أو يعتقد اعتقادًا بخلاف (الحق)، غير عالم وغير قاصد للمخالفة، رغم اجتهاده في رفع الجهل عن نفسه، وهو بهذا المعنى يتفق مع الخطأ حيث إن الجاهل والمخطئ - حسب هذا المفهوم- غير قاصدين للمخالفة، لذلك وردت النصوص من الكتاب والسنة في إعذارهما ورفع الإثم عنهما - في

---

(١)انظر المفردات ١٠٢، لسان العرب ١١/ ١٢٩.

الحقيقة- في حكم من لم تقم عليه الحجة والله أعلم.

استدل أهل السنة لذلك على الإعذار بالخطأ بأدلة كثيرة، سنأخذ أهمها ومنها:

الأول: قوله سبحانه: {ادعوهم لآباءهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آبائهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورًا رحيمًا}، قال الحافظ في الفتح (١١/ ٥٥١): .. قال ابن التين: أجرى البخاري قوله تعالى: {وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به}، في كل شئ، وقال غيره: هي في قصة مخصوصة وهي: ما إذا قال الرجل يا بني وليس هو ابنه... ولوسلم أن الآية نزلت فيما ذكر لم يمنع ذلك من الاستدلال بعمومها، وقد أجمعوا على العمل بعمومها في سقوط الإثم.اهـ.

ثانيا: واستدلوا بقوله تعالى: {ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها... الآية}، فقيد الوعيد على قاتل المؤمن بالتعمد، وفرقت النصوص بين القتل المتعمد والقتل الخطأ في أحكام الدنيا والآخرة.

ثالثا: ومن الأدلة المشهورة قوله تعالى: {ربنا لا تؤخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا} وثبت في الحديث الصحيح عند مسلم أن الله سبحانه استجاب لهذا الدعاء فقال: فقد فعلت.

رابعا: ومن الأحاديث المشهورة في العذر بالخطأ قوله ﷺ (إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه)[1]، قال الحافظ ابن رجب في

---

(١) قال العلامة الألباني في الإرواء (١/ ١٢٣، رقم ١٢٣): صحيح. ولكن لم أجده بلفظ " عفى " وإنما رواه ابن عدى فى " الكامل " (ق ٣١٢/ ١) من طريق عبد الرحيم بن زيد العمى حدثنى أبى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعا بلفظ " عفا لى عن أمتى الخطأ والنسيان والاستكراه " وعبد الرحيم هذا كذاب وأبوه ضعيف. والمشهور فى =

=

كتب الفقه والأصول بلفظ " رفع عن أمتى ... " ولكنه منكر كما سيأتى والمعروف ما أخرجه ابن ماجه (١/ ٦٣٠) من طريق الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعى عن عطاء عن ابن عباس مرفوعا بلفظ " إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " فظاهر إسناده الصحة لأن رجاله كلهم ثقات وقد اغتر بظاهره صاحب " التاج الجامع للأصول الخمسة " فقال (١/ ٢٥): "سنده صحيح" وخفيت عليه علته وهى الانقطاع بين عطاء وابن عباس. وقد أشار إلى ذلك البوصيرى فى الزوائد فقال: (إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع، والظاهر أنه منقطع بدليل زيادة عبيد بن نمير فى الطريق الثانى، وليس ببعيد أن يكون السقط من جهة الوليد بن مسلم فإنه كان يدلس " يعنى تدليس التسوية "). والطريق المشار إليه أخرجه الطحاوى فى " شرح معانى الآثار " (٢/ ٥٦) والدارقطنى (٤٩٧) والحاكم (٢/ ١٩٨) وابن حزم فى " أصول الأحكام " (٥/ ١٤٩) من طريق بشر بن بكر وأيوب بن سويد قالا: حدثنا الأوزاعى عن عطاء بن أبى رباح عن عبيد بن عمير عن ابن عباس به. وقال الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين " ووافقه الذهبى، واحتج به ابن حزم وصححه المعلق عليه المحقق العلامة أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ. وكذلك صححه من قبل ابن حبان فرواه فى صحيحه (١٤٩٨) من هذا الطريق، وقال النووى فى الأربعين وغيره: إنه حديث حسن: وأقره الحافظ فى التلخيص (ص ١٠٩)، وهو صحيح كما قالوا، فإن رجاله كلهم ثقات، وليس فيهم مدلس، ومع ذلك فقد أعله أبو حاتم بالانقطاع أيضا! فقال ابنه فى العلل (١/ ٤٣١): "وقال أبى: لم يسمع الأوزاعى هذا الحديث من عطاء ،إنما سمعه من رجل لم يسمه أتوهم أنه عبد الله بن عامر أو إسماعيل بن مسلم، ولايصح هذا الحديث ولا يثبت إسناده". قلت: ولست أرى ما ذهب إليه أبو حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه لا يجوز تضعيف حديث الثقة لا سيما إذا كان إماما جليلا كالأوزاعى، بمجرد دعوى عدم السماع ولذلك فنحن على الأصل، وهو صحة حديث الثقة حتى يتبين انقطاعه، سيما وقد روى من طرق ثلاث أخرى عن ابن عباس، وروى من حديث أبى ذر وثوبان وابن عمر وأبى بكرة وأم الدرداء والحسن مرسلا. وهى وإن كانت لا تخلو جميعها من ضعف فبعضها يقوى بعضا وقد بين عللها الزيلعى فى " نصب الراية " وابن رجب فى " شرح الأربعين " (٢٧٠ - ٢٧٢) فليراجعها من شاء التوسع، وقال السخاوى فى المقاصد (ص ٢٣٠): "ومجموع هذه الطرق يظهر للحديث أصلا". ومما يشهد له أيضا ما رواه مسلم (١/ ٨١) وغيره عن ابن عباس قال:

=

جامع العلوم والحكم (ص٣٥٢-٣٥٤) في شرحه لهذا الحديث: الخطأ: هو أن يقصد بفعله شيئًا فيصادف فعله غير ما قصده، مثل أن يقصد قتل كافر فصادف قتله مسلمًا، والنسيان أن يكون ذاكرًا الشئ فينساه عند الفعل، وكلاهما معفو عنه: يعني لا إثم فيه، ولكن رفع الإثم لا ينافي أن يترتب على نسيانه حكم، ولو قتل مؤمنًا خطأ فإن عليه الكفارة والدية بنص الكتاب، وكذا لو أتلف مال غيره خطأ بظنه أنه مال نفسه.. إلى أن يقول: والأظهر، والله أعلم أن الناسي والمخطئ إنما عفي عنهما بمعنى رفع الإثم عنهما لأن الإثم مرتب على المقاصد والنيات، والناسي والمخطئ لا قصد لهما فلا إثم عليهما، وأما رفع الأحكام عنهما فليس مرادًا من هذه النصوص فيحتاج في ثبوتها ونفيها إلى دليل آخر.اهـ.

خامسا: ونختم هذه الأدلة بحديث خاص بإعذار المجتهد المخطيء في الأحكام، وهو قوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، و إذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر) قال الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (١/ ١٩١): فإن قيل: كيف يجوز أن يكون للمخطيء فيما أخطأ فيه أجر، وهو إلى أن يكون عليه في ذلك إثم لتوانيه وتفريطه في الاجتهاد حتى أخطأ؟ فالجواب، أن هذا غلط لأن النبي ﷺ لم يجعل للمخطيء أجرًا على خطئه، وإنما جعل له أجرًا على اجتهاده، وعفا عن خطئه لأنه لم يقصده، و أما المصيب فله أجر على اجتهاده، وأجر على

=

"لما نزلت (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال الله تعالى: قد فعلت ... " الحديث. ورواه أيضا من حديث أبى هريرة، وقول ابن رجب: "وليس واحد منهما مصرحا برفعه " لا يضره فإنه لا يقال من قبل الرأى فله حكم المرفوع كما هو ظاهر.

إصابته.اهـ.

(تنبيه) من أخطأ فحكم أو أفتى بغير علم واجتهاد فهو آثم عاص، قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوي (٣/ ٣١٧): .. فمن كان خطؤه لتفريطه فيما يجب عليه من اتباع القرآن و الإيمان مثلًا، أو لتعديه حدود الله بسلوك السبل التي نهى عنها، أو لاتباع هواه بغير هدى من الله، فهو الظالم لنفسه، وهو من أهل الوعيد، بخلاف المجتهد في طاعة الله ورسوله باطنًا وظاهرًا الذي يطلب الحق باجتهاده كما أمره الله ورسوله فهذا مغفور له خطؤه.......اهـ.، لكنه لا يكفر إن فرط في الاجتهاد فوقع في الكفر خطأ، لأن الكفر يكون بعد قيام الحجة، قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوي (١٢/ ١٨٠): .. و أما "التكفير" فالصواب أنه من اجتهد من أمة محمد ﷺ وقصد الحق، فأخطأ لم يكفر، بل يغفر له خطؤه، ومن تبين له ما جاء به الرسول، فشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، واتبع غير سبيل المؤمنين: فهو كافر، ومن اتبع هواه، وقصر في طلب الحق، وتكلم بلا علم فهو عاص مذنب، ثم قد يكون فاسقًا، وقد تكون له حسنات ترجح على سيئاته..، وقال أيضًا في مجموع الفتاوي (١٢/ ٤٦٦) وليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين، و إن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة و إزالة الشبهة.اهـ.

وخلاصة هذا المبحث ما يلي: قد تواترت النصوص من الكتاب والسنة في إعذار المخطيء سواء في الأصول أو الفروع، وأن حكمه حكم الجاهل والمتأول فلا يكفر إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه إن كان مجتهدًا فيما يسوغ فيه الاجتهاد فله أجر باجتهاده ولو أخطأ أما إن لم يكن مجتهدًا وأخطأ فيأثم لتفريطه.

المسألة الثالثة: المانع الثالث: الإكراه

تعريفه لغة واصطلاحًا: معنى الإكراه في اللغة: جاء في اللسان (١٣/ ٥٣٤): وقد أجمع كثير من أهل اللغة أن الكَره والكُره لغتان، فبأي لغة وقع فجائز.اهـ. وقال الفراء كما في اللسان (١٣/ ٥٣٤): الكره، بالضم، المشقة، يقال: قمت على كره: أي على مشقة، قال: ويقال أقامني فلان على كره، بالفتح، إذا أكرهك عليه، وقال ابن سيده: الكره الإباء والمشقة تحتملها من غير أن تكلفها.اهـ. وجاء في المعجم الوسيط (٢/ ٧٩١): كره الشيء كرهًا وكراهة وكراهية: خلاف أحبه فهو كريه ومكروه، وأكرهه على الأمر: قهره عليه، وكره إليه الأمر، صيره كريهًا إليه، والمكره: ما يكرهه الإنسان ويشق عليه، وجمعه مكاره.اهـ.

وجاء في المصباح المنير (٢/ ٦٤٣): الكره، بالفتح، المشقة، بالضم، القهر، وقيل: بالفتح، الإكراه، بالضم، والمشقة، وأكرهته على الأمر إكراهًا، حملته عليه قهرًا، يقال: فعلته كرهًا، بالفتح، أي إكراهًا، ومنه، قوله تعالى: (طوعًا وكرهًا) فقابل بين الضدين.اهـ.

فنلاحظ مما سبق، أن معاني الإكراه، تدور حول المشقة والقهر والإجبار، ومنافاة الرضى والمحبة والاختيار.

أما المعنى الاصطلاحي: لقد عرف الفقهاء الإكراه، بتعريفات كثيرة، بينها بعض الاختلافات اليسيرة، بحسب اختلافهم في بعض شروط الإكراه وأنواعه، وسأذكر بعض التعريفات باختصار:

قال ابن حزم في المحلى لابن حزم (٨/ ٣٣) في تعريف الإكراه: والإكراه هو كل ما سمي في اللغة إكراهًا، وعرف بالحس أنه إكراه، كالوعيد بالقتل ممن لا يؤمن منه إنفاذ ما توعد به، والوعيد بالضرب كذلك.اهـ.

وعرفه الحافظ في الفتح (١٢/ ٣١١): بقوله: هو إلزام الغير بما لا يريده.اهـ. وعرفه الشرقاوى في حاشيته على تحفة الطلاب (٢/ ٣٩٠) بقوله: الإلجاء إلى فعل الشيء قهرًا.اهـ.

وعرفه علاء الدين البخاري في كشف الأسرار (٤/ ٤٨٢) تعريفًا شاملًا، فقال: حمل الغير على أمر يمتنع عنه، بتخويف يقدر الحامل على إيقاعه، ويصير الغير خائفًا فائت الرضا بالمباشرة.اهـ.

وهذه التعريفات وإن اختلفت عباراتها، إلا أنها متفقة في معانيها من حيث الإجمال فتتفق هذه التعريفات على أن في الإكراه إلزامًا للغير قهرًا – بالوعيد بالقتل أو غيره – على فعل أمر لا يريده ولا يحبه، وهذه المعاني تتفق مع المعنى اللغوي، وبعض تفصيلات التعريف، سنتحدث عنها عند الكلام عن أنواع الإكراه وشروطه. أنواع الإكراه: قسم جمهور الأصوليين والفقهاء والإكراه إلى نوعين إكراه ملجيء وهو الإكراه التام، وإكراه غير ملجيء، وهو الإكراه الناقص.

أ-الإكراه الملجيء (التام): وهو الذي يقع على نفس المكره ولا يبقى للشخص معه قدرة ولا اختيار كأن يهدد الإنسان بقتله أو بقطع عضو من أعضائه كيده أو رجله، أو بضرب شديد يفضي إلى هلاكه أو بإتلاف جميع ماله، فمتى غلب على ظنه أن ما هدد به سيقع عليه، جاز له القيام بما دفع إليه بالتهديد، باعتباره في حالة ضرورة شرعية. ب-الإكراه غير الملجيء (الناقص): وهو التهديد أو الوعيد بما دون تلف النفس أو العضو، كالتخويف بالضرب أو القيد أو الحبس أو إتلاف بعض المال، وهذا النوع يفسد الرضا، ولكنه لا يفسد الاختيار لعدم الاضطرار إلى مباشرة ما أكره عليه لتمكنه من الصبر على ما هدد

به، وقد يلحق بهذا النوع، التهديد بحبس الأب أو الابن أو الزوجة و الأخت والأم والأخ، وهناك نزاع في اعتبار هذا القسم من أقسام الإكراه[1]، فالقياس يقتضي عدم اعتباره من الإكراه لأن الضرر فيه لا يلحق بالمكره – والأصل في اعتبار المكره به (وسيلة الإكراه) – أن يلحق المكره بالتهديد به، الخوف والمشقة والضيق، أما الاستحسان فيعده من الإكراه، لأن المكره يلحقه الغم والاهتمام والحزن والحرج إذا أصاب أحدًا من محارمه مكروه، فيندفع إلى الإتيان بما أمر به كما لو وقع الضرر به أو أشد.

قال ابن قدامة في المغني (٧/ ١٢٠): وإن توعد بتعذيب ولده، فقد قيل ليس بإكراه لأن الضرر لاحق بغيره، والأولى أن يكون إكراهًا لأن ذلك عنده أعظم من أخذ ماله، والوعيد بذلك إكراه فكذلك هذا.اهـ.

قال في الإنصاف (٨/ ١٤١): ضرب ولده وحبسه ونحوهما: إكراه لوالده، على الصحيح من المذهب، صححه في الفروع، والقواعد الأصولية، وغيرهما.اهـ. ٣- بعض المسائل المتعلقة بالإكراه: سنشير بإيجاز إلى بعض المسائل المهمة المتعلقة بمفهوم الإكراه وأنواعه.

أ- ما الحكم لو أكره المرء على قتل معصوم؟ نقل الأئمة الإجماع على أنه لا يحل للمرء أن يفدي نفسه بقتل غيره، وممن نقل ذلك الإمام ابن العربي والقرطبي وابن رجب -رحمهم الله- قال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٨٣): أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره، أنه لا يجوز له الإقدام على قتله

(١) ذهب بعض الأحناف إلى اعتبار هذا القسم نوعًا ثالثًا، أما بقية الفقهاء فقد أدخلوه في النوعين السابقين، انظر كشف الأسرار ٤/ ٣٨٣، الإكراه وأثره في التصرفات د. عيسى شقره ٦١ .

ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به، ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.اهـ. وقال ابن رجب جامع العلوم والحكم (ص٣٥٤): اتفق العلماء على أنه لو أكره على قتل معصوم لم يصح له أن يقتله، فإنه إنما يقتله باختياره افتداء لنفسه من القتل، هذا إجماع من العلماء المعتد بهم.اهـ. لكن إن قتله فما الحكم يقول ابن رجب في نفس المصدر السابق: فإذا قتله في هذه الحال فالجمهور على أنهما يشتركان في وجوب القود المكرِه والمكرَه لاشتراكهما في القتل، وهو قول مالك والشافعي في المشهور عنه وأحمد، وقيل يجب على المكرِه وحده، لأن المكَره صار كالآلة، وهو قول أبي حنيفة وأحد قولي الشافعي، وروى عن زفر كالأول، وروى عنه أنه يجب على المكَره لمباشرته، وليس هو كالآلة، لأنه آثم بالاتفاق.اهـ. ب- هل يفرق بين الأقوال والأفعال؟ لا خلاف بين الفقهاء في أن أفعال القلوب كالحب والبغض لا مجال للإكراه فيها كما في الأشباه والنظائر للسيوطي (ص٢٠٨) ومحل الإكراه أفعال الجوارح من الأقوال والأفعال، فهل هناك فرق في الرخصة بين الإكراه على القول، والإكراه على الفعل؟

قال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٨٢، ١٨٣): ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت في القول، وأما في الفعل فلا رخصة فيه، مثل أن يكرهوا على السجود لغير الله أو الصلاة لغير القبلة، أو قتل مسلم أو ضربه أو أكل ماله، أو الزنى وشرب الخمر وأكل الربا، يروى هذا عن الحسن البصري، وهو قول الأوزاعي وسحنون وقالت طائفة: الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أسر الإيمان، روى ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول، وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق.اهـ. وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٣٥٥): ولو أكره

على شرب الخمر أو غيره من الأفعال المحرمة، ففي إباحته قولان:

أحدهما: يباح له ذلك استدلالًا بقوله تعالى: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنًا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) وهذا قول الجمهور كالشافعي وأبي حنيفة، وهو المشهور عن أحمد، وروى نحوه عن الحسن ومكحول ومسروق، وعن عمر بن الخطاب ﵁ ما يدل عليه. القول الثاني: أن التقاة تكون في الأقوال ولا تقاة في الأفعال ولا إكراه عليها، روي ذلك عن ابن عباس ﵄ وأبي العالية وأبي الشعثاء، والربيع بن أنس والضحاك وهو رواية عن أحمد، وروي عن سحنون أيضًا، وعلى هذا لو شرب الخمر أو سرق مكرهًا حد.اهـ.

والصحيح عدم التفريق بين الأقوال والأفعال، لعموم قوله تعالى: من كفر بالله من بعد إيمانه، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) فلم يفرق في الآية بين الأقوال والأفعال، قال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ١٩٧): وذهب الحسن البصري، والأوزاعي والشافعي وسحنون إلى أن هذه الرخصة المذكورة في هذه الآية، إنما جاءت في القول، وأما الفعل فلا رخصة، مثل أن يكره على السجود لغير الله، ويدفعه ظاهر الآية فإنها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل، ولا دليل لهؤلاء القاصرين للآية على القول، وخصوص السبب لا اعتبار مع عموم اللفظ.اهـ. وكذلك يقال: إذا أبيح للمكره سب الله ورسوله ﷺ وهو أعظم أنواع الكفر، فمن باب أولى رفع الحرج عما دونه من الأقوال والأفعال. ومن الأدلة على شمول العذر بالإكراه للأفعال قوله تعالى: (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنًا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ومن يكرههن، فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم)

قال ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٣٨٦، ١٣٨٧، حول هذه الآية: (وهذه الآية تدل على تصور الإكراه في الزنا، خلافًا لمن أنكر ذلك من علمائنا، وهو ابن الماجشون وغيره، ولا ينهى الله إلا عن متصور، ولا يقع التكليف إلا بما يدخل تحت القدرة، لذلك قلنا: إنه لا حد عليه، لأن الإكراه يسقط حكم التكليف، وقوله تعالى: (فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) هذه المغفرة إنما هي للمكُرَهَ لا للذي أكره عليه وألجأ المكره المضطر إليه، ولذلك كان يقرؤها عبد الله بن مسعود، (فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم)، والمغفرة تتعلق بالمكره المضطر إليه فضلًا من الله.اهـ. والخلاصة أن الرخصة بالإكراه شاملة للأقوال والأفعال، باستثناء الإجماع على عدم الرخصة في القتل، والخلاف في مسألة الزنا.

ج- هل يكفي التهديد والوعيد بمفرده في اعتبار الإكراه؟

اتفق العلماء على أن الوعيد إن اقترن بنوع من العذاب فهو إكراهًا، وإنما وقع الخلاف في الوعيد المجرد، فالأحناف والمالكية والشافعية، ورواية عن أحمد ذهبوا إلى أن الوعيد المجرد يعد إكراهًا، والرواية الأخرى عن أحمد يذهب فيها إلى وجوب اقتران الوعيد بمفرده فعن أحمد فيه روايتان: إحداهما: ليس بإكراه، لأن الذي ورد الشرع بالرخصة معه ما ورد في حديث عمار وفيه (أنهم أخذوك فغطوك في الماء)، فلا يثبت الحكم إلا فيما كان مثله، والرواية الثانية: أن الوعيد بمفرده إكراه، قال في رواية ابن منصور حد الإكراه إذا خاف القتل أو ضربًا شديدًا، وهذا قول أكثر الفقهاء وبه يقول أبو حنيفة والشافعي، ثم رجح الإمام ابن قدامة: الرواية الثانية وعلل ذلك بقوله في المغني (٧/ ١١٩): لأن الإكراه لا يكون إلا بالوعيد، فإن الماضي من العقوبة لا يندفع بفعل ما أكره

عليه، ولا يخشى من وقوعه، وإنما أبيح له فعل المكره عليه دفعًا لما يتوعده به من العقوبة فيما بعد،...ولأنه متى توعده بالقتل وعلم أنه يقتله فلم يبح له الفعل أفضى إلى قتله وإلقائه بيده إلى التهلكة، ولا يفيد ثبوت الرخصة بالإكراه شيئًا وثبوت الإكراه في حق من نيل بشيء من العذاب لا ينفي ثبوته في حق غيره.اهـ.

وفرق القاضي أبو يعلى بين التوعد بالقتل والتوعد بغيره فقال في كتاب الروايتين والوجهين (٢/ ١٥٦): فإن كان التوعد بالقتل، وكان ذلك من قاهر مقتدر فيجب أن يقال: إنه إكراه، رواية واحدة، لأن الفعل إذا وقع لم يمكن رفعه، وليس كذلك، إذا كان التوعد بضرب وحبس لأن الفعل إذا وقع يمكن رفعه.اهـ.

وقال الإمام مالك كما في تفسير القرطبي (١٠/ ١٩٠): والوعيد المخوف إكراه وإن لم يقع، إذا تحقق ظلم ذلك المعتدي وإنفاذه لما يتوعد به.اهـ.

وقال أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن (٣/ ١١٧٧): وقد اختلف الناس في التهديد، هل هو إكراه أم لا؟ والصحيح أنه إكراه، فإن القادر الظالم إذا قال لرجل: إن لم تفعل كذا وإلا قتلتك، وضربتك أو أخذت مالك، أو سجنتك، ولم يكن له من يحميه إلا الله، فله أن يقدم على الفعل، ويسقط عنه الإثم في الجملة، إلا في القتل.اهـ. كل ما سبق يتعلق بوسيلة الإكراه، وهناك جانب آخر يتعلق بالمكره عليه، نبه إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال كما مجموعة التوحيد (ص٢٩٧): تأملت المذاهب، فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكره، فليس المعتبر في كلمات الكفر، كالإكراه المعتبر بالهبة ونحوها، فإن أحمد قد نص في غير موضع على أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب وقيد، ولا يكون الكلام إكراهًا، وقد نص على أن المرأة

لو وهبت زوجها صداقها بمسكنه فلها أن ترجع على أنها لا تهب إلا إذا خافت أن يطلقها أو يسيء عشرتها، فجعل خوف الطلاق أو سوء العشرة إكراهًا، ولفظه في موضع آخر لأنه أكرهها، ومثل هذا لا يكون إكراهًا على الكفر، فإن الأسير إن خشي الكفار أن لا يزوجوه أو أن يحولوا بينه وبين امرأته لم يبح له التكلم بكلمة الكفر.اهـ. فشيخ الإسلام - رَحِمَهُ اللَّهُ - يفرق بين الإكراه على الكفر، والإكراه على غيره من الأحكام، فمن أكره على الكفر لا يباح له التكلم بذلك إلا بعد التعذيب، أما غير ذلك فيكفي فيه الكلام والتخويف، إذًا نستنتج مما سبق ما يلي: أن الوعيد يعتبر إكراهًا، وخاصة الوعيد بالقتل، يستثنى من ذلك الإكراه على الكفر فلا يكفي فيه مجرد الوعيد إلا إن كان وعيدًا بالقتل من قادر يغلب على الظن تنفيذ ما يعد به.

متى يكون الإكراه عذرًا (شروط الإكراه): ليس كل من ادعى الإكراه يقبل منه، بل لابد من شروط يجب توافرها ليكون الإكراه معتبراً ومؤثرًا فيما يقدم عليه المكلف من أقوال أو أفعال أو تروك، وهذه الشروط هي:

أ- أن يكون المكره قادرًا على تحقيق ما أوعد به، لأن الإكراه لا يتحقق إلا بالقدرة، فإن لم يكن قادرًا لم يكن للإكراه معنى ولا اعتبار.

ب- أن يكون المكره عاجزًا عن الدفع عن نفسه بالهرب أو الاستغاثة أو المقاومة ونحو ذلك.

ج- أن يغلب على ظنه وقوع الوعيد، إن لم يفعل ما طلب منه.

د- أن يكون مما يستضر به المكره ضررًا كثيرًا كالقتل والضرب الشديد، والقيد والحبس الطويلين، فأما الشتم والسب فليس بإكراه رواية واحدة، وكذلك أخذ المال اليسير، فأما الضرر اليسير فإن كان في حق من لا يبالي به

فليس بإكراه، وإن كان من ذوي المروءات على وجه يكون إخراقًا بصاحبة وغضًا له وشهرة في حقه فهو كالضرب الكثير في حق غيره.

وفي هذا المعنى يقول السرخسي في المبسوط (٧/ ١١٩): والحد في الحبس الذي هو إكراه في هذا ما يجيء منه الاغتمام البين، وفي الضرب الذي هو إكراه ما يجد منه الألم الشديد، وليس في ذلك حد يزاد عليه ولا ينقص عنه، لأن معنى المقادير بالرأي لا يكون، ولكن على قدر ما يرى الحاكم إذا رفع ذلك إليه فما رأي أنه إكراه أبطل الإقرار به لأن ذلك يختلف باختلاف أحوال الناس، فالوجيه الذي يضع الحبس من جاهه، تأثير الحبس والقيد يومًا في حقه فوق تأثير حبس شهر في حق غيره فلهذا لم يقدر منه بشيء وجعلناه موكلًا إلى رأي القاضي لينبني ذلك على حال من ابتلي به.اهـ. إذا ليس هناك حد منضبط إذا وجد تحقق الإكراه، بل ذلك بحسب الشخص ووسيلة الإكراه، وإنما المعتبر في ذلك وجود الضرر البدني على جسمه، والنفسي من الخوف والرهبة في نفسه بسبب التهديد والوعيد ونحوه. (فرع): وهو ما يهمنا في هذا المبحث: حكم الإكراه على الكفر: الأصل في ذلك قوله سبحانه: (من كفر من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرًا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) والمشهور في سبب نزولها ما رواه أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه قال: (أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، ثم تركوه، فلما أتى رسول الله ﷺ، قال: ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير قال: كيف تجد قلبك، قال: مطمئنًا بالإيمان، قال: إن عادوا فعد)[(١)].

(١) روي من عده وجوه لا يثبت شئ منها كما في الإستيعاب في بيان الأسباب (٢/ ٤٢٣ - =

قال أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن (٣/ ١٩٢): هذا أصل في جواز إظهار كلمة الكفر في حال الإكراه.اهـ. بل إن هذا أصل العذر بالإكراه في الأصول والفروع، قال ابن العربي أحكام القرآن (٣/ ١١٨٠): لما سمح الله تعالى في الكفر به، وهو أصل الشريعة، عند الإكراه، ولم يؤاخذ به، حمل العلماء عليه فروع الشريعة فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به.اهـ.

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٨٧): (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظة مكرهًا، لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.اهـ.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٩٦): (وقلبه مطمئن بالإيمان) أي: ساكن إليه راض به، (ولكن من شرح بالكفر صدرًا) قال قتادة: من أتاه بإيثار واختيار، وقال ابن قتيبة: من فتح له صدره بالقبول، وقال أبو عبيدة: المعنى: من تابعته نفسه، وانبسط إلى ذلك، يقال: ما ينشرح صدري بذلك، أي: ما يطيب.اهـ. وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ١٩٦): (ولكن من شرح بالكفر صدرًا) أي اعتقد وطابت به نفسه، واطمأن إليه) إذًا لابد من طمأنينة القلب بالإيمان، وبغض وكراهية الكفر، وهذا شرط مجمع عليه[1].

=

٤٢٦) ولكن قال الحافظ في الفتح (١٢/ ٣١٢): وهذه المراسيل تقوي بعضها ببعض، وقد نقل ابن عبد البر في الإستيعاب في ترجمة عمار بن ياسر: إجماع أهل التفسير عليه، وقال الحافظ في الإصابة في ترجمة عمار بن ياسر: واتفقوا على أنه نزلت فيه هذه الآية.

(١) اشترط بعض الفقهاء للنطق بكلمة الكفر، أن يكون الإكراه تامًا (ملجئا)، واشترط آخرون التعريض والتورية بالكفر حال الإكراه، ولم يسندوا كلامهم بأدلة معتبرة، انظر بعض هذه الأقوال في بدائع الصنائع ٧/ ١٧٧، حاشية ابن عابدين ٦/ ١٣٤، أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٧٨، وأحكام الجصاص ٣/ ١٩٢، ١٩٤، والإكراه وأثره في =

قال ابن بطال كما في الفتح (١٢/ ٣١٤) تبعًا لابن المنذر: (أجمعوا على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل فكفر وقلبه مطمئن بالإيمان أنه لا يحكم عليه بالكفر ولا تبين منه زوجته.اهـ.

وقال ابن العربي أحكام القرآن (٣/ ١١٧٨): وأما الكفر بالله، فذلك جائز له (أي المكرَه) بغير خلاف على شرط أن يلفظ وقلبه منشرح بالإيمان، فإن ساعد قلبه في الكفر لسانه كان آثمًا كافرًا، لأن الإكراه لا سلطان له في الباطن، وإنما سلطانه على الظاهر.اهـ.

لكن ينبغي أن نعلم، أنه وإن جاز قول الكفر أو فعله بسبب الإكراه إلا أن الصبر أفضل وأعظم أجرًا، قال ابن بطال كما في الفتح (١٢/ ٣١٧): أجمعوا على أن من أكره على الكفر واختار القتل، أنه أعظم أجرًا عند الله ممن اختار الرخصة.اهـ. وقال ابن العربي في أحكام القرآن (٣/ ١١٧٩): إن الكفر وإن كان بالإكراه جائزًا عند العلماء فإن من صبر على البلاء ولم يفتتن حتى قتل فإنه شهيد، ولا خلاف في ذلك، وعليه تدل آثار الشريعة التي يطول سردها.اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٨٨): والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله.اهـ.

واستدلوا لذلك بأحاديث كثيرة من أشهرها حديث خباب بن الأرت ﵁ عند البخاري (٦٩٤٣) وفيه قوله ﷺ: (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه). قال

=

التصرفات، د. عيسى شقره ١١٥ – ١١٨، والإكراه وأثره في الأحكام د. عبد الفتاح الشيخ ٦٣ – ٦٦ .

القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٨٨): فوصفه ﷺ هذا عن الأمم السالفة على جهة المدح لهم، والصبر على المكروه في ذات الله، وأنهم لم يكفروا في الظاهر، وتبطنوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن أنفسهم، وهذه حجة من آثر الضرب والقتل والهوان على الرخصة.اهـ.

ويتأكد الصبر في حق من يقتدي به العوام ويتبعونه في تصرفاته وأقواله، فلو تلفظ مثل هذا بالكفر رخصة مع احتمال أن الكثير من العوام لا يعرفون حقيقة الأمر، وهو أن ما أظهره خلاف ما يبطنه، فيؤدي هذا التصرف إلى فتنتهم، بل قد يصل الأمر إلى التحريم في حقه بسبب ما يسببه من فساد، وفي هذا المعنى قول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل كما في البحر المحيط (٢/ ٤٢٤) حين سئل عن العالم وهل يأخذ بالتقية قال: إذا أجاب العالم تقية، والجاهل يجهل فمتى يتبين الحق؟.

المسألة الرابعة: المانع الرابع: التأويل

أولا: المراد به في اللغة: مادة (أول) في كل استعمالاتها اللغوية تفيد معنى الرجوع، والعود، جاء في اللسان (١١/ ٣٢-٣٤): الأول: الرجوع: آل الشيء يؤول أولًا ومآلًا: رجع، وأول إليه الشيء: رجعه، وآلت عن الشيء: ارتددت والإيل والأيل: من الوحش، وقيل هو الوعل، قال الفارسي: سمي بذلك لمآله إلى الجبل يتحصن فيه وقال أبو عبيد في قوله: (وما يعلم تأويله إلا الله)) قال: التأويل المرجع والمصير، مأخوذ من آل يؤول إلى كذا أي صار إليه، وأولته: صيرته إليه.اهـ. وفي تهذيب اللغة (١٥/ ٤٣٧): وأما التأويل فهو تفعيل من أول يؤول تأويلًا وثلاثيه آل يؤول: أي رجع وعاد.اهـ. وقال ابن فارس فيم قاييس اللغة (١/ ١٥٩): أول الحكم إلى أهله: أي أرجعه ورده إليهم وآل الجسم إذا

نحف، أي رجع إلى تلك الحالة، ومن هذا الباب تأويل الكلام وهو عاقبته وما يؤول إليه، وذلك قوله تعالى: (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) ويقول: ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم.اهـ.

إذا التأويل هو ما أول إليه أو يؤول إليه، أو تأول إليه، والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويؤول إلى حقيقته التي هي عين المقصود به، وهذا هو المعنى الوارد في الكتاب والسنة.

ثانيا: أما معنى التأويل في اصطلاح العلماء

فله ثلاثة معان:

الأول: أن يراد بالتأويل حقيقة ما يؤول إليه الكلام، وإن وافق ظاهره، وهذا هو المعنى الذي يراد بلفظ التأويل في الكتاب والسنة، كقوله تعالى: (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق)، ومنه قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند البخاري، ومسلم (كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا ولك الحمد: اللهم اغفر لي، يتأول القرآن).

الثاني: يراد بلفظ التأويل: (التفسير) وهو اصطلاح كثير من المفسرين، ولهذا قال مجاهد - إمام أهل التفسير -: إن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه، فإنه أراد بذلك تفسيره وبيان معانيه، وهذا مما يعلمه الراسخون.

الثالث: أن يراد بلفظ (التأويل): صرف اللفظ عن ظاهره الذي يدل عليه ظاهره إلى ما يخالف ذلك، لدليل منفصل يوجب ذلك، وهذا التأويل لا يكون إلا مخالفًا لما يدل عليه اللفظ ويبينه، وتسمية هذا تأويلًا لم يكن في عرف

السلف، وإنما سمي هذا وحده تأويلًا طائفة من المتأخرين الخائضين في الفقه وأصوله والكلام، وهذا هو التأويل الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض، ورموا في آثارهم بالشهب، وهذا التأويل الذي عناه أكثر من تكلم من المتأخرين في مسألة الصفات والقدر ونحوها.

وهو من أعظم أصول الضلال والانحراف حيث صار ذريعة لغلاة الجهمية والباطنية والمتصوفة في تأويل التكاليف الشرعية على غير مقصودها أو إسقاطها أو تأويل جميع الأسماء والصفات.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨٦-٢٨٧): أن مدعي التأويل أخطئوا في زعمهم أن العلماء يعلمون التأويل وفي دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذي هو تحريف الكلم عن مواضعه؛ فإن الأولين لعلمهم بالقرآن والسنن وصحة عقولهم وعلمهم بكلام السلف وكلام العرب علموا يقينا أن التأويل الذي يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن؛ فإنهم حرفوا الكلم عن مواضعه وصاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون الأخبار والأوامر وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر حتى عن أكثر أحوال الأنبياء وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء في اليوم الآخر وفي آيات القدر ويتأولون آيات الصفات وقد وافقهم بعض متأخري الأشعرية على ما جاء في بعض الصفات وبعضهم في بعض ما جاء في اليوم الآخر وآخرون من أصناف الأمة وإن كان تغلب عليهم السنة فقد يتأولون أيضا مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه.اهـ.

وليس مقصودنا الكلام عن فرق التأويل ومراتبها، أو الرد التفصيلي على تأويل بعض النصوص، وإنما حديثنا هنا يقتصر على حكم من وقع بالكفر

متأولًا بسبب بعض الشبه هل يعذر؟

نعم العذر بالتأويل متفق عليه عند الأئمة -كالعذر بالجهل والخطأ- وإنما الخلاف في حدود التأويل الذي يعذر صاحبه والذي لا يعذر.

قال ابن حزم في الدره فيما يجب اعتقاده (ص٤١٤): ومن بلغه الأمر عن رسول الله ﷺ، من طريق ثابتة، وهو مسلم، فتأول في خلافه إياه، أو رد ما بلغه بنص آخر، فلما لم تقم عليه الحجة في خطئه في ترك ما ترك، وفي الأخذ بما أخذ، فهو مأجور معذور، لقصده إلى الحق، وجهله به، وإن قامت عليه الحجة في ذلك، فعاند فلا تأويل بعد قيام الحجة.اهـ.

وقرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مواضع، واستدل بقصة الرجل من بني إسرائيل، وقدامة بن مظعون وغيرها، قال في مجموع الفتاوى (٣/ ٢٣١): والتكفير هو من الوعيد، فإنه وإن كان القول تكذيبًا لما قاله الرسول ﷺ فقد يكون الرجل حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص، أو سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها، وإن كان مخطئًا، وكنت دائمًا أذكر الحديث الذي في الصحيحين في الرجل الذي قال: (إذا أنا مت فأحرقوني، ثم أسحقوني، ثم ذروني في اليم، فوالله لأن قدر الله على ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا من العالمين، ففعلوا به ذلك، فقال الله له ما حملك على ما فعلت، قال: خشيتك، فغفر له) فهذا الرجل شك في قدرة الله، وفي إعادته إذا ذري، بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلًا لا يعلم ذلك، وكان مؤمنًا يخاف الله أن يعاقبه، فغفر له بذلك، والمتأول من أهل الاجتهاد الحريص على متابعة الرسول ﷺ أولى بالمغفرة من

مثل هذا.اهـ.

وقال في مجموع الفتاوى (٧/ ٦١٩): إن القول قد يكون كفرًا كمقالات الجهمية الذين قالوا: إن الله لا يتكلم ولا يرى في الآخرة، ولكن قد يخفى على بعض الناس أنه كفر فيطلق القول بتكفير القائل، كما قال السلف: من قال القرآن مخلوق فهو كافر، ومن قال: إن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر، ولا يكفر الشخص المعين حتى تقوم عليه الحجة كما تقدم، كمن جحد وجوب الصلاة، والزكاة، واستحل الخمر والزنا وتأول، فإن ظهور تلك الأحكام بين المسلمين أعظم من ظهور هذه، فإن كان المتأول المخطيء في تلك لا يحكم بكفره إلا بعد البيان له واستتابته - كما فعل الصحابة في الطائفة الذين استحلوا الخمر)، ففي غير ذلك أولى وأحرى.اهـ.

وقال في الرد على البكري (ص٢٥٨): وكذلك التكفير حق الله فلا يكفر إلا من كفره الله ورسوله، وأيضًا فإن تكفير الشخص المعين، وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية التي يكفر من خالفها، وإلا فليس كل من جهل شيئًا من الدين يكفر، ولهذا لما استحل طائفة من الصحابة والتابعين كقدامة بن مظعون وأصحابه شرب الخمر وظنوا أنها تباح لمن عمل صالحًا على ما فهموه من آية المائدة)[1]، واتفق علماء الصحابة كعمر وعلي وغيرهما على أنهم

(١) الآية هي قوله تعالى: (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ..الآية) المائدة ٩٣، وأسناد هذه الوقعة صحيح، وقد أخرجها عبد الرزاق في المصنف (٩/ ٢٤٠، رقم ١٧٠٧٦)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ٨٤٢ - ٨٤٩)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٥/ ٥٦)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٥)، والحاكم (٣/ ٣٧٩)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ٣١٥ - ٣١٦) وأخرجها أبو الشيخ وابن مردويه وابن المنذر كما في الدر المنثور (٣/ ١٦١، ١٧٤)، وابن السكن كما في الإصابة (٣/ ٢٢٨، ٢٢٩)، =

يستتابون، فإن أصروا على الاستحلال كفروا، وإن أقروا به جلدوا، فلم يكفروهم بالاستحلال ابتداءًا لأجل الشبهة التي عرضت لهم حتى يتبين لهم الحق.اهـ.

وكذلك الحكم على كل من استحل محرمًا من المحرمات الظاهرة المتواترة، إذا لم تقم عليه الحجة، وعرضت له شبهات من جنس ما عرض لهؤلاء، فالتكفير يكون بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة.

قال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٣٦٧) بعدما بين كفر من جحد فريضة من فرائض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته: وأما من جحد ذلك جهلًا، أو تأويلًا يعذر فيه صاحبه، فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذي جحد قدرة الله عليه، أمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح، ومع هذا فقد غفر الله له، ورحمه لجهله، إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه، ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادًا أو تكذيبًا.اهـ.

وممن قرر ذلك أيضًا ابن الوزير رَحِمَهُ اللَّهُ واستدل بأدلة العذر بالخطأ فقال في إيثار الحق على الخلق (ص٤٣٥): قد تكاثرت الآيات والأحاديث في العفو عن الخطأ، والظاهر أن أهل التأويل أخطأوا ولا سبيل إلى العلم بتعمدهم لأنه من علم الباطن الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، في خطاب أهل الإسلام خاصة: (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم)، وقال تعالى: (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)وصح في تفسيرها أن الله تعالى قال: قد فعلت في حديثين صحيحين، واستدل بقصة الرجل من بني إسرائيل حيث قال عنهما في

=

والجوزجاني كما في منهاج السنة (٦/ ٨٤)، وفي بعض الروايات ذكر قدامة، وبعضها لم يذكر.

نفس المصدر السابق (ص٤٣٦): وهذا أرجى حديث لأهل الخطأ في التأويل)، واستدل بقوله تعالى: (ولكن من شرح بالكفر صدرًا)، حيث قال: إن المتأولين غير كفار لأن صدورهم لم تنشرح بالكفر قطعًا أو ظنًا أو تجويزًا أو احتمالًا)، وكذلك استدل بقول أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه عن الخوارج: (من الكفر فروا)، فقال: (فكذلك جميع أهل التأويل من أهل الملة، وإن وقعوا في أفحش البدع والجهل)، فقد علم منهم أن حالهم في ذلك هي حال الخوارج).

(فرع): التأويل الذي يعذر صاحبه والذي لا يعذر

هناك مسائل وأصول لا خلاف في عذر المتأول فيها ممن لم تقم عليه الحجة، ومن أبرز ذلك التأويل في استحلال المحرمات الظاهرة المتواترة، أو جحد وجوب الواجبات الظاهرة المتواترة، أو بعض تأويلات المعتزلة والمرجئة والجهمية، ونحوهم حيث يستندون ببعض الشبه النصية، وكذلك هناك تأويلات لا خلاف في عدم العذر بها كتأويلات الباطنية، والفلاسفة وغيرهم من الغلاة، وبين ذلك أصول تختلف الأنظار والاجتهادات في العذر من عدمه. يقول الإمام الشافعي في الأم (٦/ ٢٠٥، ٢٠٦): حاكيًا الإجماع على قبول شهادة أهل الأهواء وإن تأولوا واستحلوا المحرمات: فلم نعلم أحدًا من سلف الأمة يقتدى به، ولا من التابعين بعدهم رد شهادة أحد بتأويل وإن خطأه وضلله، ورآه استحل فيه ما حرم عليه، ولا شهادة أحد بشيء من التأويل كان له وجه يحتمله، وإن بلغ فيه استحلال الدم والمال أو المفرط من القول، وذلك أنا وجدنا الدماء أعظم ما يعرض الله بها بعد الشرك، ووجدنا متأولين يستحلونها بوجوه، وقد رغب لهم نظراؤهم عنها وخالفوهم فيها، ولم يردوا شهادتهم بما رأوا من خلافهم فكل مستحل بتأويل من قول أو غيره فشهادته ماضية ولا ترد

من خطأ في تأويله.اهـ. وهذا الكلام من الإمام الشافعي يدل على إعذاره المتأولين ممن يستحلون المحرمات، ولو كانوا كفارًا لم تقبل شهادتهم، وأطال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان أن الوعيد لا يلحق المعين إلا بتوفر شروط وانتفاء الموانع، وضرب لذلك أمثلة كثيرة منها، من استحل بعض صور الربا ببعض التأويلات، كما أفتى بذلك بعض أئمة السلف.

فقال في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٦٣ – ٢٦٨): لا يحل لمسلم أن يعتقد أن أحدًا منهم بعينه أو من قلده بحيث يجوز تقليده تبلغهم لعنة آكل الربا، لأنهم فعلوا ذلك متأولين تأويلًا سائغًا في الجملة[1]، وكذلك قال عن بعض ما يستحلون بعض الأشربة من جنس الخمر: وقد كان رجال من أفاضل الأمة علمًا وعملًا من الكوفيين يعتقدون أن لا خمر إلا من العنب، وأن ما سوى العنب والتمر لا يحرم من نبيذه إلا مقدار ما يسكر، ويشربون ما يعتقدون حله، فلا يجوز أن يقال: إن هؤلاء مندرجون تحت الوعيد، لما كان لهم من العذر الذي تأولوا به، أو لموانع أخرى وكذلك قوله ﷺ –عند البخاري ومسلم–: (إذا التقى المسلمان بسيفهما، فالقاتل والمقتول في النار)، يجب العمل به في

---

(١) صح عن النبي ﷺ أنه قال: ((لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه) وصح عنه من غير وجه أنه قال لمن باع صاعين بصاع يدا بيد: (أوه عين الربا) كما قال: (البر بالبر ربا، إلا هاء وهاء.) الحديث، وهذا يوجب دخول نوعي الربا: ربا الفضل وربا النسيئة في الحديث. ثم إن الذين بلغهم قول النبي ﷺ: (إنما الربا في النسيئة) فاستحلوا بيع الصاعين بالصاع يدا بيد، مثل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأصحابه الذين هم من صفوة الأمة علما وعملا، لا يحل لمسلم أن يعتقد أن أحدا منهم بعينه، أو من قلده بحيث يجوز تقليده تبلغهم لعنة آكل الربا؛ لأنهم فعلوا ذلك متأولين تأويلا سائغا في الجملة) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٦٣) باختصار يسير، وقد أطنب ابن تيمية في ذكر أمثلة عديدة. انظر مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٦٤ – ٢٦٨)، والاستقامة (٢/ ١٨٩).

تحريم قتال المؤمنين بغير حق، ثم إنا نعلم أن أهل الجمل وصفين ليسوا في النار، لأن لهم عذرًا وتأويلًا في القتال، وحسنات منعت المقتضى أن يعمل عمله.. إلى أن يقول: وهذا باب واسع، فإنه يدخل فيه جميع الأمور المحرمة بكتاب أو سنة إذا كان بعض الأمة لم يبلغهم أدلة التحريم فاستحلوها، أو عارض تلك الأدلة عندهم أدلة أخرى رأوا رجحانها عليها، مجتهدين في ذلك الترجيح بحسب عقلهم وعملهم، فإن التحريم له أحكام من التأثيم والذم والعقوبة والفسق وغير ذلك، لكن شروط وموانع.اهـ.

وقال ابن الملقن في التوضيح (٣١/ ٥٨٣): ولا خلاف بين العلماء أن كل متأول معذور بتأويله غير مأثوم فيه إذا كان تأويله ذلك سائغا في لسان العرب، أو كان له وجه في العلم، ألا ترى أنه عليه السلام لم يعنف عمر في تلبيبه لهشام وعذره في ذلك؛ لصحة مراد عمر واجتهاده.... وكذا حديث ابن مسعود، فإنه عليه السلام عذر أصحابه في تأويلهم الظلم في الآية بغير الشرك لجوازه في التأويل، وكذا حديث ابن الدخشن فإنهم اشتدوا على نفاقه بصحبته للمنافقين ونصيحته لهم، فبين لهم الشارع صدقه ولم يعنفهم في تأويلهم، وكذا في حديث حاطب عذره الشارع في تأويله وشهد بصدقه.اهـ.

وعلق الشوكاني في السيل الجرار (٤/ ٣٧٣) على عبارة صاحب كتاب الأزهار: (والمرتد بأي وجه .. كفر) قائلا: أراد المصنف إدخال كفار التأويل اصطلاحا في مسمى الردة، وهذه زلة قدم يقال عندها لليدين وللفم، وعثرة لا تقال، وهفوة لا تغتفر، ولو صح هذا لكان غالب من على ظهر البسيطة من المسلمين مرتدين.اهـ.

إذًا هؤلاء وأمثالهم ممن استحل بعض المحرمات الظاهرة المتواترة كشرب

الخمر والربا والقتل لا يلحقهم الوعيد الوارد من اللعنة أو التكفير أو غيره، بسبب تأولهم وتمسكهم ببعض الشبهات حتى تقام عليهم الحجة وتزول عنهم الشبهة.

وقد سبق نقل بعض النقولات عن الأئمة، عند بحث (العذر بالجهل) وبينا عدم التفريق بين العقائد والأحكام في ذلك، وفي الفقرة السابقة إشارة من ابن تيمية وابن القيم حول بعض المسائل العقدية التي يعذر المتأول فيها، إن لم تقم عليه الحجة، فلتراجع وسيأتي مزيد من إيضاح لذلك، في بيان الموقف من المتأولين، في الفقرة التالية.

أما التأويلات التي لا يعذر أصحابها، فتأويلات الباطنية والفلاسفة ونحوهم ممن حقيقة أمرهم تكذيب للدين جملة وتفصيلا، أو تكذيب لأصل لا يقوم الدين إلا به كإنكار الفلاسفة لحشر الأجساد وقولهم إن الله سبحانه لا يعلم الجزئيات، أو تأويل الفرائض والأحكام بما يخرجها عن حقيقتها وظاهرها، أو الاعتقاد بألوهية بعض البشر كتأليه علي أو الحاكم بأمره كما عند النصيرية والدروز، أو القول بتحريف القرآن، أو تأويل جميع الأسماء والصفات أو القول بسقوط التكاليف عن البعض ونحو ذلك من الاعتقادات الغالية التي لا تعتمد على أي مستند نصي أو لغوي ولو من وجه محتمل.

قال ابن حزم في الدرة (ص: ٤١٤): وأما من كان من غير أهل الإسلام من نصراني أو يهودي أو مجوسي، أو سائر الملل، أو الباطنية القائلين بإلهية إنسان من الناس، أو بنوة أحد من الناس، بعد رسول الله ﷺ، فلا يعذرون بتأويل أصلا، بل هم كفار مشركون على كل حال.اهـ.

وقال قوام السنة الأصفهاني في الحجة في بيان المحجة (٢/ ٥١٠، ٥١١):

المتأول إذا أخطأ وكان من أهل عقد الإيمان، نظر في تأويله، فإن كان قد تعلق بأمر يفضي به إلى خلاف بعض كتاب الله أو سنة يقطع بها العذر، أو إجماع فإنه يكفر ولا يعذر؛ لأن الشبهة التي يتعلق بها من هذا ضعيفة لا يقوى قوة يعذر بها؛ لأن ما شهد له أصل من هذه الأصول، فإنه في غاية الوضوح والبيان، فلما كان صاحب هذه المقالة لا يصعب عليه درك الحق، ولا يغمض عنده بعض موضع الحجة لم يعذر في الذهاب عن الحق، بل عمل خلافه في ذلك على أنه عناد وإصرار، ومن تعمد خلاف أصل من هذه الأصول، وكان جاهلا لم يقصد إليه من طريق العناد فإنه لا يكفر؛ لأنه لم يقصد اختيار الكفر، ولا رضي به، وقد بلغ جهده، فلم يقع له غيره ذلك، وقد أعلم الله سبحانه أنه لا يؤاخذ إلا بعد البيان، ولا يعاقب إلا بعد الإنذار فقال تعالى: وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون [التوبة: ١١٥]. فكل من هداه الله ﷻ، ودخل في عقد الإسلام، فإنه لا يخرج إلى الكفر إلا بعد البيان.اهـ.

وقال الغزالي في فيصل التفرقة (ص١٤٧): ولابد من التنبيه على قاعدة وهو أن المخالف قد يخالف نصا متواترا، ويزعم أنه مؤول، مثاله: ما في كلام بعض الباطنية أن الله تعالى واحد بمعنى أنه يعطي الوحدة ويخلقها، وعالم بمعنى أنه يعطى العلم لغيره ويخلقه، وموجود بمعنى أنه يوجد غيره، وأما أن يكون واحدا في نفسه، وموجودا، وعالما على معنى اتصافه فلا، وهذا كفر صراح؛ لأن حمل الوحدة على اتحاد الوحدة ليس من التأويل في شيء، ولا تحتمله لغة العرب أصلا فأمثلة هذه المقالات تكذيبات عبر عنها بالتأويلات.اهـ.

وقال ابن الوزير في إيثار الحق (ص٤١٥): وكذلك لا خلاف في كفر من جحد ذلك المعلوم ضرورة للجميع، وتستر باسم التأويل فيما لا يمكن تأويله

كالملاحدة في تأويل جميع الأسماء الحسنى بل جميع القرآن والشرائع والمعاد الأخروي من البعث والقيامة والجنة والنار، وإنما يقع الإشكال في تكفير من قام بأركان الإسلام الخمسة المنصوص على إسلام من قام بها إذا خالف المعلوم ضرورة للبعض أو للأكثر لا المعلوم له، وتأول وعلمنا من قرائن أحواله أنه ما قصد التكذيب أو التبس ذلك علينا في حقه وأظهر التدين والتصديق بجميع الأنبياء والكتب الربانية مع الخطأ الفاحش في الاعتقاد، ومضاده الأدلة الجلية، ولكن لم يبلغ مرتبة الزنادقة المقدمة.اهـ.

وقال في العواصم والقواصم (٤/ ١٧٦): أما من كذب اللفظ المنزل أو جحده، كفر متى كان ممن يعلم بالضرورة أنه يعلمه بالضرورة، وإنما الكلام في طوائف الإسلام الذين وافقوا على الإيمان بالتنزيل، وخالفوا في التأويل فهؤلاء لا يكفر منهم إلا من تأويله تكذيب، ولكن سماه تأويلًا مخادعة للمسلمين ومكيدة للدين كالقرامطة الذين أنكروا وصف الله تعالى بكونه موجودًا وعالمًا وقادرًا ونحو ذلك من الصفات التي علم الكافة بالضرورة أن النبي ﷺ جاء بها على ظاهرها.اهـ.

وقال الملا القاري الحنفي في شرح الفقه الأكبر (ص٦٩): وأما من يؤول النصوص الواردة في حشر الأجساد، وحدوث العالم، وعلم الباري بالجزئيات فإنه يكفر لما علم قطعًا من الدين أنها على ظواهرها بخلاف ما ورد في عدم خلود أهل الكبائر في النار لتعارض الأدلة في حقهم.اهـ.

وذكر ابن حزم في الفصل (٢/ ١١٤) أمثلة كثيرة لبعض الطوائف الغالية المنسوبة إلى الإسلام، وبعض ضلالاتها فقال: وقد تسمى باسم الإسلام من أجمع جميع فرق الإسلام على أنه ليس مسلمًا، مثل طوائف من الخوارج غلوا

فقال: إن الصلاة ركعة بالغداة، وركعة بالعشي فقط، وقالوا: إن سورة يوسف ليست من القرآن، وطوائف كانوا من المعتزلة ثم غلوا فقالوا بتناسخ الأرواح، وآخرون قالوا: إن النبوة تكتسب بالعمل الصالح، وآخرون قالوا قد يكون في الصالحين من هو أفضل من الأنبياء، وأن من عرف الله حق معرفته فقد سقطت عنهم الأعمال والشرائع وقال بعضهم بحلول الباري تعالى في أجسام خلقه كالحلاج وغيره.اهـ.

وقال السعدي في الإرشاد (ص٢٠٩): هؤلاء المبتدعة المخالفون لما ثبتت به النصوص الصريحة والصحيحة، أنهم في هذا الباب أنواع، من كان منهم عارفا بأن بدعته مخالفة للكتاب والسنة فتبعها ونبذ الكتاب والسنة وراء ظهره، وشاق الله ورسوله من بعد ما تبين له الحق، فهذا لا شك في تكفيره، ومن كان منهم راضيا ببدعته معرضا عن طلب الأدلة الشرعية، وطلب ما يجب عليه من العلم الفارق بين الحق والباطل ناصرا لها، رادا ما جاء به الكتاب والسنة مع جهله وضلاله، واعتقاده أنه على الحق، فهذا ظالم فاسق بحسب تركه ما أوجب الله عليه، وتجرئه على ما حرم الله تعالى ومنهم من هو دون ذلك، ومنهم من هو حريص على اتباع الحق واجتهد في ذلك، ولم يتيسر له من يبين له ذلك فأقام على ما هو عليه، ظانا أنه صواب من القول، غير متجرئ على أهل الحق بقوله، ولا فعله، فهذا ربما كان مغفورا له خطؤه والله أعلم... ثم يكشف السعدي الفرق بين أهل التأويل السائغ وغيرهم فيقول: والمقصود أنه لا بد من هذا الملحظ في هذا المقام؛ لأنه وجد بعض التفاصيل التي كفر أهل العلم فيها من اتصف بها، وثم أخر من جنسها لم يكفروه بها، والفرق بين الأمرين أن التي جزموا بكفره بها لعدم التأويل المسوغ وعدم الشبهة المقيمة لبعض العذر،

والتي فصلوا فيها القول، لكثرة التأويلات الواقعة فيها.اهـ.

وبعد الإشارة إلى الأصول التي يعذر المتأول بها، والأصول التي لا يعذر المتأول بها، يرد علينا تساؤل مهم، وهو هل هناك حد منضبط نفرق به بين ما يعذر صاحبه، وما لا يعذر؟

في حدود بحثي ومطالعتي المحدودة، لم يتبين لي حد أو ضابط يمكن أن يكون فاصلًا في ذلك، سوى ما سبقت الإشارة إليه من عمومات قال بها بعض العلماء، ولكن الاعتبار في ذلك يكون بقيام الحجة أو عدمها، وذلك بوجود من يقيم الحجة ويزيل الشبهة عن المعين حتى يتبين له الحق، أو يصر على ضلالة وباطله فيحكم بردته.

الموقف من أهل التأويل

الخلاف بين العلماء في حدود التأويل المقبول وغير المقبول، أدى إلى خلاف بينهم في الحكم على الفرق المتأولة، ونحن لن نبحث تفصيل الحكم على كل فرقة، وهل الراجح تكفيرها أو عدمه، وإنما مقصودنا الإشارة المجملة إلى إعذار الأئمة للمتأولين المعينين، مهما بلغ خطؤهم إذا لم تقم عليهم الحجة.

يلخص شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ موقف الأئمة من الفرق المشهورة فيقول في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥١، ٣٥٢، ٢٨٢): وأما السلف والأئمة فلم يتنازعوا في عدم تكفير المرجئة والشيعة المفضلة ونحو ذلك، ولم تختلف نصوص أحمد في أنه لا يكفر هؤلاء، وإن كان من أصحابه من حكى في تكفير جميع أهل البدع من هؤلاء وغيرهم خلافًا عنه، أو في مذهبه، حتى أطلق بعضهم تخليد هؤلاء وغيرهم وهذا غلط على مذهبه، وعلى الشريعة، ومنهم من لم

يكفر أحدًا من هؤلاء إلحاقًا بأهل المعاصي، قالوا: فكما أن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم لا يكفرون أحدًا بذنب، فكذلك لا يكفرون أحدًا ببدعة، والمأثور عن السلف والأئمة إطلاق أقوال بتكفير الجهمية المحضة الذين ينكرون الصفات، وأما الخوارج والروافض ففي تكفيرهم نزاع وتردد عن أحمد وغيره، وأما القدرية الذين ينفون الكتابة والعلم فكفروهم، ولم يكفروا من أثبت العلم ولم يثبت خلق الأفعال.اهـ.

ثم بين سبب التنازع، فقال مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨٧، ٤٨٨): وسبب هذا التنازع تعارض الأدلة، فإنهم يرون أدلة توجب إلحاق أحكام الكفر بهم، ثم إنهم يرون من الأعيان، الذين قالوا تلك المقالات من قام به من الإيمان ما يمتنع أن يكون كافرًا، فيتعارض عندهم الدليلان، وحقيقة الأمر أنهم أصابوا في ألفاظ العموم في كلام الأئمة، ما أصاب الأولين في ألفاظ العموم في نصوص الشارع، كلما رأوهم قالوا: من قال كذا فهو كافر، اعتقد المستمع أن هذا اللفظ شامل لكل من قاله، ولم يتدبروا أن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين، إلا إذا وجدت الشروط انتفت الموانع، بين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة، الذين أطلقوا هذه العمومات[1]، ولم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه..).اهـ. ثم ضرب مثالًا كرره في عدة مواضع - وهو موقف الإمام أحمد من أعيان الجهمية فقال مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٧، ٥٠٨): مع أن أحمد لم يكفر أعيان الجهمية، ولا كل من قال: إنه جهمي كفره، ولا كل من وافق الجهمية في بعض بدعهم، بل صلى خلف

(١) مثل قولهم، من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، ومن قال: إن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر ونحو ذلك .

الجهمية الذين دعوا إلى قولهم، وامتحنوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة، لم يكفرهم أحمد وأمثاله، بل كان يعتقد إيمانهم، وإمامتهم، ويدعو لهم، ويرى الائتمام بهم في الصلاة خلفهم، والحج والغزو معهم، والمنع من الخروج عليهم ما يراه لأمثالهم من الأئمة، وينكر ما أحدثوا من القول الباطل الذي هو كفر عظيم، وإن لم يعلموا هم أنه كفر، وكان ينكره ويجاهدهم على رده بحسب الإمكان، فيجمع بين طاعة الله ورسوله في إظهار السنة والدين، وإنكار بدع الجهمية الملحدين، وبين رعاية حقوق المؤمنين من الأئمة والأمة، وإن كانوا جهالًا مبتدعين، وظلمة فاسقين.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨٧ - ٤٨٩): إن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين، إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه فإن الإمام أحمد مثلا قد باشر الجهمية الذين دعوه إلى خلق القرآن، ونفي الصفات وامتحنوه وسائر علماء وقته، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب والحبس والقتل والعزل عن الولايات وقطع الأرزاق ورد الشهادة وترك تخليصهم من أيدي العدو، بحيث كان كثير من أولي الأمر إذا ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم، يكفرون كل من لم يكن جهميا موافقا لهم على نفي الصفات، مثل القول بخلق القرآن، ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر... إلى أن قال: ومعلوم أن هذا من التجهم، فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها، وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب، ثم إن الإمام أحمد

دعا للخليفة وغيره ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم، فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع.اهـ.

في عن نفس المسألة في المسائل الماردينية (ابن ص: ١٢٦): فالإمام أحمد رضي الله تعالى عنه ترحم عليهم واستغفر لهم لعلمه بأنه لم يتبين لهم أنهم مكذبون للرسول ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطئوا وقلدوا من قال ذلك لهم.اهـ.

أما تكفير الإمام أحمد لبعض أعيان الجهمية، فبين شيخ الإسلام ذلك في مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨٩) بقوله: وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية، الذين كانوا يقولون: القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة، وقد نقل عن أحمد ما يدل على أنه كفر به قومًا معينين، فإما أن يذكر عنه في المسألة روايتان ففيه نظر، أو يحمل الأمر على التفصيل، فيقال: من كفر بعينه، فليقام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير، وانتفت موانعه، ومن لم يكفره بعينه فلانتفاء ذلك في حقه، هذا مع إطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم.اهـ.

ونختم هذه النقولات عن شيخ الإسلام، بنص أشبه بالقاعدة، التي تساعدنا على فهم كلام الأئمة في التكفير أو التبديع على العموم وعلى التعيين، قال رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى (٦/ ٦١): فإذا رأيت إمامًا قد غلظ على قائل مقالته، أو كفره فيها فلا يعتبر هذا حكمًا عامًا في كل من قالها، إلا إذا حصل فيه الشرط الذي يستحق به التغليظ عليه، والتكفير له، فإن جحد شيئًا من الشرائع الظاهرة، وكان حديث العهد بالإسلام، أو ناشئًا ببلد جهل لا يكفر حتى تبلغه الحجة النبوية،

وكذلك العكس إذا رأيت المقالة المخطئة، قد صدرت من إمام قديم فاغتفرت، عدم بلوغ الحجة له، فلا يغتفر لمن بلغته الحجة ما اغتفر للأول.اهـ.

ونختم هذه الفقرة بتفصيل جيد ذكره الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في توضيح الكافية الشافية (ص: ١٥٦ - ١٥٨) بين فيه موقف السلف من المبتدعة ومن يعذر منهم ومن لا يعذر، فقال: أما أهل السنة والجماعة فيسلكون معهم ومع جميع أهل البدع المسلك المستقيم المبني على الأصول الشرعية والقواعد المرضية، ينصفونهم، ولا يكفرون منهم إلا من كفره الله ورسوله، ويعتقدون أن الحكم بالكفر والإيمان من أكبر حقوق الله وحقوق رسوله، فمن جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه غير متأول من أهل البدع فهو كافر، لأنه كذب الله ورسوله واستكبر على الحق وعانده، فكل مبتدع من جهمي وقدري وخارجي ورافضي ونحوهم عرف أن بدعته مناقضة لما جاء به الكتاب والسنة ثم أصر عليها ونصرها فهو كافر بالله العظيم مشاق لله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى، زمن كان من أهل البدع مؤمنًا بالله ورسوله ظاهرًا وباطنًا معظمًا لله ورسوله ملتزمًا ما جاء به الرسول ﷺ، ولكنه خالف الحق وأخطأ في بعض المقالات وأخطأ في تأويله، من غير كفر وجحد للهدى الذي تبين له لم يكن كافرًا، ولكنه يكون فاسقًا مبتدعًا، أو مبتدعًا ضالًا، أو معفوًا عنه لخفاء المقالة، وقوة اجتهاده في طلب الحق الذي لم يظفر به، ولهذا كان الخوارج والمعتزلة والقدرية ونحوهم من أهل البدع أقسامًا متنوعة: منهم من هو كافر بلا ريب كغلاة الجهمية[1]، الذين نفوا الأسماء والصفات وقد عرفوا أن بدعتهم مخالفة لما جاء به الرسول، فهؤلاء مكذبون للرسول عالمون بذلك، ومنهم من هو مبتدع

(١) مع التفريق: بين التكفير بالعموم والتعيين.

ضال فاسق كالخوارج المتأولين والمعتزلة الذين ليس عندهم تكذيب للرسول ولكنهم ضلوا ببدعتهم، وظنوا أن ما هم عليه هو الحق، ولهذا اتفق الصحابة رضي الله عنهم، في الحكم على بدعة الخوارج ومروقهم كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة فيهم، واتفقوا - أيضًا على عدم خروجهم من الإسلام[1] مع أنهم استحلوا دماء المسلمين، وأنكروا الشفاعة في أهل الكبائر، وكثيرًا من الأصول الدينية، ولكن تأويلهم منع من تكفيرهم، ومن أهل البدع من هو دون هؤلاء ككثير من القدرية وكالكلابية والأشعرية، فهؤلاء مبتدعة ضالون في الأصول التي خالفوا فيها الكتاب والسنة، وهي معروفة مشهورة، وهم في بدعهم مراتب بحسب بعدهم عن الحق وقربهم، وبحسب بغيهم على أهل الحق بالتكفير والتفسيق والتبديع، وبحسب قدرتهم على الوصول إلى الحق، واجتهادهم فيه، وضد ذلك، وتفصيل القول فيه يطول جدًا.اهـ.

وخلاصة موقف السلف من المتأولين أنهم لا يحكمون على جميع الفرق المتأولة المنتسبة لهذه الأمة، حكمًا عامًا بالكفر أو عدمه، وإذا حكموا على بعضها بالكفر (كحكمهم على غلاة الجهمية) فيفرقون بين الحكم العام، وبين الحكم على المعين، فالمعينون متفاوتون بحسب قيام الحجة عليهم أو عدم قيامها، وبحسب اجتهادهم وتأويلهم، أو استكبارهم وجحدهم، ففيهم المنافق والزنديق، وفيهم المبتدع الضال، وفيهم الفاسق، وفيهم المجتهد المغفور له خطؤه والله أعلم.

(١) ذكر الإمام الطبري والخطابي الإجماع على كفر الخوارج، ونقل عن غيرهم من الأئمة خلاف ذلك، انظر فتح الباري (١٢/ ٢٩٩ - ٣٠١)، و الفتاوى (٣/ ٢٨)، وإيثار الحق (ص: ٤٢٩)، والعواصم والقواصم (٤/ ٣٦٩).

(فرع): التكفير بالمآل أو (بلازم المذهب).

(التكفير بالمآل) المقصود به كما في الشفا للقاضي عياض (٢/ ١٠٥٦).أن يقول قولا يؤديه سياقه إلى كفر، وهو إذا وقف عليه لا يقول بما يؤديه قوله إليه، كحال بعض أهل البدع والمتأولين.اهـ.

وقال ابن رشد في بداية المجتهد (٢/ ٤٩٢): ومعنى التكفير بالمآل: أنهم لا يصرحون بقول هو كفر، ولكن يصرحون بأقوال يلزم عنها الكفر وهم لا يعتقدون ذلك اللزوم.اهـ.

وقد بين أهل العلم هذه المسألة، ومن ذلك ما ذكره القاضي عياض في الشفا (٢/ ١٠٨٤ - ١٠٨٦): حيث قال عند ذكره للمعطلة: فأما من أثبت الوصف، ونفى الصفة فقال: أقول: عالم ولكن لا علم له، ومتكلم ولكن لا كلام له، وهكذا في سائر الصفات على مذهب المعتزلة، فمن قال بالمآل لما يؤديه إليه قوله، ويسوقه إليه مذهبه كفر، لأنه إذا نفى العلم انتفى وصف عالم، إذ لا يوصف بعالم إلا من له علم، فكأنهم صرحوا عنده بما أدى إليه قولهم. ومن لم ير أخذهم بمآل قولهم، ولا ألزمهم موجب مذهبهم، لم ير إكفارهم، قال: لأنهم إذا وقفوا على هذا، قالوا: لا نقول ليس بعالم، ونحن ننتفي من القول بالمآل الذي ألزمتموه لنا، ونعتقد نحن وأنتم أنه كفر، بل نقول: إن قولنا لا يؤول إليه على ما أصلناه فعلى هذين المأخذين اختلف الناس في إكفار أهل التأويل، وإذا فهمته اتضح لك الموجب لاختلاف الناس في ذلك، والصواب: ترك إكفارهم والإعراض عن الحتم عليهم بالخسران، وإجراء حكم الإسلام عليهم في قصاصهم، ووراثاتهم، ومناكحتهم، ودياتهم، والصلاة عليهم، ولكنهم يغلظ عليهم بوجيع الأدب، وشديد الزجر والهجر، حتى يرجعوا عن بدعتهم.اهـ.

ويبطل ابن حزم الكفر بالمآل فيقول في الفصل (٣/ ٢٩٤): وأما من كفر الناس بما تؤول إليه أقوالهم فخطأ؛ لأنه كذب على الخصم وتقويل له ما لم يقل به، وإن لزمه فلم يحصل على غير التناقض فقط، والتناقض ليس كفرا، بل قد أحسن إذ قد فر من الكفر... إلى أن قال: فصح أنه لا يكفر أحد إلا بنفس قوله، ونص معتقده، ولا ينفع أحد أن يعبر عن معتقده بلفظ يحسن به قبحه، لكن المحكوم به هو مقتضى قوله فقط.اهـ.

كما ينفي الشاطبي الكفر بالمآل فقال في الاعتصام (٢/ ١٩٧): والذي كنا نسمعه من الشيوخ أن مذهب المحققين من أهل الأصول (إن الكفر بالمآل ليس بكفر في الحال) كيف والكافر ينكر ذلك المآل أشد الإنكار، ويرمي مخالفه به.اهـ.

(فرع): ومما هو قريب من مسألة التكفير بالمآل ما يسمى بالتكفير بلازم القول

ومعنى اللازم كما في التعريفات(ص١٩٠) للجرجاني: ما يمتنع إنفكاكه عن الشيء، وقد يكون هذا اللازم بينا، وهو الذي يكفي تصوره مع تصور ملزومه في جزم العقل باللزوم بينهما. وقد يكون غير بين، وهو الذي يفتقر جزم الذهن باللزوم بينهما إلى وسط.اهـ.

إن التكفير بلازم القول مطلقا قد أورث في الأمة تفرقا واختلافا وكما قال الإمام الذهبي كما في الرد الوافر لابن ناصر الدين (ص ٤٨): لا ريب أن بعض علماء النظر بالغوا في النفي، والرد والتحريف والتنزيه بزعمهم حتى وقعوا في بدعة، أو نعت الباري بنعوت المعدوم، كما أن جماعة من علماء الأثر، بالغوا في الإثبات[1]، وقبول الضعيف والمنكر ولهجوا بالسنة والإتباع. فحصل الشغب

---

(١) عفا الله عن الإمام الذهبي، فلو سلمنا بأن بعض علماء الأثر بالغوا في الإثبات، فلا =

ووقعت البغضاء، وبدع هذا هذا، وكفر هذا هذا ونعوذ بالله من الهوى والمراء في الدين، وأن نكفر مسلما موحدا بلازم قوله، وهو يفر من ذلك اللازم، وينزه ويعظم الرب.اهـ..

وقد بين العلماء هذه المسألة وأحوالها، وسنورد جملة من كلامهم في ذلك على النحو التالي:

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١٧): هل لازم المذهب مذهب أم لا؟ فكان من جوابه ما يلي: الصواب أن لازم مذهب الإنسان ليس بمذهب إذا لم يلتزمه، فإنه إذا كان قد أنكره ونفاه، كانت إضافته إليه كذبا عليه، بل ذلك يدل على فساد قوله وتناقضه في المقال. ولو كان لازم المذهب مذهبا للزم تكفير كل من قال عن الاستواء وغيره من الصفات أنه مجاز ليس بحقيقة، فإن لازم هذا القول يقتضي أن لا يكون شيء من أسمائه وصفاته حقيقة.اهـ.

وقال في القواعد النورانية (ص: ١٢٨،١٢٩): لازم قول الإنسان نوعان:

أحدهما: لازم قوله الحق، فهذا مما يجب عليه أن يلتزمه، فإن لازم الحق حق، ويجوز أن يضاف إليه إذا علم من حاله أنه لا يمتنع من التزامه بعد ظهوره، وكثير مما يضيفه الناس إلى مذهب الأئمة من هذا الباب.

والثاني: لازم قوله الذي ليس بحق، فهذا لا يجب التزامه، إذ أكثر ما فيه أنه قد تناقض، وقد بينت أن التناقض واقع من كل عالم غير النبيين، ثم إن عرف من حاله أنه يلتزمه بعد ظهوره له، فقد يضاف إليه، وإلا فلا يجوز أن يضاف إليه قول، لو ظهر له فساده لم يلتزمه، لكونه قد قال ما يلزمه، وهو لم يشعر بفساد

=

يسوى هؤلاء العلماء بأولئك المتكلمين كما يشتم من عبارة الذهبي.

ذلك القول ولا يلزمه.

وهذا التفصيل في اختلاف الناس في لازم المذهب: هل هو مذهب أو ليس بمذهب؟ هو أجود من إطلاق أحدهما، فما كان من اللوازم يرضاه القائل بعد وضوحه له فهو قوله، وما لا يرضاه فليس قوله.اهـ.

وقال الشاطبي في الاعتصام (٢/ ٥٤٩): ولازم المذهب: هل هو مذهب أم لا؟ هي مسألة مختلف فيها بين أهل الأصول، والذي كان يقول به شيوخنا البجائيون والمغربيون ويرون أنه رأي المحققين أيضا أن لازم المذهب ليس بمذهب، فلذلك إذا قرر عليه، أنكره غاية الإنكار.اهـ.

وأورد السخاوي في فتح المغيث (١/ ٣٣٤) مقالة شيخه ابن حجر حيث قال: (والذي يظهر أن الذي يحكم عليه بالكفر من كان الكفر صريح قوله، وكذا من كان لازم قوله وعرض عليه فالتزمه أما من لم يلتزمه وناضل عنه فإنه لا يكون كافرا ولو كان اللازم كفرا.اهـ.

وذكر الشيخ السعدي في توضيح الكافية الشافية (ص ١١٣) تحقيقه في هذه المسأله قائلا: والتحقيق الذي يدل عليه الدليل أن لازم المذهب الذي لم يصرح به صاحبه ولم يشر إليه، ولم يلتزمه ليس مذهبا؛ لأن القائل غير معصوم، وعلم المخلوق مهما بلغ فإنه قاصر، فبأي برهان نلزم القائل بما لم يلتزمه. ونقوله ما لم يقله، ولكننا نستدل بفساد اللازم على فساد الملزوم، فإن لوازم الأقوال من جملة الأدلة على صحتها وضعفها وعلى فسادها، فإن الحق لازمه حق، والباطل يكون له لوازم تناسبه، فيستدل بفساد اللازم خصوصا اللازم الذي يعترف القائل بفساده على فساد الملزوم.اهـ.

وخلاصة ما سبق أن يقال: أن لازم أقوال المذاهب والعلماء له ثلاث

حالات:

الحالة الأولى: أن يذكر اللازم للقائل، ويلتزم به فهو يعد قولا له.

الحالة الثانية: أن يذكر له اللازم، ويمنع التلازم بينه وبين قوله، فهذا ليس قولا له، بل إن إضافته إليه كذب عليه.

الحالة الثالثة: أن يكون اللازم مسكوتا عنه؛ فلا يذكر بالتزام، ولا منع، فحكمه في هذه الحال أن لا ينسب إلى القائل، لأنه يحتمل لو ذكر له أن يلتزم به أو يمنع التلازم، ويحتمل لو ذكر فتبين له لزومه وبطلانه أن يرجع عن قوله.

وبهذا يعلم أنه لا يصح التكفير بلازم المذهب بإطلاق، خاصة إذا كان من تلبس به ينفي ذلك اللازم وينكره، أو كان يجهله، أو يغفل عنه، والله أعلم.

انظر كتاب نواقض الإيمان القولية والعملية، وكتاب نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف.

المسألة الخامسة: المانع الخامس: التقليد

أصل التقليد في اللغة وضع الشيء في العنق محيطا به، وذلك الشيء يسمى قلادة، والجمع قلائد، ومنه تقليد الهدي، فكأن المقلد جعل الحكم الذي قلد فيه المجتهد كالقلادة في عنق من قلده، ويستعمل التقليد أيضا في تفويض الأمر إلى الشخص كأن الأمر جعل في عنقه كالقلادة، قالت الخنساء:

يقلده القوم ما نابهم وإن كان أصغرهم مولدا

أما في الاصطلاح: فتدور تعريفات العلماء للتقليد حول معنى واحد وهو: قبول قول الغير من غير حجة أو من غير معرفة دليله.

قال ابن حزم في الإحكام (٦/ ٦٠): التقليد: ما اعتقده المرء بغير برهان صح عنده، لأن بعض من دون النبي ﷺ قاله.

وقال ابن عبدالبر في جامع بيان العلم (٢/ ٣٧): التقليد عند جماعة العلماء غير الاتباع، لأن الاتباع: هو أن تتبع القائل على مابان لك من فضل قوله وصحة مذهبه، والتقليد: أن تقول بقوله وأنت لاتعرفه ولا وجه القول ولامعناه.

وقال ابن عبدالبر أيضا في جامع بيان العلم (٢/ ١١٧) قال أبو عبدالله بن خويز منداد البصري المالكي: التقليد معناه في الشرع: الرجوع إلي قول لا حجة لقائله عليه، وذلك ممنوع منه في الشريعة، والاتباع: ماثبت عليه حجة، وقال في موضع آخر من كتابه: كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده، والتقليد في دين الله غير صحيح. وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه. والاتباع في الدين مسوغ والتقليد ممنوع.

وقال الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٢/ ٦٦): التقليد هو قبول القول من غير دليل.

وقال القاضي عبدالوهاب المالكي في الرد على من أخلد إلى الأرض (ص١٢٥): التقليد هو اتباع القول لأن قائلا قال به من غير علم بصحته من فساده) نقله السيوطي في كتابه.

وقال أبو حامد الغزالي في المستصفى (٢ ص٣٨٧): التقليد هو قبول قول بلا حجة، وليس ذلك طريقا إلى العلم لا في الأصول ولا في الفروع.

وقال الشوكاني في إرشاد الفحول (ص٢٤٦-٢٤٧): التقليد هو العمل بقول الغير من غير حجة، فيخرج العمل بقول رسول الله ﷺ، والعمل بالإجماع، ورجوع العامي إلى المفتي، ورجوع القاضي إلى شهادة العدول، فإنه قد قامت الحجة في ذلك.

أما العمل بقول رسول الله ﷺ وبالإجماع فقد تقدم الدليل على ذلك في

مقصد السنة وفي مقصد الإجماع.

وأما رجوع القاضي إلى قول الشهود فالدليل عليه مافي الكتاب والسنة من الأمر بالشهادة والعمل بها، وقد وقع الإجماع على ذلك، وأما رجوع العامي إلى قول المفتي فللإجماع على ذلك.اهـ.

ورد في التعريفات السابقة أن التقليد هو قبول قول بلا حجة. فما الحجة؟

الحجة: هي ما يحتج به المرء على صحة قوله ومذهبه، وتسمى أيضا بالبرهان والسلطان. والمقصود بها هنا الدليل الشرعي على صحة قول المفتي.

(فرع): أنواع التقليد

١- التقليد المباح: يكون في حق العامي الذي لا يعرف طرق الأحكام الشرعية، ويعجز عن معرفتها، ولا يمكنه فهم أدلتها، ولكن له طلب الدليل الشرعي من المفتي؛ لأن المسلم من حقه أن يستوثق من أمر دينه.

٢- التقليد المذموم: هو تقليد رجل واحد معين دون غيره من العلماء في جميع أقواله، أو أفعاله، ولا يرى الحق إلا فيه.

ذهب جمهور أئمة أهل السنة والجماعة إلى جواز التقليد في العقائد والأحكام للعامي، والذي يعجز عن فهم الحجة والنظر والاستدلال، ويحرم التقليد على العالم، أو الذي يستطيع النظر والاستدلال؛ إذا اجتهد وبان له الحق في المسألة أن يقلد غيره، سواء كان ذلك في العقائد أو الأحكام؛ لورود الأدلة في ذم التقليد والمقلدين.

واتفقوا على أن التقليد من موانع التكفير؛ لأن المقلد جاهل لا يفهم الدليل أو الحجة، ولا بصيرة له ولا فقه؛ فهو معذور حتى تقام عليه الحجة ويعلم.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٠٣ - ٢٠٤): والذي عليه

جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز في الجملة؛ والتقليد جائز في الجملة لا يوجبون الاجتهاد على كل أحد ويحرمون التقليد ولا يوجبون التقليد على كل أحد ويحرمون الاجتهاد وأن الاجتهاد جائز للقادر على الاجتهاد والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد . فأما القادر على الاجتهاد فهل يجوز له التقليد ؟ هذا فيه خلاف والصحيح أنه يجوز حيث عجز عن الاجتهاد: إما لتكافؤ الأدلة وإما لضيق الوقت عن الاجتهاد وإما لعدم ظهور دليل له؛ فإنه حيث عجز سقط عنه وجوب ما عجز عنه وانتقل إلى بدله وهو التقليد كما لو عجز عن الطهارة بالماء، وكذلك العامي إذا أمكنه الاجتهاد في بعض المسائل جاز له الاجتهاد فإن الاجتهاد منصب يقبل التجزي والانقسام فالعبرة بالقدرة والعجز وقد يكون الرجل قادرا في بعض عاجزا في بعض لكن القدرة على الاجتهاد لا تكون إلا بحصول علوم تفيد معرفة المطلوب فأما مسألة واحدة من فن فيبعد الاجتهاد فيها والله سبحانه أعلم.اهـ.

وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٥،١١٤) بعدما ساق من الأدلة والأقوال في إبطال التقليد وفساده: هذا كله لغير العامة، فإن العامة لابد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها، لأنها لا تبين موقع الحجة ولا تصل بعدم الفهم إلى علم ذلك، لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها، وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة والله أعلم، ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها.اهـ.

وفصل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان التقليد الجائز وغير الجائز. فقال في أضواء البيان (٧/ ٤٨٧ – ٤٨٩): والتحقيق أن التقليد منه ما هو جائز، ومنه ما ليس بجائز، ومنه ما خالف فيه المتأخرون المتقدمين من

الصحابة وغيرهم من القرون الثلاثة المفضلة، أما التقليد الجائز الذي لا يكاد يخالف فيه أحد من المسلمين فهو تقليد العامي عالما أهلا للفتيا في نازلة نزلت به، وهذا النوع من التقليد كان شائعا في زمن النبي ﷺ، ولا خلاف فيه، فقد كان العامي، يسأل من شاء من أصحاب رسول الله ﷺ عن حكم النازلة تنزل به، فيفتيه فيعمل بفتياه، وإذا نزلت به نازلة أخرى لم يرتبط بالصحابي الذي أفتاه أولا، بل يسأل عنها من شاء من أصحاب رسول الله ﷺ ثم يعمل بفتياه، وأما ما لا يجوز من التقليد بلا خلاف، فهو تقليد المجتهد الذي ظهر له الحكم باجتهاد، مجتهد آخر يرى خلاف ما ظهر له هو، للإجماع على أن المجتهد إذا ظهر له الحكم باجتهاده، لا يجوز له أن يقلد غيره المخالف لرأيه، أما نوع التقليد الذي خالف فيه المتأخرون الصحابة وغيرهم من القرون المشهود لهم بالخير، فهو تقليد رجل واحد معين غيره من جميع العلماء، فإن هذا النوع من التقليد، لم يرد به نص من كتاب ولا سنة، ولم يقل به أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا أحد القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير، وهو مخالف لأقوال الأئمة الأربعة رحمهم الله، فلم يقل أحد منهم بالجمود على قول رجل واحد معين دون غيره من جميع علماء المسلمين، فتقليد العالم المعين من بدع القرن الرابع، ومن يدعي خلاف ذلك فليعين لنا رجلا واحدا من القرون الأولى التزم مذهب رجل واحد معين ولن يستطيع ذلك أبدا، لأنه لم يقع ألبتة.اهـ.

والخلاصة مما سبق، أن التقليد يجوز العامي العاجز عن فهم الحجة، ويحرم على العالم إذا اجتهد وبان له الحق في المسألة أن يقلد مجتهدا مثله، أما إذا لم يجتهد في المسألة مع قدرته فيجوز له التقليد في حالات معينة على الصحيح والله أعلم.

(فرع): التقليد في العقيدة هل يعتبر عذرا

ذهب كثير المتكلمين المبتدعة إلى تحريم التقليد، وذهب جماهير الأمة إلى جواز ذلك، وسنعرض إلى هذين الرأيين باختصار.

الرأي الأول: قال الزركشي في البحر المحيط (٦/ ٢٧٨): والعلوم نوعان: عقلي وشرعي، الأول: العقلي، وهو المسائل المتعلقة بوجود الباري وصفاته، واختلفوا فيها، والمختار أنه لا يجوز التقليد، بل يجب تحصيلها بالنظر، وجزم به الأستاذ أبو منصور والشيخ أبو حامد الأسفراييني في تعليقه، وحكاه الأستاذ أبو إسحاق في شرح الترتيب عن إجماع أهل العلم من أهل الحق وغيرهم من الطوائف، وقال أبو الحسين بن القطان في كتابه: لا نعلم خلافا في امتناع التقليد في التوحيد وحكاه ابن السمعاني عن جميع المتكلمين، وطائفة من الفقهاء وقالوا: لا يجوز للعامي التقليد فيها، ولابد أن يعرف ما يعرفه بالدليل.اهـ.

وقال الفخر الرازي كما في المحصول (٢/ ١٢٥): لا يجوز التقليد في أصول الدين، لا للمجتهد، ولا للعوام، وقال كثير من الفقهاء بجوازه.اهـ.

ومن أهم أدلة من يمنع ذلك ما يلي

١- أن النظر واجب، وفي التقليد ترك للواجب فلا يجوز واستدلوا لذلك بالأدلة العامة الواردة في ذلك من مثل قوله تعالى: (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

وبعضهم وضع ذلك شرطا في صحة الإيمان، قال الزركشي في البحر المحيط (٦/ ٢٧٨): وجزم أبو منصور بوجوب النظر، ثم قال: فلو اعتقد من

غير معرفة بالدليل، فاختلفوا فيه، فقال أكثر الأئمة: إنه مؤمن من أهل الشفاعة، وإن فسق بترك الاستدلال، وبه قال أئمة الحديث، وقال الأشعري وجمهور المعتزلة: لا يكون مؤمنا، حتى يخرج فيها عن جملة المقلدين... ثم قال الزركشي: وقد اشتهرت هذه المقالة عن الأشعري، أن إيمان المقلد لا يصح، وقد أنكر أبو القاسم القشيري، والشيخ أبو محمد الجويني وغيرهما من المحققين صحته عنه.اهـ.

٢- وفرقوا بين العقائد والأحكام، وقالوا: إن المطلوب في العقائد العلم واليقين، وذلك لا يحصل من التقليد، بخلاف الفروع فإن المطلوب فيها الظن، فلا يلزم من جواز التقليد في الفروع جوازه في الأصول.

الرأي الثاني: جواز التقليد في العقائد، وقد نقل عن الأئمة الأربعة، واشتهر عن الحنابلة والظاهرية وغيرهم ونسبه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى جمهور الأمة. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٠٢): أما في المسائل الأصولية فكثير من المتكلمة والفقهاء من أصحابنا وغيرهم من يوجب النظر والاستدلال على كل أحد وأما جمهور الأمة فعلى خلاف ذلك، فإن ما وجب علمه إنما يجب على من يقدر على تحصيل العلم، وكثير من الناس عاجز عن العلم بهذه الدقائق، فكيف يكلف العلم بها؟.اهـ.

ومن أهم أدلتهم: أن الأصول والفروع قد استويا في التكليف بهما، وقد جاز التقليد في الفروع فكذلك في الأصول، أما القول بأن المطلوب في العقائد اليقين وفي الفروع الظن فهذا من بدع المتكلمين المشهورة، وبسببها قالوا: لا يحتج بحديث الآحاد في أمور العقيدة، ولا يصح إيمان المقلد وغير ذلك من البدع. فلا دليل على التفريق بين الأصول والفروع في هذا الحكم، وردوا على ما

اشترط أو أوجب النظر على الجميع، بأن ذلك يقتضي تضليل أو تكفير عوام المسلمين، وأن ذلك من تكليف ما لا يطاق، يقول المظفر بن السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ كما في البحر المحيط (٦/ ٢٧٩): إيجاب معرفة الأصول على ما يقوله المتكلمون، بعيد جدا عن الصواب، ومتى أوجبنا ذلك، فمتى يوجد من العوام من يعرف ذلك؟ ويصدر عقيدته عنه؟ كيف وهم لو عرضت عليهم تلك الأدلة لم يفهموها، وإنما غاية العامي أن يتلقى ما يريد أن يعتقده ويلقى به ربه من العلماء، ويتبعهم في ذلك ويقلدهم.. إلى أن يقول: ونحن لا ننكر من الدلائل العقلية بقدر ما ينال المسلم به رد الخاطر، وإنما المنكر إيجاب التوصل إلى العقائد في الأصول بالطريق الذي اعتقدوا، وساموا به الخلق، وزعموا أن من لم يفعل ذلك لم يعرف الله تعالى، ثم أدى بهم ذلك إلى تكفير العوام أجمع.اهـ.

وقال الحافظ صلاح الدين العلائي كما في الفتح (١٣/ ٣٥٤): من لا أهلية له لفهم شيء من الأدلة أصلا وحصل له اليقين التام بالمطلوب، إما بنشأته على ذلك أو لنور يقذفه الله في قلبه، فإنه يكتفي منه ذلك، ومن فيه أهليه لفهم الأدلة لم يكتف منه إلا بالإيمان عن دليل، ومع ذلك فدليل كل أحد بحسبه وتكفي الأدلة المجملة التي تحصل بأدنى نظر، ومن حصلت له شبهة وجب عليه التعلم إلى أن تزول عنه أما من غلا فقال لا يكفي إيمان المقلد فلا يلتفت إليه، لما يلزم منه القول بعدم إيمان أكثر المسلمين، وكذا من غلا أيضا فقال: لا يجوز النظر في الأدلة، لما يلزم منه من أن أكابر السلف لم يكونوا من أهل النظر.اهـ.

ورد الإمام الشوكاني في إرشاد الفحول (ص: ٢٦٦) على ما حكاه أبو منصور البغدادي عن أئمة الحديث بأنهم يفسقون تارك الاستدلال، فقال: فيالله

العجب من هذه المقالة التي تقشعر لها الجلود وترجف عند سماعها الأفئدة، فإنها جناية على جمهور هذه الأمة المرحومة، وتكليف لهم بما ليس في وسعهم ولا يطيقونه، وقد كفى الصحابة الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد، ولا قاربوها - الإيمان الجملي، ولم يكلفهم رسول الله ﷺ وهو بين أظهرهم بمعرفة ذلك ولا أخرجهم عن الإيمان بتقصيرهم عن البلوغ إلى العلم بذلك بأدلته، وما حكاه الأستاذ أبو منصور عن أئمة الحديث من أنه مؤمن وإن من فسق فلا يصح التفسيق عنهم بوجه من الوجوه بل مذهب سابقهم ولاحقهم الاكتفاء بالإيمان الجملي، وهو الذي كان عليه خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.اهـ.

أما اشتراط بعضهم النظر، واستدلالهم بالآيات الواردة في ذلك (فلا حجة فيها لأن من لم يشترط النظر لم ينكر أصل النظر، وإنما أنكر توقف الإيمان على وجود النظر بالطرق الكلامية إذا لا يلزم من الترغيب في النظر جعله شرطا).

وبعد عرض الرأيين ندرك بطلان اشتراط النظر والاستدلال، أو إيجابه على الجميع، لضعف الاستدلال على ذلك، ولقيامه على أصل فاسد، وهو التفريق بين الأصول والفروع، وقولهم: إن الأصول يجب فيها اليقين والعلم فلا يجوز فيها التقليد، والفروع يكفي فيها الظن، إذا يجوز التقليد في العقائد للعامي الذي لا يستطيع النظر والاستدلال، كجواز ذلك في الأحكام ولا فرق. أما من يستطيع الاستدلال فلا يجوز له التقليد في العقائد أو الأحكام، للأدلة الواردة في ذم التقليد والمقلدين، إلا إذا عجز عن الاستدلال إما لتكافؤ الأدلة، أو لضيق الوقت عن الاجتهاد ونحو ذلك، لكن لا يشترط النظر والاستدلال لصحة الإيمان والله أعلم.

(فرع): حكم من وقع في الكفر تقليدا، هل يعذر بذلك؟

الذي يظهر من كلام الأئمة أن العذر بالتقليد من جنس العذر بالتأول

والجهل، باعتبار المقلد جاهلا لا يفهم الدليل أو الحجة، فإذا عذر من وقع في الكفر متأولا رغم علمه واجتهاده، فعذر من يقلده من العوام الجهال من باب أولى، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢/ ٣٦٧) بعدما تكلم عن كفر وضلال أهل الحلول والاتحاد من غلاة المتصوفة كابن سبعين وابن عربي وابن الفارض وأمثالهم: فكل من كان أخبر بباطن هذا المذهب، ووافقهم عليه، كان أظهر كفرا، وإلحادا، وأما الجهال الذين يحسنون الظن بقول هؤلاء ولا يفهمونه، ويعتقدون أنه من جنس كلام المشايخ العارفين الذين يتكلمون بكلام صحيح لا يفهمه كثير من الناس، فهؤلاء تجد فيهم إسلاما وإيمانا، ومتابعة للكتاب والسنة بحسب إيمانهم التقليدي، وتجد فيهم إقرارا لهؤلاء وإحسانا للظن بهم، وتسليما لهم بحسب جهلهم وضلالهم، ولا يتصور أن يثني على هؤلاء إلا كافرا ملحد، أو جاهل ضال.اهـ.

فنلاحظ من كلام شيخ الإسلام إعذاره للجهال الذين يحسنون الظن بكلام هؤلاء الغلاة ولا يفهمونه حيث قال: إن فيهم إسلاما وإيمانا ومتابعة للكتاب والسنة رغم ضلالهم وجهلهم، وفي موضع آخر من مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٩) يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى موقف الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ولاة الأمر الذين قالوا بقول الجهمية، وامتحنوا وعاقبوا من خالفهم: (ومع هذا فالإمام أحمد رحمه الله تعالى ترحم عليهم واستغفر لهم، لعلمه بأنهم لم يبين لهم أنهم مكذبون للرسول، ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطئوا، وقلدوا من قال لهم ذلك.اهـ. فالإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عذر هؤلاء لأنهم مقلدون لمن يظنونهم من أهل العلم، وقد استدل شيخ الإسلام بهذا الموقف من إمام أهل السنة من بعض أتباع الجهمية على العذر بالتأويل والجهل كما سبق مما قد يدل على أن العذر

بالتقليد عنده من جنس العذر بالجهل والخطأ والله أعلم.

وفي موضع ثالث من مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٢، ٣٣) يشير إلى عذر بعض من يقلد الشيوخ والعلماء فيما هو من جنس الشرك، قال رَحِمَهُ اللَّهُ بعد كلام حول هذا الموضوع: وإن كانت من جنس الشرك، فهذا الجنس ليس فيه شيء مأمور به، لكن قد يحسب بعض الناس في بعض أنواعه أنه مأمور به، وهذا لا يكون مجتهدا، لأن المجتهد لابد أن يتبع دليلا شرعيا، وهذه لا يكون عليها دليل شرعي، لكن قد يفعلها باجتهاد مثله، وهو تقليده لمن فعل ذلك من الشيوخ والعلماء، والذين فعلوا ذلك قد فعلوه لأنهم رأوه ينفع، أو لحديث كذب سمعوه، فهؤلاء إذا لم تقم عليهم الحجة بالنهي لا يعذبون.اهـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى (٢/ ١٠٦ - ١٠٧): وأما المنتسبون إلى الشيخ يونس، فكثير منهم كافر بالله ورسوله، لا يقرون بوجوب الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان وحج البيت العتيق، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، بل لهم من الكلام في سب الله ورسوله والقرآن والإسلام ما يعرفه من عرفهم. أما من كان فيهم من عامتهم لا يعرف أسرارهم وحقائقهم، فهذا يكون معه إسلام عامة المسلمين الذي استفاده من سائر المسلمين لا منهم.اهـ.

ويفصل الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الطرق الحكمية (ص: ١٧٤، ١٧٥) في بيان أقسام أهل البدع فيقول: وأما أهل البدع الموافقون أهل الإسلام، ولكنهم مخالفون في بعض الأصول كالرافضة والقدرية والجهمية وغلاة المرجئة ونحوهم، فهؤلاء أقسام:

القسم الأول: الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له، فهذا لا يكفر ولا يفسق، ولا ترد شهادته إذا لم يكن قادرا على تعلم الهدى، وحكمه حكم المستضعفين (إلا

المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا﴾ [النساء: ٩٨ - ٩٩].

القسم الثاني: المتمكن من السؤال وطلب الهداية ومعرفة الحق، ولكن يترك ذلك اشتغالا بدنياه ورئاسته ولذته ومعاشه وغير ذلك، فهذا مفرط مستحق للوعيد آثم بترك ما وجب عليه من تقوى الله بحسب استطاعته، فهذا حكمه حكم أمثاله من تاركي بعض الواجبات، فإن غلب ما فيه من البدعة والهوى على ما فيه من السنة والهدى ردت شهادته، وإن غلب ما فيه من السنة والهدى قبلت شهادته.

القسم الثالث: أن يسأل ويطلب ويتبين له الهدى، ويتركه تقليدا أو تعصبا، أو بغضا ومعاداة لأصحابه، فهذا أقل درجاته أن يكون فاسقا، وتكفيره محل اجتهاد وتفصيل.اهـ.

مما سبق يتبين لنا إعذار الأئمة لمن وقع في الكفر تقليدا إن كان جاهلا لا بصيرة له ولا فقه، أما إن كان قادرا على فهم الحجة وفرط في طلبها فإنه يأثم، ولكنه لا يكفر إلا بعد قيام الحجة والله أعلم.

(باب ذكر مباحث الوعد والوعيد)

مسائل في الباب:

المسألة الأولى: الإيمان عند الوعيدية[1]

(١) الوعيدية: ويقصد بهم من يغلبون جانب الخوف والوعيد على جانب الرجاء والوعد عند حكمهم على الكبيرة، وأبرز من يمثل مذهبهم الخوارج والمعتزلة، والزيدية والرافضة، وسأركز على نقل آراء المعتزلة والأباضية، لسببين: الأول: أن الزيدية والرافضة في عامة أبواب العقيدة - إلا في شئ من مسائل الإمامة - على مذهب المعتزلة (انظر العلم الشامخ ١١/ ١٢)، الثاني: أن فرق الخوارج الأخرى لا يوجد لها كتب =

يتفق المعتزلة والخوارج على أن الإيمان الشرعي يشمل جميع الواجبات من الأقوال والأفعال والاعتقادات وسنختار بعض أقوال شيوخهم الدالة على ذلك، يقول أبو الحسن البسيوي: (الإيمان هو التصديق بالطاعة والعمل بها، فمن ترك شيئا من ذلك، أو ركب ما حرم الله عليه، أو ترك ما أوجب الله عليه، خرج من الإيمان، ولحق بضده، فافهم ذلك إن شاء الله، لأن ضد الإيمان هو الكفر)[(١)].

ويقول عبد الله بن حميد السالمي- أحد علماء الأباضية: (اعلم أن للإيمان والإسلام في الشرع استعمالًا غير الاستعمال اللغوي، وذلك أن الشرع نقلها عن معناهما اللغوي فاستعملهما مترادفين في مطلق الواجب، كان ذلك الواجب تصديقًا باللسان فقط أو تصديقًا بالجنان مع قول اللسان، أو كان معهما عمل لازم إتيانه، فمن أدى جميع ما وجب عليه كان مؤمنًا مسلمًا عندنا، ومن أخل بشيء من الواجبات لا يسمى مؤمنًا مسلمًا عندنا، بل يخص باسم المنافق والفاسق والعاصي والكافر ونحو ذلك[(٢)]، ويقول في موضع آخر: (.. أن الإيمان عندنا فعل الواجبات فالكفر مقابله، أي فالكفر هو ترك شئ من الواجبات، أو فعل شيء من المحرمات من الكبائر)[(٣)].

وهذا يتفق مع ما ذكره علماء الفرق عنهم، يقول أبو الحسن الأشعرى: والإباضية يقولون: إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه إيمان، وإن كل

=

خاصة بها، ولهذا قال ابن حزم وهو يتحدث عن زمنه: (ولم يبق اليوم من فرق الخوارج إلا الأباضية والصفرية فقط) الفصل ٤/ ١٩٠.

(١) جامع أبي الحسن البسيوي ١/ ٢٣٥.

(٢) مشارق أنوار العقول ٢/ ١٩٧.

(٣) نفسه ٢/ ٣٠٤.

كبيرة فهي كفر نعمة لا كفر شرك، وإن مرتكبي الكبائر في النار خالدين مخلدون فيها)[١].

ويلخص القاضي عبد الجبار المعتزلي مذهب المعتزلة في الإيمان فيقول: (وجملة ذلك أن الإيمان عند أبي علي، وأبي هاشم عبارة عن أداء الطاعات، الفرائض دون النوافل، واجتناب المقبحات، وعند أبي الهذيل عبارة عن أداء الطاعات الفرائض منها والنوافل. واجتناب المقبحات، وهو الصحيح من المذهب[٢]، ويلاحظ من النقل السابق اتفاق المعتزلة والخوارج في مفهومهم للإيمان، يقول عبد القاهر البغدادي: (وقالت القدرية والخوارج برجوع الإيمان إلى جميع الفرائض مع ترك الكبائر ...)[٣].

وهذا يتفق -من حيث الإجمال- مع مفهوم أهل السنة للإيمان، إلا أن أهل السنة لا يكفرون من أخل بالواجبات أو ارتكب الكبائر، أما هؤلاء فيجعلون الإيمان كلا لا يتجزأ، إذا ذهب بعضه ذهب كله.

المسألة الثانية: قولهم في الزيادة والنقصان

قولهم في الزيادة والنقصان فرع عن قولهم في الإيمان، فلما قالوا: إن جميع الطاعات داخلة في الإيمان، ظنوا أن القول بالنقص يلزم منه، ذهاب جميع الإيمان، فنفوا نقص الإيمان، وأجازوا زيادته من جانب اختلاف الناس في وجوب التكاليف على بعضهم دون البعض الآخر.

---

(١) مقالات الإسلاميين ١١٠، وانظر الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٣/ ١٨٨، الإيمان لأبي عبيد ١٠١/ ١٠٢ .

(٢) شرح الأصول الخمسة: ٧٠٧، وانظر مقالات الإسلاميين، فقد ذكر الأشعري ستة أقوال للمعتزلة في الإيمان، حاصلها يرجع إلى ماذكره عبد الجبار،

(٣) أصول الدين، ٢٤٩

يقول أبو الحسن: (فإن قال: الإيمان يزيد وينقص؟ قيل له: قد اختلف الناس في زيادته، فأما نقصانه فلا نقص فيه، لأنه لو نقص من تصديقه شيء مما أمر به، وأقر به من الجملة لانتقض إيمانه ولم يسم مؤمنًا، لأن أصل ذلك التصدي-ق، فمن لم يصدق بشيء مما جاء عن الله لم يؤمن حتى يصدق بالجملة التي أقر بها، فأما زيادته فقد قال بعضهم: إن الإيمان يزيد ولا ينقص).

إلى أن يقول: (أما المؤمنون فيزدادون تصديقًا وإيمانًا بما أنزل، و أما الإيمان فلا يزداد، ألا ترى أن الإيمان غير المؤمن، فالمؤمن هو الذي يزداد، و الإيمان ثابت لا زيادة فيه ولا نقصان، والله توفيقنا، فإن قال من أوجب نقصانه: أن من ركب الكبيرة، وقذف المحصنات، فقد نقص من الإيمان؟ قيل له: إن الإيمان لا ينقص، ولكن الفاسق قد خرج من الإيمان الذي صدق به نفسه ...)[(١)].

ويقول عبد الله بن حميد السالمي: (... الإيمان الشرعي لا ينقص لكن يزيد لأنه عندنا هو نفس فعل الواجبات فهي تزيد على المكلف ولا تنقص، بمعنى أنها إذا وجبت لا يصح تنقيص شيء منها، لا بمعنى أنه إذا وجبت على العبد لا يرفع، فإن سمي رفع بعض الواجبات عن بعض المكلفين نقصانًا في الإيمان فلا ضير فإنه خلاف لفظي، وقد صرح حديث ذم النساء، بذلك في قوله - ﷺ: - "ناقصات عقل ودين"[(٢)] وبين نقصان الدين بترك الصلاة شطر دهرها بسبب الحيض..)[(٣)]، ويقول أيضًا: (ونقصان الإيمان الذي نفاه أصحابنا، هو الإخلال

(١) جامع أبي الحسن البسيوي ١/ ٢٣٧- ٢٣٩ .
(٢) سبق تخريجه ص٨٢.
(٣) مشارق أنوار العقول ٢/ ٢٠٥- ٢٠٦.

بشيء من الواجبات لا رفع بعض المفترضات..)[١]، ويلخص مفتي السلطنة أحمد الخليلي مذهب الإباضية فيقول: (ذهب أصحابنا رحمهم الله إلى أن الإيمان يزيد ولا ينقص وهذا المذهب إذا حمل على معناه الشرعي الذي يشمل الاعتقاد والقول والعمل تجلت صحة هذا المذهب من حيث إن أول ما يتعبد به الإنسان الاعتقاد، و إذا اعتقد ما لزمه اعتقاده، ولم يحضره فرض قولي أو عملي كان مؤمنًا كامل الإيمان، و إذا وجب عليه شيء من الأقوال أو الأفعال وأداه كما وجب عليه ازداد إيمانه و إذا أخل بهذا الواجب انهدم إيمانه كله)[٢].

وهذا الرأي يتفق مع رأي المعتزلة، حيث أجازوا الزيادة والنقصان من جهة زيادة التكاليف على بعض الناس دون بعض، يقول القاضي عبد الجبار في تعليقه على قوله تعالى: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا.. الآية}: (إنه يدل على أن الإيمان يزيد وينقص على ما نقوله، لأنه إذا كان عبارة عن هذه الأمور التي يختلف التعبد فيها على المكلفين، فيكون اللازم لبعضهم أكثر مما يلزم الغير، فتجب صحة الزيادة والنقص-ان، وإنما كان يمتنع ذلك لو ك-ان الإيمان خصلة واحدة وهو القول باللسان، أو اعتقادات مخصوصة بالقلب)[٣].

وخلاصة ما سبق: أن الوعيدية ينفون نقص الإيمان بمعنى الإخلال بشيء من الواجبات، أو فعل شيء من الكبائر ويجوزون ذلك بمعنى سقوط بعض التكاليف عن بعض المكلفين، وتفاوتهم في ذلك.

---

(١) نفسه ٢/ ٢٠٥.

(٢) حاشية مشارق الأنوار ٢/ ٢٠٤ .

(٣) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ١/ ٣١٢.

ويقولون بزيادة الإيمان، بمعنى، زيادة التكاليف على بعض الناس دون بعض.

فالخطأ عند الخوارج والمعتزلة في حصرهم للزيادة بهذا وفي قولهم إن النقص في غيره كفر، أما أهل السنة والجماعة فيوافقونهم على أن زيادة التكاليف والإيمان بها والعمل بما يزيد الإيمان ويجعلونه من مجالات زيادة الإيمان – وليس المجال الوحيد – وهذه المجالات هي كما في الإيمان لابن تيمية (ص٢١٩): الإجمال والتفصيل فيما أمروا به.

والإجمال والتفصيل فيما وقع منهم. والعلم والتصديق نفسه. والتصديق المستلزم لعمل القلب. وأعمال القلوب. والأعمال الظاهرة والباطنة. وذكر القلب لما أمر به. وقد سبق مناقشة ذلك تفصيلًا.

المسألة الثالثة: الفرق بين الكبائر والصغائر عندهم

يتفق عامة الوعيدية على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر وعلى تعريف الكبيرة، ويختلفون في الحكم على أصحابها، وسننقل رأي المعتزلة في تقسيم الذنوب وفي الفرق بين الصغائر والكبائر عندهم وحكمهم على مرتكب الصغائر[1]، ثم ننقل رأي الخوارج.

أ- رأي المعتزلة: يقول القاضي عبد الجبار (فإن قيل: وما تلك الدلالة الشرعية التي دلتكم على أن في المعاصي ما هو كبير وفيها ما هو صغير، أفي كتاب الله تعالى ذلك، أم في سنة رسوله عليه السلام، أم في اتفاق الأمة؟ قيل له: أما اتفاق الأمة على أن أفعال العباد تشتمل على الصغير والكبير غير أنَّا نتبرك به ونتلو آيات فيها ذكر الصغير والكبير وما في معناه، قال سبحانه وتعالى: {ما لهذا

---

(١) سيأتي بحث حكمهم على مرتكب الكبيرة مفصلًا .

الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها} وقال تعالى: {وكل صغير وكبير مستطر} وقال أيضًا: {الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم} فلابد من أن يكون المراد باللمم الصغائر، و إلا لا يكون للاستثناء معنى وفائدة، إذ المستثنى لابد من أن يكون غير المستثنى منه...)[1]، وبين القاضي الفرق بين الصغائر والكبائر فقال: (فإذا قال: فما الفسق؟ قيل له: كل معصية وجب فيها حد وعقوبة، نحو القذف، ونحو السرقة والزنا، أو صح عن الرسول أو بالإجماع أنه من الكبائر وما عدا ذلك يجوز فيه أنه صغير من المعاصي..) [2]. وذكر الأشعري ثلاثة أقوال للمعتزلة حول الفرق بين الصغيرة والكبيرة فقال: (.. فقال قائلون منهم: كل ما أتى فيه الوعيد فهو كبير وكل ما لم يأت فيه الوعيد فهو صغير، وقال قائلون: كل ما أتى فيه الوعيد فكبير وكل ما كان مثله في العظم فهو كبير..) [3] ثم ذكر قولًا ثالثًا وهو قول بعضهم: (كل مرتكب لمعصية متعمدًا لها فهو مرتكب لكبيرة).

والقولان الأولان قريبان من قول القاضي عبد الجبار، أما القول الثالث فيبدو أنه قول شاذ عندهم حيث لم ينسبه الأشعري إلى فرقة منهم، و إنما إلى شخص ينسب إليهم وهو، جعفر بن مبشر[4].

أما حكمهم على مرتكب الصغيرة، فهم يرون أن مرتكبها لا يكفر، وأنه

---

(١) شرح الأصول الخمسة ٦٣٣ - ٦٣٤.

(٢) المختصر في أصول الدين، ضمن رسائل العدل والتوحيد ١/ ٢٦١.

(٣) مقالات الإسلاميين ٢٧٠، ٢٧١ .

(٤) جعفر بن مبشر بن أحمد، أبو محمد الثقفي المتكلم، أحد المعتزلة البغداديين، له مصنفات وآراء انفرد بها، مات في بغداد سنة ٢٣٤هـ-، انظر تاريخ بغداد ٧/ ١٦٢، الأعلام ٢/ ١٢٦ .

يغفر له إذا اجتنب الكبائر. وفي هذا المعنى يقول القاضي عبد الجبار: (... إن ما يستحقه المرء على الكبيرة من العقاب يحبط ثواب طاعاته، وما يستحقه على الصغيرة مكفر في جنب ماله من الثواب ...)[١].

ب- رأي الخوارج: نقل صاحب "مشارق أنوار العقول" ما كتبه ابن حجر الهيتمي في الزواجر من الأقوال في تعريف الكبيرة، ثم خرج بخلاصة في تعريف الكبيرة، فقال: (وحاصل ما ذكره أن الكبير من الذنوب هو ما ثبت فيه حد في الدنيا أو عذاب في الآخرة)[٢]، وقال خميس بن سعيد الرستاقي أحد علماء الأباضية[٣]: (والكبائر ما جاء فيه وعيد في الآخرة أو حد في الدنيا، وقيل: ما قاد أهله إلى النار فهو كبير، وأما الصغير من الذنب فليس هو بشيء محدد إلا أنه قيل: ما دون الكبائر...)[٤].

أما حكمهم على مرتكب الصغيرة فمتفاوت، وسنقتصر هنا على كلام الأباضية في ذلك باعتباره المذهب المنتشر، ثم نشير إلى آراء أخرى عند غيرهم، يلخص صاحب "مشارق الأنوار" رأيهم فيقول: (اعلم أن للصغائر حكمين، أحدهما أنها مغفورة بفعل الحسنات، بشرط اجتناب الكبائر قال تعالى {إن الحسنات يذهبن السيئات} وقال تعالى: {إن تجتنبوا كبائر مما تنهون عنه

---

(١) شرح الأصول الخمسة ٦٣٢، وانظر أقوالهم في ذلك في مقالات الإسلاميين ٢٧١ .
(٢) مشارق أنوار العقول ٢/ ٢٧٠.
(٣) هو: خميس بن سعيد بن علي بن مسعود الثقفي، عاش في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر، عاش في زمن سلطان بن سيف ثاني إمام اليعاربة، وكان عضدًا ومساعدًا له، له مصنفات أهمها منهاج الطالبين، في عشرين جزءًا، انظر مقدمة منهاج الطالبين .
(٤) منهج الطالبين وبلاغ الراغبين ٢/ ٢٠٦، وانظر جامع البسيوني ٢٠٦.

نكفر عنكم سيئاتكم}

والحكم الثاني: إن الإصرار عليها كبيرة...)[١] ولذلك يكفر المصر على الصغيرة عندهم كفر نعمة[٢].

ويذهب الأزارقة إلى القول بتكفير مرتكب الصغيرة[٣]، وينسب هذا القول – أيضًا – إلى طائفة من الصفرية[٤]، أما النجدات فيكفرون المصر على الذنب سواء كان الذنب صغيرًا أو كبيرًا، ولا يكفرون غير المصر وإن عمل الكبائر إذا كان من موافقيهم[٥].

مما سبق نلاحظ، الاتفاق بين أهل السنة والوعيدية –من حيث الإجمال– في مسألة تقسيمهم الذنوب إلى صغائر وكبائر، وعلى تعريفهم الكبيرة، ويختلفون عمن يكفر مرتكب الصغيرة أو المصر عليها، فإذا كان أهل السنة لا يكفرون مرتكب الكبيرة، ولا المصر عليها، فعدم تكفير المصر على الصغيرة من باب أولى. وهذا واضح، ومع مخالفة الوعيدية– لأهل السنة – في هذه الأمور على التفصيل، أعني مسألة تعريف الإيمان، وزيادته ونقصانه والفرق بين الكبائر والصغائر. إلا أن القضية الكبرى التي هي مدار خلاف طويل عريض بين أهل السنة والجماعة والوعيدية هى مسألة الحكم على مرتكب الكبيرة، وهذا ما سنفصله فيما يلي.

---

(١) مشارق أنوار العقول ٢/ ٢٧٣.

(٢) انظر منهاج الطالبين ٢/ ١٩٧، ومشارق الأنوار ٢/ ٢٧٨.

(٣) مشارق الأنوار ٢/ ٢٠٣.

(٤) الإيمان لأبي عبيد، ١٠٢، وانظر آراء أخرى للصفرية، التبصير في الدين للإسفراييني ٥٣.

(٥) الفصل ٤/ ١٩٠، الفرق بين الفرق٨٩.

المسألة الرابعة: حكم أهل الكبائر عندهم

يتفق رأي المعتزلة والأباضية في الحكم على مرتكب الكبيرة، فكلاهما لا يرى أن مرتكب الكبيرة يخرج من الملة في الدنيا، ويرون خلوده في النار في الآخرة، و إن اختلفوا في اسمه، حيث يقول المعتزلة بأنه في "منزلة بين المنزلتين" وهو أحد أصولهم الخمسة، ويقول الأباضية بأنه كافر كفر نعمة، فالخلاف بينهم لفظي[1].

أ- رأي المعتزلة: يلخص القاضي عبد الجبار مذهب المعتزلة في مرتكب الكبيرة (..فيقول: وجملة القول في ذلك أن الغرض بهذا الباب أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنًا ولا كافرًا، وإنما يسمى فاسقًا، والذي دل على الفصل الأول، وهو الكلام في أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمنًا، هو ما قد ثبت أنه يستحق بارتكاب الكبيرة الذم واللعن والاستخفاف والإهانة، وثبت أن اسم المؤمن صار بالشرع اسمًا لمن يستحق المدح والتعظيم والموالاة، فإذا قد ثبت هذا من الأصلين، فلا اشكال في أن صاحب الكبيرة لا يجوز أن يسمى مؤمنًا.. وهذه الجملة تنبني على أن المؤمن صار بالشرع اسمًا لمن يستحق المدح والتعظيم، و أنه غير مبقي على موضوع اللغة، و أما الذي دل على أنه صار بالشرع اسمًا لمن يستحق المدح والتعظيم، هو أنه تعالى لم يذكر اسم المؤمن إلا وقد قرن إليه المدح والتعظيم ألا ترى إلى قوله تعالى: {قد أفلح المؤمنون} وقوله: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم} وقوله: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله و إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه} إلى غير ذلك من الآيات..

---

(١) وقد صرح بذلك بعض علمائهم كما سيأتي .

و إذا قد فرغنا من الكلام في أن صاحب الكبيرة لا يجوز أن يسمى مؤمنًا وما يتصل به، فإنا نذكر بعده الكلام في أنه لا يسمى كافرًا.. اعلم أن الكفر في أصل اللغة إنما هو الستر والتغطية، ومنه سمي الليل كافرًا لما ستر ضوء الشمس عنا ومنه سمي الزارع كافرًا لستره البذرة في الأرض، قال الله تعالى: {ليغيظ بهم الكفار} أي الزراع، هذا في اللغة، و أما في الشرع فإنه جعل الكافر اسمًا لمن يستحق العقاب العظيم، ويختص بأحكام مخصوصة نحو المنع من المناكحة والموارثة والدفن في مقابر المسلمين، وله شبه بالأصل، فإن من هذه حاله صار كأنه جحد نعم الله تعالى عليه وأنكرها ورام سترها، و إذا ثبت هذا، ومعلوم أن صاحب الكبيرة ممن لا يستحق العقاب العظيم، ولا تجري عليه هذه الأحكام فلم يجز أن يسمى كافرًا...)[1].

ويلخص هذا الكلام بعبارة موجزة فيقول: (.. صاحب الكبيرة له اسم بين الاسمين، وحكم بين الحكمين لا يكون اسمه اسم الكافر، ولا اسمه اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقًا، وكذلك فلا يكون حكمه حكم الكافر، ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث، وهذا الحكم الذي ذكرناه، هو سبب المسألة بالمنزلة بين المنزلتين، فإن صاحب الكبيرة له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان، فليست منزلته منزلة الكافر ولا منزلة المؤمن، بل له منزلة بينهما) [2]، وهذه المسألة " المنزلة بين المنزلتين " مما أجمعت عليه فرق المعتزلة[3]، (وهذا هو

---

(١) شرح الأصول الخمسة ٧٠١- ٧٠٢، وانظر بشكل موسع شرح القاضي لهذا الأصل (٦٩٧-٧٣٨) وانظر "الانتصار الرد على ابن الروندي" ١٦٤-١٦٧ لأبي الحسين الخياط المعتزلي .

(٢) شرح الأصول ٦٩٧ .

(٣) انظر التبصير في الدين ٦٥، والمنية والأمل المرتضى ص٦، الفرق بين الفرق ١١٥ .

الذي امتازت به المعتزلة، و إلا فسائر بدعهم قد قالها غيرهم...)[١].

ب- رأي الأباضية: يلخص صاحب "مشارق الأنوار" رأي الأباضية في ذلك، والفرق بينهم وبين المعتزلة، فيقول: (وذهبت المعتزلة إلى جعل منزلة الفسق بين منزلتين الإيمان والكفر، قالوا: لا يسمى الفاسق مؤمنًا ولا كافرًا فهو بين بين، لأن له في الدنيا أحكام المؤمنين وفي الآخرة أحكام الكافرين، والخلاف بيننا لفظي، لأنهم خصوا اسم الكفر بالمشرك، ومنعوا إطلاقه على الفاسق، ونحن نطلقه عليه لكنا نقيده بكفر النعمة، ولا نجري عليه أحكام المشركين، بل نقول فيه إن أحكامه في الدنيا أحكام المؤمنين إلا في الولاية وقبول الشهادة ونحوهما من الأحكام المختصة بالعدول، وليست التسمية بنفسها موجبة خلافًا معنويًا بين الفرق، وإنما الموجب لذلك الخلاف بناء الأحكام على الأسماء، كما ذهبت الأزارقة والصفرية والنجدات إلى تسمية صاحب الكبيرة كافرًا وأجروا حكم المشركين عليه وزادت الأزارقة على الطائفتين بتسمية صاحب الصغيرة كافرًا وإجراء حكم المشركين عليه) [٢].

أما بقية فرق الخوارج فتتضارب أقوالهم في هذه المسألة، فالنجدات ينقل عنهم في المسألة قولان:

الأول: أن مرتكب الكبيرة كافر كفر نعمة[٣]، والثاني: أن من فعل الذنب

---

(١) النبوات لابن تيمية ١٣٤.

(٢) مشارق الأنوار ٢/ ٢٠٢، ٢٠٣، وانظر ٣٠٤، فقد أشار إلى أن الخلاف مع المعتزلة في ذلك "لفظي" أما إشارته إلى أن جميع فرق الخوارج تقول بأن مرتكب الكبيرة كافر مشرك فغير دقيق، كما سنشير بعد ذلك إلى أقوالهم في المسألة.

(٣) انظر مقالات الإسلاميين ٨٦، التبصير ٤٥، أصول الدين للبغدادي ٢٥٠.

وأصر عليه فهو مشرك، و إن كان غير مصر فهو مسلم إن كان من موافقيهم[١]، والصفرية: انقسموا ثلاث فرق[٢]: ففرقة تقول بأن مرتكب الكبيرة كافر ومشرك[٣]، وأخرى تقول: لا يكفر إلى أن يحده الوالي ويحكم بكفره[٤]، وثالثة تقول: كل ذنب له حد في الشريعة لا يسمى مرتكبه مشركًا ولا كافرًا، بل يدعى باسمه بأن يقال سارق وقاتل وقاذف.. الخ وكل ذنب ليس له حد فمرتكبه كافر[٥].ومر معنا تكفير الأزارقة لمرتكب الصغيرة.

المسألة الخامسة: موقفهم من نصوص الوعد والوعيد

يترتب على ارتكاب الكبيرة مسألة الجزاء والثواب في الآخرة، وهو ما يسمى "الوعد والوعيد"، وهو أحد أصول المعتزلة الخمسة، ويتفق الخوارج جميعًا معهم في هذا الأصل، وتتطابق تعريفاتهم وأدلتهم -كما ستلاحظ- وسنذكر رأي المعتزلة ثم رأي الخوارج، ثم نذكر أدلتهم على هذا الأصل.

أ- رأي المعتزلة: يقول القاضي عبد الجبار: (... و أما علوم الوعد والوعيد، فهو أنه يعلم أن الله تعالى وعد المطيعين بالثواب وتوعد العصاة بالعقاب، وأنه يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة،ولا يجوز عليه الخلف و الكذب،والمخالف في هذا الباب إما أن يخالف في أصل الوعد والوعيد،أو يقول: أنه تعالى وعد وتوعد ولكن يجوز أن يخلف في وعيده، فالكلام عليه أن يقال: إن الخلف في حق الله تعالى كذب لما تقدم،والكذب قبيح والله تعالى لا

(١) الفصل ٤/ ١٩٠، والفرق بين الفرق ٨٩.
(٢) التبصير ٥٣، الفرق بين الفرق ٩١، فقد ذكروا هذه الفرق وأقوالها .
(٣) الإيمان لأبي عبيد ١٠٢، والفرق بين الفرق ١١٧ .
(٤) الفصل ٤/ ١٩٠.
(٥) الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٣٥ .

يفعل القبيح لعلمه بقبحه،ولغناه عنه،وإلى هنا أشار تعالى بقوله: {ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد}، وبعد فلو جاز الخلف في الوعيد لجاز في الوعد، لأن الطريق في الموضعين واحد، فإن قال: فرق بينهما، لأن الخلف في الوعيد كرم وليس كذلك في الوعد، قلنا: ليس كذلك، لأن الكرم من المحسنات، والكذب قبيح بكل وجه، فكيف تجعله كرمًا، أو يقال إن الله تعالى وعد وتوعد، ولا يجوز عليه الخلف والكذب، ولكن يجوز أن يكون في عمومات الوعيد شرطًا واستثناء لم يبينه الله تعالى، والكلام عليه أن يقال: إن الحكيم لا يجوز أن يخاطبنا بخطاب لا يريد به ظاهره، ثم لا يبين مراده به لأن ذلك يجري مجرى الألغاز والتعمية، وذلك لا يجوز على الله تعالى، وبعد، فلو جاز في عمومات الوعيد لجاز في عمومات الوعد، بل في جميع الخطاب من الأوامر والنواهي، والمعلوم خلافه...)[1] أيضًا من مذهبهم في الوعيد، أن من دخل النار لا يخرج منها، يقول يحيى بن الحسين: (ثم يجب أن يعلم أن وعده ووعيده حق، من أطاعه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار أبد الآبدين، لا ما يقول الجاهلون من خروج المعذبين من العذاب المهين إلى دار المتقين ومحل المؤمنين، وفي ذلك ما يقول رب العالمين: {خالدين فيها أبدًا}، ويقول: {وما هم بخارجين من النار}، ففي كل ذلك يخبر أنه من دخل النار فهو مقيم فيها غير خارج منها..) [2]، ولذلك أنكروا شفاعته ﷺ لمن دخل النار من أهل الكبائر، يقول القاضي عبد الجبار في ذلك: (فصل في الشفاعة، ووجه اتصاله بباب الوعيد، هو أن هذا أحد شبه المرجئة الذين يوردون علينا طعنًا في القول بدوام

---

(١) شرح الأصول الخمسة ١٣٥، ١٣٦، وانظر شرح هذا الأصل مفصلًا (٦١١-٦٩٣).
(٢) رسائل العدل والتوحيد ٢/ ٦٧، وانظر ١/ ١٥٥.

عقاب الفساق، وجملة القول في ذلك، هو أنه لا خلاف بين الأمة في أن شفاعة النبي ﷺ ثابتة للأمة، وإنما الخلاف في أنها ثبتت لمن؟ فعندنا أن الشفاعة للتائبين من المؤمنين، وعند المرجئة أنها للفساق من أهل الصلاة..) (١).

من كل ما سبق نستخلص، أن مذهب المعتزلة في الوعد والوعيد أن الله وعد المطيعين أن يثيبهم الجنة، أوعد العصاة النار، و أنه يفعل ذلك لا محالة، فلا خلف لوعده ولا وعيده، و أن من دخل النار فهو خالد مخلد فيها، فلا يخرج منها أحد ممن دخل فيها، وينكرون الشفاعة في أهل الكبائر وسنذكر أهم أدلتهم، بعد ذكر رأي الخوارج للتشابه بين أدلة الرأيين.

ب- رأي الخوارج: يقول خميس بن سعيد الرستاقي ملخصًا مذهب الأباضية في ذلك: (.. والوعد: هو ما وعد الله به أهل طاعته من الثواب في الآخرة، وهو حق، والوعيد: ما أوعد الله به أهل الكفر والمعاصي من العقاب في الآخرة، وهو حق، ومن زعم أن الله تعالى أوعد قومًا النار ثم لم يدخلهم إياها، فقد كذب على الله تعالى، والله تعالى يقول: {ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد}، وقال: {إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم * يصلونها يوم الدين * وما هم عنها بغائبين}، فلا يجوز بطلان قول الله تعالى و الله تعالى يقول: {ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين}، فهذا يدل على بطلان قول من يقول: إن الله ينجز وعده ويبطل وعيده) (٢).

---

(١) شرح الأصول ٦٨٧، ٦٨٨.

(٢) منهج الطالبين ١/ ٤٢١.

ويعبر عن ذلك أبو الحسن البسيوي بعبارة موجزة، فيقول: (فمن لقي الله بعمل الكبائر، و الإصرار على الصغائر ولم يتب من ذلك فله النار، كما قال، لا خلف لوعيده في ذلك..) [١].

ويرد أبو عمار عبد الكافي الأباضي على من يقول: إن إخلاف الوعيد قد يكون من الكرم والجود فلماذا لا يجوز على الله ﷻ ذلك، فيقول: (ويحك قد ناظرت ما لم يكن نظيرًا، وشبهت ما ليس بشبيه، وذلك أن أحدًا منا قد يعد ويوعد، وهو لا علم له بالذي تصير إليه عاقبة وعده وتوعده ثم يكون من بعد ذلك تبدو له أمور يتبين بها أن عاقبة وعيده، إذا هو أمضاه تصير إلى فساد، وتنتهي إلى هلاك، فيرى أن الخلف الذي توعد به أصلح من إمضائه وإتمامه، فيقصر عندما بداله من إنجاز ما توعد به، والله ﷻ غير موصوف بأن يكون يجهل عاقبة أمر من الأمور، فيكون يبدو له ما لم يكن يعلم من ذلك، ولو كان الله ﷻ يعد أحدًا أو يتوعده، ثم هو لا يفي له بذلك لوقع التوهم في جميع موعوداته، وشك في جميع أخباره..) [٢] أيضًا ينكر الأباضية الشفاعة لمن دخل النار من أهل الكبائر، ويقصرونها على المؤمنين ممن أدوا الواجبات، وجانبوا المحرمات[٣].

وبذلك يتضح لنا مذهب الأباضية في الوعد والوعيد حيث إنه لا يختلف عن مذهبه بقية الخوارج والمعتزلة، وقبل ذكر أدلتهم على هذا الأصل، نشير بإيجاز، إلى بعض الفروق التفصيلية بينهم في ذلك.

---

(١) جامع أبي الحسن البسيوي ١/ ٢٠٦.
(٢) الموجز ٢/ ٨٦.
(٣) انظر مشارق الأنوار ٢/ ١٣٢، ومنهج الطالبين ١/ ٥٢٠.

الفرق بين الخوارج والمعتزلة في مسألة الخلود

قد بينا فيما سبق أنه ليس هناك فروق في أصل الوعيد لأهل الكبائر في الآخرة، و أنهم متفقون على الخلود في النار، وهناك فروق يسيرة، يذكرها بعض المصنفين في الفرق والمقالات، لا تعارض الاتفاق العام بينهم على هذا الأصل، من ذلك، ما ذكره صاحب مشارق الأنوار من أن (أهل الاستقامة ويعني بهم الأباضية) يقولون: إن التعذيب بعدل الله والثواب بفضله، والمعتزلة يقولون بوجوب ذلك عليه تعالى عن ذلك، بناءًا على أصلهم الفاسد في التحسين والتقبيح العقليين)[١].

ومن الفروق ما ذكره الأشعري في المقالات، من أن الخوارج يقولون إن مرتكبي الكبائر ممن لم يتوبوا يعذبون عذاب الكافرين، أما المعتزلة فيقولون إن عذابهم أخف من عذاب الكافرين[٢].

ومن ذلك ما ذكره البغدادي عن بعض شيوخ المعتزلة أنهم أجازوا مغفرة الله ﷻ ذنوب أهل الكبائر من غير توبة[٣]، بينما لم ينقل عن أي من فرق الخوارج أو شيوخهم رأيًا مخالفًا في هذا.

أ- أدلة الوعيدية في مسألة الوعد والوعيد.

استدلوا بأدلة كثيرة، ومن أكثر استدلالاتهم، احتجاجهم بعمومات الوعيد، ليؤكدوا أن صاحب الكبيرة -إن لم يتب- فهو خالد مخلد في النار ولابد فلا تشمله المغفرة، ولا يخرج من النار لا بشفاعة ولا بغيرها، وردوا على بعض

(١) مشارق أنوار العقول ٢/ ١٤٣.
(٢) انظر مقالات الإسلاميين ١٢٤، الملل والنحل ١/ ٤٥.
(٣) انظر الفرق بين الفرق ١١٦، نقل ذلك عن محمد بن شبيب البصري، والصالحي، والخالدي.

الأدلة المخالفة لمذهبهم، ومن باب الاختصار، سأختار أهم أدلتهم على ذلك، وأهم ردودهم، على أهل السنة وسأجمل أدلتهم بما يلي:

١- عمومات الوعيد: قالوا: (إن غالب آيات الوعيد نصت على الخلود في النار ولم تفرق بين المشرك وغيره. ولا تجد بجانب ذلك في القرآن ما يشير إلى عدم خلود أحد ولو من بعيد..) [١]، ومن الآيات التي ذكروا قوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارًا خالدًا فيها} قال عبد الجبار في شرحها: (فالله تعالى أخبر أن العصاة يعذبون بالنار ويخلدون فيها، والعاصي اسم يتناول الفاسق والكافر جميعًا فيجب حمله عليها، لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه، فلما لم يبينه دل على ما ذكرناه) [٢]. ومن ذلك قوله تعالى: {والذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب} وقوله تعالى: {بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}.

قالوا: (فقد بين أن من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فهو مخلد في النار، ما لم يلق الله تائبا منها) [٣].

وقال القاضي عبد الجبار: (دلت الآية على أن من غلبت كبائره على طاعته - لأن هذا هو المعقول من الإحاطة في ب-اب الخطايا، إذ أن ما سواه من الإحاط-ة التي تستعمل في الأجسام مستحيل فيها - هو من أهل النار مخلد

---

(١) حاشية مشارق الأنوار، أحمد الخليلي ٢/ ١٣٨.

(٢) شرح الأصول الخمسة ٦٥٧.

(٣) جامع البسيوي ١/ ٢١٣، وانظر شرح مطول لهذه الآية، في تأييد مذهب الأباضية، الحق الدامغ ٢٠٢-٢٠٧.

فيها) [1] ومن أدلتهم قوله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرا}. يقول القاضي: (و الآية تدل على أن الفاسق من أهل الصلاة متوعد بالنار، و أنه سيصلاها لا محالة ما لم يتب، لأن الذي يأكل أموال اليتامى ليس هو الكافر فلا يصح حمله عليه، ويجب كونه عاما في كل من هذه حاله...)[2].

ومنها قوله سبحانه: {إن الأبرار لفي نعيم و إن الفجار لفي جحيم يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين}. قال السالمي: (فلو كانوا يخرجون منها لزم أن يغيبوا عنها، والفجور شامل للشرك وغيره) [3].

ومما استدلوا به – أيضًا – قوله تعالى: {ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابًا عظيمًا} (ووجه الاستدلال بالآية أن الله تعالى توعد فيها قاتل المؤمن – فيما توعده به – بالخلود في النار مع أن القتل كبيرة دون الشرك..) [4].

قال القاضي عبد الجبار بعدما ذكر بعض آيات الوعيد: (والذي يدل على أن الفاسق يخلد في النار ويعذب فيها أبدًا ما ذكرناه من عمومات الوعيد، فإنها تدل على أن الفاسق يفعل به ما يستحقه من العقوبة، تدل على أنه يخلد، إذ ما من آية من هذه الآيات التي مرت إلا وفيها ذكر الخلود والتأبيد أو ما يجري مجراها)[5].

---

(١) متشابه القرآن ١/ ٩٧.

(٢) متشابه القرآن، ١/ ١٧٨.

(٣) مشارق أنوار العقول ٢/ ١٤٥.

(٤) الحق الدامغ ٢١٣، وانظر متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ١/ ٢٠١.

(٥) شرح الأصول ٦٦٦.

٢- أدلتهم من السنة: استدلوا ببعض الأحاديث التى فيها التصريح بعدم دخول الجنة، أو الخلود في النار مثل قوله - ﷺ -: "من اقتطع حق مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة ..."(١) وقوله عليه الصلاة والسلام: "لا يدخل الجنة نمام"(٢)، وقوله: "من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا فيها أبدًا.." (٣) قال الخليلي - مفتي الأباضية في عصرنا هذا - في تعليقه على هذه الروايات: والروايات - كما قلت - في ذلك كثيرة، تارة تدل على الخلود بالنص عليه، وتاره بالجمع بينه وبين التأبيد، وأخرى بالتوعد بحرمان الجنة أو حرمان شم ريحها، ومحصلها واحد و إن اختلفت ألفاظها، فإن حرمان الجنة ينافي دخولها في أي وقت من الأوقات، كما أن نفي دخولها يعم جميع الأزمنة) (٤).

٣- آيات الشفاعة: ينكر الوعيدية شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من أهل الكبائر ويقصرون الأدلة الواردة على الشفاعة للمتقين، يقول القاضي عبد الجبار، في ذلك - وقد سبق نقله قبل قليل - (فصل في الشفاعة، ووجه اتصاله بباب الوعيد، هو أن هذا أحد شبه المرجئة(٥) الذين يوردون علنيا، طعنًا في القول بدوام عقاب الفساق، وجملة القول في ذلك، هو أنه لا خلاف بين الأمة في أن

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمينه فاجره بالنار رقم ١٧٣.

(٢) رواه البخاري كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة بلفظ: قتات"، الفتح ١٠/ ٣٩٤، ومسلم في الإيمان "باب بيان غلظ النميمة" رقم ١٠٥.

(٣) رواه مسلم كتاب الإيمان " باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ..." رقم ١٠٩.

(٤) الحق الدامغ ٢٢٥.

(٥) يقصد بالمرجئة هنا: من يثبت الشفاعة لأهل الكبائر، ومنهم أهل السنة.

شفاعة النبي ﷺ ثابتة للأمة وإنما الخلاف في أنها ثبتت لمن؟ فعندنا أن الشفاعة للتائبين من المؤمنين، وعند المرجئة أنها للفساق من أهل الصلاة) [(١)].

وقال عبد الله السالمي أحد علماء الأباضية: (... شفاعة نبينا محمد ﷺ مقصورة على التقي من المكلفين، والتقي: من جانب المحرمات وأدى الواجبات فلا شفاعة لغيره من الأشقياء، لقوله تعالى: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} وقوله: {واتقوا يومًا لا تجزى نفس عن نفس شيئًا ولا يقبل منها شفاعة} وقوله: {ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع} وهو اسم لكل من ظلم نفسه أو ظلم غيره، فلا يخص المشركين كما زعموا... ويعضد هذه الآيات ما سيأتي من الأدلة القاطعة في تخليد أهل الكبائر فإنهم متى ثبت تخليدهم في النار بالقطعيات الآتية، انتفت عنهم الشفاعة في الموقف ضرورة..) [(٢)].

٤- استدلوا لذلك ببعض الأدلة العقلية: وسأقتصر على ثلاثة منها:

الأول: أنه سبحانه لو لم يعاقب العصاة، لاقتضى ذلك الخلف والتبديل والكذب في خبره.

الثاني: أن القول بأن صاحب الكبيرة قد لا يعذب فيه إغراء بمعصية الله تعالى فإن من علم أنه إن أتى الكبيرة لا يعذب، سارع في إتيانها) .

الثالث: ومن أدلتهم العقلية على إنكار الشفاعة لأهل الكبائر ما قاله القاضي عبد الجبار: (..أن الأمة اتفقت على قولهم: اللهم اجعلنا من أهل الشفاعة، فلو

---

(١) شرح الأصول ٦٨٧- ٦٨٨.

(٢) مشارق الأنوار ٢/ ١٣٢- ١٣٣، وانظر منهج الطالبين ١/ ٥٢٠، ٥٢١، أصدق المناهج في تمييز الأباضية من الخوارج ٢٧.

كان الأمر على ما ذكرتموه لكان يجب أن يكون هذا الدعاء، دعاء لأن يجعلهم الله تعالى من الفساق، وذلك خلف[1].

مناقشة مذهب الوعيدية في الإيمان: سنركز في مناقشتنا لمذهب الوعيدية في الإيمان على رأيهم في الوعد والوعيد واستدلالاتهم عليه، وذلك للأسباب التالية:

١- لأنه سبق و أن ذكرنا في الفصلين السابقين، ما يمكن أن نعتبره ردًا عليهم في بقية آرائهم، حيث ذكرنا مذهب أهل السنة في الإيمان، ودخول العمل في مسماه، وقولهم بزيادة الإيمان ونقصانه، وأدلتهم على عدم تكفير مرتكب الكبيرة، والرد على بعض الشبهات في ذلك.

٢- ولأن مسألة " الوعد والوعيد" وخاصة القول بوجوب الوعيد لأهل الكبائر وخلودهم في النار، هي أكبر انحراف وابتداع للمعتزلة والخوارج في مسألة الإيمان، وهو من أصولهم الرئيسية، لذلك كثر استدلالهم لها.

٣- إذا بينا فساد حججهم على ذلك، سقطت حججهم في غيرها من مسائل الإيمان التي هي في حقيقة الأمر فرع عن هذا الأصل، ولإيضاح ذلك يقال: إذا ثبت أن الله سبحانه يغفر لمن يشاء من أهل الكبائر، و أن من دخل النار منهم لا يخلد، دل ذلك على أن مرتكب الكبيرة لم يخرج من الإيمان فلم يحبط عمله، و إذا لم يخرج من الإيمان بارتكابه المعاصي فإن إيمانه سيكون أنقص ممن لم يعملها وهكذا..

مناقشة أدلتهم في "الوعد والوعيد": أولًا: من أهم ما يرد عليهم به

---

(١) شرح الأصول الخمسة ٦٩٢، مشارق الأنوار ٢/ ١٤٩، وانظر شرح الأصول ٦٨٣، وانظر التفسير الكبير للفخر الرازي ٣/ ٦٣- ٦٥، مشارق الأنوار ٢/ ١٣٣.

الاستدلال عليهم بآيات الوعد والرجاء والترغيب في مقابل استدلالهم بآيات الوعيد وهذا هو الرد الرئيس، أو الأصل الذي تتفرع عنه باقي الردود فيقال لهم:

أولا: إن آيات الوعيد التي احتج بها من ذهب مذهب المعتزلة والخوارج، لا يجوز أن تخص بالتعلق بها دون آيات العفو وأحاديث العفو التي احتج بها من أسقط الوعيد، بل الواجب جمع جميع تلك الآيات وتلك الأخبار وكلها حق وكلها من عند الله وكلها مجمل تفسيرها بآيات الموازنة وأحاديث الشفاعة التي هي بيان لعموم تلك الآيات وتلك الأخبار وكلها من عند الله)[(١)].

ثانيا: المعتزلة تقول: إن الإيمان يضيع ويحبط، وهذا خلاف قول الله تعالى: إنه لا يضيع إيماننا ولا عمل عامل منا، وقالوا هم: إن الخير ساقط بسيئة واحدة، وقال تعالى: {إن الحسنات يذهبن السيئات} فقالوا هم: إن السيئات يذهبن الحسنات، وقد نص تعالى أن الأعمال لا يحبطها إلا الشرك والموت عليه، وقال تعالى: {ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها} فلو كانت كل سيئة أو كبيرة توجب الخلود في جهنم، وتحبط الأعمال الحسنة، لكانت كل سيئة أو كل كبيرة كفرًا ولتساوت السيئات كلها وهذا خلاف النصوص.[(٢)]

ثالثا: أيضًا مما رد عليهم به ابن حزم - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - قوله: (كل آية وعيد وخبر وعيد تعلق به من قال بتخليد المذنبين، فإن المحتجين بتلك النصوص هم أول مخالف لها لأنهم يقولون: إن من أتى بتلك الكبائر ثم تاب سقط عنه الوعيد، فقد تركوا ظاهر تلك النصوص، فإن قالوا: إنما قلنا ذلك بنصوص أخر أوجبت ذلك، قيل لهم: نعم وكذلك فعلنا بنص-وص أخر، وهي آيات الموازنة، و أنه

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم ١/ ٤٨.
(٢) الفصل، ١/ ٤٩.

تعالى لا يضيع عمل عامل من خير أو شر ولا فرق)[١].

رابعا: ومن ردوده عليهم رَحِمَهُ اللَّهُ رده على دعواهم استحالة اجتماع الولاية والعداوة والحمد والذم في الشخص الواحد، لذلك من عمل الكبيرة والسوء فقد صار عدوًا لله، وليس وليا وهكذا، قال رَحِمَهُ اللَّهُ رادًا على هذه الدعوى: (ثم يقال لهم: ما تقولون إن عارضتكم المرجئة بكلامكم نفسه، فقالوا: من المحال أن يكون إنسان واحد محمودًا مذمومًا محسنًا مسيئًا عدوًا لله وليا له معا، ثم أرادوا تغليب الحمد والإحسان والولاية، وإسقاط الذم و الإساءة والعداوة، كما أردتم أنتم بهذه القضية نفسها تغليب الذم والإساءة والعداوة، وإسقاط الحمد والإحسان والولاية، فإن قالت المعتزلة، إن الشرط في حمده وإحسانه وولايته أن تجتنب الكبائر، قلنا لهم: فإن عارضتك-م المرجئة فقالت: إن الشرط في ذمه وإساءته ولعنه وعداوته ترك شهادة التوحيد، فإن قالت المعتزلة: إن الله قد ذم المعاصي وتوعد عليها، قيل لهم فإن المرجئة تقول لكم إن الله تعالى قد حمد الحسنات والتوحيد ووعد عليها، وأراد بذلك تغليب الحمد، كما أردتم تغليب الذم، فإن ذكرتم آيات الوعيد ذكروا آيات الرحمة[٢] إذًا كل شبهة ودعوى يتعلق بها الوعيدية، فبنفس دعواهم ومنطقهم يرد عليهم.

خامسا: يقال لهم أيضًا ترجيح عمومات الوعد أولى، لأنه ثبت في النصوص الصحيحة، أن رحمة الله غلبت غضبه أو سبقت غضبه[٣]، و لأنها أدل على

---

(١) الفصل ٤/ ٥٠.

(٢) نفسه ٣/ ٢٣٢.

(٣) انظر صحيح البخاري (كتاب التوحيد) باب قوله تعالى: {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين} (الفتح ١٣/ ٤٤٠).

الجود والكرم من عمومات الوعيد[١].

ولعلنا من باب زيادة الإيضاح نذكر بعض أدلة الوعد والترغيب المقابلة لأدلة الوعيد التي ذكروها في حججهم ثم نجيب عن بعض اعتراضاتهم عليها.

بعض آيات الوعد التي استدل بها أهل السنة وردودهم عليها:

منها قوله سبحانه وتعالى: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها}.

وقوله سبحانه: {ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا}، وقوله ﷻ: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم} وقوله ﷻ: {ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون}، وقوله سبحانه: {للذين أحسنوا بالحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون} وقوله ﷻ: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة و إن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا}، وغيرها من الآيات وهي كثيرة جدًا، أما ردود الوعيدية على هذه الآيات فهي في الغالب عمومات كما سنرى فمثلًا قوله سبحانه {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها} قالوا: إن ذلك يكون في حق من اتقى المعاصي والسيئات قبل إحسانه، ومن ركب المعاصي لم يقبل عمله فإذا كان ذلك كذلك لم يقبل إحسان مع السيئة، لأنه لا يقبل إلا من المتقين، وكيف يكون من المتقين من زنا وسرق وقذف وشرب الخمر ...؟[٢] واحتجوا بقوله تعالى: {إنما يتقبل الله من المتقين}.

وقد أجاب شيخ الإسلام عن ذلك بجواب مطول ومما قال فيه: (إن المراد

---

(١) انظر التفسير الكبير ٣/ ١٧١.

(٢) انظر جامع البسيوي ١/ ٢١٢، مشارق الأنوار ٢/ ١٤٤.

من اتقى الله في ذلك العمل، كما قال الفضيل بن عياض، في قوله تعالى: {ليبلوكم أيكم أحسن عملا}، قال: أخلصه، وأصوبه، قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، و إن كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة[١]، فمن عمل لغير الله – كأهل الرياء- لم يقبل منه ذلك كما في الحديث الصحيح، يقول الله ﷻ: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري، فأنا بريء منه، وهو كله للذي أشركه"[٢]... لا يجوز أن يراد بالآية: أن الله لا يقبل العمل إلا ممن يتقي الذنوب كلها، لأن الكافر والفاسق حين يريد أن يتوب ليس متقيًا، فإن كان قبول العمل مشروطًا بكون الفاعل حين فعله لا ذنب له امتنع قبول التوبة، بخلاف ما إذا اشترك التقوى في العمل، فإن التائب حين يتوب يأتي بالتوبة الواجبة ... أيضًا فالكافر إذا أسلم وعليه للناس مظالم من قتل، وغصب، وقذف – وكذلك الذمي إذا أسلم – قبل إسلامه مع بقاء المظالم عليه.. ولا نعرف أحدًا من المسلمين جاءه ذمي يسلم فقال له، لا يصح إسلامك حتى لا يكون عليك ذنب...)[٣]

أما قوله سبحانه: {و إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم} فقالت الوعيدية عنها: (إن الأخذ بظاهر الآية مما لا يجوز بالاتفاق، لأنه يقتضي الإغراء على الظلم وذلك لا يجوز على الله تعالى فلابد أن يؤول، وتأويله هو أنه

---

(١) انظر تفسير البغوي – سورة الملك ٨/ ١٧٦، ط دار طيبة .
(٢) رواه مسلم، كتاب الزهد " باب الرياء"، مسلم بشرح النووي ١٨/ ١١٥ .
(٣) الإيمان الأوسط ٣٦- ٤٠ .

يغفر للظالم على ظلمه إذا تاب)[١]، ويجاب عن ذلك بأنه ثبت في الصحيح، ما يدل على أن لا يختص بالتائب، حيث قال - ﷺ -: "من كانت عنده لأخيه مظلمة من عرض أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون درهم ولا دينار، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم ألقي في النار"[٢] فثبت أن الظالم له حسنات يستوفي منها حقه[٣]، ولو كان عمله حابطًا بالظلم، لم يأت بحسنات، ولو كان تائبًا لم يسم ظالمًا، أما القول إن الأخذ بظاهرها لا يجوز بالاتفاق فيقال له، اتفاق من؟ ثم، ليس في الآية إغراء على الظلم، لأن الأصل معاقبة الظالم على ظلمه إلا أن يشاء الله، كما دلت على ذلك آيات أخرى مثل قوله سبحانه: {ولا تحسبن الله غافلًا عما يعمل الظالمون}، وكذلك قوله سبحانه: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} ثم الآية بعدها {والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها} إلى قوله ﷻ: {أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} قالوا عنها: (.. إنه توعد الذين عملوا السيئات بالنار مخلدين فيها وهذا الحكم يصدق على من أتى سيئة فإن السيئات جنس غير محصورة أفراده، وما كان كذلك فحكمه يصدق على كل فرد من أفراده سلبًا وإيجابًا.." [٤].

وهذا الطرف، يرد عليه بما يقابله فيقال، والحكم الأول يصدق على من أتى أي حسنة، فلابد من التوازن وربط ذلك بالنصوص الأخرى الشبيهة والمكملة.

ثانيًا: ومما يرد عليهم به بعض النصوص الصريحة - كما سبقت الإشارة

---

(١) شرح الأصول الخمسة ٦٨٤.

(٢) رواه البخاري، كتاب المظالم " باب من كانت عنده مظلمة لأخيه.." ٥/ ٧٣ (الفتح)

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ٣٦١.

(٤) الحق الدامغ ٢٢، ٢٢١.

إليه – في أن من مات موحدًا، فهو تحت المشيئة وأن مآله إلى الجنة، من مثل حديث أبي ذر عن النبي ﷺ: أنه قال " أتاني جبريل عليه السلام فبشرني: أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق، قال و إن زنى وإن سرق"[1] وهذا من أقوى النصوص في إبطال مذهب الوعيدية، ولم أجد – حسب المراجع المتوفرة لدى – ما يردون به على الدليل.

أيضًا مما يستدل به على أن مرتكب الكبيرة تحت المشيئة، ومما يعتبر استثناءًا من عموم الوعيد قوله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (فجعل ما دون ذلك الشرك معلقًا بمشيئته، ولا يجوز أن يحمل هذا على التائب: فإن التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره، كما قال سبحانه: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا} فهنا عمم وأطلق لأن المراد به التائب، وهناك خص وعلق[2].

وهذه الآية، اضطرب الوعيدية في الجواب عنها ومن أشهر أجوبتهم، قول بعضهم: (فإن سألوا عن قول الله عز وجل: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} قيل لهم: فقد قال الله أيضًا: إن الله يغفر الذنوب جميعا} ، ولم يخص ذنبًا دون ذنب، ولا غير شرك من شرك، فيجب بهذا من قول الله، أن يكون يغفر الشرك وغير الشرك.. إلى أن يقول، وقوله عز وجل: {لمن يشاء} فقد شاء

(١) رواه مسلم "كتاب الإيمان"، باب من مات لا يشرك باله شيئًا دخل الجنة" مسلم بشرح النووي ٢/ ٩٣- ٩٤.

(٢) الإيمان الأوسط ٢٦،٢٧ وانظر تفسير القرطبي ٥/ ١٦١، وانظر ما نقلنا عن الإمام المروزي، في تفسير هذه الآية في الفصل السابق ص١١١.

أن يغفر لمجتنب الكبائر ما دون الكبائر، ولم يشأ أن يغفر لمرتكبها إذا لقي الله بها..)[١]، ويقول القاضي في شرح الأصول الخمسة (اعلم أن (العلماء) رحمهم الله قالوا: إن الآية مجملة مفتقرة إلى البيان، لأنه قال: {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} ولم يبين من الذي يغفر له، فاحت-مل أن يكون المراد به أصحاب الصغائر، واحتمل أن يكون المراد به أصحاب الكبائر، فسقط احتجاجهم بالآية.. ووجه آخر، وهو أن أكثر ما في الآية تجويز أن يغفر الله تعالى ما دون الشرك على ما هو مقرر في العقل، فلو خلينا وقضية العقل لكنا نجوز أن يغفر الله تعالى، ما دون الشرك لمن يشاء إذا سمعنا هذه الآية، غير أن عمومات الوعيد تنقلنا من التجويز إلى القطع على أصحاب الكبائر يفعل بهم ما يستحقونه، و أنه تعالى لا يغفر لهم إلا بالتوبة والإنابة}[٢].

ويرد على هذا الاستدلال بما يلي:

١ - قوله سبحانه: {إن الله يغفر الذنوب جميعا}، النظر في سياق الآية، وما بعدها يدل صراحة على أنها خاصة بالتائب، حيث قال سبحانه: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله} وقال في الآية بعدها، {وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون}، أما قوله سبحانه: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ... الآية}، فلا يصح حملها على التائب، لأن التائب يغفر له حتى و إن أشرك، فوجب حملها على أن مرتكب الذنوب – غير المشرك- إذا لقي الله سبحانه بدون توبة فهو تحت المشيئة.

---

(١) الموجز لأبي عمار الأباضي ٢/ ٩١.

(٢) شرح الأصول الخمسة ٦٧٨، وانظر رسائل العدل والتوحيد ١/ ١٥١، والحق الدامغ ٢١٧، ٢١٨، ومشارق أنوار العقول ٢/ ١٥٢.

٢- أما قولكم: إن الآية مجملة فتحتمل الصغائر والكبائر.. إلخ، فيقال لكم: وما المانع من حملها على إجمالها وعمومها، على طريقتكم في الاستدلال؟

٣- أما دعواكم، إن الآية فيها تجويز المغفرة لما دون الشرك، غير أن عمومات الوعيد تمنع ذلك، فيمكن يقال لكم عكس ذلك، أن عمومات الوعيد تدل على العقوبة وعدم المغفرة وهذه الآية تجوز المغفرة فتكون مخصصة للعموم، ويمكن أن يقال – بمثل ما سبق- ولماذا الذهاب إلى عمومات الوعيد وليس الوعد؟

ثالثًا: الرد على بعض أدلتهم التفصيلية في الوعيد، وسنختار دليلين منها – من باب الاختصار -:

١- من أهم استدلالاتهم المذكورة استدلالهم بقوله سبحانه: (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}، وقد سبق في أول مبحث أدلة الوعيدية ذكر وجه استدلالهم بها، وقد أجاب أهل السنة عنها، بعدم فصلها عن النصوص الأخرى المفسرة لها، يقول الإمام الطبري – رحمه إله -: (وأما السيئة التي ذكر الله في هذا المكان، فإنها الشرك بالله) ونقل هذا التفسير عن أئمة التابعين كمجاهد وقتادة وعطاء وغيرهم، ثم قال: (وإنما قلنا إن السيئة.. في هذا الموضع، إنما عنى الله بها بعض السيئات دون بعض، و إن كان ظاهرها في التلاوة عامًا، لأن الله قضى على أهلها بالخلود في النار والخلود في النار لأهل الكفر بالله دون أهل الإيمان به، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ بأن أهل الإيمان لا يخلدون فيها، وأن الخلود في النار لأهل الكفر بالله دون أهل الإيمان، فإن قال لنا قائل: فإن الله جل ثناؤه إنما ضمن لنا

تكفير سيئاتنا باجتنابنا كبائر ما ننهى عنه، فما الدلالة على أن الكبائر غير داخلة في قوله: (بلى من كسب سيئة)؟ قيل: لما صح أن الصغائر غير داخلة فيه، و أن المعنى بالآية خاص دون عام، ثبت وصح أن القضاء والحكم بها غير جائز لأحد على أحد، إلا على من وقفه الله عليه بدلالة من خبر قاطع عذر من بلغه. وقد ثبت وصح أن الله تعالى ذكره قد عنى بذلك أهل الشرك والكفر به، بشهادة جميع الأمة، فوجب بذلك القضاء على أن أهل الشرك والكفر ممن عناه الله بالآية، فأما أهل الكبائر، فإن الأخبار القاطعة عذر من بلغته، قد تظاهرت عندنا بأنهم غير معنيين بها..) (١)

خلاصة كلام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: أن الآية و إن كانت عامة إلا أنها مخصصة بالأخبار المتواترة الدالة على عدم خلود من يدخل النار من أهل الكبائر، ومما يؤكد ذلك، أنها لا تشمل مرتكب الصغائر باتفاق الجميع، لذلك يقال لهؤلاء الوعيدية: إذا قلتم: لماذا أخرجتم مرتكب الكبائر من هذا العموم؟ قلنا لكم، ولماذا أخرجتم مرتكب الصغائر؟ فإن قالوا: للنصوص الدالة على تكفير الصغائر باجتناب الكبائر، وفعل الحسنات، قلنا، ونحن أخرجنا الكبائر للنصوص الدالة على أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار.

واستدلوا بقوله تعالى {ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها.. الآية} أيضًا هذه الآية مخصصة بالاتفاق، فالوعيدية يخصصونها فيقولون:

إن هذا جزاؤه إلا من تاب، و أهل السنة، يخصصونها بالتوبة، وبنصوص الوعد الأخرى، وبنصوص خاصة في أن القاتل تحت المشيئة، قال الإمام

---

(١) تفسير الطبري (شاكر) ٢/ ٢٨١- ٢٨٣، وانظر تفسير القرطبي ٢/ ١٢، وفتح القدير ١/ ١٠٥، وتفسير ابن كثير ١/ ١١٩، وتفسير السعدي ١/ ١٠٣.

القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ليس الأخذ بظاهر الآية بأولى من الأخذ بظاهر قوله: {إن الحسنات يذهبن السيئات}، وقوله تعالى: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده}، وقوله: {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} والأخذ بالظاهرين تناقض فلابد من التخصيص[١]، ومما يدل على التخصيص حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وفيه: "ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب شيئًا من ذلك فعوقب به فهو كفارة له ومن أصاب شيئًا من ذلك فستره الله عليه، فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه، و إن شاء عذبه"[٢] فوضع أهل المعاصي، ومنهم القاتل تحت المشيئة، وقد سبق الحديث عن ذلك.

رابعًا: الرد على أدلتهم من السنة: من مثل قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا يدخل الجنة نمام" ونحو ذلك، قد سبق الكلام عن مثل هذه الأحاديث عند كلامنا عن حكم أهل الكبائر عند أهل السنة، وأشرنا إلى منهج أهل السنة في مثل هذه الأحاديث، حيث يضمونها إلى ما يقابلها من أحاديث الوعد وكأنها دليل واحد فيحمل مطلقها على مقيدها ليحصل الاعتقاد والعمل بجميع هذه الأدلة، فهذه الأحاديث يقابلها الأحاديث الدالة على أن من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، وفي بعض الروايات الصحيحة التصريح بأنه يدخل الجنة " وإن زنى وإن سرق" وأحاديث الشفاعة ومن قال لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة ونحو ذلك، فيجب الجمع بين هذه الأحاديث التي قد تبدو في الظاهر متعارضة، وهذا ما فعله أهل السنة: فقالوا: إن معنى هذه الأحاديث: لا يدخل الجنة ابتداءًا، أو تحمل على مستحل ذلك.. الخ.

---

(١) تفسير القرطبي ٥/ ٣٣٣، ٣٣٤.

(٢) مضى تخريجه، وهو في الصحيحين .

خامسًا: مناقشة رأيهم في الشفاعة: قال ابن الوزير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأحاديث الشفاعة المصرحة بخروج الموحدين من النار قاطعة في معناها بالإجماع، وهي قاطعة في ألفاظها.. لورودها عن عشرين صحابيا أو تزيد..) [١] واعترض الوعيدية على إثبات ذلك بعدة أمور أهمها:

استدلالهم بعموم بعض الآيات القرآنية السابق ذكرها وهي قوله سبحانه: {واتقوا يومًا لا تجزي نفس عن نفس شيئًا ولا يقبل منها شفاعة} وقوله {ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع}. قالوا: والظالم اسم لكل من ظلم نفسه أو ظلم غيره ولا تخص المشركين.

وقالوا عن أحاديث الشفاعة: أنها لا تصح، ومن صححها منهم قال: إنه خبر واحد لا يعارض القطعي، ولو لم يعارض القطعي لما أوجب العلم فلا يحتج به في مثل هذه المسائل، وبعضهم قال: لا تصح لمخالفتها ما في القرآن وذكر بعضهم روايات تخالف هذه الرواية ونصها: "لا تنال شفاعتي أهل الكبائر من أمتي"[٢].

والبعض أول هذه الأحاديث -على فرض تصحيحه لها- على أن المراد به شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي إذا تابوا[٣]، وأجاب أهل السنة عن ذلك بما يلي:

بالنسبة لمعارضتهم الأحاديث المتواترة بعموم الآيات مثل قوله تعالى: {ولا يقبل منها شفاعة} وغيرها، أجاب الإمام القرطبي عن ذلك فقال: (فإن قالوا: قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب رد هذه الأخبار مثل قوله: {وما

---

(١) إيثار الحق على الخلق ٢٩٥، وقد سبق ذكر بعض هذه الأحاديث ص١١٤، ١١٥.

(٢) انظر هذه الأقوال في شرح الأصول الخمسة ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٩٠، ٩٦١، مشارق الأنوار ٢/ ١٣٣، ١٣٤، منهج الطالبين ١/ ٥٢١.

(٣) انظر شرح الأصول ٦٩١، مشارق الأنوار ١٣٤.

للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع}، قالوا: وأصحاب الكبائر ظالمون، وقال: {من يعمل سوءًا يجز به} {ولا يقبل منها شفاعة}، قلنا: ليست هذه الآيات عامة في كل ظالم، والعموم لا صيغة له، فلا تعم هذه الآيات كل من يعمل سوءًا وكل نفس، وإنما المراد الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك، و أيضًا فإن الله تعالى أثبت شفاعة لأقوام، ونفاها عن أقوام، فقال في صفة الكافرين: {فما تنفعهم شفاعة الشافعين}، وقال: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى}، وقال: {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له}، فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين، وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى: {واتقوا يومًا لا تجزي نفس عن نفس شيئًا ولا يقبل منها شفاعة}،النفس الكافرة لا كل نفس، ونحن و إن قل-نا بعموم العذاب لكل ظالم عاص، فلا نقول: إنهم مخلدون فيها بدليل الأخبار التي روينا، وبدليل قوله تعالى: {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، وقوله: {أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون}[1]، وقال الحافظ البيهقي في قوله تعالى: {وما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع}: (فالظالمون هاهنا ه-م الكافرون ويشهد لذلك مفتتح الآية إذ هي في ذكر الكافرين)[2]، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: (أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله، من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم..)[3]، وقد ورد تسمية الشرك ظلمًا كما في قوله تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم}، فيكون حمل الظلم هنا على الشرك أولى من حمله على الكبائر لسياق

---

(١) تفسير القرطبي، ١/ ٣٧٩، وانظر الطبري ١/ ٣٣.
(٢) شعب الإيمان ١/ ٢٠٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٧٥.

الآية، وللأحاديث المتواترة.

أما تضعيفهم لهذه الأحاديث، فلم يستندوا في ذلك لأي قاعدة من قواعد نقد الرواية، ولا إلى كلام أهل العلم بالحديث، أما قولهم أنها لو صحت فهي خبر واحد لا يحتج به، فيقال لهم قد نقلنا عن أئمة الحديث تواتره عن أكثر من عشرين صحابيًا، فإذا لم يكن مثل ذلك متواترًا، فما هو المتواتر(١)؟، أما زعمهم أن خبر الواحد لا يحتج به في مثل هذه المسائل: فهذا من أصولهم الفاسدة التي ردوا بسببها أحاديث كثيرة، وهذا الأصل تكلم عنه علماء السنة كثيرًا مما لا مجال لذكره هنا، خاصة و أن الروايات المذكورة متواترة، أما الحديث الذي ذكروا وهو لا تنال شفاعتي أهل الكبائر من أمتي – (فهو حديث موضوع باطل وفي أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب: أنه من أكاذيب المعتزلة)(٢).

أما قول بعضهم إن الشفاعة لمن تاب من أهل الكبائر، فيجاب عنه بجوابين الأول: أن الأحاديث ليس فيها هذا الاستثناء، الثاني: (عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة، فإذا قبل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشفاعة ولا إلى الاستغفار) (٣)

سادسًا: مناقشة بعض شبههم العقلية:

---

(١) مثل هذا القول يدل على جهل أهل الكلام وأتباعهم في الحديث، وقلة العناية به (وكثر منهم بل أفضلهم عند، أصحابه لا يعتقد أنه روي في الباب الذي يتكلم فيه عن النبي ﷺ شيء، أو يظن أن المروي فيه حديث أو حديثان، كما يوجد لأكابر شيوخ المعتزلة كأبي الحسين البصري، يعتقد أنه ليس في الرؤية إلا حديث واحد، وهو حديث جرير، ولم يعلم أنه فيها ما يقارب ثلاثين حديثًا) مختصر الصواعق ٢/ ٣٥٧.

(٢) الشفاعة لمقبل الوادعي ١٠٩، وانظر أسنى المطالب الذي طبع باسم الأحاديث المشكلة في الرتبة محمد بن درويش الحوت ص١٥٥.

(٣) تفسير القرطبي ١-٣٧٩، ٣٨٠

قولهم: لو لم يعاقب العصاة، لاقتضى ذلك الخلف والتبديل والكذب في خبره، والرد على ذلك من وجوه: أولا: أن الله ﷻ علق وعيده لأهل الكبائر بالمشيئة، فإذا تخلف الوعيد في حق بعضهم لم يكن في ذلك كذبًا أو تبديلًا.

وأيضا الخلف والكذب يحصل إذا لم يعذب جميع العصاة، و أهل السنة لا يقولون ذلك، وإنما يقولون: أنهم تحت المشيئة، فبعضهم يعذب، ويغفر للآخرين، فهم يقولون بالوعيد المجمل، ومقتضاه، أنه لابد أن يدخل بعض أهل الكبائر النار لورود الأحاديث في ذلك[1] ثم يخرجون منها. (إخلاف الوعيد لا يذم، بل يمدح، والله تعالى يجوز عليه إخلاف الوعيد، ولا يجوز عليه خلف الوعد، والفرق بينهما، أن الوعيد حقه، فإخلافه عفو وهبة، وإسقاط ذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه، والوعد حق عليه، أوجبه على نفسه، والله لا يخلف الميعاد..) [2] فإن قالوا: الكرم من المحسنات، والكذب قبيح بكل وجه، فكيف تجعله كرمًا؟ فيقال لهم: لا نسلم لكم أن في هذا كذبًا، وقد بينا ذلك.

قولهم: من علم أن من أتى كبيرة لا يعذب، سارع في إتيانها، ففي ذلك إغراء لهم، والجواب عن ذلك من وجهين:

الأول: لا أحد من أهل الكبائر يعلم أنه لا يعذب، بل النصوص دالة على دخول بعضهم النار كما سبق – فأين الإغراء؟

الثاني: يمكن أن يقال لكم عكس ذلك، وهو أن من قال: إن المذنب بمجرد ارتكاب المعصية يخلد في النار إن مات غير تائب، فهذه المقالة سوف تفتح

---

(١) مثل حديث يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من إيمان، رواه البخاري ومسلم ومضى تخريجه ص١١٥.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٣٩٦.

أمامه باب اليأس والقنوط ومن ثم يبقى على عصيانه ومعاصيه.

أما استدلالهم على نفي الشفاعة لأهل الكبائر، بأنه يلزم من ذلك أن المرء إذا سأل الله الشفاعة كأنه سأل الله أن يجعله من الفساق، فيرد عليهم بأن المرء إنما يطلب الشفاعة (لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله بكل ما افترض الله عليه، بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص، فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة)[1].

(باب هل ثبتت رؤية النبي ﷺ لربه)

المطلب الأول: أقوال الصحابة في هذه المسألة

القول الأول: من أثبت الرؤية مطلقا:

١ – قول ابن عباس رضي الله عنهما:

أ – عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ)[2].

ب – عن ابن عباس في قوله {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى}،

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٣٨٠، وانظر كتاب نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٥٣٩)، وابن خزيمة في التوحيد (ص١٩٧، ١٩٩)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١/ ٢٩٨)، والطبري في تفسيره (٢٧/ ٤٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٣٦، ٤٤٢)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٣٢)، والدارقطني في الرؤية (ص٣٤٨، ٣٥٦)، والآجري في الشريعة (٢/ ١٢٥ ن رقم ٧٣١)، والحاكم (١/ ٦٥) و (٢/ ٤٦٩)، وابن مندة في الإيمان (٧٦٢) والأثر صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٠٨): أخرجه النسائي بسند صحيح، وصححه العلامة الألباني في ظلال الجنة (٤٣٦).

قال: (رأى ربه فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى)[١].

ج - عن عكرمة عن ابن عباس - رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا - قال: (رأى محمدٌ ربَّه". قلت: أليس الله يقول {لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [الأنعام ١٠٣]، قال: ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره، وقال: أُرِيَه مرتين)[٢].

د - عن عبد الله بن عمر أنه بَعَثَ إلى عبد الله بن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ يسأله: هل رأى محمدٌ ﷺ ربَّه؟ فبعث إليه: (أن نعم قد رآه"، فرد رسوله إليه وقال: كيف رآه؟ فقال: "رآه على كرسي من ذهب، تحمله أربعة من الملائكة، ملك في صورة رجل، وملك في صورة أسد، وملك في صورة ثور، وملك في صورة نسر،

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٨٠)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٩١، رقم ٤٣٩)، وابن خزيمة في التوحيد (٢٨٤)، وابن حبان (١/ ٢٥٣-٢٥٤، برقم٥٧)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٦٣، رقم ١٠٧٢٧)، والآجري في الشريعة (٣/ ١٥٤١-١٥٤٢، ح١٠٣٢)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥١٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٦٠، رقم ٩٣٣) والحديث قال عنه الترمذي: حديث حسن، وصححه ابن حبان، وقال العلامة الألباني في صحيح الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٩٥ رقم ٣٢٧٩)، وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥١٥، ٥٢١، رقم ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٦، ٩١٧، ٩٢٠)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١/ ١٧٥، ١٧٦، رقم ٢١٧، ١/ ٢٩٢، ٢٩٣، رقم ٥٦٣، ٢/ ٤٦٠، ٤٦١، رقم ١٠٤٤، ١٠٤٥)، وابن منده في الإيمان (٣/ ٥-٧، رقم ٧٥٤-٧٦١)، وابن شاهين في الكتاب اللطيف (ص٢٦٥، رقم ٨-٩٨، ٩-٩٩، ١٠-١٠٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٥٣ رقم ٩٢٦) والأثر قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف الترمذي وفي ظلال الجنة (١٩٠ / ٤٣٧).

في روضة خضراء، دونه فراش من ذهب)[1].

٢- قول أنس بن مالك رضي الله عنه: عن قتادة أن أنسًا رضي الله عنه قال: (رأى محمدٌ ربَّه)[2].

٣- قول أبي هريرة رضي الله عنه: قال داود بن حصين: (سأل مروان أبا هريرة رضي الله عنه: هل رأى محمدٌ صلى الله عليه وسلم ربَّه عز وجل؟ فقال: "نعم، قد رآه)[3].

القول الثاني: من قيدها بالرؤية القلبية: وقد روي في ذلك حديث مرفوع لكنه ضعيف؛ لإرساله وهو ما رواه محمد بن كعب القرظي قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ قال: (رأيته بفؤادي، ولم أره بعيني)[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش (ص٣٩١-٣٩٣)، وابن خزيمة في التوحيد (ص ١٩٨)، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة (ص٣٥)، والآجري في الشريعة (٣/ ١٥٤٣ رقم ١٠٣٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٥٥٧- ٥٥٨) والحديث قال عنه البيهقي: هذا حديث تفرد به محمد بن إسحاق بن يسار، وقد مضى الكلام في ضعف ما يرويه إذا لم يبين سماعه فيه، وفي هذه الرواية انقطاع بين ابن عباس رضي الله عنهما وبين الراوي عنه، وليس بشيء من هذه الألفاظ في الروايات الصحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٣ – ٢٤)وقال: هذا حديث لا يصح، وقال الشيخ حامد الفقي في تعليقه على"كتاب السنة (ص٤٩٥): الزيادة في كيفية الرؤية زيادة غريبة، ولو كان بإسناد له قيمة لساقها الحافظ ابن حجر فيما رواه في مسألة ابن عمر لابن عباس فيما نقلت عنه، والآية في سورة الحاقة {ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية}، تكذب هذه الزيادة.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٨٨ رقم ٤٣٢)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٤٨٧، رقم ٢٨٠) والأثر قال عنه العلامة الألباني قي ظلال الجنة: إسناده ضعيف.

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (١/ ١٧٦، رقم ٢١٨)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٧١، رقم ٩٠٨) وإسناده ضعيف.

(٤) أخرجه الطبري (٢٧/ ٤٦-٤٧)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣١٩ رقم ١٨٦٩٩) وهو حديث ضعيف لا يثبت.

١ - قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

أ - عن عطاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [النجم ١٣] قال: (إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى ربه بقلبه)[١].

ب - وعن أبي العالية عن ابن عباس: (أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى ربه بفؤاده مرتين)[٢].

٢- قول أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أ - عن إبراهيم التيمي أن أبا ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (رآه بقلبه ولم تره عيناه". وفي رواية: "رآه بقلبه")[٣].

ب - وأخرج النسائي عن أبي ذر قال: (رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّه بقلبه ولم يره ببصره)[٤].

القول الثالث: من نفى الرؤية مطلقا.

١ - قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: عن مسروق قال: كنت متكئا عند عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت: (يا أبا عائشة: ثلاث من تكلم بواحدة منهن، فقد أعظم على الله الفرية،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٦).

(٣) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٥١٦، ٥١٧، رقم ٣١٠، ٣١١)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥١٨، ٥١٩، رقم ٩١٤، ٩١٥)، وابن شاهين في الكتاب اللطيف (ص٢٧٣، رقم ٤٠-٩١٥)، والدارقطني في الرؤية (ص ١٨٣ رقم ٢٨٩- ٢٩٠)، والسراج في حديثه (١٣٩٣)، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٦٠) ونسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، والأثر قال عنه البوصيري في الإتحاف (٧١١٤/ ٦٣٥١): رواه أبوبكر بن أبي شيبة ورواته ثقات.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٧٢ رقم ١١٥٣٦)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٥١٦، رقم ٣١٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٧٤، رقم٩١٤) وهو صحيح.

من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله، قال: وكنت متكئا فجلست فقلت: يا أم المؤمنين: أنظريني ولا تعجليني: ألم يقل الله ﷻ {وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ} {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} فقالت: أنا أول هذه الأمة، سأل رسول الله ﷺ فقال: إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطًا من السماء سادًا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض. فقالت: ألم تسمع أن الله يقول {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَار} [الأنعام ١٠٣] . أو لم تسمع أن الله يقول {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الشورى ٥١] .....)[١].

٢- قول ابن مسعود رضي الله عنه: عن زر بن عبد الله بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [النجم ١٣] قال: (رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته، له ستمائة جناح)[٢].

٣- قول أبي هريرة رضي الله عنه: عن عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} قال: (رأى جبريل)[٣].

٤- قول أبي ذر رضي الله عنه: عن عبد الله بن شقيق قال (قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، قال: عما كنت تسأله؟ قال: إذن لسألته هل رأى ربه؟ فقال: قد سألته أنا، قلت: فما قال؟ قال: "نور أنى أراه"، وفي رواية "رأيت نورًا)[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).
(٣) أخرجه مسلم (١٧٥).
(٤) أخرجه مسلم (١٧٨).

والذي يلاحظ من الآثار السالفة الذكر أنها خلت من النص على رؤية العين فهي: إما أثبتت الرؤية مطلقًا، أو قيدتها بالرؤية القلبية أو نفتها مطلقًا.

ولذلك علق شيخ الإسلام ابن تيمية كما في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٤٨) على هذا بقوله: "ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه"[١].

---

(١) يشار هنا إلى أن القاضي أبا يعلى أورد في إبطال التأويلات ١/ ١١٣ أن أبا حفص بن شاهين روى في سننه بإسناده عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال: "رآى محمد ﷺ -ربه ﷻ- بعينيه مرتين" وكذلك البغوي نسب إلى ابن عباس أنه قال: "رأى ربه بعينه" انظر معالم التنزيل ٧/ ٤٠٥.
لكن هذا اللفظ "بعينه" لم يرد في الروايات الثابتة عن ابن عباس وكتاب السنن لأبي حفص ابن شاهين غير موجود بين أيدينا حتى نحكم على الإسناد وقد أشار محقق الكتاب اللطيف لشرح مذاهب أهل السنة لابن شاهين أنه لا يستبعد أن يكون كتاب السنن هو الكتاب اللطيف لشرح مذاهب أهل السنة ومعرفة شرائع الدين والتمسك بالسنن وأن القاضي أبا يعلى ذكره باسم السنن اختصارا انظر الكتاب اللطيف هـ ١ ص ٣٥.
والبغوي لم يذكر أيضا سندا لما ذكره عن ابن عباس فلا يمكن الحكم على قوله هذا.
كما جاء عند الطبراني في الأوسط (٦/ ٥٠ رقم ٥٧٦١) عن ابن عباس أنه كان يقول: "إن محمدا رأى ربه مرتين مرة ببصره ومرة بفؤاده" لكن إسناده ضعيف.
كما روى الطبراني في الأوسط (٩/ ١٥٢-١٥٣، رقم ٩٣٩٦) عن عكرمة عن ابن عباس قال: "نظر محمد ﷺ إلى ربه تبارك وتعالى" قال عكرمة فقلت لابن عباس: نظر محمد إليربه ؟ قال: "نعم، جعل الكلام لموسى والخلة لإبراهيم والنظر لمحمد ﷺ"
قال الطبراني: "لم يرو هذا الحديث عن ميمون القناد إلا موسى بن سعيد تفرد به حفص ابن عمر العدني".
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٧٩): "وفيه حفص بن عمر العدني روى ابن أبي حاتم توثيقه عن أبي عبد الله الطهراني وقد ضعفه النسائي وغيره".
وقال الحافظ في التقريب ص (٢٥٩): "ضعيف". وفيه أيضًا يزيد بن عمرو بن البراء =

وقال أيضًا في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩-٥١٠): "وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل، كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: "سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك: فقال: "نور أنى أراه".اهـ..

وكذا جزم ابن كثير بأنه لم يصح أن أحدًا من الصحابة قال بالرؤية البصرية حيث قال في الفصول في سيرة الرسول (ص٢٦٨).: "وما روي في ذلك من إثبات الرؤية بالبصر فلا يصح من ذلك لا مرفوعًا، بل ولا موقوفًا، والله أعلم".اهـ.

وقال أيضًا في تفسيره (٧/ ٤٤٨): "وفي رواية عنه - يعني ابن عباس - أطلق الرؤية، وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم".اهـ.

ويجب الإشارة هنا إلى أنه يجب التفريق بين قضيتين، قضية الرؤية والكلام عليها، وقضية الآيات التي استدل بها ابن عباس على إثبات رؤية النبي ﷺ لربه، بينما استدلت بها عائشة وغيرها على أنها تتعلق برؤية جبريل.

قال الإمام ابن القيم في الزاد (٣/ ٣٨): "وأما قول ابن عباس أنه رآه بفؤاده مرتين فإن كان استناده إلى قوله تعالى: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} ثم قال {وَلَقَدْ

=

الغنوي ذكره ابن حبان في الثقات (٩/ ٢٧٧) ولم يوثقه غيره.

وموسى بن سعيد البصري ترجمه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٨/ ١٤٥) وسكت عنه ولفظة (نظر) لم تثبت في الطرق الأخرى التي جاءت عن عكرمة عن ابن عباس كما سبق تخريجه.

رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} والظاهر أنه مستنده فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريل رآه مرتين في صورته التي خلق عليها".اهـ.

المطلب الثاني: أقوال التابعين وتابعي التابعين

لو نظرنا في أقوال التابعين وتابعي التابعين لوجدناها لم تخرج عن أقوال الصحابة السابق ذكرها إلا أنه لم يرد عن أحد منهم نفي الرؤية مطلقًا اللهم إلا من توقف في المسألة وإليك أقوالهم:

القول الأول: من أثبت الرؤية مطلقا.

١- قول كعب الأحبار: عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: قال لي كعب: "إن الله ﷻ قسَّم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد ﷺ فكلَّمه موسى مرتين ورآه محمد مرتين".

٢- قول عكرمة (١٠٦ هـ)

أ - عن عيسى بن عبيد وسالم مولى معاوية قالا: "سمعنا عكرمة، وسئل: هل رأى محمد ربه؟. قال: "نعم، قد رأى ربَّه".

ب - عن عباد بن منصور قال: سألت عكرمة عن قوله {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم ١١]، قال: "أتريد أن أقول لك: قد رآه. نعم قد رآه، ثم قد رآه، ثم قد رآه، حتى ينقطع النفس".

٣- قول الحسن البصري (١١٠هـ) وعن المبارك بن فضالة قال: "كان الحسن يحلف ثلاثة لقد رأى محمد ربه".

٤- قول الزهري (١٢٥ هـ) الإمام الزهري ممن نسب إليه القول بأن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج كما ذكر ذلك ابن حجر في الفتح (٨/ ٤٧٤).

٥- قول معمر (١٥٤ هـ) روى ابن خزيمة في التوحيد أن عبد الرزاق قال

بعد أن روى حديث مسروق مع عائشة: "فذكرت هذا الحديث لمعمر، فقال: ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس".

٦- قول إبراهيم بن طهمان (١٦٨ هـ) قال حفص بن عبد الله سمعت إبراهيم بن طهمان يقول: "والله الذي لا إله إلا هو لقد رأى محمد ربه".

القول الثاني: من قيدها بالرؤية القلبية.

١- قول كعب الأحبار: عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: "اجتمع ابن عباس وكعب، فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم نزعم أو نقول إن محمدًا رأى ربه مرتين. قال: فكبر كعب حتى جاوبته الجبال ثم قال (أي كعب): إن الله قسَّم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى صلى الله عليهم وسلم فرآه محمد بقلبه وكلمه موسى".

٢- قول مجاهد بن جبر (١٠٤ هـ) عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} [النجم ١٦] قال: "كان أغصان السدرة من لؤلؤ وياقوت وزبرجد، فرآه محمد ﷺ بقلبه ورأى ربه".

٣- قول أبي العالية رفيع بن مهران (٩٣ هـ) عن أبي العالية في قوله: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}، قال: "محمدٌ رآه بفؤاده ولم يره بعينه".

٤- قول أبي صالح مولى أم هانئ (بعد المائة) عن أبي صالح في قوله {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}، قال: "رآه مرتين بفؤاده".

٥- قول الربيع بن أنس (١٤٠ هـ) عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس في قوله {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ}: "فلم يكذبه" {مَا رَأَى} قال: "رأى ربَّه" وفي رواية قال: "رأى محمدٌ ربَّه بفؤاده".

القول الثالث: من رجح التوقف في المسألة

٦- قول سعيد بن جبير (٩٥ هـ) عن سعيد بن جبير قال: "لا أقول رآه ولا

لم يره".

المطلب الثالث: أقوال العلماء في المسألة: بعد استعراض أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم نعرض لأقوال من بعدهم في المسألة وهي خمسة أقوال:

القول الأول: من أثبت الرؤية مطلقا.

وهو رواية عن الإمام أحمد، وقول ابن خزيمة، والآجري، والألوسي.

١- قول الإمام أحمد (٢٤١هـ)

حكى أبو يعلى في كتابه الروايتين والوجهين (ص٦٣-٦٤) اختلاف الروايات عن الإمام أحمد في مسألة رؤية النبي ﷺ لربه على ثلاث روايات أحدها أنه رآه مطلقا.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩): "وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول: "رآه بفؤاده".اهـ..

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١١٢): "وممن أطلق الرؤية أبو هريرة وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما".

٢- قول ابن خزيمة (٣١١هـ) الإمام ابن خزيمة نصر في كتابه التوحيد (٢/ ٤٧٧-٥٦٢) القول بأن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج، وأطال في سرد الحجج على ذلك.

ولكن ابن كثير رحمه الله نسب إليه بأنه يقول بالرؤية البصرية كما سيأتي ذكر قوله.

٣- قول الإمام الآجري (٣٦٠ هـ) بوب الإمام الآجري في كتابه الشريعة ٣(/ ١٥٤١-١٥٥١) بابًا بعنوان "باب ذكر ما خصَّ الله عز وجل النبي ﷺ من الرؤية لربه عز وجل".

ثم ساق مجموعة من الأحاديث والأثار التي تدل على أنه ينصر القول بأنه ﷺ رأى ربه ﷻ ليلة المعراج.

٤- قول الألوسي: قال الألوسي في تفسيره روح المعاني (٢٧/ ٥٤): "وأنا أقول برؤيته ﷺ ربَّه سبحانه وبدنوه على الوجه اللائق".

ونسبه إلى معظم الصوفية فقال: "ومعظم الصوفية على هذا، فيقولون بدنو الله ﷻ من النبي ﷺ، ودنوه سبحانه على الوجه اللائق، وكذا يقولون بالرؤية كذلك".

القول الثاني: من قيد الرؤية بالعين.

نسب القول بتقييد الرؤية بالعين إلى بعض العلماء، ومن بينهم بعض الصحابة والتابعين، وفي نسبة ذلك إلى بعضهم نظر، وممن نسب لهم القول بذلك: ابن عباس، وأنس بن مالك، والحسن البصري، وعكرمة، ورواية عن الإمام أحمد، وابن خزيمة، وابن جرير، وأبو الحسن الأشعري وعامة أتباعه، وأبو عبد الله بن حامد وأبو بكر النجاد والقاضي أبو يعلى، وعبد القادر الجيلاني، وجماعة من المتأخرين.

فقد نسب البغوي هذا القول إلى ابن عباس فقال في تفسيره (٧/ ٤٠٥): "وعن ابن عباس أنه قال رأى ربه بعينه".

وقد سبق الرد على ذلك عند عرض أقوال الصحابة، وأن هذا التقييد بالعين لم يثبت عن ابن عباس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩-٥١٠): "سمع بعض الناس مطلق كلام ابن عباس ففهم منه رؤية العين".

وقال البغوي أيضًا في معالم التنزيل (٧/ ٤٠٣): "وذهب جماعة إلى أنه رآه

بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة".اهـ.

وبالنسبة لما نسبه البغوي إلى أنس وعكرمة من تقييد الرؤية بالعين فإن الروايات السابق ذكرها عنهما جاءت مطلقة، وكذا ما أوردناه عن الحسن البصري فإن الرواية جاءت مطلقة، وقد سبق كذلك الإشارة إلى ما ورد في تفسير البغوي عن الحسن البصري أنه قال: "رآه بعينه" ولكن البغوي لم يسندها فلا يعدل عن الرواية التي سبق إيرادها عن الحسن من إطلاق الرؤية وعدم تقييدها بالعين، والله أعلم.

قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٢٣): "وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة، فيه نظر والله أعلم".

وقال ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص٢٦٨): "ورأى، أي: النبي ﷺ ربه ﷻ ببصره على قول بعضهم، وهو اختيار الإمام أبي بكر بن خزيمة من أهل الحديث، وتبعه في ذلك جماعة من المتأخرين".

وقال أيضًا في البداية والنهاية (٣/ ١١٢): "وصرح بعضهم بالرؤية بالعينين، واختاره ابن جرير، وبالغ فيه، وتبعه على ذلك آخرون من المتأخرين، وممن نص على الرؤية بعيني رأسه الشيخ أبو الحسن الأشعري فيما نقله السهيلي عنه، واختاره الشيخ أبو زكريا النووي في فتاويه".اهـ.

وحمل القاضي أبو يعلى في كتابه الروايتين والوجهين (ص٦١) وفي إبطال التأويلات (١/ ١١١) الرواية التي عن الإمام أحمد بأنها نص على الرؤية بالعين، فقال في كتاب الروايتين: "فظاهر هذا أنه أثبت رؤيا عين" وقال في إبطال التأويلات: "والرواية الأولى أصح، وأنه رآه في تلك الليلة بعينيه".

وقد اعترض شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩-٥١٠) على هذا

التوجيه من القاضي فقال: "وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول: "رآه بفؤاده"، ولم يقل أحد: أنه سمع أحمد يقول رآه بعينه، لكن طائفة من أصحابه سمعوا بعض كلامه المطلق، ففهموا منه رؤية العين، كما سمع بعض الناس مطلق كلام ابن عباس ففهم منه رؤية العين.

وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل، كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: "سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك: فقال: "نور أنى آراه"".اهـ.

وقال فيما نقله عنه تلميذه ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣٧): "قال شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه-: وليس قول ابن عباس إنه رآه مناقضا لهذا ولا قوله رآه بفؤاده وقد صح عنه أنه قال: "رأيت ربي تبارك وتعالى" ولكن لم يكن هذا في الإسراء ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح ثم أخبرهم عن رؤية ربه -تبارك وتعالى- تلك الليلة في منامه، وعلى هذا بنى الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- وقال: نعم رآه حقا فإن رؤيا الأنبياء حق ولابد، ولكن لم يقل أحمد -رحمه الله تعالى- إنه رآه بعيني رأسه يقظة، ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه، ولكن قال: مرة رآه، ومرة قال: رآه بفؤاده، فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه، وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك".اهـ.

وكذلك اعترض ابن القيم على توجيه القاضي أبي يعلى -أيضا- فقال كما التبيان في أقسام القرآن (ص٢٦٠-٢٦١): "وقد جعلها القاضي مختلفة، وجعل المسألة على ثلاث روايات، ثم احتج للرواية الأولى بحديث أم الطفيل،

وحديث عبد الرحمن بن عائش الحضرمي ولا دلالة فيهما، لأنها رؤية منام فقط، واحتج لها بما لا يرضى أحمد أن يحتج به، وهو حديث لا يصح عن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعا: "لما كانت ليلة أسري بي رأيت ربي في أحسن صورة، فقال: فيما يختصم الملأ الأعلى؟ " وذكر الحديث وهذا غلط قطعًا فإنما القصة كانت بالمدينة، كما قال معاذ بن جبل: "احتبس عنا رسول الله ﷺ في صلاة الصبح حتى كدنا نترآى عين الشمس، ثم خرج وصلى بنا ثم قال: "رأيت ربي البارحة في أحسن صورة فقال: يا محمد: فيما يختصم الملأ الأعلى؟ " وذكر الحديث فهذا كان بالمدينة والإسراء بمكة وليس عن الإمام أحمد، ولا عن النبي ﷺ نص أنه رآه بعينه يقظة، وإنما حمل القاضي كلام أحمد ما لا يحتمله، واحتج لما فهم منه بما لا يدل عليه، وكلام أحمد يصدق بعضه بعضا، والمسألة رواية واحدة عنه فإنه لم يقل بعينه، وإنما قال: رآه. واتبع في ذلك قول ابن عباس: رأى محمد ربه. ولفظ الحديث "رأيت ربي" وهو مطلق وقد جاء بيانه في الحديث الآخر.

ولكن في رد الإمام أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبي ﷺ إشعار بأنه أثبت الرؤية التي أنكرتها عائشة، وهي لم تنكر رؤية المنام، ولم تقل من زعم أن محمدًا رأى ربه في المنام فقد أعظم على الله الفرية، وهذا يدل على أحد أمرين: إما أن يكون الإمام أحمد أنكر قول من أطلق نفي الرؤية؛ إذ هو مخالفة للحديث وإما أن يكون رواية عنه بإثبات الرؤية، وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه، وهذا تقييد منه للرؤية، وأطلق عنه بأنه رآه، وأنكر قول من نفى مطلق الرؤية، واستحسن قول من قال رآه ولا يقول بعينه ولا بقلبه. وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة وكيف يقول أحمد: "بعيني رأسه يقظة" ولم يجد ذلك في حديث

قط، فأحمد إنما اتبع ألفاظ الحديث كما جاءت، وإنكاره قول من قال: لم يره أصلا لا يدل على إثبات رؤية اليقظة بعينه والله أعلم.

قول الأشعري (٣٢٤هـ) وعامة أتباعه: ممن نسب هذا القول إلى أبي الحسن الأشعري وأكثر أتباعه القاضي عياض، والقرطبي في تفسيره، والنووي وابن كثير وابن حجر[١].

قال القاضي عياض: "وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري وجماعة من أصحابه: أنه رأى الله تعالى ببصره وعيني رأسه، وقال: كلُّ آية أوتيها نبيٌّ من الأنبياء -عليهم السلام- فقد أوتي مثلها نبيُّنا، وخُصَّ من بينهم بتفضيل الرُّؤية".

وهذا ما ذكره شارح جوهرة التوحيد (ص ١١٨) -وهو من الأشاعرة- في شرحه فقال: "والراجح عند أكثر العلماء أنه ﷺ رأى ربه سبحانه وتعالى بعيني رأسه وهما في محلهما، خلافا لمن قال: حولا إلى قلبه لحديث ابن عباس وغيره".

قول أبي بكر النجاد أحمد بن سليمان (٣٤٨ هـ) حكى القاضي أبو علي بن أبي موسى في إبطال التأويلات (١/ ١١٤) عن أبي بكر النجاد قال: "رآى محمد ربه إحدى عشرة مرة، منها بالسنة تسع مرات في ليلة المعراج، حين كان يتردد بين موسى وبين الله ﷻ يسأل أن يخفف عن أمته الصلاة فنقص خمسة وأربعين صلاة في تسع مقامات ومرتين بالكتاب".

قول أبي عبد الله الحسن بن حامد (٤٠٣ هـ) نقل أبو يعلى في كتابه الروايتين

---

(١) الشفا ١/ ٢٦١، تفسير القرطبي،شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ٩. البداية والنهاية ٣/ ١١٢. فتح الباري ٨/ ٤٧٤.

والوجهين (ص٦٤) أن اختيار شيخه أبي عبد الله ابن حامد أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء بعينه.

وقال القاضي أبو يعلى في إبطال التأويلات (١/ ١١١) -بعد أن أورد الرواية الأولى عن الإمام أحمد- بأنه ﷺ رأى ربه ليلة المعراج بعينه، وجعلها هي الصحيحة قال: "وهذه الرواية اختيار أبي بكر النجاد".

قول القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء (٤٥٨ هـ) رجح في إبطال التأويلات (١/ ١١١) القول بالرؤية البصرية فقال -في معرض ذكره للروايات الواردة عن الإمام أحمد-: "والرواية الأولى أصح، وأنه رآه في تلك الليلة بعينه".

وقال في نفس المصدر السابق (١/ ١١٤): "وما رويناه عن ابن عباس أولى مما روي عن عائشة؛ لأن قول ابن عباس يطابق قول النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ أثبت رؤيته في تلك الليلة؛ ولأنه مثبت والمثبت مقدم على النافي، ولا يجوز أن يثبت ابن عباس ذلك إلا عن توقيف؛ إذ لا مجال للقياس في ذلك".

قول عبد القادر الجيلاني (٤٧١ هـ) وهذا القول قال به أيضًا - عبد القادر - الجيلاني في كتابه الغنية (١/ ٦٦)، حيث قال: "ونؤمن بأن النبي ﷺ رأى ربه عز وجل ليلة الإسراء بعيني رأسه لا بفؤاده ولا في المنام".

قول النووي (٦٧٦ هـ): قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٩): "فالحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم، وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله ﷺ هذا مما لا ينبغي أن يتشكك فيه ثم عائشة رضي الله عنها لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ ولو كان معها فيه حديث

لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط من الآيات".

قول الحافظ مغلطاي (٧٦٢ هـ) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الإشارة إلى سيرة المصطفى (ص١٣٩): "والصحيح أن الإسراء كان يقظة بجسده، وأنه مرات متعددة، وأنه رأى ربه عَزَّ وَجَلَّ بعيني رأسه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم".

قول السيوطي (٩١١ هـ) قال السيوطي في الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج (١/ ٢٢١): "الراجح عند أكثر العلماء أنه ﷺ رأى ربَّه بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره، وإثبات هذا لا يكون إلا بالسماع من رسول الله ﷺ، ولم تعتمد عائشة في نفي الرؤية على حديث رسول الله ﷺ، وإنما اعتمدت على الاستنباط من الآيات".

قول القسطلاني (٩٢٣ هـ) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المواهب اللدنية (١/ ٣٧٣):"... ثم عرج به من المسجد الأقصى إلى فوق سبع سموات ورأى ربه بعيني رأسه وأوحى إليه ما أوحى".

قول محمد بن أحمد الصاوي (١٢٤١ هـ) قال في حاشيته على تفسير الجلالين (٤/ ١٣٧):"...... واختلف في تلك الرؤية، فقيل: رآه بعينه حقيقة، وهو قول جمهور الصحابة والتابعين منهم ابن عباس، وأنس ابن مالك، والحسن، وغيرهم، ... وقيل: لم يره بعينه وهو قول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، والصحيح الأول؛ لأن المثبت مقدم على النافي؛ أو لأن عائشة لم يبلغها حديث الرؤية لكونها كانت حديثة السن[1]".

القول الثالث: من قيدها بالرؤية القلبية

قول الإمام أحمد (٢٤١هـ) ذكر أبو يعلى في الروايتين والوجهين (ص٦٣)

---

(١) لا يصح الاحتجاج بصغر سن عائشة فإن ابن عباس كان أصغر منها سنًا.

أن للإمام أحمد رواية أخرى أثبت فيها أن النبي ﷺ رأى ربه بقلبه كما جاء ذلك في بعض الروايات عن ابن عباس.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩): "وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول: "رآه بفؤاده"".

قول القرطبي المفسر. (٦٧١ هـ) قال في تفسيره (١٧/ ٩٢) في تفسير قوله تعالى {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}: "أي لم يكذب قلب محمد ﷺ ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية" ا؟هـ

قول أبي المظفر السمعاني (٤٨٩هـ) قال أبو المظفر السمعاني في تفسيره ٥(/ ٢٨٨): "وقد ثبت عن ابن عباس أنه قال رأى محمد ربه بفؤاده فإن قال قائل: المؤمنون يرونه بفؤادهم، وليس ذلك إلا العلم به فما معنى تخصيص النبي ﷺ؟. والجواب أنهم قالوا: إن الله تعالى خلق رؤية لفؤاده فرأى بفؤاده مثل ما يرى الإنسان بعينه".

قول شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ) قال رحمه الله في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩ – ٥١٠): "وأما الرؤية، فالذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: "رأى محمد ربه بفؤاده مرتين" وعائشة أنكرت الرؤية. فمن الناس من جمع بينهما فقال: عائشة أنكرت رؤية العين وابن عباس أثبت رؤية الفؤاد. والألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مطلقة، أو مقيدة بالفؤاد، تارة يقول: "رأى محمد ربه"، وتارة يقول: "رآه محمد"، ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح أنه رآه بعينه ... وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على

نفيه أدل، كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: "سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: "نور أنى أراه""

وقد قال تعالى {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا} [الإسراء ١]، ولو كان قد أراه نفسه بعينه لكان ذكر ذلك أولى.

وكذلك قوله {أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى} [النجم ١٢]، {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [النجم ١٨]، ولو كان رآه بعينه لكان ذكر ذلك أولى.

وفي الصحيحين عن ابن عباس: في قوله {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} [الإسراء ٦٠]، قال: "هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به"٢، وهذه رؤيا الآيات لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج، فكان ذلك فتنة لهم، حيث صدقه قوم وكذبه قوم، ولم يخبرهم أنه رأى ربه بعينه، وليس في شئ من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك، ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه".اهـ.

قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد (٣/ ٣٧-٣٨): "قال شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه-: وليس قول ابن عباس: إنه رآه مناقضا لهذا، ولا قوله رآه بفؤاده، وقد صح عنه أنه قال: "رأيت ربي تبارك وتعالى" ولكن لم يكن هذا في الإسراء ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤية ربه - تبارك وتعالى - تلك الليلة في منامه، وعلى هذا بنى الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - وقال: نعم رآه حقا، فإن رؤيا الأنبياء حق ولابد، ولكن لم يقل أحمد - رحمه الله تعالى -: إنه رآه بعيني رأسه يقظة. ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه، ولكن قال: مرة رآه، ومرة قال: رآه بفؤاده، فحكيت عنه روايتان،

وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه أنه رآه بعيني رأسه. وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك.

وأما قول ابن عباس: أنه رآه بفؤاده مرتين، فإن كان استناده إلى قوله تعالى {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} ثم قال {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} والظاهر أنه مستنده فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريل رآه مرتين في صورته التي خلق عليها، وقول ابن عباس هو مستند الإمام أحمد في قوله رآه بفؤاده والله أعلم".

قول ابن كثير (٧٠٤ هـ) قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٢٣): بعد ذكر الروايات عن ابن عباس أنه رآه بفؤاده مرتين:".... وقد خالفه ابن مسعود، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية، وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شئ عن الصحابة رضي الله عنهم وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة، فيه نظر والله أعلم".

وقال رحمه الله في البداية والنهاية (٣/ ١١٢): "واختلفوا في الرؤية فقال بعضهم: رآه بفؤاده مرتين، قاله ابن عباس وطائفة، وأطلق ابن عباس وغيره الرؤية وهو محمول على التقييد. وممن أطلق الرؤية أبو هريرة وأحمد بن حنبل - رضي الله عنهما -. وصرح بعضهم بالرؤية بالعينين، واختاره ابن جرير وبالغ فيه، وتبعه على ذلك آخرون من المتأخرين. وممن نص على الرؤية بعيني رأسه الشيخ أبو الحسن الأشعري فيما نقله السهيلي عنه، واختاره الشيخ أبو زكريا النووي في فتاويه. وقالت طائفة: لم يقع ذلك لحديث أبي ذر ... وقالوا: لم يمكن رؤية الباقي بالعين الفانية ... والخلاف في هذه المسألة مشهور بين السلف والخلف والله أعلم".

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص٢٦٨): "ورأى النبي ﷺ ربه عَزَّوَجَلَّ ببصره على قول بعضهم، وهو اختيار الإمام أبي بكر بن خزيمة من أهل الحديث، وتبعه على ذلك جماعة من المتأخرين. وروى مسلم عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أنه رآه بفؤاده مرتين، وأنكرت عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رؤية البصر، وروى مسلم عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله رأيت ربك فقال: "نور أنى أراه" وإلى هذا مال جماعة من الأئمة قديما وحديثا اعتمادًا على هذا الحديث، واتباعًا لقول عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قالوا: هذا مشهور عنها، ولم يعرف لها مخالف من الصحابة إلا ما روي عن ابن عباس أنه رآه بفؤاده، ونحن نقول به، وما روي في ذلك من إثبات الرؤية بالبصر فلا يصح شيء من ذلك لا مرفوعا بل ولا موقوفا والله أعلم".

قول ابن أبي العز (٧٩٢ هـ) قال ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح الطحاوية (١/ ٢٢٢): "واتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا محمد ﷺ خاصة، منهم من نفى رؤيته بالعين، ومنهم من أثبتها له ﷺ".

وقال في موضع آخر (١/ ٢٧٥):"... وقد تقدم ذكر اختلاف الصحابة في رؤيته ﷺ ربَّه عَزَّوَجَلَّ بعين رأسه، وأن الصحيح أنه رآه بقلبه، ولم يره بعين رأسه. وقوله {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم ١١]، {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [النجم ١٣] صح عن النبي ﷺ أن هذا المرئي جبريل رآه مرتين على صورته التي خلق عليها".

قول ابن حجر (٨٥٢ هـ) قال رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح (٨/ ٤٧٤): "جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة، وأخرى مقيدة فيجب حمل مطلقها على مقيدها ... وعلى

هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب، ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم؛ لأنه ﷺ كان عالما بالله على الدوام، بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه، كما يخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلا، ولو جرت العادة خلقها في العين".

قول السفاريني (١١١٨هـ) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في لوامع الأنوار (٢/ ٢٥٤-٢٥٥): "... وإذا علم ما حررناه فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب كما قاله الحافظ ابن حجر في شرح البخاري".

قول محمد الأمين الشنقيطي (١٣٩٣ هـ) العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ممن يرجح الرؤية القلبية فقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أضواء البيان (٣/ ٣٩٩): "التحقيق الذي دلت عليه نصوص الشرع أنه ﷺ لم يره بعين رأسه، وما جاء عن بعض السلف من أنه رآه، فالمراد به الرؤية بالقلب، كما في صحيح مسلم أنه رآه بفؤاده مرتين، لا بعين الرأس".

القول الرابع: من قال رآه مرة بفؤاده ومرة بعينه.

وبه قال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني، وأنور شاه الكشميري.

١- قول أبي القاسم الأضبهاني (٥٣٥ هـ) قال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٥٢-٢٥٣): "ومن مذهب أهل السنة أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة المعراج، وكان رؤيا يقظة لا رؤيا منام.

وروي عن أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: رآه بعين رأسه، وروي عنه أنه رآه بعين

قلبه، والصحيح أنه رآه بعين رأسه، وعين قلبه.

قيل في التفسير {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} رآه في المرة الأولى بعيني قلبه، وفي المرة الأخرى بعيني رأسه".

٢- قول أنور شاه الكشميري: قال أنور شاه الكشميري - فيما نقله عنه صاحب فتح الملهم - (١/ ٢٢٨): "إن الراجح في آية النجم أن الرؤية في قوله تعالى {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} أن الرؤية هنا للفؤاد، والرؤية في قوله تعالى {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} أن الرؤية هنا بالعين.

وقال: وعن ابن عباس أنه كان يقول أن محمدًا ﷺ رأى ربَّه مرتين، مرة ببصره ومرة بفؤاده[1]، رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، خلا جهور بن منصور الكوفي وجهور بن منصور ذكره ابن حبان في الثقات كذا في الزوائد".

القول الخامس: من نفى الرؤية مطلقا: وقال بهذا القول: الدارمي، وابن عطية، وأبو حيان.

قول الإمام الدارمي (٢٨٠ هـ) قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي - في رده

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ٥٠ رقم ٥٧٦١) وقال: لم يروه عن مجالد إلا ابنه إسماعيل. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٧٩) رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح خلا جهور بن منصور الكوفي، وجهور بن منصور ذكره ابن حبان في الثقات، انظر الثقات لابن حبان ٨/ ١٦٧، وسماه جمهور بن منصور وقال: يروي عن يوسف بن الماجشون، وهشيم، روى عنه الحضرمي. وفيه أيضًا مجالد وهو ابن سعيد بن عمير الهمذاني الكوفي قال عنه الحافظ في التقريب ص (٩٢٠): ليس بالقوي وقد تغير في آخره وفيه ابنه إسماعيل بن مجالد قال عنه الحافظ في التقريب ص (١٤٣): صدوق يهم وقال محقق مجمع البحرين في زوائد المعجمين (١/ ١٠٢، رقم ٦٣): إسناده ضعيف فلا تغتر بقول الهيثمي في المجمع: ورجاله رجال الصحيح.

على بشر الريسي – (ص٥٢٣ – ضمن عقائد السلف): "ويلك، إن تأويل هذا الحديث[1] على غير ما ذهبت إليه لما أن رسول الله ﷺ قال في حديث أبي ذر: إنه

(١) يشير إلى حديث معاذ في الرؤية المنامية «رأيتُ ربِّي في أحسنِ صورةٍ، فقال: فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلى، فقلت: لا أدري، فوضع يده بين كتفيَّ، حتَّى وجدتُ بردَ أناملِه، ثمَّ قالَ: فيم يختصمُ الملأ الأعلى؟ قلتُ: في الكفَّارات والدرجات، قال: وما الكفَّارات؟ قلت: إسباغُ الوضوءِ في السّبَرات، ونقلُ الأقدام إلى الجماعاتِ، وانتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاة، قال: فما الدرجاتُ؟ قلتُ: إطعامُ الطعام، وإفشاءُ السلام، وصلاةٌ بالليل والناسُ نيام، قال: قل، قال: قلتُ: ما أقولُ؟ قالَ: قل: اللهمّ! إنِّي أسألك عَمَلًا بالحسناتِ، وتركًا للمنكراتِ، وإذا أردتَ في قومٍ فتنةً وأناَ فيهم؛ فاقبضني إليكَ غيرَ مفتونٍ» أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣، رقم ٢٢١٦٢)، والترمذى (٥/ ٣٦٨، رقم ٣٢٣٥)، والبزار (٧/ ١١٠، رقم ٢٦٦٨)، و والطبرانى في الكبير (٢٠/ ١٠٩، رقم ٢١٦) عن معاذ رضي الله عنه وروي أيضا عن غيره من الصحابة رضي الله عنهم وهذا الحديث اختلف في صحته الجهابذة فقال البخاري: حسن صحيح كما نقل ذلك عنه تلميذه الترمذي، وقال الترمذي حسن صحيح، وقال البزار في مسنده (١٠/ ١٠٩) روي من وجوه، وقال ابن عدي في الكامل (٨/ ٦١) له طرق، وكذا قال ابن القيسراني في الذخيرة (١/ ٢٤٠)، وحسنه ابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٣٢٢)، وصححه ابن العربي في أحكام القرآن (٤/ ٧٣)، وحسنه الحافظ في نتائج الأفكار (٢/ ٣١٧)، وصححه الشيخ شاكر في تحقيق المسند، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٣١٦٩)، وضعفه بعض الحفاظ، منهم محمد بن نصر في قيام الليل (ص ١٨) فقال: هذا حديث اضطرب الرواة في إسناده وليس يثبت عند أهل المعرفة بالحديث وقال ابن خزيمة في (التوحيد) (١٤٠ – ١٤٥): إنه خبر يتوهم كثير من طلاب العلم أنه خبر صحيح وليس كذلك وقال الدارقطني في العلل (٦/ ٧٥) بعد ذكر أوجه الخلاف في الحديث: وليس فيها صحيح وكلها مضطربة وقال البيهقي في الأسماء والصفات (ص٣٩٣) وفي ثبوت هذا الحديث نظر وقال الأرنؤوط زمن معه في تحقيق المسند: ضعيف لاضطرابه ومداره على عبد الرحمن بن عائش وقد اختلف فيه عليه والله أعلم.

(تنبيه) قال العلامة الألباني في الصحيحة (٧/ ١/ ٥٠٢ – ٥٠٦): وقد جاء الحديث من طرق أخرى، صحح بعضها البخاري والترمذي، وفيها أن ذلك كان رؤيا منامية، وذلك =

=

مما يؤكد شذوذ تلك الزيادة -وهي "لما كان ليلة أسري بي رأيت ربي... "- فتنبه! وراجع بعض تلك الطرق في "ظلال الجنة" ٣٨٨١ و٤٦٥ - ٤٧١). وقد خلط ابن الجوزي خلطًا عجيبًا بين هذه الأحاديث الصحيحة التي فيها اختصام الملأ الأعلى، وفي بعضها أنها رؤيا منامية- كما عرفت-، وبين بعض الأحاديث الموضوعة التي فيها أنه رأى ربَّه على الأرض بمنى على جمل أورق، ونحوه من الموضوعات، وقد خرَّجت بعضها في "الضعيفة " (٦٣٣٠)، وقلَّده في ذلك الجهمي الجلد المتعنت المسمى (حسن السقاف) في تعليقه على "دفع شبه التشبيه"؛ الذي دفعه الذهبي وتمنى أنه لم يؤلفه مؤلفه؛ لما فيه من التأويلات المعطلة للصفات الإلهية حتى ذكر أن الله ليس داخل العالم ولا خارجه، تعالى الله الذي على العرش استوى استواءً يليق بجلاله وعظمته.

ثم رأيت الطبراني قد أخرج الحديث مختصرًا في "المعجم الكبير" (٨/ ٣٨٦/ ٨٢٠٧) و"الأوسط " (٢/ ٣٦/ ١/ ٥٦٢٦): حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة:

ثنا فَروة بن أبي المغرَاء: ثنا القاسم بن مالك عن سعيد بن المرزبان أبي سعد عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: "سئل رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ ... " الحديث، إلى قوله: "الصلاة بعد الصلاة".

وأعله الهيثمي بقوله (١/ ٢٣٨):

"وفيه أبو سعد البقَّال، وهو مدلس، وقد وثقه وكيع".

قلت: وابن أبي شيبة هذا فيه ضعف، فأخشى أن يكون لم يحفظ إسناده، والله أعلم.

وجملة القول؛ أن الحديث صحيح، لا يشك في ذلك أحد بعد أن يقف على هذه الطرق وتصحيح بعض أئمة الحديث لبعضها؛ إلا إن كان ممن طمس الله على قلوبهم من ذوي الأهواء كذاك (السخاف) -ليس هذا من باب التنابز، وإنما من باب الجرح؛ فقد قال الأئمة في أمثاله: أفَّاك دجَّال كذَّاب!- الجاهل الذي يخالف سبيل المؤمنين والعلماء العارفين، فيضعف ما صححوه، كهذا الحديث الذي وضع فيه رسالة سماها- فُضَّ فوه- "أقوال الحفاظ المأثورة لبيان وضع حديث: «رأيت ربي في أحسن صورة» "! وكذب- والله- عليهم، كيف وعلى رأس الحفاظ الإمام البخاري الذي صححه كما تقدم؟! وتبعه تلميذه الإمام الترمذي وغيره؛ فقال ابن عبد البر في "التمهيد" (٢٤/ ٣٢٥): "معناه عند أهل العلم: في منامه، وهو حديث حسن، رواه الثقات".

فهذا (السخاف) يعلم يقينًا أن الذي قال الحفاظ بوضعه؛ إنما هو الحديث الموضوع

=

لم ير ربه، وقال رسول الله ﷺ: "لن تروا ربكم حتى تموتوا" وقالت عائشة رضي الله عنها: "من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية" وأجمع المسلمون على ذلك مع قول الله {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} يعنون أبصار أهل الدنيا، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، وفي المنام يمكن رؤية الله على كل حال، وفي كل صورة".

قول ابن عطية (٥٤٦ هـ) ذهب ابن عطية في تفسيره (١٥/ ٢٦٠، ٢٦١) إلى ترجيح مذهب عائشة رضي الله عنها ومن معها في أنه ﷺ لم ير ربَّه، ونسبه إلى الجمهور.

قول أبي حيان الأندلسي (٧٥٦ هـ) كما ذهب أبو حيان في البحر المحيط (٨/ ١٥٦) إلى ترجيح مذهب عائشة ومن معها.

القول السادس: من توقف في المسألة.

قول القاضي عياض (٥٤٤ هـ) قال القاضي عياض في الشفا (١/ ٢٦١): "ووقف بعض مشايخنا في هذا، وقال: ليس عليه دليل واضح، ولكنه جائز أن يكون.

قال القاضي أبو الفضل: الحق الذي لا امتراء فيه أن رؤيته تعالى في الدنيا

= حقًّا المشار إليه آنفًا: "أنه رأى ربه على الأرض ... " إلخ، وليس هو حديث الاختصام الذي هو رؤيا منامية كما جاء مُصرَّحًا في بعض الطرق، وقال به العلماء كما تقدم.
ووالله! إني لأخشى أن يكون وراء هذا الرجل جماعة من المفسدين في الأرض، اتخذوه مَطِيَّةً لإفساد الدين، ويسروا له أسباب التأليف والنشر؛ لاستمراره في الطعن في السلف والعلماء وتعمده مخالفتهم، ورميه إياهم بالتجسيم! ومن آخر ما ظهر منه تصريحه بأن الاعتقاد بأن الله في السماء هي عقيدة المشركين والمشبهة. وكذلك جماهير العلماء الذين صححوا حديث الجارية: "أين الله؟"، فضعفه، بل قطع بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يقله، وسبق الرد عليه بحمد الله تحت حديثها برقم (٣١٦٢).

جائزة عقلًا، وليس في العقل ما يحيلها".

وقال في الشفا أيضا (١/ ٢٦٥): "وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضا، ولا نص، إذ المعول فيه على آية النجم والتنازع فيهما مأثور والاحتمال لهما ممكن ولا أثر قاطع متواتر عن النبي ﷺ بذلك.

وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاده لم يسنده إلى النبي ﷺ فيجب العلم باعتقاد مضمنه.

ومثله حديث أبي ذر في تفسير الآية، وحديث معاذ محتمل للتأويل، وهو مضطرب الإسناد والمتن.

وحديث أبي ذر الآخر محتمل مشكل فروي: "نور أنى أراه" وحكى بعض شيوخنا أنه روي: "نَورَاني أراه"(١).

وفي حديثه الآخر: سألته فقال: "رأيت نورا" وليس ممكن الاحتجاج بواحد

---

(١) هذا اللفظ لا أصل له، قال الإمام ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ١٢): وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال نور أنّى أراه"، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول معناه كان ثم نور، وحال دون رؤيته نور فأنّى أراه. قال ويدل عليه أن في بعض الألفاظ الصحيحة: هل رأيت ربك؟ فقال: "رأيت نورا" وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صحفه بعضهم فقال (نورانى أراه) على أنها ياء النسب والكلمة كلمة واحدة، وهذا خطأ لفظا ومعنى، وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه. وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال إنه ﷺ رآه عَزَّ وَجَلَّ ولم يقل بعيني رأسه ولفظ أحمد لفظ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله ﷺ في الحديث الآخر " حجابه النور " فهذا النور هو " والله أعلم " النور المذكور في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ " رأيت نورا".

منها على صحة الرؤية فإن كان الصحيح رأيت نورا فهو قد أخبر أنه لم ير الله، وإنما رأى نورا منعه وحجبه عن رؤية الله.

وإلى هذا يرجع قوله: "نور أنى أراه" أي كيف أراه مع حجاب النور المغشي للبصر، وهذا مثل ما في الحديث الآخر: "حجابه النور" وفي الحديث الآخر: "لم أره بعيني ولكن رأيته بقلبي مرتين" وتلا {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} والله قادر على خلق الإدراك الذي في البصر في القلب، أو كيف شاء لا إله غيره.

فإن ورد حديث نص بين في الباب وجب المصير إليه، إذ لا استحالة فيه، ولا مانع قطعي يرده والله الموفق".

قول أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي (٦٥٦هـ) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المفهم (١/ ٤٠١-٤٠٣): "وذهبت طائفة من المشايخ إلى الوقف، وقالوا: ليس عليه قاطع نفيًا ولا إثباتًا، ولكنه جائز عقلًا وهذا هو الصحيح".

وقال في موضع آخر: "... ثم هل وقعت رؤية الله تعالى لمحمد ﷺ ليلة الإسراء أو لم تقع؟ ليس في ذلك دليل قاطع، وغاية ما للمستدل على نفي ذلك أو إثباته التمسك بظواهر متعارضة معرّضة للتأويل، والمسألة ليست من باب العمليات فيكتفى فيها بالظنون، وإنما هي من باب المعتقدات ولا مدخل للظنون فيها".

قول الذهبي (٧٤٨ هـ) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سير أعلام النبلاء (١٠/ ١١٤): "والذي دلَّ عليه الدليل عدم الرؤية مع إمكانها، فنقف عن هذه المسألة، فإن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، فإثبات ذلك أو نفيه صعب، والوقوف سبيل السلامة والله أعلم، ولا نعنف من أثبت الرؤية لنبينا في الدنيا، ولا من نفاها، بل نقول الله ورسوله أعلم، بل نعنف ونبدع من أنكر الرؤية في الآخرة؛ إذ رؤية الله

في الآخرة ثبتت بنصوص متوافرة..".اهـ.

ولكن ورد في كتابه العرش (٢/ ٣٠١) ما يناقض ذلك حيث صرح بإثبات الرؤية فقال: "وأكثر الصحابة على أنه ﷺ رأى ربه....قلت: لأنه رآه في عالم البقاء حين خرج من عالم الفناء، وارتقى فوق السموات السبع فهذا الحديث أيضًا دال على أنه - سبحانه وتعالى - فوق السموات وفوق جميع المخلوقات، ولولا ذلك لكان معراج النبي ﷺ إلى فوق السماء السابعة إلى السدرة المنتهى، ودنو الجبار منه، وتدليه - سبحانه وتعالى - بلا كيف حتى كان من النبي ﷺ قاب قوسين أو أدنى، وأنه رآه تلك الليلة، وأن جبريل علا به حتى أتى به إلى الله تعالى".اهـ.

(تنبيه): بالنظر إلى الآيات القرآنية التي استدل بها كل فريق فإنها لا تدل دلالة صريحة على إثبات الرؤية ولاعلى نفيها.

فنفاة الرؤية استدلوا بقوله تعالى {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَار} وقوله تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} فعائشة رضي الله عنها استدلت بهاتين الآيتين فقالت: "من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله، والله يقول {لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} والله يقول {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}". وقد أجاب ابن عباس على الاستدلال بقوله {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} لما سئل عنها بقوله: "ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره".

قال ابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٥٥٧-٥٥٩): "لم تحك عائشة عن النبي ﷺ أنه خبرها أنه لم ير ربه عز وجل، وإنما تلت قوله عز وجل {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} وقوله {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا....} تدبر الآيتين ووفق لإدراك الصواب

علم أنه ليس في واحدة من الآيتين ما يستحق من قال: أن محمدًا رأى ربه الرمي بالفرية على الله كيف بأن يقول "قد أعظم الفرية على الله؟ """.

لأن قوله {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} قد يحتمل معنين على مذهب من يثبت رؤية النبي ﷺ خالقه ﷻ، قد يحتمل بأن يكون معنى قوله {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} على ما قال ترجمان القرآن لمولاه عكرمة: ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء.

والمعنى الثاني، أي: لا تدركه الأبصار أبصار الناس لأن الأعم والأظهر من لغة العرب أن الأبصار إنما يقع على أبصار جماعة، لا أحسب عربيا يجيء من طريق اللغة يقول لبصر امرئ واحد أبصار، وإنما يقال لبصر امرئ واحد بصر، ولا سمعنا عربيا يقول لعين امرئ واحد بصرين فكيف أبصار.

ولو قلنا: إن الأبصار ترى ربنا في الدنيا لكنا قد قلنا الباطل والبهتان، فأما من قال: إن النبي ﷺ قد رأى ربه دون سائر الخلق فلم يقل: إن الأبصار قد رأت ربها في الدنيا فكيف يكون يا ذوي الحجى من يثبت أن النبي ﷺ قد رأى ربه دون سائر الخلق مثبتا أن الأبصار قد رأت ربها فتفهموا يا ذوي الحجى هذه النكتة تعلموا أن ابن عباس -رضي الله عنهما- وأبو ذر وأنس بن مالك ومن وافقهم لم يعظموا الفرية على الله، ولا خالفوا حرفا من كتاب الله في هذه المسألة.

فأما ذكرها {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ......} فلم يقل أبو ذر وابن عباس رضي الله عنهما وأنس بن مالك ولا واحد منهم ولا أحد ممن يثبت رؤية النبي ﷺ خالقه ﷻ أن الله كلمه في ذلك الوقت الذي كان يرى ربه فيه، فيلزم أن يقال: قد خالفتم هذه الآية. ومن قال إن النبي ﷺ قد رأى ربه لم يخالف قوله تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ

.....} وإنما يكون مخالفا لهذه الآية من يقول رأى النبي ﷺ ربه فكلمه الله في ذلك الوقت".اهـ.

وأما الآيات التي استدل بها على إثبات الرؤية فهي:

قوله تعالى: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى} [النجم ١١-١٤] .

وقوله تعالى {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [النجم ١٨] .

فهذه الآيات كما ذكر أهل العلم لاتدل دلالة صريحة على إثبات رؤية النبي ﷺ لربه وإليك أقوالهم:

قال الإمام ابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٤٩٢) عن الاستدلال بقوله تعالى {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} : "وليس هذا التأويل الذي تأولوه لهذه الآية بالبيِّن، وفيه نظر؛ لأن الله إنما أخبر في هذه الآية أنه رأى من أيات ربه الكبرى. ولم يُعلم الله في هذه الآية أنه رأى ربه -جل وعلا- وآيات ربنا ليس هو ربنا - جل وعلا- فتفهموا لا تغالطوا في تأويل هذه الآية".اهـ.

قال القاضي عياض في الشفا (١/ ٢٦١): "وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول: إنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضًا ولا نص، إذ المعول على آية النجم والتنازع فيهما مأثور والاحتمال لهما ممكن".اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩-٥١٠): "ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك".

وقال أيضًا في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٠٩ – ٥١٠): "وقد قال تعالى {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا} [الإسراء ١]، ولو كان قد أراه نفسه بعينه لكان ذكر

ذلك أولى.

وكذلك قوله: {أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى} [النجم ١٢]، {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [النجم ١٨]، ولو كان رآه بعينه لكان ذكر ذلك أولى.

وفي الصحيحين عن ابن عباس في قوله {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} [الإسراء ٦٠]، قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، وهذه رؤيا الآيات لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج، فكان ذلك فتنة لهم، حيث صدقه قوم وكذبه قوم، ولم يخبرهم أنه رأى ربه بعينه، وليس في شئ من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك، ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه".اهـ.

وقال ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٣٨): "وأما قول ابن عباس أنه رآه بفؤاده مرتين، فإن كان استناده إلى قوله تعالى {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} ثم قال {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريل رآه مرتين في صورته التي خلق عليها.

وقال أيضًا كما في التبيان في أقسام القرآن ص (٢٥٦): "والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة النجم هو جبريل، وأما قول ابن عباس: "رأى محمد ربه بفؤاده مرتين" فالظاهر أن مستنده هذه الآية، وقد تبين أن المرئي فيها جبريل فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس".

وقال شارح الطحاوية (١/ ١٧٥): "وقوله {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم ١١]، {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} [النجم ١٣] صح عن النبي ﷺ أن هذا المرئي جبريل رآه مرتين على صورته التي خلق عليها".

وقال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٤٢٢): "وهذا الذي قلناه من أن هذا المقترب

الداني صار بينه وبين محمد ﷺ إنما هو جبريل عليه السلام هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبي ذر، وأبي هريرة، كما سنورد أحاديثهم قريبًا إن شاء الله.

وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أنه قال: "رأى محمد ربه بفؤاده مرتين"، فجعل هذه إحداهما. وجاء في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس في حديث الإسراء "ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى"(١)، ولهذا تكلم كثير من الناس

(١) قد تفرد شريك في حديث الإسراء بأشياء لم يذكرها غيره، وهي معدودة من أوهامه، وهي عشرة أشياء ذكرها الحافظ في الفتح:
الأول: أمكنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في السماء.
الثاني: كون المعراج قبل البعثة .
الثالث: كونه مناما.
الرابع: مخالفته في النهرين.
الخامس: مخالفته في محل سدرة المنتهى.
السادس: شق الصدر عند الاسراء.
السابع: ذكر نهر الكوثر في السماء الدنيا.
الثامن: نسبة الدنو والتدلي إلى الله عزوجل.
التاسع: تصريحه أن امتناعه، ﷺ، من الرجوع إلى سؤال ربه التخفيف كان عند الخامسة.
العاشر: قوله: فعلا به إلى الجبار، فقال وهو في مكانه.
وقال العلامة الألباني في الإسراء والمعراج (ص٣٤): ومن ذلك قول شريك في أول الحديث: (قبل أن يوحى إليه) . قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (١٣ / ٤٨٠): (أنكره الخطابي وابن حزم وعبد الحق والقاضي عياض والنووي . وعبارة النووي: وقع في رواية شريك - يعني: هذه - أوهام أنكرها العلماء أحدها: قوله: (قبل أن يوحى إليه) وهو غلط لم يوافق عليه . وأجمع العلماء أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء فكيف يكون قبل الوحي ؟ انتهى
=

=

ولأهل العلم كلام حول هذا الحديث، وصرح المذكورون بأن شريكا تفرد بذلك وفي دعوى التفرد نظر فقد وافقه كثير بن خنيس - بمعجمة ونون مصغر - عن أنس كما أخرجه سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي في (كتاب المغازي) من طريقه) . انتهى كلام ابن حجر

قلت: وهذه المتابعة لا تدفع غلط القول المذكور إلا على افتراض أن ذلك كان في الليلة الأولى وهو الظاهر من السياق فقوله بعده: (حتى أتوه ليلة أخرى) ليس فيه ذلك فإنه لم يعين المدة التي بين المجيئين فيحمل على أن المجيء الثاني كان بعد أن أوحي إليه وحينئذ وقع الإسراء والمعراج وبهذا جزم الحافظ في (الفتح) (١٣ / ٤٨٠) ورد به قول من ادعى أنه خالف الإجماع . فراجعه

ثم أفاض الحافظ في ذكر المواضع التي خالف فيها شريك غيره فبلغت عشرة بل أكثر وأجاب عنها واحدة بعد أخرى إما بدفع دعوى التفرد وإما بالتأويل

والحق أن بعض ذلك مما لا جواب عليه حتى عند الحافظ كقوله:

(الرابع: مخالفته في محل سدرة المنتهى وأنها فوق السماء السابعة بما لا يعلمه إلا الله . والمشهور أنها في السابعة أو السادسة كما تقدم

الخامس: مخالفته في النهرين وهما النيل والفرات وأن عنصرهما في السماء الدنيا . والمشهور في غير روايته أنهما في السماء السابعة وأنهما من تحت سدرة المنتهى

السابع: ذكر نهر الكوثر في السماء الدنيا والمشهور في الحديث أنه في الجنة كما تقدم التنبيه عليه.

الثامن: نسبة الدنو والتدلي إلى الله ﷻ والمشهور في الحديث أنه جبريل كما تقدم التنبيه عليه

الحادي عشر: رجوعه ﷺ بعد الخمس والمشهور في الأحاديث أن موسى عليه السلام أمره بالرجوع بعد أن انتهى التخفيف إلى الخمس فامتنع

الثاني عشر: زيادة ذكر التور في الطست

قلت: ولذلك فإن القلب لا يطمئن للاستفادة من حديثه إلا فيما توبع عليه وهو قليل جدا وقد حسن الحافظ بعضها . والله أعلم.اهـ. كلام الألباني.

فقوله (ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى) خطأ من شريك، لأن المراد أن النبي ﷺ دنى فتدلى من جبريل عليه السلام. قال الحافظ ابن كثير: هذا هو الصحيح في التفسير كما دل عليه

=

=

كلام الصحابة - رضي الله عنهم. وقد روى الشعبي عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها {ثم دنا فتدلى - فكان قاب قوسين أو أدنى} [النجم: ٨ - ٩] قالت ذاك جبريل، وقال العلامة ابن القيم: لأن جبريل هو الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله {ولقد رآه نزلة أخرى - عند سدرة المنتهى} [النجم: ١٣ - ١٤] هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح لعائشة، قالت عائشة - رضي الله عنها: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: ذلك جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين». رواه مسلم. قال: ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك، ثم ساق سبعة وجوه دالة على ذلك، قال: وأما ما وقع في البخاري من رواية شريك عن أنس ودنا للجبار رب العزة، فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فقد تكلم الناس فيه، وقالوا: إن شريكا غلط فيه وذكر فيه أمورا منكرة.اهـ.

وقال عبد الحق الاشبيلي في الجمع بين الصحيحين: زاد شريك في حديث الاسراء زيادة مجهولة، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة، وقد روى الاسراء جماعة من الحفاظ فلم يأت أحد منهم بما أتى شريك، وشريك ليس بالحافظ، وقال العلامة الألباني في كتاب الإسراء والمعراج (ص٣٣): ولعل هذا الاختلاف هو من شريك نفسه فإنه وإن كان من رجال الشيخين فقد تكلموا في حفظه كما تراه مبسوطا في كتب الرجال وقال الحافظ فيه في التقريب: (صدوق يخطئ) ومصداق ذلك في هذا الحديث نفسه في مواضع منه ذكرت آنفا أحدها ويأتي ذكر سائرها أو بعضها وكأنه لذلك لم يسق الإمام مسلم لفظ حديثه كما تقدم ولذا قال ابن كثير في التفسير: (وهو كما قال مسلم فإن شريك بن عبد الله بن أبي نمر اضطرب في هذا الحديث وساء حفظه ولم يضبطه كما سيأتي بيانه في الأحاديث الأخر ومنهم من يجعل هذا مناما توطئة لما وقع بعد ذلك. والله أعلم، وقد قال الحافظ البيهقي: (في حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل. يعني: قوله: (ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى؟ فكان قاب قوسين أو أدنى؟) قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته ﷺ جبريل أصح) وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق فإن أبا ذر قال: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: (نور أنى أراه؟). وفي رواية: (رأيت نورا). أخرجه مسلم وقوله: ؟ ثم دنا فتدلى؟: إنما هو جبريل عليه السلام كما ثبت في (الصحيحين) عن عائشة أم المؤمنين وعن ابن مسعود وكذلك هو في (صحيح مسلم) عن أبي هريرة ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا). انتهى كلام ابن كثير قلت: وانظر كتابي

=

في متن هذه الرواية، وذكروا أشياء فيها من الغرابة، فإن صح فهو محمول على وقت آخر، وقصة أخرى، لا أنها تفسير لهذه الآية، فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض لا ليلة الإسراء، ولهذا قال بعده {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى}، فهذه هي ليلة الإسراء، والأولى كانت في الأرض". انظر كتاب رؤية النبي ﷺ لربه (ص٩).

قال العلامة الألباني في التعليق على متن الطحاوية (ص٣٠): وأما رؤيته تعالى في الدنيا فقد أخبر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في الحديث الصحيح: «أن أحدًا منا لا يراه حتى يموت».رواه مسلم.

وأما هو نفسه عليه الصلاة والسلام فلم يرد في إثباتها له ما تقوم به الحجة، بل قد صح عنه الإشارة إلى نفيها حين سئل عنها بقوله: «نور أنى أراه» ومع ذلك جزمت السيدة عائشة بنفيها كما في "الصحيحين" وهذا هو الأصل فينبغي التمسك به.اهـ.

وذكر الشيخ في تحقيق بداية السول (ص ١٧): رواية ابن عساكر عن ابن مسعود مرفوعًا: «قال لي ربي ﷻ: نَحلتُ إبراهيم خلتي، وكلّمتُ موسى تكليمًا، وأعطيتُك يا محمد خُلتي ومحبتي، وكلمتك كفاحا» (٣/ ص١٥١).

قال العلامة الألباني: وهو موضوع. قال الدكتور الشيخ خليل الهراس في تعليقه عليه: قال في "اللآلئ": «لا يصح، تفرد به مسلم وهو متروك». قلت: لو صح فكان نصًا على أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد رأى ربه ليلة الإسراء على الأقل، ولم يبق ثمة مجال لاختلاف؛ لأن معنى "كفاحًا" أي:

=

(ظلال الجنة في تخريج كتاب السنة) (١/ ١٩١)، قلت وانظر أيضا كلام الحافظ عن هذا الحديث في فتح الباري (١٣/ ٤٨٣).

مواجهة ليس بينه وبين الله حجاب كما في "النهاية " مادة (كفح).وكأن الدكتور رَحِمَهُ اللَّهُ لم ينتبه لهذا المعنى، فعلق على كلمة (الإسراء) بقوله (٣/ ١١١): "ففي هذه الليلة كلم الله عَزَّ وَجَلَّ نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- كفاحًا من غير واسطة ملك". فخفي عليه ما ذكرناه عن ابن الأثير. وحينئذ فالحديث مخالف لقوله تعالى: {وما كان لبشر أن يكلمَه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب ...} وبه احتجت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على نفي الرؤية، وهو الحق.اهـ.

وقال الشيخ في مختصر العلو (ص ١١٩ - ١٢٠): [عن ابن عباس] قال: رأى محمد ربه عَزَّ وَجَلَّ مرتين.

قلت: هذا صحيح ثابت عن ابن عباس لكن موقوفًا عليه. وقد أخرجه ابن خزيمة في " التوحيد" (ص ١٣١) بسند صحيح عنه، ورواه مسلم أيضًا من هذا الوجه لكنه بلفظ:

" رآه بقلبه" وهو رواية لابن خزيمة من طريق أخرى عن ابن عباس.

ثم أخرجه مسلم من طريق ثالث عنه بلفظ: قال:

" {ما كذب الفؤاد ما رأى ولقد رآه نزلة أخرى}، قال: رآه بفؤاده مرتين".ورواه ابن خزيمة أيضًا مختصرًا.

قلت: ولا يقال: حديث ابن عباس هذا وإن كان وموقوفًا، فهو في حكم المرفوع، لأنه لا يقال اجتهادًا، فإني أقول: إن قوله إياه مفسرًا به الآية المذكورة، لأكبر دليل على أنه باجتهاد من عنده وليس له حكم المرفوع، لأنه قد صح خلافه في تفسيرها، فقد قالت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-؟ فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خُلِقَ عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء، سادًّا

عِظَم خلقه ما بين السماء إلى ألأرض» أخرجه مسلم (١/ ١١٠) وروى نحوه عن أبي هريرة مختصرًا بلفظ: {ولقد رآه نزلة أخرى} قال: "رأى جبريل". وهذا موقوف أولى من موقوف ابن عباس لموافقته لحديث عائشة المرفوع. روى له ابن خزيمة (ص١٣٤،١٣٣) شاهدًا من حديث ابن مسعود مرفوعًا، وسنده حسن.اهـ.

وقال العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح (٣/ ٤١٨): رؤية الله تعالى في الدنيا يقظة غير ممكنة، والدليل على ذلك أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو من أفضل الرسل، وهو أحد أولى العزم الخمسة (قال رب أرني أنظر إليك) قال الله له: (لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا)، اندك الجبل أمام موسى وهو يشاهد: (وخر موسى صعقا) . غشي عليه لأنه شاهد شيئا لا تتحمله نفسه: (فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) الأعراف/ ١٤٣ . فتاب إلى الله من هذا السؤال، لأنه سؤال ما لا يمكن، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: (ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين) الأعراف/ ٥٥ .

فرؤية الله في الدنيا حال اليقظة لا يمكن حتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة المعراج لم ير ربه، وقد سئل هل رأيت ربك ؟ قال: (رأيت نورا) . وفي لفظ: (نور أنى أراه) . يعني بيني وبينه حجب عظيمة من النور، وقد جاء في الحديث في الصحيح أن الله عَزَّ وَجَلَّ محتجب بالنور، وذلك في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (حجابه النور لو كشفه لأحرقته سبحات وجهه من انتهى إليه بصره من خلقه) .

وسبحاته: بهاؤه وعظمته، فلو كشف هذا النور الذي بينه وبين الخلق لاحترق الخلق جميعا، لأن بصره ينتهي إلى كل شيء، فيحترق كل شيء بهذا

النور العظيم، وعلى هذا نقول: لا تمكن رؤية الله في الدنيا في اليقظة .

أما في المنام فإن النبي ﷺ رأى ربه في المنام، لكن هل غيره يمكن أن يراه ؟ يذكر أن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ رأى ربه، وذكر بعض العلماء أن ذلك ممكن، فالله أعلم، لكن أخشى إن فتح الباب أن تدخل علينا شيوخ الصوفية وغيرهم فيقول أحدهم رأيت ربي البارحة، وجلست أنا وإياه، وتنادمنا وتناقشنا، ثم يجيء من هذه الخزعبلات التي لا أصل لها، فأرى أن سد هذا الباب هو الأولى.اهـ.

وقال الشيخ في فتاوى نور على الدرب: القول الراجح في هذه المسألة أن النبي ﷺ لم ير ربه لأنه نفسه صلوات الله وسلامه عليه سئل هل رأيت ربك؟ فقال (نور أَنَّى أراه) وفي رواية (رأيت نورًا) والله عَزَّ وَجَلَّ قد احتجب عن عباده بحجب النور لا يمكن اختراقها فإذا كان النبي ﷺ نفسه نفى أن يكون رأى الله فلا يمكن بعد ذلك أن يدعي مدع أن النبي ﷺ رأى ربه وما ذكر عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ رأى ربه فقد قال عنه شيخ الإسلام ابن تيميه رَحِمَهُ اللَّهُ إن عباس لم يصرح أن النبي ﷺ رأى ربه بعينه يقظة وأن قوله أي ابن عباس يعني أنه رآه بفؤاده وهو كناية عن العلم اليقيني الذي يكون في القلب حتى كأنه رآه بالعين وما قاله شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ هو الحق ولن يتمكن أحد في الدنيا أن يرى ربه يقظة أبدا ولهذا لما قال موسى عليه الصلاة و السلام (ربي ارني أنظر إليك) شوقا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ قال الله له (لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) فعلق الرب عز و جل على أمر مستحيل لأنه يستحيل على الجبل أن يصمد على رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ وهو جبل أصم حجر غليظ قاسي قال الله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) اندك الجبل أمام موسى يشاهده بعينه فصعق عليه الصلاة والسلام من هول ما رأى فلما أفاق قال

(سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) فشكر الله له وقال (إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين) فالمهم أنه لا يمكن لأحد أن يرى الله تبارك وتعالى يقظة في الدنيا ولن يستطيع أحد أن يَثْبُتَ لذلك أما في الآخرة فقد دل القرآن والسنة المتواترة و إجماع الصحابة رضي الله عنهم أن الله تعالى يرى في الآخرة رؤية حقيقة بالعين....اهـ.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (٢/ ١٨٨): هل تصح رؤية الله في الدنيا جهرة؟

فأجابوا: هذه المسألة من المسائل المبنية على التوقيف، فلا يصح أن تثبت لأحد إلا بدليل يصح الاستناد إليه، وقد دل القرآن على أن موسى لم ير ربه، فإنه لما طلب الرؤية أجابه بقوله تعالى: {لن تراني} ودلت السنة على أن النبي ﷺ لم يره بعينيه، ففي صحيح مسلم (١٧٧) عن مسروق قال: كنت متكئا عند عائشة فقالت يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية قلت ما هن ؟ قالت من زعم أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية قال وكنت متكئا فجلست فقلت يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل الله عز و جل {ولقد رآه بالأفق المبين} [التكوير: ٢٣] {ولقد رآه نزلة أخرى} [النجم: ١٣] فقالت أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض فقالت أو لم تسمع أن الله يقول {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم} [الشورى: ٥١] قالت ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته} [المائدة:

٦٧] قالت ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله يقول {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله} [النمل: ٦٥]، وفي صحيح مسلم (١٧٨) عن أبي ذر، أنه سأل رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: "رأيت نورا"، وفي لفظ قال: "نور أنى أراه» وفيه (٢٩٣١) عن النبي ﷺ: "واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قد اتفق أئمة المسلمين على أن أحدا من المؤمنين لا يرى الله بعينه في الدنيا، ولم يتنازعوا إلا في النبي ﷺ خاصة، مع أن جماهير الأمة اتفقوا على أنه لم يره بعينه في الدنيا، وعلى هذا دلت الآثار الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ والصحابة وأئمة المسلمين.

ولم يثبت عن ابن عباس ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما أنهم قالوا: إن محمدا رأى ربه بعينه، بل الثابت عنهما: إما إطلاق الرؤية، وإما تقييدها بالفؤاد، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه، وقوله: "أتاني ربي في أحسن صورة".

الحديث الذي رواه الترمذي وغيره إنما كان بالمدينة في المنام هكذا جاء مفسرا.

وكذلك حديث أم الطفيل وحديث ابن عباس وغيرهما- مما فيه رؤية ربه - إنما كان بالمدينة كما جاء مفسرا في الأحاديث والمعراج كان بمكة، كما قال سبحانه وتعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى} وقد ثبت بنص القرآن أن موسى قيل له: {لن تراني} وأن رؤية الله أعظم من إنزال كتاب من السماء، كما قال تعالى: {يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا

أرنا الله جهرة} فمن قال: إن أحدا من الناس يراه فقد زعم أنه أعظم من موسى بن عمران، ودعواه أعظم من دعوى من ادعى أن الله أنزل عليه كتابا من السماء، فالصحابة والتابعون وأئمة المسلمين على أن الله يرى في الآخرة بالأبصار عيانا وأن أحدا لا يراه في الدنيا بعينه لكن يرى في المنام، ويحصل للقلوب من المكاشفات والمشاهدات ما يناسب حالها، ومن الناس من تقوى مشاهدة قلبه حتى يظن أنه رأى ذلك بعينه وهو غالط، ومشاهدات القلوب تحصل بحسب إيمان العبد ومعرفته في صورة مثالية .

مسألة: هل ثبت رؤية النبي ﷺ لربه في الدنيا عيانا

ينبغي - هنا - التفريق، وعدم الخلط بين مسألتين، المسألة الأولى: رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج، وهذه هي التي حصل الكلام فيها بين أهل السنة، وقد تقدم بسط ذلك في المبحث السابق؛ والمسألة الثانية: رؤية النبي ﷺ لربه في الدنيا عيانًا وهذه لم يختلف فيها قول أهل السنة، فهم مجمعون على أن النبي ﷺ لم ير ربه في الدنيا عيانًا، وأن ما ذكر من أحاديث في هذه المسألة فهو في عداد الموضوعات التي لا يصح نسبتها إلى النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٨٦-٣٨٨): "وقد اتفق المسلمون على أن النبي ﷺ لم ير ربه بعينه في الأرض، وأن الله ينزل له إلى الأرض، وليس عن النبي ﷺ قط حديث فيه أن الله نزل له إلى الأرض، بل الأحاديث الصحيحة: (أن الله يدنو عشية عرفة)[(١)].

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢/ ٢٨)، وابن حبان في صحيحه (٢٤٨- موارد)، وأبو يعلى في المسند (٤/ ٦٩-٧٠)، وابن خزيمة في الصحيح (٤/ ٢٦٣)، والبغوي في شرح السنة (٧/ ١٥٩)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٣٩ برقم٧٥١-٧٥٢)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ١٢٠) . جميعهم من طريق أبي الزبير =

وفي رواية (إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟)[1].اهـ.

علم مما سابق أنه لم يصح حديث في مسألة رؤية النبي ﷺ لربه في الدنيا عيانًا، وقد ذكر العلماء أن ما يروى في هذا الشأن فهو كذب على النبي ﷺ، وليس له أصل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٨٩): "وكل حديث فيه "أن محمدًا ﷺ رأى ربه بعينه في الأرض"، فهو كذب باتفاق المسلمين وعلمائهم، هذا شيء لم يقله أحد من علماء المسلمين ولا رواه أحد منهم.

وقال أيضًا: "وبالجملة أن كل حديث فيه أن النبي ﷺ رأى ربه بعينيه في الأرض، وفيه أنه نزل له إلى الأرض، وفيه أن رياض الجنة خطوات الحق، وفيه أنه وطئ على صخرة بيت المقدس، كل هذا كذب باطل باتفاق علماء المسلمين، من أهل الحديث وغيرهم".اهـ.

ومن الأحاديث الموضوعة في هذا الشأن ما يلي:

١- الحديث الأول: عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها مرفوعا: (رأيت ربي عز وجل على جمل أحمر عليه إزاران وهو يقول: قد سمحت قد غفرت إلا المظالم، فإذا كان ليلة المزدلفة، ثم يصعد إلى السماء، وينصرف الناس إلى منى)

أورده ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٨٠) وقال عنه: "هذا حديث لا

=

عن جابر. ولفظه "إذا كان يوم عرفة أن الله ينزل إلى سماء الدنيا ... " الحديث، والحديث قال عنه العلامة الألباني في تعليقه على صحيح ابن خزيمة (٤/ ٢٦٣): "إسناده ضعيف.

(١) أخرجه مسلم (٧٥٨).

يشك أحد في أنه موضوع، محال"، والسيوطي في اللآلي المصنوعة ١/ ٢٧.

وابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ١٣٩ رقم ١٧ وقال: "أخرجه الأهوازي في الصفات من حديث أسماء فقبح الله واضعه".

٢- الحديث الثاني: عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه مرفوعا: (رأيت ربي بمنى يوم النفر، على جمل أورق عليه جبة صوف أمام الناس) أورده الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٥١٣ وفي السير ١٨/ ١٦-١٧، والقاضي الفتني في تذكرة الموضوعات ص ١٢-١٣، والقاري في المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ص ١٠٢، واتفقوا على أنه موضوع باطل، وأن المتهم به هو أبوعلي الأهوازي، كما قال ابن عساكر.

امسألة: رؤية البشر لربهم في الحياة الدنيا.

لعل من المناسب بعد ذكر ما يتعلق بمسألة رؤية النبي ﷺ لربه، وما يتصل بها من مسائل، الإشارة إلى مسألة رؤية البشر لربهم في الحياة الدنيا، وذلك لما بين المسألتين من ترابط من جهة وجود نوع علاقة بين المسألتين، باعتبار أن من زعم جواز حصول الرؤية للبشر استند في زعمه على ما ذكر من أحاديث مكذوبة في وقوع الرؤية للنبي ﷺ في الحياة الدنيا، ومعلوم أن بضاعة بعض المتصوفة الذين جوزوا حصول ذلك لأوليائهم هي الأحاديث المكذوبة المتقدمة، وعلى هذا الاعتبار بنى أولئك المتصوفة مزاعمهم، بأن ذلك يجوز حصوله لمن وصل إلى مرحلة معينة في الولاية التي قد يعتبرها البعض منهم فوق منزلة النبوة، وبهذه النظرة ما المانع أن يحصل مثل ذلك لغير النبي ﷺ.

وأما من قال بامتناع رؤية النبي ﷺ لربه في الدنيا عيانًا، فلا شك أنه يقول بامتناعها على غيره من باب أولى، فإذا كانت الرؤية لم تحصل للنبي ﷺ -مع

ما له من مكانة وشرف ومنزلة عظيمة عند الله - فكيف تحصل لمن هو دونه في المنزلة والمكانة، على أن مستند من نفى رؤية البشر لله في الدنيا هو نص السنة، كما سيأتي ذكره.

ومسألة رؤية البشر لله عمومًا يتنازعها ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: من نفى الرؤية بإطلاق فلم يثبتها في الدنيا، ولا في الآخرة على حد سواء، بل نفى حتى الرؤيا المنامية.

وهؤلاء هم الجهمية والمعتزلة المعطلة الذين ليس عندهم فوق العرش إلا العدم المحض.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض تأسيس الجهمية (١/ ٧٣-٧٤): "وحكوا عن طائفة من المعتزلة وغيرهم إنكار رؤية الله، والنقل بذلك متواتر عمن رأى ربه في المنام، ولكن لعلهم قالوا: لا يجوز أن يعتقد أنه رأى ربه في المنام فيكونون قد جعلوا هذا من أضغاث الأحلام، ويكونون من فرط سلبهم ونفيهم نفوا أن تكون رؤية الله في المنام رؤية صحيحة كسائر ما يرى في المنام، فهذا مما يقوله المتجهمة، وهو باطل مخالف لما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، بل ولما اتفق عليه عامة عقلاء بني آدم".اهـ.

وقال أيضًا مجموع الفتاوى (٣/ ٣٩١-٣٩٢): "وإنما يكذب بها أو يحرفها - أي: أحاديث الرؤية في الآخرة - الجهمية، ومن تبعهم من المعتزلة والرافضة ونحوهم، من الذين يكذبون بصفات الله تعالى، وبرؤيته وغير ذلك، وهم المعطلة شرار الخلق والخليقة، ودين الله وسط بين تكذيب هؤلاء بما أخبر به رسول الله ﷺ في الآخرة، وبين تصديق الغالية، بأنه يرى بالعيون في الدنيا، وكلاهما باطل".اهـ.

الطائفة الثانية: من يثبت الرؤية بإطلاق فيزعم أن الله يرى في الدنيا عيانًا، كما يرى في الآخرة عيانًا. وهذا يقول به بعض المتصوفة من الاتحادية والحلولية.

فأما الاتحادية أهل وحدة الوجود فهم الذين لا يميزون الخالق بصفات تميزه عن المخلوق، ويقولون بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق. فعلى سبيل المثال هم يقولون بأن الله هو المتكلم بكل ما يوجد من الكلام، وفي ذلك يقول ابن عربي:

ألا كل قول في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

يعم به أسماع كل مكون ... فمنه إليه بدؤه وختامه

فيزعمون أنه هو المتكلم على لسان كل قائل. ولا فرق عندهم بين قول فرعون: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات ٢٤] {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص ٢٨] وبين القول الذي يسمعه موسى {إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي} [طه ١٤]، بل يقولون: إنه الناطق في كل شيء، فلا يتكلم إلا هو، ولا يسمع إلا هو، حتى قول مسيلمة الكذاب، والدجال، وفرعون، يصرحون بأن أقوالهم هي قوله".

وهذا قول أصحاب وحدة الوجود كابن عربي، وابن سبعين، وابن الفارض، والعفيف التلمساني.

وأصل مذهبهم: أن كل واحد من وجود الحق، وثبوت الخلق يساوي الآخر، ويفتقر إليه، وفي هذا يقول ابن عربي:

فيعبدني وأعبده ... ويحمدني وأحمده

ويقول: إن الحق يتصف بجميع صفات العبد المحدثات، وإن المحدث يتصف بجميع صفات الرب، وإنهما شيء واحد؛ إذ لا فرق في الحقيقة بين

الوجود والثبوت فهو الموصوف عندهم بجميع صفات النقص والذم والكفر والفواحش والكذب والجهل، كما هو الموصوف عندهم بصفات المجد والكمال فهو العالم والجاهل، والبصير والأعمى، والمؤمن والكافر، والناكح والمنكوح، والصحيح والمريض، والداعي والمجيب، والمتكلم والمستمع، وهو عندهم هوية العالم ليس له حقيقة مباينة للعالم، وقد يقولون: لا هو العالم ولا غيره، وقد يقولون: هو العالم - أيضا - وهو غيره، وأمثال هذه المقالات التي يجمع فيها في المعنى بين النقيضين مع سلب النقيضي"(١).

وهؤلاء الاتحادية يجمعون بين النفي العام، والإثبات العام، فعندهم أن ذاته لا يمكن أن ترى بحال وليس له اسم ولا صفة ولا نعت، إذ هو الوجود المطلق الذي لا يتعين، وهو من هذه الجهة لا يرى ولا اسم له.

ويقولون: إنه يظهر في الصور كلها، وهذا عندهم هو الوجود الاسمي لا الذاتي، ومن هذه الجهة فهو يرى في كل شيء، ويتجلى في كل موجود، لكنه لا يمكن أن ترى نفسه، بل تارة يقولون كما يقول ابن عربي: ترى الأشياء فيه، وتارة يقولون: يرى هو في الأشياء، وهو تجليه في الصور، وتارة يقولون كما يقول ابن سبعين:

عين ما ترى ذات لا ترى وذات لا ترى عين ما ترى

وهم مضطربون؛ لأن ما جعلوه هو الذات عدم محض، إذ المطلق لا وجود له في الخارج مطلقًا بلا ريب، لم يبق إلا ما سموه مظاهر ومجالي، فيكون الخالق عين المخلوقات لا سواها، وهم معترفون بالحيرة والتناقض مع ما هم فيه من التعطيل والجحود.

---

(١) بغية المرتاد (ص ٤٠٨).

وفي هذا يقول ابن عربي:

فـإن قلـت بالتنزيـه كنـت مقيـدًا وإن قلـت بالتـشبيه كنـت محـددًا
وإن قلـت بـالأمرين كنـت مـسددًا وكنـت إمامًـا في المعـارف سـيدًا
فمـن قـال بالإشـفاع كـان مـشركًا ومـن قـال بـالإفراد كـان موحـدًا
فإيـاك والتـشبيه إن كنـت ثانيًـا وإيـاك والتنزيـه إن كنـت مفـردًا
فمـا أنـت هـو بـل أنـت هـو وتـراه في عـين الأمـور مـسرحا ومقيـدًا[(١)]

وأما الفرق بين الاتحاد والحلول، فإن الاتحاد كاتحاد الماء باللبن، وأما الحلول فكحلول الماء في الإناء[(٢)].

والقسمة بين الحلولية والاتحادية رباعية، فإن كل واحد من الحلول والاتحاد: إما معين في شخص، وإما مطلق.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢/ ١٧١-١٧٣): "وذلك أن القسمة رباعية؛ لأن من جعل الرب هو العبد حقيقة، فإما أن يقول بحلوله فيه، أو اتحاده به، وعلى التقدرين: فإما أن يجعل ذلك مختصا ببعض الخلق كالمسيح، أو يجعله عاما لجميع الخلق، فهذه أربعة أقسام:

الأول: هو الحلول الخاص: وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم ممن يقول: إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به، كحلول الماء في الإناء، وهؤلاء حققوا كفر النصارى؛ بسبب مخالطتهم للمسلمين، وكان في زمن المأمون؛ وهذا قول من وافق هؤلاء النصارى من غالية هذه الأمة، كغالية الرافضة الذين يقولون: إنه حلَّ بعلي بن أبي طالب، وأئمة أهل بيته، وغالية

(١) بغية المرتاد (ص٤٧٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ١٧١، ٤٦٥).

النُسَّاك الذين يقولون بالحلول في الأولياء، ومن يعتقدون فيه الولاية أو في بعضهم، كالحلاج ويونس والحاكم ونحو هؤلاء.

والثاني: هو الاتحاد الخاص: وهو قول يعقوبية النصارى، وهم أخبث قولًا، وهم السودان والقبط، يقولون: إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا

كاختلاط اللبن بالماء، وهو قول من وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إلى الإسلام.

والثالث: هو الحلول العام: وهو قول الذي ذكره أئمة أهل السنة والحديث عن طائفة من الجهمية المتقدمين، وهو قول غالب متعبدة الجهمية الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان، ويتمسكون بمتشابه من القرآن كقوله {وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} [الأنعام ٣] وقوله {وَهُوَ مَعَكُمْ} [الحديد ٤] والرد على هؤلاء كثير مشهور في كلام أئمة السنة، وأهل المعرفة وعلماء الحديث.

الرابع: الاتحاد العام: وهو قول هؤلاء الملاحدة الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين:

من جهة أن أولئك قالوا: إن الرب يتحد بعبده الذي قربه واصطفاه بعد أن لم يكونا متحدين، وهؤلاء يقولون: مازال الرب هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره.

والثاني من جهة أن أولئك خصوا ذلك بمن عظَّموه كالمسيح، وهؤلاء جعلوا ذلك ساريا في الكلاب والخنازير والأقذار والأوساخ، وإذا كان الله تعالى قد قال {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} الآية، فكيف بمن قال: إن الله هو الكفار، والمنافقون، والصبيان، والمجانين، والأنجاس،

والأنثان، وكل شيء؟!".اهـ..

وأما عن الحلولية، فقد قال الأشعري في مقالات الإسلاميين (ص ٢٨٨-٢٨٩): "وفي الأمة قوم ينتحلون النسك، يزعمون أنه جائز على الله تعالى الحلول في الأجسام، وإذا رأوا شيئا يستحسنونه قالوا: لا ندري، لعله، ربنا.

ومنهم من يقول: إنه يرى الله في الدنيا على قدر الأعمال، فمن كان عمله أحسن رأى معبوده أحسن.

ومنهم من يجوِّز على الله تعالى المعانقة والملامسة والمجالسة في الدنيا، وجوّزوا مع ذلك على الله - تعالى الله عن قولهم - أن نلمسه.

ومنهم من يزعم أن الله سبحانه ذو أعضاء وجوارح وأبعاض: لحم ودم على صورة الإنسان له ما للإنسان من الجوارح - تعالى ربنا عن قولهم علوا كبيرا.

وكان في الصوفية رجل يُعرف بأبي شعيب يزعم أن الله يسر ويفرح بطاعة أوليائه، ويغتم ويحزن إذا عَصَوْهُ.

وفي النسَّاك قوم يزعمون أن العبادة تبلغ بهم إلى منزلة تزول عنهم العبادات، وتكون الأشياء المحظورات على غيرهم - من الزنا وغيره - مباحات لهم. وفيهم من يزعم أن العبادة تبلغ بهم أن يروا الله، ويأكلوا من ثمار الجنة، ويعانقوا الحور العين في الدنيا، ويحاربوا الشياطين، ومنهم من يزعم أن العبادة تبلغ بهم إلى أن يكونوا أفضل من النبيين والملائكة المقربين".اهـ..

وعلق شيخ الإسلام على كلام الأشعري بعد أن أورده في منهاج السنة (٢/ ٦٢٢-٦٢٥) بقوله: "قلت: هذه المقالات التي حكاها الأشعري - وذكروا أعظم منها - موجودة في الناس قبل هذا الزمان، وفي هذا الزمان منهم من يقول بحلوله في الصور الجميلة، ويقول: إنه بمشاهدة الأمرد يشاهد معبوده، أو

صفات معبوده، أو مظاهر جماله، ومن هؤلاء من يسجد للأمرد. ثم من هؤلاء من يقول بالحلول والاتحاد العام، لكنه يتعبد بمظاهر الجمال، لما في ذلك من اللذة له، فيتخذ إلهه هواه، وهذا موجود في كثير من المنتسبين إلى الفقر والتصوف. ومنهم من يقول: إنه يرى الله مطلقًا ولا يعيِّن الصورة الجميلة، بل يقولون إنهم يرونه في صور مختلفة. ومنهم من يقول: إن المواضع المخضرَّة خطا عليها، وإنما اخضرت من وطئه عليها، وفي ذلك حكايات متعددة يطول وصفها. وأما القول بالإباحة وحل المحرمات - أو بعضها - للكاملين في العلم والعبادة فهذا أكثر من الأول، فإن هذا قول أئمة الباطنية القرامطة الإسماعيلية، وغير الإسماعيلية، وكثير من الفلاسفة، ولهذا يُضرب بهم المثل فيقال: فلان يستحل دمي، كاستحلال الفلاسفة محظورات الشرائع، وقول كثير ممن ينتسب إلى التصوف والكلام، وكذلك من يفضل نفسه أو متبوعه على الأنبياء، موجود كثير في الباطنية والفلاسفة وغلاة المتصوفة وغيرهم، وبسط الكلام على هذا له موضع آخر. ففي الجملة هذه مقالات منكرة باتفاق علماء السنة والجماعة، وهي - وأشنع منها - موجودة في الشيعة.

وكثير من النسَّاك يظنون أنهم يرون الله في الدنيا بأعينهم، وسبب ذلك أنه يحصل لأحدهم في قلبه بسبب ذكر الله تعالى وعبادته من الأنوار ما يغيب به عن حسه الظاهر، حتى يظن أن ذلك شيء يراه بعينه الظاهرة، وإنما هو موجود في قلبه.

ومن هؤلاء من تخاطبه تلك الصورة التي يراها خطاب الربوبية ويخاطبها أيضًا بذلك، ويظن أن ذلك كله موجود في الخارج عنه، وإنما هو موجود في نفسه، كما يحصل للنائم إذا رأى ربه في صورة بحسب حاله. فهذه الأمور تقع

كثيرًا في زماننا وقبله، ويقع الغلط منهم حيث يظنون أن ذلك موجود في الخارج.

وكثير من هؤلاء يتمثل له الشيطان، ويرى نورًا أو عرشا أو نورًا على العرش، ويقول: أنا ربك. ومنهم من يقول: أنا نبيك، وهذا قد وقع لغير واحد. ومن هؤلاء من تخاطبه الهواتف بخطاب على لسان الإلهية أو غير ذلك، ويكون المخاطب له جنيًّا، كما قد وقع لغير واحد. لكن بسط الكلام على ما يُرى ويُسمع وما هو في النفس والخارج، وتمييز حقه من باطله ليس هذا موضعه، وقد تكلمنا عليه في غير هذا الموضع.

وكثير من الجهَّال أهل الحال وغيرهم يقولون: إنهم يرون الله عيانًا في الدنيا، وأنه يخطو خطوات".اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ٢٢٩-٢٣٠): "ومن ظنَّ من القوم أن كشف العين ظهور الذات المقدسة لعيانه حقيقة فقد غلط أقبح الغلط. وأحسن أحواله: أن يكون صادقًا ملبوسًا عليه. فإن هذا لم يقع في الدنيا لبشر قط، وقد منع منه كليم الرحمن ﷺ.

وقد اختلف السلف والخلف: هل حصل هذا لسيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه؟ فالأكثرون على أنه لم ير الله سبحانه، وحكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعًا من الصحابة. فمن ادعى كشف العيان البصري عن الحقيقة الإلهية فقد وهم وأخطأ، وإن قال: إنما هو كشف العيان القلبي، بحيث يصير الرب سبحانه كأنه مرئي للعبد، كما قال النبي ﷺ "أن تعبد الله كأنك تراه" فهذا حق، وهو قوة يقين، ومزيد علم فقط.

نعم، قد يظهر له نور عظيم، فيتوهم أن ذلك نور الحقيقة الإلهية، وأنها قد تجلت له، وذلك غلط أيضًا، فإن نور الرب تعالى لا يقوم له شيء، ولما ظهر

للجبل منه أدنى شيء ساخ وتدكدك، وقال ابن عباس في قوله تعالى {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} قال: "ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى به لم يقم له شيء".

وهذا النور الذي يظهر للصادق: هو نور الإيمان الذي أخبر الله عنه في قوله {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ} قال أبي بن كعب: "مثل نوره في قلب المؤمن" فهذا نور يضاف إلى الرب، ويقال هو نور الله كما أضافه الله سبحانه إلى نفسه، والمراد: نور الإيمان الذي جعله الله له خلقًا وتكوينًا كما قال تعالى {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} فهذا النور إذا تمكن من القلب، وأشرق فيه: فاض على الجوارح. فيرى أثره في الوجه والعين، ويظهر في القول والعمل. وقد يقوى حتى يشاهده صاحبه عيانًا؛ وذلك لاستيلاء أحكام القلب عليه، وغيبة أحكام النفس. والعين شديدة الارتباط بالقلب تظهر ما فيه، فتقوى مادة النور في القلب ويغيب صاحبه بما في قلبه عن أحكام حسه. بل وعن أحكام العلم فينتقل من أحكام العلم إلى أحكام العيان.

وسر المسألة: أن أحكام الطبيعة والنفس شيء، وأحكام القلب شيء، وأحكام الروح شيء، وأنوار العبادات شيء، وأنوار استيلاء معاني الصفات والأسماء على القلب شيء، وأنوار الذات المقدسة شيء وراء ذلك كله.

فهذا الباب يغلط فيه رجلان، أحدهما: غليظ الحجاب، كثيف الطبع والآخر: قليل العلم، يلتبس ما في ذهنه بما في الخارج، ونور المعاملات بنور رب الأرض والسموات {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} ".اهـ.

وقال أيضًا في المصدر السابق (٣/ ٢٤٩): "والرب - تبارك وتعالى - وراء ذلك كله، منزه مقدس عن اطلاع البشر على ذاته، أو أنوار ذاته، أو صفاته، أو أنوار صفاته. وإنما هي الشواهد التي تقوم بقلب العبد، كما يقوم بقلبه شاهد من

شواهد الآخرة والجنة والنار، وما أعد الله لأهلهما".اهـ..

وقال أيضًا في نفس المصدر (٣/ ٣٨٢-٣٨٣): "فإن نور الجلال في القلب ليس هو نور ذي الجلال في الخارج. فإن ذلك لا تقوم له السموات والأرض؛ ولو ظهر للوجود لتدكدك، لكنه شاهد دال على ذلك، كما أن المثل الأعلى شاهد دال على الذات. والحق وراء ذلك كله، منزه عن حلول واتحاد، وممازجة لخلقه؛ وإنما تلك رقائق وشواهد تقوم بقلب العارف، تدل على قرب الألطاف منه في عالم الغيب حيث يراها، وإذا فني فإنما يفنى بحال نفسه لا بالله ولا فيه، وإذا بقي فإنما يبقى بحاله هو ووصفه، لا ببقاء ربه وصفاته، ولا يبقى بالله إلا الله، ومع ذلك فالوصول حق يجد الواصل آثار تجلي الصفات في قلبه، وآثار تجلي الحق في قلبه. ويوقف القلب فوق الأكوان كلها بين يدي الرب تعالى وهو على عرشه، ومن يكاشف بآثار الجلال والإكرام فيجد العرش والكرسي تحت مشهد قلبه حكما، وليس الذي يجده تحت قلبه حقيقة العرش والكرسي بل شاهد ومثال علمي يدل على قرب قلبه من ربه، وقرب ربه من قلبه، وبين الذوقين تفاوت فإذا قرب الرب تعالى من قلب عبده بقيت الأكوان كلها تحت مشهد قلبه، وحينئذ يطلع في أفقه شمس التوحيد فينقشع بها ضباب وجوده ويضمحل ويتلاشى، وذاته وحقيقته موجودة بائنة عن ربه، وربه بائن عنه، فحينئذ يغيب العبد عن نفسه ويفنى، وفي الحقيقة هو باق غير فان، ولكنه ليس في سره غير الله قد فني فيه عن كل ما سواه.

نعم، قد يتفق له في هذه الحالة أن لا يجد شيئا غير الله؛ فذلك لاستغراق قلبه في مشهوده وموجوده، ولو كان ذلك في نفس الأمر لكان العبد في هذه الحال خلقا بارئا مصورا أزليا أبديا.

فعليك بهذا الفرقان، واحذر فريقين هما أعدى عدو لهذا الشأن فريق الجهمية المعطلة التي ليس عندها فوق العرش إلا العدم المحض، فشَمُّ رائحة هذا المقام من أبعد الأمكنة حرام عليها، وفريق أهل الاتحاد القائلين بوحدة الوجود وأن العبد ينتهي في هذا السفر إلى أن يشهد وجوده هو عين وجود الحق جل جلاله، وعيشك بجهلك خير من معرفة هاتين الطائفتين، وانقطاعك مع الشهوات خير من أن تكون معهما١ والله المستعان وعليه التكلان".اهـ..

الطائفة الثالثة: من نفى الرؤية العيانية في الدنيا، وأثبتها في الآخرة وذلك في عرصات يوم القيامة، وفي الجنة، وهذا قول أهل السنة والجماعة.

قال الإمام البربهاري في شرح السنة (ص٨٤): "ومن زعم أنه يرى ربه في دار الدنيا؛ فهو كافر بالله ﷻ".اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية مجموع الفتاوى (٣/ ٣٨٩-٣٩٠): "وكذلك كل من ادعى أنه رأى ربه بعينه قبل الموت فدعواه باطلة باتفاق أهل السنة والجماعة، لأنهم اتفقوا جميعًا على أن أحدًا من المؤمنين لا يرى ربه بعيني رأسه حتى يموت. وثبت ذلك في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان عن النبي ﷺ، أنه لما ذكر الدجال قال: "واعلموا أن أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت".

كذلك روي هذا عن النبي ﷺ من وجوه أخر، يحذر أمته فتنة الدجال، بين لهم أن أحدًا منهم لن يرى ربه حتى يموت، فلا يظن أحد أن هذا الدجال الذي رآه هو ربه.

ولكن الذي يقع لأهل حقائق الإيمان من المعرفة بالله ويقين القلوب ومشاهدتها وتجليتها هو على مراتب كثيرة، قال النبي ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام

عن الإحسان قال: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"٣. وقد يحصل لبعض الناس في اليقظة - أيضًا - من الرؤيا نظير ما يحصل للنائم في المنام، فيرى بقلبه مثل ما يرى النائم. وقد يتجلى له من الحقائق ما يشهده بقلبه، فهذا كله يقع في الدنيا.

وربما غلب أحدهم ما يشهده قلبه وتجمعه حواسه فيظن أنه رأى ذلك بعيني رأسه، حتى يستيقظ فيعلم أنه منام، وربما علم في المنام أنه منام.

فهكذا من العباد من يحصل له مشاهدة قلبية تغلب عليه حتى تفنيه عن الشعور بحواسه، فيظنها رؤية بعينه وهو غلط في ذلك، وكل من قال من العباد المتقدمين أو المتأخرين أنه رأى ربه بعيني رأسه فهو غالط في ذلك بإجماع أهل العلم والإيمان.

نعم، رؤية الله بالأبصار هي للمؤمنين في الجنة، وهي أيضًا للناس في عرصات القيامة، كما تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ حيث قال: "إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر ليلة البدر صحوًا ليس دونه سحاب" ....اهـ.

وقال في المصدر السابق (٣/ ٣٩١-٣٩٣): وهذه الأحاديث وغيرها في الصحاح، وقد تلقاها السلف والأئمة بالقبول، واتفق عليها أهل السنة والجماعة، وإنما يكذب بها أو يحرفها الجهمية ومن تبعهم من المعتزلة والرافضة ونحوهم من الذين يكذبون بصفات الله تعالى وبرؤيته وغير ذلك، وهم المعطلة شرار الخلق والخليقة.

ودين الله وسط بين تكذيب هؤلاء بما أخبر به رسول الله ﷺ في الآخرة، وبين تصديق الغالية، بأنه يرى بالعيون في الدنيا، وكلاهما باطل.

وهؤلاء الذين يزعم أحدهم أنه يراه بعيني رأسه في الدنيا هم ضلال كما تقدم، فإن ضموا إلى ذلك أنهم يرونه في بعض الأشخاص، إما بعض الصالحين، أو بعض المردان، أو بعض الملوك أو غيرهم، عظم ضلالهم وكفرهم، وكانوا حينئذ أضل من النصارى الذين يزعمون أنهم رأوه في صورة عيسى بن مريم.

بل هم أضل من أتباع الدجال الذي يكون في آخر الزمان، ويقول للناس أنا ربكم.

فهذا -أي الدجال- ادعى الربوبية وأتى بشبهات فتن بها الخلق، حتى قال فيه النبي ﷺ: "إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، واعلموا أن أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت"، فذكر لهم علامتان ظاهرتين يعرفهما جميع الناس، لعلمه ﷺ بأن من الناس من يضل فيُجَوِّز أن يرى ربه في الدنيا في صورة البشر، كهؤلاء الضلال الذين يعتقدون ذلك، وهؤلاء قد يسمون (الحلولية) و (الاتحادية).... فهؤلاء الضلال الكفار الذين يزعم أحدهم أنه يرى ربه بعينه، وربما زعم أنه جالسه وحادثه أو ضاجعه، وربما يعين أحدهم آدميًا إما شخصًا، أو صبيًا، أو غير ذلك، ويزعم أنه كلمهم. يستتابون، فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم وكانوا كفارًا، إذ هم أكفر من اليهود والنصارى الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، فإن المسيح رسول كريم وجيه عند الله في الدنيا والآخرة ومن المقربين، فإذا كان الذين قالوا: إنه هو الله، وإنه اتحد به أو حل فيه قد كفرهم وعظم كفرهم، بل الذين قالوا أنه اتخذ ولدًا حتى قال {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم ٨٨-٩٣]، فكيف بمن يزعم

في شخص من الأشخاص أنه هو؟ هذا أكفر من الغالية الذين يزعمون أن عليًا رَضِوَالِلَّهُ عَنْهُ، أو غيره من أهل البيت هو الله، وهؤلاء هم الزنادقة الذين حرقهم علي رَضِوَالِلَّهُ عَنْهُ بالنار، وأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كنده، وقذفهم فيها بعد أن أجلهم ثلاثًا ليتوبوا، فلما لم يتوبوا أحرقهم بالنار، واتفقت الصحابة رَضِوَالِلَّهُ عَنْهُمْ على قتلهم، لكن ابن عباس رَضِوَالِلَّهُ عَنْهُمَا كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق، وهو قول أكثر العلماء، وقصتهم معروفة عند العلماء".

مسألة: قال السيوطي في رسالة تحفة الجلساء برؤية الله للنساء ضمن كتابه الحاوي (٢/ ١٨٨): مسألة: رؤية الله تعالى يوم القيامة في الموقف حاصلة لكل أحد الرجال، والنساء بلا نزاع، وذهب قوم من أهل السنة إلى أنها تحصل فيه للمنافقين أيضًا، وذهب آخرون منهم إلى أنها تحصل للكافرين أيضًا ثم يحجبون بعد ذلك ليكون عليهم حسرة، وله شاهد رويناه عن الحسن البصري، وأما الرؤية في الجنة فأجمع أهل السنة أنها حاصلة للأنبياء، والرسل، والصديقين من كل أمة ورجال المؤمنين من البشر من هذه الأمة، واختلف بعد ذلك في صور:

إحداها النساء: من هذه الأمة وفيهن ثلاثة مذاهب للعلماء حكاها جماعة منهم الحافظ عماد الدين بن كثير في أواخر تاريخه: أحدهما أنهن لا يرين لأنهن مقصورات في الخيام ولأنه لم يرد في أحاديث الرؤية تصريح برؤيتهن. والثاني أنهن يرين أخذًا من عمومات النصوص الواردة في الرؤية. والثالث أنهن يرين في مثل أيام الأعياد فإنه تعالى يتجلى في مثل أيام الأعياد لأهل الجنة تجليًا عامًا فيرينه في مثل هذه الحال دون غيرها، قال ابن كثير: وهذا القول يحتاج إلى دليل خاص عليه، وقال الحافظ ابن رجب في اللطائف: كل يوم كان للمسلمين عيدًا

في الدنيا فإنه عيد لهم في الجنة يجتمعون فيه على زيارة ربهم ويتجلى لهم فيه ويوم الجمعة يدعى في الجنة يوم المزيد ويوم الفطر، والأضحى يجتمع أهل الجنة فيهما للزيارة، وروي أنه يشارك النساء الرجال فيهما كما كنّ يشهدن العيدين مع الرجال دون الجمعة هذا لعموم أهل الجنة فأما خواصهم فكل يوم لهم عيد يزورون ربهم كل يوم بكرة وعشيًا انتهى....

الثانية: الملائكة: فذهب الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى أنهم لا يرون ربهم لأنهم لم يثبت لهم ذلك كما ثبت للمؤمنين من البشر وقد قال تعالى: (لا تدركه الأبصار) خرج منه مؤمنو البشر بالأدلة الثابتة فبقي على عمومه في الملائكة، ولأن للبشر طاعات لم يثبت مثلها للملائكة كالجهاد، والصبر على البلايا، والمحن، والرزايا، وتحمل المشاق في العبادات لأجل الله، وقد ثبت أنهم يرون ربهم ويسلم عليهم ويبشرهم بإحلال رضوانه عليهم أبدًا ولم يثبت مثل هذا للملائكة انتهى؛ وقد نقله عنه جمع من المتأخرين ولم يتعقبوه بنكير، منهم الإمام بدر الدين الشبلي صاحب آكام المرجان في أحكام الجان، والعلامة عز الدين بن جماعة في شرح جمع الجوامع ولكن الأقوى أنهم يرونه فقد نص على ذلك أبو الحسن الأشعري فقال في كتابه الإبانة في أصول الديانة ومنه نقلت ما نصه: أفضل لذات الجنة رؤية الله تعالى ثم رؤية نبيه ﷺ فلذلك لم يحرم الله أنبياءه المرسلين، وملائكته المقربين، وجماعة المؤمنين، والصديقين النظر إلى وجهه ﷻ انتهى، وقد تابعه على ذلك الإمام الحافظ البيهقي قال في كتاب الرؤية باب ما جاء في رؤية الملائكة ربهم.... وممن قال برؤية الملائكة من المتأخرين العلامة شمس الدين بن القيم، وقاضي القضاة جلال الدين البلقيني وهو الأرجح بلا شك، ومنهم من قال إن جبريل عليه السلام يراه دون سائر الملائكة لأنه

وقف على الحديث الذي ورد فيه رؤيته ولم يقف على الحديثين السابقين في رؤية الملائكة على العموم ومشى عليه أبو إسحاق إسماعيل الصفار البخاري من الحنفية فإني رأيت في أسئلته المشهورة ما نصه سئل عن الملائكة هل يرون ربهم ؟ فأجاب اعتماد والدي الشهيد أنهم لا يرون ربهم سوى جبريل فإنه يرى ربه مرة واحدة ولا يرى أبدًا انتهى، والصواب العموم...

الثالثة: الجن وقد نقل صاحب آكام المرجان مقالة الشيخ عز الدين في الملائكة ثم قال: والجن أولى بالمنع منهم، وقال الجلال البلقيني لم أقف على كلام أحد من العلماء تعرض لهذه المسألة ولم تثبت الرؤية إلا للبشر، ثم نقل كلام الشيخ عز الدين في أن الملائكة لا يرون ثم قال: وإذا كان ذلك في الملائكة ففي الجن بطريق الأولى ثم قال: وقد يتوقف في الأولوية لأن الإيمان في عرف الشرع يشمل مؤمني الثقلين، ثم قرر ثبوت الرؤية للملائكة ثم قال: وعلى مقتضى استدلال الأئمة، والأشعري تثبت الرؤية لمؤمني الجن.

وقال ابن حجر الهيتمي كما في الفتاوى الحديثية (ص٥٢): وذهب بعض الحنفية أنهم لا يرون الله وإليه يميل كلام ابن عبد السلام لأنه صرح بمنع الرؤية للملائكة ووافقه جماعة من الحنفية، لكن الأرجح أن الملائكة يرونه كما نص عليه الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتابه الإبانة في أصول الديانة، وتابعه الإمام البيهقي وغيره كابن القيم والحداد والجلال البلقيني. قال الجلال: وكذلك الجن يرونه لعموم الأدلة، ومر في الأحاديث المتعلقة بالملائكة التصريح في حديث البيهقي وأبي الشيخ والخطيب وابن عساكر بأن الملائكة يرون ربهم، ولعل ابن عبد السلام لم يطلع عليه وإلا لم يخالفه.

الرابعة: مؤمنو الأمم السابقة: وفيهم احتمالان لابن أبي جمرة وقال: إن

الأظهر مساواتهم لهذه الأمة في الرؤية والله أعلم.اهـ. بتصرف.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ١٣٧): اختلف أهل السنة في رؤية الله ﷻ في الموقف: هل هي للمؤمنين وحدهم، أم للمؤمنين والمنافقين، - أم للناس جميعا، على ثلاثة أقوال.

وكل الأقوال في مذهب أهل السنة - يعني قال بها طائفة -.

وكما قال الإمام تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ الخلاف في هذه المسألة - يعني هل يرى الكفار ربهم يوم القيامة أو لا يرونه؟ هل يراه المنافقون أو لا يرونه؟ - لا ينبغي أن تكون من المسائل التي يُشَدَّدُ فيها الخلاف؛ بل الأمر فيها خَفِي، هذا نص عبارته. والمذاهب فيها كما ذكرت لكم ثلاثة:

- فجمهور أهل السنة والحديث على أنَّ الرؤية للمؤمنين في عرصات القيامة.

- وقال طائفة للمؤمنين والمنافقين، وممن ذهب إلى ذلك ابن خزيمة كما نصَّ عليه في كتاب التوحيد

- القول الثالث: أنَّ الرؤية للجميع، للمؤمنين والمنافقين والكفار.

واستدلوا على ذلك بأنَّ الكافر يُحجَبْ {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: ١٥]، قالوا: فكونه حُجِبَ يومئذ دلَّ على أنَّه قبل ذلك لم يكن محجوبًا؛ لأنَّ الكلام في الآخرة، وأما في الدنيا فالكل محجوب عن رؤية الرب ﷻ.

وهذه الأقوال جَمَعَتْ النظر في الرؤية.

ويبقى أنَّ رؤية الرب ﷻ نوعان:

١- النوع الأول: رؤية إكرام ولذة ونعيم وإنعام وحبور وسرور، فهذه

للمؤمنين في الجنة وللمؤمنين في عرصات القيامة، فهي من الطمأنينة لهم.

٢- والنوع الثاني رؤية حساب وتقرير وتعريف، فهذه هي التي يمكن أن يقال: إنها مرادة في حديث المنافقين فيما ثبت في الصحيح (أنَّ الله ﷻ يأتي الأمة وفيه منافقوها، ثم يأتيهم في غير الصورة التي رأوها من قبل، ثم يأمرهم بالسجود فلا يسجدون، فيقولون نحن هنا حتى يأتي ربنا، ثم بعد ذلك يكشف الرب عن ساق، فيعرفونه فيسجد المؤمنون، ويبقى من لم يكن مخلصا في الدنيا يريد أن يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا) فهذا يدل على أنّ هذه الرؤية رؤية تعريف ورؤية حساب وهذا النوع من الرؤية لا ينبغي أن يكون الخلاف فيه؛ لأنَّ الحديث دل عليه.

فإذًا الرؤية التي نقول: إنه أجمع أهل السنة على أنها للمؤمنين هي رؤية التنعم والتلذذ، وفي ضمن ذلك رؤية التعريف.

وأما رؤية الله ﷻ للتعريف والحساب فهذه كُلٌّ يراه بحسب حاله والله أعلم بكيفية ذلك وتفسيره.

أما الكفار فعامة أهل العلم إلا من شذَّ وقلَّ يقولون إنَّ الكافر لا يرى الله ﷻ لا رؤية تعريف ولا رؤية تلذذ من باب أولى؛ لأنَّ الكافر محل العذاب والنكال، وأجابوا عن استدلالهم بقوله تعالى {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: ١٥]، بأَّن هذا استدلال بالمفهوم، بمفهوم (يَوْمَئِذٍ)، (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) وهم محجوبون في الدنيا عن الرؤية وكذلك محجوبون في الآخرة عن الرؤية.

وكلمة (يَوْمَئِذٍ)، ليس لها مفهوم كما قال ﷻ {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: ١٧]، وكما في قوله {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}

[التكاثر: ٨]، وفي آيات كثيرة عُلِّقَتْ أشياء تحصل يوم القيامة بـ (يَوْمَئِذٍ)، وقد يكون جنسها أو بعض أفرادها يحصل في الدنيا إما بالعموم أو بالخصوص.

المقصود من رد الاستدلال أنه كلمة (يَوْمَئِذٍ) ليس لها مفهوم، لا نفهم منه أنهم حُجِبُوا يومئذ فمعنى ذلك أنهم قبل ذلك يعني قبل الحجب يومئذ لم يكونوا محجوبين، بل كانوا محجوبين ثم صاروا محجوبين لكن توعَّدَهُم بين حالهم بقوله (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الجَحِيم)، فحُجِبوا ثم صاروا صالين للجحيم.

مسألة: قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ١٤٥): أنَّ رؤية المؤمنين في الجنة لربهم ﷻ عامة بالإنس والجن، للرجال وللنساء، وللملائكة أيضًا، {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٣ - ٢٤]، فالملائكة في الجنة يعني طائفة منهم في الجنة، وفي الجنة المؤمنون من الجن والإنس ومن الرجال والنساء، ولم يدلَّ دليل على اختصاص الرؤية بالرجال دون النساء ولا على اختصاص الرؤية بالإنس دون الجن، وهذه فيها أقوال:

١- القول الأول: من قال: إنَّ الرؤية للإنس دون الجن، وهذا خلاف الصواب كما ذكرنا؛ لأنَّ الآيات عامة في الرؤية في كل مؤمن فمن دخل الجنة رآه.

٢- القول الثاني: إنَّ الرؤية للرجال دون النساء، واستدلوا على ذلك بقوله ﷻ {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} [الرحمن: ٧٢] وأنَّ القصر في الخيام يدل على عدم خروجهن من ذلك.

والصواب أنَّ الرجال والنساء من المكلفين من الجن والإنس يرون ربهم

ﷻ إذ كانوا من أهل الجنة. وأمَّا الاستدلال بالآية فعجيب لأنَّ:

أولًا: الآية أولًا في الحور، والحور خلق ينشؤهن الله ﷻ إنشاءً في الجنة وليسوا من المكلفين في الدنيا.

ثانيًا: أنَّ الله ﷻ قال {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ} [يس: ٥٦] وقال ﷻ في الآية الأخرى {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ}، فمن نعيم أهل الجنة أنهم يتمتعون هم وأزواجهم على الأرائك فيتكئون وينظرون، وإخراج النساء من الاتكاء ضده الآية وكذلك إخراجهم من النظر ضده الآية.

لهذا نقول غلط من قال إنَّ الرؤية للرجال دون النساء، فالنساء يرون ربهم ﷻ كما يراه الرجال؛ لأنهم مكلفون متعبدون، والنعيم عام للإنسان الذي يدخل الجنة من الرجال والنساء جميعًا، نسأل الله الكريم من فضله.

مسألة: رؤية الله في المنام

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وآخرون أنه يمكن أنه يرى الإنسان ربه في المنام، ولكن يكون ما رآه ليس هو الحقيقة؛ لأن الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى، قال تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) الشورى / ١١ فليس يشبهه شيء من مخلوقاته، لكن قد يرى في النوم أنه يكلمه ربه، ومهما رأى من الصور فليست هي الله جل وعلا؛ لأن الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى، فلا شبيه له ولا كفو له.

وذكر الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا أن الأحوال تختلف بحسب حال العبد الرائي، وكل ما كان الرائي من أصلح الناس وأقربهم إلى الخير كانت رؤيته أقرب إلى الصواب والصحة، لكن على غير الكيفية التي يراها، أو الصفة التي يراها؛ لأن الأصل الأصيل أن الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى، وقد روي عن

النبي ﷺ أنه رأى ربه في المنام من حديث معاذ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه رأى ربه، وجاء في عدة طرق أنه رأى ربه، وأنه سبحانه وتعالى وضع يده بين كتفيه حتى وجد بردها بين ثدييه، وقد ألف في ذلك الحافظ ابن رجب رسالة سماها: "اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى" وهذا يدل على أن الأنبياء قد يرون ربهم في النوم، فأما رؤية الرب في الدنيا بالعيان فلا.

قال سعيد بن عثمان الدارمي في نقضه على المريسي (ص٧٣٨ - ٧٣٩) وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، وفي المنام يمكن رؤية الله تعالى على كل حال وفي كل صورة.اهـ.

وقال البغوي في شرح السنة (١٢/ ٢٢٧ - ٢٢٨): رؤية الله في المنام جائزة، قال معاذ عن النبي ﷺ: " إني نعست فرأيت ربي.اهـ.

وقال أبو يعلى الفراء في إبطال التأويلات (١/ ١٢٧): في الحديث جواز رؤيته سبحانه في المنام، وذا غير ممتنع في حقه ﷺ أو في حق غيره من المؤمنين.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٢٥ - ٣٢٨): لفظ الرؤية وإن كان في الأصل مطابقًا فقد لا يكون مطابقًا كما في قوله: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} وقال: {يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَايَ الْعَيْنِ} وقد يكون التوهم والتخيل مطابقا من وجه دون وجه فهو حق في مرتبته وإن لم يكن مماثلا للحقيقة الخارجة مثل ما يراه الناس في منامهم وقد يرى في اليقظة من جنس ما يراه في منامه فإنه يرى صورًا وأفعالًا ويسمع أقوالا وتلك أمثال مضروبة لحقائق خارجية كما رأى يوسف سجود الكواكب والشمس والقمر له فلا ريب أن هذا تمثله وتصوره في نفسه وكانت حقيقته سجود أبويه وأخوته كما قال: {يَا أَبَتِ

هَذَا تَأوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ وكذلك رؤيا الملك التي عبرها يوسف حيث رأى السنبل بل والبقر فتلك رآها متخيلة متمثلة في نفسه وكانت حقيقتها وتأويلها من الخصب والجدب فهذا التمثل والتخيل حق وصدق في مرتبته بمعنى أن له تأويلًا صحيحًا يكون مناسبًا له ومشابهًا له من بعض الوجوه فإن تأويل الرؤيا مبناها على القياس والاعتبار والمشابهة والمناسبة ولكن من اعتقد أن ما تمثل في نفسه وتخيل من الرؤيا هو مماثل لنفس الموجود في الخارج وأن تلك الأمور هي بعينها رآها فهو مبطل، مثل من يعتقد أن نفس الشمس التي في السماء والقمر والكواكب انفصلت عن أماكنها وسجدت ليوسف وأن بقرًا موجودة في الخارج سبعًا سمانًا أكلت سبعًا عجافًا فهذا باطل، وإذا كان كذلك فالإنسان قد يرى ربه في المنام ويخاطبه فهذا حق في الرؤيا ولا يجوز أن يعتقد أن الله في نفسه مثل ما رأى في المنام فإن سائر ما يرى في المنام لا يجب أن يكون مماثلا ولكن لا بد أن تكون الصورة التي رآه فيها مناسبة ومشابهة لاعتقاده في ربه فإن كان إيمانه واعتقاده مطابقا أتي من الصور وسمع من الكلام ما يناسب ذلك وإلا كان بالعكس قال بعض المشايخ: إذا رأى العبد ربه في صورة كانت تلك الصورة حجابا بينه وبين الله وما زال الصالحون وغيرهم يرون ربهم في المنام ويخاطبهم وما أظن عاقلا ينكر ذلك فإن وجود هذا مما لا يمكن دفعه إذ الرؤيا تقع للإنسان بغير اختياره وهذه مسألة معروفة وقد ذكرها العلماء من أصحابنا وغيرهم في أصول الدين وحكوا عن طائفة من المعتزلة وغيرهم إنكار رؤية الله والنقل بذلك متواتر عمن رأى ربه في المنام ولكن لعلهم قالوا لا يجوز أن يعتقد أنه رأى ربه في المنام فيكونون قد جعلوا مثل هذا من أضغاث الأحلام ويكونون من فرط سلبهم ونفيهم نفوا أن تكون

رؤية الله في المنام رؤية صحيحة كسائر ما يرى في المنام فهذا مما يقوله المتجهمة وهو باطل مخالف لما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها بل ولما اتفق عليه عامة عقلاء بني آدم وليس في رؤية الله في المنام نقص ولا عيب يتعلق به سبحانه وتعالى وإنما ذلك بحسب حال الرائي وصحة إيمانه وفساده واستقامة حاله وانحرافه.

وقول من يقول ما خطر بالبال أو دار في الخيال فالله بخلافه ونحو ذلك إذا حمل على مثل هذا كان محملًا صحيحًا فلا نعتقد أن ما تخيله الإنسان في منامه أو يقظته من الصور أن الله في نفسه مثل ذلك فإنه ليس هو في نفسه مثل ذلك بل نفس الجن والملائكة لا يتصورها الإنسان ويتخيلها على حقيقتها بل هي على خلاف ما يتخيله ويتصوره في منامه ويقظته وإن كان ما رآه مناسبا مشابها لها فالله تعالى أجل وأعظم. انتهى كلامه.

وقد أنكر أحمد على من نفى أحاديث رؤية الله في الدنيا مطلقًا؛ لأن من الجهمية طوائف يقولون: (إن الله لا يجوز أن يرى بالأبصار ولا بالقلوب أصلا، وطوائف يقولون: إنه لا يجوز أن يرى في المنام أيضًا، وهؤلاء يجحدون كل ما فيه إثبات أن محمدًا رأى ربه سواء كان بفؤاده أو في منامه أو غير ذلك، وهؤلاء جهمية ضلال باتفاق أهل السنة، ولهذا كان أحمد ينكر على هؤلاء لردهم ما في ذلك من الأخبار التي تلقاها العلماء بالقبول، وإذا كانوا يمنعون أن محمدًا رأى ربه بفؤاده أو في منامه فهم لرؤية غيره أجحد وأجحد، وقد ذكر العلماء من أصحابنا وغيرهم ذلك عن طوائف من الجهمية حتى إن المعتزلة من يقول يجوز أن يرى بالقلوب بمعنى العلم ومنهم من ينكر ذلك كما نقل ذلك الأشعري في المقالات فقال: اجتمعت المعتزلة على أن الله لا يرى بالأبصار،

واختلفت هل يرى بالقلوب فقال أبو الهذيل وأكثر المعتزلة نرى الله بقلوبنا بمعنى أنا نعلمه بقلوبنا، وأنكر هشام الفوطي وعباد بن سليمان ذلك.

وقد سئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه عن: ما حكم من يدعي أنه قد رأى رب العزة في المنام؟ وهل كما يزعم البعض أن الإمام أحمد بن حنبل قد رأى رب العزة والجلال في المنام أكثر من مائة مرة؟

فأجاب: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وآخرون أنه يمكن أنه يرى الإنسان ربه في المنام، ولكن يكون ما رآه ليس هو الحقيقة؛ لأن الله لا يشبهه شيء سبحانه وتعالى .....اهـ.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٧/ ٧٦٩): هل يمكن لأحد أن يرى ربه في المنام كما حصل ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهل يُسْتَانَسُ بما أودعه ابن القيم في مدارج السالكين في هذا الباب؟

فأجاب: قضية الإمكان أخي ما دام الرؤيا هي ليست حقيقية إنما هي مثالية، فمن رأى الله في منامه ما رآه كما سيراه المؤمنون يوم القيامة وإن شاء الله نحن منهم، من رآه في المنام فلن يرى ذات الله على حقيقتها، ولذلك فالعقل واسع جدًا، ممكن إنسان أن يرى الله لا سيما وقد نُقِلَ هذا عن الإمام أحمد وغيره، لكن هل رآه حقيقةً، نحن نستطيع أن نقول: إن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حينما رأى ربه في المنام في القصة المعروفة عنه ما رآه على حقيقته، وهو يقول: «إن أحدكم لن يرى ربه حتى يموت»، ولذلك فالمسألة فيها سعة، ولا يترتب من ورائها شيء.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين في لقاءات الباب المفتوح (٣٠/ ١٧): بالنسبة لرؤية

الله ﷻ في المنام، هل يصح القول بأن الرؤية يمكن أن تقع لأي مؤمن من المؤمنين؟

فأجاب: رؤية الله تعالى في المنام في الدنيا -أما في الآخرة فليس هناك نوم- هذه جاءت في حديث اختصام الملأ الأعلى الذي أخرجه أهل السنن (أن النبي ﷺ رأى ربه في المنام) ورؤية الله لغير النبي ﷺ لا أعلم أنها ثابتة ولا أدري هل تقع أم لا؟ لكنه قد ذكر أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأى ربه في المنام، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإنسان قد يرى ربه في المنام، وذلك بأن الله سبحانه وتعالى يضرب له مثلًا بحسب تمسكه بالدين، يراه رؤية حسنة يكون في ذلك مساعدة له على التمسك بالدين والاستمرار على ما هو عليه، فالله أعلم. أنا أتوقف في أن الإنسان يرى ربه في المنام رؤيةً حقيقة، أما إذا كان الله تعالى يضرب له مثلًا يبين له تمسكه بدينه فهذا شيءٌ ليس بغريب.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في لقاءات الباب المفتوح أيضا: أما في المنام فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رأى ربه في المنام، لكن هل لغيره أن يراه؟ يُذكر أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأى ربه، وذكر بعض العلماء أن ذلك ممكن، فالله أعلم. لا أدري. وأخشى إن فتح الباب تدخل علينا شيوخ الصوفية وغيرهم ويقول: البارحة رأيت ربي، وجلست أنا وإياه، وتنادمنا وتناقشنا، ثم يجيء من أهل الخزعبلات التي لا أصل لها، فأرى أن سد هذا الباب هو الأولى.اهـ.

وسئل العلامة الوادعي كما في تحفة المجيب (ص٨٦): هل يرى المؤمن ربه في المنام مع الدليل، وهل ثبت عن بعض السلف أنّهم رأوا ربّهم في المنام أم لا؟

فأجاب: ليس هناك ما يمنع، وقد جاء في حديث معاذ وحديث عبد الرحمن

ابن عائش وابن عباس، وبعضهم يقول: إنّها ترتقي إلى الحجية، جاء فيها أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رأى ربه. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "تفسيره" عند تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: {ما كان لي من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون} لأنه ذكر الحديث عنده، قال: هذه رؤيا منامية. فلا أعلم مانعًا من هذا، أي: أنّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رأى ربه في المنام، وهكذا نقل عن الإمام أحمد وعن غيره من علماء السلف أنّهم يرون الله في المنام. لكن لو رأى الإنسان ربه وأتى بشيء يخالف التشريع الإسلامي الموجود، فلا يقبل لأن الذي رآه يحتمل أن يكون رآه حقيقةً، وأن تكون وساوس نفس، كما جاء أن الرؤيا تنقسم إلى ثلاثة أقسام: رؤيا من الله، وحلم من الشيطان، وحديث نفس. وزيادة على هذا أن النائم ليس بوعيه حتى يقبل ما رآه في منامه.اهـ.

(تنبيه) أكثر الحنفية ينكرون رؤية الله في المنام بل يحكم بعضهم بردة من يزعمها، وهو مذهب ضعيف متعقب بما تقدم.

مسألة: ادعاء رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته

لقد تجرأ بعض الصوفية في ادعاء خروج النبي ﷺ من قبره ورؤية مشايخ القوم له يقظة لا منامًا في الحياة الدنيا والتلقي منه، على اختلاف بينهم في كيفية هذه الرؤية كما سيأتي إن شاء الله بيانه ضمن هذا المبحث، فممن قال بذلك منهم:

ابن حجر الهيتمي في «الفتاوى الحديثية» (ص٢١٧) والسيوطي في «تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي ﷺ والملك» ضمن «الحاوي للفتاوي» (٢/ ٢٥٥)، وأبو المواهب الشاذلي كما في «الطبقات الكبرى» للشعراني (٢/ ٦٩)، والشعراني كما في «الطبقات الصغرى» (ص٨٩)، وأحمد التيجاني

وخلفاؤه كما في «رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم» (١/ ٢١٠)، ومن المتأخرين: خوجلي بن عبد الرحمن بن إبراهيم كما في «طبقات ابن ضيف الله» (ص١٩٠)، ومحمد بن علوي المالكي في «الذخائر المحمدية» (ص٢٥٩)، ومحمد فؤاد الفرشوطي في «القرب والتهاني في حضرة التداني شرح الصلوات المحمدية للسادة الصوفية» (ص٢٥)؛ وعلي الجفري الملقب بـ (زين العابدين) !! فقد تحدث عن هذه المسألة في عدة مجالس مسجلة بصوته، وممن يقول بها كذلك مفتي مصر الحالي علي جمعة؛ بل قد زعم - علي جمعة - بأنه رأى النبي ﷺ يقظة!! وقوله هذا مسجل بصوته والله المستعان.

ونورد الآن بعض الحكايات التي يذكرونها إما في معرض الاحتجاج أو الاستشهاد أو الكرامات:

قال الشعراني في«الطبقات الكبرى» (٢/ ٦٩): (قال أبو المواهب الشاذلي: رأيت رسول الله (فقال لي عن نفسه: لست بميت وإنما موتي تستري عمن لا يفقه عن الله؛ فها أنا أراه ويراني).

وقال أيضًا في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٦٧): (كان أبو المواهب كثير الرؤيا لرسول الله (، وكان يقول: قلت لرسول الله (إن الناس يكذبوني في صحة رؤيتي لك، فقال رسول الله (: وعزة الله وعظمته من لم يؤمن بها أو كذبك فيها لا يموت إلا يهوديًا أو نصرانيًا أو مجوسيًا. وهذا منقول من خط الشيخ أبي المواهب).

وقال أيضًا في المرجع السابق (٢/ ٧٠): (رأيت رسول الله ﷺ فسألته عن الحديث المشهور: «اذكروا الله حتى يقولوا مجنون». في «صحيح ابن حبان»: «أكثروا من ذكر الله حتى يقولوا مجنون» فقال ﷺ: صدق ابن حبان في روايته

وصدق راوي اذكروا الله، فإني قلتهما معًا، مرة قلت هذا ومرة قلت هذا).

ويزعم بعض تلامذة خوجلي بن عبد الرحمن: (أن شيخهم يرى النبي ﷺ كل يوم أربعة وعشرين مرة والرؤيا يقظة).]«طبقات ابن ضيف الله» (ص١٩٠).

ويقول الشعراني: (وكان يقول- يعني أبا العباس المُرسي- لي أربعون سنة ما حُجبت عن رسول الله ﷺ، ولو حُجبت طرفة عين ما أعددت نفسي من جملة المسلمين).

هذا هو حال طائفة من الغلاة الذين عبدوا الله على جهل وغرور فتلاعب بهم الشيطان أيما تلاعب.

وطائفة أخرى لها حظ من العلم في بعضه دخن، يستعمل ما آتاه الله من علم في نصرة الباطل وأهله من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

لما سُئل ابن حجر الهيتمي: (هل يمكن الاجتماع بالنبي ﷺ يقظة والتلقي منه؟ فأجاب: نعم يمكن ذلك وصرح بأن ذلك من كرامات الأولياء الغزالي والبارزي والتاج السبكي والعفيف اليافعي من الشافعية، والقرطبي وابن أبي جمرة من المالكية. وحُكي عن بعض الأولياء أنه حضر مجلس فقيه فروى ذلك الفقيه حديثًا فقال له الولي: هذا الحديث باطل، قال: ومن أين لك هذا؟ قال هذا النبي ﷺ واقف على رأسك يقول: إني لم أقل هذا الحديث وكُشف للفقيه فرآه)] «الفتاوى الحديثية» (ص٢١٧).

وأعجب من تلك الحكاية زيارة النبي ﷺ للسيوطي في بيته يقظة لا منامًا وقراءة السيوطي للأحاديث بين يدي النبي ﷺ وهو يسمع.

قال الشعراني في «الطبقات الصغرى» (ص٢٨-٢٩): (أخبرني الشيخ سليمان الخضيري قال: بينا أنا جالس في الخضيرية على باب الإمام الشافعي

(إذ رأيت جماعة عليهم بياض وعلى رؤوسهم غمامة من نور، يقصدوني من ناحية الجبل. فلما قربوا مني فإذا هو النبي ﷺ وأصحابه، فقبلت يده، فقال النبي ﷺ: امض معنا إلى الروضة. فذهبت مع النبي ﷺ إلى بيت الشيخ جلال الدين، فخرج إلى النبي ﷺ وقبل يده وسلم على أصحابه، ثم أدخله الدار، وجلس بين يديه. فصار الشيخ جلال الدين يسأل النبي ﷺ عن بعض الأحاديث وهو ﷺ يقول: هات يا شيخ السنة).

وقال الشعراني أيضًا في المرجع السابق (ص٣٠): (وكان - يعني السيوطي- يقول رأيت النبي ﷺ يقظة فقال لي يا شيخ الحديث. فقلت: يا رسول الله أمن أهل الجنة أنا؟ فقال: نعم. فقلت: من غير عذاب يسبق؟ فقال النبي ﷺ: لك ذلك).

ألا يعلم الهيتمي وهو على معرفة بعلوم الحديث، بل وله فتاوى حديثية في ذلك والسيوطي - والعهدة على الشعراني- وله ألفية في علوم الحديث وله عليها شرح كبير أن تلك الحكايات والادعاءات لا يجوز الاحتجاج ولا الاستشهاد بها في شيء من أمور الدين. بل هي باطلة ومن أبين الأدلة على بطلانها سؤال الولي والسيوطي للنبي ﷺ يقظة لا منامًا . فلو كان مثل هذا السؤال ممكنًا لما أفنى علماء الحديث أعمارهم في التمييز بين الصحيح والضعيف، ولكان تأليف الدواوين الضخمة في أحوال الرجال نوعًا من العبث وتضييعًا للأوقات، ولاستغنوا عن ذلك بسؤاله ﷺ مباشرة عن صحة الأحاديث وضعفها كما فعل السيوطي شيخ السنة !!

بل ما كان للهيتمي وصنوه السبكي ومن نحا نحوهم أن يتكلفوا التأليف في مسائل الزيارة والاستغاثة بالنبي ﷺ ويسودوا صفحات كتبهم بالأحاديث

الضعيفة والمنكرة، وكان الأولى لهم أن يسألوا النبي ﷺ عن المسائل التي نازعهم فيهم خصومهم كما فعل السيوطي شيخ السنة !!! أم أنه لا يوجد أولياء لله في ذلك الوقت؟! إنهم يعرفون ولكنهم قوم يُحرَّفون.

وفيما يلي أنقل ردودًا لبعض أهل العلم على هذه الدعوى الفجة الباطلة.

قال الشيخ محمد أحمد لوح في كتابه «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي» (٢/ ٤٧-٤٩) باختصار: من الأدلة على عدم إمكانية رؤية النبي ﷺ يقظة أن أمورًا عظيمة وقعت لأصحاب رسول الله ﷺ وهم أفضل الأمة بعد نبيها كانوا في حاجة ماسة إلى وجوده بين أظهرهم ولم يظهر لهم، نذكر منها:

- انه وقع خلاف بين الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ بسبب الخلافة، فكيف لم يظهر لأصحابه ويفصل النزاع بينهم.

- اختلاف أبي بكر الصديق مع فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على ميراث أبيها فاحتجت فاطمة عليه بأنه إذا مات هو إنما يرثه أبناؤه فلماذا يمنعها من ميراث أبيها؟ فأجابها أبو بكر بأن النبي ﷺ قال: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركنا صدقة" رواه البخاري وغيره.

- الخلاف الشديد الذي وقع بين طلحة والزبير وعائشة من جهة وعلي بن أبي طالب وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين من جهة أخرى، والذي أدى إلى وقوع معركة الجمل، فقتل فيها خلق كثير من الصحابة والتابعين، فلماذا لم يظهر لهم النبي ﷺ حتى يحقن هذه الدماء؟

- الخلاف الذي وقع بين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع الخوارج، وقد سفكت فيه دماء كثيرة، ولو ظهر لرئيس الخوارج وأمره بطاعة إمامه لحقن تلك الدماء.

- النزاع الذي وقع بين علي ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا والذي أدى إلى وقوع حرب صفين حيث قتل خلق كثير جدًا منهم عمار بن ياسر. فلماذا لم يظهر النبي ﷺ حتى تجتمع كلمة المسلمين وتحقن دمائهم.

- أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على جلالة قدره وعظمة شأنه كان يُظهر الحزن على عدم معرفته ببعض المسائل الفقهية فيقول: (ثلاث وددت أن رسول الله (لم يفارقنا حتى يعهد إلينا فيهن عهدًا ننتهي إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا) متفق عليه. فلو كان يظهر لأحد بعد موته لظهر لعمر الفاروق وقال له: لا تحزن حكمها كذا وكذا اهـ

وإليك أخي القارئ الكريم أقوال بعض أهل العلم في هذه المسالة؛ وأغلب هذه النقول من كتاب «القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل» للشيخ إسماعيل الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

١- قال القاضي أبو بكر بن العربي نقلًا من «فتح الباري» للحافظ ابن حجر العسقلاني (١٢/ ٣٨٤): (شذ بعض الصالحين فزعم أنها - أي رؤية النبي ﷺ بعد موته - تقع بعيني الرأس حقيقة).

٢- أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي في «المفهم لشرح صحيح مسلم» ذكر هذا القول وتعقبه بقوله: (وهذا يدرك فساده بأوائل العقول ويلزم عليه أن لا يراه أحد إلا على صورته التي مات عليها وأن يراه رائيان في آن واحد في مكانين وأن يحيا الآن ويخرج من قبره ويمشي في الأسواق ويخاطب الناس ويخاطبوه ويلزم من ذلك أن يخلو قبره من جسده ولا يبقى من قبره فيه شيء فيزار مجرد القبر ويسلم على غائب لأنه جائز أن يرى في الليل والنهار مع اتصال الأوقات على حقيقته في غير قبره.

وهذه جهالات لا يلتزم بها من له أدنى مسكة من عقل) وإلى كلام القرطبي هذا أشار الحافظ ابن حجر في «الفتح» بذكره اشتداد إنكار القرطبي على من قال: (من رآه في المنام فقد رأى حقيقته ثم يراها كذلك في اليقظة).

٣- قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته «العبادات الشرعية والفرق بينها وبين البدعية»: (منهم من يظن أن النبي ﷺ خرج من الحجرة وكلمه وجعلوا هذا من كراماته ومنهم من يعتقد أنه إذا سأل المقبور أجابه.

وبعضهم كان يحكي أن ابن منده كان إذا أشكل عليه حديث جاء إلى الحجرة النبوية ودخل فسأل النبي ﷺ عن ذلك فأجابه، وآخر من أهل المغرب حصل له مثل ذلك وجعل ذلك من كراماته حتى قال ابن عبد البر لمن ظن ذلك: ويحك أترى هذا أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين و الأنصار فهل في هؤلاء من سأل النبي ﷺ بعد الموت وأجابه وقد تنازع الصحابة في أشياء فهلا سألوا النبي ﷺ فأجابهم، وهذه ابنته فاطمة تنازع في ميراثها فهلا سألته فأجابها؟).

وحكاية ابن منده التي أشار إليها ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الكلام ذكرها الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٣٧-٣٨) في ترجمة أبى عبد الله محمد بن أبى يعقوب إسحاق بن الحافظ أبى عبد الله محمد بن يحي بن منده وقال الذهبي فيها: (هذه حكاية نكتبها للتعجب)، وقال في إسنادها: (إسنادها منقطع) اهـ.

٤- قال الحافظ الذهبي في ترجمة الربيع بن محمود المارديني في «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»: (دجال مفتر ادعى الصحبة والتعمير في سنة تسع وتسعين وخمسمائة وكان قد سمع من ابن عساكر عام بضع وستين).

يعني الحافظ الذهبي بالصحبة التي ادعاها الربيع ما جاء عنه أنه رأى النبي ﷺ في النوم وهو بالمدينة الشريفة فقال له: أفلحت دنيا وأخرى، فادعى بعد أن استيقظ أنه سمعه وهو يقول ذلك.

ذكر ذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني في «الإصابة في تمييز الصحابة» (١/ ٥١٣).

٥- الحافظ ابن كثير ذكر في ترجمة أحمد بن محمد بن محمد أبى الفتح الطوسي الغزالي في «البداية والنهاية» (١٢/ ١٩٦) أن ابن الجوزي أورد أشياء منكرة من كلامه منها أنه - أي أبا الفتح الطوسي - كان كلما أشكل عليه شيء رأى رسول الله (في اليقظة فسأله عن ذلك فدله على الصواب، وأقر ابن كثير ابن الجوزي على عد هذا من منكرات أبى الفتح الطوسي، وابن الجوزي ذكر هذا في كتابه «القصاص والمذكرين» (ص١٥٦).

٦- ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» (١٢/ ٣٨٥) أن ابن أبى جمرة نقل عن جماعة من المتصوفة أنهم رأوا النبي ﷺ في المنام ثم رأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متخوفين فأرشدهم إلى طريق تفريجها فجاء الأمر كذلك ثم تعقب الحافظ ذلك بقوله: (وهذا مشكل جدًا ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة ولأمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة ويعكر عليه أن جمعًا جمًا رأوه في المنام ثم لم يذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة وخبر الصادق لا يتخلف).

٧- قال السخاوي في رؤية النبي ﷺ في اليقظة بعد موته: (لم يصل إلينا ذلك - أي ادعاء وقوعها - عن أحد من الصحابة ولا عمن بعدهم وقد اشتد حزن فاطمة عليه ﷺ حتى ماتت كمدًا بعده بستة أشهر على الصحيح وبيتها مجاور

لضريحه الشريف ولم تنقل عنها رؤيته في المدة التي تأخرتها عنه) نقل ذلك القسطلاني في «المواهب اللدنية» (٥/ ٢٩٥) عن السخاوي.

٨- قال ملا علي قاري في «جمع الوسائل شرح الشمائل للترمذي» (٢/ ٢٣٨): (إنه أي ما دعاه المتصوفة من رؤية النبي ﷺ في اليقظة بعد موته لو كان له حقيقة لكان يجب العمل بما سمعوه منه ﷺ من أمر ونهي وإثبات ونفي ومن المعلوم أنه لا يجوز ذلك إجماعًا كما لا يجوز بما يقع حال المنام ولو كان الرائي من أكابر الأنام وقد صرح المازري وغيره بأن من رآه يأمر بقتل من يحرم قتله كان هذا من الصفات المتخيلة لا المرئية) انتهى كلام الملا علي قاري وفيه فائدة أخرى هي حكايته الإجماع على عدم جواز العمل بما يدعى من يزعم أنه رأى النبي ﷺ في اليقظة أنه سمع منه أمر أو نهي أو إثبات أو نفي، وفي حكايته الإجماع على ذلك الرد على قول الزرقاني في «شرح المواهب اللدنية» (٧/ ٢٩) ما نصه: (لو رآه يقظة - أي بعد موته ﷺ - وأمره بشيء وجب عليه العمل به لنفسه ولا يعد صحابيًا وينبغي أن يجب على من صدقه العمل به قاله شيخنا).

٩- قال محمد بن إسماعيل الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه « الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطاف » بعد ذكره لبعض أقوال الصوفية المخالفة للشريعة: (فإن لم يكن هذا القول من أقوال أهل الجنون وإلا فلا جنون في الأكوان، وأعجب من هذا قول السيوطي: (أن من كرامة الولي أن يرى النبي ﷺ ويجتمع به في اليقظة ويأخذ عنه ما قسم من مذاهب ومعارف). قال: (وممن نص على ذلك من أئمة الشافعية الغزالي والسبكي واليافعي، ومن المالكية القرطبي وابن أبي حمزة وابن الحاج في «المدخل»). قال: (وحكي عن بعض الأولياء أنه حضر مجلس فقيه فروى ذلك الفقيه حديثًا، فقال له الولي:

هذا الحديث باطل. فقال له الفقيه: من أين لك هذا؟ قال: هذا النبي واقفٌ على رأسك يقول: إني لم أقل هذا الحديث. وكُشف للفقيه فرآه. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: لو حجب عني النبي ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين).

وهذا استدل به السيوطي على أن عيسى بن مريم إذا نزل من السماء آخر الزمان فإنه يأخذ علم شريعة النبي محمد عنه ﷺ وهو في قبره .

وأما الخضر فقالوا: أخذ عن أبي حنيفة خمسة عشر سنة بعد موته، وفيه دلالة على بلادة الخضر عندهم وقلة فهمه حيث بقي هذه المدة يأخذ العلم.

والحاصل: أن هذا كلام لا تجري به أقلام من لهم عقول فضلًا عمن يعرف آثاره من علم معقول أو منقول، وقد ثبت أن أبا بكر الصديق وعمر الفاروق كانا يتمنيان لو سألا رسول الله ﷺ عن مسائل من علم الدين، وهذا أبو بكر يقول للجدة لما جاءت تطلب ميراثها من ابن ابنها أو ابن بنتها. ما أجد لك في الكتاب شيئًا ولا سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا وسأسأل الناس العشية، فلما صلى الظهر أقبل على الناس فقال: أن الجدة أتتني تسألني ميراثها. إلى أن قال: فهل سمع أحدٌ منكم من رسول الله ﷺ شيئًا؟ فقام المغيرة بن شعبة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقضى لها بالسدس فقال: هل سمع ذلك معك أحد فقام محمد بن سلمة فقال: كقول المغيرة.

ومثله قصة عمر في الاستئذان ورجوعه إلى أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عدة وقائع، وكم من مسائل اجتهد فيها الصحابة وهم في الحجرة النبوية وفي المدينة الطيبة. فكيف ساغ لهم الاجتهاد مع إمكان وجود النص وأخذه عن لسان المصطفى ﷺ، وكم وكم من قضايا حار فيها الصحابة فرجعوا إلى الرأي

وبعضهم كان لا يعلم الحديث في القضية التي حار فيها حتى يرويها له بعض الصحابة، ولا حاجة إلى التطويل لذلك. فيا عجباه لعقول تقبل هذا الهذيان، ومن قوم يعدون أنفسهم من العلماء الأعيان... الخ).

١٠- قال الشيخ عبد الحي بن محمد اللكنوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» (ص٤٦): (ومنها - أي من القصص المختلقة الموضوعة - ما يذكرونه من أن النبي ﷺ يحضر بنفسه في مجالس وعظ مولده عند ذكر مولده وبنوا عليه القيام عند ذكر المولد تعظيمًا وإكرامًا.

وهذا أيضا من الأباطيل لم يثبت ذلك بدليل، ومجرد الاحتمال والإمكان خارج عن حد البيان).

١١- قال العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «حكم الاحتفال بالمولد النبوي»: (بعضهم يظن أن رسول الله ﷺ يحضر المولد؛ ولهذا يقومون له محيين ومرحبين، وهذا من أعظم الباطل وأقبح الجهل، فإن الرسول ﷺ لا يخرج من قبره قبل يوم القيامة، ولا يتصل بأحد من الناس، ولا يحضر اجتماعاتهم، بل هو مقيم في قبره إلى يوم القيامة، وروحه في أعلى عليين عند ربه في دار الكرامة، كما قال الله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون: ١٥- ١٦]، وقال النبي ﷺ: «أنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر. وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر» عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

فهذه الآية الكريمة والحديث الشريف وما جاء في معناهما من الآيات والأحاديث، كلها تدل على أن النبي ﷺ وغيره من الأموات إنما يخرجون من قبورهم يوم القيامة ... الخ).

١٢- وقال علماء اللجنة الدائمة (٢ / ٣٢٥، ٣٢٦) في رد عقيدة التيجاني: ولم يثبت عن الخلفاء الراشدين ولا سائر الصحابة رضي الله عنهم أن أحدا منهم وهم خير الخلق بعد الأنبياء ادعى أنه رأى النبي ﷺ يقظة، ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن التشريع قد أكمل في حياته ﷺ، وأن الله قد أكمل للأمة دينها وأتم عليها نعمته قبل أن يتوفى رسوله ﷺ إليه، قال تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) المائدة/ ٣، فلا شك أن ما زعمه أحمد التيجاني لنفسه من رؤية النبي ﷺ يقظة وأنه أخذ عنه الطريقة التيجانية يقظة مشافهة، وأنه عين له الأوراد التي يذكر الله بها ويصلي على رسوله بها لاشك أن هذا من البهتان والضلال المبين.اهـ.

وقالوا أيضا: (١ / ٤٨٦، ٤٨٧): فتوفي رسول الله ﷺ بعدما بلغ الرسالة وأكمل الله به دينه وأقام به الحجة على خلقه، وصلى عليه أصحابه رضي الله عنهم صلاة الجنازة، ودفنوه حيث مات في حجرة عائشة رضي الله عنها، وقام من بعده الخلفاء الراشدون، وقد جرى في أيامهم أحداث ووقائع فعالجوا ذلك باجتهادهم، ولم يرجعوا في شيء منها إلى رسول الله ﷺ، فمن زعم بعد ذلك أنه رآه في اليقظة حيا وكلمه أو سمع منه شيئا قبل يوم البعث والنشور فزعمه باطل؛ لمخالفته النصوص والمشاهدة وسنة الله في خلقه، وليس في هذا الحديث دلالة على أنه سيرى ذاته في اليقظة في الحياة الدنيا؛ لأنه يحتمل أن المراد بأنه: فسيراني يوم القيامة، ويحتمل أن المراد: فسيرى تأويل رؤياه؛ لأن هذه الرؤيا صادقة بدليل ما جاء في الروايات الأخرى من قوله ﷺ: "فقد رآني " الحديث، وقد يراه المؤمن في منامه رؤيا صادقة على صفته التي كان ﷺ عليها أيام حياته الدنيوية.

* * *

الفهرس

جامع المسائل العقدية

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

دار اللؤلؤة

الجزء الثامن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(باب ذكر مسائل الإيمان بالعرش)

صفة علو الله على عرشه من أظهر الصفات التي جاءت بها النصوص مستفيضة متواترة من الكتاب والسنة، كما دلت عليها العقول والفطر السليمة، وقد أجمع على إثباتها سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وسطر أئمة السلف -في كتبهم وردودهم على الجهمية المعطلة- ما فيه بيان الحق من الضلال في هذا الباب. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وليس العجب في أن يوجد من ينكر هذه الصفة من الجهمية أو المعتزلة أو غيرهم ممن عرفوا بالزيغ والإلحاد في أسماء الله وصفاته وآياته، ولكن العجب أن يقلدهم في ذلك جماعات من العلماء الفضلاء، الذين يعتبرون من أئمة الفقهاء والعلماء والقضاة. ولو كانت أدلة العلو دليلين أو ثلاثة أو خمسة أو لو كان القائل به عددا محدودا من علماء السلف، لكان هؤلاء بعض العذر في موقفهم مما قد يقال فيه: إن الأمر التبس عليهم. أما أن تكون أدلة العلو بهذه الكثرة والوضوح والقعطية في الثبوت والدلالة، وأن تتوافق الأدلة النقلية – التي زادت على ألف دليل – مع أدلة العقل والفطرة، ثم بعد ذلك يأتي إجماع السلف على إثباتها، ويوافقهم على ذلك أئمة أهل الكلام المتقدمين من الكلابية والأشعرية وغيرهم – فهذا ما لا يجد له المسلم المنصف أي تفسير أو تبرير إلا أن باعثه التقليد والتعصب الأعمى لشيوخهم النفاة.

مسألة: مذاهب الناس في العلو

يطلق كثير من أهل الكلام على مسألة العلو والفوقية: الجهة، حتى صارت شبه علم عليها، مع أن "العلو" و"الفوقية" مصطلح شرعي وردت به النصوص، و"الجهة" اصطلاح حادث، ولفظ مجمل، قد يراد بنفيه أو إثباته ما

هو حق وما هو باطل.

أما الأقوال في "العلو" فذات شقين:

أ- الأقوال في علو الرب تبارك وتعالى وفوقيته، وبينونته عن خلقه.

ب- الأقوال في ما يعتبره أهل الكلام من لوازم القول بالعلو مثل "الجهة" و"التحيز" و"الجسم" ونحوه.

أما الأول: فقد وقع الخلاف فيه بين الطوائف على أقوال

١- قول من ينكر العلو مطلقا، ويقول: ليس فوق العالم شيء أصلا ولا فوق العرش شيء، وهذا قول الجهمية والمعتزلة وطوائف من متأخري الأشعرية، والفلاسفة النفاة، والقرامطة الباطنية وغيرهم.

وهؤلاء قسمان: قسم يقول: ليس داخل العالم ولا خارجا عنه، ولا حالا فيه وليس في مكان من الأمكنة. فهؤلاء ينفون عنه الوصفين المتقابلين. وهذا قول طوائف من متكلميهم ونظارهم، وقسم منهم يقول: إنه في كل مكان بذاته، كما يقول ذلك طوائف من عبادهم ومتكلميهم، وصوفيتهم وعامتهم[1].

"وكثير منهم يجمع بين القولين: ففي حال نظره وبحثه يقول بسلب الوصفين المتقابلين فيقول: لا هو داخل العالم ولا خارجه، وفي حال تعبده وتألهه يقول بأنه في كل مكان، ولا يخلو منه شيء حتى يصرحون بالحلول في كل موجود - من البهائم وغيرها - بل بالاتحاد بكل شيء، بل يقولون بالوحدة التي معناها أنه عين وجود الموجودات، ثم يعلل شيخ الإسلام سبب هذا التناقض فيقول: "وسبب ذلك أن الدعاء والعبادة والقصد والإرادة والتوجه يطلب موجودا، بخلاف النظر والبحث والكلام؛ فإن العلم والكلام والبحث

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ١٢٢-١٢٣، ٢٧٢).

والقياس والنظر يتعلق بالموجود والمعدوم، فإذا لم يكن القلب في عبادة وتوجه ودعاء سهل عليه النفي والسلب، وأعرض عن الإثبات، بخلاف ما إذا كان في حال الدعاء والعبادة فإنه يطلب موجودا يقصده، ويسأله ويعبده، والسلب لا يقتضي إلا النفي والعدم، فلا ينفي في السلب ما يكون مقصودا معبودا"[(١)].

٢- قول من يقول: "هو فوق العرش، وهو في كل مكان ويقول: أنا أقر بهذه النصوص وهذه النصوص، ولا أصرف واحدا منها عن ظاهره وهذا قول طوائف ذكرهم الأشعري في المقالات الإسلامية (ص:٢١٥-٢٩٩)، وهو موجود في كلام طائفة من السالمية والصوفية، ويشبه هذا ما في كلام أبي طالب المكي..."، وهؤلاء غالطون وإن زعموا أنهم جمعوا بين نصوص العلو والمعية.

٣- قول سلف الأمة وأئمتها، أئمة أهل العلم والدين، وهؤلاء آمنوا بجميع ما جاء في الكتاب والسنة، وأثبتوا علو الله تعالى وفوقيته، وأنه تعالى فوق سماواته على عرشه، بائن من خلقه، وهم بائنون منه، وهو أيضًا مع العباد بعلمه، ومع أوليائه وأنبيائه بالنصر والتأييد[(٢)].

والخلاصة أن الأقوال في مباينة الله لخلقه أربعة

١- منهم من يقول بالحلول والإتحاد فقط، كقول ابن عربي وأمثاله.

٢- ومنهم من يثبت العلو ونوعا من الحلول وهو الذي يضاف إلى السالمية أو بعضهم، وفي كلام أبي طالب وغيره ما قد يقال إنه يدل على ذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٧٢-٢٧٣)، وانظر: درء (٥/ ١٦٩)، ونقض التأسيس -مطبوع- (٢/ ٥-٦، ٥٠٥، ٥١٢).

(٢) مجموع التفاوى (٥/ ١٢٤-١٢٦).

٣- ومنهم من لا يثبت لا مباينة ولا حلولا ولا إتحادا، كقول المعتزلة ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم.

٤- والقول الرابع إثبات مباينة الخالق للمخلوق بلا حلول، وهذا قول سلف الأمة وأئمتها... "[١].

ويمكن أن يضاف إلى ذلك قولان آخران:

أحدهما: قول من يجمع بين قول الصوفية الحلولية، وقول المعتزلة بأنه لا داخل العالم ولا خارجه -كما سبق-.

والثاني: قول من يتوقف في هذا الأمر، فلا يقول بإثبات علوه على العرش ولا نفيه، بل يقول إن الله تعالى واحد في ملكه وهو رب كل شيء ويسكت عما سوى ذلك[٢].

وأما الثاني: وهو في إطلاق الجهة والتحيز، والجسم ففيه أقوال:

١- قول من يقول: "لا أقول إنه متحيز ولا غير متحيز، ولا في جهة ولا غير جهة، بل أعلم أنه مباين للعالم وأنه يمتنع أن يكون لا مباينا ولا مداخلا"، وهذا قول كثير من أهل الكلام والحديث[٣].

٢- "قول من يقول: بل أقول: إنه ليس بمتحيز ولا في جهة، وأقول مع ذلك: إنه مباين للعالم. وهذا قول من يقول: إنه فوق العالم وليس بجسم ولا جوهر ولا متحيز، كما يقول ذلك من يقوله من الكلابية والأشعرية والكرامية ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وأهل الحديث والصوفية.

---

(١) درء التعارض (١٠/ ٢٨٧).

(٢) انظر: القاعدة المراكشية (ص:٢٣-٢٤) ما بعدها، ط دار طيبة.

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٠٢).

فإذا قيل لهؤلاء: إثبات مباين ليس بمتحيز مخالف لضرورة العقل قالوا: إثبات موجود لا محايث ولا مباين أظهر فسادا في ضرورة العقل من هذا... "[١].

٣- "قول من يتلزم أنه متحيز، أو في جهة، أو أنه جسم، ويقول: لا دلالة على نفي شيء من ذلك، وأدلة النفاة لذلك أدلة فاسدة، فإنهم متفقون على أن نفي ذلك ليس معلوما بالضرورة، وإنما يدعون النظر، ونفاة ذلك لم يتفقوا على دليل واحد، بل كل واحد منهم يطعن في دليل الآخر..."، وهذا قول الكرامية وبعض أهل الحديث ومن وافقهم[٢].

٤- "جواب أهل الاستفصال: وهم الذين يقولون: لفظ "التحيز" و"الجهة" و"الجوهر" ونحو ذلك، ألفاظ مجملة، ليس لها أصل في كتاب الله ولا سنة رسول الله، ولا قالها أحد من سلف الأمة وأئمتها في حق الله تعالى، لا نفيا ولا إثباتا، وحينئذ فإطلاق القول بنفيها أو إثباتها ليس من مذهب أهل السنة والجماعة بلا ريب، ولا عليه دليل شرعي، بل الإطلاق من الطرفين مما ابتدعه أهل الكالم الخائضون في ذلك. فإذا تكلمنا معهم بالبحث العقي استفصلناهم عما أرادوه بهذه الألفاظ... "[٣] فإن كان حقا قبل - ولا يمنع من قبوله تسميته بهذه المصطلحات الحادثة - وإن كان باطلا رد.

أدلة أهل السنة على أثبات العلو

إثبات علو الله تعالى معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة وإجماع سلف

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٠٣)، وانظر بقية الإجابة والمناقشة إلى ص: ٣٠٤، وانظر أيضًا: (ص:٢٧٢) من هذا الجزء.
(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٠٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٠٥)، وانظر: نقض التأسيس - مطبوع - (٢/ ١٣-١٤).

الأمة، ولهذا كان السلف مطبقين على تكفير من أنكر ذلك لأنه عندهم معلوم بالاضطرار من الدين[1].

وسياق الأدلة مما يصعب حصره، وقد ذكر شيخ الإسلام في درء التعارض (٢/ ٢٦): أنها تبلغ مئين، وأن الأحاديث عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين متواترة موافقة لذلك.

ونقل شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٥/ ١٢١) عن بعض أكابر أصحاب الشافعية أنه قال: "في القرآن ألف دليل أو أزيد تدل على الله تعالى عال على الخلق، وأنه فوق عباده، وقال غيره: فيه ثلاثمائة دليل تدل على ذلك...".

وقد ذكر ابن القيم في نونيته (١/ ٣٩٦) أكثر من عشرين نوعا من الأدلة، وكل نوع تحت عدد من الأدلة، كما ذكر في الصواعق (٤/ ١٢٧٩-١٣٤٠) ثلاثين دليل من أدلة العقل والفطرة. وهي كلها ملخصة مما ذكره شيخه في مناقشاته.

ومن عجيب ما جرى لشيخ الإسلام ابن تيمية نفسه مع هؤلاء النفاة ما حكاه في درء التعارض (٦/ ٢٤٣-٢٤٤) بقوله: ولقد كان عندي من هؤلاء النافين لهذا من هو من مشايخهم وهو يطلب مني حاجة وأنا أخاطبه في هذا المذهب كأني غير منكر له وأخرت قضاء حاجته حتى ضاق صدره فرفع طرفه ورأسه إلى السماء وقال يا الله فقلت له أنت محقق لمن ترفع طرفك ورأسك وهل فوق عندك أحد فقال استغفر الله ورجع عن ذلك لما تبين له أن اعتقاده يخالف فطرته ثم بينت له فساد هذا القول فتاب من ذلك ورجع إلى قول المسلمين المستقر في فطرهم.اهـ.

---

(١) انظر: درء التعارض (٧/ ٢٧).

وقال الشيخ محمد خليل هراس في شرح العقيدة الواسطية (ص١٦٤-١٦٦): فأهل السنة والجماعة يؤمنون بما أخبر به سبحانه عن نفسه من أنه مستو على عرشه، بائن من خلقه بالكيفية التي يعلمها هو جل شأنه؛ كما قال مالك وغيره: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول). وأما ما يشغب به أهل التعطيل من إيراد اللوازم الفاسدة على تقرير الاستواء؛ فهي لا تلزمنا؛ لأننا لا نقول بأن فوقيته على العرش كفوقية المخلوق على المخلوق. وأما ما يحاولون به صرف هذه الآيات الصريحة عن ظواهرها بالتأويلات الفاسدة التي تدل على حيرتهم واضطرابهم؛ كتفسيرهم: (استوى) ب (استولى)، أو حملهم (على) على معنى (إلى)، و(استوى)؛ بمعنى: (قصد).. إلى آخر ما نقله عنهم حامل لواء التجهم والتعطيل زاهد الكوثري؛ فكلها تشغيب بالباطل، وتغيير في وجه الحق لا يغني عنهم في قليل ولا كثير. وليت شعري! ماذا يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا؟! أيريدون أن يقولوا: ليس في السماء رب يقصد، ولا فوق العرش إله يعبد؟! فأين يكون إذن؟! ولعلهم يضحكون منا حين نسأل عنه بـ (أين)! ونسوا أن أكمل الخلق وأعلمهم بربهم صلوات الله عليه وسلامه قد سأل عنه بـ (أين) حين قال للجارية: (أين الله؟)، ورضي جوابها حين قالت: في السماء. وقد أجاب كذلك من سأله ب: "أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ بأنه كان في عماء.. » الحديث. ولم يرو عنه أنه زجر السائل، ولا قال له: إنك غلطت في السؤال.إن قصارى ما يقوله المتحذلق منهم في هذا الباب: إن الله تعالى كان ولا مكان، ثم خلق المكان، وهو الآن على ما كان قبل خلق المكان. فماذا يعني هذا المخرف بالمكان الذي كان الله ولم يكن؟! هل يعني به تلك الأمكنة الوجودية التي هي داخل محيط العالم؟! فهذه أمكنة حادثة، ونحن لا

نقول بوجود الله في شيء منها؛ إذ لا يحصره ولا يحيط به شيء من مخلوقاته. وأما إذا أراد بها المكان العدمي الذي هو خلاء محض لا وجود فيه؛ فهذا لا يقال: إنه لم يكن ثم خلق؛ إذ لا يتعلق به الخلق، فإنه أمر عدمي، فإذا قيل: إن الله في مكان بهذا المعنى؛ كما دلت عليه الآيات والأحاديث؛ فأي محذور في هذا؟! بل الحق أن يقال: كان الله ولم يكن شيء قبله، ثم خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء، ثم استوى على العرش، وثم هنا للترتيب الزماني لا لمجرد العطف.اهـ.

وقال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه: نفي الجسمية والتجسيم لم يرد في الكتاب، والسنة، ولا في كلام السلف فالواجب على العبد التأدب مع الله ورسوله وسلف الأمة فلا ينفي عن الله تعالى إلا ما نفاه عن نفسه ولا يثبت له إلا ما أثبته لنفسه، أما مالم يرد به نفي ولا إثبات مما يحتمل حقًّا وباطلًا فإن الواجب السكوت عنه فلا ينفى ولا يثبت لفظه، وأما معناه فيسأل عنه فإن أريد به حق قبل، وإن أريد به باطل رد، وعلى هذا فيسأل من نفى التجسيم ماذا تريد بالجسم؟ فإن قال: أريد به الشيء المركب المفتقر بعضه إلى بعض في الوجود والكمال قلنا: نفي الجسم بهذا المعنى حق فإن الله تعالى واحد أحد صمد غني حميد. وإن قال: أريد به الشيء المتصف بالصفات القائمة به من الحياة، والعلم والقدرة، والاستواء والنزول، والمجيء، والوجه، واليد ونحو ذلك مما وصف الله به نفسه قلنا: نفي الجسم بهذا المعنى باطل، فإن لله تعالى ذاتًا حقيقية، وهو متصف بصفة الكمال التي وصف بها نفسه من هذه الصفات وغيرها على الوجه اللائق به. ومن أجل احتمال الجسم لهذا وهذا كان إطلاق لفظه نفيًا وإثباتًا من البدع التي أحدثت في الإسلام قال شيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٥٢ ج ٤ من

مجموع الفتاوي لابن قاسم: "لفظ التجسيم لا يوجد في كلام أحد من السلف لا نفيًا ولا إثباتًا فكيف يحل أن يقال: مذهب السلف نفي التجسيم أو إثباته بلا ذكر لذلك اللفظ ولا لمعناه عنهم". وقال قبل ذلك ص ١٤٦: "وأول من ابتدع الذم بها المعتزلة الذين فارقوا جماعة المسلمين".اهـ. يعني أن المعتزلة جعلوا من أثبت الصفات مجسمًا وشنعوا عليهم بهذه الألفاظ المبتدعة ليغزوا بذلك عوام المسلمين.اهـ.

وقال صديق حسن خان رَحِمَهُ اللهُ في قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر (ص٥٤-٥٥): والأصل في هذا الباب أن كل ما ثبت في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ وجب التصديق به، مثل علو الرب، واستوائه على عرشه، ونحو ذلك، وأما الألفاظ المبتدعة في النفي والإثبات مثل قول القائل في جهة، وهو متحيز، أو ليس بمتحيز، ونحوها من الألفاظ التي تنازع فيها الناس، فليس مع أحدهما نص لا عن الرسول ولا عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا أئمة المسلمين فإن هؤلاء لم يقل أحد منهم إن الله في جهة، ولا قال ليس هو في جهة، ولا قال هو متحيز، بل ولا قال هو جسم، أو جوهر ولا قال ليس بجسم ولا جوهر، فهذه الألفاظ ليست منصوصة في الكتاب ولا السنة ولا الإجماع، والناطقون بها قد يريدون معنى صحيحًا وقد يريدون معنى فاسدًا، فمن أراد معنى صحيحًا موافق الكتاب والسنة كان ذلك مقبولًا منه، وإن أراد معنى فاسدا مخالف الكتاب والسنة، كان ذلك المعنى مردودا عليه.

مسائل في العرش

المسألة الأولى: تعريف العرش

المبحث الأول: المعنى اللغوي لكلمة العرش

قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة": (٤/ ٢٦٤): ""عرش " العين

والراء والشين أصل صحيح واحد، يدل على ارتفاع في شيء مبني، ثم يستعار في غير ذلك".اهـ. والعرش في كلام العرب يطلق على عدة معان منها:

١- سرير الملك: قال الخليلفي العين": (٤/ ٢٩١): "العرش: السرير للملك".

وقال الأزهري في تهذيب اللغة (٤/ ٤١٣): "والعرش في كلام العرب: سرير الملك، يدلك على ذلك سرير ملكة سبا، سماه الله- جل وعز- عرشا فقال: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} [النمل، آية: ٢١].

وقال ابن منظور في لسان العرب (٤/ ٢٨٨٠): بعد أن نقل كلام الأزهري: "وقد يستعار لغيره... والجمع أعراش، وعروش، وعرشة، وفي حديث بدء الوحي: "فرفعت رأسي فإذا هو قاعد على عرش في الهواء"، وفي رواية: "بين السماء والأرض" يعني: جبريل على سرير".

٢- سقف البيت: قال الخليل في "العين": (٤/ ٢٩١): "عرش البيت: سقفه".

وقال الزبيدي في "تاج العروس": (٤/ ٣٢١): "والعرش من البيت سقفه ومنه الحديث: "أو كالقنديل المعلق بالعرش"، يعني: السقف، وفي حديث آخر: "كنت أسمع قراءة رسول الله ﷺ على عرشي" أي: سقف بيتي، وبه فسر قوله تعالى: {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} [البقرة، آية: ٢٥٩]، أي: صارت على سقوفها، كما قال عز من قائل: {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا} أراد أن حيطانها قائمة وقد تهدمت سقوفها، فصارت في قرارها، وانقعرت الحيطان من قواعدها فتساقطت على السقوف المتهدمة قبلها، ومعنى الخاوية والمنقعرة واحد،

وهي: المنقلعة من أصولها".

٣- ركن الشيء: قال الزبيدي في "تاج العروس": (٤/ ٣٢١): "والعرش: ركن الشيء، قاله الزجاج والكسائي، وبه فسر قوله تعالى: {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} أي: وخرت على أركا نها".

٤- الملك: قال الأزهري في "تهذيب اللغة": (٤/ ٤١٤): "والعرش: الملك، يقال: ثل عرشه، أي: زال ملكه وعزه".

قال زهير:

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان إذ زلت باقدامها النعل.

وقال الزبيدي في "تاج العروس": (٤/ ٣٢١): "قال ابن الأعرابي: العرش: الملك بضم الميم، وهو كناية....".

٥- قوام أمر الرجل: قال ابن فارس "معجم مقاييس اللغة": (٤/ ٢٦٤) بتصرف: "استعيرت كلمة عرش هنا، فقيل لأمر الرجل وقوامه: عرش، وإذا زال ذلك عنه قيل: ثل عرشه، قال زهير:

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل".

قال الزبيدي في "تاج العروس": (٤/ ٣٢١): "قولهم: ثل عرشه أي: عدم ما هو عليه من قوام أمره، وقيل: وهى أمره، وقيل: ذهب عزه، ومنه حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه رؤي في المنام فقيل له: ما فعل بك ربك، قال: لولا أن تداركني لثل عرشي".

٦- عرش السماك: قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة": (٢٦٧/ ٤): "ويقال: إن عرش السماك: أربعة كواكب أسفل من العواء على صورة النعش، ويقال: هي عجز الأسد، قال ابن أحمر:

باتت عليه ليلة عرشية شربت وبات إلى نقا متهدم".

٧- عرش البئر: قال الأزهري في "العين" (١/ ٢٩٣): "وقال أبو عبيد: قال أبو زيد: بئر معروشة: وهي التي تطوى قدر قامة من أسفلها بالحجارة، ثم يطوى سائرها بالخشب، فذلك الخشب هو العرش، يقال: منه عرشت البئر أعرشها، فإذا كانت كلها بالحجارة فهي مطوية وليست بمعروشة.

وقال غيره: المثاب: مقام الساقي فوق العروش، ومنه قول الشاعر:

وما لمثابات العروش بقية إذا استل من تحت العروش الدعائم

وقال ابن الأعرابي: العرش: بناء، فوق البئر يقوم عليه الساقي، وأنشد:

أكل يوم عرشها مقيلي".

٨- عرش القدم: قال الخليل كما في "لسان العرب": (٤/ ٢٨٨٢): "العرش في القدم كل ما بين الحمار والأصابع من ظهر القدم، والحمار: المرتفع من ظهر القدم، وجمعه: عرشة وأعراش".

وقال بن الأعرابي كما في "تهذيب اللغة" (١/ ٤١٦): "ظهر القدم: العرش، وباطنه: الأخمص".

قلت: من المعلوم أن معرفة كل معنى من تلك المعاني إنما يتحدد بحسب ما أضيف إلى الكلمة، والمعنى المقصود في عرش الرحمن من تلك المعاني السابقة، هو سرير الملك، ذلك لأن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة قد جاءت معينة لهذا المعنى وحده دون غيره من المعاني، كما في كتاب العرش وما رُوِي فيه **لأبي** جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة، **وأيضا** كتاب العرش للذهبي.

أما زعم الجهمي بان معنى العرش في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ

اسْتَوَى}، يحتمل عدة معاني، فلا يعرف أي هذه المعاني هو المراد، فقد أجاب عنه الإمام ابن القيم في "مختصر الصواعق المرسلة" (١/ ١٧، ١٨) بقوله: "هذا تلبيس منك على الجهال، وكذب ظاهر، فإنه ليس لعرش الرحمن الذي استوى عليه إلا معنى واحد، وإن كان للعرش من حيث الجملة عدة معاني، فاللام: للعهد، وقد صار بها العرش معينا، وهو عرش الرب تعالى الذي هو سرير ملكه الذي اتفقت عليه الرسل، وأقرت به الأمم، إلا من نابذ الرسل...".

المبحث الثاني: المذاهب في تعريف العرش

أولا: مذهب السلف: قال الطبري (٢٤/ ٣٧، ٤٩)- عند تفسير قوله تعالى: {وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ} -: يعني بالعرش: السرير. ثم ذكر بسنده عن السدي في تفسير هذه الآية قوله: "محدقين حول العرش، قال العرش: السرير". وقال الطبري في موضع آخر: {ذُو الْعَرْشِ} يقول: ذو السرير المحيط بما دونه".

وقال البيهقي في "الأسماء والصفات" (ص٤٩٧): "وأقاويل أهل التفسير على أن العرش: هو السرير، وأنه جسم مجسم خلقه الله، وأمر ملائكته بحمله، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق في الأرض بيتا، وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة. وفي الآيات والأحاديث والآثار دلالة واضحة على ما ذهبوا إليه".

وقال ابن كثير في "البداية والنهاية" (١/ ١٢): "هو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات".

وقال الذهبي في "العلو" (ص٥٧): - بعد أن ذكر سرر أهل الجنة-: "فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذه العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه وسعته،

وقوائمه وماهيته وحملته، والكروبيين الحافين من حوله وحسنه ورونقه وقيمته: فقد ورد أنه من ياقوته حمراء".اهـ.

قلت: وهذا الذي ذكره الطبري والبيهقي وابن كثير والذهبي في تعريف العرش، هو الذي جاءت به الآيات والأحاديث والآثار، وهو ما ذهب إليه سلف الأمة وأئمتها في عرش الله، فهم يعتقدون أن عرش الرحمن هو:

سرير: قال ابن قتيبة في "الاختلاف في اللفظ": (ص٢٤): "وطلبوا للعرش معنى غير السرير، والعلماء في اللغة لا يعرفون للعرش معنى إلا السرير، وما عرش من السقوف وأشباهها قال أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله وهو للمجد أهل ... ربنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء الأعلى الذي سبق الناس ... وسوى فوق السماء سريرا

شرجعا لا يناله بصر العين ... ترى دونه الملائك صورا"

وقال ابن كثير في "البداية والنهاية": (١/ ١١، ١٢).: "العرش في اللغة: عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى: {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} وليس هو فلكا، ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، فهو سرير ذو قوائم...

وأنه ذو قوائم: قال شارح "الطحاوية" (ص٣١٠، ٣١١): "قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، كما قال ﷺ: (فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور)[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٧) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(تنبيه) قال الإمام ابن القيم في كتاب الروح (ص٣٥): وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة =

=

{لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى} وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان وأما قول أهل النار {ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين} فتفسير هذه الآية التي في البقرة وهي قوله تعالى {كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم} فكانوا أمواتا وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور وليس في ذلك اماتة أزواجهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات وصعق الأرواح عند النفخ في الصور ولا يلزم منه موتها ففي الحديث لصحيح ان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدرى افاق قبلى أم جوزى بصعقة يوم الطور فهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره فحينئذ تصعق الخلائق كلهم قال تعالى {فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون} ولو كان هذا الصعق موتا لكانت موتة أخرى وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء فقال أبو عبد الله القرطبى ظاهر هذا الحديث ان هذه صعقة غشى تكون يوم القيامة لاصعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور قال وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو وظاهر حديث النبي يدل على أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث ونص القرآن يقتضى أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق ولما كان هذا قال بعض العلماء يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء وهذا باطل وقال القاضي عياض يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السموات والأرض قال فتستقل الأحاديث والآثار ورد عليه أبو العباس القرطبى فقال يرد هذا قوله في الحديث الصحيح أنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذا بقائمة العرش قال وهذا إنما عند نفخة الفزع.

قال أبو عبد الله وقال شيخنا أحمد بن عمرو الذي يزيح هذا الاشكال إن شاء الله تعالى ان الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين وهذه صفة الأحياء في الدنيا وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى مع أنه قد صح عن النبي أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأنه اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء وخصوصا بموسى وقد أخبر بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن الموت

=

=

للأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين جاءوا ذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فأما صعق غير الأنبياء فموت وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حى ومن غشى عليه أفاق ولذلك قال في الحديث المتفق على صحته فأكون أول من يفيق فنبينا أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسى فإنه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته أو بقى على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقا لأنه حوسب بصعقة يوم الطور وهذه فضيلة عظيمة لموسى ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقا لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمرا كليا انتهى

قال أبو عبد الله القرطبي ان حمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال وإن حمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله فالمعنى إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور

قلت وحمل الحديث ع لى هذا لا يصح لأنه ترد هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق بل جوزى بصعقة الطور فالمعنى لا أدرى أصعق أم لم يصعق وقد قال في الحديث فأكون أول من يفيق وهذا يدل على أنه يصعق فيمن يصعق وان التردد حصل في موسى هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهي صعقة الموت لكان قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يمت وهذا باطل لوجوه كثيرة فعلم أنها صعقة فزع لاصعقة موت وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية والله أعلم.

فإن قيل فكيف تصنعون بقوله في الحديث إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عليه الأرض فأجد موسى باطشا بقائمة العرش قيل لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الاشكال ولكنه دخل فيه على الرواى حديث في حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا والحديثان هكذا

أحدهما ان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق

=

وأنه مخلوق: قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٥٥): "قوله: {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} إشارة إلى أن العرش مربوب، وكل مربوب مخلوق...، وفي إثبات القوائم للعرش دلالة على أنه جسم مركب له أبعاض وأجزاء، والجسم المؤلف محدث مخلوق".اهـ.

وقد جاء ذكر خلق العرش في حديث أبي رزين العقيلي قال: يا رسول الله،

=

والثاني هكذا أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ففي الترمذي وغيره من حديث ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح

فدخل على الراوى هذا الحديث في الحديث الآخر وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ يقول ذلك

فإن قيل فما تصنعون بقوله فلا أدرى أفاق قبلى أم كان ممن استثنى الله ﷻ والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعقة النفخة لا من صعقة يوم القيامة كما قال الله تعالى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة قيل هذا والله أعلم غير محفوظ وهو وهم من بعض الرواة والمحفوظ ما تواطأت الروايات الصحيحة من قوله فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور فظن بعض الرواة ان هذه الصعقة هي صعقة النفخة وأن موسى داخل فيمن استثنى منها وهذا لا يلتئم على مساق الحديث قطعا فإن الإفاقة حينئذ هي إفاقة البعث فكيف يقول لا أدرى أبعث قبلى أم جوزى بصعقة الطور فتأمله وهذا بخلاف الصعقة التي يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء بين العباد وتجلى لهم فإنهم يصعقون جميعا وأما موسى فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكا فجعلت صعقة هذا التجلى عوضا من صعقة الخلائق لتجلى الرب يوم القيامة فتأمل هذا المعنى العظيم ولو لم يكن في الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه لكان حقيقا ان يعض عليه بالنواجذ ولله الحمد والمنة وبه التوفيق.

أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه، قال: "كان في عماء، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، ثم خلق عرشه على الماء".

وأن الله سبحانه قد أمر ملائكته بحمله، وتعبدهم بتعظيمه

تال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}، وقال تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}.

وعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام".

وهو أعلى المخلوقات وأعظمها، وسقفها، وهو كالقبة على العالم، وما تحته بالنسبة إليه كحلقة في فلاة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ١٥١): "وأما العرش فإنه مقبب، لما روي في "السنن" لأبي داود عن جبير بن مطعم قال (أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وجاع العيال،- وذكر الحديث- إلى أن قال رسول الله ﷺ: "إن الله على عرشه، وإن عرشه على سمواته وأرضه، كهكذا" وقال بأصابعه مثل القبة...)[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٣٢، رقم ٤٧٢٦)، وابن خزيمة في التوحيد (١٠٣ - ١٠٤)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص٢٧٢)، وفي الرد على المريسي (ص٤٤٧)، والدارقطنى فى الصفات (١/ ٣١، رقم ٣٨)، والطبرانى (٢/ ١٢٨، رقم ١٥٤٧)، وابن منده في التوحيد (١١٧ - ١ - ٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٥٩)، والبغوي في شرح السنة (١/ ١٧٥) والحديث قال عنه ابن منده: إسناد صحيح متصل وقال شيخ الإسلام في تلبيس الجهمية (١/ ٥٦٩) هذا الحديث وأمثاله وفيما يشبهه في اللفظ والمعنى لم يزل متداولا بين أهل العلم، خالفا عن سالف، ولم يزل سلف الأمة وأئمتها يروون ذلك رواية مصدق به، وحسنه ابن القيم في تهذيب السنن (١٣/ ١١) وفي =

وفي علوه قوله ﷺ: (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعالاها، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)[١].

فقد تبين بهذه الأحاديث أنه أعلى المخلوقات وسقفها، وأنه مقبب... "ا.هـ من مجموع الفتاوى.

وفي حديث أبي ذر المشهور قال (قلت يا رسول الله، أي ما أنزل عليك أعظم، قال: "آية الكرسي"- ثم قال: "يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة)[٢].

=

مختصر الصواعق (٤٣٤)، والصواب ضعف الحديث قال الذهبي في العلو (٤٤) غريب جدا فرد، وابن اسحاق حجة فى المغازى إذا أسند، وله مناكير وعجائب وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٢٦٣٩) وضعفه العلامة الوادعي في كتاب الشفاعة (١٩١).

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال العلامة الألباني في الصحيحة (١٠٩): رواه محمد بن أبي شيبة في "كتاب العرش" (١ / ١١٤):

حدثنا الحسن بن أبي ليلى أنبأنا أحمد بن علي الأسدي عن المختار بن غسان العبدي عن إسماعيل بن سلم عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري قال: "دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله ﷺ وحده فجلست إليه، فقلت: يا رسول الله أيما آية نزلت عليك أفضل؟ قال: آية الكرسي: ما السموات السبع". الحديث. قلت: وهذا سند ضعيف، إسماعيل بن سلم لم أعرفه، وغالب الظن أنه إسماعيل بن مسلم فقد ذكروه في شيوخ المختار بن عبيد، وهو المكي البصري وهو ضعيف. والمختار روى عنه ثلاثة ولم يوثقه أحد وفي "التقريب": أنه مقبول. قلت: ولم ينفرد به إسماعيل بن مسلم، بل تابعه يحيى بن يحيى الغساني رواه حفيده إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى الغساني قال: حدثنا أبي عن جدي عن أبي إدريس الخولاني به. أخرجه البيهقي في " الأسماء

=

=

والصفات " (ص ٢٩٠) قلت: وهذا سند واه جدا إبراهيم هذا متروك كما قال الذهبي، وقد كذبه

أبو حاتم. وتابعه القاسم بن محمد الثقفي ولكنه مجهول كما في " التقريب". أخرجه ابن مردويه كما في تفسير ابن كثير (٢ / ١٣ - طبع المنار) من طريق محمد بن أبي السري (الأصل: اليسري) العسقلاني أخبرنا محمد بن عبد الله التميمي عن القاسم به. والعسقلاني والتميمي كلاهما ضعيف. وللحديث طريقان آخران عن أبي ذر :

الأول عن يحيى بن سعيد السعدي البصري قال: حدثنا عبد الملك ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمر الليثي عنه به. أخرجه البيهقي وقال: "تفرد به يحيى بن سعيد السعدي، وله شاهد بإسناد أصح". قلت: ثم ساقه من طريق الغساني المتقدم، وما أراه بأصح من هذا، بل هو أوهى، لأن إبراهيم متهم كما سبق، وأما هذا فليس فيه من اتهم صراحة، ورجاله ثقات غير السعدي هذا، قال العقيلي: "لا يتابع على حديثه". يعني هذا.

وقال ابن حبان: يروى المقلوبات والملزقات، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد.

الثاني: عن ابن زيد قال: حدثني أبي قال: قال أبو ذر فذكره. أخرجه ابن جرير في " تفسيره " (٥ / ٣٩٩) " حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد به، قلت وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات. لكني أظن أنه منقطع، فإن ابن زيد هو عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو ثقة من رجال الشيخين يروي عنه ابن وهب وغيره. وأبوه محمد بن زيد ثقة مثله، روى عن العبادلة الأربعة جده عبد الله وابن عمرو وابن عباس وابن الزبير وسعيد بن زيد بن عمرو، فإن هؤلاء ماتوا بعد الخمسين، وأما أبو ذر ففي سنة اثنتين وثلاثين فما أظنه سمع منه.

وجملة القول: أن الحديث بهذه الطرق صحيح وخيرها الطريق الأخير والله أعلم، والحديث خرج مخرج التفسير لقوله تعالى: (وسع كرسيه السماوات والأرض) وهو صريح في كون الكرسي أعظم المخلوقات بعد العرش، وأنه جرم قائم بنفسه وليس شيئا معنويا. ففيه رد على من يتأوله بمعنى الملك وسعة السلطان، كما جاء في

بعض التفاسير، وما روي عن ابن عباس أنه العلم، فلا يصح إسناده إليه لأنه من رواية جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عنه. رواه ابن جرير، قال ابن منده: ابن أبي المغيرة ليس بالقوي في ابن جبير.

واعلم أنه لا يصح في صفة الكرسي غير هذا الحديث، كما في بعض الروايات أنه موضع

=

فهذا القول للسلف في عرش الله هو ما جاءت به الآيات والأحاديث الصحيحة، وقد كان سلف الأمة وأئمتها - دائما - يصرحون بذلك في كتبهم عند الحديث عن هذه المسألة، وقد وافقهم - في هذا القول في عرش الله - الكلابية، والكرامية، ومتقدمو الأشاعرة، وبعض الجهمية، والمعتزلة.

ثانيا: أقوال المخالفين

القول الأول: ما زعمه طائفة من الجهمية، والمعتزلة، والماتريدية، وعامة متأخري الأشاعرة، من أن معنى العرش في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} هو الملك.

قال الدارمي في كتابه "الرد على الجهمية" (ص١٢): "باب: الإيمان بالعرش، وهو أحد ما أنكرته المعطلة، فادعت هذه العصابة أنهم يؤمنون بالعرش ويقرون به، فقلت لبعضهم: ما إيمانكم به إلا كإيمان {الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ}، وكالذين: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}، أتقرون أن لله عرشا معلوما موصوفا فوق السماء السابعة تحمله الملائكة، والله فوقه كما وصف نفسه، بائن من خلقه، فأبى أن يقر به كذلك، وتردد في الجواب، وخلط ولم يصرح. قال أبو سعيد: فقال لي زعيم منهم كبير: لا، ولكن لما خلق الله الخلق

=

القدمين، وأن له أطيطا كأطيط الرحل الجديد، وأنه يحمله أربعة أملاك، لكل ملك أربعة وجوه، وأقدامهم في الصخرة التي تحت الأرض السابعة... إلخ فهذا كله لا يصح مرفوعا عن النبي ﷺ وبعضه أشد ضعفا من بعض، وقد خرجت بعضها فيما علقناه على كتاب " ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان " ملحقا بآخره طبع المكتب الإسلامي.

يعني السموات والأرض وما فيهن، سمى ذلك كله عرشا له، واستوى على جميع ذلك كله".اهـ.

وقال ابن تيمية في "نقض تأسيس الجهمية" (١/ ٥٧٦) - في سياق كلامه على حمله العرش-: "ثم إن قوله تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ}، وقوله: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} يوجب أن لله عرشا يحمل، ويوجب أن ذلك العرش ليس هو الملك كما تقوله طائفة من الجهمية".اهـ.اعلم أن العرش خلق عظيم جدًا كما دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ولذلك أضافه تعالى إلى نفسه في قوله: [ذو العرش] وفيه آيات أخر تجدها في " الشرح " [أي: شرح الطحاوية].وهو لغةً سرير الملك، ومن أوصافه في القرآن: {ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية} (الحاقة: ١٧) وأنه على الماء، وفي السنة أن أحد حملة العرش ما بين شحمة إذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وأن له قوائم وأنه سقف جنة الفردوس. جاء ذلك في أحاديث صحيحة مذكورة في "الشرح". وذلك كله مما يبطل تأويل العرش بأنه عبارة عن الملك وسعة السلطان.اهـ.

وما ذهب إليه هؤلاء المخالفون من تفسير معنى العرش الوارد في الآيات بمعنى الملك، إنما هو تاويل باطل، وصرف للفظ عن معناه إلى معنى آخر لا يحتمله.

والمتامل لهذا القول يرى ما فيه من التلبيس والمخالفة، فقد سبق أن ذكرنا في المبحث اللغوي لكلمة عرش، أن لهذه الكلمة عدة معاني في اللغة العربية، ومن المعلوم أن معرفة المعنى المراد من تلك المعاني لهذه الكلمة أو غيرها، إنما يتحدد بحسب السياق، وبحسب ما أضيفت إليه، وليس في سياق الآيات ما

يثبت صحة ما ذهبوا إليه، كما أن ما استدل به هؤلاء المخالفون من الأبيات الشعرية ليس إلا دليلا على أن الملك هو من المعاني اللغوية لكلمة عرش، وهذا أمر لا خلاف عليه، وهذا الاستدلال يماثل ما لو استدللنا على أن من معاني كلمة العرش السقف بقوله: {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}، فليس في هذه الأبيات –التي فيها أن العرش من معانيه الملك- أي إشارة، لا من قريب ولا من بعيد على أن الملك هو المعنى المراد في الآيات الواردة في العرش، بل إن المتأمل للآيات والأحاديث الواردة في هذه المسألة، يرى أنها تدل دلالة واضحة وصريحة على أن المراد بالعرش هو ذلك المخلوق العظيم الذي خلقه الله تعالى فوق العالم كله، ثم استوى عليه بعد أن خلق السموات والأرض، وكذلك ترد على هؤلاء المخالفين زعمهم الباطل الذي هو في الحقيقة تحريف لكلام الله.

فيا ترى ماذا يصنع ذلك المخالف الذي يزعم أن العرش إنما هو كناية عن الملك والسلطان بقوله تعالى: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} هل يزعم أن الملك كان على الماء، وكذلك ماذا يصنع بقوله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية، وبقوله ﷺ: "فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش"[1]، أيقول: آخذ بقائمة من قوائم الملك، وكذا قوله ﷺ: "اهتز عرش الرحمن"[2]، أيقول: اهتز ملكه وسلطانه، فخلاصة القول: إن هذا التأويل إنما هو تأويل باطل، ترده الآيات، والأحاديث، ولا يمكن أن يقول به من له أدنى ذوق أو فهم، بل هو في الحقيقة تحريف لكلام الله تعالى.

---

(١) تقدم تخريجه قريبا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦).

القول الثاني: زعم طائفة من أهل الكلام أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه، محيط بالعالم من كل جهة، وهو محدود الجهات، وربما سموه الفلك الأطلس، أو الفلك التاسع، أو الأثير، أو الفلك الأعلى[١].

وفي ذلك يقول ابن سينا في رسالتة، "إثبات النبوات وتاويل رموزهم وأمثالهم": "ومن السهل عليك أن تفهم كيف أن العرش بنص القرآن يحمله ثمانية، فهذه الثمانية هي: الثمانية أفلاك التي تحت هذا الفلك المحيط"٢[٢].

وإن المتامل لكلام أصحاب هذا المذهب كابن سينا وأمثاله يرى مدى تأثرهم بالفلاسفة وكلامهم، حتى أنهم وصلوا إلى درجة اعتقادهم أنه لا موجود إلا ما علموه هم والفلاسفة، ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة إذا سمعوا أخبار الأنبياء بالملائكة، والعرش، والكرسي، والجنة، والنار، صاروا حائرين ومتأولين لكلام الأنبياء على ما عرفوه وعلى ما تعلموه، وإن كان هذا التأويل لا دليل لهم عليه سوى ظنهم الفاسد بأنه لا موجود إلا ما عرفوه هم والفلاسفة، فقالوا العرش: هو الفلك التاسع، والكرسي: هو الفلك الثامن، فنفوا ما ليس لهم به علم"، فانطبق عليهم قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَما ياتِهِمْ تاوِيلُهُ}[٣].

وقد ثبت أنه ليس لهؤلاء دليل يتمسكون به لا من الشرع ولا من العقل، وأن الذي دفعهم إلى هذا القول هو أنهم نظروا في عالم الهيئة وعلوم الفلسفة فرأوا أن الأفلاك تسعة، وأن التاسع وهو: الأطلس محيط بها، ومستدير كاستدارتها،

---

(١) "البداية": (١/ ١١)، "الرسالة العرشية": ص ٢، "المفردات": ص ٣٢٩، "روح المعاني": (٢٤/ ٤٥).

(٢) نقلا عن كتاب ابن سينا "بين الدين والفلسفة": ص ١٣٧، ١٣٩.

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٣٥، ٣٣٦).

وهو الذي يحركها الحركة الشوقية، وأن لكل فلك حركة تخصه غير هذه الحركة العامة، ثم سمعوا في أخبار الأنبياء- صلوات الله وسلام عليهم- ذكر عرش الله، وذكر كرسيه، وذكر السموات السبع، فقالوا- بطريق الظن-: إن العرش: هو الفلك التاسع لاعتقادهم أنه ليس وراء التاسع شيء، إما مطلقا، وإما أنه ليس وراءه مخلوق"(١).

وهم معترفون بانه لم يقم لديهم دليل عقلي على صحة قولهم هذا، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن أئمة الفلاسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك، ولكن دلتهم الحركات المختلفة والكسوفات ونحو ذلك على ما ذكروه، وما لم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا يعلمون ثبوته ولا انتفاءه.

مثال ذلك: أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا بان السفلي يكسف العلوي من غير عكس، فاستدلوا بذلك على أنه من فلك فوقه، كما استدلوا بالحركات المختلفة على أن الأفلاك مختلفة حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك، كفلك الدوير وغيره، فأما ما كان موجودا فوق هذا ولم يكن لهم ما يستدلون به على ثبوته، فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقهم... وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجود شيء آخر فوق الأفلاك التسعة، كان الجزم بان ما أخبرت به الرسل من أن العرش: هو الفلك التاسع- رجما بالغيب وقولا بلا علم"(٢).

ومع عدم وجود الدليل العقلي عند هؤلاء على صحة زعمهم، فكذلك

---

(١) الرسالة العرشية (ص٢- ٣).
(٢) الرسالة العرشية (ص٢).

الأدلة الشرعية ترد زعمهم هذا وتبطله. وقد ذكر شيح الإسلام ابن تيمية في معرض رده على هؤلاء المتكلمين في رسالته "العرشية" أن الآيات والأحاديث قد دلت على أن العرش مباين لغيره من المخلوقات، وأن الله قد اختصه وميزه بأمور كثيرة، منها أن له حملة يحملونه اليوم ويوم القيامة، وأن الله قد أخبر بوجوده قبل خلق السموات والأرض، وقبل وجود الأفلاك، وأن الله سبحانه تمدح نفسه بانه ذو العرش، ووصف العرش بأنه مجيد وعظيم وكريم، فكل هذه الميز والخصائص تبطل قول المنازع، لأنه يقول بان نسبة الفلك الأعلى إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه، ذلك، لأنه لو كان العرش من جنس الأفلاك لكان إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه، وهذا لا يوجب خروجه عن الجنس وتخصيصه بالذكر"[١].

كما أن مما يدل على فساد قولهم ما ثبت في الشرع من أن للعرش قوائم، وأنه يهتز، ومعلوم أن الأفلاك مستديرة، وليس لها قوائم، كما أنها متحركة دائما بحركة متشابهة لا تتغير، كما ثبت أيضا أن العرش أثقل الأوزان، وهم يقولون إن الفلك لا ثقيل ولا خفيف[٢].

فعلم مما تقدم انتفاء الدليل العقلي عند هؤلاء، كما علم مخالفتهم للأدلة الشرعية وإبطالها لأقوالهم، ويضاف إلى هذا أيضا مخالفتهم للغة العرب، فالعرب لا تفهم من كلمة العرش هذا المعنى، ولا هو مستعمل في لغتها والقرآن إنما نزل بما يفهمون، وبعد هذا كله لا تبقى أدنى شبهة في فساد هذا القول وبطلانه. والله أعلم.

---

(١) الرسالة العرشية (ص ٣- ٧).

(٢) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (ص٣٦٣).

المسألة الثانية: خلق العرش وهيئته

إن أول صفة نذكرها لعرش البارئ- سبحانه وتعالى- كونه مخلوقا من مخلوقات الله تعالى، ذلك لأن كل ما على الوجود هو مخلوق خلقه الله تعالى وأوجده، قال الله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، فكل شيء في هذا الكون مخلوق، والعرش من ضمن هذا الكون، فهو مخلوق أيضا.

وسلف الأمة وأئمتها يقولون: إن القرآن والسنة قد دلا على أن العرش مخلوق من مخلوقات الله تعالى خلقه وأوجده، قال تعالى: {هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}، فالعرش موصوف بأنه مربوب، وكل مربوب مخلوق، فالعرش مخلوق من مخلوقات الله.

وقد دلت الآيات والأحاديث على أن خلق العرش متقدم على خلق السموات والأرض، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ}، فالآية تدل على أن العرش كان موجودا على الماء قبل خلق السموات والأرض، ويؤيد تفسير الآية بهذا المعنى حديث عمران بن حصين رَضِوَاللَّهُ عَنْهُ الذي جاء فيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض"(١).

وأما مسألة خلق العرش فقد-جاء ذكرها في حديث أبي رزين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه، قال: "كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء"(٢).

وهذه الأدلة التي استدل بها السلف على إثبات خلق العرش فيها أبلغ الرد

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٨).

(٢) تقدم تخريجه.

على من زعم من الفلاسفة أن العرش هو الخالق الصانع، أو أنه: لم يزل مع الله تعالى.

ولقد خالف السلف في قولهم هذا بعض أهل الكلام، الذين زعموا أن السموات والأرض كانتا مخلوقتين قبل العرش، وهم بزعمهم هذا الذي لا دليل لهم عليه إنما يحاولون به إخراج الاستواء عن حقيقته في قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، ليكون معنى الاستواء في الآية على زعمهم بمعنى القدرة على العرش والاستيلاء عليه، ذلك لأنهم لو سلموا أن العرش مخلوق قبل السموات والأرض لقيل لهم: إنكم تزعمون أن "استوى" بمعنى: استولى، فلماذا تأخر الاستيلاء إلى ما بعد خلق السموات مع أنه كان موجودا قبل ذلك، فهم- فرارا من هذا الأمر- ادعوا أن العرش مخلوق بعد السموات والأرض.

وقد رد الإمام ابن القيم في "مختصر الصواعق": (٢/ ١٣١) على زعمهم هذا بقوله: "إن هذا لم يقله أحد من أهل العلم أصلا، وهو مناقض لما دل عليه القرآن والسنة وإجماع المسلمين أظهر مناقضة، فإنه تعالى أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وعرشه حينئذ على الماء، وهذه واو الحال، أي: خلقها في هذه الحال، فدل على سبق العرش والماء للسموات والأرض، وفي "الصحيح" عنه ﷺ: "قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء".اهـ.

وكذلك فيما ذكرناه من أدلة على سبق خلق العرش للسموات والأرض فيه رد على زعم هؤلاء، وبيان مدى مخالفة قولهم للكتاب والسنة.

وبعد أن علمنا أسبقية خلق العرش على خلق السموات والأرض، وإجماع

سلف الأمة على ذلك، نود أن نتطرق في هذا المبحث أيضا إلى ترتيب خلق العرش مع غيره من المخلوقات من حيث الأولوية في الخلق.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة على عدة أقوال

القول الأول: أن القلم أول المخلوقات، وأنه أسبق في الخلق من العرش، وهذا القول هو اختيار ابن جرير الطبري، وابن الجوزي، وهو ما يفهم في الظاهر من قول من صنف في الأوائل، كابن أبي عروبة الحراني، وأبي القاسم الطبراني[1].

والدليل على هذا القول حديث عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب، قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة... " الحديث[2]. قال ابن جرير في

---

(١) انظر "تاريخ الطبري": (١/ ٣٦)، "البداية والنهاية": (١/ ٨)، "توضيح المقاصد وتصحيح القواعد": (١/ ٣٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧، رقم ٢٢٧٥٧)، وابن أبى شيبة (٧/ ٢٦٤، رقم ٣٥٩٢٢)، والطيالسي (٥٧٧)، وأبو داود (٤/ ٢٢٥، رقم ٤٧٠٠)، والترمذى (٤/ ٤٥٢، رقم ٣٣١٩)، وابن جرير فى تفسيره (٢٩/ ١٧)، وابن أبي عاصم (١٠٤، ١٠٥، ١١١)، وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ١٩١ - ١٩٢)، والشاشي (١١٩٣)، والطبرانى فى مسند الشاميين (١/ ٥٨، رقم ٥٩)، والبيهقى في الكبرى (١٠/ ٢٠٤، رقم ٢٠٦٦٤)، والضياء في المختارة (٨/ ٣٥٢، رقم ٤٣١)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣٥٧) و(١٠٩٧)، والمزي في ترجمة عبد الواحد بن سليم من تهذيب الكمال (١٨/ ٤٥٦ - ٤٥٧ و٤٥٧) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه وقد روي عن غيره من الصحابة، والحديث حسنه الترمذي في موضع، وصححه الطبري في تاريخه (١/ ٣٢)، وقال المصنف في أحكام القرآن (٤/ ٤٢٠) ثابت، وقال شيخ الإسلام في بغية المرتاد (٣٧٥) معروف، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٧/ ٣٧٩): حديث صحيح.

تاريخه (١/ ٣٥، ٣١) عند ترجيح هذا القول: "وقول رسول الله ﷺ الذي رويناه عنه أولى قول في ذلك بالصواب، لأنه كان أعلم قائل في ذلك قولا بحقيقته وصحته... من غير استثناء منه شيئا من الأشياء أنه تقدم خلق الله إياه خلق القلم، بل عم بقوله ﷺ: "إن أول شيء خلقه الله القلم"، وإن القلم مخلوق قبله من غير استثنائه من ذلك عرشا ولا ماء ولا شيئا غير ذلك".

القول الثاني: أن الماء أول المخلوقات، وأنه مخلوق قبل العرش.

وهذا القول ذكره ابن جرير ونقله عنه ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٩)، وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٢٨٩): قوله: "وكان عرشه على الماء" قال الطيبي: هو فصل مستقل لأن القديم من لم يسبقه شيء، ولم يعارضه في الأولية، لكن أشار بقوله: "وكان عرشه على الماء" إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خلقا قبل خلق السموات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء. ومحصل الحديث أن مطلق قوله: "وكان عرشه على الماء" مقيد بقوله: "ولم يكن شيء غيره" والمراد بكان في الأول الأزلية وفي الثاني الحدوث بعد العدم. وقد روى أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي رزين العقيلي مرفوعا: "أن الماء خلق قبل العرش"(١)" وروى السدي في تفسيره بأسانيد متعددة "أن الله لم يخلق شيئا مما خلق قبل الماء" وأما ما رواه أحمد والترمذي وصححه من حديث عبادة بن الصامت مرفوعا: "أول ما خلق الله القلم، ثم قال اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة" فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة،

---

(١) ذكر الحافظ معنى الحديث وإلا فالحديث ليس بهذا اللفظ ولفظه (كان في عماء، فوقه هواء، وما تحته هواء، ثم خلق العرش على الماء) وقد تقدم تخريجه.

أي أنه قيل له اكتب أول ما خلق، وأما حديث: "أول ما خلق الله العقل" فليس له طريق ثبت، وعلى تقدير ثبوته فهذا التقدير الأخير هو تأويله والله أعلم.اهـ.

القول الثالث: أن أول شيء خلقه الله ﷻ من خلقه النور والظلمة، وهذا القول ذكره ابن جرير في تاريخه (١/ ٣٣) وعزاه إلى ابن إسحاق.

القول الرابع: أن العرش هو أول المخلوقات: وهذا القول هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وشارح "العقيدة الطحاوية"، ونسبه ابن كثير وابن حجر- نقلا عن أبي العلاء الهمداني- إلى الجمهور، ومال إليه ابن حجر- أيضا[١].

واستدلوا على قولهم هذا بما رواه مسلم في صحيحه (٢٦٥٣) بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا، قال: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء". ففي هذا الحديث تصريح بان التقدير وقع بعد خلق العرش، وحديث عبادة صريح بان التقدير وقع عند أول خلق القلم، فدل ذلك على أن العرش سابق على القلم.

ومما يؤيد هذا القول أيضا حديث عمران بن حصين المتقدم: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض". فالحديث يدل على أن العرش كان موجودا قبل كتابه المقادير.

وهذا هو الراجح من الأقوال، وأما القول الثاني "أن الماء أول المخلوقات"

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢١٣)، ومختصر الصواعق المرسلة (١/ ٣٢٣)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٩٩، ١٠٠)، والبداية والنهاية (١/ ٩)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص٢٩٥)، وفتح الباري (١/ ٢٨٩).

واستدلال ابن حجر بحديث، أبي رزين "أن الماء خلق قبل العرش" فغير صحيح، لأنه لم يرد في حديث أبي رزين هذا اللفظ، وإنما ورد فيه: "ثم خلق عرشه على الماء"، وليس في هذا ما يدل على أولية الماء، ثم إن الحديث ضعيف على الراجح.

وأما ما رواه السدي فهو أيضا لا يصلح للاحتجاج، لكونه أثرا لم يثبت عن النبي ﷺ ما يدل على ذلك.

وأما القول الثالث: وهو قول ابن إسحاق فهو أيضا غير صحيح، ولعله أخذه من الإسرائيليات كما أخذ غيره من الأمور، وقد قال ابن جرير في تاريخه (١/ ٣٣) في هذا القول: "وأما ابن. إسحاق فإنه لم يسند قوله الذي قاله في ذلك إلى أحد، وذلك من الأمور التي لا يدرك علمها إلا بخبر من الله ﷻ أو خبر من رسول الله ﷺ".اهـ.

أما القول الأول فقد أجاب الجمهور على استدلالهم بحديث عبادة بن الصامت بقولهم: لا يخلو قوله "أول ما خلق الله القلم... " إلخ من أن يكون جملة أو جملتين، فإن كان جملة- وهو الصحيح- كان معناه أنه عند أول خلقه قال له: "اكتب" كما في اللفظ، "أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب" بنصب "أول" و"القلم"، فعلى هذا تكون الأولية راجعة إلى الكتابة لا إلى الخلق.

وإن كانت جملتين وهو مروي برفع "أول" و"القلم " فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، فيتفق بهذا الحديثان، إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم"[1].

المسألة الثالثة: هيئة العرش

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية (ص ٩٨، ٩٩)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص٢٩٥، ٢٩٦).

فقد دلت الأحاديث على أنه مقبب الشكل، وأنه على هذا العالم المكون من السموات والأرض وما فيهما كهيئة القبة، وهذا ما يدل عليه حديث الأعرابي المتقدم الذي جاء فيه أن النبي ﷺ قال: "إن عرشه على سمواته وأراضيه هكذا"، وأشار بأصابعه مثل القبة، ويؤيد وصف هيئة العرش بهذه الصفة ما جاء في الحديث الآخر: "إذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلاها، وفوقه عرش الرحمن" فالحديث يبين أن الفردوس أوسط الجنة، وأعلاها، والجنة كما جاء في الحديث الآخر مائة درجة، وما بين كل درجة ودرجة كما بين السموات والأرض، فكون العرش سقفا للفردوس- الذي هو أوسط الجنة وأعلاها- يدل على أنه مقبب لأن هذه الصفة لا تكون إلا في المستدير. والعرش له قوائم كما جاء في الحديث الصحيح: "لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش" الحديث.

وفي إثبات كون العرش مقببا، وأن له قوائم تحمله، رد على من زعم من الفلاسفة أن العرش فلك من الأفلاك، أو أنه الفلك التاسع. وقد تقدم الرد على زعم هؤلاء، وكذلك فيه رد على من زعم أن العرش بمعنى الملك، لأنه لا يعقل أن يكون ماسكا بقائمة من قوائم الملك، وقد ذكر ابن كثير، والذهبي: أن العرش من ياقوتة حمراء، وقد استدلوا لهذا القول بما رواه إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت سعدا الطائي يقول: "العرش ياقوتة حمراء" وهذا القول فيه نظر، لذا قال العلامة الألباني في مختصر العلو (ص٩٩ - ١٠٠): [قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "العلو"]:

فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذه العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه

وسعته، وقوائمه وماهيته وحمَلتِه، والكروبيين الحافّين من حوله، وحسنه ورونقه وقيمته. فقد ورد أنه من ياقوتة حمراء، ولعل مساحته مسيرة خمسمائة ألف عام.

فعلق العلامة الألباني على ذلك في " مختصر العلو" قائلًا: عرش الرحمن تبارك وتعالى، نؤمن به، ونصفه بما ثبت في الكتاب والسنة فقط، فليت المؤلف رحمه الله تعالى وقف عندهما، ولم يزد عليهما وصفًا تظننًا ورجمًا بالغيب، لا سيما وهو قد ذكر فيما يأتي من الأصل عن وهب بن منبه أنه قال: "العرش مسيرة خمسين ألف سنة" فقال خمسين، ولم يقل خمسمائة! وهو على كل حال من الإسرائيليات التي لا فائدة من ذكرها إلا للتنبيه، ولذلك حذفته من هذا المختصر.

المسألة الرابعة: مكان العرش

إن الآيات والأحاديث التي جاء فيها ذكر عرش الرحمن تبارك وتعالى لتدل دلالة واضحة على أن لعرش الرحمن مكانا قبل وجود السموات والأرض وبعد خلقهما، فأما مكانه قبل خلق السموات والأرض فالآيات والأحاديث تبين لنا أن مكانه على الماء، فالله سبحانه يقول في كتابه الكريم: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماء}.

قال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤): "وقوله: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماء}، يقول وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض وما فيهن، وعن أبي نجيح عن مجاهد في قول الله {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماء} قبل أن يخلق شيئا".اهـ.

وأما الأدلة من السنة على ذلك فكثيرة، منها حديث عمران بن حصين المتقدم الذي جاء فيه: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء،

وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض".

وكذلك ما جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص المتقدم: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء".

وكذلك حديث أبي رزين العقيلي المتقدم قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه، قال: "كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء".

فكل من الآية والأحاديث تدل دلالة قاطعة على أن مكان العرش منذ خلقه على الماء، وليس المراد بالماء هنا ماء البحر، لأن ماء البحر إنما وجد بعد خلق السموات والأرض، وإنما الماء المذكور هنا ماء آخر تحت العرش على ما شاء الله تعالى[١].

وقد سئل حبر الأمة عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن قوله تعالى: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماء} على أي شيء كان الماء، قال: على متن الريح[٢].

وعن سليمان التيمي أنه قال: "لو سألت أين الله، لقلت: في السماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل السماء، لقلت: على الماء، فإن قال: فأين كان عرشه قبل الماء، لقلت: لا أعلم، قال أبو عبد الله وذلك لقوله تعالى: {وَلا يُحِيطُونَ

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٤١١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف(٥/ ٩٠ (٩٠٨٩)، وفي تفسيره (١/ ٢٦٤، (١١٨٥)، والطبري في تفسيره (٧/ ٦، ١٧٩٩٨)، في تاريخه (١/ ٤٠)، والنحاس في معاني القرآن (٣/ ٣٣٢)، والحاكم (٢/ ٣٣٧) والأثر صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال العلامة الألباني في ظلال الجنة (٥٨٤): صحيح موقوف.

بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِما شَاءَ}[1].

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٧/ ٦٨١): قول تعالى: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} (هود:٧)، ممكن تفسرها لنا، جزاك الله خير.

فأجاب: المسألة لا تحتاج إلى تفسير بأكثر مما هو واضح؛ لأن هذه من الأمور الغيبية التي لا يجوز للمسلمين التوسع فيها، وإدخال العقل العاجز عن إدراك المغيبات، وتصويرها في حدود المشاهدات، فكون ربنا يقول: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} (هود:٧)، هو خلق من خلق الله ﷻ، كان العرش ولا يزال على الماء، لكن هذا بلا شك لا يعني أن الماء قديم أزلي لا أول له، وأن العرش أيضًا قديم أزلي لا أول له، لأن كل ما سوى الله ﷻ فهو مخلوقٌ مسبوقٌ بالعدم، فربنا ﷻ حينما يتحدث في القرآن الكريم عن هذه الحقيقة الخَلْقِيَّة الغيبية عن الناس، يخبرنا بأن العرش ليس على السماء: أجرام، وإنما على الماء، وليس إلا هذا في الآية، وكثير من الناس اليوم يتأولون النصوص القرآنية ببعض الاكتشافات العلمية، وهذا عبارة عن تَظَنُّن إن لم نقل إنه تخرُّص؛ لأننا لو سألنا العلم اليوم الذي يُعْرَفُ بالعلم التجريبي والعلم الفلكي، ما هي السماوات السبع المنصوص عليها في القرآن الكريم، طبعًا سيقف أمامها حائرًا؛ حتى الملاحدة منهم نحن لا نتحدث عمَّا وراء الطبيعة، نحن نتحدث عما أُحيط به علمًا، فنحن لا نعلم إلا هذا الفراغ الذي بعد مائتين.. ثلاثمائة كيلو متر كما يقولون، هذه ممتلئة بالهواء، ثم بعد ذلك فراغ مطلق فيها هذه الأجرام، وهذه الكواكب التي تعد بملايين الملايين، فهم لا يتحدثون إلا عما شاهدوا، ولذلك فهم لا يستطيعون التحدث عن السموات السبع بشيء، بالتالي لا يستطيعون أن

---

(١) خلق أفعال العباد (ص١٢٧).

يتحدثوا عن الماء الذي فوقه عرش الرحمن تبارك وتعالى، هذا ما يمكن الإجابة عن هذا السؤال.اهـ.

هذا مكان العرش قبل خلق هذا الكون الذي هو عبارة عن السموات والأرض، أما مكانه بعد خلق السموات والأرض فالحديث عنه من جانبين:

الجانب الأول: مكانه بالنسبة إلى الله تعالى مع غيره من المخلوقات.

الجانب الثاني: مكانه بالنسبة إلى السموات والأرض بعد خلقهما.

أما مكان العرش بالنسبة إلى الله تعالى مع غيره من المخلوقات فهو أقربها إليه سبحانه، وذلك لأن الله سبحانه قد أخبر أنه مستو على عرشه في أكثر من موضع في القرآن الكريم قال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ففي إثبات الاستواء على العرش دليل على قربه إليه، لأنه- سبحانه- مستو على أعلى مخلوقاته وأقربها إليه، وهذه ميزة امتاز بها العرش على ما سواه، ومما يؤيد كون العرش أقرب المخلوقات إلى الله ما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ولكن ربنا- تبارك وتعالى اسمه- إذا قضى أمرا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم، فيخبرونهم ماذا قال"[(١)].

فالحديث يدل على أن حملة العرش هم أول من يتلقى أمر الله، ثم يبلغونه للذين يلونهم من أهل السموات، فكونهم أقرب الخلق إلى الله دليل على أن العرش أقرب منهم إليه - سبحانه - لأنهم إنما يحملونه.

أما مكان العرش بالنسبة للسموات والأرض بعد خلقهما وهل مازال على

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٢٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الماء، فالجواب ما يلي: إن العرش ما يزال على الماء المذكور في الآية والأحاديث، بدليل ما جاء في حديث الأوعال، في قوله ﷺ: "ثم فوق السماء السابعة بحر، بين أعلاه وأسفله، مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك كله ثمانية أملاك أوعال، ما بين أظلافهم إلى ركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهم العرش[(١)]"، فالحديث يشير كما أسلفنا إلى وجود ذلك الماء الذي تحت العرش، وإلى أنه مازال موجودا إلى ما بعد خلق السموات والأرض، أما مكان العرش بالنسبة إلى السموات والأرض فهو أعلى منها، وفوقها، وهو كالقبة عليها، كما جاء في الحديث المتقدم: "إن عرشه على سمواته وأراضيه هكذا" وأشار بأصابعه مثل القبة، وكذلك ما جاء في حديث العباس بن عبد المطلب الذي يسمى حديث الأوعال، فكلا الحديثين يدلان

---

(١) جزء من حديث الأوعال أخرجه أحمد (١/ ٢٠٦)، وأبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجة (١٩٣)، وأبو يعلى (١٢/ ٧٥)، والحاكم (٢/ ٣١٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٣)، وابن عدى (٧/ ٢٠٠ ترجمة ٢١٠٤ يحيى بن العلاء الرازى)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٤٢ - ١٤٣)، وابن خزيمة في التوحيد (ص٦٨)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص١٩) والحديث حسنه الترمذي، وصححه ابن خزيمة والحاكم، وقال ابن القيم في إجتماع الجيوش الإسلامية (٨٧) حسن صحيح، وحسنه الذهبي في العرش (٢٤) وله فيه اجتهاد آخر، قلت الصواب أن الحديث ضعيف، فقد ضعفه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٨٤) ونقل عن البخاري تضعيفه للحديث، وقال ابن عدي في الكامل (٩/ ٢٧) غير محفوظ، وضعفه ابن القيسراني في الذخيرة (٤/ ١٨٦٨)، وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٣)، وأشار المزي إلى ضعفه في التهذيب (١٠/ ٣٩١)، وكذا الذهبي في العلو (٦٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند إسناده ضعيف جدا، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (١٢٤٧) وله هناك بحث ماتع فانظره، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده ضعيف جدا.

على أن العرش فوق السموات والأرض، وأعلى منهما، وهو كالسقف عليهما، بل هو سقف الجنة، كما في الحديث المتقدم: "إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن". فمكان العرش فوق السموات والأرض، وفوق الجنة، وهو أعلى المخلوقات، وأرفعها، وجميع المخلوقات دونه في العلو والارتفاع والله أعلم.

المسألة الخامسة: هل العرش داخلا فيما يقبض ويطوى

لقد خص الله- سبحانه وتعالى - العرش بخصائص منها ما انفرد بها العرش عن غيره من المخلوقات، ومنها ما اشترك بها العرش مع بعض المخلوقات الأخرى، فقد سبق أن علمنا أن العرش مخلوق قبل السموات والأرض، فهو بهذا ليس داخلا فيما خلق في الأيام الستة، ومعلوم أن الله- سبحانه- قد أخبر في كتابه وعلى لسان نبيه محمد ﷺ أنه يقبض يوم القيامة السموات والأرض ويطويها ويبدلها قال تعالى: {وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأرض جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِياتٌ بِيَمِينِهِ}، وقال تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّماوَاتُ}، وقال تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}، وقال تعالى: {إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}، وقال تعالى: {إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ}.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: "يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض"، وفي "صحيح مسلم" عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "يطوي الله السموات يوم القيامة، ثم ياخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا

الملك أين الجبارون، أين المتكبرون".

فالآيات والأحاديث السابقة تدل على أن السموات والأرض وما فيهما تقبض، وتطوى، وتبدل.

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى، كالجنة، والنار، والعرش[١]، فعلى هذا يكون العرش ليس داخلا فيما يقبض، ويطوى، ويبدل، والأدلة على بقاء العرش كثيرة في الكتاب والسنة، فالله سبحانه وتعالى يقول مخبرا عن بقاء عرشه يوم القيامة: {وَحُمِلَتِ الأرض وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ}، وكذلك ما جاء في سورة الزمر من إخباره تعالى بقبضه للأرض، وطيه للسموات بيمينه، وذكر نفخ الصور، وصعق من في السموات والأرض، إلا من شاء الله، ثم ذكر النفخة الثانية التي يقومون بها، وأن الأرض تشرق بنور ربها، وأن الكتاب يوضع، ويجاء بالنبيين والشهداء، وأنه توفى كل نفس بما عملت، وذكر سوق الكفار إلى النار، وسوق المؤمنين إلى الجنة، إلى أن قال تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ـ فالآيات فيها إخبار عن الموقف يوم القيامة، والشاهد أن العرش باق حتى بعد انتهاء الحساب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض التأسيس (١/ ١٥١): "وأما العرش فلم يكن داخلا فيما خلقه في الأيام الستة، ولا فيما يشقه ويفطره، بل الأحاديث

---

(١) الفتاوى (١٨/ ٣٠٧).

المشهورة دلت على ما دل عليه القرآن من بقاء العرش، فقد ثبت في الصحيح أن جنة عدن سقفها عرش الرحمن، قال ﷺ: "إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وفوقه عرش الرحمن".

المسألة السادسة: حملة العرش

إن كون عرش الرحمن له حملة يحملونه هو أمر ثابت في الكتاب والسنة، فقد جاء ذكر حملة العرش في موضعين من القرآن الكريم، قال الله تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}، وقال تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}.

فالآيتان تدلان على أن لعرش الله حملة يحملونه اليوم ويوم القيامة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض التأسيس (١/ ٥٧٥): "إن قوله: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ}، وقوله: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} يوجب أن لله عرشا يحمل، ويوجب أن ذلك العرش ليس هو الملك كما تقوله طائفة من الجهمية، فإن الملك هو مجموع الخلق، فهنا دلت الآية على أن لله ملائكة من جملة خلقه، يحملون عرشه، وآخرون يكونون حوله، وعلى أنه يوم القيامة يحمله ثمانية".اهـ.

وأما السنة فهي مليئة بالأحاديث والآثار الدالة على أن لعرش الرحمن حملة من الملائكة يحملونه: ففي حديث جابر بن عبد الله المتقدم قال: قال رسول الله ﷺ: "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام".

وكذلك ما جاء في حديث الأوعال المتقدم: "ثم فوق ذلك ثمانية أملاك أوعال، ما بين أظلافهم إلى ركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهم العرش".

والقول بان حملة العرش هم من الملائكة هو قول السلف، الذين يثبتون العرش على أنه جسم عظيم خلقه الله فوق العالم، وأن الله استوى عليه بعد أن خلق السموات والأرض، وهذا ما جاء به القرآن والسنة، وأجمع عليه السلف من الصحابة والتابعين ومن تبعهم.

وأما الذين أنكروا استواء الله على عرشه وقالوا: إن استوى بمعنى: استولى، وأن المراد بالعرش: الملك، فإنهم أنكروا أيضا كون حملة العرش هم من الملائكة فقالوا: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، {وَيَحْمِلُ} بالجذب {عَرْشَ رَبِّكَ} ملك ربك للأرض والسموات، {فَوْقَهُمْ}، أي: فوق الملائكة الذين هم على أرجائها يوم القيامة، {ثَمَانِيَةٌ}، أي: السموات السبع والأرض، وقيل المراد بالثمانية: السموات والكرسي[(١)]. فقد أولوا هذه الآية، كما أولوا آيات الاستواء التي جاء فيها ذكر عرش الرحمن - تبارك وتعالى -.

وأما الصنف الآخر الذين زعموا أن العرش المذكور في الآيات المراد به: الفلك التاسع، وهم الفلاسفة، فهم يقولون: إن المراد بالحملة الثمانية في قوله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} الثمانية أفلاك التي تحت الفلك المحيط، أو ما يسمونه الفلك التاسع[(٢)]، وقد تقدم الرد على كلا الفريقين أثناء الكلام على الأقوال في العرش.

---

(١) الفصل (٢/ ١٢٦)، وتفسير القاسمي (١٦/ ٥٩١٥).
(٢) تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات "رسالة النبوات" (ص٨٧).

فمما تقدم تقرر أن لعرش الله حملة من الملائكة يحملونه بقدرة الله، وقد أخبرنا الله تعالى أنهم يوم القيامة ثمانية، ولكن اختلف في هؤلاء الثمانية هل هم ثمانية أملاك، أم ثمانية أصناف، أم صفوف، وهل هم اليوم ثمانية، أم أقل، على عدة أقوال:

القول الأول: أن المراد بالثمانية: ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم عدتهم إلا الله، وهذا القول مروي عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، قال: "ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم عدتهم إلا الله "[1]، وهو أيضا مروي عن سعيد بن جبير[2]، والشعبي، وعكرمة، والضحاك، وابن جريج.

القول الثاني: أن المراد بالثمانية: أنهم ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة، وهذا القول مروي عن ابن عباس[3]، وقال به مقاتل، والكلبي.

القول الثالث: أن حملة العرش هم اليوم ويوم القيامة ثمانية من الملائكة.

ويستدل لهذا القول بحديث العباس بن عبد المطلب المتقدم الذي جاء فيه: "ثم فوق ذلك ثمانية أملاك أوعال، ما بين أظلافهم إلى ركبهم مثل ما بين سماء

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ٢١٥- ٢١٦، رقم ٣٤٧٨٨، ٣٤٧٩٠)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٤٠٩) وعزاه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وإسناده ضعيف.

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في "كتاب السنة": ص ١٦٦ بسنده من طريق عبد الأعلى بن حماد عن يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير مثله. وأورده الذهبي في "العلو": ص ٨٨، عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير مثله. وأورده ابن كثير في "تفسيره": (٤/ ٢١٤) من طريق ابن أبي حاتم بسنده عن جرير عن أشعث عن جعفر بن سعيد بن جبير بمثله مقطوع، وإسناده جيد، ورجاله كلهم ثقات وصدوق سوى جعفر بن أبي المغيرة فإنه صدوق يهم.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش (ص٣٧٦، رقم ٢٧) وإسناده ضعيف.

إلى سماء، ثم فوق ظهورهم العرش". فالحديث يدل على أن حملة العرش هم اليوم ثمانية.

وروي عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه في قوله تعالى:: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، قال: "ثمانية أملاك في صورة الأوعال، بين أظلافهم وركبهم مسيرة ثلاث وستين أو خمس وستين سنة"(١). وكذلك ما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: "حملة العرش ثمانية ما بين موق أحدهم إلى مؤخرة عينه مسيرة مائة عام"(٢).

وعن الربيع بن أنس في قوله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، قال: ثمانية من الملائكة(٣).

وعن شهر بن حوشب قال: "حملة العرش ثمانية: أربعة منهم يقولون

---

(١) أخرجه الدارمي في "الرد على بشر المريسي": ص ٤٤٩ مختصرا، ولفظه: "وثمانية أملاك في. صورة الأوعال"..اهـ.. وأخرجه ابن خزيمة في "التوحيد": ص ١٠٩ من طريقين: الأول: مختصرا كما ورد عند الدارمي، والثاني: مطولا، ولكن بلفظ: "ما بين أظلافهم إلى ركبهم ثلاث وستون سنة". وأخرجه الحاكم في "المستدرك": (٢/ ٣٧٨) مطولا ولفظه: "ما بين أظلافهم إلى ركبهم مسيرة ثلاث وستين سنة أو خمس وستين سنة"، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، -وفيه نظر- جميعهم من طريق شريك عن سماك عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس موقوفا. وأورده السيوطي في "الحبائك": ص ٤٦، من طريق عبد بن حميد وعثمان بن سعيد الدارمي، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن خزيمة، وابن مردويه، والحاكم وصححه، وفيه نظر لأن إسناده ضعيف.

(٢) ذكره ابن كثير في "تفسيره" عن ابن أبي حاتم: (٤/ ٤١٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش (٣٨١، رقم ٣١) أورده السيوطي في "الدر المنثور": (٦/ ٢٦١) من طريق عبد بن حميد عن الربيع بن أنس مثله، وإسناده منقطع، وفيه ضعف لسوء حفظ أبي جعفر الرازي.

سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك"(١).

القول الرابع: أن حملة العرش اليوم أربعة من الملائكة، ويوم القيامة ثمانية، وهذا القول رجحه ابن كثير في تفسيره ٤/ ٧١)، وابن الجوزي، ونسبه للجمهور كما في "زاد المسير": (٧/ ٢٠٨، ٣٥٠).

ويستدل لهذا القول بعدة أدلة منها: ما رواه الطبري بسنده عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: "يحمله اليوم أربعة، ويوم القيامة ثمانية"(٢).

وروى الطبري أيضا بسنده عن ابن إسحاق قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره": (ق ٢٨٤/ ب)، والطبري في "تفسيره": (١٩/ ٧) كلاهما من طريق جعفر بن سليمان عن هارون بن رياب عن شهر بن حوشب من قوله.
وقد روي الحديث من وجه آخر عن هارون بن رياب.
أخرجه أبو الشيخ في "العظمة": (ق ٨٥/ ب) بسنده عن رواد بن الجراح عن الأوزاعي عن هارون بن رياب نحوه، والبيهقي في "شعب الإيمان": (١/ ١/ ٩١/ ب)، نسخة الشيخ حماد الأنصاري، بسنده عن العباس بن الوليد بن مزيد قال: أخبرني أبي، قال: سمعت الأوزاعي قال: حدثني هارون بن رياب بنحوه.
وأورده السيوطي في "الدر المنثور": (٥/ ٣٤٦)، و"الحبائك": ص ٤٧، وعزاه إلى ابن المنذر، وأبي الشيخ، والبيهقي في "شعب الإيمان". وجاء عندهم جميعا زيادة: "يتجاوبون بصوت حزين رخيم". وروي أيضا من وجه آخر عن حسان بن عطية.
أخرجه أبو نعيم في "الحلية": (٦/ ٧٤) عن أحمد بن إسحاق ثنا عبد الله ثنا عباس بن الوليد أخبرني أبي ثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية بنحوه.
وأورده الذهبي في "العلو": ص ٥٨، قال: الوليد بن مزيد العذري حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية ثم ذكر نحوه، وقال: إسناده قوي.

(٢) أخرجه الطبرى في تفسيره(٢٩/ ٥٩)، وإسناده ضعيف مع انقطاعه.

قال: "هم اليوم أربعة"، يعني: حملة العرش، "وإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية"[(١)].

واستدلوا أيضا بما جاء من ذكر أسماء حملة العرش في شعر أمية، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صدق أمية بن أبي الصلت في شيء من شعره فقال:

رجل وثور تحت رجل يمينه   والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "صدق"[(٢)].

واستدلوا أيضا بما جاء في حديث الصور المشهور، فقد جاء فيه: {وَيَحْمِلُ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره(٢٩/ ٥٩)، وإسناده ضعيف كما هو بين.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٦ رقم ٢٣١٤)، والدارمي (٢/ ٣٨٣ رقم ٢٧٠٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٧٢ رقم ٢٦٠١٣)، وأبو يعلى (٤/ ٣٦٥ رقم ٢٤٨٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧٩)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١١٦٨)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٠٤)، والطحاوي (٤/ ٢٩٩)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢٣٣ رقم ١١٥٩١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص:٣٦٠)، والحديث قال عنه ابن العربي في العارضة (٦/ ٣٧٩): لم يصح، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٢٧): "رجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس"، وقال المعلمي في الأنوار الكاشفة (ص٢٤٢): مداره على محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عكرمة عن ابن عباس، وقال في مجمع الزوائد (١٢٧:٨): رجاله ثقات، إلا أن ابن إسحاق مدلس، والمدلس لا يحتج بخبره وحده مالم يتبين سماعه، وضعفه العلامة الألباني في ظلال الجنة (٥٧٩)، وقال الأرنؤوط هو ومن معه في تحقيق المسند (٤/ ١٥٩): إسناده ضعيف، محمد بن إسحاق مدلس وقد رواه بالعنعنة، والتصريح بالتحديث في بعض الروايات عند غير المصنف، إنما جاء عن غير الثقات من أصحابه.

(تنبيه) قول ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٩): حديث صحيح الإسناد رجاله ثقات، وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة". وكذا قول الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، متعقب بما تقدم.

عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾، وهم اليوم أربعة، أقدامهم على تخوم الأرض السفلى، والسموات إلى حجزهم، والعرش على مناكبهم...."[1]. ولعل هذا القول هو الأقرب إلى الصواب، ولكن ليس هناك نص صريح ثابت عن النبي ﷺ في المسألة و الله أعلم.

انظر كتاب العرش وما رُوِي فيه، تحقيق محمد بن خليفة بن علي التميمي.

المسألة السابعة: استغناء الله تعالى عن العرش

قال العلامة الألباني في تعليقه على متن الطحاوية (ص٥٢ - ٥٣): بعد نقل كلام شارح الطحاوية على قول الماتن:"وهو مستغن عن العرش وما دونه".مقررًا إياه فقال: قال الشارح رحمه الله تعالى: وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا؛ لأنه لما ذكر العرش والكرسي ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش؛ ليبين أن خلقه العرش لاستوائه عليه ليس لحاجته إليه،

(١) جزء من حديث يسمى عند العلماء حديث الصور أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٨٦)، (٣٨٧)، وابن جرير في تفسيره (٢/ ٣٣٠-٣٣١) والبيهقي في البعث والنشور (٦٦٨و٦٦٩)، وأورده السيوطي في الدر المنثور (٥ / ٣٣٩، ٣٤٢) وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وعلي بن سعيد في كتاب " الطاعة والعصيان"، وأبي يعلى، وأبي الحسن القطان في " المطولات " وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي موسى المديني كلاهما في " المطولات"، والحديث قال عنه ابن كثير في تفسير (٢/ ١٤٧): هذا حديث مشهور وهو غريب جدا، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة وفي تهذيب التهذيب (٩/ ٣٢٤) قال الإمام أحمد رجاله لا يعرفون، وقال البخاري لم يصح، وقال ابن حبان لست أعتمد على إسناده، وقال الأزدي ليس بالقائم في إسناده نظر، وقال الدارقطني: لإسناده لايثبت.اهـ، وضعفه أيضا العقيلي في الضعفاء (٤/ ١٤٧)، والبيهقي، وعبد الحق، والحافظ في المطالب العالية (٣/ ٩٩)، وقال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/ ٧٨٨): ظاهره النكارة.

بل له في ذلك حكمة اقتضته وكون العالي فوق السافل لا يلزم أن يكون السافل حاويًا للعالي محيطًا به حاملًا له، ولا أن يكون الأعلى مفتقرًا إليه، فانظر إلى السماء كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها، فالرب تعالى أعظم شأنًا وأجل من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه، وهي حمله بقدرته للسافل وفقر السافل وغناه هو سبحانه عن السافل وإحاطته ﷻ به فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش وفقر العرش إليه وإحاطته بالعرش وعدم إحاطة العرش به وحصره للعرش وعدم الحصر للعرش له. وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق.

ونفاة العلو أهل التعطيل لو فَصَّلوا بهذا التفصيل لهُدوا إلى سواء السبيل وعلموا مطابقة العقل للتنزيل، ولسلكوا خلف الدليل، ولكن فارقوا الدليل فضلُّوا عن سواء السبيل. والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سئل عن قوله تعالى: {ثم استوى على العرش} (الأعراف: ٥٣) وغيرها: كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول.

المسألة الثامنة: هل يلزم من إثبات نزوله تعالى خلو العرش منه لأهل السنة في المسألة ثلاثة أقوال

القول الأول: ينزل ويخلو منه العرش، وهو قول طائفة من أهل الحديث.

القول الثاني: ينزل ولا يخلو منه العرش، وهو قول جمهور أهل الحديث.

ومنهم الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، وحماد بن زيد، وعثمان ابن سعيد الدارمي وغيرهم.

القول الثالث: نثبت نزولًا، ولا نعقل معناه هل هو بزوال أو بغير زوال.

وهذا قول ابن بطة والحافظ عبد الغني المقدسي وغيرهما.

أما القول الأول: وهو أنه ينزل ويخلو منه العرش، فمن قال به: أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق بن منده[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح حديث النزول (ص١٦١-١٦٢): "وقد صنف أبو القاسم عبد الرحمن ابن أبي عبد الله بن محمد بن منده، مصنفًا في الإنكار على من قال لا يخلو منه العرش وسماه " الرد على من زعم أن الله في كل مكان، وعلى من زعم أن الله ليس له مكان، وعلى من تأول النزول على غير النزول".

وقد لخص شيخ الإسلام كما في شرح حديث النزول (ص١٦١-٢٠١): جملة ما احتج به أبو القاسم ابن منده وبين أنه احتج بأحاديث النزول، وببعض أقوال السلف العامة كقولهم: (يفعل ما يشاء) وذكر بعض اعتراضاته على بعض النقول الواردة عن الأئمة.

وأوضح شيخ الإسلام ابن تيمية أنه لم ينقل على أحد من الأئمة المعروفين بالسنة بإسناد صحيح ولا ضعيف أن العرش يخلو منه.

وذكر أن كلام أبو القاسم بن منده من جنس كلام طائفة تظن أنه لا يمكن إلا أحد القولين:

---

(١) قال عنه الذهبي: (الحافظ العالم المحدث)، وقال عنه إسماعيل التيمي كما في طبقات الحنابلة: (خالف أباه في مسائل وأعرض عنه مشايخ الوقت)، وقال شيخ الإسلام عبد الله بن محمد الأنصاري: (كانت مضرته في الإسلام أكثر من منفعته)، وقال ابن رجب: (وهذا ليس بقادح -إن صح- فإن الأنصاري والتيمي وأمثالهما يقدحون بأدنى شيء ينكرونه من مواضع النزاع، كما هجر التيمي عبد الجليل الحافظ على قوله: (ينزل بالذات)، وهو في الحقيقة يوافقه في اعتقاده، لكن أنكر إطلاق اللفظ لعدم ورود الأثر به).

١- قول من يقول: إنه ينزل نزولًا يخلو منه العرش.

٢- وقول من يقول: ما ثم نزول أصلًا، كقول من يقول: ليس له فعل يقوم بذاته واختياره.

وهاتان الطائفتان ليس عندهما نزول إلا النزول الذي يوصف به أجساد العباد الذي يقتضي تفريغ مكان وشغل آخر. ثم منهم من ينفي النزول عنه، وينزهه عن مثل ذلك. ومنهم من أثبت له نزولًا من هذا الجنس، يقتضي تفريغ مكان وشغل آخر.

والقول بخلو العرش حال نزوله مرتبط بمسألة: هل يقال في النزول والإتيان والمجيء إنه بحركة وانتقال؟.

وقد اختلف أصحاب الإمام أحمد وغيرهم من المنتسبين إلى السنة والحديث في المسألة على ثلاثة أقوال ذكرها القاضي أبو يعلى في كتاب "اختلاف الروايتين والوجهين" (ص٥٢-٥٧): وهذه الأقوال هي:

١- أنه نزول انتقال وهو قول أبي عبد الله بن حامد.

٢-أنه نزول بغير انتقال وهو قول أبي الحسن التميمي وأهل بيته، وأن معناه: قدرته.

٣- الإمساك عن القول في المسألة، وهو قول أبي عبد الله بن بطة وغيره. ثم هؤلاء فيهم من يقف عن إثبات اللفظ مع الموافقة على المعنى وهو قول كثير منهم، ومنهم من يمسك عن إثبات المعنى وعن اللفظ.

والذي يخصنا من الأقوال الثلاثة قول ابن حامد الذي ذهب إلى أنه نزول انتقال وقال لأن هذا حقيقة النزول عند العرب، وهو نظير قوله في الاستواء بمعنى قعد.

قال القاضي أبو يعلى: "فذهب شيخنا أبو عبد الله -يعني ابن حامد- أنه نزول انتقال، وقال: لأن هذا حقيقة النزول عند العرب، وهذا نظير قوله في الاستواء، يعني قعد، وهذا على ظاهر حديث عبادة بن الصامت، ولأن أكثر ما في هذا أنه من صفات الحدث في حقنا، وهذا لا يوجب كونه في حقه محدثًا، كما الاستواء على العرش، هو موصوف به مع اختلافنا في صفته، وإن كان هذا الاستواء لم يكن موصوفًا به في القدم، وكذلك نقول تكلم بحرف وصوت، وإن كان هذا يوجب الحدث في صفاتنا، ولا يوجبه في حقه، كذلك النزول".

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في مختصر الصواعق (٢/ ٢٥٤-٢٥٥): "أما قول ابن حامد أنه نزول انتقال فهو موافق لقول من يقول يخلو منه العرش، والذي حمله على هذا إثبات النزول حقيقة، وأن حقيقته لا تثبت إلا بالانتقال، ورأى أنه ليس في العقل ولا في النقل ما يحيل الانتقال عليه، فإنه كالمجيء والإتيان والذهاب والهبوط، وهذه أنواع الفعل اللازم القائم به، كما أن الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، والقبض، والبسط أنواع للفعل المتعدي، وهو سبحانه موصوف بالنوعين، وقد يجمعهما كقوله {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف ٥٤].

والانتقال جنس لأنواع المجيء، والإتيان، والنزول، والهبوط، والصعود، والدنو، والتدلي ونحوها؛ وإثبات النوع مع نفي جنسه جمع بين النقيضين.

قالوا: وليس في القول بلازم النزول والمجيء والإتيان والاستواء والصعود محذور البتة ولا يستلزم ذلك نقصًا، ولا سلب كمال، بل هو الكمال نفسه، وهذه الأفعال كمال ومدح، فهي حق دل عليه النقل ولازم الحق حق".اهـ.

القول الثاني: أنه ينزل ولا يخلو منه العرش.

وهذا القول ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قول جمهور أهل الحديث.

وقال: "ونقل ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل في رسالته إلى مسدد، وعن إسحاق بن راهويه، وحماد بن زيد، وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهم".

قال القاضي أبو يعلى في إبطال التأويلات (١/ ٢٦١): "وقد قال أحمد في رسالته إلى مسدد: إن الله ﷻ ينزل في كل ليلة إلى السماء الدنيا ولا يخلو من العرش. فقد صرح أحمد بالقول إن العرش لا يخلو منه".

وسأل بشر بن السري حماد بن زيد، فقال: "يا أبا إسماعيل، الحديث الذي جاء "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا" يتحول من مكان إلى مكان؟ فسكت حماد بن زيد، ثم قال: هو في مكانه يقرب من خلقه كيف يشاء".

وقال إسحاق بن راهويه: "دخلت على عبد الله بن طاهر، فقال: ما هذه الأحاديث التي ترونها؟ قلت: أي شيء أصلح الله الأمير؟ قال: تروون أن الله ينزل إلى السماء الدنيا. قلت: نعم، رواه الثقات الذين يروون الأحكام. قال: أينزل ويدع عرشه؟ قال: فقلت: يقدر أن ينزل من غير أن يخلو العرش منه؟

قال: نعم. قلت: ولم تتكلم في هذا؟".اهـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح حديث النزول (ص١٥٣) عن قول إسحاق وقول حماد بن زيد: "وهذه والتي قبلها حكايتان صحيحتان رواتهما ثقات، فحماد بن زيد يقول: هو في مكانه، يقرب من خلقه كيف يشاء، فأثبت قربه مع كونه فوق عرشه. وعبد الله بن طاهر وهو من خيار من ولي الأمر بخراسان كان يعرف أن الله فوق العرش، وأشكل عليه أنه ينزل، لتوهمه أن ذلك يقتضي أن يخلو منه العرش، فأقره الإمام إسحاق على أنه فوق العرش، وقال له: يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش؟ فقال له الأمير: نعم. فقال له

إسحاق: لم تتكلم في هذا؟

يقول: فإذا كان قادرًا على ذلك لم يلزم من نزوله خلو العرش منه، فلا يجوز أن يعترض على النزول بأنه يلزم منه خلو العرش، وكان هذا أهون من اعتراض من يقول: ليس فوق العرش شيء، فينكر هذا وهذا".اهـ.

وقال العلامة الألباني في مختصر العلو (ص١٩٢ - ١٩٣): عن علي بن خشرم حدثنا إسحاق قال: دخلت على ابن طاهر، فقال: ما هذه الأحاديث يروون أن الله ينزل إلى السماء الدنيا؟ قلت نعم، رواها الثقات الذين يروون الأحكام. فقال: ينزل ويدع عرشه؟ فقلت يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش؟ قال: نعم. قلت: فلم تتكلم في هذا؟ إسناده صحيح، (فائدة): في قول إسحاق رحمه الله تعالى: "يقدر أن ينزل من غير أن

يخلو منه العرش" إشارة منه إلى تحقيق أن نزوله تعالى ليس كنزول المخلوق، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا دون أن يخلو منه العرش ويصير العرش فوقه، وهذا مستحيل بالنسبة لنزول المخلوق الذي يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر، وهذا الذي أشار إليه إسحاق هو المأثور عن سلف الأمة وأئمتها أنه تعالى لا يزال

فوق العرش، ولا يخلو العرش منه، مع دنوه ونزوله إلى السماء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهو الصواب، فراجع بسط ذلك في كتابه "شرح حديث النزول" (ص٤٢ - ٥٩).

القول الثالث: من يقول نثبت نزولًا ولا نعقل معناه، هل هو بزوال أو بغير زوال.

وهذا القول قال به ابن بطة، وعبد الغني المقدسي، وغيرهما.

قال ابن بطة: "فنقول كما قال: "ينزل ربنا عزوجل" ولا نقول: إنه يزول، بل ينزل كيف يشاء، لا نصف نزوله ولا نحده، ولا نقول: إن نزوله زواله".

وروى بسنده عن حنبل بن إسحاق قال: "قلت لأبي عبد الله: ينزل الله تعالى إلى سماء الدنيا؟ قال: نعم. قلت: نزوله بعلمه أم بماذا؟ قال: فقال لي: اسكت عن هذا، وغضب غضبًا شديدًا، وقال: مالك ولهذا؟ أمض الحديث كما روي بلا كيف".

وقال القاضي أبو يعلى في كتاب الروايتين والوجهين (ص٥٦-٥٧): "وحكى شيخنا -يعني ابن حامد- عن طائفة أخرى من أصحابنا أنهم قالوا: نثبت نزولًا لا يعقل معناه هل هو زوال أو بغير زوال، كما جاء الخبر، ومثل هذا ليس يمتنع في صفاته، كما يثبت له ذاتًا ينفي عنها ماهيتها، وهذه الطريقة هي المذهب، وقد نص أحمد عليها في مواضع". وذكر الأثر الذي ذكره ابن بطة عن حنبل.

المسألة التاسعة: هل يجلس النبي ﷺ على العرش؟

ورد عن مجاهد في **قول الله ﷻ**: **{عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا}** **[الإسراء: ٧٩] قال**: «**يجلسه على العرش**» **ولقد** لقد اختلف أهل العلم في قبول هذا الأثر أعني أثر مجاهد رحمه الله تعالى والقول به، وبما دل عليه.

فقبل فريق منهم أثر مجاهد رحمه الله تعالى وقالوا به، وممن ذهب إلى ذلك:

١- أبو عبيد القاسم بن سلام.

٢- أبو بكر عبدالله بن محمد ابن أبي شيبة.

٣- عثمان بن محمد بن أبي شيبة.

٤- هارون بن معروف (٢٣١هـ)

٥- إسحاق بن إبراهيم الحنظلي التميمي المعروف بابن راهويه

٦- إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل.

٧- عبدالوهاب بن عبدالحكم بن نافع الوراق (٢٥١هـ).

٨- محمد بن حماد بن بكر، أبو بكر المقرئ (٢٦٧هـ).

٩- محمد بن إسحاق، أبو بكر الصاغاني (٢٧٠هـ).

١٠- العباس بن محمد بن حاتم، أبو الفضل الدوري (٢٧١هـ).

١٠- محمد بن علي بن عبدالله أبو جعفر الوراق الجرجاني، يعرف بـ "حمدان" (٢٧١هـ).

١١- علي بن سهل بن المغيرة البغدادي البزار، أبو الحسن النسائي (٢٧١هـ). ١٢- علي بن داود بن يزيد التميمي البغدادي أبو الحسن القنطري (٢٧٢هـ). ١٣- أحمد بن محمد بن الحجاج أبو بكر المروذي (٢٧٥هـ).

١٤- سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني (٢٧٥هـ) قال: قال: من أنكر هذا فهو عندنا متهم، ما زال الناس يحدثون بهذا، يريدون مغايظة الجهمية؛ وذلك أن الجهمية ينكرون أن على العرش شيء. قال: ما ظننت أن أحدا يذكر بالسنة يتكلم في هذا الحديث.

١٥- أبو العباس هارون بن العباس الهاشمي (٢٧٦هـ).

١٦-حرب بن إسماعيل الكرماني (٢٨٠هـ).

١٧- أحمد بن أصرم بن خزيمة المزني (٢٨٥هـ).

١٨- إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم أبو إسحاق الحربي (٢٨٥هـ) قال: قال: هذا حدث به عثمان بن أبي شيبة (٢٣٩هـ) في المجلس على رؤوس

الناس، فكم ترى كان في المجلس عشرين ألفا؟ فترى لو أن إنسانا قام إلى عثمان فقال: لا تحدث بهذا الحديث، أو أظهر إنكاره تراه، كان يخرج من ثم إلا وقد قتل.

١٩- زكريا بن يحيى بن عبدالملك بن مروان أبو يجيى الناقد (٢٨٥هـ).

٢٠- ابن أبي عاصم (٢٨٧ هـ) (صاحب كتاب السنة).

٢١- عبدالله بن أحمد بن محمد حنبل (٢٩٠هـ) (صاحب كتاب السنة) قال: قال: سمعت هذا الحديث من جماعة، وما رأيت أحدا من المحدثين ينكره، وكان عندنا في وقت ما سمعناه من المشائخ أن هذا الحديث إنما تنكره الجهمية.

٢٢- محمد بن عثمان بن أبي شيبة (٢٩٧هـ) (صاحب كتاب العرش) قال: قال: وبلغني عن بعض الجهال دفع الحديث بقلة معرفته في رده مما أجازه العلماء ممن قبله ممن ذكرنا، ولا أعلم أحدا ممن ذكرت عنه هذا الحديث إلا وقد سلم الحديث على ما جاء به الخبر، وكانوا أعلم بتأويل القرآن وسنة الرسول ﷺ ممن رد هذا الحديث من الجهال، وزعم أن المقام المحمود هو الشفاعة لا مقام غيره.

٢٣- محمد بن بشر بن شريك بن عبدالله القاضي (٢٩٧هـ).

٢٤- أحمد بن عمر بن سريج أبو العباس بن السراج الشافعي (٣٠٦هـ).

٢٥- أحمد بن الحسن بن عبدالجبار البغدادي (٣٠٦هـ).

٢٦- حامد بن محمد بن شعيب البلخي (٣٠٩هـ).

٢٧- محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ).

٢٨- ابن خزيمة (٣١١هـ) (صاحب كتاب التوحيد).

٢٩- أبو بكر الخلال (٣١١هـ) (صاحب كتاب السنة).

٣٠- عبدالله بن سليمان بن الأشعث أبو بكر ابن أبي داود (٣١٦).

٣١- عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز أبو القاسم البغوي (٣١٧هـ).

٣٢- البربهاري (٣٢٩ هـ) (صاحب كتاب السنة).

٣٣- أحمد بن سلمان بن الحسن أبو بكر النجاد (٣٤٨هـ).

٣٤- محمد بن الحسن بن محمد الموصلي أبو بكر النقاش (٣٥١هـ).

٣٦- الآجري (٣٦٠هـ) (صاحب كتاب الشريعة) وكلامه هو واضح في أصل الكتاب.

٣٧- الطبراني (٣٦٠هـ).

٣٨- الدارقطني (٣٨٥هـ).

٣٩- ابن بطة العكبري (٣٨٧هـ).

٤٠- القاضي أبو يعلى الفراء (٤٥٨هـ).

٤١- أبو محمد البغوي (٥١٦هـ) (صاحب كتاب شرح السنة).

٤٢- أبو الحسين محمد بن القاضي أبي يعلى الفراء (٥٢٦هـ).

٤٣- شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ) قال في مجموع الفتاوى" (٤/ ٣٧٤): إذا تبين هذا، فقد حدث العلماء المرضيون، وأولياؤه المقبولون: أن محمدا رسول الله يجلسه ربه على العرش معه. روى ذلك محمد بن فضيل عن ليث عن مجاهد فى تفسير: (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا)، أو ذكر ذلك من وجوه أخرى مرفوعة، وغير مرفوعة. قال ابن جرير: وهذا ليس مناقضا لما استفاضت به الأحاديث من أن المقام المحمود هو الشفاعة باتفاق الأئمة من جميع من ينتحل الإسلام ويدعي، هـ لا يقول إن إجلاسه على العرش

منكرا، وإنما أنكره بعض الجهمية، ولا ذكره في تفسير الآية منكر.اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ "في درء التعارض" (٣/ ٢٣٧) ما نصه: وقد صنف القاضي أبو يعلى كتابه في إبطال التأويل ردا لكتاب ابن فورك وهو وإن كان أسند الأحاديث التي ذكرها وذكر من رواها ففيها عدة أحاديث موضوعة كحديث الرؤية عيانا ليلة المعراج ونحوه وفيها اشياء عن بعض السلف رواها بعض الناس مرفوعة كحديث قعود الرسول ﷺ على العرش رواه بعض الناس من طرق كثيرة مرفوعة وهي كلها موضوعة وإنما الثابت أنه عن مجاهد وغيره من السلف وكان السلف والأئمة يروونه ولا ينكرونه ويتلقونه بالقبول وقد يقال إن مثل هذا لا يقال إلا توقيفا لكن لا بد من الفرق بين ما ثبت من ألفاظ الرسول وما ثبت من كلام غيره سواء كان من المقبول أو المردود.اهـ.

٤٤- ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ).

٤٥- الشوكاني (١٢٥٠هـ).

٤٦- الشيخ سليمان بن سحمان (١٣٤٩هـ).

٤٧- الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ -مفتي الديار السعودية سابقا- (١٣٨٩هـ).

٤٨- الشيخ محمد خليل هراس (١٣٩٦هـ).

٤٩- عبدالعزيز آل الشيخ مفتي المملكة العربية السعودية.

٥٠- الشيخ صالح الفوزان.

٥١- الشيخ الراجحي، قال في شرحه لكتاب الاعتقاد: كل هذه الآثار استدل بها بعض العلماء على أن المقام المحمود أنه يجلسه على العرش يوم القيامة، هذا مروي عن ابن عباس ومجاهد وعائشة وعمر بن الخطاب، وقال

الإمام أحمد تلقاها العلماء بالقبول، وقال عبد الله: أنا منكر على كل من رد هذا الحديث.

والقول الثاني وهو القول المشهور: أن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى في موقف القيامة، وهذا مروي عن ابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وابن عمر، وسلمان الفارسي، وجابر بن عبد الله، والحسن، وهي رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد، وهو قول الجماهير أنه الشفاعة العظمى.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه الآثار أنه يجلس على العرش ليست مرفوعة إلى النبي ﷺ، بعضهم رواها مرفوعة عن النبي ﷺ لكنها موضوعة، الأحاديث التي فيها أن النبي ﷺ قال: "يجلسه على العرش" هذه موضوعة، لكن كلها مروية موقوفة على ابن عباس، وعلى عائشة، وعمر، وموقوفة على مجاهد؛ ولهذا قال شيخ الإسلام: إنه الثابت عن مجاهد وغيره من السلف، وكان السلف والأئمة يروونه ولا ينكرونه.

وعلى هذا فلا مانع أن يقال: إن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى، وإجلاس النبي على العرش، يكون منها، يكون الأمران. وإن لم يكن أحد من السلف قال بهذا القول؛ يعني الجمهور قالوا بالقول الأول: أنه الشفاعة، وقال آخرون: إنه إجلاسه على العرش، لكن لا مانع أن يكون ما دام أن العلماء تلقوه بالقبول كما قال الإمام أحمد، فيكون من إكرام الله لنبيه يكون: الشفاعة العظمى، وإجلاسه على العرش.

والشوكاني في تفسيره نقل عن عبد البر أنه قال: "مجاهد وإن كان أحد أئمة التأويل إلا أن له قولين ومهجورين عند أهل العلم أحدهما هذا -إقعاد الرسول ﷺ على العرش، وهذا من الأقوال المهجورة."

كيف يكون من القول المهجور، والإمام أحمد يقول: تلقته الأمة بالقبول؟ هذه قد يكون بعض العلماء قال بهذا، لكن كما سبق، المشهور أن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى، ولا مانع أن يكون إجلاسه على العرش جزء منها..اهـ.

القول الثاني: رد أثر مجاهد رحمه الله تعالى والطعن في متنه.

قال ابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٥٧-١٥٨): ومجاهد وإن كان أحد المقدمين في العلم بتأويل القرآن فإن له قولين في تأويل اثنين هما مهجوران عند العلماء مرغوب عنهما أحدهما هذا والآخر قوله في قول الله ﷻ {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء:٧٩] حدثنا أحمد بن عبد الله حدثنا أبو أمية الطرسوسي حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضيل عن ليث عن مجاهد {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا} قال يوسع له على العرش فيجلسه معه وهذا قول مخالف للجماعة من الصحابة ومن بعدهم فالذي عليه العلماء في تأويل هذه الآية أن المقام المحمود الشفاعة والكلام في هذه المسألة من جهة النظر يطول وله موضع غير كتابنا هذا وبالله التوفيق..اهـ.

وقال العلامة الألباني في مختصر العلو (ص١٤ - ٢٠): إن رواية الأحاديث الضعيفة من بعض المحدثين هو مما يعاب عليهم من قِبل المخالفين لهم وإن كان هؤلاء يفعلون ما هو أسوأ من ذلك كما أوضحه شيخ الإسلام...، ومن أشهر من أَخَذَ ذلك عليهم في هذا العصر ويتخذه حجة في تسخيفهم وتضليلهم الشيخ الكوثري المعروف بعدائه الشديد لأهل السنة والحديث، ونبزه إياهم بلقب الحشوية والمجسمة، وهو في ذلك ظالم لهم مفتر، ولكن -والحق يقال- قد يجد أحيانًا في ما يرويه بعضهم من الأحاديث والآثار ما يُدَعِّم به فريته مثل

الحديث المروي في تفسير قوله تعالى: {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} قال: «يجلسني على العرش». رواه المصنف -أي الذهبي في "العلو"- (ص ٧٤ – ٧٥) عن ابن مسعود مرفوعًا وضعفه جدًا بقوله: "مرسله الأحمر متروك الحديث"، ورواه (ص ٩٩) عن ابن عباس مثله موقوفًا. وقال: "إسناده ساقط، وعمر بن مدرك الرازي متروك وهذا مشهور من قول مجاهد ويروى مرفوعًا، وهو باطل". وقد خرجت الحديثين في (الضعيفة) (٨٧١). وقال في ترجمة محمد بن مصعب العابد ما يأتي: "فأما قضية قعود نبينا على العرش فلم يثبت في ذلك نص بل في الباب حديث واه، وما فسر به مجاهد الآية كما ذكرناه".

قلت: ولو أن المصنف رحمه الله تعالى وقف عند هذا البيان الواضح في أنه ليس في الباب نص ملزم للأخذ به لكان قد أحسن وسد بذلك الطريق على أهل الأهواء أن يتخذوا ذلك ذريعة للطعن في أهل السنة والحديث كما فعل الكوثري هنا بالذات في مقدمته لكتاب " تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري " (ص ٦٤) فقد قال فيهم بعد أن نبزهم بلقب الحشوية – أسوة بسلفه من الجهمية – وغيرهم[1]: "ويقولون في الله ما لا يُجوِّزه الشرع ولا العقل من إثبات الحركة له (تعالى) والنَّقْلَة (ويعني بهما النزول) والحد والجهة (يعني العلو) (والقعود والإقعاد). فيعني هذا الذي نحن في صدد بيان عدم ثبوته.

أقول: لو أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقف عند ما ذكرنا لأحسن، ولكنه لم يقنع بذلك بل سَوَّد أكثر من صفحة كبيرة في نقل أقوال من أفتى بالتسليم بأثر مجاهد في تفسير قوله تعالى: {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} قال: يجلسه أو يُقعِده

---

(١) انظر كلام الحافظ أبي حاتم الرازي في ترجمته (٧٧).

على العرش. بل قال بعضهم: "أنا منكر على كل من رد هذا الحديث وهو عندي رجل سوء متهم" بل ذُكر عن الإمام أحمد أنه قال: هذا تلقته العلماء بقبول، إلى غير ذلك من الأقوال التي تراها في الأصل ولا حاجة بنا إلى استيعابها في هذه المقدمة. وذكر في (مختصره) المسمى بـ (الذهبية) أسماء جمع آخرين من المحدثين سلَّموا بهذا الأثر ولم يتعقبهم بشيء هناك. وأما هنا فموقفه مضطرب أشد الاضطراب فبينما تراه؛ يقول في آخر ترجمة محمد بن مصعب العابد عقب قول من تلك الأقوال (ص ١٢٦): "فأبصِر - حفظك الله من الهوى - كيف آل الفكر بهذا المحدث إلى وجوب الأخذ بأثر منكر... " فأنت إذا أمعنت النظر في قوله هذا ظننت أنه ينكر هذا الأثر ولا يعتقده ويلزمه ذلك ولا يتردد فيه ولكنك ستفاجأ بقوله (ص ١٤٣) بعد أن أشار إلى هذا الأثر عقب ترجمة حرب الكرماني "وغضب العلماء لإنكار هذه المنقبة العظيمة التي انفرد بها سيد البشر ويبعد أن يقول مجاهد ذلك إلا بتوقيف... " ثم ذكر أشخاصا آخرين ممن سَلَّموا بهذا الأثر غير من تقدم فإذا أنت فرغت من قراءة هذا قلت: لقد رجع الشيخ من إنكاره إلى التسليم به لأنه قال: إنه لا يقال إلا بتوقيف ولكن سرعان ما تراه يستدرك على ذلك بقوله بعد سطور: "ولكن ثبت في " الصحاح " أن المقام المحمود هو الشفاعة العامة الخاصة بنبينا -صلى الله عليه وآله وسلم-".

قلت: وهذا هو الحق في تفسير المقام المحمود دون شك ولا ريب للأحاديث التي أشار إليها المصنف رحمه الله تعالى وهو الذي صححه الإمام ابن جرير في " تفسيره " (١٥/ ٩٩) ثم القرطبي (١٠/ ٣٠٩) وهو الذي لم يذكر الحافظ ابن كثير غيره وساق الأحاديث المشار إليها، بل هو الثابت عند

مجاهد نفسه من طريقين عنه عند ابن جرير. وذاك الأثر عنه ليس له طريق معتبر فقد ذكر المؤلف (ص ١٢٥) أنه "روي عن ليث بن أبي سليم وعطاء بن السائب وأبي يحيى القتات وجابر بن يزيد". قلت: والأولان مختلطان والآخران ضعيفان بل الأخير متروك متهم. ولست أدري ما الذي منع المصنف -عفا الله عنه- من الاستقرار على هذا القول وعلى جزمه بأن هذا الأثر منكر كما تقدم عنه فإنه يتضمن نسبة القعود على العرش لله ﷿، وهذا يستلزم نسبة الاستقرار عليه لله تعالى وهذا مما لم يرد فلا يجوز اعتقاده ونسبته إلى الله ﷿، ولذلك ترى المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أنكر على من قال ممن جاء بعد القرون الثلاثة: إن الله استوى استواءَ استقرارٍ " كما تراه في ترجمة (١٤٠ - أبو أحمد القصاب). وصرح في ترجمة (١٦١ - البغوي) أنه لا يعجبه تفسير "استوى" بـ "استقر".

إلى أن قال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: فكنت أحب له [أي: للذهبي] رَحِمَهُ اللَّهُ أن لا يتردد في إنكار نسبة القعود إلى الله تعالى وإقعاده محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- على عرشه ما دام أنه لم يأت به نص ملزم عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ومعناه ليس له شاهد في السنة، ومعناه ولفظه لم يتوارد على ألسنة الأئمة وهذا هو الذي يدل عليه بعض كلماته المتقدمة حول هذا الأثر، ولكنه لما رأى كثيرًا من علماء الحديث أقروه لم يجرؤ على التزام التصريح بالإنكار، وإنما تارة وتارة والله تعالى يغفر لنا وله.

ومن العجيب حقًّا أن يعتمد هذا الأثر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى؛ فإنه نقل كلام القاضي أبي يعلى فيه وبعض أسماء القائلين به ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "قلت: وهو قول ابن جرير الطبري، وإمام هؤلاء كلهم مجاهد إمام التفسير،

وهو قول أبي الحسن الدارقطني ومن شعره فيه".

ثم ذكره المصنف فيما يأتي في ترجمة (١٣٤ - الدراقطني) وزاد بيتًا رابعًا لعل المصنف تعمد حذفه: "ولا تنكروا أنه قاعد ولا تنكروا أنه يقعده "

قلت: وقد عرفت أن ذلك لم يثبت عن مجاهد بل صح عنه ما يخالفه كما تقدم. وما عزاه للدارقطني لا يصح إسناده كما بيناه في " الأحاديث الضعيفة " (٨٧٠) وأشرت إلى ذلك تحت ترجمة الدارقطني الآتية. وجعل ذلك قولًا لابن جرير فيه نظر؛ لأن كلامه في " التفسير " يدور على إمكان وقوع ذلك كما سبق لا أنه وقع وتحقق ولذلك قال الإمام القرطبي في " تفسيره " (١٠/ ٣١١): "وعَضَّد الطبري جواز ذلك بشطط من القول، وهو لا يخرج إلا على تلطف في المعنى وفيه بعد ولا ينكر مع ذلك أن يروى، والعلم يتأوله " ثم بين وجه تأويله بما لا حاجة بنا إلى ذكره والنظر فيه ما دام أنه أثر غير مرفوع، ولو افترض أنه في حكم المرفوع فهو في حكم المرسل الذي لا يحتج به في الفروع فضلًا عن الأصول كما ذكرت ذلك أو نحوه فيما يأتي -أي كتاب "مختصر العلو- من التعليق على قولة بعضهم: "ولا نتكلم في حديث فيه فضيلة للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بشيء " التعليق (٢٦٥). ولعل المصنف رحمه الله تعالى يشير إلى ذلك بقوله في ترجمة (١٦٥ - القاضي العلامة أبو بكر بن العربي) وقد نقل عنه القول بهذا القعود معه على العرش: قال: "وما علمت للقاضي مستندًا في قوله هذا سوى قول مجاهد"

وخلاصة القول: إن قول مجاهد هذا - وإن صح عنه - لا يجوز أن يتخذ دينًا وعقيدةً ما دام أنه ليس له شاهد من الكتاب والسنة، فيا ليت المصنف إذ ذكره عنده [أي في كتابه] جَزَمَ برده وعدم صلاحيته للاحتجاج به، ولم يتردد فيه

فإنه هو اللائق به وبتورعه.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في شرح السفارينية (ص٤٦٣): هل المقام المحمود ما ذكره بعض العلماء من أن الله سبحانه وتعالى يُجلس الرسول ﷺ على العرش؟

فأجاب: هذا إنْ صح فهو من المقام المحمود لا شك، إذا صح فهو من المقام المحمود.اهـ.

وسئل في لقاءات الباب المفتوح: هل صحيح أن المقام المحمود الذي وعده الله ﷻ لرسوله ﷺ هو مكان العرش كما ورد في بعض الآثار؟

فأجاب: الصحيح أن المقام المحمود عام؛ كل مقام يحمده الناس فيه، ومن ذلك الشفاعة العظمى، حين يتدافع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الشفاعة، حتى تصل إليه ﷺ فيشفع فيشفعه الله ﷻ، هذا هو الصحيح.. أنه عام..اهـ.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الحموية: ٠٠ أثر مجاهد في قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) [الإسراء:٧٩] وأن يجلسه تعالى على عرشه هذا كان الناس يمتحنون به في زمن الفتنة في القرن الثاني والثالث لما حصلت فتنة خلق القرآن وقبل ذلك كان الناس يمتحنون بهذا الأثر أثر مجاهد، ومن لم يكن من أهل السنة نفاه وقال لا أقول به، ومن كان من أهل السنة أثبته؛ لأن المراد ليس هو الإجلاس المراد منه فيه التصريح بالاستواء الذي معناه الجلوس، فأوضح الاستواء أنه بمعنى الجلوس إجلاس النبي ﷺ مع الرب جل وعلا على العرش، وإلا فالإجلاس لم تثبت به السنة، ما نقول ابتداء أنه من عقيدتنا أنه يجلس عليه الصلاة والسلام نسكت عن ذلك لا نذكرها؛ لكن قالها مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وابتلي الناس بذلك لأنها تفسر معنى الاستواء، فمن رد هذا؛ لأن

بعض الناس يقول أنا أقر بالاستواء ويعني بالاستواء معنى آخر، فهذا الأثر صار فارقا بين الاسم وغيره، فمن لم يقل به قيل أنه من المبتدعة في الزمن الأول، لهذا من أهل العلم طول عليه الكلام مثل الخلال في السنة أربعين صفحة أو خمسين صفحة على هذا، وكذلك الدارقطني والطبراني ومن الآثار التي ينبغي الانتباه لمعناها، وإلا فالقاعدة عندكم أنه لا يتجاوز القرآن والحديث..اهـ.

وقال في شرح الواسطية: أولا ليس من كلام النبي ﷺ ثم هذا من اجتهاد مجاهد يكون هذا اجتهاد من مجاهد ذكره اجتهادا وهو ما يثبت صفة من الصفات، لكن أثر مجاهد هذا كان فاصلا بين أهل السنة وغيرهم في زمن من الأزمنة، في الأزمنة الأولى كان هو الفارق أثر مجاهد في إجلاس النبي ﷺ على العرش وقال به جماعة من أهل العلم لأجل أن الإجلاس فيه إثبات استواء الله على عرشه بذلك سبحانه، ولهذا يهتمون به، فمن أنكر خبر مجاهد فهو جهمي لماذا؟ لأنهم لا يريدون - من أنكره - لا يريد إنكار الفضيلة الخاصة بالنبي ﷺ وإنما يريد إنكار الاستواء على العرش وعلو الله جل وعلا بذلك ٠٠ فمن أنكر خبر مجاهد فهو جهمي لماذا؟

لأنهم لا يريدون -يعني من أنكره - لا يريد إنكار الفضيلة الخاصة بالنبي ﷺ وإنما يريد إنكار الاستواء على العرش وعلو الله جل وعلا بذلك.

ولهذا كان هذا الأثر عن مجاهد في إجلاس النبي ﷺ على عرش الله جل وعلا أنه فارق بين أهل السنة وأهل البدعة والتجهم، لأن أهل السنة يروونه ويقبلون ما جاء به مجاهد في هذا الحديث لكن ما تفرد به من جهة الإجلاس لا يأخذون به ويقولون هو من قول مجاهد وعلى عهدته لكن هو يشمل العلو والاستواء وهذا رواه أهل الحديث والأمة وتلقته - تلقت يعني مضمونه -

بالقبول.

هذا مثل حديث الأوعال، له نظائر، في أحاديث تضعف أسانيدها وبعضها يكون واهيا، لو رأيت مثلا كتاب العرش وما جاء فيه لابن أبي شيبة تجد فيه أخبارا ضعيفة وأخبارا ضعيفة جدا إلى آخره يريد الناقل يريد المؤلف بذلك أن هذه الأخبار قبلها أهل السنة يعني قبلوا بمضمونها بما دلت على استواء الله على عرشه ودلت على علو الذات لله تبارك وتعالى، فلا يدخل أثر مجاهد في ذلك لأن هذا الكلام يراد به ما جاء في حديث النبي عليه الصلاة والسلام.

المسألة العاشرة: باب هل يقعد الله تعالى على العرش فيفضل منه مقدار أربع أصابع

ورد في الحديث (إن كرسيه وسع السماوات والأرض، وإنه ليقعد عليه فما يفضل منه مقدار أربع أصابع - ثم قال بأصابعه فجمعها -؛ وإن له أطيطا كأطيط الرحل الجديد إذا ركب؛ من ثقله) والحديث منكر كما في الضعيفة (٨٦٦، ٤٩٧٨، ٦٣٢٩)، وقال العلامة الألباني في الضعيفة تحت الحديث رقم (٦٤٦٥): كنت ذكرت في مقدمة كتابي المطبوع "مختصر العلو" (ص ١٥ - ١٧)، اضطراب موقف الذهبي بالنسبة لأثر مجاهد، مع تصريحه بأن رفعه باطل، وبهذه المناسبة أريد أن أبين للقراء موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من تلك الزيادة في الحديث الأول، فقد ذكر أن بعض المحدثين رووها بلفظ: "إلا أربع أصابع".

فهذه تثبت (الأربع)، وتلك تنفيها - كما هو ظاهر - فضعف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحديث بالروايتين لاضطرابهما، مع ملاحظته أن المعنى الذي كل منهما لا يليق بجلال الله وعظمته، فقال كما في "مجموع الفتاوى" (١٦/ ٤٣٦): "فلو لم يكن في الحديث إلا اختلاف الروايتين؛ هذه تنفي ما أثبتت هذه، [يعني تكفي

في تضعيفه]، ولا يمكن مع ذلك الجزم بأن رسول الله ﷺ أراد الإثبات، وأنه يفضل من العرش أربع أصابع لا يستوي عليها الرب! وهذا معنى غريب ليس له شاهد قط في شيء من الروايات، بل هو يقتضي أن يكون العرش أعظم من الرب وأكبر، وهذا باطل، مخالف للكتاب والسنة وللعقل، ويقتضي أيضا أنه إنما عرف عظمة الرب بتعظيم العرش المخلوق، وقد جعل العرش أعظم منه، فما عظم الرب إلا بالمقايسة بمخلوق، وهو أعظم من الرب. وهذا معنى فاسد مخالف لما علم من الكتاب والسنة والعقل.

فإن طريقة القرآن في ذلك أن يبين عظمة الرب، وأنه أعظم من كل ما يعلم عظمته، فيذكر عظمة المخلوقات، ويبين أن الرب أعظم منها"، ثم استشهد الشيخ ببعض الأحاديث على ذلك، وذهب إلى أن الصواب في رواية الحديث النفي. يعني من حيث المعنى؛ كما تقدم بيانه منه بيانا شافيا رحمه الله تعالى. وفي ذلك ما يؤيد حكمي على الحديث بالبطلان هنا وهناك من حيث المعنى، وإن كان ذلك غير لازم من حيث المبنى، فليكن هذا منك على ذكر، ومما تقدم يتبين لقرائنا دجل ذاك السقاف، أو أولئك الذين يؤلفون له ويتسترون باسمه؛ حين يكذبون أو يكذب على أهل العلم والسنة أحياء وأمواتا لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة، ولا سيما شيخ الإسلام ابن تيمية: فإنه لفساد عقيدته، وجهله وقلة فهمه لا يتورع عن التصريح ورميه بأنه مجسم، وبغير ذلك من الأباطيل التي تدل على أنه مستكبر معاند للحق الجلي الناصع، فرسائله التي يؤلفونها وينشرونها له تباعا مشحونة بالبهت والافتراء والأكاذيب وقلب الحقائق؛ بحيث أنها لو جمعت لكانت مجلدا كبيرا بل مجلدات، فها هي رسالته التي نشرها في هذه السنة (١٤١٤) في الرد على الأخ الفاضل سفر الحوالي طافحة - على

صغرها وحقارتها - بالمين والتضليل والافتراء على السلفيين الذين ينبزهم بلقب (المتمسلفين)! وعلى الأخ الفاضل بصورة [خاصة]، وعلى شيخ الإسلام بصورة أخص، وليس غرض الآن الرد عليه، فإن الوقت أضيق وأعز من ذلك، وإنما أردت بمناسبة هذا الحديث أن أقدم إلى القراء مثلا واحدا من مئات افتراءاته وأكاذيبه وتقليبه للحقائق، التي تشبه ما يفعله اليهود بإخواننا الفلسطينيين اليوم الذين ينطلقون من قاعدتهم الصهيونية: (الغاية تبرر الوسيلة)! الأمر الذي يؤكد للقراء أنه لا يخشى الله، ولا يستحي من عباد الله، وإلا لما تجرأ على الافتراء عليهم، والله ﷻ يقول {إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله} . لقد نسب إلى شيخ الإسلام ابن تيمية عدة أقوال هو منها براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب [عليهما السلام]، بل هو يقول بخلافها!! ويهمنا الآن بيان فرية واحدة من تلك الفريات، فقال في مقدمة رسالته المشار إليها (ص ٢ - ٣) بعد أن نسب إليه عدة فريات: "ويقول: إن المقام المحمود الذي وعدنا به نبينا ﷺ هو جلوسه بجنب الله على العرش في المساحة المتبقية، والمقدرة عند هذه الطائفة بأربع أصابع !!! وغير ذلك من الترهات". وفي

إحالته فيما نسبه إلى الشيخ مما يزيد القراء قناعة بدجله، وأنه يتعمد الكذب والافتراء عليه، وأنه لا يبالي بقرائه إذا اكتشفوا {تشابهت قلوبهم} ، وهذا نص كلامه رحمه الله منقولا بطريقة التصوير، ليكون القراء على يقين من ذلك الإفك المبين: (وأما قوله إنه يفضل عنه العرش من كل جانب أربع أصابع فهذا

لا أعرف قائلا له ولا ناقلا ولكن روى في حديث عبد الله بن خليفة أنه ما يفضل من العرش أربع أصابع يروى بالنفى ويروى بالإثبات والحديث قد طعن فيه غير واحد من المحدثين كالإسماعيلي وابن الجوزي ومن الناس من ذكر له

شواهد وقواه ولفظ النفى لا يرد عليه شيء فإن مثل هذا اللفظ يرد لعموم النفى كقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما في السماء موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو قاعد أو راكع أو ساجد أي ما فيها موضع ومنه قول العرب ما في السماء قدر كف سحابا وذلك لأن الكف يقدر به الممسوحات كما يقدر بالذراع وأصغر الممسوحات التي يقدرها الإنسان من أعضائه كفه فصار هذا مثلا لأقل شيء فإذا قيل إنه ما يفضل من العرش أربع أصابع كان المعنى ما يفضل منه شيء والمقصود هنا بيان أن الله أعظم وأكبر من العرش ومن المعلوم أن الحديث إن لم يكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قاله فليس علينا منه وإن كان قد قاله فلم يجمع بين النفي والإثبات وإن كان قاله بالنفى لم يكن قاله بالإثبات والذين قالوه بالإثبات ذكروا فيه ما يناسب

أصولهم كما قد بسط في غير هذا الموضع فهذا وأمثاله سواء كان حقا أو باطلا لا يقدح في مذهب أهل السنة ولا يضرهم لأنه بتقدير أن يكون باطلا ليس هو قول جماعتهم بل غايته أنه قد قالته طائفة ورواه بعض الناس وإذا كان باطلا رده جمهور أهل السنة كما يردون غير ذلك فإن كثيرا من المسلمين يقول كثيرا من الباطل فما يكون هذا ضار لدين المسلمين وفي أقوال الإمامية من المنكرات ما يعرف مثل هذا فيه لو كان قد قاله بعض أهل السنة). هذا كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، فأين فيه ما عزاه السقاف وأعوانه إليه؟! سبحانك هذا بهتان عظيم. بل فيه حكايته الخلاف في صحة حديث الأصابع، وعدم جزمه هو بصحته، وإن كان هذا مستغربا منه، لأن علته الجهالة والعنعنة - كما كنت بينته هناك -.

المسألة الحادية عشرة: عدم ثبوت الجلوس لله تعالى بين الجنة والنار يوم القيامة

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (إن اَللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَجْلِسُ يوم

القيامة على القنطرة الوسطى بين الجنة والنار... وذكر حَدِيثًا طَوِيلًا).

قال العلامة الألباني في الضعيفة (١٢/ ٢/ ٩٥٠ - ٩٥١): حديث منكر، أخرجه العقيلي في"؛ الضعفاء " (٣/ ٢٢١)، وعنه ابن الجوزي (١/ ١٣٧) من طريق هشام بن عمار قال: حدثنا صدقة بن خالد قال: حدثنا عثمان ابن أبي العَاتكة أبو حفص عن سليمان بن حبيب المحاربي (الأصل: المحارمي!) عن أبي أمامة مَرْفُوعًا. أورده في: ترجمة عثمان هذا، وقال: "لا يُتابع عليه". وأعله ابن الجوزي بقول ابن معين المتقدم في الحديث الذي قبله: "ليس بشيء".وهذا لا يستلزم أن يُورِده في " الموضوعات"، فالظاهر أنه لاحظ ما في متنه من النكارة، وهي نسبة الجلوس إلى الله تعالى، وبين الجنة والنار!! وهو مما لم يرد في شيء من الأحاديث الصحيحة. فمتنه حري بالوضع.

المسألة الثانية عشرة: هل من معاني العلو الإستقرار على العرش؟

من معاني الإستواء الاستقرار والارتفاع والعلو والصعود على الوجه اللائق به سبحانه من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل كسائر صفات الله ﷻ، كما نظمها ابن القيم في النونية:

فلهم عبارات عليها أربع ... قد حصلت للفارس الطعان

وهي استقر وقد علا وكذلك ... ارتفع الذي ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو رابع ... وأبو عبيدة صاحب الشيباني

يختار هذا القول في تفسيره ... أدرى من الجهمي بالقرآن

وقد ذكر شيخ الإسلام في القاعدة الرابعة من الرسالة التدمرية: أن كثيرا من الناس يتوهم في بعض الصفات أنها تماثل صفات المخلوقين ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير:

أحدها كونه مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل.

الثاني أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطله، بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات.

الثالث أنه ينفي تلك الصفات عن الله عَزَّ وَجَلَّ بغير علم..

الرابع: أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات أو صفات المعدومات.

ومثال ذلك أن النصوص كلها دلت على وصف الإله بالعلو والفوقية على المخلوقات واستوائه على العرش، فيظن المتوهم أنه إذا وصف بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الإنسان على ظهور الفلك والأنعام، فيخيل له أنه إذا كان مستويا على العرش كان محتاجا إليه كحاجة المستوي على الفلك والأنعام، فقياس هذا أنه لو عدم العرش لسقط الرب سبحانه وتعالى، ثم يريد بزعمه أن ينفي هذا فيقول: ليس استواؤه بقعود ولا استقرار. ولا يعلم أن مسمى القعود والاستقرار يقال فيه ما يقال في مسمى الاستواء؛ فإن كانت الحاجة داخلة في ذلك فلا فرق بين الاستواء والقعود والاستقرار، وليس هو بهذا المعنى مستويا ولا مستقرا ولا قاعدا، وإن لم يدخل في مسمى ذلك إلا ما يدخل في مسمى الاستواء فإثبات أحدهما ونفي الآخر تحكم. مجموع الفتاوى (٣/ ٤٨) باختصار.

وسئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب: ما هو مذهب أهل السنة والجماعة في استقرار الله سبحانه وتعالى على العرش، وهل الإمام أبو حنيفة رحمة الله عليه قال: بأن الله في كل مكان بذاته. وما حكم الصلاة خلف

من يفنّد أن الله سبحانه وتعالى في كل مكان بذاته، أجيبونا عن هذه الأسئلة ووضحوا؟

فأجاب: مذهب أهل السنة والجماعة وهم الصحابة، أصحاب النبي ﷺ وأتباعه بإحسان وهو قول الرسل جميعًا -عليهم الصلاة والسلام- أن الله فوق العرش، وعلمه في كل مكان سبحانه وتعالى، كما قال الله -عز وجل- :-الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى سورة طه. وقال سبحانه: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ (٥٤) سورة الأعراف. ذكر هذا سبحانه في سبعة مواضع في كتابه العظيم. أنه فوق العرش -جل وعلا-، ومعنى على العرش يعني فوق العرش، قد علا عليه واستقر فوقه سبحانه وتعالى، هكذا قال أهل السنة على العرش يعني استوى عليه، يعني علا وارتفع، وفي عبارة بعضهم واستقر، المعنى أنه فوق العرش، والعرش فوق المخلوقات، وهو أعلاها، والله فوقه سبحانه وتعالى هذا قول أهل الحق جميعًا، وأبو حنيفة، منهم، ممن يقول بهذا رضي الله عنه ورحمه ولا يقول أن الله في كل مكان، حاشا وكلا، بل هذا قول المعتزلة والجهمية وأشباههم، وهذا كفر وضلال، الذي يقول أن الله في كل مكان هذا كافر ضال، نسأل الله العافية. الله سبحانه فوق العرش، وعلمه في كل مكان جل وعلا يعلم كل شيء سبحانه وتعالى، لكنه بذاته فوق العرش سبحانه وتعالى فوق جميع الخلق، والواجب على المؤمن أن يعتقد هذا الاعتقاد الذي دل عليه كتاب الله وسنة رسول الله -ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة من أصحاب النبي ﷺ وأتباعهم بإحسان، ولا يجوز أن يقال أن الله في كل مكان، هذا قول أهل الباطل من الجهمية والمعتزلة ومن سار على نهجهم، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرا سبحانه وتعالى. - من أم الناس سماحة الشيخ

وهو على ذلكم المعتقد؟ ج/ الذي يؤم الناس لا يصلى خلفه، من كان يعتقد أن الله في كل مكان، هذا كافر ضال لا يصلى خلفه، ولا يجوز أن يتخذ إمامًا بل يجب أن يبعد ويجب على المسؤولين أن يبعدوه. وأن يولوا غيره من أهل السنة والجماعة. - من يعترف ببعض الصفات دون بعض سماحة الشيخ هل تجوز إمامته والصلاة خلفه؟ ج/ هذا قول الأشاعرة يؤمنون ببعض الصفات ويتأولون البقية، وهو مذهب باطل لا يجوز، الواجب الإيمان بجميع الصفات الواردة في الكتاب العزيز، والسنة المطهرة الصحيحة، هذا هو الواجب. عند أهل السنة والجماعة، الواجب إثبات جميع ما ذكر الله في كتابه العظيم من أسمائه وصفاته، وهكذا ما ذكره النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة يجب إثباتها لله، وإمرارها كما جاءت، مع الإيمان بها واعتقاد أنه سبحانه: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ سورة الشورى. فالواجب إثباتها إثباتًا بلا تمثيل، وأن ينزه -سبحانه- عن مشابهة خلقه تنزيهًا بلا تعطيل. ولهذا يقول أهل السنة والجماعة، يجب الإيمان بأسماء الله وصفاته عن الوجه اللائق بالله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل. والذي يُعرف أن يؤول بعض الصفات لا ينبغي اتخاذه إمام. لكن لا يكفر؛ لأنها شبهة، لكن لا ينبغي أن يتخذ إمام، ينبغي أن يتخذ إمام آخر سواه، لأن الأشاعرة وإن كانوا تأولوا بعض الصفات لهم شبهة في التأويل، فهم ليسوا كفارًا بهذا القول، ولكنهم ارتكبوا بدعة وضلالًا يجب على من كان كذلك أن يتوب الله من ذلك، وأن يلتزم مذهب أهل السنة والجماعة؛ لأن الواجب عدم التأويل في جميع الصفات.اهـ.

وقال الشيخ الغنيمان في شرح العقيدة الواسطية: ذكر السلف لمعنى الاستواء ألفاظا أربعة كلها مترادفة، فقالوا هو: الارتفاع والعلو والصعود

والاستقرار، فهذه الألفاظ الأربعة جاءت مروية بأسانيد عن الصحابة وغيرهم، وكلها بمعنى واحد، وهو الاستواء..اهـ..

أما العلامة الألباني فسئل كما في موسوعة العلامة الألباني (٧/ ٦٨٨): قضية استواء الله على عرشه هل تعني أن الله مستقر بذاته على العرش؟

فأجاب: لا يجوز استعمال ألفاظ لم ترد في الشرع؛ لا يجوز أن يوصف الله بأنه مستقر؛ لأن الاستقرار أولًا: صفة بشرية، ثانيًا: لم يُوصف بها ربُّنا ﷻ حتى نقول: استقرار يليق بجلاله وكماله كما نقول في الاستواء، فنحن لا نصف الله إلا بما وصف به نفسه ثم مقرونًا مع التنزيل {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (الشورى:١١).

(تنبيه)

قال العلامة الألباني في الضعيفة (١١/ ١/ ٥٠٠ - ٥٠٧): روي عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «كان في عماء، فوقه هواء، وما تحته هواء، ثم خلق العرش على الماء». ضعيف، وقد ترجم له العلامة الألباني بقوله:"تحريف خطير في حديث ضعيف، واستغلال غير شريف!! " ثم قال:

(**تنبيه**): أورد الحافظ الذهبي هذا الحديث في كتابه "العلو" (ص ٩٨ - طبع الهند، وص ١١ - طبعة المنار) بإسناده إلى حماد بن سلمة؛ وزاد: "ثم استوى عليه". إلا أنه تحرف لفظه في طبعة المنار؛ فوقع فيه: "استولى عليه"!! وما في الهندية هو الصواب؛ لأنه موافق لمخطوطة الظاهرية (ق ٧/ ١)، ولأنه مفسر في "العلو" نفسه من رواية إسحاق بن راهويه بلفظ: "ثم كان العرش، فارتفع عليه". وقد استَغَلَّ هذا التحريف - جهلًا أو تجاهلًا - أحد جهمية الأزهريين من السوريين في كتاب له - زعم - "هذه عقيدة السلف والخلف في ذات الله

تعالى... "؛ عقد فيه فصلًا (ص ٧٨) بعنوان: "التأويل والرسول عليه الصلاة والسلام... "؛ ذهب فيه إلى أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أوَّل الاستواء على العرش بالاستيلاء (!) وأنه أشار بذلك إلى أمته باقتفاء أثره بتأويل كل ما يوهم ظاهره التجسيم، وقال: "والسؤال هنا: هل يوجد دليل على ما قلته؟ نعم؛ ها هو الدليل، جاء في كتاب "العلو" للذهبي... " ثم ساق الحديث بنصه المحرف؛ ثم قال: "فأنت ترى أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد أول قوله تعالى: (.... استوى) بقوله:

(استولى عليه) "! قال: "وبهذا يكون المؤولون قد اقتفوا أثر الرسول عليه الصلاة والسلام بصرف كل لفظ عن ظاهره - يفهم منه التجسيم - إلى لفظ آخر ينفي عنه ذلك"!!!

قلت: وبذلك أعطى سلاحًا للمعتزلة الذي ينكرون كثيرًا من صفات الله تعالى - كالسمع والبصر، وكرؤيته تعالى - بالتأويل الذي يؤدي إلى التعطيل، قال المؤلف نفسه عنهم (ص ١٢٣): "بادعاء أن رؤية الله مستحيلة، فهي تقتضي الجسمية، والجسمية والجهة عندهم كفر".

قلت: وهذا ما يصرح به هذا المؤلف الأنوك! في كثير من المواضع، فإذن المعتزلة على حق عنده، بل هو منهم؛ ولو تظاهر بأنه من أهل السنة والجماعة! فهو ينكر علو الله على خلقه، وأن القرآن كلام الله حقيقة؛ بحجة أن ذلك تجسيم وتشبيه!! ويتظاهر بأنه يؤمن برؤية الله في الآخرة تبعًا للأشاعرة، ويتجاهل أن ذلك يستلزم التجسيم على مذهبه؛ وكذا الجهة.

ولكن ذاك السلاح غير ماض؛ لأنه قائم على حديث لا وجود له إلا في ذهنه ضعيف السند، فيبادر إلى الإجابة عن ذلك بقوله: "وسواء أكان الحديث

صحيحًا أو ضعيفًا؛ فلا أقل من أن يحمل على التفسير"!!

ما هذا الكلام أيها الأنوك الأحمق؟!! فما هو الذي يقابل التفسير الذي ينبغي أن يحمل الحديث عليه إذا صح؟! وبعبارة أخرى: فالحديث صحيح أو ضعيف، فإذا كان صحيحًا، فماذا؟ وإذا كان ضعيفًا؛ فماذا؟! أليس في كل من الحالين يحمل الحديث على التفسير؟! ولكن في حالة كونه ضعيفًا؛ ما قيمة هذا التفسير الذي لم يثبت عنه -صلى الله عليه وآله وسلم-؟! وجملة القول: أن هذا الكلام ركيك جدًا، يدل على عجمة هذا الجهمي، وليس ذلك في لسانه فقط، بل وفي تفكيره أيضًا؛ لأنه في الوقت الذي يقطع بأن هناك دليلًا على أن الرسول أول كما تقدم، ويكرر ذلك في مواضع أخر؛ فيقول (ص ٨٠): "فإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد فسر الاستواء بالاستيلاء؛ فهذا هو التأويل بعينه"! إذ إنه يقول هذا الكلام الذي لا يشعر أنه به يهدم ما بنى؛ لجهله بكون الحديث صحيحًا أو ضعيفًا، فكيف وقد صرح جازمًا بضعفه في مكان ثالث، فقال (ص ١٠٣): "وقدمت لك أن الرسول عليه الصلاة والسلام فسر الاستواء بالاستيلاء؛ حتى وإن كان أثرًا ضعيفًا؛ فيستأنس به في التأويل"!! إذن؛ هو ليس بدليل؛ لأن الدليل لا يستأنس به فقط، بل ويحتج به، فكيف جاز له أن يتقول على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فيقول: "إنه فسر الاستواء بالاستيلاء"؟! فليتبوأ - إذن - مقعده من النار! ثم ما فائدة هذا التأويل الذي ذهب إليه الأشاعرة وغيرهم من الجهمية والمعطلة مع بطلانه في نفسه عندنا - ما داموا هم أنفسهم لا يأخذون به إلا مع تأويله أيضًا؟!، ذلك لأنهم قد أورد عليهم أهل السنة حقًا أن تأويل الاستواء بالاستيلاء؛ معناه: أنه لم يكن مستوليًا عليه من قبل، لا سيما بملاحظة الآية التي فيها: {ثم استوى على العرش}؛ فإن

(ثم) تفيد التراخي كما هو معلوم، وهذا التأويل مما لا يقول به مسلم؛ لأنه صريح في أن الله لم يكن مستوليًا عليه سابقًا؛ بل كان مغلوبًا على أمره، ثم استولى عليه! لا سيما وهم يستشهدون بذاك الشعر:

قد استوى بشر على العراق   بغير سيف ولا دم مهراق!

تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا!

فلما أورد هذا عليهم؛ انفكوا عنه؛ فقال بعض متأخريهم - كما نقله هذا الأزهري (ص ٢٥) -:

"ولكن لا يخفى عليك الفرق بين استيلاء المخلوق واستيلاء الخالق"!

وقال الكوثري في تعليقه على "الأسماء" (ص ٤١٠،٤٠٦): "ومن حمله على معنى الاستيلاء؛ حمله عليه بتجريده من معنى المغالبة"! فأقول: إذا جردتم "الاستيلاء" من معنى المغالبة؛ فقد أبطلتم تأويلكم من أصله؛ لأن الاستيلاء يلازمه المغالبة عادة كما يدل عليه البيت المشار إليه، فإذا كان لا بد من التجريد تمسكًا بالتنزيه؛ فهلا قلتم كما قال السلف: "استوى: استعلى"؛ ثم جردتم الاستعلاء من كل ما لا يليق بالله تعالى؛ كالمكان، والاستقرار، ونحو ذلك، لا سيما وذلك غير لازم من الاستعلاء حتى في المخلوق؛ فالسماء فوق الأرض ومستعلية عليها، ومع ذلك فهي غير مستقرة عليها، ولا هي بحاجة إليها، فالله تعالى أولى بأن لا يلزم من استعلائه على المخلوقات كلها استقراره عليها، أو حاجته إليها سبحانه، وهو الغني عن العالمين. ومن مثل هذا؛ يتبين للقارىء اللبيب أن مذهب السلف أسلم وأعلم وأحكم، وليس العكس؛ خلافًا لما اشتهر عند المتأخرين من علماء الكلام.

المسألة الثالثة عشرة: مماسة الرب ۵ لعرشه

مسألة المماسة فيها ثلاثة أقوال: منهم من يقول هو نفسه فوق العرش غير

مماس ولا بينه ولا بين العرش فرجة، وهذا قول ابن كلاب، والحارث المحاسبي، وأبي العباس القلانسي، والأشعري، وابن الباقلاني، وغير واحد من هؤلاء وقد وافقهم على ذلك طوائف كثيرون من أصناف العلماء من أتباع الأئمة الأربعة وأهل الحديث والصوفية وغيرهم، وهؤلاء يقولون: هو بذاته فوق العرش وليس بجسم، ولا هو محدود ولا متناه.

ومنهم من يقول: هو نفسه فوق العرش، وإن كان موصوفًا لقدر له لا يعلمه غيره. ثم من هؤلاء من لا يجوز عليه مماسة العرش، ومنهم من يجوز ذلك. وهذا قول أئمة أهل الحديث والسنة وكثير من أهل الفقه والصوفية والكلام غير الكرامية، فأما أئمة أهل السنة والحديث وأتباعهم فلا يطلقون لفظ الجسم نفيًا ولا إثباتًا، وأما كثير من أهل الكلام فيطلقون لفظ الجسم كهشام بن الحكم، وهشام الجواليقي وأتباعهما. درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢٨٨-٢٨٩).

ولهذا اللفظ في كلام الأئمة موقفان:

١- استعملوه على سبيل النفي في مسائل العلو.

٢- منعوه على سبيل الإثبات في مسائل الاستواء.

أما الأول: فقد ورد في كلام الأئمة استعمال كلمة (مماسة) في باب النفي، ومن ذلك قول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الله عَزَّوَجَلَّ على عرشه فوق السماء السابعة، يعلم ما تحت الأرض السفلى، وإنه غير مماس لشيء من خلقه، وهو تبارك وتعالى بائن من خلقه، وخلقه بائنون منه".

وهذا الكلام ذكره الإمام أحمد في معرض تقرير علو الله على خلقه، وأنه بائن من خلقه، والخلق بائنون منه، وأنه ليس بذاته في كل مكان كما هو زعم الجهمية، فمن المتقرر في عقيدة السلف الصالح إثبات علو الله تعالى على خلقه

وأنه بائن منهم وليس بمماس لهم ولا محايث.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في نقض تأسيس الجهمية (٢/ ٥٣١): "فإن الذين نقلوا إجماع السلف أو إجماع أهل السنة أو إجماع الصحابة والتابعين على أن الله فوق العرش بائن من خلقه لا يحصيهم إلا الله، وما زال علماء السلف يثبتون المباينة ويردون قول الجهمية بنفيها" .اهـ.

ومن المعلوم أن طوائف المعطلة من الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من متأخري الأشاعرة والماتريدية ينكرون المباينة بالجهة.

فبعضهم ينفي المباينة والمحايثة، فيقولون: لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوقه، ولا تحته، ولا مباين له، ولا محايث له. وهؤلاء هم نظارهم.

وبعضهم يثبت المحايثة فيقولون: إنه بذاته في كل مكان، وهذا قول طوائف من علمائهم وعبادهم.

والاتحادية من المعطلة قالوا: إنه نفس وجود الأمكنة.

وردًا على مزاعم هؤلاء الباطلة أطلق من أطلق من علماء السلف لفظ المباينة وعدم المماسة تقريرًا منهم لإثبات علو الله على خلقه واستوائه على عرشه ومباينته من خلقه. وقد افترق الناس في هذا المقام أربع فرق:

القسم الأول: الجهمية النفاة، الذين يقولون: ليس داخل العالم، ولا خارج العالم، ولا فوق ولا تحت، ولا يقولون بعلوه ولا بفوقبته.

القسم الثاني: يقولون: إنه بذاته في كل مكان، كما يقوله النجارية، وكثير من الجهمية، عبادهم، وصوفيتهم، وعوامهم.

القسم الثالث: من يقول هو فوق العرش وهو في كل مكان، ويقول أنا أقر بهذه النصوص، وهذه لا أصرف واحدًا منها عن ظاهره. وهذا قول طوائف

ذكرهم الأشعري في مقالاته وهو موجود في كلام طائفة من السالمية والصوفية.

القسم الرابع: وهم سلف الأمة وأئمتها، أئمة العلم والدين من شيوخ العلم والعبادة، فإنهم أثبتوا أن الله فوق سمواته وأنه على عرشه بائن من خلقه وهم منه بائنون، وهو أيضًا مع العباد عمومًا بعلمه، ومع أنبيائه وأوليائه بالنصر والتأييد والكفاية، وهو أيضًا قريب مجيب". نقض تأسيس الجهمية (١/ ٥٥٥-٥٥٦).

ومن تقرير فهم السلف استعمل من استعمل من العلماء لفظ (المماسة) ليثبتوا أن الله بائن من الخلق وهم منه بائنون.

الموقف الثاني: منعهم لاستعمال لفظ (المماسة) في مسألة الاستواء على العرش، وذلك ردًا على الكرامية الذين خاضوا في شأن الكيفية وتعمقوا فيها.

وفي هذا يقول السجزي في الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص١٢٦-١٢٧): "واعتقاد أهل الحق أن الله سبحانه فوق العرش بذاته من غير مماسة، وأن الكرامية ومن تابعهم على قول المماسة ضُلال".اهـ.

وقال قوام السنة الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة (٢/ ١١٣-١١٤): "قال أهل السنة: خلق الله السموات والأرض، وكان عرشه على الماء مخلوقًا قبل خلق السموات والأرض ثم استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض وليس معناه المماسة، بل هو مستو على العرش بلا كيف كما أخبر عن نفسه".اهـ.

وقال الإمام أبو القاسم عبد الله بن خلف المقري كما في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص٥٥): "إن الله تعالى في السماء على العرش فوق سبع سموات من غير مماسة ولا تكييف".اهـ.

وقال الإمام سعد بن علي الزنجاني المقري كما في اجتماع الجيوش

الإسلامية (ص٧٤): "ليس معنى استواء الله على عرشه بأنه مستول عليه، ولا معناه بأنه مماس للعرش، فإن ذلك ممتنع في وصفه جل وعلا، ولكنه تعالى مستو على عرشه بلا كيف كما أخبر بذلك عن نفسه".اهـ.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٦/ ٣٤٥): هل هناك دليل من الكتاب أو السنة أو أقوال الصحابة ما ينفي أو يثبت مماسة الرب ﷻ لعرشه؟

فأجاب: لا يوجد ذلك إطلاقًا، وإثبات مثل هذه الأمور ونفيها في اعتقادي خروج عن منهج السلف الصالح؛ لأن كلًا من الإثبات والنفي يترتب منه محذور، أما الإثبات فقد يلزم منه محظورات أحدهما نسبة شيء إلى الله ﷻ لم يثبت في الكتاب ولا في السنة وهذا لا يجوز.

والشيء الآخر أننا إذا أثبتنا أو ادعّينا شيئًا من ذلك فتحنا طريقًا للمعطلين المؤولين لنصوص الكتاب والسنة المتعلقة بصفات الرب تبارك وتعالى، فتحنا لهم طريقًا ليتهمونا بالتجسيم؛ لأنهم يُفسِّرون هذه الأمور التي قد يدَّعيها بعض من سبقنا، يفسرونها على ظاهرها التي تليق بالبشر ولا تليق بالله ﷻ، ولذلك فلا يجوز إثبات مثل هذه الأمور، كما أنه لا يجوز نفيها لأنه قد يلزم من نفيها نفي ما جاء في الكتاب والسنة من ذلك مثلًا: أن الله ﷻ ليس حالًا في المخلوقات، أي: ليس كما يقول المعطلة والقائلون بوحدة الوجود أن الله ﷻ في كل مكان، أن الله ﷻ موجود في كل الوجود، وغلا الصوفية في تصريحهم بهذه الضلالة حينما قال قائلهم في شعر لا أذكره الآن، أنه مثل رب العالمين ومخلوقاته كمثل الماء والثلج، هل يمكن فصل الماء عن الثلج حين كونه ثلجًا؟ الجواب: لا، كذلك عندهم رب العالمين تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرا إنه حالّ في

المخلوقات، والعقيدة السلفية أن الله ﷻ غني عن العالمين، وهو ليس بحاجة إلى العرش، وإلى الجلوس عليه، والتمَكُّن منه، وقد صرَّح بذلك بعض العلماء المعتدلين من الماتريدية، أقول المعتدلين؛ لأن الماتريدية كالأشاعرة في كثير من الأمور المخالفة لعقيدة السلف الصالح أما هذا البعض الذي أُشير إليه، فقد قال مثبتًا لصفة علو الله على عرشه دون إيهام أنه بحاجة إليه فقال:

ورب العرش فوق العرش بلا وصف التمكن واتصال

لأن وصف رب العالمين بهذا الوصف معناه أنه بحاجة إلى العرش، وكان الله ولا شيء معه، كما نفهم من حديث عمران بن حصين، ثم خلق العرش والسماوات كما جاء تفصيل ذلك في السنة.

فإذًا: باختصار لا يوجد في الكتاب ولا في السنة شيء يثبت هذا الذي جاء في السؤال أو ينفيه فلا نقر ولا ننفي.اهـ.

فهذه النصوص تدل دلالة واضحة أن السبب في منع استعمال هذا اللفظ لما فيه من التعمق في شأن الكيفية، ومن عادة السلف أنهم عند تقريرهم لصفة الاستواء ولسائر الصفات لا يتعمقون في شأن الكيفية ويكلون علم ذلك لله ﷻ، وسأورد لك بعض النقول التي توضح مدى التزام السلف بالتقييد بهذا الضابط في تقريرهم لصفة الاستواء فمن ذلك:

١ -ما جاء في عقيدة أبي حاتم وأبي زرعة الرازيين وفيها "أن الله ﷻ على عرشه بائن من خلقه كما وصف نفسه في كتابه بلا كيف".

٢ -قول الطلمنكي "وأن الله تعالى فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء".اهـ.

وبناءً على ما تقدم من أقوال الأئمة يتضح حرص السلف على عدم

الخوض في شأن الكيفية، وبذلك منعوا استعمال لفظ (المماسة) في هذه المسألة لهذا السبب.

المسألة الرابعة عشرة: حكم استعمال لفظة "بذاته" في الكلام على علوه تعالى

فيقال: الله تعالى فوق عرشه بذاته؟ وكذا لفظ "بائن" فيقال: بائن من خلقه؟

قال العلامة الألباني في مختصر العلو (ص١٧، ١٨): بل إنه [أي الذهبي] أنكر على من قال ممن جاء بعد القرون الثلاثة: إن الله استوى استواء استقرار، كما تراه في ترجمة (١٤٠ - أبو أحمد القصاب). وصرح في ترجمة (١٦١ البغوي) أنه لا يعجبه تفسير (استوى) ب (استقر)، بل إنه بالغ في إنكار لفظة (بذاته) على جمع ممن قال: (هو تعالى فوق عرشه بذاته) لعدم ورودها عن السلف مع أنها مفسرة لقولهم باستواء الله على خلقه حقيقة استواء يليق بجلاله وكماله واعتبرها من فضول الكلام فانظرترجمة (١٣٦ - ابن أبي زيد) و(١٤٤ - يحيى بن عمار) و(١٤٦ - أبو عمر الطلمنكي) و(١٤٩ - أبو نصر السجزي) وهذه اللفظة (بذاته) وإن كانت عندي معقولة المعنى وأنه لا بأس من ذكرها للتوضيح فهي كاللفظة الأخرى التي كثر ورودها في عقيدة السلف وهي لفظة (بائن) في قولهم (هو تعالى على عرشه بائن من خلقه). وقد قال هذا جماعة منهم كما ستراه في هذا (المختصر) في التراجم الآتية (٤٥ - عبد الله بن أبي جعفر الرازي) و(٥٣ - هشام بن عبيد الله الرازي) و(٥٦ - سنيد بن داود المصيصي الحافظ) (٦٧ - إسحاق بن راهويه عالم خراسان) وذكره عن ابن المبارك و(٧٧ - أبو زرعة الرازي) و(٨٧ - أبو حاتم الرازي) وحكياه عن العلماء في جميع الأمصار. و(٧٩ - يحيى بن معاذ الرازي) و(٨٤ - عثمان بن سعيد الدارمي الحافظ و(١٠٣ أبو جعفر ابن أبي شيبة) وكل هؤلاء من القرون

الثلاثة المشهود لهم بالخيرية ثم (١٠٨ - حماد البوشنجي الحافظ) وحكاه عن أهل الأمصار (١٠٩ - إمام الأئمة ابن خزيمة). و(١٢٥ - أبو القاسم الطبراني) و(١٣٣ - ابن بطة) و(١٤١ - أبو نعيم الأصبهاني) وعزاه إلى السلف. و(١٤٢ - معمر بن زياد) و(١٥٥ - الفقيه نصر المقدسي) و(١٥٨ - شيخ الإسلام الأنصاري) و(١٦٤ - ابن موهب) قلت: ومن هذا العرض يتبين أن هاتين اللفظتين: (ذاته) و(بائن) لم تكونا معروفين في عهد الصحابة رضي الله عنهم. ولكن لما ابتدع الجهم وأتباعه القول بأن الله في كل مكان اقتضى ضرورة البيان أن يتلفظ هؤلاء الأئمة الأعلام بلفظ (بائن) دون أن ينكره أحد منهم ومثل وهذا تماما قولهم في القرآن الكريم أنه غير مخلوق فإن هذه لا تعرفها الصحابة أيضا وإنما كانوا يقولون فيه: كلام الله تبارك وتعالى لا يزيدون على ذلك وكان ينبغي الوقوف فيه عند هذا الحد لولا قول جهم وأشياعه من المعتزلة: إنه مخلوق ولكن إذا نطق هؤلاء بالباطل وجب على أهل الحق أن ينطقوا بالحق ولو بتعابير وألفاظ لم تكن معروفة من قبل وإلى هذه الحقيقة أشار الإمام أحمد رحمه الله تعالى حين سئل عن الواقفة الذين لا يقولون في القرآن إنه مخلوق أو غير مخلوق هل لهم رخصة أن يقول الرجل: (كلام الله) ثم يسكت؟ قال: ولم يسكت؟ لولا ما وقع فيه الناس كان يسعه السكوت ولكن حيث تكلموا فيما تكلموا لأي شيء لا يتكلمون؟ سمعه أبو داود منه كما في (مسائله) (ص ٢٦٣ - ٢٦٤) قلت: والمقصود أن المؤلف رحمه الله تعالى أقر لفظة (بائن) لتتابع أولئك الأئمة عليها دون نكير من أحد منهم وأنكر اللفظة الأخرى وهي (بذاته) لعدم تواردها في أقوالهم. إلا بعض المتأخرين منهم فأنكر ذلك مبالغة منه في المحافظة على نهج السلف مع أن معناها في نفسه سليم وليس فيها إثبات ما لم

يرد فكنت أحب له رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن لا يتردد في إنكار نسبة القعود إلى الله تعالى وإقعاده محمدا ﷺ على عرشه ما دام أنه لم يأت به نص ملزم عن النبي ﷺ ومعناه ليس له شاهد في السنة ومعناه ولفظه لم يتوارد على ألسنة الأئمة وهذا هو الذي يدل عليه بعض كلماته المتقدمة حول هذا الأثر ولكنه لما رأى كثيرا من علماء الحديث أقروه لم يجرؤ على التزام التصريح بالإنكار وإنما تارة وتارة والله تعالى يغفر لنا وله(١).

المسألة الخامسة عشرة: هل صح أن "العرش مطوق بحية، والوحي ينزل بالسلاسل.

سئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٧/ ٦٩٣): السؤال قد سألتك إياه في التلفون، الذي هو قلت لك حديث: «العرش مطوق بحية، والوحي ينزل بالسلاسل)» ذكرت لي أني أرجع أرى هل هو حديث.... في «مختصر العلو» أنت قلت: حديث عبد الله بن عمرو أو قال حديث عبد الله بن عمر، وعلقت عليه فقلت: وإسناده صحيح عن عبد الله بن عمرو، وقلت: إسناده صحيح، فهل هو في حكم المرفوع إلى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بهذا الإسناد؟

الشيخ: ما عندي جواب غير ما سمعته، إن كان مصرحًا برفعه فهو كذلك، وإن كان غير مُصرَّح فهو موقوف.

مداخلة: لا ما هو مصرح فهل يعني إذا كان موقوفًا كيف النظر إلى

---

(١) قال العلامة الألباني هذا الكلام في سياق إنكاره على الذهبي الذي أثبت قعود النبي ﷺ على العرش بناءً على أثر ضعيف عن مجاهد، فأراد الألباني أن يلزمه فيقول إذا كان الذهبي أنكر التعبير بلفظه "بذاته" عن الله تعالى لعدم تواردها عن السلف مع أن اللجوء إليها ضرورة للرد على الجهمية، فمن باب أولى أن ينكر إجلاس النبي ﷺ على العرش، لعدم ثبوت الدليل بذلك.

الحديث، هل نقول: أن العرش مطوق بحية؟

الشيخ: لا، ما نقول، وأظن أجبتكم يوم كان الجواب، يعني: لك، هو كان جوابًا متكررًا لغيرك؛ أقوال الصحابة إذا صحت عنهم لتكون في منزلة الأحاديث المرفوعة إلى الرسول ﷺ يجب أن تكون أولًا: مما لا يقال بالرأي وبالاجتهاد، هذه النقطة بالذات هناك مجال للاختلاف بين العلماء والفقهاء في بعض ما يتفرع من هذا الشرط، وهو أن يكون قول الصحابي أو الحديث الموقوف على الصحابي مما لا يقال بالرأي، ممكن يصير فيه اختلاف، مثلًا: إذا جاء حديثٌ ما فيه النهي عن شيء، هل هذا في حكم المرفوع أم لا، فمن يظن أن النهي عن الشيء لا يمكن أن يكون بالاجتهاد يقول: حكمه حكم المرفوع، ومن يظن مثلي أنا أنه يمكن للصحابي ولمن جاء من بعدهم من الأئمة أن يجتهد وينهى عن شيء ويكون في اجتهاده مخطئًا فيجب إذًا: أن يكون الحديث الموقوف على الصحابي الذي يراد أن نقول: إنه في حكم المرفوع يجب أنه لا يحيط به أي شك في أنه في حكم المرفوع، ومتى يكون ذلك؟ حين لا مجال أن يقال بمجرد الرأي والاجتهاد، هذا الشرط الأول.

والشرط الثاني، أو قبل ما أقول الشرط الثاني: الشرط الأول يعود في الحقيقة إلى أمر غيبي، وهو من معانيه التحريم والتحليل، لكن هذا الأمر الغيبي ينقسم قسمين: قسم يتعلق بالشريعة الإسلامية، وقسم يتعلق بما قبل الشريعة من الشرائع المنسوخة، فلكي يكون الحديث الموقوف في حكم المرفوع ينبغي أن يكون متعلقًا بالشريعة الإسلامية وليس متعلقًا بما قبلها، لماذا؟ هنا بيت القصيد، لأنه يمكن أن يكون من الإسرائيليات، والتاريخ الذي يتعلق بما قبل الرسول ﷺ... معناه من بدء الخلق إلى ما قبل الرسول ﷺ وبعثته هو من

هذا القبيل.

فإذا جاءنا حديث يتحدث عما في السماوات من عجائب ومخلوقات، وهو لا يمكن أن يقال جزمًا بالرأي والاجتهاد فيتبادر إلى الذهن إذًا هذا في حكم المرفوع، لكن لا، ممكن أن يكون هذا من الإسرائيليات التي تلقاها هذا الصحابي من بعض الذين أسلموا من اليهود والنصارى، ولذلك فينبغي أن يكون الحديث الموقوف والذي يراد أن نجعله في حكم المرفوع ما يوحي بأنه ليس له علاقة بالشرائع السابقة.

فهذا الحديث عن عبد الله بن عمرو يمكن أن يكون من الأمور الإسرائيلية التي تتحدث عما في السماء من العجائب، ومن خلق الملائكة، لكن الذي ثابت... الآن عكس ذاك تمامًا، يشعر الإنسان فورًا أن هذا لا يمكن أن يكون من الإسرائيليات، فهو إذًا موقوف في حكم المرفوع ولا مناص، ما هو؟

الحديث المعروف والمروي عن ابن عباس بالسند الصحيح، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نزل القرآن إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل أنجمًا حسب الحوادث، فهو إذًا: يتحدث عن القرآن وليس عن التوراة والإنجيل، فلو كان حديثه هذا الموقوف عن التوراة والإنجيل ورد الاحتمال السابق، فيقال: لا نستطيع أن نقول هو في حكم المرفوع، لكن ما دام يتعلق بالقرآن وأحكام القرآن وكل ما يتعلق به لا يمكن أن يتحدث عنه بشيء غيبي إلا ويكون الراوي قد تلقاه من الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأنه كون القرآن نزل جملة هذا غيب من أين يعرف ابن عباس تلقاه من بعض الإسرائيليات هذا مستحيل، ونزل إلى بيت العزة في السماء الدنيا تفصيل دقيق [لا يمكن] للعقل البشري أن يصل إليه، لذلك هذا الحديث يتعامل العلماء معه كما لو كان قد صرح ابن عباس فيه برفعه إلى النبي صلى الله

عليه وآله وسلم.

باختصار: إن الأحاديث الموقوفة ليس من السهل أبدًا أن يحكم عليها بحكم المرفوع إلا بدراسة دقيقة ودقيقة جدًا، وذلك لا يستطيعه إلا كبار أهل العلم.

سؤال: جزاك الله خير يا شيخنا.

الشيخ: وإياك بارك الله فيك.

مداخلة: هذه فائدة فريدة عضوا عليها بالنواجذ والأضراس والثنايا.

الشيخ: جزاك الله خيرًا.

المسألة السادسة عشرة: ما يسمى "دعاء العرش" دعاء مبتدع مكذوب

ما يسمى دعاء العرش لفظه (قيل إن جبريل علية السلام أتى النبي صلى الله علية وسلم فقال: يا محمد! السلام يقرئك السلام، ويخصك بالتحية والإكرام، وقد أوهبك هذا الدعاء الشريف، يا محمد! ما من عبد يدعو وتكون خطاياه وذنوبه مثل أمواج البحار، وعدد أوراق الأشجار، وقطر الأمطار وبوزن السموات والأرض، إلا غفر الله تعالى ذلك كله له. يا محمد! هذا الدعاء مكتوب حول العرش، ومكتوب على حيطان الجنة وأبوابها، وجميع ما فيها.. ومما ورد فيه :.... يا محمد! ما من عبد قرأ هذا الدعاء إلا غفرت ذنوبه ولو كانت عدد نجوم السماء، ومثل الرمل والحصى، وقطر الأمطار، وورق الأشجار، ووزن الجبال وعدد ريش الطيور، وعدد الخلائق الأحياء والأموات، وعدد الوحوش والدواب، يغفر الله تعالى ذلك كله، ولو صارت البحار مدادا، والأشجار أقلاما، والإنس والجن والملائكة، وخلق الأولين والآخرين يكتبون لي يوم القيامة، لفني المداد، وتكسر الأقلام، ولا يقدرون على حصر ثواب هذا

الدعاء. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: بهذا الدعاء ظهر الإسلام والإيمان. وقال عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه: نسيت القرآن مرارا كثيرة فرزقني الله حفظ القرآن ببركة هذا الدعاء. وقال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: كلما أردت أن أنظر إلى النبي ﷺ في المنام، أقرأ هذا الدعاء. وقال سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه: كلما أشرع في الجهاد أقرأ هذا الدعاء، وكان تعالى ينصرني على الكفار ببركة هذا الدعاء. ومن قرأ هذا الدعاء وكان مريضا، شفاه الله تعالى، أو كان فقيرا أغناه الله تعالى، ومن قرأ هذا الدعاء وكان به هم أو غم زال عنه، وإن كان عليه دين خلص منه، وإن كان في سجن وأكثر من قراءته خلصه الله تعالى، ويكون آمنا شر الشيطان، وجور السلطان. قال سيدنا رسول الله ﷺ: قال لي جبريل: يا محمد! من قرأ هذا الدعاء بإخلاص قلب ونية على جبل لزال من موضعه، أو على قبر لا يعذب الله تعالى ذلك الميت في قبره ولو كانت ذنوبه بالغة ما بلغت؛ لأن فيه أسم الله الأعظم. وكل من تعلم هذا الدعاء وعلمه لمؤمنين يكون له أجر عظيم عند الله، وتكون روحة مع أرواح الشهداء، ولا يموت حتى يرى ما أعده الله تعالى له من النعيم المقيم. فلازم قراءة هذا الدعاء في سائر الأوقات تجد خيرا كثيرا مستمرا إن شاء الله تعالى. فنسأل الله تعالى الإعانة على قراءته، وأن يوفقنا والمسلمين لطاعته، إنه على ما شاء قدير وبعباده خبير، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين. الدعاء: بسم الله الرحمن الرحيم: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، لا إله إلا الله العدل اليقين، لا إله إلا الله ربنا ورب آبائنا الأولين، سبحانك إني كنت من الظالمين، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك

والحمد يحي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير، وإليه المصير، وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله إقرارا بربوبيته، سبحان الله خضوعا لعظمته، اللهم يا نور السموات والأرض، يا عماد السموات والأرض، يا جبار السموات والأرض، يا ديان السموات والأرض، يا وارث السموات والأرض، يا مالك السموات والأرض، يا عظيم السموات والأرض، يا عالم السموات والأرض، يا قيوم السموات والأرض، يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة. اللهم إني أسألك أن لك الحمد، لا إله إلا أنت الحنان المنان، بديع السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام، برحمتك يا أرحم الراحمين. بسم الله أصبحنا وأمسينا، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور. الحمد لله الذي لا يرجى إلا فضله، ولا رازق غيره. الله أكبر ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع البصير. اللهم إني أسألك في صلاتي ودعائي بركة تطهر بها قلبي، وتكشف بها كربي، وتغفر بها ذنبي، وتصلح بها أمري، وتغني بها فقري، وتذهب بها شري، وتكشف بها همي وغمي، وتشفي بها سقمي، وتقضي بها ديني، وتجلو بها حزني، وتجمع بها شملي، وتبيض بها وجهي...... اللهم استر عورتي، واقبل عثرتي، واحفظنى من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي ومن تحتي، ولا تجعلني من الغافلين. اللهم إني أسألك الصبر عند القضاء، ومنازل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء، ومرافقة الأنبياء، يا رب العالمين. آمين يا أرحم الراحمين).

وهذا الدعاء كذب مختلق مصنوع، لا يجوز نقله ولا روايته ولا العمل به، ومن تساهل في ذلك تعرض للوعيد الشديد، وكان نبينا محمد ﷺ خصمه يوم

القيامة، وعلامة الوضع والكذب بادية عليه، إذ لا يعرف في ديننا دعاء تكون له كل هذه الفضائل المبالغ فيها، ولو كان شيء من ذلك موجودا في شريعتنا لوجدت عشرات الأسانيد الصحيحة تتسابق في نقله وروايته، أما هذا الدعاء فلم يرد ولا بإسناد ضعيف.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "المنار المنيف" (ص/ ١٩) في حديثه عن علامات الحديث الموضوع: " اشتماله على المجازفات التي لا يقول مثلها رسول الله ﷺ: وهي كثيرة جدا، كقوله في الحديث المكذوب: (من قال لا إله إلا الله خلق الله من تلك الكلمة طائرا له سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يستغفرون الله له) وأمثال هذه المجازفات الباردة، التي لا يخلو حال واضعها من أحد أمرين: إما أن يكون في غاية الجهل والحمق، وإما أن يكون زنديقا قصد التنقيص بالرسول بإضافة مثل هذه الكلمات إليه " انتهى.

ويقول ابن حجر في "النكت" (٢/ ٨٤٣): " ومن جملة القرائن الدالة على الوضع الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر اليسير أو بالوعد العظيم على الفعل اليسير، وهذا كثير موجود في حديث القصاص والطرقية " انتهى.

جاء في "فتاوى اللجنة الدائمة" (٢٤/ ٣٧٢-٣٧٣): " الدعاء المسمى بـ: (دعاء العرش وفضائل دعاء العرش) دعاء مبتدع، لا أصل له، ولا دليل عليه من الكتاب والسنة، ولم ينسب إلى مرجع معتمد، فهو من اختراع من وضعه، وواضعه مجهول، وفيه ألفاظ مكذوبة، مثل قوله: (أسألك باسمك المكتوب على جناح جبريل وعلى ميكائيل وعلى جبهة إسرافيل، وعلى كف عزرائيل الذي سميت به منكرا ونكيرا وبحق أسرار عبادك عليك)، وفيه وعود مكذوبة لأجل إغراء الناس بهذا الدعاء المبتدع، مثل قوله: (من دعا به مرة واحدة حشره

الله يوم القيامة ووجهه يتلألأ.. إلخ)

(وإن كان له ذنوب أكثر من ماء البحر وقطر الأمطار.. إلخ) (ويكتب له ثواب ألف عمرة مبرورة، وإن قرأه خائف أمنه الله، أو عطشان سقاه الله، أو جائع أطعمه الله. إلخ) (وإن حمله ذو عاهة برئ، أو زوجة أكرمها زوجها، وأمن من الجن والإنس والمردة والشياطين والأوجاع والأمراض، ورجع إلى أهله إن كان غائبا..) إلى آخر كذبه.

وهذا دعوة إلى تعليق التمائم والحروز والتعلق بغير الله.

فالواجب منع توزيعه ونشره وإتلاف ما وجد منه، ومعاقبة من يروجه بين الناس؛ لأنه دعوة لنشر البدع والخرافات وتعليق التمائم والحروز. وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم " انتهى.

المسألة السابعة عشرة: هل صح حديث (أسألك بمعاقد العز من عرشك)؟

سئل علماء اللجنة الدائمة (٦/ ٤٣٩): قرأت حديثا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اثنتا عشرة ركعة تصليهن من ليل أو نهار وتتشهد بين كل ركعتين فإذا تشهدت في آخر صلاتك فأثن على الله عز وجل وصل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم اسجد واقرأ وأنت ساجد فاتحة الكتاب سبع مرات، وقل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (عشر مرات) ثم قل اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك واسمك الأعظم وجدك الأعلى وكلماتك التامة، ثم سل حاجتك، ثم ارفع رأسك ثم سلم يمينا، وشمالا. ولا تعلموها السفهاء فإنهم يدعون بها فيستجابون». فهل هذا الحديث صحيح؟.

فأجابوا: الحديث المذكور أخرجه الحاكم وأورده الحافظ المنذري في

الترغيب والترهيب وقال: تفرد به عامر بن خداش النيسابوري، قال: وقال شيخنا الحافظ أبو الحسن كان صاحب مناكير، وقد تفرد به عن عمر بن هارون البلخي، وهو متروك متهم، أثنى عليه ابن مهدي وحده، وبهذا تعرف أن الحديث ضعيف من جهة الإسناد، هذا وقد دلت الأحاديث الصحيحة على النهي عن قراءة القرآن في السجود؛ فيكون الحديث ضعيفا أيضا من جهة المتن، فلا يجوز العمل به لعدم صحته ومخالفته للأحاديث الصحيحة. وبالله التوفيق.

وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٤/ ٣١٧): من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة صاحب السمو الملكي الأمير المكرم نواف بن عبد العزيز وفقه الله لما فيه رضاه آمين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد: فقد أخبرني الأخ علي بن حسين بن عبيد عن رغبتكم في الإفادة عن التوسل الجاري على ألسنة كثير من الناس وهو: (اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك).

والجواب: هذا الدعاء ليس له أصل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم فيما نعلم، وقد ذكر العلامة الزيلعي في كتابه نصب الراية) (ص٢٧٢ جـ ٤) أن الحافظ البيهقي رحمه الله رواه في كتابه الدعوات الكبير عن ابن مسعود رضي الله عنه وأن الحافظ ابن الجوزي رحمه الله ذكره في الموضوعات على رسول الله ﷺ يعني المكذوبات عليه، عليه الصلاة والسلام، وبذلك يعلم أنه لا يشرع التوسل به لكونه مكذوبا على النبي ﷺ. ولأنه مجمل محتمل لا يعرف معناة، وقد زاد بعضهم في روايته كما ذكره البيهقي في كتابه بعد قوله: من عرشك ما نصه (ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وكلماتك التامة) وهذه الزيادة ليس لها أصل من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بهذا اللفظ فيما نعلم، ولكن قد دلت

الأدلة الشرعية على شرعية التوسل بأسماء الله وصفاته ويدخل فيها الاسم الأعظم وكلمات الله التامات كما قال الله ﷻ: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من نزل منزلا فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» رواه الإمام مسلم في صحيحه، وروى مسلم في صحيحه أيضا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سمعت النبي ﷺ يدعو في سجوده بقوله: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» وخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الرحمن بن خنبش التميمي أن النبي ﷺ كان يتعوذ فيقول: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن» والأحاديث في التوسل بأسماء الله وصفاته كثيرة، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أن ثلاثة ممن كان قبلنا أواهم المبيت إلى غار فانطبقت عليهم صخرة فسدت عليهم فم الغار فقالوا فيما بينهم: إنه لن ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فدعوا الله سبحانه وتوسل أحدهم إلى الله سبحانه ببره لوالديه فانفجرت الصخرة بعض الشيء ثم توسل الثاني بعفته عن الزنا بعد القدرة عليه فانفجرت الصخرة أكثر لكنهم لا يستطيعون الخروج ثم توسل الثالث بأدائه الأمانة لأهلها فانفجرت الصخرة فخرجوا. وهذا الحديث يدل على شرعية التوسل إلى الله سبحانه بصالح الأعمال، ومن ذلك التوسل بدعاء الحي وشفاعته كما كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو لهم، ولما

أجدبوا سألوا رسول الله ﷺ أن يستسقي لهم فدعا الله سبحانه في خطبة الجمعة ورفع يديه وقال: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا» فأنزل الله المطر في الحال، ومرة خرج بهم إلى الصحراء فصلى بهم ركعتين وخطبهم واستغاث الله سبحانه وتضرع إليه وألح في الدعاء ورفع يديه فأغاثهم الله سبحانه.

ولما وقع الجدب في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ أن يستغيث بالناس فدعا العباس رضي الله عنه وأمن المسلمون على دعائه فأغاثهم الله. فهذه هي التوسلات الشرعية.

أما التوسل بجاه فلان أو حق فلان أو ذات فلان فهو توسل غير مشروع بل بدعة عند جمهور أهل العلم.

وأسأل الله أن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل به، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا جميعا وأن ينصر دينه ويعلي كلمته، وأن يوفق ولاة أمرنا وجميع ولاة أمر المسلمين لكل ما فيه رضاه وصلاح أمر عباده في الدنيا والآخرة، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.اهـ.

وقال العلامة الألباني في التوسل (ص٢٩ - ٤٩): ومن الغريب حقًا أنك ترى هؤلاء يعرضون عن أنواع التوسل المشروعة السابقة، فلا يكادون يستعلمون شيئًا منها في دعائهم أو تعليمهم الناس مع ثبوتها في الكتاب والسنة وإجماع الأمة عليها، وتراهم بدلًا من ذلك يعمدون إلى أدعية اخترعوها، وتوسلات ابتدعوها لم يشرعها الله عز وجل، ولم يستعملها رسوله المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم-، ولم ينقل عن سلف هذه الأمة من أصحاب القرون الثلاثة الفاضلة، وأقل ما يقال فيها: إنها مختلف فيها، فما أجدرهم بقوله تبارك وتعالى: {أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير} (البقرة: ٦١).

ولعل هذه أحد الشواهد العلمية التي تؤكد صدق التابعي الجليل حسان بن عطية المحاربي رحمه حيث قال: (ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سننهم مثلها، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة).

هذا ولم ننفرد نحن بإنكار تلك التوسلات المبتدعة، بل سبقنا إلى إنكارها كبار الأئمة والعلماء، وتقرر ذلك في بعض المذاهب المتبعة، ألا وهو مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد جاء في «الدر المختار" (٢/ ٦٣٠) -وهو من أشهر كتب الحنفية- ما نصه: (عن أبي حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، والدعاء المأذون فيه، المأمور به ما استفيد من قوله تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها}).

ونحوه في «الفتاوى الهندية" (٥/ ٢٨٠).وقال القُدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بـ «شرح الكرخي" في (باب الكراهة): (قال بشر بن الوليد حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول: بمعاقد العز من عرشك، أو بحق خلقك، وهو قول أبي يوسف، قال أبو يوسف: معقد العز من عرشه هو الله، فلا أكره هذا، وأكره أن يقول: بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام، قال القُدوري: المسألة بخلقه لا تجوز لأنه لا حق للخلق على الخالق، فلا تجوز وفاقًا).نقله شيخ الإسلام في «القاعدة الجليلة" وقال الزبيدي في «شرح الإحياء" (٢/ ٢٨٥): (كره أبو حنيفة وصاحباه أن يقول الرجل: أسألك بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، أو بحق البيت الحرام والمشعر الحرام، ونحو ذلك، إذ ليس لأحد على الله حق، وكذلك كره أبو حنيفة ومحمد أن يقول الداعي: اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك، وأجازه أبو يوسف لما بلغه الأثر فيه).

أقول: لكن الأثر المشار إليه باطل لا يصح، رواه ابن الجوزي في الموضوعات وقال: (هذا حديث موضوع بلا شك)، وأقره الحافظ الزيلعي في نصب الراية (٢٧٣) فلا يحتج به، وإن كان قول القائل: (أسألك بمعاقد العز من عرشك) يعود إلى التوسل بصفة من صفات الله ﷻ، فهو توسل مشروع بأدلة أخرى كما سبق، تغني عن هذا الحديث الموضوع. قال ابن الاثير رحمه الله: (أسألك بمعاقد العز من عرشك، أي بالخصال التي استحق بها العرش العز، أو بمواضع انعقادها منه، وحقيقة معناه: بعز عرشك، وأصحاب أبي حنيفة يكرهون هذا اللفظ من الدعاء).

فعلى الوجه الأول من هذا الشرح، وهو الخصال التي استحق بها العرش العز، يكون توسلًا بصفة من صفات الله تعالى فيكون جائزًا، وأما على الوجه الثاني الذي هو مواضع انعقاد العز من العرش، فهو توسل بمخلوق فيكون غير جائز، وعلى كلٍ فالحديث لا يستحق زيادة في البحث والتأويل لعدم ثبوته، فنكتفي بما سبق.

(باب مسائل الإيمان بالكرسي)

مسائل في الباب

مسألة: ذكر المذاهب في الكرسي

قد تعددت الأقوال واختلفت في الكرسي كما تعددت واختلفت من قبل في العرش. والأقوال في الكرسي هي:

القول الأول: أن المراد بالكرسي: العلم. وهذا القول هو قول الجهمية[1]،

(١) انظر: "التنبيه والرد": ص ١٠٤، و"الكشاف": (١/ ٣٨٥، ٣٨٦)، "مجموع الفتاوى": (٥/ ٦٠)، و"الرد على بشر المريسي": ص ٧١، و"تفسير روح المعاني": (٣/ ١٠).

فقد أولوا الكرسي بمعنى العلم كما أولوا العرش بمعنى الملك، وكل ذلك فرارًا منهم عن إثبات علو الله واستوائه على عرشه.

وقد استدلوا بما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}، قال: "كرسيه علمه"(١).

وهذا القول قد رجحه الطبري في تفسيره (٣/ ١١) بقوله: "وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن، فقول ابن عباس الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة عن

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣/ ١٥)، وعبد الله بن الإمام أحمد في كتاب السنة (٢/ ١٦٧)، وابن منده في الرد على الجهمية (ص ٤٥)، وابن أبي حاتم - كما في تفسير ابن كثير (١/ ٤٥٧)، والطبراني في كتاب السنة ومن طريقه ابن حجر في تغليق التعليق(٤/ ١٨٥)، وعبد بن حميد كما في " تغليق التعليق (٤/ ١٨٦) وفتح الباري (٨/ ٤٧)، والدر المنثور (٢/ ١٧)، وابن حجر في تغليق التعليق (٤/ ١٨٥ - ١٨٦) من طرق عن مطرف، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، {وسع كرسيه} قال: كرسيه علمه، والأثر قال عنه الدارمي: "هو من رواية جعفر الأحمر، وليس جعفر ممن يعتمد على روايته إذ قد خالفه الرواة المتقنون"، وقال ابن منده: "ولم يتابع عليه جعفر، وليس هو بالقوي في سعيد بن جبير"، وأقره الذهبي في الميزان (٢/ ١٤٨) ثم قال: "قد روى عمار الدهني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كرسيه موضع قدمه، والعرش لا يقدر قدره". فكأنه يشير إلى أن هذه الرواية هي المحفوظة، وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٧): "وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما قالا في قوله تعالى {وسع كرسيه السموات والأرض}، أي: علمه، والمحفوظ عن ابن عباس ما رواه الحاكم في مستدركه وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه، من طريق سفيان الثوري، عن عمار الدهني، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنه قال: "الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عَزَّ وَجَلَّ".اهـ. فالخلاصة أن ما روي عن ابن عباس أن كرسيه علمه ضعيف لا يثبت، والمحفوظ عنه أنه قال: "الكرسي: موضع القدمين".

سعيد ابن جبير عنه أنه قال: هو علمه"[1].

القول الثاني: أن المراد بالكرسي هو العرش نفسه. وهذا القول مروي عن الحسن البصري، فقد روى ابن جرير بسنده عن جويبر عن الضحاك قال: كان الحسن يقول: "الكرسي هو العرش"، -وإسناده ضعيف- وقد مال ابن جرير

(١) وقد تعقبه الشيخ محمود شاكر في تعليقه على تفسير الطبري قائلا: العجب لأبي جعفر، كيف تناقض قوله في هذا الموضع! فإنه بدأ فقال: إن الذي هو أولى بتأويل الآية ما جاء به الأثر عن رسول الله صلي الله عليه وسلم، من الحديث في صفة الكرسي، ثم عاد في هذا الموضع يقول: وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن، فقول ابن عباس أنه علم الله سبحانه. فإما هذا وإما هذا، وغير ممكن أن يكون أولى التأويلات في معنى "الكرسي" هو الذي جاء في الحديث الأول، ويكون معناه أيضا "العلم"، كما زعم أنه دل على صحته ظاهر القرآن. وكيف يجمع في تأويل واحد، معنيان مختلفان في الصفة والجوهر!! وإذا كان خبر جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، صحيح الإسناد، فإن الخبر الآخر الذي رواه مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، صحيح الإسناد على شرط الشيخين، كما قال الحاكم، وكما في مجمع الزوائد ٦: ٣٢٣" رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح"، كما بينته في التعليق على الأثر: ٥٧٩٢. ومهما قيل فيها، فلن يكون أحدهما أرجح من الآخر إلا بمرجح يجب التسليم له. وأما أبو منصور الأزهري فقد قال في ذكر الكرسي: "والصحيح عن ابن عباس ما رواه عمار الدهنى، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال: "الكرسي موضع القدمين، وأما العرش فإنه لا يقدر قدره. قال: وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها. قال: ومن روى عنه في الكرسي أنه العلم، فقد أبطل"، وهذا هو قول أهل الحق إن شاء الله. وقد أراد الطبري أن يستدل بعد بأن الكرسي هو"العلم"، بقوله تعالى: "ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما"، فلم لم يجعل"الكرسي" هو"الرحمة"، وهما في آية واحدة؟ ولم يجعلها كذلك لقوله تعالى في سورة الأعراف: ١٥٦: "قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء" واستخراج معنى الكرسي من هذه الآية كما فعل الطبري، ضعيف جدا، يجل عنه من كان مثله حذرا ولطفا ودقة.

إلى هذا القول، واعتمد في ذلك على حديث عبد الله بن خليفة قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: أدع الله أن يدخلني الجنة، فعظم الرب تعالى ذكره، ثم قال: "إن كرسيه وسع السموات والأرض وإنه ليقعد عليه فما يفضل منه مقدار أربع أصابع، ثم قال بأصابعه فجمعها: وإن له أطيط كأطيط الرحل الجديد إذا ركب من ثقله" وهو حديث ضعيف منكر لا يثبت(١).

---

(١) قال العلامة الألباني في الضعيفة (٨٦٦): منكر. رواه أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمداني في فتيا له حول الصفات (١٠٠ / ١) من طريق الطبراني عن عبيد الله بن أبي زياد القطواني: حدثنا يحيى بن أبي بكير: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبيد الله بن خليفة عن عمر بن الخطاب قال: أتت امرأة النبي ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، فعظم الرب ﷻ، ثم قال: فذكره. ورواه الضياء المقدسي في " المختارة " (١ / ٥٩) من طريق الطبراني به، ومن طرق أخرى عن ابن أبي بكير به. وكذلك رواه أبو محمد الدشتي في " كتاب إثبات الحد " (١٣٤ - ١٣٥) من طريق الطبراني وغيره عن ابن أبي بكير به ولكنه قال: "هذا حديث صحيح، رواته على شرط البخاري ومسلم". كذا قال: وهو خطأ بين مزدوج فليس الحديث بصحيح، ولا رواته على شرطهما، فإن عبد الله بن خليفة لم يوثقه غير ابن حبان، وتوثيقه لا يعتد به كما تقدم بيانه مرارا، ولذلك قال الذهبي في ابن خليفة هذا: "لا يكاد يعرف"، فأنى للحديث الصحة؟! بل هو حديث منكر عندي. ومثله حديث ابن إسحاق في " المسند " وغيره، وفي آخره: "إن عرشه لعلى سماواته وأرضه هكذا مثل القبة، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب". وابن إسحاق مدلس، ولم يصرح بالسماع في شيء من الطرق عنه، ولذلك قال الذهبي في " العلو" (ص ٢٣): "هذا حديث غريب جدا فرد، وابن إسحاق حجة في المغازي إذا أسند، وله مناكير وعجائب، فالله أعلم أقال النبي ﷺ هذا أم لا؟ وأما الله ﷻ فليس كمثله شيء جل جلاله، وتقدست أسماؤه، ولا إله غيره. قال: "الأطيط الواقع بذات العرش من جنس الأطيط الحاصل في الرحل، فذاك صفة للرحل وللعرش، ومعاذ الله أن نعده صفة لله ﷻ. ثم لفظ الأطيط لم يأت به نص ثابت".

هذا حال الحديث وهو الأول من حديثي القعود على العرش، وأما الآخر فهو:

٨٦٧ - " يقول الله ﷻ للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده: إني لم =

=

أجعل علمي وحكمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم، على ما كان فيكم، ولا أبالي".
موضوع بهذا التمام. رواه الطبراني في " المعجم الكبير " (١ / ١٣٧ / ٢): حدثنا أحمد بن زهير التستري، قال: حدثنا العلاء بن مسلمة، قال: حدثنا إبراهيم الطالقاني، قال: حدثنا ابن المبارك عن سفيان عن سماك بن حرب عن ثعلبة بن الحكم مرفوعا.
ورواه أبو الحسن الحربي في " جزء من حديثه " (٣٥ / ٢): حدثنا الهيثم بن خلف: حدثنا العلاء بن مسلمة أبو مسلمة أبو سالم: حدثنا إسماعيل بن المفضل، قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك به. قلت: وهذا سند موضوع فإن مداره على العلاء بن مسلمة بن أبي سالم، قال في " الميزان ": "قال الأزدي: لا تحل الرواية عنه، كان لا يبالي ما روى. وقال ابن طاهر: كان يضع الحديث، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات". وكذا في " التهذيب"، فلم يوثقه أحمد ولذا قال الحافظ في " التقريب ": "متروك، ورماه ابن حبان بالوضع".
وقد اختلف عليه في شيخه، فأحمد بن زهير سماه إبراهيم الطالقاني، والهيثم بن خلف سماه إسماعيل بن المفضل، وأيهما كان فإني لم أعرفهما. ومع ظهور سقوط إسناد هذا الحديث، فقد تتابع كثير من العلماء على توثيق رجاله وتقوية إسناده، وهو مما يتعجب منه العاقل البصير في دينه، فهذا المنذري يقول في " الترغيب " (١ / ٦٠): "رواه الطبراني في " الكبير"، ورواته ثقات". ومثله وإن كان دونه خطأ قول الهيثمي في " المجمع " (١ / ٢٦): "رواه الطبراني في " الكبير " ورجاله موثقون". وذلك لأن قوله " موثقون " وإن كان فيه إشارة إلى أن في رجاله من وثق توثيقا غير معتبر مقبول، فهو صريح بأن ثمة من وثقه، وقد عرفت آنفا أنه متفق على تضعيفه !
وأبعد من هذين القولين عن الصواب قول الحافظ ابن كثير في " تفسيره " (٣ / ١٤١): "إسناده جيد".
ونحوه قول السيوطي في " اللآلي " (١ / ٢٢١): "لا بأس به"، ثم حكى قول الهيثمي المتقدم. فهذا القول من ابن كثير والسيوطي نص في تقوية الحديث، وليس كذلك قول المنذري والهيثمي، أما قول الهيثمي فقد عرفت وجهه، وأما المنذري فقوله: "رواته ثقات " غاية ما فيه الإخبار عن أن سند الحديث فيه شرط واحد من شروط صحته، وهو عدالة الرواة وثقتهم، وهذا وحده لا يستلزم الصحة، لأنه لابد من اجتماع شروط الصحة كلها المذكورة في تعريف الحديث الصحيح سنده عند أهل الحديث.

=

القول الثالث: أن المراد بالكرسي قدرته التي يمسك بها السموات والأرض[١].

ويقول هؤلاء: إن العرب تسمي أصل كل شيء الكرسي، كقولك: اجعل لهذا الحائط كرسيًا، أي اجعل له ما يعمده ويمسكه.

القول الرابع: أن الكرسي هو الفلك الثامن، أو ما يسمونه فلك البروج، أو فلك الكواكب الثوابت. وقد قال بهذا القول بعض المتكلمين في علم الهيئة من الفلاسفة المنسوبين للمسلمين كابن سينا وغيره وهؤلاء هم الذين قالوا أن العرش هو الفلك التاسع.

القول الخامس: إن الكرسي جسم عظيم مخلوق بين يدي العرش، والعرش أعظم منه، وهو موضع القدمين للبارئ ﷻ[٢].

وهذا القول هو مذهب السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم واقتدى بسنتهم، وهذا هو ما دل عليه القرآن والسنة والإجماع ولغة العرب التي

=

والخلاصة أن الحديث موضوع بهذا السياق، وفيه لفظة منكرة جدا وهي قعود الله تبارك وتعالى على الكرسي، ولا أعرف هذه اللفظة في حديث صحيح، وخاصة أحاديث النزول وهي كثيرة جدا بل وهي متواترة كما قطع بذلك الحافظ الذهبي في " العلو" (ص ٥٣، ٥٩)، وذكر أنه ألف في ذلك جزءا. وقد روي الحديث بدون هذه اللفظة من طرق أخرى كلها ضعيفة، وبعضها أشد ضعفا من بعض، فلابد من ذكرها لئلا يغتر بها أحد لكثرتها فيقول: بعضها يقوي بعضا! كيف وقد أورد بعضها ابن الجوزي في " الموضوعات "؟!.

(١) انظر: "تفسير القرطبي": (١/ ٢٧٦)، "تهذيب اللغة": (١٠/ ٥٣)، "أقاويل الثقات في تأويل آيات الأسماء والصفات": (ق ١٤/ أ)، "لسان العرب": (٦/ ١٩٤).

(٢) "الفتاوى": (٥/ ٥٤)، "تفسير ابن كثير": (١/ ٣٠٩)، "أقاويل الثقات": (ق ٢٤/ ب)، "الأسماء والصفات": ص ٥١٠، "شرح العقيدة الطحاوية": ص ٢١٣.

نزل القرآن بها.

فالأحاديث والآثار الثابتة على هذا وبينته بيانًا واضحًا لا يدعو إلى الشك أو الارتياب، ومن تلك الأحاديث والآثار:

حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: (دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فجلست إليه، فقلت يا رسول الله: أيما أنزل عليك أفضل؟ قال: "آية الكرسي، وما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة)[1].

وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم١٠٩) بعد أن سرد الطرق لهذا الحديث: "وجملة القول أن الحديث بهذه الطرق صحيح، والحديث خرج مخرج التفسير لقوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} وهو صريح في كون الكرسي أعظم المخلوقات بعد العرش، وأنه قائم بنفسه وليس شيئًا معنويًا وفيه رد على من تأوله بمعنى الملك وسعة السلطان".

وأيضًا ما جاء عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}، قال: "الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره أحد".

وهذا ثابت عن ابن عباس في تفسير معنى الكرسي الوارد في الآية، وهذا القول في الكرسي نقل عن كثير من الصحابة والتابعين منهم ابن مسعود، وأبو موسى الأشعري، ومجاهد، وغيرهم.

ولذلك فقد ذكر كثير من العلماء أن هذا القول في الكرسي قد حصل عليه إجماع السلف.

---

(١) تقدم تخريجه في باب العرش.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٦/ ٥٨٤): "الكرسي ثابت بالكتاب والسنة وإجماع السلف".

وقال شارح العقيدة الطحاوية (ص٣١٣): "وإنما هو -الكرسي- كما قال غير واحد من السلف بين يدي العرش كالمرقاة إليه".

وقال القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٧٦): "والذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق بين يدي العرش، والعرش أعظم منه".

كما أن أهل اللغة لا يعرفون معنى الكرسي غير هذا المعنى، قال الزجاج كما في تهذيب اللغة (١٠/ ٥٣): "والذي نعرفه من الكرسي في اللغة: الشيء الذي يعتمد ويجلس عليه، فهذا يدل على أن الكرسي عظيم دونه السموات والأرض".

وقال ثعلب كما في تهذيب اللغة (١٠/ ٥٣): "الكرسي ما تعرفه العرب من كراسي الملوك".

وقال العلامة الألباني في التعليق على متن الطحاوية" (ص٥١): وأما الكرسي ففيه قوله تعالى: {وسع كرسيه السماوات والأرض} (البقرة:٢٥٥) والكرسي هو الذي بين يدي العرش وقد صح عن ابن عباس موقوفًا عليه من قوله: "الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى". وهو مخرج في كتابي " مختصر العلو للذهبي"... ولم يصح فيه مرفوعًا سوى قوله عليه الصلاة والسلام: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة». وذلك مما يبطل أيضا تأويل الكرسي بالعلم. ولم يصح هذا التأويل عن ابن عباس كما بينته في " الصحيحة " (١٠٩). اهـ.

وقال العلامة العثيمين القول المفيد شرح كتاب التوحيد " (٣/ ٣٩٣، ٣٩٤). :

هناك من قال: إن العرش هو الكرسي لحديث " إن الله يضع كرسيه يوم القيامة"، وظنوا أن الكرسي هو العرش.

وكذلك زعم بعض الناس أن الكرسي هو العلم، فقالوا في قوله تعالى: {وسع كرسيه السموات والأرض} أي: علمه.

والصواب: أن الكرسي موضع القدمين، والعرش هو الذي استوى عليه الرحمن سبحانه، والعلم: صفة في العالم يدرك فيها المعلوم. والله أعلم.اهـ.

ومن هذا كله يتبين لنا مدى صحة هذا القول وموافقته للكتاب والسنة وإجماع الأمة، ومطابقته لما جاء في لغة العرب، وأما الأقوال الأخرى فهي أقوال باطلة ومخالفة لما عليه جمهور أهل السنة من سلف الأمة وخلفها.

وأما ما استدل به أهل القول الأول من قول ابن عباس، فهو غير صحيح كما بيناه في تخريجه، والصحيح عن ابن عباس هو قوله: "الكرسي موضع القدمين...."،

وأما القول الثاني: إن الكرسي هو العرش نفسه، فلم يثبت عن الحسن البصري، لأن في إسناده جويبراً وهو متفق على ضعفه، وقال فيه الحافظ ابن حجر: "ضعيف جدًا".

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٣): "رواه ابن جرير من طريق جوبير، وهو ضعيف، وهذا لا يصح عن الحسن بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أنه غيره".

وقال البيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٩٣) عند الكلام على هذا القول:

"هذا ليس بمرضي، والذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق بين يدي العرش، والعرش أعظم منه".

ومساندة ابن جرير الطبري لهذا القول غير صحيحة، لأن حديث عبد الله بن خليفة ضعيف كما تقدم.

أما القول الثالث: فهو قول مخالف لما دلت عليه الأحاديث والآثار، ومخالف لما عليه الجمهور من أهل السنة والجماعة ومخالف للغة العربية، وهو تأويل باطل ترده الأحاديث، وهو أيضًا تكذيب بالكرسي، وتكذيب للأحاديث الصحيحة التي دلت على وجود الكرسي.

وأما القول الرابع: فيكفي في إثبات بطلانه أن جماعة من أنفسهم ردوا عليهم هذا القول كما ذكره ابن كثير وبالإضافة إلى ذلك فإن أصحاب هذا القول ليس لديهم أي دليل على قولهم هذا كما سبق وأن بيناه في قولهم في العرش.

(باب الإيمان بالحجب)

مسائل في الباب

مسألة: من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله محتجب عن الخلق بحجب

وما ذكره المصنف في تفصيل أمر الحجب وعدده، لا يصح فيه شئ مرفوع، فالله أعلم بها من حيث العدد والماهية وإن كان جاء في بعض الآثار بيان عددها، والحجب ثابتة قطعا، وأصل وجود الحجاب ثابت بالكتاب والسنة، أما في القرآن فقوله تعالى: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب} ومن السنة حديث النبي ﷺ، في صحيح مسلم (١٧٩) وغيره من حديث أبي موسى قال (قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: إن الله ﷻ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار،

وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات[1] وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)، وفي صحيح مسلم أيضا (١٨١) عن صهيب ﵁ عن النبي ﷺ قال (إذا دخل أهل الجنة الجنة قال يقول الله تبارك وتعالى تريدون

---

(١) قال الإمام أبو عبيد في كتابه غريب الحديث (٣/ ١٧٣) لما تكلم عن الحديث - لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره - قال: السبحة هي جلال وجهه ونوره.اهـ.
وفسر السبحات أيضًا الإمام الدارمي في كتابه الرد على بشر المريسي (٢/ ٧٥٢) حيث قال: السبحات: أي الجلال والنور، وقال مرة: لو كشف الحجب لأحرقت نور الرب وجلاله، وقال مرة: لو أدركه شيء من سبحات وجهه في الدنيا لاحترق.
ويتضح من كلام الإمامين أن السبحات مضافة إلى وجه الله، وأنها من صفات الوجه.اهـ. ولذا قال ابن خزيمة في كتاب التوحيد (١/ ٣٦) أن لوجه ربنا ﷻ من النور والضياء والبهاء ما لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء، وفسر ابن خزيمة السبحات بالنور والضياء والبهاء، فأصبح السبحات صفة للوجه، وهذا هو التفسير الراجح.
وجاء عن بعض أهل السنة أنه فسر السبحات بنور الذات، وبعضهم فسر السبحات بالنور المخلوق وأنه هو معنى حديث: "(إن الله احتجب عن خلقه بالنور)، وإن السبحات هي التي رآها الرسول عليه الصلاة والسلام لما عرج به، وقيل له (هل رأيت ربك؟ فقال: نور أنّى أراه) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ١٦١ / ١٧٨).
وبعضهم فسرها بمحاسن الوجه، وهذا التفسير قريب من تفسير ابن خزيمة بأنها الضياء والبهاء لأن هذا محاسن للوجه.
وأما تفسير السبحات بنور الذات ففيه توسع لأن السبحات نُسبت إلى الوجه لا إلى الذات كما في الحديث: "حجابه النور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه " رواه مسلم، في كتاب الإيمان.
والراجح في المسألة التفسير الأول الذي عليه الأئمة الثلاثة أبو عبيد والدارمي وابن خزيمة، إذ أن السبحات صفة مضافة إلى الوجه. أما التفسير الثاني أنها نور الذات فانظر فيه كلام الشيخ عبد اللطيف في الرسائل والمسائل النجدية (٣/ ٣١٦)، أما تفسيرها بأنها نور مخلوق هذا ضعيف.

شيئا أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ).

قال الدارمي في الرد على الجهمية (ص٧٣): من يقدر قدر هذه الحجب التي احتجب الجبار بها ومن يعلم كيف هي غير الذي أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا، ففي هذا أيضا دليل أنه بائن من خلقه محتجب عنهم لا يستطيع جبريل مع قربه إليه الدنو من تلك الحجب وليس كما يقول هؤلاء الزائغة إنه معهم في كل مكان ولو كان كذلك ما كان للحجب هناك معنى لأن الذي هو في كل مكان لا يحتجب بشيء من شيء فكيف يحتجب من هو خارج الحجاب كما هو من ورائه فليس لقول الله ﷻ (من وراء حجاب) عند القوم مصداق.اهـ.

وقال الدارمي في الرد على المريسي(٢/ ٧٤٨): ثم طعن المعارض في الحجب التي احتجب الله تعالى بها عن خلقه فقال روى وكيع عن سفيان عن عبيد المكتب عن مجاهد عن ابن عمر احتجب الله من خلقه بأربع بنار ونور وظلمة ونور ففسره المعارض تفسيرا يضحك منه فقال يحتمل أن تكون تلك الحجب آيات يعرفونها ودلائل على معرفته أنه الواحد المعروف إذ عرفهم بدلالاته فهي آيات لو قد ظهرت للخلق لكانت معرفتهم كالعيان بها، فيقال لهذا المعارض عمن رويت هذا التفسير ومن أي شيطان تلقفته ومن ادعى قبلك أن حجب الله آياته التي احتجب بها فما معنى قول الله تعالى! (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب)! أمعناه عندك من وراء الدلالات والعلامات أم قوله! (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)! أهو عندك أن لا يروا يومئذ آياته ودلائله ولا يعرفوا يومئذ أنه الواحد المعروف بالوحدانية وأنه

ليس أحد يوم القيامة في دعواك عنه محجوب لما أن كلا يرى يومئذ دلالاته وعلاماته وآياته وكل يعرف يومئذ أنه الواحد الأحد فما موضع الحجاب يومئذ وكيف صارت تلك الدلالات من نار ونور وظلمة وما يصنع بذكر النار والظلمة ها هنا في الدلالات والعلامات

قلت وكذلك حديث أبي موسى عن النبي ﷺ (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره) ثم قلت فتأويل الحجاب في هذا الحديث مثله في الحديث الأول هي الدلالات التي ذكرها وعلى أن الدلالات كشف عن الشيء لا حجاب وغطاء

ثم قلت فتأويل قوله (لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه) لو كشف تلك النار لأحرقت سبحات وجهه ذلك العلم الدال عليه

قلت ويحتمل قوله سبحات وجهه سبحات وجه ذلك العلم وذلك العلم وجه يتوجه برؤيته إلى معرفة الله كقوله! (فثم وجه الله)! قلت قبلة الله

فيقال لهذا المعارض نراك قد كثرت لجاجتك في رد هذا الحديث انكارا منك لوجه الله تعالى إذ تجعل ما أخبر رسول الله ﷺ بلسان عربي مبين معقول في سياق اللفظ أنه وجه الله نفسه فجعلته أنت وجه العلم ووجه القبلة وإذ قال رسول الله ﷺ (حجاب الله النار لو كشفها عن وجهه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره) فإن لم تتحول العربية عن معقولها إنه لوجه حقا كما أخبر رسول الله ﷺ ولو كانت سبحات وجوه الأعلام لقال النبي ﷺ حجابه النار لو كشفها لأحرقت النار سبحات وجوه الخلق كلها وما بال تلك النار تحرق من العلم سبحاته وتترك سائره وإنما تفسير السبحات الجلال والنور فأي نور لوجه الخلق حتى تحرقها النار منهم وما للنار تحرق منهم سبحاتهم بعد أن

يكتشفها الله عن وجهه ولا تحرقها قبل الكشف فلو قد أرسل منها حجابا واحدا لأحرقت الدنيا كلها فكيف سبحات وجوه الخلق ويحك إن هذا بين لا يحتاج إلى تفسير إنما نقول احتجب الله بهذه النار عن خلقه بقدرته وسلطانه لو قد كشفها لأحرق نور الرب وجلاؤه كل ما أدركه بصره وبصره مدرك كل شيء غير أنه يصيب ما يشاء ويصرفه عما يشاء كما أنه حين تجلى لذلك الجبل خاصة من بين الجبال ولو قد تجلى لجميع جبال الأرض لصارت كلها دكا كما صار جبل موسى ولو قد تجلى لموسى كما تجلى للجبل جعله دكا وإنما خر موسى صعقا مما هاله من الجبل مما رأى من صوته حين دك فصار في الأرض وحدثنا موسى بن إسماعيل عن وهب عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ في كسوف الشمس فقال (إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته ولكن الله إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له) وإنما كانت تحرق سبحات وجهه لو كشفها كل شيء في الدنيا لأن الله كتب الفناء عليها وركب ما ركب من جوارح الخلق للفناء فلا يحتمل نور البقاء فتحرق به أو تدك كما دك الجبل فإذا كان يوم القيامة ركبت الأبصار والجوارح للبقاء فاحتملت النظر إلى وجهه وإلى سبحاته ونور وجهه من غير أن تحرق احدا كما لو أن أجسم رجل وأعظمه وأكمله لو ألقي في الدنيا في تنور مسجور لصار رمادا في ساعة فهو يحترق في نار جهنم ألف عام وأكثر ونارها أشد حرا من نار الدنيا سبعين ضعفا لا يصير منها رمادا ولا يموت! (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب)! لأن أجسامهم وأبصارهم وأسماعهم تركب يومئذ للبقاء فاحتملت من عذاب جهنم ما لم تكن تحتمل جزءا من ألف جزء من عذاب الدنيا وكذلك أولياء الله تحتمل أبصارهم النظر إلى وجه الله يوم القيامة ولو قد أدركهم شيء

من سبحات وجهه في الدنيا لاحترقوا كما قال رسول الله ﷺ ولم تحتملها أبصارهم فهذا تأويل حديث رسول الله ﷺ الذي تدل عليه ألفاظه لا ما تأولت له من التفسير المقلوب الذي لا ينقاس للفظ الحديث إلا أن تقلب لفظه كما قلبت تفسيره فاربح العناء فإن ظاهر ألفاظه تشهد عليك بالتكذيب بالتوحيد وسنذكر بعض ما ذكر في القرآن وفي الروايات من أمر الحجب ليعرضها عاقل على قلبه هل ينقاس شيء منها على ما تأولت انتهى.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦/ ١٠): كما قال النبي ﷺ {حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه} فهي حجب تحجب العباد عن الإدراك كما قد يحجب الغمام والسقوف عنهم الشمس والقمر. فإذا زالت تجلت الشمس والقمر وأما حجبها لله عن أن يرى ويدرك فهذا لا يقوله مسلم؛ فإن الله لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وهو يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة السوداء ولكن يحجب أن تصل أنواره إلى مخلوقاته كما قال: {لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه} فالبصر يدرك الخلق كلهم وأما السبحات فهي محجوبة بحجابه النور أو النار. والجهمية لا تثبت له حجبا أصلا؛ لأنه عندهم ليس فوق العرش ويروون الأثر المكذوب عن علي " أنه سمع قصابا يحلف لا والذي احتجب بسبع سموات فعلاه بالدرة فقال: يا أمير المؤمنين أكفر عن يميني؟ قال لا؛ ولكنك حلفت بغير الله " فهذا لا يعرف له إسناد ولو ثبت كان علي قد فهم من المتكلم أنه عنى أنه محتجب عن إدراكه لخلقه فهذا باطل قطعا؛ بخلاف احتجابه عن إدراك خلقه له ويدل على ذلك الحديث الصحيح: {إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم

عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا. ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة} وعند من أثبت الرؤية من المتجهمة أن حجاب كل أحد معه وكشفه خلق الإدراك فيه لا أنه حجاب منفصل وأما إتيانه ونزوله ومجيئه بحركة منه وانتقال: فهذا فيه القولان لأهل السنة من أصحابنا وغيرهم والله أعلم. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما.اهـ.

مسألة: هل صح أن الحجب تنكشف بين الله وبين العباد وقت الإفطار من الصوم؟

ذكر بعضهم حديث عن فضل الصيام لفظه (قال موسى عليه السلام: يا رب! أكرمتني بالتكليم، فهل أعطيت أحدا مثل ذلك؟ فأوحى الله تعالى: يا موسى! إن لي عبادا أخرجهم في آخر الزمان وأكرمهم بشهر رمضان فأكون أقرب لأحدهم منك؛ لأنك كلمتني وبيني وبينك سبعون ألف حجاب، فإذا صامت أمة محمد صلى الله عليه وسلم حتى ابيضت شفاههم، واصفرت ألوانهم، أرفع الحجب بيني وبينهم وقت إفطارهم. يا موسى! طوبى لمن عطش كبده، وأجاع بطنه في رمضان) وهو حديث باطل لا أصل له، فلم يضعه الحفاظ والمحدثون في كتبهم ومسانيدهم، ولا تتناقله إلا بعض الكتب التي ملأها أصحابها بالموضوعات والمكذوبات والقصص والخرافات، ككتاب "نزهة المجالس ومنتخب النفائس" للمؤرخ الأديب عبد الرحمن بن عبد السلام الصفوري، المتوفى سنة (٨٩٤هـ)، ص/ ١٨٢-١٨٣ باب فضل رمضان والترغيب في العمل الصالح فيه"، وكذلك في تفسير " روح البيان " (٨/ ١١٢) لإسماعيل حقي الحنفي الخلوتي المتوفى سنة (١١٢٧هـ)، ثم إن في متن هذا الحديث ما يدل على نكارته، وذلك في قوله

في الحديث (فأكون أقرب لأحدهم منك -يعني موسى عليه السلام)، والمعلوم في عقائد المسلمين أن الرسل والأنبياء أفضل من جميع البشر سواهم، فكيف وموسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، فكيف يتقرب الله إلى عباده أكثر من نبيه موسى عليه السلام، وقد قال في حقه جل وعلا: (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) مريم/ ٥٢، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "أدني حتى سمع صريف القلم" -يعني بكتابة التوراة-. انظر: "تفسير القرآن العظيم" للحافظ ابن كثير (٥/ ٢٣٧)، والخلاصة: أن هذا الحديث المذكور ليس في شيء من الكتب المعتمدة، ولا يجوز نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا اعتقاد ما فيه.

مسألة: ادعاء الصوفية رفع الحجب والأستار عنهم

يدعي بعض الصوفية أن كبرائهم ترفع عنهم الحجب والأستار، ويناجون ربهم ويتلذذون بكلامه، ومعنى هذا: أنهم فاقوا كثيرا من الأنبياء والرسل، الذين هم الواسطة بين الله وبين العباد، فإن الرسل إنما يوحي الله إليهم وحيا، أو يرسل إليهم رسولا ملكيا أو يكلمهم من وراء حجاب، كما في نص هذه الآية، أما الصوفية على هذا الزعم ترفع لهم الحجب، وتخترق قلوبهم الأستار، وتتصل بالملأ الأعلى، وتسمع خطاب الرب تعالى مباشرة، وتتمتع بلذيذ ذلك الخطاب، فهل بعد هذا الغلو والرفع لمقامهم من زيادة؟! سبحان ربنا الأعلى !!. لقد اتفقت الأمة المسلمة الواعية على أنه لا يمكن للبشر أن يروا الله سبحانه وتعالى في الدنيا لأن الإنسان بحالته هذه، وهو في الدنيا لا يستطيع أن يواجه تجلي الله سبحانه وتعالى كما حدث لنبي الله موسى عليه السلام {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا} [الأعراف: ١٤٣]. والرسول صلى الله عليه وسلم، وهو أعظم مكانًا، وأعظم مكانة من أخيه موسى عليه السلام قال حينما سئل: هل رأيت

ربك؟ قال: (نور أنى أراه) ولا نلتفت لرواية الصوفية لهذا الحديث حيث رووه هكذا (نور إنى أراه) بكسر همزة إني، وهذا مخالف لِمَا صح عن رسول الله (نور أنى أراه) فالرسول الكريم ﷺ لم ير ربه، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما طلب الرؤية قال الله له: {انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي} [الأعراف: ١٤٣].. والصوفية لم يقفوا عند حد الأدب مع الله سبحانه وتعالى، ولم يتعلموا من موسى، وما جرى معه بل قال واحد منهم: وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى.

وكذلك "رابعة العدوية" في شعر نسب إليها تعتقد أن الحجب ستكشف لها حتى ترى الله.

وقال القشيري في الرسالة القشيرية (٢/ ٥٢٤-٥٢٥) قال: الخراز: إذا أراد الله تعالى أن يوالى عبدا من عبيده، فتح عليه باب القرب ثم رفعه إلى مجالس الأنس به، ثم أجلسه على كرسى التوحيد، ثم رفع عنه الحجب، وأدخله دار الفردانية وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذ وقع بصره على الجلال والعظمة، بقى بلا هو، فحينئذ صار العبد زمنا فانيا، فوقع فى حفظه سبحانه، وبرئ من دعاوى نفسه.اهـ.

قال صاحب الجوهر في (١/ ١١٥) ناقلا عن شيخه ما نصه: اعلم أن سيدنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سئل عن حقيقة الشيخ الواصل ما هو؟ فأجاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: أما ما هو حقيقة الشيخ الواصل فهو الذي رُفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظرا عينيا وتحقيقا يقينيا، فأول الأمر هو محاضرة وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر كثيف، ثم مكاشفة، وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق، ثم مشاهدة وهو تجلي الحقائق بلا حجاب لكن مع خصوصية، ثم معاينة وهو مطالعة الحقائق بلا حجاب ولا خصوصية، ولا يبقى للغير والغيرية عينا

وأثرا، وهو مقام الحق والمحق والدك، وفناء الفناء، فليس في هذا إلا معاينة الحق للحق بالحق، فلم يبق إلا الله لا شيء غيره ثم موصول ولا ثم واصل.....اهـ.

ويا ليت الصوفية يتوقفون عند هذه المسألة أن يروا الله وإنما الرؤية عند بعضهم من أهل الإتحاد هو أن يحس أنه هو الله وأن الله حال فيه، هذا هو كشف الحجب.. حجب الذات.. حجب النفس بحيث يصل الإنسان منهم إلى أن يرى أنه هو الله، ولذلك كان فهمهم لكلمة التوحيد "لا إله إلا الله" كان الواحد منهم يقول: "لا إله إلا أنا" "أنا الله" فهو يعتقد أنه هو المقصود بكلمة "لا إله إلا الله".

(**تنبيه**): إذا كان المسلمون يؤمنون بأن القرآن نزل على رسول الله ﷺ بواسطة جبريل، وأن النبي ﷺ لم يكن يدري عن القرآن شيئا قبل نزوله عليه كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا}، {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} ولكن ملاحدة الصوفية تأبى هذه الحقيقة وتعدل عنها إلى الإفك والبهتان فتزعم أن جبريل عجب حين رأى محمدا ﷺ يتلو القرآن قبل أن يعلمه إياه فسأله جبريل فأجابه قائلا: ارفع الستر مرة حين يلقى إليك الوحي، ففعل جبريل ذلك فرأى محمدا ﷺ هو الذي يوحي إليه، فصاح سبحان الله: منك وإليك يا محمد وهذا دليل واضح على تلاعب الشيطان بعقولهم وأحلامهم، إذ لا يصدق بهذه الخراقة إلا من ليس له أدنى تمييز، وقد أسس لهم هذه الأسطورة ابن عربي شيخ الصوفية الضال الأكبر إذ يفسر قول الله تعالى {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ} بقوله كما في الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر للشعراني بهامش اليواقيت والجواهر(ص٦): اعلم أن رسول الله ﷺ أعطى القرآن مجملا قبل جبريل من

غير تفصيل الآيات والسور فقيل له ولا تعجل بالقرآن الذي عندك قبل جبريل فتلقيه على الأمة مجملا فلا يفهمه أحد منك لعدم تفصيله.اهـ.

وهذه فرية واضحة البطلان يكذبها القرآن وحال الرسول ﷺ الذي كان ينتظر نزول الوحي عليه ليعرف حكم الله فيما يجد من الحوادث والنوازل.

وإذا كان المسلمون يؤمنون بأن رسول الله ﷺ أرسل في زمان ومكان معينين وأن الرسل السابقين عليه أرسل كل واحد منهم إلى قوم معينين في زمان معين.

إلا أن غلاة الصوفية تعتقد بأن الرسول في كل العصور واحد هو محمد ﷺ وأن الرسل السابقين ليسوا إلا صورا لمحمد ﷺ ويروون في هذا شعرا كما في النفحات الأقدسية (ص١٧):

كل النبيين والرسل الكرام أتوا ... نيابة عنه في تبليغ دعواه

فهو الرسول إلى كل الخلائق في ... كل العصور ونابت عنه أفواه

فبعد أن كانت محبة الرسول ﷺ تعني إيثاره على كل مخلوق سواه، وطاعته واتباعه صار معناها عند غلاة الصوفية عبادته ودعاؤه والسؤال به وتأليف الصلوات المبتدعة وعمل الموالد وإنشاء القصائد الشركية في الاستغاثة به وصرف وجوه العبادة إليه ﷺ وبعد أن كان تعظيم رسول الله ﷺ باتباعه والأدب معه وتوقيره، صار التعظيم عندهم هو الغلو فيه ﷺ بإخراجه عن حد البشرية ورفعه إلى مرتبة الألوهية.

(باب الإيمان باللوح والقلم)

مسائل في الباب:

المسألة الأولى: تعريف اللوح المحفوظ

قال ابن منظور في لسان العرب (/ ٥٨٤).: اللوح: كل صفيحة عريضة من صفائح الخشب، وقال الأزهري: اللوح صفيحة من صفائح الخشب والكتف

إذا كتب عليها سميت لوحا، واللوح الذي يكتب فيه، واللوح: اللوح المحفوظ، وفي التنزيل {في لوح محفوظ} يعني: مستودع مشيئات الله تعالى، وكل عظم عريض: لوح، والجمع منها: ألواح، وألاويح: جمع الجمع.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: في لوح محفوظ أي: هو في الملإ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل. " تفسير ابن كثير " (٤/ ٤٩٧، ٤٩٨).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله {محفوظ}: أكثر القراء على الجر صفة للوح، وفيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه، وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان.

فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}، ووصف محله بالحفظ في هذه السورة، فالله سبحانه حفظ محله، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان، ومعانيه من التحريف والتغيير. " التبيان في أقسام القرآن " (ص ٦٢).

أما ما جاء في بعض كتب التفسير، أن اللوح المحفوظ في جبهة إسرافيل، أو أنه مخلوق من زبرجدة خضراء، وغير ذلك فهو مما لم يثبت، وهو من الغيب الذي لا يقبل إلا ممن أوحي إليه منه بشيء، لذا قال العلامة العثيمين: اللوح المحفوظ، يعني المحفوظ عن الأيدي، المحفوظ عن التغيير، لوح لا يناله أحد، ولا يتغير ما فيه، ولا ندري هل هذا اللوح من خشب أو من حديد أو من فضة أو من ذهب أو من نور، الله أعلم، ولكن نؤمن بأنه لوح محفوظ، كتب الله فيه مقادير الخلق، وما هو كائن إلى يوم القيامة، ولا نعلم كيفية الكتابة.اهـ.

وقال الشيخ البراك: اللوح المحفوظ هو أم الكتاب، وهو الكتاب المبين،

وهو كتاب الأقدار، قال الله تعالى: "بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ" [البروج: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: "إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب" [الزخرف: ٣-٤]، وقال تعالى: "ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب" [الحج: ٧٠]، وقال تعالى: "ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها" [الحديد: ٢٢].

وروى مسلم في صحيحه (٢٦٥٣) عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء".

وهذا الكتاب مطابق لعلم الله السابق، وعلمه بالأشياء مطابق لما هي عليه ومعلوماته لا تتغير عما علمه، وقد قرن سبحانه وتعالى بين علمه وكتابه في آيات من القرآن، قال تعالى: "وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب" [فاطر: ١١]، وقال تعالى: "ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب" [الحج: ٧٠].

وما في هذا الكتاب هو تقدير عام لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة، وهناك تقديرات خاصة منها ما يختص بآدم وذريته كما جاء في حديث احتجاج آدم وموسى، حيث قال آدم: "أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجيا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاما". صحيح البخاري (٣٤٠٩)، وصحيح مسلم (٢٦٥٢).

ومنها ما يختص بكل فرد من بني آدم كالتقدير الذي يكون عند نفخ الروح في الجنين، وهذه التقديرات لا تتعارض مع التقدير العام، وأما قوله تعالى:

"يمحو الله ما يشاء ويثبت" [الرعد: ٣٩]، فقد اختلف المفسرون في متعلق المحو والإثبات، فقيل: المراد بذلك الشرائع ما يحكم الله منها وما ينسخ، وقيل المراد صحف الأعمال التي في أيدي الملائكة، وكل ما يكون من محو وإثبات في الشرائع أو صحف الملائكة قد سبق به علم الله وكتابه الأول.

وعلى هذا فالصواب أن اللوح المحفوظ لا تغيير فيه، وما سبق في علمه وكتابه أنه كائن لا بد أن يكون كما علمه سبحانه وتعالى بالأسباب التي قدرها، فالقدر شامل للأسباب والمسببات، ويدخل في ذلك الكون كله، وما يجري فيه من صغير وكبير، بما في ذلك أفعال العباد طاعاتهم ومعاصيهم " الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما" [الطلاق: ١٢]. والله أعلم.

المسألة الثانية: الكتابة في اللوح المحفوظ

المرتبة الثانية من مراتب القدر هي الكتابة، أي كتابة ما سبق به علم الله من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة.

لقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن كل كائن إلى يوم القيامة مكتوب في أم الكتاب، التي هي اللوح المحفوظ، والذكر، والإمام المبين، والكتاب المبين.

قال العلامة العثيمين في فتاوى نور على الدرب" (ص٣٦): "كل شيء منذ خلق الله القلم إلى يوم القيامة فإنه مكتوب في اللوح المحفوظ، لأن الله سبحانه وتعالي أول ما خلق القلم قال له: (اكتب. قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة) وثبت عن النبي ﷺ أن الجنين في بطن أمه إذا مضى عليه أربعة أشهر، بعث الله إليه ملكا ينفح فيه

الروح ويكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد.

والرزق أيضا مكتوب مقدر بأسبابه لا يزيد ولا ينقص، فمن الأسباب: أن يعمل الإنسان لطلب الرزق كما قال الله تعالى: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) الملك/ ١٥.

ومن الأسباب أيضا: صلة الرحم، من بر الوالدين، وصلة القرابات، فإن النبي ﷺ قال: (من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه).

ومن الأسباب: تقوى الله ﷻ، كما قال تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب) الطلاق/ ٢، ٣، ولا تقل: إن الرزق مكتوب ومحدد ولن أفعل الأسباب التي توصل إليه فإن هذا من العجز، والكياسة والحزم أن تسعى لرزقك، ولما ينفعك في دينك ودنياك، كما يذكر عن النبي ﷺ: (الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني)، وكما أن الرزق مكتوب مقدر بأسبابه فكذلك الزواج مكتوب مقدر، وقد كتب لكل من الزوجين أن يكون زوج الآخر بعينه، والله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء" انتهى.

والأدلة على هذه المرتبة كثيرة من الكتاب والسنة منها

١ - قال تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) سورة الحج: ٧٠. فما كتبه الله ﷻ وأثبته عنده كان في علمه قبل أن يكتبه، ثم كتبه كما في علمه، ثم وُجِدَ كما كتبه ﷻ.

٢- قوله تعالى: (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) سورة يس ١٢.

قوله: وكل شيء أي من الأعمال والنيات وغيرها. أحصيناه في إمام مبين أي في كتاب هو أم الكتاب، وإليه مرجع الكتب التي تكون بأيدي الملائكة، وهو

اللوح المحفوظ.

٣- قوله: (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا) سورة التوبة:٥١. أي ما قدره الله، وأجراه في اللوح المحفوظ.

٤- قال سبحانه عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دعاءه: (وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً) سورة الأعراف: ١٥٦. أي من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح.

٥- وقال تعالى عن محاجة موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون: (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى) سورة طه:٥١-٥٢. أي قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتابه، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علمًا وخُبْرًا؛ فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها.

٦- وقال عَزَّ وَجَلَّ: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) سورة الأنبياء:١٠٥. أي كتبنا في الكتاب المزبور، والمراد: الكتب المنزلة كالتوراة ونحوها من بعد الذكر أي كتبناه في الكتب المنزلة بعدما كتبنا في الكتاب السابق، وهو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه.

٧- وقال تعالى (لَوْلا كِتَابٌ مِنْ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) سورة الأنفال:٦٨، أي سبق به القضاء والقدر أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله قد رفع عنكم أيتها الأمة العذاب لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم.

وأما السنة فمن ذلك ما يلي

١- روى مسلم في صحيحه (٢٦٥٣) عن عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا _ قال: سمعت رسول الله (يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق

السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء) قال النووي في المنهاج (١٦/ ٢٠٣): قال العلماء: المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل التقدير؛ فإن ذلك أزلي لا أول له، وقوله: وعرشه على الماء أي قبل خلق السماوات والأرض والله أعلم.

٢- قول النبي ﷺ (ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة)[١].

٣- قول النبي ﷺ قال (رفعت الأقلام وجفت الصحف)[٢]، قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٧/ ١٨٦): "رفعت الأقلام وجفت الصحف

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٢ و٤٩٤٥ و٤٩٤٦ و٦٢١٧ و٧٥٥٢) ومسلم (٢٦٤٧).

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، رقم ٢٦٦٩) و(١/ ٣٠٧، رقم ٢٨٠٤)، والترمذي (٤/ ٦٦٧ رقم ٢٥١٦)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣، رقم ١١٢٤٣)، والضياء في المختارة (١٠/ ٢٣، رقم ١٣) والعقيلي في الضعفاء (٣/ ١٧٨) و(٣/ ٣٩٧)، وابن عدي في الكامل (٨/ ٣٣٠)، واللالكائي في شرح أصول السنة (٤/ ٦١٤)، وابن بطة (٢/ ٢٠٠)، والبيهقي في الإعتقاد (ص٥٨) والحديث قال عنه ابن عدي: غير محفوظ، وقال العقيلي: وهذا المتن يروى عن بن عباس وغيره عن النبي ﷺ بأسانيد لينة، وقال ابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ (٤/ ١٩٠٩) فيه نوفل بن سليمان يحدث بأحاديث غير محفوظة ويشبه أن يكون ضعيفا قاله ابن عدي، وخالفهم غيرهم فصححه الترمذي، وقال شيخ الإسلام في التوسل والوسيلة (٥٢) معروف مشهور، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٤٥٩) حسن جيد، وحسنه ابن حجر في موافقة الخبر الخبر (١/ ٣٢٧)، وقال السخاوي في المقاصد (١٨٨) حسن وله شاهد، وحسنه العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٦٦)، وصححه العلامة الألباني في المشكاة (٥٢٣٢)، وصححه الشيخ شاكر في تحقيق المسند، وكذا صححه الأرنؤوط، وصححه لغيره الشيخ مقبل في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٦٩٩) وقال العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧): صحيح له شواهد.

" أي: كتب في اللوح المحفوظ ما كتب من التقديرات، ولا يكتب بعد الفراغ منه شيء آخر.

المسألة الثالثة: ما الحكمة من كتابة الله تعالى لمقادير الخلق في اللوح المحفوظ وهو لا يضل ولا ينسى؟

يعتقد المسلم الذي آمن بالله تعالى ربا أنه تبارك وتعالى الحكيم في فعله، وشرعه، وحكمه، ويعتقد المسلم أنه ثمة حكما جليلة في أفعاله، وتشريعاته، منها ما يعرف، ومنها ما استأثر الله بعلمه، قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى (٨/ ١٩٧):

الحمد لله رب العالمين، قد أحاط ربنا سبحانه وتعالى بكل شيء علما، وقدرة، وحكما، ووسع كل شيء رحمة، وعلما، فما من ذرة في السموات والأرض، ولا معنى من المعاني، إلا وهو شاهد لله تعالى بتمام العلم والرحمة، وكمال القدرة والحكمة، وما خلق الخلق باطلا، ولا فعل شيئا عبثا، بل هو الحكيم في أفعاله وأقواله، سبحانه وتعالى، ثم من حكمته ما أطلع بعض خلقه عليه، ومنه ما استأثر سبحانه بعلمه[1].اهـ.

---

(١) تنقسم الأحكام الشرعية إلى قسمين: منها ما هو معقول المعنى، ومنها ما هو تعبدي محض وحكمته تخفى علينا ولم تذكر في كتاب ولا في سنة.

ومثال الأول: تحريم الخمر والميسر، وقد ذكر الله تعالى لنا حكمة تحريمها وهي: (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) المائدة/ ٩١ ومثلها كثير من الأحكام.

ومثال الثاني: كون صلاة الظهر عند زوال الشمس، وطواف المسلم حول الكعبة وهي عن يساره وكون نصاب الذهب ربع العشر، وكون صلاة المغرب ثلاث ركعات. ومثلها كثير من الأحكام.

فالواجب أن يقف المسلم عند ما أبهم الله حكمته ويقول كما يقول المؤمنون (سمعنا =

=

وأطعنا) وأن لا يكون كبني إسرائيل الذين قالوا (سمعنا وعصينا) والوقوف عند قوله تعالى (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) الأنبياء/ ٢٣، خير له في دينه ودنياه فهو عبد وله رب وليس للعبد أن يسأل الرب لم حكم؟ بل الواجب أن يمتثل لأمره سبحانه، فإن أعلمنا عملنا، وإن لم يعلمنا عملنا أيضا.

جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية (١/ ٤٩-٥١): نقسم مسائل الفقه من حيث إدراك حكمة التشريع فيه أو عدم إدراكها إلى قسمين:

أولهما: أحكام معقولة المعنى، وقد تسمى أحكاما معللة، وهي تلك الأحكام التي تدرك حكمة تشريعها، إما للتنصيص على هذه الحكمة، أو يسر استنباطها.

وهذه المسائل هي الأكثر فيما شرع الله سبحانه وتعالى، وذلك كتشريع الصلاة والزكاة والصيام والحج في الجملة، وكتشريع إيجاب المهر في النكاح، والعدة في الطلاق والوفاة، ووجوب النفقة للزوجة والأولاد والأقارب، وكتشريع الطلاق عندما تتعقد الحياة الزوجية... إلى آلاف المسائل الفقهية. وثانيهما: أحكام تعبدية، وهي تلك الأحكام التي لا تدرك فيها المناسبة بين الفعل والحكم المرتب عليه، وذلك كعدد الصلوات وعدد الركعات وكأكثر أعمال الحج. ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أن هذه الأحكام قليلة بالنسبة إلى الأحكام المعقولة المعنى. وتشريع هذه الأحكام التعبدية إنما يراد به اختبار العبد هل هو مؤمن حقا؟ ومما ينبغي أن يعلم في هذا المقام أن الشريعة في أصولها وفروعها لم تأت بما ترفضه العقول، ولكنها قد تأتي بما لا تدركه العقول، وشتان بين الأمرين، فالإنسان إذا اقتنع - عقليا - بأن الله موجود، وأنه حكيم، وأنه المستحق وحده للربوبية دون غيره، واقتنع - عقليا - بما شاهد من المعجزات والأدلة - بصدق الرسول ﷺ المبلغ عنه فإنه بذلك قد أقر لله سبحانه وتعالى بالحاكمية والربوبية، وأقر على نفسه بالعبودية، فإذا ما أمر بأمر، أو نهي عن شيء، فقال: لا أمتثل حتى أعرف الحكمة فيما أمرت به أو نهيت عنه، يكون قد كذب نفسه في دعوى أنه مؤمن بالله ورسوله، فإن للعقول حدا ينتهي إليه إدراكها، كما أن للحواس حدا تقف عنده لا تتجاوزه.

وما مثل المتمرد على أحكام الله تعالى التعبدية إلا كمثل مريض ذهب إلى طبيب موثوق بعلمه وأمانته، فوصف له أنواعا من الأدوية، بعضها قبل الأكل وبعضها أثناءه وبعضها بعده مختلفة المقادير، فقال للطبيب: لا أتعاطى دواءك حتى تبين لي الحكمة

=

فالمرتبة الثانية من مراتب القدر: كتابة مقادير كل شيء، فالمخلوقات مهما عظم شأنها، أو دق قد كتب الله ما يخصها في اللوح المحفوظ، من خلق وإيجاد ونشأة وإعداد وإمداد، إلى غير ذلك، كما قال تعالى: (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير) الحج/ ٧٠، وقال (وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) النمل/ ٧٥، وقال تعالى (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير) فاطر/ ١١، والآيات في ذلك كثيرة.

وقد يقال في حكمة ذلك أمور، منها

١ - إثبات علم الله السابق على تلك الكتابة، وأنه علم لا يتبدل، ولا يتغير، وهو جواب موسى عليه السلام في حواره مع فرعون حيث سأل فرعون عن القرون السابقة ما حالهم هل هم في النار أم لا، فأجابه موسى أن علم حالهم عند الله،

=

في كون هذا قبل الطعام وهذا بعده، وهذا أثناءه، ولماذا تفاوتت الجرعات قلة وكثرة؟ فهل هذا المريض واثق - حقا - بطبيبه؟ فكذلك من يدعي الإيمان بالله ورسوله، ثم يتمرد على الأحكام التي لا يدرك حكمتها، إذ المؤمن الحق إذا أمر بأمر أو نهي عنه يقول سمعت وأطعت، ولا سيما بعد أن بينا أنه ليس هناك أحكام ترفضها العقول السليمة، فعدم العلم بالشيء ليس دليلا على نفيه، فكم من أحكام خفيت علينا حكمتها فيما مضى ثم انكشف لنا ما فيها من حكمة بالغة، فقد كان خافيا على كثير من الناس حكمة تحريم لحم الخنزير، ثم تبين لنا ما يحمله هذا الحيوان الخبيث من أمراض وصفات خبيثة أراد الله سبحانه وتعالى أن يحمي منها المجتمع الإسلامي. ومثل ذلك يقال في الأمر بغسل الإناء الذي ولغ فيه الكلب سبع مرات إحداهن بالتراب.. إلى غير ذلك من الأحكام التي تكشف الأيام عن سر تشريعها وإن كانت خافية علينا الآن. والله أعلم.

وهو في اللوح المحفوظ، وأعلمه أن وجود ذلك العلم في اللوح هو مع اتصاف ربه تعالى بالاستغناء عنه، وأنه سبحانه لا يتصف بالنسيان، ولا بالخطأ، كما هو حال البشر، قال تعالى: (قال فما بال القرون الأولى. قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) طه/ ٥١، ٥٢.

٢- تطمين العبد المسلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ففيه التسليم لقضاء الله، والرضى بقدره. قال الله تعالى: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) الحديد/ ٢٢.

قال أبو حيان في البحر المحيط (١٠/ ٢٣٨): "ثم بين تعالى الحكمة في إعلامنا بذلك الذي فعله من تقدير ذلك، وسبق قضائه به فقال: {لكيلا تأسوا} أي تحزنوا، {على ما فاتكم}، لأن العبد إن أعلم ذلك سلم، وعلم أن ما اته لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، فلذلك لا يحزن على فائت، لأنه ليس بصدد ألا يفوته، فهون عليه أمر حوادث الدنيا بذلك، إذ قد وطن نفسه على هذه العقيدة " انتهى.

وقد أشار صحابي جليل إلى هذه الحكمة، فعن أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب قال رب وماذا أكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من مات على غير هذا فليس مني) وقد تقدم تخريجه.

٣- وفيه بيان لمشيئة الله النافذة التي لا راد لها، ولا معقب لحكمه، وإليه

الإشارة في حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف) وقد تقدم تخريجه.

٤- إثبات عظيم قدرة الله، وكماله، وإقامة الحجة على الخلق.

ومما لا شك فيه أن كتابة مقادير الخلائق، وصفاتها، وأحوالها، صغيرها وكبيرها، رطبها ويابسها أمر عظيم، وقد بين الله تعالى أنه عليه يسير؛ إثباتا لعظيم صفاته، وكمال جلاله، قال تعالى: (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير) الحج/ ٧٠، وقال الله تعالى: (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) الأنعام/ ٥٩.

قال السعدي في تفسيره (٢٥٩): "هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار، والرمال والحصى والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

{وما تسقط من ورقة} من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة {إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض} من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق؛ وبذور النوابت البرية التي ينشئ منها

أصناف النباتات.

{ولا رطب ولا يابس} هذا عموم بعد خصوص.

{إلا في كتاب مبين} وهو اللوح المحفوظ، قد حواها واشتمل عليها، وبعض هذا المذكور، يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلها، وأن الخلق -من أولهم إلى آخرهم- لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع العليم، الحميد المجيد، الشهيد المحيط، وجل من إله، لا يحصي أحد ثناء عليه، بل كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث". انتهى.

٥- ومن حكم الكتابة في اللوح المحفوظ: تعليم الخلق الكتابة، والتدوين، وأنه إذا كان الخالق المتصف بصفات الجلال، والكمال، والمنزه عن الخطأ والنسيان قد كتب علمه ودونه: فالإنسان صاحب النسيان والخطأ أولى بالكتابة.

قال القرطبي في تفسيره (١١ / ٢٠٥، ٢٠٦) في تفسير آية سورة " طه " (قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) -: هذه الآية ونظائرها - مما تقم، ويأتي - تدل على تدوين العلوم، وكتبها؛ لئلا تنسى، فإن الحفظ قد تعتريه الآفات، من الغلط، والنسيان، وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع، فيقيده؛ لئلا يذهب عنه، وروينا بالإسناد المتصل عن قتادة أنه قيل له: أنكتب ما نسمع منك؟ قال: وما يمنعك أن تكتب، وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب، فقال: (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى)....

المسألة الرابعة: كيف أخذ جبريل عليه السلام القرآن.

مذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله تكلم به فأسمعه جبريل،

فنزل به فأوحاه إلى محمد ﷺ فألقاه على سمعه وقلبه، فابتداء نزول القرآن على النبي ﷺ من ربه بواسطة الرسول الكريم جبريل، قال الله تعالى: (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]. وقال تعالى: (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) [النحل: ١٠٢]. وقال تعالى: (إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين) [التكوير: ١٩-٢٠]، وقال تعالى: (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) [الزمر: ١]، وكون القرآن في اللوح المحفوظ قد يفهم منه أن جبرائيل -عليه السلام- لم يسمع القرآن من الله، وإنما أخذه من اللوح المحفوظ، وهذا فهم خطئ مخالف للحق، موافق لمذهب أهل البدع من الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الأشاعرة وغيرهم، فالجهمية والمعتزلة يقولون: إن الله لا يتكلم وهذا القرآن مخلوق، بل كل كلام يضاف إلى الله فهو مخلوق، وحقيقة مذهب الأشاعرة أن القرآن مخلوق فهم يزعمون أن كلام الله معنى قائم بالنفس ليس بحرف ولا صوت معنى قائم بنفس الرب عز وجل والله تعالى لا يُسْمَع منه الكلام بل الكلام معنى قائم بنفسه لا يسمع، وأما الموجود في المصاحف فهذا عبارة عن كلام الله عبر به جبريل أو عبر به محمد، بعضهم يقول إن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ وبعضهم يقول فهمه من الرب؛ لأن الله اضطره ففهم المعنى القائم بنفسه[1]؛ فإذن حقيقة مذهب الأشاعرة أن نصفه مخلوق، وهو الحروف

---

(١) وأليك أقوال بعض الأشاعرة في كيفية تلقي جبريل عليه السلام للقرآن من الله عز وجل، قال السيوطي في الحاوي (١/ ٣٩٧): قال الأصبهاني في أوائل تفسيره: اتفق أهل السنة والجماعة -أي الأشاعرة حسب اصطلاحهم فتنبه- على أن كلام الله منزل، واختلفوا في معنى الإنزال، فمنهم من قال: إظهار القراءة، ومنهم من قال: إن الله تعالى ألهم كلامه جبريل وعلمه قراءته، ثم جبريل أداه في الأرض. وقال الطيبي في حاشية الكشاف: لعل =

=

نزول القرآن على الرسول ﷺ أن يتلقفه الملك من الله تلقفا روحانيا، أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به إلى الرسول ويلقيه عليه، وقال القطب الرازي في حواشي الكشاف: المراد بإنزال الكتب على الرسل أن يتلقفها الملك من الله تلقفا روحانيا، أو يحفظها من اللوح المحفوظ وينزل بها فيلقيها عليهم. انتهى. وقد سألت شيخنا العلامة محيي الدين الكافيجي عن كيفية التلقف الروحاني فقال لي: لا يكيف. وقال الزركشي: اختلف العلماء في المنزل على النبي ﷺ على ثلاثة أقوال: أحدها أنه اللفظ والمعنى، وأن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به، وذكر بعضهم أن أحرف القرآن في اللوح المحفوظ كل حرف منها بقدر جبل قاف.

والثاني أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة، وأن النبي ﷺ علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب. وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى: {نزل به الروح الأمين - على قلبك} [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤].

والثالث أن جبريل ألقى عليه المعنى، وأنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب، وأن أهل السماء يقرءونها بالعربية، ثم إنه نزل به كذلك بعد ذلك. وقال البيهقي في معنى قوله تعالى: {إنا أنزلناه في ليلة القدر} [القدر: ١] يريد - والله أعلم - إنا أسمعناه الملك وأفهمناه إياه، وأنزلناه بما سمع، فيكون الملك هو المنتقل به من علو إلى أسفل، قال أبو شامة: ولا بد من هذا المعنى على مذهب أهل السنة.

فهذه نبذة من كلام أئمة السنة في كيفية تلقي جبريل الوحي، وحاصل ما في ذلك أقوال: أحدها أنه ألهمه، والثاني أنه سمعه من الله، والثالث أنه حفظه من اللوح المحفوظ. وقول التلقف الروحاني، الظاهر أنه الإلهام، فلا يكون قولا رابعا، وقد سئل الإمام أبو إسحاق إسماعيل البخاري الصفار عن تبليغ الوحي من جبريل إلى أنبياء الله، هل سمع من الله تعالى جملة أم جاء به من اللوح المحفوظ؟ قال: كلا الوجهين جائز، وذكر في تفسير سورة القدر أن الله تعالى سمع جبريل كله جملة واحدة، ثم أملاه جبريل على السفرة - وهم ملائكة في سماء الدنيا - لكي لا يكون لهم احتياج حين أسمعهم الله تعالى القرآن. وذكر الفقيه الزاهد أبو الليث في تفسير سورة الدخان وفي سورة الأحزاب في قوله تعالى: {ليسأل الصادقين عن صدقهم} [الأحزاب: ٨] وقال في سورة الدخان: جاء بها جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، ثم أنزل على محمد نجوما [نجوما]. وذكر الدينوري أنه سمع من الله جملة ثم نزل به على محمد ﷺ متفرقا، وقال

=

والكلمات ونصفه غير مخلوق، وهو المعنى القائم بنفسه، وهذا يوافق نصف مذهب المعتزلة، المعتزلة يقولون: القرآن مخلوق لفظه ومعناه اللفظ والمعنى مخلوق، والأشاعرة يقولون: معناه غير مخلوق، ولفظه مخلوق، وهذه مذاهب مبتدعة باطلة مناقضة للعقل والشرع، ومناقضة لمذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة من السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ومن متبعهم، والصواب أن نزول القرآن إلى السماء الدنيا في أثر ابن عباس عند من قال به من أهل السنة نزول مكتوب لا نزول مسموع لأن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، واللوح المحفوظ هو أم الكتاب، كما قال تعالى: (إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) [الزخرف: ٣-٤]. وقال تعالى: (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) [البروج: ٢١-٢٢]. وإنما قلنا ذلك لأن الذي دل عليه القرآن أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بالقرآن ويتلقاه جبريل منه، ثم ينزل به على رسول الله ﷺ، ولهذا نجد في القرآن التعبير بصيغة الماضي عن أمر وقع، مثل: (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ) [المجادلة:١] لو كان الله تكلم بهذه الكلمة قبل أن يحدث ما حدث، لكان هذا إخبار عن شيء مستقبل بلفظٍ يدل على المضي، فـ(قد سمع) تدل على أن هذا المسموع قد سمع، وأن الله تكلم في ذلك بعد وقوعه. (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ) [البقرة:١٤٤].. (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ) [آل عمران:١٢١] وآيات كثيرة كلها تدل على أن الله تكلم بالقرآن، حين إنزاله، لأن الله يتحدث عن أمور وقعت

=

بعضهم: جاء جبريل عليه السلام به سماعا من إسرافيل، وإسرافيل من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى سماء الدنيا، ثم نزل به جبريل عليه السلام على محمد ﷺ متفرقا، ويقال: جاء به جبريل في ليلة القدر بما يحتاج له من سنة إلى سماء الدنيا، ثم نزل به على محمد متفرقا.

سابقة على إنزال القرآن، وهذا يدل على أن الله يتكلم به إذا أراد أن ينزله على محمدٍ ﷺ.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٢/ ٥١٩): وأما إذا كان المجرور بها صفة ولم يذكر لها محل كان صفة لله كقوله {ولكن حق القول مني} وكذلك قد أخبر في غير موضع من القرآن أن القرآن نزل منه وأنه نزل به جبريل منه ردا على هذا المبتدع المفتري وأمثاله ممن يقول إنه لم ينزل منه قال تعالى: {أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق} وقال تعالى: {قل نزله روح القدس من ربك بالحق} وروح القدس هو جبريل كما قال في الآية الأخرى {نزل به الروح الأمين} {على قلبك} وقال {من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله} وقال هنا {نزله روح القدس من ربك} فبين أن جبريل نزله من الله لا من هواء ولا من لوح ولا غير ذلك وكذلك سائر آيات القرآن كقوله {تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم} وقوله {حم} {تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم} وقوله {حم} {تنزيل من الرحمن الرحيم} وقوله {الم} {تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين} وقوله {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك} فقد بين في غير موضع أنه منزل من الله فمن قال إنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء فهو مفتر على الله مكذب لكتاب الله متبع لغير سبيل المؤمنين، ألا ترى أن الله فرق بين ما نزل منه وما نزله من بعض المخلوفات كالمطر بأن قال {أنزل من السماء ماء}؟ فذكر المطر في غير موضع وأخبر أنه نزله من السماء والقرآن أخبر أنه منزل منه وأخبر بتنزيل مطلق في مثل قوله {وأنزلنا الحديد} لأن الحديد ينزل من رءوس الجبال لا ينزل من السماء وكذلك

الحيوان؛ فإن الذكر ينزل الماء في الإناث. فلم يقل فيه من السماء ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ لكان اليهود أكرم على الله من أمة محمد لأنه قد ثبت بالنقل الصحيح أن الله كتب لموسى التوراة بيده وأنزلها مكتوبة.

فيكون بنو إسرائيل قد قرءوا الألواح التي كتبها الله وأما المسلمون فأخذوه عن محمد ﷺ ومحمد أخذه عن جبريل وجبريل عن اللوح فيكون بنو إسرائيل بمنزلة جبريل وتكون منزلة بني إسرائيل أرفع من منزلة محمد ﷺ على قول هؤلاء الجهمية والله سبحانه جعل من فضائل أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه أنزل عليهم كتابا لا يغسله الماء وأنه أنزله عليهم تلاوة لا كتابة وفرقه عليهم لأجل ذلك. فقال: {وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا} وقال تعالى: {وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا} . ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجده مكتوبا كانت العبارة عبارة جبريل وكان القرآن كلام جبريل ترجم به عن الله. كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاما ولم يقدر أن يتكلم به. وهذا خلاف دين المسلمين. وإن احتج محتج بقوله: {إنه لقول رسول كريم} {ذي قوة عند ذي العرش مكين} قيل له فقد قال في الآية الأخرى: {إنه لقول رسول كريم} {وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون} {ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون} فالرسول في هذه الآية محمد ﷺ والرسول في الأخرى جبريل فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران. فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث ولهذا قال {لقول رسول} ولم يقل ملك ولا نبي ولا ريب أن الرسول بلغه كما قال تعالى {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك} فكان {النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول ألا رجل

يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي؟} ولما أنزل الله {الم} {غلبت الروم} خرج أبو بكر الصديق فقرأها على الناس فقالوا: هذا كلامك أم كلام صاحبك؟ فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ولكنه كلام الله.

وإن احتج بقوله {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث} قيل له هذه الآية حجة عليك فإنه لما قال {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث} علم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره كما لو قال: ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته وما آكل إلا طعاما حلالا ونحو ذلك ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي أنزل جديدا فإن الله كان ينزل القرآن شيئا بعد شيء فالمنزل أولا هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب كما قال {كالعرجون القديم} وقال: {تالله إنك لفي ضلالك القديم} وقال {وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم} وقال: {أفرأيتم ما كنتم تعبدون} {أنتم وآباؤكم الأقدمون} وكذلك قوله: {جعلناه قرآنا عربيا} لم يقل جعلناه فقط حتى يظن أنه بمعنى خلقناه؛ ولكن قال: {جعلناه قرآنا عربيا} أي صيرناه عربيا لأنه قد كان قادرا على أن ينزله عجميا فلما أنزله عربيا كان قد جعله عربيا دون عجمي. وهذه المسألة من أصول أهل الإيمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم والكلام عليها مبسوط في غير هذا الموضع والله أعلم[1].

---

(١) قال الإمام البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص:١٤٩): وإن الله ﷻ ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، فليس هذا لغير الله جل ذكره قال أبو عبد الله: وفي =

=

هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق؛ لأن صوت الله جل ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب وأن الملائكة يصعقون من صوته فإذا تنادى الملائكة لم يصعقوا، وقال ﷻ: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا} [البقرة:٢٢]، فليس لصفة الله ند ولا مثل، ولا يوجد شيء من صفاته في المخلوقين.

وقال أبو بكر الخلال: أخبرني علي بن عيسى أن حنبلًا حدثهم، قال: قلت لأبي عبد الله: الله يكلم عبده يوم القيامة؟ قال: نعم؛ فمن يقضي بين الخلائق إلا الله عزوجل، يكلم عبده ويسأله، الله متكلم، لم يزل الله متكلمًا؛ يأمر بما شاء، ويحكم بما يشاء، وليس له عدل ولا مثل، كيف شاء، وأين شاء. أنظر: «المسائل والرسالة المروية عن الإمام أحمد» (١٢٨٨).

وقال عبد الله بن الإمام أحمد رحمهما الله: سألت أبي رَحِمَهُ اللهُ عن قوم يقولون: لما كلم الله عزوجل موسى؛ لم يتكلم صوت؟ فقال أبي: بلى؛ إن ربك عزوجل تكلم بصوت، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت. المصدر السابق (١/ ٣٠٢).

وقال ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٢٥): باب ذكر الكلام والصوت والشخص وغير ذلك.

وقال أبو الحسن الأشعري في رسالة إلى أهل الثغر (ص:٢١٤): وأجمعوا على إثبات حياة الله حياة الله عزوجل، لم يزل بها حيًا... وكلامًا لم يزل به متكلمًا...

وقال الأصبهاني في الحجة (١/ ٣٣١ و٣٣٢): وخاطر أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -أي راهن قومًا من أهل مكة- فقرأ عليهم القرآن، فقالوا: هذا من كلام صاحبك، فقال: ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي، ولكنه كلام الله تعالى، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة.

وقال عمر رضي على المنبر: إن هذا القرآن كلام الله، فهو إجماع الصحابة، وإجماع التابعين بعدهم، مثل سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، والشعبي وغيرهم، ممن يطول ذكرهم، أشاروا إلى أن كلام الله هو المتلوّ في المحاريب والمصاحف.

وذكر صالح بن أحمد بن حنبل، وحنبل: أن أحمد رَحِمَهُ اللهُ قال: جبريل سمعه من الله، والنبي ؟ سمعه من جبريل، والصحابة سمعته من النبي ؟.

وفي قول أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ليس بكلامي، ولا كلام صاحبي، إنما هو هو كلام الله تعالى، إثبات الحرف والصوت؛ لأنه إنما تلا عليهم القرآن بالحرف والصوت،.اهـ..

وبوب رَحِمَهُ اللهُ في «الحجة» (١/ ٢٦٩): فصل إثبات النداء صفة لله عزوجل، ثم سرد جملة

=

=

من الآيات والأحاديث.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمة رَحِمَهُ اللَّهُ في «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٠٤): واستفاضت الآثار عن النبي ؟ والصحابة والتابعين، ومن بعدهم من أئمة السنة؛ أنه سبحانه ينادى بصوت، نادى موسى، وينادى عباده يوم القيامة بصوت، ويتكلم بالوحي بصوت، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه قال: إن الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف، ولا أنه أنكر أن يتكلم الله بصوت أو بحرف، وانظر: «مجموع الفتاوى (٦/ ١١٣-٥٤٥).

وقال الغنيمان في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (٢/ ٣٣٢): قوله: (فينادي بصوت) قال الحافظ: (أكثر الرواة، رووه بكسر الدال -يعني رواة صحيح البخاري- قال: وفي رواية أبي ذر بفتحها على البناء للمجهول، ولا محذور في رواية الجمهور، فإن قرينة قوله: (إن الله يأمرك) تدل ظاهرا على أن المنادي ملك يأمره الله بأن ينادي بذلك).

قلت: هذا مجانب للإنصاف، وبعيد عن ظاهر قول رسول الله ﷺ بل الظاهر أن المنادي هو الله تعالى. والنداء صفة كمال، لا محذور فيه كما توهمه أهل التأويل الباطل، وقد ثبت بالنصوص الكثيرة اتصاف الله تعالى بالكلام، والنداء منه.

وأي محذور يخشاه هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم لتحريف كلام الله وكلام رسوله، وصرفه عن الظاهر المراد منه، حتى عطلوه تعالى، حتى جعلوا المخلوق أكمل منه، ولذلك قالوا: المنادي ملك يأمره الله أن ينادي آدم، هذا مع وضوح الكلام وكونه يأبى هذا التحريف، فإنه قال: (يقول الله: يا آدم، فينادي بصوت) فقوله: (فينادي بصوت) تفسير لقوله: (يقول الله: يا آدم)، وبيان له، ولكن الذين تأثروا بأصول الجهمية ظنوا أن اتصاف الله تعالى بالكلام حقيقة والنداء من التشبيه، فنفوا ذلك عن الله تعالى ظانين أن هذا قول أهل السنة فصار الأخذ بظاهر هذا النص ونحوه لا يجوز؛ لأنه عندهم على خلاف أصولهم، التي منها: نفي حقيقة الكلام عن الله تعالى، فوجب تأويله - كما زعموا -، والحق خلاف ظنهم، ثم نقول: إذا كان الله تعالى ليس هو المنادي، وإنما يأمر ملكا ينادي، نقول: بأي شيء يأمر الملك، وأنتم تقولون: لا يتكلم بكلام يسمع منه؟ أيكون أمره بالإشارة؟ وبذلك يكون الملك أكمل من رب العالمين.

أم يكون الأمر بأن يخلقه بقلبه؟ فإن قالوا ذلك فيلزم أن يكون الأمر صفة للملك؛ لأن ما كان مخلوقا فيه فهو صفة له.

فالحق أن الله يتكلم بصوت مسموع يسمعه من شاء من عباده، وليس الصوت الذي

=

=
يتكلم الله به قديما كما يقوله بعض أهل البدع، بل لم يزل يتكلم متى شاء، وسيكلم عباده يوم القيامة ويحاسبهم، كما في حديث عدي بن حاتم: (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان)، ولما علم أئمة الأشعرية القدماء أن الحروف والأصوات لا تكون قديمة العين، لم يمكنهم أن يقولوا: القديم هو الحروف، والأصوات؛ لأنها لا تكون إلا متعاقبة.

والصوت عرض، لا يبقى زمانين إلا بواسطة ما يمسكه كشريط التسجيل ونحوه، فلذلك قالوا: القديم معنى واحد، لامتناع معان لا نهاية لها عندهم، وهذا هو أصلهم الذي بنوا عليه مذهبهم الباطل.

والاختلاف في القرآن والكلام، هل هو حرف وصوت أو غير ذلك؟ محدث حدث في حدود المائة الثالثة، وانتشر في المائة الرابعة.

فإن ابن كلاب والأشعري ونحوهما لما ناظروا المعتزلة في إثبات الصفات، وأن القرآن ليس مخلوقا، وأنه لا يمكن أن يكون قديما إلا أن يكون معنى قائما بنفس الله، كعلمه.

وزادوا: إن الله لا يتكلم بصوت، ولا لغة، ولا قديم ولا غير قديم، لما رأوا امتناع قيام أمر حادث به، وخالفوا في ذلك جمهور المسلمين.

والآثار شاهدة بأن الله يتكلم بصوت، ولهذا جعل الإمام أحمد من أنكر ذلك: جهميا.

قال عبد الله: قلت لأبي: إن قوما يقولون: إن الله لا يتكلم بصوت؟ فقال: هؤلاء جهمية، إنما يدورون على التعطيل.

قال شيخ الإسلام: السلف والأئمة يقولون: إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وكلامه تعالى قديم النوع، بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء، فإن الكلام صفة الكمال، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته، ومن لا يزال متكلما بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكنا له بعد أن يكون ممتنعا.

وقال أيضا: والصواب أن الله تعالى لم يزل متكلما إذا شاء، وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته، وأن كلماته لا نهاية لها، وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى، وإنما ناداه حتى أتى، لم يناده قبل ذلك، وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد، كما أن علمه لا يماثل علمهم.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا أبي، حدثنا جرير، عن منصور، عن المعتمر، عن هلال بن يساف، عن فروة بن نوفل الأشجعي، قال: كنت جارا لخباب، فخرجنا يوما
=

=

من المسجد، وهو آخذ بيدي فقال: يا هناه، تقرب إلى الله ما استطعت، فإنك لن تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه يعني: القرآن.

وروي بسند حسن، عن جبير بن نفير، قال: قال رسول الله ﷺ: إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه يعني: القرآن.

وقال: حدثني أبو معمر، حدثنا وكيع، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي، قال: كأن الناس إذا سمعوا القرآن من في الرحمن يوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك.

وحدثني أبي، سمعت عبد الرحمن بن مهدي، يقول: من زعم أن الله لم يكلم موسى يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه.

سألت أبي عن قوم يقولون: لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت؟ فقال أبي: بلى، تكلم بصوت، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت.

يعني: أنها لا تؤول، بل يجب الإيمان بها على ما يدل عليه ظاهرها، من أن الله يتكلم، وأن كلامه بصوت. ولو كان ما يفهم من ظاهرها باطل، لبينه رسول الله ﷺ؛ لأن الله تعالى كلفه ببيان ما نزل إليه.

ثم قال: سمعت أبا معمر الهذلي يقول: من زعم أن الله لا يتكلم، ولا يسمع ولا يبصر، ولا يغضب، ولا يرضى - وذكر أشياء من هذه الصفات - فهو كافر بالله.

حدثني أبي، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عبد الله: إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء، فيخرون سجدا، حتى إذا فزع عن قلوبهم، قال: سكن عن قلوبهم، نادى أهل السماء: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، قال كذا وكذا، ورواه مرفوعا.

وفي الترمذي، عن عمران بن حصين، قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فتفاوت بين أصحابه في السير، فرفع رسول الله ﷺ صوته بهاتين الآيتين: {يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم} إلى قوله: {عذاب الله شديد}، فلما سمع ذلك أصحابه حثوا المطى، وعرفوا أنه عنده قول يقوله، فقال: هل تدرون أي يوم ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذاك يوم ينادي الله فيه آدم، فيناديه ربه، فيقول: يا آدم، ابعث بعث النار إلى آخر الحديث، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

فهذا ظاهر جدا في أن المنادي هو الله تعالى، والنداء لا يكون إلا بصوت يسمع من بعد

=

المسألة الخامسة: أنواع الكتابة

الكتابة نوعان من حديث تغيرها

الكتابة نوعان: نوع لا يتبدل ولا يتغير وهو ما في اللوح المحفوظ على الراجح، ونوع يتغير ويتبدل وهو ما بأيدي الملائكة، وما يستقر أمره أخيرا عندهم هو الذي قد كتب في اللوح المحفوظ، وهو أحد معاني قوله تعالى: (يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) الرعد / ٣٩، ومن هذا يمكننا فهم ما جاء في السنة الصحيحة من كون صلة الرحم تزيد في الأجل أو تبسط في الرزق، أو ما جاء في أن الدعاء يرد القضاء، ففي علم الله تعالى أن عبده يصل رحمه وأنه يدعوه فكتب له في اللوح المحفوظ سعة في الرزق وزيادة في الأجل.

فاعلم رحمني الله وإياك أنه لا يوجد شيء يغير القدر؛ لأن الله تعالى قال:

=

عن المنادي، فلله تعالى صوت يليق به، فصوته لا يشبه أصوات خلقه، كصفاته ولثبوت ذلك بالأدلة التي ذكر شيء منها في هذا يتعين على المؤمن الإيمان بأن الله تعالى يتكلم بكلام يسمعه من يشاء من خلقه، وأنه بصوت، إذا شاء صوت به.

فتبين أن قول الحافظ -ابن حجر-: (إن المنادي ملك يأمره الله بأن ينادي بذلك) باطل، إذ هو خلاف الحق، وأن المنادي هو الله.

وإذا كان الله تعالى لا يتكلم بكلام مسموع منه، فكيف يأمر الملك؟ وكيف يرسل الرسل؟ أو ليس الكلام صفة كمال، ومن يتكلم وينادي أكمل ممن لا يقدر على ذلك؟ فما هو المسوغ لتحريف كلام الله وكلام رسوله؟ مع أن السلف وأهل السنة مجمعون على وصف الله بالكلام، وأن من نفى ذلك ضال سالك غير سبيل المؤمنين.

قال الألوسي: الذي انتهى إليه كلام أئمة الدين كالماتريدي، والأشعري، وغيرهما من المحققين، أن موسى عليه السلام سمع كلام الله تعالى بحرف وصوت، كما تدل عليه النصوص التي بلغت في الكثرة مبلغا لا ينبغي معه تأويل، ولا يناسب في مقابلته قال وقيل، بل قد ورد في إثبات الصوت لله تعالى أحاديث لا تحصى.

(ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) الحديد / ٢٢؛ ولقول النبي ﷺ قال (رفعت الأقلام وجفت الصحف)، ولكن هناك قضاء مبرم وقضاء معلق، والقضاء المعلق هو الذي في الصحف التي في أيدي الملائكة، فإنه يقال: اكتبوا عمر فلان إن لم يتصدق فهو كذا وإن تصدق فهو كذا، وفي علم الله وقدره الأزلي أنه سيتصدق أو لا يتصدق، فهذا النوع من القدر ينفع فيه الدعاء والصدقة، لأنه معلق عليهما، وهو المراد بقوله تعالى: (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) {الرعد ٣٩ـ٣٨}.

وقد سئل شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٨٨): عن قوله تعالى {ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده} وقوله تعالى {وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب} وقوله تعالى {يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب} هل المحو والإثبات في اللوح المحفوظ والكتاب الذي جاء في الصحيح {أن الله تعالى كتب كتابا فهو عنده على عرشه} الحديث. وقد جاء: {جف القلم} فما معنى ذلك في المحو والإثبات؟. وهل شرع في الدعاء أن يقول: "اللهم إن كنت كتبتني كذا فامحني واكتبني كذا فإنك قلت: {يمحوا الله ما يشاء ويثبت} وهل صح أن عمر كان يدعو بمثل هذا؟ وهل الصحيح عندكم أن العمر يزيد بصلة الرحم كما جاء في الحديث؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، أما قوله سبحانه: {ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده} فالأجل الأول هو أجل كل عبد؛ الذي ينقضي به عمره والأجل المسمى عنده هو: أجل القيامة العامة. ولهذا قال: {مسمى عنده} فإن وقت الساعة لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل كما قال: {يسألونك عن الساعة

أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو} . بخلاف ما إذا قال: (مسمى كقوله: {إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى} إذ لم يقيد بأنه مسمى عنده فقد يعرفه العباد. وأما أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد وأجله وعمله وشقي أو سعيد. كما قال في الصحيحين عن ابن مسعود قال: {حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق -: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح} فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يعلمه الله لمن شاء من عباده. وأما أجل القيامة المسمى عنده فلا يعلمه إلا هو.

وأما قوله: {وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره} فقد قيل إن المراد الجنس أي ما يعمر من عمر إنسان ولا ينقص من عمر إنسان ثم التعمير والتقصير يراد به شيئان: "أحدهما " أن هذا يطول عمره وهذا يقصر عمره فيكون تقصيره نقصا له بالنسبة إلى غيره كما أن المعمر يطول عمره وهذا يقصر عمره فيكون تقصيره نقصا له بالنسبة إلى غيره كما أن التعمير زيادة بالنسبة إلى آخر. وقد يراد بالنقص النقص من العمر المكتوب كما يراد بالزيادة الزيادة في العمر المكتوب. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: {من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه} وقد قال بعض الناس: إن المراد به البركة في العمر بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا في الكثير قالوا: لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان. فيقال لهؤلاء تلك البركة. وهي الزيادة في العمل والنفع. هي أيضا مقدرة مكتوبة وتتناول لجميع الأشياء. والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلا في صحف الملائكة فإذا وصل رحمه زاد في

ذلك المكتوب. وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب. ونظير هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ (أن آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته فأراه إياهم فرأى فيهم رجلا له بصيص فقال من هذا يا رب؟ فقال ابنك داود. قال: فكم عمره؟ قال أربعون سنة. قال: وكم عمري؟ قال: ألف سنة. قال فقد وهبت له من عمري ستين سنة. فكتب عليه كتاب وشهدت عليه الملائكة فلما حضرته الوفاة قال قد بقي من عمري ستون سنة. قالوا: وهبتها لابنك داود. فأنكر ذلك فأخرجوا الكتاب. قال النبي ﷺ فنسي آدم فنسيت ذريته وجحد آدم فجحدت ذريته)[1]، وروي أنه كمل لآدم عمره ولداود عمره. فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنة ثم جعله ستين وهذا معنى ما روي عن عمر أنه قال: اللهم إن كنت كتبتني شقيا فامحني واكتبني سعيدا فإنك تمحو ما تشاء وتثبت. والله سبحانه عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إياه بعد ذلك والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها؛ فلهذا قال العلماء: إن المحو والإثبات في صحف الملائكة وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالما به فلا محو فيه ولا إثبات. وأما اللوح

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٥٣، رقم ٣٣٦٨)، والنسائي في اليوم والليلة (١/ ٢٣٨) وفي الكبرى (١٠٠٤٦)، وابن حبان (٦١٦٧)، والحاكم (١/ ١٣٢، رقم ٢١٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٤٧، رقم ٢٠٣٠٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأخرجه مختصرا الترمذي (٥/ ٢٦٧، رقم ٣٠٧٦)، وابن سعد (١/ ٢٨)، وأبو يعلى (١١/ ٢٦٣، رقم ٦٣٧٧)، والحاكم (٢/ ٣٥٥، رقم ٣٢٥٧) والحديث صححه العلامة الألباني في المشكاة (٤٦٦٢)، وقال الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم، وصححه الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٣/ ٤٣٩ - ٤٤٠).

المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين. والله سبحانه وتعالى أعلم؟.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في الجواب الكافي ص١٧): المقدور قدر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدر مجردًا عن سببه، ولكن قدر بسببه فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور وهكذا، كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب وقدر الولد بالوطء وقدر حصول الزرع بالبذر... وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قدر وقوع المدعو به لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب..اهـ..

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا كما في مجموع الفتاوى (٨/ ٥٤٠، ٥٤١): عن الرزق هل يزيد أو ينقص؟ وهل هو ما أكل أو ما ملكه العبد؟

فأجاب: الرزق نوعان:

أحدهما: ما علمه الله أنه يرزقه فهذا لا يتغير، والثاني: ما كتبه وأعلم به الملائكة، فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب، فإن العبد يأمر الله الملائكة أن تكتب له رزقا، وإن وصل رحمه زاده الله على ذلك، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه"، وكذلك عمر داود زاد ستين سنة فجعله الله مائة بعد أن كان أربعين، ومن هذا الباب قول عمر: "اللهم إن كنت كتبتني شقيا فامحني واكتبني سعيدا فإنك تمحو ما تشاء وتثبت"، ومن هذا الباب قوله تعالى عن نوح (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى)، وشواهده كثيرة، والأسباب التي يحصل بها الرزق هي من جملة ما قدره الله وكتبه، فإن كان قد تقدم بأنه يرزق العبد بسعيه واكتسابه: ألهمه السعي والاكتساب، وذلك الذي قدره له بالاكتساب لا يحصل بدون الاكتساب، وما قدره له بغير اكتساب

كموت موروثه يأتيه به بغير اكتساب، والسعي سعيان: سعي فيما نصب للرزق كالصناعة والزارعة والتجارة، وسعي بالدعاء والتوكل والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك، فإن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.اهـ.

وقال العلامة السعدي: يمحوا الله ما يشاء ـ من الأقدار: ويثبت ـ ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير، لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: وعنده أم الكتاب ـ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها وهي فروع له وشعب، فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابا ولمحوها أسبابا لا تتعدى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ..اهـ..

(تنبيه) وأما ما جاء في حديث أم حبيبة في صحيح مسلم رقم (٢٦٦٣) أنها دعت فقالت: (اللهم متعني بزوجي رسول الله ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية: فقال النبي ﷺ: قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئًا قبل حله، أو يؤخر شيئًا عن حله. ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب النار أو عذاب القبر كان خيرًا وأفضل) فلهذا الحديث توجيهان:

الأول: إما أن النبي ﷺ علم بالوحي أن أعمار الذين دعت لهم أم حبيبة لن يزاد عليها بدعائها، فنهاها عن ذلك لذلك.

الثاني: وإما أنه قصد أن يرشدها إلى ما هو خير لها وأفضل من أن تدعو بزيادة الأعمار والتمتع بها في الدنيا، وهو الدعاء بالنجاة من عذاب النار وعذاب القبر.

فلا حرج في الدعاء بطول العمر، لكن الأولى أن يقيد ذلك بما ينفع المدعو له في دينه، فكم من طويل العمر لا يزداد بطوله إلا بعدا عن ربه.

وفي الحديث أن أعرابيا قال: يا رسول الله من خير الناس؟ قال: (من طال عمره وحسن عمله)[1]، وقد ثبت أن النبي ﷺ دعا لأنس بن مالك رضي الله عنه بطول العمر كما في حديث الترجمة.

وذكر ابن القيم في زاد المعاد (٥/ ١٤٦) قول عمر لعلي رضي الله عنهما: "صدقت، أطال الله بقاءك"، وقال: "وبهذا احتج من احتج على جواز الدعاء للرجل بطول البقاء" انتهى.

وروى البخاري في الأدب المفرد (١١١٢) عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه: أنه مر برجل هيئته هيئة مسلم، فسلم فرد عليه: وعليك ورحمة الله وبركاته. فقال له الغلام: إنه نصراني! فقام عقبة فتبعه حتى أدركه فقال: "إن رحمة الله وبركاته

---

(١) جاء من حديث عبد الله بن بسر، وأبي بكرة، وأبي هريرة وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهم، والحديث صححه الترمذي، والبزار في مسنده (٩/ ٩٢)، والمنذري في الترغيب (٤/ ٢٠٥)، وحسنه البغوي في شرح السنة (٧/ ٣١٩)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٤٠٣٨)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٦)، (٣٢٩٧)، وحسنه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٨٢٠)، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٩/ ٢٢٦).

على المؤمنين، لكن أطال الله حياتك، وأكثر مالك، وولدك" حسنه الشيخ الألباني في "صحيح الأدب" (٨٥١)، وقال: "في هذا الأثر إشارة من هذا الصحابي الجليل إلى جواز الدعاء بطول العمر، ولو للكافر، فللمسلم أولى" انتهى.

وقال الهيتمي في الفتاوى الفقهية الكبرى (٨/ ٤٩): يجوز الدعاء بطول العمر كما دعا به ﷺ لأنس، وقيده بعض المحققين بمن في بقائه نفع للمسلمين، فيندب له الدعاء حينئذ فإن كان نفعه قاصرا فهو دون الأول. انتهى.

وسئل العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل يجوز الدعاء بطول العمر؟ أم أن العمر مقدر ولا فائدة من الدعاء بطوله؟.

فأجاب: "لا حرج في ذلك، والأفضل: أن يقيده بما ينفع المدعو له، مثل أن يقول: أطال الله عمرك في طاعة الله، أو في الخير، أو فيما يرضي الله " انتهى من مجموع فتاوى ابن باز (ج ٨ / ص ٤٢٥).

وقال فقيه الأمة العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تكرر من الإخوان الذين يقدمون الأسئلة الدعاء بطول العمر لمقدمي البرنامج، وأحب أن يقيد طول العمر على طاعة الله فيقال: أطال الله بقاءك على طاعته. أو أطال الله عمرك على طاعته؛ لأن مجرد طول العمر قد يكون خيرا وقد يكون شرا " انتهى من "فتاوى نور على الدرب" (٣/ ٤٥٣).

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٦/ ٣٨٩ - ٣٩٠): يكرهون الدعاء بأطال الله بقاءك، هل اطلعتم على شيء من هذا؟ كان إذا دعي لهم بهذا الدعاء يقولون: هذا شيء مقدر ويكرهون ذلك.

فأجاب: أنا ما اطلعت على هذا، ولو اطلعت لما تبنيته؛ لأنه خلاف ما صح، من قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «من أحب أن يُنسأ له في أجله ويوسع له في رزقه فليصل رحمه»

وقد دعا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لأنس بن مالك بكثرة الرزق وطول العمر في بعض الروايات الصحيحة، ولذلك فلا أرى أنا في الدعاء بطول العمر، وإن كان هذا غير مستعمل في أكثر البلاد العربية إلا في هذه البلاد لكن الحقيقة السنة معه، وأنا حينما أسمع الدعاء من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بطول العمر لخادمه أنس فلا شك أنه يعني بذلك طول العمر للعمل الصالح.. مقرونًا بالعمل الصالح، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وساء عمله» والحديث الأول الذي ذكرناه: «من أحب أن ينسأ له في أجله ويُوسّع له في رزقه فليصل رحمه» فيه حض على تعاطي الأسباب الشرعية التي تكون سببًا لأمرين اثنين:

الأول: طول العمر، والآخر: سعة الرزق، فتأويل بعض العلماء لهذا الحديث بأنه ليس المقصود ظاهره، فهذا أشبه بالتعطيل لبعض آيات الصفات وأحاديث الصفات؛ لأن الحامل لهم ظَنَّهم أن ظاهر الحديث هذا لو أخذنا به فنخالف ما هو مقطوع عند المسلمين بأن كلًا من الرزق وطول العمر محدود في اللوح المحفوظ مؤكد حينما ينفخ الروح في الجنين وهو في بطن أمه ولكن ذلك لا يعني أن لكل من هذه الخواتيم من طول العمر وسعة الرزق أسباب كالسعادة وكالشقاوة تمامًا، فكما أن الله ﷻ جعل لكل من السعادة والشقاوة سببًا فسبب السعادة: الإيمان بالله، وسبب الشقاوة الكفر به تبارك وتعالى، كذلك جعل أسبابًا لطول العمر وسعة الرزق، لكن هذا لا يعني أن ذلك غير مُقدَّر، كل شيء بقدر كما قال عليه الصلاة والسلام: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس».

(فرع): أنواع الكتابة من منظور ثاني

قال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٣/ ١٩١): قال أهل العلم: والكتابة لها أنواع:

النوع الأول: الكتابة العامة وهي الكتابة في اللوح المحفوظ.

النوع الثاني: الكتابة العمرية (نسبة إلى العمر) وهي التي تكون على الإنسان وهو في بطن أمه فإن الإنسان كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: حدثنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدوق فقال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»؛ لأن الكتاب الأول هو العمدة.

ولكن نحن إذا قرأنا هذا الحديث، فإنه لا ينبغي أن ننسى أحاديث أخرى تبشر الإنسان بالخير، صحيح أن هذا الحديث مروع أن يقول القائل: كيف يعمل الإنسان بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، ثم يخذل -والعياذ بالله- فيعمل بعمل أهل النار؟ لكن هناك ولله الحمد نصوصًا أخرى، تفرج عن المؤمن كربته فيما يتعلق بهذا الحديث، من ذلك: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: "ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار قالوا: يا رسول الله أفلا تنكل على الكتاب وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق الله له، فأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة"، ثم تلا قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}. إذن هذه بشارة من الرسول، عليه الصلاة والسلام، للإنسان أنه إذا

عمل بعمل أهل السعادة فهو دليل على أنه كتب من أهل السعادة فليستبشر.

وروى البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه «أن النبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان في غزاة، وكان معهم رجل شجاع مقدام، فقال النبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذات يوم: "إن هذا من أهل النار" مع شجاعته وإقدامه، فعظم ذلك على الصحابة وشق عليهم، فقال أحد الصحابة: والله لألزمن هذا، فلزمه فأصاب هذا الرجل الشجاع سهم من العدو فغضب، ثم وضع سيفه على صدره واتكأ عليه، حتى خرج من ظهره، فقتل نفسه، فجاء الرجل إلى النبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له: أشهد أنك رسول قال: وماذا؟ قال: إن الرجل الذي قلت لنا إنَّه من أهل النار فعل كيت وكيت، ثم قال رسول الله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار». أسأل الله أن يخلص سريرتي وسرائركم، فالسريرة لها شأن عظيم في توجيه الإنسان، فالقلب هو الموجه للإنسان، وهو الأصل، لذلك يجب أن نلاحظ القلوب، وأن نمحصها ونغسلها من درنها، فقد يكون فيها عرق خبيث، يتظاهر الإنسان بعمل جوارحه بالصلاح، لكن في القلب هذا العرق الفاسد الذي يطيح به في الهاوية في النهاية.

يقول بعض السلف: (ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص)، الذي ليس بشيء عند كثير منا هذا يحتاج إلى جهاد عظيم، لو كان في الإنسان شيء يسير من الرياء لم يكن مخلصا تمام الإخلاص وربما يكون هذا الشيء اليسير من الرياء في قلبه - ربما يكون - سببا لهلاكه في آخر لحظة.

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ آثار الذنوب وعقوبتها، ومن جملة ما ذكر أن رجلا منهمكا في الربا، جعل أهله يلقنونه الشهادة، فكلما قالوا له: قل: لا إله إلا الله. قال: العشرة أحد عشر؛ لأنه ليس في قلبه غير ذلك من المعاملات المحرمة التي

رانت على قلبه حتى طبع عليه في آخر لحظة -والعياذ بالله-.

ولما حضرت الوفاة الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وناهيك به علما وعبادة وورعا وزهدا لما حضرته الوفاة سمعوه إذا غشي عليه يقول: (بعد بعد)، فلما أفاق قيل له: يا أبا عبد الله ما قولك: (بعد بعد) قال: رأيت الشيطان يعض على أنامله يقول: (فتني يا أحمد)، فأقول له: (بعد بعد) أي: لم أفتك ما دامت الروح في البدن، فالإنسان على خطر، والنبي ﷺ يقول: «حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها».

نعود إلى ما سبق من الكتابة العمرية، فالإنسان يكتب عليه وهو في بطن أمه، بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد.

النوع الثالث: الكتابة الحولية - أي عند كل حول: وهي التي تكون ليلة القدر، فإن ليلة القدر يكتب فيها ما يكون في السنة كما قال الله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}، يفرق أي يبين ويفصل، وقال عَزَّوَجَلَّ: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، أي مقدر فيها ما يكون في تلك السنة.

النوع الرابع: كتابة مستمرة كل يوم وهي كتابة الأعمال فإن الإنسان لا يعمل عملا إلا كتب، إما له وإما عليه، كما قال تعالى: {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}، لكن هذه الكتابة تختلف عن الكتابات السابقة، فالكتابات السابقة كتابة لما يفعل، وهذه الكتابة كتابة لما فعل، ليكون الجزاء عليه.

النوع الخامس: كتابة الملائكة التي تكون عند أبواب المساجد يوم الجمعة،

فإن أبواب المساجد يوم الجمعة يكون عليها ملائكة يكتبون الأول فالأول، فمن راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن، ومن راح في الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الخامسة فكأنما قرب بيضة، ومن جاء بعد مجيء الإمام فليس له أجر التقدم؛ لأن الإمام سبقه، وإذا حضر الإمام طويت الصحف، وحضرت الملائكة يستمعون الذكر.

المسألة السادسة: حقيقة الكشف على اللوح المحفوظ عند الصوفية

يعد الكشف المصدر الرئيس للمعرفة عند الصوفية، ومن دخل في التصوف من فلاسفة ومتكلمين، وما وافق الكشف عندهم من الكتاب والسنة أقروه، وما خالف كشفهم تأولوه!!. والكشف عند الصوفية: هو الاطلاع على ما وراء الحجاب، من المعاني الغيبية والأمور الخفية الحقيقية وجودًا أو شهودًا، فكما نصب المتكلمون العقل حاكمًا على النقل، ينصب هؤلاء الصوفية الكشف حاكمًا على النقل. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في درء التعارض (٥/ ٣٣٩ - ٣٤٠): "وهذا الذي ذكره هذا في العقل، ذكره طائفة أخرى في الكشف، كما ذكره أبو حامد في كتابه الإحياء، في الفرق بين ما يتأول وما لا يتأول، وذكر أنه لا يستدل بالسمع على شيء من العلم الخبري، وإنما الإنسان يعرف الحق بنور إلهي يقذف في قلبه، ثم يعرض الوارد في السمع عليه، فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه، وما خالف أولوه".اهـ.

قال أبو حامد الغزالي في كيمياء السعادة (ص٢٤) في بيان الكشف الذي يحصل لبعض الخواص: "القلب مثل المرآة، واللوح المحفوظ مثل المرآة أيضًا، لأن فيه صورة كل موجود؛ وإذا قابلت المرآة بمرآة أخرى حلت صور ما

في إحداهما في الأخرى، وكذلك تظهر صور ما في اللوح المحفوظ إلى القلب إذا كان فارغًا من شهوات الدنيا، فإن كان مشغولًا بها كان عالم الملكوت محجوبًا عنه، وإن كان في حال النوم فارغًا من علائق الحواس طالع جواهر عالم الملكوت، فظهر فيه بعض الصور التي في اللوح المحفوظ، وإذا أغلق باب الحواس كان بعده الخيال، لذلك يكون الذي يبصره تحت ستر القشر، وليس كالحق الصريح مكشوفًا، فإذا مات أي القلب بموت صاحبه، لم يبق خيال ولا حواس، وفي ذلك الوقت يبصر بغير وهم وغير خيال، ويقال له: {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق - ٢٢]".اهـ.

ويبين في كيمياء السعادة (ص٢٥) أنه عن طريق الرياضة والمجاهدة ينفتح له ذلك وأنه يبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء والصور الحسنة الجميلة الجليلة، وينكشف له ملكوت السموات والأرض، ويرى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه - كما يقول -.اهـ.

وهذا الذي يقع في قلوب الأولياء هنا يقع في قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق تعالى كما يقول الغزالي - فهم مثل علم الأنبياء. وهو هنا يقترب من الفلاسفة في تعريفهم للنبوة؛ وهو مما أغلظ فيه كثير من العلماء على الغزالي.

وهذا الكشف هو الحاكم على السمع، فما وافق الكشف أخذوه، وما خالف الكشف أولوه، قال الغزالي في الإحياء (١/ ١٠٤): "وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض، لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي، لا بالسماع، ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي عليه، نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة، فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه، وما خالف أولوه. فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع

المجرد، فلا يستقر له فيها قدم، ولا يتعين له موقف".اهـ.

ويقول الرازي كما في المطالب العالية (١/ ٥٣) في بيان الطريق للكشف وأنه من الطرق الموصلة إلى المعارف المقدسة: "اعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الطريق إليه من وجهين: أحدهما: طريق أصحاب النظر والاستدلال. والثاني: طريق أصحاب الرياضة والمجاهدة".اهـ.

وقال في الطريق الثاني كما المطالب العالية (١/ ٥٤): "وأما الطريق الثاني، وهو طريق أصحاب الرياضة فهو طريق عجيب أكيد قاهر، فإن الإنسان إذا اشتغل بتصفية قلبه عن ذكر غير الله، وداوم بلسان جسده، ولسان روحه على ذكر الله، وقع في قلبه نور وضوء وحالة قاهرة وقوة عالية، ويتجلى لجوهر النفس أنوار عالية علوية، وأسرار إلهية، وهي مقامات ما لم يصل الإنسان إليها، لا يمكنه الوقوف عليها على سبيل التفصيل".اهـ.

وقال أيضًا في معالم أصول الدين (ص٨٥): "عند الرياضة الشديدة يحصل للنفس كمالات عظيمة، وتلوح لها الأنوار وتتكشف لها المغيبات".اهـ.

فالكشف إذًا من مصادر المعرفة عند الصوفية، وقد سلطوه على ألفاظ الشرع، فما خالف كشفهم تأولوه وحرفوه عن معناه الصحيح إلى ما يوافق كشفهم، وبطلان هذا المذهب الكشفي بين، قال العلامة الألباني في الصحيحة (١١١٠): فتبين مما تقدم أنه لا يصح شيء من هذه الطرق إلا طريق ابن عجلان وليس فيه إلا مناداة عمر " يا سارية الجبل " وسماع الجيش لندائه وانتصاره بسببه. ومما لا شك فيه أن النداء المذكور إنما كان إلهاما من الله تعالى لعمر وليس ذلك بغريب عنه، فأنه " محدث " كما ثبت عن النبي ﷺ ولكن ليس فيه أن عمر كشف له حال الجيش، وأنه رآهم رأي العين، فاستدلال بعض

المتصوفة بذلك على ما يزعمونه من الكشف للأولياء وعلى إمكان اطلاعهم على ما في القلوب من أبطل الباطل، كيف لا وذلك من صفات رب العالمين المنفرد بعلم الغيب والاطلاع على ما في الصدور. وليت شعري كيف يزعم هؤلاء ذلك الزعم الباطل والله ﷻ يقول في كتابه {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} الجن / ٢٦، ٢٧؟ فهل يعتقدون أن أولئك الأولياء رسل الله حتى يصحَّ أن يقال إنهم يطلعون على الغيب باطلاع الله إياهم؟! سبحانك هذا بهتان عظيم، فالقصة صحيحة ثابتة، وهي كرامة أكرم الله بها عمر، حيث أنقذ به جيش المسلمين من الأسر أو الفتك به، ولكن ليس فيها ما زعمه المتصوفة من الاطلاع على الغيب، وإنما هو من باب الإلهام (في عرف الشرع) أو (التخاطر) في عرف العصر الحاضر الذي ليس معصومًا، فقد يصيب كما في هذه الحادثة، وقد يخطئ كما هو الغالب على البشر، ولذلك كان لا بدَّ لكل وليٍّ من التقيد بالشرع في كل ما يصدر منه من قول أو فعل خشية الوقوع في المخالفة، فيخرج بذلك عن الولاية التي وصفها الله تعالى بوصف جامع شامل {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} يونس / ٦٣، ولقد أحسن من قال: إذا رأيت شخصًا قد يطير وفوق ماء البحر قد يسير، ولم يقف على حدود الشرعِ فإنه مُستَدرج وبدعي.اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في التعليق على متن الطحاوية (ص٤٧): واعتقاد أن بعض الصالحين يطلعون على ما فيه -أي اللوح- كفر بالآيات والأحاديث المصرحة بأنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

المسألة السابعة: أنواع أقلام المقادير

قال بعض العلماء: أقلام المقادير التي دلت عليها السنة أربعة أقلام:

١- القلم الأول العام الشامل لجميع المخلوقات.

٢- القلم الثاني حين خلق آدم وهو قلم عام أيضًا لكنه لبني آدم.

٣- القلم الثالث حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه ويكتب به الأربع الكلمات.

٤- القلم الرابع الموضوع على العبد عند بلوغه الذي بأيدي الكرام الكاتبين، وهذا القلم يكتبون به ما يفعله بنو آدم.

فتعقبهم العلامة ابن باز بقوله: الأقلام لا يحصيها إلا الله جل وعلا فالجزم بالأربعة ليس بجيد، وقد ذكر ابن القيم في بعض كتبه الأقلام الأربعة، ولكن ليس المعنى أنه ليس هناك قلم آخر، وقد قيل: إنّ هناك قلمًا خامسًا، وهو ما يكتب به ما يحدث في السنة في ليلة القدر.. والحاصل أنّ الأقلام لا يجوز الجزم بأنَّها أربعة فقط، فالأقلام كثيرة، والله الذي يعلمها ويحصيها، ولهذا قال في حديث المعراج: (يسمع فيه صريف الأقلام...)، فقد تكون أربعة، وقد تكون مائة، وقد تكون ألفًا، وقد يكون لكل شيء قلم خاص، فربنا هو العالم بها سبحانه وتعالى.

المسألة الثامنة: التحذير من قول البوصيري في البردة[1]

---

(١) قصيدة البردة من القصائد الشهيرة في المديح النبوي، هامَ فيها أهل التصوف فشرحوها عشرات المرات وبلغات مختلفة، وشطَّروها، وخمَّسوها، وسبَّعوها، وعارَضوها، ونظموا على نهجها، وغلوا فيها حتى جعل بعضهم لأبياتها بركة خاصة وشفاء من الأمراض، بل من كتبةِ الأحجبةِ والتمائم من يستخدم لكل مرض أو حاجة بيتًا خاصًا: فبيتٌ لمرض الصرع، وبيتٌ للحفظ من الحريق، وآخر للتوفيق بين الزوجين وهكذا، وكانت البردة وما تزال عند بعض الناس من الأوراد التي تُقرأ في الصباح والمساء في هيبة وخشوع، وأبياتها تُستعمل إلى اليوم في الرقى وتتلى عند الدفن، وقد وضعوا لها =

مخاطبا النبي عليه السلام:

فـإن مـن جـودك الـدنيا وضـرتها ومـن علومـك علـم اللـوح والقلـم

ومثل هذه الأوصاف لا تصح إلا لله عز وجل، وأنا أعجب لمن يتكلم بهذا الكلام إن كان يعقل معناه كيف يسوغ لنفسه أن يقول مخاطبًا النبي عليه الصلاة والسلام:(فإن من جودك الدنيا وضرتها) ومن للتبعيض والدنيا هي الدنيا وضرتها هي الآخرة، فإذا كانت الدنيا والآخرة من جود الرسول عليه الصلاة والسلام، وليس كل جوده، فما الذي بقي لله عز وجل، ما بقي لله عز وجل، ما بقي له شيء من الممكن لا في الدنيا ولا في الآخرة، وكذلك قوله:(ومن علومك علم اللوح

=

شروطًا عند قراءتها كالوضوء واستقبال القبلة وغير ذلك وزعموا أن سبب تسميتها بالبردة أنَّ صاحبها ألقاها أمام النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فألقى عليه النبي صلى الله عليه وسلم بردته كما ألقاها على كعب بن زهير رضي الله عنه يقظة، مع أن قصة كعب بن زهير هذه لم تثبت بإسناد صحيح، وزعموا أنه كان مريضًا بالفالج فشفي بها ولذلك سميت بالبُرْءَة، وبلغ غلوُّهم فيها أن زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم شاركه في نظمها وأنه كان يتمايل عند سماعها فلما انتهى الناظم إلى قوله: فمبلغُ العلمِ فيه أنه بشرٌ..... توقف! فأضاف النبي صلى الله عليه وسلم: وأنه خيرُ خلقِ الله كلهمِ، وهذه القصيدة انتقدها كثيرٌ من أهل العلم. وقد أطلق على هذه القصيدة اسم (البردة) من باب المحاكاة والمشاكلة للقصيدة الشهيرة لكعب ابن زهير رضي الله عنه في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اشتهر أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى كعبًا بردته حين أنشد القصيدة-إن صح ذلك لأن ابن كثير ذكر في (البداية والنهاية) (٤/ ٣٧٣) أنه: (ورد في بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاه بردته حين أنشد القصيدة.وهذا من الأمور المشهورة جدًا، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه والله أعلم)-فقد ادعى البوصيري-في منامه-أن النبي غ ألقى عليه بردة حين أنشده القصيدة!! وتسمى أيضًا (الكواكب الدرية في مدح خير البرية) و(البرأة)، لأن البوصيري كما يزعمون برئ بها من علته، وقد سُمِّيت كذلك بقصيدة الشدائد؛ وذلك لأنها-في زعمهم-تقرأ لتفريج الشدائد وتيسير كل أمر عسير).

والقلم) ومن: هذه للتبعيض ولا أدري ماذا يبقى لله تعالى من العلم إذا خاطبنا الرسول عليه الصلاة والسلام بهذا الخطاب، قال صاحب رسالة كتاب التوضيحات الجلية لأبيات البردة المردية (ص٣٠): معلوم أن للبوصيري غلوًا قبيحًا في مدائحه ولا سيما الهمزيةِ والبردة.

أما الهمزية فليست تطولها يدي الساعة، وفيها عجر وبجر(١) وأما البردة فمن رأى افتتان الناس بها ولا سيما في مصر(٢)، والشام والمغرب العربي(٣)، ولا

---

(١) في (المعجم الوسيط) (١/ ٥٩): (البجيرة: السرة. والعقدة في البطن أو الوجه، أو العنق. جمع بُجَر، ويقال: أفضيتُ إليه بعجري وبجري: أطلعته على معايبي وأمري كله، لثقتي به). وفي (مجمع الأمثال) (٢/ ١٠) للميداني: (البجر: جمع بُجْرَة، وهي نُتُوء السرة يعبر بها عن العيوب).

(٢) يقول (د) زكي مبارك في (المدائح النبوية) (ص:١٩٩): (وأما أثرها في الدرس، فيتمثل في تلك العناية التي كان يوجهها العلماء الأزهريون إلى عقد الدروس في يومي الخميس والجمعة لدراسة حاشية الباجوري على البردة، وهي دروس كانت تتلقاها جماهير من الطلاب، وإنما كانوا يتخيرون يومي الخميس والجمعة؛ لأن مثل هذا الدرس لم يكن من المقررات فكانوا يتخيرون له أوقات الفراغ). انظر: (قوادح عقدية في بردة البوصيري) (ص:١٨٩).

(٣) ومن عجائب هذا العصر - والعجائب جمة - أنني قرأت مقالًا (لشيخنا الشريف بدر الدين الكتاني) في جريدة (الأيام) (العدد ٦١/ -١٨ رمضان ١٤٢٣ هـ/ ص:٥). يقول فيه-ضمن مطالب يطلبها من وزير الأوقاف الجديد الطرقي البوتشيشي-: (... مقاومة الأفكار الوهابية الهدامة عن طريق تكثيف التوعية الدينية بأجهزة الإعلام للقضاء على (الفوضى) الفكرية التي أحدثوها: بدعة، شرك، الأضرحة، الأولياء، مشرك، كافر، وتضييع الوقت في السفاسف المستوردة من السعودية عن طريق الكتب المجانية..ترميم الزوايا والأضرحة الموجودة في المغرب لأنها تقام بها الشعائر) ثم قال: (إحياء العادة المغربية الأصيلة بإنشاد قصيدتي البردة والهمزية للإمام البوصيري في صباح الجمعة بالمساجد، وكذا في المناسبات لتكوين جو روحي كما كان عليه العهد من. إحياء
=

سيما المغرب الأقصى وقد تجاوز شراحها المائة كما عارضها أكثر من هذا العدد، ووضع لها الصوفية من الخواص والمنافع ما يثير الضحك والعجب، ووضعت في ذلك كتب فلكل بيت من أبيات البردة خاصية، هذا يقرأ للمرض الفلاني، وهذا للغنى وهذا لهلاك العدو وهذا للزواج الخ[١].....

=

مناسبات الهجرة، والمعراج، والمولد، وغيرها عبر المساجد المغربية والزويا). أخي القارئ: (فقل: للأعور الدجال هذا زمانك إن عزمت على الخروج).

(١) قال محمد سيد كيلاني -أثناء حديثه عن المخالفات الشرعية في شأن البردة-: (ولم يكتف بعض المسلمين بما اخترعوا من قصص حول البردة، بل وضعوا لقراءتها شروطًا لم يوضع مثلها لقراءة القرآن، منها: التوضؤ، واستقبال القبلة، والدقة في تصحيح ألفاظها وإعرابها، وأن يكون القارئ عالمًا بمعانيها، إلى غير ذلك. ولا شك في أن هذا كله من اختراع الصوفية الذين أرادوا احتكار قراءتها للناس، وقد ظهرت منهم فئة عرفت بقراء البردة، كانت تُستدعى في الجنائز والأفراح، نظير أجر معين). من (مقدمة ديوان البوصيري) (ص:٢٩/ ٣٠). و(قوادح عقدية في بردة البوصيري) (ص:١٩٠ -من كتاب ملحق بمجلة البيان).

ومن العجب أن نرى الصوفية أنفسهم ينكرون غلو أسيادهم الطرقيين فهذا شيخنا عبد الله بن الصديق الصوفي يقول في كتابه (إرشاد الطالب ص:١٤/ ١٥): (ومن الأكاذيب القبيحة التي تؤدي إلى كفر معتقدها...(قولهم):كان جبريل خادمًا للنبي ﷺ، وهذه قلة أدب، في حق رسول عظيم، قد فضله بعض العلماء على النبي ﷺ، والواجب أن يكون كلام المسلم عن الأنبياء والملائكة، في غاية الأدب والاحترام، ولا يأتي بكلمة فيها جفوة أو نقص، مثل هذه الكلمة، ومثل قول صاحب البردة:

وقدمتك جميع الأنبياء بها والرسل تقديم مخدوم على خدم

وهذا قبيح، والأنبياء إخوة، ليس فيهم خادم ومخدوم... وقد أصلحت هذا البيت بقولي:

وقدمتك جميع الأنبياء بها وأكرموك لفضل فيك من قدم

وقال في (نقد قصيدة البردة) (ص:٤٢/ ٤٣/ ٤٤): (هذا خطأ لا شك فيه، لأن الأنبياء

=

وقد أحببت الإشارة إلى بعض ذلك الضلال في البردة هنا فمن ذلك قوله- البيت الأول-:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

ففي الشطر الثاني من هذا البيت منكر عظيم مستفاد من حديث موضوع وهو: (لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك)[١].

=

بعضهم مع بعض ليس فيهم خادم ومخدوم، وليس تفضيل بعضهم، يقتضي أن يكون المفضول خادمًا للفاضل، بل هم سواء في النبوة... ومن الغلو القبيح جدًا ما يذكره بعض الصوفية أن جبريل عليه الصلاة والسلام كان يتلقى الوحي من وراء حجاب فيأتي به إلى النبي ﷺ، وكشف الحجاب مرة، فإذا الذي يلقي إليه الوحي هو النبي ﷺ، فقال: منك وإليك والنبي ﷺ، غني بفضائله العديدة عن هذا الكذب السخيف المؤدي إلى الكفر بمعتقده). وقال في (الإرشاد) (ص:١٤): (ومن الأكاذيب القبيحة التي تؤدي إلى كفر معتقدها: قول بعض جهلة المتصوفة: كان جبريل يتلقى الوحي من وراء حجاب، وكشف له الحجاب مرة فوجد النبي ﷺ يلقي إليه الوحي، فقال: منك وإليك).

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٦١٥)، والطبراني في الصغير (٢٠٧) والبيهقي في الدلائل (٥/ ٤٨٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/ ٤٣٧) والحديث قال عنه البيهقي في الدلائل: تفرد به عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وهو ضعيف وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذا الكتاب. فتعقبه الذهبي بقوله: بل موضوع، وعبد الرحمن واه، وعبد الله بن مسلم الفهري لا أدري من هو وقال في الميزان في ترجمة عبد الله بن مسلم الفهري خبر باطل وأقره الحافظ في اللسان وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في " القاعدة الجليلة في التوسل والوسيلة " (ص ٦٩): ورواية الحاكم لهذا الحديث مما أنكر عليه، فإنه نفسه قد قال في كتاب " المدخل إلى معرفة الصحيح من السقيم: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا يخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه. قلت (أي شيخ الإسلام): وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف باتفاقهم يغلط كثيرا، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٢٥) موضوع، وللمزيد انظر (الآثار المرفوعة (٤٤)، والأسرار =

وقد نبه على هذا الحديث الذي وضعه الصوفية وأذاعوه وسودوا به كتبهم، شيخنا الألباني في الأول من سلسلة الأحاديث الضعيفة، ثم هو قبل ذلك مخالف لقوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)(١).

ثم قال في بيان تفوق النبي ﷺ على الأنبياء جميعًا -البيت الثاني-:

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفًا من البحر أورشفًا من الديم(٢).

=

المرفوعة (٣٨٥)، وتحذير المسلمين (١٤٩)، وتذكرة الموضوعات (٨٦)، والتهاني (٤٨)، والفوائد المجموعة (١٠١٣)، وكشف الخفاء (٢١٢٣)، واللؤلؤ المرصع (٤٥٢)، والمشتهر (١٣)، والمصنوع (٢٥٥)، وموضوعات الصغاني (٧٨)، وتحذير أولي النهى من الأحاديث التي لا أصل لها (١/ حديث رقم٤).

(١) قال السعدي في (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) (٥/ ١٠٠): (هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه والإعراض عما سواه. وذلك متوقف على معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله. بل كلما ازداد العبد معرفة بربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم). قلت: وما ذكره الشيخ واضح جلي لا غموض فيه إلا عند المبتدعة.

(٢) قال محمود مهدي -رَحِمَهُ اللهُ- في حاشية كتابه (كتب ليست من الإسلام) (ص:١٥/ ١٦)- وكذا في كتابي الموسوم بـ(البردة في الميزان) (ص:٣٣): (إن هذا البيت يستدل به مقلدة المذاهب -ويا للأسف- على صحة جميع ما فيها! وبذلك يزعمون العصمة لهم بلسان الحال كما تقول بعض الفرق في أئمتها! كل ذلك خلاف لما أعلنه جميع هؤلاء الأئمة... فقد صرح كل منهم أنه غاب عنه كثير من حديث رسول الله ﷺ بسبب عدم جمع السنة في وقتهم، إنما جمعت بعدهم من قبل علماء الحديث كالبخاري، ومسلم، وأبي داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجة،... وقد قال الشعراني في (الميزان): (إن الأئمة لو جاءوا اليوم لرجعوا عن كثير من آرائهم للسبب السابق. كما أعلن هؤلاء الأئمة أيضًا أن أقوالهم آراء شخصية قد يرجعون عنها، ونهوا عن تقليدهم، وحضو المسلمين على الأخذ بالحديث إذا خالف آراءهم! وما أروع ما قاله العلامة ابن دقيق

=

ومعناه أن كل الأنبياء والرسل السابقين قد نالوا وأخذوا من الرسول اللاحق وكيف ذلك؟ الجواب: أن هذا مأخوذ من أولية النور المحمدي، وقد قال ابن العربي الحاتمي: (إن كل نبي من لدن آدم إلى آخر نبي يأخذ من مشكاة خاتم النبيين)[1]. وقال قبله الحلاج: (إن للنبي نورًا أزليًا قديمًا كان قبل أن يوجد

=

العيد-لما جمع المسائل التي خالف مذهب كل واحد من الأئمة الأربعة الحديث الصحيح فيها انفرادًا واجتماعًا في مجلد ضخم، قال في أوله: (أن نسبة هذه المسائل إلى الأئمة المجتهدين حرام!! وأنه يجب على الفقهاء المقلدين لهم معرفتها لئلا يعزوها إليهم فيكذبوا عليهم!-الفلاني: ص:٩٩). مع العلم أن هذا البيت لم يقصد به البوصيري الأئمة، بل الأنبياء، والحق بعكس ما قاله! بدليل قوله تعالى: (فبهداهم اقتده). فيا للجهل الفاضح والغلو الأخرق!).

(١) يحسن بنا هنا أن ننبه على ظلالة من ضلالات ابن عربي النكرة شيخ الإتحادية ومن تبعه في الحقيقة المحمدية حتى يكون المسلم منها على حذر.

لما كان الله تنزه وتقدس- عند ابن عربي - يتجلى في صور المخلوقات باعتباره روح هذا العالم وكان الإنسان أعظم هذه المخلوقات، كان تجلي الحق فيه أعظم وأكمل. فالإنسان - في نظر ابن عربي - أكمل مجالي الحق باعتباره أرقى الموجودات. حيث جمع الصفات الحقيقة والخلقية، فصار صورة للعالم الأكبر، ولذلك يسميه ابن عربي بالمختصر الشريف، والكون الجامع لجميع حقائق الوجود ومراتبه، فهو العالم الأصغر الذي انعكست في مرآة وجوده كل كمالات العالم الأكبر (الله). أو كمالات الحضرة الإلهية الأسمائية والصفاتية. فأكمل الموجودات على الإطلاق هو الحق، وأكمل مظهر للحق هو الإنسان الكامل. والإنسان الكامل عند ابن عربي هو الإنسان الذي تجلى فيه الحق، أكمل تجل وأعظمه، ولا يصدق هذا إلا على الأنبياء والأولياء. وأكمل هؤلاء جميعا هو محمد ﷺ. ولا يقصد ابن عربي بذلك شخص الرسول ﷺ بل يقصد به الحقيقة المحمدية الأزلية القديمة التي تعتبر الروح التي ظهرت في الأنبياء والأولياء، أو التي كان الأنبياء والأولياء صورا لها ولذلك يسميها بالروح المحمدي أو روح الخاتم (خاتم الرسل). فالحقيقة المحمدية- في نظر ابن عربي - هي أكمل مجلى خلقي ظهر

=

=

فيه الحق، بل يعتبرها الإنسان الكامل والخليفة الكامل بأخص معانيه. وكمال الشيء عنده متوقف على عدد الأسماء والصفات الإلهية المتجلية فيه، فإذا كان كل واحد من الموجودات يعتبر مجلى خاصا لبعض الأسماء الإلهية التي هي أرباب له، فإن محمدا ﷺ - عند ابن عربي - قد انفرد بأنه مجلى للاسم الأعظم الجامع لجميع تلك الأسماء، وهو الله. ولهذا كانت له مرتبة الجمعية المطلقة (جمع كمالات الأسماء والصفات) ومرتبة التعين (التجلي) الأول الذي تعينت به الذات الأحدية.

ومعنى ذلك أن الحقيقة المحمدية هي أول شيء تجلى فيه الحق وظهر، وإن شئت قلت إنها هي الحق ذاته ظاهرا لنفسه في أول تعين من تعيناته في صورة العقل الحاوي لكل شيء، المتجلي في كل كائن عاقل. ولذلك يعرف غلاة الصوفية الحقيقة المحمدية بأنها (هي الذات مع التعين الأول، وهو الاسم الأعظم). هذا هو مقصود ابن عربي ومن أتى بعده بالحقيقة المحمدية أو الروح المحمدي وهي شيء مختلف عندهم تماما عن شخصية النبي ﷺ بل ليس بينهما من الصلة على كما بين الحقيقة المحمدية وأي نبي من الأنبياء أو رسول من الرسل أو ولي من الأولياء. يقول ابن عربي في إحدى صلواته: (اللهم أفض صلة صلواتك وسلامة تسليماتك على أول التعينات المفاضة من العماء الرباني وآخر التنزلات المضافة إلى النوع الإنساني، المهاجر من مكة " كان الله ولم يكن مع شيء ثان " إلى مدينة " وهو الآن على ما عليه كان " محصي عوالم الحضرات الإلهية الخمس في وجوده، {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} نقطة البسملة الجامعة لما يكون ولما كان، ونقطة الأمر الجوالة بدوائر الأكوان، سر الهوية التي في كل شيء سارية، وعن كل شيء مجردة وعارية.. كلمة الاسم الأعظم، وفاتحة الكنز المطلسم، المظهر الاسم الجامع بين العبودية والربوبية... والنفس الرحماني الساري بمواد الكلمات التامات، الفيض الأقدس الذاتي الذي تعينت به الأعيان واستعداداتها، والفيض المقدس الصفاتي الذي تكونت به الأكوان واستمداداتها، مطلع شمس الذات في سماء الأسماء والصفات ومنبع الإفاضات في رياض النسب والإضافات، خط الوحدة بين قوسي الأحدية والواحدية... ومركز إحاطة الباطن والظاهر.... اللهم يا رب يا من ليس حجابه إلا النور، ولا خفاؤه إلا شدة الظهور، أسألك بك... أن تصلي على سيدنا محمد صلاة تكحل بها بصيرتي بالنور المرشوش في الأزل لأشهد فناء ما لم يكن وبقاء ما لم يزل، وأرى الأشياء كما هي في أصلها معدومة مفقودة، وكونها لم تشم

=

=

رائحة الوجود فضلا عن كونها موجودة).

ويتضح من هذا النص كفر ابن عربي وغلوه في الحقيقة المحمدية حتى جعلها مساوية للحقيقة الإلهية. ويبدو هذا واضحا في عباراته السابقة التي منها:

- المهاجر من مكة كان الله ولم يكن معه شيء ثان. أي أن المهاجر من مكة وهو الرسول ﷺ، كان الله.

- كلمة الاسم الأعظم (الله.).

- الفيض الأقدس الذاتي الذي تعينت به الأعيان واستعداداتها ومعنى ذلك أن الموجودات تعينت وتحددت بفيضه عليها.

ثم يتجلى لنا مدى خبثه في لي النصوص وتأويلها لخدمة مذهبه الزائغ. عندما يقول ابن عربي في رسالة شجرة الكون: "لما قبض الله آدم من قبضة تراب (كن) مس على- ظهره حتى يميز الخبيث من الطيب فاستخرج من ظهره من كان من أصحاب اليمين ومن كان من أصحاب الشمال. ثم اعتصر من شجرة (كن) صفوة عنصرها، ومخضها حتى بدت زبدتها، ثم صفاها وألقى عليها من نور هدايته، حتى ظهر جوهرها ثم غمسها في بحر الرحمة، ثم خلق منها نور نبينا محمد ﷺ، ثم زينه بنور الملأ الأعلى حتى أضاء وعلا، ثم جعل ذلك النور أصلا لكل نور، فهو أولهم في السطور وآخرهم في الظهور".

وواضح أن ابن عربي هنا قد صاغ هذه الفكرة بأسلوب صوفي بعيد عن التركيب الفلسفي الذي نراه في كتبه وبالأخص فصوص الحكم والفتوحات المكية، وهو في هذا متأثر بسلفه الحلاج حيث قال: "أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم، همته سبقت الهمم، ووجوده سبق العدم واسمه سبق القلم لأنه كان قبل الأمم". هذا هو مفهوم الحقيقة المحمدية عند ابن عربي فما هي خصائصها وما علاقتها بالعالم المادي والروحي كما للحقيقة المحمدية- عند ابن عربي - عدة وظائف في العالم المادي والروحي فمن ناحية صلتها بالعالم المادي تعتبر مبدأ خلق العالم إذ هي النور الذي خلقه الله قبل كل شيء وخلق منه كل شيء، كما يقول ابن عربي (بدء الخلق الهباء وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية).، ويقول (أنه سبحانه تجلى بنوره إلى " ذلك الهباء... فقبل منه تعالى كل شيء في ذلك الهباء وعلى حسب قوته واستعداده كما تقبل زوايا البيت نور السراج، وعلى قدر قربه من ذلك النور يشتد ضوؤه وقبوله. قال تعالى:

=

=

{مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} فشبه نوره بالمصباح فلم يكن أقرب إليه قبولا في ذلك الهباء إلا حقيقة محمد ﷺ المسماة بالعقل فكان سيد العالم بأسره، وأول ظاهر في الوجود، فكان وجوده من ذلك النور الأزلي ومن الهباء ومن الحقيقة الكلية وفي الهباء وجد عينه، وعين العالم من تجليه وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب. وأسرار الأنبياء أجمعين.، ومن ناحية صلتها بالإنسان يعتبرها ابن عربي صورة كاملة للإنسان الكامل الذي يجمع في نفسه جميع حقائق الوجود ولذلك يسميها آدم الحقيقي والحقيقة الإنسانية. أما من ناحية صلتها بالعالم الروحي فيعتبرها مصدر كل وحي وإلهام وكشف للأنبياء والأولياء على السواء فهي منبع الوحي والعلم الباطني، والأصل الذي يأخذ عنه الأنبياء والأولياء. يقول ابن عربي: "فكل نبي من لدن آدم إلى آخر نبي ما منهم من أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين، وإن تأخر وجود طينته فإنه بحقيقته موجود، وهو قوله ﷺ: "كنت نبيا وآدم بين الماء والطين!. وغيره من الأنبياء ما كان نبيا إلا حين بعث". وبذلك تكون الحقيقة المحمدية مشابهة للقطب أو الإمام المعصوم لدى الشيعة الإسماعيلية الذي يتجلى في كل زمان في صورة قطب ذلك الزمان. هذا هو مقصود ابن عربي ومن أتى بعده بالحقيقة المحمدية. وقد تأثر ابن عربي بمن سبقه من المتصوفة لاسيما الحلاج في قوله بقدم النور المحمدي، كما أنه استفاد من كل ما سبقه من فلسفات يونانية وهندية، ومصرية وعقائد يهودية ونصرانية. كما كان لعقائد الشيعة والباطنية وتأويلاتهم لنصوص الشرع، وآرائهم الهدامة نصيب كبير في فكر ابن عربي. كما سبق أن بينا ذلك ولكن ابن عربي حاول أن يصبغ مذهبه في الحقيقة المحمدية بصبغة إسلامية باحثا له عن أسس يعتمد عليها. من تأويل لآيات القرآن ونصوص الحديث، ومن أكثر ما يستدل به الأحاديث الواردة في قدم ذات النبي ﷺ مثل حديث: مثل حديث: "كنت نبيا وآدم بين الماء والطين " ويروى: "كنت نبيا ولا آدم ولا ماء ولا طين " ومنها حديث كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث فبدأ بي قبلهم". ومنها حديث النور المنسوب إلى مصنف عبد الرزاق عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء؟ كما قال النبي – ﷺ: "إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور في القدر حيث شاء الله، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم، ولا جنة ولا نار، ولا ملك، ولا سماء، ولا أرض، ولا شمس، ولا قمر، ولا جني، ولا إنسي، فلما أراد أن

=

=

يخلق الخلق، قسم ذلك النور أربعة أجزاء:
١ - فخلق من الجزء الأول: القلم.
٢ - ومن الثاني: اللوح.
٣ - ومن الثالث: الجنة والنار.
٤ - ثم قسم الرابع أربعة أجزاء:
(أ) فخلق من الأول: نور أبصار المؤمنين.
(ب) ومن الثاني: نور قلوبهم - وهو المعرفة بالله.
(ب) ومن الثالث: نور أنسهم - وهو التوحيد - لا إله إلا الله، محمد رسول الله... الحديث".. ومما يسوقه الصوفية في هذا الباب ويعدونه حديثا قولهم: "إن الله تبارك وتعالى خلق نور محمد ﷺ قبل خلق آدم بألفي عام وجعله في عمود أمام عرشه يسبح الله ويقدسه ثم خلق آدم - عليه الصلاة والسلام - من نور محمد ﷺ وخلق نور النبيين - عليهم الصلاة والسلام - من نور آدم - عليه الصلاة والسلام -".. وما ذكروه ليس حديثا إنما هو مجرد قول توارثوه وليس هناك ما يدل على ثبوته فلا أصل له.
مناقشة ابن عربي في الحقيقة المحمدية: يريد ابن عربي من وراء استدلاله بالأحاديث السابقة أن يقرر أن النبي ﷺ كان موجودا بحقيقته قبل الخلق وأن نوره هو مبدأ الخلق ومادته ليقوى بذلك نظريته في الحقيقة المحمدية، يقول ابن عربي: "فكل نبي من لدن آدم إلى آخر نبي ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين، وإن تأخر وجود طينته فإنه بحقيقته موجود وهو قوله - ﷺ: "كنت نبيا وآدم بين الماء والطين " وغيره من الأنبياء ما كان نبيا إلا حين بعث " وهذا كلام باطل فإن الأنبياء لا يأخذ أحد منهم عن آخر إلا من كان مأمورا باتباع شريعته كأنبياء بني إسرائيل الذين أمروا باتباع التوراة كما قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} ....). الآية. وأما إبراهيم وموسى وعيسى فلم يأخذ أحدهم عن الآخر كما لم يأخذوا عن محمد، ﷺ، وإن بشروا به وآمنوا به كما قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ} ...). الآية.
قال على بن أبي طالب وابن عباس - رضي الله عنهما: (ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته

=

=

لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه) واعتقاد ابن عربي أن النبي ﷺ كان بحقيقته موجودا استنادا إلى حديث " كنت نبيا وآدم بين الماء والطين " اعتقاد باطل لبطلان هذا الحديث وعدم صحته وثبوته وعلى فرض صحته فإنه لا يؤدى إلى نفس المعنى لأن الأشياء لا تكون موجودة بحقائقها إلا حين توجد، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم ولم تكن حقيقته ﷺ موجودة قبل أن يخلق إلا ما كانت حقيقة غيره بمعنى أن الله علمها وقدرها. لكن كان ظهور خبره واسمه مشهورا أعظم من غيره، فإنه كان مكتوبا في التوراة والإنجيل وقبل ذلك.، كما روى الإمام أحمد في مسنده عن العرباض ابن سارية، عن النبي ﷺ قال: «إني عبد الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وأن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم»... وحديث ميسرة الفجر: «قلت يا رسول الله، متى كنت نبيا؟ وفي لفظ متى كتبت نبيا؟ قال: "وآدم بين الروح والجسد» قال ابن تيمية: (ولهذا يغلط كثير من الناس في قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه ميسرة قال: «قلت يا رسول الله متى كنت نبيا؟ وفي رواية - متى كتبت نبيا؟ قال: وآدم بين الروح والجسد». فيظنون أن ذاته ونبوته وجدت حينئذ، وهذا جهل فإن الله إنما نبأه على رأس أربعين من عمره وقد قال له: (.. {بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} .... ومن قال أن النبي ﷺ كان نبيا قبل أن يوحى إليه فهو كافر باتفاق المسلمين، وإنما المعنى أن الله كتب نبوته فأظهرها وأعلنها بعد خلق جسد آدم وقبل نفخ الروح فيه، كما أخبر أنه يكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته بعد خلق جسده، وقبل نفخ الروح فيه.... وكثير من الجهال المصنفين وغيرهم يرويه " كنت نبيا وآدم بين الماء والطين " " وآدم لا ماء ولا طين " ويجعلون ذلك وجوده بعينه وآدم لم يكن بين الماء والطين بل الماء بعض الطين لا مقابله".. وإذا ثبت بطلان كون الرسول ﷺ موجودا بحقيقته قبل خلق السماوات والأرض فقد انهدم أكبر أساس بنى عليه ابن عربي نظريته في الحقيقة المحمدية. ثم إن قوله إن الحقيقة المحمدية هي أكبر مظهر تجلى فيه الإله أو أنها هي الله متعينا في أول تعيناته قول لا دليل عليه - فوق أنه كفر - بل الدليل قائم على بطلانه عقلا وشرعا لأن الخالق غير المخلوق، ولو قلنا بأن الخالق هو المخلوق لما كان هناك خلق أصلا. وهو الذي يؤمن به ابن عربي إذ حاصل

=

العالم، ومنه استُمِد كلُّ علم وعرفان حيث أمد السابقين من الأنبياء عليه).

وهذا المعنى فَتَح باب الزندقة لمن أتى بعدهما حتى قال أحمد التجاني الفاسي مدعيًا أنه: ترقبًا أن يوضع له منبر يوم القيامة في المحشر وينادي مناد أيها الناس هذا الذي كان مُمدكم في الدنيا من أولها إلى النفخ في الصور. وانظر الكلمة وسببها في (الإفادة الأحمدية). للطبيب السفياني.

وقال البوصيري -البيت الثالث-:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم   واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم[(١)].

=

كلامه إنكار الخلق والقول بقدم العالم، وقوله عن الحقيقة المحمدية بأنها مبدأ خلق العالم وسبب وجوده. قول مصادم للنصوص الشرعية التي بينت أن مبدأ خلق العالم هو الماء والعرش كما في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} . الآية. وقوله - ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء»...". الحديث. كما بين القرآن أن الغاية من الخلق هي أن يعبد الله بما شرع، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} وقول ابن عربي بأن الحقيقة المحمدية هي التي أمدت الأنبياء والأولياء بالعلم الباطن قول ينفي الوحي والنبوة والرسالة، إذ النبوة والرسالة متوقفة على الوحي الذي نزل به الملك على كل نبي. والنتيجة التي يريد ابن عربي أن يصل إليها هي الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. واتخذ ابن عربي في سبيل تحقيق ذلك. الغلو في الرسول ﷺ بدرجة مساواته بالله ﷻ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.اهـ. انظر كتاب محبة الرسول بين الاتباع والابتداع (ص٢٢٧ وما بعده).

(١) قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن منتقدًا هذا البيت: (ومن المعلوم أن أنواع الغلو كثيرة، والشرك بحر لا ساحل له، ولا ينحصر في قول النصارى، لأن الأمم أشركوا قبلهم بعبادة الأوثان وأهل الجاهلية كذلك، وليس فيهم من قال في إلهه ما قالت النصارى في المسيح -غالبًا-: إنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، بل كلهم معترفون أن آلهتهم ملك لله، لكن عبدوها معه لاعتقادهم أنها تشفع لهم أو تنفعهم فيحتج الجهلة المفتونون بهذه

=

=
الأبيات على أن قوله في منظومته: (دَعَ ما ادعته النصارى في نبيهم) مَخْلَص من الغلو بهذا البيت، وهو قد فتح ببيته هذا باب الغلو والشرك لاعتقاده بجهله أن الغلو مقصور على هذه الأقوال الثلاثة)-(الدرر السنية) (٩/ ٤٨/ ٨١) و(صيانة الإنسان من وسوسة الشيخ دحلان/ ص:٨٨)-قال أبو عاصم: قال محمد رشيد رضا في حاشية (الصيانة): (هذه مسألة أخطأ فيها كثير من الناس، زعموا أنه لا يحظر من تعظيم النبي ﷺ إلا وصفه بالربوبية والألوهية كما قال البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

وفي معناه:

دعوا مقال النصارى في نبيهم يا مادحيه، ومهما شئتم قولوا

والحق أن التعظيم غير المشروع نوعان: أحدهما كفر وهو ما يختص بالله تعالى، ومنه الدعاء والاستغاثة في الشدائد. والآخر معصية كالكذب واختراع الآيات والمعجزات غير المروية بالأسانيد القوية وهو كثير)-لقد وقع البوصيري وأمثاله من الغلاة في لبس ومغالطة لمعنى حديث البخاري (رقم:٣٤٤٥) (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم). فزعموا أن الإطراء المنهي عنه في هذا الحديث هو الإطراء المماثل لإطراء النصارى ابن مريم وما عدا ذلك فهو سائغ مقبول، مع أن آخر الحديث يردّ قولهم، فإن قوله ﷺ: (إنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله). تقرير للوسطية تجاه رسول الله ﷺ، فهو عبد لا يعبد، ورسول لا يكذب، والمبالغة في مدحه تؤول إلى ما وقع فيه النصارى من الغلو في عيسى ﷺ وبهذا يُعلم أن حرف الكاف في قوله ﷺ: (كما أطرت) هي كاف التعليل، أي كما بالغت النصارى. ويقول ابن الجوزية في شرحه لهذا الحديث-: (لا يلزم من النهي عن الشيء وقوعه، لأنا لا نعلم أحدًا ادعى في نبينا ما ادعته النصارى في عيسى ﷺ وإنما سبب النهي فيما يظهر ما وقع في حديث معاذ بن جبل لماّ استأذن في السجود له فامتنع ونهاه، فكأنه خشي أن يبالغ غيره بما هو فوق ذلك فبادر إلى النهي تأكيدًا للأمر). ومن شاء الزيادة على ما ذكرنا فعليه بالكتب التالية: (فتح الباري) (١٢/ ١٤٩) و(القول المفيد) (١/ ٣٧٦). للعثيمين و(مفاهيمنا) لصالح آل الشيخ (ص:٢٣٦)، و(محبة الرسول) (ص:٢٠٨)، من (القوادح) (ص:١٩٣/ ١٩٤). وللزيادة انظر: (ديوان البوصيري) (ص:٣٠/ ٣١/ ٣٢/ ٣٣/ ٣٤/ ٣٥/ ٣٦).

وهذا البيت سمعت من كثير من شيوخنا أنه يرفع تهمة الغلو عن البوصيري وقد راجعت بعضهم بأنه يفتح الباب للغلو، وذلك لأن الأمر ليس مقصورًا على ادعاء الألوهية بل هناك من صور الغلو ما وقع فيه الصوفية، وقد قال ﷺ: (لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ). رواه البخاري، وهذا مثال من الغلو الصوفي دون دعوى الإلهية وهو زعمهم أنه ﷺ كان يعلم الغيب. وزادوا أنه كان يعلم حتى الخمسة التي استأثر الله بها كما قال: (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) لقمان، الآية: (٣٤)، وقال عليه الصلاة والسلام كما عند البخاري ومسلم (في خمس لا يعلمهن إلا الله) وليت الأمر وقف عند هذا الحد فقد زعم عبد العزيز بن الصديق الغماري في مقدمة كتابه: الأربعون العزيزية بعد أن قرر أن هذا ليس خاصًا بالنبي ﷺ بل كان الأقطاب[1]، من أمته يعلمون الخمس أيضًا.

---

(١) قال أحمد التجاني عن القطبانية -كما في (جواهر المعاني)-: (وهي الخلافة العظمى عن الحق مطلقًا في جميع الوجود جملة وتفصيلًا، حيثما كان الرب إلهًا كان هو خليفة في تصريف الحكم وتنفيذه في كل من عليه ألوهية الله تعالى ثم قيامه بالبرزخية العظمى بين الحق والخلق، فلا يصل إلى الخلق شيء كائنًا من كان من الحق إلا بحكم القطب وتوليه ونيابته عن الحق في ذلك وتوصيل كل قسمة إلى محلها ثم قيامه في الوجود بروحانيته في كل ذرة من ذرات الوجود جملة وتفصيلًا). هذا كلام كبار الصوفية في القطبانية واحكم -أخي- بما شئت فيه واحتكم. وثالثة الأثافي ما قاله عبد الرحمن الفاسي:

الغوث واحد بمكة انتمى ... مقامات أعلى مقامة السما

والنجبا عينٌ بمصر نسبوا ... والبدلا ميم بشام ذهبوا

والنقبا سين بمغرب أتوا ... رجالهم إلى العراق يا رووا

وفي الأقاليم أقطاب سبعة ... وفي الجوانب أوتاد أربعة

فأصنام الصوفية على هذا تفوق أصنام كفار قريش، فأصنام قريش (٣٦٠) صنمًا، =

البيت الرابع:

لو ناسبت قدرَه آياتُه عِظَمًا أحيى اسمُه حين يُدعى دارس الرمم

يعني أن آياته أي: معجزاته أقل وأحط من قدره، ولو كانت تناسبه لكان اسمه إذا دعاه الداعي- يحيي العظام وهي رميم، وهذا غلو قبيح فإن من آياته ومعجزاته ﷺ القرآن العظيم وكيف يحل لمسلم أن يقول: إن القرآن لا يناسب قدر النبي ﷺ، وهذه أسماء الله الحسنى وعلى رأسها اسمه الأعظم إذا دعا بها الداعي لا تحيي دارس الرمم، لأن لذلك موعدًا لن تخلفه.

ثم قال-البيت الخامس-:

لا طيبَ يعدل تربًا مسّ أعظمَه طوبى لمتنشِقٍ منه وملتَثِم

فقد جعل طيب تراب قبره عليه الصلاة والسلام أفضل من جميع الطيوب، حتى طيب تراب الجنان، لأن (لا) لنفي الجنس، وهذا ما حدا ببعضهم إلى التصريح بأن القبر النبوي أفضل بقعة عند الله فهي أفضل من الكعبة ومن الجنة ومن كل بقعة، بل صرح الرفاعية، والنقشبندية أن قبره عليه السلام أفضل من العرش... وقد اتفق أئمة السلف الصالح أنه لا يمس قبره ﷺ ولا يُقبَّل، حكى الإجماع ابن تيمية في الرد على الأخنائي[1].

=

وأصنام الصوفية (٤٣١) صنمًا. وإليكم العملية الحسابية: فالنجباء عددهم (٧٠)، وهو المشار إليه برمز: (عَيْنٌ) وهم في مصر. والبدلا عددهم (٤٠) وهو المشار إليه برمز: (ميمٌ) وهم في الشام. والنقباء عددهم (٣٠٠) وهو المشار إليه برمز: (سينٌ)، وهم في المغرب. والرجال عددهم وهو المشار إليه برمز: (يا) وهم في العراق. والأقطاب عددهم. وهو المشار إليه بقوله: (وفي الأقاليم أقطاب سبعة). والأوتاد عددهم. وهو المشار إليه بقوله: (وفي الجوانب أوتاد أربعة).

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في القاعدة الجليلة، في التوسل والوسيلة (ص:٣١٧): (إن

=

=

الذين يدعون الأنبياء والصالحين بعد موتهم، عند قبورهم، وغير قبورهم، من المشركين الذين يدعون غير الله، كالذين يدعون الكواكب، والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا. ثم ذكر الآيتين من سورة آل عمران رقم: (٧٩/ ٨٠). والآيتين من سورة الإسراء رقم: (٥٦/ ٥٧). وآيةً من سورة الزمر رقم:. وأخرى من سورة سبأ رقم: (٢٢). ومن سورة يونس رقم: (١٨) ثم قال: والسؤال ما الفرق بين صنيعهم وصنيع المشركين؟! ومثل هذا كثير في القرآن، ينهى أن يدعى غير الله، ولو كان من الملائكة، أو الأنبياء، أو غيرهم، فإن هذا شرك، بخلاف ما يطلب من أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة). وقد زعم الرضوي الرافضي أن الله أمرهم بالشرك وامتثلوا أمره: (أما طلب الشيعة من أصحاب القبور-عليهم السلام-أمورًا لا يقدر عليها إلا الله تعالى فليس هو إلا جعلهم وسائط بينهم وبين الله وشفعاء إليه في نجاحها امتثالًا لأمره تعالى). واسمعوا الخميني يبين معنى الشرك عند الروافض فيقول: (إن الشرك يتمثل في القول بإلهين أو في عبادة ربين أو عبادة وثن أو كوكب على أساس أن كلًا منهما إله أو صورة للإله-كشف أسراره ص:٨٦). وقبله قال: (طلب الحاجة من الحجر أو الصخر ليس شركًا-كشف أسراره ص:٤٩). وقال أيضًا: (إذا تم السجود على تراب أو قبر من أجل الله وإطاعة أمر الله فإن ذلك ليس كفرًا بل توحيد وتعبد للإله-كشف أسراره ص:٧٤). ثم لجأ إلى أقوال الفلاسفة وهم أضل خلق الله في باب الإلهيات ليجعله دليلًا على شركه فيقول: (واستنادًا إلى فلاسفة الروح القدامى فإن طلب الشفاعة من الإمام والنبي والذي يصبح بعد الموت كقطعة خشب أو حجر أو أي جماد آخر لن يعد مشركًا-كشف أسراره ص:٩٤). وزعموا أن جعفر بن محمد قال: (من زار قبر الحسين (ع) يوم عاشوراء عارفًا بحقه كان كمن زار الله في عرشه-ضياء الصالحين ص:١٤١). وقال شاعرهم:

هي الطفوف فطف سبعًا بمغناها فما لمكة معنىً مثل معناها
أرض ولكنها السبع الشداد لها دانت وطأطأ أعلاها لأدناها

انظر: (جريدة إسلام) الإيرانية ١٠/ محرم/ ١٣٦٦-عن هامش المنتقى لمحب الدين الخطيب ص:٥١). قال موسى بن جعفر (ع): (من زار قبر ولدي علي (ع) كان له سبعون حجة مبرورة قال الراوي: سبعين حجة مبرورة!!! قال: نعم، وسبعين ألف حجة ومن بات عند قبره كان كمن زار الله في عرشه-ضياء الصالحين للجوهرجي ص:٥٦٧). وفي (مفاتيح الجنان) (٢٧٥) للقمي في فضل زيارة الحسين في أول يوم من رمضان:

=

=

(ذهبت عنه ذنوبه وكان له ثواب الحجاج والمعتمرين في تلك السنة-وزاد في (ص:٤٨٣-: إن الله يخلق من عرق زوار قبر الحسين (ع) من كل قطرة سبعين ألف ملك يسبحون الله ويستغفرون له ولزوار قبر الحسين (ع) إلى أن تقوم الساعة. وفي ص:٥٦٧-قال الرضا: من زار قبري كتب له ألف حجة. فلما روي الحديث عند محمد المتقي (ع) قال: إي والله وألف ألف حجة لمن زاره عارفًا بحقه-وفي ص:٤٨٣/ أن جعفر بن محمد قال: من أتى قبر الحسين (ع) فتوضأ واغتسل من الفرات لم يرفع قدمًا إلا كتب الله له حجة وعمرة وكان كالمتشحط بدمه في سبيل الله وأجر ركعة عند قبره كأجر من حج ألف حجة وألف عمرة وعَتَقَ في سبيل الله ألف رقبة وكأنما وقف في سبيل الله ألف مرة مع نبي مرسل). وفيه (ص:٣٤٧): (من صلى قرب الزوال يوم الغدير-اليوم الذي يزعمون أن الرسول غ نصب عليًا فيه خليفة لكن غدر به الشيخان والصحابة كلهم-ركعتين كتب له ثواب مائة ألف حجة ومائة ألف عمرة ويوجب أن يقضي الله حوائج دنياه وأخراه في يسر وعافية). ونسبوا لجعفر ابن محمد أنه قال: (من مشى إلى قبر علي ابن أبي طالب (ع) كتب له بكل خطوة مائة ألف حسنة ومحي عنه مائة ألف سيئة ورفع له مائة ألف درجة وقضى له مائة ألف حاجة وكتب له ثواب كل صديق وشهيد مات أو قتل ورجع إلى أهله مغفور ذنبه مشكور سعيه ويكتب له ثواب كل من يزوره من الملائكة فقال الراوي: كل من يزوره من الملائكة!!!؟ قال: بلى يزوره كل ليلة سبعون قبيلة من الملائكة فقال:كم القبيلة؟ قال: مائة ألف ص:٤٢٣). وزعموا أنه قال: (من أحب أن يصافحه مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي فليزر قبر الحسين (ع) في النصف من شعبان فإن أرواح الأنبياء يستأذنون الله في زيارته فيؤذن لهم). وفي (مفاتيح الجنان ص:٥٥٨): (أن فاطمة وخديجة تركبان هودجين بين السماء والأرض ليلة الجمعة وتزوران قبر الحسين (ع) وقال علامتهم باقر المجلسي فيمن أراد أن يزور قبور الأئمة وهو بعيد عنهم: اغتسل ومثل بين يديك شبه القبر واكتب عليه اسمه الشريف ثم قف وتوجه بقلبك وقل الدعاء بطوله). وذكر مرتضى الحسني: (أن راهبًا رأى راكبًا قادمًا إلى الشام حاملًا رأس الحسين فطلب منهم الرأس قائلًا: يعز والله علي يا أبا عبد الله أن لا أواسيك بنفسي ولكن يا أبا عبد الله إذا لقيت جدك رسول الله فاشهد لي أني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وأن عليًا ولي الله قال: ونحت الراهب على هيئة الرأس-وهو يبكي-حتى أصبح

=

ثم قال البيت السادس:

فإن لي ذمة منه بتسميتي محمدًا وهو أوفى الخلق بالذّمَم.

والذمة العهد ولن يكون لأحد عهد ولا ذمة بمجرد التسمية، وإنما العهد والذمة تكون بالإيمان والطاعة وإلا فإن الملايين من أمته تسموا باسم محمد وفيهم فساق وملاحدة ومجرمون بلا شك، والسبب في نسج هذا البيت أحاديث وردت في فضل التسمية بمحمد وأحمد، والبوصيري جاهل بالحديث، فإن تلك الأحاديث موضوعة لا يصح منها شيء، كما نص عليه المؤلفون في الموضوعات.

ثم قال البيت السابع:

ما سامني الدهر ضيمًا واستجرتُ به إلا ونلت جوارًا منه لم يُضَم

قد ضم هذا البيت سب الدهر، وهو حرام، لحديث البخاري ومسلم (لا تسبوا الدهر)، والاستجارة بالنبي ﷺ وهي الاستعاذة، والاستغاثة لا تصرف لمخلوق[1]، ومن فعل فقد أشرك لقوله: (وإياك نستعين) ولحديث: (وإذا

=

الصباح وقد عثر على هذا النحت وهو الآن في المتحف الإيطالي وقد نسخ (محسن إيراني) عنه صورة كانت تعرض كل يوم عاشوراء في صحن مرقد الحسين الشريف لمدة ساعة واحدة). وأترك التعليق للقراء الكرام على هذه الأمور السمجة!! انتهى من كتابي: (كيف تفهم عقيدتك بدون معلم؟). (ص:١٠/ ١١/ ١٢).

(١) ومن أراد أن يعرف استغاثات البشر بالبشر فليرجع إلى كتب الصوفية الذين يعتقدون أن الغوث باستطاعته أن يعلم كل ما في هذا الكون، وباستطاعته أن يغير القدر الذي قدره الله في الأزل، وأنه يسمع كل من ناداه واستغاث به، ويفرج عنه كربه، وأن للغوث علمًا خاصًا يتلقاه عن الله ورسوله مباشرة، وأنه مطلع على ما هو مكتوب على أوراق الشجر والماء والهواء وما في البر والبحر وما هو مكتوب على صفحة قبة السماء وما في حياة الإنسان والجان مما يقع لهم في الدنيا والآخرة، وأن الله اصطفاه وأطلعه على ما يشاء

=

استعنت فاستعن بالله)[١].

=

من الغيب، واللائحة طويلة في كفرهم والحبل جرار ومن لم يصدق فعليه بكتاب: (الإبريز) (ص:٢٥٢/ ١٥٤). وما بعدها والكتاب كله يضم عقيدة وثنية خالصة.و(الإنسان الكامل والقطب الغوث الفرد من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي). لمحمود محمود العزب. و(تفريج الخاطر في مناقب تاج الأولياء وبرهان الأصفياء الشيخ عبد القادر الجيلاني). و(المواهب السرمدية في مناقب النقشبندية) لمحمد أمين الكردي. و(الرماح بهامش جواهر المعاني) (١/ ١٥٦). و(لطائف المنن) للشعراني (١/ ١٤٥). و(جمهرة الأولياء) (٢/ ٢٤٢). للمنوفي..انظر: (مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها السيء على الأمة الإسلامية) (١/ ٨٣/ إلى: ١٨٥).

(١) جزء من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعا (يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، رقم ٢٦٦٩) و(١/ ٣٠٧، رقم ٢٨٠٤)، والترمذي (٤/ ٦٦٧ رقم ٢٥١٦)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣، رقم ١١٢٤٣)، والضياء في المختارة (١٠/ ٢٣، رقم ١٣) والعقيلي في الضعفاء (٣/ ١٧٨) و(٣/ ٣٩٧)، وابن عدي في الكامل (٨/ ٣٣٠)، واللالكائي في شرح أصول السنة (٤/ ٦١٤)، وابن بطة (٢/ ٢٠٠)، والبيهقي في الإعتقاد (ص٥٨)، والخطيب (١٤/ ١٢٥) وغيرهم، والحديث قال عنه ابن عدي: غير محفوظ، وقال العقيلي: وهذا المتن يروى عن ابن عباس وغيره عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأسانيد لينة، وقال ابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ (٤/ ١٩٠٩) فيه نوفل بن سليمان يحدث بأحاديث غير محفوظة ويشبه أن يكون ضعيفا قاله ابن عدي، وخالفهم غيرهم فصححه الترمذي، وقال شيخ الإسلام في التوسل والوسيلة (٥٢) معروف مشهور، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٤٥٩) حسن جيد، وحسنه ابن حجر في موافقة الخبر الخبر (١/ ٣٢٧)، وقال السخاوي في المقاصد (١٨٨) حسن وله شاهد، وحسنه العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٦٦)،
=

ثم قال البيت الثامن:

ولا التمستُ غنى الدارين من يده إلا استَلَمْتُ النَّدَى من خير مستَلم

فها هو يطلب غنى الدنيا والآخرة من يده عليه السلام، وهذا مخالف لقوله تعالى: (وما بكم من نعمة فمن الله) وقوله: (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه)وأُمِرَ أن يتبرأ من دعوى علم الغيب، وأن عنده خزائن الله، وأنه ملك، (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي).

وقال عن البيت التاسع:

أقسمت بالقمر المنشق إن له من قلبه نسبةً مبرورةَ القَسَمِ

ففيه كما ترى الحلف بغير الله، وفي الحديث (مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوَ أَشْرَكَ)[1]، وهذا من الشرك الأصغر إن سلم البوصيري من الأكبر، ولا ينفع

=

وصححه العلامة الألباني في المشكاة (٥٢٣٢)، وصححه الشيخ شاكر في تحقيق المسند، وكذا صححه الأرنؤوط في تحقيق المسند، وصححه لغيره الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٦٩٩) وقال العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧): صحيح له شواهد.

(١) أخرجه الطيالسى (ص ٢ ٥٧، رقم ١٨٩٦)، وأحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٢)، والترمذى (٤/ ١١٠، رقم ١٥٣٥)، وأبو داود (٣/ ٢٢٣، رقم ٣٢٥١)، وأبو عوانة (٤/ ٤٤، رقم ٥٩٦٧)، وابن حبان (١٠/ ١٩٩، رقم ٤٣٥٨)، والحاكم (١/ ٦٥، رقم ٤٥)، والبيهقى (١٠/ ٢٩، رقم ١٩٦١٤)، والضياء (١/ ٣١٣، رقم ٢٠٥) والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه ابن القيم في أحكام أهل الذمة (٣/ ١٢٩٢)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٩/ ٤٥٨)، وصححه ابن كثير في مسند الفاروق (١/ ٤٣١)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وصححه العلامة ابن باز في

=

تأويل المتأولين بأن الكلام على حذف مضاف أي: أقسمت برب القمر، فإن هذا يجري في كل قَسَم، وهذا سخيف.

ثم قال عن البيت العاشر:

إن لم يكن في معادي آخذًا بيدي فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم

فقد جعل الرسول المدعو لكشف أعظم الشدائد يوم المعاد، وهذا كفر مجرد كما يقول ابن حزم، ودافع عبد الله بن الصديق عن البوصيري بأن مراده طلب الشفاعة، وفاته أنها لا تطلب إلا من الله وحده ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾.

ثم قال عن البيت الحادي عشر:

يَا أَكْرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العِمَم

وهذا دعاء لغير الله وتصريح بأنه لا مستعاذ له إلا النبي غ والعياذ بالله تعالى،

=

مجموع فتاواه (١/ ٤٥)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٧٣٤)، ثم عاد وقال في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (رقم٢٦٨): هذا الحديث إذا نظرت إلى سنده وجدتهم رجال الصحيح، ولكنه منقطع قال البيهقي (١٠ص٢٩): وهذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من بن عمر، أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أنبأ أحمد بن جعفر هو القطيعي ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن منصور عن سعد بن عبيدة قال: كنت عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقمت وتركت رجلا عنده من كندة فأتيت سعيد بن المسيب قال فجاء الكندي فزعا فقال جاء بن عمر رجل فقال احلف بالكعبة قال لا ولكن أحلف برب الكعبة فإن عمر كان يحلف بأبيه فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا تحلف بأبيك فإنه من حلف بغير الله فقد أشرك. وجاء بيان المجهول أنه محمد الكندي كما في "مسند أحمد" (ج٢ص٦٩) ومحمد الكندي ترجمته في "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم (ج٨ص١٣٢) وهو مجهول، قاله أبو حاتم.اهـ. وكذا قال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٩/ ٢٧٦، ٤٢٣)، (١٠/ ٢٤٩).

وهذا البيت كسابقه تأوله عبد الله الغماري بأن المراد (بالحادث العمم): اجتماع الناس في المحشر، ولِمَ لا يكون الحادث العمم هو الموت.

ثم قال عن البيت الثاني عشر:

ولن يَضيقَ رسولَ الله جاهُك بي   إذَا الكريمُ تَجَلَّى باسْم منتقِم

وهذا يصُبُّ في معنى التماس الشفاعة من غير الله، وهو منزع المشركين في دعواهم أنهم إنما يعبدون أصنامَهمْ لأنهم يتشفعون بهم إلى الله، والآيات في هذا كثيرة[١].

ثم قال عن البيت الثالث عشر:

فإن من جودك الدنيا وضرتها   ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا البيت قمة القِمَمِ في الضلال والسقوطِ، فالشطر الأول يخالف قوله

---

(١) قال محمود مهدي في كتابه: (كتب ليست من الإسلام) (ص:٢٥/ ٢٦): (ومما سبق ندرك أن هذا الشاعر لا يعرف أصلًا هامًا من أصول الشريعة، وهو الشفاعة، فيظنها كشفاعة الدنيا، فيشفع الرسول ﷺ عند الله تعالى، كما يشفع الوزير عند الملك دون إذنه. وهذه الشفاعة منفية يوم القيامة لقوله سبحانه: (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)، وقوله: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى). ويظن هذا الشاعر الجاهل أنه بمجرد مدح الرسول ينال شفاعته، وهذا مناف لأبسط مبادئ الإسلام. جاء في حديث رواه البخاري: (أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مخلصًا من قلبه). ولفظ البخاري: (خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ). وقال الشيخ سليمان بن عبد الله تعقيبًا على هذا البيت: (سؤاله منه أن يشفع له في قوله: ولن يضيق رسول الله الخ، هذا هو الذي أراده المشركون ممن عبدوهم وهو الجاه والشفاعة عند الله، وذلك هو الشرك، وأيضًا فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله فلا معنى لطلبها من غيره؛ فإن الله تعالى هو الذي يأذن للشافع أن يشفع لا أن الشافع يشفع ابتداء). انظر: (قوادح عقدية في بردة البوصيري) (ص:١٩٩). و(تيسير العزيز الحميد) (ص:٢٢٠). و(الدرر السنية) (٩/ ٥٢). و(البردة في الميزان) (ص:٩٤/ ٩٥).

تعالى: (وإِنَّ لَنَا للآخِرَةَ والأُولى)، والرسول كان يعطي الدنيا لمن يستحقها في الحياة ولا يدخر شيئًا وقد يَحْرِمُ من طلبها لسبب، أما الآخرة فهي لله وسبيل نيلها التوحيد والعمل الصالح بعد فضل الله تعالى.

أما الشطر الثاني فلا دواء له فهو داء عُضال حاول كثير من المتحذلقين والغلاة إيجاد مَخْرَج له ففشلوا فهو في غاية الوضوح، يدرك بأدنى تأمل، ومُفاده باختصار أن علوم الله سبحانه تعالى مما استأثر به وسطَّرَهُ القَلَم في اللوح المحفوظ، ومنه الغيوب كلها هي بعضُ علوم النبي غ وسواء جعلنا (من) تبعيضية، أو بيانية وهي أخف فإن المآل واحد، ولا شك أنه عليه الصلاة والسلام يتبرأ مما تضمنته هذه القصيدة الخبيثة التي تلتمس بركتها وتقرأ على الأموات للتخفيف عنهم، وهي إنما تزيدهم رجسًا وعذابًا إن كانوا يعلمون ولم يوصوا بتركها ومن غفلة المغاربة وكثيف جهلهم ولاسيما صوفيتهم أنهم يعطون أموالًا من تراث الميت لقرائها وهي بهذه المثابة.اهـ.

فالخلاصة أن القصيدة المذكورة قد اشتملت على كفر صريح، وقد تتابع العلماء من أهل السنة والجماعة على نقضها، ونقدها، وتبيين عوارها، وكشف زيغها ومخالفتها لاعتقاد أهل السنة والجماعة.

ومن كلام أهل العلم في نقض تلك الأبيات ونقدها ما يلي:

١- قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما الملك: فيأتي الكلام عليه؛ وذلك أن قوله: (مالك يوم الدين)، وفي القراءة الأخرى (ملك يوم الدين): فمعناه عند جميع المفسرين كلهم ما فسره الله به في قوله تعالى (وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين. يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله) الانفطار/ ١٧ - ١٩.

فمن عرف تفسير هذه الآية، وعرف تخصيص الملك بذلك اليوم، مع أنه سبحانه مالك كل شيء ذلك اليوم وغيره: عرف أن التخصيص لهذه المسألة الكبيرة العظيمة التي بسبب معرفتها دخل الجنة من دخلها، وسبب الجهل بها دخل النار من دخلها، فيالها من مسألة لو رحل الرجل فيها أكثر من عشرين سنة لم يوفها حقها، فأين هذا المعنى، والإيمان، بما صرح به القرآن، مع قوله ﷺ: (يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا): من قول صاحب البردة :

ولن يضيق رسول الله جاهك بي	**إذا الكريم تحلي باسم منتقم**
فإن لي ذمة منه بتسميتي	**محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم**
إن لم تكن في معادي آخذا بيدي	**فضلا وإلا فقل يا زلة القدم**

فليتأمل من نصح نفسه هذه الأبيات ومعناها، ومن فتن بها من العباد، وممن يدعى أنه من العلماء، واختاروا تلاوتها على تلاوة القرآن: هل يجتمع في قلب عبد التصديق بهذه الأبيات والتصديق بقوله: (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله)، وقوله: (يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا)؟! لا والله، لا والله، لا والله، إلا كما يجتمع في قلبه أن موسى صادق، وأن فرعون صادق، وأن محمدا صادق على الحق، وأن أبا جهل صادق على الحق، لا والله ما استويا، ولن يتلاقيا، حتى تشيب مفارق الغربان، فمن عرف هذه المسألة، وعرف البردة، ومن فتن بها عرف غربة الإسلام " انتهى. من تفسير سورة الفاتحة من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٥/ ١٣).

٢- قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من عبد الرحمن بن حسن وابنه عبد اللطيف إلى عبد الخالق الحفظي، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فقد بلغنا من نحو سنتين: اشتغالكم ببردة " البوصيري"، وفيها

من الشرك الأكبر ما لا يخفى، من ذلك قوله: "يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك " إلى آخر الأبيات، التي فيها طلب ثواب الدار الآخرة من النبي ﷺ وحده... وكونه ﷺ أفضل الأنبياء لا يلزم أن يختص دونهم بأمر نهى الله عنه عباده عموما، وخصوصا، بل هو مأمور أن ينهى عنه، ويتبرأ منه، كما تبرأ منه المسيح بن مريم في الآيات في آخر سورة المائدة، وكما تبرأت منه الملائكة في الآيات التي في سورة سبأ.

وأما اللياذ: فهو كالعياذ، سواء، فالعياذ لدفع الشر، واللياذ لجلب الخير، وحكى الإمام أحمد وغيره الإجماع على أنه لا يجوز العياذ إلا بالله، وأسمائه، وصفاته، وأما العياذ بغيره: فشرك، ولا فرق.

وأما قوله: "فإن من جودك الدنيا وضرتها ": فمناقض لما اختص به تعالى يوم القيامة من الملك في قوله: (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار)، وفي قوله تعالى في سورة الفاتحة: (مالك يوم الدين) وفي قوله تعالى: (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله)، وغير ذلك من الآيات لهذا المعنى، وقال غير ذلك في منظومته مما يستبشع من الشرك " انتهى من رسائل وفتاوى الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد عبد الوهاب" (١/ ٨٢).

٣- ذكر الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض الأبيات السابقة، ثم قال: "فتأمل ما في هذه الأبيات من الشرك.

منها: أنه نفى أن يكون له ملاذ إذا حلت به الحوادث، إلا النبي ﷺ، وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا هو.

الثاني: أنه دعاه، وناداه بالتضرع، وإظهار الفاقة، والاضطرار إليه، وسأل منه هذه المطالب التي لا تطلب إلا من الله، وذلك هو الشرك في الإلهية.

الثالث: سؤاله منه أن يشفع له في قوله: ولن يضيق رسول الله... البيت

وهذا هو الذي أراده المشركون ممن عبدوه، وهو الجاه، والشفاعة عند الله، وذلك هو الشرك، وأيضا: فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله، فلا معنى لطلبها من غيره؛ فإن الله تعالى هو الذي يأذن للشافع أن يشفع لا أن الشافع يشفع ابتداء.

الرابع: قوله: فإن لي ذمة... إلى آخره: كذب على الله وعلى رسوله ﷺ، فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة، لا بمجرد الاشتراك في الاسم مع الشرك، تناقض عظيم، وشرك ظاهر، فإنه طلب أولا أن لا يضيق به جاهه، ثم طلب هنا أن يأخذ بيده فضلا وإحسانا، وإلا فيا هلاكه.

فيقال كيف طلبت منه أولا الشفاعة، ثم طلبت منه أن يتفضل عليك، فإن كنت تقول إن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله: فكيف تدعو النبي ﷺ، وترجوه، وتسأله الشفاعة؟ فهلا سألتها من له الشفاعة جميعا، الذي له ملك السموات والأرض، الذي لا تكون الشفاعة إلا من بعد إذنه، فهذا يبطل عليك طلب الشفاعة من غير الله. وإن قلت: ما أريد إلا جاهه، وشفاعته، بإذن الله.

قيل: فكيف سألته أن يتفضل عليك ويأخذ بيدك في يوم الدين، فهذا مضاد لقوله تعالى: (وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدرك ما يوم الدين. يوم لا تملك نفس لنفس شيئا. والأمر يومئذ لله)، فكيف يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذا وهذا؟!.

وإن قلت: سألته أن يأخذ بيدي، ويتفضل علي بجاهه وشفاعته.

قيل: عاد الأمر إلى طلب الشفاعة من غير الله، وذلك هو محض الشرك.

الخامس: في هذه الأبيات من التبري من الخالق - تعالى وتقدس -

والاعتماد على المخلوق في حوادث الدنيا والآخرة ما لا يخفى على مؤمن، فأين هذا من قوله تعالى: (إياك نبعد وإياك نستعين) الفاتحة، وقوله تعالى: (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم)، وقوله: (وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا)، وقوله تعالى: (قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا. قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا. إلا بلاغا من الله ورسالاته).

فإن قيل: هو لم يسأله أن يتفضل عليه، وإنما أخبر أنه إن لم يدخل في عموم شفاعته فيا هلاكه.

قيل: المراد بذلك سؤاله، وطلب الفضل منه، كما دعاه أول مرة وأخبر أنه لا ملاذ له سواه، ثم صرح بسؤال الفضل والإحسان بصيغة الشرط والدعاء، والسؤال كما يكون بصيغة الطلب يكون بصيغة الشرط، كما قال نوح عليه السلام: (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) " انتهى من تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد " (١/ ١٨٧-١٨٩).

٤- وسئل الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: قرأت حديثا فما مدى صحته، وهو: (من كان اسمه محمدا فلا تضربه ولا تشتمه)؟.

فأجاب: "هذا الحديث مكذوب، وموضوع على الرسول صلى الله عليه وسلم، وليس لذلك أصل في السنة المطهرة، وهكذا قول من قال: "من سمى محمدا فإنه له ذمة من محمد، ويوشك أن يدخله بذلك الجنة "! وهكذا من قال: "من كان اسمه محمدا فإن بيته يكون لهم كذا وكذا"، فكل هذه الأخبار لا أساس لها من الصحة، فالاعتبار باتباع محمد، وليس باسمه صلى الله عليه وسلم، فكم ممن سمي محمدا وهو خبيث؛ لأنه لم يتبع محمدا، ولم ينقد لشريعته، فالأسماء لا تطهر الناس، وإنما

تطهرهم أعمالهم الصالحة وتقواهم لله جل وعلا، فمن تسمى بأحمد، أو بمحمد، أو بأبي القاسم، وهو كافر، أو فاسق: لم ينفعه ذلك، بل الواجب على العبد أن يتقي الله ويعمل بطاعة الله، ويلتزم بشريعة الله التي بعث بها نبيه محمدا، فهذا هو الذي ينفعه، وهو طريق النجاة والسلامة، أما مجرد الأسماء من دون عمل بالشرع المطهر: فلا يتعلق به نجاة، ولا عقاب.

ولقد أخطأ البوصيري في " بردته " حيث قال:

فإن لي ذمة منه بتسميتي محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

وأخطأ خطأ أكبر من ذلك بقوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن في معادي آخذا بيدي فضلا وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فجعل هذا المسكين لياذه في الآخرة بالرسول ﷺ دون الله ﷻ، وذكر أنه هالك إن لم يأخذ بيده، ونسي الله سبحانه الذي بيده الضر والنفع والعطاء والمنع، وهو الذي ينجي أولياءه، وأهل طاعته، وجعل الرسول ﷺ هو مالك الدنيا والآخرة، وأنها بعض جوده، وجعله يعلم الغيب، وأن من علومه علم ما في اللوح والقلم، وهذا كفر صريح، وغلو ليس فوقه غلو، نسأل الله العافية والسلامة، فإن كان مات على ذلك، ولم يتب: فقد مات على أقبح الكفر، والضلال، فالواجب على كل مسلم أن يحذر هذا الغلو، وألا يغتر بـ " البردة"، وصاحبها، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله " انتهى من فتاوى الشيخ ابن باز " (٦ / ٣٧٠، ٣٧١).

وقال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١٠/ ٨٢٠): يشير رحمه الله إلى

أبيات للبوصيري في البردة - القصيدة المشهورة - يقول فيها:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن في معادي آخذا بيدي ... فضلا وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا غاية الكفر والغلو، فلم يجعل لله شيئا، والنبي ﷺ شرفه بكونه عبد الله ورسوله، لا لمجرد كونه محمد بن عبد الله..اهـ.

وأقوال العلماء أكثر من هذا، ويوجد من الأبيات ما فيه مجال للنقد، لكننا اخترنا بعضا من `ذلك، وهو كاف في بيان المقصود، وهو التحذير من هذه القصيدة، وأنها احتوت على غلو ظاهر، وكفر وزندقة.

(باب مباحث الإيمان بالجنة والنار)

مسائل في الباب:

المسألة الأولى: الجنة هي دار الثواب لمن أطاع الله وموضعها عند سدرة المنتهى

قال تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى - عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى - عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَاوَى} [النجم: ١٣ - ١٥] والجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يحير العقل ويذهله، لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه. استمع إلى قوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال أبو هريرة (اقرؤوا إن شئتم فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

[السجدة:١٧])[1] وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا، فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافه حقير، لا يساوي شيئًا. ففي صحيح البخاري (٣٢٥٠) عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: ((موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها))، ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار في حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العظمى قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وقال: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢]، وقال أيضا ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء:١٣].

والجنة درجات، كما جاء في صحيح البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض». وأعلى الجنة الفردوس الأعلى وفوقه العرش ومنه تتفجر أنهار الجنة كما جاء في حديث أبي هريرة السابق عن النبي ﷺ قال: «فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة». وللجنة ثمانية أبواب كما جاء في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه في صحيح البخاري (٣٢٥٧) عن النبي ﷺ أنه قال: «في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون» وقد أعد الله لأهل الجنة فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤).

سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وأما النار فهي دار العقاب الأبدي للكافرين والمشركين والمنافقين النفاق الاعتقادي، ولمن شاء الله من عصاة الموحدين بقدر ذنوبهم ثم مآلهم إلى الجنة. كما قال تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨] (النساء: ٤٨) وموضعها في الأرض السابعة كذا نقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وللنار دركات بعضها أسفل من بعض، قال عبد الرحمن بن أسلم: (درجات الجنة تذهب علوا ودرجات النار تذهب سفولا، وأسفل الدركات هي دار المنافقين كما قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النساء: ١٤٥]، وللنار سبعة أبواب، قال تعالى: {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} [الحجر: ٤٤]، ونار الدنيا جزء من سبعين جزءا من نار جهنم على ما جاء في حديث أبي هريرة الذيَ أخرجه الشيخان البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٨٧١) عن النبي ﷺ قال: «ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم». والإيمان بالجنة والنار يتحقق بثلاثة أمور:

الأول: الاعتقاد الجازم بأنهما حق وأن الجنة دار المتقين والنار دار الكافرين والمنافقين. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [النساء: ٥٦ - ٥٧].

الثاني: اعتقاد وجودهما الآن، قال تعالى في الجنة. {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى في النار: {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٤]، وجاء في الصحيحين البخاري (٣٢٤١)، ومسلم (٢٧٣٨) من حديث عمران بن حصين

عن النبي ﷺ أنه قال: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»(١).

(١) قال الإمام ابن القيم في حادي الأرواح (ص١١): الباب الأول: في بيان وجود الجنة الآن، لم يزل أصحاب رسول الله والتابعون وتابعوهم وأهل السنة والحديث قاطبة وفقهاء الإسلام وأهل التصوف والزهد على اعتقاد ذلك وإثباته مستندين في ذلك إلى نصوص الكتاب والسنة وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم فإنهم دعوا الأمم إليها وأخبروا بها إلى أن نبغت نابغة من القدرية والمعتزلة فأنكرت أن تكون مخلوقة الآن وقالت بل الله ينشئها يوم القيامة وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة فيما يفعله الله وأنه ينبغي له أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا وقاسوه على خلقه في أفعالهم فهم مشبهة في الأفعال ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة في الصفات وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عبث فإنها تصير معطلة مددا متطاولة ليس فيها سكانها.

قالوا ومن المعلوم أن ملكا لو أتخذ دارا وأعد فيها ألوان الأطعمة والآلات والمصالح وعطلها من الناس ولم يمكنّهم من دخولها قرونا متطاولة لم يكن ما فعله واقعا على وجه الحكمة ووجد العقلاء سبيلا إلى الاعتراض عليه فحجروا على الرب تعالى بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وشبهوا أفعاله بأفعالهم وردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب أو حرفوها عن مواضعها وضللوا وبدعوا من خالفهم فيها والتزموا فيها لوازم أضحكوا عليهم فيها العقلاء، ولهذا يذكر السلف في عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان ويذكر من صنف في المقالات أن هذه مقالة أهل السنة والحديث قاطبة لا يختلفون... ثم قال الإمام في (٤٥): الباب السابع: في ذكر شبه من زعم أن الجنة لم تخلق بعد: قالوا لو كانت الجنة مخلوقة الآن لوجب اضطرار أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل ما فيها ويموت لقوله تعالى {هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ} و{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ} الْمَوْتِ فتموت الحور العين التي فيها والولدان وقد أخبر سبحانه أن الدار دار خلود ومن فيها مخلدون لا يموتون فيها وخبره سبحانه لا يجوز عليه خلف ولا نسخ

قالوا وقد روى الترمذي في جامعه من حديث ابن مسعود قال قال رسول الله:"لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال يا محمد أقريء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة =

=

التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر " قال هذا حديث حسن غريب

وفيه أيضا من حديث أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: "من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة" قال هذا حديث حسن صحيح، قالوا فلو كانت الجنة مخلوقة مفروغا منها لم تكن قيعانا ولم يكن لهذا الغرس معنى قالوا وقد قال تعالى عن امرأة فرعون إنها قالت: {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} ومحال أن يقول قائل لمن نسج له ثوبا أو بنى له بيتا أنسج لي ثوبا وابن لي بيتا وأصرح من هذا قول النبي ﷺ: "من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة" متفق عليه، وهذه جملة مركبة من شرط وجزاء تقتضي وقوع الجزاء بعد الشرط بإجماع أهل العربية وهذا ثابت عن النبي ﷺ من رواية عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وعمرو بن عنبسة قالوا وقد جاءت آثار بأن الملائكة تغرس فيها وتبني للعبد ما دام يعمل فإذا فتر فتر الملك عن العمل، قالوا وقد روى ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد في مسنده من حديث أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله: "إذا قبض الله ولد العبد قال يا ملك الموت قبضت ولد عبدي قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده قال نعم قال فما قال قال حمدك واسترجع قال ابنوا له بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد"، وفي المسند من حديثه أيضا قال قال رسول الله: "من صلى في يوم وليلة ثنتي عشرة ركعة سوى الفريضة بنى الله له بيتا في الجنة"، قالوا وليس هذا من أقوال أهل البدع والاعتزال كما زعمتم فهذا ابن مزين قد ذكر في تفسيره عن ابن نافع وهو من أئمة السنة أنه سئل عن الجنة أمخلوقة هي فقال: "السكوت عن هذا أفضل" والله أعلم.

الباب الثامن: في الجواب عما احتجت به هذه الطائفة: قد تقدم في الباب الأول من ذكر الأدلة الدالة على وجود الجنة الآن ما فيه كفاية فنقول ما تعنون بقولكم إن الجنة لم تخلق بعد أتريدون أنها الآن عدم محض لم تدخل إلى الوجود بعد بل هي بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور فهذا قول باطل يرده المعلوم بالضرورة من الأحاديث الصريحة الصحيحة التي تقدم بعضها وسيأتي بعضها وهذا قول لم يقله أحد من السلف ولا أهل السنة وهو باطل قطعا أم تريدون أنها لم تخلق بكمالها وجميع ما أعد الله فيها لأهلها وأنها لا يزال الله يحدث فيها شيئا بعد شيء وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أمورا أخر فهذا حق لا يمكن رده، وأدلتكم هذه إنما دلت على هذا القدر

=

=

وحديث ابن مسعود الذي ذكرتموه وحديث أبي الزبير عن جابر صريحان في أن أرضها مخلوقة وأن الذكر ينشيء الله سبحانه لقائله منه غراسا في تلك الأرض وكذا بناء البيوت فيها بالأعمال المذكورة والعبد كلما وسع في أعمال البر وسع له في الجنة وكلما عمل خيرا غرس له به هناك غراس وبنى له بناء وأنشئ له من عمله أنواع مما يتمتع به فهذا القدر لا يدل على أن الجنة لم تخلق بعد ولا يسوغ إطلاق ذلك، وأما احتجاجكم بقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَه} فإنما أتيتم من عدم فهمكم معنى الآية واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظيرا احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما فلا أنتم وفقتم لفهم معناها ولا إخوانكم وإنما وفق لفهم معناها السلف وأئمة الإسلام ونحن نذكر بعض كلامهم في الآية قال البخاري في صحيحه: "يقال كل شيء هالك إلا وجهه إلا ملكه ويقال إلا ما أريد به وجهه، وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله: "فأما السماء والأرض فقد زالتا لأن أهلهما صاروا إلى الجنة وإلى النار وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب لأنه سقف الجنة والله سبحانه وتعالى عليه فلا يهلك ولا يبيد"، وأما قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَه} فذلك أن الله سبحانه وتعالى أنزل {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} فقالت الملائكة هلك أهل الأرض وطمعوا في البقاء فأخبر الله تعالى عن أهل السموات وأهل الأرض أنهم يموتون فقال: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِك} يعني ميت إلا وجهه لأنه حي لا يموت فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت انتهى كلامه

وقال في رواية أبي العباس أحمد بن جعفر ابن يعقوب الاصطخري ذكره أبو الحسين في كتاب الطبقات قال قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل:"هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المتمسكين بعروتها المعروفين بها والمقتدى بهم فيها من لدن أصحاب نبينا ﷺ إلى يومنا هذا وأدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق"، وساق أقوالهم إلى أن قال: "وقد خلقت الجنة وما فيها وخلقت النار وما فيها وخلقهما الله ﷻ وخلق الخلق لهما ولا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبدا"، فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله ﷻ كل شيء هالك إلا وجهه وبنحو هذا من متشابه القرآن قيل له كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك وهما من الآخرة لا من الدنيا والحور العين لا يمتن عند قيام الساعة ولا عند النفخة ولا أبدا لأن

=

=

الله ﷻ خلقهن للبقاء لا للفناء ولم يكتب عليهن الموت فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع وقد ضل عن سواء السبيل وخلق سبع سموات بعضها فوق بعض وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام والماء فوق السماء العليا السابعة وعرش الرحمن ﷻ فوق الماء وأن الله ﷻ على العرش والكرسي موضع قدميه وهو يعلم ما في السموات والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى وما في قعر البحر ومنبت كل شعرة وشجرة وكل زرع وكل نبات ومسقط كل ورقة وعدد كل كلمة وعدد الحصا والتراب والرمل ومثاقيل الجبال وأعمال العباد وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم ويعلم كل شيء لا يخفى عليه من ذلك شيء وهو على العرش فوق السماء السابعة ودونه حجب من نار ونور وظلمة وما هو أعلم بها فإن احتج مبتدع ومخالف بقول الله ﷻ: {ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} وقوله {وهو معكم أينما كنتم} وقوله {إلا هو معهم أينما كانوا} وقوله {ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم} ونحو هذا من متشابه القرآن فقل إنما يعني بذلك العلم لأن الله ﷻ على العرش فوق السماء السابعة العليا يعلم ذلك كله وهو بائن من خلقه لا يخلو من علمه مكان، وقال في رواية أبي جعفر الطائي محمد بن عوف بن سفيان الحمصي قال الخلال حافظ إمام في زمانه معروف بالتقدم في العلم والمعرفة كان أحمد بن حنبل يعرف له ذلك ويقبل منه ويسأله عن الرجال من أهل بلده

قال أملى على أحمد بن حنبل فذكر رسالة في السنة ثم قال في أثنائها وأن الجنة والنار مخلوقتان قد خلقتا كما جاء الخبر قال النبي ﷺ "دخلت الجنة فرأيت فيها قصرا ورأيت الكوثر واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا...." فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب برسول الله ﷺ وبالقرآن كافر بالجنة والنار يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وقال في رواية عبندوس بن مالك العطار وذكر رسالة في السنة قال فيها والجنة والنار مخلوقتان قد خلقتا كما جاء عن رسول الله ﷺ " أطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا وأطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا"، فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب بالقرآن وأحاديث رسول الله ولا أحسبه يؤمن بالجنة والنار، فتأمل هذه الأبواب وما تضمنته من النقول والمباحث والنكت والفوائد التي لا تظفر بها في غير هذا الكتاب البتة ونحن اختصرنا الكلام في ذلك ولو بسطناه لقام منه سفر ضخم والله

=

الثالث: اعتقاد دوامهما وبقائهما وأنهما لا تفنيان ولا يفنى من فيهما. قال تعالى في الجنة: {خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ٨٩]، وقال تعالى عن النار: {وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [الجن: ٢٣]، والمقصود من المعصية هنا الكفر، لتأكيد الخلود في النار بالتأبيد، قال القرطبي قوله (أبدا) دليل على أن العصيان هنا هو الشرك. وروى الشيخان البخاري (٦٥٤٤)، ومسلم (٢٨٥٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الله أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت كل خالد فيما هو فيه» كتاب أصول الإيمان (ص٢٤٠).

المسألة الثانية: مكان الجنة والنار

المطلب الأول: مكان الجنة

ذكر في شرح لمعة الاعتقاد (ص١٣٢): أن مكان الجنة في أعلى عليين لقوله تعالى: (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين)، ولقوله ﷺ: في حديث البراء المشهور في قصة فتنة القبر: (.. فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض..)، وما ذكر فيه نظر، لأن عليين درجة من درجات الجنة كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أهل الجنة ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء إن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما)

وفي رواية الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما) فهذه الرواية فسرت الرواية التي قبلها، وبينت أن

=

المستعان وعليه التكلان وهو الموفق للصواب.

أهل عليين هم أهل الدرجات العلى، فعليين درجة من درجات الجنة، وليست هي مكان لجميع الجنة، والآية تدل على ذلك أيضا لأنه تعالى قال: (إن كتاب الأبرار لفي عليين) وأهل الجنة فيهم السابقون، وفيهم الأبرار المقتصدون، وفيهم الظالم لنفسه وكل له درجته.

والصحيح أن مكان الجنة فوق السماء السابعة وتحت عرش الرحمن، أما كونها فوق السماء السابعة فدل عليه القرآن، قال تعالى: (عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى)، وسدرة المنتهى فوق السماء السابعة كما في حديث الإسراء المشهور، وفيه: (ثم عرج إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد ﷺ قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من أمر الله ماغشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الله إلي ما أوحى ففرض علي خمسين صلاة..) أخرجه مسلم.

فهذا الحديث يدل على أن سدرة المنتهى بعد السماء السابعة، وبما أن الجنة عندها إذن فهي فوق السماء السابعة.

أما كون الجنة تحت عرش الرحمن فدل على ذلك السنة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها فقالوا يا رسول الله أفلا نبشر الناس قال إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم

الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة) أخرجه البخاري.

فأعلى درجات الجنة هي الفردوس - كما في الحديث - وفوقه عرش الرحمن، إذن فالجنة تحت عرشه سبحانه.

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١٧): وقد روينا في مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ (إنك دعوتني إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: "سبحان الله! فأين الليل إذا جاء النهار؟)[١].

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد (٣/ ٤٤١، رقم ١٥٦٩٣)، وأبو عبيد في الأموال (٦٢٥)، وحميد بن زنجويه في الأموال (٩٦١)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٦٦) والحديث قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٣٠): هذا حديث غريب وإسناده لا بأس به، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٣٤ - ٢٣٦): رواه عبد الله بن أحمد وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبد الله بن أحمد كذلك، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٣٦٨٦)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٤/ ٤١٩): حديث غريب، وإسناده ضعيف، لجهالة سعيد بن أبي راشد، فلم يرو عنه غير عبد الله بن عثمان بن خثيم، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان، وباقي رجاله عدا التنوخي رجال الصحيح، غير أن يحيى بن سليم- وهو الطائفي القرشي- وابن خثيم فيهما كلام ينزلهما عن رتبة الصحيح. إسحاق بن عيسى: هو ابن نجيح البغدادي ابن الطباع، والتنوخي كان كافرا حين لقي النبي ﷺ، ويضرب علماء الحديث هذا الحديث مثلا للمرسل المتصل، وهو فيمن لقي في حال كفره رسول الله ﷺ وسمع منه شيئا، ثم أسلم بعد وفاته، وحدث بما سمعه، فإنه مع كونه تابعيا محكوم لما سمعه بالاتصال لا الإرسال.اهـ.

قلت يغني حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! أرأيت (جنة عرضها السماوات والأرض) فأين النار؟ قال: أرأيت هذا الليل الذي قد كان ألبس عليك كل شيء أين جعل؟ فقال: الله أعلم، قال: فإن الله يفعل ما يشاء) قال العلامة الألباني في الصحيحة (٢٨٩٢): أخرجه إسحاق بن راهويه في مسند أبي هريرة =

=
(١ / ٣٩٩ / ٤٣٧)، وابن حبان في صحيحه (١ / ١٥٨ / ١٠٣) من طريق ابن راهويه وفيه بعض الأحرف قد حرفت فتصحح من هنا. وتوبع إسحاق، فقال البزار في مسنده (٣ / ٤٣ / ٢١٩٦) حدثنا محمد بن معمر حدثنا مغيرة بن سلمة أبو هشام حدثنا عبد الواحد بن زياد به. إلا أنه قال: "قال: حيث شاء الله، قال فكذلك النار حيث شاء الله". وتوبع البزار، فقال الحاكم (١ / ٣٦) أخبرني محمد بن عبد الله الجوهري - واللفظ له -: حدثنا محمد بن إسحاق: أنبأ محمد بن معمر بن ربعي القيسي: حدثنا أبو هشام المغيرة بن سلمة المخزومي به، إلا أنه قال: "قال: كذلك الله يفعل ما يشاء". وقد توبع المخزومي، فأخرجه الحاكم أيضا من طريق أبي النعمان محمد بن الفضل: حدثنا عبد الواحد بن زياد به وقال: "حديث صحيح على شرط الشيخين". ووافقه الذهبي. وأقول: إنما هو على شرط مسلم فقط، لأن عبد الله بن عبد الله الأصم لم يرو عنه البخاري، وهو ثقة كما قال ابن معين وغيره، وهو أخو عبيد الله بن عبد الله الأصم، وكلاهما ذكرهما ابن حبان في " الثقات " (٧ / ٣٦ و١٤٢)، أكبرهما عبد الله، وكلاهما يروي عن عمهما يزيد بن الأصم، وعن كل منهما عبد الواحد بن زياد كما في الجرح والتعديل وغيره، فكأنه لذلك اختلف الرواة أو المخرجون في راوي هذا الحديث هل هو عبد الله المكبر، أم عبيد الله المصغر؟ فوقع في مسند إسحاق ومستدرك الحاكم " مكبرا، ووقع في الإحسان وفي مسند البزار مصغرا، وكذا وقع في صحيح مسلم (٢ / ٥٩) وقد ساق له حديثا آخر فيما يقطع الصلاة، ساقه عن شيخه إسحاق بن راهويه بإسناده المذكور أعلاه، لكنه قال: "عبيد الله.."، ومن الغريب أن الحافظ ذكر القطع هذا في ترجمة عبد الله المكبر، وهو تابع في ذلك لأصله " تهذيب المزي " فإنه ساقه في ترجمته (١٥/ ١٦٤ - ١٦٥) بإسناده المذكور أعلاه! وعزاه لمسلم! وقد رأيته في مسند السراج (ق ٤٣ / ١) بإسناده هذا لكن وقع فيه: "عبيد الله " مصغرا! وهي نسخة جيدة، وكذلك هو في " مسنده " المطبوع (١ / ٣٢٨ / ٣١٤) ولكني أعتقد أنه خطأ من الناسخ لأن صورته في الأصل المخطوط هكذا: "عبد " هكذا بسن واحد للباء الموحدة بين العين والدال، وبجانب نقطة الباء ظهرت وسخة في المصورة نقطة أخرى عن يسار الأولى، ودونها وأكبر منها قليلا توهمها المحقق نقطتين! ولو كان صوابا لجعل لها ناسخ الأصل سنا أيضا هكذا " عبيد"، ويؤيد الوهم أن في مسند ابن راهويه قبل هذا وبعده حديثين آخرين بسندين آخرين عن عبد الله هذا عن عمه يزيد بن الأصم
=

وقد رواه ابن جرير فقال: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني مسلم بن خالد، عن أبي خثيم، عن سعيد بن أبي راشد، عن يعلى بن مرة قال: لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص، شيخا كبيرا فسد، قال: قدمت على رسول الله ﷺ بكتاب هرقل، فناول الصحيفة رجلا عن يساره. قال: قلت: من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا: معاوية. فإذا كتاب صاحبي: "إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: "سبحان الله! فأين الليل إذا جاء النهار؟".

وقال الأعمش، وسفيان الثوري، وشعبة، عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب، أن ناسا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب عن جنة عرضها السماوات

=

به. لكن أحدهما - وهو في أمر الأعمى أن يحضر صلاة الجماعة إذا سمع النداء - لكن الحديث في صحيح مسلم (٢ / ١٢٤) من طريق إسحاق وغيره، وفيه: "عبيد الله" مصغرا! وكذلك وقع في أبي عوانة (٢/ ٧) من طريق أخرى عن شيخ إسحاق مروان بن معاوية الفزاري عنه وبالجملة، فهذا اختلاف شديد في الراوي لهذه الأحاديث ومنها حديث الترجمة عن يزيد بن الأصم، حتى إنه ليلقى في البال لعله شخص واحد، اختلف الرواة في اسمه، فمنهم من يكبره، ومنهم من يصغره، وسواء كان هذا أو ذاك، فالمهم أنه ثقة من رجال مسلم، وقد صححه من سبق ذكرهم، ولاسيما وله شواهد كثيرة وهي وإن كانت جلها موقوفة، أخرجه ابن جرير في " تفسيره " (٤ / ٦٠) من حديث عمر بن الخطاب، وابن عباس، بسندين صحيحين عنهما - فإنها تدل على أن هذا الجواب منه ﷺ كان معروفا لديهم، على أنه قد روي مرفوعا في حديث التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ، وفيه قوله ﷺ: "سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار؟". أخرجه أحمد (٤ / ٤٤١ - ٤٤٢) وابن جرير بسند ضعيف، وقد تكلم عليه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على تفسير ابن جرير (٧ / ٢٠٩ - ٢١٠) وأطال النفس وأجاد، جزاه الله خيرا. وإن من فقه الحديث ما ترجم له ابن حبان بقوله: "ذكر الخبر الدال على إجابة العالم السائل بالأجوبة على سبيل التشبيه والمقايسة دون الفصل في القصة".

والأرض، فأين النار؟ فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أرأيتم إذا جاء الليل أين النهار؟ وإذا جاء النهار أين الليل؟ فقالوا: لقد نزعت مثلها من التوراة.

رواه ابن جرير من الثلاثة الطرق ثم قال: حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا جعفر بن برقان، أنبأنا يزيد بن الأصم: أن رجلا من أهل الكتاب قال: يقولون: {جنة عرضها السماوات والأرض} فأين النار؟ فقال ابن عباس: أين يكون الليل إذا جاء النهار، وأين يكون النهار إذا جاء الليل؟.

وقد روي هذا مرفوعا، فقال البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا المغيرة بن سلمة أبو هشام، حدثنا عبد الواحد بن زياد، عن عبيد الله بن عبد الله بن الأصم، عن عمه يزيد بن الأصم، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أرأيت قوله تعالى: {جنة عرضها السماوات والأرض} فأين النار؟ قال: "أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء، فأين النهار؟" قال: حيث شاء الله. قال: "وكذلك النار تكون حيث شاء الله عَزَّ وَجَلَّ".

وهذا يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك: أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا أظهر كما تقدم في حديث أبي هريرة، عند البزار.

الثاني: أن يكون المعنى: أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السماوات تحت العرش، وعرضها كما قال الله، عَزَّ وَجَلَّ: {كعرض السماء والأرض} [الحديد:٢١] والنار في أسفل سافلين. فلا تنافي بين كونها كعرض السماوات والأرض، وبين وجود النار، والله أعلم.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٤٩): إذا كانت الجنة عرضها كعرض السماوات والأرض، فأين تكون النار في هذا الكون الذي ليس فيه إلا السماوات والأرض؟.

فأجاب: قبل الجواب على هذا يجب أن نقدم مقدمة، وهي أن ما جاء في كتاب الله، وما صح عن رسوله ﷺ فإنه حق، ولا يمكن أن يخالف الأمر الواقع، فإن الأمر الواقع المحسوس لا يمكن إنكاره، وما دل عليه الكتاب والسنة فإنه حق لا يمكن إنكاره، ولا يمكن تعارض حقين على وجه لا يمكن الجمع بينهما، وقد ثبت في القرآن أن الجنة عرضها كعرض السماء والأرض، قال الله تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}. وفي الآية الأخرى: {عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}، وهذا حق بلا ريب.

وفي مسند الإمام أحمد: «أن هرقل كتب للنبي ﷺ فقال: إذا كانت الجنة عرضها السماوات والأرض فأين تكون النار؟. فقال النبي ﷺ: "إذا جاء الليل فأين يكون النهار"»؟ فإن صح هذا الحديث، فوجهه أن السماوات والأرض في مكانهما والجنة في مكانها في أعلى عليين، كما أن النهار في مكان والليل في مكان، وإن لم يصح الحديث، فإن في كون الجنة عرضها السماوات والأرض لا يعني أنها قد ملأتهما، ولكن يعني: أن الجنة عظيمة السعة، عرضها كعرض السماوات والأرض.

ثم إن قول السائل: "إن هذا الكون ليس فيه إلا السماوات والأرض" ليس بصحيح، فهذا الكون فيه السماوات والأرض،، وفيه الكرسي والعرش، وقد كان النبي ﷺ، يقول بعد رفعه من ركوعه: «ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»، فهناك عالم غير السماوات والأرض لا يعلمه إلا

الله، كذلك نحن نعلم منه ما علمنا الله تعالى مثل العرش والكرسي، والعرش هو أعلى المخلوقات والله - سبحانه وتعالى - قد استوى عليه استواء يليق بجلاله وعظمته.اهـ.

المطلب الثاني: مكان النار

قال تعالى: (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين * وما أدراك ما سجين* كتاب مرقوم)، وفي حديث البراء: (.. فيقول الله ﷻ اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى..).

سجين: فعيل من السجن، وهو الضيق، كما يقال: فسيق، وشريب، وخمير، وسكير ونحو ذلك. ولهذا أعظم الله أمره فقال: (وما أدراك ما سجين): أي أمر عظيم وسجن مقيم وعذاب أليم، وقد فسر في الحديث بأنه في الأرض السفلى، وقال بعضهم: صخرة تحت الأرض السابعة، وقيل: بئر في جهنم، وقيل غير ذلك مما لا دليل عليه، ولا قول بعد قول رسول الله ﷺ.

والظاهر من الآية أن سجين: هو اسم للكتاب لأنه تعالى قال: (وما أدراك ما سجين* كتاب مرقوم)، ولكن قال الحافظ ابن كثير في تفسيره عن قوله تعالى: (كتاب مرقوم): ليس تفسيرا لقوله: (وما أدراك ما سجين)، وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين، أي مرقوم مكتوب مفروغ منه لا يزيد فيه أحد ولا ينقص منه أحد. قاله محمد بن كعب القرظي وهكذا قال الراغب، والقاسمي.

وعليه فيكون قوله تعالى: (كتاب مرقوم) تفسيرا لقوله: (إن كتاب الفجار لفي سجين): أي إن كتاب الفجار كتاب مرقوم، ويكون قوله: (وما أدراك ما سجين) جملة معترضة بين المفسر والمفسر، وهذه الآية ليست صريحة في

مكان النار كما استدل بها في شرح لمعة الاعتقاد.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (جهنم في الأرض السابعة). رواه أبو نعيم في صفة الجنة (١٢٧).

وخرج ابن منده عن مجاهد قال: (قلت لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أين النار؟ قال: تحت سبعة أبحر مطبقة).

وخرج ابن خزيمة، وابن أبي الدنيا في صفة النار (١٧٧) عن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن الجنة في السماء، وإن النار في الأرض)، وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار (١٨٣) عن قتادة: (كانوا يقولون: الجنة في السموات السبع، وإن جهنم في الأرضين السبع)، وفي حديث البراء في حق الكافر: (يقول الله: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا)[١].

---

(١) جزء من حديث أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٢١٩)، والطيالسى (ص ١٠٢، رقم ٧٥٣)، وعبد الرزاق (٦٧٣٧)، وأحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧)، وأبو داود (٤/ ٢٣٩، رقم ٤٧٥٣)، والرويانى (١/ ٢٦٣، رقم ٣٩٢)، وهناد (١/ ٢٠٥، رقم ٣٣٩)، وابن خزيمة فى التوحيد (ص ١١٩)، وابن منده (٢/ ٩٦٢، رقم ١٠٦٤)، والطبري في تهذيب الآثار (١/ رقم ٢٤٨٠، ٢٤٨٥)، والآجري في الشريعة (ص٣٦٧)، والرافعي في التدوين (١/ ٦٢)، والحاكم (١/ ٩٣ ٩٨، رقم ١٠٧، ١٠٩ ١١٧)، والبيهقى فى الشعب (١/ ٣٥٥، رقم ٣٩٥)، والحديث قال عنه الطبري في مسند عمر (٢/ ٤٩٤): إسناده صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي، وقال البيهقي: حديث كبير صحيح الإسناد، وقال ابن منده في الإيمان (٣٩٨): هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء وهو ثابت على رسم الجماعة، وصححه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٩٠)، وصححه الإمام ابن القيم ونقل تصحيح أبي نعيم والحاكم له في تهذيب السنن (٧/ ١٤٠)، وقال الهيثمى (٣/ ٥٠): رجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في شرح الصدور (٩١): له طرق صحيحة، وصححه العلامة الألباني في المشكاة (١٦٣٠)، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند، وحسنه =

وأخرج الإمام أحمد بسند فيه نظر عن يعلى بن أمية، عن النبي ﷺ قال: (البحر هو جهنم، فقالوا ليعلى: ألا تركبها. يعني: البحور. قال: ألا ترون أن الله يقول: نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا [الكهف: ٢٩]. لا والذي نفس يعلى بيده لا أدخلها أبدًا حتى أعرض على الله ﷻ ولا يصيبني منها قطرة حتى ألقى الله ﷻ)(١).

قال الحافظ ابن رجب في التخويف من النار (ص: ٤٧): (وهذا إن شئت فالمراد به أن البحار تفجر يوم القيامة فتصير بحرًا واحدًا، ثم يسجر ويوقد عليها فتصير نارًا، وتزاد في نار جهنم. وقد فسر قوله تعالى: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ [التكوير: ٦] بنحو هذا). وقال ابن عباس: تسجر تصير نارًا. وفي رواية عنه: (تكون الشمس والقمر والنجوم في البحر، فيبعث الله عليها ريحًا دبورا فتنفخه حتى يرجع نارًا) رواه ابن أبي الدنيا، وابن أبي حاتم، وأخرجا عنه أيضًا في قوله: وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ [العنكبوت: ٥٤]. قال: (هو هذا البحر فتنشر

=
الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٢/ ٢٧٢ - ٢٧٤)، وصححه العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٨).

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٣)، والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ١/ ٧١)، (٤/ ٢/ ٤١٤)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٠٨)، والطبري في تفسيره (١٥/ ١٥٧)، والحاكم (٤/ ٥٩٦)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣٣٤)، وفي البعث والنشور (٤٥١، ٤٥٢) وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/ ١) والحديث ضعفه الذهبي في المهذب (٤/ ١٧١٥)، وقال عنه ابن رجب في التخويف من النار (ص٦٩): إسناده فيه نظر، وقال ابن الملقن في شرح البخاري (١٩/ ١٧٩): إسناده فيه جهالة، وضعفه ابن كثير في تفسيره (٦/ ٢٨٩)، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (١٠٢٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٩/ ٤٧٩): إسناده ضعيف محمد بن حيي مجهول وعبد الله بن أمية لم يرو عنه غير أبي عاصم.

الكواكب فيه، وتكور الشمس والقمر فيه فيكون هو جهنم). وقال علي رضي الله عنه ليهودي: (أين جهنم؟ قال: تحت البحر قال علي: صدق، ثم قرأ: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) [التكوير: ٦] رواه ابن أبي إياس.

وخرج ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب رضي الله عنه في قوله: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ. قال: (قالت الجن للإنس: نأتيكم بالخبر فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج).

وفي سنن أبي داود عن ابن عمرو مرفوعًا: (لا يركب البحر إلا حاجًا، أو معتمرًا، أو غازيًا في سبيل الله فإن تحت البحر نارًا، وتحت النار بحرًا)[1]، وروي عن ابن عمر مرفوعًا: (إن جهنم محيطة بالدنيا، وإن الجنة من ورائها فلذلك كان الصراط على جهنم طريقا إلى الجنة)[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٨٩)، وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ١٨٦، رقم ٢٣٩٣)، الفاكهي في "أخبار مكة" (٨٩٧)، والبخاري في التاريخ الكبير (٢/ ١٠٤)، والبيهقي (٦/ ١٨، رقم ١٠٨٦١)، والخطيب في التلخيص (٧٨/ ١)، والديلمي (٥/ ١٣٠، رقم ٧٧١١)، والمزي في تهذيب الكمال (٤/ ١٧٤) والحديث قال عنه الخطابي: وقد ضعفوا إسناد هذا الحديث، وضعفه النووي في الخلاصة (١/ ٦٩)، وقال ابن الملقن في الخلاصة (٧٣/ ١): وهو ضعيف باتفاق الأئمة، قال البخاري: ليس بصحيح، وقال أحمد: غريب، وقال أبو داود: رواته مجهولون، وقال الخطابي: ضعفوا إسناده، وقال صاحب الإمام: اختلف في إسناده، وقال عبد الحق (٢٠٧/ ٢): قال أبو داود: هذا حديث ضعيف جدا، بشر أبو عبد الله وبشير مجهولان، وقال المنذري في مختصر السنن (٣/ ٣٥٩): في الحديث اضطراب، روي عن بشير هكذا، وروي عنه أنه بلغه عن عبد الله بن عمرو، وروى عنه عن رجل عن عبد الله بن عمرو، وقيل غير ذلك، وذكره البخاري في " تاريخه"، وذكر له هذا الحديث، وذكر اضطرابه وقال: لم يصح حديثه، وقال الخطابي: وقد ضعفوا إسناد هذا الحديث.اهـ. وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٤٧٨): منكر.

(٢)أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٢/ ٢٩١) والحديث قال عنه ابن رجب في التخويف =

وقيل: إن النار في السماء. وخرج الإمام أحمد عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: (أتيت بالبراق فلم نزايل طرفه أنا وجبريل حتى أتيت بيت المقدس، وفتح لنا أبواب السماء، ورأيت الجنة والنار)(١).

ولا حجة في هذا الحديث ونحوه على أن النار في السماء لجواز أن يراها في الأرض وهو في السماء، وهذا الميت يرى وهو في قبره الجنة والنار وليست الجنة في الأرض، وقد ثبت أنه ﷺ رآهما وهو في صلاة الكسوف وهو في الأرض، وفي بعض طريق حديث الإسراء عن أبي هريرة أنه مر على أرض الجنة والنار في مسيره إلى بيت المقدس، ولم يدل شيء من ذلك على أن الجنة في الأرض، فحديث حذيفة إن ثبت فيه أنه رأى الجنة والنار في السماء، فالسماء ظرف للرؤية لا للمرئي أي: رأيت الجنة والنار حال كوني في السماء، يعني: صدرت الرؤيا مني وأنا في السماء، ولا تعرض في الحديث للمرئي فتأمل.

قال الإمام ابن القيم في حادي الأرواح (ص٦٥): الباب الثالث عشر: في مكان الجنة وأين هي: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ وقد ثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء وسميت بذلك

=

من النار (ص٤٨، رقم ٧٦): غريب منكر، وقالالحافظ في اللسان (٢/ ٣٥٩): هذا منكر جدًا محمد بن حمزة واه.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٧)، والطيالسي (٤١١)، والحميدي (٤٤٨)، والترمذي (٣١٤٧)، والنسائي في الكبرى (١١٢٨٠)، البزار في مسنده (٢٩١٥)، وابن حبان (٣٣)، والحاكم (٢/ ٣٥٩) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي وحسنه العلامة الألباني في صحيح الترمذي وفي الصحيحة (٨٧٤) وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٨/ ٣٢٢): إسناده حسن من أجل عاصم بن بهدلة.

لأنها ينتهي إليها ما ينزل من عند الله فيقبض منها وما يصعد إليه فيقبض منها وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: "هو الجنة "وكذلك تلقاه الناس عنه وقد ذكر ابن المنذر في تفسيره وغيره أيضا عن مجاهد قال: "هو الجنة والنار" وهذا يحتاج إلى تفسير فإن النار في أسفل السافلين ليست في السماء ومعنى هذا ما قاله في رواية ابن أبي نجيح عنه وقاله أبو صالح عن ابن عباس الخير والشر كلاهما يأتي من السماء.... وقد ثبت في الصحيحين عنه أنه قال: "الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض" وهذا يدل على أنها في غاية العلو والارتفاع والله أعلم

والحديث له لفظان هذا أحدهما والثاني "إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله" وشيخنا يرجح هذا اللفظ وهو لا ينفي أن يكون درج الجنة أكبر من ذلك ونظير هذا قوله في الحديث الصحيح "إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة" أي من جملة أسمائه هذا القدر فيكون الكلام جملة واحدة في الموضعين

ويدل على صحة هذا أن منزلة نبينا فوق هذا كله في درجة في الجنة ليس فوقها درجة وتلك المائة ينالها آحاد أمته بالجهاد والجنة مقببة أعلاها وأوسعها ووسطها هو الفردوس وسقفه العرش كما قال في الحديث الصحيح "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة".

قال شيخنا أبو الحجاج المزي: "والصواب رواية من رواه وفوقه بضم القاف على أنه أسم لا ظرف أي وسقفه عرش الرحمن فإن قيل فالجنة جميعها تحت العرش والعرش سقفها فإن الكرسي وسع السموات والأرض والعرش

أكبر منه

قيل: لما كان العرش أقرب إلى الفردوس مما دونه من الجنات بحيث لا جنة فوقه دون العرش كان سقفا له دون ما تحته من الجنات ولعظم سعة الجنة وغاية ارتفاعها يكون الصعود من أدناها إلى أعلاها بالتدريج شيئا فشيئا درجة فوق درجة كما يقال لقاريء القرآن "اقرأ وارق فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها" وهذا يحتمل شيئين أن تكون منزلته عند آخر حفظه وأن تكون عند آخر تلاوته لمحفوظة والله أعلم.اهـ.

وقال صاحب لوامع الأنوار البهية (ص: ٢٣٩): والحاصل أن الجنة فوق السماء السابعة، وسقفها العرش، وأن النار في الأرض السابعة على الصحيح المعتمد وبالله التوفيق. انتهى.

قال السيوطي في إتمام الدراية شرح النقاية: ونقف عن النار، أي نقول فيها بالوقف، أي محلها حيث لا يعلمه إلا الله، فلم يثبت عندي حديث أعتمده في ذلك، وقيل: تحت الأرض لما روى ابن عبد البر وضعفه من حديث ابن عمر مرفوعًا ((لا يركب البحر إلا غاز أو حاج، أو معتمر، فإن تحت البحر نارًا)...... وقيل: هي على وجه الأرض لما روى وهب أيضًا قال: (قال: أشرف ذو القرنين على جبل قاف فرأى تحته جبالًا صغارًا - إلى أن قال - يا قاف، أخبرني عن عظمة الله، فقال: إن شأن ربنا لعظيم. إن ورائي أرضًا مسيرة خمسمائة عام في خمسمائة عام، من جبال ثلج، يحطم بعضها بعضًا ولولا هي لاحترقت من جهنم).

وروى الحارث بن أسامة في مسنده عن عبد الله بن سلام قال: (الجنة في السماء والنار في الأرض) وقيل: محلها في السماء). انتهى كلام السيوطي ومثله

في التذكرة للقرطبي قال: (فهذا يدل على أن جهنم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها، وأين هي من الأرض). انتهى.

وقال الدهلوي في عقيدته: (ولم يصرح نص بتعيين مكانهما بل حيث شاء الله تعالى إذ لا إحاطة لنا بخلق الله وعوالمه)، انتهى.

أقول وهذا القول أرجح الأقوال وأحوطها إن شاء الله تعالى.

وقال صديق حسن خان في يقظة أولى الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار (ص٢٣): وهذا القول -أي التوقف- أرجح الأقوال وأحوطها إن شاء الله تعالى.

وقد سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٦٠) عن: هل النار في السماء أو في الأرض؟

فأجاب: هي في الأرض، ولكن قال بعض أهل العلم: إنها هي البحار، وقال آخرون: هي في باطن الأرض، والذي يظهر أنها في باطن الأرض، ولكن ما ندري أين هي من الأرض؟ نؤمن بأنها في الأرض، وليست في السماء، ولكن لا نعلم في أي مكان هي على وجه التعيين. والدليل على أن النار في الأرض ما يلي: قال الله تعالى: {كلا إن كتاب الفجار لفي سجين}. وسجين هي الأرض السفلى، كذلك جاء في الحديث فيمن احتضر، وقبض من الكافرين فإنها لا تفتح لهم أبواب السماء، ويقول الله تعالى: «اكتبوا كتاب عبدي في سجين، وأعيدوه إلى الأرض» ولو كانت النار في السماء لكانت تفتح لهم أبواب السماء ليدخلوها؛ لأن النبي ﷺ رأى أصحابها يعذبون فيها، وإذا كانت في السماء لزم من دخولهم في النار التي في السماء أن تفتح أبواب السماء.

لكن بعض الناس استشكل، وقال: كيف يراها الرسول ﷺ ليلة عرج به

وهي في الأرض؟! وأنا أعجب لهذا الاستشكال، إذا كنا ونحن في الطائرة نرى الأرض تحتنا بعيدة، وندركها، فكيف لا يرى النبي ﷺ النار وهو في السماء؟!

فالحاصل: أنها في الأرض، وقد روي في هذا أحاديث لكنها ضعيفة، وروي آثار عن السلف كابن عباس، وابن مسعود، وهو ظاهر القرآن {إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط}، والذين كذبوا بالآيات، واستكبروا عنها لا شك أنهم في النار.

المسألة الثالثة: القنطرة بين الجنة والنار

بعد أن يجتاز المؤمنون الصراط يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار، ثم يهذبون وينقون، وذلك بأن يقتص لبعضهم من بعض إذا كانت بينهم مظالم في الدنيا، حتى إذا دخلوا الجنة كانوا أطهارًا أبرارًا، ليس لأحد عند الآخر مظلمة، ولا يطلب بعضهم بعضًا بشيء، روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا) رواه البخاري (٦٥٣٥).

المسألة الرابعة: أول من يفتح الجنة

رسولنا ﷺ هو أول من يستفتح الجنة بعد أن يأبى أبو البشر آدم وأولوا العزم من الرسل التعرض لهذه المهمة لحديث حذيفة بن اليمان وأبي هريرة رضي الله عنهما عند مسلم (١٩٥) قالا قال رسول الله ﷺ (يجمع الله تبارك وتعالى

الناس، فيقوم المؤمنون، حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا، استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم، لست بصاحب ذلك..).

ولحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (١٩٧)، قال: قال رسول الله ﷺ: (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك).

وأخرجه مسلم في صحيحه (١٩٧) عنه بلفظ: (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك).

وفي صحيح مسلم (١٩٦) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا أكثر الناس تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: (أنا أول من يفتح له باب الجنة، إلا أن امرأة تبادرني فأقول لها: ما لك أو ما أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتامي)[1].

---

(١)أخرجه أبو يعلى (١٢/ ٧، رقم ٦٦٥١)، والخرائطي في مكارم الأخلاق (٢/ ٦٤٦)، والأصبهاني في الترغيب والترهيب (٢/ ١٠١٧)، والديلمي (١/ ٣٤، رقم ٥٨) والحديث قال عنه المنذري في الترغيب (٣/ ٣٤٩): إسناده حسن إن شاء الله، وقال الدمياطي في المتجر الرابح (٢٥٩): إسناده لا بأس به، وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٣٦): رواته لا بأس بهم، وقال الهيثمي (٨/ ١٦٢): فيه عبد السلام بن عجلان وثقه أبو حاتم وابن حبان وقال يخطئ ويخالف وبقية رجاله ثقات، أما العراقي فقال في المغني (٢/ ٧٦): إسناده ضعيف، وقال البوصيري في الإتحاف (٢/ ق ١٢٩ أمختصر): رواه أبو يعلى بسند ضعيف لضعف عبد السلام ابن عجلان، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٥٣٧٤): وهذا إسناد ضعيف، رجاله ثقات؛ غير عبدالسلام هذا؛ =

وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته ﷺ، ففي الصحيحين البخاري (٨٩٦)، ومسلم (٨٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (نحن السابقون الأولون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم).

وفي صحيح مسلم (٨٥٥) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه).

وفي الصحيحين البخاري (٨٩٦)، ومسلم (٨٥٥) عنه مرفوعًا: (نحن

=

قال الذهبي في "الميزان": "قال أبو حاتم: يكتب حديثه. وتوقف غيره في الاحتجاج به". وأما ابن حبان؛ فذكره في "الثقات"! ولكنه قال: "يخطىء ويخالف". قلت: ومن كان كذلك؛ فحري أن لا يحتج به، ولا سيما ولم يوثقه أحد غيره، فقول المنذري (٣/ ٢٣١): "رواه أبو يعلى، وإسناده حسن"! غير حسن، وأما قول الهيثمي في "المجمع" (٨/ ١٦٢): "رواه أبو يعلى، وفيه عبدالسلام بن عجلان، وثقه أبو حاتم (كذا)، وابن حبان، وقال: يخطىء ويخالف. وبقية رجاله ثقات" !! قلت: فقوله: "وثقه أبو حاتم" خطأ؛ لأن أبا حاتم إنما قال فيه: "شيخ يكتب حديثه". وهذا ليس يعني أنه ثقة عنده، بل هو دونه؛ كما في "درجات رواة الحديث" عنده (١/ ٣٧)، أي: في المرتبة الثالثة؛ قال: "وإذا قيل: "شيخ"؛ فهو بالمنزلة الثالثة، يكتب حديثه وينظر فيه؛ إلا أنه دون الثانية". ولذلك؛ قال الذهبي في "الميزان" (٢/ ٣٨٥): "قوله: "هو شيخ"؛ ليس هو عبارة جرح، ولكنها أيضا ما هي عبارة توثيق، وبالاستقراء يلوح لك أنه ليس بحجة. ومن ذلك قوله: "يكتب حديثه"؛ أي: ليس هو بحجة". ولذلك؛ رأيت الحافظ لما ترجم في "التهذيب" لـ (العباس بن الفضل المدني) بسماع أبي حاتم منه وقوله: "شيخ"، وبذكر ابن حبان إياه في "الثقات" [٨/ ٥١١]؛ لم يوثقه في "التقريب"، بل قال فيه: "مقبول". فخذها فائدة قد لا تراها في مكان آخر. وإن مما يدل على ضعف عبدالسلام هذا، وأنه لا يحتج به: اضطرابه في إسناده ومتنه...

الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولًا الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم).

قال الإمام ابن القيم في حادي الأرواح (ص١١٢): فهذه الأمة أسبق الأمم خروجا من الأرض وأسبقهم إلى أعلى مكان في الموقف وأسبقهم إلى ظل العرش وأسبقهم إلى الفصل والقضاء بينهم وأسبقهم إلى الجواز على الصراط وأسبقهم إلى دخول الجنة فالجنة محرمة على الأنبياء حتى يدخلها محمد ومحرمة على الأمم حتى تدخلها أمته، وأما أول الأمة دخولا فقال أبو داود في سننه حدثنا هناد بن السرى عن عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن عبد السلام بن حرب عن أبي خالد الدالاني عن أبي خالد مولى آل جعدة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: (أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي " فقال أبو بكر: يا رسول الله ﷺ وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه فقال رسول الله ﷺ: "أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي)[1]، وقوله: وددت أني كنت معك حرصا منه على زيادة اليقين وأن يصير الخبر عيانا كما قال إبراهيم الخليل: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٥٢)، وعبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده على فضائل الصحابة لأبيه (٢٥٨، ٥٩٣)، والحاكم (٤٤٤٤)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٩٣)، وابن شاهين في شرح مذاهب أهل السنة (٩٦)، وأبو نعيم في فضائل الخلفاء الراشدين (٣٠)، وابن الأعرابي في معجمه (٢٤٣٥)، وأبو القاسم بن بشران في أماليه (٩٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ١٠٤ - ١٠٥ و١٠٥ و١٠٥ - ١٠٦)، والمزي في تهذيب الكمال (٣٣/ ٢٧٨) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (١٧٤٥)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٧/ ٤٨): إسناده ضعيف. أبو خالد الدالاني. واسمه يزيد بن عبد الرحمن وصفه الحافظ في "التقريب" بأنه صدوق يخطئ كثيرا وكان يدلس، وشيخه أبو خالد مولى آل جعدة: لا يعرف.

تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}.

وأما الحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه حدثنا إسماعيل بن عمر الطلحي أنبأنا داود بن عطاء المديني عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: (أول من يصافحه الحق عمر وأول من يسلم عليه وأول من يأخذ بيده فيدخله الجنة)[1]، فهو حديث منكر جدا قال الإمام أحمد: داود بن عطاء ليس بشيء وقال البخاري منكر الحديث.اهـ.

وقال العلامة في الضعيفة (١٢/ ١/ ٥٧ - ٥٨): روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: «أولاد - وفي رواية أطفال - المؤمنين في جبل في الجنة يكفلهم إبراهيم وسارة، حتى يردهم إلى آبائهم يوم القيامة» (منكر بهذا التمام)... ثم إن الحديث يخالف بظاهره ما جاء في عدة أحاديث صحيحة: إن نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- هو أول من يدخل الجنة، وأن أولاد الآباء

(١) أخرجه ابن ماجة (١/ ٣٩، رقم ١٠٤)، وعبد الله بن أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٠٨، رقم ٦٣٠)، وابن عدى (٧/ ٦٦، ترجمة ١٩٩٠ وهب بن وهب)، وابن أبى عاصم فى السنة (٢/ ٥٨٠، رقم ١٢٤٥)، والطبرانى (٥/ ٣٦٩، رقم ٥٥٨٤)، والحاكم (٤٤٨٩) وغيرهم والحديث قال عنه الذهبي في تلخيص المستدرك: موضوع، وقال في الميزان (٢/ ١٢) منكر جدا، وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٩٢)، وقال ابن القيم في حادي الأرواح (١٠٤) منكر جدا، وقال البوصيرى في مصباح الزجاجة (١/ ١٧): هذا إسناد ضعيف، وقال الحافظ ابن كثير في جامع المسانيد (١/ ١٠٣): هذا الحديث منكر جدا وما هو أبعد من أن يكون موضوعا، والآفة فيه من داود بن عطاء، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٢٤٨٥): منكر جدا، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (١/ ٧٧): إسناده ضعيف، ومتنه منكر، داود بن عطاء قال البخاري وأبو زرعة وأبو حاتم: منكر الحديث، وقال أحمد: رأيته وليس بشئ، وقال الدارقطني: متروك.

يأبون أن يدخلوا الجنة إلا وآبائهم معهم، فيدخلون جميعًا

المسألة الخامسة: الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة

روى مسلم في صحيحه (٢٩٧٩) عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ (إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا).

وروى الترمذي عن عن أبي هريرة رضي الله قال: قال رسول الله ﷺ (فقراء المهاجرين وفي رواية –المؤمنين– وفي أخرى المسلمين– يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة)[١].

وقد بيّن الرسول ﷺ في موضع آخر أن هؤلاء لم يكن عندهم شيء يحاسبون عليه، هذا مع جهادهم وفضلهم، فأخرج الحاكم في مستدركه عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ (أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم، فقال: فقراء المهاجرين، يأتون يوم القيامة إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٣، رقم ٨٥٠٢)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٤٦)، وابن ماجه (٤١٢٢)، والترمذي (٢٣٥٣، ٢٣٥٤)، والنسائي في الكبرى (١١٣٤٨)، وأبو يعلى (١٠/ ٤١١، رقم ٦٠١٨)، وابن حبان (٦٧٦)، وأبو نعيم (٧/ ٩١ و٨/ ٢١٢ و٢٥٠)، والبيهقي في البعث والنشور (ص٢٤١، رقم ٤٠٨)، والخطيب في الموضح (٢/ ٣٥١)، وفي تاريخه (٥/ ٣٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ١٨) والحديث صححه الترمذي وقال المنذري في الترغيب: رواته محتج بهم في الصحيح، وقال ابن كثير في نهاية البداية والنهاية: إسناده على شرط مسلم، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٨٠٧٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٨/ ٦٧): إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٣/ ٣٢٨): حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن عمرو –وهو ابن علقمة بن وقاص الليثي–، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين.

باب الجنة، ويستفتحون، فيقول لهم الخزنة: أو قد حوسبتم؟ فيقولون: بأي شيء نحاسب، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك؟ قال: فيفتح لهم، فيقيلون فيه أربعين عامًا قبل أن يدخلها الناس)[١]، وفي صحيح البخاري (٥١٩٦) عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال (قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار)، وأصحاب الجد هم الأغنياء من المسلمين. وقد وقع في الأحاديث السابقة أن الفقراء يسبقون الأغنياء بأربعين خريفًا، وجاء في حديث آخر بخمسمائة عام، ووجه التوفيق بين الحديثين أن الفقراء مختلفو الحال، وكذلك الأغنياء - كما يقول القرطبي-. فالفقراء متفاوتون في قوة إيمانهم وتقدمهم، والأغنياء كذلك، فإذا كان الحساب باعتبار أول الفقراء دخولًا الجنة وآخر الأغنياء دخولًا الجنة فتكون المدة خمسمائة عام، أما إذا نظرت إلى آخر الفقراء دخولًا الجنة وأول الأغنياء دخولًا الجنة فتكون المدة أربعين خريفًا، باعتبار أول الفقراء وآخر الأغنياء والله أعلم". الجنة والنار لعمر بن سليمان الأشقر- (ص١٢٦).

(فرع): آخر من يدخل الجنة

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ (إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولًا الجنة: رجل يخرج من النار حبوًا، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب، وجدتها ملأى، فيقول الله عز وجل: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا،

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٨٠) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٨٥٣).

وعشرة أمثالها أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي – أو أتضحك بي – وأنت الملك؟ قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، فكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة)) أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦).

ولمسلم (١٨٦) قال: قال رسول الله ﷺ (إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار: رجل يخرج منها زحفا، فيقال له: انطلق فادخل الجنة، قال: فيذهب فيدخل الجنة، فيجد الناس قد أخذوا المنازل، فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم، فيقال له: تمنَّ، فيتمنى فيقال له: لك الذي تمنيت، وعشرة أضعاف الدنيا، فيقول: أتسخر بي وأنت الملك؟ قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله أن رسول الله ﷺ قال: (آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: يا رب، أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول الله ﷻ: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول: لا، يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرها، قال: وربه ﷻ يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أدنني من الشجرة لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه تعالى يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه،

فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة، وهي أحسن من الأوليين، فيقول: أي رب أدنني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى، يا رب لا أسألك غيرها - وربه ﷻ يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة فيقول: أي رب أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني منك، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ فقال: من ضحك رب العالمين، حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر) أخرجه مسلم (١٨٧).

وهذا الحديث هكذا أخرجه الحميدي وحده في أفراد مسلم، والذي قبله في المتفق عليه، وقال: إنما أفردناه للزيادة التي فيه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن أدنى أهل الجنة منزلة: رجل صرف الله وجهه عن النار قِبل الجنة، ومثل له شجرة ذات ظل، فقال: أي رب، قدمني إلى هذه الشجرة لأكون في ظلها وساق الحديث بنحو حديث ابن مسعود، ولم يذكر: فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني منك؟.. إلى آخر الحديث). وزاد فيه: (ويذكره الله، سل كذا وكذا، فإذا انقطعت به الأماني، قال الله: هو لك وعشرة أمثاله، قال: ثم يدخل بيته، فتدخل عليه زوجتاه من الحور العين، فيقولان: الحمد لله الذي أحياك لنا، وأحيانا لك، قال: فيقول: ما أعطي أحد مثل ما أعطيت) أخرجه مسلم (١٨٨) هكذا عقيب حديث ابن مسعود.

المسألة السادسة: أبواب الجنة

أخرج الشيخان البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢) عن سهل بن سعد ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (في الجنة ثمانية أبواب: باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون).

وفيهما البخاري (٣٦٦٦)، ومسلم (١٠٢٧) عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان. فقال أبو بكر ﵁: والله يا رسول الله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: نعم، وإني لأرجو أن تكون منهم).

قال القرطبي في التذكرة (ص٥٣٦).: قيل الدعاء من جميعها دعاء تنويه وإكرام ثم يدخل من الباب الذي غلب عليه العمل.اهـ.

وأخرج مسلم مسلم (٢٣٤) عن عمر ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: (ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء ثم يقول: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين. إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء).

زاد الترمذي: (واجعلني من المتطهرين)[1].

---

(١) هذه الزيادة أخرجها الترمذي (١/ ٧٨، رقم ٥٥) والحديث قال عنه الترمذي: في إسناده اضطراب،، ولا يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب كبير شيء قال محمد (يقصد البخاري): وأبو إدريس لم يسمع من عمر شيئا، وقال ابن الملقن في البدر المنير (٢/ ٢٨٦): وطريق الترمذي هذه معللة بالانقطاع بين أبي إدريس وعمر، وذكر الحافظ عبد =

وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد، وابن ماجه عن عتبة بن عبد الله السلمي مرفوعًا: (ما من مسلم يتوفى له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل)(١).

=

الحق في الأحكام هذا الحديث وسكت عنه واعترض عليه ابن القطان وقال: سكت عنه مصححا له وهو منقطع، قال الترمذي في علله: سألت محمدا عنه فقال: هو خطأ، إنما هو معاوية بن صالح، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس، عن عقبة، عن عمر ومعاوية، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي عثمان، عن جبير بن نفير، عن عمر، قال: وليس لأبي إدريس سماع من عمر، قلت: من أبو عثمان هذا؟ قال: شيخ لم أعرفه. وقد نص الترمذي في جامعه على أن أبا إدريس لم يسمع من عمر، والقول بأن أبا عثمان لم يسمعه من عمر هو لأجل إدخال جبير بن نفير بينهما، قال الشيخ تقي الدين في الإمام: لمن صححه أن يجعل رواية أبي إدريس وأبي عثمان عن عمر مرسلة، ويأخذ بالزيادة في إثبات عقبة بن عامر بين أبي إدريس وعمر، وإثبات جبير بن نفير بين أبي عثمان وعمر، فإن الأخذ بالزائد أولى... وقال النووي في شرح المهذب: ورويت الزيادة التي زادها الترمذي من رواية جماعة من الصحابة غير عمر.اهـ. وقال الحافظ فى النتائج (١/ ٢٤٣): وقد رواه الترمذى وزاد فيه " اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين " لم تثبت هذه الزيادة فى هذا الحديث فإن جعفر بن محمد شيخ الترمذى تفرد بها ولم يضبط الإسناد فإنه أسقط بين أبى إدريس وبين عمر جبير ابن نفير، وعقبة فصار منقطعا بل معضلا وخالفه كل من رواه عن معاوية بن صالح ثم عون زيد بن الحباب.اهـ. وحسنه المصنف في المنار المنيف (٩٦)، وصححه الفيروزبآدي في سفر السعادة (٢١)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق الترمذي (١/ ٧٨): إسناده صحيح مستقيم، وصححه العلامة الألباني في الإرواء (١/ ١٣٥) وقال: وأعله الترمذى بالاضطراب، وليس بشيء فإنه اضطراب مرجوح كما بينته فى صحيح سنن أبى داود (رقم ١٦٢).

(١) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٤٣)، وأحمد (٤/ ١٨٣، رقم ١٧٦٧٦)، وابن ماجه (١/ ٥١٢، رقم ١٦٠٤)، وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ٢٦٦)، والطبراني في الكبير (١٧/ رقم ٣٠٩)، وفي الشاميين (١٠٧٠)، والمزي في تهذيب الكمال (١٢/ ٤٢٤ – ٤٢٥) والحديث قال عنه البوصيرى (٢/ ٥١): هذا إسناد فيه

=

(فرع): سعة أبواب الجنة

قال الإمام ابن القيم في حادي الإرواح (ص٥٨): الباب العاشر: في ذكر سعة أبوابها: عن أبي هريرة قال وضعت بين يدي رسول الله قصعة من ثريد ولحم فتناول الذراع وكان أحب الشاة إليه فنهش نهشة وقال: "أنا سيد الناس يوم القيامة ثم نهش أخرى وقال أنا سيد الناس يوم القيامة فلما رأى أصحابه لا يسألونه قال ألا تقولون كيف" قالوا كيف يا رسول الله ﷺ قال يقوم الناس لرب العالمين فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر" فذكر حديث الشفاعة بطوله وقال في آخره "فانطلق فأتي تحت العرش فاقع ساجدا لربي فيقيمني رب العالمين مقاما لم يقمه أحدا قبلي ولن يقيمه أحد بعدي فأقول يا رب أمتي أمتي فيقول يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصارع الجنة لكما بين مكة وهجرا أوهجر ومكة"، وفي لفظ "لكما بين مكة وهجر" أو "كما بين مكة وبصرى" متفق على صحته، وفي لفظ خارج الصحيح بإسناده إن ما بين عضادتي الباب لكما بين مكة وهجر، وعن خالد بن عمير العدوي قال خطبنا عتبة بن غزوان فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإن الدنيا قد أذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يصطبها صاحبها وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها فانتقلوا بخير ما

=

شرحبيل بن شفعة، وباقى رجال الإسناد على شرط البخارى، وقال الحافظ في الفتح (٣/ ١٤٥): إسناده حسن، وحسنه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٩/ ١٨٩): صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن من أجل شرحبيل بن شفعة، وباقي رجاله ثقات.

بحضرتكم ولقد ذكر لنا أن مصراعين من مصاريع الجنة بينهما مسيرة أربعين سنة وليأتينّ عليه يوم وهو كظيظ من الزحام فهذا موقوف والذي قبله مرفوع فإن كان رسول الله ﷺ هو الذاكر له كان هذا ما بين باب من أبوابها ولعله الباب الأعظم وإن كان الذاكر لهم ذلك غير رسول الله ﷺ لم يقدم على حديث أبي هريرة المتقدم

ولكن قد روى الإمام أحمد في مسنده من طريق حماد بن سلمة الجريري يحدث عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن رسول الله قال "أنتم توفون سبعين أمة أنتم آخرها وأكرمها على الله وما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاما وليأتين عليه يوم وإنه لكظيظ "

وقد رواه ابن أبي داود أنبأنا إسحاق بن شاهين أنبأنا خالد عن الجريري عن حكيم بن معاوية عن أبيه يرفعه "ما بين كل مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة سبع سنين"

وروينا في مسند عبد بن حميد أنبأنا الحسن بن موسى أنبأنا ابن لهيعة أنبأنا دراج أبو السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله قال ما من مصراعين في الجنة لمسيرة أربعين سنة، وحديث أبي هريرة أصح وهذه النسخة ضعيفة والله أعلم، وروى أبو الشيخ أنبأنا جعفر بن أحمد بن فارس أنبأنا يعقوب بن حميد أنبأنا معن حدثنا خالد بن أبي بكر عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن النبي ﷺ قال: "الباب الذي يدخل منه أهل الجنة مسيرة الراكب المجود ثلاثا ثم انهم ليضغطون عليه حتى تكاد مناكبهم تزول" رواه أبو نعيم عنه وهذا مطابق للحديث المتفق عليه "إن ما بين المصراعين كما بين مكة وبصرى" فإن الراكب الموجد غاية الإجادة على أسرع هجين لا يفتر ليلا ولا نهارا يقطع هذه المسافة

في هذا القدر أو قريب منه، وأما حديث حكيم بن معاوية فقد اضطرب رواته فحماد بن سلمة ذكر عن الجريري التقدير بإربعين عاما وخالد ذكر عنه التقدير بسبع سنين وحديث أبي سعيد المرفوع فيه التقدير بأربعين عاما على طريقة دراج عن أبي الهيثم، قال الإمام أحمد أحاديث دراج مناكير وقال أبو حاتم الرازي ضعيف، وقال النسائي، ليس بالقوي، فالصحيح المرفوع السالم عن الاضطراب والشذوذ والعلة حديث أبي هريرة المتفق على صحته على أن حديث حكيم بن معاوية ليس التقدير فيه بظاهر الرفع ويحتمل أنه مدرج في الحديث موقوف فيكون كحديث عتبة بن غزوان.

(فرع)

هل هناك سر في وجود الواو من عدمها في قوله في الآية الأولى من سورة الزمر (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)، وفي الآية الأخرى في وصف حال المتقين من نفس السورة (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)؟

قال ابن العربي في المسالك (٤/ ٢٤٥): وقوله: "فتحت أبواب الجنة" فيه دليل على أن أبوابها مغلقة.

وقوله: غلقت أبواب النار" دليل على أنها مفتحة، وقد غلط في ذلك بعض المعتدين على كتاب الله تعالى، فقال: إن قوله تعالى: {جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} دليل على أن أبوابها مفتحة أبدا، إذ لم يجعله جواب الخبر، وقوله في النار: {جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} دليل على أنها مغلقة، فقلب الحقيقة، وتكلم في كتاب الله برأيه.

وقال آخر من الفضوليين: قوله: "فتحت أبوايها" يفسره واو الثمانية، إذ للجنة ثمانية أبواب، كما قال تعالى: {وثامنهم كلبهم} بواو، وسائر الأعداد بغير

واو. والحق الصحيح المعقول المعلوم. ما قال النبي ﷺ: "إني آتي باب الجنة وآخذ بحلقة الباب فاقعقع، فيقول الخازن: من؛ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت، لا أفتح لأحد سواك" وإنما تفتح أبواب الجنة في رمضان، ليعظم الرجاء ويكثر العمل، وتتعلق بها الهمم، ويتشوف إليها الصابر الصائم. وتغلق فيه أبواب النار، لتخزى الشياطين، وتقل المعاصي، وتصير الحسنات في وجوه السيئات، فتذهب سبيل النار.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في حادي الأرواح (ص٥١): قال الله تعالى {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِين}، وقال في صفة النار {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} بغير واو فقالت طائفة هذه واو الثمانية دخلت في أبواب الجنة لكونها ثمانية وأبواب النار سبعة فلم تدخلها الواو، وهذا قول ضعيف لا دليل عليه ولا تعرفه العرب ولا أئمة العربية وإنما هو من استنباط بعض المتأخرين، وقالت طائفة أخرى الواو زائدة والجواب الفعل الذي بعدها كما هو في الآية الثانية وهذا أيضا ضعيف فإن زيادة الواو غير معروف في كلامهم ولا يليق بأفصح الكلام أن يكون فيه حرف زائد لغير معنى ولا فائدة، وقالت طائفة ثالثة الجواب محذوف وقوله "وفتحت أبوابها" عطف على قوله جاؤها وهذا اختيار أبي عبيدة والمبرد والزجاج وغيرهم

قال المبرد: "وحذف الجواب أبلغ عند أهل العلم".

قال أبو الفتح بن جني: "وأصحابنا يدفعون زيادة الواو ولا يجيزونه ويرون أن الجواب محذوف للعلم به، بقي أن يقال فما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة وذكره في آية أهل النار فيقال هذا أبلغ في الموضعين فإن الملائكة

تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة حتى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم ففجأهم العذاب بغتة فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة فإن هذا شأن الجزاء المرتب على الشرط أن يكون عقيبه فإنها دار الإهانة والخزي فلم يستأذن لهم في دخولها ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول وأما الجنة فإنها دار الله ودار كرامته ومحل خواصه وأوليائه فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم ويستشفعون إليه بأولي العزم من رسله وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم فيقول: "أنا لها" فيأتي إلى تحت العرش ويخر ساجدا لربه فيدعه ما شاء الله أن يدعه ثم يأذن له في رفع رأسه وأن يسأل حاجته فيشفع إليه سبحانه في فتح أبوابها فيشفعه ويفتحها تعظيما لخطرها وإظهارا لمنزلة رسوله وكرامته عليه، وإن مثل هذه الدار هي دار ملك الملوك ورب العالمين إنما يدخل إليها بعد تلك الأهوال العظيمة التي أولها من حين عقل العبد في هذه الدار إلى أن انتهى إليها وما ركبه من الأطباق طبقا بعد طبق وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة حتى أذن الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه في فتحها لهم، وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة وحصول الفرح والسرور مما يقدر عليه بخلاف ذلك ولئلا يتوهم الجاهل أنها بمنزلة الخان الذي يدخله من شاء فجنة الله عالية غالية بين الناس وبينها من العقبات والمفاوز والأخطار مالا تنال إلا به فما لمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ولهذه الدار فليعد عنها إلى ما هو أولى به وقد خلق له وهيئ له، وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمرا من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حده كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم مستبشرين أقوياء القلوب كما

كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير كذلك يؤنس بعضهم بعضا ويفرح بعضهم ببعض، وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمرا يلعن بعضهم بعضا ويتأذى بعضهم ببعض وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحدا واحدا فلا تهمل تدبر قوله:"زمرا".اهـ.

وقال في بدائع الفوائد (٣/ ٥١): قولهم: إن الواو تأتي للثمانية ليس عليه دليل مستقيم، وقد ذكروا ذلك في مواضع فلنتكلم عليها واحدًا واحدًا:

الموضع الأول: قوله تعالى: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ} [التوبة: ١١٢] فقيل الواو في: والناهون، واو الثمانية لمجيئها بعد استيفاء الأوصاف السبعة، وذكروا في الآية وجوهًا أخرى، ذكرها ابن القيم ثم قال:

الموضع الثاني: قوله تعالى: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ} إلى قوله: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [التحريم: ٥] فقيل: هذه واو الثمانية لمجيئها بعد الوصف السابع وليس كذلك، ودخول الواو ههنا متعين؛ لأن الأوصاف التي قبلها المراد اجتماعها في النساء، وأما وصفا البكارة والثيوبة فلا يمكن اجتماعهما، فتعين العطف؛ لأن المقصود أنه يزوجه بالنوعين الثيبات والأبكار.

الموضع الثالث: قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [الكهف: ٢٢].

قيل: المراد إدخال الواو ههنا لأجل الثمانية، وهذا يحتمل أمرين: أحدهما: هذا. وذكر الثاني ثم قال:

والموضع الرابع: قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧٣] فأتى بالواو لما كانت أبواب الجنة ثمانية. وقال في النار: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧١] لما كانت سبعة، وهذا في غاية البعد ولا دلالة في اللفظ على الثمانية حتى تدخل الواو لأجلها، بل هذا من باب حذف الجواب لنكتة بديعة... إلخ.اهـ.

وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (١/ ٤٢٨): يا محب، كتابكم الكريم المؤرخ في ٢/ ١/ ١٣٨٨ هـ وصل وصلكم الله بهداه، وما تضمنه من الإشارة إلى تضعيف قول من قال: إن الواو في قوله تعالى في سورة الزمر في حق أهل الجنة: {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} هي واو الثمانية، كان معلوما، وأفيد فضيلتكم أن ما ذكرتموه هو الصواب، وقد نبهت على ذلك حين كلامي على الآية، وذكرت أن العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضعف هذا القول، كما ضعفه العلامة ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورجحا جميعا أنها واو العطف، ولكن لعل فضيلتكم لم ينتبه لهذا الشيء والأمر واضح جدا، وليس للقول بأنها واو الثمانية وجه، لا من جهة الشرع ولا من جهة اللغة، وأما قول بعض المفسرين كصاحب روح المعاني، إنها واو الحال فليس بجيد، والصواب ما تقدم، وهو أنها " واو العطف " والجواب محذوف بعد قوله: {فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} وتقديره والله أعلم، فرحوا بذلك وسروا به، وقالوا: (الحمد لله) إلخ وقد بسط العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكلام في هذا الأمر، في كتابه: (حادي الأرواح) عند كلامه على أبواب الجنة.اهـ.

وقال الشيخ الفوزان في مجموع فتاواه (١/ ١٧٢): قال بعض المفسرين: الواو هذه تدل على أن أبواب الجنة ثمانية، وتسمى هذه الواو واو الثمانية كما

قوله تعالى: (الكهف الآية ٢٢) وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ [الكهف: ٢٢]، فالواو هذه تدل على أن أبواب الجنة ثمانية، ولعله مأخوذ من حروف الجمل.

وابن القيم له رأي في هذا، يقول: إن الجنة غالية ولا يدخلها المؤمنون إلا بعد أن تستفتح، وأول من يستفتح باب الجنة هو محمد ﷺ، وأول من يدخلها من الأمم أمته، فهم لا يدخلونها من أول ما يصلون، بل لا بد من استفتاح؛ لأنها غالية وثمينة، أما النار -والعياذ بالله- فإنهم من حين يصلون إليها وهي مفتوحة، ويدخلونها رغمًا عن إرادتهم ورغبتهم.

المسألة السابعة: هل ثبت شيء عن تخفيف العذاب في النار لأبي لهب؟

دلت آيات القرآن الكريم أن الكافر لا يخفف عنه العذاب على كفره بحال من الأحوال، وذلك في قوله تعالى: (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) فاطر/ ٣٦، وقال تعالى: (وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب. قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) غافر/ ٤٩ - ٥٠.

وأما أعمال الكفار الصالحة فيثاب عليها في الدنيا، بالرزق والولد والنعمة ونحو ذلك، فهم أقوام عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، وأما في الآخرة فلا يكتب له منها شيء من الحسنات، إذ الكفر محبط لجميع الحسنات، ولا ينفع معه عمل صالح. وإن كان الكفار يتفاوتون في عذاب جهنم، بحسب جرائمهم في الدنيا، مع خلودهم جيمعا في جهنم أبد الآبدين.

يقول الله تعالى: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) الفرقان/ ٢٣.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (قلت: يا رسول الله! ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين) رواه مسلم (٢١٤).

وأما ما يروى في تخفيف العذاب عن أبي لهب بسبب عتقه ثويبة مرضعة النبي ﷺ فلم يرد ذلك من كلام النبي ﷺ، ولا من كلام الصحابة، وإنما رؤيا منام أريها بعض أهله، لا يجوز أن يعارض به ما سبق تقريره من بطلان حسنات الكافرين في الدنيا، وأنها لا تغني عنهم عند الله شيئا، فضلا عن أن الوارد في ذلك إنما هو بسند مرسل.

روى البخاري (٥١٠١) من قول عروة بن الزبير رحمه الله ما يلي: (وثويبة مولاة لأبي لهب، كان أبو لهب أعتقها فأرضعت النبي ﷺ، لما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة -أي بسوء حال -، قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة) قال الحافظ رحمه الله: قوله: (وثويبة مولاة لأبي لهب) ذكرها ابن منده في " الصحابة " وقال: اختلف في إسلامها. وقال أبو نعيم: لا نعلم أحدا ذكر إسلامها غيره، والذي في السير أن النبي ﷺ كان يكرمها، وكانت تدخل عليه بعدما تزوج خديجة، وكان يرسل إليها الصلة من المدينة، إلى أن كان بعد فتح خيبر ماتت ومات ابنها مسروح.

قوله: (وكان أبو لهب أعتقها فأرضعت النبي ﷺ) ظاهره أن عتقه لها كان قبل إرضاعها، والذي في السير يخالفه، وهو أن أبا لهب أعتقها قبل الهجرة وذلك بعد الإرضاع بدهر طويل، وحكى السهيلي أيضا أن عتقها كان قبل الإرضاع، وسأذكر كلامه.

قوله: (بعض أهله) ذكر السهيلي أن العباس قال: لما مات أبو لهب رأيته في

منامي بعد حول في شر حال فقال: ما لقيت بعدكم راحة، إلا أن العذاب يخفف عني كل يوم اثنين، قال: وذلك أن النبي ﷺ ولد يوم الاثنين، وكانت ثويبة بشرت أبا لهب بمولده فأعتقها. قوله (ماذا لقيت) أي: بعد الموت.

قوله (لم ألق بعدكم، غير أني) كذا في الأصول بحذف المفعول، وفي رواية الإسماعيلي: (لم ألق بعدكم رخاء)، وعند عبد الرزاق ع معمر عن الزهري: (لم ألق بعدكم راحة) قال ابن بطال: سقط المفعول من رواية البخاري، ولا يستقيم الكلام إلا به.

قوله: (غير أني سقيت في هذه) كذا في الأصول بالحذف أيضا، ووقع في رواية عبد الرزاق المذكورة: (وأشار إلى النقرة التي تحت إبهامه) وفي ذلك إشارة إلى حقارة ما سقي من الماء.

وفي الحديث دلالة عل أن الكافر قد ينفعه العمل الصالح في الآخرة ؛ لكنه مخالف لظاهر القرآن، قال الله تعال (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)، وأجيب:

أولا: بأن الخبر مرسل، أرسله عروة، ولم يذكر من حدثه به، وعلى تقدير أن يكون موصولا فالذي في الخبر رؤيا منام، فلا حجة فيه، ولعل الذي رآها لم يكن إذ ذاك أسلم بعد، فلا يحتج به.

وثانيا: على تقدير القبول فيحتمل أن يكون ما يتعلق بالنبي ﷺ مخصوصا من ذلك، بدليل قصة أبي طالب كما تقدم أنه خفف عنه فنقل من الغمرات إلى الضحضاح، وقال البيهقي: ما ورد من بطلان الخير للكفار فمعناه أنهم لا يكون لهم التخلص من النار ولا دخول الجنة، ويجوز أن يخفف عنهم من العذاب الذي يستوجبونه على ما ارتكبوه من الجرائم سوى الكفر بما عملوه من الخيرات.

وأما عياض فقال: انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب ؛ وإن كان بعضهم أشد عذابا من بعض.

قلت - أي الحافظ ابن حجر -: وهذا لا يرد الاحتمال الذي ذكره البيهقي، فإن جميع ما ورد من ذلك فيما يتعلق بذنب الكفر، وأما ذنب غير الكفر فما المانع من تخفيفه؟

وقال القرطبي: هذا التخفيف خاص بهذا وبمن ورد النص فيه.

وقال ابن المنير في الحاشية: هنا قضيتان:

إحداهما محال: وهي اعتبار طاعة الكافر مع كفره، لأن شرط الطاعة أن تقع بقصد صحيح، وهذا مفقود من الكافر.

الثانية: إثابة الكافر على بعض الأعمال تفضلا من الله تعالى، وهذا لا يحيله العقل، فإذا تقرر ذلك لم يكن عتق أبي لهب لثويبة قربة معتبرة، ويجوز أن يتفضل الله عليه بما شاء كما تفضل على أبي طالب، والمتبع في ذلك التوقيف نفيا وإثباتا، قلت -أي الحافظ ابن حجر-: وتتمة هذا أن يقع التفضل المذكور إكراما لمن وقع من الكافر البر له ونحو ذلك. والله أعلم" انتهى. فتح الباري (٩/ ١٤٥ - ١٤٦).

وهنا يجب التنبيه إلى أن هناك من يتعلل بهذا الأثر للاستدلال به على مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي، وجعله عيدا، كما ذكر ذلك السيوطي في حسن المقصد في عمل المولد (ص٦٥-٦٦) بقوله: فإذا كان أبو لهب الكافر الذي نزل القرآن بذمه جوزي في النار بفرحه ليلة مولد النبي ﷺ به، فما حال المسلم الموحد من أمة النبي ﷺ يسر بمولده ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته ﷺ؛ لعمري إنما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضله جنات النعيم.

والواقع أنه لا يصح الاحتجاج به على ذلك؛ لأمور منها:

١- أن السند منقطع بين عروة وثويبة، فقد أورده البخاري معلقا من كلام عروة، ولهذا قال ابن حجر في الفتح(٩/ ١٤٥)، بأن الخبر مرسل، أرسله عروة، ولم يذكر من حدثه به.

٢- أن الخبر رؤيا منام، والشرع - كما هو معلوم - لا يثبت فيه التكليف بالرؤيا المنامية إلا أن تكن رؤيا نبي من الأنبياء، فرؤيا الأنبياء حق، أو رؤيا بنى عليها النبي ﷺ حكما كرؤيا الأذان، قال ابن حجر: (وعلى تقدير أن يكون موصولا فالذي في الخبر رؤيا منام، فلا حجة فيه)[1].

---

(١) من الأمور المتقررة لدى العلماء أن الأحكام والأوامر والنواهي لا تؤخذ عن طريق الرؤى والمنامات، وأن من رأى النبي ﷺ في منامه يأمره بفعل أو ينهاه فعليه أن يعرض ذلك على شريعته فما وافقها فهو حق، وما خالفها فالخلل من الرائي، لذا أجمع أهل العلم أن الرؤيا المحضة لا يجوز أن يثبت بها شيء من الأحكام العقدية أو العملية لأن الله سبحانه أكمل لنبينا محمد ﷺ ولأمته الدين وأتم عليهم النعمة قبل وفاته عليه الصلاة والسلام، قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه، ورؤيا من الشيطان).
وقال القرافي في الفروق: "إخباره ﷺ في اليقظة مقدم على الخبر في النوم لتطرق الاحتمال للرائي بالغلط.... فلو قال له عن حلال: إنه حرام، أو عن حرام: إنه حلال، أو عن حكم من أحكام الشريعة، قدمنا ما ثبت في اليقظة على ما رأى في النوم".الفروق (٤/ ٢٤٥ - ٢٤٦).

وقال النووي في شرح مقدمة مسلم: قوله (ان حمزة الزيات رأى النبى ﷺ فى المنام فعرض عليه ما سمعه من أبان فما عرف منه الا شيئا يسيرا) قال القاضي عياض رحمه الله هذا ومثله استئناس واستظهار على ما تقرر من ضعف أبان لا أنه يقطع بأمر المنام ولا أنه تبطل بسببه سنة ثبتت ولا تثبت به سنة لم تثبت وهذا باجماع العلماء هذا كلام القاضي وكذا قاله غيره من أصحابنا وغيرهم فنقلوا الاتفاق على أنه لا يغير بسبب ما يراه النائم ما تقرر فى الشرع وليس هذا الذى ذكرناه مخالفا لقوله ﷺ من رآنى فى المنام =

=

فقد رآني فان معنى الحديث أن رؤيته صحيحة وليست من أضغاث الاحلام وتلبيس الشيطان ولكن لا يجوز اثبات حكم شرعى به لأن حالة النوم ليست حالة ضبط وتحقيق لما يسمعه الرائى وقد اتفقوا على أن من شرط من تقبل روايته وشهادته أن يكون متيقظا لا مغفلا ولا سيء الحفظ ولا كثير الخطأ ولا مختل الضبط والنائم ليس بهذه الصفة فلم تقبل روايته لاختلال ضبطه هذا كله فى منام يتعلق باثبات حكم على خلاف ما يحكم به الولاة أما اذا رأى النبى ﷺ يأمره بفعل ما هو مندوب إليه أو ينهاه عن منهى عنه أو يرشده إلى فعل مصلحة فلا خلاف فى استحباب العمل على وفقه لأن ذلك ليس حكما بمجرد المنام بل تقرر من أصل ذلك الشيء والله أعلم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٥٧): الرؤيا المحضة التي لا دليل على صحتها لا يجوز أن يثبت بها شيء بالاتفاق.

وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية: "قال أبو زكريا النواوي: نقل الاتفاق على أنه لا يغير بسبب ما يراه النائم ما تقرر في الشرع... ولا يجوز إثبات حكم شرعي به.... " الآداب الشرعية (٣/ ٤٤٧).

وقال الشاطبي في الاعتصام (١/ ٣٢١): وأما الرؤيا التي يخبر فيها رسول الله ﷺ الرائي بالحكم فلا بد من النظر فيها أيضًا لأنه إذا أخبر بحكم موافق لشريعته فالحكم بما استقر وإن أخبر بمخالف فمحال لأنه ﷺ لا ينسخ بعد موته شريعته المستقرة في حياته لأن الدين لا يتوقف استقراره بعد موته على حصول المرائي النومية لأن ذلك باطل بالإجماع فمن رأى شيئًا من ذلك فلا عمل عليه وعند ذلك نقول عن رؤياه غير صحيحة إذ لو رآه حقًا لم يخبر بما يخالف الشرع] وانظر أيضًا الموافقات (١/ ١١٤ - ١١٥).

قال ابن حزم في المحلى (٦/ ٥٠٧): الشرائع لا تُؤْخَذ بالمنامات.

وقال الشوكاني في إرشاد الفحول (ص٢٤٩): ولا يخفاك أن الشرع الذي شرعه الله لنا على لسان نبينا ﷺ قد كمله الله ﷻ وقال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} ولم يأتنا دليل يدل على أن رؤيته في النوم بعد موته ﷺإذ قال فيها بقول أو فعل فيها فعلًا يكون دليلًا وحجة بل قبضه الله إليه عند أن كمّل لهذه الأمة ما شرعه لها على لسانه ولم يبق بعد ذلك حاجة للأمة في أمر دينها وقد انقطعت البعثة لتبليغ الشرائع وتبينها بالموت وإن كان رسولًا حيًا وميتًا وبهذا تعلم أن لو قدّرنا ضبط النائم لم يكن ما رآه من قوله ﷺ أو فعله حجة عليه ولا على غيره من الأمة.

=

المسألة الثامنة: في أعمار أهل الجنة

أعد الله الجنة كرامة لأوليائه الذين أطاعوه في الدنيا، وصبروا على امتثال أمره واجتناب نهيه، وجعل فيها كل محبوب لهم كما قال سبحانه: (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) الزخرف/ ٧١، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤). وتبعا لهذا فنحن نؤمن أن حال من يدخل الجنة هو أكمل الحالات وأفضلها وأعلاها من كل الوجوه، سواء علمنا تفاصيل ذلك أم لم نعلم، وإن كان العلم بالتفاصيل في بعض الأحوال مما يزيد من همة المسلم

=

وقال العلامة المعلمي رَحِمَهُ اللَّهُ: "اتفق أهل العلم على أن الرؤيا لا تصلح للحجة، وإنما هي تبشير وتنبيه، وتصلح للاستئناس بها إذا وافقت حجة شرعية صحيحة" التنكيل (٢/ ٢٤٢).

وقال العلامة العثيمين في الشرح الممتع (١٣/ ٢٩٢): وهذه الرؤيا هل يعمل بها أم لا؟ من المعلوم أن الأحكام الشرعية لا تثبت بالمرائي، حتى تعرض هذه الرؤيا على نصوص الشرع؛ فإن وافقت قبلت، وتكون الرؤيا تنبيها فقط، وإن لم توافق ردت، وإلا لأمكن كل واحد أن يقول: رأيت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البارحة، وقال: يا بني عظمني، أقم لي ليلة المولد باحتفال عظيم، وما أكثر مثل هذه المنامات عند الصوفية، أهل الصوفة، وليسوا أهل الصفة، فأهل الصفة أولياء وأتقياء، وأما هؤلاء فبدع وخرافات، إذا رأى الإنسان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منامه بصورته المعروفة، وأوصاه بشيء فإنه ليس حكما شرعيا؛ لأن إبلاغ الرسول عليه الصلاة والسلام انتهى بموته.

وبهذا يتبين ضلال أهل البدع والصوفية الذين يزعمون أنهم رأوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه أمرهم ونهاهم بأمور تخالف الشريعة أو لم تثبت في الشريعة، لأن الرؤى لا يعول عليها في إثبات الأحكام الشرعية.

ورغبته في فعل الخير.

ومن هذه الأحوال التي هي أكمل الأحوال أعمار أهل الجنة، فجميع أهل الجنة من الشباب والشيوخ والكهول إنما يدخلون الجنة في سن الشباب وقد ورد فيها الحديث بأنهم يدخلونها (أبناء ثلاث وثلاثين)[1].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا السن إن فيه من الحكمة ما لا يخفى فإنه أبلغ وأكمل في استيفاء اللذات، لأنه أكمل سن القوة. (حادي الأرواح ص ١١١).

أما زيادة أعمارهم من عدمها فقد وردت أحاديث لا تثبت فيها أنهم لا تزيد أعمارهم، والذي ثبت عن النبي ﷺ أنهم (لا يفنى شبابهم)[2]، وأيا كان الحال

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٥، رقم ٧٩٢٠)، وابن أبى شيبة في مصنفه (٧/ ٣٥، رقم ٣٤٠٠٦) وهو عند أحمد (٥/ ٢٤٣، رقم ٢٢١٥٩)، والترمذى (٤/ ٦٨٢، رقم ٢٥٤٥)، والطبرانى (٢٠/ ٦٤ رقم ١١٨) من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دون قوله (وهم على خلق آدم ستون ذراعا في عرض سبعة أذرع) والحديث قال عنه العلامة الألباني في صحيح الترغيب (٣٧٠٠): حسن لغيره، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: حسن بطرقه وشواهده دون قوله "في عرض سبع أذرع" تفرد بها علي بن زيد وهو ﷺ ضعيف.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٠٧٥)، وأحمد (١٣/ ٤١٠ - الرسالة)، وعبد بن حميد (١٤٢٠)، والترمذي (٢٥٢٦)، وابن ماجة (١٧٥٢)، وابن حبان (٧٣٨٧) والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي وليس هو عندي بمتصل وقد روي هذا الحديث بإسناد آخر عن أبي مدلة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وحسنه الحافظ ابن حجر كما في الفتوحات الربانية (٤/ ٣٣٨)، وحسنه لغيره العلامة الألباني في الصحيحة (٨٧٠)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٥/ ١٨٩)، وصححه الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٢/ ٥٠٥ - ٥٠٦)، وقال الشيخ مشهور في تعليقه على كتاب المجاسة (٣١٧٣) عن متن الحديث: حسن لشواهده، وقال العدوي في تعليقه على المنتخب (٢/ ٣٣١): صحيح لشواهده =

فإن من المتقرر من القاعدة السابقة أنهم يكونون في أكمل حال، فهم باقون في سن الشباب دائما وأبدا، نعيمهم يزيد ولا ينقص، وعيشهم يطيب ولا ينغص.

(فرع): الولدان المخلدون

قال الله تعالى في شأن أهل الجنة: (يطوف عليهم ولدان مخلدون) الواقعة / ١٧ وقال تعالى: (ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) الإنسان/ ١٩، قال ابن كثير في تفسيره (٨/ ٢٩٢): أي: يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة {مخلدون} أي: على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن. ومن فسرهم بأنهم مخرصون في آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك؛ لأن الصغير هو

=

إذ إن في إسناده أبا المدلة "لم يرو عنه سوى سعد أبي مجاهد الطائي ذكره ابن حبان في الثقات وقال: اسمه عبد الله بن عبد الله وقال غيره: هو أخي أبي الحباب سعيد بن يسار هذا حكاه البخاري في "تاريخه" عن خلاد بن يحيى، عن سعدان الجهني، عن سعد الطائي، عن أبي مدلة أخي سعيد بن يسار قال: وقال الليث أبو مرثد، ولا يصح. وقال ابن المديني: أبو مدلة مولى عائشة لا يعرف اسمه مجهول لم يرو عنه غير أبي مجاهد". انتهى من "التهذيب". وفي "الميزان": لا يكاد يعرف. قلت: قال ابن ماجه "حديث رقم ١٧٥٢" حدثنا علي بن محمد، ثنا وكيع، عن سعدان الجهني، عن سعد أبي مجاهد الطائي -وكان ثقة- عن أبي مدلة وكان ثقة، عن أبي هريرة... قلت: فهذا يفيد أن بعض رجال السند وثق أبا مدلة فبانضمام هذا إلى توثيق ابن حبان يتقوى أبو مدلة شيئا ما. وانظر الشواهد الآتية إن شاء الله بعد قليل.،.وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٣/ ٤١٠ - ٤١١): حديث صحيح بطرقه وشواهده، وأبو المدلة مولى عائشة أم المؤمنين لم يرو عنه غير سعد الطائي -وذكره ابن حبان في "الثقات" وسماه عبيد الله بن عبد الله، وقال علي ابن المديني- فيما نقله الحافظ في "التهذيب". أبومدلة مولى عائشة لا يعرف اسمه، مجهول، لم يرو عنه غير أبي مجاهد الطائي. وقال الذهبي في "الميزان": لا يكاد يعرف، وقال الحافظ في "التقريب": مقبول.

الذي يليق له ذلك دون الكبير.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم في حادي الأرواح (ص٢١٤): قال تعالى: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} وقال تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا} قال أبو عبيدة والفراء: مخلدون لا يهرمون ولا يتغيرون قال والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط أنه لمخلد وإذا لم تذهب أسنانه من الكبر قيل هو مخلد وقال آخرون مخلدون مقرطون مسورون أي في آذانهم القرطة وفي أيديهم الأساور وهذا اختيار ابن الأعرابي قال مخلدون مقرطون بالخلدة وجمعها خلد وهي القرطة.

وروى عمرو عن أبيه خلد جاريته إذا حلاها بالخلد وهي القرطة وخلد إذا أسن ولم يشب وكذلك قال سعيد بن جبير مقرطون واحتج هؤلاء بحجتين

احداهما: أن الخلود عام لكل من دخل الجنة فلا بد أن تكون الولدان موصوفين بتخليد مختص بهم وذلك هو القرطة

الحجة الثانية قول الشاعر:

ومخلدات باللجين كأنما ... أعجازهن رواكد الكثبان

وقال الأولون: الخلد هو البقاء قال ابن عباس: غلمان لا يموتون وقول ترجمان القرآن في هذا كاف وهو قول مجاهد والكلبي ومقاتل قالوا لا يكبرون ولا يهرمون ولا يتغيرون وجمعت طائفة بين القولين وقالوا هم ولدان لا يعرض لهم الكبر والهرم وفي آذانهم القراطة فمن قال مقرطون أراد هذا المعنى أن كونهم ولدان أمر لازم لهم وشبههم سبحانه باللؤلؤ المنثور لما فيه من البياض وحسن الخلقة.

وفي كونه منثورا فائدتان

احداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم

والثانية: أن اللؤلؤ إذا كان منثورا ولا سيما على بساط من ذهب أو حرير كان أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعا في مكان واحد

وقد اختلف في هؤلاء الولدان هل هم من ولدان الدنيا أم أنشأهم الله في الجنة إنشاء على قولين فقال علي بن أبي طالب والحسن البصري هم أولاد المسلمين الذين يموتون ولا حسنة لهم ولا سيئة لهم يكونون خدم أهل الجنة وولدانهم إذ الجنة لا ولادة فيها

قال الحاكم أنا عبد الرحمن بن الحسن ثنا إبراهيم ابن الحسين ثنا آدم ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن في قوله ولدان مخلدون قال لم يكن لهم حسنات ولا سيئات فيعاقبون عليها فوضعوا بهذا الموضع ومن أصحاب هذا القول من قال هم أطفال المشركين فجعلهم الله خدما لأهل الجنة واحتج هؤلاء بما رواه يعقوب بن عبد الرحمن الفاري عن أبي حازم قال المديني عن يزيد الرقاشي عن أنس عن النبي ﷺ قال: "سألت ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم فهم خدم أهل الجنة "يعنى الأطفال قال الدارقطني ورواه عبد العزيز الماجشون عن ابن المنكدر عن يزيد الرقاشي عن النبي ﷺ انتهى ورواه فضيل بن سليمان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن الزهري عن أنس وهذه الطرق ضعيفة فيزيد واه وفضيل بن سليمان متكلم فيه وعبد الرحمن بن إسحاق ضعيف

قال ابن قتيبة واللاهون من لهيت عن الشيء إذا غفلت عنه وليس هو من لهوت وأصحاب القول الأول لا يقولون أن هؤلاء أولاد ولدوا لأهل الجنة فيها وإنما يقولون هم غلمان أنشأهم الله في الجنة كما أنشأ الحور العين

قالوا وأما ولدان أهل الدنيا فيكونون يوم القيامة أبناء ثلاث وثلاثين لما رواه

ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: (من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون بني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبدا وكذلك أهل النار)(١) رواه الترمذي.

والأشبه أن هؤلاء الولدان مخلوقون من الجنة كالحور العين خدما لهم وغلمانا كما قال تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ} وهؤلاء غير أولادهم فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم ولا يجعلهم غلمانا لهم

وقد تقدم في حديث أنس عن النبي ﷺ: "أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وفيه يطوف على ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون والمكنون المستور المصون الذي لم تبتذله الأيادي وإذا تأملت لفظة الولدان ولفظة ويطوف عليهم واعتبرتها بقوله ويطوف عليهم غلمان لهم وضممت ذلك إلى حديث أبي سعيد المذكور آنفا علمت أن الولدان غلمان أنشأهم الله تعالى في الجنة خدما لأهلها والله أعلم.اهـ.

وسئل شيخ الإسلام كما في مجموع فتاواه (٤/ ٣١١): هل يتناسل أهل

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥، رقم ١١٧٣٣)، وأبو يعلى (٢/ ٥٢٥، رقم ١٣٨٦)، وابن حبان (١٦/ ٤٠٩، رقم ٧٣٩٧)، وابن المبارك في الزهد (٢٣٦، ٢٥٨) -زوائد نعيم بن حماد-، والترمذي (٢٥٦٢)، والطبري في التفسير (٢٦/ ١٧٥-١٧٦)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٢٥٩)، والحاكم (٢/ ٤٢٦-٤٢٧ و٤٧٥)، والبيهقي في البعث والنشور (٣٣٠) و(٣٧٥)، والبغوي في شرح السنة (٤٣٨١) والحديث ضعفه الترمذي بقوله: غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين، واستغربه البغوي، وصححه الحكم، وتعقبه الذهبي بقوله: دراج صاحب عجائب، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف الترغيب (٢٢١٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده ضعيف.

الجنة؟. " والولدان " هل هم ولدان أهل الجنة؟ وما حكم الأولاد وأرواح أهل الجنة والنار إذا خرجت من الجسد هل تكون في الجنة تنعم؟ أم تكون في مكان مخصوص إلى حيث يبعث الله الجسد؟ وما حكم ولد الزنا إذا مات يكون من أهل الأعراف أو في الجنة؟ وما الصحيح في أولاد المشركين هل هم من أهل النار أو من أهل الجنة؟ وهل تسمى الأيام في الآخرة كما تسمى في الدنيا مثل السبت والأحد.

فأجاب: الولدان الذين يطوفون على أهل الجنة خلق من خلق الجنة؛ ليسوا بأبناء أهل الدنيا بل أبناء أهل الدنيا إذا دخلوا الجنة يكمل خلقهم كأهل الجنة على صورة آدم أبناء ثلاث وثلاثين سنة في طول ستين ذراعا. وقد روي أيضا أن العرض سبعة أذرع. وأرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكافرين في النار؛ تنعم أرواح المؤمنين وتعذب أرواح الكافرين إلى أن تعاد إلى الأبدان.

وولد الزنا إن آمن وعمل صالحا دخل الجنة وإلا جوزي بعمله كما يجازى غيره والجزاء على الأعمال؛ لا على النسب وإنما يذم ولد الزنا لأنه مظنة أن يعمل عملا خبيثا كما يقع كثيرا. كما تحمد الأنساب الفاضلة لأنها مظنة عمل الخير؛ فأما إذا ظهر العمل فالجزاء عليه وأكرم الخلق عند الله أتقاهم. وأما أولاد المشركين فأصح الأجوبة فيهم جواب رسول الله ﷺ كما في الصحيحين {ما من مولود إلا يولد على الفطرة} " الحديث {قيل يا رسول الله أرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين} " فلا يحكم على معين منهم لا بجنة ولا بنار ويروى {أنهم يوم القيامة يمتحنون في عرصات القيامة فمن أطاع الله حينئذ دخل الجنة ومن عصى دخل النار} ودلت الأحاديث الصحيحة أن بعضهم في الجنة وبعضهم في النار. والجنة ليس فيها

شمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار لكن تعرف البكرة والعشية بنور يظهر من قبل العرش والله أعلم.

المسألة التاسعة: حديث (نفسي جهنم)، والرد على من كذبه

الحديث المشار إليه حديث صحيح في أعلى درجات الصحة، وقد اتفق على إخراجه الإمامان البخاري(٣٠٨٧) ومسلم(٦١٧)، رحمهما الله، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير).

قال الحافظ في الفتح (٢/ ١٩): "والمراد بالزمهرير: شدة البرد، واستشكل وجوده في النار، ولا إشكال؛ لأن المراد بالنار: محلها، وفيها طبقة زمهريرية" انتهى.

ثانيا: هل كان كلام النار، وشكوتها، بلسان المقال أم بلسان الحال؟ أكثر العلماء -وهو الصواب بلا ريب- على أنه كان بلسان المقال.

قال ابن عبد البر في التمهيد (٥/ ١١ - ١٦): "وأما قوله في هذا الحديث: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضا.... الحديث): فإن قوما حملوه على الحقيقة، وأنها أنطقها الذي أنطق كل شيء، واحتجوا بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم) النور/ ٢٤، وبقوله: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) الإسراء/ ٤٤، وبقوله: (يا جبال أوبي معه) سبأ/ ١٠، أي: سبحي معه، وقال: (يسبحن بالعشي والأشراق) ص/ ١٨، وبقوله: (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) ق/ ٣٠، وما كان من مثل هذا، وهو في القرآن كثير، حملوا ذلك كله على الحقيقة، لا على

المجاز، وكذلك قالوا في قوله ﷻ: (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا) الفرقان/ ١٢، و(تكاد تميز من الغيظ) الملك/ ٨، وما كان مثل هذا كله.

وقال آخرون في قوله ﷻ: (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) و(تكاد تميز من الغيظ): هذا تعظيم لشأنها، ومثل ذلك قوله ﷻ: (جدارا يريد أن ينقض) الكهف/ ٧٧، فأضاف إليه الإرادة مجازا، وجعلوا ذلك من باب المجاز، والتمثيل في كل ما تقدم ذكره، على معنى أن هذه الأشياء لو كانت مما تنطق، أو تعقل: لكان هذا نطقها وفعلها.

فمن حمل قول النار وشكواها على هذا: احتج بما وصفنا، ومن حمل ذلك على الحقيقة: قال: جائز أن ينطقها الله، كما تنطق الأيدي، والجلود، والأرجل يوم القيامة، وهو الظاهر من قول الله ﷻ: (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) ق/ ٣٠، ومن قوله: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) الإسراء/ ٤٤، و(قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) النمل/ ١٨، وقال: قوله ﷻ: (تكاد تميز من الغيظ) الملك/ ٨: أي: تتقطع عليهم غيظا، كما تقول: فلان يتقد عليك غيظا، وقال ﷻ: (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا) الفرقان/ ١٢، فأضاف إليها الرؤية، والتغيظ، إضافة حقيقية، وكذلك كل ما في القرآن من مثل ذلك.

ومن هذا الباب عندهم قوله: (فما بكت عليهم السماء والأرض) الدخان/ ٢٩، و(تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا) مريم/ ٩٠، و(قالتا أتينا طائعين) فصلت/ ١١، (وإن منها لما يهبط من خشية الله) البقرة/ ٧٤، قالوا: وجائز أن تكون للجلود إرادة لا تشبه إرادتنا، كما

للجمادات تسبيح وليس كتسبيحنا، وللجبال، والشجر سجود وليس كسجودنا.

والاحتجاج لكلا القولين يطول، وليس هذا موضع ذكره، وحمل كلام الله تعالى، وكلام نبيه ﷺ على الحقيقة: أولى بذوي الدين، والحق؛ لأنه يقص الحق، وقوله الحق، تبارك وتعالى علوا كبيرا" انتهى.

ثم اختلف العلماء أيضا في نفسي جهنم، هل هما على الحقيقة، أم على المجاز؟ وأكثر العلماء على أن ذلك على الحقيقة أيضا.

قال الحافظ في الفتح (٢/ ١٩): "قال القرطبي: لا إحالة في حمل اللفظ على حقيقته، قال: وإذا أخبر الصادق بأمر جائز: لم يحتج إلى تأويله، فحمله على حقيقته: أولى، وقال النووي نحو ذلك، ثم قال: حمله على حقيقته هو الصواب، وقال نحو ذلك التوربشتي.

ورجح البيضاوي حمله على المجاز، فقال: شكواها مجاز عن غليانها، وأكلها بعضها بعضا: مجاز عن ازدحام أجزائها، وتنفسها: مجاز عن خروج ما يبرز منها، وقال الزين بن المنير: المختار حمله على الحقيقة؛ لصلاحية القدرة لذلك [يعني: أن الله تعالى يقدر على ذلك]، ولأن استعارة الكلام للحال وإن عهدت وسمعت، لكن الشكوى، وتفسيرها، والتعليل له، والإذن، والقبول، والتنفس، وقصره على اثنين فقط: بعيد من المجاز خارج عما ألف من استعماله" انتهى.

وقال الزرقاني في شرح الموطأ (١/ ٥٩): "(أن النار اشتكت إلى ربها) حقيقة، بلسان المقال، كما رجحه من فحول الرجال: ابن عبد البر، وعياض، والقرطبي، والنووي، وابن المنير، والتوربشتي، ولا مانع منه سوى ما يخطر للواهم من الخيال" انتهى.

وقد رد بعض الجهلة هذا الحديث بزعم أنه مخالف للواقع، من أن اختلاف الفصول إنما يرجع للعلاقة بين الشمس والأرض.

والجواب على هؤلاء أسهل مما يتصورون؛ وذلك أن هذا الحديث ليس فيه أن اختلاف الفصول أو حصول الشتاء والصيف هو بسبب نفسي جهنم.

بل الحديث نفسه يدل على وجود الفصلين (الشتاء والصيف) ابتداء، وأن "شدة الحر" و"شدة البرد" هما من أثر نفسي جهنم، لا أنهما يكونان "الصيف" و"الشتاء"، وهذا واضح بأدنى تأمل في الحديث.

قال ابن عبد البر في " التمهيد " (٥/ ٨): "وأما قوله: (فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف): فيدل على أن نفسها في الشتاء: غير الشتاء، ونفسها في الصيف: غير الصيف" انتهى.

وقد رد آخرون الحديث لأن سبب شدة الحر أو شدة البرد معروف، وهو بعد الشمس أو قربها من الأرض، وقد أجاب العلماء عن ذلك أيضا، وبينوا أنه لا تعارض بين الحديث، وبين الواقع.

فقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذا الحديث: دليل على أن الجمادات لها إحساس لقوله: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا)، من شدة الحر، وشدة البرد، فأذن الله لها أن تتنفس في الشتاء، وتتنفس في الصيف، تتنفس في الصيف ليخف عليها الحر، وفي الشتاء ليخف عليها البرد، وعلى هذا فأشد ما نجد من الحر: يكون من فيح جهنم، وأشد ما يكون من الزمهرير: من زمهرير جهنم.

فإن قال قائل: هذا مشكل حسب الواقع؛ لأن من المعروف أن سبب البرودة في الشتاء هو: بعد الشمس عن مسامتة الرؤوس، وأنها تتجه إلى الأرض على

جانب، بخلاف الحر، فيقال: هذا سبب حسي، لكن هناك سبب وراء ذلك، وهو السبب الشرعي الذي لا يدرك إلا بالوحي، ولا مناقضة أن يكون الحر الشديد الذي سببه أن الشمس تكون على الرؤوس أيضا يؤذن للنار أن تتنفس فيزداد حر الشمس، وكذلك بالنسبة للبرد: الشمس تميل إلى الجنوب، ويكون الجو باردا بسبب بعدها عن مسامتة الرؤوس، ولا مانع من أن الله تعالى يأذن للنار بأن يخرج منها شيء من الزمهرير ليبرد الجو، فيجتمع في هذا: السبب الشرعي المدرك بالوحي، والسبب الحسي، المدرك بالحس.

ونظير هذا: الكسوف، والخسوف، الكسوف معروف سببه، والخسوف معروف سببه.

سبب خسوف القمر: حيلولة الأرض بينه، وبين الشمس، ولهذا لا يكون إلا في المقابلة، يعني: لا يمكن يقع خسوف القمر إلا إذا قابل جرمه جرم الشمس، وذلك في ليالي الإبدار، حيث يكون هو في المشرق، وهي في المغرب أو هو في المغرب، وهي في المشرق.

أما الكسوف فسببه: حيلولة القمر بين الشمس، والأرض، ولهذا لا يكون إلا في الوقت الذي يمكن أن يتقارب جرما النيرين، وذلك في التاسع والعشرين أو الثلاثين، أو الثامن والعشرين، هذا أمر معروف، مدرك بالحساب، لكن السبب الشرعي الذي أدركناه بالوحي هو: أن الله (يخوف بهما العباد)، ولا مانع من أن يجتمع السببان الحسي والشرعي، لكن من ضاق ذرعا بالشرع: قال: هذا مخالف للواقع ولا نصدق به، ومن غالى في الشرع: قال: لا عبرة بهذه الأسباب الطبيعية، ولهذا قالوا: يمكن أن يكسف القمر في ليلة العاشر من الشهر!.... لكن حسب سنة الله ﷻ في هذا الكون: أنه لا يمكن أن ينخسف القمر في الليلة العاشر

أبدا" انتهى. " شرح صحيح مسلم " (شرح كتاب الصلاة ومواقيتها).

المسألة العاشرة: هل في الجنة حمل وولادة

ذهب بعض العلماء إلى أن العبد إذا تمنى في الجنة أن يكون له ولد، فإن الله يحقق أمنيته بذلك، واستدلوا على ذلك بحديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة، كما يشتهي)(١).

قوله (كان حمله) أي: حمل الولد (ووضعه وسنه) أي: كمال سنه وهو الثلاثون سنة، (كما يشتهي) من أن يكون ذكرا أو أنثى أو نحو ذلك، وعلى هذا القول كثير من أهل العلم.

وقال بعض أهل العلم: في الجنة جماع ولا يكون ولد، وهذا القول روي عن طاوس ومجاهد وإبراهيم النخعي.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد روي عن أبي رزين العقيلي عن النبي ﷺ قال: (إن أهل الجنة لا يكون لهم فيها ولد).

والحديث الذي أشار إليه البخاري هو حديث أبي رزين العقيلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث طويل وفيه: (الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا، ويلذذن بكم، غير أن لا توالد)(٢)، والحديث صريح في انتفاء الولادة، غير

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٩، رقم ١١٠٧٨)، والدارمى (٢/ ٤٣٤، رقم ٢٨٣٤)، والترمذى (٤/ ٦٩٥، رقم ٢٥٦٣)، وأبو يعلى (٢/ ٣١٧، رقم ١٠٥١)، وأبو الشيخ فى العظمة (٣/ ١٠٨٣، رقم ٥٨٥)، وابن حبان (١٦/ ٤١٧، رقم ٧٤٠٤)، وابن ماجه (٢/ ١٤٥٢، رقم ٤٣٣٨)، والديلمي في مسند الفردوس (٤/ ١٨٨، رقم ٦٥٨٢) والحديث حسنه الترمذي، وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده حسن.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زياداته على المسند (٤/ ١٣، رقم ١٦٣٠٧)، وفي السنة =

ضعيف على الراجح.

وقد أجيب عن حديث أبي سعيد رضي الله عنه: (المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي) بأن في ثبوته نظرا، ولذلك قال عنه ابن القيم: إسناده على شرط الصحيح، ولكنه غريب جدا. "حادي الأرواح" (ص ٢١٣).

وقال: "وحديث أبي سعيد الخدري هذا أجود أسانيده إسناد الترمذي وقد حكم بغرابته، وأنه لا يعرف إلا من حديث أبي الصديق الناجي، وقد اضطرب لفظه " انتهى.

وقال الإمام إسحق ابن راهويه رحمه الله في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا اشتهى

=

(٩٥١)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٢٤٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٢٤، ٦٣٦)، والطبراني في الكبير (١٩/ رقم ٤٧٧)، والحاكم (٤/ ٥٦٠) والحديث صححه الحاكم، فتعقبه الذهبي بقوله: يعقوب بن محمد بن عيسى الزهري ضعيف، وقال الإمام ابن القيم في الزاد (٣/ ٥٨٨-٥٩١): "هذا حديث كبير جليل، تنادي جلالته وفخامته وعظمته أنه قد خرج من مشكاة النبوة، لا يعرف إلا من حديث عبد الرحمن بن المغيرة بن عبد الرحمن المدني، رواه عنه إبراهيم بن حمزة الزبيري، وهما من كبار علماء المدينة، ثقتان محتج بهما في الصحيح، احتج بهما إمام أهل الحديث محمد بن إسماعيل البخاري، ورواه أئمة أهل السنة في كتبهم، وتلقوه بالقبول، وقابلوه بالتسليم والانقياد، ولم يطعن أحد منهم فيه ولا في أحد رواته! ثم ساق من رواه من الأئمة، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٣٨- ٣٤٠): رواه عبد الله والطبراني بنحوه، وأحد طريقي عبد الله إسنادها متصل، ورجالها ثقات!، وضعفه العلامة الألباني في "ظلال الجنة" (٦٣٦)، وقال الأرناؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٦/ ١٢٨): إسناده ضعيف، مسلسل بالمجاهيل، عبد الرحمن بن عياش، ودلهم ابن الأسود، وأبوه الأسود بن عبد الله بن حاجب، مجهولون، ولم يؤثر توثيقهم إلا عن ابن حبان كعادته في توثيق المجاهيل، وعاصم بن لقيط، إن لم يكن ابن صبرة، فهو مجهول كذلك.

المؤمن الولد في الجنة كان في ساعة واحدة كما يشتهي) قال: ولكن لا يشتهي.

ومعنى كلام إسحاق أن قوله ﷺ (إذا اشتهى المؤمن..) إنما هو على الفرض والتقدير، فكلمة "إذا" وضعت موضع "لو" المفيدة للفرض.

وذكر ابن القيم عدة وجوه يترجح بها أن الجنة ليس فيها ولادة منها:

الأول: حديث ابن رزين.

الثاني: قوله تعالى: (ولهم فيها أزواج مطهرة) وهن اللاتي طهرن من الحيض والنفاس والأذى.

وعن مجاهد قال: "مطهرة من الحيض والغائط والبول والنخام والبصاق والمني والولد".

الثالث: أن الله سبحانه جعل الحمل والولادة مع الحيض والمني، فلو كانت النساء يحبلن في الجنة لم ينقطع عنهن الحيض والإنزال.

الرابع: أنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة) رواه مسلم (٥٠٨٥). ولو كان في الجنة إيلاد لكان الفضل لأولادهم، وكانوا أحق به من غيرهم.

الخامس: أنه سبحانه وتعالى قال: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) الطور/ ٢١، فأخبر سبحانه أنه يكرمهم بإلحاق ذرياتهم الذين كانوا لهم في الدنيا، ولو كان ينشأ لهم في الجنة ذرية أخرى لذكرهم كما ذكر ذرياتهم الذين كانوا في الدنيا، لأن قرة أعينهم تكون بهم كما هي بذرياتهم من أهل الدنيا.

السادس: أنه إما أن يقال باستمرار التناسل فيها لا إلى غاية، أو إلى غاية ثم تنقطع، وكلاهما مما لا سبيل إلى القول به، لاستلزام الأول اجتماع أشخاص لا

تتناهى، واستلزام الثاني انقطاع نوع من لذة أهل الجنة وسرورهم وهو محال، ولا يمكن أن يقال بتناسل يموت معه نسل، ويخلفه نسل، إذ لا موت هناك.

السابع: أن الجنة لا ينمو فيها الإنسان كما ينمو في الدنيا، فلا ولدان أهلها ينمون ويكبرون، ولا الرجال ينمون، بل هؤلاء ولدان صغار لا يتغيرون، وهؤلاء أبناء ثلاث وثلاثين لا يتغيرون، فلو كان في الجنة ولادة لكان المولود ينمو ضرورة حتى يصير رجلا، ومعلوم أن من مات من الأطفال يردون أبناء ثلاث وثلاثين من غير نمو.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والجنة ليست دار تناسل بل دار بقاء وخلد، لا يموت من فيها فيقوم نسله مقامه" انتهى. "حادي الأرواح" (١/ ١٧٣).

المسألة الحادية عشرة: هل اللغة العربية هي لغة أهل الجنة

لم يرد في القرآن أو في السنة الصحيحة -فيما نعلم- بيان اللغة التي يتكلم بها أهل الجنة، والوارد في ذلك حديث لا يصح عن نبينا ﷺ، وبعض الآثار، فقد روى الطبراني في الأوسط والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (أحبوا العرب لثلاث لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي)[1].

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٤٨) ومن طريقه -ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٤١) -والطبراني في الكبير (١١/ ١٨٥)، والأوسط (مجمع البحرين: ق ٢٠٣/ ب)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٨٧)، ومعرفة علوم الحديث (ص ١٦١ - ١٦٢)، وعنه البيهقي في الشعب (٢/ ١٥٩، ٢٠٣) والحديث قال عنه الإمام أبو حاتم الرازي كما في العلل لابنه (٢/ ٣٧٥ - ٣٧٦): هذا حديث كذب، ونقل الحافظ في اللسان عن العقيلي قوله فيه: منكر ضعيف المتن، لا أصل له وضعفه العراقي في محجة القرب في محبة العرب وقال الهيثمي في المجمع فيه العلاء بن عمرو الحنفي وهو مجمع على ضعفه وقال الحاكم صحيح ورده الذهبي في التلخيص بأن فيه يحيى بن بريدة الأشعري =

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٥٨): "وكذلك روى أبو جعفر محمد بن عبد الله الحافظ الكوفي المعروف بمطين حدثنا العلاء بن عمرو الحنفي حدثنا يحيى بن زيد الأشعري حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (أحب العرب لثلاث: لأنه عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي) قال الحافظ السلفي: هذا حديث حسن. فما أدري أراد حسن إسناده على طريقة المحدثين، أو حسن متنه على الاصطلاح العام، وأبو الفرج بن الجوزي ذكر هذا الحديث في الموضوعات، وقال: قال الثعلبي: لا أصل له، وقال ابن حبان: يحيى بن زيد يروي المقلوبات عن الأثبات، فبطل الاحتجاج به، والله أعلم " انتهى.

وروى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي).

قال الألباني في السلسلة الضعيفة رقم ١٦١: موضوع.

والحاصل أنه لم يرد دليل صحيح يبين اللغة التي يتكلم بها أهل الجنة، ولهذا يتعين السكوت عن هذه المسألة وعدم الخوض فيها وتفويض علمها إلى الله تعالى؛ والانشغال بما يترتب عليه عمل ينفع في تلك الدار.

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: بماذا يخاطب الناس يوم البعث؟ وهل

=

ضعفه أحمد وغيره والعلاء بن عمرو الحنفي وليس بعمدة ومحمد بن الفضل متهم قال وأظن الحديث موضوعًا انتهى وفي الميزان ترجمة العلاء عن ابن حبان لا يجوز الاحتجاج به بحال ثم ساق له هذا الخبر وقال أبو حاتم هذا موضوع وقال هذا كذاب انتهى وذكر مثله في اللسان وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، وقال السخاوي: ابن بريدة والراوي عنه ضعيفان وقد تفردا به كما قال البيهقي ومتابعه ابن الفضل لا يتعد به لاتهامه بالكذب انتهى، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (١٦٠): موضوع.

يخاطبهم الله تعالى بلسان العرب؟ وهل صح أن لسان أهل النار الفارسية وأن لسان أهل الجنة العربية؟

فأجاب: "الحمد لله رب العالمين لا يعلم بأي لغة يتكلم الناس يومئذ، ولا بأي لغة يسمعون خطاب الرب جل وعلا؛ لأن الله تعالى لم يخبرنا بشيء من ذلك ولا رسوله عليه الصلاة والسلام، ولم يصح أن الفارسية لغة الجهنميين، ولا أن العربية لغة أهل النعيم الأبدي، ولا نعلم نزاعا في ذلك بين الصحابة رضي الله عنهم، بل كلهم يكفون عن ذلك لأن الكلام في مثل هذا من فضول القول... ولكن حدث في ذلك خلاف بين المتأخرين، فقال ناس: يتخاطبون بالعربية، وقال آخرون: إلا أهل النار فإنهم يجيبون بالفارسية، وهى لغتهم في النار. وقال آخرون: يتخاطبون بالسريانية لأنها لغة آدم وعنها تفرعت اللغات. وقال آخرون: إلا أهل الجنة فإنهم يتكلمون بالعربية. وكل هذه الأقوال لا حجة لأربابها لا من طريق عقل ولا نقل بل هي دعاوى عارية عن الأدلة والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم " انتهى من "مجموع الفتاوى" (٤/ ٢٩٩). والله أعلم.

المسألة الثانية عشرة: مصير الأطفال الذين ماتوا صغارا

المسألة فيها شقين الأول مصير أطفال المسلمين، والثاني مصير أطفال الكفار

أما الأول وهو مصير أطفال المسلمين فقد قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى (٥/ ٥٣٥): وأطفال المسلمين في الجنة إجماعا وأما أطفال المشركين فأصح الأجوبة فيهم ما ثبت في الصحيحين: أنه سئل عنهم رسول الله ﷺ فقال: [الله أعلم بما كانوا عاملين] فلا نحكم على معين منهم لا بجنة ولا نار ويروى أنهم يمتحنون يوم القيامة فمن أطاع منهم دخل الجنة ومن عصى دخل النار وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن بعضهم في الجنة وبعضهم في النار والصحيح

في أطفال المشركين أنهم يمتحنون في عرضات القيامة.اهـ.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٣): فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس (أي عامة العلماء) وهو الذي نقطع به إن شاء الله ﷻ.اهـ.

وقال الإمام أحمد كما في حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٧/ ٨٣): من يشك أن أولاد المسلمين في الجنة؟! وقال أيضا: إنه لا اختلاف فيهم.اهـ.

وقال النووي في شرح مسلم (١٦ / ٢٠٧): أجمع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة؛ لأنه ليس مكلفا.اهـ.

وقال العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٥/ ١٨٢): فأولاد الكفار يمتحنون يوم القيامة كأهل الفترة، فإن أجابوا جوابا صحيحا نجوا وإلا صاروا مع الهالكين. وقال جمع من أهل العلم إن أطفال الكفار من الناجين؛ لكونهم ماتوا على الفطرة؛ ولأن النبي ﷺ رآهم حين دخل الجنة في روضة مع إبراهيم عليه السلام هم وأطفال المسلمين.

وهذا قول قوي لوضوح دليله، أما أطفال المسلمين فهم من أهل الجنة بإجماع أهل السنة والجماعة. والله أعلم وأحكم.اهـ.

وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٥/ ٨٥٧): السائل: في تفسير القرآن والتفاسير، إنسان: طفل، إذا مات غير مكلف: سنتين أو خمس سنوات عمره أو أقل أو أكثر تحت التكليف أنه يمتحن يوم القيامة من الله سبحانه وتعالى.

الشيخ: وبعد الامتحان ماذا يكون؟

السائل: يقرر إما جنة أو نار إذا أطاع أو خالف.

الشيخ: لا، هذا ما هو صحيح.

السائل: حسب ما قرأت.

الشيخ: لا هذا ليس صحيحًا.

مداخلة: علمه عند الله.

الشيخ: هذا علمه عند الله، هذا علم الله في القرآن، ماذا يقول ربنا ﷻ في القرآن الكريم: ألحقنا بهم ذرياتهم، من يأتي بالآية.

مداخلة: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ} (الطور:٢١).

الشيخ: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ} (الطور:٢١) أين أنت من هذه الآية، كيف تقول أنت هؤلاء الأطفال يحاسبون؟

السائل: نحن قرأنا في تفاسير كثيرة...

الشيخ: لا بارك الله فيك، هذه الآية عندك صريحة.

السائل: الإخوان مشاركون لي في هذه الشغلة وقرؤوا الموضوع هذا.

الشيخ: لا، ما قرؤوا الموضوع، قرؤوا موضوعًا ثانيًا أنا أقول لك ما هو، أطفال المشركين، هذا الموضوع الذي قرأتوه، أما أطفال المسلمين: «ألحقنا بهم ذريتهم»، هذا ما فيه إشكال أبدًا، أطفال المؤمنين ملحقون بآبائهم، حتى في أشياء لها فضيلة كبيرة جدًا جدًا، وما أدري كيف مريت عليها، قال عليه السلام: «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنثة -أي: التكليف- إلا لم

تمسه النار إلا تحلة القسم»[١] وليس هذا فقط ليس أنهم لا يدخلون النار وهم ملحقون بآبائهم بل يكونون شفعاء لآبائهم، جاء في صحيح مسلم أن الأطفال الصبيان غير البالغين يقفون عند باب الجنة يبكون، فيرسل الله إليهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: سلهم ما بهم وهو أعلم ما بهم ربنا عَزَّ وَجَلَّ، فيأتيهم: ما بالكم؟ قالوا: لا ندخل الجنة إلا وآباؤنا معنا، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: أدخلوهم وآباؤهم معهم،...، البحث الذي قرأته والله أعلم هم أطفال المشركين، فيه ثلاثة أقوال لعلماء المسلمين: أطفال المشركين في الجنة، وهم خدم أهل الجنة هذا قول، القول الثاني هم يمتحنون في عرصات يوم القيامة كما امتحن آباؤهم في الدنيا، القول الثالث: هم وآباؤهم في النار، حتى بهذه المناسبة يرووا حديثًا وأنا أذكره لتحذيري لكم منه، أنه السيدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها تعلمون أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لما تزوجها كانت متزوجة من قبل رجلًا وخلفت منه أولادًا، فسألت يومًا الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ عن أولادها من زوجها الأول الذي مات في الجاهلية وماتوا، قال لها وانتبهوا الحديث غير صحيح: «إن شئت أسمعتك تضاغيهم في النار». هذا حديث غير صحيح.

القول الصحيح بالنسبة للأقوال الثلاثة أن الأطفال الصغار للمشركين حكمهم حكم المجانين وحكم الشيوخ الخرفانين، وحكم أهل الفترة الذين حكينا عليهم وهم الذين لم تبلغهم دعوة الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ، هؤلاء جاء في الحديث الصحيح أن الله عَزَّ وَجَلَّ يرسل إليهم في عرصات يوم القيامة رسولًا، فيأمرهم بأن يلقوا بأنفسهم في النار، وأمامهم النار، فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، تمامًا كما هو الشأن في هذه الحياة، لكن مع فارق كبير، والفارق هنا يا

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩٣) ومسلم (٦٨٦٥).

إخواننا أرجو أن تنتبهوا يتعلق بالمرسِل والمرسَل إليهم، المرسَل هنا في الدنيا في عنده معجزات وعنده براهين تتناسب حياة المرسل إليهم المادية التي يعيشون فيها، المرسل هناك يأتي أيضًا بعلامة يقتنع المرسلون إليه بأنه هذا فعلًا مرسل من رب العالمين، والابتلاء هناك كالابتلاء هنا مع فارق كبير، هنا من يؤمن فسيصاب بما جاء في الحديث: حفت الجنة بالمكارة وحفت النار بالشهوات، فالذي يريد يؤمن يحف ويصاب بنار معنوية، أما هناك فنار حقيقية مادية، لكن الرسول الذي يرسل إليهم يعلمون يقينًا أن هذا من الله، فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار.

فإذًا لا تكليف قبل بلوغ النذارة، لا تكليف قبل مجيء الرسول أو الدعوة، وهذا من تمام حكم الله ﷻ ورحمته بعباده التي أودعها فيما يتعلق بهذا الموضوع في قوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥) فهؤلاء الصبيان من المشركين ما جاءهم رسول لأنهم بعد ما دخلوا في دائرة التكليف، أولئك الأقوام الذين لم تبلغهم دعوة الرسول ما جاءهم الرسول ولذلك ربنا لا يعذبهم، هذا قولًا واحدًا، أما يا ترى ماذا يعمل بهم ربنا؟ من كان عنده علم بالحديث الذي ذكرناه آنفًا فالجواب أن لهم امتحانًا في عرصات يوم القيامة، فهذا هو الحق ما به خفاء فدعني عن بنيات الطريق.اهـ.

وأما الثاني وهو مصير أطفال الكفار فقد اختلف العلماء فيه إلى أقوال:

١ - أنهم في الجنة - وبعضهم يقول: إنهم على الأعراف، ومرد هذا القول أنهم في الجنة لأن هذا هو حال أهل الأعراف -. وهو قول الأكثر من أهل العلم كما نقله عنهم ابن عبد البر في " التمهيد " (١٨/ ٩٦) ودليلهم :

أ - حديث سمرة رضي الله عنه: (أنه عليه السلام رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين

وأولاد المشركين) رواه البخاري (٦٦٤٠).

ب - عن حسناء بنت معاوية من بني صريم قالت حدثني عمي قال (قلت يا رسول الله من في الجنة قال النبي في الجنة والشهيد في الجنة والمولود في الجنة والوئيد في الجنة)(١).

٢- أنهم مع آبائهم في النار، وقد نسب القاضي أبو يعلى هذا القول لأحمد! وغلطه شيخ الإسلام، قال الإمام ابن القيم في حاشيته على سنن أبي داود (٧/ ٨٧): القول الثاني: أن أطفال المشركين في النار. وهذا مذهب طائفة وحكاه القاضي أبو يعلى رواية عن أحمد قال شيخنا: وهو غلط منه على أحمد وسبب غلطه أن أحمد سئل عنهم فقال هم على الحديث، قال القاضي: أراد حديث خديجة (إذ سألت النبي ﷺ عن أولادها الذين ماتوا قبل الإسلام فقال: إن شئت أسمعتك تضاغيهم في النار)، قال شيخنا: وهذا حديث موضوع، وأحمد

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٠٩، رقم ٢٣٥٢٣)، وابن سعد (٧/ ٨٤)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٢٤، رقم ١٩٥٠٣)، وأبو داود (٣/ ١٥، رقم ٢٥٢١)، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين (٤٥١)، والطبراني (١/ ٢٨٦، رقم ٨٣٨)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٦٣، رقم ١٨٣٠٢)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٨٦٤)، وفي أخبار أصبهان (٢/ ١٩٩) وابن عبد البر في التمهيد (١٨/ ١١٦) والحديث قال عنه الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١٩): فيه جماعة وثقهم ابن حبان، وضعفهم غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٤٦): إسناده حسن، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف الجامع (٥٩٨٥)، ثم عاد وقال في صحيح سنن أبي داود الأم (٧/ ٢٨٠): حديث صحيح، وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات؛ لولا جهالة حسناء هذه... وللحديث شواهد كثيرة معروفة، لا ضرورة لبيانها، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند (٣٤/ ١٩٠): إسناده ضعيف لجهالة حسناء: وهي بنت معاوية بن سليم الصريمية، ثم عاد وقال هو من معه في تحقيق سنن أبي داود (٤/ ١٧٥): حديث حسن وهذا إسناد رجاله ثقات غير حسناء بنت معاوية فإنها لا تعرف.

أجل من أن يحتج بمثله، وإنما أراد حديث عائشة " الله أعلم بما كانوا عاملين".اهـ.

ودليلهم:

أ – عن سلمة بن قيس الأشجعي قال (أتيت أنا وأخي النبي ﷺ فقلنا إن أمنا ماتت في الجاهلية وكانت تقري الضيف وتصل الرحم وأنها وأدت أختا لنا في الجاهلية لم تبلغ الحنث فقال الوائدة والمؤودة في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فتسلم)(١)، ولهم أحاديث أخرى، لكنها ضعيفة.

٣- التوقف فيهم: وهو قول حماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك وإسحاق بن راهويه، ودليلهم :

أ – حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال (سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال الله أعلم بما كانوا عاملين) أخرجه البخاري (١٣٨٣) ومسلم (٢٦٦٠).

ب – ومثله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأيضا رواه البخاري (١٣٨٤)

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٨، رقم ١٥٩٦٥)، والبخاري في التاريخ الكبير (٤/ ٧٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٧، رقم ١١٦٤٩)، وفي التفسير (٦٦٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٤٧٤)، والطبراني في الكبير (٧/ ٣٩، رقم ٦٣١٩) والحديث ألزم الإمام الدارقطني به الشيخان كما في الإلزامات والتتبع (٩٩)، وقال ابن عد البر التمهيد (١٨/ ١١٩): صحيح من جهة الإسناد، وقال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (ص٣٢٧): إسناده لا بأس به، وقال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٥٧): إسناده حسن، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١١٩): رجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في البدور السافرة (٢٩٩): إسناده حسن، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٧١٤٣)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٤٥٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٥/ ٢٦٨): رجاله ثقات رجال الشيخين غير داود بن أبي هند فمن رجال مسلم وصحابيه روى له النسائي وله ذكر في صحيح مسلم... لكن في متنه نكارة.

ومسلم (٢٦٥٩).

٤- ومنهم من قال: إنهم خدم أهل الجنة، قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٧٩): ولا أصل لهذا القول.اهـ. قلت: وقد ورد هذا المعنى في عدة أحاديث[1]، ولكنها ضعيفة لا تثبت على الراجح.

٥- أنهم يمتحنون في الآخرة، فمن أطاع الله دخل الجنة، ومن عصى دخل النار. وهو قول معظم أهل السنة والجماعة كما نقله عنهم أبو الحسن الأشعري، وهو قول البيهقي، وطائفة من المحققين، وهو الذي مال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وذكر أنه مقتضى نصوص الإمام أحمد، وهو الذي رجحه الحافظ ابن كثير، وقال: في التفسير (٣/ ٣١): وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض.

دليلهم:

أ- عن أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يؤتى بأربعة يوم القيامة بالمولود، والمعتوه، ومن مات في الفترة، والشيخ الفاني، كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار: أبرز، ويقول لهم: إني كنت أبعث إلى عبادي رسلا من أنفسهم، وإني رسول نفسي إليكم، ادخلوا هذه (أي النار)، قال: فيقول من كتب عليه الشقاء: يا رب أنى ندخلها ومنها كنا نفر، قال: ومن كتب عليه السعادة يمضي فيقتحم فيها مسرعا، قال: فيقول الله تعالى أنتم لرسلي أشد

---

(١) ورد هذا المتن عن عدة من الصحابة والحديث ضعفه ابن كثير في تفسيره (٥/ ٥٩)، وضعفه الحافظ في الفتح (٣/ ٢٤٦)، وأشار البوصيري إلى ضعفه في إتحاف الخيرة (٧٩٥١)، وضعفه الحويني في النافلة (٥٢)، أما العلامة الألباني فقال في الصحيحة (١٤٦٨): وجملة القول أن الحديث صحيح عندي بمجموع هذه الطرق والشواهد.

تكذيبا ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار)[١].

(١) هذا الحديث روي عن أنس بن مالك وأبي سعيد الخدري ومعاذ بن جبل والأسود بن سريع وأبي هريرة والحديث قال عنه ابن القيم في أحكام أهل الذمة (٤٤٥ - ٤٤٦): أن أحاديث هذا الباب قد تضافرت وكثرت بحيث يشد بعضها بعضًا، وقد صحح الحفاظ بعضها كما صحح البيهقي وعبد الحق وغيرهما حديث الأسود بن سريع. وحديث أبي هريرة إسناده صحيح متصل، ورواية معمر له عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة " موقوفًا " لا تضره، فإنا إن سلكنا طريق الفقهاء والأصوليين في الأخذ بالِزيادة من اِلثقة فظاهر، وِإن سلكنا طريق الترجيح - وهي طريقة المحدثين - فليس مَن رَفعهُ بدونِ من وَقفه في الحفظ والإِتقان.اهـ. وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٤٣٤) و(٢٤٦٨)، وصححه الشيخ مقبل في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٦/ ٨٩).

(تتمة) قال ابن القيم في أحكام أهل الذمة (٤٤٥-٤٤٦) قال أبو عُمرَ بن عبد البر في " الاستذكار"، وقد ذكر بعض هذه الأحاديث: وهذه الأحاديث كلها ليست بالقوية، ولا تقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب، لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء، وكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين، واللّه لا يكلف نفسًا إلا وسعها؟ ولا يخلو من مات في الفترة من أن يكون كافرًا أو غير كافر، فإن مات كافرًا جاحدًا فإن الله حرم الجنة علِى الكافرين، فكيف يمتحنون؟ وإن كان معذورًا بأنه لم يأته نذير ولا رسول فكيف يؤمر أن يقتحم النار وهي أشد العذاب؟ والطفل ومن لا يعقل أحرى بألا يمتحن بذلك.

فالجواب من وجوه: أحدها: أن أحاديث هذا الباب قد تضافرت وكثرت بحيث يشد بعضها بعضًا، وقد صحح الحفاظ بعضها كما صحح البيهقي وعبد الحق وغيرهما حديث الأسود بن سريع. وحديث أبي هريرة إسناده صحيح متصل، ورواية معمر له عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة " موقوفًا " لا تضره، فإنا إن سلكنا طريق الفقهاء والأصوليين في الأخذ بالِزيادة من اِلثقة فظاهر، وِإن سلكنا طريق الترجيح - وهي طريقة المحدثين - فليس مَن رَفعهُ بدونِ من وَقفه في الحفظ والإِتقان.

الوجه الثاني: أن غاية ما يقدر فيه أنه موقوف على الصحابي، ومثل هذا لا يقدم عليه الصحابي بالرأي والاجتهاد، بل يجزم بأن ذلك توقيف لا عن رأي.

=

=

الوجه الثالث: أن هذه الأحاديث يشد بعضها بعضًا، فإنها قد تعددت طرقها، واختلفت مخارجها، فيبعد كل البعد أن تكون باطلة على رسول اللّه ﷺ لم يتكلم بها وقَد رواها أئمة الإسلام ودونوها ولم يطعنوا فيها.

الوجه الرابع: أنها هي الموافقة للقرآن وقواعد الشرع، فهي تفصيل لما أخبر به القرآن أنه لا يعذب أحد إلا بعد قيام الحجة عليه، وهؤلاء لم تقم عليهم حجة الله في الدنيا، فلا بد أن يقيم حجته عليهم، وأحق المواطن أن تقام فيه الحجة يوم يقوم الأشهاد، وتسمع الدعاوى، وتقام البينات، ويختصم الناس بين يدي الرب، وينطق كل أحد بحجته ومعذرته، فلا تنفع الظالمين معذرتهم وتنفع غيرهم.

الوجه الخامس: أن القول بموجبها هو قول أهل السنة والحديث كما حكاه الأشعري عنهم في " المقالات " وحكى اتفاقهم عليه وإن كان قد اختار هو فيها أنهم مردودون إلى المشيئة، وهذا لا ينافي القولَ بامتحانهم، فإن ذلك هو موجب المشيئة.

الوجه السادس: أنه قد صح – بذلك – القول بها عن جماعة من الصحابة، ولم يصح عنهم إلا هذا القول. والقول بأنهم خدم أهل الجنة صح عن سلمان، وفيه حديث مرفوع قد تقدم؛ وأحاديث الامتحان أكثر وأصح وأشهر.

الوجه السابع: قوله: "وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب".

جوابه أنه – وإن أنكرها بعضهم – فقد قبلها الأكثرون، والذين قبلوها أكثر من الذين أنكروها وأعلم بالسنة والحديث.

وقد حكى فيه الأشعري اتفاق أهل السنة والحديث، وقد بينا أنه مقتضى قواعد الشرع.

الوجه الثامن: أنه قد نص جماعة من الأئمة على وقوع الامتحان في الدار الآخرة، وقالوا: لا ينقطع التكليف إلا بدخول دار القرار، ذكره البيهقي عن غير واحد من السلف.

الوجه التاسع: ما ثبت في " الصحيحين " من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رضي الله عنهما في الرجل الذي هو آخر أهل الجنة دخولًا إليها: أن الله تعالى يأخذ عهوده ومواثيقه ألا يسأله غير الذي يعطيه، وأنه يخالفه ويسأله غيره، فيقول الله له: ما أغدرك! وهذا الغدر منه لمخالفته العهد الذي عاهده ربه عليه، وهذه معصية منه.

الوجه العاشر: قد ثبت أنه سبحانه يأمرهم في القيامة بالسجود، ويحول بين المخالفين وبينه: وهذا تكليف بما ليس في الوسع قطعًا، فكيف ينكر التكليف بدخول النار اختيارًا؟

=

=

الوجه الحادي عشر: أنه قد ثبت امتحانهم في القبور وسؤالهم وتكليفهم الجواب: وهذا تكليف بعد الموت برد الجواب.

الوجه الثاني عشر: أن أمرهم بدخول النار ليس عقوبة لهم، وكيف يعاقبهم على غير ذنب؟ وإنما هو امتحان واختبار لهم: هل يطيعونه أو يعصونه؟ فلو أطاعوه ودخلوها لم تضرهم وكانت عليهم بردًا وسلامًا، فلما عصوه وامتنعوا من دخولها استوجبوا عقوبة مخالفة أمره. والملوك قد تمتحن من يظهر طاعتهم هل هو منطو عليها بباطنه، فيأمرونه بأمر شاق عليه في الظاهر هل يوطن نفسه عليه أم لا، فإن أقم عليه ووطن نفسه على فعله أعفوه منه، وإن امتنع وعصى ألزموه به أو عاقبوه بما هو أشد منه.

وقد أمر اللّه سبحانه الخليل بذبح ولده ولم يكن مراده سوى توطين نفسه على الامتثال والتسليم وتقديم محبة اللّه على محبة الولد، فلما فعل ذلك رفع عنه الأمر بالذبح.

وقد ثبت أن الدجال يأتي معه بمثال الجنة والنار وهي نار في رأي العين ولكنها لا تحرق، فمن دخلها لم تضره: فلو أن هؤلاء يوطنون أنفسهم على دخول النار التي أمروا بدخولها طاعة لله ومحبةً له وإيثارًا لمرضاته وتقربًا إليه بتحمل ما يؤلمهم لكان هذا الإقدام والقصد منهم لمرضاته ومحبته يقلب تلك النار بردًا وسلامًا كما قلب قصد الخليل التقرب إلى ربه وإيثار محبته ومرضاته وبذل نفسه وإيثاره إياه على نفسه تلك النار بأمر اللّه بردًا وسلامًا.

فليس أمره سبحانه إياهم بدخول النار عقوبة ولا تكليفًا بالممتنع، وإنما هو امتحان واختبار لهم هل يوطنون أنفسهم على طاعته أو ينطوون على معصيته ومخالفته. وقَد علم سبحانه ما يقع منهم، ولكنه لا يجازيهم على مجرد علمه فيهم ما لم يحصل معلومُه الذي يترتب عليهم به الحجة، فلا أحسن من هذا يفعله بهم وهو محض العدل والحكمة.

الوجه الثالث عشر: أن هذا مطابق لتكليفه عباده في الدنيا، فإنه سبحانه لم يستفد بتكليفهم منفعة تعود إليه، ولا هو محتاج إليه، وإنما امتحنهم وابتلاهم ليتبين من يؤثر رضاه ومحبته ويشكره ممّن يكفر به ويؤثر سخطه: قد علم منهم من يفعل هذا وهذا، ولكنه بالابتلاء ظهر معلومه الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، وتقوم عليهم به الحجة. وكثير من الأوامر التي أمرهم بها في الدنيا نظير الأمر بدخول النار، فإن الأمر بإلقاء نفوسهم بين سيوف أعدائهم ورماحهم، وتعريضهم لأسرهم لهم وتعذيبهم

=

=

واسترقاقهم، لعله أعظم من الأمر بدخول النار.

وقد كلف اللّه بني إسرائيل قتل أنفسهم وأولادهم وأزواجهم وإخوانهم لما عبدوا العجل لما لهم في ذلك من المصلحة؛ وهذا قريب من التكليف بدخول النار.

وكلف على لسان رسوله المؤمنين إذا رأوا نار الدجال أن يقعوا فيها - لما هم في ذلك من المصلحة - وليست في الحقيقة نارًا وإن كانت في رأي العين نارًا؛ وكذلك النار التي أمروا بدخولها في الآخرة إنما هي برد وسلام على من دخلها، فلو لم يأتِ بذلك أثر لكان هذا هو مقتضى حكمته وعدله، وموجب أسمائه وصفاته.

الوجه الرابع عشر: أن القائل قائلان: قائل إنه سبحانه يفعل بمحض المشيئة والإرادة من غير تعليل ولا غاية مطلوبة بالفعل، وقائل بمراعاة الحكم والغايات المحمودة والمَصالح. وعلى المذهبين فلا يمتنع الامتحان في عَرَصات القيامة.

بل على القول الأول هو ممكن جائز لا يتوقف العلم به على أمر غير إخبار الصادق.

وعلى المذهب الثاني هو الذي لا يليق بالرب سواه ولا تقتضي أسماؤه وصفاته غيره، فهو متعين.

الوجه الخامس عشر: قوله: "وليس ذلك في وسع المخلوقين".

جوابه من وجهين: أحدهما: أنه في وسعهم وإن كان يشق عليهم، وهؤلاء عباد النار يتهافتون فيها ويلقون أنفسهم فيها طاعة للشيطان، ولم يقولوا: "ليس في وسعنا " مع تألمهم بها غاية الألم فعباد الرحمن إذا أمرهم أرحم الراحمين بطاعته باقتحامهم النار كيف لا يكون في وسعهم وهو إنما يأمرهم بذلك لمصلحتهم ومنفعتهم؟ والثاني: أنهم لو وطنوا أنفسهم على اتباع طاعته ومرضاته لكانت عين نعيمهم ولم تضرهم شيئًا.

الوجه السادس عشر: أن أمرهم باقتحام النار المفضية بهم إلى النجاة منها بمنزلة الكي الذي يحسم الداء، وبمنزلة تناول الدواء الكريه الذي يعقب العافية، وليس من باب العقوبة في شيء.

فإن اللّه سبحانه اقتضت حكمته وحمده وغناه ورحمته ألا يعذب من لا ذنب له، بل يتعالى ويتقدس عن ذلك كما يتعالى عما يناقض صفات كماله.

فالأمر باقتحام النار للخلاص منها هو عين الحكمة والرحمة والمصلحة: حتى لو أنهم بادروا إليها طوعًا واختيارًا ورضىً حيث علموا أن مرضاته في ذلك قبل أن يأمرهم به لكان ذلك عين صلاحهم وسبب نجاتهم؛ فلم يفعلوا ذلك ولم يمتثلوا أمره وقد تيقنوا

=

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا أعدل الأقوال وبه يجتمع شمل الأدلة

=

وعلموا أن فيه رضاه وصلاحهم، بل هان عليهم أمره وعزت عليهم أنفسهم أن يبذلوا له منها هذا القدر الذي أمرهم به رحمة وإحسانًا لا عقوبة.

الوجه السابع عشر: أن أمرهم باقتحام النار كأمر المؤمنين بركوب الصراط الذي هو أدق من الشعرة وأحد من السيف. ولا ريب أن ركوبه من أشق الأمور وأصعبها حتى إن الرسل لتشفق منه وكل منهم يسأل اللّه السلامة! فركوب هذا الجسر الذي هو في غاية المشقة كاقتحام النار، وكلاهما طريق إلى النجاة.

الوجه الثامن عشر: قوله: "ولا يخلو من مات في الفترة من أن يكون كافرًا أو غير كافر، فإن كان كافرًا فإن اللّه حرم الجنة على الكافرين، وإن كان معذورًا بأنه لم يأته رسول فكيف يؤمر باقتحام النار؟".

جوابه من وجوه: أحدها: أن يقال: هؤلاء لا يحكم لهم بكفر ولا إيمان، فإن الكفر هو جحود ما جاء به الرسول، فشرط تحققه بلوغ الرسالة، والإيمان هو تصديق الرسول فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، وهذا أيضًا مشروط ببلوغ الرسالة، ولا يلزم من انتفاء أحدهما وجود الآخر إلا بعد قيام سببه، فلما لم يكن هؤلاء في الدنيا كفارًا ولا مؤمنين كان لهم في الآخرة حكم آخر غير حكم الفريقين.

فإن قيل: فأنتم تحكمون لهم بأحكام الكفار في الدنيا من التوارث والولاية والمناكحَة.

قيل: إنما نحكم لهم بذلك في أحكام الدنيا لا في الثواب والعقاب، كما تقدم بيانه.

الوجه الثاني: سلمنا أنهم كفار، لكن انتفاء العذاب عنهم لانتفاء شرطه وهو قيام الحجة عليهم، فإن اللّه تعالى لا يعذب إلا من قامت عليه حجته.

الوجه الثالث: قوله: "وإن كان معذورًا كيف يؤمر أن يقتحم النار وهي أشد العذاب؟) فالذي قال هذا يوم الأمر عقوبة لهم، وهذا غلط، وإنما هو تكليف واختبار، فإن بادروا إلى الامتثال لم تضرهم النار شيئًا.

الوجه التاسع عشر: قوله: "كيف يمتحن الطفل ومن لا يعقل؟ " كلام فاسد فإن اللّه سبحانه يوم القيامة ينشئهم عقلاء بالغين، ويمتحنهم في هذه الحال، ولا يقع الامتحان بهم وهم على الحالة التي كانوا عليها في الدنيا.

فالسنة وأقوال الصحابة وموجب قواعد الشرع وأصوله لا ترد بمثل ذلك. والله أعلم.

وتتفق الأحاديث في هذا الباب، وعلى هذا فيكون بعضهم في الجنة كما في حديث سمرة، وبعضهم في النار كما دل عليه حديث عائشة، وجواب النبي ﷺ يدل على هذا؛ فإنه قال: "الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم"، ومعلوم أن الله لا يعذبهم بعلمه فيهم ما لم يقع معلومه، فهو إنما يعذب من يستحق العذاب على معلومه وهو متعلق علمه السابق فيه لا على علمه المجدد وهذا العلم يظهر معلومه في الدار الآخرة.

وفي قوله: "الله أعلم بما كانوا عاملين": إشارة إلى أنه سبحانه كان يعلم ما كانوا عاملين لو عاشوا، وأن من يطيعه وقت الامتحان كان ممن يطيعه لو عاش في الدنيا، ومن يعصيه حينئذ كان ممن يعصيه لو عاش في الدنيا فهو دليل على تعلق علمه بما لم يكن لو كان كيف كان يكون... والله أعلم..اهـ. من حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (٧/ ٨٧).

وما جاء في بعض الأحاديث السابقة أنهم في الجنة أو النار لا يشكل على ما رجحناه، قال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٣): أحاديث الامتحان أخص منه فمن علم الله منه أنه يطيع جعل روحه في البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة ومن علم منه أنه لا يجيب فأمره إلى الله تعالى ويوم القيامة يكون في النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان ونقله الأشعري عن أهل السنة..اهـ.

وما جاء من قوله ﷺ " الله أعلم بما كانوا عاملين ": لا يدل على التوقف فيهم، قال الإمام ابن القيم حاشيته على سنن أبي داود (٧/ ٨٥): وفيما استدلت به هذه الطائفة نظر والنبي ﷺ لم يجب فيهم بالوقف وإنما وكل علم ما كانوا يعملونه لو عاشوا إلى الله وهذا جواب عن سؤالهم كيف يكونون مع آبائهم بغير

عمل وهو طرف من الحديث .... والنبي ﷺ وكل العلم بعملهم إلى الله، ولم يقل الله أعلم حيث يستقرون أو أين يكونون، فالدليل غير مطابق لمذهب هذه الطائفة..اهـ.

وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (١/ ٥١): فالخلاصة: أن من لم تبلغه الدعوة كالذين في أطراف الدنيا أو في أوقات الفترات، أو كان بلغته وهو مجنون ذاهب العقل، أو هرم لا يعقل فهؤلاء وأشباههم مثل أولاد المشركين الذين ماتوا وهم صغار، فإن أولاد المشركين الذين لم يبلغوا الحلم كلهم أمرهم إلى الله، فالله يعلم بما كانوا عاملين، كما أجاب بذلك النبي ﷺ لمن سأله عنهم، ويظهر علمه فيهم سبحانه يوم القيامة بالامتحان، فمن نجح منهم دخل الجنة، ومن لم ينجح دخل النار ولا حول ولا قوة إلا بالله.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٤٩): عن مصير أطفال المؤمنين، وأطفال المشركين الذين ماتوا صغارا؟

فأجاب: مصير أطفال المؤمنين الجنة؛ لأنهم تبع لآبائهم قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} .

وأما أطفال غير المؤمنين؛ يعني الطفل الذي نشأ من أبوين غير مسلمين، فأصح الأقوال فيهم أن نقول: الله أعلم بما كانوا عاملين، فهم في أحكام الدنيا بمنزلة آبائهم، أما في أحكام الآخرة، فإن الله تعالى أعلم بما كانوا عاملين، كما قال النبي ﷺ والله أعلم بمصيرهم هذا ما نقوله، وهو في الحقيقة أمر لا يعنينا كثيرا، إنما الذي يعنينا هو حكمهم في الدنيا، وأحكامهم في الدنيا - أعني أولاد المشركين - أحكامهم في الدنيا أنهم كالمشركين لا يغسلون، ولا يكفنون، ولا

يصلى عليهم، ولا يدفنون في مقابر المسلمين. والله أعلم.اهـ.

(تنبيه): حديث عائشة رضي الله عنها عند الإمام مسلم (٢٦٦٢) من طريق طلحة بن يحيى، عن عمته عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين، قالت: (دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار. فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. قال: "أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق للجنة أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم)[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٢) وهذا الحديث وإن كان في مسلم ولكنه من الأحرف اليسيرة جدا التى انتقضها عليه بعض الحفاظ، فقد أعله الإمام أحمد كما في المنتخب من علل الخلال (١/ ٣) بقوله "طلحة بن يحيى أحب إلي من بُريد بن أبي بردة، بُريد يروي أحاديث مناكير، وطلحة حدَّث بحديث عصفور من عصافير الجنة" (قال عبد الله بن أحمد) حدثني أبي قال: حدثنا ابن فضيل عن العلاء أو حبيب بن أبي عَمر، قال أبي: وما أراه سمعه إلا من طلحة يعني ابن فضيل"، وقد صَرَّح الإمام أحمد بتضعيف هذا الحديث، كما في كتاب الجامع للخلاَّل، كتاب أهل الملل (١/ ٦٧ - ٦٨ رقم ١٦) وعنه ابن قدامة في منتخب علل الخلاَّل (٥٣، رقم ١٠)، وابن قيم الجوزية في أحكام أهل الذمة (٢/ ٦١٢ - ٦١٣) فقد روى الخلاَّل عن عبد الملك بن عبد الحميد الميموني، أن الإمام أحمد ذكر له حديث عائشة - رضي الله عنها - هذا في أطفال المسلمين، فقال: "هذا حديث ضعيف، وذكر فيه رجلًا ضعَّفه، هو طلحة. وسمعته يقول غير مرة وأحدٌ يشك أنهم في الجنة؟! ثم أملى علينا الأحاديث فيه وسمعته يقول هو يرجى لأبويه، كيف يُشَكُّ فيه؟!!، ولذلك أورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء في ترجمة طلحة بن يحيى، ثم قال (٢/ ٦١٥ - ٦١٦): "آخر الحديث فيه رواية من حديث الناس بأسانيد جياد، وأوله لا يُحفَظ إلا من هذا الوجه"، وأعله ابن عبد البر كما في الأجوبة المستوعبة (٥١٩)، وقال في التمهيد (٦/ ٣٥٠ - ٣٥١) بقوله: "وهذا الحديث ساقط ضعيف مردود بما ذكرنا من الآثار والإجماع، وطلحة بن يحيى ضعيف لا يحتج به، وهذا الحديث مما انفرد به، فلا يُعَرّج عليه"، وقال في موطن آخر من التمهيد (١٨/ ٩٠): "حديث ضعيف، =

=

انفرد به طلحة بن يحيى، فأنكروه عليه، وضعَّفوه من أجله"، وقال الذهبي في السير (١٤/ ٤٦٢): رواه جماعة عن طلحة، وهو مما ينكر من حديثه، لكن أخرجه مسلم، وقال د/ الشريف حاتم بن عارف العوني: وعلى هذا: فتضعيف الحديث قائم على أن طلحة بن يحيى تفرَّد بالحديث، وأن مثله - في ضبطه وإتقانه - لا يحتمل التفرُّد بمثل ما تفرَّد به، ومن رجع إلى ترجمة طلحة بن يحيى بن طلحة بن عبد الله التيمي سيترجح لديه أنه خفيف الضبط، فانظر تهذيب التهذيب (٥/ ٢٧ - ٢٨) ومثله ما أقل ما يقبل منه التفرُّد خاصة إذا تفرَّد بأصل، وبالأخص إذا كان ما تفرَّد به يخالف النصوص الثابتة والثابت من الدين، بل لقد أطلق ابن عبد البر القول في مفاريد طلحة بن يحيى، ونقل الإجماع على ذلك، عندما قال في التمهيد (١٢/ ٧٩): "ما انفرد به ليس بحجة عند جميعهم لضعفه".

لكن يعارض ذلك كله أن طلحة بن يحيى متابع (في الظاهر) متابعتين:

الأولى: ما أخرجه مسلم (٢٦٦٢) من طريق العلاء بن المسيب، عن فضيل بن عمرو، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين، قالت: توفِّى صبي، فقلت طوبى له، عصفور من - عصافير الجنة -، فقال رسول الله ﷺ:"أولا تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار، فخلق لهذه أهلًا ولهذه أهلًا".

وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١٣٨)، والطبراني في الأوسط (٤٥١٢)، وقال عقبة: "لم يرو هذا الحديث عن الفضيل بن عمرو إلا العلاء بن المسيب"

وهذه المتابعة ظاهرها الصحة، وقد قدمها الإمام مسلم في صحيحه على رواية طلحة بن يحيى.

وللعلماء والباحثين تجاهها ثلاثة مواقف:

الأول: قبولها وتصحيحها، باعتبارها متابعة لحديث طلحة بن يحيى. وهذا هو ظاهر موقف ابن حبان (بلا خلاف أعلمه)، وهو ظاهر موقف مسلم (على خلافٍ يأتي ذكره).

الثاني: تصحيحها وتقديمها على رواية طلحة بن يحيى، وهو ما فسر به أبو معاذ طارق بن عوض الله (محقق منتخب علل الخلال) تصرُّف مسلم، من تقديمه لرواية العلاء بن المسيب على رواية طلحة بن يحيى، مبتنيًا حسب نظره الفرق في المعنى بين الروايتين، وأن رواية العلاء بن المسيب ليس فيها استدراك من النبي ﷺ على عائشة، أي: ليس فيها ما قد يتمسك به من أن أولاد المسلمين متوقف فيهم، أو أن دخولهم النار محتمل.

=

=

وعليه فليس في رواية العلاء بن المسيب النكارة التي في رواية طلحة بن يحيى.

الثالث: توهيم العلاء بن المسيب في ذكره لهذه المتابعة، اعتمادًا على انفراده بها، كما نصَّ الطبراني عليه (أي على انفراده) ولعل هذا هو موقف الإمام أحمد، الذي سبق وأن ذكرنا كلامه في (العلل)، وأنه ذكر رواية محمد بن فضيل بن غزوان عن العلاء (وهو ابن المسيب) أو عن حبيب بن أبي عمرة (وهو ممن روى عن عائشة بنت طلحة)، ورأى أن هذا الحديث مرجعه إلى حديث طلحة بن يحيى.

ولعل هذا هو موقف ابن عبد البر أيضًا، فإنه مع جزمه بتفرُّد طلحة بن يحيى، ومع حكمه القاطع بضعف الحديث وردَّه في موطنين من (التمهيد) -كما سبق- إلا أنه عاد ليقول التمهيد (١٨/ ١٠٦)، في سياق ذكره لِحُجَج من تَوَقَفَ في أطفال المسلمين: "وزعم قوم أن طلحة بن يحيى انفرد بهذا الحديث، وليس كما زعموا، وقد رواه فضيل بن عمرو... " ثم أورده، والذي يدل على عدم اعتداده بهذه المتابعة تضعيفه الصريح وحكمه الواضح على رواية طلحة بن يحيى -كما سبق-، مع ترجيحه الأخير في هذه المسألة أيضًا (كما تراه في التمهيد) ويشهد لذلك قوله في الاستذكار (٨/ ٣٩٣ رقم ١٢٠٦٦): "وهو حديث رواه طلحة بن يحيى وفضيل بن عمرو، عن عائشة بنت طلحة عن عائشة، وليس ممن يعتمد عليه عند بعض أهل الحديث" ويشهد لذلك أيضًا ما نقله ابن قيم الجوزية عن ابن عبد البر في أحكام أهل الذمة (٢/ ٦١٢)، حيث قال: "أما حديث عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -، وإن كان مسلم رواه في صحيحه، فقد ضعَّفه الإمام أحمد وغيره، وذكر ابن عبد البر علته، بأن طلحة بن يحيى انفرد به عن عمته عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين، وطلحة ضعيف، وقد قيل إن فضيل بن عمرو رواه عن عائشة بنت طلحة، كما رواه طلحة بن يحيى سواء هذا كلامه".

والمتابعة الثانية: ما أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (رقم ١٦٧٩)، عن قيس بن الربيع، عن يحيى بن إسحاق، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وقد تعقب هذا الإسناد محقق مسند الطيالسي، د. محمد التركي قائلًا: "في إسناد المصنف قيس بن الربيع، وهو ضعيف ويحيى بن إسحاق: لم أعرفه، وقد يكون مقلوبًا من إسحاق بن يحيى بن طلحة".

قلت: بل أحسبه مقلوبًا عن طلحة بن يحيى!!. وخلاصة القول: أن الحديث مختلف فيه هذا الاختلاف الطويل، وثمرة الخلاف في قريبة! فمن صحَّح الحديث وجهه بما لا
=

المسألة الثالثة عشرة: عظم خلق أهل النار

يدخل أهل الجحيم النار على صورة ضخمة هائلة لا يقدر قدرها إلا الذي خلقهم، ففي الحديث الذي يرفعه أبو هريرة رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ قال: (ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع)[١]. وعن أبي هريرة قال رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ(ضرس الكافر، أو ناب الكافر، مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث)[٢]، وقال زيد بن أرقم: (إن الرجل من أهل النار ليعظم للنار، حتى يكون الضرس من أضراسه كأحد)[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعًا، وإن ضرسه مثل أحد، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة)[٤].

=

يخالف الصحيح الثابت في أولاد المسلمين، ومن قبل إحدى روايتيه قبلها؛ لأنها لا تخالف الصحيح الثابت فيهم أيضًا، ومن ردَّ الحديث وماله من متابعة ردِّه لمخالفته الظاهرة للصحيح الثابت كذلك، مع ما لاح له من علة صناعية فيه. والذي يترجح عندي إعلال الحديث.اهـ.، وصححه بعض العلماء منهم مسلم بإخراجه له في صحيحة، وابن العربي في العارضة (٥/ ١٠)، والعلامة الألباني فقد صححه في ظلال الجنة (٢٥١)، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤٢/ ٤٨٤).

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٢) والحديث رواه البخاري (٦٥٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥١).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٦) (١٩٢٨٥) والحديث قال عنه العلامة الألباني في الصحيحة (١٦٠١): وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم. وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا نحوه. وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم يزيد بن حيان التيمي من رجاله وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٧٧)، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (٢/ ٥٣٧)، والحاكم =

وروى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحد، وعرض جلده سبعون ذراعًا، وعضده مثل البيضاء، وفخذه مثل ورقان، ومقعده من النار ما بيني وبين الربذة)(١).

وهذا التعظيم لجسد الكافر ليزداد عذابه وآلامه، يقول النووي في شرحه لأحاديث مسلم في هذا الباب: هذا كله لكونه أبلغ في إيلامه، وكل هذا مقدور لله تعالى: يجب الإيمان به لإخبار الصادق به. وقال ابن كثير معلقًا على ما أورده من هذه الأحاديث: ليكون ذلك أنكى في تعذيبهم، وأعظم في تعبهم ولهيبهم، كما قال شديد العقاب: لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ [النساء: ٥٦].

المسألة الرابعة عشرة: ماذا يحصل للمرأة في الجنة إذا كان زوجها من أهل النار

إذا دخل زوج المرأة معها الجنة، كان زوجها هناك أيضا، أما إذا كان من أهل النار، أو كانت الفتاة لم تتزوج في الدنيا، فإنها تزوج برجل من أهل الجنة.

=

(٤/ ٦٣٧)، والبيهقي في البعث والنشور (١/ ٣٠١، رقم ٦٢١) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه قال ابن العربي في العواصم (٢٣٠)، وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٣١): إسناده صحيح، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٢٣٠٣)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٤١٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٦/ ٥٤٤): إسناده صحيح.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٨)، والحاكم (٤/ ٦٣٧)وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة إنما اتفقا على ذكر ضرس الكافر فقط. وأقره الذهبي، وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٣٥٢)، والهيتمي في الزواجر (٢/ ٢٥٤): إسناده جيد، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١١٠٥)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٤/ ٨٧): إسناده حسن، عبد الرحمن بن إسحاق -وهو المدني- روى له مسلم في "صحيحه" متابعة، وهو حسن الحديث، وباقي رجاله ثقات.

سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٥٢): إذا كانت المرأة من أهل الجنة ولم تتزوج في الدنيا، أو تزوجت ولم يدخل زوجها الجنة فمن يكون لها؟

فأجاب: "الجواب يؤخذ من عموم قوله تعالى: (ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون) فصلت/ ٣١، ومن قوله تعالى: (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) الزخرف/ ٧١، فالمرأة إذا كانت من أهل الجنة ولم تتزوج، أو كان زوجها ليس من أهل الجنة فإنها إذا دخلت الجنة فهناك من أهل الجنة من لم يتزوجوا من الرجال، وهم -أعني من لم يتزوجوا من الرجال- لهم زوجات من الحور، ولهم زوجات من أهل الدنيا إذا شاءوا واشتهت ذلك أنفسهم.

وكذلك نقول بالنسبة للمرأة إذا لم تكن ذات زوج، أو كانت ذات زوج في الدنيا ولكنه لم يدخل معها الجنة أنها إذا اشتهت أن تتزوج فلابد أن يكون لها ما تشتهيه لعموم هذه الآيات.

المسألة الخامسة عشرة: المرأة التي تزوجت بأكثر من زوج لأيهم تكون في الجنة؟

هذه المسألة فيها ثلاثة أقوال لأهل العلم:

الأول: أنها تكون مع أحسنهم خلقا كان معها في الدنيا.

والثاني: أنها تخير بينهم.

والثالث: أنها لآخر أزواجها.

وأقرب هذه الأقوال وأصحها هو القول الثالث وفيه حديث مرفوع إلى النبي ﷺ: (أيما امرأة توفي عنها زوجها، فتزوجت بعده، فهي لآخر أزواجها)[1]،

---

١ قال العلامة الألباني في الصحيحة (١٢٨١): رواه أبو علي الحراني القشيري في "
=

=

تاريخ الرقة " (٣ / ٣٩ / ٢) حدثنا العباس ابن صالح بن مسافر الحراني حدثنا أبو عبد الله السكري، إسماعيل ابن عبد الله ابن خالد حدثنا أبو المليح عن ميمون بن مهران قال: خطب معاوية رضي الله عنه أم الدرداء، فأبت أن تزوجه وقالت: سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المرأة في آخر أزواجها أو قال: لآخر أزواجها " أو كما قالت - ولست أريد بأبي الدرداء بدلا. قلت: وهذا إسناد رجاله ثقات معروفون غير العباس بن صالح هذا، فلم أجد له ترجمة الآن، فيراجع له " الجرح والتعديل " - ثم رجعت إليه فلم أره. وقد ذكره ابن حبان في " الثقات " (٨ / ٥١٤)-. ورواه أبو الشيخ في " التاريخ " (ص ٢٧٠) حدثنا أحمد بن إسحاق الجوهري حدثنا إسماعيل بن زرارة قال: حدثنا أبو المليح الرقي به مقتصرا على المرفوع فقط. وهذا إسناد صحيح. رجاله ثقات معروفون غير الجوهري قال أبو الشيخ: "ثقة حسن الحديث، فمن حسان حديثه...". ثم ساق له أحاديث هذا أحدها. ورواه البغوي في " حديث عيسى بن سالم " (١٠٣ / ١) عن أبي بكر بن أبي مريم قال: حدثني عطية ابن قيس أن معاوية ابن أبي سفيان خطب أم الدرداء... الحديث إلا أنه لم يرفع المرفوع منه بل أوقفه على أبي الدرداء، وقد رواه مرفوعا عنه الطبراني بلفظ: "أيما امرأة توفي عنها زوجها فتزوجت بعده فهي لآخر أزواجها". رواه الطبراني في " الأوسط " (١ / ١٧٥) عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن عطية بن قيس الكلاعي قال: خطب معاوية بن أبي سفيان أم الدرداء بعد وفاة أبي الدرداء، فقالت أم الدرداء: سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: فذكره. قالت: وما كنت لأختار على أبي الدرداء، فكتب إليها معاوية: فعليك بالصوم فإنه محسمة. قلت: وهذا سند ضعيف من أجل أبي بكر بن أبي مريم كان اختلط وبه أعله الهيثمي (٤ / ٢٧٠) ولكنه عزاه للكبير أيضا، ومن هذا الوجه أخرجه أيضا أبو بكر الكلاباذي في " مفتاح المعاني " (ق ١٨١ / ٢) وابن عساكر في " تاريخ دمشق " (١٩ / ٢٨١ / ٢) وبالجملة فالحديث بمجموع الطريقين قوي، والمرفوع منه صحيح، وله طرق أخرى مرفوعا وموقوفا عند ابن عساكر (١٩ / ٢٨١ / ٢) عن أبي الدرداء. وله شاهدان موقوفان. الأول: عن أبي بكر رضي الله عنه يرويه ابن عساكر (١٩ / ١٩٣ / ١) من طريق كثير بن هشام عن عبد الكريم عن عكرمة. " أن أسماء بنت أبي بكر كانت تحت الزبير ابن العوام وكان شديد عليها، فأتت أباها، فشكت ذلك إليه، فقال: يا بنية اصبري فإن المرأة إذا كان لها زوج صالح، ثم مات عنها فلم تزوج بعده

=

هذا على وجه الإجمال، أما على وجه التفصيل فأدلة الأقوال كما يلي:

دليل القول الأول: قال القرطبي في التذكرة (٢/ ٢٧٨): وذكر أبو بكر بن النجاد قال: حدثنا جعفر بن محمد بن شاكر حدثنا عبيد بن إسحاق العطار حدثنا سنان بن هارون عن حميد عن أنس: أن أم حبيبة زوج النبي ﷺ قالت: يا رسول الله، المرأة يكون لها الزوجان في الدنيا، ثم يموتون ويجتمعون في الجنة، لأيهما تكون؟ للأول أو للآخر؟ قال: لأحسنهما خلقا كان معها يا أم حبيبة، ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة".اهـ.

قلت: والحديث ضعيف جدا، وفيه علتان: عبيد بن إسحاق العطار، وسنان بن هارون، أما الأول: فضعيف جدا، وأما الثاني: فضعيف، وعليه: فالحديث لا يصح الاستدلال به، وهو ضعيف جدا، فسقط هذا القول.

القول الثاني: وهو أنها تخير بين أزواجها، ولم أر لمن قال هذا القول أي دليل.

وفي " التذكرة في أحوال الموتى والآخرة " (٢/ ٢٧٨): ذكر المسألة، وقال

=

جمع بينهما في الجنة". ورجاله ثقات إلا أن فيه إرسالا لأن عكرمة لم يدرك أبا بكر إلا أن يكون تلقاه عن أسماء بنت أبي بكر. والله أعلم.

والآخر: عن عيسى بن عبد الرحمن السلمي عن أبي إسحاق عن صلة عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال لامرأته: "إن شئت أن تكوني زوجتي في الجنة، فلا تزوجي بعدي، فإن المرأة في الجنة لآخر أزواجها في الدنيا، فلذلك حرم الله على أزواج النبي ﷺ أن ينكحن بعده لأنهن أزواجه في الجنة". أخرجه البيهقي في

" السنن " (٧ / ٦٩ - ٧٠). ورجاله ثقات لولا عنعنة أبي إسحاق - وهو السبيعي- واختلاطه. وله شاهد مرفوع أخرجه الخطيب في " التاريخ " (٩ / ٣٢٨) من طريق حمزة النصيبي عن ابن أبي مليكة عن عائشة مرفوعا به. لكن حمزة هذا متروك متهم فلا يستشهد به، وفيما تقدم كفاية.

بعدها: وقيل: إنها تخير إذا كانت ذات زوج..اهـ.

وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٩٢): وقيل لأحسنهم خلقا! وقيل: تخير.

وهو الذي رجحه العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ كما في فتاواه (٢/ ٥٣) حيث سئل: إذا كانت المرأة لها زوجان في الدنيا فمع من تكون منهما، ولماذا ذكر الله الزوجات للرجال، ولم يذكر الأزواج للنساء؟.

فأجاب: إذا كانت المرأة لها زوجان في الدنيا فإنها تخير بينهما يوم القيامة في الجنة، وإذا لم تتزوج في الدنيا فإن الله تعالى يزوجها ما تقر به عينها في الجنة، فالنعيم في الجنة ليس مقصورا على الذكور، وإنما هو للذكور والإناث، ومن جملة النعيم الزواج.

وقول السائل: "إن الله تعالى ذكر الحور العين، وهن زوجات، ولم يذكر للنساء أزواجا".

فنقول: إنما ذكر الزوجات للأزواج؛ لأن الزوج هو الطالب، وهو الراغب في المرأة؛ فلذلك ذكرت الزوجات للرجال في الجنة، وسكت عن الأزواج للنساء، ولكن ليس مقتضى ذلك أنه ليس لهن أزواج، بل لهن أزواج من بني آدم.اهـ.

وأما القول الثالث: فدليله حديث (المرأة لآخر أزواجها) وقد تقدم.

والخلاصة: أن القول بأن المرأة مع أحسنهم أخلاقا كان معها في الدنيا: مما لم يصح فيه دليل، وأن القول بأنها تختار من تشاء منهم: لا دليل عليه البتة، وأن القول بأنها مع آخر أزواجها هو القول الأقرب للصواب، وذلك لاحتمال حسن حديث أم الدرداء مرفوعا، وهو مؤيد بأثري حذيفة وأسماء الموقوفين، واللذان

يصلحان لتقوية المرفوع، ولبيان أن للقول أصلا معتبرا.

المسألة السادسة عشرة

بيان خطأ مقولة ما عبدناك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك

هذه العبارة مخالفة للشرع المطهر، ويدل على ذلك:

١- أنه ليس بين الحب والخوف والرجاء تعارض حتى تعبد ربك تعالى حبا له؛ لأن الذي يخافه تعالى ويرجوه ليست محبة الله منزوعة منه، بل لعله أكثر تحقيقا لها من كثيرين يزعمون محبته.

٢- أن العبادة الشرعية عند أهل السنة تشمل المحبة والتعظيم، والمحبة تولد الرجاء، والتعظيم يولد الخوف.

قال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (٨/ ١٧، ١٨): والعبادة مبنية على أمرين عظيمين، هما: المحبة، والتعظيم، الناتج عنهما: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا) الأنبياء/ ٩٠، فبالمحبة تكون الرغبة، وبالتعظيم تكون الرهبة، والخوف.

ولهذا كانت العبادة أوامر، ونواهي: أوامر مبنية على الرغبة، وطلب الوصول إلى الآمر، ونواهي مبنية على التعظيم، والرهبة من هذا العظيم.

فإذا أحببت الله ﷻ: رغبت فيما عنده، ورغبت في الوصول إليه، وطلبت الطريق الموصل إليه، وقمت بطاعته على الوجه الأكمل، وإذا عظمته: خفت منه، كلما هممت بمعصية استشعرت عظمة الخالق ﷻ، فنفرت، (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) يوسف/ ٢٤، فهذه من نعمة الله عليك، إذا هممت بمعصية وجدت الله أمامك، فهبت، وخفت، وتباعدت عن المعصية؛ لأنك تعبد الله، رغبة، ورهبة.

٣- أن عبادة الأنبياء والعلماء والأتقياء تشتمل على الخوف والرجاء، ولا تخلو من محبة، فمن يرد أن يعبد الله تعالى بإحدى ذلك: فهو مبتدع، وقد يصل الحال به للكفر، قال الله تعالى - في وصف حال المدعوين من الملائكة والأنبياء والصالحين -: (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) الإسراء/ ٥٧، وقال الله تبارك وتعالى - في وصف حال الأنبياء -: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) الأنبياء/ ٩٠.

قال الطبري في تفسيره (١٨/ ٥٢١): ويعنى بقوله: (رغبا): أنهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون منه، من رحمته، وفضله، (ورهبا): يعني: رهبة منهم، من عذابه، وعقابه، بتركهم عبادته، وركوبهم معصيته.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣٧٠): وقوله: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات) أي: في عمل القربات، وفعل الطاعات.

(ويدعوننا رغبا ورهبا) قال الثوري: (رغبا) فيما عندنا، (ورهبا) مما عندنا.

(وكانوا لنا خاشعين) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: مصدقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: مؤمنين حقا، وقال أبو العالية: خائفين، وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، لا يفارقه أبدا، وعن مجاهد أيضا: (خاشعين) أي: متواضعين، وقال الحسن، وقتادة، والضحاك: (خاشعين) أي: متذللين لله عز وجل، وكل هذه الأقوال متقاربة.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٥/ ٢١): قال بعض السلف: "من عبد الله بالحب وحده: فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده:

فهو حروري - أي: خارجي -، ومن عبده بالرجاء وحده: فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء: فهو مؤمن موحد.اهـ.

٤- اعتقادهم أن الجنة هي الأشجار والأنهار والحور العين، وغفلوا عن أعظم ما في الجنة مما يسعى العبد لتحصيله وهو رؤية الله تعالى، والتلذذ بذلك، والنار ليست هي الحميم والسموم والزقوم، بل هي غضب الله وعذابه والحجب عن رؤيته ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى " (١٠/ ٦٢، ٦٣): ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال: "ما عبدتك شوقا إلى جنتك، ولا خوفا من نارك، وإنما عبدتك شوقا إلى رؤيتك"، فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل، والشرب، واللباس، والنكاح، ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات، ولهذا قال بعض من غلط من المشائخ لما سمع قوله: (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) قال: فأين من يريد الله؟! وقال آخر في قوله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) قال: إذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر إليه؟!، وكل هذا لظنهم أن الجنة لا يدخل فيها النظر، والتحقيق: أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم، وأعلى ما فيها: النظر إلى وجه الله، وهو من النعيم الذي ينالونه في الجنة، كما أخبرت به النصوص، وكذلك أهل النار، فإنهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار، مع أن قائل هذا القول إذا كان عارفا بما يقول فإنما قصده أنك لو لم تخلق نارا، أو لو لم تخلق جنة لكان يجب أن تعبد، ويجب التقرب إليك، والنظر إليك، ومقصوده بالجنة هنا ما يتمتع فيه المخلوق.اهـ.

وقال ابن القيم في مدارج السالكين " (٢/ ٨٠، ٨١): والتحقيق أن يقال:

الجنة ليست اسما لمجرد الأشجار، والفواكه، والطعام، والشراب، والحور العين، والأنهار، والقصور، وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة، فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل، ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرة العين بالقرب منه، وبرضوانه، فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدا، فأيسر يسير من رضوانه: أكبر من الجنان وما فيها من ذلك، كما قال تعالى: (ورضوان من الله أكبر) التوبة/ ٧٢، وأتى به منكرا في سياق الإثبات، أي: أي شيء كان من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة.

قليل منك يقنعني ولكن قليلك لا يقال له قليل

وفي الحديث الصحيح حديث الرؤية: (فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إلى وجهه)، وفي حديث آخر: (أنه سبحانه إذا تجلى لهم ورأوا وجهه عيانا: نسوا ما هم فيه من النعيم وذهلوا عنه ولم يلتفوا إليه).

ولا ريب أن الأمر هكذا، وهو أجل مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال، ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة، فإن (المرء مع من أحب)، ولا تخصيص في هذا الحكم، بل هو ثابت، شاهدا، وغائبا، فأي نعيم، وأي لذة، وأي قرة عين، وأي فوز، يداني نعيم تلك المعية، ولذتها، وقرة العين بها، وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب الذي لا شيء أجل منه، ولا أكمل، ولا أجمل قرة عين ألبتة؟.

وهذا والله هو العلم الذي شمر إليه المحبون، واللواء الذي أمه العارفون، وهو روح مسمى الجنة وحياتها، وبه طابت الجنة، وعليه قامت.

فكيف يقال: "لا يعبد الله طلبا لجنته، ولا خوفا من ناره "؟!.

وكذلك النار أعاذنا الله منها، فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله، وإهانته، وغضبه، وسخطه، والبعد عنه: أعظم من التهاب النار في أجسامهم، وأرواحهم، بل التهاب هذه النار في قلوبهم: هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم، ومنها سرت إليها.

فمطلوب الأنبياء، والمرسلين، والصديقين، والشهداء، والصالحين: هو الجنة، ومهربهم: من النار، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.اهـ.

٥- مؤدى تلك المقولة الاستخفاف بخلق الجنة، والنار، والله تعالى خلقهما، وأعد كل واحدة منهما لمن يستحقها، وبالجنة رغب العابدين لعبادته، وبالنار خوف خلقه من معصيته والكفر به.

٦- كان النبي ﷺ يسأل الله الجنة، ويستعيذ به من النار، وكان يعلم ذلك لأصحابه رضوان الله عليهم، وهكذا توارثه العلماء والعباد، ولم يروا في ذلك نقضا لمحبتهم لربهم تعالى، ولا نقصا في منزلة عبادتهم.

عن أنس قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: (اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار). رواه البخاري (٦٠٢٦).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لرجل: (ما تقول في الصلاة؟) قال: أتشهد، ثم أسأل الله الجنة، وأعوذ به من النار، أما والله ما أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ - أي: ابن جبل - قال: (حولها ندندن).

رواه أبو داود (٧٩٢) وابن ماجه (٣٨٤٧)، وصححه الألباني في " صحيح ابن ماجه".

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: (إذا أتيت مضجعك

فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل اللهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رهبة ورغبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت فإن مت مت على الفطرة فاجعلهن آخر ما تقول). رواه البخاري (٥٩٥٢) ومسلم (٢٧١٠).

قال تقي الدين السبكي في فتاواه (٢/ ٥٦٠): والعاملون على أصناف: صنف عبدوه لذاته، وكونه مستحقا لذلك؛ فإنه مستحق لذلك، لو لم يخلق جنة ولا نارا، فهذا معنى قول من قال: "ما عبدناك خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك"، أي: بل عبدناك لاستحقاقك ذلك، ومع هذا فهذا القائل يسأل الله الجنة، ويستعيذ به من النار، ويظن بعض الجهلة خلاف ذلك، وهو جهل، فمن لم يسأل الله الجنة والنجاة من النار: فهو مخالف للسنة؛ فإن من سنة النبي ﷺ ذلك، ولما قال ذلك القائل للنبي ﷺ: "إنه يسأل الله الجنة، ويستعيذ به من النار"، وقال: "ما أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ": قال النبي ﷺ: (حولها ندندن)، فهذا سيد الأولين والآخرين يقول هذه المقالة، فمن اعتقد خلاف ذلك: فهو جاهل، ختال.

ومن آداب أهل السنة أربعة أشياء لا بد لهم منها: الاقتداء برسول الله ﷺ، والافتقار إلى الله تعالى، والاستغاثة بالله، والصبر على ذلك إلى الممات، كذا قال سهل بن عبد الله التستري، وهو كلام حق.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى " (١٠/ ٢٤١): كل ما أعده الله لأوليائه: فهو من الجنة، والنظر إليه هو من الجنة، ولهذا كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة، ويستعيذ به من النار، ولما سأل بعض أصحابه عما يقول

في صلاته، قال: "إني أسأل الله الجنة، وأعوذ بالله من النار، أما إني لا أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ"، فقال: (حولها ندندن).اهـ.

٧- من أراد أن يعبد الله تعالى بالمحبة وحدها دون الخوف والرجاء: فدينه في خطر، وهو مبتدع أشد الابتداع، وقد يصل به الحال أن يخرج من ملة الإسلام، وبعض كبار الزنادقة يقول: إننا نعبد الله محبة له، ولو كان مصيرنا الخلود في النار!!، ويعتقد بعضهم أنه بالمحبة فقط ينال رضا الله ورضوانه، وهو يشابه بذلك عقيدة اليهود والنصارى، حيث قال تعالى عنهم: (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير) المائدة/ ١٨.

قال تقي الدين السبكي في فتاواه (٢/ ٥٦٠): وأما هذا الشخص الذي جرد وصف المحبة، وعبد الله بها وحدها: فقد ربا بجهله على هذا، واعتقد أن له منزلة عند الله رفعته عن حضيض العبودية، وضآلتها، وحقارة نفسه الخسيسة، وذلتها، إلى أوج المحبة، كأنه آمن على نفسه، وآخذ عهدا من ربه أنه من المقربين، فضلا عن أصحاب اليمين، كلا بل هو في أسفل السافلين.

فالواجب على العبد: سلوك الأدب مع الله، وتضاؤله بين يديه، واحتقاره نفسه، واستصغاره إياها، والخوف من عذاب الله، وعدم الأمن من مكر الله، ورجاء فضل الله، واستعانته به، واستعانته على نفسه، ويقول بعد اجتهاده في العبادة: "ما عبدناك حق عبادتك"، ويعترف بالتقصير، ويستغفر عقيب الصلوات، إشارة إلى ما حصل منه من التقصير في العبادة، وفي الأسحار، إشارة إلى ما حصل منه من التقصير، وقد قام طول الليل، فكيف من لم يقم؟!.اهـ.

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٢٢٧): (وادعوه خوفا وطمعا) أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب، وتخوف، وتأميل لله ﷻ، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر، يحملانه في طريق استقامته، وإن انفرد أحدهما: هلك الإنسان، قال الله تعالى: (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم) (الحجر/ ٤٩، ٥٠).

وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٢/ ٤٢٥ – ٤٢٧): تحت حديث (بكى شعيب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من حب الله ﷻ حتى عمي، فرد الله إليه بصره، وأو حى إليه: يا شعيب ما هذا البكاء؟! أشوقًا إلى الجنة أم خوفًا من النار؟ قال: إلهي وسيدي أنت تعلم ما أبكي شوقا إلى جنتك ولا خوفا من النار، ولكني اعتقدت حبك بقلبي، فإذا أنا نظرت إليك فما أبالي ما الذي صنع بي، فأو حى الله ﷻ إليه: يا شعيب إن يك ذلك حقا فهنيئا لك لقائي يا شعيب! ولذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي) ضعيف جدًّا، ومما ينكر في هذا الحديث قوله: "ما أبكي شوقًا إلى جنتك، ولا خوفًا من النار "! فإنها فلسفة صوفية، اشتهرت بها رابعة العدوية، إن صح ذلك عنها، فقد ذكروا أنها كانت تقول في مناجاتها: "رب! ما عبدتك طمعا في جنتك ولا خوفا من نارك". وهذا كلام لا يصدر إلا ممن لم يعرف الله تبارك وتعالى حق معرفته، ولا شعر بعظمته وجلاله، ولا بجوده وكرمه، وإلا لتعبده طمعًا فيما عنده من نعيم مقيم، ومن ذلك رؤيته تبارك وتعالى وخوفًا مما أعده للعصاة والكفار من الجحيم والعذاب الأليم، ومن ذلك حرمانهم النظر إليه كما قال: {كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُون}، ولذلك كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام – وهم العارفون بالله حقًّا – لا يناجونه بمثل هذه الكلمة الخيالية، بل يعبدونه طمعًا في

جنته - وكيف لا وفيها أعلى ما تسمو إليه النفس المؤمنة، وهو النظر إليه سبحانه، ورهبة من ناره، ولم لا وذلك يستلزم حرمانهم من ذلك، ولهذا قال تعالى بعد ذكر نخبة من الأنبياء: "إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين"، ولذلك كان نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- أخشى الناس لله، كما ثبت في غير ما حديث صحيح عنه. هذه كلمة سريعة حول تلك الجملة العدوية، التي افتتن بها كثير من الخاصة فضلًا عن العامة، وهي في الواقع {كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء}، وكنت قرأت حولها بحثا فياضًا ممتعًا في " تفسير العلامة ابن باديس " فليراجعه من شاء زيادة بيان.

المسألة السابعة عشرة: هل اسم خازن الجنة رضوان

ورد ذكر اسم رضوان خازن الجنة من أحاديث مرفوعة عن أبي بن كعب وأنس بن مالك وابن عباس وعبدالله بن ابي أوفى وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم، ولكن لا يثبت منها شي.

وفي حديث الشفاعة في الصحيحين (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بلى.. أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك).

وفي حديث أبي هريرة في الصحيح: (من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب، هلم..).

وكذلك حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أول زُمْرَةٍ تدخل الجنة من أمتي فقراء المهاجرين يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون فيقول لهم الخَزَنَةُ أوقد حُوسِبْتُم قالوا بأي شيء نحاسب وإنما كانت أسيافُنا على عواتقنا في سبيل الله حتى مِتْنا على ذلك فيفتح لهم فيَقِيلُون

فيها أربعين عامًا قبل أن يدخلها الناس) وهو في الصحيحة (٨٥٣).

هكذا جاء ذكره مبهما " الخازن" و" الخزنة " على الإفراد والجمع..

وما اشتهر من أن خازن الجنة اسمه رضوان - كما هو مشهور - غير صحيح لعدم وجود الدليل الشرعي الصحيح عليه..

وقد اشتهر هذا الأسم على ألسنة كثير من العلماء في تفاسيرهم وشروحهم لكتب الحديث منهم:

قال الإمام ابن القيم في حادي الأرواح (١/ ٧٦): قد سمى الله سبحانه وتعالى كبير هذه الخزنة رضوان وهو اسم مشتق من الرضا وسمى خازن النار مالكا وهو اسم مشتق من الملك وهو القوة والشدة حيث تصرفت حروفه..اهـ.

قال المناوي في فيض القدير (١/ ٥٠): سمي الموكل بحفظ الجنة خازنا لأنها خزانة الله تعالى أعدها لعباده، وال فيه عهدية والمعهود رضوان، وظاهره أن الخازن واحد وهو غير مراد، بدليل خبر أبي هريرة: "من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب هلم".

فهذا وغيره من الأحاديث صريح في تعدد الخزنة، إلا أن رضوان أعظمهم ومقدمهم، وعظيم الرسل إنما يتلقاه عظيم الحفظة...اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٥٣) عند ذكر خلق الملائكة: ومنهم الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن ومآكل ومشارب وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وخازن الجنة ملك يقال له رضوان جاء مصرحا به في بعض الأحاديث..اهـ.

وفي تفسير الرازي (٥/ ٣١٣): أن قوله تعالى: {وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى

الجنة زُمَرًا} جاء على لسان رضوان خازن الجنة.

وفي تفسير اللباب لابن عادل الحنبلي (٣/ ٤٧٤): في تفسير قوله تعالى {وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ} قال: أن المكسور اسم، ومنه رِضوان: خازن الجنة صلّى الله على نبينا وعلى أنبيائه وملائكته..اهـ.

وذكر الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح الأربعين النووية في الشفاعة الثالثة والرابعة: فيأتي ﷺ ويطرق الباب ويجيبه رضوان خازن الجنة، فيقول: أنا محمد، فيقول: أمرت أن أبدأ بك، لا أفتح لأحد قبلك، فيدخل أهل الجنة الجنة..اهـ. وهو في كتب التفسير وشروح الحديث كثير جدًا.

وقد يكون - والله أعلم - أن الأصل في هذه التسمية راجعة إلى أن الجنة دار رضا الله عن المؤمنين كما قال تعالى: (فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) التوبة-٧٢

وفي الصحيحين البخاري (٦٥٤٩)، مسلم (٢٨٢٩) عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك فيقول هل رضيتم؟ فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا).

قال المباركفوري في تحفة الأحوذي شرح الترمذي: رضواني: أي دوام رضواني.. فإنه لا يلزم من كثرة العطاء دوام الرضا ولذا قال: فلا أسخط عليكم أبدًا.. أي لا أغضب.

وقال الطيبي: الحديث مأخوذ من قوله تعالى: {وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} التوبة-٧٢.

وقال الحافظ: فيه تلميح بقوله تعالى " وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ " لأن رضاه سبب كل فوز وسعادة وكل من علم أن سيده راض عنه كان أقر لعينه وأطيب لقلبه من كل نعيم لما في ذلك من التعظيم والتكريم.اهـ.

فإن قيل: إذا جمعنا الأحاديث الضعيفة فيه مع ما اشتهر عن كثير من السلف، نقول بالاحتمال لأنه دلالة على أن له أصلا، فالأمر في الأسماء هين..

قيل: هذه المسألة من المسائل الغيبية والتي لا يقال فيها بالرأي، وإنما إذا صح النص فيه فلا عدول عنه، وهو هنا معدوم الصحة بل والحسن، وما وجد فإنما هو أحاديث ضعيفة غير ثابتة أو موضوعة..

فالصحيح أن ينسب كما جاء به الحديث الصحيح فيقال: خازن الجنة أو خزنتها، كما يقال ملك الموت لأنه لم يتعين اسمه كذلك في دليل صحيح.

وسئل علماء اللجنة الدائمة (٢٨/ ٣٥٣): هل رضوان خازن الجنة وأين ورد اسمه؟.

فأجابوا: المشهور عند العلماء أن اسم خازن الجنة رضوان، وجاء ذكره في بعض الأحاديث التي في ثبوتها نظر. والله أعلم.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح رقم ٩٩، عام (١٤١٦هـ): هل ورد على أن اسم خازن الجنة رضوان؟

فأجاب: اشتهرت به الآثار أن اسمه رضوان، لكنني لا أعرف فيه حديثًا صحيحًا عن الرسول عليه الصلاة والسلام. السائل: وإسرافيل؟ الشيخ: إسرافيل صحيح. السائل: في دعاء استفتاح الليل.

الشيخ: إي نعم، في دعاء استفتاح الليل: (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل).

المسألة الثامنة عشرة: ذكر بعص صفات النار

سعة النار وبعد قعرها

وأما قعرها وعمقها فعن خالد بن عمير قال: (خطب عتبة بن غزوان فقال: إنه ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عامًا لا يدرك لها قعرًا والله لَتُملأَن أفعجبتم.) رواه مسلم موقوفًا هكذا، وكذا خرجه الإمام أحمد موقوفًا، وخرجه أيضًا مرفوعًا. قال الحافظ ابن رجب في التخويف من النار: والموقوف أصح.

وخرج الترمذي عن عتبة بن غزوان أنه قال على منبر البصرة عن النبي ﷺ قال: (إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوي فيها سبعين وما تقض إلى قرارها).

قال: وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (أكثروا ذكر النار، فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها من حديد).

قال الترمذي: (رواه الحسن عن عتبة ولا نعرف للحسن سماعًا من عتبة بن غزوان).

وفي مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كنا عند رسول الله ﷺ يومًا فسمعنا وجبة، فقال النبي ﷺ: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفًا).

وخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: (لو أن حجرًا قذف به في نار جهنم لهوى فيها سبعين خريفًا قبل أن يبلغ

قعرها).

وأخرج ابن المبارك عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (إن ما بين شفير جهنم مسيرة سبعين خريفًا من حجر يهوي أو صخرة تهوي عظمها كعشر عشراوات أي: نوق عشارية عظام سمان فقال له رجل تحت ذلك شيء يا أبا أمامة؟ قال: نعم غي وآثام).

قال الحافظ في التخويف (ص٧٤): (وقد روي هذا مرفوعًا بإسناد فيه ضعف وزاد فيه: (قيل وما غي وما آثام قال: بئران يسيل فيهما صديد أهل النار وهما اللتان ذكرهما الله في كتابه فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا [مريم: ٥٩] وفي الفرقان يَلْقَ أَثَامًا [الفرقان: ٦٨].).

قال الحافظ: (والموقوف أصح).

وأخرج الإمام أحمد عن عبد الله عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (ما من حكم يحكم بين الناس إلا حبس يوم القيامة وملك آخذ بقفاه حتى يقفه على شفير جهنم، ثم يرفع رأسه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فإذا قال: ألقه، ألقاه في مهوي أربعين خريفًا).

وفي التخويف للحافظ بسند فيه عبد الله بن الوليد الرصافي لا يحفظ الحديث - وكان شيخًا صالحًا - أن أبا ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: يجاء بالوالي يوم القيامة فينبذ على جسر جهنم فيرتج به الجسر ارتجاجة لا يبقي منه مفصل إلا زال عن مكانه، فإن كان مطيعًا لله في عمله مضى به، وإن كان عاصيًا لله في عمله انخرق به الجسر فهوى في جهنم مقدار خمسين عامًا. فقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من يطلب العمل بعد هذا؟ قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من سلت الله أنفه، وألصق خده بالتراب، فجاء أبو الدرداء فقال له عمر: يا أبا الدرداء هل سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ حدثنا بحديث حدثني به أبو ذر، قال: فأخبره أن مع

الخمسين خمسين عاما يهوي أو نحو هذا).

.... وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله قال: قال النبي ﷺ: (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار) وفي لفظ (يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب).

وأخرج الإمام أحمد والترمذي عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوي بها في النار سبعين خريفًا).

وخرجه ابن ماجه وكذا البزار بنحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه. هذا عمقها.

وأما سعتها فروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أتدرون ما سعة جهنم؟ قلنا: لا، قال: قال: أجل والله ما تدرون، ما بين شحمة أذن أحدهم وعاتقه مسيرة سبعين خريفًا، تجري فيه أودية القيح والصديد والدم، قلنا: أنهار؟ قال: لا بل أودية، ثم قال: أتدرون ما سعة جهنم؟ قلنا: لا، قال: حدثتني عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [الزمر: ٦٧] فأين الناس يومئذ؟ قال: على جسر جهنم) روه الإمام أحمد.

وخرج النسائي والترمذي منه المرفوع وصححه الترمذي وخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

سجر جهنم وتسعرها

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: (لما خلق الله النار أرسل إليها جبريل قال له: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها، قال: فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضًا، فرجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها فحفت بالشهوات، ثم قال له: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر

إليها ورجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها) خرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي.

وفي حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: (إن ملكين أتياه في المنام فذكر رؤيا طويلة وفيها: قال: انطلقت، فأتينا على رجل كريه المرآة، كأكره ما أنت راء، فإذا هو عند نار يحشها ويسعى حولها قال: قلت: ما هذا؟ قالا لي: انطلق) وفي آخر الحديث: (قالا: فأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم) وقد خرجه البخاري بتمامه، وخرج مسلم أوله ولم يتمه.

وقوله: (كريه المرآة) أي المنظر، وقوله: (يحشها) أي يوقدها.

وروى هذا الحديث أبو خلدة عن أبي رجاء عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ فذكر الحديث بطوله، وفي حديثه قال: (فرأيت شجرة لو اجتمع تحتها خلق كثير لأظلتهم، وتحتها رجلان أحدهما يوقد نارًا والآخر يحتطب الحطب) وفي آخر الحديث: (قلت: فالرجلان اللذان رأيت تحت الشجرة، قال: ذلك ملكان من جهنم يحمون جهنم لأعداء الله إلى يوم القيامة)...

وجهنم تسجر كل يوم نصف النهار، وفي (صحيح مسلم) عن عمرو بن عبسة عن النبي ﷺ قال: (صلِّ صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس وترتفع، فإنها تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صل فإن الصلاة مشهودة (محظورة) حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة فإنه حينئذ تسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فصل) وذكر بقية الحديث.

وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من غير وجه من حديث أبي أمامة وغيره.

وفي حديث صفوان بن المعطل عن النبي ﷺ: (إذا طلعت الشمس فصل حتى تعتدل على رأسك مثل المرح، فإذا اعتدلت على رأسك فإن تلك الساعة تسخر فيها جهنم وتفتح فيها أبوابها، حتى تزول عن حاجبك الأيمن) خرجه عبدالله بن الإمام أحمد.

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: (فإذا انتصف النهار فأقصر عن الصلاة حتى تميل الشمس، فإنها حيئنذ تسعر جهنم، وشدة الحر من فيح جهنم).

وروى أبو بكر بن عياش عن عاصم عن زر عن عبدالله بن مسعود قال: (أن الشمس تطلع بين قرني شيطان، أو في قرني شيطان، فما ترتفع قصمة في السماء إلا فتح لها باب من أبواب النار، فإذا كانت الظهيرة فتحت أبواب النار كلها، فكنا ننهى عن الصلاة عند طلوع الشمس، وعند غروبها، ونصف النهار) خرجه يعقوب بن شيبة ورواه الإمام أحمد عن أبي بكر بن عياش أيضًا.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم) وفي رواية خرجها أبو نعيم: (من فيح جهنم) أو (من فيح أبواب جهنم)[(١)].

النار تتكلم وتبصر

الذي يقرأ النصوص من الكتاب والسنة التي تصف النار يجدها مخلوقًا يبصر، ويتكلم، ويشتكي، ففي الكتاب العزيز أن النار ترى أهلها وهم قادمون إليها من بعيد، فعند ذلك تطلق الأصوات المرعبة الدالة على مدى حنقها وغيظها على هؤلاء المجرمين، قال تعالى: إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا [الفرقان: ١٢]. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: (إن الرجل

(١) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار لا بن رجب (ص ٩٨ – ١٠١).

ليجر إلى النار، فتنزوي وينقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: مالك؟ فتقول: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك، فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل إلى النار، فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف) وقد خرج الإمام أحمد والترمذي من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (يخرج يوم القيامة عنق من النار، لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، تقول: إني وُكّلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين).

طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم

إن طعام أهل النار هو الضريع والزقوم، وشرابهم الحميم والغسلين والغساق، قال تعالى: لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ [الغاشية: ٦ - ٧]، والضريع شوك بأرض الحجاز يقال له الشبرق. وعن ابن عباس: الشبرق: نبت ذو شوك لاطئ بالأرض، فإذا هاج سمي ضريعًا. وقال قتادة: من أضرع الطعام وأبشعه. وهذا الطعام الذي يأكله أهل النار لا يفيدهم، فلا يجدون لذة، ولا تنتفع به أجسادهم، فأكلهم له نوع من أنواع العذاب. وقال تعالى: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ [الدخان: ٤٣ - ٤٦] وقد وصف شجرة الزقوم في آية أخرى فقال: أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ [الصافات: ٦٢

- ٦٨]. وقال في موضع آخر: ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّوم فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ [الواقعة: ٥١ - ٥٦]. ويؤخذ من هذه الآيات أن هذه الشجرة شجرة خبيثة، جذورها تضرب في قعر النار، وفروعها تمتد في أرجائها، وثمر هذه الشجرة قبيح المنظر ولذلك شبهه برؤوس الشياطين، وقد استقر في النفوس قبح رؤوسهم وإن كانوا لا يرونهم، ومع خبث هذه الشجرة وخبث طلعها، إلا أن أهل النار يلقى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفرًا من الأكل منها إلى درجة ملء البطون، فإذا امتلأت بطونهم أخذت تغلي في أجوافهم كما يغلي دردي الزيت، فيجدون لذلك آلامًا مبرحة، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ اندفعوا إلى الحميم، وهو الماء الحار الذي تناهى حره، فشربوا منه كشرب الإبل التي تشرب وتشرب ولا تروى لمرض أصابها، وعند ذلك يقطع الحميم أمعاءهم وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ [محمد: ١٥]. هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم، أعاذنا الله من حال أهل النار بمنه وكرمه. وإذا أكل أهل النار هذا الطعام الخبيث من الضريع والزقوم غصوا به لقبحه وخبثه وفساده إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا [المزمل: ١٢ - ١٣]، والطعام ذو الغصة هو الذي يغص به آكله، إذ يقف في حلقه. ومن طعام أهل النار الغسلين، قال تعالى: فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِؤُونَ [الحاقة: ٣٥ - ٣٧]، وقال تعالى: هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَساقٌ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ [ص: ٥٧ - ٥٨]. والغسلين والغساق بمعنى واحد، وهو ما سال من جلود أهل النار من القيح والصديد، وقيل: ما يسيل من فروج النساء الزواني ومن نتن لحوم الكفرة وجلودهم، وقال القرطبي:

هو عصارة أهل النار. وقد أخبر الحق أن الغسلين واحد من أنواع كثيرة تشبه هذا النوع في فظاعته وشناعته.

أما شرابهم فهو الحميم، قال تعالى: وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ [محمد: ١٥]، وقال: وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنا أَعْتَدْنَا لِلظالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا [الكهف: ٢٩]، وقال: وَيُسْقَى مِن ماء صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ [إبراهيم:١٦ - ١٧]، وقال: هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَساقٌ [ص: ٥٧].

وقد ذكرت هذه الآيات أربعة أنواع من شراب أهل النار

الأول: الحميم، وهو الماء الحار الذي تناهي حره، كما قال تعالى: يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ [الرحمن: ٤٤]، والـ (آن): هو الذي انتهى حره، وقال: تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ [الغاشية:٥]، وهي التي انتهى حرها فليس بعدها حر.

النوع الثاني: الغساق...

النوع الثالث: الصديد، وهو ما يسيل من لحم الكافر وجلده، وفي (صحيح مسلم) عن جابر عن النبي ﷺ قال: (إن على الله عهدًا لمن شرب المسكرات ليسقيه طينة الخبال. قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار، أو عصارة أهل النار).

الرابع: المهل وقال ابن عباس: في تفسير المهل: (غليظ كدردي الزيت).
الجنة والنار لعمر بن سليمان الأشقر - ص٨٧

وأما لباس أهل النار فقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أنه يُفصّل لأهل النار حلل من النار، كما قال تعالى: فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نارٍ يُصَبُّ مِن

فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ [الحج: ١٩]. وكان إبراهيم التيمي إذا تلا هذه الآية يقول: سبحان من خلق من النار ثيابًا. وقال تعالى: وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النارُ [إبراهيم: ٤٨ - ٤٩]. والقطران: هو النحاس المذاب. وفي (صحيح مسلم) عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال: (النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران ودرع من جرب). وخرجه ابن ماجه ولفظه: (النائحة إذا ماتت ولم تتب قطع الله لها ثيابًا من قطران ودرعًا من جرب)[1].

(باب في الإيمان بأن الجنة والنار لا يفنيان)

النصوص الدالة على خلود النار كثيرة، وحسبك أن الله سماها "دار الخلد".

قال الطحاوي في عقيدته (ص ٤٧٦-ابن أبي العز): "والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان ولا تبيدان"، وقال ابن حزم في الملل والنحل (٤/ ٨٣): "اتفقت فرق الأمة كلها على أن لا فناء للجنة ولا لنعيمها، ولا للنار ولا لعذابها، إلا الجهم بن صفوان"، وجاء في كتابه مراتب الإجماع (ص١٧٣):"... وأن النار حق، وأنها دار عذاب لا تفنى، ولا يفنى أهلها بلا نهاية".اهـ. وهذا الإجماع وإن كان لا يثبت ولكن القول بما تضمنه هو الحق في المسألة لأن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وأنعم عليهم بجميع النعم وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وأخبرهم أن من وحده وعبده وحده لا شريك له دخل الجنة ومن جحده أو أشرك به وعبد معه غيره أو اتخذ آلهة أخرى من دونه أو جعل له زوجة أو ولدا أو جعل الملائكة بناته أو اتبع غير شرعه الذي أنزله ليحكم بين الناس

---

(١) الجنة والنار لعمر بن سليمان الأشقر (ص٩١).

بالحق أو ترك دينه وأعرض عنه أنه سيكون يوم القيامة في عذاب جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، وهذا عين العدل وهو ما يستحقه هذا الذي ظلم نفسه بجحد ربه وخالقه وموجده من العدم، أما الساقط في جهنم من الموحدين يعذب ما شاء الله ثم يخرج، هذا هو المذهب الحق، والمذاهب في النار المخالفة للمذهب الحق سبعة وهي:

١ - الجهمية: القائلون بفناء النار وفناء الجنة أيضًا، وقد حكى الإمام أحمد في آخر كتاب " الرد على الزنادقة " مذهب الجهمية بأن النار والجنة تفنيان، ورد عليهم ذاكرًا النصوص الدالة على عدم فنائهما.

٢ - الخوارج والمعتزلة: يقولون بخلود كل من يدخل النار، ولو كانوا من أهل التوحيد، وسر هذا القول أن الخوارج يكفرون المسلمين بالذنوب، فكل من ارتكب ذنبًا، فإنه كافر خالد مخلد في نار جهنم، والمعتزلة يرون أن من ارتكب ذنبًا في منزلة بين المنزلتين، فلا هو مؤمن ولا كافر، ويجرون عليه أحكام الإسلام في الدنيا، ولكنه في الآخرة مخلد في نار جهنم، وقد سقنا كثيرًا من النصوص الدالة على أن أهل التوحيد يخرجون من النار.

٣- اليهود: الذين يزعمون أنهم يعذبون في النار وقتًا محدودًا، ثم يخلفهم غيرهم فيها، وقد أكذبهم الله في زعمهم، ورد عليهم مقالتهم (وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة قل أتخذتم عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون * بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) [البقرة: ٨٠ - ٨١]. (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون*ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودات وغرهم في دينهم

ما كانوا يفترون) [آل عمران: ٢٣ - ٢٤].

٤- قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي، فإنه زعم أن أهلها يعذبون فيها مدة، ثم تنقلب طبائعهم نارية يتلذذون بالنار لموافقتها لطبائعهم، قال ابن حجر في الفتح: "وهذا قول بعض من ينسب إلى التصوف من الزنادقة".

٥- قول من زعم أن أهلها يخرجون منها، وتبقى على حالها خالدة لا تبيد.

٦- قول أبي هذيل العلاف من أئمة المعتزلة الذاهب إلى أن حياة أهل النار تفنى، ويصيرون جمادًا لا يتحركون، ولا يحسون بألم، قال بذلك لأنه يقول بامتناع حوادث لا نهاية لها، فخالف الأدلة الصريحة القطيعة الثبوت بمقاييس عقلية باطلة.

٧- قول من قال: إن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في الأحاديث، ثم يبقيها شيئًا، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه، وهذا القول مال إليه البحر العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وتلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى.

ولقد شاع واشتهر على ألسنة كثير من الدارسين لمسائل العقيدة القول بأن شيخ الإسلام ابن تيمية يميل إلى القول بفناء النار، ولا يوجد لشيخ الإسلام نص واضح جلي في هذه المسألة، ولكن له رسالة بعنوان (الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك)، وقد وجدت هذه الرسالة بحمد الله وطبعت في دار بلنسية في الرياض، أَلَّفها شيخ الإسلام جوابا عن سؤال وجه إليه، فأجاب بذكر آراء غيره من العلماء في ذلك، وبين الفرق بين دوام الجنة والنار، وفنائهما، ولم يعقب على ما ذكر من الآراء بقول خاص له هو، ومن هنا اختلفت الآراء والمفاهيم حول موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من المسألة،

وذلك على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تحاملوا على ابن تيمية وجعلوه حامل لواء هذه المسألة، وجعلوا منها غرضا للنيل منه وتضليله، وعلى رأس هولاء السبكي صاحب رسالة (الاعتبار ببقاء الجنة والنار) ألفها ردا على شيخ الإسلام.

القسم الثاني: من أنكر نسبة القول بفناء النار إلى شيخ لإسلام ابن تيمية.

القسم الثالث: تأملوا النصوص الواردة عن ابن تيمية في هذه المسألة وقالوا: إنه يميل فقط إلى القول بفناء النار انطلاقا من سعة رحمة الله وليس الغرض من سوق هذا الكلام هو الدفاع عن القول بفناء النار ولكن الغرض هو الرد على السبكي وغيره في تضليل وتبديع شيخ الإسلام وفي هذا المعنى يقول العلامة ابن القيم في حادي الأرواح (ص٣٥٦): فقولكم إنه من أقوال أهل البدع كلام من لا خبرة له بمقالات بني آدم وآرائهم واختلافهم وقال الألوسي في جلاء العينين (ص٤٨٨): ولئن سلم أنه - أي شيخ الإسلام - مال إلى ذلك فقد ذهب إليه بعض السلف وأفراد من الخلف، وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: "وغاية ما يقال إنه قول خطأ، أو رأي غير صواب، ولا يقال بدعة، وليس قصدي الدفاع عن هذا القول ولكن قصدي ببيان أنه ليس بدعة ولا ينطبق عليه ضابط البدعة وهو أنه من المسائل القديمة" التي وقع الخلاف فيها قبل ابن تيمية.اهـ.(١).

---

(١) قال شيخ الإسلام في رسالة "الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك" (ص٤١): بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

مسألة في الرد على من قال: بفناء الجنة والنار، وعلى من قال بفناء – بياض بالأصل – كالفارابية وذكر اختلاف الناس في دار الجزاء بالعقاب، ودار الثواب بالإنعام، وللناس في ذلك ثلاثة أقوال:

=

=

قوم قالوا بفنائهما جميعا، وقوم قالوا ببقائهما جميعا، وقوم قالوا: بفناء دار الجزاء، وبقاء دار الإفضال، والإنعام، والإكرام...

أما القول بفنائها فما رأينا أحدا حكاه عن أحد من السلف، من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، وإنما حكوه عن الجهم بن صفوان، وأتباعه الجهمية، وهذا مما أنكر عليه أئمة الإسلام، بل ذلك مما أكفروهم به، كما ذكره عبد الله بن أحمد في كتاب "السنة" والأثرم في: كتاب "السنة"، وأبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في كتاب "خلق أفعال العباد"، وغيرهم عن خارجة بن مصعب، أنه قال: كفرت الجهمية بآيات من كتاب الله ﷻ، في غير موضع بأربع آيات من كتاب الله: بقوله تعالى: {أُكُلُهَا دَائِمٌ}، وهم يقولون: لا يدوم، ويقول الله تعالى {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}، وهم يقولون ينفد، وبقوله تعالى: {لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ}، فمن قال: إنها تنقطع، فقد كفر، وبقوله تعالى: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} أي: غير مقطوع. فمن قال: إنه ينقطع، فقد كفر، "وهذا قاله جهم، لأصله الذي اعتقده، وهو: امتناع وجود ما يتناهى من الحوادث كما بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع - وهو عمدة أهل الكلام الذين استدلوا على حدوث الأجسام وحدوث ما لم يخل من الحوادث بها، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم، فرأى الجهم: أن ما يمنع من وجود ما لا يتناهى بمنعه في المستقبل، كما يمنعه في الماضي، فيلزم أن يكون الفعل الدائم ممتنعا على الرب في المستقبل كما كان ممتنعا عليه في الماضي وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة وافقه على هذا الأصل، لكن قال: هذا إنما يقتضي فناء الحركات، فقال: إنه تفنى حركات أهل الجنة، والنار حتى يبقوا في سكون دائم لا يقدر أحد منهم على حركة".

وزعم طائفة ممن وافقهم على امتناع حوادث لا نهاية لها، كأبي الحسن بن الزاغواني، أن هذا القول هو المقتضى القياس العقلي، لكن السمع لما جاء ببقاء الجنة، والنار، قلنا به، ولم يعلم أن ما كان ممتنعا في العقل لا يجيء السمع بوقوعه، فإن السمع لا يخبر بوجود ما كان ممتنعا في العقل.

والأكثرون الذين وافقوا جهما، وأبا الهذيل على أصلها، فرقوا بين الماضي، والمستقبل من جهة العقل، بأن الماضي قد دخل في الوجود بخلاف المستقبل، والممتنع إنما هو أن يدخل في الوجود ما لا يتناهى.

وقد بسط الكلام على هذه الأقوال في غير هذا الموضع، وبُيِّنَ غلط أصحابها، وأن

=

=

الماضي إذا قيل: لا يتناهى، فإنما المراد أنه لا ابتداء له، فلم ينته من طرف الابتداء، وإلا فإذا قدر ماضيا منتقضا، فقد تناهى. ففرض مالا يتناهى مطلقا، وجعله قاضيا منقضيا جمع بين النقيضين.

ولهذا كانت أدلتهم عليه جامعة بين النقيضين، مثل قولهم: يلزم أن يكون اليوم، وما سواه من الحوادث متوقفا على انقضاء ما نهاية له، وانقضاء ما لا نهاية له محال.

فإنه يقال لهم نعم، ما لا يتناهى لا في الابتداء، ولا في الانتهاء، فانقضاؤه محال، أما إذا قدرتموه حتى مضى، وانتهى إلى حد.

فقولهم بعد ذلك أن انقضاءه محال، كلام متناقض، فإنكم فرضتموه قد انقضى وانتهى من هذا الجانب، جانب النهاية، دون جانب البداية، ومثل قولهم في دليل ذلك التطبيق، إذا فرضنا الحوادث إلى حين الطوفان، والحوادث إلى حين الهجرة، ثم طبقنا بينهما: فإما أن يتماثلا، وإما أن يتفاضلا، والتماثل ممتنع، والتفاضل يقتضي وقوع التفاضل فيما لا يتناهى، وهو محال، فإنه يقال لهم:

هذه الحوادث، هي بعينها لكنها زادت بما بين الوقتين: وقت الطوفان، ووقت الهجرة، وسواء قدر أنها هي، أو أنها غيرها، فهذه أكثر من هذه، وهذا تفاضل فيما انتهى، وهو الماضي، فهو تفاضل فيما تناهى من أحد طرفيه من الطرف المتناهي، فإن كان تناهى ما لا ابتداء له في المستقبل ممكنا، فالتفاضل وقع من جهة كونه متناهيا، لا من جهة كونه غير متناه - أي - لا بداية له. وإن كان تناهى ما لا ابتداء له غير ممكن، فقولكم: تناهى الحوادث إلى زمان الطوفان، أو الهجرة، باطل، وذلك أنه إذا قيل: إنه لم يزل الرب متكلما بمشيئته، وقدرته، أو لم يزل فعالا لما يشاء، نحو ذلك مما يقتضي كونه فاعلها، كان هذا النوع قديما، وما وجب قدمه، امتنع عدمه، وذلك يقتضي امتناع انقضاء فعل الرب، نقيض قول الجهم، فإن عنده يجب انقضاء فعله وانقطاعه، ويمتنع عنده دوامه أبدا كما امتنع دوامه أزلا، ويجب عنده أن يكون لم يزل غير فاعل في الماضي، ولا في الأبد إذا فنيت الجنة والنار.

وحقيقة قوله: أنه لم يزل غير قادر، ثم صار قادرا، ثم يصير غير قادر وهو يقول: ما كان له بداية، وجب أن يكون له نهاية.

فأما إذا قدر أن الرب لم يزل قادرا على الفعل، والكلام بمشيئته، وأنه لم يزل متكلما إذا شاء فعالا لما يشاء، فهنا وجب وجود ما لا ابتداء له، ولا نهاية لابتدائه، فإذا قدر انتهاء

=

=

هذا النوع كان باطلا، فإذا قيل: إن الحوادث انتهت إلى الطوفان أو الهجرة.

فإن قيل: يقدر الرب ما بقي بفعل شيئا، فهذا تقدير خلاف الواقع، بل هو ممتنع. وإن قيل: يقدر فضلا في الذهن بين ما مضى وبين ما يستقبل، فهذا التقدير الذهني لا يغير الحقائق، بل الفعل الدائم في نفسه، ثم إذا قدر هذا في الذهن، فقد قدرت الحوادث الماضية انتهت إلى هذا الحد.

وإذا انتهت قبلت الزيادة والنقصان، فإن ما ينتهي من الحوادث يقبل الزيادة والنقصان، وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع، ولكن نبهنا هنا على أصل قول الجهم الذي أوجب له أن يقول بفناء الجنة والنار، حتى أنكر ذلك عليه أئمة الإسلام، وجمهورهم كفروه. والذين وافقوه على الأصل خالفوه في لوازمه فتناقضوا.

وفرق من فرق بين الماضي والمستقبل، بأن الماضي دخل في الوجود بخلاف المستقبل، فرق ضعيف لوجوه:

أحدها: إن الماضي قد جعله متناهيا، فلم يقع التفاضل إلا فيما تناهى دون ما لا تناهى كما تقدم، وحينئذ فما دخل في الوجوه إلا ما يتناهى من هذا الجانب، فهو تقدير يتناهى فما قدر متناهيا، ثم هذا إذا قدر أن تنهايه ممكن، فكيف إذا كان ممتنعا؟.

الثاني: أن الدليل شامل للنوعين، فإنه يمكن أن يقال: الحوادث من الهجرة، ومن الطوفان إلى ما لا يتناهى، هل هما متفاضلان؟ أم متماثلان. فإن تماثلا فهو محال، لأن أحدهما أزيد من الآخر، وإن تفاضلا فهو محال، لأن التفاضل في ما لا يتناهى محال.

فإن قيل: هذا تقدير التفاضل، والتماثل في ما لم يكن بعد.

قيل: نعم، لكنه تقدير التفاضل والتماثل، بتقدير وجوده لا في حال كونه معدوما، كما أن الماضي قدرتهم فيه التماثل، والتفاضل بعد عدمه بعد عدمه لا في حال وجوده، لكن قدرتهم تلك الحوادث الماضية التي عدمت كأنها موجودة.

ففي كلا الموضعين إنما هو تقدير التفاضل، والتماثل فيما هو معدوم.

فإن صح في أحد الموضعين صح في الآخر، وإن امتنع في أحدهما امتنع في الآخر.

الوجه الثالث: أن يقال: كون الشيء ماضيا، ومستقبلا أمرا إضافي بالنسبة إلى المتكلم المخبر، فيما مضى قبل كلامه، كان ماضيا، وما يكون بعده يكون مستقبلا، وبنسبة أحدهما إلى الآخر، فالماضي ماض على ما يستقبل، والمستقبل مستقبل لما قد مضى، وما من ماض إلا وقد كان مستقبلا، وما من مستقبل إلا وسيصير ماضيا، فليس ذلك

=

=

فرقا يعود إلى صفات النوعين، حتى يقال: إن أحدهما ممكن، والآخر ممتنع، بل هذا الماضي كان مستقبلا، وهذا المستقبل يصير ماضيا، فتتصف كل الحوادث بالمضي والاستقبال، فلم يكن في ذلك ما هو لازم للنوعين يوجب الفرق بينهما.

وبسط الكلام على ذلك له موضع آخر.

"والمقصود هنا: أن هذا القول "هو القول بفناء الجنة، والنار قول لم يعرف عن أحد من السلف: من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن أحد من أئمة المسلمين، والذين قالوه لم يقولوه تلقيا له من خطاب الرسول ﷺ. وإعلامه وبيانه، ولا من قياس معقول دل عليه الرسول، وإنما قالوه عن قياس قاسوه بعقولهم، وهو خطأ في نفس الأمر"، وإن كان قد اشتبه على كثير من أهل الكلام فاعتقدوه حقا، حتى بنوا عليه وجوب حدوث ما لم يخل من الحوادث، بل وجوب حدوث ما تقوم به الحوادث.

ومن هذا قالوا: إن القرآن مخلوق هو، وغيره من كلام الله، وإن الله يمتنع أن يكون لم يزل متكلما إذا شاء، وعليه -أيضا- بنوا نفي الصفات، لأنها أعراض لا تقوم بإلا بجسم، ثم منهم من قال: إنه صار يتكلم بمشيئته، بعد أن لم يكن يتكلم بمشيئته، وهؤلاء منهم من قال: الكلام لا يقوم به، فيكون مخلوقا بائنا عنه، ومنهم من قال: بل يقوم بذاته، فيكون جنس كلامه حادثا، والذين وافقوا السلف على أنه لم يزل متكلما وافقوا الجهم على أصله، قالوا: إن كلامه قديم العين، وهو لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل هو لازم لذاته كالحياة، ثم من هؤلاء من قال: إنه معنى واحد، هو الأمر بكل مأمور، والنهي عن كل منهي، وهو معنى التوراة. والإنجيل، والزبور وكل كلام يكلم به عبادة المؤمنين، ملائكته وغيرهم.

ومنهم من قال: بل هو حروف، أو حروف وأصوات أزلية، لم تزل ولا تزال لازمة لذاته، لا تتعلق بمشيئته وقدرته فهذه الطوائف الأربعة قد دخل في كل طائفة كثير من أهل النظر المعدودين من أكابر النظار، وأهل العلم، الناصرين للإسلام، أو للإسلام، والسنة وأصل أمرهم موافقتهم لجهم على قوله بامتناع دوام الحوادث، وأن الله يمتنع أن يكون لم يزل متكلما إذا شاء، فعالا لما يشاء، فوافقوه على أن كلام الرب وفعله يمتنع أن يكون دائما بقدرته، ومشيئته، وعلى أن يمتنع أن يكون كلمات الله لا نهاية لها، وقد قال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي} إلى قوله: {وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}.

=

=

وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.

روى ابن أبي حاتم في "تفسيره" عن سليمان بن عامر، قال: سمعت الربيع بن أنس يقول: "إن مثل علم العباد كلهم في علم الله ربهم، كقطرة من هذه البحور كلها، وقد أنزل في ذلك: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.

وقوله: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}.

ذلك الذي عني في هذا الحديث، يقول: لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي، والشجر كلها أقلام، لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة دائمة لا يفنيها شيء، لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما نقول، وفوق ما نقول، ثم إن مثل نعيم الدنيا أوله وآخره في نعيم الآخرة، كحبة من خردل في خلال الأرض كلها".

قلت ومثل هذا الكلام يقصد به التعبير عن عدم النهاية والنفاد والانقضاء.

والمراد: أن كلمات الله لا انتهاء لها، فلا تنفد، ولا تنقضي، وقد ذكر الربيع مع ذلك نعيم الجنة، فإن الله تعالى - قال: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}.

فاخبر أنه: لا ينفد، فلا يكون له انقضاء، ولا فراغ وآخر ينتهي عنده.

وهذه الأقوال، والكلام عليها مبسوطة في غير هذا الموضع، والمقصود هنا في فناء الجنة والنار، فقد تبين أن القول بفناء الجنة لم يعرف عن أحد من السلف، ولا الأئمة، وإنما هو قول جهم، ونحوه، وقد عرف فساده عقلا، ونقلا.

وأما القول بفناء النار: ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف والنزاع في ذلك معروف عن التابعين، ومن بعدهم.

وهذا أحد المأخذين في دوام عذاب من يدخلها، فإن الذين يقولون: إن عذابهم له حد ينتهي إليه ليس بدائم، كدوام نعيم الجنة قد يقولون: إنها قد تفنى، وقد يقولون: إنهم يخرجون منها، فلا يبقى فيها أحد، لكن قد يقال: إنهم لم يريدوا بذلك أنهم يخرجون مع بقاء العذاب فيها على غير أحد، بل يفنى عذابها، وهذا هو معنى فنائها.

"وقد نقل هذا القول عن عمر، ابن مسعود، وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهم".

=

=

وقد روى عبد بن حميد - وهو من أجل علماء الحديث - في تفسيره المشهور، قال: أنا سليمان بن حرب، أنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن البصري، قال: قال عمر: "لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه".
وقال: أنبأ حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، أن عمر بن الخطاب قال: "لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج، لكان لهم يوم يخرجون فيه".
ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} وهذا يبين أن مثل الشيخ الكبير من علماء الحديث والسنة يروي عن مثل هؤلاء الأئمة في الحديث، والسنة مثل سليمان بن حرب والذي هو من أجل علماء السنة والحديث، ومثل حجاج بن منهال في كلامهما عن حماد بن سلمة مع جلالته في العلم، والسنة، والذي يروي من وجهين: من طريق سلمة مع جلالته في العلم، والسنة، والذي يروى من وجهين: من طريق ثابت، ومن طريق حميد هذا عن الحسن من بعض التابعين فسواء كان هذا قد حفظ هذا عن عمر، أو لم يحفظ، كان مثل هذا الحديث متداولًا بين هؤلاء العلماء الأئمة لا ينكرونه، وهؤلاء كانوا ينكرون على من خرج عن السنة من الخوارج، والمعتزلة، والمرجئة، والجهمية.
وكان أحمد بن حنبل يقول: "أحاديث حماد بن سلمة هي الشجا في حلوق المبتدعة".
فهؤلاء من أعظم أعلام السنة الذين ينكرون من البدع ما هو دون هذا لو كان هذا القول عندهم من البدع المخالفة للكتاب والسنة، والإجماع، كما يظنه طائفة من الناس.
وعبد بن حميد ذكر هذا في تفسير قوله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} ليبين قول من قال: الأحقاب لها أمد ينفذ، ليست كالرزق الذي ماله من نفاذ، ولا ريب أنه من قال هذا القول، قول عمر، ومن نقله عنه، إنما أرادوا بذاك جنس أهل النار الذين هم أهلها.
فأما قوم أصيبوا بذنوب، فأولئك قد علم هؤلاء، وغيرهم، بخروجهم منه، وأنهم لا يلبثون فيها قدر رمل عالج، ولا قريبا من ذلك.
والحسن كان يروي حديث الشفاعة في أهل التوحيد، وقد ذكره البخاري، ومسلم عنه، وكذلك حماد بن سلمة كان يجمعها، ويحدث بها، وكذلك سليمان بن حرب، وأمثاله، فهذا عندهم لا يقال فيه مثل هذا، ولفظ أهل النار لا يختص بالموحدين، بل يختص بمن عداهم، كما قال النبي صلى الله عيه وسلم: "أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها، ولا يحيون". وقوله: يخرجون منها، أي يخرجون من جهنم بعد أن يفنى

=

=

عذابها، وينفذ وينقطع.

فهم لا يخرجون منها يعني جهنم، بل هم خالدون في جهنم كما أخبر الله سبحانه وتعالى.

لكن إذا انقضى أجلها، وفنيت كما تفنى الدنيا، لم يبق فيها عذاب، وذلك أن العالم لا يعدم، وجهنم في الأرض، والأرض لا تعدم بالكلية ولكن فناؤها بتغير حالها، واستحالتها من حال إلى حال كما قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}، وهم لا يعدمون بل يموتون، ويهلكون، كما قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ}.

فإذا أنفذه الرجل فقد نفذ ما عنده، إن كان لم يعدم، بل يعدم، بل انتقل من حال إلى حال.

وفي "تفسير علي بن أبي طلحة الوالبي" عن ابن عباس - وهو معروف مشهور، ينقل منه عامة المفسرين الذين يسندون كابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وعثمان بن سعيد الدارمي، والبيهقي والذين يذكرون الإسناد مجملا، كالثعلبي، والبغوي، والذين لا يسندون كالماوردي، وابن الجوزي، قال: قوله: {النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}.

قال: "وفي هذه الآية إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارا".

قال الطبري: "وروي عن ابن عباس أنه كان يتأول في هذا الاستثناء: أن الله تعالى جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عذابه إياهم إلى مشيئته ثنا عبد الله ثنا معاوية، عن علي، عن ابن عباس، قال: {النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا} قال في هذه الآية: "إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارا". وهذا الوعيد في هذه الآية ليس مختصا بأهل القبلة فإنه قال: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْأِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْأِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}. فأولياؤهم من الإنس" لفظ يدخل فيه الكفار قطعا، فإنهم أحق بموالاتهم من عصاة المسلمين.

وقال تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}.

=

=

وقال تعالى: {جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ}.

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ * مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ}.

وقال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ}.

وقال تعالى: {فَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}.

وقال تعالى: {فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}.

فأمر بقتال أولياء الشيطان، وهم الكفار، وقال: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

وقال تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} فأخبر أنهم يوحون إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوكم، فهذه وأمثالها تبين أن الكفار أولياء الشياطين، فهم أحق الناس بدخول في قوله: {وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْأَنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} وقد قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: "إن هذه الآية تقتضي أنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا نارا" فدل على أن هذا الاستثناء عنده دفع العذاب عنهم، وهذا مدلول الآية، وأنه لأجل هذه الآية يجب أن يتوقف، فلا يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ونارا، وهذا يناقض قول من يقول سوى ما شاء الله من أنواع العذاب، وإلا مدة مقامهم قبل الدخول من حين بعثوا إلى أن دخلوا، فإن ذلك معلوم أنه قبل الدخول لم يكونوا فيها، وقول من يقول في أهل الجنة فإنها صريحة في تناول الكفار.

لكن ذكر البغوي، أن ابن عباس قال: "الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله وأنهم يسلمون فيخرجون من النار". ولم يذكر من نقل هذا عن ابن عباس، فإن أريد بذلك من أسلم في الدنيا فليس كذلك، فإن الخطاب إنما هو لمن كان من أولياء الشيطان والجن الذين استمتع بعضهم ببعض وهؤلاء من جملة المسلمين، وجميع من أسلم سبق فيه علم الله، وأنه يسلم، وكأن قائل هذا القول ظن أن هذا خطاب للأحياء، وليس كذلك، بل هذا خطاب لهم يوم القيامة، وإن أراد أنهم يسلمون في جهنم فيخرجون منها، وهذا خلاف ما دل عليه القرآن في غير موضع، فعن عبد الله بن مسعود قال: "ليأتين على

=

=

جهنم زمان، ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا، وهؤلاء هم الكفار، وعن أبي هريرة ومثله" قال البغوي: "ومعناه عند أهل السنة - إن ثبت - ألا يبقى فيها أحد من؟ أهل الإيمان".

فيقال: إنهما لم يريدا ذلك، فإنهما بعد ما يلبثون فيها أحقابا وهؤلاء هم الكفار المذكورون في قوله تعالى: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا جَزَاءً وِفَاقًا إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا} وهذا الوصف الذين كذبوا بآيات الله {كِذَّابًا} أي تكذيبا، فهو تكذيب مؤكد بالمصدر، ولم أجد نقلا مشهورا عن أحد من الصحابة يخالف ذلك، بل أبو سعيد وأبو هريرة هما رويا حديث ذبح الموت، وأحاديث الشفاعة، وخروج أهل التوحيد وغيرهما، قالا في فناء النار ما قالا، وقد نقل البغوي: روى السدي، عن مرة، عن عبد الله، قال: "لو علم أهل النار أنهم يلبثون في النار عدد حصى الدنيا لفرحوا" وقد استفاض عن غير واحد من السلف تقدير الحقب بحد محدود، والأحقاب، جمع حقب، فروى ابن أبي حاتم عن عطية، عن ابن عباس قال في قوله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} قال: "سنين".

وعن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة قال: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} قال: الحقب: ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوما، واليوم كألف سنة، اليوم منها كالدنيا كلها.

قال ابن أبي حاتم، وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وهلال الهجري والضحاك، وذكوان، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعمرو بن ميمون أنهم قالوا: الحقب: ثمانون سنة.

وعن هشام، عن الحسن البصري أنه سئل عن قوله تعالى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} فقال: الله أعلم بالأحقاب فليس فيها عدد إلا الخلود، ولكنه بلغنا أن الحقب الواحد: سبعون ألف سنة، كل يوم من تلك الأيام كألف سنة مما تعدون.

وعن هشام، عن الحسن قال: "الأحقاب" لا يدري أحد ما هي؟ ولكن الحقب الواحد: سبعون ألف سنة، اليوم منها كألف سنة مما تعدون وقوله: الله أعلم ما الأحقاب، ولا يدري ما هي؟ يقتضي أن لها عددا الله أعلم، ولو كانت لا عدد لها لعلم كل أحد أنه لا عدد لها، ويؤيد ما نقله الحسن، عن عمر بن الخطاب كما تقدم، قول الحسن: "ليس فيها عدد إلا الخلود" حق أيضا، فإنهم خالدون فيها، لا يخرجون منها ما دامت باقية،

=

=

فأقوال الحسن يصدق بعضها بعضا.

وأما خلودهم في النار فهو حق كما أخبر الله.

وعن السُّدي: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} قال: "سبعمائة حقب، كل حقب سبعون سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوما، كل يوم كألف سنة مما تعدون".

وعن عبد الله بن عمرو قال: "الحقب: أربعون سنة".

وقد تنازع الناس في الأحقاب، هل هي مقدرة محدودة؟ على قولين: فعلى قول السدي وغيره: هي محدودة، مقدرة، وهو قول الزجاج، وغيره، لكن قال الزجاج: "المعنى أنهم يلبثون فيها أحقابا، لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا". قال الزجاج: "وبيانه: أن الأحقاب حدّ لعذابهم بالحميم والغساق، فإذا انقضت الأحقاب عذبوا بغير ذلك من العذاب".

وهذا الذي قاله الزجاج شاذ، خلاف ما عليه الأولون والآخرون، وهو خلاف ما دل عليه القرآن، فإن هذا يقتضي أنهم يبقون بعد الأحقاب فيها، ولكن لا يذوقون البرد والشارب حينئذ، وهذا باطل قطعا، ثم إذا ذاقوا البرد والشارب فهذا نعيم، فكيف يكونون معذبين فيها ذلك؟

وقال بعضهم: هذه الآية منسوخة، وقيل: "هي في أهل التوحيد".

قال عبد الحق بن عطية في "تفسيره". "ومن الناس من ظن لذكر الأحقاب أن مدة العذاب تنحصر وتتم، فطلبوا التأويل لذلك، فقال مقاتل بن حيان: الحقب سبع عشرة ألف سنة وهي منسوخة بقوله تعالى: {فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا} قال: وقد ذكرنا فساد هذا القول.

وقال آخرون: الموصوف باللبث أحقابا عصاة المؤمنين قال: وهذا أيضا ضعيف فما بعده من السورة يرد عليه.

وقال آخرون: إنما المعنى: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} غير ذائقين بردا ولا شرابا، فهذه الحال: يلبثون أحقابا، ثم يبقى العذاب سرمدا وهم يشربون أشربة جهنم.

والقول الثاني: إنها غير مقدرة، وقال هؤلاء: هذا لا يدل على غاية، لأنه كلما مضى حقب تبعه حقب، ولو أنه قال: لابثين فيها عشرة أحقاب، أو خمسة أحقاب دل على غاية، هذا قول ابن قتيبة وغيره.

قال أبو الفرج بن الجوزي: وهذا قول ابن قتيبة والجمهور وبيانه: إن زمان أهل الجنة والنار يتصور دخوله تحت العدد كقوله تعالى: {بُكْرَةً وَعَشِيًّا}، ومثل هذا، أن كلمات

=

=

الله داخلة تحت العدد وإن لم يكن لها نهاية، فيقال: هذا ممنوع، فما لا نهاية يمتنع أن يدخل تحت العدد، وإنما يدخل تحت العدد ما له مقدار محدود وهو المعدود، لكن إذا أخذ بعض من أبعاضه دخل تحت العدد كالبكرة والعشي، وهو مقدار يوم من أيام الجنة، ويعرف ذلك بنور يظهر لهم يزيد على النور المعتاد، يعرفون به البكرة والعشي، كما تظهر الشمس لأهل الدنيا، لكن الجنة ليس فيها ظلمة.

وقوله: كلمات الله داخلة تحت العدد ممنوع إنما يدخل منها تحت العدد بعض من أبعاضها مثل الآيات المنزلة، وإلا فيما لا نهاية له كيف يكون معدودا وكلما عد بقدر معدود فهو ما حد، وما يقدره الإنسان بلسانه وذهنه من العدد فله حد، والذي لا يتناهى ليس له مقدار لا في ذهنه ولا في لسانه.

وقوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}، {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} قال ابن أبي حاتم: ذكر عن جعفر بن سليمان، عن الجريري قال: سمعت أبا نضرة يقول: ينتهي القرآن إلى هذه الآية: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}.

وقد روى حرب الكرماني، وأبو بكر البيهقي عن أبي سعيد الخدري، وعن قتادة في قوله: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} والله أعلم بتثنيته على ما وقعت.

وروى الطبري، عن يونس، نا ابن وهب، نا ابن زيد. في قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} فقرأ حتى بلغ: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} فأخبرنا الذي شاء لأهل الجنة، فقال: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار.

وعن السُّدي: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ}. عن هذه الآية يوم نزلت كانوا يطعمون في الخروج.

قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}، ذكر البغوي عن عبد الرحمن بن زيد أنه قال: قد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذي لأهل الجنة، فقال: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار.

وقد روى علماء السنة والحديث في ذلك آثارا عن الصحابة والتابعين مثل ما روى حرب الكرماني، وأبو بكر البيهقي، وأبو جعفر الطبري وغيرهم عن الصحابة في ذلك.

وفي المسند للطبراني: ذكر فيه "أنه ينبت فيها الجرجير"، وحينئذ فيحتج على فنائها بالكتاب والسنة، وأقوال الصحابة - مع أن القائلين ببقائها ليس معهم كتاب، ولا سنة ولا أقوال الصحابة -.

=

=

منها ما رواه حرب، والبيهقي قال حرب الكرماني: "سألت إسحاق عن قول الله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} قال: أتت هذه الآية على كل وعيد في القرآن.

قال إسحاق: ثنا عبيد الله بن معاذ، ثنا معتمر بن سليمان، قال: قال لي أبي: ثنا أبو نضرة، عن جابر، أو أبي سعيد، أو بعض أصحاب النبي ﷺ قال: هذه الآية تأتي على القرآن كله {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} قال المعتمر: قال أبي: عنى كل وعيد في القرآن.

رواه أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسيره قال: ثنا الحسن بن يحيى، أنا عبد الرزاق، أنا ابن التيمي، عن أبيه أبي نضرة، عن جابر، أو أبي سعيد، أو عن رجل من؟ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله سبحانه: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} قال: هذه الآية تأتي على القرآن كله، فيقول: حيث كان في القرآن: {خَالِدِينَ فِيهَا} تأتي عليه.

وقال ابن جرير، حدثت عن ابن المسيب، عمن ذكره عن ابن عباس: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} قال: استثنى الله ﷻ قال: يأمر النار أن تأكلهم.

قال -أي الطبري-: وقال ابن مسعود: "ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا".

وقال ثنا محمد بن حميد الرازي، ثنا جرير، عن بيان، عن الشعبي قال: "جهنم أسرع الدارين عمرانا، وأسرعهما خرابا".

وقال حرب الكرماني، عن إسحاق بن راهوية، ثنا عبيد الله بن معاذ ثنا أبي، ثنا شعبة، عن أبي بلج، سمع عمرو بن ميمون يحدث عن عبد الله بن عمرو قال: "ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها، ليس أحد"، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابا.

وقال إسحاق، ثنا عبيد الله بن معاذ، ثنا أبي، ثنا شعبة، عن يحيى بن أيوب عن أبي زرعة وعن أبي هريرة، قال: أما الذي أقول: "إنه سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد، وقرأ: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ} الآية.

قلت: والذين قطعوا بدوام النار، لهم أربع طرق.

أحدها: ظن الإجماع فإن كثيرا من الناس يعتقد أن هذا مجمع عليه، ولا خلاف فيه بين السلف، وإن كان فيه خلاف حادث، فهو من أقوال أهل البدع.

=

=

والثاني: أن القرآن قد دل على ذلك دلالة قطعية، فإنه أخبر بخلودهم في النار أبدا في غير موضع من القرآن.

والثالث: أن السنة المستفيضة أخبرت بخروج من في قلبه مثال ذرة من إيمان من النار دون الكفار، فإنهم لم يخرجوا.

والرابع: قول من يقول: الرسول وقفنا على ذلك، وعلمناه من بعده ضرورة ولا يحتجون بنص معين، وعامة الناس يقولون: هذا لا نعلمه إلا من الخبر وشذ بعضهم فزعم أن العقل دل على خلود الكفار.

فأما الإجماع فهو أولا: غير معلوم، فإن هذه المسائل لا يقطع فيها بإجماع، نعم قد يظن فيها الإجماع وذلك قبل أن يعرف النزاع، وقد عرف النزاع قديمًا وحديثا، بل إلى الساعة لم أعلم أحدا من الصحابة قال: إنها لا تفنى، وإنما المنقول عنهم ضد ذلك ولكن التابعون نقل عنهم هذا وهذا.

وأما القرآن، فالذي دل عليه وليس في القرآن ما يدل على أنها لا تفنى، بل الذي يدل عليه ظاهر القرآن أنهم خالدون فيها أبدا، كما أخبر الله ﷻ في غير موضع، وأخبر أنهم يطلبون الموت، والخروج منها ويطلبون تخفيف العذاب، فلا يجابون: لا إلى هذا ولا على هذا، وأخبر أنهم ماكثون فيها، وأخبر أنهم {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا}.

وقال تعالى: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا}، {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ}.

وقال تعالى: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}.

وقوله: {لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} أي: يميتنا، وهكذا قال المفسرون مثل: السدي وابن زيد وغيرهما.

قال السدي: يقضي علينا بالموت، وقال ابن زيد: القضاء هاهنا: الموت. وكذلك قال سائر المفسرون، وهذا كقوله تعالى: {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا}.

وعن الفراء في قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ} إلى قوله تعالى {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ

=

=

{الْقَاضِيَةَ} وذلك أن القضاء هو الإكمال والإتمام، والأمر المقتضى هو الذي قد مضى وفرغ.

وبالموت تنقضي حياة الإنسان، فقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ}.

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ}.

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}.

وقال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} فهذه النصوص وأمثالها في القرآن تبين أنهم خالدون في جهنم لا يموتون ولا يحيون، وأنهم يسألون هذا وهذا فلا يجابون.

وهذا يقتضي خلودهم في جهنم - دار العذاب - مادام ذلك العذاب باقيا ولا يخرجون منها مع بقائها وبقاء عذابها، كما يخرج أهل التوحيد، فإن هؤلاء يخرجون منها بالشفاعة، وغير الشفاعة مع بقائها، كما يخرج ناس من الحبس الذي فيه العذاب مع بقاء الحبس والعذاب لذي فيه على من لم يخرج.

وهكذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح "صحيح مسلم":

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: "أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، فأماتهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر، ضبائر فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل".

وفي "الصحيحين" عن أبي هريرة في الحديث الطويل الذي فيه المرور على الصراط، والشفاعة، وقال فيه: "حتى إذا فرغ الله من القصاص بين العباد، فأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله ممن أراد

=

=

الله أن يرحمه، ممن يقول: لا إله إلا الله فيعرفونهم بأثر السجود، وتأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون فيه كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ الله من القصاص بين العباد ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار"، وذكر صرفه عن النار، ثم تقدمه إلى الجنة، ثم إلى بابها، ثم إدخاله الجنة، وانه يعطيه ما تناه، مثله معه. ورواه أبو سعيد، وقال: "وعشرة أمثاله".

وكذلك في "الصحيحين" من حديث أبي سعيد قال: "حتى إذا خلص المؤمن من النار، فو الذي نفي بيده، من أحد بأشد منا شدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون: ربنا كانوا يصمون معنا، ويصلون ويحجّون، فيقول: أخرجوا من عرفتوهم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا، وقد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه، فيقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا، فمن وجدتهم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، إلى أن قال: ثم يقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا".

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث، فاقرءوا إن شئتم: {إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}.

فيقول الله: شفعت الملائكة، وشفعت النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة، يقال له: نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السبيل، قال: فيخرجون كالؤلؤ في رقابهم الخواتيم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله، الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربنا، وأي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي، فلا أسخط عليكم بعده أبدا".

وفي رواية: "من إيمان" بدل قوله: "من خير"، قال فيه: "فيقول الجبار: قد بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار، فيخرج أقواما قد امتشحوا فليقيهم في نهر بأفواه الجنة... " الحديث. ولم يقل: "لم يعملوا خيرا قط".

وفي "الصحيحين" عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: "إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، وآخر الجنة دخولا الجنة: رجل يخرج من النار حبوا، فيقول الله له:

=

=

اذهب: فادخل الجنة، فيأتيها، فتخيل إليه أنها ملآى - إلى أن قال -: فيقول الله له: اذهب، فإن لك عشرة أمثال الدنيا - أو - إن لك الدنيا، وعشرة أمثالها".
وفي رواية لمسلم: فيقول له: "تمن، فتمنى، فيقال له: لك الذي تمنيت، وعشرة أضعافه". وهذا يوافق حديث أبي سعيد من وجهين:
وكذلك لمسلم من حديث جابر: "مثل الدنيا وعشرة أمثالها"، كما في اللفظ الأول في حديث ابن مسعود.
وفي حديث جابر في "الصحيحين" أن رسول الله صلى لله عليه وسلم قال: "إن الله تعالى يخرج ناسا من النار، فيدخلهم الجنة".
وفي رواية: "إن الله يخرج قوما من النار بالشفاعة"، ولمسلم من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "إن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها إلا دارات وجوههم، حتى يدخلون الجنة".
وللبخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: "يخرج قوم النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة، فيسمون الجهنميين".
وللبخاري، عن أنس عن النبي ﷺ قال: "يخرج قوم من النار بعد ما "مسهم" منها سفع، فيدخلون الجنة، فيسمون الجهنميين".
وأحاديث الشفاعة فيمن يخرج من النار كثيرة فيخرج من النار كثير منها عدة أحاديث في "الصحيحين".
وفي حديث أنس: ذكر فيه الشفاعة مرة بعد مرة، وأنه صلى لله عليه وسلم قال في الآخرة، "فأقول: أي رب، ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله فيقول الله ﷻ وعزني وجلالي، وعظمتي وكبريائي، لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله".
وفي رواية لمسلم: "ليس ذلك لك، أو إليك".
"الفرق بين بقاء الجنة، والنار، شرعا، وعقلا" فأما شرعا، فمن وجوه:
أحدها: أن الله أخبر ببقاء نعيم الجنة ودوامه، وأنه لا نفاد له ولا انقطاع في غير موضع من كتابه، كما أخبر أن أهل الجنة لا يخرجون منها، وأما النار وعذابها فلم يخبر ببقاء ذلك، بل أخبر أن أهلها لا يخرجون منها، وأما النار وعذابها فلم يخبر ببقاء ذلك، بل أخبر أن أهلها لا يخرجون منها.
الثاني: أنه أخبر بما يدل على أنه ليس بمؤيد في عدة آيات.

=

=

الثالث: أن النار لم يذكره فيها شيء يدل على الدوام.
الرابع: إن النار قيدها بقوله: {لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}، وقوله: {خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ} وقوله: {مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ}، فهذه ثلاث آيات تقتضي قضية مؤقتة، أو معلقة على شرط، وذاك دائم مطلق، ليس بمؤقت ولا معلق.
الخامس: أنه قد ثبت أنه يدخل الجنة من ينشأه في الآخرة لها ويدخلها من دخل النار أولا، ويدخلها الأولاد بعمل الآباء، فثبت أن الجنة يدخلها من لم يعمل خيرا، وأما النار فلا يعذب أحد إلا بذنوبه، فلا تقاس هذه بهذه.
السادس: أن الجنة من مقتضى رحمته ومغفرته، والنار من عذابه، وقد قال: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} وقال: {اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} وقال: {رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}.
فالنعيم من موجب أسمائه التي هي من لوازم ذاته فيجب داومه بدوام معاني أسمائه وصفاته.
وأما العذاب فإنما هو من مخلوقاته، والمخلوق قد يكون له انتهاء مثل الدنيا وغيرها، لاسيما مخلوق خلق تتعلق بغيره.
السابع: أنه قد أخبر أن رحمته وسعت كل شيء، وأنه {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، وقال: "سبقت رحمتي غضبي" "وغلبت رحمتي غضبي"، وهذا عموم، وإطلاق، فإذا قدر عذاب لا آخر له، لم يكن هناك رحمة البتة.
الثامن: أنه قد ثبت مع رحمته الواسعة أنه حكيم، والحكيم إنما يخلق لحكمته العامة، كما ذكر حكمته في غير موضع فإذا قدر أنه يعذب من يعذب لحكمة كان هذا ممكنا، توجد في الدنيا العقوبات الشرعية فيها حكمة، وكذلك ما يقدره من المصائب فيها حكم عظيمة، فيها تطهير من الذنوب، وتزكية للنفوس، وزجر عنها في المستقبل للفاعل ولغيره، ففيها عبرة، والجنة طيبة لا يدخلها إلا طيب، ولهذا قال في الحديث الصحيح: "إنهم يحسبون بعد خلاصهم من الصراط على قنطرة بين الجنة والنار، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة".
والنفوس الشريرة الظالمة التي ردت إلى الدنيا قبل العذاب لعادات لما نهيت عنه لا يصلح أن تسكن دار السلام التي تنافي الكذب والظلم والشر، فإذا عذبوا بالنار عذابا يخلص نفوسهم من ذلك الشر كان هذا معقولا في الحكمة كما يوجد في تعذيب الدنيا،
=

=

وخلق من فيه شر يزول بالتعذيب من تمام الحكمة، وأما خلق نفوس تعمل الشر في الدنيا وفي الآخرة لا تكون إلا في العذاب، فهذا تناقض يظهر فيه من مناقضة الحكمة والرحمة ما لا يظهر في غيره.

ولهذا كان الجهم لما رأى ذلك ينكر أن يكون الله أرحم الراحمين، وقال: بل يفعل ما يشاء، والذين سلكوا طريقته كالأشعري وغيره، ليس عندهم في الحقيقة حكمة ورحمة، ولكن له علم وقدرة وإرادة لا ترجح أحد الجانبين، ولهذا لما طلب منهم أن يقروا بكونه حكيما، فسروه بأنه عليم أو قدير أو مؤيد، وليس من الثلاثة ما يقتضي الحكمة، وإذا ثبت أنه رحيم حكيم، وعلم بطلان قول الجهم تعين إثبات ما تقتضيه الرحمة والحكمة.

وما قاله المعتزلة -أيضا- باطل، فقول القدرية المجبرة والنفاة في حكمته ورحمته باطل، ومن أعظم ما غلطهم اعتقادهم تأييد جهم، فإن ذلك يستلزم ما قالوه، وفساد اللازم يستلزم فساد الملزوم، والله سبحانه أعلم.

وأما آيات بقاء الجنة.

فالأول: مثل قوله تعالى: {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} فأخبر أنه دائم والمنقطع ليس بدائم.

والثاني: مثل قوله: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}، والمنقطع ينفد.

والثالث: قوله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ} فأخبر أن ما في الدنيا من الخير ينفد وما عند الله باق لا ينفد، فلو كان لما عند الله من النعيم آخر لكان ينفد نعيم الدنيا، ولم يكن باقيا لا ينفد.

والرابع: مثل قوله تعالى في آيتين: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} كما قال: {وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ} قال عامة المفسرين: غير مقطوع، ولا منقوص وذكروا عن ابن عباس أنه قال: غير مقطوع، وعن مقاتل: غير منقوص -أيضا- قال عامة المفسرين: غير مقطوع ولا منقوص، كما قال: {وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ} قالوا - ومنه المنون، لأنه يقطع عمر الإنسان.

وعن مجاهد "غير مسحوب" وهذا يوافق ذلك، لأن ما ينتهي مقدر محسوب، بخلاف ما لا نهاية له فإنه غير مسحوب.

وقد شذ بعض الناس فقال: غير ممنون عليهم من جنس قوله: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا

=

=

قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ}.
وهذا القول مع مخالفته لأقوال السلف والجمهور هو خطأ لوجوه:
أحدها: أن الله يمن علينا بكل نعمة أنعم بها علينا، حتى بالإيمان والعمل الصالح قال تعالى: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.
وقال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ}،
وقال أهل الجنة ما أخبر الله تعالى به في قوله: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُوم}،
وهذا قولهم: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ}،
وقوله: {وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ}، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "لن يدخل أحد منكم بعمله الجنة" قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل".
والله تعالى في غير موضع يذكر آلاءه وإحسانه ونعمه على عباده، ويأمرهم أن يذكروها، ويأمرهم أن يشكروها.
والعبد قد نهي أن يمن بصدقته بقوله تعالى: {لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} لأن المتصدق في الحقيقة إنما أحسن إلى نفسه لا إلى المتصدق عليه، فإنه لولا أن له في ذلك منفعة وأجرا وعوضا لم يتصدق عليه، فصار كالذي يخدم المماليك بأجرة يأخذها من سيدهم ليس بمحسن إليهم.
وأيضا فإن المصدق الله هو المنعم عليه بما يسره الله للإحسان إلى نفسه وعليه أن يشكر الله تعالى ويرى أن الله هو المحسن إليه، فإن نظر إلى الفعل فالله خالقه، وإن نظر إلى غايته فهو يطلب جزاءه وعوضه من الله، وإن نظر إلى المحسن إليه فهو المحسن إلى نفسه، والله أحسن إليه أن جعله محسنا إلى نفسه لا ظالما لها.
فلهذا كان منه على المخلوق ظلما أبطل به صدقته، والله هو المنعم على عباده حقيقة بالنعمة، والشكر عليها إذا أعانهم على شكره وجعلهم شاكرين بنعمته، بثواب الشكر فكل ذلك تفضل منه وإحسان من غير أن يكون له على ذلك عوض يأخذه من غيره، لا من المحسن إليه ولا من غيره فهو المنعم حقيقة، وإن كان له في الإنعام حكمة يحبها ويرضاها، فتلك الحكمة منه، فما لأحد عليه منة وهو الجواد المحض وهو سبحانه

=

والقول الصواب في هذه المسألة: أن النار لا تفنى ولا تبيد، ولا يخرج منها إلا عصاة الموحدين، أما الكفرة والملحدون فهم فيها خالدون.

ولتوضيح الحق في المسألة ننقل كلام للعلامة الألباني في مقدمة تحقيق كتاب رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النارللصنعاني (ص٧ – ٤٩) قال العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقعت عيني على رسالة الإمام الصنعاني تحت اسم "رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار"، في مجموع رقم الرسالة فيه (٢٦١٩)

=

ليس كمثله شيء.

وللناس كلام في الجود والإحسان ومن يفعل لحكمة ومقصود هل هو جواد أم ليس بجواد؟ يفرق بين من يطلب عوضا من غيره فيحتاج إلى غيره فيكون جوده من باب المعاوضة، وبين من لا يحتاج إلى غيره بل هو الجواد بالنعم وبالحكم كما قد بسط في غير هذا الموضع.

ولأنه لما قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وبين أن غير المؤمنين تزول عنه النعمة، فلو كان المؤمن كذلك لم يكن بينهما فرق.

الخامس: مثل قوله تعالى في نعيم الجنة: {عطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} وفي عذاب أهل النار: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} قال غير واحد: غير مقطوع -أيضا-.

السادس: أنه قد أخبر أن أهل الجنة والنار لا يموتون كما في الحديث الصحيح "يؤتى بالموت في صورة كبش، فيذبح بين الجنة والنار، ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت فيها ويا أهل النار خلود ولا موت فيها" كل خالد فيما هو فيه، فإذا كانوا لا يموتون فلا بد لهم من دار يكونون فيها، ومحال أن يعذبوا بعد دخول الجنة فلم يبق إلا دار النعيم، والحي لا يخلو من لذة أو ألم، فإذا انتفى الألم تعينت اللذة الدائمة.اهـ. آخرها...

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه، حسبنا الله ونعم الوكيل انتهت رسالة شيخ الإسلام. وانظر أيضا بحثا موسعا في هذه المسألة للإمام ابن القيم في كتابه حادي الإرواح (ص٣٤٥-٣٨٨) الباب السابع والستون (في أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد).

فطلبته فإذا فيه عدة رسائل هذه الثالثة منها، فدرستها دراسة دقيقة واعية؛ لأن مؤلفها الإمام الصنعاني رحمه الله تعالى رد فيها على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ميلهما إلى القول بفناء النار بأسلوب علمي رصين دقيق " من غير عصبية مذهبية، ولا متابعة أشعرية ولا معتزلية " كما قال هو نفسه رحمه الله تعالى في آخرها.

وقد كنت تعرضت لرد قولهما هذا منذ أكثر من عشرين سنة بإيجاز في " سلسلة الأحاديث الضعيفة " في المجلد الثاني منه (ص ٧١ - ٧٥) بمناسبة تخريجي فيه بعض الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة التي احتجا ببعضها على ما ذهبا إليه من القول بفناء النار، وبينت هناك وهاءها وضعفه وأن لابن القيم قولًا آخر وهو أن النار لا تفنى أبدًا، وأن لابن تيمية قاعدة في الرد على من قال بفناء الجنة والنار، وكنت توهمت يومئذ أنه يلتقي فيها مع ابن القيم في قوله الآخر، فإذا بالمؤلف الصنعاني يبين بما نقله عن ابن القيم أن الرد المشار إليه إنما يعني الرد على من قال بفناء الجنة فقط من الجهمية دون من قال بفناء النار، وأنه هو نفسه - أعني ابن تيمية - يقول بفنائها وليس هذا فقط، بل وأن أهلها يدخلون بعد ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار، وذلك واضح كل الوضوح في الفصول الثلاثة التي عقدها ابن القيم لهذه المسألة الخطيرة في كتابه " حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح " (٢/ ١٦٧ - ٢٢٨)، وقد حشد فيها " من خيل الأدلة ورجلها، وكثيرها وقلها، ودقها وجلها، وأجرى فيها قلمه، ونشر فيها علمه، وأتى بكل ما قدر عليه من قال وقيل، واستنفر كل قبيل وجيل " كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ، ولكنه أضفى بهذا الوصف على ابن تيمية، وابن القيم أولى به وأحرى لأننا من طريقه عرفنا رأي ابن تيمية في هذه المسألة، وبعض أقواله فيها،

وأما حشد الأدلة المزعومة وتكثيرها فهي من ابن القيم وصياغته وإن كان ذلك لا ينفي أنه تلقَّى ذلك كله أو جله من شيخه في بعض مجالسه، فما عزاه إليه صراحة فهو الأصل في ذلك، وما لم يعزه فلا، ولذلك جريت فيما يأتي على التنبيه على ما لم يعزه إليه صراحةً؛ لأن من بركة العلم أن يعزى كل قول لقائله، وليس العكس كما هو معروف عند العلماء.

وإن مما يؤيد هذا؛ أن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعرض لهذا البحث مطولًا أيضًا في كتابه " الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة " بنحو ما في " الحادي " كما تراه في " مختصر الصواعق " للشيخ محمد بن الموصلي (ص ٢١٨ - ٢٣٩) فلم يذكر فيه ابن تيمية مطلقًا، وكذلك رأيته فعل في " شفاء العليل " (ص ٢٥٢ - ٢٦٤) إلا أنه قال في آخرها:

"وكنت سألت عنها شيخ الإسلام قدس الله روحه فقال لي: هذه المسألة عظيمة كبيرة، ولم يجب فيها بشيء، ومضى على ذلك زمن حتى رأيت في تفسير عبد بن حميد الكشي بعض تلك الآثار (يعني أثر عمر الآتي في أول الكتاب) فأرسلت إليه الكتاب وهو في مجلسه الأخير وعلمت على ذلك الموضع، وقلت للرسول: قل له هذا الموضع يشكل عليه ولا يدرى ما هو؟ فكتب فيها مصنفه المشهور رحمة الله عليه فهذا مما يدل على أنه من الممكن أن يكون تلقاه كله عنه، ولكن لا نقول به إلا في حدود ما نص هو عليه أنه من كلام ابن تيمية نفسه رحمهما الله تعالى في " الحادي " أو في غيره إن وجد.

وقد وقفت في مخطوطات المكتب الإسلامي على ثلاث صفحات في ورقتين بخط لعله من خطوط القرن الحادي عشر، نقلها كاتبها الذي لم يكشف عن هويته من رسالة ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الرد على من قال بفناء الجنة والنار.

وهذه الورقات الثلاث جمعها أخي المحقق زهير الشاويش من دشت مخطوطات عنده. وانظر صورها في الصفحات (٥٣ - ٥٥) وهذا نصها:

"قال شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية - رحمه الله تعالى - في رسالة في الرد على من قال بفناء الجنة والنار ما نصه:

" وأما القول بفناء النار ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف والنزاع في ذلك معروف عن التابعين ومن بعدهم، وهذا أحد المأخذين في دوام عذاب من يدخلها.

فإن الذين يقولون: أن عذابهم له حد ينتهي إليه ليس بدائم كدوام نعيم الجنة قد يقولون: إنها قد تفنى وقد يقولون: إنهم يخرجون منها فلا يبقى فيها أحد.

لكن قد يقال: إنهم لم يريدوا بذلك أنهم يخرجون مع بقاء العذاب فيها على غير أحد. وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهم رضي الله عنهم.

وروى عبد بن حميد - وهو من أجل علماء الحديث - في تفسيره المشهور قال: "أخبرنا سليمان بن حرب أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن البصري قال: قال عمر: "لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج[1] لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه".

وقال: أخبرنا حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن: أن عمر بن الخطاب قال: "لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه". ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: (لابثين فيها).

وهذا يبين أن مثل هذا الشيخ الكبير من علماء الحديث والسنة يروي عن

(١) هو رمل كثير جدًا مسيرة أربع ليال بين فيد والقريات.

مثل هؤلاء الأئمة في الحديث والسنة مثل سليمان بن حرب الذي هو من أجل علماء السنة والحديث، ومثل حجاج بن منهال كلاهما عن حماد بن سلمة - مع جلالته في العلم والسنة والدين -، يروي من وجهين من طريق ثابت ومن طريق حميد هذا عن الحسن البصري - الذي يقال: أنه أعلم من بقي من التابعين في زمانه - يروى عن عمر بن الخطاب، وإنما سمعه الحسن من بعض التابعين، سواء كان هذا قد حفظ هذا عن عمر أو لم يحفظه كان مثل هذا الحديث متداولًا بين هؤلاء العلماء الأئمة لا ينكرونه، وهؤلاء كانوا ينكرون على من خرج عن السنة من الخوارج والمعتزلة والمرجئة والجهمية، وكان أحمد بن حنبل يقول: أحاديث حماد بن سلمة هي الشجا في حلوق المبتدعة.

فهؤلاء من أعظم أعلام أهل السنة الذي ينكرون من البدع ما هو دون هذا لو كان هذا القول عندهم من البدع المخالفة للكتاب والسنة والإجماع كما يظنه طائفة من الناس، وعبد بن حميد ذكر هذا في تفسير قوله تعالى: [لابثين فيها أحقابا] ليبين قول من قال: إن الأحقاب لها أمد تنفد ليست كالرزق الذي ما له من نفاد، ولا ريب أن من قال هذا القول: عمر ومن نقله عنه إنما أراد بذاك جنس أهل النار الذين هم أهلها.

فأما قوم أصيبوا بذنوب فأولئك قد علم هؤلاء وغيرهم بخروجهم منها، وأنهم لا يلبثون فيها قدر عدد رمل عالج ولا قريبا من ذلك، والحسن كان يروي حديث الشفاعة في أهل التوحيد وقد ذكره البخاري ومسلم عنه وكذلك حماد بن سلمة كان يجمعها ويحدث الناس بها وكذلك سليمان بن حرب وأمثاله فهذا عندهم لا يقال فيه مثل هذا ولفظ أهل النار لا يختص بالموحدين بل يختص بمن عداهم كما قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «أما أهل النار الذين

هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون»[1] وقوله: "يخرجون فيه" أي يخرجون من جهنم بعد أن يفنى عذابها، وينفد وينقطع، فهم لا يخرجون منها بل هم خالدون في جهنم كما أخبر الله، لكن انقضى أجلها وفنيت كما تفنى الدنيا فلم يبق فيها عذاب، وذلك أن العالم لا يعدم، وجهنم في الأرض، والأرض لا تعدم بالكلية لكن فناؤها بتغير حالها واستحالتها من حال إلى حال قال تعالى: {كل من عليها فان} وهم لا يعدمون بل يموتون ويهلكون وكما قال تعالى {ما عندكم ينفد وما عند الله باق} فإذا أنفذه الرجل فقد نفد ما عنده وإن كان لم يعدم بل انتقل من حال إلى حال". انتهى. وقال فيها أيضًا:

" والفرق بين بقاء الجنة والنار عقلًا وشرعًا أما شرعًا فمن وجوه:

أحدها: أن الله أخبر ببقاء نعيم الجنة ودوامه وأنه لا نفاد له ولا انقطاع في غير موضع من كتابه، كما أخبر أن أهل الجنة لا يخرجون منها، وأما أهل النار وعذابها فلم يخبر ببقاء ذلك بل أخبر أن أهلها لا يخرجون منها.

الثاني: أنه أخبر بما يدل على أنه ليس بمؤبد في عدة آيات.

الثالث: أن النار لم يذكر فيها شيء مما يدل على الدوام.

والرابع: أن النار قيدها بقولها: {لابثين فيها أحقابا} وقوله: {خالدين فيها إلا ما شاء الله} وقوله: {خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك} فهذه ثلاث آيات تقتضي قضية مؤقتة، أو معلقة على شرط وذاك دائم مطلق ليس بمؤقت ولا معلق.

الخامس: قد ثبت أنه يدخل الجنة من ينشئه الله لها ويدخلها من دخل النار

---

(١) أخرجه مسلم وغيره وهو مخرج في " سلسلة الأحاديث الصحيحة" (١٥٥١).وانظر مختصر صحيح مسلم" رقم (٧٨).

أولًا، ويدخلها الأولاد بعمل الآباء، فثبت أن الجنة يدخلها من لم يعمل خيرًا، وأما النار فلا يعذب أحد إلا بذنوبه فلا يقاس هذه بهذه.

السادس: أن الجنة من مقتضى رحمته ومغفرته والنار من عذابه وقد قال: {نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيم، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيم} وقال تعالى: {اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم} وقال تعالى: {إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم} فالنعيم من موجب أسمائه التي هي من لوازم ذاته فيجب دوامه بدوام معاني أسمائه وصفاته.

وأما العذاب فإنما هو من مخلوقاته والمخلوق قد يكون له انتهاء مثل الدنيا وغيرها، لا سيما مخلوق خلق لحكمة يتعلق بغيره.

الوجه السابع: أنه قد أخبر أن رحمته وسعت كل شيء وأنه {كتب على نفسه الرحمة}، وقال: «سبقت رحمتي غضبي» و«غلبت رحمتي غضبي» وهذا عموم وإطلاق، فإذا قدر عذاب لا آخر له لم يكن هناك رحمة البتة.

الثامن: أنه قد ثبت مع رحمته الواسعة أنه حكيم إنما يخلق لحكمة كما ذكر حكمته في غير موضع، فإذا قدر أنه يعذب من يعذب لحكمة كان هذا ممكنًا كما يوجد في الدنيا العقوبات الشرعية فيها حكمة، وكذلك ما يقدره من المصائب فيه حكمة عظيمة فيها تطهير من الذنوب، وتزكية للنفوس، وزجر لها في المستقبل للفاعل ولغيره يجنبها غيره، والجنة طيبة لا يدخلها إلا طيب ولهذا قال في الحديث الصحيح: «إنهم يحبسون بعد خلوصهم من الصراط على قنطرة بين الجنة والنار، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة»(١) والنفوس الشريرة

---

(١) رواه البخاري وغيره وهو مخرج في (ظلال الجنة في تخريج السنة) لابن أبي عاصم (٨٥٧ - ٨٥٨).

الظالمة التي لو ردت إلى الدنيا قبل العذاب لعادت لما نهيت عنه لا تصلح أن تسكن دار السلام التي تنافي الكذب والظلم والشر، فإذا عُذبوا بالنار عذابًا يخلص نفوسهم من ذلك الشر كان هذا معقولًا في الحكمة، كما يوجد في تعذيب الدنيا وخلق من فيه شر يزول بالتعذيب من تمام الحكمة، أما خلق نفوس تعمل الشر في الدنيا والآخرة لا يكون إلا في العذاب، فهذا تناقض يظهر فيه من مناقضة الحكمة والرحمة ما لا يظهر من غيره، ولهذا كان من الجهم لما رأى ذلك ينكر أن يكون الله أرحم الراحمين وقال: بل يفعل ما يشاء. والذين سلكوا طريقته كالأشعري وغيره ليس عندهم في الحقيقة له حكمة ورحمة، لكن له علم وقدرة وإرادة لا ترجح أحد الجانبين، ولهذا لما طلب منهم أن يقروا بكونه حكيمًا، فرده بأنه عليم، إذ قد يراد: يريد وليس من الثلاثة ما يقتضي الحكمة، وإذا ثبت أنه حكيم رحيم وعلم بطلان قول الجهم تعين إثبات ما تقتضيه الحكمة والرحمة.

وما قاله المعتزلة أيضًا باطل، فقول القدرية المجبرة والنفاة في حكمته ورحمته باطل، ومن أعظم ما غلَّطهم اعتقادهم تأبيد جهنم فإن ذلك يستلزم ما قالوه، وفساد اللازم يستلزم فساد الملزوم" انتهى[1].

وأنت ترى في هذه الصفحات المنقولة عن رسالة ابن تيمية شبهًا كبيرًا فيما جاء فيها من الأمور بكلام ابن القيم في " الحادي " الذي نقل المؤلف خلاصات منه ورد عليها، مع فارق من حيث الإيجاز والبسط من جهة، وعدم تعرضه لكثير من المسائل والأحاديث والأدلة من جهة أخرى، وإن كان من الممكن أن يقال: أن من الجائز أن يكون ابن تيمية قد تعرض لذلك أيضًا في "

---

(١) هنا انتهت الصفحات الثلاث المخطوطة.

رسالته " ولكن كاتب تلك الصفحات اختصرها كما يدل عليه قوله في أولها عن ابن تيمية: "وأما القول بفناء النار"، وقول الكاتب في آخر ثلث الصفحة الثانية من الثلاث: (انتهى) وكذا قال في آخر الثالثة أيضًا. والله أعلم، ولقد كان أملي كبيرًا في أن أجد رسالة ابن تيمية هذه محفوظة في " مجموع الفتاوى " التي جمعها الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم في خمس وثلاثين مجلدًا ولكني - مع الأسف - لم أجد لها أثرا في شيء منها بعد تقليبي لها كلها، والاستعانة على ذلك بالفهارس التفصيلية الموضوعة لها، وكان أقوى ظني أن يوردها تحت عنوان " التخليد " الموضوع في (الفهرس) (١/ ١٣٩) ولكن دون جدوى أو في " تفسير سورة هود " في آيتي الاستثناء فيها، لكني لم أرها مع أنه أشار إليهما في فهرس السورة (١/ ٢٩١) فلما رجعت إلى المكان الذي أشار إليه (١٥/ ١٠٤) لم أجد فيه سوى إشارة ابن تيمية إلى الآيتين بقوله: "ثم ذكر حال الذين سعدوا والذين شقوا ثم قال... " أو في آية (الأنعام ١٢٨) من تفسير هذه السورة، ولكنها مما لا وجود له فيه مطلقا، أو في تفسير (النبأ) آية [لابثين فيها أحقابا] والقول فيه كالقول في الذي قبله، إلا أنه قد أشار في (الفهرس) (١/ ٣٤٥) أنها في موضعين من " المجموع " الأول في (١٦/ ١٩٤ - ١٩٧) والآخر في (١٨/ ٣٠٧) ومع ذلك فليس للآية ذكر فيهما مطلقًا نعم في الموضع الأول (ص ١٩٧) ما يدل ظاهر كلامه أنه يقول بخلود الكفار في النار، ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى في (سورة الأعلى): {ثم لا يموت فيها ولا يحيى}. ولكنه لا ينافي قوله بفناء النار؛ لأن له أن يقيده بقوله: ما لم تفن كما فعل بكثير من الآيات الصريحة بالخلود، بل والخلود الأبدي كما سترى ذلك مع رد المؤلف عليه في الرسالة إن شاء الله تعالى.

لكنه في الموضع الآخر قد صرح بخلاف ذلك وأن النار لا تفنى صراحة؛ فقد جاء في الصفحة المشار إليها منه ما نصه:

" وسئل عن حديث أنس بن مالك عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: "سبعة لا تموت ولا تفنى ولا تذوق الفناء: النار، وسكانها، واللوح، والقلم، والكرسي، والعرش " فهل هذا الحديث صحيح أم لا؟

فأجاب: هذا الخبر بهذا اللفظ ليس من كلام النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وإنما هو من كلام بعض العلماء. وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار والعرض وغير ذلك ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين...".

قلت: والظن بمن هو دون ابن تيمية علمًا ودينًا أن لا يخالف سلف الأمة وأئمتها، ولم لا وهو حامل راية الدعوة إلى اتباعهم، والسير على منهجهم، والتحذير من مخالفتهم، والخروج عن سبيلهم، كما لا يخفى ذلك على كل من اطلع على شيء من كتبه، وتغذى بطرف من علمه، لا سيما والنص في معنى ما ذكره محفوظ عن الإمام أحمد إمام السنة فقد ذكر في آخر كتابه " الرد على الزنادقة " وقد حكى عن الجهمية قولهم بفناء الجنة والنار فرده عليهم بشطريه وذكر آيات كثيرة في بقاء الجنة ودوامها، ثم قال في رد قولهم بفناء النار:

" وذكر الله تعالى أهل النار فقال: {لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها} (فاطر:٣٦).

وقال: {أولئك يئسوا من رحمتي} (العنكبوت:٢٣). وقال: {ولا ينالهم الله برحمته} (الأعراف:٤٩) وقال: {ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم

ماكثون} (الزخرف:٧٧) وقال: {سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص} (إبراهيم:٢١) وقال: {خالدين فيها أولئك هم شر البرية} (البينة:٦) وقال: {كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب} (النساء:٥٦) وقال: {كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها} (السجدة:٣٠) وقال: {إنها عليهم مؤصدة} (الهمزة:٨).

هذا كله مما احتج به الإمام أحمد رحمه الله تعالى على القائلين بفناء النار وعدم دوامه وقد نقل عنه شارح قصيدة الإمام ابن القيم: (الكافية الشافية) (١/ ٩٧) أنه قال: "والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولم يكتب عليهن الموت فمن قال خلاف ذلك فهو مبتدع " ونحوه قول ابن حزم في " الملل والنحل " (٤/ ٨٣): "اتفقت فرق الأمة كلها على: أنه لا فناء للجنة ولا لنعيمها، ولا للنار ولا لعذابها، إلا جهم بن صفوان... " وفي " العقيدة الطحاوية " (ص ٤٢٠ - بشرحها طبع المكتب الإسلامي): "والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدا ولا تبيدان " ثم رأيت ابن حزم قد أورد المسألة أيضا في كتابه " مراتب الإجماع" فقال (ص ١٧٣):"... وأن النار حق وأنها دار عذاب أبدًا، لا تفنى ولا يفني أهلها أبدا بلا نهاية" وأقره شيخ الإسلام أحمد بن تيمية خلافا لغيرها من المسائل التي تعقبه فيها ومن العجيب أن هذا القول بعدم فنائها هو مما ذهب إليه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، كما يدل عليه ظاهر كلامه في كتابه " الروح " (ص ٣٤ - طبعة صبيح) بل ذلك ما صرح به في بعضه كتبه:

١ - قال في " الكافية الشافية ": "ثمانية حكم البقاء يعمها من... الخلق والباقون في حيز العدم"هي: العرش والكرسي ونار وجنة... وعجب وأرواح

كذا اللوح والقلم[١].

٢- وأصرح منه ما كنت نقلته عنه في " سلسلة الأحاديث الضعيفة " في كتابه " الوابل الصيب " (ص ٢٦) قال ما نصه: "وأما النار فإنها دار الخبث في الأقوال والأعمال والمآكل والمشارب، ودار الخبيثين، فالله تعالى يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه كما يركم الشيء لتراكب بعضه على بعضه، ثم يجعله في جهنم مع أهله فليس فيها إلا خبيث، ولما كان الناس على ثلاث طبقات: طيب لا يشوبه خبث، وخبيث لا طيب فيه، وآخرون فيهم خبث وطيب، كانت دورهم ثلاثة:

دار الطيب المحض ودار الخبث المحض وهاتان الداران لا تفنيان ودار لمن معه خبث وطيب، وهي الدار التي تفنى وهي دار العصاة، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد، فإنهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة، ولا يبقى إلا دار الطيب المحض ودار الخبث المحض.

٣- تصريحه في مقدمة كتابه العظيم: "زاد المعاد في هدى خير العباد " بأن المشرك لا تطهره النار، ولو أخرج منها عاد خبيثًا كما كان وقد حرم الله عليه الجنة.

وسيذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ نص كلامه في ذلك في أول الرسالة (ص ٦٣)

فإن قيل: إن بعض الآيات التي احتج بها الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي على الأقل قطعية الدلالة في ديمومة عذاب الكفار وعدم فناء النار كقوله تعالى: {لا يخفف عنهم من عذابها} وقوله: {إنكم ماكثون} وقوله: {ما لنا من محيص} وغير ذلك من الآيات التي تأولها ابن القيم وأخرجها عن دلالتها على عدم الفناء مما

---

(١) "توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم " (١/ ٦٩).

سيأتي ذكره في الرسالة ورد المصنف عليه، وكذلك بعض الأحاديث الصحيحة تدل دلالة قاطعة على ذلك، ولا بأس من أن أذكر الآن بعضها:

الأول: حديث أنس الطويل في شفاعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وفيه: «فأخرجهم فأدخلهم الجنة فما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن. أي وجب عليه الخلود». رواه الشيخان وغيرهما وهو مخرج في «ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم» (٨٠٤ - ٨١٠).

الثاني: حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-:

«أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس[1] أصابتهم النار بذنوبهم أو قال: بخطاياهم فأماتهم الله تعالى إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة...» الحديث أخرجه مسلم (١/ ١١٨) وغيره وهو مخرج في "سلسلة الأحاديث الصحيحة " (١٥٥١). وفي رواية عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- خطب فأتى على هذه الآية: {لا يموت فيها ولا يحيى} فقال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: فذكره نحوه إلا أنه قال: «وأما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم....». ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية من رواية أبي حاتم كما في " مجموع الفتاوى " (١٦/ ١٩٥).

ووجه دلالة الحديث أنه صرح تبعا للقرآن أن الكافر لا يموت في النار ولا يحيى، فإذا قيل بأن النار تفنى؛ فإما أن يقال: تفنى بمن فيها كما هو المتبادر إن قيل بفنائها، أو تفنى لوحدها دون من فيها، وكلاهما باطل، لأن معنى الآية كما

(١) وقع هنا في " مختصر مسلم " للمنذري (رقم - ٨٧) زيادة (منكم) فلتحذف فإنها ليست في مسلم.

في "تفسير ابن كثير ": "أن الكافر لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه، بل هي مضرة عليه"، فإن فني الكافر معها فقد مات واستراح، وإن حيي دونها فقد استراح منها أيضًا، وكل هذا باطل بداهة، فإذا انضم إلى ذلك القول بأنه يدخل الجنة فهو أبطل.

الثالث: حديث ذبح الموت بين الجنة والنار وقد جاء عن جمع من الصحابة كابن عمر وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم في " الصحيحين " وغيرهما فلنذكر حديثين منها:

أحدهما: عن ابن عمر أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «يدخل الله أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كل خالد فيما هو فيه» أخرجه الشيخان. والآخر: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «يؤتى بالموت يوم القيامة فيوقف على الصراط فيقال: يا أهل الجنة، فيطلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه، ثم يقال: يا أهل النار فيطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه، فيقال: هل تعرفون هذا؟ قالوا: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر فيذبح على الصراط ثم يقال للفريقين كلاهما: خلود فيما تجدون لا موت فيها أبدا». أخرجه ابن ماجه بإسناد جيد كما قال المنذري وصححه ابن حبان (٢٦١٤) وأحمد (٢/ ٢٦١).

قلت: ففي الحديث دلالة قاطعة على بطلان دعوى فناء النار؛ لأنه جعلها كالجنة من حيث خلود أهلها فيما هم فيه من العذاب إلى الأبد، فكما أن الجنة لا تفنى أبدًا فكذلك النار لا تفنى أبدًا، وكل ذلك واضح بين إن شاء الله تعالى.

بعد هذا أعود فأقول: إن ما تقدم من الآيات والأحاديث صريحة في الدلالة

على بطلان القول بفناء النار، فكيف ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتصر له تلميذه ابن قيم الجوزية؟ فأقول: إن أحسن ما أجد في نفسي من الجواب عنهما إنما هو أنه لما توهما أن بعض الصحابة قد ذهبوا إلى ذلك، وهم قدوتنا جميعًا لو صح ذلك عنهم روايةً ودرايةً ولم يصح كما سيأتي بيانه عند المؤلف الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ، واقترن مع ذلك غلبة الخوف عليهما من الله {ولمن خاف مقام ربه جنتان} والشفقة على عباده تعالى من عذابه، وغمرهما الشعور بسعة رحمته وشمولها حتى للكفار منهم، وساعدهما على ذلك ظواهر بعض النصوص ومفاهيمها، فأذهلهما ذلك عن تلك الدلالة القاطعة، وقالا ما لم يقل أحد قبلهما، وما أرى لهما شبهًا في هذا إلا ذلك المؤمن الذي أوصى أهله أن يحرقوه بالنار ليضل عن ربه فلا يقدر على تعذيبه زعم كما قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله: إذا مات فحرقوه، ثم اذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم به، فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب وأنت، أعلم فغفر الله له».

أخرجه الشيخان وغيرهما عن جمع من الصحابة منهم أبو هريرة وهذا لفظه عند مسلم (٨/ ٩٧) وسيأتي عن ابن يتيمة وغيره أنه متواتر في التعليق (٩٧)

فهذا الرجل أنساه خوفه من ربه قدرته تعالى على إعادة خلقه وهي معلومة يقينًا {وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم} (يس:٧٨ ٧٩) فما أشبه ابن تيمية به من حيث أنه غفل عن المعلوم يقينًا أيضًا، وهو أن النار باقية لا تفنى، إلا أن

الحامل له على ذلك إنما كان ثقته البالغة في رحمة ربه وعفوه، وأنها وسعت كل شيء دون ما استثناء، ووافق ذلك منه خلقًا كريمًا وطبعًا رحيمًا جبله الله عليه عرف به بين أصحابه، ولا أدل على ذلك مما كتب به إليهم من سجنه الظالم في مصر: "فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي أو ظلمه وعدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسه، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي... أسأل الله أن يتوب عليهم وأنتم تعلمون هذا من خلقي...". انظر " مجموع الفتاوى " (٢٨/ ٥٥ - ٥٦).

وساعده على ذلك ظواهر بعض الآيات والأحاديث التي لم يمعن النظر فيها فلم يتبين له خطأ استدلاله بها، حتى استقر ذلك القول في نفسه، وأخذ بمجامع لبه، فصار يدافع عنه ويحتج له بكل دليل يتوهمه ويتكلف في الرد على الأدلة المخالفة له تكلفًا ظاهرًا خلاف المعروف عنه، وتبعه في ذلك بل وزاد عليه تلميذه وماشطة كتبه - كما يقو ل البعض - ابن قيم الجوزية.

حتى ليبدو للباحث المتجرد المنصف أنهما قد سقطا فيما ينكرانه على أهل البدع والأهواء من الغلو في التأويل والابتعاد بالنصوص عن دلالتها الصريحة، وحملها على ما يؤيد ويتفق مع أهوائهم، كما سترى ذلك مفصلا في " الرسالة " هذه (ص ١١٦ - ١٢٢)، حتى بلغ الأمر بهما إلى تحكيم العقل فيما لا مجال له فيه كما يفعل المعتزلة تمامًا، وقد تعلمنا من ابن تيمية وابن القيم - جزاهما الله خيرًا - الرد عليهم في مثله؛ فزعما أن عذاب النار سبب لإزالة آثار الخبث والنجاسة من الكفار فإذا تطهروا منها عادوا إلى فطرتهم الأولى فيزول العذاب ويبقى مقتضى الرحمة. كما سيأتي (ص ١٢٢) نقلًا عن ابن القيم ومضى نحوه

من كلام ابن تيمية. فتأمل معي في ذلك تجده كلامًا خطابيًا خياليًا لا حقيقة تحته، فإنه يفترض ذهاب تلك الخبائث وتلاشيها، وزوال العذاب عن الكفار وهم في الدار الآخرة حيث لا تكليف فيها، فإن من المعلوم يقينًا أننا لو تخيلنا كافرًا تاب إلى ربه وأناب إليه حينما رأى العذاب بأم عينيه أنه لا يفيده ذلك شيئًا بالإجماع، فكيف ينفعه شيء وهو لم يتب وهو في العذاب محترق؟ تالله إنها لإحدى الكبر أن يخفى مثل هذا على أحد من المسلمين، فكيف بشيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم الهمام ونحن دائمًا نغترف من بحر علومهما ونستضيء بنور أدلتهما في إزالة الشكوك والأوهام، في كثير مما اختلف فيه الناس قديمًا وحديثًا، وعلى سبيل المثال المناسب للحال أذكر هنا ملخصًا فتوى لابن تيمية جاءت في " مجموع الفتاوى " (٤/ ٣٢٤): "سئل الشيخ رحمه الله تعالى: هل صح عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن الله تعالى أحيا له أبويه حتى أسلما على يديه ثم ماتا بعد ذلك؟ "

فأجاب: "لم يصح ذلك عن أحد من أهل الحديث، بل أهل الحديث متفقون على أن ذلك كذب مختلق، وإن كان قد روي بإسناد فيه مجاهيل، وأمثال هذه المواضع فلا نزاع بين أهل المعرفة أنه من أظهر الموضوعات كذبًا، كما نص عليه أهل العلم، فإن مثل هذا لو وقع لكان مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله؛ فإنه من أعظم الأمور خرقا للعادة من وجهين:

١- من جهة إحياء الموتى:

٢- ومن جهة الإيمان بعد الموت، ثم هذا خلاف الكتاب والسنة الصحيحة والإجماع قال الله تعالى: {إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما. وليس التوبة

للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار} (النساء:١٧ ١٨). فبين الله تعالى أنه لا توبة لمن مات كافرًا. وقال تعالى: {فلم يك ينفعهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون} (غافر:٨٥) فأخبر أن سنته في عباده أنه لا ينفع الإيمان بعد رؤية البأس فكيف بعد الموت؟ "

قلت: فمن يفتي بهذا كيف يعقل أن يقول بنقيضه، لولا الذهول الذي نوهت عنه، بل إنه زاد على ذلك فقال ابن تيمية فيما تقدم من رسالته (ص ١٣):

"ولو قدر عذاب لا آخر له لم يكن هناك رحمة البتة "! ويا سبحان الله أين هو من مثل قوله تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون} (الأعراف:١٥٦) وقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن لله مائة رحمة، سأنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس، والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة». أخرجه الشيخان، وكذا أحمد، والحاكم وصححه، من طرق عن أبي هريرة بلفظ: «فيكملها مائة رحمة لأوليائه يوم القيامة»، وله بعض الشواهد خرجتها معه في " سلسلة الأحاديث الصحيحة " (رقم ١٦٣٤) فالآية الكريمة والحديث الشريف صريحان في أن الرحمة إنما هي للذين يستحقونها من المؤمنين، كلما كان المؤمن لله أتقى كلما كان بها أحظى، وليس الأمر كما يرجو بعض المهابيل من الذين يترنمون بقول شاعرهم البوصيري: لعل رحمة ربي حين يقسمها... تأتي على حسب العصيان في القسم كيف هذا وربنا يقول: [والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروق وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة

ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم] (التوبة/ ٧١) ويقول: {إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم} (البقرة:٢١٨) ولذلك كان من دعاء الملائكة الذين يحملون العرش: {ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم} (غافر:٧). فكل من وقاه الله تبارك وتعالى عذاب الجحيم فهو منغمس في رحمة الله يومئذ، كما هو صريح قوله ﷻ: {فأما الذين اسودت وجوههم أكفرت بعد إيمانكم فذقوا العذاب بما كنتن تكفرون. وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون} (آل عمران:١٠٦ و١٠٧).

فكيف يقول ابن تيمية: «ولو قدر عذاب لا آخر له لم يكن هناك رحمة البتة"، فكأن الرحمة عنده لا تتحقق إلا بشمولها للكفار المعاندين الطاغين، أليس هذا من أكبر الأدلة على خطأ ابن تيمية وبعده هو ومن تبعه عن الصواب في هذه المسألة الخطيرة؟ فغفرانك اللهم.

ولعل ذلك كان منه إبان طلبه للعلم، وقبل توسعه في دراسة الكتاب والسنة، وتضلعه بمعرفة الأدلة الشرعية في الوقت الذي كان يحسن الظن بابن عربي الصوفي القائل بأن عذاب الكفار في النار لا يستمر، بل ينقلب عليهم إلى عذوبة يتلذذون بها كما في " حادي الأرواح " (٢/ ١٦٨) فلما تبين له حاله رجع عنه كما تحدث بذلك هو نفسه فقال كما في "مجموع الفتاوى" (٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥): "وإنما كنت قديمًا ممن يحسن الظن بابن عربي ويعظمه لما رأيت في كتبه من الفوائد مثل كلامه في كثير من "الفتوحات" "والدرة الفاخرة" و"مطالع النجوم"ونحو ذلك، ولم نكن بعد اطلعنا على حقيقة مقصودة ولم نطالع "

الفصوص"ونحوه...».

ومثله جزمه بحياة الخضر عليه الصلاة والسلام مع إبطاله لحديث «لو كان الخضر حيًا لزارني» وقوله: بل المروي في " مسند الشافعي وغيره أنه اجتمع بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ومن قال إنه لم يجتمع بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقد قال ما لا علم له "[1]، ذكر له ذلك في فتوى له تجد نصفها في (المجموع) (٤/ ٣٣٨ - ٣٤٠) انظر (١٠/ ٤٦). فإن المعروف عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يقول بموت الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما هو قول كثير من الأئمة كالإمام البخاري، وقد صرح بذلك في كثير من رسائله وفتاويه فقال في " زيارة بيت المقدس " (٢٧/ ١٨): "وكذلك الذي يرون الخضر أحيانًا هو جني لبس على المسلمين الذي رأوه، وإلا فالخضر الذي كان مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مات، ولو كان حيًا على عهده رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لوجب عليه أن يأتي إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ويؤمن به ويجاهد معه... ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر، ولا أنه أتى إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فإن الصحابة كانوا أعلم وأجل قدرًا من أن يلبس الشيطان عليهم، ولكن لبس على كثير ممن بعدهم...".

وقال في موضع آخر (٢٧/ ١٠٠): "والصواب الذي عليه المحققون أنه ميت، وأنه لم يدرك الإسلام، ولو كان موجودًا في زمن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لوجب أن يؤمن به ويجاهد معه... وإذا كان الخضر حيًا دائمًا فكيف لم يذكر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ذلك قط، ولا أخبر به أمته

---

(١) يشير إلى حديث وفاة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجتماع الصحابة حوله ومجيء الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتعزيته إياهم، وهو حديث موضوع خرجته في " الضعيفة " (٥٢٠٤).

ولا خلفاؤه الراشدين؟ "

قلت: حتى ولا ذكر ذلك لأمين سره حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، فمن ذا الذي يدعي بعد ذلك أنه علمه ما لم يعلم هؤلاء الأجلة العظماء رضي الله عنهم.

وقد صرح ابن تيمية بموت الخضر في مواطن أخرى كثيرة فانظر مثلًا (١/ ٢٤٩) من " المجموع"، أليس في ذلك دليل واضح على أن فتواه الأولى بحياة الخضر كانت في أول أمره ولا سيما وقد احتج لها بحديث الشافعي وهو موضوع كما هو مبين في " سلسلة الأحاديث الضعيفة " برقم (٥٢٠٤) فيه القاسم بن عبد الله العمري قال أحمد: "كان يكذب ويضع الحديث".

ومن ذلك أنه كان يفتي بنجاسة الزيت ونحوه إذا وقعت فيه نجاسة مثل الفأرة الميتة، كما هو مذهب الشافعي وغيره، اعتمادًا منه على حديث أبي داود: «إن كان جامدا فألقوها وما حولها وكلوا سمنكم، وإن كان مائعا فلا تقربوه».

فلما تبين له أن قوله فيه: «وإن كان مائعا فلا تقربوه» ضعيف رجع عنه إلى القول: بعدم التفريق بين المائع والجامد، وأن العبرة في كل ذلك إنما هو التغير، فقال في فتوى له: "وهذا هو الذي تبين لنا ولغيرنا ونحن جازمون بأن هذه الزيادة ليست من كلام النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فلذلك رجعنا عن الإفتاء بها بعد أن كنا نفتي بها أولًا، فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل" "مجموع الفتاوى" (٢١/ ٥١٥ - ٥١٦)[١].

ونحوه رجوعه عن بعض أحكام المناسك التي كان قلد فيها من قبله من العلماء كما قال في "منسكه" (المجموع ٢٦/ ٩٨).

---

(١) وانظر " المسائل الماردينية " لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق زهير الشاويش (ص ٢٧) طبع المكتب الإسلامي.

ولا غرابة في أن يكون لمثله أكثر من قول واحد في بعض المسائل، وأن يخطئ في بعض آخر؛ فإن ذلك من الأمور الطبيعية التي لا يخلو منها أحد من العلماء بعد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، فإن من المعلوم أن أحدهم كلما طال به الزمن في طلب العلم، وتقدم به في ذلك العمر، كلما ازداد به معرفةً ونضجًا، وهذا هو السبب في كثرة الأقوال التي تروى في المسألة الواحدة عن بعض الأئمة المتبوعين، وبخاصة منهم الإمامين أحمد وأبا حنيفة، وتميز الإمام الشافعي من بينهم بمذهبه القديم والجديد، وهذا أبو الحسن الأشعري - إمام الأشاعرة في العقيدة - نشأ في الاعتزال أربعين عامًا يناظر عليه، ثم رجع عن ذلك وصرح بتضليل المعتزلة، وبالغ في الرد عليهم، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "المجموع" (٤/ ٧٢).

وقد صرح بهذه الحقيقة الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ حين نهى أبا يوسف عن تقليده فقال له: "ويحك يا يعقوب، لا تكتب كل ما تسمع مني، فإني قد أرى الرأي اليوم وأتركه غدًا، وأرى الرأي غدًا وأتركه بعد غد".

ولذلك تتابعت أقوال الأئمة الأربعة وغيرهم في النهي عن تقليدهم، وجرى في ذلك على سننهم كل من جاء بعدهم من العلماء المحققين من أمثال ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى، وجريت أنا على هذا الذي خططوه لنا في كل ما تبين من العلم كما تراه موضحًا في مقدمة "صفة صلاة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-".

وهذا هو السبب الذي يحملني على أن لا أحابي في ذات الله أبًا، أو أداري في دين الله أحدًا، فترانا هنا نرد على شيخ الإسلام ابن تيمية قوله بفناء النار، ولا نداريه مع عظمته في نفوسنا، وجلالته في قلوبنا فضلًا عن أننا لا نقلده في ديننا،

خلافًا لما عليه عامة المقلدة الذين يحملهم إجلالهم لإمامهم على تقليده، ونبذ قول كل من خالف، حتى ولو كان المخالف هو النبي محمدًا ﷺ، بديل أن يتخذوه وحده قدوةً ولا يشركوا معه في ذلك أحدًا كما هو الواجب بل إنهم ليصرحون بخلاف ذلك كما قال أحدهم اليوم في كتيب له: "أفلا يحق لنا أن نعتبر من واقع غيرنا (يعني السلفيين) فنثبت عند أقوال الإمام الذي يسر الله تعالى لنا الاقتداء به منذ أول نشأتنا"(١).

ونحن نقول بقول رب العالمين في القرآن الكريم: {أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير]؟ فأين أنت يا هذا من قوله تبارك وتعالى: [لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر} ؟ وغير ذلك من النصوص التي توجب على كل مسلم اتباعه -صلى الله عليه وآله وسلم- دون سواه {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} ولكن {من لم يجعل الله له نورا فما له من نور}.

وإذا كان هذا موقف المقلدة من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، فماذا يكون موقفهم من المحبين له، المخلصين في الاقتداء به، لا سيما إذا كان من العلماء العاملين المعروفين بالرد على كل من خالف شرعة رب العالمين؛ كابن عربي وابن الفارض القائلين بوحدة الوجود، وأن الخالق هو عين المخلوق، وعلى غيرهم من علماء الكلام والمتصوفة والمقلدة، وسائر الهالكين من الأنام، ألا وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، فإننا نرى المقلدة في كل عصر ومصر يعادونه أشد العداء، لا سيما إذا عثروا له على قول خالف فيه

(١) انظر مقدمتي للطبعة الثالثة لكتاب "الآيات البينات في عدم سماع الأموات عند الحنفية السادات" للشيخ نعمان الآلوسي بتحقيقي ونشر المكتب الإسلامي.

العلماء كمسألتنا هذه، فهناك تراهم يصولون ويجولون، ومن عرضه ينالون، وفي دينه يطعنون، بل وبالكفر والضلال يصرحون، كما يفعل الكوثري والحبشي وغيرهما اليوم، وهم - مع الأسف -كثيرون، ولكنهم غثاء كغثاء السيل؛ لأنهم بالقرآن لا يعملون، بل هم عنه يعدلون، إلى تحكيم أهوائهم، وإلا فأين هم من قوله تعالى: {ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى}.

فهل من العدل في شيء أن يتخذوا شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ غرضًا للتكفير والتضليل لقوله هذا ونحوه من الأقاويل، ولا ينبسون ببنت شفة في حق ابن عربي مثلًا الذي ملأ الدنيا بالكفريات والأضاليل، وهلك بسببه الألوف المؤلفة من خاصة المسلمين، فضلًا عن عامتهم المهابيل، فضلُّوا جميعا عن سواء السبيل، مع البون الشاسع والفرق اللامع بين الرجلين؛ فإن عربي ليس له ذكر ولا أثر في العلوم الإسلامية، كالتفسير والحديث والفقه كما لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه، الذي شهد بفضله وغزارة علمه القريب والبعيد، والحبيب والبغيض فهم، جميعًا يغترفون من بحر علومه بأوفى نصيب، فهو بحق كما قال السيد محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى: "رحم الله شيخ الإسلام وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فوالله إنه ما وصل إلينا من علم أحد منهم ما وصل إلينا من علمه: في بيان حقيقة هذا الدين، وحقيقة عقائده، وموافقة العقل السليم وعلومه للنقل الصحيح من كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، بل لا نعرف أحدًا منهم أوتي مثل ما أوتي من الحجج بين علوم النقل وعلوم العقل بأنواعها، مع الاستدلال والتحقيق دون محاكاة أو تقليد".

وما لنا نذهب بعيدًا، فهناك بعض الأئمة المتقدمين ممن يقلدهم اليوم

جماهير المسلمين، ممن ذهب إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، مع مخالفة ذلك لأدلة الكتاب والسنة الصريحة وأقوال سلف هذه الأمة، مما هو معروف ومبسوط في محله، فلماذا مع ذلك يعتذر عنه بعض المقلدين وجمهورهم له يقلدون، وعن ابن تيمية يزورن، بل وله يعادون، والحكم واحد فهلاّ ساقوهما مساقًا واحدًا، واعتذروا عنهما كليهما بجامع كونهما من أفاضل العلماء الأتقياء أم الأمر كما قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

ولست بالذي يتبع عثرات العلماء، وإنما هي الأمثال نضربها للناس لعلهم يتذكرون، فينصفون ابن تيمية ولا يظلمون، وإلا فإن من فضائل ابن تيمية التي حرمها المقلدة علمًا وعملًا تحذيره عن تتبع زلات العلماء، وعن التكلم فيهم؛ لأن الله عفا عما أخطؤوا فيه، فقال في آخر رسالته في تحريم الشطرنج في " المجموع " (٣٢/ ٢٣٩) ما نصه: "وليس لأحد أن يتبع زلات العلماء كما ليس له أن يتكلم في أهل العلم والإيمان إلا بما هم له أهل؛ فإن الله تعالى عفا عن المؤمنين عما أخطؤوا كما قال تعالى: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} قال الله: قد فعلت" رواه مسلم. وأمرنا أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا، ولا نتبع من دونه أولياء، وأمرنا أن لا نطيع مخلوقًا في معصية الخالق، ونستغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان فنقول: {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان}[1]، وهذا أمر واجب على المسلمين في كل ما كان يشبه هذا من الأمور، ونعظم أمره تعالى بالطاعة لله ورسوله، ونرعى حقوق المسلمين لا

---

(١) سورة الحشر الآية ١٠: [والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم].

سيما أهل العلم منهم كما أمر الله ورسوله، ومن عدل عن هذه الطريقة فقد عدل عن اتباع الحجة إلى اتباع الهوى في التقليد، وآذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فهو من الظالمين، ومن عظم حرمات الله وأحسن إلى عباد الله كان من أولياء الله المتقين". ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾، وإن مما يمنع توجيه الطعن في ابن تيمية لقوله بفناء النار علاوة على ما ذكرنا آنفًا؛ أن له قولًا آخر في المسألة، وهو عدم فنائها كما سبق بيانه بالنقل عنه، وإذا كنا لا نعلم أي القولين هو المتأخر فمن البدهي أن الطاعن لا بد له من الجزم بأنه هو الأول، ودون هذا خرط القتاد، وأما نحن فإن حسن الظن الذي أُمِرنا به يقتضينا بأن نقول: لعله القول الآخر؛ لأنه موافق للإجماع الذي نقله هو نفسه فضلًا عن غيره كما تقدم، وقد يؤيده هذا أن ابن القيم نقله أيضًا كما سبق في قصيدته " الكافية الشافية " فالظاهر أنه مات على ذلك؛ لأنها قرئت عليه في آخر حياته فقد ترجمه الحافظ ابن رجب الحنبلي في " طبقاته " وذكر في آخرها ما يشعرنا بذلك فقال: (٢/ ٤٤٨): "ولازمت مجالسه قبل موته أزيد من سنة وسمعت عليه قصيدته النونية الطويلة في السنة وأشياء من تصانيفه وغيرها".

أقول فإذا صح ظننا هذا فالحمد لله، وإلا فأسوأ ما يمكن أن يقال: إنه خطأ مغفور لهما بإذن الله تعالى؛ لأنه صدر عن اجتهاد صادق منهما، ومعلوم أن المجتهد مأجور ولو أخطأ، كما جاء في الحديث الصحيح: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد». متفق عليه وقد تقرر في الأصول أن الخطأ مغفور ولو في المسائل العلمية كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية في كثير من كتبه وفتاويه[1]، هذا بالإضافة إلى ما لهما من

(١) انظر " مجموع (الفتاوى " (١٩/ ٤٠٣ و٣٠/ ١٩ - ٣٦).

الجهاد والبلاء الحسن في الدعوة إلى العمل بالكتاب والسنة والرد على المبتدعة والفرق الضالة، وتقديم الإسلام إلى المسلمين صافيًا نقيًا على منهج السلف الصالح، وإن ما نراه اليوم في العالم الإسلامي من نهضة فكرية وعلمية ودعوة سنية سلفية فهو ثمرة من ثمار جهادهما وصبرهما جزاهما اله تعالى عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

ولذلك رأينا المصنف رحمه الله تعالى مع أنه لم يقصِّر في الرد عليهما، فإنه لا يذكرهما إلا مقرونًا بالإجلال والإكبار وبخاصة الشيخ ابن تيمية، فإنه وصفه في أول الكتاب بـ " العلامة شيخ الإسلام " أو يذكره بهذا اللقب كثيرًا ووصفه في مكان آخر (ص ١٢٠): "بتبحره في العلوم، وسعة اطلاعه على أقوال السلف والخلف " وصدق من قال: "إنما يعرف الفضل لذوي الفضل أهل الفضل "[(١)].

أقول هذا؛ لأن كثيرًا من المقلدة المتعصبة تقزز نفوسهم من إطلاق لقب " شيخ الإسلام " على ابن تيمية رحمه الله تعالى، حتى أن العلاء البخاري الحنفي المتعصب كفر من يلقبه به، وقد رد عليه أحسن الرد الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي الشافعي في كتابه القيم " الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية (شيخ الإسلام) كافر"، ذكر فيه نحو المائة من كبار العلماء المشهورين من مختلف المذاهب وكلهم يلقب ابن تيميه يلقبه: (شيخ الإسلام). وقد قام بتحقيقه والتعليق عليها أخونا الأستاذ زهير الشاويش صاحب المكتب الإسلامي جزاه الله خير الجزاء على جهده القيم.

أقول هذا بيانًا للحقيقة، وإلا فأنا أعلم أن هذا اللقب وغيره مما هو مستعمل

---

(١) وقد روى مرفوعا إلى النبي ﷺ ولا يصح بل هو موضوع كما هو مبين عندي في " سلسلة الأحاديث الضعيفة " (٣٢٢٧).

اليوم لم يكن معروفًا عند السلف، فالخير كله في الاتباع، ولا سيما وقد صار مبتذلًا في العصور المتأخرة، بحيث أنهم يطلقونه نفاقًا ورياء على من لا علم عنده، بل هو ممن يصدق عليه المثل الشهير:"لا في العير ولا في النفير".

ولعل من ألطاف الله تعالى بالشيخين رحمهما الله تعالى أننا لم نر أحدًا - فيما اطلعنا - تبعهما على ذلك القول بالفناء، فهذا شارح العقيدة الطحاوية مثلا فإنه مع كونه لا يكاد يخرج فيه عما ذهب إليه ابن تيمية رحمه الله تعالى، فإنه ههنا ذكر أدلة هذا القول، ثم ذكر أدلة القول الآخر وهي ملخصة من كلام ابن القيم، ولم يرجح شيئًا منهما، ذكر ذلك تحت قول الطحاوي المتقدم: "والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدا ولا تبيدان".

وأما العلامة السفاريني فقد رأيته تعرض للموضوع في كتابه " شرح الدرة المضية في عقد الفرق المرضية " ونقل فيه طرفًا من بحث ابن القيم، ولكنه صرح بمخالفته، فإنه ذكر بعض الآيات المستلزمة لدوام العذاب وحديث ذبح الموت المتقدم ثم قال (٢/ ٢٣٤ - ٢٣٥): "فثبت بما ذكرنا من الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة خلود أهل الدارين خلودًا مؤبدًا، كل بما فيه من نعيم وعذاب أليم، وعلى هذا إجماع أهل السنة والجماعة، فأجمعوا أن عذاب الكفار لا ينقطع كما أن نعيم أهل الجنة لا ينقطع، وقد ألف العلامة مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي رسالة سماها " توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين". وهذا ما ذهب إليه الشيخ نعمان الآلوسي فإنه تعرض للمسألة في كتابه " جلاء العينين في محاكمة الأحمدين " (ص ٤٢٠ - ٤٢٤) نقل فيه الأقوال السبعة في عذاب أهل النار وقال: "وأما أبدية النار ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف والأصح عدم فنائها أيضا".

ثم قال في قول ابن تيمية: "واعلم أن الإمام ابن القيم قدس الله تعالى روحه انتصر لهذا القول انتصارًا عظيمًا، ومال إليه ميلًا جسيمًا، وذكر خمسة وعشرين دليلًا، ثم رجع القهقرى وقال: إن قيل: إلى أين انتهى قدمك في هذه المسألة العظيمة؟ قيل: إلى قوله تعالى {إن ربك فعال لما يريد} وإلى هنا انتهى قدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] فيها حيث ذكر دخول أهل الجنة وأهل النار وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء قال: ثم يفعل لك بعد ذلك ما يشاء. ثم قال: وما ذكرناه في هذه المسألة من صواب فمن الله سبحانه وهو المنان، وما كان من خطأ فهو مني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه".

قلت: وقوله في ابن القيم: "ثم رجع القهقرى وقال... " نظر عندي؛ لأنه ليس صريحًا في ذلك، وغاية ما يمكن أن يؤخذ منه أنه لم يجزم بما دندن حوله من الانتصار للقول بفناء النار، ومناقشة أدلة المخالفين ورده عليها مما سترى الرد عليه فيها في الكتاب إن شاء الله تعالى، ولكن ذلك لا ينفي ميله إلى ترجيحه إياه، وإلا كانت دندنته {كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا} وهذا مما لا يليق أن يقال في مثله كما لا يخفى، ويؤيد هذا أن خاتمته للبحث في " شفاء العليل " التي أشرت إليها آنفا أقوى في الدلالة على ما ذكرت فإنه قال ما خلاصته (ص ٢٦٤): "وأنا في هذه المسألة على قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنه ذكر دخول أهل الجنة... والقول بأن النار وعذابها دائم بدوام الله خبر عن الله بما يفعله، فإن لم يكن مطابقا لخبره عن نفسه بذلك، وإلا كان قولا عليه بغير علم، والنصوص لا تفهم ذلك. والله أعلم".

---

(١) الأصل: كرم الله تعالى وجهه. والتصويب من " حادي الأرواح " (٢/ ٢٢٨) وقد ذكر ابن القيم نحو هذه الخاتمة وأطول في " شفاء العليل " (ص ٢٦٤).

قلت: فقوله: "والنصوص لا تفهم ذلك " صريح منه بأنه لا يختار القول ببقاء النار، فهو إذن يميل إلى القول بفنائها، غير أنه لا يقطع بذلك لأنه يشعر أنه ليس لديه دليل قاطع فيه، وإنما هو فهمه واستنباطه، ولذلك ترك فيها مجالًا للأخذ والرد كما هو شأن العلماء المنصفين الذين لا يفرضون رأيهم على الآخرين، لا سيما في مثل هذا الفهم الذي أجمع العلماء على خلافه ومما يؤكد ذلك قوله في خاتمة بحثه في " الصواعق ":"... فتأمل هذا الوجه حق التأمل، وأعطه حقه من النظر، واجمع بين ذلك وبين معاني أسمائه وصفاته، وما دل عليه كلام الله وكلام رسوله، وما قاله الصحابة ومن بعدهم، ولا تبادر إلى القول بلا علم، ولا إلى الإنكار، فإن أسفر لك صبح الصواب، وإلا فرد الحكم إلى ما رده الله إليه بقوله {إن ربك فعال لما يريد} وتمسك بقول علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد ذكر دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ووصف حالهما ثم قال: ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء".

ولكني ألاحظ في هذا النص أنه يأمر فيه من لم يتبين الصواب أن ينهي إلى

قوله تعالى: {إن ربك فعال لما يريد} وقول علي المذكور وذلك ما انتهى هو إليه في خاتمة " الحادي".

فهل يعني ذلك أن ابن القيم نفسه بعد تلك المناقشة الطويلة لم يتبين له الصواب فانتهى إلى ما أمر به من لم يتبين له الصواب، أم هو التردد في مثل هذه المسألة الخطيرة التي كان الأولى به أن يقف فيها حيث وقف العلماء، ولا يدخل نفسه في مضايق لا قبل للعقل البشري أن يدخلها؟

ويؤسفني والله جدا قوله المتقدم: "والنصوص لا تفهم ذلك " كيف يتجرأ على مثل هذا القول، والنصوص قاطعة في ذلك من الكتاب والسنة كما تقدم،

فلا جرم أجمعت على مدلولها الأمة، فالحق والحق أقول: لقد أصيب ابن القيم في هذه المسألة مع الأسف الشديد بآفة التأويل التي ابتلي بها أهل البدع والأهواء في مقالتهم التي خرجوا بها عن نصوص الكتاب والسنة، فرد عليهم ذلك هو وشيخه ابن تيمية أحسن الرد في كتبهما الكثيرة المعروفة، فما باله وقع في مثل ما وقعوا من التأويل.

ولقد كان أوله[1] في تأويلهما قول عمر على انقطاعه: "لو لبث أهل النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه". فاستدلا به على الفناء المزعوم، وهو صريح في الخروج من النار، وهما لا يقولان به، وهكذا تأولوا كثيرا من الآثار بالفناء وهي في الخروج كما ستراه مفصلا في الكتاب بإذن الله تعالى.

ثم قال الشيخ نعمان الآلوسي في " محاكمة الأحمدين " ص (٤٢٤): "ونقل الوالد قدس الله تعالى روحه في " تفسيره " عن الفهامة ابن الجوزي: أنه ضعف بعض الآثار الواردة في ذلك. " ثم ذكر خبر ابن عمرو الآتي (ص ٨١) ثم قال: وأول البعض أيضًا بعضها قال:

"وأنت تعلم أن خلود الكفار مما أجمع عليه المسلمون لا عبرة بالمخالف، والقواطع أكثر من أن تحصى، ولا يقاوم واحدًا منها كثير من هذه الأخبار".

قلت: ولو كان العلم بالتمني لتمنيت أن يكون ما عزاه العلامة الشيخ جمال الدين القاسمي لابن القيم صحيحًا، ولكنها من أوهام العلماء فقد قال في تفسيره "محاسن التأويل" (٦/ ٢٥٠٣ - ٢٥٠٤):

"وقد بسط البحث وَجَوَّدَ الإمام ابن القيم في كتابه " حادي الأرواح " ومع كونه انتصر لهذا القول انتصارًا عظيمًا وذكر له خمسة وعشرين دليلًا؛ لم

---

(١) كذا.

يصححه حيث قال: وأما أبدية النار ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والأصح عدم فنائها. أيضًا." انتهى.

فقوله: "وأما أبدية النار... " إلخ. إنما هو من كلام الشيخ نعمان الآلوسي كما تقدم نقله عنه توهمه الشيخ القاسمي - على ما كان عليه من الوعي - أنه من كلام ابن القيم وبناء عليه قال: "لم يصححه"، فهو وهم آخر نشأ من الوهم الأول، فسبحان من لا يسهو ولا يهم.

هذا -ثم إن ابن القيم- عفا الله عنا وعنه لم يقنع بميله إلى القول بفناء نار الكفار، وتخلصهم به من العذاب الأبدي في تلك الدار، حتى طمع لهم في رحمة الله أن ينزلهم منازل الأبرار، جنات تجري من تحتها الأنهار، ذلك ما يظهر لنا من بعض الأدلة التي ساقها تأييدًا للقول بفناء النار، وهو مما نبه عليه المؤلف رحمه الله معقبا على قول ابن القيم: "ثم تفنى ويزول عذابها " فقال (ص ٦٤): "يريد: ويدخل الله من كان فيها من الكفار الجنة، كما ستعرفه من الأدلة التي ذكرها".

وأعاد هذا المعنى في مكان آخر (ص ١٢٠).

وإن مما لا شك فيه أن هذا الذي استظهرناه هو في الخطورة والإغراق كقوله بالفناء إن لم يكن أخطر منه؛ لأنه كالثمرة له، ولأنه لا قائل به مطلقًا من المسلمين بل هو من المعلوم من الدين بالضرورة للأدلة القاطعة بأن الجنة محرمة على الكفار كقوله تعالى: {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار} (المائدة:٧٢) وقوله: {إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط} (الأعراف:٤٠) وكقوله -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي أمر بالمناداة به يوم

حنين: «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة». أخرجه البخاري ومسلم (٠١/ ٧٤) عن أبي هريرة وله مثله عن عمر بلفظ"... إلا المؤمنون» وله شواهد فانظر «إرواء الغليل» (٩٦٣) إن شئت. ويكفي في ذلك قوله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} (النساء:٤٨).

فإننا نعلم بالضرورة أن من دخل الجنة فقد غفر الله له وعلى العكس.

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بحث له في " المجموع " (١٤/ ٤٧٦ - ٤٧٧) " "ولا يدخل الجنة إلا أهل التوحيد وهم أهل {لا إله إلا الله}". ثم قال: "ولكن لا يعذب الله أحدا حتى يبعث إليه رسولًا، وكما أنه لا يعذبه فلا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة مؤمنة، ولا يدخلها مشرك ولا مستكبر عن عبادة ربه".

قلت: ومثل هذا مما لا يخفى على ابن القيم، بل هو ممن صرح بذلك في غير ما موضع من كتبه، فهو يقول مثلًا في " الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي". (ص ٨٩): "إن الله حرم الجنة على كل مشرك".

بل إنه لما حكى في " الحادي " (٢/ ١٦٩ - ١٧٠) قول من يقولك أن أهل النار يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم آخرون، أبطله بعدة آيات ساقها كلها صريحة في عدم خروج أهل النار منها، وكان آخرها آية الأعراف المتقدمة: {ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط}. قال عقبها: "وهذا أبلغ ما يكون في الإخبار عن استحالة دخولهم الجنة "

وحينئذ كيف يصح ما سبق من استظهارنا أن ابن القيم يميل إلى القول بأن الكفار يدخلون الجنة بعد العذاب؟

والذي يدور في ذهني من الجواب على وجهين:

الأول: إما أن يقال: أن صريح كلامه ينافي ما وصل إليه باستنباطه فهو الذي ينبغي الاعتماد عليه ونسبته إليه وهو الأحب إلي.

والآخر: أن يجمع بين الصريح والمستنبط فيقال: الصريح يريد به دخول الكافر الجنة بعد خروجه من النار، فهذا هو المستحيل، وأما المستنبط فإنما يريد به دخول الجنة بعد فناء النار.

وهذا الجمع وإن بدا غريبًا، فليس بأغرب من تفريقه بين انتهاء عذاب الكفار بخروجهم من النار، فهذا مستحيل أيضًا وفقًا لجميع العلماء، وبين انتهاء عذابهم بفناء النار فهذا أمر جائز، بل واقع عنده، ويجادل فيه، ويصول ويجول ويتأول النصوص الصريحة المخالفة له، مما لا نعرفه عنه وإنما عن أهل البدع والأهواء

الذين قضى حياته هو وشيخه في الرد عليهم، والكشف عن ضلالتهم، وبغير هذا الجمع لا يمكن أن يفهم كلامه في رده على مخالفيه، فانظر إلى قوله في " الحادي " (٢/ ١٨٥): "وأما الطريق الثاني وهو دلالة القرآن على بقاء النار وعدم فنائها، فإن في القرآن دليل واحد يدل على ذلك؟ نعم الذي دل عليه القرآن: أن الكفار خالدين في النار إلى الأبد وأنهم غير خارجين منها و... و... و... وليس هذا مورد النزاع وإنما النزاع في أمر آخر وهو أنه هل النار أبدية أو مما كتب عليه الفناء. قال: "وأما كون الكفار لا يخرجون منها و{لا يفتر عنهم} من عذابها {ولا يقضى عليهم فيموتوا} {ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجميل في سم الخياط} فلم يختلف في ذلك الصحابة والتابعون ولا أهل السنة فهذه النصوص وأمثالها تقتضي خلودهم في دار العذاب ما دامت باقية ولا يخرجون

منها... مع بقائها البتة"[١].

فتأمل نقله اتفاق الصحابة ومن بعدهم على أنهم لا يدخلون الجنة كما في الآية الكريمة، فإنه لا يتفق مع ميله إلى أنهم يدخلون الجنة يومًا ما إلا يحمل[٢] الدخول المنفي على دخول مقرون بخروجهم من النار، والدخول المثبت على دخولهم بعد فناء النار، كما ذكرنا، وهذا المعنى يكاد يكون صريحًا في سياق كلامه على هذه الطريق في كتابه " شفاء العليل"، فإنه قال بعد الآيات النافية المتقدمة بما فيها الآية النافية لدخولهم الجنة قال (ص ٢٦٠): "وهذه الطريق لا تدل على ما ذكروه، وإنما يدل على أنها ما دامت باقية فهم فيها، فأين فيها ما يدل على عدم فنائها؟ "

قلت: فكأنه يريد أن يقول: وأين الدليل أيضا في الآية المذكورة على نفي دخولهم الجنة بعد فناء النار؟ فيا سبحان الله ما يفعل التأويل بأهله، وإلى حضيض سحيق يهوون به فيه، وإلا فقل لي بربك: كيف يمكن لابن القيم أن ينكر أبدية النار ببقاء أهلها فيها وعدم دخولهم الجنة مطلقًا لولا تشبثه بذاك التأويل البشع، وهو المعروف بمحاربته لعلماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة لتأولهم كثيرًا من آيات وأحاديث الصفات، كاستواء الله على عرشه، ونزوله إلى السماء، ومجيئه يوم القيامة، وغير ذلك من التأويل الذي هو أيسر من تأويله، فقد قال به كثير من المتأخرين خلافا للسلف، وأما تأويله فلم يقل به أحد منهم، لا من السلف، ولا من الخلف إلا تقليدًا لشيخه، ولقد كان من الواجب عليه أن يلتزم بقول إمامه الذي قال ناصحًا لكل سلفي:

---

(١) وقد لخص المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الكلام ورد عليه في مواطن منها (ص ١١٨).
(٢) كذا، ولعل صوابها: إلا [أن] يحمل.

" إياك أن تتلكم في مسألة ليس لك فيها إمام".

وكان في المحنة يقول: "كيف أقول ما لم يقل؟ "[١].

وإن مما يتنبه له الباحث المتأمل أن يرى موقفين متباينين أشد التباين لابن تيمية رحمه الله تعالى؛ فإنه في الوقت الذي مال إلى القول بفناء النار وانتصر له ابن القيم ذاك الانتصار الغريب المتكلف، نرى ابن القيم نفسه قد عقد في " الحادي " ستة أبواب في مسألة أخرى هي أهون من هذه بكثير من حيث موضوعها، ومن حيث اختلاف العلماء فيها ألا وهي: جنة آدم عليه السلام التي أهبط منها هل هي جنة الخلد التي وعد بها المتقون أم غيرها؟ على قولين للعلماء أطال النفس فيها جدًا (ص ٤٣ - ٨٠) وذكر حجة كل منهما، وما له وما عليه، وعلى الرغم من أن من القائلين بأنها ليست جنة الخلد أبا حنيفة وأصحابه، وابن عيينة، كما حكاه ابن القيم، ومال إليه هو في آخر الباب الرابع (ص ٦٨ - ٦٩): على الرغم من ذلك نرى شيخ الإسلام ابن تيمية يرده بكل صراحة وشدة يقول في بعض فتاويه: "والجنة التي أسكنها آدم وزوجته عند سلف الأمة وأهل السنة والجماعة هي جنة الخلد، ومن قال إنها في الأرض بأرض الهند أو بأرض جدة أو غير ذلك فهو من المتفلسفة والملحدين، أو من إخوانهم المبتدعين، فإن هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة".

فأقول: أليس كان الأحق بمثل هذا الرد الأشد من قال بفناء النار أيا كان القائل؛ لأنه لم يقل به أحد حتى ولا المعتزلة، ولأن أدلته وهمية لا حقيقة لها، كما سيفصل المؤلف القول في ذلك تفصيلًا، ويبين بطلانها تبيانًا بحيث لا يدع شبهة إلا أطاح بها، ولا متأثرًا بها إلا أعاده إلى الصراط المستقيم يمشي عليه سويًا.

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في " مجموع الفتاوى " (١٠/ ٣٢٠ - ٣٤١).

غير أن هناك شبهة أخرى أوردها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم أر المؤلف جزاه الله خيرا تعرض لها فلا بد لي أن أذكرها لأرد عليها بما يبدو لي، راجيًا منه تعالى أن يلهمني الصواب ويعصمني من الخطأ. قال في "الحادي " (٢/ ٢٢١): "لو جاء الخبر منه سبحانه صريحًا بأن عذاب النار لا انتهاء له وأنه أبدي لا انقطاع له؛ لكان ذلك وعيدًا منه سبحانه، والله تعالى لا يخلف وعده، وأما الوعيد فمذهب أهل السنة كلهم: أن إخلافه كرم وعفو، وتجاوز بمدح الرب تبارك وتعالى عليه، فإنه حق له إن شاء تركه وإن شاء استوفاه، والكريم لا يستوفي حقه، فيكف بأكرم الأكرمين، وقد صرح سبحانه في كتابه في غير موضع بأنه لا يخلف وعده ولم يقل في موضع واحد لا يخلف وعيده وقد روى أبو يعلى.... عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: "من وعده الله على عمل ثوابًا فهو منجزه، ومن أوعده على عمل عقابًا فهو فيه بالخيار".

وأقول وبالله المستعان:

أولًا: قد جاءت الأخبار كتابًا وسنةً بأبدية النار وعذابها كما تقدم فلا داعي للإعادة، وما تشبث به ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خلاف ذلك مردود بل باطل، كما يأتي شرحه من المؤلف رحمه الله تعالى.

ثانيًا: ما ذكره: أن مذهب أهل السنة كلهم جواز إخلاف الله لوعيده، لا أعلمه بهذا الإطلاق، وقد بحث شيخ الإسلام الخلاف المعروف بين المرجئة والمعتزلة في الوعد والوعيد في مناسبات شتى فلم يذكر هذا[1] بل صرح بخلافه في بعض المواطن، فإنه بعد أن ذكر حديث الشفاعة وغيره في دخول بعض

---

(١) انظر "فهرس مجموع الفتاوى" " أحكام عصاة الموحدين - الوعد والعيد " (١/ ١٣٧ - ١٣٨).

الموحدين النار وخروجهم منها قال: (١٦/ ١٩٦): "وفيه رد على من يقول: "يجوز أن لا يدخل الله من أهل التوحيد أحدًا النار " كما يقوله طائفة من المرجئة والشيعة...".

فإذا لم يجز هذا الإخلاف في حق الموحدين، فكيف يجوز الإخلاف الأكبر الذي هو في حق المشركين؟

ثالثًا: "ولم يقل في موضع واحد: لا يخلف وعيده".

أقول: قد فاته - عفا الله عنا وعنه - قوله تعالى في (ق: ٢٧ - ٢٩) {قال قرينة ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لا تختصموا لذي وقد قدمت إليكم بالوعيد. ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد}.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عقبه (١٤/ ٤٩٨): "وهذا يقتضي أنه صادق في وعيده أيضًا، وأن وعيده لا يبدل، وهذا مما احتج به القائلون بأن فساق الملة لا يخرجون من النار، وقد تكلمنا عليهم في غير هذا الموضع، لكن هذه(١) الآية يضعف جواب من يقول: أن إخلاف الوعيد جائز فإن قوله: {ما يبدل القول لدي} بعد قوله: {وقد قدمت إليكم بالوعيد} دليل على أن وعيده لا يبدل كما لا يبدل وعده".

رابعًا: حديث أنس المذكور إسناده ضعيف كما كنت بينته في " الأحاديث الصحيحة " (٢٤٦٣) وعلى فرض ثبوته فهو بمعنى قوله تعالى: [إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء] وما في معناها من الأحاديث، أي: أن الحديث في الموحدين وليس في المشركين، فهؤلاء مستثنون من المغفرة بهذه الآية وغيرها.

---

(١) كذا، ولعل صوابها: بهذه.

وإلى هذا أشار العلامة المرتضى اليماني بقوله في " إيثار الحق على الخلق " (ص ٣٨٩): "والحق أن الله لا يخلف الوعيد إلا أن يكون استثنى فيه". وهذا مما يشعر به قول ابن تيمية نفسه في " مجموع الفتاوى " (٢٤/ ٣٧٥) فإنه قال: "وأحاديث الوعيد يذكر فيها السبب، وقد يتخلف موجبه لموانع تدفع ذلك إما بتوبة مقبولة، وإما بحسنات ماحية، وإما بمصائب مكفرة، وإما بشفاعة شفيع مطاع، وإما بفضل الله ورحمته ومغفرته فإنه {لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}.

فهذا منه رَحِمَهُ اللهُ كالتفصيل لكلام ابن القيم، وهو يقيده ويبين أن الإخلاف للوعيد إنما يكون لمانع، من تلك الموانع وليس منها الشرك بداهةً، فإن الله لا يغفره.

فتأمل في هذا يتبين لك خطأ ابن القيم في بعض مما يدعيه ويعزوه لأهل السنة دون قيد أو شرط، فيكون ذلك مثار شبهة عنده، تحمله على أن يتأول النصوص القاطعة الدلالة، فيخرج بذلك عما عليه أهل السنة والجماعة، فيقع في الخطأ من حيث لا يدري ولا يشعر.

وإن من العجيب حقا أن ينفرد بالاغترار بكلامه في هذه المسألة الخطيرة العلامة السيد محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى؛ لما تعلم عنه من استقلاله في الفهم، وبعده عن الجمود والتقليد، فإنه مع ذلك تابعه عليه دون كل من وقفنا على كلامه من المحققين الذين وقفوا عليه ولم يتابعوه أمثال الآلوسي أبًا وابنًا وغيرهما ممن سبق ذكره، فقد نقل السيد رشيد كلام ابن القيم على طوله من " حادي الأرواح " في تفسير سورة (الأنعام) (ج ٨ ص ٦٩ - ٩٩) تحت " فصل في الخلاف في أبدية النار وعذابها " وختمه مفصحًا عن إعجابه به بقوله: "وإنما

أوردناه بنصه على طوله لما تضمنه من الحقائق التي نوهنا بها، ولأمر آخر أهم وهو أننا نعلم أن أقوى شبهات الناس من جميع الأمم على الدين قول أهل كل دين من الأديان المشهورة أنهم هم الناجون وحدهم وأكثر البشر يعذبون عذابًا شديدًا دائمًا لا ينتهي أبدًا، بل تمر ألوف الألوف المكررة من الأحقاب والقرون ولا يزداد إلا شدة وقوة وامتدادا، مع قولهم ولا سيما المسلمين منهم: إن الله تعالى أرحم الراحمين، وإن رحمة الأم العطوف الرؤوم بولدها الوحيد ليست إلا جزاءً صغيرًا من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وهذا البحث جدير بأن يزيل شبهة هؤلاء، فيرجع المستعدون منهم إلى دين الله تعالى مذعنين لأمره ونهيه، راجين رحمته خائفين عقابه الذي تقتضيه حكمته؛ لأنهم لا يعلمون قدره"[١].

قلت: هذا الكلام خيال لا حقيقة له في الواقع، لأن الأصل في هذه المسألة وغيرها من المسائل الاعتقادية الغيبية إنما هو الإيمان بما جاءنا عن الرحمن الرحيم العليم الحكيم، كما قال في القرآن الكريم: {هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب}.

وهو الإيمان بكل ما غاب عن عقلك، فمن لم يؤمن بما أخبر به تعالى من خلود الكافرين في النار أبد العابدين[٢]؛ لأن عقله لم يقبله فلن يؤمن بعقاب يبلغ مئات السنين أخبر به رب العالمين في مثل آية {لابثين فيها أحقابا}، ولو على

---

(١) وقد أشرنا إلى الصواب في التعليق على "مختصر تفسير المنار" (ج٢/ ٥٤١) مع أن السيد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يسترسل فيه، وهذا يدلك على فوائد مختصر المنار، وتعليقات الشيخ محمد كنعان، وقد قمت بمراجعته، وهو من مطبوعات. المكتب الإسلامي.

(٢) كذا، وصوابها: الآبدين.

افتراض أن له أمد[١] منتهيًا " لا يعلمون قدره"! إذ أن لبثهم هذه المدة الطويلة التي تزيد على مدة عمرهم الذي قضوه كافرين أضعافًا مضاعفة، فلو أراد أحد أن يقنعهم بها وأنها عدل من الله فلن يصل إلى نتيجة معهم أبدًا، اللهم إلا من طريق الإيمان بالله ورسوله.

وإذا كان الأمر كذلك فمن العبث بل من الضلال؛ أن يحاول أحد إقناع المشركين في أصل الدين ببعض ما جاء فيه من العقائد من طريق العقل المجرد عن الإيمان، فإن هذا مع كونه لا يثمر معهم إلا الخسران، فإنه ليس من سبيل المؤمنين، بل هو سبيل المتأثرين بالفلسفة وعلم الكلام، الذي حملهم إلى تأول آيات وأحاديث الصفات، وتفسيرها بما يتناسب مع عقولهم، وأهواء أمثالهم من ضعفاء الإيمان، وربما فعل ذلك بعضهم لإقناع الآخرين، وإن كان هو في قرارة نفسه لا يؤمن بذلك التأويل، فهل يمكن أن يكون كلام السيد رشيد رضا من هذا القبيل، بغية إرشاد من ضل عن سواء السبيل؟

فقد كنت لقيت رجلا فاضلًا في بعض أسفاري إلى المغرب منذ بعض سنين يظهر أنه سلفي العقيدة فزرته في داره، ودار البحث في الدعوة السلفية هناك، وإذا به يصرح بأنه لا يرى مانعًا في سبيل تقريب الناس إليها من تأويل آيات الصفات وأحاديثها لإقناع المخالفين.

فقلت له: عجبًا كيف يمكن أن يكون هذا؟ إذ كيف تقدم إليهم معنى للنص أنت تؤمن بخلافه أولًا، ثم كيف تكون قد دعوته إلى مذهبك السلفي وقد قدمت إليه المعني الخلفي؟ إن أخشى ما أخشاه أن يكون هذا من باب قول من قال: "وداوني بالتي كانت هي الداء".

---

(١) كذا، وصوابها: أمدًا.

وختامًا أقول: لقد خرجت من دراستي لهذه الرسالة النافعة للأمير الصنعاني رحمه الله تعالى بالعبر الآتية:

الأولى: أنني ازددت إيمانًا ويقينًا بالقول المأثور عن جمع من الأئمة: "ما منا من أحد إلا رد ورد عليه إلا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- " فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية زلت به القدم فقال قولًا لم يسبق إليه ولا قام الدليل عليه ومن هنا قالوا: "زلة العالم زلة العالَمَ " فلو أننا كنا مبتلين بتقليده كما ابتلي كل مقلد بتقليد إمامه، لزللنا بزلته ولذلك قالوا: "الحق لا يعرف بالرجل، اعرف الحق تعرف الرجال". فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله.

الثانية: بطلان الخرافة التي يطلقها اليوم كثير من الكتاب الإسلاميين المعاصرين وفيهم بعض من يُجِلُّون شيخ الإسلام ابن تيمية: أن الخلاف في الفروع وليس في الأصول.

وقد يسارع بعض الجاحدين لعلم شيخ الإسلام وفضله، الحاقدين عليه لرده على أهل الأهواء والمبتدعة المبغضين له لإخلاصه في الدعوة لاتباع الكتاب والسنة، فيقول: إنما الخلاف في الأصول من ابن تيمية وأمثاله المخالفين للجمهور، والمثال أمامك.

فأقول: كذبت والله؛ فإن الخلاف المذموم إنما يكون من المصرين عليه بعدما تبين لهم الحق كما في قوله تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} .

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يُعرف يومًا بالإصرار على الخطأ مهما كان نوعه، بدليل رجوعه عن كثير من آرائه التي كان عليها بعدما تبين له الحق، وقد ذكرنا فيما سبق نماذج منها، وأما خلافه في هذه المسألة فهي زلة منه بلا شك يغفرها الله له

إن شاء الله تعالى، كفاه جهاده في سبيل الله إلى آخر رمق من حياته، حتى توفي في سجن دمشق مظلومًا بعيدًا عن أهله وتلامذته وكتبه، ولغير ذلك من الأسباب التي سبق التحدث عنها.

والخلاف المذموم حقًا: إنما هو من أولئك المقلدين، الذين يصرون على التدين بالتقليد، والإعراض عن الاهتداء بهدي رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- مباشرة، والإخلاص له في اتباعه وحده دون سواه، الذي هو من لوازم الشهادة له بأنه رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وقد أمرنا بطاعته استقلالًا لا يشاركه في ذلك أحد من البشر في غير ما آية من آيات الله تبارك وتعالى، فأي خلاف شر من هذا الذي عليه المقلد هذا الذي يظل {يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشرها بعذاب أليم} (الجاثية:٨) فالخلاف حقيقة واقعة - مع الأسف - أصولًا وفروعًا، فلا يجوز تجاهلها أو الرضا بها، وإنما يجب على أهل العلم أن يحاولوا في كل قطر ومصر تقليله قدر الاستطاعة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بشيء واحد وهو تحكيم الكتاب والسنة في كل خلاف كما هو صريح قوله تعالى: {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا}.

الثالثة: لقد وجدت في هذه الدراسة مثلا جديدا يضاف إلى الأمثلة العديدة التي كنت ولا أزال أشير إليها في كتابي " سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة " نصحًا وتحذيرًا؛ لأن من آثارها السيئة أنها تصرف كثيرًا من العلماء والفقهاء فضلًا عن غيرهم عن تبني الحكم الصحيح فيما هم فيه مختلفون من العقائد والأحكام، وقد تكون معارضته لنص أو نصوص في الكتاب والسنة الصحيحة، فقد وجدت أن الذي فتح لابن تيمية وابن

القيم باب التورط في القول بفناء النار إنما هو بعض الآثار المروية عن بعض الصحابة والأحاديث المرفوعة جلها لا تصح أسانيدها....اهـ. كلام العلامة الألباني.

وقد أشار إلى هذه المسألة جمع من العلماء غير شيخ الإسلام من السابقين على ابن تيمية واللاحقين له، منهم: عبد بن حميد فقد ذكر الروايات في "تفسيره" كما في شفاء العليل (ص٤٣٥)، وعبد الحق بن عطية الأندلسي في تفسيره (٧/ ٤٠٢)، والفخر الرازي في تفسيره (١٨/ ٦٣)، والقرطبي في التذكرة (ص٥٢٦)، وابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية (ص٤٨٠ - ٤٨٦)، وابن القيم في حادي الأرواح (ص٣٤٠ - ٣٧٩) وهو أوسعهم كلاما، ومحمد الأمين الشنقيطي في كتابه: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص١٢٢ - ١٢٨)، وأبو حامد الغزالي في كتابه المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (ص٦٢ - ٦٣)، وابن الوزير في كتابه إيثار الحق على الخلق (ص٢١٩)، والإمام الذهبي له مصنف في صفة النار يقع في جزأين كما في رفع الأستار للصنعاني (ص٦٢)،، والحافظ بن رجب في كتاب التخويف من النار، والشيخ مرعي بن يوسف له كتاب توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين، والشيخ الصنعاني في كتابه رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار.

قال شيخ الإسلام الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى سنة (٤٤٩) في عقيدة السلف وأصحاب الحديث. قال بعد كلام سبق (أما الكفار فإنهم يخلدون فيها ولا يخرجون منها أبدا ولا يترك الله فيها من عصاة أهل الإيمان أحدا).

وقال (ويشهد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما باقيتان لا يفنيان أبدا وأن أهل الجنة لا يخرجون منها أبدا وكذلك أهل النار الذين هم أهلها

خلقوا لها لا يخرجون أبدا. وأن المنادي ينادي يومئذ يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت على ما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ.اهـ. ص١٢٣ من الجزء الأول من مجموعة الرسائل المنيرية.

وقال الإمام الآجري في كتابه الشريعة: (كتاب الإيمان والتصديق بأن الجنة والنار مخلوقتان وأن نعيم أهل الجنة لا ينقطع عن أهلها أبدا وأن عذاب النار لا ينقطع عن أهلها الكفار أبدا ثم ساق الآيات والأحاديث في ذلك بمثل ما تقدم فراجعه إن شئت ص٣٨٧ ثم قال ص٣٩٨ (باب ذكر الإيمان بأن أهل الجنة خالدون فيها أبدا وأن أهل النار من الكفار والمنافقين خالدون فيها أبدا) ثم ساق الآيات والأحاديث.

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في عقيدته التي سأله أهل القصيم عنها قال في أولها: أشهد الله ومن حضرني من الملائكة وأشهدكم أني أعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة ثم قال: وأومن بأن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما اليوم موجودتان وأنهما لا يفنيان.اهـ.

وقال العلامة صديق حسن خان في كتابه يقظة أولى الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار: باب (في أن النار لا تفنى ثم ساق الأحاديث في أبدية النار ثم قال: وثبت بما ذكر من الآيات الصريحة والأخبار الصيحة خلود أهل الدارين خلودا مؤبدا كل بما هو فيه من نعيم وعذاب أليم وعلى هذا إجماع أهل السنة والجماعة ودليل ذلك من الكتاب والسنة وزعمت الجهمية أن الجنة والنار تفنيان قال هذا جهم بن صفوان إمام المعطلة وليس له في ذلك سلف قط لا من الصحابة ولا من التابعين ولا أحد من أئمة الدين ولا قال به أحد من أهل السنة. نعم حكى بعض العلماء في أبدية النار قولين وحاصل ذلك كله سبعة

أقوال فساقها (توفيق الفريقين على خلود أهل الدارين) وفي الباب رسالة للسيد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير. ورسالة للقاضي العلامة المجتهد محمد بن علي الشوكاني حاصلهما بقاء الجنة والنار وخلود أهلهما فيهما وهو الحق الذي دلت عليه أدلة الكتاب والسنة وإجماع الأئمة والأمة والله أعلم.اهـ. كلامه.اهـ.

وقال الآلوسي في جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (ص٤٨٨): ثم أعلم أنه قد تبين لك مما نقلناه من الأقوال: أن القول الصحيح، الحرى بالترجيح، هو بقاء الجنة والنار وساكنيهما من الأخيار والفجار، وإن الشيخ ابن تيمية لم يتبين عنه نقل صحيح فيما نسب إليه، ولئن سلم أنه مال لذلك فقد ذهب إليه بعض السلف، وأفراد من الخلف، كما تقدم آنفًا، فليس في ميله ما يوجب تكفيرًا عند من أنصف، على أنا لا نعلم إن صح النقل عدم رجوعه عنه، وهو لا يعد عند المنصفين إلا من العلماء المجتهدين، وأى مجتهد قرنت بالصواب جميع أقواله، وصوبت كافة أحواله، وكم رجع مجتهد عن اجتهاده الأول، ونص على خلافه وعول، ومع هذا فلعله اتبع في ذلك أقوال الفاروق، وباب مدينة العلم، وترجمان القرآن، وابن مسعود، وأبي هريرة القائل: أخذت عن رسول الله ﷺ وعاءين... الحديث الشهير. فتدبر جميع ما حررناه لك من كلام العلماء الأخيار، وأسأله سبحانه أن ينجينا وإياك من النار، ويسكننا الجنة دار القرار. آمين.اهـ.

وسئلت اللجنة الدائمة (٣/ ٤٨٦) عن: قول البعض إن النار تفنى وأن نعيم الجنة من قبيل المجاز والاستعارة، وأن الكافر يخرج من النار؟

فأجابت: قامت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة على أن النار لا تفنى، وعلى تخليد الكافرين في النار، وأنهم لا يخرجون منها، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ

بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} وقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} وقال: {وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} {ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} وقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} وقال: {وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} وقال: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} {لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} {وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} {لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} وقال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} إلى أن قال: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} وقال: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} وقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} وقال: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا} {لِلطَّاغِينَ مَآبًا} إلى أن

قال: {فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا} إلى غير ذلك من الآيات التي يدل كل منها على تخليد الكفار في النار وعدم خروجهم منها وعدم فنائها، فإذا اجتمعت كانت دلالتها على ذلك أقوى وأبعد عن التأويل.

أما الجنة فدار الجزاء يوم القيامة لمن آمن وعمل الصالحات، فيها من النعيم ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، يتمتع بها من دخلها متاعا حقيقيا حسيا وروحيا ويحيون فيها حياة أبدية أمنية فلا فناء ولا خروج منها ولا انقطاع لنعيمها ولا نغص ولا كدر بالنصوص القطعية وإجماع أهل العلم والإيمان، قال الله تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} وقال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ} {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} {لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} وقال تعالى: {هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ} {جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ} {مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ} {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ} {هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ} {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} وقال تعالى: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} {يَاعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} {الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ} {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ} وقال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ

رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} يعني بالاستثناء: المدة التي شاء الله ألا تكونوا بالجنة قبل دخولها ولذا ختم الآية بقوله: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} تأكيدا لدوام نعيمها يتمتع به من فاز بدخولها، ونظيره الاستثناء في سورة الدخان قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ} {فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} {يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ} {كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ} {يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ} {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} {فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} فاستثنى موتة سابقة من موت منفي مستقبل لإفادة تأبيد الحياة وتأكيد دوامها، أو المراد بالاستثناء بيان عموم مشيئة الله ونفوذها في كل شيء فدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وخلود كل من الفريقين فيما دخل فيه من نعيم أو عذاب إنما كان بمشيئة الله واختياره وفضله وعدله لا واجبا عليه عقلا ولا يحصل كرها عنه ولا قهرا له تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وثبت في السنة أن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبئسوا أبدا» رواه مسلم وثبت أيضا عن النبي ﷺ أنه قال: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح»... إلى أن قال: «فيؤمر به فيذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت» إلخ، رواه مسلم في صحيحه وأكد سبحانه خلود الجنة والنار وأبديتهما، وخلود المؤمنين في الجنة والكافرين في النار في آيات كثيرة من القرآن، وفصلت السنة الثابتة عن النبي ﷺ تفصيلا لا يدع مجالا للشك في حقيقته ولا لتأويل النصوص الصريحة فمن شك فيه أو تأوله فقد اتبع هواه وحرف الكلم عن مواضعه وكان من الكافرين.اهـ.

وقال العلامة عبد الرزاق عفيفي كما في مجموعة ملفات الشيخ عبد الرزاق عفيفي (ص١٢ – ١٣): "أما أبدية النار: ففيها آراء كثيرة للسلف منها رأيان:

الأول: رأي جمهور السلف، قالوا: إن النار باقية لا تفنى، ومن دخل بقي مخلدا فيها أبدا إلا من دخلها من عصاة المؤمنين فإنهم يخرجون منها.

واستدلوا على بقائها ومن بها من الكافرين بقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} البقرة: ١٦٧، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} المائدة: ٣٦، وقوله: {لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} الزخرف: ٧٥، قوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} فاطر: ٣٦، وقوله: قال تعالى: {مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} الإسراء: ٩٧، وغيرها من الآيات.

الرأي الثاني: أن النار تفنى بعد أن يستوفي الكفار نصيبهم من العذاب فيها، ونسب هذا القول إلى عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وأبي هريرة من الصحابة، وابن تيمية وابن القيم وجماعة، واستدل لهذا الرأي بقوله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} الأنعام: ١٢٨، وقال: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} هود: ١٠٦ – ١٠٧، قالوا: استثنى من الخلود في الآيتين بقوله في الآية الأولى {إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ}

وبقوله في الآية الثانية ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ولم يأتِ بعد الاستثناءين ما يدل على عدم الانقطاع وانتهاء العذاب كما جاء عقب الاستثناء من الخلود في نعيم الجنة، فإن الآية ختمت بقوله تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ هود: ١٠٨، وهو دال على دوام النعيم واستمراره فكان قرينة على أن الاستثناء الذي قبله لا يراد به الإخراج، إنما يراد به إثبات كمال الاختيار واستدلوا أيضًا بقوله تعالى: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ النبأ: ٢٣، تجعل اللبث في النار مدة محدودة، فدل على انتهاء العذاب، واستدلوا أيضًا بأن النار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته، وقد روى البخاري في صحيحة عن النبي ﷺ أنه قال: (لما قضى الله الخلق كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت غضبي)، وفي رواية (تغلب غضبي) قالوا فلو بقي الكافر في النار، ولم تفن النار لكان غضبه قد سبق رحمته، وفي هذا خلف لخبر الصادق ﷺ عن ربه، وخلف خبر مستحيل.

قالوا وما ورد من النصوص الدالة على خلود الكفار فيها أبدًا وعدم خروجهم منها فلا نزاع فيه، لكنه يعني البقاء في العذاب ما دامت النار باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد، وهناك فرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس قائم، وبين من ينهدم حبسه وينقض بناؤه، فيبطل حبسه وينتهي سجنه بانتقاض البناء، وقد يناقش هذا بأنه وإن صلح جوابًا عن أدلة الخلود فلا يصلح جوابًا عن النصوص الصريحة في أن عذابها مقيم، وأنه كان غرامًا، وأن النار كلما هبت وأدها الله سعيرًا، وأنهم لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف بل يزيدهم الله عذابًا، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلود غيرها ليذوقوا العذاب، اللهم إلا أن قال: إن الاستثناء بالمشيئة في الآيتين السابقتين مسلط على جميع النصوص التي دلت على دوام العذاب واستمراره،

وعلى كل حال فالموضوع من شئون الله فليترك إلى الله سبحانه والله أعلم".اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٥٥): هل النار مؤبدة أو تفنى؟

فأجاب: المتعين قطعًا أنها مؤبدة ولا يكاد يعرف عند السلف سوى هذا القول، ولهذا جعله العلماء من عقائدهم، بأن نؤمن ونعتقد بأن النار مؤبدة أبد الآبدين، وهذا الأمر لا شك فيه؛ لأن الله -تعالى- ذكر التأبيد في ثلاثة مواضع من القرآن:

الأول: في سورة النساء في قوله تعالى: {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقًا. إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدًا} .

والثاني: في سورة الأحزاب {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرًا. خالدين فيها أبدًا} . والثالث: في سورة الجن {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدًا} . ولو ذكر الله ﷻ التأبيد في موضع واحد لكفى، فكيف وهو قد ذكره في ثلاثة مواضع؟ ومن العجب أن فئة قليلة من العلماء ذهبوا إلى أنها تفنى بناء على علل عليلة لمخالفتها لمقتضى الكتاب والسنة وحرفوا من أجلها الكتاب والسنة فقالوا: إن "خالدين فيها أبدًا " ما دامت موجودة فكيف هذا؟

إذا كانوا خالدين فيها أبدًا، لزم أن تكون هي مؤبدة "فيها" هم كائنون فيها وإذا كان الإنسان خالدًا مؤبدًا تخليده، لزم أن يكون مكان الخلود مؤبدًا؛ لأنه لو فني مكان الخلود ما صح تأبيد الخلود، والآية واضحة جدًا والتعليلات الباردة المخالفة للنص مردودة على صاحبها، وهذا الخلاف الذي ذكر عن فئة قليلة من أهل العلم خلاف مطرح لأنه مخالف للنص الصريح الذي يجب على كل مؤمن أن يعتقده، ومن خالفه لشبهة قامت عنده فيعذر عند الله، لكن من تأمل

نصوص الكتاب والسنة عرف أن القول بتأبيدها هو الحق الذي لا يحق العدول عنه.

والحكمة تقتضي ذلك لأن هذا الكافر أفنى عمره كل عمره في محاربة الله ﷻ ومعصية الله والكفر به وتكذيب رسله مع أنه جاءه النذير وأعذر وبين له الحق، ودعي إليه، وقوتل عليه وأصر على الكفر والباطل فكيف نقول: إن هذا لا يؤبد عذابه؟ والآيات في هذا صريحة كما تقدم.

(فرع): سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٥٦): هل هناك ناران نار لأهل الكفر، ونار لأهل المعاصي الذين يعذبون فيها ثم يخرجون؟

فأجاب: زعم بعض العلماء ذلك وقال: إن النار ناران نار لأهل الكفر، ونار لأهل المعاصي من المؤمنين وبينهما فرق، ولكن هذا لا أعلم له دليلًا لكن عذابهما يختلف، لا شك أنها على عصاة المؤمنين ليست كما هي على الكافرين وكوننا نقول بالتقسيم بناء على استبعاد عقولنا ان تكون نار واحدة تؤثر تأثيرين مختلفين لا ينبغي؛ لأن هذا الاستبعاد لا وجه له لأمرين:

الأمر الأول: أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قادر على أن يجعل النار الواحدة لشخص سلامًا، ولآخر عذابًا.

الأمر الثاني: أن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا أبدًا لظهور الفرق العظيم بينهما، فلا يجوز أن تقيس أحوال الآخرة بأحوال الدنيا لتنفي مالا يتسع له عقلك، بل عليك بالنسبة لأحوال الآخرة أن تسلم وتقبل وتصدق، أليست هذه الشمس ستدنو من الخلائق قدر ميل يوم القيامة؟ ولو كانت أحوال الناس يوم القيامة كأحوالهم في الدنيا لأحرقتهم؛ لأن هذه الشمس في أوجها لو أنها نزلت ولو يسيرًا أحرقت الأرض ومحتها عن آخرها ونحن نحس بحرارتها الآن

وبيننا وبينها مسافات عظيمة لا سيما في أيام الصيف حين تكون عمودية، ومع ذلك تدنو من الخلائق يوم القيامة على قدر ميل ولا يحترقون بها، كذلك أيضًا في يوم القيامة في مقام واحد المؤمنون لهم نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، والكفار في ظلمة، لكن في الدنيا لو كان بجانبك واحد على يمينه نور وبن يديه نور فإنك تنتفع به، أما في الآخرة فلا، وفي الآخرة أيضًا يعرق الناس فيختلف العرق اختلافًا عظيمًا بينهم، وهم في مكان واحد، فمن الناس من يصل العرق إلى كعبيه ومنهم من يصل إلى ركبتيه، ومنهم من يصل إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق، وهم في مكان واحد.

فالمهم أنه لا يجوز أن نقيس أحوال الآخرة بأحوال الدنيا ثم نذهب ونحدث أشياء لم تأت في الكتاب والسنة كتقسيم النار إلى نارين: نار للعصاة ونار للكافرين فالذي بلغنا ووصل إليه علمنا أنها نار واحدة لكنها تختلف.

(باب مباحث الإيمان بالحوض)

مسائل في الحوض

المسألة الأولى: وجوب الإيمان بالحوض

يجب الإيمان بالحوض الذي يرده المؤمنون في الآخرة، فالإيمان به واجب ولا ينكره إلا جاهل مبتدع.

قال السفاريني: والحوض والكوثر ثابت بالنص وإجماع أهل السنة والجماعة حتى عده أهل السنة في العقائد الدينية لأجل الرد على أهل البدع والضلال.

وقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عددا من الصحابة الذين رووا أحاديث الحوض، فقال: ذكر ما ورد في الحوض النبوي المحمدي - سقانا الله منه يوم القيامة -

من الأحاديث المتواترة المتعددة من الطرق الكثيرة المتضافرة؛ وإن رغمت أنوف كثيرة من المبتدعة المعاندة المكابرة، القائلين بجحوده، المنكرين لوجوده، وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين وروده، كما قال بعض السلف: (من كذب بكرامة لم ينلها) ثم شرع في ذكر أسماء الصحابة الذين رووا أحاديث الحوض.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١١/ ٤٨٦): الجنة والنار والبعث... والحوض... فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة.

وقال أبو الحسن الأشعري في رسالة إلى أهل الثغر (ص: ٢٨٩): وأجمعوا... على أن لرسول الله ﷺ حوضًا يوم القيامة ترده أمته لا يظمأ من شرب منه.

وقال الإمام سفيان بن عيينة كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/ ١٧٥): السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك شيئًا فقد ترك السنة، إثبات القدر... والحوض.اهـ.

وقال الإمام أحمد كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/ ١٧٥): ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقلها ويؤمن بها لم يكن من أهلها... والإيمان بالحوض وأن لرسول الله ﷺ حوضًا يوم القيامة ترد عليه أمته.اهـ.

وقال العلامة الألباني في تحقيق بداية السول (ص ٥٥ - ٥٦): وأما الحوض فأحاديثه كثيرة جدًا، قد بلغت مبلغ التواتر التي يحصل بمجموعها العلم القطعي، قال الحافظ: «إذ قد روى ذلك عن صلى الله عليه وآله وسلم من

الصحابة نيف على الثلاثين، منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين، وفي غيرهما بقية ذلك مما صح نقله، واشتهر رواته». قلت: وقد استقصى طرقه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٢١ – ٢٦٠، رقم ٦٩٧ – ٧٧٦) عن أكثر من خمسة وثلاثين وصحابيًا، لبعضهم أكثر من طريق واحد وهذه أسماؤهم.... وقال ابن أبي عاصم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مختصره: «والأخبار التي ذكرنا في حوض النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– توجب العلم، فنحن به مصدقون، ونرغب إلى الذي وفقنا للتصديق به أن يوردنا فيسقينا منه شربة نعدم بها ظمأ الأمد بطوله، ونسأله ذلك بفضله». اهـ.

وقال العلامة العثيمين في تعليقه كتاب لمعة الاعتقاد (ص١٢٣): الحوض لغة: الجمع يقال حاض الماء يحوضه إذا جمعه، ويطلق على مجتمع الماء.

وشرعًا: حوض الماء النازل من الكوثر في عرصات القيامة للنبي ﷺ، ودل عليه السنة المتواترة وأجمع عليه أهل السنة.

قال النبي ﷺ: "إني فرطكم على الحوض" متفق عليه.

وأجمع السلف أهل السنة على ثبوته، وقد أنكر المعتزلة ثبوت الحوض ونرد عليهم بأمرين:

١ – الأحاديث المتواترة عن الرسول ﷺ.

٢ – إجماع أهل السنة على ذلك.

صفة الحوض: طوله شهر وعرضه شهر وزواياه سواء وآنيته كنجوم السماء، وماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأطيب من ريح المسك، فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والثاني من فضة، يرده المؤمنون من أمة محمد، ومن يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا، وكل هذا ثابت في الصحيحين

أو أحدهما. وهو موجود الآن لقوله ﷺ: "وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن" رواه البخاري، واستمداده من الكوثر لقوله ﷺ: "وأعطاني الكوثر وهو نهر في الجنة يسيل في حوض". رواه أحمد، قال ابن كثير: وهو حسن الإسناد والمتن.

ولكل نبي حوض ولكن حوض النبي ﷺ أكبرها وأعظمها وأكثرها واردة؛ لقول النبي ﷺ: (إن لكل نبي حوضًا وإنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة)[1] رواه الترمذي وقال: غريب، وروى ذلك ابن

---

(١) قال العلامة الألباني في الصحيحة (١٥٨٩): أخرجه البخاري في التاريخ (١/ ١/ ٤٤) والترمذي (٣/ ٢٩٩ - ٣٠٠) وابن أبي عاصم كما في " نهاية ابن كثير " (١ / ٣٥١) والطبراني في الكبير (٦٨٨١) من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ فذكره وقال الترمذي: حديث غريب وفي بعض النسخ: حسن غريب، وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلا. ولم يذكر فيه عن سمرة، وهو أصح". قلت: وما في النسخة الأولى أعني الغرابة فقط أقرب إلى الصحة، وهو الذي نقله ابن كثير عن الترمذي لأن السند لا يقبل التحسين، فإن فيه ثلاث علل :

الأولى: الإرسال الذي ذكره الترمذي ورجحه.

الثانية: عنعنة البصري، فإنه كان مدلسا لاسيما عن سمرة.

الثالثة: سعيد بن بشير وهو الأزدي مولاهم، وهو ضعيف كما في " التقريب".

والحديث أورده الهيثمي في " المجمع " (١٠ / ٣٦٣) بلفظ أتم وهو: "إن الأنبياء يتباهون أيهم أكثر أصحابا من أمته، فأرجو أن أكون يومئذ أكثرهم كلهم نقلت واردة، وإن كل رجل منهم يومئذ قائم على حوض ملآن معه عصا، يدعو من عرف من أمته، ولكل أمة سيما يعرفهم بها نبيهم " وقال: رواه الطبراني وفيه مروان بن جعفر السمري، وثقه ابن أبي حاتم وقال الأزدي: يتكلمون فيه وبقية رجاله ثقات". قلت: إن كان كما قال رجاله ثقات ولم يكن في الإسناد ما يقدح في ثبوته، فالإسناد حسن عندي لأن السمري هذا صدوق صالح الحديث، كما قال ابن أبي حاتم (٤/ ١/ ٢٧٦) عن أبيه، وهو مقدم على جرح الأزدي لأن هذا نفسه يتكلمون فيه! ثم وقفت على إسناده عند =

=

الطبراني (٧٠٥٣)، فإذا هو من طريق السمري المذكور: حدثنا محمد بن إبراهيم بن خبيب بن سليمان بن سمرة: (حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة عن خبيب بن سليمان بن سمرة) عن أبيه عن سمرة. قلت: وهذا سند ضعيف، سليمان بن سمرة لم يوثقه أحد غير ابن حبان (٣/ ٩٤)، وخبيب ابنه مجهول، وجعفر بن سعد ليس بالقوي كما في التقريب وللحديث شاهدان موصولان، وثالث مرسل.

الأول: من رواية عطية العوفي عن أبي سيد الخدري مرفوعا بلفظ: "إن لي حوضا طوله ما بين الكعبة إلى بيت المقدس، أشد بياضا من اللبن، آنيته عدد النجوم، وكل نبي يدعو أمته، ولكل نبي حوض، فمنهم من يأتيه الفئام، ومنهم من يأتيه العصبة، ومنهم من يأتيه النفر، ومنهم من يأتيه الرجلان، ومنهم من يأتيه الرجل، ومنهم من لا يأتيه أحد، فيقال: قد بلغت، وإني لأكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة". أخرجه أبو نعيم في أخبار أصبهان (١/ ١١٠) وكذا ابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال كما في ابن كثير (١/ ٣٦٣ و٣٦٩) وابن ماجة (٢/ ٢٧٩) مختصرا وعطية ضعيف.

الثاني: عن محصن بن عقبة اليماني عن الزبير بن شبيت (كذا) عن أبي عثمان عن ابن عباس قال: "سئل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدي رب العالمين هل فيه ماء؟ قال: إي والذي نفسي بيده، إن فيه لماء، إن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء، ويبعث الله سبعين ألف ملك في أيديهم عصا من نار يذودون الكفار عن حياض الأنبياء " أخرجه ابن أبي الدنيا وقال ابن كثير (١/ ٣٧٠): وهذا حديث غريب من هذا الوجه وليس هو في شيء من الكتب الستة". قلت: والزبير ومحصن لم أجد من ترجمهما.

الثالث: قال ابن أبي الدنيا حدثنا خالد بن خداش (الأصل: خراش) حدثنا حزم ابن أبي حزم سمعت الحسن البصري يقول قال رسول الله ﷺ: "إذا فقدتموني، فأنا فرطكم على الحوض، إن لكل نبي حوضا، وهو قائم على حوضه، بيده عصا يدعوا من عرف من أمته، ألا وإنهم يتباهون أيهم أكثر تبعا، والذي نفسي بيده إني لأرجو أن أكون أكثرهم تبعا " قال الحافظ بن كثير: وهذا مرسل عن الحسن، وهو حسن، صححه يحيى بن سعيد القطان وغيره، وقد أفتى شيخنا المزي بصحته من هذه الطرق". قلت: وإنما لم يحسنه الحافظ مع أن رجاله رجال " الصحيح " لأن في خالد بن خداش وشيخه حزم كلاما، قال الحافظ بن حجر في الأول منهما: "صدوق يهم". وقال في الآخر: "صدوق يخطىء". ومنه تعلم خطأ قوله في الفتح (١١/ ٢٩٣): "والمرسل أخرجه ابن أبي الدنيا

=

أبي الدنيا وابن ماجه من حديث أبي سعيد وفيه ضعف لكن صححه بعضهم من أجل تعدد الطرق.اهـ.

المسألة الثانية: أدلة وجود الحوض

قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية: أنَّ الحوض دلَّ عليه القرآن باحتمال، ودلَّت عليه السنة بقطع.

أما القرآن فدليل الحوض فيه قوله تعالى (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)، وقد ثبت في الصحيح أنَّ النبي ﷺ فَسَّرَ الكوثر بأنه (حوض أعطاه الله إياه)، وهناك عدة تفاسير للكوثر منها أنه نهر في الجنة، وقد جاء أيضا أنَّ الحوض يُسْكَبُ فيه من الكوثر ميزابان يعني يغذونه بماء الكوثر.

وأما من السنة فقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في وجود الحوض وفي صفته، وقد رواها عنه ﷺ أكثر من خمسين صحابيًا، ولهذا نقول: هي متواترة نقلًا ومتواترة تواترًا معنويًا، فجمعت بين نوعي التّواتر، وهذا النقل جاء عن أفاضل الصحابة وعن أكمل الصحابة.

فمرويات الحوض ثابتة عن الصحابة عن أبي بكر رضي الله عنه وعن عمر وعن عثمان وعن علي وعن فقهاء الصحابة كابن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله

=

بسند صحيح على الحسن... "! قلت: نعم هو صحيح عن الحسن بالطريق الأخرى عنه التي أشار إليها الترمذي في كلامه السابق من رواية الأشعث بن عبد الملك عنه. ومن الغريب أن لا يذكرها الحافظان ابن حجر وابن كثير!! وجملة القول: إن الحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح، والله أعلم، ثم وجدت له شاهد آخر من حديث عوف بن مالك مرفوعا به. وفيه زيادة خرجته من أجلها في الضعيفة (٢٤٥٠).

بن عمر وأبي ذر إلى غير هؤلاء، فجُلَّة الصحابة رووا أحاديث الحوض على خلاف بينهم في ألفاظها، والنّبي ﷺ كان يكرّر الكلام عن أحاديث الحوض كما روى أبو داوود في سننه عن أحد الصحابة أنه قال (سمعته مرارا لا أقول مرة أو مرتين) يعني عن النبي ﷺ، فكان يكرر الأحاديث في الحوض فلذلك حصل فيها بعض الاختلاف كما سيأتي فيما نستقبل.

المسألة الثالثة: صفة الحوض

قال الشيخ صالح آل الشيخ: صفة الحوض التي دل عليها الدليل من صحيح السنة.

أولًا: من حيث شكله: هو مربع زواياه سواء وأضلاعه متساوية، وقد ثبت في الصحيح أنَّ النبي ﷺ "قال طوله شهر وعرضه شهر زواياه سواء" فهذا يدل على أنَّ شكل الحوض مربع، وأنَّ زواياه قائمة، وأنَّ طوله وعرضه واحد وهو شهر[1].

واختلفت الروايات كثيرا في طوله وعرضه، ومُحَصَّلُها ما ذكرتُ لك من أنه

---

(١) قال العلامة العثيمين في شرح الواسطية (ص٤٠٠): طوله شهر وعرضه شهر هذا إذا يقتضي أن يكون مدورًا لأنه لا يكون بهذه المساحة من كل جانب إلا إذا كان مدورا، وهذه المسافة باعتبار ما هو معلوم في عهد النبي ﷺ من سير الإبل المعتاد.
وقال في شرح السفارينية (ص٤٨٣): هل هذا الحوض واسع أو ضيق؟ جاء في الحديث الصحيح أن طوله شهر وعرضه شهر، وبذلك يكون واسعًا، لكن أخذ بعض العلماء من قوله ﷺ: طوله شهر وعرضه شهر أن الحوض مدور؛ لأنه لو كان مربعًا لكان ما بين الزاويتين أكثر من الشهر، فإذا قال الرسول ﷺ: إن طوله شهر وعرضه شهر فإنه لا يتحقق هذا في جميع جهاته إلا إذا كان مدورًا، وعلى كل حال فإن كان هذا هو مراد رسول الله ﷺ فإننا نقبله، وإن لم يكن مراده فإنه جرى على لسان العرب أنهم يقولون: الحُجرة طولها أربعة أذرع وعرضها أربعة أذرع مع أنها مربعة.

شهر في شهر، وقد جاء في بعض الروايات قال "هو كما بين المدينة وبيت المقدس"، وفي رواية قال "هو كما بين المدينة وعُمَان" أو قال "عَمَّان"، وفي رواية قال "هو كما بين المدينة إلى صنعاء"، وفي رواية قال "هو كما بين أيلة إلى صنعاء" وثَمَّ غير ذلك.

وإذا قلنا مسيرة شهر في شهر، فالمراد بالشهر بسَير الجمال السّير المعتاد؛ لأنه هو الفصل في التقدير.

هذا من حيث طوله وعرضه وشكله، شكله مربع وطوله وعرضه شهر في شهر.

ثانيًا: من حيث مكانه: مكانه هو في الأرض المُبَدَّلَة، يعني يوم يبدّل الله الأرض غير الأرض والسموات، هو في الأرض المُبَدَّلَة.

ثالثًا: من حيث آنيته: آنيته وصفَها ﷺ كما في حديث عبد الله بن عمر بن العاص وغيره قال "آنيته كنجوم السماء" وهذا التشبيه بقوله (كنجوم السماء) نفهم منه صفتين:

الصفة الأولى: الكثرة، في أنَّ كثرتها كثرة نجوم السماء، وهذا يدل على مزيد راحة وطمأنينة في الشرب منه وتناوله، وألا يكون هناك تزاحم على كيزانه، أو أنَّ الناس يشربون بأيديهم.

والصفة الثانية: أنَّ كيزانه أو كيسانه أو أباريقه أو نحو ذلك كنجوم السماء في الإشراق والبهاء والنور، فنجوم السماء فيها صفة الكثرة وفيها صفة النوروالبهاء.

هذا من جهة وصف كيزانه من حيث العدد ومن حيث الشكل.

رابعًا: من حيث مائه: ماؤه من حيث اللون أشد بياضًا من اللبن، كما ثبت

في الحديث قال "حوضي طوله شهر وعرضه شهر ماؤه أشد بياضا من اللّبن وأحلى من العسل"، وقد جاء في رواية قال "ماؤه أشدّ بياضا من الوَرِقْ" يعني من الفضة.

ورائحة مائه قال "رائحته كرائحة المسك".

ومصدر مائه من الكوثر؛ النهر الذي في الجنة، قال ﷺ "الكوثر نهر أعطانيه الله في الجنة". وقد جاء في صفة الحوض "يشخب فيه من الكوثر ميزابان".

المسألة الرابعة: مكان الحوض

قال الشيخ صالح آل الشيخ: اختلف العلماء أين يكون الحوض؟ هل هو قبل الصراط أم بعد الصراط؟ على قولين:

القول الأول: وهو قول جمهور أهل العلم على أنَّه قبل الصراط[1] وليس

---

(١) ذهب كثير من العلماء أن مكان الحوض في عرصات القيامة قبل العبور على الصراط، وإليه مال الغزالي، والقرطبي في التذكرة (ص٣٤٧) وقال: المعنى يقتضيه. فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشًا. فناسب تقديم الحوض، وأيضًا فإنه من جاز الصراط لا يتأتى طرده عن الحوض فقد كملت نجاته، ورجح القاضي عياض أنه بعد الصراط، وأن الشرب منه يقع بعد الحساب والنجاة من النار. ويؤيده من جهة المعنى أن الصراط يسقط منه من يسقط من المؤمنين، ويخدش فيه من يخدش ووقوع ذلك للمؤمن بعد شربه من الحوض بعيد فناسب تقديم الصراط حتى إذا خلص من خلص شرب من الحوض. وقيل: يشهد له ما تقدم من أن للحوض ميزابين يصبان فيه من الكوثر. ولو كان قبل الصراط لحالت النار بينه وبين وصول ماء الكوثر إليه. ولكن وصول ذلك ممكن. والله على كل شيء قدير.

وقال الإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٥٩٦): في شرحه لحديث لقيط بن عامر بن المنتفق وهو حديث طويل جاء فيه (....فيسلكون جسرا من النار يطأ أحدكم الجمرة فيقول: حس، فيقول ربك: فتطلعون على حوض نبيكم) ولكن هذا الحديث ضعيف لا يثبت فلا يصح الإستدلال به، وقد ضعفه العلامة الألباني في ظلال الجنة (٦٣٦).

=

=

قال ابن القيم: قوله (فتطلعون على حوض نبيكم) ظاهر هذا أن الحوض من وراء الجسر فكأنهم لا يصلون إليه حتى يقطعوا الجسر، وللسلف في ذلك قولان حكاهما القرطبي في " تذكرته " والغزالي وغلطا من قال: إنه بعد الجسر، وقد روى البخاري: عن أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال: (بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال لهم: هلم، فقلت: إلى أين؟ فقال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا على أدبارهم، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم) فهذا الحديث مع صحته أدل دليل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط؛ لأن الصراط إنما هو جسر ممدود على جهنم، فمن جازه سلم من النار.

قلت: وليس بين أحاديث رسول الله ﷺ تعارض ولا تناقض ولا اختلاف وحديثه كله يصدق بعضه بعضا، وأصحاب هذا القول إن أرادوا أن الحوض لا يرى ولا يوصل إليه إلا بعد قطع الصراط، فحديث أبي هريرة هذا وغيره يرد قولهم، وإن أرادوا أن المؤمنين إذا جازوا الصراط وقطعوه بدا لهم الحوض فشربوا منه، فهذا يدل عليه حديث لقيط هذا، وهو لا يناقض كونه قبل الصراط، فإن قوله طوله شهر، وعرضه شهر، فإذا كان بهذا الطول والسعة، فما الذي يحيل امتداده إلى وراء الجسر، فيرده المؤمنون قبل الصراط وبعده، فهذا في حيز الإمكان، ووقوعه موقوف على خبر الصادق والله أعلم.اهـ.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (ص٣٣٤): تعليقا على قول شيخ الإسلام (وفي عرصة القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ).

(عرصة) هذه العرصة هي الفناء الواسع الذي لا بناء فيه، ساحة عظيمة لا بناء فيها وهكذا الأرض يوم القيامة فإنه لا بناء فيها لأحد، وعرصات القيامة هي الأماكن التي يجتمع فيه الناس وينتظرون فيها حسابهم، هذه هي عرصات القيامة، وهناك عرصات الجنة وهي ما بعد جواز الصراط وقبل دخول الجنة هناك أيضا عرصات ساحات كبيرة يجتمع فيها الخلق لدخولهم لدار المقام

قال (في عرصة القيامة الحوض المورود للنبي ﷺ) يعني أن حوض النبي ﷺ الذي جاءت به الأحاديث الذي دل عليه قوله جل وعلا ؟إنا أعطيناك الكوثر؟ هو في عرصة القيامة يعني أنه ليس بعد العبور على الصراط وإنما هو في عرصة القيامة في الأماكن التي يقوم فيها الناس لرب العالمين، وهذا من شيخ الإسلام رحمه الله إثبات لأن الحوض قبل الصراط.

=

=

والعلماء تنازعوا: هل الحوض قبل الصراط أم بعد الصراط على أقوال :

* منهم من يقول إنه قبل الصراط.

* ومنهم من يقول هو بعد الصراط.

* ومنهم من يقول هو قبل الصراط وبعده حوض واحد ممتد من عرصات القيامة إلى العرصات التي قبل الجنة.

* ومنهم من يقول هما حوضان: قبل الصراط حوض وبعد الصراط حوض.

والله جل وعلا أعلم بكيف يكون الصراط على هذه الحال وجهنم واسعة والصراط منصوب على متنها.....

وكلام شيخ الإسلام هنا ظاهر في أن الحوض الذي أوتيه محمد عليه الصلاة والسلام فإنه يكون قبل الصراط وهذا واضح، وقد وصف في الأحاديث بصفات تأتي إن شاء الله.اهـ.

وقال العلامة الألباني في بداية السول (ص ٥٧): إن قول المصنف: «في الموقف»، فيه أنه يرى أن الحوض قبل الصراط، وهو الظاهر من بعض الأحاديث، وهو الذي رجحه الحافظ.اهـ.

وقيل مكانه بعد الصراط قال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٧٤): وإيراد البخاري لأحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة إشارة منه إلى ان الورود على الحوض يكون بعد الصراط والمرور عليه.اهـ.

والقول الثالث هو الجمع بين الأحاديث الواردة واختلفوا في طريقة الجمع على قولين :

الأول: واختاره الحافظ الحكمى حيث قال في المعارج: وليس بين أحاديث رسول الله ﷺ تعارض ولا تناقض ولا اختلاف، وحديثه كله يصدق بعضه بعضًا، وأصحاب هذا القول إن أرادوا أن الحوض لا يرى ولا يوصل إليه إلا بعد قطع الصراط؛ فحديث أبي هريرة هذا وغيره يرد قولهم، وإن أرادوا أن المؤمنين إذا جاوزوه وقطعوه بدا لهم الحوض فشربوا منه، فهذا يدل عليه حديث لقيط هذا، وهو لا يناقض كونه قبل الصراط، فإن قوله : "طوله شهر وعرضه شهر " فإذا كان بهذا الطول والسعة؛ فما الذي يحيل امتداده إلى وراء الجسر فيرده المؤمنون قبل الصراط وبعده؟ فهذا في حيز الإمكان ووقوعه موقوف على خبر الصادق".اهـ.

والقول الثاني للسيوطي حيث جمع بين الروايات التي تفيد أن الحوض بعد الصراط،

=

بعد الصراط؛ لأنّ الأحاديث التي فيها صفة الحوض فيها ذُكِرَ أَنَّ أناسا يُذَادُون عنه ويُدْفَعُون ويُؤْخَذ بهم إلى النار، فيقول النبي ﷺ "ربي أصيحابي أصيحابي"، أو قال "أصحابي أصحابي فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك".

القول الثاني: وبه قال طائفة من أهل العلم إنَّ الحوض حوضان حوض قبل الصراط وحوضٌ بعد الصراط، فمن لم يشرب منه قبل الصراط بأن أُخِذَ للعذاب من هذه الأمة ثم نَجَى بعد ذلك، فَثَمَّ حوض آخر بعد الصراط يشرب منه.

ولكن الذي تدل عليه الأحاديث بظهور وكثرة أنَّ الحوض يكون قبل الصراط لا بعده.

ثُمَّ القائلون بأنه قبل الصراط أيضًا اختلفوا: هل هو قبل الميزان أم بعد الميزان؟

على قولين لأهل العلم، والأكثر أيضا أنّه قبل الميزان، وأنّه في العرصات قبل أنْ يأتي الله سبحانه وتعالى لفصل القضاء وقبل أن تتطاير الصحف وإلى آخر ذلك.

ولشدة طول هذا اليوم فإنّ الله يكرم نبيه ﷺ بهذا الحوض حتى يشرَب منه المؤمنون فلا يظمؤون ولا يقلقون في شدة هول الموقف.

=

والروايات التي تفيد أنه قبله بقوله: "ويحتمل الجمع بأن يقع الشرب من الحوض قبل الصراط لقوم وتأخيره بعده لآخرين بحسب ما عليهم من الذنوب والأوزار، حتى يهذبوا منها على الصراط"، ثم قال : "ولعل هذا أقوى".
وقد امتدح الشيخ مرعي - كما نقل عنه السفاريني في لوامع الأنوار (٢/ ١٩٦) - هذا الجمع بقوله " وهذا في غاية التحقيق جامع القولين وهو دقيق".

فإذًا نقول الصواب أَنَّهُ قبل الصراط وأيضًا أنه قبل الميزان.

قال القرطبي صاحب كتاب التذكرة في الكلام المشهور عنه يتناقله العلماء قال: والمعنى يقتضي هذا؛ لأنَّ الناس يخرجون من قبورهم عطاشا فإذا وافوا الموقف فإنهم يحتاجون مع طول الموقف إلى ما به ذهاب ظمئهم وصدورهم، وهذا يناسب أن يكون إكرام النبي ﷺ بالحوض قبل الميزان.

المسألة الخامسة: من الذين يزادون عن الحوض

قال الشيخ صالح آل الشيخ: جاء في الأحاديث أنَّ الحوض يُذاد عنه، فقد جاء أنَّ النبي ﷺ يذود أناسًا عن الحوض.

وجاء في أحاديث أخرى أنَّ النبي ﷺ يأتيه قوم فيعرفهم فيُذادُون عن الحوض؛ يعني يذودهم غيره ﷺ، فيقول "يا ربي أصيحابي أصيحابي" إلى آخر الأحاديث التي سيأتي توجيهها.

وهذا يدلّ على أنّ التحقيق أنّ الذَّوْد عن الحوض نوعان:

الأوّل ذود عام: وهو ذود النبي ﷺ غير أمته أن يستقوا من الحوض فيدفعهم أو يمنعهم ويذودهم عن الحوض الخاص بأمته ﷺ، وهذا الذّود العام منه ؟ وإبعاد الناس عن حوضه إلا أمته يفيد فائدتين:

الفائدة الأولى: أنه ﷺ للمؤمنين به في هذه الأمة رؤوف رحيم، فيريد أن تختص أمته بحوضه، وذلك فيه إكرام لهم ومزيد عناية بهذه الأمة.

الفائدة الثانية: أنه قد جاء -كما ذكرنا- أن لكل نبي حوضا، والنبي ﷺ يريد من كل تابع لنبي ومؤمن بنبي من إخوانه الأنبياء والمرسلين، يريد أن يذهب إلى النبي ليكون أبلغ في ظهور عظم الرسالة -رسالة النبي إلى قومه- ورأفة قومه به، وإظهار لمن آمن بكل نبي على من لم يؤمن بذلك النبي.

وهذا توجيه جيد أفاده عدد من أهل العلم منهم الحافظ ابن حجر ومن تبعه.

الثاني ذودٌ خاص: فهذا يُذاد عن الحوض طائفة قليلة بالنسبة إلى كثرة من يرده، قد جاء فيه أحاديث كثيرة عنه ﷺ متعددة: أنه إذا ورد الحوض ورد عليه أناس يعرفهم ويعرفونه ثم يُذَادُونَ عن الحوض؛ يعني يُدفَعُونَ بشدة فيقول "يا ربي قومي قومي" وفي رواية "أصحابي" وفي رواية لأنس في الصحيح "أصيحابي أصيحابي"، فينادي المنادي "إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك"، في رواية "إنهم لم يزالوا مرتدّين على أدبارهم مذ تركتهم"، فهذا دَفْعٌ بشدة عن الحوض لطائفة من المرتدّين ومن المُحْدِثِين.

ولهذا اختلف أهل العلم في هؤلاء الذين يُدفعون عن الحوض من هم؟ على أقوال:

القول الأول: أنّ الذين يُذادُونَ عن الحوض هم الذين ارتدوا من الصحابة بعده ﷺ، كالذين تبعوا مسيلمة الكذاب أو سجاح أو كَفَرُوا وارتَدُّوا بعد ذلك، وهم قليل.

ويدل على قلتهم أنه ؟ قال "يذاد قوم" أو يؤتى كما في رواية أخرى، قال "فيأتيني قوم فيُذادون عن الحوض" وهذا يدل على قلّتهم. ويدل على ذلك أيضا قوله "يا ربي أصيحابي أصيحابي". فقال أهل العلم إنَّ كلمة (قوم) و(أصيحابي) ونحوهما، يدل على قلة العدد لا على كثرتهم.

وهذا يناسب هذا القول؛ لأنَّ عدد الذين ارتدوا بعد النبي ﷺ ممن صحبوه أو حجوا معه حجة الوداع قليل من شرذمة من الأعراب الذين لم يؤمنوا به حق الإيمان.

القول الثاني: أنِّ الذين يُذادون عن الحوض هم المنافقون.

والنبي ﷺ لم يعرف المنافقين جميعًا فقد قال الله له (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) [محمد:٣٠] فيأتون يوم القيامة وعليهم سيما أهل الإيمان أو أنهم مع المؤمنين فيظنّهم ﷺ من المؤمنين به ظاهرًا وباطنًا، ثم يُذادون فيُدْفَعُونَ عن الحوض بشدة، ويساقون إلى النار فيقول "أصحابي أصحابي" باعتبار ما كان عليه ظاهر أمرهم، فيقول (إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)، (أو إنهم لم يزالوا مرتدين على أدبارهم مذ تركتهم).

يعني ظَهَرَ نفاقهم واستبان بعد وفاته ؟.

القول الثالث: أنَّ الذين يذادون هم كل من أحدث بعده ﷺ حدثًا فَغَيَّرَ في دينه إمَّا بالارتداد عن الإسلام إلى الكفر أو بما هو دون ذلك من المحدثات كالبدع المضلة من أنواع البدع المضلة كبدعة الرِّفض والسبئية والخوارج والنّصب والاعتزال، كل هذه من أنواع المحدثات.

والنبي ﷺ قال في وصف من يُذاد "فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك"، وهذه من جملة أنواع المحدثات.

وهذا القول الثالث هو أظهر الأقوال لشموله للقولين السابقين، فنقول:

أولا: الذين يُذادون كما جاء في بعض الأحاديث الذين ارتدوا ممن شارك في حجة الوداع أو صحب النبي ﷺ ولم يؤمن به إيمانًا حقيقيًا، فهؤلاء يذادون.

ثانيًا: وأيضًا يذاد المنافقون.

ثالثًا: وأيضًا يذاد كل أصحاب الفرق الضالة كالخوارج والمعتزلة والرافضة، وأشباه هؤلاء من الفرق الذين ضلوا وأحدثوا في الدين وابتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله، قال بعض أهل العلم: ويُلْحَقْ بذلك أيضًا من افترى على الله في دينه؛ يعني كَذَبَ في أمر الدين، ويدل على ذلك ما رواه مسلم في

صحيحه والإمام أحمد في مسنده ونحو ذلك بألفاظ متقاربة من أنَّ النبي ؟ قال "سيكون بعدي أمراء فمن صدَّقهم بكذبهم وأعانهم على ظُلمهم فليس مني ولست منه ولن يرد عليَّ الحوض".

قال في وصف هؤلاء "فمن صدَّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم" يعني يكذبون على الدين وهذا يُصَدِّقُهُم على ذلك ويعينهم على الكذب على الدين ويعينهم على الظّلم، فهذا مُحْدِثْ، ولهذا أُلحق بتلك الفئات بقوله ﷺ "فليس مني ولستُ منه ولن يرد عليّ الحوض"[١].

---

(١) هذه بعض الروايات بألفاظها المختلفة الواردة في هذه المسألة:

عن سهل بن سعد قال: قال النبي ﷺ: (إني فرطكم على الحوض من مر علي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدا، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم، فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقا، سحقا، لمن غير بعدي). رواه البخاري (٦٢١٢) ومسلم (٢٢٩٠).

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون وددت أنا قد رأينا إخواننا) قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله، قال: (أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد) فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال: (أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بهم ألا يعرف خيله) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض، ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال؛ أناديهم: ألا هلم. فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: سحقا سحقا) رواه مسلم (٢٤٩).

وعن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إني على الحوض أنتظر من يرده علي منكم، فليقطعن رجال دوني، فلأقولن: يا رب أمتي أمتي، فليقالن لي: إنك لا تدري ما عملوا بعدك، ما زالوا يرجعون على أعقابهم). رواه أحمد (٤١/ ٣٨٨) وهو صحيح.

وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: (ليردن علي الحوض رجال ممن صاحبني، حتى إذا رأيتهم ورفعوا إلي اختلجوا دوني، فلأقولن: أي رب أصيحابي أصيحابي، فليقالن =

=

لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك).

رواه البخاري (٦٢١١) ومسلم (٢٣٠٤).

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: (أنا فرطكم على الحوض ليرفعن إلي رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول: أي رب أصحابي يقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك). رواه البخاري (٦٦٤٢) ومسلم (٢٢٩٧).

وعند التأمل في الأحاديث السابقة نجد أن الكلام قد انحصر في مجموعات ترد حوض النبي ﷺ لتشرب منه، فتردهم الملائكة، ويناديهم النبي ﷺ بألفاظ هي " أمتي"، " أصحابي"، " أصيحابي"، وليس بينها اختلاف تضاد، بل هي محمولة على أناس تشملهم معاني تلك الكلمات، ويمكننا أن نجملهم بهذه الطوائف:

١ - مرتدون عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ، وكانوا أسلموا في حياته ورأوه وهم على الإسلام.

٢ - مرتدون عن الإسلام في أواخر حياته ﷺ، ولم يكن يعلم بكفرهم.

٣ - أهل النفاق ممن أظهر الإسلام، وأبطن الكفر.

٤ - أهل الأهواء الذين غيروا سنة النبي صلى الله وسلم وهديه، كالروافض، والخوارج.

٥ - وبعض العلماء يدخل فيهم: أهل الكبائر، وله ما يؤيد من السنة، فقد روى الإمام أحمد في مسنده (٩/ ٥١٤) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (سيكون عليكم أمراء يأمرونكم بما لا يفعلون فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولن يرد علي الحوض) وصححه المحققون.

ولفظ " أمتي " في الأحاديث يصدق على أهل القول الرابع، والخامس، ولفظ " أصحابي " و" أصيحابي " على الأقوال الثلاثة الأول.

ومما يدل على أنهم من أمته ﷺ: أنه عرفهم بالغرة والتحجيل، وهي سيما خاصة بهذه الأمة، ويكون تعرف النبي صلى الله عليهم وسلم هناك بصفاتهم، لا بأعيانهم؛ لأنهم جاءوا بعده.

ومما يدل على دخول المنافقين في اسم " أصحابي ": قوله ﷺ (لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه) رواه البخاري (٣٥١٨)، وهذا معنى لغوي بحت للصحبة، ليس أنهم استحقوا شرفها؛ لأن تعريف الصحابي الاصطلاحي لا يصدق على هؤلاء، وهذه طائفة

=

=

من أقوال أهل العلم في تلك الأحاديث:

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح الحديث -: هذا مما اختلف العلماء في المراد به على أقوال: أحدها: أن المراد به المنافقون، والمرتدون، فيجوز أن يحشروا بالغرة والتحجيل، فيناديهم النبي ﷺ للسيما التي عليهم، فيقال: ليس هؤلاء مما وعدت بهم، إن هؤلاء بدلوا بعدك، أي: لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم.

والثاني: أن المراد من كان في زمن النبي ﷺ، ثم ارتد بعده، فيناديهم النبي ﷺ، وإن لم يكن عليهم سيما الوضوء، لما كان يعرفه ﷺ في حياته من إسلامهم، فيقال: ارتدوا بعدك.

والثالث: أن المراد به أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد، وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام. " شرح مسلم " (٣/ ١٣٦، ١٣٧).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وقال الخطابي: لم يرتد من الصحابة أحد، وإنما ارتد قوم من جفاة العرب، ممن لا نصرة له في الدين، وذلك لا يوجب قدحا في الصحابة المشهورين، ويدل قوله: (أصيحابي) بالتصغير على قلة عددهم. " فتح الباري " (١١/ ٣٨٥).

وقال عبد القاهر البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ: أجمع أهل السنة على أن الذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ من كندة، وحنيفة، وفزارة، وبني أسد، وبني بكر بن وائل، لم يكونوا من الأنصار، ولا من المهاجرين قبل فتح مكة، وإنما أطلق الشرع اسم المهاجرين على من هاجر إلى النبي ﷺ قبل فتح مكة، وأولئك بحمد الله ومنه درجوا على الدين القويم، والصراط المستقيم، وأجمع أهل السنة على أن من شهد مع رسول الله بدرا: من أهل الجنة، وكذلك كل من شهد معه بيعة الرضوان بالحديبية. " الفرق بين الفرق " (ص ٣٥٣).

وقال الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: والأظهر: أنهم من الداخلين في غمار هذه الأمة؛ لأجل ما دل على ذلك فيهم، وهو الغرة والتحجيل؛ لأن ذلك لا يكون لأهل الكفر المحض، كان كفرهم أصلا، أو ارتدادا، ولقوله: (قد بدلوا بعدك)، ولو كان الكفر: لقال: "قد كفروا بعدك"، وأقرب ما يحمل عليه: تبديل السنة، وهو واقع على أهل البدع، ومن قال: إنه النفاق: فذلك غير خارج عن مقصودنا؛ لأن أهل النفاق إنما أخذوا الشريعة تقية، لا تعبدا، فوضعوها غير مواضعها، وهو عين الابتداع.

ويجري هذا المجرى كل من اتخذ السنة والعمل بها حيلة وذريعة إلى نيل حطام الدنيا،

=

=

لا على التعبد بها لله تعالى؛ لأنه تبديل لها، وإخراج لها عن وضعها الشرعي. " الاعتصام " (١/ ٩٦).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به الله: فهو من المطرودين عن الحوض، المبعدين عنه، وأشدهم طردا: من خالف جماعة المسلمين، وفارق سبيلهم، كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدلون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور، والظلم، وتطميس الحق، وقتل أهله، وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر، المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ، والأهواء، والبدع، ثم البعد قد يكون في حال، ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال، ولم يكن في العقائد، وعلى هذا التقدير يكون نور الوضوء، يعرفون به، ثم يقال لهم (سحقا)، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يظهرون الإيمان، ويسرون الكفر: فيأخذهم بالظاهر، ثم يكشف له الغطاء فيقول لهم: (سحقا سحقا)، ولا يخلد في النار إلا كافر، جاحد، مبطل، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. " التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة " (ص ٣٥٢).

ومما يبين كذب الروافض في زعمهم أن الصحابة الأجلاء أبا بكر وعمر وعثمان من أولئك المرتدين: أنه قد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه قد حصلت ردة، وقتال للمرتدين، فمن قاتل من؟ إن الذي ارتد هم الذين ذكرنا وصفهم، من بعض قبائل العرب، وإن الذي قاتلهم هو أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وإخوانه من المهاجرين والأنصار - وقد شاركهم في قتالهم: علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسبى من بني حنيفة امرأة، أنجبت له فيما بعد الإمام العلم " محمد بن الحنفية " -؛ فإذا كان الصحابة الكرام: أبو بكر وعمر، ومن معهما من المهاجرين والأنصار: مرتدين؛ فماذا يكون حال مسليمة وأتباعه، والعنسي وأتباعه؟! إلا إن هذا هو عين النفاق والشقاق، وقول الباطل وشهادة الزور.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ :الله أكبر على هؤلاء المرتدين المفترين، أتباع المرتدين، الذين برزوا بمعاداة الله ورسوله وكتابه، ودينه، ومرقوا من الإسلام، ونبذوه وراء ظهورهم، وشاقوا الله ورسوله وعباده المؤمنين، وتولوا أهل الردة والشقاق؛ فإن هذا الفصل وأمثاله من كلامهم: يحقق أن هؤلاء القوم المتعصبين على الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

=

=

وحزبه - من أصولهم - من جنس المرتدين الكفار، كالمرتدين الذين قاتلهم الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. " منهاج السنة النبوية " (٤/ ٤٩٠).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي الجملة: فأمر مسيلمة الكذاب، وادعاؤه النبوة، واتباع بني حنيفة له باليمامة، وقتال الصديق لهم على ذلك: أمر متواتر، مشهور، قد علمه الخاص، والعام، كتواتر أمثاله، وليس هذا من العلم الذي تفرد به الخاصة، بل علم الناس بذلك أظهر من علمهم بقتال الجمل وصفين، فقد ذكر عن بعض أهل الكلام أنه أنكر الجمل، وصفين، وهذا الإنكار وإن كان باطلا: فلم نعلم أحدا أنكر قتال أهل اليمامة، وأن مسيلمة الكذاب ادعى النبوة، وأنهم قاتلوه على ذلك.

لكن هؤلاء الرافضة من جحدهم لهذا، وجهلهم به: بمنزلة إنكارهم لكون أبي بكر وعمر دفنا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنكارهم لموالاة أبي بكر، وعمر للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعواهم أنه نص على " علي " بالخلافة، بل منهم من ينكر أن تكون زينب، ورقية، وأم كلثوم من بنات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! ويقولون: إنهن لخديجة من زوجها الذي كان كافرا قبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ." منهاج السنة النبوية " (٤/ ٤٩٢، ٤٩٣).

وقال أيضا: وهم - أي: الرافضة - يدعون أن أبا بكر وعمر، ومن اتبعهما ارتدوا عن الإسلام! وقد علم الخاص والعام: أن أبا بكر هو الذي قاتل المرتدين، فإذا كانوا يدعون أن أهل اليمامة مظلومون، قتلوا بغير حق، وكانوا منكرين لقتال أولئك، متأولين لهم: كان هذا مما يحقق أن هؤلاء الخلف تبع لأولئك السلف، وأن الصديق وأتباعه يقاتلون المرتدين في كل زمان.

وقوله - أي: ابن المطهر الحلي الرافضي - " إنهم سموا بني حنيفة مرتدين لأنهم لم يحملوا الزكاة إلى أبي بكر ": فهذا من أظهر الكذب، وأبينه؛ فإنه إنما قاتل بني حنيفة لكونهم آمنوا بمسيلمة الكذاب، واعتقدوا نبوته، وأما مانعو الزكاة: فكانوا قوما آخرين، غير بني حنيفة، وهؤلاء كان قد وقع لبعض الصحابة شبهة في جواز قتالهم، وأما بنو حنيفة فلم يتوقف أحد في وجوب قتالهم...." منهاج السنة النبوية " (٤/ ٤٩٣، ٤٩٤).

ويقال لهؤلاء الروافض: لماذا ارتد الخلفاء الثلاثة دون علي؟! وما الذي استثنى مثل " عمار بن ياسر " و" المقداد بن الأسود " و" أبا ذر " و" سلمان الفارسي " من الردة؟! أم هو التحكم والهوى؟!، ونحن نعتقد أن المهاجرين والأنصار في الجنة خالدين فيها أبدا، قال تعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان

=

المسألة السادسة: الذين خالفو في الحوض من أهل البدع

قال الشيخ صالح آل الشيخ: خالف في الحوض طوائف من أهل البدع، خالف فيه المعتزلة والخوارج والرّافضة.

أما المعتزلة فخالفوا في إنكاره أصلًا فأنكروا الحوض، وقالوا هذه الصفة التي وردت لا تُعْقَلْ، فردُّوا الأحاديث المتواترة المتطابقة المتتابعة لفظًا ومعنىً، رَدُّوهَا بالعقل فقالوا (الحوض لا يُعْقَلْ وإنما له معنى يُؤَوَلْ إليه).

=

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) التوبة/ ١٠٠.
ونعتقد أن أبا بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وهكذا كل من سماهم النبي ﷺ، وأن هؤلاء جميعا سيشربون من حوض النبي ﷺ شرابا هنيئا، والويل والثبور لمن لعنهم، وكفرهم، فهو أولى أن يكون يوم القيامة في صف المرتدين الذين حاربهم أولئك الأطهار.
وهذه الأحاديث حجة على الروافض؛ حيث يثبتون فيها ردة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلا نفرا قليلا، ويزعمون أنهم " أحدثوا " بعد وفاة النبي ﷺ، ومعنى هذا أنهم كانوا على الإيمان قبل ذلك! فأي دين اعتقدوه بعد ذلك؟ وماذا فعلوا ما استحقوا به التكفير؟! فإن قالوا: سلب الخلافة من علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فيقال لهم هذه معصية! تكفرها الحسنات، ويكفي الصحابة سبكم ولعنكم لهم حتى توضع أوزارهم عليكم إن شاء الله.
وإن قالوا: قتل جنين فاطمة!: قلنا قد قتل في زمن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الآلاف! فهل تطبقون عليه القاعدة نفسها في التكفير؟!، فتبين مما سبق: أن الصحابة الأجلاء هم الذين دافعوا عن دين الله، وهم الذين أوقفوا مد الردة، والتي قام على إذكائها ونشرها سلف أولئك الروافض، من أمثال مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وأن الله تعالى قد أثنى في كتابه الكريم على المهاجرين والأنصار في قرآن يتلى إلى قيام الساعة، وقد نزههم ربهم عن الوقوع في البدعة، فكيف يقعون في الردة، وهم الذين نشروا الإسلام في الآفاق؟!. والله أعلم.

فليس عندهم حوض موجود يوم القيامة وإنما هو معنًى من المعاني.

قالوا: فكيف يكون الحوض قبل الصراط وبين الناس وبين الجنة جهنم الكبيرة، ويكون الحوض يُغْذَى من الجنة، والصراط على جهنم؟

يعني أنهم تخيَّلُوا ما ورد في صفة يوم القيامة بعقولهم، ثم بعد ذلك ردُّوا ذلك، ردُّوا بعض الأحاديث مما لا يتناسب مع الوصف العام الذي تخيّلوه.

ومن المعلوم أنَّ السنة إذا ثبتت ولو بالآحاد، فكيف إذا كانت بالتواتر اللفظي والمعنوي، إذا ثبتت فلا يجوز أن يُسَلَّطَ عليها العقل؛ لأنّ الأمر أمرٌ غيبي.

والمعتزلة كما هو معلوم في قاعدتهم يُؤَوِّلُونَ الغيبيات: فأنكروا الصراط وأوّلوا الميزان وأوّلوا الصحف وأوّلوا الحوض إلى غير ذلك، على أساس قاعدتهم من تسليط العقل على النّقل. فإذًا مخالفتهم مردودة.

وقال بعض أهل العلم: من أنكر الحوض بعد علمه بالتواتر فإنّه يكفر.

ولكن هذا فيه نظر من جهة تطبيقه لأنَّ التواتر قسمان: تواتر لفظي وتواتر معنوي، وقد يُسَلِّمُونَ بصحة النقل لكن لا يُسَلِّمُونَ بصحة الدّلالة.

أما الخوارج والرافضة: فمخالفتهم ليست في إثبات الحوض، ولكن في أنهم جعلوا أحاديث الحوض على غير ما هي عليه من جهة الصحابة رضوان الله عليهم.

فقالت الخوارج والرافضة: إنَّ الذين ارْتَدُّوا فلم يَرِدُوا على الحوض هم الصحابة، وأولئك جمع كبير من الصحابة.

فيؤمن الخوارج والرافضة بالحوض لكن يقولون هؤلاء الذين رُدُّوا هم الصحابة ويحتجون بأحاديث الحوض على تكفير الصحابة.

فيقول الرافضة مثلا: إنَّ هؤلاء هم أصحاب النبي ﷺ فإنه لم يُسْلِمْ أو لم يبق على الإيمان بعده ﷺ من الصحابة إلا نفر قليل والأكثرون كَفَرُوا والعياذ بالله. والرَّد على هذه الفِرْية من أوجه:

الرد الأول: الألفاظ المختلفة تدلُّ على تقليل العدد، فقال ؟:

("فيُذاد قوم عن حوضي" هذا في لفظ.... والثاني "فيذاد أناس عن حوضي".

وفي الثالث قال "فأقول يا ربي أصحابي".... وفي الرابع قال "فأقول يا ربي أصيحابي".

فدل ذلك بمقتضى اللغة على أنَّ قوله "يذاد أناس فأقول يا ربي أصيحابي" على أنَّ العدد قليل كما يقول القائل في اللغة (أتاني بنو تميم، إلا قوم منهم لم يأتوا)، يعني إلا قليل منهم.

فإذا أتت الجملة الكثيرة ثم أُستثني قوم دلَّ على قلة أولئك كيف وقد جاء الحديث فيه ذكر التقليل لقوله "أصيحابي أصيحابي".

الرد الثاني: أنَّ الذين نقلوا أحاديث الحوض عن النبي ﷺ هم الذين زعمت الرافضة أنهم كَفَرُوا، وهم جمعٌ كبيرٌ أكثر من خمسين صحابيًا يقول الرافضة إنَّ هؤلاء كفروا، وهم الذين نقلوا أحاديث الحوض.

فنقول: إن كنتم صَدَّقْتُم بأنَّ ما نقله هؤلاء من صفة الحوض وأحاديث الحوض وأنها صحيحة، فكيف تقبلون أحاديث من كفر عندكم؟

وإنّ كان النقل عندكم إنما هو للتكاثر، فكيف يَنْقُلُ هؤلاء الجلة من الصحابة والعدد الغفير أحاديث فيها تكفيرُهم؟

لا شك أنَّ فهم الجمع الغفير، بل عامة الصحابة، بل كل الصحابة لأحاديث

الحوض، وكونهم رَوَوهَا وتناقَلُوهَا جميعًا -جميع الصحابة وجميع التابعين- نَقَلُوهَا وتَنَاقَلُوهَا مع تَرَضِّيهِمْ عن الخلفاء الأربعة جميعًا وعن العشرة المبشرين بالجنة ما يَدُلُّ دَلَالَةً قاطعةً على أَنَّ هذا الفهم لتلك الأحاديث لم يكن معروفًا عند الصحابة ولا التابعين ولا تبع التابعين.

وكون فَهْمٍ في الأحاديث يكون غائبًا عن الصحابة جميعًا وعن التابعين وعن تَبَعِ التابعين ولا يظهر هذا الفهم إلا بعد مائتي سنة يدلّ على أنَّ هذا الفهم مردود؛ لأنه لم يفهمه أجيال من المسلمين.

وإذا كان كذلك فالقاعدة المتفق عليها (أنَّ الفهم إذا كان مُحْدَثًا وغاب عن القرون المفضلة ولم تَفْهَمْ هذا الفهم، فإنَّ معنى ذلك أنَّ هذا الفهم غير صحيح).

وهذا هو الذي يلاحظ في الواقع، فإنَّ الذين ارتدوا من أصحاب النبي ﷺ ممن لم يدخل الإيمان في قلوبهم نفر قليل ممن قاتلوا مع مسيلمة أو كَفَرُوا بعد إسلامهم من شذاذ الأعراب وطوائف ممن قال الله فيهم (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) [التوبة:١٠١]، وكلام الرافضة كلام طويل في الاستدلال بأحاديث الحوض على مسألة تكفير الصحابة ليس هذا محل بسطها وبيانها..اهـ. من شرح الطحاويه للشيخ صالح آل الشيخ (٢/ ١٢٥).

المسألة السابعة: هل صح أن صالح النبي عليه السلام؛ حوضه ضرع ناقته.

هذا القول غير صحيح، لأن مستنده حديث سويد بن عمر قال قال رسول الله ﷺ (حوضى أشرب منه يوم القيامة، ومن اتبعنى من الانبياء، ويبعث الله ناقة ثمود لصالح فيحلبها فيشربها، والذين آمنوا معه حتى يوافي بها الموقف، ولها

رغاء، وابنتي فاطمة على العضباء وأنا على البراق... الحديث)[١] وهو حديث ضعيف لا يثبت.

المسألة الثامنة: يعتقد كثير من الناس أن النبي ﷺ هو الذي يسقي الناس من ماء الحوض بيده الشريفة، لذا نسمع ونقرأ في دعائهم "واسقنا من يده الشريفة شربة لا نظمأ بعدها أبدًا". فهل هذا الدعاء صحيح.

في هذه المسألة قولان:

القول الأول: ذهب البعض إلى صحة هذا الدعاء مستدلين بحديث البخاري (٧٠٤٩) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ (أنا فرطكم على الحوض ليرفعن إلي رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني

---

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٦٤ - ٦٥)، وعنه ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٤١٧ - ٤١٨) من طريق عبد الكريم بن كيسان عن سويد بن عمير قال العقيلي: عبد الكريم بن كيسان مجهول بالنقل حديثه غير محفوظ. وقال ابن الجوزي: "هذا حديث موضوع لا أصل له". وقال الذهبي في الميزان (٢/ ٦٤٥): "عبد الكريم بن كيسان من المجاهيل وحديثه منكر، ثم ذكر الحديث وقال عقبه: "قلت هو موضوع، والله أعلم". وأقره الحافظ في اللسان، وقال العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٩/ ٣٥٥): على كل حال! هذا الاستثناء المذكور في هذه الفقرة فلأول مرة سمعت به، وما أظنه يصح في أحاديث الحوض المتواترة، وفي كتاب "السنة" لابن أبي عاصم طائفة كبيرة من الأحاديث الواردة في الحوض، وليس فيها مثل هذا الاستثناء، فهو أقل ما يقال فيه: أنه غريب، وينبغي التوقف عن البت أو الجزم به حتى يأتي من طريق تقوم الحجة به.اهـ. ثم خرج الشيخ الحديث في الضعيفة (٦٥٣٤): وقال موضوع... ثم قال: ومما تقدم يعلم تساهل الهيتي في "الفتاوى الحديثية" (١/ ١٨) بسكوته على الحديث، وكذا الشيخ (البربهاري) بإشارته إليه محتجا به في كتابه "شرح السنة" (٧٢/ ١٩)، وهو ممن لا يعتمد عليه في الحديث.اهـ. قلت إن ثبت أن لكل الأنبياء حوض يوم القيامة، فكذلك نبي الله صالح عليه السلام.

فأقول أي رب أصحابي يقول لا تدري ما أحدثوا بعدك).

قال القاضي عياض في مشارق الأنوار (٢/ ٣٢): قوله (أهويت لأناولهم) أي أسقيهم بيدي.اهـ.

وقال العيني في عمدة القاري (٢٤/ ١٧٦): قوله: فرطكم بفتح الفاء والراء وبالطاء المهملة أي: أنا أتقدمكم، والفرط من يتقدم الواردين فيهيىء لهم الإرشاء والدلاء وعدد الحياض ويسقي لهم، وهو على وزن فعل بمعنى فاعل كبيع بمعنى بائع. قوله: ليرفعن على صيغة المجهول المؤكد بالنون الثقيلة. قوله: إذا أهويت أي: ملت وامتددت. قوله: اختلجوا على صيغة المجهول أي: سلبوا من عندي يقال: خلجه واختلجه إذا جذبه وانتزعه قوله: ما أحدثوا أي: من الأمور التي لا يرى الله بها، وجميع أهل البدع والظلم والجور داخلون في معنى هذا الحديث.اهـ.

وأعترض أصحاب القول الثاني على هذا الحديث بقول بعضهم: هؤلاء طائفة من الناس وواضح أنهم كانوا على حال اقتضت أن يناولهم بيده ﷺ ليسقيهم! ويدل على ذلك أنهم فعلًا صُرفوا، وإلا فكبار الصحابة أولى بهذا الشرف مع العلم أن الإنكار هو على اعتقاد أنه يسقي جميع الواردين لحوضه واحتمال أن يسقي طائفة من الناس ليس بعيدًا.

القول الثاني: ذهب البعض أن هذا الدعاء خطأ لأسباب:

١- عدم ثبوت ذلك في جميع روايات أحاديث الحوض -هذا على حسب رأيهم-.

٢- ثبت في أحاديث الحوض أن النبي ﷺ أخبر أنه من ورد الحوض شرب منه، فعلَّق الشرب على وروده، وليس على سقيا النبي ﷺ له.

٣- أن النبي ﷺ قد أخبر أن عدد آنيته بعدد نجوم السماء، وهذا يشير إلى أن كل من يرده يشرب بنفسه.

قالوا: فلم يرد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا أصحابه رضي الله عنهم أنه يسقي أحدًا بيده الشريفة، بل ثبت أن من ورد الحوض فإنه يشرب منه كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث أبي ذر رضي الله عنه عند مسلم (٢٣٠٠) قال

(قلت يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها ألا في الليلة المظلمة المصحية آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل) فها أنت ترى في هذا الحديث وغيره مما ثبت، أنه صلى الله عليه وآله وصحبه لم يذكر أنه يسقي أحدًا بيده، بل قال) من شرب) أي: باشر الشرب بنفسه، ولو أن الشرب بيده صلى الله عليه وآله وسلم؛ لذَكره عليه الصلاة والسلام تمامًا؛ مثلما ذكر بعض المشاهد الحاصلة عند الحوض من: أن يذاد عن الحوض أناسًا من أمته وأنه فرط أمته على الحوض، وأنه يقول سحقًا للمُبدِّلين لشريعته وسنته، وأناسًا يضربهم الملائكة... وهكذا كما أنه عليه الصلاة والسلام أيضًا علَّق في الأحاديث الشرب على ورود المؤمنين الحوض، وليس على أن يسقيهم هو بيده ﷺ.

وقد سئل العلامة عبد المحسن العباد كما في شرح سنن ابن ماجه (آخر شريط رقم ٣١٥): نسمع من يدعو "اللهم اسقنا شربة هنيئة من يد رسولك" فهل السقيا تكون من يد الرسول ﷺ من الحوض؟

فأجاب: معلوم أنَّ السقيا من الكيزان أي: الأكواب التي هي بعدد نجوم

السماء، ولا يلزم أن يكون كل واحد يناوله الرسول ﷺ، ما فيه شيء يدل على هذا، لكن يدل على أن من جعله الله أهلا للشرب أنه يشرب بهذه الأكواب التي هي بعدد نجوم السماء في الكثرة، ولا يلزم أن يكون الإنسان ما يشرب إلا أن يناوله الرسول ﷺ.

السائل: وهل يعتبر من الاعتداء في الدعاء؟.

الشيخ: يعني تعبير غير صحيح "من حوض نبيك" يكفي.اهـ.

قلت اعلم رحمني الله وإياك أن الإخبار بسقاية الرسول صلى الله عايه وسلم للناس من حوضه بيده الشريفة؛ من الغيب، وأمور الغيب ينبغي الإيمان بها كما وردت، دون اختلاف فيها أو تأويل، أو زيادة أو نقصان بغير دليل، وأحوال الآخرة عمومًا تختلف عن أحوال الدنيا؛ هذه عقيدة أهل الحق، أهل السنة والجماعة، أهل الحديث والأثر، السلف الصالحين، والأئمة المهدين ومن تبعهم، وحديث ابن مسعود المتقدم عند البخاري يعطي قوة للقول الأول، ويجعل في المسألة سعة، فإذا كان هناك من يسقيه النبي ﷺ بيده، فلا بأس من الدعاء بهذا الأمر وإن لم يسقي الجميع، كما أن الدعاء بالفردوس الأعلى مستحب كما في الحديث (.. فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس..) مع أنه ليس لجميع الموحدين. والله أعلم.

(باب مباحث الإيمان بالميزان)

مسائل في الباب

المسألة الأولى: تعريف الميزان

تعريف الميزان في اللغة: قال الليث: الوزن ثقل شيء بشيء مثله، وقد أطلقت لفظة الوزن والميزان على عدة معان، فهو يطلق ويراد به بيان قدر الشيء

وقيمته، أو خسة الشيء وسقوطه.

وقد أطلقت لفظة الوزن والميزان على عدة معان، فهو يطلق ويراد به بيان قدر الشيء وقيمته، أوخسة الشيء وسقوطه، كما قال تعالى: فلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا [الكهف: ١٠٥].

قال أبو العباس: قال ابن الأعرابي: العرب تقول: (ما لفلان عندنا وزن أي قدر؛ لخسته، ويقال: وزن الشئ إذا قدره، وزن ثمر النخيل إذا خرصه).

وذكر الأزهري - بعدما تقدم من تلك المعاني اللغوية: أن الميزان يأتي في باب اللغة مرادًا به الميزان ذي الكفات، ويأتي مرادًا به العدل أيضًا، كما يأتي ويراد به الكتاب الذي فيه أعمال الخلق. ثم قال: وهذا كله في باب اللغة والاحتجاج سائغ،

وفي الاصطلاح: هو ميزان عظيم ينصب في ختام يوم الحساب لوزن أعمال العباد، لأن الوزن للجزاء، وهو بعد المحاسبة، فالمحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها. تهذيب اللغة (٤/ ٣٧٩).

المسألة الثانية: وجوب الإيمان بالميزان

المراد بالميزان عند أهل السنة ميزان حقيقي توزن به أعمال العباد، وخالف في ذلك المعتزلة، وبعض الطوائف.

وقد تنوعت أدلة إثبات الميزان في القرآن

قال تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ).

وقال تعالى: (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ).

وقال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ).

ودلالة تلك الآيات على إثبات الميزان أمر ظاهر، وقد وصف الله فيها الموازين بالثقل والخفة، ووصفها كذلك بأنها موازين عدل، وأن من ثقل ميزانه فقد أفلح وعاش عيشة راضية، ومن خف ميزانه فقد خسر وهوى إلى جهنم.

وأما أدلة إثبات الميزان من السنة فهي متواترة.

وقد تلقى المسلمون الإيمان به، ولم يخالف فيه أحد ممن يعتد بقوله في الإسلام.

قال سفيان بن عيينة كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٥): السنة عشرة: إثبات القدر، وتقديم أبي بكر وعمر، والحوض، والشفاعة، والميزان، والصراط.اهـ.

وقال الإمام أحمد كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٥٨): أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم إلى أن يقول: والإيمان بالميزان.

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٣٨): وحكى حنبل بن إسحاق في كتاب السنة عن أحمد بن حنبل أنه قال ردا على من أنكر الميزان ما معناه: قال الله تعالى : {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة} وذكر النبي ﷺ الميزان يوم القيامة فمن رد على النبي ﷺ فقد رد على الله ﷻ.اهـ.

وبوب البخاري (٩/ ٣٤) على إثبات الميزان وما يوزن فيه بقوله: باب: قوله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ [الأنبياء: ٤٧] وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن.اهـ.

وقال الطحاوي في عقيدته المشهورة: ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان.اهـ.

وقال ابن بطة في الإبانة (ص ٩٧): وقد اتفق أهل العلم بالأخبار والعلماء الزهاد العباد في جميع الأمصار: أن الإيمان بذلك - يعنى الميزان - واجب لازم.اهـ.

وقال السفاريني في لوامع الأنوار (٢/ ١٨٤).: والحاصل: أن الإيمان بالميزان ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.اهـ.

وقال البرديسي في تكملة شرح الصدور (ص١٥): اعلم أن الموازين حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.اهـ.

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (١/ ١/ ٢٦١ - ٢٦٣): وفي الحديث – أي حديث البطاقة- دليل على أن ميزان الأعمال له كفتان مشاهدتان وأن الأعمال وإن كانت أعراضا فإنها توزن، والله على كل شيء قدير، وذلك من عقائد أهل السنة، والأحاديث في ذلك متضافرة إن لم تكن متواترة.اهـ.

وقال العلامة الألباني أيضا في الصحيحة (١/ ١/ ٢٥٩ - ٢٦٠): أن الميزان يوم القيامة حق ثابت وله كفتان، وهو من عقائد أهل السنة خلافًا للمعتزلة وأتباعهم في العصر الحاضر ممن لا يعتقد ما ثبت من العقائد في الأحاديث الصحيحة، بزعم أنها أخبار آحاد لا تفيد اليقين....اهـ.

وأنكرت المعتزلة الميزان وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة والإجماع، وقد رد عليهم علماء أهل السنة كشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

وقد استدل ابن تيمية بالكتاب والسنة على أن الميزان غير العدل، وأنه ميزان حقيقي توزن به الأعمال، فقال: الميزان: هو ما يوزن به الأعمال، وهو غير العدل، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، مثل قوله تعالى:(مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)، (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ)، وقوله: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقِيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده).

وروى الترمذي وغيره حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به، فينشر له تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مدَّ البصر، فيوضع في كفة، ويؤتى ببطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله فتوضع في الكفة الأخرى، فتثقل الشهادة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول لا يا رب فيقول أفلك عذر؟ فيقول لا يا رب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فقال إنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء)[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣، رقم ٦٩٩٤)، والترمذي (٥/ ٢٤، رقم ٢٦٣٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧ رقم ٤٣٠٠)، والحاكم (١/ ٧١٠، رقم ١٩٣٧)، والبيهقى فى الشعب (١/ ٢٦٤، رقم ٢٨٣) والحديث حسنه الترمذي، وحسنه البغوي في شرح السنة (٧/ ٤٩٠)، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وحسنه الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٧٣)، =

وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين يتبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس، فهو ما به يتبين العدل.. وأما كيفية تلك الموازين فهي بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب[١]. مجموع فتاوى شيخ

=

وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٣٥)، وصححه العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (١/ ٤٣٦ - ٤٣٧)، وصححه العدوي في صحيح الأحاديث القدسية، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ٥٧١): إسناده قوي رجاله ثقات.

(١) قال العلامة الألباني في التعليق على الترغيب والترهيب (١/ ٤١٩): عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة؛ يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه، ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعني فيه قال فيشفعان». أي: يشفعهما الله فيه ويدخله الجنة، قال المناوي: "وهذا القول يحتمل أنه حقيقة بأن يجسد ثوابهما ويخلق الله فيه النطق {وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، ويحتمل أنه على ضرب من المجاز والتمثيل". قلت -أي الألباني-: والأول هو الصواب الذي ينبغي الجزم به هنا وفي أمثاله من الأحاديث التي فيها تجسيد الأعمال ونحوها، كمثل تجسيد الكنز شجاعًا أقرع، ونحوه كثير، وتأويل مثل هذه النصوص ليس من طريقة السلف، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بل هو طريقة المعتزلة ومن سلك سبيلهم من الخلف، وذلك مما ينافي أول شروط الإيمان {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}، فحذار أن تحذو حذوهم، فتضل وتشقى، والعياذ بالله تعالى.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في شرح العقيدة السفارينية (ص٤٧٠): الميزان ما يعرف به وزن الشيء، وقد اختلفت الأمة هل هذا الميزان حسي أم هو معنوي؟ فذهبت المعتزلة إلى أنه معنوي، وأن الميزان المذكور في القرآن والوزن المذكور في القرآن معناه إقامة العدل، وليس ثمة شيءٌ محسوس يوزن به، وعللوا ذلك بأن الأعمال أوصاف ومعانٍ، والأوصاف والمعاني لا توزن، وإنما الوزن يكون للأجسام، أما الأوصاف والمعاني فلا يمكن أن توزن.

فحكموا العقل، وقدموه على النقل وعلى الشرع، والنصوص تدل على أن هذا الميزان ميزان حسي، وحديث صاحب البطاقة واضح فيه، وكذلك حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما

=

الإسلام (٤/ ٣٠٢).

وإذ كنا نثبت صفات الميزان على ضوء ما جاء به الشرع فإنه لا ينبغي أن نتكلف فنثبت له أوصافًا تحتاج إلى إثبات من الشارع، أو نستند إلى أخبار لم تثبت، فإن الغلو في هذا مذموم.

وكمثال على هذا: ما يذهب إليه بعض الناس من أن كفتي الميزان من ذهب.

أو القول بأن كفة الحسنات من نور، وكفة السيئات من ظلام.

أو أن كفة الحسنات عن يمين العرش مقابل الجنة، وكفة السيئات عن يسار العرش مقابل النار.

أو ما يقال إن صاحب الميزان يوم القيامة هو جبريل عليه السلام.

فتلك المسائل كلها تحتاج لإثباتها - فضلًا عن اعتقادها - إلى نص صحيح.

=

خرج ذات يوم في ريح شديدة، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفئه ويميل منها؛ لأنه نحيف ليس كبير الجسم، فضحك منه بعض الصحابة، فقال ﷺ: (إن ساقيه في الميزان أثقل من أُحد)، وهذا يدل على أن الوزن وزن حسي حقيقي.

وأما قولهم: إن الأعمال أوصاف ومعان فلا توزن، فنقول ردًا على ذلك: إن الله على كل شيء قدير، قد يجعل الله المعاني أجسامًا، فها هو الموت معنى من المعاني ويؤتى به يوم القيامة على صورة كبش، ويوقف بين الجنة والنار ويقال لأهل النار وأهل الجنة: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، فيذبح بين الجنة والنار، ويقال لأهل الجنة: خلود فلا موت، ولأهل النار: خلود فلا موت.

فالله عز وجل قادر على أن يجعل الأوصاف والمعاني أجسامًا، ولا يجوز أن نرد الأدلة بمجرد ما تتحير فيه العقول، بل إذا تحيرت العقول فأعلم أن القول فوق العقول، ولا يمكن أن تأتي النصوص بما يحيله العقل أبدا، إذا فالصحيح أن الميزان حسي لا معنوي.

المسألة الثالثة: ما الذي يوزن في الميزان

اختلف أهل العلم في الذي يوزن في ذلك اليوم على أقوال:

الأول: أن الذي يوزن في ذلك اليوم الأعمال نفسها، وأنها تجسم فتوضع في الميزان: وقد جاءت نصوص كثيرة في ذلك، فسبحان الله وبحمده وسبحان الله العظيم ثقيلتان في الميزان، كما ورد ذلك عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) أخرجه البخاري مسلم.

وعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السماوات والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها) أخرجه مسلم.

وهذا القول رجحه ابن حجر ونصره، فقال: والصحيح أن الأعمال هي التي توزن، وقد أخرج الترمذي عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (ما شيء أَثقل في ميزان المؤمِن يوم القيامة من خلقٍ حسن وإن الله ليبغض الفاحش البذيء) وهو حديث صحيح.

وقد جاءت بعض النصوص الدالة على أن الأعمال تأتي يوم القيامة بصور متعددة، كما ورد ذلك في السنة المطهرة.

فعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرؤوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان

من طير صواف تحاجان عن أصحابهما اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة) أخرجه مسلم.

وعن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحِب فيقول أنا الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك) رواه ابن ماجة، وضعفه العلامة الألباني في سنن ابن ماجة (٢/ ١٢٤٢ رقم ٣٧٨١)، وصححه في السلسلة الصحيحة بلفظ (يقول لصحابه هل تعرفني؟ أنا الذي كنت أسهر ليلك وأظميء هواجرك).

ومن ذلك ما جاء في حديث البراء في قصة سؤال القبر وفيه (أن المؤمن يمثل له عمله في صورة رجل حسن الوجه حسن الثياب طيِّب الريح فيقول أَبشر بالذِي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له من أَنت فوجهك الوجه يجيء بالخير فيقول أَنا عملك الصالح فيقول رب أَقم الساعة حتى أَرجع إِلَى أَهلي ومالي، وكذلك الكافر؛ فإنه يمثل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أَبشر بالذِي يسوءك هذا يومك الَّذِي كنت توعد فيَقول من أَنت فوجهك الوجه يجيء بالشر فيقول أَنا عملك الخبيث فيَقول رب لَا تقم الساعَة)[1].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٢١٩)، والطيالسى (ص ١٠٢، رقم ٧٥٣)، وعبد الرزاق (٦٧٣٧)، وأحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧)، وأبو داود (٤/ ٢٣٩، رقم ٤٧٥٣)، والرويانى (١/ ٢٦٣، رقم ٣٩٢)، وهناد (١/ ٢٠٥، رقم ٣٣٩)، وابن خزيمة فى التوحيد (ص ١١٩)، وابن منده (٢/ ٩٦٢، رقم ١٠٦٤)، والطبري في تهذيب الآثار (١/ رقم ٢٤٨٠، ٢٤٨٥)، والآجري في الشريعة (ص٣٦٧)، والرافعي في التدوين (١/ ٦٢)، والحاكم (١/ ٩٣ ٩٨، رقم ١٠٧، ١٠٩ ١١٧)، والبيهقى فى الشعب (١/ ٣٥٥، رقم ٣٩٥)، والحديث قال عنه الطبري في مسند عمر (٢/ ٤٩٤): إسناده صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي، وقال البيهقي: حديث كبير صحيح =

الثاني: أن الذي يوزن هو العامل نفسه: فقد جاءت النصوص دالة على أن العباد يوزنون في يوم القيامة فيثقلون في الميزان أو يخفون بمقدار إيمانهم لا بضخامة أجسامهم، فقد جاء في بعض النصوص أن الرجل السمين لا يزن عند الله جناح بعوضة، فعن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: (إِنهُ لياتي الرجل العظيم السمِين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرءُوا [فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا]) رواه البخاري.

وقد يكون الرجل النحيف أثقل من الجبال، فعن ابن مسعود رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أَنهُ كان يجتني سواكا من الأَراك وكان دقِيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: (مم تضحكون، قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال والذي نفسي بيده لهما أَثقل في الميزان من أحد) وهو حديث صحيح تقدم تخريجه.

وما أحسن ما قال الشاعر:

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... في أثوابه أسد هصور

ويعجبك الطرير فتبتليه ... يخلف ظنك الرجل الطرير

=

الإسناد، وقال ابن منده في الإيمان (٣٩٨): هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء وهو ثابت على رسم الجماعة، وصححه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٩٠)، وصححه الإمام ابن القيم ونقل تصحيح أبي نعيم والحاكم له في تهذيب السنن (٧/ ١٤٠)، وقال الهيثمي (٣/ ٥٠): رجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في شرح الصدور (٩١): له طرق صحيحة، وصححه العلامة الألباني في المشكاة (١٦٣٠)، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند، وحسنه العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٢/ ٢٧٢ - ٢٧٤)، وصححه العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ١٩٨).

الثالث: أن الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال: ويدل على ذلك حديث البطاقة المتقدم، حينما تزن شهادة أن لا إله إلا الله بجميع السجلات والذنوب المسجلة على العبد.

قال شارح الطحاوية: فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان، والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات.

قال العلامة العثيمين في شرح العقيدة السفارينية (ص٤٧١): واختلف العلماء في الذي يوزن هل هو العمل أو صاحب العمل أو كتاب العمل؟ وفي هذا للعلماء ثلاثة أقوال:

قال بعض العلماء: إن الذي يوزن هو العمل، واستدل هؤلاء بقوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) (الزلزلة: ٧) (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة: ٨)، وبقوله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) (الأنبياء: ٤٧)، وبقول النبي ﷺ: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان خفيفتان على اللسان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم). فقال: (ثقيلتان في الميزان) وهذه النصوص واضحة في أن الذي يوزن العمل، ويبقى رد الإشكال الذي أورده المعتزلة وردوا به النصوص؛ وهو أن الأعمال أوصاف ومعان. فكيف توزن؟ ونقول: إن الله قادر على أن يجعلها أجسامًا فتوزن.

القول الثاني: أن الذي يوزن صحائف العمل، وأن هذه الصحائف تثقل وتخف بحسب ما فيها من الأعمال، واستدلوا لهذا بحديث صاحب البطاقة الذي يُمد له سجل من المعاصي، ثم يؤتى ببطاقة صغيرة فيها كلمة الإخلاص، فيقول هذا الرجل: وما تصنع هذه البطاقة في هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا

تظلم، ثم توضع البطاقة في كفة، والسجلات في كفة، فترجع بهن البطاقة، وهذا يدل على أن الذي يوزن صحائف العمل.

القول الثالث: أن الذي يوزن هو صاحب العمل، واستدل القائلون بذلك بقوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) (الكهف: ١٠٥) قال: فلا نقيم لهم، ولم يقل لأعمالهم، ولا لصحائف أعمالهم، واستدلوا أيضا بحديث ابن مسعود الذي ذكرناه آنفا.

فإذا قال قائل: لا شك أن الاستدلال بحديث ابن مسعود وحديث صاحب البطاقة لا يقاوم الأدلة الدالة من القرآن والسنة على أن الذي يوزن هو العمل، ولهذا صرح شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية (ص٩٣) فقال: تنصب الموازين فتوزن بها أعمال العباد، وهذا هو الحق، لكن حديث البطاقة قد يقال: إن هذا خاص به وبأمثاله من أجل أن يتبين له فضل الله ﷻ عليه، وقد يقال: إنه لما وزنت الصحيفة وثقلت بحسب العمل، فإن الوزن حقيقة يكون للعمل.

وأما حديث ابن مسعود والآية فلا تدل على ذلك؛ لأن معنى لا نقيم لهم وزنًا يعني لا نقيم لهم قيمة، كما نقول: فلان ليس له عندي وزن؛ أي لا قيمة له ولا اعتبار، وأما حديث ابن مسعود رضي الله عنه فأراد النبي ﷺ أن يبين أن خفة الجسم لا تدل على قلة العمل، أو على خفته، وليس بذاك الصريح. وعلى ذلك فالمعتمد أن الذي توزن هي الأعمال نفسها.

المسألة الرابعة: ذكر بعض الأعمال التي تثقل في الميزان

إن الله تبارك وتعالى من رحمته بعباده، وخاصة بأمة محمد ﷺ أَنْ فضَّلها بأعمال كثيرة تثقل بها موازينهم، ويحصل لهم بها الثواب العظيم، ويوم القيامة تأتي هذه الأعمال فتوضع في الميزان فيكون لها وزن وثقل ترجح به كفة حسنات

العبد بين يدي ربه تعالى ومن الأعمال التي وردت بها النصوص:

أولًا: قول: لا إله إلا الله: كما تقدم في حديث البطاقة.

ثانيًا: حسن الخلق: فأثقل ما يوضع في ميزان العبد المسلم يوم القيامة حسن خلقه، كما تقدم في حديث أبي الدرداء.

ثالثًا: قول: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم: كما تقدم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رابعًا: قول: الحمد لله: كما تقدم في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

خامسًا: من احتبس فرسًا في سبيل الله: فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة) رواه البخاري.

المسألة الخامسة: هل هو ميزان واحد توزن به أعمال العباد أم موازين متعددة؟

اختلف أهل العلم هل هو ميزان واحد توزن به أعمال العباد أم أن الموازين متعددة ولكل شخص ميزانه الخاص، فمن قال بالتعدد استدلوا بأن الميزان قد ورد في بعض الآيات بصيغة الجمع، مثل قوله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) الأنبياء / ٤٧. ومن قال بأنه واحد استدلوا بمثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي...)[1]. وحملوا الآية التي ورد فيها الميزان بصيغة الجمع على تعدد الموزونات من الأعمال والأقوال والصحف والأشخاص. فقالوا: إنه جمع

(١) الصحيحة (٩٤١).

الأشياء التي توزن فيه.

قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٣٧): الموازين جمع ميزان وأصله موزان فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها، واختلف في ذكره هنا بلفظ الجمع هل المراد أن لكل شخص ميزانا أو لكل عمل ميزان فيكون الجمع حقيقة أو ليس هناك إلا ميزان واحد والجمع باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص، ويدل على تعدد الأعمال قوله تعالى: {ومن خفت موازينه} ويحتمل أن يكون الجمع للتفخيم، كما في قوله تعالى: {كذبت قوم نوح المرسلين} مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحد، والذي يترجح أنه ميزان واحد ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله لأن أحوال القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا.اهـ. وسئل العلامة اللألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٩/ ٣٦٤): قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} (الأنبياء:٤٧) فهل الميزان يوم القيامة واحد أم عدة موازين؟

فأجاب: لا شك أن لفظ القرآن لا يجوز تغييره وتبديله، فما دام أن الله ﷻ أطلق لفظة الموازين فهي موازين، ولا مانع أن تكون هذه الموازين كما نعلم من أمور الغيب مختلفة، وليس ينبغي أن نتصورها ميزانًا معينًا، كيف والموازين في الدنيا الآن قد تعددت وتنوعت، فمن باب أولى أن يكون يوم القيامة أن تكون هناك موازين متعددة، فما دام أن الله ﷻ جمع الموازين في مثل هذا اللفظ القرآني فاعتقد أنه من التعطيل بمكان أن يفسر الموازين: بالميزان، وهذا ليس من طريقة السلف..اهـ.

وقال العلامة العثيمين في شرح العقيدة السفارينية (ص٤٧٣): بقي البحث في: هل الميزان واحد توزن به الأعمال كلها، أو أن لكل أمة ميزانًا؛ حيث إن الأمم تتفاضل في الثواب، أو أن لكل شخص ميزانًا؟

في هذا أقوال للعلماء؛ فمنهم من قال: لكل شخص ميزان، ومنهم من قال: لكل أمة ميزان، ومنهم من قال: الميزان واحد.

ولنستعرض الآيات الدالة على الميزان وما تدل عليه، قال تعالى (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الأعراف: ٨)، وهذا الدليل لا يدل على تعدد، ولا على إفراد، لأنه قال: الوزن.

ولكن هناك أدلة تذكر الميزان مثل قوله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) (الأنبياء: الآية٤٧)، والموازين هنا جمع.

وفي حديث: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان)، والميزان هنا مفرد، فمن قالوا بما يقتضيه الجمع قالوا بأن المراد بالميزان في قوله: (ثقيلتان في الميزا) الجنس، ومن قالوا بأن الميزان واحد، قالوا: إن الجمع في الآية باعتبار الموزون.

والذي يظهر لي - والله أعلم - إن الموازين متعددة بحسب الأمم؛ لأن الأمم تتفاضل في الأعمال، وإذا كانت تتفاضل في الأعمال لزم أن تكون موازين أعمالها مختلفة.

ولهذا كانت هذه الأمة - ولله الحمد - توفي سبعين أمة، وهي أكرمها عند الله ﷻ، وهي اقلها زمنا وأكثرها أجرا، فزمنها من العصر إلى الغروب، ويعطون أجرهم مرتين، إذًا لا يمكن أن يكون ميزان هؤلاء كميزان الآخرين.

ثم إن رجحان الحسنات معناه أن تنزل الكفة، لا أن ترتفع الكفة، فهي لما تثقل تنزل، وفي حديث البطاقة طاشت السجلات أي ارتفعت، وعلى هذا يكون الوزن من جهة نزول الكفة إذا ثقلت كالوزن في الدنيا.

وأما من قال: إن رجحان الحسنات يكون إذا ارتفعت، وأن هذا هو الثقل،

فهذا غير صحيح، وهو خلاف المحسوس، نسأل الله أن يثقل موازيننا يوم القيامة.

المسألة السادسة

هل يمكن أن يعذب في قبره من تكون حسناته أكثر من سيئاته في الميزان؟

ينبغي أن يعلم أن كثرة الحسنات على السيئات ليست بمنجية صاحبها من عذاب القبر بذاتها؛ لأن الوعيد المترتب على العذاب في البرزخ، ليس هو الوعيد المترتب على العذاب في نار جهنم، وقد يأتي المسلم بسبب واحد من أسباب العذاب في قبره، فيعذب عليه، وله أمثال الجبال من الحسنات.

وفي الحديث (**استنزهوا من البول، فإن عامة عذاب القبر منه**)[1].

والميزان الذي توزن به أعمال الناس فيشقى بعده طوائف خفت موازينهم، ويسعد آخرون ثقلت موزاينهم إنما يكون في آخر المطاف، بعد أن يقطع الناس أشواطا في مراحل الدار الآخرة.

قال أبو عبد الله القرطبي في التذكرة (ص ٢٧٢): والذي تدل عليه الآي، والأخبار أن من ثقل ميزانه فقد نجا وسلم، وبالجنة أيقن، وعلم أنه لا يدخل النار بعد ذلك، والله أعلم.اهـ.

والمسلم الذي نفترض كثرة حسناته لو وضعت في الميزان بعد موته مباشرة لا ينجو من عذاب القبر، إن شاء الله تعذيبه، لأنه من كثرت حسناته على سيئاته وأجاب الملكين في القبر عن أسئلتهم لا يستلزم بالضرورة أنه ينجو من عذاب القبر إذا جاء بما يستحق عليه العذاب من سيئاته تلك، وشاء الله أن يعذبه عليها

---

(١) روي من حديث أنس بن مالك، وأبى هريرة، وابن عباس رضي الله عنهم، والحديث صححه العلامة الألباني في الإرواء (١/ ٣١٠، رقم ٢٨٠).

في قبره، ومن كثرت حسناته على سيئاته ليس بالضرورة إذا رأى مقعده من الجنة في قبره، أنه لن يعذب على ما شاء الله من ذنوبه، وللعلماء في هذا قولان:

الأول: أن من ارتكب سيئات وشاء الله تعذيبه في القبر، وهو في الآخرة من أهل الجنة أنه يرى مقعده من الجنة باعتبار مآله.

والثاني: أنه ير مقعده من النار باعتبار حاله.

وعليه فإن زيادة حسنات العبد على سيئاته، ليس بمانع من أن يعذب في قبره على بعض ذنوبه التي ورد الوعيد لفاعلها بالعذاب في قبره مثل عقوبة المرابي وأنه يسبح في نهر دم، وعقوبة الزناة والزانيات، والعقوبة على النميمة، والغلول من الغنائم، والكذب، وعدم الاستبراء من البول، وغير ذلك مما جاءت النصوص واضحة في التنصيص على معاص بعينها.

ومن حكمة الله تعالى أنه لم يجعل الميزان أول موت العبد، أنه يخفف حمل السيئات على العاصي بما يصيبه من عذاب القبر؛ تخفيفا عنه من عذاب جهنم، ولا شك أن ما يصيب العاصي من عذاب القبر أهون عليه مما يصيبه من نار جهنم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى " (٢٤/ ٣٧٥): ما يحصل للمؤمن في الدنيا والبرزخ والقيامة من الآلام التي هي عذاب: فإن ذلك يكفر الله به خطاياه، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله به من خطاياه).اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ أيضا: السبب الثامن: ما يحصل في القبر، من الفتنة، والضغطة، والروعة، فإن هذا مما يكفر به الخطايا. مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٠).

وأيضا ليس كل من جاء بحسنات تبقى معه حتى يدخل بها الجنة، ولا من جاء بسيئات تبقى معه حتى يدخل بسببها النار، فثمة ما يسمى "المقاصة"، وهو أخذ أصحاب الحقوق من حسنات من ظلمهم، أو إلقاء سيئاتهم عليه، كما في حديث "المفلس" الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، وهذا إنما يكون قبل الميزان.

قال أبو عبد الله القرطبي في التذكرة (ص ٢٦٩، ٢٧٠): وأما المخلطون فحسناتهم توضع في الكفة النيرة، وسيئاتهم في الكفة المظلمة، فيكون لكبائرهم ثقل؛ فإن كانت الحسنات أثقل، ولو بصؤابة – وهي بيضة القمل -: دخل الجنة، وإن كانت السيئات أثقل، ولو بصؤابة دخل النار، إلا أن يغفر الله، وإن تساويا كان من أصحاب الأعراف، هذا إن كانت الكبائر فيما بينه وبين الله، وأما إن كانت عليه تبعات، وكانت له حسنات كثيرة فإنه ينقص من ثواب حسناته بقدر جزاء السيئات؛ لكثرة ما عليه من التبعات، فيحمل عليه من أوزار من ظلمه، ثم يعذب على الجميع، هذا ما تقتضيه الأخبار.اهـ.

ثم أنه لم تنقطع الحسنات، ولا السيئات بالموت، بل ثمة حسنات جارية، وسيئات جارية، فالأول كمن تصدق بصدقة جارية، أو علم علما نافعا، أو دل غيره على عمل صالح، أو كان له ذرية يعملون بعد موته بطاعات، وكل ذلك مما يجعل للميت مجالا لزيادة الحسنات، وأما الثاني: فهو لمن دل غيره على عمل فاسد، أو ابتدع بدعة، وغير ذلك مما تجري سيئات أعمالهم على فاعلها، وعلى الميت، الذي كان سببا في فعل تلك السيئات والبدع، وبه يعلم أنه ليس بالموت يقف عداد الحسنات، والسيئات، ولذا نرى عظيم الحكمة في عدم اعتبار الميزان أول موت المسلم، بل لا يكون ذلك إلا في آخر المطاف، وبعدها

يكون دخول الجنة، أو النار، وعندها يمكن للمسلم أن يفهم معنى قوله تعالى (والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) (الأعراف:٨)، وقوله (فأما من ثقلت موازينه. فهو في عيشة راضية) (القارعة:٦،٧).

المسألة السابعة: أقسام الناس عند الميزان

إذا وزنت الأعمال، كان الناس على ثلاثة أقسام

الأول: من رجحت حسناته على سيئاته، وهذا سعيد مفلح، كما قال تعالى (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون) المؤمنون/ ١٠٢، ١٠٣، وقال: (فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية) القارعة/ ٦-١١.

قال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (ص٣٨٠): الطبقة الحادية عشرة: طبقة أقوام خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا: فعملوا حسنات وكبائر، ولقوا الله مصرّين عليها غير تائبين منها، لكن حسناتهم أغلب من سيئاتهم، فإذا وزنت بها رجحت كفة الحسنات، فهؤلاءِ أيضًا ناجون فائزون قال تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَق فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُون} [الأعراف: ٨- ٩].. وهذه الموازنة تكون بعد القصاص، واستيفاءِ المظلومين حقوقهم من حسناته، فإذا بقى شيء منها وزن هو وسيئاته.

ولكن هنا مسألة، وهى: إذا وزنت السيئات بالحسنات فرجحت الحسنات، هل يلغى المرجوح جملة ويصير الأثر للراجح فيثاب على حسناته كلها، أو يسقط من الحسنات ما قابلها من السيئات المرجوحة ويبقى التأْثير للرجحان

فيثاب عليه وحده؟ فيه قولان: هذا عند من يقول بالموازنة والحكمة، وأما من ينفى ذلك فلا عبرة عنده بهذا، وإنما هو موكول إلى محض المشيئة، وعلى القول الأول فيذهب أثر السيئات جملة بالحسنات الراجحة، وعلى القول الثانى يكون تأْثيرها فى نقصان ثوابه لا فى حصول العقاب له، ويترجح هذا القول الثانى بأن السيئات لو لم تحبط ما قبلها من الحسنات، وكان العمل والتأْثير للحسنات كلها لم يكن فرق بين وجودها وعدمها، ولكان لا فرق بين المحسن الذى محض عمله حسنات، وبين من خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

وقد يجاب عن هذا بأنها أثرت فى نقصان ثوابه ولا بد، فإنه لو اشتغل فى زمن إيقاعها بالحسنات لكان أرفع لدرجته وأعظم لثوابه، وإذا كان كذلك فقد ترجح القول الأول بأن الحسنات لما غلبت السيئات ضعف تأْثير المغلوب المرجوح وصار الحكم للغالب دونه لاستهلاكه فى جنبه كما يستهلك يسير النجاسة فى الماءِ الكثير والماءُ إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث"، والله أعلم.اهـ.

الثاني: من رجحت سيئاته على حسناته، وهذا إن كان مسلما، استحق دخول النار.

ومن استحق دخول النار من عصاة الموحدين، فهو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وان شاء غفر له، فإذا شاء الله تعذيبه، فإذا هذب ونقي أخرج منها ودخل الجنة، وإن كان كافرا بقي فيها خالدا مخلدا.

(تنبيه) قال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (ص٣٨٤): الطبقة الثالثة عشرة: طبقة أهل المحنة والبلية، نعوذ بالله. وإن كانت آخرتهم إلى عفو وخير، وهم قوم مسلمون خفت موازينهم ورجحت سيئاتهم على حسناتهم فغلبتها السيئات، فهذه الطبقة التى اختلفت فيها أَقاويل الناس وكثر فيها خوضهم

وتشعبت مذاهبهم وتشتَتَتْ آرآوهم، فطائفة كفرتهم، وأوجبت لهم الخلود فى النار، وهذا مذهب أكثر الخوارج، بل يكفرون من هو أحسن حالًا منهم وهو مرتكب الكبيرة الذى لم يتب منها ولو استغرقتها حسناته. وطائفة أوجبت لهم الخلود فى النار ولم تطلق عليهم اسم الكفر، بل سموهم منافقين، وهذا المذهب ينسب إلى البكرية أتباع بكر ابن أُخت عبد الواحد، وطائفة نزلتهم منزلة بين منزلة الكفار والمؤمنين، فجعلوا أقسام الخلق ثلاثة: مؤمنين، وكفارًا، وقسمًا لا مؤمنين ولا كفارًا بل بينهما، وأوجبت لهم الخلود فى النار، وهذا هو الرأى الذى عليه أهل الاعتزال، وهو أحد أُصولهم الخمسة التى هى قواعد مذهبهم وهى: التوحيد الذى مضمونه جحد صفات الخالق ونعوت كماله والتعطيل المحض، والعدل الذى مضمونه نفى عموم قدرة الله وأنه لا قدرة له على أفعال الحيوانات بل هى خارجة عن ملكه وخلقه وقدرته، وأنه يريد ما لا يكون ويكون ما لا يريد، فإنه لا يقدر أن يهدى ضالًا ولا أن يضل مهتديًا ولا يجعل المصلى مصليًا ولا الذاكر ذاكرًا ولا الطائف طائفًا، تعالى الله عن إفكهم وشركهم علوًا كبيرًا. والمنزلة بين المنزلتين التى مضمونها إيجاب الخلود فى النار للمسلم المبالغ فى طاعة ربه الذى أفنى عمره فى عبادته وطاعته ومات مصرًا على كبيرة واحدة، تعالى الله عما نسبوه إليه من ذلك وجل عن هذا الافتراءِ. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى مضمونه الخروج على أئمة الجور بالسيف، وخلع اليد من طاعتهم، ومفارقة جماعة المسلمين. والأصل، الخامس: النبوة مع أنهم لم يوفوها حقها، بل هضموها غاية الهضم من وجوه كثيرة ليس هذا موضعها، والمقصود أن مذهبهم تخليد هذه الطبقة فى النار، وإن لم يسموهم كفارًا، فوافقوا الخوارج فى الحكم وخالفوهم فى الاسم، ولهذا

تسمى هذه المسألة من مسائل الأسماء والأحكام. فهذه ثلاث فرق أوجبت لهذه الطائفة الخلود فى النار وقالت المرجئة على اختلاف آرائهم: لا يدرى ما يفعل الله بهم فيجوز أن يعذبهم كلهم، وأن يعفو عنهم كلهم، وأن يعذب بعضهم ويعفو عن بعضهم، غير أنهم لا يخلد أحد منهم فى النار فجوزوا أن يلحق بعضهم بمن ترجحت حسناته على سيئاته، بل جوزوا أن يرفع عليه فى الدرجة. فهم موكلون عندهم إلى محض المشيئة لا يدرى ما يفعل الله بهم، بل يرجأُ أمرهم إلى الله وحكمه، وهذا قول كثير من المتكلمين والفقهاء والصوفية وغيرهم، فهذه الأقوال هى التى يعرفها أكثر الناس، ولا يحكى أهل الكلام غيرها، وقول الصحابة والتابعين وأئمة الحديث لا يعرفونه ولا يحكونه وهو الذى ذكرناه عن ابن عباس وحذيفة وابن مسعود رضى الله عنهم أن من ترجحت سيئاته بواحدة دخل النار، وهؤلاء هم القسم الذين جاءَت فيهم الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ، فإنهم يدخلون النار فيكونون فيها على مقدار أعمالهم: فمنهم من تأْخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ويلبثون فيها على قدر أعمالهم، ثم يخرجون منها، فينبتون على أنهار الجنة: فيفيض عليهم أهل الجنة من الماءِ حتى تنبت أجسادهم، ثم يدخلون الجنة. وهم الطبقة الذين يخرجون من النار بشفاعة الشافعين، وهم الذين يأْمر الله سيد الشفعاءِ مرارًا أن يخرجهم من النار بما معهم من الإيمان، وإخبار النبى ﷺ أنهم يكونون فيها على قدر أعمالهم مع قوله تعالى: {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣] [النحل: ٣٢، الزخرف ٧٢، الطور: ١٩ السجدة: ١٤، المرسلات: ٤٣]، و {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [النمل: ٩٠]، وقوله تعالى: {ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

لا يُظْلَمُونَ} [آل عمران: ١٧١] وأضعاف ذلك من نصوص القرآن والسنة يدل على ما قاله أفضل الأُمة وأعلمها بالله وكتابه وأحكام الدارين أصحاب محمد ﷺ، والعقل والفطرة تشهد له، وهو مقتضى حكمة العزيز الحكيم الذى بهرت حكمته العقول، فليس الأمر سببًا خارجًا عن الضبط والحكمة بل مربوط بالأساليب، والحكم مرتب عليها أكمل ترتيب، جار على نظام اقتضاه السبب واستدعته الحكمة. وأى الطريق سلكها سالك غير هذه الطريق من الطرق المتقدمة أفضت به إلى ترك بعض النصوص ولا بد، فإنها تتناقض فى حقه لما أصله من الأصل الذى لا يلتئم عليه جمع النصوص، فلا بد أن يرد بعضها ببعض أو يستشكلها أو يتطلب لها مستنكر التأْويلات ووجوه التحريفات. كما رد الخوارج والمعتزلة النصوص المتواترة الدالة على خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة فكذبوا بها وقالوا: لا سبيل لمن دخل النار إلى الخروج منها بشفاعة ولا غيرها.

ولما بهرتهم نصوص الشفاعة وصاح بهم أهل السنة وأئمة الإسلام من كل قطر وجانب ورموهم بسهام الرد عليهم أحالوا بالشفاعة على زيادة الثواب فقط لا على الخروج من النار، فردوا السنة المتواترة قطعًا وصاروا مضغة فى أفواه الأُمة وعارًا فى فرقها، فإن أمر الشفاعة أظهر عند الأُمة من أن يقبل شكًا أو نزاعًا، وهو عندهم مثل الصراط والحساب ونحوهما مما يعلم إخبار الرسول ﷺ به قطعًا، ولكن إنما أتى القوم لأنهم فى غاية البعد عما جاءَ به الرسول ﷺ، أجانب عنه، ليسوا من الورثة، وأما الخوارج فكذبوا الصحابة صريحًا، وأما المرجئة فإنهم يجوزون أن لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد، وهذا بخلاف المعلوم المتواتر من نصوص السنة بدخول بعض أهل الكبائر النار ثم خروجهم منها

بالشفاعة، ومع هذا التواتر الذى لا يمكن دفعه لا يجوز أن يقال بجواز أن لا يدخل أحد منهم النار، بل لا بد من دخول بعضهم، وذلك البعض هو الذى خفت موازينه ورجحت سيئاته كما قال الصحابة رضى الله عنهم وحكى أبو محمد بن حزم هذا إجماعًا من أهل السنة، ولولا أن المقصود ذكر الطبقات لذكرنا ما لهذه المذاهب وما عليها، وبينا تناقض أهلها، وما وافقوا فيه الحق وما خالفوه بالعلم والعدل لا بالجهل والظلم، فإن كل طائفة منها معها حق وباطل، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل. ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسر عليه فيهما الأسباب. والله المستعان.اهـ. كلام ابن القيم.

ويستغرب من كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أنه جعل هذا التقسيم الذي ذكره قول أهل السنة وأن الصحابة والتابعين لا يعرفون غيره، وجعل خلافه قول المرجئة، مع أن هذا الجزم بهذا التفصيل لم يعرف في كلام أئمة السنة، ومما يبين أن ما ذكره ابن القيم ليس من الأصول المجمع عليها عند الصحابة كما يقول رَحِمَهُ اللَّهُ أن شيخه شيخ الإسلام عند ما ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ هذا القول الذي انتصر له ابن حزم وابن القيم قال: "هذا قول طائفة من المنتسبين إلى السنة من أصحابنا وغيرهم"، ولم يقل أنه من الأصول المجمع عليها عند الصحابة كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٦/ ١٨): فصل: في قوله تعالى {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم} {وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له}. وقد ذكرنا في غير موضع أن هذه الآية في حق التائبين وأما آيتا النساء قوله: {إن الله لا يغفر أن

يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} فلا يجوز أن تكون في حق التائبين كما يقوله من يقوله من المعتزلة فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضا بنصوص القرآن واتفاق المسلمين. وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد وتلك الآية فيها تعميم وإطلاق هذه خص فيها الشرك بأنه لا يغفره وما عداه لم يجزم بمغفرته؛ بل علقه بالمشيئة فقال: {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} وقد ذكرنا في غير موضع أن هذه كما ترد على الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فهي ترد أيضا على المرجئة الواقفية الذين يقولون: يجوز أن يعذب كل فاسق فلا يغفر لأحد ويجوز أن يغفر للجميع فإنه قد قال: {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} فأثبت أن ما دون ذلك هو مغفور لكن لمن يشاء فلو كان لا يغفره لأحد بطل قوله: {ويغفر ما دون ذلك} ولو كان يغفره لكل أحد بطل قوله: {لمن يشاء} فلما أثبت أنه يغفر ما دون ذلك وأن المغفرة هي لمن يشاء دل ذلك على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك؛ لكنها لبعض الناس. وحينئذ فمن غفر له لم يعذب ومن لم يغفر له عذب وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة وهو القطع بأن بعض عصاة الأمة يدخل النار وبعضهم يغفر له: لكن هل ذلك على وجه الموازنة والحكمة أو لا اعتبار بالموازنة؟ فيه قولان للمنتسبين إلى السنة من أصحابنا وغيرهم بناء على أصل الأفعال الإلهية هل يعتبر فيها الحكمة والعدل وأيضا فمسألة الجزاء فيها نصوص كثيرة دلت على الموازنة كما قد بسط في غير هذا الموضع.اهـ.

وسئل كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٠٨): عن رجل مسلم يعمل عملا يستوجب أن يبنى له قصر في الجنة ويغرس له غراس باسمه. ثم يعمل ذنوبا يستوجب بها النار فإذا دخل النار كيف يكون اسمه أنه في الجنة وهو في النار.

فأجاب: إن تاب عن ذنوبه توبة نصوحا، فإن الله يغفر له ولا يحرمه ما كان وعده؛ بل يعطيه ذلك. وإن لم يتب وزنت حسناته وسيئاته فإن رجحت حسناته على سيئاته كان من أهل الثواب وإن رجحت سيئاته على حسناته كان من أهل العذاب، وما أعد له من الثواب يحبط حينئذ بالسيئات التي زادت على حسناته كما أنه إذا عمل سيئات استحق بها النار ثم عمل بعدها حسنات تذهب السيئات والله أعلم.اهـ.

وقال الدكتور عيسى بن عبد الله السعدي في كتابه موانع إنفاذ الوعيد (ص٢٠٨-٢١٢) بعد نقل كلام الإمام ابن القيم: وهذا الكلام عليه ثلاث ملحوظات:

الأولى: أن نسبة هذا القول لعموم الصحابة نسبة غير مسلمة، لأن جمهور الصحابة رضي الله عنهم يقولون بالقول الأول: (ترك أمر أهل الكبائر إلى محض المشيئة)، بدليل ما رواه ابن أبي حاتم (٣/ ١٣٣٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "كنا لا نشك فيمن أوجب الله له النار في كتاب الله حتى نزلت علينا هذه الآية (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) النساء:٤٨، فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله". وهو أثر حسن بشواهده.

والظاهر -والله أعلم- أن القول الذي تبناه ابن حزم، وابن القيم كان قولا لمن ذكروا من الصحابة (ابن عباس، حذيفة، ابن مسعود) أو كلهم رضي الله عنهم، قبل نزول قوله تعلى (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) النساء:٤٨، ثم استقر مذهب الصحابة بعد نزولها على ما ذكره ابن عمر، ويؤيد هذا أنه ثبت عن بعض من ذكروا من الصحابة ما يوافق قول الجمهور.

فقد روى ابن أبي حاتم (٣/ ١٣٣٧) بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال

قوله: {إن الله لا يغفر أن يشرك به} [النساء: ٤٨] فحرم الله المغفرة على من مات وهو كافر، وأرجاها أهل التوحيد إلى مشيئته فلم يؤيسهم من المغفرة" والأثر إسناده جيد.

وروى ابن جرير (١٨/ ١٨٧) بسنده إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا "إن الرجل ليجر إلي النار، فتنزوي، وينقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: ما لك؟ فتقول: إنه ليستجير مني! فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليجر إلى النار، فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك؟ فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، قال: -فيقول أرسلوا عبدي- وإن الرجل ليجرُّ إلى النار، فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف" والأثر قال عنه ابن كثير في النهاية (٢/ ٢٠): إسناده صحيح.

فدل الحديث على وقوع العفو عن بعض من رجحت كبائره بحسناته، إذ لو لم تكن كبائره راجحة، لم يقد إلى النار اتفاقا.

فرأي ابن عباس وروايته يدلان على أنه رجع إلى مذهب جمهور الصحابة، واستقر أمر الصحابة على ترك أمر أهل الكبائر لمحض المشيئة.

الثانية: أن نسبة هذا القول لعموم التابعين وأئمة الحديث نسبة غير مسلمة، بدليل أن أئمة السلف لا يذكرون في عقائدهم إلا القول الأول.

يقول الإمام علي بن المديني رَحِمَهُ اللَّهُ في عقيدته كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٦٩): "ومن لقيه مصرا غير تائب من الذنوب التي استوجبت بها العقوبة فأمره إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له".

ويقول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ في عقيدته كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٦٢): "ويخاف على المسيء المذنب،

ويرجو له رحمة الله. ومن لقي الله بذنب يجب له به النار تائبا غير مصر عليه؛ فإن الله ﷻ يتوب عليه ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ومن لقيه وقد أقيم عليه حد ذلك الذنب في الدنيا فهو كفارته كما جاء الخبر عن رسول الله ﷺ. ومن لقيه مصرا غير تائب من الذنوب التي قد استوجب بها العقوبة، فأمره إلى الله ﷻ، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، ومن لقيه كافرا عذبه ولم يغفر له".

وقال أيضا كما في المرجع السابق (١/ ١٦٤): "ومن مات من أهل القبلة موحدا يصلى عليه ويستغفر له، ولا تترك الصلاة عليه لذنب أذنبه صغيرا كان أو كبيرا، وأمره إلى الله ﷻ".

ويقول ابن أبي حاتم الرازي رحمه الله كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٧٦): سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك، فقالا: "أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازا وعراقا وشاما ويمنا فكان من مذهبهم: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص... وأهل الكبائر في مشيئة الله ﷻ".

الثالثة: أن حكاية إجماع أهل السنة نقلا عن ابن حزم رحمه الله إن كان المراد بها إجماعهم على دخول بعض أهل الكبائر فهي حكاية مسلمة مطلقا.

وإن كان المراد بها اجماعهم على تعذيب من رجحت سيئاته فهي حكاية غير مسلمة ألبتة، لا من حيث مطابقتها للواقع ولا من حيث نسبتها لابن حزم.

والدليل على عدم إجماع أهل السنة على هذا القول أن الخلاف بين أهل السنة في هذه المسألة ثابت معروف، بل إن معظم أهل السنة لا يذكرون إلا القول الأول كما تقدم، والذين يذكرون القول الثاني منهم يذكرونه مقرونا بالأول كما قال ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (١٦/ ١٨): "وهذا مذهب

الصحابة والسلف والأئمة وهو القطع بأن بعض عصاة الأمة يدخل النار وبعضهم يغفر له: لكن هل ذلك على وجه الموازنة والحكمة أو لا اعتبار بالموازنة؟ فيه قولان للمنتسبين إلى السنة من أصحابنا وغيرهم".

أما الدليل على عدم صحة نسبة حكاية الإجماع إلى ابن حزم فأمران:

الأول: أنه نص في كتابه مراتب الإجماع (ص١٧٥) على وجود الخلاف فقال: "واتفقوا أن الله يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء واختلفوا في تفسير هذه الجملة بعد اتفاقهم على هذا اللفظ".

الثاني:أنه حين استفاض في عرض الخلاف في كتابه الفصل، ذكر القولين معا ضمن مذهب أهل السنة، ثم استدل لهما، وناقش أدلة القول الأول باستفاضه ليقرر القول الذي اختاره، فكيف يصح والحاله هذه نسبة حكاية ذلك الإجماع إليه.

وبما سبق من ملحوظات يتبين أن القول بربط العفو الإلهي بالموازنة غير منضبط من كل وجه، وأن ترك أمر أهل الكبائر إلى محض المشيئة هو القول المنضبط الذي استقر عليه مذهب أهل السنة أو كاد.

ونحن نعلم يقينا أنا حين نرد الأمر إلى محض المشيئة الإلهية فإنما نرده إلى مشيئة عليم حكيم، لا يضع العفو والعقاب إلا في محلهما اللائق بهما، يقول تعالى (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) التوبة:١٠٦، فذيل الآية بما يدل من أسمائه الحسنى على علمه التام، وحكمته البالغة لأن العفو عن أصحاب الكبائر مبني على هاتين الصفتين..اهـ.

وقال النووي في شرح مسلم (١/ ٢١٧): واعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف أن من مات موحدا دخل الجنة قطعا على

كل حال فإن كان سالما من المعاصي كالصغير والمجنون والذي اتصل جنونه بالبلوغ والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته والموفق الذي لم يبتل بمعصية أصلا فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ولا يدخلون النار أصلا لكنهم يردونها على الخلاف المعروف في الورود والصحيح أن المراد به المرور على الصراط وهو منصوب على ظهر جهنم أعاذنا الله منها ومن سائر المكروه وأما من كانت له معصية كبيرة ومات من غير توبة فهو في مشيئة الله تعالى فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة أولا وجعله كالقسم الأول وإن شاء عذبه القدر الذي يريده سبحانه وتعالى ثم يدخله الجنة فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد ولو عمل من المعاصي ما عمل كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم القطعي.اهـ.

وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٤١٧): "فمن جاء مع التوحيد بقراب الأرض، وهو ملؤها أو ما يقارب خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله ﷻ، فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنوبه ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار بل يخرج منها ثم يدخل الجنة".اهـ.

وسئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٤/ ٣٣٦): هل يحاسب الإنسان على سيئاته إذا كانت حسناته أكثر؟

فأجاب: أخبر الله جل وعلا في كتابه العظيم، بقوله سبحانه وتعالى: (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) فهو

توزن حسناته وسيئاته، كل إنسان يوازن بين حسناته وسيئاته، ومتى رجحت الحسنات أفلح ونجا، وقد يعفو الله سبحانه وتعالى عن العبد، ويدخله الجنة من دون أن يحاسبه على سيئاته، إما لتوبة فعلها، وإما لحسنات عظيمة، أتى بها قبل موته، وإما لأسباب أخرى، اقتضت رحمة الله ﷻ وفضله، سبحانه وتعالى بإدخاله الجنة وعدم محاسبته على السيئات، لكن الأصل الموازنة، كما أخبر الله به في كتابه العظيم فالحسنات توزن، والسيئات توزن، فمن رجحت حسناته نجا ومن رجحت سيئاته هلك، إلا من رحم الله لكن قد يعفو سبحانه وتعالى عن العبد ويتجاوز عن سيئاته، فضلا منه وإحسانا، إما للتوبة لأنه وعد التائبين بالمغفرة، قال تعالى: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} وإما بحسنات عظيمة، صارت سببا لمغفرة ذنوبه، وإما بأسباب أخرى، اقتضت حكمة الله أن تكون سببا للمغفرة.اهـ.

وقال العلامة ابن باز أيضا كما في فتاوى نور على الدرب (١٤/ ٤١): فقتل النفس من جملة المعاصي التي دون الشرك، فهو تحت مشيئة الله، إن شاء الله عفا عنه، وإن شاء عذبه على قدر الجريمة التي فعلها، ثم بعد التطهير والتمحيص، يخرجه الله من النار إلى الجنة، بسبب توحيده وإيمانه وإسلامه الذي مات عليه.اهـ.

وقال العلامة ابن باز أيضا كما في فتاوى نور على الدرب (٤/ ٣٣٣): وفي هذا المعنى يقول سبحانه وتعالى في كتابه العظيم: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} فأخبر سبحانه أن الشرك لا يغفر لمن مات عليه، وأما من مات على ما دون الشرك من المعاصي، فهو تحت مشيئة الله، إن شاء سبحانه غفر له، بما معه من التوحيد والإسلام، والأعمال الصالحات، ومن شاء

عذبه على ما معه من المعاصي من زنا، أو سرقة أو عقوق لوالديه أو أحدهما، أو قطيعة رحم أو أكل الربا، أو شهادة الزور أو قذف للمحصنة أو المحصن بغير حق، أو ما أشبه ذلك من المعاصي، هو فيها تحت مشيئة الله، إن شاء مولانا سبحانه غفر له، بأعمال صالحة قدمها، أو بشفاعة الشفعاء أو بدعاء المؤمنين له، أو بغير هذا وإن شاء مولانا سبحانه، عذبه في النار على قدر المعاصي التي مات عليها، وبعدما يطهر في النار، ويمحص يخرج من النار، ولا يخلد فيها خلود الكفار.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في شرح الرياض (٣/ ٥٧): فالوزن يوم القيامة وزن عدل ليس فيه ظلم، يجازى فيه الإنسان على حسب ما عنده من الحسنات والسيئات. قال أهل العلم: فمن رجحت حسناته على سيئاته فهو من أهل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته استحق أن يعذب في النار، ومن تساوت حسناته وسيئاته كان من أهل االأعراف، الذين يكونون بين الجنة والنار لمدة، على حسب ما يشاء الله ﷻ، وفي النهاية يدخلون الجنة.اهـ.

وقال في القول المفيد (١/ ٧٦): فالمؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاء الله عذبه بقدر عمله، وإن شاء لم يعذبه، قال الله تعالى: {إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} .اهـ.

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٦/ ٢/ ١٢٦٧ - ١٢٦٨): وفي الحديث رد كما قال العلماء على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، وعلى المعتزلة الذين يوجبون تعذيب الفاسق إذا مات بلا توبة، لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أخبر بأنه تحت المشيئة، ولم يقل لابد أن يعذبه.

قلت: ومثله قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ

لِمَنْ يَشَاءُ} (النساء:٤٨). فقد فرق تعالى بين الشرك وبين غيره من الذنوب، فأخبر أن الشرك لا يغفره، وأن غيره تحت مشيئته، فإن شاء عذبه وإن شاء غفر له، ولابد من حمل الآية والحديث على من لم يتب، وإلا فالتائب من الشرك مغفور له، فغيره أولى، والآية قد فرقت بينهما.اهـ.

وقال كما في فتاوى نور على الدرب: والعاصي تحت المشيئة، لا يكفر خلافا للخوارج، ولا يخلد في النار كما تقول الخوارج والمعتزلة، بل هو تحت مشيئة الله، إذا مات على الزنى، على السرقة، على عقوق الوالدين، على شرب المسكر، على أكل الربا، لكن لم يستحلها، يرى أنها معاص، غير مستحل، ولكن غلبه الهوى والشيطان، وإلا هو يعرف أنها معاص، تحت مشيئة الله، إن شاء الله عفا عنه، وإن شاء عذبه في النار على قدر المعاصي التي مات عليها، وبعد التطهير والتمحيص يخرجه الله من النار بإجماع أهل السنة والجماعة، ما يخلد في النار إلا لكفره؛ خلافا للخوارج والمعتزلة الذين يقولون: إن العاصي إذا مات على المعصية يخلد في النار. وتقول الخوارج: إنه يكفر. وقولهم باطل عند أهل السنة والجماعة، من أبطل الباطل، والآية الكريمة ترد عليهم، وهي قوله سبحانه: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} .اهـ.

وقال علماء اللجنة الدائمة (١/ ٧٣٥): فعل الزنى كبيرة من كبائر الذنوب، وكذلك التعامل بالربا وشرب الخمر وجميع هذه المعاصي من الكبائر لا يخرج فاعلها بفعلها من الإسلام إذا لم يستحلها، لكنه على خطر كبير وإن مات مصرا عليها فهو تحت مشيئة الله سبحانه إن شاء غفر له وإن شاء عذبه بقدر كبيرته ومآله إلى الجنة؛ لقول الله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} .اهـ.

وقال العلامة البراك: ودلت النصوص على أن من رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة من أول وهلة، وأما من كان له سيئات ترجح على حسناته فإن كان من أهل التوحيد فهو تحت مشيئة الله إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه، ثم يخرجه من النار، ويدخله الجنة، ومن لم يكن من أهل التوحيد فإنه لا يعتد له بشيء من الحسنات، فإن سيئة الكفر والشرك تحبط جميع الأعمال.

الثالث: من استوت حسناته وسيئاته، وهذا من أصحاب الأعراف، يكونون في مكان بين الجنة والنار، يطلعون على هؤلاء وهؤلاء، كما قال سبحانه: (وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) الأعراف/ ٤٦، ٤٧، ومصير أهل الأعراف دخول الجنة بعد ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٦/ ١٧٧): "وقد يفعل مع سيئاته حسنات توازيها وتقابلها فينجو بذلك من النار ولا يستحق الجنة بل يكون من أصحاب الأعراف. وإن كان مآلهم إلى الجنة فليسوا ممن أزلفت لهم الجنة أي قربت لهم إذ كانوا لم يأتوا بخشية الله والإنابة إليه " انتهى.

وقال الإمام ابن القيم في طريق الهجرتين (ص٣٨١): الطبقة الثانية عشر: قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فتقابل أثراهما فتقاوما فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار وسيئاتهم المساوية من دخول الجنة.

فهؤلاء هم أهل أهل الأعراف، لم يفضل لأحدهم حسنة يستحق بها الرحمة من ربه، ولم يفضل عليه سيئة يستحق بها العذاب.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى أهل هذه الطبقة فى سورة الأعراف- بعد أن

ذكر دخول أهل النار وتلاعنهم فيها ومخاطبة أتباعهم لرؤسائهم وردهم عليهم، ثم مناداة أهل الجنة أهل النار- فقال تعالى: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلا بِسِيمَاهُمْ، وَنَادوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمَ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ٤٦- ٤٧]، فقوله تعالى: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ} [الأعراف: ٤٦] أى بين أهل الجنة والنار حجاب، قيل: هو السور الذى يضرب بينهم له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب: باطنه الذى يلى المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذى يلى الكفار من جهته العذاب.

والأعراف جمع عرف وهو المكان المرتفع، وهو سور عال بين الجنة والنار [قيل: هو هذا السور الذى يضرب بينهم وقيل جبال بين الجنة والنار عليه أهل الأعراف.

قال حذيفة وعبد الله بن عباس: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك حتى يقضى الله فيهم ما يشاءُ ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته.

وسئل العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "سمعت من شخص يقول: إن الأعراف سور بين الجنة والنار يمكثون فيه عددا من السنين؟

فأجاب: الناس إذا كان يوم القيامة انقسموا إلى ثلاثة أقسام :

قسم ترجح حسناتهم على سيئاتهم، فهؤلاء لا يعذبون ويدخلون الجنة، وقسم آخر ترجح سيئاتهم على حسناتهم، فهؤلاء مستحقون للعذاب بقدر سيئاتهم ثم ينجون إلى الجنة، وقسم ثالث سيئاتهم وحسناتهم سواء، فهؤلاء هم أهل الأعراف ليسوا من أهل الجنة، ولا من أهل النار، بل هم في مكان برزخ

عال مرتفع يرون النار ويرون الجنة، يبقون فيه ما شاء الله وفي النهاية يدخلون الجنة، وهذا من تمام عدل الله سبحانه وتعالى أن أعطى كل إنسان ما يستحق، فمن ترجحت حسناته فهو من أهل الجنة، ومن ترجحت سيئاته عذب في النار إلى ما شاء الله، ومن كانت حسناته وسيئاته متساوية فهو من أهل الأعراف، لكنها -أي الأعراف- ليست مستقرا دائما، وإنما المستقر: إما إلى الجنة، وإما إلى النار، جعلني الله وإياكم من أهل الجنة " انتهى من "لقاء الباب المفتوح" (١٤/ ١٦)[(١)].

---

(١) اختلف العلماء في تعيين أصحاب الأعراف، وفي السبب الذي صاروا به موقوفين على الأعراف، كما أخبر الله عنهم؛ اختلف العلماء في ذلك إلى آراء مختلفة وأقوال متباينة، وفيما يلي: نذكر ما قيل في تعيينهم ثم الترجيح: فمما قيل في تعيينهم:

١ - أنهم مساكين أهل الجنة، وينسب هذا القول إلى ابن مسعود وكعب الأحبار وابن عباس.

وأخرج الطبري عن ابن عباس أنه قال: (الأعراف سور بين الجنة والنار، وأصحاب الأعراف بذلك المكان، حتى إذا بدا لله - هكذا بالأصل - أن يعافيهم؛ انطلق بهم إلى نهر يقال له: الحياة، حافتاه قصب الذهب، مكلل باللؤلؤ، ترابه المسك؛ فألقوا فيه، حتى تصلح ألوانهم ويبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، حتى إذا صلحت ألوانهم، أتى بهم الرحمن، فقال: تمنوا ما شئتم، قال: فيتمنون، حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعين مرة، فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، يسمون مساكين الجنة).

وهو رأى عبد الله بن الحارث -أيضا- كما أخرج الطبري عن مجاهد عن عبد الله بن الحارث قال: (أصحاب الأعراف ينتهى بهم إلى نهر يقال له: الحياة، حافتاه قصب من ذهب، قال سفيان: أراه قال: مكلل باللؤلؤ، قال: فيغتسلون فيزدادون، فكلما اغتسلوا ازدادت بياضًا، فيقال لهم: تمنوا ما شئتم، فيتمنون ما شاءوا، فيقال لهم: لكم ماتمنيتم وسبعون ضعفًا، قال: فهم مساكين أهل الجنة).

٢ - أنهم قوم صالحون، فقهاء، علماء، وينسب هذا القول إلى مجاهد؛ وهذه صفة مدح =

=

لهم، غير أنه جاء في التفسير المنسوب إلى ابن عباس أن هؤلاء كانوا شاكين في الرزق؛ وهذه صفة ذم، وقد وصف ابن كثير هذا القول بأن فيه غرابة.

٣ - أنهم الشهداء، ذكره المهدوي، وعزاه الشوكاني إلى القشيري وشرحبيل بن سعد.

٤ - هم فضلاء المؤمنين والشهداء، فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس، ذكره أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم القشيري، وعزاه الشوكاني إلى مجاهد.

٥ - هم المستشهدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم، ويعزى هذا القول إلى شرحبيل بن سعد أيضًا.

وأخرج الطبري حديثين في هذا: الأول منهما قال فيه: حدثني المثنى، وساق السند إلى يحيى بن شبل، أو رجلًا من بني النضير أخبره عن رجل من بني هلال، أن أباه أخبره، أنه سأل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف، فقال: (هم قوم غزوا في سبيل الله عصاة لآبائهم، فقتلوا فاعتقهم الله من النار بقتلهم في سبيله، وحبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم، فهم آخر من يدخل الجنة).

وأما الحديث الثاني، فقد أخرجه عن يحيى بن شبل، مولى بني هاشم، عن محمد بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: (قوم قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم قتلهم في سبيل الله عن النار، ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة)، وهذا الحديث قد ضعفه بعض العلماء.

ويروى عن أبي سعيد أنه قال: سئل النبي ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: (هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لآبائهم، فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار، ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة، وهم على سور بين الجنة والنار، حتى تذبل لحومهم وشحومهم، حتى يفرغ الله من حساب الخلائق، فإذا فرغ من حساب خلقه فلم يبق غيرهم، تغمدهم منه برحمة فأدخلهم الجنة برحمته).

وقد ذكر الرازي، أن القول الذي يجعل الأعراف، عبارة عن الرجال الذين يعرفون أهل الجنة وأهل النار، يعود أيضًا إلى قول من يجعل الأعراف، عبارة عن الأمكنة العالية، على السور المضروب بين الجنة وبين النار، لأن هؤلاء الأقوام لابد لهم من مكان عال يشرفون منه على أهل الجنة وأهل النار.

٦ - هم: العباس، وحمزة، وعلي بن أبي طالب، وجعفر ذو الجناحين، يعرفون محبيهم

=

=

ببياض الوجوه ومبغضهم بسواد الوجوه، ذكره الثعلبي عن ابن عباس.
وبعد هذا القول لا يخفى؛ لأن هذا التخصيص لا معنى له، ولعله من أقوال الشيعة: بل قد ذكر محمد رشيد رضا أنه من أقوالهم، وهو كذلك لم يوجد في كتب التفسير المعتمدة عن السلف؛ قال: (وهذا القول: ذكر الآلوسي أن الضحاك رواه عن ابن عباس: ولم نره في شيء من كتب التفسير المأثورة، والظاهر أنه نقله عن تفاسير الشيعة، وفيه أن أصحاب الأعراف يعرفون كلًا من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم؛ أي فيميزون بينهم أو يشهدون عليهم، وأي فائدة في تمييز هؤلاء السادة - على الصراط- لمن كان يبغضهم من الأمويين، ومن يبغضون عليًا خاصة، من المنافقين والنواصب؟ وأين الأعراف من الصراط؟ هذا بعيد عن نظم الكلام وسياقه جدًا).
٧ - هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، وهم في كل أمة، ذكره الزهراوي، واختاره النحاس. قال العلامة محمد رشيد رضا: (فكما ثبت أن كل رسول يشهد على أمته أن أمة محمد ﷺ شهداء على جملة من الأمم بعده؛ ثبت أيضًا أن في الأمم شهداء غير الأنبياء عليهم السلام، قال الله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا [النساء: ٤١].
وقال في خطاب هذه الأمة: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [البقرة: ١٤٣]، وقال في صفة يوم القيامة: وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [الزُّمر: ٦٩]. وهؤلاء الشهداء هم حجة الله على الناس في كل زمان بفضائلهم واستقامتهم على الحق والتزامهم للخير وأعمال البر).
٨ - هم قوم أنبياء، قاله الزجاج. (أي يجعلهم الله تعالى على أعالي ذلك السور، تمييزًا لهم على الناس، ولأنهم شهداؤه على الأمم، ورجح هذا القول الرازي). وقال محمد رشيد رضا عن هذا القول: وقد أورد الرازي في تفسيره -بعد ذكر هذا القول- أن هذا الوجه لا يتفق مع معنى الآية: لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ، أي لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون في دخولها، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء والملائكة والشهداء. لكنه قال في الإجابة عن هذا: (أجاب الذاهبون إلى هذه الوجه بأن قالوا: لا يبعد أن يقال: إنه تعالى بين من صفات أصحاب الأعراف أن دخولهم الجنة يتأخر؛ والسبب فيه أنه تعالى ميزهم عن أهل الجنة وأهل النار، وأجلسهم على تلك الشرفات العالية والأمكنة
=

=

المرتفعة، ليشاهدوا أحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار، فيلحقهم السرور العظيم بمشاهدة تلك الأحوال، ثم استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، فحينئذ ينقلهم الله تعالى إلى أمكنتهم العالية في الجنة، فثبت أن كونهم غير داخلين في الجنة، لا يمنع من كمال شرفهم وعلو درجتهم.

وأما الطمع المذكور في الآية، فهو على ما ذكر هؤلاء، يكون معناه: اليقين، لا الطمع الذي لا يثق صاحبه بحصول المراد، وعلى هذا قوله تعالى عن إبراهيم: وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ [الشعراء: ٨٢] فهذا الطمع طمع يقين.

٩ - هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب في الدنيا فوقفوا، وليست لهم كبائر فيحبسون عن الجنة لينالهم بذلك غم، فيقع في مقابلة صغائرهم. حكاه ابن عطية القاضي أبو محمد في تفسيره.

١٠ - ذكره ابن وهب عن ابن عباس، قال: أصحاب الأعراف الذين ذكر الله في القرآن، أصحاب الذنوب العظام من أهل القبلة، وذكره ابن المبارك؛ قال: أخبرنا جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: أصحاب الأعراف رجال كانت لهم ذنوب عظام، وكان جسيم أمرهم لله، فأقيموا ذلك المقام، إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم بسواد الوجوه، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، وإذا نظروا إلى أهل الجنة عرفوهم ببياض وجوههم.

وفي رواية سعيد بن جبير عن عبد الله بن مسعود: (وكانوا آخر أهل الجنة دخولًا الجنة).

١١ - أنهم أولاد الزنا، ذكره أبو نصر القشيري عن ابن عباس.

١٢ - أنهم ملائكة موكلون بهذا السور، يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار. قاله أبو مجلز لاحق بن حميد، فقيل له: لا يقال للملائكة رجال، فقال: إنهم ذكور وليسوا بإناث، فلا يبعد إيقاع لفظ الرجال عليهم كما وضع على الجن في قوله تعالى: وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ [الجنّ: ٦].

وذكر الطبري روايات عن أبي مجلز في تقوية هذا القول الذي يتزعمه، ويجادل في أن أهل الأعراف هم رجال من الملائكة.

وهناك روايات كثيرة عن أبي مجلز لا حاجة إلى التطويل بذكرها، فهي لا تخلو - سواء أصحت نسبتها إليه أم لم تصح - عن كونها قولًا من الأقوال يحتاج لصحة إثباته إلى نص عن رسول الله ﷺ. على أن ابن كثير قد ذكر بعد إيراد الرواية عنه صحة نسبة هذا

=

=

القول إلى أبي مجلز، ولكن حكم عليها بالغرابة، وعدم الانسياق مع الظاهر من وصف الملائكة، فقال: (وهذا صحيح إلى أبي مجلز لاحق بن حميد - أحد التابعين - وهو غريب من قوله، وخلاف الظهر من السياق).
وقال محمد رشيد رضا في سبب حكم ابن كثير على قول أبي مجلز بالغرابة: (وإنما عده غريبًا عنه لمخالفته لقول الجمهور، ولتسميته الملائكة رجالًا وهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة).
١٣ - أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم (فجعلوا هناك إلى أن يقضي الله فيهم ما يشاء، ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته إياهم) ويعزى هذا القول إلى ابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، والشعبي، والضحاك، وسعيد بن جبير، فمما يعزى إلى حذيفة بالسند، ما أخرجه الطبري عن الشعبي أنه قال: أرسل إلي عبد الحميد بن عبد الرحمن، وعنده أبو الزناد، وعبد الله بن ذكوان مولى قريش، وإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكرًا ليس كما ذكر.
فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة، فقالا: هات، فقلت: إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فبيناهم كذلك اطلع إليهم ربك تبارك وتعالى فقال: اذهبوا وادخلوا الجنة؛ فإني قد غفرت لكم. وفي رواية أخرى للشعبي عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف، قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلفت بهم حسناتهم عن النار، قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم.
وعن عامر عن حذيفة قال: أصحاب الأعراف قوم كانت لهم ذنوب وحسنات، فقصرت ذنوبهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فهم كذلك حتى يقضي الله بين خلقه فينفذ فيهم أمره، وفيه روايات أخرى عن حذيفة وهي بمعنى ما سبق.
ومما يعزى إلى ابن مسعود، ما أخرجه الطبري عن سعيد بن جبير عن ابن مسعود، قال: (يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قول الله: وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ

=

=

خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم [الأعراف: ٨ - ٩] ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح، قال: فمن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم ونظروا إلى أصحاب النار، قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فيتعوذون بالله من منازلهم.

قال فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورًا فيمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نورًا، وكل أمة نورًا، فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا [التحريم: ٨]، وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع من أيديهم، فهنالك يقول الله: لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ، فكان الطمع دخولًا، قال: فقال ابن مسعود: على أن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشرًا، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة، ثم يقول: هلك من غلب وحداته أعشاره). وينسب هذا الرأي أيضًا إلى ابن عباس، فإنه كان يقول: إن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهذا ما ينص عليه الطبري بسنده إلى ابن عباس أنه قال: (أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم تزد حسناتهم على سيئاتهم، ولا سيئاتهم على حسناتهم)، ويذكر قتادة عن ابن عباس أنه كان يقول: (الأعراف بين الجنة والنار، حبس عليه أقوام بأعمالهم)، وكان يقول: (قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم تزد حسناتهم على سيئاتهم، ولا سيئاتهم على حسناتهم).

١٤ - هم مؤمنو الجن.

١٥ - هم قوم كانت عليهم ديون.

ويذكر السيوطي حديثًا يعزوه إلى البيهقي في رفع القول الأول إلى النبي ﷺ؛ فإن السيوطي بعد أن ذكر تلك الأقوال السابقة أورد الحديث الآتي:

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: (إن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألناه عن ثوابهم فقال: على الأعراف وليسوا في الجنة مع أمة محمد، فسألناه: وما الأعراف؟ قال: حائط الجنة تجري فيه الأنهار، وتنبت فيه الأشجار والثمار)وفي هذا القول - أي بأنهم مؤمنو الجن - يقول محمد رشيد رضا: وروي ابن عساكر فيه حديثًا مرفوعًا عن أنس بن مالك من طريق الوليد بن موسى الدمشقي، وهو منكر الحديث في أعدل

=

=

الأقوال، ورماه بعضهم بالوضع.
أما القول بأنهم قوم عليهم ديون فهو ما يعزى إلى مسلم بن يسار، قال قتادة: (وقال مسلم بن يسار: قوم كان عليهم دين).
ومنها القول بأن أصحاب الأعراف هم:
١٦ - أهل الفترة.
١٧ - هم أولاد المشركين الذين ماتوا قبل سن التكليف.
١٨ - هم أهل العجب بأنفسهم، ويعزى هذا القول إلى الحسن.
١٩ - هم آخر من يفصل الله بينهم، وهم عتقاؤه من النار).
وإذا علمنا ذلك الاختلاف الكثير والمتباين في بعض الأقوال، فإن قول الإمام الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في اختلاف عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف وتعيينهم: (وكلها - كما يقول - قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم) - فيه نظر: فإن هذا المعنى الذي ذكره إنما هو قول من تلك الأقوال المتقدمة التي بينها غاية التباعد والتباين.
واختلف العلماء في تعينهم اختلافا كثيرا، فتعددت أقوالهم وتضاربت آراؤهم كما تقدم تفصيل ذلك.
وبهذا ندرك أن ترجيح قول من الأقوال، في تعيين أصحاب الأعراف، أمر من الصعوبة بمكان؛ ذلك أن القرآن الكريم لم يبين من هم بالتحديد. وما ورد في السنة من أخبار، فإنها كلها لا تخلو عن مقال، ولم يثبت منها شيء بسند صحيح يكون قاطعا للنزاع والخلاف.
وأما استنباطات العلماء فهي كما قدمنا تفتقر إلى دليل صحيح، بغض النظر عن كون تلك الأقوال المنسوبة إلى قائليها تصح نسبتها إليهم أم لا.
وإذا علم هذا فإنه لم يبق لنا من مستند إلا ما جاء في القرآن الكريم فنثبت ما أثبته في حقهم ولا نتعداه، فإن هذه المسألة من الأمور الغيبية التي لامجال للجزم برأي فيها دون نص ثابت عن رسول الله ﷺ، وقد أخبر القرآن الكريم عنهم بأنهم: رجال يعرفون أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، اختصهم الله بتلك المزية من بين خلقه.
وقد قال ابن جرير في الترجيح بين تلك الأقوال، وفي الرد على أبي مجلز: (والصواب من القول في أصحاب الأعراف أن يقال - كما قال الله جل ثناؤه فيهم: - هم رِجَالٌ يَعْرِفُونَ

=

(باب مباحث الإيمان بالصراط)

مسائل في الصراط

المسألة الأولى: تعريف الصراط

قال ابن منظور في اللسان (٢/ ٤٣٠): الصراط، والسراط، والزراط،

=

كُلًّا [الأعراف: ٤٦] من أهل الجنة وأهل النار بِسِيمَاهُمْ [الأعراف: ٤٦] ولا خبر عن رسول الله ﷺ يصح سنده، ولا أنه متفق على تأويلها، وإجماع من الأمة على أنهم ملائكة. فإذا كان ذلك كذلك، وكان لا يدرك قياسا، وكان المتعارف بين أهل لسان العرب أن الرجال اسم يجمع ذكور بني آدم دون إناثهم، ودون سائر الخلق غيرهم؛ كان بينا أن ما قاله أبو مجلز من أنهم ملائكة: قول لا معنى له، وأن الصحيح من القول في ذلك، ما قاله سائر أهل التأويل غيره، هذا مع أن من قال بخلافه من أصحاب الرسول ﷺ، ومع ما روي عن رسول الله ﷺ في ذلك من الأخبار، وإن كان في أسانيدها ما فيها).

ولعل هذا هو الذي يتعين القول به من بين تلك الأقوال، وإن كان القول بأنهم من استوت حسناتهم وسيئاتهم هو ما ذهب إليه كثير من العلماء؛ إلا أن تلك الروايات لم تصف من الشوائب؛ بل هي كما قال الحافظ ابن كثير: (الله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة، وقصاراها أن تكون موقوفة). غير أن الجمهور تمسك بها.

وعن رأيهم هذا يقول محمد رشيد رضا:

ورجح الجمهور بكثرة الروايات أنهم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم.

وقال - مستنبطا من دعاء أهل الأعراف: (رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [الأعراف: ٤٧]: (والإنصاف أن هذا الدعاء أليق بحال من استوت حسناتهم وسيئاتهم، وكانوا موقوفين مجهولا مصيرهم). ومما تقدم يظهر لنا مدى تفاوت أقوال العلماء في تعينهم لأهل الأعراف. على أن في بعض هذه الأقوال تناقضا ظاهرا، والمثال على ذلك: أن بعضهم قال: إن أهل الأعراف هم من الأنبياء، وكانوا على الأعراف لعلو منزلتهم وعظيم مكانتهم. وعلى نقيض هذا القول من قال: أن أهل الأعراف هم أولاد الزنا أو مساكين أهل الجنة، وهذان القولان بينهما من البعد ما لا يخفى. الحياة الآخرة لغالب عواجي (٢/ ١٣٧٧).

الطريق، قال الشاعر: أكر على الحروريين مهرى... واحملهم على وضح الصراط.

وقال الزبيدي في تاج العروس (١٩/ ٣٤٥): السراط بالكسر: السبيل الواضح، وبه فسر قوله تعالى: اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ [الفاتحة: ٦]. أي ثبتنا على المنهاج الواضح كما قاله الأزهري.

وقال الفيروز أبادي في ترتيب القاموس المحيط (٢/ ٨١٤): الصراط بالكسر: الطريق، وجسر ممدود على متن جهنم. وبالضم السيف الطويل.

وقال يحيى بن سلام في التصاريف رقم (١٠٤/ ٣٣٠): الصراط على وجهين:

١- الطريق، وذلك في قوله: وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ [الأعراف: ٨٦]. يعني بكل طريق.

٢- الدين وذلك في قوله: اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ [الفاتحة: ٦] يعني الدين المستقيم.

وقال في (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا) [الأنعام: ١٥٣]: يعني دينًا مستقيمًا.

وقال القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٤٧) أصل الصراط في كلام العرب الطريق.

قال عامر بن الطفيل: شحنًا أرضهم بالخيل حتى... تركناهم أذل من الصراط.

وقرئ السراط من الاستراط بمعنى الابتلاع، كأن الطريق يسترط من يسلكه.

وقال الراغب في المفردات في غريب القرآن (ص٣٣٧): السراط: الطريق

المستسهل. أصله من: سرطت الطعام وزردته: ابتلعته.

المسألة الثانية: الإيمان بالصراط

يؤمن أهل السنة والجماعة بالصراط، وهو جسر على جهنم، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (إن رسول الله ﷺ سئل: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال: هم في الظلمة دون الجسر) رواه مسلم (٣١٥). وقد بيّن السفاريني رحمه الله تعالى: - موقف الفرق من الصراط، وهل هو صراط مجازي أم حقيقي؟ ثم قرر مذهب أهل الحق الذي دلت عليه النصوص فيه، فقال: اتفقت الكلمة على إثبات الصراط في الجملة، لكن أهل الحق يثبتونه على ظاهره من كونه جسرًا ممدودًا على متن جهنم، أحدّ من السيف وأدق من الشعر، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبد الجبار المعتزلي، وكثير من أتباعه زعمًا منهم أنه لا يمكن عبوره، وإن أمكن ففيه تعذيب، ولا عذاب على المؤمنين والصلحاء يوم القيامة، وإنما المراد طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى: سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ [محمد: ٥]، وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى: فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ [الصافات:٢٣]، ومنهم من حمله على الأدلة الواضحة والمباحات والأعمال الرديئة التي يسأل عنها ويؤاخذ بها، وكل هذا باطل وخرافات لوجوب حمل النصوص على حقائقها، وليس العبور على الصراط بأعجب من المشي على الماء أو الطيران في الهواء، أو الوقوف فيه، وقد أجاب ﷺ عن سؤال حشر الكافر على وجهه بأن القدرة صالحة لذلك. وأنكر العلامة القرافي كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف، وسبقه إلى ذلك شيخه العز بن عبد السلام، والحق أن الصراط وردت به الأخبار الصحيحة

وهو محمول على ظاهره بغير تأويل كما ثبت في الصحيحين والمسانيد والسنن الصحاح مما لا يحصى إلا بكلفة من أنه جسر مضروب على متن جهنم يمر عليه جميع الخلائق، وهم في جوازه متفاوتون.

وذكر القرطبي مذهب القائلين بمجازية الصراط، المأوّلين للنصوص المصرحة به، فقال: ذهب بعض من تكلم على أحاديث وصف الصراط بأنه أدق من الشعر، وأحدُّ من السيف أن ذلك راجع إلى يسره وعسره على قدر الطاعات والمعاصي، ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى: لخفائها وغموضها، وقد جرت العادة بتسمية الغامض الخفي دقيق، فضرب المثل بدقة الشعر، فهذا من هذا الباب، ومعنى قوله: أحدّ من السيف أن الأمر الدقيق الذي يصعد من عند الله تعالى: إلى الملائكة في إجازة الناس على الصراط يكون في نفاذ حد السيف ومضيه إسراعًا منهم إلى طاعته وامتثاله، ولا يكون له مرد كما أن السيف إذا نفذ بحده وقوة ضاربه في شيء لم يكن له بعد ذلك مرد، وإما أن يقال: إن الصراط نفسه أحد من السيف وأدق من الشعر فذلك مدفوع بما وصف من أن الملائكة يقومون بجنبيه، وأن فيه كلاليب وحسكًا، أي أن من يمر عليه يقع على بطنه، ومنهم من يزل ثم يقوم، وفيه أن من الذين يمرون عليه من يعطى النور بقدر موضع قدميه، وفي ذلك إشارة إلى أن للمارين عليه مواطئ الأقدام، ومعلوم أن دقة الشعر لا يحتمل هذا كله. ثم رد عليهم مقالتهم، فقال: ما ذكره هذا القائل مردود بما ذكرنا من الأخبار وأن الإيمان يجب بذلك، وأن القادر على إمساك الطير في الهواء قادر على أن يمسك عليه المؤمن، فيجريه أو يمشيه، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا عند الاستحالة، ولا استحالة في ذلك للآثار المروية في ذلك، وبيانها بنقل الأئمة العدول، ومن لم يجعل الله له نورًا

فما له من نور.

المسألة الثالثة: صفة الصراط

وردت في السنة أحاديث صحيحة في صفة الصراط، ووصفته وصفًا جليًا فينبغي على المسلم أن يعرف هذه الصفات ويستشعرها في فؤاده حتى ينجو من عذاب الجبار سبحانه وتعالى وذلك بالوقوف عند أوامره، واجتناب سخطه وغضبه، وهذه الصفات هي:

١- الصراط زلق: وذلك من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ (قلنا ما الجسر يا رسول الله قال مدحضة مزلة) رواه البخاري (٧٤٣٩) واللفظ له، ومسلم (١٨٣)، قال أبو إسحاق الحربي في غريب الحديث (١/ ٣): الجِسَر والجِسر: ما عبر عليه من قنطرة ونحوها.

وقال العيني في عمدة القاري (٢٠/ ٣٢٠): مدحضة من دحضت رجله دحضًا زلقت، ودحضت الشمس عند كبد السماء: زالت، ودحضت حجته بطلت.

مزلة: من زلت الأقدام سقطت، وقال الكرماني: بكسر الزاي وفتحها.

٢- وله جنبتان أو حافتان: كما في حديث أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: (يحمل الناس على الصراط يوم القيامة فتتقادع بهم جنبتا الصراط تقادع الفراش في النار)[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣ رقم ٢٠٤٥٧)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٩، رقم ٣٤١٩٣)، وابن أبى عاصم (٢/ ٤٠٣، رقم ٨٣٧)، والبزار (٩/ ١٢٢، رقم ٣٦٧١)، والطبرانى فى الصغير (٢/ ١٤٢، رقم ٩٢٩) والحديث قال عنه الهيثمى (١٠/ ٣٥٩): رجاله رجال الصحيح، وقال السيوطي في البدور السافرة (٢٥١): إسناده صحيح، وحسنه العلامة الألباني في تخريج كتاب السنة (٨٣٧، ٨٣٨)، وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح =

قال ابن الأثير في (النهاية) (٤/ ٢٤): قوله: "فتتقادع بهم جنبتا الصراط تقادع الفراش في النار" أي تسقطهم فيها بعضهم فوق بعض. وتقادع القوم: إذا مات بعضهم إثر بعض..اهـ..

٣- ولحافتي الصراط كلاليب: وذلك من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما عند مسلم (١٩٥) عن النبي صلى الله عليه وسلم: (وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به).

ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (قلنا يا رسول الله ما الجسر؟ قال: مدخضة مزلة، عليه خطاطيف، وكلاليب، وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان) رواه البخاري (٧٤٣٩) واللفظ له، ومسلم (١٨٣).

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وبه كلاليب مثل شوك السعدان أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أن لا يعلم قدر عظمها إلا الله) رواه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

قال العيني في عمدة القاري (٢٠/ ٣١٦): كلاليب جمع كلوب بفتح الكاف وهو حديدة معطوفة الرأس يعلق عليها اللحم. وقيل: الكلوب الذي يتناول به الحداد الحديد من النار. كذا في كتاب ابن بطال)..اهـ..

وقال أيضًا (٢٠/ ٣٢٠): خطاطيف: جمع خطاف بالضم وهو الحديدة المعوجة كالكلوب يختطف بها الشيء.

=

المسند مما ليس في الصحيحين (١١٨٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٤/ ٩١): إسناده حسن.

وقوله: حسكة: بفتحات وهي شوكة صلبة معروفة وقال صاحب التهذيب. الحسك نبات له ثمر خشن يتعلق بأصواف الغنم، وربما اتخذ مثله من حديد وهو من آلات الحرب. مفلطحة: أي عريضة. عقيفاء: معوجة.

وقوله شوك السعدان قال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٥٣): جمع سعدانة وهو نبات ذو شوك يضرب به المثل في طيب مرعاه قالوا: مرعى ولا كالسعدان. وقوله: أما رأيتم شوك السعدان: هو استفهام تقرير لاستحضار الصورة المذكورة.

مسألة: أول من يجيز الصراط هو نبينا ﷺ ثم أمته أول من يجيز الصراط:

يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتفق عليه الذي فيه يقول النبي ﷺ: (ويضرب السراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها) (وهذا لفظ البخاري).

وكذلك رواية أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الآذان من صحيح البخاري وفيها يقول النبي ﷺ: (فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم).

قلت: ورواية أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم توضح مكان النبي ﷺ إلى أن تمر أمته كلها - وهو على الصراط ﷺ وذلك لقوله ﷺ فيها بعد أن ذكر صفات الذين يمرون على الصراط: (ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم).

وكذلك الأنبياء عليهم السلام كما في رواية أبي سعيد رضي الله عنه عند مسلم عن النبي ﷺ قال: (والأنبياء بجنبتي الصراط وأكثر قولهم: اللهم سلم سلم).

المسألة الرابعة: من يمر على الصراط.

قال ابن رجب في التخويف من النار (ص٢٣٢): واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا، ومشرك يعبد مع الله غيره، فأما المشركون، فإنهم لا يمرون على الصراط، وإنما يقعون في النار قبل وضع الصراط، وساق بعض الأحاديث التي سقناها، ومنها حديث أبي سعيد الخدري الذي في الصحيحين، ثم قال: فهذا الحديث صريح في أن كل من أظهر عبادة شيء سوى الله كالمسيح والعزير من أهل الكتاب، فإنه يلحق بالمشركين في الوقوع في النار قبل نصب الصراط، إلا أن عباد الأصنام والشمس والقمر وغير ذلك من المشركين تتبع كل فرقة منهم ما كانت تعبد في الدنيا، فترد النار مع معبودها أولًا، وقد دل القرآن على هذا المعنى في قوله تعالى: في شأن فرعون: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ [هود: ٩٨] وأما من عبد المسيح والعزير من أهل الكتاب، فإنهم يتخلفون مع أهل الملل المنتسبين إلى الأنبياء، ثم يردون النار بعد ذلك. وقد ورد في حديث آخر أن من كان يعبد المسيح يمثل له شيطان المسيح فيتبعونه، وكذلك من كان يعبد العزير، وفي حديث الصور أنه يمثل لهم ملك على صورة المسيح، وملك على صورة العزير، ولا يبقى بعد ذلك إلا من كان يعبد الله وحده في الظاهر سواء كان صادقًا أو منافقًا من هذه الأمة وغيرها، ثم يتميز المنافقون عن المؤمنين بامتناعهم عن السجود، وكذلك يمتازون عنهم بالنور الذي يقسم للمؤمنين.اهـ. وبذلك قال ابن برجان في الإرشاد كما في الحاوي للسيوطي (٢/ ١٨٥)، وابن الوزير اليماني في العواصم والقواصم (٩/ ٣٠٣)، وابن عثيمين في شرح لمعة الاعتقاد (ص١٥٠).

المسألة الخامسة: كيفية المرور على الصراط

قال الطحاوي في شرح الطحاوية (ص٤١٥): قوله: والصراط، أي: وتؤمن

بالصراط، وهو جسر على جهنم، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط، كما في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل (أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال: "هم في الظلمة دون الجسر)(١) وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم، وروى البيهقي بسنده، عن مسروق، عن عبد الله، قال: "يجمع الله الناس يوم القيامة"، إلى أن [قال]: "فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، وقال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ مرة، إذا أضاء قدم قدمه، وإذا طفئ قام، قال: فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف، دحض، مزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرجل، يرمل رملا، فيمرون على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد، وتعلق يد، وتخر رجل، وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون، فإذا خلصوا قالوا: الحمد الله الذي نجانا منك بعد أن أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد"(٢)... الحديث. واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله

---

(١) أخرجه مسلم (٣١٥) من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ.

(٢) قال العلامة الألباني في تعليقه على الطحاوية: صحيح: وأخرجه الحاكم "٢/ ٣٧٦"، وأظن أن البيهقي من طريقه رواه، وقال الحاكم: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي! قلت، وفيه يزيد بن عبد الرحمن أبو خالد الدالاتي، ولم يخرج له الشيخان شيئا، ثم هو وإن كان صدوقا، فقد كان يخطئ كثيرا، وكان يدلس، كما في "التقريب".
=

تعالى: {وإن منكم إلا واردها} [مريم: ٧١]، ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: {ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا} [مريم: ٧٢]، وفي الصحيح أنه ﷺ قال: (والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: {وإن منكم إلا واردها} [مريم: ٧١]، فقال: ألم تسمعيه قال: {ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا})[1] أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه الله منهم؛ ولهذا قال تعالى: {ولما جاء أمرنا نجينا هودا} [هود: ٥٨]، {فلما جاء أمرنا نجينا صالحا} [هود: ٦٦]. {ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا} [هود: ٩٤] ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك، وكذلك حال الوارد في النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا، فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور: أن الورود هو الورود على الصراط، وروى الحافظ أبو نصر الوائلي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: (علم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة، فلا

=

وقد صرح في هذا الأثر بالتحديث، فأمنا بذلك تدليسه، فإنما يخشى منه الخطأ فيه، لكنه قد توبع كما يأتي، فأمنا بذلك خطأه أيضا، وقد أخرجه الحاكم أيضا "٤/ ٥٩٠ - ٥٩٢" بتمامه مطولا، وكذلك الطبراني في "المعجم الكبير" "٣/ ٤٦/ ٢ - ٤٧/ ٢" من طريق أبي خالد هذا عن ابن مسعود مرفوعا وقد تابعه زيد بن أبي أنيسة مرفوعا أيضا بتمامه عند الطبراني، وزيد ثقة، فصح بذلك الحديث والحمد لله.

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦).

تحدثن في دين الله حدثا برأيك)[١]، أورد القرطبي، وروى أبو بكر بن أحمد بن سليمان النجار، عن يعلى بن منية، عن رسول الله ﷺ، قال: (تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبي)[٢].اهـ. من شرح الطحاوية.

ويمكن أن نلخص كيفية المرور بما يلي

١ - يعطي الله كل إنسان نورًا على قدر عمله يتبعه على الصراط:

كما في حديث جابر عند مسلم (١٩١) عن النبي ﷺ: (ويعطى كل إنسان منهم منافق أو مؤمن نورًا، ثم يتبعونه وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله).

وكما في حديث ابن مسعود الطويل الذي فيه يقول النبي ﷺ: (فيعطون نورهم على قدر أعمالهم وقال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى نوره دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطي نوره على

(١) قال العلامة الألباني في تعليقه على الطحاوية: موضوع: وهو قطعة من حديث رواه أبو نعيم والخطيب عن أبي هريرة مرفوعا، وذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، وتكلمت عليه في "الأحاديث الضعيفة" "٢٦٥".

(٢) أخرجه الطبراني (٢٢/ ٢٥٨، رقم ٦٦٨)، وابن عدى (٦/ ٣٩٤، ترجمة ١٨٨١ منصور بن عمار أبو السرى)، وأبو نعيم فى الحلية (٩/ ٣٢٩)، والبيهقى فى شعب الإيمان (١/ ٣٤٠، رقم ٣٧٤)، والخطيب في تاريخ (٩/ ٢٣٢)، والواحدي في الوسيط (٣/ ٩٢) والحديث ضعفه ابن عدي، وقال البيهقي: تفرد به سليم بن منصور وهو منكر، وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٩١٧)، وقال الذهبي في تلخيص العلل المتناهية (٣٥٤): لم يصح، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٩٣): غريب جدا، وقال ابن رجب في التخويف من النار (ص٢٤٣): غريب وفيه نكارة، وقال الهيثمى (١٠/ ٣٦٠): فيه سليم بن منصور بن عمار وهو ضعيف، وشار الحافظ في اللسان (٨/ ١٦٦) إلى ضعفه، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٣٤١٣).

إبهام قدمه، يضيء مرة، ويطفأ مرة إذا أضاء قدم قدمه، وإذا أطفئ قام)[١].

٢- انطفاء نور المنافقين: في هذا الموقف الرهيب حيث تجد أن الذعر والخوف قد استحوذ على الناس، كلهم يريد النجاة بحشاشة نفسه من الكلاليب، والخطاطيف، فإذا نور المنافقين يطفأ كما في حديث جابر عند مسلم (١٩١) (ويعطى كل إنسان منهم منافق أو مؤمن نورًا. ثم يتبعونه وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله، ثم يطفأ نور المنافقين. ثم ينجو المؤمنون).

٣- اختلاف سرعة الناس في المرور على الصراط: تختلف سرعة الناس في المرور على الصراط وذلك باختلاف قوة النور الذي يعطى لهم على قدر أعمالهم كما بينا في الفقرة السابقة، ويدل عليه حديث ابن مسعود الطويل الذي فيه يقول النبي ﷺ: (ويمرون على الصراط والصراط كحد السيف، دحض مزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرجل، يرمل رملًا، فيمرون على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه تخرُّ يد، وتعلق يد، وتخر رجل، وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون، فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد)[٢].

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٠٨). وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ، ووافقه الذهبي، وقال السيوطي في البدور السافرة (١٥٨): طريقه صحيحة متصلة رجالها ثقات، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦٢٩).

(٢) تقدم تخريجه في التعليق السابق.

قلت: وفي رواية أخرى عن ابن مسعود تبين أن الناس يردون النار كلهم ثم يخرجون منها بأعمالهم مع اختلاف في سرعتهم، كما قال السدي: (سألت مرة الهمداني عن قول الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فحدثني أن عبد الله بن مسعود حدثهم عن رسول الله ﷺ قال: يرد الناس كلهم النار ثم يصدرون منها بأعمالهم فأولهم كلمع البرق، ثم كمر الريح، ثم كحضر الفرس، ثم كالراكب، ثم كشد الرجال، ثم كمشيهم)[١].

وكذلك في رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند مسلم (١٩٥) بعد أن وصف النبي ﷺ صفة الصراط، وذكر الشوكة العقيفاء، قال: (المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل، والركاب)[٢].

قال العيني في عمدة القاري (٢٠/ ٣٢٠): قوله (كالطرف): بكسر الطاء وهو الكريم من الخيل وبالفتح البصر).

قلت: المعنى الثاني هو المراد بدليل أن النبي ﷺ ذكر بعد ذلك البرق، والريح، ومرور الخيل على الترتيب في السرعة.

أجاويد الخيل: جمع الأجود وهو جمع الجواد وهو فرس بيِّنٌ الجودة.

(الركاب: الإبل واحدتها الراحلة من غير لفظها.اهـ.

قلت: وهناك من يزحف على الصراط زحفًا كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم. حتى تعجز

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٠٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٣١١): إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفًا)[١].

أما آخر الناس مرورًا على الصراط فهو المسحوب كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ وفيه يقول النبي ﷺ: (حتى يمر آخرهم يسحب سحبًا)[٢].

أثر ابن مسعود: قال عبد الله بن مسعود رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: (يأمر الله تبارك وتعالى بالصراط فيضرب على جهنم قال: فيمر الناس زمرًا على قدر أعمالهم، أوائلهم كلمح البرق (الخاطف)، ثم كمر الريح، ثم كمر الطائر، ثم كأسرع البهائم، ثم كذلك ثم يمر الرجل سعيًا، ثم يمر الرجل ماشيًا، ثم يكون آخرهم رجلًا يتلبط على بطنه يقول: يا رب لم أبطأت بي؟ فيقول: إنما أبطأ بك عملك!)[٣]، وهذا الأثر له حكم الرفع لأنه مما لا يقال بالرأي فهو من الأمور الغيبية.

الأمانة والرحم على الصراط: يدل على ذلك حديث أبي هريرة وحذيفة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا عند مسلم (١٩٥) عن النبي ﷺ عندما ذكر ذهاب الناس إلى آدم، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمد، قال ﷺ: (وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يمينًا وشمالًا)، قلت: وذلك يدل على عظم شأنهما والظاهر والراجح أنهما تقومان كشيئين، ولا يعلم حقيقتهما إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٥٣): والمعنى أن الأمانة والرحم لعظم شأنهما وفخامة ما يلزم العباد من رعاية حقهما يوقفان هناك للأمين والخائن،

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٦٤١). وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال ابن كثير في نهاية البداية والنهاية (٢/ ٩٢): روي مرفوعًا وموقوفًا والموقوف أصح.

والمواصل والقاطع، فيحاجان عن المحق، ويشهدان على المبطل)..اهـ..

قال الطيبي كما في الفتح (١١/ ٤٥٣): ويمكن أن يكون المراد بالأمانة ما في قوله تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ [الأحزاب: ٧٢]. وصلة الرحم ما في قوله تعالى: وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ [النساء: ١]. فيدخل فيه معنى التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله فكأنهما اكتنفتا جنبتي الإسلام الذي هو الصراط المستقيم وفطرتي الإيمان والدين القويم)..اهـ.. انظر كتاب صفة الصراط.

المسألة السادسة: من أول من يجيز الصراط

نبينا ﷺ ثم أمته أول من يجيز الصراط: يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتفق عليه الذي فيه يقول النبي ﷺ: (ويضرب السراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها)[1] وهذا لفظ البخاري).

وكذلك رواية أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الآذان من صحيح البخاري وفيها يقول النبي ﷺ: (فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم).

قلت: ورواية أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (١٩٥) توضح مكان النبي ﷺ إلى أن تمر أمته كلها - وهو على الصراط ﷺ وذلك لقوله ﷺ فيها بعد أن ذكر صفات الذين يمرون على الصراط: (ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم). وكذلك الأنبياء عليهم السلام كما في رواية أبي سعيد رضي الله عنه عند مسلم (١٨٣) عن النبي ﷺ قال: (والأنبياء بجنبتي الصراط وأكثر قولهم: اللهم سلم سلم).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٣٧)، ومسلم برقم (١٨٢، ٢٩٦٨).

المسألة السابعة: الناجون والهالكون على الصراط

بين النبي ﷺ مصير الناس بعد المرور على الصراط في أحاديث كثيرة، فقال في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بعد أن ذكر كيف يمر الناس على الصراط: (فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنم حتى يمر آخرهم يسحب سحبا)[١]، وفي رواية عند ابن أبي عاصم (٦٣٤) (فناج مسلم ومخدوش مكلم ومكردس في النار)[٢].

وفي رواية ابن ماجة وغيره: (فناج مسلم، ومخدوش به، ثم ناج ومحتبس به ومنكوس فيها)[٣].

قال ابن أبي جمرة كما في الفتح (١١/ ٤٥٤): يؤخذ منه أن المارين على الصراط ثلاثة أصناف: ناج بلا خدش، وهالك من أول وهلة، ومتوسط بينهما يصاب ثم ينجو. وكل قسم منها ينقسم أقسامًا تعرف بقوله: (بقدر أعمالهم).اهـ.

قلت: وهناك قسم رابع وهو المحتبس به كما في حديث أبي سعيد الخدري الذي تقدم. والله أعلم.

أما الصنف الأول الذي ذكره ابن أبي جمرة وهو: الناج بلا خدش: فقد ذكره ﷺ في أحاديث كثيرة بلفظ (ناج مسلم) كما في الأحاديث السابقة، والناس من هذا الصنف هم الذين يعطون نورًا عظيمًا على الصراط على قدر أعمالهم، فينطلقون عليه بسرعة عظيمة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٢) قال العلامة الألباني في ظلال الجنة (١/ ٣٤٢): إسناده جيد.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٤٧٢) وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة.

وقد ذكر رسول الله ﷺ في حديث جابر عند مسلم (١٩١) صفتهم بقوله: (ثم ينجو المؤمنون، فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر، سبعون ألفًا لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء)

والصنف الثاني وهو: الهالك من أول وهلة: ذكره النبي ﷺ بألفاظ مختلفة كقوله في الأحاديث السابقة: (مكردس في النار) و(منكوس فيها) و(مكدوس في نار جهنم) وقوله في رواية أبي هريرة عند البخاري: (الموبق بقي بعمله) والناس في هذا الصنف هم المنافقون الذين يعطيهم الله تعالى نورًا فينطلقون على الصراط ثم يطفأ نورهم فيسقطون في النار والعياذ بالله... وكذلك العصاة والفسقة من الموحدين الذين يشاء الله تعذيبهم. والله أعلم.

وقوله: (منكوس فيها) قال الراغب في كتابه المفردات في غريب القرآن (ص٥٠٥): النكس قلب الشيء على رأسه.اهـ.

وقال الفيومي في المصباح (ص ٦٢٥): ومنه قيل ولد (منكوس) إذا خرج رجلاه قبل رأسه لأنه مخالف للعادة..اهـ..

قلت: مما سبق يتبين لنا أن قوله ﷺ: (منكوس فيها) أي مقلوب فيها على رأسه والله أعلم.

وقوله: (مكدوس في نار جهنم) قال ابن الأثير في النهاية (٤/ ١٥٥): أي مدفوع، وتكدس الإنسان إذا دفع من ورائه فسقط، ويروى بالشين المعجمة، من الكدش، وهو السوق الشديد..اهـ..

وقوله: (الموبق بقي بعمله) قال العيني في عمدة القاري (٢٠/ ٣١٦): الموبق: من وبق: أي هلك، أوبقته ذنوبه: أهلكته..اهـ.

قلت: كما في حديث: ((اجتنبوا السبع الموبقات)) أي المهلكات.

أما الصنف الثالث وهو: المتوسط بينهما يصاب ثم ينجو: فقد ذكره النبي ﷺ بألفاظ مختلفة كقوله في الأحاديث السابقة: (مخدوش مكلم) و(مخدوج به) وكقوله في رواية أبي هريرة عند البخاري (ومنهم المخردل ثم ينجو).

وقوله في رواية أبي هريرة عند مسلم: (ومنهم المجازى حتى يُنجَّى).

والناس من هذا الصنف هم الذين اجترحوا السيئات واكتسبوا الخطايا، فتخطفهم الكلاليب، فتجرح أجسادهم، ثم ينجون بفضل رحمة الله ثم بما قدموه من طاعات في الحياة الدنيا، والله أعلم.

وقوله: (مخدوش مكلم) قال ابن الأثير في النهاية (٢/ ١٤): خدش الجلد: قشره بعود أو نحوه..اهـ..

وقال الكرماني كما في عمدة القاري (٢٠/ ٣٢٠): مخدوش: أي مخموش ممزوق. وهو من الخمش وهو تمزيق الوجه بالأظافير.اهـ.

وقوله (مكلم) من الكلم وهو الجرح. وقوله (مخدوج به) من الخداج وهو النقصان كما قال ابن الأثير في النهاية (٢/ ١٢). قلت: والمعنى أن كلاليب الصراط تجرحه فتنقص من جسده، والله أعلم.

وقوله: (ومنهم المخردل ثم ينجو) قال ابن الأثير في (النهاية) (٣/ ٢٠): هو المرمي المصروع، وقيل: المقطع، تقطعه كلاليب الصراط، يقال: خردلت اللحم: أي فصلت أعضاءه وقطعته ومنها قصيدة كعب بن زهير:

يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما... لحم من القوم معفور خراديل

أي مقطع قطعًا)..اهـ..

قلت: والمعنى الثاني أنسب لسياق الخبر، والله أعلم. وقوله: (المجازي حتى ينجى) المجازى: من الجزاء. والمعنى والله أعلم أن ما يحدث له على

الصراط من تقطيع وترويع عظيمين إنما هو جزاء له على أعماله الفاسدة، وعلى تقصيره في حق ربه في حياته الدنيا.

(فرع): كلام الناجين بعد المرور على الصراط

بين لنا النبي ﷺ في حديث ابن مسعود الطويل الذي تقدم ماذا يقول الناجون بعد الانتهاء من المرور على الصراط ونجاتهم من السقوط في النار بقوله بعد أن ذكر مرور الناس على الصراط: (فيخلصون فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد).

نسأل الله تعالى الرحمن الرحيم، أن نكون من الناجين في ذلك اليوم العظيم العصيب، فالنجاة في ذلك اليوم لا تكون إلا بفضل مشيئة الله تعالى ورحمته ثم بما قدمه المرء من أعمال صالحة في هذه الحياة الفانية، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتقدم (ويوضع الصراط مثل حد الموسى، فتقول الملائكة: من يجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي، فيقولون: ما عبدناك حق عبادتك).

المسألة الثامنة: القنطرة غير الصراط

في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند البخاري (٦٥٣٥) قال: قال رسول الله ﷺ: (يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص **لبعضهم** من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة بمنزله كان في الدنيا).

وفي روايه عند البخاري (إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار).

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٩٩): واختلف في القنطرة المذكورة فقيل:

هي من تتمة الصراط وهي طرفه الذي يلي الجنة وقيل أنهما صراطان وبهذا الثاني جزم القرطبي.اهـ.

وقال الحافظ في الفتح أيضا (٥/ ٩٦) الأول فقال: الذي يظهر أنها طرف الصراط مما يلي الجنة، ويحتمل أن تكون من غيره بين الصراط والجنة.اهـ..

قلت: ذكر القرطبي أن الصراط صراطان في كتابه التذكرة (ص٣٣٨) فقال: اعلم رحمك الله أن في الآخرة صراطين: أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم إلا من دخل الجنة بغير حساب، أو من يلتقطه عنق النار فإذا خلص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفذ حسناتهم حبسوا على صراط آخر خاص لهم ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم الذي يسقط فيها من أوبقه ذنبه، وأربى على الحسنات بالقصاص جرمه..اهـ..

وذكر العيني نحو ذلك في عمدة القاري (١٩/ ٧٥). فقال عند ذكر القنطرة: قيل هذا يشعر بأن في القيامة جسرين، هذا والذي على متن جهنم المشهور بالصراط. واجيب بأنه لا محذور فيه، ولئن ثبت بالدليل أنه واحد فتأويله أن هذه القنطرة من تتمة الأول.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في شرح الواسطية (ص٥٢٠): "القنطرة" هي الجسر، لكنها جسر صغير، والجسر في الأصل ممر على الماء من نهر ونحوه.

واختلف العلماء في هذه القنطرة؛ هل هي طرف الجسر الذي على متن جهنم أو هي جسر مستقل؟ والصواب في هذا أن نقول: الله أعلم، وليس يعنينا شأنها، لكن الذي يعنينا أن الناس يوقفون عليها.

قوله " فيقتص لبعضهم من بعض ": وهذا القصاص غير القصاص الأول الذي في عرصات القيامة؛ لأن هذا قصاص أخص؛ لأجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التي في قلوب الناس، فيكون هذا بمنزلة التنقية والتطهير، وذلك لأن ما في القلوب لا يزول بمجرد القصاص.

فهذه القنطرة التي بين الجنة والنار؛ لأجل تنقية ما في القلوب، حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل، كما قال الله تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧].

هكذا رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذا هذبوا مما في قلوبهم من العداوة والبغضاء ونقوا منها، فإنه يؤذن لهم في دخول الجنة؛ فإذا أذن لهم في الدخول؛ فلا يجدون الباب مفتوحا، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشفع إلى الله في أن يفتح لهم باب الجنة؛ كما سيأتي في أقسام الشفاعة إن شاء الله.اهـ.

والذي يقتضي الدليل رجحانه أن القنطرة جسر بين الجنة والنار لا علاقة له بالصراط كما هو ظاهر حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وظاهره يدل أيضًا على أن المؤمنين خلصوا أي فرغوا وانتهوا من المرور على الصراط كما قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٩٩): قوله: (إذا خلص المؤمنون من النار) أي نجوا من السقوط فيها بعد ما جازوا على الصراط.اهـ.

وكما قال القرطبي في التذكرة ص٣٣٨): معنى يخلص المؤمنون من النار أن يخلصوا من الصراط المضروب على النار.اهـ.

ويشهد لذلك حديث ابن مسعود الطويل الذي تقدم والذي يصف فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرور الناس على الصراط حتى قال فيه: (حتى يمر الذي نوره على إبهام

قدمه تخر يد، وتعلق يد وتخر رجل، وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد) فهذا الحديث صريح في أن معنى خلصوا هو انتهاء الناس من المرور على الصراط، وبذلك نعلم أن القنطرة ليست تتمة للصراط، والعلم عند الله تعالى.

(باب ذكر مباحث الإيمان بالشفاعة)

مسائل في الشفاعة

المسألة الأولى: تعريف الشفاعة

الشفاعة في لغة العرب مشتقة من الشفع الذي هو غير الوتر، أي أن الشفع هو الزوج الذي هو عكس الوتر عند الإطلاق، تقول: أعطيتك كتابًا ثم شفعته بآخر، أي صار ما معك زوجًا بعد أن كان وترًا، قال ابن منظور: (شفع الوتر من العدد شفعًا: صيره زوجًا[1]).

وفي تاج العروس (١/ ٥٣٤٨): الشفاعة في اللغة: الانضِمامُ إلى آخَرَ ناصرًا له وسائلًا عنه وأكثرُ ما يُستعمَلُ في انضِمامِ مَن هو أعلى مَرْتَبةً إلى من هو أدنى ومنه الشَّفاعَةُ في القيامة.اهـ.

والمشفع - بكسر الفاء - هو الذي يقبل الشفاعة.

والمشفع - بفتح الفاء - هو الذي يقبل شفاعته.

قال ابن الأثير في النهاية (٢/ ٤٨٥): قد تكرر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، يقال: شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع، والمشفع الذي يقبل الشفاعة

---

(١) لسان العرب (٨/ ١٨٣).

والمشفع الذي تقبل شفاعته.اهـ.

وعرفها اللقاني كما في شرح جوهرة (١٨٦) بأنها في اللغة هي: الوسيلة والطلب.اهـ.

ومن المشفع أخذت تسمية الشفعة التي هي الزيادة: لأن من حقت له الشفعة زاد في ماله ذلك المشفوع؛ فيصير ما معه شفعًا، وكأن ما حصل معه من الملك قبل الشفعة وترًا، وبعد أخذ المشفوع صار شفعًا.

وفي هذا يقول ابن الأثير في النهاية (٢/ ٤٨٥): الشفعة في الملك معروفة، وهي مشتقة من الزيادة، لأن الشفيع يضم المبيع إلى ملكه.اهـ.

وقال الراغب في المفردات (ص: ٢٦٣): الشفع ضم الشيء إلى مثله، قال: والشفعة: هو طلب مبيع في شركته بما بيع به ليضمه إلى ملكه، وهو من الشفع.اهـ.

وأما معاني الشفاعة الشرعية فهي متقاربة مع معانيها اللغوية، وذلك لأن الشفاعة في اللغة يراد بها معانيها اللغوية من انضمام شيء إلى شيء آخر، وزيادته في شيء مخصوص، وأما في الشرع فهي التي يراد بها معناها الواضح الذي ورد به الشرع، مخبرًا عنه ومبينًا أمره، مما يحصل في الدار الآخرة، وهي: طلب الرسول محمد ﷺ - أو غيره - من الله في الدار الآخرة حصول منفعة لأحد من الخلق.

فقد عرفها الراغب في المفردات (ص٣٨٦) بقوله: هي الانضمام إلى آخر ناصرًا له سائلًا عنه، واكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو ادنى.اهـ.

وعرفها إبن الاثير في النهاية (٢/ ٤٨٥) بقوله: هي السؤال في التجاوز عن

الذنوب والجرائم.اهـ.

وعرفها شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوي (٧/ ٦٥) بقوله: إعانة على خير يحبه الله ورسوله، من نفع من يستحق النفع، ودفع الضر عمن يستحق دفع الضرر عنه.اهـ.

وعرفها الجرجاني في التعريفات (ص ٧٣) بقوله: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقعت الجناية في حقه.اهـ.

والذي يلاحظ من هذه التعريفات أنها مقتصرة على الشفاعة الحسنة، وأغفلت السيئة منها، وإلاّ فالشفاعة تكون في فعل الخير، وتكون ايضًا في فعل الشر، يقول تعالى: (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها، ومَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها) ولكن مقصودهم من هذه التعريفات هي (الشفاعة الاخروية) وهي تختص بالحسنة فقط.

ويدخل تحت هذا التعريف جميع أنواع الشفاعات الخاصة بنبينا محمد ﷺ وغيره، كالشفاعة العظمى وهي طلب الرسول محمد ﷺ من ربه إراحة الناس من الموقف بمجيئه لفصل القضاء، ويدخل كذلك شفاعته ﷺ في دخول أهل الجنة الجنة، وشفاعته في تخفيف العذاب عن أبي طالب، وشفاعة الشفعاء في رفع الدرجات في الجنة، وكذا الشفاعة في إخراج قوم من النار، وإدخالهم الجنة.

المسألة الثانية: الإيمان بالشفاعة

أهل السنة والجماعة يثبتون الشفاعة للنبي ﷺ ولغيره من الأنبياء والملائكة والشهداء وصالحي المؤمنين، حسبما وردت به الأدلة في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ مع نفي الشفاعة التي نفتها الأدلة من الكتاب والسنة.

ومن أقوال العلماء في ذلك ما قاله الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر

(ص٩٧): وأجمعوا على أن شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته وعلى أن يخرج من النار قوم من أمته بعدما صاروا حُمَما.اهـ.

وعقد ابن خزيمة بابًا مطولًا في كتابه التوحيد (ص٣٧٣) بعنوان: باب ذكر أبواب شفاعة النبي ﷺ التي خُصَّ بها دون الأنبياء سواه صلوات الله عليه وسلامه لأمته، وشفاعة النبي ﷺ دون غيره من الأنبياء - صلوات الله عليهم - وشفاعة بعض أمته لبعض أمته ممن أوبقتهم خطاياهم وذنوبهم فأدخلوا النار، ليخرجوا منها بعد ما قد عذبوا فيها بقدر ذنوبهم وخطاياهم التي لا يغفرها الله لهم، ولم يتجاوز لهم عنها بفضله وجوده... ثم ساق الأحاديث التي تثبت الشفاعة.

وقال النووي في شرح مسلم (١/ ٣٢٥) نقلا عن القاضي عياض أنه قال عن الشفاعة: وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها .اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (١/ ١٤٨): وأما شفاعته " لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر الأئمة المسلمين الأربعة وغيرهم، وأنكرها كثير من أهل البدع.اهـ.

وقال في اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٥٩): فالمشركون ومن وافقهم من مبتدعة أهل الكتاب، كالنصارى، ومبتدعة هذه الأمة[١] أثبتوا الشفاعة التي نفاها القرآن.

---

(١) الذين غلو بإثبات الشفاعة من هذه الأمة حتى أثبتوا الشفاعة الباطلة هم عامة الصوفية القبورية، فهم أثبتوا الشفاعة للأولياء وأصحاب القبور والكفار أثبتوا الشفاعة لأصنامهم.

والخوارج والمعتزلة: أنكروا شفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر من أمته، بل أنكر طائفة من أهل البدع انتفاع الإنسان بشفاعة غيره ودعائه، كما أنكروا انتفاعه بصدقة غيره وصيامه عنه.

وأنكروا الشفاعة بقوله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ} [البقرة: ٢٥٤] وبقوله تعالى: {مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ} [غافر: ١٨] ونحو ذلك.

وأما سلف الأمة وأئمتها، ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة، فأثبتوا ما جاءت به السنة عن النبي ﷺ، من شفاعته لأهل الكبائر من أمته، وغير ذلك من أنواع شفاعاته، وشفاعة غيره من النبيين والملائكة.

وقالوا: إنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد، وأقروا بما جاءت به السنة من انتفاع الإنسان بدعاء غيره وشفاعته، والصدقة عنه، بل والصوم عنه في أصح قولي العلماء، كما ثبتت به السنة الصحيحة الصريحة، وما كان في معنى الصوم.

وقالوا: إن الشفيع يطلب من الله ويسأل، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه. قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥] {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: ٢٨] وقد ثبت في الصحيح: أن سيد الشفعاء ﷺ إذا طُلبت منه بعد أن تطلب من آدم وأولي العزم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى؛ فيردونها إلى محمد ﷺ، العبد الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال «فأذهب إلى ربي، فإذا رأيته خررت له ساجدا، فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي، لا أحسنها الآن، فيقول لي: أي محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، قال: فأقول: رب أمتي أمتي فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة».

وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا - أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} [الإسراء: ٥٦ - ٥٧].

قال طائفة من السلف: كان أقوام يدعون العزير والمسيح والملائكة، فأنزل الله هذه الآية، وقد أخبر فيها أن هؤلاء المسؤولين يتقربون إلى الله، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه. وقد ثبت في الصحيح أن أبا هريرة قال: «يا رسول الله، أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: "يا أبا هريرة، لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك؛ لما رأيته من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بها وجه الله».

فكلما كان الرجل أتم إخلاصا لله؛ كان أحق بالشفاعة، وأما من علق قلبه بأحد من المخلوقين، يرجوه ويخافه؛ فهذا من أبعد الناس عن الشفاعة. فشفاعة المخلوق عند المخلوق تكون بإعانة الشافع للمشفوع له، بغير إذن المشفوع عنده، بل يشفع إما لحاجة المشفوع عنده إليه، وإما لخوفه منه، فيحتاج أن يقبل شفاعته. والله تعالى غني عن العالمين، وهو وحده سبحانه يدبر العالمين كلهم، فما من شفيع إلا من بعد إذنه، فهو الذي يأذن للشفيع في الشفاعة، وهو يقبل شفاعته، كما يلهم الداعي الدعاء، ثم يجيب دعاءه، فالأمر كله له.اهـ.

وقال الذهبي في كتابه إثبات الشفاعة (ص١٩): أما بعد، فإنا -بحمد الله- ممن من عليهم بمجانبة المبتدعة من المعتزلة والمرجئة، فلا نقول بتخليد فساق المسلمين في النار كما قالته المعتزلة والخوارج، وردوا أحاديث الرجاء، ولا نقول بسلامة المسلم المصر عل الكبائر، كالقتل والظلم وقطع الطريق والزنا

والربا أو غير ذلك كما قالته المرجئة وردت أحاديث الوعيد، بل نؤمن أن الله تعالى يخرج من النار من في قلبه أدنى وزن ذرةٍ من إيمان برحمته وكرمه وشفاعة نبيه وغير ذلك.

فشفاعته لأهل الكبائر من أمته، وشفاعته نائلةٌ من مات يشهد أن لا إله إلا الله. فمن رد شفاعته ورد أحاديثها جهلًا منه، فهو ضالٌ جاهل قد ظن أنها أخبار آحاد، وليس الأمر كذلك، بل هي من المتواتر القطعي، مع ما في القرآن من ذلك.اهـ.

وقال السفاريني في لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٠٨) عند كلامه عن الشفاعة: انعقد عليها إجماع أهل الحق من السلف الصالح قبل ظهور المبتدعة .اهـ.

وقال الهراس في شرح العقيدة الواسطية (ص٢١٥): الشفاعة من الأمور التي ثبتت بالكتاب والسنة، وأحاديثها متواترة؛ قال تعالى: (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) [البقرة:٢٥٥] فنفي الشفاعة بلا إذن إثباتٌ للشفاعة من بعد الإذن.

وقال تعالى: عن الملائكة: (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى) [النجم:٢٦]. فبيَّن الله الشفاعة الصحيحة، وهي التي تكون بإذنه، ولمن يرتضي قوله وعمله.اهـ.

وقال العلامة الألباني في التعليق على متن الطحاوية (ص٣٧ - ٣٨): معلقًا على قول صاحب الطحاوية: "والشفاعة التي ادخرها لهم، -أي: لأمته- حق كما روي في الأخبار": قلت: وهي متواترة.. وقد عقد لها ابن أبي عاصم في السنة ستة أبواب (١٦٣ - ١٦٨) رقم الأحاديث (٧٨٤ - ٨٣٢) وساق طائفة منها الشارح رَحِمَهُ اللهُ في شرحه تضمنت أن شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم ثمانية

أنواع فليراجعه من شاء البحث والتحقيق فإنه هام.

المسألة الثالثة: من يملك الشفاعة

الشفاعة لله وحده يعطيها من يشاء من عباده ممن رضي عنهم، ويحرمها من لا يرضى عنهم (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)، فقوله تعالى: (جَمِيعًا) يعني لا يملكها أحد غيره سبحانه، وقد صرح بهذا المفهوم في آية أخرى فقال تعالى: (وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) فقطع بها آمال المشركين الذي يرجون في آلهتهم الشفاعة والنفع، وقوله: (إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) هذا الاستثناء يحتمل أنه منقطع، والمعنى: لكن من شهد بالحق -وهو التوحيد- وهم يعلمون ما تضمنه هذا التوحيد من إفراد الله تعالى بالعبادة، فهؤلاء الموحدون يأذن الله لهم بالشفاعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "الشفاعة المطلوبة هي شفاعة المطاع الذي تقبل شفاعته وهذه ليست لأحد عند الله إلا بإذنه قدرًا وشرعًا فلابد أن يأذن فيها ولابد أن يجعل العبد شافعًا فهو الخالق لفعله والمبيح له كما في الداعي هو الذي أمره بالدعاء وهو الذي يجعل الداعي داعيًا فالأمر كله لله خلقًا وأمرًا كما قال: (ألا له الخلق والأمر)، قال والمراد بالشفاعة المثبتة هي الشفاعة المطلقة وهي المقصود بالشفاعة وهي المقبولة.. قال: والشفاعة المقبولة هي النافعة، بين ذلك في مثل قوله (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقوله) يؤمئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولًا (فنفى الشفاعة المطلقة وبين أن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له وهو الأذن الشرعي "[1].

وقال الإمام ابن القيم: "الشفاعة التي أثبتها الله ورسوله هي الشفاعة

---

(١) مجموع فتاوى (١٤/ ٣٨٧-٣٨٩).

الصادرة عن إذنه لمن وحده "[١].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقوله (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) كقوله (وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وكقوله: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عَزَّوَجَلَّ أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة كما في حديث الشفاعة "[٢].

وقال الشيخ حمد بن ناصر بن معمر رَحِمَهُ اللَّهُ: "الشفاعة: التي أثبتها القرآن قيدها سبحانه بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له؛ فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا يأذن للشفعاء أن يشفعوا إلا لمن رضي قوله، وعمله؛ وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد، وأخبر الرسول ﷺ أن أسعد الناس بشفاعته أهل التوحيد والإخلاص؛ فمن طلبها منه اليوم، حرمها يوم القيامة؛ والله سبحانه قد أخبر أن المشركين لا تنفعهم شفاعة الشافعين؛ وإنما تنفع من جرد توحيده؛ بحيث أن يكون الله وحده هو إلهه ومعبوده؛ وهو سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا، كما قال تعالى: (ألا لله الدين الخالص) (الزمر: ٣)، فإذا تأملت الآيات تبين لك أن الشفاعة المنفية هي التي يظنها المشركون ويطلبونها اليوم من غير الله، وأما الشفاعة المثبتة فهي التي لأهل التوحيد والإخلاص؛ كما أخبر الرسول ﷺ أن شفاعته نائلة من مات من أمته، لا يشرك بالله شيئًا. والله أعلم[٣].

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٠)، ومفتاح دار السعادة (٢/ ٢٧٠).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣١٠).
(٣) الدرر السنية في الكتب النجدية (٣/ ١٥٦).

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشفاعة المثبتة، هي: التي تطلب من الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ والشافع: مكرم بالشفاعة؛ والمشفوع له: من رضي الله قوله وعمله، بعد الإذن؛ والدليل قوله تعالى:) الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) البقرة: ٢٥٥)[١].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ظاهر هذه الآية عدم قبول الشفاعة مطلقًا يوم القيامة ولكنه بين في مواضع أخر أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السماوات والأرض، أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع فنص على عدم الشفاعة للكفار بقوله (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) الأنبياء (٢٨)، وقد قال (وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) سورة الزمر وقال تعالى عنهم: مقررًا له) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ) سورة الشعراء (١٠٠)، وقال: (" فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) سورة المدثر (٤٨) إلى غير ذلك من الآيات، وقال في الشفاعة بدون إذنه من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه وقال:) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى (سورة النجم (٢٦) وقال: (يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (سورة طه (١٠٩)، وقال: (وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) سورة سبأ (٢٣) إلى غير ذلك من الآيات وادعاء شفعاء عند الله للكفار أو بغير إذنه من أنواع الكفر به جل وعلا كما صرح بذلك في قوله: (وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (سورة

---

(١) الدرر السنية في الكتب النجدية ٣ / ٢١ – ٢٢.

يونس (١٨) ثم قال الشيخ الشنقيطي (تنبيه) هذا الذي قررناه من أن الشفاعة للكفار مستحيلة شرعًا مطلقًا يستثنى منه شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب في نقله من محل من النار إلى محل آخر منها كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح فهذه الصورة التي ذكرنا من تخصيص الكتاب بالسنة[1].

وقال الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هذين البيتين من منظومته سلم الوصول (ص١٠٦٢):

كَذَا لَهُ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى كَمَا ... قَدْ خَصَّهُ اللهُ بِهَا تَكَرُّمَا

مِنْ بَعْدِ إِذْنِ اللهِ لاَ كَمَا يَرَى ... كُلُّ قُبُورِيٍّ عَلَى اللهِ افْتَرَى

قال: (كذا له) لنبينا ﷺ (الشفاعة العظمى) يوم القيامة، وهو المقام المحمود الذي قال الله تعالى عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا [الإسراء: ٧٩] ولذا قلنا (قد خصه الله بها) بالشفاعة (تكرمًا) منه عَزَّوَجَلَّ عليه ﷺ وعلى أمته به كما في الصحيح عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النَّبيّ ﷺ قال (أُعطيتُ خمسًا لم يُعْطَهنَّ أَحَدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعب مسيرة شهر، وجعلتْ لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأَيَّما رجلٍ من أُمَّتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحِلَّتْ لي الغنائم ولم تحلّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيتُ الشفاعة، وكان النبيُّ يُبْعَثُ إلى قومه خاصَّةً وبعثت إلى الناس عامة)[2]، وفيه عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ (لكلِّ نبيٍّ دعوة قد دعا بها في أُمَّته، وخبأت دعوتي شفاعة لأُمَّتي يوم القيامة)[3]، وفيه عن أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قال (لكلِّ نبي دعوةٌ دعاها لأُمَّته، وإِنِّي اختبأت دعوتي شفاعةً لأُمَّتي يوم

(١) أضواء البيان (١ / ٣٥ – ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠١).

القيامة)[١]، وفيه عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ (لكلِّ نبيّ دعوةٌ مستجابة، فتعجَّل كل نبيٍّ دعوته، وإِنِّي اختبأتُ دعوتي شفاعة لأُمَّتي يوم القيامة فهي نائلةٌ إِنْ شاء الله تعالى من مات من أُمَّتي لا يشرك بالله شيئًا)[٢]، وفيه عن عبد الله بن عمرو ﵁ أَنَّ النَّبيّ ﷺ تلا قول الله ﷿ في إبراهيم رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [إبراهيم: ٣٦] وقال عيسى ﵇: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: اللهم أُمَّتي، وبكى، فقال الله ﷿: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسلْه: ما يبكيك. فأتاه جبريلُ ﵇ فسأله، فأخبره رسولُ اللهِ ﷺ بما قال - وهو أعلم - فقال اللهُ تعالى: يا جبريلُ اذهب إلى محمد فقل: إِنَّا سنرضيك في أُمَّتك ولا نسوؤك)[٣]، وفيه عنه ﵁ أَنَّه سمع النَّبيّ ﷺ يقول: (إذا سمعتم المؤذِّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ فإنّه من صلى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإِنَّها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأَلَ الله لي الوسيلة حلَّت له الشَّفاعة)[٤]، وفيه عن جابر بن عبد الله ﵄ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال (من قال حين يسمع النداء: اللَّهمَّ ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلَّت له شفاعتي يوم القيامة)[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٩).
(٣) أخرجه مسلم (٢٠٢).
(٤) أخرجه مسلم (٣٨٤).
(٥) أخرجه البخاري (٦١٤).

وتلك الشفاعة لا تكون إلا من بعد إذن الله ﷻ، سواء في ذلك شفاعة نبينا ﷺ وشفاعة من دونه، وذلك الإذن يتعلق بالشافع والمشفوع فيه، وبوقت الشفاعة، فليس يشفع إلا من أذن الله له في الشفاعة، وليس له أن يشفع إلا بعد أن يأذن الله له، وليس له أن يشفع إلا فيمن أذن الله تعالى له أن يشفع فيه، كما قال تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ) [البقرة: ٢٥٥] (مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) [يونس: ٣] (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ. وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) [سبأ: ٢٣] (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) [النجم: ٢٦] (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا) [الزمر: ٤٤] (وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [الزخرف: ٨٦] (لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) [مريم: ٨٧] (لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) [النبأ: ٣٨] (يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) [طه: ١٠٩] (وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى في الكفار: (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) [المدثر: ٤٨] (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ) [غافر: ١٨]، وقال عنهم: (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) [الشعراء: ١٠٠]، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [البقرة: ٢٥٤]. وسيأتي في ذكر الأحاديث مراجعة الرسل الشفاعة بينهم حتى تنتهي إلى نبينا ﷺ وأنه يأتي فيستأذن ربه ﷻ، ثم يسجد ويحمده بمحامد يعلمه تعالى إياها، ولم يزل كذلك

حتى يؤذن له ويقال: ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع، وأنه يحد له حدًا فيدخلهم الجنة ثم يرجع كذلك، وفي كل مرة يستأذن ويدعو حتى يؤذن له ويحد له حدًا حتى ينجو جميع الموحدين، وهكذا كل شافع بعده يسأل الشفاعة من مالكها حتى يؤذن له، إلى أن يقول الشفعاء لم يبق إلا من حبسه القرآن وحق عليه الخلود. والمقصود أن الشفاعة ملك لله ﷻ ولا تسأل إلا منه، كما لا تكون إلا بإذنه للشافع في المشفوع حين يأذن في الشفاعة.

(لا كما يرى كل قُبُوري) نسبة إلى القبور لعبادته أهلها (على الله افترى) في ما ينسبه إلى أهل القبور ويضيفه إليهم من التصرفات التي هي ملك لله ﷻ لا يقدر عليها غيره تعالى ولا شريك له فيها، ورتبوا على ذلك صرف العبادات إلى الأموات ودعاءهم إياهم والذبح والنذر لهم دون جبار الأرض والسموات، وسؤالهم منهم قضاء الحاجات ودفع الملمات، وكشف الكربات والمكروهات معتقدين فيهم أنهم يسمعون دعاءهم ويستطيعون إجابتهم. وقد تقدم كشف عوارهم وهتك أستارهم بما يشفي ويكفي ولله الحمد والمنة.

المسألة الرابعة: من الذي يشفع

لقد تكرم الله تعالى فجعل الشفاعة بابا واسعا؛ فبالإضافة إلى ثبوتها لنبينا محمد " وإعطائه فيها المقام الأعلى ثبتت كذلك لغيره من الخلق كالأنبياء الآخرين على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وكذا الملائكة، والشهداء، والصالحين والأولاد لآبائهم، وثبتت كذلك للقرآن الكريم.

قال البرديسي في تكملة شرح الصدور (ص٣٦): أجمع أهل السنة على ثبوت الشفاعة له ﷺ ولسائر الرسل والملائكة والعلماء والشهداء، يشفع كل واحد بقدر جاهه عند الله تعالى.

وفيما يلي ذكر أهل الشفاعة الذين اختصهم الله تعالى بها:

١- شفاعة نبينا محمد ﷺ، وقد ذكرنا أدلة ذلك في أنواع الشفاعات الثابتة له ﷺ، مما يدل على منزلته العظمى عند ربه، وذلك بإكرام الله له بكثرة شفاعاته.

٢- شفاعة الأنبياء الآخرين غير نبينا محمد ﷺ: ومن إكرام الله تعالى لأنبيائه وأصفيائه قبول شفاعتهم فيمن يشفعون له ممن سبقت لهم الرحمة، فيتقدمون بطلب شفاعتهم إلى ربهم في إخراج أقوام من النار دخلوها بذنوبهم ليخرجوا منها، وقد ثبتت هذه الشفاعة بما جاء في الصحيحين من حديث طويل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه قوله ﷺ: (فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما) وليس معنى هذا أن الله يخرجهم من النار وهم كفار؛ بل المعنى أنهم لم يعملوا خيرا سوى التوحيد، ولولا ذلك لما خرجوا؛ شأنهم شأن غيرهم من الكفار.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (يحمل الناس على الصراط يوم القيامة فتقادع بهم جنبة الصراط تقادع الفراش في النار قال فينجي الله تبارك وتعالى برحمته من يشاء قال ثم يؤذن للملائكة والنبيين والشهداء أن يشفعوا فيشفعون ويخرجون ويشفعون ويخرجون ويشفعون ويخرجون وزاد عفان مرة فقال أيضا ويشفعون ويخرجون من كان في قلبه ما يزن ذرة من إيمان) حسنه العلامة الألباني في ظلال الجنة (ج٢ رقم ٨٣٧).

٣- شفاعة الملائكة: ولا خلاف في ذلك بين الفرق الإسلامية، فقد ثبتت شفاعتهم بالأدلة الصحيحة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، ثبت أنهم

يشفعون لمن أذن الله له ورضي عنه، والملائكة خلق من خلق الله تعالى، خلقهم الله من نور، وأسكنهم السموات؛ خلقهم لعبادته، للقيام بمصالح البشر، وغير ذلك مما أراد الله تعالى منهم، ومن الأدلة على شفاعتهم من القرآن الكريم قوله تعالى: (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى)، وقوله تعالى: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)، أما ورود ذلك في السنة فقد قدمنا في مطلب شفاعة الأنبياء، أن الملائكة والأنبياء يشفعون.

٤- شفاعة الشهداء: ومن الشفعاء الذين أكرمهم الله تعالى بقبول شفاعتهم الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، وضحوا بأنفسهم وأموالهم من أجل إعلاء كلمة الله تعالى.

ومن الأدلة على شفاعتهم ما رواه أبو داود عن نمران بن عتبة الذماري قال: دخلنا على أم الدرداء ونحن أيتام، فقالت: أبشروا؛ فإني سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: (يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته)[(١)]، وعن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: (للشهيد عند الله ست خصال يغفر له في أول دفعة ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن من

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ١٥، رقم ٢٥٢٢)، وابن حبان (١٠/ ٥١٧، رقم ٤٦٦٠)، والبيهقى (٩/ ١٦٤، رقم ١٨٣٠٨) والحديث صححه ابن حبان وصححه العلامة الألباني لشواهده في صحيح الجامع (٣٧٤٧)، (٨٠٩٣)، وقال في صحيح أبي داود الأم (٧/ ٢٨١): هذا إسناد ضعيف، رجاله ثقات؛ غير نمران هذا؛ قال الذهبي: "لا يدرى من هو؟". قلت: لكن للحديث شواهد يتقوى به، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق السير (١/ ١٩٣): هذا سند حسن. رجاله ثقات غير نمران بن عتبة الذماري، فإنه لم يوثقه غير ابن حبان. وقد روى عنه اثنان، ومثله حسن الحديث. وقد صحح حديثه هذا ابن حبان.

الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقاربه)[(١)].

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣١، رقم ١٧٢٢١)، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٢٦٥، رقم ٩٥٥٩)، وسعيد بن منصور في سننه (٢٥٦٢)، والترمذى (٤/ ١٨٧، رقم ١٦٦٣)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٥، رقم ٢٧٩٩)،، وابن أبي عاصم في الجهاد (٢٠٤)، والطبراني في الكبير (٢٠/ رقم٦٢٩)، وفي مسند الشاميين (١١٢٠)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤/ ٢٥، رقم ٤٢٥٤)، والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال المنذري: إسناد أحمد حسن، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٣٢١٣)، وصححه الشيخ مصطفى العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٥)، أما الأرنؤوط ومن معه فقالوا في تتحقيق المسند (٢٨/ ٤١٩): رجاله ثقات، غير إسماعيل بن عياش، فقد اضطرب فيه: فرواه بهذا الإسناد، ورواه عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن كثير بن مرة، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ، كما سيأتي في الرواية التالية. ورواه عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن كثير بن مرة، عن عقبة بن عامر، موقوفا، عند الطبراني في "مسند الشاميين" (١١٦٣). ورواه عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن كثير بن مرة، عن نعيم ابن همار، مرفوعا، فيما أورده ابن أبي حاتم في "العلل" (١/ ٣٢٨) ورواه عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام، عن أبي معانق الأشعري، عن أبي مالك، مرفوعا، عند ابن أبي عاصم في "الجهاد" (٢٠٥). وقد تابع إسماعيل بن عياش بقية بن الوليد، بهذا الإسناد، عند الترمذي (١٦٦٣)، لكنه عنعنه، وتدليسه تدليس التسوية وهو شر أنواع التدليس، ومع ذلك قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، وقد قال ابن أبي حاتم في "العلل" ١/ ٣٢٨: سألت أبي عن حديث رواه إسماعيل بن عياش، عن بحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن كثير بن مرة، عن نعيم بن همار، عن النبي ﷺ قال: "للشهيد عند الله ست خصال؟ " قال أبي: رواه بقية، عن بحير، عن خالد بن معدان، عن المقدام، عن النبي ﷺ. قلت لأبي: أيهما الصحيح؟ فقال: كان ابن المبارك يقول: إذا اختلف بقية وإسماعيل، فبقية أحب إلي، قلت: فأيهما أشبه عندك؟ قال: بقية أحب إلينا من إسماعيل، فأما الحديث فلا يضبط أيهما الصحيح. قلنا: وقد روي الحديث من طريق كثير بن مرة كذلك، عن قيس الجذامي، فيما سيرد برقم (١٧٧٨٣). أخرجه الإمام أحمد عن زيد بن يحيى الشامي، =

٥- شفاعة الولدان: ومن الشفاعات ما جاء في شفاعة الولدان في آبائهم وأمهاتهم إذا احتسبوهم عند الله تعالى بنية صادقة؛ رحمة من الله تعالى وكرما منه؛

لجبر قلوب الآباء والأمهات بما لحقهم من فقد أولادهم، ومن الأدلة على ذلك ما أخرجه مسلم عن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنه قد مات لي ابنان فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا قال قال: نعم (صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه أو قال أبويه فيأخذ بثوبه أو قال بيده كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا فلا يتناهى أو قال فلا ينتهي حتى يدخله الله وأباه الجنة).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (ما من مسلمين يموت بينهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهما الله بفضل رحمته إياهم الجنة قال يقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون حتى يدخل آباؤنا فيقال ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم)[1].

٦- شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض: وثبت كذلك أن الصالحين من

=

عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عنه، به. وقد قال صالح بن محمد البغدادي في عبد الرحمن بن ثابت: أنكروا عليه أحاديث يرويها عن أبيه، عن مكحول، مسندة. قلنا: فمثله لا يحتمل تفرده، ولم نجد له متابعا سوى إسماعيل بن عياش الذي اضطرب فيه، وبقية الذي عنعن في إسناده.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥١٠، رقم ١٠٦٣٠)، والنسائى (٤/ ٢٥، رقم ١٨٧٦)، وأبو يعلى (٦٠٧٩)، والبيهقى في الكبرى (٤/ ٦٨، رقم ٦٩٣٦)، وفى الشعب (٧/ ١٣٣، رقم ٩٧٤٧) والحديث قال عنه العراقي في المغني (٢/ ٢٦): إسناده جيد، وقال العلامة الألباني في أحكام الجنائز (٣٤): إسناده صحيح على شرط الشيخين، وكذا قال العلامة الوادعي في كتاب الشفاعة (٢٣٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٦/ ٣٦٤): إسناده صحيح على شرط الشيخين.

المؤمنين يشفعون في إخوانهم الذين في النار وهم الذي خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا؛ فدخلوا النار تطهيرا لهم، ومن الأدلة على ذلك: ما جاء عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (.. يقولون ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا فيقول الله تعالى اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ويحرم الله صورهم على النار فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه وإلى أنصاف ساقيه فيخرجون من عرفوا ثم يعودون فيقول اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه فيخرجون من عرفوا ثم يعودون فيقول اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه فيخرجون من عرفوا قال أبو سعيد فإن لم تصدقوني فاقرءوا (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها) فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون...) رواه البخاري.

٧- شفاعة القرآن الكريم لأهله: ومن مظاهر رحمة الله تعالى وكرمه على عباده المؤمنين أن جعل القرآن الكريم أيضا من الشفعاء المقبولة شفاعتهم، وليس ذلك فقط بل أيضا يطلب المزيد من الإكرام لصاحبه، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام الله تعالى وتقدس، وهو حبله المتين وصراطه المستقيم، أنزله على أفضل خلقه نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعل تلاوته ثوابا في الدنيا؛ بكل حرف عشر حسنات، وأيضا شفاعته في يوم القيامة، وفي ذلك عدة أحاديث.

منها حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (٨٠٤) قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا

سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة". قال معاوية - أحد رواة الحديث-: بلغني أن البطلة: السحرة).

قال العلامة الألباني في التعليق على الترغيب والترهيب (١/ ٤١٩): معلقا على حديث (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة؛ يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه، ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعني فيه قال فيشفعان)(١). حسن صحيح، أي: يشفعهما الله فيه ويدخله الجنة، قال المناوي: "وهذا القول يحتمل أنه حقيقة بأن يجسد ثوابهما ويخلق الله فيه النطق ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ويحتمل أنه على ضرب من المجاز والتمثيل".

قلت: والأول هو الصواب الذي ينبغي الجزم به هنا وفي أمثاله من الأحاديث التي فيها تجسيد الأعمال ونحوها، كمثل تجسيد الكنز شجاعًا أقرع، ونحوه كثير، وتأويل مثل هذه النصوص ليس من طريقة السلف، رضي الله عنهم، بل هو طريقة المعتزلة ومن سلك سبيلهم من الخلف، وذلك مما ينافي أول شروط الإيمان ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، فحذار أن تحذو حذوهم، فتضل وتشقى،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٤)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٦١)، والحاكم (١/ ٥٥٤)، والبيهقي في الشعب (١٩٩٤) والحديث قال عنه أبو نعيم: غريب من حديث وهيب ورشدين، وقال الجورقاني في الأباطيل (٢/ ٣٤١): باطل، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٨١): رجال الطبراني رجال الصحيح، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٣/ ٦٦): في سنده ابن لهيعة، وروي بسند رجاله رجال الصحيح، وروي أيضا بإسناد حسن، وقال العلامة الألباني في صحيح الترغيب (٩٨٤): حسن صحيح، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٠/ ١١٨): إسناده صحيح، وضعفه العلامة الوادعي في كتاب الشفاعة (ص ٢٤٨)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ١٩٩): إسناده ضعيف، ابن لهيعة -واسمه عبد الله-، وحيي بن عبد الله، كلاهما ضعيف.

والعياذ بالله تعالى.

٨- شفاعة الصيام لأهله إن صح الحديث.

من فضائل الصوم: أنه يشفع لصاحبه يوم القيامة، فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه، قال: فيشفعان) **وقد تقدم تخريجه في التعليق السابق، ولكن** فضائل الصوم لا تدرك حتى يقوم الصائم بآدابه.

المسألة الخامسة: شروط الشفاعة

الشفاعة التي وردت النصوص الشرعية بإثباتها، وردت مقيدة بشرطين أساسيين لا تتحقق الشفاعة إلا بوجودهما، وهما:

الشرط الأول: الإذن من الله للشافع كي يشفع لأن الشفاعة ملك لله وحده (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، وليس للشافع حق في طلبها إلا بعد الإذن من المالك لها وهو الله، وأيضا يجب الإذن من الله في المشفوع فيه.

الشرط الثاني: الرضا عن الشافع وعن المشفوع فيه

قال بعض العلماء معنى هذا الشرط الثاني أن يرضى الله عن شخص المشفوع له بأن يكون موحدا فيكون أهلًا للشفاعة لأن المشرك لا تنفعه الشفاعة، قال تعالى: (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) واستشكل على هذا شفاعة فض الموقف، وفيها شفاعة للكافرين، وشفاعة النبي ﷺ في عمه أبي طالب، وهي شفاعة لكافر.

قال العلامة العثيمين في شرح الواسطية (ص٥٢٤): والشفاعة الصحيحة ما

جمعت شروطا ثلاثة.

الأول: رضى الله عن الشافع.

الثاني: رضاه عن المشفوع له، لكن الشفاعة العظمى في الموقف عامة لجميع الناس من رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن لم يرض عنهم.

الثالث: إذنه عَزَّ وَجَلَّ في الشفاعة.اهـ.

وقال العلامة العثيمين أيضا في شرح السفارينية (ص٣٩١): لماذا كانت شفاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمه أبي طالب خاصةً بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ لماذا لا نقول أنه لو وُجد الآن رجل يذود عن الإسلام وهو كافر فإنه يُشفع؟

الجواب: أن الشفاعة للمشرك لا تمكن لأن من شروط الشفاعة أن يرضى الله عن المشفوع له إلا في هذه المسألة فقط وهذه المسألة ليست شفاعةً كاملة ليست شفاعة أن يخرج أبو طالب من النار لا، شفاعة أن يُخفف عنه، وهل لخروج هذا عن سائر الشفاعات هل له حكمة، لأننا قررنا أن الأحكام الشرعية والأحكام الجزائية لا يمكن أن تُخصص لشخص بعينه إنما تُخصص للشخص بوصفه، فهل لهذا من حكمة؟ -نعم- شكرًا له على ما قدم من حماية الرسول عليه الصلاة والسلام والذب عنه فهو مصدِّق للرسول لكن فاته شيءٌ واحد وهو القبول والإذعان وإلا فهو مصدق يعلن هذا على الملأ أن الرسول عليه الصلاة والسلام صادق لكنه نسأل الله العافية لم يقبل ولم يذعن.اهـ.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ٢٣٥): إذا فالرضا شرط رضاه سبحانه عن الشافع، ولذلك الكافر لا يشفع، ورضا الله سبحانه عن المشفوع له، ويرد على هذا شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمه أبي طالب، فهي مستثناة من هذا الشرط لأجل أن الله عَزَّ وَجَلَّ رضي نصرته للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحصل من أبي طالب من

الفعل ما فيه نوع رضا لله سبحانه وتعالى عن الفعل لا عن الفاعل، فإذا هو إيراد على الشرط، والجواب أن هذا استثناء وسبب الاستثناء ما ذكر.اهـ.

وقيل أن رضى الله هو رضاه عن الشفاعة في المشفوع فيه، وليس رضاه عن شخصه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية فقال في مجموع الفتاوى (١/ ١١٦): فصل في الشفاعة المنفية في القرآن كقوله تعالى {واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل} وقوله تعالى {ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة} وقوله {من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة} وقوله {فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم} وقوله {ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع} وقوله {يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل} وأمثال ذلك واحتج بكثير منه الخوارج والمعتزلة على منع الشفاعة لأهل الكبائر إذ منعوا أن يشفع لمن يستحق العذاب أو أن يخرج من النار من يدخلها ولم ينفوا الشفاعة لأهل الثواب في زيادة الثواب ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة إثبات الشفاعة لأهل الكبائر والقول بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان وأيضا فالأحاديث المستفيضة عن النبي ﷺ في الشفاعة فيها استشفاع أهل الموقف ليقضى بينهم وفيهم المؤمن والكافر وهذا فيه نوع شفاعة للكفار وأيضا ففي الصحيح {عن العباس بن عبد المطلب أنه قال يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك قال نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار} وعن عبد الله بن الحارث قال سمعت {العباس يقول قلت يا

رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟ قال: نعم؛ وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح} وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ {أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه} . فهذا نص صحيح صريح لشفاعته في بعض الكفار أن يخفف عنه العذاب بل في أن يجعل أهون أهل النار عذابا كما في الصحيح أيضا عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال {أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه} وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال {إن أدنى أهل النار عذابا منتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه} وعن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول {إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه} وعنه قال: قال رسول الله ﷺ {إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا} وهذا السؤال الثاني يضعف جواب من تأول نفي الشفاعة على الشفاعة للكفار وإن الظالمين هم الكافرون فيقال الشفاعة المنفية هي الشفاعة المعروفة عند الناس عند الإطلاق وهي أن يشفع الشفيع إلى غيره ابتداء فيقبل شفاعته فأما إذا أذن له في أن يشفع فشفع؛ لم يكن مستقلا بالشفاعة بل يكون مطيعا له أي تابعا له في الشفاعة وتكون شفاعته مقبولة ويكون الأمر كله للآمر المسئول وقد ثبت بنص القرآن في غير آية أن أحدا لا يشفع عنده إلا بإذنه كما قال تعالى {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} وقال {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} وقال {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} وأمثال ذلك والذي يبين أن هذه هي الشفاعة المنفية أنه قال

{وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون} وقال تعالى {الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع} فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع وأما نفي الشفاعة بدون إذنه فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه كما أن الولاية التي بإذنه ليست من دونه؛ كما قال تعالى {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون} . وأيضا فقد قال {أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون} {قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض} فذم الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وأخبر أن لله الشفاعة جميعا؛ فعلم أن الشفاعة منتفية عن غيره إذ لا يشفع أحد إلا بإذنه وتلك فهي له وقد قال {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون} ومما يوضح ذلك أنه نفى يومئذ الخلة بقوله {من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون} ومعلوم أنه إنما نفى الخلة المعروفة ونفعها المعروف كما ينفع الصديق الصديق في الدنيا كما قال {وما أدراك ما يوم الدين} {ثم ما أدراك ما يوم الدين} {يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله} وقال {لينذر يوم التلاق} {يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار} لم ينف أن يكون في الآخرة خلة نافعة بإذنه فإنه قد قال: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} {يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون} الآيات وقد قال

النبي ﷺ يقول الله تعالى {حقت محبتي للمتحابين في} ويقول الله تعالى {أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي} فتعين أن الأمر كله عائد إلى تحقيق التوحيد وأنه لا ينفع أحد ولا يضر إلا بإذن الله وأنه لا يجوز أن يعبد أحد غير الله ولا يستعان به من دون الله وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله لله ويتبرأ كل مدع من دعواه الباطلة فلا يبقى من يدعي لنفسه معه شركا في ربوبيته أو إلهيته ولا من يدعي ذلك لغيره بخلاف الدنيا؛ فإنه وإن لم يكن رب ولا إله إلا هو فقد اتخذ غيره ربا وإلها وادعى ذلك مدعون وفي الدنيا يشفع الشافع عند غيره وينتفع بشفاعته وإن لم يكن أذن له في الشفاعة ويكون خليله فيعينه ويفتدي نفسه من الشر فقد ينتفع بالنفوس والأموال في الدنيا، النفوس ينتفع بها تارة بالاستقلال وتارة بالإعانة وهي الشفاعة، والأموال بالفداء فنفى الله هذه الأقسام الثلاثة. قال تعالى {لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل} وقال {لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة} كما قال {لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} فهذا هذا والله أعلم وعاد ما نفاه الله من الشفاعة إلى تحقيق أصلي الإيمان وهي الإيمان بالله وباليوم الآخر التوحيد والمعاد كما قرن بينهما في مواضع كثيرة كقوله: {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر} وقوله {الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون} وقوله {ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة} وقوله {وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون} وأمثال ذلك.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا في مجموع الفتاوى (١/ ١٤٩): واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى {واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس

شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل} وبقوله {ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة} وبقوله: {من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة} وبقوله {ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع} وبقوله {فما تنفعهم شفاعة الشافعين}. وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيئان أحدهما أنها لا تنفع المشركين كما قال تعالى في نعتهم {ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشافعين} فهؤلاء نفي عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفارا.

والثاني: أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة. فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون هؤلاء خواص الله فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} وقال: {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} وقال عن الملائكة {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين

أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون} وقال: {قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير} {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} وقال تعالى: {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون} وقال تعالى: {وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون} وقال تعالى: {الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون} وقال تعالى: {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون} وقال تعالى: {ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون} وقال تعالى: {أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون} {قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون} {وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون} وقال تعالى: {وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا} {يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا} وقال صاحب يس: {وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون} {أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون} {إني إذا لفي ضلال مبين} {إني آمنت بربكم فاسمعون}. فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون

للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا: استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا: نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله وصوروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها. قال الله تعالى عن قوم نوح: {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا} {وقد أضلوا كثيرا} . قال ابن عباس وغيره: هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم وهذا مشهور في كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخاري وغيره وهذه أبطلها النبي ﷺ وحسم مادتها وسد ذريعتها حتى لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها وإن كان المصلي فيها لا يستشفع بهم ونهى عن الصلاة إلى القبور وأرسل علي بن أبي طالب فأمره أن لا يدع قبرا مشرفا إلا سواه ولا تمثالا إلا طمسه ومحاه ولعن المصورين. وعن {أبي الهياج الأسدي: قال لي علي بن أبي طالب: لأبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته وفي لفظ ولا صورة إلا طمستها} أخرجه مسلم.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا في مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٨١): وإذا كان الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ولا يشفعون إلا لمن ارتضى: فما بقي الشفعاء شركاء كشفاعة المخلوق عند المخلوق. فإن المخلوق يشفع عنده نظيره - أو من هو أعلى منه أو دونه - بدون إذن المشفوع إليه ويقبل المشفوع إليه ولا بد شفاعته: إما لرغبته إليه أو فيما عنده من قوة أو سبب ينفعه به أو يدفع عنه ما يخشاه وإما لرهبته منه وإما لمحبته إياه وإما للمعاوضة بينهما والمعاونة وإما لغير ذلك من الأسباب وتكون شفاعة الشفيع هي التي حركت إرادة

المشفوع إليه وجعلته مريدا للشفاعة بعد أن لم يكن مريدا لها. كأمر الآمر الذي يؤثر في المأمور فيفعل ما أمره به بعد أن لم يكن مريدا لفعله وكذلك سؤال المخلوق للمخلوق فإنه قد يكون محركا له إلى فعل ما سأله فالشفيع: كما أنه شافع للطالب شفاعته في الطلب. فهو أيضا قد شفع المشفوع إليه فبشفاعته صار المشفوع إليه فاعلا للمطلوب فقد شفع الطالب والمطلوب والله تعالى وتر لا يشفعه أحد فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فالأمر كله إليه وحده فلا شريك له بوجه. ولهذا ذكر سبحانه نفي ذلك في آية الكرسي التي فيها تقرير التوحيد فقال {الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} . وسيد الشفعاء ﷺ يوم القيامة. إذا سجد وحمد ربه. يقال له " ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فيحد له حدا فيدخلهم الجنة " فالأمر كله لله كما قال {قل إن الأمر كله لله} وقال لرسوله {ليس لك من الأمر شيء} وقال {ألا له الخلق والأمر} فإذا كان لا يشفع عند الله أحد إلا بإذنه. فهو يأذن لمن يشاء ولكن يكرم الشفيع بقبول الشفاعة. كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح {اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء} . وإذا دعاه الداعي وشفع عنده الشفيع. فسمع الدعاء وقبل الشفاعة: لم يكن هذا مؤثرا فيه. كما يؤثر المخلوق في المخلوق فإنه سبحانه هو الذي جعل هذا يدعو وهذا يشفع. وهو الخالق لأفعال العباد فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها. وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه عليه وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه فما يؤثر فيه شيء من المخلوقات بل هو سبحانه الذي جعل ما يفعله سببا لما يفعله وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر وأن الله خالق كل شيء وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ولا يكون

شيء إلا بمشيئته وهو خالق أفعال العباد كما هو خالق سائر المخلوقات. قال يحيى بن سعيد القطان: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: إن الله خالق أفعال العباد. ولكن هذا يناقض قول القدرية فإنهم إذا جعلوا العبد هو الذي يحدث ويخلق أفعاله بدون مشيئة الله وخلقه لزمهم أن يكون العبد قد جعل ربه فاعلا لما لم يكن فاعلا له فبدعائه جعله مجيبا له وبتوبته جعله قابلا للتوبة وبشفاعته جعله قابلا للشفاعة وهذا يشبه قول من جعل المخلوق يشفع عند الله بغير إذنه. فإن " الإذن " نوعان إذن بمعنى المشيئة والخلق وإذن بمعنى الإباحة والإجازة فمن الأول: قوله في السحر {وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله} فإن ذلك بمشيئة الله وقدرته وإلا فهو لم يبح السحر والقدرية تنكر هذا " الإذن " وحقيقة قولهم: إن السحر يضر بدون إذن الله وكذلك قوله {وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله} فإن الذي أصابهم من القتل والجراح والتمثيل والهزيمة إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين. والنوع الثاني: قوله {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا} {وداعيا إلى الله بإذنه} وقوله {ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله} فإن هذا يتضمن إباحته لذلك وإجازته له ورفع الجناح والحرج عن فاعله مع كونه بمشيئته وقضائه. فقوله {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} هو هذا الإذن الكائن بقدره وشرعه ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر فإن السحر وانتصار الكفار على المؤمنين كان بذلك الإذن. فمن جعل العباد يفعلون أفعالهم بدون أن يكون الله خالقا لها وقادرا عليها ومشيئا لها فعنده كل شافع وداع قد فعل ما فعل بدون خلق الله وقدرته وإن كان قد أباح الشفاعة وأما الكفر والسحر وقتال الكفار فهو عندهم بغير إذنه لا هذا الإذن ولا هذا الإذن فإنه لم يبح ذلك باتفاق المسلمين وعندهم أنه لم

يشأه ولم يخلقه. بل كان بدون مشيئته وخلقه والمشركون المقرون بالقدر يقولون: إن الشفعاء يشفعون بالإذن القدري وإن لم يأذن لهم إباحة وجوازا ومن كان مكذبا بالقدر - مثل كثير من النصارى - يقولون إن شفاعة الشفعاء بغير إذن لا قدري ولا شرعي. والقدرية من المسلمين يقولون يشفعون بغير إذن قدري ومن سأل الله بغير إذنه الشرعي فقد شفع عنده بغير إذن قدري ولا شرعي فالداعي المأذون له في الدعاء مؤثر في الله عندهم لكن بإباحته والداعي غير المأذون له إذا أجاب دعاءه فقد أثر فيه عندهم لا بهذا الإذن ولا بهذا الإذن كدعاء بلعام بن باعوراء وغيره والله تعالى يقول {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} فإن قيل فمن الشفعاء من يشفع بدون إذن الله الشرعي وإن كان خالقا لفعله - كشفاعة نوح لابنه وشفاعة إبراهيم لأبيه وشفاعة النبي ﷺ لعبد الله بن أبي ابن سلول حين صلى عليه بعد موته. وقوله {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} قد قلتم: إنه يعم النوعين. فإنه لو أراد الإذن القدري: لكان كل شفاعة داخلة في ذلك كما يدخل في ذلك كل كفر وسحر ولم يكن فرق بين ما يكون بإذنه وما لا يكون بإذنه ولو أراد الإذن الشرعي فقط لزم قول القدرية وهؤلاء قد شفعوا بغير إذن شرعي؟. قيل المنفي من الشفاعة بلا إذن هي الشفاعة التامة وهي المقبولة كما في قول المصلي " سمع الله لمن حمده " أي استجاب له. وكما في قوله تعالى {هدى للمتقين} وقوله {إنما أنت منذر من يخشاها} وقوله {فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} ونحو ذلك فإن الهدى والإنذار والتذكير والتعليم لا بد فيه من قبول المتعلم. فإذا تعلم حصل له التعليم المقصود. وإلا قيل: علمته فلم يتعلم. كما قيل {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} فكذلك الشفاعة.

فالشفاعة مقصودها قبول المشفوع إليه – وهي الشفاعة التامة. فهذه هي التي لا تكون إلا بإذنه وأما إذا شفع شفيع فلم تقبل شفاعته كانت كعدمها وكان على صاحبها التوبة والاستغفار منها كما قال نوح {رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين} وكما نهى الله النبي ﷺ عن الصلاة على المنافقين وقال له {ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون} وقال له {سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم} ولهذا قال على لسان المشركين {فما لنا من شافعين} {ولا صديق حميم} فالشفاعة المطلوبة هي شفاعة المطاع الذي تقبل شفاعته وهذه ليست لأحد عند الله إلا بإذنه قدرا وشرعا فلا بد أن يأذن فيها ولا بد أن يجعل العبد شافعا فهو الخالق لفعله والمبيح له كما في الداعي هو الذي أمره بالدعاء وهو الذي يجعل الداعي داعيا فالأمر كله لله خلقا وأمرا كما قال {ألا له الخلق والأمر} وقد روي في حديث – ذكره ابن أبي حاتم وغيره – أنه قال {فمن يثق به فليدعه} أي فلم يبق لغيره لا خلق ولا أمر ولما كان المراد بالشفاعة المثبتة هي الشفاعة المطلقة وهي المقصود بالشفاعة وهي المقبولة بخلاف المردودة فإن أحدا لا يريدها لا الشافع ولا المشفوع له ولا المشفوع إليه ولو علم الشافع والمشفوع له أنها ترد: لم يفعلوها والشفاعة المقبولة: هي النافعة بين ذلك في مثل قوله {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} وقوله {يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا} فنفى الشفاعة المطلقة وبين أن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له وهو الإذن الشرعي بمعنى أباح له ذلك وأجازه كما قال تعالى {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا} وقوله {لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن

لكم} وقوله {ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم} ونحو ذلك. وقوله {إلا لمن أذن له} هو إذن للمشفوع له فلا يأذن في شفاعة مطلقة لأحد بل إنما يأذن في أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعة فيه قال تعالى {يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا} {يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا} وفيه قولان قيل إلا شفاعة من أذن له الرحمن وقيل لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن فهو الذي تنفعه الشفاعة وهذا هو الذي يذكره طائفة من المفسرين لا يذكرون غيره لأنه لم يقل " لا تنفع إلا من أذن له " ولا قال " لا تنفع الشفاعة إلا فيمن أذن له " بل قال {لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له} فهي لا تنفع ولا ينتفع بها ولا تكون نافعة إلا للمأذون لهم كما قال تعالى في الآية الأخرى {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} ولا يقال لا تنفع إلا لشفيع مأذون له بل لو أريد هذا لقيل لا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له وإنما قال {إلا لمن أذن له} وهو المشفوع له الذي تنفعه الشفاعة. وقوله {حتى إذا فزع عن قلوبهم} لم يعد إلى " الشفعاء " بل عاد إلى المذكورين في قوله {وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير} ثم قال {ولا تنفع الشفاعة عنده} ثم بين أن هذا منتف {حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق} فلا يعلمون ماذا قال حتى يفزع عن قلوبهم فكيف يشفعون بلا إذنه؟ وهو سبحانه إذا أذن للمشفوع له فقد أذن للشافع. فهذا الإذن هو الإذن المطلق بخلاف ما إذا أذن للشافع فقط فإنه لا يلزم أن يكون قد أذن للمشفوع له إذ قد يأذن له إذنا خاصا وهكذا قال غير واحد من المفسرين قالوا وهذا يدل على أن الشفاعة لا تنفع إلا المؤمنين. وكذلك قال السلف في هذه الآية. قال قتادة في قوله {إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا} قال كان أهل

العلم يقولون إن المقام المحمود الذي قال الله تعالى {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} هو شفاعته يوم القيامة وقوله {إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا} إن الله يشفع المؤمنين بعضهم في بعض. قال البغوي {إلا من أذن له الرحمن} أذن الله له أن يشفع له {ورضي له قولا} أي ورضي قوله. قال ابن عباس: يعني قال " لا إله إلا الله " قال البغوي: فهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمن وقد ذكروا القولين في قوله تعالى {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} وقدم طائفة هناك أن المستثنى هو الشافع دون المشفوع له بخلاف ما قدموه هنا. منهم البغوي فإنه لم يذكر هنا في الاستثناء إلا المشفوع له وقال هناك {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} في الشفاعة قاله تكذيبا لهم حيث قالوا {هؤلاء شفعاؤنا عند الله} قال ويجوز أن يكون المعنى إلا لمن أذن له أن يشفع له. وكذلك ذكروا القولين في قوله {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق} وستتكلم على هذه الآية إن شاء الله تعالى ونبين أن الاستثناء فيها يعم الطائفتين وأنه منقطع ومعنى هاتين الآيتين مثل معنى تلك الآية. وهو يعم النوعين وذلك أنه سبحانه قال {يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا} و"الشفاعة" مصدر شفع شفاعة. والمصدر يضاف إلى الفاعل تارة وإلى محل الفعل تارة. ويماثله الذي يسمى لفظه " المفعول به " تارة كما يقال أعجبني دق الثوب ودق القصار وذلك مثل لفظ " العلم " يضاف تارة إلى العلم وتارة إلى المعلوم فالأول كقوله {ولا يحيطون بشيء من علمه} وقوله {أنزله بعلمه} وقوله {أنما أنزل بعلم الله} ونحو ذلك. والثاني كقوله {إن الله عنده علم الساعة} فالساعة هنا معلومة لا عالمة وقوله حين قال فرعون {فما بال القرون الأولى} قال موسى {علمها عند ربي في

كتاب لا يضل ربي ولا ينسى} ومثل هذا كثير فالشفاعة مصدر لا بد لها من شافع ومشفوع له والشفاعة تعم شفاعة كل شافع وكل شفاعة لمشفوع له فإذا قال {يومئذ لا تنفع الشفاعة} نفى النوعين شفاعة الشفعاء والشفاعة للمذنبين. فقوله {إلا من أذن له الرحمن} يتناول النوعين: من أذن له الرحمن ورضي له قولا من الشفعاء. ومن أذن له الرحمن ورضي له قولا من المشفوع له وهي تنفع المشفوع له فتخلصه من العذاب وتنفع الشافع فتقبل منه ويكرم بقبولها ويثاب عليه والشفاعة يومئذ لا تنفع لا شافعا ولا مشفوعا له {إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} فهذا الصنف المأذون لهم المرضي قولهم هم الذين يحصل لهم نفع الشفاعة وهذا موافق لسائر الآيات فإنه تارة يشترط في الشفاعة إذنه كقوله {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه}. وتارة يشترط فيها الشهادة بالحق. كقوله {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} ثم قال {إلا من شهد بالحق وهم يعلمون} وهنا اشترط الأمرين أن يأذن له الرحمن وأن يقول صوابا والمستثنى يتناول مصدر الفاعل والمفعول كما تقول: لا ينفع الزرع إلا في وقته فهو يتناول زرع الحارث وزرع الأرض لكن هنا قال {إلا من أذن له الرحمن} والاستثناء مفرغ فإنه لم يتقدم قبل هذا من يستثنى منه هذا. وإنما قال {لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن} فإذا لم يكن في الكلام حذف كان المعنى: لا تنفع الشفاعة إلا هذا النوع فإنهم تنفعهم الشفاعة ويكون المعنى أنها تنفع الشافع والمشفوع له وإن جعل فيه حذف - تقديره لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن - كان المصدر مضافا إلى النوعين كل واحد بحسبه يضاف إلى بعضهم لكونه شافعا وإلى بعضهم لكونه مشفوعا له ويكون هذا كقوله {ولكن البر من آمن بالله} أي من يؤمن و {مثل الذين كفروا كمثل الذي

ينعق} أي مثل داعي الذين كفروا كمثل الناعق أو مثل الذين كفروا كمثل منعوق به أي الذي ينعق به. والمعنى في ذلك كله ظاهر معلوم. فلهذا كان من أفصح الكلام إيجازه دون الإطناب فيه. وقوله {يومئذ لا تنفع الشفاعة} إذا كان من هذا الباب لم يحتج أن الشافع تنفعه الشفاعة. وإن لم يكرمه كان الشافع ممن تنفعه الشفاعة وفي الآية الأخرى {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} من هؤلاء وهؤلاء لكن قد يقال: التقدير لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع فيه فيؤذن لغيره أن يشفع فيه فيكون الإذن للطائفتين والنفع للمشفوع له كأحد الوجهين أو ولا تنفع إلا لمن أذن له من هؤلاء وهؤلاء فكما أن الإذن للطائفتين فالنفع أيضا للطائفتين. فالشافع ينتفع بالشفاعة وقد يكون انتفاعه بها أعظم من انتفاع المشفوع له. ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح {اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء} ولهذا كان من أعظم ما يكرم به الله عبده محمدا ﷺ هو الشفاعة التي يختص بها. وهي المقام المحمود الذي يحمده به الأولون والآخرون وعلى هذا لا تحتاج الآية إلى حذف بل يكون معناها: يومئذ لا تنفع الشفاعة لا شافعا ولا مشفوعا {إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا}. ولذلك جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال {يا بني عبد مناف لا أملك لكم من الله من شيء يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أملك لك من الله من شيء، يا عباس عم رسول الله لا أملك لك من الله من شيء} وفي الصحيح أيضا {لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو شاة لها يعار أو رقاع تخفق فيقول: أغثني أغثني، فأقول: قد أبلغتك، لا أملك لك من الله من شيء}.

فيعلم من هذا: أن قوله {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} و{لا يملكون منه خطابا} على مقتضاه وأن قوله في الآية {لا يملكون منه} كقوله ﷺ

{لا أملك لكم من الله من شيء} وهو كقول إبراهيم لأبيه {وما أملك لك من الله من شيء} وهذه الآية تشبه قوله تعالى {رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا} {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} فإن هذا مثل قوله {يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا} ففي الموضعين اشترط إذنه. فهناك ذكر " القول الصواب " وهنا ذكر " أن يرضى قوله " ومن قال الصواب رضي الله قوله. فإن الله إنما يرضى بالصواب. وقد ذكروا في تلك الآية قولين: أحدهما: أنه الشفاعة أيضا كما قال ابن السائب: لا يملكون شفاعة إلا بإذنه. والثاني: لا يقدر الخلق على أن يكلموا الرب إلا بإذنه. قال مقاتل: كذلك قال مجاهد {لا يملكون منه خطابا} قال: كلاما. هذا من تفسيره الثابت عنه. وهو من أعلم - أو أعلم - التابعين بالتفسير.

قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به وقال: عرضت المصحف على ابن عباس: أقفه عند كل آية وأسأله عنها وعليه اعتمد الشافعي وأحمد والبخاري في صحيحه وهذا يتناول " الشفاعة " أيضا وفي قوله {لا يملكون منه خطابا} لم يذكر استثناء. فإن أحدا لا يملك من الله خطابا مطلقا إذ المخلوق لا يملك شيئا يشارك فيه الخالق كما قد ذكرناه في قوله {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} أن هذا عام مطلق فإن أحدا - ممن يدعي من دونه - لا يملك الشفاعة بحال ولكن الله إذا أذن لهم شفعوا من غير أن يكون ذلك مملوكا لهم. وكذلك قوله {لا يملكون منه خطابا} هذا قول السلف وجمهور المفسرين. وقال بعضهم: هؤلاء هم الكفار. لا يملكون مخاطبة الله في ذلك اليوم قال ابن عطية قوله {لا يملكون} الضمير للكفار أي لا يملكون -

من إفضاله وإكماله - أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها. وهذا مبتدع. وهو خطأ محض والصحيح قول الجمهور والسلف أن هذا عام كما قال في آية أخرى {وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا} وفي حديث التجلي الذي في الصحيح - لما ذكر مرورهم على الصراط - قال ﷺ {ولا يتكلم أحد إلا الرسل ودعوى الرسل: اللهم سلم سلم} فهذا في وقت المرور على الصراط. وهو بعد الحساب والميزان فكيف بما قبل ذلك؟ وقد طلبت الشفاعة من أكابر الرسل وأولي العزم وكل يقول " إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله. ولن يغضب بعده مثله. وإني فعلت كذا وكذا نفسي نفسي نفسي " فإذا كان هؤلاء لا يتقدمون إلى مخاطبة الله تعالى بالشفاعة فكيف بغيرهم؟. وأيضا فإن هذه الآية مذكورة بعد ذكر المتقين وأهل الجنة وبعد أن ذكر الكافرين. فقال {إن للمتقين مفازا} {حدائق وأعنابا} {وكواعب أترابا} {وكأسا دهاقا} {لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا} {جزاء من ربك عطاء حسابا} {رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا} ثم قال {يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} فقد أخبر: أن "الروح والملائكة " يقومون صفا لا يتكلمون. وهذا هو تحقيق قوله {لا يملكون منه خطابا} والعرب تقول: ما أملك من أمر فلان أو من فلان شيئا أي لا أقدر من أمره على شيء وغاية ما يقدر عليه الإنسان من أمر غيره خطابه ولو بالسؤال فهم في ذلك الموطن لا يملكون من الله شيئا ولا الخطاب فإنه لا يتكلم أحد إلا بإذنه ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا قال تعالى {إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء} فقد أخبر الخليل أنه لا يملك لأبيه من الله من شيء فكيف غيره؟.

وقال مجاهد أيضا {إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} قال حقا في الدنيا وعملا به رواه - والذي قبله - عبد بن حميد وروي عن عكرمة {وقال صوابا} قال: الصواب قول لا إله إلا الله فعلى قول مجاهد: يكون المستثنى من أتى بالكلم الطيب والعمل الصالح. وقوله في سورة طه {لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا} فإذا جعلت هذه مثل تلك فتكون الشفاعة هي الشفاعة المطلقة وهي الشفاعة في الحسنات وفي دخول الجنة كما في الصحيحين {أن الناس يهتمون يوم القيامة. فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مقامنا هذا؟} فهذا طلب الشفاعة للفصل بينهم. وفي حديث الشفاعة {أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن} فهذه شفاعة في أهل الجنة ولهذا قيل: إن هاتين الشفاعتين مختصتان بمحمد ﷺ ويشفع غيره في العصاة. فقوله {يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا} يدخل فيها الشفاعة في أهل الموقف عموما وفي أهل الجنة وفي المستحقين للعذاب. وهو سبحانه في هذه وتلك لم يذكر العمل إنما قال {وقال صوابا} وقال {ورضي له قولا} لكن قد دل الدليل على أن "القول الصواب المرضي " لا يكون صاحبه محمودا إلا مع العمل الصالح لكن نفس القول مرضي فقد قال الله {إليه يصعد الكلم الطيب} وقد ذكر البغوي وأبو الفرج ابن الجوزي وغيرهما في قوله {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون} قولين. أحدهما: أن المستثنى هو الشافع ومحل " من " الرفع. والثاني: هو المشفوع له. قال أبو الفرج في معنى الآية قولان أحدهما أنه أراد بـ {الذين يدعون من دونه} آلهتهم. ثم استثنى عيسى وعزيرا والملائكة. فقال {إلا من شهد بالحق} وهو شهادة أن لا إله إلا الله {وهم

يعلمون} بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم قال وهذا مذهب الأكثرين منهم قتادة والثاني أن المراد بـ {الذين يدعون} عيسى وعزيرا والملائكة الذين عبدهم المشركون لا يملك هؤلاء الشفاعة لأحد {إلا من شهد بالحق} وهي كلمة الإخلاص {وهم يعلمون} أن الله خلق عيسى وعزيرا والملائكة. وهذا مذهب قوم منهم مجاهد وقال البغوي {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق} هم عيسى وعزير والملائكة فإنهم عبدوا من دون الله ولهم الشفاعة وعلى هذا تكون " من " في محل رفع وقيل " من " في محل خفض وأراد بالذين يدعون عيسى وعزيرا والملائكة يعني أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق قال والأول أصح. قلت: قد ذكر جماعة قول مجاهد وقتادة منهم ابن أبي حاتم روى بإسناده المعروف - على شرط الصحيح - عن مجاهد قوله {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} عيسى وعزير والملائكة يقول: لا يشفع عيسى وعزير والملائكة {إلا من شهد بالحق} يعلم الحق. هذا لفظه. جعل " شفع " متعديا بنفسه وكذلك لفظ... وعلى هذا فيكون منصوبا لا يكون مخفوضا كما قاله البغوي؛ فإن الحرف الخافض إذا حذف انتصب الاسم. ويكون على هذا يقال: شفعته وشفعت له كما يقال: نصحته ونصحت له. و" شفع " أي صار شفيعا للطالب. أي لا يشفعون طالبا ولا يعينون طالبا {إلا من شهد بالحق وهم يعلمون} أن الله ربهم. وروي بإسناده عن قتادة {إلا من شهد بالحق وهم يعلمون} الملائكة وعيسى وعزير أي أنهم قد عبدوا من دون الله ولهم شفاعة عند الله ومنزلة. قلت: كلا القولين معناه صحيح. لكن التحقيق في تفسير الآية: أن الاستثناء منقطع. ولا يملك أحد من دون الله الشفاعة مطلقا لا يستثنى من ذلك أحد عند الله. فإنه لم يقل ولا يشفع أحد ولا

قال لا يشفع لأحد بل قال {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} وكل من دعي من دون الله لا يملك الشفاعة ألبتة. والشفاعة بإذن ليست مختصة بمن عبد من دون الله؛ وسيد الشفعاء ﷺ لم يعبد كما عبد المسيح. وهو - مع هذا - له شفاعة ليست لغيره فلا يحسن أن تثبت الشفاعة لمن دعي من دون الله دون من لم يدع فمن جعل الاستثناء متصلا فإن معنى كلامه أن من دعي من دون الله لا يملك الشفاعة إلا أن يشهد بالحق وهو يعلم أو لا يشفع إلا لمن شهد بالحق وهو يعلم. ويبقى الذين لم يدعوا من دون الله لم تذكر شفاعتهم لأحد وهذا المعنى لا يليق بالقرآن ولا يناسبه وسبب نزول الآية يبطله أيضا وأيضا فقوله {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} يتناول كل معبود من دونه ويدخل في ذلك الأصنام فإنهم كانوا يقولون هم يشفعون لنا قال تعالى {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض} فإذا قيل إنه استثنى الملائكة والأنبياء كان في هذا إطماع لمن عندهم أن معبوديهم من دون الله يشفعون لهم وهذا مما يبين فساد القول المذكور عن قتادة. فإنه إذا كان المعنى أن المعبودين لا يشفعون إلا إذا كانوا ملائكة أو أنبياء كان في هذا إثبات شفاعة المعبودين لمن عبدوهم إذا كانوا صالحين. والقرآن كله يبطل هذا المعنى. ولهذا قال تعالى {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} وقال تعالى {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون} {لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون} {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون} فبين أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الرب فعلم: أنه لا بد أن يؤذن لهم فيمن يشفعون فيه

وأنهم لا يؤذن لهم إذن مطلق وأيضا فإن في القرآن إذا نفى الشفاعة من دونه نفاها مطلقا. فإن قوله {من دونه} إما أن يكون متصلا بقوله يملكون أو بقوله يدعون أو بهما فالتقدير لا يملك الذين يدعونهم الشفاعة من دونه أو لا يملك الذين يدعونهم من دونه أن يشفعوا وهذا أظهر لأنه قال {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} فأخر "الشفاعة" وقدم "من دونه" ومثل هذا كثير في القرآن يدعون من دون الله ويعبدون من دون الله كقوله {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم} وقوله {ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك} بخلاف ما إذا قيل لا يملك الذين يدعون الشفاعة من دونه فإن هذا لا نظير له في القرآن واللفظ المستعمل في مثل هذا أن يقال لا يملك الذين يدعون الشفاعة إلا بإذنه أو لمن ارتضى ونحو ذلك لا يقال في هذا المعنى " من دونه " فإن الشفاعة هي من عنده. فكيف تكون من دونه؛ لكن قد تكون بإذنه وقد تكون بغير إذنه وأيضا فإذا قيل {الذين يدعون} مطلقا دخل فيه الرب تعالى فإنهم كانوا يدعون الله ويدعون معه غيره ولهذا قال {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر} والتقدير الثالث لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة من دونه وهذا أجود من الذي قبله لكن يرد عليه ما يرد على الأول. ومما يضعفهما: "أن الشفاعة " لم تذكر بعدها صلة لها بل قال {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة} فنفى ملكهم الشفاعة مطلقا وهذا هو الصواب وأن كل من دعي من دون الله لا يملك الشفاعة. فإن المالك للشيء هو الذي يتصرف فيه بمشيئته وقدرته والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال. ولا يقال في هذا " إلا بإذنه " إنما يقال ذلك في الفعل. فيقال {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} وأما في الملك فلا يمكن أن يكون غيره مالكا لها. فلا يملك

مخلوق الشفاعة بحال ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكا لها. بل هذا ممتنع كما يمتنع أن يكون خالقا وربا وهذا كما قال {قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير} فنفى الملك مطلقا ثم قال {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناه لم يثبت أن مخلوقا يملك الشفاعة بل هو سبحانه له الملك وله الحمد لا شريك له في الملك قال تعالى {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا} {الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا} . ولهذا - لما نفى الشفعاء من دونه - نفاهم نفيا مطلقا بغير استثناء وإنما يقع الاستثناء إذا لم يقيدهم بأنهم من دونه كما قال تعالى {وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع} وكما قال تعالى {وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع} وكما قال تعالى {ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع} فلما قال "من دونه" نفى الشفاعة مطلقا وإذا ذكر "بإذنه" لم يقل " من دونه " كقوله {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} وقوله {ما من شفيع إلا من بعد إذنه} فمن تدبر القرآن تبين له أنه كما قال تعالى {الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني} يشبه بعضه بعضا ويصدق بعضه بعضا ليس بمختلف ولا بمتناقض {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} .

المسألة السادسة: أنواع الشفاعة

قسم علماء أهل السنة أنواع الشفاعة إلى قسمين:

النوع الأول: شفاعة الرسول ﷺ.

النوع الثاني: شفاعة الملائكة، والنبيون، والصالحون.

أما النوع الأول: وهي شفاعة الرسول ﷺ فهي ثمانية أنواع وقيل أكثر من ثمانية وقيل أقل من ثمانية وهي:

الشفاعة الأولى: المقام المحمود، وهذه الشفاعة مختصة به ﷺ بالإجماع، وهي الشفاعة العظمى في الخلائق كلهم ليخلصوا من هول الموقف، وليقضى بينهم حين يقف الناس خاضعين أمام خالقهم ويطلبون من الأنبياء أن يشفعوا لهم إلى الله في تخليصهم من كربات هذا اليوم العظيم وينتهي السؤال إليه ﷺ فيقول: أنا لها... فعن أبي هريرة رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ أتي بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما قد بلغنا فيقول آدم إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا فيقولون يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم

فيأتون إبراهيم فيقولون يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول لهم إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات فذكرهن أبو حيان في الحديث نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى ابن مريم فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد صبيا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول عيسى إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله قط ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد فيأتون محمدا فيقولون يامحمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي ﷻ ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول أمتي يا رب أمتي يا رب أمتي يا رب فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة

وبصرى)[١].

قال الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح منظومته سلم الوصول:

يَشْفَعُ أَوَّلًا إِلَى الرَّحْمَنِ فِي ... فَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَوْقِفِ

مِنْ بَعْدِ أَنْ يَطْلُبَهَا النَّاسُ إِلَى ... كُلِّ أُولِي الْعَزْمِ الْهُدَاةِ الْفُضَلا

هذه الشفاعة الأولى لنبينا محمد ﷺ، وهي أعظم الشفاعات، وهي المقام المحمود الذي ذكر الله عَزَّوَجَلَّ له ووعده إياه وأمرنا رسول الله ﷺ أن نسأل الله إياه له ﷺ بعد كل أذان. وقال البخاري رحمه الله تعالى: باب قوله تعالى عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا [الإسراء: ٧٩] حدثنا إسماعيل بن أَبَّان حدَّثنا أبو الأحوص عن آدم بن علي قال سمعت ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول (إنَّ الناس يصيرون يوم القيامة جثًا كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعةُ إلى النبيّ ﷺ، فذلك يومٌ يبعثه الله المقام المحمود)[٢].

الشفاعة الثانية: شفاعته ﷺ لأهل الجنة ليدخلوها بعد الفراغ من حسابهم، ودليل هذا النوع ما رواه مسلم برقم (١٩٥) عن أبي هريرة وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا: قال رسول الله ﷺ (يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله قال فيقول إبراهيم لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلا من وراء وراء اعمدوا إلى موسى ﷺ الذي كلمه الله تكليما فيأتون موسى ﷺ فيقول لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه فيقول عيسى ﷺ لست بصاحب ذلك

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (٢٢٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٨).

فيأتون محمدا ﷺ فيقوم فيؤذن له وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا فيمر أولكم كالبرق قال قلت بأبي أنت وأمي أي شيء كمر البرق؟ قال ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح ثم كمر الطير وشد الرجال تجري بهم أعمالهم ونبيكم قائم على الصراط يقول رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا قال وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ومكدوس في النار والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفا).

قال الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح منظومته سلم الوصول (١٠٦٠):

وَثَانِيًا يَشْفَعُ فِي اسْتِفْتَاحِ دَارِ النَّعِيمِ لأُولِي الْفَلاحِ

هَذَا وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ قَدْ خُصَّتَا بِهِ بِلاَ نُكْرَانِ

هذه الشفاعة الثانية في استفتاح باب الجنة، وقد جاء في الأحاديث أنها أيضًا من المقام المحمود، وقال مسلم رحمه الله تعالى: حدَّثنا قتيبة بنُ سعيدٍ وإسحاقُ بنُ إبراهيم. قال قتيبةُ حدَّثنا جرير عن المختار بن فلفل عن أَنس بن مالك قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ (أَنا أَوَّل الناس يشفع في الجنة، وأَنا أكثر الأنبياء تبعًا)، وحدَّثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدَّثنا معاويةُ بنُ هشام عن سفيان عن المختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ (أَنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأَنا أَوَّل من يقرع باب الجنة)، وحدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا حسين بن علي عن زائدة عن المختار بن فلفل قال: قال أنسُ بنُ مالكٍ قال النَّبيّ ﷺ (أَنا أَوَّل شفيع في الجنة، لم يصَدَّق نبي من الأنبياء ما صُدِّقت، وإِنَّ من الأنبياء نبيًّا ما يصدقه من أمته إلاّ رجلٌ واحد).

وحدَّثني عمرو الناقد وزهير بن حرب قالا حدَّثنا هاشم بن القاسم حدَّثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ (آتي باب الجنة يومَ القيامةِ فأستفتح، فيقول الخازن، مَنْ أَنْتَ؟ فأقول محمد، فيقول بك أمرت لا أفتح لأَحَدٍ قبلك)....

وقال البخاري رحمه الله تعالى: حدَّثنا يحيى بنُ بكير حدَّثنا الليثُ عن عبيد الله بن أبي جعفر قال: سمعتُ حمزة بن عبد الله بن عمر قال سمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يومَ القيامةِ ليس في وجهه مُزْعةُ لحم) وقال: (إنَّ الشمس تدنو يومَ القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأُذن. فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد ﷺ) وزاد عبد الله حدثني الليث قال حدثني ابن أبي جعفر (فيشفع ليقضي بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذٍ يبعثه الله مقامًا محمودًا يحمده أهل الجمع كلُّهم) ففي هذا الحديث الجمع بين ذكر الشفاعتين: الأولى في فصل القضاء، والثانية في استفتاح باب الجنة، وسمى ذلك كله المقام المحمود (هذا) أي ما ذكر (وهاتان الشفاعتان) المذكورتان اللتان هما المقام المحمود (قد خصتا) أي جعلهما الله تعالى خاصتين (به) أي بنبينا محمد ﷺ وليستا لأحد غيره (بلا نكران) بين أهل السنة والجماعة، بل ولم ينكرهما المعتزلة الذين أنكروا الشفاعة الثالثة في إخراج عصاة الموحدين من النار.

الشفاعة الثالثة: شفاعته ﷺ لتخفيف العذاب عن عمه أبي طالب، وهي خاصة في أبي طالب دون غيره لما كان يقوم به من حمايته والدفاع عنه، حيث يشفع له، وقد وردت أحاديث صحيحة في تخفيف العذاب عنه بشفاعة الرسول ﷺ؛ شفاعة تخفيف لا شفاعة إخراج من النار.

كما جاء ذلك عن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال للنبي ﷺ (ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)[1]، وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ وذكر عنده عمه فقال: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه)[2]، ومع أنه في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه؛ لكنه في الواقع أهون أهل النار عذابا، كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: (أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه)[3].

قال علماء اللجنة الدائمة (١/ ٤٨٨): أبو طالب هو أخف أهل النار عذابا يوم القيامة، بسبب شفاعة النبي ﷺ له في ذلك، وإنما يخفف الله عنه ما هو فيه من العذاب بشفاعة النبي ﷺ.... وكل من مات كافرا فهو مخلد في النار، سواء كان من أقارب النبي ﷺ أم من غيرهم؛ لعموم قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} وما جاء في معناها من الآيات.

الشفاعة الرابعة: الشفاعة لأهل الكبائر من أمته ﷺ

قال الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح هذين البيتين من منظومته سلم الوصول (ص١٠٦٢):

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٨٨٣)، ومسلم برقم (٢٠٩) من حديث العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والضحضاح: مارق من الماء على وجه الارض ولا يبلغ الكعبين، فاستعارة للنار كما في النهاية مادة (ضحضح).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٨٨٥)، ومسلم برقم (٢١٠).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢١٢).

وَثَالِثًا يَشْفَعُ فِي أَقْوَامِ ... مَاتُوا عَلَى دِينِ الْهُدَى الإِسْلَامِ
وَأَوْبَقَتْهُمْ كَثْرَةُ الآثَامِ ... فَأُدْخِلُوا النَّارَ بِذَا الإِجْرَامِ
أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا إِلَى الْجِنَانِ ... بِفَضْلِ رَبِّ الْعَرْشِ ذِي الإِحْسَانِ

فهذه الشفاعة حقٌّ يؤمن بها أهل السنة والجماعة كما آمن بها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ودرج على الإيمان بذلك التابعون لهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأنكرها في آخر عصر الصحابة الخوارج، وأنكرها في عصر التابعين المعتزلة وقالوا بخلود من دخل النار من عصاة الموحدين الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ويشهدون أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون رمضان ويحجون البيت الحرام ويسألون الله الجنة ويستعيذون به من النار في كلّ صلاة ودعاء، غير أنهم ماتوا مصرّين على معصية عملية عالمين بتحريمها معتقدين مؤمنين بما جاء فيه الوعيد الشديد فقضوا بتخليدهم في جهنم مع فرعون وهامان وقارون، فجحدوا قول الله ﷻ (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) [ص: ٢٨] وقوله ﷻ (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) [الجاثية: ٢١] وقوله تعالى (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) [القلم: ٣٥ - ٣٦] وغيرها من الآيات وسائر الأحاديث الواردة.

وقال البخاري رحمه الله تعالى: وقال حجَّاجُ بنُ منهال حدَّثنا همامُ بنُ يحيى حدَّثنا قتادةُ عن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: (يُحبس المؤمنون يومَ القيامةِ حتى يهموا بذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم

فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلّمك أسماء كل شيءٍ لتشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، قال فيقول: لست هناكم. قال ويذكر خطيئته التي أصاب أكله من الشجرة وقد نهي عنها، ولكن ائتوا نوحًا أوَّل نبي بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض فيأتون نوحًا فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب سؤاله ربَّه بغير علم، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن. قال فيأتون إبراهيم فيقول: إني لست هناكم، ويذكر ثلاث كلمات كذبهنَّ، ولكن ائتوا موسى عبدًا آتاه الله التوراة وكلَّمه وقرَّبه نجيًا. قال فيأتون موسى فيقول: إنِّي لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب قتله النفس، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وروح الله تعالى وكلمته، قال: فيأتون عيسى فيقول: لستُ هناكم، ولكن ائتوا محمدًا ﷺ عبدًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي، فإذا رأيته وقعت ساجدًا، فيدعني ما شاء الله تعالى أن يدعني فيقول: ارفع محمد وقل يسمع واشفع تُشفّع وسل تُعط. قال: فأرفع رأسي فأثني على ربِّي بثناءٍ وتحميدٍ يُعلمنيه، ثم أشفع فيحدُّ لي حدًّا فأخرج فأدخلهم الجنة). قال قتادة: وقد سمعته يقول (فأخرج فأخرِجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأستأذن على ربِّي في داره فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت له ساجدًا فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفعْ محمد وقل يسمع واشفع تشفع وسلْ تُعْطَ. قال: فأرفع رأسي فأثني على ربِّي بثناءٍ وتحميدٍ يعلمنيه، قال: ثم أشفع فيحد لي حدًّا فأخرج فأدخلهم الجنة) قال قتادة: وسمعته يقول (فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربِّي في داره فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدًا فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفعْ محمد وقل يسمع واشفع تشفع

وسلْ تُعْطَ. قال: فأرفع رأسي فأثني على ربِّي بثناءٍ وتحميدٍ يعلمنيه، قال: ثم أشفع فيحد لي حدًّا فأخرج فأدخلهم الجنة) قال قتادة: وقد سمعته يقول (فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن)) أي وجب عليه الخلود. قال؛ ثم تلا هذه الآية ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] قال: وهذا المقام المحمود الذي وُعِدَهُ نبيكم ﷺ)[1].

وقال أيضًا: حدَّثنا مسدد حدَّثنا أبو عوانة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ (يجمع الله الناس يومَ القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربِّنا حتى يريحنا من مكاننا - وذكره مختصرًا وقال في الثالثة أو الرابعة - حتى ما بقي في النار إلاّ من حبسه القرآن) وكان قتادة يقول عند هذا: أي وجب عليه الخلود[2].

ورواه مسلم من طرق بنحوه، وقال رحمه الله تعالى: حدَّثنا أبو الربيع العتكيُّ حدَّثنا حماد بن زيد حدَّثنا معبدُ بنُ هلالٍ العنزيُّ. ح. وحدَّثنا سعيد بن منصور - واللفظ له، حدَّثنا حماد بن زيد حدَّثنا معبدُ بن هلال العنزي قال: انطلقنا إلى أنسٍ بن مالك، وتشفعنا بثابتٍ، فانتهينا إليه وهو يصلي الضحى، فاستأذن لنا ثابتٌ فدخلنا عليه وأجلس ثابت معه على سريره فقال: يا أبا حمزة إنَّ إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة. قال: حدَّثنا محمدٌ ﷺ قال: (إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم فيقولون له: اشفع لذُرِّيتك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنَّه خليلُ الله، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنَّه كليم

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦٥).

الله، فيؤتى موسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنَّه روح الله وكلمته، فيؤتى عيسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ فأوتى فأقول: أنا لها فأنطلق فأستأذن على ربِّي فيؤذن لي، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن، يُلهمنيه الله، ثم أَخرُّ له ساجدًا فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع. فأقول: ربِّ أُمَّتِي أُمَّتي، فيقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبةٍ من بُرَّةٍ أو شعيرة من إيمان فأخْرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أَخِرُّ له ساجدًا له، فيقال لي يا محمَّدُ ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول، أُمَّتي أُمَّتي، فيقال لي انطلق فمن كان في قلبه مثقالُ حبّةٍ من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربي عَزَّ وَجَلَّ فأحمده تلك المحامد، ثم أَخِرُّ له ساجدًا، فيقال لي يا محمَّدُ ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول يا رب أُمَّتي، فيقال لي انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبةٍ من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل) هذا حديث أنس الذي أنبأنا به، فخرجنا من عنده، فلما كنّا بظهر الجبَّان: قلنا لو ملنا إلى الحسن فسلَّمنا عليه وهو مستخفٍ في دار أبي خليفة. قال فدخلنا عليه فسلَّمنا عليه فقلنا: يا أبا سعيد جئنا من عند أخيك أبي حمزة فلم نسمع مثل حديث حدَّثناه في الشفاعة. قال: هيه. فحدَّثناه الحديث. فقال هيه. قلنا ما زادنا. قال: قد حدَّثنا به منذ عشرين سنةٍ وهو يومئذٍ جميعٌ، ولقد ترك شيئًا ما أدري أَنَسِيَ الشيخ أو كره أن يحدِّثكم فتتكلوا، قلنا له: حدَّثنا. فضحك وقال: خُلِقَ الإنسان من عَجَل، ما ذكرت لكُم هذا إلا وأنا أريدُ أن أحدثكموه (ثم أرجع إلى ربِّي في الرابعة فأحمده بتلك المحامد، فيقال لي يا محمَّدُ ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه

واشفع تشفع، فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله. قال: ليس ذاك لك - أو قال ليس ذاك إليك - ولكن وعِزَّتِي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأُخرجَنَّ من قال لا إله إلا الله) قال: فأشهد على الحسن أنَّه حدَّثنا به أنَّه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه أراه قال: قبل عشرين سنة وهو يومئذٍ جميع[١].

وقال أيضًا: حدثنا محمد بنُ منهال الضَّرير حدَّثنا يزيد بن زُريع حدَّثنا سعيدُ بن أبي عروبة وهشامٌ صاحب الدَّسْتَوَائي عن قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ. ح. وحدَّثني أبو غسّان المِسْمَعيُّ ومحمد بن المثنى قالا حدثنا معاذ وهو ابن هشام قال حدَّثني أبي عن قتادة حدَّثنا أنس بنُ مالكٍ أنَّ النبي ﷺ قال (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرةً، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذَرَّة) زاد ابن منهال في روايته. قال يزيدُ: فلقيتُ شعبة فحدَّثته بالحديث فقال شعبة حدَّثنا به قتادةُ عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ بالحديث، إلا أنَّ شعبة جعل مكان الذرة ذُرَة، قال يزيد: صحَّف فيها أبو بسطام[٢].

وقال رحمه الله تعالى: حدَّثنا حجاج بن الشاعر حدَّثنا الفضل بنُ دكين حدَّثنا أبو عاصم يعني محمد بن أبي أيوب قال حدَّثني يزيد الفقير قال كنت قد شغفني رأيٌ من رأي الخوارج فخرجنا في عصابةٍ ذوي عددٍ نريد أن نَحُجّ، ثم نخرج على الناس، قال فمررنا على المدينة، فإذا جابرُ بن عبد الله رضي الله عنهما يحدِّث القوم، جالسٌ إلى سارية عن رسول الله ﷺ قال فإذا هو قد ذكر الجهنَّميين قال

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٣) (٣٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٣) (٣٢٥)، والبخاري (٧٤١٠) مطولًا.

فقلت له: يا صاحب رسولِ اللهِ ﷺ ما هذا الذي تحدِّثون والله تعالى يقول رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ [آل عمران: ١٩٢] وكُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا [الحج: ٢٢] فما هذا الذي تقولون؟ قال فقال: أتقرأُ القرآن؟ قلت نعم. قال فهل سمعت بمقامِ محمدٍ ﷺ يعني الذي يبعثه الله فيه؟ قلت: نعم. قال فإنَّه مقام محمدٍ ﷺ المحمودُ الذي يخرج الله به من يخرج. قال ثم نعت وضع الصراط ومرَّ الناس عليه، قال وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك، قال غير أَنَّه قد زعم أنَّ قومًا يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها. قال يعني فيخرجون كأنَّهم عيدان السَّماسم، قال: فيدخلون نهرًا من أنهار الجنة فيغتسلون فيه فيخرجون كأنهم القراطيس، فرجعنا قلنا: ويحكم أترون الشيخ يكذب على رسولِ الله ﷺ، فرجعنا فلا والله ما خرج منّا غير رجلٍ واحدٍ، أو كما قال أبو نعيم[(١)].

وقال رحمه الله تعالى: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدَّثنا سفيانُ بن عيينة عن عمرو، سمع جابرًا رضي الله عنه يقول: سمعه من النَّبيّ ﷺ بأُذنه يقول (إنَّ الله يخرج ناسًا من النار فيدخلهم الجنة)[(٢)]، وفي رواية له عن حمَّاد بن زيد قال: قلت لعمرو بن دينار (أسمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يحدِّث عن رسولِ الله ﷺ أنَّ الله يُخرج قومًا من النار بالشفاعة؟ قال نعم) ورواه البخاري[(٣)].

وفي رواية له أنَّ النبي ﷺ قال: (يخرج قومٌ من النار بالشفاعة كأنَّهم الثَّعارير) قلت ما الثعارير قال الضَّغابيس وكان قد سقط فمه[(٤)].

(١) أخرجه مسلم (١٩١) (٣٢٠).
(٢) أخرجه مسلم (١٩١) (٣١٧).
(٣) أخرجه مسلم (١٩٣) (٣١٨)، والبخاري (٦٥٥٨).
(٤) أخرجه البخاري (٦٥٥٨).

وقال حدَّثنا: هدبة بن خالدٍ حدثنا همَّام عن قتادة حدَّثنا أنسُ بن مالك عن النبي ﷺ قال (يخرج قومٌ من النار بعد ما مسَّهم منها سفعٌ. فيدخلون الجنة، فيسمِّيهم أهل الجنة الجهنميين)(١).

وقال رحمه الله تعالى حدَّثنا قتيبة بن سعيد حدَّثنا إسماعيل بن جعفر عن عمرو عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: قلت: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يومَ القيامة؟ فقال (لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أوَّل منك، لما رأيتُ من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يومَ القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه)(٢).

وهذه الشفاعة الثالثة قد فسّر بها المقام المحمود أيضًا كما في حديث أنس وحديث جابر رضي الله عنهما فيكون المقام المحمود عامًّا لجميع الشفاعات التي أوتيها نبينا محمد ﷺ، لكن جمهور المفسرين فسروه بالشَّفاعتين الأوليين لاختصاصه ﷺ بهما دون غيره من عباد الله المكرمين، وأمَّا هذه الشفاعة الثالثة فهي وإن كانت من المقام المحمود الذي وعده فليست خاصة به ﷺ بل يؤتاها كثيرٌ من عباد الله المخلصين ولكن هو ﷺ المقدم فيها، ولم يشفع أحد من خلق الله تعالى في مثل ما يشفع فيه رسول الله ﷺ ولا يدانيه في ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، ثم بعده يشفع من أذن اللهُ تعالى له من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين وسائر أولياء الله تعالى من المؤمنين المتقين، ويشفع الأفراطُ كل منهم يكرمه الله تعالى على قدر ما هو له

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بزيادة (أو نفسه).

أهل، ثم يخرج الله تعالى من النار برحمته أقوامًا بدون شفاعة الشافعين، ولذا قلنا في ذلك:

وَبَعْدَهُ يَشْفَعُ كُلُّ مُرْسَلِ وَكُلُّ عَبْدٍ ذِي صَلَاحٍ وَوَلِي
وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النِّيْرَانِ جَمِيْعَ مَنْ مَاتَ عَلَى الإِيْمَانِ
فِي نَهَرِ الْحَيَاةِ يُطْرَحُونَا فَحْمًا فَيَحْيَونَ وَيَنْبُتُونَا
كَأَنَّمَا يَنْبُتُ فِي هَيْئَاتِهِ حَبُّ حَمِيْلِ السَّيْلِ فِي حَافَاتِهِ

تقدم في حديث أبي هريرة المتفق عليه في طريق الرؤية قول النَّبيّ ﷺ (حتَّى إذا فرغ الله تعالى من فصل القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئًا ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ممَّن يشهد أن لا إله إلا الله فيعرفونهم في النار بأثر السجود تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود، حرَّم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون تحته كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ويبقى رجلٌ مقبلٌ بوجهه على النار هو آخر أهل النار دخولًا الجنة)[1] الحديث تقدم بطوله.

وتقدم حديث أبي سعيد المتفق عليه أيضًا بطوله - وفيه في نعت المرور على الصراط: (حتى يمر آخرهم يُسحب سحبًا، فما أنتم بأشدَّ لي مناشدة في الحق، قد تبيَّن لكم من المؤمن يومئذٍ للجبار إذا رأوا أنَّهم قد نجوا في إخوانهم يقولون: ربَّنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا، فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ويحرم الله تعالى صورهم على النار فيأتونهم وبعضهم قد غار في النار إلى قدميه وإلى

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

أنصاف ساقيه فيُخرجون من عرفوا. ثم يعودون فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه، فيُخرجون من عرفوا. ثم يعودون فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيُخرجون من عرفوا – قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني فاقرؤوا إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا [النساء: ٤٠] فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبّار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقوامًا قد امتحشوا فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له ماء الحياة فينبتون في حافتيه كما تنبت الحبَّةُ في حميل السيل قد رأيتموها إلى جانب الصخرة إلى جانب الشجرة، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر، وما كان إلى الظل كان أبيض، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ، فيجعل في رقابهم الخواتيم فيدخلون الجنة، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خيرٍ قدَّموه، فيقال لهم: لكم ما رأيتم ومثله معه)[1]، وفي لفظ مسلم (حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحدٍ بأشد مناشدة لله في استقصاء الحقِّ من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربَّنا كانوا يصومون معنا ويصلون معنا ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه، ثم يقولون ربَّنا ما بقي فيها أحَدٌ ممَّن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدُّتُم في قلبه مثقال دينار من خيرٍ فأخرجوه، فيُخرجون خلقًا كثيرًا. ثم يقولون: ربَّنا لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا بهم. يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينارٍ من خيرٍ فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا. ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرةٍ من خير فأخرجوه،

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩).

فيُخرجون كثيرًا. ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرًا، وكان أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إنْ لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: ٤٠]، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حممًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نَهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبَّة في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون منها إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض. فقالوا يا رسول الله كأنَّك ترعى بالبادية، قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء اللهِ الذين أدخلهم الله الجنة بغير عملٍ عملوه ولا خيرٍ قدّموه. ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموهُ فهو لكم، فيقولون ربَّنا أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين. فيقول: لكم عندي أفضل من هذا. فيقولون: ربَّنا أيُّ شيءٍ أفضل من هذا؟ فيقول رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبدًا)[(١)].

وفيهما من حديثه أيضًا أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال (يُدخل الله أهل الجنةِ الجنةَ يدخل من يشاء في رحمته ويدخل أهل النارِ النارَ. ثم يقول: انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبَّةٍ من خردل من إيمان فأخرجوهُ، فيُخرجون منها حممًا قد امتحشوا فيُلْقَوْنَ في نهر الحياة أو الحيا فينبتون فيه كما تنبت الحبَّةُ إلى جانب السيل ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتويةً)[(٢)] - وفي رواية لمسلم: (كما تنبت الغثاءة في جانب السيل)[(٣)].

وله عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أمَّا أهل النار الَّذِين هم أهلها فإنَّهم

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٤) (٣٠٥).

لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناسٌ أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحمًا أُذِنَ بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبُثُّوا على أنهار الجنة، ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل. فقال رجلٌ من القوم: كأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد كان بالبادية)[1].

وللترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه يقول: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: (وعَدَنِي ربِّي أن يدخل الجنة من أُمَّتي سبعين ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب. مع كلِّ ألفٍ سبعون ألفًا وثلاث حثياتٍ من حثيات ربِّي)[2].

وله عن عبد الله بن شقيق قال: كنت مع رهطٍ بإيليا فقال رجلٌ منهم: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول (يدخل الجنة بشفاعةِ رجل من أُمَّتي أكثر من بني تميم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨، رقم ٢٢٣٥٧)، وابن أبي شيبة (١١/ ٤٧١)، والترمذى (٤/ ٦٢٦، رقم ٢٤٣٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٣، رقم ٤٢٨٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٨٩)، والطبرانى (٨/ ١١٠، رقم ٧٥٢٠)، وابن حبان (١٦/ ٢٣٠، رقم ٧٢٤٦)، والدارقطنى فى الصفات (١/ ٣٧، رقم ٥٠)، والمحاملى (١/ ٢٦٥، رقم ٦٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٢٩)، والديلمى (٤/ ٣٨٢، رقم ٧١١٣) والحديث ضعفه ابن عدي في الكامل (٤/ ٣٣٥)، وابن القيسراني في الذخيرة (٥/ ٢٧٨٥)، وابن الجوزي في العلل المتناهية، وكذا الذهبي في تلخيص العلل المتناهية (٣٥٦)، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وصححه ابن حبان، وقال الذهبي في السير (١٦/ ٤٦٠): إسناده قوي، وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٨٢): إسناده جيد، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٤/ ٥٤١)، وحسنه العلامة الوادعي في كتاب الشفاعة (١٣٠)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٦/ ٦٣٩): صحيح، وهذا إسناد حسن، إسماعيل بن عياش العنسي الحمصي صدوق حسن الحديث في روايته عن الشاميين، وهذا منها، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح.

قيل: يا رسول الله سواك؟ قال: سواي فلما قام قلت: مَنْ هذا؟ قالوا هذا ابن أبي الجدعاء -أو الجذعاء-)[١].

وللترمذي أيضًا عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: (إنَّ مِنْ أُمَّتي من يشفع للفئام من الناس، منهم من يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة، ومنهم من يشفع للرجل. حتى يدخلوا الجنة)[٢].

---

(١) أخرجه الطيالسى (ص ١٨١، رقم ١٢٨٣)، وأحمد (٥/ ٣٦٦، رقم ٢٣١٥٤)، والدارمى (٢/ ٤٢٣، رقم ٢٨٠٨)، والبخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٢٦)، الترمذى (٤/ ٦٢٦، رقم ٢٤٣٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٣، رقم ٤٣١٦)، وأبو يعلى (١٢/ ٢٨٠، رقم ٦٨٦٦)، وابن خزيمة في التوحيد (٣١٣)، وابن حبان (١٦/ ٣٧٦، رقم ٧٣٧٦)، والحاكم (١/ ١٤٢، رقم ٢٣٦)، والضياء (٩/ ١٤٠، رقم ١٢١)، وابن عساكر (٩/ ٤٣٩)، وابن الأثير في أسد الغابة (٣/ ١٩٦)، والمزي في تهذيب الكمال (١٤/ ٣٥٩ - ٣٦٠) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب، وصححه ابن خزيمة، وابن حبان، وألزم الإمام الدارقطني به الشيخان كما في الإلزامات والتتبع (١٠٥)، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة، وقال الشيخ مقبل في كتاب الشفاعة (١٩٩): على شرط مسلم، وقال في تعليقه على كتاب الإلزامات والتتبع (١٠٥): على شرط الشيخين، وقال الشيخ مشهور في تعليقه على كتاب الموافقات (٢/ ٤٢٣): إسناده صحيح على شرط مسلم، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٥/ ١٨٨): إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح إلا أن صحابيه لم يخرج له سوى الترمذي وابن ماجه.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٦٣، رقم ١١٦٢٣)، وابن أبى شيبة (٦/ ٣١٣، رقم ٣١٧٠٣)، والترمذى (٤/ ٦٢٧، رقم ٢٤٤٠)، وأبو يعلى (٢/ ٢٩٢، رقم ١٠١٣)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٧٤٧) والحديث حسنه الترمذي، وصححه ابن خزيمة، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف الترمذي، وقال العلامة الوادعي في كتاب الشفاعة (١٩٥): فيه عطية العوفي وهو ضعيف ومدلس، قال الذهبي في "الميزان": قال أحمد: بلغني أن عطية كان يأتي الكلبي فيأخذ عنه التفسير وكان يكنيه بأبي سعيد، فيقول: قال أبوسعيد. قلت: يعني يوهم أنه الخدري. وقال النسائي وجماعة: ضعيف..اهـ. والتصريح بأنه الخدري عند
=

وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النَّبيّ ﷺ قال (يخرجُ قومٌ من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة ويُسمَّون الجهنميين)[١].

وعن أبي موسى الأشعريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ (خُيِّرتُ بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أُمَّتي الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى، ترونها للمتَّقين، لا ولكنها للمذنبين الخطَّائين المتلوَّثين)[٢].

وعن عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ (أتدرون ما خيَّرني ربِّي الليلة؟ قلنا: اللهُ ورسوله ﷺ أعلم، قال: فإنَّه خيَّرني بين أن يُدخل نصف أمتي

=

أحمد يحتمل أنه من الرواة عنه، والله أعلم، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٨/ ١٤٩): صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف عطية العوفي، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين. عثمان بن عمر: هو ابن فارس العبدي.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٦٦).

(٢) أخرجه أحمد (٧/ ٢٢٧)، وابن ماجه (٢/ ٥٨٣)، وابن أبي داود في البعث (٨٦/ ٤٥)، والمخلص في الفوائد المنتقاة (١/ ١٥٨/ ١)، وأبو صالح الحرمي في الفوائد العوالي (١٧٥/ ٢)، وأبو علي إسماعيل الصفار في حديث عبد الله المخرمي (١١٦/ ٢) والحديث ضعفه الدارقطني في العلل (٧/ ٢٢٦-٢٢٧)، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٣٥٨٥) بقوله: وبالجملة؛ فالحديث لم يطمئن القلب لصحته؛ لاضطراب الرواة في إسناده على زياد بن خيثمة على هذه الوجوه الثلاثة، وضعفه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٥/ ٧٠)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (٥/ ٣٦٤): إسناده ضعيف لاضطرابه، أما البوصيري فقال في مصباح الزجاجة (٤/ ٢٦٠): إسناده صحيح، وقال العلامة الوادعي فقال في الجامع مما ليس في الصحيحين (١/ ٤٢٤): حديث رجاله رجال الصحيح إلا أسماعيل بن أسيد وقد قال ابن أبي حاتم: كتبت عنه مع أبي وهو ثقة صدوق وسئل عنه أبي فقل: صدوق، وقال الدارقطني: ثقة صدوق ورع فاضل، وقال البزار: ثقة مأمون..اهـ. مختصرا من تهذيب التهذيب.

الجنة وبين الشفاعة، فاخترتُ الشفاعة. قلنا: يا رسول الله ادع الله أنْ يجعلنا من أهلها. قال: هي لكلِّ مسلم)[١] ورواه الترمذي بلفظ (فاخترت الشفاعة، وهي لمن مات لا يُشْرِكُ باللهِ شيئًا) وقد تقدم تخريجه في التعليق السابق. والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًا مشهورة مستفيضة بل متواترة، وقد ذكرنا منها ما فيه كفاية، وتقدم في أحاديث الرؤية جملة منها عن جماعة من الصحابة، وبقي من النصوص في هذا الباب كثير، وبالله التوفيق.

الشفاعة الخامسة: شفاعته ﷺ في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٣)، وهناد (١/ ١٣٨، رقم ١٨١)، وابن أبي شيبة (١١/ ٤٨٦)، والطيالسي (٩٩٨)، وعبد الرزاق (٢٠٨٦٥)، والترمذى (٤/ ٦٢٧، رقم ٢٤٤١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٤، رقم ٤٣١٧)، والبخاري في تاريخه الكبير (١/ ١٨٤ - ١٨٥)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٦٤٤ و٦٤٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٨١٩)، وابن حبان (٢١١)، (٧٢٠٧)، والحاكم (١/ ٦٠، رقم ٣٦)، والطبرانى (١٨/ ٧٢، رقم ١٣٣) والحيث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وصححه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٩/ ٤٢٩)، أما الشيخ مقبل فقال في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (ص٣٤١، رقم ٣٦٧): هذا الحديث إذا نظرت إلى سنده وجدتهم رجال الصحيح، ولكن الإمام ابن خزيمة رواه في التوحيد (ص٢٦٣) وقال ص (٢٦٤):أخاف أن يكون قوله: سمعت عوفا وهما وان بينهما معدي كرب. ثم ساقه بسنده إلى سيلم بن عامر، عن معدي كرب، عن عوف بن مالك..اهـ. المراد منه. وأخرج الحديث يعقوب الفسوي في "المعرفة والتاريخ" (ج٢ص٣٣٧) بسنده إلى سليم بن عامر، عن معدي كرب، عن عوف به..اهـ. وفي"تهذيب التهذيب"في ترجمة سليم: وقال ابن أبي حاتم في"المراسيل": روى عن عوف بن مالك مرسلا ولم يلقه..اهـ. وقال ابن أبي حاتم في"العلل" (ج٢ص٢١٣) عن أبيه: لم يسمع سليم بن عامر من عوف بن مالك شيئا، بينه بين عوف نفسان..اهـ. المراد منه. ويراجع ما كتبته في الشفاعة على هذا الحديث ص (٨٤).اهـ.، وقد تعقب العلامة الألباني هذه العلة في ظلال الجنة (٢/ ٣٩٨).

فيهم ليدخلوا الجنة، قال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٢٨): وظهر لي بالتتبع شفاعة أخرى وهي الشفاعة فيمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة، ومستندها ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال (السابق يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد ي رَحِمَهُ اللَّهُ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلونها بشفاعة النبي صلى الله عليه)[١].اهـ. قلت ولكنه حديث ضعيف لا يصلح في إثبات حكم.

وهذا النوع من الشفاعة قد ذكره ابن أبي العز وغيره كما في شرح العقيدة الطحاوية (ص ٢٨٨) حيث قال النوع الثاني من أنواع الشفاعة: شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة.

ولم يذكرها القاضي عياض وكذا النووي، وابن تيمية وغيرهم عند ذكرهم لأنواع الشفاعة.

ولا يوجد دليل على إثبات هذا النوع من الشفاعة إلا قول ابن عباس المتقدم وقد عرفت ما فيه، وقد جاء ما يدل على خلافه فعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (أصحاب الأعراف، قوم قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، جعلوا هناك حتى يقضى بين الناس، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربهم، فقال: قوموا فادخلوا الجنة، فإني غفرت لكم)[٢].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٨٩ / ١١٤٥٤) والحديث قال عنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٧٨): رواه الطبراني في الكبير والأوسط باختصار عنه، وفيه موسى بن عبدالرحمن الصنعاني وهو وضاع، قلت موسى بن عبدالرحمن الصنعاني هذا قال عنه ابن حبان: دجال، وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتابا في التفسير كما في لسان الميزان (٧/ ١٨٤) وهذا الحديث روي من نفس هذا الطريق الذي ذكره ابن حبان.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٨/ ١٩٠)، وهناد في الزهد (١/ ١٥١ ٢٠١ و٢٠٢)، وسعيد بن المنصور في سننه (٥/ ١٤٤ و١٤٧/ ٩٥٦ و٩٥٧)، والحاكم في في =

فالصواب أن من تساوت حسناتهم وسيئاتهم - وهم أصحاب الأعراف - أنهم يدخلون الجنة برحمة الله، وليس بالشفاعة، فذكر هذا النوع لعله يكون ليس بصحيح، إن لم يكن هناك دليل آخر، والله أعلم.

الشفاعة السادسة: الشفاعة في رفع درجات بعض المؤمنين من أهل الجنة، كما دعا لأبي سلمة حينما قبض الله روحه، فقد روى مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: (إن الروح إذا قبض تبعه البصر، فضج ناس من أهله فقال لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون، ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه) وهذه شفاعة منه ﷺ لأبي سلمة.

والدعاء شفاعة، كما قال ﷺ (ما من مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا، إلا شفعهم الله فيه) أخرجه مسلم (٩٤٨).

قال العلامة العثيمين في القول المفيد على كتاب التوحيد (١/ ٣٣٤): فإن قيل: إن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه؛ فكيف يسمى دعاء الإنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟

والجواب: إن الله أمر بأن يدعو الإنسان لأخيه الميت، وأمره بالدعاء إذن وزيادة وأما الشفاعة الموهومة التي يظنها عباد الأصنام من معبوديهم؛ فهي شفاعة باطلة لأن الله لا يأذن لأحد بالشفاعة إلا من ارتضاه من الشفعاء والمشفوع لهم[1].

=

المستدرك (٢/ ٣٢٠)، والبيهقي في البعث والنشور (١٠١ و١٠٢) وغيرهم بأسانيد صحيحة، وقد روي مرفوعا، والمحفوظ وقفه، وله حكم الرفع.

(١) قال الإمام ابن القيم في تهذيب السنن (١٣/ ٥٥-٥٦): بعد ما ذكر أحاديث الشفاعة:
=

الشفاعة السابعة: الشفاعة في دخول بعض المؤمنين الجنة من غير حساب ولا عقاب، مثل حديث عكاشة بن محصن عند البخاري، حيث دعا له أن يكون من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب، ومصداق ذلك ما جاء عن حصين قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: حدثني ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: عرضت علي الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة والنبي يمر معه النفر والنبي يمر معه العشرة والنبي يمر معه الخمسة والنبي يمر وحده فنظرت فإذا سواد كثير قلت يا جبريل هؤلاء أمتي قال لا ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير قال هؤلاء أمتك وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب قلت ولم قال كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون

=

"فقد تضمنت هذه الأحاديث خمسة أنواع من الشفاعة: أحدها الشفاعة العامة التي يرغب فيها الناس إلى الأنبياء نبيا بعد نبي حتى يريحهم الله من مقامهم، النوع الثاني الشفاعة في فتح الجنة لأهلها، النوع الثالث الشفاعة في دخول من لا حساب عليهم الجنة، النوع الرابع الشفاعة في إخراج قوم من أهل التوحيد من النار، النوع الخامس في تخفيف العذاب عن بعض أهل النار، ويبقى نوعان يذكرهما كثير من الناس، أحدهما في قوم استوجبوا النار فيشفع فيهم أن لا يدخلوها، وهذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه، وأكثر الأحاديث صريحة في أن الشفاعة في أهل التوحيد من أرباب الكبائر إنما تكون بعد دخولهم النار وأما أن يشفع فيهم قبل الدخول فلا يدخلون فلم أظفر فيه بنص، والنوع الثاني شفاعته ﷺ لقوم من المؤمنين في زيادة الثواب ورفعة الدرجات، وهذا قد يستدل عليه بدعاء النبي ﷺ لأبي سلمة وقوله اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، وقوله في حديث أبي موسى اللهم اغفر لعبيد أبي عامر واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك، وفي قوله في حديث أبي هريرة أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله سر من أسرار التوحيد، وهو أن الشفاعة إنما تنال بتجريد التوحيد فمن كان أكمل توحيدًا كان أحرى بالشفاعة لا أنها تنال بالشرك بالشفيع كما عليه أكثر المشركين. وبالله التوفيق".

وعلى ربهم يتوكلون فقام إليه عكاشة بن محصن فقال ادع الله أن يجعلني منهم قال: اللهم اجعله منهم ثم قام إليه رجل آخر قال ادع الله أن يجعلني منهم قال سبقك بها عكاشة)[١]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفا تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر، وقال أبو هريرة فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرة عليه فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم قال اللهم اجعله منهم، ثم قام رجل من الأنصار فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال سبقك بها عكاشة)[٢].

الشفاعة الثامنة: شفاعة الرسول ﷺ لمن سكن في المدينة ومات بها وهذه الشفاعة فيها إكرام للمدينة ولمن سكن بها صابرا على لأوائها مفضلا لها على غيرها، وقد شرفها الله بميزات عديدة ليس هذا موضع ذكرها، ومن ذلك أن جعلها مهاجر رسول الله ﷺ وعاصمة دولة الإسلام الأولى، وأن يأرز إليها الإيمان كما تأرز الحية إلى جحرها.

ومن الأدلة على ذلك ما جاء في صحيح مسلم (١٣٦٣) عن عامر بن سعيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهها أو يقتل صيدها وقال المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة).

وقد قسم بعضهم الشفاعة لأهل المدينة إلى شفاعتين

الأولى: الشفاعة لمن يصبر على لأوائها وشدتها من المسلمين.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٠٥)، ومسلم برقم (٢٢٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٨١١)، ومسلم برقم (٢١٦).

الثانية: الشفاعة لمن يموت بها من المسلمين.

أما الشفاعة الأولى وهي لمن يصبر على لأوائها وشدتها من المسلمين، فقد جاءت الأحاديث الصحيحة في الترغيب في الصبر على لأواء المدينة وشدتها وأن ذلك من موجبات شفاعته ﷺ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عند مسلم (١٣٧٧) قال (سمعت رسول الله ﷺ يقول: من صبر على لأوائها وشدتها كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة).

وعن يحنس مولى الزبير عند مسلم (١٣٧٧) أيضا أخبره أنه كان جالسا عند عبد الله بن عمر في الفتنة فأتته مولاة له تسلم عليه فقالت إني أردت الخروج يا أبا عبد الرحمن اشتد علينا الزمان فقال لها عبد الله اقعدي لكاع فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (١٣٧٨) أن رسول الله ﷺ قال (لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعًا يوم القيامة أو شهيدًا).

وعن أبي سعيد مولى المهري عند مسلم (١٣٧٤) (أنه جاء أبا سعيد الخدري ليالي الحرة فاستشاره في الجلاء من المدينة وشكا إليه أسعارها وكثرة عياله وأخبره أن لا صبر له على جهد المدينة ولأوائها فقال له: ويحك لا آمرك بذلك إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يصبر أحد على لأوائها فيموت إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة إذا كان مسلمًا).

وعن عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنه عند مسلم (١٣٦٣) قال: قال رسول الله ﷺ (إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهها أو يقتل صيدها وقال:

المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة).

وأما الشفاعة الثانية فهي لمن يموت بها من المسلمين، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في الترغيب في الموت بالمدينة وأن ذلك من موجبات شفاعته ﷺ، منها حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت بالمدينة فإني أشفع لمن يموت بها)[(١)].

وعن الصميتة -امرأة من بني ليث- سمعها تحدث صفية بنت أبي عبيد رضي الله عنهما أنها قالت (سمعت رسول الله ﷺ يقول: من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت فإنه من مات بها كنت له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة)[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٧٤)، وابن ماجه (٣١١٢)، والترمذي (٣٩١٧)، وابن حبان (٣٧٤١)، والبيهقي في الشعب الإيمان (٤١٨٥)، والبغوي في شرح السنة (٢٠٢٠) والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث أيوب السختياني، وصححه ابن حبان، وحسنه البغوي، وصححه ابن عبد الهادي في الصارم المنكي (٩٧)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٦٠١٥)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٥/ ٦٦): إسناده صحيح، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٧٤٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٩/ ٣٢٠): إسناده صحيح على شرط البخاري.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٢/ ٤٨٨، رقم ٤٢٨٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦/ ١٥٤، رقم ٣٣٨٢)، وابن حبان (٩/ ٥٨، رقم ٣٧٤٢)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٣١-٣٣٢، رقم ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٣٥)، وابن جميع الصيداوي في معجمه (ص٣٥٣)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٦/ ٣٣٨١ - ٣٣٨٢، رقم ٧٧٢٩)، والبيهقي في الشعب (٨/ ١١٢- ١١٣، رقم ٣٨٨٤، ٣٨٨٥) والحديث ألزم الإمام الدارقطني به الشيخان كما في الإلزامات والتتبع (١١٤)، وصححه العلامة الألباني في =

قال الزرقاني في شرحه على الموطأ (٤/ ٢٧٣): قال المازري: "اللأواء الجوع وشدة المكسب وضمير شدتها يحتمل أن يعود على اللأواء ويحتمل أن يعود على المدينة قال الأبي الحديث خرج مخرج الحث على سكناها فمن لزم سكناها داخل في ذلك ولو لم تلحقه لأواء لأن التعليل بالغالب والمظنة لا يضر فيه التخلف في بعض الصور كتعليل القصر بمشقة السفر فإن الملك يقصر وإن لم تلحقه مشقة لوجود السفر".اهـ.

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله كنت له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة كذا جاء في هذا الكتاب قيل هو على الشك ويبعد عندي لأن هذا الحديث رواه نحو العشرة من أصحاب النبي ﷺ بهذا اللفظ ويبعد تطابقهم فيه على الشك والأشبه أنه صحيح وأن أو للتقسيم فيكون شهيدًا لبعضهم شفيعًا للآخرين أما شهيدًا لمن مات في حياته كما قال ﷺ أما أنا شهيد على هؤلاء، وشفيعًا لمن مات بعده أو شهيدًا على المطيعين شفيعًا للعاصين وشهادته لهم بأنهم ماتوا على الإسلام ووفوا بما عاهدوا الله عليه أو تكون أو بمعنى الواو فيختص أهل المدينة بمجموع الشهادة والشفاعة وغيرهم بمجرد الشفاعة، قال: وهذه خصوصية زائدة على الشفاعة للمذنبين أو للعالمين في القيمة وعلى شهادته على جميع الأمة وقد قال ﷺ في شهداء أحد أنا شهيد على هؤلاء فيكون لتخصيصهم بهذا كله مزيد أو زيادة منزلة وحظوة قال وقد يكون أو بمعنى الواو فيكون لأهل المدينة شفيعًا وشهيدًا قال وقد روى إلا كنت له شهيدًا أوله شفيعًا قال وإذا جعلنا أو للشك كما قاله المشايخ فإن كانت اللفظة الصحيحة شهيدًا اندفع

=

الصحيحة (٢٩٢٨)، وقال العلامة الوادعي في كتاب الإلزامات والتتبع (١١٤): على شرط مسلم.

الاعتراض لأنها زائدة على الشفاعة المدخرة المجردة لغيره وإن كانت اللفظة الصحيحة شفيعًا فاختصاص أهل المدينة بهذا مع ما جاء من عمومها وادخارها لجميع الأمة أن هذه شفاعة أخرى غير العامة التي هي لإخراج أمته من النار ومعافاة بعضهم منها بشفاعته ﷺ في القيامة وتكون هذه الشفاعة لأهل المدينة بزيادة الدرجات أو تخفيف الحساب أو بما شاء الله من ذلك أو بإكرامهم يوم القيامة بأنواع من الكرامة كإيوائهم إلى ظل العرش أو كونهم في روح وعلى منابر أو الإسراع بهم إلى الجنة أو غير ذلك من خصوص الكرامات الواردة لبعضهم دون بعض والله أعلم "(١).

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٨٦): "قوله: من استطاع أي قدر أن يموت بالمدينة أي يقيم بها حتى يدركه الموت ثمت فليمت بها أي فليقم بها حتى يموت فهو حث على لزوم الإقامة بها فإني أشفع لمن يموت بها أي أخصه بشفاعتي غير العامة زيادة في إكرامه، قال الطيبي أمر له بالموت بها وليس ذلك من استطاعته بل هو إلى الله تعالى لكنه أمر بلزومها والإقامة بها بحيث لا يفارقها فيكون ذلك سببا لأن يموت فيها فأطلق المسبب وأراد السبب كقوله تعالى (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون).

المسألة السابعة: ثبوت الشفاعة في بعض الأعمال

وردت أحاديث تثبت الشفاعة لمن يتصف بأحد الأسباب الآتية:

١- طلب الوسيلة للرسول ﷺ، فمن فعل ذلك فقد وجبت له الشفاعة، كما

---

(١) مشارق الأنوار للقاضي عياض ٢/ ٢٥٨، وشرح النووي على صحيح مسلم ٩/ ١٣٦، والديباج على مسلم للسيوطي ٣/ ٤٠٧، وتحفة الأحوذي للمباركفوري ١٠/ ٢٨٧.

ورد ذلك عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة).

٢- قول العبد لا إله إلا الله وموته عليها موحدا: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال (قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه) رواه البخاري.

وأيضا يشفع عليه الصلاة والسلام لمن قال: لا إله إلا الله وإن دخل النار بذنوبه؛ فقد ورد من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صفة الشفاعة: (ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله فيقول وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله) رواه البخاري.

وفي حديث آخر عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه أخبر عن خروج أهل لا إله

إلا الله مهما كانت قلة عملهم، وإن كان شيئا يسيرا فإن الله يجعل فيه البركة؛ فيحل به رضا الله تعالى فلا يستهن أحد بعمل الخير مهما كان قليلا؛ فقد قال ﷺ: يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه ما يزن من الخير ذرة) رواه البخاري ومسلم.

المسألة الثامنه: الأمور التي تمنع الشفاعة

من أعظم الأشياء التي تمنع من الشفاعة يوم القيامة ما يأتي:

١- الإشراك بالله تعالى، كما نص عليه كتاب الله ﷿ وسنة نبيه ﷺ؛ فالمشرك لا شفاعة له، وليس لأحد أن يشفع فيه، ولم يخالف في هذا أحد ممن ينتمي إلى الإسلام، ويكفي أن نذكر قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فإذا حرم الكفار من الغفران؛ فمن باب أولى أن يحرموا من الشفاعات.

٢- كثرة اللعن؛ فإن اللعان لا يستحق أن يكون شافعا؛ لأنه في الدنيا كان يدعو على الخلق بالطرد والإبعاد من رحمة الله؛ فيجازى يوم القيامة بعدم إكرامه بالشفاعة فيهم، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة) رواه مسلم.

قال النووي في المنهاج (٨/ ٤١٣) في معنى: لا يكونون شفعاء: أي لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار.

٣- التكذيب بالشفاعة: كما نص عليه السلف: قال الحافظ في الفتح: وأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: (من كذب بالشفاعة

فلا نصيب له فيها)، والجزاء من جنس العمل، فكما أنه نفى حصول الشفاعة؛ فإنه يحرم منها.

المسألة التاسعة: الشفاعات التي لم يثبت بها نص صحيح

١- اعتقاد شفاعة الرسول ﷺ لمن زار قبره من الناس بعد موته، ومن الآثار التي يستدل بها من يثبت تلك الشفاعة؛ الأحاديث الآتية:

١- عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من زار قبري، أو قال: من زارني كنت له شفيعًا أو شهيدًا، ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله في الآمنين يوم القيامة).

٢- عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (من زارني بالمدينة محتسبًا كنت له شهيدًا، أو شفيعًا يوم القيامة).

٣- (من زارني حتى ينتهي إلى قبري، كنت له يوم القيامة شهيدًا).

٤- (من زار قبري وجبت له شفاعتي).

٥- (من جاءني زائرًا، لا تعمله حاجة إلا زيارتي، كان حقًا علي أن أكون له شفيعًا يوم القيامة).

٦- (من زار قبري حلت له شفاعتي).

٧- (من زارني متعمدًا كان في جواري يوم القيامة).

٨- (من أتى المدينة زائرًا لي وجبت له شفاعتي يوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين بعث آمنًا).

وتلك الأحاديث كلها لم يثبت منها شيء عن الرسول ﷺ بسند صحيح، وآفتها في رواتها؛ فهم ما بين ضعيف، أو كذاب، أو مجهول، أو وضاع، لا يعتمد على رواياتهم، ولا يركن إليها، ولم يروها كذلك إلا من لم يشترط الصحة في

نقل الحديث.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في القاعدة الجليلة في التوسل والوسيلة (ص ٧٢). في رده على القائلين لمشروعية زيارة القبر الشريف: فإن أحاديث زيارة قبره كلها ضعيفة، لا يعتمد على شيء فيها في الدين؛ ولهذا لم يرو أهل الصحاح والسنن شيئًا منها، وإنما يرويها من يروي الضعاف؛ كالدارقطني والبزار وغيرهما.اهـ.

وانظر بيان ضعف هذه الأحاديث وغيرها في نفس المسألة بالتفصيل في كتاب تحذير أولي النهى من الأحاديث التي لا أصل لها (٢/ ٥-١٦).

٢- الشفاعة للأقرب فالأقرب منه ﷺ.

ورد في ذلك حديث ضعيف يدل على ترتيب شفاعة الرسول ﷺ، وأنه يبتدئ بالأقرب فالذي يليه، إلى أن ينتهي بالعجم، وهذا ما يفيده حديث ابن عمر الذي أخرجه الطبراني والدارقطني أن رسول الله ﷺ قال: (أول من أشفع له من أمتي أهل بيتي، ثم الأقرب فالأقرب، ثم الأنصار، ثم من آمن بي من أهل اليمن، ثم سائر العرب، ثم سائر الأعاجم، ومن أشفع له أولًا أفضل)[1].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٢١، رقم ١٣٥٥٠)، وابن عدي (١٠٠/ ٢)، والمخلص في الفوائد المنتقاة (٦/ ٦٩/ ١)، والخطيب في الموضح (٢/ ٢٧) والحديث قال عنه الدارقطني: غريب من حديث ليث عن مجاهد تفرد به حفص بن أبي داود عنه وهو حفص بن سليمان بن المغيرة أبو عمر المقريء صاحب عاصم بن أبي النجود، وقال ابن عدي: لا يرويه عن الليث غير حفص وعامر حديثه غير محفوظ، ومن طريق الدارقطني أورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال (٣/ ٢٥٠) قال الدارقطني: تفرد به حفص عن ليث، قلت: أما ليث فغاية في الضعف عندهم إلا أن المتهم به حفص قال ابن خراش: متروك يضع الحديث، ووافقه السيوطي (٢/ ٤٥٠)، ثم ابن عراق (٣٩٢/ ١ - ٢)، وقال الهيثمي (١٠/ ٣٨٠): فيه من لم أعرفهم، وقد وقال العلامة =

٣- ومن الشفاعات غير الثابتة أيضًا: القول بأن الرسول ﷺ خص بشفاعته أهل مدن بعينها؛ كمكة والمدينة والطائف وغيرها من المدن:

فإن هذا لم يثبت عنه ﷺ أنه حدد الشفاعة لأهل مدن معينة، أو ذكر أهل بلدان يخصهم بالشفاعة، غير ما ورد عن أهل المدينة فيمن فضلها على غيرها، وسكن بها صابرًا على لأوائها وشدتها، ومات بها، أما الحديث الذي يروى هنا في شفاعة الرسول ﷺ لأهل مدن بعينها؛ فهو عن عبد الملك بن عباد بن جعفر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (أول من أشفع له من أمتي أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل الطائف)(١).

٤- الشفاعة لمن مات في أحد الحرمين: وهذه الشفاعة لم أجد فيها حديثا صحيحا، ويستدل من يقول بها بما روي عن سلمان عن النبي ﷺ أنه قال: (من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي، وكان يوم القيامة من الآمنين).

وهذا الحديث لا يتم الاستدلال به كذلك على ثبوت هذه الشفاعة؛ لأنه حديث موضوع كما في الضعيفة (٦٨٣٠).أما من مات بالمدينة فقد تقدم الكلام فيه.

=

الألباني الضعيفة (٧٣٢): موضوع.

(١) أخرجه الفاكهى فى أخبار مكة (٣/ ٧١، رقم ١٨١٧)، والضياء المقدسي في المختارة (١٢٩/ ٢) والحديث قال عنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٥٤): فيه من لم أعرفهم، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٨٦٢) بقوله: والخلاصة أن الإسناد ضعيف مسلسل بالمجهولين: القاسم هذا، والراوي عنه حمزة وعنه عبد الملك بن أبي زهير، فإيراد الضياء له في المختارة لا يجعله عندنا من الأحاديث المختارة، بل هذا يؤيد ما ذكرته مرارا من أن شرطه في هذا الكتاب قائم على كثير من التساهل من الإغضاء عن جهالة الرواة تارة، وعن ضعفهم تارة أخرى.

٥- ومن الأسباب الأخرى في الشفاعات غير الثابتة: ما جاء عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا شفيع لكل رجلين تآخيا في الله من مبعثي إلى يوم القيامة) وهذا الحديث لا يتم الاستدلال به كذلك على ثبوت هذه الشفاعة؛ لأنه حديث موضوع كما في الضعيفة (١٧٢٣).

والتآخي في الله أمر مطلوب، وقد حث عليه الشرع ورغب فيه، والمؤمنون يشفع بعضهم في بعض، كما صرحت بذلك النصوص النبوية، لكن القول بأن التآخي مما يوجب الشفاعة؛ هو الذي يتوقف القول به على ثبوت صحته.

٦- ومنها كذلك ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة أنا شفيع لهم يوم القيامة: الضارب بسيفه أمام ذريتي، والقاضي لهم حوائجهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه)[1].

---

(١) والحديث غير ثابت، لأن في سنده داود بن سليمان الجرجاني، وهو مجهول.
قال فيه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٣/ ٤١٣): داود بن سليمان الجرجاني. سمعت أبي يقول: هو مجهول، وقال الذهبي في ميزان الاعتدال (٢/ ٨): داود بن سليمان الجرجاني الغازي عن علي بن موسى الرضا وغيره، كذبه يحيى بن معين، ولم يعرفه أبو حاتم، وبكل حال فهو شيخ كذاب، له نسخة موضوعة على الرضا.
وأورده الحافظ في لسان الميزان (٢/ ٤١٧) في ترجمة داود بن سليمان الجرجانى الغازي) وقال: هو شيخ كذاب له نسخة موضوعة عن علي بن موسى الرضا.
وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص: ٣٩٧) عن الحديث: إنه موضوع، وقد أورده بلفظ: (أربعة أنا شفيع لهم يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم مما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه) ومثل الحديث السابق ما روى الطبراني عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له) وفي سنده مجاهيل.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٧١): وفيه جماعة لم أعرفهم.
ومثله الحديث الآخر: (من أحبني فليحب عليًا، ومن أحب عليًا فليحب فاطمة، ومن
=

ومن تأمل القصد من وراء هذا الحديث، يرى أن وضع الشيعة ظاهر عليه.

٧- ومنها كذلك: ما يروى من الأحاديث التي تدل على استحقاق الشفاعة بحفظ أربعين حديثًا من السنة؛ مثل ما يروى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من مسلم يحفظ على أمتي أربعين حديثًا يعلمهم بها أمر دينهم إلا جيء به يوم القيامة فقيل له: اشفع لمن شئت)[1].

=

أحب فاطمة فليحب الحسن والحسين، وإن أهل الجنة ليباشرون ويسارعون إلى رؤيتهم ينظرون إليهم، محبتهم إيمان، وبغضهم نفاق، ومن أبغض أحدًا من أهل بيتي فقد حرم شفاعتي، فإنني نبي مكرم، بعثني الله بالصدق، فحبوا أهل بيتي، وحبوا عليًّا) رواه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٥/ ٤٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه وقال: موضوع، وأورده ابن الجوزي في كتاب الموضوعات (٢/ ٢٣٢)، وقال الشوكاني الفوائد المجموعة (ص: ٣٩٥): وهذا الحديث موضوع وباطل، والذي وضعه عبد الله بن حفص.

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٥/ ٥٦)، والخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص: ٢٠)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٩٥) قال الذهبي في تلخيص العلل المتناهية (١٣٥): فيه موسى الطويل كذاب، والحديث روي عن عدة من الصحابة، قال صالح جزرة كما في تاريخ بغداد (٦/ ٣٢٠): باطل، وقال ابن السكن كما في التذكار: ليس يروى من وجه ثابت، وقال ابن الملقن في البدر المنير (٧/ ٢٧٨): مروي من طرق عديدة بألفاظ متنوعة واتفق الحفاظ على ضعفها وإن تعددت، وقال عنه العجلوني في كشف الخفاء (٢٤٦٥) قال الدارقطني طرقه كلها ضعيفة وليس بثابت. ولذا قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: جمعت طرقه في جزء، ليس فيها طريق تسلم من علة قادحة. وقال البيهقي في شعبه عقب حديث أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه: هذا متن مشهور فيما بين الناس وليس له إسناد صحيح، وقال ابن عساكر: فيها مقال كلها. وقال النووي في خطبة أربعينه: واتفق الحفاظ على أنه حديث ضعيف وإن كثرت طرقه، ثم قال: قال ابن حجر: وأما خبر " من حفظ على أمتي حديثا واحدا كان له كأجر أحد وسبعين نبيا صديقا " فهو موضوع...اهـ. بتصرف وضعفه أيضا ابن عدي،

=

٨- ومنها كذلك: ما يروى عن استحقاق الشفاعة لمن قضى حوائج الناس؛ مثل ما يروى عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (من قضى لأخيه حاجة كنت واقفًا عند ميزانه، فإن رجع وإلا شفعت له)(١).

ومثله كذلك ما عزاه الإمام ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٩١) إلى ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ [فاطر: ٣٠] قال: أُجُورَهُمْ: يدخلهم الجنة وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ: الشفاعة لمن صنع إليهم المعروف في الدنيا)(٢). الحياة

=

وابن حبان، ابن عبد البر، وابن الجوزي، وعبد القادرالرهاوي، والمنذري، والذهبي، والعراقي، والسيوطي وغيرهم، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٤٥٨٩) والحق أن الحديث عندي موضوع، وإن اشتهر بين العلماء وعملوا من أجله كتب (الأربعين) ولو كان صحيحا لما قيض الله لروايته والتفرد به تلك الكثرة من الكذابين.

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٣٥٣) وقال: غريب من حديث مالك تفرد به الغفاري.. وهذا الحديث لا يتم به الاستدلال على ثبوت تلك الشفاعة؛ لأن في سنده راويًا وضاعًا، وهو عبد الله بن إبراهيم الغفاري، يقول عنه الذهبي في الميزان (٢/ ٣٨٨): نسبه ابن حبان إلى أنه يضع الحديث، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه، وقال الدارقطني: حديثه منكر.

(٢) وهذا الحديث لا يتم به الاستدلال، لأن في سنده إسماعيل بن عبد الله الكندي، ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٣) أنه ضعفه الذهبي من عند نفسه فقال: أتى بخبر منكر، وبقية رجاله وثقوا، وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٩٢): هذا إسناد لا يثبت.

وأورد السيوطي في اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (٢/ ٣٧٠) من حديث طويل عن أبي هريرة وابن عباس عن النبي ﷺ جاء فيه: (ومن بنى على ظهر طريق يهوي إليه عابروا السبيل بعثه الله يوم القيامة على نجيبة من در، ووجهه يضيء لأهل الجمع حتى يقول أهل الجمع: هذا ملك من الملائكة لم ير مثله، حتى يزاحم إبراهيم في قبته، ويدخل في الجنة بشفاعته أربعون ألف رجل).

وفيه كذلك: (ومن احتفر بئرًا حتى يبسط ماؤها فيبذلها للمسلمين كان له أجر من توضأ

=

الآخرة لغالب عواجي - (١/ ٤٣٣).

المسألة العاشرة: حكم طلب الشفاعة من النبي ﷺ

قال العلامة ابن باز كما في "فتاوى نور على الدرب" (١/ ٣٩٢): "طلب الشفاعة من النبي ﷺ أو من غيره من الأموات لا يجوز، وهو شرك أكبر عند أهل العلم؛ لأنه لا يملك شيئا بعدما مات عليه الصلاة والسلام، والله يقول: (قل لله الشفاعة جميعا) الزمر/ ٤٤.

فالشفاعة ملكه سبحانه وتعالى، والنبي ﷺ وغيره من الأموات لا يملكون التصرف بعد الموت في شفاعة ولا في دعاء ولا في غير ذلك، الميت إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث: (صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) وإنما جاء أنها تعرض عليه الصلاة والسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولهذا قال: (صلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم).

وأما حديث إنه تعرض عليه الأعمال فما وجد فيها من خير حمد الله وما وجد فيها من شر استغفر لنا فهذا حديث ضعيف لا يصح عن النبي ﷺ، ولو صح لم يكن فيه دلالة على أننا نطلب منه الشفاعة.

فالحاصل أن طلب الشفاعة من النبي ﷺ أو من غيره من الأموات أمر لا يجوز، وهو على القاعدة الشرعية من الشرك الأكبر؛ لأنه طلب من الميت شيئا

=

منها وصلى، وله بعدد شعر كل من شرب منها حسنات: إنس، أو جن، أو بهيمة، أو سبع، أو طائر، أو غير ذلك، وله بكل شعرة من ذلك عتق رقبة، ويرد في شفاعته يوم القيامة حوض القدس عدد نجوم السماء. قيل: يا رسول الله، وما حوض القدس؟ قال: حوضي، حوضي، حوضي).

قال الحافظ في المطالب العالية (٣/ ١٣٤): هذا الحديث بطوله موضوع على رسول الله ﷺ، والمتهم به ميسرة بن عبد ربه، لا بورك فيه.

لا يقدر عليه، كما لو طلب منه شفاء المريض، أو النصر على الأعداء أو غوث المكروبين أو ما أشبه ذلك، فكل هذا من أنواع الشرك الأكبر، ولا فرق بين طلب هذا من النبي ﷺ، أو من الشيخ عبد القادر، أو من فلان أو فلان، أو من البدوي أو من الحسين أو غير ذلك؛ طلب هذا من الموتى أمر لا يجوز، وهو من أقسام الشرك.

وإنما الميت يترحم عليه إذا كان مسلما، ويدعى له بالمغفرة والرحمة، والنبي ﷺ إذا سلم عليه مسلم يصلي عليه - عليه الصلاة والسلام - ويدعو له، أما أن يطلبه المدد أو الشفاعة أو النصر على الأعداء كل هذا لا يجوز، وهذا من عمل أهل الجاهلية ومن عمل أهل الشرك، فيجب على المسلم أن ينتبه لهذا وأن يحذر مثل هذا" انتهى.

وسئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: هل يجوز طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهو الآن في قبره بأن يقول: (أريد منك شفاعة يا رسول الله! وأنا عبد مذنب كلف تحت يديك)؟!

فأجاب: لا يجوز، هذا حرام بل قد يكون من الشرك؛ لأن هذا دعاء للنبي عليه الصلاة والسلام، وبدلًا من أن يقول: أسألك يا رسول الله! أن تشفع لي، يقول: يا رب! شفع فيَّ رسولك، حتى يكون الدعاء موجه إلى الله ﷻ، أما الرسول الآن لا يستطيع أن يشفع لك، ثم حتى يوم القيامة لا يستطيع أن يشفع لأحد إلا بإذن الله، فهذه الكلمة حرام، وقد تكون شركًا بالله ﷻ.

(باب متفرقات)

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٢/ ١٠٣): حدثونا عن شفاعة النبي ﷺ، إذ إني سمعت عن هذا بعض الشيء وأريد أن

أستدرك كثيرا مما فاتني حول هذا الموضوع، جزاكم الله خيرا؟.

فأجاب: النبي ﷺ له شفاعات، منها شيء يختص به، ومنها شيء يشترك معه الناس فيه، فأما الشفاعة التي تختص به، فهي الشفاعة العظمى لأهل الموقف يشفع لهم، يسجد عند ربه ويحمده محامد عظيمة، ويأذن الله له بالشفاعة، فيشفع لأهل الموقف حتى يقضى بينهم، وهذه من خصائصه عليه الصلاة والسلام، وهذا هو المقام المحمود، الذي ذكر الله جل وعلا في سورة بني إسرائيل: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ وهذا المقام هو مقام الشفاعة، يحمده فيه الأولون والآخرون، عليه الصلاة والسلام، فإنه تتوجه إليه الخلائق يوم القيامة، المؤمنون يتوجهون إليه، بعدما يتوجهون إلى آدم ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، فكلهم يعتذرون، ثم يقول لهم عيسى: اذهبوا إلى عبد قد غفر الله له من ذنبه ما تقدم وما تأخر، يعني محمدا عليه الصلاة والسلام، فيتوجهون إليه فإذا طلبوا منه، تقدم عليه الصلاة والسلام إلى ربه، وسجد بين يدي العرش، وحمده سبحانه بمحامد عظيمة، يفتحها الله عليه، ثم يقال له: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع، واسأل تعطه، واشفع تشفع، فيشفع عند ذلك، بعد إذن الله سبحانه وتعالى، لأنه يقول جل وعلا: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه سبحانه وتعالى.

وهناك شفاعات أخرى خاصة به، عليه الصلاة والسلام، وهي الشفاعة في أهل الجنة ليدخلوا الجنة فإنهم لا يدخلون ولا تفتح لهم إلا بشفاعته، عليه الصلاة والسلام، هذه خاصة به عليه الصلاة والسلام، وهناك شفاعة ثالثة خاصة به لأبي طالب عمه وهو أن شفع له حتى صار في ضحضاح من النار، وهو قد

مات على الكفر بالله، وصار في غمرات من النار، فيشفع له ﷺ أن يكون في ضحضاح من النار، بسبب نصره إياه، لأنه نصره وحماه لما تعدى عليه قومه، فيشفع له ﷺ أن يكون في ضحضاح من النار، وهذه شفاعة خاصة بأبي طالب، مستثناة من قوله جل وعلا: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} إلا في هذه الخصلة، مع أبي طالب خاصة وأبو طالب مخلد في النار مع الكفرة، لكنه في ضحضاح من النار، يغلي منه دماغه، نسأل الله العافية، وهو أهون أهل النار عذابا، قال النبي ﷺ: «إن أهون الناس عذابا يوم القيامة، من له نعلان من نار، يغلي منهما دماغه"، نسأل الله السلامة. وفي رواية: «يوضع على قدميه جمرتان من نار، يغلي منهما دماغه، ويرى أنه أشد الناس عذابا، وهو أهونهم عذابا » وأبو طالب من هذا الصنف نسأل الله العافية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٢/ ١٠٥): كثير من الناس يقولون: الشفاعة يا محمد، هل هي شرك؛ وإن كانت شركا ماذا يقولون؟.

فأجاب: طلب الشفاعة من النبي ﷺ أو من غيره، من الأموات لا يجوز، وهو شرك أكبر عند أهل العلم، لأنه لا يملك شيئا بعدما مات عليه الصلاة والسلام، والله يقول: {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا} الشفاعة ملكه سبحانه وتعالى، والنبي ﷺ وغيره من الأموات لا يملكون التصرف بعد الموت، بشفاعة ولا بدعاء ولا بغير ذلك، الميت إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، وإنما جاء أنها تعرض عليه الصلاة، عليه الصلاة والسلام، ولذا قال: «فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم »؛ «صلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم"، وأما حديث أنها تعرض عليه الأعمال، فإن وجد خيرا حمد الله، وإن وجد شرا استغفر لنا، فهو حديث ضعيف، لا

يصح عن النبي ﷺ، ولو صح لم يكن فيه دلالة أن نطلب منه الشفاعة، فالحاصل أن طلب الشفاعة من النبي ﷺ، أو من غيره من الأموات أمر لا يجوز، وهو على القاعدة الشرعية، من الشرك الأكبر، لأنه طلب من الميت شيئا لا يقدر عليه، كما لو طلب منه شفاء المريض، أو النصر على الأعداء، أو غوث المكروبين، وما أشبه ذلك، فكل هذا من أنواع الشرك الأكبر، ولا فرق بين طلب هذا من النبي ﷺ، أو من الشيخ عبد القادر أو فلان أو فلان أو من البدوي، أو من الحسين أو من غير ذلك، طلب هذا من الموتى أمر لا يجوز، وهو من أقسام الشرك، وإنما الميت يترحم عليه إذا كان مسلما، ويدعى له بالمغفرة والرحمة، فالنبي ﷺ إذا سلم عليه المسلم، يصلي عليه، عليه الصلاة والسلام، ويدعو له إما أن يطلب منه المدد، أو الشفاعة أو النصر على الأعداء، كل هذا لا يجوز، وهذا من عمل أهل الجاهلية، ومن عمل أهل الشرك، فيجب على المسلم أن ينتبه لهذا وأن يحذر من هذا.

مسألة: قال العلامة الألباني في تمام المنة (ص٧٨ - ٧٩): قرأت منذ بضعة أيام كتاب " الإسلام المصفى "... تأليف محمد عبد الله السمان وهو - والحق يقال كتاب قيم قد عالج فيه كثيرًا من المسائل والقواعد التي تهم المسلم في العصر الحاضر، ولكنه عفا الله عنه قد اشتط كثيرًا في بعض ما تحدث عنه، ولم يكن الصواب فيه حليفه، مثل مسالة إعفاء اللحية.. ومثل إنكاره شفاعته -صلى الله عليه وآله وسلم- لأهل الذنوب، وإنكاره نزول عيسى، وخروج الدجال، والمهدي.

قد أنكر كل ذلك وزعم أنها " ضلالات مصنوعة " وأن الأحاديث التي وردت فيها أحاديث آحاد لم تبلغ حد التواتر.

ونحن نقول للأستاذ كلمتين مختصرتين:

١- دعواك أن الأحاديث المشار إليها غير متواترة غير مقبولة منك، ولا ممن سبقك إليها، مثل الشيخ شلتوت وغيره؛ لأنها لم تصدر من ذوي الاختصاص في علم الحديث، ولا سيما وقد خالفت شهادة المتخصصين فيه كالحافظ ابن كثير، وابن حجر، والشوكاني، وغيرهم حيث صرحوا بأن حديث النزول متواتر، وذلك يتضمن تواتر حديث خروج الدجال من باب أولى؛ لأن طرقه أكثر؟ كما لا يخفى على المشتغلين بهذا العلم الشريف، وقد كنت جمعت في بعض المناسبات الطرق الصحيحة فقط لحديث النزول فجازوت العشرين طريقًا عن تسعة عشر صحابيًا فهل التواتر غير هذا؟!

٢- تقسيمك أنت وغيرك - أيا كان - الأحاديث الصحيحة إلى قسمين:

قسم يجب على المسلم قبولها ويلزمه العمل بها وهى أحاديث الأحكام ونحوها.

وقسم لا يجب عليه قبولها والاعتقاد بها وهي أحاديث العقائد وما يتعلق منها بالأمور الغيبية.

أقول: إن هذا تقسيم مبتدع لا أصل في كتاب الله ولا في سنة رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولا يعرفه السلف الصالح، بل عموم الأدلة الموجبة للعمل بالحديث تقتضي وجوب العمل بالقسمين كليهما ولا فرق، فمن ادعى التخصيص فليتفضل بالبيان مشكورًا وهيهات هيهات. ثم ألفت رسالتين هامتين جدًا في بيان بطلان التقسيم المذكور الأولى: "وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة " والأخرى: "الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام".

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحيحة (٢/ ٧٢٧ - ٧٢٨): مبينًا خطأ من ضعف حديث

«أمتي أمة مرحومة» بدعوى أنه مخالف لأحاديث خروج ناس من أمته -صلى الله عليه وآله وسلم- من النار بالشفاعة]:

الحقيقة أنه لا تعارض عند التأمل والابتعاد عن التظاهر بالتحقيق المزيف كما هو الواقع في هذا الحديث الصحيح، فإنه ليس المراد به كل فرد من أفراد الأمة، وإنما من كان منهم قد صارت ذنوبه مكفرة بما أصابه من البلايا في حياته؛ كما قال البيهقي في الشعب (١/ ٣٤٢): "وحديث الشفاعة يكون فيمن لم تَصِر ذنوبه مكفرة في حياته".

قلت: فالحديث إذن من باب إطلاق الكل وإرادة البعض؛ أطلق "الأمة" وأراد بعضها؛ وهم الذين كفرت ذنوبهم بالبلايا ونحوها مما ذكر في الحديث، وما أكثر المكفرات في الأحاديث الصحيحة والحمد لله، وفي ذلك ألف الحافظ ابن حجر كتابه المعروف في المكفرات.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في التعليق على الترغيب والترهيب (١/ ٤١٩): عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة؛ يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوة فشفعني فيه، ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعني فيه قال فيشفعان».

(حسن صحيح) أي: يشفعهما الله فيه ويدخله الجنة، قال المناوي: "وهذا القول يحتمل أنه حقيقة بأن يجسد ثوابهما ويخلق الله فيه النطق {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، ويحتمل أنه على ضرب من المجاز والتمثيل".

قلت: والأول هو الصواب الذي ينبغي الجزم به هنا وفي أمثاله من الأحاديث التي فيها تجسيد الأعمال ونحوها، كمثل تجسيد الكنز شجاعًا أقرع، ونحوه كثير، وتأويل مثل هذه النصوص ليس من طريقة السلف، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بل هو

طريقة المعتزلة ومن سلك سبيلهم من الخلف، وذلك مما ينافي أول شروط الإيمان {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}، فحذار أن تحذو حذوهم، فتضل وتشقى، والعياذ بالله تعالى.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في موسوعته العقدية (٩/ ٣٧٣): ما نوع الشفاعة التي يشفعها الطفل لوالده إذا عق عنه؟

الشيخ: معلوم في كثير من الأحاديث؛ أن الأطفال الصغار يوم القيامة يقفون عند باب الجنة، ويبكون يطلبون آباءهم، فيرسل الله تبارك وتعالى إليهم جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليسألهم عن سبب بكائهم - والله تبارك وتعالى أعلم بهم - فيأتيهم جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيسألهم فيقولون: لا ندخل الجنة إلا وآباؤنا معنا، فيأتيهم الإذن من رب العالمين تبارك وتعالى أن يدخلوا هم وآباؤهم الجنة فهذا النوع من الشفاعة وهو الاستعجال بدخول الجنة هو الذي يستحقه الآباء الذين عقوا، أي ذبحوا عن أبنائهم، والله أعلم.

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٤٤): عن الشفاعة؟ وأقسامها؟.

فأجاب: الشفاعة: مأخوذة من الشفع، وهو ضد الوتر، وهو جعل الوتر شفعا، مثل أن تجعل الواحد اثنين، والثلاثة أربعة، وهكذا هذا من حيث اللغة.

أما في الاصطلاح: فهي " التوسط للغير بجلب منفعة، أو دفع مضرة "؛ يعني أن يكون الشافع بين المشفوع إليه، والمشفوع له واسطة لجلب منفعة إلى المشفوع له، أو يدفع عنه مضرة.

والشفاعة نوعان

النوع الأول: شفاعة ثابتة صحيحة، وهي التي أثبتها الله تعالى في كتابه، أو

أثبتها رسوله ﷺ، ولا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص؛ لأن «أبا هريرة رضي الله عنه قال: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: "من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه».

وهذه الشفاعة لها شروط ثلاثة

الشرط الأول: رضا الله عن الشافع.

الشرط الثاني: رضا الله عن المشفوع له.

الشرط الثالث: إذن الله تعالى للشافع أن يشفع. وهذه الشروط مجملة في قوله تعالى-: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}، ومفصلة في قوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}، وقوله: {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا}.

وقوله: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}، فلا بد من هذه الشروط الثلاثة حتى تتحقق الشفاعة.

ثم إن الشفاعة الثابتة ذكر العلماء - رحمهم الله تعالى - أنها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الشفاعة العامة، ومعنى العموم: أن الله - سبحانه وتعالى - يأذن لمن شاء من عباده الصالحين أن يشفعوا لمن أذن الله لهم بالشفاعة فيهم، وهذه الشفاعة ثابتة للنبي ﷺ ولغيره من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وهي أن يشفع في أهل النار من عصاة المؤمنين أن يخرجوا من النار.

القسم الثاني: الشفاعة الخاصة: التي تختص بالنبي ﷺ، وأعظمها الشفاعة العظمى التي تكون يوم القيامة، حين يلحق الناس من الغم والكرب ما لا

يطيقون، فيطلبون من يشفع لهم إلى الله ﷻ أن يريحهم من هذا الموقف العظيم، فيذهبون إلى آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى وكلهم لا يشفع حتى تنتهي إلى النبي ﷺ فيقوم ويشفع عند الله - ﷻ- أن يخلص عباده من هذا الموقف العظيم، فيجيب الله تعالى دعاءه، ويقبل شفاعته، وهذا من المقام المحمود الذي وعده الله تعالى به في قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾.

ومن الشفاعة الخاصة بالرسول ﷺ، شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، فإن أهل الجنة إذا عبروا الصراط أوقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فتمحص قلوب بعضهم من بعض حتى يهذبوا وينقوا، ثم يؤذن لهم في دخول الجنة، فتفتح أبواب الجنة بشفاعة النبي ﷺ.

النوع الثاني: الشفاعة الباطلة التي لا تنفع أصحابها، وهي ما يدعيه المشركون من شفاعة آلهتهم لهم عند الله ﷻ، فإن هذه الشفاعة لا تنفعهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾، وذلك؛ لأن الله تعالى لا يرضى لهؤلاء المشركين شركهم، ولا يمكن أن يأذن بالشفاعة لهم؛ لأنه لا شفاعة إلا لمن ارتضاه الله ﷻ، والله لا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد، فتعلق المشركين بآلهتهم يعبدونها، ويقولون: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾. تعلق باطل غير نافع، بل هذا لا يزيدهم من الله تعالى إلا بعدا، على أن المشركين يرجون شفاعة أصنامهم بوسيلة باطلة، وهي عبادة هذه الأصنام، وهذا من سفههم أن يحاولوا التقرب إلى الله تعالى بما لا يزيدهم منه إلا بعدا.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٢/ ٤٧): عن: قول النبي، ﷺ: «يقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم

الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط». رواه مسلم، ما معنى قوله: "لم يعملوا خيرا قط "؟.

فأجاب: معنى قوله: "لم يعملوا خيرا قط " أنهم ما عملوا أعمالا صالحة، لكن الإيمان قد وقر في قلوبهم، فإما أن يكون هؤلاء قد ماتوا قبل التمكن من العمل؛ آمنوا ثم ماتوا قبل أن يتمكنوا من العمل، وحينئذ يصدق عليهم أنهم لم يعملوا خيرا قط.

وإما أن يكون هذا الحديث مقيدا بمثل الأحاديث الدالة على أن بعض الأعمال الصالحة تركها كفر، كالصلاة مثلا؛ فإن من لم يصل فهو كافر، ولو زعم أنه مؤمن بالله ورسوله، والكافر لا تنفعه شفاعة الشافعين يوم القيامة، وهو خالد مخلد في النار أبد الآبدين -والعياذ بالله-.

فالمهم أن هذا الحديث إما أن يكون في قوم آمنوا ولم يتمكنوا من العمل، فماتوا فور إيمانهم، فما عملوا خيرا قط.

وإما أن يكون هذا عاما، ولكنه يستثنى منه ما دلت النصوص الشرعية، على أنه لا بد أن يعمل كالصلاة، فمن لم يصل فهو كافر لا تنفعه الشفاعة، ولا يخرج من النار.

(باب تحريم الحلف بغير الله)

الحلف في اللغة: مصدر حلف، يحلف، وهو الملازمة؛ لأن الإنسان يلزمه الثبات على ما حلف عليه، ويسمى (اليمين)؛ لأن المتحالفين كان أحدهما يصفق بيمينه على يمين صاحبه[1]، ويسمى أيضًا (القسم).

---

(١) ((معجم مقاييس اللغة)) (مادة: حلف، ومادة: يمن)، ((المطلع)) (ص: ٣٨٧)، ((الدر النقي)) (٣/ ٧٩٦).

والحلف في الأصل: توكيد لشيء بذكر معظم مصدرًا بحرف من حروف القسم.

وفي الاصطلاح: توكيد الشيء بذكر اسم أو صفة لله تعالى مصدرًا بحرف من حروف القسم.

وقد أجمع أهل العلم على أن اليمين المشروعة هي قول الرجل: والله، أو بالله، أو تالله، واختلفوا فيما عدا ذلك.

فالحلف لا يكون إلا بالله تعالى، أو باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، وأما الحلف بغير الله فلا يجوز، وهو من الشرك؛ ويدخل في ذلك الحلف بحياة الإنسان ورأسه وشرفه، والحلف بأمه وأبيه، والحلف بالكعبة وغير ذلك من المخلوقات.

واليمين عبادة من العبادات التي لا يجوز صرفها لغيره الله[1]، فيحرم الحلف بغيره تعالى، لقوله ﷺ: (ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله، وإلا فليصمت)[2] متفق عليه، فمن حلف بغير الله سواء أكان نبيًا أم وليًا أم الكعبة أم غيرها فقد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، ووقع في الشرك، لقوله ﷺ: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)[3]، ولأن الحلف فيه تعظيم

---

(١) ((بدائع الصنائع)): الإيمان (٣/ ٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، مسلم (١٦٤٦).

(٣) أخرجه الطيالسى (١٨٩٦)، وأحمد (٢/ ١٢٥)، والترمذى (١٥٣٥)، وأبو داود (٣٢٥١)، وأبو عوانة (٤/ ٤٤، رقم ٥٩٦٧)، وابن حبان (٤٣٥٨)، والحاكم (١/ ٦٥، رقم ٤٥)، والبيهقى (١٠/ ٢٩)، والضياء (١/ ٢٠٥) كلهم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه المصنف في أحكام أهل الذمة (٣/ ١٢٩٢)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٩/ ٤٥٨)، وصححه ابن كثير في مسند الفاروق (١/ ٤٣١)، وصححه العلامة الألباني في صحيح =

=

الترمذي، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وصححه العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (١/ ٤٥)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٧٣٤)، ثم عاد وقال في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (رقم ٢٦٨): هذا الحديث إذا نظرت إلى سنده وجدتهم رجال الصحيح، ولكنه منقطع قال البيهقي (١٠ ص ٢٩): وهذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من بن عمر، أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أنبأ أحمد بن جعفر هو القطيعي ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن منصور عن سعد بن عبيدة قال: كنت عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقمت وتركت رجلا عنده من كندة فأتيت سعيد بن المسيب قال فجاء الكندي فزعا فقال جاء بن عمر رجل فقال احلف بالكعبة قال لا ولكن أحلف برب الكعبة فإن عمر كان يحلف بأبيه فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا تحلف بأبيك فإنه من حلف بغير الله فقد أشرك. وجاء بيان المجهول أنه محمد الكندي كما في "مسند أحمد" (ج ٢ ص ٦٩) ومحمد الكندي ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٨/ ١٣٢) وهو مجهول، قاله أبو حاتم.اهـ. وكذا قال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٨/ ٥٠٣): رجاله ثقات رجال الشيخين، إلا أن سعد بن عبيدة ثم يسمع هذا الحديث من ابن عمر مباشرة، بل كان في مجلسه مع رجل من كندة ثم خرج سعد إلى عند سعيد بن المسيب، فسمعه الكندي من ابن عمر، ثم جاء فحدث به سعد بن عبيدة، كذا بينه منصور بن المعتمر فيما يأتي برقم (٥٣٧٥) و(٥٥٩٣)، ولعل هذا أصح من صنيع الأعمش وغيره حيث اختصروه، فأوهموا أنه من مسموعات سعد بن عبيدة، عن ابن عمر فعلى رواية منصور يكون في إسناد الخبر راو مبهم، وهو الرجل الكندي، لكن سمي في الرواية التي ستأتي برقم (٥٣٧٥) محمدا الكندي، وقد ذكر ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل " ٨/ ١٣٢ في هذه الطبقة راويا يسمى محمدا الكندي، وقال: روى عن علي رضي الله عنه، مرسل، روى عنه عبد الله بن يحيى التوأم، سمعت أبي يقول ذلك، وسمعته يقول: هو مجهول، وسيأتي برقم (٥٢٢٢) و(٥٢٥٦) من طريق الأعمش عن سعد بن عبيدة ما يفيد أن هذا الأخير كان في مجلس ابن عمر عندما حدث بهذا الحديث، ولعل الأعمش اختصره، على أن أئمة الجرح والتعديل كالإمامين أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين قد قدموا منصورا على الأعمش إذا اختلفا، كما أن الأعمش موصوف بالتدليس، وهو هناك قد عنعنه. ولكل ما سلف أشار الطحاوي في "شرح

=

للمحلوف به، فمن حلف بغير الله كائنًا من كان، فقد جعله شريكًا لله ﷻ في هذا التعظيم الذي لا يليق إلا به سبحانه وتعالى، وهذا من الشرك الأصغر إن كان الحالف إنما أشرك في لفظ القسم لا غير، أما إن كان الحالف قصد بحلفه تعظيم المخلوق الذي حلف به كتعظيم الله تعالى، كما يفعله كثير من المتصوفة الذين يحلفون بالأولياء والمشايخ أحياء وأمواتًا، حتى ربما بلغ تعظيمهم في قلوبهم أنهم لا يحلفون بهم كاذبين مع أنهم يحلفون بالله وهم كاذبون، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة؛ لأن المحلوف به عندهم أجل وأعظم وأخوف من الله تعالى.

مسألة: حكم الحلف بالنبي ﷺ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "تنازع الناس هل يحلف بالنبي ﷺ؟ مع اتفاقهم بأنه لا يحلف بشيء من المخلوقات المعظمة كالعرش والكرسي والكعبة والملائكة. فذهب جمهور العلماء كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد في أحد قوليه إلى أنه لا يحلف بالنبي ﷺ، ولا تنعقد اليمين، كما لا يحلف بشيء من المخلوقات، ولا تجب الكفارة على من حلف بشيء من ذلك وحنث. فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت".

وفي رواية: "ألا من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله". وقال: "من حلف بغير الله فقد أشرك". وفي رواية: "فقد كفر".

وعن أحمد بن حنبل رواية: أنه يحلف بالنبي ﷺ لأنه يجب الإيمان به خصوصًا، ويجب ذكره في الشهادتين والأذان فللإيمان به اختصاص لا يشركه

=

مشكل الآثار" بإثر الحديث (٨٣١) إلى فساد إسناده، وقال البيهقي في "السنن" ١٠/ ٢٩: هذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من ابن عمر.

فيه غيره، واختار هذا طائفة من أصحاب الإمام أحمد كالقاضي أبي يعلى وغيره خصوا ذلك بالنبي ﷺ.

وقال ابن عقيل: بل هذا كونه نبيًا وطرد ذلك في سائر الأنبياء.

والصواب: قول الجمهور وأنه لا تنعقد اليمين بمخلوق لا بنبي ولا غيره، بل ينهى عن الحلف به. وإيجاب الكفارة بالحف بمخلوق وإن كان نبيًا قول ضعيف في الغاية مخالف للأصول والنصوص. فالذي عليه عامة علماء المسلمين سلفهم وخلفهم أنه لا يحلف بمخلوق، لا نبي ولا غير نبي، ولا ملك من الملائكة، ولا ملك من الملوك، ولا شيخ من الشيوخ. والنهي عن ذلك نهي تحريم عند أكثرهم. وروي عن عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر: لئن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أحلف بغير الله صادقًا، وذلك لأن الحلف بغير الله شرك، والشرك

أعظم من الكذب

مسألة: توجيه حديث (أفلح وأبيه إن صدق)[1].

---

(١) أخرجه مسلم (١١).

والحديث ضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٤٩٩٢) بقوله: أخرجه مسلم (٨/ ٢)، وابن ماجه (٢/ ١٥٧)، وأبو يعلى (١٠/ ٤٨٠/ ٦٠٩٢) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة - وهذا في "المصنف" (٨/ ٥٤١) -: حدثنا شريك عن عمارة بن القعقاع بن شبرمة عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! نبئني من أحق الناس مني بحسن الصحبة؟ فقال... فذكره "أمك". قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك". قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك". قال: ثم من؟ قال: "ثم أبوك". قال: نبئني يا رسول الله! عن مالي كيف أتصدق فيه؟ قال: "نعم - والله! - لتنبأن: تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش وتخاف الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت نفسك ههنا؛ =

=

قلت: مالي لفلان، ومالي لفلان، وهو لهم وإن كرهت". والسياق لابن ماجه وأبي يعلى.

وليس عند مسلم - وكذا ابن أبي شيبة - قضية الصدقة؛ إلا من طريق أخرى عن عمارة.

وكذلك هي عند أحمد كما يأتي؛ إلا أن هذا أخرج القضية الأولى من طريق أخرى عن شريك فقال (٢/ ٣٩١): حدثنا أسود بن عامر: حدثنا شريك به؛ إلا أنه قال... فذكر القضية الأولى وقال فيها: "نعم - والله! - لتنبأن"؛ كما في القضية الثانية عند ابن ماجه.

وخالفه ابن أبي شيبة، وعنه مسلم؛ فقال: "وأبيك" مكان: "والله"! وهذا من أوهام شريك عندي، والصواب رواية الأسود إن كانت محفوظة عن عمارة في هذه الجملة؛ لأنها لم ترد عند الثقات كما يأتي. وقال الحافظ في "الفتح" (١٠/ ٣٢٩-٣٣٠) عقبها: "فلعلها تصحفت"! وأقول: بل الأقرب أنها من شريك نفسه - وهو ابن عبد الله القاضي -؛ فإنه سيىء الحفظ، فاضطرب في ضبط هذه الجملة، فقال مرة:

"والله". وأخرى: "وأبيه". وقد تابعه فيها في القضية الثانية: ابن فضيل عن عمارة بلفظ: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال: "أما - وأبيك! - لتنبأنه: أن تصدق..." الحديث. أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١): حدثنا محمد بن فضيل به.

وأخرجه مسلم (٣/ ٩٣): حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وابن نمير قالا: حدثنا ابن فضيل به.

ومن هذا الوجه رواه البخاري في "الأدب المفرد" (٧٧٨).

وخالفهم أحمد بن حرب فقال: حدثنا محمد بن فضيل به؛ دون قوله: "أما - وأبيك! - لتنبأنه".

أخرجه النسائي (٢/ ١٢٥).

وتابعه أبو كريب: أخبرنا محمد بن فضيل به. أخرجه أبو يعلى (١١/ ٤٨٢).

وتابعه في بعضه جرير بن عبد الحميد عن عمارة بن القعقاع به؛ دون قوله:

"أما - وأبيك! -...". أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠): حدثنا جرير به. ومن طريقه: ابن حبان (٣٣٢٤).

وأخرجه مسلم (٣/ ٩٣)، وابو يعلى (٤/ ١٤٤٤) من طريق زهير بن حرب: حدثنا جرير به؛ مثل رواية أحمد بن حرب؛ ليس فيه: "أما - وأبيك! - لتنبأنه" وكذلك رواه

=

=

عبد الواحد بن زياد: حدثنا عمارة بن القعقاع بن شرمبة به، أخرجه أحمد (٢/ ٤١٥)، والبخاري (٣/ ٢٢١)، ومسلم (٣/ ٩٤).

وتابعه سفيان الثوري عن عمارة به، أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٧)، والبخاري (٥/ ٣٨٧)، والنسائي (١/ ٣٥٣)، وابن حبان (٤٣٤)، هذا ما يتلعق بالقضية الثانية.

وأما الأولى؛ فقد خالفه جرير أيضا؛ فرواه عن عمارة به؛ دون قوله : "نعم - وأبيك! - لتنبأن". أخرجه البخاري (١٠/ ٣٢٩)، ومسلم (٨/ ٢)، وأبو يعلى (١٠/ ٤٦٨)، وابن حبان (٣٣٢٤،٣٣٠١،١٤٣٥ - الإحسان).

قلت: ويتحرر عندي من هذا التخريج أنه قد اختلف على عمارة بن القعقاع في ذكر الحلف بالأب: فتفرد بذكره شريك ومحمد بن فضيل، على خلاف في ذلك عليهما، ولم يذكره جرير بن عبد الحميد، وعبد الواحد بن زياد، وسفيان الثوري عن عمارة.

والقلب يطمئن لروايتهم؛ لأنهم أكثر وأحفظ. زد على ذلك أنه لم يختلف عليهم في ذلك؛ بخلاف شريك وابن فضيل؛ فقد اختلف الرواة في ذلك عليهما كما رأيت، وذلك مما يضعف الثقة بزيادتهما على الثقات، وإذا لم يكن هذا كافيا في ترجيح رواية الأكثر عن عمارة بن القعقاع؛ فلا أقل من التوقف في ترجيح رواية شريك وابن فضيل المخالفة لهم.

ولكن الأمر ينعكس تماما حينما نجد لعمارة متابعين عن أبي زرعة، لم يذكروا في الحديث الحلف مطلقا، وهما :

١- عبد الله بن شبرمة عن أبي زرعة بن عمرو عن أبي هريرة بالقضية الأولى. أخرجه مسلم، وأحمد (٢/ ٣٢٧-٣٢٨)، والبخاري في "الأدب المفرد" رقم، وابن عدي في "الكامل" (٦/ ٢٢٤١) من طرق عنه.

٢- يحيى بن أيوب: حدثنا أبو زرعة به. أخرجه عبد الله بن المبارك في "البر والصلة" رقم، وعنه أحمد (٢/ ٤٠٢)، والبخاري في "الأدب"، وسنده صحيح على شرط الشيخين.

وعلقه - مع الذي قبله - البخاري في "صحيحه" بصيغة الجزم، قلت: فاتفاق هذين الثقتين - مع رواية الأكثر عن عمارة - لا يدع شكا في أن روايتهم هي الأرجح.

ومن ذلك؛ يتبين أن زيادة الحلف بالأب في هذا الحديث زيادة شاذة غير محفوظة.

وإن مما يؤكد ذلك: أن الحديث قد جاء من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، مثل

=

=

رواية الجماعة عن أبي زرعة... ليس فيه الحلف بالأب. أخرجه ابن المبارك (رقم ٥)، والبخاري في "الأدب المفرد"، وعبد الرزاق في "المصنف" (٢٠١٢١)، وغيرهم، وحسنه الترمذي، وهو مخرج في "المشكاة"، و"الإرواء" (٢١٧٠،٨٣٧).

واعلم أن الغرض من هذا البحث إنما هو مجرد التثبت من هذه الزيادة؛ هل صحت عن النبي ﷺ في هذا الحديث بالذات أم لا؟ وليس لأنه معارض للأحاديث الكثيرة المصرحة بالنهي عن الحلف بغير الله؛ فإنه لو صح فالجواب عنه معروف من وجوه ذكرها الحافظ وغيره، ويكفي في ذلك قاعدة: (القول مقدم على الفعل عند التعارض).

ولقد أوحى إلي هذا البحث وجوب إعادة النظر في الزيادة المشابهة لهذه؛ والتي وقعت في حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: جاء رجل (وفي رواية: أعرابي) إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد، ثائر الرأس، نسمع دوي صوته، ولا نفقه ما يقول، حتى دنا؛ فإذا هو يسأل عن الإسلام (وفي رواية: فقال: يا رسول الله! أخبرني ماذا فرض الله علي من الصلاة)؟ فقال رسول الله ﷺ: "خمس صلوات في اليوم والليلة". فقال: هل علي غيرها؟ قال: "لا؛ إلا أن تطوع". (قلت: ثم سأل عن الصيام والزكاة، وفيه) فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام، قال: هل علي غيرها؟ قال: "لا؛ إلا أن تطوع". قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله! لا أزيد على هذا ولا أنقص [مما فرض الله علي شيئا]! فقال رسول الله ﷺ: "أفلح إن صدق" أخرجه الشيخان في "صحيحيهما" - والسياق للبخاري، مع رواياته وزياداته حسبما جاء في كتابي "مختصر البخاري" رقم (٣٦) -؛ أخرجاه من طريق مالك عن أبي سهيل عن أبيه عن طلحة... وكذلك أخرجه أبو داود وغيره عن مالك، وهو مخرج في كتابي "صحيح أبي داود" برقم (٤١٤).

وقد تابعه إسماعيل بن جعفر عن أبي سهيل به. أخرجاه أيضا من حديث قتيبة بن سعيد: حدثنا إسماعيل بن جعفر به. أخرجه البخاري في موضعين (٤/ ٨٢ و١٢/ ٢٧٨) عن قتيبة به.

وأما مسلم فقال: حدثني يحيى بن أيوب وقتيبة بن سعيد جميعا عن إسماعيل بن جعفر... لم يسق الحديث؛ وإنما قال: بهذا الحديث، نحو حديث مالك؛ غير أنه قال: فقال رسول الله ﷺ: "أفلح- وأبيه!- إن صدق". أو: "دخل الجنة- وأبيه!- إن صدق".

قلت: فزاد في الحديث: "وأبيه"، مع تردده في قوله: "أفلح"، أو: "دخل الجنة" !

=

=

وظاهره أنه من يحيى وقتيبة معا؛ وعليه؛ فقد وقع فيه خلاف حول هذه الزيادة بين ثلاث طوائف :

الأولى: البخاري ومسلم؛ في روايتهما عن قتيبة بن سعيد.

الثانية: بين قتيبة وغيره من جهة، ويحيى بن أيوب وغيره من جهة أخرى؛ في الرواية عن إسماعيل بن جعفر.

الثالثة: بين مالك وإسماعيل بن جعفر. وبيان هذا الإجمال على ما يلي :

أما الأولى؛ فالبخاري لم يذكر في روايته عن قتيبة تلك الزيادة؛ خلافا لمسلم على ظاهر روايته، ولم أجد - فيما وقفت عليه الآن من الروايات - متابعا لأي منهما؛ إلا أنه مما لا شك فيه أن البخاري مقدم في حفظه وإتقانه على مسلم، لا سيما وأن رواية هذا ليست صريحة في المخالفة؛ لاحتمال أن تكون الزيادة ليحيى ابن أيوب وحده دون قتيبة الذي قرنه مسلم به؛ لأنه مشارك له في رواية أصل الحديث لا في الزيادة! هذا محتمل. والله أعلم.

وأما الثانية؛ فلكل من قتيبة ويحيى بن أيوب متابع :

أما قتيبة؛ فتبعه علي بن حجر: عند النسائي (١/ ٢٩٧)، على خلاف عليه يأتي.

لكن المتابعين ليحيى أكثر؛ فتابعه يحيى بن حسان: عند الدارمي (١/ ٣٧٠-٣٧١)، وعلي بن حجر أيضا: عند ابن خزيمة في "صحيحه" (٣٠٦)، وكذا ابن منده - خلافا لرواية النسائي -، وداود بن رشيد: عند البيهقي (٢/ ٤٤٦)؛ لكن ذكر المحقق أن في نسخة: "والله" بدل: "وأبيه".

وعلى كل حال ؛فرواية يحيى - حتى الآن - أرجح من رواية قتيبة؛ لاقترانها بمتابع قوي لم يختلف عليه، وهو يحيى بن حسان - وهو التنيسي -؛ وهو ثقة من رجال الشيخين؛ بخلاف متابع قتيبة - وهو علي بن حجر -؛ فقد اختلف عليه كما رأيت.

وأما الثالثة؛ فقد تبين مما سبق أن مدار الحديث على أبي سهيل، وأن رواه عنه مالك وإسماعيل، وأنهما اختلفا عليه في زيادة: "وأبيه"؛ فأثبتها إسماعيل، ولم يذكرها مالك.

فيرد حينئذ - في سبيل التوفيق بينهما - قاعدتان مشهورتان :

إحداهما: زيادة الثقة مقبولة.

والأخرى: مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه مردودة.

فعلى أيهما ينبغي الاعتماد والعمل هنا؟! الذي تحرر عندي - من علم المصطلح، ومن

=

=

تطبيقهم له على مفردات الأحاديث - أنه لا اختلاف بين القاعدتين؛ فإن الأولى محمولة على ما إذا تساويا في الثقة والضبط. وأما إذا اختلفا في ذلك؛ فالاعتماد على الأوثق والأحفظ.

وبذلك تلتقي هذه القاعدة مع القاعدة الأخرى ولا تختلفان أبدا، ويسمى حديث الأوثق حينذاك: محفوظا، ومخالفه: شاذا.

وهذا هو المعتمد في تعريف (الشاذ) بحسب الاصطلاح؛ كما قال الحافظ.

إذا عرفت هذا؛ فقد تمهد لدينا إمكانية ترجيح رواية مالك على رواية إسماعيل بمرجحات ثلاثة :

الأول: أن مالكا أوثق من إسماعيل؛ فإن هذا - وإن كان ثقة -؛ فمالك أقوى منه في ذلك وأحفظ. ويكفي في الدلالة على ذلك أن الإمام البخاري سئل عن أصح الأسانيد؟ فقال: مالك عن نافع عن ابن عمر. وقال عبد الله بن أحمد :

قلت لأبي: من أثبت أصحاب الزهري؟ قال: مالك أثبت في كل شيء.

الثاني: أن مالكا لم يختلف الرواة عليه في ذلك؛ خلافا لإسماعيل؛ فمنهم من رواه عنه مثل رواية مالك، كما سبق.

الثالث: أنني وجدت لروايته شاهدا بل شواهد؛ خلافا لرواية إسماعيل.

فلا بأس من أن أسوق ما عرفت منها :

الأول: عن أنس؛ وله طريقان :

الأولى: عن قتادة عنه قال : سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! كم افترض الله ﷻ على عباده من الصلوات؟ قال : "افترض الله على عباده صلوات خمسا". قال: يا رسول الله! قبلهن أو بعدهن شيء؟ قال : "افترض الله على عباده صلوات خمسا". فحلف الرجل لا يزيد عليه شيئا، ولا ينقص منه شيئا. قال رسول الله ﷺ : "إن صدق الرجل؛ ليدخلن الجنة".

أخرجه النسائي (١/ ٨٠)، وابن حبان (١٤٤٤)، وأبو يعلى في "مسنده" (٢/ ٢٧٠) من طريق نوح بن قيس عن خالد بن قيس عن قتادة عنه.

قلت: وهذا إسناد صحيح، ورجاله كلهم ثقات، وقد مضى في "الصحيحة" برقم (٢٧٩٤).

الثانية: عن ثابت عنه به مطولا؛ وفيه سؤال الرجل عن الزكاة أيضا، وعن صوم رمضان

=

=

والحج، وفيه قوله: ثم أولى، قال: والذي بعثك بالحق! لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن. فقال النبي ﷺ: "لئن صدق؛ ليدخلن الجنة".

أخرجه مسلم (١/ ٣٢)، وأبو عوانة (١/ ٢-٣)، والترمذي (٦١٩) - وحسنه -، والنسائي (١/ ٢٩٧)، والدارمي (١/ ١٦٤)، والبغوي في "شرح السنة" رقم (٤،٥)، وابن أبي شيبة في "الإيمان" (رقم ٥ - بتحقيقي)، وأحمد (٣/ ١٤٣،١٩٣)، ابن منده في "الإيمان" (ق ١٦/ ٢) من طرق عن سليمان بن المغيرة عنه.

وعلق البخاري في "صحيحه" بعضه (١/ ٢٥/ ١٩ - مختصر البخاري - بقلمي).

وكنت عزوته إليه عزوا مطلقا في تعليقي على "الإيمان"، فأوهم أنه عنده مسند أيضا؛ فليقيد.

الثاني: عن أبي هريرة: أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة؟ قال: "تعبد الله لا تشرك به شيئا" (ثم ذكر ﷺ الصلاة والزكاة ورمضان). قال: والذي نفسي بيده! لا أزيد على هذا شيئا أبدا، ولا أنقص منه. فلما ولى قال النبي ﷺ: "من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة؛ فلينظر إلى هذا".

أخرجه مسلم (١/ ٣٣)، وأبو عوانة (١/ ٤)، وابن منده (١٦/ ٢).

الثالث: عن ابن عباس؛ وله عنه طريقان :

الأولى: عن سالم بن أبي الجعد عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال... الحديث نحو حديث أنس من الطريق الثاني؛ وفي آخره: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: "والذي نفسي بيده! لئن صدق؛ ليدخلن الجنة".

أخرجه الدارمي (١/ ١٦٥)، وابن أبي شيبة في "الإيمان" (رقم ٤ - بتحقيقي) عن ابن فضيل عن عطاء بن السائب عن سالم بن أبي الجعد... قلت: ورجال إسناده ثقات رجال البخاري؛ إلا أن عطاء بن السائب كان اختلط.

والأخرى: عن كريب مولى ابن عباس عنه نحوه؛ وفيه تسمية الرجل بـ: (ضمام ابن ثعلبة)؛ وفيه قال: ثم قال: لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف إلى بعيره. فقال رسول الله ﷺ حين ولى: "إن يصدق ذو العقيصتين؛ يدخل الجنة".

أخرجه الدارمي، وأحمد (١/ ٢٦٤،٢٥٠) من طريق محمد بن إسحاق: حدثني سلمة بن كهيل ومحمد بن الوليد بن نويفع عنه. قلت: وهذا إسناد حسن. وسكت عليه الحافظ (١/ ١٦١) مشيرا بذلك إلى تقويته. وقد جاءت تسميته بـ: (ضمام بن ثعلبة) في

=

=

طريق ثالثة عن أنس بن مالك؛ نحو الطريق الثاني عنه باختصار بلفظ: فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنبأنا رسول من ورائي من قومي، وأنبأنا ضمام ابن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر. أخرجه البخاري (٥٠ - المختصر)، والنسائي (١/ ٢٩٧)، وأحمد (٣/ ١٦٨)، وابن منده من طريق عن الليث عن سعيد عن شريك بن أبي نمر أنه سمع أنس ابن مالك. وإسناده على شرط الشيخين؛ على ضعف في شريك هذا.

وبالجملة؛ فهذه شواهد ثلاثة لحديث مالك؛ من رواية أنس وابن عباس وأبي هريرة، لم يرد فيها تلك الزيادة: "وأبيه"، فدل ذلك على أنها زيادة شاذة غير محفوظة.

ومما لا شك فيه أن الاستشهاد المذكور، إنما هو باعتبار أن الحادثة واحدة في الأحاديث الأربعة، وهو الذي صرح به ابن بطال وآخرون في خصوص الحديثين الأولين: حديث طلحة، وحديث أنس، فجزموا بأن الرجل المبهم في الحديث

الأول: هو ضمام بن ثعلبة المصرح به في بعض طرق الحديث الثاني، وحديث ابن عباس أيضا الثالث. قال الحافظ في "الفتح" (١/ ٨٨) :

"والحامل لهم على ذلك: إيراد مسلم لقصته عقب حديث طلحة، ولأن في كل منهما أنه بدوي، وأن كلا منهما قال في آخر حديثه: لا أزيد على هذا ولا أنقص".

قلت: وكذلك في حديث ابن عباس وحديث أبي هريرة كما تقدم؛ فهي أحاديث أربعة، تتحدث عن قصة واحدة، فإذا تفرد أحد الرواة عنهم بشيء دون الآخرين؛ قام في النفس مانع من قبولها، لا سيما إذا اختلف عليه في ذلك؛ كهذه الزيادة: "وأبيه"؛ لأنه يلزم من قبولها توهيم الرواة الآخرين، ونسبتهم إلى قلة الضبط والحفظ. وإذا كان لا بد من ذلك؛ فنسبة الفرد الواحد إلى ذلك أولى، كما لا يخفى على أولي النهى.

وأما ما ذكره الحافظ عن القرطبي؛ أنه تعقب جزم ابن بطال المتقدم؛ بأن سياق حديث طلحة وأنس، مختلف، وأسئلتهما متباينة! فالجواب: أنه لا اختلاف ولا تباين في الحقيقة؛ وإنما هو الاختصار من بعض الرواة حسب المناسبات؛ ألا ترى إلى حديث أنس من الطريق الأولى كم هو مختصر عنه في الطريق الأخرى؟! فهل يقول قائل: إنهما يتحدثان عن قصتين مختلفتين؛ لتباين الأسئلة فيهما؟! وكذلك يقال عن حديث ابن عباس في طريقيه !

فإذا كان هذا الاختلاف في حديث الرواي الواحد لا يدل على تعدد القصة؛ فأولى أن لا يدل عليه الاختلاف في حديث راويين مختلفين. وهذه هي طريقة العلماء المحققين.

=

=

ألا ترى إلى العلامة ابن القيم في (فصل صلاة الخوف) من كتابه "زاد المعاد"؛ كيف أنه لم يجعل كل رواية رويت في صلاة الخوف صفة مستقلة؟! بل أنكر ذلك فقال: "وقد روي عنه ﷺ في صلاة الخوف صفات أخر ترجع كلها إلى هذا، وهذه أصولها، وربما اختلف بعض ألفاظها، وقد ذكرها بعضهم عشر صفات، وذكرها ابن حزم نحو خمس عشرة صفة، والصحيح ما ذكرناه أولا (يعني: ست صفات)؛ وهؤلاء كلما رأوا اختلاف الرواة في قصة؛ جعلوا ذلك وجوها من فعل النبي ﷺ، وإنما هو من اختلاف الرواة".

والخلاصة: أن الزيادة المذكورة في حديث طلحة - وكذا في حديث أبي هرية الذي قبله - زيادة شاذة لا تصح عندي. ومن صححها؛ فإنما نظر إلى كون راويها - إسماعيل بن جعفر - ثقة، دون النظر إلى المخالفة - مالك - له فيها، واختلاف الرواة على إسماعيل في إثباتها.

فلا جرم أن أعرض عن روايتها إمام الأئمة أبو عبد الله البخاري، وهذا هو غاية الدقة في التخريج، جزاه الله خيرا، ثم إنه قد بدا لي شيء آخر أكد لي نكارة الزيادة في حديث طلحة خاصة، ألا وهو أنه بينما نرى الأعرابي السائل لرسول الله ﷺ عن الإسلام؛ يحلف بالله دون سواه؛ إذا بالرسول ﷺ يحلف بأبيه كما تقول الزيادة! فهذه المقابلة مستنكرة عندي مهما قيل في تأويل الزيادة. والله أعلم.

ثم رأيت ابن عبد البر قد جزم في "التمهيد" (١٤/ ٣٦٧) بأن الزيادة غير محفوظة - كما سيأتي -؛ فالحمد لله على توفيقه.

(تنبيه): خفي هذا التحقيق - حول حديث الترجمة - على كثير من المتقدمين والمتأخرين؛ اتكالا منهم على وروده في "الصحيح"، دون أن يتنبهوا لما جاء في تعريف الحديث الصحيح في علم المصطلح؛ من قولهم: "ولم يشذ ولم يعل"! أو لوجود زيادة في بعض الطرق دون بعض؛ فيحيل في حديث الزيادة - الضعيف سنده - على الحديث الخالي منها لصحة سنده!

وهذا ما وقع فيه المعلق على "مسند أبي يعلى"، فإنه لما تكلم على حديث الزيادة من طريق شريك؛ قال (١٠/ ٤٨٠): "إسناده ضعيف؛ لضعف شريك بن عبد الله القاضي"، فأصاب؛ إلا أنه تابع فقال: "غير أن الحديث صحيح، وقد تقدم برقم (٦٠٨٢)، وسيأتي برقم (٦٠٩٤)، وأما الجزء الثاني (يعني: الذي فيه ذكر الصدقة)، فقد تقدم برقم (٦٠٨٠)، وإسناده صحيح أيضا"!

=

=

فأخطأ في هذا التصحيح؛ لأن الحديث بالأرقام الثلاثة التي أشار بها إليه؛ ليس فيها جملة القسم بالله أو أبيه؛ وهي شاذة كما علمت.

ومن هذا القبيل: زيادة تفرد بها ابن حبان (١/ ٣٢٩/ ٤٣٤) في آخر القضية الأولى بلفظ: قال: فيرون أن للأم ثلثي البر. وإسناده هكذا: أخبرنا أبو خليفة قال: حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادي قال: حدثنا سفيان عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة به.

قلت: وإبراهيم بن بشار - وإن كان صدوقا -؛ ففيه كلام من قبل حفظه. ولذلك قال الذهبي في "الكاشف": "ليس بالقوي". وأصل هذا: ما رواه عبد الله بن أحمد في "العلل" (٢/ ٣٣٢/ ٢٣١٥) - وعنه ابن أبي حاتم في "الجرح" - عن أبيه أحمد أنه قال في إبراهيم هذا: "كان يحضر معنا عند سفيان، ثم يملي على الناس ما سمعوه من سفيان، وربما أملى عليهم ما لم يسمعوا، كأنه يغير الألفاظ، فتكون زيادة في الحديث. فقلت له: ألا تتقي الله؟! تملي عليهم ما لم يسمعوا؟! وذمه في ذلك ذما شديدا". وقول البخاري في "التاريخ" (١/ ١/ ٢٧٧):

"يهم في الشيء بعد الشيء"، وقول ابن معين: "لم يكن يكتب عند سفيان، وكان يملي على الناس ما لم يقله سفيان". وراجع "التهذيب" إن شئت.

وأقول: ويؤيد ما قاله هؤلاء الأئمة - جزاهم الله عن المسلمين خيرا! - إن الحديث أخرجه الحميدي في "مسنده" (٢/ ٤٧٦/ ١١١٨) قال: حدثنا سفيان به؛ دون قوله: فيرون أن للأم ثلثي البر.

وتابعه أبو بكر محمد بن ميمون المكي: حدثنا سفيان بن عيينة به. أخرجه ابن ماجه (٣٦٥٨).

وشيخه محمد هذا؛ وثقه بعضهم، وكنيته في "التهذيب": (أبو عبد الله). فالله أعلم.

قلت: فالزيادة المذكورة منكرة؛ لمخالفة الرمادي للحافظ الحميدي ومن تابعه من جهة، ولعدم ورودها في الطرق الأخرى المتقدمة، ومن هذا التحقيق؛ تعلم خطأ قول المعلق على "الإحسان" (٢/ ١٧٦ - مؤسسة الرسالة): "إسناده صحيح على شرط الشيخين؛ غير إبراهيم بن بشار الرمادي؛ وهو حافظ، وقد توبع..." !! ثم أفاض في تخريجه !! فأقول:

أولا: ليس إسناده بصحيح؛ لما علمت من حال الرمادي في روايته عن سفيان.

ثانيا: لو سلم منه؛ فدونه الراوي عنه أبو خليفة - واسمه الفضل بن الحباب -، وليس

=

قال العلامة العثيمين في الشرح الممتع (١٥/ ١١٨): فإن قلت: الحلف بغير الله محرم وشرك، ولكن فعله أتقى الناس لله، وهو محمد رسول الله ﷺ، فإنه جاء إليه أعرابي وسأله عن شعائر الإسلام فأخبره، ثم قال الرجل: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، فقال النبي ﷺ: «أفلح وأبيه إن صدق»، فكيف نقول: إن الحلف بغير الله محرم أو شرك، والشرك ممتنع على الأنبياء؛ لأنه ينافي دعوتهم تماما؛ لأنهم يدعون إلى التوحيد، والشرك ينافيه ولو كان صغيرا؛ لأنه

=

من رجال الشيخين، ولا بقية الستة! ثم هو مختلف فيه: فمنهم من وثقه، ومنهم من تكلم فيه. وقد ساق له الحافظ في "اللسان" حديث جابر رفعه :

"من وسع على نفسه وأهله يوم عاشوراء..." الحديث. واستظهر أن الغلط فيه من أبي خليفة. والله أعلم.

ثالثا: لو سلمنا - فرضا - بصحة إسناده؛ فذلك مما لا يستلزم صحة متنه؛ إلا إذا سلم من الشذوذ والعلة، وهو غير سالم كما عرفت مما سبق. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وبعد تخريج حديث طلحة بن عبيد الله من رواية إسماعيل بن جعفر بسنين؛ طبع كتاب "التمهيد" للحافظ ابن عبد البر، فرأيته ذكر هذا الحديث تحت حديث :

"إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم..." الحديث، متفق عليه، وهو مخرج في "الإرواء" (٢٥٦٠)، أورده تحته؛ لمخالفته إياه في الحلف بالأب، فقال (١٤/ ٣٦٧) مجيبا عن هذه الزيادة :

"هذه لفظة غير محفوظة في هذا الحديث من يحتج به، وقد روى هذا الحديث مالك وغيره عن أبي سهيل؛ لم يقولوا ذلك فيه. وقد روي عن إسماعيل بن جعفر هذا الحديث وفيه: "أفلح - والله! - إن صدق" أو: "دخل الجنة - والله! - إن صدق"، وهذا أولى من رواية من روى: "وأبيه"؛ لأنها لفظة منكرة، تردها الآثار الصحاح".

قلت: فوافق قول هذا الحافظ ما كنت انتهيت إليه من شذوذ هذه اللفظة. فالحمد لله على توفيقه، وأسأله المزيد من فضله.

وقد رويت هذه اللفظة في قصة أخرى، وهي منكرة أيضا فيها، وسيأتي تخريجها والكلام عليها برقم (٦٣١١).

إذا كان كبيرا فهو ينافي أصله، وإن كان صغيرا فهو ينافي كماله، فكيف يحلف الرسول ﷺ بغير الله في قوله: «أفلح وأبيه»؟ الجواب: للعلماء على هذا عدة أجوبة:

الأول: أن في هذا الحديث تصحيفا، وأن أصله: «أفلح والله»، لكن لما كانوا في الأول لا ينقطون، فإن «أبيه» مثل «الله» فيها نبرتان والهاء، لكن قصرت النبرتان وحذف الإعجام فصارت «وأبيه»، وهذا غير صحيح؛ لأن الأصل عدم التصحيف، ولأن هذا يفتح علينا بابا خطيرا بالنسبة للرواة، إذ كل شيء لا تقبله نفوسنا نقول: هذا مصحف.

الثاني: أن هذا قبل النهي عن الحلف بالآباء، وأن هذا كان في الأول كثيرا شائعا، والناس قد ألفوه، فتأخر النهي عنه، كما تأخر النهي عن الخمر، فإنها لم تحرم إلا في السنة السادسة من الهجرة، وكذلك الحجاب ما وجب إلا في السنة السادسة من الهجرة؛ لأن الشيء المألوف يصعب على النفس أن تدعه في أول الأمر، فقالوا: إن الشرع تركهم على هذا الشيء؛ لأنه مألوف عندهم، ولما استقر الإيمان في نفوسهم نهى عنه، ويكون قسم الرسول ﷺ «بأبيه» قبل النهي، وحينئذ نقول: هو منسوخ.

ولكن النسخ من شروطه العلم بالتاريخ، ومجرد التعليل ليس حكما بالتقدم أو التأخر، فهذا لا يكفي بل لا بد أن نعلم التأخر، وعلى هذا فالقول بالنسخ ـ أيضا ـ ضعيف.

الثالث: أن هذا مما يجري على اللسان بغير قصد، فيكون من لغو اليمين، وقد قال الله تعالى: {لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم} [المائدة: ٨٩]، ولو فرضنا أن الناس اعتادوا على هذا فإننا نتركهم، وعليه فالذين اعتادوا أن يحلفوا

بالنبي ﷺ لا ننهاهم، لأن هذا يجري على ألسنتهم، وقد جاءني رجل يريد أن يستفتيني فقال: والنبي تفتيني في هذه المسألة، فقلت له: الحلف بالنبي ﷺ حرام، فسكت الرجل وقال: والنبي ما عمري أعود إلى هذا الشيء! فهذا القول غير وجيه، ولا يستقيم مع قوله ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم»؛ لأنه ﷺ نهى عن هذا بالذات، وما كان منهيا عنه بذاته، كيف نقول: إنه ﷺ أقره، وأنه يبقى حكمه إلى الآن؟! هذا لا يمكن.

الرابع: أن النهي عن الحلف بغير الله خوفا من أن يقع في قلب الحالف من تعظيم هذا المحلوف به، كما يكون في قلبه من تعظيم الله، وهذا بالنسبة للنبي ﷺ ممتنع، فلا يمكن أن يقوم في قلبه تعظيم أبي هذا الأعرابي كتعظيم الله، وعلى هذا الوجه يكون هذا خاصا بالنبي ﷺ؛ لعلمنا أن المحذور من الحلف بغير الله لا يتصور في حقه، وعلى هذا يكون الحلف بالأب ونحوه على من سوى النبي ﷺ ممنوعا، أما في حقه ﷺ فهو جائز، لكن هذا يضعفه أنه ﷺ أسوة أمته، ولا يمكن أن يحلف بغير الله وهو يعلم أن الأمة سوف تتأسى به، لكن قد يقال: إن الأمة قد أخبرها بالحكم بقوله ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم».

وهذا الوجه الرابع ينطبق تماما على ما ذهب إليه الشوكاني وجماعة من العلماء من أن الفعل من رسول الله ﷺ لا يعارض القول مطلقا.

فالأقرب من هذه الأوجه أن يكون منسوخا، وهذا في النفس منه شيء؛ لأننا لم نعلم تاريخه، أو أنه خاص برسول الله ﷺ. وعلى كل حال نقول: لدينا نص مشتبه ونص محكم، فالنص المشتبه هو حلفه ﷺ بأبي هذا الرجل، والنص المحكم هو نهيه ﷺ عن الحلف بالآباء، والقاعدة الشرعية في طريق الراسخين في العلم أن يحملوا المتشابه على المحكم؛ ليكون الشيء كله محكما، فما دام

هذا الشيء فيه احتمالات، فإن لدينا نصا محكما لا يمكن أن نحيد عنه وهو النهي عن الحلف بالآباء. ويصلح أن يجاب بأن هذا على حذف مضاف والتقدير: ورب أبيه ولكن هذا ضعيف لأن الأصل عدم الإضافة والحذف.

الخامس: أن هذه اللفظة «وأبيه» شاذة، وغير محفوظة، فإذا صح هذا فقد كفينا، ولا حاجة لهذه الأجوبة، وإذا صحت فهذه أجوبتها..اهـ. وبنحوا هذا أفتى العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٣/ ١٤٢).

وقال الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد في معجم المناهي اللفظية (ص ١١٣): (أفلح وأبيه إن صدق) استقر الشرع العام لأُمة محمد ﷺ على تحريم الحلف بغير الله تعالى، وأن من حلف بغير الله فقد أشرك شركًا أصغر.

والأحاديث في النهي عن الحلف بغير الله تعالى بلغت مبلغ التواتر، وهي من قضايا الاعتقاد التي لا خلاف فيها بين المسلمين.

وأمام هذا جاء حديث عن طلحة بن عبيد الله، في قصة الأعرابي النجدي: أن النبي ﷺ قال: (أفلح وأبيه إن صدق) رواه مسلم، وأبو داود، وهو في البخاري، والموطأ، وبقية السنن، دون لفظ: (وأبيه).

وللعلماء عن هذا اللفظ: (وأبيه) أجوبة تسعة هي:

١ - منسوخ بأحاديث التشريع العام.

٢ - على تقدير محذوف: (ورب أبيه).

٣ - خاص به ﷺ.

٤ - تصحيف من قوله: (والله).

٥ - أن الرواية قد وردت بلفظ: (والله) كما ذكرها ابن عبد البر في: التمهيد (١٤/ ٣٦٧).

٦- جرت بدون قصد الحلف. كما جرى: عقْرى، حلْقى، وما أشبههما.

٧- لفظة غير محفوظة فهي ضعيفة منكرة. قاله ابن عبد البر.

٨- لفظة غير محفوظة، فهي شاذة كما في ضعيف أبي داود.

٩- لفظ يقصد به التأكيد لا التعظيم.

وفي الباب أيضًا: حديث أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - في مسلم، كتاب الزكاة من صحيحه، وابن ماجه برقم: ٢٧٠٦، وفيه قال: (نعم وأبيك لتَنبَّأنَّه) - وقد ضعفه الشيخ ناصر في الضعيفة (٤٩٩٢) كما تقدم-.

وحديث وهب بن عقبة العامري، في قصة: الفُجيع العامري، وفيه قال ﷺ: (ذاك وأبي الجدع) رواه داود في كتاب الأطعمة من سُننه. وهو ضعيف.

فهذه أحاديث ثلاثة، اثنان في أبي داود، متكلم في سندها، والثالث في صحيح مسلم، وقد علمت الأجوبة عنها. ومثل هذه الوقائع النادرة لا تقضي على التشريع العام للأمة الذي بلغت به النصوص مبلغ التواتر، وجُلُّها ناهيةٌ بالنص عن الحلف بالآباء، وكلها مُعلِّلة له بأنَّه شرك، والشرك لا يدخله نسخ، ولا تخصيص، فتعين أن تكون الأحاديث المذكورة مؤولة أو منسوخة والله أعلم.

مسألة: حكم الحلف بالطلاق

الحلف بالطلاق بعض أهل العلم يعدونه يمينا محرما لأنه بغير الله، وفي هذا نظر، قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٧٣): وإذا كان كذلك فالحلف بالنذر والطلاق ونحوهما هو حلف بصفات الله فإنه إذا قال إن فعلت كذا فعليّ الحج فقد حلف بإيجاب الحج عليه وإيجاب الحج عليه حكم من أحكام الله تعالى وهو من صفاته وكذلك لو قال فعليّ تحرير رقبة وإذا قال فامرأتى طالق وعبدى حر فقد حلف بإزالة ملكه الذي هو تحريمه عليه

والتحريم من صفات الله كما أن الإيجاب من صفات الله وقد جعل الله ذلك من آياته في قوله: {ولا تتخذوا آيات الله هزوا} فجعل صدوره في النكاح والطلاق والخلع من آياته لكنه إذا حلف بالإيجاب والتحريم فقد عقد اليمين لله كما يعقد النذر لله فإن قوله على الحج والصوم عقده ولكن إذا كان حالفا فهو لم يقصد العقد لله بل قصد الحلف به فإذا حنث ولم يوف به فقد ترك ما عقد لله كما أنه إذا فعل المحلوف فقد ترك ما عقده لله..اهـ.

وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في فتاوى نور على الدرب (١/ ١٨١ - ١٨٣): الحلف بغير الله منكر، والنبي ﷺ قال: (من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت)، وقال عليه الصلاة والسلام: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) وهو حديث صحيح، وقال عليه الصلاة والسلام: (من حلف بالأمانة فليس منا)، وقال: (لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون). هذا حكمه عليه الصلاة والسلام، وهو منع الحلف بغير الله كائنا من كان، فلا يجوز الحلف بالنبي عليه الصلاة والسلام، ولا بالكعبة، ولا بالأمانة، ولا بحياة فلان، ولا بشرف فلان، وكل هذا لا يجوز؛ لأن الأحاديث الصحيحة دلت على منع ذلك، وقد نقل أبو عمر بن عبد البر الإمام المشهور رَحِمَهُ اللَّهُ إجماع أهل العلم على أنه لا يجوز الحلف بغير الله، فالواجب على المسلمين أن يحذروا ذلك.

أما الطلاق فليس من الحلف في الحقيقة، وإن سماه الفقهاء حلفا، لكن ليس من جنس هذا، الحلف بالطلاق معناه تعليقه على وجه الحث أو المنع أو التصديق أو التكذيب، مثل لو قال: والله ما أقوم، أو والله ما أكلم فلانا فهذا يسمى يمينا، فإذا قال: علي الطلاق ما أقوم، أو علي الطلاق ما أكلم فلانا. فهذا

يسمى يمينا من هذه الحيثية، يعني من جهة ما يتضمنه من الحث أو المنع أو التصديق أو التكذيب، سمي يمينا لهذا المعنى، وليس فيه الحلف بغير الله، فهو ما قال: بالطلاق ما أفعل كذا، أو بالطلاق لا أكلم فلانا، فهذا لا يجوز.

ولكن إذا قال: علي الطلاق لا أكلم فلانا، أو علي الطلاق ما تذهبي إلى كذا وكذا، أي زوجته، أو علي الطلاق ما تسافري إلى كذا وكذا، فهذا طلاق معلق، يسمى يمينا لأنه في حكم اليمين من جهة الحث أو المنع أو التصديق أو التكذيب، فالصواب فيه أنه إذا كان قصد منعها، أو منع نفسه، أو منع غيره من هذا الشيء الذي حلف عليه فيكون حكمه حكم اليمين، وفيه كفارة يمين.

وليس في هذا مناقضة لقولنا: إن الحلف بغير الله ما يجوز، لأن هذا شيء، وهذا شيء، فالحلف بغير الله مثل أن يقول: باللات والعزى، بفلان، بحياة فلان، وحياة فلان، هذا حلف بغير الله، أما هذا فطلاق معلق ليس حلفا في المعنى الحقيقي بغير الله، ولكنه حلف في المعنى من جهة منعه وتصديقه وتكذيبه.

فإذا قال عليه الطلاق ما يكلم فلانا، فكأنه قال: والله ما أكلم فلانا، أو لو قال: علي الطلاق ما تكلمين فلانا - يخاطب زوجته - فكأنه قال: والله ما تكلمين فلانا - فإذا حصل الخلل وحنث في هذا الطلاق، فالصواب أنه يكفر عن يمينه بكفارة يمين، أي أن له حكم اليمين إذا كان قصد منع الزوجة أو منع نفسه، وما قصد إيقاع الطلاق، إنما نوى منع هذا الشيء، منع نفسه، أو منع الزوجة من هذا الفعل، أو من هذا الكلام، فهذا الكلام يكون له حكم اليمين عند بعض أهل العلم، وهو الأصح، وعند الأكثرين يقع الطلاق.

لكن عند جماعة من أهل العلم لا يقع الطلاق وهو الأصح، وهو اختيار

شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وجماعة من السلف رحمة الله عليهم؛ لأنه له معنى اليمين من جهة الحث أو المنع أو التصديق أو التكذيب، وليس له معنى اليمين في تحريم الحلف بغير الله، لأنه ليس حلفا بغير الله، وإنما هو تعليق، فينبغي فهم الفرق بين هذا وهذا. والله أعلم" انتهى.

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٤/ ٦٥): ما رأيكم - حفظكم الله - في الحلف على المصحف؟ هل يعتبر يمينا؟ وهل إذا حلف صادقا يكون آثما، وإذا حلف كاذبا كذلك؟ وجهونا، جزاكم الله خيرا.

فأجاب: إذا حلف بالمصحف قصده القرآن كلام الله فلا بأس؛ لأن القرآن كلام الله، فإذا قال: وعزة الله، أو كلام الله، أو بالمصحف، وقصده القرآن؛ لأنه كله كلام الله ﷻ - فهذه يمين لا بأس بها، ولا حرج في ذلك والحمد لله.

مثل لو قال: وعزة الله، وعلم الله، وكلام الله - لا بأس أن يحلف بصفة من صفات الله سبحانه، كما لو قال: والرحمن والرحيم والعليم والعزيز والحكيم، وهكذا لو قال: وعزة الله، ورحمة الله، وعلم الله، وكلام الله، - فلا بأس.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٤/ ٧٥): أن بعض الناس وبالذات طلاب المدارس يحلف بالنجاح، فيقول: بنجاحي، ويقول: بتوفيقي. فهل هي شرك بالله؟ أرشدونا، جزاكم الله خيرا!.

فأجاب: الحلف بغير الله من المنكرات ومن المحرمات الشركية، وقد أوضح النبي ذلك عليه الصلاة والسلام، وكان الناس أولا يحلفون بآبائهم، فكانت العرب تحلف بآبائها وأمهاتها، فأنكر النبي بعد ذلك. وأدرك بعض الصحابة وهم يحلفون بآبائهم، فنهاهم، وقال: «إن الله نهاكم أن تحلفوا بآبائكم » وقال: «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت"، وقال: «لا تحلفوا بآبائكم

ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون »

وقال عليه الصلاة والسلام: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك"، وقال: «من حلف بالأمانة فليس منا »، ولما قال سعد: «يا رسول الله، إن حلفت وقلت في يميني: واللات والعزى، فقال له: قل: لا إله إلا الله ثلاث مرات، وفي رواية أخرى: تعوذ بالله من الشيطان".

المقصود أن الحلف بغير الله منكر من المحرمات الشركية، فلا يجوز أن يحلف بنجاحه ولا بأبيه ولا بأمه ولا بحياة فلان، ولا برأس فلان، ولا بالنبي ولا بالكعبة، ولا بشرف فلان. كل هذه المنكرات محرمات شركية، ليس لأحد أن يتعاطاها أبدا. ومن فعل شيئا من هذا فعليه البدار بالتوبة من المحرمات الشركية؛ لأن هذا من الشرك الأصغر، وقد يكون شركا أكبر إذا كان في قلبه تعظيم محلوفه، وأنه يعظمه كما يعظم الله، أو أنه يعتقد فيه شيئا من العبادة والسر. كل هذا يكون شركا أكبر، نسأل الله العافية!

أما إذا جرى على اللسان من غير قصد، ولكنه عادة - هذا من الشرك الأصغر، فينبغي الحذر من هذا، وألا يحلف بأبيه ولا بأمه ولا بنجاحه ولا بتوفيقه ولا بغير ذلك. أما إذا قال: بتوفيقي، يعني بتوفيق الله لي، قصده بتوفيق الله - هذا شيء آخر، سأنجح بتوفيق الله أو كذا. أما بتوفيقي، يقصد بالتوفيق الحلف بذلك، هذا لا يجوز، ومن المحرمات الشركية. فالحاصل أن الواجب على المسلم أن يحذر غلطات اللسان.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٧/ ٧٧): ما حكم الحلف بالأمانة والذمة، كقول الناس: أمانة عليك أخبرني بهذا الشيء، أو في ذمتك؟ جزاكم الله خيرا.

فأجاب: الحلف بالأمانة أو بالذمة لا يجوز، ولا بغيرهما من المخلوقات. يقول النبي ﷺ: «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت"، وقال عليه الصلاة والسلام: «من حلف بشيء دون الله فقد أشرك » رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث عمر رضي الله عنه.

وفي الصحيحين عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » وقال أيضا عليه الصلاة والسلام: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » قال أيضا عليه الصلاة والسلام: «من حلف بالأمانة فليس منا ».

فلا يجوز للمسلم ولا للمسلمة الحلف بغير الله، فلا يقول: بالأمانة ما فعلت كذا، ولا بذمتي ما فعلت كذا، ولا بحياتك ما فعلت كذا. أو وحياتك ما فعلت كذا، أو وشرفك، أو بالنبي، أو بالكعبة. كل هذا لا يجوز، كله من الشرك.

لكن إذا قال: في ذمتي هذا - ما يسمى يمينا، أو قال: أن أعطيك هذا الشيء، وأنا مؤتمن عليه. ما يحلف بالأمانة، يقول: لك في هذا ذمتي، لك في هذا أمانتي، لا أخونك، هذا ما يسمى يمينا. أما إذا قال: بأمانتي، أو برأس فلان، أو بذمتي، أو والأمانة - فهذا كله لا يجوز؛ لأن الحلف يكون بالباء أو بالواو أو بالتاء: تالله، والله، بالله.

فهكذا إذا قال: بالأمانة، والأمانة، والكعبة، بالكعبة، وحياة فلان، وشرف فلان، وحياة أبيك، ونحو هذا - كل هذا يسمى حلفا بغير الله، لا يجوز.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٤/ ٨٦): هل يجوز الحلف بهذه العبارات التالية: ورب الكعبة، وحياة النبي؟.

فأجاب: وحياة النبي، ما يصلح. رب الكعبة، ورب البيت ما يخالف. أما

حياة النبي، إنسان، مخلوق - ما يجوز، الرسول ﷺ قال: «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » وقال ﷺ: «من حلف بشيء دون الله فقد أشرك » يكون الحلف بالله أو بأسمائه وصفاته، أما الحلف بحياة النبي، أو بالنبي أو بالأمانة، أو بشرف فلان - كل هذا لا يجوز.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٨٦): بعض الناس عندهم عبارة يرددونها، يقول: الله يحرمني من أهلي إن كنت كاذبا، ويقول: حرام بالله أن تعمل كذا. فما رأي سماحتكم؟.

فأجاب: هذا دعاء، ما هو بظهار، يعني الله يحول بيني وبينهم بموت أو بغيره، هذا دعاء على نفسه وعلى أهله، نسأل الله العافية.

أما قوله: وحرام بالله أن تعمل كذا - فهذا معناه: علي حرام، هذا يكون فيه كفارة يمين، إذا لم ينفذ الذي قاله، عليه كفارة يمين. إذا قال: حرام بالله أن تقوم، ولا قام - عليه كفارة يمين. حرام بالله أن تأكل طعاما، ولا أكل - عليك كفارة يمين؛ لقول الله سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ} {قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}.

قال جماعة من المفسرين: إنها جاءت في العسل، ثم قال بعضهم: في تحريم جارية، فأمره الله أن يكفر عن يمينه. جعل التحريم يمينا، تحريم الجارية أو الطعام، أو ركوب الدابة، أو ما أشبه ذلك - يكون حكمه حكم اليمين. علي الحرام ما أركبها، علي الحرام ما آكل معك هذا الطعام، علي الحرام ما أجلس - يكون حكمه حكم اليمين.

مسألة: قال العلامة الألباني في الصحيحة (٣/ ١٥٥ - ١٥٦): قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يؤتى بأشد الناس كان بلاء في الدنيا من أهل

الجنة، فيقول أصبغوه صبغة الجنة، فيصبغونه فيها صبغة، فيقول الله ﷻ: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط أو شيئا تكرهه؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئًا أكرهه قط، ثم يُؤتى بأنعم الناس كان في الدنيا من أهل النار فيقول: أصبغوه فيها صبغة، فيقول: يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط قرة عين قط؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت خيرا قط ولا قرة عين قط).

(فائدة) في الحديث جواز الحلف بصفة من صفات الله تعالى ومن أبواب البيهقي في " السنن الكبرى " (١٠/ ٤١) " باب ما جاء في الحلف بصفات الله تعالى كالعزة والقدرة والجلال والكبرياء والعظمة والكلام والسمع ونحو ذلك". ثم ساق تحته أحاديث وأشار إلى هذا الحديث واستشهد ببعض الآثار عن ابن مسعود وغيره وقال: "فيه دليل على أن الحلف بالقرآن كان يمينا...". ثم روي بإسناد الصحيح عن التابعي الثقة عمرو بن دينار قال: "أدركت الناس منذ سبعين سنة يقولون: الله الخالق وما سواه مخلوق والقرآن كلام الله ﷻ".

وسئل رَحِمَهُ الله كما في موسوعته العقدية (٣/ ١١٦٩): هل يجوز الحلف بالقرآن؟

الشيخ: القرآن كما اتفق عليه أهل السنة والجماعة أنه كلام الله تبارك وتعالى وكلام الله أيضًا صفة من صفاته فالتالي يجوز الحلف بكلامه تبارك وتعالى

وقرآنه، نعم.

مداخلة: وهل يجوز السجود للقرآن؟

الشيخ: إذا توهمت السجود للقرآن بكلامه فنعم، أما للمصحف

فالمصحف فيه شيء ليس من صفة الله ﷻ.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١١٧٠): القسم بـ (ولعمر الحق) هل هو قسم بغير الله؟

الشيخ: (لعمر الحق) على حسب قاصد القاسم، إذا قصد الحق يعني الحق سبحانه وتعالى، فليس فيه شيء إطلاقًا؛ لأنه حلف بالله، وإذا قصد بالحق شيء معنوي؛ هو: الصواب مثلًا جاز أيضًا؛ لأنه يرجع إلى المعنى الأول، أما إذا قصد شيء مادي فلا يجوز؛ لأنه حلف بغير الله، فهنا يقال: «إنما الأعمال بالنيات».

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٢١٣): عن حكم حلف بالمصحف؟.

فأجاب: هذا السؤال ينبغي أن نبسط الجواب فيه، وذلك أن القسم بالشيء يدل على تعظيم ذلك المقسم به تعظيمًا خاصًّا لدى المقسم، ولهذا لا يجوز لأحد أن يحلف إلا بالله تعالى بأحد أسمائه، أو بصفة من صفاته مثل أن يقول: والله لأفعلن، ورب الكعبة لأفعلن، وعزة الله لأفعلن، وما أشبه ذلك من صفات الله تعالى.

والمصحف يتضمن كلام الله، وكلام الله تعالى من صفاته وهو -أعني كلام الله- صفة ذاتية فعلية؛ لأنه بالنظر إلى أصله وأن الله لم يزل ولا يزال موصوفًا به؛ لأن الكلام كمال فهو من هذه الناحية من صفات الله الذاتية؛ إذ لم يزل ولا يزال متكلمًا فعالًا لما يريده، وبالنظر إلى آحاده يكون من الصفات الفعلية؛ لأنه يتكلم متى شاء قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فقرن القول بالإرادة وهو دليل على أن كلام الله يتعلق بإرادته ومشيئته سبحانه وتعالى، والنصوص في هذا متضافرة كثيرة، وأن كلام الله تحدث آحاده حسب ما

تقتضيه حكمته، وبهذا نعرف بطلان قول من يقول: إن كلام الله أزلي، ولا يمكن أن يكون تابعًا لمشيئته، وأنه هو المعنى القائم بنفسه، وليس هو الشيء المسموع الذي يسمعه من يكلمه الله ﷻ، فإن هذا قول باطل حقيقته أن قائله جعل كلام الله المسموع مخلوقًا.

وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا يعرف باسم "التسعينية" بين فيه بطلان هذا القول من تسعين وجهًا.

فإذا كان المصحف يتضمن كلام الله، وكلام الله تعالى من صفاته فإنه يجوز الحلف بالمصحف بأن يقول الإنسان: والمصحف، ويقصد ما فيه من كلام الله ﷻ وقد نص على ذلك فقهاء الحنابلة -رحمهم الله- ومع هذا فإن الأولى للإنسان أن يحلف بما لا يشوش على السامعين بأن يحلف باسم الله ﷻ فيقول: والله، ورب الكعبة، أو والذي نفسي بيده وما أشبه ذلك من الأشياء التي لا تستنكرها العامة ولا يحصل لديهم فيها تشويش، فإن تحديث الناس بما يعرفون وتطمئن إليه قلوبهم خير وأولى، وإذا كان الحلف إنما يكون بالله وأسمائه وصفاته؛ فإنه لا يجوز أن يحلف أحد بغير الله لا بالنبي ﷺ، ولا بجبريل، ولا بالكعبة، ولا بغير ذلك من المخلوقات، قال النبي ﷺ: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت».

وقال النبي ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك». فإذا سمع الإنسان شخصًا يحلف بالنبي، أو بحياة النبي، أو بحياة شخص آخر فلينهه عن ذلك، وليبين له أن هذا حرام ولا يجوز، ولكن ليكن نهيه وبيانه على وفق الحكمة حيث يكون باللطف واللين والإقبال على الشخص، وهو يريد نصحه وانتشاله من هذا المحرم؛ لأن بعض الناس تأخذه الغيرة عند الأمر والنهي فيغضب

ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه وربما يشعر في هذه الحال أنه ينهاه انتقامًا لنفسه فيلقي الشيطان في نفسه هذه العلة، ولو أن الإنسان أنزل الناس منازلهم ودعا إلى الله بالحكمة واللين والرفق لكان ذلك أقرب إلى القبول وقد ثبت عن النبي ﷺ: «إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف». ولا يخفى على الكثير ما حصل من النبي ﷺ، في قصة «الأعرابي الذي جاء إلى المسجد فبال في طائفة منه فزجره الناس، وصاحوا به، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، فلما قضى بوله دعاه النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: "إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى أو القذر وإنما هي للتكبير والتسبيح وقراءة القرآن». أو كما قال ﷺ، ثم أمر أصحابه أن يصبوا على البول ذنوبًا من ماء، فبهذا زالت المفسدة وطهر المكان، وحصل المقصود بالنسبة لنصيحة الأعرابي الجاهل، وهكذا ينبغي لنا نحن في دعوة عباد الله إلى دين الله أن نكون داعين إلى الله سبحانه وتعالى فنسلك الطريق التي تكون أقرب إلى إيصال الحق إلى قلوب الخلق وإصلاحهم والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢١٨): عن حكم الحلف بغير الله؟ والحلف بآيات الله؟.

فأجاب: الحلف لا يجوز إلا بالله سبحانه وتعالى أو صفة من صفاته، أما الحلف بغير الله فهو شرك سواء كان المحلوف به وجيهًا عند الله عَزَّ وَجَلَّ أم كان من سائر العباد؛ ولهذا لا يجوز لنا أن نحلف بالنبي، أو أن نحلف بجبريل، أو بالكعبة، أو بأي شيء من المخلوقات قال النبي ﷺ: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت». وقال النبي ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك». والنبي محمد ﷺ، هو نفسه لا يرضى أن يحلف به «ولما قال له رجل: ما شاء

الله وشئت قال: "أجعلتني لله ندًّا بل ما شاء الله وحده».

فيحلف المرء بالله ﷻ فيقول: والله، والرحمن، ورب العالمين، ومجري السحاب، ومنزل الكتاب وما أشبه ذلك، وكذلك يحلف بصفاته سبحانه وتعالى مثل وعزة الله، وقدرة الله، وما أشبه ذلك، ويحلف بالمصحف؛ لأنه كلام الله، لأنه لا يريد الحلف بالورق والجلود وإنما يريد الحلف بما تضمنته هذه الأوراق.

وأما قول السائل: هل يجوز الحلف بآيات الله بأن يقول الإنسان: وآيات الله أو بآيات الله لأفعلن كذا؟

فنقول في الجواب: إن قصد بالآيات الآيات الشرعية وهي القرآن الكريم فلا بأس، وإن قصد بالآيات الآيات الكونية كالشمس، والقمر والليل والنهار فهذا لا يجوز. والله أعلم.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢١٩): عن حكم القسم بقول: "وحياة الله"، وقول المرأة لزوجها: "حرام علي ربنا أن تفعل كذا"، وقولهم: "حد الله بيني وبينك "؟.

فأجاب: أما صيغة القسم بقول الإنسان: "وحياة الله" فهذه لا بأس بها؛ لأن القسم يكون بالله سبحانه وتعالى وبأي اسم من أسمائه، ويكون كذلك بصفاته كالحياة، والعلم، والعزة والقدرة وما أشبه ذلك، فيجوز أن يقول الحالف: وحياة الله، وعلم الله، وعزة الله، وقدرة الله، وما أشبه هذا مما يكون من صفات الله سبحانه وتعالى، كما يجوز القسم بالقرآن الكريم لأنه كلام الله، وبالمصحف لأنه مشتمل على كلام الله سبحانه وتعالى.

أما قول تلك المرأة: "حرام علي ربنا" فإذا كانت تقصد أن الله حرام عليها

فهذا لا معنى له، ولا يجوز مثل هذا الكلام، فما معنى هذا التحريم؟ هل معناه عبادة الله حرام عليها لا أدري ما معنى هذا الكلام.

أما إذا كانت تريد حرام علي هذا الشيء، وحرام علي أن لا تفعل أنت هذا الشيء وتقصد بربنا أي يا ربنا فهذه صيغة لتحريم الشيء، والشيء إذا حرم وقصد به الإنسان الامتناع عنه صار بمنزلة اليمين كما قال الله ﷻ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} . فجعل الله هذا التحريم يمينًا وقال: {قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} فالإنسان إذا قال: هذا حرام علي، أو حرام علي إن لم أفعل كذا وقصده بذلك الامتناع عن هذا الشيء فحكمه حكم اليمين بمعنى أن نقول كأنك قلت: "والله لا أفعل هذا الشيء، أو والله لا ألبس هذا الثوب، أو والله لا آكل هذا الطعام" فإذا حنث كفر كفارة يمين.

وأما بالنسبة للصيغة الثالثة: "حد الله بيني وبينك" فهذا كأنه من باب الاستعاذة بالله ﷻ والاستعاذة بالله أمر النبي ﷺ، أن يجاب الإنسان عليها بمعنى أنه إذا استعاذ الرجل بالله ﷻ وجب علينا أن نعيذه، إلا إذا كان ظالمًا في هذه الاستعاذة فإن الله سبحانه وتعالى لا يجيره إذا كان ظالمًا مثل لو أردنا أن نأخذ الزكاة من شخص لا يؤديها فقال: أعوذ بالله منكم، فإننا لا نعيذه لأن إعاذته مقتضاها إقراره على معصية الله ﷻ، والله سبحانه وتعالى لا يرضى ذلك فإذا كان الله لا يرضاه فنحن لا نوافقه عليه، فالمهم أن من استعاذ بالله سبحانه وتعالى فإننا مأمورون بإعاذته وتجنبه ما لم يستعذ بالله من أمر واجب عليه يخاف أن نلزمه به فإننا لا نعيذه في هذه الحال. والله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٢١): عن حكم الحلف بالنبي ﷺ والكعبة؟ والشرف والذمة؟ وقول الإنسان "بذمتي "؟.

فأجاب: الحلف بالنبي، عليه الصلاة والسلام، لا يجوز بل هو نوع من الشرك، وكذلك الحلف بالكعبة لا يجوز بل هو نوع من الشرك؛ لأن النبي ﷺ، والكعبة كلاهما مخلوقان والحلف بأي مخلوق نوع من الشرك.

وكذلك الحلف بالشرف لا يجوز، وكذلك الحلف بالذمة لا يجوز؛ لقول النبي ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك». وقال ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت».

لكن يجب أن نعلم أن قول الإنسان: "بذمتي" لا يراد به الحلف ولا القسم بالذمة، وإنما يراد بالذمة العهد، يعني هذا على عهدي ومسئوليتي هذا هو المراد بها، أما إذا أراد بها القسم فهي قسم بغير الله فلا يجوز، لكن الذي يظهر لي أن الناس لا يريدون بها القسم إنما يريدون بالذمة العهد والذمة بمعنى العهد.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٢٢): عن قول الإنسان: "والله وحياتك"؟.

فأجاب: قوله: "والله وحياتك" فيها نوعان من الشرك:

الأول: الحلف بغير الله.

الثاني: الإشراك مع الله بقوله: "والله وحياتك" وضمها إلى الله بالواو المقتضية للتسوية.

والقسم بغير الله إن اعتقد أن المقسم به بمنزلة الله في العظمة فهو شرك أكبر وإلا فهو شرك أصغر.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٢٢): عن حكم القسم بصفة من صفات الله تعالى؟.

فأجاب: القسم بصفة من صفات الله تعالى جائز مثل أن تقول: وعزة الله لأفعلن، وقدرة الله لأفعلن وما أشبه ذلك، وقد نص على هذا أهل العلم حتى

قالوا: إنه لو أقسم بالمصحف لكان جائزًا؛ لأن المصحف مشتمل على كلام الله وكلام الله من صفاته.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٢٢): عن حكم من لم يقتنع بالحلف بالله؟.

فأجاب: من لم يقتنع بالحلف بالله فلا يخلو ذلك من أمرين:

الأمر الأول: أن يكون ذلك من الناحية الشرعية فإنه يجب الرضا بالحلف بالله فيما إذا توجهت اليمين على المدعى عليه فحلف فيجب الرضا بهذا الحكم الشرعي.

الأمر الثاني: أن يكون ذلك من الناحية الحسية، ففي هذا تفصيل:

أولًا: إذا كان الحالف موضع صدق وثقة فإنك ترضى بيمينه.

ثانيًا: إذا كان غير ذلك أن ترفض الرضا بيمينه، ولهذا «لما قال النبي ﷺ لحويصة ومحيصة: "تبرئكم يهود بخمسين يمينًا" قالوا: كيف نرضى يا رسول الله بأيمان اليهود؟ فأقرهم النبي ﷺ على ذلك»

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٢٣): عما يقوله بعض الناس: "أنا نصراني لو فعلت كذا.. "؟.

فأجاب: هذا من باب اليمين فحكمه حكم اليمين، إذا حنث فيه يكفر كفارة يمين إذا تمت شروط الكفارة، لكن ينبغي للإنسان أن يحلف بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن بعض الناس يظن أن هذه العبارة أوكد من الحلف بالله، فيريد أن يؤكد ما يقول بمثل هذه العبارة، ولكننا نقول: يفعل ما أرشد إليه النبي عليه الصلاة والسلام، في قوله: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت».

* * *

الفهرس

❊ ❊ ❊

جامع المسائل العقدية

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

دار اللؤلؤة

الجزء التاسع

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(باب التحذير من فتنة القبور)

قال الشيخ وليد بن راشد السعيدان في كتابه تنوير الصدور في التحذير من فتنة القبور:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألَّا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

ثم أما بعد:- فإن الله تعالى قد بعث نبيه ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وجعله حجة بينه وبين عباده ورحمة وموصلًا للخير لهم بإذن ربه جل وعلا، وما مات عليه الصلاة والسلام إلا بعد أن أكمل الله به الدين وأتم نعمته على الخلق أجمعين ففتح الله به أعينًا عميًا وأسمع به آذانًا صمًا وهدى به قلوبًا غلفًا، وأنار به صدورًا مظلمة، وصحح به العقائد الباطلة، وقاد به الناس إلى صراطه المستقيم ونهجه القويم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور، فما ترك ﷺ لأمته من خير إلا دلهم عليه ولا شرًا إلا حذرهم منه وإن أعظم ما جاء به وجوب إفراده جل وعلا بالعبادة وتوحيده بها، فقرر بقوله وفعله التقرير الكامل التام أن العبادة حق صرف لله جل وعلا لا يجوز صرف شيء منها لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لولي صالح فضلًا عن صرفها لقبر أو شجر أو حجر أو جن أو بشر، فشريعته أولها وآخرها مبنية على أصلين عظيمين يدور عليهما فلك الرسالة وهما:- أن لا يعبد إلا الله جل وعلا، وأن لا يعبد إلا بما شرعه ﷺ ولا صلاح لهذا الوجود علويه وسفليه إلا بتحقيق هذين الأصلين، وهما أصلان

متلازمان فالأصل الأول مقصود لذاته والأصل الثاني وسيلة لتحقيقه، فلا طريق إلى تحقيق العبادة وإخلاصها وصحتها وقبولها إلا بتحقيق الأصل الثاني اعتقادًا وقولًا وعملًا واتباعًا، وما حصل بلاء ولا فساد ولا اضطراب في أمور البشرية إلا بالإخلال بأحد هذين الأصلين، وما وقع شرك في الأرض إلا لعدم اعتمادهما، وهذا يعرفه من نظر في أحوال الناس، هذا وإن أعظم ما نهى عنه ﷺ الشرك في العبادة، وأعظم أسباب الشرك بل هو أولها الغلو في الصالحين وقبورهم، ففتنة القبور وتعظيم الصالحين التعظيم الزائد على الحد المشروع هو الذي أوقع الشرك في بني آدم كما سيأتي إن شاء الله تعالى، ولا نزال في هذه الأزمنة نعاني أكبر المعاناة من فتنة القبور والغلو في تعظيم أصحابها، الأمر الذي يستدعي منا أن نكثر طرق هذا الموضوع بالأساليب المتنوعة، وأن نطرحه بالطرق المختلفة وأن نبدأ فيه ونعيد، ونشرح ونختصر ونجاهده بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا كل بحسبه، وألا نقصر في مجاهدة ذلك المجاهدة المطلقة، والله سائلنا عن ذلك، والله المستعان، والأمة في أشد الحاجة إلى توضيح خطر ذلك وسد أبوابه وقطع وسائله وتفنيد شبهه، حتى تقوم الحجة، وتبرأ الذمة ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وقد وفق الله العبد الضعيف العاجز أن كتب في التوحيد بعض ما تيسر تقعيدًا ونثرًا ونظمًا وغير ذلك، وقد سنح في البال أن أكتب شيئًا عن هذه الفتنة العظيمة، أعني فتنة القبور، من باب المشاركة في بيان عظم الأمر وفداحة الخطب وعسى الله تعالى أن يمن على عبيده الضعيف الفقير العاجز بإتمامه على أحسن الوجوه، وأن يشرح له الصدور ويرزقه القبول العام والخاص، وأسميته بـ:(تنوير الصدور في التحذير من فتنة القبور) فالله أسأل أن يعصمني وإخواني والمسلمين جميعًا من هذه الفتنة الدهماء والخطر العظيم، وأن يوفقنا

وإخواننا للاعتقاد الصحيح ولقبوله واعتماده وأن يعيذنا من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن وأن يجعلنا دعاة لدينه وناصرين له باطنًا وظاهرًا والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فإلى المقصود وبالله التوفيق ومنه أستمد الفضل وحسن التحقيق.

قاعدة: {الأصل في العبادات الحظر والتوقيف}

أقول:- إن الله تعالى لما خلق العقول جعل لها حدودًا وطاقاتٍ ولم يجعل في حدودها وطاقاتها إدراك أمور التشريع على وجه التفصيل، فاضطرت البشرية على وجه العموم لإرسال الرسل وإنزال الكتب لتدل عقولهم على ما يجب لخالقهم عليهم من الحقوق، فحاجة البشرية إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم بكثير من الحاجة للطعام والشراب بل ومن النفس والهواء، وهي النعمة الكبرى والمنة العظمى، وأخبرنا جل وعلا على لسان رسله أنه لا يمكن أبدًا أن تعرف أمور التعبد على وجه التفصيل إلا عن طريقهم، وجعل باب التعبد بابًا مقفولًا ووقفًا على ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولذلك فالعبادة وقف على الدليل الصحيح الصريح، فليس باب التعبد بابًا مفتوحًا للشهوات والآراء ومذاهب الرجال وعادات الناس وموروثات أبائهم وأقوامهم والأهواء والاستحسانات النفسية والأحلام والمكاشفات الشيطانية، و المرويات الباطلة و النقولات الواهية الضعيفة التي لا خطام لها و لا زمام، لا، كل ذلك لا يثبت به شيء من أمور التعبد، لأن التعبد موقوف على النص من الكتاب أو السنة أو ما تفرع عنهما من الإجماع الثابت والقياس الصحيح المستوفي لشروطه وأركانه، فليس لأحد أن يعبد الله بما يشتهي ويروق له ويتوافق مع هواه، فإن هذا هو طريق المغضوب عليهم والضالين ونحن أمة الصراط المستقيم صراط

الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وبناءً عليه فمن اعتقد في قولٍ من الأقوال أو فعلٍ من الأفعال بأنه عبادة، فإن قوله هذا موقوف على أن يأتينا بدليل صحيح صريح، فإن جاءنا به فأهلًا وسهلًا وإن لم يأت بشيء فقوله هذا رد عليه، وأصل هذه القاعدة قوله ﷺ (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)"متفق عليه من حدث عائشة رضي الله عنها" ولمسلم (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) والويل ثم الويل لمن ابتغى في الإسلام سنة الجاهلية، قال عليه الصلاة والسلام (أبغض الناس إلى الله ثلاثة:- ملحد في الحرم ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ومطلب دم امرئٍ بغير حق ليهريق دمه)"رواه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما" ولذلك فإنك تجد أن كل البدع المنتشرة في العالم العربي والإسلامي إنما هو خرق لهذه القاعدة العظيمة التي انعقد إجماع أهل العلم رحمهم الله تعالى على صحتها، فالعبادات طريقها الشرع وهي وقف على الدليل، وما يفعله أهل القبور عند قبور من يعظمونهم من الأولياء والصالحين وغيرهم إنما هو تعبد لا دليل عليه، والتعبد بما لا دليل عليه بدعة وكل بدعة في الدين ضلالة قال عليه الصلاة والسلام (وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) فهذا الأصل هو المنطلق الذي نرد به على جميع أهل البدع والأهواء الذين يخترعون في الشريعة أقوالًا وأفعالًا لا دليل عليها، فيقال لهم:- {قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} فكل تعبد لا يؤخذ من قبل الشارع فهو ضلال ورد على صاحبه كائنًا من كان ولولا هذا الأصل المتقرر لقال في الشريعة من شاء ما شاء فباب التعبد وقف على الشارع، فلا يجوز اعتقاد جواز التعبد بشيء من الأقوال والأفعال ما لم يأت الدليل الشرعي الصحيح الصريح بإثباتها، فما أثبته الشرع من العبادات فهو العبادة، وما

لا فلا، فضلًا عن معارضة الشارع في أمره، فإن ما يفعله أهل القبور عند أصحاب القبور ليس أمرًا سكت عنه الشارع بل هو أمر حرمه الشارع أشد التحريم ومنعه غاية المنع بالأدلة الصحيحة الصريحة كما سيأتي إن شاء الله تعالى، بل تحريمه من جملة مقاصد الشريعة التي نزلت لتقريره وسد أبوابه وقطع وسائله وطرقه المفضية إليه كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، فالأصل في العبادات المنع إلا ما قام الدليل على جواز التعبد به فدونك هذا الأصل اشدد به يديك واعضض عليه بالنواجذ، فإنه ركن ثابت وأصل راسخ، وما حاد وزاغ عنه إلا ضال مبتدع صاحب شهوة وهوى ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا﴾ فإن جادلوا بالباطل وردوا هذا الأصل فقل لهم ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقل لهم ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بالعباد﴾ وقل لهم ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ وقل لهم ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ و قل لهم ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وقل لهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيامن عكفتم على القبور باكين سائلين داعين مستغيثين أصحابها من دون الله تعالى النجاة النجاة فأنا النذير العريان أنقذوا أنفسكم من هذا الضلال فإنكم رجوتم من لا يملك مثقال ذرة وما يملك من قطمير وتركتم ربكم الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، الذي له ملك السموات والأرض وما له منهم من ظهير، الذي له كل شيء وإليه المصير، أقبلتم على دعاء من لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنكم شيئًا وإذا حشر الناس

كان لكم عدوًا لدودًا يتبرأ منكم ومن عبادتكم وتركتم الرؤوف الرحيم الغفور الكريم السميع البصير، الذي خلقكم فسواكم وصوركم في أحسن الصور وأنعم عليكم بالنعم العظيمة والخير الكثير، توبوا إلى الله تعالى فإنه التواب، وأقبلوا عليه بتصحيح الأعمال ومتابعة نبيه ﷺ قبل الفوات وغرغرة الروح وبلوغها الحلقوم وسد الأبواب، حين تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت من الساخرين، قبل أن تقولوا {رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ} فيقال لكم {كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} فوالله ثم والله إن ما تجهدون أنفسكم فيه لباطل وغرور وشرك وشرور ومفضٍ إلى غضب العلي العظيم، فأين بالله عليكم عقولكم إذ أنتم عاكفون على هذا التراب وتعفرون به وجوهكم والنحور، أنسيتم يوم الحشر والنشور، يوم يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور، فالبدار البدار إلى التوبة الصادقة، وتجديد التوحيد بشهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والله إني عليكم لمشفق ولكم ناصح فإن ما أنتم عليه بدعة منكرة وكبيرة موبقة وشرك صراح والله أسأل أن يهديكم هداية التوفيق والإلهام ويأخذ بنواصيكم إلى الصراط المستقيم والمنهج القويم إنه على كل شيء قدير والمقصود أن تعلموا أن باب التعبد باب توقيفي على الدليل الصحيح الصريح من الكتاب والسنة وليس للأهواء وموروثات الآباء والأجداد فيه مدخل ولا تغتروا بكثرة الهالكين وإنما العبرة في الناجين كيف نجوا، والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وهو أعلى وأعلم.

قاعدة: {كل إحداث في الدين فهو رد}

أي مردود على صاحبه والمراد بالإحداث أي اختراع أمرٍ قولي أو فعلي

ليس عليه دليل صحيح فإنه رد على صاحبه أي غير مقبول البتة، وصاحبه مأزور لا مأجور ولا يقبل الله من الأعمال إلا ما كان خالصًا صوابًا، خالصًا:- أي ليس لأحد فيه حظ ولا نصيب، بل نيته وقف على الله جل وعلا، والصواب هو ما وافق السنة بأن يكون موافقًا لما جاء به النبي ﷺ قال تعالى {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} وقال تعالى {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} قال الفضيل ابن عياض رحمه الله تعالى (أي أخلصه وأصوبه، فقيل يا أبا علي:- ما أخلصه وأصوبه؟ فقال:- إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا والخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة) أو كما قال رحمه الله تعالى. وعلى ذلك انعقد إجماع أهل الحق، وقال تعالى {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} فهو القدوة لنا في أقواله وأفعاله وتقريراته وتركه، ونعم القدوة بأبي هو وأمي ولا يؤخذ التشريع إلا من طريقه، فكل تعبد ليس عليه أمره فهو بدعة وضلالة، قال عليه الصلاة والسلام (من أحدث في أمرنا هذا ما لس منه فهو رد)"متفق عليه" ولمسلم (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) فبالله عليكم هل كان ﷺ أو أحد من أصحابه يعكف عند القبر داعيًا للمقبور ومتقربًا له بأنواع القرابين والنذور والطواف والركوع والسجود؟ لا والله الذي لا إله إلا هو، إذًا فمن أين أتيتم بهذه الأفعال التي تعتقدون أنها من أجل الطاعات وأعظم القربات؟ من أين بالله عليكم عرفتم طريقها؟ هل كانت من الشريعة فخفيت على محمدٍ ﷺ وكشفت لكم أنتم؟ هل كانت من الشريعة فكتمها ﷺ عن أصحابه حتى مات وأوحي بها لكم أنتم فقط؟ أم أنكم أحرص على فعل الخير من رسول الله ﷺ وأصحابه؟

كل هذه الأسئلة لازمة لكم ولكنها {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ} ولا أظنكم تجيبون بواحد منها لأن الإجابة بواحدٍ منها كفر مخرج عن الملة وهذا يدل دلالة صريحة أنكم تفعلون هذه الأشياء عند أصحاب القبور بمحض الشهوة والاستحسان وموافقةً لموروثات الآباء والأجداد وعادات القوم، وقد قدمنا أن هذه الأشياء لا مدخل في إثبات الأحكام الشرعية، بل هي محدثات في الدين وقد تقرر في القواعد أن كل إحداث في الدين فهو رد على صاحبه فأنتم يصدق عليكم قوله تعالى {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً} ويصدق عليكم قوله تعالى {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} وهذه هي الخسارة والندامة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اعلموا – عافاكم الله من هذا البلاء – أنه لا حجة لكم فيما تفعلون ولا دليل على صنيعكم الذي تصنعون، بل أنتم مخالفون للمنهج الرباني والصراط المستقيم، فقد تخطفتكم السبل وتفرقت بكم الأهواء واجتالتكم الشياطين فتلوثت الفطرة وانتكست الأفهام، فحسن عندكم المنكر، وقبح في عينكم المعروف فصار الشرك توحيدًا والتوحيد شركًا والبدعة سنة والسنة بدعة، والباطل حقًا والحق باطلًا، وتركتم شريعة الله وراءكم ظهريًا وأقبلتم على شهواتكم وأهوائكم تحكيمًا واعتمادًا، فإذا لم يتداركم الله برحمته فالنار النار وبئس القرار فوالله ثم والله إن أحدًا لا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا ولن يغني عنكم يوم القيامة قبر ولا صالح ولا إنس ولا جن ولا ملك ولا صغير ولا كبير كما قال تعالى {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} وقال تعالى {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} وقال تعالى {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} فلا نجاة من هذا الضلال ولا خلاص من هذه العقوبة إلا بالتوبة الصادقة النصوح المستجمعة لشروطها، فاستغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعًا حسنًا إلى أجلٍ مسمى ويؤت كل ذي فضلٍ فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يومٍ كبير إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير، واستعيذوا بالله تعالى من القلوب الغلف المطبوع عليها التي لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا إلا ما تشربته من شهوتها وهواها فإن الخلق إلى الله راجعون وللحساب معروضون وللصحف آخذون وبالميزان موزونون وعلى الصراط سائرون، فإما إلى جنة الله فضلًا وإما إلى ناره عدلًا نعوذ بالله من ناره {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} فبادروا بالتوبة في زمن المهلة والإمكان قبل تصرم الآجال وفوات الأعمار وتحقق الخسران، فإن بابها مفتوح وليس بين العبد وبينها إلا أن يقلع عن الذنب ويندم على ما فات ويعزم على عدم العودة إليه ويجتهد في عمل الصالحات فيما هو آتٍ، ولا تقولوا كما قالت بنو إسرائيل لهارون عليه الصلاة والسلام {لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى} فإنه قول من عاند الحق بعد بيانه، وكابر البرهان بعد اتضاحه، ولكن قولوا كما قال عباد الله الصالحون {وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} فوا خيبة من يرجو قبراً ويا خسارة من يستغيث بمن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئًا قد ارتفعت عند ذلك القبر الأصوات وعلا في ساحته أنين الزفرات، واتجهت إليه الأيدي سائلة خاضعة في حال كونها قد أعرضت عن رب الأرض والسموات وألقيت في فنائه القصائد الكفريات، تصفه بأعظم الصفات مما لا يليق إلا برب العرش رفيع الدرجات، فاستحكمت عند هذا القبر غفلتهم،

وانطفأت في فنائه أنوار التوحيد من بواطنهم، وعشعشت الشياطين وبيضت وفرخت في عقولهم وقلوبهم فأخرجت لهم الشرك الصراح في صورة تعظيم الأولياء وإنزالهم منازلهم، وزخرفت لهم القول، وزين لهم سوء أعمالهم {وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} {وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا} فلا إله إلا الله، ما أشد غربة التوحيد في ديارهم، وما أعظم حيرة المصلحين بين هؤلاء الأوباش، فأسأله جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا الهداية للجميع وأن يثبت الدعاة المصلحين ويعينهم الإعانة المطلقة على مكافحة هذه الأدواء الردية والفتن المضلة آمين والله أعلم.

قاعدتان نافعتان جداً في هذا الباب:

أقول:- اعلم رحمك الله تعالى أن أهل البدع العملية على مختلف أشكالها وتباين صورها يستدلون على بدعهم بصنفين من الأدلة، وذلك لأن صاحب البدعة لابد أن يضفي على بدعته شيئًا من الهيلمان والإثبات، وغالبًا ما يستدلون على بدعهم بأحد أمرين:-

الأول:- أن يستدلوا على إثبات بدعهم بالمرويات الضعيفة التي لا تقوم بمثلها الحجة أو النقولات الباطلة الموضوعة المختلقة المصنوعة التي لا خطام لها ولا زمام مما لا أصل له وهذا تراهم فيه كثيرًا، وهذا الباب يغلقه قاعدة أصولية نافعة جدًا تقول:- (الأحكام الشرعية تفتقر في ثبوتها للأدلة الصحيحة الصريحة) وقد شرحت هذه القاعدة في كتابي تحرير القواعد ومجمع الفرائد، والمراد بالأحكام الشرعية ما هو معروف عند الأصوليين بالوجوب والتحريم والندب والكراهة والإباحة، وبناءً عليه فأقول:- من ادعى وجوب شيء من الأقوال أو الأفعال فإنه يقال له:- أنت تريد الآن أن تثبت حكمًا شرعيًا

والحكم الشرعي يفتقر في ثبوته للدليل الصحيح الصريح فأين الدليل على هذا الإثبات؟ ومن ادعى استحباب شيءٍ من الأقوال أو الأفعال فيقال له:- أنت تريد أن تثبت لنا استحباب هذا الشيء والاستحباب حكم شرعي والحكم الشرعي يفتقر في ثبوته للدليل الصحيح الصريح فأين الدليل على هذا الإثبات؟ ومثله أيضًا من ادعى تحريم أو كراهة شيء من الأقوال أو الأفعال فيقال له:- أنت تريد أن تثبت لنا أن هذا الشيء محرم أو مكروه والتحريم والكراهة حكمان شرعيان يفتقران في ثبوتهما للأدلة الصحيحة الصريحة، فأين الدليل على هذا الإثبات؟ ذلك لأن الحكم الشرعي إنما طريقه إثبات الشارع له، فإثبات شيء من الأحكام الشرعية وقف على الشارع، فالواجب ما أوجبه الله ورسوله ﷺ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ﷺ، والمندوب ما استحبه الله ورسوله ﷺ والمكروه ما كرهه الله ورسوله ﷺ والمباح ما أباحه الله ورسوله ﷺ فلا حق لأحدٍ أن يتصرف في الشريعة بإثبات شيء من الأحكام الشرعية أو نفي شيء منها إلا وعلى الإثبات والنفي دليل معتمد في سنده صريح في متنه ودلالته، هذا طريق من أراد السلامة في دينه، وما عدا ذلك فليس من الشريعة في شيء، ونحمده جل وعلا على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة، ونسأله جل وعلا مزيدًا من التوفيق والهداية لنا ولسائر إخواننا من أمة الإجابة، وحتى يتضح لك الأمر أكثر أضرب لك بعض الأمثلة هي كالفروع على هذه القاعدة فأقول: منها:- حديث ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ (من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي) وهذا حديث رواه الدارقطني في سننه، فيستدل به أهل البدع على استحباب زيارة قبره ﷺ على وجه الخصوص ويفعلون عند قبره وقبر صاحبيه رضي الله عنهما ما يطول وصفه مع أنه حديث موضوع باطل، قال أبو العباس (لم

يثبت عن النبي ﷺ في زيارة قبرٍ مخصوصٍ ولا روى أحد في ذلك شيئًا لا أهل الصحيح ولا السنن ولا الأئمة المصنفون في المسند كالإمام أحمد وغيره وإنما روى ذلك من جمع الموضوع وغيره وأجلَّ حديث روي في ذلك ما رواه الدارقطني وهو ضعيف باتفاق أهل العلم، بل الأحاديث المروية في زيارة قبره ﷺ مكذوبة موضوعة).اهـ.

فانظر رحمك الله تعالى كيف يبني أهل البدع عقائدهم، نعم يستدل على استحباب زيارته ﷺ وزيارة صاحبيه بعموم الأدلة التي وردت في زيارة المقابر على وجه العموم وإنما القصد أنه لم يثبت في حق زيارة قبره ﷺ على وجه الخصوص شيء يصح الاعتماد عليه، وبناءً عليه فما يفعله أهل القبور من شد الرحل إلى قبره ﷺ بدعة منكرة لا دليل عليها، فإن الشريعة مبناها على الاتباع لا على الابتداع، ومثل ذلك حديث (من حج فلم يزرني فقد جفاني) فإنه كذب موضوع لا يجوز نسبته لمقامه الشريف ﷺ، ومثله أيضًا حديث (من زارني وزار أبي في عامٍ واحد ضمنت له على الله الجنة) وهذا أيضًا كذب موضوع، قبح الله واضعه وعامله بما توعد به الكاذبين على نبيه ﷺ، وبالجملة فكل حديث يروى في زيارة قبره ﷺ على وجه الخصوص فإنه لا يصح وإن غضب من غضب وزمجر من زمجر، فإن الأحكام الشرعية تفتقر في ثبوتها للأدلة الصحيحة الصريحة والله أعلم.

ومن الأمثلة أيضًا:- المرويات والنقول المذكورة في كتب الشيعة عن آل البيت رضي الله عنهم وهم منها برآء، فإن الشيعة الرافضة تبني على هذه المرويات والأباطيل عقائدها وكل هذه العقائد زيف وباطل ورد على أصحابها لأنها لم تبن على برهان صحيح ولا حجة مقبولة، بل لم تبن إلا على الأكاذيب

والسخافات السمجة التي تنفر منها البهائم فضلًا عن غيرها من أهل العقول، والأحكام الشرعية والعقائد القلبية إنما مناطها النص الصحيح الصريح، وأما النقول الكاذبة والمرويات الباطلة فحقها أسافل البالوعات بعد تجريدها من أسماء الله تعالى، والله المستعان.

ومن الأمثلة أيضًا:- القبور التي بنيت في بعض البقاع وصرف لها كثير من التعبدات ومرد ذلك إلى منام رآه أحد هؤلاء وأن في هذه البقعة ولي أو نبي فأصبح وأخبر أهل الحماقة والغفلة، فتعاونوا وبنوا في هذه البقعة ضريحًا وجعلوه مشهدًا ومزارًا تتوافد عليه الجموع من مختلف البلاد طالبة منه تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وجلب الخيرات ودفع المضرات، وأضفي على هذا القبر القصص الكاذبة والأخبار المفتعلة الواهية ليصدق زواره هذه الخرافة فينفقوا عنده الأموال ويتقربوا لصاحبه بأنواع القربات والنذور، كل ذلك لأجل حلم شيطاني رآه بعض هؤلاء الدجاجلة، وهذا ليس من الإسلام في شيء، فإن الأحلام والمكاشفات والمنامات لا يثبت بها شيء من الأحكام الشرعيات، لأن الحكم الشرعي وقف على الشارع وهو مفتقر في ثبوته للأدلة الصحيحة الصريحة والله أعلم.

وبذلك تكون قد سددت بابًا عظيمًا من أبواب البدعة، وهو النقولات الكاذبة والمرويات المختلقة والأخبار الضعيفة الواهية، فاحفظ هذه القاعدة المهمة في هذا الباب فإنها برد اليقين، واعتمدها علامة التوفيق، أسأله جل وعلا أن يجعلني وإياك من الموفقين المقبولين والله أعلم.

الثاني:- أي الصنف الثاني مما يستدل به أهل البدع على تسويغ بدعهم، أن يعمدوا إلى الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة، ويدخلوا فيها صفاتٍ جديدة

لا دليل عليها من الأقوال أو الأفعال أو التقييد بزمانٍ أو مكان، وهذا يكثر فيهم جدًا، فإذا طلبت منهم دليلًا على شرعية ذلك بادروا لك بالأدلة الصحيحة التي تثبت الأصل، وهذا الباب تسده قاعدة أصولية عظيمة جدًا لها فائدتها الكبيرة المهمة، ونصها يقول:- (شرعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف) وقد شرحتها في كتابي تحرير القواعد ومجمع الفرائد وبيانها أن يقال:- إن الأصل في العبادات الإطلاق عن الصفة والزمان والمكان والمقدار فمن قيد عبادة بصفة معينة، فإن قيده هذا شيء زائد على مجرد الأصل فلابد أن يأتي على هذا القيد بدليلٍ صحيح صريح، ولاحق له أن يستدل على شرعية هذه الصفة بالدليل الذي يثبت أصل العبادة لأن دليل الأصل للأصل والوصف شيء زائد، ونحن نطلب دليلًا على هذا القدر الزائد لأن الأصل الإطلاق والأصل بقاء المطلق على إطلاقه ولا يقيد بشيء من المقيدات إلا بدليل، فأين الدليل المثبت لشرعية هذه الصفة، فلابد أن تفرق بين أصل الشيء وبين القدر الزائد عليه وشرعية الأصل لا يلزم منها شرعية هذا الوصف فقل له:- أنا أسلم لك أصل العبادة وأنا لا أطالبك بالدليل المثبت للأصل وإنما أطلب منك الدليل الدال على جواز إيقاع هذه العبادة على هذه الصفة المعينة، لأنك تربط هذه العبادة بشيء زائد فأين البرهان على هذا الربط؟ ومن قيد عبادة بزمانٍ أو مكان أو مقدارٍ معين يعتقد أنه مشروع فقل له:- إن الأصل إطلاق العبادة عن هذا الزمان والمكان والمقدار فتقييدها بزمانٍ معين أو مكانٍ معين أو مقدارٍ معين شيء زائد على الأصل فأين الدليل على شرعية هذا القدر الزائد على الأصل؟ وإذا استدل لك بالدليل المثبت لأصل العبادة فقل له:- إن الدليل الذي ذكرته إنما يثبت أصل العبادة وأنا لا أطلب منك الدليل المثبت لأصلها، لأنه لا خلاف بيني وبينك في

مشروعية الأصل وإنما الخلاف بيني وبينك إنما هو في هذا القدر الزائد على الأصل، فأين دليله؟ ولاحق لك أن تستدل على ذلك بدليل الأصل لأن دليل الأصل للأصل ويبقى القيد الزائد عن الأصل مفتقر لدليل آخر، لأن شرعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف فليس لأحدٍ أن يقيد العبادات المطلقة بصفات معينة أو أزمنة معينة أو أمكنة معينة لا دليل عليها لأن ذلك إحداث في الدين وكل إحداثٍ في الدين فهو رد، فالشرع مبناه على الاتباع لا على الابتداع ومبناه على التوقيف والاقتداء والاقتضاء لا على الشهوات والاستحسانات والأهواء ولأهمية هذه القاعدة سأضرب لك فروعًا كثيرة عليها توضح لك كيف التعامل مع هذا الصنف من الشبه والله المستعان: فمنها:- الاحتفال بمولد النبي ﷺ، لاشك ولا ريب أن المحتفلين بذلك يجعلونه من أجل القربات وأعظم الطاعات، بل ويغمزون على من ينكر عليهم ذلك بأنه وهابي لا يحب الرسول ﷺ ولا يعرف له مقامه الشريف ومناره المنيف، فإذا سألتهم عن دليل ذلك فإنهم يبادرون لك بأن ذلك من التعبير عن حبه ﷺ ويروون لك النقول من الكتاب والسنة الآمرة بحبه والمقررة لوجوب تقديم حبه على محبة كل أحد من الخلق، فأنت تراهم هنا يستدلون على إثبات فعلهم هذا بأدلة صحيحة من الكتاب والسنة، فقل لهم:- نعم إن محبته ﷺ فرض عين على كل أحد، بل إن تقديم محبته ﷺ على كل محبة فرض واجب وهو علامة الإيمان فنحن وأنتم نتفق جميعًا على هذا الأصل وهو محبته ﷺ أكثر من محبة الأهل والوالد والولد والناس أجمعين، وأنا لا أطالبكم أصلًا بالأدلة الدالة على وجوب ذلك، وإنما الذي أطالبكم به هو الدليل المثبت لجواز إخراج هذه المحبة على هذه الصفة المعينة، لأن لكم طقوسًا في ذلك الاحتفال، فأنتم تعبرون عن حبه

وتعظيمه ﷺ بالاحتفال بمولده، فأين الدليل على شرعية هذا التعبير؟ ولاحق لكم أن تثبتوا ذلك بالأدلة الآمرة بحبه وتعظيمه، لأن ذلك إنما يثبت أصل الحب والتعظيم، ولا تدل على شرعية الاحتفال بمولده لا مطابقة ولا تضمنًا ولا التزامًا، فليس لكل أحدٍ أن يعبر عن حبه وتعظيمه ﷺ بما يشتهي، وبما تهواه نفسه ويستحسنه عقله، بل التعبير عن حبه إنما يكون بصدق الاتباع لا بالابتداع أي بمتابعة شرعه باطنًا وظاهرًا والإيمان بأخباره وامتثال أوامره واجتناب زواجره والذب عن حياض سنته وتحكيم شريعته ونحو ذلك مما ثبت به الدليل، والعجب من هؤلاء الزاعمين لحبه، وهم قد استبدلوا شريعته بالقوانين الوضعية الفرنسية أو البريطانية، أو استبدلوها بالأعراف القبلية، فأين الحب يا أهل الحب؟ بل وترى من يحيفل بذلك قد حلق لحيته وأسبل ثوبه وسراويله وقارف المنكرات وترك الصلوات، وترى المرأة التي تحتفل بمولده قد لبست كامل زينتها وتعطرت وخالطت الرجال سافرة متبرجة مع ما يقال في ذلك الاحتفال من القصائد الكفرية والمراسم الشركية المضادة لما جاء به ﷺ، فأين الحب يا أهل الحب، هل بالله عليكم حبه لا يعبر عنه إلا بإضاءة الأنوار وتوزيع الأطعمة والحلوى والقيام عند ذكر اسمه فنعوذ بالله من هذا الخذلان ووساوس الشيطان ونزغات الأبالسة، ثم يقال لهم أيضًا:- إذا كنتم ترون أن الاحتفال بمولده من أكبر علامات حبه وتعظيمه فبالله عليكم ما رأيكم في الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة وأئمتها هل كانوا يحبونه ويعظمونه أم لا؟ أم أنكم ترون أنفسكم أعظم له حبًا وأشد له تعظيمًا منهم؟ لأن الاحتفال بمولده لم يعرف عن أحدٍ منهم لا من قريبٍ ولا بعيد، أم أن الصحابة والسلف والأئمة أيضًا وهابيون لا يعرفون قدره ولا يعظمون أمره؟ ويذكرني ذلك بما حدثني به

بعض الأحبة بأنه في بعض الدول في شرق آسيا ناظر بعض الحنفية المتعصبين لمذهبه التعصب القاتل، فقال ذلك الحنفي المتعصب لصاحبنا:- يكفي في تشريف مذهب الإمام أبي حنيفة أن إبراهيم كان على مذهب الحنفية، يقصد إبراهيم النبي ﷺ، فانظر إلى هذا الهراء والتخريف الذي يضحك منه العقلاء، بل والأغبياء ويقال لهم أيضًا:- هل جواز الاحتفال بمولده شيء أمر به ﷺ بقوله؟ فسيقولون لا فيقال لهم أيضًا:- هل هو شيء فعله هو بنفسه؟ فسيقولون لا، فيقال لهم أيضًا:- هل هو شيء فعله أحد في عهده وأقره هو عليه؟ فسيقولون لا، فقل لهم:- فشيء لم يثبت عنه بقوله ولا بفعله ولا بإقراره، فمن أين نأخذ أنه مشروع وأنه قربة؟ أي أنكم الآن في حال احتفالكم بمولده تفعلون شيئًا ليس بثابتٍ لا بقوله ولا بفعله ولا بإقراره، فتفعلون شيئًا ليس عليه أثارة من علمٍ، والتعبد لله بما ليس عليه أثارة من علمٍ هو البدعة، ويقال لهم أيضًا:- هل كان النبي ﷺ قادرًا على أن يحتفل بمولده لو كان مشروعًا؟ الجواب:- نعم، لأنه عاش بعد مولده ثلاثًا وستين سنة، وعاش بعد النبوة ثلاثًا وعشرين سنة وقد فتح الله عليه الفتوح وكثرت الأموال، فيكون الاحتفال بمولده من الأفعال التي توفرت أسبابها على عهده ﷺ ومع ذلك لم يفعلها كما هو معروف، وقد تقرر في القواعد أن كل فعلٍ توفر سببه على عهد النبي ﷺ ولم يفعله فالمشروع تركه، إذ لو كان مشروعًا لفعله ولو مرةً واحدة لأن بيان الشرع واجب عليه فلما لم يفعله ولا مرة واحدة علمنا قطعًا أنه ليس من شريعته لأن تركه يؤخذ منه تشريع كما أن فعله يؤخذ منه تشريع، ويقال لهم أيضًا:- هل بلغ النبي ﷺ الشريعة بكمالها أم بقي شيء لم يبلغه؟ لاشك أنهم سيقولون:- بل بلغها كاملة فيقال لهم:- وهل الاحتفال بمولده من شريعته؟ أم ليس من شريعته؟ فهم بذلك دائرون بين

جوابين لا ثالث لهما، إن قالوا:- هو من شريعته، فنقول وأين الدليل على ذلك لأن الشرع الذي بلغه كله قد نقل إلينا ولم يخف منه شيء فأين الدليل على ما تزعمون فوالله ثم والله لو بحثوا في مشارق الأرض ومغاربها ومعاليها وأسافلها فإنهم لن يجدوا نصًا صريحًا صحيحًا على قولهم:- إن الاحتفال بمولده من شريعته وأما إن قالوا إنه ليس من شريعته فلا أظنك تجهل ما تقوله لهم عند ذلك، ويقال لهم أيضًا:- ماذا تعتقدون في قوله تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا}؟ فسيقولون بلاشك:- هذه الآية دليل على أن الله تعالى قد تفضل على هذه الأمة بإكمال دينها في عقائده وشرائعه وأوائله وأواخره، وبناءً عليه فقل لهم:- وهذه الآية نزلت على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة فأي شيء من الأقوال أو الأفعال ليس من دينه ولا من شريعته يومئذٍ لا يتصور أبدًا أن يكون في شريعته إذ كيف يكون من شريعته بلا تشريع، وحينئذٍ فالاحتفال بمولده من شريعته بلاشك، لأنه يلزم من ذلك تكذيب مدلول هذه الآية إذ كيف يقول الله تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} وهؤلاء يقولون بلسان حالهم:- بل بقي في الشريعة شيء وهو الاحتفال بمولده ﷺ وهذه مضادة ومعارضة للشرع في أخباره، وهذا إلزام لا خلاص منه لأنهم إن قالوا:- هو من شريعته فيقال لهم {قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} وإن قالوا ليس من شريعته فيقال لهم:- فأنتم إذًا تكذبون بلسان حالكم مدلول هذه الآية فانظر كيف تجر البدع أصحابها إلى مثل هذه المزالق الوخيمة والحفر العميقة التي لا مخرج لهم منها إلا بالرجوع عنها واعتقاد بدعتها، فإن قالوا:- إن الاحتفال بالمولد النبوي صار من أعراف بلادنا فيقال لهم:- ما شاء الله وما هذا الفقه والاستدلال العجيب فبالله عليكم متى كانت

أعراف البلاد المخالفة للشريعة مصدرًا من مصادر سياق العقائد والتعبدات، فنعوذ بالله من زلل اللسان والبنان، فإن قالوا:- هذا شيء أدركنا عليه آباءنا وأجدادنا، فيقال لهم:- قلتم والذي نفسي بيده كما قال كفار قريش {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} وهذه حجة شيطانية ومدخل إبليسي لأن الشرائع والعقائد ليس مردها موروثات الآباء والأجداد وعادات القبائل وأعراف العشائر، بل هي وقف على ورود الدليل من الكتاب أو صحيح السنة فإن قالوا:- إن الشيخ الفلاني والعالم الفلاني يحضر هذه الاحتفالات، فيقال لهم:- ليس فعل أحدٍ كائنًا من كان ولو بلغ في علمه ما بلغ بحجة على تقرير شيء من الشرائع، فإن أقوال العلماء وأفعالهم يطلب الاستدلال لها، لا أنه يستدل بها، فالحجة إنما هي فيما ورد به الدليل لا فيما فعله فلان وفلان، فالدليل هو المقدم على كل شيء فهو الأصل وما سواه ففرع، وهو الميزان وما سواه فموزون، لأننا متعبدون باتباع النبي ﷺ لا باتباع أحدٍ من الناس ويوم القيامة سيقال لنا {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} لا ماذا أجبتم فلانًا وفلانًا والأمر أوضح من أن نطيل فيه، ففي الحقيقة لا حجة لأهل البدع على بدعتهم هذه، فإنهم لا يأتون بشيء من الشبه التي يسمونها حججًا، إلا وهي عليهم لا لهم، وآسف على هذا الاستطراد فإنه لم يكن بالبال، ولكن اقتضاه الحال والله يعفو عنا وعنك والمقصود:-أنهم إن قالوا:- نحن نحتفل بمولده حبًا له وتعظيمًا فقل لهم:- أما حبه وتعظيمه فلا نقاش لنا فيه لكن شرعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف، فهذا هو المثال الأول.

ومنها:- إن الذين يفعلون عند قبور الأولياء والصالحين ما يفعلونه من

الشرك والوثنية من التقريب لها والنذر لها والطواف بها والركوع والسجود عندها وغير ذلك من الأمور المنكرة والشركيات الواضحة، إذا سألت هؤلاء عن دليل هذه الأفعال فإنهم سيبادرون بقولهم:- ألم تسمع قول الله تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} فأولياء الله تعالى لهم عند الله تعالى المنزلة العظيمة والمرتبة السامية الرفيعة وقد نفى الله عنهم الخوف والحزن فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هذا ما نسمعه منهم دائمًا إذا طالبناهم بدليل على ما يفعلونه عند قبورهم فيقال لهم:- نعم لاشك أن هذه الآية تثبت إثباتًا قطعيًا لا نقاش فيه أن أولياء الله الذين هم أولياؤه على الحقيقة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ونحن نعتقد الاعتقاد الجازم ونؤمن الإيمان القطعي أن أولياء الله تعالى على الحقيقة هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} فكل مؤمن تقي فهو ولي لله تعالى ونعتقد أيضًا أن الولاية تتفاوت في درجاتها ومراتبها بحسب تفاوت ما في القلب من الإيمان والتقوى، فأعظمنا ولايةً أعظمنا إيمانًا وتقوى، كل ذلك لا نقاش فيه لأنه قد فصل بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة لكن هذه الآية التي ذكرتموها إنما تثبت الولاية للمؤمنين المتقين وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لكن بالله عليكم أين وجه الاستدلال بهذه الآية على ما تفعلونه عند قبورهم من هذه الأمور، فإننا قد درسنا أوجه استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة النقلية فلم نجد طريقًا نستطيع به استنباط شرعية ما تفعلونه، فإن هذه الآية الكريمة لا تدل على مرادكم لا مطابقةً ولا تضمنًا ولا التزامًا ولا إشارة ولا منطوقًا ولا مفهومًا، والذي يغضبنا هو أن هؤلاء السفلة المتهوكين الوثنيين القبوريين لم يكتفوا بما يفعلونه عند

آلهتهم هذه التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئًا حتى يستدلوا على شركهم بالقرآن وأدلة الشرع التي جاءت أصلًا بإبطال هذا الشرك، أفيستدل على مشروعية الشرك بالقرآن؟ أفيستدل على مشروعية الوثنية وصرف التعبد لغير الله بكلام الله؟ أي عقلٍ هذا؟ وأي دين هذا؟ وأي تلاعب بالأدلة بعد هذا؟ والله إن التوحيد لفي غربة عظيمة لا يعلمها إلا الله، (بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ) فعميت عين لا تعتصر لذلك دمًا، وأفٍّ لقلب لا يلتهب لذلك ألمًا، ومن العجب العجاب الذي لم نكن نظن أنه سيوجد هو أن تكون قضايا الشرك خاضعةً للشهوات والآراء فكل يعتقد في دينه ما يريد، فما عليك والناس، دع الناس ينتهجون أي مذهب يريدون وينتحلون أي نحلة يشتهون، وهذا مما يزيد في الغربة ويضاعف المصيبة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ونستغفر الله تعالى ونتوب إليه ونسأله باسمه الأعظم الهداية والتوفيق والثبات إلى الممات والمقصود:- أن هؤلاء الأغبياء يستدلون بهذه الآية على شركهم هذا الذي يفعلونه عند قبور من يعظمونه من الأولياء والصالحين، فيقال لهم:- إن الأصل وهو احترام الأولياء وإنزالهم منزلتهم التي أنزلهم الله إياها متفق عليه لا إشكال فيه ولا نطلب له دليلًا، وإنما نحن نطالب بالدليل المثبت لإخراج هذه المحبة للأولياء على هذا الوصف المخصوص الذي تعتقدون أنه من العبادات، فإنكم والله ثم والله لو سرتم في مشارق الأرض ومغاربها لن تجدوا شيئًا يصحح ذلك بل لن تجدوا إلا عساكر الأدلة من الكتاب والسنة تصفع في وجوهكم وتصرخ بكم زاجرة عن هذه الشركيات ولا حق لكم أن تستدلوا بالآية على إثبات هذه الأشياء لأنها إنما تثبت اعتقاد أصل الولاية، ودليل الأصل للأصل ويبقى الوصف شيئًا زائدًا عن الأصل يتطلب دليلًا آخر وشرعية الأصل لا

تستلزم شرعية الوصف، وإني أناشدكم الله الذي لا إله إلا هو، هل هذه الآية تدل على الذبح عند القبور بوجه؟ هل هذه الآية تدل على صرف الدعاء لأصحاب القبور في تفريج الكربات وكشف المدلهمات؟ هل هذه الآية تدل على الطواف بالقبور والركوع والسجود لها؟ أين هذه الآية من هذه الأشياء؟ فأصحاب القبور إنما أتوا من عدم التفريق بين الأصل والوصف، فالأصل شيء، والوصف شيء فانتبه لهذا واحمد الله على السلامة والهداية فإنها لا يعدلها شيء وهذا يفيدك عظمة هذه القاعدة، وأنها محك خطير ومفترق لابد من فهمه، ولأهميتها سأزيد الفروع عليها حتى تتضح أكثر فأقول:-

المثال الثالث:- الذكر الجماعي الذي عمت به البلوى في الأوطان العربية والإسلامية ولم تسلم منه إلا بلاد قليلة، فإنك إذا سألتهم عن دليل ذلك فإنهم يقولون:- قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} وقال تعالى {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} وقال عليه الصلاة والسلام (لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله تعالى) وغير ذلك من الأدلة فإذا قالوا ذلك فقل لهم:- إن ما ذكرتموه من الأدلة إنما يدل على إثبات أصل الذكر وشرعيته واستحباب الإكثار منه، وهذا لا أناقش فيه ولا أطلب دليلًا عليه، لكنكم توقعون هذا الذكر في أوقات معلومة وبأصواتٍ واحدة متفقة وأزمنة مرسومة ونغمات معلومة، فأين الدليل على هذه الصفة؟ أي أين الدليل الدال على شرعية إيقاع الذكر على هذه الصفة؟ فإني إنما أطلب الدليل على الصفة لا على الأصل، فإن دليل الأصل للأصل ويبقى الوصف شيئًا زائدًا يحتاج إلى دليل زائد، ولا حق لك أن تستدل عليه بالدليل الذي يثبت الأصل لأن دليل الأصل للأصل وشرعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف، فأنت إذا قلت ذلك سقط في يديه ولا يستطيع جوابًا إلا

بالتكلفات الباردة والتحريفات الفاسدة وسيأتي لها ما يكشفها إن شاء الله تعالى، فالذكر الجماعي إذا كان أصله مشروعًا فإننا نمنع وصفه، والعبادة قد تكون مشروعة بأصلها ولكنها ممنوعة بوصفها والله أعلم.

المثال الرابع:- قراءة الفاتحة على روح الميت، فإن من المشتهر عند كثير من المسلمين إذا مرَّ اسم الميت فإن أحد الحضور يطلب قراءة الفاتحة على روحه، أو هم يفعلون ذلك ابتداءً ويحتجون على ذلك بالفضائل الكثيرة التي وردت لسورة الفاتحة فإذا قالوا ذلك فقل لهم:- نعم هذا – أعني فضل سورة الفاتحة – لاشك فيه ولا ريب ونحن نعتقد أنها أفضل سور القرآن ونؤمن إيمانًا قطعيًا بما صح لهذه السورة العظيمة من الفضائل وهذا لا ننكره البتة ولا نناقش فيه وليس الخلاف بيننا وبينكم في فضل هذه السورة ولا علو منزلتها، فإن هذا متفق عليه بيننا وبينكم، ولكن الذي يطلب له الدليل هو الدليل الذي يجيز قراءتها على روح الميت، فأين الدليل المفيد شرعية ذلك؟ فإننا لا نعلم دليلًا يدل على جوازه بخصوصه، فإنه أمر لم يفعله النبي ﷺ فقد مات كثير من المسلمين في عهده على حياته ﷺ بل قد مات جميع بنيه الذكور، ومات كل بناته ما عدا فاطمة رضي الله عنهم وأرضاهم، بل قد ماتت زوجته خديجة ومات عمه حمزة ومات ابن عمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عن سائر أصحابه ﷺ، وقد مات نفر كثير من أصحابه في بدر وفي أحد، ومع ذلك لم ينقل عنه ﷺ أنه قرأ على روح أحدهم سورة الفاتحة، لا بنقل صحيح ولا ضعيف ولا موضوع، وليس لهذه المسألة أصل في الشرع، فلو كان ذلك مشروعًا لفعله ﷺ ولو مرة واحدة ليبين للأمة مشروعيته وكذلك صحابته الكرام رضوان الله عليهم لم يفعل ذلك أحد منهم، بل ولا تعرف عن التابعين ولا عن الأئمة في جواز ذلك

كلمة واحدة، فهذه المسألة من محدثات الأمور وقال عليه الصلاة والسلام (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) وقال (وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) وليس الدليل المثبت لفضل الفاتحة يدل على مشروعية قراءتها على روح الأموات عند مرور ذكرهم، لأن مشروعية الأصل لا تستلزم مشروعية الوصف، فلا تغتر بتمويه أهل البدع والضلالات والزم جادة الحق إن كنت تريد النجاة، ولا تغتر بكثرة الهالكين وإنما العبرة في الناجي كيف نجا، والله يحفظنا وإياك.

المثال الخامس:- قراءة القرآن في المقبرة عند القبور، وهذا يقال فيه كالذي قيل في قراءة سورة الفاتحة على روح الأموات، فلاشك أن فضائل القرآن كثيرة لا تعد ولا تحصى لكن فضله شيء وقراءته في المقابر شيء آخر، فالأدلة الدالة على فضله واستحباب الإكثار من قراءته لا تدل على مشروعية قراءته في المقابر لا مطابقة ولا تضمنًا ولا التزامًا، وقد تقرر في القواعد أن كل فعلٍ توفر سببه على عهد النبي ﷺ ولم يفعله فإن المشروع تركه، ومن المعلوم أن المدينة كان فيها مقبرة، والقرآن كان موجودًا وقد كان القوم رضي الله عنهم من أحرص الناس على تقديم ما ينفع موتاهم، ومع ذلك فلم يثبت عنه ﷺ ولا كلمة واحدة في ذلك ولم يحفظ عنه أنه فعل ذلك ولا مرة واحدة مع كثرة زيارته للقبور ﷺ، فتركه هذا يستفاد منه أن المشروع الترك، إذ لو كان مشروعًا لفعله فلما لم يفعله مع توفر أسبابه فهذا دليل على مشروعية تركه ومن المعلوم المتقرر عند عامة العلماء أن التشريع وقف على الشارع، فلا حق لأحدٍ كائنًا من كان أن يعتقد جواز شيء وشرعيته بمجرد أنه متناسب مع شهوته وهواه أو أنه نشأ في بلدة يفعل أهلها ذلك، أو أنه تعود عليه ويعسر عليه تركه، كل ذلك لا مدخل له في التشريع، إذ لو

فتحت هذه الأبواب لفسدت أحوال الناس، فالتشريع لا يؤخذ إلا من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، هذا ما نعتقده بقلوبنا وننطقه بألسنتنا ونعلمه لطلابنا فإذا احتج أحد على جواز قراءة القرآن في المقابر بالأدلة التي تثبت فضل القراءة فقل له إن هذه الأدلة إنما تثبت أصل الفضل وشرعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف فدليل الأصل للأصل ويبقى الوصف شيء زائد عن الأصل يطلب له دليل آخر.

المثال السادس:- توزيع الأطعمة في المقابر فإن هذا الأمر يفعله كثيرٌ من الناس في بعض البلاد التي لا تعتمد على تحكيم شريعة الله بين أفرادها فإذا سألت هؤلاء عن دليل فعلتهم هذا أجابوك مباشرة بالأدلة التي تثبت فضل الصدقة كقوله ﷺ (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية) أو كقوله ﷺ (والصدقة تطفئ غضب الرب) وكقوله ﷺ (كل امرئٍ في ظل صدقته يوم القيامة) وغير ذلك من الأدلة التي تثبت فضل الصدقة فإذا قالوا لك ذلك فقل لهم:- نعم ونحن نؤمن أيضًا بما ذكرتموه من فضل الصدقة وليس النقاش في إثبات فضل الصدقة حتى تذكروا لنا هذه الأدلة وإنما الذي نطلب دليله منكم هو إيقاع هذه الصدقة على هذا الوجه المخصوص فأين الدليل على هذه الصفة بعينها؟ ولا حق لكم أن تثبتوا هذا الوصف بدليل الأصل لأن دليل الأصل إنما يثبت الأصل ويبقى الوصف شيء زائدًا على الأصل ولابد لإثباته من دليل آخر لأن شرعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف فإذا فهمت هذه القاعدة فقد أوتيت خيرًا كثير والله أعلم.

المثال السابع:- رفع الصوت بالتكبير والتهليل خلف الجنائز فإنك إذا سألت من يفعل ذلك هل ترجو ثواب فعلك هذا من الله؟ فسيقول نعم، وهذا فيه

بيان أن هؤلاء يفعلون ذلك الأمر تعبدًا لله وقد تقرر في القواعد أن الأصل في العبادات التوقيف على ثبوت الدليل فأين الدليل الدال على مشروعية هذا الفعل؟ فسيبادرون بقولهم إن الذي نفعله خلف الجنازة إنما هو تكبيرٌ وتهليلٌ وتعظيمٌ للرب جل وعلا فنحن لا نقول شيء غير ذلك فيقال لهم حينئذٍ إن مشروعية أصل التكبير والتهليل لا إشكال فيها وإنما الإشكال هو إيقاع هذا التكبير وهذا التهليل على هذه الصفة المعينة ونحن لمَّا طالبناكم بالدليل فإنما نطالبكم بدليل الوصف لا بدليل الأصل ومن المتقرر في الشريعة أن مشروعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف، فلاحق لكم أن تفعلوا ذلك بمجرد أن أصله مشروع، لأن دليل الأصل إنما يثبت الأصل ويبقى الوصف شيئًا زائدًا يحتاج إلى دليل آخر، وقد كان النبي ﷺ يتبع الجنازة هو وأصحابه ولم ينقل عن أحد منهم أنه كان يفعل شيئًا من ذلك، وهذا يفيد أن هذا الفعل لا أصل له في الشريعة وما لا أصل له فالتعبد به لا يجوز، لأن التعبد مبناه على التوقيف على الدليل الصحيح الصريح، والخلاصة:- أن مشروعية أصل التكبير والتحميد والتهليل لا تدل على مشروعية رفع الصوت به خلف الجنازة لأن مشروعية الأصل لا تستلزم مشروعية الوصف، والله أعلم.

المثال الثامن:- إننا نرى كثيرًا من الحجاج والمعتمرين والمقيمين بمكة يتمسحون بأستار الكعبة ويستلمون الركنين الشاميين ويتمسحون بمقام إبراهيم، بل وبعضهم يغلو في ذلك حتى لا يمر على جدارٍ ولا عامودٍ في البيت الحرام إلا ويضع عليه يده وإذا سألته عن ذلك يقول:- هذه البقاع مباركة فأنا أطلب بركتها، فإذا قال ذلك فقل له:- لقد وقعت في أمرين خطيرين وهما:-

الأول:- أن بركة المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى

ليست بركة ذاتية منتقلة، وإنما هي بركة معنوية لازمة، أي أن بركة هذه البقاع إنما هي في مضاعفة الأجر وحلول الأمن وراحة النفس فيها، لا أن كل حجرٍ أو شجرٍ أو بناءٍ أو عامود فيها مبارك بذاته فهذا لم يقل به أحد فيما أعلم، وهذا الرجل المسكين يظن أن بركة هذه البقعة بركة ذاتية منتقلة أي أن من مسحها فإن البركة تنتقل إلى يده، وهذا خطأ محض وضلال مبين، لأن البركة في هذه الأشياء إنما هي بركة معنوية لازمة فالذي أوجب هذه البدعة إنما هو الخلط بين نوعي البركة، وقد ذكرنا في كتابنا إتحاف أهل الألباب في العقيدة تفصيل نوعي البركة مع ذكر الأمثلة عليها فهذا هو الخطأ الأول.

الخطأ الثاني:- أن النبي ﷺ وصحابته الكرام وسادات الأمة من التابعين وتابعيهم بإحسان لم يثبت عن أحدٍ منهم أنه كان يتمسح بأستار الكعبة أو بمقام إبراهيم، فلو كان ذلك من الشريعة لفعله النبي ﷺ ولو مرة واحدة لأنه يجب عليه بيان الشرع فلما لم يفعله، لا هو ولا أحد من الصحابة دل ذلك على أنه ليس من الشريعة في شيء ولاحق لمن يفعل ذلك أن يستدل بالأدلة المفيدة لحرمة البيت وأنه مبارك لأن هذه الأدلة إنما تفيد عظمته وحرمته وبركته، ونحن لا نناقش في ذلك ومعاذ الله أن ننكر شيئًا من ذلك، لكن هذه الأدلة لا تفيد جواز التمسح بأستار الكعبة ومقام إبراهيم أو بعض أجزاء البيت الحرام فأنتم تعبرون عن تعظيم البيت الحرام بأفعال خاصة وصفات معينة، فأين الدليل على هذه الصفة الخاصة، وشرعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف، والله أعلم.

المثال التاسع:- إن بعض الناس مع الجنازة وقبل الدفن أو بعده يكثر من الصدقة وإطعام الطعام وهذا يفعله بعض أهل البلاد المجاورة، ويستدل على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث:-

صدقة جارية أو علمٍ ينتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له)"رواه مسلم" فيقال لهم:- إن هذه الصدقة في هذا الوقت بعينه تعبدًا لله تعالى مع اعتقاد فضيلتها لا يصلح أن يستدل عليها بهذا الدليل العام، لأن الواجب علينا أن نفهم النصوص على فهم سلف الأمة من الصحابة والتابعين فإنهم قد سمعوا ذلك من النبي ﷺ وقد كانوا يشهدون الجنازة فلم يثبت عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بذلك ولا يرشد إليه، ولا ثبت عن واحدٍ من الصحابة أنه كان يفعل ذلك، وهذا نقوله جزمًا بالاستقراء الكامل للنصوص والآثار مع حرصهم الكامل على نفع موتاهم بسائر أنواع النفع، وبناءً عليه فهذا الفعل بدعة لا أصل له، ولا حق لأحد أن يستدل بالأدلة العامة الآمرة بالصدقة والمرغبة فيها لأن هذه الأدلة إنما تثبت الأصل فقط ودليل الأصل للأصل ويبقى الوصف شيئًا زائدًا يفتقر إلى دليل آخر وشرعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف.

المثال العاشر:- بعض المأمومين يقول عند قول الإمام في الجهرية {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} يقول:-استعنا بالله أو يقول:- لا نستعين إلا بالله، ونحو ذلك ويقول لنا:- إن الاستعانة نوع عبادة يتقرب بها إلى الله جل وعلا، فأنا لم أقل بدعًا من القول فنقول له:- إننا لا نشك طرفة عين أن الاستعانة حق لأنه جل وعلا وأنها عبادة لا يجوز صرفها لغير فيم لا يقدر عليه إلا هو جل وعلا، وإنما الذي نتكلم فيه هو الدليل المثبت لشرعية هذا القول في هذا الوقت بعينه فإن الاستعانة من العبادات المطلقة وقد تقرر أن الأصل هو بقاء المطلق على إطلاقه ولا يقيد إلا بدليل فأين الدليل الدال على شرعية هذا القول في هذا الوقت بعينه، ولا حق لك أن تستدل على ذلك بالأدلة العامة الآمرة بالاستعانة لأن دليل الأصل للأصل، وشرعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف، فلا بد أن

تفرق بين هذين الأمرين، أعني بهما شرعية الشيء من أصله وشرعية بوصف معين من زمانٍ أو مكانٍ أو صفة معينة، فإن من أوتي التفريق بينهما فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

المثال الحادي عشر:- لقد رأيت بعض العمالة الهندية وغيرهم بعد صلاة الفريضة والانتهاء من الأذكار يسجدون سجدة مفردة مجردة، هكذا رأيتهم ويستدلون على ذلك بأن السجود عبادة وأنه مما يقرب العبد لربه جل وعلا وأنه ما سجد عبد لله سجدة إلا رفعه بها درجة وحط عنه بها خطيئة، وأن العبد أقرب ما يكون لربه وهو ساجد، وكل هذا الكلام لا غبار عليه ولا نناقش فيه، لكن أين الدليل الدال على أن من العبادات المشروعة هذه السجدة المفردة بعد الفريضة أو النافلة فإن صاحب الشرع ﷺ الذي قد أمر ببلاغ الشريعة لم يثبت عنه لا من قوله ولا من فعله ولا من إقراره تشريع ذلك، فقد كان يصلي الصلوات الخمس جماعة وخلفه الصحابة رضي الله عنهم وهم حريصون الحرص المطلق على نقل كل أفعاله في الصلاة وقبلها وبعدها، فلم ينقل عنه في دليل واحد لا صحيح ولا ضعيف ولا موضوع أنه كان يفعل ذلك ولا مرة واحدة، فهذه السجدة وإن كان أصلها مشروعًا إلا أنها بهذا الوصف ممنوعة فالنقاش إنما هو في إيقاعها على هذا الوصف المعين، وشرعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف، فهذه السجدة المفردة داخلة تحت قوله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ وداخلة أيضًا تحت قوله ﷺ (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) وداخلة تحت قوله (وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) وهذا واضح إن شاء الله تعالى لمن ألقى السمع وهو شهيد والأمثلة كثيرة جدًا لا تكاد تحصى كثرة، والمقصود:- أن المبتدع إن جاء على بدعته بدليل ضعيف أو

موضوع فقل له:- إن الأحكام الشرعية تفتقر في ثبوتها للأدلة الصحيحة الصريحة وإن جاء على بدعته بدليل صحيح ولكن يخرجه مقيدًا بصفة معينة أو في زمان أو مكان معين يعتقد فيه الفضيلة فقل له:- إن شرعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف، والله أسأل أن يلهمنا رشدنا ويقينا شرور أنفسنا وهو أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قاعدة: {كل فعل توفر سببه على عهد النبي ﷺ ولم يفعله اختيارًا فالمشروع تركه}.

وهذه قاعدة نافعة جدًا للمسلم عمومًا ولطالب العلم على وجه الخصوص وبيانها أن يقال:- إن الله قد بعث نبيه ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وجعله الله تعالى واسطة بيننا وبينه في إبلاغ شريعته والتشريع منه ﷺ يؤخذ من أقواله وأفعاله وإقراره وتروكه، والأصل في أقواله إن كانت أمرًا فالوجوب ما لم يرد قرينة صارفة فيفيد ما أفادته القرينة، وإن كان قوله نهيًا فالأصل فيه التحريم ما لم يرد له قرينة صارفة فيفيد الكراهة، وأما أفعاله فالأصل فيها الاستحباب ما لم تقترن بقول فتفيد ما أفاده القول، فهاهنا أربع قواعد لابد من حفظها وهي:-

أولًا:- الأمر القولي يفيد الوجوب إلا بقرينة صارفة.

ثانيًا:- النهي القولي يفيد التحريم إلا بقرينة صارفة.

ثالثًا:- الفعل المجرد عن القول يفيد الاستحباب.

رابعًا:- الفعل المقرون بالقول يفيد ما أفاده القول.

وأعني بالقاعدة الرابعة أن فعله ﷺ إن كان بيانًا لمجملٍ قولي فإنه يأخذ حكم هذا القول، فإن كان هذا المجمل القولي يفيد الوجوب فالفعل الذي حصل البيان به واجب كذلك، وإن كان هذا المجمل القولي إنما يفيد

الاستحباب فالفعل الذي حصل به البيان يفيد الاستحباب أيضًا، وهذه القواعد الأربع قد شرحناها في كتابنا تحرير القواعد ومجمع الفرائد، فهذا ما يتعلق بقوله وفعله، وأما إقراره فالقاعدة فيه أنه يفيد الجواز ما لم تحفه قرائن ترفعه إلى الاستحباب أو الوجوب، وأما تروكه فالقاعدة فيها ما نحن بصدد شرحه فهذه القاعدة التي نريد شرحها راجعة إلى ما تركه ﷺ، أي أن تركه يستفاد منه تشريع كما أن أفعاله يستفاد منها تشريع وكل ذلك داخل تحت قوله تعالى {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} فهو الأسوة الحسنة لنا في كل شيء سواءً في أقواله أو أفعاله أو تقريراته أو تروكه، فقوله يؤخذ منه تشريع وفعله يؤخذ منه تشريع وإقراره يؤخذ منه تشريع وتركه يؤخذ منه تشريع، ونحن الآن لا نتكلم عن قوله ولا عن فعله ولا عن إقراره وإنما نتكلم عن تركه، ويستفاد من هذه القاعدة عدة أشياء مهمة لابد من فهمها واحدة بعد واحدة:-

الأمر الأول:- أن تركه ﷺ يعد بيانًا كفعله وقوله أي كما أن البيان يحصل بالقول والفعل، فكذلك يحصل البيان أيضًا بالترك، فالنبي ﷺ هو المبين لنا شريعتنا بأقواله وأفعاله وإقرارته وكذلك هو المبين لنا بتروكه، فتروكه ﷺ بيان كما أن قوله وفعله وإقراره بيان، فانتبه لهذا الأمر فإنه مهم جدًا.

الأمر الثاني:- أن تركه ﷺ للشيء وعدم فعله له إن اقترن بنهي قولي فإن تركه هذا يفيد التحريم، وأما إن كان تركًا مجردًا عن القول ولم يكن معللًا فإنه يفيد كراهة الفعل وهذا الأمر يوضح لك حكم الأشياء التي تركها ﷺ فإن كانت مقرونة بالنهي القولي فتركه لها يفيد أنها محرمة وإن كان تركه مجردًا عن النهي ولم يعلله بشيء فإنه يفيد الكراهة.

الأمر الثالث:- أن الأفعال التي لم يتوفر سبب فعلها على عهده ﷺ وفعلها

الصحابة بعده كجمع القرآن الكريم وإنشاء دواوين الجند وفتح الربط والمدارس ونحو ذلك لا يكون فعلها معارضًا لهذه القاعدة، ذلك لأن الحاجة إليها في العهد النبوي لم تكن بداعية إليها، فتركه لها ليس تشريعًا وإنما يقال فيها:- لم تكن الحاجة إليها في العهد النبوي موجودة، لكن لما وجدت الحاجة إليها في عهد من بعده جاز لهم فعلها ولا يحتج عليهم محتج بأنه لم يفعلها النبي ﷺ وهذا واضح.

الأمر الرابع:- أن ما فعله الخلفاء الراشدون مما له تعلق بأمر التعبد لا يدخل تحت هذه القاعدة أيضًا لأن سنتهم ينبغي الأخذ بها لقوله ﷺ (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ) وذلك كالأذان الأول للجمعة فإنه حدث في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهو داخل تحت هذا النص لأنه ثالث الخلفاء الراشدين بإجماع أهل السنة، فضلًا عن كونه قد اتفقت على جوازه كلمة أهل العلم قاطبة، فدليل الأذان الأول للجمعة الإجماع، وقد تقرر في القواعد أن الإجماع حجة شرعية يجب قبولها والمصير إليها، ودليله أيضًا أنه من سنة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو من الخلفاء الراشدين الذين قال فيهم النبي ﷺ (وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي).

الأمر الخامس:- أن هذه القاعدة المباركة تقضي على جميع ما أحدثه أهل الخرافات والبدع على مختلف أشكالها وتنوع صورها وهي مفزع أهل العلم في الرد على كثير من طوائف أهل البدع العملية ولذلك تجدهم في ردهم على أهل البدع يقولون:- هل فعله النبي ﷺ؟ وهذا كثير في أجوبتهم، فهم يستدلون بالترك على عدم الجواز إذ لو كان مشروعًا لفعله مع توفر أسباب فعله فلما لم يفعله مع توفر الأسباب علمنا جزمًا أن المشروع هو الترك. وتتضح عظمة هذه

القاعدة بضرب بعض الأمثلة فأقول:-

المثال الأول:- الطواف على القبور، فإن القبور قد كانت موجودة في عهد النبي ﷺ، فقد كان قريبًا منهم قبور الصالحين والشهداء وقد كان ﷺ يزور المقبرة ويحض على زيارتها ويقول (زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة) ولكن هل كان ﷺ في زيارته يطوف على شيء من القبور؟ بالطبع لا، إذًا فالطواف حول القبور فعل توفر سببه على عهد النبي ﷺ ولم يفعله، فيقال فيه:- فالمشروع تركه، فضلًا عن النواهي الزاجرة عن تعظيم القبور والتي سيأتينا طرفًا منها إن شاء الله تعالى، لكنني أحب قبل الدخول في التفاصيل أن أقعد المسألة وأؤصلها في ذهنك، فيقال لمن يطوف حول القبر، أنت بهذا الفعل تقتدي بمن؟ فإنه شيء لم يفعله الرسول ﷺ ولا أحد من أصحابه ولا أحد من سلف الأمة وأئمتها بل الجميع اتفقوا اتفاقًا قطعيًا يكفر من خالفه أن الطواف حول القبور منكر عظيم وموبقة من موبقات الآثام، فالشريعة مبناها على الاتباع لا على الابتداع، وعلى الاقتفاء لا على الابتداء والله أعلم.

المثال الثاني:- دعاء أصحاب القبور في تفريج الكربات ورفع الدرجات وإغاثة اللهفات وطلب الغوث والمدد منهم، كل ذلك أيضًا لم يفعله النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه ولا أحد من أئمة السلف، فضلًا عن الزواجر الكثيرة الواردة في النصوص الشهيرة التي صارت في الأمة أوضح من شمس النهار ولا ينكرها أو يخالف فيها إلا من طمس الله نور بصيرته وأظلم في قلبه نور التوحيد وعشعش الشرك في صدره وعقله وبيض وفرخ إبليس في روحه وفكره و إلا فهي متواترة في سندها صريحة كل الصراحة في دلالتها ولا تحتاج إلى عناءٍ في فهمها، والله المستعان.

المثال الثالث:- الذبح في المقابر تقربًا وتعبدًا وتعظيمًا لأصحابها فبالله عليك ما مستند هذا الفعل الذي هو من أعظم القربات وأكبر الطاعات، على أي شيء يعتمد هؤلاء؟ ما حجتهم عند الله تعالى إذا سئلوا عن ذلك؟ أولم يسمعوا قوله تعالى {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} ؟ أولم يسمعوا قوله تعالى {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} ؟ أولم يسمعوا قوله ﷺ (لعن الله من ذبح لغير الله)؟ هل كان النبي ﷺ يفعل ذلك أو أحد من أصحابه فعل ذلك أو أحد من أهل العلم فعل ذلك؟ فمن أين أتى هؤلاء بمشروعية ذلك؟ هل عندهم نصوص من القرآن أو السنة علموها وخفيت على الأمة؟ {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا} فشيء لم يفعله رسول الله ﷺ ولا أمر به ولا فعله أحد من سلف الأمة وأئمتها فهل يقال:- إنه من العبادات؟ فما أشد غربة التوحيد وأهله في هذه الأزمنة، وما أعظم مصابهم في كثير من أفراد الأمة، إنها فتنة عمياء وبلية وطامة دهماء، هرم عليها الكبير ونشأ عليها الصغير، وخفي فيها نور التوحيد من القلوب فعادة لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا، بل صار المعروف عندها منكرًا والمنكر معروفًا، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وإنا إليه راجعون والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلًا، وأي مصيبة أعظم من المصيبة في التوحيد والعقائد، وأي بلاءٍ أعظم من الابتلاء بخفاء الحق ورده وتزيين الشرك والباطل في القلوب وأي داهية أكبر من داهية فساد الأعمال بسبب فساد العقيدة، والله المستعان.

المثال الرابع:- العكوف عند القبور وإطالة الجلوس عندها على هيئة المتضرع الطالب الذليل المتخشع، وهذا منكر عظيم وبلاء جسيم ومدخل كبير

من مداخل الشرك الأكبر وهو فعل لم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحد من أصحابه ولا أحد من سلف الأمة وأئمتها وإنما هو شيء يفعله الأغمار السفهاء الذين تشربوا حب البدعة وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، يرجون من لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئًا ويصدق عليهم قوله تعالى {مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ} وقوله تعالى {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} وقوله تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} فهذا العكوف بهذه الهيئة وهذا القصد محدث في الشريعة الإسلامية وكل إحداث في الدين فهو رد، وهو نوع من الزيارة البدعية الشركية وهو من أعظم وسائل الشرك ومداخل الوثنية، وهو فتنة وخيمة وبلية عظيمة ينبغي الوقوف في وجهها وتشديد الإنكار على أهلها والأخذ على أيديهم حتى لا تغرق السفينة، فقد أمرنا الله بالمقاتلة حتى لا تكون فتنة فقال {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} وأعظم المقاتلة المقاتلة بالحجة والبرهان وكشف الشبه وفضح زيف هذه الأفعال المنافية لشريعة الله جل وعلا، فكل يقاتل على حسب ما آتاه الله من القوة والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل والله أعلم.

واعلم رحمك الله تعالى ووفقنا وإياك لسلوك طريق الهداية والعلم النافع والعمل الصالح أن أول فتنة أحدثت ذلك الشرك هي الغلو في الصالحين بتصوير صورهم والعكوف عند قبورهم فهما فتنتان، فتنة القبور وفتنة التماثيل،

وقد تقرر في الشريعة أن الذرائع المفضية إلى الحرام حرام، فلابد من سد جميع الوسائل التي توصل إلى الشرك، فإن تحريم الشرك الأكبر تحريم مقاصد وتحريم جميع وسائله وطرقه المفضية إليه من باب تحريم الوسائل فكل ما كان وسيلة للشرك الأكبر فشرك أصغر لأن الوسائل لها حكم المقاصد، ولذلك فإن هذه الشريعة المباركة قد سدت جميع أبواب الشرك الأكبر خصوصًا ما كان من باب القبور والغلو فيها وفي أصحابها وقد جاء ذلك في صور عديدة بمجموعها يتضح للمسلم مدى حرص الشريعة على إبعادنا كل البعد عن الوقوع في حبائل هذه الفتنة الكبيرة، أعني فتنة القبور وسوف أسوق لك إن شاء الله تعالى نصوصًا كثيرة توضح لك هذا الحرص، ومن باب التسهيل سيكون ذلك في مسائل:-

المسألة الأولى: التحذير من الغلو على وجه العموم والخصوص

قال تعالى {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ} فهذا نهي من الله تعالى لأهل الكتاب عن الغلو في دينكم فإن الشرك الذي وقع فيه أهل الكتاب إنما كان سببه الغلو في الدين فاليهود قالوا {عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ} وهذا مبدؤه الغلو ومنتهاه الشرك الأكبر والنصارى قالوا {الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ} وهذا مبدؤه الغلو ومنتهاه الشرك الأكبر وبعضهم قالوا {إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} وبعضهم قالوا {إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ} وكل هذه الأقوال الكفرية كان مبدؤها الغلو في الصالحين، فجاءت الآية محذرة لأهل الكتاب عن الغلو، وهي محذرة لنا أيضًا أن لا نسلك مسلكهم هذا حتى لا نقع فيما وقعوا فيه، لأننا منهيون عن التشبه بهم في تسريحة الشعر واللباس ونحو ذلك فلأن نكون منهيون عن التشبه بهم فيما أوقعهم في الشرك من بابٍ أولى والذي أوقعهم في الشرك هو الغلو، وبناءً عليه فإن الشريعة نهت عن الغلو كله بجميع صوره ومختلف أشكاله، قال عليه الصلاة والسلام

(بمثل هذه فارموا وإياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو) فقوله (وإياكم) هذا أسلوب تحذير فهو نهي وزيادة كما تقرر في القواعد أن أسلوب التحذير في اللغة العربية نهي وزيادة، أي ليس نهيًا فقط، بل هو نهي مؤكد بالتحذير وهذا من زيادة الاهتمام بهذا الأمر وذلك لعلمه ﷺ أن الغلو هو بلية البلايا وعظيمة الرزايا وأنه إذا وقع في الأمة فناهيك عن الفساد والاضطراب الذي سيحل فيها، وقوله (والغلو) هو اسم جنس دخلت عليه الألف واللام الاستغراقية وقد تقرر في القواعد أن اسم الجنس إذا دخلت عليه الألف واللام الاستغراقية أفادته العموم، فيدخل في ذلك كل ما يسمى غلوًا فيدخل فيه الغلو في الاعتقادات والأقوال والأعمال ونحو ذلك فإن قيل:- إن هذا القول منه ﷺ إنما كان نهيًا عن الغلو في حصى الجمار فقط فيقال:- لنا أجوبة:

الأول:- أنه قد تقرر في القواعد أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقوله (والغلو) لفظ عام وقد ورد على سبب خاص، فلا يقصر الحكم على سببه بل يقال:- العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويوضح ذلك الجواب الثاني.

الثاني:- أنه قد تقرر في القواعد أن مفهوم الموافقة الأولوي حجة بالإجماع، فإذا كنا قد نهينا عن الغلو في عدة حصيات أي في المبالغة في أحجامها، مع أن تكبيرها لا يوجب شركًا لا أصغر ولا أكبر فكيف بالغلو في القبور وتعظيم أصحابها بالطواف عليها والذبح عندها ونحو ذلك من صور الغلو؟ فلا شك أن كل عاقل يفهم أنه إذا نهينا عن الغلو في الأشياء الصغيرة فلأن نكون منهيون عن الغلو في الأشياء الكبيرة من بابٍ أولى، وهذا يسميه أهل الأصول بأسلوب التنبيه بالأدنى على الأعلى، أي أنه لما بين لنا النبي ﷺ حكم الغلو في هذا

الشيء اليسير أراد أن ينبهنا على حكم الغلو فيما هو أكبر منه، وذلك كقوله تعالى في حق الوالدين {فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ} فإن جميع العقلاء يفهمون من هذا النص أنه لما حرم قول (أف) فإنه من بابٍ أولى يدخل تحريم رفع الصوت عليهما وسبهما وشتمهما وضربهما وما هو فوق ذلك فهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، وقد ضربنا لها أمثلة في كتابنا تحرير القواعد ومجمع الفرائد، والمقصود:- أنه ﷺ لما نهى عن الغلو في حصى الجمار مع أنه شيء يسير صغير علمنا جزمًا أن الغلو فيما فوق ذلك منهي عنه من باب أولى، ويوضح هذا الجواب الثالث.

الثالث:- أن النبي ﷺ بقوله (وإياكم والغلو) يريد المعنى العام أي جميع أنواع الغلو، بدليل أنه قال (فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو) وهذا التعليل يفيد أنه لا يريد الغلو في حصى الجمار فقط لأن هلاك من قبلنا لم يكن في ذلك، وإنما لأنهم غلو في دينهم الغلو الذي أخرجهم من شريعتهم المنزلة إلى الإفراط أو التفريط، وهذا التعليل يفيدنا النهي عن الغلو على جميع صوره ومختلف أشكاله، فالغلو كله منهي عنه لأنه باب كل شرٍ وبلاءٍ وفتنة، فما عبدت القبور إلا بالغلو فيها وما عبدت الشمس والقمر والأشجار والأحجار إلا بالغلو فيها، وما ذبح لغير الله إلا بالغلو في المذبوح له، وما وقع أهل الشرك في شركهم إلا بسبب الغلو، وما عطلت المعطلة إلا بسبب الغلو في جانب التنزيه، وما مثلت الممثلة إلا بسبب الغلو في جانب التمثيل وما نفي القدر إلا بالغلو ولا وقع الرافضة فيما وقعوا فيه من اعتقاداتهم الفاسدة في آل البيت إلا بسبب الغلو، وما طيف حول القبور إلا بسبب الغلو، وما عكف العاكفون عندها إلا بسبب الغلو، وما خرجت الخوارج إلا بسبب الغلو، فالغلو سبب لكل شر، كما أن التوسط والاعتدال

سبب كل خير وفلاح ونجاح ونجاة في الدنيا والآخرة فالغلو منهي عنه بجميع صوره في الأقوال والأعمال والاعتقادات لأنه سبب الهلاك في الدين والدنيا، وهذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، لأن صور الغلو كثيرة وأشكاله لا تكاد تحصر فأعطانا ﷺ فيه قاعدة عامة يدخل تحتها من الصور مالا يكاد يحصر، وهي قوله (إياكم والغلو) فأول وسيلة توصل للشرك هي الغلو وقد سددتها الشريعة السد المطلق وأحكمت إغلاقها بالأقفال المحكمة فمن رام الفلاح والنجاة في الدين والدنيا فليحذره كل الحذر وليجتهد كل الاجتهاد من إخراجه من قلبه بالعلم النافع والعمل الصالح والإكثار من دعاء الله تعالى أن يرزقه الاعتدال والوسطية في الأمور كلها. والغلو هو مجاوزة الحد المشروع إما بالزيادة فيه أو التقصير عنه، وشريعة الإسلام وسط بين الإفراط والتفريط، فالقاعدة المتقررة شرعًا والتي لابد لكل مسلم أن يحفظها أن العدل أكبر مقاصد الشريعة في العقيدة والأحكام، فأول شيء ينبغي أن تعلمه أن الغلو كله بجميع صوره وأشكاله ممنوع وما يفعله عبَّاد القبور عند قبور من يعظمونهم إنما سببه الغلو، ولله در الإمام المجدد رحمه الله تعالى لما قال في أحد تراجم كتاب التوحيد:- (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين) وقال أيضًا:- (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله تعالى) وقال أيضًا:- (باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده) وأورد تحت هذه التراجم من النصوص ما يتضح لمن قرأه أن هذه التراجم صدرت ممن تشرب قلبه بالأدلة وعرف مقاصد الشريعة وغاص في مدلولات النصوص، والمقصود أن الشريعة سدت كل طرق الشرك المفضية إليه وأعظم هذه الطرق بل هو أصلها ومقدمها

هو الغلو، فاحذره وحذر منه فإنه أصل كل شر وباب كل فتنة والله المستعان.

المسألة الثانية: التحريم الشديد

والنهي الأكيد في إطراء النبي ﷺ الإطراء المفضي إلى وصفه لصفات الألوهية

والنهي أيضًا عن اتخاذ قبره عيدًا، ويدل على ذلك قوله ﷺ (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) والإطراء هو مجاوزة الحد في المدح، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت (لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم بها كشفها فقال وهو كذلك لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا) ولمسلم عن جندب ابن عبدالله قال:- سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ يقول (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكرٍ خليلا ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) وروى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال (اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد اشتد غضب الله على قومٍ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فإذا كان هذا حال قبره ﷺ وحال قبور أخوانه من الأنبياء قبله فكيف بقبر غيره ممن هو دونه بمراتب كثيرة، فإذا كان من يتخذ قبور الأنبياء مساجد قد توعد بهذا الوعيد الشديد، فكيف بمن يتخذ قبور غيرهم مساجد لاشك أنه أولى في النهي ويدخل معهم غيرهم في هذا النهي من بابٍ أولى، فهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، بل إن قوله ﷺ (ألا فلا تتخذوا القبور مساجد) نص في ذلك لأن قوله (القبور) جمع دخلت عليه الألف واللام المفيدة للاستغراق وقد تقرر في القواعد أن الألف واللام إذا دخلت على

الجمع أفادته العموم، فيدخل فيه جميع القبور، الأنبياء وغيرهم من بابٍ أولى، فمن صلى عند القبور فقد اتخذها مساجد والنبي يقول (ألا فلا تتخذوا القبور مساجد) ومن طاف حولها أو ركع عندها أو خصها بالدعاء لتفريج الكربات وإغاثة اللهفات فقد اتخذها مسجدًا والنبي يقول (ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) فهذه الذريعة لابد من سدها وغلقها بإحكام وهي اتخاذ القبور مساجد فيفعل فيها ما يفعل في المساجد وخصوصًا قبور الأنبياء، وخصوصًا قبر نبينا ﷺ والله أعلم.

المسألة الثالثة: النهي عن الصلاة عندها

وقد تقدم طرف من ذلك وهو النهي عن اتخاذها مساجد أو أماكن للدعاء، ومنه حديث أبي مرثدٍ الغنوي قال:- قال رسول الله ﷺ (لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها) وهذا نهي وقد تقرر في القواعد أن النهي يفيد التحريم، ولم يصب من جعل العلة في النهي النجاسة، بل العلة الصحيحة عن النهي عن الصلاة في المقابر وإلى القبور إنما هو لسد ذريعة الشرك وعن عائشة أن أم سلمة ذكرت للرسول ﷺ كنيسة بأرض الحبشة يقال لها مارية وذكرت له حسنها وما فيها من التصاوير فقال (أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة) وعن أبي عبيدة رضي الله عنه قال:- آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ (أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب واعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)"رواه أحمد في المسند بسند صحيح" ومن صلى عند القبور فلاشك أنه قد اتخذها مسجدًا، وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد)"رواه ابن خزيمة وابن حبان بسندٍ حسن" وعن أبي سعيد الخدري

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ (نهى أن يبنى على القبور أو يقعد عليها أو يصلى عليها)"رواه أبو يعلى في مسنده بإسنادٍ صحيح" وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال (نهى النبي ﷺ عن الصلاة إلى القبور)"رواه ابن حبان" فهذه النصوص الصحيحة الصريحة تفيد إفادة قطعية النهي الأكيد والوعيد الشديد على من صلى عند هذه القبور، والمراد أي الصلاة ذات الركوع والسجود وأما صلاة الجنازة على القبر إذا فاتت في المسجد فهذا له دليله الخاص، فتكون صلاة الجنازة مخصوصة من النهي وقد تقرر في القواعد أن العام يبنى على الخاص، فالنهي عن الصلاة عند القبور إنما علته سد ذريعة تعظيمها ولا يمكن أن يقال غير ذلك لمن عرف مقاصد الشريعة، وهذا يعتبر من الوسائل الشركية التي سدت الشريعة أبوابه ولذلك فالصحيح المعتمد بالدليل أن الصلاة ذات الركوع والسجود في المقبرة باطلة وكذلك تبطل على الصحيح من قولي العلماء في المسجد الذي فيه قبر أي داخل أسواره قبر وسواء كان القبر في قبلته أو عن يمينه أو عن شماله أو في مؤخرته، ويجب على الصحيح إزالة هذا المسجد عن كان قد بني على القبر ويجب نبش القبر وإخراجه من المسجد إن كان المسجد هو السابق، أي أن الأخير منهما هو الذي يزال، وكل ذلك سد لذريعة الشرك وإغلاق لأبوابه، لكن الأمر قد تفاقم وعباد القبور يكرهون هذه النصوص الكراهة المطلقة ويصفون من يعتمدها بالأوصاف القبيحة، ولا عبرة بذلك فالحق لابد أن يعرف ولابد أن يصدع به وإن غضب من غضب والله المستعان.

المسألة الرابعة: النهي الأكيد عن البناء على القبور أو رفعها فوق الشبر أو الكتابة عليها أو تجصيصها أو إسراجها

وهذا كله ثابت بالأسانيد الصحيحة، وعلة ذلك كله هو سد ذريعة تعظيم هذه القبور، ففي بعض الأحاديث السابقة (بنوا على قبره مسجدًا) وهذا أشد

أنواع البناء، وتقدم أيضًا حديث أبي سعيد أن رسول الله ﷺ (نهى أن يبنى على القبور) وعن جابر رضي الله عنه قال (نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه) وهذا النهي لا شك أنه للتحريم لأن القاعدة تقول:- النهي المطلق عن القرائن يفيد التحريم، وعن أبي الهياج الأسدي رحمه الله تعالى قال:- قال لي علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه:- ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ (ألا أدع قبرًا مشرفًا إلا سويته ولا صورة إلا طمستها)"رواه مسلم هو والذي قبله" وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال (لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)"رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن" وقال الإمام مسلم في صحيحه:- حدثنا أبو الطاهر أحمد بن عمرو قال حدثنا ابن وهب قال أخبرني عمرو بن الحارث -ح- وحدثني هرون بن سعيد الأيلي قال:- حدثنا ابن وهبٍ قال حدثني عمرو بن الحارث (في رواية أبي الطاهر) أن أبا علي الهمداني حدثه (في رواية هرون) أن ثمامة بن شفي حدثه قال (كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم، بردوس فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوِّيَ ثم قال:- سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها) وقال أبو داود في سننه:- حدثنا أحمد بن صالح قال حدثنا ابن أبي فديك قال أخبرني عمرو بن عثمان ابن هاني عن القاسم قال (دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت يا أمه، اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا وطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء) وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت (نهى رسول الله ﷺ أن يبنى على القبر وأن يجصص)"رواه الإمام أحمد وفي إسناده ابن لهيعة وفيه كلام معروف" فهذه الأدلة تفيد الإفادة القوية النهي عن البناء على القبور والكتابة عليها وإسراجها ومن ذلك تسجيتها بالحرير والديباج وأعظم

من ذلك زخرفتها وترصيعها بالذهب والفضة وأعظم من ذلك أن يجعل لزيارتها مناسك محددة كما هو متقرر عند بعض القبور التي تعظمها الرافضة وأعظم من ذلك الركوع أو السجود لها ودعاؤها من دون الله تعالى والبدع يجر بعضها بعضًا حتى تهوي بصاحبها في الحفر العميقة والبلايا العظيمة التي لا مخرج له منها إلا أن يتداركه الله برحمته ويوفقه للتوبة النصوح قبل الممات وإلا إن مات على هذا الشرك فإنه مع إخوانه المشركين في النار خالدًا مخلدًا فيها أبدًا لا يموت فيها ولا يحيى، نعوذ بالله من ذلك فهذه الذرائع الأربع لابد لمن رام النجاة من فتنة القبور أن يحذر منها غاية الحذر، وما وقع عباد القبور فيما وقعوا فيه إلا لأنهم اخترقوا هذه المحاذير الأربع التي جاءت الشريعة بسدها السد المطلق، وتساهلوا فيها حتى أوصلهم ذلك التساهل إلى عبادتها من دون الله تعالى، فالشريعة نهت عن الغلو في القبور وهؤلاء قد غلو فيها والشريعة نهت عن اتخاذها مساجد وهؤلاء قد اتخذوها مساجد، والشريعة نهت عن الصلاة عندها وهؤلاء يصلون عندها ويركعون ويسجدون عندها والشريعة نهت عن البناء على القبور وهؤلاء يبنون عليها الأبنية الفاخرة والمطرزة بالياقوت والذهب والفضة ويجعلون لها بابًا للدخول وبابًا للخروج، والشريعة نهت عن إسراجها وهؤلاء يزخرفون بناءها بالإضاءة المختلفة حتى يكون منظرها جذابًا للزبائن المهاويس فكيف ترجى لهم السلامة وهم قد وقعوا في هذه المخالفات وتنكبوا عن طريق الهدى، وإن يروا طريق الرشد لا يتخذوه سبيلًا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا، قد امتلأت قلوبهم بالشرك والوثنية وخلت من التوحيد، وجعلوا هذه القبور مفزعًا في الكربات ومعاذًا في المهلكات، ومقصدًا للدعوات، تقربوا لها بالذبائح والنذور يرجون منها إغاثة اللهفات وتفريج الملمات، ومن يضلل

الله فماله من هاد وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، فباتت عيونهم عن الحق عمياء وأضحت أرض توحيدهم من التوحيد جرداء، فطمس الشرك نور بصائرهم، فاعتقدوا أن الشرك هو حقيقة تعظيم الأولياء ومحبتهم، فأسألك اللهم بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا أن تهدي قلوبهم وأن تكفيهم شرور أنفسهم وأن تردهم إلى الحق ردًا جميلًا وأن توفقهم إلى التوبة النصوح قبل الممات.

المسألة الخامسة: النهي الجازم الأكيد عن شد الرحال إلى شيء منها

ففي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى) وهذا الحديث مما اتفق الأئمة على صحته والعمل به فالسفر إلى القبور للتعبد عندها ليس من الإسلام في شيء بل هو دين الكفرة الملاحدة المشركين الذين يعطلون المساجد ويعمرون المشاهد، ولهذا فإنه اتفق أئمة الدين على أن العبد لو نذر السفر إلى زيارة قبر الخليل أو الطور أو جبل حراء ونحو ذلك لم يجب عليه الوفاء باتفاقهم، ذلك لأن السفر إلى القبور لتعظيمها وسيلة من وسائل الشرك فلا بد من سده، وقد اتفق الصحابة رضي الله عنهم على عدم استحباب السفر إلى زيارة شيء من البقاع لا آثار الأنبياء ولا قبورهم ولا مساجدهم إلا المساجد الثلاثة فقط، فإنشاء السفر إلى القبور المعظمة بدعة في الدين ومحدثة وضلالة وباب من أبواب الشرك المخرج عن الملة، واعلم أن كل حديث في فضل زيارة قبر معين فإنه كذب مختلق لعن الله واضعه وقبحه وأخزاه في الدنيا والآخرة، بل حتى الأحاديث التي تروى في فضل زيارة قبر النبي ﷺ كلها باطلة كحديث (من حج فلم يزرني فقد جفاني) وحديث (ومن زارني بعد موتي كمن زارني في حياتي)

وحديث (من زارني وزار قبر أبي إبراهيم في عام ضمنت له الجنة) وكل ذلك كذب موضوع حتى وإن حاول بعض أهل العلم رفعه من مرتبة الموضوع إلى مرتبة الضعيف فإن ذلك غير مقبول بل هو موضوع وبدراسة الإسناد يتبين لك ذلك وأول من وضع هذه الأحاديث وغيرها في زيارة كثير من القبور هم الرافضة لعنهم الله، وأخزاهم وأبعدهم وكفانا شرهم الرافضة الذين يعمرون المشاهد ويعطلون المساجد، يدعون بيوت الله التي أمر أن ترفع ويذكر فيها اسمه ويعظمون المشاهد التي يشرك فيها ويكذب ويبتدع فيها من الدين مالم يأذن به الله تعالى ومالم ينزل به سلطانًا، وفي سنن أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال (لا تتخذوا قبري عيدًا وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني) وفي سنن سعيد بن منصور أن عبدالله بن حسن بن حسين بن علي بن أبي طالب رأى رجلًا يختلف إلى قبر النبي ﷺ ويدعوا عنده فقال:- يا هذا، إن رسول الله ﷺ قال (لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبورًا وصلوا علي فإن صلاتكم حيثما كنتم تبلغني) فما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء، فهذه الذرائع الخمس تعتبر وسائل لتعظيم القبور التعظيم المخرج لها عن الحد المشروع والمفضي بها إلى أن تكون أربابًا تعبد من دون الله تعالى، فلا نجاة للأمة من هذه الفتنة الدهماء العمياء إلا بسد هذه الذرائع وإحكام إغلاق بابها الإحكام المطلق وتذكير العامة لذلك بين الفينة والأخرى وتحذيرهم منها دائمًا وبيان خطرها على الدين والعقيدة وإنك لو سبرت أحوال الذين وقعوا في تعظيم القبور لوجدت أنهم في بداية الأمر قد خالفوا شيئًا من هذه المنهيات وارتكبوا شيئًا من هذه الذرائع وأوائل الأمور يجر إلى نهايتها والعياذ بالله تعالى، وإن واجب أهل العلم عظيم في صد هذه الفتنه وحماية الأمة منها وأن لا يفتروا أبدًا في توضيحها مشافهة وتأليفًا، أسأله جل

وعلا باسمه الأعظم أن يعين أهل العلم على القيام بهذه المسئولية العظيمة التي هي أثقل من الجبال ولكن أوصيهم بكثرة الاستعانة بالله جل وعلا فإن الأمر يسير على من يسره الله عليه، والله وحده المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والله أعلى وأعلم.

واعلم رحمنا الله وإياك وجعل الجنة مأوانا ومأواك أن هناك بعض البواعث التي أوجبت للناس الاغترار بهذه الفتنة، لابد من بيانها من باب إتمام الفائدة وهي كما يلي:-

الأول:- وضع بعض المرويات المكذوبة والنقولات الباطلة الزائفة في بعض هذه القبور، وهذا كثير في الرافضة لعنهم الله وأخزاهم وأقصاهم وكفانا شرورهم فإنهم يعمدون إلى بعض قبور من يعظمونهم ويضفون عليها القداسة بالنقول الكاذبة التي لا خطام لها ولا زمام، بل وبعضهم قد يؤلف فيها مؤلفًا كاملًا كله كذب وزور، ومن نظر في كتب القوم علم ما هم عليه من البهتان والإفك فإنهم أكذب الطوائف على الإطلاق، ولذلك فإني أعطيك في هذا الأمر قاعدة تريحك من البحث وهي التي تقول (كل حديث في فضل زيارة قبر مخصوص فهو كذب واختلاق) وهذه الكلية لا يخرج أي قبر، لا قبور الأنبياء ولا قبور الأولياء ولا أي قبر في الدنيا، نعم وردت أحاديث تفيد استحباب زيارة القبور على وجه العموم، وأنا لا أتكلم على هذا لأنني قلت في القاعدة (قبر مخصوص) فالمقصود أن يكون هذا الحديث يفيد استحباب زيارة قبر مخصوص أي معين، هذا مالا يوجد في الشريعة أبدًا ولا تتعب من البحث فهذا أمر قد فصله الذين قبلنا، فأي حديث سمعته يقول:- من زار قبر فلان فله كذا وكذا، فاعلم أنه كذب مختلق لا أساس له من الصحة وأنه من وضع الزنادقة

الأفاكون المتهوكون عباد القبور، فاحذر منه وحذر العامة منه، فليس في الصحاح ولا في السنن ولا في المسانيد ولا في الأجزاء الحديثية نقل يصح في استحباب زيارة قبر خاص حتى الأحاديث التي وردت في فضل زيارة قبر نبينا ﷺ على وجه الخصوص فإنه لم يثبت منها شيء بل كلها موضوعة -وقد تقدم ذلك- فيما يرويه الرافضة في كتبهم من استحباب زيارة قبر علي أو الحسين رضي الله عنهما أو أحدٍ من أئمتهم فإنه من كيسهم الفاسد وبضاعتهم الكاسدة ومن إملاء شياطينهم وكل حديث في استحباب زيارة قبر أبي بكرٍ أو عمر أو أحدٍ من الأنبياء فإنه أيضًا لا صحة له ولا أساس له، فالحمد لله على السلامة فإنه لا يعدلها شيء فنزه سمعك عن مثل هذه الأكاذيب، وطهر قلبك من مثل هذه الترهات فإن الدين أعز شيءٍ علينا ويجب المحافظة عليه صافيًا معينًا لا شوب فيه ولا كدر والله المستعان.

الثاني:- المنامات الكاذبة في شأن بعض القبور، فإن بعض المهاوييس قد يرى منامًا أن المكان الفلاني فيه قبر الولي الفلاني وأنه الترياق المجرب الذي لا يخيب من قصده ولا يحزن من الكل عليه، فيقوم هذا التائه ويقصد البقعة التي رآها في المنام ويبني عليها ويدعو الناس إلى قصدها بناءً منه على هذا المنام وهذا كثير في الصوفية ونحن نجزم أن هذه المنامات أغلبها كذب وافتراء وإنما قصد أصحابها سرقة أموال الناس فقط، وإن كان الرائي صادقًا فيما رآه فإنما هو شيطان أتاه في النوم ولبَّس عليه الأمر وأغراه وأوعده والشياطين لها نفوذ كبير في قضية المنامات، خصوصًا على عباد القبور وعشاق الوثنية، وهذا كله من عمل الشيطان ورجسه، فاجتنبوه لعلكم تفلحون، والقاعدة التي تقضي على هذا الباب تقول (لا مدخل في المنامات في باب التشريع) وهذه قاعدة عظيمة مفيدة،

فالمنام الذي فيه تحليل لشيءٍ من الحرام أو تحريم شيء من الحلال لا اعتداد به مهما عظم ذلك المنام ومهما تكرر على صاحبه فلا عبرة ولا اعتداد به، فهذا المنام من الشيطان، والدين كامل بتكميل الله تعالى حتى ولو خيل الشيطان للرائي أنه النبي ﷺ فإنه منام شيطاني كذاب، وليس هو النبي في الحقيقة لأن الشيطان لا يستطيع أن يتمثل في المنام لحديث (من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي... الحديث) ولكن الشيطان يستغل في هذا الجانب عدم معرفتنا الحقيقية بصورة النبي ﷺ والمهم أنه لا عبرة بالمنامات التي تتضمن تحليل الحرام أو تحريم الحلال، فمن بنى عقيدته في قبر من القبور على مجرد منام رآه فقد بنى عقيدته على هواء وموج ماءٍ وشفا جرفٍ هار، وقد خالف المنهج السليم والصراط المستقيم، فإن أهل الإسلام لا يأخذون معتقداتهم إلا من الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، وأما المنامات والمكاشفات والعادات والتقاليد وأعراف الدول والعقول والمنقولات الضعيفة ونحوها كل ذلك لا مدخل له في باب التشريع ولا حجة لأحدٍ في صرف شيء من التعبد لقبر من القبور بسبب منام رآه فيه، فنعوذ بالله من الخذلان وفساد الاعتقاد، ونعوذ به جل وعلا من الشبهات المضلة والأهواء المختلة والأفكار المعتلة التي لم تبن على هدىً ولا بصيرة والله أعلم.

الثالث: الهالة الإعلامية والخرافات القصصية التي يبثها سدنة القبر وخدامه وعباده بين العامة وأنصاف المثقفين ليغروهم بهذا القبر

فإن بعض القبور قد حيكت له القصص، وحبكت له المآثر، والمرجفون ونقلة الأخبار قد تولوا كبر ذلك فقد سخرت لنشر هذه القصص ثلة فاسدة، فإننا نسمع عن بعض القبور أنه أغاث فلانًا المكروب في البلاد البعيدة لما استغاث

به، وأن هذا العقيم الذي لا يولد له لما عفر وجهه بتراب القبر وابتهل إليه عاد فجامع زوجته فلقحت من ليلتها وهذا العاطل الذي تعب في البحث عن الوظيفة ما إن جاء بنذر إلى ذلك القبر وبات ليلته في رواقه وتحت عنايته إلا وانهالت عليه الشركات والمؤسسات تتوسل إليه أن يكون أحد موظفيها، وهذا الأب المسكين الذي لا يدري أين ولده لما اعترف بأن القبر الفلاني له تصرف في رد التائهين جاءه ولده مباشرة لأن صاحب القبر جاءه في المنام وأخبره أين يوجد ولده، وهذه المرأة التي تأخر زواجها وعزف عنها الرجال لما باتت ليلتها تدعو صاحب ذلك القبر معترفة أنه مجيب الدعوات وقاضي الحاجات ومفرج الكربات ما إن فعلت ذلك إلا وازدحم الخطاب عند بابها يتدافعون كل واحدٍ منهم يريد الفوز بها كزوجة، ورجل أراد سفرًا إلى بلاد بعيدة وبينها وبينه أخطار ومصاعب وأهوال فجاءه الناصحون يدلونه على الترياق المجرب، فذهب إلى القبر وتوسل به ودعاه أن يحفظه من كل سوءٍ ومكروه، فرأى في المنام أن آتٍ أتاه وقال له:- اذهب فإنك بأعيننا، لك في كل خطوةٍ تخطوها السلام وعليك السلام، وغير ذلك من الحكايات المحبوكة والقصص المخترعة التي تجعل سامعها في بلبلة فكرية وصراعٍ نفسي، هذا إذا كان عنده بصيص نور من العلم والفهم وأما إن كان من الأوباش الحمقى المغفلين فسرعان يعتقد صحة ذلك ويكون لهذا القبر في قلبه المنزلة العالية والدرجة الرفيعة وكل ذلك بسبب هذه القصص الخرافية التي ينشرها سدنه القبر وخدامه وعباده، وهذا الأمر يسده عنا قاعدتان من القرآن لابد من اعتمادهما والعمل بمقتضاهما وهما:- الأولى:- قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} الثانية:- قوله تعالى {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى

أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فمثل هذه الأخبار والقصص والحكايات لابد من معرفة مصادرها والتأكد منها ومن ثم رفعها إلى أهل العلم المعروفين بعلمهم وأمانتهم لتصدر عن رأيهم، فإن أهل العلم الراسخين هم برد الأكباد في مثل ذلك وغيره ومن يصدر عن أهل العلم فإنه من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأنا أقول ذلك الكلام للذين يجهلون حقيقة الأمر في البلاد التي استولت عليها الخرافة واستحكمت فيها القبورية، ممن عنده غبش في الاعتقاد وإلا فمثل هذه القصص يعلم أهل العقيدة السليمة أنها كذب وافتراء وأنه ليس لها مطلق الحقيقة وإنما يراد بها مخادعة الجمهور والسذج لابتزاز أموالهم وإفساد عقيدتهم فكل هذه القصص وأمثالها كلها كذب وإفك وزور وبهتان ولا أساس لها من الصحة ونحن نعلم علم اليقين أن الميت لا تصرف له بجلب خير أو دفع ضر لا لنفسه ولا لغيره وأنه لا يغيث ملهوفًا ولا يفرج همومًا ولا ينفس كروبًا ولا أي شيء بل هو مرهون بعمله فقير لمن يستغفر له فالميت هو المحتاج للحي ليدعو له بالجنة والمغفرة فإذا سمعت قصة من مثل هذه القصص فاعلم أنها من نسج الخيال ومن تلبيس الشيطان الرجيم فاستعذ بالله منها وبادر بتكذيبها والإنكار على قائلها أو ناقلها وإياك أن يتطرق لقلبك وعقلك ولو مجرد احتمال أن تكون صدقًا والله المستعان وعليه التكلان.

الرابع: ضعف جانب العقيدة في قلوب كثير من العامة

فإن القبورية وآفاتها إنما تنتشر في أوساط بسطاء العقول وضعاف الاعتقاد والجهلة والعوام وأشباه الأنعام وإن من سنة الله تعالى أنه كلما خفي نور النبوة ازداد ظهور ظلمة البدعة، ولذلك فإن دعاة القبورية والذين ازدهرت أرصدتهم في البنوك بسببها أغيظ شيء عليهم الدعوة إلى التوحيد الصافي والعقيدة

الصحيحة فتراهم يحاربون أهلها المحاربة المطلقة ويصفونهم بالأوصاف المستهجنة لينفروا العامة منهم، لأن التوحيد يهدم ما بنوه في قلوب الناس تجاه هذه القبور، ويزلزل عروش باطلهم فيخر عليهم السقف من فوقهم فالسلاح الذي يستولي به دعاة القبورية على الناس هو الجهل، وخفاء أنوار التوحيد فمقصودهم الأول والأخير هو كيف يبقى الناس على جهلهم بحقيقة الحال، ولذلك فلا بد من إيصال كلمة الحق لهؤلاء الهالكين، الذي ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فلا بد من البحث عن الوسيلة بل الوسائل التي نستطيع من خلالها أن نصل إلى ديارهم وأن نخالطهم وأن نطرح هذه المسائل مقرونة بالأدلة والبراهين العقلية والسمعية والتي تخاطب عقولهم وأرواحهم حتى نخرجهم بإذن الله تعالى من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ومن مستنقع البدعة إلى معين السنة ولاشك أن أهل العلم الذين في ديار هؤلاء يحملون الجزء الأكبر من هذه المسئولية العظيمة والتي تجاوزت حد القنطرة، ولا يجوز بأي حالٍ من الأحوال الانشغال عنهم بمسائل السياسة والبرلمانات وهل ندخل فيها أم لا ندخل؟ وهل ولاية هذا الحاكم شرعية أم ليست بشرعية؟ كل هذا ليس بأهم من السعي الحثيث الجاد لإصلاح عقائد هؤلاء المساكين. والحر تكفيه الإشارة، وهذه وصية لإخواني:- أيها الدعاة المصلحون والأئمة المهتدون الله الله في العقيدة، أبدؤا أول شيء بتقريرها التقرير المحكم المسدد في قلوب الخاصة والعامة، فإنها أساس الأعمال وقاعدتها وأصلها والمخالفة فيها أخطر من المخالفة في غيرها وهي أول شيء بدأ به النبي ﷺ، بل إن مدة النبوة ثلاثًا وعشرين سنة، جلس في مكة ثلاثة عشر عامًا يقرر مسائل العقيدة بتحقيق التوحيد وإبطال الشرك ولا خير في دعوة لم

تبن على تصحيح الاعتقاد وكم من الدعوات التي ظهرت ولكنها تلاشت وانتهت لأنها لم تعط التوحيد أول اهتماماتها، فالعقيدة أولًا وهذا الكلام أوجهه لنفسي أولًا ثم لإخواني من الدعاة أسأله جل وعلا أن يسدد خطاهم وأن يوفقهم لكل خير والله المستعان والمقصود:- أن تعلم أن من بواعث انتشار القبورية ضعف الجانب العقدي فلا بد من سد هذه الثلمة ورقع ذلك الخرق.

الخامس: سكوت بعض أهل العلم في هذه البلدة التي تعظم القبور عن هذا التعظيم

فضلًا عن أن بعضهم قد يشارك في بعض الموالد والاحتفالات الخاصة بهذا القبر كما سمعناه عن بعضهم، وبعضهم قد يدرس في هذا المسجد الذي فيه ذلك القبر ويرى الناس من أهل هذه القرية يطوفون حول القبر ويدعونه ويستغيثون به من دون الله تعالى، ولا يحرك لذلك ساكنًا ولا يتمعر وجهه ولا ينطق ببنت شفة، وكأن الأمر لا يعنيه، وأهل هذه البلدة يعرفون أن هذا العالم له مكانته في العلم ومنزلته بين الناس، فينخدع العامة بهذا السكوت ويقولون:- لو كان ما نفعله حرام كما يقوله الوهابيون لأنكر علينا علماء بلدنا، وهذه طامة تسبب فيها هذا البعض من أهل العلم، وقد سمعت كثيرًا من العامة في بعض البلاد التي فيها شيء من تعظيم بعض القبور بعد إنكارنا عليهم وأن هذا من المحرمات والموبقات والعظائم فيقولون لنا:- كيف تقولون ذلك والعالم الفلاني والعالم الفلاني والعالم الفلاني كانوا يحضرون هذه الموالد ولهم مشاركات في هذه الاحتفالات ولم نسمع منهم ولا مرة واحدة أن هذه الأفعال حرام، أفأنتم أعلم منهم؟ أم أنتم أحرص على الخير منهم؟ وهذه بلية لا مخرج منها إلا بمعرفة هؤلاء العلماء بأعيانهم ومراسلتهم وأمرهم بتقوى الله تعالى وتخويفهم من مغبة هذا السكوت وأنهم قدوة للعامة، فلا يكونوا فتنة لهم،

وتذكيرهم الوقوف بين يدي الله تعالى وأنه جل وعلا سائلهم عن هذه الأمانة العظيمة وسائلهم عن رعيتهم وسائلهم عن علمهم ماذا فعلوا به؟ وتحذيرهم من مراعاة الخواطر في مثل هذه القضايا العظيمة التي هي أخطر من كل شيء، فلا مجاملة في مثل ذلك وإذا كان بالإمكان دعوتهم للمملكة التي هي مبدوء التوحيد، ومرجعه وقاعدته وعقد المجالس معهم ومناقشة أهم الأوضاع في بلادهم والتي تخص التوحيد ومسائل الفقه لكان ذلك حسن جدًا، وتذكيرهم بين الفينة والأخرى بعظم المسئولية الملقاة على كواهلهم، فهذه المراسلة لابد منها، وأهل العلم في بلادنا فيهم الكفاية والدراية الكاملة لمثل ذلك وإنما المقصود مجرد التذكير، ثم أقول أيضًا:- أنه ليس أحدًا حجة على الشرع بل الشرع هو الحجة على كل أحد، فأفعال العلماء وأقوالهم ومذاهبهم كلها تقاس بالكتاب والسنة، فما وافق منها اعتمدناه وما خالفها رددناه على صاحبه، فلا حجة في فعل أحد إذا كان فعله هذا أو قوله هذا يخالف النصوص الثابتة، فالكتاب والسنة هما الميزان الذي توزن به الأقوال والأفعال والمذاهب والآراء فمشاركة هذا العالم في مثل هذه الموالد والاحتفالات فعل مخالف للشرع، فأيهما يقدم، فعله أم الشرع؟ وتدريسه في هذا المسجد الذي فيه قبر يعبد من دون الله تعالى فعل مخالف للشرع فأيهما يقدم، فعله أم الشرع؟ وعدم إنكاره على القبوريين مع عدم المانع فعل مخالف للشرع، فأيهما يقدم، فعله أم الشرع؟ لا إخالك إلا تقول في كل مرة:- بل المقدم الشرع وهذا هو الظن بك أيها الأخ المبارك، قال تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ وقال تعالى ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى

يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)"رواه مسلم" وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال قال رسول الله ﷺ (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قومٍ استهموا على سفينة فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها فكان الذي في أسفلها إذا أرادوا الماء مروا على من فوقهم فقال بعضهم:- آذينا من فوقنا فلو أننا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا)"رواه البخاري" والله المستعان.

السادس: احتضان بعض الدول هذه القبور المعظمة تحت كنف رعايتها وإدخالها تحت حمايتها

بل إن بعض الدول قد أدخلتها تحت إشراف وزارة الأوقاف وقد خصصت لها بعض المخصصات المالية، ولربما في بعض الأحيان وفي بعض الموالد الكبيرة قد يحضر رئيس الدولة برأسه أو وزير الأوقاف لحضور مراسم الشرك والوثنية، ويا ويل من تسول له نفسه أن يعتدي على قدسية قبر أو أحد المجاورين له أو ينبزهم بشيء فإنه يعاقب العقوبة البليغة التي تردعه عن معاودة ذلك الفعل الذي يمس بهيبة ذلك القبر وهيبة سدنته، واعلم أني أقول ذلك الكلام هذرًا بل هو حقيقة واقعة ولولا خوف الفتنة لسميت الدولة وسميت رئيسها لكن هذا لا يهم لأن ذكر ذلك مفسدة قد تعطل كثيرًا من المصالح وقد تقرر أن درء المفاسد أصل من أصول الشريعة، مع أن ذكر ذلك لا مصلحة فيه أصلًا، والمهم أن هذه الدول التي تفعل ذلك قد أدخلت في قلوب العامة

وبسطاء العقول تعظيم ذلك القبر وأن له منزلة وجاهًا عظيمًا مما يجعلهم يتوجهون إليه بقلوبهم وحوائجهم وهذا محسوس مجرب ويقال في ذلك ما قد قلناه في الأمر الخامس فلا داعي لإعادته هنا.

السابع تعظيم ما عليه الآباء والأسلاف وإحسان الظن بهم في مثل ذلك

وهذه العلة هي من جملة العلل التي جعلت المشركين يتمسكون بشركهم ويأبون كما قال تعالى {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} والقبورية فتنة قديمة قد هرم عليها الكبير ونشأ فيها الصغير وترسخت في قلوب كثير من الناس، والأبناء في الغالب الأعم إلا من رحم الله تعالى لا يريدون أن يخالفوا ما ورثوه من آبائهم وأسلافهم، وإن تغيير المألوفات من أعظم الصعوبات التي تواجه الإنسان لكن الحازم الذي سلم قياده للكتاب والسنة لا يكون ذلك الأمر عسيرًا عليه لأن همه رضى الله تعالى، وهو يريد النجاة والفكاك من الهلكة ولا نجاة إلا بالكتاب والسنة، فالعادات والتقاليد والمألوفات لابد أن توزن بالكتاب والسنة فما وافقهما أخذنا به وما خالفهما تركناه، ولا يجوز لأحدٍ أن يعتقد العصمة فيما عليه آباؤه وأجداده بل هم بشر يصيبون ويخطئون ولا ينفع العبد عند ربه يوم القيامة أن يعتذر في وقوعه في المخالفة بأنه وجد عليها آباءه وأسلافه أو أنها عادة قومه لأن العبد مأمور باتباع المرسلين وما نزل عليهم من الكتاب، وقد قال تعالى {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} لا ماذا أجبتم فلانًا وفلانًا من

الآباء والأسلاف، فالحذر كل الحذر من عادات أسلافك إذا كانت مخالفة لأمر ربك والله المستعان.

الثامن: الاغترار بالكثرة

فإن بعض من يقع في شيء من هذه المخالفات قد يحتج بأن هذا عمل الأكثر، ولا يتطرق إلى ذهنه خطأ فعله هذا لأنه يرى أنه أكثر الناس على ذلك، وهذا لا يفيد شيئًا لأن الكثرة لا تدل على صحة ولا فساد، بل المعيار هو موافقة الكتاب والسنة مع أن الكثرة مذمومة في الأعم الأغلب، كما قال تعالى {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} وقال تعالى {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} وقال تعالى {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} والقلة هي الممدوحة كما قال تعالى {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} وقوله تعالى {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} وقال تعالى في شأن الخلطاء {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} فلو أن الأكثر وقعوا في المخالفة فقد وقعوا في الهلكة والجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك، فانتبه لهذا، ولما كنت أنكر على بعض العمالة الوافدة الحلف بغير الله، قال لي:- إن هذا الأمر يفعله أكثر من خمس وأربعين مليونٍ من البشر في بلادنا، فقلت له:- وإن فعله هؤلاء فهو مخالفة بل لو فعله أهل الأرض جميعًا إلا واحدًا لكان الحق مع هذا الواحد، فالحق هو ما وافق الكتاب والسنة، ولا عبرة بمخالفة الأكثر ونحن متعبدون بالكتاب والسنة لا بعمل الأكثر فأكثر الخلق هالكون، قال ﷺ (يقول الله تعالى:- يا آدم فيقول لبيك وسعديك فيقول:- إن الله يأمرك أن تخرج بعث النار قال:- وما بعث النار فيقول:- من كل ألفٍ تسعة وتسعون) أي لا ينجو من كل ألفٍ إلا واحد فقط وقال عليه الصلاة والسلام (وستفترق أمتي على ثلاثٍ

وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)"حديث صحيح بمجموع طرقه" فالكثرة لا تدل على صحة ولا فساد والقلة لا تدل على صحة ولا على فساد وإنما العبرة والمناط في موافقة الكتاب والسنة ومخالفتهما فما وافقهما من الأقوال والمذاهب والأعمال والأنظمة والدساتير والآراء فهو الحق، وما خالفهما من ذلك فهو الباطل فالقاعدة في ذلك تقول:- كثرة الفاعلية لا تدل على صحة الفعل، فالصحة والفساد لم تعلق في الشرع لا على كثرة ولا على قلة فانتبه لهذا - جعلني الله فداك - ووقاك الله كل بلاءٍ وفتنة وجعلنا من الموفقين الهداة المهديين في الدنيا ومن الفائزين المنعمين المفلحين في الآخرة آمين والله أعلم.

التاسع:- تسويل الشيطان على النفس بلزوم اتخاذ الواسطة لعلو مقام الربوبية وأن الطريق إلى الله لابد فيه من حلقة وصل، لأن العبد متلوث بالذنوب والمعاصي، فلابد من مقدمة يتوسل بها العبد المذنب حتى تكون موصلة له لله تعالى، وهذا هو الذي جعل المشركين يتخذون آلهة من دون الله تعالى كما قال ﷻ {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} وذلك لأن الشيطان نجح في تغريز نفوسهم بلزوم هذه الواسطة، وقاسوا ذلك على ملوك الدنيا، فإن الإنسان إذا أراد منهم شيئًا فإنه قد لا يستطيع في أكثر الأحيان أن يوصل لهم مطلوبه إلا باتخاذ الواسطة المحبوبة عندهم لينجح طلبه، ويصل إلى ما يريد، وهذه شبهة إبليسية ومدخل شيطاني قد لبس به على كثير من الناس، ويرجع ذلك إلى ضعف جانب معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته وإلى تشبيه الخالق بالخلق، ولا حقيقة لهذه الشبهة أبدًا فإن الله تعالى هو مجيب الدعوات وقاضي الحاجات الذي يسمع أصوات عباده على اختلاف اللغات وتفنن الحاجات وهو الودود الذي تودد إلى عباده بأنواع لطفه ومحاسن إنعامه وهو القريب الذي لا يشغله

شأن عن شأن ولا دعاء عن دعاء ولا تضرع عن تضرع، وهو الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، وليس بين العبد وبين ربه إلا أن يقبل عليه العبد بقلبٍ صادق ونية خالصة فإنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولم يجعل ربنا جل وعلا بينه وبين عباده أحد، وانظر إلى قوله جل وعلا {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} ولم يقل (قل فإني قريب) فلا واسطة بين العبد وبين ربه ﷻ، وقال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} ولم يقل (ادعوا فلانًا ليدعوني حتى استجيب لكم) وهو الذي يسمع السر وأخفى وهو العليم فلا يخفى على علمه شيء في الأرض ولا في السماء، وقد أمر جل وعلا بدعائه وحده وأن لا يدعى معه أحد {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} فقوله {فَلَا تَدْعُوا} نفي وقوله {أَحَدًا} نكرة وقد وقعت في سياق النفي وقد تقرر في الأصول أن النكرة في سياق النفي تعم، فيدخل في ذلك الملائكة والأنبياء والأولياء وسائر الخلق أجمعين فكل هؤلاء لا يدعون معه جل وعلا لأن الدعاء عبادة والعبادة حقه الصرف الخالص الذي لا يصرف لأحدٍ مهما كان جنسه ومهما كانت مرتبته، ومهما عظمت ذنوب العبد وكثرت خطاياه فلا ييأس من رحمة الله قال تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} وقال تعالى {وَلَا تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} وروى الترمذي من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال:- سمعت رسول الله ﷺ يقول (قال الله تبارك وتعالى:- يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا

تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة) وقد قضى علماء الإسلام بأن من جملة نواقض شهادة الحق أن يتخذ العبد الوسائط بينه وبين الله تعالى يدعوهم في كشف الملمات وتفريج الكربات، وتأمل قوله تعالى ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وتأمل قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ وتأمل قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ فوالله الذي لا إله إلا هو إن الشيطان لا يجد سبيلًا على العبد إذا اعتمد هذه النصوص واهتدى بهديها واستنار بنورها ولكنه الجهل المطبق وتحكيم الهوى واتباع الشهوات نعوذ بالله من ذلك.

العاشر: الاعتقادات الفاسدة في أصحاب القبور والتي يتوارثها عبادها، الآخر عن الأول

من أن لهم تصرفًا خفيًا في الكون، وهذا قد أبطله القرآن غاية الإبطال كما ذكرنا لك طرفًا من ذلك قبل قليل، وسيأتي بعد قليل زيادة في إبطاله إن شاء الله تعالى، وأنهم يسمعون دعاء من يدعوهم وأن لهم القدرة على الإجابة، وأنهم يملكون الشفاعة، وكل ذلك وغيره من الاعتقادات التي لم تبن على هدى ولا على بصيرة وإنما بنيت على الظنون الكاذبة والنقولات الفاسدة والأهواء الكاسدة، قد لبس عليهم الشيطان بها وغررهم حتى أوقعهم في اعتمادها والتعامل مع أصحاب القبور بمقتضاها، ولو نظروا إلى حقيقة الحال لوجدوا

أنهم ليسوا على شيء، وأنهم اجتهدوا فيما يعود عليهم بالضرر الديني والدنيوي والأخروي، وهذه الاعتقادات هي التي نحاول إبطالها بهذه الكتابة إن شاء الله تعالى، فهذه الأمور العشرة هي التي أوقعت عباد القبور في عبادتها ولو تأملتها وتأملت ما ذكرته في الفصل الذي قبل ذلك لعرفة حقيقة القبورية وبطلانها، والله أعلى وأعلم.

اعلم رحمنا الله وإياك أن هناك بعض الشبه التي يحتج بها من يعظم القبور ويعبدها من دون الله تعالى، لابد من الوقوف عليها وتفنيدها وتبيين زيفها ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وهي كما يلي:-

الشبهة الأولى: الاستدلال بقوله تعالى

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

وهذه الآية الكريمة تدور على ألسنتهم كثيرًا، ويزعمون أنها دليل على جواز ما يفعلونه من الأمور التعبدية عند قبور الأولياء والصالحين، والجواب أن يقال:- إن المستدل بالنص الشرعي من الكتاب أو السنة يجب عليه أمران:- الأول:- أن لا يبخس من دلالة ذلك النص شيئًا، الثاني:- أن لا يدخل في دلالته ما ليس منه، أي لا ينقص من دلالته ولا يزيد فيها، فلا يحمل الدليل ما لا يحتمل وهذه الآية الكريمة إنما دلت على علو مرتبة الأولياء من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم، وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ونحن نؤمن إيمانًا جازمًا ونصدق تصديقًا قطعيًا بمدلولها هذا ولا يتطرق إلى قلوبنا في دلالتها ولا مطلق الشك ولكن هل دلت هذه الآية على جواز الطواف بقبور الأولياء؟ وهل دلت على جواز الذبح لهم عند قبورهم؟ وهل دلت على جواز صرف الدعاء أو شيء من أمور

التعبدات لهم؟ وهل دلت على أن لهم تصرفًا في الكون من إجراء السحاب أو إنزال المطر أو نحو ذلك؟ اجمعوا لنا الأصوليين في العالم وأقوالنا بطرائق الاستنباط التي يعرفها أهل العلم وأنزلوها على هذه الآية، فإن هذه الآية لا تدل على قولهم هذا لا بدلالة المطابقة ولا التضمن ولا الالتزام ولا الإشارة ولا بدلالة التنبيه، ولا بأي شيء من أنواع الدلالات التي يعرفها أهل الأصول، وإنما هو شيء فرضته عقولهم واستهوته نفوسهم وزينته لهم أبالستهم من شياطين الجن والإنس، وإلا فكيف بالله عليك يستدل بهذه الآية على الطواف حول قبورهم أو الذبح لهم أو صرف الدعاء لهم من دون الله تعالى أو النذر لهم ونحو ذلك مما يفعلونه عند قبورهم؟ ثم كيف يستدل بالقرآن على إثبات الشرك وتقرير الوثنية وهي التي جاء القرآن أصلًا بإبطالها؟ إنها والله لإحدى الكبر، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا، ثم أضف إلى هذا أن هذه الأفعال التي تفعل عند قبور الأولياء والصالحين هي في الحقيقة معاداة للأولياء لأن الأولياء لا يرضون أبدًا أن يفعل هذا عند قبورهم ومن يفعل هذا عند قبورهم هو في الحقيقة عدو لهم، وقد ثبت في الحديث الصحيح عنه ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال (من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب) وأي معاداة أعظم من هذه المعاداة أن يعتقد في هذا الولي ما لا يجوز اعتقاده إلا في الله تعالى، فإنه لو جاء أحد إليك وقال لك:- أنت مجيب الدعوات وأنت مغيث اللهفات وأنت الذي تنصرنا على الأعداء ونحو ذلك لغضبت غضبًا شديدًا ولعاقبته بل ولقتلته وهكذا الأولياء في قبورهم فإنهم كانوا في حياتهم ينهون عن الشرك ويعلمون التوحيد وينهون عن عبادة غير الله تعالى، فمقر الشرك عدو لهم، ومن عاداهم فقد آذنه الله تعالى بالحرب وأنى لك بهذه الحرب مع الله

تعالى ومن المعلوم أن الولي هو المؤمن المتقي كما قال تعالى {ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} أي آمنوا بتفرده جل وعلا بالعبادة والتعظيم دون كل ما سواه وبكماله في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وتنزهه عما لا يليق بجلاله وعظمته جل وعلا وآمنوا بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره واتقوا ربهم وخافوه وراقبوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه من الشرك والكفر والإلحاد والنفاق والمعاصي فهؤلاء هم الأولياء في الحقيقة، ومن كانت هذه صفته فإنه لا يرضى أبدًا ولا طرفة عين أن يطاف حول قبره أو يكون قبره وثنًا يعبد من دون الله تعالى، ومن يفعل ذلك عند القبور فإنه من أشد أعداء أولياء الله تعالى ومن عاداهم فقد آذنه الله تعالى بالحرب، وأما أصحاب العمائم الكبيرة والدراويش المجانين الحمقى الذين رضوا بلعق أيديهم والتمسح بهم وبحني الرؤوس عندهم وجعلوا لهم مريدين وأتباع لا يعصونهم فيما أمروهم ويفعلون ما يؤمرون فإن هؤلاء ملاحدة زنادقة أفاكون كذابون ليسوا من أولياء الله ولا طرفة عين، بل هم أعداء الله وحزب الشيطان وبرازه ونتنه سخرهم إبليس ليصد بهم الناس عن سواء السبيل، وليجتالهم عن الصراط المستقيم ليكونوا من أصحاب السعير، فهذه الآية حجة عليهم لا لهم لو كانوا يعقلون ثم واعجبي من هؤلاء الذين يستدلون بهذه الآية الكريمة على ذلك أين النصوص الأخرى الناهية عن دعاء غير الله والمخبرة بأن من صرف شيئًا من العبادة لغيره فإنه مشرك وعلى غير سواء السبيل؟ أين هذه النصوص التي تدل الدلالة القطعية التي لا يدخلها مجرد الاحتمال في النهي عن عبادة غيره جل وعلا والآمرة بإفراده بكل أنواع العبادة؟ ولكنها عادة أهل الأهواء الضالين يدعون المحكم ويأخذون بالمتشابه ويتركون الواضح ويعتمدون الذي فيه احتمال، مع أن الآية

المذكورة واضحة محكمة لا غموض ولا لبس ولكنها الأهواء التي تعصف بأهلها أعاذنا الله وإياك منها، وقد أخبر الله تعالى أن علامة الذين في قلوبهم زيغ هو ترك المحكم واتباع المتشابه كما قال تعالى {فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ} والنبي ﷺ قد حذر هذا الصنف من الناس حين قال في حديثه الصحيح (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم)"متفق عليه" فيجب على المؤمن أن يحذرهم أشد الحذر، ثم أضف إلى هذا أن الذي يجب اعتقاده في القرآن أنه حق كله وصدق كله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنه لا تناقض فيه ولا اضطراب ولا اختلاف بل يصدق بعضه بعضًا ويؤيد بعضه بعضًا، فإذا كانت هذه الآية تدل على جواز صرف شيء من أنواع العبادة لقبور الأولياء والصالحين، فإن هذا زعم بأن القرآن متناقض لأنه من أوله إلى آخره دعوة إلى التوحيد وإلى إفراده جل وعلا بكل أنواع العبادة من الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والإنابة والذبح والاستعاذة والاستغاثة والاستعانة والسجود والركوع ونحوها من العبادات، فكيف ينهى عن الشيء في مكان ثم يجيزه في مكان؟ هذا يدلك على أن ما فهمه القبوريون من هذه الآية هو في حقيقته فهم غريب أجنبي عن الآية، وتحميلها ما لا تدل على عليه بأي نوع من أنواع الدلالة ثم أضف إلى هذا بأن يقال لمن يفعل هذه الأفعال عند قبور الأولياء والصالحين:- هل الصحابة كانوا يعلمون هذه الآية؟ فسيقول بالطبع:- نعم فقل له:- وهل فعلوا شيئًا من هذه الأفعال التي تفعلها أنت عند القبور؟ فسيقول لا، وأتحداه إذا قال نعم أن يثبت لنا ولو من طريق ضعيف عن أحد من الصحابة أنه كان يفعل ذلك وهذا التحدي مستمر على مر الأزمنة إلى أن تقوم

الساعة ويرث الله الأرض ومن عليها فالصحابة قرءوا هذه الآية وفهموها حق فهمها ولم يفعلوا شيئًا من هذه الأفعال عند أي قبر، فهذا يفيدك أنهم لم يكونوا يفهمون من هذه الآية أنها تدل على شيء من ذلك وقد تقرر لنا سابقًا وفي مناسبات عديدة أننا نأخذ معتقدنا من القرآن والسنة على فهم سلف الأمة، وتقرر لنا أيضًا أن أي فهم في القرآن يخالف فهم السلف فهو باطل، فما فهمه عباد القبور من هذه الآية ليس هو الفهم الصحيح للآية لأنه مخالف ومجانب المجانبة المطلقة لما فهمه السلف منها، وليس كل أحدٍ يفهم القرآن على شهوته وهواه وما يتوافق مع موروثاته الفكرية والعقدية المخالفة للكتاب والسنة فإن هذا الباب لو فتح لجاءك الباطلون بالعجائب والأهوال، وإن أردت مصداق ذلك فانظر إلى تفاسير الرافضة التي حقها أن تحرق بالنار، فأي الفهمين أحب إليك، فهم السلف من الصحابة والتابعين والأئمة الذين هم أعلام الهدى ومصابيح الدجى أم فهم الزنادقة الجهلة الكذابين الذين لا يستحون من الله ولا من عباد الله؟ وقد أحزنني والله قول القبوريين في هذه الآية وبينما أنا أقلب كتب التفسير حول هذه الآية وجدت أن الله تعالى قال بعد ذلك {وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم} فعجبت من هذا الترتيب العظيم والنسق الذي لا يقدر عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء من المخلوقين فهو كلام الله تعالى منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود فالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم أضف إلى هذا أن الله تعالى قال في الآية {لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} أي فيما يستقبلهم من الأهوال {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} أي على ما تركوه وراء ظهورهم من الأهل والأموال وغيرها، فهذا فيه نفي للخوف والحزن عن الأولياء، وهل أنت

تفهم من نفي الحزن عنهم نفي الحزن عنك أو تفهم من نفي الخوف عنهم نفي الخوف عنك؟ إن كنت تفهم هذا فلا أدري بماذا توصف؟ فهما خوفان وحزنان منفصلان، خوفك وخوفهم وحزنك وحزنهم، ونفي أحدهما لا يدل على نفي الآخر، فالله تعالى نفى عنهم الخوف والحزن لأنهم قاموا بما أوجبه عليهم من الإيمان والتقوى وهذا يفيدك أنه لولا إيمانهم ولولا تقواهم لما أمنوا من الخوف ولا من الحزن، فإن كنت صادقًا فاعمل ما عملوا وافعل ما فعلوا وكن على الإيمان والتقوى حتى تكون من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أما أن تعتقد أنه لا خوف عليك ولا حزن بعمل غيرك فإن هذا فهم عقيم وضلال عن الصراط المستقيم ولو دخلت على ملك من ملوك الدنيا وقال ذلك الملك لأحد الجلوس عنده:- قم يا فلان فإنه لا خوف ولا حزن عليك، وخرجت أنت من هذا المجلس فرحًا تقول:- الحمد لله لقد أمنني الملك من الخوف والحزن لعد العقلاء ذلك منك نوع جنون لأنه لم يخاطبك وإنما خاطب غيرك ولم يؤمنك وإنما أمَّن غيرك، فتأمين غيرك ليس تأمينًا لك، فأين هذا من هذا، وهذا واضح ولكنه غبش الفهم وفساد العقل وتسويل الشيطان، نعم لو حققت الشرط المذكور في الآية أعني قوله تعالى {الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} فأبشر بالخير الكثير الوفير في الدنيا والآخرة، ولكن أين الإيمان والتقوى من الذي يطوف حول القبور ويذبح عندها ويدعوها من دون الله تعالى وينذر لها ويعتقد فيها الاعتقادات الفاسدة الكاسدة العفنة الموجبة لمعتقدها الخروج من مطلق الإيمان ومن مطلق التقوى، فالأمر عظيم ولكن الجهل قد أعمى عين العقل والبصيرة عن مطالعة هذه الهوة السحيقة والحفرة العميقة، وإن الفهم الفاسد هو الذي منع إبليس من الاستجابة لأمر الله تعالى في قوله {اسْجُدُواْ لآدَمَ} فهذه

آفة قديمة وبلية وخيمة أوصيك ونفسي بكثرة الاستعاذة منها وقد كان من دعاء النبي ﷺ أنه كان يقول (اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه) فمها نعمتان:- معرفة الحق واتباعه ومعرفة الباطل واجتنابه فلا تكفي معرفة الباطل فقط ولا معرفة الحق فقط، من غير ترك ذاك واتباع هذا فيارب أسألك باسمك الأعظم أن تزيل عنا شبهات الشياطين وأن ترسخ في قلوبنا العلم وأن تهدي جوارحنا للعمل الذي تحققت فيه شروط القبول والله أعلى وأعلم. وهذا رد على الاستدلال بهذه الآية على هذه الأفعال المنكرة الشنيعة القبيحة والله المستعان وعليه التكلان.

الشبهة الثانية

تحقق بعض المقاصد لمن دعا أصحاب القبور أو دعا الله عند أصحاب القبور

ورؤية بعضهم هذا القبور أو الصالح قد جاءهم وحقق لهم بعض ما يريدون، وهذه شبهة قديمة، وقد كشف اللثام عنها كثير من أئمة أهل السنة رحمهم الله تعالى لاسيما فيما كتبه أبو العباس بن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى قال أبو العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى:- (ومن هؤلاء من يأتي إلى قبر الشيخ الذي يشرك به ويستغيث به فينزل عليه من الهواء طعام أو نفقة أو سلاح أو غير ذلك مما يطلبه فيظن ذلك كرامة لشيخه وإنما ذلك كله من الشيطان وهذا من أعظم الأسباب التي عبدت بها الأوثان وقد قال الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ .اهـ. قلت:- وربما سمع بعضهم كلامًا يأتيه من جهة القبر أو يرى أن القبر قد انشق وخرج منه الميت والتزمه وربما سمع مناديًا يناديه من بعيد يقول له:- أبشر فقد قضيت حاجتك فيظن المسكين أنه هو بعينه صاحب القبر الذي

دعاه من دون الله تعالى وهو في الحقيقة شيطان أراد أن يضله ويزيد في تعليق قلبه بهذا القبر وقد ثبت عن كثير من السلف رحمهم الله تعالى في تفسير قوله تعالى {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا} أنهم قالوا:- مع كل صنمٍ جنية ولذلك فإن النبي ﷺ لما فتح مكة أرسل خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى العزى فهدمها ووجد عندها شيطانة كانت تضل الناس وتخاطبهم من داخل العزى، وقد ثبت ثبوتًا لا مرية فيه أن الشياطين كانت تدخل في الأصنام وتخاطب عبادها وتقضي لهم شيئًا من حوائجهم حتى أضلتهم وزينت لهم شركهم وهذا كله من الشيطان فإنه تكفل وأقسم أن يغوي بني آدم كلهم أجمعين إلا عباد الله المخلصين، فما يراه أصحاب القبور عند القبور أو يسمعونه من الهتافات والمخاطبات أو قضاء بعض الحاجات إنما هو من الشيطان، وصدق الله تعالى إذ قال {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} فمن أوجه إضلاله ما يحصل عند القبور المعظمة عند أصحابها، وهذه في الحقيقة ليست بشبهةٍ إلا عند من خلا قلبه من نور العلم والإيمان، وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى (وأعرف من هؤلاء عددًا، ومنهم من كان يحمل في الهواء إلى مكانٍ بعيد ويعود ومنهم من كان يؤتى بمالٍ مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله على السرقات بِجُعْلٍ يحصل له من الناس أو بعطاءٍ يعطونه إذ دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك) وقال في موضعٍ آخر (ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حي أو ميت سواءً كان ذلك المخلوق مسلمًا أو نصرانيًا فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث به فيظن أنه ذلك الشخص أو هو ملك على صورته وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله

كما كانت الشياطين تدخل في الأصنام وتكلم المشركين، ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ويقول له:- أنا الخضر وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه كما جرى ذلك لغير واحدٍ من المسلمين واليهود والنصارى، وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب يموت لهم الميت فيأتي الشيطان بعد موته على صورته وهم يعتقدون أنه ذلك الميت ويقضي الديون ويرد الودائع ويفعل أشياء تتعلق بالميت ويدخل إلى زوجته ويذهب وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار كما يصنع كفار الهند فيظنون أنه عاش بعد موته ومن هؤلاء شيخ بمصر أوصى خادمه فقال:- إذا أنا مت فلا تدع أحدًا يغسلني فأنا أجيء وأغسل نفسي فلما مات رأى خادمه شخصًا في صورته فاعتقد أنه هو دخل وغسل نفسه فلما قضى ذلك الداخل غسله غاب، وكان ذلك شيطانًا وكان قد أضل الميت وقال:- إنك بعد الموت تجيء تغسل نفسك فلما مات جاء في صورته ليغوي الأحياء كما أغوى الميت قبل ذلك، ومنهم من يرى عرشًا في الهواء وفوقه نور ويسمع من يخاطبه ويقول:- أنا ربك فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان فزجره واستعاذ بالله منه فيزول ذلك).اهـ. كلامه رحمه الله تعالى، وحيث كانت هذه من الشبه الشيطانية الكبيرة فلابد من الوقوف على تفاصيلها والإطالة في الإجابة عنها وتنويع الطرح حتى يتضح لفاعلها وجه الحق فيها إن شاء الله تعالى فأقول وبالله التوفيق ومنه أستمد الفضل والعون وحسن التحقيق:- الجواب عن هذه الشبهة من وجوه:-

الأول:- أن تعلم بارك الله فيك أن دين الإسلام مبني على أصلين عظيمين كبيرين وهما أن لا نعبد إلا الله وأن لا نعبده إلا بما شرعه لنا رسوله ﷺ، فأي عباده تخلف فيها أحد هذين الركنين فإنها باطلة، فالعبادة التي حصل فيها

إخلاص وتخلفت عنها المتابعة عبادة باطلة، والعبادة التي تحققت فيها المتابعة وتخلف عنها الإخلاص أيضًا عبادة باطلة، فلا يقبل الله تعالى من الأعمال إلا ما كان خالصًا صوابًا، والخالص ما كان لله تعالى والصواب ما كان موافقًا للسنة، ولا عبرة ولا اعتداد بأي عمل تخلف فيه أحد هذين الركنين، وإن ترتب عليه من الآثار والعجائب ما ترتب، فبما أن الفعل مخالف للسنة فهو باطل وإن حصل لصاحبه ما حصل من المطلوب، فمجرد تحقق المطلوب لا يدل على صحة الفعل لأن المقياس في صحة الأعمال وقبولها من بطلانها وردها ليس هو ترتب الأثر وإنما موافقة الكتاب والسنة، فما وافقهما فهو حق وما خالفهما فهو باطل، ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن الدعاء عند القبور حرام وموبقة وجريمة في حق التوحيد، وشرك أكبر إذا كان الدعاء مصروفًا لصاحب القبر أو كان يعتقد أن لصاحب القبر تصرفًا في إجابة الدعاء وإغاثة اللهفة هذا ما لا ينازع فيه أحد من علماء المسلمين، فحيث كان هذا الفعل محرمًا في الشريعة فلا يجوز لأحد أن يفعله، ولا حجة في فعل من فعله فتحقق له بعض مقصوده، لأن الحجة إنما هي في الكتاب والسنة لا في فعل أحدٍ من الناس كائنًا من كان، فلو أن رجلًا دعا عند قبرٍ وتحقق له مقصوده فهل بالله عليك يكون ذلك ناسفًا لأدلة الكتاب والسنة وإجماع الأمة على تحريم ذلك من أجل أن أحدًا دعا عند قبر وتحقق له بعض مقصوده؟ من يقول هذا؟ لا والله إن هذا غير متصور صدوره من عاقل فضلًا عن عالم، فالدعاء عند القبور محرم وإن تحققت الإجابة، ودعاء أصحاب القبور والاستغاثة بهم شرك أكبر وإن تحققت الإجابة لأن ميزان معرفة المشروع من الممنوع إنما هو الكتاب والسنة، والأدلة في تحريم دعاء غير الله تعالى قد بلغت مبلغ التواتر المفيد للقطع وصار تحريم

ذلك من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة والمقطوع بها في شريعة الإسلام وصارت في الأمة أوضح من شمس النهار ولا ينكرها أو يعارض في دلالتها إلا الملحد الفاجر الكفار، من الذين تربوا على موائد إبليس العفنة وتغذوا من شبهه المفضوحة وشهواته المقبوحة، وأما العقلاء الذين انتفعوا بعقولهم فإنهم يعتمدون ما اعتمده الكتاب والسنة ويلغون ما ألغاه الكتاب والسنة والميزان عندهم هو أن لا يعبد إلا الله تعالى وأن لا يعبد إلا بما شرعه لهم رسولهم ﷺ وليس الدعاء عند القبور من المشروع بل هو من الممنوع المنع الأكيد القطعي بالأدلة المتواترة المقطوع بصحتها سندًا وبصراحتها دلالة ومتنًا، والله ربنا أعلى وأعلم.

الثاني:- أن قصد القبور للدعاء عندها ورجاء الإجابة هنالك رجاءً أكثر من رجائها بالدعاء في غير هذا الموطن أمر لم يشرعه الله ولا رسوله ﷺ ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة المسلمين ولا ذكره أحد من العلماء ولا الصالحين المتقدمين، وأصحاب رسول الله ﷺ قد أجدبوا مراتٍ ودهمتهم نوائب غير ذلك فهلا جاءوا فاستسقوا عند قبر النبي ﷺ؟ بل خرج عمر بالعباس فاستسقى به ولم يستسق بقبر النبي ﷺ ولا عنده، وأنت خبير بما نقله بعض أهل المغازي والسير أنه لما وجد المهاجرون والأنصار في بعض مغازيهم في تستر فإنهم قد وجدوا في بيت مال الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت وعند رأسه مصحف له فأخذوا المصحف فحملوه إلى عمر فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية... الخ والمقصود منه أنهم حفروا لهذا الميت بالليل ثلاثة عشر قبراً متفرقة ثم دفنوه بالليل وسووا القبور كلها ليعموه على الناس حتى لا يفتتنوا به، وهو إنكار منهم لذلك وقد كان من قبور أصحاب النبي ﷺ بالأمصار عدد كثير

وعندهم التابعون ومن بعدهم من الأئمة وما استغاثوا عند قبر صحابي قط ولا استسقوا عنده ولا به ولا استنصروا عنده ولا به ومن المعلوم أن ذلك لو حصل منهم لكان ذلك مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله بل على نقل ما هو دونه، ومن تأمل كتب الآثار وعرف حال السلف رحمهم الله تعالى تيقن قطعًا أن القوم ما كانوا يستغيثون عند القبور ولا يتحرون الدعاء عندها أصلًا بل كانوا ينهون عن ذلك ويزجرون من فعله والحق كل الحق في فعل الصحابة والتابعين، فإنهم أبر هذه الأمة قلوبًا وأعمقها علمًا وأدراها بالشريعة فالخير كل الخير في اتباع من سلف والشر كل الشر في ابتداع من خلف، فهذا إجماع السلف رحمهم الله تعالى على المنع من الدعاء عند القبور وزجر فاعلها فهل بالله عليك يجوز لنا أن نترك ذلك الإجماع من أجل أن فلانًا دعا عند القبر فاستجيب له؟ لا والله لا يجوز لنا ذلك كيف يعارض القرآن والسنة وإجماع سلف الأمة بمثل ذلك؟ نعوذ بالله من حال أهل الضلال، والله أعلى وأعلم.

الثالث:- لقد اتفق علماء السلف رحمهم الله تعالى على بطلان قول من قال:- إن الدعاء عند القبر أفضل منه في موضع آخر، فهذه الكلمة ضالة باطلة باتفاق أهل العلم، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى (وأصل هذا:- أن قول القائل إن الدعاء مستجاب عند قبور الأنبياء والصالحين قول ليس له أصل في كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله ﷺ ولا قاله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا أحد من الأئمة المشهورين بالإمامة في الدين كمالك والثوري والأوزاعي والليث بن سعد وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي عبيدة ولا مشايخهم الذين يقتدى بهم كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني وأمثالهم ولم يكن في الصحابة والتابعين والأئمة

والمشايخ المتقدمين من يقول:- إن الدعاء مستجاب عند قبور الأنبياء والصالحين لا مطلقًا ولا معينًا ولا فيهم من قال:- إن دعاء الإنسان عند قبور الأنبياء والصالحين أفضل من دعائه في غير تلك البقعة ولا أن الصلاة في تلك البقعة أفضل من الصلاة في غيرها ولا فيهم من كان يتحرى الدعاء ولا الصلاة عند هذه القبور).اهـ.

كلامه رحمه الله تعالى، قلت:- فهذا نقل لاتفاق علماء السلف رحمهم الله تعالى على أن هذه الكلمة التي يرددها عباد القبور لا أصل لها في الشريعة وأنه لم يقلها أحد من أهل السنة وإنما هي مقولة نفث بها الشيطان في روع أتباعه من الإنس ليغروا بها الأغمار ويستزلوا بها السفهاء الجهلة الذين لاحظ لهم من علوم النبوة، فكيف نخالف هذا الاتفاق بمجرد أن فلانًا دعا عند القبر فتحقق له بعض مقصوده؟ كيف تطاوعنا قلوبنا وألسنتنا أن نقول:- بما أنه قد استجيب لفلان لما دعا عند القبر فلا بأس بالدعاء عندها بل الأفضل الدعاء عندها وأن الدعاء عندها من مواطن الإجابة، كيف نقول ذلك مع اتفاق السلف رحمهم الله تعالى على أن هذه الكلمة ليست من الشريعة في شيء؟ لا والله لا نقول هذا أبدًا، بل الدعاء عند القبور حرام وشرك وإن تحقق بعض مقصود الداعي، فإن تحقق هذا المقصود لا يجعل الدعاء عند القبر في دائرة المشروع بل هو دائمًا وأبدًا في بوتقة الممنوع وإن حصل من الاستجابة والعجائب ما حصل هذا هو ما نعتقده وندين الله تعالى به ونسأله جل وعلا باسمه الأعظم أن يختم لنا به وهو أعلى وأعلم.

الرابع:- اعتقاد أفضلية الدعاء عند القبور مفضٍ إلى مفاسد عظيمة، وأعظم هذه المفاسد أنه وسيلة من وسائل اعتقاد أن لهذا المقبور تصرفًا خفيًا في الكون

من إجابة الدعوات وإغاثة اللهفات والنصر على الأعداء وإنزال المطر أو الوساطة بذلك عند الله جل وعلا، فإن العبد إذا دعا عند القبر فاستجيب له فإنه لابد أن تنصرف شعبة من قلبه اعتمادًا وتوكلًا إلى صاحب هذا القبر حتى يكون ذلك لبنة أولى لبناء الاعتقادات الباطلة في صاحب هذا القبر وإضفاء الأوصاف عليه مما لا يليق إلا بالله تعالى وهل قيل:- ما قبر فلان إلا كالترياق في الحوائج إلا بسبب ذلك، ومن المعلوم أن سد الذرائع أصل من أصول الشريعة وأن كل ما أفضى إلى الحرام فهو حرام، هذا إذا كان الشيء حلالًا في ذاته لكنه حرام لأنه صار وسيلة إلى الحرام فكيف والوسيلة أصلًا محرمة في ذاتها فإن الدعاء عند القبر محرم في ذاته ولكن يزداد تحريمه وتعظم أهمية منعه والوقوف في وجه فاعليه إذا علمنا أنه من الوسائل القوية الموجبة للاعتقادات الباطلة في أصحاب القبور من الأنبياء والأولياء، فلا شك أن الأمر خطير والعواقب وخيمة وبناءً عليه فالدعاء عند القبر حرام وإن حصل للداعي ما حصل من الإجابة، والله أعلم.

الخامس:- أن إجابة الله للداعي ليس دليلًا على محبته له أو أنه قد أراد به الخير فهذا إبليس لما قال {رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} قال الله تعالى {فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} فهل إجابة الله تعالى لهذا الحقير دليل على إكرامه له أو أنه أراد به خيرا؟ بالطبع لا، بل هذه الإجابة تتضمن الفتنة له لو كان يعقل، وكذلك لما دعا طائفة ربهم أن يؤتيهم من فضله ووعدوا أن يتصدقوا فلما استجيب لهم نكثوا وغيروا وبدلوا فصارت إجابته لهم من باب زيادة الفتنة لهم قال تعالى {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ} فصارت الإجابة من باب الفتنة لا من باب المحبة والرحمة، وكذلك نقول هنا:- إن بعض الناس بسبب تركه للمشروع من الدعاء واتكال قلبه على هذا المقبور ولابتهال إليه قد يتحقق له بعض المقصود لكن ليس هذا على سبيل الرحمة والمحبة وإنما على سبيل الفتنة والابتلاء، فتكون هذه الإجابة من باب الاستدراج والإملاء والمكر لا من باب الإعانة والرحمة، وهذا حق لا مرية فيه فإنك إذا رأيت الله تعالى يجيب دعاء الغارق في شبهاته وشهواته فاعلم أنه استدراج حتى إذا أخذه أخذ عزيز مقتدر فانظر كيف قلب القبوريون هذا الأمر إلى اعتقاد أنه من كرامة الله تعالى لصاحب هذا القبر فسبحان من أعمى عيون الخفافيش عن درك نور الحق فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، وصدق الله العظيم إذ قال {فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُون} والله أعلى وأعلم. ؟؟؟

السادس:- أن الله تعالى قد ذكر في كتابه الكريم قوله جل ذكره }أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} وهذا الذي دعا الله عند هذا القبر قد يكون قامت به ضرورة وحاجة ملحة، حتى دخل في وصف المضطر الذي اشتدت حاجته فحانت معه لحظة صادقة في الطلب فاستجيب له بسبب ما قام به من الضرورة والحاجة فيظن هذا المسكين أنه إنما استجيب له بسبب أنه دعا عند هذا القبر أو أن صاحب القبر هو الذي أجابه فيضل من حيث لا يشعر، وفي الحقيقة أن الذي أجابه هو الله تعالى ولا علاقة بوجوده عند القبر ولا غير ذلك وإنما لأنه قد قامت به ضرورة عظيمة وحاجة ملحة صارت سببًا لإجابة دعائه لأنه جل وعلا هو مغيث اللهفات وقاضي الحاجات وكاشف السوء ومجيب دعوة المضطرين، فلا علاقة أصلًا لقربه من القبر أو كونه في المقبرة وإنما

اضطراره هو سبب هذه الإجابة ولكن الشيطان صرف نظره إلى كونه قريبًا من القبر ليفسد عليه معتقده ويدخله في دائرة المعظمين للقبور ليسلب توحيده فيكون معه من جملة أصحاب السعير، نعوذ بالله من ذلك.

السابع:- أن البواطن قد تكون صريحة بما يقترن بها من القرائن الدالة عليها فالظواهر تدل على البواطن ولابد، وهذا الذي قصد الدعاء في المقبرة وعند صاحب هذا القبر المخصوص، وترك الدعاء في المساجد التي هي بيوت الله تعالى، وعمد بقصدٍ جازم وعزم ماضٍ إلى المقبرة ليدعوا لنفسه عند قبر من قبورها هذه القرينة الظاهرة هي من أكبر الدلائل والشواهد أن هذا الداعي قد امتلأ قلبه اعتقادًا باطلًا في القبور مما يفيدك أن هذا الفعل الظاهر لم يقع هكذا عبثًا وإنما هو نابع عن عقيدة فاسدة في القبور، وأصحابها، ولو تفطنت لذلك لوجدته صحيحًا واضحًا، وهذا هو الذي نحاربه وإلا لو سألته عن الداعي لهذا الفعل؟ لما وجد إجابة صحيحة إلا أنه يعتقد في القبور وأصحابها، وهذا هو الذي جعل القبوريين يعطلون المساجد ويعمرون المشاهد، وهذا منه ما يكون شركًا أكبر وهو أكثره ومنه ما يكون وسيلة للشرك الأكبر والكل حرام، ولكن درجات الحرام تختلف، والواجب على العبد أن يسعى باطنًا وظاهرًا لتصحيح معتقده وعمله وأن يكون موافقًا لما عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، فلو أن أحد القبوريين قال:- أنا أدعو عند القبور بلا اعتقاد فيها لكان ذلك منه نفاق وكذب وفراوغة ومخادعة، لأن ظاهره هذا يفيد ما انعمر به باطنه، والمتقرر أن كل إناء بما فيه ينضح، وأن الجوارح لا تعمل إلا بما امتلأ به القلب، والله يحاسب كلا بعمله إن خيرا فخير وإن شرًا فشر والله تعالى أعلى وأعلم.

الثامن:- أن كثيرًا مما يحصل عند القبور من خوارق العادات إنما هي أحوال شيطانية وخوارق إبليسيه يراد بها زيادة إضلال هذا، فالشيطان له سلطان على مثل هؤلاء الذين خلت قلوبهم من التوحيد وعشعشت فيها الشبهات المضلة والأهواء المخلة وهو من تسليط الله تعالى تلك الأبالسة عليهم بسبب ما هم فيه من الشرك وعشق الوثنية والتنكب عن الصراط المستقيم، وقد قدمنا ذلك في أول الكلام عن هذه الشبهة، وذكرنا لك بعض نقول أهل العلم في ذلك، قال تعالى }أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا{ وقال تعالى {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} وقال تعالى {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} .

التاسع:- أن غالب ما يذكره الناس فيما بينهم ويشتهر عندهم في إجابة بعض الدعوات عند بعض القبور إنما هي خرافات لا صحة لها، وإنما هي من الأراجيف الباطلة والحكايات المحبوكة التي يراد من ورائها إضلال العامة، والدهماء الذين لا فقه عندهم ولا خبرة لهم في مكر هؤلاء الأبالسة البشرية، والتي يقصدون من ورائها فتنة الناس بهذا القبر، وإلا فوالله الذي لا إله إلا هو إن أكثر هذه الحكايات مفتعلة ولو سألنا عن أسانيدها ودرسنا أحوال ناقلها لوجدناهم بالكذب والتهمة يوصفون ومجرد شهرتها بين هذه الطغمة من الناس لا يفيد صحتها، فإن من العقوبات التي يعاقب بعض الناس يوم القيامة الكذب الذي يكذبه فيبلغ الآفاق، فلا عبرة باشتهار هذه القصص ولا عبرة بكثرة تناقلها بين الفئآم من الناس إنما العبرة هي في صحتها في نفس الأمر وقد ذكرت لك أن غالبها خرافات كاذبة وأراجيف تفوه بها الأفاكون الضالون المضلون ليستزلوا بها رعاع الناس وجهلتهم للوقوع في حبائل الوثنية والغوص في أوحال القبورية،

وقد ذكرت لك سابقًا أن من الأسباب التي جعلت شريحة كبيرة تعظم القبور ما يثيره سدنة القبر ومعظمون من مثل هذه الحكايات التي لا خطام لها ولا زمام فاحفظ عقلك عن مثل هذه السخافات وصن سمعك عن سماع مثل هذه الترهات، حفظك الله من كل سوءٍ ومكروه وعافاك الله من كل بلاء حي حسي ومعنوي والله ربنا أعلى وأعلم.

وتعرف بهذا أن هذه الشبهة ليست بشيء وأنها هواء خواء لا حقيقة ولا أثر لها في قلوب الصالحين والله يحفظنا وإياك.

الشبهة الثالثة

استدلالهم بقوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا} ولهم فيها فهمان قبيحان باطلان:- الأول:- أن حكم هذه الآية مستمر حتى بعد وفاة رسول الله ﷺ، الثاني:- أن غيره من الأولياء يقاس عليه ﷺ أي أن العبد إذا أذنب وتاب وجاء إلى قبر أحد الأولياء فطلب منه الشفاعة إلى ربه وأن يستغفر فلا حرج في ذلك قياسًا على الإتيان لقبر النبي ﷺ، وهذا حجة سمعتها من بعضهم وهذا الاستدلال مبني على الفهم الفاسد والرأي العاطل الكاسد وبيان ذلك تفصيلًا في عدة وجوه:

الأول:- أنه يجب عليك أن تعتقد الاعتقاد الجازم الذي لا يداخله أي نوع من أنواع الريب أن القرآن محكم ومتشابه كله كما قال تعالى {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} وقال تعالى {كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ...الآية} والمراد بالإحكام والتشابه العام أي الإتقان والتماثل فبعضه يصدق بعضًا ويؤيد بعضه بعضًا ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقع فيه شيء من التناقض والتضارب والاختلاف

والتعارض فلا يمكن أن يأمر في مكان وينهى عنه في مكانٍ آخر أو يحرم شيئًا في مكان ويجيزه في مكانٍ آخر، هذا ما لا يكون فيه أبدًا، إذا علمت هذا فاعلم أن القرآن جاء بتقرير التوحيد ومكملاته، وبإبطال الشرك وسد أبوابه ووسائله، فلا يمكن أن تجد آية يقرر القرآن فيها الشرك وأنه جائز، هذا لا يكون أبدًا، فأي آية قرأتها وانقدح في ذهنك وفهمك أنها تجيز الشرك فاعلم أنك مخطئ وضال في هذا الفهم ومن جملة ذلك هذه الآية التي ذكرتها لك والتي يستدل بها عباد القبور على جواز صرف الدعاء لغير الله تعالى، فإن هذا فهم باطل وظن عاطل عن مطلق الصحة لأنه يلزم منه أن هذا القرآن متناقض والعياذ بالله، ذلك لأن إبطال الشرك وسد أبوابه وذرائعه من القضايا الكبار التي نزل القرآن بتقريرها ولذلك فقد كثرت الآيات في ذلك وتنوع الطرح فيه فكيف يقرر ما يخالف ذلك؟ ولكن البلية هي الفهم الخاطئ فيجب عليك أن تتهم عقلك وفهمك وأن ترد الأمر إلى أهل العلم لكشف الشبهة عنك والتي ستكون بذرة سوءٍ ومقدمة شر إن لم تبادر بكشفها عنك، وبناءً عليه فلا بد من الجزم الأكيد اليقيني القطعي أن هذه الآية لا تدل بحالٍ من الأحوال ولا بوجه من أوجه الاستدلال على ما ذهب إليه عباد القبور فيها وما فهموه منها.

الثاني:- أن المتقرر عند أهل العلم الراسخين أن الأمر الذي حصل فيه شيء من الخفاء والتشابه يراد إلى المحكم البين الواضح، وأنه لا يجوز اتباع ما تشابه من القرآن، لأن هذا ديدن الذين في قلوبهم زيغ ومرض نعوذ بالله منهم ومن حالهم قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ...الآية﴾ فالواجب أن يرد المتشابه إلى المحكم، والمجمل إلى المبين، هذا طريق من أراد السلامة في دينه عمومًا وفي اعتقاده على وجه

الخصوص، وبناءً عليه فإذا كانت هذه الآية فيها نوع خفاء أو احتمال لتجويز طلب الدعاء من الأموات سواءً الأنبياء أو الصالحين فاردد الأمر إلى القواطع القرآنية التي لا لبس فيها ولا خفاء والتي تقضي قضاء جازمًا بأنه لا يدعى إلا الله تعالى وأن دعاء غيره شرك أكبر فإن هذه الآيات قد ملأت القرآن، فإن من في قلبه إيمان ليعلم جزمًا أن إبطال دعاء غير الله تعالى من القضايا التي فصلها القرآن في مواضع كثيرة كقوله تعالى {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} وقوله تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} وقوله تعالى {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ...الآية} وقال تعالى {وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ} وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ...الآية} وقال تعالى {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} وقال تعالى {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} وقال تعالى {قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} وقال تعالى {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا لا تكاد تحصى، وكلها حجج قاطعة وبراهين ساطعة في أن الدعاء من حقوق الله المحضة التي لا يجوز صرفها لملك مقرب ولا لنبي مرسل، أفترك

هذه الآيات الواضحات والأدلة النيرات من أجل احتمال ظنه بعض الجهلة في آية من آيات القرآن؟ ولكن هي الأهواء التي تتجارى بأصحابها كما يتجارى الكلب بصاحبه فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله، فنعوذ بالله من الأهواء فبان بذلك أن الواجب على أهل العلم والإيمان إن اشتبه عليهم شيء من الآيات أن يردوه إلى المحكم الواضح حتى يتميز لهم الأمر والله أعلم.

الثالث:- أن المتقرر عند أهل السنة أن كل فهم يخالف فهم السلف في مسائل الاعتقاد فإنه باطل مردود على صاحبه وقد تقرر أيضًا أن الواجب الأخذ بالكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، وهذه الآية قد قرأها سلف الأمة ولا شك وقد فهموها حق فهمها، فهل اقتضى فهمهم لها أن يأتي التائب منهم إلى قبر النبي ﷺ فيستغفر عنده ويطلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يستغفر له؟ هل أحد منهم فعل ذلك؟ هل ثبت ذلك عن أحدٍ من الصحابة أو أحدٍ من التابعين أو تابعيهم؟ وهل ثبت ذلك عن أحدٍ من سلف الأمة وأئمتها؟ لا والله ما ثبت عن أحدٍ منهم شيء من ذلك، فلما لم يثبت عن أحدٍ منهم شيء من ذلك فإننا نعلم جزمًا أنهم لم يكونوا يفهمون من الآية جواز ذلك ونحن نفهم القرآن على فهمهم لأنهم أكمل الأمة عقولًا وأزكاها فهومًا وأشدهم اتباعًا وأعرفهم بالتأويل، وأي فهم في القرآن مبتدعٍ فهو رد على صاحبه لاسيما الفهم الذي يلزم منه فتح باب الشرك والوثنية بتعظيم القبور وأصحابها كما فهم القبوريون من هذه الآية ما فهموا فلو كان الإتيان لقبر النبي ﷺ والاستغفار عنده وسؤاله الاستغفار من الخير والدين لسبقونا إليه رضي الله عنهم فكل السلف رحمهم الله تعالى قد فهموا أن هذا المجيء مختص بحياته فقط لا بعد مماته قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره (وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته لأن السياق يدل على

ذلك لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه بل ذلك شرك).اهـ. وهذا التنبيه اللطيف من الأشياء التي تميز بها تفسيره رحمه الله تعالى.

وقال الشيخ صديق بن حسن القنوجي في تفسيره الماتع الرائق فتح البيان في مقاصد القرآن (وهذا المجيء يختص بزمان حياته ﷺ وليس المجيء إليه، يعني إلى مرقده المنور بعد وفاته ﷺ مما تدل عليه هذه الآية كما قرره في الصارم المنكي ولهذا لم يذهب إلى هذا الاحتمال البعيد أحد من سلف الأمة وأئمتها لا من الصحابة ولا من التابعين ولا ممن تبعهم بإحسان).اهـ.كلامه رحمه الله تعالى، وقال العلامة المحدث محمد بن أحمد بن عبدالهادي في كتابه العظيم الصارم المنكي (ولم يفهم أحد من السلف والخلف إلا المجيء إليه في حياته ليستغفر لهم).اهـ.كلامه رحمه الله تعالى، وقال في موضع آخر (فلما استأثر الله ﷻ بنبيه ﷺ ونقله من بين أظهرهم إلى دار كرامته لم يكن أحد منهم قط يأتي إلى قبره ويقول يا رسول الله فعلت كذا وكذا فاستغفر لي ومن نقل هذا عن أحدٍ منهم فقد جاهر بالكذب والبهت وافترى على الصحابة والتابعين وهم خير القرون على الإطلاق).اهـ.كلامه، ثم قال بعد ذلك كلامًا يكتب بماء الذهب (ولا يجوز إحداث تأويل في آية أو سنة لم يكن على عهد السلف ولا عرفوه ولا بينوه للأمة فإن هذا يتضمن أنهم جهلوا الحق في هذا وضلوا عنه واهتدى إليه هذا المعترض المستأخر).اهـ.كلامه، فهذا بعض كلام السلف على هذه الآية ويتبين لك منه أن الصحابة والتابعين وتابعيهم من أئمة الهدى ولم يفهموا من هذه الآية إلا المجيء له في حال حياته فقط وكل فهم يخالف فهم السلف فإنه باطل، لاسيما في مثل هذه المسائل التي لها تعلق بالاعتقاد، فأي

الفهمين تريد، فهم الذين ﷺ ورضوا عنه من صحابة رسول الله ﷺ أم فهم الذين لا يعلقون ولا بخير القرون يهتدون؟ فأنت وما تختار وكل سيواجه عمله وما قدمه يوم القيامة والله المستعان.

الرابع:- أن المستدل بذلك لو تأمل الآية جيدًا وقرنها بفعل الصحابة والسلف الصالح لعلم أن الآية حجة عليه لا له، وبيان ذلك أن يقال:- إن الآية باتفاق السلف يعمل بها في حياته ﷺ وإتيانه ﷺ وطلب الاستغفار منه في حياته من جملة طاعته ﷺ فلو كان المجيء إليه بعد وفاته من جملة طاعته أيضًا ويعد لك من كمال التوبة والاستغفار للزم من ذلك أن السلف الذين هم خير القرون متفقون على ترك الطاعة والامتثال لأمره تعالى وأمر رسوله ﷺ لأنه لا يعرف عن أحدٍ منهم أنه كان يأتي إلى قبره ويستغفر عنده ويطلبه أن يستغفر له، فلو كان ذلك من تمام طاعته وتعظيمه للزم منه معصية السلف لأمره وأن الحق قد خفي على خير القرون الذين هم سادات هذه الأمة وكبراؤها في العلم والعمل، وهذا لازم باطل، وبطلان هذا اللازم دليل على بطلان الملزوم أي أنه لا مخرج من هذا اللازم إلا بأحد أمرين:- إما أن نوافق عليه فنكون ممن وقع في تسفيه السلف وتجهيلهم واتهامهم بالعصيان ومخالفة الأمر وهذا لا أظنه يوافق عليه إلا الملحد الظالم المعتدي وإما أن يكون هذا الفهم الذي فهمه القبوريون من الآية ليس هو الفهم الصحيح وهذا هو الحق، إذ لا يمكن أن يكون هو الفهم الصحيح وقد اتفق السلف على ترك العمل به، فانظر كيف انقلب الاستدلال عليهم لما نظرنا إلى الآية على ضوء ما فهمه السلف الصالح.

الخامس:- أن المعروف عن السلف رحمهم الله تعالى إنما هو الإنكار على من قصد القبر للذكر عنده والاستغفار والدعاء، فعن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنه

رأى رجلًا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو فنهاه وقال:- ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي رسول الله ﷺ أنه قال (لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبورًا، فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم) قال الإمام المجدد في كتاب التوحيد:- رواه في المختار، وقد حسن إسناده الشيخ سليمان في الشرح، وروى ابن أبي شيبة في مصنفه من حديث ابن عجلان عن جبير بن حنين قال قال رسول الله ﷺ (لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبورًا وصلوا علي حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني) وقال سعيد بن منصور في سننه:- حدثنا عبدالعزيز ابن محمد، أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال أتى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى فقال:- هلم إلى العشاء فقلت:- لا أريده فقال:- مالي رأيتك عند القبر؟ فقلت:- سلمت على النبي ﷺ فقال:- إذا دخلت المسجد فسلم، ثم قال:- إن الرسول ﷺ قال (لا تتخذوا قبري عيدًا ولا تتخذوا بيوتكم مقابر وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء وقد كره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك.

السادس:- أن المتقرر شرعًا في الأصول أن القياس الأولوي حجة فإذا كان النبي ﷺ قد شدد التشديد البليغ في اتخاذ قبره عيدًا ونهى النهي الجازم عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وأخبر أن السابقين كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا، فإذا كان ذلك التشديد في شأن قبور الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم، فكيف بقبور غيرهم من سائر الناس، لا شك أن المنع فيها آكد، والتحريم في شأنها أشد، فإذا

كان قبر النبي ﷺ لا يجوز أن يتخذ عيدًا ولا مسجدًا ولا أن يفعل عنده دعاء ولا استغفار ولا تمسح ولا يشد الرحل إليه، فكيف بقبر غيره، فإنه لا شك يدخل في النهي من باب أولى لأن القياس الأولوي حجة.

السابع:- أن المتقرر في قواعد الشريعة أن كل قياسٍ صادم النص فإنه باطل، وهذه قاعدة متفق عليها بين العلماء رحمهم الله تعالى، وتجويز دعاء أصحاب القبور من دون الله تعالى والاستغفار عندهم وطلب الحاجات منهم قياسًا على جواز فعل ذلك عند قبر النبي ﷺ، هذا قياس فاسد لا يجوز الأخذ به بحال، لأنه قياس قد صادم نصوص الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح، فإن المتقرر بالدليل المتواتر القطعي أنه لا يدعى إلا الله تعالى، وأن دعاء غيره شرك، كما ذكرنا طرفًا من الآيات التي تقرر ذلك قبل قليل، فهي تقضي قضاء جازمًا بأن الدعاء من العبادة التي لا يجوز صرفها لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لولي صالح وإنما هي وقف عليه جل وعلا فهي حقه المحض، هكذا وردت الأدلة من الكتاب والسنة وقد انعقد عليه الإجماع القطعي الذي يكفر من خالفه الكفر الأكبر المخرج من الملة، وبناءً عليه فأي قياسٍ يؤدي إلى تجويز دعاء أصحاب القبور فإنه قياس إبليسي شركي باطل لا يصح بحال أن ينسب إلى الشرع، فهو كقياس من قال {أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} وكقياس من قال {إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا} وهذا أفسد قياس وأقبح قياس وهذا يبين لك أن المستند الذي بنى عليه أصحاب القبور هذه التعبدات إنما هو القياس الفاسد وهذه آفة قديمة وحجةٍ أثيمة قد رباهم عليها أبوهم إبليس فإنه أول من قاس قياسًا فاسدًا، فهو أب لكل قائس في الشرع قياسًا فاسدًا، ألا فنعوذ بالله منه ومن ذريته ومن مقاييسه المخالفة للمنقول والمناقضة للمعقول والله

المستعان.

الثامن:- أن المتقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أن القياس لا يكون صحيحًا إلا إذا كان الأصل صحيحًا معتمدًا، والأصل في قياسهم هذا هو جواز الاستغفار عند قبر النبي ﷺ وجواز طلب الاستغفار منه، هذا هو الأصل الذي بنوا عليه قياسهم هذا ونحن لا نسلم هذا الأصل، بل نحن نمنعه ونعارض فيه، لأنه لا يجوز ذلك بعد وفاته ﷺ باتفاق السلف الكرام من الصحابة والتابعين والأئمة فإننا لا نعلم أحدًا من الصحابة ولا من التابعين ولا من سلف الأمة وأئمتها أجاز طلب الاستغفار من النبي ﷺ بعد وفاته، فالأصل الذي بنوا عليه قياسهم ممنوع أصلًا، وحيث منعنا الأصل فلا حق لهم أن يحتجوا علينا به لأنه ممنوع عندنا، ونحن قد بينا وجه منعه، وليس منعنا ذلك لعدم معرفة قدره ﷺ، لا والله وإنما هو طاعة له وتحقيق لوصيته التي قال فيها (ولا تتخذوا قبري عيدًا) وبهذه الأوجه لا يبقى في هذه الآية إن شاء الله تعالى أي نوعٍ من أنواع الإشكال، فنسأله جل وعلا باسمه الأعظم أن يشرح صدورهم لقبول الحق والإذعان إليه وأن يعيذنا وإياهم من شر شياطين الإنس والجن، الذين يوحي بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غرورًا والله أعلم وأعلى.

الشبهة الرابعة : استدلالهم على جواز طلب الحاجات من الأولياء والصالحين

بأن الأولياء والصالحين أحياء في قبورهم الحياة الدنيوية وأنهم يسمعون دعاء الداعي ويقدرون على إجابته، وخلاصتها:- الاستدلال على جواز الطلب بحياة الولي في قبره، وهذه شبهة قديمة وبيان جوابها أن يقال:- هذه المسألة مهمة وقد حصل بسبب عدم التحقيق فيها كثير من الفساد، ولما نظرنا في الأدلة الشرعية تبين لنا أمران لابد من التفريق بينهما وهما:- السماع المثبت للموتى

والسماع المنفي فنقول وبالله التوفيق ومنه نستمد الفضل والعون وحسن التحقيق:- الميت يسمع في الجملة كما ثبت ذلك في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال (وإنه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه مدبرين) وثبت عن النبي ﷺ أنه ترك قتلى بدر ثلاثًا ثم أتاهم فقال (يا أبا جهل يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا) فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:- يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا؟ فقال (والذي نفسي بيده ما أنت بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا) ثم أمر بهم فسحبوا في قليب بدر، وكذلك ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ وقف على قليب بدرٍ فقال (هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟) وقال (إنهم يسمعون الآن ما أقول) وقد ثبت عنه في الصحيح من غير وجه أنه كان يأمر بالسلام على أهل القبور ويقول (قولوا السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، ونسأل الله لنا ولكم العافية، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم) فهذا خطاب لهم وإنما يخاطب من يسمع وروى ابن عبدالبر عن النبي ﷺ أنه قال (ما من رجل يمر بقبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عَلَيْهِ السَّلَامُ) وفي السنن عنه ﷺ أنه قال (أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة فإن صلاتكم معروضة علي) فقالوا يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ - يعني صرت رميمًا - فقال (إن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) وفي السنن عنه ﷺ أنه قال (إن الله تعالى قد وكل بقبري ملائكة يبلغوني عن أمتي السلام) فهذه النصوص وأمثالها تبين أن الميت يسمع في قبره، وذلك

في الجملة أي في كل الأحوال وإنما في حالٍ دون حال، ولا يجب أن يكون السمع له دائمًا وذلك كما أن الحي يسمع أحيانًا خطاب من يخاطبه وقد لا يسمع لعارضٍ يعرض له، وهذا السمع المثبت للأموات ليس من خصائص النبي ولا من خصائص الولي، وإنما هو أمر عام لكل ميت، وهذا السمع إنما هو سمع إدراك فقط، وليس سمع انتفاع يعقبه القبول والامتثال، وإنما هو سمع إدراك، ليس يترتب عليه جزاء، وليس هو السمع المنفي بقوله ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ ولا هو السمع المنفي بقوله ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ فإن السمع المنفي هنا هو سمع القبول والامتثال، فإن الله تعالى جعل الكافر كالميت لا يستجيب لمن دعاه وكالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفقه المعنى، فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى فإنه لا يمكنه إجابة الداعي ولا امتثال أمره أو نهيه، فلا ينتفع بالأمر والنهي وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهي وإن سمع الخطاب وفهم الخطاب فهما سمعان:- سمع إدراك ومعرفة فقط وسمع قبول وانتفاع يعقبه الامتثال والإجابة فالسمع الأول هو الذي تثبته الأدلة السابقة، والسمع الثاني هو الذي تنفيه الآيات السابقة، فلا تخلط بين هذين السمعين فتضل، لأن القبوريين جعلوا السمع المثبت للأموات ولاسيما الأنبياء والأولياء، جعلوه سمع الانتفاع والإجابة أي أن الأولياء بعد سماع دعاء الأحياء قادرون القدرة التامة على الإجابة وإيصال النفع للأحياء وهذا خلط كبير وبلاء عظيم سببه عدم الفهم عن الله ورسوله ﷺ، والفهم الفاسد هو الذي أورث تلك المقالة الفاسدة، فنحن لا ننفي أن الأموات يسمعون وإنما نحن ننفي أن يكون سماعهم هو سماع النفع والإجابة والانتفاع، فأرجوك يا أخي أن تفرق بينهما، أسأل ربي عز وجل باسمه الأعظم أن يهدي قلبك للتفريق بينهما هداية التوفيق والإلهام، وأن

يشرح صدرك الشرح المطلق لقبول ذلك، فإني أحب لك من الهداية ما أحبه لنفسي، فهيا يا أخي، أطلق فكرك وعنان قلبك عن العصبية المقيتة التي توجب رد الحق بعد اتضاحه فهذا أولًا، أعني أن التفريق بين السماعين هو أول ما أريدك أن تفهمه لتزول عن قلبك هذه الشبهة.

وأما ثانيًا:- فاعلم رحمنا الله وإياك أن هذا السماع والحياة المثبتة للأموات إنما هي من أمور البرزخ، وأمور البرزخ من أمور الغيب وأمور الغيب مبناها على التوقيف ولا مدخل للعقول فيها، لأنها من أمور الآخرة، فهي من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وعقولنا ومدركاتنا أعجز وأحقر من أن تكتشف ذلك، فلا تخلط بين حياة الدنيا وحياة البرزخ ولا بين سمع الدنيا وسماع البرزخ، فإن النبي وإن كان حيًا في قبره لكن لو تجتمع الدنيا على إدراك حقيقة هذه الحياة لما استطاعوا والشهيد وإن كان حيًا في قبره ولكن لو يجتمع العالم بأسره على معرفة حقيقة هذه الحياة لما قدروا لأن ذلك من الغيب الذي أختص الله تعالى به، فالحياة المثبتة للمؤمن في قبره تختلف تمامًا عن هذه الحياة الدنيا، فهي حياة برزخية غيبية، فلا يجوز لنا أن نقول:- إن الأولياء أحياء في قبورهم الحياة الدنيوية وأنهم قادرون بعد موتهم على ما كانوا قادرين عليه في حياتهم، هذا لا يجوز أبدًا لأنه تدخل في علم الغيب، وإقحام للعقول فيما ليس لها فيه مجال ولا مدخل، وهذا مصيبة عظيمة وعاقبه وخيمة، فكما أن نعيم القبر وعذابه من الغيب الذي لا يطلع عليه أحد، فكذلك حياة الميت في قبره من الغيب الذي لا يطلع عليه، وخلاصة ذلك وجوب التفريق بين الحياة الدنيوية والحياة البرزخية، والسماع في الدنيا والسماع في البرزخ، فالحياة والسماع الدنيوي مبني على المشاهدة والحس أي هو أمر مشاهد محسوس، وأما حياة

البرزخ وسماع البرزخ فهو أمر خارج عن المشاهدة وعن مدركات الحواس والعقول لأنه من الغيب ولا يسعنا مع إخبار الدليل به إلا أن نقول {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} وهذا ثانيًا.

وأما ثالثًا:- فاعلم أن الصحابة والسلف الصالح متفقون على أنه لا ينتفع الأحياء بمخاطبة الأموات، لأنهم - أي السلف الصالح - متفقون الاتفاق القطعي على أن الميت لا يستطيع أن يجلب لنفسه ولا لغيره خيرًا ولا أن يدفع شرًا ولا أن يجيب دعاءً ولا يغيث لهفة ولا يجبر كسرًا ولا يجير لائذا ولا يعيذ خائفًا وليس له مطلق التصرف، بل هم متفقون على أن الميت محتاج للأحياء أن يغسلوه ويكفنوه ويصلوا عليه ويدعون له، ويستغفرون له، وأن يتصدقوا عنه أو يحجوا عنه أو يقضوا ديونًا عنه، ونحو ذلك، وهذا اتفاق قطعي، ونحن نتحدى أن يوجد من السلف الصالح من يخالف في هذه المسألة، والأمة لا تجتمع على ضلالة أبدًا، والاتفاق المعتبر هنا هو اتفاق أهل السنة وسادات الأئمة والأمة، فلا عبرة بخلاف أهل البدع الذين لا يقفون عند منقول ولا يراعون موافقة معقول وقد تقرر في الأصول أن الإجماع حجة شرعية يجب قبولها واعتمادها والمصير إليها وتحرم مخالفتها، وبناءً عليه فقول عباد القبور في أصحاب القبور قول خارق لإجماع السلف ومناقض له، فأي الفريقين أحق بالاتباع إن كنتم تعلمون الذين ساروا على نهج الكتاب والسنة، أم الذين خالفوا الكتاب والسنة؟ لا شك أن الجواب هو الأول، فحيث كان الحق هو ما قرره السلف الصالح هنا فليس بعد الحق إلا الضلال فاستمسك بما عليه سلفك وعض عليه بالنواجذ وشد عليه بيديك وإياك ثم إياك أن تتخطفك السبل المعوجة والأهواء المرتجة فإن الخير كل الخير والنجاة كل النجاة والفوز

والفلاح والبر والتقى إنما هو في اتباع السلف وملازمة سبيلهم وصراطهم المستقيم والشر كل الشر والخيبة والهلاك والخسارة إنما هي في مخالفتهم والتنكب عن هديهم وتقديم هدي الآباء والأسلاف وسلوم القبائل وعادات العشائر على هدي السلف، نعوذ بالله من ذلك ثم نعوذ بالله من ذلك ثم نعوذ بالله من ذلك.

وأما رابعًا:- فلقد قررنا لك في مواضع كثيرة أنه يجب أن يفهم الكتاب والسنة فهمًا يوافق فهم السلف، ولاسيما الصحابة ﵃، إذا آمنت بذلك وتذكرته فأقول لك:- أوليس الصحابة كانت تصيبهم بعد وفاته ﷺ الكروب وتحل بهم العوارض من الحروب والقحط والاختلاف في بعض المسائل؟ الجواب:- بلى فبالله عليك هل ثبت عن أحدٍ منهم أنه إذا حل به شيء من ذلك جاء إلى قبر النبي ﷺ وشكى له الحال ودعاه أن يفرج عنه كربته وأن يطيح عن قلبه ما أهمه، وأن يغيث لهفته؟ هل ثبت عن أحدٍ منهم أنه كان يفعل ذلك؟ والجواب:- لا، فإنه لم ينقل عن أحدٍ منهم لا من قريب ولا بعيد، بنقل ثابت معتمد أنه كان يفعل ذلك، بل هم متفقون على ترك ذلك، فإنهم في عهد عمر لما أصابهم القحط استسقوا بالعباس ﵁ فيقول عمر ﵁:- اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا، قم يا عباس فادع الله لنا أن يغيثنا، فيقوم العباس فيدعوا بالغيث فما ينزل إلا وقد أغيثوا فلو كان النبي ﷺ حيًا في قبره الحياة الدنيوية ولو كان يسمع سماع النفع والانتفاع لما احتاجوا للاستسقاء بالعباس ﵁ مع أنه ﷺ كان بينهم وقبره قريب منهم وليس بينهم وبينه إلا عدة خطوات فقط، فلما عدلوا عن ذلك إلى الاستسقاء بغيره دل ذلك على أن دعاء الأموات ليس مما فهموه من الأدلة الدالة على سماع الموتى

المثبت لهم بالأدلة التي ذكرناها سابقًا وحيث لم يفهموا ذلك فنحن كذلك لا يجوز لنا أن نفهم ذلك لأن فهمنا في الأدلة من الكتاب والسنة تابع لفهمهم رضي الله عنهم وأرضاهم، فإن دعوتنا وديننا مبني على ثلاثة أركان:- على الكتاب وعلى السنة وعلى فهم سلف الأمة، وبناءً عليه فإن ما فهمه أصحاب القبور مجانب المجانبة المطلقة ومباين المباينة التامة لما فهمه أصحاب الرسول ﷺ، فأي الفريقين أصح فهمًا؟ أدع الجواب لك ولكن احذر من التعصب لما عليه أهل بلدك أو لما عليه الآباء والأجداد إن كان مخالفًا لما جاء به خير العباد ﷺ.

وأما خامسًا:- فهو جواب تسليمي جدلي، وبيانه أن يقال:- سلمنا أن الأنبياء والأولياء أحياء في قبورهم الحياة الدنيوية، وأنهم يسمعون في قبورهم سماع الأحياء تمامًا، سلمنا بذلك، فهل ثبوت ذلك لهم يفيد جواز دعائهم من دون الله تعالى؟ بالله عليك هل لأن الولي حي في قبره ويسمع يدل على جواز إنزال الحوائج به والنذر له والذبح عند قبره وأن يستغاث به وأن يستعاذ به؟ هل حياته وسماعه دليل على جواز ذلك؟ والجواب المؤكد أن ثبوت ذلك له لا يدل على جواز فعل ذلك، لأننا أصلًا نمنع فعل ذلك مع الأنبياء والأولياء وهم في حياتهم الدنيوية وقبل موتهم، فدعنا الآن من الكلام على حكم ذلك بعد موتهم، ودعنا من الخلاف في حياتهم وسماعهم في قبورهم، وقل لي:- لما كان الولي حيًا قبل أن يموت هل يجوز أن يدعى من دون الله تعالى؟ بالطبع لا، وقد دلت الأدلة المتواترة من الكتاب والسنة أن إنزال الحوائج بغيره سبحانه من الشرك الأكبر، فلا يجوز أصلًا دعاء الأولياء من دون الله، وهم في حياتهم الدنيا، فكيف بالحال وقد ماتوا وأفضوا إلى ما قدموه من عمل؟ فإذا كان وهو حي لا يجوز دعاؤه من دون الله تعالى فكيف وقد مات؟ فإذا كانت حياته الدنيوية

ليست بدليل على جواز دعائه من دون الله تعالى فهل تكون حياته البرزخية دليل على جواز دعائه والاستنجاد به والاستغاثة به من دون الله تعالى؟ فيا سبحان الله، ما أوضح التوحيد والحق ولكن من لم يرد الله هدايته فلا نملك له شيئًا، وبناءً عليه فإن عباد القبور لو استطاعوا أن يثبتوا لنا وأن يقنعونا بأن الأولياء أحياء في قبورهم، لما تغير الأمر، والحكم هو الحكم، والتحريم ثابت لا يتغير، ودعاؤهم من دون الله حرام وشرك سواءً في الدنيا أو بعد الموت، فالحكم واحد فسواءً قلنا:- هم أحياء أو قلنا أموات، فلن يتغير الحكم فإذا كانت حياة الأولياء والصالحين الدنيوية والتي نقطع بها لهم لا تدل على جواز دعائهم من دون الله تعالى، فهل حياتهم البرزخية المختلف فيها تدل على جواز دعائهم؟ بالطبع لا، ولكن المشرك يريد أن يتشبث بأي شيء يظنه نافعًا له، ومصححًا لمذهبه المخالف للكتاب والسنة.

وأما سادسًا:- فإن المتقرر في القواعد أن العام يجب أن يبقى على عمومه ولا يخص إلا بدليل، والأدلة الدالة على المنع من دعاء غير الله تعالى، وردت مورد العموم كقوله تعالى {فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} فإنه نكرة في سياق النهي والنكرة في سياق النهي تعم، فيدخل في كل أحد، وكقوله تعالى {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} وهذا نكرة في سياق النهي فتعم، وكقوله تعالى {وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ} فقوله {مَا} أي الذي فهي اسم موصول، وقد تقرر في القواعد أن الأسماء المصولة من صيغ العموم، وغير ذلك من الآيات الكثيرة، فإنك لا تجد آية فيها النهي عن دعاء غير الله تعالى إلا وتجد فيها صيغة أو صيغتين من صيغ العموم، والأصل بقاء العموم على عمومه حتى يرد المخصص، وبناءً عليه فأقول:- إن الأنبياء والأولياء

يدخلون في عموم هذه الآيات، فلا يجوز دعاء النبي ولا الولي من دون الله تعالى، وهذا النهي نهي عام في كل أحوال الأنبياء والأولياء أي سواءً في حال حياتهم وبعد مماتهم، ومن أخرج نبيًا أو حالًا من أحواله أو أخرج وليًا أو حالًا من أحواله من عموم هذه الآيات، فقد خصص العموم بلا دليل، وهذا حرام لا يجوز لأن العام من كلام الشارع يجب أن يبقى على عمومه ولا يجوز لأحدٍ أن يتعرض له بتخصيص أو تقييد بلا دليل ولا برهان، هذا هو ما يقتضيه العلم، فالقضايا العامة في الشريعة يجب أن تبقى هكذا عامةً ولا تخصص إلا بدليل، والقضايا المطلقة يجب أن تبقى هكذا مطلقة ولا تقيد إلا بدليل، وموجب العمل بعموم وإطلاق هذه الآيات أن ندع دعاء الأولياء والصالحين سواءً في حياتهم وبعد مماتهم، فمن أجاز دعاءهم بعد مماتهم، أو في حياتهم فقد خصص العموم وقيد الإطلاق بالهوى والشهوة والجهل وخرافات الآباء والأسلاف، وهذه الأشياء لا يجوز أن يخصص بها كلام الشارع، لأنه لا يجوز لنا أن نقدم بين يدي الله ورسوله قولًا ولا رأيًا ولا هوىً ولا شهوةً ولا مذهبًا ولا عرفًا ولا عمل أحدٍ كائنًا من كان، هذا طريق من أراد السلامة والنجاة والله المستعان.

وأما سابعًا:- فإن من عجائب الاستدلال القرآني على بطلان دعاء الأموات والأحياء قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} فقوله {الَّذِينَ} اسم موصول وهو يفيد العموم فيدخل فيه كل ما دعي من دون الله تعالى من الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين والجن ونحوهم فيخبر تعالى أن المدعوين من دونه إنما هم عباد له مثلكم فكيف تدعونهم من دوني وهم مثلكم عباد لا يملكون ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا، فإن هؤلاء الأولياء والصالحين مهما بلغوا في صلاحهم وعبادتهم وتقواهم لا يخرجون عن كونهم من عباد الله،

فوصفهم بالعبودية دليل على بطلان صرف الدعاء لهم، لأن الدعاء من خصائص الرب جل وعلا، وهو حقه الصرف والسيد لا يرضى أبدًا أن يصرف ما هو من خالص حقه لأحدٍ من عبيده، فإن العبد لا يملك، والسيد يملك، والعبد محتاج، والسيد غني، فكيف تدعون العبد مع أنه لا يملك نفعًا ولا ضرًا بل هو فقير محتاج ذو فاقة، وتتركون دعاء السيد الملك القادر الغني ذو الخزائن التي لا تنفد، والعطاء الذي لا ينقطع، فإن صرفكم الدعاء لأحدٍ من عبيدي تسوية له بي وهذا لا أرضاه، كما أنكم لا ترضون أن تساويكم عبيدكم فيما هو من خصائصكم وحقوقكم فكذلك أنا لا أرضى أن تجعلوني وعبيدي في مرتبة واحدة ولا أرضى أن تجعلوهم مساوين لي فيما هو من حقوقي وخصائصي وهذا هو معنى قوله تعالى عن أهل النار {تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} وهذا هو معنى قوله تعالى {ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ} وهذا معنى قوله تعالى {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} فالولي عبد مثلك فكيف تدعوه من دون الله الذي هو ربك وربه وخالقك وخالقه والمنعم عليك والمنعم عليه؟ وهذا دليل على أن المشرك مطموس على قلبه فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشربه من شهوته وهواه نعوذ بالله من ذلك.

وبهذه الأجوبة ينكشف لك أمر هذه الشبهة الأثيمة والحجة القديمة ولا يبقى فيها أي إشكال إن شاء الله تعالى ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة.

الشبهة الخامسة

الاحتجاج على جواز طلب الحاجات منهم بأن لهم كرامات باهرة وخوارق ظاهرة يعرفها العام والخاص، فما إن تنكر على أحد عباد القبور دعاءه

لصاحب هذا القبر إلا ويسرد لك كراماته المأثورة فهذه الشبهة ثابتة عند عباد القبور ويحتجون بها كثيرًا والجواب عنها أن يقال:-

أولًا:- إن أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى لهم في الكرامات مذهبًا عظيمًا يتوافق التوافق الكلي مع الكتاب والسنة ومذاهب سلف الأمة، وبيانه فيما يلي:- تتلخص عقيدة أهل السنة رحم الله أمواتهم وثبت أحياءهم في مسألة كرامات الأولياء في عدة نقاط:

الأولى:- الإيمان بها وإثباتها على وجه العموم، أي يؤمنون إيمانًا جازمًا ويصدقون تصديقًا يقينيًا أن الله تعالى يجري بعض أنواع الخوارق على يد من يشاء من أوليائه وأن هذه الكرامة قد تكون في مكاشفة أو أمر خارق للعادة ليس بمقدور لهذا الولي وإنما الله تعالى هو الذي أجراها على يده، وذلك لإظهار فضله وشرفه ولتثبيته، فكم من كرامة صارت سببًا لثبات من ظهرت على يديه، والله أعلم.

الثانية:- أن الكرامة المعتبرة والتي تعد كرامة لا تجري إلا على يد أولياء الله تعالى الذين اتصفوا بصفات الولي، وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فالولي هو من اتصف بالإيمان والتقوى، وتختلف مراتب الولاية كمالًا ونقصًا باختلاف تكميل مراتب الإيمان والتقوى، فكلما ازداد العبد إيمانًا وتقوى كلما ازداد ولاية لله تعالى، وهذا شرط في اعتبار الكرامة، فلا بد من عرض مدعيها على الكتاب والسنة، وبناءً عليه فيما يجري على يد أولياء الشيطان من الخوارق والمكاشفات لا تعد من باب الكرامات، بل هي أحوال شيطانية وتلبيسات إبليسية يقصد منها إحقاق الباطل وإبطال الحق، وذلك كما يظهر عند السحرة

والكهان والمشعوذين ومخاريق الصوفية والدراويش أصحاب الطرق المخالفة للكتاب والسنة، فإن هؤلاء وإن مشوا على الماء، أو طاروا في الهواء أو دخلوا النار وخرجوا منها، أو أدخلوها في أجوافهم أخبروا ببعض الأمور الغائبة ونحو ذلك، فكل ذلك من أحوال الشياطين، وخوارق الكهان والسحرة، وكله دجل وتلبيس من إبليس ومخادعه وتخييل وكذب وفجور بل ويصل في أحوال كثيرة إلى الكفر والشرك، لأن الشياطين لا تعين أحدًا لمحبته وسواد عينيه، وإنما لما يتقرب إليها بذبح توحيده بفعل ما يطلبونه منه من أمور الشرك، فالكرامة لا تكون إلا لأولياء الله تعالى، وهم المؤمنون المتقون، وأما المخالفون للشريعة المتنكبون عن الصراط المستقيم الأفاكون الفاجرون فإن ما يظهر على أيديهم إنما هو من إعانة الشيطان لهم، فانتبه لهذا، فإن هذا هو الفرقان بين كرامات الأولياء وخوارق السحرة والكهان.

الثالثة:- منهج أهل السنة طلب الاستقامة لا طلب الكرامة، فالمؤمن إنما يعبد الله تعالى ويستقيم على شرعه بفعل أوامره واجتناب زواجره وتصديق أخباره طلبًا لرضاه والفوز بالجنة، لا أنه يفعل ذلك طلبًا للكرامة، فإن هذا شرك في القصد، لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا له جل وعلا، لأنه أغنى الشركاء عن الشرك، ولذلك قال بعض السلف (كن طالبًا للاستقامة لا طالبًا للكرامة).

ولذلك فالموفقون هم الذين يطلبون الاستقامة والهداية لذات الاستقامة والهداية ونيل رضا الله تعالى والفوز بعالي الدرجات، فهم يتنافسون فيها تنافسًا سواء ظهرت لهم كرامة أو لم تظهر، وبناءً عليه فالذين يفنون أنفسهم في طلب الكرامة ليسوا على شيء، وقد خالفوا منهج أهل السنة بذلك، فترى الواحد

منهم يهيم في القفار، أو يعاشر الوحوش، أو يحبس نفسه مع الحيات والثعابين أو يَدخل النار أو يُدخل النار في جوفه ونحو ذلك من خرافاتهم وهذيانهم، وكل ذلك طلبًا للكرامة، وهذا منكر في الشرع وخبل في العقل وتعريض للنفس للهلاك بلا مصلحة شرعية، ولا قصد ممدوح، فاحذر من ذلك وحذر منه، ولا نقول إلا كما قال السلف:- كن طالبًا للاستقامة، موافقًا للحق، مهتديًا بهدي الكتاب والسنة، متبعًا لا مبتدعًا، مقتديًا لا مبتديًا، ودع عنك السبل المعوجة والمذاهب المعتلة والآراء المختلة، فإنه ما سلم في دينه إلا أخلص وتابع، ولا تكن طالبًا للكرامة، وليكن همك رضا الله جل وعلا أسأله جل وعلا أن يلهمنا رشدنا ويقينا شرور أنفسنا، والله أعلم.

الرابعة:- يعتقد أهل السنة أن الكرامة لا تستلزم أن يكون من ظهرت على يديه أنه أفضل من غيره في الإيمان والتقوى، لأن من أسبابها تثبيت الولي، ولذلك فإن كرامات عمر بن الخطاب أكثر من كرامات أبي بكر، وإيمان أبي بكر أكمل ولا شك، بل وقد ظهرت كرامات كثيرة على يد بعض التابعين وتابعيهم لم تظهر على يد الصحابة، ولا مقارنة بين إيمان الصحابة وإيمان من بعدهم، فلا تلازم بين الكرامة وكمال الإيمان، بل قد تظهر الكرامة على يد من عنده تقصير في تكميل مراتب الإيمان، ولا تظهر على يد من كمل إيمانه وتقواه وهذا يوجب أن لا تجعل الكرامة سببًا لتفضيل من ظهرت على يديه على من لم تظهر له هذه الكرامة، وذلك طلبًا لأن يكون أفضل من غيره فَضلَّ في سعيه وخاب في قصده، فانتبه لهذا الأمر فإنه مهم جدًا لكثرة من خالف فيه.

الخامسة:- يعتقد أهل السنة أن الموفق عند حصول الكرامة له إنما هو من عاملها بإكثار الشكر والحمد وازداد بها تواضعًا للخلق وازداد ثباتًا واستقامة

على الحق واستعملها فيما يقربه إلى الله تعالى وفيما ينفع عباد الله، وجعلها وسيلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، واستعان بها على طاعة الله جل وعلا، فهذا هو الموفق، وبناءً عليه فمن استعان بها على حرام أو كانت سببًا لاستكبار واتكاله عليها وترك العمل الصالح، فإن هذه الكرامة لم تزده في الحقيقة إلا ندامة وخيبة وخسارة، وكان عدمها له أنفع، واستمع إلى قوله جل وعلا ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ وبه تعلم أن ظهور الكرامة على يدي الولي نوع ابتلاء له، فليتق العبد ربه وليكثر من حمده وشكره وليترق في مراتب الاستقامة، ولا تكون هذه الكرامة سببًا لتكبره وغروره ورفضه للحق وتعاليه على الخلق، والله المستعان.

السادسة:- قال أهل السنة:- بما أن الكرامة قد تشتبه على بعض الناس مع خوارق الكهان والسحرة، فإنه لابد من عرض الأمر على أهل العلم الثقات الأثبات الذين يعرفون الفرقان بين كرامات الأولياء ومخاريق الفجرة، فلا ينبغي اعتمادها وعدها كرامة إلا بعد أن يقول أهل العلم كلمتهم فيها، ولاسيما في هذا الزمن الذي كثر فيه المدعون للصلاح، فالعامي قد يغتر ببعض هذه الظواهر، فلابد من عرض الأمر على أهل العلم ليصدر عن رأيهم، فهم أهل الاستنباط والفهم المبني على الكتاب والسنة، وقد فضح أبو العباس رحمه الله تعالى كثيرًا من هذه الدعاوى الكاذبة وبين زيفها وأنها من الشيطان، فلا ينبغي أن يصدر العبد في هذه المسائل من رأي نفسه بل لابد من رد الأمر إلى العلماء الراسخين، قال تعالى ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى

الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ} ولأنه قد يدعي الكرامة من هو كاذب في دعواه فيقول:- إني رأيت كذا وكذا، وكوشفت بكذا وكذا، وحصل لي كذا وكذا وهو كاذب في ذلك، فإذا أخذ الأمر بمعزل عن العلماء فناهيك عن الفساد والضلال الذي سيحصل لكن إذا كان الأمر وفقًا على أهل العلم فلنبشر جميعًا بالهداية والصلاح والتوفيق، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

السابعة:- أن الكرامات التي تخرج على أيدي الأولياء هي دليل على صدق نبوة نبينا ﷺ، لأن الكرامة تختلف باختلاف متابعته فإذا أكرم الله من آمن به واتبع سبيله واقتفى أثره فهذا دليل على أنه صادق كل الصدق في قوله (إني رسول الله) وإذ لو كانت دعواه للنبوة كذبًا لا يرضاه الله لما أكرم الله أتباعه بمثل هذه الكرامات والله أعلم. فهذا خلاصة مذهب أهل السنة في هذه المسألة المهمة التي حصل بسبب الجهل بها ضلال كثير وبلاء مسيطر، فأسأله جل وعلا أن يحفظك من نزغات الشيطان ويعصمك من زلة اللسان والبنان، والله أعلى وأعلم.

فإذا علمت هذا المذهب وحفظته جيدًا فاعلم يا رعاك الله تعالى أنه لا تلازم بين ظهور الكرامة على يد الولي وبين صرف العبادة له، هذا لا تلازم فيه أبدًا، حتى ولو ظهرت على يديه الخوارق كلها فإنه لا يزال بشرًا وعبدًا من عباد الله تعالى، ولم يرتق بظهور هذه الكرامات إلى مرتبة الملائكية أو الإلهية، بل لا يزال بشرًا، فصرف الدعاء له من دون الله تعالى لا يستدل عليه بأن له كرامات.

ويقال أيضًا:- إن الأنبياء قد ظهر على أيديهم الآيات العظيمة والخوارق الباهرة والمعجزات المسطرة الظاهرة، والتي ليست كرامات الأولياء بشيء أبدًا

عندها، ومع ذلك فإنه لا يجوز مطلقًا أن يصرف لهم شيء من التعبدات من دعاء أو ذبح أو نذر أو توكل أو رجاء ونحو ذلك، فإذا كان الأنبياء مع ظهور المعجزات العظيمة على أيديهم لا يجوز صرف الدعاء لهم ولا الاستغاثة بهم فكيف بالولي لا شك أنه من باب أولى، فبالله عليك هل يجوز دعاء موسى عليه السلام أو الاستغاثة به من دون الله تعالى لأنه ظهرت على يديه تحرك العصا وانقلابها إلى حية؟ وهل يجوز دعاء عيسى عليه السلام والاستغاثة به من دون الله تعالى لأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله تعالى؟ وهل يجوز دعاء النبي صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به من دون الله تعالى لأنه ظهرت على يديه المعجزات التي لم تظهر على نبي قبله؟ كل ذلك لا يجوز وليس ظهور الآيات على أيديهم دليلًا يستدل به على جواز صرف شيء من التعبدات لهم فإذا كان هذا هو حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكيف بحال الأولياء الذين ظهرت على أيديهم شيء من الكرامات لا شك أنهم يدخلون في المنع من باب أولى لأن القياس الأولوي حجة، فإذا كان النبي على جلالة قدره وعلو منزلته وظهور المعجزة على يديه لا يجوز دعاؤه من أجل المعجزات التي أجريت على يديه، فكذلك الولي أيضًا لا يجوز دعاؤه من أجل كرامة ظهرت على يديه، وهذا الوجه واضح لأهل الإسلام ولكن الكفار من أهل الحلول والاتحاد يعتقدون أن الولي في مرتبة أعلى من النبي، وهؤلاء لا كلام لنا معهم إلا بالاستتابة فإن تابوا وإلا فحدهم القتل بالسيف، لأنهم بلغوا في الكفر والردة مبلغًا لم يبلغه غيرهم نعوذ بالله منهم ومن حالهم.

ويقال أيضًا:- إن عمر رضي الله عنه قد ظهرت على يديه كرامات كثيرة، يصعب تعدادها وهي معروفة مشهورة، فهل بالله عليك رأيت أحدًا من الصحابة قد دعاه

من دون الله تعالى أو نقل لك عن أحد من السلف والتابعين أنه كان يستغيث به من دون الله تعالى؟ بالطبع لا، وهذا يدل على أن السلف متفقون على أن مجرد الكرامة لا تدل على جواز صرف الدعاء للولي من دون الله تعالى، واتفاقهم هذا حجة قاطعة، يجب قبولها والركون إليها واعتمادها وتحرم مخالفتها، وهي دليل على فساد فهم عباد القبور من أن ظهور الكرامة على يد الولي دليل على جواز دعائه والاستغاثة به فهذا الفهم الفاسد إنما هو نفخة شيطانية وشبهة إبليسية أراد بها إفساد العقائد نعوذ بالله منه.

ويقال أيضًا:- إن الولي حقًا هو من لا يرضى أن يصرف له شيء من خصائص الله تعالى، فإن من رضي بذلك فهو ولي، ولكنه ولي للشيطان لا للرحمن، فأولياء الله تعالى حقًا هم المؤمنون المتقون الذين يأمرون الناس بالمعروف وأعلاه التوحيد ويدعونهم إلى تصفيته من شوائب الشرك والبدعة والمعصية وينهون الناس عن المنكر وأعلاه الشرك الأكبر، وأما من رضي بأن يدعى من دون الله تعالى أو يستغاث به من دونه أو رضي بأن يذبح له وأن يتمسح به أو أوصى أن يفعل به ذلك بعد موته عند قبره فإنه زنديق طاغوت شيطان في مسلاخ إنسان، وحقه أن يضرب على رأسه بالحذاء القديم وأن يهان وأن ينكر عليه أشد الإنكار وأن لا يُعتقد فيه مطلق الولاية فالولاية ليست دعوىً تدعى ولا ميراث يورث أو سلعة تباع وتشترى بل هي منحة عظيمة من الله تعالى يمتن الله بها على من يشاء من عباده، ولها حقوق وواجبات وآداب لا بد من مراعاتها وتحقيقها، فانتبه لهذا الأمر، فإن كثيرًا ممن يدعى فيهم أنهم أولياء الله، في الحقيقة أنهم ليسوا بأولياء له، فلا بد أن يكون عندك الفرقان الذي به تستطيع أن تفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان والله المستعان وعليه

التكلان.

ويقال أيضًا:- إن دعاء الولي والاستغاثة به عند قبره ليس من تعظيم الأولياء، بل هو في حقيقته من إيذاء الأولياء، فعباد القبور قد آذوا الأولياء من حيث يظنون أنهم يعظمونهم وبيان ذلك أن يقال:- إن أعظم ما كان يدعو الولي له توحيد الله بالعبادة، أي أنه لا يدعى إلا الله ولا يستغاث إلا به ولا يستعاذ ولا يستعان إلا به ولا يذبح إلا له ولا يتوكل إلا عليه ولا يرجى غيره، وهكذا في سائر أنواع العبادات فهذا هو زبدة ما يدعو إليه الأنبياء والأولياء الذين هم في الحقيقة أولياء، فإذا مات الولي وأقبل الناس على قبره يدعونه ويستغيثون به ويطلبون منه المدد والإعانة ويذبحون عند قبره فإن هذا يؤلمه ويعذبه ويؤذيه، والميت يتأذى في قبره بمثل ذلك الذي يفعل عنده، فكما أنه كان يتأذى برؤية ذلك في حياته فكذلك يتأذى به إذا فعل عند قبره، فقبر الولي الصادق إذا اتخذه الناس وثنًا يعبد من دون الله تعالى فإن الولي يتأذى بذلك لأنه كان يحرص أشد الحرص على أن لا يعبد إلا الله تعالى، فتدبر هذا الوجه، فإنك إن تدبرته جيدًا تبين لك أن هذا التعظيم للأولياء إنما هو إيذاء لهم وأن دعاءهم والاستغاثة بهم من دون الله تعالى إنما هو ارتكاب لما كانوا ينهون عنه في حياتهم، وأن من يدعونهم معتقدًا أنه يحبهم إنما هو في حقيقته عدو لهم ومنابذ لمحبتهم، لأنه لو كان يحبهم حقيقة لامتثل ما كانوا يأمرون به في حياتهم من التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة، وإننا نحن نسطر هذا الكلام لنعوذ بالله تعالى أن يجعل قبورنا أوثانًا تعبد من دونه، ونسأله جل وعلا أن يخرجنا من هذه الدنيا كفافًا عفافًا لا لنا ولا علينا والله ربنا أعلى وأعلم.

ويقال:- إن غالب هذه الكرامات المدعاة لهذا الولي إنما هي أراجيف

وحكايات يُمَوِّهُ بها الأفاكون المرجفون على العامة وبسطاء العقول ليعتقدوا في هذا القبر، وإلا فأين سند هذه الكرامات وما حال الناقلين لها حتى تعرضهم على ميزان الجرح والتعديل المتقرر عند أهل السنة وسادات المحدثين، فوالله ثم والله إن غالب هذه الحكايات والقصص إنما هي من نسج الخيال وحبك الشياطين وخرافات المتهوكين الآثمين، فغالبها لا يصح، والصحيح منها قليل جدًا، ومع صحته وثبوته فإنه لا يدل أصلًا على جواز صرف شيء من العبادة لهم، ولكن هذا الوجه من كشف هذه الشبهة إنما ذكرناه لتحرير العقول والقلوب من هذه الأراجيف والخيالات والقصص التافهة فلا ينبغي للعاقل أن يسلم عقله لسدنة القبور وعبادها ليلعبوا به ويستخفوه ويعطلوه عن عمله الذي خلق من أجله وهو تمييز الصحيح من الباطل والنافع من الضار ونحو ذلك ونقول لسائر من يسمع لمثل هذه الخرافات القصصية والترهات الشيطانية {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} فإياك ثم إياك أن تلغي عقلك وتعطل فهمك وتقبل مثل هذه الأحاجي، فإنها قد حيكت بليل ودبرت في الظلام من أجل مخادعة الناس وابتزاز أموالهم وإفساد عقائدهم، وكل هذه القصص أو غالبها لا تساوي في ميزاننا مثقال ذرة، فبان لك بذلك إن شاء الله تعالى أن هذه الشبهة لا تنفعهم وإنما هي هواء وخواء لا حقيقة لها والله ربنا أعلى وأعلم.

الشبهة السادسة

وهي شبهة خبيثة دندن حولها القبوريون كثيرًا وأجلبوا بخيلهم ورجلهم على أهل التوحيد بها، وهي نفخة نفخها الشيطان في قلوب أوليائه، وهي مبنية على الفهم الفاسد والتهويش بالباطل ومفادها أن يقال:- إن القبوريين

يقولون:- إن الدعاء والتوسل والاستغاثة ليست من العبادة في شيء، فإذا استغثناء بالأولياء والصالحين أو توسلنا بهم أو دعوناهم فلا تكون بذلك قد صرفنا شيئًا من العبادة لغير الله تعالى، لأن التوسل والاستغاثة لا تدخل في حد العبادة، كذا قالوا ويقولون:- إن العبادة إنما هي الصلاة والصوم والحج والزكاة والعمرة والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، فالعبادة التي يكون صرفها لغير الله شرك هي هذه الأنواع فقط، وإنما الدعاء والتوسل والاستغاثة فإذا صرفت للأولياء والصالحين فإنه ليس بشرك لأن هذه الأشياء ليست من العبادة ولذلك يقول ابن جرجيس وهو ممن ارتضع من إبليس فصار ابنًا له من الرضاعة ومن يشابه أباه فما ظلم، يقول (وأما التوسل والنداء فليس من العبادة عند جميع المسلمين لا لغة ولا شرعًا ولا عرفًا).اهـ. فالقبوريون يحاولون إخراج التوسل والاستغاثة وطلب الشفاعة ودعاء الأموات من حد العبادة، ويقصرون العبادة على الصلاة والزكاة والصوم والحج، وغير ذلك مما ورد في حديث جبريل عليه الصلاة والسلام، وهذا هو خلاصة شبهتهم والجواب عليها من وجوه:-

الأول:- أن هذه الشبهة مبنية على لقصور والخطأ في تعريف مسمى العبادة، فإن هؤلاء الأوباش قد قصروا العبادة على بعض أنواعها فقط، ولو أنهم عرفوا حقيقة العبادة لما حصل منهم ذلك الخلط، وقد عرف أهل السنة رحمهم الله تعالى العبادة بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، مع مراعاة غاية الخضوع وغاية الذل، فهذا هو التعريف الصحيح للعبادة، وهو الحد الجامع المانع فلا يخرج عنه أي فردٍ من أفرادها ولا يدخل فيها ما ليس منها، وأما تعريف القبورية للعبادة بأنها الصلاة والصوم

والزكاة والحج، هو تعريف مزيف قاصر غير جامع لأفرادها لخروج كثير من أنواع العبادات عن هذا التعريف كالمحبة والخضوع والتوكل والرجاء والإنابة والطاعة والدعاء فكل هذا لا يدخل في اسم العبادة عند هؤلاء الأوباش، وهذا غلط عظيم قبيح جدًا، وهو الذي أوجب لهم صرف الدعاء والاستغاثة لأصحاب القبور، وبناءً عليه فلا بد من فهم مسمى العبادة على وجهه الصحيح المتوافق مع الكتاب والسنة على فهم سلف الصالح، فتعريف أهل السنة للعبادة يدخل فيه الدعاء والاستغاثة والتوسل، ولاشك في دخول ذلك فهذه الأشياء من العبادة عند أهل السنة، وبناءً عليه فصرفها لغير الله شرك، وهذا يفيدك أهمية تلقين هذا التعريف للخاصة والعامة وأن يشرح لهم الشرح الوافي وأن يكرر عليهم دائمًا حتى تتشربه قلوبهم فإن الخلاف في ذلك أوجب الوقوع في الشرك، فإن القبوريين لم يقعوا في الشرك إلا لعدم فهمهم معنى العبادة على وجهه الصحيح.

الثاني:- أن الكتاب والسنة قد صرحا التصريح الكامل الواضح بأن الدعاء من العبادة، كما قال تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فأمر الله تعالى أن يدعى ووعدنا بالاستجابة ثم قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ فسمى الدعاء عبادة ومع تسمية القرآن بأنه عبادة فلا حق لأحدٍ كائنًا من كان أن يخرجه عن مسماه لأنه يكون بذلك معارضًا للقرآن ومعارضته حرام عظيم ومنكر وخيم، وما أفضى إلى الممنوع فهو ممنوع، ففهم القبورية للعبادة فهم مخالف للقرآن، فبالله عليك إذا تعارض فهم المخلوق مع صريح القرآن فأي الأمرين تقدم؟ أدع الجواب لك، وقال تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ

إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} فقوله تعالى {وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ} أي بدعائهم لأنه ذكر في الآية قبلها أنهم كانوا يدعونهم من دون الله تعالى فسمى الله تعالى دعاءهم هذا عبادة، فهو دليل قاطع لا يحتمل أي مناقشة بأن الدعاء من العبادة، فكيف يقول القبوريون بأنه ليس من العبادة؟ ألا فليتق الله من يقوم كلام هؤلاء الحمقى على كلام الله جل وعلا وقال تعالى {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} فانظر كيف قال تعالى {يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} فسمى الله تعالى صرف الدعاء لغيره شركًا، فكيف يسميه الله تعالى شركًا، وهؤلاء يسمونه أمرًا جائزًا عاديًا وأنه ليس من العبادة في شيء، فلو كان صرف الدعاء لغير الله تعالى ليس بشرك كما يقوله هؤلاء فيلزم على ذلك أن القرآن جعل شركًا ما ليس بشرك في الحقيقة، وأي مناقضة لكلام الله تعالى فوق هذا، فالقبوريون إنما يردون كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وأنت تعلم عاقبة هذا ومغبة عقوبته، والله المستعان. وقال تعالى {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} ووجه الدلالة من ذلك أمران:- أحدهما:- أن الله تعالى سمى المدعو من دونه إلهًا، وذلك لأن الدعاء لا يصرف إلا للإله، فلما دعوا هذه الأشياء من دونه فإنهم بذلك قد اتخذوها آلهة من دون الله جل وعلا وهذا هو حقيقة الشرك الثاني:- أن الله تعالى حكم على من فعل ذلك بأنه من الكافرين فقال {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} وهذا نص قاطع يدل على أن الدعاء عبادة، وأن صرفه لغير الله تعالى كفر مخرج عن الملة، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا، وفيما مضى كفاية لمن أراد الهداية، وقال

عليه الصلاة والسلام (الدعاء هو العبادة)"رواه الترمذي بإسناد صحيح من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا" وهو نص صحيح صريح بأن الدعاء هو العبادة فكيف يخرجه هؤلاء الأوباش من مسمى العبادة، إن هي إلا تهوكات المخرفين وشبهات الشياطين، فهذه دلالة القرآن والسنة، بل وقد دل على ذلك الإجماع والاعتبار الصحيح، وبيان ذلك أن يقال:- لقد أجمع أهل العلم رحمهم الله تعالى على أن الدعاء من جملة التعبدات وأنه داخل في مسمى العبادة دخولًا أوليًا ولم يخالف في ذلك أحد منهم، وإنما المخالف في ذلك هم هؤلاء القبوريون وهم بالاتفاق لا يعتد بوفاقهم ولا بخلافهم في هذه المسائل وأمثالها، وإنما الإجماع المعتبر هم علماء المسلمين، فقد اتفق الصحابة والتابعون والسلف الصالح وأئمة المسلمين جميعًا على أن الدعاء من جملة أنواع العبادة، وقد تقرر في الأصول عند الأئمة الفحول أن الإجماع حجة شرعية يجب قبولها واعتمادها والمصير إليها وتحرم مخالفتها وإن أعجب من شيء فإنه لا ينقضي عجبي من ابن جرجيس حشره الله مع إبليس من دعوى الإجماع على أن الدعاء والتوسل والاستغاثة ليس من العبادة، فإنه قال (وأما التوسل والنداء فليس من العبادة عند جميع المسلمين لا لغة ولا شرعًا ولا عرفًا).اهـ.كلامه، وهذا كلام باطل وإجماع لا حقيقة له، وهذه دعوى يدعيها غالب أهل الباطل، ولو نظرت في كتب أهل التعطيل ونفاة القدر والصوفية والشيعة وغيرهم من المبتدعة، لوجدت أنهم يدعون الإجماع على مسائل نعلم قطعًا أن الإجماع على ضدها، كما هنا فهو - أي ابن جرجيس - يذكر الإجماع على أن الدعاء والتوسل ليس من العبادة، والحق أن الإجماع على خلاف ذلك، إلا إن كان يقصد إجماع إخوانه الكفرة من شياطين الإنس والجن، فلعل ذلك أن يكون صحيحًا، فهذا

بالنسبة للإجماع وأما الاعتبار الصحيح فإن الدعاء والتوسل والاستغاثة مبناها على الذل والحب والخضوع وعقد القلب على المدعو والمتوسل إليه والمستغاث به، وهذه هي حقيقة العبادة، بل هي أركانها المقررة عند أهل العلم رحمهم الله تعالى، فإن العبادة مبنية على كمال الذل والخضوع مع كمال الحب فكيف يقولون إننا ندعوهم ونتوسل بهم ونستغيث بهم هكذا مجردًا بلا خضوع ولا حب ولا ذل؟ إن هذا إلا تلاعب بعقول أتباعهم ليخرجوا الشرك الصريح في ألفاظٍ تخفي قبحه وصراحته، فالحق الحقيق بالقبول، أن الدعاء يدخل في مسمى العبادة وأن التوسل يدخل في مسمى العبادة، وأن الاستغاثة تدخل في مسمى العبادة.

الثالث:- أن كلامهم هذا وهي إخراجهم الدعاء والتوسل والاستغاثة من كونها عبادات هو في حقيقته من القياس الذي صادموا به نصوص الكتاب والسنة مصادمة صريحة واضحة لأننا قد ذكرنا في الجواب الثاني أن الكتاب والسنة والإجماع تقضي قضاء جازمًا أن هذه الأشياء من التعبدات والقبوريون يعارضون هذه النقولات الكثيرة المتواترة بالأقيسة الفاسدة والتحكمات الكاسدة وقد تقرر في الأصول أن القياس إذا صادم النص فإنه باطل فاسد الاعتبار، فلا يجوز القياس في موارد النص البتة، فلا حق لأحدٍ أن يقول في شيءٍ ثبت بالنص أنه عبادة:- هذا ليس بعبادة لأن هذا من معارضة النقل بالعقل، وتقديم للعقل على النقل، وكل ذلك مخالف المخالفة المطلقة للصراط المستقيم والمنهج السوي السليم، فإن النقل هو الحاكم على العقل لا العكس وهذا واضح عند أهل الألباب التي لم تتلوث بقاذورات علم الكلام المذموم فحيث أثبت النص الصحيح الصريح أن هذه الأشياء من الدعاء والاستغاثة

والتوسل أنها من أنواع العبادة فهي من العبادة، ولا شأن لنا بعقول البهائم السائمة في الضلالات فالحق أحق أن يتبع، فالقرآن دل على أن الدعاء عبادة وعقول هؤلاء تأبى ذلك وتقول ليس بعبادة، فأيهما يتبع؟ لا أظنك إن شاء الله تعالى إلا ستقول:- أتبع القرآن، فإن قلت:- ومن أخذوا تقديم القياس على النص؟ فأقول:- لما كان هؤلاء قد تخرجوا من مدرسة إبليس، كان أول ما يقرره في عقولهم في جميع سنواتهم الدراسية هو تقديم العقول على النصوص، لأنه هو أول من فعل ذلك، فإن الله تعالى لما قال أمره بالسجود في قوله {اسْجُدُواْ} وهو نص صريح لا يحتمل المناقشة عارض هذا الملعون نعوذ بالله منه هذا النص الصريح بعقله الفاسد ورأيه العاطل عن مطلق الصحة، فنظر في عنصر آدم فإذا هو طيني ونظر في عنصره فإذا هو ناري وقال:- النار خير من الطين والمفضول هو الذي يسجد للفاضل، فكان نتيجة قياسه الفاسد أن قال بكل وقاحة وقلة أدب أنا أفضل من آدم فأنا المستحق أن يسجد لي لا العكس، ونسي النص الصريح والأمر الرباني الذي امتثله عامة الملائكة إلا هو وسبب هذا الخذلان هو معارضة النقول بالأقيسة الفاسدة فحرص الخبيث أن يعلم أبناءه وذريته ومن ينتسب إليهم من بني آدم هذه المسألة ليكونوا من أصحاب السعير كما قال تعالى {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} و داود بن جرجيس من أعز تلامذة إبليس ومن المتفوقين في مدرسته فلابد أن يوليه عناية خاصة، ويدربه تدريبًا خاصًا على معارضة النقول بالعقول، فهم ورثوا هذه القاعدة الملعونة الشيطانية الكافرة من إبليس نعوذ بالله منه، والمقصود أن يقال:- إن إخراجهم للدعاء والتوسل والاستغاثة من جملة العبادات هو من باب معارضة النقل بالقياس، وقد تقرر عند عامة علماء أهل السنة والجماعة أن

القياس إذا صادم النص فإنه فاسد الاعتبار والله أعلم.

الرابع:- وهو جواب مهم للغاية ولذلك سأضرب لك أمثلة تقرب لك المقصود:- ما رأيك لو كنت تريد أن تخيط لك ثوبًا فهل بالله عليك ستذهب إلى المطعم ليخيطه لك؟ أم ستذهب إلى أصحاب قطع غيار السيارات ليخيطوه لك؟ أم ستذهب إلى أصحاب النجارة ليخيطوه لك، أم ستذهب إلى بائع الخبز واللبن ليخيطه لك؟ لا شك أنك ستقول:- لا لن أذهب لواحدٍ لما ذكرت، ولو سألتك وقلت:- ولماذا لا تذهب إلى أحدٍ من هؤلاء؟ فسوف تقول لأن الحاجة التي أريدها لا توجد عند أحد منهم، وإنما حاجتي لا توجد إلا عند الخياط، أي أنك تركت هؤلاء جميعًا وتجاوزتهم إلى الخياط لأن حاجتك لا توجد إلا عنده، فبالله عليك أيها العاقل:- هل يعقل أن عباد القبور يأتون إلى ذلك القبر المخصوص من كل حدبٍ وصوبٍ، بل وبعضهم يأتيه من أطراف الدنيا، ليدعو عند قبره ويتوسل ويستغيث به، هل كل هذا يحصل وهو يقر إقرارًا باطنيًا أن صاحب هذا القبر لا يملك جلب الخيرات ولا دفع المضرات ولا تفريج الهموم وقضاء الحاجات وتنفيس الكربات هل يتمرغ عند قبره ويبكي بكاء الثكلى عند عتبة القبر وهو يعلم أن صاحب القبر مسكين فقير لا يملك مثقال ذرة وأنه مهما دعا ومهما ابتهل فلن يستطيع صاحب القبر أن يغيث لهفته ويفرج كربته؟ هل يعتقد هذا؟ لا والله هذا لا يعقل أبدًا، بل نحن نعلم جزمًا أنه ما جاء إلى صاحب ذلك القبر من أطراف الأرض وقدم له القرابين والنذور وعكف عند قبره الأيام الطويلة تاركًا بلده وأهله وتجارته وولده إلا وهو يعتقد أن صاحب ذلك القبر سيعطيه سؤله ويجيب دعوته ويغيث لهفته ويجبر خلته وأنه الترياق المجرب والمعدن الذي لا يقدر بثمن والنبع الذي لا يقف وأنه صاحب

المدد والغوث وأنه الواسطة والشفيع والمشفع فكم مر على قبر في طريقه ولم يأبه به، إنما قصد ذلك القبر بعينه وهتف باسم صاحبه بخصوصه، وهذا يفيدك أنه يعلم ويعتقد أن حاجته لا تقضى إلا عنده، لا عند غيره، وهو بهذا الاعتقاد قد اتخذ ذلك القبر وصاحبه ربًا والهًا من دون الله تعالى ذلك لأن الله وحده هو الذي يدعى ولا يدعى غيره وهو الذي يرجى ولا يرجى غيره وهو الذي يستغاث به ولا يستغاث بغيره وهو الذي يتوكل عليه ولا يتوكل على غيره، فمن زعم أن هذه الأشياء يجوز صرفها لصاحب القبر فإنه يكون بذلك قد اتخذه ندًا لله تعالى وهذا التنديد هو الشرك الأكبر المخرج عن الملة بالكلية والعياذ بالله تعالى، ولذلك فيجب على العباد جميعًا الإنس والجن أن يعلموا أنه لا يقضي الحاجات إلا الله ولا يفرج الكربات إلا الله ولا يغيث اللهفات إلا الله ولا يشرح الصدور إلا الله، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه لأنه لا يملك الشفاعة إلا الله وحده لا شريك له في ملكه ولا سلطانه ولا ربوبيته ولا ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته، فالمقبور أيًا كان لا يملك من قطمير وليس له في هذا الكون من تصرفٍ ولا تدبير، فكيف تعتمد القلوب عليه في تحقيق ما ترجوه من الخير الكثير وهو مرتهن بعلمه وإلى رحمة الله فقير، فنعوذ بالله من فساد الباطن بالشبه والبدع والشرك والمعاصي والله أعلم.

الخامس:- أن المشركين السابقين قد كانت عبادتهم لآلهتهم الباطلة هي هذا الالتجاء إليهم من الدعاء والنداء عند الملمات، والاستعانة بهم والاستغاثة عند الكربات وأن حقيقة إشراكهم كان بدعاء هذه الأصنام من دون الله تعالى والاستغاثة بها، وأن الله تعالى في صريح الآيات جعل نفس دعاء الأصنام هو الشرك ونفس الاستغاثة والاستعانة بها هو الشرك ونفس الالتجاء إليها هو

الشرك ونفس طلب الشفاعة منها هو الشرك، فهم – أي الكفار السابقون – لم يشركوا بصناعة الأصنام فقط، بل علة شركهم هو الاعتقاد فيها أنها تغيث اللهفات وتقضي الحاجات وتقرب إلى الله زلفى وترفع الدرجات وتنصر في الحروب وتفرج المكروب ونحو ذلك، فأصحاب القبور وعبادها يعتقدون في القبور المعظمة عندهم نفس ما كان يعتقده السابقون في أصنامهم، فهم وهم سواء إلا أنهم اختلفوا في شكل المدعو والمستغاث به فقط، فالسابقون كانوا يصرفون الدعاء والاستغاثة والتوسل وطلب الشفاعة للأحجار والأوثان والأشجار، وهؤلاء يصرفونها للقبور والأموات، بل ولقد قرر أهل العلم من علماء الدعوة السلفية الأثرية النجدية رحمهم الله تعالى أن المشركين في زمن النبوة وقبله أخف في الإشراك من عباد القبور ومشركي زماننا لأن المشركين السابقين كانوا يشركون في حال الرخاء وأما في الضراء فلا كما قال تعالى {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} وأما مشركو زماننا ومنهم عباد القبور قطعًا فإنهم يشركون في الضراء أكثر مما يشركون في حال الرخاء فهم مشركون في السراء والضراء فالشرك هو الشرك والحال هي الحال وإن سموه تعظيمًا وتقديرًا للأولياء، فتغيير الأسماء لا يغير من الحقائق شيئًا والله المستعان.

الشبهة السابعة: استدلالهم بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}

ويزعمون أن الوسيلة هم الأولياء والصالحون وأنه لا طريق إلى الله تعالى إلا بالمرور عليهم فهم وسيلة الصدق التي أمرنا الله تعالى أن نتعلق بهم وأن نعض عليهم بالنواجذ، فيدخلون التوسل بالذوات والأشخاص في عموم لفظ

{الْوَسِيلَةَ} وبذلك صرح داود بن جرجيس والكوثري وتابعهما على ذلك سائر فرق الصوفية المعظمين للقبور، وقد استدل عامة القبورية بهذه الآية على جواز التوسل بجاه أصحاب القبور والهتاف باسمهم لكشف حوادث الدهور، بل وسفهوا أهل التوحيد على عدم فهم ذلك من الآية وجعلوهم بمنزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وأقول:- سبحانك هذا بهتان عظيم، وكذب جسيم وزور وتقول على الشارع بلا علمٍ ولا برهان وإنما هو التخرص والهوى والظنون الكاذبة، والجهل بحقيقة التوحيد، والعجب من هؤلاء الذين يفهمون من القرآن ما جاء من القرآن بإبطاله والتحذير منه والمقصود أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه:-

الأول:- أن هذا الفهم مجانب ومخالف تمامًا لفهم السلف الصالح رحمهم الله تعالى وهذه المسألة عقدية والمتقرر عند أهل السنة رحمهم الله تعالى أن كل فهم في الأدلة يخالف فهم السلف الصالح فإنه باطل فاسد، فإن السلف رحمهم الله تعالى لم يفهموا من هذه الآية جواز التوسل بالذوات والأشخاص، وذلك لأنهم رحمهم الله تعالى لم يثبت عنهم البتة أن أحدًا منهم كان يدعو أصحاب القبور من دون الله تعالى ولا يتوسل بهم ولا يستغيث بهم، وهذا بإجماعهم المعلوم بالتواتر والمقطوع بصحته فالإجماع على ترك ذلك مع قراءتهم لهذه الآية وفهمهم لها حق فهمها دليل على أن ما فهمه أصحاب القبور مجانب المجانبة المطلقة لمدلول الآية وأنه فهم غريب ودخيل على دلالة الآية، وأنه فهم محدث مولد فيها، فهو كفهم الذين فهموا نفي الصفات من قوله تعالى {اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ} وكفهم الذين فهموا من قوله تعالى {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً} أنها عائشة رضي الله عنها وكفهم الذين فهموا من قوله

تعالى {فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ} أنهما أبو بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكفهم الذين فهموا من قوله تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} جواز دعاء القبور والذبح عندها والطواف لها وتقريب القرابين والنذور لها، وهكذا يفهم المبطلون من القرآن، فإنهم لا يفهمون من آياته إلا ما يتوافق مع شهواتهم واعقاداتهم ومذاهبهم الفاسدة، ولذلك فإن أهل السنة رحمهم الله تعالى لما رأوا توسع أهل المذاهب الفاسدة في فهم الكتاب والسنة، جعلوا الأخذ بالكتاب والسنة مشروطًا بشرط وهو أن يكون على ما فهمه الصحابة والتابعون وأئمة الحق والعدل فبالله عليك هل هؤلاء الأوباش الحمقى أعرف بدلالة الكتاب والسنة من أصحاب رسول الله ﷺ؟ وبناءً عليه فهذا الفهم الذي فهمه عباد القبور وعشاق الوثنية من هذه الآية باطل، لأنه فهم مخالف لفهم السلف، وكل فهم للنصوص يخالف فهم السلف فهو باطل.

الثاني:- أن لفظ الوسيلة والتوسل يختلف معناه باختلاف المعبر عنه، فإن كان اللفظ في القرآن فاعلم أن لفظ الوسيلة في القرآن إنما يراد بها فعل الأمر وترك النهي، والمراد أي أطلبوا القربى والفضيلة بالتقرب إلي بما أمرتكم به وبترك ما نهيتكم عنه وعلى ذلك أطبق علماء السلف من الأئمة فالوسيلة المذكورة في القرآن هي فعل الطاعات وترك السيئات، هذا هو فهم أولياء الرحمن وأتباع الرسل وأما فهم أولياء الشيطان وأتباع الأبالسة فإنه التوسل بالذوات والانطراح عند عتبة المقابر والاستغاثة بهم ودعاؤهم من دون الله تعالى، فأي الفهمين أحب إليك وأيهما تجده أقرب لقلبك بالله عليك، ونحن لا نعلم أن لفظ الوسيلة قد ورد في القرآن إلا في موضعين أحدهما:- هذه الآية، الثاني:- قوله تعالى {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}

والوسيلة في كلا المحلين يراد بها التقرب إلى الله تعالى بفعل المأمور وترك المحظور، فهذا بالنسبة للوسيلة إذا ذكرت في القرآن، وأما إذا ذكرت في كلام الرسول ﷺ فإنه يراد بها المنزلة المخصوصة في الجنة والتي لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله كما في قوله ﷺ (ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله وأرجوا أن أكون أنا هو فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي) وإذا ذكرت في كلام الصحابة فإنه يراد بها الدعاء أي طلب الدعاء، ومنه قول عمر رضي الله عنه (اللهم إنا كنا نتوسل بنبيك ﷺ وإن نبيك قد مات وإنا نتوسل إليك بعم نبينا) فالوسيلة هنا في كلام عمر يراد بها طلب الدعاء، أي أننا كنا نطلب من نبيك أن يدعو لنا والآن قد مات ونحن نطلب فرجك الآن بدعاء عمه العباس فهذه المعاني هي التي يعرفها السلف رحمهم الله تعالى، وأما الوسيلة بمعنى التبرك بذوات الأشخاص والإقسام بهم على الله تعالى ودعاؤهم والاستغاثة بهم فإنه لا يعرفه السلف وليس هو من معاني الوسيلة عند أولياء الرحمن، وهذا المعنى الأخير للوسيلة معنىً بدعي شركي يوصل صاحبه في كثير أحيانه إلى الشرك الأكبر، والمقصود أن لفظ {الْوَسِيلَةَ} في الآيات إنما يراد به القربة إلى الله تعالى بفعل المأمورات وترك المحظورات.

الثالث:- أنه من المعلوم عند من له أدنى نظرٍ في أدلة الكتاب والسنة وكلام السلف أن الاستغاثة والدعاء من التعبدات التي لا يجوز صرفها إلا لله تعالى وقد دل على ذلك الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة وهو إجماع السلف قاطبة، وهذه الأدلة المتوافرة المتواترة هي من المحكم الواضح البين، فكيف تترك دلالتها إلى الاستدلال بما هو محتمل مشتبه، فإن المتقرر عند عامة أهل العلم أن المتشابه يترك للمحكم، والمحكم مقدم على المتشابه، فالأدلة التي تنص

على أنه لا يدعى إلا الله ولا يستغاث إلا به ولا تطلب الشفاعة إلا منه لا من غيره والأدلة على ذلك كثيرة محكمة، والاستدلال على جواز التوسل بذوات الأولياء بقوله تعالى {وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ} استدلال بالمحتمل المتشابه فكيف تترك الأدلة المحكمات والنصوص الواضحات القاطعات المتواترات، من أجل استدلال محتمل متشابه متنازع فيه؟ هذا لا يكون إلا عند أهل البدع الذين يأخذون بالمحتملات المتشابهات ويدعون المحكمات الواضحات.

الرابع:- أن صرف الدعاء للأموات والاستغاثة بهم في تفريج الكربات وإغاثة اللهفات لا يدخل في مسمى التوسل ولا الوسيلة لا لغة ولا شرعًا ولا تدل عليه الآية المذكورة لا مطابقة ولا تضمنًا ولا التزامًا، والقرآن عربي فلا بد من حمل دلالته على المتقرر في اللسان العربي فلفظ {الْوَسِيلَةَ} عند العرب لا يراد به صرف الدعاء للآخرين ولا طلب الحوائج من المقبورين الذين صاروا رميمًا مرتهنين بأعمالهم، وبناءً عليه فحمل نصوص الوسيلة في الكتاب والسنة على التوسلات التي اصطلح عبدة القبور وعشاق الوثنية عليها ليس إلا تحريفًا لتلك النصوص وتلاعبًا بالمصطلحات الشرعية، وما أقرب هذا التحريف لتحريف القرامطة نصوص الشرع إلى معانٍ غريبة كل الغرابة على الشريعة كقولهم إن الصلاة معرفة الأسرار والصوم كتم هذه الأسرار والحج هو السفر للقبور المعظمة عندهم والطواف بها والذبح عندها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الخامس:- أن القرآن الكريم حق كله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فلا اختلاف فيه ولا تناقض ولا اضطراب البتة، ومن القضايا التي فصلها القرآن أنه لا يدعى إلا الله تعالى ولا يستغاث إلا به جل

وعلا، قال تعالى {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} وقال تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوم الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا لا تكاد تحصر إلا بكلفة، فالقرآن قرر التقرير الكامل وأكد التأكيد الثابت بالأوجه المختلفة أنه لا يدعى إلا الله تعالى وأن دعاء غيره شرك وضلال وخسارة، فكيف يأمر بدعاء غيره وبالاستغاثة بغيره بعد ذلك في موضعٍ آخر؟ هل هذا إلا تناقض واضطراب، فلو كان قوله تعالى {وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ} يفيد جواز دعاء الأولياء والاستغاثة بهم والتوسل بذواتهم والانطراح عند عتبة قبورهم لكان ذلك مناقضًا للآيات الكثيرة المحرمة والناهية النهي القطعي عن دعاء غير الله تعالى والاستغاثة بغيره فهذا الفهم من الآية المذكورة يفضي إلى القول بأن القرآن متناقض وفيه اختلاف ويأتيه الباطل والاضطراب، وما كانت نتيجة القول به توصل إلى هذه النتيجة فإنه باطل لا شك في بطلانه، لأن المتقرر عند أهل العلم أن فساد اللازم يدل على فساد الملزوم، فالقبوريون يفهمون من الآية جواز شيء قد تواترت الأدلة على منعه وتحريمه التحريم الغليظ المؤكد، ففهمهم هذا من الآية المذكورة يلزم منه أن القرآن يخالف بعضه بعضًا ويناقض بعضه بعضًا وناهيك بهذا دليلًا على فساد فهمهم الذي فهموه من هذه الآية فاجتمع في فهمهم هذا مخالفة فهم السلف ومجانبة طريقهم وتحريف النصوص وإخراجها عن مداولاتها الصحيحة والاستدلال بالمتشابه وترك المحكم، وتقديم المحتمل على الواضح ولزوم اللوازم الفاسدة التي ينزه عنها كلام البشر فضلًا عن كلام رب البشر جل وعلا فأي عاقل يرضى لنفسه أن يتقحم هذه الحواجز ويقول بما قال به القبوريون في هذه الآية؟ إن هو إلا الجهل والحماقة وحب المخالفة وعشق

الوثنية وتعظيم ما عليه الأسلاف والتعصب المقيت المميت للموروثات الجاهلية المخالفة للكتاب والسنة والله المستعان.

السادس:- أن القاعدة المتقررة في باب التوسل تقول:- الأصل في التوسل التوقيف على الدليل الصحيح الصريح، أي أنه لا يجوز للعبد أن يتوسل إلا بما ورد الدليل بجواز التوسل به فقط وأما التوسلات التي ما أنزل الله بها من سلطان فإنه لا يجوز للعبد أن يتوسل لله تعالى بها فإن باب التوسل من أبواب التعبدات والمتقرر أن العبادات مبناها على التوقيف وقد تتبع أهل العلم التوسلات الشرعية فوجدوا أنها:- التوسل لله بالأسماء والصفات على العموم والخصوص، والتوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة والتوسل إلى الله تعالى بذكر الحال والتوسل بطلب الدعاء من الحي الحاضر القادر، والتوسل بالإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ، فهذا هو الذي نعلمه من التوسلات المشروعة وقد وردت فيها الأدلة الصحيحة الصريحة، وأما المتوسلات التي لا دليل عليها فإنها من التوسلات البدعية الشركية كالتوسل بالذوات والتوسل بالجاه وبالأشجار والأحجار والقبور ونحو ذلك كل ذلك من التوسلات التي لا دليل عليها، وأنت خبير بأن الاستحسانات ورغبات النفوس وما تشتهيه العقول وموروثات الآباء والأجداد والعادات والتقاليد لا مدخل لها في باب التشريع ولا في معرفة العبادة، وإنما العبادة مقصورة على دليل من الكتاب أو دليل من السنة الصحيحة أو ما تفرع عنهما من الإجماع الثابت والقياس الصحيح المستوفي لأركانه.

الشبهة الثامنة: قولهم: إنه لا يقع الشرك في هذه الأمة البتة

واستدلوا على ذلك بحديث جابر عن مسلم بسنده قال قال رسول الله ﷺ

(إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم) وقد فرح القبوريون بهذا الحديث أيما فرح، وفهموا منه أن ما يفعلونه عند قبور الأولياء والصالحين ليس بشرك لأن الشرك لا يقع ولن يقع في هذه الأمة فكأنهم يقولون:- قد جاء الأمان من المصطفى عليه الصلاة والسلام فافعلوا ما تشاءون عند القبور ولا عليكم في ذلك فإنه لا يدخل في الشرك وليس هو عبادة للشيطان لأن المصطفى ﷺ قد قال (إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب...الحديث) وأقول:- عجبًا من هؤلاء القبوريين كيف يفهمون الأدلة وما هو معيار فهمهم لها، وهل يحسب هؤلاء المغفلون أنهم يخاطبون قومًا لا عقول لهم ولا أفهام بها يميزون بين الغث والسمين والحق والباطل، ولكن حسبنا الله ونعم الوكيل ونقول في جواب ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الجواب عن هذا الفهم من عدة وجوه:-

منها:- تخطيء ذلك الفهم، فإن الحديث لم يقل فيه (إنه لن يعبد) وإنما فيه (إنه أيس أن يعبد) وبين التعبدين فرق عند أولي الألباب التي أراد الله هدايتها فإني لو قلت لك:- لن تنجح فهذا نفي صريح للنجاح، وأما إذا قلت:- إن الطالب هذا أيس أن ينجح، فأنا لم أتعرض للنجاح من عدمه وإنما أخبر عن الحالة التي قامت بقلبه، فإخباري بأنه أيس أن ينجح، ليس نفيًا لنجاحه، وهذا يفهمه العرب وأما الأعاجم والأنباط وأفراخ اليونان وزبالات أذهان الأقباط فإنهم لا علم لهم أصلًا بدلالة لغة العرب.

ومنها:- أن هذا اليأس إنما هو حكاية حالٍ قامت بقلب الشيطان فإنه لما رأى انتشار الإسلام وأن الناس يدخلون في دين الله أفواجًا قام بقلبه اليأس أن يعود الناس إلى عبادته كما كانوا عليه قبل البعثة، وقد تقرر في الأصول أن حكاية

الحال لا تفيد العموم أي لا يلزم من يأسه في زمن معين أن يستمر هذا اليأس إلى آخر الدنيا فاستمرار يأسه المذكور في الحديث ليس بلازم فكيف يفهم من الحديث أنه لا يعبد ولن يعبد أبدًا؟.

ومنها:- أن يأس الشيطان أن يعبد في جزيرة العرب إنما كان ذلك لعلة، وهي أنه رأى انتشار الإسلام وأن الناس يدخلون فيه أفواجًا وأن الناس قد انشرحت صدورهم له، وقد تقرر في الأصول أن العلة إذا زالت زال معلولها، فإذا رأى الشيطان بعد الناس عن الدين وعدم تحكيم الشريعة والإقبال على شهوات الدنيا وملذاتها والرضا بالجهل وترك التفقه والتعلم ومنع العلماء من تعليم الناس والحجر والتضييق عليهم ومحاربة بعضنا بعضًا والتهافت على المناصب ونحو ذلك فلا جرم أن هذا اليأس سيزول لزوال سببه، فيأسه في الحديث إنما كان لسبب فمتى ما زال هذا السبب فسيعود أمله ويزول يأسه، وأضرب لك مثلًا يقرب لك ما أريد فإنه إذا كان معلمك في المادة قاسيًا غليظًا يتوعد بوضع أصعب الأسئلة في الامتحان فلا جرم أنه سيقوم بقلبك شيء من اليأس في النجاح، لكن لو أن معلمك هذا قد نقل قبل وضع الأسئلة وجيء لك بمدرس حليم سهل لين بسيط، فلا شك أن اليأس الذي كنت تحس به سيزول أو سيزول بعضه أو أكثره، فما السبب؟ الجواب:- لزوال سبب اليأس، وهكذا الشيطان فإنه لما رأى الفتوحات وانتشار الإسلام وعظمة العلم وإقبال الناس عليه قام بقلبه اليأس ولكن متى ما رأى ضد ذلك فإنه سيزول هذا اليأس أو بعضه أو أكثره وهذا واضح.

ومنها:- أن الحديث إنما ذكر فيه (أنه أيس) وأنت تعلم أن اليأس لا يستلزم عدم المحاولة ولا يستلزم عدم النجاح في تحقيق المقاصد التي قد أيس منها،

فيأسه لا يلزم منه أنه يجلس واضعًا كفه على خده ويترك الآدميين وشأنهم، هذا لا يكون أبدًا فكم وكم من الأشياء التي نستبعدها ونيأس منها ولكننا لا نتركها بالكلية بل نحاول فيها وربما نجحنا في كثير منها، وهكذا ما ورد في هذا الحديث، فإنه لم يقل (سيترك المحاولة) وإنما قال (إنه أيس) ويأسه لا يستلزم ترك المحاولة.

ومنها:- إنه من المعلوم أنه مع شدة عداوة الشيطان لنا وحرصه الكامل على إغوائنا وصدنا عن سبيل الله تعالى وإقسامه على ذلك نعلم جزمًا أن يأسه هذا لن يكون دافعًا له على ترك الإضلال والإغواء، بل إنه سيكون من أقوى الدوافع له ولذريته مع شدة عداوتهم لنا على مضاعفة الجهود وتكريس أقصى المحاولات والسعي الحثيث في الإغواء والإضلال، فلا يمكن أن يرفع الشيطان راية الهزيمة ويتراجع عن ما أقسم عليه، ما دام في الدنيا آدمي، وأضرب لك مثالًا يقرب لك ما أريد وهو أن نقول:- إن المسلم المؤمن المحسن القانت العابد القائم بما أمر الله والمنتهي عن ما نهى الله تعالى لاشك أن هذا المؤمن قد خالط قلب الشيطان شيء من اليأس منه، وأما الكافر المعاند العاتي المتمرد على شريعة الله تعالى، لاشك أن الشيطان في أمنٍ من هذا الرجل فمأمنه من هذا الكافر دفعه إلى عدم الحرص عليه كثيرًا لأن قلبه خرب وماذا يريد الشيطان بالبيت الخرب، وأما الأول فإن يأس الشيطان منه جعله يكر عليه الكرات تلو الكرات ويدبر له المخططات تلو المخططات ويبعث له سراياه، سرية تتبع سرية حتى يغويه ويضله، فانظر كيف كان يأسه دافعًا له على تكثيف الجهد ومضاعفة الغزو وتنويع المؤامرة وتكثير الجند، ففي الحقيقة أن إخبار الأمة بأن الشيطان أيس من أن يعبد يوجب عليها مضاعفة الحرص وإعظام الخوف وشدة

الاستمساك بالكتاب والسنة، وهذا وجه مهم جدًا لم أر من نبه عليه إلا قليلًا مع أنه يعكس على القبوريين فهمهم للحديث لأنهم قالوا:- لما أخبرنا الشارع بأنه أي الشيطان قد أيس فلا داعي إذًا إلى الاجتهاد في العمل، فإنهم لو فهموا ذلك من الحديث لما كان صوابًا فكيف يفهمون منه أنه لن يعبد أبدًا وأن الأمة لن يقع فيها الشرك البتة، وبهذا يتبين لك أنه ما فهموا الحديث أصلًا وإنما فسروه على مقتضى شهواتهم وما تهواه نفوسهم.

ومنها:- أنهم قد وسعوا في فهم الحديث، وبيان ذلك أن الحديث قال (إن الشيطان قد أيس أن يعبد في جزيرة العرب) فلو سلمنا جدلًا أن اليأس دليل على عدم عبادته، فإن الحديث إنما قال (في جزيرة العرب) ولم يقل في مصر ولا في الهند ولا في سائر بقاع العالم إلا في جزيرة العرب، والوثنية والقبورية قد ضربت بأطنابها في كثير من بقاع العالم، وهؤلاء فهموا من قوله (أن يعبد في جزيرة العرب) أي أنه لن يقع الشرك في سائر الأمة في سائر البقاع وهذا يفيدك أيها الطالب للحق أنهم يتسترون وراء هذا الحديث وإلا فالحديث واضح الدلالة لا لبس فيه ولا إشكال، والذي يحرق قلبي هو أنهم يستدلون على جواز الشرك بالأدلة الشرعية التي جاءت بإبطاله وسد أبوابه، فأعوذ بالله من حالهم.

ومنها:- أن المراد من قوله (المصلون) في هذا الحديث أي المؤمنون الكاملون العارفون بالتوحيد والشرك، الذين قد صلوا صلاة صحيحة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر أمثال الصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان من أهل السنة والحديث والأثر، وليس المراد من يصلي فقط وينتمي إلى الإسلام مع ارتكابه للشرك والكفر، فالشيطان لا يطمع أن يعبده المصلون المؤمنون الموحدون أتباع الكتاب والسنة المصدقون بما جاء به رسول الله ﷺ الممتثلون

لأمره والتاركون لنهيه، فإن من كان بهذه الصفة فلا شك أنه على نور من ربه وبصيرة من أمره وأما من تسمى بالإسلام وتعاطى كل ما نهى الله عنه فإنه باسم المنافق أحق من اسم المؤمن.

ومنها:- أن وقوع الشرك في هذه الأمة كائن لا محالة وذلك بإخبار النبي ﷺ بذلك في الأحاديث الصحيحة الصريحة ففي الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار ومن مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة) وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال يا رسول الله دلني على عملٍ إذا عملته دخلت الجنة قال (تعبد الله ولا تشرك به شيئًا...الحديث) ووجه الدلالة منه أنه نهاه عن الإشراك ولو كان الشرك لا يقع في هذه الأمة لما كان لنهيه عنه داع، لكن لما نهاه عنه وعلق الفلاح على تركه دل على أنه - أي الشرك - قد يقع من هذا الرجل، وفي الصحيح من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يأخذ البيعة على أصحابه ويقول (بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا... الحديث) ويقال فيه ما قيل في الحديث قبله، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة) وهو طاغية دوس التي كانت تعبده في الجاهلية وروى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنةٍ بعامة وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال:- يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ عامة، ولا أسلط عليهم عدوًا من

سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا) ورواه البرقاني في صحيحه وزاد (وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى) قال الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله تعالى (وفي رواية أبي داود (وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان) ومعناه ظاهر وهذا هو شاهد الترجمة ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الذين ينكرون وقوع الشرك وعبادة الأوثان في هذه الأمة).اهـ. وقوله رحمه الله تعالى (وهذا هو شاهد الترجمة) يعني قول الشيخ محمد رحمه الله تعالى في كتاب التوحيد (باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان) قال الشيخ سليمان رحمه الله تعالى تعليقًا على هذه الترجمة (أراد المصنف بهذه الترجمة الرد على عباد القبور الذين يفعلون الشرك ويقولون:- إنه لا يقع في هذه الأمة المحمدية وهم يقولون:- لا إله إلا الله محمد رسول الله، فبين في هذا الباب من كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ما يدل على تنوع الشرك في هذه الأمة ورجوع كثير منها إلى عبادة الأوثان وإن كانت طائفة منها لا تزال على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى).اهـ. قلت:- ومن الأدلة أيضًا على وقوع الشرك في هذه الأمة ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ (لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى) فهذه الأدلة المذكورة تفيدك إفادة قطعية أن الشرك سيقع في هذه الأمة

ولكنه كما ذكرت لك ليس على وجه العموم وإنما هي طوائف وفئام من الناس فكيف يدع القبوريون هذه الأدلة الواضحة المحكمة ويستدلون على عدم وقوع الشرك بقوله (أيس أن يعبد في جزيرة العرب) وهو استدلال بالمحتمل والمتشابه فلو سلمنا جدلًا أن الحديث من المتشابه لكان الواجب علينا أن نرده إلى المحكم، فكيف وهو لا تشابه فيه ولا اختلاف ولا اضطراب وإنما هو سوء فهم ونخالة فكر قد شيبت بشيء من الشهوة والهوى، نعوذ بالله من حال الزيغ والضلال.

ومنها:- الاستدلال بالواقع، فإن الشرك قد وقع في هذه الأمة، لا سيما قبل دعوة الشيخ محمد رحمه الله تعالى لا سيما في نجد قال الشيخ سليمان بن سمحان رحمه الله تعالى في الضياء الشارق (فأما بلاد نجد فإنه قد بالغ الشيطان في كيدهم وجد وكانوا ينتابون قبر زيد بن الخطاب ويدعونه رغبًا ورهبًا بفصيح الخطاب ويزعمون أنه يقضي لهم الحوائج ويرونه من أكبر الوسائل والولائج وكذلك عند قبرٍ يزعمون أنه قبر ضرار بن الأوزر وذلك كذب ظاهر وبهتان مزور وكذلك عندهم نخل فحال ينتابه النساء والرجال ويفعلون عنده أقبح الفعال والمرأة إذا تأخر عنها الزواج ولم يرغب فيها الأزواج تذهب إليه تضمه بيديها وتدعوه برجاءٍ وابتهال وتقول:- يا فحل الفحول أريد زوجًا قبل الحول، وشجرة عندهم تسمى الطريفية، أغراهم الشيطان بها، وأوحى إليهم التعلق عليها وأنها ترجى منها البركة ويعلقون عليها الخرق لعل الولد يسلم من السوء، وفي أسفل بلدة الدرعية مغارة في الجبل يزعمون أنها انفلقت من الجبل لامرأة تسمى بنت الأمير، أراد بعض الناس أن يظلمها ويضير فانفلق الغار ولم يكن له عليها اقتدار وكانوا يرسلون إلى هذا المكان من اللحم والخبز ما يقتات به جند

الشيطان، وفي بلدتهم رجل يدعي الولاية يسمى التاج يتبركون به، ويرجون منه العون والإفراج وكانوا يأتون إليه ويرغبون فيما عنده من المدد بزعمهم ولديه، فتخافه الحكام والظلمة ويزعمون أن له تصرفًا وفتكًا بمن عصاه وملحمه مع أنهم يحكون عنه الحكايات الشنيعة التي تدل على انحلاله عن أحكام الملة والشريعة وهكذا سائر بلاد نجد على ما وصفنا من الإعراض عن دين الله والجحد لأحكام الشريعة والردة ومن العجب أن هذه الاعتقادات الباطلة والمذاهب الضالة والعوائد الجائرة والطرائق الخاسرة قد فشت وظهرت وعمت وطمت حتى بلاد الحرمين الشريفين فمن ذلك ما يفعل عند قبر محجوب وقبة أبي طالب فيأتون قبره بالسماعات والعلامات للاستغاثة عند نزول المصائب وحلول النواكب وكانوا له في غاية التعظيم ولا ما يجب عند البيت الكريم فلو دخل سارق أو غاصب أو ظالم قبر أحدهما لم يتعرض له أحد لما يرون له من وجوب التعظيم والاحترام والمكارم ومن ذلك ما يفعل عند قبر ميمونة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في سرف وكذلك عند قبر خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يفعل عند قبرها ما لا يسوغ السكوت عنه من مسلم يرجو الله والدار الآخرة فضلًا عن كونه من المكاسب الدينية الفاخرة وفيه من اختلاط النساء بالرجال وفعل الفواحش والمنكرات وسوء الأفعال ما لا يقره أهل الإيمان والكمال وكذلك سائر القبور المعظمة المشرفة في بلد الله الحرام مكة المشرفة وفي الطائف قبر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفعل عنده من الأمور الشركية التي تشمئز منها نفوس الموحدين وتنكرها قلوب عباد الله المخلصين وتردها الآيات القرآنية وما ثبت عن سيد المرسلين).اهـ.كلامه رحمه الله تعالى.

قلت وبهذه الأوجه يتبين لك زيف ما لبسه عباد القبور من أنه لا يقع في هذه

الأمة شرك، فإنها دعاية تغرير أوردوا بها إضلال العالم وإنصاف المثقفين وإلا فحقيقة الأمر كما رأيت من أن الشرك في هذه الأمة واقع واقع ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وصية

أوصي طلبة العلم أن يرجعوا إلى كتاب الضياء الشارق في رد شبهات المارق ويقرؤه قراءة متأنية مفصلة فإن فيه خيرًا كثيرًا وتحقيقًا بديعًا وتحريرًا يندر مثله. والله أعلم.

الشبهة التاسعة: استدلال القبورية على دعاء الأموات والاستغاثة بهم عند حلول الكربات بقصة هاجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

والقصة أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ترك ابنه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجه هاجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بوادي مكة قبل أن يبني فيها الكعبة وقبل ظهور ماء زمزم ولم يكن يومئذٍ بمكة ماء ولا أحد، ووضع عندها جرابًا فيه تمر وسقاء ماء، فجعلت أم إسماعيل ترضع ابنها وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وجعل يتمرغ من شدة العطش فوجدت هاجر الصفا أقرب جبل إليها فقامت عليه لعلها ترى أحدًا، فلم تر أحدًا فهبطت من الصفا ثم أتت المروة فقامت عليها فلم تر أحدًا فعلت ذلك سبعًا فلما أشرفت على المروة في السابعة سمعت صوتًا فقالت:- قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك:- لا تخافوا الضيعة فإن هاهنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه وإن الله تعالى لا يضيع أهله، وفي لفظ أن هاجر قالت لما سمعت الصوت على المروة (أغث إن كان عندك خير فإذا جبريل... الحديث) وقد رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،

ووجه الاستشهاد به عند القبورية أن هاجر قد استغاثت بهذا الغائب وهي لا تدري أي هو ملك أم إنسان أم جني، فهي قد استغاثت به من قبل أن تراه أي أنه لا يزال في حكم الغائبين ومع ذلك فقد استغاثت به، وقال ابن جرجيس الخسيس معلقًا على هذا الحديث النفيس بتعليق استمده من معلمه إبليس (فلو كان طلب الغوث من غير الله شركًا لما جاز لها استعماله ولما ذكره النبي ﷺ لأصحابه ولما نقله الصحابة من بعده ولما ذكره المحدثون ولا سيما البخاري الذي أجمعت الأمة على أن ما بعد كتاب الله أصح من كتابه) وخلاصة الشبهة أن هاجر هنا قد استغاثت بهذا الغائب فدل ذلك على جواز الاستغاثة بالغائبين والأموات والأولياء والصالحين، هكذا فهموا هذا الحديث والجواب عن ذلك أن يقال:- إن المتقرر عند أهل السنة بالإجماع أنه يجب أن نفهم الأدلة كما فهمها السلف الصالح، فإنهم أعلم منا بمراد الدليل لأنهم عاصروا التنزيل وشهدوا التأويل وهم أوفر الأمة عقولًا وأزكاها علمًا وأعمقهم فهمًا ودراية بمقاصد النصوص، فبالله عليك لو كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين قد فهموا من هذا الحديث جواز التوسل والاستغاثة بالغائبين فلماذا لم يفعلوه ولو مرة واحدة؟

فإننا لا نعلم عن أحدًا منهم على كثرتهم أنه دعا غائبًا أو استغاث بميت، مع أنهم سمعوا هذا النص، وفهموه حق فهمه، فهذا دليل على أن ما فهمه القبوريون من هذا الدليل هو في حقيقته فهم أجنبي عن النص وأنه لا يمت له بصلة، وأن هذا الفهم فهم محدث بدعي شركي أنتجته العقول الفاسدة ذات الأفهام الكاسدة العاطلة عن نور النبوة ولقد كانوا إذا تأخر المطر بالمدينة على عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يستسقون بدعاء العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أن النبي ﷺ كان قبره بينهم، مع الجزم بأنه حي في قبره وأن جسده باقٍ كما هو لأن الأرض لا تأكل أجساد

الأنبياء، فهذا كله يفيدك خطأ هذا الفهم الذي فهموه من النص المذكور، وقد قررنا في مواضع كثيرة أن كل فهم يخالف فهم السلف في مسائل الاعتقاد فإنه باطل مردود على صاحبه، فهذا أولًا، وأما ثانيًا:- فلأن السلف رحمهم الله تعالى قد قرروا أن الاستغاثة بغير الله تعالى قسمان:- استغاثة بغيره فيما لا يقدر عليه إلا هو، فهذه الاستغاثة هي الشرك الأكبر المخرج عن الملة بالكلية، واستغاثة بغيره فيما يقدر عليه ذلك الغير فهذا جائز لا بأس به وهذا الحديث الذي نحن بصدد بيان حقيقة المراد منه إنما هو في النوع الثاني لا في النوع الأول، فهذا الحديث لا علاقة له بطلب ما لا يقدر إلا الله تعالى ولا صلة له بالاستغاثة بالغائب الذي لا يقدر ولا ينفع أو الميت الذي لا يعلم ولا يرى ولا يسمع بل هو يتكلم عن جواز الطلب من الحي الحاضر فيما يقدر عليه ذلك الحي فإن هاجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قد سمعت صوت جبريل الحي الحاضر فطلبت منه ما كان يقدر عليه وإن لم تكن تراه، بل هذه القصة من أقوى الدلائل على أن إبراهيم وآل بيته عليهم السلام قد بلغوا من الوثوق بالله تعالى والالتجاء إليه غاية ذلك وأعلاه وذلك أنه قد ترك ولده الذي هو من أعز الناس عليه مع أمه في أرضٍ قفراء غبراء لا ماء فيها ولا مرعى ولا أنيس ولا جليس، مع شيء نزر من التمر والماء ثم انصرف إلى أهله بالشام، ثقةً بالله تعالى أنه سيخلفه على أهله ويرزقهم من حيث لا يحتسبون وانظر إلى حسن ظن أهل بيته بالله تعالى فإن هاجر لما رأت العزيمة على السفر إلى دياره قالت له:- يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا حتى قال لها:- إن ذلك بأمر الله تعالى، فقالت:- إذن لا يضيعنا، ثم رجعت علمًا منها أنه سبحانه خير حافظًا وهو أرحم الراحمين وبقيت صابرة على ما تكابده من قضاء الله وقدره وانتهى التمر ونفد الماء وجاع الصغير وكاد العطش أن يقتله،

وجعل يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذي ينازع الموت فقامت تسعى سعي الإنسان المجهود وتنتظر فرج الذي بيده مفاتيح الفرج وكانت كل مرة تتفقد إسماعيل وتنظر إليه نظر المشفق الواثق بفرج الله تعالى لكنها كانت لا تدري من أين يأتيها الفرج وعلى أي صورة، مع أنها كانت في المرتبة العالية من الوثوق بربها جل وعلا، فسعت سبع مرات وهي تتشوف بريد الفرج فلما أشرفت على المروة في المرة الأخيرة سمعت صوتًا فأيقنت بحصول ما كانت ترجوه من الله تعالى وتيقنت أنه من رسل رب الأرض والماء فقالت:- قد أسمعت، وطلبت منه الغوث إن كان عنده مغاث فإذا هي بالملك يضرب بعقبه الثرى فخرج الماء وجاء الفرج من الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، فبان بذلك أن هاجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لم تطلب الغوث إلا ممن هو حاضر قادر محسوس ويشبه ذلك رجلًا سقط في حفرة مظلمة ولم يستطع الخروج منها، وطال به الأمر فينما هو كذلك إذ سمع صوتًا من فوق فأيقن أنه الفرج فقال:- أغثني يا عبدالله، وهذا ليس من الشرك في شيء بل هو من الاستغاثة بالمخلوق الحي الحاضر بما يقدر عليه وهذا قد قررنا جوازه وعليه قوله تعالى ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ فأين هذا من الذي يستغيث بالأموات في تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وهم أموات وجثث هامدة لا حراك بها ولا يقدرون على نفع أنفسهم فضلًا عن نفع غيرهم، وأين هذا من الذين يطلبون المدد والغوث من الأحياء الغائبين وبينهم من المسافات والمفاوز ما تنقطع دونه الإبل فأين هذا من هذا؟ لكنها الأهواء التي تتجارى بأصحابها كما يتجارى الكلب بصاحبه.

وخلاصة الجواب الثاني:- أن هذا الحديث ليس له صلة بدعاء الأموات ولا بدعاء الغائبين وإنما هو دليل من أدلة جواز الاستغاثة بالحي الحاضر القادر

فهذا ثانيًا ويوضحه الوجه الثالث وهو أن يقال:- بالله عليك هل هاجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا استغاثت ابتداءً من غير سماع صوت ولا تحققٍ من وجود أحد؟ هل هاجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رفعت صوتها بالمدد والغوث ابتداءً كما يفعله عباد القبور؟ بالطبع لا بل بقيت صابرة راجية الفرج مدة طويلة من الزمن حتى سعت بين الصفا والمروة سبع مرات، ولم تقل ما قالت إلا لما سمعت الصوت وتحققت أنه الفرج من الله تعالى فحينئذٍ قالت ما قالت فهذا يفيدك أن قولها هذا إنما يدل على جواز الاستغاثة بالحي القادر فيما يقدر عليه، ولا شأن له بدعاء الأموات ولا بالاستغاثة بالغائبين، فنعوذ بالله تعالى من ضلال الفهم وفساد المعتقد وسوء القصد والله المستعان.

الشبهة العاشرة

واستدل القبورية أيضًا على جواز دعاء الأموات والصالحين الغائبين بحديث رواه الترمذي في جامعه قال:- حدثنا محمود بن غيلان قال حدثنا عثمان بن عمر قال حدثنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلًا ضرير البصر أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال:- ادع الله أن يعافيني فقال (إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك) قال:- فادعه، قال:- فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في) قال الترمذي:- هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو الخطمي وعثمان بن حنيف هو أخو سهل بن حنيف.اهـ.كلامه

فيقولون:- انظر إلى هذا الرجل الضرير فإنه قد توجه لله تعالى بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتوسل إلى الله تعالى به وهذا دليل على جواز طلب مثل ذلك من الأولياء

والصالحين في حياتهم وفي مماتهم وفي حضورهم وغيابهم هكذا قاله هؤلاء الأوباش والجواب عن استدلالهم بهذا الحديث من وجوه:-

الأول:- إنه حديث مختلف في ثبوته، فالعلماء متنازعون في تصحيحه وتضعيفه فمنهم من صححه ومنهم من ضعفه، ومثل هذا الحديث بهذا الإسناد لا يصلح أن يكون عمدة للاستدلال به على مثل هذه المسألة العظيمة فإنها من مسائل العقيدة وهم يشترطون التواتر في إثبات مسائل الاعتقاد ووالله لو أن هذا الحديث يتكلم عن صفةٍ من صفات الله تعالى لأنكرته قلوبهم ولعرفت في وجوههم المنكر عند سماعهم له، ولقالوا إن الصفات من قضايا الاعتقاد وقضايا الاعتقاد لا نقبل فيها إلا المتواترات، وتراهم هنا يستدلون بحديث الأعمى على مسألة من مسائل الاعتقاد وهي جواز دعاء الأموات والاستغاثة بالغائبين من الأولياء والصالحين، وما ذلك إلا لأنهم أهل أهواء يأخذون ما وافق أهوائهم وإن لم يك ثابتًا في نفس الأمر، ويتركون ما خالف أذواقهم ومذاهبهم وإن كان ثابتًا بالتواتر في نفس الأمر، فنعوذ بالله من الأهواء المضلة، والمقصود أن هذا الحديث من العلماء من ضعفه ومن العلماء من صححه، وممن صححه شيخ الإسلام أبو العباس، ونحن أيضًا بعد دراسة سنده نقول:- إنه حديث يحتج به، ولكن يحتج به على ماذا؟ هل يحتج به على جواز دعاء الأموات؟ هل يحتج به على جواز دعاء الغائبين؟ هل يحتج به على جواز التوسل بذوات الأولياء والصالحين، أم يحتج به على ماذا؟ هذا ما ستعرفه في بقية الجواب إن شاء الله تعالى.

الثاني:- أن استدلالهم بحديث الأعمى لما ذهبوا إليه هو من باب الاستدلال بالمتشابه وترك المحكم، فإن مسألة دعاء الأموات والغائبين قد

فصلتها الأدلة الصحيحة المتواترة كقوله تعالى {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} وقوله تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} وقوله تعالى {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} وقوله ﷺ (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله) وقوله (يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئًا) وقوله تعالى {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ} وغير ذلك كثير مما لا يكاد يحصر إلا بكلفة، فهذه المسألة مفصولة بالأدلة وأنها من الشرك الأكبر المخرج عن الملة باتفاق أهل العلم فحكمها معلوم بالكتاب والسنة والإجماع، ثم يأتي القبوريون وينسفون ذلك كله بحديث الأعمى الذي اختلف أهل العلم في ثبوته، وياليته يدل على ما ذهبوا إليه حتى نجد لهم عذرًا، بل إنهم فهموا منه ما لم يدل عليه البتة، وهذا شأن أهل البدع أنهم يدعون الواضحات الصريحات المحكمات ويعتمدون المحتملات المتشابهات، هذا إذا سلمنا أن حديث الأعمى قد يفيد ما ذهبوا إليه وهذا يتضح بالوجه الثالث.

الثالث:- أن حديث الأعمى ليس له صلة بدعاء الأموات، لأن هذا الرجل الأعمى جاء إلى النبي ﷺ وهو حي، فالاستدلال به على جواز دعاء الأموات من توسيع دلالة النص بلا برهان ومن تحميل الدليل مالا يحتمله، نعم لو جاء الأعمى إلى قبر النبي ﷺ بعد وفاته ودعاه وأقره الصحابة لكان ذلك يحقق مطلوبهم ولكن هذا الرجل الأعمى إنما جاء للنبي ﷺ في حياته وخاطبه وهو في حياته وطلب منه أن يدعو له وأن يشفع له عند ربه في رد بصره وهو في حياته

فكيف يستدل به على جواز دعاء الأموات من الأولياء والصالحين؟ أي فهم هذا؟ وبأي دلالة يمكن أن يحتج هؤلاء؟.

الرابع:- أن حديث الأعمى ليس له صلة بدعاء الغائبين لأن هذا الرجل الضرير لم

يدع النبي ﷺ وهو بعيد عنه كما يفعله عباد القبور، بل جاء إلى المدينة ودخل مسجد الرسول ﷺ وصلى معه وعرض عليه ما يريد منه شفاهًا وجهًا لوجه، فكيف يستدل به هؤلاء على جواز دعاء الغائبين والاستغاثة بهم حال غيابهم وبينهم المسافات الشاسعة البعيدة؟ بأي دلالة استفادوا ذلك من حديث الأعمى؟.

الخامس:- أن هذا الرجل الأعمى إنما سأل النبي ﷺ أن يدعو له الله جل وعلا في رد بصره، والنبي ﷺ حي حاضر قادر على تحقيق ذلك الطلب، وهذا يسمى عند أهل السنة بالتوسل بدعاء الرجل الحي الحاضر القادر وهو جائز بالاتفاق كما في حديث أنس في الصحيحين في أن رجلًا دخل المسجد والنبي ﷺ يخطب فقال:- يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا فرفع النبي ﷺ يديه وقال (اللهم أغثنا - ثلاثًا -... الحديث) وكحديث المرأة التي كانت تصرع فجاءت للنبي ﷺ ليدعو لها أن لا تصرع وحديثها في الصحيح وكاستسقاء عمر في خلافته بدعاء العباس رضي الله عنه، وكحديث (خير التابعين رجل يقال له أويس وله والدة وكان به بياض، فمروه فليستغفر لكم)"رواه مسلم من حديث عمر رضي الله عنه " وكقول عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وأبي سفيان بن حارث للنبي ﷺ استغفر لي، أي كل واحد منهم طلب من النبي ﷺ أن يستغفر له فهذا الحديث - أعني حديث الرجل الضرير - إنما يفيد جواز التوسل بدعاء

الحي الحاضر فيما يقدر عليه، فأين هذا من دعاء الأموات والاستغاثة بالغائبين في تفريج الكربات وإغاثة اللهفات ومغفرة السيئات وتكثير الحسنات والنجاة من البلايا والنصر على الأعداء والحفظ في الأسفار والنجاة من النار والشفاعة في دخول دار الأبرار؟ هذا كله من الغلو في فهم النصوص، وهنا بليتان لا بد من الحذر منهما وهما:- الأولى:- الغلو في فهم النص وتحميله ما لا يحتمل كما هو حال أصحاب القبور وعشاق الوثنية مع حديث الأعمى هذا، الثانية:- التقصير في فهم النص والتفريط في ذلك، وكلاهما من بلايا الفهم الفاسد وخلاصة هذا الجواب أن الأعمى إنما سأل حيًا، فلا حجة لهم في الاستدلال به على دعاء الأموات، وقد سأل حاضرًا فلا حجة لهم في الاستدلال به على دعاء الغائبين، وقد سأل المخلوق فيما يقدر عليه، فلا حجة لهم في الاستدلال به على دعاء المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وهذا واضح كالشمس ولكن سبحان من طمس بصائرهم عن رؤيته، ولا نقول إلا كما قال تعالى {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} والأعمى هنا لم يدع النبي ﷺ أن يرد إليه بصره، وإنما سأل النبي ﷺ أن يدعو الله تعالى له أن يرد بصره، فهو إنما طلب منه الدعاء فقط، وأما قول الأعمى (أتوسل بك عند ربي) فقد تقرر عند أهل العلم أن خير ما فسرت به السنة هو السنة وقد ورد في بعض روايات حديث الأعمى أن التوسل هنا إنما يراد به طلب الدعاء له، كما في قوله (ادع الله أن يعافيني) وقوله عليه الصلاة والسلام (إن شئت دعوت وإن شئت صبرت) قال:- فادعه، فالتوسل بالنبي ﷺ هنا لا يقصد به التوسل بذاته ولا بجاهه، وإنما يقصد به طلب الدعاء، وقد تقرر لنا سابقًا أن لفظ الوسيلة والتوسل له ثلاث إطلاقات تختلف باختلاف المتكلم به، فأما الوسيلة في القرآن

فإنما يراد بها التوسل إلى الله تعالى بفعل المأمور وترك المحظور والالتزام بالطاعة ومتابعة النبي ﷺ كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ وأما الوسيلة في لفظ الرسول ﷺ فإنما يراد بها المنزلة العالية التي في الجنة والتي لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله كما في حديث جابر (آت محمدًا الوسيلة والفضيلة) وحديث عبدالله بن عمرو (ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تكون إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة) وأما الوسيلة في اصطلاح الصحابة رضوان الله عليهم فإنما يراد بها طلب الدعاء من المتوسل إليه كما في قول عمر (إنا كنا نتوسل بنبيك فتسقينا وإن نبيك قد مات وإنا نتوسل إليك بعم نبينا... الحديث) وكما في حديث الأعمى هذا فإنه من الصحابة وقد قال (أتوسل بك إلى ربي) فلفظ التوسل هذا جرى على لسان الصحابي فيكون المراد به طلب الدعاء كما ورد ذلك مفسرًا في أول الحديث وفي الروايات الأخرى، ففي الحقيقة أن حديث الأعمى هذا لا يدل ولا مطلق الدلالة على ما يريده منه القبوريون ولا حجة لهم فيه أصلًا اللهم إنا نعوذ بك من البدع والمحدثات ونسألك الاتباع الكامل والله تعالى يتولانا وإخواننا لما فيه الخير والصلاح والله أعلى وأعلم.

الشبهة الحادية عشر: الاستدلال بمرويات مكذوبة مختلقة وبقصصٍ وخرافات لا أساس لها من الصحة

وذلك كتعلقهم بحديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرضٍ فلاة فليناد:- يا عباد الله احبسوا، يا عباد الله احبسوا فإن الله عَزَّ وَجَلَّ في

الأرض حاضرًا سيحبسه) رواه أبو يعلى وابن السني في عمل اليوم والليلة وكذلك الطبراني في الكبير فيما أظن والله أعلم وهذا الحديث غير ثابت أصلًا فلا يصح للاستدلال إلا عند الأغمار والضلال، وذلك لأن في إسناده رجلًا يقال له معروف بن حسان وهو ضعيف منكر الحديث، قال الهيثمي في مجمع الزوائد بعد هذا الحديث (وفيه معروف بن حسان وهو ضعيف) وقال صاحب أسنى المطالب بعد هذا الحديث (وفيه معروف بن حسان منكر الحديث).اهـ. وقال ابن عدي (منكر الحديث) وحكى الذهبي قول ابن عدي هذا في ميزان الاعتدال وأقره وقال السيوطي:- حديث ضعيف، وقال الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله تعالى (بل هو باطل إذ كيف يكون عند سعيد عن قتادة ثم يغيب عن أصحاب سعيدٍ الحفاظ الأثبات مثل يحيى القطان وإسماعيل بن علية، وأبي أسامة وخالد ابن الحارث وأبي خالد الأحمر وسفيان وشعبة وعبدالوارث وابن المبارك والأنصاري وغندر، وابن أبي عدي ونحوهم حتى يأتي به هذا الشيخ المجهول المنكر الحديث فهذا من أقوى الأدلة على وضعه).اهـ.

وقال ابن عدي رحمه الله تعالى عن معروف هذا (قد روى عن عمرو بن ذر نسخة طويلة كلها غير محفوظة).اهـ. فبان بذلك أن هذا الحديث حديث ضعيف جدًا وقد حكم عليه الشيخ سليمان رحمه الله تعالى بأنه موضوع ومع ذلك فلا يحل الاحتجاج به على إثبات حكم شرعي خطير كهذا الذي يريده عباد القبور وعشاق الوثنية، لأنه قد تقرر في القواعد أن الأحكام الشرعية تفتقر في ثبوتها الأدلة الصحيحة الصريحة، وقد أعلة بعضهم أيضًا بالانقطاع فحق هذا الحديث أن يطرح من كتب أهل العلم وأن ينبه على ضعفه فهذا الجواب الأول عن استدلال القبورية بهذا الحديث، وهو كاف وفيه مقنع لمن أراد الله هدايته،

وأما الجواب الثاني فهو ما أشار إليه الشيخ سليمان رحمه الله تعالى بقوله (وعلى تقدير ثبوته لا دليل فيه لأن هذا من دعاء الحاضر فيما يقدر عليه كما قال (فإن في الأرض لله حاضرًا سيحبسه عليكم).اهـ.

وبيانه أن يقال:- إن قوله (حاضرًا) يفيد أن هذا ليس من دعاء الغائب الذي بينك وبينه مسافات شاسعة، ويفيد أيضًا أنه حي لأن حضوره دليل حياته فلا يفيد ما يريده القبوريون من جواز دعاء الأموات وقوله (سيحبسه عليكم) يفيد أن هذا المدعو قادر على فعل ذلك فهو دعاء الحي الحاضر القادر وقد قررنا فيما مضى جواز ذلك فلا يدل ولا مطلق الدلالة على دعاء الأموات، ولا يدل ولا مطلق الدلالة على دعاء الغائبين، ولا يدل ولا مطلق الدلالة على دعاء الغير فيما لا يقدر عليه إلا الرب جل وعلا، هذا مع التسليم الجدلي الافتراضي بأن الحديث ثابت، لكن كما عرفت أنه حديث ساقط ضعيف جدًا بل ما أقربه أن يكون موضوعًا كما حكاه الشيخ سليمان رحمه الله تعالى، فبان لك بذلك أن الحديث مردود سندًا لأنه ليس بصحيح ومردود دلالة لأنه ليس بصريح فيما ذهب إليه عباد القبور، وبه انكشفت هذه الشبهة التي يدندنون حولها كثيرًا ويطيلون في تسويدها الصفحات والله ربنا أعلى وأعلم.

الشبهة الثانية عشر: رواية يروونها تقول
(إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا بأهل القبور)

هكذا يروونها من غير إسناد، ولم نجد من رواه بعد طول بحثٍ وقد وجدناه في كشف الخفاء للعلجوني وقال بعد ذكر هذه الرواية (كذا في الأربعين لابن كمال باشا) قلت والخيبة ثم الخيبة من ابن كمال هذا فإنه حنفي متعصب مبتدع ما تريدي جهمي بل صوفي في غالٍ وقبوري من الدرجة الأولى،

فقد حاز عند الشيطان درجة الامتياز في قبوريته ووثنيته، وله شرح شيطاني كفري على قصيد ابن الفارض الملحد الزنديق المسماة (القصيدة الخمرية) وقد أحسن ابن الفارض في تسميتها لا غفر الله له ولا حياه ولا بياه، فإنها كالخمر في إذهاب العقول فهي تطمس نور البصر والبصائر وتقتل التوحيد في القلوب وتثبت الشرك والبدعة والوثنية والنفاق فيها، وبه تعلم أن هذا الكلام موضوع بالاتفاق وكذب وباطل لا أساس له من الصحة وقد جمع مع وضعه واختلاقه معارضة أصول الشرع في النهي عن دعاء أصحاب القبور وإخلاص العبادة لله تعالى، فلعن الله واضعه وعامله بما توعد به الذين يكذبون على رسوله ﷺ بقوله (من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار) ولهم في مثل ذلك حديث آخر يقول (إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور) وهو حديث موضوع بالاتفاق أيضًا قال ابن تيمية (هذا مكذوب باتفاق أهل العلم لم يروه عن النبي ﷺ أحد من علماء الحديث).اهـ.

وقال بعد كلام له (فهذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه لم يروه أحد من العلماء به ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة).اهـ. كلامه وبمثل هذه المرويات الضعيفة دخل الشرك على كثير من الناس فهذان الحديثان مكذوبان موضوعان مفتعلان، وقد وضعها عبدة القبور ليرجوا بضاعتهم على أشباه الأنعام من الجهلة والطغام، وقد ذكرنا لك سابقًا أن من الأسباب والبواعث التي بها ذاع صيت القبورية وتطاير شررها في الآفاق هو هذه الروايات المكذوبة المختلقة التي هي عند عباد القبور من أصح ما يقال لأنها توافق أهوائهم العفنة ومذاهبهم الملعونة عافانا الله وإياك وسائر إخواننا من هذه البلايا وهو أعلى وأعلم.

الشبهة الثالثة عشر: شبهة الواسطة

وهذه شبهة قديمة، و القبوريون تجاه هذه الشبهة الخبيثة قد انقسموا إلى فرقتين باعتبار فهم هذه الشبهة، الفريق الأول:- القبوريون من الفلاسفة والمناطقة والمتكلمين الذين يتقعرون في الألفاظ ويتنطعون في إخراج الكلمات، والثاني:- العوام الجهال الأميون، فأما هذه الشبهة عند الفريق الأول فإنهم قالوا فيها:- إن النفوس التي فارقت أبدانها تكون أقوى تأثيرًا من هذه النفوس التي لا تزال متعلقة في أبدانها، لأن النفس إذا فارقت البدن فإنه يزول عنها الغطاء وينكشف لها عالم الغيب، فتأثير النفس بعد موت صاحبها وانفصالها عنه أقوى من تأثيرها لما كانت فيه، فإذا ذهب الحي إلى قبر صاحب هذه النفس ووقف عنده قليلًا تأثرت نفس هذا الحي بنفس هذا الميت وتعلقت بها فحصل للحي بسبب هذا التأثير علوم ومعارف لم تكن عنده من ذي قبل، كذا قال الرازي والتفتازاني وأنت تعرف أن الأول هو فيلسوف الأشعرية والثاني فيلسوف الماتريدية وتابعهم على ذلك النبهاني الضال والكوثري العاطل، ولأجل ذلك قال الرازي تفريعًا على ما سبق (وسمعت أن أصحاب أرسطا طاليس كلما أشكل عليهم بحث موضوع ذهبوا إلى قبره وبحثوا تلك المسألة فكانت المسألة تنفتح والإشكال يزول) كذا قال، ويعني بهذا الكلام فتح باب طلب الغوث والمدد والاستفتاح وحل المشاكل النازلة من أصحاب القبور لأن لهم - عنده - تأثيرًا قويًا في ذلك اكتسبوه بمفارقة نفوسهم لأبدانهم، وهذه الشبهة تسمى عند أهل العلم بالواسطة الفلسفية، وأما الفريق الثاني:- وهم العوام فإنهم يقررون لزوم الواسطة بشكلٍ آخر فإنهم يقولون فيها:- إننا قوم مذنبون متلوثون بأشكال الذنوب من الذنوب والمعاصي، ومن المعلوم أن مقام

الربوبية والألوهية مقام رفيع الشأن جدًا، فهو مقام بعيد لا يدركه أمثالنا من أصحاب الذنوب والمعاصي فلابد من واسطة توصلنا إلى ذلك المقام وتبلغ حاجتنا إلى الرب جل وعلا، وأنت ترى بذلك أن هؤلاء قد قاسوا رب العباد على ملوك البلاد، فقالوا:- كما أنه لا يمكن للرعايا الوصول إلى الملوك إلا بواسطة الوزراء والأمراء فكذلك نحن لا يمكننا الوصول إلى الله لإنجاح الحوائج إلا بواسطة الأنبياء والأولياء، وقالوا:- وكما أننا اتخذنا الأنبياء واسطة بيننا وبين الله في إبلاغ الشرع فكذلك نتخذهم واسطة في الدعاء وطلب الشفاعة وتقريبنا إلى الله زلفى، كذا قالوا قلت:- سبحان من قارب بين قلوب القبوريين المتأخرين وقلوب المشركين السابقين فإن المشركين الأوائل قد استندوا في شركهم إلى هذه الشبهة الشيطانية الآثمة وهي اتخاذ الواسطة، فقال تعالى حاكيًا مقالتهم {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} وقال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ} فإن المشركين السابقين الأولين لم يعبدوا الأحجار والأشجار والقبور لأنها تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت وإنما عبدوهم اعتقادًا منهم أنهم وسائط بينهم وبين الله تعالى، فما أشبه الليلة بالبارحة، وإني أرى أن هذه الشبهة قوية عند أصحابها فلابد من التفصيل في الإجابة عنها، ولا يكفي في ذلك الكلام المجمل فأقول وبالله التوفيق:

الجواب الأول:- أن كلام الفلاسفة كلام عقلاني صرف في باب من أبواب الغيب وقد تقرر عند عامة المسلمين أن الأبواب الغيبية لا مدخل للعقول فيها وإنما مبناها على الدليل الشرعي الصحيح الصريح، فقولهم (إن الإنسان يكون أقوى تأثيرًا بعد الموت) هذا كلام في مسألة غيبية خارجة عن مدركات عقولنا،

وما كان خارجًا عن مدركات عقولنا فإنه لا يجوز الخوض فيه بلا علمٍ ولا برهان ولا حجة صحيحة، وهذا هو شأن الفلاسفة فإن العقل عندهم مقدس معظم قد سمحوا له أن يخوض في أي شيء، واعتمدوا على تقريره في أي مسألة بغض النظر هل هي غيبية أو محسوسة، وهذا هو الذي أوجب لهم الضلال وكثرة الحيرة والإشكالات التي لا مدفع لها، فانظر إليهم هنا يتكلمون عن حال النفس وحال الإنسان بعد مفارقة روحه ويقارنون بين تأثيرها قَبْلَ وبعد، وكأن الحال عندهم محسوسة أو كأنهم يعلمون الغيب، وهذا من سخافة عقولهم وعظيم ضلالهم، فحال النفس بعد الموت من الأحوال الغيبية التي لا نستطيع إدراكه بعقولنا القاصرة، وهذا جواب كافٍ وخلاصته أن يقال:- إن كلام الفلاسفة الجهال في النفس بعد مفارقة البدن كلام العقلي صرف في مسألة غيبية ومسائل الغيب مبناها على الدليل ولا مدخل للعقول فيها.

الثاني:- أن كلام الفلاسفة هذا قياس في مصادمة النص المتواتر، وقد تقرر عند علماء الإسلام أن القياس الذي يصادم النص فإنه باطل فاسد الاعتبار، وهذا بالاتفاق في الجملة، ذلك لأن الفلاسفة المتهوكين المغفلين يقولون إن للنفس تأثيرًا قويًا بعد مفارقتها للجسد وأن الميت يستطيع أن يؤثر في الحي الزائر له والواقف بأدبٍ عند قبره، وهذا الكلام معارض ومصادم لنصوص الكتاب والسنة، فإن الدليل قضى بأن الميت لا يسمع دعاء من يدعوه ولو أنه سمعه لما استجاب له، كما قال تعالى {إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} وأخبر الدليل بأن الأموات قد انقطعت أعمالهم كما قال ﷺ (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولدٍ صالح يدعو

له)"رواه مسلم" فكيف يثبت الشارع أنه بعد موته ينقطع عمله وهؤلاء يقولون:- بل إنه يكون ذا تأثير أقوى مما كان عليه في الحياة؟ إن هي إلا خرافات وخزعبلات ممن لا عقل عندهم ولا نقل، وقد صرح الدليل بأن الدعاء حق محض صرف لله تعالى لا يصرف لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لولي صالح فضلًا عن القبور والأشجار والأحجار كما قال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} فأمرنا بدعائه، وقد تقرر في الأصول أن الأمر بالشيء نهي عن ضده من جهة المعنى أي كأنه قال:- اخلصوا الدعاء لي ولا تدعوا غيري، وسمى ذلك الدعاء عبادة فقال {عِبَادَتِي} وأضافها لنفسه إضافة الاختصاص أي هي خاصة بي فلا تشركوا معي فيها أحدًا، كما قال في الآية الأخرى {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} وأخبر جل وعلا أن من دعا غير الله في أمرٍ لا يقدر عليه إلا هو جل وعلا فإن هذا المدعو لا يستجيب له إلى يوم القيامة وأنه عن دعائه غافل فقال {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} والآيات في هذا المعنى كثيرة، فكيف يقضي النص بتوحيد الله بالاستغاثة وطلب المدد والدعاء والفلاسفة يفتحون باب الشرك على مصراعيه ويجعلون للنفوس تأثيرًا وقدرة على إجابة الدعوات وإغاثة اللهفات وتفريج الكربات، فهذا كلام ربك وهذا كلام الفلاسفة فأي الكلامين أحب إليك وأي الكلامين أولى بالاتباع؟ كأني بك تقول:- كلام ربي كلام ربي.

فأقول:- نعم هو كذلك فإنه لا أحد أصدق من الله حديثًا ولا أحد أصدق منه قيلًا، فابشر بالخير فقد هديت إلى صراط مستقيم إن قدمت كلام الله ﷻ على قول كل أحد ولم تعارضه بقول فلسفي أحمق أو متكلمٍ أرعن لا يدري

وجهه من قفاه، وخلاصة ذلك أن قول الفلاسفة إن النفس بعد مفارقة صاحبها بالموت تكون أقوى تأثيرًا كلام مصادم للنصوص المتواترة وقياس عريٌ عن المستند وكل قياس صادم النص فإنه فاسد الاعتبار، وبالمناسبة فإن معلم الفلاسفة الأول ومدير مدرستهم هو إبليس ولا شك أن التلميذ يتأثر بشيخه ومعلمه وإن مصادمة النصوص بالأقيسة الباطلة هي مادة إبليس التي يحفظها والتي ينقلها لطلابه في المدرسة الشيطانية، فإن الله تعالى لما أمره بالسجود لآدم وكان ذلك بالنص الصريح والأمر القاطع الذي لا يحتمل المناقشة في قوله تعالى {اسْجُدُواْ لآدَمَ} عارض إبليس هذا النص بالقياس بأنه مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين والنار خير من الطين فالحق أن آدم هو الذي يسجد لي لا العكس، فلعن وطرد من الجنة وطبع على قلبه فلا يؤمن أبدًا بسبب كفره وتكبره وكان ذلك بسبب قياسه الفاسد، فلا جرم أن الفلاسفة الذين هم طلابه سيتأثرون كامل التأثر بهذه اللفتة الشيطانية، فمعارضتهم للنصوص بالأقيسة والعقول المجردة هي مما ورثوه من إبليس، فبأس المعلم والتلميذ والله المستعان.

الثالث:- إن الفلاسفة الضلال قد ربطوا بين شيئين و اعتقدوا أنهما متلازمان لاينفكان، وهما:- انكشاف ما كان خافيًا للنفس بعد مفارقتها للجسد، وانتفاع الأحياء بذلك الصفاء والانكشاف، ونحن نطالب الفلاسفة إلى يوم القيامة أن يأتوا بدليل يصحح هذا التلازم، نعم إن الروح بعد المفارقة ينكشف لها بعض ما كان خفيًا عنها حال كونها في حياة صاحبها الحياة الدنيوية كما قال تعالى {لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} وكما قال ﷺ (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي فإن كان

من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال:- هذا مقعدك حتى يبعثك الله ﷻ)"متفق عليه" وغير ذلك، لكن هذا الانكشاف لا يلزم منه البتة أن ينتفع الحي به بل هو انكشاف قاصر على صاحبه الذي حصل له، فلا شأن للحي بذلك البتة، وأنت خبير بأن ربط هذا الانكشاف بنفع الحي أمر لابد فيه من دليل لأنه ارتباط غيبي وأمور الغيب لابد فيها من نص، والعقول المجردة عن نور الدليل لا شأن لها بذلك، ومن أثبت ذلك الارتباط بعقله المجرد فقد قال بلا علم وتكلم بلا برهان ولا حجة وتقول على الله تعالى بما لا دليل عليه، وكذب وافترى واجترأ على الشارع، وأنا أتحدى الفلاسفة أن يأتوا بدليل يثبت صحة دعواهم بأن انكشاف الغطاء عن الميت ينتفع به الأحياء الزائرون له، أتحداهم إلى يوم القيامة، فبان لك بذلك أنهما أمران منفكان لا شأن لأحدهما بالآخر وإنما هو شيء فرضته عقولهم العفنة وارتضته أهواءهم العاطلة عن نور النبوة، وتابعهم فيه السقطة المدعون للعلم وهم عنه بأبعد نزل، فوالله ثم والله لقد خاب من جعل الفلاسفة له قائدًا وهاديًا والله يتولانا وإياك.

الرابع:- لقد تقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أن فساد اللازم دليل على فساد الملزوم أي إذا لزم من شيء لوازم باطلة فلزومها دليل بطلانه هو في ذاته، وكلام الفلاسفة في هذه القضية فاسد كله فإنهم قالوا:- إن للنفس تأثيرًا قويًا بعد مفارقتها للجسد والحي إذا زار الميت بعد ذلك اكتسب من نور صفائه وانتفع بمقاربته وتعلقت نفسه بتربته الخ كلامهم الذي ذكرته سابقًا وهذا الكلام يلزم عليه لوازم باطلة، منها:- مصادمة النصوص كما قررناه سابقًا من أن الميت لا يملك نفعًا ولا ضرًا لنفسه فضلًا عن غيره ومن أنه قد انقطع عمله وغير ذلك وهذا لازم فاسد ومنها:- صرف الدعاء للميت دون الله ﷻ وهذا لازم فاسد،

ومنها:- انفتاح باب الشرك على مصراعيه وهذا لازم فاسد، ومنها:- إحساس الحي القادر المتحرك بافتقاره إلى هذا الميت العاجز الذي هو جثة هامدة لا حراك بها، وهذا لازم فاسد ومنها:- أنه يفضي إلى أن يعتقد الحي أن لهذا الميت تصرفًا خفيًا في الكون وهذا لازم فاسد، ومنها:- الاستغاثة بالأموات وطلب المدد منهم بناءً على إثبات هذا التأثير لأنفسهم وهذا لازم فاسد، ومنها:- الاستعانة بالأموات في الشدائد والنوازل من دون الله تعالى كما هو حاصل في قبورية كل زمان والله المستعان وهذا لازم فاسد، ومنها:- أنه - أي كلام الفلاسفة - إلى تعظيم الميت التعظيم الزائد عن الحد المشروع وهذا يفضي إلى تعظيمه بالذبح له والنذر له والبناء على قبره وتوظيف السدنة عنده وغير ذلك وهذه كلها لوازم فاسدة، ومنها:- أن الحي سيعتقد أن الميت له قدرة على إجابة الدعوات وإغاثة اللهفات وهذا لازم فاسد، ومنها:- تعلق قلوب الأحياء بالأموات رجاء نفعهم وهذا لازم فاسد، ومنها:- فتح باب الزيارة الشركية البدعية وهذا لازم فاسد، ومنها:- انقلاب الحال وانعكاس الأمر فبدل أن ينفع الأحياء الأموات بدعائهم واستغفارهم بالزيارة الشرعية صار الأحياء يرجون الانتفاع بالأموات وهذا لازم فاسد لأنه انعكاس للأمور بالحيل الشيطانية، فهذه بعض اللوازم الفاسدة التي ستحصل لزامًا لو قلنا بما قال به الفلاسفة فلما كانت هذه اللوازم باطلة شرعًا دل فسادها على فساد ملزومها الذي هو قول الفلاسفة، أي أن قول الفلاسفة السابق لو كان صحيحًا وحقًا لما لزم عليه شيء من اللوازم الباطلة لكن لما كان باطلًا وفاسدًا في ذاته لزمت عليه اللوازم الباطلة الفاسدة، وهذا هو معنى قولنا (فساد اللازم دليل على فساد الملزوم) وبه تعلم ما قاله أهل العلم رحمهم الله تعالى من أن لازم الحق لا

يكون إلا حقًا ولازم الباطل لا يكون إلا باطلًا والله يتولانا وإياك.

الخامس:- أن القبورية المعاصرة والقديمة في تثبتهم بكلمة (الواسطة) ملبسون ومدلسون حيث إنهم خلطوا الباطل بالحق فإن كون الأنبياء عليهم السلام واسطة بين الله وبين سائر الخلق هو في نفسه يحتمل حقًا وباطلًا والألفاظ المجملة التي تحتمل حقًا وباطلًا لا تقبل مطلقًا ولا ترد مطلقًا بل هو موقوفة على الاستفصال حتى يتميز حقها من باطلها فيقبل الحق ويرد الباطل، هذا مذهب أهل الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أؤلئك رفيقا، فإن أرادوا أن الأنبياء واسطة في تبليغ أوامر الله ونواهيه وبيان دينه فهذا معنىً حق وصواب فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما يكرهه، وماذا أمر به وماذا نهى عنه إلا بواسطة الرسل عليهم السلام فإنهم المبلغون عن الله سبحانه وتعالى وما إن إراد بالواسطة أن الأنبياء والأولياء واسطة بين العباد وبين رب العباد في جلب المنافع ودفع المضار والرزق والنصر والإغاثة وكشف الكربات وأن الناس يرجعون إليهم في ذلك ويسألونهم قضاء الحاجات وتفريج المدلهمات وينادونهم في غيابهم في الحياة وبعد الممات لجلب الخيرات ودفع الآفات فهذا من أعظم الشرك الذي كفر الله به المشركين، فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنوب وهداية القلوب وتفريج الكربات وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين، وبه تعلم أن كلمة الواسطة صارت بحسب الاستعمال من الألفاظ المجملة التي تحتمل الحق والباطل فلابد فيها من الاستفصال قبل إنكارها أو قبولها، فالقبول والإنكار متوقف على مراد صاحبها المتلفظ بها على

ضوء التفصيل السابق.

السادس:- أن ما سلكه أهل القبورية العامة الأميين هو بعينه ما سلكه الكفار الأوائل فإن الكفار الأوائل لم يعبدوا آلهتهم من دون الله تعالى لأنها تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت وإنما عبدوها لأنهم يعتقدون أن هذه الآلهة تقربهم إلى الله زلفى كما حكاه الله تعالى عنهم بقوله ﷻ {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} وبقوله في محكم كتابه {وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ} وذلك لأن المشركين يزعمون أن مقام الربوبية مقام في غاية العلو وأن الخلق مهما فعلوا فلن يصلوا إليه إلا بواسطة، وهكذا ما قاله عباد القبور وعشاق الوثنية، هو نفسه لا يختلف، فالمبدأ واحد والدليل واحد والوجهة واحدة وإنما الاختلاف في أشكال هذه الواسطة فمنهم من اتخذ الملائكة واسطة ومنهم من جعلها الأنبياء ومنهم من جعلها الأولياء ومنهم من جعلها الأشجار ومنهم من جعلها الأحجار ومنهم من جعلها الكهوف والمغارات وغير ذلك، لكن الجميع وإن اختلفوا في ذلك إلا أنهم يتفقون على أن هذه وسائط بينهم وبين الله تعالى يدعونهم ويتوكلون عليهم ويسألونهم الشفاعة ويعتقدون أنهم يقربونهم إلى الله تعالى زلفى، مما قاله الأواخر هو بعينه ما قاله الأوائل فهل الله عذرهم بذلك؟

الجواب:- لا بل كفرهم الله تعالى بهذا الاعتقاد وهذا القول، قال تعالى {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} وهذا تكذيب وتكفير بصيغة المبالغة لما اعتقد هذا الاعتقاد أو قال هذا القول، فالقول هو القول والحكم هو الحكم، فبان بذلك أن ما سلكته القبورية المعاصرة هو بعينه ما سلكته الجاهلية الوثنية السابقة وأن الحجة هي بعينها هي الحجة وبناءً

عليه فالحكم هو الحكم، فكما أن السابقين من المشركين كفروا باتخاذ هذه الواسطة فكذلك عباد القبور في هذا الزمان نحكم عليهم بالكفر باتخاذ هذه الواسطة التي يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى.

السابع:- أن اعتقاد عباد القبور بأن منزلة الربوبية في أعلى المنازل على الإطلاق اعتقاد صحيح لا مرية فيه، لكنهم بنوا على ذلك أنهم لا يصلون إلى هذا المقام لإيصال الحوائج إلا بواسطة، وهذا هو الذي نعارضهم فيه ونرده عليهم، فالأول نقر به ونعوذ بالله تعالى أن نناقش فيه وأما الثاني فلا والله لا نقبله ولا طرفة عين لأنه متعارض مع ما أثبتته الأدلة من أن الله تعالى قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه كما قال تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} وقال النبي ﷺ للذين رفعوا أصواتهم بشيء من القرآن والذكر (أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إنما تدعون سميعًا بصيرا، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) وقد تقرر بإجماع أهل السنة رفع الله منازلهم في الجنة أن من صفاته جل وعلا أنه قريب قربًا يليق بجلاله وعظمته، وقد تقرر عند أهل السنة رحمهم الله تعالى أن الله تعالى هو العلي في قربه ودنوه وهو القريب في علوه وفوقيته، فكيف يقول هؤلاء الغافلون عن الحق غفلة لا يعذرون بها كيف يقولون لا نستطيع أن نتصل بالله إلا بواسطة وهو القريب جل وعلا في علاه هذا دليل على أنهم لم يعرفوا ربهم جل وعلا بمقتضى أسمائه وصفاته ولو علموا أنه قريب سميع بصير ولا يخفى عليه دعاء الداعين على مختلف لغاتهم وتفنن حاجاتهم لأذعنت قلوبهم له جل وعلا، ولكنهم غفلوا عن ذلك أو تغافلوا عنه فوقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ذلك والله أعلم.

الثامن:- أن القبوريين زعموا أنه لا بد من اتخاذ الواسطة بينهم وبين الله

تعالى لإيصال الحوائج وللشفاعة، وهذا منهم يعتبر تشبيها للخالق بالمخلوق، فإنهم شبهوه جل وعلا بملوك الدنيا ووجه هذه المشابهة أن نقول:- إن الملوك لا يعلمون حاجة رعاياهم على وجه التفصيل إلا بالوزراء والأمراء الذين يوصلون لهم حوائج الناس فجعلوا الله تعالى كالملك الذي لا يعلم بحوائج رعيته إلا بواسطة الأمراء والوزراء والشفعاء والمقربين وهذا في حد ذاته مرفوض لأنه تشبيه للخالق بالمخلوق والله جل وعلا يقول {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ويقول {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} ويقول {فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا} ويقول {فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} وهم قد جعلوا له مماثلًا ومكافئًا وأندادًا، لأن القبوريين قد قاسوا الله رب العالمين بالملوك والسلاطين وهذا باطل من أساسة فإن الملوك والسلاطين يجهلون حقائق الأمور التي تدور في منطقة نفوذهم وهم لا يعلمونها على وجه التفصيل لنقص علمهم وإدراكهم، فلذلك احتاج ملوك الدنيا إلى الوسائط من الأمراء والوزراء والوجهاء والندماء والعرفاء ليبلغوهم أحوال الرعية ويرفعوا إليهم حوائجهم، وأما الله تعالى فهو العليم بكل شيء وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو العليم بدقائق الأمور صغيرها وكبيرها قال تعالى {إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء} وقال {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء} ولما جاءت المجادلة وهي خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها للنبي ﷺ تشكو زوجها وأنه ظاهر منها، وكانت تخفي بعض كلامها فلا تسمعه عائشة وهي في جانب حجرتها، فأنزل الله تعالى من فوق سبع سموات {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} فقالت عائشة:- سبحان من وسع سمعه الأصوات، وهو علام

الغيوب، قال تعالى {قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ} وقال تعالى {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} وقال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} فأين القبوريون من هذه الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة التي هي برد اليقين على القلب والروح؟ فإذا كان اتخاذهم للوسائط سببه اعتقادهم أن الله تعالى قد يخفى عليه شيء من دعائهم فإنهم قد أوتوا من جهلهم بحقيقة الحال، فالله هو عالم الغيب والشهادة فمن ظن أن الله تعالى مثل ملوك الدنيا فهو كافر.

ويقال أيضًا:- إن ملوك الدنيا عاجزون عن تدبير أمورهم والقيام على حقوق رعاياهم ودفع أعدائهم فهم في حاجةٍ إلى أعوان وأنصار من الوزراء ليعينوهم في تدبير مملكتهم وسياسة رعاياهم وحفظ بلدانهم وأوطانهم بخلاف رب الكائنات الخالق الحي القيوم القادر المالك الغني القاهر القوي العزيز المهيمن، الذي بيده ملكوت كل شيء وله مقاليد السموات والأرض والذي يُطْعِمُ ولا يُطْعَمْ، الرزاق المتعال العلي العظيم، الغني عن كل شيء، والمفتقر إليه كل شيء، سبحانه عن ما يعتقده فيه المخالفون للرسل، فأين الله من ملوك الدنيا؟ فمن ظن أن الله تعالى مثل ملوك الدنيا فهو كافر لا ريب في كفره، ونقول أيضًا:- إن ملوك الدنيا مضطرون إلى قبول شفاعة أمرائهم ووزرائهم لحاجتهم إليهم في حفظ البلاد وسياسة العباد فالملوك يقبلون شفاعتهم بإذنهم وبغير إذنهم

لمن يرضون عنه ولمن يسخطون عليه بخلاف رب الأرباب فإنه غني حي قيوم لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وهو مالك الأكوان، ليس لأحد معه في ملكه شرك ولا معين ولا ظهير، فهو سبحانه لا يقبل الشفاعة إلا لمن أذن له ورضي له قولا، حتى الملائكة فإنهم لا يشفعون عنده إلا بعد إذنه ورضاه واقرأ قوله تعالى {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى} وقال تعالى {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} فأين هذا من ملوك الدنيا الضعفاء البسطاء؟ لا والله إن من شبه الله بملوك الدنيا فهو كافر حلال الدم، فقياس خالق الملوك على الملوك قياس فاسد أشد الفساد فتأمل هذا الجواب وتفكر فيه فإن فيه الكفاية والهداية لمن أراد هدايته والله المستعان.

التاسع:- إن شبهة الواسطة باطلة من أصلها ومجتثة من جذورها ذلك لأن الأموات لا يعلمون بحال المضطرين المكروبين الذين يدعونهم ويستغيثون بهم، فكيف يشفعون لهم، والميت مرتهن بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وهو عاجز فقير لدعوة الحي له والاستغفار له، وهو جثة هامدة قد أكله الدود وبات في قبره لا حراك به ولا ملك له قد غطاه التراب من كل نواحيه، فكيف يرجى ممن هذه حاله أن يجيب دعوة المضطرين ويكشف الكرب عن المكروبين ويشفع لأحدٍ عند رب العالمين؟ بل إنه مفتقر بعد موته إلى الأحياء ليغسلوه ويكفنوه ويستروا عورته ويقدموه ليصلي عليه المسلمون، وهو مفتقر إلى حمله إلى المقبرة ولدفنه فكيف تعتمد عليه القلوب وتتجه له في جلب الخيرات ودفع المضرات؟ بل إن أحدًا لو أراد قبره بسوءٍ لما استطاع أن يدفع

عن نفسه ذلك فكيف يرجوه الأحياء أن يحقق مطالبهم ويغيث لهفاتهم؟ بل إنه مفتقر إلى الأحياء ليحموه ممن أراده بشر فكيف يستنصر به الأحياء في المدلهمات؟ ما هذه العقول اليابسة والأفهام المتحجرة؟ نعوذ بالله من ذلك ثم نعوذ بالله من ذلك، وما هو إلا كما قال تعالى {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} والله المستعان، بل لو أن ذبابًا وقع على أنفه أو عينه أو فمه قبل تكفينه وآذى وجهه لما استطاع أن يرفع يده أو يحرك رأسه ليبعده عنه فكيف يعتقد الأحياء أنه هو الترياق المجرب والدواء الناجح والمجرب النافع، إنه تسويل الشيطان وتزيينه للباطل والشرك نعوذ بالله من ذلك، والله أعلم.

الشبهة الرابعة عشر: زعم القبوريون أن المشركين أهل الجاهلية الأولى إنما كانوا يعبدون الأشجار والأحجار فقط

وكانوا يعتقدون فيها الربوبية وأنها تضر وتنفع مع أنها لا ترى ولا تسمع ولا مكانة لها عند الله ولا احترام لها عنده، هكذا قالوا، وأما نحن فالأمر فينا مختلف فإننا لا ندعو أحجارًا ولا أشجارًا بل ندعو الأنبياء والمرسلين ونستغيث بالأولياء والصالحين أهل المنازل السامية والرتب العالية، فإن جاههم عند الله عظيم وهم أحياء في قبورهم يسمعون ويتصرفون ويعلمون، فالآيات المحذرة من الشرك إنما نزلت في شرك السابقين عباد الأشجار والأحجار ولكن لا شأن لها بالتوسل بالصالحين والاستغاثة بالأولياء، فالذي نفعله يختلف تمامًا عما كان يفعله المشركون السابقون، وخلاصة حجتهم هذه التفريق بين أنواع المعبودات فالأوائل كفروا لأنهم اتخذوا الأشجار والأحجار آلهة، وأما نحن فلا نكفر لأننا اتخذنا الأنبياء والأولياء واسطة بيننا وبين الله، فلا يكفر عندهم إلا

من عبد شجرًا أو حجرًا، وهذا الكلام ما جئنا به من عند أنفسنا بل وجدناه مسطورًا في كتبهم بل هو من الحجج القوية عندهم والتي يظنون أنه لا مدافع لها، وبعد النظر فيها بعين العدل وجدنا أنها من أبطل الباطل وأمحل المماحلة وأزيف الزيف وأكذب الحديث وغاية الحماقة والتهويس والتلبيس، والكلام في ردها وإبطالها من وجوه:

الأول:- أن كلام القبورية هذا مبني على فهم فاسد وهو أن المشركين الأوائل أهل الجاهلية الأولى ما حكم عليهم بالشرك إلا لأنهم كانوا يعبدون الأحجار والأشجار فقط، وهذا خطأ ظاهر، فإن عبادة المشركين إنما كانت أساسًا للصالحين والأولياء ولكن لأن هؤلاء الصالحين ماتوا وفقدت أجسادهم اتخذ المشركون أحجارًا مصورة على صورة وسموها بأسمائهم ليتذكروهم ويوضح ذلك جليًا أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} قال (صارت الأوثان التي كانت في قوم نوحٍ في العرب بعدُ، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت)" وهذا الأثر رواه الإمام البخاري في صحيحه " فهذا هو أصل عبادة غير الله تعالى وأن هذه الأحجار التي صوروها إنما هي تماثيل أقوامٍ صالحين، فالعبادة بالقصد الأول ليست لأحجارٍ ولا لأشجار، وإنما هي لهؤلاء الصالحين، فهذا يفيد أن المشركين لم

يكونوا يعبدون الأحجار لذاتها وإنما كانوا يعبدون الصالحين المسماة بأسمائهم، فالشرك إنما ظهر في قوم نوح وتوارثه من بعدهم بهذا السبب وهو تعظيم الصالحين التعظيم الخارج عن الحد المشروع، فصارت هذه الشبهة القبورية مبنية على الفهم الفاسد، ويزداد بيان ذلك بالوجه الثاني إن شاء الله تعالى.

الثاني:- أنه قد تبين لك أن المشركين الأوائل لم يعبدوا الصالحين مباشرة وإنما عبدوا ما يعبر عن الصالحين من الأحجار والتماثيل، فإذا كان الله تعالى قد حكم بالشرك على من يعبد الصالحين بواسطة الأحجار، فكيف بمن يعبدهم مباشرة إما عند قبورهم وإما في حال حياتهم؟ لا شك أن هذا أعظم كفرًا وأشد شركًا، فالقبوريون في زماننا أعظم شركًا من السابقين لأن القبورية الحديثة قد عبدت الأولياء مباشرة بلا واسطة، وأما الأوائل فقد اتخذوا أحجارًا وسموها بأسماء الصالحين وعبدوها، فأي الفريقين أعظم شركًا لو كانوا يعلمون؟ وأضرب لك مثالًا وهو أن يقال:- ما رأيك في رجلين، أحدهما يعبد الشيطان مباشرة، والآخر يعبد حجرًا ويسميه باسم الشيطان، لا شك أن كليهما من المشركين إلا أن شرك المباشر أشد من شرك ممن عبده بالواسطة، وهكذا حال القبوريين في زماننا فإنهم يأتون إلى قبر الولي ذاته ويتعبدون له بأنواع العبادات من الذبح والدعاء والاستغاثة به والانطراح عند عتبة قبره وشكوى الهموم إليه وينذرون له مباشرة، وهذا أشد شركًا وأعظم كفرًا من الذي يتخذ حجرًا أو يسميه باسم ذلك الولي، وبالجملة فكلا الفريقين مشرك بلا شك لكن القبورية المتأخرة أشد شركًا وكفرًا من القبورية السابقة ويتضح ذلك بالجواب الثالث.

الثالث: أن جمعًا من أهل العلم ذكروا أن اللات بتشديد التاء علامة على

رجل صالح كان يلت السويق للحجاج بين مكة والطائف فكان الحجاج يميلون إليه لكرمه ولأنه يطعمهم، فكانوا يحبونه فلما مات اتخذوا في مكانه صخرة عظيمة وسموها باسمه وصارت العرب تعبدها من دون الله تعالى، فأنت ترى أنهم لم يعبدوا هذه الصخرة لذاتها وإنما عبدوا ذلك الرجل الصالح، فحقيقة عباد اللات إنما هي عبادة لهذا الرجل الصالح، فكيف يتبجح قبورية زماننا بأن المشركين الأوائل إنما كانوا يعبدون أحجارًا وأشجارًا لا حقيقة لها ولا طائل من وراء عبادتها، فإن هذا سخف من القول وتدليس على العوام والجهال، وهذه الأجوبة الثلاثة كافية في نسف هذه الشبهة ونزيدها وجهًا رابعًا.

الرابع:- لا شك أن النصارى واليهود من جملة المشركين الكفرة وإذا نظرت إلى مبدأ شركهم لوجدت أن النصارى إنما عبدوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فمنهم من قال هو الله ومنهم من قال هو ابن الله ومنهم من قال هو ثالث ثلاثة، وصاروا يصرفون له العبادات وهو نبي، ومع ذلك لم ينفعهم أنه نبي، بل هم مشركون وكفار، واليهود كذلك فإنهم كانوا يعبدون عزيرًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ويقولون إنه ابن الله، فصاروا يعبدون عزيرًا فالنصارى عبدت نبيًا واليهود عبدت نبيًا ومع ذلك فهم كفار ومشركون فإذا كان عابد النبي مشركًا وكافرًا فكيف بمن يعبد من دون النبي من سائر الأولياء والصالحين؟ لا شك أنه أشد كفرًا وأعظم شركًا، ويتضح هذا بالوجه الخامس.

الخامس: أن الشرك وإن اختلفت صوره فإن حقيقته واحدة، ذلك لأن العبادة هي حق الله تعالى المحض الصرف فلا تصرف لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لولي صالح فضلًا عن غيرهم من الأشجار والأحجار والكهوف والقبور والشياطين وغير ذلك، فأي نوع من أنواع العبادة صرف لأي أحدٍ دون

الله تعالى فهو شرك بغض النظر عن المصروف له، المهم أنك صرفت ما هو من خصائص الله تعالى لغير الله وهذا هو الشرك، ولا يغير صورة الشرك علو مكانة المصروف له وعظم جاهه وسمو مرتبته، فالشرك هو الشرك، فمن ذبح لملك من الملائكة فهو مشرك، ومن ذبح للشيطان فهو مشرك، فعلو مقام الأول لا يغير صورة الشرك وسفول مرتبة الثاني لا يغير صورة الشرك ومن نذر لقبر فهو مشرك ومن نذر للنبي ﷺ فهو مشرك لأن الذبح والنذر من حقوق الله تعالى الخالصة التي لا حظ فيها لملك ولا لنبي ولا لولي ولذلك فإني أعطيك قاعدة مهمة عظيمة فاحفظها فإنها زبدة الجواب عن هذه الشبهة وأرجو منك أن تكررها كثيرًا حتى تحفظها ونصها يقول (علو مرتبة المخلوق لا تسوغ صرف العبادة له من دون الله تعالى) فمهما كانت مرتبة هذا المخلوق فإنه لا يستحق أي شيء من العبادة، سواءً أكان في مرتبة الملائكية أو النبوة أو الولاية أو ما دونها، فانتبه لهذا ولا تفرق بين هذا وهذا كما وقع فيه عباد القبور وعشاق الوثنية نعوذ بالله من حالهم، والحاصل أن العبرة بارتكاب الشرك لا بنوعية الشريك، سواءً أشرك بالله تعالى صنمًا أو وثنًا أو حجرًا أو شجرًا أو قمرًا أو شمسًا أو نجمًا أو أشرك بالله تعالى ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا أو وليًا كاملًا أو رجلًا عاميًا فيا رب أسألك بأنك أنت الله الذي لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ذو الجلال والإكرام أن تهدي قلوبهم وأن تحيي التوحيد في قلوبهم وأن ترزقهم التوبة الصادقة النصوح قبل أن تقبض أرواحهم، يا رب يا رب يا رب أسألك باسمك الأعظم أن تردهم إليك ردًا جميلًا وأن تنظر إليهم بعين الرحمة والرأفة، يا رب أسألك باسمك الأعظم يا حي يا قيوم أن تشرح صدورهم للحق والتوحيد وأن تعيذهم من شياطين الإنس

والجن إنك ولي ذلك والقادر ولا حول ولا قوة إلا بك، آمين اللهم صل وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، فهذه أربع عشر شبهة هي أعظم ما يستدل به القبوريون على عقيدتهم في القبور وقد حاولنا الإطالة في الجواب ليتميز الحق من الباطل ونستغفر الله ونتوب إليه من زلل اللسان والجنان والبنان وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وهو أعلى وأعلم....

واعلم رحمك الله تعالى أن تعظيم القبور التعظيم الزائد هو أساس المفاسد، فإنها تتضمن مفاسد عظيمة على العاقل أن يتدبرها بعين العقل، فإن النفوس إذا اقتنعت بفساد هذه الأشياء لانت لاعتقاد فساد مذاهب القبورية، وعلى الدعاة والعلماء والمصلحين أن ينشروا هذه المفاسد بين العامة والخاصة ليتضح لمن وقع في شيء من ذلك فساده وما يترتب على فعله من البلايا العظيمة والآثار الوخيمة فإن ذلك أدعى لرجوعه ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل، ودونك هذه المفاسد فأقول وبالله التوفيق:-

منها:- الوقوع في الشرك الأكبر المخرج عن ملة الإسلام بالكلية، فإن دعاء القبور شرك والاستغاثة بأصحابها شرك والذبح عندها بقصد التعبد لمن فيها شرك والنذر لها شرك والسجود والركوع لها شرك واعتقاد أن أصحابها ينفعون أو يضرون شرك والخوف منهم تعبدًا شرك والتوكل عليهم شرك ورجاؤهم شرك، وهذه أعظم مفسدة.

ومنها:- أن هذا التعظيم والغلو أفضى بكثير من القبوريين أن يبنوا عليها المشاهد والمزارات، وجعلوا عليها الأوقاف وأدخلت في المساجد أو بني على المسجد بوصية وبغيرها وصار كثير من عبادها يصلون إليها ولو كانت وجوههم لغير القبلة لأن المقصود عندهم هو استقبال القبر لا استقبال الكعبة.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى بكثير من العامة إلى التبرك بتراب هذه القبور والتمسح بها وبجدرانها وبأعتابها وأخذ ترابها إلى بلادهم وبيوتهم لتحل البركة فيها.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى بكثير من العامة إلى تزويق القبور وبنائها بالرخام وزخرفتها والكتابة عليها وبناء القباب العالية عليها وتوظيف السدنة عندها، ووضع الزهور والحرير عليها وتطييبها بين الحين والآخر، وكل ذلك مشاهد لاينكره أحد.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى بالكثير إلى شد الرحال لها بقصد التعبد لها وهذا محرم التحريم الشديد وقد سبقت الأحاديث في بيان ذلك.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى إلى اتخاذها عيدًا فإن القبوريين قد اتخذوا هذه القبور أعيادًا، يأتونها من كل مكان، فتجد على مدار السنة أعيادًا قد خصصت لهذه القبور فقبر الحسين له عيد وقبر البدوي له عيد وقبر روس له عيد وقبر زينب له عيد وهكذا في سائر أيام العام وقد ذكرنا الأحاديث الناهية عن اتخاذ القبور أعيادًا.

ومنها:- إهمال المساجد وتعمير هذه المشاهد.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى بالكثير إلى اعتقاد أن الحج لها أعظم من حج بيت الله الحرام، بل بعضهم يعتقد أن زيارة قبور النجف وكربلاء أعظم عند الله تعالى من سبعين حجة، بل من ألف حجة لبيت الله الحرام.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى إلى صرف النذر لها ولسدنتها.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى إلى وضع مناسك خاصة لحجها، فقد صنف بعض غلاة الرافضة القبورية كتابًا سماه (مناسك حج المشاهد) وهو ابن

المعلم المفيد شيخ الرافضة الزنديق لعنه الله تعالى وأبعده وأقصاه.

ومنها: أن هذا التعظيم أفضى بالكثير إلى دعائها والاستغاثة بأصحابها من دون الله تعالى.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى بالكثير إلى اعتقاد أن أصحاب هذه القبور يجلبون الخيرات ويدفعون المضرات ويجيبون الدعوات ويغيثون اللهفات ويشفون المريض وينصرون المظلوم ويعينون على نوائب الدهر، ويعطون المدد وهم أصحاب الغوث وهم الترياق المجرب وأنه لا يخيب طالبهم ولا يحزن قاصدهم.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى بالكثير إلى اعتقاد أن لأصحاب هذه القبور تصرفًا في الكون مع الله تعالى.

ومنها:- أنهم بهذا التعظيم قد أحيوا سنة الجاهلية مع أصنامهم.

ومنها:- تعطيل العبادات المشروعة وإحياء البدع الممنوعة.

ومنها:- انتشار الوثنية واعتقاد أنها عين التوحيد وتعظيم الأولياء.

ومنها:- تعريض الأمة لسخط الله تعالى وحلول عقابه وأليم عذابه.

ومنها: انصراف القلوب عن الله تعالى والإقبال على الموتى الذين لا ينفعون ولا يضرون.

ومنها:- تعريض عابدها نفسه للخلود الأبدي السرمدي في نار جهنم لأنه إن مات على هذه الاعتقادات فهو مع إخوانه الكفرة في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدا فإن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به.

ومنها:- أن هذا التعظيم والغلو أفضى بالكثير إلى إنفاق المال فيما لا يعود عليهم نفعه في العاجل ولا الآجل، بل فيما هو ضرر محض في الدين والدنيا

والآخرة.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى بكثير من القبور إلى أن جعلت أوثانًا في الأرض تعبد من دون الله تعالى.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى بكثير من القبور إلى أن اتخذت مسجدًا يفعل عندها أعظم مما يفعل في المساجد.

ومنها:- أنهم بهذا التعظيم آذوا الأموات في قبورهم فإن الصالحين يتأذون بما يفعله هؤلاء عند قبورهم ولاشك.

ومنها:- أنهم بهذا التعظيم قد شبهوا المخلوق الضعيف بالخالق القوي فإن عباد القبور ولاسيما الغلاة من الرافضة والصوفية يضفون على كثير من القبور وعلى أصحابها أوصافًا وأفعالًا لا تكون إلا لله تعالى.

ومنها:- أنهم بهذا التعظيم مخالفون للكتاب والسنة ومناقضون ومضادون لهما وكفى بذلك مفسدة.

ومنها:- أن الأسياد والكبراء بهذا التعظيم قد فتنوا الضعفاء والعامة بهذه القبور فضلوا وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل فهم يحملون يوم القيامة أوزارهم ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون.

ومنها:- أنهم بهذا التعظيم قد كتبوا على أنفسهم الخسارة وتركوا الأخذ بأسباب الفلاح لأنهم بهذا التعظيم قد دخلوا حزب الشيطان، وحزب الشيطان هم الخاسرون الهالكون التائهون الضائعون.

ومنها:- أنهم بهذا التعظيم محاربون لله ولرسوله ﷺ.

ومنها:- أنهم مخالفون لهدي سلف الأمة وأئمتها من الصحابة وتابعيهم ومن تبعهم بإحسان من أئمة الهدى وأعلام الدين فهم مشاقون لله وللرسول

ومتبعون لغير سبيل المؤمنين وقد قال تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

ومنها:- أنهم بهذا التعظيم قد أساؤوا الظن بالله ﷻ، فإنهم يزعمون أن الله تعالى لا يجيب الدعاء ولا يغيث اللهفة إلا من قبل هؤلاء فقط، فمن سأل الله بهم أو عن طريقهم فقد نجح مقصوده وإن لا فلا، وهذا إساءة ظن بالله تعالى.

ومنها:- الانغماس في الضلالة والغي، فإن ما يفعله القبوريون عند القبور المعظمة عندهم كله من البدع، وقد قضى النص بأن كل بدعة ضلالة، فهم غارقون في البدع ليلًا ونهارًا لا يخرجون ولا يفيقون منها أبدًا، بل هم في الضلالة يعمهون وفي غيهم يترددون، صم بكم عمي فهم لا يهتدون ولا يعقلون.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى بالكثير إلى الإقسام بأصحاب القبور على الله تعالى والاستشفاع بهم عليه وبه عليهم وإلى الحلف بأسمائهم وإلى التوسل إلى الله تعالى بجاههم وسؤالهم به.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى بالملاحدة إلى اختلاق الأراجيف الكاذبة والقصص المتهافته والأحاديث الموضوعة لينصروا بها ما يعتقدونه في هذه القبور وأصحابها.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى لسب أهل التوحيد وإساءة الظن بهم ووصفهم بالأوصاف المستهجنة القبيحة المنكرة وإلى معاداتهم والرغبة الكاملة في إيصال الضرر لهم، فقد عادوا أولياء الله بسبب هذه الاعتقادات الفاسدة وفي الحديث (من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب).

ومنها:- انفتاح باب الزيارة البدعية على مصراعيه.

ومنها:- أن هذا التعظيم أفضى بأصحاب القبور إلى الطواف عليها.

ومنها:- الدخول في لعنة الله تعالى ولعنة رسوله ﷺ باتخاذها مساجد، فهذه غيض من فيضٍ من المفاسد المترتبة على تعظيم القبور تجعل العاقل إن كان قد وقع في شيء من ذلك أن يتوقف عنه ويتوب إلى الله تعالى من هذا البلاء، وإني أدعو من كل قلبي جميع من يعظم هذه القبور التعظيم الموقع في شيء من ذلك أن يتوب إلى الله تعالى التوبة الصادقة النصوح قبل حلول السكرات وتصرم الآجال، فإن كل ما يفعله عباد القبور عند القبور باطل كل البطلان ومجانب للحق والصواب، فالله الله بالتوبة النصوح قبل الممات {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} وقال تعالى {وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} واعلم يا أخي أن التوبة الصادقة النصوح لا يتعاظمها ذنب، مهما كان ذلك الذنب، ألا ترى إلى الذين قالوا {إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ} فأي ذنب بعد ذلك الذنب ولكن بعد ذلك يقول الله لهم {أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} فالله الله بالتوبة العاجلة فإن الله هو الجواد الكريم الوهاب الغفور الرحيم التواب، وابشروا ثم أبشروا إذا صدقت التوبة برب يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويبدل سائر السيئات إلى حسناتٍ تفضلًا منه وإكرامًا ومنة، فاللهم إني أسألك باسمك الأعظم أن تمن علينا وعليهم وعلى سائر المسلمين بالتوبة النصوح قبل الممات إنك ولي ذلك والقادر وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والله تعالى أعلى وأعلم.

ومن المناسب في هذه الكتابة التحذيرية من هذه الفتنة أن تعرض البدع التي تفعل عند القبور أو تفعل بها ليحذرها المسلم ويحذر إخوانه المسلمين منها،

وهي بدع كثيرة ولكن نذكر لك أهمها فنقول وبالله التوفيق ومنه نستمد العون والفضل والتأييد وحسن التحقيق:

فمن ذلك:- رفعها فوق الشبر والبناء عليها والكتابة عليها وكل ذلك من البدع المحرمة التي لا يشك العارف بالنصوص في حرمتها وكذلك تجصيصها وزخرفتها وتزويقها بالخام ونحو ذلك كل ذلك من البدع والمحدثات المنكرة والأفعال الآثمة ففي صحيح مسلم من حديث أبي الهياج الأسدي أن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال له:- ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ (أن لا أدع صورة إلا طمستها ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته) وقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} فالأنصاب كل ما نصب ليعبد من دون الله تعالى من حجرٍ أو شجر أو وثن أو قبرٍ أفاده ابن القيم رحمه الله تعالى، فيدخل في ذلك وجوب هدم القباب المبنية على القبور، ويدخل فيه وجوب هدم الغرف والحيطان المبنية عليها بقصد تعظيمها لأن هذه الأبنية تبعث في النفس قدسية وعظمة لهذه القبور وهذا نهي من باب سد الذرائع الموصلة إلى الممنوع وقد تقرر في القواعد وجوب سد الذرائع، وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ (نهى أن يجصص القبر أو يقعد عليه) وقد تقرر في القواعد أن النهي يفيد التحريم، ولا صارف يصرف هذا الأمر عن بابه إلى الكراهة، ومن قال من العلماء إنه مكروه فإنه يريد به كراهة التحريم فإن السلف يطلقون الكراهة ويريدون بها التحريم لاسيما السلف الأوائل كما حققناه في كتابنا تعريف الطلاب بأصول الفقه في سؤال وجواب، وإن كان يريد كراهة التنزيه فهي زلة عالم والخطأ مردود ممن جاء به وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا الشارع، وقد اتفق الأئمة الأربعة على تحريم البناء على القبور ورفعها

فوق القدر المحدد شرعًا وهو أن ترفع شبرًا فقط، ولأن هذا الرفع فيه تعدٍ ومجاوزة ذلك لأن الهدف من دفن الميت هو مواراة تلك الجثة فالزيادة على هذا القدر يعد تجاوزًا وإسرافًا في المال، لا يجوز ولا حاجة للميت له، بل من باب الزينة المنهي عنها وتبذير للأموال التي يكون الحي أولى بها، وهو علامة على تعظيم هذا القبر، وذريعة لاتخاذه عيدًا ووثنًا يعبد من دون الله تعالى، ومن المتقرر أنه لا يزاد على تراب القبر الذي خرج منه فالزيادة عليه بمنزلة البناء، ولأن ذلك من المباهاة والخيلاء بالأموات وهو محرم لا يجوز، لأن الميت ليس بموضع المباهاة وإنما يزين الميت عمله، ولأن ذلك مخالف للسلف الصالح رحمهم الله تعالى، قال الإمام الشافعي (ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصصة وقد رأيت من الولاة من يهدم ما يبنى فيها فلم أر الفقهاء يعيبون ذلك) فبان بذلك أنه لا يجوز رفع القبور ولا الكتابة عليها ولا تجصيصها ولا زخرفتها، ولكن اعلم رحمك الله تعالى أنه يجوز تعليم القبر إذا احتيج إلى ذلك بحجرٍ وذلك لثبوته عنه ﷺ في قبر عثمان بن مظعون رضي الله عنه ففي حديث المطلب بن عبدالله بن المطلب بن حنطب رضي الله عنه قال لما مات عثمان بن مظعون رضي الله عنه أخرج بجنازته فدفن فأمر النبي ﷺ رجلًا أن يأتيه بحجرٍ فلم يستطع حمله فقام إليها رسول الله ﷺ وحسر عن ذراعيه ثم حملها فوضعها عند رأسه وقال (أتعلم به قبر أخي وأدفن إليه من مات من أهلي)"رواه أبو داود" وسنده حسن إن شاء الله تعالى فقد حسنه ابن حجر والبوصيري والألباني رحم الله الجميع رحمة واسعة فهذا دليل على جواز تعليم القبر بعلامةٍ غير محظور كحجرٍ ونحوه إذا احتيج إلى ذلك ولكن لا تكون هذه العلامة بكتابة اسم الميت على قبره لأن ذلك من وسائل الكتابة عليه ولأن كتابة الاسم داخلة في عموم

النهي في قوله (وأن يكتب عليه) فتركها هو الواجب لثبوت النهي وسدًا للذريعة ولأنه لا حاجة إلى كتابة الاسم إذ كل أحدٍ يعلم عين المقبرة التي دفن فيها أبوه أو أخوه أو قريبه، ولأن المقصود من هذه العلامة معرفة عين قبره للدعاء له، والمقصود من الدعاء نفع ميته بذلك، وهذه المصلحة متحققة بدعائه ولو كان بعيدًا عن عين القبر لأن الله تعالى عليم بكل شيء وهو جل وعلا الذي يوصل نفع الدعاء للميت ولو كان الداعي له بعيدًا عنه المسافات الشاسعة، والمهم أنه لا ينبغي فتح باب الكتابة على القبر بل لابد من سدها بكل أنواعها، حتى ولو كتابة الحرف الأول من اسمه فإن البلاء يجر بعضه بعضًا وعادة الناس الغالبة أنهم يتوسعون في مثل ذلك، فكتابة الاسم ممنوعة، ويدخل في النهي أيضًا كتابة تاريخ الوفاة أو كتابة شيء من القرآن عليه، فالدليل الناهي عن الكتابة عام لم يخص منه شيء من أنواع الكتابة والأصل بقاء العموم على عمومه ولا يخص إلا بدليل، وإنما ورد جواز التعليم بالحجر والله أعلم.

ومنها:- وضع الأغصان الرطبة على القبر، وهذا أيضًا من البدع المحرمة المنكرة ولا حق لأحد أن يستدل بفعل النبي ﷺ في وضعه للجريدة الرطبة على القبرين لأن هذا من الأفعال الخاصة به ﷺ ولا عبرة بفعل أحدٍ إذا بانت مخالفته للدليل الصريح وبيان ذلك من وجوه:-

الأول:- أنه ﷺ مر على قبور كثيرة وكان يزور مقبرة البقيع كثيرًا ولم يثبت عنه ﷺ أنه كان يضع الأغصان الرطبة على كل قبر يمر عليه لأن ذلك لو كان من فعله الراتب لتوفرت الهمم والدواعي لنقله، لكن لا نعرف حديثًا واحدًا عنه ﷺ في هذا الخصوص، وإنما فعل ذلك في هذين القبرين فقط، ويوضحه الوجه الثاني.

الثاني:- أنه ﷺ لم يضع هذه الجريدة الرطبة على هذين القبرين ابتداء وإنما

وضعهما لعلة وهي أنهما سمعهما يعذبان في قبرهما، ومن المعلوم أن سماع عذاب القبر مما اختص به ﷺ لقوله عليه الصلاة والسلام (ولولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع) فدل ذلك على أن غيره لا يسمع هذا التعذيب، فوضعه للجريدة على القبر مبني على هذا السماع وقد تقرر في الأصول أن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا فحيث انتفت العلة في حقنا فإن الحكم لا يشرع

في حقنا، لأن العلة فينا غير متحققة ويوضحه الوجه الثالث

الثالث:- أن الصحابة رضي الله عنهم أكمل الناس اتباعًا وأشد الأمة حرصًا على فعل المشروع ولا نعرف عن أحدٍ منهم أنه كان يقتدي بالنبي ﷺ في ذلك، إلا ما يروى عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه وأرضاه، أنه أوصى أن توضع في قبره جريدتان، وأما عامة الصحابة من الخلفاء الراشدين الأربعة وسائر العشرة المبشرين بالجنة وسائر المهاجرين والأنصار فإنه لم يثبت عنهم شيء من ذلك ولو كان مشروعًا لبادروا إليه، فهذا يفيدك أن ما فعله بريدة رضي الله عنه إنما هو اجتهاد منه والاجتهاد يخطئ ويصيب قال الألباني رحمه الله (ورأي بريدة لا حجة فيه لأنه رأي والحديث لا يدل عليه حتى لو كان عامًا لأن النبي ﷺ لم يضع الجريدة في القبر بل عليه كما سبق).اهـ. فالحق الحقيق بالقبول هو الترك لا الفعل.

الرابع:- أن التخفيف الحاصل لصاحب القبرين ليس لذات الجريدتين وإنما هو ببركة شفاعته ﷺ وإنما الجريدة الرطبة علامة لمدة هذه الشفاعة والتخفيف وهي شفاعة مقيدة بمدة معينة إلى أن تيبس الجريدة وبرهان ذلك ففي حديث جابرٍ الطويل الذي قال فيه النبي ﷺ (إني مررت بقبرين يعذبان فأحببت بشفاعتي أن يرفه عنهما ما دام الغصنان رطبين) فهذا صريح في أن

تخفيف العذاب إنما هو بسبب شفاعته ﷺ ودعائه لا بسبب الرطوبة، وهذا واضح في أن ذلك من خصائصه ﷺ.

الخامس:- أن المتقرر في القواعد أنه لابد أن يفهم فهمًا موافقًا لفهم السلف رضي الله عنهم وأرضاهم، ذلك لأن دعوتنا لها ثلاثة أصول:- الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة، وبناءً على هذه القاعدة فإنه لا يعرف عن أحد من السلف الأوائل هذا الفهم أي أنهم لم يفهموا أن فعله ﷺ هذا يستفاد منه العموم، فلو كانت النداوة مقصودة بالذات لفهم ذلك السلف الصالح ولعملوا بمقتضاه ولوضعوا الجريد والآس ونحو ذلك على القبور عند زيارتها ولو فعلوا ذلك لاشتهر ذلك عنهم، ثم نقله الثقات إلينا

لأنه من الأمور التي تلفت النظر وتستدعي الدواعي نقله فإذا لم ينقل دل على أنه لم يقع وأن التقرب به إلى الله تعالى بدعة وهذا واضح.

السادس:- أن النداوة لو كانت هي المقصودة بالذات وهي سبب التخفيف لما شق النبي ﷺ هذه الجريدة إلى نصفين، ذلك لأن شق الغصن بهذه الطريقة سبب لاستعجال ذهاب نداوته وسرعة نشوفته كما هو معلوم، فدل ذلك على أن النداوة لا أثر لها في التخفيف وإنما التخفيف حصل بشفاعته ودعائه لهما ﷺ.

السابع:- أن الواحد منا لو وضع غصنًا رطبًا على قبر أحد الأموات لكان في ذلك إساءة الظن بأخيه الميت وأنه يعذب في قبره، لأن هذا الوضع إنما يقصد به التخفيف ولكان ذلك منه تعدٍ على علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى قال تعالى {قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ} وقال تعالى {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا...الآية بعدها} فالنبي ﷺ قد أوحي إليه أنهما يعذبان في قبرهما ولكن أنت من الذي أوحى إليك أن صاحب هذا القبر

يعذب حتى تضع هذه الجريدة على قبره فإن قال:- أنا أضعها من باب إن نفعت و إلا فما ضرت، فنقول: هذا قفو لما ليس لك به علم وهذا منهي عنه لقوله تعالى {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا} ويقال أيضًا:- إن هذا الوضع مبني على ظن خاطئ وهو أنك تظن أن الرطوبة هي سبب التخفيف وهذا خطأ وقد تقرر في القواعد أنه لا عبرة بالظن البين خطؤه، فإننا قد قدمنا أن التخفيف ليس من أجل الرطوبة وإنما من أجل شفاعته ودعائه ﷺ، وبذلك يتبين لك جليًا أن وضع الأغصان على القبور ليس من الشرع في صدر ولا ورد والله أعلم.

ومنها:- وهو من أعظمها خطرًا وأشدها قبحًا بناء المساجد على القبور فهذا من أعظم البدع المحدثة والبلايا المستطيرة المنكرة، وقد اتفق العلماء على تحريم ذلك التحريم الشديد وأنه من البدع والمحدثات وهذا الاتفاق قطعي الثبوت بحيث أن مخالفه يكفر، فمن قال بجواز ذلك فإنه يستتاب ثلاثة أيام فإن تاب و إلا قطعت عنقه ليرتاح المسلمون من شره، فعن عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا للنبي ﷺ كنيسة رأينها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال عليه الصلاة والسلام (أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل) ووجه الدلالة منه أوضح من عين الشمس في رابعة النهار وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال:- سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد)"رواه أحمد والطبراني والبزار بإسناد جيد" وعن أبي عبيدة رضي الله عنه قال:- آخر ما تكلم به النبي ﷺ (أن أخرجوا يهود الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب واعلموا أن شرار

الناس الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد)"رواه أحمد والطبراني في الأوسط وسنده حسن أو صحيح" فإذا كان ذلك في حق من يتخذ قبور الأنبياء مساجد فكيف بمن يتخذ قبور الأولياء والصالحين مساجد؟ لاشك أنه داخل في هذا الذم والتحريم من باب أولى، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) قالت عائشة:- ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا، وهو في الصحيح، وعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت:- لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك (لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر ما صنعوا"متفق عليه" وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال (قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)"متفق عليه" وعن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ يقول (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك)"رواه مسلم" وبناءً على هذه النصوص فإنه يجب على ولاة الأمر في سائر بلاد الإسلام هدم هذه المساجد التي بنيت على القبور، بل هدم جميع ما وضع على القبور من قبابٍ أو غرفٍ أو خيام ونحو ذلك، وسوف يسألهم الله تعالى يوم القيامة عن هذه الأمانة التي استرعاهم عليها، ونذكرهم بقوله تعالى {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} فلا يجوز لهم البتة أن يبقوا هذه البنايات على القبور التي في بلادهم وتحت سلطانهم، فإن السكوت عنها من الغش للمسلمين وقد قال عليه الصلاة والسلام (ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه إلا

لم يجد عرف الجنة يوم القيامة) وفي الحديث (كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راعٍ ومسئول عن رعيته) فولاة البلد التي فيها هذه البدع هم المسئولون بالدرجة الأولى عن كل ذلك، ألا فليتقوا الله حق تقاته، ولينكروا هذا المنكر العظيم الذي هو أساس البلاء ورأس المصائب وشر البدع، يا رب أسألك باسمك الأعظم أن تعين الولاة على إنكار ذلك والمبادرة في إزالته، فإن اتخاذ القبور مساجد من أعظم الوسائل لعبادة من كان فيها، وهو ذريعة أكيدة لإفراز الشرك وإحياء سنة الجاهلية في اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ومن المناسب أن نذكر في هذا المقام بعض الشبه التي يستدل بها من يتخذ القبور مساجد فإن لهم شبهًا وسفسطة وشغبًا على أهل التوحيد وقد كشف العلماء زيف هذه الشبه وأنا أنقل لك خلاصة ما قالوه في ذلك فأقول:-

الشبهة الأولى: الاستدلال بقوله تعالى في سياق قصة أصحاب الكهف
{قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا}

قال أهل الباطل:- أي لنتخذ على باب الكهف مسجدًا ليصلي فيه المسلمون وجعلوا هذا القول صادرًا من أهل الإيمان، فبما أن أهل الإيمان قالوه ولم يتعرض الله جل وعلا للرد عليهم فهو دليل على جواز اتخاذ القبور مساجد وهذا كلام تافة سخيف ساقط لا حجة فيه البتة وبيان الرد على استدلالهم بذلك من عدة وجوه:-

أحدها:- أن القول الصحيح والمعتمد في هذه المسألة أن القائلين {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} إنما هم أهل الغلبة والقهر وأصحاب الأهواء، وليس هو من فعل أهل العلم والفضل العارفين بالشرع، فهذا القول صدر من أهل الغلبة والبطر والبغي والعدوان الذين قال فيهم النبي ﷺ (لعن الله اليهود والنصارى

اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ومن الذين قال في حقهم النبي ﷺ (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد) وحيث كان الأمر كذلك فكيف يستدل بقول الكفار على جواز ما قالوه من الإفك والإثم والعدوان؟.

ثانيها:- أن المعتمد عند أهل السنة أن الأحاديث النبوية تفسر القرآن وتوضح مجمله وتبين معناه وتزيل وجه الإشكال الذي قد يعرض في فهم بعض آياته، فلما رجعنا إلى السنة وجدنا أنها حافلة في النهي عن اتخاذ القبور مساجد، وذلك في نصوص كثيرة صحيحة صريحة في هذا النهي ولا تدع لمشككٍ مجالًا للتشكيك في هذه القضية الخطيرة وقد قدمنا لك الأحاديث في هذا الأمر، فكيف نسف هذا الفريق التافه جميع هذه الأحاديث واستدلوا بالآية فقط التي لا دليل فيها أصلًا على خلاف ما قضت به السنة، لكنها الأهواء التي تعصف بأصحابها فإن المبتدعة لا يرون الاحتجاج بالسنة كالرافضة والديوبندية ومن ضهاهم من المبتدعة وسار على دربهم الأعوج وفهمهم الأخرق، وأما المسلم السني المتبع فإنه يقف عند هذه الأحاديث القاضية بالمنع موقف الطائع المسلم لها، فهب أن الآية قد تحتمل ما قالوه فإن أحاديث المنع قد أزالت هذا الاحتمال وقطعت الطريق إلى تطرق ذلك للعقل لو كانوا يعقلون والله المستعان.

ثالثها:- سلمنا جدلًا أن الذين قالوا {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} هم المسلمون فهذا قصاراه إنما يدل على جواز ذلك في تلك الشريعة ونحن إنما نتبع شريعة الإسلام الذي جاء به النبي ﷺ وقد تقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد نسخه في شرعنا، فلو سلمنا جدلًا أن بناء المساجد على القبور كان جائزًا في تلك الشريعة فقد جاءت شريعتنا بنسخه

وسد أبوابه ولعن فاعليه والإخبار بأنهم شرار الناس ونحن مأمورون باتباع هذه الشريعة، لكن هذا على فرض التسليم الجدلي و إلا فإن بناء المساجد على القبور محرم في كل الشرائع بدليل قوله (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فهذا يفيد أنه ممنوع في كل الشرائع إذ لو كان ذلك جائز في شريعتهم لما استحقوا هذا اللعن وهذا واضح ولحديث (ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) وهذا إخبار عن حال الأمم السابقة مع قبور أنبيائها وصالحيها على وجه الإنكار والذم فدل ذلك على أن الأمم السابقة كانوا منهيين عن هذا الاتخاذ ولكنهم خالفوا ذلك فحذرنا النبي ﷺ أن نسلك مسلكهم فيصيبنا من العذاب مثل ما أصابهم وهذا واضح أيضًا ولأن الحديث قال (أولئك شرار الخلق) وهذا فيه دليل على أنهم بهذا الفعل قد خالفوا ما عليه شرائعهم و إلا لما استحقوا أن يوصفوا بأنهم شرار الخلق، ولأن الذين يتخذون القبور مساجد إنما فعلوا ذلك ليعبدوا أصحاب هذه القبور وقد تقرر عند سائر أهل الإسلام أن الشرك ووسائله محرمة في كل أمة، لأن زبدة دعوة الرسل هي الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة والنهي عن الشرك وسد جميع الطرق الموصلة إليه فكيف يقال إن اتخاذ القبور مساجد قد كان جائزًا في فترة من الفترات؟ فإن هذا القول يفضي إلى القول بأن الشرك قد كان جائزًا في فترة من الفترات وهذا باطل قطعًا وهو لازم فاسد وقد تقرر أن فساد اللازم دليل على فساد الملزوم، وهذا كله يوضح لك أن الذين قالوا ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ إنما هم الكفار المعتدون أهل الغلو، الذين خالفوا شريعة أنبيائهم وتنكبوا عن الصراط المستقيم، فبان لك إن شاء الله تعالى أن الذي يستدل بهذه الآية على جواز اتخاذ

المساجد على القبور إنما أتي من جهله وقلة فهمه وعناده واستكباره ومن إملاء شيطانه ورغبته في إحياء الوثنية و إلا فليس في هذه الآية ولا مطلق الدليل على ما فهمه، لكنه سقيم الفهم سيء النية وفهمه مردود عليه مضروب به في وجهه ولا كرامة له ولا لمن سار على نهجه واقتفى أثره، ألا فأبعده الله وأخزاه وأخرس لسانه وقطع بنانه الذي كتب به هذه الخرافات وسطر به هذه الترهات والله له بالمرصاد على عدوانه على كلام ربه وتحريفه له والله المستعان.

الشبهة الثانية

أنهم استدلوا على جواز بناء المساجد على القبور بأن النبي ﷺ قد صلى في مسجد الخيف وقد ورد حديث يفيد بأنه قد قبر فيه سبعون نبيًا فقد روى الطبراني بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ (في مسجد الخيف قبر سبعين نبيًا) والجواب عن ذلك من وجوه:-

أحدها:- أن هذا الحديث فيه انقلاب على بعض الرواة، لأن أصل الحديث يقول (وصلى في مسجد الخيف سبعون نبيًا) وهذا الحديث رواه الطبراني في الكبير والأوسط وقد حسن إسناده المنذري والألباني رحم الله الجميع رحمة واسعة، فليس الحديث (قبر سبعين نبيًا) بل (صلى فيه سبعون نبيًا) فانتبه لهذا.

ثانيها:- أن الحديث الذي يقول (قبر سبعين نبيًا) حديث ضعيف لا تقوم بمثله الحجة، لأن فيه عبدان بن أحمد وهو الأهوازي وهذا من شيوخ الطبراني ولا توجد له ترجمة، ولأن في إسناده من يروي الغرائب مثل عيسى بن شاذان، فقد قال فيه ابن حبان (يغرب) وكذلك إبراهيم بن طهمان، قال فيه ابن حبان (أمره مشتبه، له مدخل في الثقات ومدخل في الضعفاء وقد روى أحاديث مستقيمة تشبه أحاديث الأثبات، وقد تفرد عن الثقات بأشياء معضلات) وقال

فيه الحافظ في التقريب (ثقة يغرب) فهذا الحديث المذكور من الغرائب، إما من غرائب ابن شاذان وإما من غرائب ابن طهمان.

ثالثها:- أن هذا الحديث بهذه الحالة كيف يكون معارضًا للأحاديث التي في أعلى درجات الصحة والتي تنهى عن اتخاذ القبور مساجد وكيف تترك دلالتها في صراحتها وصحتها من أجل هذا الحديث الغريب الضعيف؟ هذا لا يفعله إلا أهل الأهواء الذين يتركون الأدلة الواضحات المحكمات الصريحات إذا لم توافق أهواءهم ويجنحون إلى الاستدلال بالواهيات المحتملات الضعيفات والموضوعات والمتشابهات و إلا فلو أعطوا الأمر حقه وصدقوا مع أنفسهم لما تركوا أحاديث النهي عن اتخاذ القبور مساجد التي هي في أعلى درجات الصحة إلى مثل هذا الحديث المنقلب الواهي.

رابعها:- أن المتقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أن المعدوم لا حكم له فلو سلمنا صحة حديثهم هذا لما أمكن الاستدلال به لأنه لا أثر لهذه القبور ولا يستطيع أحد أن يحدد موضعها، فهي من جملة سائر القبور التي امتلأت بها هذه الأرض وحيث ليس هناك قبر مشاهد له أثر محسوس فإن الحكم في هذه الحالة الجواز فإن النهي إنما هو في حق من يتعمد بناء المسجد على هذا القبر المخصوص بقصد تعظيمه وصرف التعبد له.

خامسها:- أننا نكاد نجزم أن هذه القبور لا وجود لها أساسًا في مسجد الخيف وأن هذا الحديث أصلًا لا أساس له من الصحة وذلك لأن الذين تحدثوا عن تاريخ مكة وتحدثوا عن تاريخ مسجد الخيف نجدهم لم يتطرقوا إلى وجود مثل هذه القبور فطالما أن هذه القبور قد خفيت معالمها ودرست فإن الخطر الذي يخشى قد زال، ولأن مسجد الخيف في هذه الأزمنة قد بني بناية

عظيمة وضخمة وهذه البناية الكبيرة العظيمة العالية تحتاج إلى تعميق الحفر في الأرض ومع ذلك لم يظهر لمن حفروه ولا مطلق الأثر لهذه القبور على كثرتها، لا يقال:- لعل الدود قد أكل أصحابها؟ لأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، ولم يعرف أحد بأن لهؤلاء الأنبياء أجسادًا في هذا المكان وهذا يفيدك أن هذا الحديث واهٍ وأنه لا مستند لأهل الزيغ والضلال في الاستدلال به، ولكنها الأهواء التي تعصف بصاحبها.

سادسها:- أن المتقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أن المتشابه يرد إلى المحكم وحيث كان هذا الحديث الذي استدلوا به من المتشابه الذي ترد عليه احتمالات كثيرة في سنده ومتنه فإن الواجب علينا هو رده إلى المحكم الذي لا تلتبس دلالته فلما رددنا هذه المسألة إلى المحكم وجدنا أن الأدلة المحكمة تقضي قضاء جازمًا لا يتطرق إليه مطلق الاحتمال بحرمة اتخاذ القبور مساجد، وأتحدى رجلًا من هذه الساعة إلى يوم القيامة أن يطعن في سند هذه الأحاديث أو متنها، فالواجب علينا أهل الإسلام أن لا نبقى مع المتشابهات بل الواجب علينا رد هذه المتشابهات إلى المحكمات حتى لا نكون ممن قال الله تعالى فيهم {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ...الآية}.

سابعها:- أنه قد تقرر لنا سابقًا أن هذا الحديث الذي يستدلون به حديث ضعيف لا تقوم بمثله الحجة، وهو مع ضعفه مخالف للأحاديث الصحيحة الصريحة وقد تقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أن الحديث الضعيف إذا خالف الحديث الصحيح فإنه حديث منكر، والمتقرر عندهم أن الحديث المنكر لا يستدل به ولا يستفاد منه شيء من الأحكام الشرعية، فبان لك بذلك

إن شاء الله تعالى أن استدلال عشاق الوثنية بهذا الحديث باطل وأنه لا حجة لهم فيه والله يتولانا وإياك.

الشبهة الثالثة

من الشبه التي يستدل بها مجوزوا بناء المساجد على القبور أنهم قالوا:- إن إسماعيل عليه السلام وكذلك أمه هاجر قد دفنا في الحجر بجوار الكعبة ولذلك فإنه يقال له حجر إسماعيل نسبة لدفنه فيه هو وأمه ومستندهم في ذلك روايات ذكرها الأزرقي في أخبار مكة تفيد ذلك فإنه قال في كتابه المذكور (فماتت أم إسماعيل قبل أن يرفعه إبراهيم وإسماعيل، ودفنت في مكان الحجر) وكذلك ما أورده السيوطي عفا الله عنه من أن قبر إسماعيل في الحجر، هكذا قالوا، وفي الحقيقة إن هذه المرويات الهالكة التالفة أوجبت لكثير من العوام وأنصاف المثقفين الفتنة وفتحت بابًا للقبوريين للاستدلال بها على مذهبهم الهالك في جواز بناء المساجد على القبور ونقول في جواب ذلك أولًا:- إن مثل هذه المرويات التي تثبت ذلك لابد من البحث في أسانيدها فلما نظرنا إلى المرويات فإذا هي بلا أسانيد في غالبها وإنما هي كأخبار بني إسرائيل التي لا خطام لها ولا زمام، وبين رواتها ومن رووها عنهم مفاوز تنقطع فيها أكباد المطي، فهي واهيات وأخبار معضلات لا يصح منها شيء البتة، ولا نعرف عالمًا من علماء الإسلام يصحح مثل هذه المرويات، وفي كتاب الأزرقي هذا مالا يرضاه علماء أهل الحديث وفحوله فإنه لا يهتم بالصحة في النقل فليس كل شيء من المرويات يوجد في كتابٍ من كتب الإسلام يكون صحيحًا محتجًا به بل لمعرفة الصحة والضعف طرق يعرفها علماء هذا الفن، وأما السيوطي فإنه يجمع ما هب ودب وله أيادٍ مشكورة ومؤلفات مشهورة لكنه يروي بعض الأشياء جزافًا

ويغرف بالمغراف من غير تمييز ولا نظرٍ في الإسناد وهذه الرواية التي فيها إن إسماعيل قد قبر في الحجر هي من فلتاته وسقطاته القليلة و إلا ولا حق له في روايتها لأنها موضوعة منكرة باطلة لا أساس لها من الصحة، فليس هناك نقل صحيح يثبت أن هاجر وإسماعيل عليه الصلاة والسلام قد قبرا في الحجر، هذا ما لا يعرفه أهل الحديث البتة، وما أسهل باب الوضع والكذب على من لا يخاف الله ولا يتقيه.

وأما ثانيًا:- فأقول:- أفلا يستحي من يروي مثل هذه الواهيات الباطلات في معارضة الأحاديث الصريحات المحكمات الصحيحات، كيف تقبل نفس عالم أن يروي الموضوعات المنكرات في مخالفة الأحاديث القاضية بأن بناء المساجد على القبور من أعظم المنكرات وأكبر المحدثات، إن هذه القضية قد فصلتها الأحاديث الصحيحة الصريحة فلا داعي إلى اختلاق مرويات تكدر صفوها وتزاحمها في قلوب العوام، فالحق وجوب إطراح كل شيء يخالف مدلول هذه الأحاديث.

وأما ثالثًا:- أن منهج الأنبياء السابقين تحريم بناء المساجد على القبور وأول من ارتكب ذلك مخالفين لأنبيائهم هم اليهود والنصارى ولذا لعنهم الرسول ﷺ وما لعنهم إلا لفعلهم محظورًا في شريعتهم وهذا يدل دلالة أكيدة أن إسماعيل عليه السلام وغيره من أنبياء الله تعالى ممن جاؤوا قبله وبعده قد حذروا أممهم وأتباعهم من اتخاذ القبور مساجد فلا يمكن بحال أن يقبر إسماعيل في المسجد الحرام.

وأما رابعًا:- أن الولد صنو أبيه ومن المعلوم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو سيد الحنفاء، وأنه عالم العلم الكامل بالشرك ووسائله، وإن من

أعظم وسائل الشرك دفن الأموات في المساجد، فكيف بالله عليك ينسب هذا الفعل إلى إسماعيل الذي هو ابن سيد الحنفاء لاسيما وأن الروايات نسبت لإسماعيل أنه دفن أمه في الحجر بيده، فكيف يصدر ذلك الفعل من إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، إن من تدبر هذا يتبين له عظم الضلال في نسبت هذه المرويات الباطلة لإسماعيل عليه السلام، أقسم بالله العظيم أنها مرويات باطلة وإني أباهل على ذلك.

وأما خامسًا:- فلأن الحكم الشرعي يفتقر في ثبوته للأدلة الصحيحة الصريحة وحيث لم تصح هذه المرويات فلا يحل إثبات جواز بناء المساجد على القبور بها عند عالم يستحق هذا الوصف البتة.

وأما سادسًا:- فلأن البحث هنا في بناء المساجد على القبور التي لا تزال مراسمها واضحة ومعالمها بينة، وأما القبور الدارسة فإنه لا اعتداد بها، لأن العبرة في هذه المسألة بالقبور الظاهرة وأما ما في بطن الأرض من القبور مما اختفت معالمه واندرست مراسمه فإنه لا يرتبط به حكم شرعي من حيث الظاهر، بل الشريعة تتنزه عن مثل ذلك لأننا نعلم بالضرورة والمشاهدة أن الأرض كلها مقبرة الأحياء، قال تعالى }أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاء وَأَمْوَاتًا} ولو كلفنا الناس إذا أرادوا أن يبنوا مسجدًا في مكان أن يتيقنوا أنها أرض ما قبر فيها أحد من الأولين ولا من الأمم الغابرة لكان ذلك من تكليف ما لا يطاق وقد تقرر أن الحرج مرفوع عن هذه الأمة، وعلى كل حال فالمرويات في هذا الموضوع كلها موضوعة لا أساس لها من الصحة فلا حجة لأحد أن يستدل بها لأنها فقدت الصحة التي هي شرط الاستدلال والله يتولانا وإياك.

الشبهة الرابعة

الاستدلال بفعل أبي جندل لما بنى على قبر أبي بصير مسجدًا وما أسمج هذه الشبهة وأبردها، لكنها عادة أهل الأهواء فإنهم لا يتحاشون من الاستدلال بما يرونه موافقًا لأهوائهم العفنة و أفهامهم المنتنة و لو كان من أوضع الموضوعات وأفرى الفرى وأضعف الضعيف وبيان ذلك أن يقال:- إن هذه القصة قد رواها البخاري في صحيحه وأحمد في مسنده من غير زيادة (وبنى على قبره مسجدًا) وكذلك أوردها ابن إسحاق في السير عن الزهري مرسلًا وليس فيها هذه الزيادة وكذلك رواها ابن جرير في تاريخه من طريق معمر وابن إسحاق وغيرهما عن الزهري بدون هذه الزيادة، فهذه الزيادة ضعيفة جدًا لأنها لم ترد من طريق الثقات وقصاراها أن ابن عبدالبر في الاستيعاب ذكرها مرسلة، وكذلك ذكرها ابن الأثير في أسد الغابة مرسلة بصيغة التعريض، فهي عندهم ضعيفة لا تقوم بمثلها الحجة فأصل القصة صحيح وهي أن أبا جندل قد دفن أبا بصير أما زيادة (وبنى على قبره مسجدًا) فإنها لا أساس لها من الصحة، فمدار هذه الزيادة على الزهري في بعض الروايات فهي مرسلة إذا قلنا إن الزهري من صغار التابعين وأنه سمع من أنس، فهي على هذا من مراسيل التابعين الصغار وقد تقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أن مرسل التابعي ضعيف، وإذا لم يثبت كون الزهري قد سمع من أنس فهذه الزيادة معضلة وكيف ما كان الأمر فإنه لا تقوم بها الحجة لأنها إما مرسلة وإما معضلة والإعضال والإرسال سبب من أسباب الضعف، بل نحن لا نسلم أنها من مراسيل الزهري لأن كثيرًا من الثقات رووا عين القصة عن الزهري ولم يذكروا هذه الزيادة ونظن أنها من رواية موسى بن عقبة كما صرح به ابن عبدالبر، ومن المعلوم أن ابن عقبة هذا لم يسمع أحدًا من الصحابة، فهذه الزيادة أعني قوله (وبنى على قبره مسجدًا) معضلة بل هي

منكرة لأن هذه الزيادة على ضعفها بالإعضال أو الإرسال قد خالفت الأحاديث الصحيحة الصريحة القاضية بحرمة البناء على القبور لاسيما بناء المساجد كما تثبته هذه الزيادة المعضلة وقد تقرر في قواعد الإسناد أن الضعيف إذا خالف الصحيح فحديثه منكر، فبان لك بذلك أن هذه الزيادة منكرة معضلة ونكارتها وإعضالها وإرسالها يجعلنا نلقيها خارجًا عن كتب الهداية وأن نحذر منها وأن نبين حالها وأن لا نرضى البتة بوجودها في مثل هذه الكتب، ويقال أيضًا:- إننا نجزم جزمًا أن هذه الزيادة باطلة لأنه يبعد جدًا عن أحدٍ من أصحاب رسول الله ﷺ أن يبني مسجدًا على قبر وقد رباه رسول الله ﷺ فلا يظن ذلك بآحاد العلماء فكيف بأحدٍ من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام، ويقال أيضًا:- سلمنا جدلًا أنها ثابتة فمع ثبوتها فإنه لا حجة فيها لأنها فعل صحابي قد خالف النص المرفوع الصحيح الصريح، وقد تقرر في القواعد الأصولية أن فعل الصحابي إذا خالف المنقول الصحيح الصريح فهو مردود عليه، لأن قوله ومذهبه لا يكون حجة إلا إذا لم يخالف نصًا ولم يخالفه صحابي آخر، فهذه الزيادة المنكرة الواهية لو سلمنا ثبوتها لما كان فيها حجة لما ذكرناه بل ولو سلمنا جدلًا أنها صحيحة فإن ذلك محمول على أول الإسلام وآخر الأمرين هو النهي لحديث جندب السابق وفيه سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ يقول (ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) ولكن هذه الأجوبة التسليمية لا يصار إليها إلا إذا أبى الخصم التسليم بضعف هذه الزيادة فبان لك بذلك إن شاء الله تعالى أنه لا حجة مطلقًا بفعل أبي جندلٍ هذا لأنها زيادة منكرة وضعيفة ومرسلة ومعضلة أو باطلة لمخالفتها للنص المرفوع أو لأنها قد نسخت وانتهى العمل بها، وعلى كل حال فالاحتجاج بها باطل من كل الوجوه فبان لك وجه

الحق وانتفت الشبهة والله يتولانا وإياك وهو أعلى وأعلم.

الشبهة الخامسة

استدلالهم بالحال التي عليها الآن قبر رسول الله ﷺ وقبر صاحبيه فإنه في داخل المسجد النبوي وهذا استدلال يجنحون إليه لاسيما إذا كان المناقش لهم من أهل هذه البلاد السعودية وذلك ليحجوه ويقطعوا قوله، فقالوا:- هاهو قبر رسول الله ﷺ موجود في داخل المسجد النبوي، بل وهذا قبر صاحبيه أبي بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قد دفنا داخل المسجد أيضًا بجواره عليه الصلاة والسلام، فكيف تنكرون بناء المساجد على القبور وقبور خير هذه الأمة موجودة في هذا المسجد؟ فنقول:- لنا على ذلك عدة أجوبة:-

الأول:- أن تعلم جزمًا وقطعًا أنه ﷺ ما دفن في المسجد وهذا لا يتطرق عندنا فيه أدنى أدنى شك البتة، وإنما دفن النبي ﷺ في بيته في حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وقد كانت الحجرة هذه التي دفن فيها هو وصاحباه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خارجة خروجًا كليًا عن المسجد والعلة التي من أجلها دفن النبي ﷺ في بيت عائشة أمران:- أحدهما:- لأنه الموضع الذي مات بأبي هو وأمي ﷺ والأنبياء تدفن في المكان الذي قبضت فيه أرواحهم، بدليل حديث رواه الترمذي عن أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:- سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا ما نسيته فقال (ما قبض الله نبيًا إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه، ادفنوه في موضع فراشه)"وهو حديث صحيح" ويؤكد ذلك قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حديث لها وفيه (فلما كان يومي قبضه الله بين سحري ونحري ودفن في بيتي)"رواه البخاري في صحيحه" فهذه هي العلة الأولى، وأما ثانيًا:- فلأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين قد خافوا أن يتخذ قبره مسجدًا وخافوا من افتتان العوام بعدهم به، ولذلك قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال رسول الله ﷺ في مرض

موته (قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ثم قالت:- ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجدًا وهو في الصحيحين، وهذا معلوم بالتواتر أي أن العلم بأنه إنما دفن في حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هو من المعلوم بالتواتر كما نص عليه ابن كثير وغيره، ومن المعلوم أن السنة هي الدفن في المقبرة مع سائر المسلمين إلا أن قبره ﷺ له حكمه الخاص للعلة التي ذكرتها لك قبل قليل، فهذا الأمر الأول من الجواب يجب أن نقطع به قطعًا تامًا وأن نؤمن به إيمانًا جازمًا وخلاصة ذلك أن نقول:- إنه ﷺ وأبو بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لم يدفنوا في حدود مسجد المدينة وإنما دفنوا في حجرة عائشة رضي الله عنها وأرضاها.

الثاني:- أي الجواب الثاني على أصل الشبهة:- أن تعلم بارك الله فيك وجعلك من أتباع شريعته وأنصار سنة نبيه ﷺ أن عصر الصحابة كله قد انقضى والحال على ما هي عليه، أي أن الصحابة قد انقضى عصرهم وقبره ﷺ وقبر صاحبيه لا تزال خارجة عن المسجد، وأن مسجده ﷺ لا يزال على حالته الأولى في مدة خلافة أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لم يتغير فيه شيء لا في بنائه ولا حصل له توسعة البتة، ولكن لما كان عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكثرت الفتوحات واتسعت رقعة الإسلام وكثر الداخلون فيه رأى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه أن المصلحة تقتضي توسعة المسجد، فاشترى البيوت المجاورة للمسجد إلا حجر أزواجه ﷺ ولا سيما حجرة عائشة فإنه قال كلمته المشهورة (ليس لنا على ذلك سبيل) فوسع المسجد وبناه بالمواد التي بنى عليها النبي ﷺ ولم يدخل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيئًا من حجر أزواج النبي ﷺ، فلما جاء عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكثر المسلمون والوافدون إلى المدينة وضاق بهم المسجد زاد فيه على زيادة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا أنه لم يتعرض

لحجرات أزواج النبي ﷺ فلم يحرك فيها شيئًا ولكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع التطور المعماري في عهده بنى المسجد وشيده ببناية عظيمة مبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة والفضة وجعل عمده من حجارة منقوشه وسقفه بالساج، وقد أنكر عليه بعض الموجودين في عهده ولكن كان يحتج عليهم بكثرة المسلمين وبقوله ﷺ (من بنى مسجدًا لله بنى الله مثله في الجنة) لكن المقصود أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يقرب حجرات النبي ﷺ واستمر الحال على ما هو عليه في عهد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، واستمر الحال كذلك إلى عهدهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، فأنت تلاحظ هنا أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما وسعوا المسجد تحاشوا إدخال الحجرات إلى المسجد لعلمهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأن لا سبيل إلى ذلك وكذلك سائر عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن نسب إليهم إدخال شيء من حجرات النبي ﷺ فقد كذب وأعظم على الله الفرية، فهذان الجوابان مهمان جدًا ولابد من فهمهما لأن ما يأتي بعدهما مبني عليهما وهما:- أن النبي ﷺ لم يدفن في المسجد أصلًا وإنما دفن في حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأن القبر لم يدخل في المسجد طول عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

الثالث:- أن تعلم بارك الله فيك أن الحجرة التي دفن فيها النبي ﷺ لم تدخل في المسجد إلا في عهد الوليد بن عبدالملك وذلك بعد موت الصحابة جميعًا فقد مات ابن عمر وابن عباس وأبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقال أبو العباس (بل بعد موت عامة الصحابة فلم يكن بقي في المدينة منهم أحد) وقد كان الوليد بن عبدالملك مولعًا بعمارة المساجد وإعادة ترميمها، ولم يكن بقي من الصحابة إلا نفر قليل كأنس بن مالك لكنه كان بالبصرة وجابر بن عبدالله أيضًا كان بالمدينة وتوفي بها، وفعل الوليد هذا كان بعد وفاة جابر بنحو عشر سنين كما أفاده أبو العباس رحمه الله تعالى، والذي أريد إثباته هنا هو أن أول من تجرأ

على إدخال الحجرة إلى المسجد هو الوليد بن عبدالملك في مدة توليه للخلافة، وقد اتفق جميع أهل الإسلام على ذلك ولا نعلم بينهم خلافًا في ذلك، وقد أمر الوليد بن عبدالملك عامله على المدينة عمر بن عبدالعزيز بأن يشتري هذه الحجرات ممن ورثوها بعد أهلها وأن يدخلها في المسجد وهذا لاشك خطأ من الوليد عفا الله عنه وزلة من زلات الأمراء، ولم يوفق للصواب في إدخاله الحجرات في المسجد، وقد اشتد نكير السلف الموجودين في عصره لما أدخل الحجرات في المسجد، كسعيد بن المسيب رحمه الله تعالى الذي هو سيد التابعين، وغيره من التابعين، بل إن الذين ورثوا الحجرات بعد أهلها أبوا أن يبيعوها للوليد مع دفعه الأثمان الكثيرة، ولكنهم رفضوا الرفض الكامل، ولكن قوة القهر والسلطان أجبرتهم على إخلائها قسرًا فإن الوليد أمر بهدمها فوق رؤوس أصحابها إذا أبوا الخروج منها، وبدأت المعاول تهدم وأهلها فيها فلما رأوا أن لا محيص عن هدمها خرجوا منها، ونحن في هذا الزمن نشهد الله تعالى بأن ما فعله الوليد لا يجوز وهو من الأخطاء العقدية المخالفة للنصوص الصحيحة الصريحة القاضية بحرمة البناء على القبور أو رفع جدرانها، وإياك أن تغتر بقول المبتدعة لما قالوا: إن الصحابة لم ينكروا فعل الوليد، ذلك لأن فعل الوليد هذا كان بعد موت عامة الصحابة فلم يكن بالمدينة إذ ذاك أحد منهم، كما قدمنا لك ذلك قبل قليل.

وبعد ذلك أقول:- فهل بالله عليكم يا أهل الإسلام تترك النصوص الصحيحة الصريحة في هذه المسألة والتي لا يتطرق إليها احتمال أو شك ويترك ما عليه الخلفاء الراشدون وما نهجه سائر الصحابة رضوان الله عليهم ويستدل بفعل الوليد بن عبدالملك؟ هل يحتمل ذلك عاقل فضلًا عن كونه مسلمًا،

فضلًا عن كونه عالمًا، لا والله هذا لا يكون أبدًا، فإذا كان مذهب الصحابي واجتهاده لا يقبل إذا كان مخالفًا للنص، فكيف بفعل الوليد هذا الذي ثبتت مخالفته للنصوص الكثيرة مع أنه ليس من الصحابة؟ لاشك أنه مردود من بابٍ أولى، ثم انظر إلى قوله ﷺ (قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فإن الأنبياء الذين بعثوا لليهود لم يرضوا بذلك وقد حذروا منه كثيرًا ولكن الأتباع من اليهود هم الذين فعلوا بقبور أنبيائهم ذلك، فهل يترك ما عليه الأنبياء ويحتجوا بفعل الأتباع المخالفين لمنهج أنبيائهم؟ فكذلك حال هذه الأمة، فإن النبي ﷺ قد حذر أمته بما لا مزيد عليه من اتخاذ قبره مسجدًا وعيدًا حتى لا يكون قبره وثنًا يعبد ولكن وقعت المخالفة ممن جاؤوا بعده كما فعله الوليد هنا، فهل يترك هذا التحذير الشديد والنصوص القاطعة ويقدم عليها فعل الوليد؟ ويقال بجواز بناء المساجد على القبور استدلال بما فعله الوليد بن عبدالملك بقبر النبي ﷺ؟ أي عقل يفكر في هذا؟ وأي لسان يتجرأ على قول مثل ذلك؟ والمقصود من ذلك أنه لا حجة في فعل أحدٍ كائنًا من كان إذا كان مخالفًا لما صح من الأدلة ففعل الوليد رد عليه، وتبقى دلالة النصوص الناهية عن اتخاذ القبور مساجد صريحة في النهي سالمة عن المعارضة، ونحن يوم القيامة سوف نسأل عن ماذا أجبنا رسولنا - ﷺ - لا اذا أجبنا فلانًا وفلانًا قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

الرابع:- أن تعلم علم اليقين أن الوليد بن عبدالملك وعامله على المدينة ومن تولى إدخال الحجرات إلى المسجد قد أخذوا سائر الاحتياطات لإبعاد الناس عن القبر وعلى ستره عن الأعين وعلى عدم تمكين أحد أن يطوف به أو يصلي إليه أو يمسه بيده أو يقبله أو يدعو عنده، وذلك لأنهم جعلوا على القبر

جدارًا على شكل دائرة أو قريبة من الدائرة، ثم جعلوا على هذه الدائرة جدارين على شكل مثلث فهو قريبًا بهذا الشكل لا يستطيع أحد أن يدخل إلى القبور الثلاثة ولا أن يصلي عندها ولا أن يدعو عندها، فلا يزال البيت على شكله وحيازته والمسجد لا يزال على وضعه والحمد لله وما يحصل من الناس الجهال إنما يكون في مسجد الرسول وليس عند القبر لأن القبر بعيد عنهم، ومصون عنهم ولا يرونه، وهذا تحقيق لدعاء النبي ﷺ حين قال (اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد) فاستجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بهذه الجدران الثلاثة قال ابن القيم في النونية:-

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران عني:- صار القبر داخل هذه الجدران الثلاثة فلا يرى أبدًا وذلك صيانةً له عن الغلو فيه عليه الصلاة والسلام، ولا يستطيع أحد البتة أن يستقبل القبر لأنه إنما يستقبل الجدار لا القبر، قال الألباني رحمه الله تعالى (فإن المخالفين لما أدخلوا القبر النبوي في المسجد احتاطوا للأمر شيئًا ما، فحاولوا تقليل المخالفة ما أمكنهم).اهـ. لا تزال الدولة السعودية وفقها الله تأخذ سائر الاحتياطات لإبعاد الناس عن القبر فزادت في سماكة هذه الجدران ورفعتها فوق ما كانت عليه ووظفت عددًا من أهل الحسبة للقيام عند هذه القبور الشريفة لتوجيه الناس وردع المبتدع منهم والإنكار على ما يفعل في المسجد قريبًا من القبور من البدع والضلالات، وقد رأيناهم مراتٍ عديدة يطردون الواقفين قريبًا من القبور للدعاء عندها، ولا تزال هذه الدولة التي بنيت على التوحيد تبذل قصارى جهدها في حماية هذه القبور وتوجيه الناس إلى ما هو الحق والصواب، فالقبر حتى بعد إدخاله في المسجد لا يستطيع أحد البتة الوصول إليه ولا الصلاة عنده ولا رؤيته ولا الدعاء عنده ولا

مسه بيده ولا يُمَكَّنُ أحد من ذلك أصلًا، فلا يزال القبر في حماية ورعاية أهل التوحيد بتوفيق الله جل جلاله محفوظًا ومصونًا من بدع المضلين وقبوريات الوثنيين، ومهما فعل من البدع فإنما هي بدع تفعل من قِبل الجهلة في المسجد لا عند القبر، فإن قلت:- فلماذا لا يهدم ما على القبر ليكون خارج المسجد فأقول:- لقد تقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى أنه إذا تعارض مفسدتان روعي أشدهما بارتكاب أخفهما، وإن الفتنة والمضرة والمفسدة التي تحصل في هذا الهدم وهذا الإخراج في هذا الزمان أعظم بكثير من مفسدة إبقائه على حاله الراهنة فإنه مع كثرة الجهل وانتشار البدعة ومعاداة أهل التوحيد لاسيما أهل هذه البلاد المباركة، فإنه لو تحركت معاول الهدم تهدم ما على القبر من البناء لثارت الفتن التي لا نهاية لها ولتكلم الرويبضة في أهل التوحيد ولتحركت أفواه المبتدعة سبًا وشتمًا وطعنًا في الدين وأهله، ولربما تحركت جيوش المبتدعة على هذه البلاد بحجة تخليص قبر الرسول من أيدي الوهابية المبغضين للنبي ﷺ، ولتفرق الصف الإسلامي ولختلفت الكلمة ولظهر الشرور القولي والفعلي من المتربصين بهذه البلاد وأهلها ولربما وصل الأمر إلى تحرك الأمم لكافرة بحجة حرية الأديان إنكارًا على هذه البلاد ما فعلته بقبرٍ تعظمه سائر قلوب المسلمين ولصارت الشرارة نارًا مضطرمة لا يطفئها شيء، فدرء لذلك كله وسدًا لأبواب المفاسد والضرر والفتنة رأى ولاة الأمر أن يبقى الحال على ما هو عليه لاسيما وأن القبر محفوظ ومصون ولا يستطيع أحد أن يفعل عنده شيئًا من البدع والضلالات والمهم أنه لابد من إحسان الظن في ولاة الأمر من الأمراء والعلماء في إبقاء الحال على ما هو عليه وأنهم ما أبقوه رغبة منهم في الأمر المحدث لا وألف لا، وإنما أبقوه من باب مراعاة المصالح

والمفاسد ومن باب تحمل الضرر الأخف لدفع الضرر الأشد، ومن باب أنه إذا تعارضت مفسدة ومصلحة وكان المفسدة أعظم فإن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، ومن باب سد الذرائع ومن باب جمع الكلمة واتحاد الصف، ومن باب خشية افتتان العامة فإن بعضهم قد يفتن عن دينه والعياذ بالله تسخطًا من هذا الفعل، ولكن ومع ذلك فإنه لابد من انعقاد القلوب على خطأ فعل الوليد في إدخاله القبر في المسجد النبوي ولكنه شيء ابتلينا به فلابد من مدافعته بقدر المستطاع متوخين في ذلك ما يحقق المصالح ويدرأ المفاسد، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وإنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم إنا نبرأ إليك من كل فعل أو قول يخالف شريعتك ونسألك باسمك الأعظم أن تغفر لمن زل لسانه أو أخطأ بنانه في شيء من ذلك إنك أنت الغفور الرحيم والله يتولانا وإياك.

عدنا إلى سياق البدع التي يفعلها من لا خلاق له عند القبور فأقول:-

ومنها:- الصلاة عندها، وهو محرم في قول غالب أهل العلم إن لم نقل عند جميعهم ولا عبرة بمن أجاز الصلاة عندها من أهل العلم وقد ثبت النص الصحيح الصريح في تحريم الصلاة عندها وإليها ففي صحيح مسلم من حديث أبي مرثدٍ الغنوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ (لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها) وقد تقرر في الأصول أن النهي يفيد التحريم إلا لصارف ولا نعلم صارفًا يصرف هذا النهي عن بابه وروى الشيخان في صحيحهما أن النبي ﷺ قال (اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم ولا تتخذوها قبورًا) ووجه الاستشهاد به أن يقال:- لقد أمرنا النبي ﷺ أن نصلي بعض الصلاة - أي التطوع - في البيوت وعلل ذلك حتى لا تكون كالمقابر فدل ذلك على أن المقابر ليس من الشأن

الصلاة فيها، وأن البيت يكره إخلاؤه من الصلاة لما في ذلك من مشابهته للمقابر التي لا يصلى فيها، وهذا واضح الدلالة على المقصود وروي عن عمر رَضِوَاللهُعَنهُ أنه رأى أنس بن مالك يصلي عند قبر جهلًا من أنس بموضع القبر فناداه (القبر القبر)"أخرجه البخاري معلقًا" وعن أنس رَضِوَاللهُعَنهُ أن النبي ﷺ (نهى عن الصلاة بين القبور) قال الهيثمي:- رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، وعن أبي سعيدٍ الخدري رَضِوَاللهُعَنهُ قال قال رسول الله ﷺ (الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام)رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والبزار وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية والحاكم والذهبي والألباني رحم الله الجميع رحمة واسعة، واعلم رحمك الله تعالى أن النهي هنا للتحريم، وما ورد من لفظ الكراهة عن السلف فإنما يريدون به التحريم لأن الكراهة عندهم غالبًا ما يراد بها الحرمة، واعلم أن القول الصحيح أن الصلاة عند القبر وإليه باطلة لا تصح واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، واعلم أن العلة في النهي إنما هي لسد ذريعة التعظيم المفضي إلى الشرك، واعلم أن كل ما دخل في اسم المقبرة مما حول المقبرة فإنه لا يصلى فيه لدخوله في عموم النهي، واعلم أن الصلاة في مسجد بني على قبر أنها محرمة وباطلة ولا فرق بين كون القبر في القبلة أو عن اليمين أو الشمال أو الخلف إذا كان هذا القبر داخلًا في حدود المسجد، واعلم أن الأحق للأسبق فإن كان القبر هو الأول والمسجد قد بني عليه فالحق إزالة صورة المسجد وهدمه، وإن كان المسجد هو الأسبق والقبر طارئ فالحق نبش القبر وإخراج ما فيه ودفنه في مقابر المسلمين والله أعلم.

ومنها:- شد الرحال إليها، وهو من المحدثات المحرمات ومن البدع المنكرات ومن الضلالات المفضية إلى انفتاح باب الشركيات كما هو معلوم،

فلا يجوز البتة شد الرحل - أي السفر - إلى شيء من القبور، وبرهان ذلك حديث (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا)"متفق عليه وهو من الأحاديث المتواترة" ووجه الاستشهاد به هو أن النبي ﷺ قد نهى عن شد الرحال إلى بقعةٍ بقصد التعبد فيها أو عندها إلا إلى هذه البقاع الثلاثة فقط، وهذا النهي للتحريم كما تقرر في الأصول، فيدخل في ذلك شد الرحل إلى شيء من القبور بقصد زيارتها أو تعظيمها أو الصلاة عندها أو قراءة القرآن عندها أو لحضور مراسم الاحتفال بعيدها أو غير ذلك من مقاصد التعبد فهذا محرم مطلقًا ولا يجوز البتة ومنعه من باب سد الذرائع وقطع وسائل الشرك المفضية إليه، وقد فهم الصحابة رضي الله عنهم أن النهي هنا عام فيدخل فيه شد الرحل إلى القبور أو شد الرحل إلى البقاع التي كان بها بني كالطور ونحو ذلك من البقاع، فهذا أبو بصرة قد لقي أبا هريرة رضي الله عنه وقد جاء أبو هريرة من الطور فقال له:- من أين أقبلت؟ قال:- من الطور صليت فيه فقال:- أما إني لو أدركتك قبل أن ترتحل لمنعتك ثم ذكر له حديث النهي عن شد الرحل وعن قزعة قال:- أردت الخروج إلى الطور، فسألت ابن عمر رضي الله عنهما فقال:- أما علمت أن النبي ﷺ قال (لا تشد الرحال... فذكره) فهذا دليل على أن الصحابة قد فهموا أنه لا يجوز شد الرحال بقصد التعبد إلى شيء من البقاع إلا إلى هذه المساجد الثلاثة فقط، وفهمهم حجة وهو أحب إلينا من فهم غيرهم وكل فهم خالف فهم الصحابة في هذا فهو باطل لأنه قد تقرر في القواعد أن تفسير الراوي مقدم على غيره ما لم يخالف ظاهر الحديث، ولأنه قد تقرر أن الكتاب والسنة لا بد أن نفهمها فهمًا موافقًا لفهم سلف هذه الأمة، ولأنه قد تقرر أن كل فهم يخالف فهم السلف في مسائل الاعتقاد فهو باطل، وهذه

المسألة من مسائل الاعتقاد، ولأنه قد تقرر أن الصحابة أكمل هذه الأمة عقولًا وأتمها فهمًا لمقاصد الأدلة الشرعية، فدعك من كل فهم خالف هذا الفهم فإن الخير إنما هو في الأخذ بالكتاب والسنة على فهم سلف الأمة. ولله در القائل:-

والخير كل الخير في اتباع من سلف والشر كل الشر في ابتداع من خلف

ومنها:- وضع الستور على القبر وهذا لاشك أنه من البدع والمحدثات التي لا أصل لها ولم يكن ذلك من هدي النبي ﷺ ولا من هدي أصحابه رضوان الله عنهم ولا من هدي أحد من سلف الأمة وأئمتها وهو مظهر من مظاهر الشرك ووسيلة من وسائل تعظيم صاحب ذلك القبر، وخروج عن هدي المسلمين في التعامل مع قبور موتاهم وقد قال عليه الصلاة والسلام (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)"متفق عليه" ولمسلم (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) وفي الحديث (أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمدٍ ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة) ولو كان وضع الستور على القبور من القبور لسبقنا إليه من هم خير منا ولو كان ذلك ينفع الميت لبادر إليه من هم أحرص منا على نفع موتاهم وإيصال الخير لهم، لكنه شيء محدث وبدعة منكرة، أسأله جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يعصم الأمة منها وأن يوفق ولاة الأمر للإنكار على فاعليها.

ومنها:- قراءة القرآن في المقبرة، وكذلك وضع المصاحف في القبور أو وضعها في المقابر ليقرأها من شاء القراءة من الزائرين، وهذا كله من البدع والمحدثات المنكرات التي تدخل دخولًا أوليًا في حديث (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) فهو من البدع التي قال فيها النبي ﷺ (وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) ولم يكن ذلك من هدي النبي ﷺ ولا من هدي

أحد من صحابته ولا فعله أحد من التابعين ولا أحد من سلف الأمة وأئمتها، واعلم أن القول الصحيح أن الميت قد انقطع عمله إلا فيما ورد الدليل الشرعي الصريح الصريح بالانتفاع به بعد الموت كالصدقة الجارية أو دعاء المسلمين له أو دعاء الولد الصالح له أو العلم الذي ينتفع به مما قد قاله أو كتبه أو الحج والعمرة عنه أو الصوم عنه، وأما قراءة القرآن وإهداء ثوابها للميت فإننا لا نعلم دليلا يثبت انتفاع الميت بذلك وهذا الانتفاع أمر غيبي وقد تقرر أن أمور الغيب مبناها على التوقيف فلا نثبت منها إلا ما أثبته الدليل فقط وحيث لا دليل على إثبات انتفاع الميت بما يهدى له من قراءة الأحياء فالأصل فيه عدم الوصول، ولا قياس في الأمور الغيبية، بل مبناها على النص فقط، ولأن خير الهدي هدي رسول الله ﷺ وهدي صحابته الكرام، وقد كانوا حريصين على إيصال النفع لموتاهم، ولم يثبت عنه ﷺ في حديث واحد لا من باب قوله ولا من فعله ولا من إقراره فقد ماتت خديجة رضي الله عنها، ومات سائر أولاده الذكور، وسائر بناته إلا فاطمة وهو لا يزال حيًا ﷺ، ومات عمه حمزة بن عبد المطلب، أحب أعمامه إليه، ومات ابن عمه جعفر رضي الله عنه ومات كثير من صحابته ﷺ في حياته كشهداء بدرٍ وشهداء أحد وعثمان بن مظعون وغيرهم كثير، ومع شدة حبه ﷺ لهم لم يثبت عنه أنه كان إذا قرأ القرآن أهدى ثوابه لأحدٍ منهم وقد أكمل الله به الدين فلم يبق وجه من أوجه التعبد لا فيما ينتفع به الأحياء ولا فيما ينتفع به الأموات إلا وقد بينه ﷺ غاية البيان بأفصح لسان، ومع ذلك لم يدل أمته إلى نفع موتاهم بإهداء ثواب القراءة لهم، ولا فعله أحد من صحابته، ولم يكن من هدي السلف الصالح أنهم يهدون ثواب القراءة لموتاهم فأين الدليل على إثبات ذلك؟ فحيث لا دليل فالأصل المنع فالحق عندنا أنه لا يصل إلى الميت ثواب القراءة المهداة

له من الأحياء والله يتولانا وإياك.

ومنها:- إسراج المقابر، بأي وسيلة من وسائل الإسراج سواءً كانت من الوسائل القديمة كالسرج والإيقاد أو كان بالوسائل الحديثة كالكهرباء وبرهان ذلك حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال قال رسول الله ﷺ (لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)"رواه أبو داود والترمذي وسنده جيد محتج به" قال أبو العباس (إيقاد المصابيح في هذه المشاهد مطلقًا لا يجوز بلا خلاف أعلمه للنهي الوارد).اهـ. وقال الشيخ محمد بن إبراهيم (وأما إضاءة المقبرة فيخشى أن يجر ذلك إلى إسراج القبور الذي لعن رسول الله ﷺ فاعله ولاسيما نفوس الجهال تتعلق كثيرًا بالخرافات فتزال هذه الأنوار سدًا للذريعة).اهـ. ولكن أقول:- إذا حصل الدفن بالليل واحتيج إلى إضاءة يسيرة محصورة مخصوصة بوقت الدفن فقط وعلى هذا القبر بخصوصة ثم تطفأ بعد ذلك فأرى أنه لا بأس به لأن هذا ضرورة والضرورة تقدر بقدرها، والمقصود أن إسراج القبور من جملة البدع المحدثة والأفعال الشنيعة المنكرة ومن الكبائر التي يجب الحذر والتحذير منها والله المستعان.

ومنها:- الطواف حولها وهذا لا نعلم في تحريمه وبدعيته خلافًا بين أهل العلم، وقد نقل ابن تيمية رحمه الله تعالى اتفاق العلماء على أنه لا يطاف بشيءٍ من أجزاء الأرض إلا حول الكعبة خاصة، وأما الطواف حول القبور فهو من المنكرات الشنيعة والمحرمات الفظيعة والبدع الوخيمة، ومن المتقرر أن الطواف عبادة وتقرر أن العبادة مبناها على الاتباع لا على الابتداع، وتقرر أن العبادات توقيفية على النص، ولأن المتقرر عند العلماء جميعًا أن العبادة مبناها على ركنين على الإخلاص والمتابعة والطواف حول القبور لا متابعة فيه فإنه لم

يأمر به رسول الله ﷺ ولا فعله ولا أقر عليه ولم يفعله أحد من الصحابة ولا أحد من التابعين ولا أحد من سلف الأمة وأئمتها فهو من الأمور المحدثة وقد تقرر أن كل إحداث في الدين فهو رد، وهو من البدع وقد تقرر أن كل بدعة في الدين ضلالة، وتقرر أيضًا أن كل فعل توفر سببه على عهد النبي ﷺ فإن المشروع تركه، وقد قرر أهل العلم رحمهم الله تعالى أن الطواف بها من الشرك الأكبر إذا اقترن به اعتقاد التقرب لأصحابها أو لطلب البركة منهم أو اقترن به دعاؤهم من دون الله تعالى أو اقترن اعتقاد في أنهم ينفعون أو يضرون وأما إذا خلا عن ذلك فهو بدعة ومحرم وشرك أصغر لأنه من وسائل الشرك الأكبر والله يحفظنا وإياك من زلل الاعتقاد.

ومنها:- الذبح عندها، وهو من المحرمات الشنيعة والمنكرات والضلالات الوخيمة وقد اتفق على منعه علماء الملة أجمعون، وقد تظافرت الأدلة من الكتاب والسنة على تحريم الذبح لغير الله جل وعلا، قال تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ ووجه الاستشهاد به أن نقول:- أن الله جل وعلا حرم فيما حرم ما أُهِل لغيره، وهذه المذبوحات داخل فيما أُهِل لغير الله لأن أصحابها إنما يتقربون بذبحها لأصحاب القبور، فهي مما أهلت للقبور وأصحابها لا مما أهلت لله جل وعلا، حتى وإن ذكروا عليها اسم الله تعالى فإن قلوبهم ونواياهم إنما هي إرادة القربان للقبور وأصحابها، وكذلك نقول:- لقد حرم الله تعالى فيما حرم ما ذبح على النصب وهي حجارة كانت تنصب وتعبد وتراق الدماء عندها، وهذه القبور المعظمة صارت بمنزلة هذه الأنصاب فما يراق عندها من دماء بهيمة

الأنعام وغيرها إنما هو مما ذبح على النصب فهو حرام بلا شك وقال تعالى {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} أي لربك أيضًا، فالصلاة والذبح من العبادات العظيمة فكما أن الصلاة لغير الله تعالى محرم وشرك فكذلك الذبح لغيره جل وعلا محرم وشرك ويستدل على ذلك أيضًا بقوله تعالى {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ} فدل ذلك على أن الصلاة والنسك من خصوصياته جل وعلا وأنها لا تصرف لغيره جل وعلا وقد سمى الله تعالى صرفها لغيره شركًا فدل ذلك على أن الذبح لغيره شرك أكبر مخرج عن ملة الإسلام بالكلية، والذابح لغير الله تعالى ملعون، فعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ (لعن الله من ذبح لغير الله لعن الله من لعن والديه، لعن الله من غير منار الأرض، لعن الله من آوى محدثا)"رواه مسلم" وروى أبو داود في سننه بسند صحيح عن ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:- نذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانة، فسأل النبي ﷺ عن ذلك فقال (هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟ قالوا:- لا، فقال:- هل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا:- لا، فقال للرجل:- أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملكه ابن آدم) ومثله ما رواه أبو داود أيضًا بسند صحيح أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت (إني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا، مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية، فقال:- لصنم؟ قالت:- لا، قال:- لوثن؟ قالت:- لا، فقال:- أوفي بنذرك) وعن طارق بن شهاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ (دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب) قالوا:- كيف ذلك يا رسول الله؟ قال (مر رجلان على قومٍ لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئًا فقالوا:- لأحدهما قرب قال:- ليس عندي شيء أقرب، فقالوا:- قرب ولو ذبابًا فقرب ذبابًا فخلوا سبيله فدخل

النار، وقالوا للآخر قرب، قال:- ما كنت لأقرب لأحدٍ دون الله ﷿ شيئًا فضربوا عنقه فدخل الجنة)"أخرجه أحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية وابن أبي شيبة في المصنف وإسناده جيد محتج به" فهذه الأدلة تقضي قضاءً جازمًا بأن الذبح من القربات ومن أعظم الطاعات وأن صرفه لغير الله تعالى شرك أكبر، فالذبائح التي تكون عند القبور لتعظيم أصحابها والتقرب لهم شرك أكبر مخرج عن ملة الإسلام بالكلية، نعوذ بالله من ذلك.

ومنها:- النذر للقبور وأصحابها، وهذا من الشرك الأكبر لأن النذر عبادة، وقد تقرر في القواعد أن من سوى بين الله تعالى وبين أحد من الخلق فيما هو من خصائصه جل وعلا فقد أشرك الشرك الأكبر وقد نقل ابن تيمية رحمه الله تعالى اتفاق الفقهاء على أنه لا يجوز الوفاء بالنذر للقبور كمن ينذر لهم ذبحًا أو زيتًا أو ستارة أو حريرًا أو شمعًا أو نفقة أو صدقة ونحو ذلك، فكل ذلك لا يجوز الوفاء باتفاق أهل العلم، فالنذر عبادة والعبادات لا يجوز صرفها لغير الله جل وعلا قال تعالى {وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} وقال تعالى {يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ} وهذا في مقام المدح ولا يمدح الله تعالى إلا ما يحبه ويرضاه، والعبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه، والنذر كذلك فهو عبادة وفي الحديث (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصيه)"رواه البخاري" وفي الحديث السابق (فإنه لا وفاء لنذر في معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم) فلا يجوز النذر مطلقًا للقبور، فكما أنه لا يجوز الصلاة لها ولا الركوع ولا السجود لها ولا الذبح لها وغير ذلك من التعبدات فكذلك لا يجوز البتة النذر لها والله أعلم.

ومنها:- رفع الصوت خلف الجنائز بالتكبير والتهليل وغير ذلك من

الأذكار وهذه الأذكار وإن كانت مشروعة باعتبار أصلها ولكنها ممنوعة وبدعة باعتبار وصفها وقد تقرر في القواعد أن شرعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف، فهذا الفعل بدعة باعتبار الوصف لأنه ليس من هدي السلف ولا ثبت به دليل شرعي فهو محدث وكل محدث في الدين فهو رد، وبدعة وكل بدعة في الدين فهو ضلالة والله أعلم.

ومنها:- دعاء أصحاب القبور والاستغاثة بهم وطلب المدد منهم من دون الله تعالى وهذا ليس ببدعة فقط بل هو شرك أكبر مخرج عن الملة بالكلية، قال تعالى {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} وقال تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوم الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} وقال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} وقال تعالى {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} وقال تعالى {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ} وقال تعالى {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} وقال تعالى {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} وقال تعالى }أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} وعن النعمان ابن بشير ﵄ قال قال رسول الله ﷺ (إن الدعاء هو العبادة)"رواه الترمذي بإسناد صحيح" وعن ابن عباس ﵄ قال قال لي النبي ﷺ (يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت

فسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف) فهذه الآيات والأحاديث تفيد إفادة قطعية أن الدعاء عبادة وحيث كان كذلك فإنه لا يجوز صرفه لغير الله جل وعلا لأن العبادة حق الله المحصن الصرف فلا يجوز صرف شيء منها لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لولي صالح فضلاً عن القبور أو الأحجار والأشجار وقد ذكرنا فيما مضى الشبه التي يثيرها عباد القبور حول هذه القضية بما لا مزيد عليه إن شاء الله تعالى.

ومنها:- وضع الزهور على القبور فإنه من البدع الرديه والمحدثات المنكرة وذلك لأنه لم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحد من صحابته ولا أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، وإنما هي محدثة قد وفدت إلينا من ديار الغرب وبئس هذه البدعة، وقد تقرر أن الأصل في العبادات التوقيف وتقرر أن كل إحداث في الدين فهو رد، وتقرر أن المتابعة شرط من شروط قبول التعبدات فالواجب الكف عن هذا الفعل لأنه بدعة ولا فائدة منه البتة، وهو وسيلة من وسائل تعظيم صاحب ذلك القبر ولو كان خيرًا لسبقنا إليه السلف الصالح رحمهم الله تعالى ورضي عنهم، لكنه بدعة في الدين ومحدثة في الشريعة وكل بدعة ضلالة، وشر الأمور محدثاتها.

ومنها:- توزيع الصدقات والأطعمة في المقبرة، وهذا أيضًا من المحدثات المنكرة والبدع القبيحة فإنه لم يثبت فعل ذلك عن النبي ﷺ ولا عن أحدٍ من سلف الأمة من الصحابة أو التابعين وقد تقرر أن الأصل في العبادات الوقف على الدليل، وتقرر أيضًا أن كل إحداث في الدين فهو رد وتقرر أيضًا أن المتابعة

شرط لقبول الأعمال وتقرر أيضًا أن شرعية الشيء بأصله لا تستلزم شرعيته بوصفه، وتقرر أيضًا أن كل فعلٍ توفر سببه على عهد النبي ﷺ ولم يفعله فإن المشروع تركه والله أعلم.

ومنها:- وضع أوراق الشكوى بين فتحات سياج القبر، وهذه طامة كبيرة وهوة عظيمة للشرك الأكبر لأنه لا يجيب دعوة المضطرين إلا الله تعالى قال تعالى }أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} وقال تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} وقد تقرر بالدليل القاطع أنه لا يجيب الخير ولا يدفع الضر إلا الله وحده لا شريك له فمن اعتقد في أحدٍ أنه يجلب خيرًا أو يدفع شرًا استقلالًا فهو مشرك الشرك الأكبر المخرج عن الملة نعوذ بالله من ذلك.

ومنها:- الأذان والإقامة في القبر قبل إدخال الميت أو في أثناء إدخاله أو بعد إدخاله وقبل وضع اللبن عليه، وهذا كله من المحدثات والبدع فهي داخلة في عموم قوله ﷺ (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) وفي لفظ (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) والأذان والإقامة باعتبار أصلهما عبادة ولكن باعتبار هذا الوصف المخصوص بدعة، فالأذان والإقامة في قبر الميت داخلة تحت قاعدة شرعية الأصل لا تستلزم شرعية الوصف، فهما باعتبار الأصل مشروعان، لكنهما باعتبار هذا الوصف صارا ممنوعين، ولأنه ﷺ قد تولى دفن بعض صحابته وقد حضر دفن كثيرٍ منهم، وهو مأمور بإبلاغ الشرع أمر إيجاب ولم يثبت عنه ﷺ في حديث واحد أنه كان يفعل ذلك، ولا نعلم ذلك ثابتًا عن أحدٍ من الصحابة والعبادات توقيفية والأحكام الشرعية تفتقر في ثبوتها الأدلة الصحيحة الصريحة والله أعلم.

ومنها:- أخذ شيء من تراب القبر للتبرك به، وهو أيضًا من البدع بل هو من الشرك، فإن كان الآخذ يعتقد أن هذا التراب من أسباب البركة فقط وأن الله تعالى هو واضع البركة ومقدرها فهذا شرك أصغر لأنه اعتقد سببًا ما ليس بسبب لا شرعًا ولا قدرًا، ولأنه وسيله للشرك الأكبر، والمتقرر في قواعد التوحيد أن وسائل الشرك الأكبر يحكم عليها بأنها شرك أصغر- هذا عند بعض أهل العلم - وهو الذي نميل إليه، وأما إذا كان يعتقد أن الميت الذي أخذ من تراب قبره هو واضع البركة وهو الذي يأتي استقلالًا فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة لأن فعل الشيء استقلالًا من خصائصه جل وعلا، وكذلك إيجاد الشيء وخلقه استقلالًا من خصائصه جل وعلا فهذا الآخذ بلية كبيرة وطامة وخيمة قد ابتلي بها كثير من القبوريين، ولو كانوا يستطيعون الوصول إلى قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه لوجدت العجب ولكن نحمد الله تعالى أن سد عنا هذا الباب، فالواجب ترك ذلك والتحذير منه، ودعوة فاعليه بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلتهم بالتي هي أحسن، واعلم رحمك الله تعالى أن المتقرر عند أهل العلم في قواعد التوحيد أن الأصل في التبرك التوقيف على النص أي أنه لا يجوز البتة اعتقاد وجود البركة في شيء من الأمكنة ولا الأزمنة ولا الأعيان إلا وعلى ذلك دليل شرعي صحيح صريح لأن وجود البركة في الشيء من الغيب الذي لا نستطيع أن ندركه بحواسنا والمتقرر عند أهل العلم أن مسائل الغيب مبناها على التوقيف، وبناء على ذلك فإنه بعد البحث الطويل لم نجد دليلًا يصلح أن يعتمد عليه يثبت وجود بركة في تراب قبر أحد من الأموات لا على وجه العموم ولا على وجه الخصوص، فحيث لا دليل على ذلك فالواجب تركه وعدم الاعتقاد فيه، ولم يثبت أن أحدًا من الصحابة أو السلف الصالح كان يأخذ من تراب أحدٍ

من الأموات فلو كان ذلك خيرًا لسبقونا إليه، وليس مرد إثبات الجواز إلى العقول أو عادات البلد أو إلى الأذواق والشهوات والمرويات الباطلة، بل مرد إثبات العبادة إلى النص ثم اعلم رحمك الله تعالى أن الذي يأخذ ترابًا من قبرٍ إنما أخذه لأنه يعتقد أن عين هذا التراب فيه بركة ذاتية منتقلة وهذا ضلال مبين لأن ذلك لا يكون في هذه الأمة إلا للنبي ﷺ فإن البركة الذاتية المنتقلة هي بركة ذاته ﷺ ولذلك فقد كان الصحابة يتبركون بعرقه ونخامته ووضوئه ولباسه وشعره وغير ذلك مما ثبت به النص وذلك لأن بركة ذاته كانت بركة ذاتية منتقلة، وأما بركة غيره فإنما هي بركة معنوية لازمة، فبركة المسجد الحرام ومسجد المدينة ومسجد الأقصى بركة معنوية لازمة، وبركة المصحف بركة معنوية لازمة وبركة الأزمنة التي ثبت النص ببركتها بركة معنوية لازمة، فلو سلمنا جدلًا أن تراب القبر فيه بركة لما جاز أخذه لأن بركته ستكون بركة معنوية لازمة ولكن لم يصح في ذلك شيء أصلًا وإنما هي تهوكات الشياطين وخرافات المجانين وشهوات البطالين الذين لا نقل يحكمهم ولا عقل يردعهم والله المستعان.

ومنها:- رش الماء على القبور المجاورة القديمة بعد الفراغ من دفن قبرٍ حديث، وهذا يحصل أحيانًا في مقابرنا جهلًا من فاعليه، أو ظنًا منهم أنهم بهذا الرش يبردون على أهل القبور قبورهم، وهذا جهل وضلالة، وبدعة لابد من سد أبوابها، نعم رش الماء على القبر المدفون حديثًا لا بأس به إذا احتيج إليه لتثبيت تراب القبر وما عليه من الحصباء كما هو حاصل في هذه الأزمنة ولأنه يروى عن النبي ﷺ أنه رش الماء على قبر ابنه لما مات، وفي إسناده نظر وله طرق وبعضها قد يحتج به، قال ابن قدامة (ويستحب أن يرش على القبر ماءً

ليلتزق ترابه).اهـ. وقال النووي (ويستحب أن يرش عليه الماء).اهـ. وقال المعلمي (إن رش القبر مشروع).اهـ. ولكن كلام العلماء هنا إنما هو في رش القبر الحديث، إذا احتاج الدافنون إلى ذلك لكثرة الرياح مثلًا التي تمر على المقبرة وغير ذلك من صور الحاجة وعلى ذلك جرى عمل الناس في القديم والحديث، ولكن النقاش هنا في البحث عن مشروعية رش القبور المجاورة فإن هذا لا دليل عليه ولا نعلمه منقولًا عن أهل العلم المعتبرين وإنما هي استحسانات لا خطام لها ولا زمام ولا أصل لها في المنقول الصحيح، فضلًا عن كونها نابعة عن اعتقادات وظنون لا يدل عليها الشرع، فإنهم يقصدون بذلك تبريد القبور على أصحابها، وهذا الفعل قد يكون مستنده غرس الغصن الرطب على صاحبي القبرين وقد بينا ما فيه سابقًا، وبالجملة فهذا الفعل بدعة ولا أصل له ولم يفعله رسول الله ﷺ ولا فعله أحد فيما نعلمه من سلف الأمة وأئمتها، والاستحسان لا مدخل له في التشريع ويقضي على ذلك كله قوله عليه الصلاة والسلام (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) وفي لفظٍ (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) والله أعلى وأعلم.

ومنها:- اتخاذها عيدًا، أي أن يجعل لها يومًا أو أيامًا من العام يجتمع الناس فيه عندها ويدعونها ويحتفلون بذكراها ويذبحون عندها وينصبون الخيام ويوزعون الحلوى وتدق الطبول وترقص النساء وتوقد المصابيح ونحو ذلك مما لا يفعله الناس غالبًا إلا في العيد فهذا كله من البدع المنكرة ومن الأفعال الشنيعة الخطيرة القبيحة وقد أجمع علماء الإسلام على تحريم ذلك الإجماع القطعي المتواتر وقد ثبت الدليل بالمنع من ذلك التحذير منه فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ولا تجعلوا قبري عيدًا

وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) "رواه أبو داود وسنده صحيح" فقوله (ولا تجعلوا قبري عيدًا) هذا نهي وقد تقرر في القواعد أن النهي يفيد التحريم إلا لصارف ولا صارف نعلمه لهذا النهي عن بابه وقوله (لا تجعلوا قبري عيدًا) يستفاد منه حرمة اتخاذ كل القبور عيدًا أيًا كان صاحب هذا القبر، ووجه المنع أن هذا التحريم إذا كان في قبر خير خلق الله أجمعين فقبر غيره ممن هو دونه من باب أولى، وقد تقرر في الأصول أن مفهوم المخالفة الأولوي حجة ومثل ذلك حديث علي بن الحسين المعروف بزين العابدين أنه رأى رجلًا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيدعو، فدعاه فقال:- ألا أحدثك حديثًا سمعته عن أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال (لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبورًا فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم)"رواه أبو يعلى وابن شيبة بسندٍ صحيح" وقد قدمنا إجماع أهل العلم على حرمة ذلك، وقد حاول بعض المبتدعة - كعادتهم - تحريف هذه الأدلة وإخراجها عن مدلولاتها الصحيحة فقالوا:- إن النهي عن اتخاذ قبره عيدًا يقصد به زجر الأمة عن جعل قبره كالعيد فلا يؤتى إلا مرة واحدة أو مرتين في العام، بل لابد أن يؤتى دائمًا وتكرارًا ومرات كثيرة حتى لا يكون قبره كالعيد الذي لا يحصل إلا مرتين فقط، فمضمون هذا الحديث أمر بملازمة قبره والعكوف عنده والاحتفال به دائمًا واعتياد قصده وانتيابه فكأنه قال:- لا تجعلوا قبري بمنزلة العيد لا يكون إلا من الحول إلى الحول ولكن اقصدوه دائمًا في كل لحظة وساعة، كذا قالوا - ولبئس ما قالوا - وهذه صورة من صور تحريف المبتدعة للكلم عن مواضعه وهي من أبرز علاماتهم فإن للمبتدعة مع الأدلة المخالفة لمذاهبهم وقواعدهم طريقتين:- إن كان هذا الدليل آحادًا قالوا:- هذا من أخبار الآحاد وأخبار

الآحاد لا يجوز إثبات العقائد بها، لأن القاعدة عندهم تقول:- الاعتقادات لا تثبت إلا بالمتواترات، فنسفوا بهذا القانون الفاسد جملًا كثيرة من عقائد الشريعة، والطريقة الثانية:- إن كان النص المخالف لمذهبهم من المتواترات فإنهم يكرون على مدلوله الصحيح بالتحريف والإلحاد مظاهر اللفظ باق على ما هو عليه ولكن قد سلب معناه الصحيح وأقحم فيه معان غريبة عليه إما بالأصالة وإما في هذا التركيب، فالآحاد يردونه سندًا، والمتواتر يردونه دلالة، وهذا طريق أهل الأهواء وما أشبه الليلة بالبارحة فانظر كيف قلب المبتدعة هذا الدليل إلى كونه ناهيًا عن اتخاذ قبره عيدًا لكونه آمرًا بلزم القبر دائمًا والعكوف عنده، اللهم إنا نعوذ بك من الفهم الفاسد والفكر المختل، يالله العجب لو كان الأمر كما تقولون فلما لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ولماذا دفن في بيت عائشة خشية أن يبرز قبره فيتخذ مسجدًا لو كان الأمر كما تقولون فلماذا يحذر أمته بقوله (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) لو كان الأمر كما تقولون فلما يدعو ربه بقوله (اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد) ولو نظر هؤلاء المفتونون إلى آخر الحديث لعرفوا زيف قولهم فإنه قال (ولا تجعلوا قبري عيدًا وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) مما يدل على أن المقصود عدم اعتياد قصد القبر وعدم اعتقاد أن الدعاء عنده أفضل من غيره فلو كان المقصود ملازمته والعكوف عنده لما سوى بين صلاة البعيد وصلاة القريب، ثم ولو نظروا إلى سبب الحديث لتبين لهم الحق فإن علي بن الحسين رأى رجلًا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيدعو فقال له علي بن الحسين رضي الله عنهما هذا الحديث فأفاد ذلك أن المقصود إنكار ما فعله هذا الرجل وأن اعتقاده أفضلية الدعاء عند قبر النبي ﷺ وتكراره للدخول في هذه الفرجة

للدعاء من اتخاذ القبر عيدًا، فعلي بن الحسين إنما أنكر على هذا الرجل فعله ذلك ولو كان الأمر كما يقوله أهل البدعة لما استحق ذلك الرجل الإنكار ولقال له:- أحسنت في ملازمة القبر ولكنك قصرت لأنك لا تأتيه كل يوم، فلازمه دائمًا وعليك بالعكوف عنده، لكنه ما قال ذلك بل اشتد نكيره على هذا الرجل حتى قال كما في بعض الروايات:- وما أنت ورجل بالأندلس إلا سواء، فالصحابة فهموا من قوله (ولا تتخذوا قبري عيدًا) النهي الأكيد عن ملازمته والعكوف عنده وإحياء ليالي مولده عند قبره والاحتفال بذكرى بعثته ونحو ذلك من الدعاء عنده واعتقاد فضيلتها بخصوصها أو الذبح عند قبره وطلب الحاجات منه ونحو ذلك، ولذلك فقد اتفق أصحاب محمد ﷺ على عدم فعل شيء من ذلك عند قبره، فما يدل على أنهم فهموا الدليل فهمًا مخالفًا لما يريده المبتدعة منه، بل فهم الصحابة في وادٍ وفهم المبتدعة في وادٍ، وعلى فهم الصحابة جرى عمل السلف الصالح وسار عليه أئمة الدين، وقد تقرر في قواعد الدين أن أصول الدعوة ثلاثة:- الأخذ بالكتاب، والأخذ بالسنة، وأن يكون ذلك على فهم سلف الأمة، فلابد من موافقة السلف الصالح في فهمهم لهذا الحديث، وتقرر في القواعد أيضًا أن كل فهم يخالف فهم سلف الأمة في مسائل الاعتقاد فهو باطل وهذا الحديث لا جرم من مسائل الاعتقاد وقد فهمه المبتدعة فهمًا مناقضًا المناقضة التامة لما عليه فهم السلف، فالواجب رمي فهم المبتدعة خارجًا واعتماد ما قاله السلف وما فهموه من هذا الحديث، ومما استدل به المبتدعة أيضًا الأحاديث المروية في فضل زيارة قبره ﷺ على وجه الخصوص والتي سنفرد لها فصلًا خاصًا لنقل كلام العلماء على إسنادها، وقد تولاها ابن عبدالهادي في الصارم المنكي بما لا مزيد عليه وهو الفصل الآتي إن

شاء الله تعالى والمقصود بيان بعض البدع التي تفعل عند بعض القبور فيا أيها المسلمون في سائر أرجاء المعمورة إني أحذركم هذه البدع والضلالات فإنها مخالفة للأدلة الصحيحات الصريحات وموجبة للغرق في مستنقع الشركيات، فإن الفتنة بالقبور من أعظم الفتن والبليات، فالذبح عندها من المهلكات، ودعاؤها والاستغاثة بأصحابها من أعظم الشركيات، والنذر لها والطواف بها والركوع والسجود لها هو غاية الخسارات يا أيها المسلمون في كل الأنحاء، إني نذير لكم من الاغترار بهذه الفتنة العظيمة والبلية الجسيمة فإنه لا يملك جلب الخيرات ولا دفع المضرات إلا رب الأرض والسماوات، هو وحده مالك الملك والمتصرف في كل الأكوان والبريات، فاحذروا - رحمكم الله تعالى - من الاغترار بشيء مما يفعل بها أو عندها من الأمور البدعيات والزموا جادة الحق وعليكم بآثار من سبق وتزودوا من الأعمال الصالحات، وتعوذوا بالله جل وعلا من الفتن ما ظهر منها وما بطن فإن العمر قصير والعقبة كؤود ولا نجاة مما أمامنا إلا بالاعتقاد الصحيح والعمل الصالح الموافق للكتاب والسنة وأقسم بالله يا إخواني إني لكم ناصح وعليكم مشفق فالله الله في التفقه في الدين واتباع السابقين في اعتقادهم الصافي وانهلوا من معينهم العذب الشافي الكافي، واحذروا رحمكم الله تعالى من زيغ القلوب واتباع الأهواء، وإياكم وشبه المضللين الذين توحي إليهم الشياطين زخرف القول غرورًا ولو شاء ربنا ما فعلوه، فذروهم وما يفترون، فالذبح للقبور باطل والحق في تركه، ودعاؤها باطل والحق في تركه، والنذر لها باطل والحق في تركه والطواف بها باطل والحق في تركه والعكوف عندها وتوظيف السدنة لها باطل والحق في تركه والاستغاثة بها باطل والحق في تركه، واعتقاد أن أصحابها ينفعون أو يضرون باطل والحق في

تركه، نعوذ بالله من الفتن عامة ومن فتنة القبور خاصة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

فصل في المرويات الخاصة بزيارة قبره ﷺ مع بيان نقدها

رواية ودراية مما قاله أهل العلم رحمهم الله تعالى في ذلك:

أقول وبالله التوفيق ومنه أستمد الفضل والعون وحسن التأييد والتحقيق:-

اعلم رحمنا الله وإياك ووفقنا للعمل الصالح الرشيد أن هناك بعض المرويات المرغبة في زيارة قبر النبي ﷺ، وقد تناولها أهل العلم رحمهم الله تعالى بالبيان والتحقيق وأنا إن شاء الله تعالى سأنقل لك خلاصة ما قالوه في ذلك وقبل ذلك أذكرك بقاعدة مهمة في هذا الباب وقد قدمناها سابقًا في بداية هذا الكتاب ونصها يقول (كل حديث في فضل زيارة قبر مخصوص فهو مما لا تقوم به الحجة) ونذكرك أيضًا أن إثبات فضيلة لزيارة قبر مخصوص هي من إثبات حكم شرعي وقد تقرر في القواعد أن الأحكام الشرعية تفتقر في ثبوتها للأدلة الصحيحة الصريحة، وكل المرويات التي ستأتي في هذا الصدد دائرة بين كونها موضوعة وكذب مختلق وبين كونها ضعيفة شديدة الضعف، ولا يقال:- إننا نمنع من زيارة قبره ﷺ، نعوذ بالله من ذلك، إلا أن النقاش هنا في وضع المرويات المذكورة في ذلك فقط، نعم يستدل على زيارة قبره بالأدلة العامة المرغبة والآمرة بزيارة القبور على وجه الإجمال والتعميم، أما أن يكون هناك نقل خاص في فضيلة خاصة في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام فهذا مما لا نعلمه ثابتًا البتة، وهذا الكلام من باب الإجمال الذي سيعقبه التفصيل إن شاء الله تعالى، وقد تقرر في قواعد الدين أن الذب عن حياض سنته من علامات حبه ﷺ ومن الذب عن سنته وجوب بيان الأحاديث الواهية والضعيفة والموضوعة التي

لا يصح نسبتها لمقامه الشريف بأبي هو وأمي ﷺ، وإني لأعلم أنه سيأتي في زمني أو بعده من يقول:- هذا الوهابي لا يحب رسول الله ﷺ وإنه ليمنع من زيارة قبر الحبيب الشفيع عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم، هذا لابد أن يكون، ولذلك فلابد من إعادة التنبيه فأقول:- لا والله وبالله وتالله وأقسم بالأحد الصمد أن زيارة قبره ﷺ وقبر صاحبيه من السنن المشروعة من غير شد الرحل إليها، ومعاذ الله أن نمنع من ذلك، ولكن أهل البدعة يقلبون الكلام ويزيفون على العوام ويقطعون أول الكلام عن آخره، وهل ابتلي كثير من العلماء السابقين وسجنوا وعذبوا إلا بسبب أهل البدعة من المنافقين المندسين في صفوفنا، فنسأل الله تعالى أن يعيذنا من شرهم وأن يكفيناهم بما شاء إنه هو السميع العليم، ونرجع إلى المقصود فنقول:-

الأول:- حديث (من زار قبري وجبت له شفاعتي) أقول:- هذا أمثل حديث ذكروه في هذا الباب، وهو مع هذا حديث غير صحيح ولا ثابت، بل هو حديث منكر عند أئمة الحديث العارفين به، ولا تقوم بمثله الحجة البتة، بل حكم عليه الشيخ تقي الدين بأنه موضوع، ولا نعلم أحدًا من الحفاظ المشهورين الذين عليهم المعول في هذا الفن أنه صححه ولا اعتمد عليه أحد من الأئمة المحققين وقد حكم عليه البيهقي بأنه منكر قال ابن عبد الهادي (وهذا الذي قاله البيهقي في هذا الحديث وحكم به عليه قول صحيح بَيِّنٌ وحكم جلي واضح ولا يشك فيه من له أدنى اشتغال بهذا الفن ولا يرده إلا جاهل بهذا العلم).اهـ. وقد بين سبب اقتناعه بهذا الحكم بقول (وذلك أن تفرد مثل هذا العبدي- أي موسى بن هلال العبدي - المجهول الحال الذي لم يشتهر من أمره ما يوجب قبول أحاديثه وخبره عن عبدالله ابن عمر العمري المشهور بسوء

الحفظ وشدة الغفلة عن نافع عن ابن عمر بهذا الخبر من بين سائر أصحاب نافع الحفاظ الثقات الأثبات مثل يحيى بن سعيد الأنصاري وأيوب السختياني وعبدالله بن عون وصالح بن كيسان وإسماعيل بن أمية القرشي وابن جريج والأوزاعي وموسى بن عقبة وابن أبي ذئب ومالك بن أنس والليث بن سعد وغيرهم من العالمين بحديثه الضابطين لرواياته المعتنين بأخباره، الملازمين له، من أقوى الحجج وأبين الأدلة وأوضح البراهين على ضعف ما تفرد به - أي موسى بن هلال - وإنكاره ورده وعدم قبوله، وهل يشك في هذا من شم رائحة الحديث أو كان عنده أدنى بصر به).اهـ. كلامه، فبان بذلك أن ابن عبدالهادي له مؤآخذات على هذا الحديث وكلها مقبولة:-

الأولى:- أنه من رواية موسى بن هلال وهو ضعيف لأنه مجهول.

الثانية:- أنه من رواية عبدالله بن عمر العمري المكبر وهو ضعيف لسوء حفظه وشدة غفلته.

الثالثة:- أن موسى بن هلال مع ضعفه وعبدالله بن عمر العمري مع ضعفه، فقد خالفا بذلك الثقات الأثبات الذين هم ألصق منافع وأعلم برواياته عن ابن عمر رضي الله عنهما وجميع الثقات العارفين بحديث نافع لم يرووا شيئًا من ذلك، بل إن مالك بن أنس وهو أعرف الناس بحديث نافع وأثبت الناس في زمانه في الحديث، لا سيما حديث نافع وأضبطهم لحديثه وأشدهم اعتناءً بما رواه قد نص على كراهية قول القائل:- زرت قبر النبي ﷺ ولو كان هذا اللفظ مشروعًا عنده أو مأثورًا عن النبي ﷺ لم يكرهه، وقد ضعفه العقيلي رحمه الله تعالى، وضعفه ابن عدي في الكامل واعلم أن موسى بن هلال العبدي لم يرو هذا الحديث عن عبيدالله بن عمر الثقة لأن عبيدالله هذا قد مات قديمًا ولم يلحق به

موسى بن هلال، فإذا رأيت في بعض الطرق أن موسى بن هلال يرويه عن عبيدالله بن عمر فاعلم أنه غلط فالصحيح أنه من رواية موسى عن عبدالله بن عمر العمري المكبر وهو ضعيف في الحديث، وقد فرض ابن عبدالهادي فرضًا وقال (ولو فرض أن الحديث من رواية عبيدالله لم يلزم أن يكون صحيحًا فإن تفرد موسى بن هلال به عنه دون سائر أصحابه المشهورين بملازمته وحفظ حديثه وضبطه من أدل الأشياء على أنه منكر غير محفوظ وأصحاب عبيدالله بن عمر المعروفون بالرواية عنه مثل يحيى بن سعيد القطان وعبدالله بن نمير وأبي أسامة حماد بن أسامة وعبدالوهاب الثقفي وعبدالله بن المبارك ومعتمر بن سليمان وعبدالأعلى بن عبدالأعلى وعلي بن مسهر، وخالد بن الحارث وأبي ضمرة أنس بن عياض وبشر بن المفضل وأشباههم من الثقات المشهورين، فإذا كان هذا الحديث لم يروه عن عبيدالله أحد من الأثبات ولا رواه ثقة غيرهم علمنا أنه منكر غير مقبول وجزمنا بخطأ من حسنه أو صححه بغير علم).اهـ. وقال ابن أبي حاتم سألت أبي عن موسى بن هلال فقال:- مجهول، وقال ابن القطان في هذا الحديث (إن هذا الحديث الذي رواه موسى بن هلال حديث لا يصح).اهـ. وقد ذكر النووي في شرح المهذب أن هذا الحديث ضعيف جدًا، فتبين لك بعد ذلك أن هذا الحديث ضعيف شديد الضعف لا تقوم بمثله الحجة، ولو سلمنا أنه صحيح لما كان يدل إلا على الزيارة الشرعية لا على الزيارة البدعية، ونحن نقول بسنية زيارة قبره من غير شد رحل، لكن هذا الحديث ضعيف أصلًا، وقد حكم ابن خزيمة على هذا الحديث بأنه منكر وبرأ من عهدته، وضعفه الدولابي والدارقطني والحافظ بن حجرٍ والبرقاني فكلهم حكم على هذا الحديث بأنه لا يصح، ونحن نشهد الله تعالى أنه حديث لا

يصح، بل هو ضعيف جدًا شديد الضعف والله أعلم.

الحديث الثاني:- (من جاءني زائرًا لا تعلمه حاجة إلا زيارتي كان حقًا علي أن أكون شفيعًا له يوم القيامة) وفي لفظٍ (لا تحمله إلا زيارتي) وفي أخرى (لم تنزعه حاجة إلا زيارتي) قال الحافظ ابن عبدالهادي رحمه الله تعالى (هذا الحديث ليس في ذكر زيارة القبر ولا ذكر الزيارة بعد الموت مع أنه حديث ضعيف الإسناد منكر المتن لا يصلح للاحتجاج به ولا يجوز الاعتماد على مثله، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، ولا رواه الإمام أحمد في مسنده ولا أحد من الأئمة المعتمد على ما أطلقوه في روايتهم ولا صححه إمام يعتمد على تصحيحه، وقد تفرد به هذا الشيخ الذي لم يعرف بنقل العلم ولم يشتهر بحمله ولم يعرف من حاله ما يوجب قبول خبره وهو مسلمة بن سالم الجهني الذي لم يشتهر إلا برواية هذا الحديث المنكر، وحديث آخر موضوع، ذكره الطبراني بالإسناد المتقدم وإذا تفرد مثل هذا الشيخ المجهول الحال القليل الرواية بمثل هذين الحديثين المنكرين عن عبيدالله بن عمر أثبت آل عمر بن الخطاب في زمانه وأحفظهم من نافع عن سالم عن أبيه من بين سائر أصحاب عبيدالله الثقات المشهورين والأثبات المتقنين علم أنه شيخ لا يحل الاحتجاج بخبره ولا يجوز الاعتماد على روايته).اهـ. كلامه فبان لك بذلك أن هذا الحديث حديث ضعيف لا تقوم بمثله الحجة والله أعلم.

الحديث الثالث:- حديث (من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي) وهو حديث رواه الدارقطني في سننه، وهذا الحديث حديث منكر ساقط لا يحل ذكره إلا مع بيان ضعفه، بل وذكره بعض أهل العلم بالحديث بأنه من الأحاديث الموضوعة، وعلته حفص بن أبي داود وهو حفص بن سليمان أبو

عمر الأسدي الكوفي، وقد جرحه الأئمة وضعفوه وتركوه واتهمه بعضهم، قال يحيى بن معين:- ليس بثقة، وقال مرة عنه:- ليس بشيء، وقال عبدالله بن الإمام أحمد سمعت أبي يقول:- حفص بن سليمان أبو عمر القاري متروك الحديث وقول الإمام أحمد عنه (القاري) هذه صفة لأن حفص هذا كان مشهورًا بمعرفة القراءات ونقلها وأما الحديث فإنه لم يكن من أهله ولا ممن يعتمد عليه في نقله، وقال عنه البخاري:- تركوه، وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني:- قد فرغ منه من دهر، وقال عنه مسلم ابن الحجاج:- متروك، وقال علي بن المديني:- ضعيف الحديث وتركته على عمدٍ وقال النسائي:- ليس بثقة ولا يكتب حديثه، وقال مرة:- متروك الحديث، وقال صالح بن محمد البغدادي:- لا يكتب حديثه وأحاديثه كلها مناكير، وقال أبو زرعة:- ضعيف الحديث، وقال ابن أبي حاتم:- سألت أبي عنه فقال:- لا يكتب حديثه وهو ضعيف الحديث لا يصدق، متروك الحديث، وقال عبدالرحمن يوسف ابن خراش:- كذاب متروك، يضع الحديث، وقال الحاكم:- ذاهب الحديث، وقال الدارقطني:- ضعيف، وحيث كان مدار هذا الحديث فإنه حديث ضعيف شديد الضعف لا تقوم بمثله الحجة، قال البيهقي:- تفرد به حفص وهو ضعيف. والله أعلم.

الحديث الرابع:- حديث (من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني) وقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، ورواه ابن عدي في الكامل قال ابن عبدالهادي رحمه الله تعالى (واعلم أن هذا الحديث المذكور منكر جدًا لا أصل له، بل هو من المكذوبات والموضوعات وهو كذب موضوع على مالكٍ مختلقٍ عليه، لم يحدث به قط ولم يروه إلا من جمع الغرائب والمناكير والموضوعات، ولقد أصاب الشيخ أبو الفرج الجوزي في ذكره في الموضوعات).اهـ. وآفته محمد بن

محمد بن النعمان وهو متهم بالكذب ووضع الأحاديث، والنعمان المذكور هو النعمان بن شبل وقد قال الأئمة فيه:- إنه يأتي عن الثقات بالطامات وعن الأثبات بالمقلوبات. وقد قال ابن عبدالهادي عنه (لم يعرف بعدالة ولا ضبط، ولم يوثقه إمام يعتمد عليه).اهـ. وقال الدارقطني عن هذا الحديث:- منكر. قلت:- وقد تفرد برواية هذا الحديث محمد بن محمد بن النعمان الذي ذكرت لك حاله سابقًا، فلا جرم أن هذا الحديث حديث موضوع وقد أفتى بذلك أبو العباس رحمه الله تعالى، والله أعلم.

الحديث الخامس:- حديث (من زار قبري أو من زارني كنت له شفيعًا أوشهيدًا) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده، وهذا حديث ساقط الإسناد كما ذكره ابن عبدالهادي رحمه الله تعالى، وقال رحمه الله تعالى (هذا الحديث ليس بصحيح لانقطاعه وجهالة إسناده واضطرابه ولأجل اختلاف الرواة في إسناده واضطرابهم جعله المعترض - أي السبكي - ثلاثة أحاديث، وهو حديث واحد ساقط الإسناد لا يجوز الاحتجاج به ولا يصلح الاعتماد على مثله).اهـ. وقد أخرجه البيهقي في كتاب شعب الإيمان وفي كتاب السنن الكبير وقال بعده:- هذا إسناد مجهول.اهـ. قلت:- ومدار هذا الحديث على رجل يقال له هارون أبو قزعة وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث الضعيف ولم يشتهر من حاله ما يوجب قبول خبره وكذلك في إسناده رجل مبهم لا يعرف وهو رجل من آل عمر، ولا ندري من هذا الرجل، قال ابن عبدالهادي (ومثل هذا لا يحتج به أحد ذاق طعم الحديث أو عقل شيئًا منه) قلت:- وفي إسناده أيضًا سوار بن ميمون وهو شيخ مجهول الحال قليل الرواية، فهذا الحديث إسناده ساقط لا يجوز الاحتجاج بمثله ولا الاعتماد عليه للجهالة والاضطراب والانقطاع، والله أعلم.

الحديث السادس:- حديث (من زارني متعمدًا كان في جواري يوم القيامة) وهذا الحديث هو عين الحديث السابق، الذي رواه سوار بن ميمون وقد علمت حاله فيما مضى، وكذلك في سنده هارون بن قزعة، أو أبو قزعة وهو مجهول لا يعرف وذكر ابن حبان له في الثقات لا يعتبر، وطريقته في كتابه ضعيفة قد ناقشه فيها بعض الأئمة، ولا أدل على ذلك من أنه رحمه الله تعالى ذكر في كتابه الثقات خلقًا كثيرًا ثم أعاد ذكرهم في المجروحين وبين ضعفهم، رَحِمَهُ اللَّهُ وعفا عنه وجزاه الله خيرًا على حسناته الكثيرة التي لا عَدَّ لها، لكن هذا الحديث حديث ساقط الإسناد وللجهالة والاضطراب والإرسال وقد حكم عليه بعض العلم بأنه موضوع وما أبعدوا في ذلك والله أعلم.

الحديث السابع:- حديث (من حج حجة الإسلام وزار قبري وغزا غزوة وصلى علي في بيت المقدس لم يسأله الله عَزَّوَجَلَّ فيما افترض عليه) قال ابن عبدالهادي رحمه الله تعالى (هذا الحديث موضوع على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا شكٍ ولا ريب عند أهل المعرفة بالحديث، ولم يحدث به عبدالله بن مسعود قط، ولا علقمة، ولا إبراهيم ولا منصور ولا سفيان الثوري، وأدنى من يعد من طلبة هذا العلم يعلم أن هذا الحديث مختلق مفتعل على سفيان الثوري وأنه لم يطرق سمعه قط).اهـ. وعلة هذا الحديث الموضوع أحد رجلين:- إما أن يكون الحمل فيه على بدر بن عبدالله المصيصي الذي لم يعرف بثقةٍ ولا عدالةٍ ولا أمانة وإما أن يكون الحمل فيه على صاحب الجزء أبي الفتح محمد بن حسين الأزدري فإنه متهم بوضع الحديث، والله أعلم.

الحديث الثامن:- حديث (من زارني بعد موتي فكأنما زارني وأنا حي) وهذا حديث منكر لا أصل له، وإسناده مظلم، بل هو حديث موضوع، وآفته عدة

رجال:- منهم:- رجل يقال له الحسن بن محمد السوسي، ومنهم:- أحمد بن سهل ابن أيوب الأهوازي وهما يرويان المنكرات ولا يحتج بخبرهما ولا يعتمد على روايتهما ومنهم:- خالد بن يزيد العمري المكي أبو الوليد وهو متروك الحديث متهم بالكذب قال يحيى بن معين:- كذاب، وقال ابن أبي حاتم:- وسئل عنه أبي فقال:- كان كذابًا، أتيته بمكة ولم أكتب حديثه وكان ذاهب الحديث، وكتب عنه أبو زرعة وترك الرواية عنه، وقال ابن حبان:- منكر الحديث جدًا، وقال غير واحدٍ من الأئمة:- إنه يروي الموضوعات عن الأثبات وقال الأزدي:- متروك الحديث، وقال العقيلي:- يحدث بالخطأ ويحكي عن الثقات ما لا أصل له، وقال الدارقطني والبيهقي:- ضعيف الحديث وقال الحاكم:- أبو الوليد خالد بن يزيد العمري المكي:- ذاهب الحديث، وقال البخاري:- ذاهب الحديث، وقال ابن عدي:- له أحاديث وعامتها مناكير قال ابن عبدالهادي (فإذا كانت هذه حال خالد بن يزيد العمري عند أئمة هذا الشأن فكيف يعتمد على حديث رواه أو يحتج بخبرٍ هو في طريقه هذا لو كان الإسناد إليه واضحًا فكيف وهو إسناد مظلم).اهـ. قلتُ:- وقد حكم شيخ الإسلام بأنه حديث موضوع، والله أعلى وأعلم.

الحديث التاسع:- حديث (من زارني بالمدينة محتسبًا كنت له شفيعًا وشهيدًا) وفي رواية (من زارني محتسبًا إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة) وهذا إسناد ضعيف جدًا، قال ابن عبدالهادي:- هذا الحديث ليس بصحيح ولا ثابت، بل هو حديث ضعيف الإسناد منقطع..اهـ. ومدار هذا الحديث على رجل يقال له ابن المثنى سليمان بن يزيد الكعبي وهو ممن لا يحتج بروايته، وليس هو ممن أدرك أنس ابن مالك فروايته عنه منقطعة، وروى ابن أبي حاتم

عن أبيه أنه كان يقول فيه:- منكر الحديث ليس بقوي، فهذا الحديث لا يحل الاحتجاج به لأن مداره على ابن المثنى وهو ضعيف في الحديث، ولأن ابن المثنى هذا يرويه عن أنس، ولم يدركه فهو منقطع فعلته الانقطاع والضعف، قال ابن عبدالهادي (ولو فرض أن روايته عنه صحيحة متصلة وأنه من جملة الثقات المشهورين لم يكن في هذا الخبر الذي رواه حجة على جواز شد الرحال وإعمال المطي إلى مجرد زيارة القبر بل إنما فيه ذكر الزيارة فقط والمراد بها الزيارة الشرعية).اهـ.

الحديث العاشر:- حديث (ما من أحدٍ من أمتي له سعة ثم لم يزرني فليس له عذر) قال ابن عبدالهادي (هذا الحديث موضوع مكذوب مختلق مفتعل مصنوع من النسخة الموضوعة المكذوبة الملصقة بسمعان المهدي، قبح الله واضعها، وإسنادها إلى سمعان ظلمات بعضها فوق بعض، وأما سمعان فهو من الحيوانات التي لا تدري هل وجدت أم لا، وهذا المعترض - أي السبكي - إن كان لا يدري أن هذا الحديث من أقبح الموضوعات فهو من أجهل الناس وإن كان يعلم أنه موضوع ثم يذكره في معرض الاحتجاج ويتكثر به ولا يبين حاله فهو داخل في قوله ﷺ (من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين)"رواه مسلم" فهو إما جاهل مفرط في الجهل أو معاند صاحب هوى متبع لهواه نعوذ بالله من الخذلان).اهـ. وقد حكم أبو العباس عليه بأنه موضوع، بل أبو العباس يذهب إلى أن أحاديث الزيارة لقبره ﷺ على وجه الخصوص كلها موضوعة.

الحديث الحادي عشر:- حديث (من زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيدًا أو قال:- شفيعًا) وهذا حديث موضوع قال ابن عبدالهادي

(وهو حديث منكر جدًا ليس بصحيح ولا بثابت بل هو حديث موضوع على ابن جريج وقد وقع تصحيف في متنه وفي إسناده، أما التصحيف في متنه فقوله (من زارني) وإنما هو (من رآني في المنام كان كمن زارني في حياتي) هكذا رأيته في كتاب العقيلي في نسخة ابن عساكر (من رآني) من الرؤية وعلى هذا يكون معناه معنى الحديث الصحيح (من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي) وفي رواية (من رآني في المنام فسيراني في اليقظة أو فكأنما رآني في اليقظة لا يتمثل الشيطان بي) وأما التصحيف في إسناده فقوله:- سعيد بن محمد الحضرمي، والصواب شعيب بن محمد كما في رواية ابن عساكر، والحديث ليس بثابت على كل حال، سواءً بلفظ الزيارة أو الرؤية، وراويه فضالة بن سعيد بن زميل المازني شيخ مجهول لا يعرف له ذكر إلا في هذا الخبر الذي تفرد به ولم يتابع عليه، وأما محمد بن يحيى المازني فإنه شيخ معروف لكنه مختلف في عدالته وقد ذكره ابن عدي في كتاب الضعفاء وقال:- هو منكر الحديث).اهـ. وقال ابن عدي في أحاديث محمد المازني أحاديثه مظلمة منكرة..اهـ.

الحديث الثاني عشر:- حديث (من لم يزرني فقد جفاني) قال ابن عبدالهادي (هذا الحديث من الموضوعات المكذوبة على علي بن أبي طالب رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، والنعمان بن شبل ليس بشيء ولا يعتمد عليه، ومحمد بن الفضيل بن عطية كذاب مشهور بالكذب ووضع الحديث، وجابر هو الجعفي ولم يكن بثقة، ومحمد بن علي هو أبو جعفر الباقر ولم يدرك جد أبيه علي بن أبي طالب، فلو كان الإسناد صحيحًا إليه كانت روايته عن علي منقطعة، فكيف والإسناد إليه ساقط مظلم).اهـ. قلت:- قال أحمد في جابر الجعفي:- حديثه حديث أهل الكذب، وقال فيه البخاري:- سكتوا عنه، وقال الذهبي:- تركوه، وقال أيضًا:-

مناكير هذا الرجل كثيرة لأنه صاحب حديث، وقال ابن معين:- ليس بشيء، وقال ابن أبي حاتم:- ذاهب الحديث، ترك حديثه، وقال الحافظ في التقريب:- كذبوه، وقد تركه يحيى بن مهدي ويحيى بن سعيد، وقال النسائي:- متروك، فالحديث بهذه الحال كذب موضوع والله أعلم. ومثله حديث (من سأل لرسول الله ﷺ الدرجة الوسيلة حلت له الشفاعة يوم القيامة ومن زار قبر رسول الله ﷺ كان في جوار رسول الله ﷺ) وهذا أيضًا من المكذوبات على علي رضي الله عنه، فإن عبدالملك بن هارون بن عنترة متهم بالكذب ووضع الحديث قال ابن حبان:- كان ممن يضع الحديث لا يحل كتابة حديثه إلا على جهة الاعتبار، وقال البخاري:- منكر الحديث، وقال الإمام أحمد:- ضعيف الحديث، وقال يحيى بن معين:- كذاب، وقال أبو حاتم الرازي:- متروك الحديث ذاهب الحديث، وقال الجوزجاني:- دجال كذاب، وقال النسائي:- متروك الحديث وقال أبو بشر الدولابي أيضًا:- متروك الحديث، وقال الحاكم:- روى عن أبيه أحاديث موضوعة، وقال الدارقطني:- متروك يكذب، فبان بذلك أن هذا الحديث من الموضوعات التي لا يصح نسبتها للنبي ﷺ، والله أعلم.

فهذه بعض المرويات في زيارة قبره ﷺ وقال ابن عبدالهادي بعد نقده لهذه الأحاديث (فقد تبين أن جميع الأحاديث التي ذكرها المعترض - أي السبكي - في هذا الباب ليس فيها حديث صحيح، بل كلها ضعيفة أو موضوعة لا أصل لها، وكم من حديث له طرق أضعاف هذه الطرق التي ذكرها المعترض وهو موضوع عند أهل هذا الشأن فلا يعتبر بكثرة الطرق وتعددها وإنما الاعتماد على ثبوتها وصحتها).اهـ. كلامه رحمه الله تعالى وجزاه عن الأمة خير الجزاء ورفع الله نزله في الآخرة وحشرنا وإياه في زمرة الأنبياء والصديقين إنه ولي ذلك

والقادر عليه.

ونختم هذا الفصل بكلام لأبي العباس بن تيمية رحمه الله تعالى، قال أبو العباس أحمد ابن عبدالحليم بن تيمية (وأما قوله (من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي) وأمثال هذا الحديث مما روي في زيارة قبره ﷺ فليس منها شيء صحيح، ولم يرو أحد من أهل الكتب المعتمدة منها شيئًا لا أصحاب الصحيح كالبخاري ومسلم ولا أصحاب السنن كأبي داود والنسائي ولا الأئمة من أهل المسانيد كالإمام أحمد وأمثاله ولا اعتمد على ذلك أحد من أئمة الفقه، كمالك والشافعي وأحمد وإسحاق ابن راهوية وأبي حنيفة والثوري والأوزاعي والليث بن سعد وأمثالهم، بل عامة هذه الأحاديث مما يعلم أنها كذب موضوعة كقوله (من زارني وأبي في عام واحد ضمنت له على الله الجنة) وقوله (من حج ولم يزرني فقد جفاني) فإن هذه الأحاديث ونحوها كذب، والحديث الأول رواه الدارقطني والبزار في مسنده ومداره على عبدالله ابن عبدالله بن عمر العمري وهو ضعيف وليس عن النبي ﷺ في زيارة قبره ولا قبر الخليل حديث ثابت أصلًا، بل إنما اعتمد العلماء على أحاديث السلام والصلاة عليه كقوله (ما من رجل يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام)"رواه أبو داود وغيره" وقوله (إن الله وكل بقبري ملائكة يبلغوني عن أمتي السلام)"رواه النسائي" وقوله (أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة فإن صلاتكم معروضة علي) قالوا:- كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ فقال (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)"رواه أبو داود وغيره" وقد كره مالك أن يقول الرجل:- زرت قبر النبي ﷺ، قالوا:- لأن لفظ الزيارة قد صارت في عرف الناس تتضمن ما نهى عنه، فإن القبور على وجهين، وجه شرعي ووجه بدعي

فالزيارة الشرعية مقصودها السلام على الميت والدعاء له سواءً كان نبيًا أو غير نبي ولهذا كان الصحابة إذا زاروا قبر النبي ﷺ يسلمون عليه ويدعون له ثم ينصرفون ولم يكن أحد منهم يقف عند قبره ليدعو لنفسه، ولهذا كره مالك وغيره ذلك، وقالوا:- إنه من البدع المحدثة، ولهذا قال الفقهاء:- إذا سلم المسلم عليه وأراد الدعاء لنفسه لا يستقبل القبر، بل يستقبل القبلة وتنازعوا وقت السلام عليه:- هل يستقبل القبر أو يستقبل القبلة؟ فقال أبو حنيفة:- يستقبل القبلة وقال مالك والشافعي وأحمد:- يستقبل القبر، وهذا لقوله ﷺ (اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد) وقوله (لا تتخذوا قبري عيدًا) وقوله ﷺ (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) ولهذا فقد اتفق السلف على أنه لا يستلم قبرًا من قبور الأنبياء وغيرهم ولا يتمسح به ولا يستحب الصلاة عنده ولا قصده للدعاء عنده أو به لأن هذه الأمور كانت من أسباب الشرك وعبادة الأوثان كما قال تعالى {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} قال طائفة من السلف:- هؤلاء كانوا قومًا صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، فعبدوهم وهذه الأمور ونحوها هي من الزيارة البدعية وهي من جنس دين النصارى والمشركين وهو أن يكون الزائر قصده أن يستجاب دعاؤه عند القبر أو أن يدعو الميت ويستغيث به ويطلب منه، أو يقسم على الله به في طلب حاجاته وتفريج كرباته، فهذه كلها من البدع التي لم يشرعها النبي ﷺ ولا فعلها أصحابه وقد نص الأئمة على النهي من ذلك كما قد بسط في غير هذا الموضع، ولهذا لم يكن أحد من الصحابة يقصد زيارة قبر الخليل عليه السلام بل كانوا يأتون إلى بيت المقدس فقط، طاعة للحديث الذي ثبت في

الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه أنه قال (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا) ولهذا اتفق أئمة الدين على أن العبد لو نذر السفر إلى زيارة قبر الخليل والطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، أو جبل حراء ونحو ذلك لم يجب عليه الوفاء بنذره وهل عليه كفارة يمين؟ على قولين، لأن النبي ﷺ قال (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) والسفر إلى هذه البقاع معصية في أظهر القولين – ثم قال – والمقصود هنا أن الصحابة لم يكونوا يستحبون السفر لشيء من زيارات البقاع لا آثار الأنبياء ولا قبورهم ولا مساجدهم إلا المساجد الثلاثة، بل إذا فعل بعض الناس شيئًا من ذلك أنكر عليه غيره كما أنكروا على من زار الطور الذي كلم الله عليه موسى، حتى إن غار حراء الذي كان النبي ﷺ يتعبد فيه قبل المبعث لم يزره هو بعد المبعث ولا أحد من أصحابه وكذا الغار المأثور في القرآن).اهـ. كلامه رحمه الله تعالى، وفي ختام الفصل أعيد التنبيه على أمور:-

الأول:- أن علامة حبه ﷺ ليس هو في وضع الأحاديث المفضلة لزيارة قبره على

وجه الخصوص فإن وضع هذه الأحاديث هو في حقيقته بغض ومعاداة ومضادة له لأنه ﷺ منع المنع الجازم القاطع أن يكذب أحد عليه وتوعد الوعيد الشديد الكذابين عليه بمقعدٍ من النار، بل علامة حبه هي في طاعته والإيمان به واتباعه وأن لا نعبد الله تعالى إلا بما شرع قال تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

الثاني:- إن رد هذه الأحاديث الموضوعة ومناقشتها والنظر في أسانيدها لا

يعني عدم احترامه ﷺ، نعوذ بالله من ذلك بل إن ذلك من تعظيمه وتعظيم سنته واحترامه واحترام شريعته فليست الشريعة حفرة يضع فيها الكذابون والوضاعون ما يشاءون كيفما اتفق، لا بل شريعته منارة عالية، لها منزلتها وعظمتها، وإن الذب والدفاع عنها من محبته ﷺ وتعظيمه.

الثالث:- إننا إذا رددنا الأحاديث الموضوعة فإننا لا نرد على النبي ﷺ، معاذ الله من ذلك، وإنما نحن نرد على من افتعلها ووضعها واختلقها ونضرب بكذبهم في وجوههم.

الرابع:- إن ردنا لهذه الأحاديث الضعيفة الموضوعة لا يعني أننا نمنع من زيارة قبره ﷺ، لا والله البتة، بل زيارة قبره مشروعة لكن لابد أن تكون على الوجه الشرعي الذي شرعه لنا، فلا يكون فيها شد رحل، لأنه هو ﷺ منع من شد الرحال إلا لثلاثة مساجد فقط، ولا يكون فيها رفع الصوت عنده، بل لابد من ملازمة الأدب ولا يكون فيها شيء من الشركيات التي هو أصلًا جاء بإبطالها والتحذير منها كدعائه والاستغاثة به من دون الله تعالى وكالتمسح بالسياج الذي على قبره ونحو ذلك بل زيارته إنما يكون فيها السلام عليه والدعاء له فقط، وأما ما يفعله كثير من العامة اليوم عند قبره فإنه مما لا دليل عليه، فإذا منعناهم من فعل ذلك فلا نكون بذلك ممن يمنع زيارته، بل نكون ممن يمنع الإحداث في شريعته شيئًا لا دليل عليه فنقول لهم:- هذا أمر محدث وقد قال عليه الصلاة والسلام (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)"متفق عليه" فأهل السنة بل العلماء قاطبة متفقون على مشروعية زيارة قبره لكن بلا شد رحل ولا فعل شيء مما لا دليل عليه والله ربنا أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

فصل: في زيارة القبور وهذا الفصل الواسع نلخصه في مسائل

المسألة الأولى

اعلم رحمك الله تعالى أن زيارة القبور مشروعة شرع ندب واستحباب إذا كانت على الوجه الشرعي وقد دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال:- زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال (استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكر الموت)"رواه مسلم" وعن بريدة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها)"رواه مسلم" وعن عائشة رضي الله عنها (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص في زيارة القبور)"رواه الحاكم والبيهقي وابن عبدالبر في التمهيد وصححه الذهبي" وعن عائشة أيضًا رضي الله عنها قالت:- كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما كان ليلتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول (السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين وأتاكم غدًا مؤجلون وإنا بكم إن شاء الله لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد)"رواه مسلم" وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم (أنه خرج إلى شهداء أحد فصلى عليهم صلاته على الموتى كالمودع للأحياء والأموات) وعن بريدة رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية)" رواه مسلم" فهذه بعض النقول المفيدة لاستحباب زيارة القبور والله أعلم.

المسألة الثانية

اعلم رحمك الله تعالى أن زيارة القبور من جملة القربات والتعبدات التي يرجو بها فاعلها الأجر والمثوبة من رب الأرض والسماوات وحيث كانت زيارة القبور عبادة فإنها تدخل تحت الأصل العام الذي اتفق عليه العلماء من أن

الأصل في العبادات التوقيف على النص، فلا يجوز لأي زائر أن يحدث قولًا أو فعلًا في هذه العبادة إلا وعلى ذلك دليل شرعي صحيح صريح، فكل محدثةٍ في الزيارة فإنها ضلالة وبدعة، فأي قول أو فعل يفعله الزائر فإنه لابد أن يكون مستندًا إلى دليل من الكتاب أو صحيح السنة، فإنه قد تقرر أن الأحكام الشرعية تفتقر في ثبوتها للأدلة الصحيحة الصريحة، وتقرر أيضًا أن الشرع مبناه على الاتباع لا على الابتداع وتقرر أيضًا أن كل إحداث في الدين فهو رد وتقرر أيضًا أن المتابعة شرط من شروط قبول العبادات فمن اعتقد فضيلة قول مخصوص في زيارة القبور أو اعتقد فضيلة فعل مخصوص عند زيارتها فإنه مطالب بالدليل لأن الأصل المنع وتقرر أن الأصل هو البقاء على الأصل حتى يرد الناقل ولأن النبي ﷺ قال (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) وقال (وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) فالباب في زيارة القبور ليس بابًا مفتوحًا للأهواء والرغبات والمرويات الباطلة أو الاستحسانات التي ما أنزل الله بها من سلطان أو للأعراف والتقاليد المخالفة للشرع، أو للمراسيم البدعية المناقضة لدين الله تعالى، لا بل هو باب توقيفي على النص، فإذا ورد النص الصحيح فتح الباب له بقدر ما يقتضيه النص فقط ثم يغلق الباب حتى يأتي نص آخر صحيح فيفتح له ثم يغلق، فانتبه لهذا، فإن زيارة القبور ليست من العادات التي يكون الأصل فيها الحل بل هو من جملة العبادات التي الأصل فيها المنع حتى يقوم دليل المشروعية وحيث كان الأمر كذلك فإنه ينبغي لمن أراد زيارة القبور أن يتعلم صفة الزيارة الشرعية وما يجوز فيها وما لا يجوز حتى يكون ممن يعبد الله على بصيرة، وأما التخبط والجهل فإنه يوقع في البدع والضلالات بل قد يصل الأمر في كثير من الأحيان إلى الشركيات المخرجة عن الملة، فكما أنه ينبغي معرفة

صفة العبادة قبل مباشرتها سواءً كانت صلاة أو حجًا أو صيامًا أو عمرة أو غير ذلك فكذلك أيضًا زيارة القبور لها صفة شرعية قد وردت بها الأدلة فلابد من نشرها بين الناس وتعليمها للجاهل بها، فإننا نجزم جزمًا أن من أعظم أسباب انتشار البدع القبورية إنما هو الجهل بحقيقة الزيارة الشرعية، فانتبه لهذا واحفظ هذه القاعدة العظيمة التي تسد علينا ما لا يحصى من الشر والفساد والفتنة والله أعلم.

المسألة الثالثة

اعلم رحمك الله تعالى أن العلماء رفع الله منازلهم في الدنيا والآخرة وثبت أحياءهم وغفر لأمواتهم قد قسموا زيارة القبور إلى قسمين:- زيارة شرعية وزيارة بدعية، والذي يمكن حصره منهما هو الزيارة الشرعية، فقد قرر العلماء رحمهم الله تعالى أن الزيارة الشرعية هي ما كان قصد الزائر فيها السلام على الميت والدعاء له، وتذكر الآخرة، واغتنام الأجر بمتابعة النبي ﷺ في زيارته للقبور، فهذه أربعة مقاصد وقد يدخل بعضها في بعض:-

الأول:- السلام على الميت ففي الصحيح (أنه ﷺ كان يعلم أصحابه أن يقولوا إذا زاروا القبور:- السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين...الحديث) وتقدم في حديث عائشة (أنه إذا كانت ليلتها خرج النبي ﷺ من آخر الليل إلى بقيع الغرقد فيقول:- السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين...الحديث) وفي الأثر الصحيح عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (أنه كان إذا قدم من سفرٍ أتى قبر النبي ﷺ فقال:- السلام عليك يا رسول الله، ثم يقول:- السلام عليك يا أبا بكر، ثم يقول:- السلام عليك يا أبهْ) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ (ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عَلَيْهِ السَّلَامُ)"رواه أبو داود وسنده حسن" وروي

عن النبي ﷺ أنه قال (ما من رجلٍ يمر بقبر رجلٍ كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عَلَيْهِ السَّلَامُ) فمن دخل المقابر بنية السلام على الأموات فلا شيء عليه لأن هذا من الزيارة المشروعة.

الثاني:- الدعاء للأموات وهذا أيضًا من الزيارة الشرعية ودليله حديث السلام على الأموات عند الزيارة وفيه (السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية) وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه إذا خرجوا إلى القبور أن يسلموا على الأموات وأن يدعوا لهم، وقد كان هو ﷺ إذا جاء إلى البقيع زائرًا قال (اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد) ولأن هذا من أعظم ما ينفع الحيُ به أخاه الميت فهو داخل في عموم (من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل) وقد تقرر في قواعد الأصول أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقد ثبت أنه ﷺ قد صلى على القبر ومن المعلوم أن صلاة الجنازة غالبها دعاء للميت، وفي الحديث (إن هذه القبور مظلمة وإن الله ينورها بصلاتي على أهلها) أو كما قال ﷺ فالشك مني لبعد العهد بالحديث، فمن زار القبور بنية الدعاء لأهلها فقد أصاب السنة وزيارته هذه زيارة شرعية لأنه فعل فيها ما وردت به الأدلة الشرعية الصحيحة الصريحة.

الثالث:- تذكر الآخرة وهذا أيضًا قد وردت الأدلة ففي الحديث (فزوروا القبور فإنها تذكر الموت) وقد سبق أنه عند مسلم وللترمذي (فإنها تذكر الآخرة).

الرابع:- أن يقصد متابعة السنة فإنه ﷺ كان يزور القبور ويسلم على أصحابها ويدعو لهم ويأمر بزيارتها ويقر على ذلك، فمشروعية زيارة القبور قد دل عليها قوله وفعله وإقراره ﷺ، فهذه المقاصد تسمى مقاصد الزيارة

الشرعية، فأنصحك يا أخي من باب أخوة الدين ومحبة الإيمان أن لا تنوي حال زيارتك للقبور إلا أحد هذه المقاصد الأربعة فإن استجمعتها في قلبك فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، واعلم رحمك الله تعالى أن ما عدا هذه المقاصد فإنه داخل في حد الزيارة البدعية، والباطل في مثل ذلك قد لا يكاد يحصر ولكن من باب التمثيل أقول:- من زار القبور بقصد دعاء أصحابها والاستغاثة بهم من دون الله تعالى فقد وقع في الزيارة البدعية الشركية، ومن زارها ليقدم لها نذرًا من شمع أو زيت أو حريرٍ ونحو ذلك فهو واقع في الزيارة البدعية الشركية، ومن زارها ليأخذ من ترابها ليتبرك به فهو واقع في الزيارة البدعية، ومن زارها ليقيم عندها الليالي ذوات العدد فهو واقع في الزيارة البدعية، ومن سافر من بلاده البعيده وشد رحله إليها فهو واقع في الزيارة البدعية ومن زارها للطواف بها فهو واقع في الزيارة البدعية، ومن زارها ليذبح عندها فهو واقع في الزيارة البدعية الشركية، ومن زارها ليعلق على سياجها أوراق الشكاية والهموم فهو واقع في الزيارة البدعية الشركية، ومن زارها ليبني عليها أو يرشها بماء الورد فهو واقع في الزيارة البدعية، ومن زارها بأولاده الصغار لتحل فيهم بركة الولي المقبور فهو واقع في الزيارة البدعية الشركية، ومن زارها ببهائمه المريضة طلبًا لشفائها أو زارها المريض ليشفى هو فقد وقع في الزيارة الشركية البدعية، ومن زارها بقصد دلالته على شيء غائب له من ولدٍ أو متاع فهو واقع في الزيارة الشركية البدعية، ومن زارها طالبًا الشفاعة من أصحابها ورفعة الدرجات منهم أو مغفرة الذنوب فهو واقع في الزيارة الشركية البدعية، ومن زارها بقصد هداية قلبه ونجاحه في تجارته أو دراسته ونحو ذلك فهو واقع في الزيارة البدعية الشركية، ومن زارها بقصد قراءة القرآن عندها فهو واقع في

الزيارة البدعية، ومن زارها للنوح فهو واقع في الزيارة البدعية، ومن زارها للصلاة عندها أو الركوع والسجود لها فهو واقع في الزيارة الشركية البدعية، ومن زارها لاتخاذها عيدًا فهو واقع في الزيارة البدعية، ومن زارها لتقبيل أعتابها والتمسح بجدرانها فهو واقع في الزيارة البدعية، وبالجملة فإن الزيارة البدعية لا نستطيع حصر مقاصدها، ولكن نقول:- كل زيارة خرج مقصودها عن المقرر شرعًا في الزيارة الشرعية فهي من قبيل الزيارة البدعية، قال أبو العباس رحمه الله تعالى (وأما الزيارة البدعية فهي من جنس الشرك والذريعة إليه كما فعل اليهود والنصارى عند قبور الأنبياء والصالحين).اهـ.

المسألة الرابعة

اعلم رحمك الله تعالى أن زيارة قبر المشرك جائزة في أصح قولي أهل العلم رحمهم الله تعالى إلا أن قبر المشرك لا يزار بقصد الدعاء والاستغفار له وإنما يزار بقصد الاعتبار والاتعاظ بحاله وبقصد تذكر الآخرة فقط، قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وأما دليل الجواز فما رواه مسلم في صحيحه عنه ﷺ أنه زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال (استأذنت ربي أن استغفر لأمي فلم يؤذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكر الموت) ووجه الدلالة منه واضحة، فأمه ﷺ ماتت على الشرك وقد نهي ﷺ أن يستغفر لأي مشركٍ ولو كان ذا قربى، ومع ذلك فقد أذن الله ﷻ له في زيارة قبرها، فدل ذلك على جواز زيارة قبر المشرك، ولا يقال:- إن هذه الزيارة خاصة بأمه ﷺ فقط لأن المتقرر في القواعد أن الخصائص لا تثبت إلا بدليل، وتقرر في القواعد أيضًا أن كل حكمٍ ثبت في حقه ﷺ فإنه يثبت في حق أمته تبعًا

إلا بدليل الاختصاص، ولأنه ﷺ قال بعد الإذن له بزيارتها (فزوروا القبور فإنها تذكر الموت) وهذا خطاب عام للأمة وقد ورد على سبب خاص وقد تقرر في القواعد أن صورة السبب تدخل دخولًا أوليًا في عموم الخطاب، ولأن قوله (القبور) جمع دخلت عليه الألف واللام وقد تقرر في القواعد أن الألف واللام الاستغراقية إذا دخلت على الجمع أفادته العموم، وقد تقرر في القواعد أن الأصل هو البقاء على العموم حتى يرد المخصص وقبور المشركين داخلة في هذا العموم، ومن خصصها فإنه مطالب بالدليل لأنه مخالف للأصل وقد تقرر في القواعد أن الدليل يطلب من الناقل عن الأصل لا من الثابت عليه، ولأنه ﷺ قال (فإنها - أي زيارة القبور - تذكر الموت) وهذه العلة أكسبت الحكم العموم، وقد تقرر في القواعد أن العلة قد تعمم الحكم وقد تخصصه وهنا قد عممته لأن تذكر الموت حاصل بزيارة قبور الكفار ويستفاد الجواز أيضًا من عموم قوله ﷺ (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها) "رواه مسلم" وهذا العموم يدخل فيه قبور المسلمين وقبور الكفار لأن العظة والاعتبار وتذكر الآخرة الذي قد عللت به زيارة القبور كما أنه حاصل بزيارة قبور المسلمين فهو حاصل أيضًا بزيارة قبور الكفار، واختار هذا جمع من المحققين كابن حزم والنووي وشيخ الإسلام أبي العباس رحمه الله تعالى كما في الفتاوى فإنه قال (وتجوز زيارة الكافر لأجل الاعتبار دون الاستغفار له).اهـ. قلت:- لقد بينا كيفية الاستدلال على جواز زيارة قبر المشرك من حديث زيارته ﷺ لقبر أمه وفرعنا ذلك على القواعد المقررة عند أهل العلم وأزيد ذلك تقعيدًا فأقول:- إن جواز زيارة قبر أمه ﷺ حكم ثبت لواحدٍ من المشركين في الشريعة، وقد تقرر في القواعد أن الحكم إذا ثبت في حق واحدٍ فإنه يثبت في حق الجميع إلا بدليل

الاختصاص، فحيث ثبت شرعًا جواز زيارة قبرها وهي مشركة فهذا يثبت في حق عموم قبور الكفار إذ لا دليل على تخصيص قبر أمه بذلك، ونقول أيضًا:- إن النبي ﷺ قال (فزوروا القبور فإنها تذكر الموت) واكتفى بذلك ولم يقل:- إلا قبر مشرك، فلو كانت زيارة قبور الكفار ممنوعة لبين ذلك وقرنه بالحكم لأنه سيتطرق لأذهانهم أن الحكم في الزيارة عام، فلو كانت زيارة قبر الكافر ممنوعة لبين لهم ذلك فلما لم يبينه دل على أنه أراد منهم أن يفهموا أن الحكم عام لأن المتقرر في القواعد أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، ونقول أيضًا:- إن زيارته ﷺ لقبر أمه سبب خاص لقوله (فزوروا القبور فإنها تذكر الآخرة) لكن قوله (القبور) عام، فعندنا سبب خاص وعندنا لفظ حكم عام، فأيهما يقدم على الآخر خصوص السبب أم عموم الحكم؟ هذا ما تجيب عنه القاعدة التي تقول:- العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فتعميمًا للفظ الحكم قلنا بجواز زيارة قبر كل كافر، لكن كما ذكرنا سابقًا أن قبور الكفار لا تزار لأجل الاستغفار لهم أو الدعاء لهم وإنما تزار لأجل الاعتبار وأخذ العظة وتذكر الموت والآخرة ولمعرفة عظيم قدر نعمة الله علينا أن لم يقبض أرواحنا ونحن كحالهم على الكفر أو الشرك....

فصل: في ذكر بعض القبور التي يعظمها زوارها في كثير من بلاد الإسلام وبيان صدق نسبتها إلى أصحابها

قال أبو العباس رحمه الله تعالى (وأما قبور الأنبياء فالذي اتفق عليه العلماء هو قبر النبي ﷺ، فإن قبره منقول بالتواتر وكذلك قبر صاحبيه وأما قبر الخليل فأكثر الناس على أن هذا المكان المعروف هو قبره وأنكر ذلك طائفة - ثم قال - ولكن ليس في معرفة قبور الأنبياء بأعيانها فائدة شرعية وليس حفظ ذلك من

الدين ولو كان من الدين لحفظه الله كما حفظ سائر الدين، وذلك أن عامة من يسأل عن ذلك إنما قصده الصلاة عندها والدعاء بها ونحو ذلك من البدع المنهي عنها ومن كان مقصوده الصلاة والسلام على الأنبياء والإيمان بهم وإحياء ذكرهم فذاك ممكن له وإن لم يعرف قبورهم صلوات الله عليهم).اهـ. كلامه رحمه الله تعالى، وقال أيضًا (القبر المتفق عليه هو قبر نبينا ﷺ، وقبر الخليل فيه نزاع، لكن الصحيح الذي عليه الجمهور أنه قبره، وأما يونس و إلياس وشعيب و زكريا فلا يعرف، و قبر علي بن أبي طالب بقصر الإمارة الذي بالكوفة و قبر معاوية هو القبر الذي تقول العامة:- إنه قبر هود).اهـ. وقال أيضًا (وأما القبر المشهور في سفحة بالكرك الذي يقال:- إنه قبر نوح فهو باطل محال لم يقل أحد ممن له علم ومعرفة:- إن هذا قبر نوح ولا قبر أحد من الأنبياء أو الصالحين ولا كان لهذا القبر ذكر ولا خبر أصلًا).اهـ.

ولما سئل رحمه الله تعالى عن مشهد الحسين بالقاهرة أجاب بقوله (الحمد لله بل المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما الذي بالقاهرة كذب مختلق، بلا نزاع بين العلماء المعروفين عند أهل العلم الذي يرجع إليهم المسلمون في مثل ذلك لعلمهم وصدقهم ولا يعرف عن عالم مسمى معروف يعلم وصدق أنه قال:- إن هذا المشهد صحيح، وإنما يذكره بعض الناس قولًا عمن لا يعرف، على عادة من يحكي مقالات الرافضة وأمثالهم من الكذب - إلى أن قال - ومن هذا الباب نقل الناقل أن هذا القبر الذي بالقاهرة هو مشهد الحسين رضي الله عنه بل وكذلك مشاهد غير هذا مضافة إلى قبر الحسين رضي الله عنه، فإنه معلوم باتفاق الناس أن هذا المشهد بني عام بضعٍ وأربعين وخمسمائة، وأنه نقل من مشهد بعسقلان وأن ذلك المشهد بعسقلان كان قد أحدث بعد التسعين

والأربعمائة، فأصل هذا المشهد القاهري هو ذلك المشهد العسقلاني وذلك العسقلاني محدث بعد مقتل الحسين بأكثر من أربعمائة وثلاثين سنة، وهذا المشهد القاهري محدث بعد مقتله بقريب من خمسمائة سنة وهذا مما لا يتنازع فيه اثنان ممن تكلم في هذا الباب من أهل العلم على اختلاف أصنافهم كأهل الحديث ومصنفي أخبار القاهرة، ومصنفي التواريخ وما نقله أهل العلم طبقة عن طبقة فمثل هذا مستفيض عندهم، وهذا بينهم مشهور متواتر، سواءً قيل:- إن إضافته للحسين صدق أو كذب، لم يتنازعوا أنه نقل من عسقلان في أواخر الدولة العبيدية - ثم قال - فتبين بذلك أن إضافة مثل هذا إلى الحسين قول بلا علمٍ أصلًا وليس مع قائل ذلك ما يصح أن يكون معتمدًا عليه، لا نقل صحيح ولا ضعيف).اهـ. وقال أيضًا (وكذلك بدمشق بالجانب الشرقي، مشهد يقال إنه قبر أبي بن كعب وقد اتفق أهل العلم على أن أبَيًّا لم يقدم دمشق وإنما مات بالمدينة فكان بعض الناس يقول:- إنه قبر نصراني، وهذا غير مستبعد فإن اليهود والنصارى هم السابقون في تعظيم القبور والمشاهد).اهـ.

وقال أيضًا (ومنها:- القبر المضاف إلى أويس القرني، غربي دمشق فإن أويسًا لم يجيء إلى الشام وإنما ذهب إلى العراق).اهـ. وقال أيضًا (ومنها القبر المضاف إلى هود عَلَيْهِ السَّلَامُ بجامع دمشق كذب باتفاق أهل العلم فإن هودًا لم يجيء إلى الشام بل بعث باليمن وهاجر إلى مكة).اهـ. وقال أيضًا (ومنها قبر علي بن الحسين الذي بمصر فإنه كذب قطعًا فإن علي بن الحسين توفي بالمدينة بإجماع الناس ودفن بالبقيع).اهـ. وقال أيضًا (ومنها قبر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي بباطن النجف فإن المعروف عند أهل العلم أن عليًا دفن بقصر الإمارة بالكوفة كما دفن معاوية بقصر الإمارة من الشام، ودفن عمرو بن العاص بقصر الإمارة خوفًا

عليهم من الخوارج أن ينبشوا قبورهم ولكن قيل إن الذي بالنجف هو قبر المغيرة ابن شعبة ولم يكن أحد يذكر أنه قبر علي ولا يقصده أحد أكثر من ثلاثمائة سنة ومنها:- قبر عبدالله بن عمر في الجزيرة والناس متفقون على أن عبدالله بن عمر مات بمكة عام قتل ابن الزبير وأوصى أن يدفن بالحل لكونه من المهاجرين فشق ذلك عليهم فدفنوه بأعلى مكة، ومنها:- قبر جابر الذي بظاهر حران والناس متفقون على أن جابرًا قد توفي بالمدينة النبوية وهو آخر من مات من الصحابة بها، ومنها:- قبر ينسب إلى أم كلثوم ورقية بالشام وقد اتفق الناس على أنهما ماتتا في حياة النبي ﷺ بالمدينة تحت عثمان).اهـ. كلامه رحمه الله تعالى، قلت:- ومنها:- قبر إسماعيل وأمه عليهما السلام فإن كثيرًا من الناس يظنون أنهما قد دفنا بالحجر وقد بينا ذلك وذكرنا أنه كذب موضوع وأن المرويات في ذلك لا تصح من أساسها ولا أصل لها أصلًا، ومنها:- تمثال الخشب في الجامع الأموي والذي يقال إن تحته رأس نبي الله يحيى بن زكريا والذي تسميه العامة بالمقام اليحيوي فإنه كذب مختلق لا أساس له من الصحة، ومنها:- قبر شعيب عليه السلام في الأغوار من الأرض كذلك كذب لا أصل له ومنها:- القبر المنسوب إلى ابن عباس بالطائف فإنه خطأ، وقيل إنه قبر اللات وكانوا يعبدونه ويطوفون به ويقربون إليه القرابين وينذرون له النذور، ويسألونه قضاء حوائجهم وتفريج كرباتهم، ومنها:- قبر أحمد البدوي وهو أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني البدوي، صاحب الشهرة في الديار المصرية والذي قبره يحتل المنزلة الثانية أو الثالثة في قلوب القبوريين وكان أصله من المغرب، وطاف البلاد ودخل مصر في أيام الملك الظاهر بيبرس وتوفي فيها ودفن بطنطا، لا يعرف بعلم ولا عبادة ولا زهد ولا ورع، بل كان في عامة أحواله درويشًا تائهًا

تاركًا للفرائض، وكان لا يُرى في جمعة ولا جماعة ويقام عند قبره سوق عظيمة كل عام يفد إليها الناس من جميع أنحاء القطر المصري، ومن خارج القطر المصري، وكان غريب الأطوار في حياته، وكان والده من غلاة الشيعة الإسماعيلية وكان يصرف ولاءه التام للدولة الفاطمية الهالكة (الدولة العبيدية) وكان للبدوي ووالده وبعض إخوته لقاءات كثيرة مع الشيعة في العراق وله أخبار يطول ذكرها وكلها تخبر عن بعده عن الدين ومعاداته للسنة، بل ومعاداته للشريعة كلها، وقد ألصقت به منامات وحكايات سافلة تافهة ساقطة لا يصدقها عقل ولا يثبت بها نقل فضلًا عن مخالفتها للنصوص الصحيحة منها أنه سكن في سطحِ دارٍ ما يقارب اثنتي عشر عامًا لا يرى أحدًا ولا يراه أحد إلا من كان من مريديه وأتباعه، ومنها أنه كان لا يرضى بمقابلة رجلين في آنٍ واحد، ومنها طول صمته الطول المفرط حتى كان يبقى بالأيام لا يكلم أحدًا ولا يكلمه أحد، ومنها بوله في المسجد عدة مرات، وغيرها كثير، وآهٍ ثم آهٍ لو ترى كم يزدحم عند قبره من الآلاف المؤلفة يتبركون به ويدعونه ويهتفون باسمه ويحلفون به ويستغيثون به من دون الله تعالى ومنهم الراكع والساجد له ومنهم الطائف به ومنهم الذابح له وغير ذلك من الأمور الشركية المناقضة للإسلام والعياذ بالله تعالى، مما يجعلك تجزم بأن التوحيد صار في غربةٍ عظيمة لا يعلم بها إلا الله تعالى، ومن هذه القبور:- قبر زينب بنت علي بن أبي طالب، ومنها:- قبر الدسوقي، ومنها:- قبر نفيسة بنت الحسن ابن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وهذه القبور كلها في مصر، ومنها:- قبر أبي مسلم الخولاني في حمص وقبر خالد بن الوليد، وهذا خطأ وإنما هو قبر خالد بن يزيد في قول الأكثر، ومنها:- قبر مميت الدين ابن عربي، ومنها:- قبر رابعة العدوية في فلسطين، ومنها:- قبر أبي عبيدة

عامر بن الجراح وقد شارك بعض علماء الأزهر في الاحتفال الكبير الذي أقيم مؤخرًا في غور الأردن بمناسبة الانتهاء من الإعمار الهاشمي لمقام هذا الصحابي، ومنها:- قبر الجيلاني في بغداد، ومنها:- قبر النبي يونس عليه السلام وهو كذب مختلق فإن أهل العلم متفقون على أنه لا يعرف قبره بعينه، ومنها:- قبر سلمان الفارسي بالمدائن، ومنها:- قبر الزبير بن العوام في البصرة، ومنها:- قبر أبي الحسن العسكري في سامراء، وغير ذلك كثير، وأخيرًا نقول:- لقد عظم المصاب في ديار الإسلام بهذه الفتنة العظيمة والطامة الوخيمة والتي لابد لمحاربتها من وقفةٍ صادقة تعيد الأمة إلى توحيدها الصافي وهذا لا يكون إلا بتوحيد الجهود واتفاق الكلمة وإخلاص القصد وكثرة الدعاء والمسارعة في الإنكار، كل بحسبه، وتعليم الناس والوصول إلى هؤلاء في ديارهم والإنكار عليهم وتوجيههم بالتي هي أحسن وعلى ولاة الأمر من الولاة أن يتقوا الله في بلادهم وأن لا يرضوا أن يفعل فيها شيء من ذلك وأن يفتحوا لعلماء التوحيد والعقيدة الصحيحة مجالات تعليم الناس، وأن يسخروا وسائل الإعلام في ديارهم لتوجيه الناس للتوحيد الخالص والعقيدة الصافية وأن يقرروا المناهج السليمة في التوحيد والعقيدة ليدرسها الطلاب في المدارس وأن يقوموا بكل ما من شأنه صيانة التوحيد وحماية جنابه وأن يتذكروا دائمًا قوله جل وعلا {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} فإن واجب الولاة في مثل ذلك عظيم لابد أن يقوموا به والله سائلهم عن رعاياهم فليعدوا للسؤال جوابًا وللجواب صوابًا، فيجب عليهم إزالة معالم الشرك والوثنية في بلادهم وأن يجددوا أمر التوحيد فيها وأن لا يقدموا شهوة المنصب وحب البقاء فيه على تطبيق شريعة الله تعالى وإحياءها

في قلوب العام والخاص، وأن يحرصوا كل الحرص على رضا الله جل وعلا ولو كان في ذلك مخالفة أهواء الكفرة وسائر الناس، ويجب على العلماء أيضًا توجيه الأمراء إلى ذلك والوقوف معهم يدًا واحدة في وجه هذه الفتنة العظيمة التي عصفت بالتوحيد وانتشر بسببها الشرك فإن قوة السلطان وعلم العالم إذا اجتمعا حصل الخير إن شاء الله تعالى في البلاد والعباد، وذلك كما حصل في زمن الأمير محمد بن سعود والشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب رحمهما الله تعالى وجزاهما ربنا جل وعلا خير الجزاء فاجتمع المحمدان هذا بعلمه وحجته وهذا بقوته وسلطانه فأحيوا بذلك شريعة محمد ﷺ وزانة معالم الشرك وتعلم الناس التوحيد وبارك الله تعالى في هذه الدعوة حتى سمعت بها الدنيا وسارت بأخبارها الركبان ولا نزال في هذه البلاد على هذه الدعوة يجددها الأبناء والأحفاد من كلا المحمدين، رحم الله الأموات وثبت الأحياء وأسأله جل وعلا باسمه الأعظم أن يعين الأمراء والعلماء على القيام بهذا الواجب أتم القيام إنه خير مسئول والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

فصل: في بيان الذرائع المفضية إلى تعظيم القبور

أقول:- وهي ذرائع كثيرة ذكرنا كثيرًا منها في ثنايا كلامنا السابق ولكن نجمعها لك هنا حتى تكون منها على ذكر فأقول:-

الذريعة الأولى:- الغلو في الصالحين وهي من أعظم هذه الذرائع.

الثانية:- التوجه إلى القبر حال الدعاء.

الثالثة:- البناء على القبور ووضع القباب عليها.

الرابعة:- الصلاة عندها.

الخامسة:- تعظيم القبور بما لم يرد به الشرع.

السادسة:- الجهل بالسنة في زيارة القبور الزيارة الشرعية.

السابعة:- اتخاذ القبور عيدًا.

الثامنة:- زخرفة القبور ووضع الأغصان عليها.

التاسعة:- العكوف على القبور الليالي ذوات العدد.

العاشرة:- الوقوف عندها مع وضع اليد على الصدر على هيئة الخاضع المستكين.

الحادية عشرة:- الدعاء للنفس عند القبر.

الثانية عشرة:- الطواف به.

الثالثة عشرة:- الإقسام به.

الرابعة عشرة:- بناء المساجد عليها.

الخامسة عشرة:- إيقاد السرج عليها.

السادسة عشرة:- أخذ ترابها للتبرك به.

السابعة عشرة:- الكتابة عليها.

الثامنة عشرة:- دفن بعض المقبورين في الشوارع والميادين العامة، وهذا يحصل في دفن بعض رؤساء الدول أو بعض المعظمين فيها.

التاسعة عشرة:- تقبيل القبر أو تقبيل أرضه.

العشرون:- التمسح بأعتاب القبر أو تمريغ الوجه بترابه.

الحادية والعشرون:- رفع الصوت عند القبور.

الثانية والعشرون:- وضع الكتب في كيفية زيارة القبور أو كيفية الحج إليها كما فعله بعض الرافضة.

الثالثة والعشرون:- نقل مراسم الدفن والعزاء في وسائل الإعلام.

الرابعة والعشرون:- السفر إلى آثار الصالحين للتبرك بها.

الخامسة والعشرون:- التوسل بجاه أصحاب القبور.

السادسة والعشرون:- تصديق أخبار هذه القبور من غير تثبت من حقيقة حالها ولا النظر في عدالة ناقليها.

السابعة والعشرون:- شكوى الحال للأموات كما يفعله بعض الجهال.

الثامنة والعشرون:- توظيف السدنة لخدمتها.

التاسعة والعشرون:- إدخال بعضها تحت إشراف وزارة الأوقاف.

الثلاثون:- وضع الصناديق لجباية أموال الزائرين.

الحادية والثلاثون:- اعتماد المنامات المتعلقة بهذه القبور وأصحابها من غير رجوع لأهل العلم العارفين بالتأويل.

الثانية والثلاثون:- ضعف التوحيد وخفاء نوره في كثير من البلاد.

الثالثة والثلاثون:- النذر لأصحابها.

الرابعة والثلاثون:- الاعتقاد فيهم ما لا يجوز اعتقاده في المخلوق.

الخامسة والثلاثون:- تدريس بعض أهل العلم في المساجد التي فيها قبر، وسكوته عن ذلك، أو مشاركة بعض أهل العلم في مراسم الموالد لبعض القبور.

السادسة والثلاثون:- تغشية القبور بالديباج ونحوه.

السابعة والثلاثون:- وضع الزهور عليه.

الثامنة والثلاثون:- إقامة السرادق الكبيرة في المقابر للعزاء.

التاسعة والثلاثون:- تكثير المديح في الميت والإسراف فيه.

الأربعون:- نحت تمثالٍ له على صورته ويوضع قريبًا من قبره أو في الشوارع العامة في البلد.

الحادية والأربعون:- تعطيل المعاش وإحداد البلد على وجه العموم من أجل موت رئيسها أو أحد العظماء فيها أو لموت أحدٍ من البلدان المجاورة لها.

الثانية والأربعون:- تخصيص مقابر لوجهاء البلد فإن ذلك يضفي تعظيمًا زائدًا على قبورهم قد يكون في يومٍ من الأيام سببًا للافتتان بهم.

الثالثة والأربعون:- إقامة المآتم وتكرارها كل عام عند قبور بعض الأموات.

الرابعة والأربعون:- تخصيص الزيارات العامة لبعض القبور، كما يفعل في بعض البلاد، فإن القبيلة أو سائر العائلة أو رئيس البلد ووجهاءه يخصصون يومًا من السنة أو الشهر أو الأسبوع للزيارة الجماعية لبعض الأموات لقريبهم أو لوجيهٍ كان في البلد ومات وهذه ذريعة كبيرة لتعظيم ذلك القبر.

الخامسة والأربعون:- المبالغة في تجهيز الميت والمبالغة في سعر كفنه، فإن العامة من ضعاف التوحيد قد يفتتنون بذلك الميت إذا رأوا هذه المبالغة كما يفعله بعضهم عند قبور وجهاء البلد في غير هذه البلاد.

السادسة والأربعون:- الطواف بالجنازة بعد الصلاة عليها أو قبلها في شوارع البلد مع كثير من الشرط وقد نكست الأعلام والناس على حافتي الطريق يبكون ويضربون خدودهم ويرمون بالورود على نعش الجنازة، وهذا من البدع المخالفة لسنة الإسراع بالجنازة كما في حديث (أسرعوا بالجنازة) وهذا من ذرائع تعظيم الجنائز التعظيم الخارج عن الحد المشروع.

السابعة والأربعون:- تسمية بعض المقابر بالأسماء الطنانة التي تفضي عليها شيئًا من العظمة كمقبرة القداسة، أو مقبرة المغفرة أو مقبرة الشهداء، أو مقبرة الإجابة ونحو ذلك، وهذه الأسماء السابقة هي حقيقة أسماء مقابر في

بعض البلاد المجاورة ولكن نترك تسمية البلد للمصلحة.

الثامنة والأربعون:- اتباع الميت بالهتافات والأصوات العالية وضرب البنادق وإطلاق الرصاص ونحو ذلك.

التاسعة والأربعون:- شد الرحال لحضور مراسم الدفن والعزاء وهذا وإن كان من الذرائع الخفيفة لكن سده من باب أولى.

الخمسون:- محاربة أهل التوحيد وتعطيل تدريسه في المدارس وعدم السماح لدخول الكتب التي تعلم التوحيد في البلد مع السماح لأهل البدعة بالتدريس وتمكينهم من مخاطبة العامة في الخطب والندوات وفتح الباب لهم لبث أفكارهم المخالفة للكتاب والسنة، والذرائع كثيرة ولكن هذا الذي يحضرني حال كتابة هذه الوريقات، فالله الله أيها المسلمون في محاربة هذه الذرائع وسد أبوابها وإحكام سدها، والله الله في التسلح بسلاح العلم المؤصل على الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، أسأله جل وعلا باسمه الأعظم أن يقيكم كل شر وأن يحفظكم من كل بلاء وأن يعاملكم برحمته وعفوه وجوده وكرمه وإحسانه إنه جواد كريم والله أعلى وأعلم.

فصل: في بعض النقول عن أهل العلم في مسألة التحذير من فتنة القبور

قال أبو العباس رحمه الله تعالى (وهؤلاء الذين يعتقدون أن القبور تنفعهم وتدفع البلاء عنهم قد اتخذوها أوثانًا من دون الله وصاروا يظنون فيها ما يظنه أهل الأوثان في أوثانهم فإنهم كانوا يرجونها ويخافونها ويظنون أنها تنفع وتضر) وقال أيضًا وهو يتكلم عن الأمور المبتدعة عند القبور وبيان مراتبها فقال رحمه الله تعالى (وهذه الأمور المبتدعة من الأقوال هي مراتب أبعدها:- من الشرع أن يسأل الميت حاجة أو يستغيث به فيها كما يفعله كثير من الناس بكثير من

الأموات وهو من جنس عبادة الأصنام ولهذا تتمثل لهم الشياطين على صورة الميت أو الغائب كما كانت تتمثل لعباد الأصنام بل أصل عبادة الأصنام إنما كانت من القبور كما قال ابن عباس وغيره وقد يرى أحدهم القبر ينشق وخرج منه الميت فعانقه أو صافحه أو كلمه ويكون ذلك شيطانًا تمثل على صورته ليضله وهذا يوجد كثيرًا عند قبور الصالحين وأما السجود للميت أو للقبر فهو أعظم وكذلك تقبيله، المرتبة الثانية:- أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب أو أنه أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت فيقصد زيارته لذلك أو للصلاة عنده أو لأجل طلب حوائجه منه، فهذا أيضًا من المنكرات المبتدعة باتفاق أئمة المسلمين وهي محرمة وما علمت في ذلك نزاعًا بين أئمة الدين المرتبة الثالثة:- أن يسأل صاحب القبر أن يسأل الله له وهذا بدعة باتفاق أئمة المسلمين) وقال رحمه الله تعالى (سؤال الميت والغائب نبيًا كان أو غيره من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين لم يأمر الله به ولا رسوله ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين وهذا مما يعلم باضطرار من دين المسلمين أن أحدًا منهم لم يكن يقول إذا نزلت به ترة أو عرضت له حاجة لميت:- يا سيدي فلان أنا في حسبك، أو اقضي حاجتي كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى والغائبين ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم استغاث بالنبي ﷺ بعد موته ولا بغيره من الأنبياء لا عند قبورهم ولا إذا أبعدوا عنها وقد كانوا يقفون تلك المواقف العظام في مقابلة المشركين في القتال ويشتد البأس بهم ويظنون الظنون ومع هذا لم يستغث أحد منهم بنبيٍ ولا غيره من المخلوقين ولا أقسموا بمخلوقٍ على الله أصلًا ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأنبياء ولا قبور غير الأنبياء ولا الصلاة عندها) وقال رحمه الله

تعالى عن عباد القبور (وكثير من هؤلاء إذا استغاث بالشيخ الميت رأى صورته وربما قضى بعض حاجته فيظن أنه الشيخ نفسه أو أنه ملك تصور على صورته وأن هذا من كراماته فيزداد به شركًا ومغالاةً، ولا يعلم أن هذا من جنس ما تفعله الشياطين بعباد الأوثان، حيث تتراءى أحيانًا لمن يعبدها، وتخاطبهم ببعض الأمور الغائبة وتقضي لهم بعض الطلبات، ولكن هذه الأمور كلها بدع محدثة في دين الإسلام بعد القرون الثلاثة المفضلة).اهـ. وقال رحمه الله تعالى في بيان حال السلف مع قبر النبي ﷺ (ولم ينقل أحد من أهل العلم أن أحدًا من السلف سأل النبي ﷺ شيئًا بعد موته لا عند قبره ولا عند قبر غيره).اهـ.

وقال رحمه الله تعالى (أما قول القائل:- إن الدعاء مستجاب عند قبور المشائخ الأربعة المذكورين فهو من جنس قول غيره:- قبر فلان هو الترياق المجرب ومن جنس ما يقوله أمثال هذا القائل:- من أن الدعاء مستجاب عند قبر فلان وفلان فإن كثيرًا من الناس يقول مثل هذا القول عند بعض القبور، ثم قد يكون ذلك القبر قد علم أنه قبر رجلٍ صالح من الصحابة أو أهل البيت أو غيرهم من الصالحين وقد يكون نسبةً ذلك القبر إلى ذلك كذبًا أو مجهول الحال، مثل أكثر ما يذكر من قبور الأنبياء وقد يكون صحيحًا والرجل ليس بصالح، فإن هذه الأقسام موجودة فيمن يقول مثل هذا القول، أو من يقول:- إن الدعاء مستجاب عند قبرٍ بعينه، أو أنه استجيب له الدعاء عنده والحال أن ذاك إما قبر معروف بالفسق والابتداع وإما قبر كافرٍ كما رأينا من دعا فكشف له حال القبور فبهت لذلك ورأينا من ذلك أنواعًا وأصل هذا:- أن قول القائل:- إن الدعاء مستجاب عند قبور الصالحين قول ليس له أصل في كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا قاله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا أحد من أئمة

المشهورين بالإمامة في الدين كمالك والثوري والأوزاعي والليث بن سعد وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي عبيدة ولا مشايخهم الذين يقتدى بهم كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني وأمثالهم، ولم يكن في الصحابة و الأئمة والمشايخ المتقدمين من يقول:- إن الدعاء مستجاب عند قبور الأنبياء والصالحين لا مطلقًا ولا معينًا ولا فيهم من قال:- إن دعاء الإنسان عند قبور الأنبياء والصالحين أفضل من دعائه في غير تلك البقعة ولا أن الصلاة في تلك البقعة أفضل من الصلاة في غيرها ولا فيهم من كان يتحرى الصلاة ولا الدعاء عند هذه القبور، بل أفضل الخلق وسيدهم هو رسول الله ﷺ وليس في الأرض قبر اتفق الناس على أنه قبر نبي غير قبره، وقد اختلفوا في قبر الخليل وغيره واتفق الأئمة على أنه يسلم عليه عند زيارته وعلى صاحبيه لما في السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال (ما من رجلٍ يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام)"وهو حديث جيد" وقد روى ابن أبي شيبة والدارقطني عنه (من سلم علي عند قبري سمعته ومن صلى علي نائيًا أبلغته) وفي إسناده لين، لكن له شواهد ثابتة، فإن إبلاغ الصلاة والسلام عليه من البعد قد رواه أهل السنن من غير وجه كما في السنن عنه ﷺ أنه قال (أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة فإن صلاتكم معروضة علي) قالوا:- كيف تعرض عليك صلاتنا وقد رممت؟ فقال (إن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء) وفي النسائي وغيره عنه ﷺ أنه قال (إن الله وكل بقبري ملائكة يبلغوني عن أمتي السلام) ومع هذا لم يقل أحد منهم إن الدعاء مستجاب عند قبره ولا أنه يستحب أن يتحرى الدعاء متوجهًا إلى قبره، بل نصوا على نقيض ذلك واتفقوا كلهم على أنه لا يدعو مستقبل

القبر).اهـ.

وقال رحمه الله تعالى (ومن المعلوم بالاضطرار أن الدعاء عند القبور لو كان أفضل من الدعاء عند غيرها وهو أحب إلى الله وأجوب لكان السلف أعلم بذلك من الخلف وكانوا أسرع إليه، فإنهم كانوا أعلم بما يحبه الله ويرضاه وأسبق إلى طاعته ولكان النبي ﷺ يبين ذلك ويرغب فيه فإنه أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر وما ترك شيئًا يقرب إلى الجنة إلا وقد حدث أمته به، ولا شيئًا يبعد عن النار إلا وقد حذر أمته منه، وقد ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا ينزوي عنها إلا هالك فكيف وقد نهى عن هذا الجنس وحسم مادته بلعنه ونهيه عن اتخاذ القبور مساجد فنهى عن الصلاة مستقبلًا لها وإن كان المصلي لا يعبد الموتى، ولا يدعوهم، وقد كان أصل عبادة الأوثان من تعظيم القبور كما قال تعالى {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} قال السلف كابن عباس وغيره:- كان هؤلاء قومًا صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم).اهـ.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ (وأما ما يفعله بعض الناس من تحري الصلاة والدعاء عند ما يقال:- إنه قبر نبي أو قبر أحدٍ من الصحابة والقرابة أو إلصاق بدنه أو شيء من بدنه بالقبر أو بما يجاور القبر من عودٍ وغيره كمن يتحرى الصلاة والدعاء في قبلي شرقي جامع دمشق عند الموضع الذي يقال:- إنه قبر هود والذي عليه العلماء أنه قبر معاوية ابن أبي سفيان أو عند المثال الخشب الذي يقال:- تحته رأس يحيى بن زكريا ونحو ذلك فهو مخطئ مبتدع مخالف للسنة فإن الصلاة والدعاء بهذه الأمكنة ليس له مزية عند أحدٍ من سلف الأمة وأئمتها ولا كانوا

يفعلون ذلك بل كانوا ينهون عن مثل ذلك كما نهاهم النبي ﷺ عن أسباب ذلك ودواعيه وإن لم يقصدوا دعاء القبر والدعاء به فكيف إذا قصدوا ذلك - إلى أن قال - وأما الدعاء لأجل كون المكان فيه قبر نبي أو ولي فلم يقل أحد من سلف الأمة وأئمتها إن الدعاء فيه أفضل من غيره ولكن هذا مما ابتدعه بعض أهل القبلة مضاهاة للنصارى وغيرهم من المشركين فأصله من دين المشركين لا من دين عباد الله المخلصين كاتخاذ القبور مساجد فإن هذا لم يستحبه أحد من سلف الأمة وأئمتها ولكن ابتدعه بعض أهل القبلة مضاهاة لمن لعنهم رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى).اهـ. وقال رحمه الله تعالى (وقصد القبور لأجل الدعاء عندها رجاء الإجابة هو من هذا الباب فإنه ليس من الشريعة لا واجبًا ولا مستحبًا فلا يكون دينًا ولا حسنًا ولا طاعة لله ولا مما يحبه الله ويرضاه ولا يكون عملًا صالحًا ولا قربة ومن جعله من هذا الباب فهو ضال باتفاق المسلمين ولهذا كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا نزلت بهم الشدائد وأرادوا دعاء الله لكشف الضر أو طلب الرحمة لا يقصدون شيئًا من القبور لا قبور الأنبياء ولا غير الأنبياء حتى أنهم لم يكونوا يقصدون الدعاء عند قبر النبي ﷺ).اهـ.

وقال رحمه الله تعالى (وأما زيارة القبور لأجل الدعاء عندها أو التوسل بها أو الاستشفاع بها فهذا لم تأت به الشريعة أصلًا).اهـ. وقال رحمه الله تعالى (ولم يكن في العصور المفضلة مشاهد على القبور وإنما ظهر ذلك وكثر في دولة بني بويه لما ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب وكان بها زنادقة كفار، مقصودهم تبديل دين الإسلام، فبنوا المشاهد المكذوبة كمشهد علي وصنف أهل الفرية الأحاديث في زيارة المشاهد والصلاة عندها والدعاء عندها وما يشبه

ذلك فصار هؤلاء الزنادقة وأهل البدع المتبعون لها يعظمون المشاهد ويهينون المساجد وذلك ضد دين المسلمين ويستترون بالتشيع).اهـ. وقال رحمه الله تعالى (لا يشرع لأحد أن يذبح الأضحية ولا غيرها عند القبور بل ولا يشرع شيء من العبادات الأصلية كالصلاة والصيام والصدقة عند القبور، فمن ظن أن التضحية عند القبور مستحبة وأنها أفضل فهو جاهل ضال مخالف لإجماع المسلمين بل قد نهى رسول الله ﷺ عن العقر عند القبر كما كان يفعل بعض أهل الجاهلية إذا مات لهم كبير ذبحوا عند قبره، والنبي ﷺ نهى أن تتخذ القبور مساجد، فلعن الذين يفعلون ذلك تحذيرًا لأمته أن تتشبه بالمشركين الذين يعظمون القبور حتى عبدوهم، فكيف تتخذ منسكًا يقصد النسك فيه؟ فإن هذا من التشبه بالمشركين وقد قال الخليل عليه السلام {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ})،اهـ. وبالجملة فكلام أبي العباس رحمه الله تعالى في التحذير من هذه المسألة كثير جدًا ولو أفرده بعض الطلاب في مؤلفٍ مستقل مع ترتيبه وتبويبه لكان حسنًا جدًا والله يتولانا وإياك.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى (ومن أعظم مكايده -أي الشيطان- التي كابدها أكثر الناس وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالى فتنته ما أوحاه قديمًا وحديثًا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور حتى آل الأمر إلى أن عبد أربابها من دون الله تعالى وعبدت قبورهم واتخذت أوثانًا وبنيت عليها الهياكل وصورت صور أربابها فيها ثم جعلت الصور أجسادًا لها ظل ثم جعلت أصنامًا وعبدت مع الله تعالى) وقال رحمه الله تعالى (فإن قيل:- فما الذي أوقع عباد القبور في الافتتان بها مع العلم بأن ساكنيها أموات لا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا؟ قيل:- أوقعهم في ذلك أمور:- منها:- الجهل بحقيقة ما

بعث الله به رسوله ﷺ، بل جميع الرسل من تحقيق التوحيد وقطع أسباب الشرك، فقل نصيبهم جدًا من ذلك ودعاهم الشيطان إلى الفتنة ولم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل وعصموا بقدر ما معهم من العلم، ومنها:- أحاديث مكذوبة مختلقة وضعها أشباه عباد الأصنام من المقابرية على رسول الله ﷺ تناقض دينه وما جاء به كحديث (إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور) قلت:- قال أبو العباس فهذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه، لم يروه أحد من أهل العلم بذلك ولا يوجد في شيءٍ من كتب الحديث المعتمدة، وكحديث (لو أحسن أحدكم ظنه بحجرٍ نفعه) قلت:- قال أبو العباس:- إنه كذب ونقل السخاوي عن شيخه ابن حجر أنه قال:- لا أصل له، وتجده في كتب الموضوعات) ثم قال ابن القيم (وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الإسلام، وضعها المشركون وراحت على أشباههم من الجهال والضلال والله تعالى بعث رسوله بقتل من حسن ظنه بالأحجار، وجنب أمته فتنة القبور بكل طريق، ومنها:- حكايات حكيت لهم عن تلك القبور أن فلانًا استغاث بالقبر الفلاني من شدة فخلص منها وفلان دعاه أو دعا به في حاجته فقضيت له وفلان نزل به ضر فاسترجى صاحب ذلك القبر فكشف ضره، وعند السدنة والمقابرية من ذلك شيء يطول ذكره وهم من أكذب خلق الله تعالى على الأحياء والأموات والنفوس مولعة بقضاء حوائجها وإزالة ضروراتها، ويسمع بأن قبر فلان ترياق مجرب والشيطان له تلطف في الدعوة فيدعوه أولًا إلى الدعاء عنده فيدعو العبد عنده بحرقة وانكسار وذلة فيجيب الله دعوته لما قام بقلبه، لا لأجل القبر فإنه لو دعاه كذلك في الخانة والخمارة والحمام والسوق أجابه، فيظن

الجاهل أن للقبر تأثيرًا في إجابة تلك الدعوة والله سبحانه يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرًا وقد قال تعالى {كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا} وقد قال الخليل {وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} فقال تعالى {وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} فليس كل من أجاب الله دعاءه يكون راضيًا عنه ولا محبًا له، ولا راضيًا بفعله فإنه يجيب البر والفاجر والمؤمن والكافر - إلى أن قال - والمقصود أن الشيطان بلطف كيده يحسن الدعاء عند القبر وأنه أرجح منه في بيته ومسجده وأوقات الأسحار فإذا تقرر ذلك عنده نقله درجة أخرى من الدعاء عنده إلى الدعاء به والإقسام به على الله به، وهذا أعظم من الذي قبله فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحدٍ من خلقه وقد أنكر أئمة الإسلام ذلك - إلى أن قال - فإذا قرر الشيطان عنده أن الإقسام على الله به والدعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه وأنجع في قضاء حاجته، نقله إلى درجة أخرى إلى دعائه بنفسه من دون الله تعالى، ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى إلى أن يتخذ قبره وثنًا يعكف عنده ويوقد عليه القنديل ويعلق عليه الستور ويبني عليه المسجد ويعبده بالسجود له والطواف به وتقبيله واستلامه والحج إليه والذبح عنده، ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيدًا ومنسكًا وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم).اهـ.

وقال أيضًا (والحكاية المنقولة عن الشافعي أنه كان يقصد الدعاء عند قبر أبي حنيفة من الكذب الظاهر) وقال أيضًا (والمقصود أن الناس قد ابتلوا بالأنصاب والأزلام، فالأنصاب للشرك والعبادة، والأزلام للتكهن وطلب علم ما استأثر الله به هذه للعلم، وتلك للعمل ودين الله سبحانه وتعالى مضاد لهذا

ولهذا، والذي جاء به رسول الله ﷺ إبطالهما وكسر الأنصاب والأزلام فمن الأنصاب ما قد نصبه الشيطان للمشركين من شجرة أو عامود أو وثن أو قبر أو خشبة أو عين ونحو ذلك والواجب هدم ذلك كله ومحو أثره كما أمر النبي ﷺ عليًا بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي قال قال لي علي رضي الله عنه (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ:- ألا أدع تمثالًا إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته) وعمى الصحابة بأمر عمر رضي الله عنه قبر دانيال وأخفاه عن الناس، ولما بلغه أن الناس ينتابون الشجرة التي بايع تحتها رسول الله ﷺ أصحابه أرسل فقطعها، رواه ابن وضاح في كتابه فقال:- سمعت عيسى بن يونس يقول:- أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة فإذا كان هذا فعل عمر رضي الله عنه بالشجرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن وبايع تحتها صحابةُ رسولَ الله ﷺ فماذا حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان التي قد عظمت الفتنة بها واشتدت البلية بها؟ وأبلغ من ذلك أن رسول الله ﷺ هدم مسجد الضرار، ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم منه فسادًا كالمساجد المبنية على القبور فإن حكم الإسلام فيها أن تهدم كلها حتى تسوى بالأرض وهي أولى بالهدم من مسجد الضرار وكذلك القباب التي على القبور يجب هدمها كلها لأنها أسست على معصية الرسول لأنه قد نهى عن البناء على القبور كما تقدم، فبناء أسس على معصيته ومخالفته بناءً محرم وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعًا وقد أمر سول الله ﷺ بهدم القبور المشرفة، فهدم القباب والمساجد التي بنيت عليها أولى وأحرى لأنه لعن متخذي المساجد عليها ونهى عن البناء عليها، فيجب المبادرة والمسارعة إلى

هدم ما لعن رسول الله ﷺ فاعله ونهى عنه والله ﷻ يقيم لدينه وسنة رسوله من ينصرهما ويذب عنهما فهو أشد غيرةً وأسرع تغييرًا، وكذلك يجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبرٍ وطفيه فإن فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول الله ﷺ ولا يصح هذا الوقف ولا يحل إثباته وتنفيذه).اهـ.

وقال رحمه الله تعالى (وأعظم الفتنة بهذه الأنصاب فتنة أنصاب القبور وهي أصل فتنة عبادة الأصنام كما قاله السلف من الصحابة والتابعين، ومن أعظم كيد الشيطان أنه ينصب لأهل الشرك قبرًا معظمًا يعظمه الناس ثم يجعله وثنًا يعبد من دون الله تعالى، ثم يوحي إلى أوليائه:- أن من نهى عن عبادته واتخاذه عيدًا وجعله وثنًا فقد تَنَقَّصه وهضمه حقه فيسعى الجاهلون المشركون في قتله وعقوبته ويكفرونه، وذنبه عند أهل الإشراك أمره بما أمر الله به ورسوله ونهيه عما نهى الله عنه ورسوله من جعل هذا القبر وثنًا وعيدًا وإيقاد السرج عليه وبناء المساجد والقباب عليه وتجصيصه وإشادته وتقبيله واستلامه ودعائه أو الدعاء به أو السفر إليه أو الاستعانة به من دون الله تعالى، مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله من تجريد التوحيد لله وأن لا يعبد إلا الله تعالى فإذا نهى الموحد عن ذلك غضب المشركون واشمأزت قلوبهم وقالوا:- قد تنقَّص أهل الرتب العالية وزعم أنهم لا حرمة لهم ولا قدر وسرى ذلك في نفوس الجهال الطغام وكثير ممن ينسب إلى العلم والدين حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظام ونفروا الناس عنهم ووالوا أهل الشرك وعظموهم وزعموا أنهم هم أولياء الله وأنصار دينه، ويأبى الله ذلك فما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون المتبعون له الموافقون له، العارفون بما جاء به الداعون إليه، لا المتشبعون بما لم يعطوا، لابسوا ثياب الزور الذين يصدون

الناس عن سنة نبيهم ويبغونهم عوجًا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا).اهـ.
وقال رحمه الله تعالى في سياق المفاسد في اتخاذ القبور أعيادًا فقال (فمن مفاسد اتخاذها أعيادًا الصلاة إليها والطواف بها وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على ترابها وعبادة أصحابها والاستغاثة بهم وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الديون وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم، فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدًا وقد نزلوا عن الأكوار - أي الرحل - والدواب إذا رأوها من مكانٍ بعيد فوضعوا لها الجباه وقبلوا الأرض وكشفوا الرؤوس وارتفعت أصواتهم بالضجيج وتباكوا حتى سمع لهم النشيج ورأوا أنهم قد أربوا على الربح على الحجيج فاستغاثوا بمن لا يبدئ ولا يعيد ونادوا ولكن من مكان بعيد حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر أعظم من أجر من صلى إلى القبلتين فتراهم حول القبر ركعًا سجدًا يبتغون فضلًا من الميت ورضوانا، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسرانا فلغير الله - بل للشيطان - ما يراق هناك من العبرات ويرتفع من الأصوات ويطلب من الميت من الحاجات ويسأل من تفريج الكربات وإغناء ذوي الفاقات ومعافاة أولي العاهات والبليات، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين تشبيهًا له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركًا وهدىً للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام أرأيت الحجر وما يفعل به وفد البيت الحرام؟ ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق وقربوا لذلك الوثن القرابين وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين

فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضًا ويقول:- أجزل الله لنا ولكم أجرًا وافرًا وحظًا فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجه للقبر بحج المتخلف إلى بيت الله الحرام فيقول: لا ولو بحجك كل عام هذا، ولم نتجاوز فيما حكينا عنهم ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم إذ هي فوق ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح - كما تقدم - وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور سد الذريعة إلى هذا المحظور وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه، وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته).اهـ.

وقال رحمه الله تعالى مبينًا عظم المخالفة والمحادة لله ولرسوله فيما يفعله أصحاب القبور عند قبورهم فقال رفع الله درجته (ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضادًا للآخر مناقضًا له بحيث لا يجتمعان أبدًا، فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور وهؤلاء يصلون عندها، ونهى عن اتخاذها مساجد وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد، مضاهاةً لبيوت الله تعالى، ونهى عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها، ونهى أن تتخذ عيدًا وهؤلاء يتخذونها أعيادًا ومناسك ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد وأكثر، وأمر بتسويتها- وذكر الأحاديث - ثم قال:- وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين ويرفعونها عن الأرض كالبيت ويعقدون عليها القباب ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليها كما روى مسلم في صحيحه عن جابر قال (نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى

عليه) ونهى عن الكتابة عليها كما روى أبو داود والترمذي في سننهما عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ نهى أن تجصص القبور وأن يكتب عليها قال الترمذي:- حديث حسن صحيح، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره، ونهى أن يزاد عليها غير ترابها كما روى أبو داود من حديث جابر أيضًا أن رسول الله ﷺ نهى أن يجصص القبر أو يكتب عليه أو يزاد عليه وهؤلاء يزيدون عليه سوى التراب الآجر والأحجار والجص، ونهى عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يبنى القبر بآجر وأوصى أن لا يفعل ذلك بقبره وأوصى الأسود بن يزيد أن لا يجعلوا على قبره آجرًا وقال إبراهيم النخعي كانوا يكرهون الآجر على قبورهم وأوصى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين حضرته الوفاة:- أن لا تضربوا على قبري فسطاطًا، وكره الإمام أحمد أن يضرب على القبر فسطاط، والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور والمتخذينها أعيادًا الموقدين عليها السرج الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها وهو من الكبائر وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه - إلى أن قال - وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجًا ووضعوا له مناسك حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتابًا وسماه (مناسك حج المشاهد) مضاهاةً منه بالقبور للبيت الحرام ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ودخول في دين عباد الأصنام فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه).اهـ.

وقال رحمه الله تعالى في تعداد المفاسد المترتبة على مخالفة هدي الشريعة في مسألة القبور فقال (ولا ريب أن في ذلك مفاسد يعجز الإنسان عن حصرها،

فمنها:- تعظيمها الموقع في الافتتان بها ومنها:- اتخاذها عيدًا ومنها:- السفر إليها ومنها:- مشابهة عبادة الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها، وعُبَّادُهَا يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد والويل عندهم لقيمها ليلة يطفئ القنديل المعلق عليها، ومنها:- النذر لها ولسدنتها ومنها:- اعتقاد المشركين بها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء ويستنزل بها غيث السماء ويفرج الكرب وتقضى الحوائج وينصر المظلوم ويجار الخائف إلى غير ذلك، ومنها:- الدخول في لعنة الله تعالى ورسوله ﷺ باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها، ومنها:- الشرك الأكبر الذي يفعل عندها ومنها:- إيذاء أصحابها بما فعله المشركون بقبورهم فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهية، كما أن المسيح يكره ما يفعله النصارى عند قبره وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم ويوم القيامة يتبرؤون منهم، كما قال تعالى {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا} قال الله تعالى للمشركين {فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا} وقال تعالى {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ} وقال الله تعالى {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ

كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ} ومنها:- مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد والسرج عليها ومنها:- محادة الله ورسوله ومناقضة ما شرعه فيها ومنها:- التعب العظيم مع الوزر الكثير والإثم العظيم ومنها:- إماتة السنن وإحياء البدع ومنها:- تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله تعالى فإن عباد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريب منه، ومنها:- أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد ودين الله تعالى الذي بعث به رسوله ضد ذلك ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين عمروا المشاهد وخربوا المساجد، ومنها:- أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكر الله تعالى والإحسان إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه والاستغفار له وسؤال العافية له فيكون الزائر محسنًا إلى نفسه وإلى الميت، فقلب هؤلاء المشركون الأمر وعكسوا الدين وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعاءه والدعاء به وسؤاله حوائجهم واستنزال البركات منه ونصره لهم على الأعداء ونحو ذلك فصاروا مسيئين إلى نفوسهم وإلى الميت ولو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه الله تعالى من الدعاء له والترحم عليه والاستغفار له).اهـ.

وقال النووي رحمه الله تعالى (واتفقت نصوص الشافعي والأصحاب على كراهة بناء مسجدٍ على القبر سواءً كان الميت مشهورًا بالصلاح أم غيره).اهـ. وقال رحمه الله تعالى (قال العلماء:- إنما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدًا خوفًا من المبالغة في تعظيمه والافتتان به فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية).اهـ.

وقال الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى (وأما ما صدر من سؤال الأنبياء والأولياء والشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها والسرج والصلاة عندها واتخاذها عيدًا وجعل السدنة والنذور لها فكل ذلك من حوادث الأمور التي أخبر بوقوعها النبي ﷺ وحذر منها كما في الحديث عنه ﷺ أنه قال (لا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان) وهو ﷺ حمى جناب التوحيد أعظم حماية وسد كل طريق يوصل إلى الشرك فنهى أن يجصص القبر وأن يبنى عليه كما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر، وثبت فيه أيضًا أنه بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن لا يدع قبرًا مشرفًا إلا سواه ولا تمثالًا إلا طمسه ولهذا قال غير واحدٍ من العلماء:- يجب هدم القبب المبنية على القبور لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ).اهـ. وقال رحمه الله تعالى (فلا إله إلا الله، نفي، وإثبات الإلهية كلها، فمن قصد شيئًا من قبرٍ أو شجر أو نجم أو ملك مقرب أو نبي مرسل لجلب نفع وكشف ضر فقد اتخذه إلهًا من دونه مكذب بلا إله إلا الله يستتاب، فإن تاب وإلا قتل).اهـ.

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى (اعلم أنه قد اتفق الناس سابقهم ولاحقهم وأولهم وآخرهم من لدن الصحابة رضي الله عنهم إلى هذا الوقت أن رفع القبور والبناء عليها بدعة من البدع التي ثبت النهي عنها واشتد وعيد رسول الله ﷺ لفاعلها ولم يخالف في ذلك أحد من المسلمين أجمعين).اهـ.

وقال الشوكاني أيضًا (فلا شك ولا ريب أن السبب الأعظم الذي نشأ منه هذا الاعتقاد في الأموات هو ما زينه الشيطان للناس من رفع القبور ووضع الستور عليها وتجصيصها وتزيينها بأبلغ زينة وتحسينها بأكمل تحسين فإن

الجاهل إذا وقعت عينه على قبر من القبور قد بنيت عليه قبة فدخلها ونظر إلى القبور والستور الرائعة والسرج المتلألئة، وقد سطعت حوله مجامر الطيب فلاشك ولا ريب أنه يمتلئ قلبه تعظيمًا لذلك القبر ويضيق ذهنه عن تصور ما لهذا الميت من المنزلة ويدخله من الروعة والمهابة ما يزرع في قلبه من العقائد الشيطانية التي هي من أعظم مكائد الشيطان للمسلمين وأشد وسائله إلى ضلال العباد، ما يزلزله عن الإسلام قليلًا، حتى يطلب من صاحب ذلك القبر ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى فيصير في عداد المشركين، وقد يحصل له هذا الشرك بأول رؤية لذلك القبر الذي صار على تلك الصفة، وعند أول زورةٍ له، إذ لابد أن يخطر بباله أن هذه العناية البالغة من الأحياء بمثل هذا الميت لا تكون إلا لفائدةٍ يرجونها منه إما دنيوية أو أخروية فيستصغر نفسه بالنسبة إلى من يراه من أشباه العلماء زائرًا لذلك القبر وعاكفًا عليه ومتمسحًا بأركانه وقد يجعل الشيطان طائفة من إخوانه من بني آدم يقفون على ذلك القبر يخادعون من يأتي إليه من الزائرين، يهولون عليهم الأمر ويصنعون أمورًا من أنفسهم وينسبونها إلى الميت على وجه لا يفطن له من كان من المغفلين، وقد يصنعون أكاذيب مشتملة على أشياء يسمونها كرامات لذلك الميت ويبثونها في الناس ويكررون ذكرها في مجالسهم وعند اجتماعهم بالناس فتشيع وتستفيض، ويتلقاها من يحسن الظن بالأموات ويقبل عقله ما يروى عنهم من الأكاذيب فيرويها كما سمعها ويتحدث بها في مجالسه فيقع الجهال في بلية عظيمة من الاعتقاد الشركي وينذرون لذلك الميت بكرائم أموالهم، ويحبسون على قبره من أملاكهم ما هو أجها إلى قلوبهم لاعتقادهم أنهم ينالون بجاه ذلك الميت خيرًا عظيمًا وأجرًا كبيرًا ويعتقدون أن ذلك قربةً عظيمة وطاعة نافعة وحسنة متقبلة فيحصل بذلك

مقصود أولئك الذين جعلهم الشيطان من إخوانه من بني آدم على ذلك القبر فإنهم إنما فعلوا تلك الأفاعيل وهولوا على الناس بتلك التهاويل وكذبوا تلك الأكاذيب لينالوا جانبًا من الحطام من أموال الطغام الأغتام وبهذه الذريعة الملعونة والوسيلة الإبليسية تكاثرت الأوقاف على القبور وبلغت مبلغًا عظيمًا حتى بلغت غلاة ما يوقف على المشهورين منهم ما لو اجتمعت أوقافه لبلغ ما يقتاته أهل قرية كبيرة من قرى المسلمين ولو بيعت تلك الحبائس الباطلة لأغنى الله بها طائفةً عظيمة من الفقراء وكلها من النذر في معصية الله، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال (لا نذر في معصية) وهي أيضًا من النذر الذي لا يبتغى به وجه الله وقد قال ﷺ (النذر ما ابتغي به وجه الله) بل كلها من النذور التي يستحق بها فاعلها غضب الله تعالى وسخطه لأنها تفضي بصاحبها إلى ما يفضي به اعتقاد الإلهية في الأموات من تزلزل قدم الدين إذ لا يسمح بأحب أمواله وألصقها بقلبه إلا وقد زرع الشيطان في قلبه من محبة وتعظيم وتقديس ذلك القبر وصاحبه والمغالاة في الاعتقاد فيه ما لا يعود به إلى الإسلام سالمًا نعوذ بالله من الخذلان).اهـ.

وقال الشوكاني أيضًا (ومن المفاسد البالغة إلى حدٍ يرمى بصاحبه إلى وراء حائط الإسلام ويلقيه على أم رأسه من أعلى مكانٍ من الدين أن كثيرًا منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام وأجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر، متقربًا به إليه راجيًا ما يضمر حصوله له منه، فينحره عند ذلك القبر، فيهل به لغير الله ويتعبد به لوثنٍ من الأوثان إذ إنه لا فرق بين النحائر لأحجارٍ منصوبة يسمونها وثنًا وبين قبرٍ لميت يسمونه قبرًا ومجرد الاختلاف في التسمية لا يغني من الحق شيئًا ولا يؤثر تحليلًا ولا تحريمًا فإن من أطلق على الخمر غير اسمها

وشربها كان حكمه حكم من شربها وهو سميها باسمها، بلا خلاف بين المسلمين أجمعين، ولاشك أن النحر نوع من أنواع العبادة التي تعبد الله العباد بها كالهدايا والفدية والضحايا، فالمتقرب بها إلى القبر والناحر لها عنده لم يكن له غرض بذلك إلا تعظيمه وكرامته واستجلاب الخير منه واستدفاع الشر به وهذه عبادة لاشك فيها وكفاك من شر سماعه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).اهـ.

وقال الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله تعالى (فإن أصل الشرك قديمًا وحديثًا لقرب الشرك بالصالحين من النفوس فإن الشيطان يظهره في قالب المحبة والتعظيم) وقال أيضًا (فتبين أن مبدأ الشرك بالصالحين هو الغلو فيهم كما أن سبب الشرك بالنجوم هو الغلو فيها واعتقاد النحوس فيها والسعود ونحو ذلك، وهذا هو الغالب على الفلاسفة ونحوهم كما أن ذاك - أي الغلو في الصالحين - هو الغالب على عباد القبور ونحوهم وهو أصل عبادة الأصنام، فإنهم عظموا الأموات تعظيمًا مبتدعًا فصوروا صورهم وتبركوا بها فآل الأمر إلى أن عبدت الصور، وهذا أول شرك حدث في الأرض وهو الذي أوحاه الشيطان إلى عباد القبور في هذه الأزمان، فإنه ألقى إليهم أن البناء على القبور والعكوف عندها من محبة الصالحين وتعظيمهم وأن الدعاء عندها أرجى في الإجابة من الدعاء في المسجد الحرام وسائر المساجد فاعتادوها لذلك، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى الدعاء به والإقسام على الله به).اهـ.

وقال الشيخ علي محفوظ رحمه الله تعالى (اعلم أن بدع المقابر والأضرحة كثيرة وقد طال فيها كلام العلماء وأفردت بالتآليف ونحن نذكر لك من هذه البدع الأهم فالأهم سالكين سبيل الاعتدال متجنبين إن شاء الله تعالى طرفي

الإفراط والتفريط فنقول:- من هذه البدع اتخاذ الناس المقابر والأضرحة موسمًا من مواسمهم وعيدًا من أعيادهم يشدون إليها الرحال كما تشد لزيارة بيت الله الحرام ويبيتون عندها الليالي ذوات العدد وهناك تصنع ألوان الأطعمة وتذبح الذبائح وتنصب ملاعب الصبية وتقام أسواق الباعة، وأعياد المقابر أسبوعية، ولهم فوق ذلك عادات في المواسم الشرعية من عيد الفطر والأضحى وأول رجب ولغالب الأضرحة مواسم وأعياد أسبوعية خلاف الموالد يسمونها بالحضرة كليلة الثلاثاء ويومه للإمام الحسين رضي الله عنه وليلة السبت ويومه للإمام الشافعي رحمه الله وهكذا لكل وليٍّ عندهم وقت معلوم تجتمع فيه العامة والخاصة من الرجال والنساء ومعهم الأطفال لزيارته على الوجه المعروف، وهذه البدعة ورد النهي عنها صريحًا مع ما ينشأ عنها من الشرور والمفاسد فمن ذلك ما روى أبو داود وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال (لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ولا تجعلوا قبري عيدًا وصلوا علي أينما كنتم فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) وعن سهل بن أبي سهيل قال:- رآني الحسين بن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند القبر فناداني وهو ببيت فاطمة يتعشى فقال:- هلم إلى العشاء فقلت:- لا أريد فقال:- مالي رأيتك عند القبر، فقلت:- سلمت على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:- لذا دخلت المسجد؟ ثم قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم مقابر وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم) فما أنت ومن بالأندلس إلا سواء منه عليه الصلاة والسلام، رواه سعيد بن منصور في سننه وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو سيد القبور وأفضلها فقبر غيره أولى بالنهي كائنًا من كان - ثم قال - وأما المفاسد التي تنشأ عن ذلك فكثيرة، منها:- أن النساء قد اتخذن ذلك ميدانًا لشهواتهن

فيتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ويتزين للخروج إلى المقابر والأضرحة بأجمل زينة ويتهتكن بأقبح صورة، لا دين يمنعهن ولا أدب يردعهن، ومن هذه المفاسد ما يقع عند الموتى مما يكرهونه ويتأذون منه من الجلوس على المقابر والوطء عليها فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ (لأن يجلس أحدكم على جمرة فتخرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر) "رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه" وكذا الاستناد عليها فعن عمرو ابن حزم قال رآني النبي ﷺ متكئًا على قبر فقال (لا تؤذ صاحب القبر)"رواه الإمام أحمد" وكذا البول والتغوط عندها وكثرة اللغط الذي يكون من الازدحام والبيع والشراء وأصوات الأراجيح وغيرها من كل ما يخالف الدين ويحول بين القلوب والخشية وبين الموتى والرحمة مع أن قصد الزيارة إنما هو نوال الإحسان إلى نفس الزائر وإلى الميت - ثم قال - ومن هذه المفاسد:- المبيت فيها وإيقاد السرج والشمع ونحوه على القبور ففي الحديث عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (أنه عليه الصلاة والسلام لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)"رواه أبو داود والترمذي وحسنه" وقد نهى ﷺ عن أن يتبع الميت بنارٍ فكيف يفعل ذلك عند قبره قال العلامة البركوي:- فكل ما لعن رسول الله ﷺ فهو من الكبائر وقد صرح الفقهاء بتحريمه إذ لو كان اتخاذ السرج عليها مباحًا لم يلعن من فعله واللعن لما فيه من تضييع المال من غير فائدة والإفراط في تعظيم القبور تشبهًا بتعظيم الأصنام ولهذا قال العلماء:- لا يجوز النذر للقبور لا شمع ولا زيت ولا غير ذلك فإنه نذر معصية لا يجوز الوفاء به بالاتفاق ولا أن يوقف عليها شيء لأجل ذلك فإن هذا الوقف لا يصح ولا يحل إثباته وتنفيذه - ثم قال - ومن المفاسد:- تقبيل واستلام قبور الأولياء والأنبياء

والعلماء، صرح به النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن المفاسد:- اتخاذ الملاهي والملاعب عند المقابر وكذا كثرة المزاح والضحك وإنشاد القصائد، يقع في موطن الخشوع والاعتبار وما هو جدير بالحزن والخشية، ومن البدع السيئة:- الطواف حول الأضرحة فإن الطواف لم يعهد عبادة إلا بالبيت الحرام، وكذا لم يشرع التقبيل والاستلام إلا للحجر الأسود - إلى أن قال - ومن البدع الستور على الأضرحة ويتنافس فيها، والشيلان التي توضع كالعمامة على تابوت الأولياء والعلماء، ومن البدع عند القبور ما يصنعه العامة من تقديم عرائض الشكوى وإلقائها داخل الضريح زاعمين أن صاحب الضريح يفصل فيها ومن البدع:- اتخاذ المقابر مساجد بالصلاة إليها، والسر في ذلك أن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وعلى الجملة:- تحرم الصلاة إلى قبور الأنبياء والأولياء تبركًا وإعظامًا وكذلك الصلاة عليها لتبرك والإعظام كما صرح به الإمام النووي في شرح المهذب وليس معنى الإعظام أن تقصد أرباب القبور بالسجود فإنه كفر صراح، بل المعنى أنه بتحريه الصلاة لله تعالى على هذا الوجه زاعمًا أنه أرجى للقبول عند الله تعالى ببركة صاحب الضريح يكون قد أعظم من شأن هذا الولي وهذا يقع كثيرًا من العامة - ثم قال رحمه الله تعالى - ومن هذه البدع بناء المساجد على القبور ففي الحديث عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا (أن رسول الله ﷺ لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)"رواه أبو داود والترمذي وحسنه" وفي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرت ما رأته فيها، وقال رسول الله ﷺ (أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور

أولئك شرار الخلق عند الله) والسر فيه ما تقدم من اتخاذها مساجد ومن البدع الفاشية وقوف بعض الزائرين قليلًا بغاية الخشوع عند الباب كأنهم يستأذنون ثم يدخلون، وبعضهم يقف أمام القبر واضعًا يديه كالمصلي ثم يجلس، فهذا كله من البدع التي لم يشهد لها أصل ولا حال ولا أدب يقتضيه وإذا لم يشرع ذلك بالنسبة لزيارة أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام فكيف بغيره، ومنشأ هذه البدعة عمل الشيعة فإنهم عند زيارتهم للأئمة رضي الله عنهم ينادي أحدهم:- أأدخل يا أمير المؤمنين؟ أو يا بنت رسول الله ﷺ أو نحو ذلك ويزعمون أن علامة الإذن حصول رقة القلب ودمع العين وهذا مما لم يعرف عن أحدٍ من السلف ولا ذكره أحد من الفقهاء ولا يعد فاعله إلا مضحكة للعقلاء وكون المزور حيًا في قبره لا يستدعي الاستئذان في الدخول لزيارته).اهـ. كلام الشيخ علي محفوظ، فرحمه الله تعالى وجزاه الله تعالى خير ما جزى عالمًا عن أمته.

وقال الشيخ الإمام محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى (وأما الطواف بالقبر وطلب البركة منه فهو لا يشك عاقل في تحريمه وأنه من الشرك فإن الطواف من أنواع العبادات فصرفه لغير الله شرك وكذلك البركة لا تطلب إلا من الله تعالى وطلبها من غير الله تعالى شرك).اهـ. وقال الشيخ محمد رحمه الله تعالى (والخلاصة:- أنه لا يجوز بناء المساجد على القبور لأنها وسيلة إلى الشرك وهو عبادة صاحب القبر ولا يجوز أيضًا أن تقصد القبور للصلاة عندها وهذا من اتخاذها مساجد لأن العلة من اتخاذها مساجد موجودة في الصلاة عندها فلو فرض أن رجلًا يذهب إلى المقبرة ويصلي عند قبر ولي من الأولياء على زعمه، قلنا:- إنك اتخذت هذا القبر مسجدًا وإنك مستحق لما استحقه اليهود والنصارى من اللعنة).اهـ. وقال أيضًا (وخلاصة الباب أنه يجب البعد عن

الشرك ووسائله ويغلظ على من عبد الله عند قبر رجل صالح وكلام المؤلف - أي الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب التوحيد- في قوله (فيمن عبد الله) يشمل الصلاة عندها وغيرها من الأحاديث التي ساقها في الصلاة لكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كأنه قاس غيرها عليها، فمن زعم أن الصدقة عند هذا القبر أفضل من غيره فهو شبيه بمن اتخذه مسجدًا لأنه يرى أن لهذه البقعة أو لمن فيها شأنًا يفضل به على غيره).اهـ. وقال أيضًا (وفي هذا التحذير من الغلو في القبور ولهذا نهي عن تجصيصها والبناء عليها والكتابة عليها خوفًا من هذا المحظور العظيم الذي يجعلها تعبد من دون الله تعالى وكان الرسول ﷺ يأمر إذا بعث بعثًا بأن لا يدعوا قبرًا مشرفًا إلا سووه، لعلمه أنه مع طول الزمان سيقال:- لو لا أن له مزية ما اختلف عن القبور فالذي ينبغي أن تكون القبور متساوية لا مزية لواحدٍ منها عن البقية).اهـ.

وقال ابن عبدالبر رحمه الله تعالى (يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والصالحين مساجد).اهـ.

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (هذا الحديث - أي حديث بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور - يدل على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين وتصويرهم صورهم فيها كما يفعله النصارى ولا ريب أن كل واحدٍ منهما محرم على انفراده، فتصوير صور الآدميين محرم وبناء القبور على المساجد بانفراده محرم كما دلت عليه نصوص أخرى، فإن اجتمع المسجد على القبر ونحوها من آثار الصالحين مع تصوير صورهم فلاشك في تحريمه سواءً كانت صورًا مجسدة كالأصنام أو على حائطٍ ونحوه كما يفعله النصارى في كنائسهم).اهـ.

وقال سماحة الشيخ عبدالعزيز رحمه الله تعالى حول ما يستفاد من

الأحاديث الواردة في شأن البناء على القبور والصلاة عندها قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ (فهذه الأحاديث الصحيحة وما جاء في معناها كلها تدل على تحريم الصلاة بالمساجد التي بها قبور كما تدل على تحريم اتخاذ المساجد على القبور ولعن من فعل ذلك وقد ثبت عنه ﷺ من حديث جابر أنه نهى عن تجصيص القبور والبناء عليه والقعود عليها فالواجب على ولاة أمر المسلمين في جميع الدول الإسلامية أن يمنعوا البناء على القبور واتخاذ المساجد عليها كما يجب عليهم أن يمنعوا تجصيصها والقعود عليها والكتابة عليها عملًا بهذه الأحاديث الصحيحة وسدًا لذرائع الغلو في أهلها والشرك بهم).اهـ.

وقال سماحته أيضًا (المساجد التي فيها قبور لا يصلى فيها ويجب أن تنبش القبور وينقل رفاتها إلى المقابر العامة كل قبر في حفرة كسائر القبور ولا يجوز أن يبقى فيها - أي في المساجد - قبور، لا قبر ولي ولا غيره لأن الرسول ﷺ نهى وحذر وذم اليهود والنصارى على عملهم ذلك قال ﷺ لما أخبرته أم سلمة وأم حبيبة بكنيسة فيها صور وأنها كذا وكذا فقال (أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة) وقال عليه الصلاة والسلام (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) فنهى عن اتخاذ القبور مساجد ومعلوم أن من صلى عند قبر فقد اتخذه مسجدًا ومن بنى عليه ليصلي فيه فقد اتخذه مسجدًا فالواجب أن تبعد القبور عن المساجد وألا يجعل فيها قبور، امتثالًا لأمر الرسول ﷺ وحذرًا من اللعنة التي صدرت من ربنا عَزَّ وَجَلَّ على من بنى المساجد على القبور لأنه إذا صلى في مسجد فيه قبور فقد يزين له الشيطان دعوة الميت أو الاستغاثة به أو

الصلاة له أو السجود له فيقع في الشرك الأكبر ولأن هذا من عمل اليهود والنصارى فوجب أن نخالفهم ونبتعد عن طريقهم وعن عملهم السيء والله ولي التوفيق).اهـ.

وقال سماحته رحمه الله تعالى (لا يجوز البناء على القبور لا بصبة ولا بغيرها ولا تجوز الكتابة عليها لما ثبت عن النبي ﷺ من النهي عن البناء عليها والكتابة عليها فقد روى مسلم رحمه الله من حديث جابر رضي الله عنه قال (نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه) وخرجه الترمذي وغيره بإسنادٍ صحيح وزاد (وأن يكتب عليه) ولأن ذلك نوع من أنواع الغلو فوجب منعه ولأن الكتابة ربما أفضت إلى عواقب وخيمة من الغلو وغيره من المحظورات الشرعية وإنما يعاد تراب القبر ويرفع قدر شبرٍ تقريبًا حتى يعرف أنه قبر هذه هي السنة في القبور التي درج عليها رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ولا يجوز اتخاذ المساجد عليها ولا كسوتها ولا وضع القباب عليها لقول النبي ﷺ (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)"متفق على صحته" ولما روى مسلم في صحيحه عن جندب قال:- سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ يقول (إن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا ولو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكرٍ خليلًا ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ونسأل الله أن يوفق المسلمين للتمسك بسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام والثبات عليها والحذر مما يخالفها إنه سميع قريب).اهـ.

وسئل سماحته رحمه الله تعالى سؤال هذا نصه:- عندنا من المشايخ

الصوفية من يهتمون بعمل القباب على الأضرحة والناس يعتقدون فيهم الصلاح والبركة فإن كان هذا الأمر غير مشروع فما هي نصيحتكم لهم وهم قدوة في نظر السواد الأعظم من الناس؟ أفيدونا بارك الله فيكم، فأجاب رحمه الله تعالى بجوابٍ طويل أنقله بنصه منه فقال (النصيحة للعلماء الصوفية ولغيرهم من أهل العلم أن يأخذوا بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وأن يعلموا الناس ذلك وأن يحذروهم اتباع من قبلهم فيما يخالف ذلك، فليس الدين بتقليد المشايخ ولا غيرهم وإنما الدين ما يؤخذ من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وما أجمع عليه أهل العلم وعن الصحابة رضي الله عنهم، هكذا يؤخذ الدين لا عن تقليد زيد أو عمرو، ولا عن مشايخ الصوفية ولا غيرهم، وقد دلت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ على أنه لا يجوز البناء على القبور ولا اتخاذ المساجد عليها ولا اتخاذ القباب ولا أي بناءٍ كل ذلك محرم بنص الرسول ﷺ ومن ذلك ما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) قالت رضي الله عنها :- يحذر ما صنعوا وفي الصحيحين عن أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما أنهما ذكرتا للنبي ﷺ كنيسة رأتاها في أرض الحبشة وما فيها من الصور فقال ﷺ (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله) فأخبر عليه الصلاة والسلام أن الذين يتخذون المساجد على القبور هم شرار الخلق وهكذا من يتخذ عليها الصور لأنها دعاية إلى الشرك ووسيلة له، لأن العامة إذا رأوا هذا عظموا المدفونين واستغاثوا بهم ودعوهم من دون الله وطلبوهم المدد والعون وهذا هو الشرك الأكبر وفي حديث جندب بن عبدالله البجلي رضي الله عنه المخرج في صحيح مسلم

رحمه الله تعالى عن النبي ﷺ أنه قال (إن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) ففي الحديث دلالة على تحريم البناء على القبور واتخاذ مساجد عليها وعلى ذم من فعل ذلك من ثلاث جهات: إحداها:- ذمه من فعل ذلك، والثانية:- قوله (فلا تتخذوا القبور مساجد) والثالثة:- قوله (فإني أنهاكم عن ذلك) فحذر من البناء على القبور بهذه الجهات الثلاث فوجب على أمته أن يحذروا ما حذرهم منه، وأن يبتعدوا عما ذم الله به من قبلهم من اليهود والنصارى ومن تشبه بهم من اتخاذ المساجد على القبور والبناء عليها وهذه الأحاديث التي ذكرنا صريحة في ذلك، والحكمة في ذلك كما قال أهل العلم:- الذريعة الموصلة إلى الشرك الأكبر فعبادة أهل القبور بدعائهم والاستغاثة بهم والنذور والذبائح لهم وطلب المدد والعون منهم كما هو واقع الآن في بلدانٍ كثيرة في السودان ومصر والشام وفي العراق وفي بلدانٍ أخرى، كل ذلك من الشرك الأكبر يأتي الرجل العامي الجاهل فيقف على صاحب القبر المعروف عندهم فيطلبه المدد والعون كما يقع عند قبر البدوي والحسين وزينب والست نفيسة، وكما يقع في السودان عند قبور كثيرة وكما يقع في بلدان أخرى وكما يقع في بعض الحجاج الجهال عند قبر النبي ﷺ في المدينة وعند قبور أهل البقيع وقبور أخرى يقع هذا من الجهال، فهم يحتاجون إلى التعليم والبيان والعناية من أهل العلم حتى يعرفوا دينهم على بصيرة فالواجب على أهل العلم جميعًا الذين مَنَّ الله عليهم بمعرفة دينهم على بصيرة سواءً كانوا من الصوفية أو غيرهم أن يتقوا الله وأن ينصحوا عباد الله وأن يعلموهم دينهم وأن يحذروهم من البناء

على القبور واتخاذ المساجد عليها والقباب أو غير ذلك من أنواع البناء وأن يحذروهم من الاستغاثة بالموتى ودعائهم فالدعاء عبادة يجب صرفها لله وحده كما قال الله سبحانه {فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} وقال سبحانه {وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ} وقال ﷺ (الدعاء هو العبادة) وقال عليه الصلاة والسلام (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) فالميت قد انقطع عمله، وعمله وعلمه بالناس وهو في حاجةٍ أن يُدعى له ويستغفر له ويترحم عليه، لا أن يُدعى من دون الله تعالى، يقول النبي ﷺ (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث:- صدقة جارية أو علمٍ ينتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له) فكيف يدعى من دون الله تعالى؟ وهكذا الأصنام وهكذا الأشجار والأحجار والشمس والقمر والكواكب كلها لا تدعى من دون الله تعالى ولا يستغاث بها، وهكذا أصحاب القبور وإن كانوا أنبياء أو صالحين وهكذا الملائكة والجن لا يدعون مع الله تعالى فالله سبحانه يقول {وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلَائِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} فالله تعالى لا يأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا من دونه لأن ذلك كفر بنص الآية وفي حديث جابر عند مسلم في صحيحه يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبور وعن القعود عليها وعن البناء عليها) وما ذاك إلا لأن تجصيصها والبناء عليها وسيلة إلى الشرك بأهلها والغلو فيهم أما القعود عليها فهو امتهان لها، فلا يجوز ذلك، كما لا يجوز البول عليها والتغوط عليها ونحو ذلك من أنواع الإهانة لأن المسلم محترم حيًا وميتًا فلا يجوز أن يداس قبره ولا أن تكسر عظامه ولا أن يقعد على قبره ولا أن يبال عليه ولا أن توضع عليه القمائم، كل هذا ممنوع، فالميت لا يمتهن ولا يعظم بالغلو فيه ودعائه مع الله،

والطواف بقبره ونحو ذلك من أنواع الغلو، وبذلك يُعلم أن الشريعة الإسلامية الكاملة جاءت بالوسطية بشأن الأموات، فلا يغلى فيهم ويعبدون مع الله تعالى ولا يمتهنون بالقعود على قبورهم ونحو ذلك، وهي وسط في كل الأمور والحمد لله، لأنها تشريع من حكيم عليم يضع الأمور في مواضعها كما قال ﷻ {إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} ومن هذا ما جاء في الحديث الصحيح يقول ﷺ (لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها) فجمعت الشريعة الكاملة العظيمة بين الأمرين بين تحريم الغلو بدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم والصلاة إلى قبورهم وبين النهي عن إيذائهم وامتهانهم والجلوس على قبورهم أو الوطء عليها والاتكاء عليها، كل هذا ممنوع فلا هذا ولا هذه، وبهذا يعلم المؤمن ويعلم طالب الحق أن الشريعة جاءت بالوسط، لا بالشرك ولا بالإيذاء، فالميت المسلم يُدعى له ويستغفر له ويسلم عليه عند زيارته، أما أن يدعى من دون الله أو يطاف بقبره أو يصلى إليه فلا، أما الحي الحاضر فلا بأس بالتعاون معه فيما أباح الله، لأن له قدرة على ذلك، فيجوز شرعًا التعاون معه بالأسباب الحسية، وهكذا الإنسان مع إخوانه ومع أقاربه يتعاونون في مزارعهم وفي إصلاح بيوتهم وفي إصلاح سياراتهم ونحو ذلك يتعاونون بالأسباب الحسية المباحة المقدور عليها فلا بأس بذلك، وهكذا مع الغائب الحي عن طريق الهاتف أو عن طريق المكاتبة ونحو ذلك كل هذا تعاون حسي لا بأس به في الأمور المقدورة المباحة، كما أن الإنسان القادر الحي يتصرف بالأسباب الحسية فيعينك بيده ويبني معك أو يعطيك مالًا، هديةً أو قرضًا فالتعاون مع الأحياء شيء جائز بشروطه المعروفة، أما الاستغاثة بالأموات أو بالغائبين بغير الأسباب الحسية فشرك أكبر بإجماع أهل العلم ليس فيه نزاع بين الصحابة ومن بعدهم من أهل

العلم والإيمان وأهل البصيرة، والبناء على القبور واتخاذ المساجد والقباب عليها فإنه منكر، معلوم عند أهل العلم أن الشريعة جاءت بالنهي عنه لكونه وسيلة إلى الشرك فالواجب على أهل العلم أن يتقوا الله تعالى أينما كانوا وأن ينصحوا عباد الله وأن يعلموهم شريعة الله وأن لا يجاملوا زيدًا ولا عمرًا، فالحق أحق أن يتبع، بل عليهم أن يعلموا الأمير والصغير والكبير ويحذروا الجميع مما حرم الله تعالى عليهم ويرشدوهم إلى ما شرع الله لهم، وهذا هو الواجب على أهل العلم أينما كانوا، من طريق الكلام الشفهي ومن طريق الكتابة ومن طريق التأليف أو من طريق الخطابة في الجمعة وغيرها أو من طريق الهاتف أو من أي طريق من الطرق التي وجدت الآن والتي تعين على تبليغ دعوة الله تعالى ونصح عباده، والله ولي التوفيق).اهـ. كلامه العذب الجميل الذي يكتب بماء الذهب فرحمه الله تعالى رحمة واسعة ورفع نزله في الفردوس وجزاه الله خير ما جزى عالمًا عن أمته هو وسائر علماء المسلمين، آمين.

وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى (وقول ابن القيم:- لما ماتوا عكفوا على قبورهم ففيه التحذير من الغلو في قبور الصالحين وذلك بالعكوف عندها أو البناء عليها أو غير ذلك من أي مظاهر الغلو، والنبي ﷺ حذر من البناء على القبور وحذر ﷺ من الصلاة عند القبور والدعاء عند القبور لأن ذلك وسيلة إلى الشرك وحذر من إسراج القبور فقال (لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) لأن هذا يغر العوام ويقولون:- ما عمل به بهذا العمل إلا لأنه يضر أو ينفع ولذلك أوصى النبي ﷺ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال (لا تدع قبرًا مشرفًا إلا سويته) المشرف:- هو المرتفع بالبناء (إلا سويته) يعني:- هدمت البناء الذي عليه وكذلك نهى ﷺ عن تجصيص القبور

وطلائها بالجص أو بالنورة أو بالبويات أو الألوان المزخرفة لأن هذا يغر العوام ويظنون أنه ما عمل به هذا العمل إلا لأنه له خاصية ونهى ﷺ عن الكتابة على القبور فلا يكتب على القبور اسم الميت ولا تاريخ وفاته ولا مكانته فلا يقال:- هذا قبر العالم الفلاني الذي عمل كذا وكذا كل هذا لا يجوز، لأن هذا يغرر بالناس في ما بعد ويقولون:- ما كتبت هذه الكتابة إلا لأن هذا الميت له خاصية كل هذه الأمور نهى عنها الشارع لأنها وسائل إلى الشرك والمشروع في القبور أن تدفن كما كان على عهد رسول الله ﷺ تدفن بترابها وترفع عن الأرض قدر شبر بالتراب من أجل أن تعرف أنها قبور فلا تداس، ويجعل عليها نصائب من طرفيها لتحديد القبر لأجل أن لا يوطأ، وما زاد عن ذلك فهو ممنوع، هكذا كانت القبور في عهد النبي ﷺ وهذه سنة النبي ﷺ في دفن الأموات).اهـ.

وقال أيضًا حفظه الله تعالى (وأول من بنى على القبور في الإسلام كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية هم الشيعة الفاطميون وغيرهم ثم قلدهم من قلدهم من المنتسبين إلى السنة من الصوفية وغيرهم فبنيت المساجد على القبور والأمصار ولا تزال الأمة الإسلامية تعاني من شر هذه القبور وفتنتها وحدوث الشرك في الأمة الذي لا يقره من يؤمن بالله ورسوله لأنه شرك صراح، أصبحت المساجد المبنية على القبور أوثانًا تعبد من دون الله ويظن أصحابها أن ذلك من الإسلام وأن من أنكره فهو خارج عن الإسلام كالذين يقولون {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} فهم شرار الخلق وإن كانوا يزعمون في أنفسهم أن ذلك إصلاح وأنهم خير الخلق).اهـ. وقال حفظه الله تعالى عند قول الشيخ محمد في كتاب التوحيد:- فإن الصحابة لم يكونوا يبنوا حول قبره مسجدًا، قال الشيخ ما نصه (لأنهم معصومون عن ذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يمكن أبدًا في حقهم، بل لم

تبن المساجد - أي على القبور - في القرون الأربعة كلها لأن القرون الأربعة قد أثنى عليها رسول الله ﷺ بقوله (خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) فإذا كان القرون الأربعة لم يبن فيها على القبور مساجد فكيف يبنى في عهد الصحابة الذين خير القرن الأول رضي الله عنهم؟ فدل ذلك على أن المراد باتخاذ مساجد أي تحري الصلاة عندها ظنًا أن الصلاة عندها فيها مزية وأنها يستجاب الدعاء عندها لأن ذلك وسيلة من وسائل الشرك والنبي ﷺ نهى عن الصلاة عند القبور واتخاذها مساجد سدًا لذريعة الشرك لأنه إذا صلى عندها ودعي عندها فإن ذلك يتطور وتدعى من دون الله تعالى، وتعبد من دون الله تعالى، يُذبح لها وينذر ويستغاث بالموتى ويتمرغ على تربتها ويعكف عندها ويطاف حولها كما يطاف بالكعبة كل ذلك لأن الباب فتح لما بني عليها).اهـ.

وقال حفظه الله تعالى (المسألة الخامسة:- في الحديث دليل على تحريم الصلاة عند القبور وبناء المساجد عليها لأن قوله ﷺ (فلا تتخذوا القبور مساجد) يشمل المعنيين الصلاة المجردة عن البناء أو البناء على القبر، كله من اتخاذها مساجد وذلك سدًا لذريعة الشرك لا كما يقوله من قلَّ فهمه أو أراد التضليل ممن زعم أن العلة هي نجاسة المكان فهذه علة غير صحيحة لأن المكان ليس فيه نجاسة، المسألة السادسة:- في الحديث دليل على بطلان الصلاة عند القبور أو في المساجد المبنية على القبور لأن الرسول ﷺ نهى عن ذلك والنهي يقتضي الفساد عند الأصوليين فالذي يصلي عند القبر، فصلاته غير صحيحة فعليه أن يعيد الفريضة لأن صلاته عند القبر أو في المسجد المبني على القبر غير صحيحة لأنها صلاة منهي عنها والصلاة المنهي عنها غير مشروعة فهي لا تصح المسألة السابعة:- في الحديث دليل على أن الذين يتخذون القبور

مساجد شرار الخلق فالذين يفعلون هذا الفعل سواء كانوا من اليهود أو من النصارى أو من المنتسبين إلى الإسلام هم شر الخلق، لا أحد شر منهم والعياذ بالله).اهـ. فهذه بعض النقول عن أهل العلم ولعلنا نقتصر على ذلك خشية الإطالة، وفي كلامهم الخير والبركة لمن تدبره، وأما من عاند وطغى فلا شأن لنا به والله يحفظنا وإياك وهو أعلى وأعلم.

فصل في فتاوى بعض أهل العلم رحمهم الله تعالى فيما يخص هذه المسألة

وهذا الفصل والذي قبله يتعاضدان في التحذير من هذه الفتنة العظيمة والطامة الوخيمة، عسى أن تنزجر قلوب تعتقد في الأموات وتفعل عندها الأمور المبتدعات فأقول وبالله التوفيق:-

سئلت اللجنة الدائمة عن حكم قراءة الفاتحة أو شيء من القرآن عند زيارة القبر وهل هذه القراءة تنفع الميت فأجابت اللجنة بقولها (ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يزور القبور ويدعو للأموات بأدعية علمها أصحابه وتعلموها منه، من ذلك:- السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية ولم يثبت عنه ﷺ أنه قرأ سورة من القرآن أو آيةٍ منه للأموات مع كثرة زيارته لقبورهم ولو كان ذلك مشروعًا لفعله وبينه لأصحابه رغبةً في الثواب ورحمة بالأمة وأداءً لواجب البلاغ فإنه كما وصفه تعالى بقوله ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فلما لم يفعل ذلك مع وجود أسبابه دل على أنه غير مشروع، وقد عرف ذلك أصحابه رضي الله عنهم فاقتفوا أثره، واكتفوا بالعبرة والدعاء للأموات عند زيارتهم ولم يثبت عنهم أنهم قرؤوا قرآنًا للأموات فكانت القراءة لهم بدعة محدثة وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه

فهو رد)"متفق عليه" وبالله التوفيق).اهـ.

وطرح عليهم سؤال مشابه لذلك فقال السائل:- نشاهد في كثير من بلاد المسلمين استئجار قارئ يقرأ القرآن فهل يجوز للقارئ أن يأخذ أجرًا على قراءته وهل يأثم من يوقع له الأجر على ذلك؟ فأجابت اللجنة الدائمة بقولها (قراءة القرآن عبادة محضة وقربة يتقرب بها العبد إلى ربه والأصل فيها وفي أمثالها من العبادات المحضة أن يفعلها المسلم ابتغاء مرضاة الله، وطلبًا للمثوبة عنده، لا يبتغي بها من المخلوق جزاءً ولا شكورًا، ولهذا لم يعرف عن السلف الصالح استئجار قومٍ يقرءون القرآن للأموات أو في ولائم أو حفلات ولم يؤثر عن أحدٍ من أئمة الدين أنه أمر بذلك أو رخص فيه ولم يعرف أيضًا عن أحدٍ منهم أنه أخذ الأجرة على تلاوة القرآن، بل كانوا يتلونه رغبة فيما عند الله سبحانه، وقد أمر النبي ﷺ من قرأ القرآن أن يسأل ربه به، وحذر من سؤال الناس روى الترمذي في سننه عن عمران بن حصين أنه مر على قارئٍ يقرأ ثم يسأل، فسترجع ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (من قرأ القرآن فليسأل الله به، فإنه سيجيء أقوام يقرؤون القرآن يسألون به الناس).اهـ.

وسئلت اللجنة أيضًا عن حكم الدعاء الجماعي للميت بعد الصلاة أو قبلها؟ فأجابت بقولها (الدعاء عبادة من العبادات والعبادات مبنية على التوقيف فلا يجوز لأحدٍ أن يتعبد بما لم يشرعه الله، ولم يثبت عن النبي ﷺ أنه دعا بصحابته على جنازة ما، بعد الفراغ من الصلاة عليها والثابت عنه ﷺ أنه كان يقف على القبر بعد أن يسوى على صاحبه ويقول (استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل) وبما تقدم يتبين أن الصواب هو القول بعدم جواز الدعاء بصفةٍ جماعية بعد الفراغ من الصلاة على الميت وأن ذلك بدعة).اهـ.

وسئلت اللجنة الدائمة أيضًا عن حكم تشييع الجنائز إلى المقبرة بالصوت العالي بالتكبير والتهليل ونحوه؟ فأجابوا بقولهم (لا يجوز، بل هو بدعة لعدم ورود ما يدل عليه من الكتاب والسنة ولقوله ﷺ (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) "أخرجه مسلم في صحيحه").اهـ.

وسئلت اللجنة أيضًا سؤالًا هذا نصه:- يقوم النساء في المواسم والأعياد بزيارة القبور ومعلوم أن زيارة النساء للمقابر ممنوعة لقلة صبرهن وجزعهن وتبرجهن فيقومون بتأجير شيخ معلوم يذهب كل موسمٍ أو عيد للاسترزاق من ذلك فيقرأ على كل قبر من قصار السور ويأخذ على ذلك الفواكه والأرغفة والأموال فهل ذلك يصل إلى الميت وما حكم هذه الأشياء التي يأخذها هذا المقرئ؟ فأجابت اللجنة الدائمة بقولها (الأعياد الإسلامية هي عيد الفطر وعيد الأضحى وأيام التشريق ويوم الجمعة، هذه أعياد المسلمين، وما عداها فلا يسمى عيدًا شرعًا وتخصيص زيارة القبور بالأعياد بدعة سواءً كان ذلك من الرجال أم من النساء وزيارة النساء للقبور محرمة مطلقًا في الأعياد وغيرها وتوزيع الأطعمة والفواكه عند القبور بدعة ولا يجوز للقراء أن يقرؤوا القرآن على القبور ولا أن يأخذوا أجرة على قراءتهم ولا تنفع الميت لأن ذلك كله بدعة منكرة لا تجوز).اهـ.

وسئلوا أيضًا عن حكم القيام والجلوس عند القبر من أجل الدعاء للميت فأجابوا بقولهم (الزيارة الشرعية للقبور أن يقصد إليها للعظة والاعتبار وتذكر الموت لا للتبرك بمن قبر فيها من الصالحين فإذا جاءها سلم على من فيها فقال (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية) وإن شاء دعا للأموات بغير ذلك من الأدعية

المأثورة، ولا يدعو الأموات ولا يستغيث بهم في كشف ضر أو جلب نفع فإن الدعاء عبادة فيجب التوجه به إلى الله وحده ولا بأس أن يقف عند القبر أو يجلس من أجل الدعاء للميت لا للتبرك).اهـ.

وسئلوا عن حكم الأذان والإقامة عند القبر بعد دفن الميت، فأجابوا بقولهم (لا يجوز الأذان ولا الإقامة عند القبر بعد دفن الميت ولا في القبر قبل دفنه لأن ذلك بدعة محدثة وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)"متفق عليه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ").اهـ.

ولما سئلوا عن حكم بناء خيمة حول القبر قريبًا منه ويقرأ فيها بعض القراء آيات من القرآن ويجعل ثوابها للميت فأجابوا (بأن ذلك لا يجوز وأن ذلك لا ينفعه لأن ذلك بدعة وكل إحداث في الدين فإنه رد).اهـ.

وسئلوا عن حكم البناء على القبور و تزيينها بالرخام و غير ذلك من كتابة آية أو آياتٍ على القبر؟ فأجابوا بقولهم (يحرم بناء المساجد على القبور ورفع القباب عليها لما روته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ أنه قال (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)"متفق عليه" وما في صحيح مسلم عن جندب ابن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) ولما في ذلك من الغلو فيها ولمن بها، ولا يجوز رفعها إلا بقدر ما يعرف أن هنا قبرًا حتى يحافظ عليه من المشي فوقه أو قضاء الحاجة عليه فقد ثبت عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لأبي الهياج الأسدي (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته)"رواه مسلم" وكذلك يحرم تزيينها بالرخام ونحوه لما ثبت في صحيح مسلم عن جابر

بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ (نهى أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه) ولما في ذلك من الغلو في تعظيم من دفن به، وذلك ذريعة إلى الشرك، وتحرم كتابة آية أو آياتٍ من القرآن أو جملة منه على جدران القبور لما في ذلك من امتهان القرآن وانتهاك حرمته واستعماله في غير ما أنزل من أجله من التعبد بتلاوته وتدبره واستنباط الأحكام منه والتحاكم إليه كما تحرم الكتابة على القبور مطلقًا ولو غير القرآن لعموم نهي النبي ﷺ عن الكتابة عليها رواه الترمذي وغيره بإسناد صحيح).اهـ.

وسئل الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى عن حكم التقرب بذبح الذبائح عند أضرحة الأولياء والصالحين؟ فأجاب بقوله (من المعلوم بالأدلة من الكتاب والسنة أن التقرب بالذبح لغير الله من الأولياء أو الجن أو الأصنام أو غير ذلك من المخلوقات شرك بالله ومن أعمال الجاهلية والمشركين قال الله ﷻ {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} والنسك هو الذبح بين سبحانه في هذه الآية أن الذبح لغير الله شرك بالله تعالى كالصلاة لغير الله، وقال تعالى {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} أمر الله سبحانه نبيه ﷺ في هذه السورة الكريمة أن يصلي لربه وينحر له خلافًا لأهل الشرك الذين يسجدون لغير الله ويذبحون لغيره وقال تعالى {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} وقال سبحانه وتعالى {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء} والآيات في هذا المعنى كثيرة والذبح من العبادة فيجب إخلاصه لله وحده وفي صحيح مسلم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله ﷺ (لعن الله من ذبح لغير الله)).اهـ.

وسئل سماحته أيضًا عن حديث (إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا بأصحاب

القبور) وأن بعض الناس يستدل به على جواز دعاء الأموات؟ فأجاب بما نصه (هذا الحديث من الأحاديث المكذوبة على رسول الله ﷺ كما نبه على ذلك غير واحدٍ من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه، حيث قال رحمه الله تعالى في مجموع الفتاوى:- هذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه لم يروه أحد من العلماء بذلك ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة.اهـ. كلام شيخ الإسلام، وهذا المكذوب على رسول الله ﷺ مضاد لما جاء به الكتاب والسنة من وجوب إخلاص العبادة لله وحده وتحريم الإشراك به ولا ريب أن دعاء الأموات والاستغاثة بهم والفزع إليهم في النائبات والكروب من أعظم الشرك بالله ﷻ كما أن دعاءهم في الرخاء شرك بالله سبحانه، وقد كان المشركون الأولون إذا اشتدت بهم الكروب أخلصوا لله العبادة وإذا زالت الشدة أشركوا بالله كما قال الله ﷻ {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} والآيات في هذا المعنى كثيرة، أما المشركون المتأخرون فشركهم دائم في الرخاء والشدة بل يزداد شركهم في الشدة والعياذ بالله وذلك يبين أن كفرهم أعظم وأشد من كفر الأولين من هذه الناحية وقد قال الله ﷻ {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء} وقال سبحانه {فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} وقال ﷻ {فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ٱلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} وقال سبحانه {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} وهذه الآية تعم جميع من يعبد من دون الله تعالى من الأنبياء والصالحين وغيرهم، وقد أوضح سبحانه أن دعاء المشركين لهم

شرك به سبحانه كما يبين أن ذلك كفر به سبحانه في قوله تعالى {وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} والآيات الدالة على وجوب إخلاص العبادة لله وحده وتوجيه الدعاء إليه دون كل ما سواه وعلى تحريم عبادة غيره سبحانه من الأموات والأصنام والأشجار والأحجار ونحو ذلك كثيرة جدًا، يعلمها من تدبر كتاب الله وقصد الاهتداء به والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله).اهـ.

وسئل سماحته عن حكم التبرك بالأموات وقبورهم؟ فأجاب سماحته بقوله (هذا العمل لا يجوز بل هو منكر لأنه لا يجوز لأحدٍ أن يتبرك بالأموات أو قبورهم ولا أن يدعوهم من دون الله تعالى أو يسألهم قضاء حاجة أو شفاء مريض أو نحو ذلك لأن العبادة حق الله وحده ومنه تطلب البركة وهو سبحانه هو الموصوف بالتبارك كما قال ﷻ {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} وقال سبحانه {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} ومعنى ذلك أنه سبحانه بلغ النهاية في العظمة والبركة، أما العبد فهو مبارَك - بفتح الراء - إذا هداه الله تعالى وأصلحه ونفع به العباد كما قال الله ﷻ عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ} والله ولي التوفيق).اهـ.

وسئلت اللجنة الدائمة عن حكم طلب المدد من رجل ميت؟ وعن طلبه من رجل حي؟فأجابت بقولها (أولًا:- طلب المدد من شخص ميت بأن يقول:- مدد يا فلان

فإنه يجب نصحه وتنبيهه بأن هذا أمر محرم بل هو شرك فإن أصر على ذلك فهو مشرك كافر لأنه طلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فقد صرف

حق الله إلى المخلوق، قال تعالى {إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ} ثانيًا:- طلب المدد من الحي الذي ليس بحاضرٍ لا يجوز لأنه دعا غير الله وطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وهو شرك أيضًا قال تعالى {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} ودعاء الحي الغائب نوع من العبادة فمن فعل ذلك نصح، فإن لم يقبل فهو مشرك شركًا يخرج من الملة).اهـ.

وسئلت اللجنة أيضًا عن حكم الاستغاثة بالأولياء عند نزول الحوادث؟ فأجابت اللجنة بقولها (من استغاث بالأولياء بعد موتهم أو في حال غيبتهم عنه فهو مشرك شركًا أكبر لقوله تعالى {وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}).اهـ.

وسئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى عن حكم الدفن في المسجد؟ فقال (الدفن في المساجد نهى عنه النبي ﷺ ونهى عن اتخاذ المساجد على القبور ولعن من اتخذ ذلك وهو في سياق الموت يحذر أمته ويذكر النبي ﷺ أن ذلك من فعل اليهود والنصارى ولأنه وسيلة إلى الشرك بالله ﷻ لأن إقامة المساجد على القبور ودفن الموتى فيها وسيلة إلى الشرك بالله ﷻ في أصحاب هذه القبور، فيعتقد الناس أن أصحاب هذه القبور المدفونين في المساجد ينفعون أو يضرون أو أن لهم خاصية تستوجب أن يتقرب إليهم بالطاعات من دون الله سبحانه وتعالى، فيجب على المسلمين أن يحذروا من هذه الظاهرة الخطيرة وأن تكون المساجد خالية من القبور وتكون مؤسسة على التوحيد

والعقيدة الصحيحة قال الله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ فيجب أن تكون المساجد لله سبحانه وتعالى وخالية من مظاهر الشرك، تؤدى فيها عبادة الله وحده ولا شريك له، هذا هو واجب المسلمين والله الموفق).اهـ.

وسئل أيضًا عن حكم البناء على القبور فأجاب فضيلته رحمه الله تعالى بقوله (البناء على القبور محرم وقد نهى عنه النبي ﷺ لما فيه من تعظيم أهل القبور وكونه وسيلة وذريعة إلى أن تعبد هذه القبور وتتخذ آلهة مع الله تعالى كما هو الشأن في كثير من الأبنية التي بنيت على القبور فأصبح الناس يشركون بأصحاب هذه القبور ويدعونها مع الله تعالى ودعاء أصحاب القبور والاستغاثة بهم لكشف الكربات شرك أكبر وردة عن الإسلام، والله المستعان).اهـ.

وسئل أيضًا عن رجل أوصى بأن يدفن في المسجد؟ فأجاب (هذه الوصية - أعني الوصية أن يدفن في المسجد - غير صحيحة لأن المساجد ليست مقابر ولا يجوز الدفن في المسجد، وتنفيذ هذه الوصية محرم والواجب الآن نبش هذا القبر وإخراجه إلى مقابر المسلمين).اهـ.

وسئل أيضًا عن حكم النذر والتبرك بالقبور والأضرحة؟ فأجاب فضيلته بما نصه (النذر عبادة لا يجوز إلا لله ﷻ وكل من صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى فإنه مشرك كافر، قد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، قال الله تعالى ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وأما التبرك بها فإن كان يعتقد أنها تنفع من دون الله ﷻ فهذا شرك في الربوبية مخرج عن الملة، وإن كان يعتقد أنها سبب وليست تنفع من دون الله تعالى فهو ضال غير مصيب، وما اعتقده فإنه من الشرك الأصغر، فعلى من ابتلي بمثل هذه المسائل أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى وأن يقلع عن ذلك قبل أن

يفاجئه الموت فينتقل من الدنيا على أسوأ حال وليعلم أن الذي يملك الضر والنفع هو الله سبحانه وتعالى وأنه هو ملجأ كل أحدٍ كما قال الله تعالى {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} وبدلًا من أن يتعب نفسه في الالتجاء إلى قبر فلان وفلان ممن يعتقدونهم أولياء ليلتفت إلى ربه ﷻ وليسأله جلب النفع ودفع الضر فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يملك ذلك).اهـ.

وسئل فضيلته عن حكم الطواف حول القبور ودعاء أصحابها فأجاب بما نصه (هذا السؤال سؤال عظيم وجوابه يحتاج إلى بسط بعون الله ﷻ فنقول:- إن أصحاب القبور ينقسمون إلى قسمين:-

القسم الأول:- قسم توفى على الإسلام ويثني الناس عليه خيرًا فهذا يرجى له الخير ولكنه مفتقر إلى إخوانه المسلمين يدعون الله له بالمغفرة والرحمة وهو داخل في عموم قوله تعالى {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} وهو بنفسه أحدًا إذ أنه ميت جثة لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الضر ولا عن غيره ولا أن يجلب لنفسه النفع ولا لغيره فهو محتاج إلى نفع إخوانه غير نافع لهم.

القسم الثاني:- من أصحاب القبور:- من أفعاله تؤدي إلى فسقه الفسق المخرج من الملة كأولئك الذين يدعون أنهم أولياء ويعلمون الغيب ويشفون من المرض ويجلبون الخير والنفع بأسباب غير معلومة حسًا ولا شرعًا فهؤلاء الذين ماتوا على الكفر لا يجوز الدعاء لهم ولا الترحم عليهم لقول الله تعالى {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ

مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} وهم لا ينفعون أحدًا ولا يضرونه ولا يجوز لأحد أن يتعلق بهم وإن قدر أن أحدًا رأى كرامات لهم مثل يتراءى له أن في قبورهم نورًا أو أنه يخرج منها رائحة طيبة أو ما أشبه ذلك وهم معرفون بأنهم ماتوا على الكفر فإن هذا من خداع إبليس وغروره ليفتن هؤلاء بأصحاب هذه القبور وإنني أحذر إخواني المسلمين من أن يتعلقوا بأحد سوى الله عَزَّوَجَلَّ فإنه سبحانه وتعالى هو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ولا يجيب دعوة المضطر إلا الله ولا يكشف السوء إلا الله قال تعالى {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} ونصيحتي لهم أيضًا أن لا يقلدوا في دينهم أحدًا إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقوله تعالى {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا} وقوله تعالى {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ} ويجب على جميع المسلمين أن يزنوا أعمال من يدعي الولاية بما جاء في الكتاب والسنة فإن وافق الكتاب والسنة فإنه يرجى أن يكون من أولياء الله وإن خالف الكتاب والسنة فليس من أولياء الله وقد ذكر الله في كتابه ميزان قسطًا عدلًا في معرفة أولياء الله حيث قال {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} فمن كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا ومن لم يكن كذلك فليس بولي لله وإن كان معه بعض الإيمان والتقوى كان فيه شيء من الولاية ومع ذلك فإننا لا نجزم لشخص بعينه بشيء ولكننا نقول على سبيل العموم كل من كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا، وليعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ قد يفتن الإنسان بشيء من مثل هذه الأمور فقد يتعلق الإنسان بالقبر فيدعو صاحبه أو يأخذ من

ترابه يتبرك به فيحصل مطلوبه ويكون ذلك فتنة من الله ﷻ لهذا الرجل لأننا نعلم أن هذا القبر لا يجيب الدعاء وأن هذا التراب لا يكون سببًا لزوال ضرر أو جلب نفع نعلم ذلك لقول الله تعالى {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} وقال تعالى {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} والآيات في هذا المعنى كثيرة تدل على كل من دعي من دون الله فلن يستجيب الدعاء ولن ينفع الداعي ولكن قد يحصل المطلوب المدعو به عند دعاء غير الله فتنة وامتحان، ونقول:- إنه حصل هذا الشيء عند الدعاء - أي عند دعاء هذا الذي دعي من دون الله - لا بدعائه وفرق بين حصول الشيء بالشيء وبين حصول الشيء عند الشيء فإننا نعلم علم اليقين أن دعاء غير الله ليس سببًا لجلب النفع أو دفع الضر بالآيات الكثيرة التي ذكرها الله في كتابه ولكن قد يحصل الشيء عند هذا الدعاء فتنة وامتحانًا والله تعالى قد يبتلي الإنسان بأسباب المعصية ليعلم سبحانه من كان عبدًا لله ومن كان عبدًا لهواه ألا ترى إلى أصحاب السبت من اليهود حيث حرم الله عليهم أن يصطادوا الحيتان في يوم السبت فابتلاهم الله فكانت الحيتان تأتي يوم السبت بكثرة عظيمة وفي غير يوم السبت تختفي فطال عليهم الأمد وقالوا كيف نحرم أنفسنا هذه الحيتان ثم فكروا وقدروا وانتظروا فقالوا نجعل شبكة ونضعها يوم الجمعة ونأخذ الحيتان منها يوم الأحد فأقدموا على هذا الفعل الذي هو حيلة على محارم الله فقلبهم الله قردة خاسئين قال تعالى {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا

كَانُوا يَفْسُقُونَ} وقال تعالى {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} فانظر كيف يسر الله لهم هذه الحيتان في اليوم الذي منعوا من صيدها فيه ولكنهم لم يصبروا فقاموا بهذه الحيلة على محارم الله، ثم انظر إلى ما حصل لأصحاب النبي حيث ابتلاهم الله وهو محرمون بالصيود المحرمة على المحرم فكانت في متناول أيديهم ولكنهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لم يجرؤوا على شيء منها قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} كانت الصيود في متناول أيديهم يمسكون الصيد العادي باليد وينالون الصيد الطائر بالرماح فيسهل عليهم جدًا ولكنهم خافوا الله فلم يقدموا على أخذ شيء من الصيود وهكذا يجب على المرء إذا هيئت له أسباب الفعل المحرم أن يتقي الله وأن لا يقدم على فعل هذا المحرم وأن يعلم أن تيسير أسبابه من باب الابتلاء والامتحان فليحجم وليصبر فإن العاقبة للمتقين).اهـ.

وسئل الشيخ عبدالله بن الشيخ النجدي عن بناء القباب على القبور فأجاب (أما بناء القباب على القبور فهو من علامات الكفر وشعائره لأن الله أرسل محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهدم الأوثان ولو كانت على قبر رجلٍ صالح لأن اللات رجل صالح فلما مات عكفوا على قبره وبنوا عليه بنية وعظموها فلما أسلم أهل الطائف وطلبوا منه أن يترك هدم اللات شهرًا لئلا يروعوا نساءهم وصبيانهم حتى يدخلوهم فأبى ذلك عليهم وأرسل معهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب وأمرهما بهدمها، قال العلماء:- وفي هذا أوضح دلالة على أنه لا يجوز إبقاء شيء من هذه القباب التي بنيت على القبور واتخذت أوثانًا ولا يومًا واحدًا

فإنها شعائر الكفر وقد ثبت أن النبي ﷺ نهى عن البناء على القبر وتجصيصه وتخليقه والكتابة عليه).اهـ.

وسئل الشيخ عبدالعزيز رحمه الله تعالى سؤالًا هذا نصه:- هل الذبح لغير الله لا يجوز؟ لأن عندنا ناسًا يذبحون لرجل اسمه (مجلى) وعندما نقول من هو (مجلى) يقولون:- إنه نبي من أنبياء الله، أفيدونا في ذلك بارك الله فيكم؟ فأجاب يرحمه الله تعالى بقوله (الذبح لغير الله منكر عظيم وشرك أكبر سواء كان ذلك لنبي أو ولي أو كوكب أو جني أو صنم أو غير ذلك لأن الله سبحانه يقول {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِي لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} فأخبر سبحانه أن الذبح لله كما أن الصلاة لله، فلو ذبح لغير الله فهو كمن صلى لغير الله، يكون شركًا بالله ﷻ وهكذا يقول الله سبحانه لنبيه ﷺ {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} فالصلاة والنحر عبادتان عظيمتان فمن صرف الذبح لأصحاب القبور أو للأنبياء أو للكواكب أو للأصنام أو للجن أو للملائكة فقد أشرك بالله تعالى كما لو صلى لهم أو استغاث بهم أو نذر لهم، كل هذا شرك بالله ﷻ والله سبحانه يقول {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا} ويقول الله ﷻ {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} ويقول سبحانه {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ} فالعبادة حق الله، والذبح من العبادة وهكذا الاستغاثة من العبادة وهكذا الصلاة من العبادة وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال (لعن الله من ذبح لغير الله)"رواه مسلم في صحيحه من حديث علي رضي الله عنه " فعليكم أن تنكروا على هؤلاء وأن تعلموهم بأن هذا شرك أكبر، وأن الواجب عليهم ترك ذلك فليس لهم أن يذبحوا لغير الله كما أنهم ليس لهم أن يصلوا لغير الله وهذا من باب التعاون على البر والتقوى ومن باب إنكار المنكر ومن باب

الدعوة إلى الله تعالى وإخلاص العبادة له، ومن التوحيد الذي يجب أن يكون لله وحده سبحانه وتعالى وهذا هو واجب أهل العلم وواجب طلبة العلم وواجب أئمة المسلمين أن يتعاونوا على البر والتقوى وأن ينكروا الشرك على من فعله حتى يظهر التوحيد وحتى يقضى على أسباب الشرك).اهـ.

وسئل أبو العباس رحمه الله تعالى عن حكم رفع الصوت في الجنازة؟ فأجاب قدس الله روحه بما نصه (الحمد لله، لا يستحب رفع الصوت مع الجنازة لا بقراءة ولا ذكر ولا غير ذلك، هذا مذهب الأئمة الأربعة وهو المأثور عن السلف من الصحابة والتابعين ولا أعلم فيه مخالفًا، بل قد روي عن النبي ﷺ (أنه نهى أن يتبع بصوت أو نار)"رواه أبو داود" وسمع عبدالله بن عمر رضي الله عنهما رجلًا يقول في جنازة:- استغفروا لأخيكم فقال ابن عمر:- لا غفر الله بعد، وقال قيس بن عباد وهو من أكابر التابعين من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه:- كانوا يستحبون خفض الصوت عند الجنائز وعند الذكر وعند القتال، وقد اتفق أهل العلم بالحديث والآثار أن هذا لم يكن على عهد القرون الثلاثة المفضلة، وأما قول السائل:- إن هذا صار إجماعًا من الناس، فليس كذلك، بل ما زال في المسلمين من يكره ذلك وما زالت جنائز كثيرة تخرج بغير هذا في عدة أمصار من أمصار المسلمين، وأما كون أهل بلدٍ أو بلدين أو عشر تعودوا ذلك فليس هذا بإجماع، بل أهل مدينة النبي ﷺ التي نزل فيها القرآن والسنة وهي دار الهجرة والنصرة والإيمان والعلم، لم يكونوا يفعلوا ذلك، بل لو اتفقوا في مثل زمن مالك وشيوخه على شيء ولم ينقلوه عن النبي ﷺ أو خلفائه لم يكن إجماعهم حجة عند جمهور المسلمين وبعد زمن مالك وأصحابه ليس إجماعهم حجة باتفاق المسلمين فكيف بغيرهم من أهل الأمصار، وأما قول

القائل:- إن هذا - أي خفض الصوت - يشبه بجنائز اليهود والنصارى، فليس كذلك، بل أهل الكتاب عادتهم رفع الأصوات مع الجنائز وقد شرط عليهم في شروط أهل الذمة ألا يفعلوا ذلك ثم إنما نهينا عن التشبه بهم في ما ليس هو من طريق سلفنا الأول وأما إذا اتبعنا طريق سلفنا الأول كنا مصيبين وإن شاركنا في بعض ذلك من شاركنا كما أنهم يشاركوننا في الدفن في الأرض وفي غير ذلك).اهـ.

وسئل رحمه الله تعالى عن وضع المصاحف عند القبور للقراءة فيها؟ فأجاب رحمه الله تعالى بما نصه (وأما جعل المصاحف عند القبور لمن يقصد قراءة القرآن هناك وتلاوته فبدعة منكرة، لم يفعلها أحد من السلف بل هي تدخل في معنى اتخاذ المساجد على القبور وقد استفاضت السنن عن النبي ﷺ في النهي عن ذلك حتى قال (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر ما صنعوا، قالت عائشة:- ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجدًا، وقال (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) ولا نزاع بين السلف والأئمة في النهي عن اتخاذ القبور مساجد، ومعلوم أن المساجد بنيت للصلاة والذكر وقراءة القرآن فإذا اتخذ القبر لبعض ذلك كان داخلًا في النهي فإذا كان هذا مع كونهم يقرؤون فيها فكيف إذا جعلت المصاحف بحيث لا يقرأ فيها ولا ينتفع بها لا حي ولا ميت؟ فإن هذا لا نزاع في النهي عنه ولو كان الميت ينتفع بمثل ذلك لفعله السلف فإنهم كانوا أعلم بما يحبه الله ويرضاه وأسرع إلى ذلك وتحريه).اهـ.

وسئل الشيخ صالح حفظه الله تعالى عن بيان بعض البدع التي تقع عند قبر

رسول الله ﷺ.

فأجاب (من البدع التي تقع عند قبر رسول الله ﷺ كثرة التردد عليه كلما دخل المسجد ذهب يسلم عليه وكذلك الجلوس عنده فقد قال ﷺ (لا تتخذوا قبري عيدًا) وإنما يستحب زيارته للقادم من سفر، ومن البدع كذلك الدعاء عند قبر الرسول ﷺ أو غيره من القبور مظنة أن الدعاء عنده يستجاب وإنما المشروع السلام عليه ﷺ وإذا أراد الدعاء فإنه يكون في أي مكانٍ من المسجد وإن كان بعد صلاةٍ فهو أفضل، ومن المنكرات التي تفعل عند قبر النبي ﷺ رفع الصوت وطلب الحوائج منه وهذا شرك أكبر فالواجب الحذر من ذلك).اهـ.

وسئل الشيخ محمد رحمه الله تعالى عن حكم الاجتماع عند القبر وقراءة القرآن؟ وهل ذلك ينفع الميت؟ فأجاب (هذا العمل من الأمور المنكرة التي لم تكن معروفة في عهد السلف الصالح وهو الاجتماع عند القبر والقراءة، وأما كون الميت ينتفع بها فنقول:- إن كان المقصود انتفاعه بالاستماع فهذا منتفٍ لأنه قد مات وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال (إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له) فهو وإن كان يسمع إذا قلنا إنه يسمع في هذه الحال فإنه لا ينتفع، لأنه لو انتفع لزم منه أن لا ينقطع عمله، والحديث صريح في حصر انتفاع الميت بعمله بالثلاث التي ذكرت في الحديث، وأما إن كان المقصود انتفاع الميت بالثواب الحاصل للقارئ بمعنى أن القارئ ينوي بثوابه أن يكون لهذا الميت، فإذا تقرر أن هذا من البدع فالبدع لا أجر فيها (كل بدعةٍ ضلالة) كما قال النبي ﷺ، ولا يمكن أن تنقلب الضلالة هداية، ثم إن هذه القراءة في الغالب تكون بأجرة والأجرة على الأعمال المقربة إلى الله تعالى باطلة، والمستأجر للعمل الصالح إذا نوى بعمله الصالح أجرًا في

الدنيا فإن عمله هذا لا ينفعه ولا يقربه إلى الله تعالى ولا يثاب عليه، لقوله تعالى {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} فهذا القارئ الذي نوى بقراءته أن يحصل على أجر دنيوي نقول له:- هذه القراءة غير مقبولة، بل هي حابطة ليس فيها أجر ولا ثواب، وحينئذٍ لا ينتفع الميت بما أهدي إليه من ثوابها لأنه لا ثواب فيها إذًا فالعملية إضاعة مال، وإتلاف وقت وخروج عن سبيل السلف الصالح رضي الله عنهم لاسيما إذا كان هذا المال من تركة الميت وفيها حق صغار وقُصَّرْ وسفهاء، فيؤخذ من أموالهم ما ليس بحق فيزداد الإثم إثمًا والله المستعان).اهـ.

وسئل أيضًا رحمه الله تعالى عن حكم الاجتماع للعزاء فأجاب (الاجتماع في بيت الميت ليس له أصل من عمل السلف الصالح وليس بمشروع ولاسيما إذا اقترن بذلك إشعال الأضواء وصف الكراسي وإظهار البيت وكأنه في ليلة زفاف عرس، فإن هذا من البدع التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم (كل بدعة ضلالة)).اهـ.

وسئل الشيخ عبدالعزيز رحمه الله تعالى عن حكم أخذ حفنةٍ من تراب قبر الميت وحثوها على الكفن بعد قراءة القرآن عليه؟ فأجاب (هذا شيء لا أصل له بل هو بدعة منكرة لا يجوز فعلها ولا فائدة منها، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشرع ذلك لأمته وإنما المشروع أن يغسل المسلم إذا مات ويكفن ويصلى عليه، ثم يدفن في مقابر المسلمين ويشرع لمن حضر الدفن أن يدعو له بعد الفراغ من الدفن بالمغفرة والثبات على الحق كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ويأمر به وبالله التوفيق).اهـ.

وسئل ابن عثيمين رحمه الله تعالى عن حكم الأذان في أذن الميت؟ فأجاب

(الأذان في أذن الميت بدعة، وتلقينه عند الموت لا إله إلا الله قد أمر به النبي ﷺ، أما يلقينه إجابة الملكين بعد دفنه فهذا ورد فيه حديث لكنه ضعيف فلا يعتمد عليه).اهـ.

وسئل الشيخ عبدالعزيز رحمه الله تعالى عن حكم الأذان والإقامة في قبر الميت؟ فأجاب (لا ريب أن ذلك بدعة ما أنزل الله بها من سلطان لأن ذلك لم ينقل عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه رضي الله عنهم والخير كله في اتباعهم وسلوك سبيلهم كما قال الله تعالى {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} وقال النبي ﷺ (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد)"متفق على صحته" وفي لفظٍ آخر قال ﷺ (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) وكان ﷺ يقول في خطبته للجمعة (أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)"خرجه مسلم في حديث جابر رضي الله عنه ").اهـ.

وسئلت اللجنة الدائمة عن حكم استئجار قارئ يقرأ القرآن على نية الميت تنفيذًا لوصية الميت فأجابوا بقولهم (استئجار من يقرأ قرآنًا على نية الميت تنفيذًا لوصيته التي أوصى بها من الأمور المبتدعة فلا يجوز ذلك ولا يصح لقوله ﷺ (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) وقوله ﷺ (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) والمال الذي وصى به هذا الميت ليدفع أجرة القارئ على نيته تصرف غلته في وجوه الخير فإن كان له ذرية فقراء تصدق عليهم منه بقدر ما يدفع حاجتهم وهكذا من يحتاج إلى المساعدة من متعلمي القرآن وطلبة العلم الشرعي فإنهم جديرون بالمساعدة من هذا المال وهكذا بقية وجوه الخير وبالله التوفيق).اهـ.

وسئل الشيخ عبدالعزيز رحمه الله تعالى عن حكم إقامة الحفلات للميت؟ فأجاب (لم يثبت عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه رضي الله عنهم ولا عن السلف الصالح إقامة حفل للميت مطلقًا لا عند وفاته ولا بعد أسبوع أو أربعين يومًا أو سنة بعد وفاته، بل ذلك بدعة وعادة قبيحة كانت عند قدماء المصريين وغيرهم من الكافرين، فيجب النصح للمسلمين الذين يقيمون هذه الحفلات وإنكارها عليهم عسى أن يتوبوا إلى الله ويجتنبوها لما فيها من الابتداع في الدين ومشابهة الكافرين وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال (بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقومٍ فهو منهم "رواه أحمد في مسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما" وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال (لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) وأصله في الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه)

وسئل سماحته أيضًا سؤالًا هذا نصه:- يوجد عندنا في بلدتنا رجل صالح متوفى قد بني له مقام على قبره وله عادة عندنا في كل عام نذهب مع الناس إليه رجالًا ونساءً ويقيمون عنده ثلاثة أيام بالمدح والتهاليل والأذكار ويستمر بالأوصاف المعروفة فنرجوا التوجيه والإرشاد؟ فأجاب رحمه الله تعالى بجواب طويل أنقله بنصه فقال رحمه الله تعالى (هذا العمل لا يجوز وهو من البدع التي أحدثها الناس، فلا يجوز أن يقام على قبر أحدٍ بناء، سوى سمي مقامًا أو قبةً أو مسجدًا أو غير ذلك، وكانت القبور على عهد الرسول ﷺ وعصر الصحابة رضي الله عنهم في البقيع وغيره مكشوفة ليس عليها بناء، والنبي ﷺ نهى أن يبنى على القبر أو يجصص وقال (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم

مساجد)"متفق على صحته" وقال جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه (نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه) "رواه الإمام مسلم في صحيحه" فالبناء على القبور وتجصيصها ووضع الزينات عليها أو الستور كله منكر ووسيلة إلى الشرك، فلا يجوز وضع القباب أو الستور أو المساجد عليها وهكذا زيارتها على الوجه الذي ذكره السائل من الجلوس عندها والتهاليل وأكل الطعام والتمسح بالقبر والدعاء عند القبر والصلاة عنده كل هذا منكر وكله بدعة لا يجوز، وإنما المشروع زيارة القبور للذكرى والدعاء للموتى والترحم عليهم ثم ينصرف والمشروع للزائر للقبور أن يقول (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين) وما أشبه ذلك من الدعوات فقط هذا هو المشروع الذي علمه النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:- مر رسول الله - ﷺ - على قبور المدينة فقال (السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر) وأما الإقامة عند القبر للأكل والشرب أو للتهاليل أو للصلاة أو قراءة القرآن فكل هذا منكر لا أصل له في الشرع المطهر، وأما دعاء الميت والاستغاثة به وطلب المدد منه فكل ذلك من الشرك الأكبر وهو من عمل عباد الأوثان في عهد النبي ﷺ من اللات والعزى ومناة وغيرها من أصنام الجاهلية وأوثانها فيجب الحذر من ذلك وتحذير العامة منه وتبصيرهم في دينهم حتى يسلموا من هذا الشرك الوخيم، وهذا هو واجب العلماء الذين مَنَّ الله عليهم بالفقه في الدين ومعرفة ما بعث الله به المرسلين كما قال سبحانه {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} وقال سبحانه {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ

أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} وقال ﷻ {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} وقال سبحانه {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} والآيات في هذا المعنى كثيرة، ولما بعث رسول الله ﷺ معاذًا إلى اليمن قال له (إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) وفي رواية للبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ (فادعهم إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يومٍ وليلة فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن أجابوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)"متفق على صحته" فأمره أن يبدأهم بالدعوة إلى التوحيد والسلامة من الشرك مع الإيمان بالرسول ﷺ والشهادة له بالرسالة، فعلم بذلك أن الدعوة إلى إصلاح العقيدة وسلامتها مقدمة على بقية الأحكام لأن العقيدة هي الأساس الذي تبنى عليه الأحكام كما قال الله ﷻ {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} وقال سبحانه {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} والآيات في هذا المعنى كثيرة، فالواجب على أهل العلم في كل مكانٍ وزمان مضاعفة الجهود في ذلك حتى يبصروا العامة بحقيقة الإسلام ويبينوا لهم العقيدة الصحيحة التي بعث الله بها الرسل عليهم الصلاة والسلام وعلى رأسهم إمامهم وخاتمهم وسيدهم محمد ﷺ، وفق الله علماء المسلمين وعامتهم لكل ما فيه رضاه إنه خير مسئول).اهـ.

وسئل الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله تعالى عن حكم تخصيص

العيدين والجمعة لزيارة المقابر؟ فأجاب (ليس له أصل، فتخصيص زيارة المقابر في يوم العيد واعتقاد أن ذلك مشروع يعتبر من البدع لأن ذلك لم يرد عن النبي ﷺ ولا أعلم أحدًا من أهل العلم قال به، أما يوم الجمعة فقد ذكر بعض العلماء أنه ينبغي أن تكون الزيارة في يوم الجمعة ومع ذلك فلم يذكروا في هذا أثرًا عن رسول الله ﷺ).اهـ.

وسئل أيضًا عن حكم تغطية الميت بغطاء مكتوب عليه آيات من القرآن الكريم؟ فأجاب (ليس لهذا العمل أصل في الشرع، أي ليس لكتابة الآيات القرآنية على ما يغطى به الميت فوق النعش أصل في الشرع، بل هو في الحقيقة امتهان لكلام الله عز وجل، بجعله غطاء يغطى به الميت، وهو ليس بنافع الميت بشيء وعلى هذا فالواجب تجنبه، أولًا:- لأنه ليس من عمل السلف.

وثانيًا:- لأن فيه شيئًا من امتهان القرآن الكريم.

وثالثًا:- لأن فيه اعتقادًا فاسدًا وهو أن هذا ينفع الميت وهو ليس بنافعه).اهـ.

وسئل أيضًا عن حكم التفريق في العلامة بين قبر الرجل وقبر المرأة؟ فأجاب (هذا التفريق ليس بمشروع والعلماء قالوا:- إن وضع حجرٍ أو حجرين أو لبنة أو لبنتين من أجل العلامة على أنه قبر لئلا يحفر مرة ثانية فلا بأس، وأما التفريق بين الرجل والمرأة في ذلك فلا أصل له).اهـ.

وسئلت اللجنة الدائمة عن حكم الذبح عند القبور تبركًا بأهلها والدعاء عندها وإطالة المكث عندها رجاء بركة أهلها والتوسل بجاه الأموات؟ فأجابوا بقولهم (الذبح لله عند القبور تبركًا بأهلها وتحري الدعاء عندها وإطالة المكث عندها رجاء بركة أهلها والتوسل بجاههم أو حقهم ونحو ذلك بدع محدثة بل

ووسائل من وسائل الشرك الأكبر فيحرم فعلها ويجب نصح من يعمله، أما الذبيحة عند القبور تحريًا لبركات أهلها فهو منكر وبدعة لا يجوز أكلها حسمًا لمادة الشرك ووسائله وسدًا لذرائعه وإن قصد بالذبيحة التقرب إلى صاحب القبر صار شركًا بالله أكبر، ولو ذكر اسم الله عليها، لأن عمل القلوب أبلغ من عمل اللسان وهو الأساس في العبادات).اهـ.

وسئل سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى عن حكم الدين الإسلامي في زيارة القبور والتوسل بالأضرحة وأخذ خروف وأموال للتوسل بها كزيارة السيد البدوي والحسين، والسيدة زينب؟ فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ بما نصه (زيارة القبور نوعان أحدهما:- مشروع ومطلوب لأجل الدعاء للأموات والترحم عليهم ولأجل تذكر الموت والإعداد للآخرة، لقول النبي ﷺ (زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة) وكان يزورها ﷺ وهكذا أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذا الفرع للرجال خاصة لا للنساء، أما النساء فلا يشرع لهن زيارة القبور، بل يجب نهيهن عن ذلك، لأنه قد ثبت عن رسول الله ﷺ لعن زائرات القبور من النساء، ولأن زيارتهن للقبور قد يحصل بها فتنة لهن أو بهن مع قلة الصبر وكثرة الجزع الذي يغلب عليهن وهكذا لا يشرع لهن اتباع الجنائز إلى المقبرة لما ثبت في الصحيح عن أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت (نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا) فدل ذلك على أنهن ممنوعات من اتباع الجنائز إلى المقبرة لما يخشى في ذلك من الفتنة لهن أو بهن، وقلة الصبر، والأصل في النهي التحريم لقول الله سبحانه {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} أما الصلاة على الميت فمشروعة للرجال والنساء كما صحت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في ذلك، أما قول أم عطية (لم يعزم علينا) فهذا لا يدل على جواز اتباع الجنائز

للنساء، لأن صدور النهي عنه ﷺ كافٍ في المنع، وأما قولها (لم يعزم علينا) فهو مبني على اجتهادها وظنها، واجتهادها لا يعارض به السنة، النوع الثاني:- بدعي وهو زيارة القبور لدعاء أهلها والاستغاثة بهم أو للذبح لهم أو للنذر لهم، وهذا منكر وشرك أكبر نسأل الله العافية، ويلتحق بذلك أن يزورها للدعاء عندها والصلاة عندها والقراءة عندها، وهذا بدعة غير مشروع ومن وسائل الشرك فصارت في الحقيقة ثلاثة أنواع:- النوع الأول:- مشروع وهو أن يزورها للدعاء لأهلها أو لتذكر الآخرة، الثاني:- أن تزار للقراءة عندها أو للصلاة عندها أو للذبح عندها فهذه بدعة ومن وسائل الشرك، الثالث:- أن يزورها للذبح للميت والتقرب إليه بذلك أو لدعاء الميت من دون الله أو لطلب المدد منه أو الغوث أو النصر فهذا شرك أكبر نسأل الله العافية، فيجب الحذر من هذه الزيارات المبتدعة، ولا فرق بين كون المدعو نبيًا أو صالحًا أو غيرهما، ويدخل في ذلك ما يفعله بعض الجهلة عند قبر النبي ﷺ من دعائه والاستغاثة به، أو عند قبر الحسين أو البدوي أو الشيخ عبدالقادر الجيلاني أو غيرهم والله المستعان).اهـ.

وسئل الشيخ صالح حفظه الله تعالى عن حكم السجود على تربة الأولياء قربة إلى الله تعالى مع اعتقاد قدسية ذلك التراب وطهارته؟ فأجاب (السجود على التربة المسماة تربة الولي إن كان المقصود منه التبرك بهذه التربة والتقرب إلى الولي فهذا شرك أكبر وإن كان المقصود التقرب إلى الله تعالى مع اعتقاد فضيلة هذه التربة وأن في السجود عليها فضيلة كالفضيلة التي جعلها الله تعالى في الأرض المقدسة في المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى فهذا ابتداع في الدين وقول على الله تعالى بلا علم وشرع دين لم يأذن به الله ووسيلة من وسائل الشرك لأن الله لم يجعل لبقعة من البقاع خاصة على غيرها غير

المشاعر المقدسة والمساجد الثلاثة وحتى هذه المشاعر وهذه المساجد لم يشرع لنا أخذ تربةٍ منها لنسجد عليها وإنما لنا حج بيته العتيق والصلاة في هذه المساجد الثلاثة وما عداها من بقاع الأرض فليس له قدسية ولا خاصية، وقد قال ﷺ (وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا) ولم يخصص بقعة دون بقعة ولا تربة دون تربة وإنما هذا من افتراء الذين لا يعلمون، ومن تضليل الدجالين والمبطلين الذين يشرعون للناس ما لم يأذن به الله وليس لهذا العمل أصل في الشرع، و هو عمل مردود على أصحابه كما قال النبي ﷺ (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد)).اهـ.

وسئلت اللجنة الدائمة عن حكم السكن إلى جانب القبور عدة أيام أو أسابيع لإيناس الميت؟ فأجابوا بقولهم (ليس السكن إلى جانب القبور عدة أيام أو أسابيع من أجل الميت إيناسًا له في زعمهم، أو تعلقًا به وحبًا له مثلًا من هدي رسول الله ﷺ، ولا من هدي الخلفاء الراشدين ولا سائر الصحابة رضي الله عنهم ولا عرف عن أئمة أهل العلم والخير كل الخير في اتباعهم وترك البدع والمبيت عند القبور لما ذكر اقتداءً برسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين وسائر الصحابة ومن تبعهم بإحسان رضي الله عنهم، أما تخصيص يوم الخميس بزيارة القبور فهو ابتداع في الدين وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) أما إن كان ذلك لكون يوم الخميس أو غيره أيسر للزيارة دون اعتقاد في تخصيص ذلك اليوم للزيارة فلا حرج في ذلك لأن زيارة القبور للرجال مشروعة في جميع الأيام والليالي، وأما حكم زيارة النساء للقبور وبكائهن ولطمهن الخدود على الميت فمن كبائر الذنوب).اهـ.

وسئلت اللجنة الدائمة أيضًا عن حكم شد الرحال لزيارة قبور الأولياء

والصالحين؟ فأجابوا بقولهم (لا يجوز شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء والصالحين وغيرهم، بل هو بدعة، والأصل في ذلك قوله ﷺ (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد:- المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى) وقال ﷺ (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد) وأما زيارتهم دون شد رحال فسنة، لقوله ﷺ (زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة)"خرجه مسلم في صحيحه" وبالله التوفيق).اهـ.

وسئل الشيخ عبدالعزيز رحمه الله تعالى عن حكم الطواف على القبور؟ وعن طلب الحوائج من الموتى؟ فأجاب بقوله (طلب الحوائج من الموتى أو من الأصنام أو من الأشجار والأحجار أو من الكواكب كله شرك بالله ﷻ، وهكذا الطواف على القبور منكر، والطواف يكون بالكعبة لا يطاف بالقبور فهذا منكر عظيم، بل شرك أكبر إذا قصد التقرب به إلى صاحب القبر، فهذا شرك أكبر، وإذا ظن أنه قربة لله وأنه يتقرب إلى الله بهذا الطواف فهذا بدعة، الطواف من خصائص البيت العتيق وأما القبور فلا يطاف بها أبدًا، هذا منكر وبدعة وإذا كان فعله تقربًا لصاحب القبر صار شركًا أكبر، وهكذا دعاء الميت والاستغاثة بالميت والنذر له والذبح له كله من الشرك الأكبر).اهـ.

وسئلت اللجنة الدائمة عن حكم السجود على المقابر والذبح عليها فأجابوا بقولهم (السجود على المقابر والذبح عليها وثنية جاهلية وشرك أكبر فإن كلًا منهما عبادة والعبادة لا تكون إلا لله وحده فمن صرفها لغير الله فهو مشرك قال الله تعالى {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} وقال تعالى {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} إلى غيره من الآيات الدالة على أن السجود والذبح عبادة وأن

صرفها لغير الله شرك أكبر، ولا شك أن قصد الإنسان إلى المقابر للسجود عليها أو الذبح عندها إنما هو لإعظامها وإجلالها بالسجود والقرابين التي تذبح أو تنحر عندها وروى مسلم في حديث طويل في باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:- حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات (لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثا، لعن الله من غير منار الأرض) وروى أبو داود في سننه من طريق ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:- نذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانة فسأل رسول الله ﷺ فقال (هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟) قالوا:- لا، فقال (فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟) قالوا:- لا، فقال رسول الله ﷺ (أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملكه ابن آدم) فدل ما ذكر على لعن من ذبح لغير الله وعلى تحريم الذبح في مكان يعظم فيه غير الله من وثن أو قبر أو مكان فيه اجتماع لأهل الجاهلية اعتادوه وإن قصد بذلك وجه الله وبالله التوفيق).اهـ.

وسئلت اللجنة الدائمة أيضًا عن حكم الصلاة في مسجد فيه قبر؟

فأجابوا بقولهم (يجب نبش قبر أو قبور من دفن فيه ونقلها إلى المقبرة العامة، ودفنهم فيها، ولا تجوز الصلاة به والقبر أو القبور فيه، بل عليك أن تلتمس مسجدًا آخر لصلاة الجمعة والجماعة قدر الطاقة).اهـ.

وسئلوا عن الصلاة في المساجد التي يوجد بها قبور ومقامات؟ فأجابوا بجواب أوسع من الأول فقالوا (لا يجوز للمسلم أن يصلي في المساجد التي بنيت على القبور والأصل في ذلك الأدلة الدالة على النهي عن بناء المساجد على القبور ومنها ما ثبت في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال (أولئك إذا

مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله) ومنها ما رواه أهل السنن عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال (لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) وثبت في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت:- قال رسول الله ﷺ (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وبالله التوفيق).اهـ.

والفتاوى في ذلك كثيرة ويصعب حصرها والحر تكفيه الإشارة ولعل فيما مضى كفاية إن شاء الله تعالى لمن أراد الحق والهداية وأما المعاند والمكابر فلو ملأت له الأرض كتبًا وفتاوى لما أجاب، ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي والله أعلى وأعلم.

(باب ذكر مسائل أشراط الساعة)

مسائل في فقه أشراط الساعة

مسألة: معنى الأشراط والعلامات

لغة: الأشراط جمع شرط بالتحريك، والشرط العلامة، وأشراط الساعة أي علاماتها، وأشراط الشيء أوائله، ومنه شُرَط السلطان وهم نخبة أصحابه الذين يقدمهم على غيرهم من مجموع جنده.

الأشراط في اللغة هي علامات الشيء المتقدمة عليه والدالة عليه، ومما يدل على تسمية هذه الأشراط في السنة بالعلامات ما جاء في حديث جبريل المشهور عند النسائي، قال: (يا محمد، أخبرني متى الساعة؟ قال: فنكس، فلم يجبه شيئا ثم أعاد فلم يجبه شيئا ثم أعاد فلم يجبه شيئا ورفع رأسه فقال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن لها علامات تعرف بها...) الحديث والساعة: هي جزء

من أجزاء الليل أو النهار وجمعها ساعات وساع. والساعة: الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وقد سميت بذلك لسرعة الحساب فيها، أو لأنها تفاجئ الناس في ساعة فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة.

وأما معنى الأشراط والعلامات شرعا فهي العلامات التي تسبق يوم القيامة وتدل على قدومها. يقول الحليمي: أما انتهاء الحياة الأولى فإن لها مقدمات تسمى أشراط الساعة وهي أعلامها. ويقول البيهقي في تحديد المراد من الأشراط: أي: ما يتقدمها من العلامات الدالة على قرب حينها. ويقول الحافظ ابن حجر المراد بالأشراط: العلامات التي يعقبها قيام الساعة[1].

وتنقسم أشراط السَّاعة إلى قسمين: أشراط صغرى وهي التي تتقدم السَّاعة بأزمان، وتكون من نوع المعتاد؛ كقبض العلم، وظهور الجهل، وشرب الخمر، والتطاول في البنيان... ونحوها، وقد يظهر بعضها مصاحبًا للأشراط الكبرى، أو بعدها، وأشراط كبرى وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام السَّاعة، وتكون غير معتادة الوقوع؛ كظهور الدجال، ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، وقسم بعض العلماء أشراط السَّاعة من حيث ظهورها إلى ثلاثة أقسام، قسم ظهر وانقضى، وقسم ظهر ولا زال يتتابع ويكثر، وقسم لم يظهر إلى الآن، فأما القسمان الأولان؛ فهما من أشراط السَّاعة الصغرى، وأما القسم الثالث؛ فيشترك في الأشراط الكبرى وبعض الأشراط الصغرى.

وأشراط السَّاعة الصغرى التي ذكرها العلماء كثيرة جدًا، وقد ذكرت هنا منها ما ثبت وصح في السنة أنه من أشراط السَّاعة الصغرى.

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٧٩).

الباب الأول: أشراط السَّاعة الصغرى

١- بعثة النبي ﷺ: أخبر ﷺ أن بعثته دليل على قرب قيام السَّاعة، وأنه نبي السَّاعة: ففي الحديث عن سهل رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (بعثت أنا والسَّاعة كهاتين"، ويشير بإصبعيه فيمدهما) أخرجه البخاري.

وعن أنس رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: (بعثت أنا والسَّاعة كهاتين". قال: وضم السبابة والوسطى) أخرجه مسلم.

وعن قيس بن أبي حازم عن أبي جُبيرة مرفوعًا: (بعثت في نسم السَّاعة)[(١)].

قوله (نسم الساعة): قال ابن الأثير: "وهو من النسيم، أول هبوب الريح الضعيفة؛ أي: بعثت في أول أشراط الساعة، وضعف مجيئها. وقيل: هو جمع نسمة؛ أي: بعثت في ذوي أرواح خلقهم الله تعالى قبل اقتراب الساعة؛ كأنه قال: في آخر النشء في بني آدم"[(٢)].

فأول أشراط السَّاعة بعثة المصطفى ﷺ، فهو النبي الأخير، فلا يليه نبي آخر، وإنما تليه القيامة كما يلي السبابة والوسطى، وليس بينهما إصبع أخرى، أو كما يفضل إحداهما الأخرى، ويدلُّ على ذلك رواية الترمذي: "بعثت أنا والسَّاعة كهاتين - وأشار أبو داود بالسبابة والوسطى - فما فضل إحداهما على

---

(١) أخرجه البزار (٣٢١٥ - كشف)، وابن منده في المعرفة (٢/ ٢٣٤/ ٢)، والدولابي في الكنى (١/ ٢٣) وإسناده رواته ثقات، إلا أن رواية قيس بن أبي حازم عن أبي جبيرة مرسلة، والحديث قال عنه العلامة الألباني في الصحيحة (٨٠٨): هذا إسناد صحيح، رجاله كلهم ثقات و في صحبة أبي جبيرة خلاف، و رجح الحافظ في التقريب أن له صحبة و ذكر في الإصابه أنه روى عن النبي ﷺ عدة أحاديث، و هذا هو الصواب خلافا لقول العجلي في الثقات: ليس له إلا حديث واحد.

(٢) النهاية في غريب الحديث (٥/ ٤٩، ٥٠).

الأخرى"، وفي رواية مسلم: "قال شعبةُ: وسمعت قتادة يقول في قصصه: "كفضل إحداهما على الأخرى". فلا أدري أذكره عن أنس أو قاله قتادة".

قال القرطبي في التذكرة (ص٦٢٦): "أولها النبي ﷺ: لأنه نبي آخر الزمان، وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي".

قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠].

٢- موت النبي ﷺ: من أشراط السَّاعة موتُ النبي ﷺ، ففي الحديث عن عوف بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (اعدد ستًا بين يدي السَّاعة: موتي... الحديث) أخرجه البخاري. فقد كان موت النبي ﷺ من أعظم المصائب التي وقعت على المسلمين، فقد أظلمت الدُّنيا في عيون الصحابة رضي الله عنهم عندما مات عليه الصلاة والسلام، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة؛ أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه؛ أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي - وإنا لفي دفنه - حتى أنكرنا قلوبنا).

قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٤٩): "يريد أنهم وجدوها تغيرت عما عهدوه في حياته من الألفة، والصفاء، والرق؛ لفقدان ما كان يمدهم به من التعليم والتأديب".اهـ. فبموته ﷺ انقطع الوحي من السماء؛ كما في جواب أم أيمن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما عندما زاراها بعد موت النبي ﷺ، فلما انتهيا إليها؛ بكت، فقالا لها: (ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله. فقلت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها) أخرجه مسلم. فقد مات عليه

الصلاة والسلام كما يموت الناس: لأن الله تعالى لم يكتب الخلود في هذه الحياة الدُّنيا لأحد من الخلق، بل هي دار ممر لا دار مقر؛ كما قال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)} [الأنبياء: ٣٤- ٣٥]. إلى غير ذلك من الآيات التي تبين أن الموت حق، وأن كل نفس ذائقة الموت، حتى ولو كان سيد الخلق وإمام المتقين محمد ﷺ.

وكان موته كما قال القرطبي: "أول أمر دهم الإسلام... ثم بعده موت عمر، فبموت النبي ﷺانقطع الوحي، وماتت النبوة، وكان أول ظهور الشر بارتداد العرب، وغير ذلك، وكان أول انقطاع الخير، وأول نقصانه.

٣- فتح بيت المقدس: ومن أشراط السَّاعة فتح بيت المقدس، فقد جاء في حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (اعدد ستًا بين يدي السَّاعة... (فذكر منها:) فتح بيت المقدس) رواه البخاري، ففي عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تم فتح بيت المقدس سنة ست عشرة من الهجرة؛ كما ذهب إلى ذلك أئمة السير، فقد ذهب عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بنفسه، وصالح أهلها، وفتحها، وطهرها من اليهود والنصارى، وبنى بها مسجدًا في قبلة بيت المقدس. وروى الإمام أحمد من طريق عبيد بن آدم؛ قال: "سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب الأحبار: أين ترى أن أصلي؟ فقال: إن أخذت عني؛ صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك. فقال عمر: ضاهيت اليهودية، لا، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ، فتقدم إلى القبلة، فصلى، ثم جاء، فبسط رداءه، فكنس الكناسة في ردائه، وكنس الناس.

٤- طاعون عمواس: وعمواس بلدة في فلسطين، على ستة أميال من الرملة،

على طريق بيت المقدس. انظر: "معجم البلدان" (٤/ ١٥٧).

جاء في حديث عوف بن مالك السابق قوله ﷺ: "اعدد ستًا بين يدي السَّاعة:.... (فذكر منها:) ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم. قال الحافظ في الفتح (٦/ ٢٧٨): "يقال: إن هذه الآية ظهرت في طاعون عمواس في خلافه عمر، وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس".اهـ.

ففي سنة ثمان عشرة للهجرة على المشهور الذي عليه الجمهور وقع طاعون في كورة عمواس، ثم انتشر في أرض الشام، فمات فيه خلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم ومن غيرهم؛ قيل: بلغ عدد من مات فيه خمسة وعشرون ألفًا من المسلمين، ومات فيه من المشهورين: أبو عبيدة عامر بن الجراح، أمين هذه الأمة، رضي الله عنه.

٥- استفاضة المال والاستغناء عن الصدقة: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺقال: (لا تقوم السَّاعة حتى يكثر فيكم المال، فيفيض، حتى يهم رب المال من يقبله منه صدقة، ويدعى إليه الرجل، فيقول: لا أرب لي فيه) أخرجه البخاري ومسلم.

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: (ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب، ثم لا يجد أحدًا يأخذها منه) أخرجه مسلم، فسيكثر المال في آخر الزمان، حتى يعرض الرجل ماله، فيقول الذي يعرض عليه: لا إرب لي به.

٦- ظهور الفتن: الفتن: جمع فتنة، وهي الابتلاء والامتحان والاختبار، ثم كثر استعمالها فيما أخرجه الاختبار للمكروه، ثم أطلقت على كل مكروه أو آيل إليه؛ كالإثم؛ والكفر، والقتل، والتحريق، وغير ذلك من الأمور المكروهة.

وقد أخبر النبي ﷺ أن من أشراط السَّاعة ظهور الفتن العظيمة التي يلتبس فيها الحق بالباطل، فتزلزل الإيمان، حتى يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، كلما ظهرت فتنة؛ قال المؤمن: هذه مهلكتي. ثم تنكشف ويظهر غيرها، فيقول: هذه، هذه، ولا تزال الفتن تظهر في الناس إلى أن تقوم السَّاعة، ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن بين يدي السَّاعة فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فكسروا قسيكم، وقطعوا أوتاركم، واضربوا بسيوفكم الحجارة؛ فإن دخل على أحدكم؛ فليكن كخير ابني آدم) أخرجه الإمام أحمد وأبو داو وابن ماجه وغيرهم.

وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدُّنيا).

وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ و رضي الله عنها؛ قال: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعًا؛ يقول: "سبحان الله! ما أنزل الله من الخزائن؟ وماذا أنزل الله من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات - يريد أزواجه - لكي يصلين؟ رب كاسية في الدُّنيا عارية في الآخرة) رواه البخاري.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ قال: نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: (إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدلُّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء

الفتنة، فيرقق بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه، هذه... فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة؛ فلتأته منيته، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر". رواه مسلم وأحاديث الفتن كثيرة جدًا، فقد حذر النبي ﷺ أمته من الفتن، وأمر بالتعوذ منها، وأخبر أن آخر هذه الأمة سيصيبها بلاء وفتن عظيمة، وليس هنالك عاصم منها؛ إلا الإيمان بالله واليوم الآخر، ولزوم جماعة المسلمين، وهم أهل السنة - وإن قلوا -، والابتعاد عن الفتن، والتعوذ منها، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (وتعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن) رواه مسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(تنبيهات)

أ- ظهور الفتن من المشرق: أكثر الفتن التي ظهرت في المسلمين كان منبعها من المشرق، من حيث يطلع قرن الشيطان، وهذا مطابق لما أخبر به نبي الرحمة ﷺ. فقد جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: (ألا إن الفتنة ها هنا، ألا إن الفتنة ها هنا، من حيث يطلع قرن الشيطان). رواه الشيخان، وفي رواية لمسلم أنه قال: (رأس الكفر من ها هنا، من حيث يطلع قرن الشيطان"؛ يعني: المشرق)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: دعا النبي ﷺ: (اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا، وبارك لنا في شامنا ويمننا فقال رجل من القوم: يا نبي الله! وفي عراقنا. قال: "إن بها قرن الشيطان، وتهيج الفتن، وإن الجفاء بالمشرق) أخرجه الطبراني، قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٧): "وأول الفتن كان منبعها من قبل المشرق، فكان ذلك سببًا للفرقة بين المسلمين، وذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به، وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة".اهـ.

فمن العراق ظهر الخوارج، والشيعة، والروافض، والباطنية، والقدرية، والجهمية، والمعتزلة، وأكثر مقالات الكفر كان منشؤها من المشرق؛ من جهة الفرس المجوس؛ كالزردشتية، والمانوية، والمزدكية، والهندوسية، والبوذيَّة، وأخيرًا وليس آخرًا: القاديانية، والبهائية... إلى غير ذلك من المذاهب الهدَّامة.

وسيكون ظهور الدجال ويأجوج ومأجوج من جهة المشرق، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. ولا بد لي هنا من أن أنبه على أن بعض الفتن هو من أشراط السَّاعة التي نص عليها رسول الله ﷺ؛ كوقعة صفين، وظهور الخوارج، وسأتكلم بإيجاز عن بعض الفتن العظيمة التي كانت سببًا في تفريق المسلمين، وظهور الشر العظيم.

ب- مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه: لقد كان ظهور الفتن في عهد الصحابة رضي الله عنهم بعد مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فإنه كان بابًا مغلقًا دون الفتن، فلما قتل رضي الله عنه؛ ظهرت الفتن العظيمة، وظهر دُعاتُها ممن لم يتمكن الإيمان من قلبه، وممن كان من المنافقين الذي يظهرون للناس الخير، ويبطنون الشر والكيد لهذا الدين. ففي "الصحيحين" عن حذيفة رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ كما قال. قال: هاتِ؛ إنك لجرئ. قال رسول الله ﷺ: "فتنةُ الرجل في أهله وماله وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". قال: ليست هذه، ولكن التي تموج كموج البحر. قال: يا أمير المؤمنين! لا بأس عليك منها، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا. قال: يفتح الباب أو يكسر؟ قال: لا، بل يكسر. قال: ذلك أحرى أن لا يغلق. قلنا: علم الباب؟ قال: نعم؛ كما أن دون غد الليلة، إني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط. فهبنا أن نسأله،

وأمرنا مسروقًا، فسأله، فقال: من الباب؟ قال: عمر) أخرجه البخاري ومسلم، وكان ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ، فقد قُتِلَ عمر، وكُسِرَ الباب، وظهرت الفتن، ووقع البلاء، فكان أول فتنة ظهرت هي قتل الخليفة الراشد ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه على يد طائفة من دُعاة الشر، الذين تألبوا عليه من العراق ومصر، ودخلوا المدينة، وقتلوه وهو في داره رضي الله عنه، وقد ذكر النبي ﷺ لعثمان رضي الله عنه أنه سيصيبه بلاءٌ، ولهذا صبر ونهى الصحابة عن قتال الخارجين عليه؛ كي لا يُراقَ دَمٌ مِن أجله رضي الله عنه.

ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال (خرج النبي ﷺإلى حائطٍ من حوائطِ المدينة... (فذكر الحديث إلى أن قال:) فجاء عثمان، فقلتُ: كما أنت؛ حتى أستأذن لك. فقال النبي ﷺ: "ائذن له، وبشِّره بالجنة معها بلاءٌ يُصيبُهُ) أخرجه البخاري، وخصَّ النَّبي ﷺ عثمان بذكر البلاء مع أن عمر قتل أيضًا؛ لكون عمر لم يمتَحَن بمثل ما امتُحِنَ به عثمان؛ من تسلُّط القوم الذين أرادوا منه أن ينخلع من الإمامة بسبب ما نسبوه إليه من الجَور والظلم؛ بعد إقناعه لهم، ورده عليهم، وبمقتل عثمان رضي الله عنه انقسم المسلمون، ووقع القتال، وانتشرت الفتن والأهواء، وكَثُر الاختلاف، وتشعَّبت الآراء، ودارت المعارك الطاحنة في عهد الصحابة رضي الله عنهم، وكان النبي ﷺ يعلم ما سيقع من الفتن في زمنهم؛ فإنه أشرف على أطم من أطام المدينة، فقال: (هل ترون ما أرى؟" قالوا: لا. قال: "فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر) أخرجه مسلم، قال النووي في شرح مسلم (١٨ / ٨): "والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم؛ أي: أنها كثير، تعمُّ الناس، لا تختصُّ بها طائفةٌ، وهذا إشارةٌ إلى الحروب الجارية بينهم؛ كوقعة الجمل، وصفِّين، والحرَّة، ومقتل عثمان

والحسين رضي الله عنهما.. وغير ذلك، وفيه معجزة ظاهرة له صلى الله عليه وسلم.

ج- موقعة الجمل: ومن الفتن التي وقعت بعد قتل عثمان رضي الله عنه ما وقع في معركة الجمل المشهورة بين علي رضي الله عنه وعائشة وطلحة والزبُّير رضي الله عنهم؛ فإنه لما قتل عثمان؛ أتى الناس عليا وهو في المدينة، فقالوا له: ابسُط يَدَكَ نُبايعك. فقال: حتى يتشاور الناس. فقال بعضهم: لئن رجع الناس إلى أمصارهم بقتل عثمان، ولم يقم بعده قائم؛ لم يؤمن الاختلاف وفساد الأمة، فألحوا على علي رضي الله عنه في قبول البيعة، فبايعوه، وكان ممن بايعه طلحة والزبير رضي الله عنهما، ثم ذهبا إلى مكة للعمرة، فلقيتهم عائشة رضي الله عنها، وبعد حديث جرى بينهم في مقتل عثمان توجهوا إلى البصرة، وطلبوا من علي أن يسلم لهم قتلة عثمان، فلم يجبهم؛ لأنه كان ينتظر من أولياء عثمان أن يتحاكموا إليه، فإذا ثبت على أحد بعينه أنه ممن قتل عثمان؛ اقتص منه، فاختلفوا بسبب ذلك، وخشي من نسب إليهم القتل - وهم الخارجون على عثمان - أن يصطلحوا على قتلهم، فأنشبوا الحرب بين الطائفتين، ومما يدلُّ على أن عائشة وطلحة والزبير لم يخرجوا للقتال، وإنما للصلح بين المسلمين ما رواه الحاكم من طريق قيس بن أبي حازم؛ قال: لما بلغت عائشة رضي الله عنها بعض ديار بني عامر؛ نبحت عليها الكلاب، فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: الحوآب - موضع قريب من البصرة- قالت: ما أظنني إلا راجعة. فقال لها الزبير: لا بعدُ، تقدَّمي، فيراك الناس، فيصلح الله ذات بينهم. فقالت: ما أظنني إلا راجعة؛ سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كيفَ بإحداكُنَّ إذا نبحتها كلاب الحواب)، وفي رواية للبزار عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسائه: (أيتكن صاحبة الجمل الأدبب، تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب، يقتل عن يمينها وعن شمالها قتلى كثيرة، وتنجو من بعد ما كادت).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية منهاج السنة (٢/ ١٨٥): "إن عائشة لم تخرج للقتال، وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين، وظنت أن في خروجها مصلحة للمسلمين، ثم تبين لها فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى، فكانت إذا ذكرت خروجها؛ تبكي حتى تَبُلَّ خِمارَها، وهكذا عامة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال، فندم طلحة والزبير وعلي ﷺ أجمعين. ولم يكن يوم الجمل لهؤلاء قصد في القتال، ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم؛ فإنه لما تراسل علي وطلحة والزبير، وقصدوا الاتفاق على المصلحة، وأنهم إذا تمكنوا؛ طلبوا قتلة عثمان أهل الفتنة، وكان علي غير راض بقتل عثمان، ولا معينًا عليه؛ كما كان يحلف، فيقول: والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله. وهو الصادق البار في يمينه، فخشي القتلة أن يتفق علي معهم على إمساك القتلة، فحملوا على عسكر طلحة والزبير، فظن طلحة والزبير أن عليًا حمل عليهم، فحملوا دفعًا عن أنفسهم، فظن علي أنهم حملوا عليه، فحمل دفعًا عن نفسه، فوقعت الفتنة بغير اختيارهم، وعائشة راكبة؛ لا قاتلت ولا أمرت بالقتال، وهكذا ذكره غير واحد من أهل المعرفة بالأخبار.اهـ.

د- موقعة صفين: ومن الفتن التي وقعت بين الصحابة ﷺ غير حرب الجمل ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: (لا تقوم السَّاعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، يكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة) رواه البخاري ومسلم فالفئتان هما طائفة علي ومن معه، وطائفة معاوية ومن معه، على ما ذكر الحافظ في الفتح (١٣/ ٨٥)، وقد وقعت الحرب بين الطائفتين في الموقعة المشهور بـ(صفين) في ذي الحجة سنة ست وثلاثين من الهجرة، وكان بين الفريقين أكثر من سبعين زحفًا، قتل نحو سبعين ألفًا من الفريقين، وما حصل من قتل بين علي ومعاوية

لم يكن يريده واحد منهما، بل كان في الجيشين من أهل الأهواء متغلبون يحرضون على القتال، الأمر الذي أدَّى إلى نُشوب تلك المعارك الطاحنة، وخروج الأمر من يد علي ومعاوية رضي الله عنهما. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٢/ ٢٢٤): "وأكثر الذين كانوا يختارون القتال من الطائفتين لم يكونوا يطيعون لا عليا ولا معاوية، وكان علي ومعاوية رضي الله عنهما أطلب لكف الدماء من أكثر المقتتلين، لكن غلبا فيما وقع، والفتنة إذا ثارت؛ عجز الحكماء عن إطفاء نارها. وكان في العسكرين مثل الأشتر النخعي، وهاشم بن عتبة المرقال، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وأبي الأعور السلمي، ونحوهم من المحرِّضين على القتال، قومٌ ينتصرون لعثمان غاية الانتصار، وقوم ينفرون عنه، وقوم ينتصرون لعلي، وقوم ينفرون عنه، ثم قتال أصحاب معاوية لم يكن لخصوص معاوية، بل كان لأسباب أخرى، وقتال الفتنة مثل قتال الجاهلية، لا تنضبط مقاصد أهله واعتقاداتهم؛ كما قال الزهري: وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون، فأجمعوا أن كل دم أو مال أو فرج أُصيب بتأويل القرآن؛ فإنه هدر، أنزلوهم منزلة الجاهلية".اهـ.

هـ- ظهور الخوراج: ومن الفتن التي وقعت ظهور الخوارج على علي رضي الله عنه، وكان بداية ظهورهم بعد انتهاء معركة (صفين)، واتفاق أهل العراق والشام على التحكيم بين الطائفتين، وفي أثناء رجوع علي رضي الله عنه إلى الكوفة فارقه الخوارج - وقد كانوا في جيشه -، ونزلوا مكانًا يقال له (حروراء)، ويبلغ عددهم ثمانية آلاف، وقيل: ستة عشر ألفًا، فأرسل علي إليهم ابن عباس رضي الله عنه، فناظرهم، ورجع معه بعضهم، ودخلوا في طاعة علي.

وأشاع الخوارج أن عليًا تاب من الحكومة، ولذلك رجع بعضهم إلى

طاعته، فخطبهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسجد الكوفة، فتنادوا من جوانب المسجد: لا حكم إلا لله. وقالوا: أشركتَ وحكَّمتَ الرجال ولم تحكِّم كتاب الله. فقال لهم عليٌّ: لكم علينا ثلاث: أن لا نمنَعَكُم من المساجد، ولا من رزقكم في الفيء، ولا نبدؤكم بقتال ما لم تحدثوا فسادًا. ثم إنهم تجمعوا وقتلوا من اجتاز بهم من المسلمين ومر بهم عبد الله بن خباب بن الأرت ومعه زوجته، فقتلوه وبقروا بطن زوجته عن ولدها، فلما علم بذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسألهم من قتله؟ فقالوا: كلنا قتله. فتجهز علي للقتال، والتقى بهم في الموقعة المشهورة بـ(النهروان)، فهزمهم شر هزيمة، ولم ينج منهم إلا القليل. وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخروج هذه الطائفة في هذه الأمة، فقد تواترت الأحاديث بذلك، ذكر منها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٢٩٠- ٣٠٧) أكثر من ثلاثين حديثًا وردت في الصحاح والسنن والمسانيد، منها ما رواه أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين، يقتلها أولى الطائفتين بالحق) رواه مسلم.

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما سئل عن الحرورية؟ قال: لا أدري ما الحرورية؟ سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (يخرج في هذه الأمة - ولم يقل منها - قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حلوقهم أو حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية) رواه البخاري، وقد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتال الخوراج، وبين أن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم، وهذا دليل على فساد هذه الطائفة، وبعدها عن الإسلام، وضررها العظيم على الأمة؛ بما تثيره من فتن وقلاقل. ففي الصحيحين عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (سيخرج قوم في آخر الزمان، أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا

يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة) قال الإمام البخاري (١٢/ ٢٨٢-فتح): (كان ابن عمر يراهم شرار خلق الله، وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين) قال الحافظ في الفتح (١٢/ ٢٨٥) عن الخوارج: "عظم البلاء بهم، وتوسَّعوا في معتقدهم الفاسد، فأبطلوا رجم المحصن، وقطعوا يد السارق من الإبط، وأوجبوا الصلاة على الحائض في حال حيضها، وكفروا من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن كان قادرًا وإن لم يكن قادرًا؛ فقد ارتكب كبيرة، وحكم مرتكب الكبيرة عندهم حكم الكافر، وكفوا عن أموال أهل الذمة وعن التعرض لهم مطلقًا، وفتكوا فيمن ينسب إلى الإسلام بالقتل والسبي والنهب.اهـ.

ولا يزال الخوارج يَظهرون حتى يدرك آخرهم الدجال، ففي الحديث عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ؛ قال: (ينشأ نشء يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيَهُم، كلما خرج قرن؛ قطع (أكثر من عشرين مرة) حتى يخرج في عراضهم الدجال) أخرجه ابن ماجة.

و- موقعة الحرَّة: ثم تتابع وقوع الفتن بعد ذلك، ومن هذه الفتن موقعة الحرة

المشهورة في عهد يزيد بن معاوية، والتي استبيحت فيها مدينة رسول الله ﷺ، وقُتِل فيها كثيرٌ من الصحابة رضي الله عنهم.

ز- فتنة القول بخلق القرآن: ثم ظهر بعد ذلك في عهد العباسيين فتنة القول بخلق القرآن، وقد تزعم هذه المقالة الخليفة العباسي المأمون، وناصرها، وتبع في ذلك الجهمية والمعتزلة الذين روجوها عنده، حتى امتحن بسببها علماء

الإسلام، ووقع على المسلمين بذلك بلاء عظيم، فقد شغلتهم ردحًا طويلًا من الزمن، وأدخل بسببها في عقيدة المسلمين ما ليس منها. هذا؛ والفتن التي وقعت كثيرة لا حصر لها، ولا تزال الفتن تظهر وتتتابع وتزداد، وبسبب هذه الفتن وغيرها من الفتن افترق المسلمون إلى فرق كثيرة، كل فرقة تدعو إلى نفسها، وتدعي أنها على الحق، وأن غيرها على الباطل. وقد أخبر الهادي البشير عليه الصلاة والسلام بافتراق هذه الأمة كما افترقت الأمم قبلها، ففي الحديث عن أبي هريرة ﵁؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) رواه أصحاب "السنن"؛ إلا النسائي.

وعن أبي عامر عبد الله بن لحي؛ قال: حججنا مع معاوية بن أبي سيفان ﵁، فلما قدمنا مكة؛ قام حين صلى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺقال: (إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني: الأهواء -؛ كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله". والله يا معشر العرب! لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ؛ لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به) أخرجه أحمد وأبي دواد وغيرهما.

ح- اتباع سنن الأمم الماضية: ومن الفتن العظيمة اتباع سنن اليهود والنصارى وتقليدهم، فقد قلد بعض المسلمين الكفار، وتشبهوا بهم، وتخلقوا بأخلاقهم، وأعجبوا بهم، وهذا مصداق ما أخبر به النبي ﷺ، ففي الحديث عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: (لا تقوم السَّاعة حتى تأخذ أمتي بأخذ

القرون قبلها شبراً بشبر، وذراعًا بذراع". فقيل: يا رسول الله! كفارس والروم؟ فقال: "ومن الناس إلا أولئك) رواه البخاري وفي رواية عن أبي سعيد: (قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟!) رواه البخاري ومسلم.

قال ابن بطال كما في الفتح (١٣/ ٣٠١): "أعلم ﷺ أن أمته ستتبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء؛ كما وقع للأمم قبلهم، وقد أنذر في أحاديث كثيرة بأن الآخر شر، والسَّاعة لا تقومُ إلا على شرار الناس، وأن الدين إنما يبقى قائمًا عند خاصة من الناس. وقال الحافظ: "وقد وقع معظم ما أنذر به ﷺ، وسيقع بقية" ذلك.اهـ.

وقال النووي في شرح مسلم (١٦/ ٢١٩): "والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم، والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر، وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ، فقد وقع ما أخبر به ﷺ".اهـ.

هذا؛ والفتن ليس لها حصرٌ، ففتنة النساء، وفتنة المال، وحب الشهوات، وحب السلطان والسيادة والزعامة؛ كلها فتنٌ ربما تهلك الإنسان، وتعصف به إلى مهاوي الرَّدى، نسأل الله العافية والسلامة.

٧- ظهور مدَّعي النبوَّة: ومن العلامات التي ظهرت: خروج الكذَّابين الذين يدعون النبوة، وهم قريبٌ من ثلاثين كذابًا، وقد خرج بعضهم في الزمن النبويِّ وفي عهد الصحابة، ولا يزالون يظهرون. وليس التحديد في الأحاديث مرادًا به كل من ادعى النبوة مطلقًا؛ فإنهم كثيرٌ لا يُحصون، وإنما المراد من قامت له شوكة، وكَثُر أتباعه، واشتهر بين الناس كما في الفتح (٦/ ٦١٧).

ففي "الصحيحين" عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (لا تقوم السَّاعة

حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين؛ كلهم يزعم أنه رسول الله)، وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم السَّاعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون من أمتي ثلاثون كذابون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي) أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما، والأحاديث في ظهور هؤلاء الدجاجلة كثيرة، وفي بعضها وقع أنهم ثلاثون بالجزم؛ كما في حديث ثوبان، وفي بعضها أنهم قريب من الثلاثين؛ كما في حديث الصحيحين، ولعل رواية ثوبان على طريقة جبر الكسر، وممن ظهر من هؤلاء الثلاثين مسيلمة الكذاب، فادعى النبوة في آخر زمن النبي ﷺ، وكاتبه رسول الله ﷺ، وسماه مسيلمة الكذاب، وقد كثر أتباعه، وعظم شره على المسلمين، حتى قضى عليه الصحابة في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في معركة اليمامة المشهورة، وظهر كذلك الأسود العنسي في اليمن، وادعى النبوة، فقتله الصحابة قبل موت النبي ﷺ، وظهرت سجاح، وادعت النبوة، وتزوجها مسيلمة، ثم لما قتل؛ رجعت إلى الإسلام، وتنبأ أيضًا طليحة بن خويلد الأسدي، ثم تاب ورجع إلى الإسلام، وحسن إسلامه، ثم ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي، وأظهر محبة أهل البيت، والمطالبة بدم الحسين، وكثر أتباعه، فتغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير، ثم أغواه الشيطان، فادعى النبوة ونزول جبريل عليه، والذي يقوي أنه من الدجالين ما رواه أبو داود بعد سياقه لحديث أبي هريرة الذي في "الصحيحين" في ذكر الكذابين: "عن إبراهيم النخعي أنه قال لعبيدة السلماني: أترى هذا منهم - يعني: المختار-؟ قال: فقال عبيدة: أما إنه من الرؤوس"، ومنهم الحارث الكذاب، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان، فقتل، وخرج في خلافة بني العباس جماعة، وظهر في العصر

الحديث ميرزا أحمد القادياني بالهند، وادعى النبوة، وأنه المسيح المنتظر، وأن عيسى ليس بحي في السماء.... إلى غير ذلك من الادعاءات الباطلة، وصار له أتباع وأنصار، وانبرى له كثير من العلماء، فردوا عليه، وبينوا أنه أحد الدجالين.

ولا يزال خروج هؤلاء الكذابين واحدًا بعد الآخر، حتى يظهر آخرهم الأعور الدجال، فقد روى الإمام أحمد عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم كسفت الشمس على عهده: (وإنه والله لا تقوم السَّاعة حتى يخرج ثلاثون كذابًا، آخرهم الأعور الكذاب)، ومن هؤلاء الكذابين أربع نسوة، فقد روى الإمام أحمد عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نبي الله ﷺ قال: (في أمتي كذابون ودجالون سبعة وعشرون، منهم أربع نسوة، وإني خاتم النبيين، لا نبي بعدي).

٨- انتشار الأمن: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم السَّاعة حتى يسير الراكب بين العراق ومكة، لا يخاف إلا ضلال الطريق) أخرجه أحمد، وهذا قد وقع في زمن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وذلك حينما عم الإسلام والعدل البلاد التي فتحها المسلمون، ويؤيدُهُ ما تقدم في حديث عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال له النبي ﷺ: (يا عدي ! هل رأيت الحيرة؟". قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها. قال: "فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة؛ لا تخاف إلا الله...) وسيكون ذلك في زمن المهدي وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما يعمُّ العدلُ مكان الجور والظلم.

٩- ظُهورُ نارِ الحجازِ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز؛ تضيء أعناق الإبل ببصرى) وبصرى مدينة معروفة بالشام، والحديث أخرجه البخاري ومسلم.

وقد ظهرت هذه النار في منتصف القرن السابع الهجري في عام أربع وخمسين وست مئة، وكانت نارًا عظيمة، أفاض العلماء ممن عاصر ظهورها ومن بعدهم في وصفها، قال النووي في شرح مسلم (١٨/ ٢٨): "خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وست مئة، وكانت نارًا عظيمة جدًا، من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة، وتواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة".اهـ.

ونقل ابن كثير في النهاية (١/ ١٤) أن غير واحد من الأعراب ممن كان بحاضرة بصرى شاهدوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت من أرض الحجاز.اهـ.

وذكر القرطبي ظهورَ هذه النار، وأفاض في وصفها في كتابه "التذكرة (ص٦٣٦)، فذكر أنها رئيت من مكة ومن جبال بصرى.

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٧٩): "والذي ظهر لي أن النار المذكورة... هي التي ظهرت بنواحي المدينة؛ كما فهمه القرطبي وغيره.اهـ.

وهذه النار ليست هي النار التي تخرج في آخر الزمان، تحشر الناس إلى محشرهم؛ كما سيأتي في الكلام عليها في الأشراط الكبرى.

١٠ - قِتالُ التُّرك: روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى يقاتل المسلمون الترك؛ قومًا وجوههم كالمجان المطرق، يلبسون الشعر، ويمشون في الشعر)، وللبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى تقاتلوا قومًا نعالهم الشعر، وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة)، وعند البخاري عن عمرو بن تغلب؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (من

أشراط السَّاعة أن تقاتلوا قومًا عراض الوجوه، كأن وجوههم المجان المطرقة)، وقد قاتل المسلمون الترك من عصر الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وذلك في أول خلافة بني أمية، في عهد معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقد روى أبو يعلى عن معاوية بن خديج؛ قال: كنت عند معاوية بن أبي سفيان حين جاءه كتاب من عامله يخبره أنه وقع بالترك وهزمهم، وكثرة من قتل منهم، وكثرة من غنم، فغضب معاوية من ذلك، ثم أمر أن يكتب إليه: قد فهمت مما قلت ما قتلت وغنمت، فلا أعلمن ما عدت لشيء من ذلك ولا قاتلتهم حتى يأتيك أمري. قلت: لم يا أمير المؤمنين؟ قال: سمعتُ رسول اله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (لتظهرن الترك على العرب حتى تلحقها بمنابت الشيخ والقيصوم، فأنا أكره قتالهم لذلك) وإسناده ضعيف، ولكن له شواهد، منها حديث: (اتركوا الترك ما تركوكم) قال الحافظ في الفتح (٦/ ٦٠٩/ ٦١٠)::كان ما بينهم وبين المسلمين مسدودًا إلى أن فتح ذلك شيئًا بعد شيء، وكثر السبي منهم، وتنافس الملوك فيهم، لما يتصفون به من الشدة والبأس، حتى كان أكثر عسكر المعتصم منهم، ثم غلب الأتراك على الملك، فقتلوا ابنه المتوكل، ثم أولاده واحدًا بعد واحد، إلى أن خالط المملكة الديلم، ثم كان الملوك السامانية من الترك أيضًا، فملكوا بلاد العجم، ثم غلب على تلك الممالك آل سبكتكين، ثم آل سلجوق، وامتدت مملكتهم إلى العراق والشام والروم، ثم كان بقايا أتباعهم بالشام - وهم آل زنكي -، وأتباع هؤلاء - وهم بيت أيوب -، واستكثر هؤلاء أيضًا من الترك، فغلبوهم على المملكة بالديار المصرية والشامية والحجازية، وخرج على آل سلجوق في المئة الخامسة الغز، فخربوا البلاد، وفتكوا في العباد، ثم جاءت الطامة الكبرى بالططر (التتار)، فكان خروج جنكز خان بعد الست مئة، فأسعرت بهم الدُّنيا نارًا، خصوصًا المشرق

بأسره، حتى لم يبق بلد منه حتى دخله شرهم، ثم كان خراب بغداد وقتل الخليفة المستعصم آخر خلفائهم على أيديهم في سنة ست وخمسين وست مئة، ثم لم تزل بقاياهم يخربون إلى أن كان آخرهم (اللنك)، ومعناه: الأعرج، واسمه (تمر)؛ بفتح المثناة، وضم الميم، وربما أشبعت، فطرق الديار الشامية، وعاث فيها، وحرق دمشق حتى صارت على عروشها، ودخل الروم والهند وما بين ذلك، وطالت مدته إلى أن أخذه الله، وتفرق بنوه في البلاد وظهر بجميع ما أوردته مصداق قوله ﷺ: "إن بني قنطوراء أول من سلب أمتي ملكهم"... وكأنه يريد بقوله: "أمتي" أمة النسب، لا أمة الدعوة؛ يعني: العرب، والله أعلم.اهـ. وعلى هذا يكون التتار الذين يظهرون في القرن السابع الهجري هم من الترك؛ فإن الصفات التي جاءت في وصف الترك تنطبق على التتار (المغول)، وقد كان ظهورهم في زمن الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال فيهم في شرح مسلم (١٨/ ٣٧): "قد وجد قتال هؤلاء الترك بجميع صفاتهم التي ذكرها ﷺ: صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الآنف، عراض الوجوه، كأن وجوههم المجان المطرقة، ينتعلون الشعر، فوجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا، وقاتلهم المسلمون مرات، وقتالهم الآن".اهـ.

وقد دخل كثير من الترك في الإسلام، ووقع على أيديهم خير كثير للإسلام والمسلمين، وكونوا دولة إسلامية قوية، عز بها الإسلام، وحصل في عهدهم كثير من الفتوحات العظيمة، ومنها: فتح القسطنطينية عاصمة الروم، وهو تهيئة للفتح العظيم آخر الزمان قبل ظهور الدجال؛ كما سيأتي، ودخل الإسلام إلى أوروبا وكثير من البلدان في الشرق والغرب، وهذا مصداق لما قاله المصطفى ﷺ كما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند البخاري بعد ذكره ﷺ لقتال الترك؛

قال: (وتجدون من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر، حتى يقع فيه، والناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام)

١١- قتال العجم: عن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى تقاتلوا خوزًا وكِرمان من الأعاجم؛ حُمرُ الوجوه، فُطسُ الأنوف، صغار الأعين؛ كأن وجوهَهُم المجانُّ المُطرَقة، نعالهم الشعر).

وقد مضى في الكلام على قتال الترك ذكر صفاتهم التي جاء ذكرها في أحاديث قتالهم، وذكر هنا في هذا الحديث قتال خوز وكرمان، وهما ليسا من بلاد الترك، بل من بلاد العجم، ومع هذا جاء وصفهم كوصف الترك.

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٦٠٧): "يمكِن أن يُجاب بأن هذا الحديث غير حديث قتال الترك، ويجتمع منهما الإنذار بخروج الطائفتين.اهـ.

قلت: ويؤيد هذا ما رواه سمرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عند أحمد ولكن بسند ضعيف؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك أن يملأ الله عَزَّوَجَلَّ أيديكم من العجم، ثم يكونون أسدًا لا يفرون، فيقتلون مقاتلتكم، ويأكلون فيئكم)، وعن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك أن يكثر فيكم من العجم أسد لا يفرون، فيقتلون مقاتلتكم، ويأكلون فيئكم) وعلى هذا فقتال العجم من أشراط السَّاعة.

١٢- ضياعُ الأمانَة: عن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عند البخاري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا ضيعت الأمانة؛ فانتظر السَّاعة". قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: "إذا أسند الأمر إلى غير أهله؛ فانتظر السَّاعة)، وبيَّن النبي ﷺ كيف تُرفع الأمانة من القلوب، وأنه لا يبقى منها في القلب إلا أثرها، كما في حديث حذيفة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عند البخاري؛ قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، رأيت إحداهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من

القرآن، ثم علموا من السنة، وحدثنا عن رفعها؛ قال: "ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكتِ، ثم ينام النومة فتُقبَضُ، فيبقى أثرها مثل المجل؛ كجمر دحرجته على رجلك، فنفط، فتراه منتبرًا، وليس فيه شيءٌ، فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلًا أمينًا، ويقال للرجل: ما أعقله! وما أظرفه! وما أجلده! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولقد أتى عليَّ زمانٌ وما أبالي أيَّكُم بايعتُ، لئن كان مسلمًا؛ ردَّه الإسلام، وإن كان نصرانيًا، ردَّه عليَّ ساعيه، فأما اليوم؛ فما كنتُ أُبايعُ إلا فلانًا وفلانًا) ففي هذا الحديث بيان أن الأمانة ستُرفع من القلوب، حتى يصير الرجل خائنًا بعد أن كان أمينًا، وهذا إنما يقع لمن ذهبت خشيته لله، وضعُف إيمانُه، وخالطَ أهلَ الخيانة، فيصير خائنًا؛ لأن القرين يقتدي بقرينه.

قال الحافظ في الفتح (١/ ١٤٣): "ومناسبةُ هذا المتن لكتاب العلم أن إسناد الأمر إلى غير أهله إنما يكون عند غَلَبة الجهل، ورفع العلم، وذلك من جملة الأشراط".اهـ. وقد أخبر ﷺ أنه ستكون هناك سنون خدَّاعة؛ تنعكس فيها الأمور؛ يُكَّذب فيها الصادق، ويُصَّدق فيها الكاذب، ويخوَّن الأمين، ويؤتمن الخائن؛ كما سيأتي الحديث عنه في أن من أشراط السَّاعة ارتفاع الأسافل.

١٣- قبض العلم وظهور الجهل: ومن أشراطها قبض العلم وفشوُّ الجهل، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (من أشراط السَّاعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل)، وروى البخاري عن شقيق؛ قال: كنت مع عبد الله وأبي موسى، فقالا: قال النبي ﷺ: (إن بين يدي السَّاعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويرفع العلم)، وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (يتقارب الزمان، ويقبض العلم، وتظهر الفتن، ويلقى الشح،

ويكثر الهرج).

قال ابن بطال كما في الفتح (١٣/ ١٦): "وجميع ما تضمنه هذا الحديث من الأشراط قد رأيناها عيانًا، فقد نقص العلم، وظهر الجهل، وألقي الشح في القلوب، وعمت الفتن، وكثر القتل" وعقب على ذلك الحافظ بقوله: "الذي يظهر أن الذي شاهده كان منه الكثير، مع وجود مقابله، والمراد من الحديث استحكام ذلك، حتى لا يبقى ما يقابله إلا النادر، وإليه الإشارة بالتعبير بقبض العلم، فلا يبقى إلا الجهل الصرف، ولا يمنع من ذلك وجود طائفة من أهل العلم؛ لأنهم يكونون حينئذ مغمورين في أولئك.اهـ.

وقبض العلم يكون بقبض العلماء، ففي الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عند البخاري ومسلم؛ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا؛ اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسئلوا؟ فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا) قال النووي في شرح مسلم (١٦/ ٢٢٣): "هذا الحديث يبين أن المراد بقبض العلم في الأحاديث السابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حفاظه، ولكن معناه: أن يموت حملته، ويتخذ الناس جهالًا يحكمون بجهالاتهم، فيضلون ويضلون.اهـ. والمراد بالعلم هنا علم الكتاب والسنة، وهو العلم الموروث عن الأنبياء عليهم السلام؛ فإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وبذهابهم يذهب العلم، وتموت السنن، وتظهر البدع، ويعم الجهل، وأما علم الدُّنيا؛ فإنه في زيادة، وليس هو المراد في الأحاديث؛ بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: (فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا)، والضلال إنما يكون عند الجهل بالدين، والعلماء الحقيقيون هم الذين يعملون بعلمهم، ويوجهون الأمة، ويدلُّونها على طريق

الحق والهدى؛ فإن العلم بدون عمل لا فائدة فيه، بل يكون وبالًا على صاحبه، وقد جاء في رواية للبخاري: (وينقص العمل) قال الإمام الذهبي في تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٣١) بعد ذكره لطائفة من العلماء: " وما أوتوا من العلم إلا قليلًا، وأما اليوم فما بقي من العلوم القليلة إلا القليل في أناس قليل، ما أقل من يعمل منهم بذلك القليل، فحسبنا الله ونعم الوكيل..اهـ. وإذا كان هذا في عصر الذهبي؛ فما بالك بزماننا؟ فإنه كلما بعد الزمان من عهد ا لنبوة؛ قل العلم، وكثر الجهل؛ فإن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا أعلم هذه الأمة، ثم التابعين، ثم تابعيهم، وهم خير القرون؛ كما قال ﷺ في حديث مسلم: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)

ولا يزال العلم ينقص، والجهل يكثر، حتى لا يعرف الناس فرائض الإسلام، فقد روى حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة؟ ويسرى على كتاب الله في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبير، والعجوز؛ يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة؛ يقولون: (لا إله إلا الله)، فنحن نقولها". فقال له صلة ما تغني عنهم (لا إله إلا الله) وهم لا يدرون ما صلاة، ولا صيام، ولا نسك، ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم رددها عليه ثلاثًا، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صلة! تنجيهم من النار ثلاثًا) أخرجه ابن ماجة وغيره، وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لينزعن القرآن من بين أظهركم؛ يسرى عليه ليلًا، فيذهب من أجواف الرجال، فلا يبقى في الأرض منه شيء) أخرجه الطبراني.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ١٩٨): "يسرى به في

آخر الزمان من المصاحف والصدور، فلا يبقى في الصدور منه كلمة، ولا في المصاحف منه حرف.اهـ.

وأعم من هذا أن لا يذكر اسم الله تعالى في الأرض؛ كما في الحديث عن أنس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عند مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله) وفي معناه قولين:

أحدهما: أن معناه أن أحدًا لا ينكر منكرًا، ولا يزجر أحدًا إذا رآه قد تعاطى منكرًا، وعبر عن ذلك بقوله: (حتى لا يقال: الله، الله"؛ كما تقدم في حديث عبد الله بن عمر: "فيبقى فيها عجاجة؛ لا يعرفون معروفًا، ولاينكرون منكرًا).

والقول الثاني: حتى لا يذكر الله في الأرض، ولا يعرف اسمه فيها، وذلك عند فساد الزمان، ودمار نوع الإنسان، وكثرة الكفر والفسوق والعصيان.

١٤- كثرة الشرط وأعوان الظلمة: روى الإمام أحمد عن أبي أمامة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (يكون في هذه الأمة في آخر الزمان رجال - أو قال: يخرج رجال من هذه الأمة في آخر الزمان - معهم سياط؛ كأنها أذناب البقر، يغدون في سخط الله، ويروحون في غضبه)، وفي رواية الطبراني في الكبير: (سيكون في آخر الزمان شرطة يغدون في غضب الله، ويروحون في سخط الله، فإياك أن تكون من بطانتهم) وقد جاء الوعيد بالنار لهذا الصنف من الناس الذين يتسلطون على المسلمين، ويعذبونهم بغير بحق عند الإمام مسلم عن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس...).

قال النووي في شرح مسلم (١٧/ ١٩٠): "وهذا الحديث من معجزات النبوة، فقد وقع ما أخبر به ﷺ، فأما أصحاب السياط؛ فهم غلمان والي

الشرطة.اهـ.

وقال ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه (إن طالت بك مدة؛ أوشكت أن ترى قومًا يغدون في سخط الله، ويروحون في لعنته، في أيديهم مثل أذناب البقر) أخرجه مسلم.

١٥- انتشار الزنا: ومن العلامات التي ظهرت فُشُوُّ الزنا وكثرته بين الناس، فقد أخبر النبي ﷺبأن ذلك من أشراط السَّاعة.

فقد ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من أشراط السَّاعة.. (فذكر منها:) ويظهر الزنا)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (سيأتي على الناس سنوات خدَّاعاتٌ.. (فذكر الحديث، وفيه:) وتشيع فيها الفاحشة) وأعظم من ذلك استحلال الزنا، فقد ثبت في الحديث الصحيح عن أبي مالك الأشعري أنه سمع النبي ﷺ يقول: (ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير)

وفي آخر الزمان بعد ذهاب المؤمنين يبقى شرار الناس؛ يتهارجون تهارج الحمر؛ كما جاء في حديث النواس رضي الله عنه عند مسلم: (ويبقى شرار ا الناس، يتهارجون فيها تهارُجَ الحُمُرِ، فعليهم تقوم السَّاعة)، وعند عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما (لا تقوم الساعة حتى يتسافدوا في الطريق تسافد الحمير، قلت: إن ذلك لكائن؟ قال: نعم ليكونن) أخرجه البزار، وله شاهد عند أبي يعلى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (والذي نفسي بيده؛ لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة، فيفترشها في الطريق، فيكون خيارهم يومئذ من يقول: لو واريتَها وراء هذا ا لحائط!).

قال القرطبي في كتابه المفهم كما في الفتح (١/ ١٧٩) على حديث أنس

السابق: "في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، إذ أخبر عن أمور ستقع، فوقعت، خصوصًا في هذه الأزمان.اهـ. وإذا كان هذا في زمان القرطبي؛ فهو في زماننا هذا أكثر ظهورًا؛ لعظم غلبة الجهل، وانتشار الفساد بين الناس.

١٦- انتشار الربا: ومنها ظهور الربا، وانتشاره بين الناس، وعدم المبالاة بأكل الحرام، ففي الحديث عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (بين يدي السَّاعة يظهر الربا) وهو مخرج في الصحيحة (٣٤١٥/ ٢) وفي الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن حلال أم من حرام)

وهذه الأحاديث تنطبق على كثير من المسلمين في هذا الزمن، فتجدهم لا يتحرون الحلال في المكاسب، بل يجمعون المال من الحلال والحرام، وأغلب ذلك بدخول الربا في معاملات الناس، فقد انتشرت المصارف المتعاملة بالربا، ووقع كثير من الناس في هذا البلاء العظيم، ومن فقه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه أورد حديث أبي هريرة السابق في باب قول الله عَزَّ وَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً} [آل عمران: ١٣٠]؛ ليبين أن أكل الأضعاف المضاعفة من الربا يكون بالتوسع فيه عند عدم مبالاة الناس بطرق جمع المال، وعدم التمييز بين الحلال والحرام.

١٧- ظُهور المعازف واستحلالها: عن سهل بن سعد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (سيكون في آخر الزمان خسف، وقذف، ومسخ". قيل: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: إذا ظهرت المعازف والقينات) وهذه العلامة قد وقع شيءٌ كبيرٌ منها في العصور السابقة، وهي الآن أكثر ظهورًا، فقد ظهرت المعازف في هذا الزمان، وانتشرت انتشارًا عظيمًا، وكثر المغنون والمغنيات، وهم المشار إليهم في هذا

الحديث بـ(القينات)، وأعظم من ذلك استحلال كثير من الناس للمعازف، وقد جاء الوعيد لمن فعل ذلك بالمسخ والقذف والخسف؛ كما في الحديث السابق، ولما ثبت في في الحديث الصحيح عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم - يعني: الفقير - لحاجة، فيقولوا: ارجع إلينا غدًا، فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة).

١٨ - كثرة شرب الخمر واستحلالها: ظهر في هذه الأمة شرب الخمر، وتسميتها بغير اسمها، والأدهى من ذلك استحلال بعض الناس لها، وهذا من أمارات السَّاعة، فقد روى الإمام مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من أشراط السَّاعة:... (وذكر منها) ويشرب الخمر)، ومضى ذكر بعض الأحاديث في الكلام على المعازف، وفيها أنه سيكون من هذه الأمة من يستحل شرب الخمر، ومنها ما رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن عباة بن الصامت؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لتستحلن طائفة من أمتي الخمر باسم يسمونها إياه) فقد أطلق على الخمر أسماء كثيرة، حتى سميت بـ(المشروبات الروحية)!! ونحو ذلك، والأحاديث في بيان أن هذه الأمة سيفشو فيها شرب الخمر، وأن فيهم من يستحلها ويغير اسمها كثيرة.

وفسر ابن العربي استحلال الخمر بتفسيرين كما في الفتح (١٠/ ٥١):

الأول: اعتقاد حل شربها.

الثاني: أن يكون المراد بذلك الاسترسال في شربها؛ كالاسترسال في الحلال.

وذكر أنه سمع ورأى من يفعل ذلك.اهـ.

وهو في زمننا هذا أكثر، فقد فتن بعض الناس بشربها، وأعظم من ذلك بيعها جهارًا، وشربها علانية في بعض البلدان الإسلامية، وانتشار المخدرات انتشارًا عظيمًا لم يسبق له مثيل؛ مما ينذر بخطر عظيم، وفساد كبير، والأمر لله من قبل ومن بعد.

١٩- زخرفة المساجد والتباهي بها: ومنها زخرفة المساجد، ونقشها، والتفاخر بها، فقد روى الإمام أحمد عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى يتباهى الناس في المساجد)، وفي رواية للنسائي وابن خزيمة عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺقال: (من أشراط السَّاعة أن يتباهى الناس في المساجد)، قال البخاري (١/ ٥٣٩-فتح): (قال أنس: يتباهون بها، ثم لا يعمرونها إلا قليلًا، فالتباهي بها: العناية بزخرفتها. قال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى)، وقد نهى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -كما في صحيح البخاري (١/ ٥٣٩-فتح) معلقا مجزوما به- عن زخرفة المساجد؛ لأن ذلك يشغل الناس عن صلاتهم، وقال عندما أمر بتحديد المسجد النبوي: (أكن الناس من المطر، وإياك أن تحمر أو تصفر، فتفتن الناس) ورحم الله عمر؛ فإن الناس لم يأخذوا بوصيته، ولم يقتصروا على التحمير والتصفير، بل تعدوا ذلك إلى نقش المساجد كما ينقش الثوب، وتباهى الملوك والخلفاء في بناء المساجد، وتزويقها، حتى أتوا في ذلك بالعجب، ولا زالت هذه المساجد قائمة حتى الآن؛ كما في الشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس وغيرها، وحتى الآن لا يزال المسلمون يتباهون في زخرفة الساجد، ولا شك أن زخرفة المساجد علامة على الترف والتبذير، وعمارتها إنما تكون بالطاعة والذكر فيها، ويكفي الناس ما يكنهم من الحر والقر والمطر، وقد جاء الوعيد بالدمار إذا زخرفت المساجد،

وحليت المصاحف، فقد روى الحكيم الترمذي عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (إذا زوقتم مساجدكم، وحليتم مصاحفكم؛ فالدمار عليكم) قال المناوي في الفيض (١ / ٧): "فزخرفة المساجد وتحلية المصاحف منهي عنها؛ لأن ذلك يشغل القلب، ويلهي عن الخشوع والتدبر والحضور مع الله تعالى، والذي عليه الشافعية أن تزويق المسجد - ولو الكعبة - بذهب أو فضة: حرام مطلقًا، وبغيرهما مكروه. ٢٠- التطاول في البنيان: هذا من العلامات التي ظهرت قريبًا من عصر النبوة، وانتشرت بعد ذلك، حتى تباهى الناس في العمران، وزخرفة البيوت، وذلك أن الدُّنيا بسطت على المسلمين، وكثرت الأموال في أيديهم بعد الفتوحات، وامتد بهم الزمان حتى ركن كثير منهم إلى الدُّنيا، ودب إليهم داء الأمم قبلهم، وهو التنافس في جمع الأموال وصرفها في غير ما ينبغي أن تصرف فيه شرعًا، حتى إن أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفقر بسطت لهم الدُّنيا؛ كغيرهم من الناس، وأخذوا في بناء الأبنية ذوات الطوابق المتعددة، وتنافسوا في ذلك، وكل هذا قد وقع كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال لجبريل عندما سأله عن وقت قيام السَّاعة: (ولكن سأحدثك عن أشراطها.. (فذكر منها): وإذا تطاول رعاء البهائم في البنيان؛ فذاك من أشراطها)، وفي رواية لمسلم: (وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)، وجاء في رواية للإمام أحمد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال (يا رسول الله ! ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟ قال: العرب)، وروى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم السَّاعة... حتى يتطاول الناس في البنيان).

قال الحافظ في الفتح (١٣ / ٨٨): "ومعنى التطاول في البنيان أن كلا ممن

كان يبني بيتًا يريد أن يكون ارتفاعه أعلى من ارتفاع الآخر، ويحتمل أن يكون المراد بالمباهاة به في الزينة والزخرفة، أو أعم من ذلك، وقد وجد الكثير من ذلك، وهو في ازدياد".اهـ.

وقد ظهر هذا جليًا في هذا العصر، فتطاول الناس في البنيان، وتفاخروا في طولها وعرضها وزخرفتها، بل وصل بهم الأمر إلى أن بنوا ما يشبه ناطحات السحاب المشهورة في بلدان العالم.

٢١- ولادة الأمة لربتها: جاء في حديث جبريل الطويل قوله النبي ﷺ: (وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربتها). متفق عليه، وفي روية لمسلم: (إذا ولدت الأمة ربها) قال الحافظ في الفتح (١/ ١٢٢): قد اختلف العلماء قديما وحديثا في معنى ذلك: قال ابن التين: اختلف فيه على سبعة أوجه، فذكرها لكنها متداخلة، وقد لخصتها بلا تداخل فإذا هي أربعة أقوال: الأول: قال الخطابي: معناه اتساع الإسلام، واستيلاء أهله على بلاد الشرك وسبي ذراريهم، فإذا ملك الرجل الجارية واستولدها، كان الولد منها بمنزلة ربها لأنه ولد سيدها. قال النووي وغيره: إنه قول الأكثرين. قلت: لكن في كونه المراد نظر. لأن استيلاد الإماء كان موجودا حين المقالة، والاستيلاء على بلاد الشرك وسبي ذراريهم واتخاذهم سراري، وقع أكثره في صدر الإسلام، وسياق الكلام يقتضي الإشارة إلى وقوع ما لم يقع مما سيقع قرب قيام الساعة، وقد فسره وكيع في رواية ابن ماجه بأخص من الأول. قال: أن تلد العجم العرب، ووجهه بعضهم بأن الإماء يلدن الملوك، فتصير الأم من جملة الرعية والملك سيد رعيته، وهذا لإبراهيم الحربي، وقربه بأن الرؤساء في الصدر الأول كانوا يستنكفون غالبا من وطء الإماء ويتنافسون في الحرائر، ثم انعكس الأمر ولا

سيما في أثناء دولة بني العباس، ولكن رواية ربتها بتاء التأنيث قد لا تساعد على ذلك. ووجهه بعضهم بأن إطلاق ربتها على ولدها مجاز، لأنه لما كان سببا في عتقها بموت أبيه أطلق عليه ذلك، وخصه بعضهم بأن السبي إذا كثر، فقد يسبى الولد أولا وهو صغير، ثم يعتق ويكبر ويصير رئيسا بل ملكا، ثم تسبى أمه فيما بعد فيشتريها عارفا بها، أو وهو لا يشعر أنها أمه، فيستخدمها أو يتخذها موطوءة أو يعتقها ويتزوجها. وقد جاء في بعض الروايات: "أن تلد الأمة بعلها " وهي عند مسلم فحمل على هذه الصورة، وقيل المراد: بالبعل المالك وهو أولى لتتفق الروايات. الثاني: أن تبيع السادة أمهات أولادهم، ويكثر ذلك فيتداول الملاك المستولدة حتى يشتريها ولدها ولا يشعر بذلك، وعلى هذا فالذي يكون من الأشراط، غلبة الجهل بتحريم بيع أمهات الأولاد، أو الاستهانة بالأحكام الشرعية. فإن قيل: هذه المسألة مختلف فيها فلا يصلح الحمل عليها، لأنه لا جهل ولا استهانة عند القائل بالجواز، قلنا: يصلح أن يحمل على صورة اتفاقية كبيعها في حال حملها، فإنه حرام بالإجماع. الثالث: وهو من نمط الذي قبله، قال النووي: لا يختص شراء الولد أمه بأمهات الأولاد، بل يتصور في غيرهن بأن تلد الأمة حرا من غير سيدها بوطء شبهة، أو رقيقا بنكاح أو زنا، ثم تباع الأمة في الصورتين بيعا صحيحا، وتدور في الأيدي حتى يشتريها ابنها أو ابنتها. ولا يعكر على هذا تفسير محمد بن بشر، بأن المراد السراري لأنه تخصيص بغير دليل. الرابع: أن يكثر العقوق في الأولاد، فيعامل الولد أمه معاملة السيد أمته من الإهانة بالسب والضرب والاستخدام. فأطلق عليه ربها مجازا لذلك. أو المراد بالرب المربي فيكون حقيقة، وهذا أوجه الأوجه عندي لعمومه، ولأن المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الأحوال مستغربة.

ومحصله الإشارة إلى أن الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الأمور بحيث يصير المربي مربيا والسافل عاليا، وهو مناسب لقوله في العلامة الأخرى: أن تصير الحفاة ملوك الأرض.اهـ.

وهناك قول خامس للحافظ ابن كثير في النهاية (١/ ١٧٧) وهو: "أن الإماء تكون في آخر الزمان هن المشار إليهن بالحشمة، فتكون الأمة تحت الرجل الكبير دون غيرها من الحرائر، ولهذا قرن ذلك بقوله: "وأن ترى الحفالة العراة العالة يتطاولون في البنيان.اهـ.

٢٢- كثرة القتل: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى يكثر الهرج"، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: "القتل، القتل). رواه مسلم، وفي رواية للبخاري عن عبد الله بن مسعود: (بين يدي السَّاعة أيام الهرج؛ يزول فيها العلم، ويظهر فيها الجهل". قال أبو موسى: والهرج: القتل؛ بلسان الحبشة)، وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (إن بين يدي السَّاعة الهرج"، قالوا: وما الهرج؟ قال: "القتل"، قالوا: أكثر مما نقتل؛ إنا نقتل في العام الواحد أكثر من سبعين ألفًا. قال: "إنه ليس بقتلكم المشركين، ولكن قتل بعضكم بعضًا". قالوا: ومعنا عقولنا يومئذ. قال: "إنه لينزع عقول أكثر أهل ذلك الزمان، ويخلف له هباء من الناس؛ يحسب أكثرهم أنه على شيء، وليسوا على شيء) رواه أحمد وابن ماجة، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده؛ لا تذهب الدُّنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيم قتل؟". فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: "الهرج، القاتل والمقتول في النار) رواه مسلم.

وما أخبر به ﷺ في هذه الأحاديث قد وقع بعض منه، فحدث القتال بين

المسلمين في عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم بعد مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم صارت الحروب تكثر في بعض الأماكن دون بعض، وفي بعض الأزمان دون بعض، ودون أن تعرف أسباب أكثر تلك الحروب، وقد جاء أن هذه الأمة أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة، وأن الله تعالى جعل عذابها في الدُّنيا الفتن والزلازل والقتل، ففي الحديث عن أبي بردة؛ قال: بينا أنا واقف في السوق في إمارة زياد إذ ضربت بإحدى يدي على الأخرى تعجبًا، فقال رجل من الأنصار قد كانت لوالده صحبة مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مما تعجب يا أبا بردة؟ قلت: أعجب من قوم دينهم واحد ونبيهم واحد، ودعوتهم واحدة، وحجهم واحد، وغزوهم واحد؛ يستحل بعضهم قتل بعض. قال: فلا تعجب! فإني سمعت والدي أخبرني أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (إن أمتي أمة مرحومة، ليس عليها في الآخرة حساب ولا عذاب، إنما عذابها في القتل والزلازل والفتن) رواه الحاكم وغيره، وفي رواية عن أبي موسى عند أحمد: (إن أمتي أمة مرحومة، ليس عليها في الآخرة عذاب، إنما عذابها في الدُّنيا: القتل، والبلابل، والزلازل).

٢٣- تقارب الزمان: ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لا تقوم السَّاعة حتى..يتقارب الزمان)، وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لا تقوم السَّاعة حتى يتقارب الزمان، فتكون السنة كالشهر، ويكون الشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالسَّاعة، وتكون السَّاعة كاحتراق السعفة) أخرجه أحمد والترمذي، وللعلماء أقوال في المراد بتقارب الزمان؛ منها:

١- أن المراد بذلك قلة البركة في الزمان.

قال الحافظ في الفتح (١٣/ ١٦): "قد وجد في زماننا هذا، فإننا نجد من

سرعة مر الأيام ما لم نكن نجده في العصر الذي قبل عصرنا هذا.اهـ.

٢- أن المراد بذلك هو ما يكون في زمان المهدي وعيسى عليه السلام؛ من استلذاذ الناس للعيش، وتوفر الأمن، وغلبة العدل، وذلك أن الناس يستقصرون أيام الرخاء وإن طالت، وتطول عليهم مدة الشدة وإن قصرت.

٣- أن المراد تقارب أحوال أهله في قلة الدين، حتى لا يكون منهم من يأمر بمعروف، وينهى عن منكر، لغلبة الفسق، وظهور أهله، وذلك عند ترك طلب العلم خاصة، والرضى بالجهل، وذلك لأن الناس لا يتساوون في العلم، فدرجات العلم تتفاوت؛ كما قال تعالى: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم} [يوسف: ٧٦]، وإنما يتساوون إذا كانوا جهالًا.

٤- أن المراد تقارب أهل الزمان بسبب توفر وسائل الاتصالات والمراكب الأرضية والجوية السريعة التي قربت البعيد.

٥- أن المراد بذلك هو قصر الزمان، وسرعته حقيقة، وذلك في آخر الزمان.

وهذا لم يقع إلى الآن، ويؤيد ذلك ما جاء أن أيام الدجال تطول حتى يكون اليوم كالسنة، وكالشهر، وكالجمعة في الطول، فكما أن الأيام تطول؛ فإنها تقصر، وذلك لاختلال نظام العالم، وقرب زوال الدُّنيا.

قال ابن أبي جمرة كما في الفتح (١٣/ ١٧): "يحتمل أن يكون المراد بتقارب الزمان: قصره؛ على ما وقع في حديث: "لا تقوم السَّاعة حتى تكون السنة كالشهر"، وعلى هذا؛ فالقصر يحتمل أن يكون معنويًا.أما الحسي؛ فلم يظهر بعد، ولعله من الأمور التي تكون قرب قيام السَّاعة، وأما المعنوي؛ فله مدة منذ ظهر؛ يعرف ذلك أهل العلم الديني ومن له فطنة من أهل السبب الدنيوي؛ فإنهم يجدون أنفسهم لا يقدر أحدهم أن يبلغ من العمل قدر ما كانوا

يعملونه قبل ذلك، ويكون ذلك، ولا يدرون العلة فيه، ولعل ذلك بسبب ما وقع من ضعف الإيمان؛ لظهور الأمور المخالفة للشرع من عدة أوجه، وأشد ذلك الأقوات، ففيها من الحرام المحض ومن الشبه ما لا يخفى، حتى إن كثيرًا من الناس لا يتوقف في شيء، ومهما قدر على تحصيل شيء؛ هجم عليه ولا يبالي، والواقع أن البركة في الزمان وفي الرزق وفي النبت إنما تكون من طريق قوة الإيمان، واتباع الأمر، واجتناب النهي، والشاهد لذلك قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الأعرف: ٩٦].

٢٤- تقارب الأسواق: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى تظهر الفتن، ويكثر الكذب، وتتقارب الأسواق) أخرجه أحمد، قال الشيخ حمود التويجري في إتحاف الجماعة (١/ ٤٩٨، ٤٩٩): "وأما تقارب الأسواق؛ فقد جاء تفسيره في حديث ضعيف بأنه كسادها، وقلة أرباحها، والظاهر - والله أعلم - أن ذلك إشارة إلى ما وقع في زماننا من تقارب أهل الأرض؛ بسبب المراكب الجوية والأرضية والآلات الكهربائية التي تنقل الأصوات؛ كالإذاعات والتلفونات الهوائية التي صارت أسواق الأرض متقاربة بسببها، فلا يكون تغيير في الأسعار في قطر من الأقطار إلا ويعلم به التجار - أو غالبهم - في جميع أرجاء الأرض، فيزيدون في السعر إن زاد، وينقصون إن نقص، ويذهب التاجر في السيارات إلى أسواق المدائن التي تبعد عنه مسيرة أيام، فيقضي حاجته منها، ثم يرجع في يوم أو بعض يوم، ويذهب في الطائرات إلى أسواق المدائن التي تبعد عنه مسيرة شهر فأكثر، فيقضي حاجته منها، ويرجع في يوم أو بعض يوم، فقد تقاربت الأسواق من ثلاثة أوجه:

الأول: سرعة العلم بما يكون فيها من زيادة السعر ونقصانه.

الثاني: سرعة السير من سوق إلى سوق، ولو كانت مسافة الطريق بعيدة جدًا.

الثالث: مقاربة بعضها بعضًا في الأسعار، واقتداء بعض أهلها ببعض في الزيادة والنقصان، والله أعلم".

٢٥- ظهور الشرك في هذه الأمة: هذا من العلامات التي ظهرت، وهي في ازدياد، فقد وقع الشرك في هذه الأمة، ولحقت قبائل منها بالمشركين، وعبدوا الأوثان، وبنوا المشاهد على القبور، وعبدوها من دون الله، وقصدوها للتبرك والتقبيل والتعظيم، وقدموا لها النذور، وأقاموا لها الأعياد، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة أو أعظم شركًا، روى أبو داود والترمذي عن ثوبان رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا وضع السيف في أمتي؛ لم يرفع عنها إلى يوم القيامة، ولا تقوم السَّاعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان، وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم السَّاعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة) و(ذو الخلصة): طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية، وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الحديث؛ فإن قبيلة دوس وما حولها من العرب قد افتتنوا بذي الخلصة عندما عاد الجهل إلى تلك البلاد، فأعادوا سيرتها الأولى، وعبدوها من دون الله، حتى قام الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بالدعوة إلى التوحيد، وجدد ما اندرس من الدين، فقام الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود رحمه الله، وبعث جماعة من الدعاة إلى ذي الخلصة، فخربوها -، وهدموا بعض بنائها - ولما انتهى حكم آل سعود على الحجاز في تلك الفترة، عاد الجهال إلى عبادتها

مرة أخرى، ثم لما تمكن الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بلاد الحجاز؛ أمر عامله عليها، فأرسل جماعة من جيشه، فهدموها، وأزالوا أثرها، ولله الحمد والمنة.

ولا يزال هناك صور من الشرك في بعض البلدان، وصدق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ يقول: (لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقالت عائشة: يا رسول الله! إن كنت لأظن حين أنزل الله: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف: ٩] أن ذلك تامًا، قال: "إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة، فتوفي كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم) أخرجه مسلم، ومظاهر الشرك كثيرة، فليست محصورة في عبادة الأحجار والأشجار والقبور، بل تتعدى ذلك إلى من نبذوا الإسلام وراءهم ظهريًا، واعتنقوا المذاهب الإلحادية؛ من علمانية، وشيوعية، واشتراكية، وقومية، ثم يزعمون أنهم مسلمون.

٢٦- ظهور الفحش وقطيعة الرحم وسوء الجوار: روى الإمام أحمد والحاكم عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى يظهر الفحش، والتفاحش، وقطيعة الرحم، وسوء المجاورة)،

وروى الطبراني في الأوسط عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من أشراط السَّاعة الفحش والتفحش وقطعية الرحم)، وللإمام أحمد عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (إن بين يدي السَّاعة... قطع الأرحام) وقد وقع ما أخبر به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فانتشر الفحش بين كثير من الناس؛ غير مبالين بالتحدث بما يرتكبون من معاصي، وما يترتب عليه من عقاب شديد، وقطعت

الأرحام، فالقريب لا يصل قريبه، بل حصل بينهم التقاطع والتدابر، فتمر الشهور والسنون وهم في بلد واحد، فلا يتزاورون، ولا يتواصلوان، وهذا لا شك أنه من ضعف الإيمان، فإن رسول الله ﷺ حث على صلة الرحم، وحذر من قطيعتها، وقال: (إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم؛ قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة؟ قال: نعم؛ أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك لك" ثم قال رسول الله ﷺ: "اقرأوا إن شئتم: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٢- ٢٤]" أخرجه مسلم، وقال عليه الصلاة والسلام: (لا يدخل الجنة قاطع رحم) أخرجه مسلم، وأما سوء الجوار؛ فحدث عنه ولا حرج، فكم من جار لا يعرف جاره، ولا يتفقد أحواله؛ ليمد يد العون إليه إن احتاج! بل ولا يكف شره عنه.

وقد نهى النبي ﷺعن أذى الجار، فقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يؤذي جاره) أخرجه مسلم، وأمر بالإحسان إلى الجار، فقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليحسن إلى جاره) أخرجه مسلم، وقال عليه الصلاة والسلام: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) أخرجه مسلم.

٢٧- تشبب المشيخة: عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (يكون قوم يخضبون في آخر الزمان بالسواد كحواصل الحمام، لا يريحون رائحة الجنة) أخرجه أحمد وغيره، وما جاء في هذا الحديث واقع في هذا الزمن؛ فإنه انتشر بين الرجال صبغ لحاهم ورؤوسهم بالسواد، والذي يظهر لي - والله أعلم - أن قوله ﷺ: "كحواصل الحمام" تشبيه لحال بعض المسلمين في هذا

العصر، فتجدهم يصنعون بلحاهم كهيئة حواصل الحمام، يحلقون عوارضهم، ويدعون ما على أذقانهم من الشعر، ثم يصبغونه بالسواد، فيغدو كحواصل الحمام.

٢٨- كثرة الشح: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: (من أشراط السَّاعة أن يظهر الشح) أخرجه البخاري في تاريخه وابن حبان وغيرهما، وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال: (يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح) أخرجه البخاري، والشح خلق مذموم؛ نهى عنه الإسلام، وبين أن من وقي شح نفسه؛ فقد فاز وأفلح؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩، والتغابن: ١٦].

٢٩- كثرة التجارة: ومنها كثرة التجارة، وفشوها بين الناس، حتى تشارك النساء فيها الرجال، روى الإمام أحمد والحاكم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: بين يدي السَّاعة تسليم الخاصة، وفشو التجارة، حتى تشارك المرأة زوجها في التجارة)، وروى النسائي عن عمرو بن تغلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن من أشراط السَّاعة أن يفشو المال ويكثر، وتفشو التحارة) وقد وقع هذا، فكثرت التجارة، وشاركت فيها النساء، وافتتن الناس بجمع المال، وتنافسوا فيه.

٣٠- كثرة الزلازل: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لا تقوم السَّاعة حتى تكثر الزلازل) أخرجه البخاري، وعن سلمة بن نفيل السكوني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: كنا جلوسًا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... (فذكر الحديث، فيه): (وبين يدي السَّاعة موتان شديد، وبعده سنوات الزلازل) أخرجه أحمد.

قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٨٧): "قد وقع في كثير من البلاد الشمالية

والشرقية والغربية كثير من الزلازل، ولكن الذي يظهر أن المراد بكثرتها شمولها ودوامها". اهـ. ويؤيد ذلك ما روي عن عبد الله بن حوالة رضي الله عنه؛ قال: وضع رسول الله ﷺ يدي على رأسي - أو على هامتي -، فقال: (يا ابن حوالة! إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة؛ فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام، والسَّاعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك) أخرجه أحمد وغيره.

٣١- ظهور الخسف والمسخ والقذف: عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: (يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف". قالت: قلت: يا رسول! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم؛ إذا ظهر الخبث) أخرجه الترمذي، وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: (بين يدي السَّاعة مسخ وخسف وقذف) أخرجه ابن ماجة، وعند للترمذي: (في هذه الأمة - أو في أمتي - خسف أو مسخ أو قذف في أهل القدر)، وعن محمد بن إبراهيم التيمي؛ قال: سمعت بقيرة امرأة القعقاع بن أبي حدرد تقول: سمعت رسول الله ﷺعلى المنبر وهو يقول: (إذا سمعتم بجيش قد خسف به قريبًا؛ فقد أظلت السَّاعة) أخرجه أحمد، والخسف قد وجد في مواضع في الشرق والغرب قبل عصرنا هذا، ووقع في هذا الزمن كثير من الخسوفات في أماكن متفرقة من الأرض، وهي نذير بين يدي عذاب شديد، وتخويف من الله لعباده، وعقوبة لأهل البدع والمعاصي؛ كي يعتبر الناس، ويرجعوا إلى ربهم، ويعلموا أن السَّاعة قد أزفت، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

٣٢- ذهاب الصالحين: ومن أشراطها: ذهاب الصالحين، وقلة الأخيار، وكثرة الأشرار، حتى لا يبقى إلا شرار الناس، وهم الذين تقوم عليهم السَّاعة

ففي الحديث عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم السَّاعة حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض، فيبقى فيها عجاجة؛ لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا) أخرجه أحمد ورجاله ثقات رجال الشيخين إلا أن فيه عنعنة الحسن -وهو البصري-، وقد روي مرفوعا وموقوفا، والأشبه وقفه. ومعنى الحديث أي: يأخذ الله أهل الخير والدين، ويبقى غوغاء الناس وأراذلهم ومن لا خير فيهم، وهذا عند قبض العلم واتخاذ الناس رؤوسًا جهالًا يفتون بغير علم، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال: (يأتي على الناس زمان يغربلون فيه غربلة، يبقى منهم حثالة قد مرجت عهودهم وأماناتهم، واختلفوا، فكانوا هكذا وشبك بين أصابعه) أخرجه أحمد.

وذهاب الصالحين يكون عند كثرة المعاصي، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإن الصالحين إذا رأوا المنكر ولم يغيروا وكثر الفساد؛ عمهم العذاب مع غيرهم إذا نزل؛ كما جاء في الحديث لما قيل للنبي ﷺ (أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم؛ إذا كثر الخبث) رواه البخاري.

٣٣- ارتفاع الأسافل: ومن أشراطها ارتفاع أسافل الناس عن خيارهم، واستئثارهم بالأمور دونهم، فيكون أمر الناس بيد سفهائهم وأراذلهم ومن لا خير فيهم، وهذا من انعكاس الحقائق، وتغير الأحوال، وهذا أمر مشاهد في هذا الزمن، فترى أن كثيرًا من رؤوس الناس وأهل العقد والحل هم أقلُّ الناس صلاحًا وعلمًا، مع أن الواجب أن يكون أهل الدين والتقى هم المقدمون على غيرهم في تولي أمور الناس؛ لأن أفضل الناس وأكرمهم هم أهل الدين والتقوى؛ كما قال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: ١٣]. ولذلك لم يكن النبي ﷺ يولي الولايات وأمور الناس إلا مَن هم أصلح الناس

وأعلمهم، وكذلك خلفاؤه من بعده، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ منها ما رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأهل نجران: (لأبعثن إليكم رجلًا أمينًا حق أمين"، فاستشرف لها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث أبا عبيدة).

وهذه بعض الأحاديث الدالَّة على ارتفاع أسافل الناس، وأن ذلك من أمارات السَّاعة: فمنها ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنها ستأتي على الناس سنون خداعة؛ يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرُّوَيبِضَة، قيل: وما الرُّوَيبِضَة؟ قال: "السفيه يتكلم في أمر العامة)، وفي حديث جبريل الطويل عند مسلم قوله: (ولكن سأحدثك عن أشراطها.. وإذا كانت العراة الحفاة رؤوس الناس؛ فذاك من أشراطها)، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أشراط السَّاعة: أن يغلب على الدُّنيا لكع أبن لكع، فخير الناس يومئذ مؤمن بين كريمين) أخرجه الطبراني في الأوسط والطحاوي، وفي صحيح البخاري: (إذا أسند الأمر إلى غير أهله؛ فانتظر السَّاعة)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (من أشراط السَّاعة:.... أن يعلو التحوت الوعول"، أكذلك يا عبد الله بن مسعود سمعته من حبي؟ قال: نعم؛ ورب الكعبة. قلنا: وما التحوت؟ قال: فسول الرجال، وأهل البيوت الغامضة يرفعون فوق صالحيهم. والوعول: أهل البيوت الصالحة) أخرجه الطبراني في الأوسط، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تذهب الدُّنيا حتى تصير للكعابن لكع) أي: حتى يصير نعيمها وملاذها والوجاهة فيها له، وفي رواية للإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقوم السَّاعة حتى يكون أسعد الناس بالدينا لكع ابن لكع)، وفي الصحيحين عن

حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما رواه عن النبي ﷺ في قبض الأمانة: (حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه ! ما أعقله ! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من أيمان)، وهذا هو الواقع بين المسلمين في هذا العصر؛ يقولون للرجل: ما أعقله! ما أحسن خلقه! ويصفونه بأبلغ الأوصاف الحسنة، وهو من أفسق الناس، وأقلهم دينًا وأمانة، وقد يكون عدوًا للمسلمين، ويعمل على هدم الإسلام، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٣٤- أن تكون التحية للمعرفة: ومن أشراطها أن الرجل لا يلقي السلام إلا على من يعرفه، ففي الحديث عن ابن مسعود؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من أشراط السَّاعة أن يسلم الرجل على الرجل، لا يسلم عليه إلا للمعرفة". رواه أحمد، وفي رواية له: (إن بين يدي السَّاعة تسليم الخاصة) وهذا أمر مشاهد في هذا الزمن، فكثير من الناس لا يسلمون إلا على من يعرفون، وهذا خلاف السنة؛ فإن النبي ﷺ حث على إفشاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف، وأن ذلك سبب في انتشار المحبة بين المسلمين التي هي سبب للإيمان الذي به يكون دخول الجنة؛ كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم) رواه مسلم.

٣٥- التماس العلم عند الأصاغر: روى الإمام عبد الله بن المبارك بسنده عن أبي أمية الجمحي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إن من أشراط السَّاعة ثلاثًا: إحداهن: أن يلتمس العلم عند الأصاغر..) وسئل الإمام عبد الله بن المبارك عن الأصاغر؟ فقال: "الذين يقولون برأيهم، فأما صغير يروي عنه كبير؛ فليس بصغير"، وقال في ذلك أيضًا: "أتاهم العلم من قبل أصاغرهم؛ يعني أهل البدع"

وروى ابن المبارك في الزهد أيضا عن ابن مسعود ﵁؛ قال: (لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من أصحاب محمد ﷺ ومن أكابرهم، فإذا أتاهم العلم من قبل أصاغرهم، وتفرقت أهواؤهم؛ هلكوا).

٣٦- ظهور الكاسيات العاريات: ومنها خروج النساء على الآداب الشرعية، وذلك بلبس الثياب التي لا تستر عوراتهن، وإظهارهن لزينتهن وشعورهن وما يجب ستره من أبدانهن، ففي الحديث عن عبد الله بن عمرو ﵄؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على سروج كأشباه الرحال؛ ينزلون على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهم كأسنمة البخت العجاف، العنوهن؛ فإنهن ملعونات، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمن نساؤكم نساءهم كما يخدمنكم نساء الأمم قبلكم) رواه الإمام أحمد، وفي رواية للحاكم: (سيكون في آخر هذه الأمة رجال يركبون على المياثر، حتى يأتوا أبواب مساجدهم، نساؤهم كاسيات عاريات)، وعن أبي هريرة ﵁؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر؛ يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) أخرجه مسلم، وعن أبي هريرة ﵁؛ قال: (من أشراط السَّاعة:... أن تظهر ثياب تلبسها نساء كاسيات عاريات) وهو مخرج في الصحيحة (٣٢١١)، وهذه الأحاديث من معجزات النبوة، فقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ قبل عصرنا هذا، وهو في زمننا هذا أكثر ظهورًا.

وقد سمى النبي ﷺ هذا الصنف من النساء بـ(الكاسيات العاريات)؛ لأنهن

يلبسن الثياب، ومع هذا فهن (عاريات)؛ أن ثيابهن لا تؤدي وظيفة الستر؛ لرقتها وشفافيتها؛ كأكثر ملابس النساء في هذا العصر.

وقيل: إن معنى (الكاسيات العاريات)؛ أي: كاسية جسدها، ولكنها تشد خمارها، وتضيق ثيابها، حتى تظهر تفاصيل جسمها، فتبرز صدرها وعجيزتها، أو تكشف بعض جسدها، فتعاقب على ذلك في الآخرة، وقد جمع النبي ﷺ في وصف هؤلاء النسوة بأنهن: "كاسيات عاريات"، وأيضًا: "مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة"، وهذا إخبار عن شيء مشاهد في هذا العصر؛ كأنه ﷺ ينظر إلى عصرنا هذا، ويصفه لنا، فقد أصبح في عصرنا هذا أماكن لتصفيف شعور النساء وتجميلها وتنويع أشكالها في محلات تسمى (كوافير)، يشرف عليها غالبًا رجال يتقاضون الأجور، وليس ذلك فحسب، فكثير من النساء لا يكتفين بما وهبهن الله من شعر طبيعي، فيلجأن إلى شراء شعر صناعي، تصله المرأة بشعرها؛ ليبدو أكثر نعومة ولمعانًا وجمالًا؛ لتجذب إليها الرجال.

٣٧- صدق رؤيا المؤمن: ومنها صدق رؤيا المؤمن في آخر الزمان، وكلما كان المرء صادقًا في إيمانه، كانت رؤياه صادقة، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا اقترب الزمان؛ لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءًا من النبوة". هذا لفظ مسلم، ولفظ البخاري: (لم تكد رؤيا المؤمن تكذب.... وما كان من النبوة فإنه لا يكذب). قال ابن أبي جمرة كما في الفتح (١٢/ ٤٠٦): "معنى كون رؤيا المؤمن في آخر الزمان لا تكاد تكذب: أنها تقع غالبًا على الوجه الذي لا يحتاج إلى تعبير، فلا يدخلها الكذب؛ بخلاف ما قبل؛ فإنها قد

يخفى تأويلها، فيعبرها العابر، فلا يقع كما قال، فيصدق دخول الكذب فيها بهذا الاعتبار". قال: "والحكمة في اختصاص ذلك بآخر الزمان أن المؤمن في ذلك الوقت يكون غريبًا؛ كما في الحديث: (بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا) أخرجه مسلم، فيقل أنيس المؤمن ومعينه في ذلك الوقت، فيكرم بالرؤيا الصالحة".اهـ.

وقد اختلف العلماء في تحديد الزمن الذي يقع فيه صدق رؤيا المؤمن على أقوال كما في الفتح (١٢/ ٤٠٦، ٤٠٧): الأول: أن ذلك يقع إذا اقتربت السَّاعة، وقبض أكثر العلم، ودرست معالم الشريعة؛ بسبب الفتن وكثرة القتال، وأصبح الناس على مثل الفترة، فهم محتاجون إلى مجدد ومذكر لما درس من الدين؛ كما كانت الأمم تذكر بالأنبياء، لكن لما كان نبينا ﷺ آخر الأنبياء، وتعذرت النبوة في هذه الأمة؛ فإنهم يعوضون بالمرائي الصادقة، التي هي جزء من النبوة الآتية بالتبشير والإنذار، ويؤيد هذا القول حديث أبي هريرة عند مسلم: (يتقارب الزمان، ويقبض العلم) ورجَّح ابن حجر هذا القول، الثاني: أن ذلك يقع عند قلة عدد المؤمنين، وغلبة الكفر والجهل والفسق على الموجودين، فيؤنس المؤمن، ويعان بالرؤيا الصادقة؛ إكرامًا له وتسلية، وهذا القول قريبٌ من قول ابن أبي جمرة السابق، وعلى هذين القولين لا يختص صدق رؤيا المؤمن بزمان معين، بل كلما قرب فراغ الدُّنيا، وأخذ أمر الدين في الاضمحلال؛ تكون رؤيا المؤمن الصادق صادقة. الثالث: أن ذلك خاص بزمان عيسى بن مريم عليه السلام؛ لأن أهل زمنه أحسن هذه الأمة حالًا بعد الصدر الأول، وأصدقهم أقوالًا، فكانت رؤياهم لا تكذب. والله أعلم.

٣٨- كثرة الكتابة وانتشارها: جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي

ﷺ؛ قال: (إن بين يدي السَّاعة... ظهور القلم) والمراد بظهور القلم - والله أعلم - ظهور الكتابة وانتشارها، ووقع في رواية الطيالسي والنسائي عن عمرو بن تغلب؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن من أشراط السَّاعة.. أن يكثر التجار، ويظهر العلم) ومعناه - والله أعلم - ظهور وسائل العلم، وهي كتبه، وقد ظهرت في هذا الزمن ظهورًا باهرًا، وانتشرت في جميع أرجاء الأرض، بسبب توفر آلات الطابعة والتصوير التي سهلت انتشارها، ومع هذا؛ فقد ظهر الجهل في الناس، وقل فيهم العلم النافع، وهو علم الكتاب والسنة، والعمل بهما، ولم تغن عنهم كثرة الكتب شيئًا.

٣٩- التهاون بالسنن التي رغَّب فيها الإسلام: ومنها التهاون بشعائر الله تعالى؛ كما جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ وهو يقول: (إن من أشراط السَّاعة أن يمر الرجل بالمسجد؛ لا يصلي فيه ركعتين) وهو مخرج في الصحيحة (٦٤٩)، وفي رواية: (أن يجتاز الرجل بالمسجد، فلا يصلي فيه)، وعن ابن مسعود أيضًا؛ قال: (إن من أشراط السَّاعة أن تتخذ المساجد طرقًا) أخرجه الطيالسي، وعن أنس رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ؛ قال: (إن من أمارات السَّاعة أن تتخذ المساجد طرقًا) وهو مخرج في الصحيحة (٦٤٩)، وهذا أمر لا يجوز؛ فإن تعظيم المساجد من تعظيم شعائر الله تعالى، وإن ذلك علامة الإيمان والتقوى؛ كما قال تعالى: {وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٣٢].

٤٠- انتفاخُ الأهلَّة: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (من اقتراب السَّاعة انتفاخ الأهلة) رواه الطبراني في الكبير.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (من اقتراب السَّاعة انتفاخ

الأهلية، وأن يرى الهلال لليلة، فيقال: لليلتين) رواه الطبراني في الصغير.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه إلى النبي ﷺ؛ قال: (إن من أمارات السَّاعة أن يرى الهلال لليلة، فيقال لليلتين) رواه الطبراني في الصغير، والأوسط، فقد جاء في هاتين الروايتين تفسير انتفاخ الأهلة بأن ذلك عبارة عن كبر الهلال حين طلوعه عما هو معتاد في أول الشهر، فيرى وهو ابن ليلة؛ كأنه ابن ليلتين. والله أعلم.

٤١- كثرة الكذب وعدم التثبت في نقل الأخبار: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺأنه قال: (سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم) أخرجه مسلم، وفي رواية: (يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا انتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم)، وروى مسلم عن عامر بن عبدة؛ قال: قال عبد الله: (إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل، فيأتي القوم، فيحدثهم بالحديث من الكذب، فيتفرقون، فيقول الرجل منهم: سمعت رجلًا أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه يحدث)، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: (إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان، يوشك أن تخرج، فتقرأ على الناس قرآنًا) قال النووي في شرح مسلم (١/ ٨٠): "معناه: تقرأ شيئًا ليس بقرآن، وتقول إنه قرآن؛ لتغر به عوام الناس، فلا يتغرون.اهـ. وما أكثر الأحاديث الغربية في هذا الزمان، فقد أصبح بعض الناس لا يتورع عن كثرة الكذب ونقل الأقوال بدون تثبت من صحتها، وفي هذا إضلال للناس، وفتنة لهم، ولهذا حذر النبي ﷺ من تصديقهم، وقد جعل علماء الحديث هذه الأحاديث أصلًا في وجوب التثبت من نقل الأحاديث عن رسول الله ﷺ،

وتمحيص الرواة؛ لمعرفة الثقة من غيره.

٤٢- كثرة شهادة الزور، وكتمان شهادة الحق: جاء في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله ﷺ: (إن بين يدي السَّاعة:... شهادة الزور، وكتمان شهادة الحق) وهو مخرج في الصحيحة (٦٤٧)، وشهادة الزور هي الكذب متعمدًا في الشهادة، فكما أن شهادة الزور سبب لإبطال الحق، فكذلك كتمان الشهادة سبب لإبطال الحق، قال الله تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ} [البقرة: ٢٨٣]، وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثًا)؟ الإشراك بالله، وعقوق ا لوالدين، وشهادة الزور - أو قول الزور-، وكان متكئًا فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت) أخرجه البخاري ومسلم، وما أكثر شهادة الزور وكتمان شهادة الحق في هذا الزمن! ولعظم خطرها قرنها النبي ﷺ بالشرك وعقوق الوالدين؛ فإن شهادة الزور سبب للظلم والجور وضياع حقوق الناس في الأموال والأعراض، وظهورها دليل على ضعف الإيمان، وعدم الخوف من الرحمن.

٤٣- كثرة النساء وقلة الرجال: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكم أحد بعدي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من أشراط السَّاعة أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقل الرجال، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد) أخرجه البخاري ومسلم، قيل: إن سبب ذلك كثرة الفتن، فيكثر القتل في الرجال؛ لأنهم أهل الحرب دون النساء، وقيل: إن سبب ذلك كثرة الفتوح، فتكثر السبايا، فيتخذ الرجل عدة موطوءات، قال الحافظ في الفتح (١/ ١٧٩): "فيه نظر؛ لأنه صرح بالقلة في حديث أبي موسى عند مسلم... فقال: (من قلة الرجال وكثرة النساء)، والظاهر أنها علامة محضة لا

لسبب آخر، بل يقدر الله في آخر الزمان أن يقل من يولد من الذكور، ويكثر من يولد من الإناث، وكون كثرة النساء من العلامات مناسبة لظهور الجهل ورفع العلم.اهـ.

قلت: ولا يمنع أن يكون ذلك بما ذكره الحافظ ابن حجر، وبغيره من الأسباب التي ينشأ عنها قلة الرجال وكثرة النساء؛ كوقوع الفتن التي تكون سببًا في القتال، فقد جاء في رواية الإمام مسلم ما يدلُّ على أن كثرة النساء وقلة الرجال يكون بسبب ذهاب الرجال وبقاء النساء، والذي يذهب الرجال غالبًا يكون كثرة القتال، ولفظ مسلم هو قوله ﷺ: (ويذهب الرجال، وتبقى النساء، حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد) وليس المراد هنا حقيقة العدد (خمسين)، فقد جاء في حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم: (ويرى الرجل يتبعه أربعون امرأة يلذن به)، فيكون ذلك مجازًا على الكثرة كما في الفتح (١/ ٤٧٩)، والله أعلم.

٤٤- كثرة موت الفجأة: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه إلى النبي ﷺ؛ قال: (إن من أمارات السَّاعة... أن يظهر موت الفجأة) رواه الطبراني في الأوسط، وهذا أمر مشاهد في هذا الزمن، حيث كثر في الناس موت الفجأة، فترى الرجل صحيحًا معافى، ثم يموت فجأة، وهذا ما يسميه الناس في الوقت الحاضر بـ: (السكتة القلبية)، فعلى العاقل أن يتنبه لنفسه، ويرجع ويتوب إلى الله تعالى قبل مفاجأة الموت.

٤٥- وقوع التناكر بين الناس: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: سئل رسول الله ﷺ عن السَّاعة؟ فقال: (علمها عند ربي، لا يجليها لوقتها إلا هو، ولكن أخبركم بمشاريطها، وما يكون بين يديها، إن بين يديها فتنة وهرجًا". قالوا: يا رسول الله! الفتنة قد عرفناها فالهرج ما هو؟ قال: "بلسان الحبشة: القتل. ويلقى بين

الناس التناكر، فلا يكاد أحد أن يعرف أحدًا) وهو مخرج في الصحيحة (٢٧٧١) فوقوع التناكر عند كثرة الفتن والمحن وكثرة القتال بين الناس، وحينما تستولي المادة على الناس، ويعمل كل منهم لحظوظ نفسه؛ غير مكترث بمصالح الآخرين، ولا بحقوقهم، فتنتشر الأنانية البغيضة، ويحيا الإنسان في نطاق أهوائه وشهواته، فلا تكون هناك قيم أخلاقية يعر ف بعض الناس بها بعضًا، ولا يكون هناك من الأخوة الإيمانية ما يجعلهم يلتقون على الحب في الله، والتعاون على البر والتقوى.

٤٦- عود أرض العرب مروجًا وأنهارًا: ومنها أن تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا، ففي الحديث عند مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺقال: (لا تقوم السَّاعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا) ففي هذا الحديث دلالة على أن أرض العرب كانت مروجًا وأنهارًا، وأنها ستعود كما كانت مروجًا وأنهارًا.

قال النووي في شرح مسلم (٧/ ٩٧) في معنى عود أرض العرب مروجًا وأنهارًا: "معناه - والله أعلم - أنهم يتركونها ويعرضون عنها، فتبقى مهملة؛ لا تزرع، ولا تسقى من مياهها، وذلك لقلة الرجال، وكثرة الحروب، وتراكم الفتن، وقرب السَّاعة، وقلة الآمال، وعدم الفراغ لذلك والاهتمام به.اهـ. والذي يظهر لي أن ما ذهب إليه النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لهذا الحديث فيه نظر؛ فإن أرض العرب أرض قاحلة شحيحة المياه، قليلة النبات، غالب مياهها من الآبار والأمطار، فإذا تركت واشتغل عنها أهلها؛ مات زرعها - ولم تعد مروجًا وأنهارًا، وظاهر الحديث يدلُّ على أن بلاد العرب ستكثر فيها المياه، حتى تكون أنهارًا، فتنبت بها النباتات، فتكون مروجًا وحدائق وغابات، والذي يؤيد هذا أنه

ظهر في هذا العصر عيون كثيرة تفجرت كالأنهار، وقامت عليها زراعات كثيرة، وسيكون ما أخبر به الصادق ﷺ، فقد روى معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في غزوة تبوك: "إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم؛ فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي"، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء؛ قال: فسألهما رسول الله ﷺ: "هل مسستما من مائها شيئًا؟"، قالا: نعم. فسبهما رسول الله ﷺ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول. قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلًا قليلًا، حتى اجتمع في شيء. قال: ثم غسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر، أو قال: غزير... حتى استقى الناس، ثم قال رسول الله ﷺ: "يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هُنا مُلِئ جِنانًا) رواه مسلم.

٤٧- كثرة المطر وقلة النبات: عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم السَّاعة حتى تمطر السماء مطرًا لا تكن منها بيوت المدر، ولا تكن منها إلا بيوت الشعر) أخرجه أحمد، وعن أنس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم السَّاعة حتى يمطر الناس مطرًا عامًا، ولا تنبت الأرض شيئًا) أخرجه أحمد، فإذا كان المطر سببًا في إنبات الأرض؛ فإن الله تعالى أن يوجد ما يمنع هذا السبب من ترتب المسبب عليه، والله تعالى خالق الأسباب ومسبباتها، لا يعجزه شيء، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ليست السنة بأن لا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا وتمطروا ولا تنبت الأرض شيئًا) أخرجه مسلم.

٤٨- حسر الفرات عن جبل من ذهب: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله

ﷺ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه، فيقتتل من كل مئة تسعة وتسعون، ويقول كل رجلٍ منهم: لعلي أكون أنا الذي أنجو) أخرجه البخاري ومسلم، وليس االمقصود بهذا الجبل من ذهب (النفط/ البترول الأسود)؛ كما يرى ذلك بعضهم وذلك من وجوه:

أولها: أن النص جاء فيه: "جبل من ذهب"، والبترول ليس بذهب على الحقيقة؛ فإن الذهب هو المعدن المعروف، وثانيها: أن النبي ﷺ أخبر أن ماء النهر ينحسر عن جبل من ذهب، فيراه الناس، والنفط أو (البترول) يستخرج من باطن الأرض بالآلات من مسافات بعيدة، وثالثها: أن النبي ﷺ خص الفرات بهذا دون غيره من البحار والأنهار، والنفط نراه يستخرج من البحار كما يستخرج من الأرض، وفي أماكن كثيرة متعددة، ورابعها: أن النبي ﷺ أخبر أن الناس سيقتتلون عند هذا الكنز، ولم يحصل أنهم اقتتلوا عند خروج النفط من الفرات أو غيره، بل إن النبي ﷺ نهى من حضر هذا الكنز أن يأخذ منه شيئًا؛ كما في الرواية الأخرى عند مسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه؛ قال: لا يزال الناس مختلفة أعناقهم في طلب الدُّنيا.... إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يوشك الفرات أن يحسر عن جبلٍ من ذهبٍ، فمن حضره، فلا يأخذ منه شيئًا)، ومن حمله على النفط؛ فإنه يلزمه على قوله هذا النهي عن الأخذ من النفط، ولم يقل به أحد.

وقد رجح الحافظ في الفتح (١٣/ ٨١) أن سبب المنع من الأخذ من هذا الذهب لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والقتال عليه.

٤٩- كلام السباع والجمادات للإنس: ومن أشراط السَّاعة كلام السباع للإنس، وكلام الجمادات للإنسان، وإخبارها بما حدث في غيابه، وتكلم بعض

أجزاء الإنسان؛ كالفخذ يخبر الرجل بما أحدث أهله بعده، فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال (جاء ذئب إلى راعي الغنم، فأخذ منها شاةً، فطلبه الراعي حتى انتزعها منه. قال: فصعد الذئب على تل، فأقعى واستذفر، فقال: عمدت إلى رزق رزقنيه الله عَزَّ وَجَلَّ انتزعته مني. فقال الرجل: تالله إن رأيت كاليوم ذئبًا يتكلم! قال الذئب: أعجب من هذا الرجل في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى وبما هو كائن بعدكم - وكان الرجل يهوديًا-، فجاء الرجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخبره، فصدقه ا لنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنها أمارة من أمارات بين يدي السَّاعة، قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى تحدثه نعلاه وسوطه ما أحدث أهله بعده). رواه الإمام أحمد، وفي رواية له عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فذكر القصة إلى أن قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (صدق والذي نفسي بيده؛ لا تقوم السَّاعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده) أخرجه أحمد.

٥٠- تمنِّي الموت من شدَّة البلاء: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيقول: يا ليتني مكانه) أخرجه البخاري ومسلم، وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (والذي نفسي بيده؛ لا تذهب الدُّنيا حتى يمر الرجل على القبر، فيتمرغ عليه، ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدين؛ إلا البلاء) أخرجه مسلم، قال الحافظ العراقي كما في الفيض (٦/ ٤١٨): "ولا يلزم كونه في كل بلد، ولا كل زمن، ولا في جميع الناس، بل يصدق اتفاقه للبعض في بعض الأقطار في بعض الأزمان، وفي تعليق تمنيه بالمرور إشعار بشدة ما نزل بالناس من فساد الحال حالتئذ، إذ المرء قد يتمنى الموت من غير استحضار لهيئته، فإذا شاهد الموتى،

ورأى القبور؛ نشز بطبعه، ونفر بسجيته من تمنيه، فلقوة الشدة لم يصرفه عنه ما شاهده من وحشة القبور، ولا يناقض هذا النهي عن تمني الموت؛ لأن مقتضى هذا الحديث الإخبار عما يكون، وليس فيه تعرُّض لحكم شرعي.اهـ. وأخبر النبي ﷺ أنه سيأتي على الناس شدة وعناء، حتى يتمنون الدجال، ففي الحديث عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (يأتي على الناس زمان يتمنون فيه الدجال". قلت: يا رسول الله! بأبي وأمي مم ذاك؟ قال: "مما يلقون من العناء والعناء) وهو مخرج في الصحيحة (٣٠٩٠).

٥١- كثرة الروم وقتالهم للمسلمين: فعن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (تقوم السَّاعة والروم أكثر الناس". فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ) أخرجه مسلم، وجاء في حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (اعدد ستًا بين يدي السَّاعة... (فذكر منها): ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا) أخرجه البخاري، وعن جابر بن سمرة عن نافع بن عُتبة؛ قال: كنا مع رسول الله ﷺ... فحفظت منه أربع كلمات أعدهن في يدي؛ قال: (تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله"قال: فقال نافع: "يا جابر! لا نرى الدجال يخرج حتى تفتح الروم) أخرجه مسلم، وقد جاء وصفٌ للقتال الذي يقع بين المسلمين والروم، ففي الحديث عن يسير بن جابر؛ قال: هاجت ريحٌ حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هجيرى إلا: يا عبد الله بن مسعود! جاءت السَّاعة. قال: فقعد - وكان متكئًا -، فقال: إن السَّاعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنيمة. ثم قال بيده

هكذا، ونحاها نحو الشام، فقال: عدو يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام. قلت: الروم تعني؟ قال: نعم، وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة، فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون، حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، ثم تفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع؛ نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدبرة عليهم، فيقتتلون مقتلة؛ إما قال: لا يرى مثلها، وإما قال: لم ير مثلها، حتى إن الطائر ليس بجنباتهم، فما يخلفهم حتى يخر ميتًا، فيتعاد بنو الأب كانوا مئة، فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح، أو أي ميراث يقاسم؟ فبينما هم كذلك؛ إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ: إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم، ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة قال رسول الله ﷺ: "إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ) أخرجه مسلم، وهذا القتال يقع في الشام في آخر الزمان، قبل ظهور الدجال، كما دلَّت على ذلك الأحاديث، ويكون انتصار المسلمين على الروم تهيئة لفتح القسطنطينية، ففي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا؛ قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. فيقول

المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث لا يفتنون أبدًا، فيفتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم، قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام؛ خرج، فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى بن مريم ﷺ) أخرجه مسلم، وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة في أرضٍ بالغوطة، في مدينة يقال لها: دمشق، من خير مدائن الشام) أخرجه أبو داود.

قال ابن المنير كما في الفتح (٦/ ٢٧٨): "أما قصة الروم؛ فلم تجتمع إلى الآن، ولا بلغنا أنهم غزوا في البر في هذا العدد، فهي من الأمور التي لم تقع بعد، وفيه بشارة ونذارة، وذلك أنه دل على أن العاقبة للمؤمنين، مع كثرة ذلك الجيش، وفيه بشارة إلى أن عدد جيوش المسلمين سيكون أضعاف ما هو عليه.

٥٢- فتح القسطنطينية: ومنها فتح مدينة القسطنطينية - قبل خروج الدجال - على يدي المسلمين، والذي تدلُّ عليه الأحاديث أن هذا الفتح يكون بعد قتال الروم في الملحمة الكبرى، وانتصار المسلمين عليهم، فعندئذ يتوجهون إلى مدينة القسطنطينية، فيفتحها الله للمسلمين بدون قتال، وسلاحهم التكبير والتهليل، ففي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟". قالوا: نعم يا رسول الله قال: "لا تقوم السَّاعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا، فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم؛ قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحد

جانبيها - قال ثور (احد رواة الحديث): لا أعلمه إلا قال: - الذي في البحر، ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر؛ فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا: لا إله إلا الله والله أكبر؛ فيفرج لهم، فيدخلوها، فيغنموا، فبينما هم يقتسمون الغنائم، إذ جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج، يتركون كل شيء ويرجعون) أخرجه مسلم.

وقد أشكل قوله في هذا الحديث: "يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق"، والروم من بني إسحاق؛ لأنهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام، فكيف يكون فتح القسطنطينية على أيديهم؟! قال القاضي عياض كما في شرح مسلم "(١٨/ ٤٣، ٤٤): "كذا هو في جميع أصول صحيح مسلم: من بني إسحاق. ثم قال: "قال بعضهم: المعروف المحفوظ: "من بني إسماعيل"، وهو الذي يدلُّ عليه الحديث وسياقه؛ لأنه إنما أراد العرب.اهـ. وذهب الحافظ ابن كثير إلى أن هذا الحديث يدلُّ على أن الروم يسلمون في آخر الزمان، ولعل فتح القسطنطينية يكون على أيدي طائفة منهم؛ كما نطق به الحديث المتقدم، أنه يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق". واستشهد على ذلك بأنهم مدحوا في حديث المستورد القرشي المتقدم عند مسلم، فقد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تقوم السَّاعة والروم أكثر الناس". فقال له عمرو بن العاص: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالًا أربع: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة، وأمنعهم من ظلم الملوك) قلت: ويدلُّ أيضًا على أن الروم يسلمون في آخر الزمان حديث أبي هريرة السابق عند مسلم في قتال الروم، وفيه أن الروم

يقولون للمسلمين: (خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا)، فالروم يطلبون من المسلمين أن يتركوهم يقاتلون من سبي منهم؛ لأنهم أسلموا، فيرفض المسلمون ذلك، ويبينون للروم أن من أسلم منهم فهو من إخواننا، لا نسلمه لأحد، وكون غالب جيش المسلمين ممن سبي من الكفار ليس بمستغرب.

قال النووي في شرح مسلم" (١٨/ ٢١): "وهذا موجود في زماننا، بل معظم عساكر الإسلام في بلاد الشام ومصر سبوا ثم هم اليوم بحمد الله يسبون الكفار، وقد سبوهم في زماننا مرارًا كثيرة، يسبون في المرة الواحدة من الكفار ألوفًا، ولله الحمد على إظهار الإسلام وإعزازه.اهـ.

قال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير(٢/ ٢٥٦): "فتح القسطنطينية المبشر به في الحديث سيكون في مستقبل قريب أو بعيد يعلمه الله ﷻ، وهو الفتح الصحيح لها حين يعود المسلمون إلى دينهم الذي أعرضوا عنه، وأما فتح الترك الذي كان قبل عصرنا هذا؛ فإنه كان تمهيدًا للفتح الأعظم، ثم هي قد خرجت بعد ذلك من أيدي المسلمين، منذ أعلنت حكومتهم هناك أنها حكومة غير إسلامية وغير دينية، وعاهدت الكفار أعداء الإسلام، وحكمت أمتها بأحكام القوانين الوثنية الكافرة، وسيعود الفتح الإسلامي لها إن شاء الله كما بشر به رسول الله ﷺ.

٥٣- خروج القحطاني: في آخر الزمان يخرج رجل من قحطان، تدين له الناس بالطاعة، وتجتمع عليه، وذلك عند تغير الزمان، ولهذا ذكره الإمام البخاري في باب تغير الزمان، روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق

الناس بعصاه). قال القرطبي في التذكرة (ص٦٣٥): "قوله: "يسوق الناس بعصاه" كناية عن استقامة الناس، وانعقادهم إليه، واتفقاهم عليه، ولم يرد نفس العصا، وإنما ضرب بها مثلًا لطاعتهم له، واستيلائه عليهم؛ إلا أن في ذكرها دليلًا على خشونته عليهم، وعنفه بهم.اهـ. قلت: نعم؛ سوقه الناس بعصاه كناية عن طاعة الناس له، ورضوخهم لأمره؛ إلا أن ما أشار إليه القرطبي من خشونته عليهم ليس بالنسبة للجميع؛ كما يظهر من كلامه، بل إنما يقسو على أهل المعصية منهم، فهو رجل صالح، يحكم بالعدل، ويؤيد ذلك ما نقله ابن حجر عن نعيم بن حماد في الفتح (٦/ ٥٣٥) أنه روى من وجه قوي عن عبد الله بن عمرو أنه ذكر الخلفاء، ثم قال: (ورجل من قحطان)، وأيضًا ما أخرجه بسند جيد عن ابن عباس أنه قال فيه: (ورجل من قحطان، كلهم صالح).اهـ. ولما حدث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما بأنه سيكون ملك من قحطان؛ غضب معاوية رضي الله عنه، فقام، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد؛ فإنه بلغني أن رجالًا منكم يتحدثون بأحاديث ليست في كتاب الله، ولا تؤثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأولئك جهالكم، فإياكم والأماني التي تضل أهلها؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد؛ إلا كبه الله على وجهه؛ ما أقاموا الدين) رواه البخاري، وإنما أنكر معاوية خشية أنة يظن أحد أن الخلافة تجوز في غير قريش، وعلى كال حال خروج القحطاني ثابت فسيخرج ويملك.

وهذا القحطاني ليس هو الجهجاه خلافًا للقرطبي؛ فإنه قال في التذكرة (ص٦٣٦): "ولعل هذا الرجل القحطاني هو الرجل الذي يقال له الجهجاه".اهـ. فإن القحطاني من الأحرار؛ لأنه نسبه إلى قحطان الذي تنتهي أنساب أهل اليمن من حمير وكندة وهمدان وغيرهم إليه، وأما الجهجاه؛ فهو

من الموالي.

ويؤيد ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا يذهب الليل والنهار حتى يملك رجل من الموالي؛ يقال له: جهجاه) أخرجه أحمد.

٥٤- قتال اليهود: ومنها قتال المسلمين لليهود في آخر الزمان، وذلك أن اليهود يكونون من جند الدجال، فيقاتلهم المسلمون الذين هم جند عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي ورائي، تعال فاقتله.

وقد قاتل المسلمون اليهود من زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانتصروا عليهم، وأجلوهم من جزيرة العرب؛ امتثالًا لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع إلا مسلمًا) أخرجه مسلم.

ولكن هذا القتال ليس هو القتال الذي هو من أشراط السَّاعة، وجاءت به الأحاديث الصحيحة؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن المسلمين سيقاتلونهم إذا خرج الدجال، ونزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد روى الإمام أحمد عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديثًا طويلًا في خطبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم كسفت الشمس... (وفيه أنه ذكر الدجال، فقال): (وإنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس، فيزلزلون زلزالًا شديدًا، ثم يهلكه الله تبارك وتعالى وجنوده حتى أن جذم الحائط - أو قال: أصل الحائط، وقال حسن الأشيب: وأصل الشجرة - لينادي - أو قال: يقول: - يا مؤمن! - أو قال: يا مسلم -هذا يهودي- أو قال: هذا كافر تعال فاقتله" قال: "ولن يكون ذلك كذلك حتى تروا أمورًا يتفاقم شأنها في أنفسكم، وتسألون بينكم: هل كان نبيكم ذكر لكم منها ذكرًا؟) أخرجه أحمد وفي إسناده ضعف، ولكن له ما يشهد

له، وروى الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ؛ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم ! يا عبد الله ! هذا يهودي خلفي، فتعال، فاقتله؛ إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود) وهذا لفظ مسلم، والذي يظهر من سياق الأحاديث أن كلام الحجر والشجر ونحوه حقيقة، وذلك لأن حدوث تكلم الجمادات ثابت في غير أحاديث قتال اليهود، وقد سبق أن أفردت لهذا مبحثًا خاصًا به؛ لأنه من علامات السَّاعة.

وإذا كانت الجمادات تتكلم في ذلك الوقت؛ فلا داعي لحمل كلام الشجر والحجر على المجاز؛ كما ذهب إلى ذلك البعض؛ فإنه ليس هناك دليل يوجب حمل اللفظ على خلاف حقيقته، ونطق الجماد قد ورد في آيات من القرآن: منها قوله تعالى: }أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [فصلت: ٢١]. وقوله: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: ٤٤]. وجاء في الحديث عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فكان أكثر خطبته عن الدجال، وحذرناه، فذكر خروجه، ثم نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقتله، وفيه: (قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: افتحوا الباب، فيفتح، ووراءه الدجال، معه سبعون ألف يهودي؛ كلهم ذو سيف محلىً وساج، فإذا نظر إليه الدجال؛ ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هاربًا، ويقول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها، فيدركه عند باب اللد الشرقي، فيقتله، فيهزم الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء؛ لا حجر، ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة؛ إلا الغرقدة، فإنها من شجرهم لا تنطق) فالحديث فيه التصريح بنطق الجمادات، وأيضًا؛ فإن استثناء شجر الغرقد من الجمادات بكونها لا تخبر

عن اليهود؛ لأنها من شجرهم، يدلُّ على أنه نطق حقيقي، ولو كان المراد بنطق الجمادات المجاز؛ لما كان لهذا الاستثناء معنى، ولو حملنا كلام الجمادات على المجاز؛ لم يكن ذلك بالأمر الخارق في قتال اليهود في آخر الزمان، وكانت هزيمتهم أمام المسلمين كهزيمة غيرهم من الكفار الذين قاتلهم المسلمون وظهروا عليهم، ولم يرد في قتالهم مثل ما ورد في قتال اليهود من الدلالة على المختبئ

بنطق الجمادات، فإذا لا حظنا أن الحديث في أمر مستغرب يكون آخر الزمان هو من علامات السَّاعة؛ دل ذلك على أن النطق في قتال اليهود حقيقي، وليس مجازًا عن انكشافهم أمام المسلمين، وعدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم؛ كما قيل، والله أعلم.

٥٥- نفي المدينة لشرارها ثم خرابها آخر الزمان: حث النبي ﷺ على سكنى المدينة، ورغب في ذلك، وأخبر أنه لا يخرج أحد منها رغبة عنها إلا أخلف الله فيها من هو خير منه، وأخبر أن من علامات السَّاعة نفي المدينة لخبثها، وهم شرار الناس؛ كما ينفي الكير خبث الحديد.

فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه هلم إلى الرخاء، هلم إلى الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفسي بيده؛ لا يخرج منهم أحد رغبة عنها؛ إلا أخلف الله فيها خيرًا منه، ألا إن المدينة كالكير يخرج الخبيث، لا تقوم السَّاعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد) أخرجه مسلم، وقد حمل القاضي عياض نفي المدينة لخبثها على زمن النبي ﷺ، لأنه لم يكن يصبر على الهجرة والمقام في المدينة إلا من كان ثابت الإ يمان، وأما المنافقون

وجهلة الأعراب؛ فلا يصبرون على شدة المدينة ولأوائها، ولا يحتسبون من الأجر في ذلك، وحمله النووي على زمن الدجال، واستبعد ما اختاره القاضي عياض، وذكر أنه يحتمل أن يكون ذلك في أزمان متفرقه كما في شرحه على مسلم (٩/ ١٥٤).

وذكر الحافظ في الفتح (٤/ ٨٨): أنه يحتمل أن يكون المراد كلًا من الزمنين زمن النبي ﷺ؛ بدليل قصة الأعرابي؛ كما في البخاري عن جابر رضي الله عنه: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فبايعه على الإسلام، فجاء من الغد محمومًا، فقال: أقلني. فأبى؛ ثلاث مرار. فقال: (المدينة كالكير، تنفي خبثها، وينصح طيبها) والزمن الثاني زمن الدجال؛ كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه ذكر الدجال، ثم قال: (ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله إليه كل كافر ومنافق) رواه البخاري وأما ما بين ذلك من الأزمان؛ فلا؛ فإن كثيرًا من فضلاء الصحابة قد خرجوا بعد النبي ﷺ من المدينة؛ كمعاذ بن جبل، وأبي عبيدة، وابن مسعود، وطائفة، ثم خرج علي، وطلحة، والزبير، وعمار، وغيرهم، وهم من أطيب الخلق، فدل على أن المراد بالحديث تخصيص ناس دون ناس، ووقت دون وقت؛ بدليل قوله تعالى: (**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**) [التوبة: ١٠١]، والمنافق خبيث بلا شك.اهـ.

وأما خروج الناس بالكلية من المدينة؛ فذلك في آخر الزمان، قرب قيام السَّاعة، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تتركون المدينة على خير ما كانت، لا يغشاها إلا العوافي- يريد عوافي السباع والطير - وآخر من يحشر راعيان من مزينة، يريدان المدينة، ينعقان بغنمهما،

فيجدانها وحشًا، حتى إذا بلغا ثنية الوداع؛ خرا على وجوههما). رواه البخاري، قال ابن كثير في النهاية (١/ ١٥٧): "والمقصود أن المدينة تكون باقية عامرةً أيام الدجال، ثم تكون كذلك في زمان عيسى بن مريم رسول الله عليه الصلاة والسلام، حتى تكون وفاته بها، ثم تخرب بعد ذلك.

وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٩٠): "روى عمر بن شبة بإسناد صحيح عن عوف بن مالك؛ قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، ثم نظر إلينا فقال: أما والله ليدعنها أهلها مذللة أربعين عامًا للعوافي، أتدرون ما العوافي؟ الطير والسباع"، ثم قال ابن حجر: "وهذا لم يقع قطعًا".اهـ. فدل هذا على أن خروج الناس من المدينة بالكلية يكون في آخر الزمان، بعد خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ويحتمل أن يكون ذلك عند خروج النار التي تحشر الناس، وهي آخر أشراط السَّاعة، وأول العلامات الدالَّة على قيام السَّاعة، فليس بعدها إلا السَّاعة.

ويؤيد ذلك كون آخر من يحشر يكون منها؛ كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "وآخر من يحشر راعيان من مزينة، يريدان المدينة، ينعقان بغنمهما، فيجدانها وحشًا"؛ أي: خالية من الناس، أو أن الوحوش قد سكنتها، والله أعلم.

٥٦- بعث الريح الطيبة لقبض أرواح المؤمنين: ومنها هبوب الريح الطيبة لقبض أرواح المؤمنين فلا يبقى على ظهر الأرض من يقول: الله، الله. ويبقى شرار الناس، وعليهم تقوم السَّاعة. وقد جاء في صفة هذه الريح أنها ألين من الحرير، ولعل ذلك من إكرام الله لعباده المؤمنين في ذلك الزمان المليء بالفتن والشرور.

فقد جاء في حديث النواس بن سمعان الطويل في قصة الدجال ونزول عيسى

عَلَيْهِ السَّلَامُ وخروج يأجوج ومأجوج: (إذ بعث الله ريحًا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس؛ يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم السَّاعة) أخرجه مسلم، وروى مسلم أيضا عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يخرج الدجال.. (فذكر الحديث، وفيه): فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه، فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه) فقد دلَّت الأحاديث أن ظهور هذه الريح يكون بعد نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقتله الدجال، وهلاك يأجوج ومأجوج، وأيضًا؛ فإن ظهورها يكون بعد طلوع الشمس من مغربها، وبعد ظهور الدابة، وسائر الآيات العظام، وعلى هذا؛ فظهورها قريب جدًا من قيام السَّاعة، ولا يتعارض أحاديث ظهور هذه الريح مع حديث: (لا تزال طائفة من أمتي؛ يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة) أخرجه مسلم، وفي رواية عند مسلم أيضا: (ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)؛ فإن المعنى أنهم لا يزالون على الحق حتى تقبضهم هذه الريح اللينة قرب القيامة، ويكون المراد بـ(أمر الله) وهو هبوب تلك الريح، وجاء في حديث عبد الله بن عمرو أن ظهور هذه الريح يكون من الشام كما سبق. وجاء في حديث آخر عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إن الله يبعث ريحًا من اليمن، ألين من الحرير، فلا تدع أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمانٍ؛ إلا قبضته) ويجاب عن هذا بوجهين:

الأول: يحتمل أنهما ريحان: شامية، ويمانية، والثاني: يحتمل أن مبدأها من

أحد الإقليمين، ثم تصل الآخر، وتنتشر عنده والله أعلم.

٥٧ - استحلال البيت الحرام، وهدم الكعبة: لا يستحل البيت الحرام إلا أهله، وأهله هم المسلمون، فإذا استحلوه؛ فإنه يصيبهم الهلاك، ثم يخرج رجل من أهل الحبشة؛ يقال له: ذو السويقتين، فيخرب الكعبة، وينقضها حجرًا حجرًا، ويسلبها حليتها، ويجردها من كسوتها، وذلك في آخر الزمان، حين لا يبقى في الأرض أحد يقول: الله، الله، ولذلك لا يعمر البيت بعد هدمه أبدًا؛ كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة. فقد روى الإمام أحمد بسنده عن سعيد بن سمعان؛ قال: سمعت أبا هريرة يخبر أبا قتادة أن رسول الله ﷺ قال: (يبايع لرجل ما بين الركن والمقام، ولن يستحل البيت إلا أهله، فإذا استحله؛ فلا يسأل عن هلكة العرب، ثم تأتي الحبشة، فيخربونه خرابًا لا يعمر بعده أبدًا، وهم الذين يستخرجون كنزه)، وروى الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة)، وروى الإمام أحمد والبخاري أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (كأني أنظر إليه أسود، أفحج، ينقضها حجرًا حجرًا يعني: الكعبة).

الباب الثاني: أشراط السَّاعة الكبرى

أولًا: ترتيب أشرأط السَّاعة الكبرى: لم أجد نصًا صريحًا يبين ترتيب أشراط السَّاعة الكبرى حسب وقوعها، وإنما جاء ذكرها في الأحاديث مجتمعة بدون ترتيب، إذ كان ترتيبها في الذكر لا يقتضي ترتيبها في الوقوع، فقد جاء العطف فيها بالواو، وذلك لا يقتضي الترتيب، ومن النصوص ما خالف ترتيبها فيه ترتيبها في نص آخر، ولكي يتبين هذا، فسأذكر نماذج من ذلك بذكر بعض الأحاديث التي تعرضت لذكر الأشراط الكبرى جملة أو ذكر بعضها: روى

الإمام مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفاري ﵁؛ قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: (ما تذاكرون"؟ قالوا: نذكر السَّاعة. قال: "إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات"، فذكر: الدُّخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)، وروى مسلم هذا الحديث عن حذيفة بن أسيد بلفظ آخر، وهو: (إن السَّاعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، والدُّخان، و الدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعرة عدن ترحل الناس). وفي رواية: (والعاشرة: نزول عيسى بن مريم) فهذا حديث واحد عن صحابي واحد جاء بلفظين مختلفين في ترتيب الأشراط.

وروى مسلم عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (بادروا بالأعمال ستًا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدُّخان، أو الدجال، أو الدابة، أو الخاصة أحدكم، أو أمر العامة)، وروى مسلم هذا الحديث عن أبي هريرة بلفظ آخر: (بادروا بالأعمال ستًا: الدجال، والدُّخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويضة أحدكم) وهذا أيضًا حديث واحد عن صحابي واحد جاء بلفظين مختلفين في ترتيب بعض الأشراط وفي أداة العطف، حيث جاء مرة بـ(أو) والأخرى بـ(الواو)، وهما لا يدلُّان على الترتيب، والذي يمكن معرفته هو ترتيب بعض الأشراط من خلال حدوث بعضها إثر بعض؛ كما ورد في بعض الروايات؛ مثل ما جاء في حديث النواس بن سمعان ﵁؛ كما سيأتي

ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى، فقد ذكر فيه بعض الآيات مرتبة؛ حسب وقوعها؛ فإنه ذكر أولًا خروج الدجال على الناس، ثم نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقتله، ثم خروج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر دعاءه عليهم بالهلاك، وكذلك جاء في بعض الروايات أن أول الآيات كذا، وفي بعضها آخر الآيات كذا، ومع هذا؛ فإن هناك اختلافًا في هذه الأولية بين العلماء، وهذا الاختلاف موجود في عصر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد روى الإمام أحمد ومسلم عن أبي زرعة؛ قال: جلس إلى مروان بن الحكم بالمدينة ثلاثة نفر من المسلمين، فسمعوه وهو يحدث عن الآيات أن أولها خروجًا الدجال، فقال عبد الله بن عمر: لم يقل مروان شيئًا، قد حفظت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثًا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها؛ فالأخرى على إثرها قريبًا". هذا لفظ مسلم، وزاد الإمام أحمد في روايته: "قال عبد الله - وكان يقرأ الكتب- : وأظن **أولاها** خروجًا طلوع الشمس من مغربها"، نعم؛ جمع الحافظ في الفتح (١١/ ٣٥٣): بين أولية الدجال وأولية طلوع الشمس من مغربها، فقال: "الذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤدنة بتغير أحوال العالم العلوي، وينتهي ذلك بقيام السَّاعة، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب". ثم قال: "والحكمة في ذلك أنه عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة، فتخرج الدابة؛ تميز المؤمن من الكافر؛ تكميلًا للمقصود من إغلاق باب التوبة، وأول الآيات المؤذنة بقيام السَّاعة النار التي

تحشر الناس".اهـ.

ويرى الحافظ ابن كثير في النهاية (١/ ١٦٤ - ١٦٨) أن خروج الدابة هو أول الآيات الأرضية التي ليست بمألوفة؛ فإن الدابة التي تكلم الناس وتعين المؤمن من الكافر أمر مخالف للعادة المستقرة، وأما طلوع الشمس من مغربها، فهو أمر باهر جدًا، وذلك أول الآيات السماوية، أما ظهور الدجال ونزول عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ من السماء، وخروج يأجوج ومأجوج؛ فإنهم وإن كان ظهورهم قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل ظهور الدابة؛ إلا أنهم بشر، مشاهدتهم وأمثالهم من الأمور المألوفة؛ بخلاف ظهور الدابة وطلوع الشمس من مغربها، فهو ليس من الأمور المألوفة.اهـ.

والذي يظهر أن المعول عليه ما ذهب إليه ابن حجر؛ فإن خروج الدجال من حيث كونه بشرًا ليس هو الآية، وإنما الآية خروجه في حالته التي هو عليها من حيث كونه بشرًا، ومع ذلك يأمر السماء أن تمطر، فتمطر، والأرض أن تنبت، فتنبت، ويكون معه كذا وكذا مما ليس مألوفًا؛ كما سيأتي في الكلام على الدجال، فالدجال في الحقيقة هو أول الآيات الأرضية التي ليست بمألوفة.

وقال الطيبي كما في الفتح (١١/ ٣٥٢): "الآيات أمارات للساعة، إما على قربها، وإما على حصولها، فمن الأول: الدجال، ونزول عيسى، ويأجوج ومأجوج، والخسف. ومن الثاني: الدُّخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس".اهـ. وهذا ترتيب بين جملة من الآيات وجملة أخرى منها؛ دون تعرض لترتيب ما اندرج تحت هاتين الجملتين، مع أنه يظهر لي أن الطيبي يرى ترتيب الآيات حسب ما ذكره في كل قسم؛ فإن هذا التقسيم - الذي ذهب إليه - تقسيم حسن ودقيق؛ فإنه إذا خرج القسم الأول الدال على

قرب السَّاعة قربًا شديدًا؛ كان فيه إيقاظ للناس؛ ليتوبوا ويرجعوا إلى ربهم، ولم يكن هنالك تمييز بين المؤمن والكافر، وهذه العلامات التي ذكرها في القسم الأول سبق أن ذكرت أنه جاء ترتيبها حسب وقوعها، وأضاف إليها الخسوفات، وذلك مناسب لها.

وأما إذا ظهر القسم الثاني -الدال على حصول السَّاعة- فإن الناس يتميزون إلى مؤمن وكافر؛ كما سيأتي أنه عند ظهور الدُّخان يصيب المؤمن كهيئة الزكام، والكافر ينتفخ من ذلك الدُّخان، ثم تطلع الشمس من مغربها، فيقفل باب التوبة، فلا ينفع الكافر إيمانه، ولا التائب توبته، ثم تظهر بعد ذلك الدابة، فتميز بين الناس، فيعرف الكافر من المؤمن؛ لأنها تسم المؤمن وتخطم الكافر؛ كما سيأتي ذكر ذلك، ثم يكون آخر ذلك ظهور النار التي تحشر الناس، وقد جريت في ذكري لأشراط السَّاعة الكبرى على هذا الترتيب الذي ذكره الطيبي؛ لأنه - في نظري- أقرب إلى الصواب، والله أعلم.

ثانيًا: تتابع ظهور الأشراط الكبرى: إذا ظهر أول علامات السَّاعة الكبرى؛ تتابعت الآيات كتتابع الخرز في النظام، يتبع بعضها بعضًا.

روى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ؛ قال: (خروج الآيات بعضها على إثر بعض، يتتابعن كما تتابع الخرز في النظام) والنظام: العقد من الجوهر والخرز ونحوهما. و(سلكه): خيطه.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (الآيات خرزات منظومات في سلك، فإن يقطع السلك؛ يتبع بعضها بعضًا) ويشهد له ما قبله، والذي يظهر لي - والله أعلم - أن المراد بهذه الآيات هي علامات السَّاعة الكبرى؛ فإن ظاهر هذه الأحاديث يدلُّ على تقارب ظهورها تقاربًا شديدًا،

ويؤيد ذلك ما سبق ذكره في الكلام على ترتيب أشراط السَّاعة الكبرى؛ من بعض الأحاديث ذكرت أن بعض هذه العلامات تظهر في زمن متقارب؛ فإن أول العلامات الكبرى بعد المهدي ظهور الدجال، ثم نزول عيسى عليه السلام لقتله، ثم ظهور يأجوج ومأجوج، ودعاء عيسى عليه السلام عليهم، فيهلكهم.

قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٧٧): "وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك، إذا انقطع؛ تناثر الخرز بسرعة، وهو عند أحمد.

الفصل الأول المَهدِي

وقبل ذكر العلامات العشر الكبرى نتحدث عن المهدي؛ لأن ظهوره يكون سابقًا لهذه العلامات، فهو الذي يجتمع عليه المؤمنون لقتال الدجال، ثم ينزل عيسى عليه السلام، ويصلي خلفه؛ كما سيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

في آخر الزمان يخرج رجل من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط؛ تخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطرها، ويعطى المال بغير عدد.

قال ابن كثير في النهاية (١/ ٣١): "في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر، والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم.اهـ.

* اسمه وصفته: وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، واسم أبيه كاسم أبي النبي صلى الله عليه وسلم، فيكون اسمه محمد -أو أحمد- بن عبد الله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم من ولد الحسن بن علي رضي الله عنهم.

ثبت في الحديث عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقومُ الساعة حتى يَمْلِكَ الناس رجلٌ مِن أهل بيتي يُوَاطِىءُ اسمُهُ اسمي واسمُ أبيه اسم أبي

فَيَمْلأُها قِسْطًا وعَدْلًا) قال ابن كثير في النهاية (١/ ٢٩) في المهدي: وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.اهـ.

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا (المهدي مني أجلى الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت جورا و ظلما يملك سبع سنين) أخرجه أبو داود.

* مكان خروجه: قيل يكون ظهور المهدي من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عند ابن ماجة عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يقتتل عند كنزكم ثلاثة؛ كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلًا لم يقتله قوم... (ثم ذكر شيئًا لا أحفظه، فقال): فإذا رأيتموه؛ فبايعوه، ولو حبوًا على الثلج؛ فإنه.. المهدي)[١] قال ابن كثير في النهاية (١/ ٢٩): " والظاهر أن المراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة يقتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء حتى يكون آخر الزمان فيخرج المهدي ويكون ظهوره من بلاد المشرق لا من سرداب سامراء كما تزعمه جهلة الرافضة من أنه موجود فيه الآن وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهذيان وقسط كثير من الخذلان وهوس شديد من الشيطان إذ لا دليل عليه ولا برهان لا من كتاب ولا من سنة ولا من معقول صحيح ولا استحسان.

وقال أيضًا: "ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه،

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٤٠٨٤) والحاكم (٤/ ٥١٠)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٥١٦) وغيرهم والحديث ضعفه البيهقي وقال المناوي في الفيض (١/ ٤٦٩): نقل في الميزان عن أحمد وغيره تضعيفه ثم قال الذهبي أراه حديثا منكرا وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٣٩) قال ابن حجر ولم يصب إذ ليس فيه متهم بالكذب انتهى وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٨٥) منكر.

ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سود أيضًا وهو زي عليه الوقار؛ لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها: العقاب".

إلى أن قال: " والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل خروجه وظهوره من ناحية المشرق ويبايع له عند البيت كما دل على ذلك نص الحديث، وقد أفردت في ذكر المهدي جزءا على حدة ولله الحمد".

* الأدلَّة من السنة على ظهوره: جاءت الأحاديث الصحيحة الدالَّة على ظهور المهدي، وهذه الأحاديث منها ما جاء فيه النص على المهدي، ومنها ما جاء فيه ذكر صفته فقط، وأحاديث المهدي متواترة، قال صاحب كتاب تحذير أولي النهى من الأحاديث التي لا أصل لها (٢/ ١١٦): تحت حديث (لا مهدي إلا عيسى) أخرجه ابن ماجه والحاكم وابن عبد البر في جامع العلم وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن والسلفي في الطيوريات والخطيب وأورده ابن الجوزي في الواهيات وقال الذهبي في الميزان: إنه خبرمنكر، وقال الصغاني: موضوع، وقال القرطبي في التذكرة: ضعيف، وقال شيخ الإسلام في منهاج السنة: حديث ضعيف وضعفه ابن القيم في المنار المنيف، وقال صاحب عون المعبود: ضعفه البيهقي والحاكم، وقال العلامة الألباني في السلسلة الضعيفة: منكر.

قلت يرده أحاديث كثيرة بلغت حد التواتر.... قال أبو الحسن محمد بن الحسين بن إبراهيم بن عاصم السحري في كتاب مناقب الشافعي قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى ﷺ بمجيء المهدي وأنه من أهل بيتي وإنه سيملك سبع سنين وأنه يملأ الأرض عدلا وإنه يخرج مع عيسى

عليه السلام فيساعده على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين وإنه يؤم هذه الأمة وعيسى يصلي خلفه في طول من قصته وأمره.

وقال الشوكاني في رسالته المسماة بالتوضيح في تواتر ما جاء في الأحاديث في المهدي والدجال والمسيح فتقرر بجميع ما سقناه أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة والأحاديث الواردة في الدجال متواترة.

وقال صديق حسن القنوجي في كتابه الاذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة: "والاحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جدًا، تبلغ حد التواتر المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الاسلام من المعاجم والمسانيد"

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (١٥٢٩): فهؤلاء خمسة من كبار أئمة الحديث قد صححوا أحاديث خروج المهدي، ومعهم أضعافهم من المتقدمين والمتأخرين أذكر أسماء من تيسر لي منهم:

١ – أبو داود في " السنن " بسكوته على أحاديث المهدي.

٢ – العقيلي.

٣ – ابن العربي في " عارضة الأحوذي ".

٤ – القرطبي كما في " أخبار المهدي " للسيوطي.

٥ – الطيبي كما في " مرقاة المفاتيح " للشيخ القاريء ؟

٦ – ابن قيم الجوزية في " المنار المنيف "، خلافا لمن كذب عليه.

٧ – الحافظ ابن حجر في " فتح الباري ".

٨ – أبو الحسن الآبري في " مناقب الشافعي " كما في " فتح الباري ".

٩ – الشيخ علي القارئ في " المرقاة ".

١٠- السيوطي في " العرف الوردي ".

١١- العلامة المباركفوري في " تحفة الأحوذي " وغيرهم كثير و كثير جدا.

بعد هذا كله أليس من العجيب حقا قول الشيخ الغزالي في مشكلاته التي صدرت عنه حديثا (ص١٣٩): "من محفوظاتي وأنا طالب أنه لم يرد في المهدي حديث صريح، وما ورد صريحا فليس بصحيح "! فمن هم الذين لقنوك هذا النفي وحفظوك إياه وأنت طالب؟ أليسوا هم علماء الكلام الذين لا علم عندهم بالحديث، ورجاله، وإلا فكيف يتفق ذلك مع شهادة علماء الحديث بإثبات ما نفوه؟ ! أليس في ذلك ما يحملك على أن تعيد النظر فيما حفظته طالبا، لاسيما فيما يتعلق بالسنة والحديث تصحيحا وتضعيفا، وما بني على ذلك من الأحكام والآراء، ذلك خير من أن تشكك المسلمين في الأحاديث التي صححها العلماء لمجرد كونك لقنته طالبا، ومن غير أهل الاختصاص والعلم؟ !.

الفصل الثاني: المسيح الدَّجَّال

* معنى المسيح: ذكر أبو عبد الله القرطبي في التذكرة (ص٦٧٩): ثلاثة وعشرين قولًا في اشتقاق هذا اللفظ، وأوصلها صاحب ترتيب القاموس (٤/ ٢٣٩): إلى خمسين قولًا.

وهذه اللفظة تطلق على الصديق، وعلى الضليل الكذاب، فالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام: الصديق، والمسيح الدجال: الضليل الكذاب، فخلق الله المسيحين، أحدهما ضد الآخر فعيسى عليه السلام مسيح الهدى؛ يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيى الموتى بإذن الله، والدجال - لعنه الله - مسيح الضلالة، يفتن

الناس بما يعطاه من الآيات؛ كإنزال المطر، وإحياء الأرض بالنبات، وغيرهما من الخوارق.

وسمي الدجال مسيحًا؛ لأن إحدى عينيه ممسوحة، أو لأنه يمسح الأرض في أربعين يومًا، والقول الأول هو الراجح؛ لما جاء في الحديث: (إن الدجال ممسوح العين) أخرجه مسلم.

* معنى الدجال: أما لفظ (الدجال)؛ فهو مأخوذ من قوله: دجل البعير؛ إذا طلاه بالقطران، وغطاه به، وأصل الدجل: معناه الخلط؛ يقال: دجل إذا لبس وموه.

والدجال: المموه الكذاب الممخرق، وهو من أبنية المبالغة، على وزن فعال؛ أي: يكثر منه الكذب والتلبيس، وجمعه: دجالون، وجمعه الإمام مالك عل دجاجلة، وهو جمع تكسير، وذكر القرطبي في التذكرة (ص٦٥٨) أن الدجال في اللغة يطلق على عشر وجوه.

ولفظة (الدجال): أصبحت علمًا على المسيح الأعور الكذاب، فإذا قيل: الدجال؛ فلا يتبادر إلى الذهن غيره، وسمي الدجال دجالًا: لأنه يغطي الحق بالباطل، أو لأنه يغطي على الناس كفره بكذبه وتمويهه وتلبيسه عليهم، وقيل: لأنه يغطي الأمر بكثرة جموعه. والله أعلم.

* صفة الدجال والأحاديث الواردة في ذلك: الدجال رجل من بني آدم، له صفات كثيرة جاءت بها الأحاديث؛ لتعريف الناس به، وتحذيرهم من شره، حتى إذا خرج؛ عرفه المؤمنون، فلا يفتنون به، بل يكونون على علم بصفاته التي أخبر بها الصادق ﷺ، وهذه الصفات تميزه عن غيره من الناس، فلا يغتر به إلا الذي سبقت عليه الشقوة، نسأل الله العافية، ومن هذه الصفات أنه رجل، شاب،

أحمر، قصير، أفحج، جعد الرأس، أجلى الجبهة، عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئ، ولا جحراء؛ كأنها عنبة طافئة، وعينه اليسرى عليها ظفرة غليظة، ومكتوب بين عينيه (ك ف ر) بالحروف المقطعة، أو (كافر) بدون تقطيع، يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب، ومن صفاته أنه عقيم لا يولد له، وهذه بعض الأحاديث الصحيحة التي جاء فيها ذكر صفاته السابقة، وهي من الأدلّة على ظهور الدجال:

١- عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قا: (بينا أنا نائم أطوف بالبيت...فذكر أنه رأى عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم رأى الدجال، فوصفه، فقال: فإذا رجل جسيم، أحمر، جعد الرأس، أعور العين، كأن عينه عنبة طافئة؛ قالوا هذا الدجال أقرب الناس به شبهًا ابن قطن"؛ رجل من خزاعة) أخرجه البخاري.

٢- وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهراني الناس، فقال: (إن الله تعالى ليس بأعور، ألا وإن ا لمسيح الدجال أعو رالعين اليمنى؛ كأن عينة عنبة طافية) أخرجه البخاري ومسلم.

٣- وفي حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال ﷺ في وصف الدجال: (إنه شاب، قطط، عينه طافية، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن) أخرجه مسلم

٤- وفي حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: (إن مسيح الدجال رجل، قصير، أفجع، جعد، أعور، مطموس العين، ليس بناتئه ولا جحراء، فإن ألبس عليكم؛ فاعلموا أن ربكم ليس بأعور) رواه أبو داود.

٥- وعن الفلتان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ (أريت ليلة القدر ثم أنسيتها، وأريت مسيح الضلالة، فرأيت رجلين يتلاحيان فحجزت بينهما

فأنسيتها فاطلبوها في العشر الأواخر وترا، فأما مسيح الضلالة فرجل أجلى الجبهة، ممسوح العين اليسرى، عريض النحر كأنه عبد العزى بن قطن) أخرجه البزار.

٦- وفي حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال ﷺ: (الدجال أعور العين اليسرى، جفال الشعر) أخرجه مسلم.

٧- وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين؛ قال ﷺ: (وإن بين عينيه مكتوب كافر)، وفي رواية: (ثم تهجاها (ك ف ر)؛ يقرؤه كل مسلم)، وفي رواية عن حذيفة عند مسلم: (يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب)

وهذه الكتابة حقيقة على ظاهرها، ولا يشكل رؤية بعض الناس لهذه الكتابة دون بعض، وقراءة الأمي لها، "وذلك أن الإدراك في البصر يخلقه الله للعبد كيف شاء ومتى شاء، فهذا يراه المؤمن بعين بصره، وإن كان لا يعرف الكتابة، ولا يراه الكافر، ولو كان يعرف الكتابة؛ كما يرى المؤمن الأدلَّة بعين بصيرته، ولا يراه الكافر، فيخلق الله للمؤمن الإدراك دون تعلم؛ لأن ذلك الزمن تنخرق فيه العادات.

قال النووي في شرح مسلم (١٨/ ٦٠): "الصحيح الذي عليه المحققون أن هذه الكتابة على ظاهرها، وأنها كتابة حقيقية، جعلها الله آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله؛ يظهرها الله تعالى لكل مسلم؛ كاتب وغير كاتب، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته، ولا امتناع في ذلك.اهـ.

٨- ومن صفاته أيضًا ما جاء في حديث فاطمة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند مسلم في قصة الجساسة، وفيه قال تميم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فانطلقنا سراعًا، حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط، وأشده وثاقًا).

٩- وفي حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم؛ قال: سمعت رسول الله

ﷺ يقول: (ما بين خلق آدم إلى قيام السَّاعة خلق أكبر من الدجال).

١٠- وأما أن الدجال لا يولد له؛ فما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصته مع ابن صياد، فقد قال لأبي سعيد: (ألست سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنه لا يولد له؟" قال: قلت: بلى) أخرجه مسلم.

والملاحظ في الروايات السابقة أن في بعضها وصف عينه اليمنى بالعور، وفي بعضها وصف عينه اليسرى بالعور، وكل الروايات صحيحة، وهذا فيه إشكال.

فذهب الحافظ في الفتح (١٣/ ٩٧): إلى أن حديث ابن عمر الوارد في الصحيحين والذي جاء فيه وصف اليمنى بالعور أرجح من رواية مسلم التي جاء فيه وصف عيه اليسرى بالعور؛ لأن المتفق على صحته أقوى من غيره.اهـ.

وذهب القاضي عياض كما في شرح مسلم (٢/ ٢٣٥) إلى أن عيني الدجال كلتيهما معيبة؛ لأن الروايات كلها صحيحة، وتكون العين المطموسة والممسوحة هي العوراء الطافئة -بالهمز-؛ أي: التي ذهب ضوؤها، وهي العين اليمنى؛ كما في حديث ابن عمر. وتكون العين اليسرى التي عليها ظفرة غليظة، وهي الطافية - بلا همز - معيبة أيضًا، فهو أعور العين اليمنى واليسرى معًا، فكل واحدة منهما عوراء؛ أي: معيبة؛ فإن الأعور من كل شيء: المعيب، لا سيما ما يختص بالعين، فكلا عيني الدجال معيبة عوراء، إحداهما بذهابها، والأخرى بعيبها. قال النووي في هذا الجمع: "هو في نهاية من الحسن.اهـ. ورجحه أبو عبد الله القرطبي في التذكرة (ص٦٦٣).

هل الدجال حي؟ وهل كان موجودًا في زمن النبي ﷺ؟

وقبل الجواب عن هذين السؤالين لا بد من معرفة حال ابن صياد؛ هل هو الدجال أو غيره؟ وإذا كان الدجال غير ابن صياد؛ فهل هو موجود قبل أن يظهر بفتنته أو لا؟ وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة نعرف بابن صياد.

ابن صياد: هو رجل من يهود المدينة، وقيل: إنه من الأنصار، واسمه " صاف " بمهملة وفاء وزن باع، وقيل: اسمه " عبد الله "، ذكره الذهبي في كتابه تجريد أسماء الصحابة (١ / ٣١٩) فقال: عبد الله بن صياد أورده ابن شاهين، وقال هو ابن صائد كان أبوه يهوديًا فولد عبد الله أعور مختونا، وهو الذي قيل إنه الدجال ثم أسلم، فهو تابعي له رؤية، وقال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر كلام الذهبي السابق في الإصابة (٣ / ١٣٣): ومن ولده عمارة بن عبد الله بن صياد، وكان من خيار المسلمين من أصحاب سعيد بن مالك، روى عنه مالك وغيره، وقال الحافظ بن كثير في النهاية في الفتن والملاحم (١ / ١٧٣): وقد كان ابن صياد من يهود المدينة، ولقبه " عبد الله " ويقال " صاف "، وقد جاء هذا وهذا، وقد يكون أصل اسمه " صاف " ثم تسمى لما أسلم بعبد الله، وقد كان ابنه عمارة بن عبد الله من سادات التابعين، وروى عنه مالك وغيره، وللمزيد انظر: مشكل الآثار للطحاوي (٤ / ٩٦ - ١٠٣)، وتهذيب التهذيب (٧ / ٤١٨، ٤١٩).

هل ابن صياد هو الدجال؟ - فقد اختلف العلماء في ذلك اختلافا شديدا، واضطربت فيه الروايات والآراء، وقبل الدخول في ذكر أقوال العلماء في ذلك أحب أن أشير إلى بعض الروايات الواردة في شأنه، من ذلك: رواية عبد الله بن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - «أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط قبل ابن صياد حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أطم بني مغالة، وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده، ثم قال رسول الله ﷺ لابن صياد: " أتشهد أني رسول الله "؟ فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأميين، فقال ابن صياد لرسول الله ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟

فرفضه رسول الله ﷺ وقال: " آمنت بالله وبرسله "، ثم قال له رسول الله ﷺ: " ماذا ترى "؟ قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب، فقال له رسول الله ﷺ: " خلط عليك الأمر "، ثم قال له رسول الله ﷺ: " إني خبأت لك خبيئا " فقال ابن صياد: هو الدخ فقال له رسول الله ﷺ: " اخسأ فلن تعدو قدرك ". فقال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله أن أضرب عنقه، فقال له رسول الله ﷺ: " إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لا يكنه فلا خير لك في قتله» أخرجه مسلم.

وقال سالم بن عبد الله: سمعت عبد الله بن عمر يقول: «انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ وأبي بن كعب الأنصاري إلى النخل التي فيها ابن صياد حتى إذا دخل رسول الله ﷺ النخل طفق يتقي بجذوع النخل وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئا قبل أن يراه ابن صياد، فرآه رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراش في قطيفة له فيها زمزمة فرأت أم ابن صياد رسول الله ﷺ وهو يتقي بجذوع، فقالت لابن صياد: يا صاف (وهو اسم ابن صياد) هذا محمد، فثار ابن صياد، فقال رسول الله ﷺ " لو تركته بين» أخرجه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «لقيه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر – يعني ابن صياد – في بعض طرق المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: " أتشهد أني رسول الله "؟ فقال هو: أتشهد أني رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: " آمنت بالله وملائكته وكتبه، ما ترى "؟ قال: أرى عرشا على الماء، فقال رسول الله ﷺ: " ترى عرش إبليس على البحر، وما ترى "؟ قال: أرى صادقين وكاذبا – أو كاذبين وصادقا – فقال رسول الله ﷺ: " لبس عليه، دعوه» أخرجه مسلم.

وعنه أيضا: «خرجنا حجاجا أو عمارا ومعنا ابن صياد، قال: فنزلنا منزلا، فتفرق الناس وبقيت أنا وهو. فاستوحشت منه وحشة شديدة مما يقال عليه،

قال: وجاء بمتاعه فوضعه مع متاعي، فقلت: إن الحر شديد، فلو وضعته تحت تلك الشجرة. قال: ففعل، قال: فرفعت لنا غنم، فانطلق فجاء بعس فقال: اشرب أبا سعيد! فقلت: إن الحر شديد واللبن حار، ما بي إلا أني أكره أن أشرب عن يده - أو قال آخذ عن يده - فقال: أبا سعيد! لقد هممت أن آخذ حبلا فأعلقه بشجرة ثم أختنق مما يقول لي الناس، يا أبا سعيد: من خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار، ألست من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ: هو عقيم لا يولد له، وقد تركت ولدي بالمدينة؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ: لا يدخل المدينة ولا مكة، وقد أقبلت من المدينة، وأنا أريد مكة؟. قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: حتى كدت أن أعذره، ثم قال: أما والله إني لأعرف مولده وأين هو الآن. قال: قلت له: تبا لك سائر اليوم» أخرجه مسلم.

وعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها (....فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر، وهو يضحك، فقال: «ليلزم كل إنسان مصلاه»، ثم قال: «أتدرون لم جمعتكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم، لأن تميما الداري كان رجلا نصرانيا، فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثا وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية، مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهرا في البحر، ثم أرفئوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر، لا يدرون ما قبله من دبره، من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قالوا: وما الجساسة؟ قالت [ص:٢٢٦٣]: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه

إلى خبركم بالأشواق، قال: لما سمت لنا رجلا فرقنا منها أن تكون شيطانة، قال: فانطلقنا سراعا، حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقا، وأشده وثاقا، مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم فلعب بنا الموج شهرا، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرة، فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر، لا يدرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعا، وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة، فقال: أخبروني عن نخل بيسان، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها، هل يثمر؟ قلنا له: نعم، قال: أما إنه يوشك أن لا تثمر، قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء، قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب، قال: أخبروني عن عين زغر، قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم، هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها، قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم، قال: أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني، إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة، فهما محرمتان علي كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة - أو

واحدا - منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتا، يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها، قالت: قال رسول الله ﷺ، وطعن بمخصرته في المنبر: «هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة» - يعني المدينة - «ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟» فقال الناس: نعم، «فإنه أعجبني حديث تميم، أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه، وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشأم، أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق، ما هو» وأومأ بيده إلى المشرق، قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ) أخرجه مسلم.

ومن أقوال العلماء في ابن صياد هل هو الدجال الأكبر أم لا، قول البيهقي كما في الفتح (١٣ / ٣٢٦ - ٣٢٧) في سياق كلامه على حديث تميم الداري السابق: فيه أن الدجال الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان غير ابن صياد، وكان ابن صياد أحد الدجالين الكذابين الذين أخبر ﷺ بخروجهم، وقد خرج أكثرهم، وكأن الذين يجزمون بأن ابن صياد هو الدجال لم يسمعوا بقصة تميم، وإلا فالجمع بينهما بعيد جدا؛ إذ كيف يلتئم أن يكون من كان في أثناء الحياة النبوية شبه محتلم، ويجتمع به النبي ﷺ ويسأله أن يكون في آخرها شيخا كبيرا مسجونا في جزيرة من جزائر البحر موثقا بالحديد يستفهم عن خبر النبي ﷺ هل خرج أو لا؟ فالأولى أن يحمل على عدم الاطلاع، أما عمر فيحتمل أن يكون ذلك منه قبل أن يسمع قصة تميم ثم لما سمعها لم يعد إلى الحلف المذكور، وأما جابر فشهد حلفه عند النبي ﷺ فاستصحب ما كان اطلع عليه من عمر بحضرة النبي ﷺ.اهـ.

وقال النووي في المنهاج (١٨ / ٤٦، ٤٧): قال العلماء: وقصته مشكلة وأمره مشتبه في أنه هل هو المسيح الدجال المشهور أم غيره، ولا شك في أنه

دجال من الدجاجلة. قال العلماء: وظاهر الأحاديث أن النبي ﷺ لم يوصف إليه بأنه المسيح الدجال ولا غيره، وإنما أوحي إليه بصفات الدجال، وكان في ابن صياد قرائن محتملة، فلذلك كان النبي ﷺ لا يقطع بأنه الدجال ولا غيره، ولهذا قال لعمر رضي الله عنه: إن يكن هو فلن تستطيع قتله. وأما احتجاجه هو بأنه مسلم والدجال كافر، وبأنه لا يولد للدجال وقد ولد له هو، وأنه لا يدخل مكة والمدينة وأن ابن صياد دخل المدينة وهو متوجه إلى مكة، فلا دلالة له فيه؛ لأن النبي ﷺ إنما أخبر عن صفاته وقت فتنته وخروجه في الأرض، ومن اشتباه قصته وكونه أحد الدجاجلة الكذابين قوله للنبي ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟ ودعواه أنه يأتيه صادق وكاذب، وأنه يرى عرشا فوق الماء، وأنه لا يكره أن يكون هو الدجال، وأنه يعرف موضعه، وقوله: إني لأعرفه وأعرف مولده وأين هو الآن، وانتفاخه حتى ملأ السكة، وأما إظهاره الإسلام وحجه وجهاده وإقلاعه عما كان عليه فليس بصريح في أنه غير الدجال ".

أقوال العلماء في ابن صياد

قال أبو عبد الله القرطبي في التذكرة (٢ / ٨٢٢): " الصحيح أن ابن صياد هو الدجال بدلالة ما تقدم، وما يبعد أن يكون بالجزيرة في ذلك الوقت، ويكون بين أظهر الصحابة في وقت آخر ".

ويفهم من كلام النووي والقرطبي السابق أنهما يرجحان كون ابن صياد هو الدجال.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص (١٦٦) في معرض كلامه على الأحوال الشيطانية: " وهذا بخلاف الأحوال الشيطانية مثل حال عبد الله بن صياد الذي ظهر في زمن النبي ﷺ،

وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال، لكنه من جنس الكهان ".

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في النهاية (١/ ١٧٣) بعد أن ساق الأحاديث الواردة في ابن صياد وهل هو الدجال الأكبر أم لا، قال: وقد قدمنا أن الصحيح أن الدجال غير ابن صياد وأن ابن صياد كان دجالا من الدجاجلة ثم تاب بعد ذلك فأظهر الإسلام، والله أعلم بضميره وسيرته.

ولعل ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ والحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ هو الراجح في ابن صياد، وأنه دجال من الدجاجلة وليس هو الدجال الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان - والله أعلم.

* مكان خروج الدجال: يخرج الدجال من جهة المشرق؛ من خراسان، من يهودية أصبهان، ثم يسير في الأرض، فلا يترك بلدًا إلا دخله؛ إلا مكة والمدينة، فلا يستطيع دخولهما؛ لأن الملائكة تحرسهما، ففي حديث فاطمة بنت قيس السابق عند مسلم أن النبي ﷺ قال في الدجال: (ألا إنه في بحر الشام، أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو وأومأ بيده إلى المشرق).

وعن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: حدثنا رسول الله ﷺ؛ قال: (الدجال يخرج من أرض بالمشرق؛ يقال لها: خراسان) أخرجه الترمذي، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (يخرج الدجال من يهودية أصبهان، معه سبعون ألفًا من اليهود) أخرجه أحمد.

قال في الفتح (١٣/ ٩١): "وأما من أين يخرج؟ فمن قبل المشرق جزمًا".اهـ.

وقال ابن كثير في النهاية (١/ ١٢٨): "فيكون بدء ظهوره من أصبهان، من حارة يقال لها: اليهودية.

* الدجال لا يدخل مكة والمدينة: حرم على الدجال دخول مكة والمدينة حين يخرج في آخر الزمان؛ لورود الأحاديث الصحيحة لذلك، وأما ما سوى ذلك من البلدان؛ فإن الدجال سيدخلها واحدًا بعد الآخر، جاء في حديث فاطمة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند مسلم أن الدجال قال: (فأخرج، فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة؛ غير مكة وطيبة، فهما محرمتان علي كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحدًا- منهما؛ استقبلني ملك بيده السيف صلتًا يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها)، وثبت أيضًا أن الدجال لا يدخل أربعة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، ومسجد الطور، والمسجد الأقصى.

روى الإمام أحمد عن جنادة بن أبي أمية الأزدي؛ قال: ذهبت أنا ورجل من الأنصار إلى رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلنا: حدثنا ما سمعت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكر في الدجال.... (فذكر الحديث، وقال): (وإنه يمكث في الأرض أربعين صباحًا، يبلغ فيها كل منهل، ولا يقرب أربعة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد المدينة، ومسجد الطور، ومسجد الأقصى) أخرجه أحمد.

* أتباع الدجال: أكثر أتباع الدجال من اليهود والعجم والترك، وأخلاط من الناس، غالبهم الأعراب والنساء، روى مسلم عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة). وفي رواية للإمام أحمد: (سبعون ألفًا عليهم السيجان). وجاء في حديث أبي بكر الصديق عند الترمذي: (يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة).

قال ابن كثير في النهاية(١/ ١١٧): "والظاهر - والله أعلم - أن المراد هؤلاء الترك أنصار الدجال.اهـ.

وأما كون أكثر أتباعه من الأعراب؛ فلأن الجهل غالب عليهم، ولما جاء في حديث أبي أمامة الطويل قوله ﷺ: (وإن من فتنته - أي: الدجال - أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك؛ أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم. فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني! اتبعه؛ فإنه ربك) أخرجه ابن ماجة.

وأما النساء؛ فحالهن أشد من حال الأعراب؛ لسرعة تأثرهن، وغلبة الجهل عليهن، ففي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال النبي ﷺ: (ينزل الدجال في هذه السبخة بمرقناة، فيكون أكثر من يخرج إليه النساء، حتى إن الرجل يرجع إلى حميمه وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطًا؛ مخافة أن تخرج إليه) أخرجه أحمد وإسناده حسن لولا عنعنة محمد بن إسحاق.

* فتنة الدجال: فتنة الدجال أعظم الفتن منذ خلق الله آدم إلى قيام السَّاعة، وذلك بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التي تبهر العقول، وتحير الألباب.

فقد ورد أن معه جنة ونارًا، وجنته نار، وناره جنة، وأن معه أنهار الماء، وجبال الخبز، ويأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض، ويقطع الأرض بسرعة عظيمة؛ كسرعة الغيث استدبرته الريح... إلى غير ذلك من الخوارق، وكل ذلك جاءت به الأحاديث الصحيحة:

فمنها ما رواه الإمام مسلم عن حذيفة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (الدَّجَّال أعور العين اليسرى، جفال الشعر، معه جنة ونار، فناره جنة، وجنته

نار)، ولمسلم أيضًا عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لأنا أعلم بما مع الدَّجَّال منه، معه نهران يجريان، أحد هما رأي العين ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تأجج، فإما أدركن أحد؛ فليأت النهر الذي يراه نارًا، وليغمض، ثم ليطأضئ رأسه، فيشرب منه؛ فإنه ماء بارد).

وجاء في حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذكر الدَّجَّال أن الصحابة قالوا: يا رسول الله! وما لبثه في الأرض؟ قال: (أربعون يومًا: يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم". قالوا: وما إسراعه في الأرض؟ قال: "كالغيث إذا استدبرته الريح، فيأتي على القوم، فيدعوهم، فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرًا، وأسبغه ضروعًا، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم، فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلًا ممتلئًا شبابًا، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه، فيقبل ويتهلل وجهه يضحك) أخرجه مسلم، وجاء في رواية البخاري عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن هذا الرجل الذي يقتله الدَّجَّال من خيار الناس، أوخير الناس؛ يخرج إلى الدَّجَّال من مدينة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقول للدجال: (أشهد أنك الدَّجَّال الذي حدثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثه. فيقول الدَّجَّال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته؛ هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا. فيقتله، ثم يحييه، فيقول (أي: الرجل): والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم، فيريد الدَّجَّال أن يقتله، فلا يسلط عليه)، وسبق ذكر رواية ابن ماجه عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ... وفيها قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدَّجَّال: (إن من فتنته أن يقول

للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك؛ أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم. فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني ! اتبعه؛ فإنه ربك)، نسأل الله العافية، ونعوذ به من الفتن.

* الرد على منكري ظهور الدَّجَّال: ما تقدم من الأحاديث يدلُّ على تواتر خروج الدَّجَّال في آخر الزمان، وأنه شخص حقيقة، يعطيه الله ما شاء من الخوارق العظيمة، ومما سبق يتضح لنا أن خروج الدجال من أشراط الساعة الكبرى الثابتة، ومن الأخبار المتواترة التي يجب الإيمان بها، وفي ما مضى من الأدلة رد على من أنكر خروج الدجال بالكلية من الخوارج والجهمية والمعتزلة وغيرهم ممن سار على نهجهم قديما وحديثا، أو قال إن ما يأتي به الدجال خيالات لا حقيقة لها، فكل هؤلاء قد ردوا ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من غير وجه عن رسول الله ﷺ كما تقدم، ويخشى أن لا ينطبق على هؤلاء المنكرين لظهور الدَّجَّال قوله ﷺ «سيكون فيكم قوم من هذه الأمة يكذبون بالرجم، ويكذبون بالدجال، ويكذبون بطلوع الشمس من مغربها، ويكذبون بعذاب القبر، ويكذبون بالشفاعة، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا، فلئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وثمود».

قال العلامة الألباني في ظلال الجنة (٣٤٣): إسناده ضعيف من أجل علي بن زيد وهو ابن جدعان سيء الحفظ، وقال في كتاب المسيح الدجال (ص٣٠) أخرجه الداني في الفتن (ق٢٣/ ٢)، وأحمد (١/ ٢٣) مختصرًا، وإسناده حسن.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في النهاية (١ / ١٦٤ - ١٦٦) في معرض رده على هؤلاء: " وقد تقدم حديث حذيفة وغيره أن ماءه نار وناره ماء بارد، وإنما ذلك في رأي العين، وقد تمسك بهذا الحديث طائفة من العلماء كابن حزم،

والطحاوي وغيرهما في أن الدجال ممخرق مموه لا حقيقة لما يبدي للناس من الأمور التي تشاهد في زمانه بل كلها خيالات عند هؤلاء ".

وقال الشيخ أبو علي الجبائي - شيخ المعتزلة -: لا يجوز أن يكون كذلك حقيقة؛ لئلا يشتبه خارق السحر بخارق النبي، وقد أجابه القاضي عياض وغيره بأن الدجال إنما يدعي الإلهية، وذلك مناف للبشرية فلا يمتنع إجراء الخارق على يديه والحالة هذه. وقد أنكرت طوائف كثيرة من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة خروج الدجال بالكلية، وردوا الأحاديث الواردة فيه فلم يصنعوا شيئا، وخرجوا بذلك عن حيز العلماء لردهم ما تواترت به الأخبار الصحيحة من غير وجه عن رسول الله ﷺ كما تقدم، وإنما أوردنا بعض ما ورد في هذا الباب؛ لأن فيه كفاية ومقنعا، والله المستعان.

والذي يظهر من الأحاديث المتقدمة أن الدجال يمتحن الله به عباده بما يخلقه معه من الخوارق المشاهدة في زمانه، كما تقدم أن من استجاب له يأمر السماء فتمطرهم والأرض فتنبت لهم زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم وترجع إليهم سمانا، ومن لا يستجيب له ويرد عليه أمره تصيبهم السنة والجدب والقحط والعلة وموت الأنعام ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وأنه تتبعه كنوز الأرض كيعاسيب النحل، ويقتل ذلك الشاب ثم يحييه، وهذا كله ليس بمخرقة بلِ له حقيقة امتحن الله به عباده في ذلك الزمان، فيضل به كثيرا ويهدي به كثيرًا، يكفر المرتابون، ويزداد الذين آمنوا إيمانا، وقد حمل القاضي عياض وغيره على هذا المعنى معنى الحديث «هو أهون على الله من ذلك» أي هو أقل من أن يكون معه ما يضل به عباده المؤمنين، وما ذاك إلا لأنه ظاهر النقص والفجور والظلم، وإن كان معه من الخوارق.

* الوقاية من فتنة الدَّجَّال: أرشد النبي ﷺ أمته إلى ما يعصمها من فتنة المسيح الدَّجَّال، فقد ترك أمته على المحجة البيضاء؛ ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فلم يدع ﷺ خيرًا إلا دل أمته عليه، ولا شرًا إلا حذرها منه، ومن جملة ما حذر منه فتنة المسيح الدَّجَّال؛ لأنها أعظم فتنة تواجهها الأمة إلى قيام السَّاعة، وكان كل نبي ينذر أمته الأعور الدَّجَّال، واختص محمد ﷺ بزيادة التحذير والإنذار، وقد بين الله له كثيرًا من صفات الدَّجَّال؛ ليحذر أمته؛ فإنه خارج في هذه الأمة لا محالة؛ لأنها آخر الأمم، ومحمد ﷺ خاتم النبيين، وهذه بعض الإرشادات النبوية التي أرشد إليها المصطفى ﷺ أمته؛ لتنجو من هذه الفتنة العظيمة التي نسأل الله العظيم أن يعافينا ويعيذنا منها:

١- التمسك بالإسلام، والتسلح بسلاح الإيمان، ومعرفة أن الله ليس بأعور، وأنه لا أحد يرى ربه حتى يموت، والدَّجَّال يراه الناس عند خروجه؛ مؤمنهم وكافرهم.

٢- التعوذ من فتنة الدَّجَّال، وخاصة في الصلاة، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة.

٣- حفظ آيات من سورة الكهف، فقد أمر النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة بقراءة فواتح سورة الكهف على الدَّجَّال، وفي بعض الروايات خواتيمها، وذلك بقراءة عشر آيات من أولها أو آخرها.

٤- الفرار من الدَّجَّال، والابتعاد منه، والأفضل سكنى مكة والمدينة، فقد سبق أن الدَّجَّال لا يدخل الحرمين، فينبغي للمسلم إذا خرج الدَّجَّال أن يبتعد منه، وذلك لما معه من الشبهات والخوارق العظيمة التي يجريها الله على يديه فتنة للناس؛ فإنه يأتيه الرجل وهو يظن في نفسه الإيمان والثبات، فيتبع الدَّجَّال،

نسأل الله أن يعيذنا من فتنته وجميع المسلمين، روى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن أبي الدهماء قال: سمعت عمران بن حصين يحدث؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "من سمع بالدَّجَّال؛ فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن، فيتبعه مما يبعث به من الشبهات، أو لما يبعث به من الشبهات).

* ذكر الدَّجَّال في القرآن: تساءل العلماء عن الحكمة في عدم التصريح بذكر الدَّجَّال في القرآن مع عظم فتنته، وتحذير الأنبياء منه، والأمر بالاستعاذة من فتنته في الصلاة، وأجابوا عن ذلك بأجوبة؛ منها:

١- أنه مذكور ضمن الآيات التي ذكرت في قوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [الأنعام: ١٥٨]، وهذه الآيات هي: الدَّجَّال، وطلوع الشمس من مغربها، والدابة، وهي المذكورة في تفسير هذه الآية، فقد روى مسلم والترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاث إذا خرجن لاينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدَّجَّال، ودابة الأرض).

٢- أن القرآن ذكر نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعيسى هو الذي يقتل الدَّجَّال، فاكتفى بذكر مسيح الهدى عن ذكر مسيح الضلالة، وعادة العرب أنها تكتفي بذكر أحد الضدين دون الآخر.

٣- أنه مذكور في قوله تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر: ٥٧]، وإن المقصود بالناس هنا الدَّجَّال؛ من إطلاق الكل على البعض.

قال أبو العالية: "أي: أعظم من خلق الدَّجَّال حين عظمته اليهود، قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٩٢): "وهذا - إن ثبت - أحسن الأجوبة، فيكون من جملة، ما تكفل النبي صلى الله عليه وسل مببيانه، والعلم عند الله".

٤ - أن القرآن لم يذكر الدَّجَّال احتقارًا لشأنه؛ لأنه يدعي الربوبية وهو بشر ينافي حاله جلال الرب وعظمته وكماله وكبريائه وتنزه عن النقص، فلذلك كان أمره عند الله أحقر وأصغر من أن يذكر، ومع هذا حذرت الأنبياء منه، وبيَّنتُ خطره وفتنته، كما سبق أن كل نبي أنذر أمته منه، وحذرها من فتنته، فإن اعترض بأن القرآن ذكر فرعون وهو قد ادعى الربوبية والألوهية، فيقال: إن أمر فرعون انقضى وانتهى، وذكر عبرة للناس وعظة، وأما أمر الدَّجَّال؛ فسيحدث في آخر الزمان، فترك ذكره امتحانًا به، مع أن ادعاءه الربوبية أظهر من أن ينبه على بطلانه؛ لأن الدَّجَّال ظاهر النقص، واضح الذم، أحقر وأصغر من المقام الذي يدعيه، فترك الله ذكره، لما يعلم تعالى من عباده المؤمنين؛ أن مثل هذا لا يخيفهم ولا يزيدهم إلا إيمانًا وتسليمًا لله ورسوله؛ كما يقول الشاب الذي يقتله الدَّجَّال ويجيبه: (والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم) أخرجه البخاري، وقد يترك ذكر الشيء لوضوحه؛ كما ترك النبي ﷺ في مرض موته أن يكتب كتابًا بخلافة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لوضوحه، وذلك لعظم قدر أبي بكر عند الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولذلك قال النبي ﷺ: (يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر) أخرجه البخاري، وذكر الحافظ في الفتح (١٣/ ٩١) أن السؤال عن عدم ذكر الدَّجَّال في القرآن لا يزال واردًا؛ وأجاب شيخنا الإمام البلقيني بأنه اعتبر كل من ذكر في القرآن من المفسدين فوجد كل من ذكر إنما هم ممن مضى وانقضى أمره، وأما من لم يجئ بعد فلم يذكر منهم أحدا، انتهى. وهذا ينتقض بيأجوج ومأجوج.اهـ. هذا؛

ولعل الجواب الأول هو الأقرب، والله أعلم، فيكون الدَّجَّال قد ذكر ضمن بعض الآيات، ويكون النبي ﷺ تكفل ببيان ذلك المجمل.

* هلاك الدَّجَّال: يكون هلاك الدَّجَّال على يدي المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كما دلَّت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وذلك أن الدَّجَّال يظهر على الأرض كلها إلا مكة والمدينة، ويكثر أتباعه، وتعم فتنته، ولا ينجو منها إلا قلة من المؤمنين، وعند ذلك ينزل عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ على المنارة الشرقية بدمشق، ويلتف حوله عباد الله المؤمنون، فيسير بهم قاصدًا المسيح الدَّجَّال، ويكون الدَّجَّال عند نزول عيسى متوجهًا نحوم بيت المقدس، فيلحق به عيسى عند باب لد- وهي بلدة في فلسطين قرب بيت المقدس- فإذا رآه الدَّجَّال؛ ذاب كما يذوب الملح، فيقول له عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إن لي فيك ضربة لن تفوتني"، فيتداركه عيسى، فيقتله بحربته، وينهزم أتباعه، فيتبعهم المؤمنون، فيقتلونهم، حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم! يا عبد الله ! هذا يهودي خلفي، تعال فاقتله؛ إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود، وقد ثبت هذا في الأحاديث الصحيحة، وبقتله - لعنه الله - تنتهي فتنته العظيمة، وينجي الله الذين آمنوا من شره وشر أتباعه على يدي روح الله وكلمته عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه المؤمنين، ولله الحمد والمنة.

الفصل الثالث: نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

قبل أن نتحدَّث عن نزول عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ يحسُنُ بنا أن نتعرَّف على صفته التي وردت بها النَّصوص الشرعية..

* صفة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: صفته التي جاءت بها الروايات أنه رجلٌ، مربوع القامة، ليس بالطويل ولا بالقصير، أحمر، جعدٌ، عريض الصدر، سبط الشعر،

كأنما خرج من ديماس – أي: حمام – له لِمَّة قد رجَّلها تملأ ما بين منكبيه.

الأحاديث الواردة في ذلك: منها ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ليلة أسري بي لقيتُ موسى... فنعته إلى أن قال: ولقيتُ عيسى...فنعتهُ فقال: ربعةٌ، أحمرُ، كأنما خرج من ديماس يعني: الحمام)

وروى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (رأيت عيسى وموسى وإبراهيم، فأما عيسى؛ فأحمر جعد عريض الصدر)، وروى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني... فذكر الحديث، وفيه: وإذا عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ قائم يصلي، أقرب الناس به شبهًا عروة بن مسعود الثقفي) أخرجه مسلم، وفي الصحيحين عن عبد اله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (أراني ليلة عند الكعبة، فرأيت رجلًا آدم كأحسن ما أنت راءٍ من أدم الرجال، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم، قد رجلها، فهي تقطر ماء، متكئًا على رجلين أو على عواتق رجلين، يطوف بالبيت، فسألت: من هذا؟ فقيل: هذا المسيح بن مريم)، وفي رواية للبخاري عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (لا والله؛ ما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعيسى أحمر، ولكن قال: فذكر تمام الحديث بنحو الرواية السابقة)، وفي رواية لمسلم عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فإذا رجل آدم... إلى أن قال: رجل الشعر).

والجمع بين هذه الروايات من كونه في بعضها أحمر، وبعضها آدم، وما جاء أنه سبط الشعر، وفي بعضها بأنه جعد بأنه لا منافاة بين الحمرة والأدمة؛ لجواز أن تكون أدمته صافية، وأما ما جاء من إنكار ابن عمر لرواية أن عيسى أحمر؛ فهو مخالف لما حفظه غيره، فقد روى أبو هريرة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أحمر اللون، وأما كونه في رواية سبط الشعر، وفي أخرى أنه جعد، والجعد ضد

السبط، فيمكن أن يجمع بينهما بأنه سبط الشعر، وأما وصفه بأنه جعد؛ فالمراد بذلك جعودة في جسمه لا شعره، وهو اجتماع اللحم واكتنازه.

* صفة نزوله عليه السلام: بعد خروج الدَّجَّال، وإفساده في الأرض، يبعث الله عيسى عليه السلام، فينزل إلى الأرض، ويكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق الشام، وعليه مهرودتان، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، ويكون نزوله على الطائفة المنصورة، التي تقاتل على الحق، وتكون مجتمعة لقتال الدَّجَّال، فينزل وقت إقامة الصلاة، يصلي خلف أمير تلك الطائفة، قال ابن كثير في النهاية (١/ ١٤٤): "هذا هو الأشهر في موضع نزوله أنه على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق، وقد رأيت في بعض الكتب أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي جامع دمشق، فلعل هذا هو المحفوظ... وليس بدمشق منارة تعرف بالشرقية سوى التي إلى جانب الجامع الأموي بدمشق من شرقية، وهذا هو الأنسب والأليق؛ لأنه ينزل وقد أقيمت الصلاة، فيقول له إمام المسلمين: يا روح الله ! تقدم. فيقول: تقدم أنت؛ فإنه أقيمت لك. وفي رواية: (بعضكم على بعض أمراء؛ تكرمة الله هذه الأمة) أخرجه مسلم، وذكر ابن كثير أيضا أنه في زمنه سنة إحدى وأربعين وسبع مئة جدَّد المسلمون منارة من حجارة بيض، وكان بناؤها من أموال النصارى الذين حرقوا المنارة التي كانت مكانها، ولعل هذا يكون من دلائل النبوة الظاهرة، حيث قيض الله بناء هذه المنارة من أموال النصارى، لينزل عيسى بن مريم عليها، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل منهم جزية، ولكن من أسلم وإلا قتل، وكذلك غيرهم من الكفار.اهـ.

ففي حديث النواس بن سمعان الطويل عند مسلم في ذكر خروج الدَّجَّال ثم نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال ﷺ: (إذا بعث الله المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه - أي: يطلب الدَّجَّال - حتى يدركه بباب لد، فيقتله، ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة).

* أدلة نزوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان ثابت في الكتاب والسنة الصحيحة المتواترة، وذلك علامة من علامات السَّاعة الكبرى.

أدلة نزوله من القرآن الكريم

١- قال الله تعالى: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ} إلى قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} [الزخرف: ٥٧- ٦١]. فهذه الآيات جاءت في الكلام على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجاء في آخرها قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ} [الزخرف: ٦١]؛ أي: نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل يوم القيامة علامة على قرب السَّاعة، ويدلُّ على ذلك القراءة الأخرى: {وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ}؛ بفتح العين واللام؛ "أي: علامة وأمارة على قيام السَّاعة، وهذه القراءة مروية عن ابن عباس ومجاهد والأعمش ولكن لم يقرأ بها أحد من العشرة فهي شاذة، وروى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير هذه الآية: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ}؛ قال: (هو خروج عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل يوم القيامة)

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٢٢): "الصحيح أنه - أي: الضمير - عائد على عيسى؛ فإن السياق في ذكره.. واستبعد أن يكون معنى الآية: ما بعث

به عيسى عليه السلام من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من ذوي الأسقام.. وأبعد من ذلك ما روي عن بعض العلماء أن الضمير في {وَإِنَّهُ} عائد على القرآن الكريم.

٢- وقال تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُم} إلى قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)}[النساء: ١٥٧-١٥٩].

فهذه الآيات؛ كما أنها تدلُّ على أن اليهود لم يقتلوا عيسى عليه السلام، ولم يصلبوه، بل رفعه الله إلى السماء؛ كما في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}[آل عمران: ٥٥]. فإنها تدلُّ على أن من أهل الكتاب من سيؤمن بعيسى عليه السلام آخر الزمان، وذلك عند نزوله وقبل موته؛ كما جاءت بذلك الأحاديث المتواترة الصحيحة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٢٢- ٣٢٣) في جوابه لسؤال وجه إليه عن وفاة عيسى ورفعه: "الحمد لله، عيسى عليه السلام حي، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا وإمامًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضعه الجزية، وثبت في الصحيح عنه أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يقتل الدَّجَّال، ومن فارقت روحه جسده؛ لم ينزل جسده من السماء، وإذا أحيي؛ فإنه يقوم من قبره، وأما قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا}[آل عمران: ٥٥]؛ فهذا دليل على أنه لم يعن بذلك الموت، إذ لو أراد بذلك الموت؛ لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين؛ فإن الله يقبض أرواحهم، ويعرج بها إلى السماء،

فعلم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: {وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا}، ولو كان قد فارقت روحه جسده؛ لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء، أو غيره من الأنبياء، وقد قال تعالى في الآية الأخرى: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ} [النساء: ١٥٧-١٥٨]، فقوله هنا: (بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْه(يبين أنه رفع بدنه وروحه؛ كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه، إذ لو أريد موته؛ لقال: وما قتلوه وما صلبوه، بل مات... ولهذا قال من قال من العلماء: إني متوفيك؛ أي: قابضك؛ أي: قابض روحك وبدنك؛ يقال: توفيت الحساب واستوفيته، ولفظ (التوفي) لا يقتضي نفسه توفي الروح دون البدن، ولا توفيهما جميعًا؛ إلا بقرينة منفصلة، وقد يراد به توفي النوم؛ كقوله تعالى: {اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} [الزمر: ٤٢]، وقوله: }هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} [الأنعام: ٦٠]، وقوله: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا} [الأنعام: ٦١].اهـ.

وليس الكلام في هذا البحث عن رفع عيسى عليه السلام، وإنما جاء ذكر ذلك لبيان أنه رفع ببدنه وروحه، وأنه حي الآن في السماء، وسينزل في آخر الزمان، ويؤمن به من كان موجودًا من أهل الكتاب؛ كما قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} [النساء: ١٥٩].

قال ابن جرير في تفسيره (٦/ ١٨): "حدثنا ابن بشار؛ قال: حدثنا سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ}؛ قال: قبل موت عيسى بن مريم".

ثم قال ابن جرير بعد سياقه للأقوال في معنى هذه الآية: "وأولى الأقوال

بالصحة قول من قال: تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى"

وروى بسنده عن الحسن البصري أنه قال: "قبل موت عيسى، والله إنه الآن حي عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون".

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤١٥): "ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفع إليه، وإنه باقٍ حي، وأنه سينزل قبل يوم القيامة؛ كما دلَّت على ذلك الأحاديث المتواترة" وذكر في النهاية (١/ ١٣٧) أنه روي عن ابن عباس وغيره أنه أعاد الضمير في قوله: {قَبْلَ مَوْتِهِ} على أهل الكتاب، وقال: "إن ذلك لو صح لما كان منافيًا لهذا، ولكن الصحيح في المعنى والإسناد ما ذكرناه".

ب- أدلة نزوله من السنة المطهرة: الأدلَّة من السنة على نزول عيسى عليه السلام كثيرة ومتواترة، سبق ذكر بعضها، ولم نذكر جميع الأحاديث الواردة في نزوله؛ خشية أن يطول البحث، وقد جاءت هذه الأحاديث في الصحاح والسنن والمسانيد وغيره من دواوين السنة، وهي تدلُّ دلالة صريحة على ثبوت نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، ولا حجة لمن ردها، أو قال: إنها أحاديث آحاد لا تقوم بها الحجة، أو إن نزوله ليس عقيدة من عقائد المسلمين التي يجب عليهم أن يؤمنوا بها؛ لأنه إذا ثبت الحديث؛ وجب الإيمان به، وتصديق ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ، ولا يجوز لنا رد قوله.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره (٣/ ٢٩١) - بعد ذكره الخلاف في معنى

وفاة عيسى-: "وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال: "معنى ذلك: إني قابضك من الأرض، ورافعك إلى"؛ لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدَّجَّال.اهـ.

وقال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٢٣): "تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا".اهـ.

وقال صديق حسن في الإذاعة (ص١٦٠): "الأحاديث في نزوله عليه السلام كثيرة، ذكر الشوكاني منها تسعة وعشرين حديثًا؛ ما بين صحيح، وحسن، وضعيف منجبر، منها ما هو مذكور في أحاديث الدَّجَّال... ومنها ما هو مذكور في أحاديث المنتظر، وتنضم إلى ذلك أيضًا الآثار الواردة عن الصحابة، فلها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في ذلك" ثم ساقها وقال: "جميع ما سقناه بالغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع".اهـ.

وممن جمع الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام الشيخ محمد أنور شاه الكشميري في كتابه "التصريح بما تواتر في نزول المسيح"، فذكر أكثر من سبعين حديثًا.

وقال صاحب عون المعبود (١١/ ٤٥٧): "تواترت الأخبار عن النبي ﷺ في نزول عيسى بن مريم ﷺ من السماء بجسده العنصري إلى الأرض عند قرب السَّاعة، وهذا هو مذهب أهل السنة".اهـ.

وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري (٦/ ٤٦٠): "نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان مما لم يختلف فيه المسلمون؛ لورود الأخبار الصحاح عن النبي ﷺ بذلك، وهذا معلوم من الدين بالضرورة، لا يؤمن من أنكره".اهـ.

وقال في تعليقه على مسند الإمام أحمد (١٢/ ٢٥٧): "وقد لعب المجددون أو المجردون في عصرنا الذي نحيا فيه بهذه الأحاديث الدالَّة صراحة على نزول عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان، قبل انقضاء الحياة الدُّنيا، بالتأويل المنطوي على الإنكار تارة، وبالإنكار الصريح أخرى! ذلك أنهم - في حقيقة أمرهم - لا يؤمنون بالغيب، أو لا يكادون يؤمنون، وهي أحاديث متواترة المعنى في مجموعها، يعلم مضمون ما فيها من الدين بالضرورة، فلا يجديهم الإنكار ولا التأويل".اهـ.

وقال العلامة الألباني في تحقيق شرح العقيدة الطحاوية (ص ٥٠١): اعلم أن أحاديث الدجال ونزول عيسى عليه السلام متواترة يجب الإيمان بها، ولا تغتر بمن يدعي فيها أنها أحاديث آحاد، فإنهم جهال بهذا العلم، وليس فيهم من تتبع طرقها، ولو فعل لوجدها متواترة كما شهد بذلك أئمة هذا العلم كالحافظ ابن حجر وغيره، ومن المؤسف حقًا أن يتجرأ البعض على الكلام فيما ليس من اختصاصهم، لا سيما والأمر دين وعقيدة! وإن من هؤلاء أخيرًا المدعو عز الدين بليق في كتابه "موازين القرآن والسنة" الذي زعم فيه تقليدًا لغيره ممن لا معرفة عنده بهذا العلم - أن روايات نزول عيسى بعد الدجال إنما هي من رواية وهب بن منبة وكعب الأحبار وهذا اختلاق محض، فلا وجود لهما في شيء منها مطلقًا، وقد كنت قديمًا خرجت نحو أربعين حديثًا ليس لهما فيها ذكر!.اهـ.

ونزول عيسى عليه السلام ذكره طائفة من العلماء في عقيدة أهل السنة والجماعة، وأنه ينزل لقتل الدَّجَّال قبحه الله.

❋ الحكمة في نزول عيسى عليه السلام دون غيره: تلمس بعض العلماء الحكمة في

نزول عيسى عليه السلام، في آخر الزمان دون غيره من الأنبياء، ولهم في ذلك عدة أقوال:

١- الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، فبين الله تعالى كذبهم، وأنه الذي يقتلهم ويقتل رئيهم الدَّجَّال، كما سبق بيان ذلك في الكلام على قتال اليهود، ورجح الحافظ ابن حجر هذا القول على غيره في الفتح (٦/ ٤٩٣).

٢- إن عيسى عليه السلام وجد في الإنجيل فضل أمة محمد كما في قوله تعالى: {وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ} [الفتح: ٢٩]، فدعا الله أن يجعله منهم، فاستجاب الله دعاءه، وأبقاه حتى ينزل آخر الزمان مجددًا لأمر الإسلام، قال الإمام مالك كما في تفسير ابن كثير (٧/ ٣٤٣): "بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا". وقال ابن كثير: "وصدقوا في ذلك؛ فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة والأخبار المتداولة".اهـ.

وقد ترجم الإمام الذهبي لعيسى عليه السلام في كتابه تجريد أسماء الصحابة (١/ ٤٣٢) فقال: "عيسى ابن مريم عليه السلام: صحابي، ونبي؛ فإنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وسلم عليه، فهو آخر الصحابة موتًا".اهـ.

٣- إن نزول عيسى عليه السلام من السماء؛ لدنو أجله، ليدفن في الأرض، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها، فيوافق نزوله خروج الدَّجَّال، فيقتله عيسى عليه السلام.

٤- إنه ينزل مكذبًا للنصارى، فيظهر زيفهم في دعواهم الأباطيل، ويهلك الله الملل كلها في زمنه إلا الإسلام؛ فإنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية.

٥- إن خصوصيته بهذه الأمور المذكورة لقول النبي ﷺ: (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، ليس بيني وبينه نبي) أخرجه البخاري ومسلم.

فرسول الله ﷺ أخص الناس به، وأقربهم إليه؛ فإن عيسى بشر بأن رسول الله ﷺ يأتي من بعده، ودعا الخلق إلى تصديقه والإيمان به؛ كما في قوله تعالى: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: ٦]. وفي الحديث: قالوا: يا رسول الله ! أخبرنا عن نفسك؟ قال: (نعم؛ أنا دعوة أبي أبراهيم وبشرى أخي عيسى"). وهو مخرج في الصحيحة (١٥٤٥، ١٥٤٦).

* بماذا يحكم عيسى عليه السلام؟ :يحكم عيسى عليه السلام بالشريعة المحمدية، ويكون من أتباع محمد ﷺ؛ فإنه لا ينزل بشرع جديد؛ لأن دين الإسلام خاتم الأديان، وباقٍ إلى قيام السَّاعة، لا ينسخ، فيكون عيسى عليه السلام حاكمًا من حكام هذه الأمة، ومجددًا لأمر الإسلام، إذ لا نبي بعد محمد ﷺ، روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأمكم منكم؟! فقلت (القائل الوليد بن مسلم) لابن أبي ذئب: إن الأوزاعي حدثنا عن الزهري عن نافع عن أبي هريرة: "وإمامكم منكم". قال ابن أبي ذئب: تدري ما أمكم منكم؟ قلت: تخبرني؟ قال: فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم ﷺ)، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة قال: فينزل عيسى بن مريم ﷺ، فيقول أميرهم: تعال صل بنا. فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء؛ تكرمة الله هذه الأمة") أخرجه مسلم.

قال القرطبي في التذكرة (ص٦٧٧-٦٧٨): "ذهب قوم إلى أنه بنزول عيسى عليه السلام يرتفع التكليف؛ لئلا يكون رسولًا إلى أهل ذلك الزمان؛ يأمرهم عن الله

تعالى، وهذا (يعني: كونه رسولًا بعد محمد) أمر مردود بقوله تعالى: {وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠]، وقوله عليه الصلاة والسلام: "لا نبي بعدي"، وقوله: "وأنا العاقب؛ يريد آخر الأنبياء وخاتمهم. وإذا كان ذلك؛ فلا يجوز أن يتوهم أن عيسى ينزل نبيًا بشريعة متجددة غير شريعة محمد نبينا ﷺ، بل إذا نزل؛ فإنه يكون يومئذٍ من أتباع محمد ﷺ؛ كما أخبر ﷺ، حيث قال لعمر: "لو كان موسى حيًا؛ ما وسعه إلا اتباعي"، فينزل وقد علم بأمر الله تعالى له في السماء قبل أن ينزل ما يحتاج إليه من علم هذه الشريعة للحكم به بين الناس، والعمل به في نفسه، فيجتمع المؤمنون عند ذلك إليه، ويحكمونه على أنفسهم... ولأن تعطيل الحكم غير جائز، وأيضًا؛ فإن بقاء الدُّنيا إنما يكون **بمقتضى** التكليف إلى أن لا يقال في الأرض: الله، الله".اهـ.

والذي يدلُّ على بقاء التكليف بعد نزول عيسى عليه السلام صلاته مع المسلمين، وحجه، وجهاده للكفار، فأما صلاته؛ فقد سبق في الأحاديث ذكر ذلك، وكذلك قتاله للكفار وأتباع الدَّجَّال، وأما حجه؛ ففي صحيح مسلم عن حنظلة الأسلمي؛ قال: سمعت أبي هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ؛ قال: (والذي نفسي بيده؛ ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجًا أو معتمرًا، أو ليثنينهما") أي: يجمع بين الحج والعمرة.

وأما وضع عيسى للجزية عن الكفار - مع أنها مشروعة في الإسلام قبل نزوله عليه السلام -؛ فليس هذا ناسخًا لحكم الجزية جاء به عيسى شرعًا جديدًا؛ فإن مشروعية أخذ الجزية مقيد بنزول عيسى عليه السلام بأخبار نبينا محمد ﷺ، فهو المبين للنسخ بقوله لنا: (والله لينزلن ابن مريم حكمًا عدلًا، فليسكرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية") أخرجه مسلم.

* انتشار الأمن وظهور البركات في عهده عليه السلام: وزمن عيسى عليه السلام زمن أمن وسلام ورخاء، يرسل الله فيه المطر الغزير، وتخرج الأرض ثمرتها وبركتها، ويفيض المال، وتذهب الشحناء والتباغض والتحاسد، فقد جاء في حديث النواس بن سمعان الطويل عند مسلم في ذكر الدَّجَّال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج في زمن عيسى عليه السلام ودعائه عليهم وهلاكهم، وفيه قوله ﷺ: (ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس)، وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (والأنبياء إخوة لعلات؛ أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل... فيهلك الله في زمانه المسيح الدَّجَّال، وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم)، وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (والله لينزلن عيسى بن مريم حكمًا وعادلًا.. وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال؛ فلا يقبله أحد) قال النووي في شرح مسلم (٢/ ١٩٢): "ومعناه أن يزهد الناس فيها- أي: الإبل - ولا يرغب في اقتنائها؛ لكثرة الأموال، وقلة الآمال، وعدم الحاجة، والعلم بقرب القيامة، وإنما ذكرت القلاص؛ لكونها أشرف الإبل، التي هي أنفس الأموال عند العرب، وهو شبيه بمعنى قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ

عُطِّلَتْ} [التكوير: ٤]، ومعنى: "لا يسعى عليها": لا يعتنى بها". وذهب القاضي عياض إلى أن المعنى: أي: لا تطلب زكاتها إذ لا يوجد من يقبلها، وأنكر هذا القول النووي.

* مدة بقائه بعد نزوله ثم وفاته: وأما مدة بقاء عيسى عليه السلام في الأرض بعد نزوله؛ فقد جاء في بعض الروايات أنه يمكث سبع سنين، وفي بعضها أربعين سنة، ففي رواية الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (فيبعث الله عيسى بن مريم... ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذر ة من خير أو إيمان إلا قبضته)، وفي رواية الإمام أحمد وأبي داود: (فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون) وكلا هاتين الروايتين صحيحة، وهذا مشكل؛ إلا أن تحمل رواية السبع سنين على مدَّة إقامته بعد نزوله، ويكون ذلك مضافًا إلى مُكثِه في الأرض قبل رفعه إلى السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثًا وثلاثين سنة على المشهور. والله أعلم.

الفصل الرابع: يأجوج ومأجوج

* أصلهم: قبل الحديث عن خروج يأجوج ومأجوج أرى من المناسب أن نتعرف على أصلهم، وماذا يعني لفظ (يأجوج) و(مأجوج)؟ يأجوج ومأجوج اسمان أعجميان، وقيل: عربيان، وعلى هذا يكون اشتقاقهما من أجَّت النار أجيجًا: إذا التهبت أو من الأجاج: وهو الماء الشديد الملوحة المحرق من ملوحته. وقيل عن الأج: وهو سرعة العدو. وقيل: مأجوج من ماج؛ إذا اضطرب. وهما على وزن يفعول في (يأجوج)، ومفعول في (مأجوج)، أو على وزن فاعول فيهما، هذا إذا كان الاسمان عربيين، أما إذا كانا أعجميين؛ فليس

لهما اشتقاق؛ لأن الأعجميَّة لا تُشتَقُّ من العربية، وقرأ الجمهور "ياجوج" وماجوج"؛ بدون همز، فتكون الألفان زائدتين، وأصلهما (يجج)، و(مجج)، وأما قراءة عاصم؛ فهي الهمزة الساكنة فيهما، وكل ما ذُكِرَ في اشتقاقهما مناسب لحالهم، ويؤيد الاشتقاق من (ماج) بمعنى اضطرب قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} [الكهف: ٩٩]، وذلك عند خروجهم من السد.

وأصل يأجوج ومأجوج من البشر، من ذرية آدم وحواء عليهما السلام، وقد قال بعض العلماء: إنهم من ذرِّية آدم لا من حواء، وذلك أن آدم احتلم، فاختلط منيُّه بالتراب، فخلق الله من ذلك يأجوج ومأجوج، وهذا مما لا دليل عليه، ولم يرد عمَّن يجب قبول قوله، والذي يدلُّ على أنهم من ذرِّيَّة آدم عليه السلام ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يقول الله تعالى يا آدم! فيقول لبيلك وسعديك، والخير في يديك فيقول أخرج بعث النار قال وما بعث النار؟ قال من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين فعنده

يشيب الصغير، وتضع كلُّ ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد قالوا: وأيُّنا ذلك الواحد؟ قال أبشروا؛ فإن منكم رجلًا ومن يأجوج ومأجوج ألف).

أدلَّة خروج يأجوج ومأجوج: خروج يأجوج ومأجوج في آخر الزمان علامة من علامات السَّاعة الكبرى، وقد دل على ظهورهم الكتاب والسنة

الأدلَّة من القرآن الكريم:

١ - قال الله تعال {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ} [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

٢- وقال تعالى في سياقه لقصة ذي القرنين: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)} [الكهف: ٩٢- ٩٩]. فهذه الآيات تدلُّ على أن الله تعالى سخر ذا القرنين الملك الصالح لبناء السد العظيم؛ ليحجز بين يأجوج ومأجوج القوم المفسدين في الأرض وبين الناس، فإذا جاء الوقت المعلوم، واقتربت السَّاعة؛ اندك هذا السد، وخرج يأجوج ومأجوج بسرعة عظيمة، وجمع كبير، لا يقف أمامه أحد من البشر، فماجوا في الناس، وعاثوا في الأرض فسادًا، وهذا علامة قرب النفخ في الصور، وخراب الدُّنيا، وقيام السَّاعة؛ كما سيأتي بيان ذلك في الأحاديث الثابتة.

الأدلَّة من السنة المطهرة

الأحاديث الدالَّة على ظهور يأجوج ومأجوج كثيرة، تبلغ حد التواتر المعنوي، سبق ذكر بعض منها، وسأذكر هنا طرفًا من هذه الأحاديث: فمنها ما ثبت في الصحيحين عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش أن

رسول الله صلى الله عليه وسل مدخل عليها يومًا فزعًا يقول: (لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه (وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها)". قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله! أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ)، ومنها ما جاء في حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: "إذا أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجتُ عبادًا لي لا يَدان لأحد بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أولئك على بحيرة طبريَّة، فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويُحصَرُ نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مئة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب إلى الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغَف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفسٍ واحدةٍ، ثم يُهبَطُ بنبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمُهم ونَتَنُهم، فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله) رواه مسلم، وزاد في رواية - بعد قوله: (لقد كان بهذه مرة ماء"-: "ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر، وهو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابه إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دمًا)، ومنها حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فذكر الحديث، وفيه): (ويخرجون على الناس، فيستقون المياه، ويفر الناس منهم، فيرمون سهامهم في السماء، فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وغلبنا من في السماء قوة وعلوًا قال: "فيبعث الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم نَغَفًا في أقفائهم" قال: "فيهلكهم، والذي نفس محمد بيده؛ إن دوابَّ الأرض لتسمن،

وتبطر، وتشكر شكرًا، وتسكر سكرًا من لحومهم).

قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ في لمعة الاعتقاد (ص٣٠): " ويجب الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ وصح به النقل فيما شاهدناه أو غاب عنا، نعلم أنه حق وصدق، وسواء في ذلك ما عقلناه وما جهلناه، ولم نطلع على حقيقة معناه مثل حديث الإسراء والمعراج... إلى أن قال: ومن ذلك أشراط الساعة مثل خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقتله وخروج يأجوج ومأجوج... ".

وقال القاضي عياض في إكمال المعلم (٦ / ١١٥، ١١٦): " الأحاديث الواردة في يأجوج ومأجوج: هذه الأخبار على حقيقتها يجب الإيمان بها؛ لأن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة، وقد ورد في خبرهم أنه لا قدرة لأحد على قتالهم من كثرتهم، وأنهم يحصرون نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه من المؤمنين الذين نجوا من الدجال، فيدعو عليهم فيهلكهم الله عَزَّ وَجَلَّ أجمعين بالنغف - وهو دود في رقابهم - فيؤذون الأرض والمؤمنين بنتنهم، فيدعو عيسى وأصحابه ربهم فيرسل الله طيرا فتحملهم حيث شاء الله ".

وقال السفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ في لوامع الأنوار (٢ / ١١٦): " إن خروجهم من وراء السد على الناس حق ثابت لوروده في الذكر وثبوته عن سيد البشر، ولم يحله عقل فوجب اعتقاده ".

* سدُّ يأجوج ومأجوج: بنى ذو القرنين سد يأجوج ومأجوج ليحجز بينهم وبين جيرانهم الذين استغاثوا به منهم، أما مكانه: ففي جهة المشرق لقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ} [الكهف: ٩٠] وقد ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (٣ / ٩٩) قصة عن السد ومحاولة بعض الملوك الوصول إليه فقال: وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه وجهز معه جيشا سرية

لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا، فوصلوا من بلاد إلى بلاد ومن ملك إلى ملك حتى وصلوا إليه ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه بابا عظيما وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك، وأن عنده حراسا من الملوك المتاخمة له وأنه عال منيف شاهق، لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال، ثم رجعوا إلى بلادهم وكانت غيبتهم أكثر من سنتين وشاهدوا أهوالا وعجائب.

ولم يذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ سندا لهذه القصة، ولم يتكلم عليها بشيء. والذي تدل عليه الآيات السابقة أن هذا السد بني بين جبلين لقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ} [الكهف: ٩٣] والسدان: هما جبلان متقابلان، ثم قال: {حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ} [الكهف: ٩٦] أي حاذى به رؤوس الجبلين وذلك بزبر الحديد ثم أفرغ عليه نحاسا مذابا فكان سدّا محكما.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال رجل للنبي ﷺ: رأيت السد من البرد المحبر. قال: " قد رأيته».

وعلى العموم البحث في تحديد مكان السد لا يهم كثيرا؛ ولا يحصل بعدم معرفته خلل في الاعتقاد؛ لأن المقصود بيان أن ما أخبرنا الله تعالى به، وما جاء في الأحاديث الصحيحة من أن سد يأجوج ومأجوج موجود إلى أن يأتي الوقت المحدد لدك هذا السد وخروج يأجوج ومأجوج، وذلك عند دنو الساعة بهما في قوله عَزَّوَجَلَّ: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا - وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [الكهف: ٩٨ - ٩٩] كل ذلك: حقيقة يجب التصديق به.

والذي يدل على أن السد موجود ولم يندك، حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن

النبي ﷺ في السد قال: «يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدا، قال: فيعيده الله ﷻ كأشد ما كان حتى إذا بلغوا مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدا إن شاء الله تعالى واستثنى، قال: فيرجعون وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس، فيستقون المياه ويفر الناس منهم».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح (١٣/ ١٩٠): قال ابن العربي - رَحِمَهُ اللَّهُ: " في هذا الحديث ثلاث آيات: الأولى: أن الله منحهم أن يوالوا الحفر ليلا ونهارا، والثانية: منعهم أن يحاولوا الرقي على السد بسلم أو آلة فلم يلهمهم ذلك ولا علمهم إياه، الثالثة: أنه صدهم عن أن يقولوا: إن شاء الله حتى يجيء الوقت المحدد ". فخروجهم الذي هو من أشراط الساعة الكبرى في آخر الزمان لم يقع؛ لأن الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ تدل على أن خروجهم بعد نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الذي يدعو الله ﷻ بأن يهلكهم فيهلكون ويسلم الناس من شرهم.

فيجب على كل مسلم الإيمان بما جاء في الكتاب والسنة عن السد ويأجوج ومأجوج، ولا عبرة بمن أنكر وجود يأجوج ومأجوج ووجود السد الذي بناه ذو القرنين بينهم وبين الناس بحجة ظهور دول الكفر المتقدمة في الصناعة، وأن هؤلاء استطاعوا أن يكتشفوا كل ما في الأرض ولم يتركوا منها شيئا إلا أتوا عليه، ولكنهم لم يعثروا على يأجوج ومأجوج، ولم يروا سد ذي القرنين، ولا شك أن هذا قول فاسد؛ لأنه تكذيب صريح لما جاء في كتاب الله ﷻ، ولما أخبر به رسولنا ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، ومن كذب بشيء جاء في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ فقد كفر، كما قال تعالى: {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ}

[العنكبوت: ٤٧].

وأما دعواهم أن الأرض اكتشفت كلها ولم يجدوا فيها يأجوج ومأجوج والسد، فهي دعوى باطلة تدل على عجز البشر وقصورهم؛ لأن معرفة جميع بقاع الأرض والإحاطة بما فيهما من المخلوقات لا يقدر عليها إلا الله ﷻ الذي أحاط بكل شيء علما، ولا يلزم من عدم رؤيتهم عدم وجودهم؛ لأنه قد يكون الله ﷻ صرفهم عن رؤية يأجوج ومأجوج ورؤية السد، أو جعل بينهم وبين الناس أشياء تمنع من الوصول إليهم كما حصل لبني إسرائيل حين ضرب الله عليهم التيه في فراسخ قليلة من الأرض، فلم يطلع عليهم الناس حتى انتهى أمد التيه، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، جعل لكل شيء أجلا ووقتا، قال تعالى: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ - لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٦٦ - ٦٧]. وما عجز الأوائل عن اكتشاف ما اكتشفه المتأخرون إلا لأن الله ﷻ جعل لكل شيء أجلا.

الفصل الخامس: الخُسوفات الثلاثة

* معنى الخسف: يقال: خسف المكان يخسف خسوفًا إذا ذهب في الأرض، وغاب فيها، ومنه قوله تعالى: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ} [القصص: ٨١]. والخسوفات الثلاثة التي هي من أشراط السَّاعة جاء ذكرها في الأحاديث ضمن العلامات الكبرى.

عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن السَّاعة لن تقوم حتى تروا عشر آيات...(فذكر منها): وثلاثة خسوف: خسفُ بالمشرق، وخسفُ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب).

* هل وقعت هذه الخسوفات؟: وهذه الخسوفات الثلاثة لم تقع بعدُ؛

كغيرها من الأشراط الكبرى التي لم يظهر شيءٌ منها، وإن كان بعض العلماء يرى أنها قد وقعت كما ذهب إلى ذلك الشريف البرزنجي في الإشاعة (٤٩)، ولكن الصحيح أنه لم يحدث شيء منها إلى الآن، وإنما وقع بعض الخسوفات في أماكن متفرقة، وفي أزمان متباعدة، وذلك من أشراط السَّاعة الصغرى، أما هذه الخسوفات الثلاثة؛ فتكون عظيمة وعامة لأماكن كثيرة من الأرض في مشارقها ومغاربها وفي جزيرة العرب.

الفصل السادس: الدُّخان

ظهور الدُّخان في آخر الزمان من علامات السَّاعة الكبرى التي دل عليها الكتاب والسنة.

أدلة ظهوره

الأدلَّة من القرآن الكريم

قال الله تعالى: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١)} [الدخان: ١٠، ١١]. والمعنى: انتظر يا محمد بهؤلاء الكفار يوم تأتي السماء بدخان مبين واضحٍ يغشى الناس ويعمُّهم، وعند ذلك يُقال لهم: هذا عذابٌ أليمٌ؛ تقريعًا لهم وتوبيخًا، أو يقول بعضهم لبعض ذلك.

وفي المراد بهذا الدُّخان؟ وهل وقع؟ أو هو من الآيات المرتقبة؟ قولان للعلماء:

الأول: أن هذا الدُّخان هو ما أصاب قريشًا من الشدة والجوع عندما دعا عليهم النبي ﷺ حين لم يستجيبوا له، فأصبحوا يرون في السماء كهيئة الدُّخان، وإلى هذا القول ذهب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وتبعة جماعة

من السلف، قال رضي الله عنه: (خمس قد مضين: اللزام، والروم، والبطشة،

والقمر، والدُّخان) أخرجه البخاري ومسلم، وقوله(اللزام): هو ما جاء في قوله تعالى:﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]؛ أي: يكون عذابًا لازمًا يهلكهم نتيجة تكذيبهم، وهو ما وقع لكفار قريش في بدر من القتل والأسر.

ولما حدَّث رجل من كندة عن الدُّخان، وقال: إنه يجيء دخانٌ يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم؛ غضب ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: (من علم فليقل، ومن لم يعلم؛ فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: لا أعلم؛ فإن الله قال لنبيه: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: ٨٦]، وإن قريشًا أبطؤوا عن الإسلام، فدعا عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: (اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف"، فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدُّخان) أخرجه البخاري ومسلم، وهذا القول رجَّحه ابن جرير الطبري، ثم قال: "لأن الله جلَّ ثناؤه توعد بالدُّخان مشركي قريش، وأن قوله لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} [الدخان: ١٠] في سياق خطاب الله كفار قريش وتقريعه إياهم بشركهم.

الثاني: أن هذا الدُّخان من الآيات المنتظرة، التي لم تجئ بعد، وسيقع قرب قيام السَّاعة، وإلى هذا القول ذهب ابن عباس وبعض الصحابة والتابعين؛ فقد روى ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن عبد الله بن أبي مليكة؛ قال: "غدوت على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذات يوم، فقال: (ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلتُ: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدُّخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت) قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٣٥): "وهذا إسنادُ صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة، وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة

والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها... مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدُّخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن؛ قال الله تعالى: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ}؛ أي: بين واضح يراه كل أحد، على أن ما فسر به ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد، وهكذا قوله: {يَغْشَى النَّاسَ}؛ أي: يتغشَّاهم ويعمُّهم، ولو كان أمرًا خياليًا يخصُّ أهل مكة المشركين؛ لما قيل فيه: {يَغْشَى النَّاسَ} .اهـ.

وأيضًا؛ فإن الأحاديث الصحيحة ذكرت أن الدُّخان من أشراط السَّاعة الكبرى كما سيأتي، وأما ما فسر به ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإن ذلك من كلامه، والمرفوع مقدم على كل موقوف، ولا يمتنع إذا ظهرت هذه العلامة أن يقولوا: {رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ} [الدخان: ١٢]، فيكشف عنهم، ثم يعودون، وهذا قرب القيامة، على أن بعض العلماء ذهب إلى الجمع بين هذه الآثار بأنهما دخانات ظهرت إحداهما وبقيت الأخرى، وهي التي ستقع في آخر الزمان، فأما التي ظهرت؛ فهي ما كانت تراه قريشٌ كهيئة الدُّخان، وهذا الدُّخان غير الدُّخان الحقيقي، الذي يكون عند ظهور الآيات التي هي من أشراط السَّاعة.

قال القرطبي في التذكرة (ص٦٥٥): "قال مجاهدٌ: كان ابن مسعود يقول: هما دخانات قد مضى أحدهما، والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض، ولا يجد المؤمن منه إلا كالزكمة، وأما الكافر؛ فثقب مسامعه)، وقال ابن جرير في تفسيره (٢٥/ ١١٤- ١١٥): "وبعد؛ فإنه غير منكر أن يكون أحلَّ بالكفار الذين توعَّدهم بهذا الوعيد ما توعَّدهم، ويكون مُحِلًا فيما يستأنف بعد بآخرين دخانًا

على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ عندنا كذلك؛ لأن الأخبار عن رسول الله ﷺ قد تظاهرت بأن ذلك كائن، فإنه قد كان ما روى عنه عبد الله بن مسعود، فكلا الخبرين اللذين رويا عن رسول الله ﷺ صحيح".

ب- الأدلَّة من السنة المطهرة. مضى ذكر بعض الأحاديث الدالَّة على ظهور الدُّخان في آخر الزمان.

الفصل السابع: طُلوعُ الشَّمسِ من مغرِبِها

طلوع الشمس من مغربها من علامات السَّاعة الكبرى، وهو ثابت بالكتاب والسنة.

الأدلَّة على وقوع ذلك

الأدلَّة من القرآن الكريم

قال الله تعالى {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [الأنعام: ١٥٨]. فقد دلَّت الأحاديث الصحيحة أن المراد ببعض الآيات المذكورة في الآية هو طلوع الشمس من مغربها، وهو قول أكثر المفسرين.

قال الطبري في تفسيره (٨/ ١٠٣) - بعد ذكره لأقوال المفسرين في هذه الآية-: "وأولى الأقوال بالصواب في ذلك ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ذلك حين تطلع الشمس من مغربها.

وقال الشوكاني في تفسيره (٢/ ١٨٢): "فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبوي من وجه صحيح لا قادح فيه؛ فهو واجب التقديم، محتم الأخذ به.

الأدلَّة من السنة المطهرة

الأحاديث الدَّالة على طلوع الشمس من مغربها كثيرة، وإليك جملة منها: ما

روى الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت، فرآها الناس؛ آمنوا أجمعون، فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا)، وروى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لا تقوم السَّاعة حتى تقتتل فئتان...(فذكر الحديث، وفيه): وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت؛ آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا)، وروى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال (بادروا بالأعمال ستًا: طلوع الشمس من مغربها)، وقد تقدم حديث حذيفة بن أسيد عند مسلم في ذكر أشراط السَّاعة الكبرى، فذكر منها: (طلوع الشمس من مغربها)، وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال:

حفظتُ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثًا لم أنسه بعد، سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (إن أول الآيات خروجًا طلوعُ الشمس من مغربها)،

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يومًا: (أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟". قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرِّها تحت العرش، فتخرُّ ساجدةً؛ فلا تزال كذلك، حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخرُّ ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا، حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي، أصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها". فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل

أو كسبت في إيمانها خيرًا) أخرجه مسلم، وحديث أبي ذر هذا قد أنكره بعضهم بلا حجة ولا برهان، فهذا السجود للشمس لا ندري كيفيته ولا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى الذي يسجد له كل من في السماوات والأرض كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج: ١٨].

وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ - وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ - يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [النحل: ٤٨ - ٥٠].

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٧٢): " يخبر تعالى عن عظمته وكبريائه الذي خضع له كل شيء ودانت له الأشياء بأسرها جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالى ".

وقد تكلم العلماء - رحمهم الله تعالى - عن حديث سجود الشمس تحت العرش وردوا على من أول ذلك، وبينوا أن سجودها تحت العرش سجود حقيقي.

قال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في في شرح السنة للبغوي (١٥ / ٩٥) في قول رسول الله ﷺ: «مستقرها تحت العرش» قال: " لا ننكر أن يكون لها استقرار تحت العرش من حيث لا ندركه ولا نشاهده وإنما أخبرنا عن غيب فلا نكذب به ولا نكيفه؛ لأن علمنا لا يحيط به... ثم قال عن سجودها تحت

العرش: وفي هذا إخبار عن سجود الشمس تحت العرش فلا ينكر أن يكون ذلك عند محاذاتها العرش في مسيرها والتصرف لما سخرت له، وأما قوله ﷻ: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} [الكهف: ٨٦]، فهو نهاية مدرك البصر إياها حالة الغروب ومصيرها تحت العرش للسجود، وإنما هو بعد الغروب ".

وقال القاضي عياض في إكمال المعلم (٣/ ٧٠٠) عقب شرحه للحديث السابق: " وهو على ظاهره عند أهل الفقه والحديث والمتكلمين من أهل السنة خلافا لمن تأوله من المبتدعة والباطنية، وهو أحد أشراط الساعة العظام المنتظرة ".

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المنهاج (٢/ ١٩٧): " وأما سجود الشمس فهو بتمييز وإدراك يخلقه الله تعالى ".

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (٣/ ٥٧١): يسجد لعظمته تعالى كل شيء طوعا وكرها، وسجود كل شيء مما يختص به.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتح (٨/ ٤٠٣): وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار وقوعه في كل يوم وليلة عند سجودها ومقابل الاستقرار المسير الدائم المعبر عنه بالجري - والله أعلم.

* عدم قبول الإيمان والتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها: إذا طلعت الشمس من مغربها؛ فإنه لا يقبل الإيمان ممَّن لم يكن قبل ذلك مؤمنًا؛ كما لا تقبل توبة العاصي، وذلك لأن طلوع الشمس من مغربها آية عظيمة، يراها كل من كان في ذلك الزمان، فتنكشف لهم الحقائق، ويشاهدون من الأهوال ما يلوي أعناقهم إلى الإقرار والتصديق بالله وآياته، وحكمهم في ذلك حكم من

عاين بأس الله تعالى؛ كما قال سبحانه وتعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)} [غافر: ٨٤، ٨٥].

قال القرطبي في التذكرة (ص٧٠٦): "قال العلماء: وإنما لا ينفع نفسًا إيمانها عند طلوع الشمس من مغربها لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس، وتفتر كل قوة من قوى البدن، فيصير الناس كلهم - لإيقانهم بدُنوِّ القيامة - في حال مَن حضره الموت؛ في ا نقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانهم من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحال؛ لم تقبل توبته؛ كما لا تقبل توبة مَن حضره الموت".اهـ. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٧١): "إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذٍ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمنًا قبل ذلك؛ فإن كان مصلحًا في عمله؛ فهو بخير عظيم، وإن كان مخلطًا فأحدث توبة؛ حينئذٍ لم تقبل منه توبة".اهـ.

وهذا هو الذي جاء به القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة؛ فإن الله تعالى قال: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [الأنعام: ١٥٨]، وقال ﷺ: (لا تنقطع الهجرة ما تُقُبِّلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت؛ طُبِعَ على كل قلب بما فيه، وكفي الناس العمل) أخرجه أحمد، وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله ﷻ جعل بالمغرب بابًا عرضه مسيرة سبعين عامًا للتوبة، لا يغلق حتى تطلع الشمس من قبله، وذلك قول الله تبارك وتعالى: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ}) أخرجه الترمذي،

ويرى بعض العلماء أن الذين لا يُقبل إيمانُهم هم الكفار الذين عاينوا طلوع الشمس من مغربها، أما إذا امتدَّ الزمان، ونسي الناس ذلك؛ فإنه يقبل إيمان الكفار وتوبة العصاة.

قال القرطبي في تفسيره (٧/ ١٤٦- ١٤٧): وقال ﷺ: "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر"؛ أي: تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعدة من الجنة ومقعده من النار، فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله، وعلى هذا ينبغي أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالشاهد له مردودةً ما عاش؛ لأن علمه بالله تعالى وبنبِّيه ﷺ وبوعده قد صار ضرورة، فإن امتدَّت أيام الدُّنيا إلى أن يَنسى الناس من هذا الأمر العظيم ما كان، ولا يتحدَّثون عنه إلا قليلًا، فيصير الخبر عنه خاصًا، وينقطع التواتر عنه، فمَن أسلم في ذلك الوقت أو تاب؛ قبل منه، الله أعلم".اهـ.

والراجح أن النصوص دلَّت على أن التوبة لا تقبل بعد طلوع الشمس من مغربها، وأن الكافر لا يقبل منه الإسلام، ولم تفرق النصوص بين من شاهد هذه الآية وبين من لم يشاهدها". وقد روى الإمام مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها) فجعل ﷺ غاية قبول التوبة هو طلوع الشمس من مغربها، وقد ذكر الحافظ في الفتح (١١/ ٣٥٤- ٣٥٥) أحاديث وآثارًا كثيرة تدلُّ على استمرار قفل باب التوبة إلى يوم القيامة، ثم قال: "فهذه آثار يشدُّ بعضها بعضًا متَّفقة على أن الشمس إذا طلعت من المغرب؛ أغلق باب التوبة، ولم يفتح بعد ذلك، وأن ذلك لا يختص بيوم الطلوع، بل يمتدُّ إلى يوم القيامة".اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٨٨): وذكرت هناك ما أبداه البيهقي ثم القرطبي احتمالا أن الزمن الذي لا ينفع نفسا إيمانها يحتمل أن يكون وقت طلوع الشمس من المغرب، ثم إذا تمادت الأيام وبعد العهد بتلك الآية عاد نفع الإيمان والتوبة، وذكرت من جزم بهذا الاحتمال وبينت أوجه الرد عليه. ثم وقفت على حديث لعبد الله بن عمرو ذكر فيه طلوع الشمس من المغرب وفيه: "فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل" الآية، أخرجه الطبراني والحاكم، وهو نص في موضع النزاع وبالله التوفيق.

الفصل الثامن: الدَّابَّة

ظهور دابَّة الأرض في آخر الزمان علامة على قرب السَّاعة ثابت بالكتاب والسنة:

أدلَّة ظهورها

أ- الأدلَّة من القرآن الكريم: قال الله تعالى: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ} [النمل: ٨٢]. فهذه الآية الكريمة جاء فيها ذكر خروج الدَّابَّة، وأن ذلك يكون عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق.

ب- الأدلَّة من السنة المطهَّرة: روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدَّجَّال، ودابة الأرض)، وله عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ قال: حفظتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدَّابَّة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها؛

فالأخرى على أثرها قريبًا) ومضى حديث حذيفة بن أسيد عند مسلم في ذكر أشراط السَّاعة الكبرى، فذكر (منها الدابة، وفي رواية: "دابَّة الأرض)، وروى الإمام أحمد عن أبي أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرفعه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "تخرج الدابة، فتسم الناس على خراطيمهم، ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل البعير، فيقول: ممَّن اشتريته؟ فيقول: من أحد المخطيين)، وروى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (بادروا بالأعمال ستًا...(وذكر منها:) دابة الأرض) وغيرها من الأحاديث.

دفع إشكال في مسألة عدم قبول التوبة

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض) أخرجه مسلم.

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده إلا أن فيه ذكر "الدخان" بدل "الدجال" وهو خطأ؛ لأن جميع رواة الحديث متفقون على ذكر "الدجال"، ومما يؤكد ذلك أن الحديث رواه عن وكيع: زهير بن حرب، وابن أبي شيبة، ولم يذكرا لفظ "الدخان"، ويبعد أن يكون الوهم من الإمام أحمد، أو ابنه عبد الله راوي المسند عنه، والأقرب أن يكون من القطيعي، راوي المسند عن عبد الله بن الإمام أحمد، فقد ذكرت له أوهام في روايته للمسند، فلعل هذا منها، والله تعالى أعلم.

وظاهر الحديث أن الدجال من الآيات التي إذا خرجت لا ينفع بعدها الإيمان، وقد وردت الأحاديث بأن خروج عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يعقب الدجال؛ وقد استشكل بأنه لو كان كذلك لم ينفع الكفار إيمانهم، ولا الفساق توبتهم، عند نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن باب التوبة قد أغلق في زمن الدجال، وقد جاء النص

صريحا كما سيأتي بأن الإيمان ينفع في زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإلا لما صار الدين واحدا، وقد اختلف العلماء تجاه الإشكال الوارد في الحديث، قال تعالى {هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون} [الأنعام: ١٥٨] فذهب عامة المفسرين أن المراد بـ "البعض" في الآية، هو طلوع الشمس من مغربها، قال البغوي في تفسيره (٢/ ١٤٤): وعليه عامة المفسرين، وكذا قال الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٤٠)، والآلوسي في تفسيره (٨/ ٤٢٤)، ونسبه للجمهور ابن عطية في المحرر الوجيز (٢/ ٣٦٧)، والقاسمي في محاسن التأويل (٤/ ٥٤٧) وحكاه إجماعا البرزنجي في الإشاعة (ص٢٧٣) غير أنه لم يجزم بذلك، حيث قال: أجمع المفسرون أو جمهورهم، ونقل عبارته السفاريني في لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٣٣)، وصديق حسن خان في الإذاعة (ص ٢٠٦).

وأما حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والذي فيه ذكر الثلاث؛ فقد قال بعض أهل العلم إن التوبة تنقطع بخروج إحدى هذه الثلاث.

قال ابن هبيرة كما في الآداب الشرعية" (١/ ١١٦):" حكم هاتين الآيتين (يعني الدابة، والدجال) في أن نفسا لا ينفعها إيمانها، الحكم في طلوع الشمس من مغربها ".اهـ.

وقال المناوي في الفيض (٣/ ٢٩٨):" كل من الثلاثة مستبد في أن الإيمان لا ينفع بعد مشاهدتها؛ فأيها تقدمت ترتب عليها عدم النفع ".اهـ.

لكن مذهب عامة أهل العلم أن التوبة لا تنقطع إلا بطلوع الشمس من مغربها.

وقد استشكل جمع من العلماء حديث أبي هريرة؛ لأمرين

الأول: أن فيه ذكر الدجال، وقد تقدم بيان وجه الإشكال في ذلك.

الثاني: أن النصوص متظافرة على تفسير الآية بطلوع الشمس من مغربها، دون ذكر الدجال، أو الدابة.

وقد تباينت آراؤهم في الجواب عن ذلك، وحاصلها راجع إلى مذهبين:

الأول: مذهب الجمع بين الأحاديث فقد ذهب الجمهور من العلماء إلى الجمع بين حديث أبي هريرة، وبقية الأحاديث التي اقتصرت على تفسير الآية بطلوع الشمس من مغربها، لكن اختلفوا في الجمع على أقوال:

القول الأول: أن عدم قبول التوبة مترتب على مجموع الثلاث - الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها - فإذا اجتمعت الثلاث انقطعت التوبة، وطلوع الشمس هو آخرها، وهو الذي يتحقق به عدم القبول.

قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١١٥) بعد أن أورد حديث (ثلاث إذا خرجن):" فهذا المراد به أن طلوع الشمس آخر الثلاثة خروجا؛ فلا تعارض بينه وبين ما سبق "ا.هـ يريد الأحاديث التي اقتصرت على تفسير الآية بطلوع الشمس من مغربها، واختار هذا الجمع: القاري في المرقاة (١٠/ ١٠٧)، والمباركفوري في التحفة (٨/ ٣٥٧)، غير أنهما لم يذكرا أن طلوع الشمس من مغربها هو آخر الثلاث، وذكر الشيخ حمود التويجري في إتحاف الجماعة (٢/ ٣٢٢) حديث أبي هريرة من رواية الإمام أحمد، والتي فيها لفظ "الدخان" بدل "الدجال" وبين أن التوبة لا تزال مقبولة حتى تجتمع الثلاث، والتي آخرها طلوع الشمس من مغربها.

القول الثاني: إن كان البعض المذكور في الآية عدة آيات فطلوع الشمس هو

آخرها المتحقق به عدم القبول، وإن كان إحدى آيات؛ فهو محمول على طلوع الشمس من مغربها؛ لأنه أعظم الثلاث، ذكره القاسمي في تفسيره (٤/ ٥٤٧)، وهو بمعنى القول الأول.

القول الثالث: أن خروج الثلاث يكون متتابعا، بحيث يكون الزمن الذي بينها يسير جدا؛ فتكون النسبة التي بينها مجازية، فكأنها خرجت في وقت واحد. ذكره الحافظ في الفتح (١١/ ٣٦١) وتعقبه بقوله:" وهذا بعيد؛ لأن مدة لبث الدجال إلى أن يقتله عيسى، ثم لبث عيسى وخروج يأجوج ومأجوج، كل ذلك سابق على طلوع الشمس من المغرب.اهـ.

القول الرابع: ما قاله البيهقي كما الفتح (١١/ ٣٦٢): إن كان في علم الله أن طلوع الشمس سابق احتمل أن يكون المراد نفى النفع عن أنفس القرن الذين شاهدوا ذلك، فإذا انقرضوا وتطاول الزمان وعاد بعضهم إلى الكفر عاد تكليف الإيمان بالغيب، وكذا في قصة الدجال لا ينفع إيمان من آمن بعيسى عند مشاهدة الدجال، وينفعه بعد انقراضه ".اهـ. وقريبا منه قول أبي عبد الله القرطبي في تفسيره والتذكرة (ص٧٣٦)، قلت معنى هذا أن التوبة تنقطع عند طلوع الشمس من مغربها، ثم تعود بعد تطاول الزمان؛ فإذا خرج الدجال انقطعت، ثم تعود بعد ذلك لتنفع في وقت عيسى عليه السلام.

ونقل الحافظ أبو زرعة في طرح التثريب (٨/ ٢٦٠) عن شيخه البلقيني أنه قال:" إذا تراخى الحال بعد ذلك، وبعد العهد بهذه الآية، وتناساه أكثر الناس قبلت التوبة والإيمان بعد ذلك؛ لزوال الآية التي تضطر الناس إلى الإيمان".اهـ. ونقله عن البلقيني الآلوسي روح المعاني (٨/ ٤٢٥) ومال إليه وأيده، وعورض هذا القول: بأنه لا دليل عليه، وبأن الأخبار الصحيحة تخالفه كما تقدم.

المذهب الثاني: الترجيح بين الأحاديث: فقد ذهب الإمام أبي العباس القرطبي في المفهم (٧/ ٢٤٣).إلى أن ذكر الدجال مع الطلوع والدابة وهم من بعض الرواة، وأن التكليف لا يرتفع إلا بطلوع الشمس من مغربها، كما دلت عليه بقية الأحاديث.اهـ.

ولا شك أن مذهب الجمع بين الأحاديث هو المتعين في هذه المسألة، فيحمل حديث أبي هريرة على المعنى الوارد في بقية الأحاديث، والتي اقتصرت على تفسير الآية بطلوع الشمس من مغربها، ويكون معنى حديث أبي هريرة أن عدم قبول التوبة مترتب على مجموع الثلاث - الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها - فإذا اجتمعت الثلاث انقطعت التوبة، وطلوع الشمس هو آخرها، وهو الذي يتحقق به عدم القبول، وهذا القول هو الذي تجتمع به الأدلة، ويزول به الإشكال.

من أيِّ الدَّوابِّ دابة الأرض

اختلفت الأقوال في تعيين دابَّة الأرض، وإليك بعض ما قاله العلماء في ذلك:

القول الأول: قال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٢٣٥): أول الأقوال أنها فصيل ناقة صالح، وهو أصحها، والله أعلم. واستشهد لهذا القول بما رواه أبو داود الطيالسي عن حذيفة بن أسيد الغفاري؛ قال: ذكر رسول الله ﷺ الدَّابَّة... فذكر الحديث، وفيه: (لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام) وموضع الشاهد قوله: "ترغو"، والرغاء إنما هو للإبل، وذلك "أن الفصيل لما قُتِلتِ الناقة هرب، فانفتح له حجر، فدخل في جوفه، ثم انطبق عليه، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله سبحانه وتعالى". ثم قال: "لقد أحسن من قال:

واذكر خروج فصيل ناقة صالح   يسم الورى بالكفر والإيمان.

وترجيح القرطبي لهذا القول فيه نظر؛ فإن الحديث الذي استند إليه في سنده رجل متروك، وأيضًا؛ فإنه جاء في بعض كتب الحديث لفظ: (تدنو) و(تربو)؛ بدل: (ترغو)؛ كما في "المستدرك" للحاكم.

القول الثاني: أنها الجسَّاسة المذكورة في حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة الدَّجَّال، وهذا القول منسوبٌ إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وممن قال بأنها الجساسة: البيضاوي في تفسيره (٤/ ١٢١)، وليس في حديث تميم ما يدلُّ على أن الجساسة هي الدَّابة التي تخرج آخر الزمان، وإنما الذي جاء فيه أنه لقي دابَّة أهلب كثيرة الشعر، فسألها: ما أنت؟ قالت: أنا الجساسة.

وسُمِّيت بالجساسة لأنها تجسُّ الأخبار للدَّجَّال، وأيضًا؛ فما جاء في شأن الدَّابَّة التي نتحدث عنها من تعنيف الناس وتوبيخهم على كفرهم بآيات الله تعالى يُبيِّن أنها غير الجساسة التي تنقل الأخبار للدجال، والله أعلم.

القول الثالث: أنها الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعتها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة، وهذا القول نسبه القرطبي في تفسيره (٤/ ١٥١) إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ منقولًا من كتاب النقاش، ولم يذكر له مستندًا في ذلك، وذكره الشوكاني في "تفسيره (٤/ ١٥١).

القول الرابع: أن الدَّابَّة إنسانٌ متكلِّم يناظر أهل البدع والكفر، ويجادلهم؛ لينقطعوا، فيهلك من هلك عن بيِّنة، ويحيا من حيَّ عن بيِّنة، وهذا القول ذكره القرطبي في تفسيره (١٣/ ٢٣٦- ٢٣٧) وردَّه بأن الدَّابَّة لو كانت إنسانًا يناظر المبتدعة؛ لم تكن الدَّابَّة آية خارقة وعلامة من علامات السَّاعة العشر، وأيضًا فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضل العالم الذي على أهل

الأرض أن يسمُّوه باسم الإنسان أو العالم أو الإمام إلى أن يسمى بالدابة، وهذا خروجٌ عن عادة الفصحاء، وعن تعظيمك العلماء.

القول الخامس: أن الدَّابَّة اسم جنس لكلِّ ما يدبُّ، وليست حيوانًا مشخَّصًا معيَّنًا يحوي العجائب والغرائب، ولعل المراد بها تلك الجراثيم الخطيرة التي تفتك بالإنسان وجسمه وصحته، فهي تجرح وتقتل، ومن تجريحها وأذاها كلمات واعظة للناس لو كانت لهم قُلوبٌ تعقل، فترجع بهم إلى الله، وإلى دينه، وتلزمهم الحجة، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال؛ فإن من معاني التكليم التجريح، ذكر هذا القول البرزنجي في الإشاعة (ص١٧٧) ونسبه لتفسير ابن علان "ضياء السبيل"، وهذا القول لم يذكر له دليلًا صحيحًا يعتمد عليه، وهو قول بين البطلان كما هو واضح.

والذي يجب الإيمان به هو أن الله تعالى سيخرج للناس في آخر الزمان دابَّة من الأرض تكلِّمهم، فيكون تكليمها آية لهم دالة على أنهم مستحقون للوعيد بتكذيبهم آيات الله، فإذا خرجت الدابة؛ فهم الناس، وعلموا أنها الخارقة المنبئة باقتراب السَّاعة، وقد كانوا قبل ذلك لا يؤمنون بآيات الله، ولا يصدِّقون باليوم الموعود.

قال أحمد شاكر في تعليقه على المسند (١٥/ ٨٢): "والآية صريحةٌ بالقول العربي أنها (دابَّة)، ومعنى (الدَّابَّة) في لغة العرب معروفٌ واضحٌ، لا يحتاج إلى تأويل... ووردت أحاديث كثيرة في الصحاح وغيرها بخروج هذه (الدَّابَّة) الآية، وأنها تخرج آخر الزمان، ووردت آثار أخرى في صفتها لم تنسب إلى رسول الله ﷺ المبلِّغ عن ربه، والمبيِّن آيات كتابه، فلا علينا أن ندعها، ولكن بعض أهل عصرنا، من المنتسبين للإسلام، الذين فشا فيهم المنكر من القول والباطل من

الرأي، الذين لا يريدون أن يؤمنوا بالغيب، ولا يريدون إلا أن يقفوا عند حدود المادة التي رسمها لهم معلموهم وقدوتهم؛ ملحدو أوروبا الوثنيون الإباحيون، المتحلِّلون من كل خلق ودين، هؤلاء لا يستطيعون أن يؤمنوا بما نؤمن به، ولا يستطيعون أن ينكروا إنكارًا صريحًا، فيجمجمون، ويحاورون، ويداورون، ثم يتأولون، فيخرجون بالكلام عن معناه الوضعي الصحيح للألفاظ في لغة الغرب، يجعلونه أشبه بالرموز؛ لما وقر في أنفسهم من الإنكار الذي يبطنون.

* عمل الدَّابَّة: إذا خرجت هذه الدَّابَّة فإنها تسم المؤمن والكافر، فأما المؤمن؛ فيكون ذلك علامة على إيمانه، وأما الكافر؛ فإنها تخطمه على أنفه؛ علامة على كفره والعياذ بالله، وقد جاء في الآية الكريمة قوله تعالى: }اَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الَارْضِ تُكَلِّمُهُمْ} [النمل: ٨٢]. وفي معنى هذا التكليم اختلفت أقوال المفسرين على قولين الأول: أن المراد: تكلمهم كلامًا؛ أي: تخاطبهم مخاطبة، ويدلُّ على هذا قراءة أُبي بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (تنبئهم).

الثاني: تجرحهم، ويؤيد ذلك قراءة (تَكْلمهم)؛ بفتح التاء وسكون الكاف، من الكلم، وهو الجرح، وهذه القراءة مروية عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أي: تسمهم وسمًا

وهذا القول يشهد له حديث أبي أُمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند أحمد أن النبي ﷺ قال: (تخرج الدابة، فتسم الناس على خراطيمهم)، وروى عن ابن عباس أنه قال: "كلا تفعل"؛ أي: المخاطبة والوسم.

قال ابن كثير في تفسيره (٦/ ٢٢٠): "وهو قولٌ حسن، ولا منافاة، والله أعلم.اهـ.

وأما الكلام الذي تخاطبهم به؛ فهو قولها: }اَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا

يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].وهذا على قراءة مَن قرأها بفتح همزة (إن)؛ أي: تخبرهم أن الناس كانوا بآيات الله لا يوقنون، وهذه قراءة عامَّة قرَّاء الكوفة وبعض أهل البصرة، وأما قراءة عامة قراء الحجاز والبصرة والشام؛ فبكسر همزة (إن) على الاستئناف، ويكون المعنى: تكلِّمُهم بما يسوؤهم، أو ببطلان الأديان سوى دين الإسلام.

قال ابن جرير في تفسيره (٢٠/ ١٦): "الصواب من القول في ذلك أنها قراءتان متقاربتا المعنى، مستفيضتان في قراءة الأمصار.اهـ.

الفصل التاسع: النار التي تحشر الناس

ومنها خروج النار العظيمة، وهي آخر أشراط السَّاعة الكبرى، وأول الآيات المؤذنة بقيام السَّاعة.

* مكان خروجها: جاءت الروايات بأن خروج هذه النار يكون من اليمن، من قعرة عدن، وتخرج من بحر حضرموت؛ كما جاء في روايات أخرى، وإليك طائفة من الأحاديث التي تبيِّن مكان خروج هذه النار، وهي من الأدلَّة على ظهورها.

جاء في حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم في ذكر أشراط السَّاعة الكبرى قوله ﷺ: (وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم". رواه مسلم)، وفي رواية له عن حذيفة أيضًا عند مسلم: (ونارٌ تخرج من قعرة عدن ترحل الناس)، وروى الإمام أحمد والترمذي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (ستخرج نار من حضرموت أو من بحر حضرموت، قبل يوم ا لقيامة، تحشر الناس)، وروى الإمام البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن عبد الله بن سلام لما أسلم سأل النبي ﷺ عن مسائل، ومنها: ما أول أشراط السَّاعة؟

فقال النبي ﷺ: (أما أول أشراط السَّاعة؛ فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب)

والجمع بين ما جاء أن هذه النار هي آخر اشراط السَّاعة الكبرى وما جاء أنها أول أشراط السَّاعة أن آخريتها باعتبار ما ذُكِر معها من الآيات الواردة في حديث حذيفة، وأوليتها باعتبار أنها أوَّل الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدُّنيا أصلًا، بل يقع بانتهاء هذه الآيات النفخ في الصور، بخلاف ما ذُكِر معها من الآيات الواردة في حديث حذيفة، فإنه يبقى بعد كل آية منها أشيا من أمور الدُّنيا، وأما ما جاء في بعض الروايات بأن خروجها يكون من اليمن، وفي بعضها الآخر أنها تحشر الناس من المشرق إلى المغرب؛ فيجاب عن ذلك بأجوبة:

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٧٩): وقد أشكل الجمع بين هذه الأخبار وظهر لي في وجه الجمع أن كونها تخرج من قعر عدن لا ينافي حشرها الناس من المشرق إلى المغرب وذلك أن ابتداء خروجها من قعر عدن فإذا خرجت انتشرت في الأرض كلها. والمراد بقوله " تحشر الناس من المشرق إلى المغرب " إرادة تعميم الحشر لا خصوص المشرق والمغرب أو أنها بعد الانتشار أول ما تحشر أهل المشرق ويؤيد ذلك أن ابتداء الفتن دائما من المشرق كما سيأتي تقريره في كتاب الفتن وأما جعل الغاية إلى المغرب فلأن الشام بالنسبة إلى المشرق مغرب ويحتمل أن تكون النار في حديث أنس كناية عن الفتن المنتشرة التي أثارت الشر العظيم والتهبت كما تلتهب النار وكان ابتداؤها من قبل المشرق حتى خرب معظمه وانحشر الناس من جهة المشرق إلى الشام ومصر وهما من جهة المغرب كما شوهد ذلك مرارا من المغول من عهد جنكزخان ومن بعده والنار التي في الحديث الآخر على حقيقتها والله أعلم.

* كيفية حشرها للناس: عند ظهور هذه النار العظيمة من اليمن؛ تنتشر في الأرض، وتسوق الناس إلى أرض المحشر، والذين يحشرون على ثلاثة أفواج:

الأول: فوجٌ راغبون راكبون.

الثاني: وفوجٌ يمشون تارة ويركبون أخرى، يعتقبن على البعير الواحد؛ كما سيأتي في الحديث: "اثنان على بعير، ثلاثة على بعير.... إلى أن قال: وعشرة على بعير يعتقبونه"، وذلك من قلة الظهر يومئذٍ.

والفوج الثالث: تحشرهم النار، فتحيط بهم من ورائهم، وتسوقهم من كل جانب إلى أرض المحشر، ومن تخلف أكلته النار كما في النهاية الفتن والملاحم (١/ ٢٣٠- ٢٣١) ومما جاء من الأحاديث في بيان كيفية حشر هذه النار للناس حديث الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: (يحشر الناس على ثلاث طواف راغبين وراهبين، وأثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويَحشُر بقيتَهم النار؛ تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث بانوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أسوا).

*أرض المحشر: يحشر الناس إلى الشام في آخر الزمان، وهي أرض المحشر؛ كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة، والتي منها ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما في ذكر خروج النار، وفيه (ستخرج نار قبل يوم القيامة من بحر حضر موت تحشر الناس قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: عليكم بالشام)، وروى الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية البهزي عن أبيه.... فذكر الحديث، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: (ها هُنا تُحشَرون، ها هُنا تُحشَرون، ها هُنا تُحشَرون (ثلاثًا)، ركبانًا، ومشاة، وعلى وجوهكم".قال ابن أبي بكير: فأشار بيده إلى الشام، فقال: "إلى

ها هُنا تُحشَرون)، وفي رواية الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده؛ قال: قلت: يا رسول الله! أين تأمرني؟ قال: "ها هنا (ونحا بيده نحو الشام)،

٤- وروى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عمرو؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ستكون هجرة بعد هجرة ينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم، لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، تلفظهم أرضوهم، تنذرهم نفس الله، تحشرهم النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم إذا باتوا، وتقيل معهم إذا قالوأ، وتأكل من تخلَّف)، قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٨٠): "وفي تفسير ابن عيينة عن ابن عباس: من شكَّ أن المحشر ها هنا - يعني: الشام -؛ فليقرأ أول سورة الحشر، قال لهم رسول الله ﷺ يومئذٍ: اخرجوا. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر.اهـ. والسبب في كون أرض الشام هي أرض المحشر أن الأمن والإيمان حين تقع الفتن في آخر الزمان يكون في الشام، وقد جاء في فضله والترغيب في سكناه أحاديث صحيحة، انظرها في كتاب فضائل الشام بتحقيق العلامة الألباني.

* هذا الحشر في الدُّنيا: هذا الحشر المذكور في الأحاديث يكون في الدُّنيا، وليس المراد به حشر الناس بعد البعث من القبور، وقد ذكر القرطبي أن الحشر معناه الجمع، وهو على أربعة أوجه: حشران في الدُّنيا، وحشران في الآخرة، أما حشرا الدُّنيا، فالأول: إجلاء بني النضير إلى الشام، والثاني: حشر الناس قبل القيامة إلى الشام، وهي النار المذكورة هنا في الأحاديث، وكون هذا الحشر في الدُّنيا هو الذي أجمع عليه جمهور العلماء؛ كما ذكر ذلك القرطبي، ابن كثير، وابن حجر، وهو الذي تدلُّ عليه النصوص كما تقدم بسطها، وذهب بعض العلماء، كالغزالي، والحليمي إلى أن هذا الحشر ليس في الدُّنيا، وإنما هو في

الآخرة؟ وذكر ابن حجر أن بعض شرَّاح المصابيح حمله على الحشر من القبور، واحتجوا على ذلك بعدة أمور أولا: أن الحشر إذا أُطلق في عرف الشرع؛ إنما يُراد به الحشر من القبور؛ ما لم يخصه دليلٌ. ثانيا: أن هذا التقسيم في الخبر لا يستقيم في الحشر إلى الشام؛ لأن المهاجر لا بد أن تكون راغبًا أو راهبًا أو جامعًا بين الصفتين. ثالثا: أن حشر البقية على ما ذكر، وإلجاء النار لهم إلى تلك الجهة، وملازمتها حتى لات تفارقهم: قولٌ لم يرد به التوفيق، وليس لنا أن نحكم بتسليط النار في الدُّنيا على أهل الشقوة من غير توقيف. رابعا: أن الحديث يفسر بعضه بعضًا، وقد وقع في حديث أبي هريرة: "ثلاثًا على الدواب، وثلاثًا ينسلون على أقدامهم، وثلاثًا على وجوههم"، وهذا التقسيم الذي في هذا الخبر موافق لما جاء في سورة الواقعة في قوله تعالى: {وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً} [الواقعة: ٧].والإجابة عما احتجوا به يتلخص فيما يأتي:

أولا: أن الدليل قد جاء بأن هذا الحشر في الدُّنيا؛ كما سبق ذكر الأحاديث في ذلك.

ثانيا: أن التقسيم المذكور في آيات سورة الواقعة لا يستلزم أن يكون هو التقسيم المذكور في الحديث؛ فإن الذي في الحديث ورد على القصد من الخلاص من الفتنة فمن اغتنم الفرصة سار على فسحة من الظهر ويسرة من الزاد راغبًا فيما يستقبله راهبًا فيما يستدبره، وهم الصنف الأول من الحديث، ومَن توانى حتى قلَّ الظهر اشتركوا فيه وهم الصنف الثاني، والصنف الثالث هم الذين تحشرهم النار وتسحبهم الملائكة. ثالثا: أنه تبيَّن من شواهد الأحاديث أنه ليس المراد بالنار نار الآخرة، وإنما هي نارٌ تخرج في الدُّنيا، أنذر النبي ﷺ بخروجها، وذكر كيفية ما تفعل في الأحاديث المذكورة. رابعا أن الحديث الذي

احتجُّوا به من رواية علي بن زيد- وهو ضعيف على الراجح - لا يخالف الأحاديث التي بيَّنتُ أن هذا الحشر في الدُّنيا، وقد وقع في حديث علي بن زيد المذكور عند الإمام أحمد أنهم: "يتَّقون بوجوههم كل حدب وشوك وأرض الموقف يوم القيامة أرض مستوية لا عوج فيها ولا أكمة ولا حدب ولا شوك".

قال النووي في شرح مسلم (١٧/ ١٩٤- ١٩٥): "قال العلماء: وهذا الحشر في آخر الدُّنيا قبيل القيام، وقبيل النفخ في الصور؛ بدليل قوله ﷺ:تحشر بقيتهم النار؛ تبيت معهم وتقيل وتصبح وتمسي.اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير في النهاية (١/ ٣٢٠- ٣٢١) بعد ذكره للأحاديث الواردة في خروج النار مبينًا أن هذا الحشر في الدُّنيا -: "فهذا السياقات تدلُّ على أن هذا الحشر هو حشر الموجودين في آخر الدُّنيا من أقطار الأرض إلى محلة المحشر، وهي الأرض الشام... وهذا كله مما يدلُّ على أن هذا في آخر الزمان حيث الأكل والشرب والركوب على الظهر المشترى وغيره، وحيث تهلك المتخلفين منهم النار، ولو كان هذا بعد نفخة البعث لم يبق موتٌ، ولا ظهرٌ يُشترى، ولا أكل، ولا شرب، ولا لبس في العرصات.اهـ.

وأما حشر الآخرة؛ فإنه قد جاء في الأحاديث أن الناس مؤمنهم وكافرهم يحشرون حفاة عراة غرلا بهما، ففي الصحيح عن ابن عباس؛ قال: قام فينا النبي ﷺ فقال: (إنكم محشورون حفاة عراة غرلًا؛ {كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [الأنبياء: ١٠٤]، وإن أول الخلق يُكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل) قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٨٢): "ومن أين للذين يُبعَثون بعد الموت عراة حفاة حدائق حتى يدفعوها في الشوارف.اهـ. فدلَّ هذا على أن هذا الحشر يكون في الدُّنيا قبل يوم القيامة، ومَن ذهب إلى خلاف ذلك فقد جانب الصواب، والله

تعالى أعلم[١].

(باب متفرقات)

مسألة: سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٤/ ٢٦٥): **ما هي أشراط الساعة وماذا تحقق منها حتى الآن؟.**

فأجاب: أشراط الساعة كثير منها ما أخبر به النبي ﷺ لجبرائيل أن تلد الأمة ربتها، الأمة: يعني المملوكة ربتها، وفي رواية أخرى ربها، يعني سيدها منها، لكثرة الإماء بسبب السبي، وقد وقع هذا في عهد النبي ﷺ وبعده كثر السبايا وتملك الناس الإماء واستولدوهن هذا واقع من قديم، وكذلك قوله ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة، يتطاولون في البنيان، هذا وقع أيضا من أزمان طويلة، ولها أشراط تأتي في آخر الزمان حتى الآن لم تقع وسوف تقع كما أخبر بها النبي ﷺ، وهي أشراط متصلة عشرة أولها عند أهل العلم، خروج المهدي، وهو من أهل بيت النبي ﷺ يدعو إلى توحيد الله واسمه محمد بن عبد الله يدعو إلى توحيد الله وإلى اتباع الشريعة يملأ الأرض قسطا وعدلا بعدما ملئت جورا وهذا قبل نزول المسيح بقليل، الثانية: خروج الدجال الذي يأتي من بلاد الشرق من خراسان يدعي أنه نبي، يدعي أنه رب العالمين، وله خوارق بينها النبي ﷺ في أحاديث، والثالث: عيسى ابن مريم ينزل من السماء موجود في السماء مرفوع لم يقتل ولم يصلب، ولكن رفع إلى السماء ينزل في آخر الزمان، فيقتل الدجال، ويدعو إلى توحيد الله ﷻ واتباع شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، يحكم بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام، والرابعة: يأجوج ومأجوج يخرجون في عهد عيسى عليه السلام، ثم يقتلهم الله في زمن عيسى عليه السلام، ويريح الله العباد منهم، ثم

---

(١) كتاب أشراط الساعة ليوسف الوابل بتصرف واختصار.

بعد ذلك ستة أشراط الدخان، وهدم الكعبة، ورفع القرآن وخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، والعاشرة: نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى محشرهم إلى الشام، تبيت معهم حيث يبيتون، تقيل حيث يقيلون، وبعد ذلك قيام الساعة في الوقت الذي يشاؤه الله سبحانه وتعالى لكن بعد خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها، وقبل النار يرسل الله ريحا طيبة قبل خروج النار يقبض الله بها روح كل مؤمن ومؤمنة، فلا يبقى إلا الأشرار فعليهم تقوم الساعة، ما يبقى إلا الأشرار، فيبقون أهل الأرض على الشرك بالله وعبادة الأوثان والأصنام، في مدة يعلمها الله، ثم تقوم الساعة على شرار الخلق، تقوم الساعة على قوم لا يعبدون الله، ولا يعرفونه، على قوم مشركين كفار، نسأل الله العافية والسلامة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٤/ ٢٦٧): ما هي علامات الساعة الصغرى التي تبقت؟.

فأجاب: يقال علاماتها الكبرى ليس هي بالصغرى، علاماتها الكبرى بقي عشر آيات: خروج المهدي، وخروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، وخروج اليأجوج والمأجوج، وهدم الكعبة، ورفع القرآن، وآية الدخان، وخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وآخر الآيات نار تحشر الناس إلى محشرهم، هذه الآيات التي بقيت نسأل الله السلامة، وآخرها طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة بعدها لا يقبل عمل من إنسان، إذا جدد عملا، لا يقبل، يقول سبحانه: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ}، إذا طلعت الشمس من مغربها، الإيمان الجديد لا يقبل، وبعدها الآية الأخيرة وهي حشر الناس، خروج النار من المشرق تحشرهم إلى محشرهم،

تبيت معهم حيث باتوا وتقيل حيث قالوا حتى يصلوا إلى محشرهم، الذي تقوم فيه الساعة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٤/ ٢٦٨): تحدثوا يا سماحة الشيخ عن علامات الساعة الصغرى والكبرى.

فأجاب: علامات الساعة كثيرة ومنوعة، منها العلامات الصغرى التي وقعت في عهد النبي ﷺ وبعده، فالنبي ﷺ من علامات الساعة، هو نبي الساعة عليه الصلاة والسلام، وهكذا أخبر عن تطاول الناس في البنيان، هذا من أشراط الساعة، وهو كون الحفاة العراة العالة من العرب، يكونون رؤوس الناس، هذا من علامات الساعة، كثرة السراري بين الناس، كون الإماء يكثرن بين الناس، ويتسراها الرجل، ويولدها بسبب السبي الكثير، هذا من علامات الساعة، كما قال ﷺ في حديث جبرائيل لما سأل عن أمارات الساعة، قال: «أن ترى الحفاة العراة العالة، رعاء الشاة يتطاولون في البنيان، وقال: إذا ولدت الأمة ربتها » وفي لفظ: «ربها » يعني سيدها، يعني إذا حملت من سيدها فولدت منه بنتا أو ابنا، كل هذا من أشراط الساعة، وقد وقع في عهده ﷺ، وبعد ذلك، ومن أشراط الساعة كثرة الشح بين الناس، والبخل وكذلك قلة العلم، وكثرة الجهل، وفشو المعاصي، وظهور المعاصي في البلدان، كل هذا من علامات الساعة المنتشرة التي هي غير الكبرى، كذلك كثرة القتال والفتن، من أشراط الساعة، كل هذا بينه عليه الصلاة والسلام، وكثرة النساء وقلة الرجال من علامات الساعة.

أما علاماتها الكبرى التي تكون بقربها فهي عشر بينها العلماء

المهدي: وهو رجل من بيت النبوة، يخرج في آخر الزمان، يملأ الأرض عدلا وقسطا، بعدما ملئت جورا، المستقيم على دين الله يحكم بشريعة الله،

ويقيم أمر الله في أرض الله، هذا يكون في آخر الزمان، عند نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

الدجال: وهذا يقع بعد المهدي، خروج الدجال من المشرق من جهة الشرق، من جهة الصين وخراسان ويسيح في الأرض ويطوف بها، ويدعو إلى اتباعه، يتظاهر بأنه نبي أولا ثم يقول: إنه رب العالمين، ومعه خوارق شيطانية، تلبس على الناس أمره، لكن أهل الإيمان وأهل البصيرة يعرفونه مكتوب بين عينيه كافر، يعرفه كل من يقرأ كل مؤمن ممن عصمه الله يرى ذلك بين عينيه، معه خوارق يعرفها أهل الإيمان، أنها باطلة، وأنها تدل على أنه الدجال، وينتهي أمره إلى فلسطين، ثم ينزل عيسى ابن مريم في الشام فيحاصره، في فلسطين، ويقتله، يعني عيسى ابن مريم ينزل من السماء، ويقتل الله به الدجال، ويتولى بنفسه عليه الصلاة والسلام قتله.

والعلامة الثالثة من أشراط الساعة الكبرى هو نزول عيسى عليه السلام، وقتله الدجال ويهلك الله في زمانه الأديان كلها ولا يبقى إلا الإسلام، ويضع الجزية ويتركها ولا يقبل إلا الإسلام، يكسر الصليب ويقتل الخنزير، لأن الصليب باطل، عيسى ما صلب، ولم يقتل عليه الصلاة والسلام، وهو كذب ولهذا إذا نزل كسر الصليب، وبين أمر الله في عباده، ودعاهم إلى الإسلام وحكم بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ولا يقبل من الناس إلا الإسلام، ولا يبقى في زمانه يهودية، ولا نصرانية، ولا وثنية، بل يدخل الناس في دين الله أفواجا، ويستقر الإسلام في الناس، ثم بقية علامات الساعة من الدخان، وهدم الكعبة، ونزع القرآن من الصدور، والمصاحف، ثم طلوع الشمس من مغربها ثم خروج الدابة، ثم الدخان، ثم آخر العلامات خروج النار، نار تخرج من قعر عدن تسوق

الناس إلى محشرهم، نسأل الله السلامة والعافية.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٤/ ٢٧٠): إن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، حدد لنا بعضا منها، وقال في ذلك: أن تلد الأمة ربتها فما معنى هذه العبارة؟

فأجاب: أشراط الساعة كثيرة، ولكنها قسمان: قسم مطلق، وجد في عهد النبي ﷺ وبعده، وقسم خاص يقع عند قربها وعند دنوها، أما المطلق العام فهذا نبينا محمد ﷺ هو نبي الساعة، ووجوده من أشراطها عليه الصلاة والسلام، وهكذا ما قال ﷺ: أن تلد الأمة ربتها ربتها يعني سيدتها، وفي اللفظ الآخر: ربها يعني سيدها، ومعنى ذلك أنها تكثر الإماء والسراري، فإذا حملت من سيدها، وهو مالكها، فإذا حملت من سيدها، وهو مالكها، فإن المولودة البنت تكون سيدة، ربة والمولود الذكر يكون ربا لها، سيدا لها، هذا معنى الحديث يعني تكثر السراري ويكثر الإماء، والناس يكثر تسريهم بسبب كثرة الجهاد وكثرة الغنائم، فتكثر السراري بين الناس والسيد يطأ أمته، لأنها ملكه، مباح له، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} الملك الذي هو ملكه للأمة، يقال له ملك اليمين فإذا ملكها بغنيمة، أو بالشراء أو بالورث، فله أن يطأها، وهي ملك اليمين، وإذا ولدت يقال للمولود إن كان ذكرا ربها وسيدها، والمولودة ربتها وسيدتها، هذا معنى الحديث، أن تلد الأمة ربها أو ربتها، يعني سيدتها، لأن بنت السيد سيدة، وولد السيد سيد لأمه في المعنى، والمعنى أنه تكثر السراري في الناس، وهذا من علامات الساعة، كثرة السراري وكثرة الإماء والولادة، ومثل حديث: «أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في النبيان» هذا أيضا

من أشراطها العامة، تطاول العرب في البناء بعدما كانوا أهل خيام، بنوا البنايات وطولوها، هذا من أشراط الساعة، وقد وقع هذا، العرب تحضروا وجاهدوا، وبنو البنايات، وعمروا العمائر، أما أشراطها الخاصة القريبة منها، فقد بينتها الأحاديث، وهي عشر علامات، أولها: المهدي، رجل من أهل البيت في آخر الزمان، يملك الدنيا، يملك الأرض، ويملأها عدلا، بعدما ملئت جورا، وهو من أهل البيت، من بني هاشم، من ذرية فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، جاءت فيه أحاديث كثيرة، الثاني: الدجال يخرج دجال في آخر الزمان، يدعي أنه نبي، ثم يدعي أنه رب العالمين، وصحت فيه الأحاديث، وتواترت عن النبي ﷺ، والثالث: نزول المسيح ابن مريم من السماء عليه الصلاة والسلام، ويقتل الدجال، ويحصل به الخير العظيم للأمة، ويملأ الله به البركات في الأرض عليه الصلاة والسلام، ويهلك الله في زمانه الأديان، فلا يبقى إلا الإسلام، تذهب اليهودية والنصرانية، والشيوعية وغيرها، ولا يبقى إلا الإسلام في عهده عليه الصلاة والسلام، والرابع: خروج يأجوج ومأجوج من الشرق: {وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ} في عهد عيسى عليه الصلاة والسلام، ثم يميتهم الله بعد ذلك ثم بعد ذلك: آية الدخان، وهدم الكعبة، رفع القرآن من الأرض ومن الصدور، ومن الصحف، ثم خروج الدابة، دابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وإذا طلعت لا تقبل التوبة بعد ذلك من أحد، وآخرها: نار تحشر الناس إلى محشرهم، هذه يقال لها الآيات الخاصة القريبة من الساعة جاءت بها الأحاديث وبينها أهل العلم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٤/ ٢٧٣): يسأل سماحتكم عن علامة القيامة الكبرى.

فأجاب: العلامة الكبرى: طلوع الشمس من مغربها هذه العلامة الكبرى،

حينئذ لا يقبل من نفس إسلامها ولا إيمانها وليس لها إلا ما قدمت كما قال جل وعلا: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ}.

المقصود أن هذه الآية هي أكبر الآيات طلوع الشمس من مغربها فإذا طلعت لم يقبل من الإنسان دخول في الإسلام ولا الزيادة في العمل ليس له إلا ما قدم، المقصود الواجب الحذر وأن يستعد للقاء الله وألا يتساهل.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٤/ ٢٧٤): سائل يستوضح عن علامات الساعة، وهل هذا الجيل آخر جيل كما يقول بعض الناس؟.

فأجاب: الساعة لا يعلم قيامها إلا الله، ولا يعلم الجيل الذي تقوم فيه إلا الله سبحانه وتعالى، وهي لا تقوم إلا على الأشرار حين لا يبقى في الأرض مسلم، وما تقوم إلا على الكفار، ولا تقوم وفي الأرض مسلم واحد، بل جميع المسلمين يموتون قبل قيامها، يبعث الله عليهم ريحا طيبة في آخر الزمان تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، فلا يبقى إلا الكفار، فعليهم تقوم الساعة، ولها شروط لم تأت، من شروطها خروج الدجال من جهة المشرق، وهو آدمي يدعي أنه نبي، ثم يدعي أنه رب العالمين، ثم ينزل الله عيسى ابن مريم من السماء، فيقتله في فلسطين، وهو رئيس اليهود، الدجال رئيس اليهود، يذهب إليهم في فلسطين، وينزل الله عيسى فيقتله عند باب اللد، الباب المعروف هناك في فلسطين، ومن أشراطها خروج يأجوج ومأجوج، وهم أيضا من الشرق، أخبر الله عنهم في كتابه العظيم، ومن شروطها، عدم الكعبة في آخر الزمان، ونزع القرآن من الصدور، ومن الصحف حتى لا يبقى في أيدي الناس قرآن، ومن شروطها الأخيرة دخان يغشى الناس، ويعمهم ومن شروطها طلوع الشمس من مغربها، بعد المشرق تطلع من المغرب، فإذا طلعت من مغربها آمن الناس، لكن لا يقبل الله إيمانهم

بعد طلوع الشمس من مغربها، يبقى المسلم على إسلامه، والكافر على كفره، وآخر الآيات نار تحشر الناس إلى محشرهم، تخرج من المشرق، وفي بعض الأحاديث من قعر عدن من الجنوب، ثم تسوقهم إلى محشرهم، هي آخر الآيات، وفي آخر الزمان، كما تقدم قبل أن تقوم الساعة يرسل الله ريحا طيبة، لينة، فتقبض روح كل مؤمن ومؤمنة ولا يبقى في الأرض إلا الكفار، في خفة الطير وأحلام السباع، يتناكحون في الأسواق، ويعبدون الأوثان، والأصنام، ولا يعرفون الله طرفة عين، بل هم في كفر وضلال وجهل، وأخلاق خبيثة، فعليهم تقوم الساعة، نسأل الله العافية والسلامة.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٤/ ٢٧٥): كثيرا ما نتحاور أنا ورفاقي عن نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأرجو أن تزودونا بمعلومات، إذا كان يوجد أي دلالة أو إشارة في القرآن الكريم، أو السنة النبوية الشريفة إلى هذا المعنى، ويقال بأن هناك حديثا شريفا بهذا الخصوص، فهل هذا صحيح؟ وفقكم الله وبارك فيكم.

فأجاب: قد تواترت الأحاديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام للإخبار عن نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، ينزل في آخر الزمان في دمشق، وأنه يتوجه إلى فلسطين بعد نزول الدجال، وأنه يقتله هناك في باب اللد والمسلمون معه، وثبت عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنه يأتي المسلمين وهم قائمون للصلاة، ويريد أميرهم أن يتأخر حتى يؤم الناس نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيأتي عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ويقول: إنها أقيمت، فصل بهم ». وجاء في بعض الروايات الجيدة أن أميرهم ذاك الوقت المهدي، وهو محمد بن عبد الله من بيت النبي عليه الصلاة والسلام، ومن ذرية فاطمة، فيقول له المهدي: تقدم يا روح الله، فيأتي ويقول: صل أنت، لأنها أقيمت لك. ثم يتولى القيادة بعد ذلك عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. ونزوله أمر مجمع عليه

عند أهل العلم، وثابت بالنصوص الثابتة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد تواترت به الأحاديث، وليس به شك بحمد الله، هو ينزل في آخر الزمان بعد خروج الدجال الكذاب، فيبين للناس كذبه وضلاله، ويتولى عليه الصلاة والسلام قتله، وقد أشار القرآن إلى هذا بقوله جل وعلا، لما ذكر عيسى قال: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا} أي نزوله ومجيئه، وقرأ بعض القراء: علم، بفتح العين واللام، أي دليل على قربها، وقال جل وعلا في سورة النساء: {بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}، ثم قال بعده: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} يعني ما من أحد من أهل الكتاب، وقت نزوله إلا يؤمن به قبل موت عيسى عليه السلام، فيكون الضمير في موته يعود على عيسى، وقيل: يعود على اليهودي أو النصراني، أنه قبل موته يؤمن بنزول عيسى عليه السلام، وبكل حال فالآية تشير إلى ذلك سواء قيل: إنه الضمير يعود إلى الواحد من أهل الكتاب، أنه يؤمن قبل خروج روحه، أو معنى أن عيسى عليه السلام إذا نزل آمن به أهل الكتاب ذلك الوقت، قبل أن يموت عيسى عليه السلام، فإنه يموت بعد ذلك، يمكث في الأرض ما شاء الله، ثم يموت ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه، وجاء في بعض الروايات ما يدل على أنه يدفن في الحجرة النبوية، ولكن في صحة ذلك نظر، وبكل حال فهو ينزل بلا شك، ويحكم بشريعة محمد ﷺ في الأرض، ويتبعه المسلمون ويفيض المال في وقته، وتأمن البلاد ويسلم الناس كلهم، فإنه لا يقبل من الناس إلا الإسلام أو السيف، يكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، يترك الجزية لا يأخذها من أحد، وتكون العبادة لله وحده في زمانه، بسبب ما حصل به من الأمارة العظيمة، والدلالة القاطعة على قرب الساعة، فالناس يؤمنون في زمانه، وهو يجاهدهم بالسيف حتى يدخل الناس في دين الله، فمنهم

من يدخل بسبب ظهور أدلة الحق، وصدق النبي محمد ﷺ فيما أخبر به، ومنهم من يكون إسلامه على أثر الجهاد الذي يقوم به عيسى عليه السلام والمسلمون.

والخلاصة أن نزوله حق وثابت بإجماع المسلمين

وأصله الأحاديث المتواترة القطعية بنزوله عليه السلام

وأشار القرآن الكريم إلى ذلك كما تقدم.

فالواجب على جميع المسلمين الإيمان به، واعتقاد نزوله في آخر الزمان وأنه ينزل حقيقة، وأنه يدعو إلى توحيد الله والإيمان به، وأنه يعمل بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ويحكم بها في الأرض، لأنه لا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، ينزل تابعا لمحمد عليه الصلاة والسلام حاكما بشريعته لا بشريعة التوراة السابقة، ولكن يحكم بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام، يحكم بالقرآن، هذا هو الذي أجمع عليه أهل الإسلام، ودلت عليه الأحاديث الصحيحة المتواترة، وأشار إليه القرآن الكريم.

فالواجب على جميع المسلمين اعتقاد هذا، وعدم الالتفات إلى ما قد قاله بعض المتأخرين من إنكار نزوله، وتأويل ذلك بأنه يظهر خير في آخر الزمان، وأنه عبر بهذا عن ظهور الخير، وأنه عبر بالدجال عن ظهور الشر، كل هذه أقوال فاسدة وباطلة، ويخشى على قائلها بالكفر بالله ﷻ، لأنهم كذبوا بأمر واضح، جاءت به السنة الصحيحة المتواترة، فلا يجوز الالتفات إلى ذلك، بل يجب الإيمان والقطع، لأن خروج الدجال حق في آخر الزمان، وهو كذاب من بني آدم يخرج في آخر الزمان، يدعي أنه نبي، ثم يدعي أنه رب العالمين، وهكذا ينزل عيسى في إثر ذلك، فيقتل هذا الدجال، لأنه إذا رأى عيسى تحير وتوقف، ويكون إمام المسلمين في زمانه، ويأخذ بشريعة الله، هذا هو الحق الذي لا ريب فيه،

وأجمع عليه أصحاب النبي ﷺ والمسلمون بعده. ومعنى تركه الجزية هو أنه لا يقبلها من اليهود والنصارى، وهذا يدل على أن الجزية مؤقتة في شريعة محمد، يعني مؤقتا إلى نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإذا نزل عيسى فلا تقبل، هذا شرع من شرع الله عَزَّ وَجَلَّ، بينه النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة، بأن عيسى لا يقبلها، لأنه انتهى أمرها، وليس هناك حاجة إليها، بل يجب على من بلغ أن يسلم، ويترك التمرد عن الإسلام، والتشبث باليهودية والنصرانية، وعلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يقاتل من أبى ذلك حتى يدخل في دين الله.

ويظهر من هذا أن الخنزير من الحيوانات التي ينبغي إتلافها، لأنه من المحرمات في شريعة محمد ﷺ، ولأن بقاءه وسيلة، لأن يأكله اليهود والنصارى أو غيرهم، وهو محرم بنص الكتاب العزيز، وقد يستفاد من هذا الحديث أنه يقتل بإتلافه وإزالته من الوجود، وإنما ذكره النبي ﷺ في قصة عيسى، ليشير على هذا المعنى ويفيده، ويحتمل أن يقال: إنه لا يقتل، إلا بعد نزول عيسى عليه الصلاة والسلام، لأنه ذكر في قصة عيسى ونزوله، فيكون قتله مؤجلا، كما أن وضع الجزية مؤجل إلى نزوله عليه الصلاة والسلام، هذا محل احتمال، ويحتاج إلى مزيد بحث وعناية من جهة الأدلة الشرعية، فإنه ليس كل ما حرم يقتل، الكلب محرم ولا يقتل، إلا إذا آذى بالعقر أو غيره، والهر محرم الأكل ومع هذا لا يقتل، إلا إذا آذى والحمر محرمة الأكل، ولا تقتل وهكذا الخنزير محرم الأكل، ولا يلزم من تحريمه أن يقتل، إلا إذا اعتمد على هذا الحديث، ولم يكن له معارض، وهو قتل عيسى للخنزير، هذا محل نظر ومحل احتمال ويحتاج إلى مزيد بحث.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٤/ ٢٨٢): ال ﷺ: «يقاتلكم اليهود

وتنصرون عليهم »، فالسائل: يتوقع إذا كان هذا الحديث صحيحا، فعهدنا الآن هو العهد الذي يتحدث عنه ﷺ، فما رأيكم؟ أرجو أن توضحوا لي هذا الحديث، لأنه دائما بيننا مشادة بالكلام عنه، وفقكم الله.

فأجاب: الحديث صحيح رواه البخاري ومسلم في الصحيحين وغيرهما ولفظه: «يقاتل المسلمون اليهود، فينتصرون عليهم حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي تعال فاقتله » أو قريب من هذا اللفظ، المقصود أنه ثابت عن رسول الله ﷺ، وأن المسلمين يقاتلون اليهود، وأنهم ينصرون عليهم، حتى إن الحجر والشجر، يقول للمسلم: يا عبد الله هذا يهودي تعال فاقتله، أما كون ذلك في وقتنا هذا فهو محل نظر فإن الذي يقاتلهم المسلمون، والمقاتلون الآن ليسوا على المستوى الكامل، من جهة الإسلام فيهم المسلم وفيهم غير المسلم، وليس هناك تطبيق فيما بلغنا من المسلمين هناك للشريعة المطهرة كما ينبغي بل هناك العاصي، وهناك الكافر وهناك المسلم المستقيم، فالقتال الذي أخبر به النبي ﷺ يكون من المسلمين الملتزمين المستقيمين، فلهذا ينصرهم الله على اليهود، بسبب استقامتهم على دين الإسلام ونصرهم لدين الله، فيحتمل أن يكون هذا بعد وقت يتحسن فيه أحوال المسلمين، ويجتمعون على الحق والهدى، فينصرون عليهم، ويحتمل أن يكون هذا في وقت عيسى، كما هو معلوم فإنه وقت عيسى يقتل اليهود، وينصر الله عيسى والمسلمين عليهم، ويقتل الدجال هذا لا شك فيه، في وقت عيسى، لكن يحتمل أن يقع قبل عيسى، وأن المسلمين تتحسن أحوالهم، وتستقيم أمورهم على شريعة الله، ويقودهم أمير صالح، أو إمام صالح، يقودهم إلى الحق والهدى، ويستقيمون على شريعة الله، ثم يتوجهون لقتال اليهود، فينصرون عليهم، هذا

كله محل احتمال، أما في وقت عيسى فلا شك فيه أنه يقتلهم وينصره الله عليهم، عليه السلام مع المسلمين عند قتله للدجال.

وسئل رحمه الله في نفس المصدر (٤/ ٢٨٧): هل صحيح أن المهدي المنتظر سوف يظهر، أم أنها بدعة مع العلم أنه لا يوجد بعد وفاة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم معجزات، أرشدونا جزاكم الله خيرا مع التحيات؟.

فأجاب: المهدي المنتظر صحيح، وسوف يقع في آخر الزمان، قرب خروج الدجال ونزول عيسى عند اختلاف بين الناس، عند موت خليفة فيخرج المهدي، ويبايع ويقيم العدل في الناس سبع سنوات أو تسع سنوات، وينزل في وقته عيسى ابن مريم، عليه الصلاة والسلام، هذا جاءت به أحاديث كثيرة، أما المهدي الذي يدعي الرافضة هذا لا أصل له، مهدي الشيعة صاحب السرداب هذا لا أصل له عند أهل العلم، بل هو خرافة لا أساس لها ولا صحة لها.

أما المهدي المنتظر الذي جاءت به الأحاديث الصحيحة، ومن بيت النبي صلى الله عليه وسلم، من أولاد فاطمة رضي الله عنها، وهو سمي النبي محمد وأبوه عبد الله فهذا حق وجاءت به الأحاديث الصحيحة، وسيقع في آخر الزمان، ويحصل بسبب خروجه وبيعته مصالح للمسلمين في إقامة العدل ونشر الشريعة، وإزالة الظلم عن الناس، وجاء في الأحاديث أن الأرض تملأ عدلا، بعدما ملئت جورا في زمانه وأنه يخرج عند وجود فتنة بين الناس واختلاف على أثر موت الخليفة القائم فيبايعه أهل الإيمان والعدل بما يظنه فيه من الخير والاستقامة وأنه من بيت النبوة.

س: ما رأي الشرع في ظهور المهدي المنتظر في نهاية الزمان؟

ج: المهدي جاءت به أحاديث كثيرة، وصنف فيه بعض العلماء مصنفات،

وذكر أنها متواترة عن النبي عليه الصلاة والسلام وهي فيها الصحيح وفيها الحسن، وفيها الضعيف وفيها الموضوع، لكن الحجة في الأحاديث الصحيحة والحسنة، وقد ثبت عنه ﷺ، ما يدل على أنه يكون شخص يقال له: المهدي في آخر الزمان، يواطئ اسمه اسم النبي ﷺ واسم أبيه اسم أبي النبي ﷺ، يعني محمد بن عبد الله، وهو من أهل بيته عليه الصلاة والسلام، فالصواب أنه سوف يكون وسوف يقع، قرب نزول المسيح ابن مريم، وجاء في بعض الروايات أنه يكون أميرا على الجيش الذي يدعو إلى الله ويملأ الأرض عدلا، عند نزول المسيح عليه الصلاة والسلام، فهو رجل صالح من أهل البيت، يدعو إلى الله وينشر العدل، ويمنع الجور ويقيم شعائر الله في أرض الله، حتى ينزل عيسى عليه الصلاة والسلام.

أما المهدي الذي تزعمه الرافضة فهو باطل ولا حقيقة له، بل هو سراب لا حقيقة له، وهو صاحب السرداب الذي يزعمون، هذا شيء باطل لا أساس له ولا حقيقة له، وإنما المهدي المنتظر شخص آخر غير مهدي الرافضة، وهو محمد بن عبد الله من آل البيت، وهو من ذرية فاطمة، كما صرح به في بعض الروايات، وهو يملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جورا، كما جاءت به الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ عن عدة من الصحابة رضي الله عنهم.

وسئل رحمه الله في نفس المصدر (٤/ ٢٨٩): حدثونا بحديث صحيح عن الدجال، ومن أين يأتي؟ وكم حكمه؟.

فأجاب: الدجال جاءت به أحاديث متواترة عن النبي ﷺ في آخر الزمان، وأنه يكون من جهة المشرق، من ناحية بين العراق والشام، وأنه يعيث في الأرض فسادا، ويطأ الأرض كلها، إلا مكة والمدينة، فإن الله يحميهما منه، ثم

ينتهي إلى الشام، إلى فلسطين إلى اليهود هناك، وينزل الله عيسى ابن مريم فيحصره هناك، ثم يقتله هناك غرب الأردن، كما جاءت به الأحاديث الصحيحة، ويقتله المسلمون معه، فإن عيسى عليه الصلاة والسلام يغزوه، ومعه المسلمون فيقتله بباب اللد، باب هناك في فلسطين، قرب القدس، يقتله بحربته كما جاء في الحديث الصحيح، والمسلمون معه يقتلون اليهود قتلة عظيمة، جاء في الحديث عن النبي ﷺ أن المسلمين يقاتلون اليهود، فيقتلونهم، ويسلطون عليهم، ينادي الشجر والحجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي تعال فاقتله، فيقتل عيسى الدجال وينتهي أمره، ويبقى المسلمون مع عيسى في أرغد عيش وأطيب نعمة، ويهلك الله الأديان كلها في زمان عيسى، ولا يبقى إلا الإسلام والحمد لله، ثم يميت الله عيسى، كما توفي من قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو حين ينزل من السماء يحكم بشريعة محمد ﷺ لا بشريعة الإنجيل، بل هو كأحد أمته، لكنه أفضلها، نبي من الأنبياء ويحكم بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام، لا بشريعة التوراة والإنجيل، ولهذا جاء في الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام: «ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا »، يعني: يؤمكم بكتاب الله وبسنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٤/ ٢٩١): إن بعض العلماء عندنا في سوريا يدعون أحيانا، ويقولون: اللهم أجرنا من فتنة المسيح الدجال، والذي نفهمه أن المسيح هو عيسى ابن مريم، فوجهونا حول الصحيح، جزاكم الله خيرا.

فأجاب: كلاهما يقال له مسيح، فالدجال مسيح، وعيسى ابن مريم مسيح، المسيح الدجال مسيح ضلالة، ومن دعاة الفتنة والشر والفساد في آخر الزمان، يخرج على الناس من جهة الشرق، ويدعي أنه نبي، ثم يدعي أنه رب العالمين،

ومعه بعض الخوارق، فالنبي ﷺ حذر من فتنته، وشرع لنا أن نستعيذ من فتنته في آخر كل صلاة، وفي دعائنا، وقال ﷺ: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أعظم من الدجال» وفي لفظ: «أمر أعظم من أمر الدجال»، فالدجال له فتنة عظيمة، وهو أعور العين اليمنى مكتوب بين عينيه كافر، فالمشروع للمؤمن سؤال الله العافية من فتنته في صلاته، كما شرع الله لنا ذلك، يجب على المؤمنين والمؤمنات أن يعرفوا الفرق بين هذا وهذا، فالدجال مسيح ضلالة، ومن دعاة الباطل والشر والكفر والضلال، يدعو الناس إلى أنه رب العالمين.

فالواجب على من أدركه أن ينكره وأن يكذبه، وأن يبتعد عن فتنته، ويسأل ربه العافية، وأما المسيح ابن مريم فهو عبد الله ورسوله، أرسله الله إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه كتابا عظيما وهو الإنجيل، يدعوهم إلى توحيد الله، وإلى اتباع التوراة وما فيها، والمسيح عيسى خلقه الله من أنثى بلا ذكر، من مريم الصديقة رضي الله عنها، قال الله له: (كن فكان) فليس له أب، بل خلقه الله بقدرته العظيمة، أرسل جبرائيل إلى مريم فنفخ فيها، فحملت بإذن الله، وهو عبد الله ورسوله، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، ليس بعده إلا نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فنبينا هو خاتم الأنبياء، وعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، هو آخرهم، ثم بعث الله بعده نبينا محمدا ﷺ من العرب، هو خاتم الأنبياء جميعا ليس بعده نبي، وينزل عيسى في آخر الزمان يحكم بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ويقتل الدجال، يلتقي به في فلسطين ويقتله، ومعه المسلمون، مع عيسى المسلمون، ثم يموت عيسى عليه الصلاة والسلام، كما قال عز وجل في قصة عيسى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعني في آخر الزمان عند نزوله، قال قبل ذلك: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾. فالمؤمن يؤمن

بأن عيسى ابن مريم هو رسول الله وعبد الله ورسوله، ويصدق برسالته عليه الصلاة والسلام، وأنه سوف ينزل في آخر الزمان، وسوف يحكم بشريعة محمد ﷺ، وسوف يقتل الله على يديه الدجال، ويعيش الناس في زمانه عيشة عظيمة في غاية من الاستقامة على الهدى، ويعم التوحيد والإسلام الأرض، ثم يموت كما مات غيره من الأنبياء والأخيار، وهو يحكم بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام لا بشريعة الإنجيل ولا التوراة، والله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (٤/ ٢٩٣): تسأل عن المسيح الدجال، عندما يظهر في آخر الزمان، هل هو يتكلم؟ وإذا كان يتكلم فبأي لغة؟ أفيدونا أفادكم الله.

فأجاب: نعم، يكون في آخر الزمان، هو من بني آدم، ويتكلم اللغة العربية على ظاهر الأحاديث الواردة في حقه، أنه يتكلم بالعربية، ومعه خوارق تفتن الناس، معه نهر، يزعم أنه النار، ومعه نهر آخر يزعم أنه الجنة، ويجري على يديه خوارق كثيرة، ابتلاء وامتحان، ولهذا شرع الله لنا أن نتعوذ من فتنته في آخر كل صلاة، شرع لنا أن نقول: أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال، وهو أعور، أعور العين اليمنى، مكتوب بين عينيه كلمة كافر، يقرؤها كل مؤمن، يكرهه كل مؤمن، يكره المقالة، يقرؤها سواء كان عاميا أو قارئا، وهذا من رحمة الله أن جعل علامة يعرفها المؤمن، حتى لا يخدع به، «يقول النبي ﷺ: ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال » فتنة عظيمة، فالواجب على من أدركه أن يحذره، وألا يغتر به، وأن يكذبه.

مسألة: قال العلامة الألباني في الضعيفة (٣/ ٢٠١ - ٢٠٢): [روي عن

النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال]:

«من أنكر خروج المهدي فقد كفر بما أنزل على محمد، ومن أنكر نزول عيسى بن مريم فقد كفر، ومن أنكر خروج الدجال فقد كفر، ومن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد كفر، فإن جبريل عليه السلام أخبرني بأن الله تعالى يقول: من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فليتخذ ربا غيري». (باطل).

واعلم أن الإيمان بكل ما ذكر في هذا الحديث من خروج المهدي، ونزول عيسى، وبالقدر خيره وشره، كل ذلك واجب الإيمان به، لثبوته في الكتاب والسنة، ولكن ليس هناك نص في أن " من أنكر ذلك فقد كفر "، ومن أجل هذا أوردت الحديث وبينت وضعه، وهو ظاهر الوضع، وكأنه من وضع بعض المحدثين أو غيره من الجهلة، وضعه ليقيم به الحجة على منكري ذلك من ذوي الأهواء والمعتزلة، ولن تقوم الحجة على أحد بالكذب على رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- والافتراء على الله تعالى، فقاتل الله الوضاعين ما أجرأهم على الله عز وجل.

والتكفير ليس بالأمر السهل، نعم من أنكر ما ثبت من الدين بالضرورة بعدما قامت الحجة عليه، فهو الكافر الذي يتحقق فيه حقيقة معنى كفر، وأما من أنكر شيئا لعدم ثبوته عنده، أو لشبهة من حيث المعنى، فهو ضال، وليس بكافر مرتد عن الدين شأنه في ذلك شأن من ينكر أي حديث صحيح عند أهل العلم، والله أعلم.

وقال رحمه الله في نفس المصدر (١/ ١/ ٣١ - ٣٤): قال الله عز وجل: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون}.

تبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق في عهده -صلى الله عليه وآله وسلم- وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين، وليس كذلك، فالذي تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق، كما أشار إلى ذلك النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بقوله: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى، فقالت عائشة: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} أن ذلك تامًّا، قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله... » الحديث.

وقد وردت أحاديث أخرى توضح مبلغ ظهور الإسلام ومدى انتشاره، بحيث لا يدع مجالا للشك في أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه.

وها أنا أسوق ما تيسر من هذه الأحاديث عسى أن تكون سببا لشحذ همم العاملين للإسلام، وحجة على اليائسين المتواكلين:

- «إن الله زوى (أي جمع وضم) لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها». الحديث

- «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزًّا يعز الله به الإسلام وذلًّا يذل به الكفر».

- عن أبى قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاصي وسئل أي المدينتين تفتح أولا القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتابا قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- نكتب، إذ سئل رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: أي

المدينتين تفتح أولا أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: " مدينة هرقل تفتح أولا. يعني قسطنطينية ".

- «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًّا فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريًّا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (١/ ١/ ٣٦): مما يجب أن يعلم... أن قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم». رواه البخاري في " الفتن " من حديث أنس مرفوعًا.

فهذا الحديث ينبغي أن يفهم على ضوء الأحاديث المتقدمة وغيرها مثل أحاديث المهدي ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومه بل هو من العام المخصوص، فلا يجوز إفهام الناس أنه على عمومه فيقعوا في اليأس الذي لا يصح أن يتصف به المؤمن {إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُون} أسأل الله أن يجعلنا مؤمنين به حقًّا.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيح موارد الظمآن (٢/ ٤٧): عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: «يكون في آخر أمتي رجال يركبون على سرج كأشباه الرحال، ينزلون على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات على رءوسهن كأسنمة البخت العجاف، العنوهن فإنهن ملعونات، لو كان وراءكم أمة من الأمم خدمهن نساؤكم كما خدمكم نساء الأمم قبلكم». حديث حسن.

الحديث معجزة علمية غيبية للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ فإنه يشير إلى السيارات الفاخرة التي يركبها أشباه الرجال الذين يأتون عليها إلى المساجد مشيعين للجنازة، فإذا أدخلت المسجد للصلاة عليها؛ ظل أولئك في سياراتهم أو واقفين بجانبها بالانتظار.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحيحة (حديث رقم ٩٣) **عن** أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **مرفوعا** (تكون إبل للشياطين و بيوت للشياطين، فأما إبل الشياطين، فقد رأيتها يخرج أحدكم بجنيبات معه قد أسمنها فلا يعلو بعيرا منها و يمر بأخيه قد انقطع به فلا يحمله. و أما بيوت الشياطين فلم أرها).

والظاهر أنه عليه الصلاة و السلام عني بـ" بيوت الشياطين " هذه السيارات الفخمة التي يركبها بعض الناس مفاخرة و مباهاة، و إذا مروا ببعض المحتاجين إلى الركوب لم يركبوهم، و يرون أن إركابهم يتنافى مع كبريائهم و غطرستهم؟

فالحديث من أعلام نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في المصدر السابق (٦/ ٢/ ٧٧٤ - ٧٧٦): قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من اقتراب (وفي رواية: أشراط) الساعة أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار ويفتح القول ويخزن العمل ويقرأ بالقوم المثناة، ليس فيهم أحد ينكرها. قيل: وما المثناة؟ قال: ما استكتب سوى كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ».

(فائدة): هذا الحديث من أعلام نبوته صلى الله عليه وآله وسلم

فقد تحقق كل ما فيه من الأنباء، وبخاصة منها ما يتعلق بـ (المثناة) وهي كل ما كتب سوى كتاب الله كما فسره الراوي، وما يتعلق به من الأحاديث النبوية والآثار السلفية، فكأن المقصود بـ (المثناة) الكتب المذهبية المفروضة على المقلدين. التي صرفتهم مع تطاول الزمن عن كتاب الله، وسنة رسوله -صلى

الله عليه وآله وسلم- كما هو مشاهد اليوم مع الأسف من جماهير المتمذهبين، وفيهم كثير من الدكاترة والمتخرجين من كليات الشريعة، فإنهم جميعًا يتدينون بالتمذهب، ويوجبونه على الناس حتى العلماء منهم، فهذا كبيرهم أبو الحسن الكرخي الحنفي يقول كلمته المشهورة: " كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة أو منسوخة، وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ". فقد جعلوا المذهب أصلًا، والقرآن الكريم تبعًا، فذلك هو (المثناة) دون ما شك أو ريب.

وأما ما جاء في " النهاية " عقب الحديث وفيه تفسير (المثناة): " وقيل: إن المثناة هي أخبار بني إسرائيل بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وضعوا كتابا فيما بينهم على ما أرادوا من غير كتاب الله، فهو (المثناة)،فكأن ابن عمرو كره الأخذ عن أهل الكتاب، وقد كان عنده كتب وقعت إليه يوم اليرموك منهم. فقال هذا لمعرفته بما فيها ".

قلت: وهذا التفسير بعيد كل البعد عن ظاهر الحديث، وأن (المثناة) من علامات اقتراب الساعة، فلا علاقة لها بما فعل اليهود قبل بعثته -صلى الله عليه وآله وسلم-، فلا جرم أن ابن الأثير أشار إلى تضعيف هذا التفسير بتصديره إياه بصيغة " قيل " وأشد ضعفا منه ما ذكره عقبه: " قال الجوهري: (المثناة) هي التي تسمى بالفارسية (دوبيتي). وهو الغناء "!.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في المصدر السابق (٥/ ٦٥٣، ٦٥٥، ٦٥٦): قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم:«ألا إن الفتنة ههنا، ألا إن الفتنة ههنا [قالها مرتين أو ثلاثا، من حيث يطلع قرن الشيطان، [يشير [بيده] إلى المشرق، وفي رواية: العراق».

وطرق الحديث متضافرة على أن الجهة التي أشار إليها النبي -صلى الله

عليه وآله وسلم- إنما هي المشرق، وهي على التحديد العراق كما رأيت في بعض الروايات الصريحة، فالحديث علم من أعلام نبوته -صلى الله عليه وآله وسلم-، فإن أول الفتن كان من قبل المشرق، فكان ذلك سببا للفرقة بين المسلمين، وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة كبدعة التشيع والخروج ونحوها. وقد روى البخاري (٧/ ٧٧) وأحمد (٢/ ٨٥، ١٥٣) عن ابن أبي نعم قال: "شهدت ابن عمر وسأله رجل من أهل العراق عن محرم قتل ذبابا فقال: يا أهل العراق! تسألوني عن محرم قتل ذبابا، وقد قتلتم ابن بنت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «هما ريحانتي في الدنيا».

وإن من تلك الفتن طعن الشيعة في كبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كالسيدة عائشة الصديقة بنت الصديق التي نزلت براءتها من السماء.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في المصدر السابق (٥/ ٥٥٨ - ٥٦٠): اعلم أنه لا منافاة بين هذا الحديث «لا تنتهي البعوث عن غزو هذا البيت، حتى يخسف بجيش منهم» و (حديث.. لا تغزى مكة بعد إلى يوم القيامة " لأن المثبت من الغزو في هذا غير المنفي في ذاك، ألا ترى إلى تفسير سفيان إياه بقوله: " إنهم لا يكفرون أبدا ولا يغزون على الكفر ". ويؤيده قوله في هذا الحديث: " يخسف بجيش منهم ". فهو صريح في أن هذا الجيش من الكفار، أو البغاة، وإن كان فيهم مؤمنون مكرهون، فهم يؤمون البيت ليغزوا من فيه من المسلمين، فلا تعارض، والحمد لله.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في المصدر السابق (٧/ ١/ ٢١٠ - ٢١١): قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُوشِكُ أن تطلبُوا في قُراكُم هذه طَسْتًا من ماءٍ فلا تَجدونَهُ،

يَنْزَوِي كلُّ ماءٍ إلى عُنْصُرِهِ؛ فيكون في الشام بَقِيَّةُ المؤمنين والماءُ».

والحديث حمله مؤلف كتاب "المسيح الدجال قراءة سياسية في أصول الديانات الكبرى" (ص ٢١٤) على أنه يكون بعد القحط الذي قال: إنه يأتي بعده الدجال! وليس فيه ولا في غيره- فيما أعلم- ما يدل على هذا التحديد، فيمكن أن يكون قبل ذلك أو بعده، وهذا لعله هو الأقرب أن يكون بين يدي القيامة.

ومن المفيد هنا أن أنقل إلى القراء ما جاء في الكتاب المذكور (ص ٢١٠) فيما يتعلق بنضوب المياه:

"أصدر معهد (ووارد وانش) الأ مريكي دراسة تشير إلى أن العالم استخرج كميات كبيرة من المياه الجوفية، وفي (تكساس) و (نيومكسيكو) أصبح هناك احتمال بنضوب المياه الجوفية تمامًا في هذه المنطقة؛ وفي الأقاليم الشمالية يهبط مستوى المياه الجوفية بمقدار ١٢ قدمًا كل عام. (الأهرام١/ ١٠/ ١٩٨٥).

وأشارت دراسة في الولايات الأمريكية أن العالم سوف يتعرض لنقص في موارد المياه التي لا علاج لها، ولن تفيد الطرق التقليدية في توفير المياه، مثل السدود والخزانات والقنوات. (أهرام ٢/ ١٠/ ١٩٨٥). كما أعلن مركز تحليل المناخ الفيدرالي في الولايات المتحدة في بيان له أن درجة حرارة مياه المحيط الهادي آخذة في الارتفاع. وهذه الظاهرة تؤثر على الأحوال المناخية في جميع أنحاء العالم، وتؤدي إلى تفاقم حالة الجفاف في إفريقيا واستراليا، وفيضانات في الصين، وسيول رعدية في (بيرو) و (أكوادور)، وعواصف وأعاصير على الولايات المتحدة وكندا وجنوب إفريقيا. (أهرام ١٦/ ١٠/ ١٩٨٦) ".

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في المصدر السابق (٦/ ١/ ٦٣٥): ولا يخالف ذلك [أي حديث ظهور العلم]- كما قد يتوهم البعض - ما صح عنه -صلى الله عليه وآله وسلم- في غير ما حديث أن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل؛ لأن المقصود به العلم الشرعي الذي به يعرف الناس ربهم ويعبدونه حق عبادته، وليس بالكتابة ومحو الأمية كما يدل على ذلك المشاهدة اليوم، فإن كثيرا من الشعوب الإسلامية فضلا عن غيرها، لم تستفد من تعلمها القراءة والكتابة على المناهج العصرية إلا الجهل والبعد عن الشريعة الإسلامية، إلا ما قل وندر، وذلك مما لا حكم له. وإن مما يدل على ما ذكرنا قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا». رواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عمرو وصدقته عائشة، وهو مخرج في " الروض النضير " (رقم ٥٧٩).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في قصة المسيح الدجال (ص٢٤ - ٣٠): اتفق أهل العلم بالحديث وحفاظه على تواتر حديث الدجال ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من السماء؛ كالحافظ ابن كثير وابن حجر وغيرهما؛ بل إن الإمام الشوكاني ألف رسالة سماها: "التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح".

وقد تيقَّنت - أنا شخصيًّا - بتواتر أحاديث الدجال وعيسى حينما كتبت الرسالة المشار إليها آنفًا، وقد بلغت الطرق التي تجمعت عندي - يومئذٍ - أكثر من أربعين طريقًا عن نحو أربعين صحابيًّا، بعضها على شرط الصحة، وسائرها أكثر شواهدها معتبرة، ومن المؤسف أنني لا أدري أين بقيت الآن بسبب النقلة من دار إلى أخرى؟!

ثم تَجَدَّد يقيني بذلك في دراستي لحديث أبي أمامة المشار إليها في المقدمة [أي مقدمة كتاب: قصة المسيح الدجال]....... إن هذا العرض السريع لطرق حديث الدجال، وحديث عيسى عليه الصلاة والسلام، ورواتهما من الصحابة الكرام الصادقين؛ ليتبين لكل ذي عينين أن الحديث متواتر بذلك، وأن كل من يشك في ذلك فهو من المرتابين في الدين كله، أو هو - على الأقل - معرَّض لذلك أشد التعريض؛ لأن ما كان منه تواترًا - كالقرآن وبعض الأحاديث - فهي معرَّضة عنده لجحدها بطريق التأويل؛ بل التعطيل، وما كان منها لم يبلغ مبلغ التواتر؛ فهي معرَّضة لديه لإنكارها بطريق الشك في ثبوت نسبتها إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم-.

ومن هنا يظهر أن كل المؤمنين بالدين الإسلامي؛ فهم على خطر في إيمانهم إذا لم يعتمدوا على مذهب أهل الحديث في تلقيهم للدين؛ فإنهم أعلم الناس بما هو منه ثبوتًا، وما ليس منه روايةً، وأعرف الناس بمعانيها ومقاصدها؛ لأنهم تلقوا كل ذلك عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بالطرق العلمية الصحيحة التي لا سبيل إلى معرفة الدين إلا بها، وبدونها يصير الدِّين هوىً متَّبعًا، وهذا هو الداء العضال الذي أصاب العالم الإسلامي اليوم، ولم ينج منه إلا الطائفة المنصورة التي بشر بها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في أحاديث كثيرة متواترة؛ منها قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-:

«لا يزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم؛ حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال».

أقول: ولعل ذلك الذي ذكرنا من طريق المرتابين هو السبب في تشديد عمر على المكذبين بالدجال - وغيره مما ثبت في السنة الصحيحة - فقد روى

يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المنبر وهو يقول: "سيكون فيكم قوم من هذه الأمة يكذّبون بالرجم، ويكذّبون بالدجال، ويكذّبون بطلوع الشمس من مغربها، ويكذّبون بعذاب القبر، ويكذّبون بالشفاعة، ويكذّبون بقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا، فلئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وثمود". أخرجه الداني في "الفتن" (ق٢٣/ ٢)، وأحمد (١/ ٢٣)، مختصرًا، وإسناده حسن.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **في** قصة المسيح الدجال أيضا (ص١٢٩ - ١٤٩): قصة المسيح الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتله إياه على سياق رواية أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مضافا إليه ما صح عن غيره من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

١- يا أيها الناس إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم [ولا تكون حتى تقوم الساعة] أعظم من فتنة الدجال [ولن ينجو أحد مما قبلها إلا نجا منها] [وإنه لا يضر مسلمًا].

٢- وإن الله لم يبعث نبيا إلا حذر أمته [الأعور] الدجال [إني لأنذركموه].

٣- وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم.

٤- وهو خارج فيكم لا محالة، [إنه لحق وأما إنه قريب فكل ما هو آت قريب]، [إنما يخرج لغضبة يغضبها] و [لا يخرج حتى لا يقسم ميراث ولا يفرح بغنيمة].

٥- فإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم فأنا حجيج لكل مسلم، وإن يخرج من بعدي فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، (وفي حديث أم سلمة: وإن يخرج بعد أن أموت يكفيكموه الله بالصالحين).

٦- وإنه يخرج [من [أرض] قبل المشرق] [يقال لها: (خراسان)] [في

يهودية أصبهان] [كأن وجوههم المجان المطرقة] من خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينًا [وعاث] شمالا يا عباد الله فاثبتوا. [ثلاثًا].

٧- فإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلي، (وفي حديث عبادة: إني قد حدثتكم عن الدجال حتى خشيت ألا تعقلوا).

٨- إنه يبدأ فيقول: أنا نبي ولا نبي بعدي.

٩- ثم يثني فيقول: أنا ربكم. ولا ترون ربكم حتى تموتوا.

١٠- وإنه أعور [ممسوح] [العين اليسرى] [عليها ظفرة غليظة] [خضراء كأنها كوكب دري] [عينه اليمنى كأنها عنبة طافية] [ليست بناتئة ولا حجراء] [جفال الشعر] [ألا ما خفي عليكم من شأنه فلا يخفين عليكم] إن ربكم ليس بأعور [ألا ما خفي عليكم من شأنه فلا يخفين عليكم أن ربكم ليس بأعور] [ثلاثا] [وأشار بيده إلى عينيه] [وأنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا].

١١- [إنه يمشي في الأرض وإن الأرض والسماء لله].

١٢- [إنه شاب قطط كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن] [قصير أفحج دعج] [هجان].

١٣- [وإنه آدم جعد] [جفال الشعر].

١٤- وإنه مكتوب بين عينيه: كافر يقرؤه [من كره عمله أو يقرؤه] كل مؤمن كاتب أو غير كاتب.

١٥- وإن من فتنته أن معه جنة ونارًا [ونهرا وماء] [وجبل خبز] [وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار] فناره جنة وجنته نار. -[وسأله المغيرة بن شعبة عنه؟ فقال: قلت: إنهم يقولون: معه جبال من خبز ولحم ونهر من ماء؟ قال: هو أهون على الله من ذلك].

(وفي حديث آخر: [معه نهران يجريان أحدهما - رأي العين - ماء أبيض والآخر - رأي العين - نار تأجج] [فمن أدرك ذلك منكم فأراد الماء فليشرب من الذي يراه أنه نار] [وليغمض [عينيه] ثم ليطأطئ [رأسه] فإنه يجده ماء [باردًا عذبًا] [طيبًا] [فلا تهللوا]. وفي أخرى: فمن دخل نهره حط أجره ووجب وزره ومن دخل ناره وجب أجره وحط وزره).

١٦- فمن ابتلي بناره فليستغث بالله وليقرأ [عليه] فواتح سورة (الكهف) [فإنها جواركم من فتنته].

١٧- وإن من فتنته أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم. فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان: يا بني اتبعه فإنه ربك.

١٨- وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فيقتلها وينشرها بالمنشار حتى تلقى شقين.

١٩- وإن من فتنته أن يمر بالحي [فيدعوهم] فيكذبونه [فينصرف عنهم] فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت.

٢٠- وإن من فتنته أن يمر بالحي [فيدعوهم] فيصدقونه [ويستجيبون له] فيأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه وأمده خواصر وأدره ضروعًا.

٢١- ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل.

٢٢- [يخرج في [زمان اختلاف من الناس وفرقة] (و) بغض من الناس وخفة من الدين وسوء ذات بين، فيرد كل منهل، فتطوى له الأرض طي فروة

الكبش].

٢٣- [ولا يخرج حتى تنزل الروم بالأعماق أو بدابق [يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام]. فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ. فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا. والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم [وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة، فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون، حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان اليوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام] فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا ويقتل ثلثهم -[هم] أفضل الشهداء عند الله - ويفتتح الثلث لا يفتنون أبدًا [فيجعل الله الدبرة عليهم (أي الروم) فيقتتلون مقتلة إما قال: لا يرى مثلها وإما قال: لم ير مثلها، حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتًا فيتعاد بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح أو أي ميراث يقاسم؟] فيبلغون قسطنطينية فيفتحونها (وفي رواية: سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر. فيسقط أحد جوانبها الذي في البحر ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر. فيسقط جانبها الآخر، ثم

يقولوا الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر. فيفرج لهم فيدخلوها فيغنموا) فبينما هم يقتسمون الغنائم - قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح [الدجال] قد خلفكم في أهليكم. [فيرفضون ما بأيديهم] فيخرجون وذلك باطل [فيبعثون عشرة فوارس طليعة. قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ] فإذا جاؤوا الشام خرج»].

٢٤- وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه إلا [أربع مساجد: مسجد] مكة و [مسجد] المدينة [والطور ومسجد الأقصى].

٢٥- وإن أيامه أربعون يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم.

قالوا: فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا اقدروا له قدره.

قالوا: وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح].

٢٦- وإن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوع شديد يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء في الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر الله السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله، فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء، فلا تبقى ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله.

قيل: فما يعيش الناس في ذلك الزمان؟ قال: التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد ويجري ذلك عليهم مجرى الطعام.

٢٧- لا يأتي مكة والمدينة من نقب من نقابها إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتة.

٢٨- [وإنه ليس من بلدة إلا يبلغها رعب المسيح [الدجال] إلا المدينة [لها يومئذ سبعة أبواب] على كل نقب من نقابها ملكان يذبان عنها رعب المسيح].

٢٩- حتى ينزل عند السبخة [سبخة الجرف] [دبر أحد] [فيضرب رواقه].

٣٠- فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فتنفي الخبث منها كما ينفي الكير خبث الحديد، ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص [وأكثر من يخرج إليه النساء].

٣١- [فيتوجه قبله رجل من المؤمنين [ممتلئ شبابًا] [هو يومئذ خير الناس أو من خيرهم] فتلقاه المسالح - مسالح الدجال - فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج. قال: فيقولون له: أو ما تؤمن بربنا؟ فيقول: ما بربنا خفاء. فيقولون: اقتلوه. فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحدًا دونه؟ فينطلقون به إلى الدجال فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس [أشهد أن] هذا الدجال الذي ذكر (وفي طريق: الذي حدثنا) رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-[حديثه] قال: فيأمر الدجال به فيشبح فيقول: خذوه وشبحوه. فيوسع ظهره وبطنه ضربًا قال: فيقول: أو ما تؤمن بي؟ قال: فيقول: أنت المسيح الكذاب [فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا]. قال: فيؤمر به فيؤشر المئشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه [فيقتله] (وفي حديث النواس: فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض). قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين ثم يقول له: قم. فيستوي قائما قال: [ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك] ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول:

[والله] ما ازددت فيك إلا بصيرة. قال: ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس. قال: فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسًا فلا يستطيع إليه سبيلا قال: فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به. فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار، وإنما ألقي في الجنة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين].

٣٢- [ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام] [ثم يأتي جبل إيليا فيحاصر عصابة من المسلمين] [فيلقى المؤمنون شدة شديدة] [ويفر الناس من الدجال في الجبال] فقالت أم شريك بنت أبي العكر يا رسول الله فأين العرب يومئذ؟ قال: هم يومئذ قليل.

٣٣- وإمامهم رجل صالح [وقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: المهدي منا آل البيت [من أولاد فاطمة] يصلحه الله في ليلة] [يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي] [أجلى الجبهة أقنى الأنف] [يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا] [يملك سبع سنين].

- وقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار: عصابة تغزو الهند، وعصابة تكون مع عيسى ابن مريم عليه السلام» - وقال: «من أدركه منكم فليقرئه مني السلام».

٣٤- [فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم [من السماء] عيسى بن مريم الصبح] [عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه].

٣٥- [ليس بيني وبينه نبي (يعني: عيسى)، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه:

رجل مربوع إلى الحمرة والبياض بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام).

- وقال: (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم (وفي رواية: وأمكم) منكم؟). قال: ابن أبي ذئب: تدري ما (أمكم منكم)؟ قلت: تخبرني. قال: فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى، وسنة نبيكم -صلى الله عليه وآله وسلم-)].

٣٦- فرجع ذلك الإمام ينكص - يمشي القهقرى - ليتقدم عيسى [فيقول: تعال صل لنا]. فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له: [لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة] تقدم فصل. فيصلي بهم إمامهم.

٣٧- [ثم يأتي الدجال جبل (إيلياء) فيحاصر عصابة من المسلمين] [فيقول لهم الذين عليهم: ما تنتظرون بهذا الطاغية [إلا] أن تقاتلوه حتى تلحقوا بالله، أو يفتح لكم، فيأتمرون أن يقاتلوه إذا أصبحوا].

٣٨- [فبينما هم يعدون للقتال ويسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة] [صلاة الصبح] [فيصبحون ومعهم عيسى ابن مريم] [فيؤم الناس فإذا رفع رأسه من ركعته قال: سمع الله لمن حمده قتل الله المسيح الدجال، وظهر المسلمون]. فإذا انصرف قال: افتحوا الباب. فيفتح وراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى وساج [فيطلبه عيسى عليه الصلاة والسلام].

٣٩- [فيذهب عيسى بحربته نحو الدجال] فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء [فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيريه دمه في حربته] فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقتله [فيهلكه الله عَزَّ وَجَلَّ عند عقبة أفيق].

٤٠- فيهزم الله اليهود [ويسلط عليهم المسلمون] [ويقتلونهم] فلا يبقى

شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا حجر، ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة - إلا الغرقدة فإنها من شجرهم لا تنطق - إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي [ورائي] فتعال فاقتله.

٤١ - [ثم يلبث الناس بعده سنين سبعًا ليس بين اثنين عداوة].

٤٢ - فيكون عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام في أمتي [مصدقا بمحمد -صلى الله عليه وآله وسلم- على ملته] حكما عدلًا وإمامًا [مهديًا] مقسطًا [فيقاتل الناس على الإسلام ف] يدق الصليب، ويذبح الخنزير [وتجمع له الصلاة] ويضع الجزية، ويترك الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بعير، وترفع الشحناء والتباغض [والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد]، [حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها]، [وتكون الدعوة واحدة لرب العالمين]، -[والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج (الروحاء) حاجًا أو معتمرًا أو ليثنينهما].

٤٣ - ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذا أوحي الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء. [ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس - فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دمًا] ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه،

فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل طيرًا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرًا، لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة.

ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك وردي بركتك.

فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل، حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس] ويكون الثور بكذا وكذا من المال وتكون الفرس بالدريهمات.

-[وقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: (طوبى لعيش بعد المسيح طوبى لعيش بعد المسيح يؤذن للسماء في القطر، ويؤذن للأرض في النبات، فلو بذرت حبك على الصفا لنبت، ولا تشاح، ولا تحاسد، ولا تباغض)].

٤٤- وتنزع حمة كل ذات حمة، [وتقع الأمنة على الأرض، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم]، حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره، وتفر الوليدة الأسد فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها وتسلب قريش ملكها [ثم يقال: تكون الأرض كفاثور الفضة تنبت نباتها بعهد آدم].

٤٥- [فيمكث عيسى عليه الصلاة والسلام في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى

فيصلي عليه المسلمون].

٤٦- فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا [باردة من قبل الشام] فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم (وفي حديث ابن عمرو: لا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه) ويبقى شرار الناس [في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا قال: فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها وهم في ذلك دارة أرزاقهم حسن عيشهم] يتهارجون تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة.

٤٧- [ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا، ورفع ليتا، أول من يسمع رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس. ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله - مطرًا كأنه الطل أو الظل - شك من الراوي - فتنبت منه أجساد الناس [ثم نفخ فيه أخرى فإذا قيام هم ينظرون]؟ (الزمر: ٦٨) ثم يقال: يا أيها الناس هلم إلى ربكم؟ وقفوهم إنهم مسؤولون؟ [الصافات: ٢٤]. ثم يقال: أخرجوا بعث النار فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. فذاك يوم [يجعل الولدان شيبا] (المزمل: ١٧) وذلك [يوم يكشف عن ساق] (القلم: ٤٢).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في المصدر السابق (ص٣١ - ٣٥): فإذا علم المؤمن بذلك وآمن به [أي بعقيدة خروج الدجال]؛ اتخذ الأسباب التي تعصمه من فتنته؛ وهي:

أولًا: الاستعاذة بالله تعالى من شر فتنته، والإكثار منها؛ لا سيما في التشهد الأخير في الصلاة، فقد قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-:

«إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر؛ فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم! إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنته المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال».

وثبت في "الصحيحين" وغيرهما عن جمع من الصحابة -منهم عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يستعيذ من فتنته.

بل إنه أمر بالاستعاذة من فتنته أمرًا عامًا؛ كما في حديث زيد بن ثابت قال: بينما النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في حائط لبني النجار على بغلة له - ونحن معه - إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذاً اقْبُرُ ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: "من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ ".

فقال رجل: أنا.

قال: " فمتى مات هؤلاء؟ ".

قال: ماتوا في الإشراك (وفي رواية: في الجاهلية).

فقال:"إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا؛ لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه"، ثم أقبل بوجهه فقال: "تعوذوا بالله من عذاب النار". قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار. فقال: "تعوّذوا بالله من عذاب القبر". قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر. قال: "تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ". قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال:

"تعوذّوا بالله من فتنة المسيح الدجال". قالوا نعوذ بالله من فتنة الدجال.

ثانيًا: أن يحفظ عشر آيات من سورة (الكهف)، فقد قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «من حفظ عشر آيات من أول سورة (الكهف)؛عصم من [فتنة] الدجال» رواه مسلم وغيره عن أبي الدرداء.

ثالثًا: أن يبتعد عنه، ولا يتعرض له؛ إلا إن كان يعلم من نفسه أنه لن يضره؛ لثقته بربه، ومعرفته بعلاماته التي وصفه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بها؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله؛ إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه؛ مما يبعث به من الشبهات».

أخرجه أحمد وغيره عن عمران بن حصين.

رابعًا: أن يسكن مكة والمدينة، فإنهما حرمان آمنان منه؛ لقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: "يجيء الدجال فيطأ الأرض إلا مكة والمدينة، فيأتي المدينة؛ فيجد بكل نقب من نقابها صفوفًا من الملائكة". أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

ومثلهما المسجد الأقصى والطور؛ كما يأتي في الفقرة (٢٤ - السياق).

واعلم أن هذه البلاد المقدسة إنما جعلها الله عصمة من الدجال لمن سكنها وهو مؤمن ملتزم بما يجب عليه من الحقوق والواجبات تجاه ربها، وإلا فمجرد استيطانها - وهو بعيد في حياته عن التأدب بآداب المؤمن فيها - فَمِمَّا لا يجعله في عصمة منه، فسيأتي في الفقرة (٢٥ - أبو أمامة، ٣٠ - السياق) أن الدجال - عليه لعائن الله - حين يأتي المدينة النبوية وتمنعه الملائكة من دخولها؛ ترجف بأهلها ثلاث رجفات، فلا يبقى فيها منافق ولا منافقة إلا خرج إليه.

فهؤلاء المنافقون والمنافقات - وقد يكون نفاقهم عمليًّا - لم يَعْصِمْهُمْ من الدجال سكنهم المدينة النبوية؛ بل خرجوا إليه، وصاروا من أتباعه كاليهود! وعلى العكس من ذلك؛ فمن كان فيها من المؤمنين الصادقين في إيمانهم؛ فهم مع كونهم في عصمة من فتنته؛ فقد يخرج إليه بعضهم متحديًا وينادي في وجهه: هذا هو الدَّجَّال الذي كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يحدثنا

حديثه... كما سيأتي في الفقرة (٣١ - السياق).

فالعبرة إذن بالإيمان والعمل الصالح، فذلك هو السبب الأكبر في النجاة، وأما السكن في دار الهجرة وغيرها؛ فهو سبب ثانوي، فمن لم يأخذ بالسبب الأكبر؛ لم يفده تمسكه بالسبب الأصغر، وقد أشار إلى هذا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بقوله للذي سأله عن الهجرة: "ويحك! إن شأن الهجرة لشديد! فهل لك من إبل؟ ". قال: "فهل تؤتي صدقتها؟ ". قال: نعم. قال: "فاعمل من وراء البحار، فإن الله لن يَتِرَكَ من عملك شيئًا".

وما أحسن ما روى الإمام مالك في "الموطأ" (٢/ ٢٣٥) عن يحيى بن سعيد: "أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان الفارسي: أن هلمَّ إلى الأرض المقدسة. (يعني: الشام). فكتب إليه سلمان: إن الأرضَ لا تقدسُ أحدًا، وإنما يقدسُ الإنسانَ عملُهُ".

وصدق الله العظيم إذ يقول: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (التوبة:١٠٥).

وقال رَحِمَهُ اللهُ في الضعيفة (١٤/ ٢/ ٦٧٨): بقاء الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى زمن الدجال خرافة لا أدري كيف انطلى أمرها على بعض العلماء - فضلًا عن جماهير الصوفية -؟! ولكن الله تبارك وتعالى قد وفق كثيرًا من أهل العلم فبينوا بطلان إدراك الخضر للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فضلًا عن استمراره حيًا -؛ كالإمام البخاري وابن تيمية والعسقلاني وغيرهم.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في الصحيحة (٥/ ٣٧١ - ٣٧٢): قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «منا الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه».

وفي الباب أحاديث أخرى فيها التصريح بأن الإمام الذي يصلي خلفه عيسى عليه السلام إنما هو المهدي، تراها في "العرف الوردي" للسيوطي (ص ٨١، ٨٣، ٨٤)، وقد مضى منها حديث جابر قريبًا (٢٢٣٦).وختم السيوطي ذلك بما نقله عن أبي الحسن السحري (!): "قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم- بمجيء المهدي وأنه من أهل بيته،... وأنه يخرج مع عيسى بن مريم، فيساعده على قتل الدجال... وأنه يؤم هذه الأمة، وعيسى يصلي خلفه.. ".

وقال رحمه الله في الصحيحة (٧/ ١/ ٦٣٢، ٦٣٤ - ٦٣٥): قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معشر قريش! إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير - وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وما تقول في محمد-؛ فقالوا: يا محمد! ألست تزعم أن عيسى كان نبيًا وعبدًا من عباد الله صالحًا؟! فلئن كنت صادقًا فإن آلهتهم لكما يقولون- (الأصل: تقولون!) -، قال: فأنزل الله عز وجل: {ولما ضرب ابن مريم مثلًا إذا قومك منه يصدون} (الزخرف: ٥٧) قال: قلت: ما (يصدون)؟ قال: يضجُّون. {وإنه لعلم للساعة} (الزخرف: ٦١)، قال: هو خروج (وفي رواية: نزول) عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة».

واعلم أن الحديث صريح الدلالة على أن الضمير في قوله تعالى: (وإنه لعلم للساعة) يعود إلى عيسى عليه السلام، وليس إلى القرآن كما روي عن بعضهم، ولذلك قال الحافظ ابن كثير: «بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام؛ فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة كما قال تعالى: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته} أي: قبل موت عيسى عليه الصلاة

والسلام، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا ".

وقال رحمه الله في صحيح موارد الظمآن (٢/ ٢٣٦ - ٢٣٧): عن أبي هريرة قال: أحدثكم ما سمعت من رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- الصادق المصدوق؟ حدثنا رسول الله أبو القاسم الصادق المصدوق: «إن الأعور الدجال مسيح الضلالة يخرج من قبل المشرق في زمان اختلاف من الناس وفرقة، فيبلغ ما شاء الله من الأرض في أربعين يومًا، الله أعلم ما مقدارها، الله أعلم ما مقدارها - مرتين - وينزل الله عيسى ابن مريم فيؤمهم، فإذا رفع رأسه من الركعة قال: سمع الله لمن حمده قتل الله الدجال وأظهر المؤمنين». حديث صحيح.

قال ابن حبان: أراد به فيأمرهم بالإمامة؛ إذا العرب تنسب الفعل إلى الآمر، كما تنسبه إلى الفاعل.

قلت: هذا تأويلٌ لا وجه له عندي، بل هو خلاف قوله: "إذا رفع رأسه من الركعة قال.." فالمعنى: يصلي بهم إمامًا، وهذا وهو في بيت المقدس، حيث يَقتلُ عليه السلام الدجال بـ (لُد)، كما في الحديث التالي، وفي الحديث اختصار وطيٌ؛ فإن من الثابت في غير ما حديث صحيح أن عيسى عليه السلام ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، وفي "صحيح مسلم": فيقول أميرهم: تعال صلِّ بنا، فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء؛ تكرمه الله هذه الأمة.

فهو هناك مأموم، وفي بيت المقدس إمام، وذلك يكون بعد وفاة المهدي عليه السلام، وانتقال عيسى من دمشق إلى "القدس".

وقال رحمه الله في قصة المسيح الدجال (ص ٩ - ١٦): ومما شجعني على

ذلك -أي تأليف كتابه كتابه "قصة المسيح الدجال ونزول عيسى" - الأمور الآتية:

الأول: شك كثير ممن ينتمون إلى العلم - بل وإلى الدعوة إلى الإسلام؛ فضلًا عن غيرهم ممن لا ثقافة إسلامية عندهم من الشباب المثقف وغيرهم من العوام - في عقيدة نزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وقتله للدجال في آخر الزمان، حتى لقد قام في نفسي أن كثيرًا من الطلاب المتخرجين من جامعة الأزهر هم من هؤلاء الشاكِّين - إن لم يكونوا من المنكرين لها - وقد عرفت ذلك من مناقشتي لبعضهم شفهيًّا، ومن اطلاعي على فتاوى بعضهم في ذلك، وتعليقات آخرين منهم على بعض الكتب.

ومن أشهر هؤلاء الشيخ (محمد عبده)؛ فإنه يقول في حديث نزول عيسى عليه السلام تارة: بأنه حديث آحاد! وهذا حسب علمه بالحديث، وهو من أبعد العلماء المعاصرين عنه في نقدي، وتارة يتأوَّلُ نزولَهُ وحكمَهُ في الأرض بِغَلَبَة روحِهِ وسِرِّ رسالتِهِ على الناس، وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم... حكاه السيد رشيد رضا في "تفسيره" (٣/ ٣١٧)؛ ومع أنه رده عليه بقوله عقبه: "ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في ذلك تأباه"؛ فإنه رد هذا الاستدراك بقوله عقبه أيضًا: "ولأهل هذا التأويل أن يقولوا: إن هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث، والناقل للمعنى ينقل ما فهمه. وَسُئِلَ (يعني: محمد عبده) عن المسيح الدجال وقتل عيسى له؟ فقال: إن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها... "!

ومن الغريب أن هذا التأويل سبقه إليه مدّعي النبوة " ميرزا غلام أحمد القادياني الهندي"، وكرره في كتبه ورسائله، وما أشبه هذا التأويل بتأويله لآيات

كثيرة في القرآن؛ يحرِّفها ويستدل بها على نبوته؛ كتأويله لقوله تعالى في عيسى: {ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} (الصف:٦)؛ فزعم أنه المقصود بقوله: [أحمد]! وله من مثل هذا الشيء الكثير، وفي غاية السخف؛ كما قال السيد رشيد نفسه في صدد الرد عليه في موضع آخر من "تفسيره" (٦/ ٥٨)، فقال فيه: "وقد جرى على طريقة أدعياء المهدوية من شيعة إيران - كالبهاء والباب - في استنباط الدلائل الوهمية على دعوته من القرآن؛ حتى إنه استخرج ذلك من سورة الفاتحة! وله في تفسيرها كتاب في غاية السخف يدعي أنه معجزة له!! فجعلها مبشرة بظهوره، وبأنه هو مسيح هذه الأمة! ".

قال السيد رشيد عقبه: "وإنما فتح على هذه الأمة هذا الباب الغريب من أبواب تأويل القرآن، وتحريف ألفاظه عن المعاني التي وضعت لها إلى معان غريبة لا تشبهها ولا تناسبها؛ أولئك الزنادقة من المجوس وأعوانهم الذين وضعوا تعليم فرق الباطنية؛ فراجت حتى عند كثير من الصوفية".

قلت: فما الفرق بين تأويل هؤلاء الباطنية للقرآن؛ وتأويل القاديانية و (محمد عبده) ومن تَبِعَهُ لأحاديث النزول والدجال بذلك التأويل الباطل بداهة؟! وكيف سكت عليه السيد رشيد رَحِمَهُ اللهُ؛ بل تأول لهم تأويلًا جديدًا بأن الأحاديث نُقِلَتْ بالمعنى؟! وليت شعري! هل ذلك يستلزم رد ما صح روايته عن الصحابة من المعاني فضلًا عما تواتر عنهم؟!

مثلًا: إذا تواتر عن الصحابة أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- نهى عن شيء كلحوم الحمر الإنسية؛ فهذا رواية بالمعنى قطعًا، فهل ذلك يستلزم رد هذا المعنى الذي رووه من النهي بطريقٍ ما من طرق التأويل؛ بحيث يُعطل هذا النَّهي ويصير كأنه لم يرد مطلقًا؟! اللهم! إن هذا لهو الضلال المبين، ونسأل الله تعالى

أن يحمينا منه.

وإليك مثالًا آخر من أمثلة التأويل الذي بُلِيَ به بعض الكتاب المعاصرين من الأزهريين: قال الشيخ "محمد فهيم أبو عبية" في تعليقه على " نهاية البداية والنهاية" (١/ ٧١):

"هل بقي عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى الآن حيًّا؟ وسينزل إلى الأرض ليجدد الدعوة إلى دين الله بنفسه؟ أم أن المراد بنزول عيسى هو انتصار دين الحق، وانتشاره من جديد على أيدٍ مُخْلِصةٍ تعمل على تخليص المجتمع الإنساني من الشرور والآثام؟ رأيان (!) ذهب إلى كل منهما فريق من العلماء (!).

وهذا هو ما يقال بالنسبة إلى الدجال: هل هو شخص من لحم ودم ينشر الفساد، ويهدد العباد، ويملك وسائل الترغيب والترهيب والإفساد؛ حتى يقيّض له عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقتله؟ أم إنه رمز لانتشار الشر، وشيوع الفتنة، وضعف نوازع الفضيلة، تهبُّ عليه ريح الخير المرموز إليها بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتذهبه وتقضي عليه، وتأخذ بيد الناس إلى محجة الخير ومنهج العدل والتديّن؟ "!.

قلت: ولا يكتفي هذا الأزهري "الفهيم" بهذا التعطيل لنصوص السنة وتأويلها - على طريق الرمز الذي هو مذهب الباطنية الملحدة؛ كما سبق حكايته عن السيد رشيد رضا نفسه - بل إنه يوهم القراء بأن هذا التعطيل هو رأي لبعض العلماء يقابل الرأي الأول! والحقيقة أنه لم يقل به أحد ممن له ذكر بالعلم في أهل الحديث والسنة، وإنما قال به بعض الخوارج والمعتزلة من الفرق الضالة؛ قال القاضي عياض:

"في هذه الأحاديث حجة لأهل السنَّة في صحة وجود الدجال، وأنه شَخْصٌ مُعَيَّنٌ يبتلي الله به العباد، ويُقَدِّرُه على أشياء؛ كإحياء الميت الذي يقتله...

وظهور الخصب، والأنهار والجنة والنار، واتباع كنوز الأرض له، وأمره السماء فتمطر، والأرض فتنبت...، وكل ذلك بمشيئة الله، ثم يعجزه، فلا يقدر على قتل الرجل ولا غيره، ثم يبطل أمره، ويقتله عيسى ابن مريم، وقد خالف في ذلك بعض الخوارج والمعتزلة والجهمية؛ فأنكروا وجوده، وردوا الأحاديث الصحيحة"! قلت: وهذا هو بعينة ما فعله هذا الأزهري (الفهيم) وبعض شيوخه - تبعًا لسلفهم من الخوارج والمعتزلة؛ وأخيرًا القاديانية كما سبق - تارة بطريق التشكيك في صحة الأحاديث بزعم أنها آحاد - كما فعل الشيخ (محمود شلتوت) في بعض مقالاته؛ تبعًا للشيخ (محمد عبده) كما سبق -وتارة بطريق التأويل والتعطيل كما فعل هذا (الفهيم)! وهو وإن كان اقتصر في كلامه السابق على حكاية الرأيين - بزعمه- دون أن يحدد موقفه بوضوح منها؛ فإنه إنما فعل ذلك تمويهًا وتدليسًا على القراء، وإعدادًا لنفوسِهم لِتَقَبُّلِ ما سيرجحه هو فيما بعد! فاسمع إليه وهو يقول في تعليقه على الفقرة الآتية (١٢ - أبو أمامة، ١٤ - السياق): "يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب":

"اختلف العلماء في الكتابة هنا: هل هي حقيقة؛ أم أنها كناية عن الأمارات الدالة على صاحبها؟ وأن القراءة معناها أن تلهم النفس المؤمنة بإشراقها ما يبصرها الحقيقة دون امتراء... ولعل هذا التأويل هو الأقرب وهو الأسلم"!.

هكذا قال هذا "الفهيم" متجاهلًا نص الإمام النووي وغيره على خلاف ترجيحه؛ قال الحافظ في"الفتح" (١٣/ ٨٥):

"قال النووي: الصحيح الذي عليه المُحقِّقون أن الكتابة المذكورة حقيقة، جعلها الله علامة قاطعة بكذب الدجال، فيظهر الله المؤمن عليها، ويخفيها على من أراد شقاوته".

قال الحافظ: "وحكي عياض خلافًا، وأن بعضهم قال: هي مجاز عن سمة الحدوث عليه، وهو مذهب ضعيف".

ثم لا يكتفي ذاك (الفهيم) بترجيحه لذلك التأويل الباطل؛ بل إنه يجزم به بعد عدة صفحات؛ فيقول (ص١١٨):

"اختلاف ما روي من الأحاديث في مكان ظهور الدجال... يشير إلى أن المقصود بالدجال الرمز إلى الشر واستعلائه... "!

وهذا هو الذي جزم به في تصديره للكتاب؛ فقال (ص٦): "ثم سرنا مع القائلين بأن ظهور المهدي ونزول عيسى عليهما السلام هما رمزان لانتصار الخير على الشر، وأن الدجال رمز لاستشراء الفتنة، واستيلاء الضلال فترة من الزمان... "!

قلت: وهذا " الفهيم" هو رئيس بعثة الأزهر الشريف بـ (لبنان)؛ كما طبع ذلك تحت اسمه على طُرّة الكتاب.

ولقد أساء جدًّا في تعليقاته على الكتاب المذكور إلى مؤلِّفه وكتابه من جهة؛ وإلى الحديث النبوي من جهة أخرى؛ مما يدل على جهله البالغ به! فإنه قطع بتضعيف أحاديثَ صحيحة؛ لعدم اتِّساع قلبه لها! ولم يسبقه إلى ذلك أحد من أهل - العلم - كحديث الجساسة؛ انظر (ص٦ و٩٦ و١٠١)، وقد رواه مسلم، وحديث المهدي (ص٣٧) - غير مبال بتصحيح المؤلف ابن كثير لبعضها (ص٤٢ و٤٣)؛ بل جزم بوضع حديث آخر رواه مسلم في "صحيحه" (ص ٥٨ - ٥٩)! أما إساءته إلى الكتاب والمؤلف؛ فهي أنه وضع في صلب الكتاب عناوين من عنده دون أن ينبّه على ذلك، وبعضها على خلاف طريقة المؤلف؛ باعتباره من أئمة الحديث الذين يؤمنون بالنصوص المتعلقة بأشراط الساعة

دون تأويل لها؛ كما يفعل المبتدعة من المعتزلة وغيرهم، وهذا "الفهيم" قد أبان في تعليقاته المشار إليها؛ أنه سلك سبيلهم حذو القذة بالقذة، فها هو مثلًا قد وضع من عند نفسه عنوانًا في صلب الكتاب (ص١١٦): "حديث يجب صرفه عن ظاهره إلى التأويل"!

وضعه فوق حديث مسلم في قتل الدجال للمؤمن وإحيائه إياه؛ (انظر فقرة: ١٧ و١٨ - أبو أمامة).

وعنوان آخر وضعه على الأحاديث الواردة في ابن صياد بعضها في البخاري! فقال (ص١٠٤): "مرويات مرفوضة؛ لأنها لا تصدق عقلًا، وليس بمعقول صدورها عن الرسول عليه السلام".

كأن الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- عند هذا "الفهيم" ينبغي أن لا يتكلم بأمور غيبية لا مجال للعقل إلا أن يسلِّم بها، وعلى ذلك فالإيمان بالغيب الذي هو التصديق لا وجود له في نفسه!!

ووضع عنوانًا على حديث تعذيب المصورين (٢/ ٥٠): "عذاب المصورين المجسمين يوم القيمة"!

وبالجملة؛ فهذه العناوين التي وضعها من عند نفسه في ثنايا الكتاب؛ مع أنها تنافي الأمانة العلمية؛ فهي - في الوقت نفسه - تدل على مبلغ علم هذا "الفهيم"، والخسارة التي لحقت بالناشرين للكتاب مادةً ومعنى؛ حيث إن تعاليقه المذكورة قد غيرت معالم الكتاب، وجعلته بهذا العناوين والتعاليق كتابًا آخر ليس هو كتاب الحافظ ابن كثير!.

وقال رحمه الله كما في موسوعته العقدية (٩/ ٢٨٦): كثيرٌ من العلماء حينما يريدون أن يعالجوا بعض الانحرافات التي أصابت الجماهير قديمًا وحديثا،

إنما يعالجونها بانحراف مثله أو أخطر منه وضربت على ذلك مثلًا بعقيدة نزول عيسى عليه السلام.

أنا أذكر جيدًا أنني حينما نشأت في طلب العلم، انتفعت بالسيد رشيد رضا وبمجلته المنار خاصة انتفاعًا كثيرًا، بل أعتقد أنه لم يكن المفتاح الذي فتح لي طريقة السلف إلا هذه المجلة، لكن وجدت في كثير فيما بعد من مقالاته أنه انحرف في قليل أو كثير عما جاءت به السنة، والسبب في ذلك أنه كان ابتلي بمن يسمون بالقديانية، تعرفونهم، القاديانية الذين يسمون أنفسهم بالأحمديين، غلام أحمد القادياني، معروفون عند أهل السنة بالقاديانية، وهم يفرون من هذه النسبة إلى النسبة الأحمدية، فهم يقولون نحن أحمديون، ولهم هدف خبيث بالفرار من تلك النسبة إلى هذه؛ لأن النسبة الأولى إنما هي نسبة إلى البلدة التي خرج منها نبيهم الكذاب ميرزا غلام أحمد القدياني وهي قاديان، وينتسبون إلى أحمد لأن ميرزا غلام أحمد القادياني ليس اسمه أحمد وإنما هو غلام أحمد وهذا أسلوب في اللغة الهندية تفسيره خادم أحمد، فهو ليس أحمد وإنما هو خادم أحمد، والمقصود بأحمد هو نبينا عليه الصلاة والسلام، والأعاجم لهم مثل هذه النسبات افتخارًا بانتسابهم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فغلام أحمد هكذا عرف الرجل، ولكنه لما ادعى المهدوية ثم ادعى النبوة، وحمل على نفسه بعض النصوص الشرعية من الكتاب والسنة جرها جرًّا على نفسه، مثل قوله تعالى: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} (الصف:٦) من هذا أحمد؟ هو محمدنا، لا، هو أحمدهم. هكذا.. وبناءً على ذلك حتى يصح له جر هذه الآية وحملها على ذاته غَيَّرَ اسمه في مؤلفاته، أنا هذا درسته شخصيًا لأني ابتليت بمجادلة القاديانية هناك في دمشق سنين طويلة، فهو كان يكتب اسمه في

مؤلفاته ميرزا غلام أحمد، أي خادم أحمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فحذف ميرزا غلام أحمد وقال اسمه أحمد لكي يضلل الناس أن هذه الآية تعنيني أنا وأنا اسمي أحمد، أما محمد النبي المبعوث رحمة للعالمين اسمه محمد وليس اسمه أحمد، هكذا أوهم المضللين به، أي نعم، ولذلك وإتمامًا لإضلال شيخهم لهم يضلون العالم بأنهم أحمديون ليسوا منتسبين لأحمد بن عبد الله بن عبد المطلب وإنما لأحمد ذلك الكذاب.

هؤلاء كالمعتزلة بل وأشد إغراقًا في الضلال، لأنهم ينكرون ما هو معلوم من الدين بالضرورة، يؤمنون بكل الكتاب ولكن لفظًا وليس معنىً، ولا يخفى على أهل العلم أن اللفظ في كل الكلام فضلًا عن الكلام الإلهي ليس مقصودًا بذاته وإنما هو وسيلة للمعاني، وكما يقال: الألفاظ قوالب المعاني، فما الفائدة إذا آمن مؤمنٌ ما بآيةٍ ما ثم لف ودار عليها واستخرج لها من ضلاله معنى لا صلة لهذا المعنى باللفظ القرآني، هكذا كل الفرق الضالة شأنهم مع القرآن الذين لم يعلنوا الخروج عن الإسلام وإنما لا يزالون يدعون أنهم مسلمون ويؤمنون بالقرآن.

القاديانيون هكذا مثالهم، يؤمنون بألفاظ القرآن في كثير من نصوصه، ولكنهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه كما حكى ذلك ربنا في القرآن الكريم عن اليهود.

هم يعتقدون مثلًا بأن باب النبوة مفتوح بعد محمد عليه الصلاة والسلام، على الرغم من مثل قوله تبارك وتعالى في القرآن: {وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} (الأحزاب:٤٠)، هم لا ينكرون أنه خاتم النبيين لكنهم ينكرون كما أنكر المعتزلة القدر وأنكروا الصفات الإلهية ونحو ذلك، فهم يقولون خاتم

النبيين ليس معناه آخرهم، وإنما خاتم النبيين كالخاتم في الإصبع أو هو زينتهم.

طيب.. هذا موقفهم من القرآن.. ما موقفهم من الأحاديث المتواترة، بأنه لا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام؟ ما استطاعوا تأويله حرفوه كما حرفوا القرآن، وما لم يستطيعوا نسفوه نسفًا وقالوا هذا مخالف للقرآن.

من أشهر الأحاديث التي تثبت أن لا نبي بعده عليه السلام حديث مخاطبة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لعلي حينما سافر إلى تبوك غازيًا وترك عليًا في المدينة، وبكى علي فآنسه عليه السلام بقوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي» قالوا هذا حديث صحيح لكن ما فهمتموه جيدًا، لا نبي بعدي أي معي. أما بعده، أي بعد وفاته هناك نبي.

مثال آخر كيف يحرفون الكلم من بعد مواضعه.

مداخلة: فيهم ذكاء دول؟

الشيخ: ذكاء لكن ذكاء بدون عقل لا يفيد أبدًا، ولذلك حكى ربنا عز وجل في القرآن الكريم عن الكفار والمشركين {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك:١٠)، لذلك الذكاء شيء والعقل شيء.

عفوًا، أنا جعلت الاستطراد طويلًا جدًا، يعني كنت أتكلم عن السيد رشيد رضا، وأنني استفدت منه، لكن رأيت منه بعض الانحرافات، منها بسبب رده على القاديانيين، والقاديانيون يدعون من دعاويهم الباطلة أن ميرزا غلام أحمد القادياني هو عيسى المبشَّر به في الأحاديث وهذا أيضًا من تآويلهم الباطلة، «لينزلن فيكم عيسى ابن مريم حكمًا عدلًا» ليس المقصود عيسى وإنما بمضاف محذوف تقديره مثيل عيسى، لف ودوران، من هو هذا المثيل؟ ميرزا غلام أحمد القادياني!!

السيد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ كأنه شعر أنه ما استطاع أن يقيم الحجة عليهم حجة دامغة قاهرة إلا بالتشكيك بأحاديث نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان من شان إيش يخلص الجمهور من التأثر بالقاديانية فلا عيسى ولا مهدي لذلك قلنا بالنسبة إليه مع فضله وعلمه:

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا يا سعد تورد الإبل

وأنا كتبت في بعض ما كتبت من المؤلفات والكتب أن السبيل في كل هذه الأمثلة وسواها ليس هو التأويل الذي هو أخو التعطيل، وإنما هو فهم النصوص فهمًا جيدًا، من المسلمين حتى لا يقعوا في انحراف سلبي أو إيجابي...

على هذا يجب أن تعالج كل العقائد الإسلامية الصحيحة، منها قضية نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أشكل الأمر على السيد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ، ومنه استقينا نحن هذا المنهج في السلف والحديث وأشكل على كثير من علماء الأزهر كشلتوت وأمثاله، أنكروا عقيدة نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان، لماذا؟ قالوا لأن كثيرًا من الناس ادعوا العيسوية، فهذا غلام أحمد القادياني، كثير منهم ادعوا المهدوية، وجاركم هناك في السودان المهدوي هذا معروف، وفي التاريخ الإسلامي كثير ممن ادعى المهدوية وادعى العيسوية.

إذا سدًا لباب هذه الدعوات الباطلة، بنريِّح الناس من عقيدة نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وخروج المهدي.

هذا خطأ، ومعالجة خطأ بخطأ مثله وشر منه.

أنا قلت في بعض ما كتبت ردًا على أمثال هؤلاء أنا أخشى ما أخشى أن يأتي يوم يعالج فيه بعضهم الإلهية فينكرها لأن الفراعنة ما انتهوا بعد فبعضهم يدعي الألوهية، فلنريح الناس من هذه الدعوى، وهي من أبطل الباطل، ما في ألوهية

وانتهت المشكلة، هل هذه طريقة صحيحة.

نحن نقول أخيرًا.. نزول عيسى عقيدة صحيحة آمن بها السلف وتبعهم الخلف على هدى من ربهم، لكن ليس في هذه الأحاديث ولا في أحاديث المهدي عليهما السلام أن على المسلمين أن لا يعملوا لإسلامهم ولعزة دينهم حتى ينزل عيسى ويخرج المهدي، لا يوجد في هذه الأحاديث كلها ما يشعر بهذا الفهم الخاطئ الذي وقع فيه بعض المسلمين، ولذلك أنكر بعض المصلحين هذه الأحاديث من شان يزيحوا العثرة بزعمهم من طريق عامة المسلمين، "ما في فائدة أن ينزل عيسى ويخرج المهدي" هذا فهم خطأ كما فهم الجبريون من القدر، ووافقهم المعتزلة ثم أنكروا الجبر وأنكروا معه القدر.

ما دام لا يوجد في الأحاديث الصحيحة التي نزلت في عيسى عليه السلام وفي خروج المهدي ما يشعرنا بالتواكل على مجيئهما، إذًا يجب علينا أن نعمل، لأن عيسى إن نزل وجد الأرض مهيأة لقائد يقودُهم وإذا نزل عيسى عليه السلام والمسلمون كما هم اليوم -أنا أقول هذا الكلام مؤمنًا به- سوف لا يستطيع عيسى أن يجمع المسلمين في لحظة، في يوم وليلة، يجمع المسلمين الصالحين منهم بطبيعة الحال حول قيادته لأنه سوف لا يكون في اعتقادي أحلم ولا أقدر على جمع قلوب الناس حوله من نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-، وهو لبث في قومه عشرين سنة حتى استطاع أن أوجد هذه النواة التي غذاها الله عز وجل بقوته وعلمه ثم امتدت ظلالها كما تعلمون في التاريخ الإسلامي.

فإذًا عيسى عليه السلام، يجب أن لا نتصور أنه ينزل إلا والأرض قد هُيئت له لقبوله. إذًا ينبغي أن نفهم أحاديث النزول والخروج بأنها تحض المسلمين على العمل لإعادة الإسلام إلى مجده الغابر لا أن ينتظروا عيسى والمهدي ليعيد لهم

المجد الغابر.

إذا آمنا هكذا ما المشكلة من أحاديث عيسى وخروج المهدي، لا إشكال أبدًا، دائمًا المشاكل تأتي من سوء فهم النصوص، وهذه الحقيقة نقطة مهمة جدًا في العالم الإسلامي من حيث أنهم أساءوا فهم بعض النصوص فاساءوا فهم نصوص أخرى. ونسأل الله ﷻ أن يوفقنا جميعًا وإياكم للفهم الصحيح عن الله ورسوله.

سؤال: يا شيخ.. ابن خلدون يتكلم في أحاديث المهدي، ما رأيكم في أحاديث المهدي؟ يقول إنها ضعيفة كلها؟

الشيخ: أولًا، لا يخفاكم أن ابن خلدون هو مؤرخ وحكيم في التاريخ وليس عالمًا بالحديث، وما أردت أن أقول: ليس متخصصًا في الحديث؛ بل هو ليس عالمًا في الحديث.

من قرأ كتابته في التاريخ أو في مقدمة تاريخه حول أحاديث المهدي يجد هناك في بعض الأحاديث اعترافًا بالصحة، في هذا البعض، ولذلك فيخطئ كثير من الكتاب الذين كتبوا في هذه القضية ومنهم شيخ قطر -إذا سمعتم به

مداخلة: القرضاوي.

الشيخ: لا المحمود هذا.

مداخلة: آه الشيخ الكبير.

الشيخ: يخطئ كثيرًا كهذا الشيخ حين يعزو إلى ابن خلدون أنه ضعف كل أحاديث المهدي، هذا خطأ ليس فقط على الحديث النبوي بل وخطأ آخر على ابن خلدون المؤرخ، ثم علم الحديث فيه الواقع دقائق هي التي صرفت كثيرًا من العلماء عن الاشتغال بالحديث؛ لأنه يتطلب جهدًا ودأبًا قد لا يستطيعه أكثر

النفوس ولو كانوا من أهل العلم والفضل.

أضرب لك مثلًا بين عالم يكتب بحثًا علميًا وكاتب يكتب مقالة أدبية كم الفرق بينهما؟

مداخلة: الفرق شاسع.

الشيخ: شاسع جدًا، الذي يكتب مقالة أدبية، الأفكار المخزونة في مخه وفكره يسيل بها قلمه، لا يحتاج أن يراجع هذه الكتب التي يسميها الناس ظلمًا الكتب الصفراء، ما يحتاج.

بينما الذي يريد أن يكتب ويحرر مقالةً علميةً خاصة في آخر الزمان الذين علمهم كأمثالنا في سطورهم وليس في صدورهم، هؤلاء بحاجة أن يراجعوا على الأقل يتثبت، أما ذاك الكاتب ما يحتاج إلى مراجعة أبدًا، يكتب ويشحبر - يقولوا عندنا في الشام بهذا القلم الأسود- النسبة التي ذكرتها بين الكاتب العالم، والكاتب الأديب؛ هي النسبة بين العالم المحدث المتخصص في الحديث والعالم، يحتاج إلى صبر ومراجعات كثيرة وكثيرة جدًا، لماذا؟ لأن كثيرًا من الأحاديث هي من القسم الذي يسميه علماء الحديث صحيح لغيره، حسن لغيره.

أحد العلماء كالترمذي مثلًا إذا قال في حديث ما حديث حسن -وهذا من الغرائب واللطائف التي لا ينتبه لها أكثر العلماء بل وكثير من المحدثين، إذا قال الترمذي في حديث: حسن؛ يعني: إسناده ضعيف، أسمعتم بهذا؟ إذا قال في حديثٍ ما: حديث حسن يعني أن إسناده ضعيف.

مداخلة: لم يصل إلى درجة الصحة؟

الشيخ: لا، أنا أقول إذا قال في حديثٍ ما: حديث حسن يعني: إسناده

ضعيف، فما نقفز قفزة الغزلان بارك الله فيك، يعني ليس بصحيح، يعني أن إسناده غير حسن، ليس بصحيح: إذا قال الترمذي في حديث ما حديث حسن يعني هذا الحديث الذي حسنه الترمذي إسناده ضعيف، كيف هذا؟ هذا اصطلاح، على خلاف ما إذا قال في حديث آخر: حديث حسن غريب، فإنما يعني حديث حسن إسناده، كلمة غريب حددت المراد من قوله: حسن.

أما إذا عرى هذه الكلمة «حسن» عن لفظة «غريب» فهو يعني حسن متنه ضعيف إسناده، لماذا جاء هذا التحسين؟ من علمه أن لهذا المتن شواهد وطرق أخرى ارتقت به من الضعف الذي جاءه من هذا الإسناد.

إذًا من أجل ذلك قال علماء الحديث: إذا وقف طالب العلم على حديث إسناده ضعيف فهل يجوز له أن يقول حديث ضعيف، قالوا وقالوا، قالوا لا يجوز لأنه قد يكون له إسناد آخر إما أن يكون هذا الإسناد الآخر حسن لذاته أو صحيح لذاته أو على الأقل يجعل هذا الحديث الضعيف إسناده حسنًا أو صحيحًا لغيره. ولذلك فلا يستقل بالقول بأنه هذا حديث ضعيف، وإنما يقول حديث إسناده ضعيف، ثم استثنوا فقالوا اللهم إلا رجل عالم متمكن في علم الحديث محيط ما شاء الله بطرق الحديث ثم لم يجد لهذا الحديث إلا هذا الإسناد؛ فلمثله فقط أن يقول: هذا حديث ضعيف.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحيحة" (٤/ ٤٢ - ٤٣): اعلم يا أخي المسلم أن كثيرًا من المسلمين اليوم قد انحرفوا عن الصواب في هذا الموضوع، فمنهم من استقر في نفسه أن دولة الإسلام لن تقوم إلا بخروج المهدي! وهذه خرافة وضلالة ألقاها الشيطان في قلوب كثير من العامة، وبخاصة الصوفية منهم، وليس في شيء من أحاديث المهدي ما يشعر بذلك مطلقًا، بل هي كلها لا تخرج عن أن النبي -

صلى الله عليه وآله وسلم- بَشَّرَ المسلمين برجل من أهل بيته، ووصفه بصفات بارزة أهمها أنه يحكم بالإسلام وينشر العدل بين الأنام، فهو في الحقيقة من المجددين الذين يبعثهم الله في رأس كل مائة سنة كما صح عنه -صلى الله عليه وآله وسلم-، فكما أن ذلك لا يستلزم ترك السعي وراء طلب العلم والعمل به لتجديد الدين، فكذلك خروج المهدي لا يستلزم التواكل عليه وترك الاستعداد والعمل لإقامة حكم الله في الأرض، بل على العكس هو الصواب، فإن المهدي لن يكون أعظم سعيًا من نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي ظل ثلاثة وعشرين عامًّا وهو يعمل لتوطيد دعائم الإسلام، وإقامة دولته فماذا عسى أن يفعل المهدي لو خرج اليوم فوجد المسلمين شيعًا وأحزابًا، وعلماءهم - إلا القليل منهم - اتخذهم الناس رؤوسًا! لما استطاع أن يقيم دولة الإسلام إلا بعد أن يوحد كلمتهم ويجمعهم في صف واحد، وتحت راية واحدة، وهذا بلا شك يحتاج إلى زمن مديد الله أعلم به، فالشرع والعقل معا يقتضيان أن يقوم بهذا الواجب المخلصون من المسلمين، حتى إذا خرج المهدي، لم يكن بحاجة إلا أن يقودهم إلى النصر، وإن لم يخرج فقد قاموا هم بواجبهم، والله يقول: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ}.

ومنهم - وفيهم بعض الخاصة - من علم أن ما حكيناه عن العامة أنه خرافة ولكنه توهم أنها لازمة لعقيدة خروج المهدي، فبادر إلى إنكارها، على حد قول من قال: " وداوني بالتي كانت هي الداء "! وما مثلهم إلا كمثل المعتزلة الذين أنكروا القدر لما رأوا أن طائفة من المسلمين استلزموا منه الجبر!! فهم بذلك أبطلوا ما يجب اعتقاده، وما استطاعوا أن يقضوا على الجبر!.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في قصة المسيح الدجال (ص٣٦ - ٣٨): لا يجوز للمسلمين

اليوم أن يتركوا العمل للإسلام وإقامة دولته في وجه الأرض؛ انتظارًا منهم لخروج المهدي ونزول عيسى عليهما الصلاة والسلام؛ يأْسًا منهم؛ أو توهمًا أن ذلك غير ممكن قبلهما! فإن هذا توهم باطل، ويأس عاطل فإن الله تعالى أو رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يخبرنا أن لا عودة للإسلام ولا سلطان له في وجه الأرض إلا في زمانهما، فمن الجائز أن يتحقق ذلك قبلهما إذا أخذ المسلمون بالأسباب الموجبة لذلك؛ لقوله تعالى: {إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (محمد:٧)، وقوله: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج:٤٠).

ولقد كان هذا التوهم من أقوى الأسباب التي حملت بعض الأساتذة المرشدين والكُتّاب المعاصرين على إنكار أحاديث المهدي وعيسى عليهما السلام - على كثرتها وتواترها - لما رأوا أنها عند المتوهمين مدعاة للتواكل عليها وترك العمل لعز الإسلام من أجلها! فأخطؤوا في ذلك أشد الخطأ من وجهين:

الأول: أنَّهم أقروهم على هذا التوهم؛ على اعتبار أن مصدره تلك الأحاديث المشار إليها؛ وإلا لم يبادروا إلى إنكارها!

والآخر: أنهم لم يعرفوا كيف ينبغي عليهم أن يعالجوا التوهم المذكور؟ وذلك بإثبات الأحاديث، وإبطال المفاهيم الخاطئة من حولها، وما مثلهم في ذلك إلا كمثل من أنكر عقيدة الإيمان بالقدر خيره وشره؛ لأن بعض المؤمنين به فهموا منه أن لازمه الجبر، وأن المكلَّف لا كسب له ولا اختيار، ولما كان هذا الفهم باطلًا بداهة سارعوا إلى إنكاره، ولكنهم أنكروا مَعَهُ القدر أيضًا؛ لتوهمهم - أيضًا مع المتوهمين - أنه يعني الجبر، فوافقوهم في خطئهم في التوهم

المذكور، ثم زادوا عليهم خطًا آخر - فرارًا من الأول - وهو إنكارهم القدر نفسه! فلولا أنهم شاركوهم في فهمهم منه الجبر ما أنكروه!

وهذا هو عين ما صنعه البعض المشار إليه من الأساتذة والكُتّاب؛ فإنهم لما رأوا تواكل المسلمين - إلا قليلًا منهم - على أحاديث المهدي وعيسى؛ بادروا إلى إنكارها لتخليصهم بزعمهم من التواكل المذكور! فلم يصنعوا شيئًا؛ لأنهم لم يستطيعوا تخليصهم بذلك من جهة؛ ولا هم كانوا على هدى في إنكارهم للأحاديث الصحيحة من جهة أخرى.

والحقيقة أن هؤلاء المنكرين- الذين يفهمون من هذه الأحاديث ما لا تدل عليه من التواكل المزعوم، ولذلك يبادرون إلى إنكارها تخلّصًا منه - قد جمعوا بين المصيبتين: الضلال في الفهم، والكفر بالنص! ولكنهم عرفوا أن الفهم المذكور ضلال في نفسه؛ فأنكروه بإنكار النص الذي فهموا ذلك منه! وعكس ذلك العامة؛ فآمنوا بالنص مع الفهم المذكور، فمع كل من الفريقين هدى وضلال، والحق الأخذ بهدى كل منهما، ونبذ الضلال الذي عندهما؛ وذلك بالإيمان بالنص دون ذلك الفهم الخاطئ.

وما مثل هؤلاء وهؤلاء إلا كمثل المعتزلة من جهة؛ والمشبِّهة من جهة أخرى، فإن الأولين تأولوا آيات وأحاديث الصفات بتآويل باطلة أودت بهم إلى إنكار الصفات الإلهية، وما حملهم على ذلك إلا فرارهم من التشبيه الذي وقع فيه المشبِّهة، والحقيقة أن المعتزلة أنفسهم شاركوا المشبِّهة في فهم التشبيه من آيات الصفات، ولكنهم افترقوا عنهم بإنكار التشبيه بطريق التأويل الذي هو باطل أيضًا؛ كالتشبيه لما لزم منه من إنكار الصفات الإلهية، وأما المشبِّهة فلم يقعوا في هذا الباطل، ولكنهم ثبتوا على التشبيه، والحق الجمع بين صواب

هؤلاء وهؤلاء، ورد باطل هؤلاء وهؤلاء؛ ذلك بالإثبات والتنزيه؛ كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير} (الشُّورى:١١).

وكذلك أقول في أحاديث نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيرها؛ فإن الواجب فيها إنما هو الإيمان بها، وردّ ما توهمه المتوهمون منها؛ من ترك العمل والاستعداد الذي يجب القيام به في كل زمان ومكان، وبذلك نكون قد جمعنا بين صواب هؤلاء وهؤلاء، ورددنا باطل هؤلاء وهؤلاء. والله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في موسوعته العقدية أيضا (٩/ ٢٠٢): سؤال: في حديث جبريل من علامات الساعة «أن تلد الأمة ربتها»، كيف هذا يا شيخ؟.

الشيخ: هذا بارك الله فيك كان في بعض العصور الزاهرة حينما كان تنتشر الجيوش الإسلامية في بلاد الكفر تدعوها إلى الإسلام، فمنهم من يستجيب ومنهم من لا يستجيب، فحينئذٍ ما يكون من الجيش المسلم إلا أن يحارب كما جاء في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» وكما جاء في صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب: «أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان إذا أمر أميرًا على سرية أو جيش أوصاه، وكان من وصيته: إذا لقيتم المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث: إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن أبو فأن يعطوا الجزية عند يد وهم صاغرون، فإن أبوا فالقتال» فحينما كان يجري هذا القتال بين المسلمين وبين الكافرين يقع في أغلب الأحيان كثير من الأسرى في أيدي المسلمين من النساء ومن الرجال، ثم تجري قسمة هذه المغانم وفيها أولئك الأسرى، فيقسمها قائد الجيش المسلم على الغانمين.

فكان يقع كثيرًا وكثيرًا جدًّا أن يكون حصة بعض الغانمين سبية من السبايا التي وقعت في أيدي المسلمين، فيجوز للمسلم كما أظنكم تعلمون أن يتمتع بمثل هذه السبية الأسيرة كما يتمتع الرجل بحلاله بزوجته، كما قال تعالى في وصف عباده المؤمنين: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} (المؤمنون:٥ - ٦) إلى آخر الآيات، فملك اليمين هي السرية هذه التي كان أصلها غنيمة من الكفار، والذي وقع في التاريخ الإسلامي الأول وسنين طويلة وعصور مديدة فيما بعد أن هذا السيد ينكح هذه الأمة أو هذه الجارية وهي مملوكة فيرزق منها ولدًا قد يكون ذكرًا وقد يكون أنثى، والشرع يحكم بأن هذه الأمة أو الجارية إذا رزقت من سيدها ولدًا فهذا الولد يعتقها، فإذا كان المولود منها من سيدها بنتًا فهذه البنت هي تلحق بأبيها فهي سيدة، فقوله عليه السلام: «وأن تلد الأمة ربتها» فهي كانت أمة ثم ولدت هذه البنت من سيدها فهي ربتها، أي: سيدتها، هذا من معاني التي ذكرها شراح الحديث في هذا الحديث.

وبعضهم قال معنًى آخر، معنى مجازي يمكن أن يكون صوابًا لكن المعنى الأول هو المتبادر، قالوا: هذا إشارة إلى فساد التربية وفساد الزمان، بحيث أن السيدة الحرة حينما ترزق من سيدها من زوجها الحر أيضًا.. حينما ترزق منه بنتًا، فبسبب سوء تربية هذه البنت -وهذا مشاهد اليوم- تصبح هذه البنت متعالية على أمها، فكأن أمها هي عبدة مملوكة وهي سيدتها، هذا من معاني قوله عليه السلام: «وأن تلد الأمة ربتها» هي ليست أمةً حقيقةً كما هو في التفسير الأول، لكن بالنسبة لسوء التربية تصبح ابنتها سيدة عليها وهي كأنها عبدة لها ومملوكة لها، والواقع أنها حرة بنت حرة، لكن سوء التربية قلب الأمر فجعل الأم التي هي

سيدة أمة، وجعل البنت التي هي بنت هذه كأنها هي السيدة تستعلي عليها وتتأمر عليها ولا تسمع كلامًا، والأم تضطر أن تخضع لأوامرها وهذا هو المشاهد في هذا الزمان.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٩/ ٢١٧): هل بعض الأحاديث الواردة في المدينة تنفي خبثها، والأحاديث الواردة في الصبر على لأوائها، ما أدري، بعض العلماء يقول.. يخصصها في عهد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وبعضهم يجعلها في آخر الزمان مثل المدينة تنفي خبثها عندما يأتي الدجال، وبعضهم يجعلها عامة في كل زمان؟...

الشيخ: أما العموم فلا مجال للقول به لمصادمته الواقع، أما التخصيص بزمن الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ فهذا تخصيص بغير مخصص، لكن ينبغي أن نبقي الحديث على عمومه ولا نستثني منه إلا ما دل الدليل القاطع على ذاك الاستثناء الذي قلته آنفًا، وأعني بإيجاز أنه ليس خاصًا بزمنه ولا مضطردًا في كل زمن، وهذا له أمثلة في نصوص كثيرة مثلًا: «ذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم» هذا من البداهة في مكان بأنه لا يمكن أن يقال فيه أنه خاص بزمن الرسول أو بزمن آخر، لكن لا مجال للقول بأنه يشمل كل الأزمان، وهكذا الأمثلة تتكرر، مثلًا في الحديث المعروف المشهور بل المتواتر: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» إلى آخره جاء في صحيح البخاري في رواية معاوية لهذا الحديث المرفوع، يقول هذا معاوية يقول وهو الذي روى الحديث مرفوعًا، يقول: وهذا معاذ يقول: هم في الشام.

مداخلة: معاوية يحكي عن معاذ؟

الشيخ: يحكي عن معاذ نعم، معاذ هو الذي يقول هذا الكلام: هم في الشام،

فليس من الضروري أن يكونوا في الشام في كل لحظة في كل دقيقة في كل ساعة في كل يوم في كل أسبوع وهكذا تطرد، على ما يشاء الله ﷻ لكن بلا شك الغالب أنهم في الشام مع استحضار أن معنى الشام أوسع مما يدور في أذهان كثير من الناس اليوم بسبب حياتهم وغفلتهم عن التقسيمات السياسية... فالشام سوريا والأردن وفلسطين ولبنان نعم، فبهذا المعنى الواسع يكون الحديث ماشيًا، لكن ليس بهذا المعنى الضيق في اللحظة، ممكن مثلًا أن يأتي زمن كما هو الزمن الحاضر الآن كما كان في زمن بعض الفتن المغول مثلًا حينما هجموا على هذه البلاد فيفر المسلمون بدينهم إلى بلاد أخرى، فلا يقال: أن الحديث كيف... تطبيقه، إنما نقول: هذا لا يعني الاطراد الدقيق الذي ذكرته آنفًا في اللحظة في الدقيقة إلى آخره، وعلى هذا النوع من المعنى الواسع من جهة والضيق من جهة أخرى يمكن أن نفسر الحديث الذي ذكرت آنفًا، والله أعلم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٩/ ٢٣٣): ما رأي فضيلتكم في الأحاديث الواردة في كتاب: الإشاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة، وكتاب: الإذاعة، وذلك حول الأمارات الدالة على قرب خروج الإمام المهدي، وعلامات خروجه وهي كما ذكرها: جفاف بحيرة طبرية.. انحسار نهر الفرات.. وجفاف مياهه عن جبل من ذهب.. عدم إثمار نخل بيسان.. انكساف الشمس في أول رمضان وانخساف القمر في ليلة النصف منه، وهل قطع مياه الفرات الآن عن سوريا والعراق في الوقت الحاضر، أفيدونا أثابكم الله بإسهاب عن هذا الموضوع.

الشيخ: أما القطع المذكور فليس له علاقة بأشراط الساعة، فإنه خلاف سياسي قد يزول إن شاء الله، أما كسوف الشمس والقمر فليس فيه حديث

صحيح، أما سائر العلامات التي ذكرت في السؤال فهي ثابتة، وأخيرًا: فليس هناك تحديد لوقت خروج المهدي ونزول عيسى عليهما السلام، ولا أعتقد أن هذا الوقت فيه نذر وعلامات تمكننا من تحديد وقت خروج المهدي أو نزول عيسى عليه السلام، لا سبيل إلى ادعاء شيء من ذلك إلا على سبيل التظنن والتخرص وهذا لا يجوز في دين الله.

وأنا أقول بمثل هذه المناسبة: أن كثيرًا ممن ينتمي إلى العلم وإلى الدعوة إلى الإسلام قد ينكر أحاديث نزول عيسى عليه السلام وخروج المهدي عليه السلام؛ لأنها كواقع مع الأسف الشديد كانت سببًا.. بسبب سوء فهم الأمة لهذه الأحاديث كانت سببًا لتواكل المسلمين وتقاعسهم عن القيام بواجب العمل لإعادة الحكم الإسلامي حكمًا قائمًا في أرض الإسلام، والواقع أن هذه الأحاديث لا تعني هذا المعنى المنحرف، ومن المؤسف أن بعض الدعاة بديل أن يقوموا بواجب نشر هذه العقيدة لثبوتها في كتب السنة ثبوتًا متواترًا من جهة، ومن جهة أخرى: بديل أن يفهموا الأمة المقصد الأسنى من تبشير الرسول عليه الصلاة والسلام لهذه الأمة بخروج المهدي ونزول عيسى عليه السلام، بدل النشر والتبشير والتقييم ماذا فعلوا؟ لقد أنكروا هذه الأحاديث الصحيحة وأوجدوا بلبلةً بين المسلمين الذين ليس عندهم من الوعي والتوعية ما تمكنهم من تمييز الأقوال الصحيحة من الأقوال الضعيفة.

يجب على كل مسلم أن يدرس الأحاديث على منهج علماء الحديث، وليس على منهج علماء الرأي والفلسفة العقلية المحضة، فالفلسفة لا حدود لها وكل يرى ما يناسب هواه، وما يناسب ثقافته، وإنما الطريق لمعرفة ما صح عن الرسول، وما لم يصح إنما هو طريق علماء الحديث منذ أن كانوا على وجه

الأرض إلى أن تقوم الساعة، وهو الرجوع إلى أسانيد الأحاديث وإلى تراجم رواتها.

وقد تبين لكل عالم بالحديث أن هذه الأحاديث أحاديث نزول عيسى وخروج المهدي أحاديث صحيحة لا يجوز إنكارها، وإنكارها يعرض منكرها ولا شك لمفسدتين أحلاهما مر: إما الكفر؛ لأنه جحد ما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بالتواتر، أو الفسق إذا كان لم يقم بواجب البحث والتحقيق وهو عالم يستطيع القيام بذلك.

هذا هو الواجب الأول: أن نثبت هذه الأحاديث لأنها صحيحة لا شك ولا ريب فيها.

الواجب الثاني: أن نفهم الأمة أن هذه الأحاديث لا تعني أن الأمة ينبغي أن تتواكل وأن تنتظر خروج المهدي ونزول عيسى، بل عليها كلها أن تعمل لعزة الإسلام ولتطبيق الإسلام، وحينذاك سيشعرون بأن الأمة بحاجة إلى وحدة الكلمة قبل كل شيء، ثم إلى رجل يقودهم إلى العز والمجد الغابر، هذا الرجل قد يكون المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد يكون رجلًا مصلحًا قبل خروجه هو؛ لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد بشر هذه الأمة بقوله: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» فالمجددون والحمد لله موجودون وهم متتابعون على رأس كل مائة سنة، فقد يكون المهدي على رأس المائة سنة القابلة، وقد يكون بعد مائتي سنة وقد وقد؛ لأن هذا غيب لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، لكن المسلمين عليهم أن يعملوا واجبهم، ثم قد ربنا عَزَّ وَجَلَّ يرسل إليهم مصلحًا ليجمع كلمتهم ويقيموا دولتهم وما ذلك على الله بعزيز.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ في نفس المصدر (٩/ ٢٣٥): قيل... إنك قلت [أن المهدي]

يخرج ليس في هذا الزمان... سيخرج في زمان.. الحرب تكون بالسيوف والرماح؟

الشيخ: لا، أنا ما أقول هذا، بس أقول ما بيخرج بهذا الزمان؛ لأنه المهدي سوف لا يستطيع أن يعمل أكثر من الرسول عليه السلام، الذي ظل بقومه عشرين سنة حتى استطاع أن يوجد من حوله أمة يقاتلون في سبيل الله، فلو خرج [المهدي و] وجد التسعمائة مليون مسلم متفرقين شذر مدر حتى يجمعهم على فكرة واحدة، على تصفية وعلى تربية، يحتاج إلى كذا سنين هو، ونص الحديث يمكث في الأرض سبع سنين، ثمان سنين، شو بده يسوي في سبع سنين.

وسئل رحمه الله في نفس المصدر (٩/ ٢٣٦): بالنسبة للمهدي، المهدي هل هو المهدي المنتظر اللي بيتكلموا عنه الشيعة أو المهدي اللي بيقولوا عنه... بيطلع بعد كذا عام؟

الشيخ: المهدي يا أخي تبع الشيعة خيال، مهدي الشيعة خيال لا وجود له، إلا في أدمغتهم. تسمع بالعنقاء؟

مداخلة: لا.

الشيخ: العنقاء: اسم بدون جسم، ومثله الخل الوفي، تعرفوه؟ الخل الوفي، المهم: مهدي الشيعي خيال، لأنو بيقولوا هو داخل في السرداب من كذا سنين، وكل يوم بيهيؤوا ثلة من الجيش، من العسكر، من الفرسان، وبيروحوا باب المغارة من شان يستقبلوه، وهكذا لا يزالون في ضلالهم يعمهون، أما المهدي المبشر به في الأحاديث الصحيحة، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تنقضي الدنيا حتى يبعث الله رجلًا يوافق اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي -أي محمد بن عبد الله- يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا»، يملأ الأرض

قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا، «يمكث في الأرض سبع سنوات أو ثمان سنوات».

فإذن المهدي محمد بن عبد الله هو رجل من المجددين، الذين أخبر الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ عنهم بقوله: «إن الله يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة». فالمهدي ما هو إلا إنسان عادي عالم مصلح، الناس يتبعونه لعلمه ولصلاحه؛ ولذلك ففي زمانه يرى الناس العدل، ولا يعودون يرون الجور والظلم [كما هو] حال المسلمين اليوم يعيشونه في كل بلاد الإسلام مع الأسف الشديد.

«لا تنقضي الدنيا حتى يبعث الله رجلًا يوافق اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا». هذا المهدي إنسان من العلماء المصلحين لم تلد النساء مثله بعد الصحابة والخلفاء الراشدين.

مداخلة: قبل نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الشيخ: هو قبل لكن يلتقى به كما سمعت آنفًا، ذكرنا أنه بينزل عيسى شرقي دمشق، وبتكون الصلاة أقيمت للمهدي، فحينما يرى عيسى بيقدمه يصلي، يقول: لا، أي أنا لا أتقدمكم معشر أمة محمد تكرمة هذه الأمة. نعم.

مداخلة: شيخنا:... في شاهد لما تفضلت به وهو قول الله سبحانه وتعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} (النساء:١٥٩).

الشيخ: نعم، صدق الله.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ في نفس المصدر (٩/ ٢٥٩): حديث الجساسة هل هو صحيح، وهل هو مخالف لبعض الأحاديث؟ نرجو توضيح ذلك.

الشيخ: حديث الجساسة حديث صحيح، وليس فيه ما يخالف الأحاديث الصحيحة إطلاقًا، وإنما فيه تفاصيل ستقع يومًا ما مما لم يرد ذكره في بعض الأحاديث الصحيحة، وبعضها وقع، وكما رواه تميم الداري رضي الله عنه، وإنما الناس اليوم يريدون أن يطبقوا الأحاديث الغيبية على عقولهم الصغيرة، وهذا ليس من الإيمان في شيء؛ لأن الله عز وجل يقول: {الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} (البقرة:١ - ٣) فواجب كل مسلم إذا ما جاءه حديث عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- سواء كان الحديث هذا يتعلق بالعقائد أو بالأحكام أو بأشراط الساعة أو بأي حكم يتعلق بالمغيبات فواجب المسلم أمام هذا الحديث أو ذاك شيئان اثنان:

الشيء الأول: أن يسأل أهل العلم بالحديث: أصحيح هو أم لا، فإذا قالوا له بأنه صحيح وجب الأمر الثاني، وهو: أن يخضع عقله وفكره وثقافته التي نشأ عليها للإيمان بهذا الحديث؛ لأنه من أمور الغيب، وقد علمنا أن أول صفة للمؤمن حقًا هو ما قاله الله عز وجل في آنفًا في الآية آية البقرة: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ} (البقرة:٣) فالإيمان بالغيب أمر هام جدًا يمتحن الله تبارك وتعالى عباده بمثل هذه الأحاديث الصحيحة، وحديث الجساسة لا شك في صحته لسببين اثنين:

الأول: أنه رواه مسلم في صحيحه.

والآخر: أننا لم نجد في إسناده مغمزًا أو مطعنًا ولذلك فلا يجوز للمسلم أن يتفلسف عليه، وأن يقول: معقول أو غير معقول أو ما شابه هذا الكلام الذي لا يخرج ممن آمن بالغيب حقًا.

هذا جواب حديث الجساسة.

مداخلة: يا شيخ! هناك أحاديث وردت مثلًا: تعارض هذا الحديث..

الشيخ: مثل؟

مداخلة: قوله عليه الصلاة والسلام: «ما من نفس منفوسة يمر عليها مائة عام وهي حية يومئذ» أو كما قال.

الشيخ: هذا الذي يقول بهذا الكلام هو جاهل بعلم أصول الفقه، ما من نص عام إلا وقد خصص، وهذا من ذاك، يعني: ما من نفس منفوسة، إلا ما جاء النص يستثني ذلك، وعلى هذا اعتمد من زعم أن الخضر عليه السلام لا يزال حيًّا بين الأنام، لكن نحن نقول كما تعلمنا من بعض العلماء: أثبت العرش ثم انقش، نقول له: أثبت أن الخضر حي حتى نستثنيه من الحديث، ولما لم يكن هناك حديث صحيح يثبت حياة الخضر إلى عهد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يكن بنا حاجة إلى أن نقول: عن الخضر مستثنى من حديث: «ما من نفس منفوسة» أما والدجال حي بصريح الحديث الذي جاء ذكره آنفًا وكذلك عيسى لا يزال حيًا وإن كان هذا في السماء فإذًا الجواب: هو تخصيص العام بالحديث الخاص، وإلا لوقع هذا الجاهل وأمثاله في جهل بل جهالات متتابعة؛ لأننا سنواجهه بالآية الكريمة.

وهذا مثل أذكره في كثير من مثل هذه المناسبة، ألا وهي قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ} (المائدة:٣) إلى آخر الآية، فهل يجوز أكل السمك الميت؟ سيقول بالجواز، فما هو الجواب عن الآية، سيضطر أن يقول بقول العلماء: الآية عامة والحديث يخصص هذه الآية، فكيف لا يخصص الحديث الحديث؟ ذلك من باب أولى.

وقال رحمه الله في المصدر السابق: كنا من أيام قريبة على موعد مع رجل يدعي

أنه المهدي فالتقينا به ووُجِّهَ إليه سؤال صريح: أنت مهدي بمعنى مسلم مهدي بمعنى صالح، أو المهدي المبشَّر به؟ قال: لا، أنا المهدي المبشَّر به في الأحاديث.

وبدأ يتكلم، أريد أن أعرف من أين تُؤكل الكتف، أسمع له وإذا به يقول: أن الأحاديث التي جاءت في المهدي بعضها صحيحة وبعضها ضعيفة كلام سليم، طيب! بعدما انتهى قلت له: ممكن أسأل سؤال؟ قال: تفضل، قلت له: إذا تفضلت أن تعطينا بعض الأحاديث الصحيحة وبعض الأحاديث الضعيفة التي أشرت إليها، فمسكين أسقط بيده ولم يعرف بماذا يتكلم، إلا أنه قال بعد لف ودوران طبعًا ما يقولها سلفًا، قال في الأخير: الليلة سوف لن نتكلم عن هذه الأحاديث.

مداخلة: الله أكبر!...

الشيخ: لا، يريد أن يحكي... قلت له: لماذا؟ أهو بكيفك؟! أنا سألتك أنت لازم تجيب، أنت تدعي أنك المهدي... مهدي للناس، والناس فيهم العالم وفيهم الجاهل وفيهم الصالح وفيهم الطالح..، المفروض المهدي الحقيقي يتحمل هؤلاء وليس العكس الناس يتحملون المهدي؛ لأن المهدي كله خير وكله علم وإلى آخره، لذلك أنا أُلح وأطالبك أن تأتينا ببعض الأحاديث الصحيحة وبعض الأحاديث الضعيفة، قال: غدًا آتيك بهم، قلت له: لا، أنا لن أستمر لغدٍ ومن يملك نفسه أن يعيش إلى الغد؟! [أخذ] يلف ويدور، يلف علي ويدور إلى آخره.

في الأخير قلت له: طيب! نحن نتنازل عن نصف السؤال أما النصف الثاني لا نتنازل عنه، طلبنا منك بعض الأحاديث الصحيحة وبعض الأحاديث

الضعيفة؛ نعفيك عن الأحاديث الضعيفة، هات لنا بعض الأحاديث الصحيحة، لا يوجد عنده شيء، ولو أراد أن يمشي تكون حجة عليه طبعًا، رجل مظهره ما تظنه مسلم؛ حليق، حاسر الرأس، متخوم من البدانة، ثخين يعني.. ثم لا يحسن أن يتكلم بل أن يقرأ آية كما أنزلها الله.

والعجيب في هذا المسكين أنه يزعم بأنه رسول من الله..

مداخلة:... متبعه أخوه.

الشيخ: كيف؟

مداخلة: المتبع له أخوه.

الشيخ: تمام متبعه أخوه، فقال: هو رسول من الله لكن ليس نبي، انظر الضلال؟ مخطط خطة من أجل أن يموه على الناس، تعرفوا أنتم الأحاديث الصريحة أنه: «لا نبي بعدي»، لكن هو بجهله الظاهر أنه متصور أنه لا يوجد حديث: «لا رسول بعدي» ولذلك هو يدعي الرسالة ولا يدعي النبوة، فأنا قلت له: أنت تقول أنك رسول، ويقول: أن الله أوحى إليه القرآن من جديد، مع ذلك لا يحسن قراءة القرآن يكسر يعني ويلحن؛ المنصوب يرفعه المرفوع ينصبه وهكذا..

مداخلة: حافظ القرآن؟

الشيخ: لا... لكن بعض الآيات، في المصحف أتى بالمصحف، قرأ والمصحف مشكَّل مع ذلك أخطأ في الآية، قلت له: كيف أنت نزل عليك الوحي وهذا القرآن لو نحن نخطئ في قراءته ليس هناك غرابة لأننا ما نَزَلَ علينا قرآن من جديد، كيف أنت تخطئ في هذا؟... سألته بعض الأسئلة أستكشف عن جهله وعن ضلاله؛ قلت له: أنت ماذا تعتقد الرسل معصومين أو لا؟ قال:

معصومين بشيء وغير معصومين بشيء، قلنا له: فَصِّل، قال: معصومين في التبليغ، وغير معصومين فيما سوى ذلك، قلت له: عندك شيء آخر تضيفه؟ قال: لا، قلت: يعني: يجوز عليهم السرقة.. ويجوز عليهم الزنا وإلى آخره، فطبعًا شبهة قوية ما التزمها لكن كعادته فَرَّ عنها، سألته: الرسول معصوم إذًا في التبليغ قال: نعم، قلت له: طيب! لكن أنت من قبل ساعة تبين أنك لست معصومًا؛ لأن القرآن نزل عليك من جديد ما قرأته كما أنزل عليك من جديد، فهذا دليل أنك لست معصوم بالتالي أنت لست رسول كما تقول، وهكذا استمر النقاش بيني وبينه، أخيرًا قلت له: أهناك فرق بين الرسول وبين النبي؟ أريد أرى ما هو الفرق حتى هو احتكر الرسالة له دون ماذا؟ النبوة، قال: يوجد فرق لكن هذا الفرق لا يعرفه أحد إلا الله، قلت له: طيب! أنت رسول لست نبيًّا؟ قال: نعم، قلت له: هذا دليل أنك تعرف أن الرسول غير النبي فكيف يلتقي مع قولك: لا يعرف الفرق إلا الله ﷻ.

الخلاصة: الجماعة الحاضرون اكتشفوا ضلاله وجهله بالشريعة، وسبحان الله! أخوه.. أنا وعظت الاثنين في الأخير قلت لأخيه: اتقي الله في نفسك هذا أخوك أقل ما يقال فيه أنه شبه له، وأنه صاحب خيالات وأوهام إلى آخره فأنت لا تراه كيف يُسْأَل أسئلة لا يستطيع أن يجيب عنها، وتحديتهم قلت لهم: أنتم ماذا تعرفون من الشرع، هل تعرفون الصلاة كما كان الرسول يصلي أنا أتحداكم الآن قم صلِّ، قال: هو لا يريد أن يصلي.

أثناء المناقشة بيني وبين هذا ما اسمه خليل؟

مداخلة: هو خليل... خليل اسم أخوه محمد.

الشيخ: بالعكس.. عندما كنت أتناقش أنا مع المهدي المزعوم يتدخل

أخوه، طيب يا أخي! هذا ما هو أسلوب البحث، أنا أتكلم مع أخيك: لماذا تتدخل، فإذا كان يسمح لك أخوك أنك تتكلم ما في عندي مانع لكن أنا شخص واحد إما أتكلم معه أو معك، لأنني [كان] كرسي هنا وكرسي هنا وهنا بجانبي أخوه، فمرة أتكلم معه ومرة أتكلم معك.. مع من سأتكلم؟ قام من أجل أن يبرر له خطأه ماذا قال: أنا آذن له أن يتكلم، قلنا له: إذًا! نتركك الآن ونتكلم مع أخيك، عندما قلنا له: قم صلِّ، ما رضي أن يصلي من؟! خليل: المهدي، قلنا له: طيب! أنت أخوه قم تفضل صلِّ نرى، قال: لا، حتى يأذن لي، طيب! هو أذن لك.. تلك الساعة ألم يقل أنه أذن لك أن تتكلم وتعمل أي شيء؟!

الخلاصة: الجهل أعمى قلوبهم،... تعرف المهدي الذي اسمه غلام أحمد القادياني، كان رجل عالم ودجال بالعلم تمامًا، لكن هؤلاء مساكين جهال لا يعرفون شيئًا من الشريعة ولا يعرفون قراءة قرآن.. لا يعرفون اللغة.. لا يعرفون أي شيء.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في المصدر السابق (٩/ ٣٢٥): قال تعالى: {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ} (الأنبياء: ٩٦ - ٩٧) لا شك أن الإيمان بأقوام يعرفون بيأجوج ومأجوج من العقائد الإسلامية الصحيحة لوجود أصلها في القرآن ووجود فصلها وتفصيلها في السنة، والسد الذي جاء ذكره قبل هذه الآية في القرآن الكريم هو الذي تحدث عنه نبينا صلوات الله وسلامه عليه في الحديث الصحيح: أن وراء هذا السد هم قوم يأجوج ومأجوج، وأنهم في كل يوم يتوجهون إلى هذا السد لينفذوا منه إلى العالم فيأخذون لحسًا بألسنتهم إياه، حتى إذا بدا لهم بصيص نور يقولون غدًا نكمل عليه ونخرج منه، فإذا عادوا وجدوه قد عاد سيرته الأولى حتى إذا شاء الله

تبارك وتعالى أن يأذن لهم بالخروج ألهم بعضهم أن يقول: غدًا إن شاء الله، فيعودون إلى السد فيجدونه كما تركوه فيتمون عليه ثم هم يخرجون ومن كل حدب ينسلون كما قال رب العالمين.

فالآن الشبهة التي تطرح في هذا الزمان بدءًا من الكفار وانتهاءً إلى بعض ضعفاء العلم إن لم نقل: ضعفاء الإيمان: إن هؤلاء يدعون أكثر مما يدعيه الكفار، هؤلاء الضعفاء علمًا وربما إيمانًا يدعون ما لا يدعي الكفار أنفسهم فيقولون: إن الكفار مسحوا الكرة الأرضية وعرفوا كل أراضيها ما بين جبال وهضاب وسهول وأنهار وبحار وغابات ونحو ذلك، فلم يبق هناك مكان - زعموا- لم تطأه أقدامهم، بينما هذه الدعوى لم يدعيها نفس الكفار! وذلك لأننا مع الأسف الشديد نعترف بأن هؤلاء الكفار لا يؤمنون إلا بالبحث العلمي، والبحث العلمي جعلهم يتورعون عن ادعاء ما لا علم لهم به، ويقولون: نحن وصلنا إلى هنا ولا ندري ما وراء ذلك.

أما ضعفاء العلم والإيمان من أمتنا فيأتونهم من العلم ما لا يعترفون هم به، فقد مسحوا الأرض زعموا! فنقول: هذه دعوى مجردة عن الدليل، والمؤمن يجب أن يؤمن بالقرآن وبحديث الرسول عليه السلام أقل ما يقال: أكثر من إيمانهم بأقوال الكفار وبحوثهم وتجاربهم، وإذا كان قد صرح القرآن بوجود سد هناك، ووجود قوم خلف هذا السد، وأنه سيأتي يوم ينفذون منه، فهذا يعني أن الكفار بعد كما قال الله عز وجل كمبدأ عام مخاطبًا لجميع الأنام: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} (الإسراء:٨٥) فمن هذا العلم الذي لم يحيطوا به إلى الآن أنهم لم يعثروا بعد على سد ذي القرنين، ولا على القوم الذي هم خلفه، أين هو؟ هو بلا شك في هذه الأرض {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} (البقرة:٢١٦) ولذلك فلا يشكلن

على أحد أن هؤلاء الكفار مسحوا الأرض، لا هذه دعوى كاذبة.

ثم إن هؤلاء الكفار لو وجدوا شيئًا من ذلك لبادروا إلى الإنكار؛ لأن في ذلك تأييدًا لدين الإسلام وهم كافرون به، وحينئذٍ يصدق فيهم كما قال رب العالمين في المشركين الأولين: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ} (النمل:١٤).

هذا جوابي عن هذه المشكلة، وخلاصتها: نؤمن بما جاء في الكتاب والسنة ونكفر بما يقال: إن هذا لا وجود له.

مداخلة: شيخ!... قول الرسول عليه السلام: «ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج مثل هذه، فحلق.. » إلى آخر الحديث، قول الرسول عليه السلام مع ما ذكرت من قوله عليه الصلاة والسلام: أنهم يلحسون بألسنتهم هذا السد، هذا يعني أنه من ذلك العهد فتح هذا الردم؟ يعني: نفس القصد..

الشيخ: في كل يوم هذا!

مداخلة: في كل يوم.

الشيخ: نعم، ثم يعود كما كان.

مداخلة: يعني: قول الرسول فتح اليوم، يعني: كل يوم.

الشيخ: في كل يوم.

مسألة: سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ١١): هل أشراط الساعة الكبرى تأتي بالترتيب؟ وهل الحيوانات تشعر بعلامات القيامة دون الإنس والجن؟.

فأجاب: أشراط الساعة الكبرى بعضها مرتب ومعلوم، وبعضها غير مرتب ولا يعلم ترتيبه، فمما جاء مرتبا: نزول عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج

ومأجوج، والدجال، فإن الدجال يبعث، ثم ينزل عيسى ابن مريم فيقتله، ثم يخرج يأجوج ومأجوج.

وقد رتب السفاريني -رَحِمَهُ اللَّهُ- في عقيدته هذه الأشراط، لكن بعض هذا الترتيب تطمئن إليه النفس، وبعضها ليس كذلك. والترتيب لا يهمنا، وإنما يهمنا أن للساعة علامات عظيمة إذا وقعت فإن الساعة تكون قد قربت، وقد جعل الله للساعة أشراطا؛ لأنها حدث هام، يحتاج الناس إلى تنبيههم لقرب حدوثه.

ولا ندري هل تشعر البهائم بذلك، ولكن البهائم تبعث يوم القيامة، وتحشر، ويقتص من بعضها لبعض، فيقتص للشاة الجلحاء من القرناء.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر (٢/ ١١): عن أحاديث خروج المهدي، هل هي صحيحة أو لا؟.

فأجاب: أحاديث المهدي تنقسم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: أحاديث مكذوبة.

القسم الثاني: أحاديث ضعيفة.

القسم الثالث: أحاديث حسنة، لكنها بمجموعها تصل إلى درجة الصحة، على أنها صحيح لغيره.

وقال بعض العلماء: إن فيها ما هو صحيح لذاته، وهذا هو القسم الرابع.

ولكنه ليس المهدي المزعوم، الذي يقال: إنه في سرداب في العراق، فإن هذا لا أصل له، وهو خرافة، ولا حقيقة له، ولكن المهدي الذي جاءت الأحاديث بإثباته رجل كغيره من بني آدم، يخلق ويولد في وقته، ويخرج إلى الناس في وقته، فهذه هي قصة المهدي، وإنكاره مطلقا خطأ، وإثباته مطلقا خطأ، كيف ذلك؟

إثباته على وجه يشمل المهدي المنتظر، الذي يقال: إنه في السرداب هذا

خطأ؛ لأن اعتقاد هذا المهدي المختفي خبل في العقل، وضلال في الشرع، وليس له أصل، وإثبات المهدي الذي أخبر به النبي ﷺ وتكاثرت فيه الأحاديث، والذي سيولد في وقته، ويخرج في وقته هذا حق.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر (٢/ ١٢): من هم يأجوج ومأجوج؟.

فأجاب: يأجوج ومأجوج أمتان من بني آدم موجودتان، قال الله - تعالى - في قصة ذي القرنين: ({حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} {فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}.

ويقول النبي ﷺ: «يقول الله يوم القيامة: يا آدم، قم فابعث بعث النار من ذريتك»، إلى أن قال رسول الله ﷺ: «أبشروا فإن منكم واحدا، ومن يأجوج ومأجوج ألفا». وخروجهم الذي هو من أشراط الساعة وجدت بوادره في عهد النبي ﷺ، ففي حديث أم حبيبة - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا - قالت: «خرج رسول الله ﷺ يوما فزعا محمرا وجهه، يقول: " لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها».

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر (٢/ ١٣): عن الدجال؟ ولماذا حذر الأنبياء أقوامهم منه مع أنه لا يخرج إلا في آخر الزمان؟.

فأجاب: أعظم فتنة على وجه الأرض منذ خلق آدم إلى قيام الساعة هي فتنة

الدجال، كما قال ذلك النبي ﷺ ولهذا ما من نبي من نوح إلى محمد - صلوات الله عليهم وسلامه - إلا أنذر قومه به تنويها بشأنه، وتعظيما له، وتحذيرا منه، وإلا فإن الله يعلم أنه لن يخرج إلا في آخر الزمان، ولكن أمر الرسل أن ينذروا قومهم إياه من أجل أن تتبين عظمته وفداحته، وقد صح ذلك عن النبي - عليه الصلاة والسلام - وقال: «إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم - صلوات الله وسلامه عليه؛ يعني أكفيكم إياه- وإلا فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم». نِعْمَ الخليفة ربنا - جل وعلا-.

فهذا الدجال شأنه عظيم، بل هو أعظم فتنة، كما جاء في الحديث منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة، فكان حريًا بأن يخص من بين فتن المحيا بالتعوذ من فتنته في الصلاة: «أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال».

وأما الدجال فهو مأخوذ من الدجل وهو التمويه؛ لأن هذا مموه بل أعظم مموه، وأشد الناس دجلا.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر (٢/ ١٤): عن وقت خروج المسيح الدجال.

فأجاب: خروج المسيح الدجال من علامات الساعة، ولكنه غير محدد؛ لأنه لا يعلم متى تكون الساعة إلا الله، فكذلك أشراطها ما نعلم منها إلا ما ظهر، فوقت خروجه غير معلوم لنا، لكننا نعلم أنه من أشراط الساعة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر (٢/ ١٤): عن مكان خروج الدجال.

فأجاب: يخرج من المشرق من جهة الفتن والشر كما، قال النبي ﷺ: «الفتنة هاهنا» وأشار إلى المشرق، فالمشرق: منبع الشر والفتن، يخرج من المشرق من خراسان، مارًا بأصفهان، داخلا الجزيرة من بين الشام والعراق،

ليس له هم إلا المدينة؛ لأن فيها البشير النذير - عليه الصلاة والسلام - فيحب أن يقضي على أهل المدينة، ولكنها محرمة عليه، كما ثبت عن النبي ﷺ: «على كل باب منها ملائكة يحفظونها». هذا الرجل يخرج خلة بين الشام والعراق، ويتبعه من يهود أصفهان سبعون ألفا؛ لأنهم جنوده، فاليهود من أخبث عباد الله، وهو أضل عباد الله، فيتبعونه ويؤوونه وينصرونه، ويكونون مسالح له - أي جنودا مجندين- هم، وغيرهم ممن يتبعهم، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : «"يا عباد الله، فاثبتوا. يا عباد الله، فاثبتوا». يثبتنا عليه الصلاة والسلام؛ لأن الأمر خطير، وقال - عليه الصلاة والسلام -: «من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات». يأتيه الإنسان، ويقول: لن يضلني، ولن أتأثر به، ولكن لا يزال يلقي عليه من الشبهات حتى يتبعه والعياذ بالله.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر (٢/ ١٥): عن دعوة الدجال وما يدعو إليه.

فأجاب: ذكر أنه أول ما يخرج يدعو إلى الإسلام، ويقول: إنه مسلم، وينافح عن الإسلام، ثم بعد ذلك يدعي النبوة، وأنه نبي، ثم بعد ذلك يدعي أنه إله، فهذه دعوته نهايتها بداية فرعون، وهي ادعاء الربوبية.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر (٢/ ١٥): عن فتنة الدجال.

فأجاب: من حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ أنه - سبحانه وتعالى - يعطي الدجال آيات فيها فتن عظيمة، فإنه يأتي إلى القوم يدعوهم فيتبعونه، فيصبحون وقد نبتت أراضيهم، وشبعت مواشيهم، فتعود إليهم أطول ما كانت ذرى، وأسبغ ضروعا، وأمد خواصر؛ يعني أنهم يعيشون برغد؛ لأنهم اتبعوه.

ويأتي القوم فيدعوهم فلا يتبعونه، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء

من أموالهم، وهذه فتنة عظيمة، لا سيما في الأعراب، ويمر بالخربة، فيقول: أخرجي كنوزك، فتخرج كنوزها تتبعه كيعاسيب النحل من ذهب وفضة، وغيرها بدون آلات، وبدون أي شيء، فتنة من الله – ﷻ – فهذه حاله، ومعاملته مع أهل الدنيا لمن يريد التمتع بالدنيا، أو يبأس فيها.

ومن فتنته أن الله – تعالى – جعل معه جنة ونارا بحسب رؤيا العين، لكن جنته نار، وناره جنة، فمن أطاعه أدخل هذه الجنة فيما يرى الناس، ولكنها نار محرقة والعياذ بالله، ومن عصاه أدخله النار فيما يراه الناس، ولكنها جنة وماء عذب طيب.

إذن يحتاج الأمر إلى تثبيت من الله ﷻ إن لم يثبت الله المرء هلك وضل، فيحتاج إلى أن يثبت الله المرء على دينه ثباتا قويا.

ومن فتنته أنه يخرج إليه رجل من الناس ممتلئ شبابا، فيقول له: أنت الدجال الذي ذكر لنا رسول الله ﷺ فيدعوه، فيأبى أن يتبعه فيضربه، ويشجه في المرة الأولى، ثم يقتله، ويقطعه قطعتين، ويمشي بينهما تحقيقا للمباينة بينهما، ثم يدعوه فيقوم يتهلل وجهه، ويقول: أنت الدجال الذي ذكر لنا رسول الله ﷺ، ثم يأتي ليقتله فلا يسلط عليه، يعجز عن قتله، ولن يسلط على أحد بعده، فهذا من أعظم الناس شهادة عند الله؛ لأنه في هذا المقام العظيم الرهيب الذي لا نتصوره نحن في هذا المكان، لا يتصور رهبته إلا من باشره، ومع ذلك يصرح على الملأ إعذارا وإنذارا، بأنك أنت الدجال الذي ذكر لنا رسول الله ﷺ، هذه حاله، وما يدعو إليه.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر (٢/ ١٦): عن مقدار لبث الدجال في الأرض.

فأجاب: مقدار لبثه في الأرض: أربعون يوما فقط، لكن يوم كسنة، ويوم

كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامنا، هكذا حدث النبي ﷺ، «قال الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله، هذا اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم واحد؟ قال: " لا، اقدروا له قدره"»، انظروا إلى هذا المثال لنأخذ منه عبرة، كيف كان تصديق أصحاب رسول الله ﷺ لرسول الله، ما ذهبوا يحرفون، أو يؤولون، أو يقولون: إن اليوم لا يمكن أن يطول؛ لأن الشمس تجري في فلكها، ولا تتغير، ولكنه يطول لكثرة المشاق فيه وعظمها، فهو يطول؛ لأنه متعب - بكسر العين - ما قالوا هكذا، كما يقول بعض المتحذلقين، ولكن صدقوا بأن هذا اليوم سيكون اثني عشر شهرا حقيقة، بدون تحريف، وبدون تأويل.

وهكذا حقيقة المؤمن ينقاد لما أخبر الله به ورسوله من أمور الغيب، وإن حار فيها عقله، لكن يجب أن تعلم أن خبر الله ورسوله لا يكون في شيء محال عقلا، لكن يكون في شيء تحار فيه العقول؛ لأنها لا تدركه، فالرسول ﷺ أخبر أن أول يوم من أيام الدجال كسنة، لو أن هذا الحديث مر على المتأخرين، الذين يدعون أنهم هم العقلاء لقالوا: إن طوله مجاز، عما فيه من التعب والمشقة؛ لأن أيام السرور قصيرة، وأيام الشرور طويلة، ولكن الصحابة - رضي الله عنهم - من صفائهم وقبولهم سلموا في الحال، وقالوا بلسان الحال: إن الذي خلق الشمس، وجعلها تجري في أربع وعشرين ساعة في اليوم والليلة قادر على أن يجعلها تجري في اثني عشر شهرا؛ لأن الخالق واحد عز وجل فهو قادر، ولذلك سلموا. وقالوا: كيف نصلي؟

ما سألوا عن الأمر الكوني؛ لأنهم يعلمون أن قدرة الله فوق مستواهم، سألوا عن الأمر الشرعي الذين هم مكلفون به وهو الصلاة، وهذا والله حقيقة الانقياد والقبول، قالوا: «يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟

قال: " لا، اقدروا له قدره». وسبحان الله العظيم، إذا تأملت تبين لك أن هذا الدين تام كامل، لا يمكن أن تكون مسألة يحتاج الناس إليها إلى يوم القيامة إلا وجد لها أصل، كيف أنطق الله الصحابة أن يسألوا هذا السؤال؟

أنطقهم الله حتى يكون الدين كاملا، لا يحتاج إلى تكميل، وقد احتاج الناس إلى هذا الآن في المناطق القطبية، يبقى الليل فيها ستة أشهر، والنهار ستة أشهر، فنحتاج إلى هذا الحديث، انظر كيف أفتى الرسول ﷺ هذه الفتوى قبل أن تقع هذه المشكلة؛ لأن الله - تعالى - قال في كتابه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} . والله لو نتأمل الكلمة {أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} لعلمنا أنه لا يوجد شيء ناقص في الدين أبدا، فهو كامل من كل وجه، لكن النقص فينا؛ إما قصور في عقولنا، أو في أفهامنا، أو في إرادات ليست منضبطة، يكون الإنسان يريد أن ينصر قوله، فيعمى عن الحق - نسأل الله العافية -.

فلو أننا نظرنا في علم، وفهم، وحسن نية لوجدنا أن الدين ولله الحمد لا يحتاج إلى مكمل، وأنه لا يمكن أن تقع مسألة صغيرة ولا كبيرة، إلا وجد حلها في الكتاب والسنة، لكن لما كثر الهوى، وغلب على الناس صار بعض الناس يعمى عليهم الحق، ويخفى عليهم، وتجدهم إذا نزلت فيهم الحادثة التي لم تكن معروفة من قبل بعينها، وإن كان جنسها معروفا تجدهم يختلفون فيها أكثر من أصابعهم، إذا كانت تحتمل قولين وجدت فيها عشرة، كل هذا؛ لأن الهوى غلب على الناس الآن، وإلا فلو كان القصد سليما والفهم صافيا، والعلم واسعا لتبين الحق.

على كل حال، أقول: إن الرسول ﷺ أخبر أن الدجال يبقى أربعين يوما، وبعد الأربعين يوما ينزل المسيح عيسى ابن مريم، الذي رفعه الله إليه، وقد جاء

في الأحاديث الصحيحة: «أنه ينزل عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق، واضعا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريحه إلا مات».

وهذه من آيات الله، فيلحق الدجال عند باب لد في فلسطين، فيقتله هناك، وحينئذ يقضي عليه نهائيا، ولا يقبل عيسى - عليه الصلاة والسلام - إلا الإسلام لا يقبل الجزية، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير فلا يعبد إلا الله، وعلى هذا فالجزية التي فرضها الإسلام جعل الإسلام لها أمدا تنتهي إليه عند نزول عيسى، ولا يقال: إن هذا تشريع من عيسى - عليه الصلاة والسلام -؛ لأن الرسول ﷺ أخبر بذلك مقرا له، فوضع الجزية عند نزول عيسى - عليه الصلاة والسلام -، من سنة الرسول ﷺ؛ لأن سنة الرسول ﷺ: قوله، وفعله، وإقراره، وكونه يتحدث عن عيسى ابن مريم مقرا له فهذا من سنته، وإلا فإن عيسى لا يأتي بشرع جديد، ولا أحد يأتي بشرع جديد، ليس إلا شرع محمد - عليه الصلاة والسلام - إلى يوم القيامة، هذا ما يتعلق بالدجال نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من فتنته.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر (٢/ ١٩): هل الدجال من بني آدم؟.

فأجاب: الدجال من بني آدم. وبعض العلماء يقول: إنه شيطان. وبعضهم يقول: إن أباه إنسي، وأمه جنية، وهذه الأقوال ليست صحيحة، فالذي يظهر: أن الدجال من بني آدم، وأنه يحتاج إلى الأكل والشرب، وغير ذلك، ولهذا يقتله عيسى قتلا عاديا كما يقتل البشر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر (٢/ ١٩): هل الدجال موجود الآن؟.

فأجاب: الدجال غير موجود؛ لأن الرسول، ﷺ خطب الناس في آخر حياته، وقال: " «إنه على رأس مائة سنة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد».

وهذا خبر، وخبر النبي ﷺ، لا يدخله الكذب، وهو متلقى من الوحي؛ لأن النبي، ﷺ لا يعلم مثل هذا الغيب فهو غير موجود، ولكن الله يبعثه متى شاء.

وسئل رحمه الله كما في المصدر (٢/ ٢٠): ذكرتم في الفتوى السابقة: أن الدجال غير موجود الآن، وهذا الكلام ظاهره يتعارض مع حديث فاطمة بنت قيس في الصحيح، عن قصة تميم الداري، فنرجو من فضيلتكم التكرم بتوضيح ذلك؟.

فأجاب: ذكرنا هذا مستدلين بما ثبت في الصحيحين، عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، قال: «إنه على رأس مائة سنة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد».

فإذا طبقنا هذا الحديث على حديث تميم الداري صار معارضا له؛ لأن ظاهر حديث تميم الداري أن هذا الدجال يبقى حتى يخرج، فيكون معارضا لهذا الحديث الثابت في الصحيحين، وأيضا فإن سياق حديث تميم الداري في ذكر الجساسة في نفسي منه شيء، هل هو من تعبير الرسول ﷺ أو لا؟.

وسئل رحمه الله كما في المصدر (٢/ ٢٠): عن قول بعض أهل العلم: إن الرسل الذين أنذروا أقوامهم الدجال لم ينذروهم بعينه، وإنما أنذروهم بجنس فتنته؟.

فأجاب: هذا القول الضعيف، بل هو نوع من التحريف؛ لأن الرسول ﷺ أخبر بأنه ما من نبي إلا أنذر به قومه بعينه كما في صحيح مسلم، أن النبي ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب»، وسبق لنا بيان الحكمة من إنذار الرسل به، ولكن يجب علينا أن نعلم أن جنس هذه الفتنة موجود حتى في غير هذا الرجل، يوجد من بني آدم الآن من يضل الناس بحاله، ومقاله، وبكل ما يستطيع، وتجد أن الله - سبحانه وتعالى - بحكمته أعطاه بيانا وفصاحة: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ . فعلى المرء إذا سمع مثل

هذه الفتن التي تكون لأهل البدع من أناس يبتدعون في العقائد، وأناس يبتدعون في السلوك، وغير ذلك، يجب عليه أن يعرض هذه البدع على الكتاب والسنة، وأن يَحْذَرَ ويُحَذِّرَ منها، وأن لا يغتر بما تكسى به من زخارف القول، فإن هذه الزخارف، كما قيل فيها:

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقا وكل كاسر مكسور

فالدجال المعين لا شك أن فتنته أعظم شيء يكون، لكن هناك دجاجلة يدجلون على الناس، ويموهون عليهم، فيجب الحذر منهم، ومعرفة إراداتهم ونياتهم، ولهذا قال الله تعالى في المنافقين: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ}. مع أنه قال: {وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ}. يعني بيانه، وفصاحته، وعظمه، يجرك جرًّا إلى أن تسمع، لكن كأنهم خشب مسندة، حتى الخشب ما هي قائمة بنفسها، مسندة تقوم على الجدار فهي لا خير فيها.

فهؤلاء الذين يزينون للناس بأساليب القول سواء في العقيدة، أو في السلوك، أو في المنهج يجب الحذر منهم، وأن تعرض أقوالهم، وأفعالهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فما خالفهما فهو باطل مهما كان، ولا تقولن: إن هؤلاء القوم أعطوا فصاحة وبيانا لينصروا الحق، فإن الله تعالى قد يبتلي فيعطي الإنسان فصاحة وبيانا، وإن كان على باطل، كما ابتلى الله الناس بالدجال وهو على باطل بلا شك.

(باب ذكر مباحث الصحابة)

مسائل في الباب

المسألة الأولى: تعريف الصحابي

أولا تعريفه في اللغة: الصاد والحاء والباء أصل واحد يدل على مقارنة شيء

ومقاربته، ومن ذلك الصاحب، والجمع: الصحب؛ ومن الباب: أصحب فلان: إذا انقاد، وكل شيء لائم شيئا فقد استصحبه.

ويقال صحبه يصحبه صحبة بالضم، وصحابة بالفتح، وصاحبه: عاشره، والصاحب: المعاشر، والجمع: أصحاب، والصحابة بالفتح: الأصحاب؛ ويقال: استصحبه: أي دعاه إلى الصحبة ولازمه؛ وأصحب البعير والدابة: أي: انقادا، وأصحبت الناقة: أي: انقادت واسترسلت وتبعت صاحبها.

وفي الكفاية للخطيب (ص: ١٠٠): حدثني محمد بن عبيد الله المالكي انه قرأ على القاضي أبى بكر محمد بن الطيب قال لا خلاف بين أهل اللغة في ان القول صحابي مشتق من الصحبة وانه ليس بمشتق من قدر منها مخصوص بل هو جار على كل من صحب غيره قليلا كان أو كثيرا كما ان القول مكلم ومخاطب وضارب مشتق من المكالمة والمخاطبة والضرب وجار على كل من وقع منه ذلك قليلا كان أو كثيرا وكذلك جميع الأسماء المشتقة من الأفعال وكذلك يقال صحبت فلانا حولا ودهرا وسنة وشهرا ويوما وساعة فيوقع اسم المصاحبة بقليل ما يقع منها وكثيره وذلك يوجب في حكم اللغة اجراء هذا على من صحب النبي ﷺ ولو ساعة من نهار هذا هو الأصل في اشتقاق الاسم ومع ذلك فقد تقرر للامة عرف في انهم لا يستعملون هذه التسمية الا فيمن كثرت صحبته واتصل لقاؤه ولا يجرون ذلك على من لقى المرء ساعة ومشى معه خطى وسمع منه حديثا فوجب لذلك ان لا يجرى هذا الاسم في عرف الاستعمال الا على من هذه حاله ومع هذا فان خبر الثقة الأمين عنه مقبول ومعمول به وان لم تطل صحبته ولا سمع منه الا حديثا واحدا.اهـ.

ثانيا: أما تعريف الصحابي في الإصطلاح فقد اختلف فيه العلماء، فذهب

أنس بن مالك كما في مقدمة ابن الصلاح (ص١١٩) إلى أن رؤية النبي ﷺ غير كافية لاعتبار الرجل صحابيا، فقد سئل: هل بقي أحد من الصحابة غيرك؟ فقال: بقي ناس من الأعراب، فأما صحبة فلا، واشترط سعيد بن المسيب لكي يعد الرجل صحابيا أن يقيم مع رسول الله ﷺ سنة أو ستين ويغزو معه غزوة أو غزوتين.

ويذكر ابن الصلاح في المقدمة (ص١١٨ - ١١٩) أن الأصوليين يرون أن اسم الصحابي من حيث اللغة والظاهر يقع على من طالت صحبته للنبي ﷺ وكثرت مجالسته له عن طريق التبع والأخذ عنه.

قال الباقلاني كما في الكفاية (ص١٠٠): "لا خلاف بين أهل اللغة أن القول "صحابي" مشتق من الصحبة وأنه ليس بمشتق من قدر منها مخصوص، بل هو جار على كل من صحب غيره، قليلًا كان أو كثيرًا...، وكذلك يقال: صحبت فلانًا حولًا، ودهرًا، وسنة، وشهرًا، ويومًا، وساعة، فيوقع اسم المصاحبة بقليل ما يقع منها وكثيره، وذلك يوجب في حكم اللغة إجراء هذا على من صحب النبي ﷺ ولو ساعة من نهار، هذا هو الأصل في اشتقاق الاسم، ومع ذلك فقد تقرر للأئمة عرف في أنهم لا يستعملون هذهالتسمية إلا فيمن كثرت صحبته واتصل لقاؤه، ولا يجرون ذلك على من لقي المرء ساعة ومشى معه خطى وسمع منه حديثًا، فوجب لذلك أن لا يجري هذا الاسم في عرف الاستعمال إلا على من هذه حاله.اهـ.

وقال أبو حامد الغزالي كما في أسد الغابة (١/ ١٣): "لا ينطبق اسم الصحبة إلا على من صحبه، ثم يكفي في الاسم من حيث الوضع الصحبة ولو ساعة، ولكن العرف يخصصه بمن طالت صحبته".اهـ.

وقد ذهب أهل الحديث مذهبا آخر في تعريف الصحابة، فقال الإمام أحمد كما أسد الغابة (١/ ١٣): "أصحاب رسول الله ﷺ كل من صحبه شهرا أو يوما أو ساعة أو رآه".

وقال البخاري في الصحيح (٥ - ٢): "إن كل مسلم رأى رسول الله ﷺ فهو من الصحابة".

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٥): "وقد وجدت ما جزم به البخاري من تعريف الصحابي في كلام شيخه علي بن المديني، فقرأت في "المستخرج" لأبي القاسم ابن منده بسنده قال علي بن المديني: من صحب النبي ﷺ أو رآه ولو ساعة من نهار فهو من أصحاب النبي ﷺ" ا. هـ

وقال أبو المظفر السمعاني كما في مقدمة ابن الصلاح (ص ١١٨ - ١١٩): "أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحبة على كل من روى عن النبي حديثا أو كلمة، ويتوسعون حتى يعدون من رآه رؤية من الصحابة".

قال الحافظ زين الدين العراقي في التقييد والإيضاح (ص: ٢٥١): بعد ذكر التعريفات السابقة والاعتراضات عليها -: "فالعبارة السالمة من الاعتراض أن يقال: الصحابي من لقي النبي ﷺ مسلمًا ثم مات على الإسلام، ليخرج بذلك من ارتد ومات كافرًا كعبد الله بن خطل وربيعة بن أمية ومقيس بن ضبابة ونحوهم".

وقال الحافظ في الإصابة (١/ ٧ - ٨): وأصح ما وقفت عليه من ذلك: أن الصحابي: من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى.

ويخرج بقيد الإيمان من لقيه كافرًا ولو أسلم بعد ذلك إذا لم يجتمع به مرة أخرى.

وقولنا: "به" يخرج من لقيه مؤمنًا بغيره، كمن لقيه من مؤمني أهل الكتاب قبل البعثة.

ويخرج بقولنا: "ومات على الإسلام" من لقيه مؤمناً به ثم ارتد ومات على ردته كعبيد الله بن جحش وكعبد الله بن خطل، ويدخل فيه من ارتد وعاد إلى الإسلام قبل أن يموت، سواء اجتمع به ﷺ مرة أخرى أم لا، وهذا هو الصحيح المعتمد".

وقال: "فلو ارتد ثم عاد إلى الإسلام لكن لم يره ثانيًا بعد عوده، فالصحيح أنه معدود في الصحابة لإطباق المحدثين على عد الأشعث بن قيس في الصحابة، وعلى تخريج أحاديثه في الصحاح والمسانيد، وهو ممن ارتد ثم عاد إلى الإسلام في خلافة أبي بكر".اهـ.

(فرع): هل يشمل من اجتمع به بعد موته ﷺ وقبل دفنه - يعني حضر وصلى على النبي ﷺ؟ في هذا خلاف: فمنهم من يقول: إنه إذا حضر النبي ﷺ بعد موته وقبل دفنه فهو صحابي؛ لأن نبوته ﷺ لا تنقطع بموته.

ومنهم من قال: ليس بصحابي؛ لأنه اجتمع بالنبي ﷺ وهو ميت.

قال ابن النجار (٢/ ٤٦٦): وقولنا: "حيا" احتراز ممن رآه بعد موته كأبي ذؤيب الشاعر خالد بن خويلد الهذلي؛ لأنه لما أسلم وأخبر بمرض النبي ﷺ: سافر ليراه، فوجده ميتا مسجى فحضر الصلاة عليه والدفن، فلم يعد صحابيا، وعده ابن منده في الصحابة، وقال: مات على الحنيفية. وفي "شرح التدريب"، ومن عده من الصحابة فمراده الصحبة الحكمية، دون الاصطلاحية.

المسألة الثانية: فضل الصحابة

اعلم وقانا الله وإياك الفتن، ما ظهر منها وما بطن أن أصحاب محمد ﷺ هم أفضل أصحاب لأفضل نبي، وخاصة الخلفاء الأربعة الراشدين المهديين.

قال الله تعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه) التوبة/ ١٠٠. قال ابن كثير رحمه الله: " قد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم " انتهى. "تفسير ابن كثير" (٤/ ٢٠٣)، وقال الله تعالى عن المهاجرين: (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون) الحشر/ ٨، وقال سبحانه عن الأنصار: (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) الحشر/ ٩، وقال عن الذين جاءوا من بعدهم من المؤمنين: (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) الحشر/ ١٠. أما ما حصل بين الصحابة من الاختلاف والاقتتال: فيجب علينا الكف عنه، مع اعتقاد أنهم أفضل الأمة، ومحبتهم والترضي عنهم، وعلى هذا تتابعت كلمة أهل السنة والجماعة.

قال إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد -رحمه الله- في عقيدته (ص٨٠ – ٨١): ومن الحجة الواضحة الثابتة البينة المعروفة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين والكف عن ذكر مساويهم التي شجرت بينهم فمن سب

أصحاب رسول الله ﷺ أو واحدا منهم أو تنقص أو طعن عليهم أو عرض بعيبهم أو عاب واحدا منهم فهو مبتدع رافضي خبيث مخالف لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا بل حبهم سنة والدعاء لهم قربة والإقتداء بهم وسيلة والأخذ بآثارهم فضيلة وخير الأمة بعد النبي ﷺ أبو بكر وعمر بعد أبي بكر وعثمان بعد عمر وعلي بعد عثمان ووقف قوم على عثمان وهم خلفاء راشدون مهديون ثم أصحاب رسول الله ﷺ بعد هؤلاء الأربعة خير الناس لا يجوز لأحد أن يذكر شيئا من مساويهم ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا بنقص فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته ليس له أن يعفو عنه بل يعاقبه ويستتيبه فإن تاب قبل منه وإن ثبت أعاد عليه العقوبة وخلده في الحبس حتى يموت أو يراجع.اهـ.

وسئل عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن علي وعثمان والجمل وصفين وما كان بينهم؟ فقال: (تلك دماء كف الله يدي عنها، وأنا أكره أن أغمس لساني فيها). "الطبقات الكبرى" (٥/ ٣٩٤).

وقال الطحاوي في الطحاوية: ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.اهـ.

قال شارح الطحاوية (٤٦٩): فمن أضل ممن يكون في قلبه غل على خيار المؤمنين، وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين؛ بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة؛ قيل لليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى. وقيل للنصارى: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى. وقيل للرافضة: من شر

أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد، ولم يستثنوا منهم إلا القليل، وفيمن سبوهم من هو خير ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة.اهـ.

وروى الخطيب البغدادي في كتابه الكفاية (ص:٤٩) بإسناده إلى أبي زرعة الرازي أنه قال: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق؛ وذلك أن رسول الله ﷺ عندنا حق والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة.اهـ.

وقال البغوي في شرح السنة (١/ ٢٢٩): قال مالك: من يبغض أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ وكان في قلبه عليه غل فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ قوله سبحانه وتعالى: {ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى} إلى قوله: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} الآية، وذكر بين يديه رجل ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك هذه الآية {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار} إلى قوله: {ليغيظ بهم الكفار}، ثم قال: من أصبح من الناس في قلبه غل على أحد من أصحاب النبي ﷺ فقد أصابته هذه الآية.اهـ.

وقال أبو عثمان الصابوني في كتابه عقيدة السلف وأصحاب الحديث: ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيبا لهم أو نقصا فيهم ويرون الترحم على جميعهم والموالاة لكافتهم.اهـ.

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٣٢١): لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله ﷻ،

وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة ولنهي النبي ﷺ عن سبهم، وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم.اهـ.

وقال ابن أبي زيد القيرواني وهو بصدد عرضه لما يجب أن يعتقده المسلم في أصحاب رسول الله ﷺ وما ينبغي أن يذكروا به قال: وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب.اهـ.

ونقل الحافظ في الفتح (٤/ ٣٦٥) عن أبي المظفر السمعاني أنه قال: التعرض إلى جانب الصحابة علامة على خذلان فاعله، بل هو بدعة وضلالة.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية (ص:٢٨): وهم مع ذلك (يعني أهل السنة والجماعة) لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر، حتى إنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون، وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبا ممن بعدهم، ثم إذا كان قد صدر عن أحد منهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين، إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور، ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر

مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم من الفضائل علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في إجابته على سؤال في معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه -: لا يجوز لعن أحد من أصحاب النبي ﷺ ولا سبه، ومن لعن أحدا منهم كمعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، ونحوهما، أو من هو أفضل منهما كأبي موسى الأشعري، وأبي هريرة، وغيرهما، أو من هو أفضل من هؤلاء، كطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، أو عائشة أم المؤمنين، وغير هؤلاء من أصحاب النبي ﷺ، فإنه مستحق للعقوبة البليغة باتفاق أئمة الدين. وتنازع العلماء، هل يعاقب بالقتل أو بما دون القتل؟).

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٤): اتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم؛ لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، وقد عفا الله تعالى عن المخطئ في الاجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجرا واحدا وأن المصيب يؤجر أجرين.اهـ..

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب في مختصر سيرة الرسول ﷺ (٢٣٨) أجمع أهل السنة على السكوت عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم ولا يقال فيهم إلا الحسنى فمن تكلم في معاوية أو غيره من الصحابة فقد خرج عن الإجماع والله

سبحانه وتعالى أعلم.

(فرع): عدالة الصحابة

يعتقد أهل السنة والجماعة أن للصحبة شرفا عظيما، يمنح صاحبها ميزة خاصة، بل يرون أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل، لمشاهدة رسول الله ﷺ، هذا لمن رآه، أما من اتفق له الذب عنه، والسبق إليه بالهجرة، أو النصرة، أو ضبط الشرع المتلقى عنه وتبليغه لمن بعده، فإنه لا يعدله أحد ممن يأتي بعده، لأنه ما من خصلة إلا والذي سبق بها له مثل أجر من عمل بها من بعده، فظهر بذلك فضلهم.

قال ابن عمر رضي الله عنه وهو يتحدث عن فضائل الصحابة: (لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، فلمقام أحدهم ساعة، خير من عمل أحدكم عمره)١.

وقال الإمام أحمد كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٦٠): فأدناهم صحبة هو أفضل من القرن الذين لم يروه ولو لقوا الله بجميع الأعمال.اهـ.

وقال النووي في شرح مسلم (١٦/ ٩٣): وفضيلة الصحبة، ولو لحظة، لا يوازيها عمل، ولا تنال درجتها بشيء، والفضائل لا تؤخذ بالقياس، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.اهـ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ١٧٨)، وأحمد في فضائل الصحابة (١٥، ٢٠، ١٧٢٩، ١٧٣٦)، وابن ماجة (١٢٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١٠٠٦)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٢٤٩)، والبيهقي في الاعتقاد (ص٣٢٣) والحديث قال عنه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٢٤): إسناده صحيح رجاله ثقات، وحسنه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة، وصححه العلامة الوادعي في الإلحاد الخميني في أرض الحرمين، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (١/ ١١٢): إسناده قوي.

فمذهب أهل السنة والجماعة أن الله تعالى حين أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله اختار لصحبته وتلقي الشريعة عنه قوما هم أفضل هذه الأمة التي هي خير الأمم، فشرفهم بصحبة نبيه ﷺ، وخصهم في الحياة الدنيا بشرف رؤيته والنظر إليه، وسماع حديثه، وقد بلغوا عن رسول الله ﷺ ما بعثه الله به من النور والهدى على أكمل الوجوه وأتمها، فكان لهم الأجر العظيم لصحبتهم رسول الله ﷺ، والجهاد معه في سبيل الله، وأعمالهم الجليلة في نشر الإسلام، ولهم مثل أجور من بعدهم لأنهم الواسطة بينهم وبين رسول الله ﷺ، ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا.

ومعتقدهم في الصحابة وسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وسط بين المفرطين الغالين الذين يرفعون من يعظمون منهم إلى ما لا يليق إلا بالله أو برسله، وبين المفرطين الجافين الذين ينتقصونهم ويسبونهم، فهم وسط بين الغلاة والجفاة، يحبونهم جميعا وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والإنصاف، فلا يرفعونهم إلى ما لا يستحقون ولا يقصرون بهم عما يليق بهم، فألسنتهم رطبة بذكرهم الجميل اللائق بهم وقلوبهم عامرة بحبهم، وما صح فيما جرى بينهم من خلاف فهم فيه مجتهدون، إما مصيبون ولهم أجر الاجتهاد، وأجر الإصابة، وإما مخطئون ولهم أجر الاجتهاد وخطؤهم مغفور، وليسوا بمعصومين، بل هم بشر يصيبون ويخطئون، ولكن ما أكثر صوابهم بالنسبة لصواب غيرهم، وما أقل خطأهم، إذا نسب إلى خطأ غيرهم، ولهم من الله المغفرة والرضوان.

ولأهمية هذه المسألة فإن أهل السنة والجماعة يذكرون معتقدهم في

الصحابة في كتب العقيدة، وكأنهم يجعلون منها علامة فارقة بينهم وبين غيرهم.

أما كتب مصطلح الحديث والأصول، فقد تكفلت بذكر عدالتهم وأدلة العلماء عليها، في حين ذكرت كتب السنة جملة كبيرة من الأحاديث التي ثبتت في فضلهم والثناء عليهم، ونوهت كتب التفسير بفضلهم عند تفسير الآيات التي تخص الصحابة.

لذلك فإن أهل السنة والجماعة يرون أن شرف الصحبة يضيف على صاحبه إطلاق مفهوم العدالة عليه، وهذا قول كل من يعتد به منهم، فإنهم يقولون بتعديل جميع أصحاب النبي ﷺ من أسلم منهم قبل الفتح، ومن أسلم بعده، ومن لابس الفتن أو لم يلابس.

قال ابن الصلاح في المقدمة (ص: ١٤٦ - ١٤٧): الأمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة، ولا يعتد بخلاف من خالفهم.اهـ.

وقال الشيخ تقي الدين كما في المسودة (ص: ٢٩٢): الذي عليه سلف الأمة وجمهور الخلف أن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين عدول بتعديل الله تعالى لهم.اهـ.

وحكى ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٩) إجماع أهل السنة والجماعة على تعديل الصحابة.اهـ. وحكاه إمام الحرمين أيضا على ما ذكره الشوكاني في إرشاد الفحول (ص: ٦٩).

وقال شارح مسلم الثبوت (٢/ ٤٠١): إن عدالة الصحابة مقطوعة ولا سيما أصحاب بدر، وبيعة الرضوان، كيف لا وقد أثنى عليهم الله تعالى في مواضع عديد من كتابه، وبين رسول الله ﷺ فضائلهم غير مرة.اهـ.

وقال الحافظ الذهبي في الرواة الثقاة المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم (ص

٤): فأما الصحابة رضي الله عنهم فبساطهم مطوي وإن جرى ما جرى - إلى أن قال - إذ على عدالتهم وقبول ما نقلوه العمل وبه ندين الله تعالى.اهـ.

وقال ابن كثير في إختصار علوم الحديث (ص ٢٢٠): أن الصحابة كلهم عدول عند أهل السنة والجماعة.اهـ.

وبناء على ذلك، يرى أهل السنة والجماعة أن جهالة الصحابي لا تضر، فإذا قال التابعي عن رجل ممن صحب النبي ﷺ لم يؤثر ذلك في المروي، لأن الجهالة في الصحابة لا تضر.

قال الخطيب في الكفاية (ص ٩٣): كل حديث اتصل إسناده بين من رواه وبين النبي ﷺ لم يلزم العمل به إلا بعد ثبوت عدالة رجاله، ويجب النظر في أحوالهم، سوى الصحابي الذي رفعه إلى رسول الله ﷺ، لأن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم، وإخباره عن طهارتهم، واختياره لهم في نص القرآن الكريم.اهـ.

ويعتقد أهل السنة والجماعة أن الصحابة رضي الله عنهم اكتسبوا هذا التعديل بتعديل الله تعالى لهم وثنائه عليهم، وثناء رسوله ﷺ وأن الحال التي كانوا عليها شاهدة على ذلك. انظر كتاب عدالة الصحابة رضي الله عنهم عند المسلمين.

المسألة الثالثة: حكم سب الصحابة رضي الله عنه

ينقسم سب الصحابة ألى انواع، ولكل نوع من السب حكم خاص به. والسبب: هو الكلام الذي يقصد به الانتقاص والاستخفاف، وهو ما يفهم من السب بعقول الناس على اختلاف اعتقاداتهم، كاللعن والتقبيح ونحوهما. (الصارم المسلول). وسب الصحابة رضوان الله عليهم دركات بعضها شر من بعض، فمن سب بالكفر أو الفسق، ومن سب بامور دنيوية كالبخل، وضعف

الرأي. وهذا السب أما أن يكون لجميعهم أو أكثرهم، أو يكون لبعضهم أو لفرد منهم، وهذا الفرد إما ان يكون ممن تواترت النصوص بفضله أو دون ذلك. وإليك تفاصيل وبيان أحكام كل قسم.

من سب الصحابة بالكفر والردة أو الفسق، جميعهم

فلا شك في كفر من قال بذلك لأمور من أهمها:

إن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفار أو فساق، وبذلك يقع الشك في القرآن والأحاديث، لأن الطعن في النقلة طعن في المنقول.

إن في هذا تكذيبا لما نص عليه القرآن من الرضا عنهم والثناء عليهم (فالعلم الحاصل من نصوص القرآن والأحاديث الدالة على فضلهم قطعي). (الرد على الرافضة ص١٩). ومن أنكر ما هو قطعي فقد كفر. إن في ذلك إيذاء له ﷺ، لأنهم أصحابه وخاصته، فسب المرء خاصته والطعن فيهم، يؤذيه ولا شك. وأذى الرسول ﷺ كفر كما هو مقرر. قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا حكم هذا القسم: (وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرا قليلا لا يبلغون بضعة عشر نفسا، أو أنهم فسقوا عامتهم، فهذا لا ريب أيضا في كفره، لأنه مكذب لما نص القرآن في غير موضع، من الرضا عنهم والثناء عليهم، بل من يشك في كفر مثل هذا فإن كفره متعين..- إلى ان قال - وكفر هذا مما يعلم بالاضطرارمن دين الإسلام). (الصارم المسلول ٥٨٦ - ٥٨٧). وقال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم الكلام - أي الخلاف - إنما هو في سب بعضهم، أما سب جميعهم فلا شك في أنه كفر). (الصواعق المحرقة ٣٧٩). ومع وضوح الأدلة الكلية السابقة، ذكر بعض العلماء أدلة اخرى تفصيلية، منها:

أولا: ما مر معنا من تفسير العلماء للآية الأخيرة من سورة الفتح، من قوله

{محمد رسول الله والذين معه} إلى قوله {ليغيظ بهم الكفار} استنبط الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه الآية كفر من يبغضون الصحابة، لان الصحابة يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر، ووافقه الشافعي وغيره. (الصواعق المحرقة ص٣١٧، وتفسير ابن كثير ٤/ ٢٠٤).

ثانيا: ما سبق ذكره من حديث أنس عند الشيخين أن النبي ﷺ قال: (آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الانصار)، وفي رواية: (لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق).

ولمسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: (لا يبغض الأنصار رجل آمن بالله واليوم الآخر)، فمن سبهم فقد زاد على بغضهم، فيجب أن يكون منافقا لا يؤمن بالله ولا اليوم الآخر. (الصارم المسلولص٥٨١).

ثالثا: ما ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، انه ضرب بالدرة من فضله على أبي بكر، ثم قال عمر: (أبو بكر كان خير الناس بعد رسول الله ﷺ في كذا وكذا)، ثم قال عمر: (من قال غير هذا أقمنا عليه ما نقيم على المفتري). (فضائل الصحابة للإمام أحمد ١/ ٣٠٠، وصححه ابن تيمية في الصارم ص٥٨٥).

وكذلك قال أمير المؤمنين علي بن ابي طالب: (لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري). (فضائل الصحابة ١/ ٨٣، والسنة لابن ابي عاصم ٢/ ٥٧٥ عن طريق الحكم بن جحل وسنده ضعيف لضعف أبي عبيدة بن الحكم، انظر فضائل الصحابة ١/ ٨٣، لكن له شواهد أحدهما من طريق علقمة عن علي عند ابن ابي عاصم في السنة ٢/ ٤٨، حسن الالباني إسناده، والأخر عن سويد بن غفلة عن علي عند الالكائي ٧/ ١٢٩٥).

فإذا كان الخليفتان الراشدان عمر وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يجلدان حد المفتري من يفضل عليا على أبي بكر وعمر، أو يفضل عمرا على أبي بكر، مع ان مجرد التفضيل ليس فيه سب ولا عيب، علم عقوبة السب عندهما فوق هذا بكثير. (الصارم المسلول ص ٥٨٦).

*من سب بعضهم سبا يطعن في دينهم كأن يتهمهم بالكفر أو الفسق، وكان ممن تواترت النصوص بفضله. (بعض العلماء يقيد ذلك بالخلفاء، والبعض يقتصر على الشيخين، ومن العلماء من يفرق باعتبار تواتر النصوص بفضله او عدم تواترها، ولعله الأقرب والله اعلم، وكذلك بعض من يكفر ساب الخلفاء يقصر ذلك على رميهم بالكفر، والآخرون يعممون بكل سب فيه طعن في الدين): فذلك كفر على الصحيح، لأن في هذا تكذيبا لامر متواتر.

روى ابو محمد بن ابي زيد عن سحنون، قال: ((من قال في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، أنهم كانوا على ضلال وكفر، قتل، ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل ذلك نكل النكال الشديد). (الشفا للقاضي عياض ٢/ ١١٠٩).

وقال هشام بن عمار: (سمعت مالكا يقول: من سب ابا بكر وعمر، قتل، ومن سب عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قتل، لأن الله تعالى يقول فيها: {يعظكم الله أن تعودوا لمثله ابدا إن كنتم مؤمنين} فمن رماها فقد خالف القرآن، ومن خالف القرين قتل). (الصواعق المحرقة ص٣٨٤).

أما قول مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرواية الأخرى: (ومن سب أبا بكر، جلد، ومن سب عائشة، قتل. قيل له: لم؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن).

فالظاهر - والله اعلم - أن مقصود مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا في سب أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما هو دون الكفر، ويوضحه بقية كلامه عن عائشة رضي اللع عنها، حيث قال:

(من رماها فقد خالف القرآن) فهذا سب مخصوص يكفر صاحبه - ولا يشمل كل سب - وذلك لأنه ورد عن مالك القول بالقتل فيمن كفر من هو دون أبي بكر. (الشفا ٢/ ١١٠٩).

قال الهيثمي مشيرا إلى ما يقارب ذلك عند كلامه عن حكم سب أبي بكر: (فيتلخص ان سب أبي بكر كفر عند الحنفية، وعلى أحد الوجهين عند الشافعية، ومشهور مذهب مالك أنه يجب به الجلد، فليس بكفر. نعم قد يخرج عنه ما مر عنه في الخوارج أنه كفر، فتكون المسألة عنده على حالين: إن اقتصر على السب من غير تكفير لم يكفره وإلا كفره)). (الصواعق ص ٣٨٦).

وقال أيضا: (وأما تكفير أبي بكر ونظرائه ممن شهد لهم النبي ﷺ بالجنة، فلم يتكلم فيها أصحاب الشافعي، والذي أراه الكفر فيها قطعا). (الصواعق ص٣٨٥)

وقال الخرشي: (من رمى عائشة بما برأها الله منه... أو أنكر صحبة أبي بكر، أو إسلام العشرة، أو إسلام جميع الصحابة، أو كفر الأربعة، أو واحدا منهم، كفر). (الخرشي على مختصر خليل ٨/ ٧٤).

وقال البغدادي: (وقالوا بتكفير كل من أكفر واحدا من العشرة الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة، وقالوا بموالاة جميع أزواج رسول الله ﷺ، وأكفروا من أكفرهن، أو أكفر بعضهن). (الفرق بين الفرق ص٣٦٠).

والمسألة فيها خلاف مشهور، ولعل الراجح ما تقدم، وأما القائلون بعدم تكفير من هذه حاله، فقد اجمعوا على أنه فاسق، لارتكابه كبيرة من كبائر الذنوب، يستحق عليه التعزير والتأديب، على حسب منزلة الصحابي، ونوعية السب. وإليك بيان ذلك: قال الهيثمي: (أجمع القائلون بعدم تكفير من سب

الصحابة على أنهم فساق). (الصواعق المحرقة ص٣٨٣).

وقال ابن تيمية: (قال ابراهيم النخعي: كان يقال: شتم أبي بكر وعمر من الكبائر، وكذلك قال أبو اسحاق السبيعي: شتم أبي بكر وعمر من الكبائر التي قال الله تعالى فيها: {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه}. وإذا كان شتمهم بهذه المثابة، فأقل مافيه التعزير، لأنه مشروع في كل معصية ليس فيها حد أو كفارة. وهذا مما لا نعلم فيه خلافا بين أهل الفقه والعلم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين بأحسان، وسائر أهل السنة والجماعة، فإنهم مجمعون على أن الواجب الثناء عليهم والاستغفار لهم والترحم عليهم... وعقوبة من اساء فيهم القول). (اللالكائي ٨/ ١٢٦٢ - ١٢٦٦).

وقال القاضي عياض: (وسب أحدهم من المعاصي الكبائر، ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يعزر ولا يقتل). (مسلم بشرح النووي ١٦/ ٩٣).

وقال عبد الملك بن حبيب: (من غلا من الشيعة إلى بغض عثمان والبراء منه أدب أدبا شديدا، وإن زاد إلى بغض أبي بكر وعمر، فالعقوبة عليه اشد، ويكرر ضربه ويطال سجنه حتى يموت). (الشفا ٢/ ١١٠٨).

فلا يقتصر في سب أبي بكر رضي الله عنه على الجلد الذي يقتصر عليه في غيره، لأن ذلك الجلد لمجرد حق الصحبة، فإذا انضاف إلى الصحبة غيرها مما يقضي الإحترام، لنصرة الدين وجماعة المسلمين وما حصل على يده من الفتوح وخلافة النبي ﷺ وغير ذلك، كان كل واحدة من هذه الأمور تقتضي مزيد حق موجب لزيادة العقوبة عند الاجتراء عليه. (الصواعق المحرقة ص٣٨٧).

وعقوبة التعزير المشار إليها لا خيار للإمام فيها، بل يجب عليه فعل ذلك.

قال الإمام أحمد رحمه الله: (لا يجوز لأحد أن يذكر شيئا من مساوئهم، ولا

يطعن على أحد منهم بعيب ولا بنقص، فمن فعل ذلك وجب على السلطان تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ويستتيبه، فإن تاب قبل منه، وإن ثبت عاد عليه بالعقوبة، وخلده الحبس حتى يموت أو يرجع). (طبقات الحنابلة ١/ ٢٤، والصارم المسلول).

فانظر أخي المسلم إلى قول إمام اهل السنة فيمن يعيب أو يطعن بواحد منهم، ووجوب عقوبته وتأديبه.

ولما كان سبهم المذكور من كبائر الذنوب عند بعض العلماء فحكم فاعله حكم أهل الكبائر من جهة كفر مستحلها.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، مبينا حكم استحلال سب الصحابة: (ومن خص بعضهم بالسب، فإن كان ممن تواتر النقل في فضله وكماله كالخلفاء، فإن اعتقد حقية سبه أو اباحته فقد كفر، لتكذيبه ما ثبت قطعا عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومكذبه كافر، وإن سبه من غير اعتقاد حقية سبه أو إباحته فقد تفسق، لأن سباب المسلم فسوق، وقد حكم البعض فيمن سب الشيخين بالكفر مطلقا، والله أعلم). (الرد على الرافضة ص١٩).

وقال القاضي أبو يعلي - تعليقا على قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ حين سئل عن شتم الصحابة، فقال: "ما أراه على الإسلام"، قال أبو يعلي: (فيحتمل أن يحمل قوله: ما أراه على الإسلام، إذا استحل سبهم، فإنه يكفر بلا خلاف، ويحمل إسقاط القتل على من لم يستحل ذلك مع اعتقاده تحريمه، كمن يأتي بالمعاصي...) ثم ذكر بقية الاحتمالات. (الصارم المسلول ص ٥٧١ وما قبلها).

يتلخص مما سبق فيمن سب بعضهم سبا يطعن في دينه وعدالته، وكان ممن

تواترت النصوص بفضله، انه يكفر - على الراجح - لتكذيبه امرا متواترا.

أما من لم يكفره من العلماء، فاجمعوا على أنه من أهل الكبائر، ويستحق التعزير والتأديب، ولا يجوز للإمام أن يعفو عنه، ويزاد في العقوبة على حسب منزلة الصحابي. ولا يكفر عندهم إلا إذا استحل السب.

أما من زاد على الاستحلال، كأن يتعبد الله ﷻ بالسب والشتم، فكفر مثل هذا مما لا خلاف فيه، ونصوص العلماء السابقة واضحة في مثل ذلك

وباتضاح هذا النوع بإذن الله، يتضح ما بعده بكل يسر وسهولة، ولذلك اطلنا القول فيه.

*من سب صحابي لم يتواتر النقل بفضله.

قد بينا فيما سبق رجحان تكفير من سب صحابيا تواترت النصوص بفضله من جهة دينه، أما من لم تتوانر النصوص بفضله، فقول جمهور العلماء بعدم كفر من سبه، وذلك لعدم إنكاره معلوما من الدين بالضرورة، إلا أن يسبه من حيث الصحبة.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: (وإن كان ممن لم يتواتر النقل بفضله وكماله، فالظاهر أن سابه فاسق، إلا أن يسبه من حيث صحبته لرسول الله ﷺ فإنه يكفر). (الرد على الرافضة ص١٩).

*من سب بعضهم سبا لا يطعن في دينهم وعدالتهم.

لا شك أن فاعل ذلك يستحق التعزير والتأديب، ولكن من مطالعتي لأقوال العلماء في المراجع المذكورة، لم أر أحدا منهم يكفر فاعل ذلك، ولا فرق عندهم بين كبار الصحابة وصغارهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (واما إن سبهم سبا لا يقدح في عدالتهم ولا في

دينهم، مثل وصف بعضهم بالبخل أو الجبن أو قلة العلم أو عدم الزهد ونحو ذلك، فهو الذي يستحق التأديب والتعزير، ولا يحكم بكفره بمجرد ذلك، وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من العلماء)، وذكر أبو يعلي من الأمثلة على ذلك اتهامهم بقلة المعرفة بالسياسة. (الصارم المسلول ص٥٨٦).

ومما يشبه ذلك اتهامهم بضعف الرأي، وضعف الشخصية، والغفلة، وحب الدنيا، ونحو ذلك، وهذا النوع من الطعن تطفح به كتب التاريخ، وكذلك الدراسات المعاصرة لبعض المنسوبين لأهل السنة، باسم الموضوعية والمنهج العلمي. انظر كتاب اعتقاد أهل السنة في الصحابة.

المسألة الرابعة: لوازم سب الصحابة رضي الله عنهم.

تيقظ السلف الصالح رضوان الله عليهم لخطورة الطعن في الصحابة وسبهم، وحذروا من الطاعنين ومقاصدهم؛ وذلك لعلمهم بما قد يؤدي إليه ذلك السب من لوازم باطلة تناقض أصول الدين، فقال بعضهم كلمات قليلة، لكنها جامعة...

قال الإمام مالك كما في الصارم المسلول (ص٥٨٠) عن هؤلاء - الذين يسبون الصحابة: إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي ﷺ، فلم يمكنهم ذلك، فقدحوا في أصحابه؛ حتى يقال رجل سوء، ولو كان رجلا صالحا لكان أصحابه صالحين.اهـ.

وقال الإمام أحمد كما في البداية والنهاية (٨/ ١٤٢): إذا رأيت رجلا يذكر أحدا من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام.اهـ.

وقال أبو زرعة الرازي كما في الكفاية (ص ٩٧): إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا

حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنة أصحاب رسول الله ﷺ وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة.اهـ.

وقال أبو نعيم في تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة (ص ٣٤٤): فلا يتتبع هفوات أصحاب رسول الله ﷺ وزللهم ويحفظ عليهم ما يكون منهم في حال الغضب والموجدة إلا مفتون القلب في دينه.اهـ.

ويقول أيضا في نفس المصدر السابق (ص ٣٧٦): لا يبسط لسانه فيهم إلا من سوء طويته في النبي ﷺ وصحابته والإسلام والمسلمين.اهـ.

وتحذير العلماء هنا عام يشمل جميع الصحابة، وتأمل قول إمام أهل السنة: (يذكر أحدا من الصحابة بسوء). وقول أبي زرعة: (ينتقص أحدا) فحذروا ممن ينتقص مجرد انتقاص أو ذكر بسوء. وذلك دون الشتم أو التكفير. ثم في واحد منهم وليس جميعهم، فماذا يقال فيمن سب أغلبهم؟!

وإليك أخي القارئ إيضاح لبعض لوازم السب:

أولا: يترتب على القول بكفر وارتداد معظم الصحابة أو فسقهم إلا نفرا يسيرا الشك في القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وذلك لأن الطعن في النقلة طعن في المنقول، إذ كيف نثق بكتاب نقله إلينا الفسقة والمرتدون - والعياذ بالله - ولذلك صرح بعض أهل الضلال والبدع ممن يسب الصحابة بتحريف الصحابة للقرآن، والبعض أخفى ذلك. وكذلك الأمر بالنسبة للأحاديث النبوية. فإذا اتهم الصحابة رضوان الله عليهم في عدالتهم، صارت الأسانيد مرسلة مقطوعة لا حجة فيها، ومع ذلك يزعم بعض هؤلاء الإيمان بالقرآن. فنقول لهم: يلزم من الإيمان به الإيمان بما فيه، وقد علمت أن الذي فيه أنهم خير

الأمم، وأن الله لا يخزيهم، وأنه رضي عنهم. إلخ، فمن لم يصدق ذلك فيهم، فهو مكذب لما في القرآن ناقض لدعواه.

ثانيا: هذا القول يقتضي أن هذه الأمة - والعياذ بالله - شر أمة أخرجت للناس، وسابقي هذه الأمة شرارها، وخيرها القرن الأول كان عامتهم كفارا أو فساقا وإنهم شر القرون. كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

ثالثا: يلزم من هذا القول أحد أمرين: إما نسبة الجهل إلى الله تعالى عما يصفون، أو العبث في هذه النصوص التي أثنى فيها على الصحابة، فإن كان الله ﷻ - تعالى عن قولهم - غير عالم بأنهم سيكفرون ومع ذلك أثنى عليهم ووعدهم الحسنى فهو جهل، والجهل عليه تعالى محال. وإن كان الله ﷻ عالما بأنهم سيكفرون فيكون وعده لهم بالحسنى ورضاه عنهم عبث. والعبث في حقه تعالى محال، ويتبع ذلك الطعن في حكمته ﷻ، حيث اختارهم واصطفاهم لصحبة نبيه عليه الصلاة والسلام، فجاهدوا معه وآزروه ونصروه واتخذهم أصهارا له، حيث زوج ابنته ذا النورين عثمان رضي الله عنه، وتزوج ابنتي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فكيف يختار لنبيه أنصارا وأصهارا مع علمه بأنهم سيكفرون؟!

رابعا: لقد بذل رسول الله ﷺ جهودا خارقة في تربية الصحابة على مدى ثلاثة وعشرين عاما، حتى تكون بفضل الله ﷻ المجتمع المثالي في خلقه وتضحياته وزهده وورعه، فكان ﷺ أعظم مرب في التاريخ.

ولكن على العكس من ذلك، فإن جماعة تدعي الانتماء إلى الإسلام ونبي الإسلام، تقدم لهذا المجتمع صورة معاكسة، تهدم المجهودات التي قام بها النبي ﷺ في مجال التربية والتوجيه، وتثبت له إخفاقا لم يواجهه أي مصلح أو مرب، خبير مخلص لم يكن مأمورا من الله، كما كان الشأن مع رسول الله ﷺ.

إن الإمامية ترى أن المجهودات الجبارة التي بذلها محمد ﷺ -لم تنتج إلا ثلاثة أو أربعة- وفقا لبعض الروايات ظلوا متمسكين بالإسلام إلى ما بعد وفاته ﷺ أما غيرهم فقد قطعوا صلتهم بالإسلام - والعياذ بالله - فور وفاته ﷺ وأثبتوا أن صحبة النبي ﷺ وتربيته أخفقت ولم يعد لها أي تأثير.

وهذا الزعم يؤدي إلى اليأس من إصلاح البشرية، وعدم الثقة في المنهج الإسلامي وقدرته على التربية وتهذيب الأخلاق، وإلى الشك في نبوة محمد ﷺ، وذلك أن الدين الذي لم يستطع أن يقدم للعالم عددا وجيها من نماذج عملية ناجحة بناءة، ومجتمعا مثاليا في أيام الداعي وحامل رسالته الأول، فكيف يستطيع أتباعه ذلك بعد مضي وقت طويل على عهد النبوة؟! وإذا كان المؤمنون بهذه الدعوة لم يستطيعوا البقاء على الجادة القومية، ولم يعودوا أوفياء لنبيهم ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، فلم يبق على الصراط المستقيم الذي ترك عليه النبي ﷺ أتباعه إلا أربعة فقط، فكيف نسلم أن هذا الدين يصلح لتزكية النفوس وبناء الأخلاق؟ وأنه يستطيع أن ينقذ الإنسان من الهمجية والشقاء، ويرفعه إلى قمة الإنسانية؟ بل ربما يقال لو أن النبي ﷺ كان صادقا في نبوته لكانت تعاليمه ذات تأثير، ووجد هناك من آمن به من صميم القلب، ووجد من بين العدد الهائل ممن آمنوا به بعض المئات الذين ثبتوا على الإيمان، فإن كان أصحابه - سوى بضعة رجال منهم منافقين ومرتدين - فيما زعموا - فمن دام بالإسلام؟ ومن انتفع بالرسول ﷺ؟ وكيف يكون رحمة للعالمين؟! انظر كتاب اعتقاد أهل السنة في الصحابة.

المسألة الخامسة: وجوب عدم الخوض فيما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم

إن موقف أهل السنة والجماعة من الحرب التي وقعت بين الصحابة الكرام

رضي الله عنهم هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم رضي الله عنهم لما يسببه الخوض في ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين وذلك من أعظم الذنوب وقالوا: إنه يجب على كل مسلم أن يحب الجميع ويترضى عنهم ويترحم عليهم ويحفظ لهم فضائلهم، ويعترف لهم بسوابقهم، وينشر مناقبهم وأن الذي حصل بينهم إنما كان عن اجتهاد والجميع مثابون في حالتي الصواب والخطأ غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطئ في اجتهاده وأن القاتل والمقتول من الصحابة في الجنة، ولم يجوز أهل السنة والجماعة الخوض فيما شجر بينهم.

وقبل أن أذكر طائفة من أقوال أهل السنة التي تبين موقفهم فيما شجر بين الصحابة أذكر بعض النصوص التي فيها الإشارة إلى ما وقع بين الصحابة من الاقتتال وبما وصفوا به فيها وتلك النصوص هي:

١- قال تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) [الحجرات: ٩].
ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال لأنهم إخوة وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان حيث سماهم الله عز وجل مؤمنين وأمر بالإصلاح بينهم وإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين اقتتلوا في موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل في اسم الإيمان الذي ذكر في هذه الآية فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيمانا ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار في إيمانهم بحال لأنه كان عن اجتهاد.

٢- روى البخاري (٧١٢١)، ومسلم (١٥٧)عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال:

رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان وتكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة).

فالمراد بالفئتين كما في الفتح (١٢/ ٣٠٣) جماعة علي وجماعة معاوية، والمراد بالدعوة الإسلام على الراجح وقيل المراد اعتقاد كل منهما الحق.

٣- وروى مسلم (١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق) والفرقة المشار إليها في الحديث هي ما كان من الاختلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما وقد وصف ﷺ الطائفتين معا بأنهما مسلمتان وأنهما متعلقتان بالحق، قال ابن كثير في البداية والنهاية) (٧/ ٢٧٩): فهذا الحديث من دلائل النبوة إذ قد وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطغام، من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب علي أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن عليا هو المصيب وإن كان معاوية مجتهدا، وهو مأجور إن شاء الله، ولكن على هو الإمام فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» وسيأتي بيان كيفية قتال علي رضي الله عنه للخوارج، وصفة المخدج الذي أخبر عنه عليه السلام فوجد كما أخبر ففرح بذلك علي رضي الله عنه وسجد للشكر.اهـ.

٤- وروى البخاري (٣٦٢٩) بإسناده إلى أبي بكرة قال: بينا النبي ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبي ﷺ: (ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين). ففي هذا الحديث شهادة من النبي ﷺ بإسلام الطائفتين

أهل العراق وأهل الشام والحديث فيه رد واضح على الخوارج الذين كفروا عليا ومن معه ومعاوية ومن معه بما تضمنه الحديث من الشهادة للجميع بالإسلام ولذا كان يقول سفيان بن عيينة كما في السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ١٧٣)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٢٣٣) (قوله: فئتين من المسلمين يعجبنا جدا). قال البيهقي في الاعتقاد (ص ١٩٨): وإنما أعجبهم لأن النبي ﷺ سماهما جميعا مسلمين وهذا خبر من رسول الله ﷺ بما كان من الحسن بن علي بعد وفاة علي في تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان.اهـ. فهذه الثلاثة الأحاديث المتقدم ذكرها كلها فيها الإشارة إلى أهل العراق الذين كانوا مع علي وإلى أهل الشام الذين كانوا مع معاوية بن أبي سفيان وقد وصفهم النبي ﷺ بأنهم من أمته(١). كما وصفهم بأنهم جميعا متعلقون بالحق لم يخرجوا عنه كما شهد لهم ﷺ بأنهم مستمرون على الإيمان ولم يخرجوا عنه بسبب القتال الذي حصل بينهم وقد دخلوا تحت عموم قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ [الحجرات: ٩] وقد قدمنا أن مدلول الآية ينتظمهم رضي الله عنهم أجمعين فلم يكفروا ولم يفسقوا بقتالهم بل هم مجتهدون متأولون وقد بين الحكم في قتالهم ذلك علي رضي الله عنه فقد شهد للفريقين بالحسنى فقد روى ابن جرير الطبري في تاريخه (٤/ ٤٩٦): (أن عليا لما وصل البصرة خطب الناس فقام إليه أبو سلامة الدالاني فقال: أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله عز وجل بذلك قال: نعم قال: فترى لك حجة بتأخيرك ذلك؟ قال: نعم إن الشيء إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوطه وأعمه نفعا قال: فما

---

(١) وروى مسلم في صحيحه (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (يكون في أمتي فرقتان؛ فيخرج من بينهما مارقة، يلي قتلهم أولاهم بالحق).

حالنا وحالهم إن ابتلينا غدا؟ قال: إني لأرجو ألا يقتل أحد نقى قلبه الله إلا أدخله الله الجنة).

وروى ابن سعد بإسناده إلى محمد بن علي - المعروف بابن الحنفية - قال: قال علي: (إني لأرجو أن أكون وطلحة والزبير من الذين قال الله ﷻ: (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) [الحجر:٤٧])[1].

كما شهد رضي الله عنه بالحسنى للقتلى من الفريقين في موقعة صفين:

فقد روى ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ٣٠٣) بإسناده إلى يزيد بن الأصم قال: (سئل علي عن قتلى يوم صفين فقال: قتلانا وقتلاهم في الجنة).

وشهادة علي رضي الله عنه للقتلى من الفريقين بالجنة شهادة حق وصدق لأن الباري - جل وعلا - أخبر بأنه وعد أصحاب رسول الله ﷺ بالجنة ووعده - سبحانه - حق وصدق لا خلف فيه.

قال تعالى: (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) [الحديد:١٠] فالخطاب في هذه الآية الكريمة موجه لأصحاب رسول الله ﷺ والوعد فيها بالجنة لجميعهم رضي الله عنهم فكل من صحب رسول الله ﷺ بنية صادقة ولو ساعة واستمر على الإيمان حتى مات فإنه من أهل الجنة لا يدخل النار لتعذيب إلا أن الذين أسلموا من بعد الفتح وقاتلوا لا يلحقون من أسلم وقاتل قبل الفتح في المرتبة وعلو الدرجة وكلا وعد الله الجنة ورضي عنهم ومن كمال ورع علي رضي الله عنه أنه لم ينسب أحدا إلى الشرك أو إلى النفاق ممن قاتله من أهل القبلة بل

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ١١٣)، والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٩٥) وهو أثر حسن.

كان يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (هم إخواننا بغوا علينا) ذلك هو معتقد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قتلى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في موقعتي الجمل وصفين فقد شهد للقاتل والمقتول منهم بالجنة لأنهم لم يقصدوا بقتالهم إلا الحق والاجتهاد ولم يكونوا مقاتلين لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لدافع الحقد حاشاهم من كل ذلك وقد ثبت كذلك أن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ترحمت على من قاتلها يوم الجمل أو قتل معها من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقد ذكر ابن الأثير في الكامل (٣/ ٢٥٧ - ٢٥٨): أنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما كانت بالبصرة بعد وقعة الجمل سألت يومئذ عمن قتل من الناس معها ومنهم عليها والناس عندها فكلما نعي واحد من الجميع قالت: يرحمه الله فقيل لها: كيف ذلك؟ قالت: كذلك قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فلان في الجنة، وفلان في الجنة).

وقولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فلان في الجنة، وفلان في الجنة تعني بذلك من شهد له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنة وسماه مثل طلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ولقد تقدم معنا أن عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تصرف فيما خلفه القتلى في يوم الجمل تصرفا يدل على أن تلك الحرب لم تكن بين مسلمين وغير مسلمين وإنما هي حرب بين فريقين من المسلمين يرى كل فريق منهما أن الحق في جانبه حيث جمع كل مخلفات موقعة الجمل وبعث بها إلى مسجد البصرة وقال: (من عرف شيئا فليأخذه إلا سلاحا كان في الخزائن عليه سمة السلطان). وصلى على جميع القتلى من الفريقين ودفن كثيرا منهم في قبر كبير فدل عمله هذا دل على إيمانه أنهم جميعا كانوا يقاتلون اجتهادا لا عنادا ولا شهوة، ولا شفاء خصومة كانت بينهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين ومما ينبغي أن يعلم أن شهادة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالجنة للقتلى من الفريقين كما تقدم لا يدخل فيها من مرق عن الحق في إثارة الفتنة الأولى على عثمان كما لا يعد من إحدى الطائفتين

اللتين وصفتا بأنهما متعلقتان بالحق وإن قاتل معها والتحق بها لأن الذين تلوثت أيديهم ونياتهم وقلوبهم بالبغي الظالم على أمير المؤمنين عثمان - كائنا من كانوا - استحقوا إقامة الحد الشرعي عليهم سواء استطاع ولي الأمر أن يقيم عليهم هذا الحد أو لم يستطع وفي حالة عدم استطاعته، فإن مواصلتهم تسعير نار الحرب بين صالحي المسلمين كلما أحسوا منهم بالعزم على الإصلاح والتآخي كما فعلوا في وقعة الجمل وبعدها يعد إصرارا منهم على الاستمرار في الإجرام ما داموا على ذلك، فإذا قال أهل السنة والجماعة: إن الطائفتين كانتا على الحق فإنما يريدون أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا في الطائفتين ومن سار معهم على سنته ﷺ من التابعين.

فالواجب على المسلم أن يسلك في اعتقاده فيما حصل بين الصحابة الكرام رضي الله عنهم مسلك الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة وهو الإمساك عما حصل بينهم رضي الله عنهم ولا يخوض فيه إلا بما هو لائق بمقامهم.

قال الإمام الآجري في كتاب الشريعة (٥/ ٢٤٨٥): ذكر الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ ورحمة الله تعالى عليهم أجمعين قال محمد بن الحسين رحمه الله: ينبغي لمن تدبر ما رسمناه من فضائل أصحاب رسول الله ﷺ وفضائل أهل بيته رضي الله عنهم أجمعين أن يحبهم ويترحم عليهم ويستغفر لهم، ويتوسل إلى الله الكريم بهم (أي بحبهم) ويشكر الله العظيم إذ وفقه لهذا، ولا يذكر ما شجر بينهم ولا ينقر عنه ولا يبحث، فإن عارضنا جاهل مفتون قد خطئ به عن طريق الرشاد فقال: لم قاتل فلان لفلان ولم قتل فلان لفلان وفلان؟. قيل له: ما بنا وبك إلى ذكر هذا حاجة تنفعنا ولا اضطررنا إلى علمها. فإن قال: ولم؟ قيل له: لأنها فتن شاهدها الصحابة رضي الله عنهم فكانوا فيها على حسب ما أراهم

العلم بها وكانوا أعلم بتأويلها من غيرهم، وكانوا أهدى سبيلا ممن جاء بعدهم لأنهم أهل الجنة، عليهم نزل القرآن وشاهدوا الرسول ﷺ وجاهدوا معه وشهد لهم الله ﷻ بالرضوان والمغفرة والأجر العظيم، وشهد لهم الرسول ﷺ أنهم خير قرن. فكانوا بالله ﷻ أعرف وبرسوله ﷺ وبالقرآن وبالسنة ومنهم يؤخذ العلم وفي قولهم نعيش، وبأحكامهم نحكم وبأدبهم نتأدب ولهم نتبع وبهذا أمرنا. فإن قال: وإيش الذي يضرنا من معرفتنا لما جرى بينهم والبحث عنه؟. قيل له: ما لا شك فيه وذلك أن عقول القوم كانت أكبر من عقولنا، وعقولنا أنقص بكثير ولا نأمن أن نبحث عما شجر بينهم فنزل عن طريق الحق ونتخلف عما أمرنا فيهم. فإن قال: وبم أمرنا فيهم؟.

قيل: أمرنا بالاستغفار لهم والترحم عليهم والمحبة لهم والاتباع لهم، دل على ذلك الكتاب والسنة وقول أئمة المسلمين، وما بنا حاجة إلى ذكر ما جرى بينهم، قد صحبوا الرسول ﷺ وصاهرهم وصاهروه، فبالصحبة يغفر الله الكريم لهم، وقد ضمن الله ﷻ في كتابه أن لا يخزي منهم واحدا وقد ذكر لنا الله تعالى في كتابه أن وصفهم في التوراة والإنجيل، فوصفهم بأجمل الوصف ونعتهم بأحسن النعت، وأخبرنا مولانا الكريم أنه قد تاب عليهم، وإذا تاب عليهم لم يعذب واحدا منهم أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون. فإن قال قائل: إنما مرادي من ذلك لأن أكون عالما بما جرى بينهم فأكون لم يذهب علي ما كانوا فيه لأني أحب ذلك ولا أجهله. قيل له: أنت طالب فتنة لأنك تبحث عما يضرك ولا ينفعك ولو اشتغلت بإصلاح ما لله ﷻ عليك فيما تعبدك به من أداء فرائضه واجتناب محارمه كان أولى بك. وقيل: ولا سيما في زماننا هذا مع قبح ما قد ظهر فيه من الأهواء الضالة. وقيل له: اشتغالك

بمطعمك وملبسك من أين هو؟ أولى بك، وتكسبك لدرهمك من أين هو؟ وفيما تنفقه؟ أولى بك. وقيل: لا يأمن أن يكون بتنقيرك وبحثك عما شجر بين القوم إلى أن يميل قلبك فتهوى ما لا يصلح لك أن تهواه ويلعب بك الشيطان فتسب وتبغض من أمرك الله بمحبته والاستغفار له وباتباعه فتزل عن طريق الحق وتسلك طريق الباطل. فإن قال: فاذكر لنا من الكتاب والسنة وعمن سلف من علماء المسلمين ما يدل على ما قلت لترد نفوسنا عما تهواه من البحث عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم. قيل له: قد تقدم ذكرنا لما ذكرته مما فيه بلاغ وحجة لمن عقل، ونعيد بعض ما ذكرناه ليتيقظ به المؤمن المسترشد إلى طريق الحق: قال الله عز وجل: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا، يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار). ثم وعدهم بعد ذلك المغفرة والأجر العظيم، وقال الله عز وجل: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة) وقال عز وجل: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم) إلى آخر الآية، وقال عز وجل: (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) الآية، وقال عز وجل: (كنتم خير أمة) الآية. وقال عز وجل (لقد رضي الله عن المؤمنين) إلى آخر الآية، ثم إن الله عز وجل أثنى على من جاء بعد الصحابة فاستغفر للصحابة وسأل مولاه الكريم أن لا يجعل في قلبه غلا لهم، فأثنى الله عز وجل عليه بأحسن ما يكون من الثناء؛ فقال عز وجل: (والذين جاءوا من بعدهم) إلى قوله: (رءوف رحيم). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم

الذين يلونهم». وقال ﷺ: «إن الله ﷻ اختار أصحابي على جميع العالمين إلا النبيين والمرسلين، واختار لي من أصحابي أربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعليا، فجعلهم خير أصحابي وفي أصحابي كلهم خير واختار أمتي على سائر الأمم». وقال ﷺ: «إن مثل أصحابي في أمتي كالملح في الطعام لا يصلح الطعام إلا بالملح». روي هذا عن الحسن، عن أنس، عن النبي ﷺ. قال: فكان الحسن إذا حدث بهذا يقول: قد ذهب ملحنا فكيف نصلح؟.

وقال ابن مسعود: إن الله ﷻ نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، وبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ يقاتلون على دينه قال محمد بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقال لمن سمع هذا من الله ﷻ ومن رسول الله ﷺ: إن كنت عبدا موفقا للخير اتعظت بما وعظك الله ﷻ به، وإن كنت متبعا لهواك خشيت عليك أن تكون ممن قال الله ﷻ (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) وكنت ممن قال الله ﷻ (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون). ويقال له: من جاء إلى أصحاب رسول الله ﷺ حتى يطعن في بعضهم ويهوى بعضهم ويذم بعضا ويمدح بعضا فهذا رجل طالب فتنة، وفي الفتنة وقع؛ لأنه واجب عليه محبة الجميع والاستغفار للجميع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ونفعنا بحبهم، ونحن نزيدك في البيان ليسلم قلبك للجميع وتدع البحث والتنقير عما شجر بينهم.اهـ.

وكتب أهل السنة مملؤة ببيان عقيدتهم الصافية النقية في حق أولئك الصفوة المختارة وقد حددوا موقفهم من تلك الحرب التي وقعت بينهم في أقوالهم الحسنة التي منها.

١- سئل عمر بن عبد العزيز كما في مناقب الشافعي (ص ١٣٦). عن القتال الذي بين الصحابة فقال: (تلك دماء طهر الله يدي منها أفلا أطهر منها لساني مثل أصحاب رسول الله ﷺ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسها).

قال البيهقي كما في البداية والنهاية (٧/ ٣٠٣) معلقا على قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: (هذا حسن جميل لأن سكوت الرجل عما لا يعنيه هو الصواب).

والمسلم مطلوب منه أن يتحرز من الوقوع في الخطأ، والحكم على بعض الصحابة بما لا يكون مصيبا فيه.

٢- قال عامر بن شراحيل الشعبي كما في الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٢) في المقتتلين من الصحابة: (هم أهل الجنة لقي بعضهم بعضا فلم يفر أحد من أحد).

٣- سئل الحسن البصري كما في الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٢) عن قتال الصحابة فيما بينهم فقال: (قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا).

ومعنى قول الحسن هذا كما قال القرطبي: (أن الصحابة كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا وما علينا إلا أن نتبعهم فيما اجتمعوا عليه، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأيا منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله ﷻ إذ كانوا غير متهمين في الدين).

٤- سئل جعفر بن محمد الصادق كما في الإنصاف للباقلاني (ص: ٦٩) عما وقع بين الصحابة فأجاب بقوله: (أقول ما قال الله: علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى [طه: ٥٢]).

٥- قال الإمام أحمد كما في مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص ١٦٤) بعد أن قيل له: ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية قال: (ما أقول فيهم إلا الحسنى).

٦- وقال أبو بكر المروذي كما في مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص١٢٦): سمعت أبا عبد الله وذكر له أصحاب رسول الله فقال: (رحمهم الله أجمعين ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري والمغيرة كلهم وصفهم الله تعالى في كتابه فقال: سيماهم في وجوههم من أثر السجود [الفتح: ٢٩]).

٧- قال إبراهيم بن آزر الفقيه كما في تاريخ بغداد (٦/ ٤٤): حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عما جرى بين علي ومعاوية؟ فأعرض عنه فقيل له: يا أبا عبد الله هو رجل من بني هاشم فأقبل عليه فقال: اقرأ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون [البقرة: ١٤١]).

٨- وقال أبو الحسن الأشعري في الإبانة عن أصول الديانة (ص٧٨): فأما ما جرى بين علي والزبير وعائشة رضي الله عنهم فإنما كان على تأويل واجتهاد، وعلي الإمام وكلهم من أهل الاجتهاد وقد شهد لهم النبي ﷺ بالجنة والشهادة فدل على أنهم كلهم على حق في اجتهادهم وكذلك ما جرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان على تأويل واجتهاد، وكل الصحابة أئمة مأمونون غير متهمين في الدين، وقد أثنى الله ورسوله على جميعهم وتعبدنا بتوقيرهم وتعظيمهم وموالاتهم والتبري ممن ينقص أحدا منهم رضي الله عن جميعهم.

٩- وقال ابن أبي زيد القيرواني في الرسالة (ص٩) في صدد عرضه لما يجب أن يعتقده المسلم في أصحاب رسول الله ﷺ وما ينبغي أن يذكروا به فقال: (وأن

لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم وأنهم أحق الناس أن يلتمس - لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب).

١٠- وقال أبو نعيم الأصبهاني في الإمامة والرد على الرافضة (ص٣٤٣) مبينا حق الصحابة على المسلمين بعدهم وما يجب عليهم نحوهم: (فالواجب على المسلمين في أصحاب رسول الله ﷺ إظهار ما مدحهم الله تعالى به وشكرهم عليه من جميل أفعالهم وجميل سوابقهم وأن يغضوا عما كان منهم في حال الغضب والإغفال وفرط منهم عند استزلال الشيطان إياهم ونأخذ في ذكرهم بما أخبر الله تعالى به فقال تعالى: والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان [الحشر: ١٠] الآية فإن الهفوة والزلل والغضب والحدة والإفراط لا يخلو منه أحد وهو لهم مغفور ولا يوجب ذلك البراءة منهم ولا العداوة لهم ولكن يحب على السابقة الحميدة ويتولى للمنقبة الشريفة).

١١- وقال أبو عبد الله بن بطة في الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة (ص ٢٦٨) أثناء عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة: (ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ فقد شهدوا المشاهد معه وسبقوا الناس بالفضل فقد غفر الله لهم وأمرك بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتتلون وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم).

١٢- قال أبو بكر بن الطيب الباقلاني في الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا

يجوز الجهل به (ص ٦٧ - ٦٩): ويجب أن يعلم: أن ما جرى بين أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم من المشاجرة نكف عنه ونترحم على الجميع ونثني عليهم ونسأل الله تعالى لهم الرضوان والأمان والفوز والجنان ونعتقد أن عليا عليه السلام أصاب فيما فعل وله أجران، وأن الصحابة رضي الله عنهم إن ما صدر منهم كان باجتهاد فلهم الأجر ولا يفسقون ولا يبدعون والدليل عليه قوله تعالى: لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا [الفتح: ١٨] وقوله ﷺ: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر) فإذا كان الحاكم في وقتنا له أجران على اجتهاده فما ظنك باجتهاد من رضي الله عنهم ورضوا عنه، ويدل على صحة هذا القول: قوله ﷺ للحسن عليه السلام: (إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) فأثبت العظم لكل واحدة من الطائفتين وحكم لهم بصحة الإسلام وقد وعد الله هؤلاء القوم بنزع الغل من صدورهم بقوله تعالى: ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين [الحجر: ٤٧]) إلى أن قال: (ويجب الكف عن ذكر ما شجر بينهم والسكوت عنه).

١٣- وقال أبو عثمان الصابوني في عقيدة السلف وأصحاب الحديث ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١/ ١٢٩). في صدد ذكره لعرض عقيدة السلف وأصحاب الحديث: (ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيبا لهم ونقصا فيهم ويرون الترحم على جميعهم والموالاة لكافتهم).

١٤- وقال أبو الوليد بن رشد المالكي البيان والتحصيل (١٦/ ٣٦٠ - ٣٦١): (كلهم محمود على ما فعله، القاتل منهم والمقتول في الجنة فهذا الذي

يجب على كل مسلم أن يعتقده فيما شجر بينهم لأن الله تعالى قد أثنى عليهم في كتابه وعلى لسان رسوله فقال عز من قائل: كنتم خير أمة أخرجت للناس [آل عمران: ١١٠] وقال: وكذلك جعلناكم أمة وسطا [البقرة: ١٤٣] أي: خيارا عدولا وقال رسول الله ﷺ: (عشرة من قريش في الجنة) فسمى فيهم عليا وطلحة والزبير والذي يقول أئمة أهل السنة والحق: إن عليا رضي الله عنه ومن اتبعه كانوا على الصواب والحق، وإن طلحة والزبير كانا على الخطأ إلا أنهما رأيا ذلك باجتهادهما فكان فرضهما ما فعلاه إذ هما من أهل الاجتهاد...) إلى أن قال: (والذي قلناه من أنهم اجتهدوا فأصاب علي وأخطأ طلحة والزبير هو الصحيح الذي يلزم اعتقاده فلعلي أجران لموافقته الحق باجتهاده ولطلحة والزبير أجر لاجتهادهما وبالله التوفيق).

١٥- وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره (١٦/ ٣٢١ - ٣٢٢): (لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر لحرمة الصحبة ولنهي النبي ﷺ عن سبهم وأن الله غفر لهم وأخبر بالرضا عنهم هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي ﷺ (أن طلحة شهيد يمشي على وجه الأرض)[1] فلو كان ما خرج إليه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٣٩) والحاكم (٣/ ٤٢٤) والبغوي في تفسيره (٧/ ٥٢٨) وغيرهم والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الصلت وقد تكلم بعض أهل العلم في الصلت بن دينار وفي صالح بن موسى من قبل حفظهما وقال الحاكم: تفرد به الصلت بن دينار و ليس من شرط هذا الكتاب وقال الذهبي في تلخيص المستدرك: الصلت واه، وقد روي الحديث عن عدة من اصحابة بألفاظ مختلفة لذا قال العلامة الألباني في الصحيحة (١٢٦): وبالجملة فالحديث بهذه الطرق والشواهد يرتقي إلى درجة الصحة، وهي وإن اختلفت ألفاظها فالمؤدى واحد =

من الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيه شهيدا وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ في التأويل وتقصيرا في الواجب عليه لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل في طاعة فوجب حمل أمرهم على ما بيناه ومما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار علي بأن قاتل الزبير في النار، وقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بشر قاتل ابن صفية بالنار)[1] وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير غير عاصيين ولا آثمين بالقتال لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبي ﷺ في طلحة (شهيد) ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار وكذلك من قعد غير مخطئ في التأويل بل صواب أراهم الله الاجتهاد وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم وإبطال فضائلهم وجهادهم وعظيم عنائهم في الدين رضي الله عنهم) اهـ.

١٦- وقال النووي في شرح مسلم (١٨/ ١١) عند قوله ﷺ: (إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)[2] واعلم أن الدماء التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم ليست بداخلة في هذا الوعيد ومذهب أهل السنة والحق إحسان الظن بهم والإمساك عما شجر بينهم وتأويل قتالهم وأنهم مجتهدون

=

والشواهد يرتقي إلى درجة الصحة، وهي وإن اختلفت ألفاظها فالمؤدى واحد كما هو ظاهر و قد ثبته الحافظ في الفتح (٨ / ٣٩٨ - بولاق) والله أعلم، وانظر أيضا الصحيحة (١٢٥)، وانظر الصحيح المسند من فضائل الصحابة للعدوي (١٤٦).

(١) الحديث ليس مرفوعا كما ذكر المصنف، وإنما هو من قول علي رضي الله عنه ولفظه عن زر بن حبيش، أن عليا قيل له: (إن قاتل الزبير على الباب. فقال: ليدخل قاتل ابن صفية النار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إن لكل نبي حواريا، وإن الزبير حواري) أخرجه أحمد (٢/ ١٨١ -الرسالة)، الطيالسي (١٦٣)، ابن سعد (٣/ ١٠٥)، والبزار (٥٥٦، ٥٥٩)، والطبراني (٢٢٨، ٢٤٣) وقال الأرنؤوط ومنمعه في تحقيق المسند (٢/ ٩٨): إسناده حسن.

(٢) أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

متأولون لم يقصدوا معصية ولا محض الدنيا بل اعتقد كل فريق أنه المحق ومخالفه باغ فوجب عليه قتاله ليرجع إلى أمر الله وكان بعضهم مصيبا وبعضهم مخطئا معذورا في الخطأ لأنه مجتهد والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه وكان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو المحق المصيب في تلك الحروب هذا مذهب أهل السنة وكانت القضايا مشتبهة حتى إن جماعة من الصحابة تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب، ثم تأخروا عن مساعدته منهم).

وقال سبب الحروب التي وقعت بين الصحابة: واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام:

قسم: ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف، وأن مخالفه باغ، فوجب عليهم نصرته وقتال الباغي عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقاده.

وقسم: عكس هؤلاء ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر فوجب عليهم مساعدته وقتال الباغي عليه.

وقسم ثالث: اشتبهت عليهم القضية وتحيروا فيها ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك) وهذا هو التفسير الصحيح لمواقف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في تلك الحروب وهو اللائق بحالهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

١٧- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الواسطية (ص: ١٧٣) في صدد عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة: (ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما

قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون).

١٨- وقال الإمام الذهبي في السير (١٠/ ٩٢): تقرر الكف عن كثير مما شجر بين الصحابة وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف، وبعضه كذب وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا فينبغي طيه وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفوا القلوب، وتتوفر على حب الصحابة والترضي عنهم، وكتمان ذلك متعين عن العامة وآحاد العلماء وقد يرخص في مطالعة ذلك خلوة للعالم المنصف العري من الهوى، بشرط أن يستغفر لهم كما علمنا الله تعالى حيث يقول: (والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا) [الحشر: ١٠] فالقوم لهم سوابق وأعمال مكفرة لما وقع منهم وجهاد محاء وعبادة ممحصة).

١٩- وقال الحافظ ابن كثير في الباعث الحثيث (ص: ١٨٢): (أما ما شجر بينهم بعده عليه الصلاة والسلام فمنه ما وقع عن غير قصد كيوم الجمل ومنه ما كان عن اجتهاد كيوم صفين والاجتهاد يخطئ ويصيب ولكن صاحبه معذور وإن أخطأ ومأجور أيضا: وأما المصيب فله أجران اثنان).

٢٠- وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٤) حاكيا على وجوب المنع من الطعن على واحد من الصحابة بسبب ما حصل بينهم ولو عرف المحق منهم حيث قال: (واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد بل ثبت أنه يؤجر أجرا واحدا، وأن المصيب يؤجر أجرين).

٢١- قال الحكمي في معارج القبول (٣/ ١٣٩٨): أجمع أهل السنة والجماعة الذين هم أهل الحل والعقد الذين يعتد بإجماعهم على وجوب السكوت عن الخوض في الفتن التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم بعد قتل عثمان رضي الله عنه والاسترجاع على تلك المصائب التي أصيبت بها هذه الأمة والاستغفار للقتلى من الطرفين والترحم عليهم وحفظ فضائل الصحابة والاعتراف لهم بسوابقهم ونشر مناقبهم، عملا بقول الله عز وجل: والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان [الحشر: ١٠] الآية، واعتقاد أن الكل منهم مجتهد إن أصاب فله أجران، أجر على اجتهاده وأجر على إصابته، وإن أخطأ فله أجر الاجتهاد والخطأ مغفور، ولا تقول إنهم معصومون بل مجتهدون إما مصيبون وإما مخطئون لم يتعمدوا الخطأ في ذلك. وما روي من الأحاديث في مساويهم الكثير منه مكذوب، ومنه ما قد زيد فيه أو نقص منه وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون.اهـ.

٢٢- وقال العلامة العثيمين في شرح العقيدة الواسطية (٢/ ٢٨٤): فالصحابة رضي الله عنهم وقعت بينهم بعد مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه نزاعات، واشتد الأمر بعد مقتل عثمان، فوقع بينهم ما وقع، مما أدى إلى القتال.

وهذه القضايا مشهورة، وقد وقعت بلا شك عن تأويل واجتهاد كل منهم يظن أنه على حق، ولا يمكن أن نقول: إن عائشة والزبير بن العوام قاتلا عليا رضي الله عنهم أجمعين وهم يعتقدون أنهم على باطل، وأن عليا على حق.

واعتقادهم أنهم على حق لا يستلزم أن يكونوا قد أصابوا الحق.

ولكن إذا كانوا مخطئين، ونحن نعلم أنهم لن يقدموا على هذا الأمر إلا عن اجتهاد، فإنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله

أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر)[1] فنقول: هم مخطئون مجتهدون، فلهم أجر واحد.

فهذا الذي حصل موقفنا نحن منه له جهتان: الجهة الأولى: الحكم على الفاعل. والجهة الثانية: موقفنا من الفاعل.

أما الحكم على الفاعل، فقد سبق، وأن ما ندين الله به أن ما جرى بينهم، فهو صادر عن اجتهاد، والاجتهاد إذا وقع فيه الخطأ، فصاحبه معذور مغفور له.

وأما موقفنا من الفاعل، فالواجب علينا الإمساك عما شجر بينهم لماذا نتخذ من فعل هؤلاء مجالا للسب والشتم والوقيعة فيهم والبغضاء بيننا، ونحن في فعلنا هذا إما آثمون وإما سالمون ولسنا غانمين أبدا.

فالواجب علينا تجاه هذه الأمور أن نسكت عما جرى بين الصحابة وأن لا نطالع الأخبار أو التاريخ في هذه الأمور، إلا المراجعة للضرورة.

ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم؛ منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص عن وجهه الصريح، والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون.

قسم المؤلف الآثار المروية في مساويهم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما هو كذب محض لم يقع منهم، وهذا يوجد كثيرا فيما يرويه النواصب في آل البيت وما يرويه الروافض في غير آل البيت.

القسم الثاني: شيء له أصل، لكن زيد فيه ونقص وغير عن وجهه.

وهذان القسمان كلاهما يجب رده.

القسم الثالث: ما هو صحيح، فماذا نقول فيه؟ بينه المؤلف بقوله:

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون.

والمجتهد إن أصاب، فله أجران، وإن أخطأ، فله أجر واحد، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا حكم الحاكم، فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم، فاجتهد، ثم أخطأ فله أجر) فما جرى بين معاوية وعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا صادر عن اجتهاد وتأويل، لكن لا شك أن عليا أقرب إلى الصواب فيه من معاوية، بل قد نكاد نجزم بصوابه، إلا أن معاوية كان مجتهدا.

ويدل على أن عليا أقرب إلى الصواب أن النبي ﷺ قال (ويح عمارا تقتله الفئة الباغية)[1]، فكان الذي قتله أصحاب معاوية، وبهذا عرفنا أنها فئة باغية خارجة على الإمام، لكنهم متأولون، والصواب مع علي إما قطعا وإما ظنا.

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره.

وهناك قسم رابع: وهو ما وقع منهم من سيئات حصلت لا عن اجتهاد ولا عن تأويل: فبينه المؤلف بقوله:

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره.

لا يعتقدون ذلك، لقوله ﷺ: (كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون)[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧) عن حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨، رقم ١٣٠٧٢)، وابن أبي شيبة (١٣/ ١٨٧)، وعبد بن حميد (ص ٣٦٠، رقم ١١٩٧)، والترمذى (٤/ ٦٥٩، رقم ٢٤٩٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠، رقم ٤٢٥١)، والدارمى (٢/ ٣٩٢، رقم ٢٧٢٧)، وأبو يعلى (٢٩٢٢)، وابن =

ولكن العصمة في إجماعهم؛ فلا يمكن أن يجمعوا على شيء من كبائر الذنوب وصغائرها فيستحلوها أو يفعلوها.

ولكن الواحد منهم قد يفعل شيئا من الكبائر، كما حصل من مسطح بن أثاثه وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش في قصة الإفك، ولكن هذا الذي حصل تطهروا منه بإقامة الحد عليهم.

بل تجوز عليهم الذنوب في الجملة ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر عنهم إن صدر

يعني: كغيرهم من البشر، لكن يمتازون عن غيرهم بما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر.

هذا من الأسباب التي يمحو الله بها عنهم ما فعلوه من الصغائر أو الكبائر، وهو ما لهم من السوابق والفضائل التي لم يلحقهم فيها أحد، فهم نصروا النبي عليه الصلاة والسلام، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وبذلوا رقابهم لإعلاء كلمة

=

حبان في المجروحين (٢/ ١١١)، وابن عدي (٥/ ١٨٥٠)، والحاكم (٤/ ٢٧٢، رقم ٧٦١٧)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٥/ ٤٢٠، رقم ٧١٢٧) والحديث ضعفه كثير من العلماء من أجل علي بن مسعدة أحد رواته، منهم ابن عدي في الكامل (٦/ ٣٥٤)، وابن حبان في المجروحين (٢/ ٨٧)، وابن القيسراني في التذكرة (٢٤٧)، والذهبي في تلخيص المستدرك، والعراقي في المغني (٤/ ٥٥)، والشيخ عمرو عبد اللطيف في أحاديث ومرويات في الميزان (٣/ ١٣٣)، والعدوي في تعليقه على المنتخب (٢/ ٢٣٠)، والأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٠/ ٣٤٤)، وخالفهم غيرهم فصححه ابن القطان في الوهم والإيهام (٥/ ٤١٤)، وقال الحافظ في البلوغ (٢/ ٤٤٨): إسناده قوي، وكذا قال ابن الديبع في تمييز الطيب من الخبيث (١٣٩)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٦٢٩٢)، وصححه ابن باز في مجموع فتاواه (٢/ ٢٧)، وحسنه العلامة الألباني في المشكاة (٢٢٨٠).

الله، فهذه توجب مغفرة ما صدر منهم، ولو كان من أعظم الذنوب، إذا لم يصل إلى الكفر.

ومن ذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة: (حين أرسل إلى قريش يخبرهم عن مسير النبي ﷺ إليهم، حتى أطلع الله نبيه على ذلك، فلم يصلهم الخبر، فاستأذن عمر النبي ﷺ أن يضرب عنق حاطب، فقال النبي ﷺ: إنه شهد بدرا، وما يدريك؟ لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم)[١].

حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم، لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ: إنهم خير القرون وإن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبا من بعدهم، ثم إن كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتي بحسنات تمحوه. أو غفر له بفضل سابقته.

وذلك في قوله ﷺ: (خير الناس قرني)[٢]، وفي قوله: (لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)[٣] يعني: وإذا تاب منه، ارتفع عنه وباله ومعرته، لقوله تعالى: والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما، - إلى قوله: - إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن تاب من الذنب كمن لا ذنب له، فلا يؤثر عليه.

لقوله تعالى: إن الحسنات يذهبن السيئات [هود:١١٤].

لقوله تعالى: في الحديث القدسي في أهل بدر: (اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم).

أو بشفاعة محمد ﷺ الذين هم أحق الناس بشفاعته[١] أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه فإذا كان هذا في الذنوب المحققة، فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين: إن أصابوا، فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور، ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم.

---

(١) يدل على ذلك أحاديث كثيرة منها حديث أنس عن أم حبيبة مرفوعا (أريت ما تلقى أمتى من بعدى وسفك بعضهم دماء بعض وكان ذلك سابقا من الله كما سبق فى الأمم قبلهم فسألته أن يولينى شفاعة فيهم يوم القيامة ففعل) أخرجه أحمد (٦/ ٤٢٧، رقم ٢٧٤٥٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٥، ٨٠٠)، وفي الآحاد والمثاني (٣٠٧٧)، وفي الديات (٩٧)، والدارقطني في العلل (٥/ ١٨٤)، والطبرانى فى الأوسط (٥/ ٥٢، رقم ٤٦٤٨)، وفى الكبير (٢٣/ ٢٢٢، رقم ٤١٠)، والحاكم (١/ ١٣٨، رقم ٢٢٧) والحديث صححه الحاكم، وقال المنذرى في الترغيب (٤/ ٢٣٣، رقم ٥٤٩٧): رواه البيهقى فى البعث وصحح إسناده، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٤٤٠)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤٥/ ٤٠٠): حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين. وقد رواه أبو اليمان الحكم بن نافع مرتين، كما سيأتي... ذكر الإمام أحمد عقب هذه الرواية، والدارقطني، أن هذا الحديث ليس محفوظا من حديث الزهري، وأن الصواب فيه أنه من حديث ابن أبي حسين، لكن الحاكم نقل بإسناده إلى أبي اليمان أنه قال: الحديث حديث الزهري، والذي حدثتكم به عن ابن أبي حسين غلطت فيه بورقة قلبتها، قلنا: والخطب في ذلك يسير، فإنه انتقال من ثقة إلى ثقة، والله أعلم.

فإن البلاء في الدنيا يكفر الله به السيئات، كما أخبر بذلك النبي ﷺ في قوله: (ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حط الله به سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها)(١). والأحاديث في هذا مشهورة كثيرة.

فهذه الأسباب التي ذكرها المؤلف ترفع القدح في الصحابة، وهي قسمان:

الأول: خاص بهم، وهو مالهم من السوابق والفضائل.

والثاني: عام، وهي التوبة، والحسنات الماحية، وشفاعة النبي ﷺ، والبلاء.

القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل جدا نزر أقل القليل، ولهذا قال: مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم.

ولا شك أنه حصل من بعضهم سرقة وشرب خمر وقذف وزنى بإحصان وزنى بغير إحصان، لكن كل هذه الأشياء تكون مغمورة في جنب فضائل القوم ومحاسنهم، وبعضها أقيم فيه الحدود، فيكون كفارة.

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما من الله عليهم به من الفضائل، علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء.

فكل هذه مناقب وفضائل معلومة مشهورة، تغمر كل ما جاء من مساوئ القوم المحققة، فكيف بالمساوئ غير المحققة أو التي كانوا فيها مجتهدين متأولين.

هذا بالإضافة إلى ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من قوله: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)) أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وعلي هذا تثبت خيرتهم على غيرهم من أتباع الأنبياء بالنص والنظر في أحوالهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦٧)، ومسلم (٢٥٧١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فإذا نظرت بعلم وبصيرة وإنصاف في محاسن القوم وما أعطاهم الله من الفضائل، علمت يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، فهم خير من الحواريين أصحاب عيسي، خير من النقباء أصحاب موسى، وخير من الذين آمنوا من نوح ومع هود وغيرهم، لا يوجد أحد في أتباع الأنبياء أفضل من الصحابة رضي الله عنهم، والأمر في هذا ظاهر معلوم، لقوله تعالى: كنتم خير أمة أخرجت للناس [آل عمران:١١٠]، وخيرنا الصحابة، ولأن النبي ﷺ خير الخلق، فأصحابه خير الأصحاب بلا شك، هذا عند أهل السنة والجماعة، أما عند الرافضة، فهم شر الخلق، إلا من استثنوا منهم، لا كان ولا يكون مثلهم وأنهم هم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى.

وأما كون الصحابة صفوة قرون الأمة، فلقوله ﷺ: (خير الناس قرني) وفي لفظ: (خير أمتي قرني)، والمراد بقرنه: الصحابة، وبالذين يلونهم: التابعون، وبالذين يلونهم: تابعوا التابعين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والاعتبار بالقرون الثلاثة بجمهور أهل القرن، وهم وسطه، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يكن بقي من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا في أواخر عصر أصاغر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك وجمهور تابعي التابعين في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية. اهـ.

وكان آخر الصحابة موتا أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي سنة مائة من الهجرة، وقيل: مائة وعشر.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: واتفقوا على أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين.اهـ.

فهذه طائفة من كلام أكابر علماء أهل السنة والجماعة تبين منها الموقف الواجب على المسلم أن يقف من الآثار المشتملة على نيل أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين بسبب ما وقع بينهم من شجار وخلاف ومقاتلة خاصة في حرب الجمل بين الخليفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومن معه وبين أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير ومن معهم. وأيضا في حرب صفين بين علي ومعاوية وهو صيانة القلم واللسان عن ذكر ما لا يليق بهم وإحسان الظن بهم والترضي عنهم أجمعين، ومعرفة حقهم ومنزلتهم والتماس أحسن المخارج لما ثبت صدوره من بعضهم واعتقاد أنهم مجتهدون والمجتهد مغفور له خطؤه إن أخطأ، وأن الأخبار المروية في ذلك منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه أو نقص منه حتى تحرف عن أصله وتشوه، كما تبين من هذه النقول المتقدم ذكرها أن عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة فيما شجر بينهم هو الإمساك، ومعنى الإمساك عما شجر بينهم وهو عدم الخوض فيما وقع بينهم من الحروب والخلافات على سبيل التوسع وتتبع التفصيلات ونشر ذلك بين العامة أو التعرض لهم بالتنقص لفئة والانتصار لأخرى وقد تقدم معنى قريبا من قول الذهبي رحمه الله تعالى بأن كثيرا مما حدث بين الصحابة من شجار وخلاف ينبغي طيه وإخفاؤه بل إعدامه وأن كتمان ذلك متعين على العامة بل آحاد العلماء لأنه لا مصلحة شرعية ولا علمية من وراء نشر ذلك، أما من ناحية النظر العلمي المستقيم المهتدي بنصوص الشريعة فإن البحث في هذا الموضوع لا يمتنع إذا قصد به تبين أحكام الشريعة وما كان ذكر العلماء المعتبرين للحروب والخلافات التي وقعت بين الصحابة رضي الله عنهم إلا على هذا السبيل، أو لبيان المواقف الصحيحة، وتصحيح الأغاليط التاريخية التي أثيرت حول مواقفهم في

تلك الحروب رضي الله عنهم فعلى المسلم أن يعتقد فيما صح مما جرى بين الصحابة من خلاف أنهم فيه مجتهدون، إما مصيبون فلهم أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإما مخطئون فلهم أجر الاجتهاد، وخطؤهم مغفور وهم ليسوا معصومين بل هم بشر يصيبون ويخطئون ولكن ما أكثر صوابهم بالنسبة لصواب غيرهم، وما أقل خطأهم إذا نسب إلى خطأ غيرهم، وقد وعدوا من الله بالمغفرة والرضوان، كما أنه يجب على كل مسلم أن يكون لسانه رطبا بالذكر الحسن والثناء الجميل على أصحاب رسول الله ﷺ ويحاول جهده في ذكر محاسنهم العظيمة وسيرتهم الحميدة ويتجنب ذكر ما شجر بينهم، هذه طريقة الصدر الأول من هذه الأمة والتي اتخذها أهل السنة والجماعة منهاجا في موقفهم نحو الصحابة رضي الله عنهم جميعا.

قال العوام بن حوشب كما في الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة (ص ١٦٥): (أدركت من أدركت من صدر هذه الأمة بعضهم يقول لبعض: اذكروا محاسن أصحاب رسول الله ﷺ لتأتلف عليها القلوب ولا تذكروا ما شجر بينهم فتحرشوا الناس عليهم).

فأهل السنة مجمعون على وجوب السكوت عن الخوض في الفتن التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم بعد قتل عثمان رضي الله عنه والترحم عليهم وحفظ فضائل الصحابة والاعتراف لهم بسوابقهم ونشر محاسنهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

(فرع): بداية التشاجر بين أصحاب رسول الله ﷺ، ودوافعه

إن قتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه ظلما وعدوانا من قبل الخارجين عليه من أهل مصر، وأهل الكوفة، وأهل البصرة سنة خمس وثلاثين للهجرة كان مصدر بدء التشاجر بين الصحابة الكرام رضي الله عنهم والقارئ لكتب

التواريخ والسير يخرج منها بأن بداية التشاجر بين خير القرون كان بعد قتل ثالث الخلفاء الراشدين وبداية خلافة أبي الحسن رضي الله عنهما.

أما دوافع التشاجر بين الصحابة، فإن أعظم دافع لهم إلى ذلك ليس إلا مطالبة الخليفة الرابع بوجوب الإسراع بأخذ القود من أولئك الأشرار قتلة عثمان رضي الله عنه وأرضاه ذلك أن طائفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين كانوا يرون أنه لابد من المطالبة بدم عثمان ووجوب الإسراع بإقامة حد الله عليهم كما أمر الله بينما كان يرى علي رضي الله عنه إرجاء الأمر حتى يبايعه أهل الشام ويستتب له الأمر ليتسنى له بعد ذلك التمكن من القبض عليهم لأنهم كانوا كثيرين في جيش علي ومن قبائل مختلفة وكانوا لهم بعض التمكن حينذاك.

قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٢٤٨ - ٢٤٩): ولما استقر أمر بيعة علي دخل عليه طلحة والزبير ورؤوس الصحابة رضي الله عنهم وطلبوا منه إقامة الحدود والأخذ بدم عثمان فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مدد وأعوان، وأنه لا يمكنه ذلك يومه هذا اهـ ومما يؤكد أن سبب البداية للتشاجر بين الصحابة هو قتل عثمان رضي الله عنه أن عليا رضي الله عنه بعد أن بويع له بالخلافة شرع في إرسال عماله إلى الأمصار فكان من أرسله إلى الشام بدل معاوية سهل بن حنيف فسار حتى بلغ تبوك فتلقته خيل معاوية فقالوا: من أنت؟ فقال: أمير قالوا: على أي شي؟ قال: على الشام فقالوا: إن كان عثمان بعثك فحيهلا بك وإن كان غيره فارجع فقال: أو ما سمعتم بالذي كان؟ قالوا بلى فرجع إلى علي، وأما قيس بن سعد بن عبادة - فاختلف عليه أهل مصر فبايع له الجمهور، وقالت طائفة: لا نبايع حتى نقتل قتلة عثمان، وكذلك أهل البصرة، وأما عمارة بن شهاب المبعوث أميرا على

الكوفة فصده طليحة بن خويلد - الأسدي - غضبا لعثمان فرجع إلى علي فأخبره، وقام في الناس معاوية وجماعة من الصحابة معه، يحرضون الناس على المطالبة بدم عثمان، ممن قتله من أولئك الخوارج منهم عبادة بن الصامت وأبو الدرداء وأبو أمامة، وعمرو بن عنبسة وغيرهم من الصحابة والتابعين: شريك بن حباشة وأبو مسلم الخولاني، وعبد الرحمن بن غنم وغيرهم من التابعين، ولما كان رأي كل واحد من الفريقين مضادا لرأي الآخر من هنا اختلفت الكلمة وتفاقم الأمر، وانتشرت الفتنة فما كان من علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو الخليفة الحق الذي تجب طاعته إلا أن قام بإرسال الكتب المتتابعة إلى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعوه فيها إلى البيعة غير أن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يرد شيئا فكرر عليه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك مرارا إلى أن دخل الشهر الثالث من مقتل ذي النورين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم بعث بعد ذلك طومارا من رجل فدخل به على علي فقال: ما وراءك؟ قال جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القود كلهم موتور فقال علي: أمني يطلبون دم عثمان؟ ألست موتورا كترة عثمان؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان.

وقد وجه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جماعة إلى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو بصفين منهم بشير بن عمرو الأنصاري وقال لهم: ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الطاعة والجماعة واسمعوا ما يقول لكم فلما دخلوا على معاوية "قال له بشير بن عمرو: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، والله محاسبك بعملك ومجازيك بما قدمت يداك إني أنشدك الله أن لا تفرق جماعة هذه الأمة وأن تسفك دماءها بينها - إلى أن قال له: - وإنه - أي علي - يدعوك إلى مبايعته فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في آخرتك فقال معاوية: ويبطل دم عثمان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبدا، وقد دخل أبو الدرداء، وأبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيام صفين على معاوية ابن أبي

سفيان رضي الله عنهما فقالا له: يا معاوية علام تقاتل هذا الرجل؟ فوالله إنه أقدم منك ومن أبيك إسلاما وأقرب منك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحق بهذا الأمر منك - فكان جوابه عليهم - أقاتله على دم عثمان وأنه آوى قتلته فاذهبا إليه فقولا له: فليقدنا من قتلة عثمان ثم أنا أول من يبايعه من أهل الشام، فهذه الرواية وما قبله تبين لنا أن معاوية رضي الله عنه كان باذلا للبيعة بالخلافة لعلي رضي الله عنه لكن بشرط تعجيل القود من قتلة عثمان وكان رأي علي رضي الله عنه أن يدخل معاوية في البيعة أولا ثم بعد ذلك يتتبع القتلة ويقام عليهم الحد الشرعي بعد إقامة الدعوى والإجابة ثم صدور الحكم فيهم كما أمر الله به. ولكن لما رأى علي ومعاوية رضي الله عنهما رأيين متضادين لا يلتقيان أدى ذلك إلى المنازعة واختلاف الكلمة، ولما رأى علي رضي الله عنه أن الكتب التي وجهها إلى معاوية لم تجد شيئا بل إن الفتنة بدأت تشتد ولم تزدد الأمور إلا تعقيدا حيث استأثر معاوية رضي الله عنه ببلاد الشام ولم يسمح لأمر علي أن يمتد إليها وهو الخليفة الحق بعد ذي النورين، وأن من حقه على الناس أن يسمعوا له ويطيعوا، وأخذ في إعداد الجيش لقتال أهل الشام، وحاول الحسن ابنه أن يثنيه عن ذلك وقال له: يا أبتي دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين. فلم يسمع لقوله بل هيأ الجيش ودفع اللواء إلى ولده محمد بن علي - المعروف بابن الحنفية - غير أنه لم يتمكن مما قصده من تسيير الجيش إلى بلاد الشام فإنه جاءه ما شغله عن ذلك وهو توجه أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم إلى البصرة وعندما بلغ هذا الخبر عليا رضي الله عنه عدل عن وجهته إلى الشام وغير رأيه وتوجه إلى البصرة بدلا من الشام وهكذا بدأ النزاع يتدرج بين الصحابة رضي الله عنهم من طور الكتابة والمحاورة إلى طور التعبئة وتجهيز الجيوش استعدادا للقتال والمواجهة للضرب بالسيوف وقد تمثل ذلك في موقعتين:

الأولى: موقعة الجمل.

الثانية: موقعة صفين.

أما موقعة الجمل فقد دارت رحا الحرب فيها بين علي رضي الله عنه ومن معه وبين أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير ومن معهم رضي الله عنهم وذلك أنه: لما وقع قتل عثمان بعد أيام التشريق سنة خمس وثلاثين للهجرة - كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم - أمهات المؤمنين قد خرجن إلى الحج في هذا العام فرارا من الفتنة فلما بلغ الناس أن عثمان قد قتل أقمن بمكة وقد تجمع بمكة خلق كثير وجم غفير من سادات الصحابة منهم طلحة والزبير حيث استأذنا عليا في الاعتمار فأذن لهما فخرجا إلى مكة وتبعهما كثير من الناس وكذا قدم إلى مكة ابن عمر ومن اليمن يعلى بن أمية عامل عثمان عليها وعبد الله بن عامر عامله على البصرة ولم يزل الناس حينذاك يفدون على مكة ولما كثروا فيها قامت فيهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فحثتهم على القيام بطلب دم عثمان وذكرت ما افتات به أولئك من قتله في بلد حرام وشهر حرام ولم يراقبوا جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سفكوا الدماء وأخذوا الأموال، فاستجاب الناس لها وطاوعوها على ما تراه من الأمر بالمصلحة وقالوا لها: حيثما سرت سرنا معك وبعد أن تعددت آراؤهم في تحديد الجهة التي يسيرون إليها أجمعوا على الذهاب إلى البصرة فلما أتوا البصرة منعهم من دخولها عثمان بن حنيف عامل علي عليها حينذاك وجرت بينه وبينهم مراسلة ومحاورة حتى وصل الأمر بهم إلى المشاجرة ثم ما لبثوا أن اصطلحوا بعد ذلك إلى أن يقدم علي رضي الله عنه لأنه بلغهم أنه متوجه إليهم - وكما تقدم قريبا أنه عدل عن المسير إلى الشام بعد أن بلغه مسير أم المؤمنين عائشة إلى البصرة فأخذ في الاتجاه بعدهم في جمع كبير وهو يرجو أن يدركهم قبل

وصولهم إلى البصرة فلما علم أنهم قد فاتوه، استمر في طريقه إليهم قاصدا البصرة من أرض العراق. لما انتهى إلى البصرة كاتب أبا موسى الأشعري ﷺ - عامله على الكوفة وطلب منه أنه يستنفر الناس ليلحقوا به غير أن أبا موسى ﷺ كان يرى عكس رأي علي فكان يدعو إلى القعود ويقول: (وإنما هي فتنة وجعل كلما جاء رسول من عند علي رده بمثل ذلك حتى أرسل علي ابنه الحسن وعمار بن ياسر فقال الحسن لأبي موسى: لم تثبط الناس عنا؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يخاف علي شيء فقال: صدقت بأبي وأمي ولكن المستشار مؤتمن سمعت النبي ﷺ يقول: (إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب)[1] وقد جعلنا الله إخوانا وحرم علينا دماءنا وأموالنا فكان كلما قام رجل فحرض الناس على النفير يثبطهم أبو موسى من فوق المنبر ولكن مع ذلك استجاب للنفير كثير من الناس فخرج مع الحسن جمع كبير من أهل الكوفة وقدموا على علي ﷺ فتلقاهم بذي قار إلى أثناء الطريق في جماعة منهم ابن عباس فرحب بهم وقال: يا أهل الكوفة أنتم لقيتم ملوك العجم وفضضتم جموعهم وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك الذي نريده وإن أبوا داويناهم بالرفق حتى يبدءونا بالظلم، ولن ندع أمرا فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله تعالى، وفي هذا توضيح لمقصد أمير المؤمنين علي ﷺ وأن مقصده الأول والأخير هو طلب الإصلاح وأن القتال كان غير محبب إلى نفسه لاسيما مع إخوانه البررة أصحاب رسول الله ﷺ وهكذا كان مقصد أم المؤمنين عائشة ﷺ وطلحة والزبير من خروجهم من مكة إلى البصرة من

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

أرض العراق هو التماس الإصلاح بين المسلمين بأمر يرتضيه طرفا النزاع ويحسم به الاختلاف وتجتمع به كلمة المسلمين ولم يخرجوا مقاتلين ولا داعين لأحد منهم ليولوه الخلافة هذا ما قرره العلماء من أهل السنة، قال أبو محمد بن حزم في الفصل(٤/ ١٥٨): وأما أم المؤمنين والزبير وطلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن معهم فما أبطلوا قط إمامة علي ولا طعنوا فيها ولا ذكروا فيه جرحة تحطه عن الإمامة ولا أحدثوا إمامة أخرى ولا حددوا بيعة لغيره هذا ما لا يقدر أن يدعيه أحد بوجه من الوجوه بل يقطع كل ذي علم على أن كل ذلك لم يكن فإذ لاشك في كل هذا فقد صح صحة ضرورية لا إشكال فيها أنهم لم يمضوا إلى البصرة لحرب علي ولا خلافا عليه ولا نقضا لبيعته ولو أرادوا ذلك لأحدثوا بيعة غير بيعته هذا مما لا يشك فيه أحد ولا ينكره أحد فصح أنهم إنما نهضوا إلى البصرة لسد الفتق الحادث في الإسلام من قتل أمير المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ظلما، وبرهان ذلك أنهم اجتمعوا ولم يقتتلوا ولا تحاربوا فلما كان الليل عرف قتلة عثمان أن الإراغة والتدبير عليهم فبيتوا عسكر طلحة والزبير وبذلوا السيف فيهم فدفع القوم عن أنفسهم حتى خالطوا عسكر علي فدفع أهله عن أنفسهم وكل طائفة تظن ولا شك أن الأخرى بدئ بها بالقتال واختلط الأمر اختلاطا لم يقدر أحد على أكثر من الدفاع عن نفسه والفسقة من قتلة عثمان لا يفترون من شن الحرب وإضرامها فكلتا الطائفتين مصيبة في غرضها ومقصدها مدافعة عن نفسها.اهـ.

وقال أبو بكر بن العربي في العواصم من القواصم (ص ١٥١) في صدد ذكره للغرض الذي خرجت له عائشة ومن معها من مكة إلى البصرة: ويمكن أنهم خرجوا في جمع طوائف المسلمين وضم نشرهم وردهم إلى قانون واحد حتى

لا يضطربوا فيقتتلوا وهذا هو الصحيح لا شيء سواه.اهـ.

وقال أبو الوليد بن رشد المالكي في البيان والتحصيل (١٦/ ٣٦٠): بعد ذكره قوله تعالى: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما [الحجرات: ٩] الآية (فأرادت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقولها والله أعلم: ما رأيت ما ترك الناس في هذه الآية نسبة التقصير إلى من أمسك من الصحابة عن الدخول في الحرب التي وقعت بينهم واعتزالهم وكف عنهم ولم يكن مع بعضهم على بعض ورأت أن الأحظ لهم والواجب عليهم إنما كان أن يرموا الإصلاح بينهم.اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٦): في صدد ذكره لبعض الأدلة التي تدل على أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما خرجت إلا للإصلاح: ويدل لذلك أن أحدا لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا عليا في الخلافة ولا دعوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة.اهـ.

فأهل السنة والجماعة يرون أن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما قصدت بخروجها إلى البصرة إلا الإصلاح بين بنيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وبهذا وردت أخبار منها:

١- روى ابن جرير الطبري في تاريخه (٤/ ٤٦١ - ٤٦٢): أن عثمان بن حنيف لما بلغه مجيء عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى البصرة أرسل إليها عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي فقال لهما: انطلقا إلى هذه المرأة فاعلما علمها، وعلم من معها فخرجا فانتهيا إليها وإلى الناس وهم بالحفير فاستأذنا فأذنت لهما فسلما وقالا: إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك فهل أنت مخبرتنا؟ فقالت: والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم ولا يغطي لبنيه الخبر إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله، مع ما نالوا من قتل إمام

المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام، فسفكوه وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا وقرأت لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس [النساء: ١١٤].

٢- وروى أيضا الطبري في تاريخه (٤/ ٤٤٨): أن عليا رَضِوَاللَّهُعَنْهُ لما نزل بذي قار دعا القعقاع بن عمرو فأرسله إلى أهل البصرة وقال له: الق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية فادعهما إلى الألفة والجماعة وعظم الفرقة.. فخرج القعقاع حتى قدم البصرة فبدأ بعائشة رَضِوَاللَّهُعَنْهَا فسلم عليها وقال: أي أمه ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت أي بني إصلاح بين الناس قال: فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما فبعثت إليهما فجاءا فقال: إني سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد؟ فقالت: إصلاح بين الناس فما تقولان أنتما؟ أمتابعان أم مخالفان؟ قالا: متابعان قال: فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن، ولئن أنكرناه لا نصلح قالا: قتلة عثمان رَضِوَاللَّهُعَنْهُ فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن.

٣- ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٢٦١) أنه لما رجع القعقاع بن عمرو إلى علي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ وأخبره أن أصحاب الجمل استجابوا إلى ما بعثه به إليهم أذعن علي لذلك وبعث إلى طلحة والزبير يقول: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر فأرسلا إليه: (إنا على ما

فارقنا عليه القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس.اهـ. ففي هذه الأخبار دليل واضح على أن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لم تكن تقصد بخروجها هي ومن معها تفريق الجماعة ولا شفاء حقد بينها وبين علي كما يزعمه ذلك مبغضوا الصحابة من الرافضة، وإنما الغرض الذي كانت تريده الإصلاح بين الناس ابتغاء مرضات الله راجية الثواب على ذلك من الله، كما أن الذين طلبوا منها الخروج وهم طلحة والزبير ومن معهما كانوا كذلك، وكانوا يعلقون آمالا على خروجها في حسم الاختلاف وجمع الكلمة ولم يكن يخطر على بالهم قتل أحد لأنهم ما أرادوا إلا الإصلاح ما استطاعوا.

قال أبو بكر بن العربي في العواصم من القواصم (ص ١٥٢). في صدد ذكره لبيان الغرض الذي خرجت من أجله أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي ومن معها قائلا: (فخرج طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رجاء أن يرجع الناس إلى أمهم فيراعوا حرمة نبيهم واحتجوا عليها عندما حاولت الامتناع بقول الله تعالى: لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس [النساء: ١١٤] ثم قالوا لها: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد خرج في الصلح وأرسل فيه فرجت المثوبة واغتنمت الفرصة وخرجت حتى بلغت الأقضية مقاديرها.اهـ.

وقال أيضا في نفس المصدر السابق (ص ١٥٤): في معرض الرد على من قال: إن أهل البصرة لما عرفوا بمجيء عائشة وطلحة والزبير خرجوا ليقاتلوهم وعلى رأسهم حكيم بن جبلة قال في شأن حكيم هذا: وعن أي شيء كان يدافع؟ وهم ما جاءوا مقاتلين ولا ولاة، وإنما جاءوا ساعين في الصلح راغبين في تأليف الكلمة، فمن خرج إليهم ودافعهم وقاتلهم دافعوا عن مقصدهم كما يفعل في سائر الأسفار والمقاصد.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٢/ ١٨٥). بعد أن بين بطلان الحديث الذي نصه أن النبي ﷺ قال لعائشة: (تقاتلين عليا وأنت ظالمة) بين أن هذا الحديث لا يعرف في شيء من كتب العلم المعتمدة ولا له إسناده معروف وبين أنه إلى الموضوعات أشبه ثم قال بعد ذلك: فإن عائشة لم تقاتل ولم تخرج لقتال وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين... لا قاتلت ولا أمرت بقتال هكذا ذكر غير واحد من أهل المعرفة بالأخبار.اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ١٠٨) مبينا القصد الذي خرجت من أجله عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي ومن معها: والعذر في ذلك عن عائشة أنها كانت متأولة هي وطلحة والزبير وكان مرادهم إيقاع الإصلاح بين الناس وأخذ القصاص من قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين وكان رأي علي الاجتماع على الطاعة وطلب أولياء المقتول القصاص ممن يثبت عليه القتل بشروطه.اهـ.

فلا مقصد إذن من خروج أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي ومن معها من الصحابة من مكة إلى البصرة إلا بغية الإصلاح بين المسلمين ولم تخرج لقتال ولا أمرت به ثم أيضا: إن فكرة الصلح لم تكن عند أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي ومن معها فحسب بل كانت أيضا: تجول في فكر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ وقد تقدم معنا قريبا أن عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعث إلى طلحة والزبير يقول: (إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر فأرسلا إليه: إنا على ما فارقنا عليه القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس) ولما كان جوابهم على علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذا (اطمأنت النفوس وسكنت واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين فلما أمسوا بعث علي عبد الله بن عباس إليهم وبعثوا إليه محمد بن طلحة السجاد وعولوا جميعا على الصلح

وباتوا بخير ليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية) فهكذا كانت فكرة الصلح مسيطرة على عقول الجميع من الطرفين كما كانت هدفهم الذي يهدفون إليه حتى في وقت استعدادهم للقتال وفي أثناء تنظيم الجيوش.

قال ابن الأثير في الكامل (٣/ ٢٤١ - ٢٤٢): ولما خرج طلحة والزبير نزلت مضر جميعا وهم لا يشكون في الصلح، ونزلت ربيعة فوقهم وهم لا يشكون في الصلح ونزلت اليمن أسفل منهم ولا يشكون في الصلح ونزل علي بحيالهم، فنزلت مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة، واليمن إلى اليمن فكان بعضهم يخرج إلى بعض لا يذكرون إلا الصلح وكان أصحاب علي عشرون ألفا، وخرج علي وطلحة والزبير فتوافقوا فلم يروا أمرا أمثل من الصلح ووضع الحرب فافترقوا على ذلك.اهـ.

ولما أرسلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى علي رضي الله عنه تعلمه أنها إنما جاءت للصلح فرح هؤلاء وهؤلاء لاتفاقهم على رأي واحد وهو الصلح ولما رجع القعقاع بن عمرو من عند أم المؤمنين وطلحة والزبير بمثل رأيهم (جمع علي الناس ثم قام خطيبا فيهم - فحمد الله - عز وجل وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ وذكر الجاهلية وشقاءها، والإسلام والسعادة وإنعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ، ثم الذي يليه ثم حدث هذا الحدث الذي جره على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا، حسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة وأرادوا رد الأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره، ومصيب ما أراد ألا وإني راحل غدا فارتحلوا، ألا ولا يرتحلن معي أحد أعان على قتل عثمان في شيء من أمور الناس) ففكرة الصلح كانت هي المقصد الذي يطلبه الفريقان واتفقوا عليه وكان المسلمون حينئذ مجمعين على وجوب إقامة الحد وتنفيذ القصاص في

قتلة عثمان ولم يخطر القتال على بال أحد منهم، ولكن المفسدين في الأرض الذين قتلوا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصابهم الغم وأدركهم الحزن من اتفاق الكلمة وجمع الشمل، وأيقنوا أن الصلح الذي حصل الاتفاق عليه بين علي وأم المؤمنين وطلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سيكشف أمرهم وسيسلم رؤوسهم إلى سيف الحق وقصاص الخليفة فباتوا يدبرون أمرهم بليل شديد الظلمة فلم يجدوا سبيلا لنجاتهم إلا بأن يعملوا على إبطال الصلح وتفريق صفوف المسلمين وذلك بأن يقوموا بعمل يحير العقلاء ويجعل كل فريق يسيء الظن بالآخر. فقد أجمعوا على إنشاب الحرب في السر واستسروا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من الشر وخاصة بعد أن تيقنوا أن رأي علي فيهم موافق لرأي طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وقض مضجعهم قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبته التي ذكرناها آنفا: (ألا وإني راحل غدا فارتحلوا ألا ولا يرتحلن معي أحد أعان على قتل عثمان في شيء من أمور الناس) (فلما قال هذا اجتمع من رؤوسهم جماعة كالأشتر النخعي، وشريح بن أوفى وعبدالله بن سبأ - المعروف بابن السوداء- وسالم بن ثعلبة وعلياء بن الهيثم وغيرهم في ألفين وخمسمائة وليس فيهم صحابي ولله الحمد فقالوا: ما هذا الرأي؟ وعلي والله أعلم بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان، وأقرب إلى العمل بذلك وقد قال ما سمعتم غدا يجمع عليكم الناس، وإنما يريد القوم كلهم أنتم فكيف بكم وعددكم قليل في كثرتهم؟ فقال الأشتر: قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا وأما رأي علي فلم نعرفه إلى اليوم فإن كان اصطلح معهم فإنما اصطلحوا على دمائنا، فإن كان الأمر هكذا ألحقنا عليا بعثمان فرضي القوم منا بالسكوت فقال ابن السوداء: بئس ما رأيت لو قتلناه فإنا يا معشر قتلة عثمان - في ألفين وخمسمائة - وطلحة والزبير وأصحابهما في

خمسة آلاف لا طاقة لكم بهم وهم إنما يريدونكم. فقال علياء بن الهيثم: دعوهم وارجعوا بنا حتى نتعلق ببعض البلاد فنمتنع بها فقال ابن السوداء: بئس ما قلت، إذا والله كان يتخطفكم الناس، ثم قال ابن السوداء: قبحه الله يا قوم إن عزكم في خلطة الناس فإذا التقى الناس فأنشبوا الحرب والقتال بين الناس ولا تدعوهم يجتمعون، فمن أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله طلحة والزبير ومن معهما عما يحبون ويأتيهم ما يكرهون فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه) فاجتمعوا على هذا الرأي الذي تفوه به الخبيث عبد الله بن سبأ اليهودي (فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم فخرجوا متسللين وعليهم ظلمة فخرج مضريهم إلى مضريهم، وربيعهم إلى ربيعهم ويمانيهم إلى يمانيهم فوضعوا فيهم السلاح بغتة فثار أهل البصرة، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين أتوهم، وبلغ طلحة والزبير ما وقع من الاعتداء على أهل البصرة فقالا: ما هذا؟ قالوا: طرقنا أهل الكوفة ليلا وفي نفس الوقت حسب خطة أولئك المفسدين ذهبت منهم فرقة أخرى في ظلمة الليل ففاجأت معسكر علي بوضع السيف فيهم وقد وضعت السبئيه رجلا قريبا من علي يخبره بما يريدون فلما سمع علي الصوت عندما هجموا على معسكره قال: ما هذا؟ قال ذلك الرجل: ما شعرنا إلا وقوم من أهل البصرة قد بيتونا). (فثار كل فريق إلى سلاحه ولبسوا اللأمة وركبوا الخيول، ولا يشعر أحد منهم بما وقع الأمر عليه في نفس الأمر وكان أمر الله قدرا مقدورا وقامت الحرب على قدم وساق وتبارز الفرسان، وجالت الشجعان فنشبت الحرب وتوافق الفريقان وقد اجتمع مع علي عشرون ألفا، والتف على عائشة ومن معها نحو من ثلاثين ألفا فإنا لله وإنا إليه راجعون والسبئية أصحاب ابن السوداء - قبحه الله - لا يفترون عن القتل ومنادي علي

ينادي ألا كفوا، ألا كفوا فلا يسمع أحد) فاشتدت المعركة وحمي الوطيس وقد كان من سنتهم في هذا اليوم أنه لا يذفف على جريح ولا يتبع مدبر وقد قتل من هذا خلق كثير جدا حتى حزن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أشد الحزن وجعل يقول لابنه الحسن: (يا بني ليت أباك مات منذ عشرين سنة فقال له: يا أبه قد كنت أنهاك عن هذا قال: يا بني إني لم أر أن الأمر يبلغ هذا) ثم نزل بنفسه إلى ميدان المعركة لإنهاء القتال (وطلب طلحة والزبير ليكلمهما فاجتمعوا حتى التقت أعناق خيولهم فذكرهما بما ذكرهما به فانتهى الأمر برجوع الزبير يوم الجمل وفي أثناء رجوعه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نزل واديا يقال له: وادي السباع فاتبعه رجل يقال له عمرو بن جرموز فجاءه وهو نائم فقتله غيلة) وأما طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنه بعد (أن اجتمع به علي فوعظه تأخر فوقف في بعض الصفوف فجاءه سهم غرب فوقع في ركبته وقيل في رقبته والأول أشهر، وانتظم السهم مع ساقه خاصرة الفرس فجمح به حتى كان يلقيه وجعل يقول: إلي عباد الله فأدركه مولى له فركب وراءه وأدخله البصرة فمات بدار فيها ويقال: إنه مات بالمعركة) ولم تنته موقعة الجمل برجوع الزبير واستشهاد طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بل اشتدت الحرب بين الفريقين (حتى أن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقدمت وهي في هودجها وناولت كعب بن سور قاضي البصرة مصحفا وقالت ادعهم إليه وذلك حين اشتد الحرب وحمي القتال فلما تقدم كعب بن سور بالمصحف يدعو إليه استقبله مقدمة جيش الكوفيين وكان عبد الله بن سبأ - وهو ابن السوداء - وأتباعه بين يدي الجيش يقتلون من قدروا عليه من أهل البصرة لا يتوقفون في أحد، فلما رأوا كعب بن سور رافعا المصحف رشقوه بنبالهم رشقة رجل واحد فقتلوه ووصلت النبال إلى هودج أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فجعلت تنادي الله الله يا بني اذكروا يوم الحساب ورفعت يديها

تدعو على أولئك النفر من قتلة عثمان، فضج الناس معها بالدعاء حتى بلغت الضجة إلى علي فقال: ما هذا؟ فقالوا: أم المؤمنين تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم فقال: اللهم العن قتلة عثمان). (ولما رأى علي رضي الله عنه أن المعركة حميت حول الجمل أمر بعقره على ما يقال كي لا تصاب أم المؤمنين لأنها بقيت غرضا للرماة ولينفصل هذا الموقف الذي تفانى فيه الناس ولما سقط البعير إلى الأرض انهزم من حوله من الناس وانتهت المعركة وحملت أم المؤمنين بأمر من علي وهي مكرمة معززة ودخلت البصرة ومعها أخوها محمد بن أبي بكر). وأما علي رضي الله عنه، فإنه (أقام بظاهر البصرة ثلاثا ثم صلى على القتلى من الفريقين ثم جمع ما وجد لأصحاب عائشة في المعسكر، وأمر به أن يحمل إلى مسجد البصرة فمن عرف شيئا هو لأهلهم فليأخذه إلا سلاحا كان في الخزائن عليه سمة السلطان وكان مجموع من قتل يوم الجمل من الفريقين - عشرة آلاف خمسة من هؤلاء وخمسة من هؤلاء رحمهم الله ورضي عن الصحابة منهم وقد سأل بعض أصحاب علي عليا أن يقسم فيهم أموال أصحاب طلحة والزبير فأبى عليهم) (ولما أرادت أم المؤمنين عائشة الخروج من البصرة بعث إليها علي رضي الله عنه بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك وأذن لمن نجا ممن جاء في الجيش معها - أن يرجع إلا أن يحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر، فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه، جاء علي فوقف على الباب وحضر الناس وخرجت من الدار في الهودج فودعت الناس ودعت لهم وقالت: يا بني لا يعتب بعضنا على بعض إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها فقال علي: صدقت والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك وإنها لزوجة

نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة وسار علي معها مودعا ومشيعا أميالا، وسرح بنيه معها بقية ذلك اليوم وكان يوم السبت مستهل رجب سنة ست وثلاثين، وقصدت في سيرها ذلك إلى مكة، فأقامت بها إلى أن حجت عامها ذلك ثم رجعت إلى المدينة رضي الله عنها) ومما تقدم ذكره بشأن موقعة الجمل تبين أن القتال وقع بين الصحابة فيما بينهم كان بدون قصد منهم ولا اختيار وأن حقيقة المؤامرة التي قام بها قتلة عثمان خفيت على كلا الفريقين حتى ظن كل منهما أن الفريق الآخر قصده بالقتال.

وقد وضح حقيقة هذه المؤامرة العلامة ابن حزم وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله قال أبو محمد بن حزم في الإحكام في أصول الأحكام (٢/ ٨٥): وأما أهل الجمل فما قصدوا قط قتال علي رضوان الله عليه ولا قصد علي رضوان الله عليه قتالهم وإنما اجتمعوا بالبصرة للنظر في قتلة عثمان رضوان الله عليه وإقامة حق الله تعالى فيهم، فتسرع الخائفون على أنفسهم أخذ حد الله تعالى منهم وكانوا أعدادا عظيمة يقربون من الألوف - فأثاروا القتال خفية حتى اضطر كل واحد من الفريقين إلى الدفاع عن أنفسهم إذ رأوا السيف قد خالطهم.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٢/ ١٨٥): ولم يكن يوم الجمل لهؤلاء قصد في القتال ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم فإنه لما تراسل علي وطلحة والزبير وقصدوا الاتفاق على المصلحة وأنهم إذا تمكنوا طلبوا قتلة عثمان أهل الفتنة وكان علي غير راض بقتل عثمان ولا معينا عليه كما كان يحلف فيقول: والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله وهو الصادق البار في يمينه فخشي القتلة أن يتفق علي معهم على إمساك القتلة فحملوا دفعا عن

أنفسهم فظن علي أنهم حملوا عليه فحمل دفعا عن نفسه فوقعت الفتنة بغير اختيارهم.اهـ.

فهكذا أنشب الحرب بين علي وأخويه الزبير وطلحة قتلة عثمان الأشرار دون أن يفطن لذلك أولئك الأخيار من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم.

وأما موقعة صفين

فقد دارت رحا الحرب فيها بين أهل العراق من أصحاب علي رضي الله عنه وبين أهل الشام من أصحاب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ذلك أن عليا رضي الله عنه لما فرغ من موقعة الجمل ودخل البصرة وشيع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما أرادت الرجوع إلى مكة ثم سار من البصرة إلى الكوفة فدخلها وكان في نيته أن يمضي ليرغم أهل الشام على الدخول في طاعته كما كان في نية معاوية ألا يبايع حتى يقام الحد على قتلة عثمان رضي الله عنه، أو يسلموا إليه ليقتلهم ولما دخل علي رضي الله عنه الكوفة شرع في مراسلة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما فقد بعث إليه جرير بن عبد الله البجلي ومعه كتاب أعلمه فيه (باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ودعاه فيه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس فلما انتهى إليه جرير بن عبد الله أعطاه الكتاب فطلب معاوية عمرو بن العاص ورؤوس أهل الشام فاستشارهم فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان، أو أن يسلم إليهم قتلة عثمان وإن لم يفعل لم يبايعوه حتى يقتل قتلة عثمان رضي الله عنه فرجع جرير إلى علي فأخبره بما قالوا: وحينئذ خرج من الكوفة عازما على دخول الشام فعسكر بالنخيلة وبلغ معاوية أن عليا قد خرج بنفسه فاستشار عمرو بن العاص فقال له: اخرج أنت أيضا بنفسك فتهيأ أهل الشام وتأهبوا، وخرجوا أيضا: إلى نحو الفرات من ناحية صفين حيث يكون مقدم علي بن أبي طالب رضي الله وسار علي رضي الله عنه بمن معه

من الجنود من النخيلة قاصدا أرض الشام فالتقى الجمعان في صفين – أوائل ذي الحجة سنة ست وثلاثين).

ومكث علي يومين لا يكاتب معاوية، ولا يكاتبه معاوية، ثم دعا علي بشير بن عمرو الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي فقال لهم: (ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الطاعة والجماعة واسمعوا ما يقول لكم: فلما دخلوا على معاوية جرى بينه وبينهم حوار لم يوصلهم إلى نتيجة فما كان من معاوية إلا أن أخبرهم أنه مصمم على القيام بطلب دم عثمان الذي قتل مظلوما) ولما رجع أولئك النفر إلى علي رضي الله عنه وأخبروه بجواب معاوية رضي الله عنه لهم وأنه لن يبايع حتى يقتل القتلة أو يسلمهم (عند ذلك نشبت الحرب بين الفريقين واقتتلوا مدة شهر ذي الحجة كل يوم، وفي بعض الأيام ربما اقتتلوا مرتين ولما دخل شهر المحرم تحاجز القوم رجاء أن تقوم بينهم مهادنة وموادعة يؤول أمرها إلى الصلح والمراسلة بين الناس وحقن دمائهم) ثم في خلال هذا الشهر بدأت مساعي الصلح والمراسلة تتكرر بين الطرفين ولكن انسلخ شهر المحرم ولم يحصل لهم أي اتفاق، ولم يقع بينهم صلح. (ثم نشبت الحرب بين الطائفتين أياما ثمانية وكان أشدها وأعنفها ليلة التاسع من صفر سنة سبع وثلاثين حيث سميت هذه الليلة (ليلة الهرير) تشبيها لها بليلة القادسية اشتد القتال فيها حتى توجه النصر فيها لأهل العراق على أهل الشام) وتفرقت صفوفهم وكادوا ينهزمون فعند ذلك رفع أهل الشام المصاحف فوق الرماح وقالوا: (هذا بيننا وبينكم قد فني الناس فمن لثغور أهل الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق، فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت قالوا: نجيب إلى كتاب الله عز وجل ونيب إليه) (ولما رفعت المصاحف بالرماح

توقفت الحرب ولما رفع أهل الشام المصاحف اختلف أصحاب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وانقسموا عليه فمنهم من رأى الموافقة على التحكيم، ومنهم من كان يرى الاستمرار في القتال حتى يحسم الأمر، وهذا كان رأي علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بادئ الأمر، ثم وافق أخيرا على التحكيم). فتم الاتفاق بين الفريقين على التحكيم بعد انتهاء موقعة صفين وهو أن يحكم كل واحد منهما رجلا من جهته، ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين فوكل معاوية عمرو بن العاص ووكل علي أبا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعا، ثم أخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين - كليهما - عهد الله وميثاقه أنهما على ما في ذلك الكتاب وأجلا القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك فعلى تراض منهما وكتب في يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين على أن يوافي علي ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل في رمضان، ومع كل واحد من الحكمين أربعمائة من أصحابه، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح ولما كان شهر رمضان جعل الاجتماع كما تشارطوا عليه وقت التحكيم بصفين وذلك أن عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما كان مجيء رمضان بعث أربعمائة فارس مع شريح بن هانئ ومعهم أبو موسى، وعبد الله بن عباس، وإليه الصلاة، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة فارس من أهل الشام ومعهم عبد الله بن عمر، فتوافوا بدومة الجندل بأذرح وهي نصف المسافة بين الكوفة والشام بينها وبين كل من البلدين تسع مراحل - وشهد معهم جماعة من رؤوس الناس كعبد الله بن هشام المخزومي وعبد الرحمن بن عبد يغوث الزهري، وأبو جهم بن حذيفة فلما اجتمع الحكمان وتراوضا على

المصلحة للمسلمين ونظرا في تقدير الأمور ثم اتفقا على أن يكون الفصل في موضوع النزاع بين علي ومعاوية يكون لأعيان الصحابة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راض عنهم هذا ما اتفق عليه الحكمان فيما بينهما لا شيء سواه.

أما ما يذكره المؤرخون من أن الحكمين لما اجتمعا بأذرح من دومة الجندل وتفاوضا واتفقا على أن يخلعا الرجلين فقال عمرو بن العاص لأبي موسى: اسبق بالقول فتقدم فقال: إني نظرت فخلعت عليا عن الأمر وينظر المسلمون لأنفسهم كما خلعت سيفي هذا من عنقي أو من عاتقي وأخرجه من عنقه فوضعه في الأرض، وقام عمرو فوضع سيفه في الأرض وقال: إني نظرت فأثبت معاوية في الأمر: كما أثبت سيفي هذا في عاتقي وتقلده، فأنكر أبو موسى فقال عمرو: كذلك اتفقنا وتفرق الجمع على ذلك الاختلاف.

فهذه الحكاية وما يشبهها من اختلاق أهل الأهواء والبدع الذين لا يعرفون قدر أبي موسى وعمرو بن العاص ومنزلتهما الرفيعة في الإسلام. قال أبو بكر بن العربي في العواصم من القواصم (ص ١٧٧) مبينا كذب ذلك: هذا كله كذب صراح ما جرى منه حرف قط، وإنما هو شيء أخبر عنه المبتدعة ووضعته التاريخية للملوك فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله والبدع.اهـ. ولم يكتف الواضعون من أهل التاريخ بهذا بل وسموا الحكمين بصفات يتخذون منها وسيلة للتفكه والتندر، وليتخذ منه أعداء الإسلام صورا هزيلة لأعلام الإسلام في المواقف الحرجة، فقد وصفوا عمرو بن العاص رضي الله عنه بأنه كان صاحب غدر وخداع ووصفوا أبا موسى بأنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوع في القول كما وصفوه بأنه كان على جنب كبير من الغفلة ولذلك خدعه عمرو بن العاص في قضية التحكيم حيث اتفقا على خلع الرجلين فخلعهما أبو موسى

واكتفى عمرو بخلع علي دون معاوية كل هذه الصفات الذميمة يحاول المغرضون إلصاقها بهذين الرجلين العظيمين اللذين اختارهما المسلمون ليفصلا في خلاف كبير أدى إلى قتل الآلاف من المسلمين وكل ذي لب يعلم أن المسلمين لا يسندون الفصل في هذا الأمر إلى أبي موسى وعمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلا لعلمهم بما هما عليه من الفضل، وأنهما من خيار الأمة المحمدية، ومن أكثرهم ثقة وورعا وأمانة فكيف يصف الغافلون هذين الرجلين بما وصفوهما به من المكيدة والخداع وضعف الرأي والغفلة، ولكن تلك الأوصاف هي أليق بمن تفوه بها من أهل الأهواء، وقد تجاهل أولئك الواصفون لأبي موسى وعمرو بما تقدم ذكره أمورا لو دققوا النظر فيها لاستحيوا من ذكر تلك الأوصاف وتلك الأمور هي:

الأمر الأول: أنهم تجاهلوا أن معاوية لم يكن خليفة ولا هو ادعى الخلافة يومئذ حتى يحتاج عمرو إلى خلعها عنه أو تثبيتها له.

الأمر الثاني: أن سبب النزاع هو أخذ الثأر لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قتلته فلما طلب علي البيعة من معاوية (اعتل بأن عثمان قتل مظلوما وتجب المبادرة إلى الاقتصاص من قتلته وأنه أقوى الناس على الطلب بذلك والتمس من علي أن يمكنه منهم ثم يبايع له بعد ذلك) ومعنى هذا أن معاوية كان مسلما لعلي بالخلافة لأنه طلب منه بوصفه الخليفة تسليم القتلة، أو إقامة الحد عليهم باعتباره أمير المؤمنين، وكان رأي علي أن يدخل معاوية ومن معه من أهل الشام فيما دخل فيه الناس من البيعة له، ثم يتقدم أولياء عثمان بالمحاكمة إليه (فإن ثبت على أحد بعينه أنه ممن قتل عثمان اقتص منه فاختلفوا بحسب ذلك).

قال أبو محمد بن حزم في الفصل (٤/ ١٥٩ - ١٦١) مبينا أن القتال الذي

دار بين علي ومعاوية كان مغايرا لقتال علي الخوارج حيث قال: (وأما أمر معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فبخلاف ذلك ولم يقاتله علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لامتناعه من بيعته لأنه كان يسعه في ذلك ما وسع ابن عمر وغيره لكن قاتله لامتناعه من إنفاذ أوامره في جميع أرض الشام وهو الإمام الواجبة طاعته فعلي المصيب في هذا ولم ينكر معاوية قط فضل علي واستحقاقه الخلافة لكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على البيعة ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان والكلام فيه من ولد عثمان وولد الحكم بن أبي العاص لسنه ولقوته على الطلب بذلك كما أمر رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن سهل أخا عبد الله بن سهل المقتول بخيبر بالسكوت وهو أخو المقتول وقال له: كبر كبر فسكت عبد الرحمن وتكلم محيصة وحويصة ابنا مسعود وهما ابنا عم المقتول لأنهما كانا أسن من أخيه فلم يطلب معاوية من ذلك إلا ما كان له من الحق أن يطلبه وأصاب في ذلك الأثر الذي ذكرنا وإنما أخطأ في تقديمه ذلك على البيعة فقط فله أجر الاجتهاد في ذلك ولا إثم عليه فيما حرم من الإصابة كسائر المخطئين في اجتهادهم في الذين أخبر رسول الله ﷺ أن لهم أجرا واحدا وللمصيب أجران - إلى أن قال - وقد علمنا أن من لزمه حق واجب وامتنع من أدائه وقاتل دونه فإنه يجب على الإمام أن يقاتله وإن كان منا وليس بمؤثر في عدالته وفضله ولا بموجب له فسقا بل هو مأجور لاجتهاده ونيته في طلب الخير فبهذا قطعنا على صواب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصحة إمامته وأنه صاحب الحق وأن له أجرين أجر الاجتهاد، وأجر الإصابة وقطعنا أن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه مخطئون مجتهدون مأجورون أجرا واحدا.اهـ. فابن حزم رحمة الله عليه يقرر في هذا النص أن النزاع الذي كان بين علي ومعاوية إنما هو في شأن قتلة عثمان وليس اختلافا على

الخلافة إذ أن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم ينكر فضل علي واستحقاقه للخلافة وإنما امتنع عن البيعة حتى يسلمه القتلة أو يقتلهم وكان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يستمهله في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك فتحكيمهما إذن إنما هو في محل النزاع، وليس من أجل الخلافة.

الأمر الثالث: أن موقف أبي موسى الأشعري في التحكيم لم يكن أقل من موقف عمرو بن العاص في شيء ولذلك عد المؤرخون المنصفون هذا الموقف من مفاخر أبي موسى بعد موته بأجيال وصار مصدر فخر لأحفاده من بعده حتى قال ذو الرمة الشاعر مخاطبا بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري بأبيات منها:

أبوك تلافى الدين والناس بعدما * تشاءوا وبيت الدين منقطع الكسر
فشد أصار الدين أيام أذرح * ورد حروبا قد لقحن إلى عقر(١)

فلم يول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الفصل في قضية التحكيم إلا لما علم فيه من الفطنة والعلم وقدرته على حل المعضلات فقد ولاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو ومعاذ بن جبل قبل حجة الوداع على بلاد اليمن حيث بعث كل واحد منهما على مخلاف وأوصاهما عليه الصلاة والسلام بأن ييسرا ولا يعسرا وأن يبشرا ولا ينفرا(٢) وما توليته عليه الصلاة والسلام لأبي موسى إلا لعلمه بصلاحه للإمارة.

قال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٢) عند شرحه لحديث بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا موسى ومعاذا إلى اليمن: واستدل به على أن أبا موسى كان عالما فطنا حاذقا، ولولا ذلك لم يوله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإمارة، ولو كان فوض الحكم لغيره لم يحتج إلى

---

(١) ديوان ذي الرمة (ص: ٣٦١ - ٣٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

توصيته بما وصاه به، ولذلك اعتمد عليه عمر، ثم عثمان، ثم علي وأما الخوارج والروافض فطعنوا فيه ونسبوه إلى الغفلة وعدم الفطنة لما صدر منه في التحكيم بصفين.اهـ. فالتحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة، وأن عمرا لم يغالط أبا موسى ولم يخدعه ولم يقرر في التحكيم غير الذي قرره أبو موسى ولم يخرج عما اتفقا عليه من تفويض الحسم في موضع النزاع إلى النفر الذين بقوا على قيد الحياة ممن توفي عنهم رسول الله ﷺ وهو راض عنهم.

قال ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٢٤٥): والحكمان كانا من خيار الصحابة وهما: عمرو بن العاص السهمي - من جهة أهل الشام- والثاني: أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري - من جهة أهل العراق، وإنما نصبا ليصلحا بين الناس ويتفقا على أمر فيه رفق بالمسلمين وحقن لدمائهم وكذلك وقع.اهـ. وإذا كان قرارهما الذي اتفقا عليه لم يتم فما في ذلك تقصير منهما فهما قد قاما بمهمتهما بحسب ما أدى إليه اجتهادهما واقتناعهما ولو لم تكلفهما الطائفتان معا بأداء هذه المهمة لما تعرضا لها ولا أبديا رأيا فيها، وكل ما تقدم ذكره في هذا المبحث عن موقعتي الجمل وصفين وقضية التحكيم هو اللائق بمقام الصحابة فهو خال مما دسه الشيعة الرافضة وغيرهم على الصحابة في تلك المواطن من الحكايات المختلقة والأحاديث الموضوعة ومما يعجب له الإنسان أن أعداء الصحابة إذا دعوا إلى الحق أعرضوا وقالوا: لنا أخبارنا ولكم أخباركم ونحن حينئذ نقول لهم: سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين. انظر كتاب عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام رضي الله عنهم

❊ ❊ ❊

الفهرس

* * *

جامع المسائل العقدية

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

دار اللؤلؤة

الجزء العاشر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(باب تقديم أبي بكر وعمر وعثمان وعلي)

مسائل في الباب:

المسألة الأولى: التفاضل بين الصحابة

لقد دلت أدلة الشرع من نصوص الكتاب والسنة على وقوع التفاضل بين الصحابة رضوان الله عليهم.

فمن أدلة الكتاب: قوله تعالى: (وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) [الحديد: ١٠]. ففي الآية تفضيل طائفة من الصحابة وهم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا على طائفة من الصحابة وهم الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا مع إثبات الفضل للجميع والتنبيه على أن تفضيل بعضهم على بعض لا يفضي إلى تنقيص المفضول إذ وكلا وعد الله الحسنى.

وقال تعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه) [التوبة: ١٠٠]. ففي الآية الثناء على الصحابة أجمعين مع تخصيص السابقين الأولين بالذكر، وهذا التخصيص ثم التعميم دليل على تفضيل المخصصين بالذكر على العموم.

وقال سبحانه وتعالى: (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن) [الأحزاب: ٣٢]. قال ابن عباس: (يريد: ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، أنتن أكرم علي وثوابكن أعظم). ففي الآية دلالة على تفضيل نساء النبي ﷺ من الصحابيات على سائرهن.

ومن السنة: ما اتفق عليه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث

أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه).

وجاء في رواية لمسلم بيان سبب ورود الحديث: أنه كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد، فقال النبي ﷺ ذلك. وفيه دليل على تفضيل بعض الصحابة على بعض إذ فيه تفضيل عبد الرحمن وطبقته ممن أسلم قبل الفتح وقاتل على خالد وطبقته ممن أسلم بعد الحديبية وقاتل.

وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كنا نخير بين الناس في زمن النبي ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان). وفي رواية: (كنا نقول ورسول الله حي: أفضل أمة النبي ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان). زاد في رواية: (فيسمع رسول الله ﷺ ذلك فلا ينكره) فهذا إقرار رسول الله ﷺ التفاضل بين الصحابة، وفيه تفضيل آحاد بأعيانهم على من سواهم، وتفضيل واحد بعينه على صاحبه وهو تفضيل أبي بكر على عمر وعمر على عثمان، وقد قال ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٩): (فضل رسول الله ﷺ جماعة من أصحابه بفضائل خص كل واحد منهم بفضيلة وسمه بها وذكره فيها) قال: (ولم يأت عنه عليه الصلاة والسلام أنه فضل منهم واحدا على صاحبه بعينه من وجه يصح) قلت: لعله يريد أنه لم يصح ذلك عنه ﷺ من قوله لا من إقراره وإلا فحديث ابن عمر صحيح، ثم قال ابن عبد البر: (ولكنه ذكر من فضائلهم ما يستدل به على مواضعهم ومنازلهم من الفضل والدين والعلم، وكان ﷺ أحلم وأكرم معاشرة، وأعلم بمحاسن الأخلاق من أن يواجه فاضلا منهم بأن غيره أفضل منه فيجد من ذلك في نفسه، بل فضل السابقين منهم وأهل الاختصاص به على من لم ينل منازلهم فقال لهم: (لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا

نصيفه)، وهو من معنى قول الله تعالى: وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير، ومحال أن يستوي من قاتله ﷺ مع من قاتل عنه، وقال رسول الله ﷺ لبعض من لم يشهد بدر وقد رآه يمشي بين يدي أبي بكر: (تمشي بين يدي من هو خير منك)(١) وهذا لأنه كان أعلمنا ذلك في الجملة لمن شهد بدرا والحديبية، ولكل طبقة منهم منزلة معروفة وحال موصوفة.اهـ.

قلت: ثبوت تفضيل طائفة موصوفة من الصحابة على طائفة بالكتاب والسنة دليل قوي للقطع بتفضيل واحد بعينه من الطائفة الفاضلة على واحد بعينه من الطائفة المفضولة، وحديث أبي سعيد دليل لصحة هذا المأخذ، فإن

(١) يقصد ابن عبد البر حديث أبي الدرداء قال (رآني رسول الله ﷺ وأنا أمشي بين يدي أبي بكر قال لم تمشي أمام من هو خير منك إن أبا بكر خير من طلعت عليه الشمس وغربت) والحديث أخرجه عبد بن حميد (٢١٢)، وأحمد فى فضائل الصحابة (١/ ١٥٢، رقم ١٣٥)، وابن حبان في المجروحين (١/ ١٢٧)، وابن أبى عاصم في السنة (٢/ ٥٧٦، رقم ١٢٢٤)، وبحشل في تاريخ واسط (١/ ٢٤٨)، والقطيعي في زوائده على فضائل الصحابة (١٣٥، ٥٠٨)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٧/ ١٣٥٨ رقم ٢٤٣٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٢٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٤٣٨)، والديلمى في مسند الفردوس (٥/ ٣٥١، رقم ٨٤٠١)، وابن بشران في الآمالي (ص٢٥٥، رقم ٥٨٩)، وابن شاهين في شرح مذاهب أهل السنة (ص٨٤، رقم ٨٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٢٢٧، رقم ١٦٩١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٢٠٨، ٢٠٩) والحديث قال عنه الإمام أبو حاتم الرازي كما في العلل لابنه (٢/ ٣٨٣): هذا حديث موضوع، سمع بقية هذا الحديث من هشام الرازي، عن محمد بن الفضل، عن ابن جريج، فترك الاثنين من الوسط. قال ابن ابي حاتم قال أبي: ومحمد بن الفضل بن عطية متروك الحديث، وانظر علل الدارقطني (١٣/ ٣٨٠).

سبب وروده نزاع بين واحد بعينه من طائفة فاضلة وهو عبد الرحمن بن عوف ممن أسلم قبل الفتح وقاتل، وآخر بعينه من طائفة مفضولة وهو خالد بن الوليد ممن أسلم متأخرا وقاتل، فقال ﷺ ما قال مما يدل على تفضيله عبد الرحمن على خالد، والله أعلم. وهذا الحديث وإن لم يذكر فيه النبي ﷺ الصحابيين باسميهما إلا أنه كالتنصيص منه ﷺ بتفضيل واحد بعينه على صاحبه، لدلالة سبب الورود على ذلك ولكنه ﷺ - كما قال ابن عبد البر - أكرم وأحلم وأتم خلقا وأحسن معاشرة من أن يسمي الفاضل والمفضول تسمية صريحة في مثل هذه الحال، والله أعلم.

وهنا مسألة: وهي: التفاضل ثابت بين الصحابة رضوان الله عليهم

فهل نفاضل بينهم؟ روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحدا، ثم عمر ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم) ففي هذا اللفظ حصر المفاضلة في الثلاثة دون غيرهم، ولكن قد ثبت بالكتاب والسنة تفضيل بعض الصحابة على بعض ولابد من تفضيل من فضله الله واعتقاد ذلك، ولذا قال الحافظ في الفتح (٧/ ٥٨): قد اتفق العلماء على تأويل كلام ابن عمر هذا لما تقرر عند أهل السنة قاطبة من تقديم علي بعد عثمان، ومن تقديم بقية العشرة المبشرة على غيرهم، ومن تقديم أهل بدر على من لم يشهدها وغير ذلك فالظاهر أن ابن عمر إنما أراد بهذا النفي أنهم كانوا يجتهدون في التفضيل فيظهر لهم فضائل الثلاثة ظهورا بينا فيجزمون به ولم يكونوا حينئذ اطلعوا على التنصيص.اهـ.

فمذهب أهل السنة والجماعة تفضيل الصحابة بعضهم على بعض بمقتضى دلالات النصوص، إجمالا فيما أجملته، وتفصيلا فيما فصلته.

(فرع): أوجه التفاضل بين الصحابة

جماع هذه الأوجه هو ما سلف من كل واحد منهم من أعمال البر والطاعات التي تتفاضل منزلتها عند الله.

فمن أوجه التفاضل بينهم: السبق إلى الإسلام فالسابق إلى الإسلام أفضل من المسبوق، أفاده قوله سبحانه: والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه [التوبة: ١٠٠].

ومن أوجه التفاضل بينهم: الإنفاق والجهاد قبل الفتح فمن أنفق من قبل الفتح وقاتل أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، أفادته آية (سورة الحديد).

ومن أوجه التفاضل بينهم: شهود بدر كما أفاده قول النبي ﷺ: (لعل الله أن يكون اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[١].

ومن أوجه التفاضل بينهم: شهادة رسول الله ﷺ بالجنة فمن شهد له بها أفضل.

ومن أوجه التفاضل شهود بيعة الرضوان فمن شهدها أفضل.

ومن أوجه التفاضل بينهم تخصيص الرسول ﷺ أحدهم بمنقبة.

وغير ذلك من وجوه التفاضل بينهم رضوان الله عليهم، وكون المفضول قد يختص بفضيلة لا توجد في الفاضل إلا أن ذلك لا يقتضي تفضيله بها مطلقا، فعثمان بن عفان رضي الله عنه لم يحضر بدرا[٢]، ولكنه أفضل بعد أبي بكر وعمر من

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرج البخاري (٣٦٩٨) عن عثمان ابن موهب قال جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قوما جلوسا فقال من هؤلاء القوم فقالوا هؤلاء قريش قال فمن الشيخ فيهم قالوا عبد الله بن عمر قال يا ابن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني هل تعلم أن عثمان =

جميع الصحابة من حضر بدرا ومن لم يحضر انظر كتاب مباحث المفاضلة في العقيدة.

المسألة الثانية: تفضيل الخلفاء الأربعة على غيرهم

أفضل أفراد الصحابة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وهو إجماع أهل السنة في أبي بكر وعمر، وقول جمهورهم في عثمان وعلي.

قال الإمام الشافعي فيما رواه عنه البيهقي بإسناده في الاعتقاد (ص١٩٢): "ما اختلف أحد من الصحابة والتابعين في تفضيل أبي بكر وعمر وتقديمهما على جميع الصحابة وإنما اختلف من اختلف منهم في عليّ وعثمان ونحن لا نخطئ واحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فيما فعلوا".اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ١٧): "ونقل البيهقي في الاعتقاد بسنده إلى أبي ثور عن الشافعي أنه قال: أجمع الصحابة وأتباعهم على أفضلية أبي بكر، ثم عمر ثم عثمان، ثم عليّ.اهـ.

وقال النووي في المنهاج (١٥/ ١٤٨): اتفق أهل السنة على أن أفضلهم أبو بكر ثم عمر.اهـ.

=

فر يوم أحد قال نعم قال تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد قال نعم قال تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها قال نعم قال الله أكبر قال ابن عمر تعال أبين لك أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة فقال له رسول الله ﷺ إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه فبعث رسول الله ﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال هذه لعثمان فقال له ابن عمر اذهب بها الآن معك).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الوصية الكبرى (ص٣٢): وقد اتفق أهل السنة والجماعة على ما تواتر عن علي بن أبي طالب أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر.اهـ.

وقال ابن حجر الهيثمي الصواعق المحرقة (ص٥٧): واعلم أن الذي أطبق عليه عظماء الملة وعلماء الأمة أن أفضل هذه الأمة أبو بكر الصديق ثم عمر رضي الله عنهما .اهـ.

وهؤلاء الأعلام الذين نقلوا هذا الإجماع إنما هو بناء على ما قاله أئمة أهل السنة والجماعة فقد قال الإمام أبو حنيفة كما في شرح "الفقه الأكبر" (ص١٠٨): ونقر بأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها محمد عليه أفضل الصلاة والسلام أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، ثم عليّ رضي الله عنهم أجمعين".اهـ.

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٤٠٣) عن الإمام مالك بن أنس أنه قال: لما سأله الرشيد عن منزلة الشيخين من النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "منزلتهما منه في حياته كمنزلتهما منه بعد مماته - ثم قال - وكثرة الاختصاص والصحبة مع كمال المودة والائتلاف والمحبة والمشاركة في العلم يقضي بأنهما أحق من غيرهما وهذا ظاهر بين لمن له خبرة بأحوال القوم".اهـ.

وروى الإمام البيهقي في مناقب الشافعي (١/ ٤٣٣ - ٤٣٤) مسندًا إلى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال: سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول: "أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم".

وقال أيضًا رحمه الله تعالى: "اضطر الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر فلم يجدوا تحت أديم السماء خيرًا من أبي بكر من أجل ذلك استعملوه على رقاب الناس".اهـ.

وقال الإمام أحمد كما في طبقات الحنابلة (١/ ٣٠): "وخير الأمة بعد النبي ﷺ أبو بكر، وعمر بعد أبي بكر، وعثمان بعد عمر، وعلي بعد عثمان ووقف قوم على عثمان وهم خلفاء راشدون مهديون".اهـ.

وقال أبو الحسن الأشعري في مقالات الإسلاميين (١/ ٣٤٨) مبينًا مذهب أهل السنة وعقيدتهم في السلف: "ويعرفون حق السلف الذين اختارهم الله سبحانه لصحبة نبيه ﷺ ويأخذون بفضائلهم ويقدمون أبا بكر ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليًا رضوان الله عليهم ويقرون أنهم الخلفاء الراشدون المهديون أفضل الناس كلهم بعد النبي ﷺ.اهـ.

وقال ابن قدامة المقدسي في لمعة الاعتقاد (ص٢٥): "وأفضل أمته ﷺ: أبو بكر الصديق ثم عمر الفاروق، ثم عثمان ذو النورين، ثم علي المرتضى رضي الله عنهم".اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير في الباعث الحثيث (ص/ ١٨٣): "وأفضل الصحابة بل أفضل الخلق بعد الأنبياء عليهم السلام أبو بكر عبد الله بن عثمان أبو قحافة التيمي، ثم من بعده عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين".اهـ.

وقال النووي في شرح مسلم (١٥/ ١٤٨): واتفق أهل السنة على أن أفضلهم أبو بكر ثم عمر، وقال جمهورهم: ثم عثمان، ثم علي.اهـ.

وقال القسطلاني المواهب (٧/ ٣٦، ٣٩): إن أفضلهم على الإطلاق عند أهل السنة إجماعا أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما، إلى أن قال: ثم اختلفوا فيمن بعدهما، فالجمهور على تقديم عثمان.اهـ.

وقال ابن الصلاح في مقدمته (ص: ١٤٩): أفضلهم على الإطلاق: أبو بكر

ثم عمر، ثم إن جمهور السلف على تقديم عثمان على علي - رضي الله عنهم أجمعين.اهـ.

وقال ابن تيمية في منهاج السنة (٤/ ٢٠٢): وأما جمهور الناس ففضلوا عثمان، وعليه استقر أمر أهل السنة، وهو مذهب أهل الحديث ومشايخ الزهد والتصوف وأئمة الفقهاء كالشافعي وأصحابه وأحمد وأصحابه وأبي حنيفة وأصحابه وإحدى الروايتين عن مالك وأصحابه، وذكر أن هذا هو مذهب جماهير أهل الكلام، ونقل عن أبي أيوب السختياني قوله: من لم يقدم عثمان على علي فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار قال: وهكذا قال أحمد والدارقطني وغيرهما.اهـ.

وهو مذهب المتقدمين من المعتزلة: كأبي عثمان عمرو بن عبيد، وأبي إسحاق النظام: إبراهيم بن يسار، وأبي عثمان الجاحظ، وغيرهم، كما ذكر ذلك القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة (ص: ٧٦٦ - ٧٦٧): إن المتقدمين من المعتزلة ذهبوا إلى أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي.اهـ.

وأيدوا ما ذهبوا إليه: بأن إجماع الصحابة من المهاجرين والأنصار على الترتيب بينهم في الإمامة، دليل على الترتيب بينهم في الفضل، ومن خرج على ذلك يعتبر - كما يقول أبو أيوب السختياني - ممن أزرى بالمهاجرين والأنصار، قال القسطلاني في المواهب (٧/ ٣٩): إن هؤلاء الأربعة اختارهم الله لخلافة نبيه، وإقامة دينه، فمنزلتهم عنده بحسب ترتيبهم في الخلافة.اهـ.

وقال ابن كثير في الباعث الحثيث (ص١٨٣): هذا -أي الترتيب بين الأربعة في الفضل كالترتيب بينهم في الخلافة - رأي المهاجرين والأنصار، حين جعل

عمر الأمر من بعده شورى بين ستة، فانحصر في عثمان، وعلي، واجتهد فيهما عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام بلياليها حتى سأل النساء في خدورهن على علي، وولاه الأمر قبله، قال: ولهذا قال الدارقطني: من قدم عليا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، وصدق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأكرم مثواه، وجعل جنة الفردوس مأواه.اهـ.

وقد روي آثار مستفيضة عن علي رضي الله تعالى عنه نفسه ففي صحيح البخاري (٣٦٧١) عن محمد بن الحنفية أنه قال: (قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول عثمان قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٤٢٢) وروي هذا عن علي بن أبي طالب من نحو ثمانين وجها، وأنه كان يقول على منبر الكوفة، بل قال: (لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري)، فمن فضله على أبي بكر وعمر جلد بمقتضى قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ثمانين سوطا.اهـ.

وفي هذا أكبر حجة على بطلان قول الرافضة بأنه لم يبايع إلا تقية وكان مكرها وإلا فهو أفضل منهما، ولو كان الأمر كذلك لما أعلنه على رؤوس الأشهاد على المنبر، ولما جلد من يقول ذلك حد الافتراء.

المسألة الثالثة: المفاضلة بين عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهما

أما المفاضلة بين عثمان وعلي فهذه دون تلك، وقد حصل فيها نزاع بين السلف قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٤٢٦): فإن سفيان الثوري وطائفة من أهل الكوفة رجحوا عليا على عثمان، ثم رجع عن ذلك سفيان وغيره، وبعض أهل المدينة توقف في عثمان وعلي وهي إحدى الروايتين عن

مالك، لكن الرواية الأخرى عنه تقديم عثمان على علي كما هو مذهب سائر الأئمة كالشافعي وأبي حنيفة وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وغير هؤلاء من أئمة الإسلام.اهـ.

أما أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد روي عنه (تقديم علي على عثمان)[1] وجاء في السير الكبير (١/ ١١١) لمحمد بن الحسن الشيباني: (روى نوح بن أبي مريم عن أبي حنيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سألته عن مذهب أهل السنة فقال: أن تفضل أبا بكر وعمر، وتحب عليا وعثمان، وترى المسح على الخفين، ولا تكفر أحدا من أهل القبلة، وتؤمن بالقدر، ولا تنطق في الله بشيء) ثم قال الشارح: (ومن الناس من يقول: قبل الخلافة كان عليا مقدما على عثمان، وبعد الخلافة عثمان أفضل من علي) ثم اعتذر الشارح عن كلام الإمام السابق بقوله: (ولم يرد أبو حنيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بما ذكر تقديم علي على عثمان، ولكن مراده أن محبتهما من مذهب أهل السنة فالواو عنده لا توجب الترتيب.اهـ.

قلت: بل قد صرح في الفقه الأكبر (ص: ٤١) بتقديم عثمان على علي فقال: وأفضل الناس بعد النبيين عليهم الصلاة والسلام أبو بكر، ثم عمر بن الخطاب الفاروق، ثم عثمان بن عفان ذو النورين، ثم علي بن أبي طالب المرتضى رضي الله تعالى عنهم أجمعين.اهـ. وهو ظاهر المذهب قال السرخسي شرح السير الكبير (١/ ١١١): فأما المذهب عندنا أن عثمان أفضل من علي رضوان الله عليهما قبل الخلافة وبعدها.اهـ.

أدلة تفضيل عثمان على علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

أن الغالبية العظمى من أهل السنة والجماعة على تقديم عثمان على علي،

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٤٨٦).

ولم يخالف إلا القليل، ويدل على صحة ما ذهبوا إليه ما يلي:

ما تقدم من قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كنا نقول ورسول الله ﷺ حي: (أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم) .

وكذلك في قصة بيعة عثمان الثابتة في صحيح البخاري (٣٧٠٠) أنه لما لم يبق في الشورى إلا عثمان، وعلي، والحكم عبد الرحمن بن عوف، وبقي عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام بلياليها يشاور المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ويشاور أمهات المؤمنين، ويشاور أمراء الأمصار - فإنهم كانوا بالمدينة حجوا مع عمر وشهدوا موته - حتى قال عبد الرحمن: (إن لي ثلاثا ما اغتمضت بنوم) بعد هذا كله وبعد أخذ المواثيق منهما على أن يبايع من بايعه، أعلن النتيجة بعد هذا الاستفتاء وهي قوله: (إني رأيت الناس لا يعدلون بعثمان) فبايعه علي وعبد الرحمن وسائر المسلمين بيعة رضى واختيار فدل ذلك على تقديمه في الأفضلية عليه، قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٤٢٨): (وهذا إجماع منهم على تقديم عثمان على علي).اهـ. ولما سأل رجل عبد الله بن المبارك كما في السنة للخلال (٢/ ٣٨٩) أيهما أفضل علي أو عثمان قال: (قد كفانا ذاك عبد الرحمن بن عوف)، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حينما ولي عثمان الخلافة (أمرنا خير من بقي ولم نأل).

ولهذا قال أيوب وأحمد بن حنبل والدارقطني كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٤٢٨): من قدم عليا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار) ويفسر ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٤٢٨)ذلك بأنه: (لو لم يكن عثمان أحق بالتقديم وقد قدموه كانوا إما جاهلين بفضله، وإما ظالمين بتقديم المفضول من غير ترجيح ديني، ومن نسبهم إلى الجهل والظلم فقد أزرى بهم).اهـ.

(فرع): السلف وإن كان بعضهم يرى التوقف بعد ذكر عثمان

لا يقدمون على علي أحدا بعد الثلاثة، كما قال الإمام أحمد كما في منهاج السنة (٢/ ٢٠٨): (من لم يربع بعلي فهو أضل من حمار أهله) وإنما من قال بالتوقف في التفضيل عند عثمان يريد الاقتداء بحديث ابن عمر السابق، فيذكرون الثلاثة ثم يجملون بقية أصحاب الشورى كما هي رواية عن الإمام أحمد نفسه فقد ذكر عنه اللالكائي (١/ ١٥٩) قوله: (وخير الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان. نقدم هؤلاء الثلاثة كما قدمهم أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا في ذلك، ثم بعد هؤلاء الثلاثة أصحاب الشورى الخمسة: علي بن أبي طالب، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد كلهم يصلح للخلافة وكلهم إمام، ونذهب إلى حديث ابن عمر (كنا نعد ورسول الله ﷺ حي وأصحابه متوافرون أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان) وبنحوه تماما في نفس المصدر السابق: عن علي بن المديني .

وإن كان ورد عنه نفسه رَحِمَهُ اللَّهُ روايات ينص فيها على التربيع بعلي منها الرواية السابقة: (من لم يربع بعلي فهو أضل من حمار أهله). ومنها رواية الإصطخري حيث قال فيها كما في طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١/ ٣٠): (وخير الأمة بعد نبيها ﷺ: أبو بكر، وعمر بعد أبي بكر، وعثمان بعد عمر، وعلي بعد عثمان، ووقف قوم على عثمان) ولذلك كانت خلاصة رأي الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في التفضيل - على ما يراه الخلال في السنة (٢/ ٤١٠)- هي من قوله: (من قال: أبو بكر وعمر وعثمان فقد أصاب. وهو الذي العمل عليه، ومن قال: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فصحيح أيضا جيد لا بأس به وبالله التوفيق).

قلت: لكنه ورد عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكذيبه لمن نسبه إلى التوقف عند عثمان فقال في رواية محمد بن عوف الحمصي كما في طبقات الحنابلة (١/ ٣١٣): (وخير الناس بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، فقلت له يا أبا عبد الله، فإنهم يقولون: إنك وقفت على عثمان؟ فقال: كذبوا والله علي، إنما حدثتهم بحديث ابن عمر - وذكر الحديث - ولم يقل النبي ﷺ: لا تخايروا بعد هؤلاء بين أحد، ليس لأحد في ذلك حجة، فمن وقف على عثمان ولم يربع بعلي فهو على غير السنة يا أبا جعفر).

فالحاصل أن من نص على التربيع على علي، ومن توقف عن التنصيص عند عثمان، كلهم لا يقدمون على علي بعد الثلاثة أحدا، ولا يلزم من عدم التنصيص عليه بعد عثمان أنهم يقدمون عليه أحدا، قال ابن تيمية في منهاج السنة (٢/ ٢٠٦): (فليس في أهل السنة من يقدم عليه -أي علي - أحدا غير الثلاثة، بل يفضلونه على جمهور أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، وعلى السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وما في أهل السنة من يقول: إن طلحة والزبير وسعدا وعبد الرحمن بن عوف أفضل منه، بل غاية ما يقولون السكوت عن التفضيل بين أهل الشورى). وقد حكى الحافظ في الفتح) (٧/ ٣٤) الإجماع على أن ترتيب الخلفاء في الأفضلية كترتيبهم في الخلافة.اهـ.

لكن من قدم عليا على عثمان هل هو مبتدع أم لا؟ وعلى هذا السؤال يجيب الخلال في السنة (٢/ ٣٨٢).، فقد قال بعد ذكره لعدة روايات مسنده عن إمام أهل السنة أحمد بن حنبل فيمن قدم عليا على عثمان قال: (فاستقر القول من أبي عبد الله أنه يكره هذا القول ولم يجزم في تبديعه، وإن قال قائل: هو مبتدع لم ينكر عليه وبالله التوفيق). انظر كتاب الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة.

(باب ذكر مباحث السمع والطاعة)

عن ابن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان)(١).

وعن زيد بن أبي عتاب قال: قام معاوية رَضِوَاللَّهُعَنْهُ على المنبر فقال: قال النبي ﷺ: (الناس تبع لقريش في هذا الأمر خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام)(٢).

وعن وائل الحضرمي عن أبيه قال: سأل يزيد بن سلمة الجعفي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله: أرأيت لو كانت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، فجذبه الأشعث بن قيس في الثالثة أو في الثانية، فقال رسول الله ﷺ: اسمعوا وأطيعوا، إنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم)(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها قلنا: فما تأمر من أدرك منا ذاك؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم)(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٠١، ٧١٤٠)، ومسلم (١٨٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٠١، رقم ١٦٩٧١)، وابن أبى شيبة (٦/ ٤٠٢، رقم ٣٢٣٨٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١١٢٩، ١٥٢٧)، والداني في السنن الواردة في الفتن (١/ ٤٤٤: ١٩٥) والحافظ في تغليق التعليق (٤/ ٤٨١) والحديث قال عنه الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٧١): رجاله ثقات، وصححه العلامة الألباني في ظلال الجنة (٢/ ٥٢٠)، وفي الصحيحة تحت الحديث (١٠٠٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٨/ ١٢٦): إسناده صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٤٦).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٠٣)، ومسلم (١٨٤٣).

وعن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: (من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر فإنه ليس من أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية)(١).

وعن الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدثه أن رسول الله ﷺ قال: (وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن؛ الجماعة والسمع والطاعة، والهجرة والجهاد في سبيل الله فمن فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع الإسلام من رأسه إلا أن يرجع ومن ادعى دعوى جاهلية فإنه من جثا جهنم فقال رجل وإن صام وصلى؟ قال: وإن صام وصلى؟ تداعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله)(٢).

وعن سويد بن غفلة قال: أخذ عمر بيدي فقال: (يا أبا أمية إني لا أدري لعلنا لا نلتقي بعد يومنا هذا، اتق الله ربك إلى يوم تلقاه كأنك تراه وأطع الإمام وإن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩).

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، والطيالسي (١١٦١)، والبخاري في تاريخه (٢/ ٢٦٠)، وابن سعد في الطبقات (٤/ ٣٥٩)، وأبو يعلى (١٥٧١)، والترمذي (٢٨٦٣، ٢٨٦٤)، والنسائي في الكبرى (١١٣٤٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٥١٠)، وابن خزيمة (٩٣٠)، وابن حبان (٦٢٣٣)، والحاكم (١/ ١١٧)، والبغوي في شرح السنة (٢٤٦٠)، وابن طهمان في مشيخته (٢٠٠)، وابن منده في الإيمان (رقم ٢١٢)، والآجري في الشريعة (ص٨)، وغيرهم والحديث قال عنه الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب قال محمد بن إسماعيل الحارث الأشعري له صحبة وله غير هذا الحديث، وألزم الإمام الدارقطني به مسلم كما في الإلزامات والتتبع (١٣٠)، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وحسنه البغوي في شرح السنة (٥/ ٣٠٤)، وصححه ابن العربي في العارضة (٦/ ٨)، وصححه المصنف، وحسنه ابن كثير في تفسيره (١/ ٨٧)، وصححه العراقي في المستخرج على المستدرك (٨٩)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (١٧٢٤)، وقال الشيخ مقبل في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٣/ ٤٥٠ - ٤٥٢): هذا حديث صحيح على شرط مسلم، وصححه الأرنؤوط في تحقيق المسند، وصححه العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢٢).

كان عبدا حبشيا مجدعا، إن ضربك فاصبر، وإن أهانك فاصبر، وإن أمرك بأمر ينقص دينك فقل طاعة مني دمي دون ديني، ولا تفارق الجماعة)[(١)].

وعن محمد بن المنكدر قال: (لما بويع ليزيد بن معاوية ذكر ذلك ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: إن كان خيرا رضينا وإن كان شرا صبرنا)[(٢)].

مسائل في الباب:

المسألة الأولى: الأئمة من قريش

هذا الشرط -وهو أن يكون الخليفة قرشيا- من الشروط التي وردت النصوص عليه صريحة وانعقد إجماع الصحابة والتابعين عليه، وأطبق عليه جماهير علماء المسلمين، ولم يخالف في ذلك إلا النزر اليسير من أهل البدع كالخوارج وبعض المعتزلة وبعض الأشاعرة.

(فرع): من هم قريش؟

قبيلة قريش هم أولاد قريش، واختلف النَّسَّابون في قريش هذا من هو؟ على عدة أقوال:

---

(١) صحيح، أخرجه من طرق ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٢٧٥)، والآجري في الشريعة (ص٣٦)، وابن زنجويه في الأموال (٣٠)، والداني في الفتن (١٤٣) قال الآجري في الشريعة: فان قال قائل: أين الذي يحتمل عندك قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما قاله ؟ قيل له: يحتمل – والله تعالى أعلم – أن نقول: من أمر عليك من عربي أو غيره، أسود أو أبيض أو أعجمي فأطعه فيما ليس لله عَزَّ وَجَلَّ فيه معصية، وإن ظلمك حقًا لك، وإن ضربك ظلمًا لك، وانتهك عرضك، وأخذ مالك، فلا يحملك ذلك على أنه يخرج عليه سيفك حتى تقاتله، ولا تخرج مع خارجي حتى تقاتله، ولا تحرض غيرك على الخروج عليه، ولكن اصبر عليه.

(٢) صحيح، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣١٠٩٣)، وابن سعد في الطبقات (٤/ ١٨٢)، وخليفة بن خياط في تاريخه (ص٥٣)، والداني في الفتن (١٤٥).

الأول: قيل هو: النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر.

قال ابن هشام في سيرته (١/ ٩٣).: النضر قريش، فمن كان من ولده فهو: قرشي. ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي. وإلى هذا القول ذهب بعض الشافعية كما في حاشية الجمل (٧/ ٧٨٤)، ويدل على ذلك ما ذكره ابن إسحاق وغيره في قصة وفد كنده: أن الأشعث بن قيس قال (يا رسول الله، نحن بنو آكل المرار، وأنت ابن آكل المرار فتبسم رسول الله ﷺ وقال: ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب، وربيعة بن الحارث ثم قال لهم: لا. بل نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفي من أبينا، فقال الأشعث بن قيس: هل فرغتم يا معشر كندة؟ والله لا أسمع رجلًا يقولها إلا ضربته ثمانين)[١].

وقوله في الحديث (آكل المرار) المرار شجر من شجر البوادي، وآكل المرار هو: الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية بن كندة، وللنبي ﷺ جدة من كندة مذكورة وهي أم كلاب بن مرة وإياها أراد الأشعث. كما في زاد المعاد (٣/ ٤٠)، وقوله (لا نقفوا أمنا) أي رماها بالفجور، وانتفى من أبيه أي انتسب إلى غير أبيه.

قال البغدادي كما في أصول الدين (ص: ٢٧٦): وهذا اختيار أبي عبيدة معمر بن المثنى، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وبه قال الشافعي رضي الله عنه وأصحابه، وهو قول ابن حزم كما في جمهرة أنساب العرب (ص: ١٢)، وابن منظور كما في

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢١١،٢١٢)، والطيالسي (٢/ ٢٢٢، رقم ١١٤٥)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٣)، وابن ماجة (٢٦١٢)، والخطيب في التاريخ (٧/ ١٢٨) وغيرهم والحديث قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ١٨٦): إسناده جيد قوي، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٣٧٥) وحسنه الأرنؤوط في تحقيق المسند.

لسان العرب (٦/ ٣٣٤)، وهو قول ابن القيم كما في الزاد (٣/ ٤٠)، وقول الحافظ ابن حجر كما في الفتح (٦/ ٥٣٤). رحمهم الله تعالى.

الثاني: أن قريشًا هو فهر بن مالك، قال الزبيري في نسب قريش (ص: ١٢): قالوا: اسم فهر بن مالك، قريش، ومن لم يلد فهر فليس من قريش.اهـ.

وقال الزبيدي كما في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٣٠): والصحيح عند أئمة النسب أن قريشًا هو: فهر بن مالك بن النضر، وهو: جماع قريش وهو: الجد الحادي عشر لرسول الله ﷺ، فكل من لم يلده فليس بقرشي.

قيل: اسمه فهر. ولقبه: قريش. وقيل: العكس، وقد روي عن نسابي العرب أنهم قالوا: من جاوز فهرًا فليس من قريش، وقال الزهري كما في الزاد (٣/ ٤٠): وهو الذي أدركت عليه من أدركت من نسابي العرب أن من جاوز فهرًا فليس من قريش.

قال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان (١/ ٥٢): فالفهري قرشي بلا نزاع، ومن كان من أولاد مالك بن النضر، أو أولاد النضر بن كنانة ففيه خلاف، ومن كان من أولاد كنانة من غير النضر فليس بقرشي بلا نزاع.

ويدل على ذلك ما رواه واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بين هاشم) رواه مسلم (٢٢٧٦).

وهناك أقوال أخرى ضعيفة وسميت قريش قريشًا من التقرش، والتقرش التجارة والاكتساب، وقال ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (١/ ٩٣، ٩٤): يقال سميت قريش قريشًا لتجمعها من بعد تفرقها.

وقال الزبيدي كما في تاج العروس (٤/ ٣٣٧): وقد حكى بعضهم في تسمية

فهر بقريش عشرين قولًا أوردتها في شرحي على القاموس.اهـ.

وقيل غير ذلك تراجع في نسب قريش لابن المصعب الزبيري (ص: ١٢)، و لسان العرب مادة (قرش) (٦/ ٣٣٥)، وفتح الباري (٦/ ٥٣٤).

(فرع): أدلة أهل السنة والجماعة على اشتراط القرشية

قلنا: إن جماهير علماء المسلمين قاطبة ذهبوا إلى اشتراط هذا الشرط وحكى الإجماع عليه من قبل الصحابة والتابعين، وبه قال الأئمة الأربعة، فقال الإمام أحمد في رواية الإصطخري كما في طبقات الحنابلة لابن أبي يعلي (١/ ٢٦): الخلافة في قريش ما بقي من الناس اثنان، ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها ولا يخرج عليهم، ولا نقر لغيرهم بها إلى قيام الساعة.

وقد نص الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على هذا في الأم (١/ ١٤٣)، وكذلك رواه زرقان عن أبي حنيفة كما في أصول الدين (ص: ٢٧٥)، وقال الإمام مالك كما في أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ١٧٢١): ولا يكون -أي الإمام- إلا قرشيًا. وغيره لا حكم له إلا أن يدعوا إلى الإمام القرشي.اهـ.

ولم يخالف في ذلك إلا النزر اليسير من الخوارج وبعض المعتزلة وبعض الأشاعرة، واستدل المثبتون بعدة أدلة صريحة صحيحة من السنة والإجماع فمن السنة ما يلي:

١- ما رواه البخاري في صحيحه (٣٥٠٠) عن معاوية رضي الله تعالى عنه حيث قال البخاري: (باب الأمراء من قريش، حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية - وهم عنده في وفد من قريش - أن عبد الله بن عمرو يحدث (أنه سيكون ملك من قحطان فغضب فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنه بلغني أن

رجالًا منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ وأولئك جهالكم فإياكم والأماني التي تضل أهلها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه ما أقاموا الدين).

٢- ومنها الحديث المتفق على صحته عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان)، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ١١٧): وليس المراد حقيقة العدد، وإنما المراد به انتفاء أن يكون الأمر في غير قريش.اهـ.

٣- ومنها ما رواه البخاري (٣٤٩٥)، ومسلم (١٨١٨) في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم).

٤- وفي مسند الإمام أحمد: أن أبا بكر وعمر لما ذهبا إلى سقيفة بني ساعدة حين اجتمع الأنصار لاختيار خليفة رسول الله ﷺ، تكلَّم أبو بكر ولم يترك شيئًا أنزل في الأنصار وذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا ذكره، وقال: ولقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار واديًا سلكت وادي الأنصار. ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر فَبَرُّ الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم، فقال له سعد: صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء) والحديث قال عنه ابن تيمية في منهاج السنة (١/ ٥٣٦): مرسل حسن، وقال الهيثمي في المجمع الزوائد (٥/ ١٩٤): رواه أحمد - وفي الصحيح طرف من أوله - ورجاله ثقات إلا أن حميد بن عبد الرحمن لم يدرك أبا بكر، وقال الألباني في الصحيحة (١١٥٦): رجاله ثقات إلا أن حميد بن

عبد الرحمن لم يدرك أبا بكر وللحديث شاهد.

وقد مرَّ معنا في الرواية الواردة في صحيح البخاري (٦٨٣٠) في مبايعة أبي بكر رضي الله تعالى عنه عند ذكره لهذا الحديث بمعناه لا بلفظه حيث قال: (ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش).

٥- ومنها ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك (أن رسول الله ﷺ قام على باب البيت ونحن فيه فقال: الأئمة من قريش، إن لهم عليكم حقًا ولكم عليهم حقًا مثل ذلك، ما إن استرحموا رحموا، وإن عاهدوا وفوا، وإن حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[١].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٩، رقم ١٢٣٢٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ٤٦٧، رقم ٥٩٤٢)، والطيالسي (ص: ٢٨٤)، وابن أبي شيبة (١٢/ ١٦٩ - ١٧٠)، وابن أبي عاصم في السنة (١١٢٠)، وأبو يعلى (٤٠٣٣)، وأبو عمرو الداني في الفتن وغوائلها (٢٠١)، والطبراني (١/ ٢٥٢، رقم ٧٢٥)، والبيهقي (٨/ ١٣٤، رقم ١٦٣١٨)، الضياء في "المختارة" (١٥٧٦) والحديث قال عنه المنذري في الترغيب (٣/ ١٨٦): إسناده جيد، وصححه العراقي في محجة القرب (١٨٩)، وقال الهيثمي في المجمع الزوائد (٥/ ١٩٥): رجال أحمد ثقات، وخرجه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٨٥٨) من حديث أبي موسى رضي الله عنه وصححه بطرقه وشواهده، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٠/ ٢٤٩): حديث صحيح بطرقه وشواهده، أما الوادعي فقال في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (ص٤٠، رقم ٢١): هذا الحديث إذا نظرت إلى سنده وجدتهم رجال الصحيح فابن سعد هو إبراهيم بن سعد وأبوه هو سعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف، ولكن الحافظ ابن رجب في "شرح علل الترمذي" (ج٢ص٥٩٦) يقول: إن أحمد بن حنبل سئل عن هذا الحديث فقال هذا الحديث ليس في كتب إبراهيم ابن سعد لا ينبغي أن يكون له أصل.اهـ. بتصرف، هذا وحديث الأئمة من قريش صحيح عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقد قال الحافظ رحمه الله في الفتح إنه روى عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قدر أربعين صحابيا.

قال ابن حزم في الفصل (٤/ ٨٩).: وهذه رواية الأئمة من قريش. جاءت مجيء التواتر رواها أنس بن مالك، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، ومعاوية وروى جابر بن عبد الله، وجابر بن سمرة، وعبادة بن الصامت معناها.اهـ.

وأكثر من هذا ما ذكره الحافظ في الفتح (٧/ ٣٢): قد جمعت طرقه عن نحو أربعين صحابيًا لما بلغني أن بعض فضلاء العصر ذكر أنه لم يرد إلا عن أبي بكر الصديق.اهـ. إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة في هذا الباب.

ثانيًا الإجماع: أما الإجماع: فقد حكاه غير واحد من العلماء منهم: النووي حيث قال في المنهاج (١٢/ ٢٠٠) في شرحه لحديث: (الناس تبع لقريش ...) إلخ. الحديث: هذه الأحاديث وأشباهها دليل ظاهر على أن الخلافة مختصة بقريش لا يجوز عقدها لأحد من غيرهم، وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة والتابعين فمن بعدهم بالأحاديث الصحيحة.اهـ.

ومنهم القاضي عياض. فقد نقل عنه النووي في المنهاج (١٢/ ٢٠٠) قوله: اشتراط كونه -أي الإمام - قرشيًا هو: مذهب العلماء كافة. قال: وقد احتج به أبو بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا على الأنصار يوم السقيفة فلم ينكره أحد، قال القاضي: وقد عدها العلماء في مسائل الإجماع، ولم ينقل عن أحد من السلف فيها قول ولا فعل يخالف ما ذكرنا، وكذلك من بعدهم في جميع الأعصار قال: ولا اعتداد بقول النظام ومن وافقه من الخوارج وأهل البدع أنه: يجوز كونه من غير قريش، ولا سخافة ضرار بن عمرو في قوله: إن غير القرشي من النبط وغيرهم يقدم على القرشي لهوان خلعه إن عرض منه أمر وهذا الذي قاله من باطل القول وزخرفه مع ما هو عليه من مخالفة إجماع المسلمين والله أعلم.اهـ.

وممن حكى هذا الإجماع أيضًا الماوردي في الأحكام السلطانية (ص: ٦)،

والإيجي في المواقف (ص: ٣٩٨)، وابن خلدون في المقدمة (ص: ١٩٤)، والغزالي في فضائح الباطنية (ص: ١٨٠) وغيرهم.

وقال الشيخ محمد رشيد رضا في الخلافة أو الإمامة العظمى (ص: ١٩): أما الإجماع على اشتراط القرشية فقد ثبت بالنقل والفعل، رواه ثقات المحدثين، واستدل به المتكلمون وفقهاء مذاهب السنة كلهم، وجرى عليه العمل بتسليم الأنصار وإذعانهم لبني قريش، ثم إذعان السواد الأعظم من الأمة عدة قرون.اهـ.

ولكن الحافظ ابن حجر يعترض في الفتح (١٣/ ١١٩): على هذا الإجماع بقوله: قلت: ويحتاج من نقل الإجماع إلى تأويل ما جاء عن عمر من ذلك، فقد أخرج أحمد عن عمر بسند رجاله ثقات أنه قال: (إن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل ... الحديث). ومعاذ بن جبل أنصاري لا نسب له في قريش فيحتمل أن يقال: لعل الإجماع انعقد بعد عمر على اشتراط أن يكون الخليفة قرشيًا، أو تغير اجتهاد عمر في ذلك والله أعلم.اهـ. وهذا الأثر منقطع فعلى هذا لا تشويش على مسالة نقل الإجماع والله الموفق.

(فرع): القائلون بعدم اشتراط القرشية وأدلتهم

أول من قال بعدم اشتراط القرشية الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه إذ جوزوا أن تكون الإمامة في غير قريش، وكل من نصبوه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل واجتناب الجور كان إمامًا. كما في الملل والنحل (١/ ١١٦).

وزعم ضرار بن عمرو - من شيوخ المعتزلة -أيضًا أن الإمامة تصلح في غير قريش حتى إذا اجتمع قرشي ونبطي قدمنا النبطي إذ هو أقل عددًا وأضعف

وسيلة فيمكننا خلعه إذا خالف الشريعة، قال الشهرستاني: والمعتزلة -أي جمهورهم - وإن جوزوا الإمامة في غير قرشي، إلا أنهم لا يجيزون تقديم النبطي على القرشي. كما في الملل والنحل (١/ ٩١). وزعم الكعبي كما في أصول الدين (ص: ٢٧٥) أن القرشي أولى بها من الذي يصلح لها من غير قريش، فإن خافوا الفتنة جاز عقدها لغيره.

ومن الأشاعرة إمام الحرمين الجويني حيث مال إلى عدم اشتراطه كما في كتابة غياث الأمم (ص: ١٦٣) وزعم أنه من أخبار الآحاد وهو على مذهبه الباطل لا يحتج به في مثل هذه المسائل حيث قال: وهذا مسلك لا أوثره، فإن نقلة هذا الحديث معدودون لا يبلغون مبلغ عدد التواتر والذي يوضح الحق في ذلك: أنا لا نجد في أنفسنا ثلج الصدور واليقين المثبوت بصدد هذا من فلق في رسول الله ﷺ، كما لا نجد ذلك في سائر أخبار الآحاد، فإذًا لا يقتضي هذا الحديث العلم باشتراط النسب في الإمامة.

وقال في كتابه الإرشاد (ص: ٤٢٧): وهذا مما يخالف فيه بعض الناس، وللاحتمال فيه عندي مجال، والله أعلم بالصواب.اهـ.

وقد اختلف قول أبي بكر الباقلاني، فاشترط القرشية في كتابه الإنصاف (ص: ٦٩) فقال: ويجب أن يعلم أن الإمامة لا تصلح إلا لمن تجتمع فيه شرائط منها: أن يكون قرشيًا لقوله ﷺ: (الأئمة من قريش).

ولم يشترطها في كتابه التمهيد نقلًا عن الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف في تعليقه على الصواعق المحرقة للهيتمي (ص: ٩) حيث قال: إن ظاهر الخبر لا يقضي بكونه قرشيًا، ولا العقل يوجبه.اهـ.

وإلى نفي اشتراط القرشية ذهب أكثر الكتاب المحدثين منهم: الشيخ

محمد أبو زهرة في كتابه تاريخ المذاهب الإسلامية (١/ ٩٠) وذهب إلى أن الأحاديث الواردة مجرد أخبار لا تفيد حكمًا، ومنهم العقاد كما في كتاب الديمقراطية في الإسلام)) (ص: ٦٩)، ومنهم د. علي حسني الخربوطلي في كتابه الإسلام والخلافة (ص: ٤٢) وتجرأ على رمي الأحاديث المذكورة بالوضع، ومنهم د. صلاح الدين دبوس في كتابه الخليفة توليته وعزله (ص: ٢٧٠) وذهب إلى أن هذه الأحاديث مجرد أخبار، ومنهم الأستاذ محمد المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ وعفا عنه في كتابه نظام الإسلام في الحكم والدولة (ص: ٧١) واعتبرها من باب السياسة الشرعية المتغيرة بتغير العوامل.

واستدل من ذهب إلى نفي اشتراط القرشية بما يلي

١- بقول الأنصار يوم السقيفة (منا أمير ومنكم أمير) قالوا: فلو لم يكن الأنصار يعرفون أنه يجوز أن يتولى الإمامة غير قرشي لما قالوا ذلك.

٢- ومن أدلتهم أيضًا ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسوا الله ﷺ: (اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) فالحديث أوجب الطاعة لكل إمام وإن كان عبدًا، فدل على عدم اشتراط القرشية.

٣- واستدلوا أيضًا بقول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: (إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حيّ استخلفته ... فإن أدركني أجلي وقد مات أبو عبيدة استخلفت معاذ بن جبل) والمعروف أن معاذ بن جبل أنصاري لا نسب له في قريش فدل على الجواز. كما روي عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال: (لو أدركني أحد رجلين، ثم جعلت هذا الأمر إليه لوثقت به: سالم مولى أبي حذيفة، وأبو عبيدة بن الجراح) وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو متكلم فيه.

٤- كما استنتجوا من قول أبي بكر رضي الله تعالى عنه عند البخاري (٦٨٣٠): (إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش ...) أن هذا تعليل لطاعة العرب لهم فإذا تغير الحال تغير موضع الاختيار.

٥- ومنهم من قال: إن هذه الأحاديث التي يستدل بها أهل السنة إنما هي على سبيل الإخبار، وليس فيها أمر يجب امتثاله، ذهب إلى ذلك بعض الكتاب المحدثين كالشيخ محمد أبي زهرة، ود. صلاح الدين دبوس، وغيرهم.

٦- واستدلوا على ذلك أيضًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فجعل الأفضلية والإكرام بالتقوى لا بالمعايير الأخرى كالنسب ونحوه، بل وردت أحاديث تحذر من التفاخر بالأنساب والأحساب، وتنهى عن العصبية الجاهلية.

مناقشة هذه الأدلة

١- أما استدلالهم بقول الأنصار: (منا أمير ومنكم أمير) فواضح البطلان، وذلك لرجوعهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن هذا القول في تلك اللحظة بعد أن سمعوا النص الوارد عن النبي ﷺ الذي رواه أبو بكر رضي الله تعالى عنه في قوله: (ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم. فقال له سعد: صدقت. نحن الوزراء وأنتم الأمراء)، فيحتمل أنهم قالوا هذا القول قبل أن يعرفوا النص الذي يثبت الخلافة في قريش ولهذا رجعوا إلى رشدهم لما عرفوا الحقيقة.

٢- أما استدلالهم بأحاديث الأمر بالطاعة وإن كان عبدًا حبشيًا، فقد سبق الجواب عليها مفصلًا وأن المراد إما إمامة المتغلب أو الإمارة الصغرى على بعض الولايات، أو لأجل المبالغة في الأمر بالطاعة وضَرَبَهُ مثلًا.

٣- أما استدلالهم بقول عمر في إرادته استخلاف معاذ بن جبل الأنصاري رضي الله تعالى عنه فهذا لم يتم، وإنما رشح عمر ستة قرشيين اختارهم وقال: (ليختاروا أحدهم)، وأيضًا لو ثبت ذلك فإن النص مقدَّم على قول الصحابي وإن بلغ من الفضل ما بلغ، ولعله اجتهاد من عمر رضي الله تعالى عنه ثم تراجع عنه إلى النص، وقد أجاب الحافظ في الفتح (١٣/ ١١٩) على هذا الاعتراض باحتمالين هما:

أ- إما أن يكون الإجماع انعقد بعد عمر على اشتراط أن يكون الخليفة قرشيًا.

ب- وإما أن يكون قد تغير اجتهاد عمر في ذلك.

وإما أن يريد من قوله ذلك الولاية الصغرى، أي: على أحد الأقاليم، وهذا لا يشترط فيه النسب اتفاقًا. هذا على افتراض صحة الحديث، وإلا فالحديث ضعيف لانقطاع سنده فلا يصلح للاحتجاج به.

أما الحديث الثاني والذي فيه ذكر سالم مولى أبي حذيفة وأبي عبيدة فيحتمل إرادة التولية الصغرى أيضًا، أو أنه يعتبر قرشيًا، لأن أبا حذيفة القرشي قد تبناه وهو مولى له، ومولى القوم منهم، وقد أرضعته زوجه - وهو كبير - بعد تحريم التبني فأصبح ابنًا له، وقصة إرضاعه مشهورة وهي في صحيح مسلم وغيره، قال ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٥٦٧): وهو يعد في قريش لما ذكرنا.

ويقصد قوله: لأنه لما أعتقته مولاته زوج أبي حذيفة تولى أبا حذيفة وتبناه أبو حذيفة، ولذلك عُدَّ في المهاجرين. أما أبو عبيدة فقرشي باتفاق.

٤- أما استدلالهم بقول أبي بكر: (إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من

قريش ...) وقولهم بأن هذا تعليل لطاعة العرب لهم، فإذا تغير الحال تغير موضع الاختيار، هكذا عللوه، وهو تعليل بعيد، لأنه ظاهر في أحقية قريش بالخلافة فهو بحق دليل على اشتراط القرشية لا على نفيها، والنصوص التي ذكرت استدلال أبي بكر مبينة لهذا الظاهر، وهذا ما فهمه الصحابة رضي الله تعالى عنهم، بدليل تسليمهم بالطاعة لأبي بكر ﵁ حينما بين لهم هذا الدليل ... والله أعلم.

٥- وأما من قال بأنها على سبيل الإخبار وليس فيها أمر فمردود، لأنها أمر في صيغة الخبر، وقد وردت بعض الأحاديث بالأمر الصريح كقوله ﷺ: (قدموا قريشًا ولا تقدموها) قال العلامة الألباني في الإرواء (٥١٩): روى من حديث الزهرى مرسلًا ، ومن حديث عبد الله بن السائب وعلى بن أبى طالب وأنس بن مالك وجبير بن مطعم فهو بهذه الطرق صحيح إن شاء الله تعالى ، فإن مجيئه مرسلًا بسند صحيح كما سبق مع اتصاله من طرق أخرى يقتضى صحته اتفاقًا كما هو مقرر فى " مصطلح الحديث " ، وقد أشار الحافظ فى الفتح (١٣/ ١٠٥) إلى صحة الحديث ، والله أعلم.اهـ. فهذا أمر منه ﷺ بذلك.

كما أنه لو كان إخبار من النبي ﷺ لتحقق الخبر، وهو: أنه لن يتولى الخلافة إلا قرشي، لأن خبر الصادق لابد أن يتحقق، لكن الواقع غير ذلك، فقد تولى الخلافة غير القرشيين، منهم من يدعي كذبًا أنه قرشي كالعبيديين الذي تسموا بالفاطميين، ومنهم: من لم يدع ذلك كسلاطين الدولة العثمانية، قال ابن حزم في المحلى لابن حزم (١٠/ ٥٠٣): هذان الخبران - يقصد حديث ابن عمر، ومعاوية السابق ذكرهما - وإن كانا بلفظ الخبر فهما أمر صحيح مؤكد إذ لو جاز أن يوجد الأمر في غير قريش لكان تكذيبًا لخبر النبي ﷺ وهذا كفر ممن

أجازه.اهـ.

٦- وأما ما قالوه من أن الإسلام نهى عن العصبية، وأن تسود طائفة معينة على سائر المسلمين وأنه جاء بالمساواة بين المسلمين جميعًا لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى ... إلخ.

إن الإسلام باشتراطه أن يكون الإمام قرشيًا لم يكن بذلك داعيًا إلى العصبية القبلية التي نهى عنها في أكثر من موضع، فإن الإمام في نظر الإسلام ليس له أي مزية على سائر أفراد الأمة ولا لأسرته أدنى حق زائد على غيرهم، فالإمام وغيره من أفراد المسلمين سواء في نظر الإسلام، بل هو متحمل من التبعات والمسؤوليات ما يجعله من أشدَّ الناس حملًا وأثقلهم حسابًا يوم القيامة.

وهذا وليس معنى أن الإسلام نهى عن العصبية أن الناس لا تفاضل بينهم، بل التفاضل بين الخلق في الدنيا من صميم الفطرة ووردت أدلة شرعية على ذلك. وأهل السنة على أن جنس العرب خير من غيرهم، كما أن جنس قريش خير من غيرهم، وقد ثبت في صحيح البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨) عنه ﷺ (أنه سئل أي الناس أكرم؟ فقال: أتقاهم. فقالوا: ليس عن هذا نسألك، فقال: فيوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله، ابن إسحاق نبي الله، ابن إبراهيم خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: أفعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا). وفي رواية عند مسلم (٢٦٣٨): (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا). قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٢/ ٢٦٠): ذهبت طائفة إلى عدم التفضيل بين الأجناس، وهذا قول طائفة من أهل الكلام: كالقاضي أبي بكر بن الطيب وغيره وهذا القول يقال له مذهب الشعوبية وهو:

قول ضعيف من أقوال أهل البدع.اهـ.

وقال ايضا: لكن تفضيل الجملة على الجملة لا يستلزم أن يكون كل فرد أفضل من كل فرد فإن في غير العرب خلق كثير خير من أكثر العرب، وفي غير قريش من المهاجرين والأنصار خير من أكثر قريش .

قال أيضا: والمقصود أنه أرسل ﷺ إلى جميع الثقلين الإنس والجن فلم يخص العرب دون غيرهم من الأمم بأحكام شرعية، ولكن خص قريشًا بأن الإمامة فيهم، وخص بني هاشم بتحريم الزكاة عليهم، وذلك لأن جنس قريش لما كانوا أفضل، وجب أن تكون الإمامة في أفضل الأجناس مع الإمكان، وليست الإمامة أمرًا شاملًا وإنما يتولاها واحد من الناس. مجموع الفتاوى (١٩/ ٣٠). وقال شيخ الإسلام أيضا وإذا فرضنا اثنين أحدهما: أبوه نبي. والآخر: أبوه كافر. وتساويا في التقوى والطاعة من كل وجه كانت درجتهما في الجنة سواء، ولكن أحكام الدنيا بخلاف ذلك في: الإمامة، والزوجية، والشرف، وتحريم الصدقة ونحو ذلك) وقال أيضا كما في المنتقي من منهاج الاعتدال للذهبي (ص: ٥٣٠): والخير في الأشراف أكثر منه في الأطراف.اهـ.

أما نفس ترتيب الثواب والعقاب على القرابة ومدح الله ﷻ للشخص المعين وكرامته عند الله وفضله فهذا لا يؤثر فيه النسب، وإنما المؤثر الوحيد هو التقوى والعمل الصالح، كما قال ﷻ: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ [الحجرات: ١٣]

وقد ورد عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في فضل قريش على سائر القبائل منها قوله ﷺ: (إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم). فالحاصل أن هناك

من ألغى فضيلة الأنساب مطلقًا، وهناك من يفضل الإنسان بنسبه على من هو أعظم منه في الإيمان والتقوى فضلًا عمن هو مثله. قال ابن تيمية في منهاج السنة (٢/ ٢٦١): فكلا القولين خطأ، وهما متقابلان، بل الفضيلة بالنسب فضيلة جملة، وفضيلة لأجل المظنة والسبب، والفضيلة بالإيمان والتقوى فضيلة تعيين وتحقيق وغاية، فالأول يفضل به لأنه سبب وعلامة، ولأن الجملة أفضل من جملة تساويها في العدد، والثاني يفضل به لأنه الحقيقة والغاية، ولأن كل من كان أتقى كان أكرم عند الله، والثواب من الله يقع على هذا، لأن الحقيقة قد وجدت فلم يعلق الحكم بالمظنة.اهـ.

فالمقصود أن اشتراط القرشية في الإمام ليس له علاقة بالعصبية القبلية التي نهى الإسلام عنها ألبتة. كما أن النسب في حد ذاته في أصل الشريعة لا قيمة له ذاتية وإنما هو صفة كمال.

هذا وأهل السنة لم يقصروها على نوع بعينه من قريش، وإنما كان من انتسب إلى قريش جازت له الإمامة إذا توفرت شروطها الأخرى، وهناك من المبتدعة من قصرها على فرع معين، فقصرها بعضهم على بني هاشم، وهؤلاء انقسموا إلى قسمين:

١- الراوندية: وهؤلاء يرون أنها يجب أن تكون في العباس بن عبد المطلب وولده إلى أن ينتهوا بها إلى أبي جعفر المنصور.

٢- الرافضة: وهؤلاء يرون أنها يجب أن تكون في علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم في ولده من بعده، ثم اختلفوا بعد ذلك إلى مذاهب شتي، فزعمت الزيدية منهم أنها لا تكون إلا في ولد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن خرج من ولد الحسن أو الحسين شاهرًا سيفه وفيه آلات الإمامة فهو الإمام، وزعمت الإمامية أنها في واحد مخصوص من أولاد

علي رضي الله عنه وهو: محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر الذي ينتظرونه حيث قالوا: إن الإمامة في علي ثم الحسن ثم الحسين ثم تسلسلت في أبناءهم إلى محمد بن الحسن العسكري (المنتظر) وقال بعض الغلاة من الروافض: إن الإمامة في الأصل في علي وولده ثم أخرجوها إلى جماعة من غير قريش، إما بدعواهم وصية بعض الأئمة إليه، وإما بدعواهم تناسخ الأرواح من الإمام إلى من يزعمون أن الإمامة انتقلت إليه كالبيانية في دعواها انتقال روح الإله من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إلى بيان، وكدعوى من ادَّعى أن الروح انتقلت إلى الخطاب الأسدي، وكدعوى المنصورية نبوة أبي منصور العجلي وإمامته. انظر كتاب الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة.

المسألة الثانية: وجوب السمع والطاعة لولاة أمر المسلمين

إن السمع والطاعة لولاة أمر المسلمين وإن جاروا وظلموا قل أن يخلوا منها كتاب من كتب العقيدة السلفية، وما ذاك إلا لبالغ أهميته وعظيم شأنه، إذ بالسمع والطاعة لهم تنتظم مصالح الدين والدنيا معًا، وبالافتيات عليهم قولًا أو فعلًا فساد الدين والدنيا، وقد علم بالضرورة من دين الإسلام أنه لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة ولا إمامة إلا بسمع وطاعة. يقول الحسن البصري -رحمه الله تعالي- في الأمراء: هم يلون من أمورنا خمسًا: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، والله لا يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وظلموا والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، مع أن طاعتهم والله لغبطة وأن فرقتهم لكفر.اهـ.

وذكر السلطان عند أبي العالية، فقال الله يصلح بهم أكثر مما يفسدون.اهـ.

لقد كان السلف الصالح - رضوان الله عليهم - يولون هذا الأمر اهتماما

خاصًا، لا سيما عند ظهور بوادر الفتنة، نظرًا لما يترتب على الجهل به - أو إغفاله - من الفساد العريض في العباد والبلاد والعدول عن سبيل الهدى والرشاد، واهتمام السلف بهذا الأمر تحمله صور كثيرة نقلت إلينا عنهم أقتصر على صور، منها:

الصورة الأولي

التحذير من الخروج عليه: مثال ذلك: ما قام به الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة -رحمه الله تعالي-، حيث كان مثالًا للسنة في معاملة الولاة، فلقد تبني الولاة في زمنه أحد المذاهب الفكرية السيئة وحملوا الناس عليه بالقوة والسيف، وأريقت دماء جم غفير من العلماء بسبب ذلك، وفرض القول بخلق القرآن الكريم على الأمة، وقرر ذلك في كتاتيب الصبيان إلي غير ذلك من الطامات والعظائم، ومع ذلك كله فالإمام أحمد لا ينزعه هوى، ولا تستجيشه العواطف بل ثبت على السنة، لأنها خير وأهدي فأمر بطاعة ولي الأمر، وجمع العامة عليه ووقف كالجبل الشامخ في وجه من أراد مخالفة المنهج النبوي والسير السلفية، انسياقًا وراء العواطف المجردة عن قيود الكتاب والسنة، أو المذاهب الثورية الفاسدة، يقول حنبل كما في الآداب الشرعية (١/ ١٩٥/ ١٩٦)، والسنة للخلال (ص١٣٣): أجتمع فقهاء بغداد في ولاية الواثق إلي أبي عبد الله -يعني الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالي- وقالوا له: أن الأمر قد تفاقم وفشا - يعنون: إظهار القول بخلق القرآن، وغير ذلك ولا نرضي بإمارته ولا سلطانه! فناظرهم في ذلك، وقال: عليكم بالإنكار في قلوبكم ولا تخلعوا يدًا من طاعة، ولا تشقوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا دمائكم ودماء المسلمين معكم وانظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح بر، ويستراح

من فاجر، وقال ليس هذا -يعني نزع أيديهم من طاعته - صوابًا، هذا خلاف الآثار اهـ

فهذه صورة من أروع الصور التي نقلها الناقلون، تبين مدي اهتمام السلف بهذا الباب، وتشرح - صراحة - التطبيق العلمي لمذاهب أهل السنة والجماعة فيه.

الصورة الثانية

التأكيد على الدعاء له: مثال ذلك: ما جاء في كتاب السنة للإمام الحسن بن على البربهاري كما في طبقات الحنابلة (٢/ ٣٦) حيث قال: إذا رأيت الرجل يدعوا على سلطان: فاعلم أنه صاحب هوى، وأن سمعت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح فاعلم أنه صاحب سنة - إن شاء الله تعالي، يقول الفضيل بن عياض: لو كان لي دعوة ما جعلتها إلا في السلطان، فأمرنا أن ندعو لهم بالصلاح، ولم نؤمر أن ندعو عليهم - وإن جاروا وظلموا -، لأن جورهم وظلمهم على أنفسهم وعلى المسلمين ا هـ

الصورة الثالثة

التماس العذر له: كان العلماء يقولون: إذا استقامت لكم أمور السلطان، فأكثروا حمد الله -تعالي وشكره، وأن جاءكم منه ما تكرهون، وجهوه إلي ما تستوجبونه بذنوبكم وتستحقونه بآثامكم، وأقيموا عذر السلطان، لانتشار الأمور عليه، وكثرة ما يكابده من ضبط جوانب المملكة، واستئلاف الأعداء وإرضاء الأولياء، وقلة الناصح وكثرة التدليس والطمع ا هـ من كتاب سراج الملوك للطرطوشي (ص٤٣)

ولو ذهبنا نستقصي مثل هذه الصور الرائعة عن سلفنا الصالح، لطال المقام،

واتسعت دائرة الكلام، وفيما ذكرنا تنبيه على المقصود وإيضاح للمنشود، فمن تأمل فيه وأنصف بأن له غلط من تعسف وأجحف، ولم ير لولاة الأمر حقًا، ولم يرع لهم قدرًا، فجردهم عن الحق الذي فرضه الشارع لهم، اتباعًا للهوى وتأثرًا بمذهب أهل الردى.

ومما يجدر العلم به أن قاعدة السلف في هذا الباب زيادة الاعتناء به كلما ازدادت حاجة الآمة إليه، سدًا لباب الفتن وإيصادًا لطريق الخروج على الولاة الذي هو أصل فساد الدنيا والدين.

ولقد تجسدت هذه القاعدة فيما كتبه أئمة الدعوة النجدية - رحمهم الله تعالي - في هذا الباب، عندما تسربت بعض الأفكار المنحرفة فيه إلي جماعة من المنتسبين إلي الخير والصلاح. فلقد أكثروا - رحمهم الله تعالي - من تقرير هذا الأمر، وأفاضوا فيه وكرروا بيانه زيادة في الإيضاح واستئصالًا للشبه الواردة عليه، ولم يكتفوا بكلمة واحدة ولا تقرير فرد منهم لهذا الأمر الخطير لعلمهم بما ينتج عن الجهل به من البلاء والشر المستطير.

وفي ذلك يقول الإمام الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في الدرر السنية في الأجوبة النجدية: (٧/ ١٧٧ - ١٧٨) كلام متين، يكشف شيئًا من الشبه الملبسة في هذا الباب ويرد على من أشاعها من الجهال: ولم يدر هؤلاء المفتونون أن أكثر ولاة أهل الإسلام - من عهد يزيد بن معاوية - حاشا عمر بن عبد العزيز ومن شاء الله من بني أمية - قد وقع منهم من الجراءة والحوادث العظام والخروج والفساد في ولاية أهل الإسلام ومع ذلك فسيرة الأئمة الأعلام والسادة العظام - معهم - معروفة مشهورة، لا ينزعون يد من طاعة فيما أمر الله به رسوله من شرائع الإسلام وواجبات الدين.

وأضرب لك مثلًا بالحجاج بن يوسف الثقفي، وقد أشتهر أمره في الأمة

بالظلم والغشم، والإسراف في سفك الدماء وانتهاك حرمات الله وقتل من قتل من سادات الأمة كسعيد بن جبير، وحاصر بن الزبير - وقد عاذ بالحرم الشريف -، واستباح الحرمة وقتل بن الزبير - مع أن بن الزبير قد أعطاه الطاعة وبايعه عامة أهل مكة والمدينة واليمن، وأكثر سواد العراق، والحجاج نائب عن مروان، ثم عن ولده عبد الملك ولم يعهد أحد من الخلفاء ألي مروان ولم يبايعه أهل الحل والعقد -، ومع ذلك لما توقف أحد من أهل العلم في طاعته والانقياد له فيما تسوغ طاعته فيه من أركان الإسلام وواجباته.

وكان بن عمر - ومن أدرك الحجاج من أصحاب رسول الله - ﷺ لا ينازعونه، ولا يمتنعون من طاعته فيما يقوم به الإسلام، ويكمل به الإيمان. وكذلك من في زمنه من التابعين، كابن المسيب والحسن البصري وابن سيرين، وإبراهيم التيمي، وأشباههم ونظرائهم من سادات الأمة.

واستمر العمل على هذا بين علماء الأمة من سادات الأمة وأئمتها، يأمرون بطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله مع كل إمام بر أو فاجر - كما هو معروف في كتب أصول الدين والعقائد، وكذلك بنوا العباس استولوا على بلاد المسلمين قهرًا بالسيف ولم يساعدهم أحد من أهل العلم والدين، وقتلوا خلقًا كثيرًا وجمعًا غفيرًا من بني أمية وأمرائهم ونوابهم، وقتلوا أبن هبيرة أمير العراق، وقتلوا الخليفة مروان، حتى نقل أن السفاح قتل في يوم واحد نحو الثمانين من بني أمية، ووضع الفرش على جثثهم وجلس عليها، ودعا بالمطاعم والمشارب.

ومع ذلك فسيرة الأئمة كالأوزاعي، ومالك، والزهري، والليث بن سعد، وعطاء بن أبي رباح، مع هؤلاء الملوك لا تخفي على من لهم مشاركة في العلم وإطلاع.

والطبقة الثانية من أهل العلم، كأحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل،

ومحمد بن إدريس، وأحمد بن نوح، وأسحق بن راهوية، وإخوانهم ... وقع في عصرهم من الملوك ما وقع من البدع العظام وإنكار الصفات، ودعوا إلي ذلك، وامتحنوا فيه وقتل من قتل، كأحمد بن نصر، ومع ذلك، فلا يعلم أن أحدًا منهم نزع يدًا من طاعة، ولا رأي الخروج عليهم ..اهـ.

فتأمل هذا الكلام البديع وانظر فيه بعين الإنصاف، تجده من مشكاة السلف الصالح، على وفق الكتاب والسنة والقواعد العامة بعيدًا عن الإفراط والتفريط.

وكلام أئمة الدعوة - رحمهم الله تعالي - كثير في هذا الباب، تري طائفة منه في الجزء السابع من كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية، كل هذا يؤيد ضرورة الاهتمام بهذا الأصل العقدي، وترسيخه عند غلبة الجهل به، أو فشوا الأفكار المنحرفة عن منهج أهل السنة فيه، ولا ريب أن الزمن الذي نعيش فيه الآن أجتمع فيه الأمران: غلبة الجهل بهذا الأمر، وفشوا الأفكار المنحرفة فيه.

فواجب أهل العلم وطلبته: الالتزام بالميثاق الذي أخذه الله عليهم في قوله تعالي {لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ} فليبينوا للناس هذا الأصل محتسبين لله تعالي، مخلصين له أعمالهم، ولا يمنعهم من بيانه تلك الشبهات المتهافتة التي يروجها بعض من خلاق له، كقول بعضهم من المستفيد من بيان هذا الأمر؟

يشير إلي أن المستفيد منهم الولاة فقط! وهذا جهل مفرط وضلال مبين، إذ منشؤه سوء الاعتقاد فيما يجب لولاة الأمر أبرارًا كانوا أو فجارًا.

على أن الفائدة مشتركة بين الراعي والرعية كما لا يخفي على أهل العلم - بل قد تكون الرعية أكثر فائدة من الرعاة.

ومن الشبه أيضًا قول بعضهم: إن الكلام في هذا الموضوع ليس هذا وقته.

سبحان الله ! متي وقته إذن؟ إذا طارت الرؤوس وسفكت الدماء؟ أ إذا

عمت الفوضى ورفع الأمن؟ إن الكلام في هذا الموضوع يجب أن يكشف من قبل العلماء وطلبة العلم في هذه الأيام خاصة، لما حصل لفئة من الناس من تلوث فكري في هذا الباب، قاد زمامه شراذم من أصحاب الاتجاهات الدخيلة، فأفسدوا أيما إفساد، وشوشو على عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا الباب الخطير بما ألقوه من الشبه الفاسدة، والحجج الكاسدة.

ولا تغتر بمن ينكر وجود هؤلاء، ويقول (أن موضوع البيعة والسمع والطاعة لم يشكك فيه أحد) فإنه أحد رجلين: أما متستر عليهم يخشى من تصنيفهم بما هم عليه، أو جاهل لا يدري ما الناس فيه، فليتقي الله تعالي هؤلاء المرجفون، ولينتهوا عن صد الناس عن سبيل الله تعالي، خدمة لأحزابهم، أو ترويجًا لمذاهبهم الفاسدة بمثل هذه الشبة الواهية، أو إتباعًا لهؤلاء بغير هدي من الله. وعلى من أراد لنفسه النجاة والفلاح أن يتأمل في نصوص الشرع الواردة في هذا الباب، فيعمل بها ويذعن لها، ولا يجعل للهوي عليه سلطانًا، فإن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الشرع المطهر، وأكثر فساد الناس في هذا الباب إنما هو من جراء إتباع الهوى وتقديم العقل على النقل.

فبين يديك -أيها الطالب للحق - نصوص وشرعية، ونقول سلفية، فأرع لها سمعك، وأمعن فيها بصرك، جعل الله التوفيق حليفك، والتسديد رفيقك، وجنبنا - وإياك - مضلات الأهواء والفتن.

المسألة الثالثة: وجوب عقد البيعة

يجب عقد البيعة للإمام القائم المستقرّ المسلم، والتغليظ على من ليس في عنقه بيعةٌ، والترهيب من نقضها.

وقد دلَّ على ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه (أن عبد الله بن عمر رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ جاء إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرَّة ما كان، زمن يزيد بن معاوية، فقال عبد الله بن مطيع: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقالَ: إني لم آتك لأجلسَ، أتيتك لأحدثك حديثًا، سمعت رسول الله ﷺ يقوله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من خلع يدًا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات ليس في عنقه بيعةٌ مات ميتةً جاهلية). قال الذهبي في العبر في سنة ثلاث وستين: "كانت وقعة الحرَّة، وذلك أن أهل المدينة خرجوا على يزيد لقلة دينهِ، فجهز لحربهم جيشًا عليهم مسلم بن عقبة".

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: "والفاسق لا يجوز خلعه، لأجل ما يثور بسبب ذلك من الفتنة، ووقوع الهرج كما وقع زمن الحرَّة".

وفي صحيح البخاري، ومسند الإمام أحمد: "لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم تشهد، ثم قال: أما بعد. فإنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الغادرَ يُنصبُ له لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلانَ، وإن من أعظم الغدر إلا أن يكون الإشراك بالله: أن يبايع رجلٌ رجلًا على بيع الله وبيع رسوله ثم ينكث بيعته، فلا يخلعَنَّ أحدٌ منكم يزيدَ، ولا يسرفنَّ أحدٌ منكم في الأمر، فيكون الفيصلَ بيني وبينه" رواه مسلم والترمذي، قال الحافظ بن حجر في الفتح معلقًا على الحديث: "وفي هذا الحديث وجوب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة، والمنع من الخروج عليه ولو جار في حكمه، وأنه لا ينخلعُ بالفسقِ".

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢٥/ ٣٦٩): ثبت في الحديث عنه ﷺ أنه قال: "من مات وليس في عنقه بيعة لأحد، مات ميتة جاهلية "

ومعلوم أنه في أكثر بلاد المسلمين اليوم، لا يتحقق هذا الأمر، وأنه ليس في عنقهم بيعة لأسباب كثيرة منها: الاضطرابات السياسية، والانقلابات، وغيرها، فكيف يخرج المسلمون في تلك البلاد من هذا الإثم وهذا الوعيد؟

فأجاب: المعروف عند أهل العلم أن البيعة لا يلزم منها رضا لواحد وأن من المعلوم أن في البلاد من لا يرضى أحد من الناس أن يكون وليا عليه، لكن إذا قهر الولي وسيطر وسادت له السلطة، فهذا هو تمام البيعة لا يجوز الخروج عليه إلا في حال واحدة استثناها النبي ﷺ، فقال: "إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان".

أولا: "إلا أن تروا ": والرؤية إما بالعين أو بالقلب، الرؤيا بالعين بصرية وبالقلب علمية، بمعنى أننا لا نعمل بالظن، أو بالتقديرات، أو بالاحتمالات، بل لابد أن نعلم علم اليقين.

ثانيا: أن نرى كفرا لا فسوقا فمثلا: الحاكم لو كان أفسق عباد الله عنده شرب خمر وغيره من المحرمات وهو فاسق، لكن لم يخرج من الإسلام، فإنه لا يجوز الخروج عليه، وإن فسق لأن مفسدة الخروج عليه أعظم بكثير من مفسدة معصيته التي هي خاصة به.

ثالثا: قال "بواحا": البواح يعني: الصريح، والأرض البواح: هي الواسعة التي ليس فيها شجر ولا مدر ولا جبل، بل هي واضحة للرؤية، لابد أن يكون الكفر بواحا ظاهرا لا يشك فيه أحد، مثل أن يدعو إلى نبذ الشريعة، أو يدعو إلى ترك الصلاة وما أشبه ذلك من الكفر الواضح الذي لا يحتمل التأويل، حتى إنه لا يجوز الخروج عليه حتى وإن كنا نرى نحن أنه كفر وبعض الناس يرى أنه ليس بكفر، فإنه لا نجيز الخروج عليه؛ لأن هذا ليس بواحا.

رابعا: "عندكم فيه من الله برهان"، أي دليل واضح وليس مجرد اجتهاد أو قياس، بل هو بين واضح أنه كفر، فحينئذ يجوز الخروج.

ولكن هل معنى جواز الخروج أنه جائز بكل حال، أو واجب على حال؟

لا، لابد من قدرة على منابذة هذا الوالي الذي رأينا فيه الكفر البواح، لابد من قدرة، أما أن نخرج عليه بسكاكين المطبخ وعوامل البقر، ولديه دبابات وصواريخ، فهذا سفه في العقل وضلال في

الدين؛ لأن الله لم يوجب الجهاد على المسلمين حين كانوا ضعفاء في مكة، ولو شاؤا لاغتالوا كبراءهم وقتلوهم، لكنه لم يأمرهم بهذا، ولم يأذن لهم به؛ لعدم القدرة، وإذا كانت الواجبات الشرعية التي لله- ﷻ- تسقط بالعجز، فكيف هذا الذي سيكون فيه دماء.

ليس إزالة الحاكم بالأمر الهين، مجرد ريشة تنفخها وتذهب، لابد من قتال معه، وإذا قتل فله أعوان، والمسألة ليست بالأمر الهين حتى نقول بكل سهولة نزيل الحاكم أو نقضي عليه وينتهي كل شيء، فلابد من القدرة.

والقدرة الآن ليست بأيدي الشعوب فيما أعلم، والعلم عند الله ﷻ ليس بأيدي الشعوب قدرة على إزالة مثل هؤلاء القوم الذين نرى فيهم كفرا بواحا.

ثم إن القيود التي ذكرها النبي ﷺ قيود صعبة، من يتحقق من هذا الحاكم مثلا علمنا أنه كافر علم اليقين، نراه كما نرى الشمس أمامنا ثم علمنا أن الكفر بواح، لا يحتمل التأويل وليس فيه أي أدنى لبس، ثم عندنا دليل من الله برهان قاطع، هذه قيود صعبة، أما مجرد أن يظن الإنسان أن الحاكم قد كفر، فهذا ليس بصحيح، لابد من إقامة الحجة وما ضر الأمة أول ما ضرها في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، إلا التأويل الفاسد والخروج على الإمام.

فالخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب- رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- قالوا: لأنه حكم غير القرآن، كانوا بالأول معه على جيش معاوية، ولما- رضي بالصلح والتحاكم بالقرآن قالوا: أنت الآن حكمت آراء الرجال ورضيت بالصلح فأنت كافر، نريد مقاتلتك، فانقلبوا عليه، بماذا؟

بالتأويل وليس كل ما رآه الإنسان يكون هو الحق، قد ترى أنت شيئا محرما، أو شيئا معصية، أو شيئا كفرا، وغيرك لا يراه كذلك.

ألسنا نرى نحن أن تارك الصلاة كافر؟ نرى ذلك لا شك، لكن يأتي غيرنا يقول: ليس بكفر.

والذي يقول ليس بكفر، هم علماء وليسوا أهل هوى، بل علماء لكن هذا هو اجتهادهم.

فإذا كان العلماء أهل الفقه قد يرون ما هو كفر في نظر الآخرين ليس بكفر، فما بالك بالحكام الذي قد يكون بعضهم عنده من الجهل ما عند عامة الناس.

فالمهم إن هذه المسائل مسائل صعبة وخطيرة، ولا ينبغي للإنسان أن ينقاد وراء العاطفة أو التهييج، بل الواجب أن ينظر بنظر فاحص متأني متريث، وينظر ماذا يترتب على هذا الفعل، فليس المقصود أن الإنسان يبرد حرارة غيرته فقط، بل المقصود إصلاح الخطأ، ولا شك أن الإنسان يلحقه أحيانا غيرة ويمتلئ غيظا مما وقع، أو يقع من بعض الولاة، لكن يرى أن من المصلحة أن يعالج المشكلة بطريقة أخرى غير التهييج، وكما أقول لكم: إن بعض الناس يظن هذا سببا يقتضي الضغط على ولي الأمر، حتى يفعل ما يرى هذا القائل أنه إصلاح، ولكن هذا غير مناسب في مثل بلادنا.

المسألة الرابعة: حكم التغلب

من غلب فتولَّى الحكمَ واستتبَّ له، فهو إمام تجب بيعته وطاعته وتحرمُ

منازعتُه ومعصيتُه. قال الإمام أحمد كما في الأحكام السلطانية (ص٢٣): ومن غلبَ عليهم، يعني: الولاة بالسيف حتى صار خليفة وَسُمِّي أمير المؤمنين، فلا يحل لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إمامًا برًّا كان أو فاجرًا.اهـ.، واحتجَّ الإمام أحمد بما ثبت عن ابن عمر أنه قال: "وأصلي وراء من غَلَبَ".

وقد أخرج أبي سعيد في الطبقات (٤/ ١٩٣) بسند جيد أن ابن عمر كان في زمان الفتنة لا يأتي أمير إلا صلى خلفه، وأدي إليه زكاة ماله.

وفي صحيح البخاري، عن عبد الله بن دينار قال: شهدت ابن عمر حيث اجتمع الناس على عبد الملك بن مروان قال (كتب: إني أُقِرُّ بالسمع والطاعة لعبد الله؛ عبد الملك أمير المؤمنين، على سنة الله وسنة رسوله ما استطعتُ، وإنَّ بنيَّ قد أقرُّوا بمثل ذلك") والمراد بالاجتماعِ: اجتماع الكلمة، وكانت قبل ذلك مفرَّقة، وكان في الأرض قبل ذلك اثنان، كل منهما يُدعى له بالخلافة، وهما عبد الملك بن مروان، وعبد الله بن الزبير، وكان ابن عمر في تلك المدة امتنع أن يبايع لابن الزبير أو لعبد الملك، فلما غلب عبد الملك واستقام له الأمر بايعَهُ".

وهذا الذي فعله ابن عمر من مبايعة المتغلب هو الذي عليه الأئمة، بل انعقد عليه الإجماع من الفقهاء، وهذا ما ثبت عن الإمام مالك، والشافعي، وقد حكى الإجماع على ذلك الحافظ في الفتح (١٣/ ٧) فقال: وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء، وتسكين الدهماء.اهـ.

وقد حكى الإجماع أيضا شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقال كما في الرسائل والمسائل النجدية (٣/ ١٦٨): الأئمة مجموعون من كل مذهب على أن من تغلب على بلد - أو بلدان - له حكم الإمام في جميع الأشياء.اهـ.

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في المصدر السابق: وأهل العلم متفقون على طاعة من تغلب عليهم في المعروف، يرون نفوذ أحكامه، وصحة إمامته، لا يختلف في ذلك اثنان، ويرون المنع من الخروج عليهم بالسيف وتفريق الأمة، وإن كان الأئمة فسقة ما لم يروا كفرًا بواحًا ونصوصهم في ذلك موجودة عن الأئمة الأربعة وغيرهم وأمثالهم ونظرائهم اهـ

المسألة الخامسة: إذا لم يستجمعْ المتغلّبُ شروطا الإمامة وتمَّ له التمكينُ، واستتبَّ له الأمر

وجبت طاعتُه، وحرُمت معصيتُه، وهذا ما يقتضيه النظر المصلحي، لما في عدم الإقرار ببيعته وطاعته من إثارةٍ للفتن التي لا تطاق، وسفك الدماء، وذهاب الأموال، وفساد الدين والدنيا. وإقرار عبد الله بن عمر ببيعة يزيد، ومن ثمَّ بيعة عبد الملك بن مروان، فيه دليلٌ على ذلك، إذ لا يقارنُ عبد الملك فضلًا عن يزيد بعبد الله بن عمر شيخ الصحابة في زمانه، ومع ذلك لم يخرج عليهم، ولم ينزع يدًا من طاعة، وأقر بالسمع والطاعة هو وأهله وبنوه فيما استطاع، كما ثبت.

المسألة السادسة: حكم تعدد الأئمة

يصح في الاضطرار تعدد الأئمة، ويأخذ كل إمام منهم في قطره حكم الإمام الأعظم، ومن لم يفرق بين حالي الاختيار والاضطرار، فقد جهل المعقول والمنقول، فتعدد الأئمة والسلاطين ليس سببًا شرعيًا في ترك البيعة والسمع والطاعة لكلٍ منهم على أهل القطر الذي يُنفذ فيه أوامره ونواهيه، وكذلك كُلُّ صاحبِ قُطرٍ فالسمع والطاعة له من أهل قطره واجبه بعد بيعته واجتماع الناس عليه.

وهذه الصورة تجلت في كثير من الأزمنة بعد انتشار الإسلام، و اتساع البلدان وتباعدها، ومن الأحكام المتعلقة بهذه القاعدة: أن السمع والطاعة لأهل كل قطر إنما هما لإمامهم وسلطانهم، ولا تجب على أهل الأقطار الأخرى طاعته، ولا الدخول في ولايته، إلا إذا تغلب عليها وشملها حكمه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مقررًا ذلك في مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٥-١٧٦): والسنة أن يكون للمسلمين إمام واحد والباقون نوابه، فإذا فرض أن الأمة خرجت عن ذلك لمعصية من بعضها، وعجز من الباقين فكان لها عدة أئمة، لكان يجب على كل إمام أن يقيم الحدود، ويستوفي الحقوق.اهـ.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في الدار السنية (٧/ ٢٣٩): الأئمة مجموعون من كل مذهب على أن من تغلب على بلد - أو بلدان - له حكم الإمام في جميع الأشياء ولولا هذا ما استقامت الدنيا، لأن الناس من زمن طويل - قبل الإمام أحمد إلي يومنا هذا - ما اجتمعوا على إمام واحد ولا يعرفون أحدًا من العلماء ذكر أن شيئاُ من الأحكام لا يصح إلا بالإمام الأعظم.اهـ.

وقال الصنعاني في سبل السلام (٣/ ٤٩٩) في شرح حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا (من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة ومات، فميتته ميتة جاهلية) قوله (عن الطاعة) أي: طاعة الخليفة الذي وقع الاجتماع عليه، وكأن المراد خليفة أي قطر من الأقطار، إذ لم يجمع الناس على خليفة في جميع البلاد الإسلامية من أثناء الدولة العباسية بل استقل أهل كل إقليم بقائم بأمورهم، إذ لو حمل الحديث على خليفة أجتمع عليه أهل الإسلام، لقلت فائدته.

وقوله (وفارق الجماعة) أي: خرج عن الجماعة الذين اتفقوا على طاعة

إمام انتظم به شملهم واجتمعت به كلمتهم وحاطهم عن عدوهم) اهـ.

وقال العلامة الشوكاني في السيل الجرار (٤/ ٥١٢) في شرح صاحب الأزهار (ولا يصح إمامان): وأما بعد انتشار الإسلام واتساع رقعته وتباعد أطرافه، فمعلوم أنه قد صار في كل قطر - أو أقطار - الولاية إلي إمام أو سلطان، وفي القطر الآخر كذلك، ولا ينعقد لبعضهم أمر ولا نهي في قطر الآخر وأقطاره التي رجعت إلى ولايته، فلا بأس بتعدد الأئمة والسلاطين ويجب الطاعة لكل واحد منهم بعد البيعة له على أهل القطر الذي ينفذ فيه أوامره ونواهيه، وكذلك صاحب القطر الآخر، فإذا قام من ينازعه في القطر الذي ثبت فيه ولايته، وبايعه أهله، كان الحكم فيه أن يقتل إذا لم يتب، ولا تجب على أهل القطر الآخر طاعته، ولا الدخول تحت ولايته، لتباعد الأقطار، فأنه قد لا يبلغ إلي ما تباعد منها خبر إمامها أو سلطانها، ولا يدري من قام منهم أو مات، فالتكليف بالطاعة والحال هذا تكيف بما لا يطاق، وهذا معلوم لكل من له إطلاع على أحوال العباد والبلاد فاعرف هذا، فإنه المناسب للقواعد الشرعية، والمطابق لما تدل عليه الأدلة، ودع عنك ما يقال في مخالفته، فإن الفرق بين ما كانت عليه الولاية الإسلامية في أول الإسلام وما هي عليه الآن أوضح من شمس النهار، ومن أنكر هذا، فهو مباهت ولا يستحق أن يخاطب بالحجة لأنه لا يعقلها.اهـ.

فهذه أقوال ثلاثة من علماء الأمة المجتهدين تقرر صحة تعدد الأئمة في بيعة الاضطرار، ومعولها على الأدلة الشرعية والقواعد المرعية والمصالح الكلية، وقد سبقهم إلي نحو هذا ثلة من العلماء المحققين.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢٥/ ٣٧٣): ما رأيكم فيمن يقول إن أحاديث السمع والطاعة لولاة الأمر تنصرف إلى القائد العام الذي يقود

المسلمين جميعا؟

فأجاب: رأينا أن هذا ليس بصحيح، بل كل ولي أمر تجب طاعته، حتى الرجل في أهل بيته يجب على أهل البيت طاعته ما لم يأمرهم بمعصية الله، حتى القوم الثلاثة إذا سافروا وأمروا أحدهم

وجب عليهم طاعته، لعموم الأدلة الدالة على وجوب طاعة الأمير، ثم إن الخليفة الواحد على سائر الأمة هذا قد انقضى زمنه منذ عهد بعيد، من حين انقرض الخلفاء الراشدون الأربعة رضي الله عنهم، تمزقت الأمة فبنو أمية في الشام وما حوله، وعبد الله بن الزبير في الحجاز وما حوله، وآخر في المشرق وما حوله، وآخرون في اليمن، تمزقت الأمة، ومع ذلك فكل العلماء الذين يتكلمون على وجوب السمع والطاعة. يتكلمون على وجوب السمع والطاعة في عهدهم مع تفرق الأمة، وكل إقليم أو ما أشبه، فيه أمير يختص به.

وعلى هذا الرأي الفاسد الباطل معناه الآن ليس لأمتنا إمام، والأمة الآن تعيش في أمر جاهلي، ليس هناك إمام ولا مأموم ولا سلطان ولا مسلط عليهم، ثم نقول لهؤلاء: إن كنتم صادقين أوجدوا لنا إماما عاما للأمة، طبعا لا يستطيعون، اللهم إلا إذا ظهر مهدي فهذا أمره إلى الله- عز وجل.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين أيضا (٢٥/ ٣٦٨): إمام عندنا خطب يوم الجمعة، فقال: لا يشترط في الجهاد الآن إذن الإمام لعدم وجود إمام عام للمسلمين، ومن قال غير هذا فقد جانب الصواب.

فأجاب: لابد من إمام، لكن الإمام العام بمعنى: أن يكون إمام على كل الأمة، هذا شيء مضى منذ مدة طويلة، لكن الإمام الخاص الذي ينتمي إليه هذا المجاهد، لا بد أن يأذن له.

أما الجهادات التي تكون من فئات، فقد تبين الآن أن نتيجتها ليست على المطلوب، ولا يحتاج أن نمثلها لكم؛ لأن الأمر واضح عندكم، وهذه تشبه العصابات، ولهذا حصل منها الشر والفساد بعد ذلك ما هو معلوم الآن، حتى صار الذين يقاتل من أجلهم صاروا هم بأنفسهم يقتتلون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المسألة السابعة: تعظيم السلطان

قال سهلُ بنُ عبد الله التستري: "لا يزال الناس بخيرٍ ما عظَّموا السلطان والعلماء، فإن عظَّموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإن استخفوا بهذين أفسدوا دنياهم وأخراهم". تفسير القرطبي (٥/ ٢٦٠- ٢٦١).

قال العلامة العثيمين في " حقوق الراعي والرعية": "فالله الله في فهم منهج السلف الصالح في التعامل مع السلطان، وأن لا يتخذ من أخطاء السلطان سبيلًا لإثارة الناس، وإلى تنفير القلوب عن ولاة الأمور، فهذا عين المفسدة، و أحد الأسس التي تحصل بها الفتنة بين الناس، قال: وكذا ملء القلوب على العلماء، يحدث التقليل من شأن العلماء، وبالتالي التقليل من الشريعة التي يحملونه، قال: الواجب أن ننظر ماذا سلك السلف تجاه السلطان، وأن يضبط الإنسان نفسه، وأن يعرف العواقب. و لْيُعْلَم أنَّ من يثورُ إنما يخدمُ أعداءَ الإسلام، فليست العبرة بالثورة ولا بالانفعال بل العبرة بالحكمة. ولست أريد بالحكمة السكوت عن الخطأ، بل معالجة الخطأ لنصلح الأوضاع لا لنغير الأوضاع، فالناصح هو الذي يتكلم ليصلح الأوضاع لا ليغيرها".

المسألة الثامنة: الإنكار على السلطان

إن ما يتحمله الإمام والراعي من مسئوليات وأعباء في رعاية شئون الأمة

تجعله دائمًا بحاجة إلى النصح، والتذكرة، والأمر، والنهي؛ فإن النبي ﷺ قال كما عند البخاري برقم (١٣)، ومسلم (٤٥) (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وقال ﷺ كما عند البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠) (المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه)، والحاكم بغض النظر عن رتبته ووظيفته أخ للمسلم في الإسلام، ولا شك أن تلك الأخوة قائمة بين الحاكم والمحكوم، والقيام بحقوقها من أحدهما للآخر واجب في كل زمان ومكان، ومن حقوقها بذل النصيحة من كل منهما للآخر لا سيما من المحكوم للحاكم لشدة حاجته إليها ومردودها الطيب على الجميع.

ومن الأدلة على وجوب تقديم النصيحة للحاكم حديث أبي هريرة الصحيح رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله رضي لكم ثلاثًا، وكره لكم ثلاثًا؛ رضي لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تنصحوا لمن ولاه الله أمركم، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، ولا تفرقوا).

وصح عن النبي ﷺ أنه قال (ثلاثة لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم).

قال أبو عثمان سعد بن إسماعيل الخيري: "فانصح للسلطان، وأكثر له من الدعاء بالصلاح والرشاد في القول والعمل، فإنه إن صلحوا صلح العباد لصلاحهم، وإياك أن تدعو عليهم فيزدادوا شرًّا، ويزداد البلاء بالمسلمين".

وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٤٨) في تفسير حديث أبي سعيد الخدري: (من رأى منكم منكرًا فليغيره ...) إلى آخره: "قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: آمر السلطان بالمعروف وأنهاه عن المنكر؟

قال: إن خفت أن يقتلك فلا، ثم عدت فقال لي مثل ذلك، وقال: إن كنت لا بد فاعلًا ففيما بينك وبينه. وقال طاوس: أتى رجل ابن عباس؛ فقال: ألا أقوم إلى هذا السلطان فآمره وأنهاه؟ قال: لا تكن له فتنة، قال: أفرأيت إن أمرني بمعصية الله؟ قال: ذلك الذي تريد فكن حينئذٍ رجلًا، وقد ذكرنا حديث ابن مسعود الذي فيه: (يخلف من بعدهم خلوف فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن) قال: وهذا يدل على جهاد الأمراء باليد، وقد استنكر الإمام أحمد هذا الحديث في رواية أبي داود، وقال: هو خلاف الأحاديث التي أمر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم فيها بالصبر على جور الأئمة، وقد يجاب عن ذلك بأن التغيير باليد لا يستلزم القتال، وقد نص على ذلك أحمد أيضًا في رواية صالح؛ فقال: التغيير باليد ليس بالسيف والسلاح، فحينئذٍ جهاد الأمراء باليد أن يزيل بيده ما فعلوه من المنكرات مثل أن يريق خمورهم، أو يكسر آلات اللهو التي لهم، أو نحو ذلك، أو يبطل بيده ما أمروا به من الظلم إن كان له قدرة على ذلك، وكل ذلك جائز، وليس هو من باب قتالهم، ولا من الخروج عليهم الذي ورد النهي عنه؛ فإن هذا أكثر ما يخشى منه أن يقتله الأمراء وحده، وأما الخروج عليهم بالسيف فيخشى منه الفتن التي تؤدي إلى سفك دماء المسلمين، نعم إن خشي في الإقدام على الإنكار على الملوك أن يؤذى أهله أو جيرانه لم ينبغ له التعرض لهم حينئذ لما فيه من تعدي الأذى إلى غيره، كذلك قال الفضيل بن عياض وغيره، ومع هذا متى خاف منهم على نفسه السيف، أو السوط، أو الحبس، أو القيد، أو النفي، أو أخذ المال، أو نحو ذلك من الأذى سقط أمرهم ونهيهم، وقد نص الأئمة على ذلك منهم: مالك، وأحمد، وإسحاق، وغيرهم، قال أحمد: لا يتعرض إلى السلطان؛ فإن سيفه مسلول.اهـ.

وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ١٩٦): ولا ينكر أحد على سلطان إلا وعظًا له وتخويفًا، أو تحذيرًا من العاقبة في الدنيا والآخرة، فإنه يجب ويحرم بغير ذلك، ذكره القاضي وغيره، والمراد: ولم يخف منه بالتخويف والتحذير، وإلا سقط، وكان حكم ذلك لغيره، قال حنبل: اجتمع فقهاء بغداد في ولاية الواثق إلى أبي عبد الله، وقالوا له: إن الأمر قد تفاقم وفشا يعنون إظهار القول بخلق القرآن وغير ذلك، ولا نرضى بإمرته ولا سلطانه، فناظرهم في ذلك، وقال: عليكم بالإنكار بقلوبكم، ولا تخلعوا يدًا من طاعة، ولا تشقوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم، وانظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر، وقال: هذا ليس بصواب، هذا خلاف الآثار. وقال المروذي: سمعت أبا عبد الله يأمر بكف الدماء، وينكر الخروج إنكارًا شديدًا، وقال في رواية إسماعيل بن سعيد: الكف؛ لأنا نجد عن النبي ﷺ: ((ما صلوا فلا)) خلافًا للمتكلمين في جواز قتالهم كالبغاة.

قال القاضي: والفرق بينهما من جهة الظاهر والمعنى؛ أما الظاهر فإن الله تعالى أمر بقتال البغاة بقوله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الحجرات: ٩).

وفي مسألتنا أمر بالكف عن الأئمة بالأخبار المذكورة. وأما المعنى فإن الخوارج يقاتلون بالإمام، وفي مسألتنا يحصل قتالهم بغير إمام، فلم يجز كما لم يجز الجهاد بغير إمام، وقال عبد الله بن المبارك:

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا ... منه بعروة وثقى لمن دانا

كم يدفع الله بالسلطان معضلة ... في ديننا رحمة منه ودنيانا
لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل ... وكان أضعفنا نهبًا لأقوانا

وقال عمرو بن العاص لابنه: "يا بني احفظ عني ما أوصيك به: إمام عدل خير من مطر وابل، وأسد حطوم خير من إمام ظلوم، وإمام ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم".

قال ابن الجوزي: الجائز من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع السلاطين التعريف والوعظ، فأما تخشين القول نحو: يا ظالم، يا من لا يخاف الله؛ فإن كان ذلك يحرك فتنة يتعدى شرها إلى الغير لم يجز، وإن لم يخف إلا على نفسه؛ فهو جائز عند جمهور العلماء، قال: والذي أراه المنع من ذلك؛ لأن المقصود إزالة المنكر، وحمل السلطان بالانبساط عليه على فعل المنكر أكثر من فعل المنكر الذي قصد إزالته.

وقال الغزالي على طرق وعظ الأمراء والسلاطين، وتذكيرهم بالله، والاحتساب عليهم؛ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف، وأن أوله التعريف، وثانيه الوعظ، وثالثه التخشين في القول، ورابعه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة، والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليان، وهما: التعريف، والوعظ، وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان؛ فإن ذلك يحرك الفتنة، ويهيج الشر، ويكون ما يتولد منه من المحذور أكثر.اهـ. من الآداب الشرعية.

وقال الإمام أحمد كما في الآداب الشرعية (١/ ١٩٧): (لا يتعرَّض للسلطان فإن سيفه مسلول)

وفي هذا بيان لطريقة السلف في الإنكار على الولاة، ويكون بالوعظ

والتخويف، والتحذير من العاقبة في الدنيا والآخرة، ويكون ذلك في الخلوة والسرَّ، لا على رؤوس الأشهاد، ومن قام بالنصح على هذا الوجه ممن تعيَّن عليه، كأهل العلم مثلًا، فقد برئ وخلت ذمته من التبعة. أخرج الإمام أحمد في المسند، وصححه العلامة الألباني في ظلال الجنة (٢/ ٥٢١-٥٢٢) أنَّ عياضَ بن غُنمٍ جَلَدَ صاحبَ دارا حين فتحت، فأغلظ له هشام بن حكيم القول، حتى غضب عياضْ ثم مكث لياليَ، فأتاه هشام بن حكيمٍ فاعتذر إليه، ثم قال هشام لعياض: ألم تسمع النبي ﷺ يقول:" إن من أشد الناس عذابًا أشدهم عذابًا في الدنيا للناس"؟، فقال عياض بن غنمٍ: يا هشام بن حكيم! قد سمعنا ما سمعت، ورأينا ما رأيتَ، أوَ لم تسمع رسول الله ﷺ يقول: (من أراد أن ينصح لسلطانٍ بأمرٍ، فلا يبد له علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلوَ به، فإن قبل منه فذاك، و إلا كان قد أدى الذي عليه له"، وإنك يا هشامُ لأنت الجريءُ، إذ تجترئ على سلطان الله، فهلّا خشيتَ أن يقتلك السلطانُ فتكون قتيل سلطان الله تبارك وتعالى)

وفي سنن الترمذي (٢٢٢٥)، عن زياد بن كسيب العدوي قال: كنت مع أبي بكرة تحت منبر ابن عامر، وهو يخطب، وعليه ثياب رقاقٌ، فقال أبو بلال ـ وهو مرداس بن أُدية أحد الخوارج ـ: انظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفساق، فقال أبو بكرة: اسكت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من أهان سلطانَ الله في الأرض، أهانه اللهُ) وأخرج الإمام أحمد (٥/ ٤٢) الحديث بلفظ: "من أكرم سلطان الله تبارك وتعالى في الدنيا، أكرمه الله يوم القيامة، ومن أهان سلطان الله تبارك وتعالى في الدنيا، أهانه الله يوم القيامة) وحسنه الإمام الألباني في الصحيحة (٥/ ٣٧٦).

قال العلّامة ابن عثيمين في " مقاصد الإسلام" (ص:٣٩٣): "فإن مخالفة

السلطان فيما ليس من ضروريات الدين علنًا، وإنكار ذلك عليه في المحافل والمساجد والصحف ومواضع الوعظ، وغير ذلك، ليس من باب النصيحة في شيء، فلا تغترَّ بمن يفعل ذلك، وإن كان عن حسن نية، فإنه خلاف ما عليه السلف الصالح المقتدى بهم، والله يتولى هداك". و في الصحيحين واللفظ لمسلم عن أسامة بن زيد أنه قيل له: ألا تدخل على عثمان لتكلمه، فقال: "أتَرَوْنَ أني لا أكلّمُهُ إلا أسمعُكُم؟ و الله لقد كلمته فيما بيني وبينَهُ، ما دون أن أفتح أمرًا لا أحب أن أكون أولَّ من فتحه". قال الإمام الألباني في تعليقه على مختصر مسلم (٣٣٥): يعني المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملأ، لأن في الإنكار جهارًا ما يُخشى عاقبتُه، كما اتفق في الإنكار على عثمان جهارًا، إذ نشأ عنه قتلُه".

وقال ابن عباس عندما سُئِل عن أمر السلطان بالمعروف، ونهيه عن المنكر: "إن كنتَ فاعلًا ولا بدَّ ففيما بينك وبينَهُ".

(تنبيه): هناك فرق بين وعظ ونصيحة السلطان، وانكار المنكر على ولاة الأمور وبين الخروج عليهم، فالأول مشروع بل واجب على المستطيع بشروطه المعلومة عند أهل العلم، والثاني محرم ممنوع عند أهل السنة فتنبه، وإنكار المنكر على ولاة الأمر من النصيحة لهم، والنصيحة بمفهومها الشامل هي الدين، وتتسع مجالاتها فتشمل النصيحة لله، ولكتابه ورسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم، كما أخبر الرسول ﷺ، ووردت أحاديث بالأمر بالنصح لولاة الأمر خاصة، ففي مسند الإمام أحمد (٨٧٩٩)، من حديث أبي هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله يرضى لكم ثلاثا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله

أمركم ...". وفي المسند (١٣٣٥٠)، من حديث أنس بن مالك، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيره، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "ثلاث لا يغل عليهن صدر مسلم: إخلاص العمل لله عَزَّ وَجَلَّ، ومناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم". قال الحافظ ابن رجب: وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فحب صلاحهم ورشدهم وعدلهم، وحب اجتماع الأمة عليهم، وكراهة افتراق الأمة عليهم، والتدين بطاعتهم في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، والبغض لمن رأى الخروج عليهم، وحب إعزازهم في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ. وقال: والنصيحة لأئمة المسلمين معاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وتذكيرهم به، وتنبيههم في رفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق. وقال القرطبي: والنصح لأئمة المسلمين: ترك الخروج عليهم، وإرشادهم إلى الحق، وتنبيههم فيما أغفلوه من أمور المسلمين، ولزوم طاعتهم والقيام بواجب حقهم.

ومن أدب نصيحة ولاة الأمور أن تكون سرا مع الرفق واللين؛ لأن هذا أدعى لقبول الحق والانقياد له، وأجدر في درء المفاسد والفتن، وتحقيق المصالح، ففي الصحيحين- البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩) - من حديث أبي وائل قال: قيل لأسامة: لو أتيت فلانا فكلمته. قال: إنكم لترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم، إني أكلمه في السر دون أن أفتح بابا لا أكون أول من فتحه. والرجل المذكور هو عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال القاضي عياض: مراد أسامة أنه لا يفتح باب المجاهرة بالنكير على الإمام؛ لما يخشى من عاقبة ذلك، بل يتلطف به وينصحه سرا فذلك أجدر بالقبول وفي المسند (١٥٣٣٣)، من حديث عياض بن غنم، أنه سمع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "من أراد أن ينصح لسلطان بأمر فلا يبد له علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به، فإن قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى الذي عليه له".

قال الحافظ ابن رجب: كان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سرا. حتى قال بعضهم: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه، فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه. وقال الفضيل: المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير. وسئل ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن أمر السلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر؟ فقال: إن كنت فاعلا ولا بد ففيما بينك وبينه.

وقد يجتهد العالم المتأهل للأمر والنهي في بعض الأحوال فيرى الإنكار على ولاة الأمر علانية، وذلك لظهور المصلحة مع أمن الفتنة، أو حدوث مفسدة أكبر، وربما كان ذلك بسبب خشية فوات الأمر، أو من أجل إظهار الحق، فقد يكون خافيا على الناس، وقد أنكر عدد من الصحابة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- على بعض الأمراء علانية، ومن ذلك: إنكار عبادة بن الصامت على معاوية، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ففي صحيح مسلم (١٥٨٧)، من حديث أبي قلابة قال: كنت بالشام في حلقة فيها مسلم بن يسار، فجاء أبو الأشعث. قال: قالوا: أبو الأشعث أبو الأشعث. فجلس، فقلت له: حدث أخانا حديث عبادة بن الصامت. قال: نعم، غزونا غزاة، وعلى الناس معاوية، فغنمنا غنائم كثيرة، فكان فيما غنمنا آنية من فضة، فأمر معاوية رجلا أن يبيعها في أعطيات الناس، فتسارع الناس في ذلك فبلغ عبادة بن الصامت، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقام فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ- ينهى عن بيع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح إلا سواء بسواء عينا بعين، فمن زاد أو ازداد فقد أربى. فرد الناس ما أخذوا، فبلغ ذلك معاوية فقام خطيبا فقال: ألا ما بال رجال يتحدثون عن رسول الله ﷺ-أحاديث قد كنا نشهده ونصحبه فلم نسمعها منه! فقام عبادة بن الصامت فأعاد القصة، ثم قال: لنحدثن بما سمعنا من رسول الله ﷺ، وإن كره

معاوية- أو قال: وإن رغم- ما أبالي ألا أصحبه في جنده ليلة سوداء.

ومثل موقف عبادة في الإنكار، ما حصل لأبي سعيد الخدري مع مروان بن الحكم حينما قدم الخطبة على الصلاة يوم العيد، ففي صحيح البخاري (٩٥٦)، من حديث أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى، فأول شيء يبدأ به الصلاة، ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس والناس جلوس على صفوفهم، فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم، فإن كان يريد أن يقطع بعثا قطعه، أو يأمر بشيء أمر به، ثم ينصرف. قال أبو سعيد: فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان، وهو أمير المدينة، في أضحى أو فطر، فلما أتينا المصلى إذا منبر بناه كثير بن الصلت، فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي، فجبذت بثوبه فجبذني، فارتفع فخطب قبل الصلاة، فقلت له: غيرتم والله. فقال: أبا سعيد، قد ذهب ما تعلم. فقلت: ما أعلم والله خير مما لا أعلم. فقال: إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة. قال الحافظ ابن حجر: وفي الحديث إنكار العلماء على الأمراء إذا صنعوا ما يخالف السنة. وقال: وفي الحديث إنكار العالم على الحاكم ما يغيره من أمر الدين والموعظة بلطف وتدرج.

ومن الأمثلة أيضا إنكار أبي شريح خويلد بن عمرو الخزاعي على عمرو بن سعيد والي يزيد على المدينة، ففي الصحيحين- البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤)، من حديث أبي شريح أنه قال لعمرو بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولا قام به النبي ﷺ- الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم

الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة ... " الحديث. قال الحافظ ابن حجر: قوله: ائذن لي. فيه حسن التطلف في الإنكار على أمراء الجور ليكون أدعى لقبولهم.

ومن الأمثلة أيضا ما أخرجه البخاري (٥٢٢) ومسلم (٦١١)، من حديث ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخر الصلاة يوما، فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبره أن المغيرة بن شعبة أخر الصلاة يوما وهو بالعراق فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري فقال: ما هذا يا مغيرة ..... الحديث. قال الحافظ ابن حجر: وفي الحديث من الفوائد: دخول العلماء على الأمراء وإنكارهم عليهم ما يخالف السنة

وفي صحيح مسلم (١٨٣٠) أن عائذ بن عمرو- وكان من أصحاب رسول الله ﷺ- دخل على عبيد الله بن زياد فقال: أي بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن شر الرعاء الحطمة". فإياك أن تكون منهم. فقال له: اجلس، فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ. فقال: وهل كانت لهم نخالة! إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم، هذا والله أعلم.

قال العلامة عبدالرحمن بن سعدي في كتابه - الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة (ص٢٩): "وأما النصيحة لأئمة المسلمين، وهم ولاتهم من السلطان الأعظم إلى الأمير إلى القاضي إلى جميع من لهم ولاية صغيرة أو كبيرة، فهؤلاء لما كانت مهماتهم وواجباتهم أعظم من غيرهم وجب لهم من النصيحة بحسب مراتبهم ومقاماتهم، وذلك باعتقاد إمامتهم والاعتراف بولايتهم ووجوب طاعتهم بالمعروف، وعدم الخروج عليهم، وحث الرعية على طاعتهم ولزوم أمرهم الذي يخالف أمر الله ورسوله، وبذل مايستطيع

الإنسان من نصيحتهم وتوضيح ماخفي عليهم مما يحتاجون إليه في رعايتهم، كل أحد بحسب حاله، والدعاء لهم بالصلاح والتوفيق، فإن صلاحهم صلاح لرعيتهم.

ثم قال: واجتناب سبهم والقدح فيهم وإشاعة مثالبهم، فإن في ذلك شرًا وضررًا وفسادا كبيرا فمن نصيحتهم الحذر والتحذير من ذلك.

ثم قال: وعلى من رأى منهم مالايحل أن ينبههم سرا لاعلنا بلطف وعبارة تليق بالمقام ويحصل بها المقصود، فإن هذا مطلوب في حق كل أحد، وبالأخص ولاة الأمور، فإن في تنبيههم على هذا الوجه فيه خير كثير، وذلك علامة الصدق والإخلاص.

ثم قال: واحذر أيها الناصح لهم على هذا الوجه المحمود أن تفسد نصيحتك بالتمدح عند الناس، فتقول لهم إني نصحتهم وقلت وقلت، فإن هذا عنوان الرياء وعلامة ضعف الإخلاص وفيه أضرار أخر معروفة.اهـ.

وقال العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في مجموع فتاواه (٨/ ٢١٠): هل من منهج السلف نقد الولاة من فوق المنابر؟ وما منهج السلف في نصح الولاة؟

فأجاب: ليس من منهج السلف التشهير بعيوب الولاة، وذكر ذلك على المنابر؛ لأن ذلك يفضي إلى الفوضى وعدم السمع والطاعة في المعروف، ويفضي إلى الخوض الذي يضر ولا ينفع، ولكن الطريقة المتبعة عند السلف: النصيحة فيما بينهم وبين السلطان، والكتابة إليه، أو الاتصال بالعلماء الذين يتصلون به حتى يوجه إلى الخير.

أما إنكار المنكر بدون ذكر الفاعل: فينكر الزنا، وينكر الخمر، وينكر الربا من دون ذكر من فعله، فذلك واجب؛ لعموم الأدلة. ويكفي إنكار المعاصي

والتحذير منها من غير أن يذكر من فعلها لا حاكما ولا غير حاكم.

ولما وقعت الفتنة في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال بعض الناس لأسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم ترون أني لا أكلمه، إلا أسمعكم؟ إني أكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمرا لا أحب أن أكون أول من افتتحه).

ولما فتح الخوارج الجهال باب الشر في زمان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنكروا على عثمان علنا عظمت الفتنة والقتال والفساد الذي لا يزال الناس في آثاره إلى اليوم، حتى حصلت الفتنة بين علي ومعاوية، وقتل عثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بأسباب ذلك، وقتل جمع كثير من الصحابة وغيرهم بأسباب الإنكار العلني، وذكر العيوب علنا، حتى أبغض الكثيرون من الناس ولي أمرهم وقتلوه، وقد روى عياض ابن غنم الأشعري، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يبده علانية ولكن يأخذ بيده فيخلو به فإن قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى الذي عليه) نسأل الله العافية والسلامة لنا ولإخواننا المسلمين من كل شر، إنه سميع مجيب. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وآله وصحبه.اهـ.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الواسطية (ص٢٣٦): المسألة الخامسة وهي مسألة مهمة تتعلق بالفرق بين نصيحة الولاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للولاة، النصيحة كما ذكرنا الأصل فيها أن تكون سرًا والمنكر الأصل فيه أن يكون علنًا.

وقد جاء في بيان هذا الأصل قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح (من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يُبْدِهِ علانية، وليأخذ بيده، وليخلو به، فإن قبل منه فذاك وإلا يكون قد أدَّى الذي عليه) وهذا الحديث إسناده قوي، ولم يُصِبْ من ضعَّف إسناده وله شواهد كثيرة ذكرها الهيثمي في مجمع الزوائد،

ويؤيده ما جاء في صحيح البخاري (من أنهم أرادوا أن يُنْكِرَ أسامة بن زيد على عثمان، فأسامة بن زيد لم يفعل وقال أما إني قد بذلته له سرًا لا أكون فاتح باب شر) وهذا موافق لهذا الأصل وهو أنه ما يقع في ولاية السلطان في ولاية الوالي من مخالفات للشرع فهذا بابه النصيحة، لأنها ما تعلقت به من جهة رؤيةٍ لفعله أو سماعٍ محقق له. أما من رأى السلطان بنفسه يفعل منكرًا فإنه مثل غيره يأمره وينهاه.

وأمر ونهي السلطان يكون عنده لا يكون بعيدًا عنه لما جاء في الحديث (أفضل الشهداء حمزة ورجل قام إلى سلطانٍ جائر فأمره ونهاه فقتله)

فأمر ونهي السلطان يكون فيما رأيته منه بنفسك أو سمعته منه سماعًا محققًا، سمعته منه بأذنك فتُنْكِر بحسب الإستطاعة، بحسب القدرة بحسب ما يتيسر علنًا أو غيرها. أما النصيحة فهي ما يجري في ولايته.

وأهل العلم فرقوا في هذا المقام بما ذكرت لك، بين النصيحة بما يقع في الولاية وبين ما يكون منكرًا يفعله السلطان بحضرة الناس.

وكثير من الحوادث والأدلة والأحاديث أنكر فيها الصحابة وأنكر فيها التابعون على ذوي السلطان علنًا، وكلها إذا تأملتها بدون استثناء يكون فيها الأمر أن المنكر فعله بحضرتهم، رأوه منه أو سمعوه سماعًا محققًا منه.

مثل ما أنكر الرجل على مروان في تقديمه خطبة العيد على الصلاة، فهذا شيء سُمِعَ منه، ولو كان السلطان إذا فعل مُنْكَرًا فإنه يُنْكَرْ عليه، ولا يقال هنا سرًا بل يُنْكَرْ عليه ولو كان بحضرة الناس بشرط أن يُؤمَنَ أن يكون ثَمَّ فساد أعظم منه من مقتلة أو فتنة عظيمة أو نحو ذلك.

وكذلك ما حصل من الإنكار على عمر في لبسه الثوبين.

وكذلك ما حصل من الإنكار على معاوية، وأشباه ذلك كثير.

فإن باب النصيحة غير باب الإنكار، باب الإنكار يكون برؤيةٍ، سواء كانت رؤية المنكر من السلطان أم من عامة الناس.

إذا رأيته بنفسك.

أما باب النصيحة فما يقع في الولاية، وتأمل في ذلك النصوص جميعًا، وقد تأملتها رعايةً لتحقيق المقام في هذه المسألة المهمة وبراءةً للذمة، ووجدت أن هذا الذي ذكرت لك مُنْضَبِطْ كما قال أهل العلم، كما ذكر ذلك مُحَقَقًا ابن رجب في شرحه لحديث (من رأى منكم منكرًا) وكما ذكره ابن النَّحاس في كتابه تنبيه الغافلين بل قد قال ابن عباس رضي الله عنهما (لا تأمر السلطان ولا تنهاه عن منكر إلا فيما بينك وبينه) رواه عنه عبدالرزاق بإسناد صحيح.

وكلام السلف إذا تأملته يدور على هذا الفرق ما بين النصيحة وما بين الإنكار.

فباب الإنكار شيء وباب النصيحة شيء، الإنكار بقيده برؤيةٍ ممن فعل أو سماع محقق، وتلحظ أن الإنكار يكون بحسب التفصيل الذي ذكرنا من انفكاك المعصية أو ملازمتها.

المسألة التاسعة: الصبر على جَوْر الأئمة

الصبر على جور الأئمة أصل من أصول السنة والجماعة لا تكاد تري مولفًا في السنة يخلو من تقرير هذا الأصل، والحض عليه، وقد بلغت الأحاديث حد التواتر في ذلك كما في رفع الأساطين في حكم الاتصال بالسلاطين (ص٨١-٨٢)، وهذا من محاسن الشريعة فإن الأمر بالصبر على جور الأئمة وظلمهم يجلب من المصالح ودرأ من المفاسد ما يكون به صلاح العباد والبلاد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٧٩): كان من العلم والعدل المأمور به الصبر على ظلم الأئمة وجورهم كما هو من أصول أهل السنة والجماعة وكما أمر به النبي ﷺ في الأحاديث المشهورة عنه لما قال: {إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض} وقال: {من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه} إلى أمثال ذلك. وقال: {أدوا إليهم الذي لهم واسألوا الله الذي لكم} وانهوا عن قتالهم ما صلوا ؛ وذلك لأن معهم أصل الدين المقصود وهو توحيد الله وعبادته ومعهم حسنات وترك سيئات كثيرة. وأما ما يقع من ظلمهم وجورهم بتأويل سائغ أو غير سائغ فلا يجوز أن يزال لما فيه من ظلم وجور كما هو عادة أكثر النفوس تزيل الشر بما هو شر منه وتزيل العدوان بما هو أعدى منه ؛ فالخروج عليهم يوجب من الظلم والفساد أكثر من ظلمهم فيصبر عليه كما يصبر عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ظلم المأمور والمنهي في مواضع كثيرة كقوله: {وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك} وقوله: {فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل} وقوله: {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا} .اهـ.

فالصبر على السلاطين إذا جاروا من عزائم الدين ومن وصايا الأئمة الناصحين.

جاء في الشريعة (ص٣٨): عن عمر بن يزيد، أنه قال سمعت الحسن -أيام يزيد بن المهلب يقول - وأتاه رهط - فأمرهم أن يلزموا بيوتهم ويغلقوا عليهم أبوابهم، ثم قال: والله لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم صبروا على ما لبثوا أن يرفع الله ﷿ ذلك عنهم وذلك أنهم يفزعون إلي السيف فيوكلون إليه، والله ما جاؤوا بيوم خير قط، ثم تلا: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا

صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} .

وقال الحسن أيضًا: أعلم عافاك الله أن جور الملوك نقمة من نقم الله تعالي، ونقم الله لا تلاقي بالسيوف، وإنما تتقي وتستدفع بالدعاء والتوبة والإنابة والإقلاع عن الذنوب، إن نقم الله متي لقيت بالسيوف كانت هي أقطع ولقد حدثني مالك بن دينار أن الحجاج كان يقول: اعلموا أنكم كلما احدثم ذنبًا أحدث الله في سلطانكم عقوبة، ولقد حدثت أن قائلًا قال للحجاج: إنك تفعل بأمة رسول الله ﷺ كيت و كيت ! فقال: أجل، إنما أنا نقمة على أهل العراق لما أحدثوا في دينهم ما أحدثوا، وتركوا من شراع نبيهم عليه السلام - ما تركوا.اهـ.

وقيل: سمع الحسن رجلًا يدعو على الحجاج، فقال: لا تفعل رحمك الله إنكم من أنفسكم أتيتم، إنما نخاف إن عزل الحجاج أو مات: أن تليكم القردة والخنازير.

ولقد بلغني أن رجلًا كتب إلي بعض الصالحين يشكو إليه جور العمال فكتب إليه :

يا أخي ! وصلني كتابك تذكر ما أنتم فيه من جور العمال، وإنه ليس ينبغي لمن عمل بالمعصية أن ينكر العقوبة، وما أظن الذي أنتم فيه إلا من شؤم الذنوب والسلام[1] اهـ

فهذا موقف أهل السنة والجماعة من جور السلطان يقابلونه بالصبر والاحتساب، ويعزون حلول ذلك الجور بهم علي ما اقترفته أيديهم من خطايا وسيئات، كما قال الله جلا وعلا: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}، فيهرعون إلي التوبة والاستغفار ويسألون الله جل وعلا أن

---

(١) كتاب آداب الحسن البصري لابن الجوزي (ص ١١٩ - ١٢٠).

يكشف ما بهم من ضر.

ولا يقدمون على شيء مما نهي عنه الشرع المطهر في هذه الحال من حمل السلاح أو إثارة فتنة أو نزع يد من طاعة، لعلمهم أن هذه الأمور إنما يفزع إليها من لا قدر لنصوص الشرع في قلبه من أهل الأهواء الذين تسيرهم الآراء لا الآثار، وتتخطفهم الشبه، ويستنزلهم الشيطان.

قال الآجري في الشريعة (ص٣٧): ولقد جاء في النصوص من التحذير عن مذاهب الخوارج ما فيه بلاغ لمن عصمه الله - عَزَّوَجَلَّ الكريم - عن مذهب الخوارج ولم ير رأيهم وصبر على جور الأئمة وحيف الأمراء، ولم يخرج عليهم بسيفه، وسال الله العظيم كشف الظلم عنه وعن جميع المسلمين، ودعا للولاة بالصلح، وحج معهم، وجاهد معهم كل عدو للمسلمين، وصلى خلفهم الجمعة والعيدين وإن أمروه بطاعتهم فأمكنته طاعتهم أطاعهم ،وإن لم يمكنه اعتذر إليهم وإن أمروه بمعصية لم يطعهم وإذا دارت بينهم الفتن لزم بيته، وكف لسانه ويده ،ولم يهو ما هم فيه ،ولم يعن على فتنة فمن كان هذا وصفه كان على الطريق المستقيم إن شاء الله.اهـ. وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأمر بالصبر على جور الأئمة وظلمهم، تقدم بعضها، وسيأتي بعضها. انظر كتاب معاملة الحكام.

المسألة العاشرة: وجوب السمع والطاعة في المعروف (في غير معصية)

الطاعة دعامة من دعائم الحكم في الإسلام وقاعدة من قواعد نظامه السياسي، وهي من الأمور الضرورية لتمكين الإمام من القيام بواجبه الملقى على عاتقه، وضرورية أيضًا لتمكين الدولة من تنفيذ أهدافها وتحقيق أغراضها، ورضي الله عن عمر بن الخطاب حيث يقول: (لا إسلام بلا جماعة، ولا جماعة

بلا أمير، ولا أمير بلا طاعة)، وإن من أهم ما يميز نظام الإسلام عن غيره من النظم الأرضية التي وضعها البشر هو ذلك الوازع الديني في ضمير المؤمن، فهو يستشعر - عند قيام الإمام بواجبه - أن الله سبحانه وتعالى قد أوجب عليه الطاعة لهذا الإمام، فيؤنبه ضميره ويردعه وازعه الديني عن الإخلال بنظام الدولة أو التمرد والعصيان على أي أمر من أمور الدولة التي وضعتها لصالح الأمة، وإن غابت عنه عين الرقيب والحارس لهذا النظام، لأنه يشعر بأن الرقيب حيّ قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، وهو مطلع عليه عالم بأحواله في كل لحظة وأوان. وهذا ما لا وجود له في النظم الأرضية، فكل منهم يراقب عين الرقيب وحارس النظام، وهو بشر مثلهم، ومن طبيعة البشر الضعف والغفلة والتقصير، فإن غاب عنه فلا رقيب ولا حارس ولا وازع ديني أو خلقي يردعه من التمرد على هذا النظام المراد حفظه.

كذلك المؤمن إذا اتخذ هذه الطاعة قربة لله سبحانه وتعالى وعبادة، فله عليها الأجر الجزيل، لأنه يطيعهم امتثالًا لأمر الله ورسوله بذلك لا لأشخاصهم. فيرجو من الله الثواب على ذلك، أما النظم الأخرى فلا رجاء ولا أجر إلا ما يصيبه في هذه الحياة الدنيا من حطامها، ومن النتائج المترتبة على حفظ هذه النظم، (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ) [الرعد: ٢٦].

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٦، ١٧): فطاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد، وطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر الله بطاعتهم، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر لله فأجره على الله، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال فإن أعطوه أطاعهم وإن منعوه عصاهم فما له في الآخرة من خلاق.اهـ.

وقد روى البخاري (٢٦٧٢)، ومسلم (١٠٨) وغيرهما عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلًا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو غير ذلك، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا فإن أعطاه منها وفى وإن لم يعطه لم يفِ)، لذلك فالسمع والطاعة لخلفاء المسلمين وأئمتهم من أجل الطاعات والقربات عند الله تعالى، ومن الواجبات الملقاة على عاتق كل مسلم ..

وقال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٣٤): وقال الصياح بن سوادة الكندي: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ...﴾ الآية [الحج: ٤١]. ثم قال: ألا إنها ليست على الوالي وحده ولكنها على الوالي والموالى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلك؛ وبما للوالي عليكم منه؟ إنَّ لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يهديكم إلى التي هي أقوم ما استطاع، وإنَّ عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكرهة ولا المخالف سرها علانيتها.اهـ.

والأدلة وجوب طاعة الأئمة كثيرة وقد تقدم بعضها في المباحث السابقة.

ولكن حينما أوجب الله عَزَّوَجَلَّ على الرعية أن تطيع ولاة الأمور المسلمين لم يجعل هذه الطاعة مطلقة من كل قيد، وذلك لأن الحاكم والمحكوم كلهم عبيد لله عَزَّوَجَلَّ، واجب عليهم طاعته وامتثال أوامره، لأنه هو الحاكم وحده، فإذا قصرت الرعية في حق من حقوق الله تعالى فعلى الحاكم تقويمها بالترغيب والترهيب حتى تستقيم على الطريق، وكذلك الحاكم إذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة له، وإنما على الأمة نصحه وإرشاده، لإرجاعه إلى الحق شريطة ألا يكون هناك

مفسدة أعظم من مصلحة تقويمه، وإلا فعلى الرعية الصبر حتى يقضي الله فيه بأمره.

والأدلة على تقييد سلطة الحاكم وأنه لا طاعة له في معصية كثيرة جدًا نأخذ منها بعض النماذج:

أولًا: من كتاب الله:

١ - قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَاوِيلًا) [النساء: ٥٩].

قال الحافظ في الفتح (١٣/ ١١٢): قال الطيبي: أعاد الفعل في قوله: وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة، ولم يعده في أولي الأمر إشارة إلى أنه يوجد فيهم من لا تجب طاعته، ثم بين ذلك في قوله: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ) كأنه قيل: فإن لم يعملوا بالحق فلا تطيعوهم وردوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله.اهـ.

فالشاهد من الآية أن الإمام المطاع يجب أن يكون من المسلمين وأنه إذا وقع خلاف بينه وبين رعيته فالحكم في ذلك هو كتاب الله وسنة رسوله لا هواه وبطشه، فدل ذلك على تقييد سلطته بإتباع الكتاب والسنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى" (٣٥/ ١٢): وأما أهل العلم والدين والفضل فلا يرخصون لأحد فيما نهى الله عنه من معصية ولاة الأمور، وغشهم، والخروج عليهم: بوجه من الوجوه: كما قد عرف من عادات أهل السنة والدين قديمًا وحديثًا ومن سيرة غيرهم.اهـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى" (٣٥/ ٢١): وقد استفاض وتقرر في غير

هذا الموضع ما قد أمر به، من طاعة الأمراء في غير معصية الله؛ ومناصحتهم، والصبر عليهم في حكمهم، وقسمهم؛ والغزو معهم، والصلاة خلفهم، ونحو ذلك من متابعتهم في الحسنات التي لا يقوم بها إلا هم؛ فإنه من باب التعاون على البر والتقوى، وما نهى عنه من تصديقهم بكذبهم، وإعانتهم على ظلمهم وطاعتهم في معصية الله ونحو ذلك؛ مما هو من باب التعاون على الإثم والعدوان، وما أمر به أيضًا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لهم ولغيرهم على الوجه المشروع؛ وما يدخل في ذلك من تبليغ رسالات الله إليهم؛ بحيث لا يترك ذلك جبنا، ولا بخلا، ولا خشية لهم، ولا اشتراء للثمن القليل بآيات الله؛ ولا يفعل أيضًا للرئاسة عليهم، ولا على العامة، ولا للحسد، ولا للكبر ولا للرياء لهم، ولا للعامة. ولا يزال المنكر بما هو أنكر منه، بحيث يخرج عليهم بالسلاح؛ وتقام الفتن؛ لما في ذلك من الفساد الذي يربى على فساد ما يكون من ظلمهم؛ بل يطاع الله فيهم وفي غيرهم، ويفعل ما أمر به، ويترك ما نهى عنه.اهـ.

وقال في منهاج السنة" (٣/ ٣٨٧ - ٣٨٨): لا يوجبون طاعة الإمام في كل ما يأمر به، بل لا يوجبون طاعته إلا فيما تسوغ طاعته فيه في الشريعة، فلا يجوزون طاعته في معصية الله وإن كان إمامًا عادلًا، وإذا أمرهم بطاعة الله فأطاعوه، مثل أن يأمرهم بإقامة الصلاة؛ وإيتاء الزكاة؛ والصدق والعدل والحج والجهاد في سبيل الله، فهم في الحقيقة إنما أطاعوا الله، والكافر والفاسق إذا أمر بما هو طاعة لله لم تحرم طاعة الله ولا يسقط وجوبها لأجل أمر ذلك الفاسق بها، كما أنه إذا تكلم بحق لم يجز تكذيبه ولا يسقط وجوب اتباع الحق لكونه قد قاله فاسق، فأهل السنة لا يطيعون ولاة الأمور مطلقًا، وإنما يطيعونهم في ضمن طاعة الرسول كما قال تعالى: (أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ)

[النساء:٥٩]، فأمر بطاعة الله مطلقًا، وأمر بطاعة الرسول لأنه لا يأمر إلا بطاعة الله (مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) [النساء:٨٠]، وجعل طاعة أولي الأمر داخلة في ذلك، فقال: (وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ)، ولم يذكر لهم طاعة ثالثة، لأن ولي الأمر لا يُطاع طاعة مطلقة، إنما الطاعة بالمعروف، كما قال النبي ﷺ "إنما الطاعة في المعروف"، وقال: "لا طاعة في معصية الله"، و"لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"، وقال: "ومن أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه.اهـ.

٢- ومنها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَاتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [الممتحنة: ١٢].

والشاهد من الآية قوله تعالى: (وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) روى ابن جرير في تفسيره (٢٨/ ٨٠) بسنده عن ابن زيد في قوله: وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ قال: إن رسول الله ﷺ نبيّه وخيرته من خلقه، ثم لم يستحلّ له أمر إلا بشرط، لم يقل لا يَعْصِينَكَ ويترك. حتى قال: فِي مَعْرُوفٍ فكيف ينبغي لأحد أن يطاع في غير معروف وقد اشترط الله هذا على نبيه.اهـ.

وقال الزمخشريفي الكشاف (٤/ ٩٥) مفسرًا سبب تقييد طاعة الرسول ﷺ بالمعروف مع أنه لا يأمر إلا بالمعروف: نبه بذلك على أن طاعة المخلوق في معصية الخالق جديرة بالتوقي والاجتناب.اهـ.

وقال الكيا الهراسي كما في محاسن التأويل (١٦/ ١٣٧): يؤخذ من قوله: وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ أنه لا طاعة لأحد في غير معروف، قال: وأمر النبي ﷺ لم يكن إلا بمعروف وإنما شرطه في الطاعة لئلا يترخص أحد في طاعة

السلاطين -مطلقا-..اهـ.

وقال ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ١٠): والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء، ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء، وكان الناس كلهم تبعًا لهم، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما كما قال عبد الله بن المبارك وغيره من السلف: صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، قيل من هم؟ قال: الملوك والعلماء.اهـ.

أما الأدلة على تقييد سلطة الإمام من السنة فكثيرة جدًا نأخذ منها ما يلي

١- ما رواه الخمسة وأحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (على المرء السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) رواه البخاري (٢٩٥٥)، ومسلم (١٨٣٩).

قال ابن القيم في تهذيب السنن (٧/ ٢٠٨) تعليقًا على هذا الحديث: وفي هذا الحديث دليل على أن من أطاع ولاة الأمر في معصية الله كان عاصيًا، وأن ذلك لا يمهد له عذرًا عند الله، بل إثم المعصية لا حق به، وإن كان لولا الأمر لم يرتكبها، وعلى هذا يدل هذا الحديث وهذا وجهه وبالله التوفيق.

٢- ومنها ما رواه البخاري (٧١٤٥) - واللفظ له - ومسلم (١٨٤٠) وغيرهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (بعث النبي ﷺ سريّة، وأمَّر عليها رجلًا من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب عليهم وقال: أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: عزمت عليكم لما جمعتم حطبًا وأوقدتم نارًا

ثم دخلتم فيها، فجمعوا حطبًا وأوقدوا نارًا، فلما هموا بالدخول فقام ينظر بعضهم إلى بعض، فقال بعضهم: إنما تبعنا النبي ﷺ فرارًا من النار أفندخلها؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار، وسكن غضبه، فذُكِرَ للنبي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف)، ورويت هذه القصة أيضًا وجاء فيها أن أميرها كان عبد الله بن حذافة السهمي وكان امرءًا فيه دعابة، ولم يكن من الأنصار بل كان مهاجريًا.

فهذا قد أمرهم بدخول نار الدنيا، وقد أوجب الرسول ﷺ عصيانه، فما بالك بالذين يأمرون بدخول نار الآخرة بارتكاب المعاصي! فكيف تكون طاعتهم؟.

٣- ومنها ما رواه البخاري (٦٩٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله).

فهذا الحديث قيد الطاعة للإمام الذي يقود بكتاب، أي لا يأمر بمعصية.

٤- ومنها ما رواه الإمام أحمد بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنه سيلي أمركم من بعدي رجال يطفئون السنة ويحدثون البدعة، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، قال ابن مسعود: كيف بي إذا أدركتهم؟ قال: ليس -يا ابن أم عبد- طاعة لمن عصى الله قالها ثلاث مرات)[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٩، رقم ٣٨٨٩)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٦، رقم ٢٨٦٥)، والطبراني في الكبير (١٠٣٦١)، والبيهقى (٣/ ١٢٤)، قال البوصيرى (٣/ ١٧٧): هذا إسناد رجاله ثقات لكن عبد الرحمن المسعودى اختلط بآخره ولم يتميز حديثه الأول من الآخر فاستحق الترك. وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٨٦٤)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٥/ ٣٠٢)، وصححه العلامة الوادعي في =

ونحو ما رواه عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (سيليكم أمراء بعدي، يعرفونكم ما تنكرون، وينكرون عليكم ما تعرفون، فمن أدرك ذلك منكم فلا طاعة لمن عصى الله)[١].

بل إن الطاعة المطلقة من كل قيد تجرُّ إلى الشرك بالله وعبادة الرجال بعضهم لبعض كما قال عَزَّ وَجَلَّ: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [التوبة: ٣١]، وفي حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (وكان قد قدم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية، قال: فقلت له: إنا لسنا نعبدهم قال: أليس يحرمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويُحلُّون ما حرَّم الله فتحِلُّونه؟ قال: فقلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم)[٢].

=

صحيح دلائل النبوة (ص: ٥٦٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٦/ ٣٤٠): إسناده حسن عند من يصحح سماع عبد الرحمن من أبيه عبد الله، وهو ضعيف عند من يقول: إنه لم يسمع من أبيه إلا اليسير، فقد توفي أبوه وعمره ست سنوات.

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٠١) وصححه، وقواه العلامة الألباني في الصحيحة (٥٩٠) بطرقه وشواهده.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٧٨/ رقم ٣٠٩٥)، والبخاري في التاريخ (٤/ ١/ ١٠٦)، وابن جرير في تفسيره (١٠/ ٨١)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢/ رقم ٢١٨)، والواحدي في "الوسيط" (٢/ ٤٩٠ - ٤٩١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١١٦) والمدخل (رقم ٢٦١)، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه -كما في "الدر المنثور" (٢/ ٢٣٠) والحديث قال عنه الترمذي: "هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث"، وحسنه بشواهده شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الإيمان (ص٦٤)، وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣): هو بمجموع طرقه حسن إن شاء الله تعالى، وقد أشار ابن كثير في "تفسيره " (٢/ ٣٤٨) إلى تقويته.

قال ابن تيمية في كتاب الإيمان (ص: ٦٤): وكذلك قال أبو البختري: أَمَا إنهم يُصَلُّوا، ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكن أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله، فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية .. وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: (كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ قال: كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه، فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشيء، فما أمرونا به ائتمرنا وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، فاستنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، فقد بيَّن النبي ﷺ أن عبادتهم إنما كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال، لا أنهم صَلُّوا لهم وصاموا لهم ودعوهم من دون الله، فهذه عبادة للرجال وتلك عبادة للأموال.

يقصد حديث: (تعس عبد الدينار) الذي رواه البخاري (٢٨٨٧). وروى الطبري في تفسيره (٣/ ٣٠٤) بسنده إلى ابن جريج عند قوله تعالى: وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ... الآية [عمران: ٦٤]، قال: لا يطع بعضنا بعضًا في معصية الله.

لذلك فمن أطاع العلماء والأمراء فيما فيه معصية لله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله ﷻ، وهذا شرك وعبادة لهم من دون الله، وأي ذنب أكبر من أن يتخذ الإنسان الآخر ربًّا مُشَرِّعًا يطيعه في معصية الله، ويحرم عليه ما أحلّ الله له.

والطاعة في المعصية طاعة للطاغوت، وقد أُمِرنا بالكفر به، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٠١): والمطاع في معصية الله والمطاع في اتباع غير الهدى ودين الحق سواء كان مقبولًا خبره المخالف لكتاب الله أو مطاعًا أمره المخالف لأمر الله هو طاغوت.اهـ.

من كل ما سبق يتبين أن طاعة الأئمة مقيدة بما ليس فيه معصية لله ورسوله،

أما ما كان كذلك فلا طاعة لهم فيه كما نصت الأدلة. ويتبين لنا كذلك أن الطاعة للأئمة التي أمرنا الله بها وأوجبها على الرعية إنما هي طاعة مبصرة لا طاعة عمياء كما تنص عليها المصطلحات العسكرية في النظم الوضعية، وكما تنص عليها بعض الطرق الصوفية من إيجاب الطاعة العمياء على الشخص أمام مريده، أما الإسلام فلا (إنما الطاعة في المعروف) كما مرّ معنا في قصة أصحاب السرية وأميرهم وتوجيه النبي ﷺ لهم.

ولو أجيزت الطاعة في المعصية لكان هناك تناقض في الإسلام، إذ لا يعقل أن يحرَّم الشارع شيئًا ثم يوجبه.

ويعلق الأستاذ أحمد شاكر في حاشية المسند (٦/ ٣٠١) على حديث: (السمع والطاعة على المرء فيما أحب وكره ... إلخ، بقوله: ... ثم قَيَّد هذا الواجب - واجب الطاعة - بقيد صحيح دقيق، يجعل للمكلف الحق في تقديره ما كلف به، فإن أمره من له الأمر عليه بمعصية فلا سمع ولا طاعة، لا يجوز له أن يعصي الله بطاعة المخلوق، فإن فعل كان عليه من الإثم ما كان على من أمره، لا يعذر عند الله بأنه أتى هذه المعصية بأمر غيره، فإنه مكلَّف مسئول عن عمله، شأنه شأن آمره سواء، ومن المفهوم بداهة أن المعصية التي يجب على المأمور ألا يطيع فيها الآمر هي المعصية الصريحة التي يدلّ الكتاب والسنة على تحريمها، لا المعصية التي يتأوّل فيها المأمور ويتحايل حتى يوهم نفسه أنه إنما امتنع لأنه أمر بمعصية مغالطة لنفسه ولغيره.اهـ.

فهذا ردٌّ على الذين يرتكبون المعاصي بحجة أنهم قد أُمروا بها، فيقولون الإثم على من أمرنا لا علينا، والحق أن الإثم على الآمر وعلى الفاعل، وكل ما سبق من أحاديث وأقوال للعلماء ردٌّ على زعمهم ومخادعتهم أنفسهم.

هذا وقد خرجت طائفة من أهل الشام زمن الأمويين يرون الطاعة المطلقة للإمام، وأن الله يتقبل حسناته، ويتجاوز عن سيئاته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (١/ ٢٣٢) عن هذه الطائفة: ... وأما غالية الشام أتباع بني أمية فكانوا يقولون: إن الله إذا استخلف خليفة تقبَّل منه الحسنات، وتجاوز له عن السيئات، وربما قالوا: إنه لا يحاسبه، ولهذا سأل الوليد بن عبد الملك عن ذلك العلماء فقالوا: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أم داود؟ وقد قال له: يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ [ص: ٢٦]، وكذلك سؤال سليمان بن عبد الملك عن ذلك لأبي حازم المدني في موعظته المشهورة فذكر له هذه الآية. ثم بيَّن رحمه الله تعالى غلطهم فقال في نفس المصدر (١/ ٢٣٣): لكن غلط من غلط منهم من جهتين، من جهة: أنهم كانوا يطيعون الولاة طاعة مطلقة، ويقولون: إن الله أمر بطاعتهم. الثانية: قول من قال منهم: إن الله إذا استخلف خليفة تقبَّل منه الحسنات وتجاوز له عن السيئات.اهـ.

وهذه الطاعة في المعروف ليست مشروطة بكون الإمام عادلًا، بل حتى ولو كان فيه شيء من الجور والفسق على نفسه، كأن يكون فيه تقصير في حق الله تعالى، أو بعض حقوق الآدميين، والذي يدل على ذلك ما يلي:

١- ما رواه البخاري (٣٦٠٣)، ومسلم (١٨٤٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها، قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك ذلك منا؟ قال: تؤدُّون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم).

٢- وعن سعيد بن حضير (أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، استعملت فلانًا ولم تستعملني، قال: إنكم سترون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض) رواه البخاري (٣٧٩٢)، ومسلم (١٨٤٥).

٣- ومنها حديث سلمة بن يزيد أنه قال: (يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم، ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه ... إلى أن قال: اسمعوا وأطيعوا فإنَّ عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمِّلتم) رواه مسلم (١٨٤٦).

٤- ومنها حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (قلت: يا رسول الله: إنا كنا بِشَرّ فجاء الله بخير فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل وراء هذا الشر خير؟ قال: نعم، قلت: فهل وراء هذا الخير شر؟ قال: نعم، قلت: كيف؟ قال: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيكم رجال، قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع وإن ضُربَ ظهرك وأُخِذَ مالك فاسمع وأطع) رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

فهذه الأحاديث وما في معناها تَدُلّ في جملتها على أن الطاعة في المعروف واجبة على المسلم للإمام، وإن منع بعض الحقوق واستأثر ببعض الأموال، بل ولو تعدى ذلك إلى الضرر بالجسم كالضرب، أو إلى أخذ المال ونحوه من الأمور الشخصية، فعلى المؤمن القيام بما أوجبه الله عليه من الطاعة في المعروف، وأن يحتسب حقه عند الله عَزَّ وَجَلَّ، فعند الله تجتمع الخصوم، وذلك سدًّا لفتح باب الفتن والاختلاف المذموم.

كما تدل على أن المؤمن ينبغي ألا يغضب ولا ينتقم إلا لله عَزَّ وَجَلَّ، لا لنفسه

أسوة بالرسول ﷺ كما في صحيح البخاري (٦٧٨٦): (أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله)، فإذا قصر الإمام في حقٍ من حقوق الدنيا لأحد الرعية فعليه أن يطيعه في طاعة الله، ولا يعصيه بسبب منعه هذا الحق، وإن كان يرتكب شيئًا من المعاصي في نفسه، وعنده تقصير في أداء بعض الواجبات، ففي هذه الحال على المؤمن نصحه وطاعته في طاعة الله، أما إن تطرَّق الأمر إلى ما يمس الدين كأن يأمره بمعصية لله ﷻ فهنا لا سمع ولا طاعة. انظر كتاب الإمامة العظمى.

المسألة الحادية عشر: أنواع السمع الطاعة

يجب التنبه إلى أمر مهم وهو التفريق بين نوعين من السمع والطاعة:

النوع الأول: السمع والطاعة بمعنى عدم الخروج على الحكام وإن جاروا وظلموا ما لم يحصل منهم كفر بواح، فهذا النوع وهو عدم الخروج ليس مقيدا بحديث (لا طاعة لمخلوق في معصية الله ﷻ) فلا يجوز الخروج علي الحكام أن وقعوا في معصية أو أمروا بمعصية ما لم تبلغ الكفر البواح، وهذا هو معتقد أهل الحق أهل السنة والجماعة أهل الحديث والأثر، كما تقدم بأدلته.

النوع الثاني: السمع والطاعة بمعنى امتثال أمر ولي الأمر، بفعل ما يأمر به، أو الانتهاء عما نهى عنه فهذا النوع هو المقيد بحديث (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق).

وعلى هذا التفريق بين النوعين جري عمل إمام أهل السنة في فتنة خلق القرآن.

فلما ظهرت الفتنة بالقول بخلق القرآن التي تولى كبرها المأمون -عفا الله عنه- مع المعتزلة وساموا فيها المسلمين عامة وعلمائها خاصة العذاب، فقد

أريقت دماء جم غفير من العلماء بسبب ذلك، وفرض القول بخلق القرآن الكريم على الأمة، وقرر ذلك في كتاتيب الصبيان .... إلي غير ذلك من الطامات والعظائم، بعد كل هذا استجاب خلق كثير وصمد بعض الأئمة من أبرزهم الإمام أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمام أهل السنة والجماعة، وقد أجبر المأمون الناس على أن يقولوا بخلق القرآن، حتى إنه صار يمتحن العلماء ويقتلهم إذا لم يجيبوا، فأبى الإمام أحمد وصبر وثبت على أن القرآن كلام الله غير مخلوق حتى كاد أن يقتل، ولكن الله ثبته وجعله إماما للسنة حتى صار أهل العلم بعد ظهور المحنة يمتحنون الناس به فمن وافقه كان سنيا وإلا كان بدعيا، وقال الإمام أحمد في هذه الفتنة كلمته المشهورة (من قال بخلق القرآن فهو كافر) وأجمع على ذلك أهل السنة والجماعة، ومع ذلك فالإمام أحمد رحمه الله تعالى مع ما حصل من المأمون من المعاصي العظيمة في هذه الفتنة، لم ينزع يدًا من طاعة ولم يخرج عليه، لأنه لم يكفر عنده لمانع التأويل، فالإمام أحمد لا ينزعه هوى، ولا تستجيشه العواطف بل ثبت على السنة، لأنها خير وأهدي فأمر بطاعة ولي الأمر، وجمع العامة عليه ووقف كالجبل الشامخ في وجه من أراد مخالفة المنهج النبوي والسير السلفية، انسياقًا وراء العواطف المجردة عن قيود الكتاب والسنة، أو المذاهب الثورية الفاسدة، يقول حنبل كما في الآداب الشرعية (١/ ١٩٥/ ١٩٦)، والسنة للخلال (ص١٣٣): أجتمع فقهاء بغداد في ولاية الواثق إلي أبي عبد الله -يعني الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالي- وقالوا له: أن الأمر قد تفاقم وفشا - يعنون: إظهار القول بخلق القرآن، وغير ذلك ولا نرضي بإمارته ولا سلطانه! فناظرهم في ذلك، وقال: عليكم بالإنكار في قلوبكم ولا تخلعوا يدًا من طاعة، ولا تشقوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا

دمائكم ودماء المسلمين معكم وانظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح بر، ويستراح من فاجر، وقال ليس هذا -يعني نزع أيديهم من طاعته - صوابًا، هذا خلاف الآثار ا هـ

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يحث المسلمين على الجهاد مع المأمون والمعتصم في قتال بابك الخرمي.اهـ.

فهذا الموقف من إمام أهل السنة يتضح فيه النوع الأول من أنواع السمع والطاعة وهو عدم الخروج على الحكام وإن جاروا وظلموا ما لم يحصل منهم كفر بواح.

أما النوع الثاني من أنواع السمع والطاعة وهو بمعنى امتثال أمر ولي الأمر، بفعل ما يمر به، أو الانتهاء عما نهى عنه، المقيد بحديث (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، فيتجلى في موقف إمام أهل السنة، في أثناء الفتنة مع بقي ابن مخلد، وإن كانت هذه القصة ضعيفة، ولكن ما يهمنا هو موافقة ما فيها لأصول أهل السنة.

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في تاريخ الإسلام (٢٠/ ٣١٩): ونقل بعض العلماء من كتاب حفيده عبد الرحمن بن أحمد بن بقيّ: سمعت أبي يقول: رحل أبي من مكّة إلى بغداد، وكان جلَّ بغيته ملاقاة أحمد بن حنبل، قال: فلمّا قربت بلغتني المحنة، وأنّه ممنوع. فاغتممت غمًّا شديدًا، فأحللت بغداد، واكتريت بيتًا في فندق، ثمّ أتيت الجامع، وأنا أريد أن أجلس إلى النّاس، فدفعت إلى حلقةٍ نبيلة، فإذا برجلٍ يتكلّم في الرجال، فقيل لي: هذا يحيى بن معين، ففرجت لي فرجةً، وقمت إليه، فقلت: يا أبا زكريّا -رحمك الله- رجل غريب ناءٍ عن وطنه، يحبُّ السُّؤال فلا تستجفني. فقال: قل. فسألته عن بعض من

لقيته، فبعضًا من لقيته، فبعضًا زكّى، وبعضًا جرَّح. فسألت عن هشام بن عمّار، فقال لي: أبو الوليد صاحب صلاة دمشق، ثقة وفوق الثقة، ولو كان تحت ردائه كبرًا ومتقلدًا كبرًا ما ضرّه شيئًا لخيره وفضله. فصاح أصحاب الحلقة: يكفيك - رحمك الله - غيرك له سؤال. فقلت - وأنا واقف على قدميّ -: أكشفك عن رجلٍ واحد: أحمد بن حنبل!!! فنظر إليَّ كالمتعجّب، وقال لي: ومثلنا نحن نكشف عن أحمد بن حنبل: ذاك إمام المسلمين، وأخبرهم وفاضلهم. فخرجت أستدلّ على منزل أحمد، فدللت عليه. فقرعت بابه، فخرج إليَّ، فقلت: يا ابا عبد الله رجل غريب نائي الدّار، وهذا أول دخولي هذا البلد، وأنا صاحب حديث، ومقيَّد بسنّة، ولم تكن رحلتي إلاّ إليك. فقال: أدخل الأسطوانة، ولا يقع عليك عين. فدخلت. فقال لي: وأين موضعك؟ قلت: المغرب الأقصى. قال: إفريقيّة؟ فقلت له: أبعد من إفريقيّة، أجوز من بلد البحر إلى إفريقيّة، الأندلس، قال له: موضعك لبعيد، وما كان شيء أحبُّ إليَّ من أن أحسن عون مثلك، غير أنيّ ممتحن بما لعلّه قد بلغلك، فقلت له: بلى، لقد بلغني، وهذا أوّل دخولي، وأنا مجهول العين عندكم، فإذا أذنت لي أن آتي كلَّ يوم في زيّ السّوّآل، فأقول عند الباب ما يقوله السّائل، فتخرج إلى هذا الموضع، فلو لم تحدثني كلّ يوم إلى بحديث واحد لكان لي فيه كفاية. فقال لي: نعم على شرط أن لا تظهر في الحلق، ولا عند المحدِّثين. فقلت: لك شرطك. فكنت آخذ عودًا بيدي، وألف رأسي بخرقةٍ مدنسَّة وآتي بابه، فأصيح: الأجر - رحمكم الله - والسُّؤال هناك كذلك، فيخرج إليَّ، ويغلق الباب، ويحدّثني بالحديثين، والثلاثة، والأكثر ... وذكر تمام القصة بتمامها، وقد انكرها الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٩٣) فقال: وهي منكرة، وما وصل ابن مخلد إلى الامام أحمد إلا بعد

الثلاثين ومئتين، وكان قد قطع الحديث من أثناء سنة ثمان وعشرين، وما روى بعد ذلك ولا حديثا واحدا إلى أن مات، ولما زالت المحنة سنة اثنتين وثلاثين، وهلك الواثق، واستخلف المتوكل، وأمر المحدثين بنشر أحاديث الرؤية وغيرها، امتنع الامام أحمد من التحديث، وصمم على ذلك، ما عمل شيئا غير أنه كان يذاكر بالعلم والاثر، وأسماء الرجال والفقه، ثم لو كان بقي سمع منه ثلاث مئة حديث، لكان طرز بها مسنده، وافتخر بالرواية عنه. فعندي مجلدان من مسنده، وما فيهما عن أحمد كلمة.اهـ.

فإن منع ولي الأمر بعض العلماء من تبليغ العلم، وأمره بذلك فهذا الأمر من ولي الأمر فيه معصية، فيقال هنا (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) فلهذا العالم أن يخالف ولي الأمر في ما أمر ويبلغ العلم إن استطاع ولكن بدون خروج ولا إحداث فتنة، كما فعل الإمام أحمد في هذه القصة على فرض ثبوتها.

(باب الصلاة خلف الولاة)

مسائل في الباب:

المسألة الأولى

من أبرز سمات أهل الأهواء ترك الصلاة خلف الفاسق والمفضول، فإن غالب أهل الأهواء لا يجيزون الصلاة خلف الفاسق، وهو مذهب الخوارج والزيدية والرافضة وجمهور المعتزلة، وقد ابتلي الإسلام في عصرنا الحديث ببعض المنتسبين إليه الذين جعلوا مساجد الله مساجد ضرار، وتقربوا إلى الله بترك الجمعة والجماعة مشترطين في ذلك شروطًا أملتها عليهم أهواؤهم، وهذه الفرقة ثمرة من ثمرات الفكر الخبيث الذي ينحرف عن منهج أهل السنة والجماعة، (وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) [الأعراف:٥٨]، فهذه الجماعة

الخبيثة أعادت فكر الخوارج -وهي المسماة بجماعة التكفير والهجرة- ومن سار على دربها اجترأ المنتسبون إليها على حدود الله تبارك وتعالى كثيرًا، ومن هذه الجرأة موقفهم من المساجد التي هي بيوت الله ﷻ، وقضية الصلاة خلف عموم المسلمين في مساجدهم في بلاد المسلمين.

قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (٢/ ٢٣٥) تعليقا على قول الطحاوي: (ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة) هذه الجملة يريد بها تقرير ما دلت عليه الأدلة العامة والخاصة في أن الصلاة عند أهل الأثر، أتباع الصحابة رضوان الله عليهم تقام خلف كل إمام؛ إمام عام وهو ولي الأمر أو إمام خاص وهو إمام المسجد -سواء أكان برا أو كان فاجرا- إذا كان من أهل التوحيد؛ يعني من أهل القبلة.

وهذا يريد به مخالفة من ضلوا عن سبيل السلف فيمن لم يصلوا إلا خلف من يماثلهم في العقيدة أو يماثلهم في العمل أو يكون سليما من الفجور، يعني لا يصلون إلا خلف من يعلمون بره وتقواه ونحو ذلك.

وهذا صنيع الخوارج وكل أنواع المتعصبة من الضلال من أهل الفرق جميعا.

فكل فرقة من الفرق تكفر الفرقة الأخرى أو تضللها ولا يرون الصلاة خلف الآخرين، ولو كانوا مبتدعة أو كانوا فجارا، فإنهم يقولون: لا نصلي إلا خلف من نعلم دينه أو خلف من هو مثلنا في الاعتقاد.

بل زاد الأمر حتى صار أصحاب المذاهب المتبوعة: الشافعية والحنفية المالكية لا يصلي أحد منهم إلا خلف من كان على مثل مذهبه الفقهي، وهذا مخالف لهدي السلف الصالح في أعظم مخالفة في مسائل البدع والاعتقاد،

ومسائل الفقه كذلك مخالفتها شنيعة جدا.

المسألة الثانية: حكم الصلاة خلف الأمير الضال المبتدع

لما كان السلطان أو الخليفة قد يصلي بالناس الجمع والأعياد وغيرها من الصلوات، لزم بيان حكم أداء هذا الركن الإسلامي، ألا وهو الصلاة خلفه إذا كان مبتدعا، سواء كان داعية أو مستترًا ببدعته لا يظهرها.

وتفصيل الحكم في هذه المسألة يختلف باختلاف حال الحاكم المبتدع من كونه داعية أو غير داعية، ويختلف أيضًا باختلاف حال المأموم من الرعية، من كونه يجد من يصلي خلفه تلك الصلاة غير السلطان، أو غير واجد إلا الصلاة خلف الحاكم المتلبس ببدعة.

ولإيضاح ذلك نقول: إن كان الحاكم المبتدع داعيًا إلى بدعته، ولم يمكن إقامة الجمع والأعياد والجماعات إلا خلفه، وهذا يكون غالبًا إذا كان الخليفة هو المتولي لأمر الصلاة كما في العهد السابق، فإن الصلاة خلفه في هذه الحال صحيحة مجزئة عند عامة أهل السنة من السلف والخلف، بل قد عد عدد من أهل العلم تاركها في هذه الحال مبتدعًا، وذلك لأن هذه الصلاة من شعائر الإسلام الظاهرة، وتليها الأئمة دون غيرهم فتركها خلفهم يفضي إلى تركها بالكلية.

ومما يدل على ذلك ما جاء عن صحابة رسول الله ﷺ، والتابعين لهم، ومن جاء بعدهم من سلف هذه الأمة، ومن ذلك ما جاء في البخاري (٦٩٥) عن عبيد الله بن عدي رضي الله عنه أنه دخل على عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو محصور، فقال: إنك إمام عامة ونزل بك ما نرى، ويصلي لنا إمام فتنة، ونتحرج، فقال: (الصلاة أحسن ما يعمل الناس فإذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب

إساءتهم) وقد بوب الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا الأثر بقوله: (باب إمامة المفتون والمبتدع).

فأمر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالصلاة مع إمام الفتنة، والمقصود به هنا كنانة بن بشر وهو أحد رؤوس الخوارج الذين حاصروا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما رجح ذلك الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح (٢/ ١٨٩).

وقال الحافظ ابن حجر أيضا (٢/ ١٩٠): وفي هذا الأثر الحض على شهود الجماعة، ولاسيما في زمن الفتنة؛ لئلا يزداد تفرق الكلمة، وفيه أن الصلاة خلف من تكره الصلاة خلفه أولى من تعطيل الصلاة.اهـ.

وعن سوار بن شبيب أنه قال: حج نجدة الحروري في أصحابه فوادع ابن الزبير، فصلى هذا بالناس يومًا وليلة، وهذا بالناس يومًا وليلة، فصلى ابن عمر خلفهما فاعترضه رجل، فقال: يا أبا عبد الرحمن أتصلي خلف نجدة الحروري؟ فقال ابن عمر: (إذا نادوا حي على خير العمل أجبنا، وإذا نادوا إلى قتل نفس قلنا: لا، ورفع بها صوته) رواه ابن أبي زمنين في أصول السنة (ص: ٢٨٤ رقم ٢٠٩).

وجاء عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (أنه قيل له زمن ابن الزبير والخوارج والخشبية: أتصلي مع هؤلاء ومع هؤلاء وبعضهم يقتل بعضًا؟ فقال: من قال: حي على الصلاة. أجبته، ومن قال: حي على الفلاح. أجبته، ومن قال: حي على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله. قلت: لا) رواه البيهقي في السنن (٣/ ١٢٢ رقم ٥٠٨٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨١): وكان عبد الله بن عمر وغيره من الصحابة يصلون خلف الحجاج بن يوسف، وكان الصحابة

والتابعون يصلون خلف ابن أبي عبيد وكان متهمًا بالإلحاد وداعيًا إلى الضلال.اهـ.

وسار التابعون ومن تبعهم بإحسان من أئمة السلف على هذا، فقرروه قولًا وفعلًا، فمن ذلك: ما جاء عن الأعمش رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: كان كبار أصحاب عبد الله -يعني ابن مسعود- يصلون الجمعة مع المختار ويحتسبون بها.

وقد كان أبو وائل رَحِمَهُ اللَّهُ يصلي الجمعة مع المختار بن أبي عبيد.

وعن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ أنه سئل عن الصلاة خلف صاحب البدعة، فقال الحسن: (صل خلفه، وعليه بدعته).

وعن الحكم بن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: سألت الحسن وقلت: رجل من الخوارج يؤمنا، أنصلي خلفه؟ قال: (نعم، قد أم الناس من هو شر منه.

وعن ابن وضاح رَحِمَهُ اللَّهُ: قال: سألت الحارث بن مسكين: هل ندع الصلاة خلف أهل البدع؟ فقال: (أما الجمعة خاصة فلا، وأما غيرها من الصلاة فنعم).

وقال ابن وضاح أيضًا: سألت يوسف بن عدي عن تفسير حديث النبي ﷺ: (صلوا خلف كل بر وفاجر)، قال: (الجمعة خاصة)، قلت: وإن كان الإمام صاحب بدعة، قال: (نعم، وإن كان صاحب بدعة لأن الجمعة في مكان واحد ليس توجد في غيره).

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ في وصيته لشعيب بن حرب: (يا شعيب، لا ينفعك ما كتبت، حتى ترى الصلاة خلف كل بر وفاجر). قال شعيب لسفيان: يا أبا عبد الله الصلاة كلها؟ قال: (لا، ولكن صلاة الجمعة والعيدين، صل خلف من أدركت، وأما سائر ذلك فأنت مخير، لا تصل إلا خلف من تثق به، وتعلم أنه من أهل السنة والجماعة). وهكذا سار أهل العلم على تقرير ذلك، وأن الصلاة

خلف أهل البدع من الولاة جائزة وصحيحة، لا يجوز إعادتها؛ إن لم يكن هناك من أهل العدل من يمكن الصلاة خلفه، لهذا خص بعض من تقدم ذلك بصلاة الجمعة؛ وذلك لأن صلاة الجمعة لا يمكن إقامتها إلا خلف الولاة، أما بقية الصلوات فإنها يمكن أن تصلى خلف سني يوثق به.

أما أقوال محققي أهل العلم في ذلك، فقد قال ابن قدامة في المغني (٣/ ٢٢): فأما الجمع والأعياد فإنها تصلى خلف كل بر وفاجر، وقد كان أحمد يشهدها مع المعتزلة، وكذلك العلماء الذين في عصره، ولأن هذه الصلاة من شعائر الإسلام الظاهرة، وتليها الأئمة دون غيرهم، فتركها خلفهم يفضي إلى تركها بالكلية.اهـ.

وقال النووي في (المجموع (٤/ ١٥٠): وكذا تكره -أي الصلاة- وراء المبتدع الذي لا يكفر ببدعته، وتصح، فإن كفر ببدعته فقد قدمنا أنه لا تصح الصلاة وراءه كسائر الكفار، ونص الشافعي في المختصر على كراهة الصلاة خلف الفاسق والمبتدع، فإن فعلها صحت.اهـ.

وهذه الكراهة إما هي إن أمكن الصلاة خلف غيره من أهل العدل كما هو مقرر عند الشافعية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٠): وأما إذا لم يمكن الصلاة إلا خلف المبتدع أو الفاجر كالجمعة التي إمامها مبتدع أو فاجر وليس هناك جمعة أخرى، فهذه تصلى خلف المبتدع والفاجر عند عامة أهل السنة والجماعة، وهذا مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من أئمة أهل السنة، بلا خلاف عندهم.اهـ.

وقال أيضًا في مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٥٥): وأما الصلاة خلف المبتدع

فهذه المسألة فيها نزاع وتفصيل، فإذا لم تجد إمامًا غيره كالجمعة التي لا تقام إلا بمكان واحد، وكالعيدين وكصلوات الحج خلف إمام الموسم، فهذه كلها تفعل خلف كل بر وفاجر باتفاق أهل السنة والجماعة.اهـ.

فظهر من ذلك أن الأئمة لا يختلفون في جواز الصلاة خلف أئمة البدع الدعاة إلى بدعهم، إن لم يكن إقامتها خلف غيرهم من أهل السنة.

وأما إن أمكنه أن يصلي خلف إمام من أهل العدل، ومع ذلك صلى خلف الحاكم المبتدع، فهنا حصل النزاع بين العلماء في صحة صلاته، مع اتفاقهم على كراهية ذلك، ولهم في ذلك قولان:

القول الأول: أن الصلاة صحيحة ولكنها مكروهة، وهذا مذهب أبي حنيفة، والشافعي، وهو أحد القولين في مذهب مالك، وأحمد، وعليه عامة أهل العلم وجمهور أصحاب الأئمة الأربعة.

والقول الثاني: أن الصلاة لا تصح ويجب على المصلي خلف الولاة المبتدعة أن يعيد صلاته، وهو الرواية الأخرى عن مالك، وأحمد،- رحم الله الجميع - وهذه الرواية هي المذهب عند الحنابلة، كما حكاه المرداوي في الإنصاف (٢/ ٢٥٢).

والقول الأول هو الصحيح -إن شاء الله- فبالإضافة إلى أنه قول عامة السلف فهو الذي تقتضيه أصول الشريعة وقواعد الدين. فإن الحكم ببطلان عمل ما مما شرعه الله لعباده لا يكون إلا بانخرام أحد شروط الصحة المقررة لقبوله في الشرع.

أما إن كان الحاكم يخفي بدعته ويسر بها، فإن لم يمكن أداء الصلاة إلا خلفه كالجمع والجماعات، فمن باب أولى أن الصلاة خلفه صحيحة، وأن

معيدها بعد أن صلاها خلفه معدود من أهل البدع، وذلك لأن المستتر أخف من المعلن ببدعته فلما صحت هناك كان من الأولى أن تصح هنا.

أما إن أمكن أن تصلى خلف غيره من أهل العدل، فإن الصلاة خلف أهل العدل أولى من الصلاة خلف الحاكم المبتدع المسر ببدعته، مع صحتها خلف الحاكم المبتدع المسر ببدعته، فالحكم بصحة الصلاة هنا أولى من الحكم بصحة الصلاة خلف المعلن ببدعته.

قال ابن قدامة في (المغني (٣/ ٢٣): فإن كان ممن يخفي بدعته وفسوقه صحت الصلاة خلفه.اهـ.

لكن ينبغي التنبيه على أن الصلاة لا تترك خلف المبتدع المسر ببدعته غير المعلن لها إنكارًا عليه، لأن الإنكار يكون على من أظهر البدعة، أما المسر بها الساكت عنها، لا ينكر عليه في الظاهر بل يناصح سرًا.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٢): وأما الصلاة خلف أهل الأهواء والبدع، وخلف أهل الفجور، ففيه نزاع مشهور وتفصيل ليس هذا موضع بسطه، ولكن أوسط الأقوال في هؤلاء أن تقديم الواحد من هؤلاء في الإمامة، لا يجوز مع القدرة على غيره، فإن من كان مظهرًا للفجور أو البدع يجب الإنكار عليه ونهيه عن ذلك، وأقل مراتب الإنكار هجره لينتهي عن فجوره وبدعته، ولهذا فرق جمهور الأئمة بين الداعية وغير الداعية، فإن الداعية أظهر المنكر فاستحق الإنكار عليه، بخلاف الساكت فإنه بمنزلة من أسر بالذنب، فهذا لا ينكر عليه في الظاهر، فإن الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة، ولهذا كان المنافقون تقبل منهم علانيتهم، وتوكل سرائرهم إلى الله تعالى بخلاف من أظهر الكفر.اهـ.

وقال **شيخ الإسلام** أيضا في مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٣ - ٣٤٥): فإذا كان داعية -أي إلى البدع- منع من ولايته وإمامته وشهادته وروايته لما في ذلك من النهي عن المنكر لا لأجل فساد الصلاة أو اتهامه في شهادته وروايته فإذا أمكن لإنسان ألا يقدم مظهرا للمنكر في الإمامة وجب ذلك. لكن إذا ولاه غيره ولم يمكنه صرفه عن الإمامة أو كان هو لا يتمكن من صرفه إلا بشر أعظم ضررا من ضرر ما أظهره من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ولا دفع أخف الضررين بتحصيل أعظم الضررين فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان. ومطلوبها ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا جميعا ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعا. فإذا لم يمكن منع المظهر للبدعة والفجور إلا بضرر زائد على ضرر إمامته لم يجز ذلك بل يصلى خلفه ما لا يمكنه فعلها إلا خلفه كالجمع والأعياد والجماعة. إذا لم يكن هناك إمام غيره ولهذا كان الصحابة يصلون خلف الحجاج، والمختار بن أبي عبيد الثقفي، وغيرهما الجمعة والجماعة فإن تفويت الجمعة والجماعة أعظم فسادا من الاقتداء فيهما بإمام فاجر لا سيما إذا كان التخلف عنهما لا يدفع فجوره فيبقى ترك المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة. ولهذا كان التاركون للجمعة والجماعات خلف أئمة الجور مطلقا معدودين عند السلف والأئمة من أهل البدع. وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر فهو أولى من فعلها خلف الفاجر. وحينئذ فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر فهو موضع اجتهاد للعلماء. منهم من قال: أنه يعيد لأنه فعل ما لا يشرع بحيث ترك ما يجب عليه من الإنكار بصلاته خلف هذا فكانت صلاته خلفه منهيا عنها فيعيدها. ومنهم من قال: لا يعيد. قال: لأن الصلاة في

نفسها صحيحة وما ذكر من ترك الإنكار هو أمر منفصل عن الصلاة وهو يشبه البيع بعد نداء الجمعة.

وأما إذا لم يمكنه الصلاة إلا خلفه كالجمعة فهنا لا تعاد الصلاة وإعادتها من فعل أهل البدع وقد ظن طائفة من الفقهاء أنه إذا قيل: إن الصلاة خلف الفاسق لا تصح أعيدت الجمعة خلفه وإلا لم تعد وليس كذلك. بل النزاع في الإعادة حيث ينهى الرجل عن الصلاة. فأما إذا أمر بالصلاة خلفه فالصحيح هنا أنه لا إعادة عليه لما تقدم من أن العبد لم يؤمر بالصلاة مرتين.

وأما الصلاة خلف من يكفر ببدعته من أهل الأهواء فهناك قد تنازعوا في نفس صلاة الجمعة خلفه. ومن قال إنه يكفر أمر بالإعادة لأنها صلاة خلف كافر.اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضا في مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٥٢ - ٣٥٥): ولو علم المأموم أن الإمام مبتدع يدعو إلى بدعته أو فاسق ظاهر الفسق وهو الإمام الراتب الذي لا تمكن الصلاة إلا خلفه كإمام الجمعة والعيدين والإمام في صلاة الحج بعرفة ونحو ذلك. فإن المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف وهو مذهب أحمد والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم، ولهذا قالوا في العقائد: إنه يصلي الجمعة والعيد خلف كل إمام برا كان أو فاجرا وكذلك إذا لم يكن في القرية إلا إمام واحد فإنها تصلى خلفه الجماعات فإن الصلاة في جماعة خير من صلاة الرجل وحده وإن كان الإمام فاسقا. هذا مذهب جماهير العلماء: أحمد بن حنبل والشافعي وغيرهما بل الجماعة واجبة على الأعيان في ظاهر مذهب أحمد، ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة. كما ذكره في رسالة عبدوس وابن مالك والعطار.

والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها فإن الصحابة كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون كما كان ابن عمر يصلي خلف الحجاج وابن مسعود وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة وكان يشرب الخمر حتى أنه صلى بهم مرة الصبح أربعا ثم قال: أزيدكم؟ فقال ابن مسعود: ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة ولهذا رفعوه إلى عثمان.

وفي صحيح البخاري (أن عثمان رضي الله عنه لما حصر صلى بالناس شخص فسأل سائل عثمان. فقال: إنك إمام عامة وهذا الذي يصلي بالناس إمام فتنة. فقال: يا ابن أخي إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس فإذا أحسنوا فأحسن معهم وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم) ومثل هذا كثير. والفاسق والمبتدع صلاته في نفسه صحيحة فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ومن ذلك أن من أظهر بدعة أو فجورا لا يرتب إماما للمسلمين فإنه يستحق التعزير حتى يتوب فإذا أمكن هجره حتى يتوب كان حسنا وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك حتى يتوب أو يعزل أو ينتهي الناس عن مثل ذنبه. فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان فيه مصلحة ولم يفت المأموم جمعة ولا جماعة. وأما إذا كان ترك الصلاة يفوت المأموم الجمعة والجماعة فهنا لا يترك الصلاة خلفهم إلا مبتدع مخالف للصحابة رضي الله عنهم. وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاة الأمور ولم يكن في ترك الصلاة خلفه مصلحة فهنا ليس عليه ترك الصلاة خلفه بل الصلاة خلف الإمام الأفضل أفضل وهذا كله يكون فيمن ظهر منه فسق أو بدعة تظهر مخالفتها للكتاب والسنة كبدعة الرافضة والجهمية ونحوهم.

المسألة الثالثة: حكم الصلاة خلف المستور

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٠ - ٢٨١): ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يصلون الجمع والأعياد والجماعات لا يدعون الجمعة والجماعة كما فعل أهل البدع من الرافضة وغيرهم فإن كان الإمام مستورا لم يظهر منه بدعة ولا فجور صلى خلفه الجمعة والجماعة باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين ولم يقل أحد من الأئمة إنه لا تجوز الصلاة إلا خلف من علم باطن أمره بل ما زال المسلمون من بعد نبيهم يصلون خلف المسلم المستور ولكن إذا ظهر من المصلي بدعة أو فجور وأمكن الصلاة خلف من يعلم أنه مبتدع أو فاسق مع إمكان الصلاة خلف غيره فأكثر أهل العلم يصححون صلاة المأموم وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وهو أحد القولين في مذهب مالك وأحمد. وأما إذا لم يمكن الصلاة إلا خلف المبتدع أو الفاجر كالجمعة التي إمامها مبتدع أو فاجر وليس هناك جمعة أخرى فهذه تصلى خلف المبتدع والفاجر عند عامة أهل السنة والجماعة. وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة أهل السنة بلا خلاف عندهم. وكان بعض الناس إذا كثرت الأهواء يحب أن لا يصلي إلا خلف من يعرفه على سبيل الاستحباب كما نقل ذلك عن أحمد أنه ذكر ذلك لمن سأله. ولم يقل أحمد إنه لا تصح إلا خلف من أعرف حاله.

ولما قدم أبو عمرو عثمان بن مرزوق إلى ديار مصر وكان ملوكها في ذلك الزمان مظهرين للتشيع وكانوا باطنية ملاحدة وكان بسبب ذلك قد كثرت البدع وظهرت بالديار المصرية - أمر أصحابه أن لا يصلوا إلا خلف من يعرفونه لأجل ذلك ثم بعد موته فتحها ملوك السنة مثل صلاح الدين وظهرت فيها كلمة

السنة المخالفة للرافضة ثم صار العلم والسنة يكثر بها ويظهر. فالصلاة خلف المستور جائزة باتفاق علماء المسلمين ومن قال إن الصلاة محرمة أو باطلة خلف من لا يعرف حاله فقد خالف إجماع أهل السنة والجماعة، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يصلون خلف من يعرفون فجوره كما صلى عبد الله بن مسعود وغيره من الصحابة خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان قد يشرب الخمر وصلى مرة الصبح أربعًا وجلده عثمان بن عفان على ذلك، وكان عبد الله بن عمر وغيره من الصحابة يصلون خلف الحجاج بن يوسف، وكان الصحابة والتابعون يصلون خلف ابن أبي عبيد وكان متهمًا بالإلحاد وداعيا إلى الضلال.اهـ.

وقال أيضا في مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٥١): ويجوز للرجل أن يصلي الصلوات الخمس والجمعة وغير ذلك خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين. وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ولا أن يمتحنه فيقول: ماذا تعتقد؟ بل يصلي خلف مستور الحال.

المسألة الرابعة: في حالة الإختيار يمنع الفسقة والمبتدعة من تولي الأمامة

في حالة الإختيار والتمكن يمنع الفسقة والمبتدعة من تولي الأمامة فقد منع النبي ﷺ رجلا بصق في اتجاه القبلة وهو يصلي، منعه أن يصلي إماما بقومه وقال له: (إنك آذيت الله ورسوله)[1]، فكيف بمن يأتي هذا منكر أكبر من هذا،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٥٦ رقم ١٦٦١٠)، وأبو داود (١/ ١٣٠ رقم ٤٨١)، وابن حبان (٤/ ٥١٥ رقم ١٦٣٦)، والطبراني فى الأوسط (٦/ ٢١٥، رقم ٦٢٢١) والحديث صححه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٥/ ٣٣٥)، وقال مغلطاي في شرح ابن ماجة (٣/ ٢٠٥): سنده صحيح، وقال العراقي في طرح التثريب (٢/ ٣٨١): إسناده جيد، =

فإنه أجدر وأحق أن يمنع من الإمامة!!، ولأن تقديمه للإمامة تعظيم له، والفاسق ليس أهلا لهذا التعظيم.

والإمام يقتدي به الناس في الغالب ويتعلمون منه، ويقبلون توجيهاته وإرشاداته، فكلما كان عدلا مستقيما كان أقرب إلى انتفاع الناس به وقبولهم لكلامه.

وإذا كان فاسقا لم يقبل الناس منه، بل ربما يكون سببا لفتنة بعضهم، والعياذ بالله.

وأما صحة الصلاة خلف الفاسق، فقد اختلف الأئمة في ذلك كما قدمنا، والذي ذهب إليه جمهور العلماء صحة الصلاة خلفه مع كراهيتها.

قال النووي في "المجموع" (٤/ ١٥١): "صلاة ابن عمر خلف الحجاج بن يوسف ثابتة في صحيح البخاري ، وغيره في الصحيح أحاديث كثيرة تدل على صحة الصلاة وراء الفساق والأئمة الجائرين، قال أصحابنا: الصلاة وراء الفاسق صحيحة ليست محرمة ، لكنها مكروه ، وكذا تكره وراء المبتدع الذي لا

=

وقال العلامة الألباني في صحيح أبي داود الأم (٢/ ٣٨٤): إسناده رجاله كلهم ثقات رجال "الصحيح "؛ غير صالح بن خيوان- بالمعجمة؛ ويقال بالمهملة-، ذكره ابن حبان في "الثقات". وقال العجلي: "تابعي ثقة "! وتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: ما روى عنه سوى بكر "! وقال عبد الحق: "لا يحتج به". وعاب ذلك عليه ابن القطان، وصحح حديثه، كما في "التهذيب "! قلت: وما ذهب إليه عبد الحق هو الحق- إن شاء الله تعالى-، وتوثيق العجلي وابن حبان فيه لين؛ كما قد سبق. لكن الحديث حسن أو صحيح؛ لوجود شاهد له من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ أورده المنذري في "الترغيب " (١/ ١٢٢) بمعناه، ثم قال: "رواه الطبراني في "الكبير" بإسناد جيد". وقال الهيثمي في "المجمع " (٢/ ٢٠): "ورجاله ثقات".

يكفر ببدعته، وتصح، فإن كفر ببدعته فقد قدمنا أنه لا تصح الصلاة وراءه كسائر الكفار، ونص الشافعي في المختصر على كراهة الصلاة خلف الفاسق والمبتدع ، فإن فعلها صحت".اهـ.

وقال شيخ الإسلام في "مجموع الفتاوى" (٢٣/ ٣٤١): "فإذا كان الرجلان من أهل الديانة فأيهما كان أعلم بالكتاب والسنة وجب تقديمه على الآخر متعينا، فإن كان أحدهما فاجرا، مثل أن يكون معروفا بالكذب والخيانة ونحو ذلك من أسباب الفسوق، والآخر مؤمنا من أهل التقوى، فهذا الثاني أولى بالإمامة إذا كان من أهلها، وإن كان الأول أقرأ وأعلم فإن الصلاة خلف الفاسق منهي عنها نهي تحريم عند بعض العلماء ونهي تنزيه عند بعضهم.. .. ولا يجوز تولية الفاسق مع إمكان تولية البر".اهـ.

وقال أيضا (٢٣/ ٣٧٥): "لا يجوز أن يولى في الإمامة بالناس من يأكل الحشيشة أو يفعل من المنكرات المحرمة مع إمكان تولية من هو خير منه.. .. و الأئمة متفقون على كراهة الصلاة خلف الفاسق لكن اختلفوا في صحتها: فقيل لا تصح. كقول مالك وأحمد في إحدى الروايتين عنهما. وقيل: بل تصح كقول أبي حنيفة والشافعي والرواية الأخرى عنهما ولم يتنازعوا أنه لا ينبغي توليته".اهـ.

وقال أيضا (٢٣/ ٣٤٢): "وأما الصلاة خلف أهل الأهواء والبدع، وخلف أهل الفجور: ففيه نزاع مشهور، وتفصيل لكن أوسط الأقوال في هؤلاء: أن تقديم الواحد من هؤلاء في الإمامة: لا يجوز مع القدرة على غيره، فإن من كان مظهرا للفجور أو البدع: يجب الإنكار عليه، ونهيه عن ذلك، وأقل مراتب الإنكار: هجره؛ لينتهي عن فجوره، وبدعته، ولهذا فرق جمهور الأئمة بين

الداعية وغير الداعية؛ فإن الداعية أظهر المنكر فاستحق الإنكار عليه، بخلاف الساكت فإنه بمنزلة من أسر بالذنب، فهذا لا ينكر عليه في الظاهر، فإن الخطيئة إذا خفيت: لم تضر إلا صاحبها، ولكن إذا أعلنت فلم تنكر: ضرت العامة انتهى مجموع الفتاوى.اهـ.

ولأهل العلم تفصيل فيما يجب فعله مع الإمام الفاسق، جاء في فتاوى اللجنة الدائمة ما يلي: وعلى هذا إن كان إماما لمسجد ولم ينتصح وجب عزله إن تيسر ذلك ولم تحدث فتنة، وإلا وجب الصلاة وراء غيره من أهل الصلاح على من تيسر له ذلك، زجرا له وإنكارا عليه، إن لم يترتب على ذلك فتنة، وإن لم تتيسر الصلاة وراء غيره شرعت الصلاة وراءه، تحقيقا لمصلحة الجماعة، وإن خيف من الصلاة وراء غيره حدوث فتنة صلي وراءه درءا للفتنة وارتكابا لأخف الضررين) انتهى من فتاوى اللجنة الدائمة (٧/ ٣٧٠).

سئلت اللجنة الدائمة للإفتاء عن الصلاة خلف من يكتب التمائم للناس فأجابت: "تجوز الصلاة خلف الذي يكتب التمائم من القرآن والأدعية المشروعة، ولا ينبغي له أن يكتبها لأنه لا يجوز تعليقها، وأما إذا كانت التمائم تشتمل على أمور شركية، فلا يصلى خلف الذي يكتبها، ويجب أن يبين له أن هذا شرك، والذي يجب عليه البيان هو الذي يعلمها " انتهى من "فتاوى اللجنة الدائمة" (٣/ ٦٥).

وسئل الشيخ صالح الفوزان حفظه الله عن الصلاة خلف من يكتب التمائم، فأجاب: "وأما ما ذكرتم من كتابته التمائم فالتمائم فيها تفصيل: فإن كانت هذه التمائم فيها ألفاظ شركية ودعاء لغير الله ﷻ وأسماء مجهولة فهذه لا تجوز كتابتها ولا استعمالها بإجماع أهل العلم، لأنها شرك، وهذا لا يصلى خلفه، أما

إذا كانت هذه التمائم مكتوبة من القرآن الكريم ومن الأدعية المباحة والأدعية الواردة، فهذه محل خلاف بين أهل العلم، منهم من أجازها ومنهم من منعها والمنع أحوط؛ لأنه في فتح الباب لكتابتها وتعليقها وسيلة إلى التمائم المحرمة، ولأنه في كتابة القرآن الكريم على صفة تمائم وحروز في ذلك تعريض لإهانته ودخول المواضع التي لا يجوز دخوله بها، لكن لا بأس بالصلاة خلف من يكتبها.

فالحاصل أن كتابة التمائم إن كانت بألفاظ شركية أو بأسماء مجهولة أو بدعاء لغير الله أو استنجاد بالشياطين والمخلوقين والجن، فهذه ألفاظ شركية وكاتبها والذي يستعملها ويعلم ما فيها يكون مشركا، أما إذا كانت من القرآن الكريم فالأحوط تجنبها وتركها وعدم استعمالها " انتهى من "المنتقى من فتاوى الفوزان".

وسئل الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: "هل تجوز الصلاة خلف إمام مشعوذ ودجال، علما بأن منهم من يجيد قراءة القرآن؟ وجهونا جزاكم الله خيرا.

فأجاب: إذا كان الإمام مشعوذا يدعي علم الغيب أو يقوم بخرافات ومنكرات، فلا يجوز أن يتخذ إماما ولا يصلى خلفه؛ لأن من ادعى علم الغيب فهو كافر نسأل الله العافية ، يقول جل وعلا: (قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله) [النمل/ ٦٥] وهكذا من يتعاطى السحر حكمه حكم الكفار لقول الله تعالى: (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) الآية من سورة البقرة/ ١٠٢. أما إذا كان عنده شيء من المعاصي وليس عنده

شيء من أعمال الكفر كالسحر ودعوى علم الغيب ولكن عنده شيء من المعاصي فالصلاة خلفه صحيحة، والأفضل التماس غيره من أهل العدالة والاستقامة احتياطا للدين وخروجا من خلاف العلماء القائلين بعدم جواز الصلاة خلفه.

أما العصاة فلا ينبغي أن يتخذوا أئمة، لكن متى وجدوا أئمة صحت الصلاة خلفهم لأنهم قد يبتلى بهم الناس وقد تدعو الحاجة للصلاة خلفهم. أما من يدعو غير الله أو يستنجد بالموتى ويستغيث بهم ويطلبهم المدد فهذا لا يصلى خلفه؛ لأنه يكون بهذا الأمر من جملة الكفار لأن هذا هو عمل المشركين الذين قاتلهم النبي ﷺ في مكة وغيرها. ونسأل الله أن يصلح أحوال المسلمين وأن يمنحهم الفقه في الدين وأن يولي عليهم خيارهم إنه سميع قريب " انتهى من "مجموع فتاوى ابن باز" (٩/ ٢٧٨).

(باب دفع الزكاة إلى الولاة)

من واجبات الإمام استيفاء الحقوق المالية لبيت المال وصرفها في مصارفها الشرعية، فمن واجبات الإمام ومسؤولياته الجسام استيفاء الحقوق المالية أو الموارد أو كما يقول أبو يعلى في الأحكام السلطانية (ص ٢٨): جباية الفيء، والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير عسف.اهـ. وكذلك المصروفات والنفقات والعطاءات، وعلى حد قول القاضي أبي يعلى في المصدر السابق: تقدير العطاء وما يستحق من بيت المال من غير سرف ولا تقصير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.اهـ.

وموارد بيت المال الزكاة، والجزية، والخراج، والعشور، والغنائم، والفيء، وموارد الأخرى، وما يهمنا هنا هو الزكاة، وهي: الركن الثاني من أركان

الإسلام، ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، تجب على كل مسلم ومسلمة ملك نصابا وحال عليه الحول فيما يشترط فيه ذلك. وقد حددت الشريعة الإسلامية نصاب كل صنف من أصناف الأموال المزكاة.

وقد اتفق الصحابة على قتال مانعيها، وعلى هذا فمن أنكر وجوبها كفر، ومن منعها معتقدا وجوبها وقدر الإمام على أخذها منه أخذها منه جبرا وعزره على امتناعه، وإن كان خارجا عن قبضة الإمام قاتله، كما فعل أبو بكر الصديق ﵁، وقال قولته المشهورة: (والله لو منعوني عقالا - وفي رواية عناقا - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه)[١].

وهي ليست حقا موكولا للأفراد يؤديه منهم من شاء ويدعه من أراد، وإنما هي حق عام يتولاه الإمام وولاته فيقومون بجبايته ممن تجب عليه، ويصرفونه إلى من تجب له، والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١- قول الله تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) [التوبة: ٦٠]. فالشاهد من الآية قوله: والعاملين عليها قالالرازي في تفسيره (١٦/ ١١٤): دلت هذه الآية على أن هذه الزكاة يتولى أخذها وتفرقتها الإمام ومن يلي من قبله، والدليل عليه أن الله جعل للعاملين سهما فيها، وهذا يدل على أنه لا بد في أداء هذه الزكوات من عامل، والعامل هو الذي نصبه الإمام لأخذ الزكوات فدل هذا النص على أن الإمام هو الذي يأخذ الزكوات.اهـ.

كما يدل ذلك أيضا أن بعض المصارف المذكورة لا يمكن أن يصرفها إلا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة ﵁.

الإمام، مثل مصرف المؤلفة قلوبهم، فهذا لا يقوم به إلا الإمام، فدل على استحقاق دفعها إليه. ومثل إعداد العدة والعدد للجهاد في سبيل الله فلا يمكن تنظيم ذلك إلا بتصرف الإمام.

٢- قوله تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) [التوبة: ١٠٣] فالخطاب في قوله خذ للنبي ﷺ ولكل من يلي أمر المسلمين من بعده كما فهم الصحابة رضوان الله عليهم بذلك.

٣- ومنها ما رواه ابن عباس في الصحيحين البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩) (٢٩) أن النبي ﷺ حين بعث معاذا إلى اليمن قال له: (... أعلمهم أن الله افترض عليهم في أموالهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ...) الحديث.

والشاهد من الحديث قوله: (تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم) فبين الحديث أن الشأن فيها أن يأخذها ويردها راد، لا أن تترك لاختيار من وجبت عليه.

قال الحافظ في الفتح (٣/ ٣٦٠): استدل به على أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها، إما بنفسه وإما بنائبه فمن امتنع منهم أخذت منه قهرا.اهـ.

ومعروف في السيرة النبوية والتاريخ سعاة النبي ﷺ الذين بعثهم إلى الأمصار، وكذلك سار على نهجه خلفاؤه من بعد. وللصحابة فتاوى كثيرة في هذا الموضوع، ولهذا قال العلماء: يجب على الإمام أن يبعث السعاة لأخذ الصدقة لأن النبي ﷺ والخلفاء من بعده كانوا يبعثون السعاة، ولأن في الناس من يملك المال ولا يعرف ما يجب عليه فيه، ومنهم من يبخل فوجب أن يبعث من يأخذ ... .

الحكمة في دفعها للإمام: ولقيام الإمام بجمعها ثم توزيعها دون قيام المالك بتوزيعها بنفسه على مستحقيها حكم كثيرة منها:

١ - أن كثيرا من الأفراد في إيمانهم ضعف، فلا ضمان للفقير إذا ترك حقه لمثل هؤلاء.

٢ - في أخذ الفقير حقه من الحكومة لا من الغني نفسه حفظ لكرامته، وصيانة لماء وجهه أن يراق بالسؤال، ورعاية لمشاعره أن يجرحها المن والأذى.

٣ - أن ترك الأمر للأفراد يجعل التوزيع فوضى فقد ينتبه أكثر من غني لإعطاء فقير واحد، على حين يغفل عن آخر لا يفطن له أحد، وربما كان أشد فقرا.

كل ما سبق يدل على أن على الإمام أن يطلب الزكاة ويجبيها من أصحابها، ثم يقوم بتوزيعها على مستحقيها الذين ذكرتهم الآية السابقة. وعلى الأمة أن تدفعها إليه أو إلى عماله الذين يرسلهم لجبايتها.

(فرع): حكم دفعها إلى أئمة الجور

عند استعراض الأدلة الواردة في المسألة نجد أكثرها يوجب الدفع لأئمة الجور:

١ - عن جرير بن عبد الله قال: (جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن أناسا من المصدقين (جباة الصدقة) يأتوننا فيظلموننا، فقال رسول الله ﷺ: أرضوا مصدقيكم)[١].

٢ - وعن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن رجلا قال لرسول الله ﷺ إذا أديت الزكاة

---

(١) أخرجه مسلم (٩٨٩).

إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله؟ قال: نعم. إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها إلى الله ورسوله، ولك أجرها وإثمها على من بدلها)[١].

٣- كما يدل على ذلك فتاوى الصحابة والتابعين، وكلام الفقهاء من ذلك:

أ- ما روي عن سهل بن أبي صالح عن أبيه قال: (اجتمع عندي نفقة فيها صدقة -يعني بلغت نصاب الزكاة - فسألت سعد بن أبي وقاص وابن عمر وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري أن أقسمها أو أدفعها إلى السلطان؟ فأمروني جميعا أن أدفعها إلى السلطان، ما اختلف علي منهم أحد). وفي رواية فقلت لهم: (هذا السلطان يفعل ما ترون - كان هذا في عهد بني أمية - فأدفع إليهم زكاتي؟ فقالوا

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٦)، والحارث ابن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٢٨٨)، والطبراني في الأوسط (٨٨٠٢)، والحاكم (٣٣٧٤)، والبيهقي في الكبرى (٧٠٧٥) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وللذهبي قول آخر فقد ضعفه في المهذب (٣/ ١٤٥٣)، وقال العلامة الألباني في تمام المنة (ص٣٨٤): لم أر من صرح بتصحيحه والمصنف صححه بناء على قول المنذري: ورجاله رجال الصحيح، وكذا قال الهيثمي ولا يلزم منه أن يكون صحيحا لاحتمال فقد شرط من شروط الصحة الأخرى كما ذكرناه في المقدمة والواقع هنا كذلك لأن شرط الاتصال فيه مفقود فالحديث في المسند من طريق سعيد بن أبي هلال عن أنس وسعيد هذا لم يسمع من أنس كما في " التهذيب " فهو منقطع والمنقطع من أقسام الحديث الضعيف، وضعفه العلامة الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (ص٤١، رقم٢٣) بقوله: هذا الحديث إذا نظرت في سنده وجدت رجاله رجال الصحيح ، ولكن في "تهذيب التهذيب" أن رواية سعيد ابن أبى هلال عن أنس مرسلة، وكذا أعله بالإنقطاع الشيخ مشهور في تحقيق إعلام الموقعين (٦/ ٢٩٣)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٩/ ٣٨٦): رجاله ثقات رجال الشيخين، لكن قيل في رواية سعيد بن أبي هلال عن أنس: إنها مرسلة.

كلهم: نعم فادفعها)[١].

ب- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (ادفعوا صدقاتكم إلى من ولاه الله أمركم، فمن بر فلنفسه ومن أثم فعليها)[٢] وفي رواية عن قزعة مولى زياد بن أبيه أن ابن عمر قال: (ادفعوا إليهم وإن شربوا بها الخمر)[٣].

جـ- وعن المغيرة بن شعبة أنه قال لمولى له - وهو على أمواله بالطائف - (كيف تصنع في صدقة مالي؟ قال: منها ما أتصدق به، ومنها ما أدفع إلى السلطان، قال: وفيم أنت من ذلك؟ - أنكر عليه أن يفرقها بنفسه - فقال: إنهم يشترون بها الأرض ويتزوجون بها النساء. فقال: ادفعها إليهم، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن ندفعها إليهم)[٤].

قال ابن قدامة في المغني (٢/ ٥٠٥): روي عن الإمام أحمد أنه قال: قيل لابن عمر: إنهم يقلدون بها الكلاب، ويشربون بها الخمور، قال: ادفعها إليهم، قال: وكان ابن عمر يدفع زكاته إلى من جاءه من سعاة ابن الزبير أو نجدة الحروري.اهـ.

وجاء في الموسوعة الفقهية (٢٣/ ٣٠٦): إن أخذ الإمام الجائر الزكاة قهرا

---

(١) أخرجه من طرق عبد الرزاق (٤/ ٤٦)، وأبو عبيد في الأموال (٦٧٩)، وابن زنجويه في الأموال (٢١٣٢، ٢١٣٣)، والأثر صححه العلامة الألباني في مشكلة الفقر (٧٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٤٧)، البيهقي (٤/ ١١٥، رقم ٧٦٣١) والأثر قال عنه النووي في المجموع (٤/ ١٤٦): إسناده صحيح أو حسن، وصححه العلامة الألباني في مشكلة الفقر (٧٣).

(٣) أخرجه البيهقي (٤/ ١١٥، رقم ٧٦٣٣) قال النووي في المجموع (٤/ ١٦٤): إسناده صحيح أو حسن.

(٤) أخرجه البيهقي (٤/ ١١٥، رقم ٧٦٣٠) قال النووي في المجموع (٢/ ١٦٢): إسناده فيه ضعف، وضعفه العلامة الألباني في مشكلة الفقر (٧٤).

أجزأت عن صاحبها، وكذا إن أكره الإمام المزكي فخاف الضرر إن لم يدفعها إليه .

واختلف الفقهاء فيمن كان قادرا على الامتناع عن دفعها إلى الإمام الجائر، أو على إخفاء ماله، أو إنكار وجوبها عليه، أو نحو ذلك :

فذهب الجمهور من الحنفية والمالكية إلى عدم جواز دفعها إلى الإمام حينئذ، وأنها لا تجزئ عن دافعها على التفصيل التالي:

فقال الحنفية: إذا أخذ الخوارج والسلاطين الجائرون زكاة الأموال الظاهرة كزكاة السوائم والزروع وما يأخذه العاشر، فإن صرفوه في مصارفه المشروعة فلا إعادة على المزكي، وإلا فعلى المزكي فيما بينه وبين الله تعالى إعادة إخراجها، وفي حالة كون الآخذ لها البغاة ليس للإمام أن يطالب أصحاب الأموال بها ؛ لأنه لم يحمهم من البغاة، والجباية بالحماية، ويفتى البغاة بأن يعيدوا ما أخذوه من الزكاة.

وأما الأموال الباطنة فلا يصح دفعها إلى السلطان الجائر(١) .

وقال المالكية: إن دفعها إلى السلطان الجائر اختيارا، فدفعها السلطان لمستحقها أجزأت عنه، وإلا لم تجزئه، فإن طلبها الجائر فعلى ربها جحدها والهرب بها ما أمكن، فإن أكرهه جاز، وهذا إن كان جائرا في أخذها أو صرفها، وسواء كانت من الأموال الظاهرة أو الباطنة، أما إن كان عادلا فيها وجائرا في غيرها، فيجوز الدفع إليه مع الكراهة(٢) .

أما الشافعية فذهبوا إلى أنه إن طلب الإمام الجائر زكاة المال الباطن،

---

(١) فتح القدير ١ / ٥١٢، وحاشية ابن عابدين ٢ / ٢٤، والفتاوى الهندية ١ / ١٩٠ .

(٢) الشرح الكبير وحاشية الدسوقي ١ / ٥٠٢، ٥٠٤ .

فصرفها إليه أفضل، وكذا زكاة المال الظاهر سواء لم يطلبها أو طلبها، وفي التحفة إن طلبها وجب الدفع إليه(١).

وذهب الحنابلة إلى أن دفع الزكاة إلى الإمام الجائر والبغاة والخوارج إذا غلبوا على البلد جائز سواء كانت من الأموال الظاهرة أو الباطنة، ويبرأ المزكي بدفعها إليهم، سواء صرفها الإمام في مصارفها أو لا، واحتجوا بما ورد في ذلك عن بعض الصحابة، منهم سعد بن أبي وقاص وجابر وأبو هريرة وابن عمر وغيرهم(٢).

(باب في الحج والجهاد مع الولاة)

عن أنس بن مالك رَضِوَاللَّهُعَنهُ قال رسول الله ﷺ وذكر حديثا فيه: (والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل)(٣).

---

(١) القليوبي ٢ / ٤٢، ٤٣، وتحفة المحتاج ٣ / ٣٤٤، ومغني المحتاج ١ / ٤١٤ .

(٢) شرح منتهى الإرادات ١ / ٤١٩، والمغني ٢ / ٦٤٤ .

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ١٨، رقم ٢٥٣٢)، وسعيد بن منصور (٢/ ١٧٦، رقم ٢٣٦٧)، وأبو يعلى (٧/ ٢٨٧، رقم ٤٣١١)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٥٦، رقم ١٨٢٦١)، وفي الاعتقاد (ص١٨٨)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٧٤١، ٢٧٤٢)، والديلمي (٢/ ٨٦، رقم ٢٤٦٥) والحديث قال عنه قال المنذري في مختصر السنن (٣/ ٣٨٠): والراوي عن أنس يزيد بن أبي نشبه وهو في معنى المجهول، وقال الذهبي في المهذب (٧/ ٣٧٠٤): فيه يزيد لم يتكلم فيه، وقال المناوي في تخريج أحاديث المصابيح (١/ ٨٩): فيه يزيد بن أبي شيبة وهو مجهول، وضعفه العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٣/ ٨١)، وضعفه العلامة الألباني في ضغيف أبي داود الأم (٢/ ٣١١)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٤/ ١٨٤): حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة يزيد بن أبي نشبة... ويشهد لقوله: "الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل" شواهد منها: قوله ﷺ: "الخيل معقود =

مسائل في الباب

المسألة الأولى: الجهاد مع كل بر وفاجر

لقد نص أهل العلم على أن الجهاد يكون مع كل بر وفاجر، وسيأتي نقل أقوالهم في ذلك تحت الحديث عن حكم الجهاد مع الحاكم الفاسق، والبدع من أنواع الفسق والفجور التي لا تمنع الرعية من إقامة الجهاد خلف حكامهم إن كانوا متلبسين بذلك.

=

بنواصيها الخير إلى يوم القيامة" روي من حديث عبد الله ابن عمر عند البخاري (٢٨٤٩)، ومسلم (١٨٧١)، ومن حديث عروة بن الجعد عند البخاري (٢٨٥٠) و (٢٨٥٢)، ومسلم (١٨٧٣)، وزاد: "الأجر والمغنم".

وقد ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: "الجهاد ماض مع البر والفاجر" قال الحافظ في "الفتح" ٦/ ٥٦: سبقه إلى الاستدلال بهذا الإمام أحمد، لأنه جمع ذكر بقاء الخير في نواصي الخيل إلى يوم القيامة، وفسره بالأجر والمغنم، والمغنم المقترن بالأجر إنما يكون من الخيل بالجهاد، ولم يقيد ذلك بما إذا كان الإمام عادلا، فدل على أن لا فرق في حصول هذا الفضل بين أن يكون الغزو مع الإمام العادل أو الجائر.

وكذلك قال ابن عبد البر في "التمهيد" ١٤/ ٩٧ وذكر هذا الحديث: وقد استدل جماعة من العلماء بأن الجهاد ماض إلى يوم القيامة تحت راية كل بر وفاجر من الأئمة بهذا الحديث، لأنه قال فيه: "إلى يوم القيامة" ولا وجه لذلك إلا الجهاد في سبيل الله لأنه قد ورد الذم فيمن ارتبطها واحتبسها رياة وفخرا ونواء لأهل الإسلام قلنا: يعني بحديث الذم حديث أبى هريرة عند البخاري (٧٣٥٦)، ومسلم (٩٨٧) وفيه: "ورجل ربطها فخرا ورياء فهي على ذلك وزر".

ويشهد لقوله: "الجهاد ماض" أيضا قوله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، لا يضرهم من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال"، وقد سلف عند المصنف من حديث عمران بن حصين برقم (٢٤٨٤) وإسناده صحيح ومن حديث جابر بن عبد الله عند مسلم (١٥٦)، وحديث جابر بن سمرة عند مسلم كذلك (١٩٢٢)، وحديث معاوية بن أبي سفيان كذلك عنده (١٠٣٧) (١٧٥).

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/ ٤٩٩) عن أبي حمزة قال: سألت ابن عباس عن الغزو مع الأمراء، وقد أحدثوا؟ فقال: (تقاتل على نصيبك من الآخرة، ويقاتلون على نصيبهم من الدنيا).

وأخرج -أيضًا- عن سليمان اليشكري، عن جابر قال: قلت له: أغزو أهل الضلالة مع السلطان؟ قال: (اغز، فإنما عليك ما حملت، وعليهم ما حملوا).

وفيه -أيضًا- عن ابن سيرين، والحسن سئلا عن الغزو مع أئمة السوء، فقالا:

(لك شرفه وأجره وفضله، وعليهم إثمهم). وفيه أيضًا عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد النخعي، قال (قلت لأبي: يا أبة في إمارة الحجاج تغزو؟ قال: يا بني لقد أدركت أقوامًا أشد بغضًا منكم للحجاج، وكانوا لا يدعون الجهاد على حال).

وأخرج سعيد بن منصور في سننه (٢/ ١٥٣) عن المغيرة قال: (سئل -أي: إبراهيم النخعي - عن الغزو مع بني مروان، وذكر ما يصنعون؟ فقال: (إن عرض به إلا الشيطان ليثبطهم عن جهاد عدوهم).

ومن آثار السلف في ذلك أيضا ما جاء عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يحث على الجهاد أيام المأمون والمعتصم في قتال بابك الخرمي.

ومن ذلك كتاب الإمام أحمد إلى علي بن المديني، الذي رواه الخلال في السنة (١/ ١٤٧ - ١٤٨) ونصه: (إلى أبي الحسن علي بن عبد الله من أحمد بن محمد: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد: أحسن الله إليك في الأمور كلها، وسلمك وإيانا من كل سوء برحمته، كتبت إليك وأنا ومن أعنى به في نعم من الله متظاهرة، أسأله العون على أداء شكر ذلك فإنه ولي كل

نعمة، كتبت إليك -رحمك الله- في أمر لعله أن يكون قد بلغك من أمر هذا الخرمي، الذي قد ركب الإسلام بما قد ركبه به، من قتل الذرية وغير ذلك وانتهاك المحارم وسبي النساء وكلمني في الكتاب إليك بعض إخوانك، رجاء منفعة ذلك عند من يحضرك ممن له نية في النهوض إلى أهل أردبيل، والذب عنهم وعن حريمهم ممن ترى أنه يقبل منك، فإن رأيت -رحمك الله- لمن حضرك ممن ترى أنه يقبل منك ذلك، فإنهم على شفا هلكة وضيعة وخوف من هذا العدو المظل، كفاك الله وإيانا كل مهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

وعن حسين الصائغ قال: لما كان من أمر بابك جعل أبو عبد الله يحرض على الخروج إليه وكتب معي كتابًا إلى أبي الوليد والي البصرة يحرضهم على الخروج إلى بابك). السنة للخلال (١/ ١٤٨).

وحكى حرب إجماع أهل العلم على ذلك، في مسائلة المشهور كما في حادي الأرواح (ص ٣٩٩). والتي جاء فيها: (هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بها، المقتدي بهم فيها، من لدن أصحاب النبي ﷺ إلي يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها.

فمن خالف شيئًا من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها، فهو مخالف مبتدع، خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق.

قال: وهو مذهب أحمد، وإسحاق بن إبراهيم، وعبد الله بن مخلد وعبد الله بن الزبير الحميدي، وسعد بن منصور، وغيرهم ممن جالسنا، وأخذنا عنهم العلم، وكان من قولهم والجمعة والعيدان، والحج مع السلطان، وإن لم يكونوا

بررة عدولًا أتقياء، ودفع الصدقات، والخراج والأعشار والفيء، والغنائم إليهم، عدلوا فيها، أو جاروا ا هـ

وقال الإمامان أبو حاتم وأبو زرعة - رحمهما الله تعالي في عقيدتهما (ص١٨١): (أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازًا وعراقًا، ومصرًا، وشامًا ويمنًا فكان من مذهبهم: وأن الجهاد ماض منذ بعث الله ﷻ نبيه عليه الصلاة والسلام إلى قيام الساعة مع أولي الأمر من أئمة المسلمين لا يبطله شيء. والحج كذلك، ودفع الصدقات من السوائم إلى أولي الأمر من أئمة المسلمين).اهـ.

فظهر أن ارتكاب الحاكم للبدعة لا يكون سببًا للتخاذل عنه وعدم نصرته والجهاد معه، لأن في ذلك خذلانًا للمسلمين وقد يكون سببًا لنصر أعداء الله عليهم خاصة إن كانوا في مواجهة الكفار.

لكن ينبه هنا على أن الجهاد أو القتال الذي لا يترك مع الخليفة المبتدع هو الجهاد الشرعي الذي نص أهل العلم على أنه جهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، ويدخل في ذلك قتال الخوارج والبغاة مع الإمام، أما القتال في الفتنة فإن هذا مما يحرم متابعة الإمام فيه، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

المسألة الثانية: الحج معهم

كان السلف الصالح -رحمهم الله- لا يتوقفون عن الحج، مهما كان اعتقاد الخليفة ما دام مسلمًا، ولم يرد عن أحد من السلف أنه توقف عن الحج بسبب ابتداع الخليفة أو فسقه.

قال زهير بن عباد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في أصول السنة (ص ٢٨٨): (كان من أدركت من المشايخ، مالك، وسفيان، والفضيل بن عياض، وابن المبارك، ووكيع،

وغيرهم، كانوا يحجون مع كل خليفة).

وقال ابن بطة في الشرح والإبانة (ص: ٢٧٦ - ٢٨٠): (وقد أجمعت العلماء من أهل الفقه والعلم والنساك والعباد والزهاد من أول هذه الأمة إلى وقتنا هذا: أن صلاة الجمعة والعيدين ومنى وعرفات والغزو والجهاد والهدي مع كل أمير بر أو فاجر، وإعطاءهم الخراج والصدقات والأعشار جائز، والصلاة في المساجد التي بنوها والمشي على القناطر والجسور التي عقدوها والبيع والشراء، وسائر التجارة والزراعة والصنائع كلها في كل عصر ومع كل أمير جائر على حكم الكتاب والسنة).

وقال ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٥/ ١٢٨): (وإن كان غير عدل؛ فالواجب عند العلماء من أهل السنة ترك الخروج عليه وأن يقيموا معه الحدود: الصلوات، والحج، وتؤدى إليه الزكوات).

وقال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي في شرحه للسنة للبربهاري: أي: أن جور السلطان لا يضر الرعية، ولا ينقص من أجورهم، فالفرائض التي افترضها الله والصلاة التي أمروا بها خلف أئمة الجور تامة والأجر تام، والسلطان فجوره على نفسه، ولا يضرك فجوره، لكن أجرك تام إذا صليت الجمعة أو العيدين أو جاهدت معهم أو غزوت معهم، وأما السلطان أو الإمام أو القائد إذا كان فاجرًا ففجوره على نفسه ولا يضرك فجوره.

ونقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: والأئمة لا يقاتلون بمجرد الفسق، وإن كان الواحد المقدور قد يقتل لبعض أنواع الفسق كالزنا وغيره، فليس كل ما جاز فيه القتل جاز أن يقاتل الأئمة لفعلهم إياه، إذ فساد القتال أعظم من فساد كبير يرتكبه ولي الأمر، الزاني من الرعية يرجم أو يجلد، وإذا

سرق تقطع يده، إذا شرب الخمر يجلد، لكن لو وقع فيه السلطان فشرب الخمر مثلًا فلا يوجد أحد يجلده، فما عليك إلا الصبر، فليس كل ما جاز على الرعية يجوز على السلطان، وعليك أن تجاهد معه ولو كان فاسقًا تقاتل معه تحج معه تصلي خلفه الجمعة، ففسوقه على نفسه وفجوره على نفسه ما دام أنه مسلم، ولا تخرج عليه بمجرد المعصية، ولكن النصيحة مبذولة بقدر الاستطاعة، فإن استجاب فالحمد لله، وإلا فقد أديت ما عليك، ولا تخرج عليه؛ لأن خروجك فساد وشر؛ يسبب إراقة الدماء واختلال الأمن، وضياع الأمة، وما يسبب من تسلط وتدخل الأعداء.اهـ.

وقال الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل في شرحه للسنة للبربهاري: الشيخ فسر القاعدة يقول: إن جور السلطان وهو كونه ظالمًا أو فاسقًا أو فاجرًا أو تحدث منه تجاوزات في حقوق العباد، وتعد عليهم في أموالهم وأنفسهم، كل ذلك لا ينبغي أن ينقص من فرائض الإسلام التي يقوم بها شيئًا مادام مسلمًا له بيعة، فلابد أن يصلي خلفه وخلف خلفائه وأئمته الذين يعينهم، ولابد أن يقام معه الجهاد، سواء جهاد دفاع أو جهاد نشر لدين الله ﷻ، ولابد أن تؤدى بقراراته وبولايته شعائر الدين كالحج، والحج يوم يحج الناس مع إمامهم.

وكذلك فرائض الدين كالصيام والأعياد وغيرها لابد أن يسير الناس على ما يسير عليه السلطان، فلا يتركون الجمعة والجماعة، ولا شعائر الإسلام الأخرى مثل صلاة الاستسقاء، وعند النوائب لابد من جمع الكلمة عليه وعدم الفرقة، ولابد من السمع والطاعة له بالمعروف والدعاء له كما سيذكر الشيخ فيما بعد.

إذًا: جور السلطان لا ينقض فريضة، سواء من حق السلطان نفسه أو من شعائر الدين أو من أركان أو مصالح الأمة العظمى؛ لأنها واجبات لا يمكن تأديتها إلا مع السلطان سواء كان برًا أو فاجرًا.

(باب النهي عن مجالسة أهل الأهواء)

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ (تلا هذه الآية :هُوَ اَلَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ اَلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ اَلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُا" الآية، ثم قال: إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فاحذروهم)(١).

وعن أبي غالب قال: (كنت مع أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو على حمار حتى انتهينا إلى درج مسجد دمشق فإذا رؤوس من رؤوس الخوارج منصوبة، فقال: ما هذه الرؤوس؟ فقالوا: رؤوس خوارج جيء بها من العراق. فقال: "كلاب أهل النار كلاب أهل النار، كلاب أهل النار شر قتلى تحت ظل السماء شر قتلى تحت ظل السماء شر قتلى تحت ظل السماء طوبى لمن قتلهم أو قتلوه، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه، ثم بكى قلت: ما يبكيك؟ قال: رحمة لهم، إنهم كانوا من أهل الإسلام فخرجوا من الإسلام، ثم قرأ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات إلى آخر الآية، ثم قرأ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا إلى قوله فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون فقلت: هم هؤلاء يا أبا أمامة؟ قال: نعم، قال: فقلت شيء تقوله برأيك أم سمعت رسول الله ﷺ يقوله؟ فقال: إني إذا لجريء إني إذا لجريء، إني إذا لجريء لقد سمعته من رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين حتى بلغ سبعا، ووضع أصبعه في أذنيه، ثم قال: وإلا فصمتا، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تفرقت بنو إسرائيل على سبعين فرقة، فواحدة في الجنة وسايرها في النار فقلت: ولتزيد هذه الأمة عليهم واحدة، فواحدة في الجنة وسايرها في النار، فقلت: فما تأمرني؟ قال: عليك بالسواد الأعظم قال: فقلت في السواد الأعظم ما

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

قد ترى؛ قال: السمع والطاعة خير من الفرقة والمعصية)[١].

مسائل في الباب:

المسألة الأولي: حكم الهجر

اعلم رحمني الله وإياك أن فوائد الهجر للمبتدع التي قصدها الشرع كثيرة،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ٣٠٧-٣٠٨)، وعبد الرزاق في المصنف (١٨٦٦٣)، والحميدي في المسند (٩٠٨)، والطيالسي في المسند (رقم ١١٣٦)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٥٣، ٢٥٦)، والترمذي في الجامع (رقم ٣٠٠٠)، وابن ماجه في السنن (رقم ١٧٦)، والطبراني في الكبير (١٥/ ٣٢٧-٣٢٨، ٣٢٨ رقم ٨٠٣٣-٨٠٣٦، ٨٠٤٩، ٨٠٥٦)، والأوسط، والصغير (٢/ ١١٧)، والطحاوي في مشكل الآثار (٦/ ٣٣٨-٣٣٩ رقم ٢٥١٩)، وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٦٨)، وابن نصر في السنة (ص ١٦-١٧)، وابن أبي حاتم في التفسير (٥/ ١٤٢٩ رقم ٨١٥٠)، أبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/ ٣٢-٣٢٤)، والآجري في الشريعة (ص٣٥-٣٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٨٨)، واللالكائي في السنة (١٥١، ١٥٢)، وابن الجوزي في الواهيات (١/ ١٦٣ رقم ٢٦٢)، وابن المنذر في التفسير -كما في الدر المنثور (٢/ ٢٩١) وإسناده مداره على أبي غالب وهو صدوق يخطئ؛ لكنه تابعه سيار الأموي الدمشقي أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٢٥٠ من طريقه، فذكر الحديث والقصة بنحو مما تقدم. وفي سنده سيار الأموي ذكره ابن حبان في الثقات ٤/ ٣٣٥، ٦/ ٤٢٣. وقال ابن حجر: صدوق. وتابعه أيضا صفوان بن سليم، أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٢٦٩ من طريق شيخه أنس بن عياض قال: سمعت صفوان بن سليم يقول: دخل أبو أمامة الباهلي دمشق ... فذكر الحديث بنحو مما تقدم. وسنده صحيح، والحديث حسنه الترمذي، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٤٨٦)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٦/ ٥١٩): حديث صحيح، وهذا إسناد حسن في المتابعات والشواهد من أجل أبي غالب البصري نزيل أصبهان -واسمه: حزور، وقيل: سعيد بن الحزور، وقيل: نافع- فإنه مختلف فيه، وهو ممن يعتبر به في المتابعات والشواهد، وقد توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين.

منها ما يعود إلى الهاجرين القائمين بهذه الوظيفة الشرعية العقدية، ومنها ما يعود إلى المهجور وإلى عامة المسلمين، وإلى حماية السنن من البدع والأهواء، فالهجر الشرعي ومنه (هجر المبتدعة): عقوبة زجرية متعددة الغايات والمقاصد الشرعية المحمودة، وهي على ما يلي:

١- أن (الزجر بالهجر) عقوبة شرعية للمهجور، فهي من جنس الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وأداء لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تقربًا إلى الله تعالى بواجب الحب والبغض فيه سبحانه وتعالى.

٢- بعث اليقظة في نفوس المسلمين من الوقوع في هذه البدعة وتحذيرهم.

٣- تحجيم انتشار البدعة.

٤- قمع المبتدع وزجره، ليضعف عن نشر بدعته، فإنه إذا حصلت مقاطعته والنفرة منه بات كالثعلب في جحره.

أما معاشرته ومخالطته، وترك تحسيسه ببدعته: فهذا تزكية له، وتنشيط وتغرير بالعامة، إذ العامي مشتق من العمى، فهو بيد من يقوده غالبًا، فلابد إذًا من الحجر على المبتدع استصلاحًا للديانة وأحوال الجماعة، وهو ألزم من الحجر الصحي لاستصلاح الأبدان.

وبعد أن نقل الشاطبي -رحمه الله تعالى- بعض الآثار في النهي عن توقير المبتدع، قال: (فإن الإيواء يجامع التوقير، ووجه ذلك ظاهر، لأن المشي إليه والتوقير له تعظيمٌ له لأجل بدعته، وقد علمنا أن الشرع يأمر بزجره وإهانته وإذلاله بما هو أشد من هذا، كالضرب والقتل، فصار توقيره صدودًا عن العمل بشرع الإسلام، وإقبالًا على ما يضاده وينافيه، والإسلام لا ينهدم إلا بترك العمل به والعمل بما ينافيه.

وأيضًا فإن توقير صاحب البدعة مظنة لمفسدتين تعودان بالهدم على الإسلام:

أحدهما: التفات العامة والجهال إلى ذلك التوقير، فيعتقدون في المبتدع أنه أفضل الناس، وأن ما هو عليه خير مما عليه غيره، فيؤدي ذلك إلى اتباعه على بدعته دون اتباع أهل السنة على سنتهم.

والثانية: أنه إذا وقر من أجل بدعته صار ذلك كالحادي المحرض له على انتشار الابتداع في كل شيء.

وعلى كل حال فتحيا البدع وتموت السنن، وهو هدم الإسلام بعينه.اهـ.

٥- إعطاء ضمانة للسنن من شائبة البدع ومداخلتها لصفاء السنن. والله أعلم.

أنواع الهجر: وهى ثلاثة

الأول: الهجر ديانة، أي: (الهجر لحق الله تعالى) وهو من عمل أهل التقوى، في: هجر السيئة، وهجر فاعلها، مبتدعًا أو عاصيًا.

وهذا النوع من الهجر للفجار على قسمين:

١- هجر ترك: بمعنى هجر السيئات، وهجر قرناء السوء الذين تضره صحبتهم إلا لحاجة أو مصلحة راجحة.

قال الله تعالى: (والرُّجْزَ فَاهْجُرْ)، وقال سبحانه: (واهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا). وقال تعالى: (وإِذَا رَأَيْتَ الَذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ).

وقال تعالى: (وقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا

ويُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ)، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: (المهاجر من هجر ما نهى الله عنه).

٢- هجر تعزير: وهذا من العقوبات الشرعية التبصيرية التي يوقعها المسلم على الفجار كالمبتدع، على وجه التأديب، في دائرة الضوابط الشرعية للهجر، حتى يتوب المبتدع ويفيء.

وهذا القسم هو الذي يدور عليه البحث.

وهذا النوع بقسميه من أصول الاعتقاد، والأمر فيه أمر إيجاب في أصل الشرع، ومباحثه في كتب السنن والتوحيد والاعتقاد وغيرها.

تنبيه: في هجر الكافر: قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: قال الطبري: قصة كعب بن مالك أصل في هجران أهل المعاصي، وقد استشكل كون هجران الفاسق أو المبتدع مشروعًا ولا يشرع هجران الكافر، وهو أشد جرمًا منهما لكونهم من أهل التوحيد في الجملة.

وأجاب ابن بطال: بأن لله أحكامًا فيها مصالح للعباد وهو أعلم بشأنها وعليهم التسليم لأمره فيها، فجنح إلى أنه تعبد لا يعقل معناه.

وأجاب غيره: بأن الهجران على مرتبتين: الهجران بالقلب، والهجران باللسان، فهجران الكافر بالقلب وبترك التودد والتعاون والتناصر لا سيما إذا كان حربيًا، وإنما لم يشرع هجرانه بالكلام لعدم ارتداعه بذلك عن كفره، بخلاف العاصي المسلم فإنه ينزجر بذلك غالبًا، ويشترك كل من الكافر والعاصي في مشروعية مكالمته بالدعاء إلى الطاعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما المشروع ترك المكالمة بالموادة ونحوها".اهـ.

والظاهر ما قاله النووي -رحمه الله تعالى- من أن للمسلم هجر الكافر من

غير تقييد، لما هو معلوم من الأصل الشرعي العام من تحريم موالاة الكفار، والتحذير من موادتهم وتعظيم ما يؤدي إلى ذلك، ونصب الأسباب الموصلة إلى ظهور المسلم عليهم كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: "لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه " رواه أحمد ومسلم وغيرهما. والنصوص في تحريم موالاة الكافرين من الكتاب والسنة وآثار السلف كثيرة مشهورة، والله أعلم.

الثاني: الهجر لاستصلاح أمر دنيوي، أي (الهجر لحق العبد): وفيه جاءت أحاديث الهجر بما دون ثلاث ليال، رواها جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، بأسانيد في الصحيحين وغيرها، وجميعها تفيد أن الشرع لم يرخص بهذا النوع من الهجر بين المسلمين إلا بما دون ثلاث ليال، كما لم يرخص في إحداد غير الزوجة أكثر من ثلاث.

ومن الهجر هنا: هجر الوالد لولده، والزوج لزوجته، وقد هجر النبي ﷺ نساءه شهرا، عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال).

وبعد أن بين الخطابي رحمه الله تعالى: أن ما وراء الثلاث على المنع قال: (فأما هجران الوالد ولده والزوج لزوجه، ومن كان في معناهما فلا يضيق أكثر من ثلاث، وقد هجر رسول الله ﷺ نساءه شهرًا).اهـ.

وهذا النوع من الهجر من مباحث الرقاق والآداب.

النوع الثالث: الهجر قضاء، وهو من العقوبات التعزيزية للمعتدين، وهذا يبحثه الفقهاء في باب التعزيز.

المبحث الثالث شروط الهجر

الهجر الشرعي للفجار من المبتدعين، والفساق (عبادة)، والعبادة لابد من توفر ركنيها: الإخلاص، وهو ميزان الأعمال في باطنها، والمتابعة، وهو ميزان الأعمال في ظاهرها.

فلابد من أن يكون الهجر: خالصًا صوابًا، فالهجر لهوى النفس: ينقض الإخلاص، والهجر على خلاف الأمر: ينقض المتابعة. والله أعلم.

المبحث الرابع صفات الهجر

الأصل في الهجر هو الإعراض بالكلية عن المبتدع والبراءة منه.

ومن مفرداته: عدم مجالسته. الابتعاد عن مجاورته. ترك توقيره.

ترك مكالمته. ترك السلام عليه. ترك التسمية له. عدم بسط الوجه له مع عدم هجر السلام والكلام. عدم سماع كلامه وقراءتهم. عدم مشاورتهم. وهكذا من الصفات التي يتأدى بها الزجر بالهجر، وتحصل مقاصد الشرع.

* المبحث الخامس منزلة الهجر من الاعتقاد: يؤصل علماء الإسلام (هجر المبتدع ديانة) تحت القاعدة العقدية الكبرى (قاعدة الولاء والبراء) وهذه القاعدة مشتركة لفظا بين أهل السنة والجماعة وحقيقتها لديهم كما علمت، وبين الخوارج (لا ولاء إلا ببراء) أي لا موالاة لأبي بكر وعمر رض الله عنهما إلا بالبراءة من أميري المؤمنين عثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وبين الشيعة (لا ولاء إلا ببراء) إي لا ولاء لعلي وآل البيت إلا بالبراءة من أبي بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومعتقد أهل السنة والجماعة موالاة جميع الصحابة رضى الله عنهم بتزكية الله لهم.

ولدى أهل السنة والجماعة كذلك (بدعية الولاء والبراء) من وجه: بمعنى

أن يتبرأ من قوم هم على دين الإسلام والسنة، ويتولى من ليسوا كذلك، كما ذكره ابن بطة رحمه الله تعالى في: الشرح والإبانة، (ص٣٤١ رقم / ٤٧٢).

ومفهوم هذه القاعدة الشريفة لدى أهل السنة والجماعة هو: الحب والبغض في الله، فهم يوالون أولياء الرحمن، ويعادون أولياء الشيطان، وكلٍ بحسب ما فيه من الخير والشر، وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره المرء أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار) متفق عليه.

وعن أبي إمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، فقد استكمل الإيمان) رواه أبو داود والضياء.

وقال يحيى بن معاذ: (حقيقة الحب في الله أن لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفاء). وهذه القاعدة من مسلمات الاعتقاد في الإسلام، لكثرة النصوص عليها من الكتاب والسنة والأثر.

ومن أولى مقتضياتها - التي يثاب فاعلها ويعاقب تاركها - البراءة من أهل البدع والأهواء، ومعاداتهم، وزجرهم بالهجر ونحوه، على التأبيد حتى يفيئوا، وهذا موفور في عامة كتب اعتقاد أهل السنة والجماعة.

واكتفى بما أصله الإمام أبو إسماعيل الصابوني م سنة ٤٤٩هـ رحمه الله تعالى إذ قال: (ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونهم ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم، ولا يجالسونهم ولا يجادلونهم في الديني، ولا يناظرونهم، ويرون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرت بالآذان قَرّت بالآذان وقرت بالقلوب ضرّت وجرّت إليها من الوساوس

والخطرات الفاسدة ما جَرَّت، وفيه أنزل الله ﷻ قوله ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾. ثم ذكر علامات أهل البدع، وعلامات أهل السنة، ثم قال: (واتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع وإذلالهم وإخزائهم وإبعادهم وإقصائهم، والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم والتقرب إلى الله ﷻ بمجانبتهم ومهاجرتهم ...).اهـ.

والعقوبة بالهجر للمبتدع إحدى العقوبات الشرعية التي ينزلها أهل السنة بالمبتدعة، حسب البدع والأهواء التي يتلبسون، بها، ومنها ما تقدمت الإشارة إليه والله أعلم.

الضوابط الشرعية للهجر هذا بيان (لميزان الشرع في الهجر)

وهو من أهم أبحاث هذا الواجب الشرعي، وعليه: فإذا علمنا أن الزجر بالهجر للمبتدع حتى يتوب إلى الله تعالى، قد قامت عليه أدلة بخصوصه، وأنه من أولى مفردات قاعدة الشريعة المطردة (الولاء والبراء) أي الحب والبغض في الله تعالى.

وعلمنا أيضًا: أن المقصود بالهجر: زجر المهجور، وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله، إلى آخر مقاصد الإسلام من مشروعية الهجر كما تقدم.

وأن الهجر الشرعي لحق الله تعالى (عبادة) من جنس الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعبادة لا بد من توفر ركنيها: الإخلاص، والمتابعة، أي بأن يكون الهجر (خالصًا صوابًا) خالصًا لله، صوابًا وفق السنة، وأن (هوى النفس) ينقض ركنية (الإخلاص)، كما أن ركن المتابعة ينقضه (عدم موافقة الهجر للمأمور به). إذا تقرر جميع ذلك: فليعلم أن الشرع الشريف يزن الواقعات والأحوال الداخلة تحت قاعدته العامة (الولاء والبراء) بميزان قسط،

وقسطاس مستقيم، وسطًا عدلًا بين جانبي الإفراط والتفريط، فلا تزيد عن حدها ولا تنقص عنه، فتلتقي العفوية للمبتدع بالهجر مع مقدار بدعته باعتبارات مختلفة، وما يحف بذلك من أحوال تنزل على قاعدة رعاية المصالح وتكثيرها، ودرء المفاسد وتقليلها، فنقول إذًا: الأصل في الشرع هو: هجر المبتدع لكن ليس عامًا في كل حال ومن كل إنسان ولكل مبتدع. وترك الهجر والإعراض عنه بالكلية، تفريط على أي حال، وهجر لهذا الواجب الشرعي المعلوم وجوبه بالنص، والإجماع، وأن مشروعية الهجر هي في دائرة ضوابطه الشرعية المبنية على رعاية المصالح ودرء المفاسد، وهذا مما يختلف باختلاف البدعة نفسها واختلاف مبتدعها واختلاف أحوال الهاجرين، واختلاف المكان والقوة والضعف، والقلة والكثرة، وهكذا من وجوه الاختلاف والاعتبار التي يرعاها الشرع وميزانها للمسلم الذي به تنضبط المشروعية هو: مدى تحقق المقاصد الشرعية من الهجر: من الزجر، والتأديب، ورجوع العامة، وتحجيم المبتدع وبدعته وضمان السنة من شائبة البدعة.

هذا محصل الضوابط الشرعية للهجر، لكن ليحذر كل مسلم من توظيف (هوى نفسه) وتأمير (حظوظها) على نفسه، فإن هذا هلكة في الحق، وهو شر ممن يترك الهجر عصيانًا لأنه يعصي الله تعالى بترك الهجر الشرعي للمبتدع، وإظهاره ترك الهجر باسم الشرع تحت غطاء وهمي باسم (المصلحة) و (تأليف القلوب) وهكذا، فالتزام الهجر الشرعي للمبتدع بضوابطه الشرعية لاغير. وعلى هذا التأصيل تتنزل كلمات الأئمة كالإمام أحمد وغيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى– في المسلك الحق في الهجر: (فإن أقوامًا جعلوا ذلك عامًا، فاستعملوا من الهجر والإنكار ما لم يؤمروا

به، فلا يجب ولا يستحب، وربما تركوا به واجبات أو مستحبات وفعلوا به محرمات. وآخرون أعرضوا عن ذلك بالكلية فلم يهجروا ما أمروا بهجره من السيئات البدعية، بل تركوها ترك المعرض لاترك المنتهي الكاره، أو وقعوا فيها، وقد يتركونها ترك المنتهي الكاره، ولا ينهون عنها غيرهم، ولا يعاقبون بالهجرة ونحوها من يستحق العقوبة عليها، فيكونون قد ضيعوا من النهي عن المنكر ما أمروا به إيجابًا أو استحبابًا، فهم بين فعل المنكر أو ترك المنهي عنه، وذلك فعل ما نهوا عنه وترك ما أمروا به، فهذا هذا، ودين الله وسط بين المغالي فيه والجافي عنه، والله سبحانه أعلم). فاعتبار اختلاف مرتبة البدعة من الإثم هو من عدة جهات:

من جهة كونها كفرًا أو غير كفر

فالمكفرة مثل: البابية، والبهائية، والقاديانية، وغلاة البريلوية.

وغير المكفرة مثل عامة البدع في العبادات حقيقية كانت أو إضافية.

ومن جهة كون صاحبها مستترًا بها أو معلنًا لها ففرق بين المعلن لبدعته الداعي لها، وبين الكاتم لها لأن الداعية، والمعلن لها، أظهرها فاستحق العقوبة بخلاف الكاتم فإنه ليس شرًا من المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، هذا وهم في الدرك الأسفل من النار.

* ومن جهة كونها حقيقية أو إضافية: فالبدعة الحقيقية هي: البدعة التعبدية المحدثة استقلالًا كصلاة الرغائب، وليست بدعة إضافية، ومثل القول بالقدر، وصلاة الألفية ليلة النصف من شعبان، وبدعة الموالد، والأعياد الحكومية، وعيد غدير خم لدى الشيعة، وهكذا.

والبدعة الإضافية: هي الأمر المبتدع مضافاً إلى ما هو مشروع أصلًا بزيادة

أو نقص، مثاله: الدعاء الجماعي بعد الصلاة، فالدعاء مشروع وجعله جماعيًا بدعة مضافة لم يرد بها النص، وبناء العبادات على التوقيف، وسجود الشكر جماعة، واتخاذ التبليغ خلف الإمام سنة راتبة مع عدم الحاجة إليه، وهكذا.

ومن جهة كونها بينة أو مشكلة، أي كونها ظاهرة المأخذ فهي بدعة متمحضة

كبدع المآتم والموالد، وصلاة الرغائب، أو بدعة فيها احتمال لاستشباه مأخذها، مثاله: القنوت في صلاتي العشاء والصبح فإنه كان ثم نسخ وبقي المشروع فيها عند النوازل، وشبهة الخلاف لا تصيره مشروعًا راتبًا.

والحقيقة أن هذا الوجه: صوري لا حقيقي إذ البدع مشكلة المأخذ يلحق بها من الإشاعة والتعصب ما يجعلها بينة، والله أعلم.

* ومن جهة اجتهاده فيها أو كونه مقلدًا: فالمجتهد مخترع للبدعة، فالزيغ أمكن في قلبه من المقلد، وإن كان كل منهما موزورًا لكن أثم من سن سنة سيئة أعظم وزرًا، والله أعلم.

* ومن جهة الإصرار عليها أو عدمه: أما الإصرار عليها فيجعلها من باب: الدعوة إليها فيكون داعية معلنًا لها، وأما عدم الإصرار فهو من باب كونها: فلتة، وزلة عالم، إذا كانت منه ثم لم يعاودها.

* ويختلف باختلاف حال المبتدع وما فيه من خير وشر: (وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا، كاللص الفقير تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما

يكفيه لحاجته، هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة ...).

وفرق بين عالم تشربت نفسه بالبدع، لكنه لم يختلط بعلماء أهل السنة ولم يتلق عنهم، وبين عالم تلقى عن المبتدعة فنالت منه منالًا، ثم خالط أهل السنة وعلماءهم وجاورهم مدة بمثلها يحصل برد اليقين بل يكون عاشرهم عشرات السنين، ثم هو يبقى على مشاربه البدعية يعملها، ويدعو إليها، ويصر عليها، فهذا قامت عليه الحجة أكثر، واستبانت له المحجة فما أبصر. فهو من أعظم خلق الله فجورًا، وغيضًا على أهل السنة، فالأول في تأليف قلبه وتودده للرجوع إلى السنة مجال، أما الثاني: فلا والله، بل يتعين هجره، ومنابذته وإبعاده، وإنزال العقوبات الشرعية للمبتدعة عليه، وأن يُهجر ميتًا كما هُجر حيًا فلا يصلي أهل الخير عليه، ولا يشيعون جنازته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في حق بعض العصاة المظهرين لفجورهم: (وأما إذا أظهر الرجل المنكرات، وجب الإنكار عليه علانية، ولم يبق له غيبة، ووجب أن يعاقب علانية بما يردعه عن ذلك من هجر وغيره، فلا يسلم عليه، ولا يرد عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذا كان الفاعل لذلك متمكنًا من ذلك من غير مفسدة راجحة.

وينبغي لأهل الخير والدين أن يهجروه ميتًا، كما هجروه حيًا، إذا كان في ذلك كف لأمثاله من المجرمين فيتركون تشييع جنازته، كما ترك النبى ﷺ على غير واحد من أهل الجرائم، وكما قيل لسمرة ابن جندب: إن ابنك مات البارحة، فقال: لو مات لم أصل عليه، يعني لأنه أعان على قتل نفسه، فيكون كقاتل نفسه، وقد ترك النبي ﷺ الصلاة على قاتل نفسه. وكذلك هجر الصحابة الثلاثة الذين ظهر ذنبهم في ترك الجهاد الواجب حتى تاب الله عليهم، فإذا أظهر

التوبة أظهر له الخير ...).

* وفرق في حال المهجور: بين القوي في الدين وبين الضعيف فيه، فإن القوي يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ به الضعيف في الدين كما في قصة كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم.

* وكذلك بالنسبة للأماكن: ففرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع، كما كثر القدر بالبصرة، والتنجيم بخراسان، والتشيع بالكوفة، وبين ما ليس كذلك.

وهذا على ما أفتى به الأئمة أحمد وغيره بناء على هذا الأصل: رعاية المصالح الشرعية.

* ويختلف باختلاف الهاجرين أنفسهم في قوتهم وضعفهم وقلتهم وكثرتهم.

فإذا كانت الغلبة والظهور لأهل السنة كانت مشروعية هجر المبتدع قائمة على أصلها، وإن كانت القوة والكثرة للمبتدعة - ولا حول ولا قوة إلا بالله - فلا المبتدع ولا غيره يرتدع بالهجر ولا يحصل المقصود الشرعي، لم يشرع الهجر وكان مسلك التأليف، خشية زيادة الشر.

وهذا كحال المشروع مع العدو (القتال تارة، والمهادنة تارة، وأخذ الجزية تارة، كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح).

ومن أهم المهمات هنا: إذا كانت الواجبات لدى أهل السنة مثل: التعليم، والجهاد، والطب، والهندسة، ونحوها متعذر إقامتها إلا بواسطتهم، فإنه يعمل على تحصيل مصلحة الجهاد، ومصلحة التعليم وهكذا، مع الحذر من بدعته، واتقاء الفتنة به وبها ما أمكن، وبقدر الضرورة، فإذا زالت عاد أهل السنة إلى الأصل في الهجر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في جوابه المحرر في الهجر المشروع: (.. فإذا تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب: كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرًا من العكس، ولهذا كان الكلام في هذه المسائل فيه تفصيل).

هذا وإن الناظر في أحوال المبتدعة من وجه ما هم عليه من الشناعات، وإماتة السنن، والنشاط في غير هدى والنصرة لغير حق، وأنهم يفسدون على أهل السنة صفاء الإسلام، رآهم مستحقين لما قاله الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى- في أهل الكلام: (حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من أعرض عن الكتاب والسنة وأقبل على الكلام)، وإذا نظرت إلى المبتدعة بعين القدر، والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم رحمتهم، وترفقت بهم، أوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً، وأعطوا فهومًا وما أعطوا علومًا، وأعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة (فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ولا أَبْصَارُهُمْ ولا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

وختامًا: احذر المبتدع، واحذر بدعته، وأعمل الولاء والبراء معه، وتقرب إلى الله بذلك، وبهجره الهجر الشرعي منزلًا له على قواعد الشريعة وأصولها في

رعاية المصالح ودفع المفاسد، وإياك ثم إياك من تأمير الهوى هجرًا أو تركًا. انظر هجر المبتدع للدكتور بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ.

وسئل شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٠٣): عمن يجب أو يجوز بغضه أو هجره أو كلاهما لله تعالى؟ وماذا يشترط على الذي يبغضه أو يهجره

لله تعالى من الشروط ؟ وهل يدخل ترك السلام في الهجران أم لا ؟ وإذا بدأ المهجور الهاجر بالسلام هل يجب الرد عليه أم لا ؟ وهل يستمر البغض والهجران لله ﷻ حتى يتحقق زوال الصفة المذكورة التي أبغضه وهجره عليها ؟ أم يكون لذلك مدة معلومة ؟ فإن كان لها مدة معلومة فما حدها ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب: الهجر الشرعي نوعان أحدهما بمعنى الترك للمنكرات والثاني بمعنى العقوبة عليها فالأول: هو المذكور في قوله تعالى {وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين} . وقوله تعالى {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم} فهذا يراد به أنه لا يشهد المنكرات لغير حاجة مثل قوم يشربون الخمر يجلس عندهم وقوم دعوا إلى وليمة فيها خمر وزمر لا يجيب دعوتهم وأمثال ذلك. بخلاف من حضر عندهم للإنكار عليهم أو حضر بغير اختياره ولهذا يقال حاضر المنكر كفاعله وفي الحديث {من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر} وهذا الهجر من جنس هجر الإنسان نفسه عن فعل المنكرات كما قال ﷺ {المهاجر من هجر ما نهى الله عنه} ومن هذا الباب الهجرة من دار الكفر والفسوق إلى دار الإسلام والإيمان فإنه هجر للمقام بين الكافرين والمنافقين الذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به ومن هذا قوله تعالى {والرجز فاهجر} النوع الثاني الهجر على وجه التأديب وهو هجر من يظهر المنكرات يهجر حتى يتوب منها كما {هجر النبي ﷺ والمسلمون الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله

توبتهم} حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر ولم يهجر من أظهر الخير وإن كان منافقا فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير والتعزير يكون لمن ظهر منه ترك الواجبات وفعل المحرمات كتارك الصلاة والزكاة والتظاهر بالمظالم والفواحش والداعي إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة التي ظهر أنها بدع وهذا حقيقة قول من قال من السلف والأئمة إن الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم ولا يصلى خلفهم ولا يؤخذ عنهم العلم ولا يناكحون فهذه عقوبة لهم حتى ينتهوا ؛ ولهذا يفرقون بين الداعية وغير الداعية ؛ لأن الداعية أظهر المنكرات فاستحق العقوبة بخلاف الكاتم فإنه ليس شرا من المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله مع علمه بحال كثير منهم ولهذا جاء في الحديث {أن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة} وذلك لأن النبي ﷺ قال {إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه} فالمنكرات الظاهرة يجب إنكارها ؛ بخلاف الباطنة فإن عقوبتها على صاحبها خاصة وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم وقلتهم وكثرتهم فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله. فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعا وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك بل يزيد الشر والهاجر ضعيف بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر ؛ بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف ؛ ولهذا كان النبي ﷺ يتألف قوما ويهجر آخرين كما أن الثلاثة الذين خلفوا كانوا خيرا من أكثر المؤلفة قلوبهم لما كان أولئك كانوا سادة مطاعين في

عشائرهم فكانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهم وهؤلاء كانوا مؤمنين والمؤمنون سواهم كثير فكان في هجرهم عز الدين وتطهيرهم من ذنوبهم وهذا كما أن المشروع في العدو القتال تارة والمهادنة تارة وأخذ الجزية تارة كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح. وجواب الأئمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبني على هذا الأصل ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع كما كثر القدر في البصرة والتنجيم بخراسان والتشيع بالكوفة وبين ما ليس كذلك ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه وإذا عرف هذا فالهجرة الشرعية هي من الأعمال التي أمر الله بها ورسوله فالطاعة لا بد أن تكون خالصة لله وأن تكون موافقة لأمره فتكون خالصة لله صوابا. فمن هجر لهوى نفسه أو هجر هجرا غير مأمور به كان خارجا عن هذا. وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ظانة أنها تفعله طاعة لله والهجر لأجل حظ الإنسان لا يجوز أكثر من ثلاث كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: {لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ؛ يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام} فلم يرخص في هذا الهجر أكثر من ثلاث كما لم يرخص في إحداد غير الزوجة أكثر من ثلاث. وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال {تفتح أبواب الجنة كل اثنين وخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا ؛ إلا رجلا كان بينه وبين أخيه شحناء فيقال أنظروا هذين حتى يصطلحا} فهذا الهجر لحق الإنسان حرام وإنما رخص في بعضه كما رخص للزوج أن يهجر امرأته في المضجع إذا نشزت وكما رخص في هجر الثلاث. فينبغي أن يفرق بين الهجر لحق الله وبين الهجر لحق نفسه .

فالأول مأمور به والثاني منهي عنه ؛ لأن المؤمنين إخوة وقد قال النبي ﷺ

في الحديث الصحيح {لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم} وقال ﷺ في الحديث الذي في السنن {ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين} . وقال في الحديث الصحيح {مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذ اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر} .

وهذا لأن الهجر من باب العقوبات الشرعية فهو من جنس الجهاد في سبيل الله وهذا يفعل لأن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله والمؤمن عليه أن يعادي في الله ويوالي في الله فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه وإن ظلمه ؛ فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية قال تعالى {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين} إنما المؤمنون إخوة فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغي والأمر بالإصلاح بينهم. فليتدبر المؤمن الفرق بين هذين النوعين فما أكثر ما يلتبس أحدهما بالآخر وليعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك ؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه والإكرام لأوليائه والإهانة لأعدائه والثواب لأوليائه والعقاب لأعدائه وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة:

استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعادات والعقاب بحسب ما فيه من الشر فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة فيجتمع له من هذا وهذا كاللص الفقير تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم عليه فلم يجعلوا الناس لا مستحقا للثواب فقط ولا مستحقا للعقاب فقط وأهل السنة يقولون إن الله يعذب بالنار من أهل الكبائر من يعذبه ثم يخرجهم منها بشفاعة من يأذن له في الشفاعة بفضل رحمته كما استفاضت بذلك السنة عن النبي ﷺ والله سبحانه وتعالى أعلم وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فصل: في مسائل إسحاق بن منصور - وذكره الخلال في " كتاب السنة " في باب مجانبة من قال القرآن مخلوق - عن إسحاق أنه قال لأبي عبد الله: من قال: القرآن مخلوق ؟ قال: ألحق به كل بلية. قلت: فيظهر العداوة لهم أم يداريهم ؟ قال: أهل خراسان لا يقوون بهم. وهذا الجواب منه مع قوله في القدرية: لو تركنا الرواية عن القدرية لتركناها عن أكثر أهل البصرة ومع ما كان يعاملهم به في المحنة: من الدفع بالتي هي أحسن ومخاطبتهم بالحجج يفسر ما في كلامه وأفعاله من هجرهم والنهي عن مجالستهم ومكالمتهم حتى هجر في زمن غير ما أعيان من الأكابر وأمر بهجرهم لنوع ما من التجهم فإن الهجرة نوع من أنواع التعزير والعقوبة نوع من أنواع الهجرة التي هي ترك السيئات. فإن النبي ﷺ قال: {المهاجر من هجر السيئات} وقال: {من هجر ما نهى الله عنه} فهذا هجرة التقوى. وفي هجرة التعزير والجهاد: هجرة الثلاثة الذين خلفوا وأمر المسلمين بهجرهم حتى تيب عليهم. فالهجرة تارة تكون من

نوع التقوى إذا كانت هجرا للسيئات. كما قال تعالى: {وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين} {وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون} فبين سبحانه أن المتقين خلاف الظالمين وأن المأمورين بهجران مجالس الخوض في آيات الله هم المتقون. وتارة تكون من نوع الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود وهو عقوبة من اعتدى وكان ظالما. وعقوبة الظالم وتعزيره مشروط بالقدرة ؛ فلهذا اختلف حكم الشرع في نوعي الهجرتين: بين القادر والعاجز وبين قلة نوع الظالم المبتدع وكثرته وقوته وضعفه كما يختلف الحكم بذلك في سائر أنواع الظلم من الكفر والفسوق والعصيان. فإن كلما حرمه الله فهو ظلم ؛ إما في حق الله فقط وإما في حق عباده وإما فيهما. وما أمر به من هجر الترك والانتهاء وهجر العقوبة والتعزير إنما هو إذا لم يكن فيه مصلحة دينية راجحة على فعله وإلا فإذا كان في السيئة حسنة راجحة لم تكن سيئة وإذا كان في العقوبة مفسدة راجحة على الجريمة لم تكن حسنة ؛ بل تكون سيئة ؛ وإن كانت مكافئة لم تكن حسنة ولا سيئة فالهجران قد يكون مقصوده ترك سيئة البدعة التي هي ظلم وذنب وإثم وفساد وقد يكون مقصوده فعل حسنة الجهاد والنهي عن المنكر وعقوبة الظالمين لينزجروا ويرتدعوا. وليقوى الإيمان والعمل الصالح عند أهله. فإن عقوبة الظالم تمنع النفوس عن ظلمه وتحضها على فعل ضد ظلمه: من الإيمان والسنة ونحو ذلك. فإذا لم يكن في هجرانه انزجار أحد ولا انتهاء أحد ؛ بل بطلان كثير من الحسنات المأمور بها لم تكن هجرة مأمورا بها كما ذكره أحمد عن أهل خراسان إذ ذاك: أنهم لم يكونوا يقوون بالجهمية. فإذا عجزوا عن

إظهار العداوة لهم سقط الأمر بفعل هذه الحسنة وكان مداراتهم فيه دفع الضرر عن المؤمن الضعيف ولعله أن يكون فيه تأليف الفاجر القوي. وكذلك لما كثر القدر في أهل البصرة فلو ترك رواية الحديث عنهم لا ندرس العلم والسنن والآثار المحفوظة فيهم. فإذا تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب: كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرا من العكس. ولهذا كان الكلام في هذه المسائل فيه تفصيل وكثير من أجوبة الإمام أحمد وغيره من الأئمة خرج على سؤال سائل قد علم المسئول حاله أو خرج خطابا لمعين قد علم حاله فيكون بمنزلة قضايا الأعيان الصادرة عن الرسول ﷺ إنما يثبت حكمها في نظيرها. فإن أقواما جعلوا ذلك عاما فاستعملوا من الهجر والإنكار ما لم يؤمروا به فلا يجب ولا يستحب وربما تركوا به واجبات أو مستحبات وفعلوا به محرمات. وآخرون أعرضوا عن ذلك بالكلية فلم يهجروا ما أمروا بهجره من السيئات البدعية ؛ بل تركوها ترك المعرض ؛ لا ترك المنتهي الكاره أو وقعوا فيها وقد يتركونها ترك المنتهي الكاره ولا ينهون عنها غيرهم ولا يعاقبون بالهجرة ونحوها من يستحق العقوبة عليها فيكونون قد ضيعوا من النهي عن المنكر ما أمروا به إيجابا أو استحبابا فهم بين فعل المنكر أو ترك النهي عنه وذلك فعل ما نهوا عنه وترك ما أمروا به. فهذا هذا. ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه. والله سبحانه أعلم.اهـ.

وقال العلامة ابن باز كما في فتاوى إسلامية (٤ / ٥٢٠) وقد سئل عن الموقف ممن يفعل بعض الكبائر: من يتهم بهذه المعاصي تجب نصيحته وتحذيره منها ومن عواقبها السيئة، وأنها من أسباب مرض القلوب وقسوتها

وموتها، أما من أظهرها وجاهر بها فالواجب أن يقام عليه حدها، وأن يرفع أمره إلى ولاة الأمور، ولا تجوز صحبتهم، ولا مجالستهم، بل يجب هجرهم لعل الله يهديهم ويمن عليهم بالتوبة، إلا أن يكون الهجر يزيدهم شرا فالواجب الإنكار عليهم دائما بالأسلوب الحسن والنصائح المستمرة حتى يهديهم الله، ولا يجوز اتخاذهم أصحابا، بل يجب أن يستمر في الإنكار عليهم وتحذيرهم من أعمالهم القبيحة.اهـ.

وقال العلامة العثيمين في الشرح الممتع (١٢/ ٣٢٢): قوله: «يحرم هجره»، أفادنا أن من المسلمين من لا يحرم هجره؛ وذلك أن الهجر ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: من يجب هجره، وذلك كصاحب البدعة الداعي إلى بدعته، إذا لم ينته إلا بالهجر، فإنه يجب علينا أن نهجره وجوبا؛ لأن في الهجر فائدة، وهو ترك الدعوة إلى البدعة، فإذا وجدنا شخصا يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن، أو إلى أن الله -تعالى- في كل مكان وجب علينا أن نهجره، فلا نسلم عليه، ولا نرد عليه السلام، ولا نجيب دعوته، ولا نتحدث إليه حديث الصديق؛ لأن هجره هنا فيه مصلحة، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه أمر بهجر من فعل محرما، كما في قصة كعب وصاحبيه رضي الله عنهم، وفاعل المحرم أهون ممن يدعو إلى البدعة؛ لأن البدعة تستمر بالدعوة إليها، وفاعل المحرم فعله وانتهى.

القسم الثاني: من هجره سنة

وهو هجر فاعل المعصية التي دون البدعة، إذا كان في هجره مصلحة، كهجر إنسان يحلق لحيته، فإذا رأينا شخصا قد أصر على ذلك، وكان في هجره مصلحة، وهو الرجوع إلى حظيرة السنة، فالهجر هنا سنة حتى يرجع، وكذلك يقال في شارب الدخان، والموظف في جهات ربوية، ولا نقول: إنه واجب؛ لأننا

لا نتحقق به ترك المحرم، فلو تحققنا به ترك المحرم لكان الهجر واجبا.

إذا هنا الهجر سنة بشرط المصلحة، فإن لم يكن في هجره مصلحة فإنه لا يهجر؛ لأن الأصل أن هجر المؤمن حرام لقوله ﷺ: «لا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة»، فإن لم يكن مصلحة صار الهجر حراما، إذ لا يحصل منه إلا عكس ما نريد، وأما ما يفعله بعض الإخوة المستقيمين الغيورين على دينهم من هجر أهل المعاصي مطلقا فغلط، ومخالف للسنة، لقول النبي ﷺ: «لا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة»، وفاعل المعصية أخ لك مهما فعل من الكبائر، إلا إذا كفر، وعلى هذا فلا يجوز هجر أهل المعاصي إلا لوجود المصلحة.

القسم الثالث: هجر مباح

وهو ما يحصل بين الإنسان وأخيه بسبب سوء تفاهم، وهو مقيد بثلاثة أيام فأقل.

والقول الراجح أن الهجر لا يجب، ولا يسن، ولا يباح إلا حيث تحققت المصلحة، فإذا كان هناك مصلحة هجرنا وإلا فلا؛ لأن الهجر إما دواء وإما تعزير، فإن كان من أجل معصية مستمرة فهو دواء، وإن كان من أجل معصية مضت وانتهت فهو تعزير، فيحرم أن يهجر أخاه المؤمن ما لم يصل إلى الكفر، والدليل على ذلك عمومات الأدلة الدالة على حقوق المسلم على المسلم، والمؤمن لا يخرج من الإيمان بمجرد الفسوق والعصيان عند أهل السنة والجماعة، ولذلك الأصل تحريم هجر المؤمنين، ولو فعلوا المعصية وتجاهروا بها؛ لأنهم مؤمنون، وقد قال النبي ﷺ: «وحق المسلم على المسلم ست، ومنها: إذا لقيته فسلم عليه»، فقال: حق المسلم، ولم يقل: حق المؤمن؛

لأن الإسلام أوسع من الإيمان، لكن إذا كان في الهجر مصلحة فإنه إما أن يسن، وإما أن يجب، حسب ما تقتضيه المصلحة، وحسب عظم الذنب، فإذا كان هذا الرجل الحالق للحية إذا هجرناه ارتدع، وصار يمشي بين الناس غريبا، لا يسلم عليه، ولا يرد سلامه، فيخجل ويعفي لحيته، كان هجره سنة أو واجبا؛ لأن هجره مفيد، أما إذا كان هذا الرجل إذا هجرناه ازداد شره، ونفر من أخيه المؤمن، وحصلت الوحشة بينهما، فلا يسن الهجر هنا، بل لا ينبغي، والمسبل لثيابه مجاهر بالمعصية، والذي يبدو لنا أنه أعظم من حلق اللحية؛ لأنه متوعد عليه، فهو من كبائر الذنوب، وأعظم من شرب الدخان، مع أن شرب الدخان الآن أكثر من حلق اللحية والإسبال.

المهم أن المذهب يقسمون الهجر إلى ثلاثة أقسام: واجب، وسنة، ومباح، ولكن الصحيح عندنا أنه لا ينقسم إلى هذه الأقسام، وأن الأصل في الهجر التحريم، إلا إذا كان فيه مصلحة.

هذا بالنسبة لمن كان مسلما، أما غير المسلمين فلا يبدؤون بالسلام، سواء كانوا غير منتسبين للإسلام، كأن يصرحوا بأنهم نصارى، أو يهود، أو وثنيون، أو كانوا منتسبين للإسلام لكن بدعتهم تخرجهم من الإسلام؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول في أهل الكتاب: «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه»، لكن إن سلم علينا نرد عليه، فإن قال: السلام عليكم، قلنا: وعليكم السلام، وإن قال: السام عليكم، قلنا: وعليكم.

ففي المسألة ثلاثة احتمالات

إن سلم سلاما صريحا، رددنا سلاما صريحا، وإن قال: السام عليكم، قلنا:

وعليكم، كما قال النبي ﷺ، وإن قال: السام عليكم، وأدغمه نقول: وعليكم.اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاوه (٣/ ١٥): عن الموالاة والمعاداة؟ وعن حكم هجر المسلم؟

فأجاب: إن الموالاة والمعاداة يجب أن تكون لله ﷻ، فإن من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فقد سلك الطريق التي بها تنال ولاية الله ﷻ، أما من كانت ولايته ومعاداته وحبه وبغضه للهوى، أو للتقليد الأعمى، فقد حرم خيرا كثيرا، وربما يقع في أمر كبير، فقد يعادي وليا من أولياء الله ﷻ، فيكون حربا لله تعالى، كما في الحديث القدسي الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «قال الله ﷻ: من عادى لي وليا فقد آذنته في الحرب»" الحديث.

وربما يحب ويوالي عدوا من أولياء الله ﷻ، فيقع في أمر كبير وخطر عظيم كما قال الله تعالى: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم} .

وقال: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} ، وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم} .

وهجر المسلم في الأصل حرام، بل من كبائر الذنوب إذا زاد على ثلاثة أيام، فقد صح عن النبي - أنه قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة، يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام». متفق عليه، وروى أبو داود والنسائي بإسناده قال المنذري: إنه على شرط البخاري وسلم: «فمن

هجر فوق ثلاث فمات دخل النار» .

ومن المعلوم أن المسلم لا يخرج عن الإسلام بالمعاصي وإن عظمت، ما لم تكن كفرا، وعلى هذا فلا يحل هجر أصحاب المعاصي، إلا أن يكون في هجرهم مصلحة بإقلاعهم عنها، وردع غيرهم عنها؛ لأن المسلم العاصي ولو كانت معصيته كبيرة أخ لك؛ فيدخل في قوله -: لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ... " ومن الأدلة على أن العاصي أخ للمطيع، وإن عظمت معصيته قوله تعالى فيمن قتل مؤمنا عمدا: {فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان} . فجعل الله القاتل عمدا أخا للمقتول، مع أن القتل -قتل المؤمن عمدا- من أعظم الكبائر، وقوله تعالى في الطائفتين المقتتلتين من المؤمنين: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما} . إلى قوله: {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم} . فلم يخرج الله الطائفتين المقتتلتين من الإيمان، ولا من الأخوة الإيمانية.

فإن كان في الهجر مصلحة، أو زوال مفسدة، بحيث يكون رادعا لغير العاصي عن المعصية أو موجبا، لإقلاع العاصي عن معصيته كان الهجر حينئذ جائزا، بل مطلوبا طلبا لازما، أو مرغبا فيه، حسب عظم المعصية التي هجر من أجلها، ودليل ذلك قصة كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم وهم الثلاثة الذين خلفوا؛ فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهجرهم، ونهى عن تكليمهم، فاجتنبهم الناس، حتى إن كعبا رضي الله عنه دخل على ابن عمه أبي قتادة رضي الله عنه وهو أحب الناس إليه، فسلم عليه فلم يرد عليه السلام، فصار بهذا الهجر من المصلحة العظيمة لهؤلاء الثلاثة من الرجوع إلى الله عز وجل، والتوبة النصوح والابتلاء العظيم، ولغيرهم من المسلمين ما ترجحت به مصلحة الهجر على مصلحة الوصل.

أما اليوم، فإن كثيرا من أهل المعاصي لا يزيدهم الهجر إلا مكابرة وتماديا في معصيتهم، ونفورا وتنفيرا عن أهل العلم والإيمان؛ فلا يكون في هجرهم فائدة لهم ولا لغيرهم.

وعلى هذا فنقول: إن الهجر دواء يستعمل حيث كان فيه الشفاء، وأما إذا لم يكن فيه شفاء أو كان فيه إشفاء، وهو الهلاك فلا يستعمل.

فأحوال الهجر ثلاث

إما أن تترجح مصلحته فيكون مطلوبا.

وإما أن تترجح مفسدته فينهى عنه بلا شك.

وإما أن لا يترجح هذا ولا هذا، فالأقرب النهي عنه؛ لعموم قول النبي، ﷺ: «لا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة» .

أما الكفار المرتدون فيجب هجرهم والبعد عنهم، وأن لا يجالسوا ولا يواكلوا، إذا قام الإنسان بنصحهم ودعوتهم إلى الرجوع إلى الإسلام فأبوا، وذلك لأن المرتد لا يقر على ردته، بل يدعى إلى الرجوع إلى ما خرج منه، فإن أبى وجب قتله، وإذا قتل على ردته، فإنه لا يغسل، ولا يكفن، ولا يصلى عليه، ولا يدفن مع المسلمين، وإنما يرمى بثيابه، ورجس دمه في حفرة بعيدا عن المقابر الإسلامية في مكان غير مملوك.

وأما الكفار غير المرتدين فلهم حق القرابة إن كانوا من ذوي القربى، كما قال تعالى: {وآت ذا القربى حقه}، وقال في الأبوين الكافرين المشركين: {وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي} .اهـ.

وقال العلامة صالح الفوزان -حفظه الله- في المنتقى (١ / ٢٧٣، ٢٧٤):

هجر المؤمن لا يجوز فوق ثلاثة أيام إذا كان على أمر من أمور الدنيا، بل عليه أن يصالح أخاه وأن يسلم عليه إذا لقيه، ومع أنه لا ينبغي ابتداءا أن يهجر على أمر من أمور الدنيا، ولكن لو حصل شيء من الهجر: فإنه لا يتجاوز ثلاثة أيام، وهذا هو المراد بالحديث: (لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث) يعني: إذا كان الهجر على أمر من أمور الدنيا، أما إذا كان الهجر لأجل معصية ارتكبها ذلك المهجور، وكانت هذه المعصية من كبائر الذنوب، ولم يتركها: فإنه يجب مناصحته وتخويفه بالله ﷻ، وإذا لم يمتنع عن فعل المعصية ولم يتب فإنه يهجر ؛ لأن في الهجر تعزيرا له وردعا له لعله يتوب ؛ إلا إذا كان في هجره محذور ؛ بأن يخشى أن يزيد في المعصية وأن يترتب على الهجر مفسدة أكبر ؛ فإنه لا يجوز هجره في هذه الحالة ؛ فهجر العاصي إنما يجوز إذا كان من ورائه مصلحة ولا يترتب عليه مضرة أكبر.

المسألة الثانية: كيفية التعامل مع كتب أهل البدع

لقد حذّر رسول الله ﷺ من قراءة كتب أهل الكتاب مع أنها قد لا تخلو من حق، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه (أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فغضب، وقال: "أمتهوكون يا ابن الخطاب؟! والذي نفسي بيده؛ لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده؛ لو أنّ موسى عليه السلام كان حيًا ما وسعه إلا أن يتّبعني)[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧، رقم ١٥١٩٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٦٤٢١)، وأبو عبيد في غريب الحديث (٣/ ٢٨ - ٢٩)، والدارمي (٤٣٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٥/ ٢)، والبزار (١٢٤ - كشف الأستار)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٧)، والبغوي في شرح السنة (١٢٦)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ٤٢)، والهروي =

قال الإمام ابن خزيمة كما في الاستقامة (١/ ١٠٨) لما سئل عن الكلام في الأسماء والصفات فقال: بدعة ابتدعوها، لم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب وأئمة الدين، مثل مالك، وسفيان، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، ويحيى بن يحيى، وابن المبارك، ومحمد بن يحيى، وأبي حنيفة، ومحمد بن الحسن، وأبي يوسف: يتكلمون في ذلك، وينهون عن الخوض فيه، ويدلّون أصحابهم على الكتاب والسنّة، فإياك والخوض فيه والنظر في كتبهم بحال.اهـ.

وقال الإمام مالك كما في جامع بيان العلم (٢/ ٩٤٢): لا تجوز الإجارات في شيء من كتب الأهواء والبدع والتنجيم.اهـ.

وقال الإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل كما في العلل ومعرفة الرجال

=

في ذم الكلام (٤/ ٦٧ - ٢)، والضياء المقدسي في المنتقى من مسموعاته بمرو (٣٣/ ٢) والحديث صححه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣٢٢)، وقال عنه ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٢٧٦): إسناده على شرط مسلم، وقال المعلمي في الأنوار الكاشفة (١٢٢) هذا من رواية مجالد عن الشعبي عن جابر ومجالد ليس بالقوي، وقال العلامة الألباني في الإرواء (١٥٨٩) وهذا سند فيه ضعف من أجل مجالد وهو ابن سعيد الهمداني قال الحافظ في التقريب: ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره، وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٢٨٤): رواه أحمد وابن أبي شيبة والبزار ورجاله موثقون إلا أن في مجالد ضعفا، قلت (الكلام للألباني): لكن الحديث قوي فإن له شواهد كثيرة أذكر بعضها، ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض شواهده، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده ضعيف لضعف مجالد: وهو ابن سعيد، ونقل ابن حجر في ترجمة عبد الله بن ثابت من الإصابة (٤/ ٣٠) عن البخاري أنه قال: قال مجالد عن الشعبي عن جابر: إن عمر أتى بكتاب، ولا يصح. قلنا: وقوله: "ولا يصح" لم يرد في المطبوع من التاريخ الكبير للبخاري (٥/ ٣٩).

(١/ ٢٥٣-٢٥٤): سمعت أبي يقول: سلام بن أبي مطيع من الثقات، حدثنا عنه ابن مهدي، ثم قال أبي: كان أبو عوانة وضع كتابًا فيه معايب أصحاب رسول الله ﷺ وفيه بلايا، فجاء سلام بن أبي مطيع فقال: يا أبا عوانة، أعطني ذاك الكتاب فأعطاه، فأخذه سلام فأحرقه. قال أبي: وكان سلام من أصحاب أيوب وكان رجلًا صالحًا.اهـ.

وعن الفضل بن زياد كما في السنّة للخلال (٣/ ٥١١) أن رجلًا سأله عن فعل سلام بن أبي مطيع، فقال لأبي عبد الله: أرجو أن لا يضرّه ذاك شيئًا إن شاء الله؟ فقال أبو عبد الله: يضره!! بل يؤجر عليه إن شاء الله.اهـ.

وقال الفضل بن زياد كما في المعرفة والتاريخ للفسوي (٣/ ٤٩٤): سألت أبا عبد الله -يعني أحمد بن حنبل- عن الكرابيسي وما أظهره؟ فكلح وجهه ثم قال: إنما جاء بلاؤهم من هذه الكتب التي وضعوها تركوا آثار رسول الله ﷺ وأصحابه، وأقبلوا على هذه الكتب.اهـ.

وقال المروذي كما فيهداية الأريب (ص٣٨): قلت لأبي عبد الله: استعرت كتابًا فيه أشياء رديئة، ترى أن أخرقه أو أحرقه؟ قال: نعم. قال المروذي: قال أبو عبد الله: يضعون البدع في كتبهم، إنما أحذر منها أشد التحذير.اهـ.

وقال الإمام أحمد -أيضًا- كما في السير (١١/ ٢٣١): إياكم أن تكتبوا عن أحد من أصحاب الأهواء قليلًا ولا كثيرًا، عليكم بأصحاب الآثار والسنن.اهـ.

وفي السنّة للخلال (٣/ ٥١١): عن حرب بن إسماعيل قال سألت إسحاق بن راهوية، قلت: رجل سرق كتابًا من رجل فيه رأي جهم أو رأي القدر؟ قال: يرمي به. قلت: إنّه أخذ قبل أن يحرقه أو يرمي به هل عليه قطع؟ قال: لا قطع عليه، قلت لإسحاق: رجل عنده كتاب فيه رأي الإرجاء أو القدر أو بدعة

فاستعرته منه فلما صار في يدي أحرقته أو مزقته؟ قال: ليس عليك شيء.اهـ.

وقال أبو محمد ابن أبي حاتم كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنّة للالكائي (١/ ١٩٧-٢٠٢): وسمعت أبي وأبا زرعة: يأمران بهجران أهل الزيغ والبدع، يغلظان في ذلك أشد التغليظ، وينكران وضع الكتب برأي في غير آثار، وينهيان عن مجالسة أهل الكلام والنظر في كتب المتكلمين، ويقولان لا يفلح صاحب كلام أبدًا.اهـ.

وقال أيضًا كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٨٠): ووجدت في كتب أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ مما سمع منه يقول: مذهبنا واختيارنا اتباع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين ومن بعدهم بإحسان، وترك النظر في موضع بدعهم والتمسك بمذهب أهل الأثر وترك رأي الملبّسين المموهين المزخرفين الممخرقين الكذابين وترك النظر في كتب الكرابيسي ومجانبة من يناضل عنه من أصحابه.اهـ.

وقال نعيم بن حماد كما في الميزان (١/ ٦١): أنفقت على كتبه -يعني إبراهيم بن أبي يحيى- خمسة دنانير ثم أخرج إلينا يومًا كتابًا فيه القدر وكتابًا فيه رأي جهم، فقرأته فعرفت، فقلت: هذا رأيُك؟! قال: نعم. فحرقتُ بعض كتبه فطرحتها.اهـ.

وقد عقد الإمام أبو نصر عبيد الله بن سعيد السِّجزي في رسالته إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص٢٣١-٢٣٤) فصلًا في ذلك فقال: الفصل الحادي عشر في الحذر من الركون إلى كل أحد، والأخذ من كل كتاب؛ لأن التلبيس قد كثر والكذب على المذاهب قد انتشر، اعلموا رحمنا وإياكم الله سبحانه، أن هذا الفصل من أولى هذه الفصول بالضبط لعموم البلاء، وما يدخل

على الناس بإهماله، وذلك أن أحوال أهل الزمان قد اضطربت، والمعتمد فيهم قد عز، ومن يبيع دينه بعرض يسير، أو تحببًا إلى من يراه قد كثر، والكذب على المذاهب قد انتشر فالواجب على كل مسلم يحب الخلاص أن لا يركن إلى كل أحد ولا يعتمد على كل كتاب، ولا يسلّم عنانه إلى من أظهر له الموافقة فمن رام النجاة من هؤلاء، والسلامة من الأهواء فليكن ميزانه الكتاب، والأثر في كل ما يسمع ويرى؛ فإن كان عالمًا بهما عرضه عليهما واتباعه للسلف ولا يقبل من أحد قولًا إلا طالبه على صحته بآية محكمة، أو سنة ثابتة، أو قول صحابي من طريق صحيح وليحذر تصانيف من تغير حالهم فإن فيها العقارب وربما تعذّر الترياق.اهـ.

وقال الحافظ أبو عثمان سعيد بن عمرو البردعي كما في كتاب الضعفاء لأبي زرعة ضمن كتاب أبو زرعة الرازي وجهوده في السنة النبوية (٢/ ٥٦١-٥٦٢): شهدت أبا زرعة وقد سئل عن الحارث المحاسبي وكتبه فقال للسائل: إياك وهذه الكتب هذه كتب بدع وضلالات عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب

قيل له: في هذه الكتب عبرة فقال: من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة، بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي والأئمة المتقدمين صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء؟! هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع.اهـ.

قال الذهبي في الميزان (١/ ٤٣١)معلقًا: وأين مثل الحارث؟ فكيف لو رأى أبو زرعة تصانيف المتأخرين كالقوت لأبي طالب، وأين مثل القوت ! كيف لو رأى بهجة الأسرار لابن جهضم، وحقائق التفسير للسلمي لطار لُبُّه، كيف لو

رأى تصانيف أبي حامد الطوسي في ذلك على كثرة ما في الإحياء من الموضوعات؟!. كيف لو رأى الغنية للشيخ عبد القادر ! كيف لو رأى فصوص الحكم والفتوحات المكية؟!. بلى لما كان الحارث لسان القوم في ذلك العصر كان معاصره ألف إمام في الحديث، فيهم مثل أحمد بن حنبل وابن راهويه، ولما صار أئمة الحديث مثل ابن الدخميس، وابن شحانة كان قطب العارفين كصاحب الفصوص وابن سفيان. نسأل الله العفو والمسامحة آمين.اهـ.

وقال الشيخ ربيع بن هادي المدخلي - حفظه الله في منهج أهل السنة والجماعة في نقد الرجال والكتب والطوائف (ص:١٣٥-١٣٦) بعد نقله لكلام الذهبي السابق: "أقول: رحم الله الإمام الذهبي؛ كيف لو رأى مثل الطبقات للشعراني، وجواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض أبي العباس التيجاني لعلي ابن حرازم الفاسي؟! كيف لو رأى خزينة الأسرار لمحمد حقي النازلي؟! كيف لو رأى نور الأبصار للشلنبجي؟! كيف لو رأى شواهد الحق في جواز الاستغاثة بسيد الخلق وجامع الكرامات للنبهاني؟! كيف لو رأى تبليغي نصاب وأمثاله من مؤلفات أصحاب الطرق الصوفية؟! كيف لو رأى مؤلفات غزالي هذا العصر وهي تهاجم السنّة النبويّة وتسخر من حملتها والمتمسكين بها من الشباب السلفي وتقذفهم بأشنع التهم وأفظع الألقاب؟! كيف لو رأى مؤلفات المودودي وما فيها من انحراف عقدي وعقلي وسلوكي؟! كيف لو رأى مؤلفات القرضاوي وهي تدافع عن أهل البدع وتنتصر لها، بل تشرح أصولها، والذي ينحى منحى غزالي هذا العصر، بل هو أخطر؟! كيف لو رأى دعاة زماننا وقد أقبلوا على هذه الكتب المنحرفة، وهم يُسيّرون شبابهم وأتباعهم على مناهج الفرق المنحرفة الضالّة، بل وينافحون عنها وعن قادتها المبتدعين؟!

كيف لو رأى مصنفات الكوثري وتلاميذه أبي غدّة وإخوانه من كبار متعصبي الصوفيّة والمذهبية؟! كيف لو رأى مصنفات البوطي وأمثاله من خصوم السنّة وخصوم مدرسة التوحيد ومدرسة ابن تيميّة؟! كيف لو رأى شباب الأمة بل شباب التوحيد وقد جهلوا منهج السلف بل جهلوا الكتاب والسنّة وأقبلوا على هذه الكتب المهلكة؟!.اهـ.

وقال ابن قدامة في لمعة الاعتقاد (ص٣٣): ومن السنة هجران أهل البدع ومباينتهم وترك الجدال والخصومات في الدين، وترك النظر في كتب المبتدعة، والإصغاء إلى كلامهم،وكل محدثة في الدين بدعة.اهـ.

وقال أيضًا كما في تحريم النظر في كتب الكلام (ص٤١) في أثناء ردّه على ابن عقيل: أما هو وحزبه من أهل الكلام، فما ذكرهم إلا ذمّهم والتحذير منهم، والتنفير من مجالستهم، والأمر بمباينتهم وهجرانهم، وترك النظر في كتبهم.اهـ.

وقال العلامة ابن مفلح في كتابه الآداب الشرعية (١/ ٢٣٢): وذكر الشيخ موفق الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المنع من النظر في كتب المبتدعة، قال: كان السلف ينهون عن مجالسة أهل البدع، والنظر في كتبهم والاستماع لكلامهم.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٣٦): ومن هذا الباب سماع كلام أهل البدع، والنظر في كتبهم لمن يضره ذلك ويدعوه إلى سبيلهم وإلى معصية الله.اهـ.

وقال الشيخ محمد خليل هراس في شرحه لنونيّة ابن القيم (١/ ٣٦٠-٣٦١) معلقًا على هذه الأبيات: "ولا يظنن أحد أننا نتجنى على القوم أو نتهمهم بغير الحق، فتلك كتبهم تخبر عنهم كل من ينظر فيها وتشهد عليهم شهادة صدق، فليقرأها من شاء ليتأكد من صحة ما نسبناه إليهم، لكنا مع ذلك ننصح

كل أحد أن لا يقرأ هذه الكتب حتى لا يقع في حبائلها ويغرّه ما فيها من تزويق المنطق وتنميق الأفكار، لا سيما إذا لم يكن ممن رسخ في علوم الكتاب والسنة قدمه ولا تمكن منهما فهمه، فهذا لا يلبث أن يقع أسير شباكها، تبكيه نائحة الدوح على غصنها، وهو يجتهد في طلب الخلاص فلا يستطيع، والذنب ذنبه هو، حيث ترك أطيب الثمرات على أغصانها العالية حلوة المجتنى طيبة المأكل، وهبط إلى المزابل وأمكنة القذارة يتقمّم الفضلات كما تفعل الديدان والحشرات، وما أروع تشبيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حال من وقع أسير هذه الكتب وما فيها من ضلالات مزوقة قد فتن بها لُبُّه وتأثر بها عقله، بحال طير في قفص قد أحكم غلقه فهو يضرب بجناحيه طالبًا للخلاص منه فلا يجد فرجة ينفذ منها لضيق ما بين العيدان من فرج، وما أجمل أيضًا تشبيهه لعقائد الكتاب والسنة بثمرات شهية كريمة المذاق على أغصان عالية، بحيث لا يصل إليها فساد ولا يلحقها تلوث، وتشبيهه لعقائد هؤلاء الزائغين بفضلات قذرة وأطعمة عفنة ألقيت في أحدى المزابل، فلا يأوي إليها إلا أصحاب العقول القذرة والفطرة المنتكسة.اهـ.

وقال الذهبي في السير (١٩/ ٣٢٨-٣٢٩) بعد أن ذكر بعض كتب أهل الضلال كرسائل إخوان الصفا وأمثالها: فالحذارِ الحذارِ من هذه الكتب، واهربوا بدينكم من شُبَه الأوائل، وإلا وقعتم في الحيرة، فمن رام النجاة والفوز فليلزم العبودية، وليدمن الاستغاثة بالله، وليبتهل إلى مولاه في الثبات على الإسلام وأن يتوفى على إيمان الصحابة، وسادة التابعين، والله الموفق.اهـ.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن كما في الدرر السنية (٣/ ٢٠٩-٢١٠) في أثناء كلامه على الأشاعرة: فصنف المتأخرون من هؤلاء على مذهبهم الفاسد

مصنفات، كالأرجوزة التي يسمونها: جوهرة التوحيد؛ وهي إلحاد وتعطيل، لا يجوز النظر إليها، ولهم مصنفات أخر نفوا فيها علو الرب تعالى، وأكثر صفات كماله نفوها، ونفوا حكمة الرب تعالى.اهـ.

وقال صديق حسن خان في قطف الثمر في عقيدة أهل الأثر (ص١٥٧): ومن السنة هجران أهل البدع ومباينتهم وترك الجدال والخصومات في الدين والسنة، وكل محدثة في الدين بدعة، وترك النظر في كتب المبتدعة والإصغاء إلى كلامهم في أصول الدين وفروعه، كالرافضة والخوارج والجهمية والقدرية والمرجئة والكراميّة والمعتزلة، فهذه فرق الضلالة وطرائق البدع.اهـ.

وسئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ كما في شريط بعنوان رياض الصالحين عن مقولة سيد قطب في كتابه كتب وشخصيات (ص٢٤٢): (إن معاوية وزميله عمرًا لم يغلبا عليًا لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس، وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب، ولكن لأنهما طليقان في استخدام كل سلاح وهو مقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع، وحين يركن معاوية وزميله إلى الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم، لا يملك علي أن يتدلى إلى هذا الدرك الأسفل. فلا عجب ينجحان ويفشل، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح).

فأجاب العلامة ابن باز بقوله: "كلام قبيح هذا، كلام قبيح لسبّه معاوية وسبه عمرو بن العاص، كل هذا كلام قبيح، وكلام منكر ومعاوية وعمرو مجتهدون أخطئوا، مجتهدون أخطئوا. والله يعفو عنهم".

فقال سائل له: أحسن الله إليك، ما ينهى عن هذه الكتب التي فيها هذا الكلام؟

فقال: "ينبغي أن تمزق".اهـ.

وقال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (٥/ ٨٩-٩٠): ومن هجران أهل البدع ترك النظر في كتبهم خوفًا من الفتنة بها، أو ترويجها بين الناس، فالابتعاد عن مواطن الضلال واجب؛ لقوله ﷺ في الدجّال (من سمع بالدجال فلينأ عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات أو لما يبعث به من الشبهات)(١) لكن إذا كان الغرض من النظر في كتبهم معرفة بدعتهم للرد عليها فلا بأس بذلك لمن كان عنده من العقيدة الصحيحة ما يتحصن به، وكان قادرًا على الرد عليهم، بل ربما كان واجبًا؛ لأن رد البدعة واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.اهـ.

وسئل الدكتور صالح الفوزان حفظه الله كما الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة (ص٧٠): ما هو القول الحق في قراءة كتب المبتدعة، وسماع أشرطتهم؟

فأجاب: لا يجوز قراءة كتب المبتدعة ولا سماع أشرطتهم إلا لمن يريد أن يرد عليهم ويبين ضلالهم.اهـ.

فهكذا كان أهل السنة يعاملون أهل البدع ومؤلفاتهم، فقف حيث وقفوا فإنه

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١، رقم ١٩٨٨٨)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٢٩)، وأبو داود (٤/ ١١٦، رقم ٤٣١٩)، والبزار في مسنده (٣٥٩٠)، والدولابي في الكنى (١/ ١٧٠)، والحاكم (٤/ ٥٧٦، رقم ٨٦١٦)، والطبرانى (١٨/ ٢٢١، رقم ٥٥٢) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، والحديث احتج به ابن حزم في المحلى (١/ ٥٠)، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٢٢٠): إسناده جيد، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٦٣٠١)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٠٢٤)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٣/ ١٠٧): إسناده صحيح على شرط مسلم. انظر كتاب بصائر في الفتن.

يسعك ما وسعهم، ومن لم يسعه ما وسع رسول الله - ﷺ - ووسع السلف والأئمة بعده فلا وسّع الله عليه، ومن لم يكتف بما اكتفوا به ويرضى بما رضوا به ويسلك سبيلهم؛ فهو من حزب الشيطان و{إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير} ومن لم يرض الصراط المستقيم سلك إلى صراط الجحيم، ومن سلك غير طريق سلفه أفضت به إلى تلفه، ومن مال عن السنّة فقد انحرف عن طريق الجنّة، فاتقوا الله تعالى وخافوا على أنفسكم، فإن الأمر صعب، وما بعد الجنّة إلا النار وما بعد الحق إلا الضلال، ولا بعد السنّة إلا البدعة أضف إلى ذلك أن السلف قالوا بوجوب إتلاف كتب أهل البدع وإفسادها كما قال شيخ الإسلام ابن القيم في الطرق الحكميّة (ص٢٣٣-٢٣٥): وكذلك لا ضمان في تحريق الكتب المضلة وإتلافها، قال المرّوذي: قلت لأحمد: استعرت كتابًا فيه أشياء رديئة ترى أني أخرقه أو أحرقه؟ قال: نعم، وقد رأى النبي ﷺ بيدي عمر كتابًا اكتتبه من التوراة وأعجبه موافقته للقرآن، فتمعّر وجه النبي ﷺ حتى ذهب به عمر إلى التنور فألقاه فيه فكيف لو رأى النبي ﷺ ما صنف بعده من الكتب التي يعارض بعضها ما في القرآن والسنة؟ والله المستعان وكل هذه الكتب المتضمنة لمخالفة السنة غير مأذون فيها بل مأذون في محقها وإتلافها وما على الأمة أضر منها... إلى أن قال: والمقصود: أن هذه الكتب المشتملة على الكذب والبدعة، يجب إتلافها وإعدامها، وهي أولى بذلك من إتلاف آنية الخمر؛ فإن ضررها أعظم من ضرر هذه، ولا ضمان فيها، كما لاضمان في كسر أواني الخمر وشق زقاقها.اهـ.

وقال ابن القيم أيضًا في زاد المعاد (٣ / ٥٨١) عند قول كعب بن مالك: "فتيممت بالصحيفة التنور: "فيه المبادرة إلى إتلاف ما يخشى منه الفساد

والمضرة في الدين، وأن الحازم لا ينتظر به ولا يؤخره، وهذا كالعصير إذا تخمّر، وكالكتاب الذي يخشى منه الضرر والشرّ، فالحزم المبادرة إلى إتلافه وإعدامه.اهـ.

ونقل تقي الدين الفاسي في كتابه العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٢/ ١٧٦-١٧٧) عن الشيخ شرف الدين عيسى الزواوي المالكي ما نصه: ويجب على ولي الأمر إذا سمع بمثل هذا التصنيف -أي مؤلفات ابن عربي كالفصوص والفتوحات المكيّة- البحث عنه وجمع نسخه حيث وجدها وإحراقها، وأدّب من اتهم بهذا المذهب أو نسب إليه أو عرف به، على قدر قوّة التهمة عليه، إذا لم يثبت عليه، حتى يعرفه الناس ويحذروه، والله ولي الهداية بمنّه وفضله.اهـ.

ونقل أيضًا في العقد الثمين (٢/ ١٨٠-١٨١) عن الشيخ أبي يزيد عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون المالكي، مانصه: وأما حكم هذه الكتب المتضمنة لتلك العقائد المضلّة، وما يوجد من نُسخها بأيدي الناس مثل الفصوص، والفتوحات لابن عربي، والبُدّ لابن سبعين، وخلع النعلين لابن قسي، وعين اليقين لابن بَرَّجان، وما أجدر الكثير من شعر ابن الفارض، والعفيف التلمساني، وأمثالهما، أن تُلحق بهذه الكتب، وكذا شرح ابن الفرغاني للقصيدة التائية من نظم ابن الفارض، فالحكم في هذه الكتب كلها وأمثالها، إذهاب أعيانها متى وُجدت بالتحريق بالنار والغسل بالماء، حتى ينمحي أثر الكتابة، لما في ذلك من المصلحة العامة في الدين، بمحو العقائد المضِلّة.... ثم قال: فيتعيّن على ولي الأمر، إحراق هذه الكتب دفعًا للمفسدة العامة، ويتعيّن على من كانت عنده التمكين منها للإحراق، وإلا فينزعها وليّ الأمر، ويؤدبه

على معارضته على منعها؛ لأن ولي الأمر لا يعارض في المصالح العامة.اهـ.

وقال السخاوي في الجواهر والدرر (٢/ ٦٣٧-٦٣٨) في ترجمة شيخه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن الاتفاقيات الدالة على شدة غضبه لله ولرسوله: أنهم وجدوا في زمن الأشرف برسباي شخصًا من أتباع الشيخ نسيم الدين التبريزي وشيخ الخروفية المقتول على الزندقة سنة عشرين وثمانمائة ومعه كتاب فيه اعتقادات منكرةٌ فأحضروه، فأحرق صاحب الترجمة الكتاب الذي معه، وأراد تأديبه، فحلف أنه لا يعرف ما فيه، وأنّه وجده مع شخص، فظنّ أنّ فيه شيئًا من الرقائق، فأُطلق بعد أن تبرّأ مما في الكتاب المذكور، وتشهّد والتزم أحكام الإسلام.اهـ.

وقد أحرق علي بن يوسف بن تاشفين كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، وكان ذلك بإجماع الفقهاء الذين كانوا عنده. كما في المعيار المعرب (١٢/ ١٨٥).

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن كما في مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (٣/ ١٣٠-١٣١) في رسالته إلى عبد الله بن معيذر، وكان قد بلغ الشيخ أنه يشتغل بكتاب الإحياء للغزالي ويقرأ فيه عند العامة: من عبد اللطيف بن عبد الرحمن إلى الأخ عبد الله. سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد. فقد بلغني عنك ما يشغل كل من له حميّة إسلامية، وغيرة دينية على الملة الحنيفية، وذلك: أنك اشتغلت بالقراءة في كتاب الإحياء للغزالي، وجمعت عليه من لديك من الضعفاء والعامة الذين لا تمييز لهم بين مسائل الهداية والسعادة، ووسائل الكفر والشقاوة، وأسمعتهم ما في الإحياء من التحريفات الجائرة، والتأويلات الضالة الخاسرة، والشقاشق التي اشتملت على الداء الدفين،

والفلسفة في أصل الدين، وقد أمر الله تعالى وأوجب على عباده أن يتّبعوا الرسول، وأن يلتزموا سبيل المؤمنين، وحرم اتخاذ الولائج من دون الله ورسوله ومن دون عباده المؤمنين، وهذا الأصل المحكم لا قوام للإسلام إلا به، وقد سلك في الإحياء طريق الفلاسفة والمتكلمين، في كثير من مباحث الإلهيات وأصول الدين، وكسا الفلسفة لحاء الشريعة، حتى ظنها الأغمار والجهال بالحقائق من دين الله الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، ودخل به الناس في الإسلام، وهي في الحقيقة محض فلسفة منتنة يعرفها أولو الأبصار، ويمجّها من سلك سبيل أهل العلم كافة في القرى والأمصار، قد حذّر أهل العلم والبصيرة عن النظر فيها، ومطالعة خافيها وباديها، بل أفتى بتحريقها علماء المغرب ممن عُرف بالسنّة، وسماها كثير منهم: إماتة علوم الدين، وقام ابن عقيل أعظم قيام في الذم والتشنيع، وزيف ما فيه من التمويه والترقيع، وجزم بأن كثيرًا من مباحثه زندقة خالصة لا يقبل لصاحبها صرف ولا عدل[1].اهـ.

(١) كتاب إحياء علوم الدين، قد مدحه قوم حتى غلو في مدحه وقالوا: من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء، و ذمه قوم حتى أفتوا بحرقه و منعه، والحق أن كتاب الإحياء فيه نفع، و فيه طامات و بلايا توجب منع قراءته، إلا من الخبير المطلع على عقائد الصوفية والحلولية و الفلاسفة، المتحصن بعقيدة السلف الصالح، وما فيه من الخير موجود في غيره من الكتب، ونحن ننقل فتاوى بعض العلماء المحققين في كتاب الإحياء.
١ - المازري: قال الذهبي في السير (١٩/ ٣٣٠): وقد رأيت كتاب 'الكشف والإنباء عن كتاب الإحياء' للمازري أوله الحمد لله الذي أنار الحق وأداله وأبار الباطل وأزاله، ثم أورد المازري أشياء مما نقده على أبي حامد يقول: ولقد أعجب من قوم مالكية يرون مالكا الإمام يهرب من التحديد ويجانب أن يرسم رسما وإن كان فيه أثر ما، أو قياس ما تورعا وتحفظا من الفتوى فيما يحمل الناس عليه ثم يستحسنون من رجل فتاوى مبناها على ما لا حقيقة له، وفيه كثير من الآثار عن النبي ﷺ لفق فيه الثابت بغير الثابت، وكذا ما أورد عن السلف لا يمكن ثبوته كله، وأورد من نزغات الأولياء،
=

=

ونفثات الأصفياء ما يجل موقعه لكن مزج فيه النافع بالضار، كإطلاقات يحكيها عن بعضهم لا يجوز إطلاقها لشناعتها، وإن أخذت معانيها على ظواهرها كانت كالرموز إلى قدح الملحدين، ولا تنصرف معانيها إلى الحق إلا بتعسف على اللفظ مما لا يتكلف العلماء مثله إلا في كلام صاحب الشرع الذي اضطرت المعجزات الدالة على صدقه المانعة من جهله وكذبه إلى طلب التأويل.اهـ.

٢ - قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن حمدين القرطبي: قال الذهبي في السير (١٩/ ٣٣٢): وقال قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن حمدين القرطبي: إن بعض من يعظ ممن كان ينتحل رسم الفقه، ثم تبرأ منه شغفا بالشرعة الغزالية، والنحلة الصوفية أنشأ كراسة تشتمل على معنى التعصب لكتاب أبي حامد إمام بدعتهم، فأين هو من شنع مناكيره ومضاليل أساطيره المباينة للدين، وزعم أن هذا من علم المعاملة المفضي إلى علم المكاشفة الواقع بهم على سر الربوبية، الذي لا يسفر عن قناعه، ولا يفوز باطلاعه إلا من تمطى إليه ثبج ضلالته التي رفع لهم أعلامها وشرع أحكامها. قال أبو حامد: وأدنى النصيب من هذا العلم التصديق به، وأقل عقوبته ألا يرزق المنكر منه شيئا، فأعرض قوله على قوله، ولا يشتغل بقراءة قرآن ولا بكتب حديث، لأن ذلك يقطعه عن الوصول إلى إدخال رأسه في كم جبته، والتدثر بكسائه، فيسمع نداء الحق. فهو يقول: ذروا ما كان السلف عليه، وبادروا ما آمركم به. ثم إن هذا القاضي أقذع وسب وكفر وأسرف نعوذ بالله من الهوى.

وقال أبو حامد: وصدور الأحرار قبور الأسرار، ومن أفشى سر الربوبية كفر ورأى قتل مثل الحلاج خيرا من إحياء عشرة لإطلاقه ألفاظا، ونقل عن بعضهم قال: للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم وللعلم سر لو كشف لبطلت الأحكام.

قلت سر العلم قد كشف لصوفية أشقياء، فحلوا النظام وبطل لديهم الحلال والحرام.

قال ابن حمدين ثم قال الغزالي: والقائل بهذا إن لم يرد إبطال النبوة في حق الضعفاء فما قال ليس بحق فإن الصحيح لا يتناقض، وإن الكامل من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه.

وقال الغزالي في العارف: فتتجلى له أنوار الحق وتنكشف له العلوم المرموزة المحجوبة عن الخلق، فيعرف معنى النبوة وجميع ما وردت به ألفاظ الشريعة التي نحن منها على ظاهر لا على حقيقة.

=

=

وقال عن بعضهم إذا رأيته في البداية قلت صديقا، وإذا رأيته في النهاية قلت زنديقا ثم فسره الغزالي فقال: إذ اسم الزنديق لا يلصق إلا بمعطل الفرائض لا بمعطل النوافل، وقال وذهبت الصوفية إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية فيجلس فارغ القلب مجموع الهم يقول: الله، الله، الله، على الدوام، فليفرغ قلبه ولا يشتغل بتلاوة ولا كتب حديث. قال: فإذا بلغ هذا الحد التزم الخلوة في بيت مظلم وتدثر بكسائه فحينئذ يسمع نداء الحق، يَا أَيُّهَا {الْمُدَّثِّرُ} يَا أَيُّهَا {الْمُزَّمِّلُ}.

قلت: سيد الخلق إنما سمع يَا أَيُّهَا {الْمُدَّثِّرُ} من جبريل عن الله، وهذا الأحمق لم يسمع نداء الحق أبدا، بل سمع شيطانا أو سمع شيئا لا حقيقة من طيش دماغه، والتوفيق في الاعتصام بالسنة والإجماع.اهـ.

٣ - أبي الحسن بن سكر: قال الذهبي في السير (١٩/ ٣٤٢): ولأبي الحسن بن سكر رد على الغزالي في مجلد سماه 'إحياء ميت الأحياء في الرد على كتاب الإحياء.اهـ.

٤ - الإمام الذهبي: قال رَحِمَهُ اللَّهُ في السير (١٩/ ٣٣٩): أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء، ومنحرفي الصوفية، نسأل الله علما نافعا، تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن وفسره الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولا وفعلا، ولم يأت نهي عنه، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: "من رغب عن سنتي فليس مني"، فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله، وبإدمان النظر في الصحيحين وسنن النسائي ورياض النووي وأذكاره تفلح وتنجح، وإياك وآراء عباد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضات وجوع الرهبان، وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات، فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فوا غوثاه بالله، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم".اهـ.

٥ - شيخ الإسلام ابن تيمية: سئل كما في الفتاوى (١٠/ ٥٥١): عن إحياء علوم الدين، وقوت القلوب، فأجاب، أما كتاب قوت القلوب وكتاب الإحياء تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب مثل الصبر والشكر والحب والتوكل والتوحيد ونحو ذلك. وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر، وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبي حامد الغزالي، وكلامه أسد وأجود تحقيقا، وأبعد عن البدعة مع أن في قوت القلوب أحاديث ضعيفة وموضوعة، وأشياء كثيرة مردودة.

وأما ما في الإحياء من الكلام في المهلكات مثل الكلام على الكبر والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية، ومنه ما هو

=

=

مقبول، ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه. والإحياء فيه فوائد كثيرة، لكن فيه مواد مذمومة، فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدوا للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين، وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه وقالوا مرضه 'الشفاء' يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة. وفيه أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم. وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة، ما هو أكثر مما يرد منه، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس، وتنازعوا فيه.اهـ.

٦ - القباب: جاء في المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب (١٢/ ١٨٤): وسئل القباب عن جماعة من الطلبة يطعنون في كتاب الشيخ الإمام أبي حامد الغزالي رضي الله عنه المشهور بالإحياء، ويشددون في الإنكار على من أراد قراءته وبالغ بعضهم في ذلك إلى أن قال: ليس ذلك بإحياء علوم الدين وإنما هو إماتة علوم الدين.اهـ.

٧ - الطرطوشي: جاء في المعيار المعرب (١٢/ ١٨٦): ومما كتب به الأستاذ أبو عبد الله محمد ابن الوليد الطرطوشي إلى عبد الله بن المظفر، أما ما ذكرت من أمر الغزالي، فرأيت الرجل وكلمته فوجدته رجلا جليلا من أهل العلم، قد نهضت به فضائله، واجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول عمره، وكان على ذلك معظم زمانه، ثم بدا له عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمال ثم تصرف بمحير العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب ووسواس الشيطان ثم شابها برأي الفلاسفة ورموز الحلاج، وجعل ينحو على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين، فلما عمل كتابه سماه إحياء علوم الدين، عمد يتكلم في علوم الأحوال ومراقي الصوفية، وكان غير دري بها ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، فلا في علماء المسلمين قر، ولا في أحوال الزاهدين استقر، شحن كتابه بالكذب على رسول الله ﷺ، فلا أعلم كتابا على بسيط الأرض في مبلغ علمي أكثر كذبا على رسول الله ﷺ منه سبكه بمذاهب الفلاسفة ومعاني رسائل إخوان الصفاء، وهم قوم يرون النبوة اكتسابا وليس النبي في زعمهم أكثر من شخص فاضل تخلق بمحاسن الأخلاق وجانب سفسافها، وساس

=

ومن المواقف تجاه أهل البدع التي تسطر بماء الذهب ما حصل من الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تعزيره لعبدالله الخنيزي مؤلف كتاب (أبو

=

نفسه حتى ملك قيادها فلا تغلبه شهواته ولا يقهره سوء أخلاقه، ثم ساس الخلق بتلك الأخلاق، وأنكروا أن يكون الله تعالى من أقر منهم بالصانع يبعث إلى الخلق رسولا، ويؤيده بالمعجزات حيل ومخاريق.

ولقد شرف الله الإسلام، وأوضح حجته وأقام برهانه، وقطع عذر الخلائق بحججه الواضحة وأدلته القاطعة الدامغة، وما من ينصر دين الإسلام بمذاهب الفلاسفة وآراء المنطقية إلا كمن يغسل الماء بالبول، ثم يسوق الكلام سوقا يرعد فيه ويبرق ويمني، ويشوق حتى إذا تشوفت له النفوس قال: هذا من علم المعاملة، وما وراءه من علم المكاشفة، ولا يجوز تسطير في الكتاب أو يقول: وهذا من سر القدر الذي نهينا عن إفشائه، وهذا فعل الباطنية وأهل الدغل والدخل في دين الله، يستغل الموجود ويكلف النفوس بالمفقود، فهو تشويش لعقائد القلوب وتوهين لما عليه كلمة الجماعة، فإن كان الرجل يعتقد ما سطره في كتابه لم يبعد تكفيره، وإن كان لا يعتقده فما أقرب تضليله.

وأما ما ذكرت من إحراق الكتاب بالنار، فإنه إن ترك انتشر بين ظهور الخلق، ومن لا معرفة له بسمومه القاتلة، وخيف عليهم أن يعتقدوا صحة ما سطر فيه مما هو ضلال فيحرق قياسا على ما أحرقته الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من صحائف المصحف التي كان فيها اختلاف ألفاظ ونقص آي، ألا ترى أنهم لو لم يحرقوا تلك الصحائف، وانتشرت في الخلق لحفظ كل إنسان ما وقع منها إليه، وأوشك أن يختلفوا فيتقاتلوا ويتقاطعوا، وإني لعلى عزم أن أنفرد له. فأستخرج جميع هفواته، وأوضح سقطاته، وأبينها حرفا حرفا، وفي دونه من الكتب غنية وكفاية لإخواننا المسلمين وطبقات الصالحين.

ومعظم من وقع في عشق هذا الكتاب رجال صالحون لا معرفة لهم بما يلزم العقل وأصول الديانات، ولا يفهمون الإلهيات، ولا يعلمون حقائق الصفات، ولا يخبرون شياطين الإنس الذين انتدبوا للطعن في الدين، وتوهين عمود الإسلام وتعطيل الصانع وإفساد المعجزات، فمن لم يكن عنده تمييز لهذه الأبواب من الذب عن دين الله تعالى، ونصرة شريعته لم ينبغ له أن يقفو ما ليس له به علم يمدح على غير علم ويذم على غير علم والسلام.

طالب مؤمن قريش) وأصدر فيه حكمًا حازمًا، حتى أعلن الخنيزي توبته وكتبها، وإليك نص القرار الذي اتخذه الشيخ ابن إبراهيم كما فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم (١٢/ ١٨٧-١٨٩): من محمد بن إبراهيم إلى المكرم مدير شرطة الرياض سلمه الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فبالإشارة إلى المعاملة الواردة منكم برقم ٩٤٤ وتأريخ ١٠/ ١١/ ١٣٨١ المتعلقة بمحاكمة عبدالله الخنيزي، فإنه جرى الاطلاع على المعاملة الأساسية ووجدنا بها الصك الصادر من القضاة الثلاثة المقتضي إدانته، والمتضمن تقريرهم عليه، يعزر بأمور أربعة:

(أولًا): مصادرة نسخ الكتاب وإحراقها، كما صرّح العلماء بذلك في حكم كتب المبتدعة.

(ثانيًا): تعزير جامع الكتاب بسجنه سنة كاملة، وضربه كل شهرين عشرين جلدة في السوق مدّة السنة المشار إليها بحضور مندوب من هيئة الأمر بالمعروف مع مندوب الإمارة والمحكمة.

(ثالثًا): استتابته؛ فإذا تاب وأعلن توبته وكتب كتابة ضد ما كتبه في كتابه المذكور ونشرت في الصحف وتمت مدّة سجنه خلي سبيله بعد ذلك، ولا يطلق سراحه وإن تمت مدّة سجنه ما لم يقم بما ذكرنا في هذه المادة.

(رابعًا): فصله من عمله، وعدم توظيفه في جميع الوظائف الحكومية، لأن هذا من التعزير.

هذا ما يتعلق بالتعزير الذي قررته اللجنة، وبعد استكماله يبقى موضوع التوبة يجرى فيه ما يلزم إن شاء الله. والسلام عليكم.اهـ.

وإنصافًا لعبدالله الخنيزي فإنه قد تاب مما خطته يداه في كتابه المذكور

وأعلن توبته وكتبها، وهي مدونة بعد القرار المذكور[١].

(باب في استتابة أهل الأهواء واختلاف أهل العلم في تكفيرهم)

اعلم رحمني الله وإياك أن تكفير أهل البدع على قسمين:

القسم الأول: الحكم العام

وهو الحكم على المقالة أو على الفرقة بالكفر، فيقال فرقة كذا كافرة، ومن قال كذا فهو كافر.

هذا الأمر لابد وأن يكون مضبوطا بالكتاب والسنة ؛ لأن الكفر كما قدمنا حكم شرعي لا يكون إلا من الكتاب والسنة وقد حكم العلماء على مقالات أنها كفر وعلى فرق أنها فرق كفر .

قال البخاري: وقال الثوري من قال القرآن مخلوق فهو كافر .

وقال ابن مقاتل سمعت بن المبارك يقول من قال: (إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا)(طه: من الآية١٤) مخلوق فهو كافر لا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك وقد قد ورد عن كثير من السلف القول بتكفير الجهمية لما أحدثوه من أقوال في حقيقتها كفر محض .

ذكر ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٤٤) عن خارجة بن مصعب أنه كان يقول: الجهمية كفار أبلغ نساءهم أنهن طوالق لا يحللن لهم، لا تعودوا مرضاهم، ولا تشهدوا جنائزهم ثم تلا طه إلى قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى).اهـ.

وقال شارح نونية ابن القيم(١/ ١٤٧): وقد كان سلف الأمة وسادات الأئمة يرون كفر الجهمية أعظم من كفر اليهود كما قال عبد الله بن المبارك والبخاري وغيرهما.اهـ.

---

(١) انظر كتاب إجماع العلماء على الهجر والتحذير من أهل الأهواء.

ولكن برغم أن العلماء قد حكموا على الجهمية بالكفر وعلى من قال مقالتهم بالكفر ؛ لكن لم يحكموا على كل معين قال بذلك بالكفر.

لأن موقف أهل السنة والجماعة السائرين على منهج السلف الصالح من تكفير أهل البدع والعقائد الفاسدة هو التفصيل وهو أن أهل البدع ليسوا على درجة واحدة فمنهم من هو مقطوع بتكفيرة كمن أتى بقول أو فعل مكفر و تمت في حقه شروط التكفير و أنتفت موانعه و منهم من لا يحكم بكفره لانتفاء ذلك في حقه.

ثم إنّ القول في تكفير أهل البدع والتكفير عمومًا مبني على أصلين عظيمين:

أحدهما: دلالة الكتاب و السنة على أن القول أو الفعل الصادر من المحكوم عليه موجب للتكفير .

و ثانيهما: انطباق هذا الحكم على القائل المعيّن أو الفاعل المعيّن بحيث تتم شروط التكفير في حقه و تنتفي الموانع.

وهذان الأصلان أيضًا ينطبقان على الشخص عند الحكم عليه بالابتداع أو الفسق، وهو دلالة الكتاب والسنة على أن القول أو الفعل الصادر من المحكوم عليه بدعة، وكون القائل المعيّن أو الفاعل المعيّن تمت في حقه شروط التبديع وانتفت موانعه.

وطريقه أهل السنة بخلاف طريقة أهل البدع في هذه المسألة.

قال شيخ الإسلام في رده على البكري"(١/ ٣٧٧-٣٨٥):.. وهذه الطريقة التي سلكها هذا وأمثاله هي طريقة أهل البدع؛ الذين يجمعون بين الجهل والظلم، فيبتدعون بدعة مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الصحابة ويكّفُرون من خالفهم في بدعتهم، كالخوارج المارقين الذين ابتدعوا ترك العمل بالسنة

المخالفة في زعمهم للقرآن، وابتدعوا التكفير بالذنوب، وكفروا من خالفهم حتى كفروا عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ومن والاهما من المهاجرين والأنصار وسائر المؤمنين، نقل الأشعري في كتاب "المقالات" أن الخوارج مجمعة على تكفير علي رضي الله عنه وكذلك الرافضة ابتدعوا تفضيل علي على الثلاثة وتقديمه في الإمامة والنص عليه، وادعوا العصمة له، وكفروا من خالفهم، وهم جمهور الصحابة وجمهور المؤمنين حتى كفروا أبا بكر وعمر وعثمان ومن ولاهم، هذا الذي عليه أئمتهم.وذكر رحمه الله أن الجهمية والقدرية وغيرهم سلكوا هذا المسلك.اهـ. وأما طريق أهل السنة في هذا الباب فيتضح بالنقول الآتية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥١-٣٥٣): وأما تعيين الفرق الهالكة فأقدم من بلغنا أنه تكلم في تضليلهم يوسف بن أسباط، ثم عبدالله بن المبارك، وهما إمامان جليلان من أجلاء أئمة المسلمين قالا: أصول البدع أربعة: الروافض، والخوارج، والقدرية، والمرجئة، فقيل لابن المبارك: والجهمية؟ فأجاب بأن أولئك ليسوا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وكان يقول: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية، وهذا الذي قاله اتبعه عليه طائفة من العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم، قالوا: "إن الجهمية كفار لا يدخلون في الاثنتين والسبعين فرقة، كما لا يدخل فيهم المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، وهم الزنادقة"

وقال آخرون من أصحاب أحمد وغيرهم: بل الجهمية داخلون في الاثنتين والسبعين فرقة وجعلوا أصول البدع خمس، فعلى قول هؤلاء: يكون كل طائفة من (المبتدعة الخمسة) اثنا عشر فرقة، وهذا يبنى على أصل آخر، وهو (تكفير أهل البدع) فمن أخرج الجهمية منهم لم يكفرهم، فإنه لا يكفر سائر أهل البدع

بل يجعلهم من أهل الوعيد بمنزلة الفساق والعصاة، ويجعل قوله: هو في النار، مثل ما جاء في سائر الذنوب، مثل أكل مال اليتيم وغيره كما قال تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا يأكلون في بطونهم نارًا} (النساء:١٠) ومن أدخلهم فيهم فهم على قولين:

منهم من يكفرهم كلهم، وهذا إنما قاله بعض المتأخرين المنسبين إلى الأئمة أو المتكلمين، وأما السلف والأئمة فلم يتنازعوا في عدم تكفير (المرجئة) (والشيعة) المفضلة (الشيعة المفضلة هم الشيعة الأُول الذين فضلوا عليًا على أبي بكر وعمر وهؤلاء لا يكفرون وإن كانوا مخالفين للصحابة جميعًا بما فيهم علي بن أبي طالب نفسه الذي ثبت عنه من ثمانين وجها أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وقال: من فضلني على أبي بكر جلدته حد المفترى. وأما الشيعة الآخرون وهم أكثر من سبعين فرقة منهم الأمامية الإثنا عشرية، فهم الذين يقولون إن الله نص على إمامة علي واثنى عشر من أولاده، وهؤلاء يكفرون جميع المخالفين والصحابة إلا ثلاثة أو خمسة، ويقول جمهورهم بل اجماعهم في القرن الثالث والرابع بتحريف القرآن، ويفضلون هؤلاء الائمة الإثنى عشر على سائر الأنبياء والمرسلين، وكذلك الملائكة، ويدعون لهم علم الغيب والعصمة، وأنهم مفوضون في التشريع يشرعون ما شاءوا) ونحو ذلك، ولم تختلف نصوص أحمد في أنه لا يكفر هؤلاء، وإن كان من أصحابه من حكى في تكفير جميع أهل البدع -من هؤلاء وغيرهم- خلافًا عنه، أو في مذهبه، حتى أطلق بعضهم تخليد هؤلاء وغيرهم، وهذا غلط على مذهبه، وعلى الشريعة (لأن الذي لم يبلغه الحق والصواب، ومن لُبِّس عليه، فهو معذور والسلف يرون العذر بالجهل في الأصول والفروع، ومنهم من لم يكفر أحدًا من

هؤلاء إلحاقًا لأهل البدع بأهل المعاصي، قالوا فكما أن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم لا يكفرون أحدًا بذنب فكذلك لا يكفرون أحدًا ببدعة، والمأثور عن السلف والأئمة إطلاق أقوال بتكفير (الجهمية المحضة) الذين ينكرون الصفات، وحقيقة قولهم أن الله لا يتكلم ولا يرى، ولا يباين الخلق، ولا له علم ولا قدرة، ولا سمع ولا بصر ولا حياة، بل القرآن مخلوق، وأهل الجنة لا يرونه كما لا يراه أهل النار، وأمثال هذه المقالات، وأما الخوارج والروافض ففي تكفيرهم نزاع وتردد عند أحمد وغيره. وأما القدرية الذين ينفون (الكتابة) والعلم فكفروهم (أي من ينفي أن يكون الله قد علم أفعال الخلق قبل أن يخلقهم، أو ينفي كتابة المقادير قبل الخلق)، ولم يكفروا من أثبت العلم ولم يثبت خلق الأفعال.اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى أيضا (٧/ ٦١٨-٦١٩): والعلماء قد تنازعوا في تكفير أهل البدع والأهواء وتخليدهم في النار وما من الأئمة إلا من حكى عنه في ذلك قولان، كمالك والشافعي وأحمد وغيرهم، وصار بعض أتباعهم يحكى هذا النزاع في جميع أهل البدع وفى تخليدهم، حتى التزم تخليدهم كل من يعتقد أنه مبتدع بعينه.

وفى هذا من الخطأ ما لا يحصى، وقابله بعضهم فصار يظن أنه لا يطلق كفر أحد من أهل الأهواء وإن كانوا قد أتوا من الإلحاد وأقوال أهل التعطيل والاتحاد.

والتحقيق في هذا أن القول قد يكون كفرا كمقالات الجهمية الذين قالوا: إن الله لا يتكلم، ولا يرى في الآخرة، ولكن قد يخفى على بعض الناس أنه كفر فيطلق القول بتكفير القائل ؛ كما قال السلف من قال القرآن مخلوق فهو كافر،

ومن قال إن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر، ولا يكفر الشخص المعين حتى تقوم عليه الحجة كما تقدم ؛ كمن جحد وجوب الصلاة والزكاة واستحل الخمر والزنا وتأول، فإن ظهور تلك الأحكام بين المسلمين أعظم من ظهور هذه، فإذا كان المتأول المخطئ في تلك لا يحكم بكفره إلا بعد البيان له واستتابته كما فعل الصحابة في الطائفة الذين استحلوا الخمر ففي غير ذلك أولى وأحرى.اهـ.

وقال أيضا في المصدر السابق (١٢/ ٥٠٠): فتكفير المعين من هؤلاء الجهال وأمثالهم، بحيث يحكم عليه بأنه من الكفار لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم على أحدكم الحجة الرسالية التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسل ؛ وان كانت هذه المقالة لا ريب أنها كفر، وهكذا الكلام في تكفير جميع المعينين، مع أن بعض هذه البدعة أشد من بعض، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض، فليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين وإن اخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحبة، ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك ؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة.اهـ.

وقال أيضا في المصدر السابق (٢٣/ ٣٤٨-٣٤٩): فطائفة تحكى عن أحمد في تكفير أهل البدع روايتين مطلقا، حتى تجعل الخلاف في تكفير المرجئة والشيعة المفضلة لعلى، وربما رجحت التكفير والتخليد في النار وليس هذا مذهب أحمد ولا غيره من أئمة الإسلام ؛ بل لا يختلف قوله أنه لا يكفر المرجئة الذين يقولون الإيمان قول بلا عمل، ولا يكفر من يفضل عليا على عثمان ؛ بل نصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم، وإنما كان يكفر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته ؛ لأن مناقضة أقوالهم لما

جاء به الرسول ظاهرة بينة، ولأن حقيقة قولهم تعطيل الخالق، وكان قد ابتلى بهم حتى عرف حقيقة أمرهم، وأنه يدور على التعطيل وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة ؛ لكن ما كان يكفر أعيانهم، فإن الذي يدعو إلى القول أعظم من الذي يقول به، والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط، والذي يكفر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه، ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية إن القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة وغير ذلك، ويدعون الناس إلى ذلك، ويمتحنونهم ويعاقبونهم إذا لم يجيبوهم، ويكفرون من لم يجبهم حتى أنهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقر بقول الجهمية أن القرآن مخلوق وغير ذلك، ولا يولون متوليا، ولا يعطون رزقا من بيت المال إلا لمن يقول ذلك، ومع هذا فالإمام أحمد رحمه الله تعالى ترحم عليهم واستغفر لهم لعلمه بأنهم لمن يبين لهم أنهم مكذبون للرسول ولا جاحدون لما جاء به ؛ ولكن تأولوا فأخطأوا، وقلدوا من قال لهم ذلك، وكذلك الشافعي لما قال لحفص الفرد حين قال القرآن مخلوق كفرت بالله العظيم، بين له أن هذا القول كفر، ولم يحكم بردة حفص بمجرد ذلك ؛ لأنه لم يتبين له الحجة التي يكفر بها، ولو اعتقد أنه مرتد لسعى في قتله، وقد صرح في كتبه بقبول شهادة أهل الأهواء والصلاة خلفهم، وكذلك قال مالك رَحِمَهُ اللهُ والشافعي وأحمد في القدري إن جحد علم الله كفر.اهـ.

وقال أيضا في المصدر السابق (٣/ ٢٢٩-٢٣١): ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها وقد قلت لهم غير مرة: أنا أمهل من يخالفني ثلاث سنين إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة يخالف ما قلته فأنا أقر بذلك وأما ما أذكره فأذكره عن أئمة القرون الثلاثة بألفاظهم وبألفاظ من نقل

إجماعهم من عامة الطوائف هذا مع أني دائما ومن جالسني يعلم ذلك مني أني من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرا تارة وفاسقا أخرى وعاصيا أخرى وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية كما أنكر شريح قراءة من قرأ {بل عجبت ويسخرون} وقال إن الله لا يعجب، فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال إنما شريح شاعر يعجبه علمه. كان عبد الله أعلم منه وكان يقرأ {بل عجبت} وكما نازعت عائشة وغيرها من الصحابة في رؤية محمد ربه وقالت: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ومع هذا لا نقول لابن عباس ونحوه من المنازعين لها: إنه مفتر على الله وكما نازعت في سماع الميت كلام الحي وفي تعذيب الميت ببكاء أهله وغير ذلك وقد آل الشر بين السلف إلى الاقتتال مع اتفاق أهل السنة على أن الطائفتين جميعا مؤمنتان، وأن الاقتتال لا يمنع العدالة الثابتة لهم، لأن المقاتل وإن كان باغيا فهو متأول والتأويل يمنع الفسوق. وكنت أبين لهم أنما نقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضا حق، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار وهي مسألة " الوعيد " فإن نصوص القرآن في الوعيد مطلقة كقوله {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما} الآية وكذلك سائر ما ورد: من فعل كذا فله كذا. فإن هذه مطلقة عامة. وهي بمنزلة قول من قال من السلف من قال كذا: فهو كذا. ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه: بتوبة أو

حسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو شفاعة مقبولة، والتكفير هو من الوعيد فإنه وإن كان القول تكذيبا لما قاله الرسول، لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام أو نشأ ببادية بعيدة. ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة وقد يكون الرجل لا يسمع تلك النصوص أو سمعها ولم تثبت عنده أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها، وإن كان مخطئا.اهـ.

وقال السبكي في قضاء الأرب في أسئلة أهل حلب (ص٥٢٤) بعد أن قال بكفر غلاة الرافضة والقدرية النفاة للعلم وأن من شرط تكفير المعين اعتراف الشخص به، وأنه يبعد أن يحصل هذا الاعتراف، وأن التكفير لا ينكر إذا حصل شرطه، وأنه لا يكفي في ذلك أن يقال هذا من تلك الفرقة وإن كان يُحكم من حيث الجملة على من اعتقد بمكفر أنه كافر إلى أن قال: ولقد رأيت تصانيف جماعة يظن بهم أنهم من أهل العلم، ويتعلقون بشيء من رواية الحديث، وربما كان لهم نسك وعبادة، وشهرة بالعلم تكلموا بأشياء، ورووا أشياء تنبي عن جهلهم العظيم ويقدمون على تكفير من لا يستحق التكفير، وما سبب ذلك إلا ما هم عليه من فرط الجهل والتعصب، والنشأة على شيء لم يعرفوا سواه، وهو باطل، ولم يشتغلوا بشيء من العلم حتى يفهموا ؛ بل هم في غاية الغباوة.اهـ.

وقال ابن مفلح في الفروع (٦/ ١٥٤): وقال شيخنا: نصوصه صريحة على عدم كفر الخوارج والقدرية والمرجئة وغيرهم وإنما كفَّر الجهمية لا أعيانهم، قال وطائفة تحكي عنه روايتين في تكفير أهل البدع مطلقا ، حتى المرجئة والشيعة المفضلة لعلي قال ومذاهب الأئمة أحمد وغيره مبنية على التفصيل بين النوع والعين.اهـ.

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الطرق الحكمية (١/ ٢٥٥) عن شهادة

الفساق: فأما أهل البدع الموافقون لأهل الإسلام، ولكنهم مخالفون في بعض الأصول كالرافضة والقدرية والجهمية وغلاة المرجئة ونحوهم فهؤلاء أقسام: أحدها: الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له، فهذا لا يكفر ولا يفسق.

(باب ذكر مباحث الإيمان بالقدر)

مسائل في القضاء والقدر.

المسألة الأولى: تعريف القضاء والقدر

أولا: تعريف القضاء لغة: بالمد ويقصر، أصله، قضاي، فلما جاءت الياء بعد ألف زائدة متطرفة همزت وجمعه أقضية.

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (٥/ ٩٩): القاف والضاد والحرف المعتل أصل صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته.اهـ.

وقال ابن الأثير في النهاية (٤/ ٧٨): القضاء في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه.اهـ.

ويتبين مما تقدم أن معنى القضاء في اللغة هو إحكام الشيء وإتمام الأمر، وهذا هو أصل معنى القضاء، وإليه ترجع جميع معاني القضاء الواردة في اللغة، وقد يأتي بمعنى القدر، وقد ورد لفظ القضاء ومشتقاته كثيرًا في القرآن الكريم، وكل معانيه، التي قد تأتي متداخلة أحيانًا، ترجع إلى الأصل السابق، فمن المعاني التي ورد بها:

١- معنى الأمر، ومنه قوله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ) [الإسراء: ٢٣]، أي: أمر سبحانه وتعالى بعبادته وحده لا شريك له.

٢- معنى الأداء والإنهاء، (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ) [الحجر: ٦٦]، أي: تقدمنا إليه وأنهينا.

٣- معنى الحكم، ومنه قوله تعالى: (فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ) [طه: ٧٢] اصنع، واحكم، وافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك.

٤- ومعنى الفراغ، ومنه قوله تعالى: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) [فصلت: ١٢] أي: فرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين، ومنه قوله تعالى: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ) [القصص: ٢٩] أي: فرغ من الأجل الأوفى والأتم.

٥- ومعنى الأداء، ومنه قوله تعالى: (فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ)[البقرة: ٢٠٠] أديتموها وفرغتم منها وهذا داخل في المعنى السابق.

٦- ومعنى الإعلام، ومنه قوله تعالى: (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) [الإسراء: ٤] أي: تقدمنا وأخبرنا بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزل إليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين.

٧- وبمعنى الموت، يقال: ضربه فقضى عليه، أي: قتله قال تعالى: (فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ) [القصص: ١٥] ، أي قتله.

هذه هي أهم معاني (القضاء) في اللغة، وهناك اشتقاقات أخرى ذكرتها كتب اللغة ومن خلال عرض هذه المعاني يتبين ما بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي من رابط قوي، فتقدير الله للأمور، وكتابته لذلك، وكونها تجري بحكمة ودقة على حسب ما أرادها سبحانه وقضاها، كل هذه المعاني يوحي بها المعنى اللغوي.

ثانيا: تعريف القدر في اللغة: القدر مصدر الفعل قَدِرَ يقْدَرُ قدَرًا، وقد تسكن دالُه.

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (٥/ ٦٢) مادة (قدر): قدر: القاف، والدال، والراء، أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه، ونهايته؛ فالقدْر مبلغ

كل شيء، يقال: قَدْرُه كذا أي مبلغه، وكذلك القدَرُ، وقدَرْت الشيء أقدِره وأقدُره من التقدير.اهـ.

والقدَر محركة: القضاء، والحكم، وهو ما يقدِّره الله ﷻ من القضاء، ويحكم به من الأمور.

والتقدير: التروية، والتفكير في التسوية أمر، والقَدَرُ كالقَدْر وجميعها جمعها: أقدار.

والفرق بين القدر والتقدير كما يقول أبو هلال العسكري في الفروق في اللغة (ص٣٢٨): أن التقدير يُستعمل في أفعال العباد، ولا يُستعمل القدر إلا في أفعال الله ﷻ.اهـ.

ويطلق القدر في القرآن عدة إطلاقات منها:

١- التضييق: قال تعالى: (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) الفجر:١٦.

٢- التعظيم: قال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) الأنعام:٩١.

٣- الاستطاعة، والتغلب، والتمكن: قال تعالى: (إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ) المائدة:٣٤.

٤- التدبير: قال تعالى: (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) المرسلات:٢٣، أي دبَّرنا الأمور، أو أردنا وقوعها بحسب تدبيرنا.

٥- تحديد المقدار، أو الزمان، أو المكان: قال تعالى: [وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ] سبأ: ١٨، وقال: (وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ) فصلت:١٠.

٦- الإرادة: قال تعالى: (فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) القمر:١٢، أي دبِّر، وأريد وقوعه.

٧- القضاء والإحكام: قال تعالى: [نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ] الواقعة:٦٠.

أي قضينا، وحكمنا.

٨- التمهل والتَّروي في الإنجاز: قال تعالى: [إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ] المدثر:١٨، أي تمهَّل، وتروَّى؛ ليتبين ما يقوله في القرآن، وقال: [وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ] سبأ: ١١.

أي تمهلْ، وتروَّ في السرد؛ كي تحكمه.

٩- الصنع بمقادير معينة: قال تعالى: [قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا] الإنسان:١٦.

ويتبين مما سبق ما بين المعنى اللغوي لكل من القضاء والقدر والمعنى الشرعي -كما سيأتي- من رابط قوي، فكل منهما يأتي بمعنى الآخر، ومن معاني القضاء ترجع إلى إحكام الأمر وإتقانه وإنفاذه، ومن معانيه الأمر، والحكم، والإعلام، كما أن معاني القدر ترجع إلى التقدير، والله سبحانه وتعالى قدر مقادير الخلق، فعلمها وكتبها وشاءها وخلقها، وهي مقضية ومقدرة فتقع حسب أقدارها، ويتبين من خلال ذلك ما بين معنى القضاء والقدر في اللغة والشرع من ترابط.

معنى القضاء والقدر شرعًا

هناك بعض ممن تطرق لتعريف القضاء والقدر يُعَرِّفُه ببعض أفراده، أو بعمومه دون تفصيل، أو إشارة إلى مراتبه وأركانه.

فهذا الجرجاني يعرف القدر فيقول في كتابه التعريفات (ص١٧٤): القدر: خروج الممكنات من العدم إلى الوجود واحدًا بعد واحد مطابقًا للقضاء، والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال.

وقال في تعريف القضاء في التعريفات (ص١٧٧): القضاء لغة: الحكم، وفي الاصطلاح: عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي

عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد[١].

وهذا التعريف صحيح، ولكن ينقصه الشمول، واستيعابُ جميعِ الأفراد؛ وهي مراتب القدر الأربع.

ويمكن أن يعرف القضاء والقدر بأحد التعريفات التالية

١- هو ما سبق به العلم، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه ﷻ قدر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تقع في الأزل، وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى وعلى صفات مخصوصة؛ فهي تقع على حسب ما قدرها. وهذا هذا تعريف السفاريني في لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٤٨).

٢- وعُرِّف بأنه: تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمُه، واقتضته حكمته، وهو تعريف العلامة العثيمين في كتابه رسائل في العقيدة (ص٣٧).

٣- هو تقدير الله تعالى للأشياء في القِدَم، وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة وعلى صفات مخصوصة، وكتابته لذلك، ومشيئته له، ووقوعها على حسب ما قدرها، وخلقه لها، وهذا تعريف الدكتور عبدالرحمن المحمود في كتابه القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ومذاهب الناس فيه (ص٣٩).

٤- ويمكن أن يعرف القضاء والقدر تعريفًا مختصرًا جامعًا لمراتبه فيقال:

هو علم الله بالأشياء، وكتابته، ومشيئته، وخلقه لها، وهو تعريف الشيخ محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد في كتابه شرح التائية في القدر (ص٥٣).

---

(١) الأزل: هو الشيء الذي لا بداية له، والأبد: هو الشيء الذي لا نهاية له. أو يقال: الأزل: هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية من جانب الماضي، والأبد: هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية من جانب المستقبل. انظر التعريفات للجرجاني (ص٧).

(فرع): هل هناك فرق بين القضاء والقدر

انقسم العلماء في ذلك إلى فريقين، الفريق الأول: قالوا بأنه لا فرق بين القضاء والقدر، فكل واحد منهما في معنى الآخر، فإذا أطلق التعريف على أحدهما شمل الآخر، ولذلك إذا أطلق القضاء وحده فسر بالقدر، وكذلك القدر، فلا فرق بينهما في اللغة، كما أنه لا دليل على التفريق بينهما في الشرع.

وقد سئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (٤/ ١٩١): ما الفرق بين القضاء والقدرفأجاب: القضاء هو القدر، والقدر هو القضاء، ومعناهما واحد وهو الشيء الذي قضاه الله سابقا وقدره سابقا، يقال لهذا قضاء، ولهذا قدر يعني ما سبق في علم الله أنه قدره من موت وحياة وعز وذل وأمن وخوف، كله وغيره يسمى قضاء ويسمى قدرا.اهـ.

الفريق الثاني: قالوا بالفرق بينهما، ولكن هؤلاء اختلفوا في التمييز بينهما على أقوال:

١- قيل: المراد بالقدر: التقدير، وبالقضاء: الخلق كقوله تعالى: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) فصلت:١٢، أي خلقهن، فالقضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء؛ فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه.

قال الراغب الأصفهاني في المفردات (ص٤٢٣-٤٢٤): والقضاء من الله أخص من القدر؛ لأنه الفصل بين التقدير؛ فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع.

وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المُعَدِّ للكيل، والقضاء بمنزلة الكيل.

٢- وقيل العكس؛ فالقضاءُ هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدرُ هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق، قال الجرجاني في التعريفات (ص١٧٤): والفرق بين القدر والقضاء هو أن القضاء وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة، والقدر وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها.

وقد سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢/ ٧٩): ما الفرق بين القضاء والقدر؟.

فأجاب: فأجاب بقوله: اختلف العلماء في الفرق بينهما، فمنهم من قال: إن القدر: "تقدير الله في الأزل"، والقضاء: "حكم الله بالشيء عند وقوعه"، فإذا قدر الله تعالى أن يكون الشيء المعين في وقته فهذا قدر، فإذا جاء الوقت الذي يكون فيه هذا الشيء فإنه يكون قضاء، وهذا كثير في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: {قُضِيَ الْأَمْرُ}، وقوله: {وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ}، وما أشبه ذلك. فالقدر تقدير الله تعالى الشيء في الأزل، والقضاء قضاؤه به عند وقوعه، ومنهم من قال: إنهما بمعنى واحد، والراجح: أنهما إن قرنا جميعا فبينهما فرق كما سبق، وإن أفرد أحدهما عن الآخر فهما بمعنى واحد، والله أعلم.

وسئل الشيخ أيضا في تفس المصدر (٢/ ٧٩-٨٠): هل بين القضاء والقدر عموم وخصوص؟.

فأجاب: القضاء إذا أطلق شمل القدر، والقدر إذا أطلق شمل القضاء، ولكن إذا قيل: القضاء والقدر صار بينهما فرق، وهذا كثير في اللغة العربية تكون الكلمة لها معنى شامل عند الانفراد، ومعنى خاص عند الاجتماع، ويقال في مثل ذلك: "إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا"، فالقضاء والقدر الصحيح أنهما

من هذا النوع، يعني أن القضاء إذا أفرد شمل القدر. والقدر إذا أفرد شمل القضاء، لكن إذا اجتمعا فالقضاء: "ما يقضيه الله في خلقه من إيجاد، أو إعدام، أو تغيير"، والقدر: "ما قدره الله تعالى في الأزل". هذا هو الفرق بينهما، فيكون القدر سابقا، والقضاء لاحقا.

المسألة الثانية: الإيمان بالقدر

اعلم وفقك الله أن حقيقة الإيمان بالقضاء هي: التصديق الجازم بأن كل ما يقع في هذا الكون فهو بتقدير الله تعالى، وأن الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان وأنه لا يتم إيمان أحد إلا به ففي صحيح مسلم (رقم ٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه بلغه أن بعض الناس ينكر القدر فقال: (إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني براء منهم وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا ثم أنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر).

ثم اعلم أن الإيمان بالقدر لا يصح حتى تؤمن بمراتب القدر الأربع وهي

المرتبة الأولى: العلم: وهو الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملة وتفصيلًا، أزلًا، وأبدًا، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، أو بأفعال عباده؛ فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الموجود، والمعدوم، والممكن، والمستحيل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

وقد عَلِمَ جميع خلقه قبل أن يخلقهم، فعلم أرزاقهم، وآجالهم، وأقوالهم، وأعمالهم، وجميع حركاتهم، وسكناتهم، وأهل الجنة، وأهل النار، وهذه المرتبة وهي العلم السابق اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليها جميع الصحابة، ومن تبعهم من هذه الأمة، وخالفهم مجوسُ هذه الأمة القدرية الغلاة.

المرتبة الثانية: الكتابة: وهي الإيمان بأن الله كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ، وقد أجمع الصحابة، والتابعون، وجميع أهل السنة والحديث على أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، التي هي اللوح المحفوظ، والذكر، والإمام المبين، والكتاب المبين.

روى الإمام مسلم (٢٦٥٣) في صحيحه عن عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء).

قال النووي في شرح مسلم (١٦/ ٢٠٣): قال العلماء: المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا أصل التقدير؛ فإن ذلك أزلي لا أول له.

المرتبة الثالثة: المشيئة: وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة، ولا سكون، ولا هداية، ولا إضلال إلا بمشيئته، وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله عليها خلقه، وأدلة العقل والبيان.

المرتبة الرابعة: الخلق: وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها، وصفاتها، وحركاتها، وبأن كل من سوى الله مخلوق مُوْجَدٌ من العدم، كائن بعد أن لم يكن، وهذه المرتبة دلت عليها الكتب السماوية، وأجمع عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام واتفقت عليها الفطر القويمة، والعقول السليمة.

ومن لوازم صحة الإيمان بالقدر أن تؤمن

- بأن للعبد مشيئة واختيارا بها تتحقق أفعاله كما قال تعالى: (لمن شاء

منكم أن يستقيم) التكوير/ ٢٨ وقال: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) البقرة / ٢٨٦

- وأن مشيئة العبد وقدرته غير خارجة عن قدرة الله ومشيئته فهو الذي منح العبد ذلك وجعله قادرا على التمييز والاختيار كما قال تعالى: (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) التكوير/ ٢٩

- وأن القدر سر الله في خلقه فما بينه لنا علمناه وآمنا به وما غاب عنا سلمنا به وآمنا، وألا ننازع الله في أفعاله وأحكامه بعقولنا القاصرة وأفهامنا الضعيفة بل نؤمن بعدل الله التام وحكمته البالغة وأنه لا يسأل عما يفعل سبحانه وبحمده.

الأدلة على إثبات القدر: الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان وقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على إثباته وتقريره. فمن الكتاب:

١- قوله تعالى: (وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) الأحزاب: ٣٨. ومعنى هذه الآية: أن الله ﷻ قدَّر أن يخلق خلقًا، ويأمرهم وينهاهم، ويجعل ثوابًا لأهل طاعته، وعقابًا لأهل معصيته، فلما قدَّره كتب ذلك وغيَّبه، فسماه الغيب وأم الكتاب، وخلق الخلق على ذلك الكتاب: أرزاقهم، وآجالهم، وأعمالهم، وما يصيبهم من الأشياء من الرخاء والشدة، فكان أمر الله الذي مضى، وفرغ منه، وخلق الخلق عليه قدرًا مقدورًا.

٢- قوله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) القمر: ٤٩. ومعنى الآية: أن الله سبحانه قدر الأشياء، أي علم مقاديرها وأحوالها، وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه؛ فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته، وإرادته.

٣- قوله تعالى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) الحجر: ٢١. وهذا عام في كل شيء، وذهب قوم من المفسرين إلى أن المراد به المطر خاصة.

٤- وقوله تعالى: (إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، فقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) المرسلات: ٢٢-٢٣

٥- قوله تعالى: (ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى) طه: ٤٠.

٦- قوله تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) الفرقان: ٢.

٧- قوله تعالى: (مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ) عبس: ١٩.

٨- قوله تعالى: (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) الأعلى: ٣.

٩- قوله تعالى: (لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) الأنفال: ٤٢.

١٠- قوله تعالى: (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ) الإسراء: ٤.

وأما السنة فقد دلت كذلك على إثبات القدر في أحاديث كثيرة منها حديث جبريل في الصحيح وسؤاله للنبي ﷺ عن أركان الإيمان فذكر منها: «الإيمان بالقدر خيره وشره» وقدم تقدم، وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وقال: وكان عرشه على الماء». وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا (إن النذر لا يقرب من ابن آدم شيئا لم يكن الله تعالى قدره له و لكن النذر يوافق القدر فيخرج ذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يريد أن يخرج)، ومنها حديث جابر بن عبد الله مرفوعا (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره و شره، حتى يعلم أن

ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه) وهو مخرج في الصحيحة (٢٤٣٩)، وحديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي مرفوعا (إن الله ﷻ خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي و هؤلاء إلى النار ولا أبالي فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل ؟ قال: على مواقع القدر) وهو مخرج في الصحيحة (٤٨)، وحديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي مرفوعا (إن الله ﷻ خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي و هؤلاء إلى النار ولا أبالي فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل ؟ قال: على مواقع القدر) وهو مخرج في الصحيحة (٤٨)، وغيرها من الأحديث كثير.

والإيمان بالقدر محل إجماع الأمة من الصحابة ومن بعدهم. أخرج مسلم في صحيحه عن طاوس أنه قال: (أدركت ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون كل شيء بقدر). قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز»، والكيس: ضد العجز وهو النشاط والحذق بالأمور.

قال النووي في شرح مسلم (١/ ١٥٥): تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى.اهـ.

وقال الإمام الصابوني في عقيدة السلف (ص ٨٥، ٢٨٠، ٢٨٥): ويشهدون يعني أهل السنة أنَّ الله تعالى يهدي من يشاء لدينه، ويُضل من يشاء عنه، لا حجة لمن أضله عليه، ولا عذر لديه، قال الله ﷻ:(قُلْ فَلِلَّـهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) سورة الأنعام:١٤٩. وقال سبحانه:(وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ

هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) سورة السجدة:١٣.

سبحانه خلق الخلق بلا حاجة إليهم، فجعلهم فريقين: فريقًا للنعيم فضلًا، وفريقًا للجحيم عدلًا، وجعل منهم غويًا ورشيدًا، وشقيًا وسعيدًا، وقريبًا من رحمته وبعيدًا [لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ.

وقال أيضا: يشهد أهل السنة، ويعتقدون أنَّ الخيرَ والشرَ والنفعَ والضرَّ بقضاء الله وقدره لا مردَّ لها، ولا محيص ولا محيد عنها لا يصيب المرء إلا ما كتبه ربه، ولو جهد الخلق أن ينفعوا المرء بما لم يقضه لم يَقْدروا.

وقال أيضا: ومذهب أهل السنة والجماعة أن الله ﷻ مريد لجميع أعمال العباد خيرها وشرها، ولم يؤمن أحدٌ إلا بمشيئة الله، ولو شاء لجعل الناس أمةً واحدةً، ولو شاء ألا يعصى ما خلق إبليس؛ فكفر الكافرين، وإيمان المؤمنين بقضائه سبحانه وتعالى وقَدَرِه وإرادته ومشيئته، أراد كلَّ ذلك وشاءه وقضاه.

ويرضى الإيمان والطاعة، ويسخط الكفر والمعصية، قال الله ﷻ:(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ....) سورة الزمر.اهـ.

وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤٩-٤٥٠): مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وهو أن الله خالق كل شيء، وربه، ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها، وصفاتها القائمة بها، من أفعال العباد،وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته، وقدرته، لا

يمتنع عليه شيء شاءه، بل هو قادر على كل شيء، ولا يشاء شيئًا إلا وهو قادر عليه، وأنه سبحانه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وقد دخل في ذلك أفعال العباد، وغيرها، وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم؛ قدر آجالهم، وأرزاقهم، وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة، وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها، وكتابته إياها قبل أن تكون.اهـ.

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٢٨٧): ومذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله تعالى.

المسألة الثالثة: شبهة والرد عليها

ضل فريق في باب القدر فقالوا: إذا كان الله عالمًا بكل شيء نفعله، وعالمًا بمصيرنا إلى الجنة أو النار، وكان هو الخالق لأفعالنا، فلماذا نعمل ونتعب؟ ولماذا لا نترك الأقدار تجري في أَعِنَّتِهَا، وسيأتينا ما قدر لنا شئنا أم أبينا.

وقد تَعَمَّقَتْ هذه الضلالة عند طوائف من العُباد والزهاد وأهل التصوف، ولم تقله طائفة واحدة بعينها من طوائف أهل المقالات، وكان ولا يزال هذا القول على ألسنة كثير من جهال المسلمين وأهل الزيغ والزندقة، وهذا الفريق يؤمن بالقدر، وأن الله عالم بكل شيء، وخالق لكل شيء، ومريد لجميع الكائنات، ولكنهم زعموا أن كل ما خلقه الله وشاءه فقد رضيه وأحبه، وزعموا أنه لا حاجة بالعباد إلى العمل والأخذ بالأسباب، فما قُدِّر لهم سيأتيهم، وزعموا أن العباد مجبورون على أفعالهم، فالإنسان عندهم ليس له قدرة تؤثر في الفعل، بل هو مع القدر كالريشة في مهب الريح، وكالساقط من قمة جبل

شامخ إلى واد بعيد غورهُ، سحيق قَعْره، لا يملك وهو يتردى فيه من أمره شيئًا. لقد ترك هؤلاء العمل احتجاجًا بالقدر قبل وقوعه، واحتجوا بالقدر على ما يقع منهم من أعمال مخالفة للشرع، ووصل بهم الحال إلى عدم التفريق بين الكفر والإيمان، وأهل الهدى والضلال، لأن جميع ذلك خلق الله، فلم التفريق؟ إن هذه العقيدة المنحرفة أضلت عقولًا كثيرة وانحرف مسارها عن جادة الحق والصواب، فاضطربت عندها موازين العدل والحق، وعطلت هذه العقيدة المنحرفة طاقات هائلة في العالم الإسلامي، أقعدتها عن العمل، بل جيَّرت أعمالها لمصلحة أعداء الإسلام في بعض الأحيان. لقد كان من آثار هذه العقيدة الزعم بأن الله أحب الكفر والشرك والقتل والزنا والسرقة وعقوق الوالدين وغير ذلك من الذنوب والمعاصي، لأنهم يزعمون أن كل شيء خلقه الله وأوجده فهو يحبه ويرضاه. ومن آثارها أن أصحابها تركوا الأعمال الصالحة الخيرة التي توصلهم إلى الجنة وتنجيهم من النار، وارتكبوا كثيرًا من الموبقات بدعوى أن القدر آت آت، وكل ما قدر للعبد سيصيبه، فلماذا العمل والتعب والنصب.

لقد ترك هؤلاء الأخذ بالأسباب، فتركوا الصلاة والصيام، كما تركوا الدعاء والاستعانة بالله والتوكل عليه، لأنه لا فائدة منها، فالذي يريده الله ماض قادم لا ينفع معه دعاء ولا عمل، ورضي كثير من هؤلاء بظلم الظالمين وإفساد المفسدين، لأن ما يفعلوه قدر الله وإرادته. وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يهتموا بإقامة الحدود والقصاص، لأن ما وقع من المفاسد والجرائم مقدر لا بدَّ منه. وقد عرض شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا الفريق ومعتقده وحاله في مواضع من كتبه، فقال: الذين اعترفوا بالقضاء والقدر، وزعموا أن ذلك يوافق الأمر والنهي، فهؤلاء يؤول أمرهم إلى تعطيل الشرائع

والأمر والنهي، مع الاعتراف بالربوبية العامة لكل مخلوق، وأنه ما من دابة إلا ربي آخذ بناصيتها، وهذا هو الذي يُبتلى به كثيرًا - إمّا اعتقادًا وإما حالًا - طوائف من الصوفية والفقراء حتى يخرج من يخرج منهم إلى الإباحة للمحرمات، وإسقاط الواجبات، ورفع العقوبات. وقال أيضًا فيهم: "هؤلاء رأوا أن الله خالق المخلوقات كلها، فهو خالق أفعال العباد، ومريد الكائنات، ولم يميزوا بعد ذلك بين إيمان وكفر، ولا عرفان ولا نكر، ولا حق ولا باطل، ولا مهتدي ولا ضال، ولا راشد ولا غوي، ولا نبي ولا متنبيء، ولا ولي لله ولا عدو، ولا مرضي لله ولا مسخوط، ولا محبوب لله ولا ممقوت، ولا بين العدل والظلم، ولا بين البر والعقوق، ولا بين أعمال أهل الجنة وأعمال أهل النار، ولا بين الأبرار والفجار، حيث شهدوا ما تجتمع فيه الكائنات من القضاء السابق والمشيئة النافذة والقدرة الشاملة والخلق العام، فشهدوا المشترك بين المخلوقات، وعموا عن الفارق بينهما. وقد يغلو أصحاب هذا الطريق حتى يجعلوا عين الموجودات هي الله، ويمسكون بموافقة الإرادة القدرية في السيئات الواقعة منهم، كقول الحريري: أنا كافر برب يعصى، وقول بني إسرائيل:

أصبحت منفعلًا لما يختاره   مني ففعلي كله طاعات

وقد يسمون هذا حقيقة باعتبار أنه حقيقة الربوبية. وعرض ابن القيم لهذه الفرقة وضلالاتها في كتابه القيم (شفاء العليل) فقال: ثم نبغت طائفة أخرى زعمت أن حركة الإنسان الاختيارية - ولا اختيار - كحركة الأشجار عند هبوب الرياح، وكحركات الأمواج، وأنه على الطاعة مجبور، وأنه غير ميسر لما خلق له، بل هو عليه مجبور ومقصور. ثم تلاهم أتباعهم على آثارهم مقتدين،

ولمنهاجهم مقتفين، فقرروا هذا المذهب وانتموا إليه، وحققوه، وزادوا عليه أن تكاليف الرب تعالى لعباده كلها تكليف مالا يطاق، وأنها في الحقيقة كتكليف المقعد أن يرقى إلى السبع الطباق، فالتكليف بالإيمان وشرائعه تكليف بما ليس من فعل العبد، ولا هو بمقدوره، وإنما هو تكليف بفعل من هو منفرد بالخلق، وهو على كل شيء قدير، فكلف عباده بأفعاله، وليسوا عليها قادرين، ثم عاقبهم عليها، وليسوا في الحقيقة لها فاعلين. ثم تلاهم على آثارهم محققوهم من العُباد، فقالوا: ليس في الكون معصية البتَّة، إذ الفاعل مطيع للإرادة موافق للمراد، كما قيل:

أصبحت منفعلًا لما يختاره — مني ففعلي كله طاعات

ولاموا بعض هؤلاء على فعله فقال: إن كنت عصيت أمره، فقد أطعت إرادته، ومطيع الإرادة غير ملوم، وهو في الحقيقة غير مذموم، وقرر محققوهم من المتكلمين في هذا المذهب بأن الإرادة والمشيئة والمحبة في حق الرب سبحانه هي واحدة، فمحبته هي نفس مشيئته، وكل ما في الكون فقد أراده وشاءه، وكل ما شاءه فقد أحبه.

ولقد ظنت هذه الفرقة بالله أسوأ الظنون، ونسبته إلى أقبح الظلم، وقالوا: إن أوامر الرب ونواهيه كتكليف العبد أن يرقى فوق السماوات، وكتكليف الميت إحياء الأموات، والله يعذب عباده أشدَّ التعذيب على فعل مالا يقدرون على تركه، وعلى ترك مالا يقدرون على فعله، بل يعاقبهم على نفس فعله الذي هو لهم غير مقدور، وليس أحد ميسر له، بل هو عليه مقهور، ونرى العارف منهم ينشد مترنمًا، ومن ربه متشكيًا ومتظلمًا:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له — إياك إياك أن تبتل بالماء

وقد تنبه الإمام ابن القيم إلى أن هذا الصنف من البشر قصدوا تحميل ذنوبهم على الأقدار، وتبريئها من الذنوب والأوزار، وقالوا إنها في الحقيقة فعل الخلاق العليم. وتنبه المقدم لكتاب (الشفاء) إلى أن هذا السبب هو الذي جعل الاتجاه السائد في كل العصور هو الجبر فقال: عقيدة الجبر تحمل عن الإنسان تبعاته، وتضع عنه أوزار ما اقترف من الإثم، وتلقي التبعة على القوة التي حركت الإنسان، ودفعت رغبته وقادته في تصرفاته، فكاد السواد الأعظم من الناس يدين بالجبر، فمن كان وثنيًا اعتقد بأن أمره بيد الآلهة التي يعبدها، يلقي التبعة على الدهر، ويعتقد أن المرء طوع تقلب الحدثان. ومن يقول أنه مؤمن بالله يعتقد أن الأقدار تُسيِّره كيف تشاء، وأنه مسلوب الإرادة عديم الاختيار، حتى اتخذ هذا البحث مظهرًا جديدًا في العصور الحديثة، حيث قال المجبرة منهم: إن إرادة الإنسان مقيدة بالغرائز والوراثة والبيئة، وليس للإنسان يد في إحداث هذه الأمور، وإذن فليس له اختيار فيما يقترف من ذنب وإثم، لأن الإرادة لا أثر لها في البواعث النفسية، بل هي ثمرة هذه البواعث، وهي خاضعة لمؤثرات نفسية أو خارجية خضوعًا لا محيص عنه. ولما انتشرت فكرة الجبر بين المسلمين في العصور المتأخرة عن طريق الطرق الزائغة والمتصوفة أضرَّت ضررًا عظيمًا، سيما مع ترك الأسباب.

قال بعضهم:

جرى قلم القضاء بما يكون … فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق … ويرزق في غيابته الجنين

ومقالة هذا الفريق تؤدي إلى الكفر بالله، والتكذيب بما جاء في كتبه، وأخبرت به رسله، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: فمن أثبت القدر واحتج به

على إبطال الأمر والنهي فهو شر ممن أثبت الأمر والنهي، ولم يثبت القدر، وهذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل بين جميع الخلق، فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات، ولم يفرق بين المأمور والمحظور والمؤمنين والكفار، وأهل الطاعة وأهل المعصية لم يؤمن بأحد من الرسل، ولا بشيءٍ من الكتب، وكان عنده آدم وإبليس سواء، ونوح وقومه سواء، وموسى وفرعون سواء، والسابقون الأولون والكفار سواء. وقال فيهم أيضًا: من يقر بتقدم علم الله وكتابه، ولكن يزعم أن ذلك يغني عن الأمر والنهي والعمل، وأنه لا يحتاج إلى العمل، بل من قضى بالسعادة دخل الجنة، بلا عمل أصلًا، ومن قضى بالشقاوة شقي بلا عمل، فهؤلاء أكفر من أولئك (يعني المكذبين بالقدر) وأضل سبيلًا، ومضمون قول هؤلاء أكفر من اليهود والنصارى بكثير. وقال أيضًا: هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى، فإن اليهود والنصارى يؤمنون بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، لكن حرفوا وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

المسألة الرابعة: الاحتجاج عليها بالقدر على فعل المعاصي

لايجوز الرضا بالمعاصي، ولا الاحتجاج عليها بالقدر، بل يجب السعي في إزالتها وقطعها، فقد يتعلل بعض المذنبين المقصرين على تقصيرهم وخطئهم بأن الله هو الذي قدر هذا عليهم؛ وعليه فلا ينبغي أن يلاموا على ذلك.

وهذا لا يصح منهم بحال؛ فلا شك أن الإيمان بالقدر لا يمنح العاصي حجة على ما ترك من الواجبات، أو فَعَلَ من المعاصي. باتفاق المسلمين والعقلاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين، وسائر أهل الملل، وسائر العقلاء؛ فإن هذا لو كان مقبولًا لأمكن كل أحد أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس وأخذ الأموال، وسائر أنواع الفساد في الأرض، ويحتج بالقدر. ونفس المحتج بالقدر إذا اعتدي عليه، واحتج المعتدي بالقدر لم يقبل منه، بل يتناقض، وتناقض القول يدل على فساده، فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بدائه العقول " مجموع الفتاوى (٨/ ١٧٩)

وقد دل على فساد الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي أو ترك الطاعات؛ الشرع والعقل، فمن الأدلة الشرعية:

١ـ قول الله تعالى: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا ءَابَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَاسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ) الأنعام/ ٣٩، فهؤلاء المشركون احتجوا بالقدر على شركهم، ولو كان احتجاجهم مقبولًا صحيحًا ما أذاقهم الله بأسه. فمن احتج بالقدر على الذنوب والمعائب فيلزمه أن يصحح مذهب الكفار، وينسب إلى الله الظلم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا.

٢ـ قال تعالى: (رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) النساء/ ١٦٥، فلو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي سائغًا لما انقطعت الحجة بإرسال الرسل، بل كان إرسال الرسل لا فائدة له في الواقع.

٣ـ أن الله أمر العبد ونهاه، ولم يكلفه إلا ما يستطيع، قال تعالى: (فَاتَّقُوا اللهَ

مَا اسْتَطَعْتُمْ) التغابن/ ١٦، وقال سبحانه: (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا) البقرة/ ٢٨٦

ولو كان العبد مجبراً على الفعل لكان مكلفًا بما لا يستطيع الخلاص منه، وهذا باطل، ولذلك إذا وقعت منه المعصية بجهل، أو إكراه، فلا إثم عليه لأنه معذور. ولو صح هذا الاحتجاج لم يكن هناك فرق بين المكره والجاهل، وبين العامد المتعمد، ومعلوم في الواقع، وبدائه العقول أن هناك فرقا جليا بينهما.

٤ـ أن القدر سر مكتوم، لا يعلمه أحد من الخلق إلا بعد وقوعه، وإرادة العبد لما يفعله سابقة لفعله، فتكون إرادته للفعل غير مبنية على علم بقدر الله، فادعاؤه أن الله قدر عليه كذا وكذا ادعاء باطل؛ لأنه ادعاءٌ لعلم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، فحجته إذًا داحضة؛ إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه.

٥ـ أنه يترتب على الاحتجاج بالقدر على الذنوب تعطيل الشرائع والحساب والمعاد والثواب والعقاب.

٦- لو كان القدر حجة لأهل المعاصي لاحتج به أهل النار، إذا عاينوها، وظنوا أنهم مواقعوها، كذلك إذا دخلوها، وبدأ توبيخهم وتقريعهم، لكن الواقع أنهم لم يحتجوا به، بل إنهم يقولون كما قال الله ﷻ عنهم: (رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل) إبراهيم/ ٤٤. ويقولون: (ربنا غلبت علينا شقوتنا) المؤمنون/ ١٠٦

وقالوا: (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) الملك/ ١٠. و (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) المدثر/ ٤٤، إلى غير ذلك مما يقولون.

ولو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي سائغًا لاحتجوا به؛ فهم بأمس الحاجة إلى ما ينقذهم من نار جهنم.

٧- لو كان الاحتجاج بالقدر صحيحا لكان حجة لإبليس الذي قال: (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) الأعراف/ ١٦، ولتساوى فرعون عدو الله، مع موسى كليم الله عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٨- ومما يرد هذا القول، ويبين فساده: أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه في أمور دنياه حتى يدركه، ولا تجد شخصا يترك ما يصلح أمور دنياه ويعمل بما يضره فيها بحجة القدر فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر؟!

وإليك مثالًا يوضح ذلك: لو أن إنسانًا أراد السفر إلى بلد، وهذا البلد له طريقان، أحدهما آمن مطمئن، والآخر كله فوضى واضطراب، وقتل، وسلب، فأيهما سيسلك؟، لاشك أنه سيسلك الطريق الأول، فلماذا لا يسلك في أمر الآخرة طريق الجنة دون طريق النار؟

٩ ـ ومما يمكن أن يُرد به على هذا المحتج ـ بناء على مذهبه ـ أن يقال له: لا تتزوج، فإن كان الله قد قضى لك بولد فسيأتيك، وإلا فلن يأتيك. ولا تأكل ولا تشرب، فإن قدر الله لك شبعًا وريًا فسيكون، وإلا فلن يكون. وإذا هاجمك سبع ضار فلا تفر منه، فإن قدر الله لك النجاة فستنجو، وإن لم يقدرها لك فلن ينفعك الفرار. وإذا مرضت فلا تتداو، فإن قدر الله لك شفاءً شفيت، وإلا فلن ينفعك الدواء، فهل سيوافقنا على هذا القول أم لا؟ فإن وافقنا علمنا فساد عقله، وإن خالفنا علمنا فساد قوله، وبطلان حجته.

١٠- المحتج بالقدر على المعاصي شبه نفسه بالمجانين، والصبيان، فهم غير مكلفين، ولا مؤاخذين، ولو عومل معاملتهم في أمور الدنيا لما رضي.

١١- لو قبلنا هذا الاحتجاج الباطل لما كان هناك حاجة للاستغفار،

والتوبة، والدعاء، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٢- لو كان القدر حجة على المعائب والذنوب لتعطلت مصالح الناس، ولعمت الفوضى، ولما كان هناك داع للحدود، والتعزيرات، والجزاءات، لأن المسيء سيحتج بالقدر، ولما احتجنا لوضع عقوبات للظلمة، وقطاع الطريق، ولا إلى فتح المحاكم، ونصب القضاء، بحجة أن كل ما وقع إنما وقع بقدر الله، وهذا لا يقول به عاقل.

١٣- أن هذا المحتج بالقدر الذي يقول: لا نؤاخذ، لأن الله كتب ذلك علينا، فكيف نؤاخذ بما كتب علينا؟ فيقال له: إننا لا نؤاخذ على الكتابة السابقة، إنما نؤاخذ بما فعلناه، وكسبناه، فلسنا مأمورين بما قدره الله لنا، أو كتبه علينا، وإنما نحن مأمورين بالقيام بما يأمرنا به، فهناك فرق بين ما أريد بنا، وما أريد منا، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أمرنا بالقيام به، وكون الله علم وقوع ذلك الفعل من القدم ثم كتبه لا حجة فيه لأن مقتضى علمه الشامل المحيط أن يعلم ما خلقه صانعون، وليس في ذلك أي نوع من أنواع الجبر، ومثال ذلك من الواقع ـ ولله المثل الأعلى ـ: لو أن مدرسا علم من حال بعض تلاميذه أنه لا ينجح هذا العام لشدة تفريطه وكسله، ثم إن هذا الطالب لم ينجح كما علم بذلك الأستاذ فهل يقول عاقل بأن المدرس أجبره على هذا الفشل، أو يصح للطالب أن يقال أنا لم أنجح لأن هذا المدرس قد علم أني لن أنجح؟ ! وبالجملة فإن الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي، أو ترك الطاعات احتجاج باطل في الشرع، والعقل، والواقع، ومما تجدر الإشارة إليه أن احتجاج كثير من هؤلاء ليس ناتجًا عن قناعة وإيمان، وإنما هو ناتج عن نوع هوى ومعاندة، ولهذا قال بعض العلماء فيمن هذا شأنه: "أنت عند الطاعة قدري، وعند

المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به " (مجموع الفتاوى ٨/ ١٠٧) يعني أنه إذا فعل الطاعة نسب ذلك نفسه، وأنكر أن يكون الله قدر ذلك له، وإذا فعل المعصية احتج بالقدر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عن المحتجين بالقدر: "هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى " (مجموع الفتاوى ٨/ ٢٦٢) وعليه فلا يسوغ للعبد أن يحتج على معايبه ومعاصيه بالقدر. وإنما يسوغ الاحتجاج بالقدر: عند المصائب التي تحل بالإنسان كالفقر، والمرض، وفقد القريب، وتلف الزرع، وخسارة المال، وقتل الخطأ، ونحو ذلك؛ فهذا من تمام الرضا بالله ربًا، فالاحتجاج إنما يكون على المصائب، لا المعائب، " فالسعيد يستغفر من المعائب، ويصبر على المصائب، كما قال تعالى: (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) والشقي يجزع عند المصائب، ويحتج بالقدر على المعائب "

ويوضح ذلك المثال الآتي: لو أن رجلًا أسرع بسيارته وفرَّط في أسباب القيادة السليمة فتسبب في وقوع حادث، فوبِّخ على ذلك، وحوسب عليه فاحتج بالقدر، لم يكن الاحتجاج منه مقبولًا، بينما لو أن شخصا صُدِمت سيارته وهي في مكانها لم يتحرك بها، فلامه شخص فاحتج بالقدر لكان احتجاجه مقبولا، إلا أن يكون قد أخطأ في طريقة إيقافها.

فالمقصود أن ما كان من فعل العبد واختياره فإنه لا يصح له أن يحتج بالقدر، وما كان خارجا عن اختياره وإرادته فيصح له أن يحتج عليه بالقدر، ولهذا حَجَّ آدم موسى عليهما السلام كما في قوله ﷺ في محاجتهما: "احتج آدم وموسى فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة؟ فقال له

آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قد قدّر علي قبل أن أخلق؟ فحج آدمُ موسى" (أي: غلبه في الحجة) رواه مسلم (٢٦٥٢)، فآدم عليه السلام لم يحتج بالقدر على الذنب كما يظن ذلك من لم يتأمل في الحديث، وموسى عليه السلام لم يلم آدم على الذنب؛ لأنه يعلم أن آدم استغفر ربه وتاب، فاجتباه ربه، وتاب عليه، وهداه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولو أن موسى لام آدم على الذنب لأجابه: إنني أذنبت فتبت، فتاب الله علي، ولقال له: أنت يا موسى أيضًا قتلت نفسًا، وألقيت الألواح إلى غير ذلك، إنما احتج موسى بالمصيبة فحجه آدم بالقدر. انظر الاحتجاج بالقدر لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٨ – ٢٢)

" فما قُدِّر من المصائب يجب الاستسلام له؛ فإنه من تمام الرضا بالله ربًا، أما الذنوب فليس لأحد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب " شرح الطحاوية (١٤٧).

(تنبيه): ذكر بعض العلماء أن ممن يسوغ له الاحتجاج بالقدر التائبُ من الذنب، فلو لامه أحد على ذنب تاب منه لساغ له أن يحتج بالقدر، فلو قيل لأحد التائبين: لم فعلت كذا وكذا؟ ثم قال: هذا بقضاء الله وقدره، وأنا تبت واستغفرت، لقُبل منه ذلك الاحتجاج، لأن الذنب في حقه صار مصيبة وهو لم يحتج على تفريطه بالقدر بل يحتج على المصيبة التي ألمت به وهي معصية الله ولا شك أن المعصية من المصائب، كما أن الاحتجاج هنا بعد أن وقع الفعل وانتهى، واعترف فاعله بعهدته وأقر بذنبه، فلا يسوغ لأحد أن يلوم التائب من الذنب، فالعبرة بكمال النهاية، لا بنقص البداية. والله أعلم. وانظر رسالة شيخ الإسلام (الإحتجاج بالقدر).

المسألة الخامسة: خلق أفعال العباد

اعلم رحمني الله وإياك أن أفعال العباد داخلة في عموم خلقه تعالى ولا يخرجها شيء من عموم قوله تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ). سورة الزمر: ٦٢، وإنما أفرد بعض العلماء هذه المسألة في مصنفات لوقوع اللبس فيها.

وخلاصة القول في هذه المسألة: أفعال العباد كلَّها من الطاعات، والمعاصي، داخلةٌ في خلق الله، وقضائه، وقدره؛ فقد علم الله ﷻ ما سيخلقه في عباده، وعلم ما هم فاعلون، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، وخلقهم الله كما شاء، ومضى فيهم قدره، فعملوا على النحو الذي شاءه فيهم، وهدى الله من كتب لهم السعادة، وأضل من كتب عليهم الشقاوة، وعلم أهل الجنة ويسرهم لعمل أهلها، وعلم أهل النار ويسرهم لعمل أهلها. فأفعال العباد هي من الله خلقًا وإيجادًا وتقديرًا، وهي من العباد فعلًا وكسبًا، فالله هو الخالق لأفعالهم، وهم الفاعلون لها، فنؤمن بجميع نصوص الكتاب والسنة الدالة على شمول خلق الله، وقدرته على كل شيء من الأعمال والأوصاف، كما نؤمن بنصوص الكتاب والسنة الدالة على أن العباد هم الفاعلون حقيقةً للخير والشر، وعلى هذا اتفق أهل السنة والجماعة.

والأدلة على هذه المرتبة من مراتب القدر لا تكاد تحصرمنها

١- قوله تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) سورة الزمر: ٦٢.

٢- قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) سورة الأنعام:١.

٣- قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) الملك:٢.

٤- قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) سورة النساء: ١.

٥- قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) سورة الأنبياء: ٣٣.

٦- قال سبحانه: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) سورة فاطر: ٣.

٧- وأصرح من كل ما تقدم في الدلالة على هذه المسألة قوله تعالى: (وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) سورة الصافات: ٩٦، قال المفسرون: في معنى ما في الآية وجهان:

أحدهما: أن تكون بمعنى المصدر؛ فيكون المعنى: والله خلقكم وعملكم.

والثاني: بمعنى الذي؛ فيكون المعنى، والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيديكم من الأصنام.

ومن الأدلة من السنة ما يلي

١- أخرج البخاري في خلق أفعال العباد عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ (إن الله يصنع كل صانع وصنعته)[1].

---

(١) أخرجه البخارى فى خلق أفعال العباد (١/ ٤٦)، وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ١٥٨ رقم ٣٥٧)، وابن منده في التوحيد (ق ٣٩/ ٢)، وابن عدي في الكامل (٢٦٣/ ٢)، والحاكم (١/ ٨٥، رقم ٨٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٢٦ و ٣٨٨)، وفى الشعب (١/ ٢٠٩ رقم ١٩٠)، والمحاملي في الأمالي المحاملى (١/ ٣٠٨ رقم ٣٢٥)، والديلمي في مسند الفردوس (١/ ٢/ ٢٢٨)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٧١)، والخطيب في تاريخ بغداد (٢/ ٣١) والحديث قال عنه الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال ابن عساكر في معجم الشيوخ (١/ ١١٤): صحيح من حديث أبي مالك سعد بن طارق، وصححه الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٩٨)، وصححه =

٢- وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول، كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكَّها، أنت وليها ومولاها) رواه مسلم (٢٧٢٢)، والشاهد من ذلك قوله ﷺ (اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها...) فالفاعل هو الله تعالى فهو الذي يطلب منه ذلك.

وغير ذلك من الأحاديث.

قال الإمام البغوي في شرح السنة (١/ ١٤٢): الإيمان بالقدر فرض لازم، وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد، خيرها وشرها، كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم، قال الله سبحانه وتعالى: {والله خلقكم وما تعملون} [الصافات: ٩٦]، وقال الله عز وجل: {قل الله خالق كل شيء} [الرعد: ١٦]، وقال عز وجل: {إنا كل شيء خلقناه بقدر} [القمر: ٤٩]. فالإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، كلها بقضاء الله وقدره، وإرادته ومشيئته، غير أنه يرضى الإيمان والطاعة، ووعد عليهما الثواب، ولا يرضى الكفر والمعصية، وأوعد عليهما العقاب....اهـ.

(فرع): قال ابن قتيبة في كتابه الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة (٥٨ - ٦٠): واختلفت عن أبي عبد الله أحمد بن حنبل الروايات، ورأينا كل فريق منهم يدعيه ويحكي عنه قولًا، فإذا كثر الاختلاف في شيء ووقع التهاتر في الشهادات به أرجأناه مثل أن ألغيناه. ومن عجيب ما حكي عنه مما لا يشك أنه كذب عليه إذ كان موفقًا بحمد الله رشيدًا أنه قال (ومن زعم أن القراءة

=

العلامة الألباني في الصحيحة (١٦٣٧)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٣٠٥، ٣٠٦).

مخلوقة فهو جهمي، والجهمي كافر، ومن زعم أنها غير مخلوقة فهو مبتدع وكل بدعة ضلالة) فكيف يتوهم على أبي عبد الله مثل هذا القول، وأنت تعلم أن الحق لا يخلو من أن يكون في أحد الأمرين، وإذ لم يخل من ذلك صار الحق في كفر أو ضلال.اهـ.

واعتراض ابن قتيبة غير سديد، قال عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب السنة (١/ ١٦٥، رقم ١٨٦): وكان أبي رَحِمَهُ اللهُ يكره أن يتكلم في اللفظ بشيء أو يقال مخلوق أو غير مخلوق.اهـ. وقال ابن القيم كما في مختصر الصواعق (ص٥١٤): والثابت المتواتر عن الإمام أحمد هو ما نقله عنه خواص أصحابه وثقاتهم، كما بينه صالح وعبد الله المروذي وغيرهم: من الإنكار على الطائفتين جميعا كما ذكره البخاري، فأحمد والبخاري على خلاف قول الفريقين، وكان يقول: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع، وإن القرآن الذي يقرأه المسلمون هو كلام الله على الحقيقة وحيث تصرف كلام الله فهو غير مخلوق، وكان يقول بخلق أفعال العباد وأصواتهم، وإن الصوت المسموع من القارئ هو صوته وهو مخلوق، ويقول في قول النبي ﷺ " «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» " معناه يحسنه بصوته، كما قال " «زينوا القرآن بأصواتكم» " .... وقال إبراهيم الحربي: كنت جالسا عند أحمد بن حنبل إذ جاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله إن عندنا قوما يقولون إن ألفاظهم بالقرآن مخلوقة، قال أبو عبد الله: يتوجه العبد لله بالقرآن بخمسة أوجه وهو فيها غير مخلوق: حفظ بقلب، وتلاوة بلسان، وسمع بأذن، ونظرة ببصر، وخط بيد، فالقلب مخلوق والمحفوظ غير مخلوق، والتلاوة مخلوقة والمتلو غير مخلوق، والسمع مخلوق والمسموع غير مخلوق، والنظر مخلوق والمنظور

إليه غير مخلوق، والكتابة مخلوقة والمكتوب غير مخلوق، قال إبراهيم: فمات أحمد فرأيته في النوم وعليه ثياب خضر وبيض، وعلى رأسه تاج من الذهب مكلل بالجواهر وفي رجليه نعلان من ذهب، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال غفر لي وقربني وأدناني، فقال: قد غفرت لك، فقلت له: يا رب بماذا؟ قال: بقولك كلامي غير مخلوق.

ففرق أحمد بين فعل العبد وكسبه وما قام به فهو مخلوق، وبين ما تعلق به كسبه وهو غير، ومن لم يفرق هذا التفريق لم يستقر له قدم في الحق..اهـ.

وكلام الإمام أحمد صحيح صادر عن رسوخ في العلم وتوفيق لأن اللفظ يطلق على معنيين: المعنى الأول: المتلفَّظ به، يعني المحكي، ويطلق ويراد به: صوت القارئ، إذًا: اللفظ يطلق ويراد به المتلفظ به، يعني الذي يحكيه القارئ عند قراءته، وهذا كلام الباري سبحانه وتعالى، ويطلق ويراد به صوت القارئ، وكلام الباري ليس بمخلوق، وصوت القارئ مخلوق، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: (زينوا أصواتكم بالقرآن)، وفي الصحف، هذا الرق الذي يكتب فيه، وهذا القلم والحبر الذي يكتب به، هذه مخلوقة، وأما المكتوب فهو كلام الباري سبحانه وتعالى غير مخلوق، فإذا قال الرجل لفظي بالقرآن مخلوق، كان كلامه مجملا ليس بمبيَّن، يصح أن يريد به كلام الباري، ويصح أن يريد به صوت القارئ، ولذا قال الإمام أحمد: "من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو كافر " لم؟ لأن كلامه مجمل، فيحتمل أن يريد باللفظ كلام الباري. ومن قال " لفظي بالقرآن غير مخلوق، فهو مبتدع " لم لاحتمال أنه يريد صوت القارئ، ومن الذين يقولون إن صوت القارئ غير مخلوق؟ المعتزلة يقولون: إن أفعال العباد غير مخلوقة، كما سيأتي إن شاء الله، فعندهم صوت القارئ غير مخلوق، وهو

مذهب باطل.

المسألة السادسة: في أقسام الإرادة الربانية

اعلم رحمني الله وإياك أن الإرادة الربانية تنقسم إلى قسمين:

١- إرادة كونية قدرية: وهي مرادفة للمشيئة، وهذه الإرادة لا يخرج عن مرادها شيء؛ فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء؛ فالطاعات، والمعاصي، كلها بمشيئة الرب، وإرادته.

ومن أمثلتها قوله تعالى: (وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ) سورة الرعد: ١١، وقوله: (فَمَنْ يُرِدْ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) سورة الأنعام:١٢٥.

٢- إرادة شرعية دينية: وتتضمن محبة الربّ، ورضاه.

ومن أمثلتها قوله تعالى: (يُرِيدُ اللهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ) سورة البقرة: ١٨٥، وقوله: (وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) سورة النساء:٢٧، وقوله: (مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ) سورة المائدة: ٦ .

الفرق بين الإرادتين بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية فروق تُميز كلَّ واحدة منهما عن الأخرى، ومن تلك الفروق ما يلي:

١- الإرادة الكونية قد يحبها الله ويرضاها، وقد لا يحبها ولا يرضاها.

أما الشرعية فيحبها الله ويرضاها؛ فالكونية مرادفة للمشيئة، والشرعية مرادفة للمحبة.

٢- الإرادة الكونية قد تكون مقصودة لغيرها كخلق إبليس مثلًا، وسائر الشرور؛ لتحصل بسببها محابّ كثيرة، كالتوبة، والمجاهدة، والاستغفار. أما الشرعية فمقصودة لذاتها؛ فالله أراد الطاعة وأحبها، وشرعها، ورضيها لذاتها.

٣- الإرادة الكونية لابد من وقوعها؛ فالله إذا شاء شيئًا وقع ولابد، كإحياء أحد أو إماتته، أو غير ذلك.

أما الشرعية كالإسلام مثلًا فلا يلزم وقوعها، فقد تقع وقد لا تقع، ولو كان لابد من وقوعها لأصبح الناس كلهم مسلمين.

٤- الإرادة الكونية متعلقة بربوبية الله وخلقه، أما الشرعية فمتعلقة بألوهيته وشرعه.

٥- الإرادتان تجتمعان في حق المطيع، فالذي أدى الصلاة مثلًا جمع بينهما؛ وذلك لأن الصلاة محبوبة لله، وقد أمر بها، ورضيها، وأحبها، فهي شرعية من هذا الوجه، وكونها وقعت دلَّ على أنَّ الله أرادها كونًا؛ فهي كونية من هذا الوجه؛ فمن هنا اجتمعت الإرادتان في حق المطيع.

وتنفرد الكونية في مثل كفر الكافر، ومعصية العاصي، فكونها وقعت فهذا يدلُّ على أن الله شاءها؛ لأنه لا يقع شيء إلا بمشيئته، وكونها غير محبوبة ولا مرضية لله دليل على أنها كونية لا شرعية.

وتنفرد الشرعية في مثل إيمان الكافر، وطاعة العاصي، فكونها محبوبة لله فهي شرعية، وكونها لم تقع مع أمر الله بها ومحبته لها هذا دليل على أنها شرعية فحسب؛ إذ هي مرادة محبوبة لم تقع.

٦- الإرادة الكونية أعمّ من جهة تعلّقها بما لا يحبه الله ولا يرضاه، من الكفر والمعاصي، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر، وطاعة الفاسق.

والإرادة الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به، واقعًا كان أو غير واقع، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به.

هذه فوارق بين الإرادتين، فمن عرف الفرق بينهما سلم من شُبهات كثيرة، زلَّت بها أقدام، وضلَّت بها أفهام، فمن نظر إلى الأعمال الصادرة عن العباد بهاتين العينين كان بصيرًا، ومن نظر إلى الشرع دون القدر أو العكس كان أعور.

كما أن الإرادة منها ما هو كوني قدري، ومنها ما هو شرعي ديني فكذلك الكتابة، والأمر، والإذن، والجعل، والكلمات، والبعث، والإرسال، والتحريم، والإيتاء، والكره، ونحوها، كل هذه الأمور منها ما هو شرعي ومنه ما هو كوني.

فمن أمثلة الكتابة الكونية قوله تعالى: (كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) سورة المجادلة: ٢١، ومن أمثلة الكتابة الشرعية قوله: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ) سورة البقرة: ١٨٣، والأمر الكوني قوله: (وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) سورة القمر: ٥٠، والشرعي قوله: (إِنَّ اللهَ يَامُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) سورة النحل: ٩٠، والإذن الكوني قوله: (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) سورة البقرة: ١٠٢، والشرعي قوله: (آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ) سورة يونس: ٥٩ وقوله: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَاذَنْ بِهِ اللهُ) سورة الشورى: ٢١، والجعل الكوني قوله: (كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ) سورة الأنعام: ١٢٥، والشرعي: (مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ) سورة المائدة: ١٠٣، أما قوله: (جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ) سورة المائدة: ٩٧، فهذا يتناول الأمرين، فإن الله جعلها كذلك بقدره وبشرعه.

وكذلك الكلمات منها ما هو كوني كقوله: (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) سورة يونس: ٣٣، ومنها الشرعي كقوله: (حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ) سورة التوبة: ٦، واجتمع النوعان في قوله تعالى: (وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا) سورة التحريم: ١٢، وكذلك البعث منه الكوني كقوله: (بَعَثْنَا

عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا) سورة الإسراء: ٥، والشرعي كقوله: (فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ) سورة البقرة: ٢١٣، وقوله: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ) سورة الجمعة: ٢، وكذلك الإرسال منه الكوني كقوله: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ) سورة الأعراف: ٥٧، ومنه الديني كقوله: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى) سورة الصف: ٩، والتحريم الكوني كقوله: (وحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ) سورة القصص: ١٢، والشرعي: (وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا) سورة المائدة: ٩٦، والإيتاء الكوني كقوله: (وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ) سورة البقرة: ٢٤٧، والديني كقوله: (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ) سورة البقرة: ٩٣، وقوله: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ) سورة البقرة: ٢٦٩، يشمل النوعين؛ فإنه يؤتيهما أمرًا ودينًا وتوفيقًا وإلهامًا.

والكره كذلك منه ما هو كوني كما في قوله تعالى: (وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ) سورة التوبة: ٤٦، ومنه ما هو شرعي كما في قوله تعالى: (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) سورة الإسراء: ٣٨.

والفروق بين هذه الأمور - من جهة أن منها ما هو شرعي ديني، ومنها ما هو كوني قدري كالفروق بين الإرادتين الكونية القدرية، والشرعية الدينية.

المسألة السابعة: حكم الحديث في مسائل القدر

قد يظن البعض أنه لا ينبغي الحديث في مسائل القدر مطلقًا، بحجة أن ذلك يبعث على الشك والحيرة، وأن هذا الباب زلّت به أقدام، وضلّت به أفهام.

والكلام هكذا على إطلاقه غير صحيح، لأمور عديدة منها:

١- أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان: ولا يتم إيمان العبد إلا به، فكيف يُعرف إذا لم يُتحدث عنه، ويُبَيَّن للناس أمره؟!

٢- أن القرآن الكريم مليءٌ بذكر القدر وتفاصيله: والله ﷻ أمرنا بتدبر

القرآن وعَقْلِه، كما في قوله تعالى: [(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) ص: ٢٩، وقوله: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) محمد: ٢٤.

فما الذي يخرج الآيات التي تتحدث في القدر عن هذا العموم؟!

٣- أن الإيمان بالقدر ورد في أعظم حديث في الإسلام: وهو حديث جبريل عليه السلام عند مسلم (٨) وكان ذلك في آخر حياة النبي " وقد قال " في آخر الحديث: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) فمعرفته إذًا من الدين، وهي واجبة ولو على سبيل الإجمال.

٤- أن الصحابة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أدق الأمور في القدر كما جاء في حديث جابر في صحيح مسلم (٢٦٤٨) عندما جاء سراقة بن مالك بن جعشم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله بيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت المقادير؟ أم فيما نستقبل؟ قال لا، بل فيما جفت به الأقلام، وجرت المقادير قال: ففيم العمل؟ فقال اعملوا فكل ميسر. وفي رواية كل عامل ميسر لعمله.

٥- أن الصحابة علَّموا تلاميذهم من التابعين ذلك: وسألوهم؛ ليختبروهم، وينظروا في فهمهم لهذا الباب، كما جاء في صحيح مسلم (٢٦٥٠) أن أبا الأسود الدؤلي قال قال لي عمران بن الحصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قُضي عليهم، ومضى عليهم من قَدَرِ ما سبق؟ أو فيما يُستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيءٌ قُضي عليهم قال فقال: أفلا يكون ظلمًا؟ قال ففزعت من ذلك فزعًا شديدًا، قلت كل شيء خلق الله، وملك يده، فلا يُسأل عما يفعل وهم يسألون فقال لي يرحمك الله، إني لم

أُرِدْ بما سألتك إلا لأَحْزُر[١] عقلك.

٦- أن أئمة السلف الصالح من العلماء كتبوا في هذا الباب بل وأطنبوا فيه، فلو قلنا بمنع الحديث عن القدر لضللناهم، وسَفَّهْنَا أحلامهم.

٧- لو تركنا الحديث عن القدر لجهل الناس به ولربما انفتح الباب لأهل البدعة والضلالة؛ ليروجوا باطلهم، ويَلبسوا على المسلمين دينهم.

٨- فوات العلم والخير فلو تركنا الحديث عن القدر، وعن ثمراته لفاتنا علم غزير، وخير كثير.

فإن قيل: كيف نجمع بين هذا وبين ما ورد في ذم الخوض في القدر، كما في قوله ﷺ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: (إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا)[٢].

---

(١) الحَزْر: التقدير، والحَدْسُ، وإعمال الرأي، والمراد هنا: أني أردت أن أمتحن عقلَك، وأقدِّرَ ما وصلت إليه، وأعمل رأيي في معرفة مدى فهمك.

(٢) قال العلامة الألباني في الصحيحة (رقم ٣٤) روي من حديث ابن مسعود، وثوبان، وابن عمر، وطاووس مرسلا، وكلها ضعيفة الأسانيد، ولكن بعضها يشد بعضا، قلت وحسنه العراقي في المغني (١/ ٤١)، وحسنه الحافظ في الفتح (١١/ ٤٨٦)، ورمز لحسنه السيوطي في الجامع الصغير فيض القدير (١/ ٣٤٨)، وضعفه آخرون، وممن ضعفه ابن حبان، وابن عدي، والمصنف، وابن القيسراني، وابن تيميه، وابن القيم، والسخاوي رحمهم الله جميعا.

وورد في الحديث أيضا (أخر الكلام في القدر لشرار أمتي في آخر الزمان) أخرجه ابن أبى عاصم (١/ ١٥٥، رقم ٣٥٠)، والطبرانى فى الأوسط (٦/ ٩٦، رقم ٥٩٠٩)، والحاكم (٢/ ٥١٤، رقم ٣٧٦٥)، وابن الأعرابي في المعجم (٣/ ١، ٣٧/ ٢)، والدولابي (٢/ ٣٨)، والبزار في مسنده (ص ٢٣٠ - زوائده)

، والجرجاني في الفوائد (١٦٠/ ٢)، وابن بشران في الأمالي (٧٤/ ١)، والسلفي في الطيوريات (٢٤٦/ ٢)، والعقيلي في الضعفاء (٣٣١) عن عنبسة الحداد عن ابن شهاب

=

=

عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة مرفوعا، والحديث قال عنه العقيلي: عنبسة بن عمرو يهم في حديثه، ونقل العقيلي عن موسى بن هارون أنه قال: وهذا الحديث منكر، وقال البزار: لا نعلم رواه عن الزهري إلا عنبسة و هو لين الحديث، وضعفه الذهبي في الميزان (٣/ ٣٠٢)، وضعفه الحافظ في اللسان (٤/ ٣٨٤)، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري، ورده الذهبي بقوله: عنبسة ثقة لكن لم يرويا له، و هذا وهم منهما فإن عنبسة هذا ما وثقه أحد! وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٢): رواه البزار و الطبراني في الأوسط ورجال البزار في أحد الإسنادين رجال الصحيح غير عمر بن أبي خليفة وهو ثقة، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (١١٢٤).

وورد في الحديث (إن أمر هذه الأمة لا يزال مقاربا حتى يتكلموا فى الولدان والقدر) أخرجه البزار (٢١٨٠ – كشف)، والطبرانى (١٢/ ١٦٢، رقم ١٢٧٦٤)، وابن حبان (١٥/ ١١٨، رقم ٦٧٢٤)، والحاكم (١/ ٨٨، رقم ٩٣) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال عنه في السير (١٦/ ١٠٤): هذا حديث صحيح ولم يخرج في الكتب الستة، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٢): رواه البزار والطبراني في الكبير والاوسط ورجال البزار رجال الصحيح. وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٥١٥)، أما ابن القيم فقال تهذيب السنن (١٢/ ٤٩٠): في القلب من رفعه شيء، وقال الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (٢٣٨): هذا الحديث صحيح رجاله رجال الصحيح، إلا يزيد بن صالح اليشكري، وقد قال ابن أبي حاتم عن أبيه: إنه مجهول. فتعقبه الذهبي في "الميزان" فقال: كان ورعا مجتهدا كبير القدر، قال الحسن بن سفيان فاتني لأجل أمي يحيى بن يحيى فعوضني الله بأبي خالد الفراء قال أبو حاتم الرازي مجهول

قلت: وثقه غيره.اهـ. وهو مقرون بمحمد بن أبن أبان الواسطي، وقد وثقه مسلمة كما في "تهذيب التهذيب"، وقد قيل فيه إنه من شيوخ البخاري. وأما الحسن بن سفيان وإن كان أنزل من رجال الصحيح طبقة فإنه إمام عظيم الشأن. هذا ما قررته على ظاهر السند ثم رأيت في "كشف الأستار" (ج٣ص٣٦) قال البزار قد رواه جماعة فوقفوه على ابن عباس.

وورد في الحديث (فى هذه الأمة خسف أو مسخ أو قذف فى أهل القدر) أخرجه الترمذى (٤/ ٤٥٦، رقم ٢١٥٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣٥٠، رقم ٤٠٦١) والحديث قال عنه

=

وكذلك ما ورد (أن النبي ﷺ غضب غضبًا شديدًا، عندما خرج على أصحابه يومًا وهم يتنازعون في القدر، حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فُقيء في وجنتيه حبُّ الرمان، فقال أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما أهلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر؛ عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه)(١).

فالجواب عن ذلك: أن النهي الوارد مُنْصَبٌّ على الأمور الآتية:

١- الخوض في القدر بالباطل وبلا علم ولا دليل: قال تعالى: (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) الإسراء: ٣٦، وقال عن المجرمين: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) المدثر: ٤٢ - ٤٥.

٢- الاعتماد في معرفة القدر على العقل البشري القاصر بعيدًا عن هدي الكتاب والسنة؛ ذلك أن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك على وجه التفصيل؛ لأن له حدودًا وطاقاتٍ يجب أن يقف عندها.

٣- ترك التسليم والإذعان لله تعالى في قدره ذلك لأن القدر غيب، والغيب مبناه على التسليم.

=

الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال العلامة الألباني في الصحيحة تحت الحديث (١٧٨٧): إسناده حسن، أبو صخر واسمه حميد بن زياد فيه كلام من جهة حفظه.

(١) أخرجه الترمذى (٤/ ٤٤٣، رقم ٢١٣٣)، وأبويعلى (١٠/ ٤٣٣، رقم ٦٠٤٥)، وابن عدي (٥/ ٩٦)، وابن حبان فى المجروحين (١/ ٣٧١، ترجمة ٤٩٥ صالح بن بشير المرى) والحديث ضعفه الترمذي بقوله: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري، وصالح المري له غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها، ومن أجل صالح المري ضعفه ابن عدي، وابن حبان، وابن العربي في العارضة (٥/ ٤)، وابن القيسراني في الذخيرة (٣/ ١٢٧٩)، أما العلامة الألباني فحسنه في صحيح الترمذي.

٤- البحث عن الجانب الخفي في القدر الذي هو سر الله في خلقه، والذي لم يطَّلع عليه مَلَك مقرب، ولا نبي مرسل، وذلك مما تتقاصر العقول عن فهمه ومعرفته.

٥- الأسئلة الاعتراضية التي لا يجوز إيرادها كمن يقول مُتَعَنِّتًا: لماذا هدى الله فلانًا، وأضل فلانًا؟ ولماذا كلَّف الله الإنسان من بين سائر المخلوقات؟ ولماذا أغنى الله فلانًا، وأفقر فلانًا؟ وهكذا ... أما من سأل مستفهمًا فلا بأس به؛ فشفاء العي السؤال، أما من سأل متعنتًا غير متفقه ولا متعلم فهو الذي لا يحل قليلُ سؤاله ولا كثيرُهُ.

٦- التنازع في القدر الذي يؤدي إلى اختلاف الناس فيه، وافتراقهم في شأنه، فهذا مما نهينا عنه، ولا يدخل في التنازعِ المذمومِ منازعةُ الفرق الضالة، وردُّ شبههم، ودحض حججهم؛ لأن في ذلك إحقاقًا للحق، وإبطالًا للباطل.

ومن هنا يتبين لنا أن النهي عن الحديث في القدر على إطلاقه غيرُ صحيح، وإنما النهي كان عن الأمور الآنفة الذكر.

أما البحث فيما يستطيع العقل البشري أن يجول فيه، ويفهمه من منطلق النصوص كالبحث في مراتب القدر، وأقسام التقدير، وخلق أفعال العباد، إلى غير ذلك من مباحث القدر فهذا ميسَّر واضح لا يمنع من البحث فيه، على أنه لا يستطيع كل أحد أن يفهمها على وجه التفصيل، إلا أن هناك من يعلمها ويكشف ما فيها.

ومما يؤيد ذلك من أن النهي ليس على إطلاقه أنه ورد في الحديثِ السابقِ، حديثِ ابن مسعود، مع الأمر بالإمساك عن القدر الإمساكُ عن الصحابة، والإمساكُ عن الصحابة إنما المقصودُ به الإمساكُ عما شجر بينهم، والكف عن

ذكر مساوئهم، وتنقصهم، وثلبهم، أما ذكر محاسنهم، والثناء عليهم فهذا أمر محمود بلا أي خلاف؛ فقد أثنى الله عليهم في القرآن الكريم، وزكاهم، وكذلك الرسول ﷺ، ومما يؤيد ذلك أيضًا أن سبب غضب النبي " كما في الحديث السابق -حديث الترمذي- إنما هو بسبب تنازع الصحابة في القدر، وهذا يعني أن الكلام في القدر، أو البحث فيه بالمنهج العلمي الصحيح غير محرم أو منهي عنه، وإنما الذي نهى عنه الرسول ﷺ هو التنازع في القدر.

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن الحديث عن القدر لا يفتح بإطلاق، ولا يغلق بإطلاق؛ فإن كان الحديث بحق فلا يمنع ولا ينهى عنه، بل قد يجب، وإن كان بباطل فيمنع، وينهى عنه. شرح التائية في القدر لمحمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد.

المسألة الثامنة: الحكمة من خلق ابليس

إن الله سبحانه وتعالى خلق إبليس الذي هو مادة الفساد التي تمد كل فساد في هذه الدنيا، في الأديان، والاعتقادات، والشهوات، والشبهات، وهو سبب لشقاوة العباد، وعَمَلِهم ما يغضب الله ﷻ وهو مع ذلك كله وسيلة إلى محابَّ كثيرةٍ، وحكم عظيمة.

إذا تقرر ذلك فهذه بعض الحكم التي تلمسها العلماء من خلق إبليس:

١- أن يَظهر للعباد قدرةُ الرب تعالى على خلق المتضادات والمتقابلات فخلق هذه الذات -إبليس- التي هي أخبث الذوات، وهي سبب كل شر، وخَلَق في مقابلها ذات جبريل التي هي من أشرف الذوات وأزكاها، والتي هي مادة كل خير، فتبارك من خلق هذا وهذا، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والحر والبرد، والماء والنار، والداء والدواء، والموت والحياة، والحسن

والقبيح، فالضد يظهر حسنه الضد، وهذا أدلُّ دليل على كمال قدرته، وعزته، وملكه، وسلطانه؛ فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وسلط بعضها على بعض، وجعلها محل تصرفه، وتدبيره، وحكمته، فخلوُّ الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكمال تصرفه، وتدبير مملكته.

٢- أن يُكَمِّلَ الله لأوليائه مراتب العبودية: وذلك بمجاهدة إبليس وحزبه، وإغاظته بالطاعة لله، والاستعاذة بالله منه، واللجوء إلى الله أن يعيذهم منه ومن كيده، فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية، والأخروية ما لا يحصل بدونه.

ثم إن المحبة، والإنابة، والتوكل، والصبر، والرضا، ونحوها أحب أنواع العبودية لله، وهذه إنما تتحقق بالجهاد، وبذل النفس، وتقديم محبته ﷻ على كل من سواه، فكان خلق إبليس سببًا لوجود هذه الأمور.

٣- حصول الابتلاء: ذلك أن إبليس خُلق ليكون محكًّا يمتحن به الخلق؛ ليتبين به الخبيث من الطيب؛ فإن الله سبحانه خلق النوع الإنساني من الأرض، وفيها الطيب والخبيث؛ فلا بد أن يظهر فيهم ما هو من مادتهم .

٤- ظهور آثار أسمائه تعالى ومقتضياتها، ومتعلقاتها: فمن أسمائه: الرافع، الخافض، المعز، المذل، الحكم، العدل، وهذه الأسماء تستدعي متعلقاتٍ يظهر فيها أحكامُها، فكان خلق إبليس سببًا لظهور آثار هذه الأسماء، فلو كان الخلق كلهم مطيعين، ومؤمنين لم تظهر آثار هذه الأسماء.

٥- استخراج ما في طبائع البشر من الخير والشر: فالطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد، فَخُلق الشيطان مستخرجًا لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل، وأرسلت

الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل؛ فاستخرج أحكم الحاكمين ما في هؤلاء من الخير الكامن فيها؛ ليترتب عليه آثاره، وما في أولئك من الشر؛ ليترتب عليه آثاره وتظهر حكمته في الفريقين، وينفذ حكمه فيهما، ويظهر ما كان معلومًا له، مطابقًا لعلمه السابق.

٦- ظهور كثير من آيات الله وعجائب صنعه: فلقد حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة ظهور كثير من الآيات والعجائب، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم بردًا وسلامًا، والآيات التي أجراها الله على يد موسى، وغير ذلك من الآيات؛ فلولا تقدير كفر الكافرين وجحد الجاحدين لما ظهرت هذه الآيات الباهرة التي يتحدث بها الناس جيلًا بعد جيل إلى الأبد.

أما كونه سبحانه وتعالى أنظر إبليس إلى يوم القيامة فليس ذلك إكرامًا له بل إهانة له ليزداد إثمًا، فتعظم عقوبته، ويتضاعف عذابه، إضافة إلى ذلك فالله جعله محكًّا ليميز به الخبيث من الطيب كما سبق وما دام أن الخلق مستمر إلى يوم القيامة فإن هذا يقتضي بقاءه ببقاء خلق البشر، والله أعلم .

وكذلك خلقُ الآلام، والمصائب فيه من الحكم ما لا يحيط بعلمه إلا الله ﷻ تلك الحكم التي تنطق بفضل الله، وعدله، ورحمته.

قال ابن القيم في شفاء العليل، (ص٤٩٨): فالآلام والمشاق إما إحسان ورحمة، وإما عدل وحكمة، وإما إصلاح وتهيئة لخير يحصل بعدها، وإما لدفع ألم هو أصعب منها، وإما لتولدها عن لذات ونعم يولِّدها عنها أمر لازم لتلك اللذات، وإما أن تكون من لوازم العدل، أو لوازم الفضل والإحسان؛ فتكون من لوازم الخير التي إن عُطِّلت ملزوماتها فات بتعطيلها خيرٌ أعظمُ من مفسدة تلك الآلام.

والشرع والقدر أعدلا شاهد بذلك؛ فكم في طلوع الشمس من ألم لمسافر وحاضر، وكم في نزول الغيث والثلوج من أذى كما سماه الله بقوله:[إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ] سورة النساء: ١٠٢. وكم في هذا الحر والبرد والرياح من أذى موجب لأنواع من الآلام لصنوف الحيوانات.

وأعظم لذات الدنيا لذة الأكل والشرب والنكاح واللباس والرياسة، ومعظم آلام أهل الأرض أو كلها ناشئة عنها، ومتولدة منها.

بل الكمالات الإنسانية لا تنال إلا بالآلام والمشاق كالعلم، والشجاعة، والزهد، والعفة، والحلم، والمروءة، والصبر، والإحسان كما قال:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يُفْقِرُ والإقدام قتَّالُ

وإذا كانت الآلام أسبابًا لِلَذَّاتٍ أعظم منها وأدوم كان العقل يقضي باحتمالها.

إلى أن قال: وقد حجب الله سبحانه أعظم اللذات بأنواع المكاره، وجعله جسرًا موصلًا إليها كما حجب أعظم الآلام بالشهوات واللذات، وجعلها جسرًا موصلًا إليها. ولهذا قالت العقلاء قاطبة: إن النعيم لا يدرك بالنعيم، وإن الراحة لا تنال بالراحة، وإن مَنْ آثر اللذات فاتته اللذات؛ فهذه الآلام والأمراض والمشاق من أعظم النعم؛ إذ هي أسباب النِّعم.

وما ينال الحيوانات الغير المكلفة منها فمغمورٌ جدًا بالنسبة إلى مصالحها ومنافعها كما ينالها من حر الصيف، وبرد الشتاء، وحبس المطر والثلج، وألم الحمل والولادة، والسعي في طلب أقواتها وغير ذلك.

ولكن لذاتها أضعافُ أضعافِ آلامها، وما ينالها من المنافع والخيرات أضعاف ما ينالها من الشرور والآلام؛ فسُنَّتُه في خلقه وأمره هي التي أوجبها

كمالُ علمه وحكمته وعزته.

ولو اجتمعت عقول العقلاء كلهم على أن يقترحوا أحسن منها لعجزوا عن ذلك، وقيل لكلٍّ منهم: ارجع بصر العقل فهل ترى من خلل؟

[ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ] سورة الملك: ٤، فتبارك الذي من كمال حكمته وقدرته أن أخرج الأضداد من أضدادها، والأشياء من خلافها؛ فأخرج الحي من الميت، والميت من الحي، والرطب من اليابس، واليابس من الرطب؛ فكذلك أنشأ اللذاتِ من الآلامِ، والآلامَ من اللذات؛ فأعظم اللذاتِ ثمراتُ الآلام ونتائجها، وأعظم الآلامِ ثمراتُ اللذات ونتائجها.

وبعدُ فاللذةُ والسرورُ، والخيرُ والنعمُ، والعافيةُ والصحةُ والرحمةُ في هذه الدار المملوءة بالمحن والبلاء أكثرُ من أضدادها بأضعافٍ مضاعفة؛ فأين آلام الحيوان من لذته؟ وأين سقمه من صحته؟ وأين جوعه وعطشه من شبعه وريِّه وتعبه من راحته؟! .

هذا وفي الآلام والمصائب حكم عظيمة غير ما ذُكِرَ، وفيما يلي ذكرٌ لبعضها على سبيل الإيجاز؛ إذ المقام لا يتسع للتفصيل:

١- استخراج عبودية الضراء وهي الصبر: قال تعالى: [وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ] سورة الأنبياء: ٣٥. فالابتلاء بالسراء والخير يحتاج إلى شكر، والابتلاء بالضراء والشر يحتاج إلى صبر. وهذا لا يتم إلا بأن يقلِّبَ الله الأحوال على العبد حتى يتبين صدق عبوديته لله تعالى.

قال ﷺ: (عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا

له) رواه مسلم (٢٩٩٩).

٢- طهارة القلب، والخلاص من الخصال القبيحة: ذلك أن الصحة قد تدعو إلى الأشر، والبطر، والإعجاب بالنفس، لما يتمتع به المرء من نشاط، وقوة، وهدوء بال، ونعيم عيش. فإذا قُيِّد بالبلاء والمرض انكسرت نفسه، ورق قلبه، وتطهر من أدران الأخلاق الذميمة، والخصال القبيحة من كبر، وخيلاء، وعجب، وحسد، ونحوها، وحلَّ محلَّها الخضوعُ لله، والانكسار بين يديه، والتواضع لخلق الله، وترك الترفع عليهم.

قال المنبجي في تسلية أهل المصائب (ص٢٥): وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر، والعجب، والفرعنة، وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلًا وآجلًا؛ فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب؛ تكون حمية له من هذه الأدواء، وحفظًا لصحة عبوديته، واستفراغًا للمواد الفاسدة، الرديئة، المهلكة؛ فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه، كما قيل:

قد ينعم الله بالبلوى، وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه سبحانه وتعالى يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا، وبغوا، وعتوا، وتجبروا في الأرض، وعاثوا فيها بالفساد؛ فإن من شيم النفوس إذا حصل لها أمر، ونهي، وصحة، وفراغ، وكلمة نافذة من غير زاجر شرعي يزجرها تمردت، وسعت في الأرض فسادًا، مع علمهم بما فعل بمن قبلهم، فكيف لو حصل لهم مع ذلك إهمال؟ ولكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بعبده خيرًا سقاه دواء الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ منه الأدوية المهلكة، حتى إذا هذبه، ونقاه، وصفَّاه أهَّلَه لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، ورقاه

أرفع ثواب الآخرة، وهي رؤيته.

٣- تقوية المؤمن: ذلك أن في المصائب تدريبًا للمؤمن، وامتحانًا لصبره، وتقوية لإيمانه.

٤- النظر إلى قهر الربوبية وذل العبودية: فإنه ليس لأحد مفر عن أمر الله، وقضائه، ولا محيد عن حكمه النافذ وابتلائه؛ فنحن عبيد الله، يتصرف فينا كما يشاؤه ويريده، ونحن إليه راجعون في جميع أمورنا، وإليه المصير يجمعنا لنشورنا.

٥- حصول الإخلاص في الدعاء، وصدق الإنابة في التوبة: ذلك أن المصائب تُشعر الإنسان بضعفه، وافتقاره الذاتي إلى ربه، فيبعثه ذلك إلى إخلاص الدعاء له، وشدة التضرُّع والاضطرار إليه، وصدق الإنابة في التوبة والرجوع إليه.

ولولا هذه النوازل لم يُرَ على باب اللجأ والمسكنة؛ فالله ﷻ علم من الخلق اشتغالهم عنه، فابتلاهم من خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه يستغيثون به؛ فهذا من النعم في طي البلاء، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عن ربك.

قال سفيان بن عيينة: ما يكره العبد خيرٌ له مما يحب؛ لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء، وما يحبه يلهيه .

٦-أيقاظ المبتلى من غفلته: فكم من مبتلى بفقد العافية حصلت له توبة شافية، وكم من مبتلى بفقد ماله انقطع إلى الله بحسن حاله، وكم من غافل عن نفسه، معرضٍ عن ربه أصابه بلاء فأيقظه من رقاده، ونبهه من غفلته، وبعثه لتفقد حاله مع ربه.

٧- معرفة قدر العافية: لأن الشيء لا يعرف إلا بضده، فيحصل بذلك

الشكرُ الموجب للمزيد من النعم؛ لأن ما مَنَّ الله به من العافية أتم وأنعم، وأكثر وأعظم مما ابتلى وأسقم، ثم إن حصول العافية والنعمة بعد ألم ومشقة أعظم قدرًا عند الإنسان.

٨- أن من الآلام ما قد يكون سببًا للصحة: فقد يصاب المرء بمرض ويكون سببًا للشفاء من مرض آخر، وقد يبتلى ببلية فيذهب لعلاجها فيكتشف أن به داءً عضالًا لم يكتشف إلا بسبب هذا المرض الطارئ، قال أبو الطيب المتنبي في ديوانه (٣/ ٨٦): لعلَّ عَتْبَك محمودٌ عواقِبُه ... وربما صحت الأبدان بالعلل

وقال ابن القيم في شفاء العليل (ص٤٩٩): وكثيرًا ما تكون الآلام أسبابًا للصحة لولا تلك الآلام لفاتت. وهذا شأن أكبر أمراض البدن؛ فهذه الحمى فيها من المنافع للأبدان ما لا يعلمه إلا الله، وفيها من إذابة الفضلات، وإنضاج المواد الفَجَّة وإخراجها ما لا يصل إليه دواءٌ غيرها. وكثير من الأمراض إذا عرض لصاحبها الحمى استبشر بها الطبيب .

٩- حصول رحمة أهل البلاء: فالذي يبتلى بأمر ما يجد في نفسه رحمة لأهل البلاء، وهذه الرحمة موجبة لرحمة الله وجزيل العطاء؛ فمن رَحِمَ من في الأرض رَحِمَهُ من في السماء.

١٠- حصول الصلاة من الله والرحمة والهداية: قال تعالى: [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ] سورة البقرة: ١٥٥-١٥٧.

١١- حصول الأجر، وكتابة الحسنات وحط الخطيئات: قال ﷺ: (ما من

شيء يصيب المؤمن، حتى الشوكةِ تصيبه، إلا كتب الله له بها حسنة، أو حُطت عنه بها خطيئة) مسلم (٢٥٧٢) .

وقال بعض السلف: لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس.

بل إن الأجر والثواب لا يختص به المبتلي فحسب، بل يتعداه إلى غيره؛ فالطبيب المسلم إذا عالج المريض واحتسب الأجر كتب له الأجر بإذن الله؛ فمن نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.

وكذلك الذي يزور المريض المبتلى يكتب له الأجر، وكذلك من يقوم على رعايته.

١٢- العلم بحقارة الدنيا وهوانها: فأدنى مصيبة تصيب الإنسان تعكر صفوه، وتنغص حياته، وتنسيه ملاذَّه، والكَيِّسُ الفَطِنُ لا يغتر بالدنيا، بل يجعلها مزرعة للآخرة.

١٣- أن اختيار الله للعبد خير من اختيار العبد لنفسه: وهذا سر بديع، يحسن بالعبد أن يتفطن له؛ ذلك أن الله ﷻ أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين؛ فهو أعلم بمصالح عباده منهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم. وإذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيرًا لهم من ألا ينزل بهم؛ نظرًا منه لهم، وإحسانًا إليهم، ولطفًا بهم.

ولو مكنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم، لكنه ﷻ تولى تدبير أمورهم بموجب علمه، وعدله، وحكمته، ورحمته أحبوا أم كرهوا.

١٤- أن الإنسان لا يعلم عاقبة أمره: فربما طلب ما لا تحمد عقباه، وربما كره ما ينفعه، والله ﷻ أعلم بعاقبة الأمر.

قال ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٢١٥-٢١٦): فقضاؤه للعبد المؤمن عطاء وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كان في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية. ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل، وكان ملائمًا لطبعه.

ولو رزق من المعرفة حظًّا وافرًا لعدَّ المنع نعمة، والبلاء رحمة، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى، وكان في حال القلة أعظم شكرًا من حال الكثرة.

١٥- الدخول في زمرة المحبوبين لله ﷻ: فالمبتلون من المؤمنين يدخلون في زمرة المحبوبين المُشَرَّفين بمحبة رب العالمين؛ فهو سبحانه إذا أحب قومًا ابتلاهم، وقد جاء في السنة ما يشير إلى أن الابتلاء دليل محبة الله للعبد؛ حيث قال النبي ﷺ: (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط) وهو حديث حسن .

١٦- أن المكروه قد يأتي بالمحبوب والعكس: فإذا صحت معرفة العبد بربه علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبه، والمحن التي تنزل به أنها تحمل في طياتها ضروبًا من المصالح والمنافع لا يحصيها علمه، ولا تحيط بها فكرته.

بل إن مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب؛ فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامَّة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها، قالتعالى: [فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا] سورة النساء: ١٩ . وقال: [وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ] سورة البقرة: ٢١٦.

فإذا علم العبد أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، وأن المحبوب قد يأتي

بالمكروه لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة. إلى غير ذلك من الحكم التي قد يعلمها بعض الناس وقد لا يعلمها.

ومن هنا يتضح لنا أنه لا تنافي بين إرادة الله لأمر من الأمور مع بغضه له؛ لما له ﷻ من الحكم العظيمة الباهرة.

المسألة التاسعة: أقسام التقدير

يمكن تقسيم التقدير باعتبار نسبته إلى الله ﷻ إلى خمسة أقسام، وهي كما يلي:

١- التقدير العام: وهو تقدير الرب لجميع الكائنات، بمعنى علمه بها، وكتابته لها، ومشيئته، وخلقه لها، ويدل على هذا النوع أدلة كثيرة تقدم كثير منها.

٢- التقدير البشري: وهو التقدير الذي أخذ الله فيه الميثاق على جميع البشر بأنه ربهم، وأشهدهم على أنفسهم بذلك، والذي قدر الله فيه أهل السعادة وأهل الشقاوة. قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) الأعراف: ١٧٢.

وعن هشام بن حكيم أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: (أَتُبْدَأُ الأعمال أم قد قُضِيَ القضاء؟ قال رسول الله ﷺ: إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه فقال: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار؛ فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل

النار)[1].

قال العلامة ابن باز في تعليقه على الواسطية (ص٧٨-٨٠): التقدير البشري داخل في التقدير العام؛ ولهذا أعرض عنه أبو العباس ابن تيمية في العقيدة الواسطية، وأكثر أهل العلم فيما أعلم.

٣- التقدير العمري: وهو تقدير كل ما يجري على العبد في حياته إلى نهاية أجله، وكتابةُ شقاوته، أو سعادته، وقد دل على ذلك حديث الصادق المصدوق في الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعًا: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل المَلَك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه، وأجله، وعمله،

---

(١) أخرجه البخاري في الكبير (٥/ ٣٤١ - ٣٤٢) و (٨/ ١٩١ - ١٩٢)، والبزار (٢١٤٠ - كشف الأستار)، والطبري في التفسير (٩/ ١١٧، ١١٨)، والطبراني في الكبير (٢٢/ رقم ٤٣٥) وفي الشاميين (١٨٥٤) و (١٨٥٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٧٣ - ١٨٤)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٧٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٢٦) والحديث قال عنه ابن منده في الرد على الجهمية (٧٩): رواه جماعة عن معاوية بن صالح فلم يذكروا فيه هذه اللفظة -ثم أفاض بهم في كفه-، وقال ابن القيم في أحكام أهل الذمة (٢/ ٩٨٠): في إسناده بقية بن الوليد ، وراشد ابن سعد ، وفيهما مقال ، وقتادة النصري ، وهو مجهول، وقال الهيثمى (٧/ ١٨٧): فيه بقية بن الوليد، وهو ضعيف ويحسن حديثه بكثرة الشواهد، وإسناد الطبرانى حسن، وصححه العلامة الألباني في ظلال الجنة (١٦٨)، وقد توسع الشيخ محمود شاكر في الكلام عليه في تعليقه على تفسير الطبري (١٣/ ٢٤٤) وقال في أول البحث: هو خبر قد نصوا قديما على أنه مضطرب الإسناد. واضطرابه من وجوه سأبينها بعد، ثم قال في آخر البحث: وقد أطلت في بيان هذا الاضطراب، لأضبطه بعض الضبط. وبعد ذلك كله، فمعنى الحديث صحيح، مروى عن جماعة من الصحابة بأسانيد ليس فيها هذا الاضطراب. وهو اضطراب قديم، كما نصوا على ذلك فيما نقلت آنفا.

وشقيٌّ أو سعيدٌ)(١).

٤-التقدير السنوي: وذلك في ليلة القدر من كل سنة، ويدل عليه قوله تعالى: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) الدخان: ٤، وقوله: (تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) القدر: ٤-٦.

قيل: يكتب فيها -أي هذه الليلة- ما يحدث في السنة من موت وحياة، وعز وذل، ورزق ومطر، حتى الحجاج يُقال: يحج فلان، ويحج فلان، رُوي هذا عن ابن عمر، وابن عباس، وكذا الحسن وسعيد ابن جبير.

٥-التقدير اليومي: ويدل عليه قوله تعالى: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) الرحمن: ٢٩.

قيل في تفسيرها: شأنه أن يُعِزَّ ويُذِل، ويرفع ويخفض، ويُعطي ويمنع، ويُغني ويُفقر، ويُضحِكَ ويُبكي، ويُميت ويُحيي، إلى غير ذلك.

المسألة العاشرة: أقوال تجري على الألسنة وهي مخالفة للإيمان بالقدر

١- الدعاء بـ "اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه" فهذا الدعاء يجري كثيرًا على الألسنة، وهو دعاء لا ينبغي؛ لأنه شرع لنا أن نسأل الله ردَّ القضاء إذا كان فيه سوءٌ، ولهذا بوَّب الإمام البخاري بابًا في صحيحه قال فيه: باب من تعوذ بالله من درك الشقاء، وسوء القضاء، وقوله تعالى: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)، ثم ساق قول النبي ﷺ: (تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء)(٢).

---

(١) أخرجه البخاري(٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٦١٦)، وأخرجه مسلم (٢٧٠٧).

(فائدة) قال العلامة الألباني في الضعيفة (٥٤٤٨): عن حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا (يمحو الله ما يشاء؛ إلا الشقاوة، والسعادة، والحياة، والموت) ضعيف... وثبت خلافه =

=

عن عمر وغيره، فروى ابن جرير (١٦/ ١٨١-١٨٢) من طريق أبي حكيمة عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب قال - وهو يطوف بالبيت ويبكي (اللهم ! إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنبا ؛ فامحه ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة) ورواه البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ٦٣) في ترجمة عصمة أبي حكيمة هذا. وقد قال فيه ابن أبي حاتم (٣/ ٢/ ٢٠) عن أبيه: "محله الصدق". وذكره ابن حبان في "الثقات" والظاهر أنه قد توبع ؛ فقد رواه ابن جرير من طريق معتمر عن أبيه عن أبي حكيمة عن أبي عثمان، وأحسبني قد سمعته من أبي عثمان مثله، وأبو المعتمر: اسمه سليمان بن طرخان التيمي، وهو ثقة من رجال الشيخين، ثم روى ابن جرير من طريق شريك عن هلال بن حميد عن عبد الله بن عكيم عن عبد الله أنه كان يقول:
اللهم ! إن كنت كتبتني في السعداء ؛ فأثبتني في السعداء ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، ورجاله ثقات ؛ لولا ضعف حفظ شريك ؛ لكنه يتقوى بطريق حماد بن سلمة عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول (اللهم إن كنت كتبتني في أهل الشقاوة ؛ فامحني، وأثبتني في أهل السعادة) رواه ابن جرير، والطبراني في "الكبير" (٨٨٤٧) ورجاله ثقات رجال مسلم إلا أن أبا قلابة لم يدرك ابن مسعود ؛ كما قال الهيثمي (١٠/ ١٨٥)، ولكنه شاهد قوي للطريق الموصولة قبله والله أعلم ولعل الواسطة بينهما أبو وائل شقيق بن سلمة ؛ فقد روى الأعمش عنه: أنه كان يكثر أن يدعو بهؤلاء الكلمات .

رواه ابن جرير بسند صحيح عنه وكان أبو وائل من أعلم أهل الكوفة بحديث ابن مسعود واعلم أن المفسرين اختلفوا اختلافا كثيرا في تفسير آيتي (الرعد): (لكل أجل كتاب. يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) على أقوال كثيرة، استوعبها الشوكاني في الفتح، وذكر بعضها ابن جرير، ثم ابن كثير، واختار هذا ما هو أقرب للسياق ؛ فقال: "أي: لكل كتاب أجل، يعني: لكل كتاب أنزله الله من السماء مدة مضروبة عند الله، ومقدار معين، فلهذا: (يمحو الله ما يشاء): منها: (ويثبت) ؛ يعني: حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه" فالمحو والإثبات فيهما خاص بالأحكام في الكتب المتقدمة أو في الشريعة المحمدية، ينسخ منها ما يشاء، ويثبت ما يشاء، وهو يلتقي مع ما رواه ابن جرير (١٦/ ٤٨٥) وغيره بسند فيه ضعف عن ابن عباس: (يمحو الله ما يشاء)، قال: من القرآن ؛ يقول: يبدل الله ما يشاء فينسخه،
=

=

ويثبت ما يشاء فلا يبدله. (وعنده أم الكتاب)، يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب، الناسخ والمنسوخ، وما يبدل، كل ذلك في كتاب وقد وجدت ما يقويه من رواية عكرمة عن ابن عباس، من وجهين عن عكرمة:

الأول: رواه يزيد النحوي عنه ابن عباس ؛ في قوله: (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)، وقال: (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل ...) الآية، وقال: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) ؛ فأول ما نسخ من القرآن القبلة ... الحديث. رواه النسائي أواخر "الطلاق"، وأبو داود مختصرا وإسناده حسن ؛ كما هو مبين في "الإرواء" (٧/ ١٦١/ ٢٠٨٠).

والآخر: رواه سليمان التيمي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ في قول الله عز وجل: (يمحو الله ما يشاء)، قال: من أحد الكتابين ؛ هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت (وعنده أم الكتاب) ؛ أي: جملة الكتاب رواه ابن جرير (١٦/ ٤٨١، ٤٨٠)، والحاكم (٢/ ٣٤٩) وقال: "صحيح غريب". ووافقه الذهبي قلت: وفي رواية لابن جرير (١٦/ ٤٩١) من طريق علي عن ابن عباس: (وعنده أم الكتاب)، يقول: وجملة ذلك عنده في أم الكتاب ؛ الناسخ والمنسوخ ،، وما يبدل وما يثبت، كل ذلك في كتاب وفي سنده انقطاع وضعف ثم اعلم أنه - وإن كان المحو والإثبات في الآية خاصا بالأحكام الشرعية ؛ كما تقدم - ؛ فليس في الشرع ما ينفيهما في غيرها، بل إن ظواهر بعض النصوص تدل على خلاف ذلك ؛ كمثل قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر" ؛ وهو حديث حسن مخرج في "الصحيحة" (١٥٤) وقوله صلى الله عليه وسلم: "من أحب أن يبسط له في رزقه، وأن ينسأ له في أثره (وفي بعض الطرق: في آجله) ؛ فليصل رحمه". متفق عليه، وهو مخرج في المصدر السابق برقم (٢٧٦) وقد صح عن ابن عباس أنه قال: لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٠). وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي، إذا عرفت ما تقدم ؛ فاعلم أن المحو المذكور والزيادة في الرزق والعمر ؛ إنما هو بالنسبة للقضاء أو القدر المعلق، وأما القضاء المبرم المطابق للعلم الإلهي ؛ فلا محو ولا تغيير، كما كنت شرحت ذلك في تعليقي على "مختصر مسلم" للمنذري (ص ٤٧٠) ؛ فراجعه فإنه هام ! ثم رأيت القرطبي قد أشار إلى ذلك في تفسيره الجامع، فقال (٥/ ٣٣٢): "والعقيدة: أنه لا تبديل لقضاء الله، وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء، وقد تقدم أن من

=

٢- قول: شاءت الظروف، أو شاءت الأقدار كذا وكذا: فهذه من الألفاظ التي لا تنبغي؛ لأنه ليس للظروف ولا الأقدار مشيئة.

وقد سئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٣/ ١٣١-١٣٢): عن هذه الألفاظ فقال: شاءت الأقدار، وشاءت الظروف ألفاظ منكرة؛ لأن الظروف جمع ظرف، وهو الزمن، والزمن لا مشيئة له، وكذلك الأقدار جمع قدر، والقدر لا مشيئة له، وإنما الذي يشاء هو الله ﷿ نعم لو قال الإنسان: اقتضى قدر الله كذا وكذا فلا بأس، أما المشيئة فلا يجوز أن تضاف للأقدار؛ لأن المشيئة هي الإرادة، ولا إرادة للوصف، وإنما هي للموصوف.

٣- قول: ما شاء الله وشاء فلان: فهذا القول شرك بالله ﷿ لوجود التسوية في العطف بالواو؛ فمن سوّى العبد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد جعله ندًّا لله ﷿ لما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلًا قال للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت، فقال:

=

القضاء ما يكون واقعا محتوما - وهو الثابت -، ومنه ما يكون مصروفا بأسباب - وهو الممحو - والله أعلم قال الغزنوي: وعندي: أن ما في اللوح خرج عن الغيب ؛ لإحاطة بعض الملائكة، فيحتمل التبديل؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال، وما في علمه من تقدير الأشياء لا يبدل" وإذا عرفت هذا ؛ سهل عليك فهم كثير من النصوص المرفوعة والآثار الموقوفة، وقد تقدم بعضها، وتخلصت من الوقوع في تأويلها. والله الهادي ثم وقفت على كلام جيد لشيخ الإسلام ابن تيمية، يؤيده ما ذهبت إليه في "مجموع الفتاوى" (٨/ ٥١٦-٥١٨، ٥٤٠، ٥٤١) و (١٤/ ٤٨٨-٤٩٢)، فراجعه ؛ فإنه مهم !.اهـ. من الضعيفة.

وسئل العلامة ابن باز كما في مسائل الإمام ابن باز (ص٢٣٩): الدعاء بدعاء عمر - رضي الله عنه -: «اللهم إن كنت كتبتني شقيًا فامحه، واكتبني سعيدًا» هل يجوز؟

فأجاب: الظاهر أنه ما ينبغي، تركه أفضل.

(أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده)[١].

ولقوله ﷺ (لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان)[٢]، ومن هنا يتبين لنا أنه لا يجوز أن يقال: ما شاء الله وشاء فلان، وإنما يقال: ما شاء الله ثم شاء فلان، والأولى من ذلك أن يقال: ما شاء الله وحده؛ لأن فيه التصريحَ بالتوحيد المنافي للتنديد من كل وجه، والبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص.

٤- قول: إن الله على ما يشاء قدير إذا قام بالقلب أن الله لا يقدر إلا على ما يشاؤه فحسب: وقد أشار إلى خطأ هذا التعبير بعض العلماء منهم الشيخ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٤٦)، وابن ماجه (١/ ٦٨٤، رقم ٢١١٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٨٨)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣٤٢)، وابن السني في اليوم والليلة (٦٦٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٣٥)، وابن عدي في الكامل (١/ ٤١٩)، والطبراني في الكبير (١٣٠٠٥، ١٣٠٠٦)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٩)، والبيهقي (٣/ ٢١٧)، والخطيب في تاريخه (٨/ ١٠٥) والحديث قال عنه ابن القيم في الجواب الكافي (١٠٢): ثابت، وصححه في المدارج١/ ٦٠٢)، وقال العراقي في المغني: إسناده حسن، وصححه العلامة الألباني في صحيح الأدب المفرد، وانظر الصحيحة (١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٠٩٣، ١١٦٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٣/ ٢٩٦): إسناده صحيح، وقال الحويني في تحقيق كتاب الصمت (ص١٩٢): إسناده حسن، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣/ ٣٣٩): صحيح لغيره.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٤ و ٣٩٤ و ٣٩٨)، أبو داود (٤٩٨٠)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٩٠)، والبيهقي (٣/ ٢١٦) والحديث قال عنه الذهبي في المهذب (١/ ١٤٠/ ٢): إسناده صالح، وقال العراقي في المغني: أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، وفي الصحيحة (١٣٧)، وقال الحويني في تحقيق كتاب الصمت (١٩٢/ ، ح ٣٤١): إسناده صحيح .

العلامة عبدالرحمن بن حسن.

يقول المؤرخ عثمان بن بشر في كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد (٢/ ٢٢): كتبت له مرة -يعني عبدالرحمن ابن حسن- ودعوت له في آخر الكتاب، وقلت في ختام الدعاء: إنه على ما يشاء قدير.

فكتب إليَّ وقال في أثناء جوابه: إن هذه الكلمة اشتهرت على الألسن من غير قصد، وهو قول الكثير إذا دعا الله تعالى وهو القادر على ما يشاء ويقصد بها أهل البدع شرًّا، وكل ما في القرآن. (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر) المائدة:١٠٢، وليس في القرآن والسنة ما يخالف ذلك أصلًا؛ لأن القدرة شاملة كاملة، وهي والعلم صفتان شاملتان، تتعلقان بالموجودات والمعدومات، وإنما قصد أهل البدع هو القادر على ما يشاء، أي أن القدرة لا تتعلق إلا بما تعلقت به المشيئة.اهـ.

وقال الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم في فتاواه (١/ ٢٠٧) في جواب له عن هذا التعبير: الأولى أن لا يطلق، ويقال: إن الله على كل شيء قدير؛ لشمول قدرة الله جل جلاله لما يشاؤه ولما لا يشاؤه، وقد غلط من نفى قدرته على ما لا يشاؤه، ومن الحجة عليهم قوله تعالى: (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) الآية[١].

---

(١) قال الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد في معجم المناهي اللفظية (ص٣٣١) وقد جاء إطلاقها في حديث ابن مسعود الطويل في آخر أهل النار خروجًا في صحيح مسلم (١٨٧) جاء في آخر الحديث: (قالوا ممّ تضحك يا رسول الله ؟ قال: من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين، فيقول: إني لا أستهزء منك ولكني على ما أشاء قدير) وفي رواية في كتاب السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٤٥) والإيمان لابن منده بلفظ (ولكن على ما أشاء قادر) لكن هذا الإطلاق مقيد بأفعال معينة كهذا الحديث، =

=
وكذلك في الآية {وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} معلقة بالجمع؛ وعليه فإن إطلاق هذا اللفظ له حالتان، الأُولى: على جهة العموم، فهذا ممتنع لثلاثة وجوه:
١- لأن فيها تقييدًا لما أطلقه الله .
٢- لأنه موهم بأن ما لا يشاؤه لا يقدر عليه .
٣- لأنه موح بمذهب القدرية .
والحالة الثانية: على وجه التقييد كما ذكر.اهـ. من معجم المناهي.
وسئل العلامة العلامة العثيمين كما مجموع فتاواه (٣/ ٨١): عن قول الإنسان: "إن الله على ما يشاء قدير" عند ختم الدعاء ونحوه؟
فأجاب: هذا لا ينبغي لوجوه:
الأول: أن الله تعالى إذا ذكر وصف نفسه بالقدرة، لم يقيد ذلك بالمشيئة في قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وقوله: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وقوله {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فعمم في القدرة كما عمم في الملك، وقوله: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فعمم في الملك والقدرة، وخص الخلق بالمشيئة؛ لأن الخلق فعل، والفعل لا يكون إلا بالمشيئة، أما القدرة فصفة أزلية أبدية شاملة لما شاء، وما لم يشأه، لكن ما شاءه سبحانه وقع، وما لم يشأه لم يقع، والآيات في ذلك كثيرة.
الثاني: أن تقييد القدرة بالمشيئة خلاف ما كان عليه النبي ﷺ وأتباعه فقد قال الله عنهم: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، ولم يقولوا: "إنك على ما تشاء قدير"، وخير الطريق طريق الأنبياء وأتباعهم، فإنهم أهدى علما، وأقوم عملا.
الثالث: أن تقييد القدرة بالمشيئة يوهم اختصاصها بما يشاؤه الله تعالى فقط، لا سيما وأن ذلك التقييد يؤتى به في الغالب سابقا حيث يقال: "على ما يشاء قدير"، وتقديم المعمول يفيد الحصر كما يعلم ذلك في تقرير علماء البلاغة وشواهده من الكتاب والسنة واللغة، وإذا خصت قدرة الله تعالى بما يشاؤه، كان ذلك نقصا في مدلولها وقصرا لها عن عمومها، فتكون قدرة الله تعالى ناقصة حيث انحصرت فيما يشاؤه، وهو خلاف الواقع فإن قدرة الله تعالى عامة فيما يشاؤه، وما لم يشأه، لكن ما شاءه فلا بد من وقوعه،
=

=

وما لم يشأه، فلا يمكن وقوعه.
فإذا تبين أن وصف الله تعالى بالقدرة لا يقيد بالمشيئة بل يطلق كما أطلقه الله تعالى لنفسه، فإن ذلك لا يعارضه قول الله تعالى: {وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} فإن المقيد هنا بالمشيئة هو الجمع لا القدرة، والجمع فعل لا يقع إلا بالمشيئة، ولذلك قيد بها فمعنى الآية أن الله تعالى قادر على جمعهم متى شاء، وليس بعاجز عنه كما يدعيه من ينكره ويقيده بالمشيئة، رد لقول المشركين الذين قال الله تعالى عنهم: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} فلما طلبوا الإتيان بآبائهم تحديا وإنكارا لما يجب الإيمان به من البعث، بين الله تعالى أن ذلك الجمع الكائن في يوم القيامة لا يقع إلا بمشيئته ولا يوجب وقوعه تحدي هؤلاء وإنكارهم كما قال الله تعالى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ} والحاصل أن قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}. لا يعارض ما قررناه من قبل؛ لأن القيد بالمشيئة ليس عائدا إلى القدرة، وإنما يعود إلى الجمع.
وكذلك لا يعارضه ما ثبت في صحيح مسلم في كتاب "الإيمان" في "باب آخر أهل النار خروجا" من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله، ﷺ: «آخر من يدخل الجنة رجل»، فذكر الحديث، وفيه أن الله تعالى قال للرجل: «إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر» وذلك لأن القدرة في هذا الحديث ذكرت لتقرير أمر واقع والأمر الواقع لا يكون إلا بعد المشيئة، وليس المراد بها ذكر الصفة المطلقة التي هي وصف الله تعالى أزلا وأبدا، ولذلك عبر عنها باسم الفاعل "قادر" دون الصفة المشبهة "قدير" وعلى هذا فإذا وقع أمر عظيم يستغربه المرء أو يستبعده، فقيل له في تقريره: إن الله على ما يشاء قادر، فلا حرج في ذلك، وما زال الناس يعبرون بمثل هذا في مثل ذلك، فإذا وقع أمر عظيم يستغرب أو يستبعد قالوا: قادر على ما يشاء، فيجب أن يعرف الفرق بين ذكر القدرة على أنها صفة لله تعالى، فلا تقيد بالمشيئة، وبين ذكرها لتقرير أمر واقع، فلا مانع من تقييدها بالمشيئة؛ لأن الواقع لا يقع إلا بالمشيئة، والقدرة هنا ذكرت لإثبات ذلك الواقع وتقرير وقوعه، والله سبحانه أعلم.

=

=

أما العلامة الألباني فقال في الصحيحة (٦/ ١/ ١٩٣ - ١٩٥): (تنبيه): دل قوله تعالى في آخر الحديث: "ولكني على ما أشاء قادر أو قدير" على خطأ ما جاء في التعليق على العقيدة الطحاوية (ص ٢٠) نقلا عن بعض الأفاضل: "يجيء في كلام بعض الناس: وهو على ما يشاء قدير، وليس بصواب ..".فأقول: بل هو عين الصواب بعد ثبوت ذلك في هذا الحديث، لاسيما ويشهد له قوله تعالى: {وهو على جمعهم إذا يشاء قدير} (الشورى: ٢٩) وذلك لا ينافي عموم مشيئته وقدرته تعالى كما تُوهم المشار إليه، والله أعلم.اهـ.

وقال في الصحيحة أيضا (٧/ ١/ ٣٤٥ - ٣٥٣): قوله: "ولكني على ما أشاء قادر- أو قدير- ": وهي جزء من حديث ابن مسعود عند مسلم (١٨٧): فيه دليل على جواز استعمال هذه الكلمة: "إن الله تعالى على ما يشاء قدير"، وقد كنت توقفت عنها حين علقت على قول الطحاوي في "العقيدة" (ص ٢٠): "ذلك بأنه على كل شيء قدير" كلمة للشيخ ابن مانع رَحِمَهُ اللَّهُ أن ذلك ليس بصواب، وأن الصواب ما في الكتاب والسنة (وهو على كل شيء قدير) لعموم مشيئة الله وقدرته .. إلخ كلامه. ثم وقفت بعد ذلك على هذه الكلمة في هذا الحديث في "صحيح مسلم"، فخشيت- متأثرًا بكلام الشيخ- أن تكون شاذة في الحديث؛ أو خطأ من بعض الرواة، فتريَّثت حتى يتسنى لي تخريجه والنظر في إسناده ورواته، ثم كنت في ليلة من ليالي غرة شهر ذي الحجة في بعض مخيمات عَمّان ألقي كلمة حول وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة على منهج السلف الصالح؛ ووجوب قرن ذلك بالعمل، وبعد الفراغ منها فتحنا باب الأسئلة، فسأل أحد إخواننا الحاضرين- ويبدو أنه على شيء من العلم والثقافة- عن هذه الكلمة، مشيرًا إلى تعليقي المذكور على "العقيدة الطحاوية"، وذكر- جزاه الله خيرًا- بقوله تعالى: [وهو على جمعهم إذا يشاء قدير] (الشورى/ ٢٩)، فأجبته بأن الحديث بحاجة إلى تخريج وتحقيق، مشيرًا إلى أنه من الممكن أن يكون أصل الكلمة: "وأنا على كل شيء قدير" أو نحوها، فبادرت إلى تخريج الحديث، فوجدت أن الرواة عن حماد بن سلمة اتفقوا على اللفظ المتقدم.... ثم قال الشيخ بعد أن استفاض في ذكر طرق وألفاظ الحديث:

وجملة القول؛ أن هذه الجملة قد اختلف في ضبطها عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على اللفظين السابقين:

=

المسألة الحادية عشر: العلاقة بين الدعاء والقدر

اعلم رحمني الله وإياك أنه لا يوجد شيء يغير القدر؛ لأن الله تعالى قال: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) الحديد / ٢٢؛ ولقول النبي ﷺ قال (رفعت الأقلام وجفت الصحف) قال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٧/ ١٨٦): "رفعت الأقلام وجفت الصحف" أي: كتب في اللوح المحفوظ ما كتب من التقديرات، ولا يكتب بعد الفراغ منه شيء آخر.اهـ. ولكن هناك قضاء مبرم وقضاء معلق، والقضاء المعلق هو الذي في الصحف التي في أيدي الملائكة، فإنه يقال: اكتبوا

=

الأول: "ولكني على ما أشاء قادر".
والآخر: "ولكني على ذلك قادر".
واللفظ الأول أصح إسنادًا كما هو ظاهر.
لكن الآخر- مع صحة إسناده- مطابق لنص الآية تمام المطابقة: (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير). لأن المعنى: إذا يشاء ذلك الجمع، قال العلامة الآلوسي في "روح المعاني": "و (إذا) متعلقة بما قبلها لا بـ (قدير)؛ لأن المقيّد بالمشيئة جمعُه تعالى، لا قدرته سبحانه". قلت: وعلى ضوء تفسيره للآية، نقول: إن اسم الإشارة في الحديث: "ذلك" يعود إلى ما أعطى الله ﷻ عبده من النعم الكثيرة التي لا يستحقها؛ فضلًا منه تعالى عليه، فلما قال ما قال مستكثرًا ذلك عليه؛ قال تعالى: "ولكني على ذلك قادر"، فإذا فُسِّرَ بهذا اللفظ الأول أيضًا ولم يوقف عند ما فيه من مفهوم المخالفة، المشعر بأنه تعالى غير قادر على ما لا يشاء؛ على حد قوله تعالى: {لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة} ونحوه من المفاهيم التي قامت الأدلة القاطعة على أنها غير مرادة، إذا فسر هذا اللفظ الأول بهذا الذي دل عليه اللفظ الثاني؛ استقام المعنى، ولم يبق أي إشكال إن شاء الله تعالى. هذا ما عندي من علم، فإن أصبت؛ فمن الله، وإن أخطأت، فمني، وأستغفره تعالى من كل ذنب لي، ومن كان عنده فضل علم؛ فليتفضل به شاكرين له.

عمر فلان إن لم يتصدق فهو كذا وإن تصدق فهو كذا، وفي علم الله وقدره الأزلي أنه سيتصدق أو لا يتصدق، فهذا النوع من القدر ينفع فيه الدعاء والصدقة، لأنه معلق عليهما، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ {الرعد ٣٩ـ٣٨}، وبعض الجهال لا يعلم هذا التفصيل فيترك الدعاء بحجة أن الله يعلم حاجة العبد قبل أن يسأل، وأنه لو شاء لأعطاه مسألته بغير سؤال، وأنه لن يصيب العبد إلا ما كتب له: فهناك من يستهين بشأن الدعاء، ويرى أنه لا داعي له، ولا جدوى من ورائه؛ طالما أن الله ﷻ يعلم حاجة العبد، وأنه لن يصيب العبد إلا ما قُدِّر له.

وربما قال قائلهم: لا حاجة لنا بالدعاء إذا نزل البلاء، وهذا القول قول باطل؛ لأنه مناف للإيمان بالقدر، وتعطيل للأسباب، وترك لعبادة هي أكرم العبادات على الله ﷻ.

فالدعاء أمره عظيم، وشأنه جلل؛ فبه يرد القدر، وبه يرفع البلاء؛ فهو ينفع مما نزل ومما لم ينزل، قال ﷺ: (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر)[1]، وقال: (من فتح له منكم باب

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧)، وابن المبارك في الزهد (٨٦)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٤١-٤٤٢)، وهناد في الزهد (١٠٠٩)، ووكيع في الزهد (٤٠٧)، وابن ماجه (٩٠)، والترمذي (١٣٩)، وابن حبان (٨٧٢)، وأبو زرعة الرازي كما في العلل (٢/ ٢٠٨)، والنسائي في الرقاق من الكبرى كما في التحفة (٢/ ١٣٣)، والطحاوي في شرح المشكل (٣٠٦٩)، والطبراني في الكبير (١٤٤٢)، والحاكم (١/ ٤٩٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (٨٣١، ١٠٠١)، والبغوي في شرح السنة (٣٤١٨) من حديث ثوبان رضي الله عنه، والحديث صححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، قال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٤٠٩): رواته كلهم ثقات، وصححه العلامة ابن باز في تعليقه على البلوغ (٧٧٨)، وقال العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة: حسن دون لفظة (وإن الرجل ليحرم الرزق
=

=

بخطيئة يعملها)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٧/ ٦٨): حسن لغيره دون قوله: "إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه"، وهذا إسناد ضعيف، عبد الله بن أبي الجعد أخو سالم لم يرو عنه غير اثنين، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان، وقد عده الحافظ ابن حجر من الطبقة الرابعة، وهي طبقة صغار التابعين الذين جل روايتهم عن كبارهم، ثم إنه كوفي، وثوبان شامي، فيغلب على الظن أنه لم يسمع منه.اهـ.

قلت وله شاهد من حديث سلمان مرفوعا (لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر) قال العلامة الألباني في الصحيحة (١٥٤): أخرجه الترمذي (٢ / ٢٠) و الطحاوي في " المشكل " (٤ / ١٦٩) وابن حيويه في " حديثه " (٣ / ٤ / ٢) و عبد الغني المقدسي في " الدعاء " (١٤٢ - ١٤٣) كلهم من طريق أبي مودود عن سليمان التميمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان به. وقال الترمذي: "حديث حسن غريب من حديث سلمان، و أبو مودود اثنان: أحدهما يقال له: فضة، وهو الذي روى هذا الحديث، بصري، و الآخر عبد العزيز بن أبي سليمان بصري أيضا وكانا في مصر واحد " قلت: و هو ضعيف كما قال ابن أبي حاتم عن أبيه (٣ / ٢ / ٩٣)، فلعل تحسين الترمذي لحديثه باعتبار أن له شاهدا من حديث ثوبان مرفوعا بزيادة: "و إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه " .... روي من طرق عن سفيان الثوري عن عبد الله بن عيسى عن ابن أبي الجعد عن

ثوبان مرفوعا به. كذا قال بعض المخرجين: "ابن أبي الجعد " لم يسمه، و سماه بعضهم سالم بن أبي الجعد، وبعضهم: عبد الله بن أبي الجعد. فإن كان الأول فهو منقطع لأن سالما لم يسمع من ثوبان، و إن كان الآخر، فهو مجهول كما قال ابن القطان و إن وثقه ابن حبان، و قد أشار إلى ذلك الذهبي في " الميزان " فقال: "و عبد الله هذا و إن كان قد وثق، ففيه جهالة". ثم أخرجه الروياني (١٦٢ / ١) من طريق عمر بن شبيب حدثنا عبد الله بن عيسى عن حفص و عبيد الله بن أخي سالم عن سالم عن ثوبان به. و زاد: "إن في التوراة لمكتوب: يا ابن آدم اتق ربك، و بر والديك، و صل رحمك أمدد لك في عمرك، و أيسر لك يسرك، و أصرف عنك عسرك". قلت: فهذا قد يرجح أن الحديث من رواية سالم بن أبي الجعد لكن عمر بن شبيب ضعيف كما قال الحافظ في " التقريب " و أما حفص و عبيد الله بن أخي سالم فلم أعرفهما فإن ثبت هذا الترجيح فهو منقطع، و إلا فمتصل، لكن فيه جهالة كما سبق، فقول الحاكم عقبه: "صحيح الإسناد". مردود

=

الدعاء فتحت له أبواب الرحمة، وما سُئل الله شيئًا يعطى أحبَّ إليه من أن يسأل العافية، إن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل؛ فعليكم عباد الله بالدعاء)[١].

وقال: (لا يغني حذر من قدر، وإن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن الدعاء ليلقي البلاء فيعتلجان إلى يوم القيامة)[٢]. وغيرها من الأحاديث.

=

و إن وافقه الذهبي، لجهالة المذكور، وقد صرح بها الذهبي كما تقدم، و هذا من تناقضه الكثير ! و للحديث طريق أخرى عن ثوبان. يرويه أبو علي الدارسي: حدثنا طلحة بن زيد عن ثور عن راشد بن سعد عن ثوبان أخرجه ابن عدي (ق ٣٤ / ١) وقال: " أبو علي الدارسي بشر بن عبيد منكر الحديث، بين الضعف جدا " قلت: و كذبه الأزدي، و ساق له في " الميزان " أحاديث و قال: "و هذه أحاديث غير صحيحه، فالله المستعان " ثم ساق له آخر و قال فيه: "و هذا موضوع". و الخلاصة: أن الحديث حسن كما قال الترمذي بالشاهد من حديث ثوبان، دون الزيادة فيه، فإني لم أجد لها شاهدا، بل روي ما يعارضها بلفظ: "إن الرزق لا تنقصه المعصية، و لا تزيده الحسنة .. " قلت: و لكنه موضوع كما حققته في " الأحاديث الضعيفة " (رقم ١٧٩) فلا يصلح لمعارضة الزيادة المشار إليها .

قوله (القضاء)، أراد به هنا الأمر المقدر لولا دعاؤه. و قوله (و لا يزيد في العمر)، يعني العمر الذي كان يقصر لولا بره .

(١) أخرجه الترمذى (٥/ ٥٥٢، رقم ٣٥٤٨)، ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٠٠، ٢٠٦)، والعقيلي، في الضعفاء (٣/ ٣٨٤)، والحاكم (١/ ٦٧٥، رقم ١٨٣٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر القرشي وهو ضعيف في الحديث، وقال العقيلي في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي: لا يتابع عليه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي وقال: عبد الرحمن ضعيف. وقال ابن حجر في نتائج الأفكار: رواه كلهم من طريق عبد الرحمن بن أبي مليكة وهو ذاهب الحديث، وقال العلامة الألباني في صحيح الترمذي: حديث (من فتح له منكم باب ...) ضعيف، وحديث (إن الدعاء ينفع مما ..) حسن.

(٢) أخرجه البزار (٢١٦٥)، والحاكم (١/ ٤٩٢)، والطبراني في الأوسط (٣/

=

وربما استشهد بعض من يترك الدعاء كبعض الصوفية بحديث: (حسبي من سؤالي علمه بحالي) وهذا الحديث باطل لا أصل له، وقد تكلم عليه العلماء، وبينوا بطلانه.

فقال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٨/ ٥٣٩) عن هذا الحديث: وأما قوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فكلام باطل، خلاف ما ذكره الله عن إبراهيم الخليل وغيره من الأنبياء، من دعائهم لله، ومسألتهم إياه، وهو خلاف ما أمر الله به عباده من سؤالهم له صلاح الدنيا والآخرة.اهـ.

قال العلامة الألباني في الضعيفة (٢١) عن هذا الحديث: لا أصل له .

أورده بعضهم من قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو من الإسرائيليات ولا أصل له في المرفوع، وقد ذكره البغوي في تفسير سورة الأنبياء مشيرا لضعفه فقال: روي عن كعب الأحبار: "أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ... لما رموا به في المنجنيق إلى النار استقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال: أما إليك فلا، قال جبريل: فسل ربك، فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي". وقد أخذ هذا المعنى بعض من صنف في الحكمة على طريقة الصوفية فقال: سؤالك منه يعني الله تعالى اتهام له، وهذه ضلالة كبري ! فهل كان الأنبياء صلوات الله عليهم متهمين لربهم حين سألوه مختلف الأسئلة ؟ فهذا

=

٢٤٢/ ٢٥١٩)، وفي الدعاء (٢/ ٢/ ٨٠٠/ ٣٣)، والخطيب (٨/ ٤٥٣) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قال الحاكم: "صحيح الإسناد "؛ فرده الذهبي بقوله في " التلخيص ": "قلت: زكريا مجمع على ضعفه"، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٤٦): "وثقه أحمد بن صالح المصري، وضعفه الجمهور"، وأما العلامة الألباني فقد حسن حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في صحيح الجامع (٧٧٣٩)، ثم عاد وقال في الضعيفة عن الحديث حديث عائشة وأبي هريرة (٦٧٦٤): ضعيف جدا.

إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول: {ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهو ي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون، ربنا ...) إلى آخر الآيات وكلها أدعية، وأدعية الأنبياء في الكتاب والسنة لا تكاد تحصى، والقائل المشار إليه قد غفل عن كون الدعاء الذي هو تضرع والتجاء إلى الله تعالى عبادة عظيمة بغض النظر عن ماهية الحاجة المسؤولة، ولهذا قال ﷺ: "الدعاء هو العبادة، ثم تلا قوله تعالى: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} " ذلك لأن الدعاء يظهر عبودية العبد لربه وحاجته إليه ومسكنته بين يديه، فمن رغب عن دعائه، فكأنه رغب عن عبادته سبحانه وتعالى، فلا جرم جاءت الأحاديث متضافرة في الأمر به والحض عليه حتى قال ﷺ: "من لا يدع الله يغضب عليه". أخرجه الحاكم (١ / ٤٩١) وصححه ووافقه الذهبي. قلت: وهو حديث حسن، وتجد بسط الكلام في تخريجه وتأكيد تحسينه والرد على من زعم من إخواننا أنني صححته وغير ذلك من الفوائد في " السلسلة الأخرى " (رقم ٢٦٥٤). وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "سلوا الله كل شيء حتى الشسع، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ، إن لم ييسره لم يتيسر". أخرجه ابن السني (رقم ٣٤٩) بسند حسن، وله شاهد من حديث أنس عند الترمذي (٤ / ٢٩٢) وغيره وضعفه وهو مخرج فيما سيأتي برقم (١٣٦٢). وبالجملة فهذا الكلام المعزو لإبراهيم عليه الصلاة والسلام لا يصدر من مسلم يعرف منزلة الدعاء في الإسلام فكيف يصدر ممن سمانا المسلمين ؟ ! ثم وجدت الحديث قد أورده ابن عراق في تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة وقال (١/ ٢٥٠): قال ابن تيمية موضوع.اهـ. من الضعيفة.

وقد سئل **شيخ** الإسلام في مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٨٨): عن قوله تعالى {ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده} وقوله تعالى {وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب} وقوله تعالى {يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب} هل المحو والإثبات في اللوح المحفوظ والكتاب الذي جاء في الصحيح {أن الله تعالى كتب كتابا فهو عنده على عرشه} الحديث. وقد جاء: {جف القلم} فما معنى ذلك في المحو والإثبات؟. وهل شرع في الدعاء أن يقول: "اللهم إن كنت كتبتني كذا فامحني واكتبني كذا فإنك قلت: {يمحوا الله ما يشاء ويثبت} وهل صح أن عمر كان يدعو بمثل هذا؟ وهل الصحيح عندكم أن العمر يزيد بصلة الرحم كما جاء في الحديث؟ أفتونا مأجورين..اهـ.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين، أما قوله سبحانه: {ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده} فالأجل الأول هو أجل كل عبد؛ الذي ينقضي به عمره والأجل المسمى عنده هو: أجل القيامة العامة. ولهذا قال: {مسمى عنده} فإن وقت الساعة لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل كما قال: {يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو}. بخلاف ما إذا قال: (مسمى كقوله: {إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى} إذ لم يقيد بأنه مسمى عنده فقد يعرفه العباد. وأما أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد وأجله وعمله وشقي أو سعيد. كما قال في الصحيحين عن ابن مسعود قال: {حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق -: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح} فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يعلمه

الله لمن شاء من عباده. وأما أجل القيامة المسمى عنده فلا يعلمه إلا هو.

وأما قوله: {وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره} فقد قيل إن المراد الجنس أي ما يعمر من عمر إنسان ولا ينقص من عمر إنسان ثم التعمير والتقصير يراد به شيئان: "أحدهما " أن هذا يطول عمره وهذا يقصر عمره فيكون تقصيره نقصا له بالنسبة إلى غيره كما أن المعمر يطول عمره وهذا يقصر عمره فيكون تقصيره نقصا له بالنسبة إلى غيره كما أن التعمير زيادة بالنسبة إلى آخر. وقد يراد بالنقص النقص من العمر المكتوب كما يراد بالزيادة الزيادة في العمر المكتوب. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: {من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه} وقد قال بعض الناس: إن المراد به البركة في العمر بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا في الكثير قالوا: لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان. فيقال لهؤلاء تلك البركة. وهي الزيادة في العمل والنفع. هي أيضا مقدرة مكتوبة وتتناول لجميع الأشياء. والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلا في صحف الملائكة فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب. وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب. ونظير هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ (أن آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته فأراه إياهم فرأى فيهم رجلا له بصيص فقال من هذا يا رب؟ فقال ابنك داود. قال: فكم عمره؟ قال أربعون سنة. قال: وكم عمري؟ قال: ألف سنة. قال فقد وهبت له من عمري ستين سنة. فكتب عليه كتاب وشهدت عليه الملائكة فلما حضرته الوفاة قال قد بقي من عمري ستون سنة. قالوا: وهبتها لابنك داود. فأنكر ذلك فأخرجوا الكتاب. قال النبي ﷺ فنسي آدم

فنسيت ذريته وجحد آدم فجحدت ذريته)[1]، وروي أنه كمل لآدم عمره ولداود عمره. فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنة ثم جعله ستين وهذا معنى ما روي عن عمر أنه قال: اللهم إن كنت كتبتني شقيا فامحني واكتبني سعيدا فإنك تمحو ما تشاء وتثبت. والله سبحانه عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إياه بعد ذلك والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها؛ فلهذا قال العلماء: إن المحو والإثبات في صحف الملائكة وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالما به فلا محو فيه ولا إثبات. وأما اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين. والله سبحانه وتعالى أعلم؟.اهـ.

وقال ابن القيم في الجواب الكافي ص١٧): المقدور قدر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدر مجردًا عن سببه، ولكن قدر بسببه فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور وهكذا، كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب وقدر الولد بالوطء وقدر حصول الزرع بالبذر ... وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قدر وقوع المدعو به لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب..اهـ.

وقال العلامة السعدي في تفسيره: يمحوا الله ما يشاء من الأقدار: ويثبت ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير، لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: وعنده أم الكتاب -أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، والحاكم (٢/ ٣٢٥) وغيرهم والحديث قال عنه الترمذي: حديث حسن صحيح، وحسنه العلامة الألباني في المشكاة (١١٨)، وكذا حسنه العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٣/ ٤٣٧ - ٤٣٨).

الأشياء، فهو أصلها وهي فروع له وشعب، فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابا ولمحوها أسبابا لا تتعدى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ..اهـ.

وسئل العلامة العثيمين كما في المجموع الثمين من فتاوى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١/ ١٥٧): هل للدعاء تأثير في تغيير ما كتب للإنسان قبل خلقه؟

فأجاب: لا شك أن للدعاء تأثيرًا في تغيير ما كتب، لكن هذا التغيير قد كتب أيضًا بسبب الدعاء، فلا تظن أنك إذا دعوت الله فإنك تدعو بشيء غير مكتوب، بل الدعاء مكتوب وما يحصل به مكتوب، ولهذا نجد القارئ يقرأ على المريض فيشفى، وقصة السرية التي بعثها النبي، ﷺ، فنزلوا ضيوفًا على قوم ولكنهم لم يضيفوهم وقدر أن لدغت حية سيدهم فطلبوا من يقرأ عليه، فاشترط الصحابة أجرة على ذلك فأعطوهم قطيعًا من الغنم، فذهب أحدهم فقرأ عليه الفاتحة، فقام اللديغ كأنما نشط من عقال، أي كأنه بعير فك عقاله، فقد أثرت القراءة في شفاء المريض.

فللدعاء تأثير لكنه ليس تغييرًا للقدر، بل هو مكتوب بسببه المكتوب، وكل شيء عند الله بقدر، وكذلك جميع الأسباب لها تأثير في مسبباتها بإذن الله، فالأسباب مكتوبة والمسببات مكتوبة.

(فرع): اعلم رحمني الله وإياك أن تأخر الإجابة مع المبالغة في الدعاء يحمل في طياته حكمًا باهرةً، وأسرارًا بديعة، لو تدبرها الداعي لما دار في خَلَدِه تضجر من تأخر الإجابة.

وفيما يلي ذكر لبعض تلك الحكم والأسرار، والتي يجمل بالداعي أن يتدبرها، ويحسن به أن يستحضرها.

١- أن تأخر الإجابة من البلاء الذي يحتاج إلى صبر: فتأخر الإجابة من الابتلاء، كما أن سرعة الإجابة من الابتلاء.

قال تعالى: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) الأنبياء: ٣٥.

فالابتلاء بالخير يحتاج إلى شكر، والابتلاء بالشر يحتاج إلى صبر؛ فإياك أن تستطيل زمان البلاء، وتَضْجَرَ من كثرة الدعاء؛ فإنك ممتحن بالبلاء، مُتَعَبَّدٌ بالصبر والدعاء.

فلا تيأسن من روح الله وإن طال البلاء؛ فإن الله ﷻ يبتليك؛ ليبلو أخبارك.

قال عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أصبحت ومالي سرور إلا في انتظار مواقع القدر؛ إن تكن السراء فعندي الشكر، وإن تكن الضراء فعندي الصبر.

٢- أن الله ﷻ هو مالك الملك: فله التصرف المطلق بالعطاء والمنع، فلا راد لفضله، ولا معقب لحكمه، ولا اعتراض على عطائه ومَنْعِه؛ إن أعطى فبفضل، وإن منع فبعدل.

قال ابن ناصر الدين الدمشقي في برد الأكباد عند فقد الأولاد (ص٣٨): فإنه ليس لأحد مفر عن أمر الله وقضائه، ولا محيد له عن حكمه النافذ وابتلائه، إنَّا لله ملكه وعبيده، يتصرف فينا كما يشاؤه وما يريده.

٣- أنه لا حق للمخلوق على الخالق: فالمخلوق مربوب، مملوك، مقهور،

مُدَبَّر، والخالق ربٌّ، قاهر، مُدَبِّر، والمملوك العاقل مطالب بأداء حق المالك، ويعلم أنه لا يجب على المالك تبليغه ما يهوى؛ فكيف يُقَصِّر المملوك ثم يطلب حقه كاملًا مع أنه لا حق له أصلًا؟!

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان (ص٩٧): فمن أنفع ما للقلب النظرُ في حق الله على العباد؛ فإن ذلك يورث مقت نفسه، والإزراء عليها، ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل، والانكسار بين يدي ربه، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل إلا بعفو الله، ومغفرته، ورحمته؛ فإن حقه أن يطاع ولا يعصى، وأن يذكر ولا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عَلِمَ عِلْمَ اليقين أنه غير مؤدٍ له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إن أحيل على عمله هلك.

فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسهم، وهذا الذي أيأسهم من أنفسهم، وعلق رجاءهم كله بعفو الله ومغفرته.

ثم قال: وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك؛ ينظرون في حقهم على الله، ولا ينظرون في حق الله عليهم.

ومن ههنا انقطعوا عن الله، وحُجبت قلوبهم عن معرفته، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه.

٤ - أن الله ﷻ له الحكمة البالغة: فلا يعطي إلا لحكمة، ولا يمنع إلا لحكمة، وقد ترى الشيء مصلحة ظاهرة، ولكن الحكمة لا تقتضيه؛ فقد يخفى في الحكمة فيما يفعله الطبيب من أشياء تؤذي في الظاهر يقصد بها المصلحة؛ فلعل هذا من ذاك، ثم إن الله سبحانه وتعالى له الحكمة البالغة، فأسماؤه الحسنى وأفعاله تمنع نسبة الظلم إليه، وتقتضي ألا يفعل إلا ما هو مطابق

للحكمة، موافق لها؛ فتأخر الإجابة قد يكون عين المصلحة للداعي كما سيأتي بيانه في الفقرات التالية.

٥- قد يكون في تحقق المطلوب زيادة في الشر: فربما تحقق للداعي مطلوبه، وأجيب له سؤله، فكان ذلك سببًا في زيادة إثم، أو تأخر عن مرتبة، أو كان ذلك حملًا على الأشر والبطر؛ فكان التأخير أو المنع أصلح.

وقد روي عن بعض السلف أنه كان يسأل الله الغزو، فهتف به هاتف: إنك إن غزوت أُسِرْتَ، وإن أسرت تَنَصَّرْتَ.

قال ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٢١٥): فقضاؤه لعبده المؤمن عطاء وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كان في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية.

ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به في العاجل، وكان ملائمًا لطبعه، ولو رزق من المعرفة حَظًّا وافرًا لعدَّ المنع نعمة، والبلاء رحمة، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى، وكان في حال القلة أعظم شكرًا من حال الكثرة.

٦- أن اختيار الله للعبد خير من اختيار العبد لنفسه: وهذا سر بديع يحسن بالعبد أن يتفطن له حال دعائه لربه؛ ذلك أن الله ﷻ أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، فهو أعلم بمصالح عباده منهم، وأرحم بهم من أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم.

وإذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيرًا لهم من ألا ينزل بهم؛ نظرًا منه لهم، وإحسانًا إليهم، ولطفًا بهم.

ولو مُكِّنُوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم علمًا،

وإرادةً، وعملًا، لكنه سبحانه وتعالى تولى تدبير أمورهم بموجب علمه، وعدله، وحكمته، ورحمته أَحَبُّوا أم كرهوا.

فإذا سلَّم العبد لله، وأيقن بأن الملك ملكه، والأمر أمره، وأنه أرحم به من نفسه طاب قلبه، قضيت حاجته أو لم تُقضَ، وإذا فوض العبد ربه، ورضي بما يختاره له أَمَدَّه فيما يختاره له بالقوة عليه، والعزيمة، والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه، وهذا يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرى.

ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به.

ومتى صح تفويضه ورضاه اكتنفه في المقدور العطفُ عليه، واللطف فيه، فيصير بين عطفه ولطفه؛ فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يُهَوِّن عليه ما قدر له.

قال سفيان الثوري: منعه عطاء؛ وذلك أنه لم يمنع عن بخل ولا عدم، وإنما نظر في خير العبد فمنعه اختيارًا وحسن نظر.

٧- أن الإنسان لا يعلم عاقبة أمره: فربما يطلب ما لا يَحْمد عاقبته، وربما كان فيه ضرره، كمثل طفل محموم يطلب الحلوى وهي لا تناسبه.

والمدبر للإنسان أعلم بمصالحه، وعاقبةِ أمره، كيف وقد قال (وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم) البقرة:٢١٦،؟.

ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب

الأمور، والرضا بما يقضيه عليه؛ لما يرجوه من حسن العاقبة، ومن أسرارها ألا يقترح على ربه، ولا يسأله ما ليس له به علم؛ فلعل فيه مضرَّتَه وهو لا يعلم؛ فلا يختار على ربه، بل يسأله حسن العاقبة فيما يختار له؛ فلا أنفع له من ذلك.

ولهذا من لطف الله تعالى لعبده أنه ربما طمحت نفسه لسبب من الأسباب الدنيوية، التي يظن بها إدراك بغيته، فيعلم الله أنها تضره، وتصده عما ينفعه، فيحول بينه وبينها، فيظل العبد كارهًا، ولم يدْرِ أن ربه قد لطف به؛ حيث أبقى له الأمر النافع، وصرف عنه الأمر الضار.

٨- الدخول في زمرة المحبوبين لله ﷻ: فالذين يدعون ربهم، ويبتلون بتأخر الإجابة عنهم يدخلون في زمرة المحبوبين، المُشَرَّفِين بمحبة رب العالمين؛ فهو سبحانه إذا أحب قومًا ابتلاهم.

وقد جاء في السنة ما يشير إلى أن الابتلاء دليل على محبة الله للعبد؛ حيث قال ﷺ: (إن عظم الجزاء من عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط)(١).

٩- أن المكروه قد يأتي بالمحبوب والعكس بالعكس: فإذا صحت معرفة العبد بربه علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبه، والمحن التي تنزل به، والتي منها تأخر إجابة الدعاء أنها تحمل في طياتها ضروبًا من المصالح والمنافع لا يحصيها علمه، ولا تحيط بها فكرته. بل إن مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها

---

(١) أخرجه الترمذى (٤/ ٦٠١، رقم ٢٣٩٦)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٨، رقم ٤٠٣١)، وأبو يعلى (٧/ ٢٤٧/ ٤٢٥٣)، وابن عدى في الكامل (٣/ ٣٥٦)، والدارقطنى في مجلس إملاء فى رؤية الله تبارك وتعالى (٢٤٤)، والقضاعى في مسند الشهاب (٢/ ١٧٠، رقم ١١٢١)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ١٤٤، رقم ٩٧٨٢) والحديث قال عنه الترمذي: حديث حسن غريب، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (١٤٦).

فيما يحب؛ فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها في محبوباتها.

قال تعالى: (فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا) النساء: ١٩.

وقال: (وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) البقرة: ٢١٦.

فإذا علم العبد أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، وأن المحبوب قد يأتي بالمكروه لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ فإن الله يعلم ما لا يعلمه العبد.

وما أجمل قول من قال:

كم نعمةٍ لا تستقلُّ بشكرها … لله في طيِّ المكاره كامنه

ومن قال:

تجري الأمور على حكم القضاء وفي … طيِّ الحوادث محبوب ومكروه

وربما سرني ما كنت أحذره … وربما ساءني ما كنت أرجوه

قال سفيان بن عيينه: ما يكره العبد خير له مما يحب؛ لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء، وما يحبه يلهيه.

وقال ابن ناصر الدين الدمشقي في برد الأكباد (ص٣٧):

إذا اشتدت البلوى تخَفَّفْ بالرضا … عن الله قد فاز الرَّضيُّ المراقبُ

وكم نعمةٍ مقرونة ببلية … على الناس تخفى والبلايا مواهب

١٠ - تأخر الإجابة سبب لتفقد العبد لنفسه: فقد يكون امتناع الإجابة لآفة في الداعي؛ فربما كان في مطعومه شبهة، أو في قلبه وقت الدعاء غفلة، أو كان متلبسًا بذنوب مانعة.

وتأخر الإجابة قد يبعث الداعي إلى تفقد نفسه، والنظر في حاله مع ربه، فيحصل له من جراء ذلك المحاسبةُ، والتوبةُ، والأوبةُ، ولو عجلت له دعوته لربما غفل عن نفسه، فظن أنه على خير وهدى، فأهلكه العجب، وفاتته هذه الفائدة.

١١- قد تكون الدعوة مستجابة دون علم الداعي لأن ثمرة الدعاء مضمونة إذا أتى الإنسان بأسباب الإجابة، وسلم من موانعها؛ فالداعي لا يخلو من أن يستجاب له دعاؤه فيرى أثره في الدنيا، أو لا يستجاب له لوجود أحد الموانع، فلا يرى أثرًا لدعائه في الدنيا، أو أن يستجاب له ولكن لا يرى أثرًا للإجابة في الدنيا وإنما يؤخر له من الأجر مثل دعوته يوم القيامة، أو أن يستجاب له الدعاء فلا يرى أثرًا للإجابة، ولكن يصرف الله عنه من السوء مثل دعوته وهو لا يعلم.

ففي الحديث (ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له فى الآخرة وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا إذن نكثر قال الله أكثر وأطيب)[(١)].

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (٦/ ٢٢، رقم ٢٩١٧٠)، وأحمد (٣/ ١٨، رقم ١١١٤٩)، وعبد بن حميد (ص ٢٩٢، رقم ٩٣٧)، وأبو يعلى (٢/ ٢٩٦، رقم ١٠١٩)، والطبرانى فى الأوسط (٤/ ٣٣٧، رقم ٤٣٦٨)، والحاكم (١/ ٦٧٠، رقم ١٨١٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢/ ٤٧، رقم ١١٢٨)، وابن عبد البر في التمهيد (٥/ ٣٤٤) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال المنذري في الترغيب (٢/ ١٢٨): رواه أحمد والبزار وأبو يعلى بأسانيد جيدة، وقال الهيثمى (١٠/ ١٤٨): رجال أحمد، وأبى يعلى، وأحد إسنادى البزار رجاله رجال الصحيح غير على بن على الرفاعى وهو ثقة، وقال العلامة الألباني في صحيح الترغيب (١٦٣٣): حسن صحيح، وخرجه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٤١٦)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٧/ ٢١٤): إسناده جيد.

إذا تقرر هذا فكيف يستبطئ الداعي الإجابة طالما أن الثمرة مضمونة؟ ولماذا لا يحسن العبد ظنه بربه ويقول: لعله استجيب لي من حيث لا أعلم؟.

وقد يكون الدعاء ضعيفًا فلا يقاوم البلاء: قال ابن القيم في "الجواب الكافي" (ص/ ٤): "الدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، وله مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء، فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفا.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه " انتهى باختصار.

وقال الشيخ ابن عثيمين – كما في المجموع الثمين من فتاوى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١/ ١٥٧): "الدعاء من الأسباب التي يحصل بها المدعو، وهو في الواقع يرد القضاء، ولا يرد القضاء، يعني له جهتان، فمثلا: هذا المريض قد يدعو الله تعالى بالشفاء فيشفى، فهنا لولا هذا الدعاء لبقي مريضا، لكن بالدعاء شفي، إلا أنا نقول: إن الله سبحانه وتعالى قد قضى بأن هذا المرض يشفى منه المريض بواسطة الدعاء، فهذا هو المكتوب. يظن أنه لولا الدعاء لبقي المرض، ولكنه في الحقيقة لا يرد القضاء؛ لأن الأصل أن الدعاء مكتوب، وأن الشفاء سيكون بهذا الدعاء، هذا هو القدر الأصلي الذي كتب في الأزل، وهكذا كل شيء مقرون بسبب، فإن هذا السبب جعله تعالى سببا يحصل به الشيء، وقد كتب ذلك في الأزل قبل أن يحدث " انتهى.

١٢– قد يكون الإنسان سد طريق الإجابة بالمعاصي: فلو فتحها بالتقوى

لحصل على مراده؛ فكيف يستبطئ الإجابة وقد سد طريقها بالمعاصي؟.

أما علم أن التقوى سبب الراحة، وأنها مفتاح كل خير؟

أما سمع قوله تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لم يحتسب) التحريم: ٢ - ٣،

وقوله تعالى: (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرًا) التحريم: ٤.

أَوَ ما فهم أن العكس بالعكس؟.

١٣ - ظهور آثار أسماء الله تعالى: فمن أسماء الله ﷻ المعطي، المانع، الحكم، العدل، الكريم، العليم، البر، الرحيم، المالك، الحكيم.

وهذه الأسماء تستدعي متعلقات تظهر فيها أحكامها، ومقتضياتها، وآثارها؛ فتأخر الإجابة من أسباب ظهور تلك الآثار، والمقتضيات والأحكام. فقد يمنع ﷻ أحدًا من الناس؛ لحكمته، وعدله، وعلمه. وقد يعطي برحمته ﷻ، وحكمته، وبره، وعلمه.

١٤ - تكميل مراتب العبودية للأولياء: فالله ﷻ يحب أولياءه، ويريد أن يكمل لهم مراتب العبودية، فيبتليهم بأنواع من البلاء، ومنها تأخر إجابة الدعاء؛ كي يتَرَقَّوا في مدارج الكمال ومراتب العبودية؛ فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله، وعلت درجته. العبودية لابن تيمية (ص٨٠).

فأنفع الأشياء للعبد على الإطلاق طاعته لربه بظاهره وباطنه، وأضر الأشياء عليه معصيته لربه بظاهره وباطنه، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصًا له فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيرًا له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوبٍ شرٌّ له، فإذا تدبر العبد ذلك تشاغل بما هو أنفع له من

حصول ما فاته.

هذا ومن تلك العبوديات التي تحصل من جراء تأخر إجابة الدعاء ما يلي:

أ- انتظار الفرج: فانتظار الفرج من أجل العبوديات وأعظمها، فكلما اشتد انتظار الفرج كلما ازدادت ثقة العبد بربه، فيزداد بذلك قربًا من الله، وأُنْسًا به ﷻ.

ولو عجلت له الإجابة لربما فاتته هذه العبودية.

قال ابن القيم في المدارج (٢/ ١٦٧): انتظار روح الفرج يعني راحته، ونسيمه، ولذته؛ فإن انتظاره، ومطالعته، وترقبه يخفف حمل المشقة ولاسيما عند قوة الرجاء، أو القطع بالفرج؛ فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته ما هو من خفي الألطاف، وما هو فرج معجل.

ب- حصول الاضطرار والافتقار إلى الله: فهذا لب العبادة ومقصودها الأعظم؛ فالافتقار إلى الله دون سواه هو عين الغنى، والتذللُ له سبحانه وتعالى هو العز الذي لا يدانيه عز.

ثم إن حاجة الإنسان بل ضرورته إلى الافتقار والاضطرار إلى الله لا تدانيها حاجة أو ضرورة، ولو أجيب دعاؤه مباشرة لربما أصابه التيه بالنفس، والإدلال على الله بالعمل، ولربما شعر بالغنى عن الله تبارك وتعالى.

وبذلك يخرج العبد عن وصفه الذي لا ينفك عنه، والذي فيه جماله وكماله ألا وهو افتقاره إلى ربه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في جامع الرسائل (١/ ١٦٦): والعبد هو فقير دائمًا إلى الله من كل وجه؛ من جهة أنه معبوده، وأنه مستعانه، فلا يأتي بالنعم إلا هو، ولا يَصْلُح حال العبد إلا بعبادته.

وهو مذنب أيضًا لا بد له من الذنوب فهو دائمًا فقير مذنب؛ فيحتاج دائمًا

إلى الغفور الرحيم؛ الغفور الذي يغفر ذنوبه، والرحيم الذي يرحمه فينعم عليه، ويحسن إليه؛ فهو دائمًا بين إنعام ربه وذنوب نفسه.

جـ- حصول عبودية الرضا: فالرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، وبستان العارفين.

فمن رضي عن الله وبالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه؛ فالمؤمن حين تنزل به النازلة يدعو ربه، ويبالغ في ذلك، فلا يرى أثرًا للإجابة، فإذا قارب اليأس نُظِرَ حينئذٍ في قلبه، فإن كان راضيًا بالأقدار، غير قنوط من فضل الله فالغالب تعجيل الإجابة؛ فهناك يصلح الإيمان، ويهزم الشيطان، وتتبين مقادير الرجال.

وقد أشير إلى هذا في قوله تعالى: (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) البقرة: ٢١٤. وكذلك جرى ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أولاده كما مر قريبًا.

أما الاعتراض وقلة الرضا عن الله فخروج عن صفة العبودية.

قال بعضهم كما في مدارج السالكين (٢/ ٢١٦): ارض عن الله في جميع ما يفعله بك؛ فإنه ما منعك إلا ليعطيك، ولا ابتلاك إلا ليعافيك، ولا أمرضك إلا ليشفيك، ولا أماتك إلا ليحييك؛ فإياك أن تفارق الرضا عنه طرفة عين، فتسقط من عينه.

قال ابن ناصر الدين الدمشقي في برد الأكباد (ص٩):

يجري القضاءُ وفيه الخير نافلة … لمؤمن واثق بالله لا لاهي

إن جاءه فرح أو نابه ترح … في الحالتين يقول الحمد لله

د- الانكسار بين يدي جبار السماوات والأرض: فالله عَزَّ وَجَلَّ يحب المنكسرين بين يديه، فيدنيهم، ويقرب منهم.

فربما كان تأخر الإجابة سببًا لإطالة الوقوف على باب الله، وانكسار العبد بين يديه، وكثرة اللجأ إليه، والاعتصام به، بدليل أنه لولا هذه النازلة لم يُرَ على باب اللجأ والمسكنة؛ فالله ﷻ علم من الخلق اشتغالهم بالبر عنه، فابتلاهم من خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه يستغيثون به.

فهذا من النعم في طي البلاء، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عن ربك، وأما ما يقيمك بين يديه ﷻ ففيه جمالك، وكمالك، وعزك، وفلاحك.

هـ- التمتع بطول المناجاة: فقد مرَّ بنا عند الحديث عن فضائل الدعاء أن العبد قد يقوم لمناجاة ربه، وإنزال حاجاته ببابه، فيُفتح على قلبه حال السؤال والدعاء من محبة الله، ومعرفته، والخضوع له، والتذلل بين يديه ما ينسيه حاجته، فيكون ما فتح له من ذلك أحبَّ إليه من قضاء حاجته التي سألها، فيحب أن تدوم له تلك الحال، وتكون عنده آثر من حاجته، ويكون فرحه بها أعظم من فرحه بحاجته لو عجلت له وفاتته تلك الحال. وعلى هذا فكلما تأخرت الإجابة كلما طالت المناجاة، وحصلت اللذة، وزاد القرب. ولو عجلت الإجابة لربما فاتت تلك الثمرة.

قال سفيان الثوري: لقد أنعم الله على عبد في حاجة أكثر من تَضَرُّعه إليه فيه.

و- مجاهدة الشيطان ومراغمته: فالشيطان عدو مبين للإنسان، يتربص به الدوائر، ويسعى في إضلاله وصدِّه عن صراط الله المستقيم، فإذا صادف منه غرة أصابه من خلالها.

فالعبد إذا دعا ربه، وتأخر وقت الإجابة بدأ الشيطان يجول في خاطره؛ ليسيء ظنه بربه، وصار يُلقي في روعه أن لا فائدة من دعائه، فإذا جاهده العبد، وراغمه، وأغاظه بكثرة الدعاء، وإحسان الظن بالله حصل على أجر عظيم؛

فمجاهدة الشيطان ومراغمته من أجل العبوديات.

ولو لم يأت العبد من تأخر الإجابة إلا هذه الفائدة لكان حريًا به ألا ينزعج من تأخرها. هذه بعض الحكم المتلمسة من جراء تأخر الدعاء، والتي يجدر بالعبد أن يستحضرها إذا دعا وتأخرت إجابة الدعاء.

المسألة الثانية عشر: أقوال الناس في القدر

القدر من الموضوعات الكبرى التي خاض فيها الناس، وشغلت أذهانهم في القديم والحديث؛ لأنه مرتبط بحياتهم وما فيها من تقلبات الأحوال من صحة ومرض، وفقر وغنى، وموت وحياة، وسعادة وشقاء، وما جرى مجرى ذلك.

والأقوال في القدر بإجمال لم تتغير قبل أو بعد، فهي ترجع إلى ثلاثة أقوال:

١- قول أهل الجبر: الذين يقولون إن الإنسانَ مجبورٌ على أفعاله، وليس له إرادة ولا قدرة، ويمثل هذا في الفرق الإسلاميةِ الجهميةُ ومَنْ وافقهم، وهو ما يُسمَّى في العصور المتأخرة بالمذهب الحتمي.

٢- قول أهل حريَّةِ الإرادة، واستقلال الإنسان في أفعاله عن خالقه، وأنَّ الإنسانَ له إرادة مستقلة عن إرادة الله، وأنه هو الذي يخلق أفعاله، ويمثل هذا المذهبَ المعتزلةُ القدرية، ومن وافقهم.

٣- وهناك قولٌ وسط بين هؤلاء وهؤلاء؛ حيث يثبت القائلون به القدر، وأنَّ الله خالق كلِّ شيء، ويقولون مع ذلك: إنَّ للإنسان قدرةً يفعل بها، ومشيئةً يختار بها، وقدرته ومشيئته واقعتان بقدرة الله، ومشيئته تابعتان لهما، وهذا هو قول السلف، وأتباع الأنبياء، وبين هذه الطوائف الثلاثة قد تنشأ فرق أخرى تميل في بعض المسائل إلى طائفة، وفي المسائل الأخرى إلى طائفة أخرى، ويكون الحكم عليها بحسب ما يغلب على مذهبها، وهذا تفصيل أقوال بعض

الفرق في القدر:

المبحث الأول: قول الهنود والبابليين والمصريين القدماء في القدر

أولًا: قول الهنود القدماء في القدر: الهنود الأقدمون يجعلون للقدر الحكمَ الذي لا حكم غيره في جميع الموجودات، ومنها الآلهة، والناس، والأحياء، والنبات، والجماد، ولا فكاك من قبضة (الكارما)[1] في أدوارها التي تتعاقب بين الوجود والفناء إلى غير انتهاء، ولا اختيار للإنسان في الحالة التي يولد عليها؛ لأنها مقدورة عليه من قبل ميلاده من أزل الآزال إلى أبد الآباد حتى ينفصل دولاب الخلق باجتناب الولادة، واللياذ بعالم الفناء، أو عالم النرفانا[2] المطلق من قيود الوعي، والشعور بالشقاوة والنعيم.

ثانيًا: قول البابليين القدماء في القدر: البابليون كانوا أصحاب نجوم وأرصاد، فعرفوا الإيمان بالقدر على ما يظهر من طريق الإيمان بالتنجيم؛ لأنهم آمنوا بسيطرة الكواكب على مقادير الأحياء وغير الأحياء؛ فكل مولود يولد فإنما تكون ولادته تحت طالع من الطوالع التي تتعلق بكوكب من كواكب السماء، والأرض نفسُها وُجدت تحت طالع من هذه الطوالع؛ فلا يجري حدث من الأحداث إلا بحساب مرقوم في سجل الأفلاك والبروج، وكانوا يعتقدون بالسعود والنحوس؛ فيزعمون أنَّ من النجوم ما يسعد ويعطي، ومنها ما يُشقي ويَحْرِم، وأنه لا مهرب للإنسان من طالعه الذي يلاحقه بالسعد، أو بالنحس مدى حياته، ولكن المنجمين قد يعلمون مجرى هذه الطوالع فيعالجونها بالحساب.

---

(١) الكارما: هو الإله في عرف البرهميين.

(٢) النرفانا: وتعني النجاة والسعادة القصوى، وعند الهندوس والبوذيين نجاة الروح التي ظلت على صلاحها أثناء دورتها التناسخية واتحادها بالخالق.

ثالثًا: قول المصريين القدماء في القدر: كان المصريون القدماء وسطًا بين الإيمان بحرية الإنسان والإيمان بسيطرة الأرباب؛ لأنهم آمنوا بالثواب والعقاب في العالم الآخر؛ فكان إيمانهم هذا كالإيمان بأنَّ الإنسان يعمل وأنَّ الأرباب تتولى جزاءَه عن عمله بعد ذلك؛ فهي أي الأرباب قادرة لا شك في قدرتها، ولكنَّ الإنسان قادر على عمل ما يرضيها، فيستحق ثوابَها، أو يغضبها فيستحق عقابها.

المبحث الثاني: قول الفلاسفة[1] في القدر

(١) الفلاسفة: جمع فيلسوف من الفلسفة وهي كلمة يونانية معربة.
والفلسفة في أصلها الوضعي مركبة من كلمتين: فيلا أو فيلو: ومعناها المحبة أو الإيثار، والأخرى: سوفيس أو سوفيا: ومعناها الحكمة؛ فيكون معنى كلمة الفلسفة في الأصل الوضعي: محبة الحكمة، أو إيثار الحكمة، ويُعرَّف الفيلسوف بأنه: محب الحكمة، أو المُؤْثِرُ للحكمة، وقد مرَّت كلمة الفلسفةِ بأطوار، وعلى هذا فإنَّ تعريفها يختلف باختلاف الفلاسفة الذين وضعوا لها حدودًا منها:
أ- البحث عن الحقيقة.
ب- حب المعرفة.
جـ - وعرفها الكندي بقوله: هي علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان.
د- وعرفها الفارابي بقوله: هي العلم الوحيد الجامع الذي يضع أمامنا صورة شاملة للكون.
هـ - وعرفها ابن سينا بقوله: الحكمة استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور، والتصديق بالحقائق النظرية والعلمية على قدر الطاقة الإنسية..اهـ.
أما الفلسفة عند الإطلاق العام فيمكن أن يُقال: هي النظر العقلي المتحرر من كل قيدٍ أو سلطةٍ تُفرض عليه من الخارج؛ بحيث يكون العقل حاكمًا على الوحي والعرف ونحو ذلك، وقد دخلت الفلسفة ديارَ الإسلام في القرن الثالث الهجري في عهد المأمون.
أما أشهر فلاسفة اليونان فهما أفلاطون، وأرسطو، وأشهر الفلاسفة المنتسبين للإسلام: =

عامة الفلاسفة يقولون: إنَّ الله فاعل العالم، وصانعه، والمشهور عنهم قولهم إنَّ الله يعلم الأشياء على وجه كلي ثابت لا يدخل تحت الزمان، وإنه لا يعلم الجزئيات التي تُوجب تجدد الإحاطة بها تغيرًا في ذات العالم كما قال ذلك ابن سينا، وإثبات العلم له على هذا الوجه يدل على الإيمان بسبق علمه تعالى للحوادث، لإحاطة علمه بها. ومع ذلك أنكروا علم الله تعالى بالجزئيات، وحقيقة قولهم أنه لا يعلم شيئًا؛ فإن كل ما في الخارج هو جزئي(١).

ويكفي في بطلان ذلك قوله تعالى: [وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ

=

الكندي، والفارابي، وابن سينا.

وتنقسم الفلسفة باعتبار موضوعاتها إلى ثلاثة أقسام:

١ -الفلسفة الحسية: وهي التي تتصل بالحواس، وموضوعها عالم الطبيعة.

٢ - الفلسفة النظرية العقلية: وهي التي تتم بالاستدلال البرهاني، والنظر الاستنباطي وتُسمى بـ: المشائية؛ نسبةً إلى رائدها أرسطو الذي كان يُعلِّم أتباعَه وهو يمشي.

٣ - الفلسفة الإشراقية: وهي التي تُنال بالحدس، والإلهام، وما يفيض على النفوس، وموضوعها: العلوم الإلهية.

ومن ضلالات الفلاسفة:

١ - قولهم بقدم العالم.

٢ - قولهم: إنَّ الله يعلم الكليات دون الجزئيات.

٣ - يقولون بحشر الأرواح دون الأجساد.

٤ - يرون الجنة والنار أمثلة مضروبة؛ لضبط العامة.

(١) انظر الرد على المنطقيين لابن تيمية، ونقض المنطق لابن تيمية، ودرء تعارض العقل والنقل ٩/ ٣٩٧، وكتاب الصفدية ١/ ٧-٨، وشرح الواسطية للهراس ص٩٤، وباعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي نقده لمسالك المتكلمين والفلاسفة في الإلهيات د. محمد خليل هراس ص١٨٣-١٨٧، والقضاء والقدر للمحمود ص٧٤-٧٦.

الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ] سورة الأنعام:٥٩.

أما بالنسبة للجبر والاختيار فيختلف ذلك من فيلسوف إلى فيلسوف، فهذا أفلاطون على سبيل المثال يرى أنَّ نسبة الشر تكون إلى الجهل وقلة المعرفة، ويرى أن الإنسان لا يختار الشر وهو يعرف، بل يُساق إليه بجهله، أو بعوارض المرض والفساد فيه، ولكنه لا يُساق بتقدير الآلهة؛ لأنَّ الآلهة -كما يرى- خيرٌ لا يصدر عنها إلا الخير؛ فالشر موجود في هذا العالم ولكنه ليس من تقدير الآلهة، أما أرسطو فيرى أنْ لا قدر، ولا تقدير؛ فكلُّ إنسان حرٌّ فيما يختاره لنفسه؛ فإن لم يستطع أن يفعل فهو في الأقل مستطيع أن يمتنع، وبالجملة ففلاسفة اليونان غير أفلاطون وأرسطو[1] مذاهب في القدر تتراوح بين مذهب الجبر ومذهب الحرية، وتتوسط بينهما في القول بالاضطرار، أو القول بالاختيار.

المبحث الثالث: قول اليهود[2] في القدر: كان اليهود في الأصل على الدين

(١) أفلاطون بن أرسطن من كبار فلاسفة اليونان من أهل ملطية، كان تلميذًا للفيلسوف طاليس وهو أستاذ أرسطو، له كتاب الجمهورية. انظر الملل والنحل ٢/ ٦٤.
وأرسطو، أو أرسطو طاليس: من أكابر فلاسفة اليونان ومتأخريهم، وهو المقدم المشهور، والمعلِّم الأول عندهم، ولد سنة ٣٨٤ ق.م، وسُمِّي المعلِّم الأول لأنه واضع التعاليم المنطقية، ومخرجها من القوة إلى الفعل، وقد تتلمذ على أفلاطون نيفًا وعشرين سنة، وإليه تُنسب الفلسفة المشائية؛ لأنه كان يعلِّم أتباعه وهو يمشي وهم يمشون معه، فلُقِّبت فلسفته بالمشائية، وأتباعه بالمشائين. انظر الملل والنحل ٢/ ١١٩.

(٢) سموا بذلك إما نسبة إلى يهوذا ابن يعقوب الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل، أو من الهود وهو التوبة والرجوع، أو من التهود وهو التقرب والعمل الصالح، ولليهود ضلالات كثيرة، وأعمال قبيحة، وعقائد منحرفة، ومن ذلك:
الشرك بالله، وعبادة العجل، ونسبة الإبن لله، وفساد اعتقادهم في الأنبياء والملائكة وغير ذلك من ضلالاتهم.

الذي جاء به موسى عليه السلام وهو التوحيد والإسلام وهو دين جميع الرسل، وهو الدين الحق في شرائعه وعقائده، ومنه القدر، وبعد موسى عليه السلام تفرق اليهود شيعًا وأحزابًا، وصاروا فرقًا كثيرة كما أشار إلى ذلك الرسول " في الحديث المشهورة: (تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة)[١]، واليهود أمة جبلت على التقلب، والتفرق، والاختلاف، ولبس الحق بالباطل خاصة بعد أنبيائهم.

أما بالنسبة للكلام على القدر الإلهي عند اليهود، فإنه قديم في الكتب الإلهية، وقد وردت الإشارة إليه من أول الأسفار المعتمدة إلى آخرها، ولكن على درجات في أساليب التقدير تختلف باختلاف الاعتقادات التي يفرضونها للإله، وباختلاف نصيبه عندهم من عظمة المشيئة، وعظمة القدرة، وعظمة الصفات، والقدر عنهم مشيئة حاكم يأمر وينهى، ويرجع عما أمر به وقضاه، ولم يفهموا القدر على أنه نظام شامل للوجود محيط بالأكوان.

وإنما كان يَهْوَه إله اليهود يجري فيه على حكم، ثم يندم عليه، ويبدله تارة على حسب الحالة التي تطرأ بغير حساب، وبالجملة فقد اشتهر عن اليهود في

---

(١) روي عن عدة من الصحابة والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال الجورقاني في الأباطيل (١/ ٣٠٢): هذا حديث عزيز حسن مشهور ورواته كلهم ثقات أثبات كأنهم بدور وأقمار، وقال ابن العربي في أحكام القرآن (٣/ ٤٣٢): ثابت، وقال شيخ الإسلام مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٥): صحيح مشهور في السنن والمسانيد، وصححه العراقي في الباعث على الخلاص (١٦)، وقال ابن كثير في نهاية البداية (١/ ٢٧): إسناده جيد قوي على شرط الصحيح، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٣٢٤١)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٠٣، ٢٠٤)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٦/ ١٦٩)، وحسنه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٣٣٣)، وحسنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٤/ ١٢٤).

القدر مذهبان:

المذهب الأول: مذهب الربانيين: وهم فرقة من فرق اليهود ويسمون بالفريسيين، ومعناها: المنعزلون، أو المنشقون، وقد أطلق أعداؤهم عليهم هذه التسمية؛ لذلك فهم يكرهونها، ويسمون أنفسهم: الربانيين، أو الإخوة في الله، وكان هؤلاء موجودين قبل الميلاد، وهؤلاء ينفون القدر.

المذهب الثاني: مذهب القرَّائين: وهؤلاء لا يعترفون إلا بالتوراة العهد القديم كتابًا مقدسًا، وليست عندهم روايات شفوية؛ ولذلك فهم يعترفون بالتلمود، ومذهب هؤلاء: هو القول بالجبر.

المبحث الرابع: قول النصارى[1] في القدر: للنصارى في القدر قولان:

فالمسيحيون الشرقيون، ويسمون باليعاقبة، أو اليعقوبية وهم أتباع يعقوب البراذعي، فهؤلاء يقولون: إن الإنسان مخير.

والآخرون وهم النساطرة، أو النسطوريون؛ نسبة إلى نسطور الذي كان بَطْرِيَرْك القسطنطينية سنة ٤٣١ فهؤلاء يقولون بالجبر، وهناك تشابه كبير بين آراء بعض النصارى كالنساطرة والشرقيين وبين آراء بعض المعتزلة؛ مما حدا بكثير من الباحثين إلى القول بأنَّ آراء المعتزلة مستقاة من النصارى السابقين.

ويؤيد هذا أن أول من أشاع القدر وهو معبد الجهني قد أخذ عن سوسن النصراني كما أشار إلى ذلك الإمام الأوزاعي كما سيأتي عند الحديث عن نشأة

---

(١) وسموا بذلك؛ لتناصرهم بينهم، أو لنصرهم عيسى عليه السلام أو لأنهم سكنوا مدينة ناصرة، وقد اختلفوا وتفرقوا في زمن عيسى عليه السلام وزاد اختلافهم بعدما رفعه الله إليه، وللنصارى عقائد باطلة كثيرة منها القول بالتثليث، والصلب والفداء، والعشاء الرباني، ومهزلة صكوك الغفران وغير ذلك.

القول بالقدر.

يقول المستشرق الإيطالي نيلينو: كان بعض المتكلمين الأولين قد بدأوا تحت تأثير اللاهوت المسيحي في الشرق بطريقة غير مباشرة يبحثون هذا القَدَر، ويحاولون أن يفسروه، بمعنى يوافق اختيار الإنسان وحريته في أفعاله؛ حتى يُمْكِنَ تبريرُ وجود الثوابِ والعقاب في الدارِ الآخرة تبريرًا تامًا.

وهناك من النصارى من يقرب مذهبه من القول بالتوسط بين الجبر والاختيار، والاعتقاد بعلم الله السابق، ومن هؤلاء القديس أوغسطين الذي لقي عنتًا شديدًا من جراء التفكير في موضوع القدر، ولكنه اعتقد بعد هذا القلق أنه استراح من وسواسه هذا بالتوفيق بين النقائض، وكان مدار راحته النفسية أنَّ سَبْقَ العلم بعمل الأخيار وعمل الأشرار صفةٌ لا تنفصل عن الذات الإلهية، وأنَّ الله عَلِم ما سيكون كما سيكون، ولا بد أن يعلمه العلم الصحيح، ويقدره تقديره على حسب علمه المحيط بجميع الكائنات، ويوافقه على هذا الرأي القديسُ توماس ألاكويني فيرى أنَّ الإنسان يقود نفسه، ولا يُقاد كما تُقاد الدواب، وأنَّ الإرادة تتبع العقل، والعقل نعمة من نعم الله على الإنسان، وغاية التقدير عند توماس ألاكويني كفاية التقدير عند أستاذه القديم أوغسطين.

المبحث الخامس: قول المفكرين والفلاسفة الغربيين المتأخرين في القدر

لا يزال فلاسفة العصر يخوضون في مباحث موضوع القدر على تفاوت كبير بين القول بالجبر، والقول بالحرية الإنسانية، ومنهم من يقول بأن الإنسان يشترك في التقدير ويخضع له؛ لأنه كما يرون جزء من عناصر الطبيعة التي تفعل فعلها في الأحداث الكونية، ولا يقتصر أمرها كله على الانفصال، وحلت الحتمية محل الجبرية القديمة في اصطلاح العلماء، فالقائلون بالحتمية يقولون

بها لأنهم يؤمنون بالنظم الإلهية وحدها، ولا يؤمنون بإرادة إلهية تتعرض لتلك النظم بالتبديل والتحويل، ومن ثم أصبح القول بالحتمية مناقضًا للجبرية في كلام علماء الأديان؛ لأن الجبرية تحصر الإرادة كلها في الإله المعبود، أما الحتمية فهي في الأقل لا تستلزم وجود إله إلى جانب القوانين التي يفسرون بها حركات الوجود، ومما يوضح الفرق بينهما أن ضرورة حدوث الأشياء عند الجبريين ضرورة متعالية بمبدأ أعلى منها يسير كما يشاء، وهو قضاء الله وقدره على حين أن هذه الضرورة في نظر الحتميين كامنة في الأشياء سارية فيها وهي الطبيعة بعينها، وإذا كان بعض الفلاسفة الحتميين يثبتون الحرية الإنسانية فَمَرَدُّ ذلك إلى محاولتهم التوفيق بين حتمية الحوادث النفسية وتلقائية الموجود العاقل.

الفصل الثالث وتحته ستة مباحث

المبحث الأول نشأة القول بالقدر

مر بنا أن الإيمان بالقدر أمر فطري، وأنه لم يكن في العرب من ينكر القدر لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهكذا كان الأمر بعد البعثة النبوية؛ فلم يقع في عهد رسول الله ﷺ أي افتراق، أو ابتداع في أمور العقيدة ومنها القدر، وهذا لا ينافي وقوع بعض الأسئلة التي يأتي جوابها حاسمًا من الرسول ﷺ، كما لا ينافي وقوع المخاصمة من جانب اليهود أو المشركين، وقد مرَّ شيءٌ من ذلك عند الحديث عن مسألة حكم الحديث في القدر، وبعدما انطوى عهد النبوة، وكثرت الفتوحات، واختلط المسلمون بغيرهم ظهرت بدعة القدرية التي تُعد أول شرك في الإسلام، وكان أول ظهورها في البصرة ودمشق، ولم تظهر في مكة ولا المدينة؛ لانتشار العلم فيهما، وقد ظهرت في أواخر عهد الصحابة كابن عباس،

وابن عمر، وأنس بن مالك، وجابر بن عبدالله رضي الله عنهم فاشتد نكيرهم على تلك البدعة وأصحابها[١].

وتكاد مصادر أهل السنة تجمع على أن أول من تكلم بالقدر رجل من أهل البصرة يعمل بقالًا ويقال له: سنسويه، وبعضهم يسميه سيسويه، وبعضهم يسميه سوسن.

ثم تلقفها عنه معبد الجهني، وأخذ عن معبد غيلان الدمشقي، قال الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام: أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له: سوسن كان نصرانيًا فأسلم، ثم تنصر، فأخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان عن معبد[٢].

وبعد معبد وغيلان ظهر رؤوس الاعتزال كواصل بن عطاء، وعمرو ابن عبيد، فنقلوا هذه المقالات ونشروها كما سيأتي بيان ذلك عند الحديث عن القدرية.

والمقصود بالكلام في القدر في بداية الأمر إنما هو نفي القدر، هذا هو المشهور من الأقوال في بداية القول بالقدر، ويشهد على ذلك ما جاء في قصة الحديث المشهور حديث جبريل في صحيح مسلم (رقم ٨) فقد روي عن يحيى بن معمر قال: (كان أول من قال في القدر معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبدالرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب

---

(١) كما في السنة للإمام عبدالله بن أحمد ٢/ ٤٢٠-٤٢١، والحجة في بيان المحجة ٢/ ١٥-١٦، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٦٢٥ و ٦٩٤-٧٣٠، ولوامع الأنوار ١/ ٢٩٩.

(٢) القدر للفريابي ص٢٤٠-٢٤١، والشريعة للآجري ص٢٤٣، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٤/ ٧٥٠.

رسول الله " فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبدالله بن عمر بن الخطاب داخلًا المسجد؛ فاكتنفته أنا وصاحبي: أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سَيَكِل الأمر إلي، فقلت: أبا عبدالرحمن إنه قد ظهر قِبَلنا ناس يقرؤون القرآن، ويتَقَفَّرون[١] العلم (وذكر من شأنهم) وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأنَّ الأمرَ أُنف.... الحديث)، وهذا يفيد أن معبدًا هو أول من قال بالقدر، وقبل ذلك تبين من كلام الأوزاعي أن معبدًا أخذه عن النصراني سنسويه، أو سيسويه، أو سوسن.

وقد يكون من المحتمل أن أساس الفكرة كان عند ذاك الرجل النصراني الذي تظاهر بالإسلام، ولكنه لم يستطع أن يجاهر بها؛ لعدم ثقة الناس به، فتلقاها عنه معبد ونشرها، فاشتهرت عنه، فهذا هو القول الأرجح في نشأة القول بالقدر.

وهناك قولان آخران في هذا الشأن:

أحدهما: أن أول ما حدث القول بالقدر بالحجاز قبل معبد الجهني، وأن ذلك وقع لما احترقت الكعبة لما كان عبدالله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا محصورًا بمكة؛ فقال أناس: احترقت بقدر الله تعالى وقال أناس: لم تحترق بقدر الله[٢].

والقول الآخر: أن أول من نادى بالقدر في الشام عمرو المقصوص وكان

---

(١) يتقفرون العلم: يعني يطلبونه، ويتتبعونه، كما في غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢/ ٤٦٦-٤٦٧).

(٢) انظر الإيمان لابن مندة ١/ ١٢٧-١٣٢، والفرق بين الفرق للبغدادي ص١١٧، وإكمال المُعْلم، ومكمل الإكمال، وهما شرحان لصحيح مسلم ١/ ٥، والإيمان لابن تيمية ص٣٦٨، وتاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة ١/ ١١٢-١١٤، والقضاء والقدر للمحمود ص٦٦.

عمرو هذا معلمًا لمعاوية الثاني، وهو معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فأثر فيه كثيرًا، فاعتنق أقواله في القدر، حتى إنه لما تولَّى الخلافة كان عمرو هذا هو الذي أثر فيه؛ فاعتزلها حتى مات، ووثب بنو أمية على عمرو المقصوص، وقالوا: أنت أفسدته، ودفنوه حيًا، وهذا القول كما يقول د. عبدالرحمن المحمود حفظه الله في كتابه القضاء والقدر (ص١٦٦): ضعيف؛ لأن معاوية بن يزيد كان رجلًا صالحًا، وعمرو المقصوص لم أجد مَنْ ذكر قصته من المؤرخين غير ابن العبري.اهـ.

وهكذا نشأ القول بالقدر، وضل بسببه فرق شتى، وكان منشأ ضلالهم كثرة الجدل، وتقديم العقل على النقل، والنظر إلى النصوص بعين عوراء، وكردَّة فعل للقدرية النفاة ظهر أناس غلو في الإثبات؛ حيث نشأ في آخر عهد بني أمية أقوام قالوا بالجبر، وزعموا أنَّ العبد ليس له خيار فيما يأخذ أو يدع، وبعضهم يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة، وأول من أظهر هذا القول الشنيع: الجهم بن صفوان، وتفرع عن هذه البدعة أقوال شنيعة، وضلال كبير.

هذه هي بدايات القول بالقدر، وقبل الدخول في تفاصيل أقوال الفرق في القدر يحسن تحديد الخلاف في القدر بإيجاز، فالخلاف فيه يدور حول أمرين:

أحدهما: ما يتعلق بالله تعالى وذلك في مراتب القدر الأربع: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق التي يثبتها أهل السنة لله تعالى.

الثاني: ما يتعلق بالعبد: هل له إرادة ومشيئة أَوْ لا؟ وهل له قدرة أَوْ لا؟ وهل هو فاعل لفعله حقيقة أَوْ لا؟

والطوائف ما بين غالٍ في إثبات القدر لله إلى حد أن قالوا بالجبر ونفي القدرة والإرادة عن العبد، ومُفرطٍ في القدر إلى حدٍّ نفي بعضه عن الله، وإثباته للعبد.

وأهل السنة وسط بين هاتين الطائفتين، وهذا ما سيتبين في المباحث التالية، حيث سَيَرِد ذكرٌ لأقوال بعض الفرق التي ضلت في هذا الباب.

المبحث الثاني: قول القدرية المعتزلة في القدر

القدرية: هم أتباع معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، وأتباع واصل ابن عطاء، وعمر بن عبيد من المعتزلة، ومن وافقهم، هؤلاء هم القدرية، وسموا قدرية كما يقول ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص٧٨): لأنهم أضافوا القدر إلى أنفسهم، وغيرهم يجعله له تعالى دون نفسه، ومُدَّعي الشيء لنفسه أولى بأن ينسب إليه ممن جعله لغيره.اهـ.

وقولهم في القدر: إن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة، وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته في ذلك أثر، ويقولون: إن أفعال العباد ليست مخلوقةً لله، وإنما العباد هم الخالقون لها، ويقولون: إن الذنوب الواقعة من العباد ليست واقعة بمشيئة الله.

وقالوا: نحن نفعل ما لا يريد الله تعالى ونقدر على ما لا يقدر، وغلاتهم ينكرون أن يكون الله قد علمها، فيجحدون مشيئته الشاملة، وقدرته النافذة، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لأنهم شابهوا المجوس الذين قالوا: إن للكون إلهين إلهَ النور وهو خالق الخير، وإلهَ الظلمة: وهو خالق الشر، وقد وردت أحاديث في السنن وغيرها عن النبي ﷺ في ذم القدرية، ووصفهم بأنَّهم مجوس هذه الأمة.

وهي وإن كانت لا تخلو من مقال إلا أن بعضها يصل إلى درجة الحسن، وبعضها يقوي بعضًا، ومن ذلك ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا

تشهدوهم)[١].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٢٢، رقم ٤٦٩١)، وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ١٤٩، رقم ٣٣٨)، وابن جرير الطبرى فى صريح السنة (١/ ٢١، رقم ٢١)، وأحمد (٢/ ٨٦)، والحاكم (١/ ١٥٩، رقم ٢٨٦)، وابن حبان في المجروحين (١/ ٣١٠)، والبيهقى (١٠/ ٢٠٣، رقم ٢٠٦٥٨)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٤/ ٤٣٩)، وابن بطة (٢/ ٢٢٦)، والديلمى (٣/ ٢٣٧، رقم ٤٧٠٥)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٢٧) والحديث قال عنه الحاكم: صحيح على شرطهما إن صح لأبي حازم سماع من ابن عمر، وأقره الذهبي، وصححه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٥/ ٤٤٥)، وصححه النووي في شرح الأربعين (٥٤)، وقال ابن همات الدمشقي في التنكيت (١٨): ورد من طرق وبعضها على شرط الصحيح، وحسنه العلامة الألباني في صحيح أبي داود، أما الدارقطني فقال في العلل (٤/ ٩٨): ورواه الثوري وابن وهب، عن عمر بن محمد، عن نافع، عن ابن عمر، موقوفا، ثم قال: والصحيح الموقوف عن ابن عمر، وقال ابن عدي في الكامل (٨/ ٣٥٨): غير محفوظ، وعده ابن حبان في المجروحين من مناكير زكريا بن منظور، وضعفه ابن القيسراني في التذكرة (٤٢٧)، وقال المنذري في "مختصر سنن أبي داود (٧/ ٥٨): هذا منقطع، أبو حازم سلمة بن دينار لم يسمع من ابن عمر، وقد روي هذا الحديث من طرق، عن ابن عمر ليس فيها شيء يثبت.، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات أيضا وتعقبه العلائي بأن له شواهد ينتهي مجموعها إلى درجة الحسن، وقال الذهبي في المهذب (٨/ ٤٢١١): منقطع، وكذا قال الحافظ في تخريج المشكاة (١/ ١٠٢)، وقال المباركفوري في مراعاة المفاتيح (١/ ٣٤٦): قال السيوطي في مرقاة الصعود: هذا أحد الأحاديث التي انتقدها الحافظ سراج الدين القزويني على المصابيح، وزعم أنه موضوع. قال الحافظ ابن حجر فيما تعقبه عليه: هذا الحديث حسنه الترمذي وصححه الحاكم ورجاله من رجال الصحيح إلا أن له علتين: الأولى الاختلاف في بعض رواته عن عبدالعزيز بن أبي حازم، وهو زكريا بن منظور. فرواه عن عبدالعزيز بن أبي حازم فقال: عن نافع عن ابن عمر. والأخرى ما ذكره المنذري وغيره من أن سنده منقطع؛ لأن أباحازم لم يسمع من ابن عمر. فالجواب عن الثانية أن أباالحسن بن القطان الفاسي الحافظ صحح سنده، فقال: إن أباحازم عاصر ابن عمر فكان معه بالمدينة، ومسلم يكتفي بالمعاصرة في الاتصال، فهو صحيح على =

وما جاء عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم)[1].

=

شرطه. وعن الأول بأن زكريا وصف بالوهم، فلعله وهم فأبدل روايًا بآخر، وعلى تقدير أن لا يكون وهم فيكون لعبدالعزيز فيه شيخان، وإذا تقرر هذا لا يسوغ الحكم بأنه موضوع، ولعل مستند من أطلق عليه الوضع تسميتهم المجوس وهو مسلمون، وجوابه أن المراد أنهم كالمجوس في إثبات فاعلين لا في جميع معتقد المجوس، ومن ثم ساغت إضافتهم إلى هذه الأمة قلت: والحديث أخرجه أيضًا الحاكم (٨٥/ ٧١) والبخاري في تاريخه والطبراني في الأوسط وأخرجه أحمد (ج٢: ص٨٦) من طريق أخرى لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من تلك الطريق بلفظ: (لكل أمة مجوس ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم)، ولأصل الحديث شواهد ذكرها السيوطي في تعقباته، واستوفي طرقها وألفاظها في الآلي (ص١٣٣-١٣٥) وحقق نقلًا عن الحافظ صلاح الدين العلائي أن للحديث أصلًا، بل ينتهي إلى درجة الحسن المحتج به، فلا وجه للحكم بوضعه هذا، وقد تعقب الشيخ أحمد محمد شاكر في تحقيق المسند (٨/ ٦) على جواب الحافظ فقال: أما إن المعاصرة كافية وتحمل على الاتصال فنعم، ولكن إذا لم يكن هناك ما يدل صراحة على عدم السماع، والدليل النقلي هنا على أن أباحازم لم يسمع من ابن عمرقائم، فقد قال ابنه ليحيى بن صالح: من حدثك أن أبي سمع من أحد من الصحابة غير سهل بن سعد فقد كذب. فهذا ابنه يقرر هذا على سبيل القطع، ومثل هذا لا ينقضه إلا إسناد آخر صحيح صريح في السماع، أما بكلمة "عن" فلا، ولذلك نص في التهذيب على أنه يروي عن ابن عمر وابن عمرو بن العاص ولم يسمع منهما وترجمه البخاري في الكبير (٢/ ٢/ ٧٩) فذكر من سمع منهم، فلم يذكر من الصحابة.

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٣٥، رقم ٩٢)، وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ١٤٤، رقم ٣٢٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٢٨)، وابن عدى (١/ ١٨٧ ترجمة ٢٤ أحمد بن عبد الرحمن بن الحارث يعرف بجحدر، وقال: ضعيف ويسرق الحديث وروى المناكير)، والطبرانى فى الأوسط (٤/ ٣٦٨، رقم ٤٤٥٥)، وفى الصغير (١/ ٣٦٨، رقم ٦١٥)، =

كما وردت آثار كثيرة من السلف في ذم القدرية، وكتب العقيدة مليئة بذلك، ومنها كتاب القدر للفريابي؛ حيث ساق آثارًا كثيرة في هذا الصدد، منها ما أخرجه (ص١٧٢) بسنده عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: (ما غلا أحد في القدر إلا وخرج من الإيمان)، وأخرج بسنده (ص٢٠٥) عن أبي الزبير المكي أنه قال: (كنت أنا وطاووس نطوف بالبيت، فذكر أن معبدًا الجهني تكلم في القدر، وكان أول من تكلم في القدر فعدلت إليه، فقال له طاووس: أنت المفتري على الله، فقال: إنه يُكْذَب علي، قال، فانصرفنا إلى عبدالله بن عباس، فذكر ذلك له، فقال

=

والآجري في الشريعة (ص١٩٠-١٩١)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٤٤) والحديث ضعفه كثير من الحفاظ، وقال عنه البوصيرى في مصباح الزجاجة (١/ ٥٥): هذا إسناد ضعيف فيه بقية بن الوليد وهو مدلس، وقد عنعنه لكن لم ينفرد ابن ماجة بإخراج هذا المتن فقد رواه أبو داود في سننه من حديث عمر بن الخطاب وسكت عليه فهو عنده صالح، ومن حديث حذيفة، ورواه الحاكم في المستدرك من حديث ابن عمر وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر، قلت: لم يصح سماعه كما جزم به المزي، قال الحاكم: وله شاهد من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .اهـ. وقال المناوي في الفيض (٢/ ٥٢٠): وهذا الحديث مما انتقده السراج القزويني على المصابيح وزعم وضعه ونازعه العلائي ثم قال مدار الحديث على بقية وقد قال فيه عن الأوزاعي والذي استقر عليه أكثر الأمر من قول الأئمة أن بقية ثقة في نفسه لكنه مكثر من التدليس عن الضعفاء والمتروكين يسقطهم ويضعف الحديث عن شيوخهم فلا يحتج من حديثه إلا بما قال فيه حدثنا أو أخبرنا أو سمعت أو عن وقال الذهبي هذا من الأحاديث الضعيفة وفي الباب عدة أحاديث فيها مقال.اهـ. وقال العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة: حسن، دون جملة التسليم، وانظر الصحيحة (٢٧٤٨)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن ابن ماجة (١/ ٦٩): إسناده ضعيف جدا، مسلسل بالمدلسين، محمد بن المصفى وبقية بن الوليد يدلسان تدليس التسوية، وابن جريج وأبو الزبير مدلسان ولم يصرحا بالتحديث.

ابن عباس: أروني منهم إنسانًا، فوالله لا تُرونيه إلا جعلت يدي في رأسه فلا أفارقه حتى أدق عنقه)، وروى بسنده (ص٢٠٠) عن أرطاة بن المنذر قال: (سمعت أنه يُقال: ما فتشت قدريًا إلا وجدته ملطومًا بحمقه).

والقدرية جعلوا لله شريكًا، بل شركاء في خلقه، فزعموا أن العباد يخلقون أفعالهم.

ومنشأ ضلال هؤلاء في البداية أنهم أرادوا تنزيه الله ﷻ عن الشر، ورتبوا على نفيهم الأفعالَ القبيحةَ عن الله قولهم: إن العباد هم الخالقون لأفعالهم؛ فوقعوا في نفي القدر، وقد استدلوا على مذهبهم استدلالًا أعور ببعض الشبهات.

ومن أقوالهم في هذا قول القاضي عبدالجبار الهمذاني المعتزلي في المغني في أبواب التوحيد والعدل (٢/ ٣٤٠): اتفق أهل العدل على أن أفعال العباد مِنْ تصرفهم، وقيامهم، وقعودهم حادثةٌ من جهتهم، وأن الله جلَّ وعزَّ أقدرهم على ذلك، ولا فاعل لها، ولا مُحدثَ سواهم، وأن من قال: إن الله سبحانه خالقها ومحدثها فقد عظم خطؤه.اهـ.

والإنسان عند المعتزلة يجوز أن يُفْني فعل الله تعالى الذي هو القدرة بفناء الحياة بأن يقتل نفسه، ويجوز أن يبطل فعل الغير للسكون بتحريك المحل.

هذا هو خلاصة مذهب المعتزلة مع ملاحظة أنهم يختلفون في بعض التفصيلات حول القدر، ولكنَّ ما ذُكِرَ هو ما أجمعوا عليه، والمتأمل في كلامهم، وأقوالهم يجد من التناقض، والتعارض، وقِصَرِ النظرِ الشيءَ الكثير.

المبحث الثالث: قول الجبرية في القدر

الجبرية أو المجبرة: هم الذين غلوا في إثبات القدر، حتى أنكروا أن يكون

للعباد قدرة، أو إرادة، أو اختيار؛ فيرون أن العباد مجبورون على أفعالهم، وأن العبد كالريشة في مهب الريح، وإنما تنسب إليه الأفعال مجازًا، فيقال: صلى، وصام، وقتل، وسرق كما يقال: طلعت الشمس، وجرت الريح؛ فأنكروا قدرة العباد، واختيارهم، واتهموا ربهم بالظلم، وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم، واتهموه بالعبث، وأبطلوا الحكمة من الأمر والنهي.

وأهم الفرق التي حملت لواء الجبر، حتى كاد يصير علمًا عليها فرقة الجهمية أتباع الجهم بن صفوان الذي استقى تعاليمه من أستاذه الجعد ابن درهم الذي كان يقول بالجبر، ولكن ذلك اشتهر عن تلميذه الجهم، وقد نقلت كتب المقالات أقوال الجهم في القدر، فيقول البغدادي عن الجهم في الفرق بين الفرق (ص٢١١): وقال: لا فعل، ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز كما يقال: طلعت الشمس، ودارت الرحى من غير أن يكونا فاعلين، أو مستطيعين لما وُصِفتا به.اهـ.

ويقول الشهرستاني عن الجهم في الملل والنحل (١/ ٨٧): ومنها قوله في القدرة الحادثة: إن الإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له، ولا إرادة، ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجماد، وتنسب إليه الأفعال مجازًا كما تنسب إلى الجمادات، كما يقال: أثمرت الشجرة، وجرى الماء، وتحرك الشجر، وطلعت الشمس، وغربت، وتغيمت السماء، وأمطرت، واهتزت الأرض، وأنبتت إلى غير ذلك، والثواب والعقاب جبر كما أن الأفعال كلها جبر، قال: وإذا أثبت الجبر فالتكليف أيضًا كان جبرًا.اهـ. هذا هو مذهب

الجهم، وواضح ما في مذهبه من جبر خالص يجعل الإنسان في أعماله كورقة الشجر التي تحركها الرياح، لكن مع هذا فإن الأشعري في المقالات يذكر رأي الجهم في القدر لكن مع اختلاف يسير عما ذكره البغدادي والشهرستاني.

يقول الأشعري عن الجهم في مقالات الإسلاميين (١/ ٣٣٨)، أنه زعم أنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله وحده، وأنه هو الفاعل، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على سبيل المجاز، كما يقال: تحركت الشجرة، ودار الفلك، وزالت الشمس، وإنما فعل ذلك بالشجر والفلك والشمس سبحانه إلا أنه خلق للإنسان قوة كان بها الفعل، وخلق له إرادة للفعل، واختيارًا له منفردًا بذلك كما خلق له طولًا كان به طويلًا، ولونًا كان به متلونًا.اهـ. هذا هو مذهب الجهمية الجبرية ومن وافقهم.

المبحث الرابع: قول غلاة الصوفية في القدر

الصوفية وخصوصًا غلاتهم غلوا في الجبر خصوصًا ممن يزعمون الترقي في مقام الشهود للحقيقة الكونية، والربوبية الشاملة، فيرون كل ما يصدر من العبد من ظلم، وكفر، وفسوق هو طاعة محضة؛ لأنها إنما تجري وفق ما قضاه الله وقدره، وكل ما قضاه وقدَّره فهو محبوب لديه، مرضي عنه؛ فإذا كان قد خالف أمر الشرع بارتكابه هذه المحظورات فقد أطاع إرادة الله ونَفَّذَ مشيئته، فمن أطاع الله وقضاءَه وقدرَه هو كمن أطاعه في أمره ونهيه كلاهما قد قام بحق العبودية لله ومِنْ ثَمَّ فلا لوم، ولا تثريب، بل الكل مطيع بفعله لإرادة ربِّه، فصححوا بذلك إيمان فرعون وعبدة العجل، واليهود، والنصارى، والمجوس، كما صرح بذلك ابن عربي الصوفي النكرة بقوله:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

لقد صار قلبي قابلًا كلَّ صورةٍ ... فمرعى لغزلان وديرٌ لرهباني
وبيتٌ لأوثان وكعبةُ طائفٍ ... وألواح توراةٍ ومصحفُ قرآن
أدين بدين الحبِّ أنَّى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني

وكقول عبدالكريم الجيلي، وهو من أهل وحدة الوجود:

وأسلمت نفسي حيث أسلمني الهوى ... ومالي عن حكم الحبيب تنازعُ
فطورًا تراني في المساجد راكعًا ... وأني طورًا في الكنائس راتعُ
إذا كنتُ في حكم الشريعة عاصيًا ... فإني في علم الحقيقة طائعُ

وكما قال أحدهم:

أصبحت منفعلًا بما يختاره ... مني ففعلي كله طاعاتُ

وهذا المذهب من أخبث المذاهب، ولا يُشَك بكفر أصحابه، بل هو من أقبح أنواع الكفر.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٨/ ١٠٠): فإن من احتج بالقدر، وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات، ولم يفرق بين المأمور، والمحظور، والمؤمنين، والكفار، وأهل الطاعة، وأهل المعصية لم يؤمن بأحد من الرسل، ولا بشيء من الكتب، وكان عنده إبليس وآدم سواء، ونوح وقومه سواء، وفرعون وموسى سواء، والسابقون الأولون وكفار مكة سواء.اهـ.

المبحث الخامس: قول الأشاعرة في القدر

يرى جمهور الأشاعرة ومتأخروهم كما في شرح المواقف للزنجاني (ص٢٣٧): أن الله عَزَّ وَجَلَّ خالق أفعال العباد فيثبتون مرتبتي المشيئة والخلق، ولكنهم يقولون: إن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله تعالى وحدها، وليس لقدرتهم تأثير فيها، بل الله سبحانه أجرى عادته بأن يوجد في العبد قدرة

واختيارًا؛ فإذا لم يكن هناك مانع أوجد فيه فعله المقدور مقارنًا لهما؛ فيكون الفعل مخلوقًا لله إبداعًا وإحداثًا، ومكسوبًا للعبد، والمراد بكسبه إياه: مقارنته لقدرته وإرادته من غير أن يكون هناك من تأثير أو مدخل في وجوده سوى كونه محلًا له.اهـ.

فهم إذًا يرون أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى وهي كسب للعباد، وعلى ذلك يترتب الثواب والعقاب، ولا تأثير لقدرة العبد في الفعل.

وهذا قول جمهور الأشاعرة، وهو القول الذي شنع بسببه المعتزلة على الأشاعرة؛ لأنهم لما لم يثبتوا للعبد قدرة مؤثرة لم يكونوا بعيدين من قول الجبرية الجهمية؛ فهم أرادوا أن يوفقوا بين الجبرية والقدرية؛ فجاءوا بنظرية الكسب، وهي في مآلها جبرية خالصة؛ لأنها كما مر تنفي أي قدرة للعبد أو تأثير.

ولهذا اشتهر المذهب الأشعري بناءًا على مقالتهم تلك بنظرية الكسب التي صارت علمًا عليهم، فما معنى الكسب عندهم؟

للكسب عندهم تعريفات أهمها

١ – أنه ما يقع به المقدور من غير صحة انفراد القادر به.

٢ – أنه ما يقع به المقدور في محل قدرته.

٣ – أنه ما وجد بالقادر، وله عليه قدرة محدثة.

ويضرب بعضهم للكسب مثلًا بالحجر الكبير قد يعجز عن حمله رجل، ويقدر آخر على حمله منفردًا به، إذا اجتمعا جميعًا على حمله كان حصول الحمل بأقواهما، ولا خرج أضعفهما بذلك من كونه حاملًا.

كذلك العبد لا يقدر على الانفراد بفعله، ولو أراد الله الانفراد بإحداث ما هو كسب للعبد قدر عليه، وَوُجِدَ مقدوره؛ فوجوده على الحقيقة بقدرة الله تعالى ولا يخرج مع ذلك المُكْتَسِبُ من كونه فاعلًا، وإن وجد الفعل بقدرة الله تعالى.

وهكذا تؤول هذه النظرية جبرية خالصة كما مر، ويبقى الخلاف بينهم وبين الجبرية خلافًا لفظيًا بل طريقتهم أكثر غموضًا.

أما حقيقة النظرية الفلسفية فقد عجز الأشاعرة عن فهمها فضلًا عن إفهامها غيرهم، ولهذا قيل:

مما يقال ولا حقيقة تحته ... معقولة تدنو إلى الأفهام

الكسب عند الأشعري والحال عنـ ... ـد البهشمي وطفرة النَّظَّام(١).

---

(١) المقصود بالكسب قد مر، وقوله: الحال عند البهشمي البهشمي هو أبو هاشم عبدالسلام بن محمد الجبائي رئيس معتزلة البصرة بعد أبيه توفي سنة ٣٢٧هـ.
والمقصود بالحال أو الأحوال هي: النسبة بين الصفة والموصوف، فيقولون: العالِم صفة، والعالِمية نسبة بين الصفة والموصوف، وهي عندهم معنى زائد على العلم، ومثله القادرية والفاعلية وغيرها، ويقولون: إنها لا موجودة بذاتها، ولا معدومة، بل هي واسطة بينهما، وبعبارة أخرى هي الصفات المعنوية التي انفرد بإثباتها أبو هاشم دون سائر المعتزلة مع نفيه لصفات المعاني، أي أنه ينفي العلم والقدرة والإرادة، ثم يُثبت كونه عالمًا وقادرًا ومُريدًا، وهذه الكوكنة هي الأحوال.
وهذا القول باطل، ولا فرق بين العلم والعالمية والقدرة والقادرية، وتفسيره للأحوال ممتنع؛ فهي لا وجود لها إلا في الأذهان لا الأعيان؛ لذلك يقال: من المحالات أحوال أبي هاشم. انظر الفرق بين الفرق ص١٤٥، والمعتزلة وأصولهم الخمسة د.عواد المعتق ص٧٥،والعقل والنقل عند ابن رشد، د.محمد أمان ص٥٢، والتوضيحات الأثرية على متن الرسالة التدمرية لفخر الدين المحيسي ص٢٤١.
وقوله: وطفرة النَّظَّام: النَّظَّام هو إبراهيم بن سيار بن هانئ المعروف بالنظام سمي بهذا لأنه كان ينظم الخرز في شبابه، وإليه تنسب فرقة النظامية من المعتزلة، ولد سنة ١٨٥هـ، وتوفي سنة٢٣١هـ. وأما طفرته فهي قوله بالطفرة التي لم يسبق إليها، ومفادها دعواه أن الجسم قد يكون في المكان الأول ثم يصير منه إلى المكان العاشر من غير المرور بالأمكنة المتوسطة بينه وبين العاشر، ومن غير أن يصير معدومًا في الأول ومعادًا في العاشر. انظر المعتزلة وأصولهم الخمسة د. عواد المعتق ص٥٩،٥٦. وبعبارة أخرى هي القول بأن الله خلق هذه الموجودات دُفعة واحدة على ما هي عليه الآن من نبات
=

وقد دار حول الكسب جدال طويل، ولم ينته الأشاعرة فيه إلى قول مستقيم.

ومن الأشاعرة من يرى أن الفعل واقع بقدرة العبد، وأن العبد له كسب، وليس مجبورًا، وهذا هو قول الباقلاني.

يقول في كتابه الإنصاف (ص٧٠-٧١): ويجب أن يعلم أن العبد له كسب، وليس مجبورًا، بل مكتسب لأفعاله من طاعة ومعصية؛ لأنه تعالى قال: (لَهَا مَا اكْتَسَبَتْ) البقرة: ٢٨٦، يعني من ثواب طاعةٍ، (وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) البقرة: ٢٨٦، يعني من عقاب معصية، وقوله: (بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس) الروم:٤١، وقوله: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) الشورى:٣٠، وقوله: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا) فاطر: ٤٥. ويدل على صحة هذا أن العاقل منا يفرق بين تحرك يده جبراً، وسائر بدنه عند وقوع الهم به، أو الارتعاش وبين أن يحرك هو عضوًا من أعضائه قاصدًا إلى ذلك باختياره؛ فأفعال العباد هي كسب لهم، وهي خلق الله تعالى فما يتصف به الحق لا يتصف به الخلق، وما يتصف به الخلق لا يتصف به الحق، وكما لا يُقال لله تعالى إنه مكتسب، كذلك لا يُقال للعبد: إنه خالق.

المبحث السادس: قول الشيعة في القدر.

ليس للشيعة مذهب خاص بهم،وإنما أفردوا في هذا البحث لأن كثيرًا منهم

=

وحيوان، وجبال وبحار، ولم يتقدم خلقُ آدم على ذريته، غيرَ أن الله أكمل بعضها في بعض؛ فالتقدم والتأخر إنما يقع في ظهور هذه الموجودات في أماكنها دونَ حدوثها ووجودها، وكان النظَّام متأثرًا بأصحاب الكمون والظهور في الفلاسفة وهي طفرة لم يسبقه إليها أحد.

وممن يكتب عنهم يخطؤون في نقل مذهبهم في القدر؛ نظرًا لاختلاف متقدمي الشيعة عن متأخريهم، وأفضل من وضح حقيقة مذهبهم شيخ الإسلام ابن تيمية فقد قال في منهاج السنة النبوية (١/ ١٢٧-١٢٨) في معرض رده على صاحب منهاج الكرامة عند عرضه لمذهب أهل السنة والإمامية في الإمامة: إن إدخال مسائل القدر والتعديل، والتجوير في هذا الباب كلام باطل من الجانبين؛ إذ كل من القولين قد قال به طوائف من أهل السنة والشيعة؛ فالشيعة فيهم طوائف تثبت القدر، وتنكر مسائل التعديل والتجوير، والذين يقرون بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان فيهم طوائف تقول بما ذكره من التعديل والتجوير كالمعتزلة وغيرهم.اهـ.

ويقول أيضا في منهاج السنة (١/ ١٣٤):ولكن هذه مسألة القدر، والنزاع فيها معروف بين المسلمين؛ فأما نفاة القدر كالمعتزلة وغيرهم، فقولهم هو الذي ذهب إليه متأخرو الإمامية، وأما المثبتون للقدر، وهم جمهور الأمة وأئمتها، كالصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأهل البيت وغيرهم فهؤلاء تنازعوا في تفسير عدل الله وحكمته، والظلم الذي يجب تنزيهه عنه، وفي تعليل أفعاله وأحكامه ونحو ذلك.اهـ.

وهذا الكلام الدقيق الذي ذكره ابن تيمية يؤيده ما في كتب الشيعة، وما في كتب المقالات من بيان لمذهبهم في القدر.

وخلاصة أقوالهم أن متقدميهم منهم من يوافق أهل السنة، وفيهم من يوافق المعتزلة، أما متأخروهم فأغلبهم معتزلة سواء كانوا رافضة،أو زيدية.

وأبوالحسن الأشعري ذكر في مقالات الإسلاميين (ص٤٠-٤١):أن الرافضة اختلفوا في أعمال العباد هل هي مخلوقة؟ على ثلاثة فرق:

فالفرقة الأولى منهم، وهو هشام بن الحكم: يزعمون أن أعمال العباد مخلوقة لله. وحكى جعفر بن حرب عن هشام بن الحكم أنه كان يقول: إن أفعال الإنسان اختيار له من وجهٍ، اضطرار من وجه؛ اختيار من جهة أنه أرادها واكتسبها، واضطرار من جهة أنها لا تكون منه إلا عند حدوث السبب المهيج عليها.

الفرقة الثانية منهم: يزعمون أنه لاجبر كما قال الجهمي، ولا تفويض كما قالت المعتزلة؛ لأن الرواية عن الأئمة زعموا جاءت بذلك، ولم يتكلفوا أن يقولوا في أعمال العباد هل هي مخلوقة أم لا شيئًا.

والفرقة الثالثة منهم: يزعمون أن أعمال العباد غير مخلوقة لله، وهذا قول قوم يقولون بالاعتزال والإمامية.اهـ.

ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة. (٢/ ٢٢٩-٢٣٠) على ما نقله الأشعري من أقوال الرافضة في القدر فيقول: والمقصود أن الإمامية إذا كان لهم قولان كانوا متنازعين في ذلك؛ لتنازع سائر الناس، لكنهم فرع على غيرهم في هذا أو غيره ؛ فإن مثبتيهم تبع للمثبتة، ونفاتهم تبع للنفاة إلا ما اختصوا به من افتراء الرافضة؛ فإن الكذب والجهل والتكذيب بالحق الذي اختصوا به لم يشاركهم فيه أحد من طوائف الأمة.

وأما ما يتكلمون به في سائر مسائل العلم: أصوله وفروعه فهم فيه تبع لغيرهم من الطوائف يستعيرون كلام الناس،فيتكلمون به،وما فيه من حق فهو من أهل السنة لا ينفردون عنهم بمسألة واحدة صحيحة لا في الأصول ولا في الفروع؛ إذ كان مبدأ بدعة القوم من قوم منافقين لا مؤمنين.اهـ.

وهذا الكلام العلمي الدقيق الرصين العادل تشهد له كتب الشيعة نفسها؛

فهذا الشيخ المفيد يقول في أوائل المقالات في المذاهب المختارات (ص٦٤-٦٥): أقول: إن الخلق يفعلون، ويُحْدثون، ويخترعون، ويصنعون، ويكتسبون، ولا أطلق عليهم القول بأنهم يَخْلُقون، ولا لها خالقون.... وعلى هذا القول إجماع الإمامية، والزيدية، والبغداديين من المعتزلة والمرجئة، وأصحاب الحديث.اهـ.

ويقول محمد رضا المظفر وهو شيعي معاصر في عقائد الإمامية (ص٦٧-٦٨): واعتقادنا في ذلك تبع لما جاء عن أئمتنا الأطهار عليهم السلام وأن الأمر بين الأمرين، والطريق الوسط بين القولين الذي يعجز عن فهمه أمثال أولئك المجادلين من أهل الكلام، ففرط منهم أقوام، وأفرط آخرون.... فقد قال إمامنا الصادق عليه السلام لبيان الطريق الوسط كلمته المشهورة: لاجبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين.

ما أجل هذا المغزى، وما أدق معناه، وخلاصته أن أفعالنا من جهة هي أفعالنا حقيقة، ونحن أسبابها الطبيعية، وهي تحت قدرتنا واختيارنا، ومن جهة أخرى هي مقدورة لله تعالى وداخلة في سلطانه.اهـ.

ويلحظ أن كلام المظفر هذا موافق لأهل السنة، مخالف لغيره من الشيعة.

أما الزيدية فهم كما يقول د.عبد الرحمن المحمود في الغالب معتزلة، وكبار المعتزلة منهم، والمذهب المعتزلي عُثر على كثير من تراثه عند الزيدية في اليمن مثل مؤلفات عبد الجبار الهمذاني، وغيرها.

يقول أحد أئمتهم وعلمائهم في كتاب العقد الثمين في معرفة رب العالمين (ص٣٧-٣٨): فصل:فإن قيل:أَرَبُّك عدل حكيم؟ فقل:أَجَلْ؛ فإنه لايفعل القبح، ولا يخل بالواجب عليه من جهة الحكمة، فإن قيل: هل ربك خلق أفعال العباد؛ فقل: لايقول ذلك ألا أهل الضلال والعناد.اهـ.

وخلاصة القول أن الشيعة عمومًا فيهم من يقول بقول أهل السنة وإن كانوا في الغالب على مذهب المعتزلة، وهذا يكثر في الرافضة الزيدية خاصة المتأخرين منهم، علمًا بأن المعتزلة يخالفون الشيعة في بعض المسائل كالإمامة.

وعلى هذا فمقالات الشيعة داخلة ضمن المقالات الأخرى التي سبق عرضها.

(باب ذكر بعض حقوق النبي ﷺ)

مسألة: وجوب الإيمان بعصمته ﷺ.

تقدم في المباحث السابقة الحديث عن وجوب الإيمان بأن النبي ﷺ قد بلغ الرسالة وأكملها، وهذا البلاغ قد اقترن بعصمة الله لنبيه ﷺ في كل ما يبلغه عن ربه ﷻ.

المطلب الأول: تعريف العصمة

المعنى اللغوي:

العصمة وردت في اللغة لعدة معان منها:

١ - المنع:

قال صاحب اللسان: "العصمة في كلام العرب: المنع، وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه. عَصَمه، يَعْصِمه، عَصْما: منعه ووقاه"[١].

٢ - الحفظ:

قال صاحب اللسان: "والعصمة الحفظ، يقال: عصمته فانعصم، واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية"[٢]

(١) لسان العرب (١٢/ ٤٠٣) مادة عصم.
(٢) لسان العرب (١٢/ ٤٠٤).

٣- القلادة:

قال صاحب اللسان: "العصمة القلادة"[١]، وكذا في القاموس المحيط[٢].

٤- الحبل:

قال الزجّاج[٣]: "أصل العصمة: الحبل وكل ما أمسك شيئا فقد عصمه"[٤].

٥- السبب:

قال الطبري: "وللسبب الذي يتسبب به الرجل إلى حاجته: عاصم ومنه قول الشاعر:

إلى المرء قيس أطيل السرى وآخذ من كل حي عصم[٥]

يعني بالعصم: الأسباب، أسباب الذمة والأمان"[٦].

قلت: إذا أمعنت النظر في هذه المعاني وجدتها جميعا ترجع إلى المعنى الأول الذي هو "المنع" فالحفظ منع للشيء من الوقوع في المكروه أو المحظور، والقلادة تمنع سقوط الخرز منها، والحبل يمنع من السقوط والتردي، والسبب يمنع صاحبه عما يكره.

المعنى الشرعي:

أما عصمة النبي ﷺ فقد عرفت بعدة تعريفات ولعل من أحسنها وأسلمها

---

(١) المصدر السابق (١٢/ ٤٠٥).

(٢) (٤/ ١٥٢، ١٥٣).

(٣) الزجّاج - بفتح الزاي والجيم المشددة - أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج النحوي كان عالما أديبا ديِّنا صنف كتابا في معاني القرآن، روى عن المبرد وثعلب وغيرهما، توفي في بغداد سنة ٣١١ هـ. وفيات الأعيان (١/ ٣٢).

(٤) لسان العرب (١٢/ ٤٠٥).

(٥) ديوان الأعشى (ص ٣٧) بشرح الدكتور محمد حسين.

(٦) تفسير الطبري (٤/ ٢٦).

ما ذكره صاحب كتاب نسيم الرياض بأنها "لطف من الله تعالى يحمل النبي على فعل الخير ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقا للابتلاء"(١).

المطلب الثاني: الجوانب التي عصم فيها النبي ﷺ

أ- العصمة في التبليغ ودعوى الرسالة:

وهذه العصمة هي التي عليها المناط، فبها يحصل المقصود من البعثة فتبليغ شرع الله إلى الخلق هي مهمة الرسل من أولهم إلى آخرهم فهم الواسطة بين الله وبين خلقه الذين أرسلوا إليهم، فبطريقهم يهتدي البشر ويرشدون إلى دين الله إذ هم المبلغون عن الله أمره ونهيه وشرعه.

ولذلك فقد أوجب الله العصمة لأنبيائه ورسله في هذا الجانب حتى تصل الرسالة إلى العباد كاملة تامة غير منقوصة ولا محرفة، وبذلك تقوم الحجة على العباد.

ولقد دلت نصوص القرآن والسنة على عصمة نبينا محمد ﷺ في هذا الجانب، وانعقد إجماع الأمة على ذلك.

فمن القرآن:

١- قوله تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى}، فالآية نص في عصمة لسانه ﷺ من كل هوى وغرض فهو لا ينطق إلا بما يوحى إليه من ربه ولا يقول إلا ما أمر به فيبلغه إلى الناس كاملا موفورا من غير زيادة ولا نقصان.

وهذه الآية شهادة وتزكية من الله لنبيه ورسوله محمد ﷺ في كل ما بلغه للناس من شرع الله.

٢- وقوله تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ، لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، فَمَا

---

(١) نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض (٤/ ٣٩).

مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ}، فالآيات نصت على أن الله سبحانه وتعالى لا يؤيد من يكذب عليه بل لابد أن يظهر كذبه وأن ينتقم منه.

ولو كان محمد ﷺ من هذا الجنس كما يزعم الكافرون فيما حكاه الله عنهم {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا} - وحاشاه ﷺ من ذلك- لأنزل الله به من العقوبة ما ذكره في هذه الآيات، وحيث إن الرسول ﷺ لم يقع له شيء من ذلك فلم يهلكه الله ولم يعذبه، فهو على هذا لم يتقول على الله ما لم يقله ولم يفتر شيئا من عند نفسه، وبهذا تثبت عصمته في كل ما بلغه عن ربه عز وجل.

قال ابن كثير بعد أن فسر هذه الآيات: "والمعنى في هذا بل هو صادق راشد لأن الله عز وجل مقر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات"(١).

٣- وقوله تعالى: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلًا، وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}. وهذه الآيات دالة على عصمة الله وتثبيته لنبيه ﷺ في تبليغ ما أوحى إليه، ومعناها مقارب لمعنى الآيات التي ذكرناها قبلها "فقد أخبر تعالى عن تأييده لرسوله صلوات الله عليه وسلامه وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها"(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣).

وأما الأدلة من السنة على ذلك فمنها:

أ- حديث طلحة بن عبيدالله وجاء فيه قوله ﷺ: "ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به، فإني لن أكذب على الله"(١) والحديث نص على عصمته ﷺ من الكذب فيما يخبر به عن الله.

٢- حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: "كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: "اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق"(٢).

٣- حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إني لا أقول إلا حقا"، قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله. قال: "إني لا أقول إلا حقا"(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢)، وأبي داود (٣٦٤٦)، والدارمي (١/ ١٢٥)، والحاكم (١/ ١٠٥ - ١٠٦)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (ص ٨٩ - ٩٠)، والخطيب في تقييد العلم (ص ٨٠)، والمزي في تهذيب الكمال (٣١/ ٣٨ - ٣٩) وغيرهم، والحديث صححه الحاكم، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٥٣٢)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٦/ ٦٨): إسناده صحيح، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٨٠٠)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند (١١/ ٥٨): إسناده صحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٠، رقم ٨٤٦٢)، والترمذى (٤/ ٣٥٧، رقم ١٩٩٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٦٥)، وابن السنى (ص ١٥٨، رقم ٤٢٠)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣٩٧)، والبيهقى (١٠/ ٢٤٨، رقم ٢٠٩٦٢)، وابن عساكر (٤/ ٣٦) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة =

دليل الإجماع:

نقل غير واحد من العلماء إجماع الأمة واتفاقها على عصمته ﷺ في تبليغ ما أوحي إليه من ربه ﷻ.

قال القاضي عياض: "وأجمعت الأمة في ما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به، لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا"[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وفى تبليغ رسالاته باتفاق الأمة ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه ..... والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين"[2]

ب- العصمة من الكفر والشرك:

الحديث عن عصمته ﷺ في هذا الجانب ذو شقين هما:

الأول: عصمته قبل مبعثه ﷺ.

الثانى: عصمته بعد مبعثه ﷺ.

أما الشق الأول: وهو عصمته من الشرك والكفر قبل بعثته ونزول الوحي إليه كلها فقد دلت النصوص الثابتة على أن النبي ﷺ معصوم منذ نشأته من الكفر والشرك فلم يعهد عنه ﷺ أنه سجد لصنم أو استلمه أو إلى غير ذلك من

=

(١٧٢٦)، وصححه بشواهده الحويني في تحقيق كتاب الصمت (٣٩٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٤/ ١٨٥): إسناده قوي.

(١) الشفا (٢/ ٧٤٦).

(٢)مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٨٩، ٢٩٠).

أمور الشرك التي كان يفعلها قومه. فقد فطره الله على معرفته والاتجاه إليه وحده وهذا هو المعلوم من سيرته. فمن النصوص التي يستدل بها على هذا الأمر ما يلي:

-حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى ظئره[١] - فقالوا: إن محمدا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس وقد كنت أرى أثر ذلك الخيط في صدره"[٢].

فالحديث نص على إخراج جبريل لحظ الشيطان منه ﷺ وتطهيره لقلبه فلا يقدر الشيطان على إغوائه إذ لا سبيل له عليه. وهذا دليل على تنزيهه من الشرك منذ صغره ﷺ.

-وعن زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان صنم من نحاس يقال له إساف أو نائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ فطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: لا تمسه، فقال زيد: فطفت فقلت في نفسي لأمسنه حتى أنظرما يكون فمسحته، فقال رسول الله ﷺ: ألم تنه؟، قال زيد: فوالذى هو أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنما حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه"[٣].

---

(١) أي مرضعته.

(٢) أخرجه مسلم وسلم (١/ ١٠١، ١٠٢).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٧٢١٢)، والبغوي في معجم الصحابة (٨١٨)، والطبراني في الكبير (٤٦٦٣)، والحاكم (٣/ ٢١٦ - ٢١٧)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٤)، وابن عساكر =

وهذا الحديث نص في بعده ﷺ عن عبادة الأوثان التي كان عليها أهل مكة فنهيه لزيد -الذي كان ابنه بالتبني في ذلك الحين- يؤكد نفرته ﷺ من تلك الأوثان التي كان يعكف عليها أهل مكة.

ولقد كان النبي ﷺ لا يحضر مع أهل سكة ما يقيمونه من أعياد لأصنامهم فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: حدثتني أم أيمن قالت:. كان ببوانة صنم يحضره قريش يوما في السنة، وكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن: إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب، آلهتنا وجعلن يقلن يا محمد: ما تريد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا فلم فيزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوبا فزعا فقلن عماته: ما دهاك؟ قال: "إني أخشى أن يكون بي لمم"، فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت؟ قال: "إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي وراءك يا محمد لا تمسه" فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبئ"[١].

كما عصم ﷺ من الحلف بأسماء تلك الأصنام التي كان يعبدها قومه ويحلفون بها تعظيما لها فقد جاء في قصة بحيرى الراهب[٢] أنه استحلف النبي

=

في تاريخه (٣/ رجاله رجال الصحيح، غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وكذا حسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٣٥٧).

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص ١٤٤). وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ١٥١) وعزاه إلى ابن سعد وأبي نعيم وابن عساكر.

(٢) راهب من رهبان النصارى يقال إنه كان من عبد القيس وكان اسمه: جرجيس.

=

ﷺ باللات والعزى حينما لقيه بالشام في سفرته مع عمه أبي طالب وهو صبي لما رأى فيه علامات النبوة فقال بحيرى للنبي ﷺ: يا غلام أسألك باللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له النبي ﷺ: "لا تسألني باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغضت بغضهما شيئا قط"(١).

والنصوص في مثل هذا كثيرة وقد عني بجمعها من ألف في دلائل النبوة مثل الحافظ أبي نعيم الأصبهاني فقد عقد فصلا في كتابه دلائل النبوة بعنوان: "ذكر ما خصه الله ﷻ به من العصمة وحماه من التدين بدين الجاهلية ..." وقد أورد تحت هذا العنوان العديد من الأحاديث والشواهد في هذا الشأن(٢).

وكذلك فعل البيهقي في دلائل النبوة أيضا فعقد عنوانا لهذا الموضوع فقال: "باب ما جاء في حفظ الله تعالى رسوله ﷺ في شبيبته عن أقذار الجاهلية ومعائبها، لما يريده به من كرامته برسالته حتى يبعث رسولا"(٣).

ومثلهما السيوطي في الخصائص الكبرى حيث قال: "باب اختصاصه ﷺ بحفظ الله إياه في شبابه عما كان فيه أهل الجاهلية"(٤).

الإجماع:

نقل الجرجاني إجماع الأمة على عصمة الأنبياء من الكفر والشرك قبل النبوة

=

البداية (٢/ ٢٨٦).

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص ١٢٥- ١٢٨)، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٦، ٢٧) بتحقيق عبد المعطي قلعجي. وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ١٤٢، ١٤٤) وعزاه للبيهقي.

(٢) انظر (ص ١٤٣- ١٤٧).

(٣) انظر (٢/ ٣٠، ٤٢).

(٤) انظر: (١/ ١٤٨، ١٥٢).

وبعد حيث قال: "وأما الكفر فأجمعت الأمة على عصمتهم منه قبل النبوة وبعدها ولا خلاف لأحد منهم في ذلك"[١].

وهذا هو الحق فالله سبحانه وتعالى قد نزه نبيه ﷺ عن الكفر والشرك وعصمه من الوقوع فيهما وذلك داخل في باب إعداده لتحمل الرسالة، ومثل ذلك صيانة الله لنسبه الذى تناسل منه فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "لم يلتق أبواي على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما"[٢].

وكل ذلك حتى لايبقى لمنتقص حجة يتعلق بها لتنفير الناس من رسول الله ﷺ فمن المعلوم أن كفار قريش كانوا حريصين أشد الحرص على تجريح النبي ﷺ ووصفه بما ينقص من قدره ويحط من شأنه لتنفير الناس منه وصدهم عن دعوته فلقد رموه واتهموه بالسحر والجنون وغير ذلك من النقائص ولكن لم يكن الشرك والكفر من ضمن ما رموه به فسكوتهم عن ذلك دليل على أنهم لم يجدوا سبيلا إليه إذ لو كان لنقل، وما سكتوا عنه كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة كما حكى الله ذلك عنهم في قوله تعالى: {مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا}.

وبهذا يتبين أن النبي ﷺ لم يكن على دين قومه من عبادة الأصنام وتعظيمها، فقد عصمه الله من ذلك فلم يجعل لكفار قريش طريقا عليه فلذلك لجؤوا إلى تلفيق التهم الباطلة المتناقضة كاتهامه بالسحر تارة وبالجنون تارة

---

(١) شرح المواقف (ص ١٣٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص ٢٤) من عدة طرق والحديث له شواهد متعددة أوردها السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ٦٣، ٦٦).

وبالكهانة تارة أخرى.

وإذا كان الله قد عصم نبيه ﷺ فيما هو دون الشرك من الأمور المنكرة التي كان عليها أهل الجاهلية ففي ذلك دليل على أن عصمته من أمور الشرك من باب أولى.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره فقال له العباس عمه: يا ابن أخي لو حللت إزارك فجعلته على منكبك دون الحجارة، قال فحله فجعله على منكبه فسقط مغشيا عليه فمارؤي بعد ذلك عريانا ﷺ"[1].

إزالة ما يوهم عدم إيمان نبينا وضلاله قبل بعثته

وردت بعض النصوص التي قد يتوهم منها البعض أن رسول الله ﷺ كان على كفر وضلال قبل بعثته، وسوف أعرض لهذه النصوص وأبين التوجيه الصحيح لها بما يبين الحق ويصحح الفهم ويزيل ما يقع من الوهم إن شاء الله.

أ- فمن تلك النصوص قول الله تعالى للنبي ﷺ: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ}.

فقد يتوهم البعض أن هذه الآية تعني انتفاء معرفة النبي للإيمان بالكلية قبل بعثته بمعنى أنه لم يكن مؤمنا.

والجواب على ذلك أن هذه الفهم خاطئ لأن الإيمان في قوله {وَلا الإِيمَانُ} مصدر بمعنى المفعول فيكون المعنى المراد: أي ما يجب الإيمان به من الفرائض والأحكام الشرعية التي كلف بها علما وعملا، فالمنفي هو الإيمان التفصيلي لا الإجمالي.

---

(١) أخرجه البخاري فتح الباري (١/ ٤٧٤) ح ٣٦٤ وأخرجه مسلم (١/ ١٨٤).

فقد كان النبي ﷺ قبل نزول الوحي إليه مبغضا للشرك وعبادة الأصنام ومتجها إلى الله وحده كما سبق الاستدلال على ذلك، فلما نزلت عليه الفرائض والأحكام الشرعية التي لم يكن يدري بها قبل الوحي آمن بها وطبقها. فهذا هو المعنى الصحيح للآية، كما ذكر ذلك علماء التفسير عند تفسيرها قال ابن كثير: "{مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ} على التفصيل الذي شرع لك في القرآن"[١].

وقال الشوكاني: "ومعنى {وَلا الإِيمَانُ} أنه كان ﷺ لا يعرف تفاصيل الشرائع ولا يهتدي إلى معالمها وخص الإيمان لأنه رأسها وأساسها"[٢].

ب- ومن النصوص كذلك قول الله تعالى {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} فقد يتوهم البعض أن الآية تعني أن نبينا كان على ضلال قبل مبعثه وهذا فهم خاطئ وباطل ترده النصوص التي سبق إيرادها والتي نصت على أن النبي ﷺ كان من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوما من عبادة الأوثان وقاذورات أهل الفسق والعصيان.

وقد أشار إلى بطلان هذا اللهم القرطبي عند تفسيره لهذه الآية حيث قال: "فأما الشرك فلا يظن به"[٣].

وأما المعنى الصحيح لهذه الآية فقد أشار العلماء إلى عدة معان صحيحة لهذه الآية تشترك جميعها في تنزيه النبي ﷺ عن أن ينسب إليه شيء من الشرك أو الكفر قبل بعثته، ومن تلك المعاني ما يلي:

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٢).

(٢) فتح القدير (٤/ ٥٣٠).

(٣) تفسيرالقرطبي (٢٠/ ٩٩).

١- أن يفسر الضلال هنا بمعنى الغفلة كما في قوله تعالى: {لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى}، وكما في قوله تعالى {وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} والمعنى أنه وجدك غافلا عما يراد بك من أمر النبوة[١].

٢- وقال بعضهم معنى (ضالا) لم تكن تدري ما القرآن والشرائع فهداك الله إلى القرآن وشرائع الإسلام، وهو بمعنى قوله تعالى: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ} وعلى هذا التفسير يكون المعنى: أي وجدك ضالا عن شريعتك التي أوحاها إليك لا تعرفها قبل الوحي إليك، فهداك إليها[٢].

٣- وقال بعضهم معنى الآية أى وجدك في قوم ضلال فهداهم الله بك[٣].

٤- وقال بعضهم الضلال بمعنى الطلب أي وجدك طالبا للقبلة فهداك إليها[٤] كما في قوله تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا}

ولقد أورد العلماء عددا من المعاني لهذه الآية منها ما هو معنوي ومنها ما هو حسي وهي معان كلها حسان[٥].

ج- ومن النصوص كذلك قوله تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ}.

فليس المقصود بالغفلة هنا الشرك والغواية إنما المقصود منها الغفلة عن

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٦) وفتح القدير (٥/ ٤٥٨).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٥٢٣) وتفسير القرطبي (٢٠/ ٩٦، ٩٧)، وفتح القدير (٥/ ٤٥٨).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٧) وفتح القدير (٥/ ٤٥٨).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٧) وفتح القدير (٥/ ٤٥٨).
(٥) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٩٧) بتصرف.

قصة يوسف مع الله وإخوته كما يوضح ذلك سياق الآية. فهذه القصة وأمثالها لا تعلم إلا من الوحي فلهذا لا يلحقه نقص بسببها.

وهذا هو ما ذكره علماء التفسير عند هذه الآية.

قال القرطبي: "أي من الغافلين عما عرفناكه"(١). وقال الشوكاني: "والمعنى أنك من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عن هذه القصة"(٢).

د- ومن تلك النصوص ما رواه عثمان بن أبي شيبة(٣) بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: "أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع ملكين من خلفه وأحدهما يقول لصاحبه: اذهب بنا حتى نقوم خلفه، فقال الآخر: كيف نقوم خلفه وإنما عهده باستلام الأصنام، فلم يعد بعد ذلك يشهد مع المشركين مشاهدهم"(٤).

والمنكر من هذا الحديث قوله عن الملك: "عهده باستلام الأصنام" والجواب عن هذا الحديث ذو شقين هما:

أولا: الكلام على سند الحديث:

---

(١) تفسير القرطبي (٩/ ١٢٠).

(٢) فتح القدير (٣/ ٤).

(٣) هو: عثمان بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي، من حفاظ الحديث، وله من المصنفات: المسند، والتفسير، ولد سنة ١٥٦هـ وتوفي سنة ٢٣٩هـ. تاريخ بغداد (١١/ ٣٨٢).

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ١٤٤٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٢٨٦) وأبو يعلى الموصلي في مسنده، والعقيلي في الضعفاء، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٦٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٥). وأورده الذهبي في الميزان (٣/ ٣٥) وأورده ابن حجر في لسان الميزان (٣/ ٥٣) وأورده ابن كثير في التاريخ (٢/ ٢٨٨) وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ١٥٢).

تكلم العلماء على سند الحديث وأوردوا عللا منها:

١- أن عثمان بن أبي شيبة لم يتابع عليه.

ولكن الذهبي أجاب عن هذا بقوله: "عثمان لا يحتاج إلى متابع ولا ينكر له أن ينفرد بأحاديث لسعة ما روى، وقد يغلط، وقد اعتمده الشيخان في صحيحيهما..."[(١)].

٢- قال الدارقطني: "يقال إن عثمان بن أبي شيبة وهم في إسناده، وغيره يرويه عن جرير عن سفيان بن عبد الله بن محمد بن زياد بن جدير مرسلا وهو الصواب[(٢)].

ومن كلام الدارقطني نتبين لنا علتان:

أ- أن الحديث مرسل وليس متصلا.

ب- جعله لسفيان الثوري مكان سفيان بن عبد الله وهذا وهم في السند فسفيان بن عبد الله مجهول، وأما الثوري فهو ثقة.

٣- أن في سند عثمان بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن عقيل وهو ضعيف عند القوم.

وبهذا يتبين ضعف إسناد الحديث.

ثانيا: الكلام على متن الحديث

بالإضافة إلى ضعف هذا الحديث الذي لا تقوم به حجة فإن ظاهر اللفظ وهو قوله إنما عهده باستلام الأصنام يخالف ما عرف عن النبي ﷺ من أنه لم يكن على شيء مما كان عليه أهل مكة من الشرك وذلك منذ ولادته إلى أن بعثه

---

(١) ميزان الاعتدال (٣/ ٣٥).

(٢) العلل المتناهية (١/ ١٦٧).

الله رسولا نبيا ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك ما يعبد من دونه. ولقد سبق إيراد الأدلة على ذلك فليرجع إليها.

وقد ذكر بعض العلماء: أن ظاهر الحديث ليس مرادا، فليس المقصود أنه باشر الاستلام، وإنما المقصود أنه شهد مباشرة المشركين استلام أصنامهم[١].

الشق الثاني: عصمته ﷺ من الكفر والشرك بعد النبوة:

بعث الله تعالى نبيه محمدا ﷺ ليدعو الناس إلى عبادة الله وحده وترك ما هم فيه من الكفر والشرك.

ولقد كان ﷺ في تطبيق ما أمر به هو المثل الأعلى الذي يحتذى به. قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}.

فهو منزه عن كل ضلال وغواية كما أخبر الله بذلك في كتابه العزيز {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} فهذه شهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال ولا غاو، بل هو صلوات الله وسلامه عليه في غاية من الاستقامة والاعتدال والسداد والهداية.

وإجماع الأمة منعقد على ذلك قال الرازي: "واجتمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون عن الكفر والبدعة"[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ففي الجملة كل ما يقدح في نبوتهم وتبليغهم عن الله تعالى فهم متفقون على تنزيههم عنه"[٣].

وقال الآمدي: "فما كان منها كفرا فلا نعرف خلافا بين أهل الشرائع في

---

(١) ميزان الاعتدال (٣/ ٣٥)، وتاريخ بغداد (١١/ ٢٨٦).

(٢) عصمة الأنبياء (ص ١٨).

(٣) منهاج السنة النبوية (١/ ١٣٠).

عصمتهم عنه"[(١)].

ولم يخالف هذا الإجماع إلا من لا يعتد بخلافهم[(٢)].

والمعلوم من خلال سيرته ﷺ أنه كان حربا على الكفر والشرك على اختلاف صوره وألوانه، فلم يدع طريقا أو سبيلا لهدم الشرك والكفر إلا وقد سلكه مستخدما في ذلك لسانه وسنانه، وهذا كله يؤكد عصمته ﷺ من الكفر والشرك وهذا أمر مشتهر وأعظم من أن يحتاج إلى دليل يؤكده.

ج- عصمته من الكذب في غير الوحي والتبليغ

من المعروف عن سيرته ﷺ قبل البعثة وبعدها أنه متصف بكل خلق فاضل

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ١٢٨).

(٢) الذين خالفوا في هذه المسألة هم:

أ الأزارقة: وهم فرقة من فرق الخوارج وقد نقل عنهم أنهم قالوا بجواز بعثة نبي علم الله أنه يكفر بعد نبوته. انظر الإحكام في أصول الأحكام (١/ ١٢٨)، والمواقف للإيجي (٣٥٨، ٣٥٩).

ب- والفضيلية: رهم من فرق الخوارج ويقولون بجواز الكفر على الأنبياء من جهة كونهم يعتقدون جواز صدور الذنوب عن الأنبياء وكل ذنب هو كفر - على حسب اعتقادهم - فمن هذا الباب جوزوا صدور الكفر عنهم.

انظر: عصمة الأنبياء للرازي (ص ١٨) والإحكام في أصول الأحكام للآمدي (١/ ١٢٨). ج- الرافضة: فقد جوزوا على الأنبياء إظهار الكفر على سبيل التقية عند خوف الهلاك، بل نقل عنهم أنهم أوجبوه. ويعللون ذلك بقولهم: إن إظهار الإسلام إن كان مفضيا إلى القتل كان إلقاء للنفس في التهلكة، وإلقاء النفس في التهلكة حرام لقوله تعالى: {وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} الآية ١٩٥ من سورة البقرة، وإذا كان إظهار الإسلام حراما كان إظهار الكفر واجبا. انظر: عصمة الأنبياء للرازي (ص ١٨).

د- ذكر ابن حزم في كتابه الفصل (٤/ ٢): "أنه رأى في كتاب أبي جعفر السمناني قاضي الموصل صاحب الباقلاني أنه كان يقول: كل ذنب دق أو جل فإنه جائز على الرسل حاشا الكذب في التبليغ فقط، قال: وجائز عليهم أن يكفروا".

من صدق وأمانة وبر وصلة رحم وإحسان وجود إلى غير ذلك من محاسن الأخلاق التي جبله الله عليها منذ نشأته، وحري به ﷺ أن يكون كذلك فقد اختاره الله لحمل الأمانة العظمى التي هي أداء الرسالة وتبليغها إلى الناس كافة، فكان لابد من إعداده لهذه المهمة، ولذا فقد فطره الله على كل خلق فاضل كريم وقد جمع الله له خصال الخير كلها، فلم يكن يدعى إلا بالأمين، ومن الأدلة التي يستدل بها على اتصافه بالصدق قبل بعثته ما يلي:

١- قول خديجة بنت خويلد رضي الله عنها حينما أتاها النبي ﷺ خائفا بعد أن لقيه جبريل في غار حراء وقال لها: "إني قد خشيت على نفسي"، فقالت له: "كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"(١).

٢- إجماع قرييش على الإقرار بصدقه حينما جمعها ليصدع بالدعوة جهرا فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما نزلت {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: "يا بني فهريا بني عدي" - لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي". قالوا: ما جربنا عليك إلا صدقا.

قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد... " الحديث(٢)

فالشاهد من الحديث قولهم "ما جربنا عليك إلا صدقا" فالنبي ﷺ انتزع

---

(١) أخرجه البخاري فتح الباري (٨/ ٧١٥) ح ٤٩٥٣.

(٢) أخرحه البخاري فتح الباري (١٨/ ٥٠١) ح ٤٧٧٠، واللفظ له.

منهم هذه الشهادة الجماعية بصدقه وانتفاء الكذب عنه، لعلمه بما قد سيقع من تكذيبهم له عند إخبارهم بأمر الرسالة.

٣- على تكذيب قريش للنبي ﷺ في دعوة النبوة إلا أن أحدا منهم لم يجرؤ على وصفه بالكذب في سواها فقد قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب الذي جئت به[١] فأنزل الله تعالى: {فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ}.

وكذلك عندما سأل الأخنس بن شريق أبا جهل بعد ما خلا به يوم بدر فقال: "يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليمر ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمدا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟"[٢].

٤- ومما يستدل به كذلك جواب أبي سفيان لهرقل عندما سأله عن النبي ﷺ، عندما أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ هادن فيها أبا سفيان وكفار قريش، فكان مما سأله عنه: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟فقال أبو سفيان: لا فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله[٣].

بعد فهذه نماذج على صدقه ﷺ وعصمته من الكذب قبل بعثته.

وكذا الحال بعد بعثته ﷺ فهذه أخبار نبينا محمد ﷺ وآثاره وسيره وشمائله

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/ ١٨٢).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٨٢)، وأورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٣٠).

(٣) الحديث أخرجه البخاري فتح الباري (١/ ٣١) ح ٧.

معتنى بها مستوفاة تفاصيلها لم يرد في شيء منها تداركه ﷺ لخبر صدر منه رجوعا عن كذبة كذبها، أو اعترافا بخلف في خبر أخبر به ولو وقع شيء من ذلك لنقل إلينا.

ومن المعلوم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق النبي ﷺ في جميع أقواله والثقة بجميع إخباره في أي باب كانت وعن أي شيء وقعت دون توقف أو تردد في شيء منها أو استثبات عن حاله تلك هل وقع فيها سهوا أم لا"[١].

وهذا كله يؤكد عصمته ﷺ من الكذب بأي حال من الأحوال.

قال القا ي عياض: "وأما أقواله الدنيوية من إحباره عن أحواله وأحوال غيره وما يفعله أو فعله فقد قدمنا أن الخلف فيها ممتنع عليه في كل حال وعلى أي وجه من عمد أو سهو، أو صحة أو مرض، أو رضا أو غضب وأنه معصوم منه ﷺ.

هذا فيما طريقه الخبر المحض مما يدخله الصدق والكذب، فأما المعاريض الموهم ظاهرها خلاف باطنها فجائز ورودها منه في الأمور الدنيوية لا سيما لقصد المصلحة كتوريته عن وجه مغازيه لئلا يأخذ العدو حذره.

وكما روي من ممازحته ودعابته لبسط أمته وتطييب قلوب المؤمنين من صحابته، وتأكيدا في تحببهم ومسرة نفوسهم، كقوله: "إني حاملك على ولد الناقة"[٢]، وقوله للمرأة التي سألته عن زوجها: "أهو الذي بعينه بياض"[١] وهذا

---

(١) الشفا (٢/ ٧٦٨ - ٧٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٦٧)، وأبو داود (٤٩٩٨)، والترمذي (١٩٩١)، وأبو يعلى (٣٧٧٦)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (ص ٨٦)، والبغوي (٣٦٠٥)، والضياء في المختارة (١٨٩٩)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٤٨) =

كله صدق لأن كل جمل ابن ناقة، وكل إنسان بعينه بياض، وقد قال ﷺ: "إني أمزح ولا أقول إلا حقا"(٢).

د- عصمته ﷺ من الكبائر التي دون الشرك

جبل الله نبيه محمدا ﷺ على كل خلق فاضل كريم قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} فخلقه بأكرم السجايا، وجميل الأخلاق، وحسن الطوية وصفات الخير جميعها، كما نزهه عن كل ما يحط من قدره وينقص من منزلته، قال تعالى: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}، فهو ﷺ منزه من كل ضلال وغواية، وقد كان من صيانة الله وحفظه له أن حماه من أقذار الجاهلية قبل مبعثه ونزول الوحي إليه، فهو معصوم عن كل ما يحط من قدره ويدق في شخصه ومما ورد في هذا الشأن من الأحاديث ما يلي:

- حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: "أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: يا ابن أخي لو حللت إزارك، فجعلته على منكبك دون الحجارة، قال: فحله على منكبه فسقط مغشيا عليه فما رؤي بعد عريانا ﷺ"(٣).

- وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين كلتاهما عصمني الله

=

عن أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وقال الضياء في المختارة: إسناده صحيح، وصححه العلامة الألباني في المشكاة (٤٨٨٦) وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١/ ١٠٢): إسناده صحيح.

(١) عزاه السيوطي إلى ابن أبي الدنيا. انظر: مناهل الصفا (ص ٢٣٣) ح رقم ١٢٧٠.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

منهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الفتيان، فقال: بلى، فدخلت حتى إذا جئت أول دار مكة سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير قلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟، قلت: ما فعلت شيئا، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة، ففعل فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فجلست أنظر وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟، قلت: لا شيء ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته"[(١)].

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل للنبي ﷺ: هل عبدت وثنا قط؟

قال: "لا" قالوا: فهل شربت خمرا قط؟ قال: "لا ومازلت أعرف أن الذي هم عليه كفر وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان"[(٢)].

فهذا عن عصمته قبل مبعثه فما بالك بعد مبعثه والأمر لا يتعلق بنفسه فقط بل يتعداه لغيره بكونه هو القدوة ومعلم الناس وهاديهم ومرشدهم بل إن كل قول من أقواله وكل فعل من أفعاله يعد تشريعا تأخذ به أمته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فأمر عصمته ﷺ من الكبائر أمر دلت عليه النصوص من

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص ١٤٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٣، ٣٤)، وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ١٤٩، ١٥٠)، وعزاه لابن راهويه في مسنده وابن اسحاق والبزار والبيهقي وأبي نعيم وابن عساكر وقال: قال ابن حجر: إسناده حسن متصل ورجاله ثقات. وأورده ابن كثير في البداية (٢/ ٢٨٧).

(٢) أورده السيوطي في الخصائص الكبرى (١/ ١٥٠) وعزاه لأبي نعيم وابن عساكر.

القرآن والسنة ويكفي المسلم أن يقرأ في ذلك قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} فهذه تزكية من الله لرسوله ﷺ توجب سلامته من كل ما يحط من منزلته ويقدح في نبوته بما في ذلك الكبائر.

وكذلك قوله ﷺ: "أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له" الحديث(١) ومما يندرج تحت هذه الخشية والتقوى، بُعده عن كل ما يسخط الرب ﷻ ومن ضمن ما يسخطه ارتكاب الكبائر، فهو ﷺ أبعد الناس عنها لكمال لخشيته وتقواه لربه ﷻ، فلقد زكاه الله وطهر نفسه ولم يجعل للشيطان عليه من سبيل، وقد تقدم إيراد الحديث الذي جاء فيه أن جبريل شق قلب النبي ﷺ وهو صغير فاستخرج منه علقة وقال: هذا حظ الشيطان منك(٢).

مسألة: وقوع الخطأ منه ﷺ.

تقدم ذكر الأمور التي عصم فيها ﷺ وبقي أن نعلم هل يقع الخطأ منه في غير ما تقدم؟، والجواب على هذا: أن القول الذي عليه أكثر علماء الإسلام(٣) والذي دلت عليه نصوص القرآن والسنة أن الخطأ يقع منه ﷺ في غير ما تقدم ذكره ولكنهم يعتقدون الأمور التالية:

١- أن الله لا يقره على هذا الخطأ الذي وقع منه ﷺ بل يوجهه الله للحق وقد يحصل له العتاب على ذلك.

٢- أن الخطأ يقع منه ﷺ على سبيل الاجتهاد من غير أن يتعمده ولذلك لا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح: باب الترغيب في النكاح. انظر: فتح الباري (٩/ ١٠٤) ح ٥٠٦٣، وأخرجه مسلم (٤/ ١٢٨).

(٢) انظر تخريجه، وانظر حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة.

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٣١٩).

تسمى "معصية" فهذه العبارة تعد إساءة أدب معه ﷺ ولا يصح إطلاقها في حقه ﷺ.

٣- أن ما يقع منه من هذا القبيل ليس مما يقدح في حقه أو ينقص من منزلته وقدره، ولقد سبق بيان الأمور التي عصم فيها ﷺ وتلك الأمور هي التي في حالة وقوعها تقدح في حقه ومنزلته، وقد عصم فيها.

٤- أن التوبة حاصلة منه عن هذا الخطأ، وهذا مما يرفع من قدره ويعلي منزلته[١] كما أن الله قد وعده بالمغفرة بقوله تعالى: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}.

وأما النصوص التي يستدل بها على هذا القول فمنها:

قوله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}. فهذه الآيات نزلت عتابا من الله تعالى لنبيه ﷺ[٢] فقد ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوما يخاطب بعض عظماء قريش وقد طمع في إسلامه فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم وكان ممن أسلم قديما فجعل يسأل رسول الله ﷺ من شيء ويلح عليه وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعا ورغبة في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه وأقبل على الآخر فأنزل الله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى}[٣].

وكذلك قوله تعالى {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ

---

(١) المرجع السابق (١٠/ ٢٩٣).
(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢١٢).
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧٠).

تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

وقوله تعالى: {عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}.

قال قتادة: "ثنتان فعلهما النبي ﷺ ولم يؤمر بهما، إذنه لطائفة من المنافقين في التخلف عنه ولم يكن له أن يمضي شيئا إلا بوحي، وأخذه من الأسارى الفدية، فعاتبه الله كما تسمعون"(١).

وأما ما يقع من الخطأ منه في جانب الأمور الدنيوية فمن الأدلة على ذلك حديث رافع بن خديج رضي الله عنه قال: "قدم نبي الله ﷺ المدينة وهم يؤبرون النخل، يقولون: يلقحون النخل، فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنا نصنعه. قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا. فتركوه، فنقصت قال: فذكروا ذلك له، فقال: "إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر"(٢).

وفى رواية أنس: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"(٣)، وفى رواية طلحة: "إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإني لا أكذب على الله عز وجل"(٤)، وكما حكى ابن اسحاق أنه ﷺ لما نزل بأدنى مياه بدر قال له الحباب بن المنذر: أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: "لا بل هو

(١) تفسير القرطبي (٨/ ١٥٤، ١٥٥).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ ٩٥).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ ٩٥).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ ٩٥).

الرأي والحرب والمكيدة"، قال: فإنه ليس بمنزل، انهض حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب، فنشرب ولا يشربون، فقال: "أشرت بالرأي"، وفعل ما قاله[١].

قال القاضي عياض: "فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها بعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها، يجوز عليه فيه ما ذكرنا[٢] إذ ليس في هذا كله نقيصة ولا محطة، وإنما هي أمور اعتيادية يعرفها من جربها، وجعلها همه وشغل نفسه بها، والنبي ﷺ مشحون القلب بمعرفة الربوبية ملآن الجوانح بعلوم الشريعة، مقيد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية، ولكن هذا[٣] إنما يكون في بعض الأمور، ويجوز في النادر فيما سبيله التدقيق في حراسة الدنيا واستثمارها، لا في الكثير المؤذن بالبله والغفلة"[٤].

وكذلك الأمر بالنسبة لأحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم، ومعرفة المحق من المبطل، وعلم المصلح من المفسد، فهذه أمور اجتهادية يجتهد فيها برأيه فقد قال ﷺ: "إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له به قطعة من النار"[٥].

---

(١) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٨٧١، ٨٧٢) وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣١-٣٥)، وعزاه السيوطي في مناهل الصفا (ص ٨٠) لابن اسحاق والبيهقي عن عروة والزهري وجماعة.

(٢) أي من وقوع الخطأ.

(٣) أي الخطأ.

(٤) الشفا (٢/ ٨٧٢، ٨٧٣).

(٥) أخرجه البخاري فتح الباري (٥/ ٢٨٨) ح ٢٦٨٠. ومسلم واللفظ له (٥/ ١٢٨، ١٢٩).

قال القاضي عياض: "وتجرى أحكامه ﷺ على الظاهر وموجب غلبات الظن بشهادة الشاهد، ويمين الحالف، ومراعاة الأشبه، ومعرفة العفاص والوكاء مع مقتضى حكمة الله في ذلك"(١).

فاقتضت حكمته تعالى أن لا يكون معصوما في هذا الجانب وذلك حتى تقتدي به الأمة من بعده في النظر في القضايا والأحكام على ما كان يقضي به بين الناس، لأنه قد استوى في ذلك هو وغيره من الناس.

وكذا الأمور بالنسبة لما يقع عليه من الأسقام والأمراض فهو ﷺ بشر من البشر يقع عليه مثل ما يقع على غيره من البشر.

وهذا هو الحق الذي دلت وأرشدت عليه النصوص الثابتة في القرآن والسنة. وهذا هو القول الوسط بين أهل الإفراط وأهل التفريط في هذه المسألة. فمن قال بالعصمة المطلقة وهم الرافضة(٢) وبعض المعتزلة(٣) وبعض المتأخرين(٤) فهؤلاء قد خالفوا نصوص القرآن والسنة وتعسفوا في دفعها

---

(١) الشفا (٢/ ٨٧٥).

(٢) الرافضة: عبارة تطلق على الشيعة الغلاة وهم عدة فرق من أشهرها الإمامية الاثنا عشرية، ولهم مخالفات كثيرة في الاعتقاد من أشهرها: مسائل الإمامة، والصحابة، والغلو في آل البيت وأصل تسميتهم بالرافضة مأخوذ من قول زيد بن علي بن الحسين عندما سُئل عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما، فرفضه جماعة من أتباعه فقال: رفضتموني فسموا رافضة.
مقالات الإسلاميين (١/ ٨٨، ٨٩، ١٤٤)، والملل والنحل، (١/ ١٧٣- ١٧٤).

(٣) أتباع واصل بن العطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، ولهم مخالفات كثيرة في مسائل الاعتقاد، منها أنهم يقولون بنفي الصفات، والمنزلة بين المنزلتين. ميزان الاعتدال (٣/ ٢٧٤) والفرق بين الفرق (٢٠، ٢١)، والملل والنحل (١/ ٤٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٢٠).

وتأويلها بتأويلات هي من جنس تأويلات الجهمية[١] والباطنية[٢] ومن تدبر تلك التأويلات تبين له فسادها وعرف أنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه[٣].

وأما من نفى عنه العصمة من الذنوب وأجاز عليه الإقدام على الكبائر والصغائر وهم الكرامية[٤] والأزارقة[٥] والفضيلية[٦] وغيرهم[٧] فهؤلاء قوم فرطوا في حق النبي ﷺ، فذكروا عنه ما دل القرآن والسنة على براءته منه، وأضافوا إليه ذنوبا نزهه الله منها فقولهم هذا مخالف للقرآن والسنة وواضح البطلان.

---

(١) الجهمية فرقة من الفرق التي ظهرت في بداية القرن الثاني وانتحلت مذهب الجهم بن صفوان في مسائله المدونة في كتب المقالات ومن أشهرها نفي الأسماء والصفات والقول بالجبر، وفناء الجنة والنار. الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد (ص ٦٥). تاريخ الجهمية والمعتزلة (ص ٥٩، ٦٠).

(٢) عبارة تطلق على عدة فرق من أشهرها: الإسماعيلية، القرامطة، والنصيرية، وهم الذين يجعلون لكل ظاهر من الكتاب باطنا ولكل تنزيل تأويلا. الملل والنحل (١/ ٤٢٦-٤٤٧) والفرق بين الفرق (ص ١٦٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣١١- ٣١٤) بتصرف.

(٤) أتباع محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥ هـ، لهم عدد من المخالفات في مسائل العقيدة، منها: التشبيه في الصفات، والإرجاء في الإيمان. الملل والنحل (١/ ١٨٠، ١٩٣)، والفرق بين الفرق (٣٠، ١٣٧).

(٥) إحدى فرق الخوارج، وهم أتباع نافع بن الأزرق، كانت أكثر فرق الخوارج عددا وأشدهم شوكة. الفرق بين الفرق (ص ٨٣).

(٦) من الخوارج، ذكرهم الأشعري في المقالات (ص ١١٨).

(٧) الفصل (٤/ ٢)، وعصمة الأنبياء للرازي (ص ١٨)، والإحكام في أصول الأحكام للآمدي (١/ ١٢٨).

مسألة: وجوب محبته ﷺ

أقسام المحبة:

أ- أقسام المحبة من حيث العموم:

تنقسم المحبة من حيث العموم إلى قسمين:

١- مشتركة، ٢- خاصة.

القسم الأول: المحبة المشتركة.

وهي ثلاثة أنواع:

أحدها: محبة طبيعية كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء ونحو ذلك، وهذه لا تستلزم التعظيم.

الثاني: محبة رحمة وإشفاق، كمحبة الوالد لولده الطفل، وهذه أيضا لا تستلزم التعظيم.

الثالث: محبة أنس وألف، وهي محبة المشتركين في صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر، لبعضهم بعضا، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضا. فهذه الأنواع الثلاثة، التي تصلح للخلق، بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شركا في محبة الله، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل، وكان يحب نساءه، وعائشة أحبهن إليه، وكان يحب أصحابه، وأحبهم إليه الصديق رضي الله عنه.

القسم الثاني: المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله

ومتى أحب العبد بها غيره، كان شركا لا يغفره الله، وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره.

فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلا[١] بل يجب إفراد الله بهذه المحبة الخاصة التي هي توحيد الإلهية، بل الخلق والأمر والثواب والعقاب، إنما نشأ عن المحبة ولأجلها، فهي الحق الذي خلقت به السموات والأرض، وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي وهي سر التأله، وتوحيدها هو شهادة أن لا إله إلا الله، وليس كما يزعم المنكرون، أن الإله هو الرب الخالق، فإن الشضركين كانوا مقرين بأنه لا رب إلا الله ولا خالق سواه، ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية الذي هو حقيقة لا إله إلا الله، فإن الإله الذي تألهه القلوب حبا وذلا وخوفا ورجاء وتعظيما وطاعة.

وإله بمعنى مألوه، أي: محبوب معبود، وأصله من التأله وهو التعبد الذي هو آخر مراتب المحبة، فالمحبة حقيقة العبودية[٢] وسيأتي مزيد تفصيل لهذا القسم.

ب- أقسام المحبة باعتبار متعلقها ومحبوبها

تنقسم المحبة باعتبار متعلقها ومحبوبها إلى قسمين:

١- نافعة محمودة. ٢- مذمومة ضارة.

القسم الأول: المحبة النافعة

وهي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه وهو السعادة وهي ثلاثة أنواع:

أ- محبة الله. ب- محبة في الله.

ج- محبة ما يعين على طاعة الله واجتناب معصيته.

فيحب الله تعالى حبا لا يشاركه فيه أحد، ويكون الله ﷻ هو المحبوب

(١) تيسير العزيز الحميد (ص ٤١١).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص ٤١٢).

المراد الذي لا يحب لذاته ولا يراد لذاته إلا هو، وهو المحبوب الأعلى الذي لا صلاح للعبد ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا بأن يكون هو محبوبه ومراده وغاية مطلوبه. وتكون هذه المحبة مستلزمة لما يتبعها من عبادته تعالى وخضوعه له، وتعظيمه عز وجل.

والمحبة في الله: بأن يحب المؤمنين لا يحبهم إلا لله ويكون هواه تبعا لحب الله تعالى ورضاه، فلا يحب إلا ما يحب الله تعالى.

ومحبة ما يعين على طاعة الله أنواع كثيرة تندرج فيها جميع العبادات.

القسم الثاني: المحبة الضارة

وهي المحبة المذمومة التي تجلب لصاحبها ما يضره وهو الشقاء. وهي ثلاثة أنواع أيضا:

أ- المحبة مع الله. ٢- محبة ما يبغضه الله.

٣- محبة ما تقطع محبته عن محبة الله تعالى أو تنقصها.

فمن النوع الأول: محبة المشركين آلهتهم كحب الله.

ومن النوع الثاني: محبة الفواحش والمنكرات التي يبغضها الله.

ومن النوع الثالث: عشق النساء الذي يزيد عن حده حتى يضيع الأوامر ويدخل في النواهي، وفي مقدمة ذلك عشق الفاسقات والعاهرات والولدان. فهذه ستة أنواع عليها مدار محاب الخلق.

فأصل المحاب المحمودة محبة الله تعالى بل وأصل الإيمان والتوحيد والنوعان الآخران تبع لها.

كما أن المحبة مع الله أصل الشرك والمحاب المذمومة، والنوعان الآخران تبع لها[١].

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٤٠، ١٤١)، وجامع الرسائل (٢/ ٢٠٢).

فأصل الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك في هذه المحبة، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الرب سبحانه في خلق السموات والأرض وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله فوالوا عليها وعادوا عليها وتألهوها وقالوا: هذه آلهة صغار تقربنا إلى الإله الأعظم، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّه}.

ففرق بين محبة الله أصلا، والمحبة له تبعا، والمحبة معه شركا، وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنه مفرق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك[1].

* حقيقة المحبة الشرعية:

المقصود بالمحبة الشرعية: محبة الله سبحانه وتعالى ومحبة رسوله ﷺ وكل ما يدخل في فلكها ويدور مع محورها.

فهذه المحبة من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله، بل ومن أوجب العبادات المناطة بقلب المؤمن، ذلك لأنه لابد في إيمان القلب من حب الله ورسوله، وأن يكون الله ورسوله ﷺ إليه مما سواهما.

فهي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين، فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة: إما محبة محمودة، أو عن محبة مذمومة.

فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة لا يكون عملا صالحا عند الله، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا

---

(١) روضة المحبين (٢٩٣).

تصدر إلا عن محبة الله، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"[١].

فإخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه[٢].

فأصل الدين وقاعدته يتضمن أن يكون الله هو المعبود الذي تحبه القلوب وتخشاه ولا يكون لها إله سواه، والإله ما تألهه القلوب بالمحبة والتعظيم والرجاء والخوف والإجلال والإعظام ونحو ذلك.

والله سبحانه أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو فتخلو القلوب عن محبة ما سواه بمحبته، وعن رجاء ما سواه برجائه، وعن سؤال ما سواه بسؤاله، وعن العمل لما سواه بالعمل له، وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به[٣].

فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله، وهو إرادة الله وحده فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته، وهذا كمال المحبة، ولكن أكثر ما جاء المطلوب باسم العبادة كقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}، وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}، وأمثال هذا والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبودا، والمعظم الذي لا يحب

---

(١) أخرجه مسلم (٨/ ٢٢٣).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٨، ٤٩).
(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٢٣، ٥٢٤).

لا يكون معبودا، ولهذا قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}

فبين سبحانه أن المشركين بربهم الذين يتخذون من دون الله أندادا، وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله، فالذين آمنوا أشد حبا لله منهم لله ولأوثانهم لأن المؤمنين أعلم بالله، والحب يتبع العلم، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده، وأولئك جعلوا بعض حبهم لغيره وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب، ومعلوم أن ذلك أكمل قال تعالى: {ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ}.

واسم المحبة فيه إطلاق وعموم فإن المؤمن يحب الله ويحب رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين، وان كان ذلك من محبة الله، وإن كانا المحبة التي لله لا يستحقها غيره. ولهذا جاءت محبة الله سبحانه وتعالى مقرونة بما يختص به سبحانه من العبادة والإنابة إليه والتبتل له، ونحو ذلك. فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى.

كما أن محبته هي أصل الدين، فكذلك كمال الدين يكون بكمالها ونقصه بنقصها[1] وكمال هذه المحبة هو بالعبودية والذل والخضوع والطاعة للمحبوب سبحانه وتعالى فالحق الذي خلق به ولأجله الخلق هو عبادة الله وحده التي هي كمال محبته والخضوع والذل له، ولوازم عبوديته من الأمر والنهي والثواب والعقاب، ولأجل ذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الجنة والنار[2].

قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٦، ٥٧).

(٢) روضة المحبين (ص ٥٩).

وقال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}.

فأخبر سبحانه في هذه الآيات أن خلق العالم والموت والحياة وتزين الأرض بما عليها أنه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أحسن عملا، فيكون عمله موافقا لمحاب الرب تعالى، فيوافق الغاية التي خلق هو لها وخلق لأجلها العالم وهي عبوديته المتضمنة لمحبته وطاعته، وهي العمل الأحسن وهو مواقع محبته ورضاه، وقدر سبحانه مقادير تخالفها بحكمته في تقديرها، وامتحن خلقه بين أمره وقدره ليبلوهم أيهم أحسن عملا.

فانقسم الخلق في هذا الابتلاء فريقين

فريقا داروا مع أوامره ومحابه، ووقفوا حيث وقف بهم الأمر، وتحركوا حيث حركهم الأمر، واستعملوا الأمر في القدر، وركبوا سفينة الأمر في بحر القدر، وحكموا الأمر على القدر، ونازعوا القدر بالقدر امتثالا لأمره واتباعا لمرضاته فهؤلاء هم الناجون.

والفريق الثاني: عارضوا بين الأمر والقدر، وبين ما يحبه ويرضاه وبين ما قدره وقضاه، فهؤلاء هم المفرطون[١].

وحقيقة المحبة: حركة نفس المحب إلى محبوبه، فالمحبة حركة بلا سكون[٢] فالحب يوجب حركة النفس وشدة طلبها، والنفس خلقت متحركة بالطبع كحركة النار، فالحب حركتها الطبيعية، فكل من أجل شيئا من الأشياء

---

(١) روضة المحبين (٦٠، ٦١).
(٢) روضة المحبين (ص ٥٩).

وجد في حبه لذة وروحا، فإذا خلا عن الحب مطلقا تعطلت النفس عن حركتها وثقلت وكسلت وفارقها خفة النشاط، ولهذا تجد الكسالى أكثر الناس هما وغما وحزنا، ليس لهم فرح ولا سرور، بخلاف أرباب النشاط والجد في العمل أي عمل كان، فإن كان النشاط في عمل هم عالمون بحسن عواقبه وحلاوة غايته كان التذاذهم بحبه ونشاطهم فيه أقوى.

وإنه ليس للقلب والروح ألذ ولا أطيب ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله والإقبال عليه وعبادته وحده وقرة العين به، والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه ورؤيته، وإن مثقال ذرة من هذه اللذة لا يعدل بأمثال الجبال من لذات الدنيا ولذلك كان مثقال ذرة من إيمان بالله ورسوله يخلص من الخلود في دار الآلام فكيف بالإيمان الذي يمنع من دخولها[(١)].

ولهذا كان أعظم صلاح العبد أن يصرف قوى حبه كلها لله تعالى وحده بحيث يحب الله بكل قلبه وروحه وجوارحه فليس لقلب العبد صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله، فلا يحب إلا لله.

كما في الحديث الصحيح: "ثلاث من كن فيه، وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار"[(٢)]، فأخبر أن العبد لا يجد حلاوة الإيمان إلا بأن يكون الله أحب إليه مما سواه، ومحبة الرسول هي من محبته، ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبة

---

(١) روضة المحبين (ص ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨) بتصرف.
(٢) أخرجه البخاري فتح الباري (١/ ٦٠) ح ١٦، ومسلم (١/ ٤٨).

الله، وإن كانت لغير الله فهي منقصة لمحبة الله مضعفة لها، وتصدق هذه المحبة بأن يكون كراهته لأبغض الأشياء إلى محبوبه - وهو الكفر - بمنزلة كراهته لإلقائه في النار أو أشد.

ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة، فإن الإنسان لا يقدم على محبة نفسه وحياته شيئا، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خير بين الكفر وإلقائه في النار لاختار أن يلقى في النار ولا يكفر كان الله أحب إليه من نفسه فالحديث دل على أن حلاوة الإيمان تتبع كمال محبة العبد لله، وهذه الحلاوة لا تحصل إلا بثلاثة أمور:

أ- تكميل هذه المحبة. ٢- تفريعها. ٣- دفع ضدها.

١ - "فتكميلها": أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفي فيها بأصل الحب، بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٢- و"تفريعها": أن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

٣- و"دفع ضدها" أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار[١] وهذه المحبة هي فوق ما يجده سائر العشاق والمحبين من محبة محبوبهم، بل لا نظير لهذه المحبة كما لا مثيل لمن تعلقت به.

وهي محبة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد وتقتضي كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهرا وباطنا وهذا لا نظير له في محبة المخلوق كائنا من كان.

ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في هذه المحبة الخاصة كان مشركا شركا

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٦).

لا يغفره الله كما قال الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} والصحيح أن معنى الآية: والذين آمنوا أشد حبا لله من أهل الأنداد لأندادهم كما تقدم بيانه أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلا، كما لا يماثل محبوبهم غيره. وكل أذى في محبة غيره فهو نعيم في محبته، وكل مكروه في محبة غيره فهو قرة عين في محبته[1].

وكثير من الناس يدعي محبة الله تعالى من غير تحقيق لموجباتها قال بعض السلف: ادعى قوم على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية[2] {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} وهذا لأن الرسول هو الذي يدعو إلى ما يحبه الله، وليس شيء يحبه الله إلا والرسول يدعو إليه، وليس شيء يدعو إليه الرسول إلا والله يحبه، فصار محبوب الرب ومدعو الرسول متلازمين بل هذا هو هذا في ذاته، وإن تنوعت الصفات.

فكل من ادعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول فقد كذب، وليست محبته لله وحده، بل إن كان يحبه فهي محبة شرك، فإنما يتبع ما يهواه كدعوى اليهود والنصارى محبة الله، فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب فكانوا يتبعون الرسول، فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين.

وهكذا أهل البدع فمن قال إنه من المريدين لله المحبين له، وهو لا يقصد اتباع الرسول والعمل بما أمر به، وترك ما نهى عنه، فمحبته فيها شوب من محبة

(١) روضة المحبين (١٩٩، ٢٠٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ٣١٥).

المشركين واليهود والنصارى بحسب ما فيه من البدع، فإن البدع ليست مما دعا إليه الرسول ولا يحبها الله، فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله، فأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر[١].

فمحبة الله ورسوله وعباده المتقين تقتضي فعل محبوباته وترك مكروهاته والناس يتفاضلون في هذا تفاضلا عظيما، فمن كان أعظم نصيبا من ذلك كان أعظم درجة عند الله.

ومن كان أقل نصيبا كان ذلك سببا في نزول درجته ومنزلته، وأما من كان غير متبع لسبيل النبي ﷺ فكيف يكون محبا لله سبحانه وتعالى[٢]؟، ومعلوم أنه لا يتم الإيمان والمحبة لله إلا بتصديق الرسول فيما أخبر وطاعته فيما أمر[٣].

فلابد لمحب الله من متابعة الرسول والمجاهدة في سبيل الله بل هذا لازم لكل مؤمن قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} فهذا حب المؤمن لله.

وقد قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} فأخبر أن من كانت محبوباته أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله فهو من أهل الوعيد.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٦٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ٣١٦).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٦٦).

وقال في الذين يحبهم ويحبونه {فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ}.

فمن تمام محبة الله ورسوله بغض من حاد الله ورسوله، والجهاد في سبيله لقوله تعالى: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْأيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ}

وقال تعالى: {تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ، وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}، وقال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ}.

فأمر المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم ومن معه حيث أبدوا العداوة والبغضاء لمن أشرك حتى يؤمنوا بالله وحده[1].

وثبات المحبة إنما يكون بمتابعة الرسول ﷺ في أعماله وأقواله وأخلاقه، فبحسب هذا الاتباع يكون منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها، وبحسب نقصانه يكون نقصانها.

وهذا الاتباع يوجب المحبة والمحبوبية معا، ولا يتم الأمر إلا بهما فليس الشأن في أن تحب الله، بل الشأن في أن يحبك الله، ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٦١).

حبيبه ظاهرا وباطنا، وصدقته خبرا، وأطعته أمرا، وأجبته دعوة، وآثرته طوعا وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن ذلك فلا تتعن، وارجع من حيث شئت فالتمس نورا فلست على شيء(١).

ومحبة الله ورسوله على درجتين

واجبة، وهي درجة المقتصدين. ومستحبة، وهي درجة السابقين.

فالأولى: تقتضي أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، بحيث لا يحب شيئا يبغضه، كما قال تعالى: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ} وذلك يقتضي محبة جميع ما أوجبه الله تعالى، وبغض ما حرمه الله تعالى، وذلك واجب، فإن إرادة الواجبات إرادة تامة تقتضي وجود ما أوجبه الله، كما تقتضي عدم الأشياء التي نهى الله عنها وذلك مستلزم لبغضها التام.

فيجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}. وقال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ}، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَه}.

وأما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة، وهذه حال المقربين الذين قربهم الله إليه. فإذا كانت محبة الله ورسوله الواجبة

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٧).

تقتضي بغض ما أبغضه الله ورسوله، كما في سائر أنواع المحبة، فإنها توجب بغض الضد ..."[١].

معنى الصحيح لمحبة النبي ﷺ وانقسام الناس فيها

اعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أوجب لنبينا ﷺ على القلب واللسان والجوارح حقوقا زائدة على مجرد التصديق بنبوته، كما أوجب سبحانه على خلقه من العبادات على القلب واللسان والجوارح أمورا زائدة على مجرد التصديق به سبحانه. وحرم سبحانه لحرمة رسوله - مما يباح أن يفعل مع غيره - أمورا زائدة على مجرد التكذيب بنبوته.

فمن تلك الحقوق حقه ﷺ بأن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه وولده وجميع الخلق كما دلت على ذلك الأدلة من القرآن والسنة[٢] والتي سيأتي ذكرها.

"فحب النبي ﷺ من أعظم واجبات الدين"[٣].

فهذه المحبة الواجبة له ﷺ هي من محبة الله، فهي حب لله وفي الله، ذلك لأن محبة الله توجب محبة ما يحبه الله، والله يحب نبيه وخليله ﷺ، فوجب بذلك محبته حقا، فهي متفرعة عن محبة الله وتابعة لها واقتران ذكرها مع محبة الله في القرآن والسنة إنما هو للتنبيه على أهميتها وعظم منزلتها.

وبمقتضى هذه المحبة يجب موافقة الرسول ﷺ في حب ما يحبه وكره ما يكرهه، أي بتحقيق المتابعة له فيحب بقلبه ما أحب الرسول، ويكره ما كرهه

---

(١) قاعدة في المحبة لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٩١، ٩٢).

(٢) الصارم المسلول (ص ٤٢٠، ٤٢١) بتصرف يسير.

(٣) الرد على الأخنائي (ص ٢٣١).

الرسول، ويرضى بما يرضى الرسول، ويسخط ما يسخط الرسول، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض.

وقد انقسم الناس في فهمهم لهذه المحبة إلى ثلاثة أقسام هي:

القسم الأول: أهل الإفراط.

القسم الثاني: أهل التفريط.

القسم الثالث: الذين توسطوا بين الإفراط والتفريط.

أما أصحاب القسم الأول: فهم الذين بالغوا في محبته بابتداعهم أمورا لم يشرعها الله ورسوله ﷺ، ظنا منهم أن فعل هذه الأمور هو علامة المحبة وبرهانها.

ومن تلك الأمور احتفالهم بمولده، ومبالغتهم في مدحه وإيصاله إلى أمور لا تنبغي إلا لله تعالى ومن ذلك قول قائلهم:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذا بيدي فضلا وإلا فقل يا زلة القدم[1]

وقوله:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فإذا كانت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ، ومن بعض علومه علم اللوح والقلم لأن "من" للتبعيض، فماذا للخالق جل وعلا؟

إضافة إلى صرف بعض أنواع العبادة له كالدعاء والتوسل والاستشفاع والحلف به والطواف والتمسح بالحجرة التي فيها قبره ﷺ إلى غير ذلك من البدعيَّات والشركيَّات التي تفعل بدعوى المحبة للرسول ﷺ، وهي أمور لم

(١) ديوان البوصيري (ص ٢٣٨).

يشرعها الله ورسوله ﷺ ولم يفعلها الصحابة رضوان الله عليهم الذين عرفوا بإجلالهم وتقديرهم ومحبتهم لرسول الله ﷺ، وإضافة إلى ذلك فإن ما يقوم به هؤلاء هي أمور مخالفة لما جاء به الشارع، بل هي أمور قد حذر الشارع من فعلها، ولقد صار حظ أكثر أصحاب هذا القسم منه ﷺ مدحه بالأشعار والقصائد المقترنة بالغلو والإطراء الزائد الذي حذر منه الشارع الكريم، مع عصيانهم له في كثير من أمره ونهيه، فتجد هذا النوع من أعصى الخلق له صلوات الله عليه وسلامه[١].

فيا ترى أي محبة هذه التي يخالف أصحابها شرع نبيهم، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله، فكرهوا ما أحب الله ورسوله، وأحبوا ما كرهه الله ورسوله. فكيف تكون لهؤلاء محبة وهم قد ابتدعوا ما ابتدعوه من أمور لم تشرع في الدين، ونعلم أن رسول الله ﷺ قد تبرأ ممن ابتدع في هذا الدين فقال: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد".

والذي يجب على أمثال هؤلاء أن يعلموا أن محبة الرسول وتعظيمه إنما تكون بتصديقه فيما أخبر به عن الله، وطاعته فيما أمر به، ومتابعته، ومحبته وموالاته، لا بالتكذيب بما أرسل به، والإشراك به والغلو فيه، فهذا لا يعدو كونه كفرا به، وطعنا فيما جاء به ومعاداة له[٢].

كما يجب عليهم أن يفرقوا بين الحقوق التي يختص بها الله وحده ويبين الحقوق التي له ولرسله، والحقوق التي يختص بها الرسول، فقد ميز سبحانه بين ذلك في مثل قوله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فالتعزير

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص ١٨٦).

(٢) الرد على الأخنائي (ص ٢٤، ٢٥) بتصرف.

والتوقير للرسول والتسبيح بكرة وأصيلا لله، وكما قال: {وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}، فالطاعة لله ولرسوله، والخشية والتقوى لله وحده وكما يقول المرسلون: {أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ}.

فعلى هؤلاء أن يعلموا أن محبة الرسول ﷺ تنال بدعائه والاستغاثة به، فتلك أمور صرفها لغير الله يعد شركا مع الله فالله وحده هو الذي يدعى ويستغاث به فهو رب العالمين، وخالق كل شيء، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وهو القريب الذي يجيب الداع إذا دعاه وهو سميع الدعاء سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وسيأتي بإذن الله مزيد تفصيل لما وقع فيه أصحاب هذا القسم من الغلو في حقه، وذلك في الباب الرابع الذي عقدته للكلام عن الغلو في حقه ﷺ.

أما أصحاب القسم الثاني فهم أهل التفريط الذين قصروا في تحقيق هذا المقام فلم يراعوا حقه ﷺ في وجوب تقديم محبته على محبة النفس والأهل والمال. كما لم يراعوا ماله من حقوق أخرى كتعزيره وتوقيره وإجلاله وطاعته واتباع سنته والصلاة والسلام عليه إلى غير ذلك من الحقوق العظيمة الواجبة له. والسبب في ذلك يعود إلى إحدى الأمور التالية أو إليها جميعا وهي:

أولا: إعراض هؤلاء عن سنة نبيهم ﷺ وعن اتباع شرعه بسبب ما هم عليه من المعاصي، وإسرافهم في تقديم شهوات أنفسهم وأهوائهم على ما جاء في الشرع من الأوامر والنواهي.

ثانيا: اعتقاد الكثير أن مجرد التصديق يكفي في تحقيق الإيمان، وأن هذا هو القدر الواجب عليهم، ولذا تراهم يكتفون بالتصديق بنبوة محمد ﷺ، دون تحقيق المتابعة له، وهذا هو حال أهل الإرجاء الذين يؤخرون العمل عن مسمى

الإيمان ويقولون إن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، أو تصديق القلب وإقرار اللسان وما أكثرهم في زماننا هذا.

ثالثا: جهل الكثير منهم بأمور دينهم بما فيها الحقوق الواجبة له ﷺ، والتي من ضمنها محبته ﷺ فكثير من الناس -ولا حول ولا قوة إلا بالله- ليس لهم من الإسلام إلا اسمه وليس لهم من الدين إلا رسمه.

فالواجب على هؤلاء أن يعودوا إلى رشدهم وأن يقلعوا عن غيهم، وما هم عليه من المعاصي والذنوب التي هي سبب نقصان إيمانهم وضعف محبتهم وبعدهم عما يقربهم إلى الله تعالى.

كما يجب عليهم أن يعلموا أن مجرد التصديق لا يسمى إيمانا بل الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بطاعة الرحمن وينقص بطاعة الشيطان، فليس لأحد أن يخرج العمل عن مسمى الإيمان فلذلك يجب على كل من يؤمن بالله ورسوله أن يطيع الله ورسوله ويتبع ما أنزل الله من الشرع على رسوله ﷺ، فبذلك يحصل الإيمان، فإن الاتباع هو ميزان الإيمان فبحسب اتباع المرء يكون إيمانه، فمتى ما قوي اتباعه قوي إيمانه والعكس بالعكس.

كما يجب عليهم معرفة أمور دينهم وبخاصة الواجب منها والتي من ضمنها معرفة ما للمصطفى ﷺ من الحقوق الواجبة فلقد ذم الله تبارك وتعالى أولئك النفر الذين لم يعرفوا ما للنبي ﷺ من حق في عدم رفع الصوت عند مخاطبته أو مناداته ووصفهم الله بأنهم لا يعقلون قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ}، وفي السورة نفسها أثنى على الذين عرفوا حق المصطفى ﷺ فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}، والله سبحانه وتعالى

يقول في كتابه العزيز {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} . وليعلم هؤلاء أنه لا يتحقق لهم إيمان ولا محبة إلا باتباعهم للمصطفى ﷺ واقتدائهم بسنته والسير على نهجه وهداه.

أما القسم الثالث: فهم الذين توسطوا بين الطرفين السابقين أهل الإفراط وأهل التفريط. فأصحاب هذا القسم هم السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم الذين آمنوا بوجوب هذه المحبة حكما وقاموا بمقتضاها اعتقادا وقولا وعملا. فأحبوا النبي ﷺ فوق محبة النفس والولد والأهل وجميع الخلق امتثالا لأمر الله وأمر رسوله ﷺ فجعلوه أولى بهم من أنفسهم تصديقا لقوله تعالى {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، وأيقنوا بوجوب أن يوقى بالأنفس والأموال طاعة لقوله تعالى {مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ} . وقاموا بمقتضى هذه المحبة اعتقادا وقولا وعملا بحسب ما أو جب الله لنبيه ﷺ من حقوق على القلب واللسان والجوارح من غير إفراط ولا تفريط. فآمنوا وصدقوا بنبوته ورسالته وما جاء به من ربه ﷻ. وقاموا- بحسب استطاعتهم- بما يلزم من طاعته والانقياد لأمره والتأسي بفعله والاقتداء بسنته إلى غير ذلك مما يعد من لوازم الإيمان برسالته.

قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} وامتثلوا لما أمر به سبحانه وتعالى من حقوق زائدة على مجرد التصديق بنبوَّته وما يدخل في لوازم رسالته.

فمن ذلك امتثالهم لأمره سبحانه بالصلاة عليه والتسليم قال تعالى: {إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} . وما

أمر به سبحانه من تعزيره وتوقيره قال تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾. فتعزيره يكون بنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه ﷺ.

وتوقيره: يكون بإجلاله وإكرامه وأن يعامل بالتشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار(١).

ويدخل في ذلك مخاطبته بما يليق قال تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾.

وحرمة التقدم بين يديه بالكلام حتى يأذن، وحرمة رفع الصوت فوق صوته وأن يجهر له بالكلام كما يجهر الرجل للرجل قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ، إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

فقاموا بهذه الأمور امتثالا وطاعة لأمر الله تبارك وتعالى وأدوا ما فرض عليهم من الحقوق الأخرى التي يطول ذكرها والتي هي مذكورة في ثنايا هذا البحث. وهم مع قيامهم بهذه الأمور لم يتجاوزوا ما أمروا به فلم يغالوا ولم يبالغوا كما فعل أهل الإفراط الذين وصفوا النبي ﷺ بأمور لا تنبغي لغير الله كعلم الغيب، وصرفوا له أمورا لا يجوز صرفها لغير الله كدعائه والسجود له والاستغاثة به والطواف بقبره.

بل هم مؤمنون بأن ما أكرم الله به نبيه ﷺ من النبوة والرسالة والرفعة وعظم القدر وشرف المنزلة، كل ذلك لا يوجب خروجه عن بشريته وعبوديته لله قال

---

(١) الصارم المسلول (ص ٤٢٢).

تعالى: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا}.

واعتقدوا أنه ليس من المحبة في شيء الغلو في حقه وقدره ووصفه بأمور قد اختص الله بها وحده، بل علموا أن في هذا مخالفة ومضادة لتلك المحبة ومناقضة لما أمر به سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقوله لأمته: {قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

وقال تعالى: {قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}.

فكل غلو في حقه ﷺ ليس من محبته في شيء بل يعد مخالفة لما أمر به فيجب الابتعاد عن ذلك والحذر من عقوبته قال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} كما يعد مشاقة للرسول ﷺ. قال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}، ولذا فإنه يجب الحذر من حال الغلاة الذين غلوا في حق النبي ﷺ بما ابتدعوه من الأمور التي لم يشرعها الله في كتابه أو على لسان رسوله، بل حذر الله ورسوله منها.

قد يظن البعض بأن السير على منهج أهل التوسط فيه انتقاص من قدر النبي ﷺ وغمط لحقه، والأمر على عكس ما يظنون فالذي يعتقده السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين أن الحق الواجب أن يثنى على النبي ﷺ بما هو أهل له من الخصائص الثابتة له التي خصه الله بها والفضائل العظيمة التي شرفه بها والصفات الحقيقية والخلقية التي كان عليها وذلك للتعرف وتعريف الناس بفضله ومكانته وعظيم قدره عند الله وعند خلقه حتى يتأسى ويقتدى به في أقواله

وأفعاله فهو الأسوة والقدوة عليه أفضل الصلاة والتسليم قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا}.

فمن صميم المحبة له ﷺ الاشتغال بمعرفة سيرته بقصد التأسي والاقتداء بما كان عليه من كريم الخصال ومحاسن الأفعال والأقوال. وكذا معرفة شمائله ودلائل نبوته التي تعمق إيمان المسلم بصدق نبوته وتزيد في محبته وتعظيمه ﷺ. ولقد اهتم السلف بهذه الجوانب وأولوها رعايتهم واهتمامهم فاعتنوا بتأليف المؤلفات التي أوضحت هذه الجوانب وأبرزتها فقد ألفت لهذا الغرض كتب الشمائل التي اعتنت بذكر صفاته وأحواله في عباداته وخلقه وهديه ومعاملاته[1]، كما ألفت كتب الدلائل التي اعتنت بدلائل وعلامات نبوته ﷺ[2].

هذا بالإضافة إلى ما كتب في الفضائل والخصائص التي كانت للنبي ﷺ. كما اعتنوا بأصل هذه الجوانب جميعها ألا وهو سيرته الشريفة ﷺ فقد ألفت لهذا الغرض المؤلفات التي اعتنت بحياته منذ ولادته إلى وفاته وضمت في جوانب ذلك الحديث عن نشأته وبعثته وما حدث له من الأمور قبل الهجرة وبعدها وما كان من أمر دعوته وغزواته وسراياه وما يتعلق بهذه الجوانب وغيرها مما هو داخل في سيرته[3]. فقد دونت هذه الجوانب جميعها وخدمت بقصد أن يتأسى الناس به ﷺ وأن يتعرفوا على كمال ذاته ﷺ وما تميز به من صفات، وتفرد به من أخلاق لتزيد تلك المعرفة من محبتهم له وتنميتها في

---

(١) من تلك الكتب: كتاب الشمائل للترمذي، كتاب الشمائل لابن كثير.
(٢) منها: كتاب دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، وكتاب دلائل النبوة للبيهقي.
(٣) ومن أشمل الكتب التي تحدثت عن سيرته ﷺ كتاب السيرة لابن كثير.

قلوبهم ولتبعث في نفوسهم تعظيمه وإجلاله.

وبهذا يعلم أن أهل التوسط لم ينتقصوا من قدره ﷺ بل حفظوا وحافظوا على كل ما من شأنه أن يضمن استمرارية محبة الأمة وتعظيمها له.

فهذه حال أهل التوسط وهذا هو منهجهم فمن أراد أن يسير على النهج القويم ويسلك الصراط المستقيم فعليه بسبيل أهل الإيمان وطريقهم ألا وهو الكتاب والسنة فذاك طريق الحق، والحق أحق أن يتبع.

وهذا منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين، فقد كانت محبتهم للنبي ﷺ تحكمها قواعد الكتاب والسنة، فما أمر به الشارع ائتمروا به وما نهى عنه الشارع انتهوا عنه، ولم يحكموا في هذه المحبة عواطفهم وأهواءهم كما فعل أهل الإفراط الذين زلت بهم أقدامهم بسبب غلوهم في حقه ذاك الغلو الذي دفعهم إليه تحكيم أهوائهم، وهو غلو ما أنزل الله به من سلطان بل إن نصوص الشرع تنص على تحريمه، وإنه ليصدق وصف أهل الإفراط بقوله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

فخلاصة القول في هذا الجانب أن المفهوم الصحيح لمحبته ﷺ يتمثل في ذلك المفهوم الذي كان عليه سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن سار على نهجهم وسلك سبيلهم. ذلك المفهوم المستمد من آيات القرآن ونصوص السنة والذي لم يخرج عنهما قيد أنملة.

وما ذكرته هنا عن هذا المفهوم الصحيح على سبيل الإجمال، وتفصيل ذلك مستوفى بين دفتي هذا البحث فمنه ما سبق بيانه ومنه ما سيأتي تفصيله ونسأل الله الإعانة على ذلك.

(باب ذكر المسائل الفقهية الواردة في كتب العقيدة)

مما يلحظه الباحث ما تحويه مصنفات السلف الصالح في الاعتقاد من مسائل كثيرة في الفروع والآداب والسلوك، فنجد أن الإمام الطحاوي- مثلًا - قرر مشروعية المسح على الخفين، وأن في دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات، كما جاء في عقيدته المشهورة، وضمّن الإمام أبو عثمان الصابوني في عقيدة أهل الحديث: جملة من الآداب والفروع والأخلاق، وكذا قوام السنة الأصفهاني في كتابه (الحجة في بيان المحجة وغيرهم كثير. بل نجد أن أئمة السلف الصالح - في عهد مبكر - قد قرروا مسائل فقهية وآدابًا شرعية ضمن عقائدهم، كما في عقيدة الإمام سفيان الثوري وسهل بن عبد الله التستري، وأبو حنيفة النعمان وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني ونحوهم.

ويقتصر هذا البحث على جمع ودراسة أهم المسائل الفقهية الواردة في مصنفات عقيدة السلف الصالح، وباستقراء جملة من تلك المصنفات والمتون، وتتبع ما فيها من المسائل الفقيهة، عثرت على مسائل كثرة من تلك الفروع، ولذا سأكتفي بأهم وأكثر المسائل الفقهية ورودًا في تلك المصنفات، مع بيان وجه إيرادها، وذلك على الترتيب الآتي:

١ - الطهارة:

أ - ومن ذلك تقرير مشروعية المسح على الخفين؛ فقد ذكر ذلك غير واحد من الأئمة، ومن أقدم الأئمة الذين قرروا تلك المسألة: الإمام سفيان الثوري في عقيدته حيث قال - مخاطبًا من سأله عن معتقده -:

(يا شعيب بن حرب، لا ينفعك ما كتبت لك حتى ترى المسح على الخفين دون خلعهما أعدل عندك من غسل قديمك).

بل قال سفيان الثوري: (من لم يسمح على الخفين فاتهموه على دينكم).

وعدّ سهل بن عبد الله التستري المسح على الخفين من خصال أهل السنة.

كما قرره أبو حنيفة وأبو الحسن الأشعري في كتابه الإنابة والطحاوي في عقيدته وابن بطة في الإنابة الصغرى، والبربهاري في شرح السنة، وابن خفيف في عقيدته، وأبو عمرو الداني في الرسالة الوافية .

ووجه إيراد مسألة المسح على الخفين ضمن كتب الاعتقاد: مخالفة الروافض والخوارج الذين لا يجيزون المسح على الخفين، وكما قال الإمام محمد بن نصر المروزي: (وقد أنكر طوائف من أهل الأهواء والبدع من الخوارج والروافض المسحَ على الخفين) .

وقال الإمام النووي: (أجمع من يُعتد به في الإجماع على جواز المسح على الخفين في السفر والحضر سواء كان لحاجة أو لغيرها ... وإنما أنكرته الشيعة والخوارج ولا يعتد بخلافهم).

وجاء عن الإمام الشعبي أنه قال: (واليهود لا يرون المسح على الخفين، وكذلك الرافضة) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (وقد تواترت السنة عن النبي ﷺ بالمسح على الخفين، وبغسل الرجلين، والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة، كما تخالف الخوارج نحو ذلك).

وقال في موضع آخر: (وكان سفيان الثوري يذكر من السنة المسح على الخفين؛ لأن هذا كان شعارًا للرافضة).

ب - إذا كان الإسلام وسطًا بين الملل، فإن أهل السنة وسط بين النحل؛ ففي الطهارة كان الإسلام وسطًا بين تشدد اليهود وتفريط النصارى، كما أن أهل

السنة وسط بين الإفراط والتفريط في هذا الباب.

بيّن شيخ الإسلام وسطية الإسلام في باب الطهارة قائلًا: (فإن التشديد في النجاسات جنسًا وقدرًا هو دين اليهود، والتساهل هو دين النصارى، ودين الإسلام هو الوسط).

ويقول في موضع آخر: (ومن تدبَّر حال اليهود والنصارى مع المسلمين، وجد اليهود والنصارى متقابلين: هؤلاء في طرف، وهؤلاء في طرف يقابله، والمسلمون هم الوسط ... إلى أن قال: فالنصارى حللوا الخنزير وغيره من الخبائث. كما أسقطوا الختان وغيره، وأنواع الطهارة من الغسل وإزالة النجاسة وغير ذلك .. واليهود بالغوا في اجتناب النجاسات).

وأما عن وسيطة أهل السنة بين الإفراط والتفريط الواقع عند طوائف المبتدعة، فأهل السنة مجانبون للتشدد والإفراط، فيأمرون بالصلاة في النعال مخالفة لليهود، كما قال النبي ﷺ: (خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم).

وقال ابن القيم: (ومما لا تطيب به قلوب الموسوسين: الصلاة في النعال، وهي سنة رسول الله ﷺ وأصحابه فعلًا منه وأمرًا).

ويجيز أهل السنة الصلاة في السراويل خلافًا للخوارج.

قال البربهاري: (ولا بأس بالصلاة في السراويل).

وقال الملطي: (ومن شذوذ الحرورية في الفروع إذا تطهر منهم الرجل لا يبرح ولا يمشي حتى يصلي في مكانه؛ لأنه إذا مشى تحرك شرجه، ولا يصلون في السراويل).

وجانَبَ أهلُ السنة تعنُّتَ الرافضة الذين زعموا أن سؤر الكافر نجس، بل

قالوا بتنجيس المائعات التي يباشرها أهل السنة، وكل ذلك تأثرًا باليهود السامرة التي تحرِّم وتنجِّس ما باشره غيرهم من المائعات.

ومن تشدد الرافضة: إيجابهم الابتداء باليمين في اليدين والرجلين عند الوضوء، ولذا قال الإمام النووي: (وأجمع العلماء على أن تقديم اليمين على اليسار من اليدين والرجلين في الضوء سنة، ولو خالفها فاته الفضل وصح الوضوء، (وقال الشيعة هو واجب، ولا اعتداد بخلاف الشيعة).

كما جانبَ أهلُ السنة أيضًا التفريطَ في باب الطهارة؛ فالرافضة - مثلًا - خالفوا الأدلة في اعتبار المذي من موجبات الوضوء، فحكم الرافضة بطهارة المذي وعدم انتقاض الوضوء بخروج المذي.

وأوجب الشيعة مسح الرجلين ببقية البلل إلا في حال التقية، وقال بعض طوائف المعتزلة بالتخيير بين مسح الرجلين وبين غسلهما.

قال النووي: (أجمع العلماء على وجوب غسل الوجه واليدين والرجلين، وانفردت الرافضة عن العلماء فقالوا: الواجب في الرجلين المسح، وهذا خطأ منهم؛ فقد تظاهرت النصوص بإيجاب غسلهما).

وقال شيخ الإسلام: (ومن مسح على الرجلين فهو مبتدع مخالف للسنة المتواترة وللقرآن، ولا يجوز لأحد أن يعمل بذلك مع إمكان الغسل).

وقال في موطن آخر: (فالقدم كثيرًا ما يفرط المتوضئ بترك استيعابها، حتى قد اعتقد كثير من أهل الضلال أنها لا تغسل، بل فرضها مسح ظاهرها عند طائفة من الشيعة، والتخيير بينه وبين الغسل عند طائفة من المتعزلة).

٢ - الصلاة:

أ - ومن ذلك ترك الجهر بالبسملة - في الصلاة الجهرية - حيث قال الإمام

سفيان الثوري في اعتقاده: (وإخفاء البسملة أفضل من الجهر).

وقال ابن بطة: (من السنة ألا تجهر ببسم الله الرحمن الرحيم).

وذلك مخالفة للرافضة الذين يستحبون الجهر بالبسملة في مواضع الإخفات، وكان سفيان الثوري إمام أهل الكوفة، وقد ظهر فيهم الرفض، حتى قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: (لا تأخذوا عن أهل الكوفة في الرفض شيئًا)، ولذا أظهر سفيان مخالفتهم بترك الجهر بالبسملة، لا سيما أن الرافضة قد وضعوا أحاديث في الجهر بالبسملة وهذه المسألة خلافية بين أهل السنة أنفسهم؛ فمنهم من استحب الجهر بالبسملة محتجًا بأدلة، (ومنهم استحب إخفاءها لأدلة.

والمقصود من إيرادها بيان ما كان عليه أئمة السلف من مجانبة المبتدعة والحذر من موافقتهم؛ ففي هذه الحالة تكون مصلحة مخالفتهم والتمييز عنهم - بترك الجهر بالبسملة - آكد من مصلحة هذا المستحب -أي الجهر بالبسملة - كما حقق ذلك شيخ الإسلام تحقيقًا دقيقًا فقال: (الذي عليه أئمة الإسلام أن ما كان مشروعًا لم يُترك لمجرد فعل أهل ا البدع، لا الرافضة ولا غيرهم وأصول الأئمة كلهم توافق هذا.

إلى أن قال: فالجهر بالبسملة هو مذهب الرفض، وبعض الناس تكلّم في الشافعي بسببها، ونسبه إلى قول الرافضة والقدرية؛ لأن المعروف في العراق أن الجهر كان من شعار الرافضة، حتى أن سفيان الثوري وغيره من الأئمة يذكرون في عقائدهم ترك الجهر بالبسملة، لأنه كان عندهم من شعار الرافضة .. ومع هذا فالشافعي لما رأى أن هذا هو السنة كان ذلك مذهبه وإن وافق قول الرافضة.

ثم قال: إنه إذا كان في فعل مستحب مفسدة راجحة لم يصر مستحبًا، ومن هنا ذهب من الفقهاء إلى ترك بعض المستحبات إذا صارت شعارًا

لهم، فإنه لم يترك واجبًا بذلك، لكن قال في إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميَّز السني من الرافضي، ومصلحة التمييز عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم أعظم من مصلحة هذا المستحب، وهذا الذي ذهب إليه يُحتاج إليه في بعض المواضع إذا كان في الاختلاط والاشتباه مفسدة راجحة على مصلحة فعل ذلك المستحب، لكن هذا أمر عارض لا يقتضي أن يُجعل المشروع ليس بمشروع دائمًا).

ومما يؤكد هذا التحقيق أن المروي عن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ أن الجهر بالبسملة غير مسنون، ومع ذلك استحب الجهر بها لمصلحة راجحة، حتى إنه نصَّ على أن من صلى بالمدينة يجهر بها، لأن أهل المدينة كانوا ينكرون على من يجهر بها.

ب - ومن مسائل الصلاة: المبادرة بصلاة المغرب إذا دخل وقتها.

قال ابن بطة: (ومن السنة المبادرة بصلاة المغرب إذا غاب حاجب الشمس قبل ظهور النجوم).

وذلك مخالفة لليهود ومن تأثّر بهم من الرافضة كما في مقالة الإمام الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (واليهود لا يصلون المغرب حتى تشتبك النجوم .. وكذلك الرافضة).

قال النووي: (قد ذكرنا إجماعهم على أن أول وقتها غروب الشمس، وحكى الماوردي وغيره عن الشيعة أنهم قالوا: لا يدخل وقتها حتى تشتبك النجوم، والشيعة لا يُعتد بخلافهم).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن الرافضة: (فلهذا تجد فيما انفردوا به عن الجماعة أقوالًا في غاية الفساد، مثل تأخيرهم صلاة المغرب حتى يطلع الكوكب مضاهاة لليهود، وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بتعجيل

المغرب).

وقال في موضع آخر: (وهكذا روى أبو داود من حديث أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لا تزال أمتي بخير - أو على الفطرة - ما لم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم). ورواه ابن ماجة من حديث العباس، ورواه الإمام أحمد من حديث السائب بن يزيد.

وقد جاء مفسرًا تعليه: (لا يزالون بخير ما لم يؤخروا المغرب إلى طلوع النجم، مضاهاة لليهود ..) قال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الصلت بن بهرام، عن الحارث بن وهب، عن أبي عبد الرحمن الصنابحي قال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لا تزال أمتي على مسكة ما لم ينتظروا بالمغرب اشتباك النجوم مضاهاة لليهودية).

ج - ومن مسائل الصلاة: صلاة الجمعة والجماعة خلف كل بر وفاجر.

كما قال سفيان الثوري في عقيدته: (يا شعيب، لا ينفعك حتى ترى الصلاة خلف بر وفاجر.

قال: شعيب: فقلت لسفيان: يا أبا عبد الله! الصلاة كلها؟

قال: لا؛ ولكن صلاة الجمعة والعيدين، صلِّ خلف من أدركت، وأما سائر ذلك فأنت مخيَّر، لا تصلِّ إلا خلف من تثق به وتعلم أنه من أهل السنة والجماعة).

وجاء في اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل: (وصلاة الجمعة خلفه وخلف من ولي جائزة تامة ركعتين، من أعادهما فهو مبتدع تارك للأثر مخالف للسنة ..).

ومما قاله سهل بن عبد الله التستري في اعتقاده: (ولا يترك الجماعة خلف كلّ والٍ جائر أو عدل).

كما قرَّر ذلك أبو الحسن الأشعري، وابن بطة، والبربهاري، وقوام السنة الأصفهاني.

وهذه المسألة قد دلَّت عليها الأدلة من الكتاب والسنة الصحيحة، كما أن في تقريرها مجانبة لطوائف المبتدعة لا سيما الرافضة كما وضَّحه ابن تيمية بقوله: (والرافضة لا يصلون إلا خلف المعصوم، ولا معصوم عندهم، وهذا لا يوجد في سائر الفرق أكثر مما يوجد في الرافضة، فسائر أهل البدع سواهم لا يصلون الجمعة والجماعة إلا خلف أصحابهم، كما هو دين الخوارج والمتعزلة وغيرهم، وأما أنهم لا يصلون ذلك بحال فهذا ليس إلا للرافضة).

- ومما يحسن إلحاقه بهذه المسألة، ما قرره ابن تيمية من مشروعية الفصل بين الفرض والنفل في صلاة الجمعة، لما جاء في الحديث الصحيح أنه ﷺ (نهى أن توصل صلاة بصلاة حتى يفصل بينهما بقيام أو كلام) ثم علل ابن تيمية ذلك بقوله: (فإن كثيرًا من أهل البدع لا ينوون الجمعة بل ينوون الظهر، ويظهرون أنهم سلَّموا، وما سلموا، فيصلون ظهرًا، ويظن الظان أنهم يصلون السنة، فإذا حصل تمييز بين الفرض والنفل كان في هذا منع لهذه البدعة).

د - يقرر أهل السنة مشروعية إقامة صلاة التراويح - كما هو مبسوط في موضعه - خلافًا للروافض القائلين بأنها بدعة حدثت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال الإمام أبو حنيفة في كتابه الفقه الأكبر: (والتراويح في ليالي شهر رمضان سنة).

وقال الملا علي قاري في شرحه للفقه الأكبر: (وفيه ردّ على الروافض).

وقال أبو عبد الله محمد بن خفيف في (عقيدته): (والتراويح سنة).

وقال قوام السنة الأصفهاني: (ومن السنة صلاة التراويح في شهر رمضان في الجماعة).

ولما سئل ابن تيمية عمن يصلي التراويح قبل العشاء الآخرة، كان من جوابه: (ولكن الرافضة تكره صلاة التراويح، فإذا صلوا قبل العشاء الآخرة لا تكون هي صلاة التراويح، فمن صلاها قبل العشاء فقد سلك سبيل المبتدعة المخالفين للسنة).

وإذا تقرر - عند أهل السنة - استحباب صلاة التراويح خلافًا للرافضة، فإن أهل السنة وسط في هذا الباب بين غلاة المتعبدة الذين أوجبوا قيام الليل، وبين الروافض الجفاة، كما بيّن ذلك ابن تيمية بقوله: (وغلاة العبّاد يوجبون على أصحابهم صلاة الضحى والوتر وقيام الليل، فتصير الصلاة عندهم سبعًا، وهو دين النصارى، والرافضة لا تصلي جمعة ولا جماعة، لا خلف أصحابهم ولا غير أصحابهم، ولا يصلون إلا خلف المعصوم، ولا معصوم عندهم).

هـ ومسائل الصلاة التي قررها أهل السنة في كتب العقيدة يتعسر حصرها، لكن أشير في خاتمة هذا المبحث إلى بعضها على سبيل الاختصار:

- قرر أهل السنة مشروعية قصر الصلاة في السفر - كما جاءت به السنة - وكما قال الإمام المزني في عقيدته: (وإقصار الصلاة في الأسفار).

كما قرر ذلك البربهاري، وقوام السنة الأصفهاني، خلافًا لبعض الخوارج الذين لا يجيزون القصر إلا مع الخوف.

- توسط أهل الحديث في مسألة القنوت بين من كره القنوت في الفجر مطلقًا عند النوازل وغيرها، وبين من استحبها عند النوازل وغيرها، كما حكاه ابن القيم.

قال ابن بطة: (ومن السنة ألا تجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، ولا تقنت في الفجر إلا أن يدهم المسلمين أمرٌ من عدوهم فيقنت الإمام فيتبعه).

- ومن المسائل التي يمكن إلحاقها هاهنا: أن لا يفرد بالصلاة على أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله خلافًا للروافض.

- وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (لا أعلم صلاة تنبغي من أحد على أحد إلى على رسول الله ﷺ).

وقد قاله لما ظهر الشيعة وصارت تظهر الصلاة على عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهذا مكروه منهي عنه).

ولذا قال البربهاري: (ولا تفرد بالصلاة على أحد إلا على رسول الله ﷺ وعلى آله فقط).

ومما سطره ابن القيّم أثناء تحريره مسألة (الصلاة على غير النبي ﷺ وآله وأزواجه) ما يلي: (وإن كان شخصًا معينًا أو طائفة معينة كره أن يتخذ الصلاة عليه شعارًا لا يخل به، ولو قيل بتحريمه لكان له وجه، ولا سيما إذا جعلها شعارًا له، ومنع منها نظيره أو من هو خير منه، وهذا كما تفعل الرافضة بعليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنه حيث ذكره قالوا: عليه الصلاة والسلام، ولا يقولون ذلك فيمن هو خير منه، فهذا ممنوع لا سيما إذا اتخذ شعارًا لا يخل به، فتركه حينئذ متعيّن).

٣- الجنازة:

أ- قرر أهل السنة مشروعية الصلاة على من مات من أهل القبلة.

كما قال الطحاوي: (ونرى الصلاة خلف كل برّ وفاجر من أهل القبلة، وعلى من مات منهم).

وقال البربهاري: (والصلاة على من مات من أهل القبلة سنة).

وقرر قوام السنة الأصفهاني هذه المسألة بقوله: (فمن مذهبهم الصلاة على من مات من أهل القبلة).

وإذا تقرر مشروعية الصلاة على من مات من أهل القبلة، ففي ذلك ردّ على الخوارج - ومن تبعهم الذين يكفِّرون مرتكب الكبيرة فلا يصلون عليه، كما أن في هذا التقرير إجراء لأحكام الإسلام على أهل القبلة باعتبار ظواهرهم والله ﷻ يتولى سرائرهم.

ب - ومما قرره علماء أهل السنة في هذا المقام أن الأموات - من المسلمين - ينتفعون بدعاء الأحياء وصدقاتهم كما جاءت بذلك الأدلة الصحيحة.

قال الأشعري: (ونرى الصدقة عن موتى المسلمين والدعاء لهم، ونؤمن بأن الله ينفعهم بذلك).

وقال الطحاوي: (وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات) .

وفي هذا التقرير ردٌّ على المبتدعة الذين ينكرون ذلك، وكما قال النووي: (وأما ما حكاه الماوردي في كتابه الحاوي عن بعض أصحاب الكلام من أن الميت لا يلحقه بعد موته ثواب فهو مذهب باطل قطعًا وخطأ بيِّنٌ مخالفٌ لنصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة فلا التفات إليه ولا تعريج).

وقال ابن أبي العز الحنفي: (وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء البتة لا الدعاء ولا غيره).

وصرّح الشوكاني بأنهم المعتزلة.

٤ - الحج:

قرر أئمة أهل السنة أن متعة الحج سنة ثابتة، فتوسطوا بين من أوجبها وحرّم

ما عداها - كالشيعة - وبين من حرّم المتعة - كالناصبة.

قال قوم السنة الأصفهاني: (ومتعة الحج سنة ثابتة).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ولكن بعض الخارجين عن الجماعة يوجب أو يمنع ذلك، فمن الشيعة من يوجب المتعة ويحرم ما عداها، ومن الناصبة من يحرّم المتعة ولا يبحها بحال.

ولما ظهر للإمام أحمد بن حنبل - استحباب متعة الحج قرر ذلك وأظهره (حتى قال سلمة بن شبيب للإمام أحمد: يا أبا عبد الله! قوَّيت قلوب الرافضة لما أفتيتَ أهل خراسان بالمتعة، فقال: يا سلمة! كان يبلغني عنك أنك أحمق، وكنت أدفع عنك، والآن فقد ثبت عندي أنك أحمق، عندي أحد عشر حديثًا صحاحًا عن النبي ﷺ أتركها لقولك؟).

فالأصل أن ما كان مشروعًا لم يترك لمجرد فعل أهل البدع، لكن إن كان في فعل المستحب مفسدة راجحة مثل مشابهة المبتدعة، فإن مصلحة التميز عنهم آكد من مصلحة هذا المستحب- كما سبق تقريره -.

٤- النكاح:

توسّط أهل السنة في هذا الباب بين من أحلّ ما حرّم الله تعالى؛ كمن أباح نكاح المتعة، وأشنع من ذلك من أباح نكاح التحليل، وبين من حرّم ما أحل الله تعالى؛ كمن حرّم نكاح المحصنات من أهل الكتاب، فأحل أهل السنة ما أحل الله تعالى ورسوله وحرّموا ما حرّم الله تعالى ورسوله ﷺ.

وقرر أهل السنة في عقائدهم حرمة نكاح التحليل والمتعة؛ حيث قال ابن بطة: (ومن السنة أن يعلم أن المتعة حرام إلى يوم القيامة).

وقال البربهاري: (واعلم أن المتعة - متعة النساء - والاستحلال حرام إلى

يوم القيامة).

وقال قوام السنة الأصفهاني: (ومتعة النساء حرام إلى يوم القيامة).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالروايات المستفيضة المتواترة متواطئة على أنه حرم ﷺ المتعة بعد إحلالها).

وتحدّث شيخ الإسلام عن شناعة نكاح التحليل، فكان مما قاله: (يوجد في نكاح التحليل من الفساد أعظم مما يوجد في نكاح المتعة؛ إذ المتمتع قاصد للنكاح إلى وقت، والمحلل لا غرض له في ذلك؛ فكل فساد نهى عنه المتمتع فهو في التحليل وزيادة، ولهذا تنكر قلوب الناس التحليل أعظم مما تنكر المتعة، والمتعة أبيحت أول الإسلام، وتنازع السلف في بقاء الحل، ونكاح التحليل لم يبح قط، ولا تنازع السلف في تحريمه. ومن شنع على الشيعة بإباحة المتعة مع إباحته للتحليل فقد سلطهم على القدح في السنة، كما تسلطت النصارى على القدح في الإسلام بمثل إباحة التحليل، حتى قالوا: إن هؤلاء قال لهم نبيهم: إذا طلَّق أحدكم امرأته لم تحل له حتى تزني، وذلك أن نكاح التحليل سفاح كما سماه الصحابة بذلك).

وبسط ابن القيم الحديث عن قبائح التحليل ومفاسده، فكان مما قاله: (وأما في هذه الأزمان التي قد شكت الفروج فيها إلى ربها مفسدة التحليل، وقبح ما يرتكبه المحللون مما هو رمد بل عمى في عين الدين، وشجى في حلوق المؤمنين، من قبائح تشمت أعداء الدين به، وتمنع كثيرًا ممن يريد الدخول فيه بسببه، بحيث لا يحيط بتفاصيلها خطاب، ولا يحصرها كتاب، يراها المؤمنون كلهم من أقبح القبائح، ويعدونها من أفضح الفضائح، وقد قلبتْ من الدين رسمه، وغيَّرت اسمه، وضمخ التيس المستعار فيها المطلقة بنجاسة التحليل.

إلى أن قال: ثم سلْ من له أدنى اطلاع على أحوال الناس: كم من حرة مصونة أنشب فيها المحلل مخالب إرادته فصارت له بعد الطلاق من الأخدان، وكان بعلها منفردًا بوطئها، فإذا هو والمحلل فيها ببركة التحليل شريكان، فلعمر الله كم أخرج التحليل مخدرة من سترها إلى البغاء، وألقاها بين براثن العشراء، ولولا التحليل لكان مثال الثريا دون منالها ..).

وجاء تقرير حرمة نكاح المتعة خلافًا للروافض الذين يزعمون أن (متعة النساء خير العبادات وأفضل القربات ويوردون في فضائلها أخبارًا كثيرة موضوعة ومفتراة).

وقد حكى الإجماع على تحريم نكاح المتعة غير واحد من الأئمة، كما بيّنه الحافظ ابن حجر بقوله: (قال ابن المنذر: لا أعلم اليوم أحدًا يجيزها إلا بعض الروافض، ولا معتمد لقول يخالف كتاب الله وسنة رسوله. وقال عياض: ثم وقع الإجماع من جميع العلماء على تحريمها إلا الروافض، وقال الخطابي: تحريم المتعة كالإجماع إلا عن بعض الشيعة، ولا يصح على قاعدتهم في الرجوع في المخالفات إلى عليّ وآل بيته، فقد صح عن علي أنها نسخت، ونقل البيهقي عن جعفر بن محمد أنه سئل عن المتعة، فقال: هي الزنا بعينه.

وقال القرطبي: الروايات كلها متفقة على أن زمن إباحة المتعة لم يطل وأنه حرم، ثم أجمع السلف والخلف على تحريمها إلا من لا يلتفت إليه من الروافض).

وأباح جمهور السلف الصالح نكاح المحصنات من أهل الكتاب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (المائدة: ٥).

وحرّم الرافضة ما أحل الله فمنعوا نكاح الكتابيات

قال ابن تيمية عن أولئك الروافض: (وهؤلاء يحرمون نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم، وهذا ليس من أقوال أحد من أئمة المسلمين المشهورين بالفتيا، ولا من أقوال أتباعهم، وهو خطأ مخالف للكتاب والسنة والإجماع القديم).

٦- الأطعمة والأشربة:

أ- عني أهل السنة بأكل الحلال تقريرًا وتحقيقًا، فأثبتوه في عقائدهم، حتى قال الفضيل بن عياض: (إن لله عبادًا يحيي بهم البلاد والعباد، وهم أصحاب سنة، من كان يعقل ما يدخل جوفه من حله كان في حزب الله تعالى) وقال سهل بن عبد الله التستري: (أصولنا ستة: التمسك بالقرآن، والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق)ووصف شيخ الإسلام الصابوني أهل الحديث أنهم يتواصون بالتعفف في المآكل والمشارب والمنكح والملبس

وقال قوام السنة الأصفهاني: (ومن مذهب أهل السنة التورع في المآكل والمسارب والمناكح)

ب- ومع تحرز أهل السنة في الأطعمة والأشربة وحرصهم على أكل الحلال ... إلا أنهم لم يتشددوا في ذلك فلم يحرّموا ما أحل الله تعالى؛ كما وقع فيه بعض أهل البدع، بل كانوا وسطًا بين أهل الفجور والشهوات، وبين أصحاب الرهبانية والتشدد الذين حرّموا ما أحل الله من الطيبات، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ) (المائدة: ٨٧ - ٨٨).

قال شيخ الإسلام: (نهى سبحانه عن تحريم ما أحل من الطيبات، وعن الاعتداء في تناولها، وهو مجاوزة الحد، وقد فسر الاعتداء في الزهد والعبادة بأن يحرموا الحلال ويفعلوا من العبادة ما يضرهم، فيكونوا قد تجاوزوا الحد وأسرفوا، وقيل لا يحملنكم أكل الطيبات على الإسراف وتناول الحرام من أموال الناس، فإن آكل الطيبات والشهوات المعتدي فيها لا بد أن يقع في الحرام لأجل الإسراف في ذلك).

ج- ردّ أهل السنة على الذين حرَّموا ما أحل الله تعالى، فقرروا أن البيع والشراء حلال، وكذا سائر المباحات من أنواع المكاسب والمطاعم، كما ردّوا على ما ادعاه بعضهم من إطباق الحرام وخلو الأرض من الحلال.

ولما غلب على طوائف من المتصوفة تحريم الحلال وترك المكاسب المباحة، قام بالردّ عليهم المشتغلون بعقائد الصوفية الأوائل.

ومن ذلك ما قرره ابن خفيف بقوله: (ومما نعتقده أن الله أباح المكاسب والتجارات والصناعات، وإنما حرّم الله الغش والظلم، وأن من قال بتحريم المكاسب فهو ضال مضل مبتدع، وإنما حرم الله ورسوله الفساد لا الكسب والتجارة، فإن ذلك على أصل الكتاب والسنة جائز إلى يوم القيامة.

وأن مما نعتقده أن الله لا يأمر بأكل الحلال ثم يعدمهم الوصول إليه من جميع الجهات؛ لأن ما طالبهم به موجود إلى يوم القيامة، والمعتقِد أن الأرض تخلو من الحلال، والناس يتقلبون في الحرام فهو مبتدع ضال، إلا أنه يقلُّ في موضع ويكثر في موضع، لا أنه مفقود من الأرض).

وقال الكلاباذي: (أجمعوا على إباحة المكاسب من الحِرف والتجارات والحرث، وغير ذلك مما أباحته الشريعة عن تيقظ وتثبت وتحرز من

الشبهات).

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجل نقل عن بعض السلف من الفقهاء أنه قال: أكل الحلال متعذر لا يمكن وجوده في هذا الزمان.

فكان من جوابه: (هذا القائل الذي قال: أكل الحلال معتذر، لا يمكن وجوده في هذا الزمان غالط مخطئ في قوله باتفاق أئمة الإسلام، فإن مثل هذه المقالة كان يقولها بعض أهل البدع، وبعض أهل الفقه الفاسد، وبعض أهل النسك الفاسد، فأنكر الأئمة ذلك، حتى الإمام أحمد في ورعه المشهور كان ينكر مثل هذه المقالة [١٣٦] إلى أن قال: ومثل هذا كان يقوله بعض المنتسبين إلى العلم من أهل العصر، وبناء على هذه الشبهة الفاسدة، وهو أن الحرام قد غلب على الأموال لكثرة الغصوب والعقود الفاسدة ولم يتميَّز الحلال من الحرام.

ووقعت مثل هذه الشبهة عند طائفة من مصنفي الفقهاء، فأفتوا بأن الإنسان لا يتناول إلا مقدار الضرورة، وطائفة لما رأت مثل هذا الحرج سدت باب الورع ..).

د - قرر أهل السنة -في عقائدهم- إباحة المكاسب والطيبات، خلافًا لليهود ومن سلك سبيلهم من الرافضة والمعتزلة.

يقول البربهاري: (واعلم أن الشراء والبيع حلال، ما بيع في أسواق المسلمين حلال، ما بيع على حكم الكتاب والسنة من غير أن يدخله تغيير أو ظلم).

وقال ابن بطة: (ولا تحرم شيئًا مما أحله الله فإن فاعل ذلك مفتر على الله، راد لقوله معتد ظالم، ثم إن الروافض تشبهت باليهود في تحريم ما أحل الله .. وحرّموا الجِرِّي ولحم الجزور).

وقال أبو عمرو الداني: (وأكل الحلال فريضة، لقوله تعالى: (كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) (المؤمنون: ٥١). وتجنب الشبهات واتقاؤها من كمال الورع، وفي ذلك السلامة من الحرام لقوله ﷺ: (من اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام)، والحلال موجود وغير معدوم، قال الله تعالى: (وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) (البقرة: ٢٧٥). وقال: (وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ) (البقرة: ١٨٨)، والتجارة رزق من رزق الله، وحلال من حلال الله تعالى، ولو كان الحلال معدومًا على ما يزعمه بعض المعتزلة لصار الحرام مباحًا للضرورة).

وقال قوام السنة الأصفهاني: (والشراء والبيع حلال إلى يوم القيامة على حكم الكتاب والسنة).

هـ: قرَّر جمهور أهل السنة أن كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، وأن ما أسكر كثيره فقليله حرام. سواء كان من العنب أو غيره، خلافًا لأهل الكوفة الذين فرّقوا بين ماء العنب وغيره، فلم يحرّموا من غيره القدر المسكر خاصة، وأما القليل الذي لا يسكر فلا يحرم عندهم.

وأظهر الإمام أحمد بن حنبل مذهب أهل الحديث ومخالفة الكوفيين فيما خالفوا فيه السنة، وصنّف كتاب الأشربة، وكان يقرؤه على الناس، لكثرة من يشرب المسكر هناك، حتى كان يدخل الرجل بغداد - مع أنها كانت أعظم مدائن الإسلام - فيقول: هل فيها من يحرم النبيذ؟ -يعني المختلَف فيه - يقولون: لا، إلا أحمد بن حنبل، كما ذكر ذلك الخلال).

وعقد الإمام البخاري في كتاب الأشربة -بابًا بعنوان: (باب الخمر من العنب وغيره) ومراده الردّ على الكوفيين الذين فرقوا ما بين ماء العنب وغيره

... كما قاله ابن المنير.

وجاء هذا التحريم مقررًا في كتب الاعتقاد كما قال أبو عمرو الداني: (وكل شراب من عنب أو زبيب أو تمر أو تين أو عسل أو حنطة أسكر كثيره فقليله حرام، لقوله: حين سئل عن التبع - وهو شراب يصنع من العسل -: (كل شراب أسكر كثيره فهو حرام).

وقال شيخ الإسلام الصابوني: (ويحرّم أصحاب الحديث المسكر من الأشربة: المتخذ من العنب أو الزبيب أو التمر أو العسل أو الذرة، أو غير ذلك مما يسكر، يحرمون قليله وكثيره).

وقال قوام السنة الأصفهاني: (وكل شراب يسكر كثيره فقليله حرام).

٧- الإمامة:

أ- توسّط أهل السنة والجماعة في مسألة نصب الإمام بين الإفراط و التفريط،

فقرروا أن الإمامة واجبة، وأنه يجب على المسلمين نصب خليفة، فجانبوا إفراط الشيعة وغلوهم حيث زعموا أن الإمامة منصب إلهي كالنبوة، حيث جاء في الكافي: (باب أن الإمامة عهد من الله ﷻ معهود من واحد إلى واحد).

كما جانبوا تفريط بعض الخوارج والمعتزلة، حيث قالت النجدات - من الخوارج -: ولا يلزم الناس فرض الإمام، وإنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم).

وزعم الأصم - من المعتزلة - أن الناس لو كفوا عن المظالم لاستغنوا عن الإمام، وزعم هشام الفوطي - من المعتزلة - (أن الأمة إذا اجتمعت كلمتها على الحق احتاجت حينئذ إلى الإمام، وأما إذا عصت وفجرت وقتلت الإمام لم يجب حينئذ على أهل الحق منهم إقامة إمام).

ب- سلك أهل السنة والجماعة المسلك الوسط في باب طاعة الأئمة بين إفراط الخوراج وتفريط المرجئة، كما كشف عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: (الطريقة الوسطى التي هي دين الإسلام المحض جهاد من يستحق الجهاد كهؤلاء القوم المسؤول عنهم (التتار)، مع كل أمير وطائفة هي أولى بالإسلام منهم، إذا لم يكن جهادهم إلا كذلك، واجتناب إعانة الطائفة التي يغزو معها على شيء من معاصي الله، بل يطيعهم في طاعة الله، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وهذه طريقة خيار هذه الأمة قديمًا وحديثًا، وهي واجبة على كل مكلف، وهي متوسطة بين طريق الحرورية وأمثالهم ممن يسلك مسلك الورع الفاسد الناشئ عن قلة العلم، وبين طريقة المرجئة وأمثالهم ممن يسلك مسلك طاعة الأمراء مطلقًا وإن لم يكونوا أبرارًا).

ويقول في موطن آخر: (أهل البدع من الخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرهم يرون قتال أئمة الجور، والخروج عليهم إذا فعلوا ما هو ظلم، أو ما ظنوه هم ظلمًا، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآخرون من المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظنًا أن ذلك من باب ترك الفتنة، وهؤلاء يقابلون لأولئك، ولهذا ذكر الأستاذ أبو منصور الماتريدي المصنف في الكلام وأصول الدين من الحنفية الذين وراء النهر ما قابل به المعتزلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذكر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سقط في هذا الزمان).

ج- قرر أهل السنة مشروعية الجهاد في سبيل الله تعالى مع أولي الأمر من المسلمين برّهم وفاجرهم إلى قيام الساعة.

ومن ذلك ما جاء في اعتقاد سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: (والجهاد ماض إلى يوم القيامة، والصبر تحت لواء السلطان جائر أو عدل).

وقال الإمام أحمد بن حنبل في اعتقاده: (والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة البر والفاجر لا يترك).

وقال محمد بن أبي زمنين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن قول أهل السنة أن الحج والجهاد مع كل برٍّ أو فاجر من السنة والحق، وقد فرض الله الحج فقال: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) (آل عمران: ٩٧).

وأعلمنا بفضل الجهاد في غير موضع من كتابه، وقد علم أحوال الولاة الذين لا يقوم الحج والجهاد إلا بهم، فلم يشترط ولم يبين وما كان ربك نسيًا).

وقال قوام السنة الأصفهاني: (والجهاد ماضٍ منذ بعث الله نبيه ﷺ إلى آخر عصابة تقاتل الدجال).

كما قرر ذلك علي بن المديني، والطحاوي، وابن بطة، والبربهاري، والصابوني، وابن قدامة في اللمعة، وابن تيمية وغيرهم.

وجاء هذا التقرير خلافًا للرافضة والخوارج الذين عطَّلوا الجهاد في سبيل الله تعالى، وأبطلوا ذروة سنام الإسلام.

فأما الرافضة فقالوا: لا جهاد حتى يخرج الرضا من آل محمد ﷺ، فقد جاء في فروع الكافي عن أبي عبد الله جعفر الصادق قال: (القتال مع غير الإمام المفترض طاعته حرام مثل الميتة والدم ولحم الخنزير)، وبذلك شابهت الرافضةُ اليهود القائلين: لا جهاد حتى يخرج المسيح الدجال وينزل سيف من السماء.

وأما الخوارج فمجمعون على وجوب الخروج على الإمام الجائر، فكيف

يجاهدون معه؟ بل كانوا يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان.

ورحم الله ابن حزم إذ يقول عن تلك الطوائف وأشباههم: (اعلموا - رحمكم الله - أن جميع فرق الضلالة لم يجر الله على أيديهم خيرًا، ولا فتح بهم من بلاد الكفر قرية، ولا رفع للإسلام راية، وما زالوا يسعون في قلب نظام المسلمين، ويفرقون كلمة المؤمنين، ويسلّون السيف على أهل الدين، ويسعون في الأرض مفسدين، أما الخوارج والشيعة فأمرهم في هذا أشهر من أن يتكلف ذكره).

وقد حكى الإمام عبد الله بن حبيب مفاسد ترك الغزو مع أئمة الجور فقال: (سمعت أهل العلم يقولون: لا بأس بالجهاد مع الولاة، وإن لم يضعوا الخُمس موضعه، وإن لم يُوفوا بعهد إن عاهدوا، ولو عملوا ما عملوا، ولو جاز للناس ترك الغزو معهم بسوء حالهم لاستذل الإسلام، وتخيفت أطرافه، واستبيح حريمه، ولعَلى الشرك وأهله).

د- قرر أهل السنة دفع الزكاة إلى الإمام الشرعي، إن كان يصرفها في مصارفها الشرعية.

وقد سئل ابن عمر وسعد بن أبي وقاص وأبو سعيد الخدري - رضي الله عنهم - عن الزكاة أينفذها على ما أمر الله تعالى، أو يدفعها إلى الولاة؟ قال: بل يدفعها إلى الولاة

وقال محمد بن سيرين: (كانت الزكاة من الفاجر وغيره تدفع إلى رسول الله ﷺ وإلى من استعمل، وإلى أبي بكر وإلى من استعمل، وإلى عمر وإلى من استعمل، وإلى عثمان وإلى من استعمله، فلما كان معاوية ومن بعده اختلف الناس، فمنهم من دفعها، ومنهم من تصدّق بها).

قال الإمام مالك: (إذا كان الإمام عدلًا لم يَنْبَغِ للناس أن يتولوا تفرقة زكاتهم، ووجب عليهم دفعها إلى الإمام).

وقال الإمام أحمد: (ودفع الصدقات إليهم جائزة ونافذة، من دفعها إليهم أجزت عنه برًا كان أو فاجرًا).

وقال الإمام أبو زرعة في اعتقاده: (ودفع الصدقات من السوائم إلى أولي الأمر من أئمة المسلمين).

وقال البربهاري: (فإن قسمها فجائز، وإن دفعها إلى الإمام فجائز).

كما قرر ذلك علي بن المديني، وأبو حاتم، وابن بطة، وابن الحنبلي، وغيرهم.

ولما سئل ابن تيمية عما يأخذه ولاة المسلمين من زكاة كان من جوابه: (أما ما يأخذه ولاة المسلمين من العشر وزكاة الماشية والتجارة وغير ذلك فإنه يسقط ذلك عن صاحبه، إذا كان الإمام عادلًا يصرفه في مصارفه الشرعية باتفاق العلماء؛ فإن كان ظالمًا لا يصرفه في مصارفه الشرعية، فينبغي لصاحبه ألا يدفع الزكاة إليه، بل يصرفها هو إلى مستحقها).

وخالف الخوارج ذلك، فزعموا عدم إجزاء الزكاة التي تدفع إلى الأمراء بدعوى أن الأمراء لا يضعونها في مواضعها، وطالبوا بأداء الزكاة إليهم.

كما خالف في ذلك الروافض، حيث أشار ابن الحنبلي إلى تلك المخالفة بقوله: (وإخراج الصدقات واجبة في جميع ما يقع عليه الزكاة، وينبغي أن يسلّمها إلى الإمام، أو يفرّقها على المستحقين، وأن بعض الروافض لا يرون ذلك، وليس من شرائطهم) .

٨- الحدود:

قرر أهل السنة حد الرجم - في حق الزاني المحصَن - في عقائدهم كما جاءت بذلك الأدلة الثابتة، خلافًا للحرورية وبعض المعتزلة المنكرين للرجم.

قال الإمام أحمد بن حنبل في اعتقاده: (والرجم حق على من زنا وقد أحصن إذا اعترف أو قامت عليه البينة).

وقال البربهاري: (والرجم حق).

وقال ابن بطال: (أجمع الصحابة وأئمة الأمصار على أن المحصن إذا زنى عامدًا عالمًا مختارًا فعليه الرحم، ودفع ذلك الخوارج وبعض المعتزلة واعتلُّوا بأن الرجم لم يذكر في القرآن، وحكاه ابن العربي عن طائفة من أهل المغرب لقيهم وهم من بقايا الخوارج).

وقال ابن قدامة: (وجوب الرجم على الزاني المحصن رجلًا كان أو امرأة، وهذا قول عامة أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار في جميع الأعصار، ولا نعلم فيه مخالفًا إلا الخوارج).

نخلص من خلال استقراء هذه الفروع الواردة في كتب الاعتقاد إلى النتائج الآتية:

أولًا: ساق أئمة السلف جملة من الفروع والعبادات في ثنايا مصنفاتهم في العقيدة باعتبار أن دين الله تعالى يشمل الأصول والفروع، والاعتقادات والأعمال، كما جاء في مثل قوله تعالى: (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُتَّقُونَ) (البقرة: ١٧٧).

وكما جاء في مثل حديث عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث سأل رسول الله ﷺ فقال: بأي شيء أرسلك؟ فقال رسول الله: (أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأصنام، وأن يوحَّد الله لا يُشرك به شيء).

وإذا كان اسم الدين يشمل العقائد والأعمال، فكذلك اسم الشريعة ينتظم كل ما شرعه الله من العقائد والأعمال -كما هو اصطلاح غالب أهل الحديث-، كما أن (السنة)، كذلك فتستوعب كل ما سنّ الرسول وما شرعه في العقائد والأعمال.

وإذا تقرر ذلك فلا إشكال في إيراد مسائل الفروع ضمن مصنفات لأهل السنة تسمى (السنة) أو (الشريعة) ونحوهما، وإن كانوا قد يطلقون (السنة) أو (الشريعة). على ما يتعلق بمسائل الاعتقاد فقط.

ثانيًا: يظهر من خلال الفروع الواردة وسطية أهل السنة في باب الفروع، كما كانوا وسطًا في باب الاعتقاد، فسلموا من الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء.

يقول شيخ الإسلام - في هذا الصدد -: (وقد تأملتُ ما شاء الله المسائل التي يتباين فيها النزاع نفيًا أو إثباتًا حتى تصير مشابهة لمسائل الأهواء ... فوجدت كثيرًا منها يعود الصواب فيه إلى الوسط .. وكذلك هو الأصل المعتمد في المسائل الخبرية العلمية التي تسمى أصول الدين).

ويقول - في موضع أخر -: (الانحراف عن الوسط كثير في أكثر الأمور في أغلب الناس).

ثالثًا: يتبيّن من خلال النظر في الفروع المذكورة أن الإفراط والتشديد يفضي إلى التفريط والتساهل، وأن تحريم الحلال يؤول إلى ارتكاب الحرام.

كما وضّحه ابن تيمية بقوله: (وهكذا من غلا في الزهد والورع حتى خرج عن الحدّ الشرعي، ينتهي أمره إلى الرغبة الفاسدة وانتهاك المحارم كما قدر رئُي ذلك وجُرِّب).

فالرافضة - مثلًا - حرّمت نكاح المحصنات من أهل الكتاب، فاستحلت الزنا والفواحش باسم المتعة، وقد أشار ابن بطة إلى ذلك بقوله: (ثم إن الروافض تشبهت باليهود في تحريم ما أحل الله، وردّوا على الله قوله .. ولعل الأكثر منهم ممن يحرم هذا يزني ويشرب الخمر).

كما آل أهل الورع الفاسد - الذين زعموا أن أكل الحلال متعذر - إلى الإباحية، فصار الحلال ما حلَّ بأيديهم والحرام ما حرموا، وسبب ذلك كما بيّنه ابن تيمية بقوله عنهم: (لأنهم ظنوا مثل هذا الظن الفاسد وهو أن الحرام قد طبق الأرض، ورأوا أنه لا بد للإنسان من الطعام والكسوة، فصاروا يتناولون ذلك من حيث أمكنهم، فلينظر العاقل عاقبة ذلك الورع الفاسد، كيف أورث الانحلال من دين الإسلام).

رابعًا: نلحظ من خلال إيراد تلك الفروع ما كان عليه السلف الصالح من تعظيم السنة وتوقيرها، وذلك بإظهارها ونشرها لا سيما عند خفائها واندراسها.

ومن ذلك أن الإمام سفيان الثوري كان يقول: (إذا كنت بالشام فاذكر مناقب عليّ، وإذا كنت بالكوفة فاذكر مناقب أبي بكر وعمر).

وكما مرّ آنفًا أن الإمام أحمد بن حنبل أظهر في بغداد تحريم النبيذ - من غير العنب مما يسكر كثيره - فألف كتاب الأشربة، حتى إن الرجل يدخل بغداد فيقول: هل فيها من يحرم النبيذ؟ فيقولون: لا، إلا أحمد بن حنبل.

ومما يحسن ذكره ها هنا ما سطّره ابن تيمية قائلًا: (وأعظم ما نقمه الناس

على بني أمية شيئان: أحدهما: تكلّمهم في عليّ، والثاني: تأخير الصلاة عن وقتها.

ولهذا رُئي عمر بن مرّة الجملي بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بمحافظتي على الصلوات في مواقيتها، وحبّي عليّ بن أبي طالب، فهذا حافظ على هاتين السنتين حين ظهر خلافهما، فغفر الله له بذلك، وهكذا شأن من تمسّك بالسنة إذا ظهرت البدعة، مثل من تمسك بحبّ الخلفاء الثلاثة حيث يظهر خلاف ذلك وما أشهبه).

خامسًا: يتمثل من خلال الفروع المذكور شدة حرص السلف الصالح على إظهار مخالفة الكفار والمبتدعة، وأن إظهار مجانبة سبيل الكافرين والمبتدعين أمر مقصود سواء كان في العقائد أو الفروع.

ومن ذلك أن مقالة ابن عباسّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لا أعلم صلاة تنبغي من أحد على أحد إلا على رسول الله ﷺ، إنما قالها لما ظهرت الشيعة وصارت تُظهر الصلاة على عليّ دون غيره - كما سبق إيراده -.

وكان أئمة السلف يذكرون ما يتميزن به في عقائدهم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (من شأن المصنفين في العقائد المختصرة على مذهب أهل السنة والجماعة أن يذكروا ما يتميّز به أهل السنة عن الكفار والمبتدعين).

فإن كان هؤلاء الأئمة يذكرون تميّزهم في الاعتقاد، فكذلك يذكرون تميّزهم في الفروع عن المخالفين من المبتدعة والكافرين.

لا سيما وأن الأدلة الشرعية تذم عموم الابتداع في الدين سواء كان في العقائد أو غيرها كما حرره الشاطبي.

كما أن ظهور البدع سبب في خفاء السنة وانطماسها، كما في حديث غضيف

بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعث إليّ عبد الملك بن مروان فقال: إنا قد جمعنا على رفع الأيدي على المنبر يوم الجمعة، وعلى القصص بعد الصبح والعصر، فقال: أما إنهما أمثل بدعكم عندي ولست بمجيبكم إلى شيء منهما؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (ما أحدث قوم بدعة إلا رفع من السنة مثلها، فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة).

قال الحافظ ابن حجر معلقًا على القصة: (وإذا كان هذا جواب هذا الصحابي في أمر له أصل في السنة، فما ظنك بما لا أصل له فيها. فكيف بما يشتمل على ما يخالفها؟).

سادسًا: وكما حذّر السلف من مخالفة الكفار والمبتدعين، حذّروا أيضًا من أرباب الأقوال الشاذة - كما مرّ بنا في تحريم جمهور السلف للنبيذ خلافًا للكوفيين - حتى قال الإمام الأوزاعي: (من أخذ بقول أهل الكوفة في النبيذ، وبقول أهل مكة في الصرف، وبقول أهل المدينة في الغناء، فقد جمع الشر كله).

وكما قال عبد الله بن المبارك: (لا تأخذوا عن أهل مكة في الصرف شيئًا، ولا عن أهل المدينة في الغناء شيئًا).

وذلك أن أهل الكوفة عرفوا بإباحة النبيذ - من غير العنب مما يسكر كثيره - كما أن أهل مكة أجازوا الصرف، حيث نسب إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال أجاز ربا الفضل. كما عرف بعض أهل المدينة بالترخص في الغناء .

فهذه الرخص - كما يقول ابن القيم - (تتبعها حرام، ويوهن الطلب، ويرجع بالمترخص إلى غثاثة الرخص).

سابعًا: نلحظ من خلال النظر في تلك الفروع - المذكورة في كتب الاعتقاد - تفاوتها كمًّا ونوعًا، وتنوعها حسب تباين هذه الكتب زمانًا ومكانًا وحالًا،

فمن الفروع ما يكثر إيراده دون غيره، ومن الفروع ما يذكر في مصنف دون مصنف آخر، فهذا التفاوت والتباين حسب الأحوال والملابسات التي تصاحب تأليف هذه المصنفات.

ثامنًا: يبدو - من خلال تتبع الأمثلة المذكورة في الفروع - أن أعظم طوائف المبتدعة انحرافًا في الأصول والاعتقاد هم أعظم انحرافًا في الفروع؛ فالرافضة - مثلًا - أشد ضلالًا من الخوارج والمعتزلة في الاعتقاد، ومن ثم كانت مخالفتهم وشذوذهم في المسائل الفقهية سواء في العبادات أو المعاملات أكثر وأظهر.

تاسعًا: يظهر من خلال بعض الفروع الواردة - ما كان عليه السلف الصالح من ذم الحيل المفضية إلى الحرام وما فيها من المخادعة والاستخفاف بشرع الله تعالى، والصدّ عن سبيل الله تعالى، وشماتة أعداء الإسلام وتسلطهم - كما هو ظاهر في نكاح التحليل كما يظهر -أيضًا- عناية السلف الصالح بقاعدة سدّ الذرائع علمًا وتحقيقًا.

قال الشاطبي: (سد الذرائع مطلوب مشروع، وهو أصل من الأصول القطعية في الشرع).

وقال ابن القيم: (وإذا تدبرتَ الشريعة وجدتها قد أتت بسدّ الذرائع إلى المحرمات، وذلك عكس فتح باب الحيل الموصلة إليها، فالحيل وسائل وأبواب إلى المحرّمات، وسد الذرائع عكس ذلك، فبين البابين أعظم تناقض، والشارع حرّم الذرائع، وإن لم يقصد بها المحرم، لإفضائها إليه، فكيف إذا قُصِد بها المحرم نفسه؟).

وحذّر ابن القيم من التوثّب على محارم الله تعالى باسم الحيل فقال: (فحقيق بمن اتقى الله وخاف نكاله أن يحذر استحلال محارم الله بأنواع المكر

والاحتيال، وأن يعلم أنه لا يخلصه من الله ما أظهره مكرًا وخديعة من الأقوال والأفعال، وأن يعلم أن لله يومًا تنسف فيه الجبال، وتترادف فيه الأهوال، وتشهد فيه الجوارح والأوصال، وتبلى فيه السرائر، ويصير الباطن فيه ظاهرًا، ويحصل ويبدو ما في الصدور، كما يبعثر ويخرج ما في القبور، وتجري أحكام الرب تعالى هنالك على القصود والنيات، كما جرت أحكامه في هذه الدار على ظواهر الأقوال والحركات، يوم تبيض وجوه بما في قلوب أصحابها من النصيحة لله ورسوله وكتابه، وما فيها من البرّ والصدق والإخلاص للكبير المتعال، وتسودُّ وجوه بما في قلوب أصحابها من الخديعة والغش والكذب والمكر والاحتيال، هنالك يعلم المخادعون أنهم لأنفسهم كانوا يخدعون، وبدينهم كانوا يلعبون، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون)»[(١)].

(باب مباحث علم المقالات)

المبحث الأول: التعريف بالمقالة واستعمالها في كلام أهل العلم

المطلب الأول: تعريف المقالة في اللغة والاصطلاح

أولًا: التعريف اللغوي:

١ - أصل الكلمة وتصريفها:

المقالة: مصدر على وزن (مَفْعَلَة) بفتح الميم، وإسكان الفاء، وفتح العين، بعدها لام مفتوحة فتاء، مأخوذة من القول، يقال: قال، يَقُولُ، قَوْلًا، وقِيلًا، وقَوْلَةً، ومَقَالًا، ومَقَالةً[(٢)].

---

(١) مسائل الفروع الواردة في مصنفات العقيدة.

(٢) لسان العرب ١١/ ٥٧٣ (مادة قول)، المصباح المنير ص٥١٩

والمقالة بالتاء والمقال بدونها بمعنى واحد(١).

قال الفيروزآبادي: "القول: في الخير، والقال والقيل والقالة: في الشر، أو القول مصدر، والقيل والقال اسمان له، أو قال قولًا وقيلًا وقولة ومقالة ومقالًا"(٢).

ب – معناها:

قال صاحب اللسان: "القول: الكلام على الترتيب، وهو عند المحقِّق كل لفظ قال به اللسان تاما كان أو ناقصا"(٣).

ثم قال:"... فأما تجوزهم في تسميتهم الاعتقادات والآراء قَوْلًا، فلأن الاعتقاد يخفى فلا يعرف إلا بالقول، أو بما يقوم مقام القول من شاهد الحال، فلما كانت لا تظهر إلا بالقول إذ كانت سببًا له، وكان القول دليلًا عليها، كما يُسمَّى الشيئ باسم غيره إذا كان ملابسًا له وكان القول دليلا عليه"(٤).

ثانيًا: التعريف الاصطلاحي:

جاء في المعجم الوسيط: "المقالة: القول، والمذهب، وبحث قصير(٥) في

(١) ديوان الأدب لأبي إبراهيم بن إسحاق الفارابي تحقيق د/ أحمد مختار عمر، مراجعة د/ إبراهيم أنيس مطبعة الأمانة بالقاهرة/ ١٣٩٦.

(٢) القاموس المحيط مادة (قول).

(٣) لسان العرب ١١/ ٥٧٢ (مادة قول).

(٤) المصدر السابق

(٥) المقالة في عرف الكتاب المحدثين: "مجموعة من الخواطر والتأملات لا تجري على نسق معين، وليس لها نظام خاص بل يمارس الكاتب حريته الكاملة في الطريقة التي يصوغ فيها أفكاره وتأملاته"، انظر: فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه ص ٢٤٥، د/ محمد الشنطي، دار الأندلس.

العلم أو الأدب أو السياسة أو الاجتماع ينشر في صحيفة أو مجلة"[١].

وهذا يعني أن لهذه الكلمة استعمالان:

أحدهما: استعمالها في فن العقيدة، وهو ما أشار إليه هنا بقوله: (المقالة: القول والمذهب).@

والثاني: استعمالها في فن الأدب، وهو ما أشار إليه هنا بقوله: (بحث قصير في العلم أو الأدب........إلخ).

والذي يعنينا هنا هو الاستعمال الأول.

وأما تعريف علم مقالات الفرق: فقد قال طاش كبري زاده في تعريفه:

"علم مقالات الفرق [٢]: هو علم باحث عن ضبط المذاهب الباطلة المتعلقة بالاعتقادات الإلهية، وهي على ما أخبر به نبينا محمد ﷺ عن هذه الأمة، اثنتان وسبعون فرقة.وموضوعه وغايته وغرضه ومنفعته ظاهرة جدًا."[٣].

وهذا التعريف حدد معالم هذا الفن من فنون العلم في ثلاثة معالم بارزة هي:

أولًا: قوله عن هذا العلم إنه: (علم باحث عن ضبط المذاهب الباطلة).

ثانيًا: قوله: (المتعلقة بالاعتقادات الإلهية).

ثالثًا: قوله: (وهي على ما أخبر به نبينا محمد ﷺ عن هذه الأمة، اثنتان وسبعون فرقة)

فحدود هذا الفن هي البحث عن ضبط المذاهب الباطلة، فيما يتعلق

---

(١) المعجم الوسيط ٢/ ٧٦٧، مادة (قول) ط/ دار الفكر.

(٢) وكذا سماه حاجي خليفة في كشف الظنون بعلم مقالات الفرق.

(٣) مفتاح السعادة (١/ ٢٩٨) وانظر أبجد العلوم لصدِّيق حسن خان القنوجي (٢/ ٥١٥) فإنه عرفه بنفس التعريف.

بمسائل الاعتقاد،عند الفرق المنتسبة لهذه الأمة.

فهذا العلم يعنى بالخلاف الواقع في مسائل الاعتقاد ولا يبحث في المسائل الأخرى من أبواب الدين التي حصل فيها خلاف كمسائل الفقه والتفسير وغيرها.

وفي نظري أن التعريف جيد ويعطي صورة عن مضمون هذا العلم ومحتواه.

وأما تسميته لهذا العلم بـ "علم مقالات الفرق" فإن في هذا تمييزًا له عن "علم الأديان" الذي يعنى بمقالات الأمم الأخرى غير المسلمة، بينما اختص هذا العلم بمقالات الفرق المنتسبة إلى الإسلام.

فالمقالات عمومًا تنقسم إلى قسمين

القسم الأول: المقالات الواقعة في هذه الأمة.

القسم الثاني: مقالات الأمم الأخرى.

ولذلك لما ألف أبو الحسن الأشعري في علم المقالات، ألف كتابًا سماه "مقالات الإسلاميين" وكتابًا آخر سماه "مقالات غير الإسلاميين".

ولكن الذي استقر عليه الحال في الوقت الحاضر هو الفصل بين هذين النوعين من المقالات، بتسمية مقالات غير الإسلاميين بـ "علم الأديان، وتسمية مقالات الإسلاميين بـ " علم الفرق".

ومن المعلوم أنه في العصر الراهن شققت بعض العلوم وفرع عنها عدة علوم ومن ذلك علم المقالات الذي تفرع إلى العلوم التالية:

١ - علم الفرق.

٢ - علم الأديان .

٣ ـ علم المذاهب المعاصرة.

كما هو الحال في المقررات التعليمية وبخاصة في المراحل الجامعية.

المطلب الثاني: استعمال العلماء لمصطلح المقالة

لاشك أن استعمال هذا المصطلح أعني "المقالات" أمر شائع وكثير في كتب المتقدمين، فكتب العلماء الأوائل ورد فيها استعمال هذا المصطلح بشكل كبير، حتى إنه من الصعب والمتعذر حصر تلك المواطن وجمعها، ولذلك فلا عبرة بما نحن عليه اليوم من ندرة استعمال هذا المصطلح وقلة استخدامه، ووجود الوحشة في أذهان بعض الدارسين عند سماعه،نظرًا لذيوع استعمال مصطلح "الفرق" مكانه.

وسأورد بعض النماذج لاستعمال هذا المصطلح في كلام أهل العلم للتأكيد على صحة ما أقول.

١- قيل لأبي حنيفة (١٥٠ هـ): "ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ قال: مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة، فإنها بدعة"[١].

٢- وقال أبو الحسن الأشعري (٣٢٤هـ): "فإنه لابد لمن أراد معرفة الديانات والتمييز بينها، من معرفة المذاهب والمقالات، ورأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات، ويصنفون في النحل والديانات... فحداني ما رأيت من ذلك على شرح ما التمست شرحه من المقالات واختصار ذلك وترك الإطالة والإكثار"[٢].

ثم سرد مقالات مختلف الفرق مفتتحا الكلام على كل فرقة كبيرة بقوله

---

(١) صون المنطق للسيوطي ص ٣٢٢.

(٢) مقالات الإسلاميين (ص ١).

مثلا: "مقالات الخوارج"[١]، "مقالات المرجئة"[٢]، "مقالات المعتزلة"[٣] وهكذا...

٣- وقال عبد القاهر البغدادي (٤٢٩ هـ): "وقد علم كل ذي عقل من أصحاب المقالات المنسوبة إلى الإسلام..."[٤].

وقال: "فأما الفرقة الثالثة والسبعون فهي أهل السنة والجماعة... كلهم متفقون على مقالة واحدة في توحيد الصانع وصفاته..."[٥].

و قال: "الباب الثالث من أبواب هذا الكتاب في بيان تفصيل مقالات فرق أهل الأهواء"[٦].

ثم شرع في بيان هذه الفرق فيقول "الفصل كذا في بيان مقالات فرق كذا..."[٧].

٤- وقال ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ): "فإن كثيرا من الناس كتبوا في افتراق الناس في دياناتهم ومقالاتهم كتبا كثيرة جدا،... وأضرب عن كثير من قويّ معارضات أصحاب المقالات فكان في ذلك غير منصف لنفسه..."[٨].

وقال أيضًا: "وقد أفردنا في نقض هذه المقالة (وهي قول المجوس أن مدبر

(١) مقالات الإسلاميين (ص ٨٦).
(٢) نفس المصدر (ص ١٣٢).
(٣) نفس المصدر (ص ١٥٤).
(٤) الفرق بين الفرق (ص ٩).
(٥) نفس المصدر ص ٢٦.
(٦) نفس المصدر ص ٢٨.
(٧) انظر نفس المصدر ص ٢٩، ٧٢، ١١٤، ٢٠٧، ٢١٥، وغيرها.
(٨) الفصل (١/ ٢).

العالم أكثر من واحد) كتابًا..."[١].

٥- وقال الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ): "لما وفقني الله تعالى إلى مطالعة مقالات أهل العالم من أرباب الديانات والملل وأهل الأهواء والنحل..."[٢].

وقال أيضا: "فأهل الأهواء ليست تنضبط مقالاتهم في عدد معلوم..."[٣].

٦- وقال أبو محمد اليمني (من علماء القرن السادس الهجري): "فمن هذا الباب دخل أهل البدع والأهواء على ضعفاء الناس في إفساد أديانهم، والاحتجاج بمقالتهم لا سيما على من جهل غموضه (أي القرآن) ومسلكه ومتشابهه"[٤].

وبعد المقدمة شرع في ذكر الفرق فرقة فرقة ويفتتح الكلام على كل فرقة بقوله المقالة في ذكر كذا، نحو قوله في (١/ ١٨): "المقالة في ذكر فرقهم ـ أي الخوارج ـ"[٥].

٧- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨ هـ): "فهذه المقالات التي نقلت في التشبيه والتجسيم....." إلى أن قال "فأقوال أئمتهم دائرة بين التعطيل والتمثيل،لم تعرف لهم مقالة متوسطة بين هذا وهذا"[٦].

وقال أيضًا: "فلا يعرف في المقالات المشهورة في العلم الإلهي مقالة أبعد

---

(١) نفس المصدر (١/ ٣٤) وانظر أيضًا (٤/ ١٨٨-١٨٩).

(٢) في الملل والنحل ١/ ٣.

(٣) نفس المصدر (١/ ٤)، وانظر أيضا (١/ ٥-٦،٣٨).

(٤) كتابه عقائد الثلاث وسبعين فرقة (١/ ٧).

(٥) نفس المصدر (١/ ١٨) وانظر أيضًا (١/ ٢٧١، ٣٢٥، ٣٥٣) وغيرها.

(٦) في منهاج السنة (٢/ ٢٤٢) وانظر الحسنة والسيئة (ص١٠٤)، والفتوى الحموية (ص ٤٧)، ومجموع الفتاوى (٢/ ٧٩-٨٠)، (٤/ ٢١) وغيرها كثير.

عن الحق من مقالتهم، فإن مقالة اليهود والنصارى في العلم الإلهي خير من مقالتهم، ومقالات أهل البدع الداخلين في الملل، حتى الجهمية والمعتزلة ونحوهم من الطوائف التي تذمها أئمة أهل الملل هي خير من مقالتهم، وأعني بذلك مقالة أرسطو وأتباعه، وأما ما نقل عن الأساطين قبله فقولهم أقرب إلى الحق من قوله"(١).

وبهذه النماذج من أقوال العلماء يتضح مدى شيوع استعمال هذا المصطلح في كلامهم وجريانه في تعبيراتهم.

المبحث الثاني: أهمية علم المقالات

المطلب الأول: أهمية هذا العلم في القرآن والسنة

المتأمل في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية يجد أن هناك عناية بجانب المقالات الباطلة، فقد أوردت النصوص عددًا من المقالات المخالفة لمنهج الحق وبينت زيفها، وحذرت منها، وذمت أصحابها، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر

أولًا: ما جاء في القرآن الكريم:

١ - ما جاء عن مقالات اليهود

قوله تعالى {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق}(٢).

وقال تعالى {وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا}(٣).

---

(١) في الصفدية (٢/ ٢٥٠-٢٥١).

(٢) الآية ١٨١ من سورة آل عمران

(٣) الآية ٦٤ من سورة المائدة

وقال تعالى {وقالت اليهود عزير ابن الله}[١]

ب - ما جاء عن مقالات النصارى

قال تعالى {وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يظاهئون قول الذين كفروا من قبل}[٢].

وقال تعالى {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم}[٣]

وقال تعالى {لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة}[٤]

وقال تعالى {يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ورح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرًا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلًا}[٥]

ج - ما جاء عن مقالات منكري البعث

وقال تعالى {وضرب لنا مثلًا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم}[٦].

وقال تعالى {وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون}[٧].

---

(١) الآية ٣٠ من سورة التوبة

(٢) الآية ٣٠ من سورة التوبة

(٣) الآية ٧٢ من سورة المائدة

(٤)الآية ٧٣ من سورة المائدة

(٥) الآية ١٧١ من سورة النساء

(٦) الآيتان ٧٨-٧٩.من سورة يس

(٧) الآية ٢٤ من سورة الجاثية

د – ما جاء في مقالات منكري وجود الله

قال تعالى {ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتي بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين}[(١)]

ثانيًا: ما جاء في السنة النبوية:

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما اشتكى النبي ﷺ ذكرت بعض نسائه كنيسة رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية – وكانت أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما أتتا أرض الحبشة – فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها.

فرفع رأسه فقال: "أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله"[(٢)]

٢- وعن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: "وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك"[(٣)]

٣- وعن عائشة وعن ابن عباس رضي الله عنهم قالا: "لما نزل برسول الله ﷺ طفق

---

(١) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه "واللفظ له " كتاب الجنائز، باب بناء المسجد على القبر ؛ انظر فتح الباري (٣/ ٢٠٨) ح ١٣٤١

وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٢/ ٦٦)

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٢/ ٦٧-٦٨)

يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" يحذر ما صنعوا(١)

٤- وعن ابن عباس: سمع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول على المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: "لاتطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله"(٢)

٥- وعن أبي واقد الليثي قال خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ "الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنوا إسرائيل لموسى {اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة بل أنتم قوم تجهلون}(٣) لتركبن سنن من كان قبلكم"(٤)

تلك بعض الإشارات عما حواه كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ من ذكر مقالات اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم من أهل الباطل مما يؤكد ضرورة الاهتمام بتلك المقالات بقصد بيان زيغها وفسادها والرد عليها

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب حدثنا أبو اليمان ؛ انظر فتح الباري (١/ ٥٣٢) ح ٤٣٥، ٤٣٦.
أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٢/ ٦٧)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب حديث الأنبياء، باب {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها} انظر فتح الباري (٦/ ٤٧٨) ح ٣٤٤٥

(٣) الآية ١٣٨ من سورة الأعراف

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢١٨) والترمذي في السنن (٤/ ٤٧٥) ح ٢١٨٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن أبي عاصم في السة (ص ٣٧) رقم ٧٦ وصححه الألباني

والتحذير منها ومن الوقوع فيها.

المطلب الثاني: أهمية علم المقالات عمومًا

لعلم المقالات أهميته البالغة ومنفعته العظيمة باعتباره أحد العلوم المهمة التي أولاها العلماء اهتمامهم وتناولوها بالبحث والدراسة والتصنيف، وترجع أهمية هذا العلم لعوامل متعددة من أهمها مايلي:

أولًا:- رصد وكشف المذاهب المنحرفة عن الصراط المستقيم فذلك من الأمور المهمة التي ينبغي الاهتمام الجاد بدراستها، وإعطائها حقها من المتابعة والبحث، تحقيقًا لقول الله تعالى {وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين}(١)(٢)،

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العالمون بالله وكتابه ودينه، عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان، فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة، ثم جاء الرسول ﷺ فأخرجهم من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الظلم إلى العدل، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها، فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضًا لما انتقلوا عنه..."(٣).

---

(١) الأنعام الآية ٥٥.

(٢) مقالات في المذاهب والفرق ص ٧٧.

(٣) الفوائد ص ١٠٨-١٠٩. ط دار الكتب العلمية ١٣٩٣هـ

وهذا المفهوم يجليه قول عمر الفاروق رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: "إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية"(١)

ثانيًا: الرد على أهل الأهواء والبدع حتى تنقطع شبهتهم ويزول عن المسلمين ضررهم، فتلك مرتبة عظيمة من منازل الجهاد باللسان، فقد صح من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم"(٢)

وقال الإمام ابن تيمية: "فالراد على أهل البدع مجاهد، حتى كان يحي ابن يحي يقول: الذب عن السنة أفضل من الجهاد"(٣).

وقال أيضًا: "وإذا كان النصح واجبًا في المصالح الدينية الخاصة والعامة: مثل نقلة الحديث الذين يغلطون ويكذبون، ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين، حتى قيل لأحمد بن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟ فقال: إذا قام وصلَّى واعتكف فإنما هو انفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، هذا أفضل. فبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله؛ إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء، لفسد الدين، وكان

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص ٩٠)

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩/ ٢٧٢ ح ١٢٢٤٦) وإسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه وأبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٦/ ٥١)، والحاكم (٢/ ٨١) وصححه، ووافقه الذهبي، والضياء في المختارة (١٩٠٥)

(٣) مجموع الفتاوى ٤/ ١٣.

فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب؛ فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعًا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً"[١].

ثالثًا: أن الدعوة إلى عقيدة أهل السنة والجماعة والاجتماع عليها وبيان فساد ما خالفها وشذ عنها والتحذير منهم فيه تكثير للفرقة الناجية المعتصمة بالحق، وفيه أمر بالمعروف، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولا يقال: فإذا كان الكتاب والسنة قد دلا على وقوع ذلك - الافتراق بين المسلمين - فما فائدة النهي عنه؟

لأن الكتاب والسنة أيضًا قد دلا على أنه لا يزال في هذه الأمة طائفة متمسكة بالحق الذي بعث به محمد ﷺ إلى قيام الساعة وأنها لا تجتمع على ضلالة.

ففي النهي عن ذلك تكثير هذه الطائفة المنصورة وتثبيتها وزيادة إيمانها فنسأل الله المجيب أن يجعلنا منها"[٢].

رابعًا: إن دراسة مقالات الفرق من باب معرفة الشر لتوقيه وتحذير الناس من الفرق المبتدعة التي تكاثرت وتكاثفت فتعددت السبل وكثرت المشتبهات، وفي ذلك نهي عن المنكر.

وقد كان حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني"[٣].

قال ابن تيمية - في تعليقه على أحاديث النهي عن التفرق -: "وهذا المعنى

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٣١-٢٣٢.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ١٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ؟ (انظر فتح الباري ١٣/ ٣٥ ح ٧٠٨٤). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر (٦/ ٢٠)

محفوظ عن النبي ﷺ من غير وجه، يشير إلى أن التفرق والاختلاف لا بد من وقوعهما في الأمة، وكان يحذر أمته منه لينجو من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة"(١).

خامسًا: بيان صلة الفرق الضالة والآراء المنحرفة المعاصرة بجذورها الخبيثة من الفرق القديمة أهل الأهواء والبدع وكشف حقيقتها وتلبيساتها على الناس، فإن تغيير الأسماء مع بقاء المسميات والمعاني من أساليب الخداع والمكر عند اليهود والزنادقة وأعداء الإسلام.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بعد كلامه عن التحيل الباطل ـ: "وإنما غرضه التوصل بها إلى ما هو ممنوع منه، فجعلها سترة وجنَّة يتستر بها من ارتكب ما نهي عنه فأخرجه في قالب الشرع.

كما أخرج الجهمية التعطيل في قالب التنزيه.

وأخرج المنافقون النفاق في قالب الإحسان والتوفيق والعقل المعيشي.

وأخرج الظلمة الفجرة الظلم والعدوان في قالب السياسة وعقوبة الجناة.

وأخرج الروافض الإلحاد والكفر والقدح في سادات الصحابة وحزب رسول الله ﷺ وأوليائه وأنصاره في قالب محبة أهل البيت والتعصب لهم وموالاتهم.

وأخرج فسقة المنتسبين إلى الفقر والتصوف بدعهم وشطحهم في قالب الفقر والزهد والأحوال والمعارف ومحبة الله ونحو ذلك.

وأخرجت الاتحادية أعظم الكفر والإلحاد في قالب التوحيد وأن الوجود واحد لا اثنان وهو الله وحده فليس هاهنا وجودان خالق ومخلوق ولا رب ولا

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ١٢٧.

عبد بل الوجود واحد وهو حقيقة الرب.

وأخرجت القدرية إنكار عموم قدرة الله تعالى على جميع الموجودات، أفعالها وأعيانها في قالب العدل، وقالوا: لو كان الرب قادرًا على أفعال عباده لزم أن يكون ظالمًا لهم فأخرجوا تكذيبهم بالقدر في قالب العدل.

وأخرجت الخوارج قتال الأئمة والخروج عليهم بالسيف في قالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأخرج أرباب البدع جميعهم بدعهم في قوالب متنوعة بحسب تلك البدع، فكل صاحب باطل لا يتمكن من ترويج باطله إلا بإخراجه في قالب حق..."(١).

سادسًا: إن عدم دراسة الفرق والرد عليها وإبطال الأفكار المخالفة للحق، فيه إفساح المجال للفرق المبتدعة أن تفعل ما تريد، وأن تدعو إلى كل ما تريد من بدع وخرافات دون أن تجد من يتصدى لها بالدراسة والنقد(٢).

ولهذه العوامل وغيرها تبدو الضرورة ملحة لوجود هذا العلم واعتناء أهل العلم به، وهذا هو الواقع الملموس من تتبع جهود العلماء قديمًا وحديثًا عبر القرون المختلفة، قال طاش كبري زاده في معرض تعريفه لعلم المقالات "وموضوعه وغايته وغرضه ومنفعته ظاهرة جدًا."(٣)

المبحث الثالث: مناهج التأليف في علم المقالات والمؤلفات فيه

المطلب الأول: مناهج التأليف في علم المقالات

سلك أصحاب كتب المقالات طريقان في ترتيب هذا الفن وفي ذلك يقول

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ٨١.

(٢) فرق معاصرة لغالب العواجي ١/ ٢٦.

(٣)مفتاح السعادة (١/ ٢٩٨)

الشهرستاني: "ولأصحاب كتب المقالات طريقان في الترتيب:

أحدهما: أنهم وضعوا المسائل أصولًا ثم أوردوا في كل مسألة مذهب طائفة طائفة وفرقة فرقة.

والثاني: أنهم وضعوا الرجال وأصحاب المقالات أصولًا ثم أوردوا مذاهبهم في مسألة مسألة"(١).

ولا شك أن أغلب المصنفين سلك المسلك الثاني. ومنهم الشهرستاني الذي علل ذلك بقوله: "لأني وجدتها أضبط للأقسام وأليق بأبواب الحساب"(٢).

ومنهم عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق، حيث جعل أصحاب الآراء وزعماء الفرق أصولًا، ثم يورد آراء كل منهم في كل مسألة، كما قال:"...ونذكر في الباب الذي يليه تفصيل مقالة كل فرقة من فرق أهل الأهواء الذين ذكرناهم إن شاء الله ﷻ..."(٣).

وممن جمع بين الطريقتين أبو الحسن الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين فقد تميز كتابه بالجمع بين الطريقتين في عرض آراء الفرق، فالجزء الأول معظمه كان وفق الطريقة الثانية، وهي جعل أصحاب المذاهب أصولًا.

أما الجزء الثاني فهو وفق الطريقة الأولى، وهي جعل المسائل أصولًا، ثم إيراد في كل مسألة مذهب طائفة وفرقة فرقة.

ومنهج الأشعري هذا جعل كتابه بمثابة كتابين مختلفين ضم أحدهما إلى

---

(١) الملل والنحل ١/ ٦

(٢) المصدر السابق ١/ ٦

(٣) الفرق بين الفرق ص ٢٨.

الآخر، فمن أراد آراء الفرق في مسألة ما، أمكنه ذلك، ومن أراد آراء فرقة ما، أمكنه ذلك، وقد اقتضى منه ذلك شيئًا من التكرار الملاحظ لآراء الأشخاص في أكثر من موضع.

وممن وافق الأشعري في طريقته هذه ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل، حيث جمع بين الطريقتين، مع استعماله الطريقة الأولى، وهي جعل المسائل أصولًا أكثر.

ومنهم أيضًا أبو محمد اليمني في كتابه عقائد الثلاث والسبعين فرقة حيث جمع بين الطريقتين الأولى، والثانية.

وإذا ماخرجنا عن كتب المقالات فإنا نجد كتب الردود قد اعتمدت الطريقة الأولى، وهي جعل المسائل أصولًا، فهي تعنى ببيان الحق في مسألة من مسائل العقيدة والرد على المخالفين فيها، ومن ذلك على سبيل المثال:

الرد على الجهمية للإمام أحمد، والرد عى الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمي، والرد على الجهمية لابن منده، والرد على بشر المريسي للدارمي، والرد على البكري، وعلى الأخنائي، كلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية، والصارم المنكي في الرد على السبكي لابن عبد الهادي.

والملاحظ أن الغالب اليوم في طريقة عرض هذه المادة عند من يقوم بتدريسها هو استعمال الطريقة الثانية وهي وضع الرجال وأصحاب المذاهب أصولًا ثم إيراد مذاهبهم.

المطلب الثاني: الكتب المؤلفة في هذا العلم

من الكتب المؤلفة في هذا العلم:

١-المقالات[1]: زفر بن الهذيل صاحب أبي حنيفة (١٥٨هـ)[1].

---

(١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٧٨٢.

٢-المقالات والفرق: سعد بن عبد الله الأشعري القمي الرافضي (٣٠٠هـ)[٢].

٣-المقالات[٣]: عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي المعتزلي (٣١٩هـ)[٤].

٤-المقالات في أصول الديانات: المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (٣٤٦هـ) شيعي معتزلي[٥].

٥-المسائل والعلل في المذاهب والملل: له أيضًا.

٦-الآراء والديانات[٦] للحسن بن موسى بن الحسن النوبختي الفارسي شيعي معتزلي[٧] (٣١٠هـ)[٨].

٧-جمل المقالات[٩]: لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٣٢٤هـ)[١٠].

=

(١) ترجمته في شذرات الذهب ١/ ٢٤٣، الأعلام ٣/ ٤٥.

(٢) ترجمته في الأعلام ٣/ ٨٦.

(٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٧٨٢.

(٤) ترجمته في تاريخ بغداد ٩/ ٣٨٤، الأعلام ٤/ ٦٥-٦٦.

(٥) ترجمته في فوات الوفيات ٢/ ٤٥، لسان الميزان ٤/ ٢٢٤، الأعلام ٤/ ٢٧٧.

(٦) ذكرابن النديم في الفهرست ص ١٧٧ أن ابن النوبختي ألف كتاب "الأراء والديانات " ولم يتمه

(٧) قال شيخ الإسلام ابن تيمية "في أواخر المائة الثالثة دخل من دخل من الشيعة في أقوال المعتزلة كابن النوبختي صاحب كتاب "الأراء والديانات " منهاج السنة ١/ ٧٢

(٨) ترجمته في الفهرست ص ٢٥١، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٢٧، الأعلام ٢/ ٢٢٤.

(٩) ذكره ابن عساكر في تبيين كذب المفتري ص ١٢٩، والذهبي في السير ١٥/ ٨٧-٨٨.

(١٠) ترجمته في وفيات الأعيان ١/ ٣٢٦، البداية والنهاية ١١/ ١٨٧.

٨-مقالات الإسلاميين: له أيضًا.

٩-مقالات غير الإسلاميين(١): له أيضا.

١٠-التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع: أبو الحسين محمد بن أحمد الملطي الشافعي (٣٧٧هـ)(٢).

١١-الملل والنحل(٣): أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (٤٠٣هـ)(٤).

١٢-الملل والنحل(٥): أبو منصور عبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ)(٦).

١٣-الفرق بين الفرق: له أيضًا.

١٤-تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة: لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني (٤٤٠هـ)(٧).

١٥-المقالات والآراء والديانات(٨): له أيضًا

١٦-الفصل في الملل والأهواء والنحل: لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ)(٩).

---

(١) ذكره ابن عساكر في تبيين كذب المفتري ص ١٢٩، والذهبي في السير ١٥/ ٨٧-٨٨. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ([كتاب مقالات غير الإسلاميين] وهوكتاب كبير أكبر من [مقالات الإسلاميين]) منهاج السنة ٥/ ٢٨٣ وقال الدكتور محمد رشاد سالم في هامش التحقيق "وهوكتاب مفقود .وانظر سزكين م ١ ،ح٤ ،ص ٣٥ـ٣٩ "

(٢) ترجمته في طبقات الشافعية ٢/ ١١٢، الأعلام ٥/ ٣١١.

(٣) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ص ١٨٢٠.

(٤) ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٩٠، الأعلام ٦/ ١٧٦.

(٥) مخطوط ذكره البغدادي في هدية العارفين ٥/ ٦٠٦، والزركلي في الأعلام ٤/ ٤٨.

(٦) ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٧٢.

(٧) ترجمته في الأعلام ٥/ ٣١٤.

(٨) مخطوط ذكره البغدادي في هدية العارفين ٦/ ٦٥.

(٩) ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٨٤-٢١٢، الأعلام ٤٢٥٤.

١٧-الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٥٤٨هـ)[١].

١٨-عقائد الثلاث والسبعين فرقة[٢]: لأبي محمد اليمني (من علماء القرن السادس الهجري)[٣].

١٩-اعتقدات فرق المسلمين والمشركين: فخر الدين محمد بن عمر الرازي (٦٠٦هـ)[٤].

٢٠-البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان: لأبي الفضل عباس بن منصور التريني السكسكي اليمني (٦٨٣هـ)[٥].

٢١-المقالات[٦]: علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني الصوفي (٧٣٦هـ)[٧].

٢٢-المنية والأمل في شرح الملل والنحل: أحمد بن يحي بن المرتضى اليماني الزيدي المعتزلي (٨٤٠هـ)[٨].

٢٣-الملل والنحل[٩]: له أيضًا.

٢٤-شارع النجاة[١٠]: أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (٨٤٥هـ)[١].

---

(١) ترجمته في وفيات الأعيان ١/ ٤٨٢، الأعلام ٦/ ٢١٥.

(٢) طبع بتحقيق د/ محمد بن عبد الله زربان الغامدي.

(٣) انظر الكلام عنه في القسم الدراسي من كتابه ١/ ١-٧.

(٤) ترجمته في وفيات الأعيان ١/ ٤٧٤، الأعلام ٦/ ٣١٣.

(٥) ترجمته في هدية العارفين ٥/ ٤٣٧، الأعلام ٣/ ٢٦٧.

(٦) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٧٨٢.

(٧) ترجمته في الدرر الكامنة ١/ ٢٥٠، الأعلام ١/ ٢٢٣.

(٨) ترجمته في هدية العارفين ٥/ ١٢٥.

(٩) ذكره البغدادي في هدية العارفين ٥/ ١٢٥.

(١٠) ذكره الزركلي في الأعلام ١/ ١٧٨.

٢٥-وجيزة المقال في بيان ملل الضلال[٢]: أحمد بن السيد عثمان الدمشقي الحنفي (كان حيا سنة ١١٦٣هـ)[٣].

والملاحظ على هذه المؤلفات أن جلها لاتحمل عقيدة أهل السنة والجماعة، فإذا ما استثنينا كتاب "التنبيه والرد" للملطي، وكتاب "عقائد الثلاث والسبعين فرقة" لأبي محمد اليمني، وكتب "مقالات الإسلاميين" لأبي الحسن الأشعري (على ما عليه من ملاحظات سيأتي بيانها)، نجد أن باقي الكتب تمثل تيارًا مخالفًا بل إنه في بعض الأحيان شديد المخالفة كالاعتزال أوالرفض.

ولكن لكون أكثر هذه الكتب تعتمد منهج النقل المجرد للمقالات دون تدخل في مناقشتها، فإنه قد يستفاد منها في هذا الوجه، أو قد يستفاد منها من وجه آخر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية "ومع هذا فيستفاد من كلامهم نقض بعضهم على بعض وبيان فساد قوله،فإن المختلفين كل كلامهم فيه شيء من الباطل،وكل طائفة تقصد بيان بطلان قول الأخرى،فيبقى الإنسان عنده دلائل كثيرة تدل على فساد قول كل طائفة من الطوائف المختلفين في الكتاب."[٤]

المطلب الثالث: أشهر الكتب المؤلفة في المقالات ومناهج مؤلفيها

من الحقائق التي يجهلها الكثير من الدارسين لهذا العلم أن أشهر الكتب التي يكثر تداولها بين أيديهم عند دراسة هذا العلم وهي "كتاب مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري،كتاب الفصل لابن حزم، وكتاب الملل

=

(١) ترجمته في البدر الطالع ١/ ٧٩، الأعلام ١/ ١٧٨.

(٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٣/ ٧٠٢، والبغدادي في هدية العارفين ٥/ ١٧٥.

(٣) ترجمته في المصدرين السابقين.

(٤) منهاج السنة ٥/ ٢٧٥

والنحل للشهرستاني، والفرق بين الفرق للبغدادي" لا تمثل عقيدة أهل السنة والجماعة، فهذه الكتب يصدق فبها قول شيخ الإسلام ابن تيمية "فالكتب المصنفة في مقالات الطوائف التي صنفها هؤلاء ليس فيها ما جاء به الرسول وما دل عليه القرآن، لا في المقالات المجردة، ولا في المقالات التي يذكر فيها الأدلة فإن جميع هؤلاء دخلوا في الكلام المذموم الذي عابه السلف وذموه."[(١)].

وقوله أيضًا: "ثم إن غالب كتب أهل الكلام والناقلين للمقالات، ينقلون في أصول الملل والنحل من المقالات ما يطول وصفه. ونفس ما بعث الله به رسوله،وما يقوله أصحابه والتابعون لهم في ذلك الأصل، الذي حكوا فيه أقوال الناس،لا ينقلونه لا تعمدًا منهم لتركه،بل لأنهم لم يعرفوه،بل ولا سمعوه،لقلة خبرتهم بنصوص الرسول وأصحابه والتابعين.".[(٢)].

ومن أجل ذلك أحببت التنبيه على ما حوته هذه المؤلفات من مناهج، مع بيان عقائد أصحابها وسمات تلك المؤلفات، وذلك على النحو التالي:

أولًا: كتاب مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري "٢٦٠ -٣٢٤".

١ - عقيدته:

يعتبر أبو الحسن الأشعري امتدادًا للمذهب الكلابي فأبو الحسن الأشعري الذي عاش في الفترة ما بين (٢٦٠هـ -٣٢٤هـ) كان معتزليًا إلى سن الأربعين، حيث عاش في بيت أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة في البصرة، ثم رجع عن مذهب المعتزلة وسلك طريقة ابن كلاب وتأثر بها لفترة طويلة، ولعل السبب في ذلك أنه وجد في كتب ابن كلاب وكلامه بغيته من الرد على المعتزلة وإظهار

---

(١) النبوات ص ٢١٩-٢٢٠.

(٢) منهاج السنة ٦/ ٣٠٣_٣٠٤

فضائحهم وهتك أستارهم، وكان ابن كلاب قد صنف مصنفات رد فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم. ولكن فات الأشعري أن ابن كلاب وإن رد على المعتزلة وكشف باطلهم وأثبت لله تعالى الصفات اللازمة، إلا أنه وافقهم في إنكار الصفات الاختيارية التي تتعلق بمشيئته تعالى وقدرته، فنفى كما نفت المعتزلة أن الله يتكلم بمشيئته وقدرته. كما نفى أيضًا الصفات الاختيارية مثل الرضى، والغضب، والبغض، والسخط وغيرها.

وقد مضى الأشعري في هذا الطور نشيطًا يؤلف ويناظر ويلقى الدروس في الرد على المعتزلة سالكًا هذه الطريقة.

ثم التقى بزكريا بن يحي الساجي فأخذ عنه ما أخذ من أصول أهل السنة والحديث،[١] وكان الساجي شيخ البصرة وحافظها[٢] ثم لما قدم بغداد أخذ عن حنبلية بغداد أمورًا أخرى وذلك بآخر أمره.

ولكن كانت خبرته بالكلام خبرة مفصلة، وخبرته بالسنة خبرة مجملة، فلذلك وافق المعتزلة في بعض أصولهم التي التزموا لأجلها خلاف السنة واعتقد أنه يمكنه الجمع بين تلك الأصول، وبين الانتصار للسنة، كما فعل في مسألة الرؤية والكلام، والصفات الخبرية وغير ذلك.[٣]

ولذلك قال عنه السجزي: (رجع في الفروع وثبت في الأصول)[٤] أي أصول المعتزلة التي بنوا عليها نفي الصفات، مثل دليل الأعراض وغيره.[٥]

---

(١)- مجموع الفتاوى ٥/ ٣٨٦، تذكرة الحفاظ (٢/ ٩٠٧).

(٢)- العلو ص١٥٠، تذكرة الحفاظ (٢/ ٩٠٧).

(٣)- مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٠٤.

(٤)- الرد على من أنكر الحرف والصوت ص١٦٨.

(٥)- موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١/ ٣٦٧.

وقال عنه الذهبي:"...وكان معتزليًا ثم تاب، ووافق أصحاب الحديث في أشياء يخالفون فيها المعتزلة، ثم وافق أصحاب الحديث في أكثر ما يقولونه، وهو ما ذكرناه عنه من أنه نقل إجماعهم على ذلك، وأنه موافق لهم في جميع ذلك، فله ثلاثة أحوال: حال كان معتزليًا، وحال كان فيها سنياً في بعض دون البعض، وكان في غالب الأصول سنيًا، وهو الذي علمناه من حاله، ف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له ولسائر المسلمين..."[1].

ب - منهج الأشعري في كتابه المقالات

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن أجمع الكتب التي رأيتها في مقالات الناس المختلفين في أصول الدين كتاب أبي الحسن الأشعري،وقد ذكر فيه من المقالات وتفصيلها ما لم يذكره غيره، وذكر فيه مذهب أهل الحديث والسنة بحسب ما فهمه عنهم. وليس في جنسه أقرب إليه منه، ومع هذا نفس القول الذي جاء به الكتاب والسنة وقال به الصحابة والتابعون لهم بإحسان: في القرآن،والرؤية،والصفات، والقدر،وغير ذلك من مسائل أصول الدين ليس في كتابه،وقد استقصى ما عرفه من كلام المتكلمين.

وأما معرفة ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وآثار الصحابة، فعلم آخر لا يعرفه أحد من هؤلاء المتكلمين،المختلفين في أصول الدين.ولهذا كان سلف الأمة وأئمتها متفقين على ذم أهل الكلام) إلى أن قال (ومع هذا فيستفاد من كلامهم نقض بعضهم على بعض وبيان فساد قوله،فإن المختلفين كل كلامهم فيه شيء من الباطل،وكل طائفة تقصد بيان بطلان قول الأخرى،فيبقى الإنسان عنده دلائل كثيرة تدل على فساد قول كل طائفة من الطوائف المختلفين في الكتاب.

---

(١) العرش للذهبي ٢/ ٣٠٢-٣٠٣.

وهذا مما مُدح به الأشعري ؛ فإنه بيّن من فضائح المعتزلة وتناقض أقوالهم وفسادها ما لم يبينه غيره،لأنه كان منهم،وكان قد درس الكلام على أبي علي الجبائي أربعين سنة،وكان ذكيًا،ثم إنه رجع عنهم،وصنف في الرد عليهم،ونصر في الصفات طريقة ابن كلاب،لأنها أقرب إلى الحق والسنة من قولهم،ولم يعرف غيرها،فإنه لم يكن خبيرًا بالسنة والحديث وأقوال الصحابة والتابعين وغيرهم،وتفسير السلف للقرآن.والعلم بالسنة المحضة إنما يستفاد من هذا.

ولهذا يذكر في المقالات مقالة المعتزلة مفصلة: يذكر قول كل واحد منهم وما بينهما من النزاع في الدق الجل.....؛ويذكر أيضًا مقالات الخوارج والروافض،لكن نقله لها من كتب أرباب المقالات،لاعن مباشرة منه للقائلين،ولا عن خبرة بكتبهم،ولكن فيه تفصيل عظيم،ويذكر مقالة ابن كلاب عن خبرة بها ونظر في كتبه،ويذكر اختلاف الناس في القرآن من عدة كتب.

فإذا جاء إلى مقالة أهل السنة والحديث ذكر أمرًا مجملًا تلقى أكثره عن زكريا بن يحي الساجي،وبعضه عمن أخذ عنه من حنبلية بغداد ونحوهم.وأين العلم المفصل من العلم المجمل ؟"(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ثم إن غالب كتب أهل الكلام والناقلين للمقالات، ينقلون في أصول الملل والنحل من المقالات ما يطول وصفه. ونفس ما بعث الله به رسوله،وما يقوله أصحابه والتابعون لهم في ذلك الأصل، الذي حكوا فيه أقوال الناس،لا ينقلونه لا تعمدًا منهم لتركه،بل لأنهم لم يعرفوه،بل ولا سمعوه،لقلة خبرتهم بنصوص الرسول وأصحابه والتابعين.

وكتاب المقالات للأشعري أجمع هذه الكتب وأبسطها، وفيه من الأقوال

---

(١) منهاج السنة ٥/ ٢٧٥ ـ ٢٧٨

وتحريرها مالا يوجد في غيرها. وقد نقل مذهب أهل السنة والحديث بحسب ما فهمه وظنه قولهم، وذكر أنه يقول بكل ما نقله عنهم.

وجاء بعده من أتباعه - كابن فورك - من لم يعجبه ما نقله عنهم، فنقص من ذلك وزاد، مع هذا فلكون خبرته بالكلام أكثر من خبرته في الحديث ومقالات السلف الأئمة، وقد ذكر في غير موضع عنهم أقوالًا في النفي والإثبات لا تنقل عن أحد منهم أصلًا".(١)

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وتأملت ما وجدته في الصفات من المقالات مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني، وكتاب مقالات الإسلاميين للأشعري، وهو أجمع كتاب رأيته في هذا الفن، وقد ذكر فيه ما ذكر أنه مقالة أهل السنة والحديث، وأنه يختارها، وهي أقرب ما ذكره من المقالات إلى السنة والحديث، لكن فيه أمور لم يقلها أحد من أهل السنة والحديث ونفس مقالة أهل السنة والحديث لم يكن يعرفها، ولا هو خبير بها، فالكتب المصنفة في مقالات الطوائف التي صنفها هؤلاء ليس فيها ما جاء به الرسول وما دل عليه القرآن، لا في المقالات المجردة، ولا في المقالات التي يذكر فيها الأدلة فإن جميع هؤلاء دخلوا في الكلام المذموم الذي عابه السلف وذموه."(٢).

ج - سمات كتاب مقالات الإسلاميين

من أبرز ما تميز به كتابه المقالات من السمات ما يلي:

١ -قصر الأشعري الحديث في كتابه على الفرق الإسلامية، والسبب في ذلك أن له كتابًا آخر سماه (مقالات غير الإسلاميين)

---

(١) منهاج السنة ٦/ ٣٠٣-٣٠٤

(٢) النبوات ص ٢١٩-٢٢٠.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ([كتاب مقالات غير الإسلاميين] وهو كتاب كبير أكبر من [مقالات الإسلاميين])(١).

٢-أغفل الأشعري في كتابه حديث الافتراق، فلم يتعرض له بشيء فضلًا عن أن يقيم كتابه عليه مثل ما فعل بعض المؤلفين الآخرين كما سيأتي.

٣-سلك الأشعري في عرض الآراء منهج عرض آراء ومقالات الفرق، دون أن يكون للمؤلف أي توجيه في ذلك العرض، فلا تعقيب ولا رد ولا نقد ولا مناقشة لتلك الآراء، وقد التزم الأشعري بهذا المنهج في جميع كتابه، ولذا عدَّ مصدرًا موثوقا به في نقل آراء الفرق الأخرى، وخاصة المعتزلة الذين يعدون من خصومه.

٤-تميز كتاب المقالات بالجمع بين الطريقتين في عرض آراء الفرق، فالجزء الأول معظمه كان وفق الطريقة الأولى، وهي جعل أصحاب المذاهب أصولًا.

أما الجزء الثاني فهو وفق الطريقة الثانية، وهي جعل المسائل أصولًا، ثم إيراد في كل مسألة مذهب طائفة وفرقة فرقة.

ومنهج الأشعري هذا جعل كتابه بمثابة كتابين مختلفين ضم أحدهما إلى الآخر، فمن أراد آراء الفرق في مسألة ما، أمكنه ذلك، ومن أراد آراء فرقة ما، أمكنه ذلك، وقد اقتضى منه ذلك شيء من التكرار الملاحظ لآراء الأشخاص في أكثر من موضع.

٥-حصر الأشعري أصول الفرق في عشر فرق(٢) خلافا للمؤلفين الآخرين

---

(١) منهاج السنة ٥/ ٢٨٣ وقال الدكتور محمد رشاد سالم في هامش التحقيق "وهو كتاب مفقود .وانظر سزكين م ١ ،ح٤ ،ص ٣٥-٣٩ "

(٢) مقالات الإسلاميين ١/ ٦٥.

كما سيأتي.

٦-اختلف منهج الأشعري في طائفة المعتزلة عن سائر الطوائف من حيث:

أ- عدم تقسيم المعتزلة إلى فرق، كما هو شأن سائر الفرق الأخرى.

ب- عرض آرائهم وفق الطريقة الثانية فقط، وهي جعل المسائل أصولا.

جـ- التوسع والإطناب في عرض آرائها توسعًا ملحوظًا، حيث استغرق الحديث عنهم نصف الجزء الأول تقريبًا، ومعظم الجزء الثاني، وذلك لسعة علمه واطلاعه على دقائق آرائهم، ودقة فهمه لمقولاتهم.

٧-كان الأشعري أعلم بالمقالات وقائليها، وأدق في نقل الأقوال، وعزوها إلى قائليها، وأكثر تحريًا ممن جاء بعده، بل إن كتابه هو مصدر معظم من جاء بعده من المؤلفين في مقالات الفرق، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في عدة مواضع من كتبه منها قوله:

"والأشعري أعلم بمقالات المختلفين من الشهرستاني، ولهذا ذكر عشر طوائف، وذكر مقالات لم يذكرها الشهرستاني، وهو أعلم بمقالات أهل السنة وأقرب إليها وأوسع علمًا من الشهرستاني"[(١)].

وقال: "ولهذا تجد نقل الأشعري أصح من نقل هؤلاء، لأنه أعلم بالمقالات، وأشد احترازًا من كذب الكذابين فيها..."[(٢)].

وقال أيضًا: "ومن أجمع الكتب التي رأيتها في مقالات الناس المختلفين في أصول الدين كتاب أبي الحسن الأشعري..."[(٣)].

وقال: "وكتاب المقالات للأشعري أجمع هذه الكتب وأبسطها، وفيه من

---

(١) النبوات ص ٢٤٧.

(٢) منهاج السنة ٦/ ٣٠١.

(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٧٥.

الأقوال وتحريرها مالا يوجد في غيرها"[١].

٨-الإيجاز والاختصار في عرض الآراء والمقالات بوجه عام[٢].

ثانيًا: كتاب "الفرق بين الفرق" لعبد القاهر البغدادي "ت ٤٢٩ هـ"

ا - عقيدته: هو أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩هـ[٣]، وكان أشعري المذهب ويدل على ذلك عدة أمور منها:

١-اتفاق المترجمين له على نسبته إلى هذا المذهب

٢-عرضه لعقيدة الأشعرية في كتابه الفرق بين الفرق على أنها عقيدة أهل السنة والجماعة الفرقة الناجية، ولم يصنف الأشعرية على أنها إحدى الطوائف بل جعلهم هم أهل الحق[٤].

٣-كتابه "أصول الدين" أكبر دليل على انتسابه إلى هذا المذهب، فقد ألفه على طريقة المتكلمين في تقسيمه لأبوابه، وتقريره لمسائل الاعتقاد على منهج الأشاعرة في مختلف الأبواب[٥].

ب - منهج البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق

تميز منهج البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق بعدم ميزات من أهمها ما يلي:

١-اعتمد في تقسيم الفرق الإسلامية على حديث الافتراق، وسعى في

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٠٣.

(٢) انظر حول هذه النقاط كتاب الشهرستاني ومنهجه في كتابه الملل والنحل ص ٢٥٨-٢٦٥ بتصرف.

(٣) ترجمته في وفيات الأعيان ١/ ٢٩٨، طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٢٣٨، فوات الوفيات ١/ ٢٩٨، تبيين كذب المفتري ص ٢٥٣، الأعلام ٤/ ٤٨.

(٤) الفرق بين الفرق ص ٣١٢ وما بعدها.

(٥) انظر المصدر السابق ص ٨٨، ٩٠، ١٣٣، ١٥٦، وغيرها.

تحديد الفرق طبقًا للعدد المذكور في الحديث.

٢-كانت طريقته في عرض آراء الفرق بجعل أصحاب الآراء وزعماء الفرق أصولًا، ثم إيراد آراء كل منهم في كل مسألة.

٣-تميز كتاب الفرق بين الفرق بحسن التنظيم وجودة الترتيب لآراء الفرق والتقسيمات المتعلقة بها.

٤-قدم قبل الخوض في آراء الفرق بمقدمات، ضمنها ذكر الخلافات الواقعة في أول الأمة، وكيف وقع الافتراق، والإشارة إلى فرق الأمة إجمالًا، وتوسع في ذلك فكانت تلك المقدمات كالخلاصة لبقية كتابه.

٥-اقتصر البغدادي على عرض آراء الفرق الإسلامية فقط.

٦-وافق البغدادي في عده لأصول الفرق أبا الحسن الأشعري، حيث جعل كل منهما أصول الفرق عشرة(١)، وعد بعض الفرق خارجة عن الإسلام وإن كانت تنتسب إليه، كغلاة الشيعة(٢).

٧-عرض البغدادي الأشعرية وآراءهم عرضًا يفيد أنها العقيدة الصحيحة التي عليها جمهور أهل السنة والجماعة ـ في نظره ـ وهم معظم المسلمين كما زعم، ولم يدخلها ضمن تصنيفه للفرق الإسلامية(٣).

٨-كان عرض البغدادي للفرق أكثر شمولًا من عرض غيره، حيث يعطي القارئ تصورًا عن الفرقة من جوانب متعددة، سواء كانت تاريخية أو فقهية أو غيرها؛ إضافة إلى الآراء العقدية لها.

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٨-٣٩.
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٠ وما بعدها.
(٣) المصدر السابق ص ٣١٢ وما بعدها.

٩-اتبع البغدادي في كتابه منهج التقرير والنقد، لا مجرد النقل الموضوعي لآراء الفرق، فكان يعرض آراء الفرق ومقولاتها، ثم يتبع ذلك بمناقشتها، وبيان بطلانها وتهافتها من وجهة نظره، وكانت مناقشاته وتعقيباته تتسم بالشدة، والقسوة وتصل إلى حد السب والسخرية والشماتة والتهكم بالرأي وصاحبه[١]، وذكر الإلزامات على الرأي، ومقارنة بعض آراء الفرقة بالمذاهب والأديان المنحرفة، بل يبلغ نقده حد الاتهام بالأعراض[٢]، بل التكفير والإخراج من ملة الإسلام، وهذا في مواضع متعددة من كتابه، وخاصة في حديثه عن المعتزلة[٣][٤].

ثالثًا: كتاب الفصل لابن حزم "ت ٤٥٦ هـ"

ا - عقيدته: هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي المتوفى (٤٥٦ هـ)، أما مذهبه العقدي فإن ابن حزم لم يكن له مذهب عقدي متميز سار عليه في جميع أبواب الاعتقاد، بل نجده مضطربًا اضطرابًا شديدًا في مختلف المسائل العقدية، فنجده مثلًا يوافق المتكلمين في طريقة إثباتهم لوجود الله بطريق الحدوث، لكنه زاد عليهم في الاستدلال بالآثار الدالة في المخلوقات على وجود الصانع وهو أحد أدلة أهل السنة.

ونجده يستعمل العديد من مصطلحات المتكلمين المجملة، كنفي الجسمية والعرضية والزمانية والمكانية والحركة، مع أن الصواب في ذلك هو عدم النفي المطلق بل التفصيل في هذه المسائل.

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٥، ١٧٧-١٧٨.

(٢)المصدر السابق ص ١٧٣.

(٣) المصدر السابق ص ١١٤ وما بعدها.

(٤) انظر حول هذه النقاط كتاب الشهرستاني ومنهجه في كتابه الملل والنحل ص ٢٦٥-٢٦٩ بتصرف.

ويوافق المعتزلة في إثبات الأسماء لله ﷻ مجردة عن المعاني المتعلقة بها، ومن غير أ ن تشتق منها الصفات، بل يعتبرها أنها أعلام محضة لا معنى لها.

والصفات التي يثبتها ابن حزم يرجعها إلى الذات كما هو مذهب طوائف من المتكلمين في هذه المسألة، ونجده أيضًا يؤول العديد من الصفات كالصورة، والأصابع، والساق، والاستواء، والنزول، وغيرها.

في حين نجده يوافق أهل السنة في جملة مسائل منها، مسألة الرؤية في الآخرة، والقرآن، وأنه كلام الله، وغالب مباحث أفعال الله تعالى، في باب القضاء والقدر.

في حين يوافق الأشاعرة في عدم تعليل أفعال الله تعالى خلافًا لأهل السنة والجماعة(١).

هذه بعض المسائل التي تبين اضطراب ابن حزم في منهجه العقدي مما يتعذر معه نسبته لطائفة معينة.

ب - منهج ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل

اتسم منهج ابن حزم في كتابه الفصل بعدة سمات من أبرزها ما يلي:

١-شمل كتاب الفصل الحديث عن الفرق الإسلامية والملل الأخرى من مختلف الأديان، وركز ابن حزم حديثه عن أهل الكتاب، وأولاهم اهتمامًا كبيرًا حتى استغرق ذلك جزءًا كبيرًا من الكتاب، بينما حديثه عن الفرق الإسلامية كان مختصرًا ويسيرًا.

٢-لم يعتمد ابن حزم في كتابه على حديث الافتراق، بل ضعفه وأبطله

---

(١) انظر حول الآراء العقدية لابن حزم كتاب ابن حزم وموقفه من الإلهيات للدكتور أحمد بن ناصر الحمد.

وأنكر صحته[١].

٣-جعل ابن حزم أصول الفرق خمسة وهي: "المعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخوارج، وأهل السنة"[٢].

٤-سلك ابن حزم في طريقة عرضه لآراء الفرق الطريقتين المتبعتين في ذلك، وهما: إما جعل المسائل أصولًا ثم ذكر من قال بها من مختلف الطوائف، وهي التي استخدمها أكثر، وإما جعل أصحاب المقالات وزعماء الفرق أصولًا، ثم ذكر قولهم في كل مسألة.

٥-سلك ابن حزم في كتابه منهج التقرير والنقد لمختلف الآراء، ولم يكتفي بمجرد العرض الموضوعي لها، بل لم يدخر جهدًا في إبطال ونقد كل مذهب ومقالة عرضها تخالف ما يعتقده، وقد كان في نقده ومناقشته لتلك الآراء عنيفًا، شديدًا في عباراته وألفاظه، قويًا في رده، خاصة في مناقشته لأهل الكتاب فيما تضمنه كتابهم المقدس ـ بزعمهم ـ حيث نقده نقدًا شديدًا، وبين تحريفه.

ومع قسوته وعنفه إلا أنه كان موضوعيًا، وكان نقده علميًا لا عاطفيًا حماسيًا.

٦-جاء كتاب ابن حزم مضطرباً في ترتيبه غير منظم، وقد أصاب السبكي في ذلك عندما قال: "وكتاب الملل والنحل للشهرستاني هو عندي خير كتاب صنف في هذا الباب، مصنف ابن حزم وإن كان أبسط منه، إلا أنه مبدد ليس له نظام..."[٣].

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٣/ ١٣٨ ط/ دار الجيل.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٨.
(٣) طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٧٨.

وقد علل أصحاب دائرة المعارف الإسلامية وجود هذا الاضطراب في كتاب ابن حزم بقولهم: "إن الترتيب المنطقي لهذا الكتاب - الفصل - مضطرب إلى حد ما؛ بسبب إدماج رسائل مستقلة فيه..."[١][٢].

رابعًا: كتاب الملل والنحل للشهرستاني "ت ٥٤٨"

ا - عقيدته: هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ هـ[٣]، وكان الشهرستاني أشعري المعتقد ويدل لذلك عدة أمور منها:

١-إجماع المترجمين له على نسبته إلى المذهب الأشعري في المعتقد، ولم يخالف في ذلك أحد[٤].

٢-دلالة العديد من كتبه على انتسابه إلى المذهب الأشعري في المعتقد، مثل كتابه الملل والنحل الذي قرر فيه أن المذهب الأشعري هو مذهب أهل السنة والجماعة، وتصريحه في كتابه نهاية الإقدام حين يعرض آراء المذهب الأشعري بقوله: "نقول، قلنا، قولنا، قول الحق"[٥]، وغير ذلك؛ بخلاف عرض آراء المذاهب المخالفة، حيث يصدرها بقوله: "قالوا، يقولون، قولهم،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٥٤.

(٢) انظر حول هذه النقاط كتاب الشهرستاني ومنهجه في كتابه الملل والنحل ص ٢٦٩-٢٧٣ بتصرف.

(٣) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٨٦، طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٧٨، وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٣، الوافي بالوفيات للصفدي ٣/ ٢٧٨، المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ٣/ ٢٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٦ وغيرها.

(٤) انظر المشترك وضعًا والمفترق صقعًا لياقوت الحموي ص ٢٧٩، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤/ ٢٧٤، الوافي بالوفيات للصفدي ٣/ ٢٧٨، المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ٣/ ٢٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٦.

(٥) انظر نهاية الإقدام ص ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٩٢، ٣١١، ٣٨٧، ٣٩٩، وغيرها من المواضع.

حققوه"[١]، وغير ذلك.

فكاتبه هذا - في جملته - تقرير للمذهب الأشعري بأدلته وحججه ومناقشة الآراء المخالفة والرد عليها[٢].

ومن الأمور التي اشتهرت في حق الشهرستاني اتهامه بالميل إلى الفلاسفة الباطنية، ومن العلماء الذين وجهوا له هذا الاتهام ابن أرسلان الخوارزمي[٣]، وعلي بن أبي القاسم البيهقي[٤]، والسمعاني[٥]، والذهبي[٦].

وقد دافع عنه آخرون وحاولوا تبرئته من هذه التهمة منهم السبكي[٧]، وابن حجر العسقلاني[٨]،والدكتورة سهير محمد مختار[٩].

وقد حقق القول في هذه المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية وبين رأيه في هذه التهمة قائلًا: "أما قوله (يعني بذلك ابن مطهر الحلي) إن الشهرستاني من أشد المتعصبين على الإمامية، فليس كذلك بل يميل كثيرًا إلى أشياء من أمورهم، بل يذكر أحيانًا أشياء من كلام الإسماعيلية الباطنية منهم ويوجهه؛ ولذا اتهمه الناس بالإسماعيلية، وإن لم يكن الأمر كذلك، وقد ذكر من اتهمه شواهد من كلامه

---

(١)انظر المصدر السابق ص ٢٨١، ٣٠٥، ٤٠٥، ٤٠٨، ٤٠٩، وغيرها من المواضع.

(٢) انظر لمزيد من التفصيل في مذهبه العقدي "الشهرستاني وكتابه الملل والنحل ص ٩٠-١١٧.

(٣) انظر معجم البلدان ٣/ ٣٧٧، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٨٨، ولسان الميزان ٥/ ٢٦٣.

(٤) انظر تاريخ حكماء الإسلام ص ١٤٢.

(٥) انظر التحبير في المعجم الكبير ٢/ ١٦١، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٨٧.

(٦) انظر العبر في خبر من غبر ٣/ ٧.

(٧) انظر طبقات الشافعية ٤/ ٧٩.

(٨) انظر لسان الميزان ٥/ ٢٦٤.

(٩) انظر الشهرستاني وآراؤه الكلامية والفلسفية ص ٣٦٢.

وسيرته، وقد يقال: هو من الشيعة بوجه، ومع أصحاب الأشعري بوجه... وبالجملة فالشهرستاني يظهر الميل إلى الشيعة إما بباطنه وإما مداهنة لهم..."[١].

ومما يؤكد ذلك أن الشهرستاني صنف في ذكر فضائح الباطنية[٢]، وفي الرد على ابن سينا الفيلسوف الإسماعيلي، يقول ابن القيم: "وصارع محمد الشهرستاني ابن سينا في كتاب سماه (المصارعة) أبطل فيه قوله بقدم العالم، وإنكار المعاد، ونفي علم الرب تعالى وقدرته وخلقه العالم"[٣].

وإن كان للشهرستاني بعض الردود على مطاعن الشيعة في الصحابة[٤]، ووصفهم بالحيرة والضياع[٥]، إلا أن ميله للتشيع أمر مؤكد في حقه كما قال شيخ الإسلام عنه: "وبالجملة فالشهرستاني يظهر الميل إلى الشيعة إما بباطنه وإما مداهنة لهم، فإن هذا الكتاب ـ الملل والنحل ـ صنفه لرئيس من رؤسائهم، وكانت له ولاية ديوانية، وكان الشهرستاني مقصود في استعطافه له، وكذلك صنف له كتاب المصارعة..."[٦].

وربما كان هذا التذبذب محاولة منه لإرضاء الطرفين، أهل السنة والشيعة، والله أعلم.

---

(١) منهاج السنة ٦/ ٣٠٥-٣٠٧.
(٢) درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٨.
(٣) إغاثة اللهفان ٢/ ٣٨١، وانظر مقدمة الشهرستاني لكتابه مصارعة الفلاسفة ص ١٦، ونهاية الإقدام ص ٥، ٢٣.
(٤) انظر الملل والنحل ١/ ١٦٤-١٦٥.
(٥) المصدر السابق ١/ ١٧٢، ١/ ٩٣.
(٦) منهاج السنة ٦/ ٣٠٦، وانظر اعتراف الشهرستاني بذلك في مصارعة الفلاسفة ص ١٤.

ب - منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل

تتمثل أبرز سمات المنهج الذي سار عليه الشهرستاني في كتابه الملل والنحل في النقاط التالية:

١-جمعه بين الحديث عن الفرق الإسلامية وملل ومذاهب أخرى، فكتابه أشبه بالموسوعة المختصرة في الأديان والمذاهب والفرق المختلفة.

٢-اعتماده حديث الافتراق، حيث بني تقسيمه للفرق على ضوئه، وتكلف في حصر الفرق وتحديدها ليطابق العدد المذكور في ذلك الحديث.

٣-اشترط الشهرستاني في أول كتابه بأن يسلك المنهج الموضوعي في العرض دون التعقيب أو النقد أو الرد(١)، إلا أنه لم يلتزم بهذا الشرط بل كانت له بعض التعقيبات والمداخلات أثناء حديثه عن بعض الفرق والطوائف.

٤-اقتصر في عرض آراء ومقالات الفرق على طريقة جعل أصحاب المقالات وزعماء الفرق أصولًا، ثم إيراد تحت كل منهم آراءه في مسألة مسألة، وعلل ذلك بأنه أضبط للأقسام وأليق ببيان الحساب(٢).

٥-حصر المؤلف أصول الفرق في أربع فرق كبار هي: "القدرية، الصفاتية، الخوارج، الشيعة"(٣).

٦-عدم الدقة في النقل وقلة العلم بمقالات بعض الفرق، كما قال ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض المقارنة بين كتابه وكتاب المقالات للأشعري الذي وصفه بضد ذلك فقال:"...والشهرستاني قد نقل في غير موضع

(١) الملل والنحل ١/ ١١.
(٢) المصدر السابق ١/ ١٠-١١.
(٣) المصدر السابق ١/ ١٠.

أقوالًا ضعيفة، يعرفها من يعرف مقالات الناس، مع أن كتابه أجمع من أكثر الكتب المصنفة في المقالات وأجود نقلًا، ولكن هذا الباب وقع فيه ما وقع. ولهذا لما كان خبيرًا بقول الأشعرية وقول ابن سينا ونحوه من الفلاسفة،كان أجود ما نقله قول هاتين الطائفتين. وأما الصحابة والتابعون وأئمة السنة والحديث، فلا هو وأمثاله يعرفون أقوالهم، بل ولا سمعوها على وجهها بنقل أهل العلم لها بالأسانيد المعروفة، وإنما سمعوا جملًا تشتمل على حق وباطل"[١].

ولعل هذا الخلل وقع منه بسبب مصادره في النقل حيث صرح شيخ الإسلام بأن أكثر مصادره هي كتب المعتزلة وقلة خبرته بالحديث وآثار السلف، فقال: "والشهرستاني أكثر ما ينقله من المقالات من كتب المعتزلة..."[٢].

وقال أيضًا: "والشهرستاني لا خبرة له بالحديث وآثار الصحابة والتابعين، ولهذا نقل في كتابه هذا ما ينقله من اختلاف غير المسلمين واختلاف المسلمين، ولم ينقل مع هذا مذهب الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في الأصول الكبار، لأنه لم يكن يعرف هذا هو وأمثاله من أهل الكلام، وإنما ينقلون ما يجدونه في كتب المقالات، وتلك فيها أكاذيب كثيرة من جنس مافي التوريخ "[٣].

٧-تضمن منهج الشهرستاني في كتابه العناية بالأسماء والمصطلحات، فلا يكاد يذكر فرقة في حديثه إلا يسميها، بل قد يذكر أكثر من اسم لها إن وجد، ويعزو الآراء إلى قائليها، سواءً كانوا فرقة أو أفرادًا.

---

(١) منهاج السنة ٦/ ٣٠٤_٣٠٥

(٢)منهاج السنة ٦/ ٣٠٧

(٣)منهاج السنة ٦/ ٣١٩_٣٢٠

٨-تميز كتاب الشهرستاني عن غيره من المصنفات في المقالات بحسن التنظيم، وجودة الترتيب للفرق وآرائهم.

٩-تميز منهجه العام في العرض بالإيجاز والاختصار.

١٠-قدم لكتابه قبل الخوض في آراء الفرق بمقدمات ضمنها ذكر الخلافات الواقعة في أول الأمة، وتوسع في ذلك، وبين كيف وقع الافتراق، وأشار إلى فرق الأمة إجمالًا، حتى كأنما أجمل كتابه في تلك المقدمات[1].

الخاتمة

أهمية التأليف في علم المقالات استقلالًا.

لاتزال الحاجة ماسة إلى تخليص مادة هذا العلم مما أصابها من تشويه وقلب للحقائق بسبب ما حوته أكثر كتب هذا الفن ذيوعًا وانتشارًا، ولذلك أود أن ألفت النظر إلى ضرورة إعادة صياغة هذا العلم وذلك لوجود عدة ثغرات هي بحاجة إلى معالجة ألخصها من خلال عدة وقفات على النحو التالي:

الوقفة الأولى: علم مقالات الفرق يُعنى كما هو معلوم بالمقالة وقائلها، ولكل جانب من هذين الجانبين أهميته؛وارتباطه مع الجانب الأخر،ولكن مع ارتباط الجانبين في بعض النواحي إلا أن لكل واحد منهما جانب من الخصوصية والاستقلالية.

ومن المعلوم أن المقالة قد تشترك فيها أكثر من فرقة، والفرقة قد تكون لها أكثر من مقالة، وغالبًا ماتندثر بعض الفرق ولكن مع ذلك تبقى أفكارها فتتلقفها فرق أخرى بمسميات جديدة،كما هو مشاهد في عصرنا الحاضر، فبعض أفكار

---

(١) انظر حول هذه النقاط كتاب الشهرستاني ومنهجه في كتابه الملل والنحل ص ٢٥٣-٢٧٣، بتصرف.

المعتزلة والخوارج ومقالاتهم تنادي بها اليوم بعض الطوائف والجماعات المعاصرة التي قد لا ترتبط بتلك الفرق إلا من جهة تبنيها لبعض أفكارها،وبطبيعة الحال لا يمكن أن تنسب إلى تلك الفرق انتسابًا مطلقًا لأنها قد لا تتفق معها في سائر أفكارها الأخرى، فلكي تُنسب جماعة أو طائفة إلى المعتزلة ـ على سبيل المثال ـ فلا بد أن تكون مقرة بالأصول الخمسة المعروفة عندهم وهي (التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوعد والوعيد)

وقد جرت العادة – في الغالب الأعم – أن تُدرس الفرقة ثم يتم التعرف على بعض مقالاتها التي اشتهرت بها الأمر الذي يجعل الدارس يربط المقالة بالفرقة التي قالت بها،مما يصرف الذهن عن التنبه إلى كون تلك المقالة قد يكون هناك من تبناها من الفرق الأخرى،أو أنها قد تظهر في فترات زمنية لاحقة تحت مسميات جديدة غير التي كانت تعرف بها سابقًا في كتب الفرق المتقدمة،ومثل هذا اللبس يقع فيه بعض الدارسين مما يجعلهم يخلطون بين تلك الحقائق ولا يميزون بينها مما يؤثر سلبًا على الهدف الأسمى الذي بسببه أدرج هذا الفن في علم العقيدة،وخص بالبحث والدراسة.

ثم إنه مع تباعد الأزمنة وانقراض بعض الفرق، وبقاء أكثر مقالاتهم التي أحدثوها حتى زمننا هذا ووجود مسميات جديدة تحمل تلك الأفكار السابقة، فإني أرى الحاجة ماسة إلى دراسة المقالات بنوع من الاستقلالية عن الفرق التي تبنتها قديمًا، حتى يسهل رصد تلك المقالات وتتبعها جذورًا وفروعًا.

ولا شك أن أهل الاختصاص يدركون أن الغاية من دراسة علم الفرق هو معرفة المقالات المخالفة مع ما يستدعيه ذلك من التعرف على بعض الجوانب

التاريخية ذات العلاقة بالفرق التي تبنت تلك المقالات وما تفرع عنها، فالمقالة تأتي في المقام الأول فهي بيت القصيد، وقطب رحى علم الفرق،.

ولكن مع هذه الدعوة لابد من التنبيه على ضرورة المحافظة على الروابط القائمة بين الجانبين وذلك للارتباط الوثيق بينهما،ولا يعني كلامي السابق أنني أدعو إلى الفصل الكلي بين الجانبين، أو أنني أنتقد المنهج الأخر المعتمد على وضع الرجال وأصحاب المقالات أصولًا ثم إيراد مذاهبهم في المسائل مسألة مسألة فلهذا المنهج فوائده وخصائصه.ولكن مقصودي هو ضرورة إيجاد التوازن بين الجانبين وأن يعطى كل جانب حقه من العناية والاهتمام والبحث والدراسة وذلك للمبررات السابق ذكرها

الوقفة الثانية: إن عناية كتب الفرق تنصب - في الغالب الأعم - على النقل المجرد للمقالات دون الدخول في تفاصيلها، فلا تتعرض إلى جذورها وشبهها ومسائلها والردود عليها أو الانتصار لها، فتبقى دراسة هذه الجوانب قاصرة ومحدودة الجانب ولا يمكن استيفاؤها من هذا الوجه.

وهذا الجانب له أهميته عند دراسة هذا العلم فكثير من المقالات هي في حقيقتها دخيلة على هذه الأمة، إذ هي دسيسة من دسائس أعداء هذا الدين من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم، فالبحث في جذور هذه المقالات ومعرفة أصولها يعين على معرفة طرق أهل الباطل وكشف أساليبهم،ويُمكن من صدهم وفضح باطلهم وهذا الجانب لا توليه كتب الفرق الاهتمام اللازم

فمثل هذا الحال يستدعي أن تدرس المقالات بنوع من الاستقلالية عن دراستها من خلال ارتباطها بدراسة فرقة بعينها كما هو الحاصل في دراسة مادة الفرق اليوم

الوقفة الثالثة: يدرك المتخصص في هذا الفن أن غالب من ألف في هذا الباب ليسوا من أهل السنة،وإنما هم من المعتزلة أو الرافضة أو الأشاعرة،ولذلك فإن مشاهير الكتب المؤلفة في علم الفرق لا تعبر عن مذهب أهل السنة والجماعة،وليس لدى أصحابها الدراية اللازمة بعقيدة أهل السنة والجماعة،وفي اعتقادي أن عزوف كبار علماء أهل السنة عن التأليف بمثل هذه الطريقة التي سار عليها أصحاب تلك المؤلفات له ما يبرره، فالعبرة في المقام الأول للأقوال لا لقائليها ولذلك كثرت مؤلفاتهم في المسائل والردود وقلت في باب الفرق ؛ بل انتقدوا منهج وطريقة تلك المؤلفات،وفي هذا يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ:"وقد تدبرت كتب الاختلاف التي يذكر فيها مقالات الناس إما نقلًا مجردًا، مثل كتاب "المقالات" لأبي الحسن الأشعري،وكتاب "الملل والنحل" للشهرستاني،ولأبي عيسى الوراق ؛أو مع الانتصار لبعض الأقوال،كسائر ما صنفه أهل الكلام على اختلاف طبقاتهم - فرأيت عامة الاختلاف الذي فيها من الاختلاف المذموم.أما الحق الذي بعث الله به رسوله،وأنزل به كتابه،وكان عليه سلف الأمة - فلا يوجد فيها في جميع مسائل الاختلاف،بل يذكر أحدهم في المسألة عدة أقوال،والقول الذي جاء به الكتاب والسنة لا يذكرونه،وليس ذلك لأنهم يعرفونه ولا يذكرونه،بل لا يعرفونه.

ولهذا كان السلف والأئمة يذمون هذا الكلام ؛ولهذا يوجد الحاذق منهم المنصف الذي غرضه الحق في آخر عمره يصرح بالحيرة والشك، إذ لم يجد في الاختلافات التي نظر فيها وناظر ما هو حق محض ؛ وكثير منهم يترك الجميع ويرجع إلى دين العامة الذي عليه العجائز والأعراب)[(١)]

---

(١) منهاج السنة ٥/ ٢٦٨ - ٢٦٩

الوقفة الرابعة: أن المقالات تتفاوت في الكم والكيف، فهناك مقالات كبيرة تندرج تحتها جملة من الأقوال وتتشعب عنها أنواع من الأراء والأفكار والمسائل، ومثل هذه المقالات بحاجة إلى دراسة مستقلة توضح تلك الجوانب وتشرح تلك الأفكار والأراء، وتبين نوع العلاقة وأوجه الخلاف وحجج كل قول ومن قال به.ومن ثم يذكر من تبنى تلك المقالات وقال بها.

الوقفة الخامسة: لما كان البحث عن معلومات هذا الفن إنما يتأتى غالبًا من أحد طريقين هما:

أولا :النظر في الكتب المؤلفة في علم الفرق.

وثانيًا: الرجوع إلى الكتب المؤلفة في مسائل الاعتقاد.

والطريق الأول أسهل بكثير من الطريق الثاني،وذلك نظرًا لكون كتب الاعتقاد ليس لها نمط موحد في ترتيب الأبواب والمسائل، فيندر أن تجد كتابين يتفقان في ترتيب المسائل وطريقة سردها، ولذلك فإن من الصعوبة بمكان البحث عن معلومة تتعلق بمسألة أو مقالة معينة في تلك الكتب،مع كون تلك الكتب تحتوي على مادة كبيرة في موضوع علم المقالات، وبالأخص كتب أهل السنة،الأمر الذي يستدعي في نظري أن تجرد تلك المادة الضخمة وتجمع ليسهل الاستفادة منها والرجوع إليها، وهذا متيسر بإذن الله لو أن هذا العلم أفرد بالتصنيف والتأليف بصورة مستقلة.

وفي الحقيقة لا تزال مادة علم المقالات إلى يومنا هذا موزعة ومشتتة بين عدة علوم، فهناك كتب علم الفرق، وكتب علم العقيدة، وكتب علوم التأريخ والرجال، وغيرها من كتب الفنون، وتحتوي كتب التراجم والسير وتأريخ الرجال من كتب أهل السنة، على مادة جيدة في هذا المجال، ومن ذلك على

سبيل المثال مؤلفات الذهبي، وهذه المادة هي كذلك بحاجة إلى جمع وإخراج ودراسة،لتعطي إضافة مهمة في هذا الجانب

ولعل فيما كتبته في هذا البحث دافعًا لإحياء لهذا الجانب وحافزًا لمزيد من الكتابات التي تثري هذا المجال الذي هو بأمس الحاجة إلى أقلام الدارسين،والله الموفق[(١)].

(باب ذكر الجهمية)

الجهمية إحدى الفرق الكلامية التي تنتسب إلى الإسلام، وهي ذات مفاهيم وآراء عقدية خاطئة في مفهوم الإيمان وفي صفات الله تعالى وأسمائه، وترجع في نسبتها إلى مؤسسها الجهم بن صفوان الترمذي، الذي كان له ولأتباعه في فترة من الفترات شأن وقوة في الدولة الإسلامية حينًا من الدهر، وقد عتوا واستكبروا واضطهدوا المخالفين لهم حينما تمكنوا منهم، ثم أدال الله عليهم فلقوا نفس المصير الذي حل بغيرهم على أيديهم. سنة الله في خلقه ولن تجد لسنته تبديلًا.

ولقد كان هؤلاء الجهمية العقبة الكؤود في طريق العقيدة السلفية النقية وانتشارها؛ حيث صرفوا علماء السلف عن نشرها بما وضعوا أمامهم من عراقيل شغلتهم وأخذت الحيز الأكبر من أوقاتهم في رد شبهات الجهمية ومجادلاتهم لهم وخصامهم معهم، وكانت العاقبة الحسنة - ولا تزال - لأهل السنة والجماعة ولله الحمد.

ولقد كان لهذه الطائفة التى قامت على مبدأ التعطيل والجبر صولة وجولة فى تاريخ الأمة الإسلامية، ولقد تمكنوا وعلا شأنهم وقتًا من الزمن.

وآراء هذه الطائفة لا تزال فى بعض المجتمعات، ولا يزال الخصام بينهم

---

(١) مقدمات في علم مقالات الفرق لمحمد بن خليفة التميمي.

وبين أهل الحق قائمًا على أشده، كما كان سابقًا فى الزمن القديم حتى وإن اختلفت فى بعض الأحيان المسميات، خصوصًا بعد ظهور العصريين الجدد بمفاهيمهم الباطلة، الذين لم يقفوا عند حد فى إثارة كل ما يمتُّ إلى هواهم ولو بأدنى صلة، فهم جادون فى إحياء تلك المفاهيم الجهمية الباطلة باسم التجديد حينًا والتطوير أحيانًا أخرى.

فمثلًا الاكتفاء بمعرفة وجود الله عن العمل، أو الاعتقاد بعدم وجود الجنة الآن، وكذا النار، أو قولهم أو زعم أن الله لا يوصف بوصف، أو ليس فى جهة. وغير ذلك من الآراء التى يعتقدها بعض الناس اليوم هى نفسها آراء الجهمية قديمًا.

وإذا كان المثال للانفلات من الالتزام بالعقيدة الصحيحة والسير لهدمها تحت شعارات براقة فى دعوى التجديد والتطوير، وأحيانًا فى صورة تمجيد للعقل والعلم أو التراث مما اهتم به كثير من الكتاب والكاتبات قديمًا وحديثًا، فإنه يتوجب على كل طالب علم أن يحذر هؤلاء ويحذِّر منهم، وألا يركن إلى كتاباتهم، بل ولا ينبغى الاهتمام بقراءة كتبهم قبل أن يطلع على ما عندهم من الباطل، فإن تلك الكتب مملوءة بالدس والانحراف تحت زخرف من القول.

التعريف بالجهمية وبمؤسسها:

الجهمية إحدى الفرق الكلامية التى تنتسب إلى الإسلام، وهى ذات مفاهيم وآراء عقدية كانت لها آراء خاطئة فى مفهوم الإيمان وفى صفات الله تعالى وأسمائه.

وترجع فى نسبتها إلى مؤسسها الجهم بن صفوان الترمذى، الذى كان له ولأتباعه فى فترة من الفترات شأن وقوة فى الدولة الإسلامية حينًا من الدهر، وقد

عتوا واستكبروا واضطهدوا المخالفين لهم حينما تمكنوا منهم، ثم أدال الله عليهم فلقوا نفس المصير الذى حل بغيرهم على أيديهم. سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنته تبديلًا.

من هو الجهم بن صفوان

هذا الرجل هو حامل لواء الجهمية، واسمه الجهم بن صفوان، وهو من أهل خراسان، ظهر فى المائة الثانية من الهجرة، ويكنى بأبى محرز، وهو من الجبرية الخالصة، وأول من ابتدع القول بخلق القرآن وتعطيل عن صفاته.

وكان مولى لبنى راسب إحدى قبائل الأزد، وكان من أخلص أصدقاء الحارث بن سريج، وتاريخه طويل، وكتبت فيه مؤلفات عديدة ورسائل جامعية.

وأما الإمام أحمد بن حنبل فقد قال عنه: (وكذلك الجهم وشيعته دعوا الناس إلى المتشابه من القرآن والحديث فضلوا وأضلوا بكلامهم بشرًا كثيرًا، فكان مما بلغنا من أمر الجهم عدو الله أنه كان من أهل خراسان من أهل ترمذ، وكان صاحب خصومات وكلام)(١).

نشأة الجهمية

قامت أفكار الجهم بن صفوان على البدع الكلامية والآراء المخالفة لحقيقة العقيدة السلفية متأثرًا بشتى الاتجاهات الفكرية الباطلة.

وقد ذكر شيخ الإسلام درجات الجهمية ومدى تأثر الناس بهم، وقسمهم إلى ثلاث درجات:

١. الدرجة الأولى: وهو الجهمية الغالية النافون لأسماء الله وصفاته، وإن

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية ص٢٣.

سموه بشيء من الأسماء الحسنى قالوا: هو مجاز.

٢. الدرجة الثانية من الجهمية: وهم المعتزلة ونحوهم، الذين يقرون بأسماء الله الحسنى فى الجملة لكن ينفون صفاته.

٣. الدرجة الثالثة: وهم قسم من الصفاتية المثبتون المخالفون للجهمية، ولكن فيهم نوع من التجهم، وهم الذين يقرون بأسماء الله وصفاته فى الجملة ولكنهم يردون طائفة من الأسماء، والصفات الخبرية وغير الخبرية ويؤولونها.

ومنهم من يقر بصفاته الخبرية الواردة فى القرآن دون الحديث كما عليه كثير من أهل الكلام والفقه، وطائفة من أهل الحديث. ومنهم من يقر بالصفات الواردة فى الأخبار أيضًا فى الجملة، لكن مع نفى وتعطيل لبعض ما ثبت بالنصوص وبالمعقول، وذلك كأبى محمد بن كلاب ومن اتبعه.

وفى هذا القسم يدخل أبو الحسن الأشعرى وطوائف من أهل الفقه والكلام والحديث والتصوف، وهؤلاء إلى السنة المحضة أقرب منهم إلى الجهمية والرافضة والخوارج والقدرية، لكن انتسب إليهم طائفة هم إلى الجهمية اقرب منهم إلى أهل السنة المحضة[١].

ذكر أهم عقائد الجهمية إجمالًا

١. إنكار الجهمية لجميع الأسماء والصفات:

تنكر الجهمية جميع الأسماء التى سمى الله بها نفسه وجميع الصفات التى وصف بها نفسه بحجج واهية وتأويلات باطلة.

شبهات الجهمية فى نفى الصفات:

لقد أقدم الجهمية على نفى الأسماء والصفات بمزاعم من أهمها:

---

(١) انظر: التسعينية لشيخ الإسلام ابن تيمية. ضمن مجموع الفتاوى.

١. أن إثبات الصفات يقتضى أن يكون الله جسمًا، لأن الصفات لا تقوم إلا بالأجسام، لأنها أعراض والأعراض لا تقوم بنفسها.

٢. إرادة تنزيه الله تعالى.

٣. أن وصف الله تعالى بتلك الصفات التى ذكرت فى كتابه الكريم أو فى سنة نبيه العظيم يقتضى مشابهة الله بخلقه، فينبغى نفى كل صفة نسبت إلى الله تعالى وتوجد كذلك فى المخلوقات لئلا يؤدى إلى تشبيه الله -بزعمهم- بمخلوقاته التى تحمل اسم تلك الصفات.

الرد عليهم

مما يدركه طلاب العلم أن الله ﷻ وصف نفسه فى كتابه الكريم ووصفه به نبيه ﷺ بصفات تعرف معانيها ولا تدرك كيفياتها، وهى معروفة فى القرآن والحديث.

وقد وقف السلف من الصحابة الكرام إلى وقتنا الحاضر إزاء هذه الصفات موقفًا واضحًا جليًا لا لبس فيه، يتلخص فى كلمات يسيرة ومعان واضحة، ألا وهو الإيمان التام بكل ما وصف الله به نفسه ووصفه به نبيه ﷺ، كما جاءت به النصوص من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف.

يقولون عن كل صفة: الصفة معلومة والكيف مجهول والسؤال عنها بدعة، ولم يتنطعوا تنطع المشبهة ولم يسلكوا مسالك المعطلة، لأنهم على معرفة تامة أن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات، فلا يصفون ذاتًا غير مدركة الماهية بصفات تكيفها، لأن هذا هو القول على الله بغير علم.

إذ كيف تكيف ذاتًا لم تدركها ولم توصف لك أكثر من صفات مجملة قابلة للاشتراك فى الأسماء متباينة الحقائق، ومن هنا نجد أنه لم يعرف عن أى شخص

من الصحابة أنه سأل النبى ﷺ عن كيفية أى صفة من الصفات التى أخبر الله بها فى القرآن الكريم أو أخبرهم بها نبيهم ﷺ.

وهذه دلالة على قوة ذكائهم وصفاء عقولهم، لأنهم يعرفون بداهة أن الاشتراك فى التسمية لا يوجب الاشتراك والمماثلة فى الذات، إذ يقال: رأس الرجل ورأس الجمل ورأس الذرة ورأس الجبل، وبين ذوات هذه الأشياء من الفروق ما لا يخفى على عاقل.

ومن العجائب أن يثبت الله لنفسه الصفة وهم ينفونها عنه، ومثلهم فى هذا كمثل شخص سأل آخر عن اسمه وهو لا يعرفه فأخبره فقال له: لا، إن اسمك ليس هذا، ذلك أن الله تعالى قال: (الرحمن على العرش استوى) وهم يقولون: لا يجوز إثبات هذه الصفة بل يجب نفيها مطلقًا، أو تأويلها بمعنى استولى أو قصد، أو غير ذلك من تأويلاتهم الباطلة.

وحينما قال تعالى عن نفسه: (وهو السميع البصير)، قالوا: يجب نفى مدلول هذا نفيًا تامًا أو تأويله، إما أن يكون بمعنى سميع بلا سمع بصير بلا بصر، أو أنه سميع بذاته بصير بذاته، إلى آخر مواقفهم الخاطئة تجاه كل الصفات والأسماء.

إن تنزيه الله ﷻ لا يمكن أن يكون بسلب صفاته وما تدل عليه من العظمة والكمال، إنه من الإجرام أن ينزه الله عن ما تمدح به: (قل أأنتم أعلم أم الله).

إن التنزيه الصحيح إنما يكون فى إثبات الصفة فى أعلى كمالها، لأن الكمال المطلق لا يوصف به أحد غير الله تعالى.

وأى تنزيه فى أن تقول: إن الله ليس فوق ولا تحت ولا عن يمين ولا عن يسار ولا يحس ولا يشم ولا يرى أبدًا ولا يكلم أحدًا، وإنه فى كل مكان بذاته،

وإنه لا سمع ولا بصر له، ولا يوصف بالرحمة ولا بالغضب ولا بالمجئ، إلى آخر تلك الأوصاف التى لا تقال إلى للمعدوم.

إنها صفات سلبية نتيجتها أن لا معبود إلا العدم، فليس هناك رب بائن من خلقه مستو على عرشه له كل صفات الكمال والجلال.

ومن هنا وجد الملاحدة ضالتهم المنشودة فى تقوية إلحادهم واحتجاجهم على ذلك بما زعموا أنه من كلام المسلمين السابق، وهم يعلمون تمام العلم أم كلام الجهمية السابق ليس له بالإسلام أية صلة، وأنه ليس من كلام المسلمين، وإنما هو من أفكار ملاحدة الفلاسفة.

إن الجسمية التى يزعمونها حينما يثبتون الصفات لله تعالى، إنما هو من باب تغطية إلحادهم ومروقهم عن الدين، وهم أقل وأذل من أن يجدوا كلامًا ما، لعلماء المسلمين فضلًا عن الصحابة فضلًا عن الكتاب والسنة، يشير إلى هذا المفهوم الذى تنبهوا له بزعمهم ونفوا بموجبه صفات الله وأسمائه.

إن كلمة الجسمية لله تعالى نفيًا أو إثباتًا هى من الألفاظ المخترعة التى لم ترد فى الشرع لا فى الكتاب ولا فى السنة، وهى تخفى وراءها هدفًا ما، ولو وقف هؤلاء الذين يطلقون لفظ الجسم عند الحدود الشرعية لرأوا أنه يجب عليهم لزامًا ألا يطلقوا على الله إلا ما ثبت له من الأسماء والصفات، وترك ذلك التنطع المذموم، لأن لفظ الجسم لفظ عام يحتاج إلى بيان وتوضيح ممن يقول به، لأنه لم يرد فى الشرع لا بالنفى ولا بالإثبات، ولهذا كان فى إطلاقه حق وباطل ويجب على القائل به تفصيل ما يريد.

فهناك من ينفى لفظ الجسم من الجهمية والمعتزلة ليخفى ما يهدف إليه من نفى ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، وهناك من يثبت الجسم من

المشبهة ليخفى ما يهدف إليه من إثبات ما نفاه الله عن نفسه، وقد أجاب العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه المسألة وفصلها تفصيلًا شافيًا كافيًا فقال: «واعلم أن لفظ الجسم لم ينطق به الوحى إثباتًا فيكون له الإثبات، ولا نفيًا فيكون له النفى. فمن أطلقه نفيًا أو إثباتًا سئل عما أراد به، فإن قال: أردت بالجسم معناه فى لغة العرب وهو البدن الكثيف الذى لا يسمى فى اللغة جسم سواه، فلا يقال للهوى: جسم لغة، ولا للنار ولا للماء. فهذه اللغة وكتبها بين أظهرنا، فهذا المعنى منفى عن الله عقلًا وسمعًا، وإن أردتم به المركب من المادة والصورة والمركب من الجواهر الفردة فهذا منفى عن الله قطعًا.

والصواب نفيه عن الممكنات أيضًا، فليس الجسم المخلوق مركبًا من هذا ولا من هذا، وإن أردتم بالجسم ما يوصف بالصفات ويرى بالأبصار ويتكلم ويكلم ويسمع ويبصر ويرضى ويغضب، فهذه المعانى ثابتة لله تعالى وهو موصوف بها فلا ننفيها عنه بتسميتكم للموصوف بها جسمًا، كما أنَّا لا نسب الصحابة لأجل تسمية الروافض لمن يحبهم ويواليهم نواصبًا، ولا ننفى قدر الرب ونكذب به لأجل تسمية القدرية لمن أثبته جبريًا، ولا نرد ما أخبر به الصادق عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله لتسمية أعداء الحديث لنا حشوية، ولا نجحد صفات خالقنا وعلوه على خلقه واستوائه على عرشه لتسمية الفرعونية المعطلة لمن أثبت ذلك مجسمًا مشبهًا».

إلى أن قال: «وإن أردتم بالجسم ما يشار إليه إشارة حسية فقد أشار أعرف الخلق بإصبعه رافعًا بها إلى السماء بمشهد الجمع الأعظم مشهدًا له لا للقبلة، وإن أردتم بالجسم ما يقال أين هو؟ فقد سأل أعلم الخلق بـ "أين"، منبهًا على علوه على عرشه وسمع السؤال بـ "أين" وأجاب عنه، ولم يقل: هذا السؤال إنما

يكون عن الجسم.

وإن أردتم بالجسم ما يلحقه (مِنْ-و-إِلى)[١]. فقد نزل جبريل من عنده وعرج برسوله إليه، وإليه يصعد الكلم الطيب، وعبده المسيح رفع إليه، وإن أردتم بالجسم ما يتميز منه أمر غير أمر فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال جميعها من السمع والبصر والعلم والقدرة والحياة، وهذه صفات متميزة متغايرة ...» إلى أن قال: «وإن أردتم بالجسم ما له وجه ويدان وسمع وبصر فنحن نؤمن بوجه ربنا الأعلى وبيديه وبسمعه وبصره وغير ذلك من صفاته التى أطلقها على نفسه. وإن أردتم بالجسم ما يكون فوق غيره ومستويًا على غيره فهو سبحانه فوق عباده مستو على عرشه»[٢].

فينبغى للعاقل أن يتفطن لكلام أهل الزيغ ونبزهم لعلماء السنة تنفيرًا للعامة عنهم، كما أنه يجب على المؤمن ألا ينساق وراء مغالطات أصحاب البدع، فهم من دأبهم قلب الحقائق والتلبيس على الناس لتقوية ما اقتنعوا به من أفكار الملاحدة وفلاسفة اليونان.

٢. قول الجهمية بالإرجاء والجبر

لقد كان الجهم بن صفوان مؤسسًا حقيقيًا لكثير من الشبهات فى الدين، ومؤججًا لكثير من الفتن بين المسلمين بفعل من جاء بعده ممن راقت فى نظره آراء جهم، ويظهر الإرجاء عند الجهمية فى تلك الآراء التى نادى بها الجهم، ومن أهمها عدم اعتبار العمل من الإيمان، فإن الإيمان وحقيقته فى نظرهم إنما

---

(١) هكذا النص فى الأصل، وهى عبارة غامضة، ولعل المراد بها ما يمكن أن يقال: (منه وإليه) اى من عنده وإليه، كما يفيده الكلام الذى جاء بعده. والله أعلم.

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ص ١٧٥، ١٧٧ اختصار الموصلى.

هو مجرد الإقرار بالقلب ولا قيمة لعمل فى الإيمان، ولهذا سارع أصحاب الفسق والاستهتار بالقيم إلى التمسك بهذا المذهب، لأنه يساير رغباتهم ويثبت لهم الإيمان بغض النظر عن جميع المعاصى التى يرتكبونها، فهم مؤمنون كاملو الإيمان بالمفهوم الجبرى والإرجائى، فهم لا يمكن أن يطلقوا الكفر على أحد بسبب ترك الأعمال التى أمر الله بها، بل لا يتجاسرون على إطلاق الكفر إلا إذا لم يقر بقلبه حسب زعمهم.

وقد قام أساس إرجاء الجهمية على موقفهم من حقيقة الإيمان وفى مبحث المرجئة دراسة حول المرجئة وموقفهم من الإيمان، وأنه المعرفة فقط وأنه كذلك لا يزيد ولا ينقص، ومن العمل وأنه لا صلة له بالإيمان، ومن مرتكب الكبيرة، وأن الذنوب لا تعلق لها بالاعتقاد وإنما هى تابعة للأعمال، وبالتالى فلا أثر لها على الإيمان الذى فى القلب فهونوا المعاصى وشجعوا على الركون إلى الكسل والخمول فى العبادات.

ومع ذلك فهم يزعمون أن إيمان أى واحد منهم هو مثل إيمان جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام، لاتفاقهم فى المعرفة بالله التى بنى الجهميون عقيدتهم فى الإيمان عليها، وهم أجهل الناس بمعرفته ﷻ إذ نفوا أسماءه الحسنى وصفاته العلا، إضافة إلى ما أحدثوه من الآراء والبدع الفاسدة.

وأما الجبر -بفتح الجيم وسكون الباء- فمعناه إسناد ما يفعله الشخص من أعمال إلى الله ﷻ، ون العبد لا قدرة له البتة على الفعل، وإنما هو مجبور على فعله، وحركته فى الفعل بمثابة حركة النباتات والجمادات، ومن هنا فإنه لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة، لأن العبد مجبور على فعله لا حول له ولا قوة.

وقالوا: إن هذا ليس بظلم، لأن الإنسان ملك لله، لأن الظلم فى مفهومهم هو المحال لذاته غير المتصور وقوعه[١]، وهذا تكذيب لقول الله: (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)، وقوله تعالى: (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون)، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة فى هذا المعنى الذى يفيد أن الله تعالى حرم الظلم على نفسه، وقد تمدح بذلك لبيان كمال عدله، فأين هذا المفهوم من مفهوم الجهمية حينما يقررون أن الإنسان مجبور على فعله، لا لوم عليه فيما يأتيه من الأفعال القبيحة والمنكرات، لأن موجدها إنما هو الله تعالى، ثم كلفه بامتثال أمره ونهيه فكيف يتصور هذا؟ يكلفه الله بالامتثال ثم يوجد فيه قوة العصيان، هذا تناقض وتكليف بما لا يطاق.

وقد أخبر الله تعالى بأن الحق هو عكس هذا المفهوم، فقال ﷻ: (لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها)، وجبر العبد على فعله لا يتفق مع مضمون هذه الآية وغيرها من الآيات والأحاديث، ويصح على مفهوم هؤلاء الجهمية ألا يقال للزانى: إنه زان، ولا للسارق: إنه سارق، ولا للمصلى: إنه مصل .. إلخ، لأن هذه الأفعال هى أفعال الله فيهم، وإنما هم منفذون لها. لقد أعظموا على الله الفرية وقَفَوْا ما ليس لهم بحق!!

٣. إنكار الجهمية الصراط

الصراط من الأمور الغيبية التى أعدها الله فى يوم القيامة، وقد ثبت فى الشرع

---

(١) لأن الظالم عندهم عبارة عن الممتنع الذى لا يدخل تحت القدرة، والظلم كذلك لا يكون إلا من مأمور من غيره منهى وإلا ليس كذلك (شرح الطحاوية ص٤٤٩).

أى أن الظلم عندهم هو نفى الله ما لا يقدر عليه ولا يمكن منه، أما ما كان تحت قدرة الله تعالى فليس بظلم وأفعال ناتجة عن جبر الله تعالى لهم، وهذا الاعتقاد باطل وليس هو المراد من نفى الظلم عن الله تعالى.

بأحاديث صحيحة إضافة إلى قول الله ﷻ: (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتمًا مقضيا).

وللصراط أوصاف كثيرة، فهو أحد من السيف وأدق من الشعرة، عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ولا ينجو عليه إلا من كتبت له السعادة، ولا صحة لأقوال المتأولين له فإنها فى مقابلة النصوص، وفى مرورهم عليه يعطون أنوارًا كل شخص نوره على قدر عمله.

ثم يقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكواكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرجل يرمل رملًا. وقد نصبه الله لحكمةٍ فلو شاء لاجتاز الخلق بغير نصبه، وقد تلمس بعض العلماء حكمًا كثيرة لذلك إلا أنه ينبغى الإيمان التام بأن لله حكمة قد تظهر وقد لا تظهر حقيقتها لأحد، ولسنا مكلفين باستخراج الحكمة وقد كلفنا بالإيمان بكل ما صح ثبوته.

كما أنه قد ورد فى تحديد مسافة الصراط أقوال كثيرة تفتقر إلى دليل من الشرع، فهى من اجتهادات العلماء واستنباطهم، وينبغى معرفة أن المسافة وطولها أو قصرها إنما تعود إلى العمل، فالاجتياز عليه إنما هو بقدر العمل كما ثبت ذلك فى عدة نصوص.

وإنكار الجهمية وغيرهم للصراط ليس لهم ما يتمسكون به إلا شبهات باطلة واستبعاد له، ظانين أن استبعاده فى عقولهم يصح أن يكون دليلًا على إنكاره، وبغض النظر عن سرد تلك الشبهات فإن النتيجة واحدة وهى إنكار الصراط، ويكفى فى الرد عليهم أن يقال لهم: إنكم تردون أقوال نبيكم ﷺ بمحض الهوى والشبهات، وليس لكم أى دليل، ومن رد أقوال النبى ﷺ بعد

صحة ثبوتها، فلا ريب فى خسرانه ومفارقته طريق المؤمنين.

٤. إنكار الجهمية للميزان

الميزان من أمور الآخرة الغيبية التى يجب الإيمان بها وقد أنكرته الجهمية، والمراد به فى الاصطلاح الشرعى: الميزان الذى أخبر الله تعالى عنه فى كثير من آيات القرآن الكريم، وأخبر عنه رسول الله ﷺ فى الأحاديث الشريفة فى أكثر من مناسبة تنويهًا بعظم شأنه وخطورة أمره.

وهو ميزان حقيقى له لسان وكفتان توزن به أعمال العباد خيرها وشرها، وقد أخبر الله عنه فى القرآن الكريم إخبارًا مجملًا من غير تفصيل لحقيقته، وجاءت السنة النبوية فبينته. يظهره الله فى يوم القيامة لإظهار مقادير أعمال الخلق، وقد أجمع المسلمون على القول به واعتقاده.

وثبت أن العمل يوزن ويوزن أيضًا العامل، وتوزن صحائف الأعمال، وروى أن أشد ما يكون الناس خوفًا فى يوم القيامة عندما يأتى دور الوزن.

وقد تلقى المسلمون أخباره بالقبول والتصديق لثبوته بالكتاب والسنة والإجماع[1]، ولم يخالف فى ثبوته أى شخص من السلف.

وقد ذهبت الجهمية وغيرهم من أهل البدع إلى إنكاره بلا دليل، لأنه فى -زعمهم- يستحيل وزن الأعراض، كما أنكروا أن يكون هناك ميزان حقيقى له كفتان ولسان، معرضين عن النصوص الثابتة بذلك كما قدمنا بعضها.

٥. قول الجهمية بفناء الجنة والنار

اقتضت حكمة الله تعالى أن يوجد الجنة وأن تكون دار أوليائه إلى الأبد، وأن يوجد النار وتكون دار أعدائه إلى الأبد، خلقهما الله وكتب لهما البقاء

---

(١) انظر: لوامع الأنوار ٢/ ١٨٤.

الأبدى بإبقاء الله تعالى لهما وهذا الثابت فى الشريعة الإسلامية.

وخالفت الجهمية وجاءوا بأفكار ومعتقدات ما أنزل الله بها من سلطان، قال شمس الدين ابن القيم:

«والجهم أفناها وأفنى أهلها تبا لذاك الجاهل الفتان»(١)

ولم يكن لهم ما يستدلون به على إنكارهم ذلك إلا مجرد الظن، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا، وصاروا يشنعون على السلف أهل الحق ما يعتقدونه فى وجود الجنة والنار الآن ودوامها فى المستقبل.

لقد زعم الجهم وأتباعه أن الجنة والنار ستفنى بحجة أن ما لا نهاية له من الأمور الحادثة المتجددة بعد أن لم تكن يستحيل -حسب زعمه- أنها تبقى إلى ما لا نهاية، ولم يتصور أن بعض الأشياء التى شاء الله لها البقاء أنه يمتنع فناؤها.

ثم زعم جهم أن الرب يمتنع عليه إيجاد حوادث لا أول لها، مخافة تعدد الآلهة إذا قلنا بوجودها، ثم قاس هذا على نهاية الحوادث، فكما أنه يستحيل عنده وجود حوادث لا أول لها، فكذلك يمتنع القول بوجود حوادث لا آخر لها، لأن الله وحده هو الأول والآخر.

وقد ظن أن هذا من تنزيه الله تعالى، وهو فى الواقع إساءة ظن بقدرة الله تعالى، ولم يعلم أن ما أراد الله له البقاء فإنه يمتنع عليه الانتهاء، فإن الجنة أراد الله لها البقاء والنار كذلك فيستحيل أن تفنيا، وإلا كان فناؤهما تكذيبًا لكتاب الله وسنة نبيه، فإن القرآن الكريم مملوء بالأخبار عن بقائهما إلى الأبد.

ولئن نازع هؤلاء فى دوامهما فقد نازعوا فى وجودهما الآن.

وقد ذكر الله ﷻ فى القرآن الكريم أدلة على وجودهما الآن بما لا يخفى إلا

---

(١) النونية ٢/ ٣٩٣

على أهل البدع، فقد قال تعالى عن الجنة: (أعدت للمتقين).

وقال عن النار: (أعدت للكافرين)، لقد أعدهما الله تعالى قبل نزول أهلهما فيهما.

وقد جاء فى السنة النبوية ما يؤكد وجودهما الآن كما جاء ما يؤكد بقاءهما أبدًا كما تقدم.

ومن الأحاديث التى تؤكد وجودهما الآن ما جاء فى حديث الإسراء والمعراج قوله ﷺ: (ثم انطلق جبريل حتى أتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدرى ما هى قال: ثم دخلت الجنة فإذا هى جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك)(١).

وقوله ﷺ: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)(٢).

وقد أخبر ﷺ بأنه: رأى الجنة وتناول منها عنقودًا، وقال لهم: (ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا)(٣).

إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة التى تؤكد وجودهما الآن، إضافة إلى ما جاء فى القرآن الكريم، ولكن أهل البدع لا ينظرون إلى الحق إلا من زاوية هواهم، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

الحكم على الجهمية

يتورع السلف كثيرًا عن إكفار أى جماعة أو شخص، ويرهبون إطلاق

---

(١) صحيح البخارى ٤/ ١٠٧.
(٢) المصدر السابق ٤/ ٨٥.
(٣) صحيح مسلم ٣/ ٣٤.

التكفير، فلا يتسرعوا فيه كما تفعل الفرق الباطلة فى تكفير الناس أو فى تكفير بعضهم بعضًا أيضًا، إلا أن السلف لا يتورعون عن إطلاق كلمة الكفر على من جاءت النصوص بتكفيرهم أو بتسميتهم كفارًا، عملًا بالنصوص ووقوفًا عند مفهومها الصحيح. ومن هنا تجد أن السلف حينما يطلقون الكفر على فرد أو جماعة لهم ضوابط قوية ودرجات فى التكفير، من لا يفطن لها وقع -ولا بد- فى الخطأ سواء أكان خطأ شرعيًا أم خطأ فى مفهومه للتكفير عند السلف.

ولقد ذهب كثير من علماء السلف إلى تكفير الجهمية وإخراجهم من أهل القبلة، ومن هؤلاء الإمام أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمى، فقد جعل فى كتابه (كتاب الرد على الجهمية)[1] بابًا سماه (باب الاحتجاج فى إكفار الجهمية)، وبابًا آخر سماه (باب قتل الزنادقة والجهمية واستتابتهم من كفرهم).

وأورد تحت هذين البابين أدلة كثيرة من الكتاب الكريم ومن السنة النبوية، ومن الآثار وأقوال العلماء ما يطول ذكره، وحاصله أن الجهمية كفار للأمور الآتية:

١. بدلالة القرآن الكريم، حيث أخبر عن قريش أنهم قالوا عن القرآن: (إن هذا إلا قول البشر) أى مخلوق، وهو نفسه قول الجهم بخلقه، ثم أورد كثيرًا من الآيات فى هذا.

٢. ومن الأثر ما ورد عن على وابن عباس فى قتلهم الزنادقة، قال الرسول ﷺ: (من بدل دينه فاقتلوه)[2]، والجهمية أفحش زندقة وأظهر كفرًا منهم.

---

(١) انظر: كتاب الرد على الجهمية ص ١٠٦/ ١١٧.

(٢) أخرجه البخارى ٦/ ١٤٩، وأبو داود ٤/ ٥٢٠، والترمذى ٤/ ٥٩، والنسائى ٧/ ١٠٤، وابن ماجه ٢/ ٨٤٨ وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

٣. قال الدارمى: (ونكفرهم أيضًا بكفر مشهور)، ثم ذكر من ذلك قولهم بخلق القرآن، وتكذيبهم لما أخبر الله تعالى أنه يتكلم متى شاء وكلم موسى تكليمًا، وهؤلاء ينفون عنه صفة الكلام فيجعلونه بمنزلة الأصنام التى لا تتكلم، ثم بكفرهم فى عدم إثباتهم لله تعالى ما أثبته لنفسه من الصفات: كالوجه والسمع والبصر والعلم والكلام. وبكفرهم فى أنهم لا يدرون أين الله تعالى ولا يصفونه بأين ولا يثبتون له مطلق الفوقية الثابتة بالنصوص الصريحة فى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

كما أورد الدارمى جملة من أسماء الذين حكموا بكفر الجهمية صراحة، ومنهم: سلام بن أبى مطيع، وحماد بن زيد، ويزيد بن هارون، وابن المبارك، ووكيع، وحماد بن أبى سليمان، ويحيى بن يحيى، وأبو توبة الربيع ابن نافع، ومالك بن أنس.

(باب ذكر المعتزلة)

قبل أن نبدأ الكلام عن هذه الفرقة، فقد يقول البعض إن هذه الفرقة زالت وانتهت، فما الفائدة من الكلام عنها؟!

أقول نعم زال اسمها، لكن كثيرًا من آرائها ما زالت باقية، إضافة إلى ما نلاحظه من دعوة بعض المعاصرين لإحيائها، بدعوى أنهم رواد الفكر الحر[1].

وقال الدكتور مانع الجهني[2]:

بعد أن كاد الاعتزال ينتهى كفكر مستقل إلا ما تبنته منه بعض الفرق

---

(١) انظر كتاب المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها للدكتور عواد بن عبد الله المعتق ص٦.

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، د. مانع الجهني ج١ ص٧١.

كالشيعة وغيرهم، عاد الفكر الاعتزالي من جديد في الوقت الحاضر على يد بعض الكتاب والمفكرين، الذين يمثلون المدرسة العقلانية الجديدة، وهذا ما سنبسطه عند الحديث عن فكر الاعتزال الحديث.

الفكر الاعتزالي الحديث

يحاول بعض الكتاب والمفكرين في الوقت الحاضر إحياء فكر المعتزلة من جديد بعد أن عفى عليه الزمن أو كاد.. فألبسوه ثوبًا جديدًا، وأطلقوا عليه أسماء جديدة مثل... العقلانية أو التنوير أو التجديد أو التحرر الفكري أو التطور أو المعاصرة أو التيار الديني المستنير أو اليسار الإسلامي..

وقد قَوَّى هذه النزعة التأثر بالفكر الغربي العقلاني المادي، وحاولوا تفسير النصوص الشرعية وفق العقل الإنساني.. فلجأوا إلى التأويل كما لجأت المعتزلة من قبل، ثم أخذوا يلتمسون في مصادر الفكر الإسلامي ما يدعم تصورهم، فوجدوا في المعتزلة بغيتهم فأنكروا المعجزات المادية.. وما تفسير الشيخ محمد عبده لإهلاك أصحاب الفيل بوباء الحصبة أو الجدري الذي حملته الطير الأبابيل.. إلا من هذا القبيل.

وأهم مبدأ معتزلي سار عليه المتأثرون بالفكر المعتزلي الجدد هو ذاك الذي يزعم أن العقل هو الطريق الوحيد للوصول إلى الحقيقة، حتى لو كانت هذه الحقيقة غيبية شرعية، أي أنهم أخضعوا كل عقيدة وكل فكر للعقل البشري القاصر.

وأخطر ما في هذا الفكر الاعتزالي.. محاولة تغيير الأحكام الشرعية التي ورد فيها النص اليقيني من الكتاب والسنة.. مثل عقوبة المرتد، وفرضية الجهاد، والحدود وغير ذلك.. فضلًا عن موضوع الحجاب وتعدد الزوجات، والطلاق

والإرث.. إلخ.. وطلب أصحاب هذا الفكر إعادة النظر في ذلك كله.. وتحكيم العقل في هذه المواضيع. ومن الواضح أن هذا العقل الذي يريدون تحكيمه هو عقل متأثر بما يقوله الفكر الغربي حول هذه القضايا في الوقت الحاضر.

ومن دعاة الفكر الاعتزالي الحديث: سعد زغلول الذي نادى بنزع الحجاب عن المرأة المصرية، وقاسم أمين مؤلف كتاب تحرير المرأة والمرأة الجديدة، ولطفي السيد الذي أطلقوا عليه:"أستاذ الجيل"، وطه حسين الذي أسموه "عميد الأدب العربي"، وهؤلاء كلهم أفضوا إلى ما قدموا. هذا في البلاد العربية.

أما في القارة الهندية فظهر السير أحمد خان، الذي مُنِحَ لقب سير من قبل الاستعمار البريطاني. وهو يرى أن القرآن الكريم لا السنة النبوية هو أساس التشريع، وأحل الربا البسيط في المعاملات التجارية. ورفض عقوبة الرجم والحرابة، ونفى شرعية الجهاد لنشر الدين، وهذا الأخير قال به لإرضاء الإنجليز لأنهم عانوا كثيرًا من جهاد المسلمين الهنود لهم.

وجاء تلميذه سيد أمير علي الذي أحل زواج المسلمة بالكتابي وأحل الاختلاط بين الرجل والمرأة.

ومن هؤلاء أيضًا مفكرون علمانيون، لم يعرف عنهم الالتزام بالإسلام.. مثل زكي نجيب محمود صاحب نظرية (الوضعية المنطقية) وهي فرع من الفلسفة الوضعية الحديثة التي تنكر كل أمر غيبي.. فهو يزعم أن الاعتزال جزء من التراث ويجب أن نحييه، وعلى أبناء العصر أن يقفوا موقف المعتزلة من المشكلات القائمة[1].

(١) انظر كتاب تجديد الفكر العربي ص١٢٣).

ومن هؤلاء أحمد أمين صاحب المؤلفات التاريخية والأدبية مثل فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام، فهو يتباكى على موت المعتزلة في التاريخ القديم وكأن من مصلحة الإسلام بقاؤها، ويقول في كتابه: ضحى الإسلام: في رأيي أن من أكبر مصائب المسلمين موت المعتزلة"[1].

ومن المعاصرين الأحياء الذين يسيرون في ركب الدعوة الإسلامية من ينادي بالمنهج العقلي الاعتزالي فى تطوير العقيدة والشريعة مثل الدكتور محمد فتحي عثمان في كتابه الفكر الإسلامي والتطور.. والدكتور حسن الترابي في دعوته إلى تجديد أصول الفقه حيث يقول: "إن إقامة أحكام الإسلام في عصرنا تحتاج إلى اجتهاد عقلي كبير، وللعقل سبيل إلى ذلك لا يسع عاقل إنكاره، والاجتهاد الذي نحتاج إليه ليس اجتهادًا في الفروع وحدها وإنما هو اجتهاد في الأصول أيضًا"[2].

وهناك كتاب كثيرون معاصرون، ومفكرون إسلاميون يسيرون على المنهج نفسه ويدعون إلى أن يكون للعقل دور كبير في الاجنهاد وتطويره، وتقويم الأحكام الشرعية، وحتى الحوادث التاريخية.. ومن هؤلاء فهمي هويدي ومحمد عمارة -صاحب النصيب الأكبر في إحياء تراث المعتزلة والدفاع عنه- وخالد محمد خالد ومحمد سليم العوا، وغيرهم. ولاشك بأهمية الاجتهاد وتحكيم العقل في التعامل مع الشريعة الإسلامية ولكن ينبغي أن يكون ذلك في إطار نصوصها الثابتة وبدوافع ذاتية وليس نتيجة ضغوط أجنبية وتأثيرات خارجية لا تقف عند حد، وإذا انجرف المسلمون في هذا الاتجاه -اتجاه

---

(١) كتاب ضحى الإسلام، ج٣، ص٢٠٧.

(٢) المعتزلة بين القديم والحديث، ص١٣٨.

ترويض الإسلام بمستجدات الحياة والتأثير الأجنبي بدلًا من ترويض كل ذلك لمنهج الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه- فستصبح النتيجة أن لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا من الشريعة إلا رسمها ويحصل للإسلام ما حصل للرسالات السابقة التي حرفت بسبب اتباع الأهواء والآراء حتى أصبحت لا تمت إلى أصولها بأي صلة.

المبحث الأول: في نشأة المعتزلة(١)

تقديم: في تعريف المعتزلة في اللغة والاصطلاح:

تعريف المعتزلة في اللغة: الاعتزال معناه: الانفصال والتنحي، والمعتزلة هم المنفصلون، هذا في اللغة(٢).

أما المعتزلة في الاصطلاح: فهم اسم يطلق على فرقة ظهرت في الإسلام في أوائل القرن الثاني، وسلكت منهجًا عقليًا متطرفًا في بحث العقائد الإسلامية، وهم أصحاب واصل بن عطاء الغزال الذي اعتزل مجلس الحسن البصري(٣).

---

(١) انظر كتاب المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها للدكتور عواد بن عبد الله المعتق ص١٣ وما بعدها.

(٢) انظر محيط المحيط ص١٣٩١، ولسان العرب: مجلد١١ص٤٤٠.

(٣) هو واصل بن عطاء الغزال، المولود سنة ٨٠هـ، وتتلمذ على الحسن البصري، ولم يفارقه إلى أن أظهر مقالته في المنزلة بين المنزلتين، وهو مؤسس فرقة الاعتزال، توفي سنة ١٣١ هـ. والحسن هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري، كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة، أبوه مولى زيد بن ثابت وأمه خيرة مولاة أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج بن يوسف، فقيل له: فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن. ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتوفي في مستهل رجب سنة ١١٠هـ بالبصرة. انظر وفيات الأعيان: ج٢ص٧١-٧٢.

المطلب الأول : أصل تسمية المعتزلة

يقول الشهرستاني[١]:"دخل رجل على الحسن البصري، فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركنًا من الإيمان، فلا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادًا؟ ففكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا ولا كافر مطلقًا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل إلى إسطوانة من إسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعْتَزَلَنا واصل، فسمي هو وأصحابه المعتزلة".

المطلب الثاني : أسماء المعتزلة وعلة تلقيبهم بها

القسم الأول: ما أطلقه الغير عليهم

١ . المعتزلة: بمعنى المنشقين، وقد بينا سبب تسميتهم بهذا الاسم عندما تكلمنا على أصل المعتزلة.

٢ . الجهمية: وسبب تلقيبهم بهذا اللقب هو أنه لما كانت الجهمية سبقت المعتزلة في الظهور واشتهرت ببعض آرائها، إلا أن سبقها للمعتزلة سبق قريب، ثم لما خرجت المعتزلة كانت قد وافقت الجهمية في مسائل كثيرة، منها: نفي الرؤية والصفات، وخلق الكلام، فكأن توافق الفرقتين جعلهما كالفرقة الواحدة، وبما أن الجهمية أسبق ومسائلها أكثر وبعض مسائل المعتزلة مأخوذة منها، لذا أصبح يطلق

---

(١) الملل والنحل: ج١ ص٥٢.

على كل معتزلي جهمي، ولا يطلق على كل جهمي معتزلي، ولذلك أطلق أئمة الأثر لفظ الجهمية على المعتزلة، فالإمام أحمد في كتابه "الرد على الجهمية"، والبخاري في الرد على الجهمية، ومن بعدهما إنما يعنون بالجهمية المعتزلة، لأنهم كانوا في المتأخرين أشهر بهذه المسائل من الجهمية.

وقال الإمام ابن تيمية في كتابه "منهاج السنة": "لما وقعت محنة الجهمية نفاة الصفات في أوائل المائة الثالثة على عهد المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق، ودعوا الناس إلى التجهم وإبطال صفات الله تعالى.. وطلبوا أهل السنة للمناظرة.. لم تكن المناظرة مع المعتزلة فقط، بل كانت مع جنس الجهمية من المعتزلة والنجارية والضرارية، وأنواع المرجئة، فكل معتزلي جهمي وليس كل جهمي معتزليًا، لأن جهمًا أشد تعطيلًا لنفيه الأسماء والصفات..."(١).

٣. القدرية: كذلك يلقب المعتزلة بالقدرية، يقول البغدادي -وهو يسوق ما أجمعت عليه المعتزلة-: "...وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون أكسابهم وأنه ليس لله ﷻ في أكسابهم وفي أعمال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير. ولأجل هذا القول سماهم المسلمون قدرية"(٢). إلا أن المعتزلة لا يرضون بهذا الاسم ولذا يقولون: إنه أولى أن يطلق على القائلين بالقدر خيره وشره من الله تعالى.

٤. الثنوية والمجوسية. ٥. مخانيث الخوارج.

٦. الوعيدية. ٧. المعطلة.

القسم الثاني: ما أطلقوه على أنفسهم

١. المعتزلة: سبق أن ذكرنا هذا الاسم من ضمن أسمائهم التي سماهم بها غيرهم، ونورده هنا من ضمن الأسماء التي تسموا بها، وذلك أنهم لما رأوا أنه لا

---

(١) منهاج السنة: ج١ ص٢٥٦.

(٢) الفرق بين الفرق: ص٩٤.

خلاص لهم من هذا الاسم، أخذوا يبرهنون على فضله، وأن المراد به الاعتزال عن الأقوال المحدثة والمبتدعة، وبرهنوا على ما يقولون ببعض النصوص مثل قوله تعالى: (واهجرهم هجرًا جميلًا). وذلك لا يكون إلا بالاعتزال عنهم.

٢. أهل العدل والتوحيد: يروي المقبلي أن المعتزلة كانوا يطلقون على أنفسهم أهل العدل والتوحيد والعدلية، ولذا يقول: "وتسمى المعتزلة نفسها بالعدلية، وأهل العدل والتوحيد"[١].

المطلب الثالث : تاريخ ومكان نشأة المعتزلة وممن استقوا آراءهم:

والرأي الأقرب للصواب -والله أعلم- قول الأكثرية، وهو أن رأس الاعتزال هو واصل بن عطاء، وأنه نشأ في سنة بين ١٠٥ إلى ١١٠ للهجرة في البصرة نتيجة للمناظرة في أمر صاحب الكبيرة ثم خروج واصل برأيه المخالف لشيخه الحسن البصري، وبعد ذلك أضاف إلى رأيه في مرتكب الكبيرة آراء أخرى أصبحت فيما بعد من أصول المعتزلة، ومن ثم أخذ كل عالم من علمائهم يأتي برأي حتى تكونت هذه الفرقة.

وأما المكان الذي نشأ فيه الاعتزال، فإنه يكاد يجمع الباحثون على أنه البصرة.

المبحث الثاني: فرق المعتزلة[٢]

الفرقة الأولى: الواصلية

أتباع أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال مولى بني ضبة، ولد سنة ٨٠هـ،

---

(١) العلم الشامخ: ص٣٠٠.

(٢) انظر كتاب المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها للدكتور عواد بن عبد الله المعتق ص٥٢ وما بعدها.

ونشأ على الرق، وتتلمذ على الحسن البصري، ولم يفارقه إلى أن أظهر مقالته في المنزلة بين المنزلتين، وهو مؤسس فرقة الاعتزال، توفي سنة ١٣١هـ[١]. وهو الذي وضع الأصول الخمسة التي يرتكز عليها الاعتزال.

الفرقة الثانية: العمرويَّة

أتباع عمرو بن عبيد بن باب، مولى بني تميم، ولد سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٤٤هـ، كان جده من سبي كابل، عاش في البصرة وعاصر واصل بن عطاء وكان تربًا له، وزوجه واصلٌ أخته، وقد أصبح شيخ المعتزلة بعد واصل[٢]، وشاركه في جميع أقواله وزاد عليه.

الفرقة الثالثة: الهذيليَّة

أتباع أبي الهذيل محمد بن الهذيل بن عبد الله البصري العلاف، ولد سنة ١١٣هـ وتوفى سنة ٢٢٦، وقيل سنة ٢٣٥، وقيل سنة ٢٣٧ في خلافة المتوكل، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل أحد أصحاب واصل بن عطاء[٣]. وقد أطلع على الفلسفة اليونانية فجاءت أقواله متأثرة بها[٤].

الفرقة الرابعة: النظَّامية

أتباع أبي إسحاق إبراهيم بن سيار بن هانئ المعروف بالنَّظَّام، سمي بهذا الاسم لأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة، ولد سنة ١٨٥هـ، وتوفي سنة ٢٣١هـ، أعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات، ولذلك أنكر إعجاز القرآن وما رُوِيَ من معجزات الرسول ﷺ ليتوصل بذلك إلى إنكار نبوته ﷺ، ثم إنه

---

(١) الفرق بين الفرق: ص٢٠، والملل والنحل ص٥٠.

(٢) ميزان الاعتدال: ج٢ ص٢٩٥-٢٩٦.

(٣) التبصير في الدين: ص٦٦.

(٤) المعتزلة: ص ١١٥.

استثقل أحكام الشريعة فأبطل الطرق الدالة عليها، ومن ثَم أبطل حجية الإجماع والقياس في الفروع، وأنكر الحجة من الأخبار التي لا توجب العلم الضروري، وطعن في فتاوى الصحابة، وجميع فرق الأمة من فريقي الرأي والحديث مع الخوارج والشيعة، والنجَّارية، وأكثر المعتزلة متفقون على تكفير النَّظَّام.

وممن قال بتكفيره من شيوخ المعتزلة أبو الهذيل والجبائي والأسكافي وجعفر بن حرب، وكتب أهل السنة في تكفيره تكاد لا تحصى(١).

والمعتزلة قد افترقوا إلى ما يقارب اثنتين وعشرين فرقة يجمعها آراء وهي الأصول الخمسة، وتختلف في آراء أخرى. والفرق غير السابقة هي:

الثمامية، والمعمرية، والبشرية، والهشامية، والمراديَّة، والجعفرية، والأسوارية، والأسكافية، والخابطية، والحدثية، والمويسية، والصالحية، والجاحظية، والشحَّامية، والخياطية، والجبائية، والكعبية، والبهشمية، والحمارية.

عقائد المعتزلة

يقول محمد العبدة(٢): طبيعة البحث في فكر المعتزلة قد يجرنا إلى متاهات ومعميات (علم الكلام) الذي كان للمعتزلة السبق في ابتداعه أول الأمر. إلا أننا سنحاول جاهدين أن نتخطى تلك العقبة بأن نكتفي بالحديث عن أصول ذلك الفكر لدى تلك الفرقة دون الدخول في كثير من التفصيلات التي لا حاجة لنا وللقارئ إليها.

---

(١) التبصير في الدين: ص٦٧، والفرق بين الفرق: ص١٣١-١٣٣، وتاريخ الفرق الإسلامية: ص١٨٧.

(٢) المعتزلة بين القديم والحديث. محمد العبدة ص٤ وما بعدها.

لذا سنتناول في هذا الباب من هذا البحث نشأة علم الكلام وآثاره، ذلك العلم الذي قدر له أن يسيطر لعهود متطاولة على فكر كثير من المسلمين على أنه (علم التوحيد) الذي يجب أن تجتمع عليه عقائد العامة والخاصة، والذي كانت نشأته على يد المعتزلة، وتأثر به الأشاعرة من بعد، وكان من آثاره ذلك الخلط في مفهوم التوحيد والذي أدى بدوره إلى الانحطاط والتقليد والإغراق في المباحث اللفظية، ثم بينا رأي أهل السنة في ذلك العلم وأقوال أئمة الكلام أنفسهم في مدى غنائه.

علم الكلام

كانت الهمة الأساسية والأولى للإسلام هي تقرير التوحيد تقريرًا واضحًا صريحًا لا لبس فيه، وإقراره في العقول والقلوب إقرارًا يدفعها إلى العمل به، والتزام شريعته ومنهاجه في كافة نواحي الحياة، ثم نفي الشرك -المضاد لهذا التوحيد- نفيًا تامًا في أي صورة من صوره، وتحت أي اسم أو شعار يختفي من وراءه.

وقد انتهج القرآن الكريم منهجًا خاصًا في تقرير تلك العقيدة وإقرارها، فاتجه إلى الفطرة الإنسانية يخاطب ما هو مركوز فيها من معانٍ تجعل الإيمان بوجود الخالق، وضرورة عبادته وحده أمرًا بديهيًا لا حاجة فيه لجدل أو سفسطة[1].

---

(١) وقد درج بعض من تناول هذا الأمر بالتحليل ممن تأثر بالفلسفة والاستشراق على أن القرآن قد خاطب الفطرة، وأن "الكلام" قد خاطب العقل، وهذا غير صحيح بل مغرض، فإن الإسلام قد خاطب الفطرة في كافة جوانبها سواء الفطرة الشعورية أو الفطرة العقلية -العقل البديهي- الذي لم يغش عليه بما يفسد استدلاله ويشوش على صحة أحكامه.

لفت القرآن الأنظار إلى الآيات المبثوثة في الكون والنفس، قال تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت)، وقال تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)، وحمل الإنسان على التفكير في خلق نفسه، وفي خلق آيات الكون، وفي إخراج النبات الحي من الأرض الميتة، ليدفعه من خلال تلك الصور إلى التفكر ثم التعقل فالتذكر. (خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون)، (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين).

ثم عرض لصفات الباري سبحانه فأوضحها بأسهل طريق وأبين لفظ، قال تعالى: (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد)، وقال تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

بهذه النصاعة الرائقة، وبهذا الأسلوب البين، وبهذا المنهج الهين اللين الذي لا عوج فيه ولا أمتا، قرر القرآن التوحيد، هذا المنهج الذي يتوجه إلى الفطرة السليمة يلتمس فيها مواطن البديهة العاقلة فيهديها برفق وعمق إلى الحق فتعتقده، ويزكي فيها مكنونات الوجدان والشعور فيدفعها بقوة إلى التعلق برب العالمين[1].

وقد أحسن الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ في استيعابهم لمقررات القرآن على الطريقة التي قررها، فأحكموا المحكم منه، وردوا إليه متشابهه ليستبين لهم وجه الحق فيه، ولم يضربوا آياته بعضها ببعض ليجعلوا القرآن

---

(١) انظر: إيثار الحق على الخلق لابن المرتضى/ ٤٣ في تفصيل الدلالات لمعرفة الله سبحانه، وقد جعلها الله ثلاث دلالات: دلالة النفس، والآفاق، والمعجزات.

عضين، بل ركزوا جهودهم على القيام بحقه عملًا لا قولًا، ففتح الله بهم البلاد، وهدى بهم قلوب العباد، حتى أصبح اقتفاء آثارهم هدى، والعدول عن نهجهم ضلالة تفترى.

لكن الأمر لم يستقم على هذا المنوال، فما أن قضى جيل الصحابة -أو كاد- وما أن فتحت البلدان على المسلمين وتوسعت الرقعة التي يظلها الإسلام بظله، حتى تأثر المسلمون بما وفد عليهم من عوامل ومؤثرات وحتى اختلطوا بأبناء الأمم المفتوحة، الذين كانوا متأثرين بسابق حضاراتهم، وما تحمله ثقافاتهم ودياناتهم من أفكار ومعتقدات، بل ومناهج نظر وبحث تختلف باختلاف تلك الأمم. إلى جانب أن الكثير من أبناء تلك الأمم قد دخلوا الإسلام حاملين ذلك التراث المثقل بركام التصورات القديمة، والمناهج الضالة فكانوا كبذور الفتنة وقد ألقيت في تربة الإسلام، فترعرع منها ما ترعرع من شقاق وتفرق، هذا إلى جانب ما سبقت الإشارة إليه من اتساع نطاق الترجمة والنقل من الثقافات الأخرى خاصة اليونانية في مجال الفلسفة والمنطق.

كل تلك العوامل أدت إلى نشأة ما عرف بعلم "الكلام" أو "علم التوحيد" كما أطلقوا عليه.

قد ارتبط علم الكلام هذا منذ أول نشأته بظهور فرقة المعتزلة أو ظاهرة "الاعتزال" في الواقع الإسلامي، وإن تسرب بعد ذلك إلى طوائف أخرى من الفرق المبتدعة كالروافض والمرجئة، بل شاع في أوساط كثير من العلماء وكتاباتهم منذ عهد أبي الحسن الأشعري ومن انتسب إليه من الأشاعرة الذين وإن خالفوا المعتزلة في العديد من القضايا، إلا أنهم وافقوهم في انتهاج منهج

الكلام في صياغة العقيدة، وقد سمي من انتمى لذلك النهج "المتكلمين"، فكان هناك متكلمو المعتزلة، ومتكلمو الأشاعرة، ومتكلمو الروافض ...

تعريف علم الكلام وأمثلة منه

تعريف هذا العلم عند أهله -على اختلافهم في تعريفه- أنه: العلم بالعقائد الدينية عن طريق الأدلة اليقينية (أي العقلية في اصطلاحهم)[١].

لا بأس هنا أن نعرض مثالين يوضحان طريقة تناولهم لمسائل العقيدة الإسلامية، والمنهج الذي انتهجوه لإثباتها:

أولا: إثبات وجود الله سبحانه

أراد علماء الكلام أن يثبتوا وجود الله سبحانه، ثم إثبات النبوات بعد ذلك، حتى يمكن تلقي الأمور الخبرية عن النبوة ويكون ذلك التلقي مبنيًا على يقين عقلي، فاستدلوا بدليلين مشهورين:

أولهما: دليل الحدوث، وملخصه: أن الأجسام الموجودة في العالم تتكون من أجزاء، وهذه الأجسام يمكن قسمتها إلى أجزاء.. وهكذا، ولكن هذا التقسيم لا يستمر إلى مالا نهاية، بل يجب الوقوف عند جزء لا يتجزأ، وهذا الجزء الذي لا يتجزأ هو الجوهر الفرد، وكل الجواهر تتعرض لحالات مختلفة كالحركة والسكون.. وهذه الأحوال يطلقون عليها الأعراض، وهي حادثة لأنها متغيرة، وما دامت الجواهر لا تنفصل عن الأعراض، والأعراض حادثة، فالجواهر إذن حادثة، والأجسام حادثة، والعالم حادث، ومن ثَم فلابد له من محدث وهو الله سبحانه.

ثانيهما: دليل الممكن والواجب، ويتلخص هذا الدليل في أن كل ما يوجد

---

(١) المقاصد للتفتازاني.

في العالم كان من الممكن أن يوجد على نحو مخالف لما هو عليه، ومن الممكن أن يخلق الله عالمًا أفضل من هذا العالم الحالي، بل من الممكن في هذا العالم أن يصعد الحجر إلى أعلى وأن يهبط اللهب إلى أسفل، وإذا كان الأمر كذلك فالعالم حادث، ولابد له من محدث، وهو الله سبحانه[1].

ثانيًا: إثبات اليوم الآخر

نهج علماء الكلام لإثبات وجود اليوم الآخر نهجًا جدليًا بعيدًا عن العقل المنطقي السليم، فقالوا إن وجود اليوم الآخر ممكن، لأنه لو قدر وجوده لم يلزم من تقدير وجوده محال، فما المانع إذن أن يوجد يوم آخر عقلًا؟.

ولا شك أن هذه الطريقة الجدلية لا تقف أمام مجادل جَلْد، إذ أنه كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في رده عليهم - أن إمكان الوقوع لا يعني بالضرورة تحقق الوقوع، والممكنات كثيرة لا تدخل تحت حصر ولكن الموجودات لا تمثل إلا جزءًا منها، فما يمنع -حسب قولهم- أن يكون اليوم الآخر من هذا الممكن الذي لا يتحقق؟.

مآخذ أهل السنة على علم الكلام ومنهجه

أولًا: مخالفة منهج علم الكلام للمنهج القرآني في عرض العقيدة:

ذكرنا في بداية هذا الفصل لمحة عن نهج القرآن في مخاطبة الناس، وأنه يخاطب الفطرة والعقل والقلب والشعور معًا، ونزيد الأمر إيضاحًا ليتبين لنا أن علم الكلام قد انتهج الطريقة العويصة الباردة التي لا هي طريقة قرآنية شرعية، ولا هي طريقة عقلية تصمد أمام مقررات العقل القوي الحجة، السليم الاستنباط في كثير من الأحيان.

---

(١) دراسات في الفلسفة الإسلامية لمحمود قاسم/ ١٣٤، فتاوى ابن تيمية ٢/ ٢٢.

ولنعد إلى المثال السابق عن إثبات اليوم الآخر لنرى الفرق واضحًا بينه وبين المنهج القرآني.

فالقرآن قد أثبت وجود اليوم الآخر بأدلة سهلة ميسرة، بعكس علم الكلام الذي حاول إثباته أولًا كقضية ذهنية، بأن قرر عدم استحالة ذلك، ثم انتقل إلى تقرير وجوده في الحقيقة بناءً على تلك المقررة الذهنية. أما القرآن فقد نحا منحى عقليًا واقعيًا سهلًا ليصل إلى النتيجة المؤكدة.

فالإنسان يعلم إمكان وجود الشيء، تارة لعلمه بوجود نظيره أو ما يشبهه، وتارة بعلمه بوجود ما هو أكبر وأولى من هذا الشيء.

فإن ثبت إمكان وجود الشيء بهذين المسلكين، فلابد من بيان قدرة الله سبحانه على تحقيق وجوده بالفعل، فإن ثبت ذلك الأمر، كان لابد من بيان الفائدة التي تترتب على إيجاده بالفعل، إذ أن إمكان تحقق الفعل وقدرة الله سبحانه على إيجاده، وقد لا تعني إيجاده بالضرورة، بل تبقى الفائدة والغاية والمصلحة المتحققة من هذا الأمر، حسب حكمة الله سبحانه في إيجاده له.

وقد كان ذلك تمامًا منهج القرآن في إثبات ذلك الأمر.

فقد قال تعالى: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)، وقال تعالى: (أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد)، فأثبت إمكان وجود اليوم الآخر لوقوع نظيره من الخلق الأول، بل إنه أهون عليه سبحانه في ذلك.

وقال تعالى: (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادرٍ على أن يخلقَ مثلهم بلى وهو الخَلاَّق العليم)، فأوضح قدرة الله سبحانه على ذلك. وقال تعالى: (لتُجزى كلُ نفس بما تسعى). فوجود اليوم الآخر الذي قرره القرآن

فعلًا، هو لحكمة إلهية عالية يتحقق منها العدل الإلهي، ويتقرر بها مبدأ الثواب والعقاب.

وقد استعمل القرآن الكريم نفس الأسلوب في تنزيه الله سبحانه عن الشرك والأبناء، فقال: (ويجعلونَ للهِ البناتِ سبحانه ولهم ما يشتهون وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظلَّ وجهُه مسودًا وهو كَظيم)، وقال تعالى: (ضرب لكم مثلًا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانُكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواءٌ تخافونهم كخيفتِكم أنفسَكم)، فهو يقرر سبحانه أنه إذا كنتم تنزهون أنفسكم عن الأمور الناقصة وتكرهون البنات وتحبون الذكور، فكيف تجعلونها له من دونكم؟.

وإن كنتم لا تحبون أن يكون مملوككم شريكًا لكم ونظيرًا فكيف ترضون أن تجعلوا ما هو مخلوق لي ومملوك لي شريكًا يُدعى ويُعبد مِن دوني؟[1].

وفي قوله تعالى: (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) إشارة إلى أن المنهج القرآني -عكس منهج المتكلمين- لا يتحدث بطريقة جافة باردة في الموضوعات التي تمس المشاعر، والتي تحتاج إليه دفعة إيمانية نفسية قوية لتثبت في القلوب ثم العقول، كما فعل الله سبحانه حين أراد أن يقر في نفس الذي مر على القرية أن البعث أمر ميسور مقدور لله سبحانه، فإنه أماته هو نفسه ثم أحياه وأشهده بعث حماره رأي العين، دون جدل أو سفسطة.

إذن فطريقة علم الكلام مبناها على "استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذاتهم بلزوم مسلماتهم، والتنقير والسؤال، وتوجيه إشكال ثم اشتغاله بحله، والمنهج القرآني يواجه الفطرة بشمولها ويخاطب الكينونة البشرية بكل ما

(١) راجع ما كتبه ابن تيمية حول هذا الموضوع في "درء تعارض العقل والنقل" ١/ ٣٦.

تحتويه دفعة واحدة، فهو كالماء الذي ينتفع به الطفل الرضيع والرجل القوي، لذلك فقد اتبع السلف هذا المنهج في عرض العقيدة فقد "ابتدأ البخاري صحيحه ببدء الوحي ونزوله، فأخبر عن نزول العلم والإيمان على الرسول أولًا، ثم اتبعه بكتاب الإيمان، الذي هو الإقرار بما جاء به، ثم بكتاب العلم الذي هو معرفة ما جاء به، فرتبه الترتيب الحقيقي".

واتباع هذا المنهج حكمة وهداية، واتباع منهج المتكلمين فيه خبط وخلط ووعورة متكلفة.

ثانيًا: إغفال توحيد العبادة الذي هو هدف الرسالات:

شاع إطلاق اسم التوحيد على علم الكلام وذلك نظرًا لموضوعه الذي يبحث فى ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، ولما جرى بين المتكلمين وبين أصحاب الاعتقادات الباطلة كالمجوس والصابئة واليهود والنصارى من مجادلات ومناقشات حول ذات الله وصفاته والقضاء والقدر... بذلك الأسلوب اليوناني الذي أشرنا إليه من قبل، وقد حرص أرباب هذا العلم على إثبات تلك التسمية لشرفها من جهة، ولظنهم أن توحيد الربوبية هو المطلوب الأول للرسل والحقيقة أن هذا الإطلاق فيه شيء من التمويه قد يكون غير مقصود، إلا أنه قد انخدع به طلبة العلم وصاروا يتداولونه، وكأنه من البديهيات المسلم بها.

وكان من جراء ذلك أن ارتبط معنى التوحيد في الأذهان بتوحيد الربوبية بشكل عام.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وبهذا وغيره يعرف ما وقع من الغلط في مسمى التوحيد، فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام

والنظر غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع فيقولون: هو واحد في ذاته وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث، وهو توحيد الأفعال، وهو أن خالق العالم واحد، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب، وأن هذا هو معنى قولنا لا إله إلا الله، حتى يجعلوا معنى الإلهية القدرة على الاختراع"[١].

هكذا جهد المتكلمون أعظم الجهد لإثبات ما أقر به المشركون، ومن ثم كانت الفجوة واسعة بين مفهوم التوحيد في العقيدة الإسلامبة ومفهوم التوحيد الكلامي عند أربابه، وهذا أدى بدوره إلى ذبول مفهوم الطاعة والاتباع، حتى اقتصر الأمر على مجرد أداء الشعائر، فلما جاء دور إقصاء الشريعة عن الحياة الإسلامية والتحاكم إلى غير شرع الله هان الخطب على الناس، وسهل الأمر على أدعياء العلم أن يغضوا الطرف عن ذلك الأمر الجلل، طالما أن توحيد الربوبية قائم في نفس الحاكم والمحكوم، وأن كتب التوحيد تتداولها الأيدي، ويتدارسها الدارسون. وكان هذا -في نظرنا- من أوخم نتائج الانحراف عن معاني التوحيد الحقيقي، وأسوئها أثرًا في الحياة الإسلامية.

ثالثًا: وضع أصول للدين غير ما بيَّنه الله ورسوله

وضع علماء الكلام أصولًا هي ما قرروه من مشكلات وحلها، ومقدماتها ولوازمها، وسموا ذلك "أصول الدين" واشترطوا على المسلم معرفتها ليصح إسلامه، فعليه أن يعرف أدلة حدوث العالم، وأدلة التمانع والجوهر والعَرَض، وقواعد الحركة والسكون.. إلى غير ذلك مما قرروه في كلامهم، وجعلها بعضهم أول الواجبات على المكلَّف وهي المعرفة وليس أول الواجبات النطق

(١) فتاوى ابن تيمية: ٣/ ٩٨.

بالشهادتين: "وقد وضع لهم القاضي أبو بكر الباقلاني المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض، وأنه لا يبقى زمانين، وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم، وجعل هذه القواعد تبعًا للعقائد الإيمانية في وجوب إعتقادها"(١).

وقد أوضح شارح العقيدة "الجوهرة" مذاهب الناس في أول الواجبات على المسلم فقال: "وأهم الأقوال في أول الواجبات: أولًا: ما قاله الأشعري إمام هذا الفن: المعرفة.

ثانيًا: ما قاله الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني: أنه النظر الموصل للمعرفة.

ثالثًا: ما قاله القاضي الباقلاني: أنه أول نظر، أي المقدمة الأولى منه.

رابعًا: ما قاله إمام الحرمين: أنه القصد إلى النظر، أي تفريغ القلب عن الشواغل.

خامسًا: ما قاله بعضهم: من أنه التقليد.

سادسًا: أنه النطق بالشهادتين"!!. ثم عقب بتصحيح الآراء الثلاثة فقال:

"والأصح أنه أول واجب غاية: المعرفة، وأول واجب وسيلة: تربية النظر، وأول واجب وسيلة بعيدة: القصد إلى النظر، وبهذا يجمع بين الأقوال الثلاثة"(٢).

ولا ريب أن ما تقدم يخالف ما عُلم من الدين بالضرورة من أنه أول واجبات المسلم هي النطق بالشهادتين واعتقاد معناهما من توحيد الله وعبادته وحده وضرورة إتباع الرسالة، وأما المعرفة الكلامية، والنظر الموصل إليها

---

(١) صديق حسن خان: أبجد العلوم ٢/ ٤٥٠.

(٢) شرح جوهرة التوحيد للباجوري ٥٩.

وأمثال ذلك فهو مما لا يفترض على المسلم لا أول واجب ولا آخره، وإنما التزموا ذلك لما أطلقوا على مقدماتهم اسم "أصول الدين"، ومعلوم أن أصول الدين يجب على الجميع أن يعرفها وأن يقر بها ليصح إسلامه وأصول الدين التي هذا شأنها مع المسلم، قد بينها الله ورسوله أوفى بيان ولم يدع للمتكلمين مهمة الاستدراك عليه فيها.

"ولهذا قد اعترف بهذا من أهل الكلام كالأشاعرة وغيرهم، بأنها ليست طريقة الرسل وأتباعهم، ولا سلف الأمة وأئمتها، وذكروا أنها محرمة عندهم، بل المحققون على أنها طريقة باطلة"[1].

رابعًا: تعظيم دور العقل وجعله حاكمًا لا محكومًا:

ذلك أن أرباب الكلام قد عظموا العقل وارتضوا أحكامه فيما لا يصلح أن يكون فيه حكمًا، فقد كانوا يطرحون المسألة، ثم يعرضونها على العقل -عقل الواحد منهم طبعًا- فيستجمع لها الأدلة كما يتراءى له لإثباتها على وجه من الوجوه، وحين يصل إلى نتيجة وينتهي إلى قرار يعمد إلى الأدلة السمعية فيؤول منها ما لا يوافق نتيجته -إن كانت من آيات الله- أو يرد الحديث بدعوى تناقضه مع العقل أو أنه مبني على الظن.

يتضح مذهبهم هذا في موقفهم من خبر الواحد مثلًا، فإنهم أنكروا حجيته مطلقًا في الاعتقاد، وأما في باب الأعمال فقد جعلوا من شروط قبوله أن يكون في متن الخبر ما يجوزه العقل ومالم يحتمل تأويلًا صحيحًا فخبره مردود لاستحالة هذا في العقول[2]، ولهم في رد الأحاديث بهذا المنطق فضائح يرجع

---

(١) الفتاوى ٣/ ٣٠٣ لابن تيمية.

(٢) مختصر الصواعق للرازي ١/ ٢٥٢-٢٥٦.

إليها في مثل كتاب "تأويل مختلف الحديث" لابن قتيبة.

وقد وافق بعض كبار الأشاعرة المعتزلة في نسجهم على هذا المنوال، فقالوا إن اليقين لا يثبت إلا بالعقل، وأن المعتمد هو العقل عند التضارب.

وإنما أُتى هؤلاء من ظنهم أنه قد يكون هناك تعارض بين دليل عقلي قطعي ودليل نقلي صحيح، ومن ظنهم أن الدليل النقلي لا يتضمن الدليل العقلي، مع أن القرآن مليء بالأمثال وهي أقيسة عقلية، ثم كيف تتعارض نصوص الكتاب والسنة مع العقل والكل من عند الله سبحانه؟!.

خامسًا: اتخاذ الجدل والمراء وسيلة للبحث في الدين:

ذلك أن منهج علم الكلام أصلًا بني على: "إن قالوا ..قلنا" أي طريقة الجدل والمراء والخصومة، فهو لازم مذهبهم، عليه بنيت أصولهم، كما رأينا من قبل في تعريف الغزالي له من أنه "إلزام للخصم بلوازم مستنتجة من مقدماته"، وكم أدت بهم هذه الطريقة إلى التزام ما لا يلزم، والانتهاء إلى نتائج قد لا يرضونها أصلًا، وإن أقروا بها خصومة وجدلًا وإشفاقًا من الفرار والتراجع أمام الخصم.

سادسًا: النظر إلى الشريعة نظر النقص والافتقار:

ذلك أن متكلمة المعتزلة قد اعتقدوا في الشريعة التضارب والتخالف، فقد يثبت المعنى الذي يتوهمون في عقولهم، ثم يأتي الحديث الصحيح معارضًا لذلك المعنى، فتجدهم يفرون منه فرار المجذوم من الأسد، ويودون لو أن الحديث لم يرد أصلًا، وإن لم يجدوا مندوحة من قبوله لجأوا إلي تأويله أو رده بحجة أنه حديث آحاد مثلًا، وقل مثل ذلك في الآيات القرآنية التي تثبت عكس مقرراتهم.

وإنكارهم للأحاديث الصحيحة الثابتة وردهم لها بدعوى التناقض أكثر من أن يحصى، وقد جمع ابن قتيبة الكثير منها في كتابه "تأويل مختلف الحديث" وأوضح وجه الدلالة فيه، ونجتزئ بإيراد مثالين على ذلك.

١. قالوا حديث يدفعه النظر وحجة العقل رويتم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "أنا أحق بالشك من أبي إبراهيم، ورحم الله لوطًا إن كان ليأوي إلى ركن شديد، ولو دعيت إلى ما دعي إليه يوسف لأجبت"(١). قالوا هذا طعن على إبراهيم، وطعن على لوط، وطعن على نفسه عليهم السلام.

قال أبو محمد (ابن قتيبة): فأما قوله: "أنا أحق بالشك من أبي إبراهيم عليه السلام" فإنه لما نزل عليه (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) قال قوم: شك إبراهيم ولم يشك نبينا، فقال رسول الله ﷺ: أنا أحق بالشك من أبي إبراهيم، تواضعًا منه وتقديمًا لإبراهيم على نفسه، يريد: إنا لم نشك، ونحن دونه فكيف شك هو ..."(٢).

٢. قالوا حديث في التشبيه يكذب القرآن وحجة العقل! رويتم -يعنون أهل السنة- "أن قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الله..." فإن كنتم أردتم بالأصابع هنا النعم، وكان الحديث صحيحًا فهو مذهب، وإن كنتم أردتم الأصابع بعينها فإن ذلك يستحيل لأن الله تعالى لا يوصف بالأعضاء.

قال أبو محمد: ونحن نقول أن الحديث صحيح، وإن الذي ذهبوا إليه في

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة / ٦٥، ويقصد ﷺ في الجزء الأخير من الحديث أنه لو دعي للخروج من السجن لمقابلة الملك لخرج قبل ظهور الحجة التامة بالبراءة.

تأويل الإصبع لا يشبه الحديث.. ولا يجوز أن تكون الإصبع هنا نعمة لقوله في الحديث الآخر "يحمل الأرض على إصبع، وكذا على إصبعين.." ولا نقول إصبع كأصابعنا ولا يد كأيدينا ولا قبضة كقبضتنا لأن كل شيء منه ﷻ لا يشبه شيئًا منا"[١].

فالدارس للشريعة، والمتأمل لمسائلها وحقائقها عليه "أن ينظر إليها بعين الكمال لا بعين النقصان، ويعتبرها كليًا في العبادات والعادات، ولا يخرج عنها البتة، لأن الخروج عنها تيه وضلال ورمي في عَماية. كيف وقد ثبت في الشرع كمالها وتمامها؟ فالزائد والمنقص في جهتها هو المبتدع بإطلاق، والمنحرف عن الجادة إلى بنيات الطريق..وأن يوقن أنه لا تضاد بين آيات القرآن ولا بين الأحاديث النبوية، ولا بين أحدهما مع الآخر، بل الجميع جار على مهيع واحد، فإن أداه بادي الرأي إلى ظاهر اختلاف فواجب عليه أن يعتقد انتفاء الاختلاف، لأن الله قد شهد له أنه لا اختلاف فيه، فليقف وقوف المضطر السائل عن وجه الجمع، أو المسلم من غير اعتراض[٢].

وبعد، فإننا إن ذهبنا نستقصي ما جناه علم الكلام على الحياة الإسلامية من جرائر لما انتهى بحثنا إلى ما نريده من إيجاز واختصار، وإنما بقي أن ننقل نماذج من تقريرهم لمسائلهم، وتعقيدهم لمقدماتهم ونتائجها، حتى يستشعر القارئ صحة ما ذهبنا إليه من قلة غناء مثل هذا العلم، ويتنبه بنفسه إلى ما فيه من غموض والتواءات قد تشكل حتى على أصحابها.

انظر إلى كلام متكلمي الأشاعرة عن"القدرة الإلهية" يقول صاحب شرح

---

(١) المصدر السابق / ٦٤١.

(٢) الاعتصام ٢/ ٣١٠.

جوهرة التوحيد: "وللقدرة تعلقات سبع أشار إلى واحد منها وهو الصلوحي القديم. .

ومعنى التعلق الصلوحي: صلاحيتها إلى الأزل للإيجاد والإعدام، والتعلقات الستة الباقية هي:

تعلق قبضة: وهو تعلقها بعدمنا فيما لا يزال قبل وجودنا.

تعلق بالفعل: وهو تعلقها بإيجادنا بالفعل بعد العدم السابق.

تعلق قبضة: وهو تعلقها باستمرار الوجود بعد العدم.

تعلق بالفعل: وهو تعلقها بإعدامنا بالفعل بعد الوجود.

تعلق قبضة: وهو تعلق باستمرار العدم بعد الوجود.

تعلق بالفعل: وهو تعلقها بإيجادنا بالفعل حين البعث يوم القيامة.

والتعلق هو: طلب الصفة أمرًا زائدًا على قيامها بالذات"[1].

ثم يزيد الدسوقي الأمر شرحًا وبيانًا ! ! فيقول: "إن القدرة تتعلق بوجود الممكن اتفاقا تعلق تأثير، وكذا تتعلق بعدم الطارئ تعلق تأثير على المعتمد"![2].

ثم انظر إلى قولهم في تعلقات السمع والبصر:

"وللسمع والبصر تعلقات ثلاثة:

أولًا: خلوصي قديم، وهو صلاحيتها في الأزل لاكتشاف ذرات الكائنات وصفاتها بهما فيما لايزال!.

ثانيًا: تنجيزي قديم: وهو انكشاف الذات العليا وصفاتها بهما انكشافًا يغاير

(١) شرح الجوهرة للباجوري / ١٠٥.

(٢) حاشية الدسوقي على أم البراهين / ١٠٠.

انكشاف العلم، إذ لكل صفة حقيقة تخالف حقيقة الأخرى، غير أنهما لا يتعلقان بالأمور العدمية "كالسلوب" والأمور الثبوتية "كالأحوال".

ثالثًا: تنجيزي حادث: وهو انكشاف الممكنات بعد وجودهما بهما"[١].

فانظر إلى هذا التعقيد والتخليط، وقارن بما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الكمال والجلال، مثل ما قال رسول الله ﷺ حين رفع الناس أصواتهم بالدعاء: (يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إن الذي تدعون سميع قريب)[٢] هكذا دون تعلقات تنجيزية أو صلوحية!.

المراحل التي مر بها علم الكلام

مر علم الكلام بأربع مراحل مختلفة تغيرت فيها موضوعات مباحثه، نوجزها فيما يلي:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة متقدمي المتكلمين، كواصل بن عطاء [ت١٣٠هـ] وعمرو بن عبيد [ت١٤٣هـ] وخالد بن صفوان، ثم أبي الهذيل العلاف [٢٣٥هـ] وإبراهيم النظام [٢٣٠هـ].

وقد تميزت هذه المرحلة بالتأثر بالمصطلحات اليونانية، وخاصة عند المتأخرين منهم كالعلاف، حيث ترجمت كتب الفلسفة اليونانية، فترجم كتاب "الطبيعة" "وما بعد الطبيعة" لأرسطو، وقد ترجمه إسحاق الكندي[٣]، وقد كانت المباحث الكلامية في هذه المرحلة حسب موضوعاتها التي يتفق الكلام

---

(١) شرح الجوهرة للباجوري / ١١٨.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد (٢٩٩٢) باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير.

(٣) عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين / ١٨٤.

فيها دون وضع قواعد صريحة لهذا العلم، كما خلت من الاستعانة بعلم المنطق الأرسطي[١].

المرحلة الثانية: وهي المرحلة التي دخل فيها الأشاعرة معترك "الكلام" في مقابل المعتزلة، ويمثلها من الأشاعرة أبو الحسن الأشعري [٣٣٠هـ] مؤسس المذهب، وأبو بكر الباقلاني [٤٠٢هـ]، وهو الذي قام بوضع قواعد علم الكلام ومقدماته التي يحتاج إليها الدارس مثل إثبات الجوهر الفرد، وأن لا يقوم العرض بالعرض...إلخ.

ومن بعده إمام الحرمين أبي المعالي الجويني [٤٧٨هـ] الذي صنف على هذه الطريقة كتابه "الشامل" ثم مختصره "الإرشاد". ومن المعتزلة أبو هاشم الجبائي [٣٢٠هـ] ومن بعده أبو عبد الله البصري، ثم القاضي عبد الجبار [٤١٥هـ].

المرحلة الثالثة: ويمثلها أبو حامد الغزالي [٥٠٥هـ] والفخر الرازي حيث تتميز هذه المرحلة بمناقشة كلام الفلاسفة، وإدخال ذلك في "علم الكلام". يقول صاحب أبجد العلوم:" ثم نظروا في تلك القواعد والمقدمات في متن الكلام للمتقدمين، فخالفوا الكثير من البراهين التي أدت إلى ذلك، وربما أن كثيرًا منها مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات". كما تتميز باستعمال المنطق الأرسطي في مقدمات علم الكلام ودراسة أدلته وبراهينه.

المرحلة الرابعة: ومنها البيضاوي [م٦٩١هـ] صاحب "الطوالع" ومن بعده، وتتميز بالخلط بين مذاهب الفلسفة والكلام، واشتباه الأمر فيهما على الكاتب والقارئ جميعًا، ثم يأتي أصحاب التقليد المحض من أتباع الأشاعرة.

---

(١) القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٤٥٠.

وقد ظهر اتجاه لدى كبار أئمة الكلام من الأشاعرة يدعو إلى التحذير من إشاعة علم الكلام بين العامة، وزعموا أنه يجب قصر ذلك على الخاصة أو من رام الاجتهاد والعلو في الدين، وما نرى ذلك إلا رد فعل لما رأوه من أثر انتشار هذه المباحث على عقيدة الناس، واستقبالهم لعقائد الإيمان ومدى تأثرهم بالقرآن منهجًا وأسلوبًا، وما شاع من اختلاط في الأفهام واضطراب في المفاهيم، ومن هؤلاء الأئمة أبو المعالي الجويني في كتابه "الغياثي" حيث صرح بأن من أراد الارتقاء عن مرتبة العوام فله أن ينظر في كتب الكلام التي وضعها، أما العامة فعلى إمام المسلمين أن يجمعهم على عقيدة السلف، وينهاهم عن الخوض في المعميات وتكلف وارد المشتبهات[1]. وقد تابعه تلميذه الغزالي في هذا الرأي في مصنفه "إلجام العوام عن علم الكلام".

ذم السلف الصالح لعلم الكلام

وقد ذم سلف الأمة علم الكلام، ونهوا عن الخوض فيه أشد النهي، مما يؤكد نفورهم منه، وعدم إجازتهم له وأنه لا يروي غليلًا ولا يشفي عليلًا.

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: "لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه -ما عدا الشرك- خير له من أن ينظر في الكلام"، وقال: "حكمي في علماء الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في العشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام"[2].

وقال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا يصلح صاحب كلام أبدًا، علماء الكلام زنادقة"[3].

---

(١) الغياثي: لأبي المعالى الجويني / ١٩٠.
(٢) تلبيس أبليس: لابن الجوزي / ٨٢.
(٣) المصدر السابق: / ٨٣.

وقال الأوزاعي: "إذا أراد الله بقوم شرًا ألزمهم الجدل ومنعهم العمل"[١].

وعن أبي يوسف: "من طلب المال بالكيمياء فقد أفلس، ومن طلب الدين بالكلام تزندق"[٢].

ونقل مثل ذلك الاعتقاد علي بن المديني وأبو زرعة الرازي، وأبو حاتم الرازي، وإسحاق بن إبراهيم، والقاسم بن سلام، والليث بن سعد، ومالك، وسفيان الثوري وغيرهم من علماء الأمة الأجلاء، وكلهم ينهون عن النظر في كتب المتكلمين، ويأمرون بترك مجالستهم وهجرانهم[٣].

رجوع طوائف من المتكلمين إلى الحق:

وقد رجع العديد من أئمة المتكلمين إلى الحق من عقيدة السلف الصالح في إثبات الصفات وغير ذلك، ونهوا عما أحدثوه من قبل من كلام في دقائق العقيدة، وأعلنوا التوبة منه والرجوع عنه.

قال الفخر الرازي -في وصيته التي وردت في كتاب: عيون الأنباء-: "ولقد اخترت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمتنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات.. فلهذا أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده، ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية، والتدبير والفعالية، فذاك هو الذي أقول به وألقى الله به.. والذي لم يكن كذلك أقول ديني متابعة محمد سيّد المرسلين"[٤].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: للحافظ اللالكائي ١/ ١٤٥.

(٢) المصدر السابق ١/ ١٤٧، وكذلك يراجع: صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام للسيوطي.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ١/ ١٥١ وما بعدها.

(٤) عن القائد في تصحيح العقائد / ٧٤.

وكان أبو المعالي الجويني يقول: "يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلت به"(١).

أما أبو حامد الغزالي فإنه لم يجد له مغنى في [الكلام]، وكان ذلك مما بعثه على الرجوع في آخر عمره إلى ما كان يرغب عنه، ويرى أنه لا شيء فيه، فأقبل على حفظ القرآن، وسماع الصحيحين، فيقال أنه مات وصحيح البخاري على صدره، ولكنه توفي قبل أن يظهر أثر ذلك في كتبه(٢).

وأما مؤسس المذهب: أبو الحسن الأشعري، فالغريب أن المنتسبين إليه من المقلدة لا يكادون يلقون بالًا إلى حقيقة أنه رجع بنفسه عن منهج الكلام وعن اعتقادات الأشاعرة، وأقر بانتسابه إلى مذهب الحق الذي يمثله إمام أهل السنة أحمد بن حنبل في عصره وصنف كتابه الأخير على هذا المذهب وهو "الإبانة عن أصول الديانة".

فكل هؤلاء الأئمة هم من أجلّ أئمة المتكلمين من الأشاعرة، قد ذكروا طريقتهم السابقة، ولو أنها كانت الحق لما زيفوها، وأبانوا عوارها ونقصها، وجعلوا في خاتمة عمرهم يتبرؤون منها... فياليت المحْدَثين من المنتسبين لفكرهم والمقلدين لهم يعتبرون بهذه الحال.

أما عن متكلمي المعتزلة، فإنه لم يعرف عن أحدهم أنه تاب وأناب، وما هذا إلا لإيغالهم في الباطل، وعدم توجه نياتهم لطلب الحق أصلًا، وأنهم رؤوس البدعة، والمنشؤون لها.

---

(١) تلبيس أبليس لابن الجوزي / ٨٥.

(٢) والحق أن للغزالي كلامًا طيبًا في قلة غناء علم الكلام في كتابه فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة ٧٩-٨٣.

الفصل الثاني: عقائد المعتزلة

تكاد فرق المعتزلة وكبراؤهم يجمعون على أن للاعتزال أصول خمسة تدور حول عقائدهم وقضاياهم، وقد تسلسلت من خلال كل أصل منها عدة مسائل، فكان لابد لهم -وقد أخذوا من عقولهم هاديًا- أن يسيروا وراء تلك المسائل، ويلتزموا بالنتائج التي تؤدي إليها.

ومن هذه الأصول، أو على رأس هذه الأصول: نفي الصفات (أو التوحيد كما أطلقوا عليه)، فمن خلال استدلالهم العقلي على وجود الله سبحانه التزموا بنفي الصفات، وأداهم ذلك إلى إثبات خلق القرآن، وإلى عدم رؤية المؤمنين لله سبحانه يوم القيامة، وإلى نفي استواء الله على عرشه من فوق سماواته كما أخبر في كتابه الكريم، فناقضوا بذلك محض العقيدة الإسلامية التي ثبتت بنصوص الكتاب والسنة، ونقلها صحابة رسول الله ﷺ ومن بعدهم التابعون وتابعوهم من سلف هذه الأمة، أهل القرون الثلاثة الفضلى.

ومن هذه الأصول: نفي القدر (أو العدل كما أسموه) والذي نشأ من قياسهم الفاسد لعدل الله تعالى على عدل البشر، فأداهم ذلك إلى القول بأن أفعال العباد مخلوقة لهم، وليست من خلق الله، بل ولا يقدر على خلقها عند بعضهم! إذ هو سبحانه لا يقدر على الظلم ولا يريده لأنه لا يحبه ولا يرضاه، ومن ثَم أوجبوا على الله تعالى أن يفعل الصالح للعباد!! كذلك فالعباد وحدهم قادرون على إدراك الخير والشر والحسن والقبح بالعقل دون الشرع، إذ في الأشياء ذاتها قبح وحسن ذاتي، ومن ثم فهم محاسبون ومعاقبون على أفعالهم، ورد الشرع بذلك أم لا!.

ثم خلطوا في مسائل أخرى كالتولد والاستطاعة، وكثيرًا من تلك الأمور

التي استلزمتها مقدماتهم العقلية التي ساروا وراءها حتى النهاية فهلكوا وأهلكوا.

وكذلك في سائر أصولهم الخمسة التي هي المنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وسنحاول في الصفحات التالية أن نفصل ما أوجزناه من أصولهم ونتتبع ما ألزموا به أنفسهم خطوة خطوة حتى اكتملت لهم هذه العقائد.

الأصول الخمسة

الأصل الأول: التوحيد عند المعتزلة

تمهيد

هذا هو الأصل الأول من أصول المعتزلة الخمسة، وهو عندهم يدور حول ما يثبت لله وما ينفى عنه من الصفات، ويدل على ذلك تعريفهم له.

يقول القاضي عبد الجبار -وهو يعرف التوحيد لغة واصطلاحًا-: "والأصل فيه أن التوحيد في أصل اللغة عبارة عما يصير به الشيء واحدًا، كما أن التحريك عبارة عما به يصير به الشيء متحركًا، والتسويد عبارة عما به يصير الشيء أسودًا، ثم يستعمل في الخبر عن كون الشيء واحدًا لما لم يكن الخبر صادقًا إلا وهو واحد، فصار ذلك كالإثبات، فإنه في أصل اللغة عبارة عن الإيجاب..."(١).

وعلى ذلك: فهذا الفصل يبحث في مذهب المعتزلة في صفات الباري تعالى، وما يثبت له وما ينفى عنه، ولذا فإن الكلام في هذا الفصل كما يلي:

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص١٢٨.

المبحث الأول: موقف المعتزلة من الصفات عامة، مع المناقشة، وبيان رأي أهل السنة.

المبحث الثاني: رأي المعتزلة في الإرادة والسمع والبصر والقرآن، مع المناقشة، وبيان رأي أهل السنة.

المبحث الثالث: رأي المعتزلة في الرؤية، وبعض مسائل التشبيه والتجسيم، مع المناقشة، وبيان رأي أهل السنة.

المبحث الأول : موقف المعتزلة من الصفات عامة

تمهيد

لقد ورد في القرآن الكريم آيات قرآنية تثبت صفات الله تعالى، كصفة القدرة، والعلم والإرادة، وكل اسم من أسمائه تعالى يدل على صفة من صفاته، وقد كان الصحابة ومن أتى بعدهم يعتقدون هذه الصفات من غير أن يسألوا عن كنهها أو كيفيتها، ودليل ذلك: أنه لم يرد من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنهم سألوا الرسول ﷺ عن معنى شيء مما وصف الرب به نفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه ﷺ بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا.

إذا كان السلف لم يبحثوا في الصفات ولم يقولوا فيها شيئًا، فكيف نشأت هذه المشكلة؟. إن أول من تكلم في الصفات في الإسلام الجعد بن درهم فإنه نفاها وقال بخلق القرآن، ومن الجعد أخذ الجهم بن صفوان هذه المقالة ونشرها في خرسان.

وقد أنكر المسلمون هذا القول، ونظروا إليه كبدعة، فضللوا الجهمية، وحذروا الناس منهم، وذموا من جالسهم وكتبوا في الرد عليهم، ثم أن المعتزلة

لما ظهروا أخذوا من جملة ما أخذوه من الجهمية القول بنفي الصفات على اختلاف بينهم في طريقة نفيها.

رأي جمهور المعتزلة في الصفات وشبهاتهم والجواب عليها:

عرفنا أن القول بنفي الصفات قد بدأ قبل ظهور المعتزلة على يد الجعد بن درهم، ثم الجهم بن صفوان الذي اشتهر بنشره لهذا المذهب، وإليه نسبت فرقة الجهمية[١]، ثم أنه لما ظهرت المعتزلة أخذت من جملة ما أخذته من الجهمية القول بنفي الصفات، ودليل ذلك: أن مؤسس مذهب الاعتزال واصل بن عطاء[٢] كان ينفي الصفات معتقدًا أن إثباتها يؤدي إلى تعدد القدماء، وذلك شرك، ولذا كان يقول: "إن من أثبت لله معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين"[٣].

ويرى الشهرستاني أن القول بنفي الصفات كما بدأه واصل كان غير ناضج، لأنه شرع فيه على قول ظاهر، وهو الاتفاق على استحالة وجود إلهين قديمين أزليين[٤].

أما المعتزلة الذين خلفوه فإنهم عاصروا حركة ترجمة الكتب اليونانية والكتب الفارسية إلى العربية التي تشتمل على الفلسفة وبعض الأمور الدينية، وخصوصًا كتب الفلاسفة[٥]. وكان الفلاسفة يرون أن الله تعالى واجب الوجود بذاته، وأنه واحد من كل وجه[٦]، فنفوا صفات الباري تعالى الزائدة على الذات،

---

(١) انظر شرح العيون ص٢٩٣.
(٢) انظر فرقة الواصلية ص٥٢ من الرسالة.
(٣) الملل والنحل ١/ ٥١.
(٤) الملل والنحل ١/ ٥١ بتصرف.
(٥) الملل والنحل ١/ ٥١ بتصرف.
(٦) نهاية الإقدام ص٩٠-٩١ بتصرف.

وقالوا: أنه تعالى عالم بالذات لا بعلم زائد على ذاته.

فهذا أفلوطين وهو الذي تأثر به المسلمون أكثر من تأثرهم بغيره من فلاسفة اليونان، يتحدث عن تعالية الله تعالى، ويمنع أن نطلق عليه صفة من الصفات، لأننا بذلك نشبهه تعالى بالأفراد، فلا نقول أن لله تعالى علمًا لأنه هو العلم.. وليس يحتاج تعالى إلى بصر، لأنه ذاته النور الذي يبصر به الناس.

وقد تأثر المعتزلة بهؤلاء الفلاسفة، فاقتبسوا منهم قولهم في الصفات.

يقول الغزالي والشهرستاني:" إن المعتزلة وافقوا الفلاسفة على قولهم في الصفات".

ولذا فإن المعتزلة الذين جاءوا بعد واصل أخذوا بتأثير الفلسفة يفسرون قوله، ويضيفون إليه بعض التعديلات التي لا تؤثر على الجوهر، ويؤيدون ذلك بشبهات عقلية، فقالوا: إن الله عالم بذاته، قادر بذاته لا بعلم وقدرة هي صفات قديمة ومعان قائمة به.

وقد ذكر ابن المرتضي المعتزلي إجماعهم على ذلك، فقال:" وأما ما أجمعت عليه المعتزلة، فقد أجمعوا على أن للعالم محدثًا قديمًا قادرًا عالمًا حيًا لا لمعان ..."[١]. وقد تمسكوا في قولهم هذا بشبهات، منها ما يلي:

شبهة

يقول أبو الحسن الخياط[٢]: "إن الله تعالى لو كان عالمًا بعلم، فإما أن يكون ذلك العلم قديمًا أو يكون محدثًا، ولا يمكن أن يكون قديمًا، لأن هذا يوجب وجود اثنين قديمين، وهو تعدد وهو قول فاسد، ولا يمكن أن يكون علمًا

---

(١) الملل والنحل ١/ ٥١ بتصرف.

(٢) نهاية الإقدام ص٩٠-٩١ بتصرف.

محدثًا، لأنه لو كان كذلك يكون قد أحدثه الله إما في نفسه أو في غيره أو لا في محل، فإن كان أحدثه الله في نفسه أصبح محلًا للحوادث، وما كان محلًا للحوادث فهو حادث، وهذا محال، وإذا أحدثه في غيره كان ذلك الغير عالمًا بما حله منه دونه، كما أن من حله اللون فهو المتلون به دون غيره، ولا يعقل أن يكون أحدثه لا في محل، لأن العلم عرض لا يقوم إلا في جسم، فلا يبقى إلا حال واحد، وهو أن الله عالم بذاته".

المناقشة

يقال لهم: أما قولكم أن الله تعالى لو كان عالمًا بعلم، فإما أن يكون ذلك العلم قديمًا أو يكون محدثًا، فهذا نوافقكم عليه، فإنه لا ثالث لهذين القسمين.

وأما قولكم "ولا يمكن أن يكون علمًا محدثًا.." فهذا نوافقكم عليه أيضًا، فإن الصفة ليست حادثة بل هي قديمة بقدم موصوفها، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

بقى الآن قولكم "ولا يمكن أن يكون علمًا قديمًا، لأنه يوجب تعدد القدماء...".

ونقول إن قولكم هذا فيه إجمال، ولا نجيبكم عليه حتى نعرف مرادكم منه، إن أردتم بقولكم "علمًا قديمًا" بمعنى أنه لا ابتداء له ولم يسبقه عدم مطلق، فصفة العلم قديمة بقدم موصوفها، وإذا كان قدمها تابعًا لقدم موصوفها: فليس هناك تعدد قدماء كما تزعمون، بل هناك قديم وصفته، ولا يلزم من كون الصفة قديمة لقدم موصوفها أن يكون هناك تعدد، وإلا للزم أن تكون صفة الإله إلهًا وصفة الإنسان إنسانًا، وبطلان هذا لاشك فيه عند من له شيء من العقل، وما يؤدي إلى الباطل فهو باطل، وبذلك يبطل تعدد القدماء الذي تزعمونه من

إثبات الصفات، وعليه فإن شبهتكم هذه تنتقض ببطلان أحد مقدماتها، وهو قولكم "ولا يمكن أن يكون قديمًا ..." والله أعلم.

رأي أهل السنة والجماعة في الصفات عامة

ذكرت رأي المعتزلة في الصفات عامة، وانتهيت إلى أنهم يجمعون على غاية واحدة، وهي نفس إثبات الصفات حقيقة في الذات ومتميزة عنها، وعرضت ما تيسر من شبهاتهم وناقشتها، والآن أبين رأي أهل السنة في الصفات، فأقول وبالله التوفيق:

يروي ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأي أهل السنة والجماعة في الصفات فيقول: "...فمذهب السلف -رضوان الله عليهم- إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية عنها، لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، وإثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية، وكذلك إثبات الصفات، وعلى هذا مضى السلف"[(١)].

ويقول في موضع آخر -وهو يروي مذهب السلف في الصفات- :" ... فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ نفيًا وإثباتًا، فيثبت لله ما أثبته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، ثم قال: وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: (ولله الأسماء الحسنى

---

(١) مجموع الفتاوى ج٤ ص٦،٧.

فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون)[١]، وقال تعالى (إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أمن يأتي آمنًا يوم القيامة أعملوا ما شئتم ...)[٢] الآية فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتًا بلا تشبيه، وتنزيهًا بلا تعطيل كما قال تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[٣]. ففي قوله: (ليس كمثله شيء) رد للتشبيه والتمثيل، وفي قوله تعالى: (وهو السميع البصير) رد للإلحاد والتعطيل"[٤].

هذا موجز رأي أهل السنة والجماعة في الصفات. والله أعلم.

رأي المعتزلة في الإرادة والسمع والبصر والقرآن
ومناقشتهم مع بيان رأي أهل السنة

تمهيد

ذكرت -فيما سبق- كلام المعتزلة في الصفات عامة، وما تيسر من شبهاتهم، والجواب عنها، ويدخل في عموم كلامهم الكلام على الإرادة والسمع والبصر والقرآن باعتباره كلام الله.

ونظرًا إلى أن بعض المعتزلة أفردوها بالكلام، فقد رأيت لمزيد الفائدة أن أفردها بالكلام.

رأي المعتزلة في الإرادة ومناقشتهم

لقد اختلفت المعتزلة في موقفهم من الإرادة، وأهم آراءهم في ذلك رأيان:

---

(١) الأعراف: ١٨٠.

(٢) فصلت: ٤٠.

(٣) الشورى: ١١.

(٤) مجموع الفتاوى ج٣ ص٣،٤.

أحدهما: رأي البصريين ومن تابعهم من المعتزلة، ويتلخص هذا الرأي في أن الله تعالى مريد بإرادة حادثة لا في محل[١].

ثانيهما: للنظام[٢] والكعبي ومن تبعهما: وهؤلاء ينفون الإرادة عن الله أصلًا.

وسنعرض -إن شاء الله- هذين الرأيين من أقوالهم، أو أقوال من نقل عنهم، ثم نرد عليهم، فنقول وبالله التوفيق:

الرأي الأول: رأي البصريين ومن تبعهم:

يقول القاضي عبد الجبار: "وقال شيخنا أبو علي[٣]، وأبو هاشم -رحمهما الله- ومن تبعهما أنه تعالى مريد في الحقيقة، وأنه يحصل مريدًا بعد ما لم يكن إذا فعل الإرادة، وأنه يريد بإرادة محدثة، ولا يصح أن يريد لنفسه ولا بإرادة قديمة، وأن إرادته توجد لا في محل"[٤].

ويقول في موضع آخر:" ... واعلم أنه تعالى مريد عندنا بإرادة محدثة موجودة لا في محل"[٥].

أ. الرد على قول البصريين "الله مريد بإرادة حادثة..":

إن قول البصريين بحدوث إرادة الله تعالى باطل، وذلك أنه قد ثبت أن إحداث المحدثات موقوف على الإرادة، فلو كانت الإرادة محدثة لافتقر لإحداثها إلى إرادة أخرى ولزم التسلسل، والقول بالتسلسل باطل فما يؤدي إليه

(١) انظر شرح الأصول الخمسة ص٤٤٠.
(٢) انظر فرقة النظامية ص٥٦ من الرسالة.
(٣) أبو علي الجبائي: انظر فرقة الجبائية ص٧٣ من الرسالة.
(٤) المغني في أبواب العدل والتوحيد ج٦ ص٣.
(٥) شرح الأصول الخمسة ص٤٤٠.

مثله من القول بحدوث الإرادة(١).

وأيضًا فإن الإرادة صفة، والصفة قديمة بقدم موصوفها(٢). كما بيناه في مقام سابق عند الرد على رأي جمهور المعتزلة في الصفات عامة.

ب. الرد على المعتزلة "الله مريد بإرادة... لا في محل":

إن قول المعتزلة: "الله مريد بإرادة... لا في محل" باطل من وجوه منها:

الأول: أن وجود عرض لا في محل بعيد عن العقول، ولو جاز ذلك فلِمَ لا يجوز سواد لا في محل وبياض لا في محل؟، وكذا القول في سائر الأعراض(٣).

يقول الشهرستاني في معرض رده على من قال بهذا القول: "ويستحيل كون الإرادة لا في محل، فإن الإرادة من جملة الأعراض، واحتياج الأعراض إلى المحل صفة ذاتية لها، ومن المحال ثبوتها دون الوصف الذاتي....."(٤).

وإذا كانت الأعراض تستلزم محلًا تقوم به، فإن الإرادة تستلزم محلًا تقوم به كسائر الأعراض، وعليه فإن القول بأن الله مريد بإرادة لا في محل باطل.

الثاني: يلزم على قولكم "الله مريد بإرادة لا في محل" "أن يكون الله مريدًا بإرادة قائمة لا في ذاته، ولو جاز أن يكون تعالى مريدًا بإرادة قائمة لا في ذاته لجاز أن يكون عالمًا بعلم قائم لا في ذاته، وقادر بقدرة قائمة لا في ذاته، إلى غير ذلك من الصفات، وهذا لا تقولون به، ولجاز أيضًا أن يكون الواحد منا عالمًا وقادرًا بعلم قائم لا في ذاته وقدرة قائمة لا في ذاته، وهذا مما لا تقولون به أيضًا، والتحكم بالفرق من غير دليل مما لا سبيل إليه.

---

(١) الأربعين في أصول الدين ص١٥٣،١٥٤، ونهاية الإقدام ص٢٤٥ بتصرف.

(٢) انظر منهاج السنة ج٢ ص٩٥.

(٣) الأربعين في أصول الدين ص١٥٤ بتصرف.

(٤) نهاية الإقدام ص٢٤٣.

وهذه اللوازم معلوم بطلانها بالضرورة، بل أنتم لا توافقون عليها، وإن كانت هذه اللوازم باطلة بطل ما يؤدي إليها من القول بأن الله مريد بإرادة... لا في محل.

وبما ذكرنا يظهر بطلان قول المعتزلة "الله مريد بإرادة حادثة لا في محل، ويتبين أن إرادته تعالى أزلية قائمة في ذاته تعالى. والله أعلم.

الرأي الثاني: رأي النظام والكعبي ومن تبعهما في الإرادة

قالا: إن الله تعالى غير مريد على الحقيقة وأنه لا يوصف بها إلا مجازًا، فإن قلنا أن الله تعالى مريد في الأزل، فمعناه أنه عالم قادر غير مكره على فعله، ولا كاره له، وإذا قلنا أنه مريد لأفعاله فالمراد أنه خالقها ومنشئها على وفق علمه، وإذا قلنا أنه مريد لأفعال عباده فالمعنى أنه آمر بها.

المناقشة

أولًا: يقال لهم: إذا زعمتم أنه قد كان في سلطان الله ﷻ الكفر والعصيان وهو لا يريدها، وأراد أن يؤمن الخلق أجمعون فلم يؤمنوا، فقد وجب على قولكم أن أكثر ما شاء الله أن يكون لم يكن، وأكثر ما شاء الله أن لا يكون كان، وهذا جحد لما أجمع عليه المسلمون من أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لا يكون[1].

ثانيًا: يلزم على قولكم بنفي الإرادة أن تكون الأفعال غير اختيارية شبيهة بالأفعال الطبيعية عند أهل الطبائع، وهذا باطل فما يؤدي إليه مثله[2].

ثالثًا: يلزم من نفي الإرادة عن الله تعالى وصفه بالعجز، وهو صفة نقص،

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة ص١٦٣، والاقتصاد في الاعتقاد ص١٠٨، بتصرف.

(٢) نهاية الإقدام ص٢٤٥ بتصرف.

تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، ووصف الله بالنقص باطل، فما يؤدي إليه مثله.

رأي المعتزلة في صفتي السمع والبصر ومناقشتهم

لقد اختلف المعتزلة في المقصود بهاتين الصفتين بعد أن اتفقوا عمومًا على نفيهما، فلا هما قديمان، ولا هما حادثان.

يقول الشهرستاني: "واتفقت المعتزلة على أن الإرادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته تعالى، لكن اختلفوا في وجوه وجودها، ومحامل معانيها ..."(١).

القول الأول: قول الجبائي وابنه، ومن تابعهما من البصريين

ويتلخص رأيهم في أن الله سميع بصير، بمعنى أنه حيّ لا آفة تمنعه من إدراك المسموع والمرئي إذا وجدا، ذلك أنهم.. يرون أن الحي إذا سلمت نفسه عن الآفة سُمي سميعًا بصيرًا.

ويحكي الشهرستاني آراء المعتزلة في معنى كونه تعالى سميعًا بصيرًا، فيقول: "... ومن قال من المعتزلة أن المعني بكونه سميعًا بصيرًا، أنه حي لا آفة به، فمذهبه بخلاف مذهب الكعبي، وهو الذي صار إليه الجبائي وابنه ..."(٢).

القول الثاني: رأي النظام والكعبي، ومن تابعهما من البغداديين في معنى السميع البصير:

ويتلخص رأيهم في أن الله تعالى لا يسمع ولا يبصر شيئًا على الحقيقة، وتأولوا وصفه بالسميع والبصير، على معنى العلم بالمسموعات والمرئيات.

---

(١) الملل والنحل ج١ ص٤٩.

(٢) نهاية الإقدام ص٣٤١.

يقول الشهرستاني: "وذهب الكعبي، ومن تابعه من البغداديين إلى أن معنى كونه تعالى سميعًا بصيرًا أنه عالم بالمسموعات والمبصرات ..."[١].

ويقول البغدادي: "وزعم الكعبي أن الله تعالى لا يرى نفسه ولا غيره، إلا على معنى علمه بنفسه وبغيره، وتبع النظام في قوله: إن الله لا يرى شيئًا في الحقيقة..."[٢].

مناقشة رأي المعتزلة في صفتي السمع والبصر

أولًا: الرد على المعتزلة في نفيهم لصفتي السمع والبصر

إن قول المعتزلة بنفي صفتي السمع والبصر عن الله تعالى باطل، وبيان ذلك أن النقل والعقل قد دلا على ثبوت صفتي السمع والبصر له تعالى، فالقول بنفيهما مخالفة للنقل الصريح من الكتاب والسنة، ومخالفة للعقل الصحيح، وما خالفهما باطل بالاتفاق.

فمن النقل: قوله تعالى: (..ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، ففي هذه الآية دلالة صريحة على وصف الله تعالى بالسمع والبصر.

وقال تعالى -حاكيًا ما قاله إبراهيم عليه السلام لأبيه-: (...لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا)[٣].

ووجه الدلالة: يقول ابن خزيمة[٤]: "أفليس من المحال أن يقول خليل

---

(١) نهاية الإقدام ص٣٤١.

(٢) الفرق بين الفرق ص١٨١.

(٣) مريم: ٤٢.

(٤) محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري الشافعي (أبو بكر) محدث مشارك في بعض العلوم، ولد بنيسابور سنة ٢٢٣ هـ، وطوف البلاد في طلب العلم وسماع الحديث، وتوفي بنيسابور في ذي القعدة سنة ٣١١ هـ. من =

الرحمن لأبيه: (...لِمَ تعبدُ ما لا يسمع ولا يبصر...) الآية، فيعيبه بعبادة ما لا يسمع ولا يبصر، ثم يدعوه إلى عبادة ما لا يسمع ولا يبصر كالأصنام التي هي من الموتى لا من الحيوان..."[1]. فدل ذلك على ثبوت صفتي السمع والبصر له تعالى على ما يليق بجلاله.

وقال تعالى: ﴿أفأنت تكون عليه وكيلًا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلًا﴾[2].

ووجه الدلالة: يقول ابن خزيمة: إن الله تعالى أخبر بهذه الآية أن من لا يسمع، ولا يعقل كالأنعام، فدل على ثبوت صفتي السمع والبصر له سبحانه وتعالى، وإلا لزم اتصافه تعالى بصفات النقص التي أثبتها لمن لا يسمع... تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا"[3].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فكنا إذا علونا كبرنا، فقال ﷺ: "أَرْبِعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيرًا قريبًا..." الحديث[4].

ففي هذا الحديث كالآيات دلالة على اتصافه تعالى بصفتي السمع والبصر قائمتين بذاته تعالى حقيقة.

=

مؤلفاته: المختصر الصحيح،والتوحيد في إثبات صفات الرب، انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي ج٢ ص ٢٥٩-٢٦٨،والأعلام ج٦ص٢٥٣.

(١) التوحيد ص ٣٣.

(٢) الفرقان: ٤٤.

(٣) التوحيد ص ٤٦.

(٤) أخرجه البخاري برقم ٧٣٨٦ في كتاب التوحيد، في باب: "وكان الله سميعًا بصيرًا"، انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ج١٣ ص ٣٧٢.

يقول البيهقي[١]- في كتابه: الأسماء والصفات-: "السميع من له سمع يدرك به المسموعات، والبصير: من له بصر يدرك به المرئيات، ولكل منهما في حق الباري تعالى صفة قائمة بذاته تعالى[٢].

ومن العقل ما يقول الباقلاني: حيث قال: "والدليل على أن الله تعالى سميع بصير... أنه قد ثبت أنه تعالى حي، والحي يصح أن يكون سميعًا بصيرًا... ومن عرى من هذه الأوصاف مع صحة وصفه بها، فلابد من أن يكون موصوفًا بأضدادها... من العمى والصمم، وهذه الأمور آفات قد اتفق على أنها تدل على حدوث الموصوف بها، فلم يجز وصف القديم بشيء منها، فوجب أن يكون سميعًا بصيرًا ..."[٣].

وإذا ثبت بالنقل والعقل، أنه تعالى سميع بصير، بطل ما يزعمه النفاة، من أنه تعالى ليس ليس بسميع ولا بصير بسمع وبصر قائمين في ذاته تعالى على ما يليق بجلاله.

إضافة إلى هذا: فإنه سبق أن عرضت لشبهات المعتزلة في نفي الصفات في مبحث: موقف المعتزلة من الصفات عامة، ورددت عليها، وعلى ذلك فإنه

---

(١) هو أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر من أئمة الحديث، ولد في خسرو جرد من قرى بيهق بنيسابور سنة ٣٨٤هـ ونشأ بها، ورحل إلى بغداد ثم الكوفة... وعاد إلى نيسابور فلم يزل بها إلى أن مات سنة ٤٥٨هـ. قال إمام الحرمين: ما من شافعي إلا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي، فإن له الحق والفضل على الشافعي لكثرة تصانيفه في نصرة مذهبه. له مؤلفات منها: السنن الكبرى، والسنن الصغرى، والأسماء والصفات، والترغيب والترهيب. انظر الأعلام للزركلي ج١ ص١١٦، وطبقات الشافعية ج١ ص٣.

(٢) عقيدة السفاريني ج١ ص١٢٢.

(٣) التمهيد ص ٢٦،٢٧، وانظر اللمع للأشعري ص٢٦، والإرشاد ص٧٢،٧٣.

يبطل رأي المعتزلة في نفي صفتي السمع والبصر ببطلان رأيهم في نفي سائر الصفات، لأن شبهاتهم التي نفوا بسببها الصفات: عامة لجميع الصفات، وليست خاصة بصفات بعينها. والله أعلم، وهو ولي التوفيق.

ثانيًا: الرد على الجبائي وابنه، ومن تابعهما من البصريين في تأويلهم السميع والبصير بالحي الذي لا آفة له:

أولًا: يقال لهم: أطلقتم القول بنفي الآفة، وهو ليس بشرط بالاتفاق، فإن السميع والبصير قد يكن ذا آفة، وذا آفات كثيرة[1].

ثانيًا: يقول الشهرستاني -وهو يرد على الجبائي ومن معه-: "نحن ندرك تفرقة ضرورية بين كون الإنسان سميعًا وبين كونه بصيرًا، وهما متفقان في أن معنى كل واحد منهما أنه حي لا آفة به، فهذه التفرقة ترجع إلى ماذا؟ فلابد من أمرين زائدين على كونه حيًا لا آفة به حتى يكون بأحدهما سميعًا وبالثاني بصيرًا، وإلا فتبطل التفرقة الضرورية، فالذي انفصل به السمع عن البصر وراء كونه حيًا لا آفة به، فكذلك الذي انفصل به السمع والبصر عن العلم وسائر الصفات وراء كونه حيًا لا آفة به.

ثالثًا: الرد على البغداديين في تأويلهم صفتي السمع والبصر بالعلم:

عرفنا -فيما سبق- أن النظام والكعبي، ومن تابعهما من البغداديين أنهم يرون أن المراد بوصف الله بالسمع والبصر إنما المراد به العلم، فقولنا: الله سميع بصير،أي:عليم.وهذا القول ظاهر البطلان لما يلي:

١ . أن في هذا القول نفي لصفتي السمع والبصر قائمتين بذاته تعالى حقيقة، وتأويل لهما بالعلم، مع أنه روى أبو هريرة رضي الله عنه "أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية:

---

(١) انظر نهاية الإقدام ص٣٤٦.

(إن الله كان سميعًا بصيرًا) فوضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينيه"[١].

يقول ابن القيم[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما فعل ذلك ﷺ رفعًا لتوهم متوهم أن السمع والبصر غير العينين المعلومتين ..."[٣].

ويقول البيهقي، بعد أن أورد هذا الحديث للدلالة على ثبوت صفتي السمع والبصر لله تعالى قال: "والمراد بالإشارة المروية في هذا الخبر تحقيق الوصف لله عَزَّ وَجَلَّ بالسمع والبصر، فأشار إلى محلي السمع والبصر منا لإثبات صفة السمع والبصر لله تعالى، كما يقال: قبض فلان على مال لفلان، ويشار باليد على معنى أنه حاز ماله، وأفاد هذا الخبر أنه سميع بصير له سمع وبصر حقيقيان، لا على معنى أنه عليم إذ لو كان بمعنى العلم لأشار في تحقيقه إلى القلب، لأنه محل العلوم منا، وليس في الخبر إثبات الجارحة تعالى الله عن شبه المخلوقين علوًا كبيرًا..."[٤].

فدل هذا الحديث على ثبوت صفتي السمع والبصر لله تعالى حقيقة،

---

(١) النساء: ٥٨. والحديث رواه أبو داود برقم ٤٧٢٨، يقول الحافظ أحمد بن علي بن حجر في الفتح بعد سياقه الحديث قال: أخرجه أبو داود بسند قوي على شرط مسلم من رواية أبي يونس عن أبي هريرة: انظر فتح الباري ج١٣ ص٣٧٣.

(٢) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي (أبو عبد الله شمس الدين) مولده ووفاته في دمشق، ولد سنة ٦٩١، وتوفي سنة ٧٥١ هـ، تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، وقد سجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه، ثم أطلق بعد وفاة ابن تيمية، كان حسن الخلق محبوبًا عند الناس. له مؤلفات كثيرة منها: أعلام الموقعين، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ومفتاح دار السعادة، وزاد المعاد، والصواعق المرسلة: انظر طبقات الشافعية ج٦ ص٤٤، والأعلام ج٦ ص ٢٨٠.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة: ص ٤٦١،٤٦٠.

(٤) الأسماء والصفات للبيهقي ص١٨٠.

وبطلان تأويلهما بالعلم.

٢. إن ألفاظ الشرع إنما تصرف عن موضوعاتها المفهومة السابقة إلى الأذهان إذا كان يستحيل تقديرها على الموضوع، ولا استحالة في كونه سميعًا بصيرًا، بل يجب أن يكون كذلك، فلا معنى للتحكم بإنكار ما فهمه أهل الإجماع من القرآن.

رأي المعتزلة في القرآن ومناقشتهم

المعتزلة قد اختلفوا في الكلام هل هو جسم أم لا ؟ إلا أنهم اتفقوا على أنه مخلوق.

يقول القاضي عبد الجبار، وهو يتكلم عن مذاهب الناس في القرآن: "وأما مذهبنا فهو أن القرآن كلام الله تعالى ووحيه، وهو مخلوق محدث..."(١).

وقد تمسكوا في قولهم هذا بشبهات نقلية وعقلية، منها ما يلي:

الشبهة الأولى: قال تعالى: ﴿ الله خالق كل شيء ﴾(٢) الآية.

ووجه الدلالة: يقول القاضي، بعد أن أورد هذه الآية: "الآية تدل بعمومها على حدوث القرآن، وأنه تعالى خلقه... ولا دلالة توجب خروج القرآن من هذا العموم، فيجب دخوله فيه".

المناقشة

يقال لهم: إن تمسككم بهذه الآية على زعم أن القرآن شيء فيكون داخلًا في عموم كل، فيكون مخلوقًا لمن أعجب العجب!، وذلك أن أفعال العباد كلها عندكم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعها لا يخلقها الله،

(١) شرح الأصول الخمسة ص٥٢٨.
(٢) الرعد: ١٦.

فأخرجتموها من عموم كل، وأدخلتم كلام الله في عمومها، مع أنه صفة من صفاته، به تكون الأشياء المخلوقة، إذ بأمره تكونت المخلوقات. قال تعالى: (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر...)[١] الآية. ففرق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقًا للزم أن يكون مخلوقًا بأمر آخر، والآخر بآخر إلى ما لا نهاية له، فيلزم التسلسل، وهو باطل.

وطرد باطلكم أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة، كالعلم والقدرة وغيرهما، وذلك صريح الكفر، فإن علمه شيء وقدرته شيء... فيدخل ذلك في عموم كل، فيكون مخلوقًا بعد أن لم يكن، تعالى الله عما تقولون علوًا كبيرًا.

وأيضًا كيف يصح أن يكون الله متكلمًا بكلام يقوم بغيره، ولو صح ذلك، للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامه، وكذلك أيضًا ما خلقه في الحيوانات، وألا يفرق بين نطق وأنطق... بل يلزم أن يكون متكلمًا بكل كلام خلقه في غيره زورًا كان أو كذبًا، تعالى الله عن ذلك، ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره، لصح أن يقال للبصير أعمى، والعكس، ولصح أن يوصف تعالى بالصفات التي خلقها في غيره من الألوان وغيرها.

أما تمسككم بعموم كل فإن عمومها في كل موضع بحسبه، ألا ترى... قوله تعالى: (تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم)[٢]، ومساكنهم شيء، ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح؟، وذلك لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة، وما يستحق التدمير، وكذلك قوله تعالى حكاية

---

(١) الأعراف: ٥٤.

(٢) الأحقاف: ٢٥.

عن بلقيس: (وأوتيت من كل شيء)[١] الآية، والمراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام.

وعلى هذا فالمراد من قوله تعالى: (الله خالق كل شيء)[٢] الآية. أي كل شيء مخلوق، وكل موجود سوى الله فهو مخلوق، فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتمًا، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى وصفاته، لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة لا يتصور انفصال صفاته عنه[٣].

وبما أن القرآن كلام الله، وكلامه تعالى صفة من صفاته، إذن القرآن ليس داخلًا في عموم الآية، فهو ليس مخلوقًا، وبذلك يبطل استدلالكم بهذه الآية. والله أعلم.

الشبهة الثانية: قال تعالى: (إنا جعلناه قرآنًا عربيًا)[٤] الآية

ووجه الدلالة: يقول القاضي: "وقوله: (إنا جعلناه قرآنًا عربيًا) يوجب حدوثه، لأن الجعل والفعل سواء في الحقيقة... فدل ذلك على حدوث القرآن"[٥].

ويقول الزمخشري[٦]: "(إنا جعلناه قرآنًا عربيًا) أي خلقناه عربيًا غير عجمي

---

(١) النمل: ٢٣.

(٢) الزمر: ٦٢.

(٣) شرح الطحاوية ص١٨٣-١٨٦، وانظر فتاوى ابن تيمية ج٥ ص٥٤.

(٤) الزخرف: ٣٠.

(٥) المغني في أبواب العدل والتوحيد ج٧ ص٩٤.

(٦) هو محمد بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري (أبو القاسم جار الله) مفسر محدث متكلم نحوي... ولد بـ"زمخشر" من قرى خوارزم في رجب سنة ٤٦٧ هـ وقدم =

إرادة أن تعقله العرب، ولئلا يقولوا لو لا فصلت آياته..."[١].

الجواب عن هذه الشبهة: إن استدلال المعتزلة بهذه الآية باطل من وجوه، منها:

أولًا: أن (جعل) تكون بمعنى: خلق إذا تعدت إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: (وجعل الظلمات والنور)[٢] الآية، وقوله تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون)[٣].

ما إذا تعدت إلى مفعولين لم تكن بمعنى خلق، قال تعالى: (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلًا)[٤] الآية، وقال تعالى: (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم)[٥] الآية. والآية التي استدلوا بها: (جعل) فيها قد تعدت إلى مفعولين، فهي ليست بمعنى خلق[٦].

الشبهة الثالثة

قول القاضي عبد الجبار: "وقوله تعالى: (... نودي من شاطئ الوادِ الأيمن

=

بغداد وسمع الحديث، وتفقه، ورحل إلى مكة فجاور بها ولذا سمي جار الله، وتوفي = =بـ"جرجانية" خوارزم ليلة عرفة بعد رجوعه من مكة سنة ٥٣٨ هـ. له مؤلفات منها: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار والكشاف عن حقائق التنزيل: انظر وفيات الأعيان ج٢ص١١٠،١٠٧، ومعجم المؤلفين ج١٢ ص١٨٦.

(١) الكشاف للزمخشري ج٣ ص٤٧٧.

(٢) الأنعام: ١.

(٣) الأنبياء: ٣٠.

(٤) النحل: ٩١.

(٥) البقرة: ٢٢٤.

(٦) شرح العقيدة الطحاوية: ص١٨٦ بتصرف.

في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين)[١] يوجب حدوث النداء، لأنه جعل الشجرة ابتداء غايته، وهذا يوجب حدوثه فيها"[٢].

يروي الرازي استدلال المعتزلة بهذه الآية فيقول: "احتجت المعتزلة على قوله إن الله تعالى تكلم بكلام يخلقه في جسم بقوله تعالى: (...من الشجرة)، فإن هذا صريح في أن موسى عليه السلام سمع النداء من الشجرة، والمتكلم بذلك النداء هو الله سبحانه وتعالى، وهو تعالى منزه أن يكون في جسم، فثبت أنه تعالى إنما يتكلم بخلق الكلام في جسم".

الجواب عن هذه الشبهة

قال لهم: إن استدلالكم بهذه الآية على أن الكلام خلقه الله تعالى في الشجرة، فسمعه موسى منها باطل، ودليل ذلك أول الآية وآخرها، فأما أولها: فقوله تعالى: (فلما أتاها نودي من شاطئ الوادِ الأيمن) الآية، والنداء هو الكلام من بعد، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي، ثم قال: (في البقعة المباركة من الشجرة)، أي أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة، كما تقول سمعت كلام زيد من البيت، يكون من البيت ابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم، ومثل ذلك قوله تعالى: (.. من الشجرة..) الآية، لابتداء الغاية لا أن الشجرة هي المتكلمة. وفي آخر الآية لو كان الكلام مخلوقًا في الشجرة لكانت هي القائلة (إني أنا الله رب العالمين) وهو باطل وما يؤدي إلى الباطل مثله.

رأي المعتزلة في الرؤية

قول القاضي عبد الجبار: "فأما أهل العدل بأسرهم، والزيدية، والخوارج،

---

(١) القصص: ٣٠.

(٢) متشابه القرآن ج٢ ص٥٤٥.

وأكثر المرجئة، فإنهم قالوا: لا يجوز أن يُرى الله تعالى بالبصر، ولا يدرك به على وجه لا لحجاب ومانع، ولكن لأن ذلك يستحيل"[١].

شبهات المعتزلة التي تمسكوا بها في نفي الرؤية ومناقشتها

الشبهة الأولى

قال تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير)[٢].

وجه الدلالة: يقول القاضي، بعد أن أورد هذه الآية: "ووجه دلالة الآية: هو ما قد ثبت من أن الإدراك إذا قرن بالبصر لا يحتمل إلا الرؤية، وثبت أنه تعالى نفى عن نفسه إدراك البصر، ونجد في ذلك تمدحًا راجعًا إلى ذاته، وما كان من نفيه تمدحًا راجعًا إلى ذاته كان إثباته نقصًا والنقائص غير جائزة على الله تعالى في حال من الأحوال".

المناقشة: إن استدلال المعتزلة بهذه الآية على نفي الرؤية باطل من وجوه منها:

أولًا: أن الله تعالى إنما نفى الإدراك، والإدراك في اللغة معنى زائد على النظر والرؤية، وهو بمعنى الإحاطة، وليس هذا المعنى في النظر، فالإدراك منفي عن الله تعالى على كل حال في الدنيا والآخرة، فلا شيء يحيط به، والدليل على أن الإدراك معنى زائد قوله تعالى: (فلما ترآى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين)[٣]، فقد فرق الله تعالى بين الإدراك والرؤية فرقًا جليًا: حيث أثبت الرؤية بقوله: (فلما ترآى الجمعان)، وأخبر أنه

---

(١) المغني ج٤ ص١٣٩.
(٢) الأنعام: ١٠٣.
(٣) الشعراء: ٦١.

رأى بعضهم بعضًا، فصحت منهم الرؤية، ونفى الإدراك بقول موسى عليه السلام لهم (قال كلا إن معي ربي سيهدين)، فأخبر تعالى أن رأى أصحاب فرعون بني إسرائيل ولم يدركوهم، ولا شك في أن ما نفاه الله تعالى: هو غير ما أثبته: فالإدراك غير الرؤية[١]. وإذا كان الإدراك غير الرؤية فلا دلالة في الآية على نفي الرؤية، لأن المنفي إنما هو الإدراك، ولا مانع من كون الشيء مرئيًا وليس مدركًا كما في هذه الآية التي تحكي قصة فرعون وموسى. والله أعلم.

ثانيًا: الآية حجة عليكم أيها النفاة وليست لكم، وذلك لأن الإدراك إما أن يراد به مطلق الرؤية، أو الرؤية المقيدة بالإحاطة، والأول باطل، لأنه ليس كل من رأى شيئًا يقال أنه أدركه، كما لا يقال أنه أحاط به، وقد سئل ابن عباس رضي الله عنه عن ذلك فقال: "ألست ترى السماء؟ قال: بلى. قال: أكلها ترى؟ قال: لا"، فدل قول ابن عباس على أن مطلق الرؤية لا يتضمن الإدراك.

ومما يؤيد قول ابن عباس أن الرائي يرى جوانب الجيش أو الجبل أو المدينة ولا يقال أنه أدركها، وإنما يقال أدركها إذا أحاط بها رؤية.

وإذا بطل أن يكون المراد بالإدراك مطلق الرؤية لم يبق إلا أن يكون المراد به الرؤية المقيدة بالإحاطة، والرؤية المقيدة بالإحاطة مما يجب نفيه عن الله تعالى، فإنه لا يحاط به رؤية كما لا يحاط به علمًا. ولا يلزم من نفي إحاطة الرؤية والعلم، نفي العلم والرؤية، بل يكون دليلًا على أنه يرى ولا يحاط به، كما يعلم ولا يحاط به، فإن تخصيص الإحاطة بالنفي، يقتضي أن الرؤية ليست بمنفية، لأن تخصيص الأكبر بالنفي يقتضي أن الأصغر ثابت، كما لو قلت ليس عندي مائة درهم فإنه لا ينافي وجود ما هو أقل من المائة، بل يكون دليلًا على

(١) الفصل ج٣ ص٣-٤ بتصرف.

وجودها.

ومما يؤكد دلالة الآية على الرؤية أن الله تعالى ذكرها ليمدح بها نفسه ومعلوم أن كون الشيء لا يرى ليست صفة مدح، لأن النفي المحض لا يكون مدحًا، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفي إذا تضمن أمرًا ثبوتيًا: كمدحه بنفي السِّنة والنوم المتضمن كمال القيومية... ولهذا لم يتمدح تعالى بعدم محض لم يتضمن أمرًا ثبوتيًا. لأن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه. فدل هذا على أن الآية تتضمن أمرًا ثبوتيًا، وهو أنه تعالى يُرى، ولا يدرك ولا يحاط به لكماله وعظمته.

وبذلك يبطل استدلال المعتزلة بهذه الآية. والله أعلم.

الشبهة الثانية

يقول القاضي: وقد استدل شيوخنا رحمهم الله تعالى على أنه تعالى لا يرى بالأبصار بقوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: (قال رب أرني انظر إليك...)[1] الآية، وإجابته إياه بقوله: (لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني...)[2] فنفى أن يراه.

المناقشة

والجواب على هذه الشبهة هو أن يقال لهم: إن استدلالكم بهذه الآية على نفي الرؤية باطل، فإنه لا دلالة فيها على ما تزعمون، بل هو دليل عليكم، وبيان ذلك من وجوه منها:

الأول: أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته، أن

---

(١) الأعراف: ١٤٣.

(٢) الأعراف: ١٤٣.

يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو من أعظم المحال.

الثاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال: (...إني أعظك أن تكون من الجاهلين)[١].

الثالث: أنه تعالى قال: (لن تراني)، ولم يقل إني لا أُرى، أو لا تجوز رؤيتي، أو لست بمرأي، والفرق بين الجوابين ظاهر. ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه رجل طعامًا، فقال: أطعمنيه، فالجواب الصحيح: أنه لا يؤكل، أما إذا كان طعامًا صح أن يقال: إنك لن تأكله، وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى، يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني)[٢]. فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف؟!.

الخامس: أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقرًا، وذلك ممكن، وقد علَّق به الرؤية، ولو كانت محالًا لكان نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام، والكل عندكم سواء.

السادس: قوله تعالى: (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا ...) الآية، فإذا جاز أن يتجلى للجبل، الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته؟ ولكن الله تعالى أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فالبشر أضعف.

---

(١) هود: ٤٦.

(٢) الأعراف: ١٤٣.

السابع: أن الله كلم موسى، وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يسمع مخاطبة كلامه بغير واسطة - فرؤيته أولى بالجواز. ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه، وقد جمعوا بينهما.

وأما دعواهم تأبيد النفي بـ(لن) وأن ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة ففاسد، فإنها لو قيدت بالتأبيد لم تدل على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أطلقت؟! قال تعالى: (ولن يتمنوه أبدًا ...) مع قوله: (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك)، ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها وقد جاء ذلك، قال تعالى: (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ...) الآية، فثبت أن (لن) لا تقتضي النفي المؤبد.

قال جمال الدين بن مالك[1]: "ومن رأى النفي بلن مؤبدًا = فقوله أردد وسواه فاعضدا"[2].

وإذا كانت الآية دليلًا عليهم لم يبق لهم استدلال بها. والله أعلم.

أما الأحاديث النبوية فقالوا: إنها أحاديث أحاد، وأحاديث الآحاد لا تؤخذ منها عقيدة، بل طعنوا في صحة أسانيدها ورواتها.

مناقشة المعتزلة في تأويلهم للآيات القرآنية وردهم للأحاديث النبوية المثبتة للرؤية

أولًا: الآيات القرآنية:

ذكرنا آنفًا أن المعتزلة أولوا جميع الآيات القرآنية الدالة على الرؤية. ولم

(١) هو الإمام الحجة الثبت أبي عبد الله محمد جمال الدين بن مالك، صاحب الألفية المشهورة في النحو والصرف، وهي عبارة عن أرجوزة. ولد بجيان سنة ٦٠٠، وتوفي بدمشق سنة ٦٧٢ من الهجرة. وقد شرح ألفيته كثيرون أشهرهم ابن عقيل.

(٢) شرح الطحاوية ص ٢٠٦،٢٠٧،٢٠٨ بتصرف.

يعتبروا شيئًا منها يدل دلالة حقيقية على الرؤية، وأتينا بمثالين من الآيات التي أولوها:

الأول: قوله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة).

أولوها: بأن المعنى: وجوه يومئذ ناضرة نعم ربها -منتظرة- ونقول هذا التأويل باطل لما يلي:

أ. أن الله تعالى أخبر أن تلك الوجوه قد حصلت لها النضرة وهي النعمة، فإذا حصلت لها النعمة فبعيد أن ينتظر ما قد حصل لها، وإنما ينتظر ما لم يقع بعد.

ب. تواتر الأخبار عن النبي ﷺ ببيان أن المراد بالنظر هو الرؤية لا ما تأوله المتأولون[1].

جـ. أن النظر في الآية لا يخرج عن أربعة معاني: إما أن يكون بمعنى الانتظار، وهذا لا يجوز لأن الانتظار معه تنغيص وتكدير والآخرة لا يكون فيها ذلك لأن الجنة دار نعيم وليست دار تنغيص وتكدير.

أو يكون بمعنى نظر الاعتبار: وهذا مردود لأن الآخرة ليست بدار اعتبار بل دار ثواب أوعقاب.

أو يكون بمعنى نظر القلب: وهذا مردود لأن الله ذكر النظر مع الوجه. وإذا بطلت هذه المعاني الثلاثة لم يبق إلا نظر الرؤية[2].

وأيضًا فإن حمل الكلام على ظاهره الذي وضع له في اللغة لا يجوز تعديه إلا بنص أو إجماع، ولم يرد ما يصرفه عن هذا الظاهر فيتعين. ومما يؤيد أن

---

(١) انظر شرح الطحاوية ص٢٠٩.

(٢) الإبانة ص١٣ بتصرف.

النظر في الآية نظر الرؤية أن الله أضافه إلى محله: وهو الوجه، وعداه بـ(إلى) الصريحة في نظر العين وأخلى الكلام من قرينة تدل على خلافه.

كل هذا يدل على أن المراد النظر الحقيقي وهو نظر العين[١].

أما تأويل بعضهم الآية (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)، بأن المعنى لثواب ربها منتظرة، فهذا التأويل أيضًا باطل لما بيناه من أن النظر في الآية نظر الرؤية وليس نظر الانتظار.

الثاني: قوله تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)[٢].

أول المعتزلة الزيادة في الآية بما يزيد على الثواب وهو التفضل.

ونقول: هذا التأويل باطل، لأن الحسنى في الآية: هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم.

فسرها بذلك الرسول ﷺ والصحابة من بعده[٣].

روى مسلم في صحيحه عن صهيب قال: "قرأ رسول الله ﷺ: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)، فقال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فينظروا إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة"[٤].

---

(١) شرح الطحاوية ص٢٠٥.

(٢) يونس: ٣٦.

(٣) شرح الطحاوية ص٢٠٦،٢٠٥ بتصرف.

(٤) رواه مسلم عن صهيب رضي الله عنه، في كتاب الإيمان، باب رؤية الله تعالى في الآخرة: ج٣ ص١٧.

ثانيًا: الأحاديث النبوية:

نقول: أما قولكم أن أحاديث الرؤية أحاد، فإنه مردود، إذ أن الأحاديث الدالة على الرؤية متواترة، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن، ورواها من الصحابة نحو ثلاثين صحابيًا(١).

يقول شارح الطحاوية: "وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن(٢).

رأي أهل السنة والجماعة في الرؤية:

يروي ابن حزم مذهب أهل السنة والجماعة في الرؤية، فيقول: "... وذهب جمهور أهل السنة... إلى أن الله تعالى يُرى في الآخرة..."(٣).

ويقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله... الإيمان بأن المؤمنين يرونه تعالى يوم القيامة عيانًا بأبصارهم، كما يرون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما يرون القمر ليلة البدر، لا يضامون في رؤيته، يرونه سبحانه وتعالى وهم في عرصات القيامة، ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله سبحانه وتعالى..."(٤).

الأصل الثاني: العدل

تمهيد

تكلمنا -فيما سبق- عن الأصل الأول، وهو التوحيد، والآن نتكلم عن الأصل الثاني، وهو العدل، وعلاقة هذا الأصل بسابقه، هو أن البحث فى العدل

---

(١) شرح الطحاوية ص ٢١٠،٢٠٩.
(٢) شرح الطحاوية ص ٢٠٩.
(٣) الفصل لابن حزم ج٣ ص٣.
(٤) مجموع الفتاوى ج٣ ص١٤٤.

عند المعتزلة بحث في أفعال الله سبحانه وتعالى -وأفعاله تأتي بعد إثباته وإثبات صفاته، وعلى ذلك فمجيء العدل بعد التوحيد لأنه ينبني عليه.

يقول القاضي عبد الجبار: "وأما الأصل الثاني من الأصول الخمسة، وهو الكلام في العدل، وهو كلام يرجع إلى أفعال القديم تعالى، وما يجوز عليه وما لا يجوز، فلذلك أوجبنا تأخير الكلام في العدل عن الكلام في التوحيد..."(١).

أما العدل في اصطلاح المتكلمين:

فالمراد به: أن أفعاله كلها حسنة، وأنه لا يفعل القبيح، ولا يخل بما هو واجب عليه(٢).

المبحث الأول: رأي المعتزلة في أفعال الله ومناقشتهم

تقديم

سبق أن ذكرنا في التمهيد أن العدل إنما هو بحث في أفعال الله تعالى، ثم عرفنا بعد ذلك أنهم يعرفون العدل بأنه بيان أن أفعال الله سبحانه وتعالى كلها حسنة، وأنه لا يفعل القبيح، ولا يخل بما هو واجب عليه. وعلى ذلك فإنهم يعتبرون أفعال الله كلها حسنة، ولذا ينزهونه تعالى عن فعل القبيح، حتى أنهم نفوا أن يكون خالقًا لأفعال العباد لما فيها من القبيح، كما ينزهونه تعالى عن الإخلال بما هو واجب عليه.

وبناء على هذا فالله سبحانه وتعالى لا يفعل القبيح بوجه من الوجوه، وكما أنه لا يفعله، فكذلك لا يريده.

أما الأدلة على أنه تعالى لا يريد القبيح، فمنها ما هو نقلي:

يقول القاضي عبد الجبار: "إن كتاب الله المحكم يوافق ما ذكرناه من القول

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص٣٠١.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ١٣٢.

بالتوحيد والعدل"[١]. ثم يورد القاضي بعض الآيات مستدلًا بها على أن الله لا يريد القبيح، كقوله تعالى: (والله لا يحب الفساد)، وقوله تعالى: (ولا يرضى لعباده الكفر...) الآية، ثم يقول: "هذه الآيات تدل على أنه تعالى لا يريد الفساد، ولا يحبه، سواء كان من جهته أو من جهة غيره..."[٢].

ومن الآيات التي استدل بها القاضي -أيضًا- قوله تعالى: (وما الله يريد ظلمًا للعباد). ويعلق القاضي على هذه الآية فيقول: "إن قوله (ظلمًا) نكرة، والنكرة في النفي تعم، فظاهر الآية يقتضي أنه تعالى لا يريد شيئًا مما وقع عليه اسم الظلم"[٣].

ومنها، ما هو عقلي:

يقول القاضي: "إن إرادة القبيح قبيحة"، ويعلل ذلك بقوله: "إن إرادة القبيح إنما تقبح لكونها إرادة للقبيح بدليل أنها متى عرف كونها على هذه الصفة عرف قبحها"[٤].

وقد ترتب على مبالغة المعتزلة في نفي القبيح عن الله أن نفوا أن يكون خالقًا لأفعال العباد[٥].

هذا هو رأي المعتزلة في أفعال الله

المناقشة

عرفنا فيما -سبق- عند عرضنا لرأي المعتزلة في أفعال الله، أنهم يرون أن الله

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص٤٥٩.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص٤٦٠.

(٣) شرح الأصول الخمسة ص٤٥٩.

(٤) شرح الأصول الخمسة ص٤٦٢.

(٥) المغني في أبواب العدل ج٨ ص٣.

تعالى لا يفعل القبيح، كالظلم، بل أفعاله كلها حسنة، وأنه لا يخل بما هو واجب عليه، وأنهم يرتبون على قولهم إن الله لا يفعل القبيح: القول بأن العبد هو الخالق لأفعاله، لأن منها ما هو الحسن، ومنها القبيح، فلو كان الله خالقها لكان فاعلًا للقبيح.

ونقول: أما قولكم: أن الله لا يفعل القبيح، بل أفعاله كلها حسنة، فهذا نوافقكم عليه، يقول ابن القيم:"... وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله، ولهذا نزه سبحانه نفسه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه... فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله، والشر: وضع الشيء في غير محله، فإذا وضع في محله لم يكن شرًا، فعلم أن الشر ليس إليه، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك، فإن منها: القدوس.. والقدوس: هو المنزه عن كل شر ونقص وعيب، كما قاله أهل التفسير... وهو قول أهل اللغة..."[١].

ومما يدل على أنه تعالى لا يفعل القبيح أنه نزه نفسه عن الظلم، قال تعالى: (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا)[٢]. والظلم هنا: أن يحمل عليه من سيئات غيره، والهضم: أن ينقص من حسناته. وقال تعالى: (ما يبدل القول لديَّ وما أنا بظلاَّم للعبيد)[٣]، ففي هذه الآية نفى الظلم عن نفسه، مما يدل على أنه لا يفعل القبيح، بل أفعاله كلها حسنة[٤].

وأما قولكم: أن العباد هم الخالقون لأفعالهم، لأن منها القبيح، فلو كان الله خالقًا لها لكان فاعلًا للقبيح، فهذا باطل لأن الله تعالى خالق كل شيء، قال

(١) شفاء العليل ص ١٧٩.
(٢) طه: ١١٢.
(٣) ق: ٢٩.
(٤) انظر: مجموع الرسائل والمسائل لابن تيمية ج٥ ص١٢١.

تعالى: (الله خالق كل شيء...)[١] الآية، وقال تعالى: (والله خلقكم وما تعملون)[٢]، وسيأتي الكلام على هذه المسألة -إن شاء الله- عند الكلام على رأي المعتزلة في أفعال العباد ومناقشتهم.

وأما قولكم: وأنه تعالى لا يخل بما هو واجب عليه، فنقول: ما مقصودكم بهذا الواجب على الله؟ هل هو إيجاب من العباد على الله؟ أم إيجاب من الله على نفسه؟، إن كان الأول: فهذا لا نوافقكم عليه، لأن العباد لا يوجبون على الله شيئًا، إذ يلزم أن يكون هناك موجبًا فوق الله أوجب عليه شيئًا، ولا موجب عليه سبحانه وتعالى[٣]، وأيضًا فإنه يلزم من القول بأن العباد يوجبون على الله يلزم منه أن لا يكون سبحانه وتعالى فاعلًا مختارًا، وهو باطل بالأدلة الدالة على أن له تعالى التصرف المطلق فيما شاء من عباده. فمثلًا: لو لم يكن فاعلًا مختارًا في أفعاله لما صح حمده، لأنه لا يحمد إلا الفاعل المختار بقدرته ومشيئته في أفعاله الحميدة، فثبوت حمده دليل على أنه مختار في أفعاله سبحانه وتعالى، وأيضًا فإن ثبوت ربوبيته تعالى يقتضي فعله بمشيئته واختياره...، وأيضًا فإن ثبوت ملكه دليل على أنه فاعل مختار، إذ أن حصول ملك لمن لا اختيار له ولا فعل له ولا مشيئة غير معقول، وأيضًا فإن كونه تعالى مستعانًا دليل على اختياره، لأن الاستعانة بمن لا اختيار له محال[٤]، وعلى ذلك فالله سبحانه وتعالى فاعل مختار، وإذا كان كذلك بطل قولكم: إن العباد يوجبون عليه تعالى.

وإن كان مقصودكم بالوجوب أنه واجب عليه بحكم ما أوجبه على نفسه،

---

(١) الرعد: ١٦.

(٢) الصافات: ٩٦.

(٣) انظر التبصير في الدين: ص٧٩، واقتضاء الصراط المستقيم ص٤٠٩-٤١٠.

(٤) مدارج السالكين ج١ ص٦٦ بتصرف.

فهذا نوافقكم فيه، لكن لا يلزم منه أن لا يكون تعالى مختارًا، لما ذكرناه آنفًا من اللوازم الباطلة، ولأن من أوجب على نفسه شيئًا يعتبر متفضلًا بما أوجب، والمتفضل مختار بما تفضل به.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فعليك بالفرقان في هذا الموضع الذي افترقت فيه الفرق، والناس فيه ثلاث فرق: فرقة رأت أن العبد أقل وأعجز من أن يوجب على ربه حقًا، فقالت: لا يجب على الله شيء البتة، وأنكرت وجوب ما أوجبه الله على نفسه. وفرقة رأت: أنه سبحانه أوجب على نفسه أمورًا لعبده، فظنت أن العبد أوجبها عليه بأعماله... والفرقة الثالثة: أهل الهدى والصواب: قالت: لا يستوجب العبد على الله بسعيه نجاة ولا فلاحًا، ولا يُدخِل أحدًا عملُهُ الجنةَ أبدًا.. والله تعالى بفضله وكرمه أكد إحسانه وجوده بأن أوجب لعبده عليه حقًا بمقتضى الوعد، فإن وَعْدَ الكريمِ إيجابٌ، ولو بعسى ولعل، ولهذا قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ "عسى من الله واجب"[(١)]...

فالرب سبحانه وتعالى ليس لأحد عليه حق، ولكن لا يضيع لديه سعي.

يقول ابن تيمية: "... وأما الإيجاب على الله سبحانه والتحريم بالقياس على خلقه، فهذا قول القدرية، وهو قول مبتدع... وأهل السنة متفقون على أنه سبحانه خالق كل شيء، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن العباد لا يوجبون عليه شيئًا ولهذا كان من قال من أهل السنة بالوجوب قال: إنه كتب على نفسه الرحمة، وحرم الظلم على نفسه، لا أن العبد مستحق على الله شيئًا... إلى أن قال: والحق الذي لعباده هو من فضله وإحسانه، لا من باب

---

(١) مدارج السالكين: ج٢ ص٣٣٨-٣٣٩.

المعاوضة، ولا من باب ما أوجبه غيره عليه، فإنه سبحانه يتعالى عن ذلك"[١].

المبحث الثاني: بم يدرك حسن الأفعال وقبحها والثواب عليها والعقاب عند المعتزلة؟ مع المناقشة.

يقول أبو الهذيل: "يجب على المكلف قبل ورود السمع... أن يعرف الله تعالى بالدليل من غير خاطر، وإن قصر في المعرفة استوجب العقوبة أبدًا، ويعلم أيضًا حُسن الحَسن، وقُبح القَبيح، فيجب عليه الإقدام على الحسن كالصدق والعدل، والإعراض عن القبيح كالكذب والفجور"[٢].

ويقول الغزالي: "ذهب المعتزلة إلى أن الأفعال تنقسم إلى حسنة وقبيحة، فمنها ما يدرك بضرورة العقل، كحسن إنقاذ الغرقى والهلكى، وشكر المنعم، ومعرفة حسن الصدق وقبح الكفران.. ومنها ما يدرك بنظر العقل كحسن الصدق الذى فيه ضرر وقبح الكذب الذى فيه نفع، ومنها ما يدرك بالسمع كحسن الصلاة وسائر العبادات، وزعموا أنها متميزة بصفة ذاتها عن غيرها بما فيها من اللطف المانع من الفحشاء الداعي إلى الطاعة، ولكن العقل لا يستقل بدركه...."[٣].

من هذه الأقوال يظهر أن الأفعال عند المعتزلة قد ثبت قبحها والعقاب عليها عقلًا، كما ثبت حسنها والثواب عليها عقلًا ما عدا العبادات.

هذا هو موجز رأي المعتزلة في هذه المسألة

المناقشة

عرفنا -آنفًا- أن المعتزلة ترى أن قبح الأشياء وحسنها والعقاب عليها

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص٤٠٩-٤١٠.
(٢) الملل والنحل: ج١ ص٥٥.
(٣) المستصفى للغزالي: ج١ ص٥٦.

والثواب ثابت عقلًا، فهم يرون أن هناك تلازم بين إدراك قبحها، وبين العقاب عليها...

ويقال لهم: إنه لا تلازم بين هذين الأمرين، فالأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، لكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي، وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون قبيحًا موجبًا للعقاب مع قبحه في نفسه، بل هو في غاية القبح، والله لا يعاقب عليه إلا بعد إرسال الرسل.

فمثلًا الكذب والزنا: كلها قبيحة في ذاتها، لكن العقاب عليها مشروط بالشرع...

وقد دل القرآن على أنه لا تلازم بين الأمرين، وأن الله لا يعاقب إلا بعد إرسال الرسل، وأن الفعل نفسه حسن وقبيح... قال تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا)[١] ففي هذه الآية إشارة إلى أن العذاب لا يكون إلا بعد بعثة الرسل، وذلك دليل على أن العقاب لا يثبت إلا بالشرع.

ومن الآيات الدالة على الأمرين قوله تعالى: (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون)[٢]، وعلى أحد القولين في معنى الآية، وهو أن يكون المعنى لم يهلكهم بظلمهم قبل إرسال الرسل تكون الآية دالة على الأمرين: أن أفعالهم وشركهم ظلم وقبيح قبل البعثة، وأنه لا يعاقبهم عليه إلا بعد إرسال الرسل، وهذه الآية في دلالتها على الأمرين نظير قوله تعالى: (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولًا فنتبع

---

(١) الإسراء: ١٥.
(٢) الأنعام: ١٣١.

آياتك ونكون من المؤمنين)[١].

ويرى أهل السنة: أن الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، وأنها يدرك حسنها وقبحها بالعقل، لكن لا يترتب على حسنها ثواب ولا على قبحها عقاب إلا بالشرع.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحق الذي لا يجد التناقض إليه سبيلًا... أن الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة.. ولكن لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي. وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون قبيحًا موجبًا للعقاب مع قبحه في نفسه، بل هو في غاية القبح، والله لا يعاقب عليه إلا بعد إرسال الرسل، فالسجود للشيطان والكذب... والظلم والفواحش كلها قبيحة في ذاتها، والعقاب عليها مشروط بالشرع... إلى أن قال: وكثير من الفقهاء من الطوائف الأربع يقولون: قبحها ثابت بالعقل، والعقاب متوقف على ورود الشرع، وهو الذي ذكره سعد بن علي الزنجاني من الشافعية، وأبو الخطاب من الحنابلة، وذكره الحنفية، وحكوه عن أبي حنيفة نصًا"[٢].

المبحث الثالث: رأي المعتزلة في أفعال العباد ومناقشتهم

تمهيد

وقبل بيان رأي المعتزلة في هذه المسألة، لابد من الإشارة إلى أنهم يقسمون أفعال العباد إلى أفعال مباشرة، وأفعال تولد.

فأما الأفعال المباشرة: فباتفاق منهم على أنها مخلوقة للعباد.

وأما أفعال التولد: فاختلفوا فيها.

---

(١) القصص: ٤٧.

(٢) مدارج السالكين ج١ ص٢٣١-٢٣٢.

وعلى هذا فالكلام في هذا المبحث كما يلي:

المطلب الأول: أفعال العباد المباشرة.

المطلب الثاني: أفعال التولد.

المطلب الأول: أفعال العباد المباشرة

يقول القاضي عبد الجبار: "اتفق كل أهل العدل على أن أفعال العباد من تصرفهم وقيامهم وقعودهم حادثة من جهتهم، وأن الله ﷻ أقدرهم على ذلك، ولا فاعل لها ولا محدث سواهم، وأن من قال أن الله سبحانه خالقها ومحدثها، فقد عظم خطؤه. وأحالوا حدوث فعل من فاعلَيْن[1].

شبهة

قالت المعتزلة: وجدنا أفعالنا واقعة على حسب قصدنا، فوجب أن تكون خلقًا لنا وفعلًا لنا، قالوا: وبيان ذلك أن الواحد منا إذا أراد أن يقوم قام، وإذا أراد أن يقعد قعد، وإذا أراد أن يتحرك تحرك، وإذا أراد أن يسكن سكن، وغير ذلك، فإذا حصلت أفعاله على حسب قصده ومقتضى إرادته، دل على أن أفعاله خلق له وفعل له[2].

يقول القاضي عبد الجبار: "... طريقة أخرى في أن أفعال العباد غير مخلوقة فيهم، وأنهم المحدثون لها، وتحريرها: هو أن هذه التصرفات يجب وقوعها بحسب قصودنا ودواعينا، ويجب انتفاؤها بحسب كراهتنا وصرفنا، مع سلامة الأحوال، إما محققًا وإما مقدرًا، فلولا أنها محتاجة إلينا ومتعلقة بنا، وإلا

---

(١) المغني في أبواب العدل والتوحيد: ج٨ ص٣.

(٢) شرح الأصول الخمسة: ص٣٣٦-٣٣٧، والإنصاف: ص١٣٥.

لما وجب ذلك فيها"[١].

مناقشة هذه الشبهة

إن هذه الشبهة باطلة، وبيان ذلك من وجوه:

أولًا: قولكم: إن أفعال العباد تحصل بحسب قصودهم...، غير صحيح على إطلاقه، فإنا نرى من يريد شيئًا ويقصده، ولا يحصل له ما يريده وما يقصده، فإنه ربما أراد أن ينطق بصواب فيخطئ، وربما أراد أكلًا لقوة وصحة، فيضعف ويمرض، وربما ابتاع سلعة ليربح فيخسر، وربما أراد القيام فيعرض له ما يمنعه منه، إلى غير ذلك، فبطل ما ذكرتموه، وصح أن فعله خلق لغيره يجري على حسب مشيئة الخالق تعالى، وإنما يظهر كسبه لذلك الفعل بعد تقدم المشيئة والخلق من الخالق[٢].

ثانيًا: إن وقوع الكسب من الخلق على حسب القصد منهم لا يدل على أنه خلق لهم... ودليل ذلك: أن مشي الفرس مثلًا.. يحصل على قصد الراكب وإرادته من عَدْوٍ وتقريب... ووقوف إلى غير ذلك، ولا يقول عاقل: أن الراكب خلق جري الفرس ولاسرعتها ولا غير ذلك من أفعالها، فبطل أن يكون حصول الفعل على قصد الفاعل دليلًا على أنه خلقه. ومثل ذلك السفن يحصل سيرها وتوجهها في السير يمينًا وشمالًا على حسب قصد الملاح، ولا يدل ذلك على أن الملاح خلق سير السفن ولا توجهها.

فإن كابروا الحقائق وقالوا: نقول إن ذلك خلقه الملاح والفارس، فقد خرجوا عن الدين، وسووا بين الخالق والعباد في أن قدرة كل واحد منهما تتعلق

---

(١) شرح الأصول الخمسة: ص٣٣٦.

(٢) الإنصاف: ص١٥٣ بتصرف.

بمقدورات، وهذا كفر صراح.

وإن قالوا: حركات السفن تقع على حسب قصد الملاح، وليست بخلق له، قلنا: فكذلك أفعال أحدنا قد تقع -ولا نقول أنها تقع في كل حال- على حسب قصده، ولا يدل ذلك على أنه خلقها... يؤكد ذلك أيضًا أن نمو الزرع يحصل على حسب قصد الزارع وقيامه عليه بسقيه، وغير ذلك، ولا يقول أحد أن نمو الزرع خلقه الزارع.. وإن كان حاصلًا على حسب إرادة القائم عليه وقصده، وكذلك فيما يحصل من الواحد منا إذا أراد الله تعالى حصوله على حسب قصده لا يدل على أنه هو خلقه، بل الخالق له هو الله تعالى[1].

المطلب الثاني: أفعال التولد

تعريف أفعال التولد:

يقول الأسكافي: "وأفعال التولد: هي كل فعل يتهيأ وقوعه على الخطأ دون القصد إليه أو الإرادة له، فهو متولد، وكل فعل لا يتهيأ وقوعه إلا بقصد، ويحتاج كل جزء منه إلى تجدد عزم وإرادة له، فهو خارج من حد التولد داخل في حد المباشرة".

الأمثلة

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها: الألم الحادث عند الضرب، والألوان الحادثة عند الضربة، ومثل انحدار الحجر الحادث عن طرحه، والإدراك الحادث عن فتح البصر، وما أشبهها من المسببات غير المقصودة.

خلاف المعتزلة في أفعال التولد

لقد اختلف المعتزلة في أفعال التولد على أقوال، أهمها ما يلي:

---

(١) الإنصاف: ص١٥٣-١٥٤ بتصرف.

القول الأول

قول من قال: إن المتولدات أفعال لا محدث لها، وممن قال بهذا القول: ثمامة بن الأشرس.

المناقشة

ونقول: إن قولك أفعال التولد فعل لا فاعل له باطل، وذلك أنه يلزم من هذا القول إجازة حدوث كل فعل لا من فاعل، وإجازة حدوث كل فعل لا من فاعل كفرٌ، لأنه يؤدي إلى إبطال الصانع، وما يؤدي إلى الكفر مثله.

يقول الجويني: -وهو يرد على أصحاب التولد- :"وإذا جاز ثبوت فعل لا فاعل له جاز أيضًا المصير إلى أن ما نعلمه من جواهر العالم وأعراضه ليست فعلًا لله، ولكنها واقعة عن سبب مقدور موجب لما عداه، وذلك خروج عن الدين وانسلال عن مذهب المسلمين"(١).

الأصل الثالث(٢): الوعد والوعيد

قال القاضي عبد الجبار -في علوم الوعد والوعيد في مفهومهم-:

"وأما علوم الوعد والوعيد فهو أنه يعلم أنَّ الله وعد المطيعين بالثواب، وتوعد العصاة بالعقاب، وأنه يفعل ما توعد به وتوعد عليه لا محالة، ولا يجوز عليه الخلف والكذب"(٣).

هذا هو مذهب المعتزلة، يوجبون على ربهم أن ينفذ وعده، وأن يعطي العبد

---

(١) الإرشاد للجويني: ص ٢٣٢.

(٢) من كتاب فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها: للدكتور غالب بن علي عواجي ج٢ ص١٠٤١.

(٣) شرح الأصول الخمسة: ص١٣٥-١٣٦.

أجر ما كلفه به من طاعات استحقاقًا منه على الله، مقابل وعد الله له إذا التزم العبد بجميع التكاليف التي اختارها الله وكلف بها عباده.

وقد أورد المعتزلة لتأييد مذهبهم هذا بعض النصوص التي فهموا منها وجوب إنفاذ الله وعده، وهي آيات من القرآن الكريم وبعض الشبه العقلية

منها: قول الله ﷻ: (ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورًا رحيمًا)[1]، وموضع الشاهد من الآيات هو قوله تعالى: (فقد وقع أجره على الله)، حيث فسروا هذا الوقوع بمعنى الوجوب، أي فقد وجب ثوابه على الله استحقاقًا، لأن العمل في رأيهم من موجبات الثواب.

واستدلوا أيضًا على ذلك من العقل: بأن الله ما دام قد كلف عباده بالأعمال الشاقة فلابد أن يكون لها مقابل من الأجر، وإلا لكان ذلك ظلمًا، والله منزه عن الظلم، فلا يجوز على الله تعالى -في نظرهم- أن يوجب العمل ولا يوجب له جزاءً.

والواقع أن ما استدلوا به من الآية والشبه العقلية إنما بنوه على مسألة وجوب دخول الجنة بالعمل، وهي من المسائل الهامة، وقد أورد الحافظ ابن حجر فيها عدة معاني للعلماء حول مفهوم الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: (سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يُدخِل أحدًا الجنة عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة)[2].

وحول مفهوم الآيات التى تفيد أن دخول الجنة لا يكون إلا بالعمل، لقوله

---

(١) النساء: ١٠٠.

(٢) أخرجه البخاري: انظر: فتح الباري: ١١/ ٢٩٤-٣٠٠.

تعالى: (يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون). وبيَّن الآيات التي تفيد أن دخولها إنما هو تفضل من الله تعالى، لقوله ﷻ في إخباره عن كلام أهل الجنة وغبطتهم بما هم فيه: (الذي أحلنا دار المقامة من فضله).

فهل يكون دخول الجنة استحقاقًا بالعمل كما ترى المعتزلة، أم أن دخولها إنما هو بفضل الله مضافًا إليه العمل؟.

والحق أن دخول الجنة إنما هو بفضل الله أولًا وأخيرًا، وليس للعبد على ربه أي استحقاق، غير أن الله تعالى أوجب على نفسه أنه لا يظلم عمل عامل من ذكر أو أنثى، فجعل العمل من أسباب دخول الجنة، والأسباب نفسها إنما هي تفضل من الله تعالى.

فاتضح أن استدلال المعتزلة بالآية السابقة وغيرها في وجوب الثواب -بمعنى أن الله تعالى يجب عليه شيء لم يوجبه هو على نفسه- استدلال خاطئ، فإن الله تعالى لا يستطيع أحد من خلقه أن يوجب عليه شيئًا لم يوجبه هو على نفسه.

فالخلق عبيده وله عليهم من النعم ما لا يقومون بشكر أقلها، ومع ذلك فإن الله تعالى لا يخلف وعده، فإنه يعطي العبد ما وعده به من الخير بحكم وعده وكرمه، وفرق بين وقوع ذلك على هذه الصفة وبين وقوعه استحقاقًا.

وهذا الجواب يدفع كذلك شبهتهم العقلية التي بنوها على المعاوضة بينهم وبين الله ﷻ وقد علمت خطأ هذا التصور، وأن نعمة واحدة لا تفي بها أعمال العبد مهما كثرت، ولكن الله تعالى جعل العمل مع رحمة الله تعالى من أسباب دخول الجنة.

الوعيد

والوعيد في مفهوم المعتزلة سبق بيانه في كلام القاضي عبد الجبار من أن الله

"يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة، ولا يجوز عليه الخلف والكذب".

والمقصود بالوعيد هنا هو ما يتعلق بأحكام المذنبين من عصاة المؤمنين إذا ماتوا من غير توبة، وقد أوضح المعتزلة رأيهم في هذا وهو أن أصحاب الكبائر إذا ماتوا من غير توبة فإنهم يستحقون بمقتضى الوعيد من الله النار خالدين فيها إلا أن عقابهم يكون أخف من عقاب الكفار.

شبههم

للمعتزلة شبهات في تأييدهم لمذهبهم بإنفاذ الوعيد لا محالة، وقد استدلوا من القرآن الكريم بكل آية يذكر فيها عقاب العصاة بالنار والخلود فيها، وهي آيات كثيرة مثل قوله ﷻ: (إن الأبرار لفي نعيم. وإن الفجار لفي جحيم. يصلونها يوم الدين. وما هم عنها بغائبين). وكذا قوله تعالى: (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون)، وقوله تعالى: (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار فيها خالدون). وآيات أخرى كثيرة يدل ظاهرها على هذا المفهوم.

والواقع: أن مسألة تخليد أصحاب الذنوب في النار من المسائل التي بحثها المعتزلة وأهل السنة، وأطالوا فيها الكلام وكثر فيها الخصام، وأود إيجاز النتيجة فيما يلي:

إن استدلال المعتزلة لما يذهبون إليه من إنفاذ الوعيد لا محالة، وأن أصحاب الكبائر والذنوب من المؤمنين مخلدون في النار حتمًا قول غير مسلم، وهو خطأ في فهم النصوص وحمل لها على غير معانيها الصحيحة، فإن الآيات لا تدل على خلود أصحاب المعاصي من المؤمنين خلودًا أبديًا حتميًا، ذلك أن الله ﷻ قد يعفو عنهم ابتداءً وقد يعذبهم بقدر ذنوبهم ثم يخرجهم الله بتوحيدهم

وإيمانهم، لأنه لا يخلد في النار إلا من مات على الشرك الذي أخبر ﷻ أنه لا يغفر لصاحبه، وأما ما عدا الشرك فإن الله يغفره.

ومن ناحية أخرى، فإن خلف الوعيد من فعل الكرام وهي صفة مدح، بخلاف خلف الوعد فإنها صفة ذم، والله ﷻ يتنزه عنها، بخلاف الوعيد فإنه يعتبر من باب التفضل والتكرم وإسقاط حق نفسه، وهذا هو مذهب السلف أهل السنة والجماعة. وما ذهب إليه المعتزلة من منع إخلاف الوعد وزعمهم أنه من الكذب فهو إلى سوء الظن أقرب، وهو تحكُّم على الله ﷻ، والله يفعل ما يشاء.

وقد أجمل الطحاوي مذهب أهل السنة في كلامه الآتي:

"وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين[1] وهم في مشيئته وحكمه، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر ﷻ في كتابه" (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، وإن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته، الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايته".

وهذه الشفاعة التي أشار إليها الطحاوي رحمه الله للمعتزلة فيها موقف مخالف لموقف أهل الحق:

وذلك أن المعتزلة لا ترى الشفاعة لأحد في الآخرة إلا المؤمنين فقط دون

---

(١) قال شارح الطحاوية ابن أبي العز الحنفي معقبًا: "لو قال (مؤمنين) بدل قوله (عارفين) كان أولى، لأن من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر، وإنما اكتفى بالمعرفة وحدها الجهم وهو قول مردود باطل...".

الفسَّاق من أهل القبلة، فلا شفاعة لأهل الكبائر، لأن إثبات ذلك يؤدي إلى خلف وعيد الله، وخلف الوعيد عندهم يعتبر كذبًا والله يتنزه عن الكذب.

ثم استدلوا بالآيات الواردة في نفي الشفاعة عن غير المؤمنين الفائزين، كقوله تعالى: (واتقوا يومًا لا تجزي نفس عن نفس شيئًا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون). وكذلك قوله تعالى: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)، أي والفساق غير راضٍ عنهم فلا تصح الشفاعة فيهم.

وقوله تعالى: (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) .. إلى غير ذلك من الآيات الواردة بهذا المعنى.

ولا ريب أن المعتزلة جانبوا الصواب في الحكم بنفي الشفاعة في العصاة، فإن القول بإثبات هذه الشفاعة مما هو ثابت متواتر عن السلف لثبوت الأحاديث المتواترة بذلك، وإجماع علماء الإسلام عدا المعتزلة.

والذي جرَّ المعتزلة لهذا الخطأ خطأ آخر، وهو أن من عقائدهم أن السيئات يذهبن بالحسنات، فلو أتى الشخص بحسنات كالجبال، ثم جاء بعدها بسيئة، فإن هذه الحسنة تحبط بمجرد صدور المعصية.

ومذهب السلف أنه لا شيء يبطل جميع الحسنات إلا الردة عن الإسلام والرجوع إلى الكفر، كما أن تكفير جميع السيئات عن المذنب لا يكون إلا بالتوبة.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "والتحقيق أن يقال: إن الكتاب والسنة مشتمل على نصوص الوعد والوعيد، كما إن ذلك مشتمل على نصوص الأمر والنهي، وكل من النصوص يفسر الآخر ويبينه، فكما أن نصوص الوعد على الأعمال الصالحة مشروطة بعدم الكفر المحبط، لأن القرآن قد دل على أن

من ارتد فقد حبط عمله، فكذلك نصوص الوعيد للكفار والفسَّاق مشروطة بعدم التوبة، لأن القرآن قد دل على أن الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب وهذا متفق عليه بين المسلمين، فإن الله قد بين بنصوص معروفة أن الحسنات يذهبن السيئات، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره. إلى أن قال: فجعل للسيئات ما يوجب رفع عقابها، كما جعل للحسنات ما قد يبطل ثوابها، لكن ليس شيء يبطل جميع السيئات إلا التوبة، كما أنه ليس شيء يبطل جميع الحسنات إلا الردة"(١).

الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين

تدور هذه المسألة حول الحكم على مرتكب الكبيرة، حينما طُلب إلى الحسن البصري أن يبين الحكم في صاحب الكبيرة، وما تلا ذلك من جواب واصل بن عطاء، ثم اشتد الخلاف بعد ذلك واعتزل واصل وجماعته حلقة الحسن البصري.

وقد قدمنا أن قضية مرتكبي الذنوب هي الحصيلة الحتمية عند المعتزلة لمواقف الفرق الأخرى من خوارج ومرجئة وأهل السنة أيضًا، بسبب ما استجد بين المسلمين من أحداث خطيرة سياسية، ابتداءً من قتل عثمان رضي الله عنه وانتهاءً بأصحاب المعاصي أيًا كان عصيانهم.

وقد أجمعت المعتزلة على قضية المنزلة بين المنزلتين، واعتبروها أصلًا من الأصول الثابتة.

وتلقَّب هذه المسألة حسب ما يذكره القاضي عبد الجبار: "بمسألة الأسماء والأحكام". وقد بين اصطلاح المتكلمين في معنى المنزلة بين المنزلتين بقوله:

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/ ٤٨٣.

"والأصل في ذلك أن هذه العبارة إنما تستعمل في شيء بين شيئين ينجذب إلى كل واحد منهما بشبه. هذا في أصل اللغة، وأما في اصطلاح المتكلمين فهو: العلم بأن لصاحب الكبيرة اسمًا بين الاسمين وحكمًا بين الحكمين على ما يجيء من بعد".

وما أحال إليه هنا في قوله: "على ما يجيء بعد" قد شرحه تحت عنوان:

الأصل الرابع: وهو الكلام في المنزلة بين المنزلتين

قال فيه: "اعلم أن هذا الفصل كلام في الأسماء والأحكام ويلقب بالمنزلة بين المنزلتين، ومعنى قولنا إنه كلام في أسماء الأحكام هو أنه كلام في أن صاحب الكبيرة له اسم بين الاسمين وحكم بين الحكمين، لا يكون اسمه اسم الكافر، ولا اسمه اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقًا، وكذلك فلا يكون حكمه حكم الكافر ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث، وهذا الحكم الذي ذكرناه هو سبب تلقيب المسألة بالمنزلة بين المنزلتين، فإن صاحب الكبيرة له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان، فليست منزلته منزلة الكافر ولا منزلة المؤمن، بل له منزلة بينهما".

والمقصود إن المعتزلة يريدون بالمنزلة بين المنزلتين: المؤمن صاحب المعاصي، فهو عندهم ليس بمؤمن ولا كافر بل يفرد له حكم ثالث، وهو تسميته فاسقًا في الدنيا، والحكم بخلوده في النار في الآخرة، فاختلف اسمه وحكمه في الدنيا فاستحق أن يكون في منزلة بين المنزلتين.

والذي حيرهم في أمر الفاسق هو أنه من جهة ليس بمؤمن، لأن حكم المؤمن لا ينطبق عليه في الواقع لمجيئه بأعمال غير المؤمنين في بعض أموره، وهو كذلك ليس بكافر تمامًا لمجيئه بأعمال المؤمنين في بعض أموره، إذًا فهو

فاسق، والفسق اسم ذم، وما ثبت له اسم الذم انتفى عنه اسم المدح، وقد توعد الله الفساق بالنار فحكمه في الآخرة الخلود فيها.

ويرد عليهم: ببيان حكم مرتكب الكبيرة في الشرع، هل حكم بكفره وإخراجه من الملة أو حكم بإيمانه الإيمان الكامل، أو هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته.

الواقع: أن العاصي غير خارج من الملة بفسقه بل هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ولم تخرجه النصوص عن الإيمان لا في كتاب الله ولا في سنة نبيه، ولا في إجماع الأمة، وفي هذا يقول الطحاوي: "ولا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله".

وقد أجاب الشارح ابن أبي العز الحنفي حول ما ورد من تسمية الشارع لبعض الذنوب كفرًا مثل قول الله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولائك هم الكافرون)، وقول النبي ﷺ: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)[1]. وأمثلة أخرى كثيرة يفيد ظاهرها إطلاق كلمة الكفر على من اقترف ذنبًا من تلك الذنوب. ثم أجاب عن ذلك كله فقال:

"والجواب: أن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرًا ينقل عن الملة بالكلية -كما قالت الخوارج- إذ لو كفر كفرًا ينقل عن الملة لكان مرتدًا يقتل على كل حال، ولا يقبل عفو ولا القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر، وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام، ومتفقون على أنه لا يخرج من الإسلام والإيمان ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين -كما قالت المعتزلة- فإن قولهم باطل

---

(١) متفق عليه عن ابن مسعود.

أيضًا، إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) إلى أن قال: (فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف)، فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا وجعله أخًا لولي القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب، وقال تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) إلى أن قال: (إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم).

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتل بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (من كانت عنده لأخيه اليوم مظلمة من عرض أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون درهم ولا دينار، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم ألقي في النار)[1]، فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفى المظلوم منها حقه".

ثم أورد حديث المفلس، وقول الله تعالى: (إن الحسنات يذهبن السيئات)، ثم قال: فدل ذلك على أنه في حال إساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته".

وهذا جواب نفيس جامع لفوائد عظيمة، وفيه بيان جلي لمذهب السلف في هذه القضية التي أخطأ فيها المعتزلة وجعلوا العصاة في منزلة بين المنزلتين في الدنيا، وحكموا بخلودهم في النار في الآخرة، ولم يلتفتوا إلى مشيئة الله تعالى في أولئك -وهو الفعال لما يريد جل وعلا- فقطعوا عنه المشيئة ثم زادوا الخطأ بآخر حينما حكموا بخلوده في النار مع من مات على الشرك ولم يسجد لله

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (ح٢٤٤٩) فى المظالم: باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبين مظلمته.

سجدة، ولا شك أن العقل يأبى هذا الحكم مع أنهم ممن يقدر العقل ويقدمه على النقل، ولكن الهوى يغطي على العقل والفهم إلا من وفقه الله تعالى.

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هذا هو الأصل الأخير من أصول المعتزلة الخمسة.

وقد بين القاضي عبد الجبار حقيقة الأمر والنهي والمعروف والمنكر فقال: "أما الأمر: فهو قول القائل لمن دونه في المرتبة: افعل، والنهي: هو قول القائل لمن دونه: لا تفعل. وأما المعروف: فهو كل فعل عرف فاعله حسنه أو دل عليه، ولهذا لا يقال في أفعال القديم تعالى: معروف، لما لم يعرف حسنها ولا دل عليها. وأما المنكر: فهو كل فعل عرف فاعله قبحه أو دل عليه، ولو وقع من الله تعالى القبيح لا يقال: إنه منكر، لما لم يعرف قبحه ولا دل عليه".

ومعنى التعريف: أن المعروف والمنكر لابد أن يتضح أمرهما عند الشخص بأن يرى حسن المعروف ويدلل عليه، ويرى قبح المنكر ويستطيع أن يدلل عليه، وهذا بخلاف ما لو وقع من الله - افتراضًا- فعل القبيح فإنه لا يستطيع أن يدلل عليه، ولذلك فلا يوصف بالمنكر.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعتبران من فروض الكفايات عند المعتزلة إذا قام بهما من يكفي سقط عن الباقين، وحكمهما عمومًا الوجوب الكفائي.

وقد استدل المعتزلة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأدلة كثيرة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية والإجماع.

فمن القرآن الكريم: قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)، قال عبد الجبار: "فالله تعالى مدحنا على ذلك

فلولا أنها من الحسنات الواجبات وإلا لم يفعل ذلك".

قال عبد الجبار: "وأما السنة :فهو قول النبي ﷺ: (ليس لعين ترى الله يُعصى فتطرف حتى تغير أو تنتقل)[١].

قال: "وأما الإجماع: فلا إشكال فيه، لأنهم اتفقوا على ذلك".

وقد توافق أهل السنة والمعتزلة في حكم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كونه من الواجبات على الكفاية، وهو ما قرره الله تعالى في كتابه الكريم حيث قال: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولائك هم المفلحون)، إلا أنه وقع خلاف بين أهل السنة والمعتزلة فيما يلي:

١. طريقة تغيير المنكر.
٢. أوجبوا الخروج على السلطان الجائر.
٣. حمل السلاح في وجوه المخالفين لهم سواء كانوا من الكفار أو من أصحاب المعاصي من أهل القبلة.

فأما طريقة تغيير المنكر: فقد ساروا فيها عكس الحديث الذي بيَّن فيه الرسول ﷺ موقف المسلم إزاء تغيير المنكرات: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[٢].

إذ أن تغيير المنكر عندهم يبدأ بالحسنى ثم باللسان ثم باليد ثم بالسيف، بينما الحديث يرشد إلى العكس، وهو ما يذهب إليه أهل الحق، من أن تغيير

(١) زعم المؤلف أنه رواه ابن ماجة وأحمد في المسند. ولم أجده عند واحد منهما !! بل لم أجده في دواوين السنة المعروفة.

(٢) رواه مسلم فى الإيمان (ح٤٩) باب: كون النهى عن المنكر من الإيمان.

المنكر يبدأ بالفعل باليد إذا لم يترتب عليه مفاسد، والتغيير باليد هنا لا يكون بالسيف، وإنما هو إزالة المنكر بدون قتال ولا فتح باب فتنة أكبر من المنكر المراد إزالته.

فإن لم يتمكن الشخص من التغيير باليد انتقل إلى التغيير باللسان، فإن وصل الحال إلى عدم الاستطاعة من التغيير باللسان بأن كان الشر هو الغالب على الخير، فليكتف بالتغيير بالقلب من كراهة المنكر وتمني زواله وبغضه وبغض أهله، ومع هذا فلا مكان للسيف هنا، لأن الرسول ﷺ لم يرشد إليه، ولما فيه كذلك من جر الأمة إلى ما هو أكبر من تغيير ذلك المنكر، بخلاف المعتزلة فإنهم لا يرون حرجًا في حمل السلاح لتغيير المنكر.

وأما الخروج على السلطان الجائر: فقد أوجبه المعتزلة، والواقع أن جور السلطان وارتكابه المعاصي لا يوجب الخروج عليه لما يترتب على ذلك من المفاسد ومن سفك الدماء وتفريق كلمة الأمة، فإن الإسلام لا يبيح الخروج عليه إلا عندما يظهر الكفر منه صراحة.

وأما حمل السلاح في وجوه المخالفين لهم من أهل القبلة: فلا دليل لهم على ذلك، ولا يجوز أن يستحل دم المسلم إلا بما حدده الشرع، وصاحب الكبيرة ليس بكافر، فلا يجوز قتاله واستحلال دمه ولم يأمر الشرع بذلك، فيجب على المسلم الالتزام وترك تنطع الخوارج والمعتزلة.

فصل: المعتزلة في العصر الحديث[1]

ليس غريبًا أن تظهر أفكار الاعتزال بين أفراد من الناس في كل عصر، ذلك

---

(١) من كتاب: المعتزلة بين القديم والحديث، تأليف/ محمد العبدة، طارق عبد الحليم ص١٢٩ وما بعدها.

لأن أهواء الإنسان وطرق تفكيره تتشابه وتتقارب عندما يبتعد عن نور الوحي، ولذلك حذرنا الله سبحانه وتعالى من أفعال وأخلاق بعض الأمم السابقة، لأنه سيقع مثلها في الأمة الإسلامية.

وقد قالت الأعراب للرسول ﷺ: (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة...)[1] الحديث.

ومن طبائع بعض الناس حب التميز عن الآخرين، والإتيان بالغرائب، حتى لا يحسب أنه من غمار المؤمنين ولذلك يرمي المخالفين بالسطحية كما كان سلفهم من المعتزلة يقولون عن مخالفيهم من أهل السنة (حشوية) و (نابتة)، وعند بعضهم كِبر أن يخضع خضوعًا تامًا لنصوص الوحيين، فلابد أن يتعنت ويؤول النص الشرعي.

وإذا كانت المعتزلة (كفرقة) ضعفت وتلاشت، فإن أفكارها موجودة في بطون الكتب، وقد تبنى هذه الأفكار بعض الفرق الأخرى، ثم إن نزعات الهوى موجودة، وقد يتشدد الانسان ويكفر المسلمين ولو لم يطلع على فكر الخوارج، وسيظهر دائمًا من يحاول إخضاع النص لعقله، أو لما يظن أنه العقل (لا تعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح)، وتظهر هذه الأفكار لعدم التمكن من العلم، فعندما تثار شبهات المعتزلة يتأثر بها من له هوى معين، وتجد عنده

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (ح٦٧٠٢/ ١٥) "الإحسان"، والترمذى فى "سننه" (ح٢١٨٠) فى الفتن: باب ما جاء "لتركبن سنن ما كان قبلكم" وأحمد (٥/ ٢١٨) وابن أبى عاصم فى "السنة" (٧٦).
- قال الترمذى: حديث حسن صحيح.
- قال الألبانى: حديث صحيح (ظلال الجنة ص٥٤).

قلبًا خاليًا، هذا إن لم تكن هناك مؤثرات خارجية، فكيف والمستشرقون يدندنون ليل نهار حول المعتزلة، ويعظمون أفكارها، وأنها تمثل مرحلة التنوير في الفكر الإسلامي، ولكن المسلمون رفضوها وانتكست الأحوال بعد ذلك، كيف وقد استبد الجهل في أهل القرن التاسع عشر في أوربا فظنوا أن العقل هو الحاكم على كل شيء، وأن الدين ذهب إلى غير رجعة، وأن البشرية تتقدم نحو الأفضل دائمًا إذا تركت نور النبوة. وما أن جاء القرن العشرين حتى اكتشف العقلاء منهم أن هذا وهم من الأوهام وخرافة كبيرة جرت أوربا إلى كوارث ومصائب، وأنه لابد من الدين. وأمام الانبهار بالغرب وتعظيمه لدور العقل، قام من المسلمين من يؤكد هذا التعظيم وأن هذا هو الإسلام، ورجع إلى آراء المعتزلة مؤيدًا لرأيه، ومقربًا الإسلام لأهل أوربا، وممن حاول هذه المحاولات الشيخ محمد عبده[1] حيث يقول: "اتفق أهل الملة الإسلامية، إلا قليلًا ممن لا ينظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، والثانية: تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل".

أراد الشيخ محمد عبده إحياء علم الكلام بأسلوب عصري في (رسالة التوحيد)، وكان من المفروض أن يعلم أن (علم الكلام) كله لا ينهض بالأمة الإسلامية، بل يشغلها بـ(الكلام) الذي ليس وراءه طائل، والفئة التي قال عنها

---

(١) محمد عبده بن حسن خير الله، مفتي الديار المصرية، ولد عام ١٢٦٦هـ، وتوفي عام ١٣٢٣هـ، شارك في الثورة العرابية، ونفي إلى بيروت، أصدر مع استاذه جمال الدين الأفغاني (العروة الوثقى). انظر: الأعمال الكاملة جمع وتحقيق د/ محمد عمارة ٣/ ٢٨٢.

(لا يؤبه لها) هم أهل السنة الذين لا يوافقون أهل الكلام على مقولاتهم.

ثم جاء أناس يرون أن المدرسة الاعتزالية كانت في صالح الحضارة الإسلامية، يقول أحمد أمين في صراحة: "في رأيي أن من أكبر مصائب المسلمين موت المعتزلة"(١).

ولم يكن هذا الرأي، الذي عبر عنه أحمد أمين، بشأن دور الاعتزال وأهميته وضرورة تبني المسلمين له في طرق البحث ومنهاجه، رأيًا ارتآه وحده بل عرف عند كثير غيره من الكتاب الذين لمعت أسماؤهم في هذا العصر. فالكاتب زكي نجيب محمود -الذي تبنى الوضعية المنطقية كنظرية يدين بها(٢)- يزعم أنه إن كان لنا أن نحيي جزءًا من تراثنا الإسلامي فليكن هو الاعتزال. يقول في "تجديد الفكر العربي": "يبدو لكاتب هذه الصفحات أن أهم جماعة يمكن لعصرنا أن يرثها في وجهة نظرها... أعني أن يرثها في طريقتها ومنهاجها عند النظر إلى الأمور هي جماعة المعتزلة التي جعلت العقل مبدأها الأساسي كلما أشكل أمر". ويؤكد ذلك بعد صفحات فيقول: "فما زلت أرى أنه لو أراد أبناء عصرنا أن يجدوا عند الأقدمين خيطًا فكريًا ليتمسكوا بطرفه فيكونوا على صلة موصولة بشيء من تراثهم، فذلك هو الوقفة المعتزلية من المشكلات القائمة"(٣).

---

(١) ضحى الإسلام ٣/ ٢٠٧.

(٢) وفحواها إنكار عالم الغيب في صورة مستترة، هي ادعاء أنه ليس لنا شأن بما لا يخضع لتجاربنا ويمكننا تحسسه، فالألفاظ التي لا يوجد لها رصيد في الواقع المحسوس المجرب لا تعني شيئًا، ويجب أن ينصب جهد الناس على ما في إمكانهم تحقيقه والتحقق منه، أما عالم الغيب فهو دائرة الإحساس والمشاعر لا غير... وهي صورة معدلة خبيثة لإنكار الغيب بالكلية دون التصريح بذلك.

(٣) تجديد الفكر العربي ص١١٧-١٢٣.

وقد وقع هذا الكاتب في خطًا كان لابد له من الوقوع فيه نظرًا لانشغاله طوال حياته بالفكر الغربي دراسة وتحليلًا وتسلية كما عبر بنفسه في مقدمة كتابه المذكور، إلا سنوات قليلة أخذ "يعب فيها التراث عبًا" على عجل بنظر المستشرق لا بنظر المؤمن، هذا الخطأ هو اعتقاد أن أهل السنة والجماعة كانوا يقفون بالمرصاد لمحاولات إعمال العقل في مجال الطبيعة والحياة بحرية وانطلاق، وهو أمر ما كان في يوم من الأيام، وإنما يشهد التاريخ أن الصراع بين أهل السنة وغيرهم من الفرق الضالة كان بسبب إدخال العقل في مجال الغيب أولًا، ومحاولة تحكيمه في نصوص الشرع الثابته التي تواجه الحياة البشرية بكليات وقواعد قد رضيها الله سبحانه لخلقه ثانيًا، أما في مجال العلوم الطبيعية والتجريبية فعلى أمثال هؤلاء المفسدين إبراز دليل واحد يستدلون به على وقوف أهل السنة والجماعة في وجه تلك العلوم أو عدم إعمال العقل فيها، وحتى مهاجمة أهل السنة للفلاسفة إنما كان في الجانب الميتافيزيقي الذي خاضوا فيه غمار العلوم الإلهية بعقولهم القاصرة فخرجوا إلى الكفر البواح، كما فعل ابن سينا والفاربي، بينما لم ينكر أحد على ابن سينا وضعه لكتاب "القانون" في الطب مثلًا، وإنما ادعاءات هؤلاء كلها محض باطل وتجن وهوى، ولما كان الإسلام يعالج في مبادئه وأساسياته قواعد إجتماعية وتشريعات دولية وسياسية واقتصادية تصادمت في كثير منها مع الاتجاهات الهدامة، كان لهم في المواقف الاعتزالية -التي قدمت العقل فيما لا يمكن الحكم فيه- خير سند في دعواهم للقضاء على الشريعة الإسلامية والنهج الرباني.

ويقول الباحث عرفان عبد الحميد في كتابه "دراسات في الفرق والعقائد

الإسلامية" تحت عنوان أهمية المعتزلة في الفكر الإسلامي:

"المعتزلة أول مدرسة كلامية ظهرت في الإسلام وكان لها دور كبير في تطوير الفكر الديني والفلسفي فيه، فهي التي أوجدت الأصول العقلية للعقيدة الإسلامية!! وجعلت للنزعة العقلية في الفكر الإسلامي مكانة مرموقة، ورفعت من شأن العقل وأحكامه وقدرته في الوصول إلى الحقيقة"، ولا نحتاج إلى تعليق، حيث سبق أن بينا موقف أهل السنة من العقل ومجالاته، وبينا المجال الذي عملت فيه النزعة العقلية في الإلهيات فأنتجت ذلك الضلال والانحراف، ولكن أنى لمثل هذا الباحث أن يتفهم موقف الإسلام في مثل تلك الأمور وهو ينقل عن المستشرقين نص كلامهم مرتئيًا له وموافقًا عليه، فيقول: "والمعتزلة تمثل أول محاولة في الفكر الإسلامي تعرضت لمسألة الصلة بين الحقائق الدينية وأحكام العقل وذلك (بقوة فكرية عجيبة وثبات عظيم وحاولت حلها بطريقة مبتكرة)"، وما بين القوسين منقول عن سوزانا فلزر في مقدمة كتاب المعتزلة، وواضح تبنيه لهذا الرأي الاستشراقي!.

ويقول عبد الستار الراوي في مقدمة كتابه "فلسفة العقل" عن الحركة الاعتزالية: "حركة ثقافية تتخطى المذهبيات المغلقة، وتنتهج في جدلياتها الكلامية "الحرية" وأنها تقيم الأدلة المنطقية على عقم الاتجاهات السلفية ومواقفها الوثوقية".

ومعنى قوله "مواقف السلف الوثوقية" هو وثوق أهل السنة واتباع السلف بقيمة النص إزاء العقل، ووثوقهم في مقررات النص الثابتة القطعية.

ثم يقول في بيان شرحه لموقف الإمام أحمد إزاء محاوريه من المعتزلة إبان المحنة وتمسكه بالنصوص الثابتة: "ولما حاصرته براهين المعتزلة العقلية أقر

بعجز عقله غير المدرب عن رد جدلياتهم الكلامية في مسألة الصفات بقوله: لا أدري. هو (الله) كما وصف نفسه لا أزيد على ذلك شيئًا!!"[١].

المدرسة "الإصلاحية" الحديثة:

يمكن للباحث من خلال كتابات عديد من الكُتَّاب، في العقود الماضية، أن يلتمس آثار مدرسة فكرية مميزة ينتمي إليها فكر هؤلاء الكتاب وآراؤهم، يستدل عليها بوحدة الآراء، وتقارب المفاهيم، وتميز بتشابه الموضوعات، وتلاقي المقاصد والغايات. هذه المدرسة -التي وإن لم تتخذ صبغة رسمية- تفجأ القارئ المسلم بتلك الدعاوي والآراء التي هي امتداد لما عرف بالمدرسة الإصلاحية وزعماؤها: السير أحمد خان الهندي وجمال الدين الأسد آبادي، ومن بعدهم محمد عبده، في نهاية القرن الماضي، وهي كذلك إحياء للمنهج الاعتزالي في تناول الشريعة، وتحكيم العقل فيما لا يحتكم فيه إليه.

ويمكن تحديد ما تجتمع عليه آراء تلك المدرسة في كلمة واحدة هي "التطوير" أو "العصرانية" كما تترجم عن الإنجليزية ... وما تعنيه من تناول أصول الشريعة وفروعها بالتعديل والتغيير، تبعًا للمناهج العقلية التي اصطنعها الغرب حديثًا، أو ما تمليه عقليات أرباب ذلك المذهب، التي تتلمذت لتلك المناهج... ولا يسلم من هذا التطوير أمر من أمور الشريعة كأصول الفقه والحديث أوالتفسير أو مسائل الفقه كالحجاب والطلاق أو تعدد الزوجات، والحدود، أو الطامة التي عرفت بالتقارب بين الأديان.

على رأس تلك المدرسة السير أحمد خان الهندي، الذي منح لقب "سير" من قبل السلطات البريطانية تكريمًا له، والذي يرى أن القرآن الكريم هو

---

(١) فلسفة العقل للراوي ص٥-٢٤.

المصدر الوحيد الذي يجب أن نستقي منه الشريعة، والأحاديث لا يعتد بها في هذا الشأن لتأخر تدوينها، ولأن أكثريتها أحاديث آحاد لا تفيد يقينًا، كما يحل الربا البسيط في التجارة والمعاملات، ويرفض عقوبة الرجم والحرابة، وينفي شرعية الجهاد لنشر الدين.

ويُحِلُّ سيد أمير علي -تلميذ أحمد خان- زواج المسلمة من كتابي، والاختلاط بين الرجال والنساء.

كذلك يرى محمد أسد أن الله سبحانه لا يوصف إلا بالصفات السلبية (أي ليس كذا وليس كذا..) تمامًا كما قالت المعتزلة، وينحو منحى محمد عبده في إنكار المعجزات المادية، كتفسير إهلاك أصحاب الفيل بوباء الحصبة أو الجدري الذي حملته الطير الأبابيل!.

ومن المعاصرين الأحياء، ينادي د/ محمد فتحي عثمان بتطوير العقيدة والشريعة معًا في كتابه عن الفكر الإسلامي والتطور.

ويزيد الدكتور حسن الترابي خطوة فيدعو إلى تجديد أصول الفقه حيث يقول: "إن إقامة أحكام الإسلام في عصرنا تحتاج إلى اجتهاد عقلي كبير وللعقل سبيل إلى ذلك لا يسع عاقل إنكاره، والاجتهاد الذي نحتاج إليه ليس اجتهادًا في الفروع وحدها، وإنما هو اجتهاد في الأصول أيضًا"[1].

ويشكك محمد سعاد جلال في إمكانية وجود نص قاطع في الشريعة ثبوتًا ودلالة، حتى القرآن الكريم الذي وإن كان ثابتًا من جهة النقل، إلا أن الظن يتطرق إليه من قِبَل الدلالة...

ويدعو عبد اللطيف غزالي إلى دثر التراث كله حيث يقول: "أما علوم

---

(١) عن بحث "الدعوة إلى التجديد في منهج النقد عن المحدثين" عصام أحمد البشير.

سلف المسلمين فهي شيء متخلف غاية التخلف بالنسبة لما لدينا، ولا أقول لما لدى الأوربيون من علوم.."[١].

وفي مجال الفقه يعبر د/ فتحي عثمان عن حجاب المرأة ومسألة عدم الاختلاط بقوله: "فإذا التقى الرجل بالمرأة في ظروف طبيعية هادئة محكمة، فلن يغدو هذا اللقاء قارعة شديدة الوقع... سيألف الرجل رؤية المرأة ومحادثة المرأة ومعاملة المرأة، في إطار من الدين والخلق تحدد معالمه تربية الأسرة وعرف المجتمع ورعاية الدولة، وستألف المرأة بدورها الرجل فيهدأ السعار المضطرم ولا يكون هناك مجال للانحراف والشذوذ، وتتجمع لدى الطرفين خبرات وحصانات وتجارب".

سبحان الله العظيم! وكأن تجربة الأوربيين في الاختلاط لقرون عديدة أنتجت الخبرات والحصانات، وكفلت الإحصان للمرأة والرجل! إن هذا إلى جانب كونه افتياتًا على الشريعة الحنيفية، فهو جهل بالفطرة الإنسانية التي يعلم حقيقتها خالقها سبحانه.

ويعلن عبد اللطيف غزالي: "نحن اليوم لا نجد حرجًا في التفكير في تقييد حق الرجل في الأربع وتقييد حقه في الطلاق"[٢].

أما في الحدود فيرى حسن الترابي أن الردة الفكرية التي لا يصاحبها خروج على نظام الدولة لا تستوجب إقامة الحد، ويعني بالردة الفكرية الكفر الاعتقادي بالتعبير الشرعي...

ويرى محمد فتحي عثمان أن عقوبة الردة كانت لضرورة عسكرية أملتها

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق ص٦٠.

الظروف على عهد رسول الله ﷺ.

أما عن التقارب بين الأديان فيرى عبد العزيز كامل أن منطقة الشرق الأوسط هي منطقة التوحيد بدياناتها الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية، وهو ما يؤكده كذلك فهمي هويدي ومحمد سعيد عشماوي(١).

أما عبد الله غزالي فيشرح معنى الإسلام! بقوله: "الإسلام أن تسلم وجهك لله وأنت محسن، وأي امرئ كان هذا حاله فإنه مسلم سواء كان مؤمنًا بمحمد أو كان من اليهود أو النصارى أو الصابئين".

ويبين أن الجنة ليست حكرًا على المسلمين الموحدين، وأن الدين المنجي عند الله ليس الإسلام وحده! فيقول: "لماذا يعتقد اتباع كل دين أن الله يختصهم بالجنة ويذر غيرهم وأكثر الناس في النار؟" ثم يؤكد أن حقيقة الشرك هي العداء بين الأديان(٢).

وفي الخاتمة يقول محمد العبدة: إن من أعجب الأشياء أن يقال أن المعتزلة يمثلون حركة "التنوير" و"التحديث" و"العقلانية" في الفكر الإسلامي أو الحضارة الإسلامية، لأن من يغرق في النظريات المجردة وذكر المحالات، والاهتمام بالعرض والجوهر والتولد وانتقال الأجسام، لا يستطيع أن يبني أمة أو حضارة، وكيف يكون تنوير وزعماء الاعتزال يكفر بعضهم بعضًا، وعندما ملكوا شيئًا من القوة أذاقوا مخالفيهم الويلات، وكيف يكون تنوير بمعزل عن الوحي الإلهي، وهاهي البشرية في نهاية القرن العشرين تغوص في العسف والظلم والفساد، وإنما الذي يمثل روح الإسلام وحقيقته، والنظرة الصحيحة

---

(١) جريدة الأخبار المصرية ١٧/ ١٠/ ١٩٩٧ نقلًا عن المصدر السابق.

(٢) نظرات في الدين ص١٦-٢٤.

للعقل ودوره، ويدعو للاهتمام بالعمل، هم أولئك العلماء من أمثال مالك بن أنس الذي يقول: "أكره الكلام فيما ليس تحته عمل"، والإمام الأوزاعي الذي يقول: "بلغني أن الله إذا أراد بقوم شرًا ألزمهم الجدل ومنعهم العمل"، ومثل ابن تيمية الذي يدعو لمنهج الاستقراء والتجربة ويهتم بالعمل المفيد، فهؤلاء ناشرو حضارة و بناة أمة، وما أظن أن الذين يدافعون عن الاعتزال من أهل العصر الحديث، وينشرون الأبحاث والمقالات عنهم، ويتحسرون على فقدهم، ما أظن أن هؤلاء من الذين يبحثون عن الحقيقة العلمية، وأنهم أخطأوا طريق الصواب، بل غالبهم من الذين يأنفون من التسليم للوحي الإلهي، ويأنفون من الالتزام بشرائع الإسلام، ويتسترون "بالعقلانية" و"التحرر" لينفضُّوا عن القيم الإسلامية. وإن المعتزلة القدماء رغم انحرافهم -فقد كان بعض زعمائهم صاحب دين وحب لنشر الدعوة بين صفوف غير المسلمين، وأما هؤلاء فليس همهم إلا تفريغ الدين من محتواه، وخاصة أمور الشريعة.

ثم لنستمع إلى شهادة أحد أكابر علماء الغرب القلائل الذين وضعوا أيديهم على الداء البشري وهو الدكتور أليكساس كاريل حيث يقول: "مهما كانت براعة المذاهب "النظرية" التي يبتدعها العقل، فإنها لا تعدو أن تكون نظرات جزئية، وأشباحًا باهتة للواقع. وليس هناك مذهب فلسفي قط استطاع أن يحظى بقبول جميع الناس، وقوانين الحياة التي تستنبط من مثل تلك المبادئ ليست إلا فروضًا وإذا أردنا تجنب الوقوع في الخطأ وجب علينا أن نستخلص قوانين الحياة من ملاحظات الحياة نفسها".

ويبين كاريل بعدها مسار العقل الإنساني في اختياره للمباحث النظرية السهلة وما يجلبه ذلك من ضرر فيقول: "كان من الممكن للعلم أن يكفل لنا

نجاح حياتنا الفردية والإجتماعية ولكننا فضلنا نتائج التفكير الفلسفي الذي ساد في القرن الثامن عشر على نتائج العلم الواضحة، فارتضينا أن نأسن[١] وسط "المعاني المجردة" ولعل كسل الإنسان الطبيعي هو الذي دفعه إلى اختيار المعاني المجردة الهينة. وذلك لأن الملاحظة أشق من الاستدلال، وهذا هو السبب في أن البشرية كانت دائمًا تميل إلى اللعب بضروب التجريد".

ثم يؤكد على أن الفلسفة ومناهجها هي التي تزري بالمناهج الأصلية للبشرية في العلم والعمل: "ولا شك أن فلاسفة عصر النور -أي عصر النهضة- هم الذين مكنوا لعبادة الحرية في صورة عمياء في أوربا وأمريكا، فراحوا باسم العقل يزرون بجميع النظم التقليدية، وبذلك وسَمُوا هذه القيود في أعين الناس بميسم الشناعة، وحينئذ بدأت المرحلة الأخيرة من الصراع ضد القواعد التي رضي أسلافنا بأن تهيمن على سلوكهم".

وسبحان الله العظيم! كيف يدور الزمن دورته فيحاول "فلاسفة عصرنا وعلمائه" أن يعيدوا تمثيل ما حدث في أوربا منذ ثلاثة قرون أو أكثر، فيمكنوا لعبادة "الحرية" ويزدروا مناهج سلفنا الصالح! أليس ذلك كفعل الببغاء الذي عقله في أذنيه؟!.

ثم يعلن كاريل في قوة ووضوح أن زيف المباحث النظرية هو السبب الأصيل وراء تدهور الحضارة فيقول: "ولذلك كان انتصار المذاهب النظرية تأكيدًا نهائيًا لهزيمة الحضارة".

وإن كان كاريل قد شهد بذلك، فإننا نسوق شهادة واحد من أعتى المستشرقين وأكثرهم حقدًا على الإسلام وأهله، وهو هاملتون جب حيث

---

(١) نأسن: ندخل.

يقول: "إن تركيز الفكر العربي على الأحداث الفردية، جعل العلماء المسلمين معدين للتعمق في المنهج الاختباري العلمي أكثر من أسلافهم الإغريق والإسكندرانيين. إن الملاحظات المفصلة التي قام بها باحثوا الإسلام قد ساهمت بشكل ملموس في تقدم المعرفة العلمية، بل إنها المصدر الذي أعاد المنهج التجريبي إلى أوربا في العصر الوسيط".

فيا للعجب! ألم يكن أجدر "بفلاسفتنا" أن يدركوا من روح الإسلام ما أدركه هذا المستشرق.

ونكتفي بهذا القدر من الشهادة لاثنين من أكابر علماء الغرب، وما كنا لننقل عن أحد من تلك الأمم، ولكن الشهادة التي يقر بها المخالف لها أهميتها، وإن في الحضارة الغربية آفات قاتلة تتركز في مناهجها ونظرياتها وسلوكياتها، وإن كان فيها من المباحث العلمية والمناهج التطبيقية والتقدم ما يجب على المسلمين الأخذ به والتسابق في تعلمه وتطويره -إن أمكن- فهم أولى البشر بالأخذ بأسباب القوة وتجنب مواطن الضعف.

إن القدرة على أن نفرق بين ما نأخذ وما ندع، من ذلك الحصاد الهائل للبشرية إنما يكمن في إدراك المنهج الإسلامي الصحيح وما يدعو إليه، وفي دراسة سيرة سيد المرسلين ﷺ دراسة واعية لأحداثها وعبرة لتلك الأحداث، والله سبحانه هو القادر أن يكشف عن المسلمين الغمَّة، وأن يعيد إليهم القدرة على صحة الحكم، ودقة النقد، فهم جد محتاجين إلى ذلك في مواجهة تلك التيارات التي يعج بها العصر، إنه سميع مجيب.

(باب ذكر المرجئة)

المرجئة[1] من أوائل الفرق التى تنتسب إلى الإسلام فى الظهور، وقد احتلت مكانًا واسعًا في أذهان الناس وفي اهتمام العلماء بأخبارهم وبيان

(١) انظر كتاب: «فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها»، ج١، د.
=

مكانًا واسعًا فى أذهان الناس وفى اهتمام العلماء بأخبارهم وبيان معتقداتهم بين مدافع عنهم ومحاج لهم، وبين معجب بأدلتهم وبين داحض لها.

ولقد أخذت تلك الخصومات أشكالًا من العنف واللين، ولكنها ذهبت حول تقرير حقيقة الإرجاء والرد عليه وجمع أدلته والوقوف عندها، وكان يكفى للانتهاء عن الخوض فى هذه القضية وقفة واحدة متأنية، ومواجهة الحقيقة التى طالما أغفلها هؤلاء وأولئك ألا وهى أن الإرجاء الذى هو بمعنى ترك الأعمال وعدم الاهتمام بها لا مكان له فى الواقع إلا عند المتأخرين الذين يريدون التحايل والانفلات بأى وسيلة، ذلك أن الذين قرروا الإرجاء فى بدء أمرهم كانوا عند التحقيق من أكثر الناس عبادة وعملًا، بدليل أنك تجد الشخص منهم يحث على الإرجاء بكلام قد ألفه وحفظه، ولكن إذا جاء إلى ميدان العمل تجده من المحرضين على اغتنام الفرص، والتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، فلم يبق للإرجاء عنده إلا ذلك الجزء من الكلام المردد فى إيقاظ الخصومة[1].

ومن هنا نجد أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ -وقد قدم دراسة وافية للمرجئة- يذكر أن السلف كانوا يصلون خلفهم ويترحمون عليهم، وإنما يشنعون عليهم مسلكهم الخاطئ فى تأخير العمل عن حقيقة الإيمان، وهؤلاء هم مرجئة الفقهاء بخلاف مرجئة الجهمية الغلاة.

وقبل البدء بتفاصيل فكر المرجئة وبيان نشأته وما آل إليه، قبل هذا نذكر على سبيل الإيجاز التعريف بالمرجئة لغة واصطلاحًا.

❐ تعريف الإرجاء لغةً واصطلاحًا:

=

غالب بن على عواجى.

(١) انظر: ظاهرة الإرجاء فى الفكر الإسلامى.

يقول الشهرستانى: (الإرجاء على معنيين: أحدهما بمعنى التأخير كما فى قوله تعالى: (قالوا أرجه وأخاه) أى أمهله وأخره والثانى: إعطاء الرجاء.

أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح، لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد. وأما بالمعنى الثانى فظاهر، فإنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة، وقيل: الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يقضى عليه بحكم ما فى الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار[١]، إلى أن قال: وقيل: الإرجاء تأخير على رضى الله عنه عن الدرجة الأولى إلى الرابعة[٢].

❐ الأساس الذى قام عليه مذهب المرجئة:

الأساس الذى قام عليه مذهب الإرجاء هو الخلاف فى حقيقة الإيمان ومم يتألف، وتحديد معناه، وما يتبع ذلك من أبحاث. وهل الإيمان فعل القلب فقط أو فعل اللسان، أو هو فعل القلب واللسان معًا؟ أى والعمل غير داخل فى حقيقته، وبالتالى لا يزيد الإيمان ولا ينقص، إذ التصديق واحد لا يختلف أهله فيه، هذه أهم ميزات بحوث هذه الطوائف المرجئة، وإلى كل قسم من تلك الأقسام ذهب فريق من المرجئة.

إلا أن أكثر فرق المرجئة على أن الإيمان هو مجرد ما فى القلب ولا يضر مع ذلك أن يظهر من عمله ما ظهر، حتى وإن كان كفرًا وزندقة، وهذا مذهب الجهم بن صفوان، ولا عبرة عنده بالإقرار باللسان ولا الأعمال أيضًا، لأنها ليست جزءًا

---

(١) مذهب السلف أنه لا يجوز الحكم على معين بالجنة أو بالنار إلا ما جاء التنصيص عليه من الشارع.

(٢) الملل والنحل ١/ ١٣٩.

من حقيقة الإيمان.

وذهبت الكرَّامية إلى أن الإيمان هو القول باللسان، ولا يضر مع ذلك أن يبطن أى معتقد حتى وإن كان الكفر. وذهب أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان، لا يغنى أحدهما عن الآخر، أى فمن صدق بقلبه وأعلن التكذيب بلسانه لا يسمى مؤمنًا. وعلى هذا قام مذهب الحنفية وهو أقرب مذاهب المرجئة إلى أهل السنة لموافقتهم أهل السنة فى أن العاصى تحت المشيئة، وأنه لا يخرج عن الإيمان. وخالفوهم فى عدم إدخال العمل فى الإيمان وفى أن الإيمان يزيد وينقص، فلم يقولوا بذلك. هذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة من المرجئة، وهو ما ذهب إليه أبو حنيفة ومن قال بقوله من فقهاء الكوفة الذين أخروا العمل عن حقيقة الإيمان وماهيته.

على أن فى نسبة الإرجاء إلى أبى حنيفة من الخلاف الكثير بين العلماء ما لا يخفى، هل كان أبو حنيفة من المرجئة كما وصفه كتاب المقالات والفرق، أم كان ضد الإرجاء كما يصفه المدافعون عنه، لأن الإرجاء يتميز بالتساهل فى الأعمال وتأخيرها عن منزلة الإيمان، وأبو حنيفة رحمه الله تعالى بلغ حدًا كبيرًا فى الاهتمام بالفروع، مما يدل على أنه يهتم بالعمل، وهذا عكس الإرجاء، فكيف يوصف بالإرجاء حسب هذا الدفاع عنه!!

وأما ما جاء فى الكتاب المنسوب إليه الفقه الأكبر، من عبارات تدل دلالة واضحة على إرجائه -فقد شكك هؤلاء المدافعون عنه فى صحة نسبة هذا الكتاب إليه، بل كذبوا نسبته إليه.

ودافع عنه الشهرستانى وذهب إلى أن نسبة الإرجاء إلى أبى حنيفة إنما كان سببه فى رأيه -المعتزلة والقدرية- عن سوء فهم منهم لرأى أبى حنيفة الذى يرى

بأن الإيمان هو التصديق بالقلب، وأنه لا يزيد ولا ينقص، فظنوا أنه يؤخر العمل عن الإيمان، إضافة إلى أن المعتزلة -كما يرى الشهرستانى- كانوا يسمون كل من خالفهم مرجئًا[١].

والواقع أن النقول بإرجاء أبى حنيفة كثيرة، وعلماء الفرق أغلبهم يقر نسبة الإرجاء إليه بالمعنى الذى قدمنا ذكره. وهذا هو الثابت، ولا يقال: إن أبا حنيفة كان من غلاة المرجئة كالجهمية مثلًا، وذلك لموافقته أهل السنة والاعتقاد السليم فى جوانب كثيرة فى باب الإيمان وإن خالفهم فيما ذكر.

ولقد بذل كثير من علماء الأحناف جهدهم ليجعلوا الخلاف بينهم وبين أهل السنة فى حقيقة الإيمان لفظيًا، فلم يتم لهم ذلك مع أنهم يستندون إلى جعل الخلاف لفظيًا على الاتفاق الحاصل فعلًا بينهم وبين أهل السنة فى مرتكب الكبيرة عند الله، إذ لا يسمى كافرًا ولا يحكم له بالخلود فى النار يوم القيامة، بل هو تحت المشيئة إن شاء الله عفى عنه بفضله وإن شاء عاقبه بعدله.

وكذلك اتفاقهم على أن الأعمال لا بد منها، وأن العبد لو صدق بقلبه وأقر بلسانه ولكن امتنع عن العمل فلم يقم به -أنه يستحق اللوم والعقوبة، وأنه من العصاة. إلا أن كل هذه الحجج لا تجعل الخلاف لفظيًا، وذلك أن أهل السنة لا يخرجون الأعمال عن مسمى الإيمان، فالتفرقة بين الأعمال والإيمان لا يقول بها السلف.

كما أن السلف لا يرون أن الناس على درجة واحدة فى الإيمان والتوحيد، كذلك حُكْمُ الأحناف للعصاة بالإيمان الكامل لم يوافقهم فيه السلف، كما أن السلف لا يوافقونهم فى القول بعدم زيادة الإيمان ونقصانه.

---

(١) الملل والنحل ١/ ١٤١.

والحاصل: أن المرجئة أقسام كثيرة وأنهم يختلفون في بعض أسس الإرجاء، كما سيتضح ذلك إن شاء الله.

بيان أول من قال بالإرجاء وبيان أهم زعماء المرجئة

يذكر العلماء أن الحسن بن محمد بن الحنفية هو أول من ذكر الإرجاء في المدينة بخصوص على وعثمان وطلحة والزبير، حينما خاض الناس فيهم وهو ساكت ثم قال: قد سمعت مقالتكم ولم أر شيئًا أمثل من أن يرجأ على وعثمان وطلحة والزبير، فلا يتولوا ولا يتبرأ منهم[(١)]. ولكنه ندم بعد ذلك على هذا الكلام وتمنى أنه مات قبل أن يقوله، فصار كلامه بعد ذلك طريقًا لنشأة القول بالإرجاء، وقد بلغ أباه محمد بن الحنيفة كلام الحسن فضربه بعصا فشجه، وقال: لا تتولى أباك عليًا؟ ولم يلتفت الذين تبنوا القول بالإرجاء إلى ندم الحسن بعد ذلك، فإن كتابه عن الإرجاء انتشر بين الناس وصادف هوى في نفوس كثيرة فاعتنقوه[(٢)].

ولكن ينبغي معرفة أن إرجاء الحسن إنما هو في الحكم بالصواب أو الخطأ على من ذكرهم، ولم يتعلق إرجاؤه بالإيمان أو عدمه كما هو الحال في مذهب المرجئة أخيرًا.

وقيل: إن أول من قال بالإرجاء على طريقة الغلو فيه هو رجل يسمى ذر بن عبد الله الهمداني وهو تابعي، وقد ذمه علماء عصره من أهل السنة، بل كان بعضهم -مثل إبراهيم النخعي- لا يرد عليه إذا سلم، وكذلك سعيد بن جبير.

وهناك أقوال أخرى في أول من دعا إلى الإرجاء فقيل: إن أول من أحدثه

---

(١) انظر: ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ص ٢٤٤.

(٢) لم يكن ما كتبه الحسن كتابًا حسب ما يتبادر إلى الذهن، وإنما كان بمنزلة منشور.

رجل بالعراق اسمه قيس بن عمرو الماضرى.

وقيل: إن أول من أحدثه حماد بن أبى سليمان وهو شيخ أبى حنيفة وتلميذ إبراهيم النخعى، ثم انتشر فى أهل الكوفة، وقد عاصر حماد ذر بن عبد الله. ويذكر شيخ الإسلام عن نشأة الإرجاء بالكوفة أن أول من قاله فيهم حماد بن أبى سليمان[١].

وقيل: إن أول من قال به رجل اسمه سالم الأفطس، ويطلق على إرجاء هؤلاء أنه إرجاء الفقهاء، ويظهر أن تلك الأقوال لا تباعد بينها، لأن هؤلاء كانوا فى عصر واحد، وكانوا أيضًا على اتفاق فى إرجائهم.

ولقد نسب الإرجاء إلى علماء مشاهير، وقد عدّ الشهرستانى جماعة من هؤلاء ومنهم: الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب، وذكر أنه أول من قال بالإرجاء، ولكنه لم يجزم بذلك فيما يبدو من تعبيره، حيث ذكر ذلك بصيغة التمريض "قيل"، ثم ذكر أنه كان يكتب فيه الكتب إلى الأمصار ثم قال: (إلا إنه ما أخر العمل عن الإيمان كما قالت المرجئة اليونسية والعبيدية، لكنه حكم بأن صاحب الكبيرة لا يكفر، إذ الطاعات وترك المعاصى ليست من أصل الإيمان حتى يزول الإيمان بزوالها).

كما عدّ منهم سعيد بن جبير[٢]، وطلق بن حبيب وعمر بن مرة ومحارب بن زياد ومقاتل بن سليمان وذر، وعمرو بن ذر، وحماد بن أبى سليمان وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وقديد بن جعفر، ثم قال: (وهؤلاء كلهم أئمة

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٧/ ٢٩٧، ٣١١.

(٢) هكذا ذكر عن سعيد بن جبير أنه من رجال المرجئة، وسيأتى أن سعيد بن جبير ممن كان يذم الإرجاء ويمقته.

الحديث لم يكفروا أصحاب الكبائر بالكبيرة، ولم يحكموا بتخليدهم فى النار، خلافًا للخوارج والقدرية).

ومن كبار المرجئة ومشاهيرهم: الجهم بن صفوان، وأبو الحسين الصالحى، ويونس السمرى، وأبو ثوبان، والحسين بن محمد النجار، وغيلان، ومحمد بن شبيب، وأبو معاذ التومنى، وبشر المريسى، ومحمد بن كرام، ومقاتل بن سليمان المشبه لله ﷻ بخلقه، ومثله الجواربى وهما من غلاة المشبهة[١].

أصول المرجئة

تكاد فرق المرجئة تتفق فى أصولها على مسائل هامة هى:

تعريف الإيمان بأنه التصديق أو المعرفة بالقلب أو الإقرار.

وأن العمل ليس داخلًا فى حقيقة الإيمان، ولا هو جزء منه، مع أنهم لا يغفلون منزلة العمل من الإيمان تمامًا إلا عند الجهم ومن تبعه فى غلوه.

وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لأن التصديق بالشئ والجزم به لا يدخله زيادة ولا نقصان.

وأن أصحاب المعاصى مؤمنون كاملو الإيمان بكمال تصديقهم وأنهم حتمًا لا يدخلون النار فى الآخرة.

ولهم اعتقادات أخرى: كالقول بأن الإنسان يخلق فعله، وأن الله لا يرى فى الآخرة، وقد تأثروا فى هذه الآراء بالمعتزلة، وكذا رأيهم فى أن الإمامة ليست واجبة، فإن كان ولا بد فمن أى جنس كان ولو كان غير قرشى، وقد تأثروا بهذا الرأى من الخوارج الذين كانوا ينادون به ولم يطبقوه.

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ١/ ٢١٣.

ومن عقائد المرجئة الجهمية أن الكفر بالله هو الجهل به -وهو قول جهم- وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط وأنه لا يتبعض، ومنها أن الجنة والنار تفنيان وتبيدان ويفنى أهلهما ولا خلود لأحد فيهما.

وفيما يلى تفصيل واضح لأقسام اتجاهات الناس فى حقيقة الإيمان كما رتبها الدكتور سفر الحوالى فى رسالته عن الإرجاء:

أ. أن الإيمان يكون بالقلب واللسان والجوارح:

١. أهل السنة ٢. الخوارج ٣. المعتزلة

ب. أنه بالقلب واللسان فقط:

١. مرجئة الفقهاء الحنفية.

٢. ابن كلاب، وكان على عقيدة المرجئة الفقهاء، وقد انقرض مذهبه.

جـ. أنه باللسان والجوارح فقط:

١. الغسانية.

٢. فرقة مجهولة لم يصرح العلماء بتسميتها، ولعلها الغسانية.

د. أنه بالقلب فقط:

١. الجهمية. ٢. المريسية. ٣. الصالحية. ٤. الأشعرية

٥. الماتريدية.

هـ. أنه باللسان فقط:

١. الكرَّامية: وقد انقرضوا، وقد ذكر عنهم شيخ الإسلام أنهم يقولون: المنافق مؤمن وهو مخلد فى النار، لأنه آمن ظاهرًا لا باطنًا، وإنما يدخل الجنة من آمن ظاهرًا وباطنًا.

أ. الذين قالوا: إنه بالقلب واللسان والجوارح:

١ . الذين قالوا: الإيمان فعل كل واجب وترك كل محرم، ويذهب الإيمان كله بترك الواجب أو فعل الكبيرة:

١ . الخوارج، مرتكب الكبيرة عندهم كافر.

٢ . المعتزلة، مرتكب الكبيرة عندهم فى منزلة بين المنزلتين، يعنى فى الدنيا، وأما فى الآخرة فقد وافقوا الخوارج فى الحكم.

٢ . الذين قالوا: الإيمان قول وعمل -أى عمل القلب والجوارح- وكل طاعة هى شعبة من الإيمان أو جزء منه.

والإيمان يكمل باستكمال شعبه وينقص بنقصانها، لكن منها ما يذهب الإيمان كله بذهابه، ومنها ما ينقص بذهابه.

فمن شعب الإيمان أصول لا يتحقق إلا بها، ولا يستحق مدّعيه مطلق الاسم بدونها، ومنها واجبات لا يستحق الاسم المطلق بدونها، ومنها كمالات يرتقى صاحبها إلى أعلى درجاته. (وتفصيل هذا كله بحسب النصوص). كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

ب. الذين قالوا: إنه يكون بالقلب واللسان فقط:

١ . الذين يدخلون أعمال القلب -يعنى فى حقيقة الإيمان- وهم بعض قدماء المرجئة الفقهاء، وبعض محدثى الحنفية المتأخرين.

٢ . الذين لا يدخلون أعمال القلب، وقد تطور بهم الأمر إلى إخراج قول اللسان أيضًا من الإيمان وجعلوه علامة فقط، وهم عامة الحنفية "الماتريدية".

جـ. الذين قالوا: إنه يكون بالقلب فقط:

١ . الذين يدخلون فيه أعمال القلب جميعًا، وهم سائر فرق المرجئة: كاليونسية والشمرية والتومنية.

٢. الذين يقولون: هو عمل قلبى واحد -المعرفة- الجهم بن صفوان.

٣. الذين يقولون: هو عمل قلبى واحد -التصديق- الأشعرية والماتريدية[١].

أدلة المرجئة لمذهبهم والرد عليها

تلمس المرجئة فى الاستدلال لمذهبهم نصوصًا وشبهات، أوَّلوا النصوص ونصروا الشبهات بتكلفات غير صحيحة، وخرجوا بنتيجة، هى أن العمل ليس من حقيقة الإيمان، وأخَّروا جميع أعمال الجوارح عن الإيمان، وقالوا: يكفى فى دخول الإيمان والفوز برضى الله أن يحتوى القلب على المعرفة والتصديق كما سبق، وفتحوا بذلك بابًا واسعًا لأهل البطالة والكسل والمغرمين بالأمانى دون عمل، والذين يحبون التفلت عن ما تقتضيه النصوص الشرعية، ولهذا تجد المرجئة الغلاة منهم أكسل الناس فى العبادة وأضعفهم فى الالتزام، وقد تلمسوا لما يذهبون إليه بعض الأدلة فى القرآن الكريم ومن السنة النبوية وزعموا أنها تدل على مذهبهم.

فمن القرآن الكريم: استدلوا بقول الله تعالى:

١. (إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء).

٢. (قل يا عبادِىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمةِ الله إن اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعًا إنه هو الغفور الرحيم).

٣. كما اهتمت الجهمية بجمع النصوص التى تجعل الإيمان أو الكفر محله

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى جـ٧ فى عدة أمكنة من هذا الجزء المشتمل على كتاب الإيمان الكبير، وكتاب الإيمان الأوسط. وانظر ظاهرة الإرجاء فى الفكر الإسلامى ص ٢٨٤-٢٨٦.

القلب. كما فى قول الله تعالى: (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان).

٤. (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان).

٥. (ختم الله على قلوبهم).

إلى غير ذلك من الآيات التى يوحى ظاهرها بهذا المفهوم المتكلف للمرجئة.

أما من السنة النبوية: فقد استدلوا بما يلى:

بعض الأحاديث والآثار التى يدل ظاهرها على الاكتفاء بالبعد عن الشرك ووجود الإيمان فى القلب للفوز برضى الله، مثل:

١. قول الرسول ﷺ: (من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار). قال ابن مسعود: (وقلت أنا: من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة)[١].

٢. وقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال: (يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة)[٢].

٣. وقوله ﷺ: (اللهم ثبت قلبى على دينك)[٣].

٤. وكذا حديث الجارية التى سألها الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله: (أين الله؟ قالت: فى السماء. فقال لمولاها: اعتقها فإنها مؤمنة)[٤].

٥. وقوله ﷺ: (التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات)[٥].

---

(١) أخرجه البخارى ٣/ ١١٠، ومسلم ١/ ٩٤ فى الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٦٨ بلفظ: "ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئًا لقيته بمثلها مغفرة" واللفظ السابق للترمذى وحسنه.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٤٥٤.

(٤) أخرجه مسلم ١/ ٣٨٢ رقم ٥٣٧، وأحمد فى المسند ٥/ ٤٤٧.

(٥) أخرجه مسلم ٤/ ١٩٨٦ رقم ٢٥٦٤.

٦. ومن أدلتهم كذلك ما جاء فى أحاديث شفاعة المصطفى ﷺ فى أقوام فيخرجهم الله من النار حتى لا يبقى من فى قلبه ذرة أو برة أو شعيرة من إيمان، وفيه: (فيقول الله ﷻ: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط، قد عادوا حممًا، فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل إلى أن قال: فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه)[1].

وقد استدل المرجئة بهذا الحديث لإرجائهم من العبارات السابقة فيه:

١. لم يعملوا خيرًا قط.

٢. هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجمة بغير عمل عملوه.

فقالوا: إذا لم يكن لهم عمل خير قط فما الذى بقى معهم؟ والجواب -كما يزعمون- أنه بقى معهم التصديق فقط ونفعهم دون النظر إلى العمل، لأن حقيقة الإيمان -كما يزعمون- لم تتوقف على العمل.

٧. ومن الشبهات التى تعلق بها المرجئة أيضًا على أن العمل ليس من الإيمان قولهم:

١. إن الكفر ضد الإيمان فحيثما ثبت الكفر انتفى الإيمان، والعكس.

٢. ومنها ما جاء فى نصوص كثيرة فيها عطف العمل على الإيمان.

٨. ومن أدلة الأحناف على أن الإيمان قول واعتقاد فقط، وأن الأعمال ليست داخلة فيه وإنما هى شرائع الإسلام فإذا عمل معصية نقص من شرائع

---

(١) أخرجه مسلم ١/ ١٧٠.

الإسلام وليس من التصديق بالإسلام -من أدلتهم على ذلك قولهم.

١. إن الإيمان فى اللغة المقصود به التصديق فقط، والعمل بالجوارح لا يسمى تصديقًا فليس من الإيمان.

٢. لو كانت الأعمال من الإيمان والتوحيد لوجب الحكم بعدم الإيمان لمن ضيع شيئًا من الأعمال، وفى ذلك يقول أبو حنيفة فى كتابه الوصية: ثم العمل غير الإيمان، والإيمان غير العمل، بدليل أن كثيرًا من الأوقات يرتفع العمل من المؤمن ولا يجوز أن يقال يرتفع عنه الإيمان، فإن الحائض ترتفع عنها الصلاة، ولا يجوز أن يقال: ارتفع عنها الإيمان، إلى غير ذلك من النصوص التى استدل بها المرجئة عمومًا والأحناف بخصوصهم، والتى فهموا منها ما يدل على صحة مذهبهم، ثم نتج عن صنيعهم هذا تضارب الأدلة فى مدلولاتها -أمامهم- لعدم وقوفهم على ما تقضيه من الفهم السليم الذى هدى الله إليه أهل السنة، بل ذهبت كل طائفة من طوائف المرجئة الكثيرة إلى الاستدلال لما تزعمه بنصوص قد لا تستدل بها الطوائف الأخرى.

قال ابن أبى العز الحنفى: "فمن أدلة الأصحاب لأبى حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: أن الإيمان فى اللغة عبارة عن التصديق، قال تعالى مخبرًا عن إخوة يوسف: (وما أنت بمؤمن لنا) أى بمصدق لنا، ومنهم من ادعى إجماع أهل اللغة على ذلك، ثم هذا المعنى اللغوى -وهو التصديق بالقلب- هو الواجب على العبد حقًا لله، وهو أن يصدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله، فمن صدق الرسول فيما جاء به من عند الله فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى. والإقرار شرط إجراء أحكام الإسلام فى الدنيا، هذا على أحد القولين كما تقدم.

ولأنه ضد الكفر وهو التكذيب والجحود، وهما يكونان بالقلب فكذا ما

يضادهما، وقوله: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) يدل على أن القلب هو موضع الإيمان لا اللسان، ولأنه لو كان مركب من قول وعمل لزال كله بزوال جزئه، ولأن العمل قد عطف على الإيمان والعطف يقتضى المغايرة، قال الله تعالى: (آمنوا وعملوا الصالحات)، وغيرها فى مواضع من القرآن[١].

الرد على أدلة المرجئة:

والواقع أن تلك النصوص التى تقدمت فى استدلال المرجئة على إخراج العمل عن حقيقة الإيمان لا يسلم لهم فهمهم لها من أنها تدل على إخراج الأعمال الظاهرة عن أعمال القلب، فإن إيمان القلب وإن كان هو الأساس وعليه الاعتماد الأول ولكن لا ينفى هذا أن أثر إيمان القلب يظهر على الجوارح بل هو الحق، والنصوص كما هو الواضح منها لا تدل فقط على تصديق القلب وحده، وإنما تدل على أن الإيمان له دلالات لا تتضح إلا بالأعمال الظاهرة، والذين أحجموا عن إدخال الأعمال الظاهرة فى حقيقة الإيمان نتج عن ذلك تساهل عندهم فى الحكم حتى على الفجار الذين لا شك فى ظهور فجورهم.

فتجد منهم من لا يكفِّر بالأعمال الظاهرة حتى وإن كانت توحى بكفر صاحبها علانية، فهم لا يجرءون على تكفيره حتى يتأكدوا من مصداقية قلبه بالإيمان، لأنه لو صدق بشعائر الإسلام فلا يكفر مهما عمل إلا إذا ارتفع التصديق عن قلبه فهنا يجرءون على تكفيره.

وهذه النتيجة طبيعية بالنسبة لهم بعد أن أغفلوا ارتباط الأعمال بإيمان القلب.

والحق أن الفعل المكفِّر يكفر به صاحبه إذا كان الفعل نفسه يوحى الشرع

(١) شرح الطحاوية ص١٩.

فى الكتاب أو السنة أو إجماع علماء الأمة بكفر فاعله، إذ لو لم يكفر قلبه أولًا لما كفرت جوارحه، فمن سب الله أو رسوله أو فضل القوانين الوضعية على الشريعة الإسلامية وقدمها عليها أو غير ذلك من الأمور المعلومة من دين الإسلام بالضرورة -فإنه لا يحتاج لتكفيره إلى مساءلته هل هو مصدق بالإيمان أم لا، لأن فعله شاهد عليه بعدم التصديق، أو أن تصديقه مثل تصديق إبليس بربه وباليوم الآخر، فهل نفعه ذلك؟ فكذلك هؤلاء، إلا أن يأتى أحدهم بمخرج له فى ذلك معتقدًا صحته.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عنهم: "فهؤلاء القائلون بقول جهم والصالحى، قد صرحوا بأن سب الله ورسوله والتكلم بالتثليث وكل كلمة من كلام الكفر -ليس هو كفر فى الباطن،ولكنه دليل فى الظاهر على الكفر، ويجوز مع هذا أن يكون هذا الساب الشاتم فى الباطن عارفًا بالله موحدًا له مؤمنًا به، فإذا أقيمت عليه الحجة بنص أو إجماع أن هذا كافر باطنًا وظاهرًا قالوا: هذا يقتضى أن ذلك مستلزم للتكذيب الباطنى، وأن الإيمان يستلزم عدم ذلك"(١).

ومن استند منهم إلى إخراج الأعمال عن حقيقة الإيمان بما استنبطه مما جاء فى القرآن الكريم من إسناد الإيمان إلى القلب فقط. كقول الله تعالى: (ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب). وقوله تعالى: (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) وقوله تعالى: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) وقوله تعالى: (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تبين منزلة الإيمان وضده من القلب، من استند منهم إلى غير ذلك فقد أخطأ الفهم، فليس المراد منها إخراج العمل

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ٧/ ٥٥٧.

وإغفاله عن إيمان القلب، فإن من أنكر تلازم الأعمال الظاهرة بأعمال القلوب وقال: إن الإيمان هو المعرفة فقط فهو جهمى، وكذا إن قال: إنه التصديق فقط مثل الأشاعرة فقد تجهم، إذ لا فرق بين دعوى المعرفة فقط ودعوى التصديق فقط -وكلاهما من دون عمل، وما ذكره بعض الأشاعرة من التفريق بينهما فإنه نصرة لمذهبهم فإن كلتا الطائفتين تلتقى على إخراج الأعمال عن حقيقة الإيمان، فيبقى النزاع فى التفرقة بين المعرفة والتصديق المجرد عن العمل غير واضح، فإن المعرفة والتصديق موضعهما القلب، والعمل الظاهر دليل ذلك ولازم له.

وقد كَفَّرَ أئمة العلم من قال بقول جهم: إن الإيمان هو التصديق فقط.

فظهر أن تلك الآيات لا تدل على نفى دخول الأعمال فى حقيقة الإيمان، بل غاية ما فيها التركيز على أهمية الإيمان القلبى الذى بدوره يثمر الإيمان بالقيام بأعمال الشرع الظاهرة، أو أنها أسندت إلى القلوب باعتبار أنها هى المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله.

وأما ما استدل به المرجئة من النصوص التى تدل على أن من اجتنب الشرك دخل الجنة، سواء كانت تلك النصوص من القرآن الكريم أو من السنة النبوية فإن الجواب على ذلك:

"إن هذه النصوص تفيد أن من لم يقع فى الشرك مع التوبة والقيام بأمر الله والانتهاء عن نهيه - فإن الله يغفر له الذنوب التى هى دون الشرك، فإذا مات على بعض الذنوب يرجى له المغفرة ابتداء، أو يعاقبه الله بذنبه ثم يدخله الجنة، كما هو مذهب السلف فى أهل الذنوب حسب ما تفيده النصوص من الكتاب والسنة.

كما أنه لا يقع من شخص عرف التوحيد وأخلص لربه أنه لا يأتى بالأعمال الأخرى التى أوجبها الإسلام، بحيث يكتفى بابتعاده عن الشرك ثم يركن إلى ذلك لدخوله الجنة، فاتضح أن هذه الآيات لا تدل على إغفال العمل والاقتصار على المعرفة أو التصديق بالقلب كما يرى المرجئة، بل هى واردة فى حكم من مات تائبًا أو لم تكن عليه معاصٍ، أو كانت عليه معاصٍ ومات على التوحيد، بحيث كان آخر كلامه فى الدنيا: لا إله إلا الله".

✸ وما فهموه من قول الرسول ﷺ: (التقوى هاهنا) بأن الإيمان والكفر محلهما القلب، ولا عبرة بعمل الجوارح -فهو فهم غير سديد من جهة نفى دخول الأعمال الظاهرة إذا لم تثمر القيام بأعمال الإيمان الظاهرة فهى ليست تقوى صحيحة. وهل كان الرسول ﷺ يريد أن الإيمان هو مجرد التصديق والإقرار بالقلب فقط دون أن يرى أثر ذلك فى الأعمال كلها.

وقد جرَّهم إلى هذا الفهم أمر لم يتقبلوه وهو أن الرسول ﷺ مرة يعبر عن الإيمان بأعمال القلب ومرة بأعمال الجوارح ومرة بكليهما، فمن وقف على جانب دون آخر من هذه المراتب فقد قصر ولم يلتزم الحق واختلط الأمر عليه.

✸ وأما حديث الجارية الذى استدل به المرجئة على مذهبهم أن ترك العمل لا ينافى الإيمان، فإن المراد من شهادة الرسول ﷺ لها بالإيمان -أن الإيمان الظاهر- الذى تجرى بموجبه الأحكام الدنيوية لا الإيمان الحقيقى الكامل.

فإن الرسول ﷺ كان يعلم أن إيمان هذه الجارية ليس مثل إيمان كبار الصحابة كأبى بكر وعمر وغيرهما من الصحابة السابقين، وإنما أراد الإيمان الظاهر الذى يميز المسلم عن الكافر ابتداءً فى المعاملات الدنيوية، ولو أن

الرسول ﷺ اكتفى بسؤالها عن الإيمان فقط بأن قال لها: هل أنت مؤمنة وسكت لكان فيه نظر للمرجئة، لكن الرسول ﷺ سالها عن أشياء أخرى فقد قال لها: (أتشهدين أن لا إله إلا الله. قالت: نعم. قال: أتشهدين أن محمد رسول الله؟ قالت: نعم. قال: أتوقنين بالبعث بعد الموت؟ قالت: نعم: فقال رسول الله ﷺ: أعتقها)[١].

وهذه كلها من أعمال الإيمان الباطنة والظاهرة أيضًا. قال شيخ الإسلام عن تمسك المرجئة بهذا الحديث: "وهذا لا حجة فيه، لأن الإيمان الظاهر الذى تجرى عليه الأحكام فى الدنيا لا يستلزم الإيمان فى الباطن الذى يكون صاحبه من أهل السعادة فى الآخرة"[٢] فظهر أن هذه الأسئلة يريد الرسول ﷺ من ورائها معرفة منزلة هذه الجارية من أحكام الإسلام، وهل تستحق أن يطلق عليها اسم الإيمان أم لا. وليس المقصود انها بلغت فى إيمانها إلى حد إيمانه أو إيمان كبار أصحابه.

وعلى فرض أن الجارية قالت للرسول ﷺ أنا مؤمنة بكل شرائع الإسلام بمعنى مصدقة بها، ولكنى لا أرى فرضية الصلاة والزكاة والصوم وغير ذلك من شرائع الإسلام. أى لا أرى لزوم عملها بالجوارح على أنها حقيقة الإيمان، بل تطلق عليه مجازًا، فهل كان صدر الرسول ﷺ سينشرح منها ويأمر مولاها بعتقها ويشهد لها بالإيمان[٣].

✸ وأما حديث شفاعة المصطفى ﷺ فى أولئك فالجواب عنه: أنه لا بد من

---

(١) الموطأ ص٦٦٦.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٧/ ٢٠٩ - ٤١٦.

(٣) انظر لمزيد التفصيل: ظاهرة الإرجاء فى الفكر الإسلامى ص ٥١٩، ٥٢٦.

النظر إلى الأحاديث الكثيرة التى صرحت بأنهم من أهل الإيمان وعليهم أثر السجود الذى هو عبارة عن عمل الصلاة وأن الجهنميين (أهل النار) يُعرفون بذلك.

وفى بعض الروايات أن المؤمنين يشفعون فيمن عرفوه بأنه من أهل الإيمان والعمل فى الدنيا، وهذا لا يمنع أن فيه جماعة من الناس لهم أعمال لا يعلم بها إلا الله أخرجهم الله بسببها من النار، حيث ظهرت عليهم علامات إيمانهم وأعمالهم التى قدموها.

وقوله: (لم يعملوا خير قط) لا ينافى العمل مطلقًا بل قد يكون لهم عمل وإن كان قليلًا إلى جانب إيمانهم وحسناتهم الأخرى فينفعهم ذلك، وهذا مثل أن تقول لشخص: أنت ما عملت شيئًا بعد إتمامه للعمل الذى هو فيه، فإنك لا تنفى وجود عمل ما، ولكن حيث كان العمل غير كامل ولا دقيق ولا يعتبر به - ولو من وجهة نظرك- اعتبرته فى عداد من لم يعمل شيئًا وهو أسلوب من أساليب العرب فى كلامهم.

ثم إن هؤلاء معهم إيمان وعمل، ولولا ذلك لكانوا كسائر الكفار والمشركين يخلدون فى النار، فلا مزية لخروجهم منها إلا ذلك، وربما أن الله أخرجهم أو أدخلهم الجنة لعزمهم على العمل ومباشرتهم الدخول فيه كما حصل لبعضهم حين أسلم صادقًا مخلصًا ثم دخل المعركة فقتل فشهد الرسول ﷺ له بالجنة، مع أنه لم يظهر منه إلا حسن قبوله للإسلام ودخوله المعركة، ولكن الله اطلع على إيمانه القوى وأَوَّلُهُ بَذْلُهُ نَفْسَهُ للقتل مع المسلمين فى سبيل نصرة الإسلام، ولقصر وقته عن أداء الواجبات الأخرى فغفر الله له.

وكقصة الرجل الذى قتل مائة نفس ثم تداركته رحمة الله فدخل الجنة،

ومثله ما وقع للرجل الذى أوصى أن يحرق بعد موته فغفر الله له، فمثل هؤلاء فى عزمهم وقوة إيمانهم كمثل الذى عمل، وفرق بين من له رغبة وعزم على العمل وبين من تركه اتكالًا وتكاسلًا.

✸ وأما احتجاجهم بقولهم: إن الكفر ضد الإيمان فحيثما ثبت الكفر انتفى الإيمان والعكس.

فإنه يقال لهم: إطلاق القول بأن كل كفر هو ضد الإيمان ويخرج من الملة مطلقًا ليس صحيحًا على إطلاقه هكذا إلا عند الخوارج فى حكمهم على أصحاب المعاصى بالكفر المخرج من الملة، فإن الإيمان درجات، وهو اسم مشترك يقع على معان كثيرة، منها ما يكون الكفر ضدًا له، كأن يعتقد الكفر ويعمل به ويدعو إليه فكفره اعتقادى وهو ضد الإيمان ولا نزاع فى هذا.

ومنها ما يكون الفسق ضدًا له لا الكفر، كترك بعض الأعمال المفروضة مع الاعتراف بوجوبها. ومنها ما يكون الترك ضدًا له لا الكفر ولا الفسق، كترك بعض الأعمال التى هى تطوع إذ لا يصح تسمية التارك لها كافرًا ولا فاسقًا وإنما يسمى تاركًا ومفرطًا فى حق نفسه لعدم قيامه بتلك الأعمال التى تزيد فى إيمانه(١).

وقد يطلق السلف التسمية بالكفر على بعض من يعمل أعمالًا جاء الشرع بإطلاق الكفر عليها ولكنهم يسمونه كفرًا عمليًا لا اعتقاديًا حتى تقام الحجة على صاحبه، كالذنوب التى وردت النصوص بإطلاق الكفر على أهلها، كالزنا والسرقة وشرب الخمر فى حق من لم يجحد النصوص الواردة فى تحريمها قبل إقامة الحجة عليه ببيانها، فإن السلف يطلقون عليه الكفر تمشيًا مع النصوص،

---

(١) انظر: الفصل لابن حزم ٣/ ٢١٢.

ثم يفصلون بعد ذلك فإذا استحلها ولم يعترف بوجوبها وردَّ النصوص فهو كافر كفرًا اعتقاديًا ظاهرًا وباطنًا.

وأما ما استدلوا به من ورود نصوص كثيرة فيها عطف العمل على الإيمان، وأن المعطوف والمعطوف عليه بينهما مغايرة وفرق وإلا لما عطف عليه، فالواقع أن النصوص كما يتضح منها، أحيانًا يرد فيها ذكر الإيمان فى حالة العطف بمعنى الدين وذلك فى حال إطلاق الإيمان وحده، فإنه يدخل فيه الأعمال، فإذا أطلق لفظ الإيمان فقط تبادر إلى الذهن أن المقصود بذلك الإيمان القلبى وعمل الجوارح والنطق باللسان ولا يفهم منه التصديق فقط أو الإقرار فقط إلا عند المرجئة، حيث تكلفوا دعوى وقوع ذلك.

وأما فى حال ذكر الإيمان والعمل معًا فلا مغايرة بينهما فى الحكم الذى ذكر لهما، بل يكون ذلك من جنس عطف الخاص على العام مثل قوله تعالى: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)[1]. فإن الصلاة الوسطى من ضمن بقية الصلوات وإنما أفردت بالذكر الخاص بعد الذكر العام لمزيد العناية والاهتمام بها، وأحيانًا إذا ذكر العمل الصالح والإيمان معًا يكون المقصود بذلك إظهار وتوكيد حقيقة الإيمان بالعمل الصالح، إذ لا يكون العمل صالحًا مقبولًا إلا بعد إيمان صاحبه، فذكر الإيمان والعمل معًا من باب التوكيد أو عطف الخاص على العام. والحاصل أن الإيمان المطلق يستلزم الأعمال كما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية[2].

وأما ما استدل به الأحناف من أن الإيمان فى اللغة المقصود به التصديق،

---

(١) البقرة: ٢٣٨.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٧/ ١٦٠- ١٦١.

والعمل لا يسمى تصديقًا فيقال لهم: إنه لم يسم التصديق بالقلب دون التصديق باللسان والعمل إيمانًا فى اللغة، ولم يعرف عن العرب أنهم يحكمون للشخص بالتصديق والإيمان بشئ صدقه بقلبه ثم أعلن التكذيب به بلسانه، كذلك لم يعرف فى اللغة أن التصديق باللسان فقط دون التصديق بالقلب يعتبر إيمانًا

إذًا فلا يسمى مؤمنًا بالشئ إلا إذا توافق التصديق بالقلب واللسان معًا ونتج عنهما حصول أثر ذلك وهو العمل.

ولشيخ الإسلام ردود مطولة فى إبطال تعلق المرجئة بقوله تعالى: (وما أنت بمؤمن لنا) أى بمصدق -على أن الإيمان هو التصديق، والعمل خارج عن التصديق، وفى أن الإيمان هو التصديق فى اللغة وفى الشرع أيضًا[1]، ثم إن إطلاق الإيمان على الأعمال أو الأعمال على الإيمان أمر مقرر عند السلف وثابت لا يمارون فى صحته لورود ذلك فى نصوص كثيرة.

فالجهاد والصوم والصلاة وغيرها من الإيمان، كما أنهم يسمون الإيمان عملًا لما جاء فى الحديث أن النبى ﷺ سئل: أى العمل أفضل؟ فقال: (إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد فى سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور)[2].

وقال الأوزاعى: (لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنيةٍ موافقةٍ للسنة. وكان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل، العمل من الإيمان والإيمان من

---

(١) انظر: ٧/ ٢٨٩- ٢٩٧ من مجموع الفتاوى

(٢) أخرجه البخارى ١/ ٧٧.

العمل[١].

فالصلاة مثلًا من أعمال الجوارح، وقد قال تعالى: (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم إلى بيت المقدس، لا كما ذهب إليه المرجئة من أن المعنى أي تصديقكم بالنبي ﷺ والدين.

قال شيخ الإسلام: وحقيقة الأمر أن اسم الإيمان يستعمل تارة هكذا وتارة هكذا.. فإذا قرن اسم الإيمان بالإسلام أو العمل كان دالًا على الباطن فقط.

... وإن أفرد اسم الإيمان فقد يتناول الباطن والظاهر، وبهذا تتألف النصوص.

وأما إذا قرن الإسلام بالإيمان كما في قوله تعالى: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا). وقوله تعالى: (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين - فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) فقد يراد بالإسلام الأعمال الظاهرة[٢]، أي والإيمان الأعمال الباطنة، وهذا هو مذهب السلف أن الإيمان أخص من الإسلام.

وأما استدلالهم بقولهم: لو كان العمل يسمى إيمانًا لكان من ضيع منه شيئًا فقدْ فَقَدَ الإيمان كله، فلا يكون مؤمنًا أو لا يقال له مؤمن.

يقال لهم: عن هذا الاستدلال تحكم وخروج عن ما يقتضيه الحق، فلا يجوز أن نسمى الشخص مؤمنًا ولا كافرًا إلا بنص واضح عن الله أو عن رسوله، فمن سماه الله مؤمنًا نسميه مؤمنًا، ومن سماه كافرًا نسميه كافرًا، بل نقول: إن من ضيع شيئًا من ما أمر بالإيمان به فقد ضيع بعض الإيمان ولم يضيع الكل،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٧/ ٢٩٦.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى ٧/ ٥٧٥، ٥٧٦ بتصرف

فلا يخرج عن الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه بالكلية[١].

وأما بالنسبة لارتفاع العمل عن الحائض وعدم ارتفاع الإيمان عنها، فإن هذا الاستدلال غير صواب، ذلك أنها فى حالة ارتفاع العمل عنها لم يكن من قبلها، وإنما ذلك من قبل خالقها، وهى فى تلك الحال فى حكم العامل، ولهذا لا يتوجه إليها الذم بترك الصلاة والصوم فى تلك الحال وهى لا زالت على الإيمان والعمل لم تخرج بتركهما فى تلك الحال عن الإيمان ولا عن مواصلة العمل، فإن تلك الفترة الطارئة لا تجعلها فى عداد من خرج عن الإيمان وضيع العمل لكى يصدق عليها ترك الإيمان بسبب ترك العمل كما استدل هؤلاء.

وأما ما ذهب إليه المرجئة من أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، كما أن التصديق لا يزيد ولا ينقص، فهو قول من أبطل الأقوال وهو قياس على أمر غير مسلم، فالتصديق لا يصح لهم ما زعموه فيه من أنه لا يتفاضل الناس فيه، بل يتفاضلون تفاضلًا ظاهرًا فى التصديق بقضايا تمر بالناس يوميًا فى حياتهم، فضلًا عن التصديق بقضايا المغيبات من أخبار اليوم الآخر والجنة والنار وأسماء الله وصفاته، فمن زعم أن تصديق أقل الناس إيمانًا بالله مثل تصديق أكمل الناس إيمانًا بتلك الأمور المغيبة، فلا شك فى بطلان قوله بما لا يحتاج إلى سرد الأدلة عليه.

وأما زيادة الإيمان ونقصانه فيكفى فى ثبوته إخبار الله ﷻ بذلك فى كتابه الكريم وإخبار نبيه محمد ﷺ فى سنته الشريفة بما لا يخفى على طلاب العلم معرفته، فإن أدلته واضحة تمام الوضوح، ومعتقد السلف فيه من أوضح الأمور، وهو الاعتقاد الجازم أن الإيمان يزيد وينقص فى قلب كل شخص.

(١) انظر: الفصل لابن حزم ٣/ ١٩١.

وكل إنسان يلمس هذا من نفسه ولا ينكره إلا مكابر، على أنه بعد ثبوت ذلك فى كتاب الله وفى سنة نبيه وفى إجماع علماء السلف -بعد ثبوت هذا كله لا يحق لمسلم أن يتشكك فى ذلك، بل يجب الإيمان والجزم به.

وينبغى التنبيه إلى أمر هام، وهو وجود عدة أحاديث كلها موضوعة يذكر فيها أن الإيمان فى القلب فقط، وأنه لا يزيد ولا ينقص، ونضيف هنا ما ذكره العلماء من أنه كلما عثرت على حديث من هذا النوع فهو مكذوب على النبى ﷺ وفى هذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وكل حديث فيه أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فكذب مختلق)[١] ومن تلك الأحاديث:

حديث: (من قال: الإيمان يزيد وينقص فقد خرج من أمر الله، ومن قال: أنا مؤمن إن شاء الله، فليس له فى الإسلام نصيب)، قال الشوكانى: رواه محمد بم تميم، وهو واضعه[٢].

ومنها الحديث المروى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعًا: (من زعم أن الإيمان يزيد وينقص فزيادته نفاق ونقصانه كفر، فإن تابوا وإلا فاضربوا أعناقهم بالسيف أولئك أعداء الرحمن فارقوا دين الله تعالى واستحلوا الكفر وخاصموا الله، طهر الله الأرض منهم ألا فلا صلاة لهم ألا فلا زكاة لهم ألا فلا صوم لهم ألا فلا حج لهم ألا فلا دين لهم، هم براء من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ برئ منهم) قال السيوطى: موضوع، آفته الطالقانى كذاب خبيث من المرجئة كان

---

(١) المنار المنيف ص١١٩.

(٢) الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص٤٥٣.

يضع الحديث لمذهبه[١].

ومثله أيضًا الحديث المروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن وفد ثقيف جاءوا إلى النبي صلي الله عليه و سلم فسألوه عن الإيمان هل يزيد و ينقص فقال (لا زيادته كفر ونقصانه شرك) وهو حديث موضوع وضعه أبو مطيع الحكم بن عبد الله البلخى وهو من رؤساء المرجئة.

قال السيوطى نقلًا عن الحاكم: (إسناده فيه ظلمات، والحديث باطل والذى تولى كبره أبو مطيع)[٢].

وكأن الذين وضعوا أمثال هذه الأحاديث كانوا يجهلون أو يتجاهلون أن الرسول ﷺ كان يقرأ قول الله تعالى: (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون)، وآيات أخرى كثيرة تثبت زيادة الإيمان، فكيف ينفى الرسول ﷺ ما أثبته الله فى القرآن. لأن ما قبل الزيادة -كما هو معروف- قبل النقصان، وقول المرجئة بعدم زيادته ونقصانه إنما حملهم على ذلك زعمهم أن التصديق شئ واحد، وبالتالى فهو لا يختلف حسب مفهومهم ولا يتفاضل الناس فيه.

مذهب أهل السنة فى تعريف الإيمان

مذهب أهل السنة المتمسكين بكتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ السائرين على وفق ما كان عليه المصطفى ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم فى أسماء الله وصفاته، وفى مجانبة البدع وأهلها - مذهبهم فى الإيمان أنه قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى.

---

(١) اللآلئ المصنوعة ١/ ٤٠.

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٨. وأنظر كلام أبن أبى العز على هذا الحديث فى شرح الطحاوية ص ٣٢٥.

هذا هو منهجهم واعتقادهم فى الإيمان. أن العمل داخل فى حقيقة الإيمان وأنه لا إيمان بدون عمل، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية حسب ما حل بالقلب من ذلك.

وهذا هو الواضح من النصوص الكثيرة فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية، إلا أنه قد تختلف تعبيرات أهل السنة عن حقيقة الإيمان فيعرفونه بصيغ مختلفة[1]، ولكن القصد واحد، وهو إدخال العمل فى حقيقية الإيمان كما يدل عليه كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ.

ومنه قوله تعالى فى بيان جملة من صفات المتقين أهل الإيمان: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حُبه ذوى القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدُوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أُولئك الذين صدقوا وأُولئك هم المتقون)[2].

وقال تعالى مبينًا الخصال التى يكون بها الشخص مؤمنًا إذا طبقها على نفسه وعمل بما دلت عليه: (قد أفلح المؤمنون (١) الذين هم فى صلاتهم خاشعون (٢) والذين هم عن اللغو معرضون (٣) والذين هم للزكاة فاعلون (٤) والذين هم لفروجهم حافظون (٥) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٦) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٧) والذين هم لأماناتهم

---

(١) مثل قولهم: هو عمل وقول ونية، أو هو قول وعمل واتباع السنة، أو هو قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، أو هو إقرار وعمل، أو تصديق وعمل. انظر: مجموع الفتاوى ٧/ ١٧٠.

(٢) البقرة: ١٧٧.

وعهدهم راعون (٨) والذين هم على صلواتهم يحافظون (٩) أولئك هم الوارثون (١٠) الذين يرثُون الفردوس هم فيها خالدون). وقال تعالى: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله. أولئك هم الصادقون).

وهذه الآيات واضحة الدلالة على مذهب أهل السنة فى حقيقة الإيمان المكون من القول والعمل والاعتقاد. وهى حجة على من فرق فى الإيمان بين الاعتقاد والعمل، أو غالط فى بعض تعريفات السلف للإيمان.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى بيان أقوال السلف حقيقة الإيمان: "ومن هذا الباب أقوال السلف وأئمة السنة فى تفسير الإيمان، فتارة يقولون: هو قول وعمل، وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية، وتارة يقولون: قول وعمل ونية واتباع السنة، وتارة يقولون: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح. وكل هذا صحيح فإذا قالوا: قول وعمل، فإنه يدخل فى القول قول القلب واللسان جميعًا، وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام"[(١)].

واستدل أهل السنة على ما يذهبون إليه من دخول العمل فى مسمى الإيمان بأحاديث كثيرة منها:

قوله ﷺ (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[(٢)].

وقوله ﷺ لوفد عبد القيس: (آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع، آمركم بالإيمان، أتدرون ما الإيمان؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله،

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١٧٠.

(٢) أخرجه البخارى ١/ ٥١، ومسلم واللفظ له ١/ ٢١٠.

وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تعطوا الخمس من المغنم)[١].

وقوله ﷺ (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخيارهم خيارهم لنسائهم)[٢] وأحاديث أخرى كثيرة جعل فيها العمل من الإيمان.

وعلى هذا مضى السلف الصالح من الصحابة ومَنْ بعدهم. وعليه أيضًا مضى الإسلام، ومنهم الأئمة مالك والشافعى وأحمد، حيث فسروا الإيمان بأنه التصديق والقول والعمل، وأنه يقبل الزيادة ويقبل النقص، وأن أهله يتفاوتون فيه.

ومما ينبغى فهمه أن السلف حينما يعرِّفون الإيمان بأنه قول وعمل، لا يقصدون أن الإيمان قول باللسان وعمل بالجوارح دون النظر إلى إيمان القلب وتصديقه وعمله، فإن السلف ما كانوا يريدون ألفاظ اللسان وحركات الجوارح مجردة عن عمل القلب وتصديقه الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله وجميع شرائع الإسلام.

فإن السلف يعتبرون إيمان القلب أمرًا أساسيًا فى الإيمان وصلاح العمل، وإنما لم يصرحوا به لظهوره، إذ إنهم لم يتصوروا أن تلك الثلاثة أمور فى التعريف بالإيمان منفصلة عن بعضها. وحينما يعرف السلف الإيمان بأنه الإقرار والتصديق أو تصديق وعمل، لا يريدون من التصديق مجرد التصديق بالخبر فقط دون الالتفات إلى ثمرة التصديق وهو الإذعان والامتثال للأمر، الذى يتبعه العمل حتمًا بل يريدون التصديق الذى يتبعه العمل كأثر للتصديق وإلا فلا فائدة من التصديق إن لم يثمر العمل.

---

(١) أخرجه البخارى ١/ ١٢٩ فى مواضع من صحيحه، ومسلم ١/ ١٥٤.

(٢) الإمام أحمد فى المسند ٢/ ٢٥٠.

وإن الإنسان ليعجب حقًا ممن تجاهل منزلة العمل من الإيمان وهو يقرأ كتاب الله وسنة نبيه، ويسمع الأحاديث التى تجعل الإيمان والعمل قرينين لا يغنى أحدهما عن الآخر، فقد قرن الله تعالى العمل بالإيمان فى مواضع عديدة من كتابه الكريم، وفى سنة الرسول ﷺ كذلك أحاديث كثيرة.

فمن فرق بين الإيمان والعمل بالجوارح فلا شك فى مخالفته الصريحة للقرآن والسنة، وأنه ينبغى عليه التوبة والرجوع إلى هدى القرآن الكريم، وأن يترك تلك الفلسفات التى أنتجت هذه الخلافات العقيمة فى قضية الإيمان التى كانت فى تمام الوضوح عند الصحابة ومن بعدهم، حتى نبغت هذه الفئات من الناس ليشرحوا الإيمان بأغمض مما يتصور العقل كما هى عادة أولئك.

فإنهم يشرحون المسألة الواضحة حتى يجعلوها ألغازًا وطلاسم لا يعرف منها أحيانًا إلا الحروف التى كتبت بها فتجد شروحات وكلامًا كثيرًا لا فائدة من ورائه، وصدق ابن أبى العز فى قوله عن كثرة كلام المتأخرين وقلة كلام المتقدمين قال: (كلما ابتدع شخص بدعة اتسعوا فى جوابها، فلذلك صار كلام المتأخرين كثيرًا قليل البركة، بخلاف كلام المتقدمين فإنه قليلٌ كثيرُ البركة)[١] فهل يوجد أوضح من قول الرسول ﷺ فى حقيقة الإيمان حين قال لجبريل فى سؤاله عن الإيمان: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[٢]؟

وقوله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص١٣.

(٢) أخرجه البخارى ١/ ١١٤، ومسلم ١/ ١٢٦.

إماطة الأذى عن الطريق)[1].

والأحاديث كثيرة فى هذا المعنى الذى يوضح حقيقة الإيمان فى أنه مركب من أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فمن زعم أنه مؤمن ومصدق بقلبه ولكن لا يؤمن بعمل تلك الأمور الظاهرة للإيمان فقد رد الحديث مهما ادعى من تعليلات.

فمن أقر بالإسلام ثم امتنع عن الصلاة والزكاة والحج والصيام وغير ذلك من شعائر الإسلام وأصر على الامتناع، فإن المرجئة لا يتجاسرون على الحكم عليه بالكفر لجواز أن يكون قلبه مطمئنا بالإيمان، وفاتهم أن الذى يطمئن قلبه بالإيمان تكون شعائر الإسلام أحب إليه من كل فعل، وأن قرة عينه تكون دائمًا فى القيام بتلك الأعمال والاستزادة منها متقربًا بعملها إلى ربه.

وهذا يدل على بعد فكر المرجئة عن الحق، فلو أن شخصًا صدق بما جاء به الرسول ﷺ لكنه أبى أن يعمل بجوارحه ما أمر به كالصلاة مثلًا، وأصر على إبائه حتى قدم لضرب عنقه وهو مصر على إبائه، فإنهم يزعمون بأنه قد يكون مؤمنًا فى الباطن، ونحن لا ندرى حتى وإن كان ظاهره الكفر الصريح.

وهذا افتراض كاذب لا وجود له إلا فى الذهن، إذ لو كان مصدقًا بقلبه لما فضل أن تضرب عنقه على الامتثال لأمر ربه، وهو يعلم أن الأحكام فى الدنيا إنما تجرى على حسب ما يظهر من أفعال الإنسان، ثم رضى أن يموت كافرًا فى نظر المسلمين وراضيًا بالأحكام التى سيعامله بها المسلمون بعد موته من عدم

---

(١) أخرجه البخارى ١/ ٥١ بلفظ: "بضع وستون" ومسلم ١/ ٢٠٢ بلفظ: "بضع وسبعون". وأخرجه على الشك: "بضع وسبعون أو بضع وستون".

الصلاة عليه، وعدم دفنه فى مقابر المسلمين، وأنه لا يورث إلى غير ذلك[١].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه، حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه، ولم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان، وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمنًا كامل الإيمان بقلبه وهو مع هذا يسب الله ورسوله، ويعادى الله ورسوله، ويعادى أولياء الله ويوالى أعداء الله، ويقتل الأنبياء، ويهدم المساجد، ويهين المصاحف، ويكرم الكفار غاية الكرامة، ويهين المؤمنين غاية الإهانة.

قالوا: وهذه كلها معاصى لا ينافى الإيمان الذى فى قلبه، بل يفعل هذا وهو فى الباطن عند الله مؤمن، قالوا: وإنما يثبت له فى الدنيا أحكام الكفار، لأن هذه الأقوال أمارة على الكفر ليحكم بالظاهر. كما يحكم بالإقرار والشهود وإن كان فى الباطن قد يكون بخلاف ما أقر به وبخلاف الشهود[٢].

(باب ذكر الأشاعرة أو السبعية[٣])

١ - ظهور الأشاعرة:

ظهرت الأشعرية بعد أن تنفس الناس الصعداء من سيطرة المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى، وهى فى الأصل نسبة إلى أبى الحسن الأشعرى، ظهر بالبصرة

---

(١) انظر: كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) انظر: مجموع الفتوى ٧/ ١٨٨.

(٣) من كتاب: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها تأليف د. غالب بن على عواجى.

- بعض العلماء يطلق عليهم السبعية بسبب أنهم يثبتون لله تعالى سبع صفات فقط ويؤولون ما عداها.

وكان أول أمره على مذهب المعتزلة ثم تركه واستقل عنهم، ولقد أصبح الانتساب إلى الأشعرى هو ما عليه أكثر الناس فى البلدان الإسلامية.

بعضهم على معرفة بمذهبه الصحيح وآرائه التى استقر عليها أخيرًا، وبعضهم على جهل تام بذلك وبعضهم يتجاهل ويصر على مخالفته مع انتسابه إليه.

وانتساب الأشاعرة إليه إنما هو بعد تركه للاعتزال وانتسابه إلى ابن كلاب، وهى المرحلة الثانية من المراحل التى مر بها الأشعرى، ولم يدم فيها إذ رجع إلى مذهب السلف، ولكن بعض الأشاعرة ينتسبون إليه ولكن فى مرحلته الثانية، ومن انتسب إليه فى مرحلته الثالثة فقد وافق السلف، ونذكر فيما يلى نبذة موجزة عنه.

٢. أبو الحسن الأشعرى:

هو على بن إسماعيل الأشعرى ينتسب إلى أبى موسى الأشعرى، وهو أحد علماء القرن الثالث، تنتسب إليه الأشعرية، ولد فى البصرة سنة ٢٥٠هـ وقيل: سنة ٢٧٠هـ وتوفى سنة ٣٣٠هـ على أحد الأقوال.

تعمق أولًا فى مذهب المعتزلة وتتلمذ على أبى على الجبائى محمد بن عبد الوهاب أحد مشاهير المعتزلة، إلا أن الله أراد له الخروج عن مذهبهم والدخول فى مذهب أهل السنة والجماعة، وتوج ذلك بما سجله فى كتابه "الإبانة عن أصول الديانة".

ومما يذكر عن سيرته أنه كان دائمًا يتململ من اختلاف الفرق فى وقته وينظر فيها بعقل ثاقب، فهداه الله إلى الحق واقتنع بما عليه السلف من اعتقاد مطابق لما جاء فى القرآن والسنة النبوية فكان له موقف حاسم فى ذلك.

ومما يدل على ذكائه وطلبه للحق وإفحامه لخصمه فى المحاجة أنه سأل أستاذه[١] أبا على الجبائى عن ثلاثة أخوة كان أحدهم مؤمنًا برًا تقيًا. والثانى كان كافرًا فاسقًا شقيًا، والثالث كان صغيرًا، فماتوا فكيف حالهم؟ فقال الجبائى: أما الزاهد ففى الدرجات، وأما الكافر ففى الدركات وأما الصغير فمن أهل السلامة. فقال الأشعرى: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له؟ فقال الجبائى: لا لأنه يقال له: أخوك إنما وصل إلى هذه الدرجات بطاعاته الكثيرة وليس لك تلك الطاعات، فقال الأشعرى: فإن قال: ذلك التقصير ليس منى فإنك ما أبقيتنى ولا أقدرتنى على الطاعة، فقال الجبائى: يقول البارئ جل وعلا: كنت أعلم لو بقيت لعصيت وصرت مستحقًا للعذاب الأليم، فراعيت مصلحتك، فقال الأشعرى: فلو قال الأخ الأكبر يا إله العالمين كما علمت حاله فقد علمت حالى فلم راعيت مصلحته دونى؟ فانقطع الجبائى.

لقد كان الأشعرى إمامًا فذًا كثير التأليف واسع الاطلاع محببًا إلى الناس، ولهذا تجد أن كل طائفة تدعى نسبته إليها "فالمالكى يدعى أنه مالكى، والشافعى يزعم أنه شافعى، والحنفى كذلك"[٢].

٣. عقيدة الأشعرى:

علمنا فيما مضى أن الأشعرى كان على مذهب المعتزلة ومن العارفين به، وأنه أقام عليه مدة أربعين سنة، ومما يذكره العلماء عن سيرته ورجوعه عن الاعتزال ومذهب ابن كلاب إلى المذهب الحق، أنه مكث فى بيته خمسة عشر

---

(١) على حسب مذهب المعتزلة: أنه يجب على الله تعالى فعل الأصلح، وقال له الأشعرى: بل يفعل ما يشاء.

(٢) انظر: كتاب "أبو الحسن الأشعرى" ص٨.

يومًا لا يخرج إلى الناس وفى نهايتها خرج فى يوم جمعة، وبعد أن انتهى من الصلاة صعد المنبر وقال مخاطبًا من أمامه من جموع الناس:

"أيها الناس، من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن وأن الله تعالى لا يُرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع متصد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم.

معاشر الناس إنما تغيبت عنكم هذه المدة، لأنى نظرت فتكافأت عندى الأدلة ولم يترجح عندى شئ على شئ فاستهديت الله تعالى فهدانى إلى اعتقاد ما أودعته كتبى هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبى هذا"، وانخلع من ثوب كان عليه ودفع للناس ما كتبه على طريقة الجماعة من الفقهاء والمحدثين[1].

وحينما انضم إلى أهل السنة والجماعة، فرحوا به فرحًا شديدًا، واحترموه وعرفوا قدره وإخلاصه وتوجهه إلى الحق بيقين ثابت، وصارت أقواله حجة وآراؤه متبعة، بينما ثار عليه أهل الاعتزال وذموه بأنواع الذم غيظًا عليه، لوقوفه فى وجوههم وإبطال آرائهم المخالفة للحق وتركه لمذهبهم، خصوصًا وأنه كان من المتعمقين فى مذهبهم والعارفين بعواره.

ومما ينبغى ملاحظته أن ينتبه طالب العلم إلى تمويه المغرضين ممن يزعم أن الأشعرى لم يتب عن الاعتزال، وأن الإبانة مدسوسة عليه، وهو كذب وليس له ما يسنده، بل الصحيح الذى عليه عامة علماء السلف أن الأشعرى رجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة وتاب من كل ما يخالفه، كما صرح بذلك فى كتبه

---

(١) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية ١/ ١٨١.

كالإبانة وغيرها من مؤلفاته النافعة[١].

وعلى هذا فإن الأشعرى مرّ بثلاثة أحوال فى عقيدته:

١. الحال الأول: حال الاعتزال.

٢. الحال الثانى: إثبات الصفات العقلية السبع: وهى الحياة- والعلم- والقدرة- والإرادة- والسمع- والبصر- والكلام. وتأويل الصفات الخبرية كالوجه واليدين والقدم والساق ونحو ذلك.

٣. الحال الثالث: إثبات ذلك كله من غير تكييف ولا تشبيه جريًا على منوال السلف كما فى الإبانة التى نوه بها أحد معاصرى الأشعرى فقال يمدحه:

لو لم يصنف عمره	غير الإبانة واللمع
لكفى فكيف وقد	تفنن فى العلوم بما جمع
مجموعة تربى على المئين	مما قد صنع
لم يأل فى تصنيفها	أخذًا بأحسن ما استمع
فهدى بها المسترشد	ين ومن تصفحها انتفع
تتلى معانى كتبه	فوق المنابر فى الجمع
ويخاف من إفحامه	أهل الكنائس والبيع
فهو الشجا فى حلق من	ترك المحجة وابتدع[٢]

---

(١) فى رسالة للشيخ حماد الأنصارى تسمى "أبو الحسن الأشعرى" نقول كثيرة عن علماء الإسلام فى إثباتهم الإبانة لأبى الحسن، انظرها إن شئت، وهى خلاصة عقيدته، أما اللمع فهى تمثل المرحلة الثانية: عقيدته الكلابية.

(٢) تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى أبى الحسن الأشعرى: ص١٥٢ انظر: "أبو الحسن الأشعرى": ص٢١٤.

وفى كتابه الإبانة توضيح تام لعقيدته السلفية ومتابعته لإمام أهل السنة أحمد بن حنبل، فارجع أيها القارئ الكريم إلى هذا الكتاب واقرأه، وخصوصًا الباب الذى عنوانه "باب فى إبانة قول أهل الحق والسنة" تجد فيه العقيدة السلفية واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار.

وأرى أنه من باب تيسير الاطلاع على ما فى هذا الباب أن أنقله بطوله لعظيم نفعه وعموم فائدته، فى كلام عذب وعبارات جميلة لا يمل القارئ من قراءته، فإليك مضمون ما فيه بحروفه، أسأل الله النفع للجميع.

عقيدته كما بينها فى كتابه "الإبانة"

قال رحمه الله تعالى: [باب فى إبانة قول أهل الحق والسنة]

فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذى به تقولون وديانتكم التى بها تدينون. قيل له: قولنا الذى نقول به وديانتنا التى ندين بها: التمسك بكتاب ربنا ﷻ وبسنة نبينا ﷺ وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون. وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل -نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته- قائلون ولمن خالف قوله مجانبون، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل، الذى أبان الله به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم وخليل معظم مفخم وعلى جميع أئمة المسلمين.

وجملة قولنا: أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا نرد من ذلك شيئًا، وأن الله ﷻ إله واحد لا إله إلا هو، فرد صمد لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله

بالهدى ودين الحق، وأن الجنة حق والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور وأن الله استوى على عرشه كما قال: (الرحمن على العرش استوى)، وأن له وجهًا كما قال: (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)، وأن له يدين بلا كيف كما قال: (خلقت بيدى)، وكما قال: (بل يداه مبسوطتان)، وأن له عينًا بلا كيف كما قال: (تجرى بأعيننا)، وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالًا، وأن لله علمًا كما قال: (أنزله بعلمه)، وكما قال: (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه).

ونثبت له السمع والبصر ولا ننفى ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج، ونثبت أن لله قوة كما قال: (أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة)، ونقول: إن كلام الله غير مخلوق وإنه لم يخلق شيئًا إلا وقد قال له: كن فيكون كما قال: (إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون)، وإنه لا يكون فى الأرض شئ من خير وشر إلا ما شاء، وإن الأشياء تكون بمشيئة الله ﷻ وإن أحدًا لا يستطيع أن يفعل شيئًا قبل أن يفعله الله ولا نستغنى عن الله ولا نقدر على الخروج من علم الله ﷻ، وإنه لا خالق إلا الله، وإن أعمال العبد مخلوقة لله مقدورة كما قال: (خلقكم وما تعملون) وإن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئًا وهم يخلقون كما قال: (هل من خالق غير الله)، وكما قال: (لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون)، وكما قال: (أفمن يخلق كمن لا يخلق)، وكما قال: (أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون)، وهذا فى كتاب الله كثير.

وإن الله وفق المؤمنين لطاعته ولطف بهم ونظر إليهم وأصلحهم وهداهم، وأضل الكافرين ولم يهدهم ولم يلطف بهم بالإيمان كما زعم أهل الزيغ والطغيان، ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا صالحين، ولو هداهم لكانوا مهتدين

كما قال تبارك تعالى: (من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون)، وأن الله يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم، وإنه خذلهم وطبع على قلوبهم، وإن الخير والشر بقضاء الله وقدره وإنا نؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره حلوه ومره ونعلم أن ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا وأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا إلا ما شاء الله، وأنا نلجئ أمورنا إلى الله ونبث الحاجة والفقر فى كل وقت إليه، ونقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق وإن من قال بخلق القرآن فهو كافر.

وندين بأن الله تعالى يُرَى فى الآخرة بالأبصار كما يرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله ﷺ، ونقول: إن الكافرين محجوبون عنه إذا رآه المؤمنون فى الجنة، كما قال الله ﷻ: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)، وإن موسى عليه السلام سأل الله ﷻ الرؤية فى الدنيا، وإن الله سبحانه وتعالى تجلى للجبل فجعله دكًا فأعلم بذلك موسى أنه لا يراه فى الدنيا، ونرى بألا نكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنا والسرقة وشرب الخمور، كما دانت بذلك الخوارج وزعمت أنهم كافرون. ونقول: إن من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنا والسرقة وما أشبههما مستحلًا لها غير معتقد لتحريمها كان كافرًا.

ونقول: إن الإسلام أوسع من الإيمان وليس كل إسلام إيمان، وندين بأنه يقلب القلوب وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الله ﷻ[1]، وأنه ﷻ يضع

---

(١) أخرجه مسلم ١٦/ ١٥٥، والترمذى ٥/ ٥٣٨، وابن ماجه ١/ ٧٢، وأحمد ٦/ ٣١٥.

السموات على أصبع والأرضين على أصبع[1] كما جاءت الرواية عن رسول الله ﷺ.

وندين بألا ننزل أحدًا من أهل التوحيد والمتمسكين بالإيمان جنة ولا نارًا إلا من شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، ونرجو الجنة للمذنبين ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين.

ونقول: إن الله ﷻ يخرج قومًا من النار بعد أن امتحشوا بشفاعة محمد رسول الله ﷺ تصديقًا لما جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ.

ونؤمن بعذاب القبر وبالحوض، وأن الميزان حق والصراط حق، والبعث بعد الموت حق، وأن الله ﷻ يوقف العباد فى الموقف ويحاسب المؤمنين.

وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ونسلم بالروايات الصحيحة فى ذلك عن رسول الله ﷺ التى رواها الثقات عدل عن عدل حتى تنتهى إلى الرسول ﷺ، وندين[2] بحب السلف الذين اختارهم الله ﷻ لصحبة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ونثنى عليهم بما أثنى الله به عليهم ونتولاهم أجمعين.

ونقول: إن الإمام الفاضل بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، وأن الله أعز به الدين وأظهره على المرتدين وقدمه المسلمون للإمامة كما قدمه رسول الله ﷺ للصلاة، وسموه بأجمعهم خليفة رسول الله ﷺ، ثم عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ثم عثمان بن عفان رضى الله عنه وأن الذين قاتلوه،

---

(١) البخارى ٨/ ٥٥٠، ومسلم ١٨/ ٢٧٢.

(٢) منها قوله ﷺ: (يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفى قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير) وفى رواية: (من إيمان) بدل (من خير). البخارى ١/ ١٢٧ فى "باب زيادة الإيمان ونقصانه".

قاتلوه ظلمًا وعدوانًا، ثم على بن أبى طالب رضى الله عنه، فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله ﷺ وخلافتهم خلافة النبوة، ونشهد بالجنة للعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بها، ونتولى سائر أصحاب النبى ﷺ ونكف عما شجر بينهم. وندين لله بأن الأئمة الأربعة خلفاء راشدون مهديون فضلاء لا يوازيهم فى الفضل غيرهم.

ونصدق بجميع الروايات التى يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا وأن الرب ﷻ يقول: هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ وسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافًا لما قاله أهل الزيغ والتضليل، ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وإجماع المسلمين وما كان فى معناه، ولا نبتدع فى دين الله بدعة لم يأذن الله بها، ولا نقول على الله ما لا نعلم ونقول: إن الله ﷻ يجئ يوم القيامة كما قال: (وجاء ربك والملك صفًا صفًا)[١]، وإن الله ﷻ يَقْرُبُ من عباده كيف شاء كما قال: (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)[٢]، وكما قال: (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى)[٣]، ومن ديننا أن نصلى الجمعة والأعياد وسائر الصلوات والجماعات خلف كل بر وغيره، كما روى عن عبد الله بن عمر أنه كان يصلى خلف الحجاج.

وإن المسح على الخفين سنة فى الحضر والسفر خلافًا لقول من أنكر ذلك، ونرى الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح والإقرار بإمامتهم، وتضليل من رأى الخروج عليهم إذا ظهر منهم ترك الاستقامة.

---

(١) سورة الفجر: ٢٢.

(٢) سورة ق: ١٦.

(٣) سورة النجم: ٨، ٩.

وندين بترك الخروج عليهم بالسيف وترك القتال فى الفتنة، ونقر بخروج الدجال كما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ، ونؤمن بعذاب القبر ومنكر ونكير ومساءلتهما المدفونين فى قبورهم[1]، ونصدق بحديث المعراج ونصحح كثيرًا من الرؤيا فى المنام ونقر أن لذلك تفسيرًا، ونرى الصدقة عن موتى المسلمين والدعاء لهم ونؤمن بأن الله ينفعهم بذلك، ونصدق بأن فى الدنيا سحرة وسحرًا وأن السحر كائن موجود فى الدنيا، وندين بالصلاة على من مات من أهل القبلة برهم وفاجرهم وتوارثهم.

ونقر أن الجنة والنار مخلوقتان، وأن من مات أو قتل فبأجله مات أو قتل، وأن الأرزاق من قبل الله ﷻ يرزقها عباده حلالًا وحرامًا، وأن الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويتخبطه خلافًا لقول المعتزلة والجهمية، كما قال الله ﷻ: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس)، وكما قال: (من شر الوسواس الخناس* الذى يوسوس فى صدور الناس* من الجنة والناس)، ونقول: إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله ﷻ بآيات يظهرها عليهم.

وقولنا فى أطفال المشركين: إن الله يؤجج لهم فى الآخرة نارًا ثم يقول لهم، اقتحموها كما جاءت بذلك الرواية، وندين لله ﷻ بأنه يعلم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون، وما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، وبطاعة الأئمة ونصيحة المسلمين، ونرى مفارقة كل داعية إلى بدعة ومجانبة أهل الأهواء، وسنحتج لما ذكرناه من قولنا وما بقى منه مما لم نذكره

---

(١) المساءلة تتم حتى ولو لم يقبر الشخص على صورة يعلمها الله تعالى.

بابًا بابًا وشيئًا شيئًا إن شاء الله تعالى[١].

(١) الإبانة.

(تنبيه) صرح الأشعري في الإبانة برجوعه إلى مذهب السلف الذين يمثلهم الامام أحمد، وأنه قائل بأقواله، مخالف لما خالفها.

ولقد مر الأشعري في حياته بأطوار، منها ماهو متفق عليه بين العلماء والمترجمين له، ومنها ماوقع حوله خلاف.

أولا: طور الأشعري الأول مرحلة الاعتزال: لم يشك أحد في أن الأشعري نشأ على مذهب المعتزلة، وأنه أقام علي ذلك فترة طويلة من الزمن، وليس أدل على ذلك من اعترافه هو حين قال فى كتابه "العمد" كما في التبيين (ص:١٣١) وهو يعدد مؤلفاته: "وألفنا كتابا كبيرا في الصفات وهو اكبر كتبه سميناه كتاب: الجوابات في الصفات عن مسائل أهل الزيغ والشبهات، نقضنا فيه كتابا كنا ألفناه قديما فيها على تصحيح مذهب المعتزلة، لم يؤلف لهم كتاب مثله، ثم أبان الله سبحانه لنا الحق فرجعنا عنه فنقضناه وأوضحنا بطلانه".اهـ. وفي هذا النص نلمح المستوى الذى وصل إليه في مرحلة الاعتزال، وكيف أنه صار يؤلف الكتب على مذهبهم، بل إن هذا الكتاب المنقوض يذكر أنه لم يؤلف للمعتزلة مثله.

ويذكر السجزي في رسالته إلى أهل زبيد المسماة: "الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص: ١٦٨) "رواية عن خلف المعلم من فقهاء المالكية أنه قال: "أقام الأشعري أربعين سنة على الاعتزال، ثم أظهر التوبة، فرجع عن الفروع وثبت على الأصول".اهـ.، أى أصول المعتزلة التي بنوا عليها نفي الصفات، مثل دليل الاعراض وغيره.

ثانيا: رجوعه عن الاعتزال: أعلن الأشعري رجوعه عن الإعتزال، فقد غاب في بيته ثم خرج إلى الناس وأعلن رجوعه عليهم، وإنه يتبرأ من جميع أقواله السابقة، وأظهر بعض مؤلفاته الجديدة، والملاحظ أن مترجمي الأشعري يشيرون الى أن مدة مقامه في الاعتزال أربعين سنة، فإذا كان الأشعري ولد سنة ٢٦٠ هـ والجبائي توفي سنة ٣٠٣ هـ ورجوع الأشعري كان قبل وفاة الجبائي لأن الجبائي نفسه رد على الأشعري، فالأولي أن يعتبر هذا الكلام تقريبيا وأن المقصود أن رجوع الأشعري كان وهو قريب من الأربعين في عمره، ولذلك عبر البعض بأن إقامة الأشعري في الاعتزال كانت عدة سنين.

=

=

وقد اختلف العلماء والباحثون- بعد اتفاقهم علي الطور الأول الذي هو طور الاعتزال- هل مر الأشعري بعد تحوله بطور أو طورين؟، ويمكن تحديد الأقوال كما يلي:

الأول: أن الأشعري- بعد تحوله بقي على طور واحد، وأنه في هذه المرحلة تابع ابن كلاب، لكن كانت له آراء مستقلة توسط فيها بين المعتزلة والمثبتة، نشأ عنها ما يسمى بالمذهب الأشعري، وهذا قول الأشعرية، أما كتاب الإبانة فإما أن يتغافلوا عنه، أو يقولوا بإثباته، لكنهم يفسرون مافيه من الإثبات بأن ذلك جاء على طريقة "التفويض" وأن هذا لا يتعارض مع القول بتأويل بعض الصفات.

وهذا القول يقول به أيضا بعض العلماء من غير الأشاعرة، وهؤلاء يقولون: إن الأشعري سار علي طريقة ابن كلاب، فبقيت عليه بقايا من مذهب الاعتزال، أما كتاب الإبانة فيرون أنه مع أنه يقرب فيه كثيرا من مذهب السلف ق الاستدلال بالنصوص، إلا أن ما أثبت فيه هو مذهبه قبل ذلك، ولذلك فليس فيه ما يعارض كتبه السابقة، والمباحث التي ركز عليها في كتاب " اللمع" لم يركز عليها في كتاب الإبانة، فليس بينهما تعارض، وليس في الإبانة ما يدل على رجوعه عن مذهب ابن كلاب، فهذان رأيان يتفقان في أن الأشعري مر بعد الاعتزال بمرحلة واحدة، ويختلفان في التفسير والتحليل.

الثاني: أن الأشعري بعد تحوله مر بطورين:

أ- طور التوسط والسير علي طريقة ابن كلاب.

ب- وطور الإثبات والتخلي عن طريقة ابن كلاب والسير علي منهاج أهل السنة والجماعة كما في الإبانة هنا، لكن أصحاب هذا القول اختلفوا علي قولين متعارضين:

أحدهما: أن الأشعري مر أولا بطور التوسط والسير علي طريقة ابن كلاب

وألف في ذلك كتبه المختلفة التي اشتهرت وتناقلها الناس، ثم رجع في الآخر إلى مذهب السلف من خلال تأليفه للإبانة وذلك في آخر عمره في بغداد.

الآخر: العكس: وهو أن الأشعري، انتقل أولا إلى مذهب السلف، - الذي يسمونه مذهب الحنابلة- فألف الابانة في حال الحماس والاندفاع، ثم بعد ذلك انتقل إلى الطور الأخير الذي توسط فيه، وألف فيه كتبه ومنها اللمع، فهؤلاء يبنون قولهم علي أن الإبانة قبل اللمع.

هذه أهم الأقوال الواردة في مسألة رجوع الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ويمكن تلخيصها كما يلي:

=

=

١ - إن الأشعري تحول عن الاعتزال إلى التوسط، أو ما يسمي بمذهب الأشعري، وان ما رجع إليه هو الحق.
٢ - أنه رجع الى مذهب السلف والقول الحق- الذي هو مذهب الإمام أحمد -ولم تختلف أقواله ولا كتبه.
٣ - أنه رجع الى المذهب الحق لكنه تابع ابن كلاب وبقيت عليه بقايا اعتزالية.
٤ - أنه رجع أولا إلى التوسط ومتابعة ابن كلاب، ثم رجع إلى مذهب السلف رجوعا كاملا ..
٥ - أنه رجع أولا إلى مذهب السلف، ثم انتقل إلى التوسط واستقر عليه.

أما الذين يرون أنه بقى كلابيا ولم يكن رجوعه كاملا فأشهرهم ابن حزم، وعبد الجبار الهمذاني، وشارح الطحاوية ابن أبي العز، وهو قول شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في درء التعارض (٢/ ١٦): وأبو الحسن الاشعري لما رجع عن مذهب المعتزلة سلك طريقة ابن كلاب، ومال إلى أهل السنة والحديث، وانتسب إلى الإمام أحمد كما قد ذكر ذلك في كتبه كلها؛ كالابانة والموجز والمقالات وغيرها، وكان مختلطا بأهل السنة والحديث؛ كاختلاط المتكلم بهم؛ بمنزلة ابن عقيل عند متأخريهم، لكن الأشعري وأئمة أصحابه اتبع لأصول الإمام أحمد وأمثاله من أئمة السنة؛ من مثل ابن عقيل في كثير من أحواله، وممن اتبع ابن عقيل؛ كأبي الفرج بن الجوزي في كثير من كتبه، وكان القدماء من أصحاب أحمد كأبي بكر عبد العزيز، وأبي الحسن التميمي وأمثالهما يذكرونه في كتبهم على طريق ذكر الموافق للسنة في الجملة، ويذكرون ما ذكره من تناقض المعتزلة.

وكان بين التميمين وبين القاضي ابي بكر وأمثاله من الائتلاف والتواصل ما هو معروف، وكان القاضي أبو بكر يكتب أحيانا في أجوبته في المسائل محمد بن الطيب الحنبلي، ويكتب أيضا الأشعري، ولهذا توجد أقوال التميمين مقاربة لأقواله وأقوال أمثاله؛ المتبعين لطريقة ابن كلاب، وعلى العقيدة التي صنفها أبو الفضل التميمي اعتمد أبو بكر البيهقي في الكتاب الذي صنفه في مناقب الإمام أحمد؛ لما أراد أن يذكر عقيدته، وهذا بخلاف أبي بكر عبد العزيز، وأبي عبد الله بن بطة، وأبي عبد الله بن حامد وأمثالهم؛ فإنهم مخالفون لأصل قول الكلابية.

=

=
والأشعري وأئمة أصحابه؛ كأبي الحسن الطبري، وأبي عبد الله بن مجاهد الباهلي، والقاضي أبي بكر متفقون على إثبات الصفات الخبرية التي ذكرت في القرآن؛ كالاستواء والوجه واليد، وإبطال تأويلها؛ ليس له في ذلك قولان أصلا، ولم يذكر أحد عن الأشعري في ذلك قولين أصلا، بل جميع من يحكي المقالات؛ من أتباعه وغيرهم، يذكر أن ذلك قوله، ولكن لأتباعه في ذلك قولان؛ وأول من اشتهر عنه نفيها: أبو المعالي الجويني؛ فانه نفى الصفات الخبرية، وله في تأويلها قولان:
ففي الإرشاد أولها، ثم إنه في الرسالة النظامية رجع عن ذلك، وحرم التأويل، وبين إجماع السلف على تحريم التأويل، واستدل بإجماعهم على أن التأويل محرم؛ ليس بواجب ولا جائز فصار من سلك طريقته ينفي الصفات الخبرية، ولهم في التأويل قولان.
وأما الأشعري وأئمة أصحابه فإنهم مثبتون لها يردون على من ينفيها، أو يقف فيها؛ فضلا عمن يتأولها.
وأما مسألة قيام الأفعال الاختيارية به: فإن ابن كلاب والأشعري وغيرهما ينفونها.
وعلى ذلك بنو قولهم في مسألة القرآن، وبسبب ذلك وغيره تكلم الناس فيهم في هذا الباب بما هو معروف في كتب أهل العلم، ونسبوهم إلى البدعة، وبقايا بعض الاعتزال فيهم ... الخ كلامه رَحِمَهُ اللهُ.
وقال أيضا في درء التعارض (٧/ ٩٧) في كلامه على بطلان قول من زعم أن تقديم النقل على العقل يوجب القدح فيه بالقدح في أصله؛ حيث تبين أن ذلك ليس قدحا في أصله؛ فقال: وهذا الكلام في الأصل هو من قول الجهمية المعتزلة وأمثالهم، وليس من قول الأشعري وأئمة أصحابه، وإنما تلقاه عن المعتزلة متأخرو الأشعرية؛ لما مالوا إلى نوع التجهم؛ بل الفلسفة، وفارقوا قول الأشعري وأئمة أصحابه الذين لم يكونوا يقرون بمخالفة النقل للعقل؛ بل انتصبوا لإقامة أدلة عقلية توافق السمع، ولهذا أثبت الأشعري الصفات الخبرية بالسمع، وأثبت بالعقل الصفات العقلية التي تعلم بالعقل والسمع؛ فلم يثبت بالعقل ما جعله معارضا للسمع؛ بل ما جعله معاضدا له، وأثبت بالسمع ما عجز عنه العقل، وهؤلاء خالفوه وخالفوا أئمة أصحابه في هذا وهذا؛ فلم يستدلوا بالسمع في إثبات الصفات، وعارضوا مدلوله؛ بما ادعوه من العقليات، والذي كان أئمة السنة ينكرونه على ابن كلاب والأشعري بقايا من التجهم والاعتزال، مثل اعتقاد صحة
=

=

طريقة الأعراض، وتركيب الأجسام، وإنكار اتصاف الله بالأفعال القائمة التي يشاؤها ويختارها.

وأمثال ذلك من المسائل التي أشكلت على من كان أعلم من الأشعري بالسنة والحديث وأقوال السلف والأئمة؛ كالحارث المحاسبي، وأبي علي الثقفي، وأبي بكر بن إسحاق الصبغي، مع أنه قد قيل إن الحارث رجع عن ذلك، وذكر عنه غير واحد ما يقتضي الرجوع عن ذلك، وكذلك الصبغي والثقفي قد روي أنهما استتيبا فتابا، وقد وافق الأشعري على هذه الأصول طوائف من أصحاب أحمد، ومالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وغيرهم، منهم من تبين له بعد ذلك الخطأ؛ فرجع عنه.

ومنهم من اشتبه عليه ذلك؛ كما اشتبه غير ذلك على كثير من المسلمين.

والله يغفر لمن اجتهد في معرفة الصواب من جهة الكتاب والسنة بحسب عقله وإمكانه، وإن أخطأ في بعض ذلك .. إلى أن قال عليه رحمة الله (٧/ ١٠٦): ولهذا كان الأشعري وأئمة أصحابه من المثبتين لعلو الله بذاته على العالم؛ كما كان ذلك مذهب ابن كلاب والحارث المحاسبي وأبي العباس القلانسي وأبي بكر الصبغي وأبي علي الثقفي وأمثالهم، لكن للبقايا التي بقيت على ابن كلاب وأتباعه من بقايا التجهم والاعتزال؛ كطريقة حدوث الأعراض وتركيب الأجسام = احتاج من سلك طريقهم إلى طرد تلك الأقوال، فاحتاج أن يلتزم قول الجهمية والمعتزلة في نفي الصفات الخبرية، ويقدم عقله على النصوص الإلهية، ويخالف سلفه وأئمته الأشعرية، وصار ما مدح به الأشعري وأئمة أصحابه من السنة والمتابعة النبوية عنده من أقوال المجسمة الحشوية ... وأصل ما أوقعهم في نفي الصفات والكلام والأفعال والقول بخلق القرآن وإنكار الرؤية والعلو لله على خلقه هي طريقة حدوث الأعراض وتركيب الأجسام، وعنها لزمهم ما خالفوا به الكتاب والسنة والإجماع في هذا المقام، مع مخالفتهم للمعقولات الصريحة التي لا تحتمل ...، إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ (٧/ ١٣١ - ١٣٢): الجواب السابع: أن يقال بل العقل الصريح موافق للسمع لا منازع له، والعقل قد دل على أن الله تعالى فوق العالم، وهذه طريقة حذاق أهل النظر من أهل الإثبات؛ كما هو طريق السلف والأئمة يجعلون العلو من الصفات المعلومة بالعقل، وهذه طريقة أبي محمد بن كلاب وأتباعه؛ كأبي العباس القلانسي والحارث المحاسبي وأشباههما من أئمة الأشعرية، وهي طريقة محمد بن كرام وأتباعه وطريقة أكثر أهل الحديث والفقه والتصوف وإليها رجع القاضي أبو يعلى

=

=

وأمثاله، ولكن طائفة من الصفاتية من أصحاب الأشعري، ومن وافقهم من أصحاب أحمد وغيرهم يظنون أن العلو من الصفات الخبرية كالوجه واليدين ونحو ذلك، وأنهم إذا أثبتوا ذلك أثبتوه لمجيء السمع به فقط.

ولهذا كان من هؤلاء من ينفي ذلك ويتأول نصوصه أو يعرض عنها كما يفعل مثل ذلك في نصوص الوجه واليد .... وقال أيضا في درء التعارض (٧/ ٤٦١) في مسألأة وجوب النظر في الإيمان: قال أبوجعفر السمناني أحد أئمة الاشعرية: هذه المسألة بقية بقيت في المذهب من الاعتزال لمن اعتقدها، وذلك لكون الأشعري كان معتزليا تلميذا لأبي علي الجبائي؛ ثم رجع عن هذا إلى مذهب ابن كلاب وأمثاله من الصفاتية، المثبتين للقدر، والقائلين بأن أهل الكبائر لا يخلدون، ونحو ذلك من الأصول التي فارق بها المعتزلة للجماعة وأصل الكلام المحدث المخالف للكتاب والسنة المذموم عند السلف والأئمة كان أئمة الجهمية والمعتزلة وأمثالهم والمعتزلة قدرية جهمية وجهم وأتباعه جهمية مجبرة، ثم الأشعري كان منهم.

ولما فارقهم، وكشف فضائحهم، وبين تناقضهم، وسلك مسالك أبي محمد بن كلاب وأمثاله = ناقضهم غاية المناقضة في مسائل القدر والوعيد والأسماء والأحكام؛ كما ناقضهم في ذلك الجهمية والضرارية والنجارية ونحوهم، ولهذا كان هو وأمثاله يعدون من متكلمة أهل الحديث، وكانوا هم خير هذه الطوائف وأقربها إلى الكتاب والسنة، ولكن خبرته بالحديث والسنة كانت مجملة، وخبرته بالكلام كانت مفصلة؛ فلهذا بقي عليه بقايا من أصول المعتزلة، ودخل معه في تلك البقايا وغيرها طوائف من المنتسبين إلى السنة والحديث، من أتباع الأئمة من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد ... وقال أيضا في درء التعارض (٩/ ٧): ... وهذا موجود في عامة الكتب المصنفة في المقالات والملل والنحل؛ مثل كتاب أبي عيسى الوراق والنوبختي وأبي الحسن الأشعري والشهرستاني = تجدهم يذكرون من أقوال اليهود والنصارى والفلاسفة وغيرهم من الكفار، ومن أقوال الخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة والكلابية والكرامية والمجسمة والحشوية أنواعا من المقالات، والقول الذي جاء به الرسول وكان عليه الصحابة والتابعون وأئمة المسلمين لا يعرفونه، ولا يذكرونه، بل وكذلك في كتب الأدلة والحجج التي يحتج بها المصنف للقول الذي يقول إنه الحق = تجدهم يذكرون في الأصل العظيم قولين أو ثلاثة أو أربعة، أو أكثر من ذلك، وينصرون أحدها،

=

=

ويكون كل ما ذكروه أقوالا فاسدة مخالفة للشرع والعقل، والقول الذي جاء به الرسول، وهو الموافق لصحيح المنقول وصريح العقول لا يعرفونه ولا يذكرونه ...

وقال أيضا في درء التعارض (٩/ ١٦٠) في كلامه على بعض المتجهمة كابن عقيل وابن الجوزي وغيرهما: ولهذا يوجد في كلام هؤلاء من نفي الصفات الخبرية ومنعهم أن تسمى الآيات والأحاديث آيات الصفات وأحاديث الصفات بل آيات الإضافات ونصوص الإضافات ونحو ذلك من الكلام الموافق لأقوال المعتزلة = ما يبين به أن الأشعري، وأئمة أصحابه من المثبتين للصفات الخبرية ونحو ذلك أقرب إلى السنة والسلف والأئمة كأحمد بن حنبل وغيره، من كلام هؤلاء الذين مالوا في هذا إلى طريقة المعتزلة.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٧ - ٢٢٩): والناس يعلمون أنه كان بين الحنبلية والأشعرية وحشة ومنافرة، وأنا كنت من أعظم الناس تأليفا لقلوب المسلمين، وطلبا لاتفاق كلمتهم، واتباعا لما أمرنا به من الاعتصام بحبل الله، وأزلت عامة ما كان فى النفوس من الوحشة، وبينت لهم أن الأشعرى كان من أجل المتكلمين المنتسبين إلى الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ ونحوه المنتصرين لطريقه؛ كما يذكر الأشعرى ذلك فى كتبه، وكما قال أبو اسحاق الشيرازي: إنما نفقت الأشعرية عند الناس بانتسابهم الى الحنابلة، وكان أئمة الحنابلة المتقدمين - كأبى بكر عبد العزيز وأبى الحسن التميمى ونحوهما - يذكرون كلامه فى كتبهم؛ بل كان عند متقدميهم - كابن عقيل عند المتأخرين - لكن ابن عقيل له اختصاص بمعرفة الفقة وأصوله، وأما الأشعرى فهو أقرب الى أصول أحمد من ابن عقيل واتبع لها؛ فإنه كلما كان عهد الانسان بالسلف أقرب كان أعلم بالمعقول والمنقول، وكنت أقرر هذا للحنبلية، وأبين أن الأشعرى وإن كان من تلامذة المعتزلة ثم تاب - فإنه تلميذ الجبائى - ومال الى طريقة ابن كلاب، وأخذ عن زكريا الساجى أصول الحديث بالبصرة، ثم لما قدم بغداد أخذ عن حنبلية بغداد أمورا أخرى، وذلك آخر أمره كما ذكره هو وأصحابه فى كتبهم، وكذلك ابن عقيل كان تلميذ ابن الوليد وابن التبان المعتزليين ثم تاب من ذلك، وتوبته مشهورة بحضرة الشريف ابى جعفر.

وكما أن فى أصحاب أحمد من يبغض ابن عقيل ويذمه، فالذين يذمون الأشعرى ليسوا مختصين بأصحاب أحمد؛ بل فى جميع الطوائف من هو كذلك.

ولما أظهرت كلام الأشعرى ورآه الحنبلية قالوا: هذا خير من كلام الشيخ الموفق!

=

=

وفرح المسلمون باتفاق الكلمة، وأظهرت ما ذكره ابن عساكر فى مناقبه: أنه لم تزل الحنابلة والأشاعرة متفقين الى زمن القشيرى فإنه لما جرت تلك الفتنة ببغداد تفرقت الكلمة، ومعلوم أن فى جميع الطوائف من هو زائغ ومستقيم ... انتهى.

وقال الجديع في العقيدة السلفية فى كلام رب البرية (ص ٢٩٠): فرجع الأشعري عن بدعة الاعتزال إلى بدعة ابن كلاب، ومن حسنة رجوعه إثبات الصفات والرؤية وغير ذلك من عقيدة أهل السنة، ووافق الحق في غالب ما رجع إليه، وجانبه في بعضه، ومن ذلك مسألة القرآن، وهي أعظم المسائل خطورة، فقد وافق فيها ابن كلاب، وقد علمت أن ابن كلاب كان مبتدعا فيها بدعة لم يسبق إليها، وأن تحقيق قوله يرجع إلى موافقة المعتزلة وإن خالفهم في الظاهر.

ولقد اغتر كثير من إخواننا السلفيين بكتاب "الإبانة" لأبي الحسن الأشعري، ورفعوا به من شأنه إلى حد عده إمام أهل السنة والجماعة -قول أتباعه الأشعرية- بل إني رأيت لبعض المسودين لحواشي الكتب عد اعتقاد الأشعري هو اعتقاد الإمام أحمد في كل شيء، وقال غير واحد من هؤلاء: إن الأشعري كان له تحولان:

التحول الأول: من الاعتزال إلى اعتقاد ابن كلاب.

والثاني: من اعتقاد ابن كلاب إلى اعتقاد أحمد بن حنبل، وهو الذي ضمنه كتابه "الإبانة" وهو آخر كتبه، كذا قالوا!

وفي هذا نظر من وجوه يطول شرحها، غير أني أذكر من ذلك ما أرجو أن يدفع هذا الإيهام والتلبيس:

أولا: ادعاء أن "الإبانة" آخر تصانيفه تحكم لم يقيموا عليه الحجة البينة.

ثانيا: أن أبا الحسن حين رجع عن الاعتزال صنف في الرد عليه، فهلا فعل مثل ذلك في عقيدة ابن كلاب التي صنف فيها ودعا إليها إن صح رجوعه عنها؟ ولقد ضمن "الإبانة" بعض الرد على المعتزلة فهلا فعل مثل ذلك في اعتقاد ابن كلاب لو صح رجوعه عنه؟

ثالثا: إن ما ذكره في "الإبانة" في بعض المسائل، وفي مسألة القرآن خاصة، مجمل، يوافق في إجماله اعتقاد أحمد واعتقاد ابن كلاب جميعا، فنظرنا في كلام الأشعري في القرآن في غير "الإبانة" فوجدناه وافق ابن كلاب في تحقيق المسألة، ولم يوافق اعتقاد أحمد، وما فسر من كلامه قاض على ما أجمل.

وشيخ الإسلام ابن تيمية إمام رضى نتفق على ذلك نحن وأنتم، ونتفق على كونه من

=

=

أعرف الناس بأقوال أهل القبلة، اسمعوه وهو يقول في الأشعري وهو يذكر اختلاف الناس في شأنه: "بل هو انتصر للمسائل المشهورة عند أهل السنة التي خالفهم فيها المعتزلة، كمسألة الرؤية، والكلام، وإثبات الصفات، ونحو ذلك، لكن كانت خبرته بالكلام خبرة مفصلة، وخبرته بالسنة خبرة مجملة، فلذلك وافق المعتزلة في بعض أصولهم التي التزموا لأجلها خلاف السنة، واعتقد أنه يمكنه الجمع بين تلك الأصول وبين الانتصار للسنة، كما فعل في مسألة الرؤية، والكلام، والصفات الخبرية، وغير ذلك".

حتى قال: "فلما كان في كلامه شوب من هذا، وشوب من هذا -يعني من كلام أهل السنة، ومن كلام المعتزلة - صار يقول من يقول: "إن فيه نوعا من التجهم، وأما من قال: إن قوله قول جهم فقد قال الباطل، ومن قال: إنه ليس فيه شيء من قول جهم فقد قال الباطل، والله يحب الكلام بعلم وعدل، وإعطاء كل ذي حق حقه، وتنزيل الناس منازلهم" "مجموع الفتاوى" ١٢/ ٢٠٥.

وذكر في بعض المواضع أنه وابن كلاب، ومن على طريقتهما في قولهم شيء من أصول الجهمية. و"الإبانة" لم يكن خافيا على شيخ الإسلام، بل إنه ذكره في مواضع كثيرة من كتبه ونقل عنه، فتأمل ذلك، ولا تكن من الغافلين.اهـ.

ومن الذين نصوا على أن الأشعري مر بثلانة أطوار آخرها الرجوع الي مذهب السلف ابن كثير كما نقل عنه الزبيدى في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٤)، والشيخ محب الدين الخطيب في حواشيه عل الروض الباسم (ص: ١٧٤)، ومعارج القبول (١/ ٣٤٦)، والمنتقي (ص: ٤١، ٤٣)، والشيخ أحمد بن حجر أبو طامي في العقائد السلفية (١/ ١٤٣)، والعلامة العثيمين في القواعد المثلى (ص: ٨٠ - ٨١)، وغيرهم.

قال الشيخ حافظ الحكمي في معارج القبول (١/ ٣٤٣ - ٣٤٤): وأقول: والحق يقال، لا شك أن ابن القيم هذا وشيخه ابن تيمية- رحمهما الله تعالى- من أعلم من صنف في المقالات والملل والنحل وأدراهم بمواردها ومصادرها وأبصرهم برد الباطل منها وإدحاضه، وأوفاهم تقريرا لمذهب السلف أهل السنة والجماعة، وأشدهم تمسكا به ونصرة له، واكملهم تحريرا لبراهينه عقلا ونقلا، واكثرهم اشتغالا بهذا الباب وتنقيبا عن عامل البدع واجتثاثا لأصولها، ولكن هذا الذى ذكره رحمه الله تعالى- عن الأشعري في مسألة القرآن هو الذي وجدناه عمن ينتسب إلى الأشعري، ويسمون أنفسهم أهل الحق،
=

٤. أشهر زعماء الأشعرية الذين ينتسبون إلى أبى الحسن الأشعرى:

لقد انتسب إلى الأشعرى جماعة من المشاهير كان لهم الباع الطويل فى تحرر المذهب الذى ينتسبون إليه. إلا أنهم لم يكونوا على طريقة أبى الحسن الأشعرى والمتقدمين من أصحابه فى إثبات الصفات.

ومن كبار أولئك الرجال:

١. أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ.

٢. البيضاوى المتوفى سنة ٧٠١هـ.

=

ويقررون ذلك ويكررونه في كتبهم، ويناظرون عليه، وأما أبو الحسن الأشعري نفسه رحمه الله تعالى- فالذى قرره في كتاب الإبانة، الذي هو من آخر ما صنف هو قول أهل الحديث ساقه بحروفه، وجاء به برمته، واحتج فيه ببراهينهم العقلية والنقلية، ثم نقل أقوال الأئمة في ذلك كأحمد بن حنبل، ومالك بن أنس، والشافعي، وأصحابه، والحمادين، والسفيانين، وعبد العزيز بن الماجشون، والليث بن سعد، وهشام وعيسى بن يونس، وحفص بن غياث، وسعد بن عامر، وعبد الرحمن بن مهدي، وأبي بكر بن عياش، ووكيع، وأبي عاصم النبيل، ويعلى بن عبيد، ومحمد بن يوسف، وبشر بن المفضل، وعبد الله ابن داود، وسلام بن أبي مطيع، وابن المبارك، وعلي بن عاصم، وأحمد بن يونس، وأبي نعيم، وقبيصة ابن عقبة، وسليمان بن داود، وأبي عبيد القاسم ابن سلام، وغيرهم، ولولا خوف الإطالة لسقنا فصول كلامه بحروفه، فإنه وإن أخطأ في تأويل بعض الآيات، وأجمل في بعض المواضع، فكلامه يدل على أنه مخالف للمنتسبين إليه من المتكلمين في مسألة القرآن، كما هو مخالف لهم في إثباته الاستواء، والنزول، والرؤية، والوجه، واليدين، والغضب، والرضا، وغير ذلك، وقد صرح في مقالاته -أي الإبانة-، بأنه قائل بما قال الإمام أحمد ابن حنبل وأئمة الحديث، معتقد ما هم عليه، مثبت لما أثبتوه، محرم ما أحدث المتكلمون من تحريف الكلم عن مواضعه وصرف اللفظ عن ظاهره، وإخراجه عن حقيقته، وبالجملة فبينه وبين المنتسبين اليه بون بعيد، بل هو برئ منهم، وهم منه براء، والموعد الله وكفي بالله حسيبا، وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله".

٣. الشريف الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦هـ.

٤. وكذا الإمام الجويني (الأب)، وهو أبو محمد عبد الله بن يوسف الجويني والد إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٣٨هـ.

٥. وكذا ابنه إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٤٧هـ والجويني نسبة إلى بلدة فى فارس تسمى "جوين" وقد سمى إمام الحرمين، لأنه مكث بمكة أربع سنوات ثم عرج على المدينة المنورة وكان يدرس فيهما ويناظر.

٦. ومن أولئك أيضا :الغزالى أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى الطوسى الملقب حجة الإسلام ،توفى سنة ٥٠٥ هـ و هو ينسب إلى طوس.

٧. ومنهم: أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم الشهرستاني ولد سنة٤٦٧ هـ وتوفي سنة٥٤٨ هـ.

٨. ومنهم: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الطبرستاني، الرازي المولد، الملقب فخر الدين، المعروف بابن الخطيب، الفقيه الشافعي.

وأما قدماء الأشاعرة الذين كانوا علي مذهب أبي الحسن الأشعري في إثبات صفات الله تعالي فمنهم: الباقلاني: أبو بكر محمد بن الطيب، والطبري: أبو الحسن الطبري، والباهلي: أبو عبد الله بن مجاهد، وهؤلاء مشوا علي الطريقة السلفية في باب الصفات[1]، ولكن من جاء بعدهم ممن ينتسب إلى الأشعري تركوا طريقتهم وأولوا الصفات تأويلات باطلة، ومنهم من رجع أخيرًا

(١) انظر الصفات الخبرية بين الإثبات والتأويل ص ٢٥٧ والمصادر السلفية التي أسند اليها.

إلى مذهب السلف وذموا ما كانوا عليه من الانحراف وهم بعض من قدمنا أسماءهم فيما يذكر عنهم عند وفاتهم.

مصطلح أهل السنة والجماعة يطلق ويراد به معنيان:

أ. المعنى الأعم: وهو ما يقابل الشيعة فيقال: المنتسبون للإسلام قسمان: أهل السنة والشيعة، مثلما عنون شيخ الإسلام كتابه فى الرد على الرافضى "منهاج السنة" وفيه بين هذين المعنيين(١) وصرح أن ما ذهبت إليه الطوائف المبتدعة من أهل السنة بالمعنى الأخص.

وهذا المعنى يدخل فيه كل من سوى الشيعة كالأشاعرة. لا سيما والأشاعرة فيما يتعلق بموضوع الصحابة والخلفاء متفقون مع أهل السنة وهى نقطة الاتفاق المنهجية الوحيدة كما سيأتى.

ب. المعنى الأخص: وهو ما يقابل المبتدعة وأهل الأهواء وهو الأكثر استعمالًا وعليه كتب الجرح والتعديل فإذا قالوا عن الرجل أنه صاحب سنة أو كان سنيًا أو من أهل السنة ونحوها فالمراد أنه ليس من إحدى الطوائف البدعية كالخوارج والمعتزلة والشيعة وليس صاحب كلام وهوى.

وهذا المعنى لا يدخل فيه الأشاعرة أبدًا بل هم خارجون عنه وقد نص الإمام أحمد وابن المدينى على أن من خاض فى شئ من علم الكلام لا يعتبر من أهل السنة وإن أصاب بكلامه السنة حتى يدع الجدل ويسلم للنصوص، فلم يشترطوا موافقة السنة فحسب بل التلقى والاستمداد منها(٢) فمن تلقى من السنة

---

(١) ج ٢ ص ١٦٣ تحقيق محمد رشاد سالم.

(٢) أنظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائى، تحقيق الأخ أحمد بن سعد بن حمدان: ١/ ١٥٧، ١٦٥.

فهو من أهلها وان أخطأ ومن تلقي من غيرها فقد أخطأ وان وافقها في النتيجة.

والأشاعرة -كما ستري- تلقوا واستمدوا من غير السنة ولم يوافقوها فى النتائج فكيف يكونون من أهلها.

وسنأتى بحكمهم عند أئمة المذاهب الأربعة من الفقهاء فما بالك بأئمة الجرح والتعديل من أصحاب الحديث:

١. عند المالكية:

روى حافظ المغرب وعلمها الفذ ابن عبد البر بسنده عن فقيه المالكية بالمشرق ابن خويز منداد "أنه قال فى كتاب الشهادات شرحًا لقول مالك لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء، وقال:

"أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعريًا كان أو غير أشعرى ولا تقبل له شهادة فى الإسلام أبدًا ويهجر ويؤدب على بدعته فإن تمادى عليها استتيب منها""(١).

وروى ابن عبد البر نفسه فى "الانتقاء" عن الأئمة الثلاثة "مالك وأبى حنيفة والشافعى" نهيهم عن الكلام وزجر أصحابه وتبديعهم وتعزيرهم ومثله ابن القيم فى اجتماع الجيوش الإسلامية فماذا يكون الأشاعرة إن لم يكونوا أصحاب كلام؟

٢. عند الشافعية:

قال الإمام أبو العباس بن سريج الملقب بالشافعى الثانى وقد كان معاصرًا للأشعرى: "لا نقول بتأويل المعتزلة والأشعرية والجهمية والملحدة

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١١٧ تحقيق عثمان محمد عثمان، وهو فى ٢/ ٩٦ من الطبعة المنيرية.

والمجسمة والمشبهة والكرامية والمكيفة بل نقبلها بلا تأويل ونؤمن بها بلا تمثيل"(١).

قال الإمام أبو الحسن الكرجي من علماء القرن الخامس الشافعية ما نصه: "لم يزل الأئمة الشافعية يأنفون ويستنكفون أن ينسبوا إلى الأشعرى ويتبرأون مما بنى الأشعرى مذهبه عليه وينهون أصحابهم وأحبابهم عن الحوم حواليه على ما سمعت من عدة من المشايخ والأئمة، وضرب مثالًا بشيخ الشافعية فى عصره الإمام أبو حامد الاسفرائينى الملقب "الشافعى الثالث" قائلًا:

"ومعلوم شدة الشيخ على أصحاب الكلام حتى ميز أصول فقه الشافعى من أصول الأشعرى، وعلق عنه أبو بكر الراذقانى وهو عندى، وبه اقتدى الشيخ أبو إسحاق الشيرازى فى كتابيه اللمع والتبصرة حتى لو وافق قول الأشعرى وجهًا لأصحابنا ميزة وقال: "هو قول بعض أصحابنا وبه قالت الأشعرية ولم يعدهم من أصحاب الشافعى، استنكفوا منهم ومن مذهبهم فى أصول الفقه فضلًا عن أصول الدين"(٢)..اهـ.

وبنحو قوله بل أشد منه قال شيخ الإسلام الهروى الأنصارى(٣).

---

(١) توفى ابن سريج سنة ٣٠٦: أنظر تاريخ بغداد ٤/ ٢٩٠ زسير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٠١ والظاهر أنه توفى قبل رجوع الأشعرى لمذهب السلف، والأشعرى توفى ٣٢٤ أو ٣٣٠ على قولين. وأنظر عقيدة ابن سريج فى إجتماع الجيوش الإسلامية ٦٢.

(٢) التسعينية: ٢٣٨- ٢٣٩ وأنظر شرح الأصفهانية: ٣١ من ج ٥ من الفتاوى الكبرى نفسها وأنظر عن الكرجى وعقيدته: إجتماع الجيوش الإسلامية ومختصر العلو وله ترجمة من طبقات الشافعية لابن السبكى وطبقات الشافعية لابن كثير (مخطوط).

(٣) يلاحظ أن كل من الشافعية والحنابلة يدعى الهروى لمذهبهم ورجح شيخ الإسلام أنه يأخذ من كليهما ويتبع الأثر أنظر (شيخ الإسلام عبد اللله الهروى ص ٩٦ وقوله فيهم نقله فى التسعينية: ٢٧٧ عن كتاب ذم الكلام "وهو يحقق بجامعة الإمام كما قرأت.
=

٣. الحنفية:

معلوم أن واضع الطحاوية وشارحها كلاهما حنفيان، وكان الإمام الطحاوى معاصرًا للأشعرى وكتب هذه العقيدة لبيان معتقد الإمام أبى حنيفة وأصحابه وهى مشابهة لما فى الفقه الأكبر عنه وقد نقلوا عن الإمام أنه صرح بكفر من قال إن الله ليس على العرش أو توقف فيه، وتلميذه أبو يوسف كَفَّر بشرًا المريسى، ومعلوم أن الأشاعرة ينفون العلو وينكرون كونه تعالى على العرش ومعلوم أيضًا أن أصولهم مستمدة من بشر المريسى!![1].

٤. الحنابلة:

موقف الحنابلة من الأشاعرة أشهر من أن يذكر فمنذ بدّع الإمام أحمد "ابن كلاب" وأمر بهجره -وهو المؤسس الحقيقى للمذهب الأشعرى- لم يزل الحنابلة معهم فى معركة طويلة، وحتى فى أيام دولة نظام الملك -التى استطالوا فيها- وبعدها كان الحنابلة يخرجون من بغداد كل واعظ يخلط قصصه بشئ من مذهب الأشاعرة، ولم يكن ابن القشيرى إلا واحدًا ممن تعرض لذلك، وبسبب انتشار مذهبهم وإجماع علماء الدولة لا سيما الحنابلة على محاربته أصدر الخليفة القادر منشور "الاعتقاد القادرى" أوضح فيه العقيدة الواجب على الأئمة اعتقادها سنة ٤٣٣هـ[2].

هذا وليس ذم الأشاعرة وتبديعهم خاصًا بأئمة المذاهب المعتبرين بل هو

=

وأنظر أيضًا عن موقف الشافعية درء التعارض ٢/ ١٠٦.

(١) انظر غير ما ذكر سير أعلام النبلاء ترجمة بشر ١٠/ ٢٠٠- ٢٠١ والحموية: ١٤- ١٥ طبعة قصى الخطيب.

(٢) انظر المنتظم لابن الجوزى أحداث سنة: ٤٣٣، ٤٦٩، ٤٧٥ وغيرها ج٨ و ج٩.

منقول أيضًا عن أئمة السلوك الذين كانوا أقرب إلى السنة واتباع السلف، فقد نقل شيخ الإسلام فى الاستقامة كثيرًا من أقوالهم فى ذلك وأنهم يعتبرون عقيدة الأشعرية منافيًا لسلوك طريق الولاية والاستقامة حتى أن عبد القادر الجيلانى لما سئل "هل كان لله ولى على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟. قال: ما كان ولا يكون"[١].

فهذا موجز مختصر جدًا لحكم الأشاعرة فى المذاهب الأربعة فما ظنك بحكم رجال الجرح والتعديل ممن يعلم أن مذهب الأشاعرة هو رد خبر الآحاد جملة وأن فى الصحيحين أحاديث موضوعة أدخلها الزنادقة.. وغيرها من الطوام وانظر إن شئت ترجمة إمامهم المتأخر الفخر الرازى فى الميزان ولسان الميزان.

فالحكم الصحيح فى الأشاعرة أنهم من أهل القبلة لا شك فى ذلك أما أنهم من أهل السنة فلا وسيأتى تفصيل ذلك فى الموضوعات التالية:

وهاهنا حقيقة كبرى أثبتها علماء الأشعرية الكبار بأنفسهم -كالجوينى وابنه أبى المعالى والرازى والغزالى وغيرهم- وهى حقيقة إعلان حيرتهم وتوبتهم ورجوعهم إلى مذهب السلف، وكتب الأشعرية المتعصبة مثل طبقات الشافعية أوردت ذلك فى تراجمهم أو بعضه فما دلالة ذلك؟

إذا كانوا من أصلهم على عقيدة أهل السنة والجماعة فعن أى شئ رجعوا؟. ولماذا رجعوا؟ وإلى أى عقيدة رجعوا؟

بين أهل السنة والأشاعرة[٢]:

---

(١) ص ٨١- ٨٩ و ١٠٥- ١٠٩.

(٢) الكلام هنا عن الأشاعرة ينطبق على الماتريدية، لأن الأصول والمناهج العامة والنشأة =

يقول د. ناصر عبد الكريم العقل[١]: هناك لبس كبير يقع فيه بعض الناس قديمًا وحديثًا، ذلكم هو دعوى الأشاعرة بأنهم أهل السنة، ووصفهم بذلك من غيرهم -أحيانًا- وهذه دعوى عريضة فيها الكثير من الإيهام والخلط، وبيان هذا -على سبيل التفصيل- يحتاج إلى بحث طويل، لكنى سأحاول بيان ما أعرفه حيال ذلك بإيجاز بالغ على النحو التالى:

أولًا: أن أهل السنة والجماعة: سموا بذلك لأنهم هم الذين على سنة رسول الله ﷺ وهم الجماعة الذين ذكرهم رسول الله ﷺ[٢].

وعليه فإن أهل السنة: هم الصحابة والتابعون ومن تبعهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدِّين، ولم يبتدع ولم يغير. ومن غير أو بدل أو أحدث فى الدين ما ليس منه وما لم يكونوا عليه فى الاعتقاد والسنة؛ فليس منهم فيما غير أو بدل.

ثانيًا: أما الأشاعرة: فإنهم فرقة كلامية طارئة، نشأت بعد القرون الفاضلة[٣] فهى تنتسب إلى الإمام أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤هـ رَحِمَهُ اللَّهُ وكان معتزليًا، ثم تحول عن المعتزلة عام (٣٠٠هـ) تقريبًا وصار يرد عليهم بأساليبهم الكلامية من جانب، وبنصوص الكتاب والسنة من جانب آخر، وبهذا وقف للمعتزلة وتصدى لهم[٤]، هو ومن نهج منهجه، حتى أفحمهم،

=

عندهما متشابهة إلى حد كبير.

(١) انظر كتابه بحوث فى عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الأشاعرة والحركات الإسلامية منها.

(٢) انظر ص (١٦ - ٢٠) من البحث السابق.

(٣) أى فى نهاية القرن الثالث الهجرى، وذلك بعد أن تخلى الإمام أبو الحسن الأشعرى عن الاعتزال سنة (٣٠٠هـ). انظر: مقدمة الإبانة، للشيخ حماد الأنصارى، ص٨.

(٤) انظر: تبيين كذب المفترى، لابن عساكر، ص٣٨- ٤٥. ومقدمة الشيخ حماد

=

وهذا عمل جليل يحمد له.

✸ وفى هذا الجو نشأ مذهب عقدى تلفيقى مخضرم، لا هو سُنِّىٌّ خالص، ولا كلامى عقلانى خالص، حتى هدأت العاصفة وانجلى غبار المعركة ضد المعتزلة، وقد أبلى فيها الإمام أبو الحسن الأشعرى بلاء حسنًا، وخرج منتصرًا على المعتزلة والجهمية، ومن سلك سبيلهم[١]، وقد استبصر الأشعرى الحق وعرف أنه إنما انتصر بتعويله على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ونصره للسنة وأهلها، ووقوفه مع أئمة السلف الآخرين.

ثم تراجع عن مقولاته فى الصفات وغيرها التى سلك فيها مسلك التأويل والتعويل على العقل، والكلام فى أمور الغيب والصفات والقدر، فقرر أن يلحق بركب أهل السنة والجماعة فأبان عن ذلك فى كتابه "الإبانة[٢]" ووفقه الله للتخلص من التلفيق العقدىّ فقال:"... وقولنا الذى نقول به، وديانتنا التى ندين بها: التمسك بكتاب ربنا ﷻ وبسنة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما روى عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل -نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته- قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون ..."[٣].

وكذلك أنه قرر معتقدات السنة فى كتبه الأخرى الأخيرة مثل (اللمع)

=

الأنصارى على كتاب "الإبانة عن أصول الديانة" للإمام الأشعرى ط١/ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(١) انظر: المصدرين السابقين.

(٢) فى هذا الكتاب قرر الأشعرى رَحِمَهُ ٱللَّهُ مذهب أهل السنة فى سائر أصول الاعتقاد. فليراجع (مطبوع).

(٣) راجع: "الإبانة عن أصول الديانة" ص٥٢.

و(رسالة إلى أهل الثغر) و(مقالات الإسلاميين) هذا في الجملة؛ لكنه عند التفصيل بقيت عنده بعض الشوائب الكلامية التي تابع فيها ابن كلاَّب أو انفرد بها، مثل: القول بأن أفعال الله لا تتعلق بمشيئته، ومنها الكلام، وأن الكلام هو الكلام النفسي، وأن القرآن عبارة أو حكاية عن كلام الله، والقول بالكسب[1]، ومشروعية علم الكلام، ونحو ذلك.

وعلى هذا استقر مذهبه الثاني: النقلة من الاعتزال إلى طريقة ابن كلاَّب الكلامية، وبقى مذهبًا يحتذى إلى اليوم؛ لأنه يشبع رغبات الفلاسفة والمتكلمين وأهل التأويل.

لكنهم -أي متكلمة الأشاعرة- توسعوا في التأويلات والمناهج الكلامية والفلسفية، وتقوّلوا على الأشعري ما لم يكن يقول به؛ بل كان يتبرأ من أصولهم، كتأويل الصفات الخبرية، وردهم خبر الآحاد، وتقديمهم العقل على النقل ونحو ذلك.

فالأشاعرة تنتسب إلى الإمام أبي الحسن انتحالًا مما قرر وكتب خلافه في "الإبانة" و"اللمع" و"رسالة أهل الثغر" و"المقالات"، إلا أن الأشاعرة لا يزالون يُحمِّلونه تبعتهم.

هذا عن نشأة مذهبهم: فالأشاعرة مذهب طارئ ملفق بين أهل السنة وأهل الكلام، لذلك صاروا أقرب الفرق الكلامية إلى أهل السنة.

ومن جانب آخر: فالأشعرية مرت بأطوار تاريخية، في كل طور تزداد الشقة

---

(١) المقصود بالقول بالكسب هو ما يدعيه الأشاعرة من أن العبد غير مستطيع قبل الفعل ولا بعده، إنما تحصل له الاستطاعة كسبًا أثناء الفعل، وهذا خلاف مذهب السلف الذين يقولون باستطاعة العبد فيما يقدر عليه قبل الفعل وبعده بمشيئة الله تعالى.

بينهم وبين أهل السنة، لا سيما بعد ما أدخل فيها زعماؤهم اللاحقون تلك الأسس والمعتقدات الدخيلة من: الفلسفة، والتصوف، والمنطق، والكلام، والجدل، حتى صارت عقيدة الأشاعرة مزيجًا من تلك الأخلاط.

ومن أبرز أولئك: الباقلانى، المتوفى سنة (٤٠٣هـ)، وابن فورك المتوفى سنة (٤٠٦هـ)، والبغدادى المتوفى سنة (٤٢٩هـ)، والقشيرى المتوفى سنة (٤٦٥ هـ)، وأبو المعالى الجوينى، المتوفى سنة (٤٧٨ هـ)، وابن العربى، المتوفى سنة (٥٤٣ هـ)، والغزالى، المتوفى سنة (٥٠٥هـ)، والفخر الرازى، المتوفى سنة (٦٠٦هـ)، والآمدى، المتوفى سنة (٦٨٢هـ)، ونحوهم. غفر الله لنا ولهم[1]، فكل واحد من هؤلاء وغيرهم أسهم فى توسيع الشقة بين أهل السنة وبين أتباع الأشعرى، بل وبين الأشعرى وبين أتباعه.

فأصبحت الأشاعرة اليوم مزيجًا من المشارب والمعتقدات بين أهل السنة والفلسفة والتصوف، وعلم الكلام والتجهم والاعتزال، لذلك نجدهم أكثر من ينتسبون للسنة وقوعًا فى المخالفات العقدية والعبادية (أى بدع العقائد والعبادات) وهذا بخلاف أهل السنة فى كل زمان، كما نجد أن كثيرًا من الأشاعرة (حاليًا) ومنذ زمن القشيرى منضوون تحت الطرق الصوفية البدعية، وتكثر فيهم بدع القبور والتبرك البدعى بالأشخاص والأشياء، وبدع العبادات والأذكار والموالد ونحوها، والتى تميّزهم (حاليًا) عن أهل السنة بوضوح.

فمن خلال الواقع اليوم يندر أن ترى أحدًا من الأشاعرة إلا ولديه شئ من البدع، أو الميل إلى ذلك، أو التساهل وعدم الاكتراث بهذه المسألة الخطيرة،

---

(١) من توفيق الله لهؤلاء الأئمة الأجلاء -يرحمهم الله- أن غالبهم تراجعوا عن مقولاتهم فى التأويل أو بعضها فيما خالفوا فيه أهل السنة. انظر: ص (٣٦) من هذا البحث.

بينما العكس فيمن ينتسبون -حقًا- لأهل السنة، فإنه يندر أن تجد فيهم من يتعلق بشئ من البدع، إلا عن جهل، وهذا قليل جدًا بحمد الله.

لذا يطلق الأشاعرة المعاصرون -تبعًا للرافضة والمقابرية والصوفية وسائر الطوائف غير السنية- على أهل السنة فى سائر بلاد المسلمين اليوم (وهابية) نسبة إلى الداعى المصلح محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، كما أنهم قديمًا كانوا يطلقون على أهل السنة (الحنابلة) نسبة لإمام السنة الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ، وما علموا أن نبزهم باسم هذين الإمامين أحمد بن حنبل ومحمد بن عبد الوهاب تزكية لهم وهو شرف وشهادة لهم بأنهم مقتدون بأئمة الهدى.

وبالجملة: فالأشاعرة يوافقون أهل السنة فى أمور من العقيدة ويخالفونهم فى أمور أخرى، فهم فيما يوافقون أهل السنة فيه يجوز أن نطلق عليهم أنهم على السنة فى ذلك الأمر من حيث اتباعهم للسنة فيه، لكنهم فى الجملة حيث خالفوا أهل السنة فى أصول أخرى ليست قليلة: ليسوا هم أهل السنة عند الإطلاق والعموم، وهذا الأمر قد يلتبس على كثير من الناس اليوم؛ لقلة اطلاعهم على كلام أهل العلم فى ذلك.

من أهم المسائل التى خالف فيها الأشاعرة أهل السنة

يقول: د. ناصر عبد الكريم العقل[1]: كأنى بالقارئ يطالبنى بالإشارة إلى ما خالف فيه الأشاعرة أهل السنة، من أصول ومعتقدات؛ فأقول -بإيجاز- وبالله التوفيق:

١. من أخطر ما خالف به الأشاعرة أهل السنة: خوضهم فى صفات الله عَزَّوَجَلَّ

---

(١) فى كتابه "عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الأشاعرة والحركات الإسلامية المعاصرة منها".

بالتأويل الذى نهى عنه السلف، خاصة الصفات الخبرية والأفعال التى وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ مثل صفات: اليد، والعين، والنفس، والوجه، والاستواء على العرش، وأفعال الله تعالى مثل: النزول، والمجىء، والرضا، والغضب، والحب، والبغض[1]، ونحوها من الصفات الخبرية التى ذكرها الله تعالى فى كتابه، أو صحت عن رسول الله ﷺ فإنهم لم يؤمنوا بها كما جاءت وكما فعل السلف؛ بل أولوها وصرفوا ألفاظها إلى غير ظاهرها، هروبًا من شبهة التجسيم والتمثيل، وغفلوا عما يترتب على فعلهم هذا من تحريفهم لكلام الله، وتعطيل لمعانيه، والقول على الله بغير علم، وغير ذلك من المستلزمات التى يقتضيها التأويل وتنافى التسليم لله تعالى، إذ كيف يليق أن يقول الله عن نفسه، ويقول عنه رسوله ﷺ بصفات لا تليق أو تقتضى التشبيه والتجسيم، ثم لا يكتشف هذه المسألة إلا المتكلمون بعد القرن الثالث الهجرى؟!

فهل فات هذا الفهم على الصحابة والتابعين وسلف الأمة ثم أدركه المتكلمون؟! هذا مما لا يليق تجاه كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ والصحابة والتابعين وأئمة الهدى الأوائل ممن هم أعلم منهم وأتقى لله، فإن الله سبحانه حين وصف نفسه بتلك الصفات: كاليدين، والوجه، والنفس، والرضا، والغضب، والنزول، والمجىء، والاستواء، والعلو .. إلخ من الصفات، فقد سد باب شبهة التمثيل بقوله سبحانه: (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير).

فهل الذين أوَّلوا تلك الصفات أعلم بالله من الله؟ وهل هم أشد تنزيهًا لله من

---

(١) انظر مثلًا: أساس التقديس، للفخر الرازى، ص ١١١ - ١٩١. والإرشاد للجوينى ص ١٤٦ - ١٥٤.

رسوله ﷺ؟ وهل هم أعلم بمراد الله من صحابة رسول الله ﷺ وسلف الأمة من التابعين وتابعيهم وأئمة الهدى والسنة فى القرون الفاضلة، الذين أَمَرُّوا هذه الصفات وغيرها من أمور الغيب كما جاءت عن الله وعن رسول الله لفظًا ومعنى على مراد الله ورسوله، من غير تشبيه ولا تعطيل، ولا تأويل؟!

وقد ابتلى المتكلمون -ومنهم الأشاعرة والماتريدية- بسبب التأويل فى صفات الله، وبعض مسائل العقيدة، بأن أدخلوا فى عقائدهم من المصطلحات والألفاظ والظنيات العقلية التى تابعوا فيها الجهمية والفلاسفة ما لا يليق القول به فى حق البارى سبحانه، لا نفيًا ولا إثباتًا.

وأقل ما يقال فيه: إنه كلام مبتدع لم يرد عن الله ولا عن رسوله ﷺ فالكفّ عنه أسلم، والخوض فيه قول على الله بلا علم، مثل: الحدود، والغايات، والجهات، والماهية، والحركة، والحيز، والعرض، والجوهر، والجسم، والحدوث، والقِدم.

ودعوى قطعية العقل، وظنية النقل .. ومثل كلامهم فى: التركيب والتبعيض، وقولهم عن البارى سبحانه أنه لا داخل العالم ولا خارجه[1] .. إلخ، مما ابتدعوه من الكلام عن الله تعالى نفيًا أو إثباتًا، وذلك انسياقًا مع إلزامات المعتزلة والجهمية والفلاسفة العقلية الجدلية.

وكلامهم فى هذه الأمور قد يشتمل على بعض الحق الملتبس بالباطل أحيانًا، لكن الله تعالى حذر من لبس الحق بالباطل ونهانا عنه، وأقل ما يقال فيه:

---

(١) انظر: الاقتصاد فى الاعتقاد، للغزالى، ص١٢-١٣٥. والأربعين فى أصول الدين، للغزالى أيضًا، ص١٣- ١٦، وأصول الدين للفخر الرازى ص١٩- ٥٥. أساس التقديس، للرازى أيضًا، ص١٥- ٩٩. والتمهيد، للباقلانى، ص٤٠ -٥٠ وشرح المقاصد للتفتازانى ٢/ ٥٧- ٦٨.

إنه جهل، فيه شئ من القول على الله بغير علم، والله تعالى يقول: (ولا تقف ما ليس لك به علم).

ويقول: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه).

فأهل السنة لا يتكلمون فى هذه الأمور -على سبيل التأصيل والإقرار والتقرير- إلا من باب الرد وإلزام الحجة، وقدر الحاجة، فمخالفة الأشاعرة لأهل السنة فى هذا الباب (الصفات) ليست فرعية، إذ هى متعلقة بأصل من أعظم أصول الدين، وهو توحيد الصفات المتعلقة بالبارى سبحانه جل شأنه.

ومع ذلك يبقى الأشاعرة هم أقرب الفرق الكلامية إلى أهل السنة؛ لأن مقصدهم بالتأويل: التنزيه، لكن على غير هدى ولا اقتداء، بل وقعوا فيما حذّر منه أهل السنة من تحريم التأويل والجدل، وضرب الأمثال لله تعالى، ونحو ذلك مما ينافى وجوب التسليم بالنصوص الشرعية[(١)].

٢. ومن الأصول التى خالف فيها الأشاعرة أهل السنة: تعويلهم على العقل والجدل وعلم الكلام (النظر) فى صفات الله، ومسائل القدر والغيب، وتقديمهم العقل -ما يسمونه القواطع العقلية- على النقل (الكتاب والسنة)، فى أمور الغيب ومسائل الاعتقاد، بل فى مسائل صفات الله تعالى!

فالقاعدة عندهم كما قررها الرازى والجوينى وغيرهما (أن الدلائل النقلية لا تفيد اليقين)[(٢)]. و(أن الدلائل النقلية ظنية، وأن العقلية قطعية، والظن لا

---

(١) فقد ورد النهى عن الخوض فى ذلك عن أكابر الأئمة مثل: الإمام أحمد، وابن المدينى، والأوزاعى، والبخارى، وأبى زرعة، وأبى حاتم، وغيرهم كثير، حيث حذروا من الجدل والتأويل وعلم الكلام. انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السُّنة والجماعة، لأبى القاسم اللالكائى. تحقيق: د. أحمد سعد حمدان ج١، ص١٥١ - ١٨٦.

(٢) راجع: كتاب "أصول الدين" لفخر الدين الرازى -ص٢٤. وكتاب الإرشاد، للجوينى =

يُعارض القطع)[(١)]! -سبحان الله-!! فوصفوا كلام الله وكلام رسول الله ﷺ بأنه ظنى، وأوهام البشر وتخرصاتهم وخطبهم فى الغيب بأنه قطعى، ولو عكسوا لأصابوا الحق.

٣. ومن أصولهم المخالفة لأهل السنة: تفسيرهم التوحيد بما يحصره فى توحيد الربوبية، وغفلتهم عن توحيد الألوهية والعبادة لله تعالى وحده، مع أنه التوحيد الذى أرسلت به الرسل، قال الله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون). وهو التوحيد الذى من أجله خلق الله الخلق، قال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).

لذلك نجد التلبس بالبدع فى العبادات، والوقوع فى بعض الشركيات، كثير فيمن ينتسبون إلى الأشاعرة المتأخرين، لتساهلهم فى توحيد العبادة.

وهذا لا يعنى أن أهل السنة يستهينون بأمر توحيد الربوبية.. كلا والله! لكنهم يبدأون بما بدأ الله به، وما بدأ به رسول الله ﷺ؛ لأن توحيد الربوبية فطرى، لا يكاد ينكر بالكلية إلا نادرًا، وغالب الآيات التى جاءت فى تقريره جاءت فى سياق الإلزام بتوحيد العبادة والطاعة، لذلك لا يعرف أن أمة من الأمم أنكرت توحيد الربوبية، بل لا توجد طائفة أجمعت على هذا الأمر على الحقيقة، ولو حصل هذا لذكره الله تعالى فى قصص الأنبياء.

وبعكسه توحيد الألوهية، فهو الذى ضلت فيه الأمم والفرق والطوائف حتى اليوم. لذا نجد أن نُظَّارَ الأَشاعرة وأئمتهم يبدأون مؤلفاتهم فى الاعتقاد بالعقليات والنظريات، والتصديقات والتصورات، والمصطلحات الكلامية

=

ص ٢٥- ٣٧.

(١) أصول الدين، للرازى ص٢٤.

والفلسفية، وأن الدلائل النقلية (السمعية) لا تفيد اليقين! وأن العقليات قطعية يقينية، ثم حدوث العالم وإثبات الصانع وغير ذلك من الفلسفة وعلم الكلام، وينتهون فى ذلك إلى تقرر توحيد الربوبية[1]، وهذا خلاف ما درج عليه أهل السنة، بل خلاف منهج القرآن الكريم، فالآيات التى جاءت لتقرير توحيد الربوبية قليلة بإزاء الآيات التى جاءت لتقرير توحيد العبادة والطاعة، ثم إن كثيرًا من الآيات فى توحيد الربوبية جاءت لتقرير عبادة الله وحده كما أسلفت.

٤. كما أنهم خالفوا أهل السنة فى أصول أخرى مثل: قولهم فى القرآن وكلام الله[2]، والإيمان[3]، والقدر[4]، والنبوات[5]، حيث تأثروا بالأصول الكلامية والفلسفية وبدع المرجئة فى نظرتهم لهذه الأمور، فجاءت عقيدتهم فيها خليطًا

---

(١) انظر على سبيل المثال: أول كتاب التمهيد للباقلانى، وأول كتاب الإنصاف للباقلانى -أيضًا- وأصول الدين للفخر الرازى -أوله-، وأول كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد -للغزالى، وأول أصول الدين للبغدادى، وأول الإرشاد للجوينى، وأول كتاب الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للبيهقى، وغيرها من الكتب المعتمدة لدى الأشاعرة فإنها تبدأ بالنظر والعقليات وعلم الكلام وتقرير القواعد العقلية والفلسفية ولا تكاد تذكر توحيد العبادة والقصد إلا نادرًا، مع حاجة الأمة إليه قديمًا وحديثًا.

(٢) انظر: الإنصاف -للباقلانى- ص ٦٢- ١٢٦. وأصول الدين -للرازى- ص ٦٣ -٦٧. وكتاب الأربعين فى أصول الدين -للغزالى- ص ٢٧- ٢٨.

(٣) انظر: كتاب الإيمان -لابن تيمية- ص ١٠٠- ١٥٥. والإنصاف -للباقلانى- ص ٥٥. والاقتصاد فى الاعتقاد -للغزالى- ص ٨٩، ٩٠. والتمهيد -للباقلانى- ص ١٤٦، ١٤٧.

(٤) انظر: الإنصاف -للباقلانى- ص ٣٩- ٤٤. وكتاب الأربعين فى أصول الدين -للغزالى- ص١٦- ٢٧.

(٥) انظر: النبوات -لابن تيمية- ص ١٠٠ - ١٠٢. وأصول الدين -للرازى- ص ٩١- ١٠٥. والاقتصاد فى الاعتقاد -للغزالى- ١٦٥- ١٧٩

من الحق والباطل بين أهل السنة والمرجئة والمعتزلة والفلاسفة، لذا تجدهم كثيرًا ما يستخدمون مصطلحات فلسفية وكلامية محتملة للحق والصواب وضدها، وتختلف عن ألفاظ الكتاب والسنة.

وهكذا فإن هذه الأمور التى خالف الأشاعرة فيها أهل السنة، وهى من أصول الاعتقاد وفروعه تقتضى من الباحث المنصف -عند التدقيق والتحقيق- أن يحكم كما هو رأى المحققين من أئمة أهل السنة[1]، بأن مذهب الأشاعرة فى العقيدة، مذهب مستقل فى بعض الجوانب عن أهل السنة بأصوله ومناهجه، وتصوراته وأحكامه، وبخاصة فى مسائل الصفات والإيمان والوحى والنبوات والقرآن وكلام الله، والقدر. فالأشاعرة فى هذه المسائل وغيرها يوافقون أهل السنة فى أمور ويخالفونهم فى أخرى.

كما أنه لا يجوز أن نُحمِّل السلف -أهل السنة والجماعة- مقولات الأشاعرة فيما ابتدعوه من علم الكلام والفلسفة، وإنه لمن الإجحاف والتجنى أن ننسب تلك المقولات للصحابة والتابعين وأئمة الهدى فى القرون الفاضلة، وهذه المقولات هى الغالبة فى معتقدات الأشاعرة كما أشرت فى الفصل السابق.

أما أهل السنة فهم الذين لم يحيدوا ولم يزيدوا على مذهب السلف حتى اليوم، فالذى ينتمى وينتسب لأهل السنة يلزمه أن يعتقد ما اعتقدوه فى هذه الأصول، وأن يَتبِع ما قالوه أو قَرَّرُوه، لا أن يقول ويعتقد حسب قواعده العقلية

---

(١) من أكثر من جلى هذه المسألة وأصلها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فلتراجع مؤلفاته، ومنها على سبيل المثال: العقيدة التدمرية، والفتوى الحموية الكبرى، والعقيدة الواسطية. وانظر: المجلد الرابع من مجموع الفتاوى ص ١- ١٩٠.

الكلامية والفلسفية، ثم ينسب قوله وعقيدته إلى السلف، كما فعل كثير من نظار الأشاعرة.

وإذا عرضنا الكثير من معتقدات الأشاعرة على ما أثر ونقل على السلف فى القرون الفاضلة؛ وجدنا البون بينهما شاسعًا، ووجدنا أنهم -أى الأشاعرة- ابتدعوا وأحدثوا من المقولات ما كان ينهى عنه السلف من الكلام فى الصفات والغيبيات بالظنون والمبتدعات الكلامية، وقد عرضت شواهد لذلك(١).

ومن الحق والإنصاف أن نقول: إن الأشاعرة -فى العموم- هم أقرب الفرق الكلامية إلى أهل السنة، وأن منهم من هو إلى السنة أقرب من سائرهم، وأن من الأشاعرة وممن انتسب إليهم: أئمة فى الحديث، وعلماء أجلاء فى التفسير، والفقه والعربية وغيرها، ممن لهم قدره وفضلهم فى العلم والدين، بل إنه من الملاحظ أن أئمة الحديث ممن انتسب أو نُسِبَ إلى الأشاعرة؛ تجدهم من أهل السنة فى جملة الاعتقاد، وتحتاج نسبتهم إلى الأشاعرة إلى شئ من التثبت والتحقيق، من أمثال: البيهقى، والخطابى، والقاضى عياض، وابن عساكر، والنووى، وابن حجر العسقلانى.

ونحوهم من أئمة السنة والحديث، إذ هم إلى أهل الحديث أقرب منهم إلى المتكلمين.

فالعالم من الأشاعرة كلما زاد علمه فى السنة والحديث والأثر؛ وجدناه فى الاعتقاد إلى أهل السنة أقرب -فى الغالب-.

وأمر آخر تجدر الإشارة إليه هنا، وفيه البرهان الأقوى على أن الأشاعرة

---

(١) انظر ص (٧٠، ٧١) من كتاب "عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الأشاعرة والحركات الإسلامية المعاصرة منها".

جانبوا أهل السنة فى بعض مسائل الاعتقاد الكبرى، وعلى أنهم عند التحقيق والتَروِّى والتَجرُّد يرجعون عن مقولاتهم إلى عقيدة أهل السنة، وهذا البرهان: هو رجوع كثير من أئمتهم ونظارهم الكبار إلى عقيدة السلف، والتسليم بها فى آخر الأمر، أو آخر العمر، كما حصل من الإمام أبى الحسن الأشعرى نفسه، حينما استقر على عقيدة السلف فى (الإبانة)[١] وغيره، وكما حصل من أبى المعالى الجوينى، وأبى محمد الجوينى، والرازى، والشهرستانى، والغزالى، وأبو بكر ابن العربى، وغيرهم[٢]. فمنهم من رجع إلى قول أهل السنة، وترك علم الكلام، وبيَّن ذلك من خلال كتابة ما استقر عليه اعتقاده، ومنهم من أعلن تسليمه لعقيدة أهل السنة على الإطلاق قبيل الوفاة، ولم يتمكن من الكتابة[٣].

وأختم قولى فى هذا الفصل: أنه ظهر لى أن أشاعرة اليوم (المعاصرين) بعدوا عن أهل السنة أكثر من أسلافهم؛ لقلة فقههم بعقيدة السلف، ولما تلبسوا به من الفلسفة وعلم الكلام والبدع والخرافات والتصوف، والانضواء -من الكثير منهم- تحت الطرق الصوفية ونحوها[٤]، هداهم الله، وبَصَّرَنَا وإياهم

---

(١) انظر: كتابه "الإبانة عن أصول الديانة".

(٢) انظر: ص (٣٦) من كتاب "عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الأشاعرة والحركات الإسلامية المعاصرة منها".

(٣) انظر: شرح الطحاوية ص ١٥٠- ١٥٣.

(٤) وهذا بخلاف ما كان عليه الأشاعرة القدامى، فإنهم كانوا إلى السُّنة أقرب ولم تتأصل فيهم المناهج الكلامية والصوفية والفلسفية والجدل، وكانوا أهل سنة فى أعمالهم وعباداتهم. أما المتأخرون من الأشاعرة المعاصرين فأغلبهم من أنصار الطرق، وأصحاب بدع فى الاعتقادات والعبادات، وهذا منشؤه التساهل فى أمر توحيد العبادة فى أصول الأشاعرة، كما بينت. انظر: ص(٦١) من كتاب "عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الأشاعرة والحركات الإسلامية المعاصرة منها".

بالحق والصراط المستقيم.

كما تجدر الإشارة إلى أن ما ذكرته من مفارقة الأشاعرة لأهل السنة فى بعض أصول الاعتقاد لا يعنى أنى أرى تكفيرهم ولا تضليل جميعهم، بل لم أتعرض لهذا الأمر، وأرى أنه جد خطير، ولم ينقل عن عامة السلف تكفيرهم.

ويقول أيضًا: أين أهل السنة؟

عرضت فى فصول سابقة إلى التعريف بأهل السنة، وسمات عقيدتهم، وخصائصها، وذكرت أن الأشاعرة -ومذهبهم منتشر فى غالب البلاد الإسلامية- ليسوا هم أهل السنة عند الإطلاق، بعد ذلك يحق للمرء أن يتساءل: أين أهل السنة؟ وكيف نعرفهم بين المسلمين اليوم؟

فأقول بإيجاز، وحسب ما ظهر لى:

إن أهل السنة قد وصفهم الرسول صلى الله عليهم وسلم وعينهم تعيينًا يجعلهم بادين كالشمس لمن وفقه الله وسلم من الهوى والعصبية والتقليد الأعمى، فمن صفاتهم المأثورة:

١. أنهم الذين على هدى رسول الله ﷺ مظهرًا ومخبرًا، عقيدة وسلوكًا وعبادة، وهدى رسول الله ﷺ بينته السُّنَّة أوضح بيان.

فهم -أى أهل السُّنَّة- أعلام بارزون ظاهرون جيلًا بعد جيل منذ عصر الصحابة إلى يومنا، معروفون بالاتباع والاقتداء والاهتداء.

٢. وأنهم المتمسكون بعقيدة السلف، الصحابة والتابعين، وأئمة الهدى فى القرون الثلاثة الفاضلة، وعقيدة السلف مأثورة معروفة مسطرة -بحمد الله- من خلال ما صنفه أئمة الهدى كالإمام أحمد، والبخارى، وابن أبى عاصم، والدارمى، وعبد الله بن أحمد، وابن خزيمة، وابن بطة، وابن منده، والخلال،

والأشعرى[١] بعد إبانته، وإسماعيل الصابونى، والطحاوى، وابن تيمية، وغيرهم كثيرون جدًا، يعرفهم أهل العلم وكل من أراد التعرف عليهم.

٣. سلامتهم من التلبس بالبدع والشركيات والطرقية، فأهل السنة أيًّا كانوا لا تراهم يتمسحون بالقبور والأشخاص والأحجار والآثار والصخور، ولا يدعون غير الله، ولا يستغيثون بالأموات ولا يقيمون المشاهد والقباب على القبور، ولا يقيمون الموالد والاحتفالات البدعية، وقل أن تجد منهم من ينضوى تحت الطرق الصوفية، إلا عن جهل وغفلة أو تقليد على غير بصيرة كبعض العوام.

٤. تمسكهم بشعائر الدين، الظاهرة والباطنة، كما أمر الله وبيَّن رسوله ﷺ فهم يقيمون الفرائض والسنن، ويأمرون بها، ويتركون الآثام: "المنكرات والمحرمات والبدع"، وينهون عنها.

٥. أنهم ظاهرون فى مجتمعاتهم بالصدع بالحق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومحاربة البدع، لا تأخذهم فى الله لومة لائم، وهذه الصفة قد تتفاوت من بلد إلى آخر، فإن من بلاد المسلمين ما لا يستطيع المسلمون فيه إظهار شعائرهم، ولا إعلان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وفى العموم: فأهل السنة -والله أعلم- لا يحصرهم مكان ولا زمان -فهم بحمد الله- يوجدون فى أكثر من مكان وأكثر من بلد، يقلون فى بلد، ويكثرون فى آخر، فهم فى أرض الله الواسعة منتشرون بحسب حالهم.

ولو تأملت حال المسلمين اليوم لوجدت أهل السنة منهم متميزين فى كل

---

(١) أعلن الإمام أبو الحسن الأشعرى -كما سبق بيانه- التزامه لعقيدة السلف فى الجملة فى كتابه "الإبانة" وغيره. فليراجع.

بلد بحسب حاله، كثرة أو قلة، قوة أو ضعفًا، فأحسن بلاد يتمثل فيها أهل السنة -فيما يظهر لى-: المملكة العربية السعودية، والبلاد المجاورة لها على تفاوتٍ بينها، ثم سائر البلاد الإسلامية على نسب مختلفة، فقد تجدهم فى مصر والسودان أكثر ما يكونون بين أنصار السنة المحمدية، وبعض الجماعات السلفية، وفى الشام فى أهل الحديث والأثر اكثر من غيرهم، وفى الهند والباكستان وأفغانستان يكثرون فى أهل الحديث والجماعات والجمعيات السلفية أكثر من غيرها وهكذا ..[1].

ومع ذلك فإن هذا لا يعنى التزكية المطلقة لمن مرّ ذكرهم، ولا يعنى حصر أهل السنة فيهم.

وقد أشرت من قبل أن أبرز سمات أهل السنة فى البلاد التى تكثر فيها البدع والطرق الصوفية: وصفهم بـ (الوهابية) نسبةلدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أو بـ (الحنابلة) نسبة إلى الإمام أحمد بن حنبل.

ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هى مثال حى واضح لأهل السنة والجماعة، معتقدًا وسلوكًا، وقد تحقق بها قول النبى ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة)[2]. فهى حتى الآن ظاهرة بحمد الله.

---

(١) هذا على سبيل التمثيل لا الحصر ولا التحقيق؛ لأن التحقق من هذه الأحكام يحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحقيق الدقيق، لكنى ضربت بذلك مثالًا فحسب.

(٢) هذا الحديث مستفيض عن جمع من الصحابة أخرجاه فى الصحيحين وغيرهما بألفاظ كثيرة. انظر: صحيح البخارى -فتح البارى- كتاب المناقب- باب ٢٧- (٦/ ٦٣٤). وكتاب الاعتصام باب ١٠ (١٣/ ٢٩٣). وكتاب التوحيد- باب ٢٩ (١٣/ ٤٤٢). وصحيح مسلم- كتاب الإمارة -باب ٥٣- الأحاديث/ ١٩٢٠- ١٩٢٤ (٣/ ١٥٢٣- ١٥٢٥).

هذا مع العلم أن عامة المسلمين الذين يقيمون شعائر الدين وهم سالمون من الشركيات، إنما هم على الفطرة، ويدخلون فى سواد الأمة وأهل السنة، فى أى بلد ومكان كانوا.

وأهل السنة (والله أعلم) فى آخر الزمان ليسوا أكثرية؛ لأن الرسول ﷺ وصفهم بأنهم طائفة، وأنهم الغرباء، وأنهم عصابة، وأنهم فرقة واحدة من ثلاث وسبعين فرقة[1].

وهكذا تسقط دعوى بعض الأشاعرة والماتريدية المعاصرين، بأنهم أهل السنة؛ لأنهم الأكثرون فى بلاد المسلمين، كما أن الأكثرية ليست دليلًا كافيًا على الصواب، إنما العبرة باتباع الرسول ﷺ والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ واتباع هدى الصحابة والتابعين وأئمة الهدى الأعلام فى العصور الثلاثة الفاضلة، والذين اتبعوهم واقتفوا آثارهم، ولم يغيروا ولم يبدلوا إلى يوم الدين مهما قلّوا.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: فإن الأكثرية من المسلمين اليوم هم العامة الذين يغلب عليهم الجهل، وعدم الإلمام بتفصيلات العقائد، وهؤلاء جمهورهم على الفطرة، والأصل فيهم البراءة وسلامة الاعتقاد، ومن كان هذا وصفه فهو داخل فى سواد المسلمين أهل السنة، ما لم تجتلهم شياطين البدع والخرافات، وشياطين الفرق والطرق والأهواء، ودعاة الضلالة. والله أعلم

* * *

(١) انظر الحديث السابق.

الفهرس

جامع المسائل العقدية

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

دار اللؤلؤة

الجزء الحادي عشر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(باب ذكر الماتريدية)[١]

١. التعريف بمؤسس الماتريدية

تنتسب هذه الطائفة إلى أحد علماء القرن الثالث الهجرى وهو محمد بن محمد بن محمود المعروف بأبى منصور الماتريديى، ولد فى ماتريد وهى من بلدان سمرقند فيما وراء النهر، ولا يعرف على وجه اليقين سنة مولده، وقد توفى سنة ٣٣٣هـ على أرجح الأقوال[٢].

تلقى علوم الفقه الحنفى والكلام على أحد كبار علماء ذلك العصر وهو نصر بن يحيى البلخى المتوفى سنة ٣٨٦هـ، وغيره من كبار علماء الأحناف، كأبى نصر العياض وأبى بكر أحمد الجوزجانى وأبى سليمان الجوزجانى، حتى أصبح من كبار علماء الأحناف وقد تتلمذ عليه بعض المشاهير فى علم الكلام.

لقد كان لأبى منصور مناظرات ومجادلات عديدة مع المعتزلة فى الأمور التى خالفهم فيها، وقد اتحد فى الهدف مع الأشعرى فى محاربة المعتزلة وكان معاصرًا له، وأما فى العقائد فكان على اتفاق مع ما قرره أبو حنيفة فى الجملة، مع مخالفته فى أمور وله مؤلفات كثيرة فى مختلف الفنون، منها: بيان وهم المعتزلة - تأويلات أهل السنة - الدرر فى أصول الدين - الرد على تهذيب الكعبى فى الجدل - عقيدة الماتريدية - كتاب التوحيد وإثبات الصفات - كتاب الجدل - مأخذ الشرائع فى أصول الفقه - المقالات.

وكان يلقب فيما وراء النهر بإمام السنة وبإمام الهدى[٣]، وقد وقف فى وجه

(١) انظر الماتريدية للشمس الأفغانى ج١ ص٢١٤.
(٢) انظر كتاب فرق معاصرة - د. غالب بن على العواجى.
(٣) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية ١/ ١٩٧ بل هو إمام من أئمة الكلام والتأويل.

المعتزلة الذين كانوا فيما وراء النهر إلا أنه كان قريبا منهم فى النظر إلى العقل، ولم يغل فيه غلوهم، بل اعتبره مصدرًا آخر إضافة إلى المصدر الأساسى وهو النقل، مع تقديم النقل على العقل عند الخلاف بينهما[1] إلا إنه يعتبر معرفة الله واجبة بالعقل قبل ورود السمع وإن الله يعاقبه على عدم هذه المعرفة.

٢. أهم آراء الماتريدى إجمالاً

١. لا يرى الماتريدى مسوغًا للتقليد، بل ذمه وأورد الأدلة العقلية والشرعية على فسادة وعلى وجوب النظر والاستدلال.

٢. يذهب فى نظرية المعرفة إلى لزوم النظر والاستدلال، وأنه لا سبيل إلى العلم إلا بالنظر، وهو قريب من آراء المعتزلة والفلاسفة فى هذا، ثم يذكر أدلة كثيرة على وجود الله، مستخدمًا أدلة المعتزلة والفلاسفة فى حدوث الأجسام وأنها دليل على وجود الله.

٣. يوافق فى الاعتقاد فى أسماء الله السلف، ويرى أن أسماء الله توقيفية، فلا نطلق على الله أى اسم إلا ما جاء به السمع، إلا أنه يؤخذ على الماتريدية أنهم لم يفرقوا بين باب الإخبار عن الله وبين باب التسمية فأدخلوا فى أسمائه ما ليس منها كالصانع والقديم والشىء، والسلف يخالفونهم فى هذا وقد عطل الماتريدية كثير من أسماء الله تعالى وأولوها.

٤. يرى أن المؤمنين يرون ربهم والكفار لا يرونه، ويخالف الأشعرى هنا فى أن الماتريدى يرى أن الأدلة على إمكان رؤية الله تعالى عقلًا غير ممكنة، بينما يستدل عليها أبو الحسن الأشعرى بالعقل، إلا إنهم خالفوا السلف فنفوا

(١) هذا من باب الإخبار عن مذهب الماتريدى، وإلا فإن العقل السليم لا يعارض النقل الصحيح.

المقابلة والجهة مطلقًا، وذلك بسبب نفيهم عن الله علو الذات كما أن إثباتهم للرؤية ونفى الجهة والمقابلة فيه تناقض فإن الله تعالى يرى فى جهة العلو.

٥. هو أقرب ما يكون إلى السلف فى سائر الصفات، فهو يثبت الاستواء على العرش وبقية الصفات دون تأويل لها ولا تشبيه، أى فى الصفات التى تثبت عند الماتريدية بالعقل لكنهم يؤولون ما عداها، كما أنهم يعتقدون أن صفات الله لاهى هو ولا غيره وهو تناقض منهم.

٦. فى القضاء والقدر هو وسط بين الجبر والاختيار، فالإنسان فاعل مختار على الحقيقة لما يفعله ومكتسب له وهو خلق لله، حيث يخلق للإنسان عندما يريد الفعل قدرة يتم بها، ومن هنا يستحق المدح أو الذم على هذا القصد، وهذه القدرة يقسمها إلى قسمين:

- قدرة ممكنة: وهى ما يسميها: لسلامة الآلات وصحة الأسباب.
- وقدرة ميسرة، زائدة على القدرة الممكنة: وهى التى يقدر الإنسان بها على الفعل المكلف به مع يسر، تفضلًا من الله تعالى.

٧. يقول الماتريدى بخلق أفعال العباد، وهو يفرق بين تقدير المعاصى والشرور والقضاء بها، وبين فعل هذه المعاصى، فالأول من الله والثانى من العبد بقدرته واختياره وقصده. ويمنع أبو منصور من إضافة الشر إلى الله فلا يقال: رب فى الأوراث والخبائث ولو أنه خالق كل شىء، وهذا الشق الأخير معروف عن السلف، أما تقسيمه القدرة وجعل العبد فاعلًا باختياره وقصده وقدرته من وجه، ولو كان الله هو الفاعل من وجه آخر، فيه حيد عن مذهب السلف فى ذلك، ونسبة الماتريدية الفعل إلى العبد يقصدون به أن الله لا يخلق فعل العبد إلا بعد أن يريده العبد ويختاره فيصبح ذلك العمل كسبًا له يجازى به

حسب اختياره له وإرادته المستقله له.

٨. فى مسائل الإيمان: لا يقول بالمنزلة بين المنزلتين، ولا يقول بخروج مرتكب الكبيرة عن الإسلام. ويرى أن الإيمان هو التصديق بالقلب، دون الإقرار باللسان، ومن هنا يفترق الماتريدى عن السلف. وعنده لا يجوز الاستئناء فى الإيمان، لأن الاستثناء يستعمل فى موضع الشكوك والظنون. وهو كفر، وأهل السنة قالوا بجواز الاستثناء فى الإيمان لأنه يقع على الأعمال لا على أصل الإيمان أو الشك فى جود الإيمان.

وبين الماتريدى والأشعرى مسائل كثيرة اتفقوا فيها وأخرى اختلفوا فيها، فمما اختلفوا فيه(١):

١. مسألة القضاء والقدر: فقال الماتريدية: إن القدر هو تحديد الله أزلًا كل شىء بحده الذى سيوجد به من نفع، وما يحيط به من زمان ومكان، والقضاء: الفعل عند التنفيذ.

وقال الأشاعرة: إن القضاء هو الإرادة الأزلية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص، والقدر: تعلق تلك الإرادة بالأشياء فى أوقاتها المخصوصة أى أن الأشاعرة يرون أن المحبة والرضى والإرادة بمعنى واحد، بينما يرى الماتريدية أن الإرادة لا تستلزم الرضى والمحبة.

٢. واختلفوا فى أصل الإيمان، فذهب الماتريدية إلى أنه يجب على الناس معرفة ربهم، ولو لم يبعث فيهم رسولًا بينما ذهب الأشعرية إلى أن هذه المعرفة

---

(١) لم يكن بين الماتريدى والأشعرى أى تقارب بل وحتى مجرد المعرفة، وقد أرجع بعض الباحثين تقارب المذهب الأشعرى مع الماتريدى إلى أخذ الجميع عن ابن كلاب لأن الأشعرى كان كلابيًا قبل أن يدخل مذهب السلف.

واجبة بالشرع لا بالعقل كما تعتقد الماتريدية.

وذهب الأشاعرة إلى عدم وجوب الإيمان وعدم تحريم الكفر قبل بعثة الرسل.

٣. اختلفوا فى صفة الكلام، فترى الماتريدية أن كلام الله لا يسمع وإنما يسمع ما هو عبارة عنه بينما يرى الأشاعرة جواز سماع كلام الله تعالى.

٤ . كما اختلفوا فى زيادة الإيمان ونقصانه وشرطه.. الخ.

٥ . واختلفوا فى المتشابهات كما أسلفنا.

٦ . كما اختلفوا فى النبوة هل يشترط فيها الذكورة؟ فجعلها الماتريدية شرطًا، ونفى ذلك الأشاعرة عنها، واحتج هذا الفريق بقوله تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى)، ورد الفريق الأول بأن الإيحاء هنا بمعناه الواسع وهو الإلهام.

وهذه المسألة الأخيرة وهى نبوة النساء وعدمها مما وقع فيه الخلاف بين العلماء إلا أن الحق أن النبوة مختصة بالرجال، وليس هنا موضع بحث هذه القضية بالتفصيل.

٧. اختلفوا فى التكليف بما لا يطاق، فمنعه الماتريدية وجوزهُ الأشاعرة.

٨. اختلفوا فى الحكمة والتعليل فى أفعال الله تعالى فأثبتتها الماتريدية ونفتها الأشاعرة.

٩ . اختلفوا فى التحسين والتقبيح، فقال به الماتريدية وأن العقل يدركهما، ومنع الأشاعرة ذلك، وقالوا: إنما يتم التحسين والتقبيح بالشرع لا بالعقل.

١٠ . اختلفوا فى إيمان المقلد، فجوزته الماتريدية بينما منعه الأشاعرة واشترطوا أن يعرف المكلف كل مسألة بدليل قطعى عقلى[1].

(١) انظر: عقيدة التوحيد فى فتح البارى شرح صحيح البخارى ص٩٨، ١٠١، وانظر: "الماتريدية دراسة وتقويمًا" ص: ٣٩٨ - ٥٠١.

١١ . اختلفوا فى معنى كسب العباد لأفعالهم، بعد اتفاقهم جميعًا على أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى، فعند الماتريدية يجب التفريق بين المؤثر فى أصل الفعل والمؤثر فى صفة الفعل، فالمؤثر فى أصل الفعل قدرة الله تعالى والمؤثر فى صفة الفعل قدرة العبد وهو كسبه واختياره.

وعند الأشاعرة: إن أفعال العبد الاختيارية واقعة بقدرة الله وحدها وليس للعبد تأثير فيها، بل إن الله يوجد فى العبد قدرة واختيارًا يفعل بهما إذا لم يوجد مانع فالفعل مخلوق لله والعبد مكتسب له.

وأما الاختلاف بين الماتريدية والمعتزلة فهو

١ . اختلفوا فى مصدر التلقى هل هو العقل أو النقل؟ فذهب المعتزلة إلى أنه العقل، وتوسط الماتريدية فقالوا بالعقل فيما يتعلق بالإلهيات والنبوات. وأما فيما يتعلق باليوم الآخر فمصدره السمع، وكذا سموا هذه المسائل ونحوها بالسمعيات.

٢ . الأسماء: أسماء الله عند المعتزلة ثابتة، ولكن بلا دلالة على الصفات، فقالوا: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر... إلى آخره.

وعند الماتريدية هى ثابتة بدلالاتها على الصفات الثابتة عندهم إلا اسم "الله" فليس له دلالة على شىء من الصفات [وقولهم هذا باطل لا معنى له].

٣ . الصفات: نفى المعتزلة جميع الصفات القائمة بذات الله تعالى.

بينما أثبت الماتريدية ثمان صفات: العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والتكوين.

٤ . القرآن: يعتقد المعتزلة أنه كلام الله محدث مخلوق. ويعتقد الماتريدية أنه كلام الله النفسى وأنه قديم أزلى غير مخلوق.

٥. أفعال العباد. نفت المعتزلة خلق الله لها وإرادته لها، وإنما هى من العباد، وأثبتت الماتريدية أنها خلق لله تعالى. وكسب من العباد لها.

٦. الاستطاعة: نفى المعتزلة أن تكون مع الفعل بل هى قبله، بينما أثبتتها الماتريدية قبل الفعل ومع الفعل.

٧. الرؤية: نفتها المعتزلة وأثبتتها الماتريدية.

٨. الجنة والنار: غير مخلوقتين ولا موجودتين الآن عند المعتزلة، بل تنشأ فى يوم القيامة، وقالت الماتريدية بخلقهما الآن.

٩. ينفى المعتزلة نعيم القبر وعذابه والميزان والصراط والحوض والشفاعة لأهل الكبائر. وأثبتت الماتريدية كل ذلك لورود السمع به.

١٠. نفت المعتزلة كرامات الأولياء وأثبتتها الماتريدية.

١١. الإيمان عند المعتزلة قول واعتقاد وعمل، وعند الماتريدية هو التصديق بالقلب، ومنهم من زاد الإقرار باللسان.

١٢. مرتكب الكبيرة فى منزلة بين المنزلتين عند المعتزلة فى الدنيا، وأما فى الآخرة فهو فى النار، وعند الماتريدية هو مؤمن كامل الإيمان مع أنه فاسق بمعاصيه، وفى الآخرة هو تحت المشيئة.

١٣. لا يصح إيمان المقلد عند المعتزلة، وذهب الماتريدية إلى صحته مع الإثم على ترك الاستدلال.

١٤. عند المعتزلة الإيمان يزيد وينقص، لإدخالهم الأعمال فى مسمى الإيمان، ونفت الماتريدية ذلك لعدم إدخالهم الأعمال فى مسمى الإيمان.

وأما المسائل التى وافقت فيها الماتريدية المعتزلة فهى كما يلى

١. القول بوجود معرفة الله تعالى بالعقل.

٢. الاستدلال على وجود الله بدليل الأعراض وحدوث الأجسام.

٣. الاستدلال على وحدانية الله تعالى بدليل التمانع.

٤. القول بعدم حجية خبر الآحاد فى العقائد.

٥. نفى الصفات الخبرية والاختيارية.

٦. القول بعدم إمكان سماع كلام الله.

٧. القول بالحكمة والتعليل فى أفعال الله تعالى.

٨. القول بالتحسين والتقبيح العقليين.

٩. عدم جواز التكليف بما لا يطاق.

١٠. منع الاستثناء فى الإيمان.

١١. القول بأن معنى الإيمان والإسلام واحد[١].

وفيما سبق يتضح أن فرقة الماتريدية لم تنهج منهج السلف فيما يتعلق بالأمور الاعتقادية، وأن من وصفهم بأهل السنة أو العقيدة السلفية فقد بالغ فى ذلك وجانب الحكم الصحيح.

ولكى تتضح المقارنة بين عقيدة الماتريدية وبين العقيدة السلفية أحب أن تطلع أخى القارئ على هذا الملخص المفيد الذى تتضح به الفوارق بين عقيدة الماتريدية وبين عقيدة السلف بإيجاز، أكتفى به عن إطالة الردود لإيفائه بالغرض لموافقته القصد من تقديم هذه العجالة عن الماتريدية.

وقبل إيراد هذا الملخص، إليك بيان الأسس والقواعد التى قام عليها مذهب الماتريدية.

---

(١) انظر: "الماتريدية دراسة وتقويمًا" ص٥٠٣ ٥٠٨، ولمزيد من التفصيل عن الماتريدية انظر كتاب "عداء الماتريدية للعقيدة السلفية" تأليف الشمس الأفغانى.

١ . مصدرهم فى التلقى فى الإلهيات والنبوات هو العقل.

٢ . معرفة الله واجبة بالعقل قبل ورود السمع.

٣. القول بالتحسين والتقبيح العقليين.

٤ . القول بالمجاز فى اللغة والقرآن والحديث.

٥ . التأويل والتفويض.

٦ . القول بعدم حجية أحاديث الآحاد فى العقائد.

وأما بالنسبة لآرائهم التى خالفوا فيها السلف فمن أهمها ما يلى:

١ . خلاف الماتريدية فى مفهوم توحيد الألوهية، إذ هو عندهم بمعنى أن الله واحد فى ذاته لا قسم له ولا جزء له، واحد فى صفاته لا شبيه له، وواحد فى أفعاله لا شريك له. وأهل السنة يخالفونهم فى هذا المفهوم لتوحيد الألوهية.

٢ . اعتمدت الماتريدية فى إثبات وجود الله تعالى على دليل حدوث الأعراض والأجسام، وهى طريقة باطلة لا اعتبار لها عند السلف، وإنما هى طريقة غلاة الفلاسفة وأهل الكلام المذموم.

٣. يستدل الماتريدية على وحدانية الله تعالى بقوله ﷻ: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) وهو ما يسميه البعض بدليل التمانع، وقد خطأهم السلف فى هذا المفهوم، مع إقرار السلف بأن دليل التمانع صحيح فى دلالته على امتناع صدور العالم عن إلهين، لكن ليس هذا هو المقصود من الآية الكريمة.

٤ . تثبت الماتريدية جميع الأسماء الحسنى لدلالة السمع عليها، إلا إنهم غلوا فى الإثبات ومدلول الأسماء لعدم تفريقهم بين ما جاء فى باب التسمية وبين ما جاء فى باب الإخبار عن الله، فمدلول الاسم عندهم هو الذات وهذا خاص

فى اسم "الله" فقط، وأما ما عداه فمدلوله يؤخذ عندهم من الصفات التى أثبتوها فلم يقفوا على ما ثبت بالسمع فقط.

٥. وقف الماتريديون فى باب الصفات على إثبات بعض الصفات دون غيرها، فأثبتوا من الصفات: القدرة، العلم، الحياة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام، التكوين، وذلك لدلالة العقل عليها عندهم، وهو تحكم باطل، وقد ألزمهم السلف بإثبات ما نفوه بنفس الدليل الذى أثبتوا به تلك الصفات الثمانية.

٦. نفت الماتريدية جميع الصفات الخبرية الثابتة بالكتاب والسنة، لأن فى إثباتها -بزعمهم- مخالفة للعقل الذى يرى فى إثباتها ما يدعو إلى وصف الله تعالى بالتشبيه والتجسيم.

ولقد دحض السلف هذا المفهوم الباطل والاعتقاد الخاطئ، وكذلك نفوا ثبوت الصفات الاختيارية لله تعالى التى هى صفات الفعل اللازمة لله تعالى، لأنها كذلك تؤدى إلى التشبيه والتجسيم، وقد أبطل السلف هذا المفهوم وفندوا شبههم.

٧. يعتقد الماتريديون أن كلام الله تعالى معنى واحد قديم أزلى، ليس له تعلق بمشيئة الله تعالى وقدرته، وأنه ليس بحرف ولا صوت، بل هو كلام نفسى لا يسمع، بل المسموع منه إنما هو عبارة عنه، وهو اعتقاد باطل مخالف للكتاب والسنة ولما عليه السلف.

٨. حصر الماتريديون الدليل على صدق الأنبياء فى ظهور المعجزات على أيديهم، لأنها تفيد العلم اليقينى وحدها بزعمهم.

والسلف لا يختلفون فى أن المعجزات دليل صحيح معتبر لصدق الأنبياء، ولكنهم يخالفونهم فى حصر أدلة صدق الأنبياء فى المعجزات فقط دون النظر

إلى الأدلة الأخرى.

٩. يرى الماتريديون أن كل المسائل المتعلقة باليوم الآخر لا تعلم إلا بالسمع، والسلف يخالفونهم فى هذا، ويقولون: إن تلك المسائل علمت بالسمع ودل عليها العقل أيضًا.

١٠. أثبت الماتريديون رؤية الله تعالى، ولكنهم نفوا الجهة والمقابلة، وخالفهم السلف واعتبروا قول المتاريدية تناقضًا واضطرابًا فى مفهومهم للرؤية، ويؤدى إلى إثبات ما لا يمكن رؤيته، وإلى نفى جهة العلو المطلق الثابت لله تعالى.

١١. اعتبر السلف ما ذهب إليه الماتريديون فى خلق أفعال العباد اعتقادًا خاطئًا لما فيه من إثبات إرادة للعباد مستقلة -عن مشيئة الله تعالى، وأن خلق الله لأفعالهم إنما هو تبع لإرادتهم غير المخلوقة، والسلف يعتقدون أن لله تعالى وحدة المشيئة وأن للعباد مشيئة لا تخرج عن مشيئة الله تعالى.

١٢. ذهبت الماتريدية إلى أن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، وقال بعضهم: إنه التصديق بالقلب والإقرار باللسان ومنعوا زيادته ونقصانه وحرموا الاستثناء فيه ومنعوا التفريق بين مفهوم الإيمان والإسلام.

وخالفهم السلف فى كل ذلك فإن الإيمان عندهم هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان والعمل بالأركان وأنه يزيد وينقص ويجوز الاستثناء فيه لعدم جواز تزكية النفس. وأما الإسلام والإيمان فإنهما متلازمان، إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا كما هو الحال فى مفهوم الفقير والمسكين ونحو ذلك.

١٣. يرى الماتريديون أن الفاسق مؤمن كامل الإيمان، بينما يرى السلف أنه

مؤمن بإيمان فاسق بكبيرته، فلا يسلبون منه الإيمان ولا يثبتون له الكمال فيه[١].

(باب ذكر الخوارج)

الخوارج[٢] فرقة كبيرة من الفرق الاعتقادية، وتمثل حركة ثورية عنيفة فى تاريخ الإسلام شغلت الدولة الإسلامية فترة طويلة من الزمن بل ولا يزال لهم وجودهم القوى إلى اليوم.

ولقد بسطوا نفوذهم السياسى على بقاع واسعة من الدولة الإسلامية فى المشرق وفى المغرب العربى، وفى عُمَان وحضرموت وزنجبار (تنزانيا الآن) وما جاورها من المناطق الأفريقية فى المغرب العربى، ولا تزال لهم ثقافتهم المتمثلة فى المذهب الإباضى المنتشر فى تلك المناطق.

ولا يخفى كذلك أن بعض أفكار الخوارج المتعلقة بتكفير العصاة لا يزال لها أتباع حتى وقتنا الحاضر.

هل للخوارج مصنفات تحمل آراءهم ؟

يقول الدكتور غالب بن على: وإذا استثنينا ما كتبه الإباضية -على قِلَّتِهِ- فإننا لا نجد مرجعًا لمعرفة آراء بقية الخوارج إلا ما حكاه عنهم المؤرخون وعلماء الفرق، وفى هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأقوال الخوارج إنما عرفناها من نقل الناس عنهم، لم نقف لهم على كتاب مصنف كما وقفنا على

---

(١) لقد اهتمت كتب العقيدة ببيان تفاصيل كل تلك المسائل، وهى مسائل طويلة تحتاج إلى دراسة مطولة وما أثبته هنا يكفى إذ الغرض هو الإشارة والإيجاز.
انظر: "الماتريدية دراسة وتقويمًا" ص ٥١٤ - ٥١٧ وتفصيل ذلك فى هذا الكتاب الذى تخصص فى دراسة الماتريدية بالإضافة إلى المراجع التى ذكرناها سابقًا.

(٢) الكلام على هذه الفرقة مختصر من كتاب "الخوارج تاريخهم وآراؤهم الاعتقادية وموقف الإسلام منها" د. غالب بن علىّ عَواجَى.

كتب المعتزلة والرافضة والزيدية والكرَّامية والأشعرية، وأهل المذاهب الأربعة، والظاهرية، ومذاهب أهل الحديث، والفلاسفة، والصوفية، ونحو هؤلاء"(١).

ويقول الدكتور مصطفى حلمى فيما يعزوه إلى الخطيب على بن الحسين الهاشمى: "ومن العسير الوقوف على معتقدات الخوارج من واقع كتبهم نفسها لحرصهم الشديد عليها وهى نادرة إن وجدت، فالغالب أن مكتبات المسلمين عارية عن مؤلفاتهم"(٢).

ويقول الدكتور محمود إسماعيل: "والواقع إن عديدًا من المصاعب تعترض سبيل من يتصدى للتأريخ لهذا الموضوع، ففى بعض الأحيان تندر المادة التاريخية.. فعلى الرغم من كثرة ما دون عن تواريخ الخوارج لم يصل إلينا منها إلا القليل النادر"(٣).

ويرجع قلة تأليف الخوارج وضياع ما ألفوه إلى طبيعة حياتهم الثورية حيث كانت الثورات والمعارك تأخذ منهم جهودهم وأوقاتهم، فيصعب عليهم وضع المؤلفات فى تاريخهم وتسجيل آرائهم.

ومما لا شك فيه أن قلة مؤلفات الخوارج وضياعها وندرة ما بقى منها أو عدم إظهاره- مما لا شك فيه أن كل ذلك يضع الصعوبات أمام المؤرخ لهم ويجعله عالة على كتب التاريخ وعلماء الفرق والموسوعات الأدبية القديمة.

وقد حاولت التغلب على هذه الصعوبة باذلًا فى ذلك غاية جهدى، فرحلت

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى جـ١ ص٣٦.
(٢) الخوارج ص١٨.
(٣) الخوارج فى المغرب الإسلامى ص٦ وانظر: ص١٥.

إلى مصر وعمان والكويت، واتصلت ببعض المشتغلين بدراسة الخوارج وكذلك بالمكتبات العامة.

التعريف بالخروج والخوارج

عرف الشهرستانى فى الملل والنحل الخوارج تعريفًا سياسيًا عامًا، اعتبر فيه الخروج على الإمام المتفق على إمامته الشرعية خروجًا فى أى زمن كان حيث يقول: "كل من خرج على الإمام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًا، سواء كان الخروج فى أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة فى كل زمان"(١).

وقد زاد ابن حزم على ذلك بأن اسم الخارجى يلحق كل من أشبه الخارجين على الإمام على وشاركهم فى آرائهم فقال: "ومن وافق الخوارج من إنكار التحكيم، وتكفير أصحاب الكبائر، والقول بالخروج على أئمة الجور، وأن أصحاب الكبائر مخلدون فى النار، وأن الإمامة جائزة فى غير قريش فهو خارجى"(٢).

أسماء الخوارج وألقابهم

للخوارج أسماء كثيرة أطلقها عليهم علماء الفرق والمؤرخون. والخوارج يرضون ببعضها وينكرون البعض الآخر. ومن هذه الأسماء ما يأتى:

١. الخوارج

وهو أشهر أسمائهم وأكثرها استعمالًا، وقد ورد على ألسنة كتَّاب المقالات والتاريخ وتكاد بقية أسمائهم الأخرى بالنسبة إلى هذا الاسم تختفى وهو الاسم

---

(١) الملل والنحل جـ١ ص١١٤.

(٢) الفصل لابن حزم جـ٢ ص١١٣.

الذى يشمل جميع فرقهم، وهو اسم يحتمل أن يكون مدحًا لهم أو ذمًا.

فإذا كانت التسمية- كما يريد الخوارج- مأخوذة من قوله تعالى: (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرًا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) فهى تسمية مدح وتكون هذه التسمية منهم، وقد سموا أنفسهم بذلك اعتبارًا لهذا المعنى كما ستأتى أقوالهم فى هذا قريبًا.

وأما إذا أخذت التسمية بمعنى الخروج على الأئمة أو على الناس أو عن الدين أو عن على بن أبى طالب رضي الله عنه، فهى ولا شك تسمية ذم لهم ويكون مخالفوهم هم الذين سموهم بهذا الاسم باعتبار هذه المعانى، وهو ما سار عليه كثير ممن كتب عن هذه الفرقة من علماء الفرق وغيرهم[1]، على أن إنكار الخوارج لهذه المعانى إنما هى باعتبار أنهم مخطئون فيها، وإلا فإن الخروج على الأئمة أو على الناس أو عن على بن أبى طالب كانت حقًا فى نظرهم.

وقد أجمع مؤرخو الفرق على تسميتهم بهذا الاسم (الخوارج)[2].

وقد وردت روايات عديدة فى فتح البارى معزوة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر عن الخوارج بهذا الاسم، فعند البزار من طريق الشعبى عن مسروق عن عائشة قالت: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخوارج: فقال: "هم

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين جـ١ ص٢٠٧، فتح البارى جـ١٢ ص٢٨٣، تاج العروس جـ٢ ص٣، المعجم الوسيط جـ١ ص٢٢٤، البحرين فى صدر الإسلام ص١٢٧، القاموس الإسلامى ص٢٢٤ جـ٢، المنجد ص١٦٩، محيط المحيط ص٥١٩، الرائد ص٦٤٧.

(٢) انظر: البداية والنهاية ص١٧٠ جـ٧.

شرار أمتى يقتلهم خيار أمتى". وسنده حسن. ثم أورد ابن حجر فى فتح البارى عدة روايات من هذا القبيل[١].

ويروى ابن الجوزى الحديث الآتى بعد أن جاء بسند ينتهى إلى عبد الله بن أوفى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الخوارج كلاب أهل النار)[٢].

٢. الحرورية:

نسبة إلى الموضع الذى خرج فيه أسلافهم حينما انشقوا وخرجوا عن جيش الإمام على فاتجهوا إلى هذا الموضع، فنسبت هذه الطائفة إليه وهو موضع قريب من الكوفة يسمى حروراء.

يقول الأشعرى مبينًا سبب تسميتهم بالحرورية: "والذى سموا له حرورية نزولهم بحروراء فى أول أمرهم"[٣]، وهكذا عند البغدادى.

وقال ابن عباس: "ليس الحرورية بأشد اجتهادًا من اليهود والنصارى وهم يضلون"[٤].

٣. الشُّراة:

ويقول الأشعرى فى سبب تسميتهم بالشُّراة: "والذى له سموا شراة: قولهم: شرينا أنفسنا فى طاعة الله أى بعناها بالجنة"[٥].

٤. المارقة:

بسبب خروجهم عن جيش الإمام على.

---

(١) فتح البارىجـ١٢ ص٢٨٦.

(٢) تلبيس إبليس ص٩٦، صحيح الجامع (٣٣٤٧).

(٣) مقالات الأشعرى جـ١ ص٢٠٧، الفرق بين الفرق ص٧٥.

(٤) التنبيه والرد للملطى ص١٧٤.

(٥) مقالات الأشعرى جـ١ ص٢٠٧.

وقال الشهرستانى: "وهم المارقة الذين اجتمعوا بالنهروان"[١].

٥. المُحَكِّمَةُ:

من أسمائهم أيضًا وهو من أوائل أسمائهم التى أطلقت عليهم، وقد أطلق عليهم بسبب إنكارهم تحكيم الحكمين وقولهم: "لا حكم إلا لله"[٢].

تلك أسماء الخوارج وألقابهم وهم يحبون هذه الأسماء كلها ولا ينكرون منها غير اسم واحد وهو تسميتهم بالمارقة.

قال الأشعرى: "وهم يرضون بهذه الألقاب كلها إلا بالمارقة، فإنهم ينكرون أن يكونوا مارقة من الدين كما يمرق السهم من الرمية"[٣].

نشأة الخوارج

١. متى خرجوا؟

يختلف المؤرخون فى تحديد بدء نشأة الخوارج على أقوال أهمها ما يلى:

القول الأول: أن أول الخوارج هو ذو الخويصرة أو عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى الذى بدأ الخروج بالاعتراض على النبى ﷺ فى قسمة الفىء واتهامه إياه بعدم العدل، وقد ورد فى حديث البخارى تحت "باب من ترك قتال الخوارج للتألف وأن لا ينفر الناس عنه" عن أبى سعيد قال: (بينما النبى ﷺ يقسم جاء عبد الله ابن ذى الخويصرة التميمى فقال: اعدل يا رسول الله فقال: ويلك من يعدل إذا لم أعدل؟! قال عمر بن الخطاب: دعنى أضرب عنقه. قال: دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه يمرقون

---

(١) الملل والنحل جـ١ ص١١٥.

(٢) مقالات الإسلاميين جـ١ ص٢١٧.

(٣) المقالات جـ١ ص٢٠٧.

من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر فى قذذه فلا يوجد فيه شئ، ثم ينظر فى نصله فلا يوجد فيه شئ، ثم ينظر فى رصافه فلا يوجد فيه شئ، ثم ينظر فى نضيه فلا يوجد فيه شىء قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل إحدى يديه -أو قال: ثدييه- مثل ثدى المرآة- أو قال: مثل البضعة -تدردر يخرجون على حين فرقة من الناس. قال أبو سعيد: أشهد سمعت من النبى ﷺ، وأشهد أن عليًا قتلهم وأنا معه جئ بالرجل على النعت الذى نعته النبى ﷺ. قال: فنزلت فيه: (ومنهم من يلمزك فى الصدقات)[1].

فهو -على ما يبدو من تبويبه لهذا الحديث- يعتبر ذا الخويصرة أول الخوارج، وأن رسول الله ﷺ قد ترك قتله للتألف.

وقد أخرج الإمام مسلم رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديث مع اختلاف فى الألفاظ.

وفى بعض الروايات التى ذكرها الإمام مسلم عن أبى سعيد ذكر أوصاف ذلك الرجل دون ذكر أسمه كما فى قوله: "بعث على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو باليمين بذهبة فى تربتها إلى رسول الله ﷺ، فقسمها الرسول ﷺ بين أربعة نفر، الأقرع بن حابس الحنظلى، وعيينة بن بدر الفزارى، وعلقمة بن علاثة العامرى، ثم أحد بنى كلاب، وزيد الخير الطائى، ثم أحد بنى نبهان.

قال: فغضبت قريش فقالوا: أيعطى صناديد نجد ويدعنا. فقال رسول الله ﷺ: "إنى إنما فعلت ذلك لأتألفهم. فجاء رجل كث اللحية مشرف الوجنتين غائر العينين ناتئ الجبين محلوق الرأس، فقال: اتق الله يا محمد. قال: فقال: رسول الله ﷺ: فمن يطع الله إن عصيته، أيأمننى على أهل الأرض ولا تؤمنونى؟ قال: ثم أدبر الرجل فاستأذن رجل من القوم فى قتله (يرون أنه خالد بن الوليد)،

---

(١) أخرجه البخارى جـ٨ ص٥٢،٥٣.

فقال رسول الله: إن من ضئضئ[١] هذا قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد".

القول الثاني: وهو للقاضى على بن أبى العز الحنفى شارح الطحاوية، الذى يرى أن نشأة الخوارج بدأت بالخروج على عثمان رضي الله عنه فى تلك الفتنة التى انتهت بقتله وتسمى الفتنة الأولى -يقول: "فالخوارج والشيعة حدثوا فى الفتنة الأولى"[٢].

القول الثالث:

أن نشأتهم بدأت بانفصالهم عن جيش الإمام على رضي الله عنه وخروجهم عليه، وهذا الرأى هو الذى عليه الكثرة الغالبة من العلماء إذ يعرفون الخوارج بأنهم هم الذين خرجوا على علىّ بعد التحكيم، ومن هؤلاء الأشعرى فقد أرخ للخوارج، وأقدم من أرخ لهم منهم هم الخارجون على الإمام على وقال عنهم: "والسبب الذى سموا له خوارج خروجهم على علىّ بن أبى طالب"[٣].

وقد أصبح إطلاق اسم الخوارج على الخارجين عن الإمام على أمرًا مشتهرًا بحيث لا يكاد ينصرف إلى غيرهم بمجرد ذكره.

هذه هى الأقوال فى بدء نشأة الخوارج، وعلينا فى اختيار ما نراه صحيحًا منها أن نفرق بين بدء نزعة الخروج على صورة ما، وظهور الخوارج كفرقة لها آراؤها الخاصة، ولها تجمعها الذى تحافظ عليه وتعمل به على نصرة هذه الآراء.

---

(١) الضئضئ: الأصل.

(٢) شرح الطحاوية ص٤٧٢.

(٣) مقالات الأشعريجـ١ ص٢٠٧.

والواقع أن نزعة الخروج -أو بتعبير أدق بدء نزعة الخروج- قد بدأت بذرتها الأولى على عهد رسول الله ﷺ باعتراض ذى الخويصرة عليه. لكن هل كان خروجًا حقيقيًا أم كان مجرد حادثة فردية اعترض فيها واحد من المسلمين على طريقة تقسيم الفىء طمعًا فى أن يأخذ منه نصيبًا أكبر؟ وهو الأمر الذى سنرجحه فيما بعد.

وأما القول بأن نشأتهم تبدأ بثورة الثائرين على عثمان رضي الله عنه، فلا شك أن ما حدث كان خروجًا عن طاعة الإمام إلا أنه لم يكن يتميز بأنه خروج فرقة ذات طابع عقائدى خاص لها آراء وأحكام فى الدين، غاية ما هنالك أن قومًا غضبوا على عثمان واستحوذ عليهم الشيطان حتى أدى بهم إلى ارتكاب جريمة قتله، ثم دخلوا بين صفوف المسلمين كأفراد منهم.

وهكذا يتضح الفرق بين مجرد وجود نزعة الاعتراض أو الثورة خروجًا عن طاعة الإمام، وبين الخروج فى شكل طائفة لها اتجاهها السياسى وآراؤها الخاصة، كخروج الذين خرجوا على علىّ رضي الله عنه منذ وقعة صفين، وهم الذين ينطبق عليهم مصطلح الخوارج بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وهذا هو القول الأخير الذى نختاره ونسير عليه فى هذه الرسالة مؤرخين لهذه الطائفة دارسين لآرائهم.

والواقع أن هذا هو ما يشهد له واقع تلك الحركة التى أحدثت دويًا هائلًا فى تاريخ هذه الأمة الإسلامية عدة قرون تميزت فيها بآراء ومعتقدات وأنظمة لفتت إليها أنظار علماء التاريخ والفرق الإسلامية، بخلاف ما سبقها من حركات فإنها لم يكن لها أثر فكرى أو عقائدى يذكر.

٢. كيف خرجوا بعد قبول التحكيم فى موقعة صفين؟

لقد تمت البيعة للإمام علىّ بعد مقتل عثمان ﵄ وقام معاوية بن أبى سفيان -وكان واليًا على الشام- يطالب بدم عثمان ويطلب من على تسليم قتلته وبدون هذا فإنه ممتنع عن البيعة له، وكان من رأى على أن يتمكن أولًا من دخول جميع الأمصار فى طاعته، خصوصًا وأن الخارجين كانوا أهل شوكة قوية وقد اندسوا فى الأمصار وأصبح طلبهم إبان هذه الثورة العارمة زيادة فى إيقاد نار الفتنة، أضف إلى ذلك أنه لا بد من التعرف على القتلة الحقيقيين وإقامة الحجة الشرعية عليهم حتى يمكن القصاص منهم، وكان ذلك كله يحتاج إلى وقت لم يمهله معاوية فيه خوفًا أن تطول المدة ويتفرق قتلة عثمان دون عقاب ولكل واحد من على ومعاوية ما يبرر موقفه ليتم الله أمرًا كان مقدرًا.

وبدون الدخول فى تفاصيل تاريخية ليس هذا موضعها تطور الخلاف بينهما إلى لقاء حربى فى موقعة صفين المشهورة، حيث كان الإمام علىٌّ على رأس جيشه من أهل العراق وكان معاوية على رأس أهل الشام.

وقد كان لهذه المعركة نتائج حاسمة بالغة الأهمية، ففى أثناء المعركة - وحينما بدت بوادر هزيمة جيش معاوية ولاح النصر فى جانب جيش الإمام على- استشار معاوية عمرو ابن العاص فى المخرج من هذا الأمر فأشار عمرو بن العاص بأن ترفع المصاحف فوق أسنة الرماح فرفع خمسمائة مصحف كما يقول المسعودى[(١)] وطالبوا أهل العراق بتحكيم كتاب الله فى هذه القضية التى سفكت فيها الدماء، فوافق هذا الطلب قبولًا من أهل العراق.

أما موقف على بن أبى طالب ﵁ من هذا الطلب، فإن أكثر المؤرخين يذكرون أنه وقف منه موقف الحذر الحازم ورأى من أول وهلة أن هذا الطلب

---

(١) مروج الذهب جـ٢ ص٤٠٠. والله أعلم عن صحة هذا العدد من المصاحف.

إنما يقصد به إيقاع الفتنة والفرقة بين جيشه من جهة وإعطاء الفرصة لجيش معاوية ليأخذ فترة يستعيد فيها قواه من جهة أخرى، فقد حذر على أصحابه من مغبة قبول هذا الطلب.

ولهذا أصر على مواصلة القتال وكان له أنصار يقطرون شجاعة وبسالة أمثال الأشتر النخعى الذى أشرف على إلحاق الهزيمة بجيش الشام، لولا منع على له عن مواصلة الحرب تحت تهديد تلك الفئة التى قبلت الدعوة إلى التحكيم.

ولكن قسمًا كبيرًا من جيش على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبوا إلا إيقاف القتال فورًا والبدء فى مفاوضة التحكيم وأبوا عليه إلا إفساد خطته والرضى برأيهم فى إيقاف الحرب وحملوه على قبوله بالقوة(١). بل أنهم أبدوا موافقتهم عليه فورًا دون أن يستشيروا عليًا كما يقول فلهوزن(٢)،ووصل بهم الأمر إلى أن هددوا عليًا نفسه بأنهم سيفعلون معه إذا لم يوقف القتال ما فعلوا بعثمان أو سيدفعونه برمته إلى معاوية.

وهم جماعة القراء -الذين صاروا خوارج فيما بعد- فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين قائلين له: يا على أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجب(٣)، وكان أشدهم خروجًا عليه ومروقًا من الدين -كما يقول الشهرستانى- الأشعث بن قيس الكندى، وزيد بن

---

(١) الملل والنحل جـ١ ص١١٥.

(٢) الخوارج والشيعة ص٢٦.

(٣) انظر: تاريخ الطبرى جـ٥ ص٤٩، الملل والنحل جـ١ ص١١٤، البداية والنهاية جـ٧ ص٢٧٤، شرح منهج البلاغة جـ٢ ص٢١٦-٢١٨، مروج الذهب جـ٢ ص٤٠٣.

حصين الطائى، ومسعر بن فدكي التميمى"[١].

وقد اعتقد هؤلاء القراء أن الدين يأمر بذلك، ولهذا فما ينبغى لهم الإعراض عن قبوله واحتجوا بقوله تعالى: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون)، فأرسلوا إلى أهل الشام طالبين منهم أن يبعثوا حكمًا من قبلهم وهم يبعثون حكمًا من قبلهم، وأن لا يحضر معهما إلا من لم يباشر القتال فمن رأوا الحق معه أطاعوه[٢].

ولقد كان الأشعث ممن لعب دورًا مهمًا فى هذا النزاع فكان ممن يحبذ قبول التحكيم وكان يطمئن عليًا بأن الناس قد سرهم التحكيم، وقد وصف بأن له دورًا مشكوكًا فيه، فقد مر بنا أن الشهرستانى وصفه بأنه من أشد الخارجين على عليّ وأشدهم مروقًا من الدين، ووصفه المسعودى بأنه كان "بدأ هذا الأمر -يعنى التحكيم- والمانع لهم من قتال عدوهم حتى يفيئوا إلى أمر الله"[٣]، ويصفه علي يحيى معمر بأنه كان من أكبر صنائع معاوية[٤].

ومن هنا نرى مدى الدور الذى سلكه القراء فى هذا المجال وأنهم كما وصفهم فلهوزن كانوا سريعى الإجابة إلى قبول تحكيم كتاب الله، وأن نداء أهل الشام أحدث "فى أهل العراق الأثر المطلوب خصوصًا فى القراء الأتقياء"[٥] كما ذكر.

---

(١) الملل والنحل جـ١ ص١١٤.

(٢) انظر: فتح البارى جـ١٢ ص٢٨٤.

(٣) مروج الذهب جـ٢ ص٤٠٤.

(٤) الإباضية فى موكب التاريخ جـ٢ ص٢٨٢.

(٥) الخوارج والشيعة ص٢٥.

ولقد تبين مصداق وصفه ﷺ لهم بأنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم وأنهم أهل عبادة، حيث كان المطالبون بقبول التحكيم من جيش على هم القراء الذين صاروا خوارج فيما بعد.

٣. إكراه علىّ رضي الله عنه على قبول التحكيم واختيار أبى موسى الأشعرى نائبًا عنه[١]

والقول بقبول الإمام على للتحكيم مكرهًا هو المشهور فى روايات المؤرخين وعلماء الفرق كما أسلفنا.

لقد أكره الخوارج الإمام عليًا على قبول التحكيم كما ذكرنا آنفًا، وقد أراد أن يتلافى ما فى ذلك التحكيم من مخاطر وذلك بإرسال من يمثله للمفاوضة ممن يرتضيهم فى صدق نية ورجاحة الفكر، ولكن وقف الخوارج مرة أخرى فى طريقه فأبوا إلا إرسال من يرتضونه هم، ذلك أن عليًا رضي الله عنه أراد أن يرسل الألمعى الذكى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فما رضى الخوارج بذلك وقالوا: هو منك، وهم يريدون -على حد زعمهم- رجلًا لم يكن قد انحاز إلى أى من الجانبين فأرادهم على الأشتر لما يعرف من إخلاصه له فأبوا أيضًا، فأكرهوه ثانيًا على أن يكون المرسل من قبله رجلًا لم يختره بنفسه[٢].

وأنا أستبعد -حسب رأيي- أن يقع الحال على ما ذكر، وقد أخطأ بعض الكتاب حينما نبز الصحابى الجليل أبا موسى الأشعرى رضي الله عنه بأنه ما كان مخلصًا لعلىّ ولا كان على جانب من الذكاء والفطنة، وأنه لم يكن أهلًا للمفاوضة ولا كفأ لعمرو ابن العاص إلى آخر ذمهم له، بما يتنافى مع الأدب

---

(١) انظر آخر هذا البحث.

(٢) انظر: تاريخ الطبرى جـ٥ ص٥١، وانظر: البداية والنهاية جـ٧ ص٢٧٧، شرح نهج البلاغة جـ٢ ص٢٢٨.

الواجب لصحابة رسول الله ﷺ، ولقد كان أبو موسى من خيرة الناس عقلًا وعدلًا ونصحًا للمسلمين، فليس هناك دليل على صحة وصفه بهذه الأوصاف القبيحة من عدم الذكاء والنصح، مع ما له من السبق فى الدين وشرف الصحبة والسفارة عن رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن وتوليهأمر القضاء وولايته لعمر على العراق، وهى أمور تشهد بفضله ورجاحة عقله.

ومن المؤسف أن كثيرًا من كتاب المسلمين ومؤرخيهم قد انخدعوا بدس الرافضة فى رواياتهم التى تطعن فى فضلاء الصحابة فى تصريحاتهم أو تلميحاتهم، مما يتوجب على من أراد الخير والحق أن يتثبت من صحة تلك الروايات التى ملئت بها كتب الرافضة وسرت إلى كتب بعض أهل السنة عن حسن ظن منهم بصحة تلك الروايات.

والواقع أن ما أوردته هنا من أن عليًا قبل التحكيم مكرهًا إنما هو متابعة لما كتبه علماء الفرق وأهل التاريخ، وإلا فإن فى النفس شكًا كبيرًا فى صحة ذلك، فإننى أستبعد أن تكره تلك الشرذمة عليًا وجيشه على قبول أمر لم يكونوا مقتنعين به وأن يفرضوا عليه ما أرادوه.

على أن ما يذكره أولئك الكتاب بعد ذلك عن صلابة أمير المؤمنين على فى الثبات على قبول التحكيم، إنما هو دليل واضح على اقتناعه به، كما أستبعد أيضًا أن يكون اختيار على لأبى موسى على كره منه له أيضًا، فهذا قول سخيف، إذا لا يقبل أى شخص أن يفاوض باسمه إلا من ارتضاه وإلا كان أحمق، وحاشا علىٌ من ذلك، خصوصًا وأن المفاوضة هى على أمر له ما بعده فى مجرى حياة الناس، فكيف يجبر الحاكم -خصوصًا مثل على رضي الله عنه- على هذا الضيم؟!

٤. وثيقة التحكيم:

والوثيقة بنصها أوردها الطبرى وابن الأثير وابن أبى الحديد والمسعودى

وغيرهم، وهى وثيقة مطولة تقرر فيها رضى الطرفين بالرجوع إلى كتاب الله حكمًا بينهم، فإن لم يوجد فإلى سنة نبيه ﷺ، وأن كل طرف آمن من الآخر وأن الكل ضد المخالف لما يتفق عليه الحكمان، وأن أجل القضاء إلى رمضان، فإن أحبا تأخيره فلهما ذلك برضاهما، وإذا مات أحدهما فى هذه المدة فعلى الطرف الآخر أن ينظر من يمثله ممن يرى فيه الصلاح، ولكل واحد من الحكمين ما اختار من الشهود.

ثم كتبت أسماء الشهود من جانب على عشرة من أصحابه ومن جانب معاوية مثلهم، وكتبوا فى آخرها "اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة". ولقد تمت كتابة الوثيقة فى يوم الأربعاء (١٣/ ٢/ ٣٧هـ) لثلاث عشرة خلت من صفر أو لليلة بقيت -كما يرى بعضهم- سنة سبع وثلاثين من الهجرة، وقد نصت هذه الوثيقة أيضًا على أن يكون التحكيم فى شهر رمضان أى بعد ثمانية أشهر بدومة الجندل، على أن يحضر من كل جانب أربعمائة[١].

٥. إنكار الخوارج للتحكيم بعد إكراه الإمام علىّ على قبوله:

وقد أحدث هذا الكتاب ضجة كبيرة بين أهل العراق فحينما دار به الأشعث على الناس يقرأه عليهم فرحًا مسرورًا كما وصفه المسعودى، ثارت ثائرتهم فقد غضب عروة بن أدية فضرب عجز دابة الأشعث، قال: أتُحكِّمون فى أمر الله ﷻ الرجال، لا حكم إلا الله.

حقًا إنه لغريب أمر هؤلاء الخوارج فبعد أن اضطروا عليًا إلى قبول التحكيم وكتب الكتاب وأعطيت العهود والمواثيق فى وفاء كل لصاحبه بما شرط، جاء

(١) انظر: تاريخ الطبرى جـ٥ ص٥٣/ ٥٤/ ٥٧. الكامل لابن الأثير جـ٣ ص٣١٩/ ٣٢١. مروج الذهب جـ٢ ص٤٠٣. شرح نهج البلاغة جـ٢ ص٢٣٤/ ٢٣٥ نقلًا عن نصر بن مزاحم.

زرعة بن البرج الطائى وحرقوص بن زهير السعدى إلى على يطلبان منه نقض ما عاهد عليه وشرط على نفسه بقولهما له: "تب من خطيئتك وارجع عن قضيتك، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا. فقال على: قد أردتكم على ذلك فعصيتمونى وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتابًا وشرطنا شروطًا وأعطينا عليهم عهودًا وقد قال تعالى: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم)"[١].

ولقد كان ثبات الإمام علىّ على التحكيم والوفاء بعهوده فيه دافعًا للخوارج إلى رفضه والخروج عليه، بل إلى تكفيره بهذا السبب، فقد اتفقوا بالإجماع على تكفيره كما ذكر ذلك كثير من كتاب المقالات[٢]، بل وصل بهم الأمر إلى أنهم لا يصححون المناكحات إلا باعتقاد البراءة من على وعثمان، ويقدمون ذلك على كل طاعة[٣].

٦. كيفية التحكيم:

سبق أن ذكرنا أن وثيقة التحكيم كتبت فى الثالث عشر من شهر صفر سنة ٣٧هـ، وحدد رمضان من نفس العام موعدًا لتمام التحكيم، ولما انتهت المدة وجاء وقت الاجتماع بعث علىّ أربعمائة شخص ورئيسهم شريح بن هانئ الحارثى وعبد الله بن عباس إمامهم فى الصلاة ووالى أمورهم. وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة رجل ثم التقوا بدومة الجندل بأذرج[٤].

٧. مدى صحة القول بوجود الخداع فى التحكيم:

هذه هى الصورة التى يثبتها كثير من المؤرخين لكيفية التحكيم وهم بذلك

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٣ ص٣٣٤.

(٢) مقالات الأشعرى جـ١ ص١٦٧، الفرق بين الفرق ص٨١.

(٣) الملل والنحل جـ١ ص١١٥.

(٤) تاريخ الطبرى جـ٥ ص٦٧، الكامل لابن الأثير جـ٣ ص٣٢٩.

يثبتون أنه قد كان هناك خداع فى التحكيم من جانب عمرو بن العاص، حيث أن الحكمين بعد أن اتفقا على خلع على ومعاوية سرًا ثم جاء دور الإعلان أعلن أبو موسى خلع صاحبه عليًا وثبت عمرو صاحبه معاوية فتسابا.. إلخ تلك القصة التى تشبه أن تكون هزلًا أكثر منها جدًا.

قال ابن العربى تعقيبًا على ما روى فى قضية التحكيم من الخداع: "هذا كله كذب صراح ما جرى منه حرف قط، وإنما هو شئ أخبر عنه المبتدعة ووضعته التاريخية للملوك، فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصى الله والبدع"(١).

ويقول ابن كثير فى وصف الحكمين: "والحكمان كانا من خيار الصحابة.. وإنما نصبا ليصلحا بين الناس ويتفقا على أمر فيه رفق بالمسلمين وحقن لدمائهم، وكذلك وقع ولم يضل بسببهما إلا فرقة الخوارج"(٢).

٨. إمارة عبد الله بن وهب الراسبى على الخوارج

لقد تمت البيعة له فى الكوفة بعد خلافهم الأخير مع الإمام عليّ وقبل أن تنتهى عملية التحكيم نفسها وتظهر نتيجتها.

فعندما أرسل علىّ أبا موسى للتحكيم اجتمع الخوارج فى منزل عبد الله بن وهب الراسبى فقام فيهم خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه ثم زهدهم فى الدنيا والرغبة فيما عند الله بإقامة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واحتساب ذلك لثواب الله، ثم قال لهم: "فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن، منكرين لهذه البدع المضلة"، فقام حرقوص ابن زهير وتكلم وزهد فى الدنيا والاغترار بها ثم قال لهم: "ولا

(١) العواصم من القواصم ص١٢٨.
(٢) البداية والنهاية جـ٦ ص٢١٦.

تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون".

فقام حمزة بن سنان الأسدى وقال لهم: "يا قوم إن الرأى ما رأيتم فولوا أمركم رجلًا منكم، فإنه لا بد لكم من عماد وسناد وراية تحفون بها وترجعون إليها". وهنا وقعوا فى مشكلة من سيقبل الخلافة فقد صار كل واحد ممن يصلح لها يحيلها عنه إلى غيره، فقد عرضوها على زيد بن حصين الطائى فأبى، ثم على حرقوص ابن زهير فأبى أيضًا، ثم على حمزة بن سنان فأبى كذلك، ثم شريح بن أوفى العبسى فامتنع، ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فقال: "هاتوها أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ولا أدعها فرقًا من الموت". وهكذا تمت بيعة ذى الثفنات[١] كما كان يقال له من شدة عبادته -فى شهر شوال لعشر خلون منه سنة سبع وثلاثين من الهجرة[٢].

محاورات عليّ رضي الله عنه للخوارج فى النهروان[٣]:

وقعت بين الإمام على وبين الخوارج -قبل نشوب المعركة- عدة محاورات، وحينما طلب منهم على رضي الله عنه بيان أسباب خروجهم عنه أجابوه بعدة أشياء، منها:

١. لماذا لم يبح لهم فى معركة الجمل أخذ النساء والذرية كما أباح لهم أخذ المال؟

---

(١) لخشونة يديه من جراء وضعهما على الأرض.

(٢) انظر: تاريخ الطبرى جـ٥ ص٧٤/ ٧٥، الكامل لابن الأثير جـ٣ ص٣٣٦.

(٣) انظر: الفرق بين الفرق ص٧٩، وشرح نهج البلاغة ٢/ ٢٧٥، الكامل للمبرد: ٢/ ١١٧.

٢. لماذا محى لفظة أمير المؤمنين وأطاع معاوية فى ذلك عندما كتب كتاب الهدنة فى صفين، وأصر معه على عدم كتابة "عَلىٌّ أمير المؤمنين"؟

٣. قوله للحكمين: إن كنتُ أهلًا للخلافة فأثبتانى. بأن هذا شك فى أحقيته للخلافة.

٤. لماذا رضى بالتحكيم فى حق كان له.

هذه أهم الأمور التى نقموا عليه من أجلها كما يزعمون، وقد أجابهم عن كل تلك الشبه ودحضها جميعًا حيث أجابهم عن الشبهة الأولى والتى تدل على جهلهم بما يلى:

١. أباح لهم المال بدل المال الذى أخذه طلحة والزبير من بيت مال البصرة، ثم هو مال قليل.

٢. النساء والذرية لم يشتركوا فى قتال وهم أيضًا مسلمون بحكم دار الإسلام ولم تكنمنهم ردة تبيح استرقاقهم.

٣. قال لهم: لو أبحت لكم استرقاق النساء والذرية فأيكم يأخذ عائشة سهمه فخجل القوم من هذا ورجع معه كثير منهم كما قيل.

وأجابهم على الشبهة الثانية

١. بأنه فعل كما فعل رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وذكر -إن صحت الرواية- أنه قال: أخبرنى رسول الله ﷺ أن لى منهم يومًا مثل ذلك.

والله أعلم بصحة هذه الرواية التى يتناقلها المؤرخون، ذلك أن معاوية رضي الله عنه ما كان يطالب بالخلافة حتى يحق له أن يطلب محو كلمة "أمير المؤمنين". ومعاوية كذلك يعرف أسبقية على وفضله، وإنما النزاع حول أمر آخر غير الخلافة، اللهم إلا أن يكون هذا الفعل من صنيع المفاوضين دون علم معاوية بذلك.

وأجابهم عن الشبهة الثالثة على افتراض صحة الرواية عنه: بأنه أراد النصفة لمعاوية ولو قال: احكما لى، لم يكن تحكيمًا، ثم استدل بقصة وفد نصارى نجران ودعوة الرسول ﷺ لهم إلى المباهلة لإنصافهم.

وأجابهم عن الشبهة الرابعة: بأن رسول الله ﷺ حكَّم سعد بن معاذ فى بنى قريظة فى حق كان له.

ثم نشبت المعركة مع من بقى منهم على عناده وهزم الخوارج شر هزيمة، وتذكرُ بعضُ كتب الفرق أنه لم ينجُ من الخوارج إلا تسعة، ولم يقتل من جيش على إلا تسعة[1]، وصار هؤلاء التسعة من الخوارج هم نواة الخوارج فى البلدان التى ذهبوا إليها، وفى هذا نظر[2]، وقتل زعيم الخوارج فى هذه المعركة وهو عبد الله بن وهب الراسبى سنة ٣٧ أو ٣٨هـ.

أسباب خروج الخوارج

الراجح أن أسبابا مجتمعة هى التى أدت بهم إلى الخروج، ونوجز أهم

---

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٥/ ٨٩، والبداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٢١٨، والكامل لبن كثير: ٣/ ٣٤٥، ومروج الذهب: ٢/ ٤١٧، وانظر: اعتراض على يحيى معمر على نتيجة المعركة فى كتابه الإباضية بين الفرق ص٦٨.

(٢) من جهة تلك النتيجة، حيث التقى أولئك فى معركة مصيرية ثم يقتل فيها كل الجيش ويبقى تسعة، ويسلم الجيش الآخر ولا يقتل منه إلا تسعة فقط، فإن التكلف فى هذه النتيجة ظاهر بخصوص هذا العدد، كما أنه ترده تلك الأحداث المتلاحقة التى أعقبت معركة النهروان من تتابع حركة الخوارج الثورية على على رضي الله عنه -إلى أن استشهد- لتبدأ أقوى مما كانت على الدولة الأموية.

كما أنه من التكلف أن يقال: إن كل واحد من التسعة الناجين من الخوارج كون مذهب الخوارج فى المنطقة التى ذهب إليها، خصوصًا وأن الروايات فى عدد الباقين فيها اضطراب واختلاف شديد، مما يجعل النتيجة غامضة. والله أعلم بحقيقة الأمر.

الأسباب فيما يلى:

١. النزاع حول الخلافة

وربما يكون هذا هو أقوى الأسباب فى خروجهم، فالخوارج لهم نظرة خاصة فى الإمام معقدة وشديدة، والحكام القائمون فى نظرهم لا يستحقون الخلافة، لعدم توفر شروط الخوارج القاسية فيهم، إضافة إلى أنهم فسروا الخلاف بين على ومعاوية رضى الله تعالى عنهما بأنه نزاع حول الخلافة. ومن هنا استسهلوا الخروج على عليّ ومعاوية من بعده.

٢. قضية التحكيم

فقد أجبروا الإمام عليًا على قبول التحكيم، وحينما تم ذلك طلبوا منه أن يرجع عنه بل ويعلن إسلامه، فرد عليهم ردًا عنيفًا.

٣. جور الحكام وظهور المنكرات

هكذا كان الخوارج يرددون فى خطبهم ومقالاتهم، أنَّ الحكّام ظلمة والمنكراتِ فاشيةٌ، والواقع أنهم حينما خرجوا فعلوا أضعاف ما كان موجودًا من المظالم والمنكرات.

وهناك أسباب أخرى: عوامل اقتصادية، كقصة ذى الخويصرة مع الرسول ﷺ، وثورتهم الممقوته على عثمان رضي الله عنه، حيث نهبوا بيت المال بعد قتله مباشرة، ونقمتهم على عليّ فى معركة الجمل.

حركات الخوارج الثورية وفرقهم وعددهم

أ. أشرنا فيما مضى إلى أن الخوارج قد كونوا لهم دولة وصار لهم نفوذ، وإذا تتبعنا حركاتهم الثورية فإننا نجدها متصلة عنيفة، ابتداء من خروج المحكِّمة على الإمام عليّ ومن خرج بعدهم على الإمام عليّ فى شكل جماعات حربية تثور هنا

وهناك عليه وعلى الحكام الأمويين من بعده حرب عصابات، إلى أن جاء نافع بن الأزرق سنة ٦٤هـ، وبدأ الخوارج يظهرون كفرق كبيرة امتدت إلى عصر الدولة العباسية، لا يَقَرُّ للخوارج قرارٌ أو يستكينون إلا ريثما يتم عددهم وعدتهم يمثلون المعارضة بالتعبير الحديث، وتلك الحركات مدونة فى كتب التاريخ والفرق مما لا نرى التطويل بذكره، لأنها أحداث تاريخية.

ب. فرق الخوارج:

أما فرقهم، فإن من رحمة الله بالناس أن الخوارج تفرقوا فيما بينهم، ولو اتحدوا لكانوا كارثة على المسلمين المخالفين لهم، ويذكر العلماء أنَّ الخوارج كانوا يختلفون ويفترقون لأتفه الأسباب، وحينما جاء نافع بن الأزرق ببعض التفاصيل فى المذهب كحكم التقية والقعدة[1] وأطفال المخالفين لهم فزاد الطين بله والنار اشتعالًا فتفرقوا فرقًا كثيرة قد لا يكون ضروريًا عدها هنا فإن بعض تلك الفرق انتهى فى وقته، وبعضها اندمج مع فرق أخرى، وبعضها رجع عن مقالاته كما فصلته كتب الفرق[2].

جـ. عدد فرق الخوارج:

إن كتب الفرق الإسلامية لم تتفق على تقسيم فرقهم الرئيسة أو الفرعية على

(١) أى هل يحل لهم المقام بين المخالفين أم لا يحل، ويكون المقيم بينهم كافرًا حلال الدم والمال، كما يرى نافع ذلك حتى وإن كان منهم، وحينما وصل نافع إلى إحداث تلك الأمور بينهم انفصلت عنه النجدات بقيادة نجدة بن عامر قائلين لنافع: أحدثت ما لم يكن عمله السلف من أهل النهروان وأهل القبلة، فأجابهم: بأن هذه حجة عرفها وقامت عليه وينبغى الأخذ بهذا، ففارقوه.

(٢) انظر: مقالات الأشعرى: ١/ ١٩٨٣، الفرق بين الفرق للبغدادى ص٢٤،٧٢، إبانة المناهج لجعفر بن أحمد ص١٥٥، التنبيه والرد للملطى ص١٦٧، تاريخ الفرق الإسلامية ص٢٧١،٢٦٨،٢٦٦، الاعتصام ٢/ ٢١٩.

عدد معين، فنجد الأشعرى مثلًا يعد فرق الخوارج أربع فرق، وغيره يعدها خمسًا، وبعضهم يعدها ثمانيًا، وبعضهم سبعًا، وآخرون خمسًا وعشرين، وقد تصل إلى أكثر من ثلاثين فرقة، والواقع أنه يصعب معرفة عدد فرق الخوارج[٢]، والسبب فى ذلك يعود إلى:

١. أن الخوارج فرق حربية متقلبة، فلم يتمكن العلماء من حصرهم حصرًا دقيقًا.

٢. أن الخوارج كانوا يتفرقون باستمرار لأقل الأسباب، كما أنهم يختلفون أيضًا لأقلها.

٣. أن الخوارج أخفوا كتبهم إما خوفًا عليها من الناس أو ضنًا بها عنهم، مما يجعل دراستهم من خلال كتبهم فى غاية الصعوبة.

دراسة أهم فرق الخوارج: وهم الإباضية:

ولا بد من وقفة يسيرة عند هذه الفرقة من الخوارج، نذكر عنهم على سبيل الإيجاز بعض ما قيل عنهم، سواء ما جاء عن المخالفين أو الموافقين لهم، أو ما ذكروه فى كتبهم، ولكون هذه الطائفة لا يزال لها أتباع وأنصار فى أماكن كثيرة من العالم، ولكونهم كانت لهم صولة وقوة، ولكثرة ما جاء من أخبارهم السياسية والعقدية والاجتماعية. فإنها تحتاج إلى دراسة خاصة قد تأخذ حجمًا كبيرًا لمن أراد أن يتتبع أخبارهم ويقف على مبادئهم.

زعيم الإباضية

أما بالنسبة لزعيم الإباضية فإنهم ينتسبون فى مذهبهم –حسبما تذكر مصادرهم– إلى جابر بن زيد الأزدى الذى يقدمونه على كل أحد ويروون عنه

مذهبهم، وهو من تلاميذ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١].

وقد نُسِبوا إلى عبد الله بن إباض لشهرة مواقفه مع الحكام[٢]، واسمه عبد الله بن يحيى بن إباض المري من بنى مرة بن عبيد، وينسب إلى بنى تميم، وهو تابعى، عاصر معاوية وابن الزبير وكانت له آراء واجه بها الحكام. وهذا هو اسمه المشهور عند الجمهور.

دولة الإباضية

قامت للإباضية دولتان، إحداهما فى المغرب والأخرى فى المشرق -عُمَان- تمتع المذهب الإباضى فيهما بالنفوذ والقوة.

وساعد انتشار المذهب الإباضى فى عُمَان بُعْدُها عن مقر الخلافة، ثم مسالكها الوعرة.

ويرجع دخول المذهب الإباضى عُمَان إلى فرار بعض الخوارج بعد معركة النهروان إلى هذا البلد، كما يرى بعض العلماء.

موقف الإباضية من المخالفين لهم

أ. موقفهم من سائر المخالفين

تتسم معاملة الإباضية لمخالفيهم باللين والمسامحة وجوزوا تزويج المسلمات من مخالفيهم.

وهذا ما يذكره علماء الفرق عنهم، إضافة إلى أنَّ العلماء يذكرون عنهم كذلك أن الإباضية تعتبر المخالفين لهم من أهل القبلة كفارُ نعمةٍ غير كاملي

---

(١) انظر: أجوبة ابن خلفون ص٩. وانظر: ترجمة جابر بن زيد أبو الشعثاء فى البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٩٣، وانظر: ما كتبه أحد علمائهم المعاصرين بكير بن سعيد اعوشت فى كتابه دراسات إسلامية فى الأصول الإباضية ص٢٠.

(٢) الإباضية بين الفرق الإسلامية ص٣٥٣.

الإيمان ولا يحكمون بخروجهم من الملة، إلا أن المدح ليس بالاتفاق بين العلماء، فهناك من يذكر عن الإباضية أنهم يرون أن مخالفيهم محاربون لله ولرسوله وأنهم يعاملون المخالفين لهم أسوأ المعاملة.

والحقيقة أن القارئ لكتب علماء الفرق يجد أنهم متعارضون فى النقل عنهم إلا أن يقال: إن طائفة من الإباضية معتدلون وآخرون متشددون.

ب. موقف الإباضية من الصحابة

موقف الإباضية من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

من الأمور المتفق عليها عند سائر الخوارج الترضى التام والولاء والاحترام للخليفتين الراشدين أبى بكر وعمر رضوان الله عليهما، لم تخرج فرقة منهم عن ذلك.

أما بالنسبة للخليفتين الراشدين الآخرين عثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما فقد هلك الخوارج فيهما وذموهما مما برأهما الله عنه.

ونفس الموقف الذى وقفه الخوارج عمومًا والإباضية أيضًا -من الصحابة السابقين- وقفوه أيضًا من طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وأوجب لهما الورجلانى -أحد علمائهم- النار[1]، وقد بشرهما الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة، وهؤلاء يوجبون عليهما النار، فسبحان الله ما أجرأ أهل البدع والزيغ على شتم خيار الناس بعد نبيهم الذين نصروا الإسلام بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ومات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم!!

قال النبى صلى الله عليه وسلم (لا تسبوا أصحابى، فوالذي نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق

---

(١) انظر: كشف الغمة ص٣٠٤، الدليل لأهل العقول ص٢٨.

مثل أحدٍ ذهبًا ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه)[١]، وإنه لمما يحار فيه الشخص هذا الموقف من صحابة رسول الله ﷺ، فإذا كان أخص أصحاب محمد ﷺ غير مرضيين عند هذه الطوائف من خوارج وشيعة فمن المرضى بعد ذلك؟

عقائد الإباضية

من الأمور الطبيعية أن تخرج هذه الفرقة وغيرُها من الفرق عن المعتقد السليم فى بعض القضايا ما دامت قد خرجت عن أهل السنة والجماعة وارتكبت التأويل، ولا بد كذلك أن توجد لها أقوال فقهية تخالف فيها الحق إلى جانب أقوالهم فى العقيدة.

والذى نود الإشارة إليه هنا أن للإباضية أفكارًا عقدية وافقوا فيها أهل الحق، وعقائد أخرى جانبوا فيها الصواب.

١ . أما ما يتعلق بصفات الله تعالى: فإن مذهب الإباضية فيها أنهم انقسموا إلى فريقين: فريق نفى الصفات نفيًا تامًا خوفًا من التشبيه بزعمهم، وفريق منهم يرجعون الصفات إلى الذات، فقالوا إن الله عالم بذاته وقادر بذاته وسميع بذاته إلى آخر الصفات، فالصفات عندهم عين الذات، فلا يثبتون وجهًا ولا عينًا ولا غير ذلك مما هو ثابت، ويؤولون ذلك بالذات.

وهذا فى حقيقته نفي للصفات، ولكنه نفي مغطى بحيلة إرجاعها إلى الذات وعدم مشابهتها لصفات الخلق، وقد شنع الورجلانى منهم على الذين يثبتون الصفات بأنهم مشبهة كعباد الأوثان، وأن مذهب أهل السنة هو -حسب زعمه- تأويل الصفات، فاليد النعمة والقدرة، والوجه الذات ومجىء الله مجىء أمره لفصل القضاء، لأن إثبات هذه الصفات لله هو عين التشبيه، كما يزعم.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤١) (٢٢٢) فى فضائل الصحابة.

ومعلوم لطلاب العلم أن هذا ليس هو مذهب السلف الذين يثبتون الصفات لله كما وصف نفسه فى كتابه الكريم ووصفه به رسول الله ﷺ من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكييف ولا تمثيل. قال ابن تيمية فى بيان مذهب السلف: "إنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل".

ويقول ابن القيم: "لا ريب أن الله وصف نفسه بصفات وسمى نفسه بأسماء، وأخبر عن نفسه بأفعال، وأخبر أنه يحب ويكره ويمقت ويغضب ويسخط ويجيء ويأتى وينزل إلى السماء الدنيا، وأنه استوى على عرشه، وأن له علما وحياة وقدرة وإرادة وسمعًا وبصرًا ووجهًا، وأن له يدين وأنه فوق عباده، وأن الملائكة تعرج إليه وتنزل من عنده، وأنه قريب، وأنه مع المحسنين ومع الصابرين ومع المتقين، وأن السماوات مطويات بيمينه، ووصفه رسوله بأنه يفرح ويضحك، وأن قلوب العباد بين أصابعه وغير ذلك[١]".

فهل يعتبر هذا الوصف تشبيه لله بخلقه؟ (قل ءأنتم أعلم أم الله).

وطريقة السلف فى إثبات كلِّ صفة لله، أنهم يقولون فيها: إنها معلومة والكيف مجهول والسؤال عنها بدعة، وأن الله (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) وهذه الآية أساس واضح فى إثبات الصفات لله.

ولم ير أهل السنة أنَّ إثبات الصفات يؤدى إلى التشبيه لمعرفتهم أن الاتفاق فى التسمية لا يستلزم الاتفاق فى الذات، فالله سميع وبصير والإنسان سميع بصير، وبين الذاتين ما يعرفه كل عاقل من الفرق، ومن تصور التشبيه فقد جمع بين التشبيه والتعطيل.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة ١٦-٢٩.

والحاصل أن الإباضية هنا وافقوا المعتزلة والأشاعرة وغيرهم من أهل الفرق فى باب الصفات، معتمدين على عقولهم وعلى شبهات وتأويلات باطلة.

٢. وأما عقيدة الإباضية فى استواء الله وعلوِّه، فإنهم يزعمون أنَّ الله يستحيل أن يكون مختصًا بجهة ما، بل هو فى كل مكان. وهذا قول بالحلول وقول الغلاة الجهمية، ولهذا فقد فسر الإباضية معنى استواء الله على عرشه باستواء أمره وقدرته ولطفه فوق خلقه، أو استواء ملك ومقدرة وغلبة، وإذا قيل لهم: لم خص العرش بالاستيلاء والغلبة؟ أجابوا بجواب واه قالوا: لعظمته، وقد خرجوا بهذه التأويلات عن المنهج الشرعى إلى إعمال العقل واللغة بتكلف ظاهر مخالف للاعتقاد السليم والمنطق والفطرة.

٣. وذهبت الإباضية فى باب رؤية الله تعالى إلى إنكار وقوعها، لأن العقل - كما يزعمون- يحيل ذلك ويستبعده، واستدلوا بقوله تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)، وأولوا معنى الآية تأويلًا خاطئًا على طريقة المعتزلة.

ومن أدلتهم قوله تعالى: (قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى).

واستدلوا من السنة بحديث عائشة حين سئلت عن الرسول ﷺ: هل رأى ربه ليلة الإسراء؟ فأجابت بالنفى كما رواه صاحب وفاء الضمانة[1]، وقد أورد الربيع بن حبيب صاحب كتاب الجامع الصحيح أو مسند الربيع -الذى هو عندهم بمنزلة صحيح البخارى ومسلم عن أهل السنة، ويعتبرونه أصح كتاب بعد القرآن الكريم كما يزعمون- أورد عدة روايات عن بعض الصحابة تدل

(١) وفاء الضمانة ص٣٧٦، ٣٧٧.

على إنكارهم رؤية الله تعالى بزعمه[١].

والواقع أن كل استدلالاتهم التى شابهوا فيها المعتزلة، إما استدلالات غير صحيحة الثبوت، أو صحيحة ولكن أوَّلوها على حسب هواهم فى نفى الرؤية.

فإن الآية الأولى ليس فيها نفى الرؤية، وإنما نفى الإحاطة والشمول، فالله يُرَى ولكن من غير إحاطة به ﷻ.

وقوله لموسى: (لن ترانى) أى فى الدنيا، وقد علق الله إمكان رؤيته تعالى بممكن، وهو استقرار الجبل.

وحديث عائشة إنما أرادت نفى أن يكون الرسول ﷺ رأى ربه فى ليلة الإسراء، وليس المقصود نفى الرؤية مطلقًا، فهذا لم ترده أم المؤمنين، ومن فهم النفى مطلقًا فهو سيئ الفهم جاهل بالنصوص.

وخلاصة القول فى هذه المسالة، أن رؤية الله تعالى تعتبر عند السلف أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة، لا يماري فيها أحد منهم بعد ثبوتها فى كتاب الله تعالى وفى سنة نبيه ﷺ، وفى أقوال الصحابة رضي الله عنهم وفى أقوال علماء السلف قاطبة رحمهم الله تعالى.

٤. ومن عقائد بعض الإباضية فى كلام الله تعالى القول بخلق القرآن، بل حكم بعض علمائهم كابن جميع والورجلانى أن من لم يقل بخلق القرآن فليس منهم[٢].

وقد عرف المسلمون أن القول بخلقه من أبطل الباطل، إلا من بقى على القول بخلقه منهم وهم قلة شاذة بالنسبة لعامة المسلمين، وموقف السلف

---

(١) انظر: مسند الربيع بن حبيب ٣/ ٣٥.

(٢) مقدمة التوحيد ص١٩، الدليل لأهل العقول ص٥٠.

واضح فيها وهو موقف إمام السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو القول بأن القرآن كلام الله تعالى، منه بدأ وإليه يعود، ولا يتسع المقام هنا لبسط شبه القائلين بخلقه وأدلة من يقول بعدم خلقه وردهم على أولئك المخطئين.

ومن قذف الله الإيمان والنور فى قلبه يعلم أن الله تعالى تكلم بالقرآن، وبَلَّغَهُ جبريل إلى النبى ﷺ والكلام صفة لله تعالى، ومما ينبغى الإشارة إليه هنا أن بعض الإباضية قد خرج عن القول بخلق القرآن، كصاحب كتاب الأديان[١] وكذا أبو النضر العمانى[٢]، وردا على من يقول بخلقه، وبسطا الأدلة فى ذلك وبهذا يتضح أن الإباضية قد انقسموا فى هذه القضية إلى فريقين.

٥. وقد اعتدل الإباضية فى مسألة القدر ووافقوا أهل السنة.

٦. وقد اختلف الإباضيون فى إثبات عذاب القبر. فذهب قسم منهم إلى إنكاره موافقين بذلك سائر فرق الخوارج. وذهب قسم آخر إلى إثباته.

ومعتقد السلف جميعًا هو القول بثبوت عذاب القبر ونعيمه، كما صحت بذلك النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة، ومن أنكره فليس له دليل إلا مجرد الاستبعاد ومجرد الاستبعاد ليس بدليل.

٧. ويثبت الإباضيون وجود الجنة والنار الآن ويثبتون الحوض ويؤمنون بالملائكة والكتب المنزلة.

٨. وأما بالنسبة للشفاعة: فإن الإباضيون يثبتونها ولكن لغير العصاة بل للمتقين، وكأن المتقى فى نظرهم أحوج إلى الشفاعة من المؤمن العاصى.

ومذهب أهل السنة أن الرسول ﷺ يشفع فى عصاة المؤمنين أن لا يدخلوا

(١) كتاب الأديان ص١٠٤.

(٢) كتاب الدعائم ص٣١-٣٥.

النار، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها بعد إذن الله ورضاه، وثبت أن الله يقبل شفاعته فى ذلك وشفاعة الصالحين من عباده بعضهم فى بعض.

٩ . وأما الميزان الذى جاءت به النصوص وثبت أن له كفتين حسيتين مشاهدتين توزن فيه أعمال العباد كما يوزن العامل نفسه - فإن الإباضية تنكر هذا الوصف، ويثبتون وزن الله للنيات والأعمال بمعنى تمييزه بين الحسن منها والسيئ، وأن الله يفصل بين الناس فى أمورهم، ويقفون عند هذا الحد غير مثبتين ما جاءت به النصوص من وجود الموازين الحقيقية فى يوم القيامة(١) وعلى الصفات التى جاءت فى السنة النبوية.

١٠ . وكما أنكر الإباضية الميزان أنكروا كذلك الصراط، وقالوا: إنه ليس بجسر على ظهر جهنم(٢) وذهب بعضهم -وهم قلة- إلى إثبات الصراط بأنه جسر ممدود على متن جهنم. والسلف على اعتقاد أن الصراط جسر على متن جهنم، وأن العباد يمرون عليه سرعة وبطئًا حسب أعمالهم ومنهم من تخطفه كلاليب النار فيهوى فيها.

١١ . ووافق -معظم الإباضية- السلف فى حقيقة الإيمان من أنه قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية(٣)، وقد خالف بعضهم فذهب إلى أن الإيمان يزيد ولا ينقص وقد نقل الدكتور صابر طعيمة بعض الأدلة من كتبهم على هذا الرأى(٤).

١٢ . وزيادة الإيمان ونقصه مسألة خالف فيها الإباضية سائر الخوارج الذين

(١) متن النونية ص ٢٥.
(٢) انظر غاية المراد ص ٩.
(٣) كتاب الأديان ص ٥٣، غاية المراد ص ٧.
(٤) الإباضية عقيدة ومذهبًا ١١٦ - ١١٧.

يرون أن الإيمان جملة واحدة لا يتبعض، وأن العبد يكفر ويذهب إيمانه بمجرد مواقعته للذنب ويسمونه كافرًا ومخلدًا فى النار فى الآخرة، إلا أن الإباضية مع موافقتهم للسلف فى الحكم، لكنهم يسمون المذنب كافرًا كفر نعمة ومنافقًا.

وفى الآخرة مخلد فى النار إذا مات من غير توبة[1]، وكان الحال يقتضى أنهم لا يطلقون عليه كلمة الكفر ولا النفاق، ولا يحكمون عليه بالخلود فى النار بل هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ونجد هنا الإباضية وافقوا أيضا سائر الخوارج فى الحكم على مرتكب الكبيرة بالخلود فى النار إذا مات قبل التوبة، بناء على اعتقاد إنفاذ الوعيد لا محالة.

واستدلوا بسائر أدلة الخوارج على كفر مرتكب الكبيرة وخلوده فى النار، وأهل السنة لا يرون ذلك، بل يقولون: إذا مات المذنب قبل التوبة فأمره إلى الله وهو تحت المشيئة، ويقولون أيضًا: إن إخلاف الوعد مذموم وإخلاف الوعيد كرم وتجاوز.

١٣. وأما مسألة الإمامة والخلافة فقد ذكر بعض العلماء عن الإباضية فى مسألة الإمامة والخلافة، أن الإباضية يزعمون أنه قد يستغنى عن نصب الخليفة ولا تعود إليه حاجة إذا عرف كل واحد الحق الذى عليه للآخر، وهذا القول أكثر ما شهر عن المُحكِّمة والنجدات. وبالرجوع إلى كتب الإباضية نجد أنهم ينفون هذا القول عنهم ويعتبرونه من مزاعم خصومهم عنهم وأن مذهبهم هو القول بوجوب نصب حاكم للناس.

وموقفهم هذا يتفق مع مذهب أهل السنة في أنهم يرون وجوب نصب الحاكم حتى وإن كانوا جماعة قليلة، فلو كانوا ثلاثة فى سفر لوجب تأمير

---

(١) متن النونية ص ١٨.

أحدهم، كما دلت على ذلك النصوص الثابتة، وأن من قال بالاستغناء عن نصب الحاكم فقد كابر عقله وكذب نفسه ورد عليه الواقع من حال البشر، وصار ما يقوله من نسج الخيال، وأدلته على الاستغناء مردودة واهية.

والخوارج كافة ينظرون إلى الإمام نظرة صارمة هى إلى الريبة منه أقرب، ولهم شروط قاسية جدًا قد لا تتوفر إلا فى القليل النادر من الرجال، وإذا صدر منه أقل ذنب فإما أن يعتدل ويعلن توبته وإلا فالسيف جزاؤه العاجل.

وقد جوَّز الإباضية كأهل السنة صحة إمامة المفضول مع وجود الفاضل إذا تمت للمفضول، خلافًا لسائر الخوارج[1] -كما سيأتي-.

١٤. وجوَّز الإباضية التقية خلافًا لأكثر الخوارج[2].

٢. موقف الخوارج من صفات الله ﷻ

هذه المسألة لم أجد فيما تيسر لى الإطلاع عليه من كتب علماء الفرق بيانًا لرأى الخوارج فيها بصفة عامة.

وقد ذكر الشهرستانى عن فرقة الشيبانية قولًا لأبى خالد زياد بن عبد الرحمن الشيبانى فى صفة العلم لله أنه قال: (إن الله لم يعلم حتى خلق لنفسه علمًا، وأن الأشياء إنما تصير معلومة له عند حدوثها)[3].

وأما بالنسبة لفرقة الإباضية بخصوصهم - فقد تبين من أقوال علمائهم أنهم يقفون منها موقف النفى أو التأويل، بحجة الابتعاد عن اعتقاد المشبه فيها كما تقدم.

---

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٤٦٢.

(٢) انظر: مسند الربيع بن حبيب ٣/ ١٢، وانظر أيضا كتاب أصول وتاريخ الفرق.

(٣) الملل والنحل ١/ ١٣٣.

وموضوع الصفات والبحث فيها يحتاج إلى دراسة مستقلة، وبالرجوع إلى أى كتاب من كتب السلف يتضح الحق فيها بكل يسر وسهولة.

وأما بالنسبة لما ذكر عن رأى زياد بن عبد الرحمن أو الإباضية، فلاشك أنه لا يتفق مع المذهب الحق -مذهب السلف- ولو كان الأمر يخص زياد بن عبد الرحمن وحده لما كان له أدنى أهمية، ولكن الأمر أخطر من ذلك، فقد اعتقدت الجهمية ذلك أيضًا. وبطلان هذا القول ظاهر والتناقض فيه واضح.

فإن صفات الله ﷻ قديمة بقدمه غير مخلوقة، وما يخلق الله من الموجودات فإنما يخلقه عن علم وإرادة، إذ يستحيل التوجه إلى الإيجاد مع الجهل، ثم كيف علم الله أنه بغير علم حتى يخلق لنفسه علمًا؟ هذا تناقض ظاهر.

٣. حكم مرتكبي الذنوب عند الخوارج:

اختلف حكم الخوارج على أهل الذنوب بعد اتفاقهم بصفة عامة على القول بتكفيرهم كفر ملة. وحاصل الخلاف نوجزه فيما يلى:

١ . الحكم بتكفير العصاة كفر ملة، وأنهم خارجون عن الإسلام ومخلدون فى النار مع سائر الكفار. وهذا رأى أكثرية الخوارج.

وعلى هذا الرأى من فرق الخوارج: المحكِّمة والأزارقة والمكرمية والشبيبة من البيهسية واليزيدية والنجدات، إلا أنهم مختلفون فى سبب كفره:

فعند المكرمية أن سبب كفره ليس لتركه الواجبات أو انتهاك المحرمات، وإنما لأجل جهله بحق الله إذ لم يقدره حق قدره.

وأما النجدات فقد فصلوا القول بحسب حال المذنب، فإن كان مصرًا فهو كافر، ولو كان إصراره على صغائر الذنوب، وإن كان غير مصر فهو مسلم، حتى وإن كانت تلك الذنوب من الكبائر، وهو تفصيل بمحض الهوى والأمانى

الباطلة.

٢. أنهم كفار نعمة وليس كفار ملة: وعلى هذا المعتقد فرقة الإباضية كما تقدم. ومع هذا فإنهم يحكمون على صاحب المعصية بالنار إذا مات عليها، ويحكمون عليه فى الدنيا بأنه منافق، ويجعلون النفاق مرادفًا لكفر النعمة ويسمونه بمنزلة بين المنزلتين أى بين الشرك والإيمان وأن النفاق لا يكون إلا فى الأفعال لا فى الاعتقاد(١).

وهذا قلب لحقيقة النفاق، إذ المعروف أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله كان نفاقهم فى الاعتقاد لا فى الأفعال، فإن أفعالهم كانت فى الظاهر كأفعال المؤمنين.

أدلتهم

تَلَمَّسَ الخوارج لما ذهبوا إليه من تكفير أهل الذنوب بعض الآيات والأحاديث، وتكلفوا فى رد معانيها إلى ما زعموه من تأييدها لمذاهبهم، وهى نصوص تقسم الناس إلى فريقين: مؤمن وكافر، قالوا: وليس وراء ذلك الحصر من شىء.

ونأخذ من تلك الأدلة قوله تعالى:

١. (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن)(٢).
٢. (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون).
٣. (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نُجازى إلا الكفور).

---

(١) نقلًا عن الإباضية بين الفرق الإسلامية عن كتاب المقالات فى القديم والحديث ص ٣١٥. وانظر: دراسات إسلامية فى الأصول الإباضية الأصل التاسع ص ٦٠.
(٢) التغابن: ٢.

إلى غير ذلك من الآيات.

ووجه استدلالهم بالآية الأولى

أن الله تعالى حصر الناس فى قسمين: قسم ممدوح وهم المؤمنون، وقسم مذموم وهم الكفار، والفساق ليسوا من المؤمنين، فإذًا هم كفار لكونهم مع القسم المذموم واستدلالهم هذا لا يسلم لهم، أن الناس ينحصرون فقط فى الإيمان أو الكفر.

فهناك قسم ثالث وهم العصاة لم يذكروا هنا، وذكر فريقين لا يدل على نفى ما عداهما، والآية كذلك واردة على سبيل التبعيض بمن، أى بعضكم كافر وبعضكم مؤمن. وهذا لا شك فى وقوعه، ولم تدل الآية على مدعى الخوارج أن أهل الذنوب داخلون فى الكفر.

وأما وجه استدلالهم بالآية الثانية

فقد زعموا أنها شاملة لكل أهل الذنوب، لأن كل مرتكب للذنب لابد وأنه قد حكم بغير ما أنزل الله. وقد شملت الفساق، لأن الذى لم يحكم بما أنزل الله يجب أن يكون كافرًا، والفاسق لم يحكم بما أنزل الله حين فعل الذنب.

وهذا الاستدلال مردود كذلك، لأن الآية قد تكون واردة على من استحل الحكم بغير ما أنزل الله، أما أن يدعى الشخص إيمانه بالله ويعترف بأن الحق هو حكم الله فليس بكافر، وإنما هو من أصحاب المعاصى حتى تقام عليه الحجة[1]

وأما وجه استدلالهم بالآية الثالثة

فهو أن صاحب الكبيرة لابد وأن يجازى -على مذهبهم- وقد أخبر الله فى

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازى لهذه الآيات من سبأ. وانظر: تفسير الطبرى ٦/ ٢٥٢، فتح القدير ٢/ ٤٥.

القرآن الكريم أنه لا يجازى إلا الكفور، والفاسق ثبتت مجازاته عندهم فيكون كافرًا.

وهذا الدليل مردود عليهم، وينقضه أن الله يجازى الأنبياء والمؤمنين وهم ليسوا كفارًا، وبأن الآية كانت تعقيبا لبيان ذلك العقاب الذى حل بأهل سبأ، وهو عقاب الاستئصال، وهذا ثابت للكفار لا لأصحاب المعاصى[١].

وأما ما استدلوا به من السنة على بدعتهم فى تكفير العصاة من المسلمين فقد أساءوا فهم الأحاديث وحملوها المعانى التى يريدونها، ومن تلك الأحاديث ما جاء عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن)[٢].

ولهم أدلة أخرى نكتفى منها بهذا الحديث.

فقد فهموا من هذا الحديث نفى الإيمان بالكلية عن من فعل شيئًا مما ذكر فى الحديث، وهذا لا حجة لهم فيه، فإن الحديث -كما يذكر العلماء- إما أن يكون واردًا فيمن فعل شيئًا مما ذكر مستحلًا لتلك الذنوب، أو أن المراد به نفى كمال الإيمان عنهم، أو أن نفى الإيمان عنهم مقيد بحال مواقعتهم لتلك الذنوب.

ولو كانت تلك الكبائر تخرج الشخص عن الإيمان لما اكتفى بإقامة الحد فيها، ولهذا فقد ذكر بعض العلماء أن هذا الحديث وما أشبهه يؤمن بها ويمر على ما جاء، ولا يخاض فى معناها.

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازى لهذه الآيات من سبأ. وانظر: تفسير الطبرى ٦/ ٢٥٢، فتح القدير ٢/ ٤٥.

(٢) أخرجه البخارى ٨/ ١٣، ومسلم ١/ ٥٤.

وقال الزهرى فى مثل هذه الأحاديث: "أَمِرُّوها كما أَمَرَّهَا مَنْ قبلكم"[١].

وقد جاء فى حديث أبى ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (ما من عبد قال: لا إله إلا اله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة) قلت: وإن زنى وإن سرق ثلاثًا، ثم قال فى الرابعة: على رغم أنف أبى ذر، قال: "فخرج أبو ذر وهو يقول: وإن رغم أنف أبى ذر"[٢].

والكلام فى أهل الكبائر مبسوط فى موضعه من كتب التوحيد وكتب الفرق، والمقصود هنا هو التنبيه على خطأ الخوارج فيما ذهبوا إليه من تكفير أهل الذنوب من المسلمين، مخالفين ما تضافرت النصوص عليه من عدم كفر مرتكبى الذنوب كفر ملة إلا بتفصيلات مقررة فى مذهب السلف.

٤. الإمامة العظمى

هذه هى مشكلة الخوارج الكبرى منذ نشأوا، وطوال عهد الدولة الأموية وزمن متقدم من عهد الدولة العباسية، شغلتهم قضية الإمامة عمليًا، فجردوا السيوف ضد الحكام المخالفين لهم، ناقمين عليهم سياستهم فى الرعية من عدم تمكينهم من اختيار إمامهم بأنفسهم، ثم سياستهم الداخلية فى الناس، وشغلتهم فكريًا بتحديد شخصية الإمام وخصائصه ودوره فى المجتمع، وكانوا يظهروا بمظهر الزاهد عن تولى الخلافة حينما يكون الأمر فيما بينهم وحربًا لا هوادة فيها ضد المخالفين لهم.

حكم الإمامة عند الخوارج

الإمامة منصب خطير وضرورة اجتماعية، إذ لا يمكن أن ينعم الناس بالأمن

---

(١) انظر: شرح النووى لصحيح مسلم ٢/ ٤١ – ٤٢.

(٢) أخرجه مسلم ١/ ٦٦.

وتستقر الحياة إلا بحاكم يكون هو المرجع الأخير لحل الخلافات وحماية الأمة، وقد أطبق على هذا جميع العقلاء.

أما بالنسبة للخوارج فقد انقسموا فيها إلى فريقين

الفريق الأول: وهم عامة الخوارج. وهؤلاء يوجبون نصب الإمام والانضواء تحت رايته والقتال معه ما دام على الطريق الأمثل الذى ارتأوه له.

الفريق الثانى: وهم المحكِّمة والنجدات والإباضية فيما قيل عنهم. وهؤلاء يرون أنه قد يستغنى عن الإمام إذا تناصف الناس فيما بينهم، وإذا احتيج فمن أى جنس كان مادام كفئًا لتولى الإمامة(١).

ومن مبرراتهم

١. استنادهم إلى المبدأ القائل: لا حكم إلا لله، والمعنى الحرفى لهذا المبدأ يشير صراحة إلى أنه لا ضرورة لوجود الحكومة مطلقًا.

٢. أن الحكم ليس من اختصاص البشر بل تهيمن عليه قوة علوية.

٣. إن الضرورى هو تطبيق أحكام الشريعة، فإذا تمكن الناس من تطبيقها بأنفسهم فلا حاجة إلى نصب خليفة.

٤. ربما ينحصر وجود الإمام فى بطانة قليلة وينعزل عن الأغلبية فيكون بعيدًا عن تفهم مشاكل المسلمين فلا يبقى لوجوده فائدة.

٥. أن النبى ﷺ لم يشر صراحة ولا وضع شروطًا لوجود الخلفاء من بعده.

٦. أن كتاب الله لم يبين حتمية وجود إمام، وإنما أبان وأمرهم شورى بينهم(٢).

---

(١) مقالات الأشعرى ١/ ٢٠٥، مروج الذهب ٣/ ٢٣٦.

(٢) أراء الخوارج للطالبى ص ١٢٥، عمان تاريخ يتكلم ص ١٢٣.

هذه مبرراتهم، فهل بقى القائلون بالاستغناء عن نصب الإمام على مبدأهم؟ والجواب بالنفى، فإن المحكِّمة حينما انفصلوا ولوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى، والنجدات حينما انفصلوا تزعمهم نجدة بن عامر، وأما ما قيل عن الإباضية من أنهم يقولون بالاستغناء عن نصب الإمام[١] فإن مصادرهم التى تيسر لى قراءتها تذكر أن هذا القول إنما نسبه إليهم خصومهم، بقصد الإشاعة الباطلة عنهم[٢].

وأما تلك المبررات التى نسبت إلى من ذكرناهم فلا شك أنها مبررات واهية ولا تكفى للقول بالاستغناء عن نصب الخليفة، أما القول بعدم وجود الإنسان الكامل، فإنه لا يمنع من نصب الإمام حيث يختار أفضل الموجودين.

ومن التصور الساذج القول بتناصف الناس فيما بينهم. وأما انعزال الإمام فإن مدار الأمر على التزامه بواجباته الشرعية وعدم إيجاد الحجب بينه وبين رعيته، وذلك مناط الحكم بضرورة وجود الإمام شرعًا وعقلًا.

وقد ذهبت الخلفية من الخوارج الإباضية إلى أن كل إقليم أو حوزة يستقل بها إمامها، فلا يجوز لإمام أن يجمع بين حوزتين[٣] ويكون لهذه المناطق أئمة بعدد تلك المناطق وهذا باطل ولا يتفق مع روح الإسلام وأهدافه، لأن ذلك يؤدى إلى المشاحنات والعداوة وتفريق كلمة المسلمين، وحينما قرروا أن كل إقليم ينبغى أن يكون مستقلًا عن الآخر لا يخضع إقليم ولا منطقة لمنطقة أخرى - تجاهلوا دعوة المسلمين إلى الاتحاد الذى يكمن فيه عزهم وقوتهم.

---

(١) كما يذكر لوريمر فى كتابه دليل الخليج ٦/ ٣٣٠٣.

(٢) الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٩٠.

(٣) نقلًا عن أراء الخوارج ص ١٢٨. لكن عموم الإباضية لا تجيز هذا حسب ما جاء فى مدارج الكمال ص ١٧٢.

شروط الإمام

وضع الخوارج شروطًا قاسية لمن يتولى الإمامة ومنها:

١. أن يكون شديد التمسك بالعقيدة الإسلامية، مخلصًا فى عبادته وتقواه حسب مفهومهم.

٢. أن يكون قويًا فى نفسه ذا عزم نافذ وتفكير ناضج وشجاعة وحزم.

٣. أن لا يكون فيه ما يُخلُّ بإيمانه من حب المعاصى واللهو.

٤. أن لا يكون قد حُدَّ فى كبيرة حتى ولو تاب.

٥. أن يتم انتخابه برضى الجميع، لا يغنى بعضهم عن بعض.

ولا عبرة بالنسب أو الجنس كما يقولونه ظاهرًا دعاية لمذهبهم وفى باطنهم يملأهم التعصب، وكون الإمام ينتخب برضى أهل الحل والعقد، وهذا مبدأ إسلامى لم يأت به الخوارج، كما يقول بعض المستشرقين دعاية للخوارج.

ولم يلتفت الخوارج إلى ما صح من الأحاديث فى اشتراط القرشية لتولى الخلافة وتقديم قريش فيها عند صلاحية أحدهم لها.

لم يشترط الشرع فى الإمام أن يكون ليله قائمًا ونهاره صائمًا، أو أنه لا يلم بأى معصية، أو أن يكون انتخابه برضى كل المسلمين من أقصاهم إلى أدناهم، لا يغنى بعضهم عن بعض فى مبايعتهم له كما يزعمه الخوارج[1].

محاسبة الإمام والخروج عليه

يعيش الإمام عند الخوارج بين فكى الأسد -عكس الشيعة- فالخوارج

---

(١) مدارج الكمال للسالمى ص ١٧١، تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١/ ٧١. التفكير الفلسفى ١/ ١٩١ للدكتور عبد الحليم محمود، أراء الخوارج ص ١٢١، عمان تاريخ بتكلم ص ١٢٦.

ينظرون إلى الإمام على أنه المثل الأعلى وينبغى أن يتصف بذلك قولًا وفعلًا، وبمجرد أقل خطأ ينبغى عليهم القيام فى وجهه ومحاسبته، فإما أن يعتدل وإما أن يعتزل.

ومن غرائبهم ما يروى عن فرقة البيهسية منهم والعوفية، فقد اعتبر هؤلاء كفر الإمام سببًا فى كفر رعيته، فإذا تركه رعيته دون إنكار فإنهم يكفرون أيضًا(١)، ولا شك أن هذا جهل بالشريعة الإسلامية، وعلى هذا فما تراه من كثرة حروبهم وخروجهم على أئمتهم أو أئمة مخالفيهم يعتبر أمرًا طبيعيًا إزاء هذه الأحكام الخاطئة.

وقد حث الإسلام على طاعة أولى الأمر والاجتماع تحت رايتهم إلا أن يظهروا كفرًا بواحًا، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وينبغى معالجة ذلك بأخف الضرر، ولا يجوز الخروج عليهم ماداموا ملتزمين بالشريعة بأى حال.

إمامة المفضول

اختلف الخوارج فى صحة إمامة المفضول مع وجود الفاضل إلى فريقين:

١. ذهب فريق منهم إلى عدم الجواز، وأن إمامة المفضول تكون غير صحيحة مع وجود الأفضل.

٢. وذهب الفريق الآخر منهم إلى صحة ذلك، وأنه تنعقد الإمامة للمفضول مع وجود الأفضل، كما هو الصحيح(٢).

* إمامة المرأة:

---

(١) مقالات الأشعرى ١/ ١٩٤، الطرماح بن حكيم ص ٥٥، الملل والنحل ١/ ١٢٦، الفرق بين الفرق ١٠٩١، التنبيه والرد للمطلى ص ١٦٩.

(٢) الفصل لابن حزم ٤/ ١٦٣، الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٤٦٢، أراء الخوارج لعمار الطالبى ١٢٨.

الإمامة مسئولية عظمى وعبء ثقيل يتطلب سعة الفكر وقوة البصيرة، ويتطلب مزايا عديدة جعل الله معظمها فى الرجال دون النساء، ولا أدل على هذا من اختيار الله ﷻ لتبليغ رسالته من جنس الرجال، وقد أطبق جميع أهل الحق على أن الخلافة لا يصلح لها النساء.

ولكنا نجد فرقة من فرق الخوارج وهى الشبيبية تذهب إلى جواز تولى المرأة الإمامة العظمى، مستدلين بفعل شبيب حينما تولت غزالة -زوجته وقيل أمه- بعده[1].

موقف الخوارج من عامة المسلمين المخالفين لهم

انقسم الخوارج فى نظرتهم إلى المخالفين لهم إلى فريقين:

١. فريق منهم غلاة.

٢. وفريق آخر أبدى نوعًا من الاعتدال.

ويذكر الأشعرى رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى مقالاته أن الخوارج مجموعون على أن مخالفيهم يستحقون السيف، ودماؤهم حلال، إلا فرقة الإباضية فإنها لا ترى ذلك إلا مع السلطان[2].

واختلف علماء الفرق فى أول من حكم بكفر المخالفين هل هم المحكِّمة الأولى أم هم الأزارقة ومن سار على طريقتهم من فرق الخوارج فيما بعد.

وبتتبع حركة المحكِّمة الأولى نجد أنهم سبقوا إلى تكفير المخالفين لهم واستحلال دمائهم، والشواهد فى كتب الفرق كثيرة كقتلهم عبد الله بن خباب ابن صاحب رسول الله ﷺ وغيره فى حوادث كثيرة، إلا أن أشد من بالغ فى تكفير

---

(١) الفرق بين الفِرَق ص ١١٠.

(٢) المقالات ١/ ٢٠٤.

المخالفين لهم وأعمل فيهم السيف هم الأزارقة وفرقة منهم تسمى البيهسية، وكذلك أتباع حمزة بن أكرك.

أما المعتدلون منهم- وهو اعتدال لا يكاد يذكر - فنجد مثلًا الأخنسية منهم يحرمون الغدر بالمخالفين أو قتلهم قبل الدعوة، وجوزوا تزويج المسلمات منهم لمخالفيهم الذين يعتبرونهم مشركين، وكذلك بعض البيهسية.

ومن أكثر المعتدلين والمتسامحين مع المخالفين هو تلك الشخصية المرموقة عند كافة الخوارج أبو بلال مرداس بن أدية، فقد خرج وهو يقول لمن يلقاه: إنا لا نخيف آمنًا ولا نجرد سيفًا، وكان مما أثاره للخروج على الدولة أن زيادًا ذات يوم خطب على المنبر وكان مرداس يسمعه فكان من قوله: "والله لآخذن المحسن منكم بالمسيء، والحاضر منكم بالغائب والصحيح بالسقيم.

وهذا بالطبع لا يحتمله الخوارج فقام إليه مرداس فقال: قد سمعنا ما قلت أيها الإنسان وما هكذا ذكر الله ﷻ عن نبيه إبراهيم عليه السلام، إذ يقول: (وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى)(١) وأنت تزعم أنك تأخذ المطيع بالعاصى، ثم خرج عقب هذا اليوم.

وينبغى أن يعلم أن كل فرقة لابد فيها من غلاة يخرجون على جمهورهم، إلا أن السمة الغالبة على الخوارج الشدة على المخالفين لهم.

وقد تعود هذه الشدة، إلى ما يراه الخوارج من وجهة نظرهم من خروج مخالفيهم عن النهج الإسلامى وبعدهم عنه، وبالتالى الرغبة فى إرجاع الأمة إلى ما كانت عليه فى أيام الرسول ﷺ وأيام أبى بكر وعمر رضي الله عنهما كما يدعى الخوارج.

---

(١) النجم: ٣٧، ٣٨.

حكم الخوارج فى أطفال مخالفيهم

لابد وأن يكون فى حكم العقل تمييز بين معاملة الصغير الذى لم يبلغ سن التكليف وبين الكبير المكلف. والخوارج لم يتفقوا على حكم واحد فى الأطفال، سواء كان ذلك فى الدنيا أو فى الآخرة، ونوجز أهم آرائهم فى هذه القضية فيما يلى:

١. منهم من اعتبرهم فى حكم آبائهم المخالفين فاستباح قتلهم باعتبار أنهم مشركون لا عصمة لدمائهم ولا لدماء آبائهم.

٢. ومنهم من جعلهم من أهل الجنة ولم يجوز قتلهم.

٣. واعتبرهم بعضهم خدمًا لأهل الجنة.

٤. ومنهم من توقف فيهم إلى أن يبلغوا سن التكليف ويتبين حالهم.

٥. والإباضية تولوا أطفال المسلمين وتوقفوا فى أطفال المشركين، ومنهم من يلحق أطفال المشركين بأطفال المؤمنين.

أما القول الأول: فهو للأزارقة، واستدلوا بقول الله تعالى: (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارا). وتبعهم فى هذا بعض فرق الخوارج كالعجاردة والحمزية والخلفية.

وأما القول الثانى: فهو للنجدات والصفرية والميمونية، واستدلوا بقول الرسول ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[1]، والذين توقفوا فى الحكم عليهم قالوا: لم نجد فى الأطفال ما يوجب ولا يتهم ولا عداوتهم إلى أن يبلغوا فيدعوا إلى الإسلام فيقروا به أو ينكروه.

---

(١) انظر: كتاب الأديان ١٠٤.

هذه خلاصة أهم آراء الخوارج فى هذه القضية، والواقع أن هذه المسألة من المسائل الخلافية بين العلماء.

فقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن أطفال المؤمنين إذا ماتوا على الإيمان فإن الله تعالى يدخلهم الجنة مع آبائهم وإن نقصت أعمالهم عنهم لتقر أعين آبائهم بهم، فيكونون مع آبائهم فى الجنة، تفضلا من الله تعالى، على ضوء قوله ﷻ: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم)[1].

ونقل ابن القيم عن الإمام أحمد أنه قال بأنهم فى الجنة دون خلاف.

وبعضهم ذهب إلى أنهم تحت المشيئة.

وجدير بالذكر أن أطفال المؤمنين الذين نتحدث عنهم هنا هم الذين يعتبرهم الخوارج أطفال مشركين.

وأما أطفال المشركين الذين هم عبده الأوثان ومن فى حكمهم فإن العلماء اختلفوا فيهم اختلافًا كثيرًا.

١. فذهب بعضهم إلى التوقف فلا يحكم لهم بجنة ولا نار وأمرهم إلى الله.

٢. أنهم فى النار.

٣. أنهم فى الجنة.

٤. أنهم فى منزلة بين المنزلتين، أى الجنة والنار.

٥. أن حكمهم حكم آبائهم فى الدنيا والآخرة، تبعًا لآبائهم حتى ولو أسلم الأبوان بعد موت أطفالهم لم يحكم لأطفالهما بالنار.

٦. أنهم يمتحنون فى عرصات القيامة بطاعة رسول يرسله الله إليهم، فمن

---

(١) الطور: ٢١، وانظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٢٤١.

أطاعه منهم دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار.

وقد استعرض ابن القيم أدلة القائلين بهذه الآراء وانتهى إلى نصرة الرأى الأخير ثم قال: "وبهذا يتألف شمل الأدلة كلها وتتوافق الأحاديث ويكون معلوم الله الذى أحال عليه النبى ﷺ حيث قال: "الله أعلم بما كانوا عاملين)".

وأيَّد ابن حزم القول بأن أطفال المشركين فى الجنة، وكذا النووى، وقد توقف شيخ الإسلام فى الحكم عليهم.

وأما استباحة قتل النساء والذرية -كما يرى الخوارج- فقد أخطأوا حين جوزوا ذلك سواء كانوا من المسلمين أو من المشركين، فقد صحت الأحاديث بالمنع من قتلهم، إلا أن يكون ذلك فى بيات لا يتميز فيه الأطفال والنساء فلا بأس من قتلهم إذا وقع دون عمد[1].

الخوارج فى الميزان[2]

الغلو فى الدين: مما لا شك فيه أن الخوارج أهل طاعة وعبادة، فقد كانوا حريصين كل الحرص على التمسك بأهداب الدين وتطبيق أحكامه كاملة، والابتعاد الشديد عن جميع ما نهى عنه الإسلام، وكذلك التحرز التام عن الوقوع فى أى معصية أو خطيئة تخالف الإسلام، حتى أصبح ذلك سمة بارزة فى هذه الطائفة، لا يدانيهم فى ذلك أحد، ولا أدل على ذلك من قول الرسول ﷺ (يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشىء، ولا صيامكم إلى صيامهم

---

(١) انظر: التفسير القيم ص ٤٥١، فتح القدير ٥/ ٩٨، جامع البيان ٢٧/ ٢٥، طريق الهجرتين ٣٨٧، الفصل لابن حزم ٤/ ٧٤.

(٢)

بشيء)[١] الحديث.

وقال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يصفهم حينما دخل عليهم لمناظرتهم: "دخلت على قوم لم أر قط أشد منهم اجتهادًا، جباههم قرحة من السجود وأياديهم كأنها ثفن[٢] الإبل، وعليهم قمص مرحضة[٣] مشمرين، مسهمة وجوههم من السهر"[٤].

وعن جندب الأزدى: قال: "لما عدلنا إلى الخوارج ونحن مع على ابن أبى طالب كرم الله وجهه فانتهينا إلى معسكرهم، فإذا لهم دوى كدوى النحل من قراءة القرآن"[٥].

هذا حال الخوارج: فقد كانوا أهل صوم وصلاة وتلاوة للقرآن، لكنهم تجاوزوا حد الاعتدال إلى درجة الغلو والتشدد[٦] حيث قادهم هذا التشدد إلى مخالفة قواعد الإسلام بما تمليه عليهم عقولهم، كالقول بتكفير صاحب الكبيرة[٧] مثلًا وقد مر معنا بيان ذلك.

ومنهم من بالغ فى ذلك حتى على كل من ارتكب ذنبًا من الذنوب ولو كان

---

(١) رواه مسلم: صحيح مسلم بشرح النووى ٧/ ١٧١ كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج - أبو داود ٤/ ٢٤٤ كتاب السنة، مسند الإمام أحمد - ١/ ٩٢.

(٢) الثفن جمع ثفنة: ركبة البعير وغيرها مما يحصل فيه غلظ من أثر البروك.

(٣) قال ابن الأثير: رَحِمَهُ اللَّهُ - (وعليهم قمص مرحضة: أى مغسولة) النهاية فى غريب الحديث والأثر (٢/ ٢٠٨).

(٤) تلبيس إبليس - ص ٩١.

(٥) تلبيس إبليس - ص ٩٣.

(٦) انظر الخوارج فى الإسلام - عمر أبو النصر - ص ٤٣.

(٧) انظر نوادر الأصول - محمد الحكيم الترمذى ص ٥٤.

صغيرًا فإنه كافر مشرك مخلد فى النار[١] وكذلك أيضا ما سبق بيانه من رأيهم فى الخروج على الأئمة حيث رأوا الخروج على الإمام ولو لأتفه الأسباب ورأوا أن ذلك من إقامة الدين[٢].

كان من نتيجة هذا التشدد الذى خرج بهم عن حدود الدين وأهدافه السامية، أن كفروا كل من لم ير رأيهم من المسلمين ورموهم بالكفر أو النفاق، حتى أنهم استباحوا دماء مخالفيهم[٣] ومنهم من استباح قتل النساء والأطفال من مخالفيه كالأزارقة مثلًا[٤].

لا شك أن الخوارج بما اتصفوا به من الجهل والتشدد والجفاء قد شوهوا محاسن الدين الإسلامى تشويهًا غريبًا، وهم فى تعمقهم قد سلكوا طريقًا ما قال به محمد ﷺ ولا دعا إليه القرآن، ولذلك حذر النبى ﷺ عن التعمق والتشدد فى الدين لأنه مخالفة للاعتدال وسماحة الإسلام وأخبر أن المتنطع مستحق للهلاك والخسران، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: (هلك المتنطعون) قالها ثلاثًا[٥].

بهذا يتبين لنا شذوذ الخوارج، وكذلك من سار على منهجهم المبنى على التعسف والتشدد المخالف لسماحة الإسلام ويسره، فإن الإسلام دين اليسر والسماحة، ويبين هذا قوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث الصحيح الذى

---

(١) انظر الفصل، ابن حزم ٤/ ١٩١، وانظر الخوارج فى الإسلام، عمر أبو النصر، ص ٤٤.
(٢) انظر تلبيس إبليس – ابن الجوزى – ص ٩٥.
(٣) انظر الشريعة الآجرى: ص ٢٢.
(٤) انظر تلبيس إبليس –ابن الجوزى– ص ٩٥.
(٥) رواه مسلم، النووى شرح صحيح مسلم ١٦/ ٢٢٠، كتاب العلم باب هلك المتنطعون، ورواه أبو داود: سنن أبى داود ٤/ ٢٨١ كتاب السنة – باب لزوم السنة، ورواه أحمد – المسند ١/ ٣٨٦.

يرويه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا)[(١)] الحديث.

إن الجهل بالدين بلية عظمى، وهو صفة ذم لا صفة مدح، والجهل ضد العلم وأشد درجات الجهل هبوطًا إذا كان الجاهل لا يعلم أنه جاهل، فهذا هو الجهل المركب، فكيف إذا اعتقد الجاهل أنه أعلم من غيره، فلا شك أن هذا هو منتهى الجهل والحماقة، فإذا كان الأمر كذلك فكيف بمن يقف أمام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقول له: (اعدل يا محمد فإنك لم تعدل) والذى قال هذا هو أصل الخوارج وهو: (ذو الخويصرة التميمى) فمن أين كان يريد العدل وقد نسب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الجور؟ ومن الذى يعدل إذا لم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعدل؟ وماذا يرجى لهذه الأمة من الخير إذا لم يكن نبيها يعدل؟ وهذا هو ما أجاب به رسول اله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذا الخويصرة حينما قال مقالته، فقال النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ويلك ومن يعدل إن لم أكن أعدل لقد خبتُ وخسرتُ إذا لم أكن أعدل)[(٢)] وقد رُوِيَت (خبتَ وخسرتَ) بفتح التاء ورُوِيَت بضمها.

فعلى رواية فتح التاء نسبة الخيبة والخسارة إلى المخاطب ويشمل بقية الأمة إذا لم يكن نبيها يعدل، وبضمها تكون نسبة الخيبة والخسارة إلى المتكلم نفسه وهو النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه والحالة هذه جائر وحاشاه عن ذلك.

ومن جهالاتهم الشنيعة موقفهم من أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ طلبوا منه أن يقر على نفسه بالكفر ثم يستقبل التوبة[(٣)] فهل يليق بمسلم قد

---

(١) رواه البخارى – فتح البارى ١/ ٩٣ كتاب الإيمان – باب الدين يسر، ورواه أحمد: المسند ٥/ ٦٩.

(٢) قد تقدم ذكر هذا الحديث انظر: ص ٧٢.

(٣) انظر تلبيس إبليس – ابن الجوزى– ص ٩٣ وانظر فتح البارى ١٢/ ٢٨٤.

آمن بالله ودخل فى الإسلام طائعا مختارًا لم يخالط إيمانه شك ولا ريب أن يعترف بالكفر عند أمر لا يستوجبه.

ومن جهالاتهم الشنيعة أيضا، أنهم وجدوا عبد الله بن خباب رضي الله عنه ومعه أم ولد له حبلى[١] فناقشوه فى أمور، ثم سألوه رأيه فى عثمان وعليّ رضي الله عنهما فأثنى عليهما خيرا، فنقموا عليه، وتوعدوه بأن يقتلوه شر قتلة فقتلوه وبقروا بطن المرأة[٢].

ومر بهم خنزير لأهل الذمة فقتله أحدهم، فتحرجوا من ذلك وبحثوا عن صاحب الخنزير وأرضوه فى خنزيره.

فيا للعجب! أتكون الخنازير، أشد حرمة من المسلمين عند أحد يدعى الإسلام[٣] !! لكنها عبادة الجهال، التى أملاها عليهم الهوى والشيطان، نسأل الله السلامة والعافية.

قال ابن حجر رحمه الله: "إن الخوارج لما حكموا بكفر من خالفهم استباحوا دماءهم وتركوا أهل الذمة فقالوا نفى لهم بعهدهم وتركوا قتال المشركين، واشتغلوا بقتال المسلمين، وهذا كله من آثار عبادة الجهال الذين لم تنشرح صدورهم بنور العلم ولم يتمسكوا بحبل وثيق منه، وكفى أن رأسهم رد على رسول الله ﷺ أمره ونسبه إلى الجور، نسأل الله السلامة"[٤].

وبهذا يتبين لنا أن الجهل كان من الصفات البارزة فى تلك الطائفة التى هى

---

(١) انظر: تلبيس - إبليس - ابن الجوزى - ص ٩٣.
(٢) انظر: تاريخ الطبرى ٥/ ٨٢، وانظر فتح البارى: شرح صحيح البخارى ١٢/ ٢٨٣ و٢٩٧ وانظر: الفرق بين الفرق - البغدادى ص ٥٧.
(٣) انظر: فتح البارى - شرح صحيح البخارى ١٢/ ٢٨٥.
(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى ١٢/ ٣٠١.

إحدى الطوائف المنتسبة إلى الإسلام، فالجهل مرض عضال يُهلك صاحبه من حيث لا يشعر، بل قد يريد الخير فيقع فى ضده[(١)] كما قال تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالًا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)[(٢)].

شق عصا الطاعة واستباحة دماء المسلمين وأموالهم

لما فارق الخوارج جماعة المسلمين تميزوا بآراء خاصة فارقوا بها جماعة المسلمين، ورأوها من الدين الذى لا يقبل الله غيره، ومن خالفهم فيها فقد خرج من الدين فى زعمهم فأوجبوا البراءة منه. بل إن منهم من غلا فى ذلك، فأوجبوا قتال من خالفهم واستحلوا دماءهم[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وظهرت الخوارج بمفارقة أهل الجماعة واستحلال دمائهم وأموالهم"[(٤)].

فمن ذلك أنهم قتلوا عبد الله بن خباب بغير سبب غير أنه لم يوافقهم على رأيهم[(٥)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فجعلوا يقتلون النساء والولدان، ويبقرون بطون الحبالى، ويفعلون أفعالا لم يفعلها غيرهم"[(٦)].

هذا موقفهم من عامة المسلمين. وأما موقفهم من الولاة، فقد شقوا عصا

---

(١) انظر نوادر الأصول - محمد الحكيم الترمذى - ص ٥٤.

(٢) الكهف: ١٠٣، ١٠٤.

(٣) انظر منهاج السنة النبوية - ابن تيمية ٣/ ٦٢.

(٤) كتاب النبوات - ابن تيمية ص ١٢٩، وانظر المغنى - ابن قدامة ٣/ ١٠٥.

(٥) انظر الفرق بين الفرق -البغدادى- ص ٥٧.

(٦) البداية والنهاية ٣/ ٢٩٤.

الطاعة وسعوا فى تفريق كلمة المسلمين يوضح هذا مواقفهم مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه حيث تخلوا عنه وخالفوه فى أحرج المواقف، وعصوا أمره، وليت الأمر اقتصر على ذلك، بل طالبوه بوقف القتال بعدما شارف جيشه على الانتصار على أهل الشام، بل إنهم ربما هددوه بالقتل إذا لم يوقف القتال، فبعث إلى قائده يأمره بوقف القتال[١].

صلابتهم وحماستهم لمبدئهم

لقد امتازت الخوارج بصفات طيبة وخصال حميدة، غير أنها لم تكتف فى تلك الصفات عند الحد المعقول، بل تجاوزته إلى درجة التهور، ومجاوزة الحد توقع فى الضد.

فمن تلك الصفات، حماستهم لمبدئهم وتعصبهم لعقيدتهم فقد كانوا من أخلص الناس لعقيدتهم، ومن أبسل الناس فى الدفاع عنها[٢]، غير أن ذلك الإخلاص كان يصاحبه الانحياز لناحية معينة فلم يسلم من التعصب ولا من التعمق، ولذلك كانت هذه الفرقة من أشد الفرق دفاعا عن مذهبها، وحماسة لآرائها[٣]، مما جعلهم يندفعون وراء فكرتهم غير مبالين بما ينالهم فى سبيلها[٤]، من قتال أو طرد أو اضطهاد، ولذلك صار الخوارج رجالًا ونساء مثلا فى الشجاعة والجرأة، والمتتبع لتاريخهم يجد ألوانا من البطولة والتضحيات فقد كانت الفئة القليلة منهم تتصدى للجيوش العظيمة فلا ينالون منها إلا بعد عناء

---

(١) انظر البداية والنهاية ٤/ ٢٤٧، وانظر مقالات الإسلاميين - الأشعرى ١/ ١٣.
(٢) انظر الخوارج فى الإسلام -عمر أبو النصر- ص ٤٦.
(٣) انظر المذاهب الإسلامية -محمد أبو زهرة- ص ٩٨.
(٤) انظر دراسات فى الفلسفة الإسلامية - عبد اللطيف محمد العبد ص ١٥٤.

وزحوف ومعارك كثيرة دامية(١).

وهذا كله نابع من اعتقادهم أن مذهبهم هو الحق الذى لا يجوز غيره، ولا يقبل الله دينًا سواه، ومن أخل بشىء من تعاليمه، فلا حظ له من الدين. الأمر الذى جعل من المستحيل أن يلتقوا مع أحد من المسلمين فى فكرة أو رأى، ولذا كان قبول الأعذار من مخالفيهم شيئًا غريبا عن منهجهم وطبعهم(٢).

ولهذا كانوا يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان(٣) كما أخبر بذلك النبى ﷺ فى الحديث الآتى قريبا إن شاء الله.

حكمهم فى نظر علماء الإسلام

عرفنا فيما تقدم من هذا البحث شيئًا من صفات الخوارج وشيئا مما يمكن أن يقال عنهم من مدح أو ذم، ومن ذلك أنهم كانوا أهل عبادة، نعم، فقد كانوا مداومين على الصلاة والصيام وقراءة القرآن، وقد شهد لهم النبى ﷺ بذلك حيث قال: (تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم)(٤) الحديث.

وشهد لهم التاريخ بذلك، فمن قرأ تاريخهم وسيرهم عرف ذلك عنهم، ولكنهم مع هذا كله يحملون قلوبا عميًا وآذانا صمًا، ونفوسًا شريرة، أبعدتهم عن الحق وصدتهم عن الهدى حتى أصبحوا فى معزل عن الإيمان وأهله، وظنوا

---

(١) انظر الخوارج فى الإسلام - عمر أبو النصر ص ٨٩، وانظر - فتح البارى ١٢/ ٢٩١.

(٢) انظر دراسات فى الفلسفة الإسلامية - عبد اللطيف محمد العبد ص ١٥٤ وانظر تلبيس إبليس - ابن الجوزى - ص ٩٥، وانظر منهاج السنة النبوية - ابن تيمية ٣/ ٦٠-٦١.

(٣) انظر كتاب النبوات - ابن تيمية ص ١٣١.

(٤) متفق عليه - انظر فتح البارى ٩/ ٩٩ وقد سبق ذكره.

أن ما معهم هو الحق، وتأولوا القرآن على ما تمليه عليهم نفوسهم[١] حتى عمدوا إلى آيات نزلت فى الكفار فجعلوها فى المؤمنين.

ولذلك (كان ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يراهم شرار خلق الله، وقال: (إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار فجعلوها فى المؤمنين)[٢].

لهذا حذرنا منهم النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن ظهر منهم ما ظهر من العبادة، كما حذرنا منهم صحابته -رضوان الله عليهم- بل حذرنا الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ممن تكون فيه تلك الصفات[٣]: فقال تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا)[٤].

ولهذا اتفقت الأمة قديما وحديث على ذم الخوارج وتضليلهم وأنهم قوم سوء وعصاة لله عَزَّ وَجَلَّ، ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن صلوا وصاموا واجتهدوا فى العبادة[٥] لأنهم كانوا فى هذا كله يعملون بما يرضى أنفسهم لا بما يرضى الله ورسوله.

فقد أخرجهم الشيطان من الدين عن طريق التعمق والزيادة لا عن طريق التفريط والتقصير، وذلك أنهم لم يلتزموا حدود الشريعة فيما أتوه من العبادة، بل تجاوزوا ذلك حتى خرجوا من الدين، وهذا هو المروق الذى وصفهم به النبى[٦] صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: (يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية)[٧].

---

(١) انظر كتاب الشريعة – محمد بن الحسين الآجرى – ص ٢١.
(٢) فتح البارى – شرح صحيح البخارى ١٢/ ٢٨٢.
(٣) انظر كتاب الشريعة – محمد بن الحسين الآجرى – ص ٢١.
(٤) الكهف: ١٠٣، ١٠٤.
(٥) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام – ابن تيمية ٢٨/ ٢١٨ وانظر: الشريعة للآجرى – ص ٢١.
(٦) انظر ملخص تاريخ الخوارج: محمد شريف سليم – ص ١٢١ – ١٢٢.
(٧) متفق عليه: فتح البارى ١٢/ ٢٨٣ وقد سبق ذكره.

وقال عليه الصلاة والسلام فى ذى الخويصرة حينما طلب عمر ابن الخطاب منه أن يأذن له فى قتله. فقال: (دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية)[١].

وقد ثبت هذا عند عامة علماء المسلمين، فأجمعوا على الحكم بفسق الخوارج وضلالتهم.

وفيما يلى سوف أذكر إن شاء الله حكمهم عند علماء المسلمين، وذلك من ناحيتين:

الأولى: حكم قتالهم

الثانية: حكم تكفيرهم

حكم قتال الخوارج

لقد تقدم فى هذا البحث ذكر الخوارج وصفاتهم وما ورد فيهم عن رسول الله ﷺ وعرفنا شيئا مما أحدثوه فى الإسلام. فهؤلاء لا شك فى وجوب قتالهم وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع.

فمن كتاب الله قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) الآية.

فهذا أمر واضح يدل على وجوب قتال الفئة الباغية حتى تفىء وترجع إلى جماعة المسلمين، والخوارج حينما ظهروا فارقوا جماعة المسلمين وبغوا عليهم وناصبوهم العداء فوجب قتالهم.

---

(١) متفق عليه: صحيح مسلم بشرح النووى ٧/ ١٦٥ وقد سبق أيضًا.

وهكذا كلما خرجوا فى أى فترة من التاريخ فقتالهم واجب بكتاب الله. وقد دلت السنة على وجوب قتال الخوارج، وقد استفاضت عن النبى ﷺ الأحاديث فى ذم الخوارج والأمر بقتالهم، وهى أحاديث ثابتة فى الصحيحين وغيرهما:

من ذلك ما رواه على ابن أبى طالب رضي الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: (يأتى فى آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن فى قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة)[1].

بهذا الحديث ونحوه استدل من يرى جواز قتلهم ابتداء وإن لم يبدءوا بحرب، وهذا إذا أظهروا بدعتهم، وكذلك استدل به على جواز قتل المقدور عليه منهم.

قال ابن تيمية رحمه الله: "فأما قتل الواحد المقدور عليه من الخوارج كالحرورية والرافضة ونحوهم، فهذا فيه قولان للفقهاء، هما روايتان عن الإمام أحمد، والصحيح أنه يجوز قتل الواحد منهم"[2].

وقال ابن قدامة رحمه الله: (والصحيح إن شاء الله أن الخوارج يجوز قتلهم ابتداء والإجهاز على جريحهم لأمر النبى ﷺ بقتلهم ووعده بالثواب لمن قتلهم)[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (اتفق على قتالهم سلف الأمة وأئمتها)[4].

---

(١) متفق عليه والرواية للبخارى، وانظر فتح البارى ٩/ ٩٩، وانظر صحيح مسلم بشرح النووى ٧/ ١٦٩ وقد سبق ذكره فى الباب الأول.

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ٢٨/ ٤٩٩.

(٣) المغنى - ابن قدامة ٨/ ١٠٧.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام - ابن تيمية ٢٨/ ٥١٢، وانظر - ص ٥١٣، وانظر كتاب =

وإنما وجب قتال الخوارج لإفسادهم أمر المسلمين، وتفريق كلمتهم وإضعافهم أمام عدوهم، قال ابن هبيرة "إن قتال الخوارج أولى من قتال المشركين، والحكمة فيه أن فى قتالهم حفظ رأس مال الإسلام، وفى قتال أهل الشرك طلب الربح، وحفظ رأس المال أولى"[(١)].

حكم تكفير الخوارج: لقد اتفقت الأمة على ذم الخوارج وتضليلهم، وعلى وجوب قتالهم، وأما التكفير فإن مسألته صعبة جدا، ما لم يكن سببه ظاهرًا صريحًا أما إذا لم يكن الأمر كذلك فإن مسالة التكفير أو عدمه مسألة من أشد المسائل إشكالا: إذ أن إخراج أحد من الإيمان بغير يقين أمر عظيم، وكذا إدخال أحد من الكفار فى الإسلام وعده من المؤمنين والحال أن حقيقته الكفر هو أيضا أمر عظيم وخطير، ومن أجل هذا وقع الخلاف فى تكفير الخوارج وغيرهم من أهل البدع المظهرين للإسلام.

والمشهور في ذلك قولان للعلماء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٢٨/ ٥١٨): فإن الأمة متفقون على ذم الخوارج وتضليلهم وإنما تنازعوا في تكفيرهم على قولين مشهورين في مذهب مالك وأحمد وفي مذهب الشافعي أيضا نزاع في كفرهم، ولهذا كان فيهم وجهان في مذهب أحمد وغيره على الطريقة الأولى:

أحدهما: أنهم بغاة.

والثاني: أنهم كفار كالمرتدين، يجوز قتلهم ابتداء، وقتل أسيرهم، واتباع مدبرهم، ومن قدر عليه منهم استتيب كالمرتد فإن تاب وإلا قتل.اهـ. كلامه

=

النبوات لابن تيمية – ص ١٢٩ – ١٣٠.

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ١٢/ ٣٠١.

والغالب على الإمام أحمد التوقف عن تكفيرهم.

فالخلاصة مما سبق أن المسألة فيها ثلاثة أقوال وهذا أوان التفصيل لهذه الأقوال:

القول الأول: الحكم بتكفيرهم. واستدلوا بالأحاديث الواردة في حقهم ومن ذلك:

عن سويد بن غفلة، قال علي رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة. رواه البخاري (٦٩٣٠)، ومسلم (١٧٧١).

واستدلوا بحديث ذي الخويصرة عندما قال النبي ﷺ: إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية. رواه البخاري (٦٩٣٣)، ومسلم (١٧٦١).

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ٣١٣) جملة من العلماء الذين قالوا بتكفير الخوارج كالبخاري حيث قرنهم بالملحدين وأفرد عنهم المتأولين بترجمة قال فيها: باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه.

وممن يرى بتكفير الخوارج كما ذكر الحافظ أبوبكر بن العربي فقال الحافظ: وبذلك صرح القاضي أبو بكر بن العربي في شرح الترمذي فقال: الصحيح أنهم كفار لقوله ﷺ: "يمرقون من الإسلام " ولقوله: "لأقتلنهم قتل عاد "، وفي لفظ " ثمود "، وكل منهما إنما هلك بالكفر، وبقوله: "هم شر الخلق " ولا يوصف بذلك إلا الكفار، ولقوله: "إنهم أبغض الخلق إلى الله

تعالى "، ولحكمهم على كل من خالف معتقدهم بالكفر والتخليد في النار فكانوا هم أحق بالاسم منهم.اهـ.

وكذلك ممن قال بتكفيرهم السبكي، قال الحافظ: وممن جنح إلى ذلك من أئمة المتأخرين الشيخ تقي الدين السبكي فقال في فتاويه:

احتج من كفر الخوارج وغلاة الروافض بتكفيرهم أعلام الصحابة لتضمنه تكذيب النبي ﷺ في شهادته لهم بالجنة، قال: وهو عندي احتجاج صحيح.اهـ.

وكذا قال القرطبي في " المفهم ": والقول بتكفيرهم أظهر في الحديث.

وقال أيضا: فعلى القول بتكفيرهم يقاتلون ويقتلون وتسبى أموالهم وهو قول طائفة من أهل الحديث في أموال الخوارج، وعلى القول بعدم تكفيرهم يسلك بهم مسلك أهل البغي إذا شقوا العصا ونصبوا الحرب.اهـ.

وهذا يدل على أنه غير جازم بالحكم فيهم وإن كان يرى ترك تكفيرهم أسلم لقوله:

وباب التكفير باب خطر ولا نعدل بالسلامة شيئا. وممن ذهب إلى تكفيرهم أيضا الحسن بن محمد بن علي ورواية عن الإمام الشافعي ورواية عن الإمام مالك وطائفة من أهل الحديث. انظر الإبانة الصغرى ١٥٢، الشفا ٢/ ١٠٥٧، المغني (١٢/ ٢٣٩). وممن ذهب إلى تكفيرهم من المعاصرين سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

القول الثاني: الحكم بعدم تكفير الخوارج واستدلوا بأمور وهي:

أولا: أنهم نطقوا بالشهادتين ودخلوا في الإسلام وهذا يمنع من تكفيرهم أو إلحاقهم بمن لايقر بذلك، وتفسيقهم إنما كان لما عرف عنهم من تكفيرهم المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم. وهذا الرأي هو لأكثر أهل الأصول من

أهل السنة.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٢/ ٣١٤): وذهب أكثر أهل الأصول من أهل السنة إلى أن الخوارج فساق وأن حكم الإسلام يجري عليهم لتلفظهم بالشهادتين ومواظبتهم على أركان الإسلام، وإنما فسقوا بتكفيرهم المسلمين مستندين إلى تأويل فاسد وجرهم ذلك إلى استباحة دماء مخالفيهم وأموالهم والشهادة عليهم بالكفر والشرك.اهـ.

ثانيا: أنهم لم يصرحوا بالكفر وإن قالوا أقوالا تؤدي إليه لكن الحكم بالكفر لابد من قيام المقتضى له وانتفاء الموانع وسبب ذلك أنهم متأولون وكان قصدهم اتباع القرآن إلا أنهم اخطأوا التأويل ولهذا عندما ناظرهم عبدالله بن عباس رجع منهم الفان وخرج سائرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (١٣/ ٢١٠): فإن الخوارج خالفوا السنة التي أمر القرآن باتباعها وكفروا المؤمنين الذين أمر القرآن بموالاتهم ولهذا تأول سعد بن أبي وقاص فيهم هذه الآية: "وما يضل به إلا الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض" [البقرة: ٢٦ - ٢٧] وصاروا يتتبعون المتشابه من القرآن فيتأولونه على غير تأويله من غير معرفة منهم بمعناه ولا رسوخ في العلم ولا اتباع للسنة ولا مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن.اهـ.

ثالثا: مواظبتهم على أركان الإسلام ومحافظتهم عليها وعدم تفريطهم في شيء منها فمما لا شك فيه أن الخوارج أهل طاعة وعبادة فقد كانوا حريصين كل الحرص على التمسك بأهداب الدين وتطبيق أحكامه كاملة قال ابن عباس في وصفهم: فأتيتهم فدخلت على قوم لم أر أشد اجتهادا منهم، أيديهم كأنها ثفن

الإبل، ووجوههم معلمة من آثار السجود.

رابعا: إجماع علماء المسلمين على أن الخوارج فرقة من فرق المسلمين لم يخرجهم أحد من تلك الفرق بصفة العموم وإن خرجت بعض طوائف منهم للقطع بكفرهم كاليزيدية والميمونية.

قال الخطابي فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر: أجمع علماء المسلمين على أن الخوارج مع ضلالتهم فرقة من فرق المسلمين، وأجازوا مناكحتهم وأكل ذبائحهم، وأنهم لا يكفرون ما داموا متمسكين بأصل الإسلام.اهـ.

وقال ابن بطال: ذهب جمهور العلماء إلى أن الخوارج غير خارجين عن جملة المسلمين لقوله " يتمارى في الفوق " لأن التماري من الشك، وإذ وقع الشك في ذلك لم يقطع عليهم بالخروج من الإسلام، لأن من ثبت له عقد الإسلام بيقين لم يخرج منه إلا بيقين.اهـ.

وممن ذهب إلى هذا القول - وهو عدم تكفير الخوارج - رواية عن الإمام أحمد ورواية عن الإمام مالك وهو قول الشافعي في رواية.

قال الطالبي: وأما الإمام الشافعي فإنه لم يفرق بين مذهب الخوارج وبين غيره من مذاهب الفرق الأخرى في عدم التكفير بها.اهـ.

وكذلك الإمام النووي في شرح مسلم (٢/ ٥٠) قال: المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون والمحققون: أن الخوارج لا يكفرون كسائر أهل البدع.اهـ.

وقال الإمام الشاطبي في الإعتصام (٢/ ١٨٥): وقد اختلفت الأمة في تكفير هؤلاء أصحاب البدع العظمى ولكن الذي يقوى في النظر وبحسب الأثر عدم القطع بتكفيرهم والدليل عليه عمل السلف الصالح فيهم.اهـ.

وقال ابن قدامة في المغني (٨/ ١٠٦): الخوارج الذين يكفرون بالذنب، ويكفرون عثمان وعليا وطلحة والزبير، وكثيرا من الصحابة، ويستحلون دماء المسلمين، وأموالهم، إلا من خرج معهم، فظاهر قول الفقهاء من أصحابنا المتأخرين أنهم بغاة، حكمهم حكمهم. وهذا قول أبي حنيفة، والشافعي، وجمهور الفقهاء، وكثير من أهل الحديث.اهـ. والقول بعدم تكفيرهم هو رأي شيخ الإسلام ابن تيمية.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة (٥/ ٢٤٧): ومما يدل على أن الصحابة لم يكفروا الخوارج أنهم كانوا يصلون خلفهم وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنه وغيره من الصحابة يصلون خلف نجدة الحروري وكانوا أيضا يحدثونهم ويخاطبونهم كما يخاطب المسلم المسلم كما كان عبدالله بن عباس يجيب نجدة الحروري لما أرسل إليه يسأله عن مسائل وحديثه في البخاري، وكما أجاب نافع بن الأزرق عن مسائل مشهورة وكان نافع يناظره في أشياء بالقرآن كما يتناظر المسلمان وما زالت سيرة المسلمين على هذا ما جعلوهم مرتدين كالذين قاتلهم الصديق. هذا مع أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتالهم في الأحاديث الصحيحة وما روي من أنهم شر قتلى تحت أديم السماء خير قتيل من قتلوه في الحديث الذي رواه أبو أمامة رواه الترمذي وغيره أي أنهم شر على المسلمين من غيرهم فإنهم لم يكن أحد شرا على المسلمين منهم لا اليهود ولا النصارى فإنهم كانوا مجتهدين في قتل كل مسلم لم يوافقهم مستحلين لدماء المسلمين وأموالهم وقتل أولادهم مكفرين لهم وكانوا متدينين بذلك لعظم جهلهم وبدعتهم المضلة ومع هذا فالصحابة رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان لم يكفروهم ولا جعلوهم مرتدين ولا اعتدوا عليهم بقول ولا فعل بل اتقوا الله فيهم وساروا

فيهم السيرة العادلة.اهـ.

القول الثالث: التوقف عن تكفير الخوارج وكما ذكرنا أنه الغالب على الإمام أحمد، روى الخلال في السنة (ص١٤٥ رقم ١١١) بإسناده فقال: وأخبرني يوسف بن موسى أن أبا عبدالله قيل له: أكفر الخوارج ؟ قال: هم مارقة. قيل: أكفار هم ؟ قال: هم مارقة مرقوا من الدين. وإسناده حسن.

وروى الخلال أيضا بإسناده (ص ١٤٦ رقم ١١٢) فقال: وأخبرني محمد بن أبي هارون أن إسحاق حدثهم أن أبا عبدالله سئل عن الحرورية والمارقة: يكفرون ؟

قال: اعفني من هذا وقل كما جاء في الحديث. وإسناده صحيح. وقد أخرجه ابن هاني في مسائله.

وقال شيخ الإسلام في الفتاوى (١٢/ ٤٨٦): وأما " القدرية " المقرون بالعلم و " الروافض " الذين ليسوا من الغالية والجهمية والخوارج: فيذكر عنه (أي الإمام أحمد)في تكفيرهم روايتان هذا حقيقة قوله المطلق مع أن الغالب عليه التوقف عن تكفير القدرية المقرين بالعلم والخوارج مع قوله: ما أعلم قوما شرا من الخوارج.اهـ.

وممن توقف فيهم أيضا أبوالمعالي عبدالملك بن يوسف إمام الحرمين

قال القاضي عياض في الشفا (٢/ ١٠٥٨): ولمثل هذا ذهب أبو المعالي (أي التوقف) رَحِمَهُ اللهُ في أجوبته لأبي محمد عبدالحق وكان سأله عن المسألة واعتذر له بأن الغلط فيها صعب لأن إدخال كافر في الملة أو إخراج مسلم عنها عظيم في الدين.اهـ.

وقد توقف في المسألة أيضا الباقلاني والغزالي قال الحافظ في الفتح

(١٢/ ٣١٤) نقلا عن القاضي عياض: وقد توقف قبله القاضي أبو بكر الباقلاني وقال: لم يصرح القوم بالكفر وإنما قالوا أقوالا تؤدي إلى الكفر.

وقال الغزالي في كتاب " التفرقة بين الإيمان والزندقة " والذي ينبغي الاحتراز عن التكفير ما وجد إليه سبيلا فإن استباحة دماء المصلين المقرين بالتوحيد خطأ ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك دم لمسلم واحد...اهـ.

الخاتمة: هذه ثلاثة أقوال في المسألة نقلتها من كلام أهل العلم.

وهناك رأي قد يجعل قولا رابعا ذكره د/ غالب عواجي في كتابه " الخوارج تاريخهم وآراؤهم الاعتقادية وموقف الإسلام منها " وهذا القول ما ترجح لديه فقال (ص٥٤٤): والواقع أن الحكم بتكفير الخوارج على الإطلاق فيه غلو وأن الحكم بالتسوية بينهم وبين غيرهم من فرق المسلمين فيه تساهل، ثم قال: وفيما يظهر لي أن لا يعمم الحكم على جميع الخوارج بل يقال في حق كل فرقة بما تستحقه من الحكم حسب قربها أو بعدها عن الدين وحسب ما يظهر من اعتقاداتها وآرائها أما الحكم عليهم جميعا بحكم واحد مدحا أو ذما فإنه يكون حكما غير دقيق. انظر كتاب أصول وتاريخ الفرق (١/ ٦٦، وما بعدها).

مسألة

قال الشيخ مشهور كتاب العراق في آحاديث وآثار الفتن (١/ ٦١): فصل الخوارج والعراق.

وكان خروجهم في العراق، بعد مقتل عمر، وذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» (٧/ ٢٢٨) قصة خروجهم، فقال: «قلت: وهذا الضرب من الناس من أغرب أشكال بني آدم، فسبحان من نوّع خلقه كما أراد، وسبق في قدره العظيم،

وما أحسن ما قال بعض السلف في الخوارج أنهم المذكورون في قوله تعالى: {قُل هَل نُنَبِّئُكم بالأَخسَرِينَ أَعمَالًا الَّذين ضَلَّ سَعيُهُم في الحَيَاةِ الدُّنيا وهم يَحسَبُون أَنَّهم يُحسِنُونَ صُنعًا أُولئك الَّذين كَفَروا بآيات رَبّهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نُقيم لهم يوم القِيَامة وَزنًا} [الكهف: ١٠٣-١٠٥] أنّ هؤلاء الجهلة الضُّلاّل، والأشقياء في الأقوال والأفعال، اجتمع رأيهم على الخروج من بين أظهر المسلمين، وتواطؤوا على المسير إلى المدائن ليملكوها على الناس ويتحصنوا بها ويبعثوا إلى إخوانهم وأضرابهم -ممن هو على رأيهم ومذهبهم، من أهل البصرة وغيرها- فيوافوهم إليها، ويكون اجتماعهم عليها. فقال لهم زيد بن حصين الطائي: أن المدائن لا تقدرون عليها، فإنّ بها جيشًا لا تطيقونه، وسيمنعوها منكم، ولكن واعدوا إخوانكم إلى جسر نهر جوخَا، ولا تخرجوا من الكوفة جماعات، ولكن اخرجوا وحدانًا لئلا يفطن بكم.

فكتبوا كتابًا عامًّا إلى من هو على مذهبهم ومسلكهم من أهل البصرة وغيرها، وبعثوا به إليهم ليوافوهم إلى النهر، ليكونوا يدًا واحدة على الناس، ثم خرجوا يتسللون وحدانًا لئلا يعلم أحدٌ بهم فيمنعوهم من الخروج، فخرجوا من بين الآباء والأمهات والأخوال والخالات، وفارقوا سائر القرابات، يعتقدون بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم أنّ هذا الأمر يُرضي رب الأرض والسماوات، ولم يعلموا أنه من أكبر الكبائر والذنوب الموبقات، والعظائم والخطيئات، وأنه مما زيَّنه لهم إبليس الشيطان الرجيم المطرود عن السماوات الذي نصب العداوة لأبينا آدم، ثم لذريته ما دامت أرواحهم في أجسادهم مترددات، والله المسؤول أن يعصمنا منه بحوله إنه مجيب الدعوات».

وقال ابن عبدالبر في «التمهيد» (٦/ ٦٤ - ط. الفاروق):

«وأخبار الخوارج بالنهروان، وقتلهم للرجال والولدان، وتكفيرهم الناس واستحلالهم الدماء والأموال، مشهور معروف. ولأبي زيد عمر بن شبة في «أخبار النهروان وأخبار صفين» ديوان كبير، من تأمله اشتفى من تلك الأخبار، ولغيره في ذلك كتب حسان، والله المستعان».

فصل: استمرار خروج الخوارج ووصول فتنتهم إلى كل مكان

فهذا يمثل أول اشتداد الفتن والموج الذي يشبه موج البحر، إذ وصلت فتنتهم إلى كل مكان، وبقي أثرُهم إلى الآن، والواقع المعايش بارز للعيان، في كثير من البلدان، وسيشتدّ مع مرور الزمان، وحسبنا الله، وعليه التكلان، وهذا هو الدليل والبرهان:

أخرج النسائي وغيره من حديث أبي برزة رفعه: «يخرج في آخر الزمان قوم كأنّ هذا منهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السَّهمُ من الرمية».

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٩٦): «فإنه ﷺ قد أخبر في غير هذا الحديث أنهم لا يزالون يخرجون إلى زمن الدجال، وقد اتفق المسلمون على أنّ الخوارج ليسوا مختصّين بذلك العسكر».

يشير شيخ الإسلام ابن تيمية إلى ما أخرجه ابن ماجه (١/ ١٧٧-١٧٨ رقم ١٧٤ - ط. عواد) وغيره بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينشأ نشءٌ يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج فِرْقٌ قُطِع، حتى يخرج في أعراضهم الدجال».

وبوّب عليه شيخنا الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (٥/ ٥٨٢ رقم ٢٤٥٥): (استمرار خروج الخوارج). فمن سنة الله عز وجل التي لا تتخلف البتة في

الخوارج ومن يسير على منهجهم في التغيير -كما في هذا الحديث-، أنّ هؤلاء يظهرون بين الفينة والفينة ثم يُقْطعون، وورد (القطع) بصيغة المبني للمجهول، فيقطعون بالحجة والبرهان من قبل العلماء كما فعل، والتخويف والتهديد من قبل السلطان، أو بهما جميعًا، أو بما يقضيه الله ﷻ في سنته الكونية.

وقد تفطن لهذا الإمام وهب بن منبه لما قال في نصيحته إلى أبي شَمِر ذي خولان، -وهي طويلة جدًّا-، وفيها: «ألا ترى يا ذا خولان! أني قد أدركت صدر الإسلام، فوالله ما كانت للخوارج جماعة قط إلا فرّقها الله على شر حالاتهم، وما أظهر أحد منهم قوله إلا ضرب الله عنقه، وما اجتمعت الأمة على رجل قط من الخوارج، ولو أمكن الله الخوارج من رأيهم لفسدت الأرض، وقطعت السبل، وقُطع الحج عن بيت الله الحرام، وإذَنْ لعَادَ أمرُ الإسلام جاهلية حتى يعود الناس يستعينون برؤوس الجبال، كما كانوا في الجاهلية، وإذن لقام أكثر من عشرة -أو عشرين- رجلًا ليس منهم رجل إلا وهو يدعو إلى نفسه بالخلافة، ومع كل رجل أكثر من عشرة آلاف يقاتل بعضهم بعضًا،...».

قال أبو عبيدة: وهذا الذي حصل مع الخوارج من أول تاريخ نشأتهم، فقد قاتل عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك العسكر في النهروان، وكاد أنْ يقضي عليهم، وقلعهم من مركزهم (حروراء) ورجعوا إلى (الكوفة)، وبقيت ثلّة منهم ثارت في الأرض.

قال البغدادي في «الفرق بين الفرق» (ص٦١): «وقتلت الخوارج يومئذٍ -أي: يوم النهروان- فلم يفلت منهم غير تسعة أنفس، صار منهم رجلان إلى سجستان، ومن أتباعهما خوارج سجستان، ورجلان صارا إلى اليمن، ومن أتباعهما إباضية اليمن، ورجلان صارا إلى عُمان ومن أتباعهما خوارج عُمان، ورجلان صارا إلى ناحية الجزيرة، من أتباعهما كان خوارج الجزيرة، ورجل

منهم صار إلى تل مورون، ثم خرج على علي بعد ذلك من الخوارج جماعة كانوا على رأي المحكمة الأولى، منهم أشرس بن عوف، وخرج عليه بالأنبار، وغلفة التيمي من تيم عدي خرج عليه بماسيذان، والأشهب بن بشر العرني خرج عليه بجرجرايا، وسعد بن قفل خرج عليه بالمدائن، وأبو مريم السعدي خرج عليه في سواد الكوفة، فأخرج علي إلى كل واحد منهم جيشًا مع قائد حتى قتلوا أولئك الخوارج، ثم قتل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تلك السنة في شهر رمضان، سنة ثمان وثلاثين من الهجرة».

وباض وفرَّخَ هذا المعسكر في كثير من البلدان، وكانت (العراق) هي مسرح أحداثه، فثار جنده على معاوية في الكوفة، وذلك سنة إحدى وأربعين. وقاموا بعدها بثورات متعددة ما بين سنة (٤١) سنة (٦٤)، ووقف منهم الولاة الأمويون موفقًا حازمًا شديدًا، يقول الطبري -مثلًا- في حوادث سنة (٥٨هـ): «وفي هذه السنة اشتد عبدالله بن زياد على الخوارج، فقتل منهم صبرًا جماعة كثيرة، وفي الحرب جماعة أخرى»، واشتدت شوكتهم بعد انهيار الدولة الأموية سنة أربع وستين، قال ابن جرير في حوادث سنة (٦٥هـ): «وفي هذه السنة اشتدت شوكة الخوارج بالبصرة». وقتل رئيس الأزارقة منهم: نافع بن الأزرق، وارتحلوا من حينها من نواحي البصرة والأهواز وأوغلوا شرقًا، فانتقلوا إلى أصبهان وكرمان وتمكنوا هناك، وخرجوا سنة اثنتين وسبعين، وغَلَبوا على البحرين، ودُحِروا منها في سنة ثلاث وسبعين، وخرجوا بعدها مرات عديدة، وبقيت لهم بقية في العراق في عهد الدولة العباسية، وقاموا بعدّة ثورات في خلافة الرشيد، وفي سنة إحدى وثلاثين ومئتين ظهر خارجي ببلاد ربيعة، فقاتله نائب الموصل، فكسره وانهزم أصحابه، وانتهى التطواف القلق بهم إلى الاستقرار في

أماكن معينة، قال ابن حزم: «ولم يبق اليوم من فرق الخوارج إلا الإباضية والصفرية فقط».

ويقول بعض معاصرينا عن أماكن وجودهم في زماننا: «وقد انقرض الخوارج إلا طائفة من الإباضية تقيم جهة عُمان، وفي جزيرة جربة تجاه تونس، وفي جنوبي الجزائر».

فصل: الخروج في عصرنا

هذه ومضة تاريخية سريعة، لا يسمح المقام بأكثر منها حول الخوارج، ولا بد من التنويه -أيضًا- على (ظاهرة الخروج في عصرنا)، فإنّ بسببها أُريقت دماء، وأُزهقت أرواح، تحت مسمى (الجهاد) و(القتال في سبيل الله)، وهي ظاهرة لها أسبابها ودوافعها، وهي في غاية التعقيد، ومن خلالها يظهر صحة ما عليه العلماء الربانيون وأئمة السنة في ترك الخروج على الحكام؛ إذ أن التغيير والإصلاح لا يتعلق بوجود القوة، أو الجماعة القادرة على الثورة، ولا على التخريج الفقهي لجواز الخروج، أو وجوبه، أو منعه، وإنما يتعلق بأمر آخر، أهمّ من هذا كله؛ وهو: تفكك المجتمع الإسلامي، وظهور العصبيات الجاهلية فيه، وتحكم الشُّبهات والشهوات في المسلمين، وبُعدُهم عن أحكام دينهم الحنيف اعتقادًا وعملًا؛ بُعدًا يجعلهم -في أنفسهم- أحقرَ من أن تَسْمُو همَّتهم للعمل على إزالة المنكرات، وإقامة العدل، ويجعلهم عند ربِّهم أقلَّ شأنًا من أن يستحقوا التكريم الإلهي بالحكم بشريعته، التي هي مصدر الأمن والاستقرار، وسبب الخير والرخاء؛ {وَكَذلك نُوَلّي بعضَ الظالمين بعضًا بما كَانوا يَكسِبون} [الأنعام: ١٢٩]، {إنّ اللهَ لا يُغَيِّر مَا بِقَوم حَتّى يُغَيِّروا ما بأنفسهم وإذا أرادَ اللهُ بِقَوم سُوءًا فلا مَرَدَّ له و مَا لَهُم مِن دونه مِن وَالٍ} [الرعد: ١١]».

ويظهر صواب هذا الموقف من خلال خصائص (الحق) التي لا تنفك عنه، من ثبات أهله عليه، وانشراح صدورهم به، وطول مسيرتهم وظهور ثمارهم، ورحم الله ابن حزم لما قال: «نُوَّار الفتنة لا يعْقِدُ».

«والمعنى: أنّ للفتنة مظهرًا خادعًا في مبدئه، قد يستحسن الناس صورتها، ويعقدون الآمال عليها، ولكن سرعان ما تموت وتتلاشى، مثل الزهرة التي تموت قبل أنْ تتفتح وتعطي ثمرتها. وهذه الكلمة القصيرة؛ حكمة عظيمة من نتاج فكر الإمام ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي عاصر فتنة البربر في الأندلس، ورأى بنفسه كيف أن الناس يعقدون على كل ثائر وثورة، وشرارة فتنة جديدة؛ آمالًا كبيرة في الإصلاح والتغيير، ولكن سرعان ما تتحول الآمال إلى مآسٍ وأحزانٍ، وضحايا وتدمير، وهذه الكلمة تنطبق على كل عصر ومصر، ويفترض بنا -نحن أبناء هذا العصر- أنْ نكون أكثرَ فهمًا لمدلولها، واستحضارًا لمعانيها، إذ نعيش في زمن قلَّ فيه العلم، وعمَّ فيه الجهل، ورفع الغوغاء رؤوسهم، وغلبت على النفوس الشبهات والشهوات».

فصل: مظاهر الخروج الجديد ونواره الذي لم ولن يعقد

ومن ذلك فتنة جهيمان والحرم المكي، وللخروج الجديد مظاهر، وبدا له (نوّار) في كثير من البلدان في أوقات متفرقات، ويا ليته (لم يعقد) فقط، وإنما أفسد أصحابه، بعدم معرفتهم بـ(واجب الوقت)، ومن أبرز (الأمثلة) على (نوّار الفتنة) الذي (لم يعقد) في القرن المنصرم، وإن كان لا يلزم منها التطابق التام بين (أصحابها) و(الخوارج)، وإنما خصَّت للمشابهة في (المسلك) و(الطريقة) فحسب:

فتنة جهيمان والحرم المكي

فتنة جهيمان بن محمد بن سيف العتيبي في الحرم المكي، ابتدأت في وقت ظهر الثلاثاء الأول من المحرم، وانتهت بعصر الخميس السابع عشر من المحرم لسنة ١٤٠٠هـ، وعليه تعطلت في هذه الفتنة شعيرة الأذان على مآذن الحرم اثنتين وثمانين مرة. وسببها الظاهر اعتقاد جماعة من خلال الرؤى وإسقاط أحاديث الفتن على غير وجهها، أنّ رجلًا منهم -واسمه: محمد بن عبدالله القحطاني- هو المهدي، فدخلوا المسجد الحرام، وسفكوا فيه الدماء، وأبلغوا الناس عند المغرب: اليوم ستخسف الأرض بالجيش القادم إلينا، ولم تخسف الأرض بالطبع، فقالوا للناس: أُرجئَ الأمر أربعة أيام أخرى، وهلم جرًا، واستمر القتال عشرين يومًا تقريبًا، وتوفّي فيها من الجيش الذي حاربهم (١٢) ضابطًا و(١١٥) ضابط صف وجندي، وأُدخل المستشفيات للمعالجة من الإصابات (٤٩) ضابطًا و(٤٠٢) ضابط صف وجندي. ونفّذ حكم القتل في (٦٣) شخصًا من هؤلاء (بغاة الحرم)، وعثر على (١٥) جثة من هذه الفئة عند تطهير أقبية الحرم، وتم التعرف على أصحابها من قبل من اعتقلوا من هذه الفئة، وذكر أنّ (٢٧) شخصًا من هذه الفئة قد توفّوا متأثرين بإصاباتهم، وأنّ عقوبة القتل قد خفضت إلى السجن لمدد مختلفة على (١٩) شخصًا، وأن عدد النساء والصبيان الذين وجدوا مع هذه الفئة قد بلغ (٢٣)، وأن (٣٨) شخصًا لم يثبت التحقيق اشتراكهم، وتمّ الإفراج عنهم. فهذه الفتنة العظيمة التي حلّت بأرض الحرم المكي الشريف سببها عدم فقه إسقاط أحاديث الفتنة على الواقع، على الرغم من أن بعض رؤوس المشاركين فيها لهم اطلاع على الأحاديث، ودراية بأهمية الوقوف على الصحيح منها، ونبذ الواهي والضعيف، ووصفهم بيان هيئة كبار العلماء آنذاك في دورة مجلسهم الخامسة عشرة بأنهم «فئة ضالة آثمة؛

لاعتدائها على حرم الله، وسفكها فيه الدم الحرام، وقيامها بما يسبِّب فرقة المسلمين، وشق عصاهم»، ووصفوا بما دعت إليه هذه الفئة بأنه «بذور فتنة وضلال، وطريق إلى الفوضى والاضطراب، والتلاعب بمصالح العباد والبلاد، وأنّ دعواهم قد يغترّ بظاهرها السذّج، وفي باطنها الشر المستطير» وحذروا -جزاهم الله خيرًا- المسلمين مما في تلك النشرات من التأويلات الباطلة، والشّبه الآثمة، والاتجاهات السيئة.

ومن الجدير بالذكر هنا أمور

أولًا: صلة هذه الفتنة بالعراق تظهر من خلال مقدمة؛ وهي: هل هذه الفرقة من الخوارج؟ فإن كانوا كذلك، فتكون هي من (المهيجات) التي جاءت من هناك، وخرجت من ضئضئ ذلك الرجل، الذي لو قتل، لارتاح الناس من شره، فهي حينئذٍ شر من تلك الشرارة.

ثانيًا: نفى جهيمان في غير رسالة من رسائله أنهم من الخوارج، وذكر أن بعض العلماء وطلبة العلم الراكنين إلى المناصب والمراتب والرواتب ينعتهم بذلك!

ويفرق بين (الخارجيّ) و(الخارج بغيًا عن الحكام) بقوله: «فمذهب الخوارج كفر، والخروج على الإمام ومنازعته ظلم، يجب ردع صاحبه عنه وقتله». وبناءً عليه يقول عن نفسه وجماعته مع علماء عصره:

«وإن خالفْتَهم قتلوك بشبهة يُسكِتون بها الأرنبَ، فيقولون: هو خارجي، مع أن أرنبهم لا تعرف معنى الخارجي» !!

ولا يخدعنّك تفريقه المذكور، فهو لعب بالألفاظ، لا تنويع فيه، فالخوارج -عند أهل التحقيق- ليسوا بكفار، وأبرز شيء في دينهم التكفير بالكبيرة،

والخروج على الحكام، وهو يلتقي معهم في الأمر الثاني، فاسمع إليه وهو يقرر في آخر رسالته «الإمارة والبيعة» (ص ٣٧) بعد تقريره ضعف حديث أخرجه مسلم في «صحيحه» (رقم ١٨٥٥)، وفيه: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم»، يقول:

«وعلى فرض صحته، فليس لهؤلاء الحكام فيه حجة؛ لأنه يقول «أئمتكم»؛ يعني: أئمة المسلمين، فهؤلاء الحكام ليسوا أئمة؛ لأن إمامتهم للمسلمين باطلة، ومنكر يجب إنكاره كما تقدم ذلك بالأدلة؛ لأنهم ليسوا من قريش، ولا يقيمون الدين، ولم يجتمع عليهم المسلمون، وإنما أصحاب ملك، سخروا المسلمين لمصالحهم، بل جعلوا الدين وسيلة لتحقيق مصالحهم الدنيوية؛ فعطلوا الجهاد، ووالوا النصارى، وجلبوا عليالمسلمين كل شر وفساد».

فهو يلتقي في نظرته إلى الحكام مع الخوارج، من ضرورة الخروج عليهم، والزعم بأنهم ليسوا بأئمة! وقرر هذا في رسالة مفردة مطبوعة سمّاها «نصيحة الإخوان إلى المسلمين والحكام».

ويعجبني كلام الشيخ عبدالمحسن آل عبيكان، لما تكلم عن الخوارج، وذكر حادثة الحرم بإلماحة، وقال عن أصحابها: «وهؤلاء الذين خرجوا (أي: مع جهيمان في حادثة الحرم) كانوا يزعمون أنهم أهل حديث، ولكنهم ضالون وليسوا كذلك، فهم «يقولون من قول خير البرية»، ويزعمون أنهم من أهل الحديث، وأنهم يتمسكون بالسنة، وليسوا كذلك، ولم يفهموا حديث رسول الله ﷺ، وأيضًا هم حدثاء أسنان، وهذا معلوم، ومن أدرك تلك الوقعة علم أن أكثرهم من صغار السن، ومن سفهاء الأحلام، وأكثرهم من الجهلة، وليسوا من كبار الناس، ولا ممن يتصدر المجالس، فهذا الحديث صدق على هؤلاء القوم،

حسب ما اجتهدت في تطبيقه، وعلى كل حال؛ فهم خارجون عن الطاعة، وخارجون على الإمام، وأنهم فعلوا فعلًا منكرًا، ولا شك.

ولا يعني هذا أنّ الخوارج كفّار خارجون عن ملة الإسلام، فإن عليًّا رَضِوَاللَّهُعَنْهُ لم يكفرهم، ولكن يكفي أنهم أهل ضلال، وأنه ينبغي أنْ يُقاتلوا، وأنْ لا يبقى منهم أحد بين أمة محمد ﷺ؛ لأنّ فسادهم عظيم، وشرهم كبير.

ومما يذكر في هذا المقام، أنّ بعض العلماء أدخل حديث: «يبايع لرجل بين الركن والمقام، ولن يستحل هذا البيت إلا أهله، فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب» أدخلوه في باب المهدي، بينما أرى أنه ينطبق على من بويع في تلك الفتنة؛ لأنّ استحلال البيت لا يكون مع مبايعة المهدي، وقد حصل الاستحلال عند مبايعة ذلك الشخص في تلك الفتنة، والله أعلم».

وأخيرًا كان الشيخ الألباني -رحمه الله تعالى- يسمّيهم في بعض مجالسه بـ: (الخوارج)، وقال شيخنا الألباني -رحمه الله تعالى- في «السلسلة الصحيحة» (٥/ ٢٧٨) تحت حديث رقم(٢٢٣٦)، ونصه: «ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صلِّ بنا، فيقول: لا، إنّ بعضهم أمير بعض تكرمة الله لهذه الأمة»: «واعلم أيها الأخ المؤمن! أنّ كثيرًا من الناس تطيش قلوبهم عند حدوث بعض الفتن، ولا بصيرة عندهم تجاهها، بحيث إنها توضح لهم السبيل الوسط الذي يجب عليهم أنْ يسلكوه إبانها، فيضلون عنه ضلالًا بعيدًا، فمنهم -مثلًا- مَن ادّعى أنه المهدي أو عيسى؛ كالقاديانيين الذين اتبعوا ميرزا غلام أحمد القادياني، الذي ادعى المهدوية أولًا، ثم العيسوية، ثم النبوة، ومثل جماعة (جهيمان) السعودي، الذي قام بفتنة الحرم المكي على رأس سنة (١٤٠٠) هجرية، وزعم أنّ معه المهدي المنتظر، وطلب من الحاضرين في الحرم أنْ

يبايعوه، وكان قد اتبعه بعض البسطاء والمغفلين والأشرار من أتباعه، ثم قضى الله على فتنتهم بعد أنْ سفكوا كثيرًا من دماء المسلمين، وأراح الله تعالى العباد من شرهم».

وفتنة المهدي والخوض فيها قديم، فها هو حفص بن غياث يقول: قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبدالله! إن الناس قد أكثروا في المهدي، فما تقول فيه؟ قال: «إنْ مرَّ على بابك، فلا تكن منه في شيء حتى يجتمع الناس عليه»، وهذا تطبيق لقاعدة سلفية مهمة في الفتن، وهي الدوران مع النصوص، وعدم التعجل في إسقاطها، وضرورة فهمها على ظاهرها. والغفلة في هذا الباب قاتلة، وهي «زلة مضروب بها الطبل»، وقد وقعت لبعض الأقدمين، فبُكِّت، وتُكلِّم معه شديدًا.

نقل ابن سعد عن شيخه محمد بن عمر الواقدي في ترجمة (محمد ابن عجلان)، قال: «وخرج محمد بن عجلان مع محمد بن عبدالله بن حسن، حين خرج بالمدينة، فلما قُتِلَ محمدُ بن عبدالله وولي جعفر بن سليمان بن علي المدينة، بعث إلى محمد بن عجلان فأُتِيَ به، فَبَكَّته وكلَّمه كلامًا، وقال: خرجتَ مع الكذّاب، وأَمَرَ به تُقْطع يده. فلم يتكلم محمد بن عجلان بكلمة، إلا أنه يحرّك شفتيه بشيء لا يدرى ما هو، يظن أنه يدعو، قال: فقام منْ حَضَر جعفرَ بن سليمان من فقهاء أهل المدينة وأشرافهم. فقالوا: أصْلَحَ الله الأمير، محمد بن عجلان فقيه أهل المدينة وعابدها! وإنما شُبِّه عليه وظن أنه المهديّ الذي جاءت فيه الرواية. فلم يزالوا يطلبون إليه حتى تركه، فولى محمد بن عجلان منصرفًا لم يتكلم حتى أتى منزله».

ومن الفتن التي (لم يعقد نوارها)، واصطلى المسلمون بنارها، وهي من

مهيّجات فتن العراق، وكانت لرُقْعَتِها أثر قوي في استمرارها.

فصل: فتنة حماة

ما وقع في مدينة (حماة) سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، من أحداث شهر شباط، وانفجرت ثورة عارمة باسم (الإسلام) في سوريا، ووقع اشتباك بين مجموعة ثائرين للإسلام مع النظام السوري، وتركزت الأحداث في (حماة)، ودُمرَت بالقصف والتفجير والنسف أجزاءُ كبيرةٌ من المدينة، وخلف ذلك نحو خمسة وعشرين ألف قتيل، ودمارًا هائلًا، شبّهته الصحافة الأجنبية بتدمير إحدى مدن الحرب العالمية الثانية، فضلًا عن اعتقال الآلاف من سكانها، وتشريد عشرات الآلاف الآخرين داخل سورية وخارجها.

وتبع ذلك، انشطارات وانقسامات في جماعة الإخوان المسلمين، وقيادتها السورية، ورمى قسم منهم نفسه في أحضان العراق، وراحوا يرددون: سنحرر سورية، بالدبابة العراقية والبندقية الفلسطينية، والبطل السوري!! وفتحت لهم من العراق إذاعة، بُحَّتْ أصواتُهم فيها للثورة، وبالنشيد لها، وكان لهم فيها معسكرات تدريب للجهاد -زعموا-، وأصبح لا يخلو واحد منها -فيما بعد- من سجن للعملاء المدسوسين فما بينهم على -زعم القائمين عليها- في فتنة عمياء، رسمت في ليلة ظلماء، وسفكت فيها الدماء، وتراشق الساعون والقائمون فيها بالويلات وعظائم الأمور، مما يعسر حصره، ولا يفيد في هذا المقام ضبطه وتعداده.

والذي أراه -والله أعلم- أنّ سبب هذه الفتن: العجلة، وعدم فقه واجب الوقت، وفقدان تربية العلماء على المنهج السلفي الرباني، وعدم التكييف الشرعي الصحيح لما يقومون به من مهالك ومصائب باسم الإسلام، وينطبق

على هؤلاء نعت ابن خلدون، فها هو يقول عنهم، وكأنّه يريدهم بأسمائهم وشخوصهم: «ممن أخذوا أنفسهم بإقامة الحق، ولا يعرفون ما يحتاجون إليه في إقامته».

ويقول: «إنّ كثيرًا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين، يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء، داعين إلى تغيير المنكر، والأمر بالمعروف، ورجاء الثواب عليه من الله، فيكثر أتباعهم من الغوغاء والدهماء، يعرضون أنفسهم في ذلك إلى المهالك، وأكثرهم يهلكون في هذا السبيل، مأزورين غير مأجورين؛ لأنّ الله لم يكتب ذلك عليهم».

وقال عنهم -وأصاب كبد الحقيقة-: «لا يشعرون بمغبة أمرهم، ومآل أحوالهم».

وكان شيخنا الألباني -رحمه الله تعالى- آنذاك ينهى هؤلاء عما يقومون به، وكان بعضهم يتندر به، بل اتهمه بعضهم -عامله الله بما يستحق- بأنه يهودي، وكم سمعنا آنذاك من أفراد (الإخوان المسلمين) تهكمًا وسخرية من شيخنا (الألباني)؛ لأنه -في زعمهم- ينهاهم عن الجهاد، بل كان بعضهم يقول فيه: أشغل الناس بتحريك السبابة في الصلاة، وأما نحن فنشغلهم بتحريكها في الجهاد، وهذا مفكر منهم -زعموا- يقول عنه: يعلِّم الأمة الدخول إلى المسجد باليمين، ونحن نعلمهم كيف يتم تطهير المساجد من الكفار، وتحريرها منهم، فكم الفرق بيننا؟ نعم، إنه والله بعيد، وله أصول وجذور، وشتان بين ما يؤسس على الماء، ولا حقيقة له إلا الهباء، وبين تأسيس الفحول على منهج له أصول ثابتات راسخات، وفروع باسقات طاهرات، تأتي بأكلها كل حين بإذن ربها عز وجل.

فصل: فتنة الجزائر المتولّدة عن الخروج الأول في العراق

ومثل هذا: فتنة أخرى، أخذت مظهر (الثورة) و(الصدام العسكري المسلح) مع (السلطة)، وهي من (أعظم) ما جرى في هذا العصر من الفتن، ويشتدّ ذلك عندما نجد أنّ القائمين عليها منسوبون -زورًا وبهتانًا- (للسلفية)! مع أنّ أئمة الدعوة الكبار، تبرؤوا منها ومن أهلها، وحذروا القائمين عليها قبل أن يمتطوا ظهرها! ألا وهي: فتنة الجزائر وجبهة الإنقاذ الإسلامية.

الكلام على هذه الفتنة يطول، إذ لها متفرعات وذيول، ولستُ بصدد ذكر الأحداث التفصيلية لها إذ ليس هذا مجاله، ولكني بصدد التمثيل على تولُّد هذه الفتنة من فتنة ذاك الرجل الخارجي الذي لو قُتل ما كانت فتنة بعدها، فهذه الفتنة مع التي قبلها (فتنة حماة) متولّدتان من عرس الشيطان في العراق، لما باض وفرَّخ، وظهرت هاتان الفتنتان لما «وجد شيطان الخوارج موضع الخروج، فخرجوا»، وكانوا سببًا لسفك الدماء، ومقتل الأبرياء. وهذه الفتنة دخنها تحت أقدام أُناس يظهرون (السلفية)، وهم ليسوا كذلك، بل هم طاعنون في أئمتها، متربِّصون بها، ممن نهجوا (منهج الإخوان) ولهم تأثر بعمومات الدعوة السلفية، دون رسوخ في طريقة التغيير عندها، والوقوف على كلام أئمتها قديمًا وحديثًا.
ومما زاد وَحَل هذه (الفتنة):

أولًا: انتشار ذكرها بتأييد وإكبار على لسان الوعاظ والخطباء وطلبة العلم، وجلُّهم من مدرسة محمد سرور زين العابدين، لتوافق المشارب، واتحاد المذاهب!

ثانيًا: زعْمُ الكثيرين من هؤلاء أنّ جبهة الإنقاذ امتداد لـ«جمعية العلماء» السلفية، التي كان العلامة السلفي عبدالحميد بن باديس من ورائها.

ثالثًا: الإشاعات المغرضة التي رافقتها، من أن علماء العصر كالشيخ

الألباني، وابن باز -رحمهما الله- يؤيّدونها، ويدعون لها، وهم معها، وهي تسير بفتاويهم وتوجيهاتهم! وهذا والله الكذب الصُّراح، فقد سئل الشيخ العلامة عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ في ٢٦/ ذي الحجة/ عام ١٤١٤هـ في مكة المكرمة ما نصه:

الجماعة الإسلامية المسلحة بالجزائر تقر لكم بأنكم تؤيدون ما تقوم به من اغتيالات الشرطة وحمل السلاح عمومًا، هل هذا صحيح؟ وما حكم فعلهم مع ذكر ما أمكن من الأدلة جزاكم الله خيرًا؟

فأجاب -رحمه الله تعالى- ما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه. أما بعد:

فقد نصحنا إخواننا جميعًا في كل مكان -أعني: الدعاة-، نصحناهم أنْ يكونوا على علم وعلى بصيرة، وأن ينصحوا الناس بالعبارات الحسنة والأسلوب الحسن والموعظة الحسنة، وأن يجادلوا بالتي هي أحسن!

عملًا بقول الله سبحانه وتعالى: {ادْع إلى سَبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحَسَنة وَجَادِلهم بالّتي هي أَحْسن}[النحل: ١٢٥]، وقوله -سبحانه-: {وَلا تُجادلوا أَهلَ الكتاب إلا بالّتي هِي أَحسن إلا الّذين ظلموا منهم} [العنكبوت: ٤٦].

فالله -جل جلاله- أمر العباد بالدعوة إليه، وأرشدهم إلى الطريقة الحكيمة، والدعوة بالحكمة تعني الدعوة بالعلم: قال الله، قال رسوله، بالموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن، عند الشبهة يحصل الجدال بالتي هي أحسن، والأسلوب الحسن حتى تزول الشبهة! وإن كان أحد من الدعاة في الجزائر قال عَنِّي بأني قلت لهم: يغتالون الشرطة أو يستعملون السلاح في الدعوة إلى الله هذا

غلط! ليس بصحيح!! بل هو كذب، وإنما تكون الدعوة بالأسلوب الحسن: قال الله، قال رسوله!

كما كان عليه النبي وأصحابه في مكة المكرمة، قبل أن يكون لهم سلطان، ما كانوا يدعون الناس بالسلاح، يدعون الناس بالآيات القرآنية والكلام الطيب والأسلوب الحسن؛ لأن هذا أقرب إلى الصلاح وأقرب إلى قبول الحق!

أما الدعوة بالاغتيالات أو بالقتل أو بالضرب فليس هذا من سنة النبي، ولا من سنَّة أصحابه!!

لكن لما ولاّه الله المدينة وانتقل إليها مهاجرًا، وكان السلطان له في المدينة، شرع الله الجهاد وإقامة الحدود، فجاهد -عليه الصلاة والسلام- المشركين وأقام الحدود بعد ما أمر الله بذلك!

فالدعاة إلى الله عليهم أن يدعوا إلى الله بالأسلوب الحسن: بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وإذا لم تجد الدعوة قبولًا رفعوا الأمر للسلطان ونصحوا السلطان.

السلطان هو الذي ينفذ، يرفعون الأمر إليه فينصحونه بأن الواجب كذا والواجب كذا، حتى يحصل التّعاون بين العلماء وبين الرؤساء من الملوك والأمراء ورؤساء الجمهوريات، الدعاة يرفعون الأمر إليهم في الأشياء التي تحتاج إلى فعل: إلى سجن، إلى قتل، إلى إقامة حدّ، وينصحون ولاة الأمور ويوجهونهم إلى الخير بالأسلوب الحسن والكلام الطيب!!!

ولهذا قال -جل وعلا-: {وَلا تُجادِلوا أَهلَ الكِتاب إلاّ بالّتي هي أَحسن إلا الّذين ظلموا منهم} [العنكبوت: ٤٦]، فلو ظلم أحد من أهل الكتاب أو غيرهم، فعلى ولي الأمر أن يعامله بما يستحق.

أما الدعاة إلى الله؛ فعليهم بالرفق والحكمة لقول النبي: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»، ويقول -عليه الصلاة والسلام-: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله» [رواه مسلم].

فعليهم أن يعظوا الناس بالآيات، والأحاديث، ويذكّروهم بالعذاب، ومن كان عنده شبهة يجادلونه بالتي هي أحسن، الآية معناها كذا، الحديث معناه كذا، قال الله كذا، قال رسوله كذا، حتى تزول الشّبهة، وحتى يظهر الحق!!!

هذا هو الواجب على إخواننا في الجزائر وغير الجزائر، الواجب عليهم أن يسلكوا مسلك الرسول -عليه الصلاة والسلام- وصحابته حينما كانوا في مكة، وذلك بالكلام الطيب والأسلوب الحسن!!! لأن السلطان ليس لهم الآن لغيرهم، وعليهم أن ينصحوا السلطان والمسؤولين بالحكمة والكلام الطيب، والزّيارات بالنية الطيبة حتى يتعاونوا على إقامة أمر الله في أرض الله! وحتى يتعاون الجميع في ردع المجرم وإقامة الحق، فالأمراء والرّؤساء عليهم التنفيذ، والعلماء والدعاة إلى الله عليهم النصيحة، والبلاغ والبيان، نسأل الله للجميع الهداية. ونشرت هذه الفتوى مع غيرها في كثير من الصحف والمجلات.

وأما العلامة الألباني فكاتب هذه السطور شاهد عيان على ما جرى بينهم وبين العلامة المحدث شيخنا محمد ناصر الدين بن نوح نجاتي الألباني -رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة-، وهذا البيان: أرسل القائمون على (الجبهة) المذكورة استفتاءً للشيخ الألباني في أصيل يوم الثلاثاء، الموافق للثامن عشر من شهر جمادى الآخرة، سنة ١٤١٢هـ عبر جهاز (الناسوخ) قبل يومين من الانتخابات العامة بالجزائر، فأرسل الشيخ ليلة اليوم الذي يليه عبر (الهاتف) إلى ثلاثة ممن يحسن الظن بهم، وأخبرهم أنّ الله عَزَّ وَجَلَّ أمر نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمشورة، وهذه الأسئلة -

وعددها ستة- تدور حول (الانتخابات) و(البرلمانات)، وهذا نصها مع أجوبتها بالحرف، مأخوذة من خط الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد؛ فإلى لجنة الدعوة والإرشاد في الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وبعد؛ فقد تلقيت أَصِيلَ هذا اليوم الثلاثاء الموافق للثامن عشر من شهر جمادى الآخرة سنة (١٤١٢هـ) رسالتكم المرسلة إليّ بواسطة (الناسوخ)، فقرأتها وعلمتُ ما فيها من الأسئلة المتعقلة بالانتخابات، التي قلتم إنها ستجري عندكم يوم الخميس؛ أي: بعد غد، ورغبتم مني التعجيل بإرسال أجوبتي عليها، فبادرت إلى كتابتها ليلة الأربعاء لإرسالها إليكم بـ(الناسوخ) -أيضًا- صباح هذا اليوم -إن شاء الله-، شاكرًا لكم حسن ظنكم بأخيكم وطيب ثنائكم عليه الذي لا يستحقه، سائلًا المولى سبحانه وتعالى لكم التوفيق في دعوتكم وإرشادكم.

وإليكم الآن ما يَسَّر الله لي من الإجابة على أسئلتكم، راجيًا من المولى سبحانه وتعالى أن يلهمني السداد والصواب في ذلك:

السؤال الأول: ما الحكم الشرعي في الانتخابات التشريعية (ما يسمى بالبرلمان) التي نسعى من خلالها إلى إقامة الدولة الإسلامية، وإقامة الخلافة الراشدة؟

الجواب: إن أسعد ما يكون المسلمون في بلادهم يوم ترفع راية (لا إله إلا الله)، وأن يكون الحكم فيها بما أنزل الله، وإن مما لا شك فيه، أن على المسلمين جميعًا -كل حسب استطاعته- أن يسعوا إلى إقامة الدولة المسلمة، التي تحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وعلى منهج السلف الصالح، ومن المقطوع به عند كل باحث مسلم، أنّ ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا بالعلم النافع والعمل الصالح، وأول ذلك: أن يقوم جماعة من العلماء بأمرين هامين جدًّا:

الأول: تقديم العلم النافع إلى من حولهم من المسلمين، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يقوموا بتصفية العلم الذي توارثوه مما دخل فيه من الشركيات والوثنيات حتى صار أكثرهم لا يعرفون معنى قولهم: (لا إله إلا الله)، وأنّ هذه الكلمة الطيبة تستلزم توحيد الله في عبادته تعالى وحده لا شريك له، فلا يستغاث إلا به، ولا يذبح ولا ينذر إلا له، وأن لا يعبدوه تعالى إلا بما شرع الله على لسان رسول الله ﷺ، وأنّ هذا من مستلزمات قولهم: (محمد رسول الله)، وهذا يقتضيهم أن يُصَفُّوا كتب الفقه مما فيها من الآراء والاجتهادات المخالفة للسنة الصحيحة، حتى تكون عبادتهم مقبولة، وذلك يستلزم تصفية السنة مما دخل فيها -على مر الأيام- من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، كما يستلزم ذلك تصفية السلوك من الانحرافات الموجودة في الطرق الصوفية، والغلو في العبادة والزهد، إلى غير ذلك من الأمور التي تنافي العلم النافع.

والآخر: أن يُرَبُّوا أنفسهم وذويهم ومن حولهم من المسلمين على هذا العلم النافع، ويومئذ يكون علمهم نافعًا وعملهم صالحًا؛ كما قال تعالى: {فَمَن كَانَ يَرجُو لِقَاء ربِّه فَليعمل عملًا صالحًا ولا يُشرك بعبادة ربِّه أَحَدًا} [الكهف: ١١٠]، وحينئذٍ إذا قامت جماعة من المسلمين على هذه التصفية والتربية

الشرعية، فسوف لا تجد فيهم من يختلط عليه الوسيلة الشركية بالوسيلة الشرعية؛ لأنهم يعلمون أنّ النبي ﷺ قد جاء بشريعة كاملة بمقاصدها ووسائلها، ومن مقاصدها -مثلًا-: النهي عن التشبه بالكفار وتبني وسائلهم ونظمهم التي تتناسب مع تقاليدهم وعاداتهم. ومنها: اختيار الحكام والنواب بطريقة الانتخابات، فإن هذه الوسيلة تتناسب مع كفرهم وجهلهم الذي لا يفرق بين الإيمان والكفر، ولا بين الصالح والطالح، ولا بين الذكر والأنثى، وربنا يقول: {أَفَنجعَل المسلمين كالمجرمين. مَا لكم كيف تَحكُمون} [القلم: ٣٥-٣٦] ويقول: {وَلَيس الذّكر كالأنثى} [آل عمران: ٣٦].

وكذلك يعلمون أن النبي ﷺ إنما بدأ بإقامة الدولة المسلمة بالدعوة إلى التوحيد، والتحذير من عبادة الطواغيت، وتربية من يستجيب لدعوته على الأحكام الشرعية، حتى صاروا كالجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى، كما جاء في الحديث الصحيح، ولم يكن فيها من يُصِرُّ على ارتكاب الموبقات والربا والزنا والسرقات إلا ما ندر.

فمن كان يريد أن يقيم الدولة المسلمة حقًّا لا يُكتّل الناس ولا يجمعهم، على ما بينهم من خلاف فكري وتربوي، كما هو شأن الأحزاب الإسلامية المعروفة اليوم، بل لا بد من توحيد أفكارهم ومفاهيمهم على الأصول الإسلامية الصحيحة: الكتاب والسنة، وعلى منهج السلف الصالح كما تقدم، {وَيَومئذ يَفرَح المُؤمنون بِنَصر الله} [الروم: ٤-٥].

فمن أعرض عن هذا المنهج في إقامة الدولة المسلمة وسلك سبيل الكفار في إقامة دولتهم؛ فإنما هو (كالمستجير بالرمضاء من النار)! وحَسْبُه خطًا -إن لم أقل: إثمًا- أنه خالف هديه ﷺ ولم يتخذه أسوة، والله ﷻ يقول: {لَقَد كَان لَكُم

في رَسُول اللهِ أُسوةٌ حسنةٌ لِمَن كَان يَرجُو اللهَ واليَومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كثيرًا}.

السؤال الثاني: ما الحكم الشرعي في النصرة والتأييد المتعلقين بالمسألة المشار إليها سابقًا (الانتخابات الشرعية)؟

الجواب: في الوقت الذي لا ننصح أحدًا من إخواننا المسلمين أن يرشِّح نفسه ليكون نائبًا في برلمان لا يحكم بما أنزل الله، وإن كان قد نص في دستوره: (دين الدولة الإسلام)، فإنّ هذا النص قد ثبت عمليًّا أنه وضع لتخدير أعضاء النواب الطيِّبي القلوب!! ذلك لأنه لا يستطيع أن يغير شيئًا من مواد الدستور المخالفة للإسلام، كما ثبت عمليًّا في بعض البلاد التي في دستورها النص المذكور.

هذا إن لم يتورط مع الزمن أن يُقر بعض الأحكام المخالفة للإسلام، بدعوى أنّ الوقت لم يحن بعدُ لتغييرها، كما رأينا في بعض البلاد؛ يُغَيِّر النائب زيّه الإسلامي، ويتزيّا بالزي الغربي مسايرة منه لسائر النواب! فدخل البرلمان ليُصلِح غيره فأفسد نفسه، وأوَّل الغيث قطرٌ، ثم ينهمر! لذلك فنحن لا ننصح أحدًا أن يرشح نفسه، ولكن لا أرى ما يمنع الشعب المسلم إذا كان في المرشَّحين من يعادي الإسلام وفيهم مرشَّحون إسلاميون من أحزاب مختلفة المناهج، فننصح -والحالة هذه- كل مسلم أن ينتخب من الإسلاميين فقط، ومن هو أقرب إلى المنهج العلمي الصحيح الذي تقدم بيانه.

أقول هذا -وإن كنت أعتقد أنّ هذا الترشيح والانتخاب لا يحقق الهدف المنشود كما تقدم بيانه- من باب تقليل الشر، أو من باب دفع المفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى، كما يقول الفقهاء.

السؤال الثالث: حكم خروج النساء للانتخابات؟

الجواب: يجوز لهن الخروج بالشرط المعروف في حقهن؛ وهو أن يتجلببن الجلباب الشرعي، وأن لا يختلطن بالرجال، هذا أولًا.

ثم أن ينتخبن من هو الأقرب إلى المنهج العلمي الصحيح من باب دفع المفسدة الكبرى بالصغرى كما تقدم.

السؤال الرابع: الأحكام الشرعية المتعلقة بأنماط العمل الشرعي في (البرلمان) ورجالاته؟

الجواب: فنقول: هذا سؤال غامض مرادكم منه غير ظاهر لنا؛ ذلك لأنّ المفروض أن النائب المسلم لا بد أن يكون عالمًا بالأحكام الشرعية على اختلاف أشكالها وأنواعها، فإذا ما طرح أمر ما على بساط البحث فلا بد أن يوزن بميزان الشرع، فما وافق الشرع أيده، وإلا رفضه؛ كالثقة بالحكومة، والقَسَم على تأييد الدستور ونحو ذلك!!

وأما رجالات البرلمان! فلعلكم تعنون: ما موقف النواب الإسلاميين من رجالات البرلمان الآخرين؟ فإن كان ذلك مرادكم، فلا شك أنه يجب على المسلمين -نوابًا وناخبين- أن يكونوا مع من كان منهم على الحق؛ كما قال رب العالمين: {وَكُونوا مَعَ الصّادِقين} [التوبة: ١١٩].

وأما السؤال الخامس والسادس: فجوابهما يُفهم مما تقدم من الأجوبة.

ونضيف إلى ذلك، أنْ لا يكون همُّكم -معشر الجبهة الإسلامية!- الوصول إلى الحكم قبل أن يصبح الشعب مهيَّئًا لقبول الحكم بالإسلام، ولا يكون ذلك إلا بفتح المعاهد والمدارس التي يتعلم فيها الشعب أحكام دينه على الوجه الصحيح، ويربَّى على العمل بها، ولا يكون فيهم اختلاف جذري ينشأ منه التحزب والتفرق، كما هو الواقع الآن مع الأسف في الأفغان، ولذلك قال ربنا

في القرآن: {وَلا تَكُونوا مِنَ المُشركين مِن الّذين فَرّقوا دِينَهم وَكانوا شِيَعًا كُلُّ حِزبٍ بما لَدَيهم فَرِحون} [الروم: ٣١-٣٢]، وقال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا إخوانًا كما أمركم الله» رواه مسلم.

فعليكم إذن بالتصفية والتربية بالتأني؛ فإنّ «التأني من الرحمن، والعجلة من الشيطان»، كما قال نبينا -عليه الصلاة والسلام-، ولذلك قيل: من استعجل الشيء قبل أوانه ابتلي بحرمانه، ومن رأى العبرة بغيره فليعتبر، فقد جرب بعض الإسلاميين من قبلكم في غير ما بلد إسلامي الدخول في البرلمان بقصد إقامة دولة الإسلام، فلم يرجعوا من ذلك ولا بخفي حنين! ذلك لأنهم لم يعملوا بالحكمة القائلة: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم لكم في أرضكم»، وهكذا كما قال رسول ﷺ: «إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم.

فالله سبحانه وتعالى أسأل أن يلهمنا رشدنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، ويهدينا للعمل بشرعة ربنا، متبعين في ذلك سنة نبينا ومنهج سلفنا، فإن الخير كله في الاتباع، والشر كله في الابتداع، وأن يفرج عنا ما أهمَّنا وأغمَّنا، وأن ينصرنا على من عادانا، إنه سميع مجيد. عمان صباح الأربعاء ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٤١٢هـ. وكتب: محمد ناصر الدين الألباني أبو عبدالرحمن.

وسمعت الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد صياغته للأجوبة، والفراغ منها، التأسُّف على ما آل إليه حال المسلمين، ويشكو من عجلة الشباب وتهوّرهم، وأنّ الجزائريين معروفون بحدّتهم، ويخشى على خيارهم من فتنة عظيمة، قد تصل إلى إراقة الدماء، وزجّ بمئات أو ألوف -وقد يزيد- في السجون! إي والله! إني

سمعت ذلك بأُذُنَيَّ منه، ووعاه قلبي، ثم بعد فترة غير بعيدة من الزمن قرأت كلامًا للعلامة السلفي الجزائري محمد البشير الإبراهيمي، كتبه سنة ١٩٦٤م، ونشره في جريدته «البصائر» -وكأنه مكتوب بعد الذي حصل في الجزائر-، فتذكرت كلام شيخنا الألباني، فقرأته عليه في مجلس علمي في مكتبته، فأعجب الشيخ -رحمه الله تعالى-، وهذا نصُّه وفصُّه: «أما في الجزائر؛ فالانتخابات -منذ سنّت لعبة لاعب، وسخرية ساخر، ورهينة استبداد، ولدت شوهاء ناقصة، وما زالت متراجعة ناكصة، وضعت من أول يوم على أسوأ ما يعرف من التناقض، وأشنع ما يُعلم من التحكم والميز والعنصرية، وهو تمثيل الأكثرية في المجالس المنتخبة للأقلية من السكان، ولأقلية فيها للأكثرية منهم، قد كانت هذه الانتخابات شرًّا مستطيرًا على الأمة الجزائرية، وأفتك سلاح رماها به الاستعمار، بعد أن نظر النظر البعيد، وكانت ضربة قاضية على ما كانت تصبو إليه وتستعد من وحدة الكلمة واجتماع الشمل، فكلما جهد المصلحون جهدهم في جمع كلمتها -وكادوا يفلحون- جاءت هذه الانتخابات فهدمت ما بنوا وتبرته تتبيرًا؛ كان هذا كله قبل أن تقف الحكومة مواقفها المعروفة في انتخابات السنة الماضية، أما بعد أن ظهرت بذلك المظهر، وسنت للانتخابات الجزائرية دستورًا عنوانه: «الحيف والسّيف»، وارتكبت فيها تلك الفضائح التي يندى لها الجبين خجلًا، والتي يأنف الفرد المستبد من ركوبها فضلًا عن حكومة جمهورية في مظهرها، ديمقراطية في دعواها، فإنّ الانتخاب أصبح وبالًا على الأمة ووباء، وذهب بالبقايا المدخرة فيها من الأخلاق الصالحة هباء، وأصبحت هذه الكراسي عاملًا قويًّا في إفساد الرجولة والعقيدة والدين، وإمراض العزائم والإرادات، وفيها من معاني الخمر أنّ من ذاقها أدمن، وفيها

من آفات الميسر أن من جرّبها أمعن، وقد كنا نخشى آثارها في تفريق الشمل وتبديد المال، فأصبحنا نخشاها على الدين والفضيلة، فإنّ الحكومة اتخذت منها مقادة محكمة الفتل لضعفاء الإيمان ومرضى العقيدة وأسرى المطامع منا، وما أكثرهم فينا، خصوصًا بعد أن أحدثت فيها هذه الأنواع التي تجر وراءها المرتبات الوافرة، والألقاب المغرية. ليت شعري؛ إلى متى تتناحر الأحزاب على الانتخاب وقد رأوا بأعينهم ما رأوا؟ وعلام تصطرع الجماعات؟ وعلام تنفق الأموالُ في الدعايات والاجتماعات إذا كانت الحكومة خصمًا في القضية لا حكمًا؟ وكانت تعتمد في خصومتها على القوة وهي في يدها، وكانت ضامنة لنفسها الفوز في الخصومة قبل أن تنشب، ويحٌ للأمة الجزائرية من الانتخاب، وويل للمفتونين به من يوم الحساب».

وكان الشيخ -رحمه الله تعالى- يسئل عما يجري في (الجزائر)، وهل يبشّر بخير وتمكين للمسلمين؟ فكان لا يزيد على قوله: «فقاقيع صابون»، سمعته أُذناي، ووعاه قلبي.

وأما (الجبهة)، فقد زادوا أتون (الفتنة)، بأن أخذوا من (ناسوخ) الشيخ الألباني المرسل لهم ما يفهم الناس أن الشيخ يؤيدهم، وكتموا الباقي، وركبوا رأسهم، ولم ينزلوا عند توجيهات العلماء، فكان ما كان، والله المستعان، وعليه التكلان.

وذهب ضحية هذه الفتنة عشرات الألوف من الشباب، وفرّ قسم منهم في الجبال، وبايعوا (أميرًا) لهم، وحصل بينهم خلاف، وانقسموا فرقًا، شأن سنة الله في أهل الباطل، وولغ بعضهم في دماء بعض، بل حدثني -عبر الهاتف واحد من كبائرهم- ممن تاب أنّ النساء اللاتي في الجبل، كن يؤخذن سبايا للأمراء بعد

الافتراق، وتحل الفروج باسم الجهاد، فعلى العلم والفهم، والدين والخلق والأعراض سلام؟!

وكان هؤلاء بين الحين والحين يقومون بالغزو -على تسميتهم-، ويرتكبون المجازر ويفخخون السيارات، ويثورونها في أماكن ازدحام الناس، مما سببوا قتل عدد غير قليل من الأبرياء! ونشرت بعض الصحف على لسان بعض التائبين من هؤلاء مقالةً تحت عنوان (كنا ضحايا فتاوى السلفية)، وهذا كذب، بل أولئك سلموا أنفسهم لقادة ساقوهم باسم الدين، والكذب على العلماء السلفيين؛ مثل: ابن باز، والألباني، وابن عثيمين -رحمهم الله تعالى-، فأوهموهم أنّ العلماء معهم، وأنهم ينزلون عند تقريراتهم، ويسيرون بفتاواهم وتوجيهاتهم! والأمر ليس كذلك، بل هم يقرون أنّ الذي جرى في الجزائر ليس إلا على منهج (الخوارج)!.

فها هو شيخنا الألباني يقول عما حصل في الجزائر بعد كلام: «فإذا كان السؤال إذًا بأنَّ هؤلاء حينما يفخِّخون -كما يقولون- بعض السيارات ويفجِّرونها، تصيب بشظاياها من ليس عليه مسؤولية إطلاقًا في أحكام الشرع، فما يكون هذا من الإسلام إطلاقًا، لكن أقول: إنَّ هذه جزئية من الكُليَّة، أخطرها هو هذا الخروج الذي مضى عليه بضع سنين، ولا يزداد الأمر إلا سوءًا، لهذا نحن نقول: إنَّما الأعمال بالخواتيم، والخاتمة لا تكون حسنةً إلا إذا قامت على الإسلام، وما بُني على خلاف الإسلام فسوف لا يُثمر إلا الخراب والدَّمار».

فالشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أنّ هذه المفاسد، من إراقة الدماء، وزعزعة الأمن، سببه (الخروج) الذي وقع في الجزائر، واستمر عليه (الخارجون) بضع سنين.

وبلا شك أن قتل المسلمين -أفرادًا وجنودًا- لبعضهم بعضًا، واستحلال

ذلك، هو عين مذهب الخوارج، وإن لم يقع التصريح بالتكفير بالكبيرة!!

ولذا لما سئل فقيه الزمان الشيخ ابن عثيمين عما يجري في الجزائر، فقيل له: تنطلق بعض الجماعات في محاربتها لأنظمتها من قاعدة تقول: «إنَّ محاربة الدول الإسلامية أوْلى من محاربة الدول الكافرة كفرًا أصليًّا؛ لأنَّ الدول الإسلامية مرتدَّةٌ، والمرتدُّ مقدَّمٌ في المحاربة على الكافر، فما مدى صحة هذه القاعدة؟

فأجاب الشيخ -رحمه الله تعالى- بقوله: «هذه القاعدة هي قاعدة الخوارج الذين يقتلون المسلمين ويَدَعون الكافرين، وهي باطلة». ولا أشك أنّ مراد النبي ﷺ في الحديث السابق الذي فيه ذكر الخوارج أفعالًا ومخالفاتٍ حذر منها، وليست العبرة بالاصطلاحات التي تواطأ عليها العلماء.

وعليه؛ فلا يقال: هذه خرجت من أُناس سلفيين! عندهم بعض الأخطاء، وليسوا من الخوارج، فلا صلة لهذه الأحداث بما هُيِّج من فتن (العراق)!! بل هي خرجت من تحت قدمي أصناف، لهم وفاق وفراق مع (الخوارج)، بل بعضهم يتطابق معهم في دينه، ولا ينفك عنهم قيد أُنملة، وقد أفصح عن هذه الأنواع بعضُ من تاب الله عليهم، عندما رجعوا إلى رشدهم وصوابهم، واتّصل بالعلماء الربانيين، وطلبة العلم، المتقدّمين النابهين، ولمزيد البيان والإيضاح أنقل لإخواني القراء الكرام ما جرى بين هؤلاء والشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-: حوار بين ثوار الجزائر برؤوس الجبال مع العلاّمة ابن عثيمين بتاريخ: ١ رمضان ١٤٢٠هـ

قال السائل: نحن أوّلًا: نُعلمكم أنَّ الذي يُخاطبكم الآن هم إخوانك المقاتلون، وبالضبط المقاتلون من (الجماعة السلفية للدعوة والقتال)، ونحن

طبعًا سننقل كلامَكم -إن شاء الله ﷻ- إلى جميع إخواننا المقاتلين في هذه الجماعة وغيرها -أيضًا-. وذلك بعد أن بلغنا نداؤكم ونصيحتكم المؤرَّخة بتاريخ ١٣ من شهر صفر من العام الحالي.

والجدير بالذِّكر أنَّ نداءَكم ذلك لم يصل إلينا إلا منذ شهر ونصف، وهناك من الإخوة من لم يصلهم حتى الآن، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإنَّ الكثير من الإخوة مِمَّن بلغَتْهم نصيحتكم وقعت لهم شبهةٌ حالت دون الاستجابة لِما دعوتم إليه، فكان لا بدَّ إذًا من إجراء هذا الحوار الجديد مع فضيلتكم؛ أملًا أن نتمكَّن من خلاله من الإجابة على جميع التساؤلات المطروحة، وإزاحة جميع الشُّبه، وبيان الحقِّ البواح؛ حتى نصبح على مثل المحجَّة البيضاء، لا يزيغ عنها إلاّ هالك.

وعلى هذا الأساس، فإننا نلتمس من سماحتكم -حفظكم الله- إعطاءنا أكبر قدر من وقتكم، وأن تسهبوا في الشرح والبيان؛ لأنه لا يخفى عليكم -يا شيخنا!- أنَّ الإخوة عندنا قد رسَّختْ فيهم سنوات القتال أفكارًا وعقائد ليس من السهل -يا شيخ!- ولا من البسيط التخلي عنها واعتقاد بطلانها، إلا ببيان شافٍ منكم، وذلك لما لكم في قلوب الإخوة عندنا من عظيم المنزلة، ووافي التقدير والإجلال والاحترام؛ لأننا نعتقد أنكم من أعلام أهل السنة والجماعة في هذا العصر. وإليكم الآن الشبه المطروحة -يعني: عندنا-.

الشيخ: دعني أتكلَّم قليلًا، ثم قال:

الحمد لله رب العالمين، وأصلِّي وأسلم على نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فإنني من عنيزة القصيم -المملكة العربية السعودية- وفي أول يوم

من رمضان عام عشرين وأربع مئة وألف، أتحدث إلى إخواني في الجزائر، وأنا: محمد بن صالح آل عثيمين.

أقول لهم: إنَّ النبيَّ ﷺ قرَّر في حجَّة الوداع تحريمَ دمائنا وأموالنا وأعراضنا تقريرًا واضحًا جليًّا، بعد أن سأل أصحابه عن هذا اليوم، والشهر، والبلد، وقال: «إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟» فهذا أمرٌ مجمعٌ عليه، لا يختلف فيه اثنان، والإخوة الذين قاتلوا في الجزائر منذ سنوات قد يكون لهم شبهة، ففي أوَّل الأمر، حينما اتَّجه الشعب الجزائري إلى جبهة الإنقاذ، وعلت أصواتهم لصالح الجبهة، ولكن... هذه الجبهة، حتى سيطر غيرُها، ولا شكَّ أنَّ هذا مؤسفٌ، وأنّ الواجب اتِّباع الأكثر الذي وافق ما ينبغي أن تكون عليه الأمة الجزائرية، من قول الحقِّ واتِّباع الحقِّ.

ولكن هذا لا يقتضي ولا يسوِّغ حمل الإخوةِ السلاحَ بعضِهم على بعض، وكان الواجب عليهم من أول الأمر أن يمشوا ويُكثِّفوا الدعوة إلى تحكيم الكتاب والسنة، وفي الجولة الأخرى، تكون أصواتهم...، ويكون وزنُهم في الشعب الجزائري أكبر، ولكن نقول: قَدَرُ الله وما شاء فعل، لو أراد الله أن يكون ما ذكرتُ لكان.

والآن، أرى أنَّه يجب على الإخوة أن يَدَعوا هذا القتال، لا سيما وأنَّ الحكومة الجزائرية عرضت هذا، وأمَّنت من يَضَع السلاح، فلم يبق عذرٌ.

والجزائر الآن تحمل الويلات بعد الويلات مما كانت عليه، وكنَّا قد تفاءلنا خيرًا، حينما تولَّى الرئيس عبدالعزيز بوتفليقة، وهدأت الأمور بعض الشيء.

لكننا -مع الأسف- سمعنا أنه حصل بعض العنف في هذه الأيام القريبة،

وهو مِمَّا يُؤسف له أن يعود العنف إلى الجزائر المسلمة... شهر رمضان المبارك.

والذي يجب على المسلمين أن يجمعوا كلمتهم على الحقِّ، في رمضان وفي غيره، لكن في رمضان أوكد. فنصيحتي لإخوتنا المقاتلين...

ثم قاطعه السائل قائلًا:... أحيطكم به علمًا -يعني- حتى يخرج جوابكم موافقًا أو نافعًا للإخوة، يعني كأنكم تعتقدون أو تظنون أنَّ الذي يخاطبكم الآن هم أنصار الجبهة الإسلامية للإنقاذ؟ يا شيخ! الآن الساحة القتالية الجزائرية تضمُّ ثلاث فصائل: - أتباع (الجبهة الإسلامية للإنقاذ) الذين خرجوا من أجل الانتخابات، وهلمَّ جرًّا تلك الأمور. - وهناك (الجماعة السلفية للدعوة والقتال)، التي نكلِّمكم باسمها، ونحن من أعضائها، هذه -يا شيخ- ليس لها علاقة بالجبهة الإسلامية للإنقاذ، وليس لها علاقة بالتحزُّب، وليس لها علاقة بالانتخاب، إنّما خرجت بناء على اعتقادها كفر هذا الحاكم، وجواز الخروج عليه.

- وهناك طائفة ثالثة -يا شيخ- (الهجرة والتكفير)، هذه التي لا زالت تمارس العنف، ولا تستمع إلى العلماء، أمَّا نحن المقاتلون في (الجماعة السلفية للدعوة والقتال)، فكما أسلفت لك منذ قليل نحب العلماء ونجُّلهم، خصوصًا علماء أهل السنة والجماعة كأمثالكم، ونأخذ بأقوالهم، غير أنه -كما ذكرتُ لك- هناك بعض التساؤلات والشبه حالت دون أن يُتلقّى كلامُكم بالقبول التام.

الشيخ: فهمتُ من كلامك الآن أنكم ثلاثة أقسام: جبهة الإنقاذ، الجماعة السلفية، والجماعة التكفيرية، هكذا؟

السائل: أي نعم، جيّد يا شيخ!

الشيخ: أما جبهة الإنقاذ، فأظنّها أنّها وافقت المصالحة؟

السائل: أي نعم، هم الآن في هُدنة يا شيخ!

الشيخ: أما الجماعة السلفية؛ فأرى أن يُوافقوا؛ لأنه مهما كان الأمر، الخروج على الحاكم -ولو كان كفرُه صريحًا مثل الشمس- له شروط، فمن الشروط: ألا يترتب على ذلك ضررٌ أكبر، بأن يكون مع الذين خرجوا عليه قدرة على إزالته بدون سفك دماء، أما إذا كان لا يمكن بدون سفك دماء، فلا يجوز؛ لأنَّ هذا الحاكم -الذي يحكم بما يقتضي كفره- له أنصار وأعوان لن يَدَعوه. ثمَّ ما هو ميزان الكفر؟ هل هو الميزان المزاجي -يعني- الذي يوافق مزاج الإنسان لا يكفر، والذي لا يوافقه يكفر؟! من قال هذا؟!

الكفر لا يكون إلا من عند الله ومن عند رسوله، ثم إن له شروطًا، ولهذا قال النبيُّ ﷺ لمَّا تحدَّث عن أئمة الجوْر -وقيل له: أفلا ننابذهم- قال: «لا، إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان»، وأين هذا؟ كثيرٌ من الإخوة -ولا سيما الشباب- الكفر عندهم عاطفي، مزاجي، ليس مبنيًّا على شريعة، ولا صدر عن معرفة بشروط التكفير، لهذا نشير إلى إخواننا في الجزائر أن يضعوا السّلاحَ، وأن يدخلوا في الأمان، وأن يُصلحوا بقدر المستطاع بدون إراقة دماء، هذا هو الذي يجب علينا أن نناصحهم به، ومن وُجِّهت إليه النصيحة، فالواجب عليه على الأقل أن يتأنَّى وينظر في هذه النصيحة، لا أن يردَّها بانزعاج واستكبار وعناد، نسأل الله تعالى أن يُطفئ الفتنة، وأن يزيل الغُمَّة عن إخواننا في الجزائر.

السائل: هم الإخوة عندنا يعتمدون في الحكم بكفر حاكمهم على فتوى للشيخ ناصر الدِّين الألباني قديمة بُنيت -والله أعلم- على واقع غير صحيح -وهذا كذب وليس هذا بصحيح ألبتة!-، يعتمدون على هذا -يعني: في تكفير

حاكمهم- وبالتالي، وكذلك هناك بعض طلبة العلم -أيضًا- يعتمدون عليهم في هذه المسألة، وعلى هذا الأساس فعندما ناديتموهم بوضع السلاح -مع اعتقادهم كفر حاكمهم- شقَّ ذلك عليهم كثيرًا -يعني- وكبُر عليهم كثيرًا -يعني- وضع السلاح والعودة تحت حكم من يعتقدون كفره -يعني- هذه معضلة كيف حلُّها يا شيخ؟

الشيخ: والله ليست معضلة؛ أوَّلًا: ننظر هل هناك دليل على كفر هذا الحاكم، والنظر هنا من وجهين:

الوجه الأول: الدليل على أنَّ هذا الشيءَ كفرٌ.

الثاني: تحقق الكفر في حقِّ هذا الفاعل؛ لأنَّ الكلمة قد تكون كفرًا صريحًا، ولكن لا يكفر القائل، ولا يخفى علينا جميعًا قول الله ﷻ: {من كفر من بعد إيمانه إلا مَن أُكره وقلبُه مُطمئنٌّ بالإيمان ولكنْ مَن شَرَحَ بالكُفر صَدرًا فَعليهم غضبٌ من الله وَلَهُم عذابٌ عظيم} [النحل: ١٠٦]، رفع الله ﷻ حكم الكفر عن المكره وإن نطق به. ولقد أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ الربَّ ﷻ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده من رجل فقد راحلته، وعليها طعامه وشرابه، فلمَّا أَيِس منها اضطجع تحت شجرة، فبينما هو كذلك إذا بناقته حضرت، فأخذ بزمامها وقال: اللهم! أنت عبدي وأنا ربك، قال النبي ﷺ: «أخطأ من شدة الفرح». وكذلك الرجل الذي كان... وقال: «لئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا ما يعذبه أحدًا من العالمين، فأمر أهله إذا مات أن يحرقوه ويسحقوه في اليم، فجمعه الله وسأله؟ فقال: فعلت ذلك خوفًا منك يا رب»، ولم يكفر.

الحاكم قد يكون عنده حاشية خبيثة، ترقق له الأمور العظيمة وتسهلها عليه، وتزينها في نفسه، فيمضي فيما يعتقد أنه حلال، ولكنه ليس بكفر، ولا أظن أحدًا

من الجزائريين يقول: نعم! أنا أعلم أنّ هذا حكم الله ولكنني أخالفه، ما أظن أحدًا يقول ذلك عن عقيدة، فإنْ كان قد يقوله في باب المناظرة، لكن عن عقيدة لا يمكن فيما أظن؛ لأن شعب الجزائر شعب مسلم، وهو الذي أخرج الفرنسيين عن إكراه من أرضه، فالواجب على هؤلاء أن ينظروا في أمرهم، وأن يلقوا السلاح، وأن يصطلحوا مع أمتهم، وأن يبثوا الدعوة إلى الله بتيسير... لا بعنف، نعم!

السائل: شيخنا -حفظكم الله- هل يستلزم -يعني: لو فرضنا كفر الحاكم- هل يستلزم الخروج عليه بدون شروط يعني؟

الشيخ: لا! لا بد من شروط، ذكرتها آنفًا.

السائل: أي نعم!

الشيخ: لو فرض أنه كافر مثل الشمس في رابعة النهار، فلا يجوز الخروج عليه إذا كان يستلزم إراقة الدماء، واستحلال الأموال.

السائل: الآن -يعني- بعض الإخوة عندنا مثلًا يقولون إنهم ما داموا خرجوا وحملوا السلاح وخاضوا هذه الحرب مع هذا النظام، هم اليوم وإن اعتقدوا أن ما هم فيه ليس بجهاد؛ لأنهم كما ذكرتم لم يستوفوا الشروط، لكن رغم ذلك يسألون: هل يمكنهم رغم ذلك المواصلة وإن أيقنوا الفناء والهلاك، أم يهاجرون، أم ماذا؟

الشيخ: والله! لا يجوز لهم، والله! لا يجوز لهم المضي فيما هم عليه من الحرب الآن؛ إذ أنها حرب عقيم ليس لها فائدة ولا تولد إلا الشر والشرر.

السائل: أي نعم، شيخنا هم -يعني- إذًا أنتم لا تعتقدون كفر حاكم الجزائر يعني، فترون ذلك؟

الشيخ: لا نرى أن أحدًا كافر إلا من كفره الله ورسوله وصدقت عليه شروط التكفير، من أي بلد، ومن أي إنسان، الكفر ليس بأيدينا، وليس إلينا، بل هو إلى الله ورسوله، إنّ الرجل إذا كفر أخاه وليس بكافر عاد الأمر إليه: المكفِّر، وكفر إلا أن يتوب.

السائل: شيخنا! بعض الإخوة عندنا -بعد أن سلموا بأن هذا ليس بجهاد على وفق ما ذكرتم يعني- لم يثقوا في الحكومة -يعني- نسبيًّا، فيسألون هل يجوز لهم المكث في الجبال دون الرجوع إليالحياة المدنية بدون قتال -يعني- يبقون بأسلحتهم في الجبال ويتوقفون عن القتال، لكن لا يرجعون إلى الحياة المدنية؟

الشيخ: أقول: إنهم لن يبقوا على هذه الحال، مهما كان الحال، ولا بد أن تحركهم نفوسهم في يوم من الأيام حتى ينقضوا على أهل القرى والمدن، فالإنسان مدني بالطبع. يبقى في رؤوس الجبال وفي تلالها وشعابها، ومعه السلاح؟!

في يوم من الأيام لا بد أن تهيجهم النفوس حتى يكونوا قطاع طرق!

السائل: إذًا لا يجوز لهم المكث على هذه الحال؟

الشيخ: هذا ما أراه، أرى أن ينزلوا للمدن والقرى لأهليهم وذويهم وأصحابهم.

السائل: يعني الآن ما يجب على كل -في حالة إذا لم تستجب القيادة لندائكم هذا، إذا لم تستجب يعني- إذا لم تستجب رؤوس المقاتلين لندائكم هذا، ما واجب كل مقاتل في حق نفسه؟

الشيخ: الواجب وضع السلاح، وأن لا يطيعوا أمراءهم إذا أمروهم

بمعصية؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

السائل: شيخنا! هل يجوز أو يمكن -يعني- هل يجوز مخالفة نداءكم هذا من أجل فتاوى لبعض الدعاة؟

الشيخ: هذا يرجع إلى الإنسان نفسه، إن اعتقد أن ما يقوله أولئك القوم الذين يدعون إلى الاستمرار هو الحق لا يلزمهم الرجوع، ولكن يجب أن يتأمل الإنسان ويتدبر وينظر ما النتيجة في الاستمرار، كم للشعب الجزائري من سنة، وهو يرقب الويلات بعد الويلات ولم يستفد شيئًا؟!

السائل: الملاحظة أن هؤلاء الدعاة الذين ذكرتهم -يعني- دعاة غير معروفين -يعني- من أمثالهم أبو قتادة الفلسطيني الماكث في بريطانيا، هل تعرفونه يا شيخنا؟

الشيخ: لا نعرفه. السائل: تعرفونه؟! الشيخ: لا!

السائل: أبو مصعب السوري، ما تعرفونه؟

الشيخ: كلا لا نعرفه، لكني أقول لك، إن بعض الناس ولا أخص هذا ولا هذا؛ إذا رأى الشباب اجتمعوا حوله، انفرد بما يذكر به، كما يقول القائل: خالف تُذكر، نعم!

السائل: شيخنا! هناك أحدهم يسمى أبا حنيفة الأريتيري، يدعي أنه تلميذكم، ويدعي أنّ الاتصال بكم أمر صعب، وأنكم محاطون بالمخابرات -يعني- وغير ذلك، والإخوة ههنا، الإخوة المقاتلين يعتقدون أن الاتصال بكم بين الاستحالة والصعوبة، بناءً عليكلام هذا الإنسان، هل هذا صحيح؟

الشيخ: غير صحيح، أبدًا كل الناس يأتون ويتصلون بنا، ونحن نمشي -والحمد لله- من المسجد إلى البيت، في خلال عشر دقائق في الطريق، وكل يأتي

ويمشي، والدروس -والحمد لله- مستمرة، ونقول ما شئنا مما نعتقده أنه الحق.

السائل: هذا أبو حنيفة هل تعرفونه، أبو حنيفة الأريتيري هذا؟ الشيخ: والله! أنا لا أعرفه الآن، لكن ربما لو رأيته لعرفته، لكن كلامه الذي قاله كذب، لا أساس له من الصحة...

وبعد حوار بينهم وبين الشيخ حول الذين قتلوا، وحول تأجيل هذه المكالمة.

قال الشيخ: والله! لو أجَّلتمونا إلى ما بعد رمضان إذا أمكن؟

السائل: يا شيخ! مستحيل؛ القضية جِدٌّ شائكة كما ترى، وقضية دماء، وقضية أمة يا شيخ!

الشيخ: إذًا غدًا...

ثم تقدم سائل آخر فقال: يا شيخ! لو تعطينا الآن خمس دقائق لسؤال أخير؟

الشيخ: طيب!

السائل: إخواننا من الجماعة السلفية للدعوة والقتال يحبونكم، وينظرون إليكم على أنكم من علمائنا الذين يجب أن نسير وراءكم، لكن...

الشيخ: جزاهم الله خيرًا.

السائل: لكن هناك أسئلة تدور في رؤوسهم، من بين هذه الأسئلة يقولون: أننا إذا نقلنا إلى الشيخ عن طريق أشرطة مصورة -يعني- وبينا له فيها قتالنا أننا لا نقتل الصبيان، ولا نقتل الشيوخ، ولا نفجر المدن، بل نقتل من يقاتلنا من هؤلاء الذين لا يحكمون كتاب الله ﷻ فينا، فإن الشيخ -يعني- بعد أن يعرف بأن عقيدتنا سليمة، وأن منهجنا سليمًا، وأن قتالنا سليم، فإن فتواه ستتغير، ما قولكم في هذا بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا؟

الشيخ: لا! قولي: إن الفتوى لا تتغير -مهما كانت نية المقاتل- فإنها لا تتغير؛ لأنه يترتب على هذا أمور عظيمة، قتل نفوس بريئة، استحلال أموال، فوضى!

السائل: شيخنا! حفظك الله، إذا كان في صعودنا إلى الجبال اعتمدنا عليفتاوى، وإن كانت كما قال الأخ -يعني- ظهر خطؤها، ولو كانت من عند أهل العلم، وبعض فتاوى بعض الدعاة ظنًّا منا أن ذلك حجة في القتال، فصعدنا إلى الجبال وقاتلنا سنين، يعني فما دور المجتمع الآن في معاملتنا؟ هل يعاملنا كمجرمين، أم أننا كمجاهدين أخطأنا في هذه الطريق؟

الشيخ: أنت تعرف أن جميع المجتمعات لا تتفق على رأي واحد، فيكون الناس نحوكم على ثلاثة أقسام:

- قسم يكره هؤلاء ويقول: إنهم جلبوا الدمار وأزهقوا الأرواح وأتلفوا الأموال، ولن يرضى إلا بعد مدة طويلة.

- وقسم آخر راضٍ يشجع، وربما يلومهم إذا وضعوا السلاح!

- القسم الثالث: ساكت، يقول: هؤلاء تأولوا وأخطأوا، وإذا رجعوا فالرجوع إلى الحق فضيلة.

السائل: شيخنا! حفظك الله، نريد كلمة توجيهية إلى الطرفين، أقصد إلى الإخوة الذين سينزلون إلى الحياة المدنية وإلى المجتمع؛ يعني: كيف نتعامل الآن؟ وأن ينسوا الأحقاد، نريد نصيحة في هذا الباب حفظكم الله؟

الشيخ: بارك الله فيكم، أقول: إنّ الواجب أن يكون المؤمنون إخوة، وأنه إذا زالت أسباب الخلاف وأسباب العداوة والبغضاء فلنترك الكراهية، ولنرجع إلى ما يجب أن نكون عليه من المحبة والائتلاف، كما قال الله ﷻ: {إنّما المُؤمنون

إخوةٌ فَأَصلِحوا بين أَخَوَيْكم واتّقوا الله} [الحجرات: ١٠].

نسأل الله التوفيق والسداد، وهل أنتم على عزم أن تتصلوا غدًا أم لا؟ أما الآن فنقطع، وما يمكن أن نزيد...

وعند الموعد قال السائل: المهم -يعني- أن أركز على أهم ما يمكن أن يؤثِّر على الإخوة عندنا -يعني- المقاتلين حتى يرجعوا إلى الحق.

الشيخ: طيب! توكل على الله.

السائل: إن شاء الله، أهم قضية -يا شيخ- ادعاؤهم أنك لا تعلمون واقعنا في الجزائر، وأن العلماء لا يعرفون الواقع في الجزائر، وأنكم لو عرفتم أننا (سلفيين)! أن هذا سيغير فتواكم، فهل هذا صحيح؟

الشيخ: هذا غير صحيح، وقد أجبنا عنه بالأمس، وقلنا مهما كانت المبالغات فإراقة الدماء صعب، فالواجب الكف الآن والدخول في السلم.

السائل: شيخنا! ما رأيكم فيمن يعتقد أن الرجوع إلى الحياة المدنية يعتبر ردة؟

الشيخ: رأينا أن من قال هذا فقد جاء في الحديث الصحيح أن من كفّر مسلمًا أو دعا رجلًا بالكفر وليس كذلك عاد إليه.

السائل: شيخنا! ما رأيكم في قولهم أنه لا هدنة ولا صلح ولا حوار مع المرتدين؟

الشيخ: رأينا أن هؤلاء ليسوا بمرتدين، ولا يجوز أن نقول إنهم مرتدون حتى يثبت ذلك شرعًا.

السائل: بناءً على ماذا شيخنا؟

الشيخ: بناء على أنهم يصلون ويصومون ويحجون ويعتمرون ويشهدون أن

لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

السائل: نعم! نعم يا شيخنا!

الشيخ: فكيف نقول إنهم كفار على هذه الحال؟! إن النبي ﷺ قال لأسامة بن زيد لما قتل الرجل الذي... بالسيف، فشهد أن لا إله إلا الله، أنكر الرسول ﷺ على أسامة، مع أن الرجل قال ذلك تعوذًا كما ظنه أسامة، والقصة مشهورة.

السائل: شيخنا! سؤال عقائدي -يعني- قضية الفرق بين الكفر العملي والكفر الاعتقادي في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله؟

الشيخ: يعني مثلًا من ترك الصلاة فهو كافر، من سجد لصنم فهو كافر، من قال إن مع الله خالقًا فهو كافر، وهذا كفر عملي، وأما الكفر الاعتقادي ففي القلب.

السائل: شيخنا! الكفر العملي هل يخرج من الملة؟

الشيخ: بعضه مخرج وبعضه غير مخرج، كقتال المؤمن، فقد قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم-: «فقتاله كفر»، ومع ذلك لا يخرج من الملة من قاتل أخاه المؤمن بدليل آية الحجرات: {وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما}، قال: {إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم} [الحجرات: ٩- ١٠].

السائل: متى يصبح الكفر العملي كفرًا اعتقاديًّا شيخنا؟

الشيخ: إذا سجد لصنم، فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة، إلا أن يكون مكرهًا.

السائل: وفي قضية الحكم بغير ما أنزل الله؟

الشيخ: هذا باب واسع، هذا باب واسع، قد يحكم بغير ما أنزل الله عدوانًا

وظلمًا، مع اعترافه بأن حكم الله هو الحق، فهذا لا يكفر كفرًا مخرجًا عن الملة، وقد يحكم بغير ما أنزل الله تشهيًا ومحاباة لنفسه، أو لقريبه، لا لقصد ظلم المحكوم عليه... ولا لكراهة حكم الله، فهذا لا يخرج عن الملة، إنما هو فاسق، وقد يحكم بغير ما أنزل الله كارهًا لحكم الله، فهذا كافرٌ كفرًا مخرجًا عن الملة، وقد يحكم بغير ما أنزل الله طالبًا موافقة حكم الله، لكنه أخطأ في فهمه، فهذا لا يكفر، بل ولا يأثم؛ لقول النبي ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد، وإن أصاب فله أجران».

السائل: شيخنا! مثلًا عندنا للأسف الشديد مسجد حُوِّل إلى ثكنة عسكرية، تشرب فيها الخمور، وتسمع فيها الموسيقى، وتعطل فيها الصلاة، ويسب فيها الله ورسوله -يعني- هذا ما حكمه؟

الشيخ: هذا فسوق، فلا يحل تحويل المسجد إلى ثكنة عسكرية،؛ لأنه تحويل للوقف عن جهته وتعطيل للصلاة فيه.

السائل: شيخنا! كلامكم واضح والحمد لله، وبهذه الصيغة يزيح -إن شاء الله- الشبه التي تحول دون أن يعمل الحق عمله -إن شاء الله-.

الشيخ: نسأل الله أن يهديهم، وأن يرزقهم البصيرة في دينه، ويحقن دماء المسلمين.

السائل: هلا شرحتم لنا قوله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده...» الحديث؟

الشيخ: لا يتسع المجال؛ لأنه ما بقي إلا دقيقة واحدة.

السائل: أعطِنا تاريخ المكالمة واسمك.

الشيخ: هذه المكالمة يوم الجمعة في شهر رمضان، أجراها مع إخوانه

محمد بن صالح العثيمين من عنيزة بالمملكة العربية السعودية ١٤٢٠هـ، نسأل الله أن ينفع بهذا يظهر لنا من هذه المكالمة، أن اتجاهًا خارجيًّا عشعش في قلوب وعقول صغار الطلبة، وتعجلوا البلاء، فَجَرَتْ على أيديهم أحداث فيها فتن، أريقت بسببها دماء، وهتكت أعراض، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

وهذا كلُّه، من مهيِّجات الفتن العراقية المنشأ، الخارجية المذهب، التي ثارت من تحت قدمي ذاك الرجل الذي أخبر النبي ﷺ أنه لو قُتل ما كانت فتنة، ولكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

(باب ذكر الشيعة)

قال د.غالب عواجي[(١)]: "والشيعة -كطائفة ذات أفكار وآراء- غلب عليهم هذا الاسم وهم من أكذب الفرق على أئمتهم، ومن أخطرها على المسلمين[(٢)]، وذلك بسبب:

١. استعمالهم التقية المرادفة للكذب.

٢. تظاهرهم بنصرة أهل البيت، حيث انخدع بهم كثير من عوام

---

(١) انظر كتاب"فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام" د. غالب بن علي عواجي ص١٦٦-١٦٧.

(٢) يقول إحسان إلهي ظهير: "الشيعة الآن لهم نشاط كبير في البلاد العربية وغير البلاد العربية وفي البلاد التي فيها أقليات مسلمة، فقد ملأوا العالم بمنشوراتهم ومفترياتهم وأكاذيبهم، لكن قَلَّ من يدرك هذا الخطر... فلذلك وجب على المسلم الذي يعتقد الاعتقاد الصحيح أن يقف في وجه هذا السيل العارم.

الشيعة الآن تطلق على قوم يختلفون معنا في الأصول، وكثير من الأخوة يفهمون أن اختلافنا معهم كاختلافنا مع المذاهب الأخري الفقهية، وبعض السذَّج يقولون أن اختلافنا في الفروع!، والشيعة الآن لا يستثنى منهم أحدٌ، وهذه اللفظة عندما تطلق الآن لا يراد بها إلا الشيعة الإثنى عشرية". أهـ

المسلمين[١].

(١) ويقول إحسان إلهي ظهير أيضا:
"الشيعة كلهم يدَّعون أنهم موالون لأهل البيت ومحبون لهم، وهذه الكلمة استعملوها خداعًا ومكرًا ليخدعوا بها السذج من الناس، إن كثيرًا منا وحتى الخاصة لا يعرفون ماذا يقصدون من وراء لفظة أهل البيت، كثير يفهمون أنهم يقصدون أهل بيت النبي ﷺ ! هم يكفِّرون العباس عم النبي ﷺ رضي الله عنه، ويكفِّرون أمهات المؤمنين وهن أهل البيت أصلًا وحقيقة، لأن لفظة أهل البيت لم ترد في القرآن إلا مرتين، وفي المرتين لم ترد هذه اللفظة إلا للأزواج.
في سورة هود: (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت...) الآية، أطلقت على زوج ابراهيم عليه السلام.
وفي سورة الأحزاب: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهلَ البيتِ...) الآية.
فأهل البيت حقيقة في الأزواج، وهم قاطبة عن بكرة أبيهم يكفِّرون أزواج النبي ﷺ إلا خديجة رضي الله عنها، وهم لا يطلقون على أزواج النبي ﷺ إلا كلمة اللعن والطعن، وهم متهمون عائشة -رضي الله عنها التي نزلت براءتها في أربعة عشر آية- بالفسق والفجور عياذًا بالله.
فهم أكبر أعداء لأهل البيت وهم يدَّعون أنهم محبون لأهل البيت.
يقول الكاشي منهم في كتابه"رجال الكاشي"، وهو من أقدم الكتب عندهم:
في قوله تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا) [الإسراء: ٧٢] يقول: نزلت في العباس. وكذلك يكفِّرون عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ولا يعتقدون بإيمان عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أخو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
إذن فماذا يقصدون من وراء هذا الادعاء؟!!
يقول كبيرهم أو كبير مجرميهم محسن الأمين في كتابه"أعيان الشيعة": "الشيعة قوم يهوون هواء إثرة علي رضي الله عنه ويوالونه وأولاده".
فيقصدون بأهل البيت علي رضي الله عنه وأولاده رضي الله عنهم أجمعين.
ومن الغرائب أيضًا أنهم لا يعدون جميع أولاد علي رضي الله عنه من أهل البيت إلا الحسن والحسين. والمعروف أن عليًا رضي الله عنه له أربعة عشر ولدًا وثماني عشرة بنتًا.
وأغرب من ذلك أنهم لا يجعلون فاطمة رضي الله عنها من أهل البيت فلا يعدون أولادها أم كلثوم وزينب من أهل البيت. والحسن عدُّوه من أهل البيت وأخرجوا أولاد الحسن =

٣. بغضهم لأهل السنة بسبب تعاليم خاطئة وضعها بعض كبرائهم نتج عنها نفور الشيعة وعدم الوصول -بعد محاولات كثيرة من جانب أهل السنة- إلى التقارب.

وقد قام التشيع في ظاهر الأمر على أساس أن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وذريته هم أحق الناس بالخلافة بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن عليًا أحق بها من سائر الصحابة بعهد من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما زعموا في رواياتهم التي اخترعوها وملأوا بها كتبهم.

ومن الملاحظ على هذه الفرقة أنها كانت بابًا واسعًا لكل طامع في تحقيق أغراضه من أهل الأهواء:

١. إذ تشيع قوم إيمانًا بأحقية أولاد علي بالخلافة حسبما سمعوا من النصوص التي لفَّقها علماء التشيع.

وتشيع قوم كرهوا الحكم الأموي ثم العباسي فقاموا بتلك الثورات العديدة التي سجلها علماء الفرق والتاريخ تحت غطاء دعوى التشيع لأهل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وتشيع آخرون للانتقام من الإسلام كالباطنية.

وتشيع قوم لتحقيق مطامع سياسية كالمختار مثلًا.

=

جميعًا من أهل البيت.

والحسين عدُّوه من أهل البيت وأخرجوا جميع أولاده من أهل البيت إلا علي بن الحسين الملقَّب بزين العابدين، وعلي بن الحسين يخرجون جميع أولاده من أهل البيت إلا واحدًا وهو محمد الملقَّب بالباقر.

ومحمد الباقر يخرجون جميع أولاده من أهل البيت إلا واحدًا وهو جعفر (الصادق)، ويخرجون جميع أبناء جعفر من أهل البيت إلا ابنه موسى (الكاظم).

وهكذا حصروا كلمة أهل البيت في الأئمة الإثنى عشر المعروفون عندهم". أهـ

٢. ولأن الشيعة أيضًا لا يتحرون النصوص الصحيحة، ولا يهتمون بإيصال السند إلى النبي ﷺ، لهذا فإن أكثر أحاديثهم رويت عن الأئمة(١).

٣. ولأنهم كذلك أهل عاطفة نحو أهل البيت -فيما يظهرون للناس- فلذا يكفي لتوثيق الشخص عندهم أن يكون ظاهره الغلو في أهل البيت، ويكون بذلك من الثقات الأثبات".اهـ.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

"الإثنا عشر إمامًا الذين يتخذهم الشيعة الإمامية أئمة لهم يتسلسلون على النحو التالي(٢):

(١) ويقول إحسان إلهي ظهير أيضًا في معنى الحديث عند القوم:
"الحديث عندنا ما ثبت عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير.
والحديث عندهم: كل ما ثبت عن أئمتهم الإثنى عشر بما فيهم المولود وغير المولود، والمعدوم والغائب!! فكل ما نقل عنهم فهو حديث عندهم مثل ما نقل عن رسول الله ﷺ.
وهم يعتقدون أيضًا أن القرآن حُرِّف وغُيِّر وبُدِّل، نقص منه كثير وزيد فيه، وهذا قولهم جميعًا عن بكرة أبيهم، يقولون إن هذا ثُلث القرآن، أما الثُلث الباقي فهو محفوظ عند الإمام الغائب.
يقول الكُلَيْني في "الكافي"، -وهو عندهم كالبخاري عند أهل السنة- يذكر أن جعفر قال: "لو وجد القرآن كما أنزل لألفيتنا مُسَمِّين"، وقال: "أما العترة فقتلوهم وأما القرآن فحرفوه" كذبًا عليه. وقالوا: أن قوله تعالى (تبت يدا أبي لهب وتب) زيادة في القرآن.
وقال إحسان إلهي ظهير:
وقد أوردت في كتاب"الشيعة والقرآن" -الذي مُنع في البلاد المسلمة المهددة من الخوميني ١٢٠٠ ألف ومائتان حديث من كتبهم على أن القرآن محرَّف ومُغيَّر وزِيد فيه ونُقص منه كثير.

(٢) "الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة"، د. مانع بن حماد الجهني، ص٥٥.

- علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي يلقبونه بالمرتضى، رابع الخلفاء الراشدين وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد مات غيلة حينما أقدم الخارجي عبد الرحمن بن ملجم على قتله في مسجد الكوفة في ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ.
- الحسن بن علي رضي الله عنهما، ويلقبونه بالمجتبى (٣-٥٠هـ).
- الحسين بن علي رضي الله عنهما، ويلقبونه بالشهيد (٤-٦١هـ).
- علي زين العابدين بن الحسين (٣٨-٩٥هـ)، ويلقبونه بالسَّجَّاد.
- محمد الباقر بن علي زين العابدين (٥٧-١١٤هـ)، ويلقبونه بالباقر.
- جعفر الصادق بن محمد الباقر (٨٣-١٤٨هـ)، ويلقبونه بالصادق.
- موسى الكاظم بن جعفر الصادق (١٢٨-١٨٣هـ)، ويلقبونه بالكاظم.
- علي الرضا بن موسى الكاظم (١٤٨-٢٠٣هـ)، ويلقبونه بالرضى.
- محمد الجواد بن علي الرضا (١٩٥-٢٢٠هـ)، ويلقبونه بالتقي.
- علي الهادي بن محمد الجواد (٢١٢-٢٥٤هـ)، ويلقبونه بالنقي.
- الحسن العسكري بن علي الهادي (٢٣٢-٢٦٠هـ)، ويلقبونه بالزكي.
- محمد المهدي بن الحسن العسكري (٢٥٦-...هـ)، ويلقبونه بالحجة القائم المنتظر.

يزعمون أن الإمام الثاني عشر قد دخل سردابًا في دار أبيه بسُرَّ مَنْ رأى ولم يعد، وقد اختلفوا في سِنه وقت اختفائه فقيل أربع سنوات وقيل ثماني سنوات، غير أن معظم الباحثين يذهبون إلى أنه غير موجود أصلًا وأنه من اختراعات الشيعة، ويطلقون عليه لقب (المعدوم أو الموهوم)".اهـ.

ويقول د. ناصر القفاري[1]: ومعظم الفرق التي خرجت عن الجماعة ضعف نشاطها اليوم، وفتر حماسها وتقلَّص اتباعها، وانكفأت علي نفسها، وقلَّت منابذتها لأهل السنة.

أما طائفة الشيعة فإن هجومها على أهل السنة وتجريحها لرجالهم وطعنها في مذهبهم، وسعيها لنشر التشيع بينهم يزداد يومًا بعد يوم.

ولعل طائفة الإثنى عشرية هي أشد فرق الشيعة سعيًا في هذا الباب لإضلال العباد إن لم تكن الفرقة الوحيدة التي تكثر من التطاول على السنة والكيد لها على الدوام مما لا تجده عند فرقة أخرى.

وذلك لأسباب منها:

أولًا: أن هذه الطائفة بمصادرها في التلقي وكتبها وتراثها تمثل نحلة كبرى، حتى أنهم يسمون مسائل اعتقادهم:"دين الإمامية" لا مذهب الإمامية، وذلك لانفصالها عن دين الأمة، وبحسبك أن تعرف أن أحد مصادرها في الحديث عن الأئمة يبلغ مائة وعشرة مجلدات وهو "بحار الأنوار" لشيخهم المجلسي (ت ١١١١هـ).

ثانيًا: اهتمام هذه الطائفة بنشر مذهبها والدعوة، وعندها دعاة متفرغون ومنظمون، ولها في كل مكان -غالبًا- خلية ونشاط، وتوجه جل اهتمامها في الدعوة لنحلتها في أوساط أهل السنة، ولا أظن أن طائفة من طوائف البدع تبلغ شأو هذه الطائفة في العمل لنشر معتقدها والاهتمام بذلك.

وهي اليوم تسعى جاهدة لنشر مذهبها في العالم الإسلامي، وتصدير ثورتها،

---

(١) أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية عرض ونقد للدكتور ناصر بن عبد الله بن علي القفاري ج١ ص ٨ وما بعدها.

وإقامة دولتها الكبرى بمختلف الوسائل.

وقد تشيع بسبب الجهود التي يبذلها شيوخ الإثنى عشرية الكثير من شباب المسلمين.. ومن يطالع كتاب "عنوان المجد في تاريخ البصرة ونجد" يهوله الأمر، حيث يجد قبائل بأكملها قد تشيعت.

وقد تحولت سفارات دولة الشيعة في إيران إلى مراكز للدعوة إلي مذهبها في صفوف الطلبة والعاملين المسلمين في العالم، وهي تهتم بدعوة المسلمين أكثر من اهتمامها بدعوة الكافرين.

ولا شك أن المسؤولية كبيرة في إيضاح الحقيقة أمام المسلمين، ولاسيما الذين دخلوا في سلك التشيع حبًا لأهل البيت واعتقادًا منهم أن هذا الطريق عين الحق وطريق الصدق.

ثالثًا: أن هذه هي الطائفة الشيعية الكبرى في عالم اليوم، وقد احتوت معظم الفرق الشيعية التي وجدت على مسرح التاريخ، حتى قيل بأن لقب الشيعة إذا أُطلق لا ينصرف إلا إليها.

رابعًا: هذه الفرقة لها اهتمام دَعائي في الدعوة للتقارب مع أهل السنة، وقد أقامت المراكز، وأرسلت الدعاة وأنشأت الجمعيات التي ترفع شعار الوحدة الإسلامية.

خامسًا: هذه الطائفة تكثر من القول بأن مذهبها لا يختلف عن مذهب أهل السنة، وأنها مظلومة ومفترى عليها، ولها اهتمام كبير بالدفاع عن مذهبها، ونشر الكتب والرسائل الكثيرة له، وتتبع كتب أهل السنة ومحاولة الرد عليها، مما لا يوجد مثله عند طائفة أخرى.

سادسًا: كثرة مهاجمة هذه الطائفة لأهل السنة، ولاسيما صحابة رسول الله

ﷺ، وطعنها في أمهات كتب المسلمين، عبر مؤلفاتهم التي يخرج منها سنويًا العشرات من الكتب...كذلك مهاجمتها بعنف وضراوة لكل من يكتب عنها أو يتعرض لمذهبها بالنقد تحت ستار أن هذه الكتابات تعيق التقريب وتعرقل مساعي الوحدة الإسلامية، فانصرفت أكثر الأقلام عن الكتابة عنها.

ولقد كتب أسلافنا عن الإثنى عشرية، وهي التي يسمونها بالرافضة، وكان لمصنفاتهم أثرها، كما في كتابات أبي نعيم، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والمقدسي، والفيروز آبادي، وما في كتب الفرق والعقيدة، ولكن تلك الكتابات كانت قبل شيوع كتب الشيعة وانتشارها، وجملة منها يحمل صفة الرد على بعض مؤلفات الشيعة، ولا تدرس الطائفة بعقائدها وأفكارها بشكل شامل.

كما أن الإثنى عشرية لمهارتها في التَّقِّية قد خفي أمرها حتى نجد في شرح صحيح مسلم القول بأن الإمامية لا تكفر الصحابة، وإنما ترى أنهم أخطأوا في تقديم أبي بكر. ونرى شيخ الإسلام ابن تيمية -على اهتمامه بالمذهب الرافضي ونقده- يقول: حدثني الثقات أن فيهم من يرى الحج إلى المشاهد أعظم من الحج إلى بيت الله. بينما هذه القضية تجدها اليوم مقررة في أمهات كتبهم في عشرات الروايات والعديد من الأبواب.

كما أن أهم كتب الشيعة وهو"أصول الكافي" لا تجد له ذكرًا عند الأشعري أو ابن حزم أو ابن تيمية، وهو اليوم الأصل المعتمد عند الطائفة في حديثها عن الأئمة الذي هو أساس مذهبها.

وأيضًا فإن طبيعة هذا المذهب أنه يتطور من وقت لآخر، ويتغير من جيل لجيل، حتى أن الممقاني أكبر شيوخهم في هذا العصر يقول: إن ما يعتبر غلوًا عند الشيعة الماضين أصبح اليوم من ضرورات المذهب. هذه الطبيعة المتغيرة

تقتضي التعرف على الوجه الحقيقي للإثنى عشرية في عصرنا.

كما أن جل الردود التي تسود المصنفات التي كتبها الأئمة السابقون - رحمة الله عليهم أجمعين- هي على شبهات يثيرها الشيعة من كتب السنة نفسها، فيرد عليها أهل السنة مبينين أن تلك النصوص التي يتمسك بها الشيعة إما موضوعة وإما ضعيفة، أو بعيدة عن استدلالهم الفاسد.

لكن الشيعة لا تؤمن بكتب أهل السنة كلها أصلًا، وهي تثير هذه الشبهات إلى اليوم لتحقيق أمرين:

- **الأول**: إشغال أهل السنة بهذه الشبهات، حتى لا يتفرغوا لنقد كتبهم ونصوصهم ورجال رواياتهم.
- **الثاني**: إقناع الحائرين والمتشككين من أهل طائفتهم بدعوى أن ما هم عليه من شذوذ هو موضع اتفاق بين السنة والشيعة.

ولكن كتب الشيعة اليوم قد توفرت بشكل لم يعهد من قبل... فينبغي أن تكون من أهم ركائز الدراسة والنقد، لأن الحجة على كل طائفة إنما تقام بما تصَّدقه وتؤمن به.

تعريف الشيعة(١)

التعريف اللغوي

يقول ابن دريد (المتوفى سنة ٣٢١هـ): "فلان من شيعة فلان أيّ: ممن يرى رأيه، وشيعت الرجل على الأمر تشييعًا إذا أعنته عليه، وشايعت الرجل على الأمر مشايعةً وشياعًا إذا مالأته عليه".

(١) أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية عرض ونقد للدكتور ناصر بن عبد الله بن علي القفاري ج١ ص ٣٠ وما بعدها.

وقال الأزهري (المتوفى سنة ٣٧٠هـ): "والشيعة أنصار الرجل وأتباعه، وكل قوم اجتمعوا على أمرهم شيعة. والجماعة شيَع وأشياع، والشيعة: قوم يهوون هوى عترة النبي ﷺ ويوالونهم".

وقال ابن منظور (المتوفى سنة ٧١١هـ): "والشيعة أتباع الرجل وأنصاره، وجمعها شيَع، وأشياع جمع الجمع، وأصل الشيعة: الفرقة من الناس، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد ومعنى واحد، وقد غلب هذا الاسم على من يتولى عليًا وأهل بيته، حتى صار لهم اسمًا خاصًا، فإن قيل: فلان من الشيعة عرف أنه منهم، وفي مذهب الشيعة كذا أيّ: عندهم، وأصل ذلك من المشايعة وهي المتابعة والمطاوعة".

فالشيعة والتشيع والمشايعة في اللغة تدور حول معنى المتابعة، والمناصرة، والموافقة بالرأي، والاجتماع على الأمر، أو الممالأة عليه. ثم غلب هذا الاسم كما يقول صاحب اللسان، والقاموس، وتاج العروس على كل من يتولى عليًا وأهل بيته. وهذه الغلبة محل نظر، لأنه إذا تأمل الباحث في المعنى اللغوي للشيعة والذي يدل على المتابعة والمناصرة، ثم نظر إلى أكثر فرق الشيعة التي غلب إطلاق هذا الاسم عليها يجد أنه لا يصح تسميتها بالشيعة من الناحية اللغوية، لأنها غير متابعة لأهل البيت على الحقيقة، بل هي مخالفة لهم ومجافية لطريقتهم...

ولعل هذا ما لاحظه شريك بن عبد الله حينما سأله سائل: أيهما أفضل أبو بكر أو علي؟ فقال له: أبو بكر. فقال السائل: تقول هذا وأنت شيعيّ! فقال له: نعم، من لم يقل هذا فليس شيعيًا، والله لقد رقى هذه الأعواد علي، فقال ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، فكيف نرد قوله، وكيف نكذبه؟ والله ما

كان كذابًا[١].

فشريك لاحظ أن غير المتابع لعلي لا يستحق اسم التشيع، لأن معنى التشيع وحقيقته المتابعة... ولهذا آثر بعض الأئمة أن يطلق عليهم اسم الرافضة.

وقد لجأ المتابعون لأهل البيت على الحقيقة، والذين كانوا يلقبون بالشيعة، لجأوا إلى ترك هذا اللقب لما غلب إطلاقه على أهل البدع المخالفين لأهل البيت، كما يشير صاحب التحفة الإثنى عشرية إلى ذلك فيقول:"إن الشيعة الأولى تركوا اسم الشيعة لما صار لقبًا للروافض والإسماعيلية، ولقبوا أنفسهم بأهل السنة والجماعة".

لفظ الشيعة في القرآن ومعناه

ومادة شيع وردت في كتاب الله العظيم في اثني عشر موضعًا، وقد أجمل ابن الجوزي معانيها بقوله: "وذكر أهل التفسير أن الشيع في القرآن على أربعة أوجه:

أحدها: الفرق، ومنه قوله تعالى: (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيَعا)، وقوله: (ولقد أرسلنا من قبلك في شيَع الأولين)، وقوله: (وجعل أهلها شيَعا)، وقوله: (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيَعا).

الثاني: الأهل والنسب، ومنه قوله تعالى: (هذا من شيعته وهذا من عدوه) أراد من أهله في النسب إلى بني إسرائيل.

والثالث: أهل الملة، ومنه قوله تعالى: (ثم لننزعن من كل شيعة)، وقوله:

---

(١) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد روى عن عليّ من نحو ثمانين وجها أنه قال: على منبر الكوفة خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر، ورواه البخارى وغيره. انظر منهاج السنة: ٤/ ١٣٧، وقد جاء ذلك فى كتب الشيعة أيضا. انظر تلخيص الشافى: ٢/ ٤٢٨ عن إحسان إلـهى ظهير: الشيعة وأهل البيت ص ٥٢.

(ولقد أهلكنا أشياعكم)، وقوله: (كما فُعل بأشياعهم)، وقوله: (وإن من شيعته لإبراهيم).

والرابع: الأهواء المختلفة، قال تعالى: (أو يلبسكم شيَعا).

ويشير ابن القيم -رحمه الله تعالى- في نص مهم له إلى أن لفظ الشيعة، والأشياع غالبًا ما يستعمل في الذم، ويقول: ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك كقوله تعالى: (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيًا)، وكقوله: (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا)، وقوله: (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فُعل بأشياعهم من قبل). ويعلل ابن القيم لذلك بقوله: وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشياع، والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع، ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال لتفرقهم واختلافهم[١].

هذه ألفاظ الشيعة في كتاب الله ومعانيها، وهي لا تدل على الاتجاه الشيعي المعروف،وهذا أمر يدرك بداهة، لكن الغريب في الأمر أن نجد عند الشيعة إتجاهًا يحاول ما وسعته المحاولة أو الحيلة أن يفسر بعض ألفاظ الشيعة الواردة في كتاب الله بطائفته، ويؤول كتاب الله على غير تأويله، ويحمّل الآيات ما لا تحتمل تحريفًا لكتاب الله وإلحادًا فيه، فقد جاء في أحاديثهم في تفسير قوله سبحانه: (وإن من شيعته لإبراهيم) قالوا أن إبراهيم من شيعة علي[٢]. وهذا مخالف لسياق القرآن وأصول الإسلام، وهو نابع من عقيدة غلاة الروافض

(١) بدائع الفوائد ١/ ١٥٥، وهذا في الغالب لأنه ورد في القرآن (وإن من شيعته لإبراهيم).

(٢) البحراني/ تفسير البرهان: ٤/ ٢٠، وانظر: تفسير القمي: ٢/ ٣٢٣، والمجلسي/ بحار الأنوار: ٦٨/ ١٢-١٣، عباس القمي/ سفينة البحار: ١/ ٧٣٢، البحراني/ المعالم الزلفى ص ٣٠٤، الطريحي/ مجمع البحرين: ٢/ ٣٥٦، وقد نسبوا هذا التفسير -كذبًا وافتراءً- إلى جعفر الصادق، ودينه وعلمه ينفيان ذلك.

الذين يفضلون الأئمة على الأنبياء، فهذا التأويل أو التحريف يجعل خليل الرحمن أفضل الرسل والأنبياء بعد محمد ﷺ يجعله من شيعة علي... وهو أمر يعرف بطلانه من الإسلام بالضرورة، كما هو باطل بالعقل والتاريخ... وهو من وَضْعِ وضَّاعٍ لا يحسن الوضع ... ولا يعرف كيف يضع.

والذي قاله أهل السنة في تفسير الآية والمنقول عن السلف أن إبراهيم من شيعة نوح عليه السلام وعلى منهاجه وسنته، وهذا التفسير هو الذي يتمشى مع سياق الآية، لأن الآيات التي قبل هذه الآية كانت في نوح عليه السلام، ويلاحظ أن من مفسري الشيعة من أخذ بقول أهل السنة، وأعرض عما قاله قومه في تأويل الآية.

لفظ الشيعة في السنة ومعناه

ورد لفظ الشيعة في السنة المطهرة بمعنى الأَتْبَاع، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في الرجل الذي قال للنبي ﷺ: لم أرك عدلت...، قال فيه عليه الصلاة والسلام: "سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه"... الحديث[1]، وكذلك في الحديث الذي أخرجه أبو داود في المكذبين

(١) أخرجه احمد (٢/ ٢١٩) والحديث قال عنه عبد الله بن الإمام أحمد: ولهذا الحديث طرق في هذا المعنى صحاح، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وقال الهيثمي (٦/ ٢٢٧): رجال أحمد ثقات، وقال العلامة الألباني في ظلال الجنة (٩٣٠): إسناده جيد ورجاله كلهم ثقات قد صرح فيه ابن اسحاق بالتحديث فأمنا بذلك شر تدليسه ومحمد بن منصور هو أبو جعفر العابد نزيل في بغداد من شيوخ أبي داود والنسائي الثقات وقد توبع، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ٦١٤): صحيح، وهذا إسناد حسن، ابن إسحاق -وهو محمد- صرح بالتحديث، وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر: وثقه ابن معين، وعبد الله بن أحمد -كما ذكر هنا-، وقال أبو حاتم: منكر الحديث، وقال في موضع آخر: صحيح الحديث، وذكره أبو أحمد الحاكم فيمن لا يعرف اسمه، ومقسم -وهو ابن بجرة، ويقال: ابن نجدة، ويقال له أيضا: مولى ابن =

بالقدر وفيه: "وهم شيعة الدجال"[١].

فالشيعة هنا مرادفة للفظ الأصحاب، والأتباع، والأنصار.

ومن خلال مراجعتي لمعاجم السنة لم أر استعمال لفظ الشيعة على الفرقة المعروفة بهذا الاسم إلا ما جاء في بعض الأخبار الضعيفة أو الموضوعة والتي جاء فيها لفظ الشيعة كدلالة على أتباع علي مثل حديث: "فاستغفرت لعلي وشيعته"[٢]، وحديث: "مثلي كمثل شجرة أنا أصلها، وعلي فرعها... والشيعة ورقها"[٣]، وحديث: أنه ﷺ قال لعلي: "أنت وشيعتك في الجنة"[٤].

وقد ورد في بعض الأخبار أنه سيظهر قوم يدعون التشيع لعلي يقال لهم

=

عباس للزومه له-، قال أبو حاتم: صالح الحديث، لا بأس به، ووثقه أحمد بن صالح المصري والعجلي والفسوي والدارقطني، وضعفه ابن سعد، وذكره البخاري في "الضعفاء" ولم يذكر فيه قدحا، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين.

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٠٦)، وأبو داود (٤٦٩٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٢٩)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١١٥٥) والحديث قال عنه المنذري مختصر أبي داود ٧(/ ٦١): في إسناده عمر مولى غفرة لا يحتج بحديثه، ورجل من الأنصار مجهول، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٥٧١٤): منكر بهذا التمام، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٧/ ٧٧): إسناده ضعيف، عمر مولى غفرة -وهو ابن عبد الله المدني- ضعيف وقد اضطرب في إسناده، والرجل من الأنصار مجهول.

(٢) قال العقيلي: لا أصل له، وذكره الكتاني من الأحاديث الموضوعة: (تنزيه الشريعة ١/ ٤١٤).

(٣) أورده ابن الجوزي في الموضوعات: ١/ ٣٩٧، والشوكاني في الفوائد المجموعة من الأحاديث الموضوعة ص ٣٧٩.

(٤) وهو حديث موضوع، انظر ابن الجوزي/ الموضوعات: ١/ ٣٩٧، والذهبي/ ميزان الاعتدال: ١/ ٤٢١، ترجمة جميع بن عمر بن سوار، والشوكاني/ الفوائد المجموعة ص: ٣٧٩.

الرافضة، فقد روى الإمام ابن أبي عاصم أربع روايات في ذكر الرافضة، وقال الشيخ الألباني في تحقيقه لأسانيدها بأنها ضعيفة[١]. وقد أخرج الطبراني -بإسناد حسن كما يقول الهيثمي- أن النبي ﷺ قال: "يا علي سيكون في أمتي قوم ينتحلون حب أهل البيت، لهم نبز، يسمون الرافضة، قاتلوهم فإنهم مشركون".

وقد نبَّه شيخ الإسلام ابن تيمية إلى كذب لفظ الأحاديث المرفوعة التي فيها لفظ الرافضة، لأن اسم الرافضة لم يعرف إلا في القرن الثاني. وفي ظني أن هذا لا يكفي في الحكم بكذب الأحاديث، إذ لو صحت أسانيدها لكانت من باب الإخبار بما سيقع، وأن الله أخبر نبيه بما سيكون من ظهور الروافض، كما أوحى الله إليه بشأن ظهور فرقة الخوارج، وإن كانت بذرة الخوارج وجدت في حياته ﷺ.

لفظ الشيعة ومعناه في كتب الحديث الإثنى عشرية

وفي كتب الحديث عند الشيعة يتكرر في كثير من رواياتهم وأحاديثهم التي ينسبونها إلى رسول الله ﷺ، وإلى الإمام علي والحسن والحسين وبقية أئمتهم الإثني عشر يتكرر لفظ الشيعة كمصطلح يدل على فرقتهم، وعقيدتهم، وأئمتهم، ذلك أنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ هو الذي غرس بذرة التشيع وتعهدها بالسقي حتى نمت وأينعت[٢]... بل وصل بهم الأمر في هذا إلى وضع روايات تدل على أن لفظ الشيعة -كمصطلح لطائفتهم- معروف قبل زمن رسالة نبينا محمد ﷺ، فقد جاء في أحاديثهم في تفسير قوله سبحانه: (وإن من

---

(١) هذه الروايات كلها في ذم الروافض، انظر السنة: ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١.

(٢) ففى أصول الكافى فى مسألة النص على الأئمة من الله ورسوله والأئمة -كما يزعمون- ذكر ثلاثة عشر بابا ضمنها مائة وعشرة أحاديث (أصول الكافى: ١/ ٢٨٦-٣٢٨).

شيعته لإبراهيم) أي: أن إبراهيم من شيعة علي، بل بلغ بهم الزعم إلى القول: "أن الله أخذ ميثاق النبيين على ولاية علي، وأخذ عهد النبيين على ولاية علي" وأن "ولاية علي مكتوبة في جميع صحف الأنبياء"(١). إلى آخر هذه الدعاوى وسيأتي بسط ذلك في نشأة التشيع.

لفظ الشيعة في التاريخ الإسلامي

في الأحداث التاريخية في صدر الإسلام وردت لفظ الشيعة بمعناه اللغوي الصرف، وهو المناصرة والمتابعة، بل إننا نجد في وثيقة التحكيم بين الخليفة علي، ومعاوية رضي الله عنهما وورد لفظ الشيعة بهذا المعنى، حيث أطلق على أتباع علي شيعته، كما أطلق على أتباع معاوية شيعته، ولم يختص لفظ الشيعة بأتباع علي، ومما جاء في صحيفة التحكيم: "هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما... (ومنها): وأن عليًا وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس، ورضي معاوية وشيعته بعمرو بن العاص... (ومنها): فإذا توفي أحد الحكمين فلشيعته وأنصاره أن يختاروا مكانه. (ومنها): وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدود في هذه القضية فلشيعته أن يختاروا مكانه رجلًا يرضون عدله"(٢).

وقال حكيم بن أفلح رضي الله عنه: "لأني نهيتها -يعني عائشة- أن تقول في هاتين الشيعتين شيئًا"(٣). وقد أورد شيخ الإسلام ابن تيمية هذا النص، ليأخذ منه دلالة

---

(١) البحراني/ تفسير البرهان: ١/ ٢٦- أصول الكافي: ١/ ٤٣٧.

(٢) الدينورى / الأخبار الطوال ص١٩٤-١٩٦، وانظر تاريخ الطبرى: ٥/ ٥٣-٥٤، محمد حميد الله/ مجموعة الوثائق السياسية ص: ٢٨١-٢٨٢.

(٣) هذا جزء من حديث طويل فى صحيح مسلم فى باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض: ٢/ ١٦٨، ١٧٠.

تاريخية على عدم اختصاص علي باسم الشيعة في ذلك الوقت[١].

وجاء في التاريخ أن معاوية قال لبسر بن أرطاة حين وجهه إلى اليمن: "أمض حتى تأتي صنعاء فإن لنا بها شيعة"[٢]، فإذن لم يظهر مصطلح الشيعة دلالة على أتباع علي فحسب حتى ذلك الوقت.

ويبدو أن بدء التجمع الفعلي لمن يدعون التشيع، وابتداء التميز بهذا الاسم بدأ بعد مقتل الحسين سنة ٦١هـ، يقول المسعودي: وفي سنة خمس و ستين تحركت الشيعة في الكوفة[٣]. وتكونت حركة التوابين، ثم حركة المختار (الكيسانية) وبدأت الشيعة تتكون وتضع أصول مذهبها... وأخذت تتميز بهذا الاسم.

من هنا يتضح أن اسم الشيعة كان لقبًا يطلق على أية مجموعة تلتف حول قائدها، وإن كان بعض الشيعة يحاول أن يتجاهل الحقائق التاريخية ويدعي بأن الشيعة "هم أول من سموا باسم التشيع من هذه الأمة"[٤]، ويتناسوا بأن معاوية أطلق أيضًا على أتباعه كلمة الشيعة، ولكن الوقائع التاريخية تقول بأن لقب الشيعة لم يختص إطلاقه على أتباع علي إلا بعد مقتل عليّ رضي الله عنه كما يرى البعض[٥]، أو بعد مقتل الحسين كما يرى آخرون[٦].

تعريف الشيعة اصطلاحًا

أ. تعريف الشيعة في كتب الإثنى عشرية:

---

(١) انظر: منهاج السنة: ٢/ ٦٧ (تحقيق د. محمد رشاد سالم).
(٢) تاريخ اليعقوبى: ٢/ ١٩٧.
(٣) مروج الذهب: ٣/ ١٠٠.
(٤) القمى/ المقالات والفرق ص: ١٥، النوبختى/ فرق الشيعة ص: ١٨.
(٥) محمد أبو زهرة/ الميراث عند الجعفرية ص: ٢٢.
(٦) على سامى النشار/ نشأة الفكر الفلسفى: ٢/ ٣٥.

١. التعريف الأول

يعرف شيخ الشيعة القمي[١] (المتوفى سنة ٣٠١هـ) الشيعة بقوله: "هم شيعة علي ابن أبي طالب"، وفي موضع آخر يقول: "الشيعة هم فرقة علي بن أبي طالب المسمون شيعة علي في زمان النبي ﷺ، وبعده معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته".

ويوافقه على هذا التعريف شيخهم النوبختي[٢] حتى في الألفاظ نفسها.

٢. التعريف الثاني

يقول شيخ الشيعة وعالمها في زمنه المفيد[٣] بأن لفظ الشيعة يطلق على"...أتباع أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه على سبيل الولاء والاعتقاد لإمامته بعد الرسول صلوات الله عليه وآله بلا فصل، ونفي الإمامة عمن تقدمه في مقام الخلافة، وجعل الاعتقاد متبوعًا لهم غير تابع لأحد منهم على وجه الاقتداء". ثم يذكر أنه يدخل في هذا التعريف الإمامية والجارودية[٤]

---

(١) سعد بن عبد الله القمي هو عند الشيعة جليل القدر، واسع الأخبار، له كثير من التصنيف، ثقة. من كتبه: الضياء في الإمامة، ومقالات الإمامية. توفي سنة ٣٠١هـ، وقيل ٢٩٩هـ.

(٢) الحسن بن موسى النوبختي (أبو محمد متكلم، فيلسوف، قال الطوسي: كان إماميًا حسن الاعتقاد، له مصنفات كثيرة منها: كتاب الآراء والديانات. أنظر الذهبي/ سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٢٧.

(٣) محمد بن محمد بن عمران العكبري الملقب بالمفيد، نال في زعمهم شرف مكاتبة مهديهم المنتظر، وله قريب من مائتي مصنف. قال الخطيب البغدادي: كان أحد أئمة الضلال. هلك به خلق من الناس إلى أن أراح الله المسلمين منه. ومات سنة ٤١٣هـ.

(٤) الجارودية: فرقة من فرق الزيدية وتنسب إلى أبي الجارود زياد بن المنذر الهمداني الأعمى الكوفي. قال عنه أبو حاتم: كان رافضيًا، يضع الحديث في مثالب أصحاب =

الزيدية، أما باقي فرق الزيدية فليسوا من الشيعة، ولا تشملهم سمة التشيع.

٣. التعريف الثالث للشيعة

وإذا كان المفيد لا ينص في تعريفه للتشيع على مسألة النص والوصية، فإننا نرى شيخهم الطوسي يربط وصف التشيع بالاعتقاد بكون عليّ إمامًا للمسلمين بوصية من الرسول ﷺ وبإرادة من الله. فالطوسي هنا يجعل الاعتقاد بالنص هو أساس التشيع، ولهذا يخرج الطوسي السليمانية[(١)] الزيدية من فرق الشيعة لأنهم لا يقولون بالنص، بل يقولون: "إن الإمامة شورى، وأنها تصلح بعقد رجلين من خيار المسلمين، وأنها قد تصلح في المفضول.. ويثبتون إمامة الشيخين أبي بكر وعمر، ولم يخرجوهم من دائرة التشيع فحسب، بل اعتبروهم نواصب. ولم يكتفوا بذلك فقد جاء في رجال الطاشي أن الزيدية شر من النواصب[(٢)].

=

رسول الله ﷺ رضي الله عنهم... ومن مقالة الجارودية: أن رسول الله ﷺ نص على عليّ رضي الله عنه بالإشارة والوصف دون التسمية والتعيين، وأن الأمة ضلت وكفرت بصرفها الأمر إلى غيره... انظر في أبي الجارود والجارودية: رجال الكشي ص١٥١، ٢٢٩، ٢٣٠(وهي ست روايات في ذمه تضمن بعضها كونه كذابًا كافرًا، ومع ذلك فمفيدهم ينظمه فى سلك التشيع، لأن التشيع فى تعريفه هو هذا الغلو). انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٣/ ٣٨٦، والبغدادى، الفرق بين الفرق: ص٣٠، والأشعرى، مقالات الإسلاميين: ١/ ١٤٠.

(١) السليمانية: فرقة من فرق الزيدية تنسب إلى سليمان بن جرير الزيدي، وهي تسمى بالسليمانية عند كثير من أصحاب الفرق. انظر: مقالات الإسلاميين ١/ ١٤٣، اعتقادات فرق المسلمين ص ٧٨، الملل والنحل: ١/ ١٥٩، التبصير في الدين ص ١٧.

(٢) والنواصب: هم قوم يدينون ببغض عليّ رضي الله عنه (ابن منظور/ لسان العرب ١/ ٧٦٢)، ولكن الروافض تذهب في مفهوم النصب مذهبًا آخر -كما ترى- حتى تجعل من أحب أبا بكر وعمر ناصبيًا (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٥/ ١١٢) بل من قدم أبا بكر على عليّ فهو ناصبي (ابن إدريس/ السرائر ص ٤٧١، الحر العامل/ وسائل الشيعة

=

ويلاحظ أن مسألة النص هي محل اهتمام الشيعة البالغ في القديم والحديث، فنرى مثلًا في القديم شيخهم الكليني يعقد في كتابه الكافي ثلاثة عشر بابًا في مسألة النص على الأئمة يضمنها مائة وتسعة أحاديث، ونرى في الحاضر أحد الروافض يؤلف كتابًا في ستة عشر مجلدًا في حديث من أحاديثهم التي يستدلون بها على ثبوت النص على عليّ وهو حديث الغدير، ويسمي كتابه باسم الغدير(١)، فلا غرابة في أن يربط الشيعة وصف التشيع بقضية النص، لكن الملفت للنظر أن هذا الاهتمام والمبالغة يسري في كل عقائدهم التي هي محل استنكار وتكذيب من جمهور المسلمين، فتراهم في كل عقيدة من هذه العقائد التي هذا شأنها، يجعلونها هي عمود التشيع وأساسه، ويبالغون في إثباتها، ولكن حينما يعرِّف شيوخهم التشيع لا يذكرون هذه العقائد في التعريف، مع أنهم يعلقون الوصف بالتشيع على الإيمان بها، ولا تشيع بدونها، كمسألة الرجعة مثلًا، قالوا في أحاديثهم: "ليس منا من لم يؤمن بكرَّتِنا". ومع ذلك لا ترى لها ذكرًا في تعريف التشيع، وكذلك مسألة العصمة، والإيمان بخلافة ولد عليّ وغيرها، بل تجد هذه المبالغة حتى في مسائل الفقه وقضايا الفروع كمسألة المتعة، قالوا: "ليس منا من لم..يستحل متعتنا". فالقوم ليسوا على منهج واضح سليم في ذلك.

ب. تعريف الشيعة في المصادر الأخرى:

=

٦/ ٣٤١-٣٤٢.

(١) كتاب الغدير لشيخهم المعاصر: عبد الحسين الأميني النجفي، وهو مليء بالأكاذيب والطامات والكفر البواح. انظر مسألة التقريب بين السنة والشيعة للمؤلف ص٦٦ وما بعدها.

١. تعريف الأشعري للشيعة

ولعل من أقدم من عرَّف الشيعة من أصحاب المقالات والفرق (من غير الشيعة) الإمام الأشعري حيث قال: "إنما قيل لهم الشيعة لأنهم شايعوا عليًا رضي الله عنه، ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم"[١].

٢. تعريف ابن حزم

قال: "ومن وافق الشيعة في أن عليًا رضي الله عنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحقهم بالإمامة وولده من بعده فهو شيعي، وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيًا".

ولكن من يقرأ كلام الشيعة عن عقائدهم كالإمامة، والعصمة، والتقِّية وغيرها يرى أنهم يغالون في كل عقيدة من عقائدهم بحيث يربطون وصف التشيع بالإيمان بتلك العقيدة -كما سلف- ولعل هذا هو ما لاحظه الشهرستاني حينما قدم لنا تعريفًا للشيعة يعتبر من أجمع التعاريف لأصول التشيع وأكثرها شمولًا.

٣. تعريف الشهرستاني[٢]:

يقول الشهرستاني: "الشيعة هم الذين شايعوا عليًا رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصًا ووصية، إما جليًا أو خفيًا، واعتقدوا أن الإمامة لا

---

(١) مقالات الإسلاميين ١/ ٦٥.

(٢) محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتوح المعروف بالشهرستاني. قال السبكي: كان إمامًا مبرزًا مقدمًا في علم الكلام والنظر، برع في الفقه والأصول والكلام، ومن تصانيفه: الملل والنحل، نهاية الإقدام، وغيرهما، توفي سنة ٥٤٨هـ، وكانت ولادته عام ٤٦٧، وقيل ٤٧٩هـ. انظر طبقات الشافعية: ٦/ ١٢٨-١٣٠، مرآة الجنان: ٣/ ٢٨٤-٢٩٠.

تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده. وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله. ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبًا عن الكبائر والصغائر. والقول بالتولي والتبري قولًا وفعلًا وعقدًا إلا في حالة التقية، ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك".

ومن هذا التعريف يتبين أن جميع فرق الشيعة ما عدا بعض الزيدية يتفقون على وجوب اعتقاد الإمامة، والعصمة، والتقية، وسنرى أن الإثنى عشرية يقولون بعقائد أخرى كالغيبة، والرجعة، والبداء.. وغيرها.

التعريف المختار للشيعة(١):

وفي نظري أن تعريف الشيعة مرتبط أساسًا بأطوار نشأتهم، ومراحل التطور العقدي لهم، فالتشيع في العصر الأول غير التشيع فيما بعده.

فعلى هذا يكون التعريف للشيعة في الصدر الأول: أنهم الذين يقدمون عليًا على عثمان فقط(٢).

---

(١) أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية، للدكتور ناصر بن عبد الله بن علي القفاري ج١ ص ٥٣ وما بعدها.

(٢) وهم وإن سموا بالشيعة فهم من أهل السنة، لأن مسألة عثمان وعلي.. ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها، لكن المسألة التي يضلل فيها هي مسألة الخلافة.. وقد كان بعض أهل السنة اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر - أيهما أفضل، فقدم قوم عثمان، وسكتوا، أو ربَّعوا بعليّ، وقدم قوم عليًا، وقوم توقفوا. لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان.

ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن: الشيعة الأولى الذين كانوا على عهد عليّ كانوا يفضلون أبا بكر وعمر[١]، وقد منع شريك بن عبد الله -وهو ممن يوصف بالتشيع- إطلاق اسم التشيع على من يفضل عليًا على أبي بكر وعمر، وذلك لمخالفته لما تواتر عن عليّ في ذلك، والتشيع يعني المناصرة والمتابعة لا المخالفة والمنابذة.

لكن لم يظل التشيع بهذا النقاء والصفاء، والسلامة والسمو.. بل إن مبدأ التشيع تغير، فأصبحت الشيعة شيعًا، وصار التشيع قناعًا يتستر به كل من أراد الكيد للإسلام والمسلمين من الأعداء الموتورين الحاسدين.. ولهذا نرى بعض الأئمة لا يسمون الطاعنين بالشيخين بالشيعة، بل يسمونهم بالرافضة، لأنهم لا يستحقون وصف التشيع. ومن عرف التطور العقدي لطائفة الشيعة لا يستغرب وجود طائفة من أعلام المُحَدِثين، وغير المحدثين من العلماء الأعلام أطلق عليهم لقب الشيعة، وقد يكونون من أعلام السُّنة، لأن للتشيع في زمن السلف مفهومًا وتعريفًا غير المفهوم والتعريف المتأخر للشيعة، ولهذا قال الإمام الذهبي في معرض الحديث عمن رمي ببدعة التشيع من المحدثين: "إن البدعة على ضربين: فبدعة صغرى: كغلو التشيع، أو كالتشيع بلا غلو، فهذا كثير في التابعين وأتباعهم مع الدين والورع والصدق، فلو رُدَّ حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بيِّنة.

ثم بدعة كبرى: كالرفض الكامل، والغلو فيه، والحطّ على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما والدعاء إلى ذلك، فهذا النوع لا يحتج بهم ولا كرامة، وأيضًا فما أَسْتَحضِر -الآن في هذا الضرب- رجلًا صادقًا، ولا مأمونًا، بل الكذب شعارهم، والتَّقِّية

---

(١) منهاج السنة ٢/ ٦٠، تحقيق محمد رشاد سالم.

والنفاق دثارهم، فكيف يقبل نقل من هذا حاله؟ حاشا وكلا.

فالشيعي الغالي في زمان السلف وعُرْفِهم هو: من تكلم في عثمان والزبير، وطلحة، ومعاوية، وطائفة ممن حارب عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتعرض لسبهم.

والغالي في زماننا وعُرْفِنَا هو: الذي يكفِّر هؤلاء السادة، ويتبرأ من الشيخين، فهذا ضال مفتر[1].

ويقول الحافظ ابن حجر: "والتشيع محبة علي وتقديمه على الصحابة، فمن قدمه على أبي بكر وعمر فهو غالٍ في تشيعه، ويطلق عليه رافضي، وإلا فشيعي، فإن انضاف إلى ذلك السبُّ أو التصريح بالبغض، فغالٍ في الرفض، وإن اعتقد الرجعة في الدنيا، فأشد في الغلو"[2].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في "التهذيب" أيضًا: "التشيع في عرف المتقدمين هو: اعتقاد تفضيل عليّ على عثمان، وأن عليًا كان مصيبًا في حروبه، وأن مخالفه مخطئ، مع تقديم الشيخين وتفضيلهما.

وربما اعتقد بعضهم أن عليًا أفضل الخلق بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا كان معتقِد ذلك ورعًا، دينًا، صادقًا، مجتهدًا،فلا تُرَدُّ روايته بهذا، لاسيما إذا كان غير داعية.

وأما التشيع في عرف المتأخرين: فهو الرفض المحض، (أي السب والشتم)، فلا تقبل رواية الرافضي الغالي، ولا كرامة"[3].

---

(١) الذهبي/ ميزان الاعتدال ١/ ٥-٦، وابن حجر/ لسان الميزان ١/ ٩-١٠.

(٢) هدْي الساري مقدمة فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني، ص ٤٨٣ فصل في تمييز أسباب الطعن في المذكورين.

(٣) تهذيب تهذيب الكمال لابن حجر، ١/ ٩٣-٩٤، ترجمة أبان بن تغْلِب الربعي أبو سعد الكوفي(كان مذهبه مذهب الشيعة). وأبان هذا من رجال مسلم والأربعة أصحاب =

نشأة الشيعة وجذورها التاريخية

يقول الدكتور ناصر القفاري[1]: إن الشيعة بأصولها ومعتقداتها لم تولد فجأة، بل مرت بمراحل كثيرة، ونشأت تدريجيًا..وانقسمت إلى فرق كثيرة. ولا شك أن التتبع التاريخي والفكري للمراحل والأطوار التي مر بها التشيع يحتاج إلى بحث مستقل، ولهذا سيكون الحديث هنا عن: أصل النشأة وجذورها التاريخية، ولا يعنينا تتبع مراحلها ونشوء فرقها.. وسنبدأ بعرض رأي الشيعة من مصادرها المعتمدة عندها، ثم نذكر بعد ذلك آراء الآخرين.

فالمنهج العلمي والموضوعية توصيان بأخذ آراء أصحاب الشأن فيما يخصهم أولًا.

رأي الشيعة في نشأة التشيع

لم يكن لهم رأي موحد في هذا، ونستطيع أن نستخلص ثلاثة آراء في نشأة التشيع كلها جاءت في كتبهم المعتمدة، وستعقب كلَّ رأي بالمناقشة والنقد.

الرأي الأول

أن التشيع قديم قبل رسالة النبي ﷺ، وأنه ما من نبي إلا وقد عرض عليه الإيمان بولاية علي. وقد وضع الشيعة أساطير كثيرة لإثبات هذا الشأن، ومن ذلك ما جاء في الكافي عن أبي الحسن قال: "ولاية علي مكتوبة في جميع صحف الأنبياء، ولن يبعث الله رسولًا إلا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله، ووصية علي

=

السنن. وانظر: التشيع بين مفهوم الأئمة والمفهوم الفارسي تأليف محمد البنداري ص١١.

(١) في كتاب أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية عرض ونقد. ج١ ص٥٧ ومابعدها.

عليه السلام"[١].

"وعن أبي جعفر في قول الله ﷻ (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسيَ ولم نجد له عزما)، قال: عهدنا إليه في محمد والأئمة من بعده فترك ولم يكن له عزم[٢]، وإنما سمي أولو العزم أولي العزم لأنه عهد إليهم في محمد والأوصياء من بعده، والمهدي وسيرته، وأجمع عزمهم على أن ذلك كذلك والإقرار به[٣]".

نقد هذا الرأي: هناك من الآراء والمعتقدات ما يكفي في بيان فسادها مجرد عرضها، وهذا الرأي من هذا الصنف إذ أن فساده وبطلانه من الأمور المعلومة بالضرورة.. وكتاب الله بين أيدينا ليس فيه شيء من هذه المزاعم.

لقد كانت دعوة الرسل -عليهم السلام- إلى التوحيد لا إلى ولاية علي والأئمة كما يفترون.

قال الله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون). وقد قال ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله..."[٤].

---

(١) الكليني/ أصول الكافي: ١/ ٤٣٧.

(٢) وهذا تفسير بعيد عن الآية.. بل إلحاد في آيات الله، وقد جاء تفسير الآية عن السلف وغيرهم: "ولقد وصينا آدم وقلنا له: (إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة) فنسي ما عهد إليه في ذلك(أي ترك) ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس الذي حسده. قال قتادة: (ولم نجد له عزما) أي صبراً. تفسير الطبري ١٦/ ٢٢٠-٢٢٢.

(٣) الكليني/ الكافي: ١/ ٤١٦

(٤) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) ١/ ١١، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ١/ ٥١-٥٢، وغيرهما.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال: "إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل..."(١).

فلم يرد في السنة الصحيحة إلا ما ينقض هذا الرأي، كما أن "أئمة السلف متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتين"(٢).

فأين ما يزعمون من أمر ولاية علي؟

وإذا كانت ولاية علي مكتوبة في جميع صحف الأنبياء، فلماذا ينفرد بذكرها الروافض، ولا يعلم بها أحد غيرهم؟ ولماذا لم يعلم بذلك أصحاب الديانات، بل لماذا لم تسجل هذه الولاية في القرآن وهو المهيمن على الكتب كلها، والمحفوظ من رب العزة جل علاه.

إن هي إلا دعوى بلا برهان، والدعاوى لا يعجز عن التنطع بها أحد إذا لم يكن له من دينه أو عقله أو حيائه ما يحميه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذه كتب الأنبياء التي أخرج الناس ما فيها من ذكر النبي ﷺ ليس في شيء منها ذكر عليٍّ... وهؤلاء الذين أسلموا من أهل الكتاب لم يذكر أحد منهم أنه ذكر عليٌ عندهم فكيف يجوز أن يقال: أن كلًا من الأنبياء بعثوا بالإقرار بولاية عليّ، ولم يذكروا ذلك لأممهم، ولا نقله أحد منهم"(٣).

وكيف تتطاول هذه الأساطير على الأنبياء فتزعم أن آدم -عليه السلام- وبقية

---

(١) رواه البخاري ومسلم بألفاظ متقاربة، وما ذكره لفظ مسلم، انظر: صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة ٢/ ١٠٨، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين ١/ ٥٠-٥١.

(٢) شرح الطحاوية: ص ٧٥.

(٣) منهاج السنة: ٤/ ٤٦.

الأنبياء -ما عدا أولي العزم- قد تركوا أمر الله في الولاية، إن هذا إلا بهتان عظيم، فالولاية باطلة والافتراء على الأنبياء باطل.

ومن المفارقات العجيبة: ذلك الغلو الذي لا يقف عند حد في مسألة عصمة الأئمة.. وهذا الجفاء في حق صفوة الخلق، وهم الأنبياء، أليس ذلك دليلًا على أن واضعي هذه الأساطير هم قوم قد فرغت عقولهم ونفوسهم من العلم والإيمان، وشحنت بالحقد والتآمر على المصلحين والأخيار، وأرادوا الدخول على الناس لإفساد أمرهم من طريق التشيع؟، بلى: إنه لا يتجرأ على مثل هذه الافتراءات إلا زنديق، وكأنهم بهذه المقالة يجعلون أتباع الأئمة أفضل من أنبياء الله -ما عدا أولي العزم- لأن الأتباع اتبعوا، والأنبياء تركوا، إنّ هذا لهو الضلال المبين.

وأين عقول هؤلاء القوم الذين يصدقون بهذه الترهات! كيف يؤخذ على من قبلنا من الأنبياء وأممهم الميثاق على طاعة علي في إمامته "هذا -كما يقول شيخ الإسلام- كلام المجانين، فإن أولئك ماتوا قبل أن يخلق الله عليًا فكيف يكون أميرًا عليهم، وغاية ما يمكن أن يكون أميرًا على أهل زمانه، وأما الإمارة على من خلق قبله، وعلى من يخلق بعده، فهذا من كذب من لا يعقل ما يقول، ولا يستحي مما يقول... وهذا من جنس قول ابن عربي الطائي وأمثاله من ملاحدة المتصوفة الذين يقولون: إن الأنبياء كانوا يستفيدون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء والذي وجد بعد محمد بنحو ستمائة سنة، فدعوى هؤلاء في الإمامة من جنس دعوى هؤلاء في الولاية، وكلاهما يبني أمره على الكذب والغلو والشرك والدعاوى الباطلة، ومناقضة الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة"[1].

---

(١) منهاج السنة: ٤/ ٧٨.

فما الغاية والهدف من هذه المقالة التي لا يخفى كذبها على أحد؟

هل الغاية صد الناس عن دين الله؟!.

لأن هذا معلوم بطلانه بداهة، فإذا رفعوا هذه الدعوى ونسبوها للإسلام، واطلع عليها أصحاب تلك الديانات وغيرهم، ورأوا بطلانها في العقل والنقل شَكُّوا في الإسلام نفسه.

ثم ماذا يقول أهل العلم والعقل عن هذا التحليل الغريب لفساد الأشياء أو صلاحها من الجمادات والنباتات والمياه.. إلخ، وأن هذا بسبب موقفها من ولاية علي.

ماذا يقول العالم عن هذا... هل هذا هو الدين الذي يريدون أن يقدموه للناس ؟ أو أن الهدف تشويه الإسلام والصد عنه.

ولا يستغرب هذا الرأي من الشيعة، فهم أهل مبالغات غريبة يكذبون بالحقائق الواضحات، والأخبار المتواترات، ويصدقون بما يشهد العقل والنقل بكذبه.. وإذا كانوا يقولون بهذا الرأي فيمن يدعون إمامته، فإنهم أيضًا يقولون في أعداء الأئمة وأعداء الشيعة -في اعتقادهم- ما يقارب هذا الرأي فقد قالوا في الخليفتين الراشدين العظيمين: أبي بكر وعمر، قالوا -مثلًا-: "وقع في الخبر أن القائم رضي الله عنه إذا ظهر يحييهم ويلزمهم بكل ذنب وفساد وقع في الدنيا حتى قتل قابيل وهابيل، ورمي أخوة يوسف له في الجب، ورمي إبراهيم في النار وسايرها، وكذا روي عن الصادق: "أنه ما أزيل حجر من موضعه، ولا أريقت محجمة دم إلا وهو في أعناقهما- يعني الخليفة الأول والثاني-[(١)].

---

(١) البحراني/ درة نجفية: ص ٣٧، وانظر رجال الكشي: ص ٢٠٥-٢٠٦، وانظر الأنوار النعمانية: ١/ ٨٢.

الرأي الثاني: (من آراء الشيعة)

ويزعم بعض الروافض في القديم والحديث أن رسول الله ﷺ هو الذي وضع بذرة التشيع، وأن الشيعة ظهرت في عصره، وأن هناك بعض الصحابة الذين يتشيعون لعلي ويوالونه في زمنه ﷺ.

يقول القمي: "فأول الفرق الشيعة، وهي فرقة علي بن أبي طالب المسمون شيعة علي في زمان النبي ﷺ وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته، منهم المقداد بن الأسود الكندي، وسلمان الفارسي، وأبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، وعمار بن ياسر المذحجي.. وهم أول من سموا باسم التشيع من هذه الأمة[١]. ويشاركه في هذا الرأي النوبختي، والرازي.

مناقشة هذا الرأي

أولًا: يلاحظ أن من أول من قال بهذا الرأي القمي في كتابه"المقالات والفرق" والنوبختي في كتابه"فرق الشيعة". وقد يكون من أهم الأسباب لنشأة هذا الرأي هو أن بعض علماء المسلمين أرجع التشيع في نشأته وجذوره إلى أصول أجنبية، وذلك لوجود ظواهر واضحة تثبت ذلك سيأتي الحديث عنها. فبسبب ذلك قام الشيعة بمحاولة إعطاء التشيع صفة الشرعية، والرد على دعوى خصومهم برد التشيع إلى أصل أجنبي، فادعوا هذه الدعوى، وحاولوا تأييدها وإثباتها بكل وسيلة، ووضعوا روايات كثيرة في ذلك[٢]. ونسبوها إلى رسول الله

---

(١) المقالات والفرق: ص ١٥.

(٢) في كتب الموضوعات عند أهل السنة روايات كثيرة من وضع الروافض في هذا الباب، انظر مثلًا: الموضوعات لابن الجوزي: ١/ ٣٣٨وما بعدها، والشوكاني/ الفوائد المجموعة ص٣٤٢ وما بعدها، والكتاني/ تنزيه الشريعة ١/ ٣٥١ وما بعدها، ولهم وسائل الطرق ومسالك الاستدلال والاحتجاج على أهل السنة كتب عنها د. ناصر
=

ﷺ وزعموا أنها رويت من طرق أهل السنة، وهي روايات لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة[١].

آراء غير الشيعة في نشأة التشيع

القول الأول

أن التشيع ظهر بعد وفاة الرسول ﷺ حيث وُجِدَ من يرى أحقية علي رضي الله عنه بالإمامة. وهذا الرأي قال به طائفة من القدامى والمعاصرين، منهم العلامة بن خلدون، وأحمد أمين، وبعض المستشرقين.

يقول ابن خلدون: "اعلم أن مبدأ هذه الدولة -يعني دولة الشيعة- أن أهل البيت لما توفي رسول الله ﷺ كانوا يرون أنهم أحق بالأمر، وأن الخلافة لرجالهم دون من سواهم"[٢].

مناقشة هذا الرأي

ولو كان هذا الرأي القائل بأحقية القرابة بالإمامة يمثل البذرة والنواة للتشيع لكان له ظهور ووجود زمن أبي بكر وعمر، ولكنه رأى إن ثبت فهو كسائر الآراء التي أثيرت في اجتماع السقيفة، ما إن وُجِدَ حتى اختفى بعد أن تمت البيعة.. واجتمعت الكلمة.. واتفق الرأي من الجميع.

القول الثاني

أن التشيع لعلي بدأ بمقتل عثمان رضي الله عنه، يقول ابن حزم: "ثم ولي عثمان،

=

القفارى في رسالته: فكرة التقريب ص ٥١ وما بعدها.

(١) ابن خلدون/ المقدمة ٢/ ٥٢٧ تحقيق د. علي عبد الواحد وافي.

(٢) العبر: ٣/ ١٧٠-١٧١.

وبقي اثني عشر عامًا، وبموته حصل الاختلاف، وابتدأ أمر الروافض[١]. والذي بدأ غرس بذرة التشيع هو عبد الله بن سبأ اليهودي[٢]، والذي بدأ حركته في أواخر عهد عثمان. وأكد طائفة من الباحثين القدماء والمعاصرين على أن ابن سبأ هو أساس المذهب الشيعي والحجر الأول في بنائه[٣]. وقد تواتر ذكره في كتب السنة والشيعة على حد سواء.

ونبتت نابتة من شيعة العصر الحاضر تحاول أن تنكر وجوده بجرة قلم دون

---

(١) الفصل: ٢/ ٨. وانظر الفرق المفترقة بين أهل الزيغ والزندقة ص ٦ للشيخ عثمان بن عبد الله الحنفي.

(٢) عبد الله بن سبأ رأس الطائفة السبئية وكانت تقول بألوهية علي، كما تقول برجعته وتطعن في الصحابة... أصله من اليمن وكان يهوديًا يتظاهر بالإسلام، رحل لنشر فتنته إلى الحجاز فالبصرة فالكوفة، ودخل دمشق في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، فأخرجه أهلها، فانصرف إلى مصر وجهر ببدعته. قال ابن حجر: عبد الله ابن سبأ من غلاة الزنادقة ضال مضل، أحسب أن علياً حرَّقه بالنار.أهـ. وقد تكاثر ذكر أخبار فتنته وشذوذه وسعيه في التآمر هو وطائفته في كتب الفرق والرجال والتاريخ وغيرها من مصادر السنة والشيعة جميعًا.

(٣) انظر مثلًا ابن تيمية الذي يعتبر ابن سبأ أول من أحدث القول بالعصمة لعلي، وبالنص عليه في الخلافة وأنه أراد إفساد دين الإسلام، كما أفسد بولس دين النصارى: مجموع الفتاوى ٤/ ٥١٨، وكذلك ابن المرتضى في المنية والأمل ص١٢٥، ومن المعاصرين أبو زهرة الذي ذكر أن عبد الله بن سبأ هو الطاغوت الأكبر الذي كان على رأس الطوائف الناقمين على الإسلام الذين يكيدون لأهله، وأنه قال برجعة علي، وأنه وصِي محمد، ودعا إلى ذلك. وذكر أبو زهرة أن فتنة ابن سبأ وزمرته كانت من أعظم الفتن التي نبت في ظلها المذهب الشيعي: انظر تاريخ المذاهب الإسلامية ١/ ٣١-٣٣، وسعيد الأفغاني الذي يرى أن ابن سبأ أحد أبطال جمعية سرية (تلمودية) غايتها تقويض الدولة الإسلامية، وأنها تعمل لحساب دولة الروم: انظر عائشة والسياسة ص٦٠، والقصيمي في الصراع١/ ٤١.

مبرر واقعي، أو دليل قاطع[١]، بل ادعى البعض منهم أن عبد الله بن سبأ هو عمار بن ياسر[٢]. وهذه الدعوى أو المحاولة هي حيلة لتبرئة يهود من التآمر على المسلمين.. كما هي محاولة أو حيلة لإضفاء صفة الشرعية على الرفض.. والرد على دعوى خصومهم برد أصل التشيع إلى أصل يهودي.

وقد اتفق القدماء من أهل السنة والشيعة على السواء على اعتبار ابن سبأ حقيقة واقعية، وشخصية تاريخية فكيف ينفي ما أجمع عليه الفريقان. أما القول بأن ابن سبأ هو عمار بن ياسر فهو قول يرده العقل والنقل والتاريخ، وكيف تلصق تلك العقائد التي قال بها ابن سبأ بعمار بن ياسر، وهل هذا إلا جزء من التجني على الصحابة والطعن فيهم.

ولست بحاجة إلى دراسة هذه المسألة فقد خرجت دراسات موضوعية ومستوفية لهذه القضية[٣]، فلا حاجة للوقوف عندها طويلًا.

القول الثالث

ويقول بأن منشأ التشيع كان سنة ٣٧هـ

ويبدو أن هذا القول يربط نشأة التشيع بموقعة صفين، حيث وقعت سنة ٣٧هـ بين الإمام علي ومعاوية رضي الله عنهما وما صاحبها من أحداث، وما أعقبها من

(١) وهو مرتضى العسكري في كتابه: "عبد الله بن سبأ" ص ٣٥ وما بعدها.

(٢) وهو: علي الوردي في كتابه(وعاظ السلاطين) ص ٢٧٤، وقلده في هذا الشيعي الآخر: مصطفى الشيبي في كتابه ٠ الصلة بين التصوف والتشيع) ص ٤٠-٤١.

(٣) من أبرز هذه الدراسات وأهمها: رسالة "عبد الله بن سبأ وأثره في إحداث الفتنة" للدكتور سلمان العودة، وقد توفرت لديه أدلة قاطعة على وجود ابن سبأ وسعيه في الفتنة. وهي دراسة جادة ومستوفية، وقد ناقش المشككين والمنكرين والقائلين أن ابن سبأ هو عمار بن ياسر، وأثبت زيف هذه الأقوال بالحجة والبرهان.

آثار، ولكن هذا الرأي لا يعني بداية الأصول الشيعية حيث أننا لا نجد في أحداث هذه السنة فيما نقله المؤرخون من نادى بالوصية، أو قال بالرجعة، أو دعا إلى أصل من أصول الشيعة المعروفة.

القول الرابع

بأن التشيع ولد إثر مقتل الحسين

يقول شتروتمان[1]: "إن دم الحسين يعتبر البذرة الأولى للتشيع كعقيدة"[2].

الرأي المختار: والذي أرى: أن الشيعة كفكر وعقيدة لم تولد فجأة، بل إنها أخذت طورًا زمنيًا، ومرت بمراحل.. ولكن طلائع العقيدة الشيعية وأصل أصولها ظهرت على يد السبئية باعتراف كتب الشيعة التي قالت بأن ابن سبأ أول من شهد بالقول بفرض إمامة علي، وأن عليًا وصِي محمد -كما مر- وهذه عقيدة النص على عليّ بالإمامة، وهي أساس التشيع كما يراه شيوخ الشيعة كما أسلفنا ذكره في تعريف الشيعة. وشهدت كتب الشيعة بأن ابن سبأ وجماعته هم أول من أظهر الطعن في أبي بكر وعمر وعثمان أصهار رسول الله ﷺ، وأرحامه وخلفاؤه وأقرب الناس إليه رضي الله عنهم، والطعن في الصحابة الآخرين، وهذه عقيدة الشيعة في الصحابة كما هي مسجلة في كتبهم المعتمدة. كما أن ابن سبأ قال برجعة علي، والرجعة من أصول الشيعة.

وهذه أهم الأصول التي تدين بها الشيعة، وقد وُجِدَت إِثر مقتل عثمان رضي الله عنه، وفي عهد علي رضي الله عنه.

---

(١) رودلف شتروتمان من المستشرقين المتخصصين في الفرق ومذاهبها، وله عنها مباحث، من آثاره: الزيدية، وأربعة كتب إسماعيلية. وانظر: نجيب العقيقي/ المستشرقون: ٢/ ٧٨٨.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ١٤/ ٥٩.

أصل التشيع، أو أثر الفلسفات القديمة في المذهب الشيعي

اختلفت أنظار العلماء والباحثين في مرجع الأصول العقدية للتشيع، فمن قائل بأنها ترجع لأصل يهودي، ومن قائل بأنها ترجع لأصل فارسي، ومن قائل بأن المذهب الشيعي كان مباءة للعقائد الأسيوية كالبوذية[1] وغيرها.

الرأي المختار في أصل التشيع: والذي أرى أن التشيع المجرد من دعوى النص والوصية ليس هو وليد مؤثرات أجنبية، بل إن التشيع لآل البيت وحبهم أمر طبيعي، وهو حب لا يفرق بين الآل، ولا يغلو فيهم، ولا ينتقص أحدًا من الصحابة، كما تفعل الفرق المنتسبة للتشيع، وقد نما الحب وزاد للآل بعدما جرى عليهم من المحن والآلام بدءًا من مقتل علي، ثم الحسين...إلخ. هذه الأحداث فجرت عواطف المسلمين، فدخل الحاقدون من هذا الباب، ذلك أن آراء ابن سبأ لم تجد الجو الملائم لتنمو وتنتشر إلا بعد تلك الأحداث.. لكن التشيع بمعنى عقيدة النص على علي، والرجعة والبداء والغيبة وعصمة الأنبياء..إلخ، فلا شك أنها عقائد طارئة على الأمة دخيلة على المسلمين، ترجع أصولها لعناصر مختلفة، ذلك أنه قد ركب مطية التشيع كل من أراد الكيد للإسلام وأهله، وكل من احتال ليعيش في ظل عقيدته السابقة باسم الإسلام من يهودي ونصراني ومجوسي وغيرهم. فدخل في التشيع كثير من الأفكار الأجنبية والدخيلة، كما سيتبين من الدراسة الموسعة لأصولهم، ولهذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن المنتسبين للتشيع قد أخذوا من مذاهب الفرس والروم

---

(١) البوذية: هم اتباع بوذا، ولها انتشار بين عدد من الشعوب الأسيوية وتتباين عقائد الأتباع حول هذه النحلة...وانظر عن البوذية: محمد سيد كيلاني / ذيل الملل والنحل ص١٣، ٢٦، ٣١، محمد أبو زهرة / الديانات القديمة: ص ٥٣، سليمان مظهر/ قصة الديانات ص ٧٣.

واليونان والنصارى واليهود وغيرهم أمورًا مزجوها بالتشيع، ويقول: وهذا تصديق لما أخبر به النبي ﷺ، وساق بعض الأحاديث الواردة في أن هذه الأمة ستبع سنن من كان قبلها...، وقال بأن هذا بعينه صار في المنتسبين للتشيع[1].

الخاتمة ونتائج البحث: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من أكمل الله به الرسالات.. وبعد: فإن الذي يبرز من خلال البحث عدة نقاط نجملها فيما يلي:

١. البحث يكشف عن حقيقة وجود عبد الله بن سبأ وجودًا تؤكده الروايات القديمة وتفيض به كتب المقالات والفرق، والغالبية من كتب التراث وأخبار الشيعة المتقدمين، وسار على نهج هؤلاء المحققون من الباحثين المحدثين.

٢. يبدو أن أول من شكك في وجود ابن سبأ بعض المستشرقين، ثم دعم هذا الغالبية من الشيعة المحدثين، وأنكر بعضهم وجوده، وبرز مع هذه المجموعة من أولع بآراء المستشرقين، ومن تأثر بكتابات الشيعة المحدثين، لكن هؤلاء وأولئك ليس لهم من دعائم الشك إلا الشك ذاته، وقد سبق البيان..

٣. التوصل إلى حقيقة وجود ابن سبأ يكشف لنا عن الغموض المكتنف لبعض روايات الفتنة، ويجلّي عاملًا خطيرًا من عوامل الفتنة المنتهية بقتل الخليفة عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٤. كما يكشف البحث أيضًا أثر ابن سبأ وأعوانه في الفتنة في خلافة علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مبرزًا الدور الذي قاموا به في وقعة الجمل، ويستمر دورهم في الإفساد حتى بعد أن استقر الأمر لعلي.

---

(١) منهاج السنة: ٤/ ١٤٧.

٥. ونقف في الأخير على حقيقة اتباع ابن سبأ، فهو ليس وحده بل هناك طائفة تقول بقوله وتعتقد ما يعتقده، وقد نسبت إليه وأطلق عليها السبئية.

٦. البحث وإن كان ينتهي دون أن يحدد نهاية ابن سبأ، بعد أن يثبت وجوده بعد استشهاد علي، إذ أنه قال لمن جاء ينعى إليه قتل علي: لو جئتمونا بدماغه في سبعين صرة ما صدقنا أنه يموت، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا !!، نقول مع هذا الغموض في تحديد النهاية[١] الذي يقابله غموض في المبدأ والنشأة، فإن ذلك لا ينتصب دليلًا على الإنكار أو حتى عاملًا من عوامل التشكيك، وقد سبق توضيح ذلك.

ومع ذلك فإنني أخلص من هذا البحث مؤكدًا النتائج الآتية

أولًا: أن عبد الله بن سبأ هو أصل التشيع، والبراهين على ذلك ما يلي:

أ. عقائد الشيعة لا تختلف كثيرًا عن الأفكار والمعتقدات التي جاء بها عبد الله بن سبأ، فمثلًا إذا قال الشيعة في القرآن -كما جاء في الكافي- معزوًا إلى أبي عبد الله (جعفر الصادق)[٢] أنه قال: "وإن عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام، قال أبو بصير -راوي الخبر- قلت: وما مصحف فاطمة؟ قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد[٣]".

---

(١) ترجم الزركلي لابن سبأ في الأعلام، فلم يحدد مولده، أما وفاته فقال: نحو سنة ٤٠هـ ج٤/ ٢٢٠.

(٢) هذه الرواية كغيرها من الروايات الكثيرة التي ينسبها الشيعة كذبًا وزورًا إلى جعفر الصادق عليه رحمة الله، ذلك الرجل الذي أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك، وقال عنه أبو حنيفة ما رأيت أفقه منه ولقد دخلني له من الهيبة ما لم يدخلني للمنصور، كما قيل عنه أنه فقيه إمام، توفي سنة ١٤٨هـ. وانظر الكاشف للذهبي ١/ ١٨٦، تقريب التهذيب ١/ ١٣٢، معجم المؤلفين ٣/ ١٤٥.

(٣) الكليني: الكافي ١/ ٢٣٩.

إذا قال الشيعة ذلك وجدنا أصل معتقدهم هذا قد جاء به عبد الله بن سبأ حينما قال: إن القرآن جزء من تسعة أجزاء وعلمه عند علي..[١].

وإذا كان من عقائد الشيعة المغالاة في الأئمة -وخاصة علي- حتى عقد فخر الشيعة: الشيخ المفيد المتوفى سنة٤١٣ هـ في إحدى كتبه بابًا سماه: "القول في علم الأئمة (ع)[٢] بالضمائر والكائنات، وإطلاق القول عليهم بعلم الغيب، وكون ذلك لهم في الصفات"[٣].

وقبله قال الكليني (٣٢٨هـ): "إن الإمام إذا شاء أن يعلم علم"[٤]. وعقد بعد ذلك بابًا "إن الأئمة عليهم السلام يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلا باختيار منهم"[٥].

ومن الشيعة المحدثين يقول الخميني:" إن للإمام مقامًا محمودًا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون"[٦]. ويقول أيضًا: "وإن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل"[٧].

إذًا اعتقد المتقدمون والمتأخرون من الشيعة بهذه العقيدة، التي تعطي الأئمة صفات الألوهية فإننا نجد أن ابن سبأ هو الذي وضع لهم أساس هذه العقيدة -

(١) الجوزجاني: الضعفاء ٣/ ب.
(٢) (ع): أى عليهم السلام.
(٣) أوائل المقالات ومنشورات المكتبة الحيدرية/ النجف ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ص ٨٠.
(٤) الأصول من الكافي للكليني ١/ ٢٥٨.
(٥) المصدر نفسه ١/ ٢٥٨.
(٦) الحكومة الإسلامية للخميني ص ٥٢.
(٧) الحكومة الإسلامية للخوميني ص ٥٢.

كما تقدم بيانه- حتى قال ابن قتيبة: عبد الله بن سبأ أول من كفر من الرافضة وقال على رب العالمين[١].

وإذا كان من بين العقائد التي جاء بها ابن سبأ القول بالوصية والرجعة -كما تقدم- وجدنا الشيعة يدينون بها، ففي الأصول: "..فكان علي عليه السلام، وكان حقه الوصية التي جعلت له، والاسم الأكبر، وميراث العلم، وآثار علم النبوة.."[٢].

ويقول الشيعة عن الرجعة: "واتفقت الإمامية على وجوب رجعة كثير من الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة، وإن كان بينهم في معنى الرجعة خلاف.."[٣]

وإذا كان عبد الله بن سبأ أول من أظهر الطعن في أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة، وتبرأ منهم[٤] وجدنا كتب الشيعة تمتلئ بسب الصحابة والبراءة من أعمالهم حتى قال شيخهم المفيد: "واتفقت الإمامية والزيدية والخوارج على أن الناكثين والقاسطين من أهل البصرة والشام أجمعين كفار ضُلاَّلٌ ملعونون بحربهم أمير المؤمنين (ع) وأنهم بذلك في النار مخلدون" !![٥].

ويقف الكليني عند الآية (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرًا لن تقبل توبتهم)[٦] ليقول: إنها نزلت في فلان وفلان وفلان آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في أول الأمر وكفروا حيث عرضت عليهم

---

(١) المعارف ص ٢٦٧.

(٢) الكليني: الأصول من الكافي ١/ ٢٩٤.

(٣) الشيخ المفيد: أوائل المقالات ص٥١.

(٤) القيمي: المقالات والفرق ص٢٠، النوبختي: فرق الشيعة ص١٩.

(٥) أوائل المقالات: ص ٤٨.

(٦) الملاحظ أن هذه الآية التي ذكرها الكليني جزء من الآية ١٣٧ من سورة النساء، وجزء من الآية ٩٠ من سورة آل عمران.

الولاية[١].

وهو يقصد في فلان وفلان وفلان: أبو بكر وعمر وعثمان، كما أبان عن ذلك شارح الكافي[٢].

والقول بالبداء من عقائد السبئية، كما أشار إلى ذلك الملطي وغيره[٣] والشيعة يقولون بالبداء، حتى عقد الكليني في كتاب التوحيد "باب البداء" وساق فيه من الأخبار: "ما تنبأ نبي قط حتى يقر لله خمس خصال: بالبدأ والمشيئة والسجود والعبودية والطاعة"[٤].

ونقل أيضًا: "لو يعلم الناس ما في القول بالبدأ من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه"[٥].

ولعل في ذلك كفاية لبيان الحقيقة، وإلا فقد يجد الدارس لأفكار عبد الله بن سبأ عند المقارنة بينها وبين عقائد الشيعة أشياء غير هذه..

ب. ولا يستطيع الشيعة البراءة من ابن سبأ والسبئية، وذلك لأن من بين السبئية أفراد، بل علماء من الشيعة، فجابر الجعفي (أحد السبئية) يقول عنه الذهبي:"من أكابر علماء الشيعة"[٦] كما أشار إلى رافضيته ابن حجر العسقلاني[٧].

---

(١) الأصول من الكافي: ١/ ٣٢٠.

(٢) الصافي شرح الكافي: ط. إيران(بالفارسية) نقلًا عن إحسان إلهي ظهير: الشيعة والسنة ص٤٢.

(٣) الملطي: التنبيه والرد ص ١٩، وانظر: إحسان إلهي ظهير: الشيعة والسنة ص٦٣.

(٤) الأصول من الكافي: ١/ ١٤٨.

(٥) المصدر نفسه: ١/ ١٤٨. وانظر ابن حجر: لسان الميزان ٦/ ٧٦.

(٦) الكاشف: ١/ ١٧٨.

(٧) تهذيب التهذيب: ٢/ ٤٩، والتقريب: ١/ ١٢٣.

والمغيرة بن سعيد قال عنه ابن حبان: شيخ من حمقى الروافض[١] وفي لسان الميزان ما يؤكد ذلك. أما الكلبي (وهو واحد من السبئية أيضًا)فالذي حفظ عنه علماء الجرح والتعديل هو إفراطه في التشيع[٢].

جـ. وفوق هذا وذاك فهناك نصوص صريحة تدل -من قريب أو بعيد- على أن عبد الله بن سبأ هو أصل الرافضة، فابن قتيبة -كما مر- يقول: وكان ابن سبأ أول من كفر من الرافضة، ويقول الأسفراييني عن ابن سبأ: كان من غلاة الرافضة، ونقل مثل ذلك الذهبي[٣].

ويكشف ابن تيمية الحقيقة أكثر فيقول: ".. وأول من ابتدع الرفض كان منافقًا.."، وينقل في موضع آخر قول أهل العلم: "إن مبدأ الرفض إنما كان من الزنديق عبد الله بن سبأ"[٤]. ويقول في"منهاج السنة": "..إن أول من ابتدع الرفض والقول بالنص على علي وعصمته كان منافقًا زنديقًا أراد إفساد دين الإسلام..".

ولم تكن هذه التصريحات قصرًا على أهل السنة وحدهم، بل ذكرها بعض علماء الشيعة، فالقمي -مثلًا- أثناء حديثه عن ابن سبأ وما جاء به يقول: "..فمن هنا قال من خالف الشيعة إن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية[٥] دون أن يعلق على ذلك شيئًا في موضعه ومثل ذلك يصنع النوبختي في فرقه[٦].

---

(١) المجروحين ٣/ ٧.

(٢) تهذيب التهذيب: ٩/ ١٨٠.

(٣) التبصير في الدين: ص ١٠٨. والمغني في الضعفاء ١/ ٣٣٩.

(٤) الفتاوى ٣/ ٣٥٣، ٢٨/ ٤٨٣. ومنهاج السنة ٣/ ٢٦١.

(٥) المقالات والفرق ص ٢٠.

(٦) فرق الشيعة: ص ٢٠.

وأخيرًا يقول المستشرق الألماني "فلهوزن": "إن مذهب الشيعة الذي ينسب إلى عبد الله بن سبأ على أنه مؤسسه إنما يرجع إلى اليهود أقرب من أن يرجع إلى الإيرانيين.."[١].

ثانيًا: من خلال الموازنة والتحقيق يتبين أن السبئية أصل تفرعت عنه فرق أخرى من فرق الضلال التي نبتت في مجتمع المسلمين، كما أن ابن سبأ لم ينته شأنه بموته وإنما استمرت آثاره -في مجتمع المسلمين- بفعل من جاء بعده متأثرًا بأفكاره، ومتشبعًا بمعتقداته.

فرق الشيعة[٢]

حفلت كتب المقالات والفرق بذكر فرق الشيعة وطوائفهم...والملفت للنظر هو كثرة هذه الفرق، وتعددها بدرجة كبيرة حتى تكاد تنفرد الشيعة بهذه السمة أو قل بهذا البلاء..، فبعد وفاة كل إمام من الأئمة عند الشيعة تظهر فرق جديدة، وكل طائفة تذهب في تعيين الإمام مذهبًا خاصًا بها.. وتنفرد ببعض العقائد والآراء عن الطوائف الأخرى، وتدعي أنها هي الطائفة المحقة.

ولكن من الملاحظ -كما سيأتي- في عرض آراء وعقائد الإثنى عشرية قد استوعبت جل الآراء والعقائد التي قالت بها الفرق الشيعية الأخرى، وأنها كانت بمثابة النهر الذي انسكبت فيه كل الجداول والروافد الشيعية المختلفة.

فهذه الفرق لم تفن -كما يقال- بل إن أكثرها باقٍ، وهو يطل علينا من خلال الفكر الإثنى عشري، وقد انحصرت الفرق الشيعية المعاصرة بثلاث فرق هي:

---

(١) الشيعة والخوارج: ص ١٧٠، ١٧١.

(٢) أصول مذهب الشيعة الإمامية: عرض ونقد د. ناصر القفاري ص ٩٠ ومابعدها.

١. الاثنا عشرية، ٢. الإسماعيلية[١]، ٣. الزيدية[٢].

---

(١) الإسماعيلية: وهم الذين قالوا: الإمام بعد جعفر إسماعيل بن جعفر، ثم قالوا بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر، وأنكروا إمامة سائر ولد جعفر، ومن الإسماعيلية انبثق القرامطة والحشاشون والفاطميون والدروز وغيرهم، وللإسماعيلية فرق متعددة وألقاب كثيرة تختلف باختلاف البلدان، إذ لهم كما يقول الشهرستاني دعوة في كل زمان، ومقالة جديدة بكل لسان، وأما مذهبهم فهو كما يقول أبو حامد الغزالي وغيره: "إنه مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض"، أو كما يقول ابن الجوزي: "فمحصول قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث، ولكنهم لا يظهرون هذا في أول أمرهم. ولهم مراتب في الدعوة، وحقيقة المذهب لا تعطى إلا لمن وصل إلى الدرجة الأخيرة، وقد أطلع على أحوالهم وكشف أستارهم جملة من أهل العلم، كالبغدادي الذي أطلع على كتاب لهم يسمى: "السياسة والبلاغ الأكيد والناموس الأكبر"، ورأى من خلاله أنهم دهرية زنادقة يتسترون بالتشيع، والحمادي اليماني الذي اندس بينهم وعرف حالهم وبين ذلك في كتابه "كشف أسرار الباطنية"، وابن النديم الذي اطلع على "البلاغات السبعة" لهم، وقرأ "البلاغ السابع"، ورأى فيه أمرًا عظيمًا من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها... وغيرهم، ولهم نشاطهم اليوم، كما لهم كتبهم السرية. قال أحدهم: وإن لنا كتبًا لا يقف على قراءتها غيرنا ولا يطلع على حقائقها سوانا"(مصطفى غالب/ الحركات الباطنية في الإسلام ص٦٧، وانظر أبو حاتم الرازي الإسماعيلي/ الزينة: ص٢٨٧ ضمن كتاب "الغلو والفرق الغالية"، أبو حامد الغزالي/ فضائح الباطنية: ص٣٧ وما بعدها، الملل والنحل: ١/ ١٦٧، ١٩١، والبغدادي/ الفرق بين الفرق: ص٢٩٤، ٦٢١، ابن النديم/ الفهرست: ص٢٦٧، ٢٦٨، الملطي/ التنبيه والرد: ص٢١٨، والمقدسي/ البدء والتاريخ: ٥/ ١٢٤، الإسفراييني / التبصير في الدين، ابن الجوزي/ تلبيس إبليس: ص٩٩، وانظر الإسماعيلية: إحسان إلهي ظهير).

(٢) الزيدية: وهم اتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(الملل والنحل: ١/ ١٥٤، مقدمة البحر الزخار: ص٤٠)، وسموا بالزيدية نسبة إليه(يحي بن حمزة/ الرسالة الوازعة ص٢٨، والسمعاني/ الأنساب: ٦/ ٣٤٠)، وقد افترقوا عن الإمامية حينما سئل زيد عن أبي بكر وعمر فترضى عنهما فرفضه قوم فسموا رافضة.. وسمي =

وطائفة الإثنى عشرية هي أكبر هذه الطوائف اليوم، كما كانت تمثل أكثرية الشيعة وجمهورها في بعض فترات التاريخ.

ألقاب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية

من الألقاب التي يطلقها بعض كتب الفرق والمقالات وغيرهم على الاثنى عشرية ما يلي:

١. الشيعة

لقب الشيعة في الأصل يطلق على فرق الشيعة كلها، ولكن هذا المصطلح اليوم إذا أطلق -في نظر جمع من الشيعة وغيرهم- لا ينصرف إلا إلى طائفة الاثنى عشرية.

٢. الإمامية

قال ابن خلدون: "وأما الاثنا عشرية فربما خصوا باسم الإمامية عند

=

من لم يرفضه من الشيعة زيدية لاتباعهم له وذلك في آخر خلافة هشام بن عبد الملك سنة إحدى وعشرين أو اثنين وعشرين(منهاج السنة: ١/ ٢١، الرسالة الوازعة: ص٨٧-٨٨). والزيدية يوافقون المعتزلة في العقائد(انظر المقبلي/ العلم الشامخ: ص٣١٩، الملل والنحل: ١/ ١٦٢، والرازي/ المحصل: ص٢٤٧). والزيدية فرق: منهم من لم يحمل من الانتساب إلى زيد إلا الاسم فهم روافض في الحقيقة يقولون إن الأمة ضلت وكفرت بصرفها الأمر إلى غير علي، وهؤلاء الجارودية أتباع أبي الجارود، ومنهم من يقترب من أهل السنة كثيرًا وهم أصحاب الحسن بن صالح حي الفقيه القائلون بأن الإمامة في ولد علي رضي الله عنه(ويقول ابن حزم: إن الثابت عن الحسن ابن صالح هو أن الإمامة في جميع قريش) ويتولون جميع الصحابة إلا أنهم يفضلون عليًا على جميعهم.. (انظر ابن حزم/ الفصل: ٢/ ٢٦٦، وانظر في اعتدال الزيدية الحقة في مسألة الصحابة: ابن الوزير/ الروض الباسم ص٤٩-٥٠، المقبلي/ العلم الشامخ: ص٣٢٦)، وانظر بحثي عن الزيدية في فكرة التقريب ص١٤٦ وما بعدها (سلمان العودة).

المتأخرين منهم"[١].

ويقول شيخ الشيعة في زمنه "المفيد": "الإمامية هم القائلون بوجوب الإمامة، والعصمة، ووجوب النص"[٢].

والشهرستاني يقول: "الإمامية هم القائلون بإمامة علي رضي الله عنه نصًا ظاهرًا، وتعيينًا صادقًا من غير تعريض بالوصف، بل إشارة إليه بالعين[٣].

ومثله الأشعري حيث يقول: ".. وهم يدعون الإمامية لقولهم بالنص على إمامة علي بن أبي طالب"[٤]

٣. الاثنا عشرية

هذا المصطلح لا نجده في كتب الفرق والمقالات المتقدمة، ولعل أول من ذكره المسعودي[٥] (ت ٣٤٩هـ) من الشيعة. أما من غير الشيعة فلعله عبد القادر البغدادي (ت٤٢٩هـ) حيث ذكر أنهم سموا بالاثنى عشرية لدعواهم أن الإمام المنتظر هو الثاني عشر من نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٦].

٤. القطعية

وهو من ألقاب الاثنى عشرية عند طائفة من أصحاب الفرق كالأشعري والشهرستاني والإسفراييني وغيرهم[٧]. وهم يسمون القطعية لأنهم قطعوا على

(١) تاريخ ابن خلدون: ١/ ٢٠١.

(٢) العيون والمحاسن: ٢/ ٩١.

(٣) الملل والنحل: ١/ ١٦٢.

(٤) مقالات الإسلاميين: ١/ ٨٦.

(٥) التنبيه والإشراف: ص١٩٨.

(٦) الفرق بين الفرق: ص٦٤.

(٧) مقالات الإسلاميين: ١/ ٩٠-٩١، الملل والنحل: ١/ ١٦٩، التبصير في الدين: ص٣٣، الحور العين: ص١٦٦.

موت موسى بن جعفر الصادق[١]. ومنهم من يعتبر القطعية فرقة من فرق الإمامية وليس من ألقاب الاثنى عشرية[٢].

٥. أصحاب الانتظار

لَقَّبَ الرازي الاثنى عشرية بأصحاب الانتظار، وذلك لأنهم يقولون بأن الإمام بعد الحسن العسكري ولده محمد بن الحسن العسكري، وهو غائب وسيحضر.. ويقول: وهذا المذهب هو الذي عليه إمامية زماننا[٣].والانتظار للإمام مما يشترك في القول به جمع من فرق الشيعة على اختلاف بينهم في تعيينه، ولا يختص به طائفة الاثنى عشرية.

٦. الرافضة

ذهب جمع من العلماء إلى إطلاق اسم الرافضة على الاثنى عشرية كالأشعري في المقالات، وابن حزم في الفصل[٤].

يقول أبو الحسن الأشعري: "وإنما سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر

---

(١) انظر: القمي/ المقالات والفرق: ص٨٩، الناشئ الأكبر، مسائل الإمامة ص٤٧، الأشعري/ مقالات الإسلاميين: ١/ ٩٠، عبد الجبار الهمداني/ المغني ج٢٠، القسم الثاني ص ١٧٦، المسعودي/ مروج الذهب: ٣/ ٢٢١.

(٢) مختصر التحفة الاثنى عشرية: ص١٩-٢٠. ولا شك أن القطعية هم أسلاف الاثنى عشرية، وسموا بهذا بعد القطع بإمامة موسى، وافترقوا بذلك عن الإسماعيلية.. ولكن إذا لاحظنا أن الشيعة تختلف بعد موت كل إمام، فإن فرقة القطعية قد حل بها هذا الانقسام.. وانفصل منها فرق لم تعتقد بالاثنى عشر. أي أنه قد صار من فرق القطعية من لم يكن من الاثنى عشرية، فالقطعية أعم من الاثنى عشرية.

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: ص٨٤-٨٥.

(٤) مقالات الإسلاميين: ١/ ٨٨، الفصل: ٤/ ١٥٧-١٥٨.

وعمر"[١].

هذا وهناك أقوال أخرى في سبب تسميتهم بالرافضة، على أن هناك من أصحاب الفرق من أطلق اسم الرافضة على عموم فرق الشيعة.

٧. الجعفرية

وتسمى الاثنا عشرية بالجعفرية نسبة إلى جعفر الصادق إمامهم السادس – كما يزعمون– وهو من باب التسمية للعام باسم الخاص.

اعتقاد الشيعة في مصادر الإسلام[٢]

القرآن – السنة – الإجماع.

أولًا: اعتقادهم في القرآن الكريم:

وفيه ثلاث مباحث.

المبحث الأول : اعتقادهم في حجية القرآن

سنقسم هذا المبحث إلى مسائل ثلاث: الأولى قولهم: إن القرآن ليس

---

(١) مقالات الإسلاميين: ١/ ٨٩، وانظر أيضًا في سبب التسمية بالرافضة: الشهلاستاني/ الملل والنحل: ١/ ١٥٥، والرازي/ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص٧٧، والإسفراييني/ التبصير في الدين: ص٣٤، الجيلاني/ الغنية: ١/ ٧٦، ابن المرتضى/ المنية والأمل: ص٢١. وقيل سموا رافضة..لتركهم نصرة النفس الزكية(ابن المرتضى/ المنية والأمل: ص٢١، وانظر هامش رقم ١ ص١١١، وقيل لتركهم محبة الصحابة(علي القاري/ شم العوارض في ذم الروافض، الورقة ٢٥٤ ب(محظوظ) وقيل لرفضهم دين الإسلام(انظر: الإسكوبي/ الرد على الشيعة، الورقة ٢٣(مخطوط) وانظر: محي الدين عبد الحميد/ هامش مقالات الإسلاميين: ١/ ٨٩).

(٢) هذا الباب مختصر من كتاب أصول مذاهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية عرض ونقد وتأليف دكتور: ناصر بن عبد الله بن على القفارى.

بحجة إلا بقَيِّم، والثانية: حصر علم القرآن ومعرفته بالأئمة، والثالثة: زعمهم بأن قول الإمام يخصص عام القرآن، ويقيد مطلقه..إلخ.

المسألة الأولى: اعتقادهم أن القرآن ليس حجة إلا بقَيِّم

فالقرآن العظيم هو الشاهد والدليل والحجة، ولكن شيخ الشيعة ومن يسمونه بـ[ثقة الإسلام (الكليني)] يروي في كتابه: أصول الكافي والذي هو عندهم كصحيح البخاري عند أهل السنة يروي ما نصه: "... أن القرآن لا يكون حجة إلا بقَيِّم.. وأن عليًا كان قَيِّم القرآن وكانت طاعته مفترضة، وكان الحجة على الناس بعد رسول الله".

فماذا يعنون بهذه العقيدة: أيعنون بذلك أن النص القرآني لا يمكن أن يحتج به إلا بالرجوع لقول الإمام؟ وهذا يعني أن الحجة هي في قول الإمام لا فى قول الرحمن.

والمتأمل لتلك المقالة التي تواترت في كتب الشيعة يلاحظ أنها من وضع عدو حاقد أراد أن يصد الشيعة عن كتاب الله سبحانه، ويضلهم عن هدى الله، فما دامت تلك المقالة ربطت حجية القرآن بوجود القَيِّم، و القَيِّم هو أحد الأئمة الإثنى عشر، لأن القرآن فُسِّرَ لرجل واحد وهو عليّ، وقد انتقل علم القرآن من علي إلى سائر الأئمة الاثنى عشر، كل إمام يعهد بهذا العلم إلى من بعده، حتى انتهى إلى الأمام الثاني عشر وهو غائب مفقود عند الإثني عشرية منذ ما يزيد على أحد عشر قرنًا، ومعدوم عند طوائف من الشيعة وغيرهم.. فما دامت هذه المقالة ربطت حجية القرآن بهذا الغائب أو المعدوم فكأن نهايتها أن الاحتجاج بالقرآن متوقف لغياب قَيِّمِهِ أو عدمه، وأنه لا يرجع إلى كتاب الله، ولا يعرج عليه في مقام الاستدلال، لأن الحجة في قول الإمام فقط، وهو غائب فلا حجة

فيه حينئذ.

المسألة الثانية اعتقادهم بأن الأئمة اختصوا بمعرفة القرآن لا يشركهم فيه أحد

فإنه مما عُلِمَ من الإسلام أن عِلْمَ القرآن لم يكن سرًا تتوارثه سلالة معينة، ولم يكن لعلي اختصاص بهذا دون سائر صحابة رسول الله ﷺ، وأن الصحابة رضوان الله عليهم هم الطليعة الأولى الذين حازوا شرف تلقي هذا القرآن عن رسول البشرية محمد بن عبد الله ونقله إلى الأجيال كافة.. ولكن الشيعة تخالف هذا الأصل وتعتقد أن الله سبحانه قد اختص أئمتهم الاثنى عشر بعلم القرآن كله، وأنهم اختُصوا بتأويله، وأن من طلب علم القرآن من غيرهم فقد ضل!.

جاء في أصول الكافي في خبر طويل عن أبي عبد الله قال: "إن الناس يكفيهم القرآن لو وجدوا له مفسرًا، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله فسره لرجل واحد، وفسره للأمة شأن هذا الرجل وهو علي بن أبي طالب".

وجاء في طائفة من مصادر الشيعة المعتمدة لديهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: "إن الله أنزل عليّ القرآن وهو الذي من خالفه ضل، ومن يبتغي علمه عند غير علي هلك"[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا ابن عباس نقل عنه من التفسير ما شاء الله بالأسانيد الثابتة ليس في شيء منها ذكر عليّ، وابن عباس يروي عن غير واحد من الصحابة، يروي عن عمر وأبي هريرة وعبد الرحمن بن عوف وعن زيد بن ثابت وأبي بن كعب وأسامة بن زيد وغير واحد من المهاجرين والأنصار. وروايته عن عليّ قليلة جدًا، ولم يُخَرِّج أصحاب الصحيح شيئًا من حديثه عن

---

(١) وسائل الشيعة: ١٨/ ١٣٨، وانظر: بحار الأنوار: ٧/ ٣٠٢، ١٩/ ٢٣، الطبري(الرافضي) / بشارة المصطفى ص: ١٦، آمالي الصدوق ص: ٤٠.

علي، وخَرَّجُوا حديثه عن عمر وعبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة وغيرهم... وما يعرف بأيدي المسلمين تفسير ثابت عن علي، وهذه كتب الحديث والتفسير مملوءة بالآثار عن الصحابة والتابعين، والذي منها عن علي قليل جدًا، وما ينقل من التفسير عن جعفر الصادق عامته كذب على جعفر[١].

بعد: فهذه المقالة مؤامرة، الهدف منها الصدّ عن كتاب الله سبحانه والإعراض عن تدبره فالقرآن في دين الشيعة لا وسيلة لفهم معانيه إلا من طريقة الأئمة الإثنى عشر، أما غيرهم فمحروم من الانتفاع به.

المسألة الثالثة

اعتقادهم بأن قول الإمام ينسخ القرآن ويقيد مطلقه ويخصص عامه

ومسألة النسخ والتخصيص والتقييد... ليست إلا جزءًا من وظيفة الأئمة الكبرى وهي (التفويض في أمر الدين) والتي يقررها صاحب الكافي في باب يعقده في هذا الشأن بعنوان: "باب التفويض إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى الأئمة عليهم السلام في أمر الدين".

ولعل المتأمل لهذه المقولة، والمحلل لأبعادها يدرك أن الهدف من هذه المقالة تبديل دين الإسلام، وتغيير شريعة سيد الأنام.

وهذه الدعوى تقوم على أن دين الإسلام ناقص ويحتاج إلى الأئمة الاثنى عشر لإكماله، وأن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لم يكمل بهما التشريع..

وهذه العقائد أصبحت من أصول الاثنى عشرية[٢]، لأنها شربت مذاهب

---

(١) منهاج السنة: ٤/ ١٥٥.

(٢) انظر دعوى الاثنى عشرية أن الأئمة يوحى إليهم وتهبط عليهم الملائكة، فصل السنة من هذه المسألة، وانظر قول الاثنى عشرية بأن الأئمة تظهر عليهم المعجزات/ مبحث الإيمان بالأنبياء من هذه الرسالة.

الغلاة حتى الشمالة.. وقد أشار أبو جعفر النحاس (المتوفى سنة ٣٣٨هـ) إلى هذه المقالة ولم ينسبها لأحد فقال: "وقال آخرون: باب الناسخ والمنسوخ إلى الإمام، ينسخ ما شاء"[(١)] وعدَّ ذلك من عظيم الكفر ثم بين بطلانه بقوله: "لأن النسخ لم يكن إلى النبي ﷺ إلا بالوحي من الله ﷻ إما بقرآن مثله على قول قوم، وإما بوحي من غير القرآن[(٢)] فلما ارتفع هذان بموت النبي ﷺ ارتفع النسخ[(٣)].

المبحث الثاني : اعتقادهم في تأويل القرآن

وفيه مسألتان: الأولى: اعتقادهم بأن للقرآن معاني باطنة تخالف الظاهر. والثانية: قولهم بأن جلّ القرآن نزل فيهم وفي أعدائهم.

المسألة الأولى: اعتقادهم بأن للقرآن معاني باطنة تخالف الظاهر

جاء في أصول الكافي للكليني ما نصه: "..عن محمد بن منصور قال: سألت عبدًا صالحًا[(٤)] عن قول الله ﷻ: (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن). قال فقال: إن القرآن له ظهر وبطن، فجميع ما حرم الله في القرآن هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الجور، وجميع ما أحل الله تعالى في الكتاب هو الظاهر والباطن من ذلك أئمة الحق.

تقرر هذه الرواية الواردة في كتبهم الأربعة مبدأ أن للقرآن معاني باطنة

---

(١) الناسخ والمنسوخ: ص٨.

(٢) يعني سنة المصطفى ﷺ. قال تعالى: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) [النجم: ٣-٤].

(٣) الناسخ والمنسوخ: ص ٨-٩.

(٤) يعنون به موسى الكاظم والذي يعتبرونه إمامهم السابع(انظر أصول الكافي: الهامش: ١/ ٣٧٤).

تخالف الظاهر مخالفة تامة، وتضرب المثل بما أحل الله وحرم في كتابه من الطيبات والخبائث، وأن المقصود بذلك رجال بأعيانهم هم الأئمة الاثنا عشر، وأعداؤهم وهم كل خلفاء المسلمين.. وهذا التأويل لا أصل له من لغة أو عقل أو دين، وهو محاولة لتغيير دين الإسلام من أساسه ودعوة إلى التحلل والإباحية؟!.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "من ادعى علمًا باطنًا، أو علمًا بباطن وذلك يخالف العلم الظاهر كان مخطئًا، إما ملحدًا زنديقًا، وأما جاهلًا ضالًا... وأما الباطن المخالف للظاهر المعلوم، مثل ما يدعيه الباطنية القرامطة من الإسماعيلية والنصيرية وأمثالهم. ثم يقول:" وهؤلاء الباطنية قد يفسرون: (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) أنه عليّ، وقوله: (فقاتلوا أئمة الكفر) أنهم طلحة والزبير، (والشجرة الملعونة في القرآن) بأنها بنو أمية[١]".

هذه التأويلات التي ينقلها ابن تيمية وينسبها للباطنية موجودة بعينها عند الاثنى عشرية، فالتأويل المذكور في الآية الأولى: (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) جاء عندهم في خمس روايات أو أكثر[٢]، وسجل في طائفة من كتبهم المعتمدة[٣]، وليس في الآية أية دلالة على هذا التأويل[٤]. وكذلك الآية الثانية

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٢٣٦-٢٣٧.
(٢) انظر: اللوامع النورانية في أسماء علي وأهل بيته القرآنية: هاشم البحراني: ص٣٢١-٣٢٢.
(٣) انظر من ذلك: تفسير القمي: ٢/ ٢١٢.
(٤) قال السلف في تفسير الآية: أن الإمام المبين هنا هو أم الكتاب، أي وجميع الكائنات مكتوبة في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ.(انظر تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٩١).

(فقاتلوا أئمة الكفر)ورد تأويلها بذلك في طائفة من كتبهم المعتمدة[١]، وبلغت رواياتها عندهم أكثر من ثمان روايات[٢]، ومثلها الآية الثالثة (والشجرة الملعونة) جاء تأويلها عند الاثنى عشرية بما قاله شيخ الإسلام في أكثر من اثنتى عشرة رواية[٣]، وتناقل هذا التأويل مجموعة من مصادرهم المعتمدة[٤].

المسألة الثانية: قولهم بأن جل القرآن نزل فيهم وفي أعدائهم

يقول الشيعة بأن: "جل القرآن إنما نزل فيهم (يعني في الأئمة الاثنى عشر) وفي أوليائهم وأعدائهم، مع أنك لو فتشت في كتاب الله وأخذت معك قواميس اللغة العربية كلها وبحثت عن اسم من أسماء هؤلاء الاثنى عشرية فلن تجد لها ذكرًا، ومع ذلك فإن شيخهم البحراني يزعم بأن عليًا وحده ذكر في القرآن (١١٥٤) مرة، ويؤلف في هذا الشأن كتابًا سماه: "اللوامع النورانية في أسماء علي وأهل بيته القرآنية" يحطم فيه كل مقاييس لغة العرب، ويتجاوز فيه أصول العقل والمنطق، ويفضح من خلاله قومه علي رؤوس الأشهاد بتحريفاته التي سطرها في هذا الكتاب وجمعها -وقد كانت متفرقة قد لا تعرف- من طائفة من مصادرهم المعتبرة عندهم.

وتأتي بعض رواياتهم لتقول: "إن القرآن نزل أربعة أرباع: ربع حلال، وربع حرام، وربع سنن وأحكام، وربع خبر ما كان قبلكم ونبأ ما يكون بعدكم، وفصل ما بينكم"[٥]. وهذا يعني أنه ليس للأئمة ذكر صريح في القرآن.

---

(١) انظر البرهان: ٢/ ١٠٦-١٠٧.

(٢) راجع المصدر السابق.

(٣) انظر البرهان: ٢/ ٢٢٤-٢٢٥.

(٤) انظر: تفسير القمي: ٢/ ٢١.

(٥) أصول الكافي: ٢/ ٦٢٧.

وفي كتاب"البحار" أحد مصادرهم المعتمدة عندهم في الحديث أبواب كثيرة هي بمثابة قواعد وأصول في تفسير القرآن عندهم، وقد حشر في هذه الأبواب روايات كثيرة كلها تذهب هذا المذهب في كتاب الله سبحانه، ولعله يكفي أن تقرأ عناوين بعض هذه الأبواب لتدرك مدى مجافاتها للغة العرب، ومناقضتها للعقل، ومنافاتها لأصول الإسلام، وأنها من أعظم الإلحاد في كتاب الله، والتحريف لمعانيه. ولنستعرض قسمًا من هذه العناوين فيما يلي. قال المجلسي: باب أنهم عليهم السلام آيات الله وبيِّناته وكتابه.. وفيه (٢٠) رواية[١].

وباب أنهم السبع المثاني، وفيه (١٠) روايات[٢]. وباب أنهم عليم السلام الصافون والمسبحون وصاحب المقام المعلوم وحملة عرش الرحمن، وأنهم السفرة الكرام البررة، وفيه (١١) رواية[٣]. وباب أنهم كلمات الله، وفيه (٢٥) رواية[٤]. وباب أنهم حرمات الله، وفيه (٦) روايات[٥].

وباب أنهم الذكر وأهل الذكر، وفيه (٦٥) رواية[٦]. وباب أنهم أنوار الله، وفيه (٤٢) رواية[٧].

وباب أنهم خير أمة وخير أئمة أخرجت للناس، وفيه (٢٤) رواية[٨].

---

(١) انظر: بحار الأنوار: ٢٣/ ٢٠٦-٢١١.

(٢) المصدر السابق: ٢٤/ ١١٤-١١٨.

(٣) المصدر السابق: ٢٤/ ٨٧-٩١.

(٤) المصدر السابق: ٢٤/ ١٧٣-١٨٤.

(٥) المصدر السابق: ٢٤/ ١٨٥-١٨٦.

(٦) المصدر السابق: ٢٣/ ١٧٢-١٨٨.

(٧) المصدر السابق: ٢٣/ ٣٠٤-٣٢٥.

(٨) المصدر السابق: ٢٤/ ١٥٣-١٥٨.

وباب أنهم المظلومون، وفيه (٣٧) رواية[١]. وباب أنهم المستضعفون، وفيه (١٣) رواية[٢].

فالأئمة كما ترى في هذه الأبواب يكونون أحيانًا ملائكة، وأحيانًا كتبًا سماوية، أو أنوارًا إلهية..إلخ. ومع ذلك فهم المظلومون المستضعفون.

وهي دعاوى لا تحتاج إلى نقد فهي مرفوضة لغة وعقلًا، فضلًا عن الشرع وأصول الإسلام، وهي عناوين يناقض بعضها بعضًا.. ولكنه يمضي في هذا النهج حتى يفسر الجمادات ويؤولها بالأئمة، يقول: باب أنهم الماء المعين، والبئر المعطلة، والقصر المشيد، وتأويل السحاب، والمطر، والظل، والفواكه، وسائر المنافع بعلمهم وبركاتهم. وقد أورد في هذا الباب إحدى وعشرين رواية[٣]، انتخبها كعادته من طائفة من كتبهم المعتمدة.

ويغلو ويشطط ويتجاوز الحد، ليصل إلى أوصاف الرب جل جلاله فيقول: باب انهم جنب الله، وروحه، ويد الله وأمثالها ويذكر فيه ستًا وثلاثين رواية[٤].

ويجعلهم هم الكعبة والقبلة.. ويعقد بابًا لهذا بعنوان: باب أنهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ حزب الله وبقيته وكعبته وقبلته، وأن الأثارة من العلم علم الأوصياء، ويقدم في هذا الباب سبع روايات[٥].

ويمضي في هذا الشطط في طائفة من الأبواب عرضها يمثل في الحقيقة أبلغ رد وأعظم نقد لمذهب الشيعة، وهو ينسف بنيانهم من القواعد، وهو يؤكد

---

(١) المصدر السابق: ٢٤/ ٢٢١-٢٣١.

(٢) المصدر السابق: ٢٤/ ١٦٧-١٧٣.

(٣) المصدر السابق: ٢٤/ ١٠٠-١١٠.

(٤) المصدر السابق: ٢٤/ ١٩١-٢٠٣.

(٥) المصدر السابق: ٢٤/ ٢١١-٢١٣.

عظمة هذا الدين الإسلامي، فبضدها تتميز الأشياء -فلولا المر ما عرف طعم الحلو- فهذه التأويلات أشبه ما تكون بمحاولات مسيلمة الكذاب، وهي تعطي الدليل القاطع على أنها ليست من عند الله سبحانه، يعرف هذا من له أدنى صلة بلغة العرب فضلًا عن دين الإسلام وقواعده وأصوله، لأن الله أنزل هذا القرآن سبحانه أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين...وإن من له أدنى صلة باللسان العربي -كما قلت- يدرك أن هذه الأبواب وتلك الروايات إلحاد في كتاب الله، وتحريف لكلامه سبحانه عن مواضعه. وأن مثل هذه التحريفات لا تلتبس إلا على أعجمي جاهل بالإسلام ولغة العرب، ولعلها برهان واقعي على أن من حاول المساس بكتاب الله سبحانه سقط في هذا الدرك الهابط، وليس هذا النهج في كتب الروايات والأحاديث فحسب، فأنت إذا طالعت عمدة التفسير عند هذه الطائفة "وأصل أصول التفسير"(١) لديها، وهو تفسير القمي ألفيته قد أخذ من تلك التفاسير الباطنية بنصيب وافر، ومثله تفسير العياشي، وهو من كتب التفسير القديمة المعتمدة عندهم، وعلى نفس الطريق تجد تفسير البرهان، وتفسير الصافي وغيرها، وهي تعتمد على تفسير الآيات -كما زعموا- أنه بالمأثور عن جعفر الصادق أو بقية الاثنى عشر.

وحسبنا أن نذكر أمثلة من رواياتهم في هذا الباب:

أصل هذه التأويلات وجذورها، وأمثلة لها:

أ. أصل هذه التأويلات:

مضى القول بأن كتب الشيعة تزعم أن القرآن لا يحتج به إلا بقَيِّم، وأن هذا القَيِّم والمتمثل بالاثنى عشر عنده علم القرآن كله ولا يشركه في ذلك أحد، ثم

---

(١) انظر مقدمة تفسير القمي: ١/ ١٦.

جعلت لهذا القَيِّم وظيفة "المشرع" في تخصيص عام النصوص وتقييد مطلقها وبيان مجملها، ونسخ ما شاء منها، لأنه مُفَوَّض في أمر الدين كله، ثم بررت ضرورة وجود هذا القَيِّم لتأويل القرآن بقولها: بأن للقرآن معاني باطنة تخالف الظاهر، ثم كشفت عن علم هذا الباطن المدخر عند الأئمة بأنه يعني الأئمة الاثنى عشر وأعدائهم (وهم الصحابة والتابعين لهم بإحسان) ومعظم موضوعات القرآن لا تتعدى -عندهم- هذا الشأن، ثم وضعت هذه النظريات موضع التنفيذ حيث قام شيوخ الشيعة بوضع مئات الروايات في تفسير معاني القرآن بالأئمة أو مخالفيهم أو بعقيدة أخرى من عقائدهم التي شذوا بها عن جماعة المسلمين.

ويرى بعض الباحثين[١]أن أول كتاب وضع الأساس لهذا اللون من تفسير الشيعة هو تفسير القرآن الذي وضعه في القرن الثاني للهجرة (جابر الجعفي)[٢].

وقد نقلت لنا بعض كتب أهل السنة نماذج من تأويلات الشيعة لكتاب الله،

(١) جولد سيهر/ مذاهب التفسير الإسلامي ص: ٣٠٣-٣٠٤.

(٢) جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي الكوفي، توفي سنة(١٢٧هـ)، قال ابن حبان: كان سبئيًا من أصحاب عبد الله بن سبأ. كان يقول أن عليًا يرجع إلى الدنيا. وروى العقيلي بسنده عن زائدة أنه قال: جابر الجعفي رافضي يشتم أصحاب رسول الله ﷺ. وقال النسائي وغيره: متروك. وقال يحى: لا يكتب حديثه ولا كرامة. قال ابن حجر: ضعيف رافضي. وانظر ميزان الاعتدال: ١/ ٣٧٩-٣٨٠، تقريب التهذيب ١/ ١٢٣، والضعفاء للعقيلي: ١/ ١٩١-١٩٦.

أما هذا الجعفي في كتب الشيعة فأخبارهم في شأنه متناقضة، فأخبار تجعله ممن انتهى إليه علم أهل البيت، وتضفي عليه صفات أسطورية من علم الغيب ونحوه، وأخبار تطعن فيه... لكنهم يحملون أخبار الطعن فيه على التقية، ويقولون بتوثيقه كعادتهم في توثيق من على مذهبهم وإن كان كاذبًا. انظر: وسائل الشيعة: ٢٠/ ٥١، رجال الكشي: ص١٩١، جامع الرواة: ١/ ١٤٤.

ولكن ما انكشف لنا اليوم أمر لا يخطر على البال. ويبدو أن ما نسبه بعض أئمة السنة لغلاة الشيعة من تأويلات قد ورثتها الاثنى عشرية. فالإمام الأشعري(١)، وكذلك البغدادي(٢)، والشهرستاني(٣) وغيرهم يحكون عن المغيرة بن سعيد أحد الغلاة باتفاق السنة والشيعة، والذي تنسب إليه طائفة المغيرية(٤) أنه ذهب في تأويل الشيطان في قول الله جل شأنه: (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر) بعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا التأويل بعينه قد ورثته الاثنا عشرية، ودونته في مصادرها المعتمدة، حيث جاء في تفسير العياشي، والصافي، والقمي، والبرهان، وبحار الأنوار(٥) عن أبي جعفر في قول الله: (وقال الشيطان لما قضي الأمر) قال: هو الثاني، وليس في القرآن شيء (وقال الشيطان) إلا وهو الثاني.

فكأن كتب الاثنى عشرية تزيد على المغيرة بوضع هذا الإلحاد في كتاب الله قاعدة مطردة.

---

(١) مقالات الإسلاميين: ١/ ٧٣.

(٢) الفرق بين الفرق: ص ٢٤٠.

(٣) الملل والنحل: ١/ ١٧٧.

(٤) المغيرية: أتباع المغيرة بن سعيد، عدَّهم أصحاب الفرق من غلاة الشيعة، نسب إليه القول بألوهية علي، ودعوى النبوة، والتجسيم، وضلالات أخرى، وقد جاء في كتب الإثنى عشرية ذمه ولعنه عن الأئمة. قتله خالد بن عبد الله القسري سنة ١١٩هـ. انظر تاريخ الطبري: ٧/ ١٢٨-١٣٠، الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١/ ٦٩-٧٤.

(٥) تفسير العياشي: ٢/ ٢٢٣، الكاشاني/ تفسير الصافي: ٣/ ٨٤، تفسير القمي: انظر الكاشاني ٣/ ٨٤، ولم أجده في الطبعة التي عندي، البحراني/ البرهان: ٢/ ٣٠٩، بحار الأنوار: ٣/ ٣٧٨(ط. كمباني).

وفي الكافي عن أبي عبد الله قال:"وكان فلان شيطانًا"[١]، قال المجلسي في شرحه على الكافي: المراد بفلان عمر[٢].

ب. أمثلة من تأويلات الشيعة لآيات القرآن

حين احتج شيخ الشيعة في زمنه -والذي إذا أطلق لقب"العلامة" عندهم انصرف إليه (ابن المطهر الحلي) - على استحقاق علي للإمامة بقوله:"البرهان الثلاثون قوله تعالى:(مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان)قال علي وفاطمة، (بينهما برزخ لا يبغيان) النبي ﷺ (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) الحسن والحسين. حينما احتج ابن المطهر بذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هذا وأمثاله إنما يقوله من لا يعقل ما يقول، وهذا بالهذيان أشبه منه بتفسير القرآن، وهو من جنس تفسير الملاحدة والقرامطة الباطنية للقرآن، بل هو شر من كثير منه. والتفسير بمثل هذا طريق الملاحدة بل هو شر من كثير منه، والتفسير بمثل هذا طريق الملاحدة على القرآن والطعن فيه، بل تفسير القرآن بمثل هذا من أعظم القدح فيه والطعن فيه[٣].

وأقول كيف لو رأى شيخ الإسلام ما أودع في الكافي والبحار وتفسير العياشي والقمي والبرهان وتفسير الصافي وغيرها من تحريف لمعاني القرآن سموه تفسيرًا !!.

وبين يدي مجموعة كبيرة من هذا اللون.. يستغرق عرضها المجلدات، ركام هائل من الروايات.. حجبت الشيعة عن نور القرآن وهديه.. فالتوحيد

---

(١) الكليني/ الكافي(المطبوع بهامش مرآة العقول: ٤/ ٤١٦).

(٢) مرآة العقول: ٤/ ٤١٦.

(٣) منهاج السنة: ٤/ ٦٦.

الذي هو أصل دعوة الرسل، وجوهر رسالتهم... هو عندهم ولاية الإمام فيروون عن أبي جعفر أنه قال:"ما بعث الله نبيًا قط إلا بولايتنا والبراءة من عدونًا وذلك قول الله في كتابه:(ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت). ورواياتهم في هذا الباب كثيرة، كما سيأتي[١].

والإله في كتاب الله هو الإمام، فقوله تعالى:(لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد) قال: أبو عبد الله- كما يزعمون- يعني بذلك ولا تتخذوا إمامين إنما هو إمام واحد[٢].والرب هو الإمام عندهم. وقد يلتمس لهم في هذا التأويل عذر، لأن الرب في اللغة له استعمالات أخرى كرب البيت، ورب المال بمعنى صاحب ولكن يمنع من ذلك أن تأويلهم للرب في الإمام جرى في آيات هي نص في الله سبحانه ولا تحتمل وجهًا آخر. وفي قوله سبحانه عن المشركين: (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا) قال القمي في تفسيره: "الكافر: الثاني (يعني عمر- رضي الله عنه وأرضاه-) كان على أمير المؤمنين عليه السلام ظهيرًا[٣]. فاعتبر أمير المؤمنين عليًا هو الرب. وقال الكاشاني "في البصائر"[٤] عن الباقر- عليه السلام -أنه سئل عن تفسيرها فقال (كما يفترون): "إن تفسيرها في بطن القرآن: علي هو ربه في الولاية، والرب هو الخالق الذي لا يوصف"، فهذا قد يفهم منه أن عليًا هو الرب الذي لا يوصف - كما يفترون-، لأن الآية نص في حق الباري سبحانه؟!.

والصراط المستقيم في قوله تعالى: (اهدنا الصراط المستقيم) هو أمير

---

(١) في مبحث: عقيدتهم في توحيد الألوهية.

(٢) تفسير العياشي: ٢/ ٢٦١، البرهان في تفسير القرآن: ٢/ ٣٧٣.

(٣) تفسير القمي: ٢/ ١١٥.

(٤) يعني بصائر الدرجات لشيخهم الصفار.

المؤمنين[١] عندهم.

والشمس هي علي، فيروون عن الصادق في قوله: (والشمس وضحاها)[٢] قال: "الشمس أمير المؤمنين، وضحاها: قيام القائم". فهل يعني هذا أنه لما مات أمير المؤمنين اختفت الشمس من الوجود؟، والناس في ظلمة حتى يشرق ضحى القائم المنتظر؟

والمسجد، والمساجد، والكعبة، والقبلة هي الإمام والأئمة، فيروون عن الصادق في قوله تعالى: (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد)[٣] قال يعني الأئمة. وفي رواية أخرى عنه في قوله تعالى: (خذوا زينتكم عند كل مسجد)[٤] قال يعني الأئمة. وفي قوله تعالى: (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا) قال: إن الإمام من آل محمد فلا تتخذوا من غيرهم إمامًا[٥]، ويقول الصادق- عندهم-: ".. نحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله، ونحن قبلة الله"[٦].

والسجود: هو ولاية الأئمة وبهذا يفسرون قوله تعالى (وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون)[٧] حيث قالوا: أى يدعون إلى ولاية علي في الدنيا".

ولعل مثل هذه الروايات هي السبب في شيوع عبادة الأئمة، وأضرحتهم، وعمارة المشاهد وتعطيل المساجد، لأن المشاهد هي المساجد، والإمام هو

---

(١) تفسير القمي: ١/ ٢٨.

(٢) الشمس: ١، البرهان: ٤/ ٤٦٧.

(٣) الأعراف: ٢٩، تفسير العياشي: ٢/ ١٢.

(٤) الأعراف: ٣١، تفسير العياشي: ٢/ ١٣.

(٥) الجن: ١٨، البرهان: ٤/ ٣٩٣.

(٦) بحار الأنوار: ٢٤/ ٣٠٣.

(٧) القلم: ٤٣، تفسير القمي: ٢/ ٣٨٣.

كعبة الله وقبلته، ولهذا صنفوا كتبًا سموها "مناسك المشاهد" أو "مناسك الزيارات"، أو "المزار"[١]، واعتنوا ببيان فضائلها وآدابها، وأخذت هذه المسائل في كتبهم المعتمدة قسمًا كبيرًا -كما سيأتي تفصيله.

وتأويلهم لكثير من آيات القرآن بالإمامة والأئمة يربو على الحصر وكأن القرآن لم ينزل إلا فيهم، ولقد تجاوزوا في هذه الدعاوى كل معقول، وأسرفوا في تأويلاتهم إلى ما يشبه هذيان المعتوهين حتى قالوا: إن النحل في قوله سبحانه: (وأوحى ربك إلى النحل..) هم الأئمة، وروى القمي بإسناده إلى أبي عبد الله قال: "نحن النحل التي أوحى الله إليها (أن اتخذي من الجبال بيوتًا) أمرنا أن نتخذ من العرب شيعة (ومن الشجر) يقول: من العجم (ومما يعرشون) يقول: من الموالي"[٢]. وجمع المجلسي رواياتهم في هذا المعنى في باب بعنوان: "باب نادر في تأويل النحل بهم عليهم السلام"[٣]، كما جاء بروايات تقول: إن الأئمة هم الماء المعين والقصر المشيد، والسحاب والمطر والفواكه وسائر المنافع الظاهرة"[٤].

وبعد.. فإن المتأمل لآيات القرآن بمقتضى اللغة العربية التي نزل بها: (إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون) لا يجد فيه ذكرًا لما يدَّعون، والروايات التي يذكرونها يكفي في بيان فسادها مجرد عرضها، فهي تحمل بنفسها ما يهدم بنيانها من الأساس، فهل يصدق أحد أن لعلي في القرآن (١١٥٤) اسمًا؟! وهل يدخل

---

(١) مثل كتاب: مناسك الزيارات للمفيد، وكتاب المزار لمحمد بن علي الفضيل، والمزار لمحمد المشهدي.

(٢) النحل: ٦٨، تفسير القمي: ١/ ٣٨٧.

(٣) بحار الأنوار: ٢٤/ ١١٠-١١٣.

(٤) انظر: بحار الأنوار: ٢٤/ ١٠٠-١١٠.

في عقل أحد أن من أسماء علي البعوض والذباب؟!، وهل يوافق مؤمن على القول بأن ما ورد من آيات عن اليوم الآخر هي خاصة برجعة الأئمة؟، وكيف تناقش من يقول بأن آيات الإيمان والمؤمنين هي في الأئمة الإثنى عشر، وآيات الكفر والكافرين هي في الصحابة؟، وإنني هنا أذهب إلى القول بأن هذا المستوى الذي هبط إليه هؤلاء هو من معجزات هذا الدين العظيم، فما من أحد ادّعى نبوة أو وحيًا وأراد أن يضع في الدين ما ليس منه إلا وفضحه الله على رؤوس الأشهاد، وتالله إن هذه المقالات التي لا يمكن بحال أن تتفق مع العقل والنقل ولا اللغة والدين هي من أعظم فضائح القوم وعوراتهم.. وبها يكشف الله سبحانه وتعالى كذبهم وبهتانهم.

المبحث الثالث: هل الشيعة تقول بأن في كتاب الله نقصًا أو تغييرًا ؟

مدخل للموضوع:

وجاء هذا المبحث بهذه الصيغة الاستفهامية لثلاثة أسباب:

أولًا: أن طائفة من أعلام الاثنى عشرية يتبرأون من هذه المقالة، مثل الشريف المرتضى، وابن بابويه القمي وغيرهما.

ثانيًا: أن إجماع المسلمين كلهم قام على أن كتاب الله سبحانه محفوظ بحفظ الله له (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه). ومن قال أن في القرآن نقصًا وتحريفًا فليس من أهل القبلة وليس من الإسلام في شيء، ومن هنا فإن العدل يقتضي أن نحتاط في دراستنا لهذه المسألة أبلغ الاحتياط، وأن نعدل في القول، فلا نرمي طائفة بهذه المقالة إلا بعد الدراسة والتثبت.

ثالثًا: أن هناك طائفة من المفكرين يرمون الشيعة بالقول بهذا الكفر، ويعممون ذلك، ولا شك بأن الشيعة فِرقٌ، والشيعة طبقات فلا يصح أن يقال

مثلًا بأن متقدمي الشيعة يقولون بهذه المقالة[1]، ولا يقبل أن يقال بأن الزيدية تقول بهذه الفرية.. فأسلوب التعميم غير مرضي ولا مقبول.

وأقول إن دراسة هذه المسألة ليست من أجل الرد والنقض، إنما هي لبيان هل الشيعة تقول بهذه المقالة أم لا؟، وفي ثبوت ذلك أكبر فضيحة للشيعة يهدم بنيانها من الأساس ويزلزل كيانها من القواعد، ولن يقبل منها قول ولا يسمع منها كلمة.. ومن ذا الذي يمس كتاب الله ويقبل منه مسلم قولًا أو يرتضي منه حكمًا. ومن ثم فنحن نكتب هذه الدراسة لبيان حقيقة نسبة هذه المسألة للشيعة، لأن من حاول المساس بكتاب الله والنيل من قدسيته فإنه بعيد عن الإسلام وإن تسمى به، وأنه يجب كشفه لتعرف الأمة عداوته، لأنه يحارب الإسلام في أصله العظيم وركنه المتين.

نتائج الموضوع

أولًا: يحتمل أن هذه الأسطورة نشأت عند الشيعة في القرن الثاني والذي تولى كبرها بعض الغلاة، وكان من أسبابها خلو كتاب الله مما يثبت بدعهم في الإمامة، والصحابة وغيرها.

ثانيًا: أكبر كتب الشيعة المعتمدة عندهم قد روت هذا الكفر، جاءت معظم

---

(١) وقد انساق "إحسان إلهي ظهير" وراء مقالة صاحب فصل الخطاب، بأنه لا يوجد من أنكر مقالة التحريف من الشيعة في القرون المتقدمة إلا هؤلاء الأربعة(يعني ابن بابويه القمي والمرتضى والطبرسي والطوسي) فقال إحسان: والحاصل أن متقدمي الشيعة ومتأخريهم جميعًا متفقون على أن القرآن محرف مغير فيه.(الشيعة والسنة ص١٢٢ ط. دار الأنصار). والحقيقة أن هذه القضية بدأت عند الشيعة متأخرة عن نشأة الشيعة نفسها، وأن أوائل الشيعة ليسوا على هذا الضلال، وأن فرقًا من الشيعة ليست على هذا"الباطل".

هذه الروايات صريحة في ذلك لا يمكن حملها على أنهم يقصدون تأويل الآية، أو بيان القراءات التي وردت فيها، بل جاءت تصرح بأن الآية هكذا والصحابة - بزعمها- غيرت ذلك، مثل الألفاظ التالية: "هذه الآية مما غيروا وحرفوا.."[١] يعنون الصحابة، وقولهم "أنزل الله سبعة بأسمائهم فمحت قريش ستة وتركوا أبا لهب"[٢]، "كانت فيه أسماء رجال فألقيت"[٣]، وقولهم "هكذا والله نزل به جبرائيل على محمد ولكنه فيما حرف من كتاب الله"[٤]، وقولهم "بلى والله إنه لمثبت فيها وأن أول من غير ذلك لابن أروى"[٥]، ومثل ذلك كثير. فمن يقل من الشيعة أن رواياتهم الواردة في كتبهم من جنس روايات القراءات، ونسخ التلاوة، فهو يتستر على هذا الكفر، ويساوي بين الحق والباطل.

ثالثًا: ادعى جمع من شيوخهم استفاضة هذه "الأساطير" وكثرتها في كتبهم المعتمدة، وهذا طعن في كتبهم لا في كتاب الله سبحانه، ولهذا حاول بعض عقلائهم الخروج بالمذهب من هذا "المأزق" الذي وقع فيه، أو التستر على هذه الفضيحة.. لكن هذه الأسطورة كانت رواياتها تزيد -عبر القرون- رغم إنكار المنكرين، وتبنى إشاعتها طائفة من الزنادقة الذين اندسوا في الشيعة. ولا ريب بأن من يقل بهذه الأسطورة فليس من الإسلام في شيء، ولا علاقة له بكتاب الله ودينه، ولا برسول الإسلام، وأهل بيته بل له دين آخر غير دين الإسلام.

---

(١) بحار الأنوار: ٩٢/ ٥٥.
(٢) رجال الكشي: ص٢٩٠، بحار الأنوار: ٩٢/ ٥٤.
(٣) تفسير العياشي: ١/ ١٢، بحار الأنوار: ٩٢/ ٥٥.
(٤) بحار الأنوار: ٩٢/ ٥٦.
(٥) تفسير فرات: ص١٧٧، بحار الأنوار: ٩٢/ ٥٦.

لكن القائلين بتغير القرآن الناقلين لتلك الأساطير كالمجلسي في "بحار الأنوار" والطبرسي في "فصل الخطاب" نراهم يستشهدون من كتاب الله، ويفتتحون كل باب من أبواب كتبهم بآيات من القرآن، كما يفعل المجلسي في بحاره، والطبرسي في "مستدرك الوسائل" وغيرهما، بل إن الطبرسي الذي كتب في فصل الخطاب ما كتب قد عقد في كتابه "مستدرك الوسائل" بابًا بعنوان: باب استحباب الوضوء لمس كتاب الله ونسخه، وعدم جواز مسه المحدث والجنب كتابة القرآن[١]. بل إن شيخ الشيعة المجلسي الذي قال -كما سلف- باستفاضة تلك الأساطير وأنها لا تقصر عن أخبار الإمامة، يقول مع ذلك: "بأن الذي بين الدفتين كلام الله تعالى على الحقيقة من غير زيادة ولا نقصان"[٢].

ثم استشعر التناقض بين هذا القول وبين أساطيرهم في تحريف القرآن فقال: "فإن قال قائل كيف يصح القول بأن الذي بين الدفتين هو كلام الله على الحقيقة من غير زيادة ولا نقصان، وأنتم تروون عن الأئمة عليهم السلام أنهم قرؤوا:"يسألونك الأنفال" وهذا بخلاف ما في المصحف الذي في أيدي الناس، قيل له.. إن الأخبار التي جاءت بذلك أخبار آحاد لا يقطع على الله بصحتها، فلذلك وقفنا فيها، ولم نعدل عما في المصحف الظاهر على ما أمرنا به.. مع أنه لا ننكر أن تأتي القراءة على وجهين منزلتين أحدهما ما تضمنه المصحف، والثاني كما جاء به الخبر كما يعترف مخالفونا به من نزول القرآن على وجوه شتى"، ثم أشار إلى بعض القراءات[٣].

---

(١) مستدرك الوسائل: ١/ ٤٣.

(٢) بحار الأنوار: ٩٢/ ٧٥.

(٣) الموضع نفسه من المصدر السابق.

فما دام هذه نهاية الذين أثاروا تلك العقائد الكفرية، فلماذا أثاروا تلك المفتريات وتناقلوها.. الجواب واضح من خلالا ما سبق أن عرضناه وهو اقناع قومهم وأتباعهم بصحة ما هم عليه من معتقدات، وإن آيات من القرآن قد حذفها الصحابة تشهد لمذهبهم، ولهذا لاحظنا أنهم أيضًا ادعوا نزول كتب إلهية غير القرآن، وفزعوا إلى التفسير الباطني، كل ذلك لإثبات شذوذهم.. فإذن تحولت تلك الدعاوى إلى مجرد محاولات للتخلص من الإلزامات الواردة عليهم بخلو كتاب الله مما يثبت عقائدهم، ولكن تلك الروايات كان لها آثارها على فرق الشيعة(١)، بل على الاثنى عشرية نفسها، فإن الإخباريين منهم يقدمون أخبارهم على كتاب الله كما سلف. حتى أشيع بأن الاثنى عشرية لهم مصحف خاص بهم..

رابعًا: كما أن لهم روايات تقول بالتحريف، فإن عندهم روايات أخرى تنفي هذا الباطل وتنكره مثل قول إمامهم:"واجتمعت الأمة قاطبة لا اختلاف بينهم في ذلك أن القرآن حق لا ريب فيه عند جميع فرقها، فهم في حالة الاحتجاج عليه مصيبون، وعلى تصديق ما أنزل الله مهتدون لقول النبي ﷺ:"لا تجتمع أمتي على ضلالة"(٢). ومثل ما جاء عندهم في ثواب قراءة القرآن(٣). وفضل حامل القرآن(٤)، ووجوب عرض أحاديثهم عليه(١). والتمسك به إلى قيام الساعة،

---

(١) كالدروز الذين اتخذوا لهم مصحفًا سموه: "مصحف المنفرد بذاته". انظر: مصطفى الشكعة/ إسلام بلا مذاهب، مقدمة الطبعة الخامسة، الخطيب/ عقيدة الدروز ص١٨٣-١٨٤.

(٢) انظر: الشعراني: تعاليق علمية(على شرح الكافي للمازندراني) ٢/ ٤١٤.

(٣) انظر: أصول الكافي: كتاب فضل القرآن: ٢/ ٦١١.

(٤) المصدر السابق: ٣/ ٦٠٣.

وهذا يبطل أن يكون محرفًا أو مخفيًا عند منتظرهم.

خامسًا: تبين لنا أن هذه الأسطورة حملت بذاتها باطلها، وتبين من عناصر تكوينها فسادها، وكان مجرد عرضها كافيًا في الرد عليها ويكفي في بيان كذب الروافض.. أن علي بن أبي طالب الذي هو عند أكثرهم إله خالق، وعند بعضهم نبي ناطق، وعند سائرهم إمام معصوم ولي الأمر وملك، فبقى خمسة أعوام وتسعة أشهر خليفة مطاعًا ظاهر الأمر.. والقرآن يقرأ في المساجد في كل مكان وهو يؤم الناس به، والمصاحف معه وبين يديه، فلو رأى فيه تبديلًا كما تقول الرافضة أكان يقرهم على ذلك؟، ثم أتى ابنه الحسن وهو عندهم كأبيه فجرى على ذلك.

فكيف يسوغ لهؤلاء النوكى أن يقولوا إن في المصحف حرف زائدًا أو ناقصًا أو مبدلًا مع هذا ؟!.

ولقد كان جهاد من حرف القرآن وبدل الإسلام أوكد عليه من قتال أهل الشام الذين إنما خالفوه في رأي يسير رأوه ورأى خلافه فقط، فلاح كذب الرافضة ببرهان لا محيد عنه، والحمد لله رب العالمين[٢].

ثانيًا: اعتقادهم في السُّنة

الشيعة تقول بالسنة ظاهرًا وتنكرها باطنًا، إذ أن معظم رواياتهم وأقوالهم

=

(١) المصدر السابق: باب الرد إلي الكتاب والسنة: ١/ ٥٩.

(٢) ابن حزم/ الفصل: ٢/ ٢١٦-٢١٧. والنوكى: جمع أَنْوَك وهو الأحمق. وقيل الجاهل والعاجز: انظر لسان العرب. وجاء جمعه على وزن فعلى لأنه مما يصاب به مما يكره كقتلى وغرقى وجرحى وهلكى وموتى..وكثيرًا ما يستخدم الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ هذه اللفظة في الحمل على مخالفيه.

تتجه اتجاها مخالفًا للسنة التي يعرفها المسلمون، في الفهم والتطبيق، وفي الأسانيد والمتون، ويتبين ذلك فيما يلي:

قول الإمام كقول الله ورسوله

فالسنة عندهم هي: "كل ما يصدر عن المعصوم من قول أو فعل أو تقرير"[(١)]، ولكن الشيعة تعطي صفة العصمة لآخرين غير رسول الله ﷺ، وتجعل كلامهم مثل كلام الله وكلام رسوله، وهم الأئمة الاثنى عشر لا فرق عندهم في هذا بين هؤلاء الاثنى عشر وبين من لا ينطق عن الهوى، ولا فرق في كلام هؤلاء الاثنى عشر بين سن الطفولة، وسن النضج العقلي، إذ إنهم -في نظرهم- لايخطئون عمدًا ولا سهوًا ولا نسيانًا طوال حياتهم- كما سيأتي في مسألة العصمة.

وقد جاء في الكافي ما يعدونه حجة لهم في هذا المذهب وهو قول أبي عبد الله -كما يزعم صاحب الكافي- "حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ، وحديث رسول الله قول الله عز وجل"[(٢)].

وذكر شارح الكافي أن هذا القول يدل على "أن حديث كل واحد من الأئمة الظاهرين قول الله عز وجل ولا اختلاف في أقوالهم كما لا اختلاف في قوله تعالى"[(٣)].

بل قال: "يجوز من سمع حديثًا عن أبي عبد الله رضي الله عنه أن يرويه عن أبيه أو

---

(١) محمد تقي الحكيم/ الأصول العامة للفقه المقارن ص: ١٢٢.

(٢) أصول الكافي: كتاب فضل العلم، باب رواية الكتب والحديث: ١/ ٥٣، وسائل الشيعة: ١٨/ ٥٨.

(٣) المازندراني/ شرح جامع (على الكافي) ٢/ ٢٧٢.

عن أحد من أجداده، بل يجوز أن يقول قال الله تعالى"[(١)] وهذا صريح في جواز نسبة أقوال البشر إلى الله سبحانه. ثم ذكر أن بعض رواياتهم تدل على جواز ذلك بل أولويته"[(٢)].

وهذه الروايات صريحة في استساغتهم الكذب البواح الصراح حيث ينسبون -مثلًا- لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه ما لم يقله، بل قاله بعض أحفاده ممن لم يشتهر عنه العلم.

وهم يقولون بهذا القول من منطلقين خطيرين، وقاعدتين أساسيتين عندهم في هذه المسألة.

الأصل الأول: علم الأئمة يتحقق عن طريق الإلهام والوحي

علم الأئمة يتحقق -في نظرهم- عن طريق الإلهام وحقيقته كما قال صاحب الكافي في روايته عن أئمته "النكت في القلوب"[(٣)].

والإلهام ليس هو الوسيلة الوحيدة في هذا بل صرح صاحب الكافي أن هناك طرقًا أخرى غيره، حيث ذكر في بعض رواياته أن من وجوه علوم الأئمة"النقر في الأسماع"[(٤)] إذن هناك وسيلة أخرى غير الإلهام وهو نقر في الأسماع بتحديث الملك[(٥)]، وهو يسمع الصوت ولا يرى الملك.

وتتحدث رواية أخرى لهم عن أنواع الوحي للإمام فتذكر أن جعفرًا قال: "إن منا لمن ينكت في أذنه، وإن منا لمن يؤتى في منامه، وإن منا لمن يسمع

(١) الموضع نفسه من المصدر السابق.

(٢) الموضع نفسه من المصدر السابق.

(٣) أصول الكافي: ١/ ٢٦٤.

(٤) أصول الكافي: ١/ ٢٦٤.

(٥) المازندراني/ شرح جامع (على الكافي) ٦/ ٤٤.

صوت السلسلة تقع عليالطشت (كذا)، وإن منا لمن يأتيه صورة أعظم من جبرائيل وميكائيل"[١].

وثمة روايات أخرى في البحار بهذا المعنى[٢]. وكأنهم بهذا المقام أرفع من النبي الذي لا يأتيه إلا جبرائيل، وتأتي روايات تبين هذه الصورة التي أعظم من جبرائيل وميكائيل بأنها الروح[٣] عندهم، وقد خصها صاحب الكافي بباب مستقل بعنوان: باب الروح التي يسدد الله بها الأئمة، وذكر فيها ست روايات[٤] منها: "عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله تبارك وتعالى:(وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) قال: خلق من خلق الله ﷻ أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ يخبره ويسدده، وهو مع الأئمة من بعده"[٥]. ومعلوم أن الروح في هذه الآية المراد بها القرآن، كما يدل عليه لفظ الآية(أوحينا)، وقد سماه الله سبحانه روحًا لتوقف الحياة الحقيقية على الاهتداء به[٦]. وكأن هذه الدعاوى حول الوحي للإمام قد غابت عن مفيدهم (المتوفى سنة ٤١٣هـ) أو صنعت فيما بعد إذ رأينا المفيد يقرر الاتفاق والإجماع على "أنه من يزعم أن أحدًا بعد نبينا يوحى إليه فقد كفر وأخطأ.."[٧]، أو يكون قوله هذا تقية.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٦/ ٣٥٨، بصائر الدرجات: ص: ٦٣.

(٢) انظر بحار الأنوار: ٢٦/ ٥٣ وما بعدها.

(٣) وقد ورد في معاني الأخبار لابن بابويه تفسير للروح بأنها -كما يقول إمامهم-: "عمود من نور بيننا وبين الله ﷻ". عيون الأخبار: ص٣٥٤.

(٤) أصول الكافي: ١/ ٢٧٣-٢٧٤.

(٥) المصدر السابق: ١/ ٢٧٣.

(٦) شرح الطحاوية: ص ٤.

(٧) أوائل المقالات: ص ٣٩.

بل إن الأئمة تذهب إلى عرش الرحمن -كما يزعمون- كل جمعة لتطوف به فتأخذ من العلم ما شاءت. قال أبو عبد الله: "إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله صلى الله عليه وآله العرش ووافى الأئمة عليهم السلام معه ووافينا معهم، فلا ترد أرواحنا إلى أبداننا إلا بعلم مستفاد ولولا ذلك لأنفدنا"[(١)].

بل جاء في البحار تسع عشرة رواية تذكر بأن الله ناجى عليًا، وأن جبرائيل يملي عليه.."[(٢)].

الأصل الثاني: خزن العلم وإيداع الشريعة عند الأئمة

جاء في الكافي عن موسى بن جعفر قال -كما يزعمون- "مبلغ علمنا على ثلاثة وجوه: ماض وغابر وحادث، فأما الماضي فمفَسر، وأما الغابر فمزبور، وأما الحادث فقذف في القلوب ونقر في الأسماع وهو أفضل علمنا ولا نبي بعد نبينا"[(٣)]. وفي البحار، وبصائر الدرجات ثلاث روايات بهذا اللفظ[(٤)].

العلم الحادث هو ما تقدم بيانه، وهو كما أشارت الرواية يعد من أفضل علومهم، لأنه كما يقول بعض شيوخهم حصل لهم من الله بلا واسطة[(٥)]. أي من الله مباشرة بلا واسطة ملك من الملائكة، وهذا يشبه قول غلاة الصوفية مثل ابن عربي.

أما الماضي المفَسر والغابر المزبور فقد أوضح شارح الكافي معناهما بقوله يعني: الماضي الذي تعلق علمنا به، وهو كل ما كان مفسرًا لنا بالتفسير النبوي،

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٢٥٤، بحار الأنوار: ٢٦/ ٨٨-٨٩، بصائر الدرجات: ص ٣٦.

(٢) بحار الأنوار: ٣٩/ ١٥١-١٥٧.

(٣) أصول الكافي: ١/ ٢٦٤.

(٤) بحار الأنوار: ٢٦/ ٥٩، بصائر الدرجات ص ٩٢.

(٥) المازندراني/ شرح جامع: ٦/ ٤٤.

والغابر المزبور الذي تعلق علمنا به هو كل ما يكون مزبورًا مكتوبًا عندنا بخط علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وإملاء الملائكة مثل الجامعة وغيرها". فبهذا يتبين أن العلم المستودع عند الأئمة نوعان: كتب ورثوها عن النبي، أو علم تلقوه مشافهة منه ﷺ، وفحوى هذا الاعتقاد الذي يعتبر من ضرورات مذهبهم وأركان دينهم أن رسول الله ﷺ بلَّغ جزءًا من الشريعة وكتم الباقي وأودعه عليًا فأظهر عليٌّ منه جزءًا في حياته، وعند موته أودعه الحسن، وهكذا كل إمام يظهر منه جزءًا حسب الحاجة ثم يعهد بالباقي لمن يليه إلى أن صار عند إمامهم المنتظر.

هذه بعض الخطوط العامة لهذه العقيدة الخطيرة في مذهب الشيعة.

النقد: هذه المزاعم الخطيرة التي دونها الروافض في المعتمد من كتبهم تحمل أمورًا خطيرة: تحمل دعوى استمرار الوحي الإلهي، وهو باطل.. قامت الأدلة النقلية والعقلية على بطلانه، وأجمع المسلمون على أن "الوحي قد انقطع منذ مات النبي ﷺ، والوحي لا يكون إلا لنبي، وقد قال الله سبحانه:(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخَاتَم النبيين).

ثم هي تدعي أن الدين لم يكمل، وهي مخالفة صريحة لقول الله سبحانه: (اليوم أكملت لكم دينكم..). كما تزعم بأن رسول الهدى ﷺ لم يبلغ جميع ما أنزل إليه، وأنه لم يمتثل أمر ربه في قوله:(يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)، وهذا إزراء بحق رسول الله، ولهذا وجد من فرق الشيعة من يقع في رسول الله[1]..

وقد بلغ النبي ﷺ البلاغ المبين، وبين الدين، وأقام الحجة على العالمين، وأعلن ذلك بين المسلمين، ولم يسر لأحد بشيء من الشريعة ويستكتمه إياه،

---

(١) وهي طائفة العلبائية.

قال تعالى:(..لتبيننه للناس ولا تكتمونه) فهو بيان للناس وليس لفئة معينة من أهل البيت، وقال تعالى:(إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولائك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا..)، وقال:(وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه).

"فالدين قد تم وكمل لا يزاد فيه ولا ينقص منه ولا يبدل"[(١)] لا من إمام مزعوم، ولا من غائب موهوم.

وقد ودع المصطفى الدنيا بعد أن بلغ الدين كله وبين جميعه كما أمره ربه، وأعلم بذلك المسلمين أجمع "فلا سر في الدين عند أحد"[(٢)]. قال ﷺ:"تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك"[(٣)]،

---

(١) ابن حزم/ المحلى: ١/ ٢٦.

(٢) المصدر السابق: ١/ ١٥.

(٣) جزء من حديث أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجة (٤٢، ٤٣)، والدارمي (٩٥)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد: (١/ ٧٤ - ٧٥)، والآجري في الشريعة (ص ٤٦ - ٤٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٧ - ١٩)، وأبو عبيد في الخطب والمواعظ (٢)، والحاكم (١/ ٩٥)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٠٥)، وابن وضاح في البدع (ص ٢٣، ٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٢٠، ٢٢١ و ١٠/ ١١٤، ١١٥)، والطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٦٩)، والهروي في ذم الكلام (٦٩/ ١ - ٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤)، وفي الإعتقاد (ص ١١٣)، والخطيب في الموضح (٢/ ٤٢٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١١/ ٢٣٥/ ١) وغيرهم، والحديث صححه الترمذي، وصححه البزار كما في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٢٤)، وحسنه البغوي في شرح السنة، وقال أبو نعيم في المستخرج على صحيح مسلم: حديث جيد من صحيح حديث الشاميين كما في جامع العلوم والحكم (ص ٢٢٦)، وصححه ابن حبان والحاكم، وقال الجوزقاني في الأباطيل والمناكير (١/ =

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: "صدق الله ورسوله فقد تركنا على مثل البيضاء"[١]. وقال أبو ذر رضي الله عنه: لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا[٢]. وقال عمر رضي الله عنه: "قام فينا رسول الله مقامًا فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه"[٣]. وقال الإمام الشافعي: "فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها"[٤]. بل قال جعفر الصادق -كما تنقل كتب الشيعة نفسها-:"إن الله تعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء، حتى والله ما ترك الله شيئًا يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد أن يقول: لو كان هذا

=

٤٧٢): صحيح ثابت مشهور، وقال ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٦٤): ثابت صحيح، وقال شيخ الاسلام الانصاري هو أجود حديث في أهل الشام وأحسنه كما في تحفة الطالب (٤٦)، وصححه الضياء المقدسي في جزء في اتباع السنن واجتناب البدع (رقم ٢)، وصححه شيخ الإسلام في الإقتضاء (٢/ ٨٣)، وجوده المصنف في جامع العلوم والحكم (ص ٣١٣)، وقال العراقي في الباعث على الخلاص (رقم ١): صحيح مشهور، وقال ابن كثير في تحفة الطالب (رقم ٤٦): وصححه أيضا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، والدغولي، وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة وانظر الصحيحة (٩٣٧)، وحسنه العلامة الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٥/ ٢٤ - ٢٥)، وصححه الحويني في تخريج فضائل القرآن (ص ٦٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: حديث صحيح ورجاله ثقات.

(١) رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة: ١/ ٢٦.

(٢) روى هذا الأثر الإمام أحمد في مسنده: ٥/ ١٥٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: (وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده) ج٤ ص٧٣.

(٤) الرسالة: ص ٢٠.

أنزل في القرآن؟ إلا وقد أنزله الله فيه"[١]. فكل ما تنسبه الشيعة بعد هذا كذب.

والرافضة ليست على شيء في مخالفتها في هذا الأصل العظيم الذي "هو أصل أصول العلم والإيمان، وكل من كان أعظم اعتصامًا بهذا الأصل كان أولى بالحق علمًا وعملًا"[٢].

إن الحق الذي لا ريب فيه أن الله أكمل لنا ديننا (اليوم أكملت لكم دينكم..)، وكل دعوى بعد ذلك فهي باطل وزور...

وكل هذه الدعاوى أرادت منها هذه الزمرة إثبات ما تزعمه في الأئمة.. فزادت وغلت في ذلك.. فانكشف بذلك أمرها.. والشيء إذا تجاوز حده انقلب إلى ضده.

مرويات الصحابة

يقول محمد حسين آل كاشف الغطا -أحد مراجع شيعة هذا العصر- في تقرير مذهب طائفته في ذلك: "إن الشيعة لا يَعْتَبِرون من السنة (أعني الأحاديث النبوية) إلا ما صح لهم من طرق أهل البيت.. أما ما يرويه مثل أبي هريرة، وسمرة بن جندب، وعمرو بن العاص ونظائرهم فليس لهم عند الإمامية مقدار بعوضة"، فهو هنا يقرر أن مذهب الشيعة هو قبول "ما صح لهم من طرق أهل البيت"[٣] دون ما سواه من روايات صحابة رسول الله ﷺ، وإذا عرفنا أن الاثنى

(١) أصول الكافي: ١/ ٥٩.

(٢) معارج الوصول: ص ٢، وانظر: موافقة صحيح المنقول: ١/ ١٣.

(٣) قوله: "ما صح لهم من طرق أهل البيت" هذا تعبير فيه شيء من التمويه والخداع، لأن من لا يعرف طبيعة مذهب الشيعة يظن أن العمدة عندهم هو كلام رسول الله ﷺ الذي جاء من طرق آل البيت، في حين أنهم يعدون الواحد من الاثنى عشر كالرسول لا ينطق عن الهوى، وقوله كقول الله ورسوله، ولذلك يندر وجود أقوال الرسول في مدوناتهم، =

عشرية تعني بأهل البيت"الأئمة الاثنى عشر"، والذي أدرك الرسول ﷺمنهم وهو مميز هو أمير المؤمنين على، وعليه فهل يتمكن أمير المؤمنين من نقل سنة الرسول ﷺ كلها للأجيال.. كيف وهو لا يكون مع الرسول ﷺ في كل الأحيان.. فقد كان الرسول ﷺ يسافر ويستخلفه في بعض الأحيان كما في غزوة تبوك، كما كان على يسافر ورسول الله في المدينة فقد بعثه رسول الله إلى اليمن، وكذلك ألحقه بأبي بكر حين أرسله لأهل مكة، بالإضافة إلى حال الرسول ﷺ في بيته والتي يختص بنقلها زوجاته أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وهذا من أسرار وحكم تعددهن.. فإذن علي لا يمكن أن يستقل بنقل سنة رسول الله ﷺ وحده فكيف يقولون بأنهم لا يقبلون إلا ما جاء عن طريقه، كما أن هذه المقالة، وهي حصر نقل سنة رسول الله ﷺ بواحد يفضي إلى فقدان صفة التواتر في نقل شريعة القرآن، وسنة سيد الأنام ﷺ "ولهذا اتفق المسلمون على أنه لا يجوز أن يكون المبلغ عنه العلم واحدًا؛ بل يجب أن يكون المبلغون أهل التواتر الذين يحصل العلم بخبرهم للغائب.."[(١)].

=

لأنهم اكتفوا بما جاء عن أئمتهم، كما أن قوله"أهل البيت" إنما يعني بعضهم فليس كل آل البيت يصلحون -عندهم- طريقًا للرواية، لأن آل البيت ليسوا جميعًا أئمة، فالرواية عن ذرية فاطمة من ولد الحسن رضي الله عنه لا تعتبر روايتهم، لأن من بعد الحسن من ذريته ليسوا أئمة عندهم، وغاية أمرهم أن يعتبروا مجرد رواة يخضعون للرد والقبول، ولذلك كفر الاثنى عشرية كل من خرج وادعى الإمامة من آل البيت(ماعدا الأئمة الاثنى عشر عندهم). أصول الكافي: ١/ ٣٧٢ رقم ١، ٣.

ويلاحظ أن الطوسي في"الاستبصار" يرد روايات زيد بن علي(الاستبصار: ١/ ٦٦).

فتعبير آل كاشف الغطا فيه شيء من التمويه والخداع، لأن الكتاب وضع للدعاية للتشيع في العالم الإسلامي.

(١) منهاج السنة: ٤/ ١٣٨. ويقول شيخ الإسلام أيضًا: وخبر الواحد لا يفيد العلم بالقرآن

=

كما أن جل بلاد الإسلام بلغهم العلم عن رسول الله من غير طريق علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)] وعامة من بَلَّغَ عنه ﷺ من غير أهل بيته -فضلا أن يكون هو علي وحده- فقد بعث رسول الله ﷺ أسعد بن زرارة إلى المدينة يدعو الناس إلى الإسلام، ويعلم الأنصار القرآن، ويفقههم في الدين، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين في مثل ذلك، وبعث معاذًا وأبا موسى إلى اليمن، وبعث عتاب بن أسيد إلى مكة فأين قول من زعم أنه لا يبلغ عنه إلا رجل من أهل بيته"[(٢)].

وقد قال بعض أهل العلم إنه "لم يرو عن علي إلا خمسمائة وستة وثمانون حديثًا مسندة يصح منها نحو خمسين حديثًا"[(٣)].فهل سنة الرسول هي هذه فقط

=

والسنن المتواترة، وإذا قالوا ذلك الواحد المعصوم يحصل العلم بخبره قيل لهم فلابد من العلم بعصمته أولًا وعصمته لا تثبت بمجرد خبره قبل أن تعرف عصمته لأنه دور، ولا تثبت بالإجماع فإنه لا إجماع فيها، وعند الإمامية إنما يكون الإجماع حجة لأن فيهم الإمام المعصوم فيعود الأمر إلى إثبات عصمته بمجرد دعواه، فعلم أن عصمته لو كانت حقًا لابد أن تعلم بطريق آخر غير خبره.(منهاج السنة: ٤/ ١٣٩).

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "...فإن جميع مدائن الإسلام بلغهم العلم عن الرسول من غير علي، أما أهل المدينة ومكة فالأمر فيها ظاهر، وكذلك الشام والبصرة، فإن هؤلاء لم يكونوا يروون عن علي إلا شيئًا قليلًا، وإنما كان غالب علمه في الكوفة، كانوا يعلمون القرآن والسنة قبل أن يتولى عثمان فضلًا عن علي، وفقهاء أهل المدينة تعلموا الدين في خلافة عمر، وتعليم معاذ لأهل اليمن ومقامه فيهم أكثر من علي ولهذا روى أهل اليمن عن معاذ بن جبل أكثر مما رووا عن علي، وشريح وغيره من أكابر التابعين إنما تفقهوا على معاذ بن جبل، ولما قدم علي الكوفة كان شريح فيها قاضيًا وهو وعبيدة السلماني تفقها على غيره، فانتشر علم الإسلام في المدائن قبل أن يقدم علي الكوفة. (منهاج السنة: ٤/ ١٣٩).

(٢) منهاج السنة: ٣/ ١٥.

(٣) ابن حزم: الفصل: ٤/ ٢١٣، منهاج السنة: ٤/ ١٣٩..

ثالثًا: عقيدتهم في الإجماع

والشيعة لا ترى إجماع الصحابة والسلف أو إجماع الأمة إجماعًا، ولها في هذا الباب عقائد مخالفة نذكرها فيما يلي:

أولًا: الحجة في قول الإمام لا في الإجماع:

نقلت كتب الأصول عند أهل السنة أن الشيعة تقول: "إن الإجماع حجة لا لكونه إجماعًا، بل لاشتماله على قول الإمام المعصوم، وقوله بانفراده عندهم حجة"(١).

ونستطلع فيما يلي رأى الشيعة من مصادرها، يقول ابن المطهر الحلى: "الإجماع إنما هو حجة عندنا لاشتماله على قول المعصوم، فكل جماعة كثرت أو قلت كان قول الإمام في جملة أقوالها، فإجماعها حجة لا لأجل الإجماع"(٢) وبمثل هذا قال عدد من شيوخهم(٣).

وحتى يتجلى لك الفرق جليًا بين مذهب أهل السنة في القول بحجية الإجماع، وبين مذهب الشيعة في ذلك، فلك أن تتصور أنه لو صدر من إمامهم محمد الجواد، والذي قالوا بإمامته وهو ابن خمس سنين(٤): لو صدر منه وهو في هذا العمر قول أو رأى، أو نسب إليه عن طريق جماعة من الروافض أنه يقول في أمر شرعى بحكم، أو قول، وخالفته في ذلك الأمة الإسلامية جميعًا، فإن

---

(١) الإسنوي/ نهاية السول: ٣/ ٢٤٧.

(٢) ابن المطهر/ تهذيب الوصول إلى علم الأصول: ص٧٠، ط. طهران ١٣٠٨هـ.

(٣) انظر: المفيد/ أوائل المقالات ص ٩٩-١٠٠، قوامع الفضول ص٣٠٥، حسين معتوق/ المرجعية الدينية العليا ص١٦، وراجع كتب الأصول عندهم عامة.

(٤) انظر: بحار الأنوار: ٢٥/ ١٠٣.

الحجة في رأيه لا في إجماع الأمة[١].

وهذا مذهب في غاية البطلان لا يحتاج إلى مناقشة.

ولهذا قرر المفيد أن هذا مما شذت به طائفته، فقال: "وهذا مذهب أهل الإمامة خاصة، ويخالفهم فيه المعتزلة والمرجئة والخوارج وأصحاب الحديث..".

ثانيًا: ما خالف العامة ففيه الرشاد

الإجماع عند جمهور المسلمين ينظر فيه إلى إجماع الأمة، لأن الأمة لا يمكن أن تجتمع على ضلالة.قال تعالى: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا)[٢] وقال ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من

(١) وقد جاء في أصول الكافي القول بإمامة الإمام، ولو كان عمره ثلاث سنين. انظر: أصول الكافي، كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على أبي جعفر الثاني: ١/ ٣٢١، وانظر: المفيد/ الإرشاد ص٢٩٨، الطبرسي/ أعلام الورى: ص٣٣١. وفيهما "ولو كان ابن أقل من ثلاث سنين"، وبحار الأنوار: ٢٥/ ١٠٢-١٠٣.

(٢) النساء: ١١٥، فمن خرج عن إجماع الأمة فقد اتبع غير سبيل المؤمنين(انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٩/ ١٩٤)، ولذلك عول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته بهذه الآية الكريمة، وذلك بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها (تفسير ابن كثير: ١/ ٥٩٠). ولشيخ الإسلام تحقيق بديع حول هذه الآية والإجماع، (انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٩/ ١٧٨، ١٧٩، ١٩٢ وما بعدها، وانظر تفسير القاسمي: ٥/ ٤٥٩ وما بعدها).

قال الإمام ابن كثير قوله: (ويتبع غير سبيل المؤمنين) هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقًا، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفًا لهم =

خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس"[١].

وروى عنه ﷺ عدة روايات في أن هذه الأمة "لا تجتمع على ضلالة"[٢].

هذا بالنسبة لجمهور المسلمين، أما طائفة الشيعة فالنظر عندهم في الإجماع إلى الإمام لا إلى الأمة، والاعتبار بمن دان بإمامة الاثنى عشر بشرط أن يكون من ضمنهم الإمام، أو يكون إجماعهم كاشفًا عن قول الإمام -كما قدمنا- ولا يلتفت إلى اتفاق العلماء المجتهدين من أمة محمد ﷺ.

بل الأمر أعظم من عدم اعتبار إجماعهم، حيث تعدى ذلك إلى القول بأن مخالفة إجماع المسلمين فيه الرشاد، وصار مبدأ المخالفة أصلًا من أصول الترجيح عندهم، وأساسًا من أسس مذهبهم، وجاءت عندهم نصوص كثيرة تؤكد هذا المبدأ وتدعو إليه.

ففي أصول الكافي سؤال لأحد أئمتهم يقول: إذا "... وجدنا أحد الخبرين موافقًا للعامة (يعني أهل السنة) والآخر مخالفًا لهم بأي الخبرين يؤخذ؟ فقال:

=

وتعظيمًا لنبيهم، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك.. ومن العلماء من ادعى تواتر معناها (تفسير ابن كثير: ١/ ٥٩٠).

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد، باب قول النبي ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم" ٢/ ١٥٢٤. والحديث بهذا المعنى أخرجه أيضًا البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق" ٨/ ١٤٩.

(٢) روي عن عدة من الصحابة وقد ضعفه بعض العلماء، وقال الزركشي في المعتبر (ص ٦٢): "واعلم أن طرق هذا الحديث كثيرة، ولا يخلو من علة، وإنما أوردت منها ذلك؛ ليتقوى بعضها ببعض"، وقال السخاوي في المقاصد (٥٣٨): "مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع وغيره"، وحسنه العلامة الألباني بطرقه وشواهده في الصحيحة (١٣٣١)، وصححه في الذب الأحمد (رقم ١١).

ما خالف العامة ففيه الرشاد، فقلت (القائل هو الراوي) جعلت فداك، فإن وافقها الخبران جميعًا؟ قال: ينظر إلى ما هم إليه أميل إليه حكامهم وقضاتهم فيترك ويؤخذ بالآخر، قلت: فإن وافق حكامهم الخبرين جميعًا؟ قال: إذا كان ذلك فارجئه حتى تلقى إمامك، فإن الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات"[(١)].

وذكر ثقتهم الكليني أن من وجوه التمييز عند اختلاف رواياتهم قول إمامهم: "دعوا ما وافق القوم فإن الرشد في خلافهم"[(٢)].

وقال أبو عبد الله -كما يفترون- "إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فخذوا بما خالف القوم"[(٣)].

هذه النصوص في منتهى الخطورة، وهى من وضع زنديق ملحد أراد الكيد للأمة ودينها، وأراد أن يفتح للقوم بابًا واسعًا للخروج من الإسلام، حيث يتجهون إلى مخالفة كل أمر من الدين عليه أمة الإسلام. وكيف يدعو قوم هذه عقائدهم إلى التقريب؟! وكيف يزعمون إمكانية اللقاء مع أهل السنة الذين يكون الرشد في خلافهم؟!

عقيدتهم في أصول الدين[(٤)]

أولًا: عقيدتهم في توحيد الألوهية: وهذا التوحيد هو الذي دعت الرسل إليه،

(١) الكليني/ أصول الكافي: ١/ ٦٧-٦٨، ابن بابويه القمي/ من لا يحضره الفقيه: ٣/ ٥، الطوسي/ التهذيب: ٦/ ٣٠١، الطبرسي/ الاحتجاج ص١٩٤، الحر العاملي/ وسائل الشيعة: ١٨/ ٧٥-٧٦.

(٢) أصول الكافي/ خطبة الكتاب ص٨، وانظر: وسائل الشيعة: ١٨/ ٨٠.

(٣) وسائل الشيعة: ١٨/ ٨٥.

(٤) هذا الباب مختصر من كتاب أصول مذاهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية عرض ونقد، تأليف دكتور: ناصر ابن عبد الله بن على القفارى ج٢ ص٤٢٥ وما بعدها.

وهو أصل النجاة، وأساس قبول العبادات (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء).

فهل حافظت الشيعة على هذا الأصل الأصيل، والركن المتين، أم أن اعتقادها في الأئمة قد أثر على عقيدتها في توحيد الله سبحانه؟ هذا ما سنتناوله بالحديث فيما يلي، حيث سأعرض لسبعة مباحث -إن شاء الله-.

المبحث الأول: نصوص التوحيد جعلوها في ولاية الأئمة

أ. ففي قوله سبحانه:(ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك) جاء في الكافي -أصح كتاب عندهم في الرواية-، وفي تفسير القمي -عمدة تفسيرهم، وفي غيرها من مصادرهم المعتمدة[1]، تفسيرها بما يلي: "يعني إن أشركت في الولاية غيره"[2]، وفي لفظ آخر: "لئن أمرت بولاية أحد مع ولاية علي من بعدك ليحبطن عملك"[3]. وقد ساق صاحب البرهان في تفسير القرآن أربع روايات لهم في تفسير الآية السابقة بالمعنى المذكور[4].

ب. وفي قوله سبحانه: (ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا..).

وهذه الآية -كما هو واضح- تبين ما عليه أهل الشرك من إعراض عن عبودية الله وحده، وهي جواب للمشركين حين طلبوا الخروج من النار، والرجعة إلى الدنيا فقالوا: فهل إلى خروج من سبيل) فكان جوابهم: (ذلكم بأنه

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٤٢٧ رقم (٧٦)، تفسير القمي: ٢/ ٢٥١، وانظر البرهان: ٤/ ٨٣، وتفسير الصافي: ٤/ ٣٢٨.
(٢) هذا لفظ الكليني في الكافي.
(٣) هذا لفظ القمي في تفسيره.
(٤) البرهان: ٤/ ٨٣.

إذا دعي الله وحده كفرتم) وتركتم توحيده (وإن يشرك به) غيره من الأصنام أو غيرها (تؤمنوا) بالإشراك به وتجيبوا الداعي إليه[١].

ولكن الشيعة تروي عن أئمتها في تأويل الآية غير ما فهمه المسلمون منها.

تقول عن أبي جعفر في قوله ﷻ: (ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم) بأن لعلي ولاية (وإن يشرك به) من ليست له ولاية (تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير)[٢].

وهكذا لا تكاد تخلو آية من آيات القرآن في موضوع التوحيد والنهي عن الشرك إلا وراموا تحريفها وتعطيل معناها وتحويلها إلى ولاية علي والأئمة ولو كانت صريحة واضحة بينة.

وأخذوا من هذه النصوص وغيرها الحكم بتكفير من عداهم من المسلمين. قال المجلسي: "اعلم أن إطلاق لفظ الشرك والكفر -يعني في نصوصهم- على من لا يعتقد إمامة أمير المؤمنين والأئمة من ولده عليهم السلام، وفضل عليهم غيرهم يدل على أنهم كفار مخلدون في النار"[٣].

المبحث الثاني: الولاية أصل قبول الأعمال عندهم

إن التوحيد هو أصل قبول الأعمال، والشرك بالله سبحانه هو سبب بطلانها، قال تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، ولكن الشيعة جعلوا ذلك كله لولاية الإثنى عشر، وجاءت رواياته لتجعل المغفرة

---

(١) أنظر: تفسير الطبري: ٢٤/ ٤٨، تفسير البغوي: ٤/ ٩٣-٩٤، تفسير ابن كثير: ٤/ ٧٩-٨٠، السعدي: ٦/ ٥١٢.

(٢) البرقي/ كنز جامع الفوايد ص٢٧٧، بحار الأنوار: ٢٣/ ٣٦٤، وانظر تفسير القمي: ٢/ ٢٥٦، أصول الكافي: ١/ ٤٢١، البرهان: ٤/ ٩٣-٩٤، تفسير الصافي: ٤/ ٣٣٧.

(٣) بحار الأنوار: ٢٣/ ٣٩٠.

والرضوان والجنات لمن اعتقد الإمامة وإن جاء بقراب الأرض خطايا، والطرد والإبعاد والنار لمن اتقى الله لا يدين بإمامة الاثنى عشر، فقالوا "إن الله ﷻ نصب عليًا علمًا بينه وبين خلقه، فمن عرفه كان مؤمنًا، ومن أنكره كان كافرًا، ومن جهله كان ضالًا، ومن نصب معه شيئًا كان مشركًا، ومن جاء بولايته دخل الجنة[(١)].

المبحث الثالث: اعتقادهم أن الأئمة هم الواسطة بين الله والخلق

وإذا كان المسلمون يعتقدون أن الرسل هم الواسطة بين الله والناس في تبليغ أمر الله وشرعه، فإن الاثنى عشرية تعتقد أن هذا المعنى موجود في الأئمة، لأنهم يتلقون من الله -كما مر في عقيدتهم في السنة- وتزيد على ذلك فتجعل لهم من خصائص الألوهية ما يخرج بمن يؤمن به من دين التوحيد إلى دين المشركين، حين تجعل هداية الخلق إليهم، وأن الدعاء لا يقبل إلا بأسمائهم، وأنهم يستغاث بهم عند الشدائد والملمات، ويُحَج إلى مشاهدهم، والحج إليها أفضل من الحج إلى بيت الله، وكربلاء أفضل من الكعبة، ولزيارة أضرحة الأئمة مناسك وآداب سموها مناسك المشاهد، وجعلوها تُحَجُّ كما يُحَجُّ بيت الله الذي جعله الله قيامًا للناس، ويطاف بها كما يطاف بالبيت، وتتخذ قبلة كبيت الله الحرام. وسأعرض -إن شاء الله- لهذه المسائل من خلال النقل الأمين -بحول الله- من كتب الشيعة المعتمدة عندها.

المسألة الأولى: قولهم لا هداية للناس إلا بالأئمة

قال أبو عبد الله: "بلية الناس عظيمة إن دعوناهم لم يجيبونا، وإن تركناهم

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٤٣٧.

لم يهتدوا بغيرنا"[١].

المسألة الثانية: قولهم لا يقبل الدعاء إلا بأسماء الأئمة

قالوا: لا يفلح من دعا الله بغير الأئمة، ومن فعل ذلك فقد هلك.

جاء في أخبارهم عن الأئمة: "من دعا الله بنا أفلح، ومن دعا بغيرنا هلك واستهلك"[٢]. وبلغت جرأتهم في هذا الباب أن قالوا: "إن دعاء الأنبياء استجيب بالتوسل والاستشفاع بهم صلوات الله عليهم أجمعين"[٣].

وجاءت روايات كثيرة في هذا المعنى في عدد من مصادرهم المعتمدة وهذا "الزعم" الخطير يهدف بطريقة ماكرة، وأسلوب مقنع إلى "تأليه الأئمة" وأنهم ملجأ المحتاجين ومفزع الملهوفين وأمان الخائفين وقبلة الداعين، ولا تستجاب الدعوات إلا بذكر أسمائهم، فأي فرق بين هذا وبين ما يزعمه المشركون في أصنامهم؟

نعم هناك فرق، وهو أن المشركين في وقت الشدة يخلصون الدعاء لله أما هؤلاء فإنهم يشركون في الرخاء والشدة.

تقول إحدى رواياتهم" عن الرضا عليه السلام قال: لما أشرف نوح عليه السلام دعا الله بحقنا فدفع الله عنه الغرق، ولما رمى إبراهيم في النار دعا الله بحقنا فجعل الله النار عليه بردًا وسلامًا، وإن موسى عليه السلام لما ضرب طريقًا في البحر دعا الله بحقنا فجعله يبسًا، وإن عيسى عليه السلام لما أراد اليهود قتله دعا الله بحقنا فنجى من

(١) أمالي الصدوق: ص٣٦٣، بحار الأنوار: ٢٣/ ٩٩.

(٢) الطبري/ بشارة المصطفى: ص١١٧-١١٩، البحار: ٢٣/ ١٠٣، وسائل الشيعة: ٤/ ١١٤٢.

(٣) وهو أحد أبواب بحار الأنوار: ٢٦/ ٣١٩.

القتل فرفعه الله[١].

المسألة الثالثة: الاستغاثة بالأئمة

هناك"رقاع" تكتب، وتوضع على قبور الأئمة، لأن قبور الأئمة وأضرحتهم التي لا تنفع ولا تضر هي -بزعمهم-مناط الرجاء ومفزع الحاجات.قالوا: "إذا كان لك حاجة إلى الله ﷻ فاكتب رقعة على بركة الله، واطرحها على قبر من قبور الأئمة إن شئت، أو فشدها واختمها واعجن طينًا نظيفًا واجعلها فيه، واطرحها في نهر جار، أو بئر عميقة، أو غدير ماء، فإنها تصل إلى السيد عليه السلام وهو يتولى قضاء حاجتك بنفسه"[٢].

ثم ذكروا أنه يكتب في هذه الرقعة:"بسم الله الرحمن الرحيم كتبت إليك يا مولاي صلوات الله عليك مستغيثًا...، فأغثني يا مولاي صلوات الله عليك عند اللهف، وقدم المسألة لله ﷻ في أمري قبل حلول التلف وشماتة الأعداء، فبك بسطت النعمة عليّ، واسأل الله(الخطاب للإمام في قبره) جل جلاله لي نصرًا عزيزًا.."[٣].

المسألة الرابعة: قولهم إن الحج إلى المشاهد أعظم من الحج إلى بيت الله

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "حدثني الثقات أن فيهم من يرى الحج إلى المشاهد أعظم من الحج إلي البيت العتيق، فيرون الإشراك بالله أعظم من عبادة الله وحده، وهذا من أعظم الإيمان بالطاغوت"[٤].

هذه المسألة التي قال عنها عالم من أكبر علماء أهل السنة المعنيين بتتبع أمر

---

(١) بحار الأنوار: ٢٦/ ٣٢٥.

(٢) بحار الأنوار: ٩٤/ ٢٩.

(٣) بحار الأنوار: ٩٤/ ٢٩-٣٠.

(٤) منهاج السنة: ٢/ ١٢٤.

الرافضة والرد عليهم بأنه قد وصله خبرها عن طريق بعض الثقات هي اليوم مقررة ومعلنة في كتب الاثنى عشرية في عشرات من الروايات تنص على أن زيارة المشهد أفضل من الحج إلى بيت الله الحرام.

جاء في الكافي وغيره:"إن زيارة قبر الحسين تعدل عشرين حجة، وأفضل من عشرين عمرة وحجة"(١).

زيارة كربلاء يوم عرفة أفضل من سائر الأيام

مما يكشف أن هذه الروايات هي ثمرة مؤامرة ضد الأمة لصرفها عن بيت ربها والعمل على إفساد أمرها وتفريق إجتماعها.. والحيلولة دون تلاقيها في هذا المؤتمر السنوي العام..أن هذه الروايات خصت زيارة الحسين يوم عرفة بفضل خاص، تقول:"من أتى قبر الحسين عارفًا بحقه في غير يوم عيد كتب الله له عشرين حجة وعشرين عمرة مبرورات مقبولات، ومن أتاه في يوم عيد كتب الله له مائة حجة ومائة عمرة..ومن أتاه يوم عرفة عارفًا بحقه كتب الله له ألف حجة وألف عمرة مبرورات متقبلات، وألف غزوة مع نبي مرسل أو إمام عادل"(٢).

المبحث الرابع: قولهم إن الإمام يُحَرِّم ما يشاء ويُحِلُّ ما يشاء

من أصول التوحيد: الإيمان بأن الله سبحانه هو المشرع وحده سبحانه، يحل ما يشاء ويحرم ما يشاء لا شريك له في ذلك، ورسل الله يبلغون شرع الله لعباده، ومن ادعى أن له إمامًا يحل ما يشاء ويحرم ما يشاء فهو داخل في قوله سبحانه:(أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله)، فأشرك مع الله غيره.

---

(١) فروع الكافي: ١/ ٣٢٤.

(٢) انظر الكليني: / فروع الكافي: ١/ ٣٢٤.

والشيعة تزعم في رواياتها أن الله سبحانه وتعالى "خلق محمدًا وعليًا وفاطمة فمكثوا ألف دهر ثم خلق جميع الأشياء فأشهدهم خلقها وأجرى طاعتهم عليها وفوض أمورهم إليها، فهم يحلون ما يشاءون ويحرمون ما يشاءون"[١].

المبحث الخامس: قولهم إن تراب قبر الحسين شفاء من كل داء

تقول الشيعة -مخالفة بذلك النقل والعقل والطب والحكمة- بأن تربة الحسين هي الكفيلة لشفاء الأدواء والأسقام بشتى أنواعها وأشكالها.

ولقد ذكر صاحب البحار ما يصل إلى ثلاث وثمانين رواية عن تربة الحسين وفضلها وآدابها وأحكامها، فجعلت هذه الروايات من هذه التربة البلسم الشافي من كل داء، والحصن الحصين من كل خوف[٢]، يشرب منها المريض فيتحول إلى صحيح، كأن لم يكن به بأس[٣]. ويحنك بها الطفل فتكون مأمنه من الأخطار[٤]، وتوضع مع الميت في قبره لتقيه من العذاب، ويمسك بها الرجل يعبث بها ساهيًا يقلبها فيكتب له أجر المسبحين، لأنها تسبح بيد الرجل من غير

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٤٤١، بحار الأنوار: ٢٥/ ٣٤٠.

(٢) جاء في أخبارهم "...عن الحارث بن المغيرة قال: قلت لأبي عبد الله -عليه السلام- إني رجل كثير العلل والأمراض، وما تركت دواء إلا تداويت به، فقال لي: أين أنت من طين قبر الحسين بن علي فإنه شفاء من كل داء وأمنًا من كل خوف.(أمالي الطوسي: ١/ ٣٢٦، وبحار الأنوار: ١٠١/ ١١٩.

(٣) وقد اخترعوا في ذلك حكايات وأساطير، وكل واحد من أصحاب هذه الحكايات يسوق قصة مرضه، وتعذر شفائه، وما أن يأكل من طين الحسين حتى ينهض كأن لم يكن به علة، يقول أحدهم في نهاية حكايته: "فلما أستقر الشراب في جوفي فكأنما نشطت من عقال".(بحار الأنوار: ١٠١/ ١٢٠-١٢١، كامل الزيارات: ص٢٧٥).

(٤) قال أبو عبد الله: "حنكوا أولادكم بتربة الحسين فإنه أمان".(كامل الزيارات ص٢٧٨، بحار الأنوار: ١٠١/ ١٢٤).

أن يسبح[١].

المبحث السادس: دعاؤهم بالطلاسم والرموز، واستغاثتهم بالمجهول

من أمثلة تلك الطلاسم قالوا:"حرز لأمير المؤمنين صلوات الله عليه للمسحور، والتوابع (الجني يتبع الإنسان حيث يذهب) والمصروع والسم والسلطان والشيطان وجميع ما يخافه الإنسان.. وهذه كتابته:

بسم الله الرحمن الرحيم أي كنوش أي كنوش أرشش عطنيطنيطح يا مطيطرون فريالسنون ما وما ساما سويا طيطشا لوش خيطوش..إلى آخر هذه الطلاسم ثم رسم رموزًا غريبة على شكل خطوط متداخلة..ومن عوذات الأئمة وأحرازهم بالألفاظ الغريبة قولهم كما يزعمون:"بيا آهيا شراهيا.."..إلخ[٢]

المبحث السابع: استخارتهم بما يشبه أزلام الجاهلية

وقد أدخلت طائفة الاثنى عشرية الاستخارة بالأزلام في دينها وأضافت عليها بعض الإضافات وسموها الرقاع. وعقد الحر العاملي لهذا بابًا بعنوان"باب استحباب الاستخارة بالرقاع وكيفيتها"[٣]، وذكر في هذا الباب جملة من أحاديثهم في ذلك بلغت خمس روايات، أما المجلسي فقد ذكر أنواعًا من الاستخارات تدخل في هذا المعنى في أبواب ثلاثة وهي: باب الاستخارة

---

(١) جاء في تهذيب الأحكام للطوسي "عن محمد الحميري قال: كتبت إلى الفقيه (إمامهم المنتظر) أسأله هل يجوز أن يسبح الرجل بطين القبر؟ وهل فيه فضل؟ فأجاب -وقرأت التوقيع ومنه نسخت-: تسبح به فما من شيء من التسبيح أفضل منه، ومن فضله أن المسبح ينسى التسبيح ويدير السبحة تكتب له ذلك التسبيح (تهذيب الأحكام: ٦/ ٧٥، بحار الأنوار: ١٠١/ ١٣٢-١٣٣). وفي رواية أخرى عندهم: "إذا قلبها ذاكرًا الله له عشرين حسنة" (تهذيب الأحكام ٦/ ٧٥، بحار الأنوار ١٠١/ ١٣٢).

(٢) بحار الأنوار: ٩٤/ ١٩٣، ٢٢٩،٢٢٢، ٢٦٥، ٢٩٧.

(٣) وسائل الشيعة: ٥/ ٢٠٨-٢١٣.

بالرقاع، وباب الاستخارة بالبنادق، وباب الاستخارة بالسبحة والحصى[١].

ثانيًا: عقيدتهم في توحيد الربوبية

لقد بين أهل العلم أن الإيمان بربوبية الله سبحانه أمر قد فطر عليه البشر، وأن الشرك في الربوبية باعتبار إثبات خالقَين متماثلَين في الصفات والأفعال لم يثبت عن طائفة من الطوائف في التاريخ البشري، وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثَم خالقًا خلق بعض العالم[٢].

ولهذا كان السؤال هل تأثر هذا الأصل في دين الشيعة، بمعنى هل وجد الإشراك الجزئي عندهم، باعتبار ما يولونه الأئمة من اهتمام، وما يعطونهم من أوصاف، وما يضيفونه عليهم من ألقاب؟ سيتبين هذا من خلال التتبع لما جاء عن أئمتهم في كتبهم المعتمدة، ورواياتهم المعتبرة عندهم، حيث أعرض خمسة مباحث: أولها: قولهم أن الرب هو الإمام، وثانيها: اعتقادهم أن الدنيا والآخرة للإمام، وفي المبحث الثالث: قولهم إن السحاب والرعد هو من أمر الأئمة، ومسخر للأئمة، وهو ما أسميته (إسناد الحوادث الكونية إلى الأئمة)، وفي المبحث الرابع: قولهم بحلول جزء إلهي في الأئمة، وفي الخامس: زعمهم تأثير الأيام بالنفع والضر.

المبحث الأول: قولهم أن الرب هو الإمام

جاء في أخبارهم أن عليًا -كما يفترون عليه- قال: أنا رب الأرض الذي يسكن الأرض به[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ٩١/ ٢٢٦-٢٥١.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/ ٩٦-٩٧، شرح العقيدة الطحاوية: ص١٧-١٨.

(٣) مرآة الأنوار: ص٥٩، وقد نقل ذلك عن بصائر الدرجات للصفار.

المبحث الثاني: قولهم بأن الدنيا والآخرة كلها للإمام يتصرف بها كيف يشاء

عقد صاحب الكافي لهذا بابًا بعنوان: "باب أن الأرض كلها للإمام"، ومما جاء فيه: عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "أما علمت أن الدنيا والآخرة للإمام يضعها حيث يشاء ويدفعها إلى من يشاء جائز له ذلك من الله.."[١].

المبحث الثالث: إسناد الحوادث الكونية إلى الأئمة

كل ما يجري في هذا الكون فهو بأمر الله وتقديره لا شريك له سبحانه، لكن في كتب الاثنى عشرية ما يثير العجب في هذا حيث تدعي بأن لأئمتها أمرًا في ذلك، تقول رواياتهم:

"عن سماعة بن مهران قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فأرعدت السماء وأبرقت، فقال أبو عبد الله عليه السلام: أما إنه ما كان من هذا الرعد ومن هذا البرق فإنه من أمر صاحبكم، قلت من صاحبنا؟ قال: أمير المؤمنين عليه السلام"[٢]

المبحث الرابع: الجزء الإلهي الذي حل بالأئمة

وترد عندهم روايات تدعي بأن جزءًا من النور الإلهي حل بعلي.

قال أبو عبد الله: "ثم مَسَحَنا بيمينه فأفضى نوره فينا". "...ولكن الله خلطنا بنفسه.."[٣].

وهذا الجزء الإلهي الذي في الأئمة -كما يزعمون- أعطوا به قدرات مطلقة، ولذلك فإن من يقرأ ما يسمونه معجزات الأئمة وتبلغ مئات الروايات يلاحظ أن الأئمة أصبحوا كرب العالمين -تعالى الله وتقدس عما يقولون- في الإحياء

(١) انظر: أصول الكافي: ١/ ٤٠٧-٤١٠.
(٢) المفيد/ الاختصاص ص٣٢٧، بحار الأنوار: ٢٧/ ٣٣، البرهان: ٢/ ٤٨٢.
(٣) أصول الكليني: ١/ ٤٤٥،٤٤٢،٤٤١،٤٤٠.

والإماتة والخلق والرزق[1].. إلا أن رواياتهم تربط هذا بأنه من الله كنوع من التلبيس والإيهام.

فهذا -مثلًا- عليّ يُحيِي الموتى: جاء في الكافي عن أبي عبد الله قال: إن أمير المؤمنين له خؤولة في بني مخزوم وإن شابًا منهم أتاه فقال: يا خالي إن أخي مات وحزنت عليه حزنًا شديدًا، قال فقال: تشتهي أن تراه؟ قال: بلى، قال: فأرني قبره، قال فخرج ومعه بردة رسول الله متزرًا بها، فلما انتهى إلى القبر تلملمت شفتاه ثم ركضه برجله فخرج من قبره وهو يقول بلسان الفرس، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ألم تمت وأنت رجل من العرب؟ قال: بلى ولكنا متنا على سنة فلان وفلان (أي أبي بكر وعمر) فانقلبت ألسنتنا"[2]. بل إن عليًا -كما يزعمون- أحيى موتى مقبرة الجبانة بأجمعهم[3]، وضرب الحجر فخرجت منه مائة ناقة[4].

هذا سلمان -كما يفترون- "لو أقسم أبو الحسن على الله أن يحيي الأولين والآخرين لأحياهم"[5].

هذا الغلو هو بلا شك ارتضعوه من أفاويق المذاهب الوثنية التي تدعي في أصنامها ومعبوداتها ما للرب سبحانه من أفعال، ويكفي في فساده مجرد تصوره، إذ هو مخالف للنقل والعقل، والسنن الكونية كما هو منقوض بواقع الأئمة وإقراراتهم، ورسول الهدى صلى الله عليه وسلم يقول -كما أمره ربه- (قل لا أملك لنفسي نفعًا

---

(١) انظر: بحار الأنوار، باب جوامع معجزاته(يعنون عليًا): ٤٢/ ١٧-٥٠، وفيه ١٧ رواية.

(٢) أصول الكافي: ١/ ٤٥٧، وانظر بحار الأنوار: ٤١/ ١٩٢.

(٣) بحار الأنوار: ٤١/ ١٩٤.

(٤) المصدر السابق: ٤١/ ١٩٨.

(٥) السابق: ٤١/ ٢٠١.

ولا ضرًا إلا ما شاء الله).

المبحث الخامس: قولهم بتأثير الأيام والليالي بالنفع والضر

قال الله سبحانه: (وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون). فالضر والنفع من الله وحده، وليس للأنواء والأيام والليالي وغيرها تأثير في ذلك، والشيعة تخالف هذا بدعواها أن في بعض الأيام شؤمًا لا تقضى فيه الحاجات:

قال أبو عبد الله: "لا تخرج يوم الجمعة في حاجة، فإن كان يوم السبت وطلعت الشمس فاخرج في حاجتك"، وقال: "السبت لنا، والأحد لبني أمية"[1].

ثالثًا: عقيدتهم في أسماء الله وصفاته

المبحث الأول: الغلو في الإثبات (التجسيم)

اشتهرت ضلالة التجسيم بين اليهود، ولكن أول من ابتدع ذلك بين المسلمين هم الروافض، ولهذا قال الرازي: "اليهود أكثرهم مشبهة، وكان بدء ظهور التشبيه في الإسلام من الروافض مثل هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، ويونس بن عبد الرحمن القمي، وأبي جعفر الأحول[2].

وكل هؤلاء الرجال المذكورين هم ممن تعدهم الاثنى عشرية في الطليعة من شيوخها، والثقات من نقلة مذهبها.

وقد حدد شيخ الإسلام أول من تولى كبر هذه الفرية من هؤلاء فقال: "وأول من عُرِفَ في الإسلام أنه قال إن الله جسم هو هشام بن الحكم"[3].

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ١/ ٩٥-٢/ ٣٤٢، وسائل الشيعة: ٨/ ٢٥٣.

(٢) اعتقاد فرق المسلمين والمشركين: ص٩٧.

(٣) منهاج السنة: ١/ ٢٠.

وقد نقل أصحاب الفرق كلمات مغرقة في التشبيه والتجسيم منسوبة إلى هشام بن الحكم وأتباعه تقشعر من سماعها جلود المؤمنين. يقول عبد القاهر البغدادي:"زعم هشام بن الحكم أن معبوده جسم ذو حد ونهاية وأنه طويل عريض عميق وأن طوله مثل عرضه..."[١].

وقال ابن حزم: "قال هشام إن ربه سبعة أشبار بشبر نفسه"[٢].

وقد يقال إن ما سلف من أقوال عن هشام وأتباعه هي من نقل خصوم الشيعة فلا يكون حجة عليهم. مع أن تلك النقول عن أولئك الضُّلال قد استفاضت من أصحاب المقالات على اختلاف اتجاهاتهم، وهم أصدق من الرافضة مقالًا، وأوثق نقلًا، وهي تثبت أن الرافضة هم الأصل في إدخال هذه البدعة على المسلمين.

لكن القول بأن نسبة التجسيم إليهم قد جاءت من الخصوم، ولا شاهد عليها من كتب الشيعة قد يتوهمه من يقرأ إنكار المنكرين لذلك من الشيعة، وإلا فالواقع خلاف ذلك.

وقد كان لهشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي بالذات دور ظاهر في اتجاه التجسيم عند الشيعة كما تذكر ذلك مجموعة من رواياتهم.جاء في أصول الكافي وغيره".. عن محمد بن الرخجي قال"كتبت إلي أبي الحسن عليه السلام أسأله عما قال هشام بن الحكم في الجسم وهشام بن سالم في الصورة فكتب دع عنك حيرة الحيران واستعذ بالله من الشيطان ليس القول ما قال الهاشمان[٣].

---

(١) الفرق بين الفرق: ص٦٥.

(٢) الفصل: ٥/ ٤٠.

(٣) أصول الكافي: ١/ ١٠٥، وبحار الأنوار: ٣/ ٢٨٨.

وكان الأئمة يتبرءون منهما ومن قولهما، وحينما جاء بعض الشيعة إلى إمامهم وقال له: "إني أقول بقول هشام "قال إمامهم (أبو الحسن علي بن محمد)" ما لكم ولقول هشام؟ إنه ليس منا من زعم أن الله جسم ونحن منه براء في الدنيا والآخرة"[١].

فأنت ترى أن كبار متكلميهم قد غلوا في الإثبات، حتى شبهوا الله جل شأنه بخلقه وهو كفر بالله سبحانه، لأنه تكذيب لقوله سبحانه (ليس كمثله شيء) وعطلوا صفاته اللائقة به سبحانه فوصفوه بغير ما وصف به نفسه، وإمامهم كان ينكر عليهم هذا المنهج الضال، ويأمر بالالتزام في وصف الله، بما وصف به نفسه، ورواياتهم في هذا الباب كثيرة[٢].

فهذا الاتجاه إلى الغلو في الإثبات، قد طرأ على الإثبات الحق الذي عليه علماء أهل البيت وأصبح المذهب يتنازعه اتجاهان اتجاه التجسيم الذي تزعمه هشام، واتجاه التنزيه الذي عليه أهل البيت كما تشير إليه روايات الشيعة نفسها، وكما هو"ثابت مستفيض في كتب أهل العلم"[٣].

المبحث الثاني: التعطيل عندهم

بعد هذا اللغو في الإثبات بدأ تغيير المذهب في أواخر المائة الثالثة حيث تأثر بمذهب المعتزلة في تعطيل الباريء سبحانه من صفاته الثابتة له في الكتاب والسنة، وكثر الاتجاه إلى التعطيل عندهم في المائة الرابعة لما صنف لهم المفيد

(١) ابن بابويه/ التوحيد: ص١٠٤، بحار الأنوار: ٣/ ٢٩١.

(٢) لمعرفة المزيد من الشواهد انظر كتاب: التوحيد لابن بابويه، باب أنه ﷻ ليس بجسم ولا صورة ص: ٩٧-١٠٤، وفيه عشرون رواية، وأصول الكافي: باب النهي عن الجسم والصورة: ١/ ١٠٤-١٠٦، وفيه ثماني روايات.

(٣) منهاج السنة: ٢٠/ ١٤٤.

وأتباعه كالموسوي الملقب بالشريف المرتضى، وأبي جعفر الطوسي، واعتمدوا في ذلك على كتب المعتزلة. وكثيرًا مما كتبوه في ذلك منقول عن المعتزلة نقل المسطرة، وكذلك ما يذكرونه في تفسير القرآن في آيات الصفات والقدر ونحو ذلك هو منقول من تفاسير المعتزلة[(١)].

ولهذا لا يكاد القارىء لكتب متأخري الشيعة يلمس بينها وبين كتب المعتزلة في باب الأسماء والصفات فرقا، فالعقل -كما يزعمون- هو عمدتهم فيما ذهبوا إليه، والمسائل التي يقررها المعتزلة في هذا الباب أخذ بها شيوخ الشيعة المتأخرون كمسألة خلق القرآن، ونفى رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، وإنكار الصفات.

بل إن الشبهات التي يثيرها المعتزلة في هذا، هي الشبهات التي يثيرها شيوخ الشيعة المتأخرون.

وهؤلاء المعطلة قد رد عليهم أئمة الإسلام وبينوا باطلهم ولن نكرر القول ونبديء فيه ونعيد.. ولكن الذي يمكن أن يضاف في هذا المجال بعد ظهور الكتاب الشيعي وانتشاره هو تصوير هذه المسألة من كتب الشيعة ومن خلال روايات الشيعة عن أئمتها، وكلام شيوخهم المبني على مجاراة أهل التعطيل.

وسأختارمسألتين في ذلك:

المسألة الأولى: قولهم بأن القرآن مخلوق

يقول آية الشيعة محسن الأمين: "قالت الشيعة والمعتزلة القرآن مخلوق"[(٢)].

وهذا بناءً على إنكارهم لصفة الكلام لله وزعمهم أن الله سبحانه "يوجد

---

(١) انظر منهاج السنة: ١/ ٢٢٩،٣٥٦.

(٢) أعيان الشيعة: ١/ ٤٦١.

الكلام في بعض مخلوقاته كالشجرة حين كلم موسى، وكجبرائيل حين أنزله بالقرآن"[١]. هذا بعض ما يقوله شيوخهم في هذا الأمر[٢]. وإذا رجعت إلى الروايات التي ينقلونها عن (آل البيت) وجدتها تخالف في أكثرها ما يذهب إليه هؤلاء، فمن ذلك: ما جاء في تفسير العياشي: "عن الرضا أنه سئل عن القرآن فقال... إنه كلام الله غير مخلوق.."[٣].

وأول من قال بهذه المقالة الجعد بن درهم[٤].

قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: "أول من أتى بخلق القرآن جعد بن درهم[٥]، فهو أول من قال بمبدأ التعطيل في هذه الأمة ثم تلقى ذلك عنه الجهم بن صفوان"[٦].

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٤٥٣.

(٢) وقد سئل شيخ الإسلام عمن قال ذلك فأفتى بكفره وأنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وقال بأنه يكفر ولو قال: أنا لا أكذب قوله تعالى: (وكلم اللهُ موسى تكليمًا)[النساء: ١٦٤]، بل أقر بأن هذا اللفظ حق ولكن أنفي معناه وحقيقته، وقال بأن هؤلاء هم الجهمية الذين اتفق السلف والأئمة على أنهم من شر أهل الأهواء والبدع، حتى أخرجهم كثير من الأئمة عن الثنتين والسبعين فرقة (انظر: مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية: ١/ ٤٧٤، أو مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٢/ ٥٠٢، وقال في موضع آخر إن سلف الأمة وأئمتها كفروا الجهمية الذين قالوا: إن الله خلق كلامًا في بعض الأجسام سمعه موسى وفسر التكليم بذلك: (مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٢/ ٥٣٣).

(٣) العياشي: ١/ ٨.

(٤) قال ابن حجر: الجعد بن درهم عداده في التابعين، مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسى فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر، وللجعد أخبار كثيرة في الزندقة: (لسان الميزان: ٢/ ١٠٥، ميزان الاعتدال: ١/ ٣٩٩، ابن نباتة: سرح العيون: ص٢٩٣-٢٩٤.

(٥) اللالكائي/ شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ص٣٨٢.

(٦) انظر: ابن تيمية: بيان تلبيس الجهمية: ١/ ١٢٧، مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٥/ ٢٠، =

ويشير البعض إلى أن هذه المقالة ترتد أصولها إلى مؤثرات أجنبية، فقد ذكر ابن الأثير وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهما أن الجعد أخذ ذلك -أي القول بخلق القرآن- عن أبان بن سمعان، وأخذه هذا من طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، وكان يقول بخلق التوراة، وكان طالوت زنديقًا وهو أول من صنف لهم في ذلك ثم أظهره الجعد بن درهم[١]، كما يذكر الخطيب البغدادي أن والد بشر المريسي وهو أحد كبار القائلين بخلق القرآن من المعتزلة كان يهوديًا[٢].

المسألة الثانية: الرؤية

لقد ذهبت الشيعة الإمامية بحكم مجاراتها للمعتزلة إلى نفي الرؤية وجاءت روايات عديدة ذكرها ابن بابويه في كتابه التوحيد وجمع أكثرها صاحب البحار تنفي ما جاءت به النصوص من رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة فتفتري -مثلًا- على أبي عبد الله جعفر الصادق بأنه سئل "عن الله تبارك وتعالى هل يرى في المعاد؟ فقال: سبحان الله وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا..إن الأبصار لا تدرك إلا ما له لون وكيفية، والله خالق الألوان والكيفية"[٣].

المبحث الثالث: وصفهم الأئمة بأسماء الله وصفاته

لقد خرجوا ببدعة ثالثة أحدثوها في أمة محمد ﷺ، حين زعموا أن الأئمة

=

وانظر: درء تعارض العقل والنقل: ٥/ ٢٤٤.

(١) انظر: ابن الأثير/ الكامل: ٥/ ٢٩٤، ابن تيمية/ الحموية: (ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٥/ ٢٠-٢١.

(٢) تاريخ بغداد: ٧/ ٦١.

(٣) بحار الأنوار: ٤/ ٣١ وعزاه إلى أمالي الصدوق.

هم أسماء الله، فأسماء الله سبحانه التي ذكرها في كتابه هي -على حد زعمهم- عبارة عن الأئمة الاثنى عشر، وهذا يتضمن تعطيل الله من أسمائه الحسنى، واعطاءها بعض البشر، ويزعمون أن النص من "المعصوم"قد ورد بذلك وهذا إفك عظيم افتروه فويل لهم مما يفترون، روى الكليني في أصول الكافي عن أبي عبد الله في قول الله ﷻ: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) قال: "نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملًا إلا بمعرفتنا"(١).

الله سبحانه يقول: (ولله الأسماء الحسنى) وهؤلاء يقولون نحن الأسماء الحسنى، فأي محاداة لله وكتابه أعظم من هذا، إن من معين هذه النصوص المظلمة تستقي طوائف الباطنية الملاحدة والتي تذهب لتأليه الأئمة..ومن مائها الآسن ترتوي.

وزعموا أن أمير المؤمنين عليًا قال: "أنا عين الله وأنا يد الله وأنا جنب الله وأنا باب الله"(٢). وقال -كما يفترون-:"أنا علم الله وأنا قلب الله الواعي، ولسان الله الناطق، وعين الله الناظرة، وأنا جنب الله وأنا يد الله"(٣).

وقد ذكر المجلسي ستًا وثلاثين رواية تقول أن الأئمة هم وجه الله ويد الله(٤).

وفي رجال الكشي وغيره قال علي -كما يفترون- "أنا وجه الله، أنا جنب الله، وأنا الأول، وأنا الآخر، وأنا الظاهر، وأنا الباطن"(٥).

---

(١) الأعراف: ١٨٠، أصول الكافي: ١/ ١٤٣-١٤٤.
(٢) أصول الكافي: ١/ ٤١٥، بحار الأنوار: ٢٤/ ١٩٤.
(٣) ابن بابويه/ التوحيد: ص١٦٤، بحار الأنوار: ٢٤/ ١٩٨.
(٤) بحار الأنوار: ٢٤/ ١٩١-٢٠٣.
(٥) رجال الكشي: ص٢١١ رقم(٣٧٤)، وانظر: بحار الأنوار: ٢٤/ ١٨٠، بصائر الدرجات: ص١٥١.

كما أنهم أضافوا إلى الأئمة أيضًا بعض صفات الرب سبحانه كالعلم بالغيب، وعقد لذلك صاحب الكافي بابًا بعنوان: "باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم الشيء"، وضمنه طائفة من رواياتهم. وعقد بابًا آخر بعنوان:"باب أن الأئمة إذا شاءوا أن يعلموا علموا "[1]، وذكر فيه جملة من أحاديثهم.

وقد عثرت وسط هذا الركام من هذه الدعاوى الغبية الملحدة حول الأئمة على بعض النصوص التي روتها كتب الشيعة والتي تجرد الأئمة من هذه الصفات التي خلعوها عليهم وهي لا تنبغي إلا للحق جل شأنه. قال أبو عبد الله -كما يروي صاحب الكافي-:"يا عجبًا لأقوام يزعمون أنا نعلم الغيب، ما يعلم الغيب إلا الله ﷻ، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة فهربت مني، فما علمت في أي بيوت الدار هي.."[2]. ولو كان أبو عبد الله كما يزعم الكليني في أبوابه التي عقدها بعد ذكره لهذا النص، لو كان يعلم ما يكون ولا يخفى عليه الشيء وإذا شاء أن يعلم علم لم يخف عليه موضع الجارية، وروايات الشيعة تكشف نفسها بنفسها وتتناقض نصوصها.

رابعًا: اعتقادهم في الإيمان وأركانه:

المبحث الأول: قولهم في الإيمان والوعد والوعيد

المسألة الأولى: مفهوم الإيمان عندهم

لقد أدخل الاثنا عشرية الإيمان بالأئمة الاثنى عشر في مسمى الإيمان[3].

---

(١) انظر: أصول الكافي: ١/ ٢٦٢،٢٦٠،٢٥٨.

(٢) أصول الكافي: ١/ ٢٥٧.

(٣) وقد نسب الأشعري هذا المذهب إلى جمهور الرافضة، انظر: مقالات الإسلاميين: ١/ ١٢٥.

ولهذا قال ابن المطهر الحلي: إن"مسألة الإمامة(إمامة الاثنى عشر).. هي أحد أركان الإيمان المستحق بسببه الخلود في الجنان والتخلص من غضب الرحمن"[١].

المسألة الثانية: الشهادة الثالثة

وبمقتضى هذا الإيمان الذي لا يعرفه سوى الاثنى عشرية، فإنهم اخترعوا شهادة ثالثة، هي شعار هذا الإيمان الجديد، هي قولهم: "أشهد أن عليًا ولي الله" يرددونها في أذانهم، وبعد صلاتهم، ويلقنونها موتاهم. فالإقرار بالأئمة مع الشهادتين يقال بعد كل صلاة، وعقد الحر العاملي بابًا في هذا المعنى[٢].

وجاء في أخبارهم عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال:"لو أدركت عكرمة[٣] عند الموت لنفعته، فقيل لأبي عبد الله عليه السلام: بماذا كان ينفعه؟ قال: يلقنه ما أنتم عليه"[٤]، وعن أبي بصير عن أبي جعفر قال:"...لقنوا موتاكم عند الموت شهادة أن لا إله إلا الله والولاية"[٥].

ويلقن هذه الشهادة عند إدخاله للقبر[٦]، وكذلك عند انصراف الناس عنه، وبوب لذلك المجلسي فقال:" باب استحباب تلقين الولي الميت الشهادتين

---

(١) منهاج الكرامة في معرفة الإمامة: ص١.

(٢) انظر: وسائل الشيعة: باب استحباب الشهادتين والإقرار بالأئمة بعد كل صلاة: ٤/ ١٠٣٨.

(٣) يعني عكرمة مولى ابن عباس العلامة الحافظ المفسر (انظر: سير أعلام النبلاء: ٥/ ١٢).

(٤) فروع الكافي: ١/ ٣٤.

(٥) فروع الكافي: ١/ ٣٤.

(٦) انظر أخبارهم في ذلك في: فروع الكافي: ١/ ٥٣، تهذيب الأحكام: ١/ ٩١، وسائل الشيعة: ٢/ ٨٤٣.

والإقرار بالأئمة عليهم السلام بأسمائهم بعد انصراف الناس"[١]، وساق في ذلك جملة من رواياتهم.

المسألة الثالثة: القول بالإرجاء

هذا وإذا كان الإيمان عندهم هو الإقرار بالأئمة الاثنى عشر، فقد أصبحت معرفة الأئمة عندهم كافية في الإيمان ودخول الجنان فأخذوا بمذهب المرجئة رأسًا. ولهذا عقد صاحب الكافي بابًا بعنوان: "باب أن الإيمان لا يضر معه سيئة، والكفر لا ينفع معه حسنة"، وذكر فيه ستة أحاديث منها قول أبي عبد الله: "الإيمان لا يضر معه عمل، وكذلك الكفر لا ينفع معه عمل"[٢]. والإيمان حسب مصطلحهم هو حب الأئمة أو معرفتهم.

المسألة الرابعة: قولهم في الوعد

وجاءت أخبارهم تقول: بأن الأئمة يملكون الضمان لشيعتهم بدخول الجنة، وقد شهدوا بذلك لبعض أتباعهم على وجه التعيين، فهم يعدون بالثواب ويحققونه.

ومن نصوصهم في هذا ما جاء في رجال الكشي: "..عن زياد القندي عن علي بن يقطين، أن أبا الحسن قد ضمن له الجنة"، وفي رواية أخرى عن عبد الرحمن الحجاج، قال قلت لأبي الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن علي بن يقطين أرسلني إليك برسالة أسألك الدعاء له، فقال: في أمر الآخرة؟ قلت: نعم، قال: فوضع يده على صدره ثم قال: ضمنت لعلي بن يقطين ألا تمسه النار"[٣].

---

(١) وسائل الشيعة: ٢/ ٨٦٢.

(٢) أصول الكافي: ٢/ ٤٦٣-٤٦٤.

(٣) رجال الكشي: ص٤٣١، وأورد الكشي عدة روايات متشابهة لما ذكر: ص٤٣١-٤٣٢. وانظر في مسألة الضمان هذه: أصول الكافي: ١/ ٤٧٤،٤٧٥، رجال الكشي: =

إن مثل هذه المزاعم تبين أن واضعي هذه الأساطير هم فئة من الزنادقة الذين يؤمنون بقرآن ولا بسنة، وهدفهم إفساد هذا الدين، فلم يجدوا مكانًا لتحقيق ذلك إلا في محيط التشيع، وعلي بن يقطين الذي ضمن له هؤلاء الزنادقة"جنتهم" قد يكون شريكًا لهم في المذهب، فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ١٦٩ هـ بأنه قُتِلَ على الزندقة(١).

المسألة الخامسة: قولهم في الوعيد

قال المفيد: "اتفقت الإمامية على أن الوعيد بالخلود في النار متوجه إلى الكفار خاصة دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى والإقرار بفرائضه من أهل الصلاة".وأنهم بارتكابهم الكبيرة لا يخرجون عن الإسلام وإن كانوا يفسقون بما فعلوه من الكبائر والآثام(٢).

وهذا القول في ظاهره موافق لمذهب أهل السنة، لكنهم خرجوا عن تحقيق هذا المذهب من طريق آخر، حيث توسعوا في مفهوم الكفر والمكفرات، ولذلك "اتفقت الإمامية على أن أصحاب البدع كلهم كفار، وأن على الإمام أن يستتيبهم عند التمكن بعد الدعوة لهم وإقامة البينات عليهم فإن تابوا عن بدعهم وصاروا إلى الصواب وإلا قتلهم لردتهم عن الإيمان، وأن من مات منهم على تلك البدعة فهو من أهل النار"، واتفقت على القول بكفر من حارب أمير المؤمنين عليًا وأنهم "كفار ضُلاَّل ملعونون بحربهم أمير المؤمنين وأنهم بذلك

=

ص٤٤٧-٤٤٨، ٤٨٤، ورجال الحلي: ص١٨٥،٩٨.

(١) تاريخ الطبري: ٨/ ١٩٠.

(٢) أوائل المقالات: ص١٥،١٤.

في النار مخلدون"[١].

وهكذا حكمهم في كل من خالفهم، ولذلك قال ابن بابويه:"واعتقادنا في من خالفنا في شيء واحد من أمور الدين كاعتقادنا في من خالفنا في جميع أمور الدين"[٢].فهم من هذا الباب وعيدية، ولهذا قال شيخ الإسلام بأن متأخري الشيعة وعيدية في باب الأسماء والأحكام[٣].

المبحث الثاني: قولهم في أركان الإيمان

الإيمان بالملائكة:

وقد نال هذا الركن من أركان الإيمان نصيبه، فالملائكة خلقوا من نور الأئمة، وهم خدمة الأئمة، ومنهم طوائف قد كلفوا بزعمهم للعكوف على قبر الحسين..إلخ.

تقول أخبارهم: "خلق الله من نور وجه علي بن أبي طالب سبعين ألف ملك يستغفرون له ولمحبيه إلى يوم القيامة"[٤].

وأحيانًا يقولون:"خلق الله الملائكة من نور علي"[٥].

وقد زعموا أن ملائكة الرحمن من لا وظيفة له إلا البكاء على قبر الحسين، والتردد لزيارته، قالوا:"وكل الله بقبر الحسين أربعة آلاف ملك شعث غبر يبكون إلى يوم القيامة.."[٦].

---

(١) السابق: ١٠،١٦.
(٢) الاعتقادات: ص ١١٦، وانظر: الاعتقادات للمجلسي: ص١٠٠.
(٣) الفتاوى: ٦/ ٥٥.
(٤) كنز جامع الفوايد: ص٣٣٤، بحار الأنوار: ٢٣/ ٣٢٠.
(٥) المعالم الزلفى: ص٢٤٩.
(٦) وسائل الشيعة: ١٠/ ٣١٨، فروع الكافي: ١/ ٣٢٥.

وزيارة قبر الحسين هي أمنية أهل السماء، قالوا: "وليس شئ في السماوات إلا وهم يسألون الله أن يؤذن لهم في زيارة الحسين ففوج ينزل وفوج يعرج"[١].

وقالوا إن الملائكة لخدامنا وخدام محبينا"[٢].

وجاء في أخر حديث طويل لهم إن جبريل دعا أن يكون خادمًا للأئمة، قالوا فجبريل خادمنا"[٣].

وقد قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يرد على ابن المطهر نقله لمثل هذا اللقب للملائكة قال: "فتسمية جبريل رسول الله إلى محمد ﷺ خادمًا عبارة من لا يعرف قدر الملائكة وقدر إرسال الله لهم إلى الأنبياء..."[٤].

وكيف يطلق هذا اللقب "الوضيع" في من وصفه الله بقوله: (إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين)[٥] فالمراد بالرسول الكريم هنا جبريل، وذي العرش رب العزة سبحانه.

ولهم دعاوي في هذا الباب كثيرة، وكأنه لا وظيفة للملائكة إلا أمر أئمتهم الاثنى عشر، أو كأنهم ملائكة الأئمة لا ملائكة الله!

الإيمان بالكتب

والشيعة قد تأثر هذا الجانب عندها بمقتضى عقائدها التي انفردت بها عن سائر المسلمين في مسألة الإمامة وغيرها، فآمنت بكتب ما أنزل بها من سلطان، حيث ادعت أن الله سبحانه أنزل على أئمتها كتبًا من السماء، كما أنزل كتبه على أنبيائه.

---

(١) الطوسي/ التهذيب: ٢/ ١٦.
(٢) بحار الأنوار: ٢٦/ ٣٣٥.
(٣) بحار الأنوار: ٢٦/ ٣٤٤-٣٤٥.
(٤) منهاج السنة: ٢/ ١٥٨.
(٥) التكوير: ١٩-٢٠.

كما زعمت بأن لدى الأئمة الاثنى عشر الكتب السماوية التي نزلت على جميع الأنبياء فهم يقرءونها ويحتكمون إليها.

وإليك بيان هاتين القضيتين، من خلال النقل الأمين من كتب الشيعة المعتمدة.

المسألة الأولى: دعواهم تنزل كتب إلهية على الأئمة

ولعل جذور هذه المقالة بدأت في عصر علي رضي الله عنه كما أشارت إلى ذلك إحدى روايات الإمام البخاري رضي الله عنه عن أبى جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة. قال: قلت: فما في هذه الصحيفة ؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر"[(١)].

وفي رواية أخرى للبخاري جاء السؤال: "هل عندكم شئ من الوحي إلا ما في كتاب الله"[(٢)] (وهى تفسر المراد بالكتاب).

قال ابن حجر: وإنما سأله أبو جحيفة عن ذلك، لأن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أن عند أهل البيت -لاسيما عليًا- أشياء من الوحى -خصهم النبي ﷺ بها لم يطلع غيرهم عليها، وقد سأل عليًا عن هذه المسألة أيضًا قيس ابن عباد، والأشتر النخعي وحديثهما في مسند النسائي"[(٣)].

وفي كتاب أحوال الرجال أن عبد الله بن سبأ زعم أن القرآن جزء من تسعة أجزاء وعلمه عند علي"[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري -مع الفتح- ١/ ٢٠٤.

(٢) صحيح البخاري -مع الفتح- ٦/ ١٦٧.

(٣) فتح الباري: ١/ ٢٠٤.

(٤) الجوزجاني/ أحوال الرجال ص٣٨.

إذن كانت دعوى السبئيين تشير إلى علم مخزون عند علي، فهذه أصل الدعوى، وقد تطورت واتخذت صورًا وأشكالًا متعددة كلها ترجع إلى دعوى أن عند آل البيت ما ليس عند الناس والتي نفاها أمير المؤمنين علي نفيًا قاطعًا وما تفرع من الباطل فهو باطل، فالفرع له حكم أصله.

وإليك بكل أمانة بعض ما وجدناه في كتبهم المعتبرة عندهم من هذه الدعاوى والمزاعم:

أ- "مصحف فاطمة"

تدعي كتب الشيعة نزول مصحف على فاطمة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

تقول إحدى روايات الكافي عن مصحف فاطمة: "... إن الله تعالى لما قبض نبيه صلى الله عليه وآله دخل على فاطمة عليها السلام من وفاته من الحزن مالا يعلمه إلا الله ﷻ فأرسل الله إليها ملكًا يسلي غمها ويحدثها فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه فقال: إذا أحسست بذلك، وسمعت الصوت قولي لي فأعلمته بذلك فجعل أمير المؤمنين رضي الله عنه يكتب كل ما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفًا.. أما إنه ليس فيه شئ من الحلال والحرام ولكن فيه علم ما يكون"[1].

فتفيد هذه الرواية بأن الغرض من هذا المصحف أمر يخص فاطمة وحدها وهو تسليتها وتعزيتها بعد وفاة أبيها ﷺ وأن موضوعه"علم ما يكون" وما أدرى كيف يكون تعزيتها بإخبارها بما يكون وفيه -على ما تنقله الشيعة-قتل أبنائها وأحفادها، وملاحقة المحن لأهل البيت...

ثم كيف تعطي فاطمة"علم ما يكون" "علم الغيب" ورسول الهدى يقول كما أمره الله: (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) فهل هي أفضل من

(١)أصول الكافي: ١/ ٢٤٠، بحار الأنوار: ٢٦/ ٤٤، بصائر الدرجات: ص٤٣.

رسول الله؟

وتقول هذه الرواية بأن عليًا هو الذي كتب ما أملاه الملك رغم أن رواياتهم الأخرى تقول بأنه بعد وفاة الرسول ﷺ كان منشغلًا بجمع القرآن. والكذب لا محالة له من التناقض والاختلاف.

ويقولون بأن مصحفهم هذا ثلاثة أضعاف القرآن.

جاء في الكافي "عن أبي بصير قال: دخلت على أبي عبد الله -ثم ذكر حديثًا طويلًا في ذكر العلم الذي أودعه الرسول ﷺ عند أئمة الشيعة -كما يزعمون- وفيه قول أبي عبد الله: "وإن عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام قلت(القول للراوي) وما مصحف فاطمة؟ عليها السلام قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات ما فيه من قرآنكم حرف واحد"[1].

فهذه الأسطورة التي يرويها "ثقة الإسلام عندهم" بسند صحيح عندهم كما يقرره شيوخهم[2] تقول: "إن مصحفهم يفوق المصحف في حجمه، ويخالفه في مادته.. فهل معنى هذا أن كتاب الله أقل من مصحف فاطمة، وأن مصحف فاطمة أكمل وأوفى من كتاب الله سبحانه الذى أنزله الله سبحانه (تبيانًا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)، وجعله دستورًا ومنهاج حياة للأمة إلى أن تقوم الساعة، وهل الأمة محتاجة إلى كتاب آخر غير كتاب الله ليكمل به دينها، وإذا فقدته فهي لم تستكمل أسباب الهداية والخير، وهي اليوم قد فقدته، إذ لا وجود له باعتراف الجميع.. ثم كيف يكون كتاب تسلية وتعزية -كما تقول روايتهم السابقة- أكمل من كتاب الله سبحانه؟ أليس هذا الزعم آية في التحلل من العقل

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٢٣٩.

(٢) انظر: الشافي شرح أصول الكافي: ٣/ ١٩٧.

والجرأة على الكذب؟.

وقد وقفت على نص عندهم جاء في الكافي، يناقض هذه الدعوى، وهو عن أبي عبد الله -الذي يفترون عليه كل تلك الافتراءات- قال:"إن الله عز ذكره ختم بنبيكم النبيين فلا نبي بعده أبدًا، وختم بكتابكم الكتب فلا كتاب بعده أبدًا، وأنزل فيه تبيان كل شيء وخلقكم وخلق السموات والأرض ونبأ ما قبلكم وفصل ما بينكم وخبر ما بعدكم وأمر الجنة والنار وما أنتم صائرون إليه"(١)، وهذا نص لا يحتاج إلى تعليق فهو يكذب كل هذه الدعاوى وينفي وقوعها نفيًا قاطعًا.

المسألة الثانية: دعواهم بأن جميع الكتب السماوية عند الأئمة

تدعي الشيعة بأن عند الاثنى عشر كل كتاب نزل من السماء وأنهم يقرأونها على اختلاف لغاتها، وعقد صاحب الكافي بابًا لهذا الموضوع بعنوان: (باب أن الأئمة عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله ﷻ وأنهم يعرفونها على اختلاف ألسنتها)(٢) وضمنه طائفة من رواياتهم. ومثله فعل صاحب البحار فذكر بابًا بعنوان: (باب في أن عندهم صلوات الله عليهم كتب الأنبياء عليهم السلام يقرؤونها على اختلاف لغاتها)(٣) وذكر في هذا الباب (٢٧) حديثًا من أحاديثهم.

الإيمان بالرسل

وضلال الشيعة في هذا الركن يتمثل في عقائد متعددة كقولهم بأن الأئمة يوحى إليهم، كما سبق إثباته في "فصل السنة" وفي مسألة الإيمان بالكتب.

(١) صحيح الكافي: ١/ ٣١، أو أصول الكافي: ١/ ٢٦٩، وانظر: مفتاح الكتب الأربعة: ٨/ ٦٤-٦٥.

(٢) أصول الكافي: ١/ ٢٢٧.

(٣) بحار الأنوار: ٢٦/ ١٨٠.

وكقولهم بعصمة الأئمة وضرورة اتباع قولهم، فهم أعطوهم بهذا معنى النبوة، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فمن جعل بعد الرسول معصومًا يجب الإيمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة وإن لم يعطه لفظها"(١).

وبالغوا في الضلالة حينما زعموا أن الأنبياء عليهم السلام هم أتباع لعلي، وأن منهم من عوقب لرفضه ولاية علي، حتى جاء في أخبارهم عن حبة العرني قال: "قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن الله عرض ولايتي على أهل السموات وأهل الأرض أقر بها من أقر، وأنكرها من أنكر، أنكرها يونس فحبسه الله في بطن الحوت حتى أقر بها"(٢).

الإيمان باليوم الآخر

لهم في هذا الركن العظيم أقوال منكرة، وبدع كثيرة.. فآيات القرآن في اليوم الآخر أولوا معناها بالرجعة. وهذه حيلة ماكرة من واضعي هذه النصوص لإنكار أمر اليوم الآخر بالكلية، وأقل ما فيها أنها تصرف قلوب الشيعة عن ذلك اليوم، أو تمحو معاني اليوم الآخر من نفوسهم، لأنهم لا يقرأون في آيات اليوم الآخر إلا تأويلات شيوخهم له بالرجعة.

ومن بدعهم أيضًا قولهم بأن أمر الآخرة للإمام. يقول صاحب الكافي في أخباره:" الآخرة للإمام يضعها حيث يشاء ويدفعها إلى من يشاء جائز له ذلك من الله"(٣).

الإيمان بالقدر

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بأن "قدماء الشيعة كانوا متفقين على إثبات

(١) منهاج السنة: ٣/ ١٧٤.
(٢) بحار الأنوار: ٢٦/ ٢٨٢، بصائر الدرجات: ص٢٢.
(٣) أصول الكافي: ١/ ٤٠٩.

القدر، وإنما شاع فيهم نفي القدر من حين اتصلوا بالمعتزلة"[١].

وهذا كان في أواخر المائة الثالثة، وكثر بينهم في المائة الرابعة لما صنف لهم المفيد وأتباعه[٢].

كما أن"سائر علماء أهل البيت متفقون على إثبات القدر"[٣].

ويمكن أن يقال:

قد كان في القديم الإثبات هو الأصل والنفي طارئ نتيجة التأثر بالاتجاه الاعتزالي، وعند المتأخرين النفي هو الكثير الغالب، والإثبات موجود عند البعض.

خامسًا: أصولهم ومعتقداتهم الأخرى التي تفردوا بها

وفيه ثمانية فصول:

الفصل الأول: الإمامة. الفصل الثاني: عصمة الإمام.

الفصل الثالث: التَّقِّيَّة. الفصل الرابع: المهدية والغيبة.

الفصل الخامس: الرجعة. الفصل السادس: الظهور.

الفصل السابع: البداء. الفصل الثامن: الطينة.

الفصل الأول: الإمامة.

مفهوم الإمامة عند الشيعة ومنشؤها

لعل أول من تحدث عن مفهوم الإمامة بالصورة الموجودة عند الشيعة هو ابن سبأ، الذي بدأ يشيع القول بأن الإمامة هي وصاية من النبي، ومحصورة

---

(١) منهاج السنة: ٢/ ٢٩.

(٢) السابق: ١/ ٢٢٩.

(٣) السابق: ٢/ ٢٩.

بالوصي، وإذا تولاها سواه يجب البراءة منه وتكفيره، فقد اعترفت كتب الشيعة بأن ابن سبأ "كان أول من أشهر القول بفرض إمامة عليّ، وأظهر البراءة من أعدائه، وكاشف مخالفيه وكفرهم"[١].

استدلالهم على مسألة الإمامة

من أصول الروافض "أنه لا يجوز للرعية اختيار إمام، بل لابد فيه من النص"[٢]. "فالإمامة لا تكون إلا بالنص"[٣]. وأن الرسول ﷺ نص على عليّ وأولاده[٤]، فهم الأئمة إلى أن تقوم الساعة. وقد رأينا بدايات هذه العقيدة على أيدي السبئية، والهاشمية والشيطانية. إلا أن شيوخ الشيعة ادعوا أن هذا الأمر هو من شرع الله ورسوله ﷺ، وأقوال أئمة أهل البيت...

وأخذوا يستدلون على ذلك "بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة"[٥].

أدلتهم من القرآن

قال شيخ الطائفة -كما يلقبونه- الطوسي: "وأما النص على إمامته من القرآن فأقوى ما يدل عليه قوله تعالى:(إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون). وقال الطبرسي:"وهذه

---

(١) رجال الكشي: ص١٠٨-١٠٩.
(٢) الحر العاملي/ الفصول المهمة في أصول الأئمة ص١٤٢.
(٣) المظفر/ عقائد الإمامية ص١٠٣.
(٤) الكليني/ أصول الكافي: باب ما نص الله ورسوله على الأئمة: ١/ ٢٨٦ وما بعدها.
(٥) ابن خلدون/ المقدمة: ٢/ ٥٧٢ (تحقيق د. علي عبد الواحد وافي).

الآية من أوضح الدلائل على صحة إمامة علي بعد النبي بلا فصل"[١]. ويكاد شيوخهم يتفقون على أن هذا أقوى دليل عندهم حيث يجعلون له الصدارة في مقام الاستدلال في مصنفاتهم[٢].

أما كيف يستدلون بهذه الآية على مبتغاهم؟ فإنهم يقولون:"اتفق المفسرون والمحدثون من العامة والخاصة أنها نزلت في علي لما تصدق بخاتمه على المسكين في الصلاة بمحضر من الصحابة وهو مذكور في الصحاح الستة"[٣].

و"إنما" للحصر باتفاق أهل اللغة، و"الولي" بمعنى الأولى بالتصرف المرادف للإمام والخليفة[٤].

فأنت ترى أن الشيعة تعتمد في استدلالها بالآية بما روي في سبب نزولها، لأنه ليس في نصها ما يدل على مرادهم، فصار استدلالهم بالرواية لا بالقرآن، فهل الرواية ثابتة، وهل وجه استدلالهم سليم؟ يتبين هذا بالوجوه التالية:

أولًا: أن زعمهم بأن أهل السنة أجمعوا على أنها نزلت في علي هو"من أعظم الدعاوى الكاذبة، بل أجمع أهل العلم بالنقل على أنها لم تنزل في علي بخصوصه، وأن عليًا لم يتصدق بخاتمه في الصلاة، وأجمع أهل العلم بالحديث على أن القصة المروية في ذلك من الكذب الموضوع"[٥]. وقوله إنها مذكورة في

---

(١) مجمع البيان: ٢/ ١٢٨.

(٢) نظر-مثلًا-ابن المطهر الحلي في منهاج الكرامة، حيث اعتبره البرهان الأول ص١٤٧، وشبر في حق اليقين: ١/ ١٤٤، والزنجاني في عقائد الإمامية الاثنى عشرية: ١/ ٨١-٨٢.

(٣) قوله"الصحاح الستة" تسمية غير سليمة، لأن أهل السنة لا يعدون جميع الكتب الستة صحاحًا، ولذا يسمونها بالكتب السته، ولكن الروافض أصحاب مبالغات وليس هذا بكثير على من يتعمد الكذب على الله ورسوله.

(٤) شبر في حق اليقين: ١/ ١٤٤، والزنجاني في عقائد الإمامية الاثنى عشرية: ١/ ٨١-٨٢.

(٥) منهاج السنة: ٤/ ١.

الصحاح الستة، كذبٌ إذ لا وجود لهذه الرواية في الكتب الستة[١]. وقد ساق ابن كثير الآثار التي تروى في أن هذه الآية نزلت في علي حين تصدق بخاتمه، وعقب عليها بقوله:"وليس يصح شيء منها بالكلية لضعف أسانيدها، وجهالة رجالها"[٢].

ثانيًا: أن هذا الدليل الذي يستدلون به ينقض مذهب الاثنى عشرية لأنه يقصر الولاية على أمير المؤمنين بصيغة الحصر"إنما" فيدل على سلب الإمامة عن باقي الأئمة، فإن أجابوا على النقض بأن حصر الولاية في بعض الأوقات، أعني وقت أمامته لا وقت إمامة من بعده، وافقوا أهل السنة في أن الولاية العامة كانت له وقت كونه إمامًا لا قبله، وهو زمان خلافة الثلاثة[٣].

ثالثًا: أن الله تعالى لا يثني على الإنسان إلا بما هو محمود عنده، إما واجب وإما مستحب، والتصدق أثناء الصلاة ليس بمستحب باتفاق علماء الملة، ولو كان مستحبًا لفعله الرسول ﷺ ولحض عليه، ولكرر فعله،وإن في الصلاة

---

(١) وهو من الكذب الذي لا يستحي الشيعة من إثباته، والغريب أن هذا الزعم يجري على ألسنة آياتهم في هذا العصر كشبر والزنجاني، فهل يخفى عليهم أن هذا لا وجود له في الكتب الستة؟! وقد توافرت اليوم الفهارس والمعاجم التي تكشف الحقيقة (راجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ومفتاح كنوز السنة، لفظ علي بن أبي طالب، وراجع الكتب المعنية بجمع الروايات المتعلقة بتفسير الآيات وسبب نزولها: مثل (الدر المنثور: ٣/ ١٠٤-١٠٦)وغيره، أو المعنية بجمع روايات الكتب الستة: كجامع الأصول فلا تجد لدعواهم أصلًا، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وجمهور الأمة لم تسمع هذا الخبر ولا هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة لا الصحاح ولا السنن ولا الجوامع ولا المعجمات ولا شيء من الأمهات" (منهاج السنة: ٤/ ٥).

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٧٦-٧٧.

(٣) انظر: روح المعاني: ٦/ ١٦٨.

لشُغلًا، وإعطاء السائل لا يفوت إذ يمكن للمتصدق إذا سلم أن يعطيه، بل إن الاشتغال بإعطاء السائلين يبطل الصلاة كما هو رأي جملة من أهل العلم[١].

رابعًا: أنه لو قدر أن هذا مشروع في الصلاة لم يختص بالركوع فكيف يقال: لا ولي إلا الذين يتصدقون في حال الركوع، فإن قيل هذا أراد بها التعريف بعلي، قيل له أوصاف علي التي يعرف بها كثيرة ظاهرة فكيف يترك تعريفه بالأمور المعروفة ويعرف بهذا الأمر الذي لا يعرفه إلا من سمعه وصدق به، وجمهور الأمة لا تسمع هذا الخبر ولا هو في شيء من كتب المسلمين المعتمدة[٢].

خامسًا: وقولهم أن عليًا أعطى خاتمه زكاة في حال ركوعه فنزلت الآية: مخالفة للواقع، ذلك أن عليًا ﵁ لم يكن ممن تجب عليه الزكاة على عهد النبي ﷺ فإنه كان فقيرًا، وزكاة الفضة إنما تجب على من ملك النصاب حولًا، وعلى لم يكن من هؤلاء.

كذلك فإن إعطاء الخاتم في الزكاة لا يجزي عند كثير من الفقهاء إلا إذا قيل بوجوب الزكاة في الحلي، وقيل إنه يخرج من جنس الحلي، ومن جوز ذلك بالقيمة فالتقويم في الصلاة متعذر، والقيم تختلف باختلاف الأحوال[٣].

سادسًا: لما تبين أن الروايات التي أولوا بمقتضاها الآية باطلة سندًا ومتنًا، فلا متمسك لهم حينئذ بالآية بوجه سائغ، بل إن الآية حجة عليهم لأنها جاءت بالأمر بموالاة المؤمنين والنهي عن موالاة الكافرين[٤]، وليس للرافضة -فيما يظهر من نصوصها وتاريخها- من ذلك نصيب.

---

(١) انظر: منهاج السنة: ١/ ٢٠٨-٤/ ٥.

(٢) السابق: ٤/ ٥.

(٣) السابق: ٤/ ٥.

(٤) حتى وإن ثبت أن لها سبب نزول خاص، فالعبرة بعموم النص لا بخصوص السبب.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إنه من المعلوم المستفيض عند أهل التفسير خلفًا عن سلف أن هذه الآيات نزلت في النهي عن موالاة الكفار، والأمر بموالاة المؤمنين"[١].

سابعًا: قولهم: "إن المراد بقوله: (إنما وليكم) الإمارة لا يتفق مع قوله سبحانه: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا)، فإن الله سبحانه لا يوصف بأنه متول على عباده، وأنه أمير عليهم، فإنه خالقهم ورازقهم وربهم ومليكهم له الخلق والأمر.

ثامنًا: إن الفرق بين الوَلاية بالفتح والوِلاية بالكسر معروف في اللغة، فالوَلاية ضد العداوة وهي المذكورة في هذه النصوص ليست هي الوِلاية بالكسر التي هي الإمارة، وهؤلاء الجهال يجعلون الولي هو الأمير ولا يفرقون بين اللفظتين، مع أنه واضح "أن الولاء بالفتح وهو ضد العداوة، والاسم منه مولى وولي، والوِلاية بالكسر والاسم منها والي ومتولي"[٢].

ولهذا قال الفقهاء: إذا اجتمع في الجنازة الوالي والولي فقيل يقدم الوالي وهو قول أكثرهم، وقيل يقدم الولي، فلفظ الولي والوَلاية غير لفظ الوالي[٣].

ولو أراد سبحانه الولاية التي هي الإمارة لقال: "إنما يتولى عليكم".. فتبين أن الآية دلت على الموالاة المخالفة للمعاداة الثابتة لجميع المؤمنين بعضهم على بعض[٤]، ولهذا جاء (والذين آمنوا) بصيغة الجمع.

---

(١) منهاج السنة: ٤/ ٥.

(٢) المقدسي/ رسالة في الرد على الرافضة: ص٢٢٠-٢٢١. وراجع مختار الصحاح: مادة: "ولي".

(٣) منهاج السنة: ٤/ ٨.

(٤) السابق: ٤/ ٨. وانظر تفسير الفخر الرازي: ١٢/ ٢٥، وتفسير الألوسي: ٦/ ١٦٧.

وإذا كانت هذه أقوى أدلتهم -كما يقول شيوخهم- تبين أنهم ليسوا على شيء، ذلك أن الأصل أن يستعمل في هذا الأمر العظيم -والذي هو عند الشيعة أعظم أمور الدين، ومنكره في عداد الكافرين- صيغة واضحة جلية يفهمها الناس بمختلف طبقاتهم، يدركها العامي كما يدركها العالم، ويفهمها اللاحق كما يفهمها الحاضر، ويعرفها البدوي كما يعرفها الحضري، فلما لم يستعمل مثل ذلك في كتاب الله دل على أنه لا نص كما يزعمون، فليست الآية المذكورة -وغيرها مما يستدلون به- من ألفاظ الاستخلاف المعروفة في لغة العرب، والقرآن نزل بلسان عربي مبين، فأين يذهب الشيعة بعد هذا؟ إما إلى كفر بالقرآن وهو كفر بالإسلام، وإما ترك الغلو والتطرف والتعصب والرجوع إلى الحق، وهذا هو المطلوب.

هذه أقوى آية يستدلون بها من كتاب الله، ويسمونها آية الولاية، ولهم تعلق بآيات أخرى ذكرها ابن المطهر الحلي، وأجاب عنها شيخ الإسلام بأجوبة جامعة[١].

أدلتهم من السنة

أما السنة المطهرة فقد تعلق الشيعة في إثبات النص من طرق أهل السنة بما ورد في فضائل علي رضي الله عنه، ويلاحظ أن باب الفضائل مما كثر فيه الكذب، ويقال بأن الشيعة هم الأصل فيه. يقول ابن أبي الحديد: "الكذب في أحاديث الفضائل

(١) وقد قدم الدكتور علي السالوس في رسالة له الإمامة عند الجعفرية والأدلة من القرآن العظيم عرضًا للآيات القرآنية الكريمة التي يستدل بها الإمامية لقولهم بالإمامة، وانتهى من ذلك إلى أن استدلالاتهم تنبني على روايات متصلة بأسباب النزول، وتأويلات انفردوا بها ولم يصح شيء من هذا ولا ذاك بما يمكن أن يكون دليلًا يؤيد مذهبهم.

جاء من جهة الشيعة"[١].

ولهذا تجد في كتب الموضوعات الأحاديث الموضوعة في حق علي أكثر من غيره من الخلفاء الأربعة.

والفضائل الواردة في حق علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليست من ألفاظ النصوص والوصايا والاستخلاف، لا في لغة العرب ولا في عرفهم ولا في شريعة الإسلام ولا في عقول العقلاء، إنما هي فضائل أدخلها هؤلاء في الدعاوى. وقد قام ابن حزم بحصر الأحاديث الواردة في فضائل علي فقال:"وأما الذي صح من فضائل علي فهو قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي"[٢] وهذا لا حجة فيه للرافضة[٣].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢/ ١٣٤ (عن السنة ومكانتها في التشريع: ص٧٦).

(٢) ونص الحديث كما أخرجه البخاري-أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى تبوك واستخلف عليًا، فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ فقال: "ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي" (صحيح البخاري -مع الفتح- كتاب المغازي، باب غزوة تبوك: ٨/ ١٢-ح٤٤١٦)، ورواه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب: ٢/ ١٨٧٠-ح ٢٤٠٤، والترمذي: كتاب المناقب: ٥/ ٦٤٠،٦٤١-ح ٣٧٣٠،٣٧٣١، وابن ماجة: المقدمة: ١/ ٤٢،٤٣-ح ١١٥، وأحمد: ١/ ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ٣٣٠- ٣/ ٣٢، ٣٣٨- ٦/ ٣٦٩، ٤٣٨.

(٣) يقول ابن حزم في إثبات ذلك: "وهذا لا يوجب له فضلًا على من سواه ولا استحقاق الإمامة بعده عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأن هارون لم يلِ أمر بني إسرائيل بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما ولي الأمر بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يوشع بن نونَ فتى موسى وصاحبه الذي سافر معه في طلب الخضر عليهما السلام، كما ولي الأمر بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صاحبه في الغار الذي سافر معه إلى المدينة.

وإذا لم يكن علي نبيًا كما كان هارون نبيًا، ولا كان هارون خليفة بعد موت موسى على =

وقوله عليه السلام: "لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسولَه، ويحبه اللهُ ورسولُه"[(١)]، وهذه صفة واجبة لكل مسلم وفاضل[(١)].

=

بني إسرائيل، فصح أن كونه رضي الله عنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة هارون من موسى إنما هو في القرابة فقط.

وأيضًا فإنما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول إذ استخلفه على المدينة في غزوة تبوك، فقال المنافقون: استقله (كذا في الأصل المحقق من الفِصل، ولعلها استثقله) فخلفه فلحق علي برسول الله صلى الله عليه وسلم فشكى ذلك إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، يريد عليه السلام أنه استخلفه على المدينة مختارًا، ثم قد استخلف عليه السلام قبل تبوك وبعد تبوك على المدينة في أسفاره رجالًا سوى علي رضي الله عنه فصح أن هذا الاستخلاف لا يوجب لعلي فضلًا على غيره، ولا ولاية الأمر بعده، كما لم يوجب ذلك لغيره من المستخلَفين (الفصل: ٤/ ١٥٩-١٦٠).

وتشبيه علي بهارون ليس بأعظم من تشبيه أبي بكر بإبراهيم وعيسى، وتشبيه عمر بنوح وموسى (كما روى ذلك الإمام أحمد في مسنده: ١/ ٣٨٣- ح٣٦٣٢، والحاكم في مستدركه: ٣/ ٢١-٢٢، وروى الترمذي في كتاب الجهاد طرفًا منه: ٤/ ٢١٣، فإن هؤلاء الأربعة أفضل من هارون، وكل من أبي بكر وعمر شبه باثنين لا بواحد، فكان هذا التشبيه أعظم من تشبيه علي، مع أن استخلاف علي له فيه أشباه وأمثال من الصحابة، وهذا التشبيه ليس لهذين فيه شبيه، فلم يكن الاستخلاف من الخصائص، ولا التشبيه بنبي في بعض أحواله من الخصائص (المنتقى: ٣١٤-٣١٥).

وانظر في إبطال احتجاج الرافضة بهذا الحديث: شرح النووي على صحيح مسلم: ١٥/ ١٧٤، الإمامة، والرد على الرافضة لابي نعيم: ص ٢٢١-٢٢٢، منهاج السنة: ٤/ ٨٧ وما بعدها، المنتقى ص٣١٤،٣١١،٢١٣،٢١٢، فتح الباري: ٧/ ٧٤، المقدسي/ الرد على الرافضة: ص٢٠١-٢٠٨، مختصر التحفة الاثنى عشرية: ص١٦٤،١٦٣، السالوس/ الإمامة عند الجعفرية في ضوء السنة: ص٣٣-٣٤.

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب: ٧/ ٧٠ البخاري مع الفتح، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب: ٢/ ١٨٧١-١٨٧٣.

وعهده عليه السلام: "أن عليًا لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق"(٢).

=

(١) أي ليس هذا الوصف من خصائص علي بل غيره يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ولكن فيه الشهادة لعينه بذلك كما شهد للأعيان العشرة بالجنة، فهو ليس من خصائصه فضلًا عن أن يكون نصًا على إمامته وعصمته، والرافضة الذين يقولون أن الصحابة ارتدوا بعد موته ﷺ لا يمكنهم الاستدلال بهذا، لأن الخوارج تقول لهم هو ممن ارتد أيضًا، قال الأشعري: أجمعت الخوارج على كفر علي (المقالات: ١/ ١٦٧)، وأهل السنة يبطلون قول الخوارج بأدلة كثيرة لكنها مشتركة تدل على إيمان الثلاثة..(انظر منهاج السنة: ٤/ ٩٨،٩٩).

(٢) أخرجه مسلم (٧٨) كما تقدم، والترمذي رقم (٣٧٣٦)، والنسائي (٦/ ٥٣٥)، وفي خصائص علي (١٠٠، ١٠٢)، والحميدي (٥٨)، وابن ماجه (١١٤)، وأحمد في فضائل الصحابة (٢/ رقم ٩٦١)، وفي المسند (٢/ ٧١ - الرسالة)، وابن أبي شيبة ٦/ ٣٦٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١٣٢٥)، وابن حبان (١٥/ ٣٦٧)، وأبي يعلى (١/ ٢٥٠)، وابن منده في الإيمان (١/ ٤١٤)، والعدني في الإيمان (١/ ٨١)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٨٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٤/ ٤٢٦)، والبغوي في شرح السنة (٣٩٠٩)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/ ٢٧٦) وهذا الحديث من الأحاديث التي انتقضها الإمام الدارقطني على مسلم لأن فيه عدي بن ثابت وهو ثقه ولكنه متشيع وقيل غال في التشيع وفي هذا الحديث نصره لمذهبه، والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان، وقال أبو نعيم: حديث صحيح متفق عليه، وصححه العلامة الألباني في صحيح ابن ماجة، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٢/ ٥٧): إسناده صحيح، وقال العلامة الوادعي في الإلزامات والتتبع (ص٤٢٧ - ٤٢٨): رجاله كلهم رجال الشيخين في سنده عدي بن ثابت وهو ثقة رمي بالتشيع وبعضهم يقول إنه غال في التشيع فمثل هذا يتوقف فيما روي موافقا لبدعته ولكن الحديث له شواهد، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢/ ٧١): إسناده على شرط الشيخين إلا أن عدي بن ثابت- وإن أخرجا له- قال فيه شعبة: كان رفاعا، وقال أحمد: كان يتشيع، وقال ابن معين: شيعي مفرط، وقال الدارقطني: ثقة إلا أنه كان غاليا في التشيع، قلنا: وقد رد أهل العلم من مرويات الثقة ما كان موافقا لبدعته، وقد انتقد الدارقطني في =

وقد صح مثل ذلك في الأنصار رضي الله عنهم:"أنه لا يبغضهم من يؤمن بالله واليوم الآخر"(١).

وأما:"من كنت مولاه فعلي مولاه"(٢)، فلا يصح من طريق الثقات أصلًا.

=

"التتبع" ص ٤٢٧ مسلما لإخراجه هذا الحديث فقال: وأخرج مسلم حديث عدي بن ثابت: "والذي فلق الحبة... " ولم يخرجه البخاري.

(١) الحديث أخرجه مسلم بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر" كتاب الإيمان باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق: ١/ ٨٦-ح ١٣٠، وهناك أحاديث في الأنصار مطابقة للفظ الوارد في علي رضي الله عنه، منها ما أخرجه الشيخان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق" البخاري -مع الفتح- كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار من الإيمان: ٧/ ١١٣- ح٣٧٨٤،٣٧٨٣، ومسلم في الموضع السابق.

(٢) ورد من حديث زيد بن أرقم و سعد بن أبي وقاص و بريدة بن الحصيب و علي بن أبي طالب و أبي أيوب الأنصاري و البراء بن عازب و عبد الله بن عباس و أنس بن مالك وأبي سعيد وأبي هريرة. وقد ضعف الحديث بعض أهل العلم كما نُقِلَ عن البخاري وإبراهيم الحربي وطائفة من أهل العلم بالحديث أنهم طعنوا فيه وضعفوه، وقال ابن العربي في عارضة الأحوذي: ضعيف مطعون فيه، وصححه أخرون حتى أن الكتاني عده في نظم المتناثر (٢٤٩) متواتر ومن قبله السيوطي وممن صححه النووي كما في المنثورات، ونقل عن أحمد بن حنبل أنه حسنه، وقال الذهبي في السير هذا حديث حسن عال جدا ومتنه متواتر، وصححه ابن كثير في البداية والنهاية، وصححه ابن حجر في الفتح، وقال أيضا: هو حديث كثير الطرق جدا وقد استوعبها ابن عقدة في مؤلف مفرد وأكثر أسانيدها صحيح أو حسن، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٧٥٠)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٥٧، ٣٥٥، ٣٨١، ١٤٧٩)، وصححه العدوي في الصحيح المسند من فضائل الصحابة (ص ١٣٠).

وأما سائر الأحاديث التي تتعلق بها الرافضة فموضوعة، يعرف ذلك من له أدنى علم بالأخبار ونقلتها[١]. وقد نقل هذا النص عن ابن حزم شيخ الإسلام ابن تيمية وعقب عليه بقوله:" فإن قيل لم يذكر ابن حزم ما في الصحيحين من قوله:"أنت مني وأنا منك"[٢]، وحديث المباهلة[٣]، والكساء[٤]، قيل: مقصود ابن حزم الذي في الصحيح من الحديث الذي لا يذكر فيه إلا علي، وأما تلك ففيها ذكر غيره، فإنه قال لجعفر:"أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد: أنت أخونا

---

(١)الفصل: ٤/ ٢٢٤.

(٢) راجع صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الصلح: ٥/ ٣٠٤،٣٠٣- ح٢٦٩٩، وكتاب المغازي، باب عمرة القضاء: ٧/ ٤٩٩ -ح٤٢٥١.

(٣)وهو في مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص قال: "..لما نزلت هذه الآية: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم)[آل عمران: ٦١] دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا فقال اللهم هؤلاء أهلي". صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ٢/ ١٨٧١. وهذا" لا دلالة فيه على الإمامة ولا على الأفضلية.. والمباهلة إنما تحصل بالمقربين إليه، وإلا فلو باهلهم بالأبعدين في النسب وإن كانوا أفضل عند الله لم يحصل المقصود" (انظر تفصيل الرد على الروافض في احتجاجهم بهذا الحديث في: منهاج السنة: ٤/ ٣٤، والمقدسي/ رسالة في الرد على الرافضة ص٢٤٣-٢٤٥.

(٤) وهو في مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط(كساء) مرحّل(هو الموشى المنقوش عليه صور رحال الإبل) من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا) [الأحزاب، ٣٣]: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحاية، باب فضائل أهل بيت النبي ﷺ: ٢/ ١٨٨٣- ح٢٤٢٤، وانظر: في الرد على تعلق الرافضة بهذا الحديث: منهاج السنة: ٤/ ٢٠-٢٥، وانظر المقدسي/ رسالة في الرد على الرافضة ص٢٦٤، مختصر التحفة: ص١٥٥-١٥٦.

ومولانا،وحديث المباهلة والكساء فيهما ذكر علي وفاطمة وحسن وحسين رضي الله عنهم، فلا يرد هذا على ابن حزم[١].

ولكن الرافضة قد توسعوا في هذا الباب، واختلقوا الروايات، وزادوا على النصوص الصحيحة نصوصًا كاذبة.. وقد ذكرت كتب الموضوعات جملة منه الروايات التي يستند إليها الروافض[٢]، قال ابن الجوزي:" فضائله -يعني عليًا- الصحيحة كثيرة، غير أن الرافضة لم تقنع، فوضعت له ما يضع ولا يرفع"[٣].

وقد جمع ابن المطهر الحلي جل ما يحتجون به في هذا الباب، وكشف شيخ الإسلام ما فيها من حق وباطل في"منهاج السنة"[٤].

هذا وكما ذكرنا ما يراه الشيعة أنه أقوى أدلتهم من القرآن في إثبات الإمامة بحسب مفهومهم، نذكر أيضًا ما يرونه أقوى أدلتهم من السنة ونبين مافيه..

عمدة أدلتهم من السنة

عمدة أدلتهم هو ما يسمونه"حديث الغدير"، وقد بلغ من اهتمام الروافض في أمره ان ألف أحد شيوخهم المعاصرين كتابًا من ستة عشر مجلدًا يثبت به صحة هذا الحديث وشهرته سماه:"الغدير في الكتاب والسنة والأدب". فهم يرون أن النبي ﷺ عندما وصل إلى غدير خم[٥] بعد منصرفه من حجة الوداع

(١) منهاج السنة: ٤/ ٨٦.

(٢) انظر مثلًا: الموضوعات لابن الجوزي: ١/ ٣٣٨ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٣٣٨.

(٤) ولاسيما في المجلد الأخير منه، وقد قام د. علي السالوس بجمع كل الأحاديث المتصلة بالإمامة والموجودة في الكتب الستة والموطأ ومسند أحمد ودرسها سندًا ومتنًا، وانتهى إلى أن السنة النبوية لا تؤيد ما ذهب إليه الجعفرية في مسألة الإمامة بل تنقضه بأحاديث صحيحة ثابتة. (انظر: الإمامة عند الجعفرية في ضوء السنة).

(٥) خمّ: وادٍ بين مكة والمدينة عند الجحفة به غدير، وهذا الوادي موصوف بكثرة =

بيَّن للمسلمين أن وصيته وخليفته من بعده علي بن أبي طالب، حيث أمره الله ﷻ بذلك في قوله:(يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته).

وقد أورد شيخهم المجلسي في هذا المعنى (١٠٥) من أحاديثهم، وقال:"إنا ومخالفينا قد روينا عن النبي ﷺ أنه قام يوم غدير خم وقد جمع المسلمون فقال: أيها الناس ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ فقالوا: اللهم بلى، قال صلى الله عليه وآله: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله.."[١].

والحديث احتج به ابن المطهر وأجاب عليه شيخ الإسلام جوابًا شافيًا[٢]، كما ناقش الإمام محمد بن عبد الوهاب شيخهم المفيد في إيراده هذا الحديث بالصورة التي تراها الشيعة[٣]. وتعرض لهذا الحديث معظم أهل السنة الذين ردوا على الروافض[٤].

ونوجز جواب أهل السنة فيما يلي:

أن الحديث زاد الوضَّاعون فيه، ولا يصح منه في نظر طائفة من أهل العلم في

=

الوخامة: (معجم البلدان: ٢/ ٣٨٩).

(١) بحار الأنوار: ٣٧/ ١٠٨-٢٥٣، ٣٧/ ٢٢٥.

(٢) انظر: منهاج السنة: ٤/ ٩-١٦، ٨٤-٨٧، المنتقى: ص٤٢٢-٤٢٥، ٤٦٦-٤٦٨.

(٣) انظر: رسالة في الرد على الرافضة: ص ٦-٧.

(٤) انظر: أبو نعيم/ الإمامة والرد على الرافضة ص١٣، والقدسي/ رسالة في الرد على الرافضة: ص٢٢١-٢٢٤، الطفيل/ المناظرة بين أهل السنة والرافضة: ص١٥-١٦- الألوسي/ روح المعاني: ٦/ ١٩٢-١٩٩.

الحديث إلا قوله: من كنت مولاه فعلي مولاه[١]، بينما يرى بعض أهل العلم أن الحديث لا يصح منه شيء البتة. قال ابن حزم: "وأما: من كنت مولاه فعلي مولاه، فلا يصح من طريق الثقات أصلًا"[٢]. ونقل عن البخاري وإبراهيم الحربي وطائفة من أهل العلم بالحديث أنهم طعنوا فيه وضعفوه[٣].

قال شيخ الإسلام: "أما قوله: من كنت مولاه فعلي مولاه، فليس هو في الصحاح، لكن هو مما رواه أهل العلم وتنازع الناس في صحته"[٤]. وأما قوله: اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله، فهو كذب باتفاق أهل المعرفة بالحديث"[٥].ثم بين شيخ الإسلام أن الكذب يعرف

---

(١) محمد بن عبد الوهاب/ رسالة في الرد على الرافضة ص١٣.
والحديث أخرجه ابن ماجة: ١/ ٤٣، وأخرجه الترمذي بسنه عن النبي ﷺ قال: "من كنت مولاه فعلي مولاه" قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح: الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب: ٥/ ٦٣٣- ح ٣٧١٣، وابن ماجة بسنه عن البراء بن عازب قال: "أقبلنا مع رسول الله في حجته التي حج فنزل في بعض الطرق فأمر الصلاة جامعة، فأخذ بيد علي فقال: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى، قال: فهذا ولي من أنا مولاه، اللهم والِ من والاه، اللهم عادِ من عاداه": ابن ماجة: ١/ ٤٣، المقدمة- ح ١١٦. لكن قال في الزوائد: إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان (أحد رجال سند ابن ماجة)، وأخرجه الإمام أحمد ١/ ٨٤، قال الشيخ أحمد شاكر: الحديث متنه صحيح، ورد من طرق كثيرة، وطرقه أو أكثرها في مجمع الزوائد (انظر المسند: ٢/ ٥٦ تحقيق شاكر، ومجمع الزوائد: ٩/ ١٠٣-١٠٩).

(٢) ابن حزم/ الفصل: ٤/ ٢٢٤، وانظر ابن تيمية: منهاج السنة: ٤/ ٨٦، والذهبي/ المنتقى(مختصر منهاج السنة) ص٤٦٧.

(٣) منهاج السنة: ٤/ ٨٦.

(٤) منهاج السنة: ٤/ ٨٦.

(٥) منهاج السنة: ٤/ ١٦.

من مجرد النظر في متنها، لأن قوله: اللهم انصر من نصره.. خلاف الواقع التاريخي الثابت[١] فلا تصح عن رسول الله ﷺ، وأما قوله: اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، فهو مخالف لأصل الإسلام، فإن القرآن قد بين أن المؤمنين إخوة مع قتالهم وبغي بعضهم على بعض"[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: بعد ذكره لخلاف أهل العلم في ثبوت قوله: من كنت مولاه فعلي مولاه، إن لم يكن النبي ﷺ قاله فلا كلام، فإن قاله فلم يرد به قطعًا الخلافة بعده، إذ ليس في اللفظ ما يدل عليه، وهذا الأمر العظيم لابد أن يبلغ بلاغًا مبينًا.. والموالاة ضد المعاداة، وهذا حكم ثابت لكل مؤمن، فعلي رضي الله عنه من المؤمنين الذين يتولون المؤمنين ويتولونه، وفي هذا الحديث إثبات إيمان علي في الباطن، والشهادة له بأنه يستحق الموالاة باطنًا وظاهرًا، ويرد ما يقوله فيه أعداؤه من الخوارج والنواصب، ولكن ليس فيه أنه ليس في المؤمنين مولى غيره، فكيف ورسول الله ﷺ له موالٍ وهم صالحوا المؤمنين[٣].

وبعد أن عرضنا لأهم دليل عندهم من كتاب الله، وأقوى دليل عندهم من سنة رسول الله ﷺ، ندع استعراض باقي أدلتهم إلى كتب أهل السنة التي تتبعت شبه الروافض التي يثيرونها من كتب السنة وأتت عليها من القواعد.

ولا شك أن التعرف على هذه الشبه والرد عليها أمر ميسور، إذ يكفي الرجوع إلى منهاج السنة وما ماثله من كتب أهل السنة.. ولكن استعراضها كلها

---

(١) فإنه قاتل معه أقوام يوم صفين فما انتصروا، وأقوام لم يقاتلوا فما خذلوا، كسعد الذي فتح العراق لم يقاتل معه، وكذلك أصحاب معاوية وبني أمية الذين قاتلوه فتحوا كثيرًا من بلاد الكفار، ونصرهم الله (مجموع فتلوى شيخ الإسلام: ٤/ ٤١٨).

(٢) الموضع نفسه من المصدر السابق.

(٣) منهاج السنة: ٤/ ٨٦.

في بحثنا يستوعب المجلدات ولن يأتي بجديد.. ولذلك اقتصرنا على أقوى دليل عندهم من الكتاب والسنة.

وسبب آخر في غاية الأهمية أن هؤلاء الروافض لا يؤمنون أصلًا بما جاء عن طريق أهل السنة ولو كان في غاية الصحة -كما سلف- لكن هم يثيرون هذه الشبهات ليحققوا بها أمرين -فيما أرى-:

الأول: إقناع المتشككين والحائرين من أتباعهم، وذلك بخداعهم أن هذه العقائد متفق عليها بين السنة والشيعة، ولكن أهل السنة يكابرون.

الثاني: إشغال أهل السنة بهذه المسائل والدفاع عنها حتى لا يتمكنوا من الوصول إلى كتب الروافض المعتمدة في الحديث والرجال والتفسير ودراستها بعين بصيرة ناقدة.. وكشف الأمر أمام الأتباع الجهلة..

ولذا أقول إن علماء السنة قدموا جهدًا عظيمًا في مواجهة الأمر الأول، وأما الثاني فإن عدم توفر كتب الروافض -فيما يظهر- حال بينهم وبين نقدها وكشف ما فيها، إلا في العصور المتأخرة، حيث بدأ علماء الهند والباكستان في الإسهام في ذلك. والموضوع مازال بحاجة إلى مواصلة هذا الطريق وتضافر الجهود بدراسات علمية موضوعية تبين الحقيقة وتكشف الزيف إمام أولائك المغرورين والمخدوعين.

النص في كتب الشيعة

أصل قول الرافضة هو دعوى النص[1].. وقد تنوعت احتجاجاتهم على مسألة النص:

١. فهي تارة: كتب إلهية تنزل من السماء في النص على علي والأئمة، ولكن

(١) منهاج السنة: ٣/ ٣٥٦.

هذه الكتب غابت منذ سنة ٢٦٠ هـ مع الغائب المنتظر..

٢. وهي أخرى: نصوص صريحة في القرآن في النص على الإثنى عشر، ولكن هذه النصوص اختفت من القرآن بفعل الصحابة.

٣. وهي ثالثة: نصوص صريحة من الرسول ﷺ، ولكن الأمة اجتمعت على كتمانها، وكان أول من أظهر القول بها، كما في رجال الكشي وغيره ابن سبأ.

٤. وهي تارة رابعة: تأويلات باطنية لآيات القرآن بالأئمة، ولكن لا يعرف هذه التأويلات إلا الأئمة..

والكتاب الوحيد الذي تطمئن الشيعة إلى كل كلمة فيه هو كتاب نهج البلاغة، مع أنه لم يجمع إلا في القرن الرابع عن أمير المؤمنين في القرن الأول وليس له سند معروف، فإذا كان هذا هو عمدة كتبها فما حال الكتب الأخرى؟ ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ليس أحد من الإمامية ينقل هذا النص بإسناد متصل فضلًا عن أن يكون متواترًا".

ومع ذلك إذا أردنا أن نحتكم إلى نهج البلاغة نجد فيه ما ينفي دعوى النص ويهدم كل ما زعموه في هذا الباب، أو يثبت التناقض والتناقض دليل بطلان المذهب.

جاء في نهج البلاغة: أن أمير المؤمنين عليًا قال: لما أراده الناس على البيعة: "دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمرًا له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وإن تركتموني فإني كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيرًا خير مني لكم أميرًا"[1].

---

(١) نهج البلاغة: ص١٣٦.

وقال المفيد في الإرشاد: ومما حفظ العلماء من كلام أمير المؤمنين أنه قال: "أتيتموني =

وهذا النص يدل على أنه لم يكن منصوصًا عليه بالإمامة من جهة الرسول وإلا لما جاز أن يقول: "دعوني إلخ، ولعلي إلخ، وأنا لكم إلخ"[(١)].

الفصل الثاني: عصمة الإمام.

أما معنى العصمة عند الشيعة فيختلف بحسب أطوار التشيع وتطوراته، لكن يظهر أن مذهب الشيعة في عصمة الأئمة قد استقر على ما قرره شيخ الشيعة في زمنه المجلسي صاحب بحار الأنوار المتوفى سنة(١١١١هـ) في قوله: "اعلم أن الإمامية اتفقوا على عصمة الأئمة عليهم السلام من الذنوب صغيرها وكبيرها، فلا يقع منهم ذنب أصلًا لا عمدًا ولا نسيانًا ولا لخطأ في التأويل ولا للإسهاء من الله سبحانه[(٢)].

فالمجلسي يسبغ على أئمته العصمة من كافة الأوجه المتصورة للعصمة من المعصية كلها، صغيرة أو كبيرة، العصمة من الخطأ والعصمة من السهو والنسيان.

=

فقلتم بايعنا، فقلت: لا أفعل، فقلتم: بلى، فقلت: لا، وقبضت يدي فبسطتموها، ونازعتكم فجذبتموه -كذا- وتداككتم علي تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى ظننت أنكم قاتلي، وإن بعضكم قاتل بعضًا لدي فبسطت يدي فبايعتموني...": الإرشاد: ص١٣٠-١٣١ط.الأعلمي، بيروت، ص١٤٣-١٤٤ ط. الحيدرية بالنجف. فهل يقول مثل هذا الكلام من يتطلع للخلافة، ويطوف بفاطمة على بيوت الصحابة يطالب بالبيعة، إلى آخر أساطير الشيعة في هذا الباب، وهل يبقى لدعوى النص على الإمامة وكفر من خالفه بعد هذا القول مكان.. إذ هل يخطر بالبال أن يدعو عليٌ الناس إلى الكفر، ذلك أن من لم يبايع الإمام المنصوص عليه هو كافر في قواميس الشيعة.. وعليٌ هنا يرفض البيعة!!.

(١) محمود شكري الألوسي/ تعليقات على ردود الشيعة ٠ مخطوط).

(٢) بحار الأنوار: ٢٥/ ٢١١.

وهذه الصورة من العصمة التي يرسمها المجلسي، ويعلن اتفاق الشيعة عليها لم تتحقق لأنبياء الله ورسله كما يدل على ذلك صريح القرآن والسنة، وإجماع الأمة، فهي غريبة على الأصول الإسلامية، بل إن النفي المطلق للسهو والنسيان عن الأئمة تشبيه لهم بمن لا تأخذه سنة ولا نوم.

استدلالهم على عصمة الأنبياء

استدلالهم بالقرآن

رغم أن كتاب الله سبحانه ليس فيه ذكر للإثنى عشر أصلًا -كما مر- فضلًا عن عصمتهم، إلا أن الإثنى عشرية تتعلق بالقرآن لتقرير العصمة، ويتفق شيوخهم على الاستدلال بقوله -سبحانه-: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إمامًا قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين).

وبهذه الآية صدر المجلسي بابه الذي عقده في بحاره بشأن العصمة بعنوان "باب.. لزوم عصمة الإمام"[(١)].

استدلوا بهذه الآية على أن الإمام لا يكون إلا معصومًا من القبايح، لأن الله- سبحانه- نفى أن ينال عهده الذي هو الإمامة ظالم، ومن ليس بمعصوم فقد يكون ظالمًا إما لنفسه، وإما لغيره.

نقد استدلالهم

أولا: اختلف السلف في معنى العهد على أقوال

قال ابن عباس والسدى: إنه النبوة، قال: لا ينال عهدي الظالمين "أي نبوتي"، وقال مجاهد: الإمامة، أي لا أجعل إمامًا ظالمًا يقتدي به، وقال قتادة

---

(١) بحار الأنوار: ٢٥/ ١٩١.

وإبراهيم النخعي وعطاء والحسن وعكرمة: لا ينالُ عهدُ اللهِ في الآخرة الظالمين فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فأمن به وأكل وعاش..

فالآية -كما ترى- اختلف السلف في تأويلها، فهي ليست في مسألة الإمامة أصلًا في قول أكثرهم، والذين فسروها بالإمامة قصدوا إمامة العلم والصلاح والاقتداء، لا الإمامة بمفهوم الرافضة.

ثانيًا: لو كانت الآية في الإمامة فهي لا تدل على العصمة بحال، إذ لا يمكن أن يقال بأن غير الظالم معصوم لا يخطئ ولا ينسى ولا يسهو... إلخ.

أدلتهم من السنة

ويتمسكون بروايات من طرق أهل السنة للاحتجاج بها على أهل السنة، وإقناع قومهم بأن ما هم عليه موضع إجماع، وهى ما بين كذب أو بعيد عن استدلالهم، وقد مضى الحديث فيها في فصل الإمامة.

أما الكلينى في الكافي فقد عقد مجموعة من الأبواب في معنى العصمة المزعومة ساق فيها أخبارًا بسنده عن الإثنى عشر يدعون فيها أنهم معصومون بل وشركاء في النبوة، بل ويتصفون بصفات الألوهية، وقد مر في باب اعتقادهم في أصول الدين أمثلة من ذلك.

الفصل الثالث: التَّقِيَّة(١)

تعريفها: يعرف المفيد التقية عندهم بقوله:" التقية كتمان الحق وستر الاعتقاد فيه، وكتمان المخالفين، وترك مظاهرتهم بما يعقب ضررًا في الدين أو الدنيا"(٢).

---

(١) قال ابن حجر: التقية: الحذر من إظهار ما في النفس من معتقد وغيره للغير: فتح الباري: ١٢/ ٣١٤.

(٢) شرح عقائد الصدوق: ص ٢٦١ (ملحق بكتاب أوائل المقالات).

فالمفيد يعرف التقية بأنها الكتمان للاعتقاد خشية الضرر من المخالفين وهم أهل السنة كما هو الغالب من إطلاق هذا اللفظ عندهم، أي هي إظهار مذهب أهل السنة (الذي يرونه باطلًا)، وكتمان مذهب الرافضة الذي يرونه هو الحق، من هنا يرى بعض أهل السنة: أن أصحاب هذه العقيدة هم شر من المنافقين لأن المنافقين يعتقدون أن ما يبطنون من كفر هو باطل، ويتظاهرون بالإسلام خوفًا، وأما هؤلاء فيرون أن ما يبطنون هو الحق، وأن طريقتهم هي منهج الرسل والأئمة(١).

والتقية في الإسلام غالبًا إنما هي مع الكفار، قال تعالى:(إلا أن تتقوا منهم تقاه)قال ابن جرير الطبري: "التقية التي ذكرها الله في هذه الآية إنما هي تقية من الكفار لا من غيرهم"(٢).

وأجمع أهل العلم على أن التقية رخصة في حال الضرورة، قال ابن المنذر: "أجمعوا على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل فكفر وقلبه مطمئن بالإيمان أنه لا يحكم عليه بالكفر.. ولكن من اختار العزيمة في هذا المقام فهو أفضل، قال ابن بطال: "وأجمعوا على أن من أكره على الكفر واختار القتل أنه أعظم أجرًا عند الله"(٣).

ولكن التقية التي عند الشيعة خلاف ذلك، فهي عندهم ليست رخصة بل هي ركن من أركان دينهم كالصلاة أو أعظم، قال ابن بابويه: "اعتقادنا في التقية أنها واجبة من تركها بمنزلة من ترك الصلاة"(٤).

---

(١) ابن تيمية: رسالة في علم الظاهر والباطن، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية: ١/ ٢٤٨.
(٢) آل عمران: ٢٨، تفسير الطبري: ٦/ ٣١٦ (تحقيق شاكر).
(٣) فتح الباري: ١٢/ ٣١٧،٣١٤.
(٤) الاعتقادات: ص١١٤.

قال الصادق: "لو قلت أن تارك التقية كتارك الصلاة لكنت صادقًا"[١]. بل نسبوا إلى النبي ﷺ أنه قال:" تارك التقية كتارك الصلاة"[٢]، ثم زادوا في درجة التقية فجعلوها "تسعة أعشار الدين".

ثم لم يكفهم ذلك فجعلوها هي الدين كله، ولا دين لمن لا تقية له، جاء في أصول الكافي وغيره: أن جعفر بن محمد قال:" إن تسعة أعشار الدين في التقية، ولا دين لمن لا تقية له"[٣].

أما سبب هذا الغلو في أمر التقية فيعود إلى عدة أمور منها:

أولًا: أن الشيعة تعد إمامة الخلفاء الثلاثة باطلة، وهم ومن بايعهم في عداد الكفار، مع أن عليًا بايعهم، وصلى خلفهم وجاهد معهم، وزوجهم وتسرى من جهادهم، ولما ولي الخلافة سار على نهجهم، ولم يغير شيئًا مما فعله أبو بكر وعمر، كما تعترف بذلك كتب الشيعة نفسها، وهذا يبطل مذهب الشيعة من أساسه، فحاولوا الخروج من هذا التناقض المحيط بهم بالقول بالتقية.

ثانيًا: أنهم قالوا بعصمة الأئمة وأنهم لا يسهون ولا يخطئون ولا ينسون، وهذه الدعوى خلاف ما هو معلوم من حالهم.. حتى أن روايات الشيعة نفسها المنسوبة للأئمة مختلفة متناقضة، حتى لا يوجد خبر منها إلا وبإزائه ما يناقضه كما اعترف بذلك شيخهم الطوسي، وهذا ينقض مبدأ العصمة من أصله.

فقالوا بالتقية لتبرير هذا التناقض والاختلاف والتستر على كذبهم.

ثالثًا: تسهيل مهمة الكذابين على الأئمة ومحاولة التعتيم على مذهب أهل

---

(١) بحار الأنوار: ٧٥/ ٤١٤،٤١٢.

(٢) جامع الأخبار: ص١١٠، بحار الأنوار: ٧٥/ ٤١٢

(٣) أصول الكافي: ٢/ ٢١٧، بحار الأنوار: ٧٥/ ٤٢٣.

البيت، بحيث يوهمون الأتباع أن ما ينقله (واضعوا مبدأ التقية) عن الأئمة هو مذهبهم، وأن ما اشتهر وذاع عنهم وما يقولونه ويفعلونه أمام المسلمين لا يمثل مذهبهم، وإنما يفعلونه تقية فيسهل عليهم بهذه الحيلة رد أقوالهم والدس عليهم، وتكذيب ما يروى عنهم من حق، فتجدهم مثلًا يردون كلام الإمام محمد الباقر أو جعفر الصادق الذي قاله أمام ملأ من الناس، أو نقله العدول من المسلمين، بحجة أنه حضره بعض أهل السنة فاتقى في كلامه، ويقبلون ما ينفرد به الكذبة أمثال جابر الجعفي بحجة أنه لا يوجد أحد يتقيه في كلامه.

الفصل الرابع: المهدية والغيبة عند فرق الشيعة

فكرة الإيمان بالإمام الخفي أو الغائب توجد لدى معظم الشيعة، حيث تعتقد في إمامها بعد موته أنه لم يمت، وتقول بخلوده واختفائه عن الناس، وعودته إلى الظهور في المستقبل مهديًا، ولا تختلف هذه الفرق إلا في تحديد الإمام الذي قدرت له العودة، كما تختلف في تحديد الأئمة وأعيانهم والتي يعتبر الإمام الغائب واحدًا منهم.

وتعتبر السبئية -كما يقول القمي والنبختي والشهرستاني وغيرهم- أول فرقة قالت بالوقف على عليّ وغيبته[1]، حيث زعمت "أن عليًا لم يقتل ولم يمت ولا يقتل ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه، ويملأ الأرض عدلًا وقسطًا كما ملئت ظلمًا وجورًا"، ولما بلغ عبد الله بن سبأ نعي علي بالمدائن قال للذي نعاه: كذبت لو جئتنا بدماغه في سبعين صرة، وأقمت على قتله سبعين عدلًا لعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل، ولا يموت حتى يملك الأرض".

---

(١) القمي/ المقالات والفرق ص١٩-٢٠، النوبختي/ فرق الشيعة ص٢٢، الشهرستاني/ الملل والنحل: ١/ ١٧٤.

ثم شاع التوقف على الإمام وانتظار عودته مهديًا بعد ذلك بين فرق الشيعة.. فبعد وفاة كل إمام من آل البيت تظهر فرقة من أتباعه تدعي فيه هذه الدعوى.. وتنتظر عودته، وتختلف فيما بينها اختلافًا شديدًا في تحديد الإمام الذي وقفت عليه وقدرت له العودة -في زعمهم- ولذلك قال السمعاني:"ثم إنهم في انتظارهم الإمام الذي انتظروه مختلفون اختلافًا يلوح عليه حمق بليغ"(١).

الاستدلال على وقوع الغيبة

عني الإمامية عناية شديدة بالبرهنة على صحة عقيدتهم في غيبة المهدي.. وقد اتجهوا إلى كتاب الله سبحانه يبحثون فيه عن سند لعقيدتهم، فلما لم يجدوا فيه ما يريدون استنجدوا كعادتهم بالتأويل الباطني المتسم بالتكلف الشديد والشطط البالغ وأوَّلوا عدة آيات من كتاب الله بهذا المنهج.

جاء في أصل أصول التفاسير عندهم (تفسير القمي) في قوله سبحانه: (والنهار إذا تجلى). قال: النهار هو القائم عليه السلام منا أهل البيت..

وجاء في أصح كتبهم الأربعة في قوله سبحانه: (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورًا فمن يأتيكم بماء معين) قال:"إذا غاب عنكم إمامكم فمن يأتيكم بإمام جديد. وفي تفسير العياشي في قوله سبحانه: (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر) قال: "خروج القائم وأذان دعوته إلى نفسه".

والأمثلة في مثل هذا اللون من التأويل كثيرة حتى ألفوا في هذا كتبًا مستقلة مثل:"ما نزل من القرآن في صاحب الزمان"و"المحجة فيما نزل في القائم الحجة".

---

(١) الأنساب: ١/ ٣٤٥.

الفصل الخامس: الرجعة

الرجعة من أصول المذهب الشيعي، فمن رواياتهم" ليس منا من لم يؤمن بِكَرَّتِنَا". وقال ابن بابويه في الاعتقادات" واعتقادنا في الرجعة أنها حق. وقال المفيد: "واتفقت الإمامية على وجوب رجعة كثير من الأموات". وقال الطبرسي والحر العاملي وغيرهما من شيوخ الشيعة: بأنها موضع "إجماع الشيعة الإمامية، وأنها من ضروريات مذهبهم"، وأنهم" مأمورون بالإقرار بالرجعة واعتقادها وتجديد الاعتراف بها في الأدعية والزيارات ويوم الجمعة وكل وقت كالإقرار بالتوحيد والنبوة والإمامة والقيامة".

ومعنى الرجعة: الرجوع إلى الدنيا بعد الموت، ويشير ابن الأثير: أن هذا مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم.

وقد ذهبت فرق شيعية كثيرة إلى القول برجوع أئمتهم إلى هذه الحياة، ومنهم من يقر بموتهم ثم رجعتهم، ومنهم من ينكر موتهم ويقول بأنهم غابوا وسيرجعون- كما مر في مبحث الغيبة- وكان أول من قال بالرجعة ابن سبأ، إلا أنه قال بأنه غاب وسيرجع ولم يصدق بموته..

وكانت عقيدة الرجعة خاصة برجعة الإمام عند السبئية، والكيسانية وغيرها، ولكنها صارت عند الاثنى عشرية عامة للإمام وكثير من الناس. ويشير الألوسي إلى أن تحول مفهوم الرجعة عند الشيعة من رجعة الإمام فقط إلى ذلك المعنى العام كان في القرن الثالث[1].

استدلالهم على الرجعة

يرى شيخ المفسرين عندهم أن من أعظم الأدلة على الرجعة قوله

(١) روح المعاني: ٢٠/ ٢٧.

سبحانه:(وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون)، حيث يقول ما نصه" هذه الآية من أعظم الأدلة على الرجعة، لأن أحدًا من أهل الإسلام لا ينكر أن الناس كلهم يرجعون يوم القيامة من هلك ومن لم يهلك"(١).

مع أن الآية حجة عليهم، فهي تدل على نفي الرجعة إلى الدنيا إذ معناها كما صرح به ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقتادة وغير واحد حرام على أهل كل قرية أهلكوا بذنوبهم أنهم يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة(٢).

الفصل السادس: الظهور

أي ظهور الأئمة بعد موتهم لبعض الناس ثم عودتهم لقبورهم، وهذه العقيدة غير رجعة الأئمة، وقد بوب لها المجلسي بعنوان" باب أنهم يظهرون بعد موتهم، ويظهر منهم الغرائب"(٣).. فالأئمة يظهرون بعد موتهم، ويراهم.. بعض الناس، وهذا الظهور غير مرتبط بوقت معين كالرجعة بل هو خاضع لإرادة الأئمة حتى نسبوا لأمير المؤمنين أنه قال: "يموت من مات منا وليس بميت". وتذكر أساطيرهم أن أبا الحسن الرضا كان يقابل أباه بعد موته، ويتلقى وصاياه وأقواله(٤).

ورجعة الأموات قبل يوم القيامة باطلة بالنقل وإجماع المسلمين-كما سلف-وهذه الخرافات تعتبر من فضائحهم وعوراتهم التي هي قائمة في مذهبهم ولعلها من حكمة الباري سبحانه إذ ما من قوم أرادوا أن ينسبوا لله دينا ما أنزله إلا وفضحهم على رؤوس الأشهاد كما أثبتت ذلك الوقائع والأيام..

---

(١) تفسير القمي: ٢/ ٧٦.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٠٥.
(٣) بحار الأنوار: ٢٧/ ٣٠٣-٣٠٤.
(٤) بحار الأنوار: ٢٧/ ٣٠٣.

الفصل السابع: البداء

من أصول الإثنى عشرية القول بالبداء على الله سبحانه وتعالى حتى بالغوا في أمره، فقالوا" ما عبد الله بشئ مثل البداء"[١] و"ما عظم الله ﷻ بمثل البداء"[٢]، "ولو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا من الكلام فيه"[٣]، "وما بعث الله نبيًا قط إلا بتحريم الخمر وأن يقر الله بالبداء"[٤].

ويبدو أن الذي أرسى أسس هذا المعتقد عند الاثنى عشرية هو الملقب عندهم بثقة الإسلام وهو شيخهم الكليني (ت ٣٢٨ أو ٣٢٩ هـ) حيث وضع هذا المعتقد في قسم الأصول من الكافي، وجعله ضمن كتاب التوحيد، وخصص لهم بابًا بعنوان "باب البداء"، وذكر فيه ستة عشر حديثًا من الأحاديث المنسوبة للأئمة.

ولعل القارئ المسلم يعجب من أمر هذه العقيدة، التي لا يعرفها المسلمون، وليس لها ذكر في كتاب الله سبحانه، وسنة نبيه ﷺ مع أنها من أعظم ما عبد الله به، ومن أصول رسالات الرسل، وفيها من الأجر ما لو علم به المسلم لأصبحت تجري على لسانه دائمًا كشهادة التوحيد (كما يزعمون).

إذا رجعت إلى اللغة العربية لتعرف معنى البداء تجد أن القاموس يقول: بدا بدوًا وبدوًّا وبداءة: ظهر. وبدا له في الأمر بدوًا وبداء وبداة: نشأ له فيه رأي[٥].

فالبداء في اللغة -كما ترى- له معنيان:

---

(١) أصول الكافي، كتاب التوحيد: باب البداء: ١/ ١٤٦.

(٢) أصول الكافي: ١/ ١٤٦.

(٣) أصول الكافي: ١/ ١٤٨.

(٤) أصول الكافي: ١/ ١٤٨.

(٥) القاموس المحيط: مادة: بدو: ٤/ ٣٠٢.

الأول: الظهور بعد الخفاء، تقول بدا سور المدينة أي: ظهر.

والثاني: نشأة الرأي الجديد، قال الفراء: بدا لي بداء أي: ظهر لي رأي آخر، وقال الجوهري: بدا له في الأمر بداء أي: نشأ له فيه رأي[١].

وكلا المعنيين ورد في القرآن، فمن الأول قوله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله). ومن الثاني قوله: (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين).

وواضح أن البداء بمعنييه يستلزم سبق الجهل وحدوث العلم وكلاهما محال على الله سبحانه، ونسبته إلى الله سبحانه من أعظم الكفر، فكيف تجعل الشيعة الاثنا عشرية هذا من أعظم العبادات وتدعي أنه ما عظم الله ﷻ بمثل البداء، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وهذا المعنى المنكر يوجد في كتب اليهود، فقد جاء في التوراة التي حرفها اليهود وفق ما شاءت أهواءهم نصوص صريحة تتضمن نسبة معنى البداء إلى الله سبحانه[٢].

ويبدو أن ابن سبأ اليهودي قد حاول إشاعة هذه المقالة، التي ارتضعها من "توراته" في المجتمع الإسلامي الذي حاول التأثير فيه باسم التشيع وتحت مظلة الدعوة إلى ولاية عليّ، ذلك أن فرق السبئية "كلهم يقولون بالبداء وأن الله تبدو له البدوات"[٣].

---

(١) الصحاح: ٦/ ٢٢٧٨، ولسان العرب: ١٤/ ٦٦.

(٢) جاء في التوراة: "فرأى الرب أنه كثر سوء الناس على الأرض.. فندم الرب على خلقه الإنسان على الأرض وتنكد بقلبه، وقال الرب: لأمحون الإنسان الذي خلقته عن وجه الأرض..": سفر التكوين، الفصل السادس، فقرة: ٥.

(٣) الملطي/ التنبيه والرد: ص١٩.

استدلالهم على البداء

وبعد أن استقرت مسألة البداء عندهم كعقيدة بمقتضى روايات الكليني وأضرابه، حاول شيخ الشيعة -كعادتهم- البحث في كتاب الله عن سند لدعواهم.

وكأنه لم يكفهم أن نسبوا هذه الفرية إلى الله، حتى زعموا أن كتاب الله أثبت فريتهم، فتعلقوا بقوله سبحانه: (يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب).

ويلحظ أن أول من استدل بهذه الآية على فرية البداء هو المختار بن أبي عبيد، وتابعه شيوخ الشيعة، ووضعوا روايات في ذلك أسندوها لبعض علماء آل البيت لتحظى بالقبول[1].

واستدلالهم بهذه الآية على أن المحو والإثبات بداء شطط في الاستدلال، وتعسف بالغ، ذلك أن المحو بعلمه وقدرته وإرادته، من غير أن يكون له بداء في شيء، وكيف يتوهم له البداء وعنده أم الكتاب، وله في الأزل العلم المحيط: (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)، (..عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين).

وأمثالها من الآيات، وتوهم البداء لله تكذيب لكل هذه الآيات، وقد بين الله تعالى في آخر الآية أن كل ما يكون منه من محو وإثبات وتغيير، واقع بمشيئته ومسطور عنده في الكتاب[2].

---

(١) انظر: أصول الكافي: ١/ ١٤٦.

(٢) وانظر في الرد عليهم أيضًا: المستصفى للغزالي: ١/ ١١٠، مختصر الصواعق: =

الفصل الثامن: الطينة

هذه العقيدة من مقالاتهم السرية، وعقائدهم التي يتواصون بكتمانها حتى من عامتهم، لأنه لو اطلع العامي الشيعي على هذه العقيدة"تعمد أفعال الكبار لحصول اللذة الدنيوية، ولعلمه بأن وبالها الأخروي إنما هو على غيره"(١).

والذي تولى إرساء هذه العقيدة -فيما يظهر- هو شيخهم الكليني الذي بوب لها بعنوان"باب طينة المؤمن والكافر" وضمن ذلك سبعة أحاديث في أمر الطينة"(٢).

وهذه العقيدة أوسع تفصيل لها هو رواية ابن بابويه في علل الشرائع حيث استغرقت عنده خمس صفحات وختم بها كتابه(٣)، ورأى بعض شيوخهم المعاصرين أن هذا كمسك الختام فقال:"إنه ختم بهذا الحديث الشريف كتاب علل الشرائع"(٤).

وملخص ذلك يقول بأن الشيعي خلق من طينة خاصة، والسني خلق من طينة أخرى، وجرى المزج بين الطينتين بوجه معين، فما في الشيعي من معاصي

=

١/ ١١٠، الأحكام للآمدي: ٣/ ١١١، وانظر تفسير الآية: زاد المسير: ٤/ ٣٣٧-٣٣٨، شرح الطحاوية: ص٩٤، الطبري: ١٣/ ١٧٠، فتح القدير: ٣/ ٨٨، محاسن التأويل للقاسمي: ١٣/ ٣٧٣-٣٧٣، البغوي: ٣/ ٢٢-٢٣، ابن كثير: ٢/ ٥٥٩-٥٦١، الألوسي: ١٣/ ١٦٩-١٧٠، السعدي: ٤/ ١١٦-١١٧ ولم يقل أحد منهم بمثل شناعة الرافضة.

(١) انظر: الأنوار النعمانية: ١/ ٢٩٥.

(٢) أصول الكافي: ٢/ ٢-٦.

(٣) انظر: علل الشرائع: ص٦٠٦-٦١٠.

(٤) انظر: بحار الأنوار (الهامش): ٥/ ٢٣٣.

وجرائم هو من تأثره بطينة السني، وما في السني من صلاح وأمانة هو بسبب تأثره بطينة الشيعي، فإذا كان يوم القيامة فإن سيئات وموبقات الشيعة توضع على أهل السنة، وحسنات أهل السنة تعطى للشيعة.

وعلى هذا المعنى تدور أكثر من ستين رواية من رواياتهم.

ويمكن أن يستنبط سبب القول بهذه العقيدة من الأسئلة التي وجهت للأئمة والشكاوى التي رفعت إليهم، فالشيعة يشكون من انغماس قومهم بالموبقات والكبائر، ومن سوء معاملة بعضهم لبعض، ومن الهم والقلق الذي يجدونه ولا يعرفون سببه.

ولكن يعزو إمامهم ذلك كله لتأثر طينة الشيعي بطينة السني في الخلقة الأولى.

الشيعة المعاصرون وصلتهم بأسلافهم:

فقد بيَّن الدكتور ناصر القفاري في رسالته عن الشيعة:

- الصلة في مصدر التلقي.
- صلتهم بالفرق القديمة.
- الصلة العقدية بين القدامى والمعاصرين.

ثم قال: وبهذا يتبين أن المعاصرين هم أخطر من سابقيهم، لأنهم ورثوا كل ما صنعته القرون من الدسّ والتزوير، واعتبروا تلك مصادر معتمدة.. ووفرت لهم "الطباعة الحديثة" انتشار الكتب عنهم.. وكان ضعف المسلمين سببًا في زيادة نشاطهم، وكان فشو الجهل وضعف السنة عاملًا من عوامل التأثر بهم وتأثير ضلالهم. (ثم تكلم بعد ذلك عن):

دولة الآيات

وبعد أن تبين صلة الشيعة المعاصرين بقدمائهم، وأن الارتباط قائم ووثيق

بينهم، بل إن ما كان يعد غلوًا عند الماضين أصبح ضروريًا عند المعاصرين، فهل ثمة حاجة بعد ذلك للوقوف عند دولتهم؟ أليس الأمر قد اتضح لكل ذي عينين؟ وأن تخصيص دولتهم الحاضرة بالدراسة والتقويم يعود إلى أمرين أساسيين:

الأول: أنها طرحت بلسان زعيمها، ونص دستورها فكرة جديدة في محيط التشيع الاثنى عشري، أثارت جدلًا بين شيوخ الشيعة بين مؤيد ومعارض. تلك هي فكرة نقل وظائف المهدي وصلاحياته بعد طول غيبته وتأخر خروجه إلى الفقيه الشيعي بالكامل، حيث أن الخميني استولى تمامًا على وظائف مهديهم المنتظر بعد قيام دولته.

السبب الثاني: بأنه قيل إن هذه الدولة هي التي تمثل الإسلام في هذا العصر، وشيوخها هم المراجع للمسلمين، ومؤسسها من المجددين، وراج هذا على بعض المسلمين، وقيل بعد قيام دولتهم بأنه قد عاد "المذهب الشيعي إلى نقائه الأصيل ولاء لله ورسوله ﷺ وحبًا لآل بيته حبًا صادقًا لوجه الله لا يفقد صاحبه احترام غيرهم من المسلمين وخصوصًا صحابة رسول الله ﷺ"[(١)].

وزعمت بعض الصحف "أن ردود الفعل التي أحدثتها (حركة الخميني) كان مبعثها أن حركة الخميني حركة إسلامية مائة في المائة"[(٢)].. ورشحت مجلة المعرفة التونسية الخميني لنيل جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام[(٣)].

ومضت على هذا النهج مجلات أخرى كالرائد، والدعوة، والرسالة،

---

(١) مجلة البلاغ، العدد ٥١٢، ٩ ذي القعدة ١٣٩٩هـ.

(٢) مجلة الاعتصام، العدد الخامس، السنة الثانية والأربعون، ربيع أول ١٣٩٩هـ.

(٣) انظر: مجلة المعرفة التونسية، العدد ٩، السنة الخامسة، ذي الحجة ١٣٩٩هـ.

والأمان، وغيرها[١]. وهذه المجلات كلها منتسبة لأهل السنة.

وقد كتب بعض المنتمين لأهل السنة كتابات عن الخميني وثورته، يشيد بها، ويعدها المثال الصادق للحكومة الإسلامية[٢].

وأصدرت بعض الحركات الإسلامية بيانات تثني وتؤيد المنهج الخميني حتى جاء في بيان التنظيم الدولي للإخوان المسلمين وصف حكم الخميني بأنه "الحكم الإسلامي الوحيد في العالم"[٣].

فكانت فتنة مدلهمة لا تزال بعض آثارها باقية، وإن أفاق البعض وتبينت له الحقيقة، إلا أن منهم من لا يزال يعد ما يثار عن شيعة الخميني إنما هي "ضجة مفتعلة"[٤].

وقد استغل الشيعة هذا الجو بالدعاية لمذهبهم ونشره، وساهمت هذه الحملة الإعلامية الدعائية في الصحف الإسلامية علة إخفاء الحقيقة أمام شباب المسلمين، لأنها هي لا تعرف شيئًا من الخلاف بين الشيعة والسنة إلا أنه خلاف حول من يستحق الولاية: عليّ أم أبو بكر، وتلك أمة خلت، وليس هذا الخلاف بأمر ذي بال اليوم.

---

(١) انظر: الرائد الألمانية، العدد٣٤، ذي الحجة ١٣٩٨ هـ ص ٢٥-٢٦. والدعوة المصرية، العدد ٣٠، في ١/ ١٢/ ١٣٩٨ هـ ص٨. والرسالة اللبنانية، العدد ٢٩، جمادى الثانية ١٣٩٩ هـ. والأمان اللبنانية، العدد، ٣١، ٩ شوال ١٣٩٩ هـ.

(٢) مثل: الخميني الحل الإسلامي والبديل، تأليف فتحي عبد العزيز ونشرته دار المختار الإسلامي، و"مع ثورة إيران" وهو البحث الثالث من البحوث التي يصدرها المركز الإسلامي في آخن، وكتاب "نحو ثورة إسلامية" لمحمد عنبر.

(٣) انظر: الشيعة والسنة ضجة مفتعلة، وهو من سلسلة الكتب التي تصدرها دار المختار الإسلامي: ص٥٢.

(٤) المصدر السابق.

فكان هذا الوضع مجالًا خصبًا لنشر الفتنة والرفض.. ومن هنا فإنه لابد من بيان الحقيقة ونشرها بين الناس. ولابد من نقض دعوى الجديد والتجديد، وحكاية التغيير وتقويمها، ولعل دراسة فكر مؤسسها، ومواد دستورها، هي التي يمكن على ضوئها إصدار حكم موضوعي محايد في أمرها.

فكر مؤسسها

من خلال الرجوع إلى ما كتبه الخميني في "كشف الأسرار"، و"تحرير الوسيلة"، و"الحكومة الإسلامية"، و"مصباح الإمامة والولاية"، و"رسائل التعادل والترجيح والتقية"، و"دروس في الجهاد والرفض"، و"سر الصلاة".. وغيرها. يتبين أن له مجموعة من الاتجاهات، لعل أهمها ما يلي:

أولا: الاتجاه الوثني

في كتابه كشف الأسرار ظهر الخميني داعيًا للشرك ومدافعًا عن ملة المشركين حيث يقول، تحت عنوان:"ليس من الشرك طلب الحاجة من الموتى": "يمكن أن يقال إن التوسل إلى الموتى وطلب الحاجة منهم شرك، لأن النبي والإمام ليس إلا جمادين فلا يتوقع منهما النفع والضرر".

والجواب: إن الشرك هو طلب الحاجة من غير الله، مع الاعتقاد بأن هذا الغير هو إله ورب، وأما إذا طلب الحاجة من الغير من غير هذا الاعتقاد فذلك ليس بشرك، ولا فرق في هذا المعنى بين الحي والميت، ولهذا لو طلب أحد حاجته من الحجر والمدر لا يكون شركًا، مع أنه قد فعل فعلًا باطلًا.

ومن ناحية أخرى نحن نستمد من أرواح الأنبياء المقدسة والأئمة الذين أعطاهم الله قدرة.

فقد اشتمل هذا النص على ما يلي:

أ. اعتقاده أن دعاء الأحجار والأصنام والأضرحة من دون الله لا يكون شركًا، إلا إذا اعتقد الداعي أنها هي الإله والرب. وهذا باطل من القول وزور، لأن هذا هو الشرك الأكبر بعينه.

ب. اعتقاده أن الأئمة الأموات لهم قدرة على النفع والضر. ويقول بأنهم يستمدون منهم ذلك. وهذا من الشرك الأكبر بلا ريب، فالأموات لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا.. وهل يوجد فرق بين هذا وشرك مشركي قريش.. وغيرهم من مشركي الأمم التى كان غالب شركهم من هذا الباب.

جـ. دعواهم الإحاطة الكاملة للأرواح على هذا العالم، ثم خاض في ركام الفلسفة لإثبات مدعاه.

والإحاطة بهذا العالم لله وحده (وكان الله بكل شيء محيطًا)، والروح مخلوقة مدبرة، وهي بعد مفارقتها للجسد في نعيم أو عذاب، وليس لها من أمر الإحاطة بالعالم نصيب، ولكن الشيء من معدنه لا يستغرب فمن يجمع بين إلحاد الفلاسفة وغلو الرافضة لا يخرج منه إلا هذا وأشنع.

اعتقاده تأثير الكواكب والأيام على حركة الإنسان

لا يزال فكر الخميني أسير أوهام الشرك والمشركين، فهو يزعم أن هناك أيامًا منحوسة من كل شهر يجب أن يتوقف الشيعي فيها عن كل عمل، وأن لانتقال القمر إلى بعض الأبراج تأثيرًا سلبيًا على عمل الإنسان، فليتوقف الشيعي عن القيام بمشروع معين حتى يتجاوز القمر ذلك البرج المعين.

ومما يشهد لاتجاه الخميني هذا ما جاء في تحرير الوسيلة، حيث يقول:"يكره إيقاعه (يعني عقد الزواج) والقمر في برج العقرب، وفي محاق الشهر، وفي أحد الأيام المنحوسة في كل شهر وهي سبعة: يوم٣، ويوم٥،

ويوم١٣، ويوم١٦، ويوم٢١، ويوم٢٤، ويوم٢٥ (وذلك من كل شهر)[١].

هذا معتقد الخميني فيصدق فيه ومن تبعه قول صاحب التحفة الاثنى عشرية: "إن الصابئين كانوا يحترزون عن أيام يكون القمر بها في العقرب، أو الطرف، أو المحاق وكذلك الرافضة.. وكانت الصابئة يعتقدون أن جميع الكواكب فاعلة مختارة، وأنها هي المدبرة للعالم السفلي، وكذلك الرافضة"[٢].

حقيقة الشرك عند الخميني

وإذا كانت وثنية المشركين ليست عنده بشرك.. فما هو الأمر الذي يكون شركًا في نظره؟.

يقول: "توجد نصوص كثيرة تصف كل نظام غير إسلامي بأنه شرك، والحاكم أو السلطة فيه طاغوت، ونحن مسؤولون عن إزالة آثار الشرك من مجتمعنا المسلم، ونبعدها تمامًا عن حياتنا"[٣].

فأنت ترى أن مفهوم الشرك عنده هو أن يتولى على بلاد المسلمين أحد من أهل السنة فحاكمها حينئذ مشرك، وأهلها مشركون، فدين هؤلاء الولاية، لا التوحيد، ولذلك فإن الشرك قد ضرب بجرانه في أقطارهم.

ثانيًا: الغلو في التصوف (أو القول بالحلول والاتحاد)

وتتمثل صورة التصوف عنده في أوضح مظاهرها في كتابه "مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية" ثم كتابه الآخر "سر الصلاة".. وفيما يلي بيان لبعض اتجاهاته الصوفية الغالية:

---

(١) تحرير الوسيلة: ٢/ ٢٣٨.

(٢) مختصر التحفة: ص٢٩٩، وراجع باب ما جاء في التنجيم، من كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد ص٣٦٥.

(٣) الحكومة الإسلامية: ص٣٣-٣٤.

أ- قوله بالحلول الخاص

يقول عن أمير المؤمنين علي: "خليفته (يعني خليفة الرسول ﷺ) القائم مقامه في الملك والملكوت، المتحد بحقيقته في حضرة الجبروت واللاهوت، أصل شجرة طوبى، وحقيقة سدرة المنتهى، الرفيق الأعلى في مقام أو أدنى، معلم الروحانيين، ومؤيد الأنبياء والمرسلين عليّ أمير المؤمنين"(١).

فانظر إلى قوله "المتحد..باللاهوت" تجده كقول النصارى باتحاد اللاهوت بالناسوت(٢)، ومن قبل زعمت غلاة الشيعة أن الله حل في عليّ(٣)، ولا تزال مثل هذه الأفكار الغالية والإلحادية تعشعش في أذهان هؤلاء الشيوخ كما ترى.

ومن منطلق دعوى حلول الرب بعلي -كما يفتري- ينسب الخميني لأمير المؤمنين علي أنه يقول:"كنت مع الأنبياء باطنًا ومع رسول الله ظاهرًا"(٤). ويعلق عليه فيقول:"فإنه عليه السلام صاحب الولاية المطلقة الكلية والولاية باطن الخلافة.. فهو عليه السلام بمقام ولايته الكلية قائم على كل نفس بما كسبت، ومع كل الأشياء معية قيومية ظلية إلهية ظل المعية القيومية الحقة الإلهية، إلا أن الولاية لما كانت في الأنبياء أكثر خصهم بالذكر".

فأنت ترى أن الخميني يعلق على تلك الكلمة الموغلة في الغلو والمنسوبة

---

(١) مصباح الهداية: ص١.

(٢) الناسوت: هو اتحاد الإله بالإنسان.

(٣) انظر القول بالحلول عند فرق غلاة الشيعة في مقالات الإسلاميين: ١/ ٨٣-٨٦، وأشار الشهرستاني إلى أن غلاة الشيعة كلهم متفقون على القول بالحلول (الملل والنحل: ١/ ١٧٥).

(٤) مصباح الهداية: ص١٤٢.

زورًا لأمير المؤمنين بما هو أشد منها غلوًا وتطرفًا فهو عنده ليس قائمًا على الأنبياء فحسب، بل على كل نفس، ويختار الآية المختصة بالله سبحانه ليصف بها المخلوق، قال تعالى:(أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت).

أي أنه سبحانه: "حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة" قال تعالى: (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه)[1].

قد تبينت الحقيقة لكل ذي عينين، فماذا بعد القول بأن عليًا هو القائم على كل نفس غلوًا، إذ هو تأليه صريح.

ب- قوله بالحلول والاتحاد الكلي

وتجاوز الخميني مرحلة القول بالحلول الجزئي، أو الحلول الخاص بعلي إلى القول بالحلول العام.. فهو يقول -بعد أن تحدث عن التوحيد ومقاماته حسب تصوره- "النتيجة لكل المقامات والتوحيدات عدم رؤية فعل وصفة حتى من الله تعالى، ونفى الكثرة بالكلية، وشهود الوحدة الصرفة.."[2].

ويبدو أن قوله" عدم رؤية فعل وصفة حتى من الله تعالى للتأكيد على مذهب الاتحادية، لأن رؤية فعل متميز، وإثبات صفة معينة لله يعني إثبات الغيرية والتثنية وهذا شرك عندهم.

ثم ينقل عن أحد أئمته أنه قال:"لنا مع الله حالات هو هو ونحن نحن، وهو نحن ونحن هو"[3].

---

(١) يونس: ٦١، تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٥٦.
(٢) مصباح الهداية: ص١٣٤.
(٣) مصباح الهداية: ص١١٤.

ثم يعلق على ذلك بقوله:"وكلمات أهل المعرفة خصوصًا الشيخ الكبير محي الدين مشحونة بأمثال ذلك مثل قوله: الحق خلق، والخلق حق، والحق حق، والخلق خلق. وقال في نصوصه:"إن الحق المنزه هو الحق.. ثم نقل جملة من كلمات ابن عربي.. وقال:"لا ظهور ولا وجود إلا له تبارك وتعالى، والعالم خيال في خيال عند الأحرار"[١].

ثم قال: وقوله: (إياك نعبد) "رجوع العبد إلى الحق بالفناء الكلي المطلق"[٢].

ثم تراه كثيرًا ما يستدل على مذهبه في وحدة الوجود. يقول ابن عربي والذي يصفه بالشيخ الكبير[٣]، وهكذا يتبين أن الخميني قد أخذ مذهب أهل الحلول والاتحاد.

ثالثًا: دعوى النبوة

أفرزت لوثات التصوف، وخيالات الفلسفة عنده دعوى غريبة، وكفرًا صريحًا، حيث رسم للسالك أسفارًا أربعة:

ينتهي السفر الأول إلي مقام الفناء وفيه السر الخفي والأخفى.. ويصدر عنه الشطح، فيحكم بكفره، فإن تداركته العناية الإلهية.. فيقر بالعبودية بعد الظهور بالربوبية"[٤]كما يقول.

وينتهي السفر الثاني عنده إلى أن "تصير ولايته تامة، وتفنى ذاته وصفاته وأفعاله في ذات الحق وصفاته وأفعاله، وفيه يحصل الفناء عن الفنائية أيضًا الذي

(١) مصباح الهداية: ص١٢٣،١١٤.

(٢) سر الصلاة: ص ١٧٨.

(٣) انظر -مثلًا- ص ١١٢،٩٤،٨٤ من مصباح الهداية.

(٤) مصباح الهداية: ص١٤٨.

هو مقام الأخفى، وتتم دائرة الولاية"[١].

أما في السفر الثالث فإنه "يحصل له الصحو التام ويبقى بإبقاء الله، ويسافر في عوالم الجبروت والملكوت والناسوت، ويحصل له حظ من النبوة، وليست له نبوة التشريع، وحينئذ ينتهي السفر الثالث ويأخذ في السفر الرابع"[٢].

وبالسفر الرابع" يكون نبيًا بنبوة التشريع"[٣].

فمراحل السفر عنده: الفناء، والولاية وفيها الفناء عن الفناء، والنبوة بلا تشريع، ثم النبوة الكاملة، وهي تتضمن أن النبوة مكتسبة عن طريق "رياضات" ومجاهدات أهل التصوف، وهي دعوى ترتد إلى أصول فلسفة صوفية قديمة، ولذا قال القاضي عياض: "ونكفر... من ادعى النبوة لنفسه، أو جوز اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب إلى مرتبتها كالفلاسفة وغلاة الصوفية"[٤].

فهذه المقالة كفر صريح، وإلحاد مكشوف، كفر بالنبوة والأنبياء، وخروج عن دين الإسلام، ويبدو أنه يدعي لنفسه سلوك هذه "المقامات".. وقد ذكر في كتابه الحكومة الإسلامية "أن الفقيه الرافضي بمنزلة موسى وعيسى"[٥].

وينبغي ألا يغيب عن البال أن مقام الإمامة عندهم أعلى من مقام النبوة – كما سبق ذكره– وسيأتي ذكر ذلك أيضًا من كلام الخميني نفسه، ومع ذلك فإن الخميني لا يُدْعَي في إيران إلا بالإمام أي بالوصف الذي هو فوق وصف النبوة

(١) المصدر السابق: ص١٤٨-١٤٩.
(٢) مصباح الهداية: ص١٤٩.
(٣) مصباح الهداية: ص١٤٩.
(٤) الشفاء: ٢/ ١٠٧٠-١٠٧١.
(٥) الحكومة الإسلامية: ص ٩٥.

عندهم[١].

ولهذا قال مرتضى كتبي، وجان ليون[٢]: "بالنسبة للغالبية العظمى من الشعب الإيراني لم يعد روح الله الخميني آية الله إنما الإمام، وهو لقب نادرًا ما أعطي في تاريخ الشيعة"[٣].

وقد أكد هذا المعنى أحد المسئولين الإيرانيين ويدعى فخر الحجازي حين قال: "إن الخميني أعظم من النبي موسى وهارون"، فنال بهذا القول رضى الخميني فعينه نائبًا عن طهران، ورئيسًا لمؤسسة المستضعفين أعظم مؤسسة مالية في البلاد[٤].

رابعًا: الغلو في الرفض

بالنسبة لاتجاه الخميني في التشيع فإنه يأخذ بالمذهب الغالي والمتطرف وهو مذهب غلاة الروافض. ومما يدل على ذلك أنه يعتمد مقالة غلاتهم في تفضيل الأئمة على أنبياء الله ورسله، فيقول:"إن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل.. وقد ورد عنهم أن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل"[٥].

وهذا هو مذهب غلاة الروافض كما يقرر ذلك عبد القادر البغدادي،

---

(١) مصطلح الإمام عند الشيعة يختلف تمامًا في مفهومه عند أهل السنة، ولذلك لا يلفت استعمال الشيعة له أنظار أهل السنة.

(٢) مرتضى كتبي: أستاذ العلوم الاجتماعية في جامعة طهران، وجان ليون فاندورن: صحافي فرنسي.

(٣) المجتمع والدين عند الإمام الخميني، وقد نشر هذا البحث في "الموند" الفرنسية، ثم طبع في كتاب باسم "إيران..ص٢١٦".

(٤) موسى الموسوى/ الثورة البائسة: ص١٤٧.

(٥) الحكومة الإسلامية: ص٥٢.

والقاضي عياض، وشيخ الإسلام ابن تيمية[١].

وترى الخميني ينسب هذا المذهب لكل المعاصرين، وأن هذا من الضرورات عندهم، فالمعاصرون هم -بناءً على ذلك- من غلاة الروافض في حكم أئمة الإسلام. وليس ذلك فحسب، بل عقيدة الخميني في أئمته هي عقيدة الغلاة في حكم كبار شيوخ الشيعة في القرن الرابع يدل على ذلك أنه يذهب إلى القول بأن أئمته "لا يتصور فيهم السهو والغفلة"[٢].

هذا والخميني في بقية عقائده لا يختلف عن عقائد الاثنى عشرية التي تحدثت عنها صفحات هذا البحث، وذلك في تكفيره لصحابة رسول الله ﷺ[٣] ولأهل السنة عمومًا، حتى ينعتهم بالنواصب -ما عدا من يسمونهم بالمستضعفين- بل هو يأخذ بالرأي المتطرف من آراء قومه في ذلك، وهو معاملتهم كالحربي، حيث قال: "والأقوى إلحاق الناصب بأهل الحرب في إباحة ما اغتنم منهم وتعلق الخمس به، بل الظاهر جواز أخذ ماله أينما وجد، وبأي نحو كان، ووجوب إخراج خُمُسه.

فتبين أن خميني من غلاة الروافض، بل هو يأخذ من آرائهم ما هو أكثر شذوذًا، ويتعمد مخالفة أهل السنة وإن خرج عن ذلك فهو تقيَّة..

خامسًا: قوله بعموم ولاية الفقيه

تعتقد الاثنى عشرية أن الولاية العامة على المسلمين منوطة بأشخاص

---

(١) انظر: أصول الدين: ص٢٩٨، والشفاء: ٢/ ٢٩٠، ومنهاج السنة: ١/ ١٧٧.

(٢) الحكومة الإسلامية: ص٩١.

(٣) حتى أنه يقرر في كتابه "تحرير الوسيلة" مشروعية التبري من أعداء الأئمة في الصلاة - وأعداء الأئمة في قاموس الشيعة هم صحابة رسول الله ﷺ إلا ثلاثة أو سبعة -(تحرير الوسيلة: ١/ ١٦٩) وهو في كتابه: كشف الأسرار: ص١١٢ وما بعدها.

معينين بأسمائهم وعددهم، قد اختارهم الله كما يختار أنبيائه.. وهؤلاء الأئمة أمرهم كأمر الله، وعصمتهم كعصمة رسل الله، وفضلهم فوق فضل أنبياء الله.

ولكن آخر هؤلاء الأئمة -حسب اعتقادهم- غائب منذ سنة ٢٦٠ هـ، ولذا فإن الاثنى عشرية تحرم أن يلي أحد منصبه في الخلافة حتى يخرج من مخبئه، حتى تقول:"كل راية ترفع قبل أن يقوم القائم فصاحبها طاغوت وإن كان يدعو إلى الحق".

لكن غيبة الحجة طالت، وتوالت قرون قاربت الاثنى عشر دون أن يظهر، والشيعة محرومون من دولة شرعية حسب اعتقادهم، فبدأت فكرة القول بنقل وظائف المهدي للفقيه تداعب أفكار المتأخرين منهم. ويقول الخميني:" قد مر على الغيبة الكبرى لإمامنا المهدي أكثر من ألف عام، وقد تمر ألوف السنين قبل أن تقتضى المصلحة قدوم الإمام المنتظر في طول هذه المدة المديدة، هل تبقى أحكام الإسلام معطلة؟ يعمل الناس من خلالها ما يشاؤون؟ ألا يلزم من ذلك الهرج والمرج والقوانين التي صدع بها نبي الإسلام ﷺ وجاهد في نشرها وبيانها وتنفيذها طيلة ثلاثة وعشرين سنة، هل كان ذلك لمدة معلومة؟ هل حدد الله عمر الشريعة بمائتي عامًا مثلًا؟ الذهاب إلى هذا الرأي أسوأ في نظري من الاعتقاد بأن الإسلام منسوخ"(١).

ثم يقول:"إذن فإن كل من يتظاهر بالرأي القائل بعدم ضرورة تشكيل الحكومة الإسلامية فهو ينكر ضرورة تنفيذ أحكام الإسلام، ويدعو إلى تعطيلها وتجميدها، وهو ينكر بالتالي شمول وخلود الدين الإسلامي الحنيف"(٢).

---

(١) الحكومة الإسلامية: ص٢٦.

(٢) السابق: ص٢٦-٢٧.

فخميني يرى لهذه المبررات التي ذكرها ضرورة خروج الفقيه الشيعي وأتباعه للاستيلاء على الحكم في بلاد الإسلام نيابة عن المهدي، وهو يخرج بهذا عن مقررات دينهم، ويخالف وصايا أئمتهم الكثيرة في ضرورة انتظار الغائب وعدم التعجيل بالخروج.

فصل في الحكم على الشيعة[(١)]

المبحث الأول: الحكم عليهم بأنهم مبتدعة وليسوا بكفرة

قال الإمام النووي[(٢)]: "إن المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون والمحققون أن الخوارج لا يكفرون كسائر أهل البدع"[(٣)].

وقد فهم الشيخ ملا علي القاري من هذا النص أن النووي لا يرى تكفير الروافض لدخولهم في"أهل البدع" ولكنه أشار إلى أن الرافضة يتطور مذهبها ويتغير، وأن متأخري الرافضة ليسوا كسابقيهم، وإن رافضة زمانه غير الرافضة الذين يتحدث عنهم النووي وغيره من أهل العلم. فعقب على كلام النووي هذا وقال: "قلت: وهذا في غير حق الرافضة الخارجة في زماننا، فإنهم يعتقدون كفر أكثر الصحابة فضلًا عن سائر أهل السنة والجماعة، فهم كفرة بالإجماع بلا نزاع"[(٤)].

---

(١) هذا الفصل منقول من كتاب أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية عرض ونقد تأليف د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري. ص ١٢٤٩ ومابعدها.

(٢) يحى بن شرف بن حسن بن حسين النووي. قال ابن كثير: شيخ المذهب(يعني الشافعي) وكبير الفقهاء في زمانه، توفي سنة ٦٧٦هـ. (البداية والنهاية: ٣/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ٢/ ٥٠.

(٤) مرقاة المفاتيح: ٩/ ١٣٧.

وأقول الدليل على أن الإمامية في عصر النووي لا يكفرون الصحابة، أو أن الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ، لم يعرف ذلك عنهم، وهذا هو الأقرب لوجود روايات تكفر الصحابة في أصول الرافضة الموضوعة من قَبْلِ النووي، والدليل على ذلك أن النووي يذكر في شرح مسلم أن الإمامية لا يكفرون الصحابة، ويرى أن التكفير إنما هو عند غلاة الشيعة(١).

المبحث الثاني: القول بكفرهم

وقد ذهب إلى هذا كبار أئمة الإسلام، كالإمام مالك وأحمد والبخاري وغيرهم..

وفيما يلي نصوص فتاوى أئمة الإسلام وعلمائه في الروافض المسمون بالاثنى عشرية والجعفرية. وفي مقالاتهم التي اشتهروا بها، وثبتت في مدوناتهم الأساسية.

وأبدأ بذكر فتوى الإمام مالك، ثم الإمام أحمد، ثم الإمام البخاري، ثم أذكر بعد ذلك فتاوى الأئمة الباقين حسب تاريخ وفياتهم.. وقد اخترت فتاوى الأئمة الكبار، أو من عاش مع الروافض في بلد واحد، أو كتب عنهم ودرس مذهبهم من علماء المسلمين.

الإمام مالك: روى الخلال عن أبي بكر المروذي قال: سمعت أبا عبد الله يقول: قال مالك: الذي يشتم(٢) أصحاب النبي ﷺ ليس لهم اسم، أو قال نصيبًا في الإسلام(٣).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٥/ ١٧٣.

(٢) وقد ثبت فيما مضى أنهم يرون اللعن للصحابة دينًا وشرعة ويصرحون بتكفيرهم إلا ما لا يتجاوز أصابع اليد.

(٣) الخلال/ السنة: ٢/ ٥٥٧، قال محقق الرسالة: إسناده صحيح.

وقال ابن كثير -عند قوله سبحانه-:(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار..). قال: "ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه في رواية عنه بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، قال: لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة رضي الله عنهم فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك"[(١)].

قال القرطبي:"لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله. فمن نقص واحدًا منهم، أو طعن عليه في روايته[(٢)] فقد رد على الله رب العالمين، وأبطل شرائع المسلمين"[(٣)].

الإمام أحمد: رويت عنه روايات عديدة في تكفيرهم..

روى الخلال عن أبي بكر المروذي قال: سألت أبا عبد الله عمن يشتم أبا بكر وعمر وعائشة؟ قال: ما أراه على الإسلام[(٤)].

وقال الخلال: أخبرني عبد الملك بن عبد الحميد قال: سمعت أبا عبد الله

---

(١) الفتح: ٢٩. تفسير ابن كثير: ٤/ ٢١٩، وانظر روح المعاني للآلوسي: ٢٦/ ١١٦، وانظر أيضًا في استنباط وجه تكفيرهم من الآية/ الصارم المسلول: ص٥٧٩.

(٢) وقد مضى مرجع الشيعة في هذا العصر أن روايات الصحابة كأبي هريرة وعمرو بن العاص وسمرة بن جندب لا تساوي عندهم جناح بعوضة.

(٣) تفسير القرطبي: ١٦/ ٢٩٧.

(٤) الخلال/ السنة: ٢/ ٥٥٧، قال محقق الرسالة: إسناده صحيح، وانظر: شرح السنة لابن بطة: ص١٦١، والصارم المسلول: ص٥٧١.

قال: من شتم أخاف عليه الكفر مثل الروافض، ثم قال: من شتم أصحاب النبي ﷺ لا نأمن أن يكون قد مرق عن الدين(١).

وقال: أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سألت أبي عن رجل شتم رجلًا من أصحاب النبي ﷺ فقال: ما أراه على الإسلام(٢).

وجاء في كتاب السنة للإمام أحمد قوله عن الرافضة:"هم الذين يتبرأون من أصحاب محمد ﷺ ويسبونهم وينتقصونهم ويكفرون الأئمة إلا أربعة: علي وعمار والمقداد وسلمان، وليست الرافضة من الإسلام في شيء(٣).

والإثنى عشرية تكفر الصحابة إلا قليلًا لا يتجاوز أصابع اليد، وتلعنهم في دعواتها وزياراتها، ومشاهدها، وأمهات كتبها.. وتكفر أتباعهم إلى يوم الدين.

قال ابن عبد القوي:"وكان الإمام أحمد يكفر من تبرأ منهم (أي الصحابة) ومن سب عائشة أم المؤمنين ورماها مما برأها الله منه، وكان يقرأ (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدًا إن كنتم مؤمنين)(٤).

ولكن ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى أن فى تكفير الروافض نزاعًا عن أحمد وغيره(٥).

وما مضى من نصوص عن الإمام أحمد صريحة في قوله بتكفيرهم، وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية إلى وجه من لم يكفر الروافض في سبهم للصحابة، وبه

---

(١) الخلال/ السنة: ٢/ ٥٥٨، قال محقق الرسالة: إسناده صحيح.
(٢) الخلال/ السنة: ٢/ ٥٥٨، وانظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي: ص٢١٤.
(٣) السنة/ للإمام أحمد: ص ٨٢، تصحيح الشيخ إسماعيل الأنصاري.
(٤) الآية رقم: ١٧ من سورة النور، والنص من كتاب ما يذهب إليه الإمام أحمد/ للإمام أبي محمد رزق الله بن عبد القوي التميمي، المتوفى سنة ٤٨٠ هـ الورقة٢١.
(٥) الفتاوى: ٣/ ٣٥٢.

يزول التعارض المتوهم في نصوص أحمد.. فقال: "وأما من سبهم سبًا لا يقدح في عدالتهم ولا في دينهم مثل وصف بعضهم بالبخل أو الجبن، أو قلة العلم، أو عدم الزهد ونحو ذلك فهذا هو الذي يستحق التأديب والتعزير، ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك، وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من أهل العلم"(١).
يعني فمن سبهم سبًا يقدح في عدالتهم ودينهم فيحكم بكفره عند أهل العلم، فكيف الحال إذًا بمن يحكم بردتهم؟!!

البخاري:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "ما أبالي صليت خلف الجهمي والرافضي، أم صليت خلف اليهود والنصارى، ولا يسلم عليهم ولا يعادون ولا يناكحون ولا يشهدون ولا تؤكل ذبائحهم(٢).

عبد الله بن إدريس: قال:"ليس لرافضي شفعة إلا لمسلم"(٣).

عبد الرحمن بن مهدي: قال البخاري: قال عبد الرحمن بن مهدي: هما ملتان: الجهمية، والرافضية(٤).

الفريابي: روى الخلال قال: أخبرني حرب بن إسماعيل الكرماني، قال: حدثنا موسى بن هارون بن زياد قال: سمعت الفريابي ورجل يسأله عمن شتم

---

(١) الصارم المسلول: ص ٥٨٦، وانظر: ص ٥٧١ في توجيه القاضي أبي يعلى لرواية عدم التكفير.
(٢) الإمام البخاري/ خلق أفعال العباد: ص١٢٥.
(٣) الصارم المسلول: ص٥٧٠، السيف المسلول على من سب الرسول/ علي بن عبد الكافي السبكي، الورقة ٧١ أ (مخطوط).
(٤) خلق أفعال العباد للبخاري: ص١٢٥، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٥/ ٤١٥.

أبا بكر، قال: كافر، قال فيصلى عليه، قال: لا. وسألته كيف يصنع به وهو يقول لا إله إلا الله، قال: لا تمسوه بأيديكم ارفعوه بالخشب حتى تواروه في حفرته[١].

أحمد بن يونس: قال: لو أن يهوديًا ذبح شاة، وذبح رافضي لأكلت ذبيحة اليهودي ولم آكل ذبيحة الرافضي، لأنه مرتد عن الإسلام[٢].

أبو زرعة الرازي: قال: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، لأن مؤدى قوله إلى إبطال القرآن والسنة[٣].

ابن قتيبة: قال: بأن غلو الرافضة في حب علي المتمثل في تقديمه على من قدمه رسول الله ﷺ وصحابته عليه، وادعاءهم له شركة النبي ﷺ في نبوته، وعلم الغيب للأئمة من ولده، وتلك الأقاويل والأمور السرية قد جمعت إلى الكذب والكفر أفراط الجهل والغباوة[٤].

عبد القادر البغدادي: يقول: أما أهل الأهواء من الجارودية والهشامية والجهمية والإمامية الذين كفَّروا خيار الصحابة... فإنا نكفرهم، ولا تجوز الصلاة عليهم عندنا، ولا الصلاة خلفهم[٥].

---

(١) الخلال/ السنة: ٢/ ٥٦٦، قال محقق الكتاب: في إسناده موسى بن هارون بن زياد لم أتوصل إلى معرفته. وقد نسبه شيخ الإسلام ابن تيمية في الصارم المسلول: ص٥٧٠ إلى الفريابي على سبيل الجزم.

(٢) الصارم المسلول: ص٥٧٠، ومثل هذا المعنى قاله أبو بكر بن هانئ (الموضع نفسه من المصدر السابق)، وانظر السيف المسلول على من سب الرسول/ علي بن عبد الكافي السبكي: الورقة: ٧١ أ(مخطوط).

(٣) انظر الكفاية: ص٤٩.

(٤) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة: ص٤٧ مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩هـ.

(٥) الفرق بين الفرق: ص٣٥٧.

وقال: وتكفير هؤلاء واجب في إجازتهم على الله البداء، وقولهم بأنه قد يريد شيئًا ثم يبدو له، وقد زعموا أنه إذا أمر بشيء ثم نسخه، فإنما نسخه لأنه بدا له فيه.

وما رأينا ولا سمعنا بنوع من الكفر إلا وجدنا شعبة منه في مذهب الروافض...[(١)].

القاضي أبو يعلى: قال: وأما الرافضة فالحكم فيهم.. إن كفَّر الصحابة أو فسَّقهم بمعنى يستوجب النار فهو كافر[(٢)].

والروافض كما تبين بعد انتشار أصولهم يكفرون أكثر الصحابة.

ابن حزم: قال: وأما قولهم (يعني النصارى) في دعوى الروافض تبديل القرآن فإن الروافض ليسوا من المسلمين[(٣)]، إنما هي فرقة حدث أولها بعد موت رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة.. وهي طائفة تجري مجرى اليهود والنصارى في الكذب والكفر.

وقال: ومن قول الإمامية قديمًا وحديثًا أن القرآن مبدل..، ثم قال: القول بأن بين اللوحين تبديلًا كفرٌ صريح وتكذيب لرسول الله ﷺ.

وقال: ولا خلاف بين أحد من الفرق المنتمية إلى المسلمين من أهل السنة والمعتزلة والخوارج والمرجئة والزيدية في وجوب الأخذ بما في القرآن وأنه المتلو عندنا.. وإنما خالف في ذلك قوم من غلاة الروافض، وهم كفار بذلك مشركون عند جميع أهل الإسلام وليس كلامنا مع هؤلاء، وإنما كلامنا مع أهل ملتنا.

---

(١) الملل والنحل: ص٥٢-٥٣ تحقيق البير نصري نادر.

(٢) المعتمد: ص٢٦٧.

(٣) يعني فلا حجة في كلامهم على المسلمين، ولا على كتابهم.

وقال: واعلموا أن رسول الله ﷺ لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها، ولا أطلع أخص الناس به من ابنةٍ أو ابن عمٍ أو زوجة أو صاحب على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم، ولا كان عنده عليه السلام سرٌّ ولا رمز ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه، فلو كتمهم شيئًا لما بلغ كما أُمر، ومن قال هذا فهو كافر...[١].

الإسفراييني: نقل جملة من عقائدهم كتكفير الصحابة، وقولهم إن القرآن قد غير عما كان ووقع فيه الزيادة والنقصان، وانتظارهم لمهدي يخرج إليهم ويعلمهم الشريعة.. قال: بأن جميع فرق الإمامية التي ذكرناها متفقون على هذا، ثم حكم عليهم بقوله: وليسوا في الحال على شيء من الدين، ولا مزيد على هذا النوع من الكفر إذ لا بقاء فيه على شيء من الدين[٢].

أبو حامد الغزالي: قال: ولأجل قصور فهم الروافض[٣] عنه ارتكبوا البداء،

---

(١) الفصل: ٢/ ٢١٣، ٥/ ٤٠، ٢/ ٢٧٤-٢٧٥، والإحكام في أصول الأحكام: ١/ ٩٦.
وهذا الاعتقاد الذي يكفر ابن حزم معتقده قد أصبح اليوم من أصول الاثنى عشرية، ويؤكد على القول به شيوخهم المعاصرون والغابرون. كما تقدم.

(٢) التبصير في الدين: ص٢٤-٢٥.

(٣) من درس مذهب الرافضة في البداء عرف أنه ليس بقصور فهم، ولكنه نهج متعمد ساقهم إليه غلوهم في الأئمة، وهذا القول من الغزالي يشبه كلام الآمدي (في الإحكام: ٣/ ١٠٩) حيث قال: إن الرافضة خفي عليهم الفرق بين النسخ والبداء، وقد علق على ذلك الشيخ عبد الرزاق عفيفي فقال: من تبين حال الرافضة ووقف على فساد دخيلتهم وزندقتهم بإبطان الكفر وإظهار الإسلام، وأنهم ورثوا مبادئهم عن اليهود، ونهجوا في الكيد للإسلام منهجهم عرف أن ما قالوه من الزور والبهتان (يعني في أمر البداء) إنما كان عن قصد سيء وحسد للحق وأهله وعصبية ممقوتة دفعتهم إلى الدس والخداع وإعمال معاول الهدم سرًا وعلنًا للشرائع ودولها القائمة عليها. (هامش: الإحكام في أصول الأحكام: ٣/ ١٠٩-١١٠).

ونقلوا عن علي رضي الله عنه أنه كان لا يخبر عن الغيب مخافة أن يبدو له تعالى فيه فيغيره[١]، وحكوا عن جعفر بن محمد أنه قال: ما بدا لله في شيء كما بدا له في إسماعيل أي في أمر ذبحه[٢]..وهذا هو الكفر الصريح، ونسبة الإله تعالى إلى الجهل والتغير، ويدل على استحالته ما دل عليه أنه محيط بكل شيء علمًا[٣]..

ويقول الغزالي: فلو صرح مصرح بكفر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.. فقد خالف الإجماع وخرقه، ورد ما جاء في حقهم من الوعد بالجنة والثناء عليهم والحكم بصحة دينهم وثبات يقينهم وتقدمهم على سائر الخلق في أخبار كثيرة.. ثم قال: فقائل ذلك إن بلغته الأخبار واعتقد مع ذلك كفرهم فهو كافر.. بتكذيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن كذبه بكلمة من أقاويله فهو كافر بالإجماع[٤].

القاضي عياض: قال رحمه الله: نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم إن الأئمة أفضل من الأنبياء[٥].

(١) وهذه الرواية موجودة عند المجلسي في البحار، وعزاها إلى "قرب الإسناد" (بحار الأنوار: ٤/ ٩٧) وفي خبر آخر نسبوا هذا القول إلى علي بن الحسين (انظر: تفسير العياشي: ٢/ ٢١٥، بحار الأنوار: ٤/ ١١٨، البرهان: ٢/ ٢٩٩، تفسير الصافي: ٣/ ٧٥).

(٢) انظر هذه الرواية في كتاب التوحيد لابن بابويه: ص٣٣٦.

(٣) المستصفى: ١/ ١١٠.

(٤) فضائح الباطنية: ص١٤٩.

(٥) الشيعة المعاصرون يعدون هذا الكفر من ضرورات مذهبهم ومنكر الضروري كافر عندهم.. يقول شيخهم الممقاني: ومن ضروريات مذهبنا أن الأئمة عليهم السلام أفضل من أنبياء بني إسرائيل كما نطقت بذلك النصوص المتواترة.. ولا شبهة عند كل ممارس لأخبار أهل البيت عليهم السلام (يعني أئمته الاثنى عشر) أنه كان يصدر من الأئمة عليهم السلام خوارق للعادة نظير ما كان يصدر من الأنبياء بل أزيد، وأن الأنبياء والسلف انفتحت لهم باب أو بابان من العلم، وانفتحت للأئمة عليهم السلام بسبب العبادة والطاعة التي تذر العبد مثل الله إذا قال للشيء كن فيكون جميع الأبواب. (تنقيح =

وكذلك يحكم بكفر من قال: بمشاركة علي في الرسالة للنبي ﷺ وبعده، وأن كل إمام يقوم مقام النبي ﷺ في النبوة والحجة، وأشار بأن هذا مذهب أكثر الرافضة[(١)]. وكذلك من ادعي منهم أنه يوحى إليه وإن لم يدع النبوة[(٢)]. وقال: وكذلك نكفر من أنكر القرآن أو حرفًا منه، أو غير شيئًا منه، أو زاد فيه كفعل الباطنية والإسماعيلية[(٣)].

السمعاني: (ت ٥٦٢هـ) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واجتمعت الأمة على تكفير الإمامية لأنهم يعتقدون تضليل الصحابة، وينكرون إجماعهم، وينسبونهم إلى ما يليق بهم[(٤)].

الرازي: يذكر الرازي أن أصحابه من الأشاعرة يكفرون الروافض من ثلاثة وجوه:

أولها: أنهم كفَّروا سادات المسلمين، وكل من كفَّر مسلمًا فهو كافر لقوله

=

المقال: ٣/ ٢٣٢). فانظر كيف فضلهم في البداية على الأنبياء، وانتهى إلى أنهم مثل الله تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.. فماذا بعد هذا من زندقة وإلحاد؟!!.

(١) وتجد ذلك عند الاثنى عشرية في زعمهم أن الإمامة أرفع درجة من النبوة، وأن الأئمة حجة على الناس كالرسل.

(٢) وهذا ما يقول به الروافض.

(٣) هنا ملاحظة مهمة، وهي أن بعض الأئمة ينسبون القول بتغيير القرآن إلى الإسماعيلية، في حين أنه من أقوال الاثنى عشرية، والإسماعيلية لم تخض في القرآن بهذا القول، وإنما سلكت التأويل الباطني.

(٤) الأنساب: ٦/ ٣٤١، وقوله: "إلى ما يليق بهم" كذا في الأصل، وإذا كان الضمير يعود إلى الرافضة فالعبارة مستقيمة، أي ينسبون الصحابة إلى ضلال يليق بالرافضة أنفسهم، وأما إذا كان الضمير يعود إلى الصحابة ففي العبارة تصحيف ولعل صحتها: "إلى ما لا يليق بهم".

عَلَيْهِ السَّلَامُ: "من قال لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما" فإذن يجب تكفيرهم.

وثانيها: أنهم كفَّروا قومًا نص الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ بالثناء عليهم وتعظيم شأنهم، فيكون تكفيرهم تكذيبًا للرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وثالثها: إجماع الأمة على تكفير من كفَّر سادات الصحابة[١].

شيخ الإسلام ابن تيمية: قال رَحِمَهُ اللَّهُ: من زعم أن القرآن نقص منه آيات وكتمت، أو زعم أن له تأويلات باطنة تسقط الأعمال المشروعة، فلا خلاف في كفرهم.

ومن زعم أن الصحابة ارتدوا بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام إلا نفرًا قليلًا لا يبلغون بضعة عشر نفسًا، أو أنهم فسقوا عامتهم، فهذا لا ريب أيضًا في كفره، لأنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضا عنهم والثناء عليهم.

بل من يشكك في كفر هذا؟! فإن كفره متعين، فإن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفار أو فساق، وأن هذه الآية التي هي: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وخيرها هو القرن الأول كان عامتهم كفارًا أو فساقًا، ومضمونها أن هذه الأمة شر الأمم، وأن سابقي هذه الأمة هم شرارها، وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام[٢].

وقال شيخ الإسلام: أنهم شر من عامة أهل الأهواء، وأحق بالقتال من الخوارج[٣].

وأنهم كفروا مما جاء به الرسول ﷺ بما لا يحصيه إلا الله، فتارة يكذبون

---

(١) الرازي: نهاية العقول: الورقة ٢١٢ أ (مخطوط).

(٢) الصارم المسلول: ص٥٨٦-٥٨٧.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٢٨/ ٤٨٢.

بالنصوص الثابتة عنه، وتارة يكذبون بمعاني التنزيل.

فإن الله قد ذكر في كتابه من الثناء على الصحابة، والرضوان عليهم والاستغفار لهم ما هم كافرون بحقيقته.. وذكر في كتابه من الأمر بالجمعة والأمر بالجهاد وبطاعة أولي الأمر ما هم خارجون عنه.

وذكر في كتابه من موالاة المؤمنين وموادتهم والإصلاح بينهم ما هم خارجون عنه.

وذكر في كتابه من تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم وتحريم الغيبة والهمز واللمز ما هم أبعد الناس عنه.

وذكر في كتابه من الأمر بالجماعة والائتلاف، والنهي عن الفرقة والاختلاف ما هم أبعد الناس عنه. وذكر في كتابه من طاعة رسول الله ﷺ ومحبته واتباع حكمه ما هم خارجون عنه. وكذلك من حقوق أزواجه ما هم براء منه.

وذكر في كتابه من توحيده وإخلاص الملك له وعبادته وحده لا شريك له ما هم خارجون عنه، فإنهم مشركون لأنهم أشد الناس تعظيمًا للمقابر التي اتخذت أوثانًا من دون الله.

وقد ذكر الله في كتابه من أسمائه وصفاته ما هم كافرون به.

وذكر في كتابه أنه على كل شيء قدير وأنه خالق كل شيء، وأنه ما شاء الله كان لا قوة إلا بالله ما هم كافرون به.

ثم قال شيخ الإسلام: ومن اعتقد من المنتسبين إلى العلم أو غيره أن قتال هؤلاء بمنزلة قتال البغاة الخارجين على الإسلام بتأويل سائغ.. فهو غالط جاهل بشريعة الإسلام.. لأن هؤلاء خارجون عن نفس شريعة رسول الله ﷺ وسنته شرًا من خروج الخوارج الحرورية، وليس لهم تأويل سائغ، فإن التأويل

السائغ هو الجائز الذي يقر صاحبه عليه إذا لم يكن فيه جواب، كتأويل العلماء المتنازعين في موارد الاجتهاد، وهؤلاء ليس لهم ذلك بالكتاب والسنة والإجماع، ولكن لهم تأويل من جنس تأويل اليهود والنصارى، وتأويلهم شر تأويلات أهل الأهواء(١).

ولكن شيخ الإسلام وهو يكفر أصحاب هذه المقالات، إلا أن تكفيره للمعين مشروط عنده بقيام الحجة وبلوغ الرسالة، ولذلك أفتى في الرافضة الذين تم القبض عليهم بالفتوى التالية:

فتوى شيخ الإسلام في الرافضة بعد الاستيلاء عليهم: يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد علم أنه بساحل الشام جبل كبير فيه ألوف من الرافضة يسفكون دماء الناس ويأخذون أموالهم، وقتلوا خلقًا عظيمًا، وأخذوا أموالهم، ولما انكسر المسلمون سنة غازان أخذوا الخيل والسلاح والأسارى وباعوهم للكفار والنصارى بقبرص، وأخذوا من مر بهم من الجند، وكانوا أضر على المسلمين من جميع الأعداء، وحمل بعض أمرائهم راية النصارى، وقالوا له: أيما خير المسلمون أو النصارى؟ فقال: بل النصارى، فقالوا له: مع من تحشر يوم القيامة؟ فقال: مع النصارى، وسلموا إليهم بعض بلاد المسلمين.

ومع هذا فلما استشار بعض ولاة الأمر في غزوهم وكتبت جوابًا مبسوطًا في غزوهم(٢)..وذهبنا إلى ناحيتهم، وحضر عندي جماعة منهم وجرت بيني وبينهم مناظرات ومفاوضات يطول وصفها، فلما فتح المسلمون بلدهم، وتمكن المسلمون منهم نهيتهم عن قتلهم، وعن سبيهم، وأنزلناهم في بلاد المسلمين

---

(١) انظر: الفتاوى: ٢٨/ ٤٨٤-٤٨٦.

(٢) لعله ما جاء في الفتاوى: ٢٨/ ٣٩٨.

متفرقين لئلا يجتمعوا[١].

وهذه الفتوى من إمام أهل السنة في وقته تبين أن أهل السنة يتبعون الحق من ربهم الذي جاء به الرسول، ولا يكفرون كل من خالفهم فيه، بل هم أعلم بالحق وأرحم بالخلق بخلاف أهل الأهواء الذين يبتدعون رأيًا ويكفرون من خالفهم فيه[٢].

ابن كثير: ساق ابن كثير بعض الأحاديث الثابتة في السنة، المتضمنة نفي دعوى النص والوصية التي تدعيها الرافضة لعلي، ثم عقب عليها بقوله: ولو كان الأمر كما زعموا لما رد ذلك أحد من الصحابة فإنهم كانوا أطوع لله ولرسوله في حياته وبعد وفاته، من أن يفتاتوا عليه فيقدموا غير من قدمه، ويؤخروا من قدمه بنصه، حاشا وكلا، ومن ظن بالصحابة رضوان الله عليهم ذلك فقد نسب بأجمعهم إلى الفجور، والتواطؤ على معاندة الرسول ﷺ، ومضادتهم في حكمه ونصه، ومن وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلع ربقة الإسلام، وكفر بإجماع الأئمة الأعلام، وكان إراقة دمه أحق من إراقة المدام[٣].

ومن الثابت عن الرافضة -كما مر- أنها تدعي أن الرسول ﷺ نص على عليّ، وأن الصحابة ردوا النص، وارتدوا بسبب ذلك، وهذا ما يقوله المعاصرون وأسلافهم من الروافض.

أبو حامد محمد المقدسي: قال -بعد حديثه عن فرق الشيعة وعقائدهم-: ولا يخفى على كل ذي بصيرة وفهم من المسلمين أن أكثر ما قدمناه في الباب

(١) منهاج السنة: ٣/ ٣٩.
(٢) الموضع نفسه من المصدر السابق.
(٣) البداية والنهاية: ٥/ ٢٥٢، والمدام هى الخمر.

قبله من عقائد هذه الطائفة الرافضة على اختلاف أصنافها كفر صريح، وعناد مع جهل قبيح لا يتوقف الواقف عليه من تكفيرهم والحكم عليهم بالمروق من دين الإسلام(١).

محمد بن عبد الوهاب: حكم الإمام محمد بن عبد الوهاب على جملة من عقائد الاثنى عشرية بأنها كفر، ومن ذلك قال رَحِمَهُ اللَّهُ -بعد أن عرض عقيدة الاثنى عشرية في سب الصحابة ولعنهم، وما قاله الله ورسوله في الثناء عليهم- قال: فإذا عرفت أن آيات القرآن تكاثرت في فضلهم، والأحاديث المتواترة بمجموعها ناصة على كمالهم، فمن اعتقد فسقهم أو فسق مجموعهم وارتدادهم وارتداد معظمهم عن الدين، أو اعتقد حقية سبهم وإباحته، أو سبهم مع اعتقاد حقية سبهم، أو حليته فقد كفر بالله تعالى ورسوله... والجهل بالتواتر القاطع ليس بعذر، وتأويله وصرفه من غير دليل معتبر غير مفيد، كمن أنكر فرضية الصلوات الخمس جهلًا لفرضيتها، فإنه بهذا الجهل يصير كافرًا، وكذا لو أولها على غير المعنى الذي نعرفه فقد كفر، لأن العلم الحاصل من نصوص القرآن والأحاديث الدالة على فضلهم قطعي.

شاه عبد العزيز الدهلوي: قال -بعد دراسة مستفيضة لمذهب الاثنى عشرية من خلال مصادرهم المعتمدة-: ومن استكشف عقائدهم الخبيثة وما انطووا عليه، علم أن ليس لهم في الإسلام نصيب وتحقق كفرهم لديه(٢).

محمد بن علي الشوكاني: قال: إن أصل دعوة الروافض كياد الدين، ومخالفة شريعة المسلمين. والعجب كل العجب من علماء الإسلام، وسلاطين

---

(١) رسالة في الرد على الرافضة: ص٢٠٠.

(٢) مختصر التحفة الاثنى عشرية: ص٣٠٠.

الدين كيف تركوهم على هذا المنكر البالغ في القبح إلى غايته ونهايته، فإن هؤلاء المخذولين لما أرادوا رد هذه الشريعة المطهرة ومخالفتها طعنوا في أعراض الحاملين لها، الذين لا طريق لنا إليها إلا من طريقهم، واستزلوا أهل العقول الضعيفة بهذه الذريعة الملعونة، والوسيلة الشيطانية، فهم يظهرون السب واللعن لخير الخليقة، ويضمرون العناد للشريعة، ورفع أحكامها عن العباد.

وليس في الكبائر أشنع من هذه الوسيلة إلا ما توسلوا بها إليه، فإنه أقبح منها، لأنه عناد لله ﷻ ولرسوله ﷺ ولشريعته.

فكان حاصل ما هم فيه من ذلك أربع كبائر كل واحدة منها كفر بواح:

الأولى: العناد لله ﷻ.

الثانية: العناد لرسوله ﷺ.

الثالثة: العناد لشريعته المطهرة ومحاولة إبطالها.

الرابعة: تكفير الصحابة رضي الله عنهم، الموصوفين في كتاب الله بأنهم أشداء على الكفار، وأن الله تعالى يغيظ بهم الكفار، وأنه قد رضي عنهم، مع أنه قد ثبت في هذه الشريعة المطهرة أن من كفر مسلمًا فقد كفر كما في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: "إذا قال الرجل لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه"(١).

---

(١) الحديث بنحوه في صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كفر أخاه من غير تأويل فهو كما قال: ج٧/ ص٩٧، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال من قال لأخيه المسلم يا كافر: ١/ ٧٩، وأبي داود: كتاب السنة، باب زيادة الإيمان ونقصانه: ٥/ ٦٤ ح٤٦٨٧، والترمذي: كتاب الإيمان، باب فيمن رمى أخاه بكفر: ٥/ ٢٢ ح٢٦٣٧، ومالك في الموطأ: كتاب الكلام، باب ما يكره من الكلام: ص٩٨٤، وأحمد: ٢/ ٤٧،٤٤،٢٣،١٨، الطيالسي: ص٢٥٢ ح١٨٤٢.

بهذا يتبين أن كل رافضي خبيث يصير كافرًا بتكفيره لصحابي واحد، فكيف بمن كفَّر كل الصحابة، واستثنى أفرادًا يسيرة تغطية لما هو فيه من الضلال على الطغام الذين لا يعقلون الحجج؟!(١).

علماء ما وراء النهر(٢)

قال الألوسي -صاحب التفسير-: ذهب معظم علماء ما وراء النهر إلى كفر الاثنى عشرية وحكموا بإباحة دمائهم وفروج نسائهم، حيث أنهم يسبون الصحابة رضي الله عنهم ولاسيما الشيخين وهما السمع والبصر منه عليه الصلاة والسلام، وينكرون خلافة الصديق، ويقذفون عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها مما برأها الله تعالى منه، ويفضلون بأسرهم عليًا كرم الله وجهه.. على غير أولي العزم من المرسلين، ومنهم من يفضله عليهم أيضًا.. ويجحدون سلامة القرآن العظيم من الزيادة والنقص(٣).

هذه بعض فتاوى أئمة المسلمين وعلمائهم في هذه المسألة.

واكتفى بهذا القدر، وفي الكتب الفقهية أقوال كثيرة في تكفيرهم، يمكن الرجوع إليها بيسر ولذا لا داعي لذكرها(٤).

---

(١) الشوكاني/ نار الجوهر على حديث أبي ذر، الورقة: ١٥-١٦ (مخطوط).

(٢) يراد به ما وراء نهر جيحون بخرسان، فما كان في شرقيه يقال له بلاد الهياطلة، وفي الإسلام سموه ما وراء النهر، وما كان في غربيه فهو خرسان وولاية خوارزم.. (معجم البلدان: ٥/ ٤٥).

(٣) نهج السلامة: ص٢٩-٣٠ (مخطوط).

(٤) انظر -مثلًا- العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية لابن عابدين، وقد ساق فيها فتوى الشيخ نوح الحنفي، حيث كفرهم لوجوه كثيرة، وهي فتوى طويلة (انظر: العقود الدرية ص ٩٢)، وكذلك ذكر ما قاله أبو السعود المفسر ونقل فيه إجماع علمائهم على =

ويلاحظ هنا عدة أمور

أولًا: أن هذا حكمهم -رحمة الله عليهم- قبل انتشار كتب الروافض ومجاهرتهم بعقائدهم بمثل ما هو واقع اليوم.. ولهذا تضمنت صفحات هذا البحث عقائد للإثنى عشرية كان ينسبها علماء الإسلام للقرامطة الباطنية، كمسألة نقص القرآن وتحريفه والذي استفاض أمرها في كتبهم، وكذلك جملة مما جاء في اعتقادهم في أصول الدين، وهناك عقائد لم تكن معروفة عنهم كعقيدة الطينة ونحوها..

معنى هذا أن حكمهم اليوم عليهم أشد.

ثانيًا: أن الرافضة المتأخرين والمعاصرين جمعوا أخس المذاهب وأخطرها.. جمعوا مقالة القدرية في نفي القدر، والجهمية في نفي الصفات، وقولهم إن القرآن مخلوق، والصوفية -عند جملة من رؤساء مذهبهم- في ضلالة الوحدة والاتحاد، والسبئية في تأليه عليّ، والخوارج والوعيدية في تكفير المسلمين، والمرجئة في قولهم إن حب علي حسنة لا يضر معها سيئة، بل ساروا في سبيل أهل الشرك في تعظيم القبور والطواف حولها، بل يصلون إليها

=

تكفيرهم (السابق ص ٩٣). وفي الفتاوى البزازية للشيخ محمد بن شهاب المعروف بابن البزاز المتوفى سنة: ٨٢٧هـ، قال: يجب إكفار الكيسانية في إجازتهم البداء على الله تعالى، وإكفار الروافض في قولهم برجعة الأموات... إلخ (الفتوى البزازية المطبوعة على هامش الفتاوى الهندية: ٦/ ٣١٨). وفي الأشباه والنظائر لابن نجيم قال: سب الشيخين ولعنهما كفر...(الأشباه والنظائر: ص١٩٠). وانظر: نواقض الروافض لمخدوم الشيرازي، حيث ساق أقوال أصحاب المذاهب الأربعة في تكفير الرافضة/ الورقة: ١٨٧ أ وما بعدها، وتكفير الشيعة لمطهر بن عبد الرحمن بن إسماعيل/ الورقة: ٥١.

مستدبرين القبلة، إلى غير ذلك مما هو عين مذهب المشركين.

لكن مما يجب مراعاته حسب منهج أهل السنة في التكفير:

أن هذه الأقوال التي يقولونها، والتي يعلم أنها مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ هي كفرٌ، وكذلك أفعالهم التي هي من جنس أفعال الكفار بالمسلمين هي أيضًا كفر..

لكن تكفير الواحد المعين من أهل القبلة والحكم بتخليده في النار موقوف على: ثبوت شروط التكفير، وانتفاء موانعه، فإنا نطلق القول بنصوص الوعد والوعيد والتكفير والتفسيق، ولا يحكم للمعين بدخوله في ذلك العام حتى يقوم فيه المقتضى الذي لا معارض له، ولهذا لا يكفر العلماء من استحل شيئًا من المحرمات لقرب عهده بالإسلام أو لنشأته ببادية بعيدة، فإن حكم الكفر لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة، ومن هؤلاء من لا يكون بلغته النصوص المخالفة لما يراه، ولا يعلم أن الرسول بعث بذلك. فيطلق أن هذا القول كفر، ويكفر من قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها دون غيره[١].

(باب ذكر اليزيدية أو عبدة الشيطان)[٢]

اليزيدية طائفة ينتمى معظمها إلى الجنس الكردى، ويقطن أتباعها فى بعض بوادى الشرق الأدنى وخاصة فى المناطق التالية:

١. قضاءُ الشيخان فى الشمال الشرقى من الموصل، وفيه أهم مراكزهم

---

(١) الفتاوى: ٢٨/ ٥٠٠-٥٠١، وانظر لتفصيل هذه المسألة: الفتاوى: ١٢/ ٤٦٦ وما بعدها، ٢٣/ ٣٤٥ وما بعدها.

(٢) انظر كتاب الكشاف الفريد عن معاول الهدم ونقائض التوحيد، تأليف/ خالد محمد على الحاج - الجزء الأول ص١٣٦ وما بعدها.

السياسية والدينية "كعابدرى" قاعدة أميرهم، وقبر الشيخ عادى وهو أعظم مقوماتهم الدينية "وباحزانى وبعشيقة" وغيرها.

٢. قضاء سنجار الواقع فى الشمال الغربى من العراق -على الحدود بينه وبين سوريا- وهو منطقة جبلية منيعة ومعقل حصين، كانوا يعتصمون به فى أيام الاضطهاد.

٣. ديار بكر، وماردين، وجبل الطور.

٤. منطقة حلب حول كلس وعينتاب.

٥. البلاد الأرمنية الواقعة على الحدود بين تركيا وروسيا، وخاصة فى منطقتى "قرص وإيراوان" وحول تفليس من بلاد القوقاس.

٦. هناك بعض اليزيدية فى إيران.

وأكثر هذه الطائفة يسكن المدن والقرى ويشتغل بزراعة الأرض، إلا أن بعضها لا يزال فى طور البداوة، ويؤلف قبائل رحالة تدعى (الكوجر) ويقدر عدد أفرادها بحوالى ثمانين ألفًا[1]. وقد اختلف الباحثون فى تعليل تسميتهم، فبين اليزيدية أنفسهم من يعتقد أنهم دعوا بهذا الاسم نسبة إلى الخليفة الأموى يزيد بن معاوية، الذى أحيا دينهم بالقديم وأطلق عليه اسمه.

إن اليزيدية أنفسهم يجهلون سبب تسميتهم هذه. وبعض الباحثين نسبهم إ لى يزيد بن أنيسة[2]،، وقد ذكر الشهرستانى رحمه الله فى فرق الخوارج اليزيدية فقال: أصحاب يزيد بن أنيسة الذى قال بتولى المحكِّمة الأولى قبل الأزارقة، وتبرأ ممن بعدهم إلا الإباضية فإنه يتولاهم.

---

(١) راجع ذيل الملل والنحل: ص٣٣ - ٣٤.
(٢) نفس المصدر: ص٣٤ - ٣٥.

وزعم أن الله تعالى سيبعث رسولًا من العجم، وينزل عليه كتابًا قد كتب فى السماء، وينزل عليه جملة واحدة، ويدك شريعة المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام، ويكون على ملة الصابئة المذكورة فى القرآن وليست هى الصابئة الموجودة بحران وواسط[١].

ويميل بعض الباحثين إلى القول بأن اليزيدية ينتسبون إلى مدينة -يزد أو يزدان- الفارسية وهى بمعنى الله، أو -إيزد- ومعناها "خليق بالعبادة" وتطلق فى دين المجوس على الملائكة التى تتوسط بين الله والبشر، وتنقل مشيئته إليهم[٢].

بعض معتقدات اليزيدية:

والحق أن اليزيدية خليط من عناصر وثنية قديمة، وعناصر إيرانية زردشتية، وأخرى يهودية ونصرانية وإسلامية:

١. وهم يؤمنون بوجود إله أكبر خالق لهذا الكون، إلا أنه الآن لا يعنى بشئونه بعد أن فوض تدبيره وإدارته إلى مساعده ومنفذ مشيئتة -ملك طاوس- لذا يرتفع فى أذهان اليزيدية إلى مرتبة الألوهية، حتى أنهم يسبحونه ويضرعون إليه، ويكادون ينسون من أجله الإله الأكبر المتعالى عن هذا العالم، وملك طاوس هذا هو الملاك الأعظم الذى عصى الله فى بدء الخليقة فعاقبة الله على خطيئتة، فظل يبكى سبعة آلاف سنة، حتى ملأ سبع جرار من دموعه، وألقاها فى جهنم فأطفأ نارها، فأعاده الله إلى مركزه الرفيع فى إدارة الكون، ولذلك فإن أهل الديانات الأخرى يخطئون فى نظر اليزيدية حين يدعون هذا الملاك الأعظم -الشيطان- ويلعنونه، ويعتقدون أنه خالق الشر، والأحرى بهم أن يسبحوه

(١) انظر كتاب الملل والنحل للمرحوم الشهرستانى ٤٧٩ - ٥٤٨هـ.
(٢) ذيل الملل والنحل. لزيادة البسط فى هذا المقام يراجع كتاب اليزيدية قديمًا وحديثًا.

ويمجدوه، إن لم يكن حبًا له وتعظيمًا لذاته، فعلى الأقل دفعًا لغضبه وأذاه، وهو المدبر الحقيقى لهذا العالم، قادر على أن ينزل بالبشر جميع أنواع العذاب. ومن هنا نرى أن شيطان اليزيدية يختلف عن شيطان سائر الأديان[١].

٢. أما نبى هذه الديانة فهو الشيخ عادى، الذى يروى عنه اليزيدية أخبارًا وروايات عديدة، ويرفعونه أحيانًا إلى ما فوق درجة النبوة والقداسة، حتى يتحد بملك طاوس ويشترك معه فى الألوهية. قاتلهم الله على كفرهم وعنادهم، وتعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ومن هذه الروايات ما ينطبق على أحد شيوخ المسلمين ومتصوفيهم - الشيخ عدى بن مسافر - والمعروف أن الشيخ عديًا ولد قرب بعلبك فى الشام، ثم رحل إلى الجبال الواقعة شرقى الموصل حيث بنى له زاوية، وجمع حوله طلبته ومريدية، فعظمت شهرته وعلا صيته إلى أن توفى سنة ٥٥٥هـ وقيل سنة ٥٥٧هـ، ودفن بزاويته فى "الشيخان"[٢]. وفيه يقول ابن خلكان: سار زكره فى الآفاق وتبعه خلق كثير، وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحد، حتى جعلوه قبلتهم التى يصلون إليها، وذخيرتهم فى الآخرة التى يعولون عليها[٣].

على أننا إذا رجعنا إلى الكتب التى خلفها هذا الشيخ المتصوف، أو التعاليم الدينية التى نشرها تلامذته، وقابلناها بمعتقدات اليزيدية لم نجد بينها علاقة خاصة تسترعى الانتباه، فشخصية الشيخ عادى وعلاقته بعدى بن مسافر غامضة جدًا، ومع ذلك فإن اليزيدية يقدسون ذكره ويحجون لقبره فى الشيخان، حيث

---

(١) راجع ذيل الملل والنحل: ص٣٦.

(٢) يقع قضاء الشيخان فى العراق -شمالى شرق الموصل- وتتواجد فيه أهم مقدسات اليزيدية ومراكز تجمعاتهم.

(٣) تاريخ ابن خلكان.

يدور قسم كبير من حياتهم الدينية والقومية[١].

٣. ومن الشخصيات المقدسة عندهم شخصية منصور الحلاج، والشيخ عبد القادر الجيلانى والحسن البصرى، والشيخ المنسوب إلى الحسن البصرى الذى يقوم بخدمة ضريح عادى، وله الفتوى ولا يمضى شيء إلا بعد موافقته. اليزيدية لا يأكلون الخس فهو محرم على كل يزيدى، بل إنهم لا يقربون من الأرض التى يزرع بها، ولا يأكلون لحم الغزال، لزعمهم أن عيونه تشبه عيون الشيخ عادى.

٤. ويقولون أن الصلاة بالقلب وبالسر[٢] لذلك لا يحددون مواعيد وفرائض للصلاة، ولم يضعوا لها نظامًا معينًا، ويحللون شرب الخمر[٣].

٥. ويؤمن اليزيدية بالتناسخ والحلول، ولهم كتابان مقدسان، أحدهما اسمه الجلوة فيه وعد ووعيد وترغيب وترهيب. والثانى اسمه مصحف رش أى الكتاب الأسود، وفيه قصة خلق العالم، وعقائد اليزيدية وما حُلِّلَ لهم وما حُرِّمَ عليهم، وإليك بعض ما جاء فيه: ولازم على كل يزيدى فى كل صباح أن يقوم أمام الرب، وأن يسجد بعض الأوقات قدام ربه لطلوع الشمس ويدعو قائلًا: آمين. الله يبارك الدين. يا الله يا دائم يا غفور يا موجود، يا فتاح، يا رازق، يا مدبر الكون، يا ساتر، يا أمدين، يا شمس الدين، يا فخر الدين. يارب أنت تبارك

---

(١) ذيل الملل والنحل: ص٣٧.

(٢) أما الصيام فلا يجوز صيام اليزيدى إلا فى موطنه، ولا يصح صيامه فى أى مكان آخر لأنه ينبغى عليه أن يذهب فى صباح يوم صيامه إلى شيخه ليعلن أمامه أنه صائم، وفى المساء يذهب إليه ليتناول الخمر المقدس من يده قبل الإفطار، وإن أهمل هذا فلا يقبل صيامه واعتبر كافرًا.

(٣) راجع ذيل الملل والنحل: ص٣٧ - ٣٨.

الدين، يا ربى علا شأنك، علا مكانك، علا سلطانك، علا عظمتك، أدعو وأسجد، أنت كريمى، أنت دوامى، أنت موجود، أنت معبود..اهـ.

٦. ولهم أعياد ومواسم كثيرة يقيمون فيها الاحتفالات، وينحرون الذبائح ويأكلون ويشربون الخمر ويرقصون ويغنون. نذكر منها: عيد الخضر إلياس، فى يوم الخميس -الأول من شهر شباط- ويصوم بعضهم ثلاثة أيام وبعضهم يومًا واحدًا.

وعيد القربان، وهو يقابل عيد الأضحى عند المسلمين ويسبقه بيومين، ويجب على كل يزيدى أن يذبح فى هذا اليوم ذبيحة. ويحتفلون بليلة القدر ولا ينامون فى خلالها بل يظلون ساهرين إلى الصباح، ويتبادلون الولائم ويزعمون أن الملائكة يحضرون تلك الليلة من السماء إلى الأرض، ويثبتون فى دفاتر الأرواح من يموت فى تلك السنة ومن يولد، ولا ينامون طوال اليوم التالى لهذه الليلة، وإنما كان سهرهم فى ليلة القدر إكرامًا لملك الموت، وعدم نومهم فى اليوم التالى لها إكرامًا لملك الشمس.

وكأن دينهم يحرم عليهم تلقى العلم، إلا أن رئيسهم -إسماعيل جول- قد ألغى هذا الحكم وأباح لهم دخول المدارس[1].

(باب ذكر الصوفية)[2]

الصوفية التي نبحثها هنا هي الصوفية التي خرجت عن الحق إلي الغلو متأثرة بشتى الأفكار المنحرفة التي هي في الواقع أفكار بدعية طرأت على المسلمين في غياب الوعي الإسلامي وبروز الجهل وعلماء السوء المغرمين

(١) المرجع السابق: ص٣٩ - ٤٠ باختصار.

(٢) هذا الباب مستفاد من فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها.

بالخرافات وحب الزعامة وهي ذات مفاهيم خاطئة مضطربة تأثرت بمسالك منحرفة وبالغت فيها إلى حد الهوس والاضطراب الفكري الشنيع وكأن حافظ إبراهيم حينما ندب اللغة العربية بقوله:

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشكلة الألوان مختلفات

كأنه عنى المذهب الصوفي في انحرافه وتنوع مصادره وتلفيق أفكاره من شتي المذاهب ولقد جرأ أصحاب هذه الطريقة الصوفية على القول على الله بغير علم كما كذبوا وأكثروا على رسوله ﷺ لتقوية مبادئهم الكثيرة وتأييدها وبالغوا في الكذب وزخرف القول وتفننوا في الطرق والآراء حتى ليخيلوا للشخص أنهم على شيء وهم في فراغ وجهل شديد.

وطرقوا مسائل ليست من الإسلام في شيء ولم يقل بها أحد من المسلمين وأظهروا بزخرفهم أنها من الإسلام بما قدموه من تقليب الأدلة وإثارة الشبهة والتفنن في الاستدلال والجواب، وقالوا بوحدة الوجود والحلول والاتحاد ووحدة الشهود، والكشف والقطب والغوث، وغير ذلك من الأمور التي طرقها كبار دعاتهم، مثل: الحلاج وابن عربي وابن الفارض والبسطامي والجيلي، وغيرهم ممن لبس عليهم إبليس فقالوا بوجود الله تعالى في كل شيء، حتى صار في عرف غلاتهم أن من لا يعتقد اتصاف الخلق بأوصاف الخالق، لا يمكن أن يعد صوفيًا ووليًا من أولياء الله، كما ذكر الأستاذ إحسان إلهي ذلك عنهم[(١)].

وهكذا أصبح المذهب الصوفي بعد أن لبس إبليس على أتباعه خليطًا من شتى الأفكار والآراء المنحرفة، حيث يظهر فيه جليًا غلو الشيعة ومبادئ الباطنية وآراء المسيحية والهندوكية والبوذية، وغير ذلك من الديانات والفلسفيات

---

(١) التصوف المنشأ والمصدر ص٦.

القديمة كالأفلاطونية والأفلوطينية وسائر ما قال به علماء اليونان[١].

وقد قامت الدعوة للصوفية وإظهار شأنها من جديد في هذا العصر على نطاق واسع بسبب عوامل عدة:

منها: جهل كثير من المسلمين بحقيقة دينهم ثم الجهل بحقيقة الصوفية كذلك.

ومنها: مساعدة أعداء الإسلام على نشر الصوفية، لأنهم يعرفون المكاسب التي سيجنون ثمارها إذا علا سلطان الصوفية وفشا الجهل وانتشرت الخرافات الصوفية وخزعبلاتها وتأثروا بآرائها السلبية في مفهوم الجهاد في سبيل الله وفي مفهوم وحدة الأديان التابعة لمفهوم وحدة الوجود.

وأعداء الإسلام هنا فريقان

فريق عداوته ظاهرة: وهم المستعمرون ومن يبيتون النية لهدم الإسلام وتشتيت كلمة المسلمين، وقد استفاد هؤلاء من أفكار الصوفية كثيرًا حين نام المسلمون على دعوى الزهد والإقبال على الآخرة بغير بينة، والتمسح بصور الأولياء وطلب البركة والنصر منهم في حياتهم وبعد موتهم أيضًا، والعكوف على قبورهم.

وفريق آخر متلبسون باسم الدين ويحكمون كثيرًا من ديار المسلمين؛ وهؤلاء يساعدون الصوفية خوفًا من عودة الوعي الإسلامي السلفي الذي يصطدم مع ميول ورغبات هؤلاء وشهواتهم.

لأجل هذا ولغيره كان تنبيه طلاب العلم إلي خطر هذا المذهب الرديء واجبًا يحتمه النصح لكل مسلم يحب حماية نفسه ودينه، من الانزلاق في خضم

---

(١) التصوف وتأثره بالنصرانية والفلسفات القديمة.

الأفكار المبثوثة بين صفوف المسلمين، والتي كان من نتيجتها زيادة الكوارث والخبال الذي حل بديار المسلمين حين ابتعدوا عن المنهج الحق الذي شرعه الله لعباده.

ولقد فرح أعداء الإسلام بانتشار الصوفية التي مهدت لهم السبيل بدعوى الزهد والتقشف والابتعاد عن المظاهر وعن منازعة الحكام والرضا بأفعالهم؛ فعاش المسلمون على هامش الحياة بعد أن خدرت الصوفية أعصابهم بترهاتها وخزعبلاتها التي تنافي العقل السليم والدين الإسلامي الحنيف في كثير من مبادئها وطقوسها المختلفة ونظرتها إلي الحياة.

الفصل الثاني: التعريف بالصوفية لغة واصطلاحًا

اختلفت كلمة العلماء حول التعريف الحقيقي للصوفية وللتصوف اختلافًا كثيرًا قلما يوجد له مثيل، وقد ذكر بعض العلماء أن تلك التعريفات قد تصل إلي الألفين، يقول محمد طاهر الحامدي: "الأقوال المأثورة في التصوف قيل: إنها زهاء ألفين"[(١)]، وقد نقل إحسان إلهي في كتابة "التصوف: المنشأ والمصدر" أقوالًا كثيرة عن أقطاب التصوف في تعريفهم ومفهومهم للتصوف [(٢)]، ولكن مهما قيل عن كثرتها واختلاف الناس فيها فإنها كلها لا طائل من ورائها عند التمعن في دراستها، مما يستدعي الحال غض النظر عن تلك التعريفات كلها، وإلقاء الضوء على الأقرب منها، وفيما يلي بيان ذلك.

في اللغة: يطلق علماء اللغة كلمة (صوف) في معاجم اللغة تحت مادة (صوف) على عدة معان، منها إطلاق كلمة صوف على الصوف المعروف من

---

(١) انظر: التصوف المنشأ والمصدر ص٣٧.

(٢) انظر: ص٣٦ - ٤٨ (الفصل الثالث)

شعر الحيوانات، ومنها صوفان وصوفانة وتطلق على بقلة زغباء قصيرة. وقد أطلقت كلمة "صوف" في بعض دلالتها بمعنى الميل، فيقال صاف السهم عن الهدف بمعنى مال عنه، وصاف عن الشر أي عدل عنه(١).

في الاصطلاح: يجب إدراك أن الصوفية مرت بمراحل وتطورات ومفاهيم مختلفة، ومن هنا وقع كثير من الجدل بين العلماء في التعريف بالصوفية، ومهما قيل عن كثرة التعريفات للتصوف، فإنه يصدق عليه عمومًا أنه بدعة محدثة في الدين وطرائق ما أنزل الله بها من سلطان.

ونذكر فيما يلي بعض التعريفات التي أطلقت على مفهوم التصوف سواء، كانت من الصوفية أو من مخالفيهم، ومن ذلك ما يلي:

١- التصوف هو تجريد العمل لله تعالى، والزهد في الدنيا وترك دواعي الشهرة، والميل إلى التواضع والخمول، وإماتة الشهوات في النفس.

وهذا التعريف قد لا يصدق في الواقع إلا على التصوف في عهده الأول، الذي كان التصوف فيه عبارة عن الانقطاع لعبادة الله وحده، والزهد في الدنيا والتخفف من متاعها والإقبال على الآخرة، دون أن يلبسوا ذلك بشيء من الأفكار والسلوك المشين الذي وصلت إليه الصوفية بعد ذلك.

٢- وذهب قسم كثير من العلماء إلى أن سبب التسمية للمتصوفة بهذا الاسم - أي "الصوفية" - إنما كان نسبة إلى لبسهم الصوف الذي عبر عن الزهد والتقشف وترك التنعم والملذات المباحة، وقد علق القشيري على هذا بقوله: "فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف".

٣- وبعض العلماء يرى أن التصوف مأخوذ عن الصفاء؛ أي صفاء

---

(١) انظر: معاجم اللغة في مادة "صوف".

أسرارهم أو صفاء قلوبهم أو صفاء معاملتهم لله تعالى، وهو ما يحب الصوفيون التسمي به، بل إن كل انتساب فيما لاحظ (نيكلسون) إلى الصوف يقابله اثنا عشر تعريفًا تعتمد على الصفاء، الذي حاول الصوفية أن ينتسبوا إليه. إلا أن القشيري قد استبعد هذا المفهوم في اللغة بقوله: "ومن قال أنه مشتق من الصفاء فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة".

٤- وبعضهم يرى أنه نسبة إلى الصفة التي كان يجلس فيها فقراء الصحابة رضوان الله عليهم في المسجد، ويرى القشيري أن النسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي.

٥- وبعضهم يرى أنه نسبة إلى الصف الأول، قال القشيري: "فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم، فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف".

٦- وبعضهم يرى أنه نسبة إلى قبيلة بني صوفة وهى قبيلة بدوية كانت حول البيت في الجاهلية، وهى تنتسب إلى رجل يقال له صوفة كان قد انقطع للعبادة في المسجد الحرام.

٧- وبعضهم يرى أنها نسبة إلى الصفوة من خلق الله تعالى.

وهناك تعريفات كثيرة خاض فيها العلماء باجتهاداتهم بعضها من وضع أقطاب التصوف وبعضها من غيرهم لا يهمنا سردها هنا بالتفصيل والدراسة الشاملة لها كلها، إذ الغرض إنما هو التنبيه إلى ما وقع من اختلاف في التعريف بهم، ولما كانت تلك التعريفات أمورًا اجتهادية واستحسانات وتقريبًا لهذا المذهب، فإنك تجد أنه يرد عليها اعتراضات كثيرة، وفى بعضها أخطاء واضحة.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ردود على بعض تلك التعريفات، فقد ذكر

أنه إذا كانت النسبة إلى أهل الصفة - وهو خطأ تاريخي كما سنبين - ذلك - فإنه يقال صُفِّي، وأما إذا كانت إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى فإنه يقال صَفِّي، وأما إذا كانت نسبة إلى الصفوة من خلق الله فإنه يقال صَفوِيٌّ، وأما إذا كانت النسبة إلى ذلك الرجل الجاهلي فإنه لا أحد من المتصوفة يرضى أن ينسب إلى قبيلة جاهلية قبل الإسلام، إضافة إلى أنه لم تعرف هذه التسمية بين الصحابة ولا كانت هذه القبيلة مشهورة أيضًا[١].

وقد زعم كاتب نصراني هو "جورجي زيدان" "أن كلمة تصوف في العربية تعادلها كلمة "سوفيا" اليونانية والتي معناها الحكمة"[٢]، أي أن التصوف نسبة إلى الحكمة اليونانية، وهو زعم أبطله كثير من العلماء؛ وربما لأن التصوف إنما ظهر بعد الإسلام ولا يمنع هذا أن تتأثر الصوفية بعد ذلك بشتى التأثيرات بل هو الواقع، ولكن ليس بالمفهوم اليوناني الكامل.

هذا ونسبة التصوف إلى الصوف أقرب إلى الاشتقاق اللغوي كما أنه أقرب كذلك إلى ذوق الصوفية وحالهم في تمسكهم بلباس الصوف، وقد ذهب إلى تقرير هذا القول كثير من العلماء في نسبتهم لهذه الطائفة التي لم توجد في زمن النبي ﷺ ولا في زمن الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان؛ إذ لو وجدت في هذه الأزمنة وعرفها الناس وعرفوا مسالكها لاشتهرت تسميتها ولما حصل لبس أو خلاف في حقيقتها واتجاهاتها بين المتأخرين.

وقد رجح شيخ الإسلام فيما يظهر من كلامه أن التصوف نسبة إلى الصوف حيث قال: "وقيل - وهو المعروف -: أنه نسبة إلى لبس الصوف".

---

(١) الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام ص ١٣ / ١٤.
(٢) انظر: الصوفية معتقدًا ومسلكًا ص ٢٣.

ثم علل ذلك بقوله: "فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار؛ ولهذا كان يقال فقه كوفي وعبادة بصرية"[(١)].

وأيد للسهروردي صحة القول بنسبة الصوفية إلى الصوف، وذكر أدلة كثيرة على فضائل لبس الصوف، وبالغ في مدح الصوفية حين اختاروا هذا الاسم بما يطول نقله.

ثم ذكر الأسماء الأخرى والتي منها نسبتهم إلى أهل الصفة من فقراء الصحابة المهاجرين ثم قال: "وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي ولكن صحيح من حيث المعنى؛ لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك"[(٢)]. وستأتي مناقشة هذا الإدعاء للسهرودى.

الفصل الثالث

هل توجد علاقة بين المتصوفة وأهل الصفة

والواقع أن هذه القضية تعتبر من القضايا الساخنة خاض غمارها المتصوفة من جانب، وغير المتصوفة من الجانب الآخر حول الصلة بين الفريقين: الصوفية، وأهل الصفة.

فهل توجد فعلًا علاقة بين الصوفية وأهلا الصفة؟

الجواب: إنه بالرغم مما بذله المتصوفة من جدل وبحوث لتقريب التصوف إلى أهل الصفة فإن ذلك لم يجدهم شيئًا.

---

(١) الصوفية والفقراء ص١٥.

(٢) انظر: عوارف المعارف ص٤٥ - ٤٩.

فهناك من المتصوفة كالمنوفي، والسهروردي، وغيرهما من كبار الصوفية من يزعم وجود تلك الصلة بين الفريقين، وأن أهل الصُفة هم سلف أهل التصوف، فالسهروردي يرى أن العلاقة بين المتصوفة وأهل الصفة تتمثل في حب الانفراد والعزلة عن الناس والشوق إلى الله تعالى، وأن هذه الفكرة هي الجامع بين الصوفية وأهل الصفة فيما يرى، وقد قال في إثبات ذلك:

"الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك[١]، لكونهم مجتمعين متآلفين متصاحبين لله وفي الله كأصحاب الصفة، وكانوا نحوًا من أربعمائة رجل لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر، جمعوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديمًا وحديثًا في الزوايا والربط.."[٢] إلى آخر كلامه.

وأما المنوفي فقد قال عنهم: "هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شيء من العروض الفانية وشغل أفئدتهم بالحياة الباقية.." إلى أن يقول: "استوطنوا الصفة فصفوا أنفسهم من الأكدار ونقوها من الأغيار، واعتصموا من حظوظ النفوس بالإيثار".

إلى أن قال: "وكان الظاهر من أحوالهم والمشهود من أخبارهم غلبة الفقر عليهم وإيثارهم القلة واختيارهم لها، فلم يجتمع لهم نوعان، ولا حضر لهم من الأطعمة لونان"[٣].

والحقيقة أن السهروردي وغيره من المتصوفة لم يستطيعوا أن يأتوا برباط واحد، أو بوجه شبه يعتبر قاسمًا مشتركًا صحيحًا مقبولًا بين حال أهل الصفة

---

(١) أي أهل الصفة.

(٢) عوارف المعارض ص٤٧.

(٣) جمهرة الأولياء ١ / ١٣١.

رضوان الله عليهم وبين المتصوفة، مع كثرة ما حاول هو وغيره وبشتى الأساليب أن يوجدوا تلك الصلة المزعومة، وأن يكون أولئك الصحابة الأفاضل هم الأساس لأقطاب التصوف والمثل الأول لهم.

مع محاولة بعضهم كذلك ربط حركة التصوف وما تحمل من حب العزلة والانفراد والخلوة بما وقع للرسول ﷺ، من تحبيب الخلوة إليه في غار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد.

وقد فاتهم أن هذا لا يصلح أن يكون دليلًا لهم على ذلك؛ فإن أقل ما ينقصه هو أن تلك الخلوة إنما كانت بعناية من الله له؛ ليستعد لحمل أعباء الرسالة فيما بعد، وقبل أن يكلف أيضًا بدعوة الناس وإقامة شعائر الدين، وأن الرسول ﷺ بمجرد أن اختاره الله لتبليغ الدعوة كان محط أنظار الناس في كل لحظة من لحظات عمره المبارك، وإلا فكيف انتشر الإسلام بعد ذلك ودخل الناس في دين الله أفواجًا لو بقى على تلك الخلوة وبمفهوم الصوفية أيضًا؟!.

والحق أن المتصوفة ليس لهم مستند في تعلقهم بأساس تصوفهم سواء كان ذلك التعلق بالصحابة من أهل الصفة، أو بالرسول ﷺ في خلوته في غار حراء، ومن زعم أن بدايات التصوف كان الرسول ﷺ أو أهل الصفة فلا شك في خطئه.

وإذا كان المتصوفة فيما يدعون يحبون الفقر والخرقة[1]، والانزواء في الزوايا والأربطة، فإن الثابت المتواتر أن أهل الصفة في مجملهم كانوا كثيرًا ما يشكون حالهم إلى رسول الله ﷺ على أمل أن يساعدهم على حياة طيبة في

---

(١) ذكر السهروردي للبس الخرقة حقوقًا لا يحتملها إلا من كان موفقًا غاية التوفيق، فيما يريد أن يوحى به السهروردي في عوارف المعارف ص٥٢.

الدنيا تكون عونًا لهم إلى الآخرة، وقد أخبر الله عنهم أنهم يتولون وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون.

وقد تحقق لمعظمهم بعد ذلك مال وافر، عملًا منهم بقول الله تعالى {وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}، واجتمعت لبعضهم ألوان الأطعمة المباحة ولم يزهدوا عن الدنيا نهائيًا، لأنهم يعلمون أن ذلك لا ينافي الزهد، بينما معظم المتصوفة إنما يريد بإظهار ذلك الزهد وتلك الرهبانية الوصول إلى ما في أيدي الناس واستعباد أذهانهم وأفكارهم، لا زهدًا حقيقيًا عن الدنيا في أكثر أحوالهم؛ حيث وجد لبعضهم بعد موتهم مدخرات كثيرة مما يتنافى ودعوى الزهد؛ لأن الزهد الحقيقي هو ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه من بعده، فلا رهبانية ولا تواكل ولا تحريم لما أحله الله من الطيبات، ولا استحلال ما لم يرد به الشرع، وهذا هو الزهد لا إظهار الفقر والعوز كما يراه غلاة المتصوفة.

إن تلك الصلة بين الصوفية وأهل الصفة التي يزعمها السهروردي والمنوفي محض خيال؛ ذلك أن أهل الصفة ما كانوا يحبون الفقر ولا يحبون الانفراد والعزلة عن الناس، وكيف يحبون العزلة والانفراد وهم في أكثر أماكن تجمع الناس؟! وأيضًا أكان مكثهم في الصفة بمحض رغبتهم أم كانت حالة طارئة أملتها عليهم الظروف المعيشية؟.

ذلك أنه لا يخفى على طلاب العلم - أن أهل الصفة كانوا من الفقراء الذين لا يجدون مأوى غير المسجد، في الوقت الذي كانوا يبحثون فيه بكل جد من أجل الوصول إلى حال اليسار والغنى، خصوصًا وهم يتلون قول الله تعالى {وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}، كما يسمعون قول المصطفى ﷺ "المؤمن القوى خير

وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير"[١]. وقوله أيضًا: "اليد العليا خير من اليد السفلى"[٢].

فما كان أحدهم يحمل الزنبيل على ظهره ويطوف بالبيوت في طلب رزقه متكاسلًا عن العمل، متكلًا على ما في أيدي الناس أعطوه أم منعوه، كما هي حال كثير من المتصوفة بعد أن فسدت فطرهم واختلت مفاهيمهم.

حين صاروا كما مدحهم السهروردي بقوله:

"واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى، أسوة بأهل الصفة، تاركين للأسباب متبتلين إلى رب الأرباب"[٣].

وأما زعم المنوفي أن الله اختار أهل الصفة ليكونوا كذلك وهم أيضًا قد اختاروا الفقر والمسكنة - فهو زعم باطل يكذبه الله في القرآن الكريم وتكذبه السنة النبوية والتاريخ. لقد كان من أهل الصفة أميرًا ومن أصبح غنيًا ذا ثراء كبير وفير، ومن أصبح قائد جيوش جرارة، وهم مع ذلك في قمة الزهد والخشوع لربهم.

الفصل الرابع: أسماء الصوفية وسبب تسميتهم بها

من أشهر الأسماء لهذه الطائفة اسم "الصوفية"، ولهم أسماء أخرى غير مشهورة علي ألسنة الناس، ومن تلك الأسماء التي أطلقت عليهم أو أطلقوها هم علي أنفسهم:

١- الصوفية: وهو الاسم المشهور الذي يشمل كل فرقهم، وهم يرضون به

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٥/ ٥٢٠.

(٢) أخرجه البخاري ٥/ ٣٧، ومسلم.

(٣) عوارف المعارف ص٤٩.

ويتمدحون بالانتساب إليه، وقد سبق تعليل هذه التسمية.

٢- أرباب الحقائق: لزعمهم أنهم وصلوا إلي حقائق الأمور وخفاياها بخلاف غيرهم من الناس الذين أطلقوا عليهم اسم "أهل الظاهر"و"أهل الرسوم"(١).

٣- الفقراء: وهو اسم زعم السهروردي أن الله هو الذي سماهم به حيث قال: "وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر يقولون: قال الله تعالي: {لِلفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ}، هذا وصف الصوفية، والله تعالي سماهم فقراء"(٢).

٤- ويسمون شكفتية في خرسان نسبة إلي الغار، قال السهروردي عن الصوفية في خرسان: "كان منهم طائفة بخرسان يأوون إلي الكهوف والمغارات، ولا يسكنون القرى والمدن يسمونهم في خرسان شكفتية؛ لأن شكفت اسم الغار؛ ينسبونهم إلي المأوى والمستقر".

٥- جوعية: قال السهروردي: "وأهل الشام يسمونهم جوعية".

٦- الملامية أو الملامتية: وقد عنون المنوفي لها بقوله: "أهل الملامة والملامتية".

والملامتية هي إحدي تطور المذهب الصوفي ووساوسه المتشعبة وأمانيه البراقة، وهذه الملامة التي يعتنقها بعض الصوفية ويتظاهر بها هي في أحد مفاهيمها بعينه ، يدخل فيه الشخص من حيث يشعر أو لا يشعر ، بل وسموه النفاق المحمود، حين يأتى الصوفي بما يلام عليه لأجل أغراض سامية فيما

---

(١) انظر الصوفية معتقدًا ومسلكًا ص ٣١.

(٢) انظر: عوارف المعارف ص ٤٢.

يزعمون، ولكن متى كان النفاق محمودًا؟!

والملامتي حسب المفهوم الصوفي عرفه السهروردي بقوله عن بعضهم: "الملامتي هو الذي لا يظهر خيرًا ولا يضمر شرًا"، ثم قال: "وشرح هذا هو: أن الملامتي تشربت عروقه طعم الإخلاص وحقق بالصدق ، فلا يحب أن يطلع أحد على حاله وأعماله ولا يتم هذا الإخلاص إلا إذا أصبح يستوي عنده المدح والذم له من الناس، وألا يفكر في اقتضاء ثواب العمل في الآخرة".

ويعللون لهذا بأنه مع الناس في الظاهر، وهو مع الله في الباطن مهما كانت أفعاله في الظاهر. ومن هنا أبو سعيد الخراز: "رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين "

ومن شرح السهروردي هذا الكلام بقوله: "ومعني قوله: إن إخلاص المريدين معلول برؤية الإخلاص والعارف منزه عن الرياء الذي يبطل العمل، ولكن لعله يظهر شيئًا من حاله وعمله بعلم كامل عنده فيه؛ لجذب مريد أو معاناة خلق من أخلاق النفس في إظهاره الحال والعمل، وللعارفين في ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم، فيرى ذلك ناقص العلم صورة رياء، وليس برياء إنما هو صريح العلم لله وبالله من غير حضور نفس ووجود آفة فيه.

والصحيح أنه التلاعب بعقول الناس والترويج للباطل بأبطل منه وقلب للحقائق، إذ كان الأولى أن يغلظ ذنب العارف لا أن يكون الرياء منه أفضل من غيره، ومتى كانت دعوة المصلحين تقوم علي أساس مداهنة الناس ومراءاتهم؟! وأيضًا كيف صح له أن يصف محض الرياء بأنه ليس رياء وإنما هو صريح العلم لله وبالله من غير حضور نفس؟!

فمن يقبل هذا الخداع ويتهم نظره وعقله، ويصدق بأن تلك الحال التي

اعترت الصوفي إنما هي من أجل أن يجذب المريد أو يرد أن يذل نفسه، فمن أين يعلم الناس ذلك حتى يمكنهم أن يسموا الرياء عبادة لله؟؛ ولهذا فإن من الثابت عندهم أن كل ما يصدر عن الصوفي ينبغي أن يفسر بخير حتى وإن كان فعل الفواحش، فيجب الاعتقاد علي أنه لم يفعل ذلك إلا لحكمة جليلة، كما بين ذلك الشعراني في طبقاته وغيره من كبار الصوفية، في تراجمهم لسادتهم عتاة الصوفية. وفي هذا يقول الدباغ:

"إن غير الولي إذا انكشفت عورته نفرت منه الملائكة الكرام- والمراد بالعورة العورة الحسية، والعورة المعنوية التي تكون بذكر المجون وألفاظ السفه- وأما الولي فإنها لا تنفر منه إذا وقع له ذلك؛ لأنه إنما يفعله لغرض صحيح فيترك ستر عورته لما هو أولي منه"(١).

ويؤكد الفوتي ظان الواجب في حق المشائخ والأولياء- وهو كثير جدًا- منه:

١-عدم الاعتراض علي الشيخ في أي شيء يفعله ولو كان ظاهره حرام.

٢-أن يكون المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل(٢).

وشروط أخري يندى لها الجبين ويموت القلب حسرة لأولئك الذين أذلتهم الصوفية وملكت عليهم كل عرق ينبض بالحياء والحياة، وذكر علماء التصوف أمثلةً وأخبارًا كثيرة في وجوب التسليم والرضاء لكل ما يفعله الولي الصوفي مهما كان ذلك العمل، وهو ما قرره الفوتي وعلي حرازم والشعراني والمنوفي وأبو يزيد البسطامي والسهروردي وغيرهم من كبار الصوفية المجرمين في حق البشرية.

---

(١) الإبريز ٢ / ٤٣.

(٢) انظر: رماح حزب الرحيم ١/ ١٣٢.

ومهما كان، فإن الملامتية في حقيقتها إنما هي إحدى مصايد الصوفية مهما زخرفوا القول فيها.

وقال ابن عربي عن هؤلاء الملامتية: "أنهم رجال قطعهم الله إليه وصانهم صيانة الغيرة عليهم؛ لئلا تمتد إليهم عين فتشغلهم عن الله. لقد انفردوا مع الله راسخين لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله طرفة عين"[١].

ويرى ابن عربي في فتوحاته المكية أن هذا الاسم أطلق عليهم؛ لأنهم أخفوا مكانتهم الشريفة في العامة، فكأن المكانة تلومهم حيث لم يظهروا عزتها وسلطانها[٢].

وقد شبههم المنوفي في كتابه جمهرة الأولياء بأهل الكهف في فتوتهم وحالهم، حين قال في التعريف بهم: "الملامة نعت لإبدال أهل الفتوة، واسم الملامية أو الملامتية أطلق علي قوم يلومون أنفسهم مع حسن أحوالهم ونموها"، وقد استفاض المنوفي في الأمثلة للملامتية وحشر كثيرًا من الناس أمثلة للفتوة[٣].

وقد قسم شيخ الإسلام الملامية إلي قسمين

ملامية يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود.

وملامية يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصرون على الملام في ذلك والصبر عليه، وهؤلاء هم أهل الملام المذموم.

---

(١) هذا النص عن مقدمة رسالة الملامتية تحقيق د. أبو العلا العفيفي ص٢٠، وأما في الفتوحات المكية فإن النص يبدأ من قوله: "لقد انفردوا مع الله.." الخ ٣/ ٣٩.

(٢) الفتوحات المكية ٣/ ٤٠.

(٣) جمهرة الأولياء ١/ ١٢٢ - ١٣٠.

قال: "وبهذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وبين الملامية الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام في ذلك"[(١)].

وأشار العلامة ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى مسلك من مسالك هؤلاء الملامية، وهو: ارتكاب المعاصي بحجة عدم لفت الأنظار إلى صلاحهم - كما يتصورون - فقال

"وفي الصوفية قوم يسمون الملامتية اقتحموا الذنوب وقالوا: مقصودنا أن نسقط عن أعين الناس فنسلم من الجاه"، ثم قال معلقًا على هذا الزعم الباطل: "وهؤلاء قد أسقطوا جاههم عند الله لمخالفة الشرع"[(٢)].

الفصل الخامس: متى ظهر المذهب الصوفي

لقد تضاربت أقوال العلماء وتعددت مفاهيمهم حول الوقت الذي ظهرت فيه الصوفية، وكل أدلي بدلوه حسبما ترجح لديه، والواقع أنه لا يعرف بالتحديد الدقيق متى بدأ التصوف في المسلمين ولا من هو أول متصوف، وقد تقدم ذكر السبب في عدم اتفاق العلماء على تاريخ ظهور أي فرقة من الفرق بالتحديد الدقيق السالم من الاختلاف.

ونظرًا لكثرة تلك التحديدات لظهور الصوفية، وما تتطلبه من دراسة قد تأخذ حجمًا كبيرًا فقد رأيت أن أذكر الأقوال في بدء نشأتهم سردًا مجردًا عن الدراسة التفصيلية، فقد لا يتعلق بها غرض كبير بقدر ما يتعلق الغرض بذكر آرائهم وإبطال الخاطيء منها، وبيان بُعد بعضها عن الدين الإسلامي الحنيف،

---

(١) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ١/ ١٦.

(٢) تلبيس إبليس ص٣٦٣.

والتحذير من الاغترار بها وعدم الركون إلى زخرف القول فيها، لأنها من وحي الشياطين إلي أوليائهم، وفيما يلي ذكر تلك التحديدات من أقوال العلماء:

١ - أن هذه التسمية عرفت قبل الإسلام مرادًا بها أصحاب الفضل والشرف.

٢ - أن المذهب الصوفي ظهر ١٥٠ هـ.

٣ - أن المذهب الصوفي ظهر ١٨٩ هـ.

٤ - أن المذهب الصوفي ظهر بعد المائتين من الهجرة.

٥ - أن المذهب الصوفي ظهر قبل المائتين من الهجرة.

٦ - أن المذهب الصوفي ظهر بعد القرون الثلاثة الأولي أي في القرن الرابع الهجري.

٧ - أنه اشتد بعد النصف الثاني من القرن الثامن والتاسع والعاشر حين ظهرت آلاف الطرق الصوفية.

٨ - أن التصوف كان معروفًا في زمن النبي ﷺ كما قال الهجويري من علماء الصوفية، وهذا من أبطل الأقوال[1].

والذي يظهر لي من بين هذه الاختلافات أن التصوف ظهر بعد الإسلام في شكل زهد ورغبة في الدار الآخرة، وكبح جماح النفس في حب الدنيا مهما أمكن، ثم صارت الأمور على هذا المفهوم، ثم لحقه ما يلحق غيره من سائر

---

(١) انظر: كشف المحجوب للهجويري ص ٧٧٢، التصوف الإسلامي وتاريخه تأليف نيكلسون ترجمة (أبو العلا العفيفي) ص٣، دائرة المعارف الإسلامية ٥/ ٢٦٦، اللمع للطوسي ص٤٢، الرسالة القشيرية١/ ٣، عوارف المعارف للسهروردي ص٦٣، الصوفية والفقراء ص٥، وانظر: الفكر الإسلامي ص٣٣-٣٦ عبد الرحمن عبد الخالق، التصوف المنشأ والمصادر ص٤٠-٤٨ الفصل الرابع للشيخ إحسان إلهي، الصوفية معتقدًا ومسلكًا ص٥٣ بعنوان "حول التصوف في التاريخ الإسلامي" د. صابر طعيمة.

المبادئ والأفكار من حب التطوير وإدخال شتى المفاهيم بقصد تهذيب الفكرة وتقديمها في شكل متكامل، بغض النظر عن مطابقتها للحق أو مجانبتها له.

على أن أقطاب التصوف وهم يبنون هذا المسلك لم يوفقوا إلى الابتعاد عن شتى التيارات والأفكار المخالفة للإسلام والتأثر بها، وظهورها واضحة جلية في معتقداتهم وسائر سلوكهم، علي المستوى الفردي أو الجماعي، بعد أن تنوع الأساس الذي قام عليه المذهب في أوله.

وعلي كل ما ورد من الأقوال، فإن العلماء متظافرون على أن التصوف ليس له وجود في عهد النبي ﷺ علي الصحيح من أقوالهم؛ إذ من المحال أن يتشرف أحد من الصحابة بالانتساب إلي غير صحبة النبي ﷺ، وأن هذه التسمية حدثت بعد ذلك حين لبس إبليس على أولئك القوم وصاروا أحزابًا كل حزب بما لديهم فرحون.

ومن هنا يذكر السهروردي ظهور الصوفية بقوله: "وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله ﷺ، وقيل: كان في زمن التابعين... وقيل: لم يعرف هذا الاسم إلي المائتين من الهجرة العربية؛ لأن في زمن رسول الله ﷺ كان أصحاب رسول الله ﷺ يسمون الرجل صحابيًا لشرف صحبة رسول الله ﷺ"(١).

ويقول المنوفي: "ولم تطلق كلمة صوفية علي جماعة بعينها إلا في القرن الثاني للهجرة"(٢).

ولكن يذكر شيخ الإسلام رحمه الله تحديد بدء التكلم به بقوله:

"أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهورًا في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر

---

(١) عوارف المعارف ص ٤٨.

(٢) جمهرة الأولياء ١/ ٢٦٩.

التكلم به بعد ذلك"[١].

وكذلك يذكر أيضًا أن التصوف أول ما أشتهر كان في البصرة، حتى قيل: فقه كوفي وعبادة بصرية، وأن الصوفية أول ما ظهرت من البصرة؛ لأن بعض هؤلاء كان إذا سمع القرآن يصعق وبعضهم يخر ميتًا كما حدث ذلك لغير الصوفية أيضًا، وقد حدث أن قاضي البصرة زرارة بن أوفى قرأ في صلاة الفجر: {فإذا نقر في الناقور}، فخر ميتًا. وقد أنكر الموجود من الصحابة في ذلك الوقت هذا السلوك ومقتوه أشد المقت، قال ابن تيمية: "ولم يكن في الصحابة من هذا حاله"[٢].

وقد تقدم في حديث العرباض بن سارية وصف حال الصحابة حين سماعهم للقرآن الكريم ولخطب النبي ﷺ، وهم أعرف الناس بالحق وأخشعهم لله، وأبعدهم عن مفتريات الصوفية وشركياتهم.

ولقد بين علماء السلف كل ذلك أكمل بيان، ولا زال علماء الحق أيضًا يجاهدون التصوف بأفكارهم وأقلامهم وإبطال الفكر الصوفي الباطني المتمثل في تقديس القبور والمزارات والأولياء، ودعوى علم الغيب وختم الولاية... إلي آخر أفكار الصوفية المنحرف منها. وكان لهؤلاء العلماء من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القرن الثامن، وتلاميذه: ابن القيم، وابن كثير، والحافظ الذهبي، والحافظ المزي، وغيرهم من العلماء، وممن جاء بعدهم كالشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر - كان لعلماء الحق - من هؤلاء رحمهم الله وغيرهم - الباع الطويل في كسر شوكة التصوف وبيان

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٥.
(٢) الصوفية والفقراء ص ١٥-١٦.

انحراف المتصوفة عن الحق، وتخديرهم لأفكار المسلمين، وإذلال مشائخ التصوف لهم إلي حد العبودية، كما سيتضح ذلك من خلال هذه الدراسة للصوفية.

الفصل السادس: حقيقة التصوف

لقد مضي زمن رسول الله ﷺ وزمن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولم يعرف عنهم أي سلوك يتميزون به غير اتباع الكتاب والسنة والتشرف بنسبتهم إلي ذلك، غير ملتفتين إلي التنطع في سلوكهم أو مخترعين طرائق ورهبانية مبتدعة.

إلي أن أحدث أناس في الدين بدعة التصوف منحرفين عن المنهج السليم، وراحوا يتخبطون في دوائر وهمية وفرق عديدة وأحزاب متناحرة كل حزب بما لديهم فرحون.

وقد أخذ كل فريق من هؤلاء يعبر عن التصوف حسب ما يراه، ويطول سرد تلك المفاهيم والتعبيرات والأقوال التي صدرت عن أقطاب هؤلاء؛ كالجريري، والجنيد، وعمرو بن عثمان المكي، ومحمد بن علي القصاب، ومعروف الكرخي، والسهروردي، والشبلي، والشاذلي، والتجاني، والبسطامي، وابن عربي، وابن الفارض وغيرهم.

ولهذا فإن العلماء لم يتفقوا علي بيان محدد لمفهوم التصوف عند الصوفيين؛ ذلك لإطلاق هؤلاء الصوفية عبارات شتى حسب ذوق كل فريق، وتخيلاته لمفهوم التصوف، إلا أن الحصيلة العامة لأقوالهم تلتقي حول أن التصوف هو: القرب من الله، وترك الاكتساب، والتمسك بالخلق الرفيع، والجود، ورفع التكاليف عن بعض فضلائهم حين يتصلون بالله ﷻ علي حد

زعمهم، ويصلون إلي درجة اليقين وظهور المكاشفات، ثم هم بعد ذلك درجات في تطبيق هذا المفهوم.

ولقد ذكر القشيري في "رسالته" عددًا من الآراء الصوفية في مفهوم التصوف والصوفي، حيث قال:

"وتكلم الناس في التصوف ما معناه، وفي الصوفي من هو؟ فكل عبر بما وقع له، واستقصاء جميعه يخرجنا عن المقصود من الإيجاز، وسنذكر هنا بعض مقالاتهم فيه علي حد التلويح".

وإذا كان القشيري قد اعتذر عن إيراد كل ذلك لكثرته مكتفيًا بذكر بعض مقالاتهم، فإنني أنا كذلك أعتذر عن إيراد كل ما ذكره القشيري لكثرته أيضًا، وأذكر من ذلك ما نقله عن الجنيد أنه قال: "إذا رأيت الصوفي يعني لظاهره فاعلم أن باطنه خراب".

وقال القشيري: "سمعت أبا حاتم السجستاني يقول: سمعت أبا نصر السراج يقول: سئل ابن الجلاء: ما معني قولهم صوفي؟ فقال: ليس نعرفه في شرط العلم، ولكن نعرف أن من كان فقيرًا مجردًا من الأسباب وكان مع الله تعالي بلا مكان، ولا يمنعه الحق سبحانه عن علم كل مكان، يسمى صوفيًا". ونقل عن أبي يعقوب المزابلي أنه قال: "التصوف حال تضمحل فيها معالم الإنسانية".

وقال القشيري أيضًا: "سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: أحسن ما قيل في هذا الباب قول من قال: هذا طريق لا يصلح إلا لأقوام قد كنس الله بأرواحهم المزابل[١]؛ ولهذا قال رحمة الله يومًا: "لو لم يكن للفقير إلا روح

(١) هكذا العبارة: أي لا قيمة لهم في نظر الناس.

فعرضها علي كلاب هذا الباب لم ينظر كلب إليها".

وعن الأستاذ أبي سهل الصعلوكي أنه قال: "التصوف الإعراض عن الاعتراض".

قال القشيري: "ويقال: الصوفي المصطلم عنه[١]، بما لاح له من الحق"[٢].

وهناك أقوال أخري ذكرها القشيري كلها تدور حول مدح التصوف وبيان تعلقات الصوفية ومفاهيمهم حول المولي جل وعلا، وحول هذا الكون وواجبات الصوفي واهتماماته الدنيوية والأخروية، صيغت بزخرف من القول وإيغال في الخيال في بعضها، وحكم جيدة في البعض الآخر.

وأما السهروردي فقد أورد بابًا خاصًا في كتابه عوارف المعارف قال فيه: "الباب الخامس في ماهية التصوف"،

وقد أكد في هذا الباب علي أن أساس التصوف هو الفقر، حيث قال: "فالفقر كائن في ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه"، ونقل أقوالًا كثيرة عن صفة هذا الفقر الصوفي، منها: ما قاله الشبلي حين سئل عن حقيقة الفقر فقال: "ألا يستغني بشيء دون الحق".

ونقل عن مظفر القرميسني أنه قال: "الفقير الذي لا يكون له إلي الله حاجة"[٣] ؟

وقال السهروردي: "وقيل: التصوف ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع" إلي آخر ما ذكر مما قدمناه ذكره عن القشيري، وقد أضاف

---

(١) أي المستغرق عن نفسه.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٢/ ٥٥-٥٧.

(٣) أي لانشغاله بطاعة الله عن طلبه له حسب التفسير الصوفي.

أوصافًا أخري لا ضرورة لذكرها[١].

وأما حقيقة التصوف وأصله عند غير الصوفية فقد اختلفت وجهة نظر العلماء في الحكم عليه.

وأهم ما قيل في ذلك: أن التصوف علي الإطلاق أساسه الإسلام وأن أصوله العقدية وسلوكهم فيه مستمدة من نصوص الكتاب والسنة، وما أدي إليه الاجتهاد في فهمها.

وهذا القول قريب من وجهة نظر الصوفية ومفهومهم فيه رغم اعتراف بعضهم بتأثر التصوف ببعض التيارات الفكرية الخارجية عن الإسلام.

أن التصوف علي الاطلاق ليس إسلامي النشأة، وإنما وفد علي البيئة الإسلامية مع ما وفد من عادات وتقاليد الأجناس الأخرى بعدما امتزجت واختلطت عقب الفتح الإسلامي[٢].

وعلى هذا الرأي بعض الملاحظات، فقد ينطبق هذا الرأي علي ذلك النوع من التصوف، الذي قام على أساس من الغلو والانحراف الذي جاء به أصحاب وحدة الوجود والحلول والاتحاد، مع تظاهرهم بالانتساب إلى الإسلام وتقديسهم لنبي الإسلام محمد ﷺ، ولعل سبب هذا القول إنما يعود إلي الواقع الذي اشتمل عليه مفهوم التصوف.

وقد يبدوا للناظر أنه يوجد لكل من القولين السابقين ما يبررهما في العقائد الصوفية، وأهل هذا القول يرجعون نشأة التصوف إلي أنه فارسي أو هندي أو يوناني أو مسيحي أو أنه مزيج من هذا كله، وعلي رأس هذا الفريق كثير من

---

(١) انظر: عوارف المعارف ص ٤٠-٤٤.

(٢) انظر لمزيد التفصيل: الصوفية معتقدًا ومسلكًا ص ٤٧ - ٤٨.

المستشرقين ومن غيرهم أيضًا.

ومما نكتفي بالإشارة إليه هنا بغض النظر عن ترجيح نشأة التصوف وحقيقته أن الطريقة الصوفية قد تأثرت كثيرًا بالآراء والأفكار المخالفة للإسلام، حيث تظهر فيها تلك الأفكار واضحة جلية في جوانب كثيرة في الاعتقاد والسلوك، خصوصًا الأفكار الهندية والفارسية واليونانية والمسيحية، كما سيتضح ذلك من دراستنا لهذه الطائفة، بعد أن كان التصوف في بدء أمره عند بعض المسلمين عبارة عن الزهد عن الدنيا والرغبة في الآخرة، وقتل هوى النفس والاتجاه إلي الله، ولبس الصوف لتعويد النفس علي التحمل والمكابدة، إلي أن أخذ يتطور في الانحدار والبعد عن حقيقة الإسلام في كثير من الأمور التي طرقها التصوف؛ فأصبح مذمومًا نفر عنه أهل الحق لخلط المتصوفة بين الزهد والتصوف المغالي.

إذ الزهد المشروع لم يذمه أحد، وتوجه الذم إلي التصوف رغم تظاهر المتصوفة بالزهد، حتى صار أطيب الطعام عندهم ما كان عن ذل السؤال وحمل الزنبيل والتسول والانزواء في أماكن عبادتهم، وانتظار ما يجود به الناس عليهم، ويظنون أنهم يحققون بذلك التوكل الذي يريده الله، وهم في الحقيقة إنما يحققون التواكل والكسل البغيض عن طلب الرزق وإعزاز النفس، إضافة إلي الابتعاد عن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وما يهدف إليه، من إيجاد اليقين بعزة النفس وكرماتها في الدنيا والآخرة.

ومهما قيل عن حقيقة التصوف فإننا سندرس أهم الآراء الصوفية بتفصيل يتضح به الحكم علي الصوفية بصورة جلية من واقع كلامهم وسلوكهم إن شاء الله تعالى.

الفصل السابع: أقسام المتصوفة وذكر طرقهم واختيار الطريقة التجانية نموذجًا ودراستها شاملة من واقع كتبهم

الصوفيون طوائف عديدة وأهواء متباينة، شأن كل أصحاب البدع حين يتركون المنهج الذي شرعه الله لعباده.

ولقد اختلف العلماء في عدهم لأقسام وطرق التصوف اختلافًا واسعًا؛ إذ تجد بعضهم يعدهم قسمين، وبعضهم يعدهم ثلاثة أقسام، وبعضهم يوصلهم إلى ستة أقسام.

وهذا الاختلاف سببه تنوع مصادر الصوفية وتنوع أفكارهم، فبعض الصوفية تابعون للمذهب الإشراقى، الذي يدعي أن المعرفة والعلم تقذف في النفس بسبب طول المجاهدة الروحية، إذ يحصل لها بذلك فيض وإشراق إلهي، ومذهبهم أشبه ما يكون بالمذهب البوذي في رياضة النفس وحملها على المكاره. هذا قسم من الصوفية.

وقسم آخر بعض العلماء يعبر عنهم بصوفية الحقائق، وهم من صفوا من الكدر وامتلئوا من الفكر كما يدعون، على طريقة الفلسفة الهندية.

وقسم آخر من الصوفية قائلون بالحلول؛ أي دعوى أن الله – تعالى عن قولهم – حل في مخلوقاته وأن أرواحهم لاهوتية وأجسامهم ناسوتية.

ومن أكابر أهل هذا المذهب الرديء الحلاج، حين قال في تفسير هذا الحلول:

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدأ في خلقه ظاهرًا ... في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب

وصوفية وحدة الوجود هم القائلون بأن الموجودات كلها تمثل الباري ﷻ، وفى أولهم ابن عربي وهو من المؤسسين لمذهب وحدة الوجود، يقول في تقرير ذلك في كتابه الفتوحات المكية:

العبد رب والرب عبد يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك رب أو قلت رب فأنّى يكلف

وقد قسم شيخ الإسلام الصوفية إلى ثلاثة أقسام هم:

١- صوفية الحقائق... ٢- صوفية الأرزاق... ٣-صوفية الرسم

وقال عن القسم الأول: "فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم".

ولعله يقصد بذلك ما قدم من ذكر خلاف الناس في الحكم على الصوفية والتصوف حيث قال: "ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه، تنازع الناس في طريقهم، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة... "، قال: وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء ". ثم قال في بيان حكمه عليهم بعد ذكر هذا الخلاف: "وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله تعالى كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله.." إلى آخر ما ذكره عنهم.

ولعل هذا الحكم منه إنما ينطبق على التصوف في بدء أمره حينما كان بمعنى الزهد والاجتهاد في العبادة.

ثم قال عن القسم الثاني منهم: "وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز، وأكبر أهل الحقائق لا يتصدون بلوازم الخوانك ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط" ثم ذكرها ، وهي: وجود العدالة الشرعية فيهم ، والتأدب بآداب

الشرع ، وألا يكون متمسكًا بفضول الدنيا.

ثم قال عن القسم الثالث منهم: "وأما صوفية الرسم فهمهم المقتصرون على النسبة، فهمُّم في اللباس والآداب الوصفية ونحو ذلك"(١)، أي أنهم يتشبهون بالصوفية في الظاهر ويعرفون أقوالهم، ولكنهم خارجون عن طريقهم همهم جمع الأموال والاحتيال على الجهال بأمرهم.

وهذا التقسيم واضح جلي، إلا أنه ليس فيه توضيح وبيان لمدى ما وصلت إليه العقيدة الصوفية فيما بعد، ومدى تأثرها بالينابيع والمصادر الخارجة عن الإسلام.

لقد أصبح من الصعب جدًا تمييز طوائف التصوف أو الحكم عليهم بحكم واحد شامل لجميع فرقهم وعقائدهم المتشعبة؛ إذ لا يمكن معرفة كل قسم من أقسام التصوف قائما بنفسه متميزًا عن غيره إلا من خلال "الطرق" الكثيرة، والتي هي تعبير عن التزام مجموعة من الأتباع أو المريدين بشيخ يجعلونه قدوتهم، وينفذون ما يوجبه عليهم من أذكار وسلوك، وقد تتفق طريقته مع بعض الطرق وقد تختلف عنها، والطرق الصوفية لم تقف عند حد أو مفهوم، فهي دائمًا في ازدياد وتجدد؛ إذ كل من ابتدع طريقًا، وجد له أتباعًا يتسمون باسمه أو باسم طريقته.

وقد ذكر الشيخ أبو علي حسن بن علي العجمي الحنفي طرق الصوفية، فعد منها أربعين طريقًا في رسالة له، وقد لخصها الشيخ أبو سالم العياشي في رحلته، وقد أوصلها غيرهم إلى أكثر من ذلك.

"والحق أن الطرق الصوفية كثيرة جدًا بحيث يصعب حصرها؛ إذ كل من

---

(١) الصوفية والفقراء ص٣٣.

عنّ له أن يبتدع طريقا فعل، وسماها باسمه واسم قبيلته أو عشيرته، وهذا مشاهد بكثرة في أفريقيا؛ إذ بين فترة وأخرى تخرج طريقة جديدة تحمل اسمًا جديدًا ولها أوضاع معينة وأوراد مقررة".

وذكر الدكتور صابر طعيمة ما مجموعة ٦٦ طريقة وقال: "وأما الطرق الصوفية الحديثة فمن العسير تسجيل أسماء معظمها في كتاب، ويكفى أنه في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري قد بلغ عدد الطرق الصوفية في بلد واحد أكثر من مائة طريق".

ثم أخذ بعد منها ٥٢ طريقة نقلًا عن المنوفي في كتابه جمهرة الأولياء، الذي ذكر فيه قسمًا كبيرًا من طرقهم تحت عنوان "هذا بيان بشيوخ الطرق الصوفية في عصرنا".

وكل الطرق الصوفية ناتجة عن الهوى ونابعة منه ومبنية على الرغبة في الزعامة والعلو في الأرض واستعباد الناس، وصار زعماء الصوفية في مجموعهم يحرصون حرصًا شديدًا على هذه الزعامة الروحية، ووصل بهم الحرص عليها أن جعلوها وراثية وكأنها جزء من المال الذي يخلفه الميت على حد ما أورده محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني، فإنه قال بعد سرده الطويل لطرق الصوفية وأسماء مشائخها قال بعدها: "وكل هذه الطرق تنسب كل واحدة لولي من الأولياء رضي الله عنهم، وقد يرثها حفيد أو سبط لولي من أولئك الأولياء فيكرمه الله سبحانه وتعالى بكرامة آبائه وأجداده الصالحين، فإن سار على دربهم أكرمه الله مثل ما أكرمهم، وإن فرط أو قصر أكرمه الله لأجلهم".

وهذا جهل شنيع وكذب من أشد أنواع الكذب، فإن هذه المحاباه التي افترضوها على الله تعالى إنما هي من جنس الهوس والأماني الباطلة والقرآن

مملوء بالرد على مثل هذه الافتراءات، والسنة كذلك ترد مثل هذه الأفكار الجاهلية، فالقرآن يصرح بأن {كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}، وأن كل نفس {لَهَا ما كَسَبَتْ وعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}. وأن صلاح الآباء - إن كانوا صالحين بحق - لا يغني عن الأبناء إن لم يكونوا كذلك.

وقد صرح الرسول ﷺ لقرابته أنه لا يملك لهم من الله شيئًا، وأن عليهم ألا يتكلوا على الأنساب، بل عليهم أن يحذروا الله ﷻ وأن يتقربوا إليه بالأعمال الصالحة؛ إذ لو كانت الأنساب تغني لما هلك والد إبراهيم وابن نوح على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، وهذا رد صريح على ما يزعمه الصوفيون من التقرب إلى الله بولاية القطب الفلاني أو الغوث الفلاني، وأن الله يفيض حتى على العصاة منهم إكرامًا لآبائهم، وإن الذي جرأهم على هذا هو قلة خوفهم من الله تعالى، واستحلالهم الكذب في سبيل مدح أوليائهم بالحق وبالباطل.

وقد قال عبد الرحمن عبد الخالق في بيان تاريخ نشأة الطرق الصوفية ونظامها الوراثى: "وقد قيل: إن أول صوفى وضع نظام الصوفية هو الصوفي الإيراني محمد أحمد المهيمي المتوفي سنة ٤٣٠هـ، والمعروف باسم أبى سعيد، فقد أقام في بلدته نظامًا للدراويش، وأقام بناءً للصوفية بجوار منزله، وسن نظام تسلسل الطرق عن طريق الوراثة، وبين كثيرًا من أمور التربية الصوفية؛ بل هو من أوائل من كتب في طريقه التربية الصوفية، وهو أكبر من عبد الكريم القشيري صاحب الرسالة القشيرية".

ومن طرق الصوفية الكثيرة

الطريقة التجانية

وسندرسها بالتفصيل كمثال للطرق الصوفية التي تعتم واجهة الإسلام

المشرقة لدى كثير من جهلاء المسلمين الذين جرفهم تيار التجانية وأذلتهم واستعبدتهم وأوصلتهم إلى مآس يندى لها الجبين.

ولقد وقفت بنفسي على بعض ما يتعبد به التجانيون من طاعة مشائخهم، وإحياء خرافاتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان وشدة تعصبهم لها، ونفورهم عن كل من يريد أن يسدي لهم النصيحة خروجًا عن كتمان الحق.

وهذه الطريقة التي لها الأمر والنهي في أقطار كثيرة من بلاد أفريقيا بخصوصها، وهي نسبة إلى شخص يسمى أحمد بن محمد بن مختار التجاني. ولد سنة ١١٥٠هـ، بقر ية عين ماضي، وينسب إلى بلدة تسمى "بني تجين" من قرى البربر، ولم يترك فضلًا مزعومًا ادعاه شيخ صوفي لنفسه إلا وادعاه هو لنفسه وزاد عليه، ولقد ادعى أمورًا كثيرة يطول الحديث لو بسطت، وإنما نشير إليها إجمالًا فيما يأتي:

١- ادعى أنه خاتم الأولياء جميعًا وهي دعوى كاذبة مبنية على فهم خاطئ وقياس باطل، فزعم أن الولاية لها ختم كختم النبوة ومحمد رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، والتيجاني خاتم الأولياء فلا ولي بعده.

٢- أنه الغوث الأكبر في حياته وبعد مماته وقد جعل نفسه بهذه الدعوى وثنًا يعبد من دون الله.

٣- أن أرواح الأولياء منذ آدم إلى وقت ظهوره، لا يأتيها الفتح والعلم الرباني إلا بواسطته هو، وهذا نهاية الحمق والقول على الله بغير علم، والاستهانة بعقول الناس وخداعهم.

٤- زعم متطاولًا أن قدمه على رقبة كل ولي لله تعالى منذ أن خلق آدم إلى النفخ في الصور، وربما يجازى بهذا الكبر أن يحشر في صورة الذرة كما هو جزاء

المتكبرين.

٥- أنه هو أول من يدخل الجنة هو وأصحابه وأتباعهم، وصدق عليهم قول الله: {تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ}.

٦- أن الله شفعة في جميع الناس الذين يعيشون في قرنه الذي عاش فيه.

٧- أن الرسول ﷺ أعطاه ذكرًا يسمى "صلاة الفاتح" يفضل كل ذكر قرئ في الأرض ستين ألف مرة بما في ذلك القرآن الكريم، والذكر المزعوم هنا - صلاة الفاتح - ذكر مبتدع سيئ التركيب ركيك العبارة، وهو لا يعدو ثلاثة أسطر وهو:

"اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله، حق قدره ومقداره العظيم".

هذا هو الذكر الهائل عنده الذي ألهمه الله حسب زعمه، أو علّمَه، به النبي ﷺ يقظة لا منامًا ثم فضله على كل ذكر.

ولقد رأيت أتباعه وهم يجلسون في يوم الجمعة - من بعد صلاة العصر إلى المغرب - وهم يرددون هذا الكلام بصوت جماعي ومرتفع جدًا يسمع من مكان بعيد، ثم ينصرفون وهم لا يشكون في أنهم من أعظم الخلق عبادةً وأجرًا عند الله، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

فما الجديد في هذا الذكر؟، وما معنى تلك الكلمات الجوفاء وذلك التركيب المفكك؟. الواقع أنه ليس فيها ما يستحق ذلك الأجر العظيم الذي لا يعده الحاسبون، حسب ما قدروه لصلاة الفاتح، ومع ذلك فهو يزعم أنه تلقاه عن الله وعن رسوله محمد ﷺ. والقرآن الكريم مملوء بالأدعية الشرعية النافعة

الفاضلة، وكتب الحديث مملوءة بالأذكار النبوية الصحيحة التي يؤجر صاحبها على قولها، وتجاب دعوته إذا اشتملت على أنواع التوحيد، بأحسن الألفاظ وأشمل المعاني ممن أوتى جوامع الكلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ثم لم يقف التجاني عند هذا الحد في غلوه في تقدير نفسه وفى تقدير ما جاء به من خرافات وأذكار في صلاة الفاتح المزعومة أنها من الله تعالى، وأن لها ذلك الفضل الذي لا يصفه الواصفون وفى غيرها من الأذكار الأخرى، بل زعم أيضًا أن أتباعه لا تكتب عليهم سيئات ما عملوا، بل يدخلون الجنة مهما عصوا وبغير حساب ولا عقاب، ولو عملوا من الذنوب ما عملوا، بضمانة رسول الله ﷺ له كما زعم لنفسه.

وهذا الهوس هو من جنس هوس اليهود، الذين زعموا أن الله لا يعذبهم إلا أيامًا معدودة إن عذبهم؛ لأنهم شعب الله المختار، كما يعتقدون ويتشدقون بالتمدح بذلك في التلمود وفي غيره من كتبهم المقدسة عندهم.

ثم يدعي التجانيون كرامات لم يقل بها حتى أفضل الرسل محمد ﷺ، ومنها: أن من رأى التجاني يومي الاثنين والجمعة، فإنه يكون من أهل الجنة إكرامًا للتجاني، حتى وإن كان الرائي كافرًا؛ لأنه لا يتمكن من رؤية التجاني في هذين اليومين إلا من سبقت له السعادة في علم الله تعالى، كما قرره علي حرازم والفوتى.

وهذه الدعوى لهذا الضال من غرائب الأمور، ولو كانت له ولأتباعه أفهام لعلموا أن الرسول ﷺ وهو أفضل البشر لم يقل ذلك وأنه كان يراه المؤمن والكافر في كل أيامه ويبقى المؤمن مؤمنًا والكافر كافرًا إلى أن يؤمن، ولم يقل

ﷺ بما قاله التجاني المذكور.

ومن خرافات التجاني زعمه أنه يرى الرسول ﷺ في كل وقت يشاء، وأن الرسول ﷺ يجالسهم ويحضر سمرهم ولهوهم، ويلقي عليهم أذكارهم وأدعيتهم الشركية والخرافية حسب ما يفترون.

ولقد صرف التجانيون الناس عن الهدى والطريق الصحيح، وملئوا أذهانهم بشركيات وخرافات لا تمت إلى الدين الإسلامي بأي علاقة، وجنوا على عقائد المسلمين بما ألقوه في قلوبهم من الرجوع إلى الوثنية والخرافات الجاهلية والتعلق بغير الله تعالى، وصرف أنظارهم عن واقعهم المتردي من حيث لا يشعر هؤلاء الأتباع.

ولقد انتشرت هذه الطريقة الضالة في شمال ووسط وغرب أفريقيا، وضمت تحت لوائها ملايين كثيرة من أبناء المسلمين، الذين أصبحوا لاهم لأحدهم إلا أن يأخذ بطريقة شيخه، ليضمن دخول الجنة بغض النظر عن العمل وصحبته.

ثم جاء من بني على هذا الواقع الفاسد وزعم أنه صاحب الفيض التجاني الذي بشر به التجاني، وأن أتباعه هو الآخر يدخلون الجنة جميعًا بغير حساب ولا عقاب، ولو كانوا على أي ملة قبل ذلك، ومن هؤلاء الذين ادعوا هذا الفيض المزعوم الحاج إبراهيم السنغالي، والذى كان له شأن عظيم وحركة قوية، وبسط دعوته تلك في أصقاع واسعة من القارة الأفريقية.

وإلى جانب الطريقة التجانية طرق كثيرة - كما ذكرنا من قبل - يحتاج بيانها إلى عدة صفحات، وهى في جملتها لا تخرج عن هوس وتخبطات التجانية.

وقد استحسنت هنا ذكر بعض الأمثلة من كتب الصوفية التجانية، تمثل أنواعًا من الآراء والمفاهيم التي يحرصون عليها، دون مبالاة بما فيها من الغلو

والانحراف.

وقد وقع اختياري على قراءة وتمحيص ما في جواهر المعاني تأليف علي حرازم، ورماح حزب الرحيم تأليف الفوتي، وكتيب الهداية الربانية في فقه الطريقة التجانية؛ حيث أضع العنوان المناسب ثم أنقل تحته ما يدل عليه من كلام علماء التجانية.

وأوضح ما يميز الانحراف في كتب التجانية، هو الغلو الفاحش في أئمة الصوفية والتجاني وغيره، ومدحهم بما لا يليق إلا بالله العظيم، من علمهم المغيبات وأنواع العلوم والمعارف التي لا يدركها إلا الله ﷻ، وبالتالي ذكر مدائح لهم، وهي في الحقيقة ذم ما بعده ذم، تدل دلالة صريحة على بعد أولئك ومجونهم واستهتارهم بعقول الناس.

قال علي حرازم في كتابه جواهر المعاني عن السيد أحمد بن محمد بالفتح جد أحمد التيجاني:

" وقد حكي عنه رضي الله عنه أنه كان له بيت في داره لم يدخله أحد غيره، وكان إذا خرج من داره للمسجد يتبرقع ولا يرى أحد وجهه ولا يكشف عن وجهه ألا إذا دخل المسجد، ثم إذا رجع إلى داره عاد إلى ستر وجهه حتى يدخل لخلوته، وقد سألت الشيخ رضي الله عنه عن سبب ستر وجهه عن الناس فأجاب رضي الله عنه قال: لعله بلغ مرتبة في الولاية، فإن من بلغها يصير كل من رأى وجهه لا يقدر على مفارقته طرفة عين، وإن فارقة أو احتجب عنه مات لحينه".

نسب التجاني: ويقول عن نسب التجاني حين سأل الرسول ﷺ يقظة لا منامًا كما يزعم دائمًا: "ولم يكتف بما هو مذكور من الآباء والأجداد والرسوم وإخبار الأعيان والآحاد، حتى سأل سيد الوجود وعلم الشهود ﷺ في كل نفس

مشهود، عن نسبه، وهل هو من الأبناء والأولاد ومن الآل والأحفاد، فأجابه ﷺ بقوله: أنت ولدي حقًا أنت ولدي حقا أنت ولدي حقا، كررها ﷺ ثلاثًا، وقال له ﷺ: نسبك إلى الحسن بن علي صحيح".

التجاني يرى الأنبياء كلهم: أورد علي حرازم عدة روايات تثبت رؤية التجاني للرسول محمدًا ﷺ وسؤاله عن أحكام كثيرة في الفقه وعن الجمع بين بعض الأحاديث التي ظاهرها التعارض، وكان النبي ﷺ يجيبه عن كل سؤال بغاية التلطف، ثم التقى بموسى وسأله كذلك عن بعض الأسئلة وأجابه عنها ثم قال علي حرازم: "فانظر رحمك الله أحوال هذا الشيخ مع صفوة الله من خلقة".

المشابهة بين التجاني حال سكره وبين النبي ﷺ حال تلقيه الوحي:

يقول علي حرازم: "لا يزال تظهر عليه الغيبة في حال ظهور صحوه فضلًا عن حال ظهور سكره.. وكذلك يظهر عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من آثار جذبه وقوة حاله أمور أخرى، كعظم جثته، وامتلاء بدنه، وتهلل وجهه، وثقل الأمر عليه حتى لا يستطيع حركة". ونتذكر هنا ما كان يقع للنبي ﷺ عند نزول الوحي وتلقي الأمر الإلهي.

التجاني يعلم الغيب لكل أمر مهما كانت دقته ويعلم ما في قلوب أصحابه:

يقول في هذا: "ومن كماله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفوذ بصيرته الربانية... من إظهار مضمرات وإخبار بمغيبات وعلم بعواقب الحاجات... فيعرف أحوال قلوب الأصحاب... ويعرف ما هم عليه ظاهرًا وباطنًا وما زاد وما نقص".

الاسم الأعظم وموقف التجاني منه

قال علي حرازم: "قال سيدنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أعطيت اسم الله العظيم الأعظم صيغًا عديدة، وعلمنى كيفية أستخرج بها ما أحببت من تراكيبه"، ثم أعطاه أيضًا الاسم

الخاص بعلي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ فقال: "قال لي سيد الوجود ﷺ: وهذا الاسم الخاص بسيدنا علي، لا يعطى إلا لمن سبق عند الله في الأزل أنه يصير قطبًا"

وفى هذا الكلام الذي لا عقل له أمور:

١- ما هو الاسم الخاص بعلي غير علي بن أبى طالب؟

٢- كيف يقول الرسول ﷺ لعلي " سيدنا علي" كما هو ظاهر النص؟

وأما بالنسبة لثواب الاسم الذي أعطيه التجاني، فأقله ما يذكره علي حرازم بقوله: "قال الشيخ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، حاكيًا ما أخبره به سيد الوجود ﷺ: فإنه يحصل لتاليه في كل مرة سبعون ألف مقام في الجنة، في كل مقام سبعون ألفًا من كل شيء في الجنة... وله في كل مقام سبعون حورًا، وسبعون نهرًا من العسل، وكلما خرج من فمه هبطت عليه أربعة من الملائكة المقربين، فكتبوه من فيه... وله في كل مرة ثواب جميع ما ذكر به الله على ألسنة جميع خلقه في سائر عالمه، وله في كل مرة ثواب ما سبح به ربنا على لسان كل مخلوق، من أول خلق العالم إلى آخره، وله ثواب صلاة الفاتح لما أغلق بتمامها، ستة آلاف مرة لكل مرة منه، وله ثواب سورة الفاتحة، وله ثواب من قرأ القرآن كله، أعنى بكل مرة أجر ختمة.

وله في كل مرة من تلاوته ثواب كل دعاء وقع في الوجود، وكل ما تلاه التالي تلته معه جميع ملائكة عوالم الله بأسرها، وكل ملك يتلوه بجميع ألسنته، فإن من الملائكة من له سبعون لسانًا ومنهم من له ستون لسانًا"، وخوفًا أن يمل القارىء فسأقف هنا، وإلا فإن النص قد استغرق ست صفحات في جواهر المعاني، كلها في مضاعفة الأجر لمن تلا دعاء التجاني، الذي علمه به الرسول ﷺ في إحدى مقابلته له يقظة لا منامًا.

أوراد التجاني

أورد علي حرازم في كتابه جواهر المعاني أورادًا عديدة- لا يتسع المقام

لذكرها- عن شيخه التجاني، بأسلوب ركيك ومعان متنافرة هابطة مملة.

رؤية التجاني

من رأى التجاني فهو في الجنة. قال علي حرازم: "قال ﷺ: أخبرني سيد الوجود ﷺ يقظة لا منامًا؛ قال لي: أنت من الآمنين، وكل من رآك من الآمنين إن مات على الإيمان، وكل من أحسن إليك بخدمة أو غيرها وكل من أطعمك يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب".

ثواب صلاة الفاتح

ليس من السهل كتابة كل ما ذكره التجاني لفضل صلاة الفاتح؛ وذلك لكثرة ما أورده التجانيون، غير أننا سنكتفى بمثال واحد من تلك الترهات المفتراه، قال التجاني عن نفسه: "ثم أمرني ﷺ للرجوع إلى صلاة الفاتح لما أغلق فلما أمرني بالرجوع إليها سألته ﷺ عن فضلها فأخبرني أولًا بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانيًا أن المرة الواحدة منها تعدل كل تسبيح وقع في الكون، ومن كل ذكر من كل دعاء كبيرًا أو صغيرًا، ومن القرآن ستة آلاف مرة.." إلى أن يقول: "قال ﷺ ما معناه: إن صلاة الفاتح لما أغلق بستمائة ألف صلاة، وكل صلاة من الستمائة ألف صلاة بأربعمائة عزوة، ثم قال بعده ﷺ: إن من صلى بها أي بالفاتح لما أغلق.. إلخ مرة واحدة حصل له ثواب ما إذا صلى بكل صلاة وقعت في العالم، من كل جن وإنس وملك ستمائة ألف صلاة، من أول العالم إلى وقت تلفظ الذاكر بها، أي كأنه صلى بكل صلاة ستمائة ألف صلاة من جميع المصلين عمومًا ملكًا وجنًا وإنسًا، وكل صلاة من ذلك بأربعمائة غزوة، وكل صلاة من ذلك بزوجة من الحور وعشر حسنات ومحو عشر سيئات ورفع عشر درجات، وأن الله يصلي عليه وملائكته بكل

صلاة علي عشر مرات".

وقد أضاف محمد السيد التجاني إلى تلك الخيالات في فضل صلاة الفاتح خيالات أخرى قال فيها: "وصلاة الفاتح التي هي من الله كتبت بحروف مستقيمة بكل لسان تفهمه من لسان العربية، فوق رأسه، وهي تاجه وعزه وملكه، وبها فضل على سائر خلق الله، وبها تثبتت خلافته في الدنيا والآخرة، وبها ظهرت الحقيقة المحمدية كل الظهور، وبها ثبتت الحقيقة المحمدية في محراب القدس.

وبها أعز الله دينه وبها ظهرت مقامات الدين كلها، وبها فضلت هذه الأمة وصارت وسطًا، وبها قوام الأرواح والأشباح، وبها ظهرت التكاليف، وبها برزت الجنة ونعيمها، وبها ساد سيدنا محمد غيره ممن دونه من الأنبياء والمرسلين، وبها تعرف جبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل عليهم السلام.

وبها نظام الكائنات، وفيها روح الموجودات وحياتها، وبها شرفت الأنبياء والملائكة، وبها ظهرت محاسن الأخلاق المحمدية، وهي التي شرف الله بها النبي ﷺ، وشرفها بالنبي ﷺ وهي مرتبته وحقيقته ﷺ.

وهي أول الصلوات التي ظهرت من قلب رسول الله ﷺ أو من قلوب العارفين، فإن الله جل جلاله هو الذي صلى عليه؛ أي تجلى فيه بكمال ذاته مراتبه وأسمائه وصفاته، وذلك التجلي هو عين تشريفه وإعزازه وتفضيله على سائر الخلائق؛ لأنه لم يتجل في أحد بكمال ذاته إلا فيه ﷺ.." إلى آخر هذه العجائب والغرائب التي لا مستند لها إلا الخيال والأماني الفارغة، وإلا فهل يوجد في الشريعة الإسلامية دليل واحد على تلك الخزعبلات والتهويلات؟!

خاصية صلاة الفاتح:

قال الشعراني: "وخاصية صلاة الفاتح لما أغلق.. الخ، أمر إلهي لا مدخل للعقول فيه، ولو قدرت مائة ألف أمة، في كل أمة مائة ألف قبيلة، في كل قبيلة مائة ألف رجل، وعاش كل واحد منهم مائة ألف عام يذكر كل واحد منهم في كل يوم ألف صلاة على النبي ﷺ من غير صلاة الفاتح لما أغلق، وجميع ثواب هذه الأمم كلها في مدة هذه السنين كلها في هذه الأذكار كلها، ما لحقوا كلهم ثواب مرة واحدة من صلاة الفاتح لما أغلق، فلا تلتفت لتكذيب مكذب ".

الشيخ الواصل يرى الله علانية في كل وقت مع انتفاء الغير والغيرية بينهم:

قال الشعراني: "اعلم أن سيدنا رضي الله عنه سئل عن حقيقة الشيخ الواصل ما هو؟ فأجاب عنه بقوله: "أما حقيقة الشيخ الواصل فهو الذي رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظرًا عينيًا وتحقيقًا يقينًا، فإن الأمر أوله محاضرة: وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر كثيف، ثم مكاشفة: وهو مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق، ثم مشاهدة: وهو تجلي الحقائق بلا حجاب لكن مع خصوصية، ثم معاينة: وهو مطالعة الحقائق بلا حجاب ولا خصوصية ولا بقاء للغير والغيرية عينًا وأثرًا، وهو مقام السحق والمحق والدك وفناء الفناء، فليس في هذا إلا معاينة الحق في الحق للحق بالحق فلم يبق إلا الله لا شيء غيره. فلا ثم موصول ولا ثم واصل ".

وفعل الأولياء للفواحش علانية إنما هو تخيل من الناظر، أو من باب ستر حال الولي، بعد أن رأوا عامة الناس لا هم لهم إلا قضاء رغباتهم، فأحب الأولياء الصوفية عند ذلك ألا يظهروا أنفسهم للعامة، فاحتجبوا عنهم بارتكاب تلك الفواحش في الظاهر.

قال علي حرازم: "فلما عرف العارفون ما في العامة من هذا الأمر احتجبوا

عن العامة وطردوهم بكل وجه وبكل حال... فخلط العارفون عليهم بوجوه من التخليط استتارًا عن العامة بإظهار أمور من الزنا، والكذب الفاحش، والخمر، وقتل النفس، وغير ذلك من الدواهي التي تحكم على صاحبها أنه في سخط الله وغضبه، والأمور التي يقتحمها العارفون في هذا الميدان إنما يظهرون صورًا من الغيب لا وجود لها في الخارج إنما هي تصورات خيالية، يراها غيرهم حقيقة فيفعلون في تلك الصور أمورًا منكرة في الشرع، وهم في الحقيقة لم يفعلوا شيئًا فاستتروا بذلك من العامة حفظًا لمقامهم".

وهكذا فعل الزنا وشرب الخمور وغيرها من الفواحش لا حقيقة لها، حتى وإن ثبت أن الصوفي يفعلها، فإنما ذلك خيال، وما أكثر ما يثبت عن هؤلاء من فعل الفواحش، حتى في البهائم، كما يثبت الشعراني ذلك في طبقاته عن علي وحيش، الذي يترضى عنه الشعراني كما هي عادته في الترضي عن أولئك الفجار؟!

دعاء تجاني في طلب الاتصاف بالألوهية؟!:

"ومن أدعيته رضي الله عنه، مما أملاه علينا ونصه رضي الله عنه: اللهم حققني بك تحقيقًا يسقط النسب، والرتب، والتعينات، والتعقلات، والاعتبارات، والتوهمات، والتخيلات؛ حيث لا أين، ولا كيف، ولا رسم، ولا علم، ولا وصف، ولا مساكنة، ولا ملاحظة، مستغرقًا فيك بمحق الغير والغيرية، بتحقيقي بك من حيث أنت بما أنت وكيف أنت؛ حيث لا حس ولا اعتبار إلا أنت، بك لا عنك منك".

مباسطة البسطامي مع ربه كما يرويها التجاني لتلميذه علي حرازم: أنه قال: "إن أبا يزيد باسطه الحق في بعض مباسطته قال له: يا عبد السوء! لو أخبرت

الناس بمساويك لرجموك بالحجارة، فقال له: وعزتك لو أخبرت الناس بما كشفت لي من سعة رحمتك لما عبدك أحد، فقال له: لا تفعل، فسكت".

إهانة للقرآن الكريم:

"فإذا عرفت هذه الحيثية، عرفت أن الصلاة عليه ﷺ، لمثل أهل هذا الوقت، أفضل لهم من تلاوة القرآن".

السر في وجود هذا الكون ومصدره

"قال سيدنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما خلق الله لنفسه إلا سيدنا محمدًا ﷺ، والباقي من الوجود كله مخلوق لأجله ﷺ، ولولا أنه خلق سيدنا محمدًا ﷺ ما خلق شيئًا من العوالم".

تلاعب بمعاني النصوص

أورد علي حرازم، عن شيخه وسيده التجاني، نصوصًا كثيرة في تفسير القرآن الكريم وبعض الأحاديث، فسرها بمحض الهوى والجهل والتخبط والقول على الله بغير علم في جرأة عاتية.

الحلول والاتحاد

قال التجاني: "فهو سبحانه وتعالى مع كل شيء بذاته، وأقرب إلى كل شيء بذاته، من وجه لا يدركه العقل".

وقال: "اعلم أن أذواق العارفين في ذوات الوجود، أنهم يرون أعيان الموجودات كسراب بقيعةٍ... الآية- فما في ذوات الوجود كله إلا الله سبحانه وتعالى، تجلى بصورها وأسمائها وما ثم إلا أسماؤه وصفاته، فظاهر الوجود صور الموجودات وصورها وأسماؤها ظاهرة بصورة الغير والغيرية... " إلى أن يقول: "فإذا رأيت ما يظهر من صور الموجودات، على اختلاف أحواله وتباين

أشكاله وتشتيت أموره من مذمومة ومحمودة، فما فيها إلا تجليات الحق سبحانه وتعالى".

الولاية والألوهية وهل يوجد فرق بينهما أولا؟ عند التجاني:

١- معرفة الولي أصعب من معرفة الله.

٢- لو كشف عن حقيقة الولي لعُبد. قاله المرسي.

٣- وأمري بأمر الله إن قلت: كن، يكن. قاله الجيلاني.

٤- يا ريح اسكني عليهم بإذني.

قال علي حرازم: " فأجاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: "وحقيقة الولي أنه يسلب من جميع الصفات البشرية ويتحلى بالأخلاق الإلهية ظاهرًا وباطنًا... " إلى أن يقول: "ومعنى قوله: لو كشف عن حقيقة الولي لعبد؛ لأن أوصافه من أوصاف إلهه ونعوته من نعوته؛ لأنه ينسلخ من جميع الأوصاف البشرية كما تنسلخ الشاة من جلدها، ويلبس خلعة الأخلاق الإلهية"".

تملك أقطاب الصوفية للكون بتفويض من الله لهم: يقول حرازم عن شيخه: "قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معنى ذلك أن الله ملكهم الخلافة العظمى واستخلفهم على مملكته تفويضًا عامًا أن يفعلوا في المملكة كل ما يريدون، وملكهم الله تعالى كلمة التكوين، متى قالوا للشيء: كن، كان من حينه"، فأي إلحاد بعد هذا من هؤلاء الذين يترضى عنهم علي حرازم.

الصلاحيات للولي أعلى من الصلاحيات للنبي

قال: "وسألته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن قولهم: إن دائرة الولي أوسع من دائرة النبي ﷺ فأجاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: المراد بالولي أولياء هذه الأمة فقط... إلى أن قال: "الرسول ليس له عموم الأمر والنهي إلا ما سمعه من مرسله سبحانه وتعالى، لا

يزيد وراء ذلك شيئًا، وإنما هو في ذلك مبلغ فقط؛ ليس بآمر ولا ناه، إلا أن يكون الرسول خليفة، فله المرتبة الأولى، فالخليفة الولي أوسع دائرة في الأمر والنهي والحكم من الرسول الذي ليس بخليفة".

حقيقة القطبانية تمتد قدرتها بامتداد ما وصلت إليه الألوهية وتحجبها أيضا:

قال علي حرازم: "وسألته رضي الله عنه عن حقيقة القطبانية، فأجاب رضي الله عنه بقوله: اعلم أن حقيقة القطبانية هي الخلافة عن الحق مطلقًا في جميع الوجود جملة وتفصيلًا، حيثما كان الرب إلهًا كان هو خليفة في تصريف الحكم وتنفيذه في كل من عليه ألوهية الله تعالى، ثم قيامه بالبرزخية العظمى بين الحق والخلق، فلا يصل إلى الخلق شيء كائنًا ما كان من الحق إلا بحكم القطب".

رغبة الصوفية في تجهيل الخلق بربهم ونسيانهم لذكره ليصفو لهم وحدهم

قال التجاني: "المحبة الصادقة هي التي تورث الغيرة لصالحبها، قيل للشبلي رضي الله عنه: متى تستريح؟ قال: إذا لم أر له ذاكرًا غيرى، وقال: أبو يزيد رضي الله عنه لصاحبه حين قال له: وهل سألته المعرفة به؟ قال له: اسكت، غرت عليه من أن يعرفه غيرى.

التوحيد عند التجانية يقتضي شعور الشخص أنه هو الله لا فارق بين ذاته وذات المولى عز وجل وأن ينسى جسمية نفسه تمامًا:

قال حرازم: "سألت سيدنا رضي الله عنه عن هذا التوحيد، فأجاب رضي الله عنه عن التوحيد: هو توحيده لنفسه بنفسه عن نفسه، وهذا التوحيد لا سبيل إليه إلا بالفناء، قال الجريري رضي الله عنه: كل إشارة أشار بها الخلق إلى الحق فهي مردودة عليهم حتى يشيروا إلى الحق بالحق. أراد بهذا الذي ذكرناه هو عرو النسب حيث تنطمس النسب في الذات... قال الشبلي حين دخل عليه رجل قال له: ما

تريد؟، قال له: أسأل عن الشبلي، قال له: مات لا رَحِمَهُ اللهُ.

كلمات غامضة صوفية:

التجلي الأول: هو الله عَزَّوَجَلَّ.

التجلي الثاني: هو ظهور محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الخلق حسب زعمهم.

التجلي الأخير: هو ظهور آدم، ويسمى أيضًا اللباس الأخير.

حمق وخرافة

يقرر التجاني أن الأنبياء لم يخرجوا من أمهاتهم من المحل المعتاد للولادة، وإنما يخرجون من تحت سرة أمهاتهم تنزيهًا لهم، ثم أخذ يدلل على هذه الخرافة بما تمجه الأسماع.

نزول الوحي على القطب من الله لكن بواسطة الحقيقة المحمدية وإن رآه من الله فقد خدع ولبس عليه:

قال: "وما ذكر من أن العقل يأخذ العلم عن الله بواسطة، فإنه نفي الواسطة المشهورة، لا يشهد واسطة بينه وبين الحق أصلًا، لكنها موجودة في نفسها غير مشهودة له، وهى الحقيقة المحمدية، فإنه لا مطمع لأحد في درك حقيقتها فضلًا عن مشاهدتها، فإنها أخفى من السر الخفي، فإنه يرى نفسه يأخذ العلم عن الله بلا واسطة، وما برز له ذلك العلم إلا من الحقيقة المحمدية من حيث لا يراها، وإن رآه من الله فإنه مغطى عليه بحجاب التلبيس، فهذا معنى أخذ العلم عن الله بلا واسطة".

شكوى علماء الصوفية من علماء المسلمين في حجزهم عن الإتيان بما تأت به الأنبياء:

قال علي حرازم: "قال الشيخ الأكبر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لولا علماء الظاهر- أو كما

قال- لأتت الأولياء عن الله بما أتت به الانبياء".

معنى قول الشيخ الضال ابن عربي: من وحد فقد ألحد واعتبارهم التوحيد الذي جاء به الرسول ﷺ إلحادًا:

قال علي حرازم عن شيخه التجاني: "وسألته رضي الله عنه عن معنى قول الشيخ الأكبر: من وحد فقد ألحد فأجاب رضي الله عنه بقوله: معنى الإلحاد هو الخروج عن الجادة المستقيمة، فإن العارف إذا وحد بتوحيد العامة فقد ألحد، والعامي إذا وحد بتوحيد العارف فقد ألحد يعني كفر".

التجاني يعرف أنفاس الإنسان وخواطره بغض النظر عن طول عمره أو قصره:

قال: "وسألته رضي الله عنه عن عدد أنفاس الإنسان، فأجاب رضي الله عنه بقوله: عدد أنفاس الإنسان أربعة وعشرون ألفًا، نصفها داخل ونصفها خارج، وأما الخواطر فعددها سبعون ألف خاطرة، تخطر كل يوم على القلب حتمًا لا يتخلف منها واحد".

القطب الصوفي لا يستطيع أن يسمع كلام الناس بعد أن يسمع كلام الله له إلا بعد فترة نقاهة وسماعه لكلام الله أعلى من سماع الأنبياء له:

قال: "ثم قال سيدنا رضي الله عنه: من فتح عليه في هذا الأمر العظيم والنعيم الجسيم، لا يقدر أن يسمع كلام الخلق إلا إذا اعتزل ثلاثة أيام يذكر الله، فحينئذ يقدر على سماع كلامهم، وإن لم يفعل ما ذكر، فإنه مهما سمع كلامهم يتقيأ لقبحه بالنسبة للذة ما سمع من كلام الحق، وسماع كلام الله لمن سمعه لا بأذن فقط بل بجميع أجزاء ذاته كلها، حتى يصير كل ذرة من ذاته تلتذ مثل جميع ذاته بكمالها".

الجنة في نظر الصوفية لا قيمة لها

قال: "ومن كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كل العارفين في شغل عن الله تعالى؛ لأنهم بقي لهم ضرب من حظوظهم، إلا أهل التجلي الأكبر الذين لا حظ لهم في الجنة، فإنهم عنده سبحانه وتعالى مقيدون في حضرة قربه، وواصلهم بما لا تحيط العقول وصفه... فإن، هؤلاء لا التفات لهم إلى الجنة ونعيمها ولا عبرة لهم بها أوجدت أم عدمت".

والبديل لها عند الصوفية هو النظر إلى المشائخ والجلوس بين أيديهم بكل الخضوع والتذلل؛ ولهذا يقول محمد السيد التجاني في كتابه الهداية الربانية في فقه الطريقة التجانية ناقلًا عن مشائخ الصوفية: "الجلوس بين يدي ولي قدر ما تحلب فيه شاة أفضل من عبادة ألف سنة"(١).

وعلى المسلمين ألا يجتهدوا في طلب ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر فقط، بينما الجلوس أمام شيخ صوفي كالدجاجة، داجن في زاويته المظلمة حسًا ومعنى، خمس دقائق، خير من عبادة ألف سنة، فهل بعد هذا السفه للنفس والحمق المردي حمق أو سفه؟

كيفية خلق هذا الكون عند الصوفية

يقول: "ومن كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أول موجود أوجده الله تعالى من حضرة الغيب هو سيدنا محمد ﷺ، ثم نسل الله أرواح العالم من روحه ﷺ، الاجسام النورانية كالملائكة ومن ضاهاهم".

وأما الأجسام الكثيفة الظلمانية فإنما خلقت من النسبة الثانية من روحه ﷺ، فإن لروحه ﷺ نسبتين أفاضها على الوجود كله؛ فالنسبة الأولى نسبة النور

(١) الهداية الربانية في فقه الطريقة التجانية ص٢٠.

المحض ومنه خلقت الأرواح كلها والأجسام النورانية التي لا ظلمة فيها، والنسبة الثانية من نسبة روحه ﷺ نسبة الظلام ومن هذه النسبة خلق الأجسام الظلمانية كالشياطين وسائر الأجسام الكثيفة والجحيم ودركاتها، كما أن الجنة وجميع درجاتها خلقت من النسبة النورانية، فهذه نسبة العالم كله إلى روحه ﷺ.

أما الحقيقة المحمدية ﷺ فهي أول موجود أوجده الله تعالى من حضرة الغيب، وليس عند الله من خلق موجود قبلها.

فالملائكة والشياطين والجنة والنار - بل والكون كله - مخلوق من روح محمد ﷺ، فأين العقول التي تصدق بمثل هذا الفحش والإهانة لنبي الإسلام ﷺ، أن تكون الشياطين والجحيم وغيرهما - مما نص عليه التجاني - مخلوقة من روح محمد ﷺ، كبرت كلمة تخرج من فمه.

تطاول التجاني على الصحابة وكل من جاء بعدهم

قال التجاني في كتابه إلى أهل الأغواط: "وأقول لكم إن مقامنا عند الله في الآخرة لا يصله أحد من الأولياء، ولا يقاربه من صغر ولا من كبر، وأن جميع الأولياء من عصر الصحابة إلى النفخ في الصور، ليس فيهم من يصل مقامنا ولا يقاربه؛ لبعد مرامه عن جميع العقول وصعوبة مسلكه على أكابر الفحول".

تصرف التجاني في الجنة

جاء كذلك في كتابه إلى أهل الأغواط بالمغرب يقول لهم: "ولم أقل لكم ذلك حتى سمعته من الرسول ﷺ تحقيقًا، وليس من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بغير حساب ولا عقاب، ولو عملوا من الذنوب ما عملوا وبلغوا من المعاصي ما بلغوا، إلا أنا وحدي".

عدوان الصوفية بعضهم على بعض وطلب كل صاحب طريقة العلو على الآخرين:

سأل رجل من أهل فاس بالمغرب التجاني عن الدائرة الشاذلية وأسمائها وخواصها وفضائلها، فأجابه التجاني بقوله:

"اعلم أن التمسك بما في كتب أهل الخواص من دائرة الشاذلية رضي الله عنه: أسماء الله، والحروف، والجداول، كله كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ما في جميعها إلا التعب والطمع الذي لا يوجد فيه قليل من الفائدة ولا جدوى من الفائدة".

الصوفي له قوة الخلاق العظيم كما يرى التجاني

قال علي حرازم تحت عنوان "سر شريف": "قال سيدنا رضي الله عنه: إذا تجلى الله لسر عبد، ملكه جميع الأسرار، وألحقه بدرجة الأحرار، وكان له تصرف ذاتي؛ متى توجهت إرادته لأي خارق كان انخراق له في الحين، إلا أن بعضهم يضيف لها كلمة كن وبعضهم بمجرد الإرادة".

ومعنى هذا التطاول الغريب أن الله تعالى "إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون"، أما هؤلاء فإذا أراد أحدهم شيئًا تكفيه مجرد الإرادة لإيجاده وإذا أضاف إليها "كن" فلا حرج عليه عند بعضهم، فكلمة "كن" عندهم إنما هي مجرد إضافة عارضة.

مزايا التجاني لم يصلها أحد من البشر بل ولا ملك مقرب ولا نبي مرسل:

كل من أخذ وردنا وداوم عليه إلى الممات، أنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عقاب هو ووالداه وأزواجه وذريته.

وكذلك من حصل له النظر فينا يوم الجمعة أو الاثنين يدخل الجنة بغير،

حساب ولا عقاب.

والسبب في تخصيص يوم الجمعة والاثنين بحصول هذا الفضل العظيم، لمن نظر إلى وجهه الذي عليه غبرة، هو اعتقاده أن الجمعة خلق آدم والاثنين خلق فيه محمد ﷺ ومن هنا حصل له هذا الفضل العظيم في هذين اليومين اللذين وقع فيهما الفرع أفضل من الأصل على ميزان التجاني المعكوس.

جفاء وعتو ونفور عن الله تعالى وحمق مركب

مدح التجاني أبا عُبيدة الخواص بقوله: "وله منذ أربعين سنة ما رفع رأسه إلى السماء حياءً من الله تعالى، وهذا هو حياء العارفين".

أذكار وأدعية بعبارات متكلفة غامضة وأساليب ركيكة مرذولة

قال علي حرازم: "وأول ما نبدأ به ذكر الصلوات التي أملاها مولانا رسول الله ﷺ من فيضه الشريف يقظة على شيخنا أبى العباس.. الأولى سماها شيخنا رضي الله عنه ياقوتة الحقائق في التعريف بحقيقة سيد الخلائق، ونصها: الله الله الله اللهم أنت الله الذي لا إله إلا أنت العالي في عظمة انفراد حضرة أحديتك التي شئت فيه بوجود شؤونك... اللهم برتبة هذه العظمة وإطلاقها في وجد وعدم، أن تصلي وتسلم على ترجمان لسان القدم اللوح المحفوظ والنور الساري المحدود.. لله لله لله آه أمين، هو هو هو آمين".

ذلك هو الدعاء الأول وما يحمله من هذيان يبعث على الاشمئزاز والنفور.

أما الدعاء الثاني فقد جاء فيه قوله، وبعباراته المتكلفة التي تخفى وراءها قبائح وجِهلًا شنيعًا - قال: "وهي أيضًا من إملائه ﷺ لشيخنا يقظة، وهي: اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني، ونور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الرباني، البرق

الأسطع بمزون الأرياح المالئة لكل متعرض من البحور والأواني... اللهم صل وسلم على عين الحق التي تتجلى منها عروس الحقائق عين المعارف الأقوم صراطك التام الأسقم... إحاطة النور المطلسم".

وما أدري من أين يأتي الخشوع في مثل هذا الدعاء الذي هو أقرب إلى الألغاز والهذيان.

وجاء في نص الدعاء الثالث

"اللهم صل وسلم على عين ذاتك العلية... عبدك القائم بك منك لك إليك، بأتم الصلوات الزكية، المصلي في محراب عين هاء الهوية، فصل اللهم عليه صلاة كاملة تامة بك ومنك وإليك وعليك... وتب علينا بمحض فضلك الكريم في الصلاة عليه".

وقد شرح علي حرازم تلك الأدعية فكان كمن أراد أن يكحلها فأعماها حيث جاء هو الآخر بكلمات أغمض من النص بغرض أن تلك الأدعية وشرحها تحمل علمًا لا يعرفه إلا هؤلاء العباقرة.

وقد شرح وصف التجاني للرسول ﷺ بأنه اللوح المحفوظ فقال: "قوله: اللوح المحفوظ" اعلم أن اللوح المحفوظ هنا هو نبينا وسيدنا محمد ﷺ. وتشبيهه هنا ﷺ باللوح المحفوظ يسمى عند المتكلمين تشبيه التسامح، وإلا فهو ﷺ أكبر وأوسع من اللوح المحفوظ بأضعاف مضاعفة؛ لأن غاية علوم اللوح وما سطر فيه إنما هو منشأ العالم إلى النفخ في الصور فردًا فردًا بلا شذوذ.

وأما ما وراء ذلك من أحوال يوم القيامة وأحوال الشؤون والأمور والاعتبارات واللوازم والمقتضيات كلها ليس في اللوح المحفوظ منه شيء إلا أمور قليلة، مثل فلان يعمل كذا وكذا من الأعمال وجزاؤه في جنة الخلد، أو جنة

النعيم، أو جنة المأوى له فيها كذا وكذا، وفلان يعمل كذا وكذا من الشر، ومستقره في الدرك الثانية أو الثالثة، وهكذا هو قليل بالنسبة لأحوال الجنة والنار وأحوال يوم القيامة.

وأما هو ﷺ فإنه جمع في حقيقته المحمدية كل ما أحاط به علم الله تعالى من الأزل إلى الأبد من علوم المخلوقات بأسرها ومعرفة مقتضياتها ولوازمها.

المراتب الصوفية يبينها خليفة التجاني علي حرازم بقوله:

المرتبة الأولى: مرتبة الاستهتار بذكر الله تعالى حتى يقع صاحبها في الذهول عن الأكوان، والطمأنينة بذكر الله تعالى مستغرقًا جميع أوقات دهره، وهم الأولياء.

المرتبة الثانية: لباس الحلة الملكية، وهي فوق هذه المرتبة؛ وهي أن يتصف صاحبها بأحوال الملائكة.

المرتبة الثالثة: وهى فوق هذه، وهى لباس الحلة الإلهية؛ لا تذكر ولا يعلمها إلى من ذاقها، وصاحبها هو الذي يطلق عليه اسم الصديق فهي ضرب من النبوة، أو هي النبوة بعينها، وهم العارفون والصديقون.

وتفسيره بأنها النبوة خداع وجبن عن إظهار الحقيقة؛ إذ أن هذه المرتبة "لباس الحلة الإلهية التي لا يعرفها إلا من ذاقها" تفيد معنى الألوهية، إلا أنه لم يصرح بهذا لئلا يكشف الحقيقة فتظهر حقيقتهم الإجرامية.

جوهرة الكمال

يسميها التجانيون صلاة جوهرة الكمال، وهى التي قدمنا منها، وأولها "اللهم صل وسلم علي عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة... " الخ.

قال على حرازم في أول كلامه في شرحها:

"الحمد لله الذي فتق من كنه الغيب رتق الكائنات، وجعل أصلها ونشأتها نور حقيقة سيدنا محمد ﷺ فكان أصل الموجودات، فأوجد منها بقدرته القدسية وكلمته الأزلية فطرة آدم وجعل شكله صورة العالم وعلمه الأسماء كلها، وجعله من جميع البرية خلاصتها وصفوتها، وأخرج من عنصره الأرواح والذرية والأشباح، واختار منها صفوة الأنبياء والرسل والأولياء بالرسالة والولاية... " إلى آخر ما جاء به من عجائب الحمق.

خواص صلاة جوهرة الكمال

زعم التجانيون أن لهذه الصلاة أو الدعاء خواص لا يقدر لها قدر، ولا أظن أحدًا لم تدنس الصوفية فطرته يصدقها، قال:

"وذكر لها رسول الله ﷺ خواصًا منها:

١- أن المرة الواحدة تعادل تسبيح العالم ثلاث مرات.

٢- أن من قرأها سبعًا فأكثر، يحضره روح النبي ﷺ محبة خاصة، ولا يموت حتى يكون من الأولياء، وقال الشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: من داوم عليها سبعًا عند النوم، على طهارة كاملة وفراش طاهر، يرى النبي ﷺ.

إلى أن قال: "فإنه لولا وجوده ﷺ ما كان وجود لموجود أصلًا من غير الحق سبحانه وتعالى... فإنه لولا هو ﷺ ما خلق شيء من الأكوان، ولا رحم شيء منها لا بالوجود ولا بإفاضة الرحمة".

ثم قال: "تنبيه شريف: اعلم أنه لما خلق الله الحقيقة المحمدية، أودع فيها سبحانه وتعالى جميع ما قسمه لخلقة، من فيوض العلوم والمعارف والأسرار، والتجليات والأنوار، والحقائق بجميع أحكامها ومقتضياتها ولوازمها، ثم هو ﷺ الآن يترقى في شهود الكلمات الإلهية، مما لا مطمع فيه لغيره، ولا تنقضي

تلك الكمالات بطول أبد الآباد".

وتظهر الطلاسم واضحة في هذا الدعاء التجاني العجيب الغريب المسمى بحزب البحر، قال محمد السيد التجاني:

"مقصد حزب البحر التعوذ والبسملة، وبه نستعين، وبه الحلول والقوة، رب سهل ويسر، ولا تعسر علينا يا ميسر كل عسير أبت خدذ رزط ظكل منص صعغ فقس شهولاي لا إله إلا الله عشرًا، ثم صلاة الفاتح عشرًا، ويرفع يديه إلى السماء، ويقرأ فاتحة الكتاب مرة بنية ما يريد، ثم البسملة الله الرحمن الرحيم، يا الله يا عليّ.. الخ"

وقد ذكر دعاءً يقوله من أراد أن يجتمع بالنبي ﷺ يقظة لا منامًا، وفي آخره يبخر بالعود أو الجاوي على طريقة الشعوذة والسحرة.

ثم ذكر دعاء آخر لجلب الغنى ودفع الفقر.

ثم ذكر دعاء لكيفية خاصة من جوهرة الكمال تقوم مقام اللطيف الكبير، هكذا وبهذا الأسلوب.

إلى أن ذكر الطامة الكبرى وهي في قوله الآتي: "كيفية من الصلوات تسمى مهر السر والحور، وعين الفتح والنور، من أكثر من تلاوتها يرى رب العزة في المنام، ولا يفارقه رسول الله وروح القدس أبدًا " وأحب ألا أذكر تلك الأدعية، لأنزه سمع وبصر القارئ عن حشو ذهنه بخزعبلات الصوفية وخرافاتهم، ومن تناقضاتهم أن يأتوا بدعاء لجلب الغنى ودفع الفقر، وهم لا يحبون الدنيا كما يزعمون، ويحبون الفقر ويجعلونه من أشرف الأسماء لديهم.

وأما زعمهم رؤية الرسول ﷺ، ورؤية المولى ﷻ والاتحاد به، فهي ديدنهم وعليها قام دينهم.

الخضوع لأقطاب التصوف

يجب الخضوع التام لأقطاب التصوف وترك الأفكار عليهم في أي شيء، يقول الفوتي في كتابه: "رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم"

هامش جواهر المعنى: "اعلم أن المنكر على الأولياء ساقط من عين الله وهالك في الدنيا والآخرة وأنه في لعنة الله ومحاربته"، ويقصد بأولياء الله هنا أقطاب التصوف.

فليعتصم المريد بشيخه وليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ البحر بالقائد، بحيث يفوض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه في ورد ولا صدر، ولا يبقى في متابعته شيئًا ولا يذر، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ، أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب، إلى أن قال: "ولا اعتراض بأن يكون بين يديه كالميت بين يدي غاسله، وقد قال من قال لشيخه: لمَ؟ فإنه لا ينتفع به".

التصدر للمشيخة خطر عظيم إلا بإذن شيخ صوفي: يقول الفوتي: "قلت التصدر للشيخوخة بغير إذن شيخ كامل الخطر جدًا، لأنه يكون سببًا لسوء الخاتمة، وإن لم يتب فاعله فلا يموت إلا كافرًا".

الاتصاف بالله وتهوين الفاحشة

ذكر الفوتي أن أحد المريدين طلب من شيخه أن يدله على الله فقال له: اتصف بصفة من صفات الله تعالى، فاختار الصدق، ثم ارتكب جريمة زنا، وحين سأل أجاب بقوله: نعم، فسجنه الوالي لظنه أنه مجنون، فشفع فيه بعضهم فأخرج من السجن بفضل صدقه كما يزعم.

وقد صاغها الفوتي بأسلوب مزخرف مطول يهون الجريمة بدلًا من التنفير عنها، وذكر الفوتي في رماحه قصصًا كثيرة جدًا كلها تهدف إلى طاعة المشائخ

طاعة عمياء، لا اعتراض ولا جدال، حتى ولو أمر الشيخ المريد بفعل الفواحش وقتل النفوس فعليه التنفيذ، لأنه لا يعرف الحكمة من وراء ذلك إلا الشيخ.

منها: أن بعض المشائخ أمر مريدًا له بقتل والده، فجاء المريد بالليل ووالده عند أمه فاحتز رأسه وجاء به إلى الشيخ، فلما عرف صدق إيمان المريد كشف له عن الرأس، فإذا هو ليس والد المريد وإنما كان علجًا في حال غياب أبيه، جاء الشيخ الوحي بذلك.

ثم ذكر قصصًا كثيرة حول هذه الطاعة، ثم عقب بذكر قصص أخرى تفيد أن التلميذ لا ينبغي أن يشك في شيخه حتى ولو رآه يشرب الخمر ويزني ويقتل النفوس، وقد دخلت على أحد المشائخ امرأة ولكنها الدنيا تصورت في صورة امرأة ثم دخلت عليه.

إلى آخر ما ذكر من أمثال هذه الفواحش بأسلوب سافر لم أذكره بنصه، لأولئك الذين سماهم أولياء، والذين قال عنهم بعد ذلك: "الشيخ هو الولي الكامل في قوله كالنبي في أمته، وأن مبايعته كمبايعة النبي ﷺ لكونه نائبًا عن النبي ﷺ".

ومن هنا فإنه ينبغي على المريد: "أن يرى استمداده من شيخه هو استمداده من النبي ﷺ، لأنه نائبه".

"فعلم أن كل من لم يعتقد في شيخه أنه أشفق عليه من نفسه، وأنه لا يأمر قط بترك شيء إلا ليعطيه أنفس منه، فمحبته نفاق".

وذكر أن الشيخ لو طلب إلى أحد مريديه أن يطلق زوجته، أو يأتي بنصف ماله، أو منعه من وظائفه ومصالحه فأبى، لكان دل على نفاق أيضًا.

ولعل في ذكر الآداب التي ينبغي على المريد أن يمتثلها، أقوى تصوير لمدى

هيمنة شيوخ الصوفية على أتباعهم، ومدى الغبن والذل اللذين يلحقان بأولئك القطعان من أتباع رهبان الصوفية، وقد ذكر الفوتي منها ما يلي:

١- تعظيم الشيخ وتوقيره ظاهرًا وباطنًا، وعدم الاعتراض عليه في شيء فعله، ولو كان ظاهره أنه حرام، وعدم الالتجاء لغيره من الصالحين.

٢- ألا يقعد وشيخه واقف.

٣- ولا ينام بحضرته إلا بإذنه، في محل الضرورات، ككونه معه في مكان واحد.

٤- ألا يكثر الكلام بحضرته ولو باسطه.

٥- وألا يجلس على سجادته.

٦- ولا يسبح بسبحته.

٧- ولا يجلس في المكان المعد له.

٨- ولا يلج عليه في أمر.

٩- ولا يسافر.

١٠- ولا يتزوج.

١١- ولا يفعل فعلًا من الأمور المهمة إلا بإذنه.

١٢- ولا يمسك يده للسلام ويده مشغولة بشيء، كقلم أو أكل أو شرب، بل يسلم بلسانه، وينظر بعد ذلك ما يأمره به.

١٣- ولا يمشي أمامه ولا يساويه، إلا بليل مظلم، ليكون مشيه أمامه صونًا له عن مصادمة ضرر.

١٤- وألا يذكره بخير عند أعدائه، خوفًا من أين يكون وسيلة لقدحهم فيه.

١٥- وأنه يحفظه في غيبته كحفظه في حضوره.

١٦ – وأنه يلاحظه بقلبه في جميع أحواله سفرًا وحضرًا لتعمه بركته.

١٧ – وألا يعاشر من كان الشيخ يكرهه، أو من طرده الشيخ عنه.

١٨ – وأن يحب كل من أحبه الشيخ، ويكره كل من يكرهه الشيخ.

١٩ – وأن يرى كل بركة حصلت له من بركات الدنيا والآخرة فببركته.

٢٠ – وأن يصبر على جفوته وإعراضه عنه.

٢١ – وأن يحمل كلامه على ظاهره فيمتثله إلا لقرينة صارفة.

٢٢ – وألا يتجسس على أحوال الشيخ من عبادة أو عادة، فإن في ذلك هلاكه.

٢٣ – وألا يدخل عليه خلوة إلا بإذن.

٢٤ – ولا يرفع الستارة التي فيها الشيخ إلا بإذن وإلا هلك.

٢٥ – وألا يزور الشيخ إلا وهو على طهارة، لأن حضرة الشيخ حضرة الله تعالى.

٢٦ – وأن يحسن الظن به في كل حال. ،

٢٧ – وأن يقدم محبته على محبة غيره ما عدا الله ورسوله.

٢٨ – وألا يكلفه شيئًا، حتى لو قدم من سفر لكان هو الذي يسعى ليسلم على الشيخ، ولا ينتظر أن الشيخ يأتيه للسلام عليه.

٢٩ – وألا يكتم عن الشيخ شيئًا مما يخطر له.

٣٠ – وألا يعترض عليه فيما يكون منه.

٣١ – وألا ينظر في أفعال الشيخ، ولا يعتدى أمر شيخه، ولا يتأول عليه كلامه.

٣٢ – ولا يطلب علة للأمر الذي يأمره به، بل يبادر إلى امتثال ما أمره به،

سواء عقل معناه أو لم يعقل.. ومتى تأول على الشيخ ما أمره به، أو يقول: تخيلت أنك أردت كذا، فليعلم أنه في إدبار، فليبك على نفسه.

٣٣- ولا يلبس ثوبًا لبسه شيخه إلا إذا كساه الشيخ إياه.

٣٤- ولا يسأله عن شيء سؤال من يطلب الجواب منه، بل يجب عليه أن يقص ما وقع له، فإن أجابه كان وإلا فلا، وإن وصف ذلك على أن يجيب الشيخ فقد جعله سؤالًا، وإذا جعله سؤالًا فقد أساء الأدب.

٣٥- ولا يخون شيخه في أمر مأمور به.

٣٦- ومن شرط المريد أن يكون بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل، إن غسل عضوًا من أعضائه قبل آخر أو حركه أو تصرف فيه كيف يشاء، فلا يخطر عليه خاطر اعتراضه.

٣٧- ولا يجلس بين يديه إلا مستوفزًا كجلوس العبد بين يدي سيده.

وذكر شروطًا إلى أن قال:

٣٨- ولا يقعد مقعدًا حيث كان إلا ويتيقن أن الشيخ يراه، فليلزم ذلك.

٣٩- ولا يديم النظر إليه، فإن ذلك يورث قلة الأدب والحياء، ويخرج الاحترام من القلب.

٤٠- ولا يكثر مجالسته.

٤١- ولا يقضي لأحد حاجة حتى يشاوره فيها.

٤٢- وإن طلق امرأة فمن الأدب ألا يتزوجها.

٤٣- ولا يدخل عليه متى دخل عليه إلا قبل يديه وأطرق.

٤٤- ويتحبب إليه بامتثال أمره ونهيه.

٤٥- وليكن حافظًا شحيحًا على عرضه.

٤٦- وإذا قدم إليه طعامًا فليلقه أمامه بجميع ما يحتاج إليه، وليقف خلف الباب فإذا دعاه أجابه وإلا فليتركه حتى يفرغ، فإذا فرغ أزال المائدة، فإن بقي شيء من طعامه وأمره بالأكل فليأكل، ولا يؤثر بنصيبه أحدًا.

٤٧- ويجتهد ألا يراه إلا فيما يسره، ولا يتمن عليه، وليحذر مكر الشيوخ فإنهم يمكرون بالطالب، فليحافظ على أنفاسه في الحضور معه.

٤٨- ومن شرط المريد ألا يرد على الشيخ كلامه، ولو الحق بيد المريد.

٤٩- الاعتراض على الشيخ حرام على المريدين وقوعه، فهذا مريد مسخر للشيطان.

٥٠- ومن شرط المريد إذا وجهه شيخه في أمر أن يمضي لأمره، من غير تأمل ولا توقف ولا يصرفه عنه صارف، حتى قال بعض الشيوخ لبعض المريدين: أرأيت لو وجهك شيخك في أمر فمررت بمسجد تقام فيه الصلاة، فما تصنع؟ فقال: امضي لأمر الشيخ ولا أصلي حتى أرجع إليه، فقال له: أحسنت.

٥١- ومن شروط المريد الوفاء بكل ما يشترط عليه الشيخ سواء كان صعبًا أو سهلًا، وليس للمريد أن يعترض على الشيخ في شيء... فإنهم قالوا: الاعتراض على الشيوخ سم قاتل.

وإن رأيت من الشيخ ما يتراءى عندك أنه غير مشروع فاتهم نفسك.

الولي ينظر إلى باطن المريد ولا عبرة عنده بظاهره.

كل ما يفعله الولي من الأعمال التي تعينه في الظاهر، إنما يكون بسبب معاصي الناس المريدين له، وإلا ما حصل له ذلك، ولو كانوا أصحاب خير وبر لرأوا كل ما يفعله حسنًا.

ولقد تركت ذكر آداب وشروط كثيرة واجبة لمشائخ الصوفية بإيجاب النبي ﷺ لها، على حد افتراء هؤلاء الكاذبين سراق عقول البشر، الذين لا يهمهم أن يدوسوا كرامة الإنسان بأرجلهم.

ولقد ظهر للقارئ الكريم من خلال ما قدمنا من الآداب التي تطلب من المريد - وهي في الحقيقة أغلال - ما يبعث على الأسى والحزن على أولئك الذي أصبحوا ضحايا الجشع الصوفي، ولقد كنت أتحرق غيظًا في أثناء كتاباتي لهذا الدجل الصوفي التجاني وتشويههم لصورة الإسلام السمحة، واستبعادهم لهؤلاء البله والعوام من المسلمين، إلى حد أنهم يشترطون عليهم أن يروا المنكرات التي يفعلها المشائخ، من الزنا، وبيع الحشيش، وسائر أنواع المنكرات - أن يروا ذلك إما أنهم يفعلونه لحكمة لا يعلمها إلا هؤلاء الأقطاب، أو بسبب معاصي الناس، أو أنها صور تخيل للشخص وليست حقيقية، فأي لصوصية هذه وأي استهتار بكرامة الإنسان؟!

قارن يا أخي المسلم بين من يدخل الإسلام ومدى ما يشعر به من كرامة لنفسه، حين يقال له: أنت الإنسان المكرم الذي سخر لك الله ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، أنت أكرم على الله من السموات والأرض، أنت خليفة الله في هذه الأرض، إلى غير ذلك من تعاليم الإسلام، وبين تعاليم هؤلاء اللصوص المحترفين، حين يشترطون على الداخل في الإسلام على طريقتهم أن يرمي نفسه أرضا لا حراك به، كالميت بين يدي الغاسل، وإذا قدم لشيخه أكلًا أن يقف وراء الباب، ثم يأكل بعد ذلك ما يبقى بعد شبع شيخه الجشع الذي لا يسال عما يفعل.

لقد سد كهنة التصوف كل منفذ لعودة عقل الإنسان إلى الصواب وكبلوه

بسلاسل وأغلال لا انفكاك له منها إلا إذا تداركته رحمة الله تعالى، ولهذا نجد أن من خرج عن طرقهم الفاسدة يكاد يصعق حين تذكر له.

تثليث صوفي

يقول الفوتي: "فإن المريد لا يجيء منه شيء حتى لا يكون بقلبه غير الشيخ، والله تعالى، والرسول ﷺ"، الشيخ، الله، الرسول.

تشريع جديد لأقطاب التصوف:

"ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيه أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات ومحرمات ومكروهات وخلاف الأولى".

تثبيت الفرقة بين المسلمين وإحكام قبضتهم على أتباعهم وحجرهم عليهم: يقول علي حرازم: "وأما أتباعه رضي الله عنه -أي التجاني- فقد أخبره سيد الوجود ﷺ أن كل من أحبه فهو حبيب للنبي ﷺ ولا يموت حتى يكون وليًا قطعًا، وأمره أن ينهي أصحابه عن زيارة الأولياء، الأحياء منهم والأموات، وكل من زار منهم ينسلخ عن طريقته.."، إلى أن يقول:

"ويجب على الشيخ ألا يترك أصحابه يزورون شيخًا آخر، ولا يجالسون أصحابه، فإن المضرة سريعة للمريدين".

"وسمعت سيدي عليًا المرصفي يقول: لا ينبغي لمريد أن يزور ولا يزار، لغلبة الآفات عليه".

تحكم على الله وترهيب للأتباع

"حكى القشيري في رسالته أن شقيقًا البلخى وأبا تراب النخشبي قدما على أبي يزيد، وقدمت السفرة وشاب يخدم أب يزيد، فقال شقيق: كل معنا يا فتى!،

فقال أنا صائم، فقال أبو تراب: كل ولك أجر صوم شهر، فأبى، فقال شقيق: كل ولك أجر صوم سنة، فأبى، فقال أبو يزيد: دعوا من سقط من عين الله، فأخذ الشاب بعد مدة وقطعت يده بسرقة".

مبدأ باطني وهو التبني الروحي كما يسمونه

قال الفوتي: "الفصل الثالث والعشرون في إعلامهم بأن الوالد المعنوي الذي هو الشيخ أرفع رتبة وأولى بالبر والتوقير، وأحق رعاية، وآكد دراية، وأقرب حسبًا، وأوصل نسبًا من الوالد الحسي"، ثم جاء في هذا الفصل بكل طامة إلى أن قال أكاذيب تردها النصوص الصحيحة والفطر السليمة في دور المشائخ الصوفية في يوم القيامة، منها:

"وأيضا يدعو المريدين بأسماء مشائخهم - أي في يوم القيامة - ويدعوهم إلى منازلهم، ودعاؤهم في ذلك اليوم الشديد الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت بأسماء المشائخ دون أسماء الآباء والأمهات يكفي دليلًا على ارتفاع رتبة المشيخة التي هي الولادة المعنوية، على رتبة الولادة الجسمية".

جزاء المشايخ

ومن هنا فجزاء المشائخ لا يكاد يبلغه أحد، وقد أوصله كهنة التصوف إلى مرتبة فوق مرتبة الأنبياء حسب قولهم الآتي:

"والله لو وقف المريدون على الجمر بين يدي أحد أشياخهم منذ خلق الله الدنيا إلى انقضائها، ولم يقوموا بواجب حق معلمهم، في إرشادهم إلى إزالة تلك الموانع التي تمنعهم من دخول حضرة الله: قالوا: "ومن نسب تلميذًا إلى غير أستاذه، كمن نسب ولدًا إلى غير أبيه".

العشق والغرام في المذهب الصوفي وأكاذيبهم في ذلك

"روى السهرودي بسنده أنا النبي ﷺ قال حاكيًا عن ربه: إذا كان الغالب

إلى عبدي الاشتغال بي، جعلت همه ولذته في ذكري، فإذا جعلت همته ولذته في ذكري عشقني وعشقته، ورفعت له الحجاب فيما بيني وبينه ولا يسهوا إذا سها الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال الأبدال حقًا، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابًا ذكرتهم فصرفته بهم عنهم".

وهذا الحديث بلا شك أنه من جنس الأحاديث التي يرويها الصوفي عن قلبه عن ربه مباشرة، دون أن يعلم بها النبي محمد ﷺ.

متى يسقط ذكر الله تعالى عند الصوفية، فلا يعود لذكر الله وجود في حقهم؟:

يقول الفوتي: "قلت: وإذا كثر العبد ذكر ربه باللسان حصل له الحضور، وإذا حصل له كثرة الذكر مع الحضور، صار الحق مشهودة، وهناك يستغني عن ذكر اللسان... لأن حضرة شهود الحق سبحانه حضرة بهت وخرس، يستغني صاحبها في الجمعية بالمدلول، فقد استغنى العبد عن الدليل فافهم".

ويوضح المقصود من الكلام السابق، قوله عما يجده الشخص في ميدان التصوف، في كفره الآتي:

"وفي هذا الميدان ينمحي الذاكر والذكر ويصير حالة أن لو نطق قال: أنا الله لا إله إلا أنا وحدي لاستهلاكه في بحار التوحيد، وهذه المرتبة هي آخر مراتب الذكر وصاحبها صامت جامد لا يذكر ولا يتحرك".

وإذا ذكر الله بلسانه في هذه الحال، فإنه يعتبر في حقه ذنبًا وفي هذا الحال المعكوس يقول:

بذكر الله تزداد الذنوب — وتنطمس السرائر والقلوب

فترك الذكر أفضل كل شيء — وشمس الذات ليس لها غروب

زاد الله ذنوبهم وطمس سرائرهم، انظر كيف تلاعب الشيطان بهم حتى

أصبح ذكر الله يزيد ذنوب الإنسان، ويطمس سريرته وقلبه، لأن الأولى به حين يصل إلى تلك المرتبة أن يترك كل شيء، ولاتحاده التام بالله تعالى؛ حيث تصبح ذاته لا غروب لها بعد ذلك.

مستند الصوفية في وجدهم ورقصهم

قال الفوتي: "قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كان رسول الله ﷺ يذكر الله تعالى على كل أحيانه، فإذا انضم إلى هذا القيام رقص أو وجد ونحوه، فلا إنكار عليهم، فإن ذلك من لذات الشهود والمواجيد، وقد ورد في بعض طرق الحديث رقص جعفر بن أبي طالب بين يدي الرسول ﷺ حين قال له: أشبهت خلقي وخلقي، من لذة هذا الخطاب، ولم ينكر عليه ذلك النبي ﷺ فكان هذا أصلًا في الجملة في رقص الصوفية ووجدهم".

ومما يدركه طلاب العلم أن هذا القول مملوء بالمغالطة والكذب، فأين اهتزاز جعفر وخفته في حال سماعه قول الرسول ﷺ، من رقص الصوفية وتمايلهم طربًا الذي لا يمت إلى الخشوع بأدنى قرابة، وبذكر لا يورث أيضا أي خضوع ولا ذكر للآخرة، مثل ما يذكره الفوتي بقوله في تعداد أنواع ذكرهم وقال:

"فلا حرج على الذكار ما دام مسلوب الاختيار ويستعمله كيف شاء على أنواع مختلفة كلها محمودة وصاحبها مشكور عليها، فلها أسرار، فربما يجري على لسانه الله الله الله، أو هو هو هو هو، أو لا لا لا لا لا لا لا، أو آآ آآ بالمد، أو أأ أأ أأ بالقصر، أو اهـ اهـ اهـ اهـ اهـ اهـ، أو ها ها ها ها ها ها ها ها، أو... عياط بغير حرف أو صراخ وتخبيط، فأدبه في ذلك الوقت أن يسلم نفسه لوارده يتصرف فيه كيف يشاء".

ولك أيها القارئ اللبيب أن تتصور الصوفي وهو يترنح يمينًا وشمالًا وهو

يصرخ هو هو هو، أو لا لا لا لا لا لا لا لا، أو أأ أأ، أو ها ها ها ها ها ها ها ها ها، أو بغير تلك الصفات الهوجاء، بأن يكون عياطا بغير حرف، أو كان ذكره أن يصرخ، أو تخبط كالذي مسه الشيطان، فكيف تتصور النتيجة، إنها مآس تقشعر لها الجلود، إن هذا عار على الإسلام والمسلمين، بل عار على العقل والإدراك، إنك لو اطلعت عليهم وهم يرددون هو هو هو - ولم تكن تعرف التصوف من قبل - لوليت منهم فرارًا ولملئت منهم رعبًا.

ذكر الله وصفة طبية محتكرة على أقطاب الصوفية وبرضاهم: "اعلم أن الذكر المأخوذ عن غير شيخ، أو عن شيخ غير مفتوح عليه عارف، هلاك صاحبه أقرب من سلامته، ولا سيما أسماء الله تعالى"؛ وسبب ذلك يبينه أحد كهنة الصوفية - وهو عبد العزيز الدباغ - بقوله: "الأسماء الحسنى لها أنوار من أنوار الحق سبحانه، فإذا أردت أن تذكر الاسم، فإن كان مع الاسم نوره الذي يحجب من الشيطان وأنت تذكره لم يضرك، وإن لم يكن مع الاسم نوره الذي يحجب من الشيطان، حضر الشيطان وتسبب في ضرر العبد والشيخ إذا كان عارفًا وهو في حضرة الحق".

رؤية الثعلبي: من رأى الثعلبي أحد أقطاب الصوفية دخل الجنة. اجتمع أحمد التجاني بالشريف الحسني التهامي فقال له: "سمعت أن لك مزية عظيمة فقال له: ما هي؟ قال له: من رآك يدخل الجنة، قال: نعم، إلا أن المزية ليست لي، فقال له شيخنا: لمن هي، قال: للشيخ الثعلبي؛ لأن من رآه ومن رأى من رآه إلى سبعة أو ثمانية، أو اثني عشر إنسانًا يدخل الجنة، وأنا رأيت من رأى من رآه".

وقال كذلك الثعلبي أنه قال: "من رآني إلى سبعة ضمنت له الجنة".

الأولياء والنبي ﷺ

الأولياء يرون النبي ﷺ يقظة لا منامًا، حسب زعم الفوتي في قوله: "الفصل الحادي والثلاثون في إعلامهم أن الأولياء يرون النبي ﷺ يقظة، وأنه ﷺ يحضر كل مجلس أو مكان أراد بجسده وروحه، وأنه يتصرف ويسير حيث يشاء في أقطار الأرض والملكوت، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته ولم يتبدل منه شيء، وأنه مغيب عن الأبصار كما غيبت الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم، فإذا أراد الله أنا يراه عبد، رفع الحجاب فيراه على هيئته التي كان هو عليها".

وجاء في الباب بما لا يتصوره عقل سليم من مجيء النبي ﷺ إليهم ومقابلتهم له، وأخذهم عنه علومًا وفوائد، وغير ذلك مما لا نرى التطويل بذكره، وفوق ما تقدم يذكر الفوتي أن النبي ﷺ يحضر الديوان الصوفي، وقد أطال في أخبار هذا الديوان والترتيب الذي يسيرون عليه حينما يحضر الرسول ﷺ، أو حينما يتغيب، قال في أول ذلك الكلام:

"قلت: ولا ينكر رؤية النبي ﷺ يقظة إلا من لا شعور له بمقامات العارفين ولا اطلاع له على ديوان الصالحين، فها أنا ألخص لك شيئًا من ذلك"[1].

وقال الله من هذا التلخيص الذي هو أشبه ما يكون بحكايات ألف ليلة وليلة، إلا أن تلك الحكايات لألف ليلة وليلة لا تصل إلى عشر الأكاذيب التي ساقها أقطاب التصوف في تفاصيل ذلك الديوان الغريب، الذي يحضره الأولياء والنبي محمد ﷺ، أحيانا يحضره الأنبياء كلهم ويحضره أيضا الأموات، ويعرفون بعلامات في لباسهم وكلامهم[2]، وأخبار أخرى إذا قرأها العاقل حمد

---

(١) انظر رماح الفوتي ص ٢١٢: ٢١٤.

(٢) انظر رماح الفوتي ص ٢١٢: ٢١٤.

الله على نعمة العقل والدين.

والنبي ﷺ لا يحضر الديوان الصوفي فقط، وإنما يحضر أيضًا- حسب أكاذيب الصوفية - صلاة جوهرة الكمال، حسبما يقرره محمد السيد التجاني في كتابه الهداية الربانية؛ حيث يقول: "وكذلك يحضر الرسول ﷺ مع الخلفاء الأربعة، والشيخ، ومع عدد عظيم من صفوة الملائكة في الوظيفة السابعة من الجوهرة إلى الاختتام، ويشفع في جميع الحاضرين شفاعة خاصة تلحقهم، وتلحق السابع من أولاده ولو لم يكن فقيرًا، إن حضرها بمحبة في الذكر وأهله، ولو لم يعرف خاصيتها، بل يحضر النبي ﷺ لكل من قرأها في غير الوظيفة حتى يختم، ولو سار عمره ما فارقه ﷺ صباحًا أو فقيرًا أو تلميذًا، وهذا أغرب من كل غريب تفضل به الحق سبحانه على أهل هذه الطريقة لا غير".

ولئن كان محمد السيد التجاني، قد كذب في أن النبي ﷺ والخلفاء الأربعة وتلك الصفوف من الملائكة يحضرون، فإنه قد صدق حين قال عن كل ما ذكره سابقًا: "وهذا أغرب من كل غريب"، نعم إنه في منتهى الغرابة، فأي عقل سليم يصدق مثل ذلك الهراء السمج، والكذب على الله، وعلى نبيه، وعلى خيار الصحابة.

ولقد ذكرني كلامه بموقف مر علي حيث وقفت أمام بائع في حانوته- دكانه - وقد كتب عليها لوحة كبيرة هذا عنوانها "من يصدق؟! خصم خمسين في المائة! " فقلت له: نعم، لا أحد يصدق - وأنا أولهم - أنك تخصم خمسين في المائة فضحك وقال: "الناس لا يفهمون غير ما فهمته".

أمثلة مختصرة من مزاعم التجاني يذكرها الفوتي، وفيها من المبالغات تزكية النفس وإطرائها ما لا يليق بمخلوق:

منها قوله:

١- قد أخبرني سيد الوجود ﷺ بأني أنا القطب المكتوم، منه إلى مشافهة يقظة لا منامًا.

٢- لا يشرب ولي، ولا يسقي إلا من بحرنا، من نشأة العالم إلى النفخ في الصور.

٣- إذا جمع الله خلقه في الموقف ينادي مناد بأعلى صوته حتى يسمعه كل من في الموقف: يا أهل المحشر! هذا إمامكم الذي كان مددكم منه.

٤- قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: قدمي هذا على رقبة كل ولي لله تعالى - يعني أهل عصره - وأما أنا فقدماي هاتان - وجمعهما - على رقبة ولي لله تعالى من لدن أدم إلى النفخ في الصور.

٥- هذا القرن أفضل من جميع ما تقدمه من القرون السالفة سوى القرون الثلاثة الوارد النص بأفضليتها.

ثم ذكر الفوتي فضائل من تمسك بطريقة التجاني نوردها ليقف القارئ على مدى الهوس والأماني الفارغة التي أقام الصوفية مذهبهم عليها:

١- أن جده ﷺ ضمن لهم أن يموتوا على الإيمان والإسلام.

٢- أن يخفف الله عنهم سكرات الموت.

٣- لا يرون في قبورهم إلا ما يسرهم.

٤- أن يؤمنهم الله من جميع أنواع عذابه وتخويفه وجميع الشرور من الموت إلى المستقر في الجنة.

٥- يغفر الله لهم جميع ذنوبهم ما تقدم وما تأخر منها.

٦- أن يؤدي الله عنهم جميع تبعاتهم ومظالمهم من خزائن فضله ﷻ لا من

حسناتهم.

٧- ألا يحاسبهم الله تعالى يوم القيامة ولا يناقشهم ولا يسألهم عن القليل والكثير.

٨- أن يظلهم الله في ظل عرشه يوم القيامة.

٩- أن يجيزهم الله تعالى على الصراط أسرع من طرفة العين على كواهل الملائكة.

١٠- أن يسقيهم الله تعالى من حوض النبي ﷺ.

١١- أن يدخلهم الله الجنة بغير حساب ولا عقاب في أول الزمرة الأولى.

١٢- أن يستقرون في عليين وجنة الفردوس وجنة عدن.

١٣- أن النبي ﷺ يحب كل من أحب التجاني.

١٤- أن محب التجاني لا يموت حتى يكون وليًا.

١٥- أن أبوي آخذي ورده وأزواجه وذريته يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب ولو لم يكن لهم به تعلق.

١٦- أن التجانيين تلاميذ للنبي ﷺ وأحباب الله.

١٧- أن أصحاب التجاني يعتبرون صحابيين مثل صحابة الرسول ﷺ.

١٨- أن أي أذية لأي تجاني تعتبر أذية للرسول ﷺ.

١٩- أن الإمام المهدي في آخر الزمان يأخذ عنهم ويدخل في زمرتهم ويطلب أن يعلموه الفاتحة.

٢٠- أن كل واحد من التجانيين أعلى من أكبر ولي من الأولياء ممن عداهم.

٢١- في الأذكار التي أعطيها التجاني اسم الله الأعظم.

٢٢- أن كل تجاني يحفظ الأذكار آمن من السلب.

٢٣- أن الله تعالى يعطيهم عن كل عامل تقبل الله عمله الضعف في أجره وهم رقود.

٢٤- لا يمر عليه ما يمر على سائر الناس من التعب في الموقف.

٢٥- أن النبي ﷺ يحضر هو وخلفاؤه مع التجانيين دائمًا.

٢٦- يتميزون يوم القيامة عن سائر الناس بأن كل واحد منهم مكتوب بين عينيه محمد ﷺ، وعلى قلبه مما يلي ظهره محمد بن عبد الله، وعلى رأسه تاج من نور مكتوب فيه الطريقة التجانية منشؤها الحقيقة المحمدية.

٢٧- أن التجاني لا يعذب ولو قتل سبعين روحا إذا تاب بعدها.

أقتصر على ما ذكر وإلا فإن الفوتي ذكر بعد ذلك مزايا تدل على سعة خياله وعدم خوفه من القول على الله بغير علم.

ثم ذكر مزايا لأذكار الطريقة التجانية لا يستطيع الخلق حصرها ولو جائوا بكل أجهزة الآلات الحاسبة، واستدل على ذلك بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب، وكل المخلوقات في السموات والأرض ومن فيهن والعرش والكرسي والقلم واللوح المحفوظ - كلها خلقت من نور محمد ﷺ، والأرواح كلها كذلك من نوره ﷺ. هذه الخرافات كلها يثبتها الفوتي في رماحه تبعًا لمفاهيم الصوفية الضالة، ويثبت أن الله قبل كل شيء ليس معه إلا ذات النبي ﷺ، وأن الملائكة وجبريل في أولهم إنما خلقوا لخدمة محمد ﷺ.

تلاعب التجانية بتفسير القرآن الكريم:

"أنه ﷺ عين الرحمة الربانية؛ لأن جميع الوجود رحم بالوجود بوجوده ﷺ، ومن يفيض وجوده أيضا رحم جميع الوجود؛ فلهذا قيل فيه: عين الرحمة

ﷺ وهو المراد بقوله: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} . وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} ".

الصوفية باطنية ويفضلون العلوم الباطنية على العلوم الإسلامية

تسائل الفوتي على لسان شخص: ما الفائدة من الالتجاء إلى علم الشريعة – أي علم الظاهر – مع أن الحقيقة أي العلم الباطني أفضل؟، ثم أجاب عن ذلك، وصيغة السؤال والجواب هي: "فإن قلت: فلم لا يكتفي الإنسان بعلم الباطن المسمى علم الحقيقة، فيعمل بها حيث كانت هي المقصودة بالذات، فلم يقدم على الظاهر المسمى بالشريعة التي هي الوسيلة؟ "، قم قال في الجواب: "قلت: اعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه أن علم الشريعة الذي هو علم الظاهر وسيلة إلى المقصود بالذات الذي هو علم الحقيقة كما ذكرت، وعلم الحقيقة افضل وأشرف منه، إلا أن الانتفاع بعلم الحقيقة منوط باستصحاب علم الشريعة"، ونقل عن عبد العزيز بن مسعود الدباغ قوله:

"إن علم الظاهر بمثابة الفنار الذي يضيء ليلًا، فإنه يفيد في ظلمة الليل فائدة جليلة. وعلم الباطن بمثابة طلوع الشمس وسطوع أنوارها وقت الظهيرة".

الفصل الثامن: الخلوات الصوفية ومنها الخلوات التجانية

أورد الفوتي في رماحه المعوجة، إيضاحات كثيرة لهذه الخلوات الصوفية تحتاج إلى دراسة مستقلة، ولئلا يفوت القارئ بعض أخبارها فإنني سأكتفي بإيجاز بعض ما قرره فيها كهنة الصوفية، الذين أسهموا بجهد كبير في تنويم الأمة الإسلامية وتأخرها، وتخدير كل عرق نابض فيها حتى وصلت إلى ما وصلت عليه، ومما لا يزال أقوى شاهد على تلك الجهود ما هو حاصل بين المسلمين في عصرنا الحاضر.

الدليل على الخلوات الصوفية حسب زعمهم: يستدلون بما رواه البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "أول ما بدئ برسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد الليالي ذوات العدد -... " إلخ الحديث[(١)].

يقول الفوتي: "فهذا الحديث المنبئ عن بدء رسول الله ﷺ هو الأصل في إثبات المشائخ للخلوة لمريد من الطالبين"[(٢)].

والجواب:

١- أن هذا الحديث بينه وبين الخلوة الصوفية فراق لا لقاء معه، فإن خلوة الرسول ﷺ إنما كانت لتحبيب الله عَزَّوَجَلَّ له ليهيئه لحمل الأمانة العظمى.

٢- كانت قبل أن يؤمر بتبليغ الناس الدين الإسلامي،

٣- لم يأمر بها النبي ﷺ ولا أشار إليها ولا استحسنها لأمته على الطريقة الصوفية.

٤- لم يفعلها أحد من الصحابة ولا من بعدهم من التابعين لهم بإحسان.

٥- أنها تنافي ما هو ظاهر من الشريعة الإسلامية، بالاكتساب وبدعوة الناس ومخالطتهم، إلى غير ذلك من الأجوبة التي يدركها طلاب العلم.

والخلوة الصوفية بدعة مستحدثة، وليس فيها أي نفع لا للشخص ولا للمجتمع، يخرج منها مظلم الفكر محلًا للوساوس نافرًا عن الناس.

مدتها:

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ١/ ٢٢.

(٢) انظر: ما كتبه الفوتي ص١٦١ -١٦٨، وقد ذكرت ذلك هنا بتصرف.

يقول الفوتي: "وأكثرها عند القوم لا حد له، لكن السنة تشير للأربعين بمواعدة موسى ﷺ، والقصد في الحقيقة الثلاثون؛ إذ هي أصل المواعدة وجاور ﷺ بحراء شهرًا".

شروط الخلوة الصوفية

ذكر الفوتي ستة وعشرين شرطًا لصحتها نذكرها باختصار، وللقارئ أن يلاحظ أثناء عرضها مدى تغلغل الأفكار المخالفة للإسلام فيها، من بوذية وهندوسية ونصرانية وغير ذلك:

١- أن يعود نفسه قبل دخولها إذا أراد الشروع، السهر والذكر وخفة الأكل والعزلة.

٢- أن يكون دخول الخلوة بحضور الشيخ ومباركته له وللمكان أيضًا.

٣- أن يعتقد في نفسه أن دخوله الخلوة إنما هو بقصد أن يستريح الناس من شره.

٤- أن يدخلها كما يدخل المسجد مبسملًا متعوذًا بالله تعالى من شر نفسه، مستعينًا مستمدًا من أرواح مشايخه بواسطة شيخه المباشر.

٥- أن يدخل الشيخ الخلوة ويركع فيها ركعتين قبل دخول المريد ويتوجه إلى الله تعالى في توفيق المريد.

٦- أن يعتقد عند دخوله الخلوة أن الله تعالى ليس كمثله شيء، فكلما يتجلى له في خلوته من الصور، ويقول له: أنا الله، فيقل: سبحان الله! آمنت بالله.

٧- ألا يتلهف كثيرًا على كثرة ظهور الكرامات.

٨- أن يكون غير مستند إلى جدار الخلوة ولا متكئًا على شيء، مطرقًا رأسه تعظيما لله تعالى، مغمضًا عينيه، ملاحظًا قوله تعالى: أنا جليس من ذكرني، ثم

يجعل خيال شيخه بين عينيه، فإنه معه وإن لم يره المريد.

٩- أن يشغل قلبه بمعنى الذكر على قدر مقامه، مراعيًا معنى الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه.

١٠- أن يداوم الصوم؛ لأنه يؤثر في تقليل الأجزاء الترابية والمائية فيصفو القلب.

١١- أن تكون الخلوة مظلمة لا يدخل فيها شعاع الشمس وضوء النهار، فيسد على نفسه طرق الحواس الظاهرة، وسد طرق الحواس الظاهرة شرط لفتح حواس القلب.

١٢- دوام الضوء لتلألأ الأنوار فيها بعد ذلك.

١٣- دوام السكوت إلا عن ذكر الله تعالى إلا عند الضرورة القصوى فيتكلم بحذر شديد أن يزيد.

١٤- أن تكون الخلوة بعيدة عن حس الكلام وتشويش الناس عليه.

١٥- كونه إذا خرج للوضوء والصلاة يخرج مطرقًا رأسه إلى الأرض غير ناظر إلى أحد، ويحذر كل الحذر نظر الناس إليه، مغطيًا رأسه ورقبته بشيء؛ لأنه ربما يحصل له عرق الذكر فيلحقه الهواء فيضره.

١٦- أن يحافظ على صلاة الجمعة والجماعة - وإن وجد نفقة فليتخذ له شخصًا يصلى معه في خلوته؛ أي بالإيجار.

وإذا خرج لصلاة الجماعة فليتأخر حتى يكبر الإمام تكبيرة الإحرام فإذا انتهى من الصلاة رجع فورًا إلى خلوته ، قال السهروري: "وقد رأينا من يتشوش عقله في خلوته ولعل ذلك لشؤم إصراره على ترك صلاة الجماعة.

١٧- المحافظة على الأمر الوسط في الطعام لا فوق الشبع ولا الجوع

المفرط.

١٨- ألا ينام إلا إذا غلبه النوم بأن تشوش عليه الذكر.

١٩- نفي الخواطر عن نفسه خيره كانت أم شريرة.

٢٠- دوام ربط القلب بالشيخ بالاعتقاد والاستمداد على وصف التسليم والمحبة، والاعتقاد التام بأنه لا يصل إليه أي خير إلا من قبل شيخه المباشر، ومتى غاب فكره عن الشيخ فقد خسر الصفقة.

٢١- ترك الاعتراض عن الشيخ؛ لأنه أعلم بمصالحه وأكبر عقلًا وأعظم؛ لأنه بالغ مبلغ الرجال بخلاف المريد.

٢٢- أنهم في أثناء خلوتهم لا يفتحون أبواب خلوتهم لمجيء الناس وزيارتهم والتبرك بهم، وإياك وتلبيسات النفوس وخداع الشيطان بالإلقاء فيك أن هذا الشخص يهتدي بك وبكلامك وينتفع بملاقاتك في الدين، فإنها من شبكات مكر اللعين.

٢٣- أنه إذا شاهدوا أشياء تقع لهم في اليقظة أو بين النوم واليقظة فلا يستقبحون ذلك ولا يستحسنونه، بل يعرضون ذلك على الشيخ وهو يتصرف بعد ذلك.

٢٤- دوام الذكر والأذكار حسب ترتيب الشيخ لها.

٢٥- الإخلاص وحسم مادة الرياء وطلب السمعة بالكلية.

٢٦- ألا يعين مدة يخرج بعد كمالها، فإن النفس يصير لها بذلك تطلع إلى انقضاء المدة، بل يدخلها وهو يحدث نفسه بأنه قد انتهى من الحياة ودخل القبر.

هذه أهم الشروط التي لفقها علماء التصوف مثل حرازم الفوتي

والسهروردي والشيخ نجم الدين البكري وغيرهم من عتاة التصوف.

ولا شك أن القارئ يدرك تأثير هؤلاء الصوفية بالمبادئ الخارجة عن الإسلام، وكيف حاولوا أن يظهروها ويغطوها بغطاء إسلامي، وإلا فأين مستندهم من القرآن والسنة النبوية على تلك الرهبانية وتلك الخلوة، في ذلك الحفش المظلم، الذي يسد فيه أي شعاع للنور، ويجلس غير مستند على شيء؟ !، هل هو من الإسلام؟ !، وتلك الطاعة العمياء التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي لا ينبغي أن تكون إلا لله ولرسوله فقط، هل هي من الإسلام؟.

إن كل ذلك جناية، على العقل أيما جناية وإذلال للمؤمن أيما إذلال، وإساءة لتعاليم الإسلام الحنيف وتشويه لصورته المشرقة عند من لا يعرفه.

وزوجة الشيخ المطلقة لا يحق للمريد أن يتزوجها لقول الله في حق نبيه محمد ﷺ {وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِه}، يقول الفوتي في بيانه لأقسام الناس بالنسبة لطاعة شيوخهم:

"ومنهم من يتزوج مطلقة شيخه لولا قول الله تعالى: {وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِه أَبَدًا}.

أقسام الخلوات الصوفية

١ - خلوة الأربعين يومًا التي تقدم ذكرها وشروطها.

٢ - خلوة فاتحة الكتاب، وكيفيتها أن تصوم أربعين يومًا وتحترز فيها من أكل الحيوان وما يخرج منه، وتقرأ هذا الدعاء.. إلى آخر ما يذكر، وهنا لا أظن أن الأمر يحتاج إلى اجتهاد في استكشاف نزعة التصوف الوثنية.

٣- خلوة البسملة ومدتها تسعة عشر يومًا، ومن فاته سر بسم الله الرحمن الرحيم فلا يطمع أن يفتح عليه بشيء.

٤- خلوة الفاتحة أيضًا وهي أن يلازم بقراءتها بالخلوة أربعين يومًا.

٥- خلوة الياقوتة الفريدة، وخلوتها عشرون يومًا، تتلى كل يوم في الخلوة ألفي مرة.

وقال الفوتي بعد ذكر تلك الخلوات الخرافية: "انتهى ما أردنا ذكره منها، ولكل واحد منها ثمرات لا يمكن حصرها، منعني من ذكر بعضها الخوف من شياطين الطلبة". ولعله يدرك أن هؤلاء الطلبة ربما لا يزال فيهم وميض من العقل والمعرفة، فأخر الأخبار بكل التفاصيل إلى وقتها.

ولعل الذي شجع الصوفية على هذا الخبط والاضطراب، ما هو مقرر عندهم في القاعدة الآتية: "أصحاب الفتح الأكبر لا يتقيدون بمذهب من مذاهب المجتهدين، بل يدورون مع الحق عند الله تعالى أينما دار"، ولهذا فكل عمل يعملونه يعتبر من باب التشريع للأمة.

تثبيط الصوفية أتباعهم عن الجهاد في سبيل الله وقتال الكفار وتسميتهم للجهاد بالجهاد الأصغر وتسميتهم لما يسمونه جهاد النفس بالجهاد الأكبر:

قال الفوتي: "انعقد إجماع الأمة على وجوب جهاد النفس، والهجرة عن مألوفاتها وردها إلى الله تعالى، أكبر من جهاد الكفار بلا ريب، لوجوه:

١- أحدها: أن جهاد النفس والهجرة عن مألوفاتها السيئة فرض عين وجهاد الكفار فرض كفاية.

٢- أن النفس أعدى من كل عدو لصاحبها؛ لأن المجاهد جهاد الكفار إن قتل الكافر دخل الجنة، وإن قتله الكافر كان شهيدًا، بخلاف النفس فإن غلبها صاحبها استولى عليها، وكان الحكم للروح وسعد وسعدت سعادة الأبد، ومن غلبت وتسلطت على الروح تسلط عليه الكفر والمعاصي فيهلك.

٣- إن ضرر الكفار مقصور في الدنيا وهي فانية ولذلك كان جهادهم أصغر... وفي عرائس البيان عند قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ} النفوس التي هي تجمع الهوى والبلاء والحجاب، من عرفها قاتلها وأمتها؛ يعنون الرياضات.

٤- أن جهاد الكفار قد لا يكون فرضًا في بعض السنين، وجهاد النفس وردها عن مقتضى هواها والهجرة عن مألوفاتها الباطلة واجب عين على كل مسلم ومسلمة في كل لحظة.

٥- أن بعض فروض الكفاية أفضل من جهاد الكفار.

٦- أن فرض جهاد الكفار يسقط بمنع الأمر والنهي من الوالدين، لوجوب طاعتهما، ويحرم طاعتهما في مجاهدة نفسه.

٧- أن جهاد الكفار يقدر عليه كل أحد وجهاد النفس والهجرة عن مألوفاتها... لا يقدر عليه إلا الموفقين.

٨- أن شهيد جهاد النفس والهجرة عن مألوفاتها المخزية شهيد قطعًا في الآخرة، وأكثر شهداء الكفار شهداء الدنيا فقط دون الآخرة.

٩- أن القائم بجهاد نفسه والهجرة عن مألوفاتها المضلة، قائم لإصلاح نفسه وساع في تخليصها من الدنيا وعذاب الآخرة، والقائم بجهاد الكفار قائم لإصلاح غيره

١٠- أن شهيد جهاد النفس والهجرة عن مألوفاتها المبعدة عن الله تعالى أفضل من شهيد جهاد الكفار بدرجات.

وهناك أقوال أخرى كثيرة لأقطاب التصوف في تثبيط المسلمين عن جهاد الكفار، وتركهم، والانزواء في الزوايا والأربطة ومجاهدة النفس وإصلاحها دون

إصلاح الآخرين.

ومن الواضح أن تلك التعليلات التي ذكرها الفوتي ويذكرها غيره من أقطاب الصوفية تعليلات واهية، تردها النصوص الكثيرة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه، كما في سورة براءة وكما في أحاديث فضل الجهاد والقتل في سبيل الله، وتمني الشهيد الرجوع إلى الدنيا مرة أخرى ليقتل في سبيل الله، ولما يرى من إنعام الله ورضاه عنه.

وزعم الصوفية أن جهاد النفس أولى مغالطة؛ فإن جهاد الكفار هو أعلى جهاد للنفس، وفضله أعلى وأشرف، ولو أن المسلمين أطاعوا الصوفية، وقبعوا في الزوايا المظلمة، وتركوا قتال الكفار، واهتموا بجهاد أنفسهم على طريقة الصوفية لجاء الكفار ، ولكان أول ما يبدءون به هو إخراج هؤلاء الدواجن من زواياهم، ثم هتك أعراض المسلمين وأخذ بلدانهم وأموالهم وإذلالهم وإهانتهم. إن ما يذهب إليه هؤلاء الصوفية هو تخدير وتنويم للمسلمين.

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب

من كان يخضب خدّه بدموعه فنحورنا يوم الكتيبة تخضب

ومن الواضح أن أعداء الإسلام حينما ينظرون إلى الصوفية بعين الرضا والارتياح، فإنما ذلك لأجل هذه المواقف المتخاذلة التي وقفها أقطاب التصوف منهم، ولقد اتفقت دعوة الصوفية إلى ترك الجهاد مع كل الأفكار الخارجة عن منهج الله ﷻ؛ إذ ما من طائفة من تلك الطوائف إلا وكانت الدعوة إلى ترك الجهاد من أولويات اهتماماتهم.

وأرجو من الله ﷻ أن يهيئ لدراسة الأفكار الصوفية المتقدمة دراسة وافية، ورد كل مزاعمهم التي فرقوا بها دينهم وأمتهم إلى وقتنا الحاضر.

الفصل التاسع: مغالطات لجنة جماعة الصوفية في مدينة "ألورن" في نيجيريا

وأما لجنة جماعة الصوفية في مدينة "ألورن" في نيجيريا فقد أرادوا تحسين الوجه الكالح للتجانية والقادرية أيضًا؛ حيث أخرجوا كتيبًا باسم "رفع الشبهات عما في القادرية والتجانية من الشطحات"، وقام بترتيبه الحاج محمد إبراهيم النفاوي القادري، والحاج علي أبو بكر جبتا التجاني. وقد صدروا هذا الكتيب بأبيات للحاج حمزة سلمان أبارغدرما الألوري ومنها:

انتبهوا يا معشر الإخوان ... على فساد واعظي الزمان

قد دخلوا في هذه البلدان ... لنصرة الإلحاد والشيطان

وطعنوا في شيخنا التجاني ... وطعنوا في شيخنا الجيلاني

إلى آخر تلك الأبيات التي يدافع بها عن التجانية ويحذر من دعوة المصلحين من المسلمين إلى رجوع التجانيين إلى الحق، وقد وصف هذه الدعوة الإصلاحية أنها نصرة للشياطين وللإلحاد، لمجرد انتقادها منهج التجانية وجرائمه.

الفصل العاشر: كيفية الدخول في المذهب الصوفي

للصوفية طرق عديدة ومسالك مظلمة وقواعد خاصة للتربية حسب منهجهم، وكيفية ذلك عندهم نوجز الكلام عنه فيما يلي:

١ - أول ما يجب على الداخل هو أن يختار الفرد أو الجماعة من المريدين شيخًا لهم يسلك بهم رياضة خاصة بهم على دعوى وزعم تصفية القلب للوصول بالمريد إلى معرفة الله، هكذا يزعمون وهو في الحقيقة يصل إلى متاهات وضلال بعيد،

ولا يتم السير في الطريق الصوفي إلا إذا عطل المريد عقله وفكره.

٢- أن يتبع المريد شيخه أتباعًا مطلقًا حتى وإن كان في تحريم الحلال وإحلال الحرام.

٣- عليه أن يردد ما يردده الشيخ من أذكار.

٤- ثم يكون وجوبًا عليه أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، فإن الاعتراض وإبداء الرأي من أكبر الأخطار على المريد وطرده عن رحمة الله.

٥- وعليه كذلك أن يعتقد أن جميع ما يفعله الشيخ هو الحق والصواب حتى وإن رآه يشرب الخمر ويزني؛ لأن الشيخ لا يفعل الفواحش بروحة وإنما بصورته البشرية لتربية المريدين، وهذا مخرج للصوفي إذا فعل فاحشة، وما أكثر ما يفعلونها تحت هذا الستار، وعلى التلميذ أن لا يفكر في أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ لأنه يتعارض تمامًا مع ما يراه زعماء الصوفية من وجوب التسليم للشيخ في كل ما يأتي ويذر.

٦- كما أنه يحب عليه أن يجتاز تلك الخلوة المفروضة.

٧- وأن يتصور صورة الشيخ ماثلة أمامه في كل حال، وأن يعتقد أن الشيخ يعلم بكل شيء عنه وهو في داخل خلوته، ويعرف كل شؤونه ما دق منها وما جل.

٨- وأن لا يغير شيخه بآخر.

٩- ولا يزور أحد المشائخ والأولياء ما دام في أول أمره.

١٠- وأن يمشي في الطريقة منزلة منزلة حتى يصل إلى القطبانية.

١١- وألا يخالط المقصرين والبطالين من أهل قيل وقال.

١٢- وألا يضن بماله ولو طلبه الشيخ كله.

١٣- وأن يرضى بالذل الدائم وحرمان النصيب، والجوع الدائم والخمول وذم الناس له، وتقديم أضرابه وأشكاله وأقرانه عليه في الإكرام والعطاء والتقريب عند الشيوخ ومجالس العلماء، فيجوع هو والجماعة يشبعون والكل أعزاء ونصيبه الذل، ويعز الجماعة ويستجيز الذل ويجعله نصيبه. قال الجيلاني بعد أن ذكر ما سبق:

"فمن لم يرض بهذا ويوطن نفسه عليه فلا يكاد أن يفتح عليه ويجيء منه شيء"[(١)]، إلى آخر ما ذكر الجيلاني مما يطول نقله.

وأول المنازل في الطرق الصوفية يسمى فيها الداخل مريدًا، أي يريد السير في الطريقة، وتسمى منزلة الإرادة يقبلة الشيخ ويأخذ عليه العهود بالتوبة من الذنوب وصدق النية وترداد الأوراد المقررة عليه من الشيخ، وألا يعتقد أي معتقد لم يقره الشيخ، ولا يحق له الاعتراض على الشيخ حتى إن رآه مخطئًا.

ويسمى بعد توجهه وإرادته المذهب الصوفي سالكًا، وبعد استمراره وسلوكه ومواظبته على الأوراد التي يلقنه الشيخ، فإذا أتقنها انتقل إلى مرتبة أخرى تسمى مرتبة العبودية[(٢)]، وعليه أن يكثر من الضراعة والإلحاح إلى الله بترداد ما يمليه عليه المشائخ من أذكار وأوراد.

ثم ينتقل المريد إلى مقام آخر حيث تقبل عليه العناية الإلهية وينتقل قلبه إلى مقام العشق لله، وعلى المريد هنا أن يكثر من الرياضة التي توصله إلى ربه فيما يزعمون، فيكثر من الأوراد والعزلة بنفسه والندم الشديد حتى تتملكه -

---

(١) ٢/ ٦١٣ باب فيما يجب على المبتدئ في هذه الطريقة أولًا إلى آخر ص ١٦٩؛ حيث ذكر الآداب التي تجب على المريد والآداب التي تجب على الشيخ.

(٢) عرفها المنوفي بقوله: "العبادة غاية التذلل للعامة، والعبودية صدق القصد للخاصة" جمهرة الأولياء ١/ ٣٠٦.

بزعمهم - حال علوية شريفة ينتقل بها إلى مقام يسمى (الوجد[1] والهيام) وهو أسمى من مقام العشق، وعند هذا المقام المزعوم تتوارد على قلب السالك النفحات الربانية، ويعتقدون أنه في هذه الحال تزداد معرفة السالك الباطنة الصفات الذات العلية.

وهنا يصل السالك فيما يزعمون إلى الحقيقة وتسمى هذه المرحلة - مقام الحقيقة - التي يعرفها المنوفي بأنها "مشاهدة الربوبية"، وهي في الحقيقة الوصول إلى أعماق الوثنية والحلول، فإذا وصل بزعمهم إلى مقام الحقيقة يمكنه أن يظل يرتقي إلى أن يحقق منازل ثلاثًا هي: "الفناء"، و "اللقاء"، و "البقاء"، والفناء يقصدون به أن يفنى العبد عن كل شيء في الله تعالى، ويصير كما قال الحلاج: ما في الجبة إلا الله.

فالوجود عنده كله يمثل الله - تعالى عن قولهم، وخصوصًا النساء فإنه يتمثل فيهم بصورة أكمل، ومن هنا بدى على أدبهم العشق والغرام والهياج الجنسي إلا أنهم زعموا أن هذا الغزل وهذا الهياج الملتهب إنما هو في الله، وسموه الحب الإلهي يجتمع الرجال والنساء ويرددون إما أبياتًا شعرية أو غيرها في رقص وتمايل، كما يحصل في الرقصات والسهرات مما يتنافى مع أبسط المثل الإسلامية والخشوع المطلوب في العبادات.

وأما اللقاء والبقاء فإن الصوفية يقصدون بذلك أن العبد من خلال تلك المنازل تتجلى عظمة الخالق سبحانه على قلب السالك فلا يرى أمامه إلا الله، ولا يجد في الوجود جميعًا إلا واجب الوجود سبحانه، وتمحى آثار الموجودات

---

(١) يقول النوفي: "الوجود: وجدان الحق بذاته ولهذا تسمى حضرة الجمع حضرة الوجود" جمهرة الأولياء ١/ ٣١٢.

من أمام عينيه إلا وجود الله سبحانه وتعالى، قال المنوفي: "سئل أبو يعقوب النهرجوري عن صحة الفناء والبقاء فقال: الفناء هو رؤية قيام العبد بالله ﷻ، والبقاء رؤية قيام الله تعالى منفردًا بذاته".

وهذه الدرجات هي ما عبر عنه الحلاج بقوله: "ما في الجبة إلا الله".

وللسهرودي والمنوفي تفاصيل كثيرة حول المقامات ومراتبها العديدة في كتاب السهرودي "عوارف المعارف" وكتاب المنوفي "جمهرة الأولياء"،

والواقع أن غلاتهم وقعوا في هوس وتخبط، وتلاعب الشيطان بهم لبعدهم عن منهج الله وشرعه، فجاءوا بأفكار وأقوال وحكم تنضح وثنية وجهلًا وأشعار غزلية، وقد قال الشافعي: "ما تصوف رجل في أول النهار وأتى عليه الضحى إلا وهو أحمق".

والحاصل أن تلك هي الطرق لدخول المذهب

كما أتضح مما سبق، ونجمل أهمها فيما يلي

١ - أن يلتزم الشخص أمام شيخه بالمحافظة على الطريقة التي يحددها له الشيخ.

٢ - أن يكون المريد - أي الدال في المذهب - على صلة بشيخه المأذون له هو أو من ينيبه الشيخ عنه ليتولى تعليم المريد.

٣ - أن يجتاز المريد عهدًا يعاهد الشيخ ويده في يده مغمضًا عينيه على الالتزام والوفاء الدائم لشيخه ولطريقته لا يحيد عنها ابدًا.

٤ - أن يكون المريد دائم الاشتغال بالأوراد والأدعية التي يقررها عليه الشيخ سواء عرف معانيها أم لا.

٥ - أن يكمل مدة الخلوة التي يقررها الشيخ على المريد في سرداب أو

دهليز أو زاوية مدة لا تزيد عن أربعين ليلة ولا تقل عن أربعين ليلة ولا تقل عن عشر ليال، ولهم شروط كثيرة لصحة هذه الخلوة قاسية جدًا يخرج الشخص منها وهو في منتهى الحمق والبلادة والغفلة عن كل شيء إلا عن شيخه وأذكاره، وهو الهدف الحقيقي من تلك الفكرة.

ومن الشروط التي يقطعونها للمريد على أنفسهم - حسب زعمهم - أن يصبح من أهل الكشف، وأن يترقى في ذلك إلى أن يتعلم ما وراء العقل ويصبح من أهل التجلي، بحيث تدرك ذات المريد ذات الله في كل وقت.

أن يفنى المريد عن كل شيء غير الله تعالى، فلا يحس بأي وجود غير وجود ربه وشيخه، وبذا يصبح الشخص من أهل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود؛ لأن الله قد ظهر في كل شيء حسب تعاليمهم بعد فناء المريد عن كل شيء وتصوره أن الله أمامه في كل مكان.

أن يطلب المريد علم الباطن الذي هو بمنزلة اللب، وأن يتعمق في العلم الباطني حسب ما يمليه عليه الشيخ، وإذا تطور في ذلك فإنه يصل إلى حد اليقين فتسقط عنه التكاليف كما يفترون ويصبح وليًا من الأولياء.

وهذه القواعد والشروط الصوفية يتمرن عليها الشخص أو الأشخاص الذين يريدون الداخل في متاهات الصوفية، حتى يتقبلها الدخول بقبول حسن، فيموت فكره وذوقه ويصبح في الحقيقة عبدًا ذليلًا لمشائخ الصوفية، فيسلكون به طرقًا ملتوية وتعاليم معقدة حتى تثبت في ذهن الداخل أمور عظام أقلها أن لا حلال ولا حرام، ولا علم ولا عمل إلا ما جاء عن شيخ طريقته وإذنه به، وما يتلقاه عن قلبه عن ربه وما يمليه عليه ذوقه أيضًا.

وإذا أراد القارئ التوسع في هذا ومعرفة كيفية الدخول في الطريق الصوفي

فعليه بالرجوع إلى عوارف المعارف للسهروردي وإلى ما كتبه الجيلاني في كتابه الغنية.

قال المنوفي في بيان بعض المسالك الصوفية ومنزلة الشيخ فيها: "وإذن فهناك طريق الله، وسالك يسلك ذلك الطريق، ومرشد يدل على مفاوز الطريق... وذلك الطريق الذي كان أول مرشد له الرسول ﷺ بعد أن تحلى بدقائق الإيمان... وبعبارة أخرى هو طريق التصوف الذي كان أول خطوة فيه أن بايع الرسول ﷺ العشرة أهل بيعة الرضوان... فمن بدأ السير فيه فهو مريد التصوف، ومن توسط فهو سالك متعرف، ومن انتهى إلى مقام التحقيق فهو المرشد المحقق.

وقد أوصل المنوفي الدرجات إلى سبعين درجة، يكاشف العبد في آخرها إذا ترقى فيها مقامًا مقامًا، ولا طائل من وراء سرد كل ما قرره أقطاب التصوف كالسهروردي والمنوفي والغزالي والقشيري.

فإنه يكفي أن يقال في الجواب عنها: أنها بناء في الهواء وأفكار لم يرشد إليها كتاب ولا سنة ولا أقوال علماء الأمة الإسلامية أصحاب العقول النيرة الذين أعرضوا عن تكليف ما ليس لهم به علم من الأمور الغيبية التي لا يصح فيها الحكم إلا لله ولرسوله ﷺ.

الفصل الحادي عشر: أصول الصوفية

يزعم المتصوفة: كما هو شأن كل الطوائف المفارقة للمنهج الرباني أنهم على حق وأن ما يدينون به من أفكار وخرافات إنما هي نابعة من تمسكهم بالكتاب والسنة وفهم حقائق الإسلام، وهذه الدعوى ينتحلها زعماء الطوائف بغرض ترويج مبادئهم وإظهارها بمظهر الحق مهما كانت بعيدة عنه.

وذلك أن دعوى التمسك بالكتاب والسنة سهلة على اللسان ولكن التطبيق هو الذي يصدق ذلك أو يكذبه.

وقد ذكر أحد أعلامهم وهو السيد محمود أبو الفيض المنوفي بعض مستنداتهم فقال: "والتصوف الإسلامي نبعه القرآن أولًا وسنة الرسول ﷺ ثانيًا والفقه في الدين فروعًا وأصولًا ثالثًا ولهم - أي المتصوفة - فوق ذلك قواعد وقوانين صوفية استمدوها من حقائق اليقين وخفي معاني القرآن، ومن دقائق السنة عملية معملية، ومتابعة رسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، وهذا في الواقع مستمد علم التصوف الإسلامي"(١).

أي أنهم يرجعون في جملة مستنداتهم إلى تلك الدعوى العريضة وهي أخذهم الأحكام من حقائق اليقين وخفي معاني القرآن، وفي الحقيقة إنما يرجعون إلى الهوى، وإلى تفسير القرآن باطنيًا غير مستندين إلى المعاني التي ذكرها العلماء من أهل الحق لمعاني تلك النصوص.

ثم يذكر المنوفي مستندًا آخر لهم بقوله: "ومستمد الصوفية هم أهل الصفة، وإن كان تعريف الاسم يناسب لبس الصوف من حيث الاشتقاق. وهذا صحيح؛ لأن أهل الصفة وغيرهم من الروحيين في الإسلام وقبل الإسلام، ومن قديم الزمان كانوا يلبسون الصوف لخشونة فيه وهم متخوشنون، أو قل لسبب لونه الأبيض الذي يرمز إلى الطهارة والصفاء، وكان أيضًا لباس الحواريين".

ويذكر الغزالي أن مستندات الصوفية وأصولهم مشاهدة الملائكة وأرواح الأنبياء، والخضر بخصوصه ومخاطبتهم فهو يقول:

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى أنهم في يقظتهم

---

(١) انظر كتاب جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف ١/ ١٥٤.

يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتًا ويقتبسون منهم فوائد، ثم تترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها النطاق، ولا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظة خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه إلا لمن رسخ فيه ونهل منه منهله".

وبطلان هذا الكلام واضح، وربما أن الذين يشاهدونهم بزعم أنهم الملائكة أو أرواح الأنبياء وسماع الأصوات إنما هي شياطينهم تتلاعب بهم وتتراءى لهم ليضلونهم، وما أكثر خدع الشياطين لإغواء الناس.

وكذلك من مزاعمهم وأصولهم في مستندهم إلى الطريق إلى الله علم الباطن الذي أفضى به رسول الله ﷺ إلى علي رضي الله عنه، وعلي أفضى به إلى الأئمة المذكورين في كتبهم، وذلك فيما يزعمون أن جبريل عليه السلام نزل إلى رسول الله ﷺ أولا بالشريعة فلما تقررت الشريعة واستقرت نزل إليه بالحقيقة المقصودة والحكمة المرجوة من أعمال الشريعة وهي الأيمان والإحسان، ثم خص الرسول ﷺ بتعليم باطن الشريعة بعض أصحابه كعلي ثم الحسن دون بعض.

وحاشا رسول الله ﷺ من كذب هؤلاء، وقد سرد المنوفي أسماء السلسلة التي تداولتها الصوفية ابتداءً بالإمام علي إلى أحمد بن عطا الله السكندري، صاحب لطائف المنن، أورد بعض النصوص المرفوعة كذبًا إلى رسول الله ﷺ يذكر فيها أن كل آية لها ظاهر وباطن وظاهر الآية ما ظهر من معانيها، وباطنها ما تضمنته من أسرار إلهية لا يطلع عليها إلا أهل المعرفة بالله ممن سرد أسماءهم من أوليائه الذين يعلمون علم الباطن في زعمه.

ولقد نفى عليّ رضي الله عنه أن يكون رسول الله ﷺ قد خصهم بعلم دون سائر البشر، وقد سبق إبطال الباطنية في دعواهم أن النصوص لها ظاهر وباطن.

ويقول المنوفي أيضًا في دعواهم الالتصاق بأهل الصفة: "وكان عظماء أهل الصفة بل جلهم من أوائل الصوفية وأهل طريق الله، وحسبنا في ذلك أن نزل فيهم قرآن عند قوله تعالى لنبيه ﷺ: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} ".

ويقول الشعراني في مستند القوم: "مقدمة في بيان أن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة، وأنها مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء، وبيان أنها تكون مذمومة إلا إن خالفت صريح القرآن أو السنة أو الإجماع لا غير".

لكنه أضاف بعدما تقدم قوله عن مستند جديد: "ثم اعلم يا أخي رحمك الله أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء"، إلى أن قال: "فمن جعل علم التصوف علمًا مستقلاً صدق ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق".

ومستند آخر أيضًا يذكره بقوله: "ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات، وآدابًا ومحرمات، ومكروهات وخلاف الأولى، نظير ما فعله المجتهدون". ومن هنا نجد أن الصوفية ينفرون أشد النفور من العلم عن طريق التعلم، ويفضلون ما يسمونه علم الكشف بلا واسطة وهو ما عبر عنه محي الدين بن العربي حينما كتب إلى الرازي كتابًا جاء فيه:

" إن الرجل لا يكمل عندنا في مقام العلم حتى يكون علمه عن الله ﷻ بلا واسطة من نقل أو شيخ، فإن كان علمه مستفادًا من نقل أو شيخ فما برح عن الأخذ عن المحدثات، وذلك معلوم عند أهل الله ﷻ"، إلى أن يقول: "فلا علم

إلا ما كان عن كشف وشهود لا عن نظر وفكر وظن وتخمين"[١].

ويقول الشعراني في هذا المعنى ناقلًا عن شيخه البسطامي، موضحًا مصادر التشريع في ذوقهم: "وكان الشيخ كامل أبو اليزيد البسطامي رضي الله عنه يقول لعلماء عصره: أخذتم علمكم من علماء الرسوم ميتًا عن ميت وأخذنا علمنا من الحي الذي لا يموت".

وبعد هذا الكلام لا يلام من احتار في أمر الصوفية ومصادرهم، فبينما هم يحضون على التمسك بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وعدم الخروج عنهما إذا بهم يفصحون بالحقيقة في النهاية وهي أن مصادرهم في التشريع إنما هو الكشف والإلهام وهو فعلًا ما سلكوه في كل سلوكهم وتشريعاتهم.

وعلى نفس المعنى السابق يقول الفوتي: "إن الولي المفتوح عليه لا يتقيد بمذهب معين من مذاهب المجتهدين بل يدور مع الحق عند الله تعالى أينما دار"، أي حسب تجدد الكشف له والإلهام الرباني المتكرر عليه، وهو كذلك يشير إلى قول أحمد بن المبارك في الإبريز حيث قال:

"إن الولي المفتوح عليه يعرف الحق والصواب ولا يتقيد بمذهب من المذاهب، ولو تعطلت المذاهب بأسره لقدر على إحياء الشريعة، وكيف لا وهو الذي لا يغيب عنه النبي ﷺ طرفة عين ولا يخرج عن مشاهدة الحق جل جلالة لحظة".

والواقع أن كل منصف له أدنى إلمام بالشريعة الإسلامية لو حكم في دعاوى الصوفية وفي زعمهم شرعيه شطحاتهم، ومستنداتهم في ذلك كله لا تضح له بما لا خفاء به أن المتصوفة قد جانبوا الصواب في كثير من أمور الدين، وأنه لا

(١) الطبقات الكبرى ١/ ٥.

مستند لهم إلا هواهم الذي يسمونه الكشف والإلهام الصريح، دلك أن قولهم: أن التصوف نبعه القرآن والسنة والفقه في الدين، وفوق ذلك أن له قواعد وقوانين استمدوها من حقائق اليقين دعاوى غير ثابتة.

فليس في القرآن آية واحدة في شريعة غلو التصوف، وليس في السنة النبوية عبارة واحدة جاءت دليلًا يسند شطحات الصوفية وأورادهم وترنيماتهم وحلقات رقصهم، وليس في علوم الفقه الإسلامي وأصوله شيء من هذا القبيل، ثم هم لا يذكروا أيضًا أدلة من القرآن تدل فعلًا على ما يذهبون إليه.

وقد تلمسوا بعض الأدلة من السنة أساءوا الفهم فيها؛ ولهذا جعلوا القواعد والقوانين الصوفية فوق المصادر الثلاثة: القرآن، والسنة، والفقه الإسلامي، كما قال المنوفي: "ولهم فوق ذلك قواعد وقوانين صوفية استمدوها من حقائق اليقين"؛ ولهذا تجد السلسلة عندهم حدثني قلبي عن ربي: "وهذه الحقائق اليقينية التي ذكرها المنوفي في الحقيقة من جنس الهوى والاضطراب الفكري، ثم حرفوا معاني القرآن إلى ما يوافق أهوائهم كما فعلت الباطنية تمامًا.

إن ما زعمه القطب الصوفي صاحب كتاب جمهرة الأولياء من أن مستمد الصوفية هم أهل الصفة إنما هو دليل على خواء علمي بالكتاب والسنة وسيرة الصحابة الكرام، فهل كان لأهل الصفة تشريع خاص بهم، وهل كان لهم شرف يحبون الحفاظ عليه والانتساب إليه غير شرف الانتساب إلى الإسلام وطاعة الله وطاعة نبيه ﷺ.

وأهل الصفة الذين ذكرهم المنوفي هم خيار الصحابة كأبي هريرة وخباب بن الأرت وبلال وسلمان الفارسي وأبي سعيد الخدري وأبى برزة الأسلمي وصهيب بن سنان وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص

وعقبة بن عامر وأبو فكيهة ووابصة بن معبد الجهني وأنس بن مالك".

فهل هؤلاء الأعلام الأبرار أصحاب رسول الله ﷺ هم أهل الصوفية وهل كان هؤلاء على الزعم الصوفي هم سلف الحلاج وابن عربي وابن الفارض وابن سبعين، وغيرهم من عتاة الصوفية الذين يأخذ أحدهم السكر بالله كما يزعمون إلى حد أن يقول لا إله إلا أنا - أو ما في الجبة إلا الله - أو قولهم - العبد رب والرب عبد، يا ليت شعري من المكلف هل يمكن أن يكون أساس هؤلاء هم أولئك الأخيار.

بل إن المنوفي زعم أن الله ﷻ أمر نبيه أن يكون صوفيًا فقال: "وأيضًا قد أمر الله رسوله محمدًا ﷺ بعد أن رباه وكمل خلقه وأتم عليه نعمته بأن يتصوف ويندمج في الصوفية بقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

ومع بعد هذا الاستدلال عن ما يهدف إليه المنوفي فإنه يواصل ما يعتبره أدلة على أن الرسول ﷺ هو أول من مشى على الطريق الصوفي فقال: "وأن الله ﷻ قبل أن يرسل محمدًا برسالته الكبرى، والملة العظمى أمره بدخول الخلوة (غار حراء) " إلى أن يقول: "فلما دخل الرسول الخلوة وتعبد وتحنث في غار حراء، وفيه قد أكثر من الذكر والاستغفار والاعتكاف... وما نعتبر هذا النمط من العبادة الخاصة إلا أن نعده تصوفًا إسلاميًا رفيعًا.

وأن الرسول ﷺ قد بدأ متدرجًا في الكمال كمريد ثم تهيأ لحمل الرسالة؛ ولذا وصفه الله في كتابه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وحتى بعد أن حمل الرسالة وأصبح سيد المرسلين أمره الله بأن يصاحب أهل الصفة، وذلك واضح في قوله": ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

وَجْهَهُ﴾ أي يا محمد".

لقد قالب المنوفي الأمور وحاول جاهدًا أن يقيم الأدلة على أن نبينا محمدًا ﷺ كان صوفيًا قولًا وفعلًا قبل إن تأتيه الرسالة وبعد ما جاءته أيضًا، وأنه ابتدأ كأي صوفي "مريدًا" ثم تدرج في الكمال.

وإذا أمعنا النظر في هذا التصوف الذي سار عليه الرسول ﷺ قبل الرسالة حسب رأي المنوفي فلا نجد للمنوفي مستندًا إلا إلى منشأ التصوف الذي كان قبل الإسلام متمثلًا في شتى الديانات المنحرفة على حد قوله الآتي: "... وإن تعرجت تعاليم التصوف وتلونت بعض فروعه ألوانًا عدة، واتجهت تلك الفروع اتجاهات مختلفة بسبب المذاهب الموروثة للداخلين المحدثين في الإسلام من هنود وفرس وإسرائيليين ومسيحيين، الذي شجع عليه المأمون ومن بعده من الخلفاء العباسيين.

فترجم المسلون كتبًا كثيرة من التصوف الهندي واليوناني والفارسي، وطمعت بعض فروع التصوف الإسلامي الخالص بما دخل عليها من النزعات الأفلاطونية الحديثة أو القديمة، وبعض المذاهب الهندية والفارسية في التصوف كنظرية الحلول والاتحاد والتقمص والتناسخ وما إلى ذلك".

وبلا ريب فإن هذه الشهادة منه على ما في التصوف من خلط واضطراب وتعاليم خارجة عن الإسلام لا تحتاج إلى تعليق أحد عليها فكيف تتفق بعد هذا مفاهيم التصوف مع المفاهيم الإسلامية المنزلة على محمد ﷺ، ويبقى أن ما قرره المنوفي من أن الرسول ﷺ هو أول من سن قواعد التصوف حينما كان يخلو بنفسه ويتعبد في غار حراء وهو منتهى الجهل وأشنع القياس.

ولاحظ تناقض المنوفي في كتابه جمهرة الأولياء حينما لم يستطع أن يخفي

حقيقة التصوف حيث باح بأن الصوفية قد تأثرت إلى حد كبير بعقائد الداخلين في الإسلام من هنود وفرس وإسرائيليين ومسيحيين، ولا سيما في عصر الترجمة لفلسفة هؤلاء؛ حيث أخذ التصوف منها جوانب لم ينكرها المنوفي وهو في كل كتاباته عنهم يكيل المدح للصوفية، وأن أول متصوف في الإسلام هو الرسول ﷺ، وأن الله أمره بذلك ليسنّ الطرق الصوفية ابتداء بالخلوة في غار حراء ثم الزهد.

وإذا كان الرسول ﷺ هو أول المتصوفة فكان ينبغي عليهم أن يقدروا هذا الموقف فيقبلون سنته لا أن يردوها ويعيبون أهل الظاهر كما يسمونهم ممن يخالفهم من أهل الحق حين يقولون لهم: أنتم تأخذون الحديث بسند ميت عن ميت، حدثني فلان وقد مات عن فلان وقد مات، على نحو ما قاله البسطامي ناعيًا على علماء الشريعة ومفاخرًا لهم حين قال لهم: "أخذتم علمكم ميتًا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت؛ ويقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثني فلان وأين هو؟ قولوا: مات، عن فلان وأين هو؟ قالوا: مات".

وهذا القول إنما يدل على جهل وبغض للسنة النبوية ولأهلها وللطريقة التي يتداولها أهل الحق في تلقي دينهم من مصدره الفياض.

كما أنه من غير الإنصاف أن يقصروا ذلك المسلك عليهم فقط؛ لأنه في استطاعة كل شخص من الناس أن يقول حدثني قلبي عن ربي، وأن يدعي من الزهد والقرب من الله مثل ما يدعون، ثم أنه يلزم على قولهم الأسانيد الثابتة إلى رسول الله ﷺ؛ لأن أصحابها قد ماتوا فيقال لهم: والنبي ﷺ نفسه قد مات أيضًا.

وينبغي على قولهم هذا أن نأخذ بالأحاديث التي يرونها عن قلوبهم عن ربهم مباشرةً، وهذا القول منهم وإن كان يبدوا ساذجًا تافهًا إلا أنه يحمل في طياته أخطارًا جسيمة بالنسبة للإسلام وللمسلمين لو تحقق لهم ما يهدفون إليه من التفاف الناس حولهم، والأخذ بمبادئهم وتشريعاتهم وإلهائهم بها عن كتاب الله ﷻ وعن سنة نبيه العظيم ﷺ.

الفصل الثاني عشر: إيضاحات لبعض الآراء الاعتقادية للصوفية

١- عقيدة المتصوفة في الإله ﷻ:

الله ﷻ هو الواحد الأحد الفرد الصمد، خلق المخلوقات وأوجدها، وأمر الثقلين والجن والأنس بأوامر، ونهاهم عن نواه، من قام بامتثال أمره فيها دخل في طاعته، ومن أبى صار من أعدائه، وهو غني عن الخلق وعبادتهم، وجعل لكلا الفريقين جزاء عادلًا إما الثواب وإما العقاب.

وقد وصف الله نفسه في كتابه الكريم ووصفه نبيه بالصفات الثابتة له ﷻ فهو رب كل شيء ومالكه، {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا - لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا - وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}.

ولقد استقر في أذهان العقلاء مباينة الله لخلقه وقربه منهم بعلمه وإحاطته وأنه متفرد بالأسماء الحسنى والصفات العليا ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأمرنا ﷻ أن نصفه بما وصف به نفسه في كتابه الكريم وبما وصفه به نبيه الكريم ﷺ غير معطلين ولا محرفين ولا مكيفين، ذاته لا تشبه ذوات خلقه، وصفاته لا تشبه صفات خلقه حتى وإن اتفقت التسمية فإنها لا تتفق في الحقيقة وتبقى المباينة بين الحقائق مما لا يخفى إلا على من لم يفهم الحق.

هذا هو الاعتقاد الذي أمر الله العباد به فما هو موقف الصوفية منه. إن

المتتبع لعقائد زعماء الصوفية يجد أنهم يعتقدون بوجود معبود لا حقيقة له قائمة بذاته، معبود لهم يذكر في الشريعة الإسلامية ولم تدل عليه العقول ولا الفطر السليمة إنه معبود غير رب العالمين تعالى وتقدس.

يظهر في صورة الصوفي العابد الذي وصل إلى مرتبة النيابة عن الله في تصريف أمور هذا الكون والتحكم فيه بحكم نيابته عن الله وعلمه بكل المغيبات ورؤيته لله في كل وقت لارتفاع الإنية بينه وبين الله ﷻ الذي يظهر أحيانًا في صورة شاب وأحيانًا في صورة الآكل والشارب، وأحيانًا في صورة شخص كأنه محجور عليه تعالى بعد أن فوض الكون وما فيه إلى أقطاب الصوفية يتصرفون فيه بما يشاءون، كما تفيد أقوالهم وتبجحهم بذلك.

٢ - الحلول

لقد أصبح الحلول من لوازم الصوفية الغلاة ومن المبادئ الأساسية عندهم، وكتبهم مملوءة بذلك نثرًا ونظمًا، وقد اختلف العلماء في تعريف الحلول:

فمنهم من قال: هو اتحاد جسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد في الورد.

ومنهم من قال: هو اختصاص شيء بشيء، بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما عين الإشارة إلى الآخر.

واستعمل بعض المتصوفة لفظ الحلول ليشيروا به إلى صلة الرب والعبد واللاهوت والناسوت، بمعنى أن الله تعالى يحل في بعض الأجساد الخاصة، وهو مبدأ نصراني وأول من أعلنه من الصوفية الحسين بن منصور الحلاج، حين عبر عن ذلك في أبياته الشعرية التي يقرر فيها أن الله تعالى حال في كل شيء، وأنه

لا فارق بين الخالق والمخلوق.

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتني

والقائلون بالحلول منهم من قصر الحلول وخصه ببعض الناس، كقول النصارى بالحلول في عيسى عليه السلام، وكقول بعض غلاة الشيعة كالخطابية الذين اعتقدوا أن الله حل في جعفر الصادق، والسبئية الذين قالوا بحلول الله في عليّ، ومثله قول النصيرية فيه، وقول الدروز بحلوله عز وجل في شخص الحاكم.

وفريق آخر قال بالحلول العام، وأن الله حال في كل شيء، وأنه في كل مكان، وهؤلاء تأثروا بالفلسفة الطبيعية عند اليونان - وهم الجهمية ومن قال بقولهم.

ويمثل الحلول العام البسطامي في قوله: "رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي: يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك، فقلت: زينني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك، فتكون أنت ذلك ولا أكون أنا هناك". {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا} .

وهذا الطلب الغريب العجيب يريد به أبو يزيد البسطامي كما تقدم أن يحتال على الله عز وجل ليصبغ عليه الوحدانية ويرفع ما بينه وبين البسطامي من الإنية بحيث إذا قال الله عز وجل "أنا" وقال البسطامي "أنا" انعدم الفرق بينهما، وحينئذ يمثل البسطامي الله عز وجل تمام المماثلة، فإذا شوهد البسطامي شوهد عند ذلك الخلاق العظيم - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وليس هذا فقط، بل أحيانًا يختلط الحابل بالنابل فيحصل بين الرب والعبد مدّ وجزر حسب ما يتصوره ابن عربي في قوله:

ففي حال أقربه وفي الأحيان أجحده

فيعرفني وأنكره وأعرفه فأشهده

فإني بالغني وأنا أساعده وأسعده

فيحمدني وأحمده ويعبدني واعبده

ولعله بعد هذه المراوغة استقر الأمر على أن الله هو نفسه كل موجود على ظهر الأرض؛ فهو العاشق والمعشوق، والرجل والمرأة، فالأجسام صور عنه، وذلك في قوله:

فمن ليلى ومن لبنى ومن هند ومن بثينه

ومن قيس ومن بشر أليسوا كلهم عينه

وفي قوله أيضًا:

فعين الخلق عين الحق فيه فلا تنكر فإن الكون عينه

فإن فرقت فالعرفان باد وإن لم فاعتبر فالبين بينه

وقد ملأ كتابه الذي سماه بالفتوحات المكية أشعارًا وشروحًا لها حول هذا الاتحاد والحلول.

ويقول ابن الفارض عن الذات الإلهية كما يتصور:

ففي النشأة الأولي تراءت لآدم بمظهر حوا قبل حكم النبوة

وتظهر للعشاق في كل مظهر من اللبس في أشكال حسن بديعة

ففي مرة لبنى وأخرى بثينة وآونة تدعى بعزة عزت

ومن هنا نشأ عند ابن الفارض الفوضى الفكرية في تداخل جميع الأديان الحق منها والباطل، حتى صارت بجميع أشكالها شكلًا واحدًا، فكأنه أراد أن يجمع بين الليل والنهار، والحار والبارد، والحق والباطل، فتصور أن الملل كلها سواء كانت شركية وثنية أو مجوسية أو نصرانية أو يهودية، الكل عنده

يرجع إلى مصدر واحد وحقيقة واحدة هي الله.

وتائيته المشهورة مليئة بتأكيد هذا الخلط والاضطراب، فهو بعد أن قرر أن جميع العبادات وجميع الأفعال التي تصدر عن الناس هي نفسها أفعال الله قال عن المجوس:

وإن عبد النار المجوس وما انطفت كما جاء في الأخبار في ألف حجة

فما عبدوا غيري وان كان قصدهم سواي وإن لم يعقدوا عقد نيتي

رأوا ضوء ناري مرة فتوهموه نارًا فضلوا في الهدى بالأشعة

وكثير من مثل هذا الهذيان في أشعارهم هو وسائر غلاة الصوفية ممكن هم على شاكلته أنهم يتصورون معبودهم يتجلى في صورة امرأة؛ ولهذا نجد أن الصوفية يلهجون بذكر النساء، ويرونهم أكمل وأتم وأجمل لتعينات الذات الإلهية التي يعتقدونها فيهن، وهذا واضح جدًا في تلك العناية التي لقيتها المرأة في الأدب الصوفي من التذلل لها والتشبث بها والتفتن في وصفها.

ومما قاله ابن عربي في تقريره حول الله تعالى عن كلامه في المرأة أن الأمر بالغسل؛ لأن الحق غيور على عبده أن يعتقد أن يلتذ بغيره، فلهذا أحب النبي ﷺ النساء لكمال شهود الحق فيهن، إذ لا نشاهد الحق مجردًا عن المراد، فشهود الحق في النساء أعظم شهود وأكمله، وأعظم الوصلة والنكاح... قال: فمن جاء لامرأته أو لأنثى بمجرد الالتذاذ ولكن لا يدري بمن كما قال:

صح عند الناس أني عاشق غير أنهم لا يعرفوا عشقي لمن

كذلك هذا أحب الالتذاذ فأحب المحل الذي يكون فيه، - هو المرأة -، ولكن غاب عنه روح المسألة فلو علمها لعلم بمن التذ؟ ومن التذ؟ وكان كاملًا قال من شاهد الحق في المرأة كان شهوده في منفعل وهو أعظم الشهود ويكون

حبًا إلهيًا".

ومن هذا المفهوم الباطل تجرأ على رسول الله ﷺ وأساء الأدب في حقه وافترى عليه بما لا يقدم عليه مسلم يعرف ولو شيئًا يسيرًا عن الإسلام وعن نبيه العظيم الذي اعترف له كل من عرفه أو سمع عنه بأنه خير منقذ للبشرية، عابدًا لربه حق عبادته، متواضعًا، بالمؤمنين رءوف رحيم، لكن ابن عربي يقرر حسب مذهبه الرديء أن رسول الله ﷺ، كان يحب النساء لكمال شهود الحق فيهن، وحاشا رسول الله ﷺ من هذا البهتان.

بل قرر زعماء الإباحية والزنادقة العتاة ابن عربي وابن الفارض وغيرهما أن الله تعالى يتجلى في كل صورة حسنة في صورة الرجل أو المرأة فيكون فاعلًا ومفتعلًا - تعلى الله عن كفرهم وإلحادهم علوًا كبيرًا، وأن الله تجلى في صور العاشقات والمعشوقات، ويطول النقل عنهم ولو أردنا ذلك مما يأباه الدين وتشمئز منه النفوس وتمجه الفطر السليمة ويأباه الذوق.

"وفي تفسير الحديث: "فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به"، "يذكر السهروردي أن المحب يعود بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب، أي بحيث تشترك الصفات بين المحب والمحبوب فلا يحصل بينهما أي فارق، ثم استشهد على هذا في الاتحاد والحلول بمبدأ الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا... الخ.

ويقول ابن عطا السكندري في بيان حقيقة الولي:

"ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: لو كشف عن حقيقة الولي لعُبِد؛ لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته" وقال أيضًا في وجود الله تعالى أنه لا خفاء به ولا حجاب عليه: "كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر

بكل شيء".

وفي الشطحات الصوفية وجرأتهم على قول كل ما يريدون ما لا يخفى على طلاب العلم.

ومما يذكر في سيرة ابن عربي أنه شغف حين كان بمكة بحب امرأة هي ابنة رجل يسمى الشيخ مكين الدين أبي شجاع زاهر بن رستم بن أبي الرجاء الأصفهاني، ووصفها بأوصاف من الغزل بجمالها ما لا يحتمل المقام ذكره هنا ضمنه كتابة ترجمان الأشواق"، ثم شرحه بطلب من رجلين من خاصته فشرحهُ في كتاب سماه "ذخائر الأعلاق".

حاول جاهدًا أن يغطي ما قاله في تلك المرأة من العشق والغرام ليحوله علي أنه قاله في الحب الإلهي، ولكن لم يتم ذلك؛ حيث غلب الطبع على التطبع، وليست هذه معشوقته الوحيدة، بل هناك أخرى عشقها وهو يطوف حول البيت، وقال فيها أشعارًا غزلية ماجنةً، ولم يستشعر مقدار جرمه في الحرم الذي يعاقب الله فيه على مجرد النية، ثم وصف تلك الأشعار بعد ذلك بالحب الإلهي تمويهًا وتغطية لمجون هذا الشيخ الصوفي الكبير، فأين الحب الإلهي في مثل قوله:

ليت شعري هل دروا   أي قلب ملكوا

وفؤادي لو درى   أي شعب سلكوا

أتراهم سلموا   أم تراهم هلكوا

حار أرباب الهوى   في الهوى وارتبكوا

٣ - وحدة الوجود

وحدة الوجود عقيدة إلحادية تأتي بعد التشبع بفكرة الحلول في بعض الموجودات، ومفادها لا شيء إلا الله وكل ما في الوجود يمثل الله ﷻ لا انفصال

بين الخالق والمخلوق، وأن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره ولا شيء سواه البتة، وهي فكرة هندية بوذية مجوسية.

وهذا هو المبدأ الذي قام عليه مذهب ابن عربي الذي قال: سبحان من خلق الأشياء وهو عينها، وتجرأ على تفسير كتاب الله بغير علم فاستدل بآيات من القرآن الكريم زعمًا أن الله أطلق اسم الوجود على نفسه كما في قوله تعالى: {وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ}، {لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا}، {يَّجِدِ اللهَ غَفُورًا}، واستدل بأحاديث موضوعة مثل حديث: "من عرف نفسه فقد عرف ربه".

وهذا الاستدلال من أغرب وأنكر ما تلفظ به قائل.

إذ كيف يتأتى لهم القول أن القرآن والسنة يدعون إلى الإلحاد والكفر بالله؟ ولا شك أن هذه العقائد الإلحادية قديمة جدًا في العبادات الهندية والديانات البوذية. وقد انقسم أصحاب هذه المبادئ الإلحادية إلى فريقين:

١ - الفريق الأول: يرى الله سبحانه وتعالى روحًا وأن العالم جسمًا لذلك الروح، فإذا سما الإنسان وتطهر التصق بالروح أي الله.

٢ - الفريق الثاني: هؤلاء يزعمون أن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله، فكل شيء في زعمهم هو الله تجلى فيه.

والإسلام بريء من هذه الأفكار المنحرفة الخرافية كلها {هُوَ الأول وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ}، وهؤلاء يقولون أن الله ما دام هو أصل وجود هذه الممكنات المشاهدة فكأن الموجودات في حكم العدل، والوجود الحقيقي هو الله الذي تجلى في أفعاله ومخلوقاته، وبالتالي فإن العقائد كلها حقائق والناس لا خلاف بينهم حقيقة، والديانات كلها ترجع إلى حقيقة واحدة، هذا ولا شك أنه خلط وانحراف شنيع أدى بمن أعتنقه إلى خذلان المسلمين وترك أمر الجهاد.

ولهذا نجد أن المستشرقين اهتموا كثيرًا بدراسة ظاهرة التصوف؛ لأنها تحقق أهدافهم في إلهاء المسلمين وتفرق كلمتهم، وبالتالي فإنهم وجدوا فيها معينًا لهم على نشر الإلحاد وإنكار النبوات ونبذ التكاليف الشرعية والدعوة إلى القول بوحدة الأديان وتصويبها جميعًا مهما كانت، حتى وإن كانت عبادة الحجر والشجر.

والواقع أنه ما من مسلم يشك في كفر أو ارتداد من قال بوحدة الوجود، وعلماء الإسلام حين حكموا بكفر غلاة المتصوفة من القائلين بوحدة الوجود والحلول والاتحاد حكموا أيضًا بكفر من لم ير تكفيرهم.

ولقد قال شيخ الإسلام عن هؤلاء: "إن كفر هؤلاء أعظم من كفر اليهود والنصارى ومشركي العرب".

ولقد وصل الهوس والجنون بابن الفارض - بناء على عقيدته أن الله هو عين كل شيء - وصل به الحال إلى أن يعتقد أنه هو الله حقيقة؛ لأن الله حسب خرافاته هو عين كل شيء فهو على هذا يمثل الله - تعالى عن قولهم.

وابن عربي من أساطين القائلين بوحدة الوجود والحلول والاتحاد وصحة الأديان كلها، مهما كانت في الكفر إذ المرجع والمآل واحد، ومن هنا فهو يقول:

عقد الخلائق في الإله عقائدًا... وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

ويقول:

العبد رب والرب عبد ... يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك رب ... أو قلت رب فأنى يكلف

ولابن عربي في كتابه "فصوص الحكم"، وكتابه الآخر "الفتوحات المكية" من الأقوال في وحدة الوجود ونفي الفرق بين الخالق والمخلوق وثبوت

اتحادهما تمامًا أقوال لا تكاد تحصر نثرًا ونظمًا.

وأما ابن الفارض فإذا أراد الشخص أن يعرف عقيدته تمام المعرفة فليقرأ تائيته التي باح فيها بكل صراحة وتحد أن الله متحد بكل موجود، وأن ابن الفارض نفسه هو المثل الكبير لله تعالى في صفاته وأفعاله؛ ولهذا فهو يفسر كل ما في الوجود بأنه يصح أن يقال فيه: إن الله أوجده أو كل موجود هو أيضًا ذلك الموجد.

وأن كل عبادة تقام فإنها توجه له أو لله لا فارق بينهما إلا في ذكر الاثنينية التي هي أيضًا لا وجود لها عند استجلاء الحقيقة حيث تتلاشى الاثنينية ويصبح الوجود واحدًا ممثلًا في كل شيء.

وإذا أردت تفصيل كل تلك الحقائق عنه فاقرأ تائيته أو الأبيات الآتية، وانظر شرحها عند الشيخ عبد الرحمن الوكيل(١).

ويقول ابن الفارض عن الذات الإلهية وتجليها له:

جلت في تجليها الوجود لناظري ... ففي كل مرئى أراها برؤية

ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرها ... وذاتي بذاتي إذا تحلت تجلت

فوصفي إذا لم تدع باثنين وصفها ... وهيئتها إذ واحد نحن هيئتي

فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن ... منادى أجابت من دعاني ولبت

فقد رفعت تاء المخاطب بيننا ... وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي

وكل الجهات الست نحوي توجهت ... بما تم من نسك وحج وعمرة

لها صلواتي في المقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لها صلت

---

(١) هذه هي الصوفية ٢٤٨.

كلانا مصل واحد ساجد إلى حقيقته بالجمع في كل سجدة

وما كان لي صلى سواي ولم تكن صلاتي لغيري في أداء كل سجدة

ويقول عن معنى سجود الملائكة لآدم، وأ ون الملائكة إنما هم صفة من صفاته لا خلق مستقل:

وفيَّ شهدت الساجدين لمظهري فحققت أني كنت آدم سجدتي

شرحه الصوفي القاشاني بقوله: "أي عاينت في نفسي الملائكة الساجدين لمظهري فعلمت حقيقة أني كنت في سجدتي آدم تلك السجدة وأن الملائكة يسجدون لي والملائكة صفة من صفاتي، فللساجد صفى مني تسجد لذاتي".

ومن عتاة دعاة وحدة الوجود الجيلي صاحب كتاب "الإنسان الكامل" وقد ترجم له الشعراني وأطال في ترجمته، ابتدأها بقوله:

"ومنهم أبو صالح سيدي عبد القادر الجيلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ"[(١)]. ثم جاء في أخباره بما لا يصدقه عاقل.

ومما يدل على تعمق الجليلي في القول بوحدة الوجود وأنه لم يعد بينه وبين الله أي فارق، ولا بينه وبين كل المخلوقات في هذا الكون أي فارق أيضًا ما أورده في كتابه الإنسان الكامل[(٢)]:

لي الملك في الدارين لم أر فيهما سواي فأرجو فضله أو فأخشاه

وقد حزت أنواع الكمال جمال جلال الكل ما أنا إلا هو

---

(١) انظر طبقات الشعراني من ص ١٢٦ - ١٣٢.

(٢) يقول الكشخانلي في شرح وحقيقة الإنسان الكامل: "الإنسان الكامل المتحقق بحقيقة البرزخية الكبرى عين الله وعين العالم" جامع الأصول في الأولياء ص ١١١ نقلًا عن هذه هي الصوفية ص ٤٤.

لي الملك والملكوت نسجي وصنعي لي الغيب والجبروت مني منشاه
فمهما ترى من معدن ونباته حيوانه مع أنسه وسجاياه
ومهما ترى من أبحر وقفاره ومن شجر أو شاهق طال أعلاه
ومهما ترى من صور معنوية من مشهد للعين طاب محياه
ومهما ترى من هيئة ملكية ومن منظر إبليس قد كان معناه
ومهما ترى من شهوة بشرية طبع وإيثار لحق تعاطاه
ومهما ترى من عرشه ومحيطه كرسيه أو رفرف عز مجلاه
فإني ذاك الكل والكل مشهدي نا المتجلي في حقيقته لا هو
وإني رب للأنام وسيد جميع الورى اسم وذاتي مسماه

فالجيلي هو كل شيء والله هو أيضًا كل شيء، من خير أو شر، من فسق أو فجور، الكل هو الله على حسب هذه العقيدة المجوسية.

ومن القائلين بوحدة الوجود ووحدة الشهود هو أبو حامد الغزالي، ولقد تأثر الناس به كثيرًا؛ لأنه كان في وقته يداري كل طائفة ويتودد إليها بالموافقة، وخفي أمره على كثير من الناس فلم يفطنوا إلى تعلقه بوحدة الوجود، وإن كان قد صرح بها كثيرًا في كتبه، وخصوصًا إحياء علوم الدين، وفي هذا يقول عنه عبد الرحمن الوكيل:

"لا تعجب حين ترى الغزالي يجنح في دهاء إلى السلفية في بعض ما كتب فللغزالي وجوه عدة كان يرائي بها صنوف الناس في عصره، فهو أشعري؛ لأن نظام الملك صاحب المدرسة النظامية أراده على ذلك، وهو عدو للفلسفة؛ لأن الجماهير على تلك العداوة، وهو متكلم ولكنه يتراءى بعداوته للكلاميين اتقاء غضب الحنابلة.

وأما بالنسبة لرجوعه عن غلوه في التصوف، وأو عدم رجوعه فقد قرر بعض العلماء أن الغزالي رجع عن تلك الاقوال الصوفية، إلا أن بعضهم شكك في رجوعه وتوبته، ومن هنا يقول عبد الرحمن الوكيل:

"يحاول السبكي في كتابه طبقات الشفاعية تبرئة ساحة الغزالي بزعمه أنه اشتغل في أخريات أيامه بالكتاب والسنة ونحن نسأل الله أن يكون ذلك حقًا، ولكن لا بد من تحذير المسلمين جميعًا من تراث الغزالي، فكل ما له من كتب في أيديهم تراث صوفي ولم يترك لنا في أخريات أيامه كتابًا يدل على أنه اشتغل بالكتاب وبالسنة".

ومن أقوال الغزالي في وحدة الوجود كما جاءت في كتابه إحياء علوم الدين قوله في ثنايا بيانه لما سماه مراتب التوحيد

"والثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق عموم المسلمين، وهو اعتقاد العوام.

والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو مقام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.

والرابعة: ألا يرى في الوجود إلا واحدًا، وهي مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء في التوحيد؛ لأنه من حيث لا يرى إلا وحدًا فلا يرى نفسه أيضًا، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقًا بالتوحيد كان فانيًا عن نفسه في توحيده بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والحق".

وفي هذا التعبير أمور تدل على وحدة الوجود، وذلك فيما يلي:

وصفه لعموم المسلمين بأنهم عوام في الاعتقاد، ويقصد به العقيدة السهلة

الواضحة التي جاء بها الإسلام.

في تقريره أن الذي يشاهد تلك الأمور عن طريق الكشف يراها كلها صادرة عن فاعل واحد هو الله تعالى، وأنها عبارة عنه على ما فيها من خير وشر.

قوله: لا يرى في الوجود إلا واحدًا، هذا هو عين القول بوحدة الوجود.

وعندما أورد استشكالًا قد يرد في الذهن، وهو قوله:

"فإن قلت كيف يتصور ألا يشاهد إلا واحدًا، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدًا؟

ولا شك أن هذا الاستشكال وارد، وهو استشكال قوي جدًا ويحتاج إلى جواب شاف، فبماذا أجاب الغزالي عن هذا؟ أجاب عن إيراد هذا السؤال بقوله: "فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم، لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: إفشاء الربوبية كفر".

وهذا الجواب فيه اتهام لله بالتقصير في بيان أمر التوحيد؛ حيث لم يبينه الله تمام البيان، ولا بينه الرسول ﷺ، ولا يعرفه أحد إلا أرباب الكشف الصوفي الذين يعرفون كل تفاصيل التوحيد إلا أنهم لا يحبون إفشاء سر الربوبية؛ لأنه يؤدي إلى الكفر حسب هذا الزعم، والواقع أنه قد صدق، فإن هذا التوحيد الذي لا يعرفه إلا أصحاب الكشف هو نفسه التوحيد الذي لا يفرق بين الخالق والمخلوق وهو أمر لا يقر به أحد من المسلمين.

أما الجواب الثاني فهو مثل ضربه يفيد أنه قد يحصل تعدد أشياء في شيء واحد دون فارق بينهما؛ وذلك كالإنسان وأعضائه فهو إنسان واحد ولكن له أعضاء كثيرة؛ روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشاؤه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد أي إنسان.

وهذا الجواب أردأ من الذي قبله، يريد أن يثبت لنا القول بوحدة الوجود قياسًا على الوحدة المتكاملة بين الإنسان وأعضائه، وأراد من هذا أيضًا جعله هذه الأوصاف هي نفسها الفناء في التوحيد حسب ما أورده عن موقف جرى بين الحلاج والخواص.

حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال: في ماذا أنت؟ فقال: أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل، فقال الحسين - الحلاج -: قد أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد؟ فكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث فطالبه بالمقام الرابع.

أي أن الحلاج كان في المقام الثالث أو الرتبة الثالثة في التوحيد، وهي أنه يرى الأشياء هي نفسها "الله"، ولكن بطريق الواسطة والكشف فطالبه الخواص - والغزالي لإقراره كلام الخواص - بأن يرتقي إلى الدرجة الرابعة في تحقيق التوحيد، وهي أن لا يرى في الوجود إلا واحدًا وهي (الفناء في التوحيد) بدون واسطة ولا كشف وبها يتحقق التوحيد.

وفي كتابة مشكاة الأنوار للغزالي تصريح بوحدة الوجود في أكثر من موضع، وقد فندها الشيخ عبد الرحمن الوكيل وأظهر عوارها.

ومن كبار القائلين بوحدة الوجود عامر بن عامر أبو الفضل عز الدين حيث قال محاكيًا الفارض في تائيته وفي معتقده أيضًا:

تجلى لي المحبوب من كل وجهة فشاهدته في كل معنى وصورة

وخاطبني مني بكشف سرائر تعالت عن الأغيار لطفًا وجلت[1]

---

(١) أي تعالى الله عن أن يكون له غير إذ هو عين كل شيء، والمسلم يقول: تعالى الله عن الشريك والمثيل؛ لأنه العظيم. انظر: هذه هي الصوفية ص ٥٧.

فقال أتدري من أنا قلت أنت أنا ... منادى أنا إذ كنت أنت حقيقتي
نظرت فلم أبصر محض وحدة ... بغير شريك قد تغطت بكثرة
تكثرت الأشياء والكل واحد ... صفات وذات ضمنًا في هوية
فأنت أنا لا بل أنا أنت وحدة ... منزهة عن كل غير وشركة

وقد اختار نقل هذه الأبيات من تائية ابن عامر الشيخ عبد الرحمن الوكيل وهي صريحة لا لبس فيها على ما يذهب إليه أهل وحدة الوجود الذين يرون أنه لا يكتمل إيمان العبد ولا يصل إلى الله إلا إذا تلاشت "أنا" من نفسه فأصبح في لجة جمع الجمع ورفع الاثنينية.

وقد سلك هذا المسلك في الاعتقاد بوحدة الوجود جماعة أخرى من الصوفية يمكن إحالة القارئ للاطلاع على كلامهم إلى كتاب الشيخ عبد الرحمن الوكيل، حيث ذكر نصوصًا كثيرة عنهم نثرًا ونظمًا، ومن أولئك محمد بن إسحاق المشهور بالقونوى، وعبد الغني بن إسماعيل المشهور بالنابلسي، وعبد السلام بن بشيش أو مشيش وهو من كبار شيوخ الشاذلية، ومحمد الدمرداش المحمدي، وأحمد بن عجيبة الإدريسي، وحسن رضوان.

وكل واحد من هؤلاء قد أدلى بدلوه وخاض فيما ليس له بحق وحاول تثبيت عقيدة وحدة الوجود بكل ما أمكنه من الكلام نثرًا ونظمًا مما قد يطول نقله وتثقل قراءته، إذ إنهم لا يختلفون إلا في الألفاظ فقط والمورد واحد.

٤- وحدة الشهود أو الفناء وبيان العلاقة بين وحدة الشهود ووحدة الوجود:

وحدة الشهود هو ما يسمونه في بدء أمره مطالعة الحقائق من وراء ستر رقيق، أي لا يصل إلى درجة الحلول ولاتحاد في أول الأمر إلا بعد أن يترقى

درجات ثم يصبح كما يقول على حرازم ناقلًا جواب شيخه التجاني: "اعلم أن سيدنا رضي الله عنه سئل عن حقيقة الشيخ الواصل ما هو؟ فأجاب رضي الله عنه بقوله: أما حقيقة الشيخ الواصل فهو الذي رفعت له جميع الحجب عن كمال النظر إلى الحضرة الإلهية نظرًا عينيًا وتحقيقًا يقينيًا".

وهذه نهاية الفناء في الله ووحدة الشهود فيه.

وأما العلاقة بين وحدة الوجود ووحدة الشهود:

فإنه يرى بعض العلماء أن بين وحدة الوجود ووحدة الشهود فارقًا بعيدًا، وذلك أن وحدة الوجود هي الحلول والاتحاد وعدم التفرقة بين الله وبين غيره من الموجودات، بينما وحدة الشهود عند بعضهم هي بمعنى شدة مراقبة الله تعالى بحيث يعبده كأنه يراه.

ومن هنا ظن هذا البعض أن وحدة الشهود لا غبار على من يقول بها، ومنهم من يؤكد على أن وحدة الشهود هي الدرجة الأولى إلى وحدة الوجود، والواقع أن التفريق بين وحدة الشهود ووحدة الوجود ليس له أساس ثابت بل هو قائم على غير دليل إلا دليلًا واحدًا هو الذوق الصوفي، وذلك أن خير البشر لم يستعمل هذه الحالة ولا نطق باسمها في عبادته لربه، ولا كان أصحابه أيضًا يقولون بها.

فكان شأنهم أنهم يعبدون الله وهم على أشد ما يكونون من الوجل والخوف أن ترد عليهم أعمالهم مع وجود أشد الطمع في نفوسهم لعفو ربهم وتجاوزه عنهم يعبدونه بالخوف والرجاء، ووحدة الشهود ووحدة الوجود لم تعرف إلا بين الفئات الذين امتلأت نفوسهم إعجابًا وتيهًا بأعمالهم وقلت هيبة الله تعالى في نفوسهم.

يقول الشيخ عبد الرحمن الوكيل في أثناء رده على الغزالي وبيان خطر أفكاره على الإسلام والمسلمين، ومدى تعلق الغزالي بوحدة الوجود أو الشهود:

"أرأيت إلى من صنمَّته الصوفية باللقب الفخم لتفتن به المسلمين عن هدى الله تعالى؟ أرأيت إلى الغزالي يدين بوحدة الوجود أو الشهود - سمها بما شئت، فعند الكفر تلتقي الأسطورتان لا تقل إن وحدة الوجود أنشودة من البداية ووحدة الشهود أغرودة عند النهاية فكلتاهما بدعة صوفية، بيد أنها غايرت الاسمين وخالفت بين اللونين ولكن البصر البصير لا يخدعه اسم الشهد سمي به السم الناقع كلتاهما زعاف الرقطاء، غير أن واحدة منهما في كأس من زجاج والأخرى في كأس من ذهب".

فينبغي أن نبتعد عن هذه الكلمة - وحدة - أشد البعد فإن الله تعالى هو الواحد القهار لم يشرك أحد في خلقه {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ - وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، ولنا في العبارات الطيبة التي تربطنا بربنا مجال واسع كالإسلام والإيمان والإحسان كما جاء في حديث جبريل؛ حيث سأله عن تلك الأمور ولم يسأله عن وحدة الوجود أو وحدة الشهود ولا وحدة الوجود ولا الحلول ولا الكشف، ولا غير هذا مما هو اختراع الصوفية تبعًا لأفكار ضالة ليس بينها وبين الإسلام أي صلة أو تقارب.

إن وحدة الشهود تؤدي في النهاية إلى القول بالحلول رغم ما زخرفوه من الكلام والتدليس.

وقد وضح علي حرازم الأمر وجلاه في بيانه لأقسام مراتب المحبة التي هي محبة الإيمان، ومحبة الآلاء والنعماء، ومحبة الصفات، ومحبة الذات، ثم بين

هذه المراتب إلى أن قال عن القسم الرابع من المحبة:

"ومتى وصل إلى محبة الذات أعني أنه يشم رائحة منها فقط انتقل إلى الفناء مرتبة بعد مرتبة، فيكون أمره أولًا ذهولًا عن الأكوان ثم سكرًا ثم عينية وفناءً مع شعوره بالفناء، ثم إلى فناء الفناء وهو لم يحس بشيء شعورًا وتهممًا وحسًا واعتبارًا، وغاب عقله ووهمه وانسحق عدده وكمه فلم يبق إلا الحق بالحق للحق في الحق، وهو مقام الفتح والبداية يعني بداية المعرفة، وصاحبه إذا أفاق من سكرته يأخذ في الترقي والصعود في المقامات إلى أبد الأبد بلا نهاية".

وقوله: إنه لا نهاية لترقية لا يتفق مع ما قدمه مما يدل على نهاية الترقي، وهو الوصول إلى وحدة الوجود كما في قوله:

"إلى أن ينتقل إلى المشاهدة وهي الاستهلاك في التوحيد وغاية المشاهدة ينمحق الغير والغيرية، فليس إلا الحق بالحق للحق عن الحق فلا علم ولا رسم ولا عقل ولا وهم ولا خيال ولا كيفية ولا كمية ولا نسبه انتفت الغيرية كلها".

إلى أن قال عن دخول الحضرة الإلهية:

"فإن من دخلها غاب عن الوجود كله فلم يبقى إلا الألوهية المحضة حتى نفسه تغيب عنه، ففي هذه الحال لا نطق للعبد ولا عقل ولا هم ولا حركة ولا سكون ولا رسم ولا كيف ولا أين ولا محدود ولا علم، فلو نطق العبد في هذا الحال لقال: لا إله إلا أنا سبحاني ما أعظم شأني؛ لأنه مترجم عن الله ﷻ".

وهذا هو الحلول والاتحاد، مع هذا سماه علي حرازم "غاية الصفاء" ونسي أو تناسى أو جهل - وهو الصحيح - أن الرسول ﷺ ولا أحد من صحابته قد قال: سبحاني ما أعظم شأني أو قال: لا إله إلا أنا؛ لأن قائل هذه الألفاظ لا دين له إلا دين المجوسية، ومن هنا استشهد علي حرازم بعد الكلام السابق على صحة

هذا الصحو في الله بقول الحلاج: سبحاني ما أعظم شأني. ومن حسن الحظ لم يستدل بقول أحد من المسلمين.

وتتضح صورة القول بوحدة الوجود عند التجانية كما هي عند سائر أقطاب الغلاة في قول علي حرازم في صراحة تامة زفي مواضع كثيرة في كتابه جواهر المعاني نأخذ منها قوله في أثناء بيانه لمنزلة الخلق من الحق تبارك وتعالى وأنهم صور تنبئ عن الله تمامًا فقال في ذلك: "ولا يكون هذا إلا لمن عرف وحدة الوجود فيشاهد فيها الوصل والفصل فإن الوجود عين واحدة ولا تجرؤ فيها على كثرة أجناسها وأنواعها، ووحدتها لا تخرجها عن افتراق أشخاصها بأحكام الخواص وهي المعبر عنها عند العارفين أن كثرة عين الوحدة والوحدة عين الكثرة".

ومن العجيب أنهم يستدلون على هذا المسلك بقول الرسول ﷺ: "إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب... " إلى أخر الحديث، والحديث حسب مفهومهم معناه أن العبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى يصفى من الكدورات، أنه يصير في معنى الحق - تعالى الله عن ذلك - وأنه يفنى عن نفسه جمله حتى يشهد أن الله هو الذاكر لنفسه الموحد لنفسه المحب لنفسه، وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدما صرفًا في شهوده وإن لم تعدم في الخارج، وينسى العبد نفسه في الله وأن الله يحل بجوارحهم، فهو في سمعهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم قد اتحدت ذاته بذواتهم.

فهل كان رسول الله ﷺ يقصد ما ذهب إليه زعماء الصوفية؟ والجواب سيكون بالنفي قطعًا. وقد أجاب العلماء عن معنى هذا الحديث بعدة أجوبة ذكرها كلها ابن حجر رحمه الله، ومنها أن معناه أن العبد يحب طاعة الله ويؤثر

خدمته ومحبته، وأنه لا يستعمل هذه الجوارح إلا وفق ما شرعه الله له فلا يستعملها إلا في ما أحبه الله ويبعدها عن كل ما يغضب الله تعالى، لا أن الله يحل في تلك الجوارح، والرسول ﷺ لعظم وأجل من أن يتصور ربه على هذه الصفات.

وتلك المعاني الباطلة لمعنى الحديث موضحة في جمهرة الأولياء للمنوفي فيه مقال تحت عنوان "دور الكمال" ذكر فيه أن الصوفية قد تطورت فشاركت في أبحاث كثيرة فقهية وفلسفية إلى أن قال: "وقد خطى الجنيد في هذا السبيل الخطوات الأولى الفاصلة فانتقل من حال الفناء التي قال بها البسطامي إلى فكرة الاتحاد، وذهب إلى أن المتصوف قد يصل إلى درجة يتحد فيها الروح اتحادًا تامًا بخالقها عن طريق الشهود".

ثم ذكر بعد ذلك أنه ليس المراد من هذا الاتحاد ما هو معروف في البوذية والمسيحية، وإنما هو بمعنى أنه مجرد ملاحظة روحية، ولكن يبقى عليه أن الملاحظة الروحية لا يقال فيها بالاتحاد، وإنما هي زيادة تعلق القلب بخالقها فقط، ومن قال إن ملاحظاته جعلته متحدًا مع الله فلا شك في خروجه عن الحق مهما حاول بعد ذلك تغطية معتقده بزخرف القول.

لقد أصبحت وحدة الشهود عند المتصوفة هي أخص مظهر من مظاهر الحياة الصوفية وهي الحال التي يسمونها بالفناء وعين التوحيد وحال الجمع، وهي الاتصال بين العبد وبين ربه عن طريق الشهود الصريح فيما يزعمون. ويصل الإنسان إليها - بزعمهم - بكثرة الذكر حتى يقع الشهود القلبي ثم يستغني عن الذكر بمشاهدة المذكور - حسب تخيلاتهم السقيمة الإلحادية - فاتضح مما سبق أن الفوارق لا تكاد تعرف بين تلك التسميات، فهي داخلة في

النهاية كلها في دائرة واحدة هي القول بالحلول مهما تعددت صوره.

وأما اعتقادهم في الرسول ﷺ، فهو ضرب من الخيال والإلحاد، فهم يزعمون:

١ - أن الله كان في عماء دون تعيين فأراد أن يتعين في صورة فتعين في صورة محمد ﷺ، أي أنهم يعتقدون أن محمدًا ﷺ هو الله سبحانه وتعالى ذاتًا وصفةً حيث تعينت فيه الذات الإلهية في صورة مادة كما قرر الكشخانلي ومحمد الدمرداش - والجيلي والبيطار والقاشاني والفوتي وعلي حرازم والشعراني.

٢- وأن الذي هاجر من مكة إلى المدينة هو الذات الإلهية متجلية في صورة هو محمد ﷺ كما قرر ابن عربي ذلك في قوله: "اللهم أفض صلة صلواتك وسلامة تسليماتك على أول التعيينات المفاضة من العماء الرباني وأخر التنزلات المضافة إلى النوع الإنساني المهاجر من مكة كان الله ولم يكن معه شيء ثان إلى المدينة... الجمع بين العبودية والربوبية الشامل للإمكانية والوجودية".

٣- أن الرسول محمد ﷺ يحضر كل مجلس أو مكان أراد بجسده وروحه، وأنه يتصرف ويسير حيث يشاء في أقطار الأرض إلى اليوم لم يتبدل بعد وفاته.

٤ - كل هذه الموجودات إنما وجدت من نور محمد ﷺ ثم تفرقت في الكون، وهكذا فقد أصبح من الأمور المسلمة عند الصوفية أن هذا الكون وكل ما يحصل فيه من خير وفيض، إنما يتم عن طريق الرسول محمد ﷺ، وفيما قدمنا من النقل عن جواهر المعاني ورماح الفوتي ما يغني عن إعادته هنا، وهذا المعتقد مقرر في كتب الصوفية كلهم من التجانية أو من غيرهم؛ ولهذا يقول المنوفي في بيان تلك القضية:

لله در القائل:

ما أرسل الرحمن أو يرسل ... من رحمة تصعد أو تنزل

في ملكوت الله وملكه ... من كل ما يختص أو يشمل

إلا وطه المصطفى عبده ... نبيه المختار المرسل

واسطة فيها واصل لها ... بعلم هذا كل من يعقل

أي أن كل من يعقل ـ ولو قال كل من يجهل لكان أصوب- يعرف تمام المعرفة أن هذا الكون وما فيه إنما هو مستمد لبقائه ووجوده من محمد ﷺ الذي هو الرب تعالى في تعيينه الثاني.

ويقرر ابن عطاء الله السكندري ذلك بقوله: "جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة ونبينا ﷺ عين الرحمة"

ومما لا يجهله أي مسلم أن الرسول ﷺ عبد بشر مثل سائر البشر كرمه الله تفضلًا ومنة بالرسالة مثل سائر الأنبياء والرسل.

وهو عليه الصلاة والسلام غني عن مبالغات الصوفية وأكاذيبهم الحمقاء، فكل ما قرره أقطاب الصوفية من أولهم إلى آخرهم حول الحقيقة المحمدية ونشوء الخلق عنها فإنه كلام خارج عن عقيدة المسلمين من دان فلا حظ له في الإسلام بل هو مجوسي وثني.

يعتقدون كما قرره ابن عربي أن الرسول ﷺ كان يعرف القرآن قبل نزوله بل إنه على حسب زعمهم هو الذي يعلم جبريل الذي بدوره يوحيه إلى محمد ﷺ ثانية.

ومن الصوفية مثل أبي يزيد البسطامي من يزعم أن الرسل كانوا أقل من مرتبتهم حيث قال: "خضنا بحرًا وقف الأنبياء بساحله" وهذه الافتراءات كلها

إلحاد وزندقة وشبهات مظلمة وإبطالها مما لا يشق على مسلم عرف شيئًا عن تعاليم الإسلام، فإن القرآن منزل من عند الله تعالى على نبيه محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام وهذه هي عقيدة كل مسلم، من لم يؤمن بها أو شك فيها فلا حظ له من الإسلام ولا صلة بينه وبين المسلمين.

٦ - الولاية وبيان بعض المصطلحات الصوفية

تطلق كلمة ولاية في اللغة العربية، على عدة معان منها التابع، المحب والصديق والناصر.

أما معناها في مفهوم الصوفية فهي تنتهي أخيرًا في مصب وحدة الوجود، فقد عرفها المنوفي تحت عنوان "أولياء الله"بقوله: "اعلم أن الولاية عبارة عن تولي الحق سبحانه وتعالى عبده بظهور أسمائه وصفاته عليه علمًا وعينًا وحالًا وأثر لذة وتصرفًا"، ثم زاد الأمر وضوحًا حينما بين التجليات الإلهية والفيوضات التي تقع على السالك وأفعاله وأفعال كل المخلوقات ثم "لا يرى في نظره غير فعل الفاعل الحقيقي وهو الله".

وعرفها الجرجاني بقوله: الولي: هو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن، المواظب على الطاعات المجتنب عن المعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات.

وقال أيضًا: الولاية: هي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه.

وقد ذكر السهروردي الولاية وقسمها إلى أقسام باعتبارات مختلفة ثم ذكر بعض الكرامات للأولياء التي لا يخلو من ذكرها كتاب صوفي، وأكثر تلك الكرامات التي يروونها محض خرافات وقصص باطلة. ثم خلص السهروردي إلى أن الصالحين الذين يتولاهم الله ويتولونه ليس المراد بهم: "الذي يقصده

أهل الطريق عند تفصيل المراتب ويقولون: فلان صالح وشهيد وولي، بل الصلاح هنا المراد به: الذين صلحوا لحضرته بتحقيق الفناء عن خليقته".

وأما القطب الكبير عند الصوفية وهو القشيري فقد ذكر تعريفات كثيرة للولاية، ونقل عن أكابر مشائخهم آراءهم في الولاية وأهميتها وعلاماتها وكيفية الحصول عليها ومسائل أخرى، وهكذا فإن نظرة الصوفية إلى الولي والولاية ليست هي تلك المنزلة الطيبة في مفهوم الإسلام، لأن الولي الصوفي لا حد لصلاحياته في هذا الكون.

وقد جاءت الولاية في القرآن الكريم مرادًا بها المدح، وأحيانًا مرادًا بها الذم، فهي تستعمل في الخير وفي الشر حسب إطلاقها، لأن صاحبها إما أن يكون وليًا لله تعالى أو وليًا للشيطان، وبين الولايتين من البعد والانفصال ما يعرفه كل مسلم سليم الفطرة صافي العقيدة.

وجاءت في السنة النبوية مرادًا بها وصف من ساروا على سنة رسول الله ﷺ والتزموا طريق الخير ونصروا الدين ووالوه.

ثم توسع الصوفية والشيعة في إطلاقها وخرجوا بها عن حقيقتها ومدلولها الصحيح، فأطلقت على الرجل المتصوف أو من ينتسب إلى آل البيت، ثم أسبغوا على أئمتهم وكبار دعاتهم هذه الكلمة وأنواعًا أخرى من التهويلات لمطامع اجتماعية وسياسية.

ثم أخذها الصوفيين بعد ذلك وأخرجوها في مذاهب الحلول والاتحاد وحدة الوجود، وهناك صفة ثانية أضيفت إلى مفهوم الولاية عند الشيعة والصوفي، وهي صفة العلم اللدني الذي أخذه علي بن أبي طالب عن الرسول ﷺ كما زعموا، ثم ورثة إياهم ببركة تلك الولاية، وبلغ الغلو بالصوفية في

أوليائهم إلى أن اتخذوهم بين الله وبين خلقه وسطاء على طريقة النصارى واليهود والمشركين تمامًا.

فكما اتخذ هؤلاء المسيح وعزيرًا والملائكة أربابًا لهم من دون الله، اتخذ الصوفية وسطاء إلى الله عَزَّ وَجَلَّ أسموهم القطب والغوث والولي ونسبوا إليهم النفع والضر، لأن الله بزعمهم جذبهم إليه واختصهم ثم ساووهم مع الله تعالى في كل صفاته، بل أصبح من شرط الولي أن يكون متصفًا بصفات الله -كما يزعمون- ومن هنا نشأ تنطعهم وتنقصهم للأنبياء على حد ما ورد عن أبي يزيد البسطامي في قوله: "خضنا بحرًا وقف الأنبياء بساحله".

ثم اخترعوا مفهومًا كاذبًا للولاية، فهي عندهم مجرد هبة من الله عَزَّ وَجَلَّ لبعض خلقه دون أن يكون لها سبب، بل وبغض النظر عن صلاح الشخص أو فجوره، واستدلوا بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: {يختص برحمته من يشاء}، أي دون سبب حسب مفهومهم.

ومعنى هذا أنهم يجعلون مفهوم للولاية كمفهوم النبوة، الكل بلا سبب ظاهر، وهذا خلاف ما قرره الإسلام بالنسبة لولاية التي تنتج عن طاعة الله تعالى والمتابعة لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد قسموا الولاية والأولياء إلى أقسام يطول شرحها بدون فائدة فيها.

إلا ما نستثنيه مما ذكره المنوفي حين قسمهم إلى:

١- الملامتية:

وهم الذين لا يظهرون للخلق أعمالًا وأسرارًا، بل يخفون أسرارهم لكمال ذوقهم وقوة شهودهم لربهم.

٢- الغوث الأكبر:

وهو أكبر الأولياء والأقطاب، وهو ذات الحق باعتبار تجريدها من الاسم والصفة".

٣- الأوتاد الأربعة:

وهم حفظة العلم كل واحد منهم في ركن من أركان العالم، وهم على قدم بدل من الأبدال، أي أقل رتبة من الأبدال، لأن الأبدال يكونون على قدم قطب من الأقطاب.

٤- الأقطاب السبعة:

لحفظ القارات السبع، والقطب هو الواحد الذي هو موضع نظر الله من العالم في كل زمان. والقطبانية الكبرى هي مرتبة قطب الأقطاب، وهو باطن النبوة للرسول ﷺ، والأبدال زعموا أنهم أربعون وهم مكلفون بحفظ العالم والكون، وقد عّرفهم المنوفي بأنهم: "أبدال الأقطاب من الأولياء، فإن مات قطب أحل الله محله بدلًا منه، ومنهم الخلفاء الأربعة".

٥- النجباء:

وهم الأربعون القائمون بإصلاح شئون السالكين.

٦- الأفراد:

وهم المفردون والغرباء لتفردهم عن الخلق بشهود الحق، وغربتهم في أهل زمانهم، وهم غير منحصرين في رتبة أو منزلة، ولهم كشف خاص وعلوم إلهية غريبة على الناس.. وهم على قدم النبي ﷺ.

وأخيرًا وصلوا بالولاية إلى أنها مثل النبوة تمامًا فلها ختم كما للنبوة ختم، فختم الأنبياء محمد ﷺ وخاتم الأولياء عند الصوفية مجموعة من الكذابين مختلفون فيما بينهم على ادعائها.

وأول من ادعى ختم الولاية به هو محمد بن علي بن الحسين، ويسمونه "الحكيم الترمذي"، وقد ظهر في القرن الثالث الهجري- في آخره- وهو غير الترمذي صاحب السنن.

وحين صنف الحكيم الترمذي كتابه"ختم الولاية" مضاهيًا بذلك القول بختم النبوة شهدوا عليه الكفر ثم نفي من ترمذ.

ثم جاء ابن عربي المتوفي سنة ٦٣٨ هـ فادعى أنه خاتم الأولياء، ثم جاء محمد بن عثمان الميرغني السوداني المتوفي سنة ١٢٦٨ هـ فادعى أنه هو خاتم الأولياء، ثم جاء أحمد التجاني من فاس بالمغرب المتوفي سنة ١٢٣٠ هـ فادعى أنه هو خاتم الأولياء، وأن من سبقه أو يلحقه ممن يدعي ختم الولاية فإنه كاذب مفتر.

وكل واحد ممن يدعيها له مزاعم وادعاءات وكرامات ومزايا لا يصدقها شخص له أدنى معرفة بالدين الإسلامي.

وكلما جاء رجل منهم ادعى أنه هو خاتم الأولياء وأن غيره كاذب والكل- والله يشهد- كاذبون، ثم بلغ بهم الغلو أن فضلوا خاتم الأولياء المزعوم على خاتم النبيين لأمور لا فائدة من التطويل بذكرها، فإنهم مهما تفننوا في الاستدلال على ذلك ومهما زخرفوا القول فيه فهو مردود جملةً وتفصيلًا.

الفصل الثالث عشر: الكشف الصوفي

من أصول الدين الإسلامي وقواعد الإيمان في الشريعة الإسلامية أن الله تعالى وحده هو علام الغيوب، وأن الخلق مهما كانت منزلة أحدهم لا يصل إلى معرفة الغيب، إلا من شاء الله أن يطلعه على ما أراد من ذلك، سواء كان ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا.

ولقد تعدى المتصوفة على هذه الصفة لله ﷻ فأقاموا أمرًا سموه "الكشف الصوفى"، ويعنى عندهم رفع الحجب من أمام قلب الصوفي وبصره ليعلم بعد ذلك كل ما يجرى في هذا الكون.

وبالغوا في هذا الإدعاء بما لا يجرؤ على القول به إلا عتاة الزنادقة، كما هو مسطر في كتبهم بأقلامهم، وكما تبين ذلك من خلال ما قدمنا من الإشارات الكثيرة إلى حقيقة الكشف من خلال نظرتهم إلى أقطابهم في حالة رفع الحجب عنهم واتحادهم بالله ورفع الأنية بينهم وبين الله، ويبدوا أنهم ترقوا في هذه الدعوى على النحو التالى:

١- ادعوا أن الصوفي يكشف له عن معان جديدة في القرآن والسنة والآثار والرسوم لا يعلمها علماء الشريعة، الذين سموهم علماء الظاهر والقراطيس؛ لأنهم أي علماء الشريعة إنما يعتمدون في نقل تلك المعاني من القرآن والسنة على موتى، وأما هم فإنهم يأخذونها عن الله تعالى مباشرة.

ومن هنا تجد أقطاب التصوف حين يشرحون بعض الآيات والأحاديث يأتون فيها بمعان من نسج أخيلتهم ويزعمون فيها مزاعم هي عين الأكاذيب التي لا يسندها أي دليل لا من الشرع، بل ولا من العقل في أكثر ما جاءوا به في شروحاتهم.

٢- ثم ترقوا فقالوا: إن لهم علومًا لا توجد في الكتاب ولا في السنة يأخذونها جديدة عن الخضر الذي هو على شريعة الباطن حسب زعمهم.

وهذه الفرية هي التي استباحوا بموجبها كثيرًا من الفواحش والمحرمات إذ أن النصوص التي يفيد ظاهرها التحريم قد يفيد باطنها الإباحة، والخضر يؤكد لهم ذلك، فإذا بتلك النصوص ظاهرها في واد وباطنها في واد آخر لا صلة بينها

إلا تلك الروايات التي صدرت عن الخضر، أو بعض المنامات التي حدثت لأقطابهم الكبار الذين استباحوا كل محرم من الفواحش.

٣- وهناك فرية أيضًا اقترفوها، وهي قولهم: أنهم يتلقون علومهم عن ملك الإلهام كما تلقى رسول الله محمد ﷺ علومه من ملك الوحي مباشرة.

٤- وآخرون منهم يزعمون أنهم يتلقون علومهم عن الله رأسًا وبلا واسطة؛ حيث تنطبع هذه العلوم في نفوسهم، وبموجبها يأتون ما يأتون من أمور.

٥- وآخرون منهم يدَّعون أن الرسول ﷺ هو الذي يخبرهم بأذكارهم وعباداتهم يقظة لا منامًا.

٦- ثم زعموا أنهم يعلمون أسرار الحروف المقطعة من القرآن وقصص الأنبياء على حقيقتها، وأنهم يجتمعون بالأنبياء ويسألونهم عن تفاصيل قصصهم، وخرافات كثيرة ذكرها الجيلي في كتابه "الإنسان الكامل" يمجها السمع وينفر عنها الذوق.

وكذا الغزالي حين دخل التصوف ولم يستطع الخروج منه رغم أنه كان من علماء الشريعة، فقد ذكر أشياء كثيرة عن الكشف الصوفي وخرافاتهم فيه مؤيدًا له.

وعتاة هذه الدعوى ابن عربي وعبد العزيز الدباغ والبسطامي والتجاني والمرسي وغيرهم، لقد كانت دعوى الكشف هي المقدمة الأولى في نظري إلى الادعاء بوحدة الوجود والحلول، فإن دعوى الكشف مبالغة فاحشة، ولكنها تعتبر من باب التمهيد لما هو أفحش منها، وهو ادعاء الاتصاف بالله والأخذ عنه مباشرة.

ولذلك ترى كثيرًا من المؤلفين من علماء التصوف زعموا أنهم لم يأتوا بما

ذكروه في كتبهم إلا عن طريق الكشف الصريح يتلقونه عن الله مباشرة، رغم ما يحمل من كفر وفجور وزندقة وإباحية.

كما زعم ابن عربي في فصوصه، والجيلي في كتابه "الإنسان الكامل" الذي يقصد به الرسول ﷺ الذي اتصف حسب تقرير الجيلي بصفات الله تعالى، وبصفات أقطاب التصوف أحيانًا؛ حيث يظهر في صورة أى شيخ منهم كالشبلي والجبرتي وغيرهما في زمنهم وفي غير زمنهم.

وكتاب الجيلي "الإنسان الكامل" مملوء بالعبارات التي تؤدي إلى إحياء الخرافات والزندقة، فقراءة عابرة له تجعلك لا تتوقف في هذا الحكم عليه ولا فيما كتبه عتاة التصوف كالدباغ وتلميذه أحمد بن مبارك والشعراني وعلي حرازم، وغيرهم ممن لا يلتزم بالعقيدة الإسلامية الصحيحة.

ثم دخلوا على عوام المسلمين عن طريق الكشف الإلهي والوصول إلى الحقيقة وصفاء القلب والولاية، وغير ذلك من أنواع الشبكات الصوفية التي يصطادون بها الناس عن طريق دعوى الكشف والتظاهر بالزهد، وإكرام الله لهم بمعرفة ما لم يعرفه غيرهم، وفى كل ذلك تساعدهم الشياطين، وأكثر هؤلاء الذين يخبرون بالمغيبات عن طريق الكشف إنما يستعينون بالسحر والطلاسم.

الفصل الرابع عشر: الشطحات الصوفية

لقد وصل الصوفية في شطحاتهم إلى حد لا يقدم عليه إلا من تزندق وألحد وخرج عن الدين، ولقد فاضت كتبهم بذلك وتواتر النقل عنهم، وهو أمر لا يدع مجالًا للشك في إلحاد من يعمل ذلك منهم، وفي إعراضه عن الخلق الفاضل والعقل السليم، فضلًا عن الدين.

ومما يلحظه القارئ أنهم بعد أن أوردوا أنفسهم تلك الموارد الوخيمة

أرادوا أن يجدوا مخرجًا منها، فلم يجدوا لهم مخرجًا فادعوا أنهم إنما قالوا تلك الكلمات الكفرية في حال سكرهم بالله تعالى وغيبوبة عقولهم عن الإحساس بأى شيء غير الله، وما أقبح هذا العذر وأسمجه فهل هم أحب لله من الأنبياء ومن كثير من أتباعهم الذين لا يقاس بهم غيرهم، ولم يعثر عن أحد منهم أن تلفظ بما تلفظ به هؤلاء الذين امتلأت نفوسهم زندقة وحقدًا على الإسلام والمسلمين.

ومما يدركه طالب العلم أن الشطحات الصوفية كثيرة جدًا، لا يمكن حصرها إلا بدراسة وافية[1]، غير أننا سنعرض هنا بعض الامثلة لتكون نموذجًا لبقية شطحهم وغلوهم ومقدار جرأتهم على اقتحام الامور العظيمة في الإلحاد.

ونبدأ ببعض ما ذكر عن أبي يزيد البسطامي: طيفور بن عيسى.

١ - قال أبو يزيد عن الله تعالى: "رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي: يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك فقلت: زيني بوحدانيتك وألبسني أنانيتك وارفعنى إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هنا".

ومعناه أنه يطلب أن يصوره الله على صورته ﷻ تمامًا، فإذا شاهده الناس قالوا: شاهدنا الله.

والرواية عنه هي كما تقدم إلا أني أرى أن هذه العبارة: "إن خلقي يحبون أن يروك" ليست هكذا - ولم أر أحد بين هذا - ولكن لعل الصواب فيها "إن خلقي يحبون أن يروني"، ولهذا بين أبو يزيد كيفية الطريقة التي يمكن أن يرى

---

(١) انظر: ما كتبه الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه "شطحات الصوفية" الجزء الأول "أبو يزيد البسطامي"؛ حيث نقل أقوالًا كثيرة في شطحات الصوفية.

الخلق فيها ربهم، وذلك بأن يرقى البسطامي إلى حد النيابة التامة عن الله تعالى صفة وشكلًا - تعالى الله.

٢- وقال مرة: "سبحاني سبحاني".

وقال: ضربت خيمتي بإزاء العرش أو عند العرش.

٣- واجتاز بمقبرة لليهود فقال: "معذورون" ومر بمقبرة للمسلمين فقال: "مغرورون".

٤- وقال: يخاطب الله: كنت لي مرآة فصرت أنا المرآة.

٥- وقال: لأن تراني مرة خير لك من أن ترى ربك ألف مرة.

٦- وقال: إلهي أن كان في سابق علمك أنك تعذب أحدًا من خلقك بالنار فعظم خلقي فيه - أى النار - حتى لا يسع معي غيري.

٧- وقال: ما النار؟ لاستندن إليها غدًا وأقول: اجعلنى لأهلها فداء أو لأبلعنها. ما الجنة؟ لعبة صبيان.

٨- تلك بعض شطحات البسطامي، وهناك الكثير يوردها علماء الصوفية عنه بين مستحسن لها وبين مراوغ في معانيها.

أما الشبلي فهو الأخر له من الشطحات ما نذكر بعضه فيما يلي:

١ - أخذ من يد إنسان كسرة خبز فأكلها فقال: "إن نفسي هذه تطلب مني كسرة خبز، ولو التفت سري إلى العرش والكرسي لاحترق".

٢- وقال لو خطر ببالي أن الجحيم نيرانها وسعيرها تحرق مني شعرة لكنت مشتركًا.

٣- وقال: أيش أعمل بلظى وسقر؟ عندي أن لظى وسقر فيها تسكن يعني في القطيعة والإعراض - لأنه من عذبه الله بالقطيعة فهو أشد عذابًا ممن عذبه

بلظى وسقر.

٤- وسمع قارئًا يقرأ هذه الآية: (قال اخسئوا فيها ولا تكلمون)، فقال الشبلي: ليتني كنت واحدًا منهم.

٥- وقال: إن لله عبادًا لو بزقوا على جهنم لأطفؤها فصعب ذلك على جماعة ممن كان يسمع ذلك.

٦- وقيل له: لم تقول: "الله"، ولا تقول "لا إله إلا الله"؟ فقال: استحى أن أواجه إثباتًا بعد نفي.. أخشى أن أؤخذ في كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار.

وقال أبو الحسن النوري وقد سمع المؤذن طعنه وشم الموت وسمع نباح كلب فقال: لبيك وسعديك.

وسمع أبو حمزة الصوفي شاة مرغيًا فقال: "لبيك يا سيدي".

وقيل للتلمسانى وقد أشاروا له إلى كلب أجرب ميت: هو ذات الله أيضًا؟ فقال: "وهل ثم شيء خارج عنها".

وهذه العبارات إنما هي أمثلة قليلة وهناك آلاف الشطحات في حال سكرهم بالله كما يزعمون، والحقيقة أنها صادرة عن أناس يدعون الحلول والاتحاد وهم في كامل وعيهم وشيطنتهم، وعندهم تمام الجرأة على الكذب على الله لجهلهم به عز وجل وهوانهم عليه.

وإذا رجع القارئ إلى كتاب الطبقات الكبرى للشعراني فسيرى العجائب والغرائب مما ينقله الشعراني عن أسياده الذين ترجم لهم مبتدئًا بقوله: "فقال سيدى.. رضي الله عنه - ثم ملأ كتابه بأخبار هؤلاء في شطحاتهم وفي تصرفاتهم بما يستحي الإنسان أن يقرأه أو ينظر فيه، شطحات تصل إلى عمق الكفر،

وتصرفات من أولئك الأقطاب تصرخ بالعار والفجور، وقد ترجم لعدد كثير، فارجع إليه إن أحببت أن ترى مهازل الصوفية وسقطاتهم التي لا تقال".

وقد ترجم الشعراني لعدد كثير منهم، وزعم أنهم كلهم أقطاب التصوف، ولكن ينبغي الانتباه إلى أنه حشر خيرة الصحابة رضوان الله عليهم بل جعل الخليفة الأول للمسلمين أبا بكر رضي الله عنه هو أول هؤلاء الأقطاب ثم عمر، إلى أن ذكر أيضًا كثيرًا من خيار التابعين وعلماء الأمة الذين لا صلة لهم بخرافات الصوفية وخزعبلاتها، بل إن حشره لهؤلاء مع الحلاج والبسطامي والشاذلي والمرسي وغيرهم من عتاة التصوف يعتبر إهانة لهم.

وقد سار على نفس المنهج كثير من مؤلفي الصوفية، كما فعل نفس المسلك الذي سلكه الشعراني، المنوفي في جمهرة الأولياء، وقبلهم القشيري، وكل من جاء بعد هؤلاء سلك نفس ذلك المسلك الخاطئ.

الفصل الخامس عشر: التكاليف في نظر الصوفية

يعتقد غلاة الصوفية أن الصلاة والصوم والحج والزكاة هي عبادات العوام، وأما هم فيسمون أنفسهم الخاصة أو خاصة الخاصة، ولذلك فإن لهم عبادات خاصة، ومناهج وطرق خاصة، ومفاهيم تختلف تمامًا عن مفاهيم العامة، خصوصًا بعد وصول أحدهم درجة اليقين - كما يزعمون - وقد شرع كل قوم منهم شرائع خاصة بهم، في الذكر والخلوة والملابس المخصوصة والحلقات الخاصة.

وقد يتفقون في بعضها وقد يختلفون، إلا أن كل صاحب طريقة يجعل على أتباعه أغلالًا وحواجز شديدة، بحيث لا يستطيع أحدهم أن يغير طريقته بطريقة أخرى، وحتى مجرد الذكر إلا بإذن الشيخ وكل ذلك إنما يفعلونه كما يزعمون

من أجل ربط القلب بالله للتلقي عنه مباشرة، ولاستمداد العلوم والمعارف عن الله رأسًا على يد شيخ خوله الله ومنحه القدرة على ذلك.

وأما بالنسبة للتحريم والتحليل فأهل وحده الوجود منهم لا شيء يحرم عندهم؛ لأن الكل عين واحدة وفعل الخير وفعل الشر والقبيح والحسن إنما هي أفعال لا فروق بينها لاحتواء الذات لها كلها، ولذلك فقد حصل من بعض كبارهم وأئمتهم ما يستقبح الشخص مجرد ذكره؛ إذ كان منهم الزناة واللوطية والملاحدة، ثم لا يحق لأي شخص أن يعترض؛ لأن الشيخ لا يفعل شيئًا إلا لحكمة.

وأيضًا لا يفعل هذه الأمور التي يعتبرها الناس فواحش بجسمه وروحه بل بجسمه فقط، وأما روحه فهي أجل من أن تتدنى إلى فعل هذه الأمور الجسيمة، وقد وجدوا من الناس الذين هم أضل من البهائم من يصدقهم في كل ما يصدر عنهم، فصدقوهم في التفرقة بين ما يفعلونه بأجسامهم لحكمة وبين ما في أرواحهم من السمو والتعالي عن ما يفعله سائر الناس، والعقل من أجل نعم الله على الإنسان.

ثم اخترعوا مفهومًا ضالًا وهو أنه قد يصل الأمر أحيانًا إلى حد أن للولي شريعته الخاصة، وللنبي محمد ﷺ تلقي شريعته الخاصة فلا يمنع أن يحصل الخلاف بينهما ويكون الجميع على الصواب، فالولي يتلقى شريعته عن الله مباشرة وهي شريعة للخاصة، ومحمد ﷺ تلقى شريعته عن الله مباشرة وهي شريعة للعوام.

ولذلك تجد في حلقات هؤلاء الصوفية الغلاة من الفواحش والخروج عن تعاليم الإسلام ما لا يمت إلى الإسلام بصلة؛ لأن هذه الأفعال من الاختلاط

والحشيش وأنواع الفساد قد تكون مباحة في شريعة الولي مع حرمتها في شريعة النبي، ولكل شريعته.

وما دام الشيخ الصوفي قد وصل إلى حد التلقي عن الله مباشرة واطلعه على كثير من أسرار هذا الكون وعرف الكثير من المغيبات فإنه والحال هذه ليس عنده طمع في جنة ولا خوف من النار، ومن هنا تنشأ الاستهانة التامة بجميع التكاليف الشرعية.

وقد تبجح الكثير منهم بأنه لا يعبد الله طمعًا في الجنة ولا خوفًا من النار؛ لأن هذه العبادة معاوضة والصوفي قد اتحد بالله وفني فيه لأجله لا لغرض آخر، والخوف من النار أيضًا طبع العبيد لا طبع الأحرار كما تبجح البسطامي بقوله السابق: "ما النار؟ لاستندن إليها غدًا وأقول اجعلني لأهلها فداء أو لأبلعنها، ما الجنة؟ لعبة صبيان"، وقول الشبلي: "إن لله عبادًا لو بزقوا على جهنم لأطفئوها".

فهم يزعمون أنهم يعبدون الله حبًا في الله لا كما يعبده الخائفون من النار الطامعون في الجنة فإن عبادتهم إنما هي على سبيل العوض لا حبًا في الله - وعلى هذا فإن من سبقهم من صالحي المؤمنين والأولياء من الصحابة وغيرهم بل والأنبياء كانت همتهم قاصرة عن إدراك هذا المعنى الذي اهتدى إليه هؤلاء!!

ومما يدل على تقدم ما نذكره فيما يلي من كلام الصوفية، حيث قسم المنوفي الناس بالنسبة لمراتبهم وقربهم وبعدهم عن الله تعالى ثلاثة أقسام تحت عنوان "حقيقة الطريق" فقال:

"إن هذا الطريق وهو السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى عند قطع

المنازل والترقي في المقامات ينقسم بحسب اختلاف أحوالهم إلى ثلاثة أقسام لكل قسم منها طريقة:

فالقسم الأول ذوو الامزجة الكثيفة والأفهام الضعيفة الذين يعسر عليهم محاولة التعلم من طريق التعليم ، فطريقهم يستقيم بالعبادة والتنسك والزهادة والصلاة والصوم وتلاوة القرآن والحج والجهاد وغيرها من الأعمال الظاهرة، لأن هذه الطائفة لصلابة أبدانها وقوة أركانها تتحمل مشاق العبادة... والسالكون بهذا الطريق لا يزالون على هذه المناهج حتى يرقوا لأرفع المعارج ويقربون من مواطن تنزلات المعارف - وإذا وصلوا إلى هذا الحد -"، فحينئذ يكشف لهم عن سبحات المحبوب ويرون عجائب الغيوب ويتلقون عرائس الأسرار، وهذه الطرق صعبة جدًا والواصل بها على خطر عظيم.

أما الثانية وهى طريقة أهل الخصوص وهم من ذوى الأفهام اللوذعية والأخلاق الرحبة والهياكل النورانية والنفوس الأبي، أولئك الذين قد لا يملكون نفوسهم في حال النزوات فطريقهم المجاهدات.. والسالكون بها لا يزالون يرتاضون في قلع ما انطبع في نفوسهم من الأخلاق الذميمة إلى أن تذهب تلك الطباع المكتسبة وترجع إلى فطرتها السليمة.

والقسم الثالث هم ذوو النفوس الرضية والعقول الزكية والفطرة الصديقية التي أبدان أصحابها في نهاية الاعتدال واللطافة، وطريقهم طريق المطلوبين إلى الله والطائرين إليه، وهي طريق المحبوبين المخطوبين من رب العالمين، وملاك السير بها صفاء القلب، وصدق الحب، والتحقق ظاهرًا وباطنًا جهرًا وسرًا بشعائر التصديق، فيخرج عن حوله وقوته وعقله وفطنته إلى حول الله وقوته".

وقال أيضًا: "وبما أن التصوف هو زبدة الديانات ولبها وليس مجرد تقاليد

وطقوس وقواعد ظاهرية كان لكل ديانة تصوفها". وهذا الكلام فيه التصريح بأن التصوف لم يكن نبعه الإسلام فقط، وإنما هو زبدة الديانات أي أنه ملفق من ديانات شتى، وفيه أيضًا التصريح بأنه ليس مجرد تقاليد وطقوس وقواعد ظاهرية.

والإسلام كما هو معلوم فيه بيان شامل لكل ما يحتاجه المسلم وهو نظام كامل، ولا يجوز تسميته مجرد تقاليد وطقوس، على أن القواعد الظاهرية نسبة إلى الظاهر يقصد بها قواعد الشريعة الذين يسميهم الصوفيون أهل الظاهر.

وقد فرق أيضًا بين الزاهد والصوفى:

بأن الزاهد هو الذي ينصرف عن الملاذ الدنيوية وينكر على نفسه جميع شهواته وإن أحلها الشرع، ويتحمل مرارة الجوع والعطش بصفة مستمرة وصوم دائم.. لا يفعل كل ذلك إلا طمعًا في ربح الآخرة والمكافأة بجنات النعيم.

وأما الصوفي فلا يرجو من ذلك شيئًا وإنما همة الوقت الحاضر وهدفه أن زهد وأن عبد معرفة الله والاتصال برضوانه".

ومعنى هذا أن الجنة والنار لا قيمة لها في نظر الصوفي:

"لم يبلغ الأبدال ما بلغوا بصوم ولا صلاة، ولكن بالسخاء والشجاعة وذمهم أنفسهم عند أنفسهم"، وهذا الكلام فيه الاستهانة بشرائع الإسلام حيث فضل السخاء والشجاعة وذم النفس على الصوم والصلاة.

وقال أيضًا: "إن الله يفتح للعارف وهو على فراشه ما لا يفتح لغيره وهو قائم يصلي"، وهذه دعوى صريحة إلى التكاسل في الطاعات وتعريض بقلة فضل الصلاة.

وتتضح منزلة التكاليف عند بعض أولياء الصوفية عند الشعراني في تراجمه

لكثير من أعلامهم بما لا يدع مجالًا للشك في إلحاد وزندقة هؤلاء الذين يسميهم أولياء ويترضى عنهم أيضًا.

وكمثال على ذلك ما أورده في ترجمته للشريف المجذوب حيث قال:

"وكان أصله جمالًا عند بعض الأمراء ثم حصل له الجذب... وكان له كشف ومثاقلات للناس الذين ينكرون عليه، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يأكل في نهار رمضان ويقول: أنا معتوق أعتقنى ربي، وكان كل من أنكر عليه يعطبه في الحال، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتظاهر ببلع الحشيش فوجدوها حلاوة، وكان قد أعطاه الله تعالى التمييز بين الأشقياء والسعداء في هذه الدار".

ومن أولئك الأولياء أيضًا بركات الخياط رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الملامتية... وأخبرني الشيخ عبد الواحد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد جماعة سيدي أبي السعود الجارحي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: مدحته للشيخ جمال الدين الصائغ مفتى الجامع الأزهر وجماعة فقالوا: امضو بنا نزوره وكان يوم جمعة فسلم المؤذن على المنارة ، فقالوا له: نصلي الجمعة فقال: مالي عادة بذلك.

فأنكروا عليه فقال: نصلى اليوم لأجلكم، فخرج إلى جامع المارداني فوجد في الطريق مسقاة كلاب فتطهر منها، ثم وقع في مشخة حمير ففارقوه وصاروا يوبخون الشيخ الذي جاء بهم إلى هذا الرجل، وصار الشيخ بركات يوبخ عبد الواحد ويقول أيش هؤلاء الحجارة الذين أتيت بهم لا يعود لك بالعادة أبدًا... وله وقائع مشهورة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ".

وأمثلة أخرى كثيرة يوردها الشعراني تدل على مدى استهتار هؤلاء الأولياء - حسب زعمه - بالأخلاق والدين والتكاليف، فقد ذكر عن علي وحيش ما يخجل القلم من كتابته ويتلعثم اللسان من النطق به ؛ من الأعمال الفاحشة

والزنا وفعله بالبهائم وصاحبها قائم أمامه، وإن لم يرض تسمر في مكانه كما يذكر الشعراني.

ويبدو أن للكشف الصوفي علاقة قوية بترك التكاليف على حد ما أورده عنهم الشيخ سعيد حوى في قوله:

"يربط بعض الصوفية بين الكشف وترك التكاليف، فيرون أن الإنسان متى كشف له شيء من أمر الغيب - وما أكثر ما يتوهون في هذا الشأن - سقط عنه التكليف، فلا صلاة ولا صيام ولا غير ذلك، ويستشهدون على ذلك بقوله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَى يَأْتِيَكَ الْيَقِنُ}.

الفصل السادس عشر: الأذكار الصوفية

أم الأذكار الصوفية فحدث ولا حرج عن خرافتهم فيها، وقد قدمنا من الأمثلة ما يوضح حال هؤلاء ومدى ما وصلوا إليه من الجهل بربهم والبعد عن هدى خير الأنام، هذا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

لقد اخترعوا أذكارًا وشرعوا أورادًا ما أنزل الله بها من سلطان، بل اشتملت على الكفر والزندقة في كثير منها والكذب على الله وعلى رسوله ﷺ، كما اشتملت على كلمات سريانية غير معروفة المعنى وعلى رموز وحروف مقطعة لا يعرف المراد منها.

وكل صاحب طريقة له أذكار هي أفضل من كل ذكر، وأجرها أعظم من كل أجر، وما عداه باطل حسب تخرصاتهم في كل ذلك، ينطبق عليهم قول الله تعالى: {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيءٍ}، فهم متفرقون قد لا يجمعهم إلا الاتفاق على الرقص وادعاء الوصول إلى الله ومكالمته ورفع الغير والغيرية بينة وبينهم.

مع أن كل صاحب طريقة يدعى أنه يأخذ تلك الأذكار مباشرة عن الله ﷻ أو عن نبيه ﷺ، وأحيانًا يقظة لا منامًا كما يزعمون، وفضلوها تفضيلًا عاليًا ليرفعوا شأنها في نفوس أتباعهم ومريديهم على القرآن والسنة والأدعية المأثورة، ويطول البحث لو أردنا ذكر نماذج من تلك الطرق المختلفة والأذكار المتباينة فيما بينها.

فمنها الأذكار التجانية التي سبق ذكرها، ومنها أذكار البسطامي والرفاعي والجيلاني والشبلي وأبو العباس المرسي وآخرين كثيرين، ومنها أذكار الطريقة الشاذلية التي زعم أصحابها أن الرسول محمد ﷺ والخضر هما اللذان علما الشيخ أحمد الإدريسي، حيث ذكر تلميذه صالح محمد الجعفري ذلك في كتابه مفاتيح كنوز السموات والأرض المخزونة التي أعطاها الرسول ﷺ لشيخ الطريقة الإدريسية المصونة.

وهي أذكار في غاية الركاكة والكذب على الله وعلى الرسول والاعتداء في الدعاء على حق الله ورسوله، ولم يكتف هؤلاء بادعائهم أنهم يأخذون أذكارهم عن الله ورسوله فقط، بل هناك كما يذكرون بعض الأولياء الذين قد ماتوا هم أيضًا يلتقون ببعض المشائخ الأحياء ويعلمونهم أدعية وأورادًا لا حد لأجر من يقولها.

ولو كان الذكر كلامًا لا معنى له في أي لغة من اللغات المعروفة من مثال ما ذكروه عن الدسوقي أنه علمهم هذا الدعاء: "بسم الله الخالق يلجمه بلجام قدرته أحمى حميثًا أطمي طميثًا وكان الله قويًا عزيزًا حم عسق حمايتنا كهيعص كفايتنا... " إلى آخر الذكر الذي يدل على مدى ضحالة معرفتهم بالله ورسوله وعدم التفاهم إلى ما شرع الله ورسوله ﷺ من الدعاء الواضح المثمر في قلب

العبد إذا دعا ربه بإخلاص وتوجه.

وقد ذكروا من الأجر لقائل أذكارهم الجوفاء ما لا يحد ولا يعد ولا يتصور في الذهن، وقد يبدو على تلك الأدعية حرارة الإيمان وصدق الالتجاء إلى الله تعالى، ولكنه في الحقيقة ليس موجهًا إلى الله فقط بل إلى أوليائهم الأحياء أو الأموات أيضًا.

ومدار أذكارهم على الإثبات كما يزعمون، فهم يقتصرون على لفظة "الله" بدلا عن لا إله إلا الله يعللون لهذا المسلك بما لا مقنع فيه حتى للجهال العامة فضلًا عن أهل العلم، حيث يقولون: إن اقتصارهم على لفظة "الله" وتكرارها خوفًا أن يموت الشخص عند ذلك النفي في قول "لا إله".

ولا ندري كيف يقرءونها في القرآن {فاعلم أنه لا إله إلا الله}، وماذا يفعل المؤذن، وماذا يفعل الداخل في الإسلام عندما ينطق الشهادتين، وأمور أخرى لا يستطيع العقل أن يتصور مدى التخبط الذي حل بهؤلاء.

ومن غريب أمر الصوفية في أذكارهم أنهم رتبوها على طريقة شيطانية من وحي شياطينهم، حيث جعلوا لكل اسم من أسماء الله تعالى ذكرًا خاصًا به، ولطبقة خاصة به، فمن ذلك زعمهم أن اسم الله العفو يليق بأذكار العوام، لأنه يصلحهم وليس من شأن السالكين إلى الله ذكره.

أما اسمه تعالى الباعث فإنه يذكره أهل الغفلة ولا يذكره أهل طلب الفناء، وأما اسمه الغافر فيلقن لعوام التلاميذ وهم الخائفون من عقوبة الذنب، وأما من يصلح للحضرة الإلهية فذكره مغفرة الذنب عندهم يورث الوحشة، وأما اسمه تعالى المتين فإن ذكره يضر أرباب الخلوة وينفع أهل الاستهزاء بالدين.

وهكذا استمر السكندري في وصف أسماء الله وخواصها، وكأنما هو طبيب

يصف العلاج ومنافعه، وقد تقدم ذكر الطريقة التجانية، ونضيف هنا ما استخلصه الشيخ عبد الرحمن الوكيل في بيانه لكيفيات الذكر الصوفي ومراحله، فنوجز ذلك فيما يلي (بتصرف):

إذا جاء وقت المولد - الأعياد الوثنية - يجتمع الرجال والنساء أو الدراويش والدرويشات كما يحبون تسميتهم بذلك.

بعد أن يتخموا بطونهم بأنواع المأكولات التي تقدم في هذه المناسبة يقوم الشيخ الكبير ويصفق بيديه اللامعتين من "دسم الحرام" إيذانًا ببدأ الذكر.

يخرج من شفتيه ومنخريه اسم الله ملحدًا في حروفه وفي النطق به.

يقوم المتغزلون بإنشاد قصائد غزلية تلهب المشاعر، ويصاحبهم المطبلون وأصحاب الآلات المطربة.

ثم يهب الشيخ ويهب معه المريدون يتمايلون يمنة ويسرة في حركات مثيرة صاخبة كل ينوح على ليلاه _ والآهات والزفرات والقبل، كما رأيتهم بعيني - هي الشعار العام لهم، وكل واحد من الحاضرين يبذل أقصى جهده في إظهار أقوى الحركات والحماس ليلفت الأنظار إليه.

على الحاضرين أن يستحضر كل واحد منهم صورة شيخه أمامه إن لم يكن موجودًا، أو يستمد منه العون في بدء قيامه بهذا الذكر قائلًا: مددك يا أستاذي، ثم يستأذن أصحاب الطريق والقدم فيقول: دستور يا أصحاب الطريق والقدم.

ينبغي على كل واحد أن يلتزم بطريقة الذكر، وهي كما يلي:

أن يهتز من فوق رأسه إلى أصل قدميه.

أن يبدأ بـ (لا) يمينًا ويرجع بـ (إله) فيتوسط، ثم يختم (إلا الله) يسارًا قبلة القلب.

إذا ذكر اسمًا مفردًا مثل الله، أو هو، أو حيّ لابد أن يضرب بذقنه على صدره.

في كل ذلك يجب أن ينتع الكلمة من سرته إلى قلبه ثم يستمر هكذا في هذه الصور البهلوانية التي هي أقرب إلى الجنون والعربدة منها إلى أقل التفات إلى الله تعالى أو ثوابه وعقابه.

يجب ملاحظة أن المريد لا يدعو بأي اسم لله إذا سمح له به الشيخ وإلا حصل عليه ضرر شديد.

ثبت أن تلك الطريقة الصوفية في الدعاء أخذت بتمامها عن اليهود، حيث جاء ذلك في المزمور التاسع والأربعين بعد المائة في العهد القديم وهو:

"ليبتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا اسمه برقص، بدف وعود ليرنموا، هللوا يا، سبحوا الله في قدسه، سبحوه برباب وعود، سبحوه بدف ورقص، سبحوه بأوتار ومزمار، سبحوه بصنوع الهتاف"

ولقد ذكر ابن عطاء الله السكندري أدعية عن مشائخه وأسياده في الطريقة طويلة مملة ممجوجة، مملوءة بالتنطع والتعدي في الدعاء والإشعار بكبريائهم وعتوهم وطلبهم الحلول والاتحاد به، منه دعاء الشيخ أبو الحسن الشاذلي، وفيه: "يا عزيز يا رحيم... وأسقط البين بيني وبينك حتى لا يكون شيء أقرب إلي منك... اللهم هب لي النور الذي أرى به رسولك ﷺ ما كان ويكون، اللهم ارزقني من كنز لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة، واضربني بها ضربًا تمحق بها من قلبي كل قوة. باسم المهيمن العزيز القادر أجل كل شيء وهو ناصري ق. ج ن ص انصرني".

ونفس الدعاء السابق أيضًا كان يدعو به القطب الكبير أبو العباس أحمد

المرسي، بل وزاد عليه أشياء أخرى ومنه:

"اللهم اهدني لنورك... وهب لي علمًا يوافق علمك... وارفع الحجاب فيما بيني وبينك، وأسقط البين عني حتى لا يكون شيء بيني وبينك، واكشف لي عن الحقيقة الأمر.."، إلى أن قال: "كيف يكون ذنبي عظيمًا مع عظمتك أم كيف تجيب من لم يسألك وتترك من سألك؟

إلهي جذبك لي أطمعني فيك... قاف جيم سران مع سرك هب لي من نورك ما أتحقق به حقائق ذاتك" الخ.

ثم أورد السكندري دعاء حزب شيخه الشاذلي، وفيه:

"لا إله إلا الله نور عرش الله، لا إله إلا الله نور لوح الله، لا إله إلا الله نور قلم الله، لا إله إلا الله نور رسول الله"، ثم كرر الدعاء على الصفة إلى أن قال:

"وتالله لئن لم ترعني بعينيك وتحفظني بقدرتك لأهلكن نفسي ولأهلكن أمة من خلقك.. يا من به ومنه وإليه يعود كل شيء أسألك بحرمة الأستاذ، بل بحرمة النبي الهادي، بل بحرمة السبعين والثمانية.. اللهم صلني باسمك العظيم الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء، وهب لي من سرًا لا تضر منه الذنوب شيئًا.. واجعلني خزانة الأربعين".

إلى آخر ما ورد من أذكار لا تسمن ولا تغني من جوع، بل هي سراب يحسبه الظمآن ماءً.

ومنهم من يدعو بهذا الدعاء بدلًا عن سبحان الله وبحمده، لا إله إلا الله، بدلًا عن ذلك يدعو بهذا الذي تقشعر منه الجلود وتشمئز منه النفوس وهو من أدعية الطريقة الشاذلية.

"سقفاطيس، سقاطيم آمون قاف آدم حم هأ آمين كد كد كردد ده بها بهيا بهيا

بهيهات لمقفنجل يا أرض خذيهم"، نعم يا أرض خذيهم إنها مأساة حقيقية حين توجد تلك الأذكار الجوفاء ثم يتبعها الوجد والرقص والطبول والزغاريد كما نبينه فيما يلي:

الفصل السابع عشر: الوجد والرقص عند الصوفية

لقد كان للغرام العارم والرقص والتمايل عند الصوفية مكانه ثابتة بل هذا النوع صار من أقوى الشبكات التي يصطادون بها من قلت معرفتهم بالدين الإسلامي الحنيف، وحقًا إنه نوع من الخلل في السلوك والاضطراب الذهني حين يعبدون الله بالرقص والحركات التي لا تمت إلى عبادة الله بأية صلة إلا كما تمت إليها عبادة اليهود من قبل حين حثتهم التوراة _ المحرفة _ العهد القديم _ المزامير على وجوب التسبيح لله بالدف والمزمار والعود والربابة.

وعند الصوفية في أوقاتهم الخاصة مجالس يجتمعون فيها على الرقص والغناء والتصفيق والصياح بأصوات منكرة يمزقون فيها ثيابهم ويتمايلون حين يأخذ منهم الطرب مأخذه في حركات بهلوانية لا يفهم منها أي إشارة إلى الخوف من النار أو الرغبة في الجنة.

وقد أصبح الرقص الصوفي الحديث عند معظم الطرق الصوفية في مناسبات الاحتفال بمولد بعض كبارهم أو في أية مناسبة من مناسباتهم الكثيرة، يحضر عازفون وموسيقيون ويختلط بعضهم ببعض رجالًا ونساءً كبارًا وصغارًا، ويجلس في هذه المناسبة كبار الأتباع يتناولون ألوانًا من شرب الدخان، وكبار أئمتهم يقرءون عليهم بعض الخرافات المنسوبة لمقبوريهم.

والغناء الذي يترنمون به يشتعل حبًا وعشقًا وغرامًا وقصائد وجد وحزن، فإذا سئلوا عن ذلك زعموا أنها من الطرق التي توصلهم إلى ربهم، أو هو الحب

الإلهي كما يسمونه لترغيب الناس فيه. وهذه الصور البهلوانية الرعناء هي صورة الذكر.

فهل كان الرسول ﷺ أو أحد من الصحابة يفعلون مثل هذا التنطع المذموم، وهل مثل تلك الحركات تشير إلى الخشوع لله تعالى والسكينة في العبادة من قريب أو من بعيد، وهل ذلك الاختلاط والتمايل يمكن أن يكون بعيدًا عن الشيطان. إنها مهازل وسخرية بدينهم ومع ذلك فهم يتلمسون لهم الأدلة التي يجادلون بها مهما كان سقوطها.

أدلتهم على جواز ذلك والرد عليها:

وهكذا لم يكتف هؤلاء بتلك المسالك التي غلوا فيها إلى أن أخرجوا بعض عباداتهم في صور غنائية ورقص، بل حاولوا كذلك أن يجدوا لتلك الأفعال أدلة لمشروعيتها، ومن ذلك:

زعمهم أن سلمان رضي الله عنه حين نزل قوله تعالى: (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) صاح سلمان الفارسي صيحة ووقع على رأسه ثم خرج هاربًا ثلاثة أيام.

ومن ذلك أيضًا احتجاجهم بقول الله تعالى لأيوب عليه السلام: (اركض برجلك).

ومنها قول الرسول ﷺ لعلي: "أنت مني وأنا منك" فحجل، وقال لجعفر: "أشبهت خلقي وخلقي" فحجل، وقال لزيد: "أنت أخونا ومولانا" فحجل.

ومنها احتجاجهم لسماع الرسول ﷺ جاريتين تغنيان بحضرة النبي ﷺ وهو مسجى بثوبه، فجاء أبو بكر فانتهرهم، فنهاه الرسول ﷺ وقال: "دعهما فإنها أيام عيد".

ومنها أن الحبشة زفنت والنبي ﷺ ينظر إليهم.

واحتج أبو عبد الرحمن السلمي على جواز الرقص بما روي عن الشافعي أن سعيد بن المسيب مر في بعض أزقة مكة فسمع الأخضر الحداء يتغنى في دار العاص بن وائل بهذين البيتين:

تضوع مسكًا بطن نعمان أن مشت به زينب في نسوة عطرات

فلما رأت ركب النميري أعرضت وهن من أن يلقينه حذرات

قال فضرب برجله الأرض زمانًا وقال: هذا مما يلذ سماعه.

ومنها أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان ربما مر بآية في وردة فتخنقه العبرة ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضًا.

ومنها أن الرسول ﷺ قال في حق أبى موسى: "لقد أوتي مزمارًا من مزامير آل داود " ومنها استحسان الرسول شعر النابغة حتى قال له: "لا يفضض الله فاك"، ووضعه أيضًا المنبر لحسان يقول عليه الشعر في هجاء المخالفين للرسول ﷺ .

ومنها أن بعض الصالحين رأى الخضر وسأله عن السماع الصوفي فقال له: ذلك هو الصفاء الزلال.

ورأى أحدهم الرسول ﷺ في المنام فسأله عن سماع الصوفية فقال له الرسول: ما أنكره، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن ويختتمون بعده بالقرآن..

ومنها أن الخضر تواجد حتى سقط على جبهته وصار الدم يقطر منها ولا يقع على الأرض، حين سمع أبياتًا من الشعر قالها شخص بحضرته، ذكرها السهروردي.

ومن أدلتهم أن بعض الصالحين رأى النبي ﷺ وأبا بكر وهو يقول له كلامًا والنبي ﷺ قد وضع يده على صدره كالمتواجد بذلك.

ثم أورد السهروردي أدلة كثيرة عن بعض الصوفيين في حال تواجدهم؛ بعضهم مشى على الماء، وبعضهم لم يحترق بالنار، وبعضهم يرتفع أذرعًا عن الأرض، إلى أن، ختم السهروردي أدلته - وهي كثيرة بزعمه - بهذه القصة، وهي أن أعرابيًا أنشد رسول الله ﷺ:

لقد لسعت حية الهوى كبدى فلا طيب لها ولا راقي
إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقيتي وترياقي

فتواجد رسول الله ﷺ وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، ثم قسم رداءه بينهم، حيث مزقه إلى أربعمائة قطعة.

تلك أهم الحجج التي يتمسك بها الصوفيون في مشروعية لهوهم وتواجدهم، فما مدى صحة استدلالهم، وهل ما ذكروه من تلك الروايات كلها صحيحة، أو هل كان فهمهم لها فهمًا صحيحًا؟

والجواب عن هذه الاحتجاجات يحتاج إلى دراسة ووقت، ولكن أكتفى هنا بإيجاز الرد عليهم في دفع حججهم وأدلتهم بأنها احتجاجات واهية وتلفيق غير مقبول ومزاعم لا صحة لها:

*فأما ما رووه عن سلمان فإنه كذب، ومحال كذلك، فقد رويت هذه القصة بلا سند. ثم إن الآية نزلت بمكة بالاتفاق كما قال القرطبي، وسلمان إنما أسلم بالمدينة كما هو معلوم.

ثم أن الرسول ﷺ كان ينهي أشد النهي عن مثل هذه الأمور المنافية للوقار والخشوع، فإنه كان ﷺ يبغض الصياح أو إظهار التخشع عند سماع القرآن أو

المواعظ إلا في الحدود المشروعة، ومن ذلك ما رواه أنس قال: "وعظ رسول الله ﷺ يومًا فإذا برجل قد صعق فقال النبي ﷺ: "من ذا الملبس علينا ديننا إن كان صادقًا فقد شهر نفسه وإن كان كاذبًا فمحقه الله"".

وقد عرف عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يخشعون تمام الخشوع، فتذرف عيونهم وتخاف قلوبهم، ولم يصعق أحد منهم وهم أعرف بالله من غيرهم وأتقى له وأكثر انقيادًا وقبولًا للحق تمسكًا به، ولو كان ذلك الوجد والهيام والصعق خير لما سبقهم أحد إليه.

*واما احتجاجهم بقول الله تعالى لأيوب: (اركض برجلك) فهذا احتجاج يدل على جهل صاحبه بحقيقة حال أيوب المبتلى بما لا يصبر عليه أحد إلا من أعانه الله وقوى يقينه، فإنه يقال لهذا المحتج: إن الله لم يأمر أيوبًا بضرب رجله فرحًا وطربًا.

وإنما أمر بضرب رجله من باب فعل الأسباب إكرامًا من الله تعالى له، ثم إنه لم يركض برجله ابتداء وإنما تنفيذًا للأمر، وكذلك لإشعاره بتغير الحال، ولحكم أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى ليس منها جواز الرقص، ولم يك حاله يستدعي أن يضرب برجله الأرض تواجدًا وطربًا إلا عند الجفاة.

*وأما احتجاجهم بحجل على وجعفر وزيد، فإن الحجل هو نوع من المشي يفعل عند الفرح وارتياح النفس أحيانًا ليعبر الشخص به عن فرحه دون قصد الرقص والتمايل، والصحابة هؤلاء لم يكن منهم رقص ولا تمايل ولا إنشاد قصائد الغزل المهيجة، فليس فيه دلالة على ما يريد المتصوفة، وما فعله هؤلاء الصحابة إنما كانت حالة عارضة لا قصد لهم فيها لإظهار الطرب والتواجد.

*وأما احتجاجهم بزفن الحبشة فإن الزفن أيضًا نوع من المشي مع الرقص ويشير كذلك إلى الاعتداد بالنفس، وأكثر ما يفعل عند اللقاء في الحرب إظهارًا للشجاعة وعدم المبالاة بالعدو، وليس المقصود منه الرقص والطرب كما يرى الصوفية.

*وأما ما ذكروه عن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللهُ فإنه مكذوب عليه، وليس هذا شعره، وهو أوقر من أن يصل إلى هذا الحد.

*وهذه الأبيات فيما يذكره الأدباء قالها محمد بن عبد الله بن نمير الشاعر الثقفي، يتغزل فيها بزينب بنت يوسف الثقفي أخت الحجاج. وقد هرب بعد ذلك إلى عبد الملك خوفًا من الحجاج، فسأله عبد الملك بن مروان عن الركب ماذا كان؟ فقال له: كانت أحمرة عجافًا حملت عليها قطرانًا من الطائف، فضحك عبد الملك وأمر الحجاج أن لا يؤذيه.

ثم لو قدرنا أن ابن المسيب ضرب برجله الأرض فليس في ذلك حجة على جواز الرقص، ولا أنه ضرب بها وهو يريد الرقص، فإن الإنسان قد يضرب برجله الأرض أو يدقها لشيء يسمعه ولا يسمى ذلك رقصًا منه، بل إن الإنسان قد يضرب برجله الأرض إما فرحًا وإما غضبًا وإما غيظًا.

*وأما احتجاجهم بسماع الرسول للجاريتين فهو استدلال غريب منهم على جواز الرقص والتمايل والتواجد؛ ذلك أن الرسول ﷺ كان مسجي بثوبه، وهم حينما يتواجدون لا يتدثرون بثيابهم، بل تعلو همتهم ويشتد عراكهم ويمزقون ثيابهم، فأين فعلهم من فعل الرسول ﷺ؟.

*كذلك فإن الجاريتين كانتا تنشدان كلامًا ليس فيه غزل أو تشبيب أو خروج عن حد الوقار والأدب، وكان الحال يستدعي الترويح عن النفس،

خصوصًا وأنه يوم عيد وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت جارية شابة.

*وأما استدلالهم بما ينسبونه إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أنه كان يلزم البيت اليوم واليومين حينما يسمع بعض الآيات في ورده؛ فإنه لم يعرف أن الصحابة كانت لهم أوراد يرددونها على طريقة الصوفية، بل ولم يعرف عنه أنه يمرض اليوم واليومين بسبب ما يسمعه من بعض الآيات، لا هو ولا غيره من الصحابة.

*وأما استدلالهم بحسن صوت أبي موسى فليس فيه دليل على الوجد الصوفي، وإنما هو إخبار من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتلك النعمة التي أعطيها أبو موسى، فهل كان الصحابة يرقصون على سماع قراءته أو يصعقون أو يمزقون ثيابهم؟ كلا.

*وكذلك استحسان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعض الكلام أو الشعر ليس فيه دلالة للصوفية، فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يستحسن أشياء ويستقبح أشياء، وهذا أمر طبيعي في النفوس.

*وأما ما يحشده أقطاب التصوف من الأدلة بالرؤى المنامية أو بمقابلتهم للخضر، فإنها أدلة باطلة، حتى ولو كان الرائي ثقة، فإنه لا يتعبد برؤياه فما بالك وتلك الرؤى الصوفية عن مجهولين، إضافة إلى التكليف الظاهر في رواياتهم.

*وزعمهم أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يطرب ويتواجد ويضرب بيده على صدره ويمزق ثيابه ويعطيها لأصحابه كله كلام يدل على عدم احترامهم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعدم معرفة قدرة العظيم. فهل كان يصل به التواجد إلى حد أن يسقط رداءه عن منكبيه من سماع تلك الأبيات الفارغة: قد لسعت حية الهوى كبدي... ؟

*وما ذكره السهروردي من أن بعض أقطاب التصوف يكاد أن يطير أو يرتفع من الأرض أذرعًا أو يدخل الشمعة في عينه أو يطأ النار ولا يحس بها أو

يمشي على الماء أو غير ذلك من الحركات البهلوانية العشوائية التي يفعلها هؤلاء، فلا ريب أنها من أقوى الدلائل على تلاعب الشياطين بهم وإخراجهم عن حد الاعتدال الذي أقل ما يوصف به أنه ينافي الخوف من الله تعالى والرغبة في المغفرة.

الفصل الثامن عشر الكرامات وخوارق العادات عند الصوفية

للأولياء الحقيقيين كرامات لا تنكر، وقد كان للصحابة رضي الله عنهم من الكرامات ما هو جدير بهم، وكان لغيرهم من الأولياء والعلماء كرامات كثيرة، وهدفنا هنا من ذكر الكرامات وخوارق العادات هو بيان تلك الكرامات والخوارق التي تتم على أيدي أناس ليسوا من أولياء الله، وليس لهم صلاح يؤهلهم لذلك.

وبيان أن ذلك من مكائد الشيطان وتلبيسه على الناس بأن يظهر لبعضهم أمورًا غيبية تبدو كأنها كرامات من الله للشخص فيتخيل أنه بلغ منزلة عالية فاق فيها غيره من الناس، وأنه أصبح يماثل الأنبياء في كراماتهم وقربه من الله. وهذه الحال كثيرة الوقوع لمن يدعون أنهم أولياء لله، وأكثرهم في الحقيقة أعداء له وموالين لشياطينهم.

ومن تلاعب الشياطين بهؤلاء: أن يسمع أحدهم صوتًا من حجر أو شجر أو صنم يأمره وينهاه بأمور في بعضها الشرك بالله فيظن المغرور أن الله خاطبه أو ، الملائكة على سبيل الكرامة، ومعلوم أن الله لا يأمر بالفحشاء، والملائكة لا تأمر بالشرك بالله وإنما أولئك هم الشياطين يلبسون عليهم أمورهم كما كانوا يفعلون ذلك قبل الإسلام أيضًا.

وقد يظن هؤلاء أن ذلك وحي من الله عليهم كما حصل لكثير من الذين قلت معرفتهم بالله كالمختار بن أبى عبيد الذي أخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كذاب

ثقيف وغيره ممن استهوتهم الشياطين.

ومنها: أن الشياطين قد تتمثل بصورة المستغاث به من الناس فيظن المشرك بالله أن هذه الصورة هي الشيخ الفلاني أو الولي الفلاني، أو أن ملكًا جاء على صورته، وإنما هو في الحقيقة شيطان تمثل له ليضله.

ومنها: أن تخاطب الشياطين بعض العبَّاد الجهال، ويوهمونه أنه المهدي المنتظر وصاحب الزمان الذي بشر به الرسول ﷺ، ويغرونه بزخرف القول وشتى الوساوس حتى يصدق نفسه فيدعي المهدية وغير ذلك.

بل يبلغ الحال ببعضهم أن يرى الكعبة تطوف به، ويرى عرشًا عظيمًا وعليه صورة عظيمة وأنوارًا وأشخاصًا تصعد وتنزل فيظنها الملائكة بين يدي الله تعالى وأن الله كشف له النظر إليه.

وهذا يتطلب من المؤمن العاقل التنبه لمثل المكائد الشيطانية بلجوئه إلى الله والاهتداء بهدية، وسوء الظن بنفسه الأمارة بالسوء، وأن ينظر إلى نفسه من باب الذل والاحتقار والحاجة إلى ربه، ويزن أعماله بامتثاله أوامر الله واجتنابه نواهيه، فيحكم على نفسه عند ذلك بالتقصير أو القرب من الله تعالى.

ويكبح جماح نفسه الأمارة بالسوء، وأن لا يصدق ما يتراءى له من كرامات تنافي الإسلام، مثل أنواع الكرامات التي تبجح بها بعض غلاة الصوفية لأنفسهم كما ذكرها المناوي، وهي:

إحياء الموتى. وقد مثل بأبي عبيد اليسري الذي أحيا دابته بعد ما ماتت، ومفرج الدماميني الذي أحيا الفراخ المشوية، والكيلانى وأبو يوسف الدهمانى الذي أحيا لتلميذه ولده بعد ما مات.

ومن الكرامات التي يزعمونها أن الأولياء من الصوفية لهم القدرة على

المشي على الماء وكلام البهائم وطي الأرض وظهور الشيء في غير موضعه والمشي على السحاب وتحويل التراب إلى خبز وإبراء الأكمه والأبرص.

ويذكر علي حرازم منهم أن الولي يملك كلمة التكوين فإذا أراد شيئًا فإنه يقول له كن فيكون. وقد ذكر أمثلة كثيرة في كتابه جواهر المعاني لمثل هذا الخلط والكذب على الله وعلى الناس.

ومن المعجزات والكرامات التي يملكها الأولياء من الصوفية - حسب زعمهم - سماع نطق الجمادات، كما يزعم ابن عربي الذي ملأ كتبه بأنواع الأكاذيب حول تلك المعجزات والكرامات الصوفية.

ضمانة الجنة لمن أطعم صوفيًا أو قضى له حاجة؛ كما ضمن ذلك التجاني لكل من أحبه أو أطعمه أو أحسن إليه بأي شيء كما يذكر التجانيون في كتبهم افتخارًا بكرامات سيدهم التي منها هذه الكرامة التي أكدها علي حرازم والفوتي نقلًا عن التجاني.

وكل تلك الكرامات أشبه ما تكون بأحلام الصبيان أو صراعات المجانين، وتكذيبها والسخرية بها لا تحتاج إلى ضياع الوقت في الاشتغال بالردود عليها وبيان سخافتها ودجل من يدعيها ممن جرؤ على الكذب على الله وعلى الناس وضللوا أتباعهم وأخرجوهم عن الإسلام من حيث لا يشعر أولئك الأتباع، لأنهم أصبحوا كما قال الله تعالى: (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون).

وفيما يلي نذكر بعض الأمثلة من كلام أقطاب التصوف في الكرامات التي يزعمونها لأنفسهم أو لأوليائهم لترى مدى بعد تلك العقول عن الحق والأفكار الرديئة التي انطوت عليها الزعامات الصوفية.

يقول عبد الكريم القشيري عن كرامات أبى الحسين النوري أنه قال: "كان في نفسي شيء من هذه الكرامات، فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين ثم قلت: وعزتك إن لم تخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال لأغرقن نفسي، قال فخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال".

فهذا جاهل بحق ربه وأراد أن يقتل نفسه: وقد صادف ما قدره الله له - أو كان بفعل الشيطان ليغويه - أن خرجت له تلك السمكة، ومهما كان فإن هذا المسلك لم يكن من مسلك الأولياء على هذا النحو، وقال عنه:

"وحكي عن النوري أنه خرج ليلة إلى شط دجلة فوجدها وقد التزق الشطان فانصرف وقال: وعزتك لا أجوزها إلا في زورق".

وقد فسر ذلك العروسي فقال: "أي التقى له الشطان بحيث لو مد رجله كان على الشط الآخر، فانصرف وقال تأدبًا واعترافًا بتوالي نعم الله عليه في كل خارق: وعزتك لا أجوزها إلا في زورق كسائر الناس".

فكيف يكون الأدب مع الله أن ترد مكرمته إلا عند القشيري والنوري، وقال أبو الحارث الأولاشي: "مكثت ثلاثين سنة ما يسمع - أي ينطق - لساني إلا من سري ثم تغيرت الحال فمكثت ثلاثين سنة لا يسمع سري إلا من ربي".

"وكان يحيى بن سعيد يتعبد في غرفة ليس إليها سلم ولا درج، فكان إذا أراد أن يتطهر يجيء إلى باب الغرفة ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله ويمر في الهواء كأنه طير ثم يتطهر فإذا فرغ يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله ويعود إلى غرفته".

وقال أبو يعقوب السوسي: "جاءني مريد بمكة فقال: يا أستاذ أنا غدًا أموت وقت الظهر فخذ هذا الدينار فاحفر لي بنصفه وكفِّنِّي بنصفه الآخر، ثم لما كان الغد وطاف بالبيت ثم تباعد ومات، فغسلته وكفنته ووضعته في اللحد، ففتح

عينيه فقلت أحياة بعد موت؟ فقال أنا حي وكل محب لله حي".

وأما بالنسبة للخضر فحدث ولا حرج لقد ملأ الصوفيون كتبهم بحكايات عن الخضر لا حد لها ولا حصر إذ لا يخلو كتاب من كتبهم من نسج القصص والأساطير عليه، ومفادها أن الخضر يجيب كل من يستغيث به في أي بلد كان.

ويذكر القشيري أنه حدث ابن أبى عبيد اليسري عن أبيه أنه غزا سنة من السنين فخرج في السرية فمات المهر الذي كان تحته وهو في السرية فقال: يا رب أعرناه حتى نرجع إلى بسرى يعنى قريته فإذا المهر قائم... إلى آخر القصة.

ومثل هذه القصة قصة أخرى وقعت لأحد الأولياء ذكرها أبو سبرة النخعي، وذكر السكندري أنواعًا من الكرامات التي تحصل للولي فقال:

"ثم إن هذه الكرامات قد تكون طيًا للأرض ومشيًا على الماء وطيرانًا في الهواء واطلاعًا على كوائن كانت وكائن بعد لم تكن من غير طريق العادة وتكثير الطعام أو الشراب أو إتيانًا بثمرة في غير إبانها، وإنباعًا ماء من غير حفر أو تسخير حيوانات عادية، أو إجابة دعوة بإتيان مطر في غير وقته، أو صبر عن الغذاء مدة تخرج عن طور العادة، أو إثمار لشجرة يابسة ما ليس عادتها أن تكون مثمرة له".

ونقل عن المرسي قوله: "وقال الشيخ أبو العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جلت في ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقًا بساق العرش وهو رجل أشقر أزرق العينين.. الخ".

وذكر السكندري عن الصوفي القرشي أنه جاءه الخضر بزيتونه من نجد وكان به مرض الجذام فقال له: كل هذه الزيتونة ففيها شفاؤك، فقال له: اذهب أنت وزيتونتك لا حاجة لي بها.

ثم شرع السكندري كغيره من علماء الصوفية في ذكر فضائل الخضر وأفعاله مع الأولياء الصوفية وأورد قصصًا في ذلك كثيرة ورد على الذين ينكرون وجوده

بدليل أن إبليس موجود الآن فلا ينبغي جحد وجود الخضر وهذا الدليل من أبعد ما يكون عن الصواب، لأن وجود إبليس بنص القرآن والسنة، ووجود الخضر إلى الآن لا دليل عليه لا عقلًا ولا نقلًا.

وكرامات كثيرة يذكرها السكندري لمشائخه لا يصدقها عاقل نترك ذكرها هنا، ومن أراد الإطلاع عليها فليرجع إلى كتاب السكندري "لطائف المنن"؛ حيث ملأه بكرامات وبشطحات أولئك المشائخ بما لا يجرؤ أي مسلم يخاف الله أن يتطاول على الله وعلى رسله ولو بأقل من تلك الشطحات الخرقاء من دعوى علم الغيب بكل شيء في هذا الكون مهما كان حقيرًا في ليل أو نهار، ومن دعوى الاتحاد بالله ومجالسته، ومن دعوى مصاحبة النبي محمد ﷺ في كل وقت، ومن دعوى مشاهدة الجنة دائمًا، وأشياء أخرى حين يقرأها المسلم يقول: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

ومثل ما خاض فيه السكندري خاض فيه أيضًا الشعراني، ولا أرى أن المقام يسمح بذكر نماذج من تلك الكرامات الخيالية التي زعمها الشعراني لأقطاب التصوف الذين ترجم لكل واحد منهم وجاء في تراجمهم بما لا يقوله إنسان سليم الفترة سليم العقل عنده أدنى معرفة بالدين الإسلامي.

إنها جرائم حشدها الشعراني في طبقاته على أنها كرامات لأولئك الذين زعم كذبًا أنهم أولياء أقل ما فيها الاستهانة بجرائم اللواط والزنا والشذوذ الجنسي _ كما يسمى في عصرنا _ ومن غريب أمره أنه يذكر الشخص منهم ثم يأتي في ترجمته وكراماته بما ينكس الرأس حياء ثم يختمها بقوله عنه _ رضي الله عنه _.

ولو أن هؤلاء الصوفية من أمثال ابن عربي والمنوفي والسهروردي والشعراني والسكندري وعلي حرازم والفوتي ذكروا كرامات قليلة وفيها نوع من

التعقل لكنت نقلتها هنا ولكن لا حيلة في ذلك وكتبهم كلها مملوءة بكرامات كل واحدة تعلن أختها، ومن هنا أعرضت عن ذكر ذلك وكنت مثل خراش الذي قال فيه الشاعر:

تكاسرت الضباء على خراش ... فما يدري خراش ما يصيد

على أن بعض تلك الكرامات لا تستحق أن تذكر لأحد؛ إذ فيها الاستهانة بالأخلاق والآداب العامة، وفيها التشجيع على اللهو والفسق.

الفصل التاسع عشر: تراجم زعماء الصوفية

للصوفية زعماء كثيرون ليس من السهل حصرهم وذكر تراجمهم غير أننا نحيل من أراد التوسع في تراجمهم إلى كتب الصوفية أنفسهم.

وقبل إيراد بعض تلك الكتب أحب التنبيه إلى أن بعض علماء الصوفية حينما كتبوا تراجم لمشاهيرهم وأسلافهم ارتكبوا جرمًا في حق الصحابة رضوان الله عليهم وفي حق غيرهم من خيار المسلمين وعلمائهم، حيث حشروهم في سلسلة واحدة مع كبار غلاة وفساق الصوفية الذين وصل بهم الاستهتار بأخلاق وبأمور الدين الشرعية وبالآداب الإسلامية، بل والعرفية إلى حد يستحي الإنسان من ذكرها، وأعمال لا يتصور وقوعها من جهال المسلمين، فما الظن بطلاب العلم، بل وما الظن بأولياء الله؟

وكنت قد جمعت عدة أوراق في تراجم أقطاب التصوف، ولكني رأيتها أليق بكتب التاريخ وتطول بها هذه الدراسة فاكتفيت بذكر بعض المراجع التي اهتمت بدراسة شخصيات علماء التصوف ونقل أخبارهم وشطحاتهم وكشوفاتهم ومنزلتهم عند الله وعند الناس، وما آل إليه أمر كل واحد منهم، ومن أهم تلك الكتب:

الرسالة القشيرية: لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري النيسابوري الشافعي ٤٧١-٤٦٥هـ، وهي مجلدان، خصص المجلد الأول من ص٦١ إلى آخره لتراجم مشائخ التصوف، ابتدأه بهذا العنوان: "فصل في ذكر مشائخ هذه الطريقة وما يدل من سيرهم وأقوالهم على تعظيم الشريعة"، ثم ذكر تراجم لثلاثة وثمانين شخصًا من كبار زعماء التصوف.

الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار تأليف عبد الوهاب ابن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي المصري المعروف بالشعراني. ظهر في القرن العاشر الهجري.

والطبقات مجلدان خصصهما لتراجم كبار علماء الصوفية من رجال ونساء، وقد ترجم لأربعمائة وأربعة وعشرين شخصًا، بإضافة مشائخه وعددهم ٨٧ شخصًا، وقد بدأ تراجم هؤلاء بأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وختمهم بعلي بن شهاب جده الأدنى، ثم ابتدأ بمحمد المغربي الشاذلي وختمهم بالشيخ علي العياشي.

جمهرة الأولياء أعلام أهل التصوف، تأليف محمود أبو الفيض المنوفي الحسيني. مجلدين، خصص الجزء الثاني لترجمة كثير من الأعلام، أعلام الصحابة وأهل الصفة، ثم ترجم لعدد من أعلام التصوف تحت عنوان: "طبقة التابعين وتابعيهم ذكر التابعين من الأولياء".

ثم ترجم لسبعة وثمانين شخصًا، حشر بعض الفضلاء من أعلام الإسلام مع كبار الغلاة من الصوفية دون تمييز.

كتاب عوارف المعارف لأبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد

عموية الصديقي القرشي التميمي اليكري الشافعي الملقب بشهاب الدين السهروردي ٥٣٩-٦٣٢هـ، ولم يبرز التراجم لرجال الصوفية في هذا الكتاب إلا أنه ذكر كثير من أعلام التصوف في ثنايا أبواب الكتاب.

لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري، وطريقته مثل طريقة السهروردي.

جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني- تأليف/ علي حرزام ابن العربي برادة المغربي.

كتاب رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم-تأليف/ عمر بن سعيد الفوتي الطوري الكدوي.

و"جواهر المعاني" مجلدان، وكذا"الرماح" مجلدان بهامش كتاب جواهر المعاني، اهتم المؤلفان ببيان الطريقة التجانية، وذكر التجاني وكبار أتباعه بتوسع تام.

وقد ألف بعض العلماء مؤلفات خاصة عن شخصيات الصوفية مثل ابن عربي والبسطامي والتجاني والنقشبندي وابن سبعين والغزالي وابن الفارض والحلاج والجيلاني.

(باب ذكر الفرق الباطنية)(١)

بعد أن مَنَّ الله تعالى على البشرية برسالة التوحيد وبالإسلام الحنيف، الذى جاء به سيد الخلق محمد بن عبد الله ﷺ رحمة للعالمين، لم يجد أعداء الله فى أنفسهم إلا الضيق والحنق والكراهية لهذا الدين ودعاته.

فقد تجمعت بقايا المجوس وطوائف الشرك والإلحاد -لما ظهرت

---

(١) انظر كتاب الكشاف الفريد عن معاول الهدم ونقائض التوحيد، تأليف خالد محمد على الحاج - الجزء الأول ص١٤٥ وما بعدها.

الشريعة الإسلامية وقهرتهم دولة الإيمان وملة الإسلام- حيث لم يجدوا سبيلًا إلى دفع الإسلام بالسيف ولا بالحجة، لذلك ستروا ما هم فيه من الزندقة والإلحاد، وأبطنوه بحيل خبيثة تقبلها الأذهان وتذعن لها العقول وتستهويها النفوس[١].

لقد انتمى كثير من هؤلاء الحاقدين الحاسدين إلى بيت النبوة، وأظهروا محبتهم وموالاتهم -كذبًا وبهتانًا- وهم فى الباطن من أعظم أعداء الإسلام، وأكبر العتاة الحانقين على بيت الرسول وآله الأطهار، بل وأكبر المخالفين لهم.

لقد كذب هؤلاء الضالون على أكابر المسلمين -ومن بينهم أهل بيت الرسول العظيم ﷺ- الجامعين بين العلم والدين، والمشهورين بالصلاح والتقى، فقالوا: قال الإمام فلان كذا، وقال الإمام فلان كذا. وجذبوا جماعة من العامة الذين لا يفهمون ولا يعقلون، فتدرجوا معهم بدعوات معروفة وسياسات شيطانية، ومازالوا ينقلونهم من رتبة إلى رتبة ومن درجة إلى درجة حتى أخرجوهم إلى الكفر البواح، والزندقة المحضة والإلحاد الصراح[٢].

ومع الزمن تم لهم تحقيق الكثير من الأهداف الخبيثة، بعد أن أدخلوا أنفسهم فى النسب الشريفى العلوى الفاطمى، وبقيت هذه الدعوات الخبيثة تستشرى ويشتد عودها حتى أصابت الإسلام فى مقتل. ولا أريد الإطالة فى هذا الأمر، وحسبنا أن نستذكر دعوات الفاطميين والدروز والقرامطة وأضرابهم، الذين بلغوا فى الإلحاد وفى كيد الإسلام ما لم يبلغ إليه أحد من طوائف الكفر

---

(١) لقد كان التصوف المتأخر بعد القرون المفضلة حيلة أخرى لستر إلحادهم ومحاولة لتقويض الإسلام بطريق التظاهر بخدمته وصيانته.

(٢) قطر الولى، نقلًا عن ولاية الله: ص٢٨٣.

وطوابير الضلال والوثنية.

يقول الإمام عبد القاهر البغدادى: اعلموا -أسعدكم الله- أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان، لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية - من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا- أكثر من الذين يضلون بالدجال فى وقت ظهوره، لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها على أربعين يومًا، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر[1]. أهـ

ويقول البغدادى: الذى يصح عندى من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة، يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها، لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع[2].اهـ.

وهكذا -أخى القارئ- يتبين لنا بجلاء خطورة الباطنية الهدامة التى دأبت على حرب الإسلام، فقد عملت جاهدة -قديمًا وحديثًا- للإجهاز على الدعوة المحمدية، وتكاتفت مع قوى الشر والإلحاد واليهودية الماكرة والصليبية الحاقدة وأدواتها المختلفة، نافثة سمومها داخل معاقل الإسلام لإخماد جذوة الإيمان والقضاء على دعوة الحق.

والخلاصة، فإن كثيرًا من الفرق الهدامة قد استخدمت فكرة التشيع والانتماء إلى بيت المصطفى ﷺ قناعًا تسترت به لتحقيق مآربها، وقد ضمت بين صفوفها كل موتور وناعق ودخيل.

---

(١) الفرق بين الفرق: ص٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢) نفس المصدر: ص٢٧٨.

وهكذا اتخذ التشيع عشًا للشعوبية، فضم لفيفًا من اللقطاء والمنبوذين وعبدة الطاغوت، الذين اتخذوه ملجًا يأوون إليه وشعارًا ينضوون تحت لوائه، وبذلك استطاعوا أن يصيبوا الإسلام فى مقتل. وإن أعمال القرامطة والفاطمية والبهائية ومن لف لفهم ليست عنا ببعيد.

وفى الصفحات التالية دراسة وعرض لأهم الفرق الباطنية وضلالاتها، التى يجب معرفتها ولا يجوز الجهل بها على كل مؤمن بدعوة الإسلام الحنيف. وثمة أمر آخر لا يجوز إغفاله هو أنه ينبغى على المصلحين والدعاة والمربين أن يدرسوا بعمق هذه المعاول وغيرها مما نتعرض له فى هذا الكتاب، وهى ليست من المطولات التى يصعب استيعابها، ولا من المختصرات التى يغلق على المبتدىء فهمها، وأرجو أن يكون فيما ذكرناه كفاية للراغب فى الخير.

الإسماعيلية:

الإسماعيلية جمعية سرية ثورية -وتسمى بالباطنية- وقد لبثت زهاء قرن ونصف فى بث الرعب فى قلب الدولة الإسلامية من فارس إلى الشام[1]، واستطاعت حشد جميع البسطاء والدهماء باسم الدين لتحقيق أغراض السياسة، واعتمدت فى محاربة خصومها على الاغتيال الخفى المنظم بأكثر مما اعتمدت على الحرب العلنية. وهؤلاء الإسماعيلية شيعة من غلاة الشيعة، استخرجت مبادئها من تعاليم ميمون بن ديصان وولده عبد الله، ومن تعاليم القرامطة ودار الحكمة الفاطمية، فهى بذلك طور من أطوار الدعوة الثورية الهدامة التى نظمها ابن ميمون، وتتمه لها، وقد ظهرت وبرزت حينما اضمحل أمر الفاطميين فى مصر، وتضاءل نفوذ دار الحكمة والتعاليم الشيعية. وقد ظهر

---

(١) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة: ص٢٠ وما بعدها.

دعاتها أولًا فى فاس، وكانت دعوتها الهدامة الملحدة معول هدم ضد الإسلام وتعاليمة، وقد اعتمدت الحركة الباطنية على أمثال هذه الدعوات لبث سمومها وتقويض بنيان الدولة الإسلامية. والذى نظم الحركة الإسماعيلية فى طورها الجديد، ووضع برنامجها الفذ هو الحسن بن على المعروف بالصباح وأنشأ لهذه الجمعية عدة فروع متفرقة فى أنحاء الشام وفارس والعراق. وكان فارسيًا من خراسان حر التفكير، وتعلم مع الشاعر الفيلسوف عمر الخيام ونظام الملك وزير السلطان ملكشاه، وانقطع لدراسة الكيمياء والفلك وضرب السحر والخفاء، التى كانت فى عصره سلاحًا ذائعًا يشهره الأذكياء والأدعياء على البسطاء والعامة، ثم اتصل بصديقة نظام الملك لإلحاقه بخدمة السلطان ملكشاه، وسما شأنه وكثر ماله. غير أنه حاول -بالدس والخيانة- أن يوقع بصديقه المحسن إليه، فسخط عليه نظام الملك واتهمه بالإلحاد وبث الدعوة الإسماعيلية، ففر ناجيًا بنفسه وتجول بالأقطار ونزل مصر، وأحسن خليفة مصر الفاطمى المستنصر وفادته، وأمره بدعاء الناس إلى إمامته، واتصل بأساتذة دار الحكمة وتفقه فى تعاليمهم، ثم عاد إلى الشام ونظم طائفته الجديدة، وطاف بالعراق والجزيرة وفارس يبث تعاليمه ويدعو بإمامة إسماعيل وبنيه من آل البيت. وأما مذهبه الفلسفى الذى أقاموا عليه دعوتهم بقيادة الحسن الصباح؛ فمنه القول بوجوب الدعوة إلى تعيين إمام صادق قائم فى كل زمان، وتتميز الفرقة الناجية من سائر الفرق بأن لها إمامًا وليس لغيرهم إمام. ويقول فى معرفة الله بضرورة استعمال العقل، والنظر إلى جانب تعاليم المعلم الصادق، وأن الناس فى ذلك فرقتان قالت الأولى بوجوب الاستعانة فى معرفة الله بالمعلم الصادق، ووجوب تعيينه وتشخيصه ثم التعلم منه، فرأسهم يجب أن يكون

رأس المحققين. وقال: بالاحتياج عرفنا الإمام وبالإمام عرفنا مقادير الاحتياج، كما بالجواز عرفنا الوجوب أو واجب الوجود، وبه عرفنا مقادير الجواز فى الجائزات. ثم يقول الحسن الصباح: إن فى العالم حقًا وباطلًا، وإن علامة الحق هى الوحدة وعلامة الباطل هى الكثرة، وإن الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأى، والتعليم مع الجماعة والجماعة مع الإمام، والرأى مع الفرق المختلفة وهذه مع رؤسائها. وجعل الحق والباطل والتشابه بينهما من وجه، والتمايز بينهما من وجه التضاد فى الطرفين والتريث فى أحد الطرفين ميزانًا يزن جميع ما يتكلم فيه، ووزن بذلك الخير والشر والصدق والكذب وسائر المتضادات. وطريقته أن يرجع فى كل مقالة وكلمة إلى إثبات المعلم. وأن التوحيد هو التوحيد والنبوة معًا حتى يكون توحيدًا، وإن النبوة هى النبوة والإمامة معًا حتى تكون نبوة. ولم يتعد فى مسألة الألوهية قوله: إن إلاهنا إله محمد عليه الصلاة والسلام. وقد منع الحسن العامة من الخوض فى العلوم -وكذلك الخاصة- وعن مطالعة الكتب المتقدمة إلا من استطاع منهم فهمها وتحديدها.

ويحمل العلامة الغزالى فى رسالته -فضائح الباطنية- على مبادئ الإسماعيلية ويقول: إن مذهبهم ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض. ويلخص مبادئهم فى قوله: والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب، واستباحة المحظورات واستحلالها وإنكار الشرائع، إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نُسب إليهم[1].

هذا هو ملخص آراء الحسن الصباح فى المسائل التى اشتغل جميع الدعاة الملاحدة وخصوم الأديان المنزلة والنظم المفروضة فى جميع العصور بتحليلها

---

(١) راجع فضائح الباطنية، لأبى حامد الغزالى.

وتعليلها. وقد اختار مثل إمامه وسلفه ابن ميمون أن يتستر بالدعوة الشيعية، وأن يؤثر إمامة الإسماعيلية لانتشار فلولهم وجموعهم فى جميع الأقطار، ولا سيما فارس التى اختارها مركزًا رئيسيًا لفرقته، إلا أنه التجأ فى التنفيذ إلى القوة المادية على مثل هائل لم يحلم به أحد من أسلافه، وقد اتبع الحسن الصباح مثل دار الحكمة فى مراتب جمعيته، غير أنه جعلها سبعًا بدلًا من تسع.

إن كبار الدعاة ومن يلحق بهم من المتقدمين فى المراتب كانوا يلمون بشىء من أسرار الطائفة، ويعلمون أن الدين لم يكن إلا وسيلة، وأنه أمر باطل ولا يؤمنون بشىء من تعاليمه، ويعتقدون أن كل الوسائل مشروعه لبلوغ المآرب الدنيوية التى يعنون بها دون سواها. كان شعارهم: لا حقيقة فى هذا الوجود وكل أمر مباح. وكان هذا أساس نظريتهم السرية التى لم يتلقاها إلا أفراد معدودون منهم، يخفونها بمنتهى الحذر تحت حجاب الإيمان العميق والورع الفياض، تأكيدًا لاستبعاد الأذهان المؤمنة الساذجة، وتوجيهها طوع أهوائها واستخدامها فى تحقيق الغاية الأخيرة والجوهرية، وهى تحقيق الرياسة لبضعة أفراد تضطرم جوانحهم بشهوة السلطان والملك.

وتعتبر الحركة الإسماعيلية من النكبات التى ألمت بالإسلام، لما تم على يد أتباعها من تشويه لحقيقة الإسلام وإعطاء صورة بشعة عنه أمام العالم، مما سهل الدعاية اليهودية فى العالم للنيل من الإسلام العظيم. وتاريخ إمام الطائفة آغا خان الثالث. ١٨٨٧ - ١٩٥٧ برهان على خطر الحركة الإسماعيلية وكفرها وبعدها عن الإسلام. لقد كان آغا خان أسوأ مثل على الإنسان العادى، فضلًا عن الإمام الذى يفترض فيه استقامة الخلق والإيمان والصلاح، وحياة آغا خان وقصص غرامياته وزوجاته وفسقه، ووزنه تارة بالذهب وبالماس تارة أخرى،

كانت مادة دسمة لصحافة العالم اليهودية طوال نصف قرن. وأتباع آغا خان يشاركونه المسئولية فى تشويه وجه الإسلام الصحيح، فقد كانوا يؤلهونه ويعتقدون أن الخمر التى تدخل فى جوفه تتحول إلى ماء زمزم. وحين سئل آغا خان مرة من قبل صديق له: كيف يسمح -وهو المثقف- لأتباعه أن يؤلهوه؟ قهقه طويلا حتى دمعت عيناه وقال: إن القوم فى الهند يعبدون البقرة، ألست خيرًا من البقرة؟!.[١].

القرامطة:

للقرامطة عدة ألقاب يعرفون بها، ومن هذه التسميات: الإسماعيلية والباطنية والخرمية والبابكية والمحمرة والسبعية والتعليمية والحشاشين. الخ وهذه بعض أسباب تسمياتهم[٢].

سبب تسميتهم بالإسماعيلية: انتسب هؤلاء إلى إسماعيل بن جعفر. وذكر الغزالى فى فضائح الباطنية أن سبب هذه التسمية نسبة إلى أن زعيمهم هو محمد بن إسماعيل بن جعفر. كما ذكر ذلك الإمام ابن الجوزى.

وسبب تسميتهم بالباطنية: أنهم ادعوا أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن، تجرى مجرى اللب من القشر، وأنها توهم الأغبياء صورًا، وتفهم الفطناء رموزًا وإشارات إلى حقائق خفية[٣]. وأن من تقاعد عن الغوص على الخفايا والبواطن متعثر، ومن ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من أعبائه.

---

(١) راجع جذور البلاء لعبد الله التل رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) رسالة القرامطة لابن الجوزى بتصرف: ص٣٥ وما بعدها.

(٣) ومن الذين قالوا بأن للقرآن معان باطنية وظاهرية الشيعة، والاسماعيلية، والدروز، والفاطمية والصوفية، والبهائية، والقاديانية، وغيرها من الفرق التى تلتقى فى روافد الدعوة الباطنية.

واستشهد بقوله تعالى: (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) قالوا: والجهال هم المرادون بقوله تعالى: (فضرب بينهم بسور له باب) وغرضهم فيما وضعوا من ذلك إبطال الشرائع، لأنهم إذا صرفوا العقائد عن موجب الظاهر تحكموا بدعوى الباطن على ما يوجب الانسلاخ من الدين.

وسبب تسميتهم بالقرامطة فيه أقوال عديدة منها:

١. أنهم سُموا بذلك لأن أول من استزلهم وملك المحبة هو: محمد بن الوراق والمقرمط وكان كوفيًا.

٢. أنهم لهم رئيسًا من السواد "سواد العراق وقراه" من الأنباط يلقب بقرموطيه فنسبوا إليه.

٣. أن قرمطا كان غلامًا لإسماعيل بن جعفر فنسبوا إليه لأنه أحدث لهم مقالاتهم.

٤. أن بعض دعاتهم نزل برجل يقال له كرميه فلما رحل تسمى قرمط بن الأشعث، ثم أدخله فى مذهبه.

٥. أنهم لقبوا بهذا الاسم نسبة إلى رجل من دعاتهم يقال له محمد بن قرمط.

أما سبب تسميتهم بالخرمية[1]: أن خرم لفظ أعجمى ينبئ عن شىء يستلذ به ويشتهيه الإنسان، وكان هذا لقبًا لمشابهتهم للمزدكية، وهم أهل الإباحة من المجوس، وأباحوا المحظورات فلقبوا بذلك لمشابهتهم للمزدكية، وهم أهل

---

(١) الخرميّة فرقة تفاقم وضعها زمن المعتصم، ومن مبادئها: تألية البشر والقول بالرجعة والتناسخ والحلول والنور والظلمة وإباحة النساء واستمرار الوحى وتعظيم أبى مسلم، وقصدهم إعادة الملك من المسلمين والعرب إلى الفرس والمجوس.

الإباحة من المجوس، فلقبوا بذلك لمشابهتهم إياهم فى اعتقادهم ومذهبهم. وسبب تسميتهم بالبابكية: هو أن طائفة منهم اتبعوا بابك الخرمى، الذى خرج من ناحية أذربيجان فى أيام المعتصم، فاستحل المحرمات. وقد اشتدت وطأة البابكية على المسلمين حتى أُلقى القبض على بابك وقتل.

مجمل مذهب القرامطة

١ . واعلم أن مذهبهم ظاهره الرفض وباطنه الكفر، ومفتتحه حصر مدارك العلوم فى قول الإمام المعصوم، وعزل العقول أن تكون مدركة للحق لما يعترضها من الشبهات، والمعصوم يطلع من جهة الله تعالى على جميع أسرار الشرائع، ولابد فى كل زمان من إمام معصوم يرجع إليه. هذا مبدأ دعوتهم. وإن غاية مقصدهم نقض الشرائع، لأن سبيل دعوتهم ليس متعينًا فى واحد، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيهم لأن غرضهم الاستتباع.

٢ . ومعتقدهم فى الإلاهيات: قولهم بإلهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان، إلا أن أحدهما علة لوجود الثانى. واسم العلة السابق، واسم المعلول التالى. وأن السابق خلق العالم بواسطة التالى لا بنفسه.

٣. ومذهبهم بالنبوات قريب من مذهب الفلاسفة، وهو أن النبى عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق بقوة التالى قوة قدسية صافية، وأن جبريل عبارة عن العقل الفائض عليه لا إنه شخص. وأن القرآن هو تعبير محمد صلى الله علية وسلم عن المعارف التى فاضت عليه من العقل، فسمى كلام الله مجازًا لأنه مركب من جهته. وهذه القوة الفائضة على النبى صلى الله علية وسلم لا تفيض عليه فى أول أمره، وإنما تتربى كالنطفة[1].

---

(١) التى لا تستكمل نموها إلا بعد تسعة شهور. انظر فضائح الباطنية. ورسالة القرامطة: ٣٨.

٤. ومذهبهم في الإمامة: أنه لابد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق، يرجع إليه في تأويل الظواهر وحل الإشكال في القرآن والأخبار، وأنه يساوي النبي في العصمة، ولابد للإمام من إثنى عشر حجة، أربعة منهم لا يفارقونه.

٥. ومعتقدهم في القيامة والمعاد: كلهم أنكر القيامة، وقالوا بهذا النظام، وتعاقب الليل والنهار، وتولد الحيوانات لا ينقضي أبدًا. وأولوا القيامة بأنها رمز إلى خروج الإمام، ولم يثبتوا الحشر ولا النشر ولا الجنة ولا النار. ومعنى المعاد عندهم، عود كل شيء إلى أصله. وأكثر مذاهبهم توافق الثنوية والفلاسفة في الباطن، والروافض في الظاهر، وغرضهم بهذه التأويلات الظاهرة التقرب من نفوس الناس حتى تبطل الرغبة والرهبة.

٦. أما اعتقادهم في التكاليف الشرعية: فهو استباحة المحظورات ورفع الحجر -الحجاب- وغرضهم هدم قوانين الشرع[1]. ولهم تأويلات كثيرة ورموز غاية في البعد عن الحقيقة، وما ذلك إلا لزيادة التشويه واللعب بعقول الناس.

قال ابن الجوزي[2]: وفي سنة ٢٧٨هـ تحركت القرامطة، وهم فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس، الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك -وكانا يبيحان المحرمات- ثم إنهم بعد ذلك أتباع كل ناعق إلى باطل. وأكثر ما يفسدون من جهة الرافضة ويدخلون إلى الباطل من جهتهم، لأنهم أقل الناس عقولًا. ويقال لهم الإسماعيلية لانتسابهم إلى إسماعيل الأعرج بن جعفر الصادق. ويقال لهم القرامطة، قيل نسبة إلى قرمط بن الأشعث البقار. وقيل: إن

---

(١) رسالة القرامطة، تحقيق محمد الصباغ: ص٥٧ - ٦٣ بتصرف.

(٢) البداية والنهاية: ج١١. ص٦١.

رئيسهم كان فى أول دعوته يأمر من اتبعه بخمسين صلاة كل يوم وليلة ليشغلهم بذلك عما يريد تدبيره من المكيدة، ثم اتخذ نقباء إثنى عشر، وأسس لأتباعه دعوة إلى إمام من أهل البيت. ويقال لهم الباطنية، لأنهم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض. والخرمية[1] والبابكية، نسبة إلى بابك الخرمى، الذى ظهر فى أيام المعتصم وقتل. وكذلك يقال لهم المحمرة نسبة إلى صبغ الحمرة شعارًا، مضاهاة لبنى العباس ومخالفة لهم، لأن بنى العباس يلبسون السواد، ويقال لهم التعليمية نسبة إلى القول بأن الكواكب السبعة المتميزة السائرة مدبرة لهذا العالم فيما يزعمون -لعنهم الله-.

ثم قال ابن الجوزى: وقد بقى من البابكية جماعة يقال أنهم يجتمعون فى كل سنة هم ونساؤهم، ثم يطفئون المصباح وينتهبون النساء، فمن وقعت يده فى امرأة حلت له، ويقولون: هذا اصطياد مباح. لعنهم الله.

يقول صاحب البداية والنهاية[2]: إن هذه الطائفة تحركت سنة ٣١٧هـ. واستفحل خطرها حتى آل بهم الحال إلى أن دخلوا المسجد الحرام، فسفكوا دم الحجيج فى وسط المسجد حول الكعبة، وكسروا الحجر الأسود واقتلعوه من موضعه وذهبوا به إلى بلادهم سنة ٣١٧هـ. ولم يزل عندهم إلى سنة ٣٣٩هـ حيث مكث غائبًا عن موضعه من البيت اثنتين وعشرين سنة. فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكل ذلك من ضعف الخليفة وتشتت المسلمين.

ذكر أخذ القرامطة الحجر الأسود إلى بلادهم

خرج ركب العراق وأميرهم منصور الديلمى، فوصلوا إلى مكة سالمين،

---

(١) البداية والنهاية: ج١١. ص١٦٠.

(٢) البداية والنهاية: ج١١. ص٦٣.

وتوافدت الركوب هنا من كل مكان وجانب وفج، حيث تجمع الحجيج فما شعروا إلا بالقرمطى قد خرج عليهم فى جماعة يوم التروية فانتهب أموالهم واستباح قتالهم، فقتل فى رحاب مكة وشعابها وفى المسجد الحرام وفى جوف الكعبة من الحجاج خلقًا كثيرًا. وجلس أميرهم أبو الظاهر -لعنه الله- على باب الكعبة، والرجال تصرع حوله، والسيوف تعمل فى رقاب الناس فى المسجد الحرام فى الشهر الحرام فى يوم التروية، الذى هو من أشرف الأيام وهو يقول: أنا الله وبالله أنا. أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا. فكان الناس يفرون منهم فيتعلقون بأستار الكعبة فلا يجدى ذلك عنهم شيئًا، بل يقتلون وهم كذلك ويطوفون فيقتلون فى الطواف.

فلما قضى القرمطى أمره -لعنه الله- وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة أمر أن تدفن القتلى فى بئر زمزم، ودفن كثير منهم فى أماكنهم من الحرم الشريف وفى المسجد الحرام[1] -وحبذا تلك القتلة وتلك الفجيعة وذلك المدفن والمكان-، ومع هذا لم يغسلوا ولم يكفنوا ولم يصل عليهم، لأنهم محرمون شهداء فى نفس الوقت. وهدم قبة زمزم وأمر بقلع باب الكعبة ونزع كسوتها، وشقفها بين أصحابه وأمر رجلًا أن يصعد إلى ميزاب الكعبة فيقتلعه، فسقط على أم رأسه فمات إلى النار، فعند ذلك انكف الحديث عن الميزاب، ثم أمر بأن يقلع الحجر الأسود، فجاء رجل فضربه بمثقل فى يده وقال: أين الطير الأبابيل؟!. أين الحجارة من سجيل؟!. ثم قلع الحجر الأسود وأخذوه حين راحوا معهم إلى بلادهم، فمكث عندهم اثنتين وعشرين سنة حتى ردوه فى سنة ٣٣٩هـ. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) البداية والنهاية: ج١١. ص١٦٠.

الفاطميون:

كان أول خلفائهم المهدى -وكان من بلدة سلمية ويدعى عبيد، حيث كان يعمل حدادًا- وكان يهوديًا وقد دخل بلاد المغرب وتسمى بعبيد الله، وادعى أنه شريف علوى فاطمى، وقال عن نفسه أنه المهدى. وقد ذكر ذلك كثير من العلماء[1].

قال ابن خلكان فى الوفيات: وقد اختلف فى نسب المهدى هذا اختلافًا كثيرًا جدًا، فقال صاحب تاريخ القيروان: هو عبد الله بن الحسن بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب. وقال غيره[2]: هو عبيد الله بن التقى وهو الحسين بن الوفى بن أحمد بن الرضى وهو عبد الله هذا، وهو ابن محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق. وقيل غير ذلك فى نسبة. قال ابن خلكان: والمحققون ينكرون دعواه فى النسب.

قال ابن كثير: قد كتب غير واحد من الأئمة، منهم الشيخ أبو حامد الاسفراييني والقاضى الباقلانى والقدورى: أن هؤلاء أدعياء ليس لهم نسب صحيح فيما يزعمون، وأن والد عبيد الله المهدى هذا كان يهوديًا صياغًا بسلمية، وقيل كان اسمه سعد، وإنما لقب بعبيد الله زوج أمه الحسين بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وسمى القداح لأنه كان كحالًا يقدح العيون، وكان الذى وطأ له الأمر فى تلك البلاد أو عبد الله الشيعى، الذى استدعاه إلى بلاد المغرب وقد سجن، إلا أن أبا عبد الله الشيعى احتال له وأخرجه من السجن، وبعد ذلك سلم أبو عبد الله الشيعى الأمر لعبيد الله المهدى، والذى دبر مؤامرة

---

(١) انظر البداية والنهاية: ج١٢. ص٢٦٧.

(٢) البداية والنهاية: ج١١. ص١٨٠.

قتل أبى عبد الله الشيعى، وبذلك تم للمهدى ما أراد[١].

وفى المغرب اشتهر أمره وآزره جماعة من الجهلة، وصارت له دولة وصوله، وبعد ذلك بنى مدينة المهدية نسبة إليه، وأصبح ملكًا مطاعًا يظهر الرفض وينطوى على الكفر المحض، وكان الفاطميون أنجس الملوك سيرة وأخبثهم سريرة، وقد ظهرت فى دولتهم البدع والمنكرات والموالد والخزعبلات، كما كثر أهل الفساد وقل عندهم الصالحون من العلماء والعُبَّاد. كذلك كثر بأرض الشام النصرانية والدرزية والحشيشية وتغلب الفرنجة على سواحل الشام بكامله لعدم عنايتهم بأمر الدين والأمة، وهذا حال الأدعياء والعجزة، لا يهمهم سوى لذاتهم ومطامعهم وتنفيذ مآربهم.

قال أبو شامة: وقد أفردت كتابًا سميته "كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد"[٢].

ويبدو للدارس والمتتبع لتاريخ الفاطمية أنهم كانوا متناقضين فى مواقفهم، وآرائهم وعقيدتهم، حتى أنهم كانوا يشعرون بالغبطة والسرور والسعادة إذا ما ألمت بالمسلمين كارثة أو تعرضوا لغزو، سيما وموقفهم من الغزو الصليبى وكيف عقدوا معاهدة بينهم، وبشكل كان السرور يغمرهم عندما انهار نفوذ الأتراك السلاجقة أمام زحف الصليبية الحاقدة على الإسلام، ولم يقوموا بقائمة وكأن الأمر لم يهمهم.

الفاطميون وبيت المقدس

جاء فى كتاب الحركة الصليبية[٣]: يعجب المؤرخ أبو المحاسن من موقف

(١) المصدر السابق: ج١١. ص١٨٠.
(٢) البداية والنهاية: ج١٢. ص٢٦٨.
(٣) الحركة الصليبية: ج١٢. ص٢٦٨.

الفاطميين، وعدم مشاركتهم القوى الإسلامية التى نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين فيقول: ولم ينهض الأفضل -وكان وزيرًا له شأنه- بإخراج عساكر مصر، وما أدرى ما كان السبب فى عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال[١]؟!.

ثم يسترسل أبو المحاسن فى وصف سوء حال الصليبيين عندما زحفوا على الشام، وكيف أن المسلمين فى العراق والشام حاولوا صدهم، كل ذلك وعساكر مصر لم تتهيأ للخروج.

ويقول أيضا[٢]: إن الفاطميين لم يروا فى الانتصارات التى أحرزها الصليبيين -فى ضورليوم وأنطاكية- كارثة عامة حلت بالمسلمين، وإنما وجدوا فيها أمنية عزيزة، هى تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين،الذين سادوا قرابة نصف قرن من الزمان، استثاروا فيها كراهية العرب المسلمين جميعًا الشيعة والسنة سواءً.

تعاليم دار الحكمة

جاء فى كتاب تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة ما يلى: بيد أن الذى يهم أن نسجله من سيرة الحاكم[٣] هو استئنافة للدعوة السرية الفاطمية، ونشاطه فى إذاعتها بطريقة فعالة منظمة، لم يفكر فيها أحد من قبله، ذلك أنه أنشأ فى القاهرة معهدًا خاصًا لبث تعاليم الدعوة الشيعية، وكان هذا المعهد الفذ الذى سمى دار الحكمة مدرسة عامة يفتح بابها لكل طالب، والتعليم فيها على نفقة

---

(١) أبو المحاسن - النجوم الزاهرة: ج٥. ص١٤٧.
(٢) الحركة الصليبية: ج١. ص٢٣٦.
(٣) أفردت بحثًا موجزًا عن حكاية الحاكم -بأمر نفسه- فى موضوع الدروز لعلاقته المباشرة بعقائدهم وأفكارهم. فليراجع هناك.

الدولة. وكانت تعاليمها الدينية -التى اشتقت من مبادئ عبد الله بن ميمون- تسع مراتب، أى بزيادة مرتبتين على جمعية ابن ميمون السرية، ويقسم الطلاب فيها إلى قسمين كبيرين العالم والجاهل. ويعتبر الدعاة من تلاميذ القسم الأول. ويبدأ الدعاة بمناقشة الطالب فى المسائل الدينية وتفاسير القرآن، ويعلمونه أن مسائل الدين أمور شديدة التعقيد، تنبو عن الذهن العادى ولا يستطيع فهمها إلا رجال كالدعاة تبحروا فى درسها، ويأخذون عليه العهود بألا يذيع شيئًا من النظريات والشروح، وهذه هى المرتبة الأولى.

وفى المرتبة الثانية: يُعَلَّم الطالب أن كل التفاسير والأحكام التى قال بها المجتهدون السابقون خاطئة باطلة، وأن الأحكام الصحيحة هى التى يقول بها الأئمة الذين تلقوها من الله.

وفى الثالثة: أن هؤلاء هم الأئمة الإسماعيلية وهم سبعة، وأن آخرهم محمد بن إسماعيل.

وفى الرابعة: أن الأنبياء الذين تقدموا آل البيت سبعة أيضًا هم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، والمسيح، ومحمد -النبى العربى- ثم محمد بن إسماعيل.

وفى الخامسة: يبدأ الدعاة بتنفيذ مهمتهم الحقيقية، وهى هدم العقيدة الدينية، يعلمون الطالب ألا يؤمن بالسنة، وأن يرفض تعاليم محمد ﷺ.

وفى السادسة: أن كل الأديان وما أَمَرَت به من الفروض، كالصوم والصلاة وغيرهما، إن هى إلا أكاذيب وحيل ابتكرت لإخضاع المجتمعات البشرية، وأن جميع الشرائع لابد أن تخضع لشريعة العقل والعلم، ويدللون على أقوالهم بنظريات أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس وأمثالهم.

وفى السابعة: يلقن تعاليم الثنوية وبذلك تهدم وحدة الإله، وهى فكرة

الإسلام الجوهرية.

وفى الثامنة: تنقض كل صفات الألوهية والنبوة، ويعلم الطالب أن الرسل الحقيقيين هم رسل العمل الذين يعنون بالشؤون الدنيوية، كالنظم السياسية وإنشاء الحكومات المثلى.

وفى التاسعة والأخيرة: يدخل إلى حظيرة الأسرار، ويعلم أن كل التعاليم الدينية أوهام محضة، وأنه يجب ألا يتبع إلا ما هو لازم لحفظ النظام بين الدهماء والعامة، ولكن الرجل المستنير له أن يرفضها جميعًا. وأن إبراهيم، وموسى، والمسيح وغيرهم من الأنبياء ليسوا إلا رجالًا مستنيرين تفقهوا فى المسائل الفلسفية. وهكذا يهدم كل اعتقاد فى الأديان المنزلة. فكانت المراتب الأخيرة تستعمل لنقض المراتب الأولى. وقد كان التكتم فى الواقع عماد الدراسة فى دار الحكمة. وكان الدعاة يتحدثون أمام كل طائفة بما يرضيها ويتفق مع عقليتها وتعاليمها.

هكذا كان نظام الجمعية السرية التى نظمها الشيعة، لتقويض دعائم بنى العباس وما تستند إليه من أسس دينية، وهدم كل المعتقدات الدينية من الأساس، وهو النظام الذى اتخذ فيما بعد نموذجًا لإنشاء "الشعلة البافارية" فى القرن ١٨ م الذى يصوره المستشرق فون هامارا فى كتابه عن الإسماعيلية فيما يلى:

(ألا يعتقد فى شىء، وأن يُقْدِمَ على كل شىء، هما خلاصة هذا المبدأ، الذى قصد بالهدم كل مبدأ للدين والأخلاق، ولم يك يرمى إلا إلى تنفيذ المآرب والأطماع على يد وزرائهم -خير آلات لسياسة جهنمية- يقدمون على كل شىء ولا يعرفون شيئًا، يعتبرون كل شىء خدعة وكل شىء مباحًا. نظام لا يعمل إلا

لإطفاء شهوة التغلب ولا يخمد أوارها، بدلًا من أن يعمل على تحقيق أمثل الغايات البشرية، وينحدر إلى الهاوية فيقبر بين العروش والهياكل وأنقاض السعادة القومية ولعنات الإنسانية بأسرها)[١].

وتاريخ الفاطميين يشير بلا ريب إلى أثر اليهود التوراتى التلمودى فى تعاليمهم وسلوكهم وتأليه ملوكهم، كما حدث للحاكم بأمر الله الذى ادعى الربوبية، وصار قوم من أتباعه يقولون: يا واحدنا يا أحدنا يا محيبى يا مميت[٢].

الدروز

قبل أن أشرح عقائد الدروز وحقيقتهم، أرى أن أقدم فكرة موجزة عن حياتهم وأصلهم، لأن الناس يذهبون فى هذه الطائفة مذاهب شتى، بينما قل أن نجد من يعرف شيئًا عن تاريخهم وحقيقة عقائدهم.

وربما يرجع جهل الناس عنهم إلى أن الدروز أنفسهم يحتفظون بعقائدهم الدينية فى سرية تامة وكتمان شديد، فلا يبوحون بأسرارهم الدينية إلى غيرهم بل ربما غالوا هم أنفسهم فى ذلك، فلا يسمحون بالإدلاء بكل أسرارهم إلا لطبقة خاصة فى مجتمعهم، حيث إنهم يغلقون هذا الباب أمام عامة الناس.

ومنذ زمن بعيد[٣] -عندما ظهرت هذه الطائفة على مسرح التاريخ كطائفة متميزة مغلقة على نفسها- والعالم متطلع إلى كشف الستار عنها ومعرفة أسرارها وفلسفة مذاهبها، ولقد تسربت بعض كتبهم إلى خارج مجتمعهم الدرزى، واستطاعت بعض مكتبات الدول أن تقتنى بعض نسخ من هذه الكتب

(١) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة بتصرف: ص٣٠.
(٢) ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ط الهندية ١٣٥٨هـ: ج٧ص ٢٩٨.
(٣) هذه المعلومات وما بعدها مستقاة من كتاب طائفة الدروز: ص٥.

المقدسة السرية، وترجمت هذه الكتب إلى لغات أوربية، ودرسها بعض العلماء من الغرب وأبناء الأمة العربية.

ومما يؤسف له أن هؤلاء الدارسين من العلماء لهذه الكتب، لم يستطيعوا أن يلموا إلمامًا تامًا بمدلول المصطلحات التى زخرت بها كتب العقيدة الدرزية، ولن يتسنى ذلك إلا لمن كان على معرفة بألغازهم ورموزهم، والتى لم يفهمها إلا شيوخهم والذين لديهم مفتاح الأسرار وعلم الباطن، وتأويل الباطنية على طريقة الفاطمية.

وعلى الذين يريدون دراسة الدروز وبحث ما يتعلق بعقائدهم أن يلموا بعقائد الفاطمية وتطورها من عصر إلى عصر ومن بلد إلى بلد، وأن يعرفوا حق المعرفة مصطلحات الدعوة الفاطمية، لأنها هى العقائد والمصطلحات التى أخذها دعاة العقيدة الدرزية وبنوا عليها عقيدتهم ومصطلحاتهم.

وربما بلغ بى الغلو فى القول إلى أن شيوخ الدروز أنفسهم، ربما وجدوا مشقة فى فهم فلسفة مذهبهم ومدلول مصطلحاتهم، إلا ما كان متوارثًا ونقله الخلف عن السلف بالتواتر، ومع هذا فإن هذا الطريق كثيرًا ما كان مشوبًا بكثير من التحريف، ومن تسرب آراء دخيلة عن طريق مخالطة أصحاب عقائد أخرى، بالرغم من شدة محافظتهم على عقائدهم وكتمانها وما يحيط بها من غموض، حتى أن كثيرًا من الشخصيات الدرزية المثقفة لا يعرفون شيئًا عن عقيدتهم، وقد صرح فريق من هؤلاء بذلك[١].

لمحة عن أصل الدروز وتاريخهم

فى منطقة محافظة السويداء بسوريا، حيث جبل حوران الذى يعرف بجبل

(١) نفس المصدر: ص٥-٦.

العرب أو الدروز[1]، نجد منطقة واسعة تشتمل على أكثر من ثلاثة وسبعين قرية، وفيها يعيش قوم عيشة متواضعة يعملون فيالزراعة أو الرعى، ويدينون بالطاعة التامة لشيوخ قبائلهم، وفى المناطق الواسعة يسكن بنو الأطرش وبنو عساف والحناوية والقلاعنة والهنيدية وغيرهم، وأكثر سكان هذه المنطقة على المذهب الدرزى.

وفى لبنان فى القسم الجبلى المعروف -من التشويفات إلى دير القمر- يسود آل أرسلان، وفى القسم الغربى الأعلى -من دير القمر إلى عاليه ونهر الغابون- نجد آل تلحوق، وتتوزع قبائل آل النكدى وبنو عبد الملك وبنو عماد وكذلك الجانبلاطية فى مناطق الشوف وغيرها من مناطق لبنان.

وفى فلسطين العربية -عند جبل الكرمل وصفد- تسكن قبائل عربية مختلفة تتمذهب بالعقيدة الدرزية.

وكذلك نجد طائفة من الدروز يسكنون الجبل الأعلى -بين حلب وأنطاكية- ونجد أيضًا فى بلاد المغرب بالقرب من مدينة تلمسان قبيلة تعرف بنى عبس تدين بالعقيدة الدرزية دون أن يعرف جيرانهم حقيقة مذهبهم.

يذهب الكتاب والمؤرخون فى أصل هذه الطائفة مذاهب شتى، ففى القرن الثانى عشر للهجرة زار الرحالة اليهودى "بنيامين" إقليم لبنان ووصف المجتمع الدرزى، فذهب إلى ان الدروز سلالة قبائل عربية أنزلها الامبراطور "بمبى" لبنان حوالى سنة ٦٤ ق.م، ثم اختلطت هذه العناصر بعناصر آرامية.

وجاء الشاعر الفرنسى الشهير -لامارتين- وتحدث عن رحلته هذه بأسلوبه الشعرى الممتع وقال عن الدروز: أنهم سلالة السامريين القدماء. أما

---

(١) نفس المصدر السابق.

الكاتب "لوشان" فقد ذهب إلى أن الدروز والموارنة والنصيرية والعلويين واليزيديين والأرمن كلهم من أصل واحد، وهم بقايا الحثيين القدماء.

وقال آخرون: أن الدروز مزيج من عناصر مختلفة من عرب وفرس وهنود. وهناك آراء كثيرة حول أصل هذه الطائفة، ومنها ما يرجح عروبتهم.

إن المؤرخين جميعًا على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم يجمعون على أن العقيدة الدرزية أول ما ظهرت فى بلاد الشام، إنما ظهرت فى المنطقة المعروفة بوادى التيم -بين دمشق وبانياس- وكان ذلك فى سنة ٤٠٨ هـ، وقد سمى هذا الوادى بذلك الاسم نسبة إلى قبائل تنتسب إلى تيم الله ابن ثعلبة، وهى قبائل يمنية الأصل هاجرت من جزيرة العرب فى الجاهلية وسكنوا الفرات، وكان منهم ملوك المناذرة بالحيرة.

وفى عهد الفتح الإسلامى أسهم بعضهم فى فتح الشام، وفى عهد معاوية بن أبى سفيان قاموا بنصره وحاربوا معه فى معركة صفين، حيث جعلهم معاوية سادة فى المناطق التى حلوا فيها من بلاد الشام، كما شاركوا فى حرب الروم إبان الحكم الأموى، وعند ظهور حركة العباسيين انضموا لدعوتهم واشتركوا فى معركة الزاب ضد مروان بن محمد، وبذلك أصبحت لهم يد عند العباسيين، واستمر هذا الحال إلى أن قامت جيوش المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٥٨هـ.، بقيادة جعفر بن فلاح لفتح بلاد الشام، وبعد أن استولى على الرملة وطبرية، كتب إلى الأمير سيف الدولة المنذر بن النعمان بن عامر أمير بيروت - المتصرف والمباشر لأمور القبائل- يدعوه إلى بيعة المعز، فاستشار سيف الدولة عشيرته، فأجمعوا على مصانعته حتى يروا ما يكون منه، فلما استولى جعفر بن فلاح على دمشق، سار إليه سيف الدولة وزعماء قومه وبايعوه للمعز

لدين الله، وبذلك دخلت هذه القبائل فى الدعوة الفاطمية.

ولما قامت حركة أفتكين التركى بدمشق، وأخرج عامل الفاطميين منها، واتصل القرامطة بأفتكين ليساعدوه ضد الفاطميين، انقسم أمراء العرب بين موالين للفاطميين وبين موالين للقرامطة وأفتكين.

لقد انتشرت الدعوة الفاطمية فى جميع بلاد الشام، بفضل الدعاية المنظمة التى وضع الفاطميون أسسها، وكانت قبائل تنوخ فى بلاد المعرة وفى وادى التيم وجبال لبنان أسرع أهالى الشام قبولًا للدعوة الفاطمية، ورغم وجود بعض الحركات الثورية فى الشام -كان الغرض منها الرجوع إلى الدعوة العباسية- فإن كل هذه الحركات باءت بالإخفاق إلى أن جاء الحاكم بأمر الله وأعلن مذهبه الجديد، فكان أهل وادى التيم وحوران وجبل لبنان هم الذين تقبلوا هذه العقيدة، وظلوا يحافظون عليها إلى الآن.

ومن جهة أخرى فقد ظلوا فى مقاطعاتهم تحت إمرة شيوخهم، الذين هم بدورهم كان يتبعون الولاة فى دمشق وعكا وبيروت، وبالإضافة إلى ذلك فقد اشتركوا فى معارك عديدة إلى جانب إخوانهم المسلمين، ودافعوا عن أرض الوطن لاسيما إبان الغزو الصليبى وغيره، وبالرغم من محاولات الأعداء لفصلهم وجعلهم أدوات هدم لطعن الأمة من داخلها، إلا أنهم وقفوا مواقف مشرفة فى وجه تلك المخططات والدعوات الانفصالية، وساندوا العرب ضد أطماع العدو المتربص على مراحل التاريخ[١].

ألوهية الحاكم "بأمر الشيطان"

شخصية الحاكم شخصية غريبة وعجيبة، وقل نظيرها فى عصور التاريخ.

---

(١) انظر كتاب طائفة الدروز للدكتور محمد كامل حسين: ص١١.

ولقد شهدت عصور التاريخ شخصيات كثيرة، استطاع بعضها أن يخلد اسمه بما قام به من أعمال مجيدة فى خدمة الإنسانية عامة، أو فيما عاد بالنفع على قومه خاصة.

وقد يخلد بعضهم بأعمال شاذة أصيبت الإنسانية بسببها بخسائر جسيمة أو بأضرار يتناقلها الناس مدى التاريخ، ويصبح هؤلاء الشواذ أمثلة تضرب للفساد، والمصلح والمفسد سرعان ما يصبحان من أبطال القصص الفكاهية والنوادر.

وتصور هذه القصص جلائل أعمال المصلح ومآثره على قومه أو على البشرية، كما تتحدث فى سخط وازدراء أو فى سخرية وتهكم بالمفسد.

يقول الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه[1] بخصوص شخصية الحاكم الشاذة: ولا أكاد أعرف بين شخصيات التاريخ من جمع بين هذه المتناقضات فى حكم المؤرخين، وأحاديث العامة مثل شخصية الحاكم بأمر الله، الذى حكم رقعة واسعة من الأرض امتدت من المحيط الأطلسى إلى جبال طوروس، وشملت فيما شملته جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا والجزيرة العربية، ودان له بالإمامة عدد كبير فى العراق وفارس والهند، فكان امبراطورًا على أكبر دولة فى عصره، وظل فى حكمه من سنة ٣٨٦هـ حتى سنة ٤١١هـ.

هذا الامبراطور اختلف الناس فى شخصيته اختلافًا شديدًا جدًا، فقد رفعه قوم إلى درجة الألوهية، وهم الدروز، واعتقد فيه قوم أنه إمام المسلمين وخليفة رب العالمين وسليل الرسول الكريم، وهم الإسماعيلية الفاطميون، وذهب أكثر المؤرخين إلى أنه كان شاذ الطباع مريضًا بالعقل، يأتى بأعمال تضحك

---

(١) طائفة الدروز: ص٣٤.

الثكلى، تدل على الجنون، وهؤلاء هم مؤرخو العرب والمؤرخون المسيحيون.

ووقف المؤرخون المحدثون منه نفس موقف القدماء، فاحتار العلماء فى تكييف شخصية الحاكم بأمر الله وخاصة من ناحية أعماله وتصرفاته أو سلوكه، بصرف النظر عن ناحية منزلته الدينية بين الناس.

وإذا ما نظرنا إلى بعض ما قام به الحاكم، نراه يأتى بأعمال مختلفة - وخاصة ما يتعلق منها بالعقيدة الفاطمية التى هو إمامها- وفى أعماله هذه ما يخالف ما جرى عليه آباؤه وأجداده منذ قيام الدولة الفاطمية.

لقد كان الفاطميون يسبون السلف الصالح، وكانوا ينشرون تعاليمهم ويعقدون مجالس التأويل، المعروفة بمجالس الحكمة التأويلية، ومنها ما يتعلق بالأذان والصيام. كل هذا أمر الحاكم بإبطاله. كما أصدر مرسومًا بتعطيل الزكاة وإلغائها، كما ألغى تقاليد كثيرة، منها حضور صلاة الجمعة والعيدين وإرسال كسوة الكعبة[١].

لقد ورد فى كتاب تاريخ الدولة الإسلامية[٢]، أن طائفة من غلاة دعاة الإسماعيلية قد ألهوا الخليفة الحاكم، وخرجوا على السواد الأعظم من الإسماعيليين المعتدلين، الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة، ومن أعظم هؤلاء الغلاة حمزة بن على الزوزنى والحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأحزم، ومحمد بن إسماعيل أنوشتكين البخارى الدرزى.

ففى سنة ٤٠٨هـ جهر حمزة بن على بألوهية الحاكم[٣]، وصنف كتابًا ذكر

(١) طائفة الدروز: ص٣٤ - ٥٠.

(٢) تاريخ الدولة الإسلامية: ج٣. ص٢٠٥ - ٢٠٦.

(٣) إن تأليه البشر فكرة قديمة، فقد أله المصريون القدماء ملوكهم، والنصارى ألهوا عيسى =

فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت فى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم انتقلت إلى على بن أبى طالب، وأن روح على انتقلت إلى العزيز ثم إلى ابنه الحاكم، الذى أصبح فى نظرهم إلاهًا عن طريق الحلول.

ويعتبر حمزة بن على المؤسس الحقيقى لمذهب الدرزية، وقد استغل الحسن بن حيدرة الفرغانى -الأحزم- على الجهر بتأليه الحاكم فى سنة ٤٠٩هـ. حيث قتل.

وكان الحاكم يشجع هذه الدعوة فى مصر أولًا وفى الشام ثانيًا، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله، وقد ادعى تجسيم الإله فى شخصه، وهو -وإن لم يصرح بذلك- كان يوافق على آراء النصارى كحمزة بن على والدرزى اللذين نسبا إليه الصفات التى لا يتصف بها إلا الله سبحانه وتعالى. كما شجع بعض الشعراء المتصلين بالبلاط الفاطمى هذا الاعتقاد، ولم يترددوا فى أن ينسبوا إليه بعض صفات الله سبحانه وتعالى، وهم يقرؤون القرآن بحضرته، حتى لقد أُرغم كل من لم يقل بألوهية الحاكم على دفع الجزية.

وقد رأى بعض النفعيين -الذين يبيعون أنفسهم ودينهم للشيطان من أجل مصلحتهم الخاصة- أن يستغلوا ذلك الشذوذ لصالحهم لينالوا خير هذا الإمام -الحاكم بأمر الله- ويأمنوا شره، فخلعوا عليه وصف الألوهية المنبثق من مذهب بعض الشيعة، حيث وافقهم الحاكم على زعمهم لأنه يتفق مع شذوذه ومع ما ورثه عن بيئته الشيعية.

=

عَلَيْهِ السَّلَامُ، واليهود ألهوا عزيزًا، ثم انتقلت هذه الضلالة إلى بعض فرق المنتسبين إلى الإسلام، فالعلويون ألهوا عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والآغاخانية ألهوا الآغاخان، والدروز ألهوا الحاكم (بأمر شيطانه). فليحذر المسلمون سموم هذه الدعوات المحرفة وأضاليلها.

وقد حض عبد الله الدرزى الناس على عبادته، وأطلق على أتباعه اسم الموحدين[١]. وبعد موته المجهول المكان والكيفية، ادعى أتباعه أنه سيعود ويملأ الأرض والدنيا عدلًا. وعندما حارب المصريون هذه الدعوة ودعاتها، فروا إلى الشام وسكنوا الجبل الذى عرف باسمهم لما جاوروه[٢].

إحدى رسائل الدروز التى تكشف ألوهية الحاكم

سنقف وقفة طويلة مع رسالة حمزة بن على بن أحمد، الموسومة -بكتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا جل ذكره من الهزل-. فقد رأيت أن أنقل هنا نص هذه الرسالة دون تعليق، لأنها بنفسها تغنى عن كل تعليق!!.

وهذه نصوصها كما جاءت فى كتاب طائفة الدروز: ص٤٥ - ٥٠. قال حمزة[٣] فى هذه الرسالة: أما بعد، معاشر الموحدين، أعانكم المولى على طاعته. إنه وصل إلى من بعض الإخوان الموحدين -كثر المولى عددهم، وزكى أعمالهم، وحسن نياتهم- رقعة يذكرون فيها ما يتكلم به المارقون عن الدين، الجاحدون لحقائق التنزيه، ويطلقون ألسنتهم بما يشاكل أفعالهم الردية، وما تميل إليه أديانهم الدنية، فيما يظهر لهم من أفعال مولانا -جل ذكره ونطقه- وما يجرى قدامه من الأفعال التى فيها حكمة بالغة -جدًا كانت أم هزلًا- يخرج حكمته ويظهرها بعد حين.. ولو نظرنا إلى أفعال مولانا -جلت قدرته- بالعين الحقيقية وتدبروا إشارته بالنور الشعشانى، لبانت لهم الألوهية والقدرة الأزلية والسلطان الأبدى، وتخلصوا من شبكة إبليس وجنوده الغوية، ولتصور لهم

---

(١) أوردت هنا فقرات عن شخصية الحاكم بأمر الله إمام الدعوة الفاطمية، لأن عقائد الفاطميين هى الأساس الأول للعقيدة الدرزية.

(٢) البابية والبهائية.

(٣) حمزة بن على هو المؤسس الحقيقى لمذهب الدرزية وأول من جهر بألوهية الحاكم.

حكمة ركوب مولانا -جل ذكره- وأفعاله، وعلموا حقيقة المحض فى جده وهزله ووقفوا على مراتب حدوده، وما تدل عليه ظواهر أموره. جل ذكره وعز اسمه ولا معبود سواه.

فأول ما أظهر من حكمته ما لم يعرف فى كل عصر وزمان ودهر وأوان، وهو ما ينكره العامة من أفعال الملوك من تربية الشعر ولباس الصوف، وركوب الحمار بسروج غير محلاة، لا ذهب ولا فضة، والثلاث خصال معنى واحد فى الحقيقة، لأن الشعر دليل على ظواهر التنزيل، والحمير دليل على النطقاء - الأنبياء لقوله لمحمد: يا بنى أقم الصلاة وآت الزكاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، إن ذلك من عزم الأمور، ولا تصعر خدك ولا تمش فى الأرض مرحًا، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولًا، كل ذلك كان عند ربك شيئا محذورًا، وانقص من مشيك، واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير[1].

والعامة يرون أن هذه الآية حكاية عن لقمان الحكيم لولده، فكذبوا وحرفوا القول، وإنما هو السابق -وهو سلمان- فإنما سمى الناطق لولده لحد التعليم والمادة، إذ كان سائر النطقاء والأوصياء أولاد السابق المبدع الأول وهو سلمان.

فقال سلمان لمحمد: أقم الصلاة، إشارة إلى توحيد مولانا جل ذكره

---

(١) الآية القرآنية محرفة تحريفًا شديدًا جدًا هنا، فقد أضيفت إلى الآية الكريمة ألفاظ وحذف منها ألفاظ. والنص الصحيح فى سورة لقمان من آية ١٦ - ١٩ هو: ﴿يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. ولا تمش فى الأرض مرحًا إن الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾. صدق الله العظيم

ولحدوده ولدعاته، وأمر بالمعروف، وهو توحيد مولانا جل ذكره، وانه عن المنكر، يعنى شريعته، وما جاء به من الناموس والتكليف. إن ذلك من عزم الأمور، يعنى الحقائق، وما فيها من نجاة الأرواح من نطق الناطق. ولا تصعر خدك للناس، الخد: وجه السابق، وتصعيره: ستره فضيلته.

ولا تمش فى الأرض مرحًا، فالمرح هو التقصير واللعب فى الدين، والأرض ههنا هو الجناح الأيمن الداعى إلى التوحيد المحض. واغضض من صوتك، يعنى بذلك اخفض وأنقص وأقصر نطقك بالشريعة. إن أنكر الأصوات: يعنى الدعوة الظاهرة. لصوت الحمير، يعنى بذلك أشر كلام وأفحشه وأنكره نطق الشرائع المذمومة فى كل عصر وزمان. فأظهر مولانا -جل ذكره- لبس الصوف وتربية الشعر، وهو دليل على ما ظهر من استعمال الناموس الظاهر، وتعلق أهل التأويل بعلى بن أبى طالب وعبادته، وركوب الحمار دليل على إظهار الحقيقة على شرائع النطقاء.

وأما السرج بلا ذهب ولا فضة، دليل على بطلان الشريعتين، الناطق والأساس. واستعمال حُلى الحديد على السروج، دليل على إظهار السيف على سائر أصحاب الشرائع وبطلانهم.

واستعمال الصحراء فى ظاهر الأمر، وخروج مولانا -جل ذكره- فى ذلك اليوم من السرداب ومن البستان إلى العالم دون سائر الأبواب، فالسرداب والبستان -اللذان يخرج مولانا منهما- ليس لأحد إليهما وصول ولا له بهما معرفة، إلا أن يكون لمن يخدمهما أو خواصهما وهو دليل على ابتداء ظهور مولانا -سبحانه- بالوحدانية، ومباشرته بالصمدانية بالحدين اللذين كانا خفيين عن سائر العالمين، إلا لمن يعرفهما بالرموز والإشارات، وهما الإرادة

والمشيئة. والإرادة هو ذو معة والمشيئة تالية، فليس يعرفهما إلا الموحدون لمولانا، جل ذكره.

ومن السرداب يخرج إلى البستان، كذلك العلم يخرج من ذى معة إلى ذى مصة، الذى هو بمنزلة الجنة صاحب الأشجار والأنهار، ثم يخرج منهما إلى النفس، فأول ما يلقى بستان برجوان -وهو المعروف بالحجازى- فلا يدخله ولا يدور حوله فى معنية، وهو دليل على الكلمة الأزلية، ثم يمضى إلى البستان المعروف بالدكة على شاطئ البحر، كذلك علم التأويل ممثوله البحر.

والمستجيب للعهد إذا بلغ علم السابق ومعرفته، حسب أنه قد بلغ الغاية والنهاية فى العبادة.

وبستان الدكة مع جلالته ملاصق لموضع الفحشاء والمنكر دون سائر البساتين، دليل على أن علم السابق واصل بالنطقاء الذين هم معادن النواميس الفانية الحشوية والأعمال الفاحشة الدنية، والمقس دليل على الناطق، وما فى المقس من الفحشاء والمنكر دليل على شريعته، وارتكابهم الشهوات البهمة فى طاعته.

ثم إنه -علينا سلامه- يخرج إلى الصناعة ويدخل من بابها ويخرج من الآخر، والصناعة دليل على صاحب الشريعة، والصناعة ممنوعة من دخولها العالم فيها، فدخول مولانا -جل ذكره- فيها من باب وخروجه من باب دليل على تحريم الشريعة وتعطيلها.

ثم إنه -علينا سلامه ورحمته- يدور حول البستان المعروف بالحجازى وهو دليل على الكلمة الأزلية، والدوران حوله بلوغ إلى الكشف بلا سترة تحوط بالدين...

ثم إنه يبلغ إلى القصور -وهما قصران عظيمان خرابان- دليل على بطلان الشريعتين وخرابهما. ثم إنه يدخل من باب البستان المعروف بالمختص، وهو دليل على التالى، إذ كان التالى مختص بعلمه، وأكثر العالم يميلون إليه، هو هيولى العالم الجرماني.

ومن الشيعة من يقول بأن التالى مولانا، وهذا هو الكفر والشرك، وإنما هو التالى الذى عجز الناس عن معرفته، وهو الجنة المعروفة بالمختص، متصلة بالجنة المعروفة بالعصار، والعصار دليل على الناطق لأنه يعصر علم التالى، فيخرج منه الحقيقة والتوحيد فيكتمه عن العالم الغبى، ويظهر لهم الشغل، وهو الكسب الذى لا ينتفع به غير البهائم.

وكذلك البستان المعروف بالعصار، وهو خراب من الفواكه والأشجار والرياحين والأثمار، وبستان المختص عامر بالفاكهة والأزهار والرياحين والأشجار، ومنه يخرج الماء إلى الحوض الذى تشرب منه البهائم. والماء هو العلم، والحوض هو المادة الجارى من التالى. والدواب هم النطقاء والأسس، وكذلك العلم يخرج من التالى إلى الأساس فى كل عصر وزمان، والسابق ممد الناطق.

وهذان البستانان بين المسجدين المعروفين بمسجد تبر ومسجد ريدان، فمسجد ريدان محازى بستان العصار، ومسجد تبر محاذى بستان المختص، ومسجد تبر دليل على الناطق، والتبر دليل على الذهب، والذهب دليل على ذهاب شريعته. وهذا المسجد لم يصل فيه صلاة جماعة قط، دليل على أن ليس للناطق ولا لمن تبعه اتصال بالتوحيد.

ومسجد ريدان دليل على حجة الكشف القائم بالسيف والعنف، الداعى

إلى التوحيد المنكر عند سائر العالمين، فبإزاء الباطل -الذى هو جنة العصار وهو دليل على الناطق- حق يرفع وهو مسجد ريدان وهو ذو معة، وبإزاء الحق -الذى هو جنة المختص وهو التالى- باطل يطلب فساده، هو مسجد تبر وهو الناطق. وريدان خمسة أحرف دليل على الخمسة حدود النفسانيين والنورانيين والجرمانيين والجسمانيين. وهى ذو معة العقل المكلى النفسانى، وذو معة النفس الروحانى والجناح الربانى، والأيمن الباب الأعظم، وهو السابق والتالى معدن العلوم.

وما من المساجد مسجد سقطت قبته وهوى بكماله غير مسجد ريدان، فأمر مولانا سبحانه بإنشاء قبته، وزاد فى طوله وعرضه وسموه، دليلًا على هدم الشريعة الظاهرة على يد عبده الساكن فيه[1]، وأنشأ توحيد مولانا جل ذكره فيه بالحقيقة ظاهرًا مكشوفة. (قبحهم الله ما أسخفهم وما أضل عقولهم).

ونزوله عن الحمار إلى الأرض وركوبه آخر محاذى باب المسجد دليل على تغيير الشريعة وإثبات التوحيد، وإظهار الشريعة الروحانية على يد عبده حمزة بن على بن أحمد، ونزوله إلى الأرض محاذى باب المسجد، إشارة منه إلى عبده باب حجابه على خلقه، ونزوله عن الحمار وركوبه آخر كان فى نفس أذان الزوال، وصلاة الزوال دليل على الناطق.

وتغيير مولانا الحمار -فى نفس وقت الأذان- دليل على إزالة الظاهر. ثم إن مولانا لابد له فى كل ركبة من الإعادة إلى البستانين المعروفين بالمقس، دليل على إظهار النشء الثالث الخارج من الكفر والشرك وهما الظاهر والباطن[2]،

(١) المعروف أن حمزة بن على كان يسكن مسجد ريدان هذا.

(٢) وبالمناسبة فجل الفرق الباطنية تستخدم الألفاظ والرموز المبهمة وتقول بالتأويل، وأن =

وهو توحيد مولانا جل ذكره.

ودخوله إلى القصر من الباب الذى يخرج منه والسرداب بعينه دليل على إثبات الأمر وكشف الطرائق.

وأما نزوله فى ظاهر الأمر إلى مصر وما شاهدناه، ففيها تمكن الشيطان الغوى من قلوب العامة الحشوية، والعقول السخيفة الشرعية مما يسمعونه من ألسن الركابية قدام مولانا، بما يستقر فى عقولهم السخيفة من كلام الهزل والمزاح.

ولم يعرفوا أن فيه حكمة بالغة، فأول مسيره إلى المشاهد الثلاثة، وليس فيها أذان ولا إقامة ولا صلاة جماعة إلا فى الوسط، ثم إنه يسير إلى راشدة، وهى أيضًا ثلاثة مساجد متفاوتات البنيان، وأحسن ما فيها وأعلاها وأفضلها الذى يصلى الخطيب فيه يوم الجمعة، وتصلى فيه خمس صلوات على دائم الأيام وهو الوسطانى، وهو دليل على توحيد مولانا وإثبات خمس حدود علوية فيه.

والمسجدان اللذان معه متفاوتان فى البناء دليل على الناطق والأساس، وكذلك الناطق فى ترتيب حدوده أفضل من الأساس، والأساس أعظم شأنًا فى ترتيب الباطن ورموزه من الناطق فى المعقولات والبيان.

فلما ظهر التوحيد زالت قدوتهما جميعًا وسميت راشدة، لأن بمعرفته الحجة وهدايته والأخد منه يرشد المستجيبون، ثم -إن علينا سلامه ورحمته- يدور حول هذا المسجد الوسطانى فى ظاهر الأمر دليل على التأييد لعبده.

وقدام المسجد عقبة صعبة الصعود لمن يسلكها، وليس إلى القرافة محجة

=

للقرآن باطنًا وظاهرًا، وذلك للتستر والتمويه على الدهماء لتنفيذ مآربها، ومن بين هذه الفرق: القرامطة والنصيرية والفاطمية والصوفية والدروز - قيد البحث.

إلا على هذه العقبة، دليل على البراءة من الأبالسة أصحاب الزخرف والناموس.

وأما ما يرونه من وقوفه فى الصوفية واستماعه لأغانيهم والنظر إلى رقصهم، فهو دليل على ما استعمل من الشريعة التى هى الزخرف واللهو واللعب وقد دنا هلاكهم.

وأما لعب الركابية بالعصى والمقارع قدام مولانا -جل ذكره- فهو دليل على مكاسرة أهل الشرك والعامة وتشويههم بين العالم، وإظهار أديانهم المغاشم ويكشف زيفهم.

أما الصراع فهو دليل على مفاتحة الدعاة بعضهم لبعض، وقد كان للعالم فى قتل السويد والحمام عبرة لمن اعتبر، لأنهما كانا رئيسين فى الصراع، ولكل واحد منهما عشيرة تحميه وأتباع.، وهما دليلان على الناطق والأساس، وقتلهما دليل على تعطيل الشريعتين، التنزيل والتأويل والهوان بالطائفتين من أهل الكفر والتلحيد.

وأما ما ذكره الركابية من ذكر الفروج والأحاليل، فهما دليلان على الناطق والأساس، وقوله: أرنى قمرك، يعنى: اكشف عن أساسك. وهو موضع يخرج منه القذر دليل على الشرك، فإذا كشف عن أساسه وأخرج قبله -أى عبادة أساسه- نجا من العذاب والزيغ فى اعتقاده، ومن شك هلك.. الخ[1].

وهكذا بعد أن وقفت أيها القارئ الكريم على ما جاء فى هذه الرسالة الخطيرة، والتى هى إحدى الرسائل التى تتضمنها الكتب المقدسة للدروز، الذين اتخذوا الحاكم معبودهم، وقد أثبت نصها كاملًا لأهميتها، ولكى يطلع

---

(١) كتاب طائفة الدروز: ص٤٥ - ٥٠.

عليها أبناء الأمة لما احتوت من شرك وضلال وفساد للعقول والأذهان.

أقول بعد هذا كله: الحذر الحذر من كيد المبطلين. وليس لنا أن نعلق على هذه الرسالة بل نترك التعليق للقراء، لأن نصوصها لا تخفى على اللبيب وتغنى عن كل تعليق.

وأما ما ذكره المؤرخون فى كتبهم عن سلوك الحاكم فلم يكن من خيال، أو أنها وضعت للسخرية بالحاكم، إنما هى أفعال اعترف بها داعيته ونبيه، وأثبتها فى الكتب المقدسة التى يدين بها من اعتقدوا ألوهية الحاكم، فنحن إذن مضطرون إلى أن نصدق المؤرخين فى معظم تلك القصص التى أوردوها عن الحاكم ولا سبيل إلى إنكارها.

لاهوت المعبود وناسوته

لعل أهم عقيدة نراها فى كتب ورسائل حمزة بن على أن للحاكم -بأمر الله- حقيقة لاهوتية لا تدرك بالحواس ولا بالأوهام، ولا تعرف بالرأى ولا بالقياس، ومهما حاول الإنسان أن يفكر فيه لمعرفة كنهه، فهو يحاول محاولة فاشلة، لأن لاهوته ليس له مكان، ولكن لا يخلو منه مكان، وليس بظاهر، كما أنه ليس بباطن.

ولا يوجد اسم من الأسماء يمكن أن يطلق عليه، لأنه لا يدخل تحت الأسماء، إذ لا يتصف بصفات ولا يمكن التعبير عنه بلغة من اللغات، فهو ليس مجسم ولا بشخص وليس بشبح وليس بصورة، فلا يقال عنه أنه جوهر أو يقال أنه عرض.

ولا أقول أنه شىء فيكون محمولًا عليه، ولا هو فى شىء فيكون محاطًا به، ولا متعلق بشىء فيكون قد التجأ إليه.

فالمعبود على هذا النحو ليس له أحد، وهو واحد لا يشبه الكائنات فى شىء، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا -ولم يلد ولم يولد- لا تنسب إليه حركة ولا راحة، وهو البداية والنهاية. فإذا تحدث عنه محدث ووصفه بصفة ما، فإنما يقول ذلك ضرورة وتقريبًا للعقول والأفهام، لعجز المتحدث عن الوصول إلى حقيقة المعبود.

فإذا قال مثلًا: أنه تعالى بارئ كل شىء، ومكون كل شىء، وأنه معل علة العلل القديم الأزل. فلا يقال ذلك عن حقيقة المعبود، لأن حقيقة المعبود نعجز عن الوصول إليها.

وهكذا جرى ذكر التوحيد فى كتب الدروز المقدسة. وحديثهم عن لاهوتية المعبود يتفق تمام الاتفاق مع ما ورد فى كتب الدعوة الفاطمية عن الله سبحانه وتعالى.

إن الإمام الفاطمى المعروف بالحاكم بأمر الله هو عند الدروز بشر فى الأعين المجردة، ويعيش بين الناس كما يعيش غيره من البشر، ذلك عند الذين لا يعرفون حقيقته، أما الدروز الذين عرفوا حقيقته فيذهبون إلى أن الإله المعبود اتخذ لنفسه صورة إنسية سماها الناس الحاكم بأمر الله -مثل ما يتخذ الإنسان ثيابه فيرتديها ثم يطرحها ويرتدى غيرها.

والثياب ليست من جنس من يرتديها ولا تشبهه فى شىء، وكذلك الإله المعبود ليس من جنس الصورة التى اتخذها ولا هى شبيهة به، وهو فى هذه الصورة الناسوتية المتغيرة، ففى كل عصر ظهر فيه اتخذ صورة ناسوتية عن الأخرى.

وفى رسالة السيرة المستقيمة حديث طويل من الأدوار التى أظهر فيها

المعبود ناسوته، لأن المعبود إن لم يظهر ناسوته من حين لآخر لكان الناس يعبدون العدم، وقد ظهر المعبود فى صورة بشرية عشر مرات، وكان أول مرة ظهر فيها ناسوت المعبود ببلاد الهند فى بلد يقال لها (تشماتش).

وظهر مرة فى مدينة أصفهان بفارس فى صورة (ألبا)، ولذلك يقول الفرس: (بارخُداى) يعنى الله. وظهر مرة ثانية فى اليمن بصورة شخص يعرف بالموئل، وكان إنسانًا ثريًا يمتلك أكثر من ألف جمل، ولأول مرة يظهر فى صورة ملك عندما ظهر فى شخصية القائم بأمر الله الفاطمى، ثم ظهر فى شخصية أبى بكر زكريا القرمطى، ثم المنصور بالله ثم المعز لدين الله ثم العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله.

وليس لنا أن نناقش هذه العقيدة، إلا أننا نحب أن نسجل أن ظهور أبى بكر القرمطى كان أسبق من ظهور القائم بأمر الله، ثم قولهم: إن القائم كان بمصر وبنى بها بابًا يسمى الرشيدية. كل ذلك بعيد عن الحقيقة التاريخية، حقيقة حاول القائم بأمر الله فتح مصر أكثر من مرة ولكنه لم يوفق، فكيف أقام بها وشيد بها بابًا؟!(١).

بعض معتقدات الدروز:

إن شريعة الدروز تتلخص فى إسقاط الفرائض الدينية التكليفية، وعدم إقامة الفرائض الدينية الإسلامية، والاعتراف بالخصال التوحيدية، فمن اعترف بها فهو من الموحدين وهم فى ذلك يتفقون إلى حد كبير مع المبادئ التى نادى بها الحسن الثانى بن محمد زعيم الإسماعيلية الشرقية فى آلموت سنة ٥٥٨هـ، الذى طلب من أتباعه طرح جميع التكاليف الدينية، ولا يزال الإسماعيلية

---

(١) راجع طائفة الدروز: ص١٠٤ – ١٠٧.

الأغاخانية على هذه العقيدة إلى اليوم. تبا لهم على ضلالهم.

غير أن الدروز يصومون فى أيام خاصة، وهى التسعة أيام الأولى من شهر ذى الحجة، وصيامهم هو نفس التقليد الإسلامى فى الصيام، أى الامتناع عن الأكل والشرب وعن القيام بأى عمل يبطل صيام المسلم، ويحتفلون بعيد الأضحى، الذى هو عيدهم الأكبر، ومنهم المتعبدون الذين يجاهدون النفس فنراهم يصومون عدة أشهر متوالية، على نحو ما يقوم به بعض السادو فى الهند، فالسادو يجاهد نفسه جهادًا عنيفًا بأن يأتى من الأعمال ما فيه تعذيب الجسد فى سبيل تطهير النفس ونقائها(١).

ويذكر لنا الأستاذ محمد كامل حسين فى كتابه(٢) ما شاهده فى معبد بمدينة بومباى بالهند أن سادو يقف على رجله اليسرى وقد رفع رجله اليمنى، ويقول الدكتور محمد كامل حسين بأنه قيل له أن هذا السادو يظل هكذا مدة أربعة أشهر دون أن يستريح، فهو يأكل وينام وهو على هذه المثابة(٣). وهكذا يظهر لنا أن الدروز فى تعبداتهم يلتقون مع المجوس والوثنية.

ومن الدروز من أقلع عن الزواج إمعانًا فى تصوفه، ومنهم من لا يأكل لحمًا طوال حياته على نحو ما يفعله براهمة الهند، بل هؤلاء لا يذوقون شيئًا من بيت أحد من غير العقال مثل البراهمة تمامًا.

واختلفت الرسائل المقدسة فى مكان ظهور المعبود يوم القيامة، فبعضها وخاصة كتابات حمزة بن على -تذهب إلى أن ظهوره سيكون فى مصر. أما

---

(١) المصدر السابق: ص١٢٣.

(٢) طائفة الدروز: ص١٢٣.

(٣) نفس المصدر: ص١٢٢ وما بعدها.

رسالة الأسرار ففيها تصريح بأن المعبود سيكون فى بلاد الصين، يخرج من سد الصين العظيم وحوله شعب يأجوج ومأجوج، وهم قوم يؤمنون بمذهب التوحيد ويدخلون مكة، ويتجلى المعبود لهم فى صورة الحاكم بأمر الله من الركن اليمانى، وفى يده السيف فيقدمه إلى حمزة الذى يهدد بسيف الحاكم مخالفى العقيدة ويعطى الحكم للموحدين.

وينقسم الناس يوم البعث إلى أربع فرق، فرقة ناجية، وهى فرقة الموحدين وسيكون لهم السلطان ومنهم الوزراء والحكام، وثلاث فرق هالكة، هم أهل الظاهر وأهل الباطن والمرتدون، وأصحاب هذه الفرق الثلاث سيكونون عبيدًا للموحدين... أما العذاب والجزاء فيفهم من كتابات حمزة أن العذاب الواقع بالإنسان نقلته من درجة عالية إلى درجة دونها من درجات الدين، و قلة معيشته وعمى قلبه فى دينه ودنياه، ويستمر تنقله من جسد إلى جسد بتناسخ روحه فى الأجساد، وهو كلما تنتقل روحه من جسد إلى جسد تقل منزلته الدينية، أما الجزاء فى الثواب مادام يتكرر فى الأجساد، فهو زيادة درجته فى العلوم الدينية وارتفاعه من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ إلى درجة حد (المكاسر) وهو حد من حدود الدين.

وهكذا نلاحظ أن العقيدة الدرزية فى اليوم الآخر وفى الثواب والعقاب كما فى قول حمزة وبهاء الدين - هو نفس ما جاء فى كتب تأويل العقيدة الفاطمية.

ومن أراد البسط والتوسع فعليه بمطالعة العقيدة الفاطمية ففيها شفاءُ العليل.

ويذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه[1]: أن الحاكم بأمر الله زعم فى آخر عهده أن الروح القدس ماثلة فى شخصه، وادعى الألوهية، وكان واضع

---

(١) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة.

أصول هذه الدعوة الجديدة -وهى دعوة إلحادية- ورأسها هو حمزة بن على، وكان قد وفد على القاهرة قبل ذلك بقليل ودعا إلى ألوهية الحاكم فى القاهرة، ووضع لدينه الجديد أصولًا ورسائل، وتوثقت صلاته بالحاكم والدعاة السريين، ولكن دعوته الألحادية لم تلق فى مصر إقبالًا، وقل دعاتها الكبار، ثم طوردوا فى كل مكان وهربوا، وأخيرًا قتل الحاكم فى مؤامرة دبرتها أخته -ست الملك- وأخفيت جثته فازداد أتباعه فتنة، وزعموا أنه لم يمت بل رفع إلى السماء.

وصار ذلك مذهب دروز الشام الذين حملهم إسماعيل الدرزى على اتباع تعاليمه، وخرجوا فى صوغ مذهبهم عن تعاليم عبد الله بن ميمون الأصلية، فهم دهرية يقولون بالحلول، وأن الله -حكمة عامة- تمثل فى آلهة عدة، وأن الحاكم بأمر الله آخر هؤلاء الآلية، وأنه سوف يعود إلى الظهور حيثما يصل الظلم فى العالم غايته، فينفتح العالم ويقضى على جميع الأديان الأخرى.

ويستطرد الأستاذ عبد الله عنان قائلًا: ويتبع الدروز خطة الإسماعيلية فى نشر دعوتهم بين أبناء الأديان الأخرى، فيتظاهرون أمام المسلمين بأنهم يؤمنون بمحمد ﷺ وأمام النصارى بأنهم يؤمنون بالمسيح، ويبررون هذا المسلك بأنه واجب ألا تكشف أسرار مذهبهم إلى أسود أو كافر. ومن عاداتهم أنهم يجتمعون نساءً ورجالًا ليتحدثوا فى الشئون السياسية والدينية، بيد أنه لا يجوز لعاقل أن يشترك فى تقرير الأمور. وتشبه رموزهم وإشاراتهم فى التعارف رموز البناء الحر الماهر عند الماسونية.اهـ.

ونختم الحديث عن الدروز بما ذكره الإمام ابن قيم الجوزية -علامة

زمانه- فى كتابه القيم[١]، بعد أن تحدث عن المجوس وفرقهم وأديانهم، حتى قال:.. ومنهم الخرمية -أصحاب بابك الخرمى- وهم شر طوائفهم، لا يقرون بصانع ولا معاد ولا نبوة ولا حلال ولا حرام، وعلى مذهبهم طوائف القرامطة والإسماعيلية والنصيرية والبشكية والدرزية والحاكمية وسائر العبيدية، الذين يسمون أنفسهم الفاطمية وهم أكفر الكفار.

فكل هؤلاء يجمعهم هذا المذهب ويتفاوتون فى التفصيل. ثم قال: فالمجوس شيوخ هؤلاء كلهم وأئمتهم وقدوتهم، وإن كان المجوس قد يتقيدون بأصل دينهم وشرائعهم، وهؤلاء لا يتقيدون بدين من ديانات العالم ولا بشريعة من الشرائع. أ. هـ. هذه إلمامة سريعة عن الدروز ذكرتها لينتفع بها القراء.

النصيرية - العلوية

اختلف أصحاب كتب الفرق فى ابن نصير مؤسس هذه الفرقة والتى اتفقوا بأنها تؤله عليًا. وقال معتنقو هذه العقيدة: وإنما أثبتنا هذا الاختصاص -ظهور الروحانى بالجسد الجسدانى- بعلي دون غيره، لأنه كان مخصوصًا بتأييد من عند الله تعالى، مما يتعلق بباطن الأسرار[٢].

وقالت النصيرية أيضًا: كان هو[٣] موجودًا قبل خلق السموات والأرض[٤].

وتقيم النصيرية بجبال اللاذقية بسوريا، وغيرها من مناطق الفرات، وعدد أفرادها الآن (٣٥٦) ألف نسمة. وهى تتبع محمد بن نصير، من أتباع الحسن

---

(١) إغاثة اللهفان: ج٢ الصفحات ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥.

(٢) راجع الملل والنحل: ج١ ص٣١٧.

(٣) يقصدون بذلك الإمام على رضي الله عنه.

(٤) الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل مصطفى الشيبى.

العسكرى، الإمام الحادى عشر، ثم انفصل عنه وادعى الألوهية[١] - قاتله الله. فالنصيرية فرقة من الإمامية ينتسبون إلى محمد بن نصير -من موالى بنى نمير- وهو من أتباع الإمام الحادى عشر. وهؤلاء يعتبرون عقيدتهم سرًا من الأسرار. فلا تلقن للنساء ولا للرجال حتى يبلغوا العام التاسع عشر. وكانت تعاليمهم محوطة بالسرية التامة[٢].

أهم معتقداتهم وآرائهم

ويتلخص مذهب النصيرية ومعتقدهم فيما يلى:

١. يرفعون عليًا إلى درجة الألوهية، ويجعلون مسكنه السحاب، فإذا مرت بهم سحابة قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن.

٢. يدعون الألوهية للأئمة من بعد على، وبذلك يقولون بتعدد الآلهة. وقد أخذ البابية والبهائية بهذا المبدأ فى تخبطاتهم، فقد زعم كل من الباب والبهاء وابنه عباس أنه إله، قاتلهم الله أنى يأفكون.

٣. يقولون بتناسخ الأرواح، فالتى تطهر منها تحل بالنجوم، والشريرة تحل بالحيوانات النجسة.

٤. يكفرون أبا بكر وعمر ولا يستعملون اسميهما.

٥. يحتفلون بالأعياد المسيحية، ولا يصومون رمضان، ومن هنا أخذ الباب -زعيم الطائفة البابية الضالة- فكرة مزج الأديان بعضها ببعض وتغيير وقت الصوم وأيامه.

٦. الصلوات الخمس رمز لعلى وابنيه وفاطمة. وذكر هذه الأسماء يرفع

---

(١) بتصرف عن كتاب الفكر الإسلامى فى تطوره: ص٥٨. للدكتور محمد البهى.

(٢) البابية والبهائية فى الميزان بتصرف.

الجنابة ويزيل الحدث ويكفى عن الصلاة. وكذا قال البابيون والبهائيون: إن ذكر بعض الأسماء يرفع الحدثين.

٧. يعتبرون الجنة رمزًا للنعيم والنار رمزًا للعذاب، كما فعل الإسماعيليون. وبذلك أخذ البابية والبهائية.

٨. يبيحون الخمر، ويرون أكبر الأبالسة أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وقبح الله البصريين بما قالوا وهم بذلك كفار يجب قتالهم كما أفتى بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ومثلهم من على شاكلتهم[1].

٩. ويقولون بالأول: وهو روح الله على بن أبى طالب.

وبالثانى: وهو المظهر الخارجى لهذه الروح، محمد بن عبد الله.

وبالثالث: ناشر الشريعة، هو سلمان الفارسى الصحابى الزاهد. على أن ثلاثتهم فى العالم الأزلى الأبدى الكامل. والنصيرية فرقة من فرق الشيعة الغلاة التى تنتسب إلى الإسماعيلية[2].

سئل شيخ الإسلام وناصر السنة -إمام الزاهدين ومنار المجاهدين المجتهد الربانى -تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ) رحمه الله رحمة واسعة، سئل عن النصيرية وما يتعلق بهم ومعتقداتهم، بمقتضى سؤال حرره الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمود بن مرى الشافعى، عفا الله عنه وعن أئمة المسلمين.

وإلى القارئ الكريم صورة موجزة لكتاب السائل المذكور أعلاه عن طائفة النصيرية المنحرفة، وجاء فيه ما يلى:

(١) البابية والبهائية فى الميزان بتصرف. للأستاذ مصطفى الطير.

(٢) راجع كتاب الفكر الإسلامى فى تطوره: ص٥٨. للدكتور محمد البهى.

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين وأعانهم على إظهار الحق المبين وإخماد شغب المبطلين- فى النصيرية القائلين باستحلال الخمر، وتناسخ الأرواح، وقدم العالم، وإنكار البعث والنشور والجنة والنار فى غير الحياة الدنيا، وبأن الصلوات عبارة عن خمسة أسماء، وهى على وحسن وحسين ومحسن وفاطمة، فذكر هذه الأسماء الخمسة على رأيهم يجزئهم عن الغسل من الجنابة والوضوء وبقية شروط الصلوات وواجباتها، وبأن الصيام عندهم عبارة عن اسم ثلاثين رجلًا واسم ثلاثين امرأة يعدونهم فى كتبهم، وبأن إلاههم الذى خلق السموات والأرض هو على بن أبى طالب رضي الله عنه، فهو عندهم الإمام فى السماء والإمام فى الأرض، فكانت الحكمة فى ظهور اللاهوت بهذا الناسوت -على رأيهم- أن يؤنس خلقه وعبيده ليعلمهم كيف يعبدونه ويعرفونه، وبأن النصيرى عندهم لا يصير نصيريًا يجالسونه ويشربون معه الخمر، ويطلعونه على أسرارهم ويزجونه من نسائهم حتى يخاطبه معلمه. ويقولون أن إبليس الأبالسة هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويليه فى رتبة الإبليسية أبو بكر رضي الله عنه ثم عثمان رضي الله عنهم أجمعين، إلى أن يقول السائل: فهل يجوز لمسلم أن يزوجهم أو يتزوج منهم.. وهل يحل أكل ذبائحهم والحالة هذه أم لا؟ وما حكم أوانيهم وملابسهم؟. وهل يجوز دفنهم بين المسلمين أم لا؟. وهل يجوز استخدامهم فى ثغور المسلمين وتسليمها إليهم؟. وهل يجب على من عرف المذكور من مذاهبهم أن يشهر أمرهم ويساعد على إبطال باطلهم؟.

ويختم السؤال بقوله: ولتبسطوا القول فى ذلك مثابين مأجورين إن شاء الله تعالى، إنه على كل شىء قدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل[1].

---

(١) راجع رسالة النصيرية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وفيما يلى جواب -فتوى- شيخ الإسلام على سؤال المستفتى عن النصيرية.

جواب ابن تيمية عن النصيرية - العلويين:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية، أكفر من اليهود والنصارى، وأكفر من كثير من المشركين. وضررهم على أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين، مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم.

فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت، وهم فى الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهى ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد ﷺ ولا بملة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله، المعروف عند علماء المسلمين، يتأولونه على أمور يفترونها، يدعون أنها علم الباطن - من جنس ما ذكره السائل.

فإنهم ليس لهم حد محدود فيما يدعونه من الإلحاد فى أسماء الله تعالى، وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه، إذ مقصودهم إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكل طريق، مع التظاهر بأن لهذه الأمور حقائق يعرفونها -من جنس ما ذكر السائل- ومن جنس قولهم: أن الصلوات الخمس معرفة أسرارهم، والصيام المفروض كتمان أسرارهم، وحج البيت العتيق زيارة شيوخهم، وأن (يدا أبى لهب) هما أبو بكر وعمر. وأن النبأ العظيم والإمام المبين هو على بن أبى طالب.

ولهم فى معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة وكتب مصنفة، فإذا كانت لهم

مكنة سفكوا دماء المسلمين، كما قتلوا مرة الحجاج وألقوهم فى بئر زمزم، وأخذوا مرة الحجر الأسود، وبقى عندهم مدة، وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، وصنفوا كتبًا كثيرة مما ذكره السائل وغيره.

وصنف علماء المسلمين كتبًا فى كشف أسرارهم وهتك أستارهم، وبينوا فيها ما هم عليه من الكفر والزندقة والإلحاد، الذى هم به أكفر من اليهود والنصارى، ومن براهمة الهند الذين يعبدون الأصنام.

النصيرية: هم السبب فى احتلال النصارى والتتر لبلاد الشام -المعلوم لدينا أن السواحل الشامية التى استولى عليها النصارى من جهتهم- وهم دائمًا مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم الأعياد عندهم إذا استولى النصارى على ثغور المسلمين والعياذ بالله.

النصيرية: هم السبب فى سقوط القدس فى أيدى الصليبيين، كذلك هم السبب فى سقوط خلافة العباسيين. هؤلاء المحادون لله ولرسوله. كثروا بالسواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف، فأحوالهم من أعظم الأسباب فى ذلك.

لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين، كنور الدين الشهيد وصلاح الدين وأتباعهما، وفتحوا السواحل من النصارى، ممن كان بها منهم، وفتحوا أيضا أرض مصر- فإنهم كانوا مستولين عليها نحو ٢٠٠ سنة- واتفقوا هم والنصارى، فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد، ومن ذلك التاريخ انتشرت دعوة الإسلام بالديار المصرية والشامية، ثم إن دخول التتار بلاد الإسلام

وقتلهم خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين، لم يتم إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم. منجم فإن هولاكو الذى كان وزيرهم وهو النصير الطوسى -كان وزيرًا لهم- وهو الذى أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء.

النصيرية: لهم عدة أسماء وألقاب عند المسلمين، تارة يسمون الملاحدة، وتارة القرامطة، وتارة الباطنية، وتارة الإسماعيلية، وتارة الخرمية، وتارة المحمرة، ظاهر مذهبهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، وهم كما قال العلماء فيهم. وحقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بنبى من الأنبياء والمرسلين، لا بنوح ولا إبراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا محمد عليهم السلام، ولا بالكتب ولا بالخالق ولا دار ثواب ولا عقاب. وتارة يأخذون بالفلسفة والرفض، وتارة يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة الطبيعيين والإلاهيين!. ويحرفون الأقوال والحديث، وأعمالهم هذه كعمل إخوان الصفا فى رسائلهم، وقد دخل باطلهم على كثير من المسلمين وراج عليهم حتى صار ذلك فى كتب طوائف المنتسبين إلى العلم والدين، وإن كانوا لا يوافقونهم على أصول الدعوة الهادية، وهى درجات متعددة. ويسمون النهاية البلاغ الأكبر والناموس الأعظم.

لا تجوز مناكحتهم ولا أكل ذبائحهم: وقد اتفق علماء المسلمين على أن هؤلاء لا تؤكل ذبائحهم، ولا تجوز مناكحتهم ولا يجوز أن ينكح الرجل مولاته منهم، ولا يتزوج منهم امرأة. وعدم إباحة الذبائح. وأما الجبن المعمول بأنفحتهم ففيه قولان للعلماء مشهوران: كسائر أنفحة الميتة، وكأنفحة ذبيحة المجوس وذبيحة الفرنج، الذين يقال عنهم أنهم لا يذكون الذبائح.

مذهب أبى حنيفة ورواية لأحمد: يجوز أكل هذا الجبن، لأن أنفحة الميت طاهرة.

كذلك أوانيهم وملابسهم كأوانى المجوس وملابسهم عند العلماء والصحيح أنه لا يؤكل فى أوانيهم إلا بعد غسلها.

لا يصلى على موتاهم ولا يدفنون فى مقابر المسلمين: لا يصلى على من مات منهم، فإن الله تعالى نهى رسوله عن الصلاة على المنافقين، كعبد الله بن أبى ونحوه، وكانوا يتظاهرون بالصلاة والزكاة والجهاد مع المسلمين، ولا يظهرون مقالة تخالف دين الإسلام ولكن يسرون ذلك فقال الله تعالى: (ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون).

فكيف بهؤلاء الذين هم مع الزندقة والنفاق يظهرون الكفر والإلحاد. أما استخدام هؤلاء فى ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعاية الغنم، فإنهم من أغش الناس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة، وهم شر من المُخامر الذى يكون فى العسكر، فإن المخامر قد يكون له غرض إما مع أمير العسكر وإما مع العدو، وهؤلاء مع الملة ونبيها ودينها وملوكها وعلمائها وعامتها وخاصتها وهم أحرص الناس على تسليم الحصون إلى عدو المسلمين وعلى إفساد الجند على ولى الأمر وإخراجهم عن طاعته.

ديارهم وأموالهم مباحة: لكن دماءهم وأموالهم مباحة، وإذا أظهروا التوبة ففى قبولها منهم نزاع بين العلماء: فمن قبل توبتهم إذا التزموا شريعة الإسلام، أقرهم على أموالهم، ومن لم يقبلها لم تنقل إلى ورثتهم من جنسهم، فإن مالهم يكون فيئًا لبيت مال المسلمين. لكن هؤلاء إذا أخذوا فإنهم يظهرون التوبة، لأن أصل مذهبهم التقية وكتمان أمرهم، وفيهم من يعرف وفيهم من قد لا يعرف،

فالطريق فى ذلك أن يحتاط فى أمرهم.

لا يتركون يجتمعون ولا يمكنون من حمل السلاح: ويلزمون شرائع الإسلام من الصلوات الخمس وقراءة القرآن، ويترك بينهم من يعلمهم دين الإسلام، ويحال بينهم وبين معلمهم، فإن أبا بكر الصديق وسائر الصحابة -رضوان الله عليهم- لما ظهروا على أهل الردة وجاؤوا إليه قال لهم الصديق: اختاروا إما الحرب المجلية وإما السلم المخزية. فقالوا: يا خليفة رسول الله. هذه الحرب المجلية قد عرفناها، فما السلم المخزية؟. قال: تدون قتلانا ولا ندي قتلاكم. وتشهدون أن قتلانا فى الجنة وأن قتلاكم فى النار. ونقسم ما أصبنا من أموالكم، وتردون ما أصبتم من أموالنا. وتنزع منكم الحلقة والسلاح وتمنعون من ركوب الخيل... حتى يُرِىَ الله الخليفة والمؤمنين أمرًا بعد ردتكم. فوافقه الصحابة على ذلك إلا تضمين قتلى المسلمين، قال عمر: أجرهم على الله.

يقاتل النصيرية قتال المرتدين، وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات: لا ريب أن جهاد هؤلاء من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة بدأوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء حفظ لما فتح من بلاد المسلمين، كذلك ضررهم على المسلمين أعظم من ضرر أولئك الكفار.

بل ضرر هؤلاء من جنس ضرر من يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، وضررهم فى الدين على كثير من الناس أشد من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب.

يجب على كل مسلم أن يفشى أخبارهم: يجب على كل مسلم أن يقوم بذلك بقدر قدرته، فلا يحل لأحد يكتم ما يعرفه من أخبارهم بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم، ولا يحل لأحد أن ينهى عن القيام بما أمر الله به ورسوله، فإن هذا من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله تعالى، وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير).

والمعاون على كف شرهم وهدايتم -بحسب الإمكان- له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإن المقصود بالقصد الأول هو هدايتهم كما قال تعالى: (كنتم خير أمة أُخرجت للناس) قال أبو هريرة: كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم فى القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الإسلام، فالمقصود بالجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: هداية العباد لمصالح المعاش والمعاد -بحسب الإمكان- فمن هداه الله منهم سعد فى الدنيا والآخرة، ومن لم يهتد كف الله ضرره عن غيره.

وهناك أحاديث كثيرة تبين درجات وأهمية الجهاد وبركاته وعظمته[1]. وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (إن فى الجنة مائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، أعدها لله ﷻ للمجاهدين فى سبيله). أهـ

وبعد: ففيما قدمناه عن طائفة العلويين -النصيرية- وما سبق بيانه من فتوى

---

(١) كُتبت هذه الرسالة فى القرن الثامن الهجرى عن النصيرية، وقد أجاب على سؤال طويل بخصوصهم شيخ الإسلام ابن تيمية، الذى فضح أسرارهم وكشف باطلهم وأظهر إلحادهم وكفرهم كما حاربهم بالسيف وشتتهم، رحم الله الإمام المجاهد والعلامة الزاهد وأسكنه فسيح جناته، فقد أدى للإسلام ما عليه من الواجب، ونال الشرف والخلود وكرامة الدارين، فأنعم به من مجاهد.

الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتقدمة بصددهم، لكاف وخير دليل على معرفة عقائد القوم. وقد كفانا شيخ الإسلام مؤونة البحث، فكشف بثاقب بصره وسعة اطلاعه وخبرته بمذاهب النصيرية عن فساد طوياتهم وقد عرض رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك عرضًا جميلًا، وكان رده ردًا قويًا يقنع كل من طلب معرفة الحق ورغب فيه[١].

طائفة البهرة:

ليس غرضنا هنا استقصاء كل ما يتعلق بهذه الطائفة، وإنما حسبنا أن نشير إلى أهم معتقداتها. فعلى الرغم من قلة المراجع والمصادر المتعلقة بالبهرة إلا أننى حاولت جهدى الحصول على معلومات شافية عن هذه الطائفة -الفرقة- لأجلى خفاياها وأكشف القناع عن عقائدها وأسرارها التى تجهلها غالبية عظمى من أبناء المسلمين.

إن هذه الطائفة منتشرة فى ديار العرب والإسلام، كاليمن والعراق، والجزيرة العربية والباكستانية والهند وإيران وغيرها.

وحتى لا يفتن بها المسلمون فقد رأيت أن أقدم هذه المعلومات -التى أرجو أن تكون كافية لإبراز معالم هذه الطائفة وبيان حقيقتها- ليتسنى للمسلمين الاطلاع على خفاياها ومبادئها الملتوية، وعلى ضوء هذا يعرف كيف يتعامل المسلمون مع منتسبى هذه الطائفة الزائغة، التى جعلت الإسلام هدفًا يرمى ومطعنًا للطاعنين، بعد أن اتخذته تكئة ووسيلة لتنفيذ مآربها وتحقيق أغراضها الشريرة.

---

(١) وبالمناسبة فإنا نحمد الله الذى يقيض لدينه فى كل زمان ومكان من يرد عنه كيد الكائدين، ويكشف زيف المبطلين المضللين. اللهم بسيفك القاطع اقصم رقاب الضالين والمبتدعين وأهلكهم أجمعين فإنهم لا يعجزونك، وقنا شرهم يا رب العالمين.

فالبهرة هى إسماعيلية الهند واليمن، وهم ينتسبون إلى الإسماعيلية المستعلية، التى كان يتبعها اليمنيون فى عهد الصليحيين، ويسمون الطيبة نسبة إلى الطيب بن الخليفة المستعلى.

وانقسمت دعوة البهرة إلى فرقتين، البهرة الداودية والبهرة السليمانية والأولى بالنسبة إلى الداعى قطب شاه داود، والثانية بالنسبة إلى الداعى سليمان بن حسن.

فأما البهرة الداودية فمركزهم فى الهند -الهند وباكستان الآن- منذ القرن العاشر الهجرى، وداعيهم يقيم فى بومباى. أما البهرة السليمانية فمركزهم فى اليمن حتى اليوم[1].

فالبهرة يختلفون عن الآغاخانية اختلافًا كليًا فى العقيدة والسلوك والتطبيق، حيث إنهم ينتسبون للفاطميين الذين أقاموا دولتهم فى شمال أفريقيا- ومنهم المعز لدين الله الفاطمى الذى فتح مصر وبنى الأزهر - ورئيس طائفة البهرة يلقب بداعى الدعاة وبالسلطان، لما له من سلطة روحية لها أثرها العميق فى نفوس أتباعه، حيث إنهم يستجيبون لكل ما يدعوهم إليه بمحبة واقتناع. وهذه الطائفة تعدادها مليون ونصف نسمة، معظمهم فى الهند[2].

بعض معتقدات البهرة:

إن أفراد الطائفة يحترمون القرآن الكريم ظاهريًا، ويؤولون آياته الكريمة ليستخرجوا منها معانى ما أنزل الله بها من سلطان. ولهم كتاب آخر يحظى بتقديسهم جميعًا هو كتاب النصيحة -لمؤلفه الداعى الحادى والخمسين طاهر

---

(١) إسلام بلا مذاهب: ص٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) مجلة هدى الإسلام: عمان.

سيف الدين- ويعتبرونه قرآنهم.

كما أنهم يتوجهون فى صلاتهم إلى قبره -فى مدينة بومباى فى الهند، ويطلقون عليه اسم: روضة الطاهرة- لا إلى الكعبة المشرفة[١]، وتجب عليهم الصلاة فى العشرة أيام الأولى من شهر محرم. وفى غيرها لا تجب عليهم الصلاة. ولا يصلون إلا فى مكان خاص بهم يسمى: الجامع خانة. وإذا لم يذهب الشخص منهم إلى الجامع خانة فى العشرة أيام الأولى من شهر محرم يطرد من الطائفة ويفرض عليه الحرمان.

ولهم فى الكويت جامع خانه فى شارع الاستقلال[٢]، ولكنهم يقولون أن صلاتهم تلك للإمام الاسماعيلي المستور من نسل الطيب ابن الآمر. وهم يذهبون إلى مكة للحج كبقية المسلمين -ظاهريًا- ويقولون أن الكعبة هى رمز على الإمام[٣].

حياة البهرة الاجتماعية

يبلغ دخل الداعى -رئيس الطائفة- ١٢٠ مليون روبية هندية سنويًا. ويتقاضى كل فرد من أفراد عائلته -العائلة المالكة- ثمانية آلاف روبية شهريًا، بالإضافة إلى السيارات والمساكن الحديثة المكيفة. ويتم جمع هذه المبالغ الضخمة بالوسائل التالية: تسن الحكومة البهرية ضرائب إجبارية على أفراد

---

(١) إن شأن هذه الطائفة كشأن الفرقة البهائية الضالة، التى يتوجه أتباعها فى صلاتهم الفاسدة إلى قبر شيطانهم المسمى بهاء الله -فى مدينة عكا إحدى مدن فلسطين الشهيرة- التى أصبحت مزرعة للغزاة الصهاينة، الذين يقدمون التأييد والدعم للبهائية المرتدة وأمثالها، لتساهم فى دور التخريب والتشويه فى معاقل الإسلام.

(٢) مجلة المجتمع الكويتية: عدد ٤١٧ سنة ١٣٩٨هـ.

(٣) إسلام بلا مذاهب: ص٢٤٠ د. مصطفى الشكعة.

الطائفة، فى حين تدعى أنها تطوعية، وقد اشترى الداعى عدة فنادق من هذه الضرائب التى يفرضها على أفراد طائفته، واشترى أيضًا مشروع المياه الغازية -الكوكاكولا- فى مدينة بومباى فى الهند.

وعندما تقوم العائلة الحاكمة بإنجاز أى مشروع فالتبرعات تصبح واجبة على أفراد الطائفة، وعندما اشترت العائلة فندقًا -سندزهاوس- فى بومبى فرض الداعى على كل فرد من أتباعه كافة أن يدفع ١٠ روبيات لتغطية النفقات.

ومن جهة ثانية فإن الداعى يتاجر مع أفراد عائلته بالذهب، الذى يهربونه من أفريقيا وسيلان حيث استطاعوا تهريب ملايين المجوهرات والأحجار الكريمة.

وعندما تحمل الأم بابنها عليها أن تدفع، وكذلك إذا مات فعليها أن تدفع الضريبة المقررة، والذى يريد أن يحوز رضى الداعى عليه أن يدفع الكثير حتى كلمة: بسم الله الرحمن الرحيم من الداعى تكلفهم ما بين ٥٠٠٠ - ٥٠.٠٠٠ روبية، كل حسب طاقته! كل ألف روبية تساوى ٣٥ دينارًا كويتيًا.

ويجب على كل فرد من أفراد الطائفة أن يشترى تذكرة خاصة بصلاة العيد، يصدرها مكتب الداعى، وتختلف قيمتها فى الصف الأول عن الصف الآخر، فالتذكرة فى الصف الأول -خلف الملاجى الدكتور محمد برهان الدين- تكلفه ألف روبية، وثمانمائة فى الصف الثانى.

وكذلك جثة الميت منهم فإنها لا تدفن إلا بعد أن يدفع أقارب الميت ضريبة مقابل ذلك لمكتب الداعى، الذى يراقب كل شىء ليأخذ الضرائب عن كل شىء.

وبعد الدفع يصدر الداعى صك غفران -روكوشيتى- لذلك الميت، ويدفن معه فى القبر. والصكوك عندهم عدة أنواع، فأقارب المتوفى الذين يدفعون أكثر

من خمسين ألف روبية، يحصلون على صك غفران -أو شقة من الدرجة الأولى فى الجنة[١]-!!

وكل شخص يريد السفر إلى أى مكان عليه أن يأخذ تصريحًا خاصًا من مكتب الداعى. وقبل سفره لابد أن يطوف بالروضة الطاهرة -قبر الحادى والخمسين طاهر سيف الدين والد الداعى الحالى.

ويوجد فى الكويت حوالى ثمانية آلاف فرد من طائفة البهرة، وكل شخص من هؤلاء عليه أن يدفع مبلغ خمسة دنانير شهريًا لنائب الداعى، سواء كان يعمل أم لا. ولو تأخر شهرًا واحدًا عن الدفع، فإنه يطرد من الطائفة ويفرض عليه الحرمان. وعلى كل فرد عند رجوعه إلى بلده أن يذهب ليطوف بالروضة الطاهرة عدة مرات.

ومن العجيب أن الداعى الأكبر باع كثيرًا من (مساجد الضرار) التى ارتفعت أثمان الأرض بجوارها، حتى المقابر لم تسلم من أذى الداعى، فقد باع مقبرة كبيرة فى بلدة -برهان يو- بأغلى الأثمان بعد أن قسمها إلى قسائم. ولكن أين تذهب كل هذه الأموال؟! أنه الداعى الذى يدخر قسمًا كبيرًا منها فى البنوك السويسرية، وينفق الآخر على ملذاته وشهواته ورجاله المقربين، فى حين أن أبناء طائفته بحاجة ماسة للمساعدة[٢].

هذه لمحة موجزة للحالة الاجتماعية القاتمة التى يرزح تحت وطأتها مجتمع البهرة المسحوق، الذى لم يعد يحتمل كل هذا الحرمان والتلاعب

---

(١) إن طائفة البهرة ذات اقنعة ودعوات خبيثة، تخالف ماجاءت به باقى الملل والنحل، حتى أن المجوسية وغيرها من دعوات الوثنية لم تجرؤ على جرائمها وسخافاتها، وإن كانت تلتقى مع المدرسة الباطنية فى مقوماتها وضلالها.

(٢) مجلة الوعى الإسلامى: سنة ١٣٩٨هـ.

الذى يعانى منه على أيدى الطبقة الحاكمة، تحت قيادة الداعى الأكبر -شيطانهم الرجيم- الذى نصب من نفسه الحاكم المطلق والمتصرف فى كافة شئون الطائفة، حتى أن الوالد لا يملك أن يسمى ابنه بما شاء من الأسماء، بل الداعى هو الذى يختار للمولود الاسم ليأخذ الضريبة مقابل ذلك.

ونتيجة للحالة المتردية التى يعانى منها أفراد هذه الفرقة الشاذة، فقد قامت موجات الاحتجاج تطالب بالإصلاح ضد الدكتاتورية التى يمارسها الداعى الحالى وزمرته... وقد طالبت حركات الإصلاح بعدة مطالب أهمها[1]:

١. ضبط وتدقيق أموال الداعى وصرفها فيما يعود بالخير على أفراد الطائفة المسحوقين.

٢. عزل الطائفة الدكتاتورية الحاكمة، وانتخاب المؤهلين من أبناء الطائفة بدلًا منها لرعاية شئونهم[2].

لعل من المفيد بعد هذا العرض الموجز عن طائفة البهرة أن أذكر القارئ بأن دعوات الإلحاد والانحراف - وخاصة المستترة منها بالأقنعة الكالحة، ومن بينها البهرة هذه - تنتمى إلى الدعوة الإسماعيلية وآل البيت زورًا وبهتانًا، كما أنها تستقى تعاليمها من المدرسة الباطنية، وتلتقى مع القرامطة والدرزية والبهائية فى مستنقع واحد. والذى يجب التنبيه عليه أن هذه الطائفة ومثيلاتها، التى تتستر بالإسلام وتحيي بعض الشعائر الدينية -ظاهريًا كما تزعم- وتقيم (مساجد الضرار) وينخدع بها المسلمون، ما هى فى حقيقتها إلى دعوة فساد وضلال.

(١) المصدر السابق.

(٢) مجلة الوعى الإسلامى - الكويت.

هذه بعض أوهامهم وخرافات أئمة الكفر من دعاة هذه النحلة، ليأكلوا أموال الناس بالباطل. قاتلهم الله على كفرهم وضلالهم، الذى يمجه كل عاقل، بل هو عبث عقيم وضلال سقيم.

ولا أدرى كيف يقبل بهذه الترهات الفارغة أبناء هذه الطائفة الشاذة، مع أنهم يعرفون الكثير من تعاليم الإسلام التى تحارب هذه الخرافات والشعوذات، ولكنه العناد والإلحاد الذى تربوا عليه، ومع الأسف فلا يزالون يسبحون بحمد داعيهم ويتفنون فى تمجيده وتطبيق أوامره الشيطانية. ألا ساء ما يصنعون.

أقول: يجب على علماء الإسلام والمسلمين أن يكشفوا باطل هذه النحلة، وغيرها من المعاول الهدامة والدعوات الدخيلة، والوقوف فى وجه كافة المذاهب المنحرفة، وكشف زيفها وبيان أضرارها، وتخليص الإنسانية من رجسها وخرافاتها.

طائفة الآغاخانية

إذا كانت البهرة ترجع أصولها العقائدية إلى الإسماعيلية المستعلية -التى مر الحديث عنها- فإن الآغاخانية ترجع عقيدتها إلى الإسماعيلية النزارية، وقد ظهرت هذه الفرقة بنشاط فى إيران، وفى الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادى، حينما ظهر شخص جمع حوله عددًا من الإسماعيلية وغير الإسماعيلية، وهدد الأمن وقطع الطريق، وسطا على القوافل حتى ذاع صيته فى أنحاء إيران، وأصبح أسطورة على ألسنة الناس، وأعجب الإيرانيون ببطولاته، فانضموا إليها إعجابًا وطمعًا فى المكاسب المادية التى يحصلون عليها من طريقه[(١)].

---

(١) إسلام بلا مذاهب: ص٢٤٠ - ٢٤١.

هذا الرجل اسمه حسن على شاه، وهو إسماعيلى وإن لم يشر إلى إسماعيليته حتى لا ينفض الناس من حوله، وكان للإنجليز مطمع فى إيران فى ذلك الوقت، فاستعملوه -حسن على شاه- فى قيادة ثورة يهدد بها الأمن حتى يجدوا -كما هى عادتهم- منفذًا يدخلون منه إلى فرض سلطانهم، ولكن حسن شاه فشل فى ثورته وقبض عليه، فسارع الإنجليز إلى التوسط له بالإفراج عنه، على أن ينفى من إيران كلها.

وذهب حسن علي إلى أفغانستان -كرغبة للإنجليز- ولكنه لم يستطع أن يقدم هناك شيئًا لحلفائه ليقظة الأفغانيين، فاتجه إلى الهند وسكن مدينة بومباى، وهناك اعترف به الإنجليز إمامًا على الطائفة الإسماعيلية وخلعوا عليه لقب (آغا خان) فانتسب إلى الإمام نزار بن المستنصر الفاطمى، وأصبح إمام الإسماعيلية النزارية. ثم مات سنة ١٨٨١م. فخلفه ابنه فى إمامة الطائفة وعرف باسم (آغا خان الثانى) وكان أبوه قد أعده للإمامة إعدادًا كاملًا، وهيأ له الثقافة الكاملة.

وكان يجيد عدة لغات منها العربية، وعمل على خدمة أبناء المسلمين جميعًا دون تمييز بين طوائفهم، فسمت مكانته بين الناس جميعًا، وتزوج أميرة إيرانية وأنجب منها ولده محمدًا الحسينى فى نوفمبر سنة ١٨٧٧م. وهو (آغا خان الثالث) المعروف باسم (آغا خان) المتوفى سنة ١٩٥٧م.

وقد سكن أوروبا وتزوج أربع مرات، المرة الأولى من أميرة إيرانية، والثانية من فتاة إيطالية أنجب منها ابنه على خان، والمرة الثالثة من بائعة حلوى وسجائر فى باريس، وأنجب منها ولده صدر الدين خان والمرة الرابعة من إحدى ملكات الجمال.

وحين مات -آغاخان- أوصى لحفيده -كريم- بالإمامة -وهو الإمام

الحالى- ولا زال شابًا يطلب العلم فى إحدى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية.

والإسماعيلية الآغاخانية يسكنون الآن نيروبى ودار السلام وزنجبار ومدغشقر والكنجو البلجيكى والهند وباكستان، وبعضهم فى الإقليم السورى، ومركز القيادة الرئيسى بالنسبة له هو مدينة كراتشى بالباكستان.

والإسماعيلية الآغاخانية تقدس آغاخان وتلقبه بالإمام وتقول بعصمته، ويضفون عليه صفات الألوهية -قاتلهم الله- ويدفعون له خُمس ما يكسبون[١]، ويعتقدون أن الخمر حين تدخل فى جوفه تتحول إلى ماء زمزم. وحين سئل آغاخان مرة من قبل صديق له: كيف يسمح -وهو المثقف- لأتباعه أن يؤلهوه؟!. قهقه طويلًا حتى دمعت عيناه وقال: إن القوم فى الهند يعبدون البقرة، ألست خيرًا من البقرة[٢]؟.

هذه بعض معتقدات طائفة الآغاخانية التى يعتنقونها، أضعها بين يدى القارئ ليستطلعها، وهى تكشف لنا عن سوء منقلب أدعيائها، كما تنم عن فساد طوية مخترعيها، الذين يدعون الإسلام ظاهريًا ليحققوا مآربهم الخبيثة، مع أنهم فى الحقيقة ربائب لأعداء الله، ودسائس مكر يستخدمها الإستعمار لتشويه سمعة الإسلام، ودك إسفين مسموم فى جسم الأمة لنخرها ويحطم كيانها.

لذا كان جديرًا بالمسلمين -حكامًا ومحكومين- أن يتصدوا لمثل هذه الجرثومة الباطنية، بتعريف الأمة بأهدافها الشريرة ونواياها الخبيثة، التى تناقض تعاليم الإسلام وتعطل مسيرته الرائدة. وبهذا يمكن تعرية الأعداء وكشف

---

(١) إسلام بلا مذاهب.

(٢) جذور البلاء.

أوراقهم الزائفة، ليعود للمجتمع وجهه المشرق وتعود الحياة الهانئة للبشرية ويعم العدل وتنتشر الفضيلة.

أحمد الإحسائى والشيخية

لم تنقطع مؤامرات الباطنية على العقيدة الإسلامية فى التاريخ حتى القرون الأخيرة، حيث نرى أن الباطنية تتجدد على يد شيخ فاسد العقيدة غامض الفكرة والأسلوب، يثير حوله جوًا من التقديس الكاذب، وهو الشيخ أحمد الإحسائى الذى ولد سنة ١١٦٦هـ. ١٧٥٣م. وقد أسس طريقة فى مذهب الشيعة الإمامية سميت فيما بعد بالشيخية[١]. والشيخية يقولون أن الحقيقة المحمدية تجلت فى الأنبياء قبل محمد ﷺ تجليًا ضعيفًا، ثم تجلت تجليًا أقوى فى محمد ﷺ والأئمة الإثنى عشر، ثم اختفت زهاء ألف سنة، وتجلت فى الشيخ أحمد زين الدين الأحسائى والسيد كاظم الرشتى، ثم تجلت فى كريم خان الكرمانى وأولاده إلى أبى قاسم خان. وهذا التجلى هو أعظم التجليات لله والأنبياء والأئمة، والركن الرابع من الشيخ أحمد الإحسائى إلى ما بعده هم شىء واحد، يختلفون فى الصورة ويتحدون فى الحقيقة التى هى الله مظهر فيهم. ويعتقدون أن محمدًا رسول الله، وأن الأئمة الإثنى عشر هم أئمة الهدى، ومعنى الرسالة والأمانة عندهم أن الله تجلى فى هذه الصورة، فمنهم رسول ومنهم إمام. ويعتقدون أن اللاحقين هم أفضل من السابقين وعلى ذلك فالشيخ أحمد فى رأى أصحابه أعظم من جميع الأنبياء والمرسلين. ويعتقد هؤلاء بالرجعة،

---

(١) لما كان الباعث على تأليف هذا الكتاب هو تحذير المسلمين وإيقاظ شعورهم الدينى ووجدانهم، فقد رأينا إتباع الفرق الباطنية القديمة بالحديثة لما لها جميعًا من أهداف مشتركة فى الكيد للإسلام وأهله، بغض النظر عن التأريخ الزمنى لظهور هذه الفرق.

ويفسرونها بأن الله بعد أن غاب عن صور الأئمة رجع وتجلى تجليًا أقوى فى الركن الرابع، الذى هو الشيخ أحمد ومن يأتى بعده(١).

والإحسائى من الشيعة الحلولية الذين يعبدون عليًا، وأدلته الفلسفية مستقاه من مذهب الفيلسوف المشهور الملا صدرا(٢).

وأما اعتقادهم فى القيامة فهو اعتقاد باطل مخالف لنصوص القرآن والسنة الشريفة وإجماع الأئمة، إذ أنهم لا يعتقدون بقيامة الجسد، ويؤولون علامات الساعة تأويلات باطنية تتفق مع مسلكهم فى إنكار البعث والقيامة(٣).

لقد كرس الإحسائى حياته فى سبيل الدعوة إلى قرب ظهور المهدى المنتظر. يقول زرزندى: وإذا كان واثقًا بنبالة مقصده -كذا- طلب بحماس من جميع أتباع الإسلام فى الشرق -بما فيهم أهل الشيعة- أن يهبوا من نوم غفلتهم ويهيئوا الطريق للذى سوف يظهر بينهم عند تمام الأيام(٤).

ويخيل إلىَّ -استنادًا إلى نزعته العقلية المتطرفة- أنه لم يكن من المؤمنين، كما تبدو عليه اتجاهاته الباطنية الأخرى، بأن المهدى مختف. فالحال الذى تؤمن به الإمامية من حيث إنه مستور، وعلى اتصال دائم بالشيعة، بل إنه كان يؤمن بالمهدى كشخص اعتيادى، يظهر ظهورًا اعتياديًا، وخاصة فإن اتجاهه هذا يتفق مع الزيدية وبعض علماء السنة فى ظهور المهدى. وكان همه من التبشير بقيامه وظهوره هو الإسراع بالقضاء على عقيدة الإمامية، وذلك لكى يقوم بالمسرحية التالية التى اتفق مع أشخاصها وممثلى أدوارها مع سادته

---

(١) البصرة تستأصل الشيخية: ص ٧ نقلًا عن كتاب البابيون والبهائيون.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية: مجلد ٥ ص٤٤٨ نقلًا عن: البابيون والبهائيون.
(٣) مطالع الأنوار: ص٣٣ - ٣٤. عن المصدر السابق.
(٤) مطالع الأنوار: ص٣ نقلًا عن: كتاب "البابيون والبهائيون".

المستعمرين، وهذه مسرحية تنص على تقديم مهديهم الخاص إلى الأمة الإسلامية.

أما كيف كان الشيخ أحمد الإحسائى متصلًا بالمستعمرين، أو بدوائر التبشير التى كونت الطلائع الأولى لهم فى الشرق، والتى وضعت خطة محكمة للوصول إلى مثل هذه النتائج فى المجتمع الإسلامى فالجواب على ذلك مايلى:

١. إن كثيرًا من الحركات الدينية والسياسية والاجتماعية ظهرت فى المجتمع وانتشرت فى ظل شعارات معينة، ثم ظهرت خبيئتها فحكم الناس أن تلك الحركات كانت حركات استعمارية، وذلك استنادًا إلى نتائجها إذ أنها شُجِّعَت تشجيعًا قويًا من المستعمرين، وقاموا هم على نشرها وإفساح المجال لها والدفاع المستميت عن أشخاصها، لأنهم لم يتعرضوا لمصالحهم، بل دعوا إلى مهادنتهم وعدم القيام ضدهم.

أقول: إذا كانت الحركة تتسم بهذه المزايا يكون من السهل جدًا على العلماء من الاجتماعيين وغيرهم أن يحكموا باستعماريتها. وحركة الإحسائى ظهرت نتائجها الواضحة بعده بسنوات قليلة، كما سيظهر لنا كيف أن المستعمرين احتضنوها ليضربوا بها الإسلام، الذى كانوا يعتبرونه الجدار الوحيد أمام استعمارهم واستغلالهم للشرق[١].

٢. لقد أوضحت حوادث التاريخ بأن الفرق الباطنية كانت توجه دائمًا من قبل أعداء الإسلام، من اليهود وأباطرة الروم ودهاقين المجوسية. وأن تلك الفرق خانت الأمة الإسلامية فى مواقف حرجة من تاريخها، كحروب الروم مع

---

(١) انظر: حقيقة البابية والبهائية ص٣٧.

المسلمين وهجوم الصليبيين على ديار الإسلام ومؤامرات المجوس لاستعادة مجدهم القديم. وبما أن حركة الإحسائى كانت حركة باطنية، وأنها نشأت فى زمن كانت الأمة الإسلامية فيه تريد أن تنفض عنها غبار الزمن، وأن الاستعمار الغربى كان يريد القضاء على هذه اليقظة الإسلامية، وإذن فيكاد يجزم المرء - من هذه الناحية أيضا- بعلاقة هذه الحركة الباطنية بدوائر الاستعمار بصورة خاصة، وأعداء الإسلام بصورة عامة.

٣. هنالك رأى يستند على تقارير المستشرقين يقول: إن الإحسائى لم يكن أصله من الإحساء، ولا ثبت ذلك تاريخيًا، وإنما كان قسًا غربيًا أرسل من أندونيسيا إلى الشرق، حسب خطة مرسومة، لإفساد العقيدة وتغيير أحكام الدين[١].

الحركة الكشفية وكاظم الرشيتى

يقال أن كاظم الرشتى ولد فى رشت من بلاد إيران سنة ١٢٠٥هـ ولما بلغ عمره السادسة والعشرين ذهب إلى طهران لملاقاة أحمد الإحسائى، ثم رافقه إلى كربلاء وتتلمذ عليه واستسلم بسهولة لأوهامة وخرافاته، وقد سار الرشتى على طريقة أستاذه الإحسائى، فى اللجوء إلى الرؤى والخداع والمكر لتنفيذ خططه، التى اتفق عليها مع أستاذه وشيخه الإحسائى، فى التبشير بالمهدى وقرب ظهوره ووجوب الإيمان به. ولم يكتف الرشتى بالتبشير بقرب ظهور المهدى، بل عين شخصه بصورة تكاد تكون مباشرة، وذلك بتعيين صفاته وشمائله وأخلاقه وإيهام القوم أنه جالس بينهم، ولا يرسل إلى بعد موته. والمعروف أنه كان قد عين أحد تلاميذه -وهو الميرزا على محمد- الآتى ذكره

---

(١) البصرة تستأصل شأفة الشيخية: ص١٣ عن: البابية والبهائية.

حسب الخطة المرسومة للقيام بهذه المهمة، وهو الذى تنطبق عليه تلك الصفة، التى كان يرددها الرشتى فى كل درس بقوله: إن الموعود يعيش بين هؤلاء القوم، وأن ميعاد ظهوره قد قرب فهيئوا الطريق إليه، وطهروا أنفسكم حتى تروا جماله، ولا يظهر لكم جماله إلا بعد أن أفارق هذا العالم، فعليكم بعد فراقى أن تقوموا على طلبه، ولا تستريحوا لحظة واحدة حتى تجدوه[1]. إن الرشتى كان يوجه تلميذه -الميرزا على محمد- وهو جالس فى مجلسه، فكان يريد بذلك إسماع الآخرين بقوله: إن الشريعة وأصول الآداب هى غذاء للروح، لذلك يجب أن تكون الشرائع متنوعة، وعلى ذلك يجب نسخ الشرائع العتيقة[2].

وهكذا نرى أن الرشتى -بمكره وتحركاته وخبث تدبيره- أشعل الشوق فى نفوس أصحابه للقاء الموعود المزعوم. ولقد نشر بينهم هذه الفكرة لدرجة أنهم كانوا جميعًا يحلمون بها، وذهب جميع تلامذته من بعد موته متلهفين لرؤية ما وعدهم به، حيث إن بعضهم قال لتلميذ له اسمه الملا حسن البشروئى: إنك لو ادعيت هذا لآمنا بك[3].

إن جميع ما أثبتناه عن الشيخية إلى الآن والروشتية يهدف إلى معرفة جذور مؤامرة البابية على الإسلام، حيث أنها كما ترى لم تكن بنت يومها عندما أعلن تلميذ الرشتى الميرزا محمد على الشيرازى. وإنما مرت بمراحل وهيئت لها الأذهان والعقول والبيئة اللازمة لقبول الفكر، فخطط الاستعمار طويلة الأمد عميقة الجذور يتم الاختيار على مراحلها، ويسبق القول على أشخاصها، ثم

---

(١) انظر مطالع الأنوار: ص١٣٠، ١٣١. عن: حقيقة البابية والبهائية.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) نفس المصدر السابق.

تقدم للناس بأسلوب جذاب ينسجم مع ظروفهم النفسية والبيئية، والاستعمار فى خططه هذه استند على فكرة كانت بعيدة الجذور فى نفوس الإيرانيين وهى فكرة المهدوية.

إن اتصال هذه الحركة بمراكز التبشير العالمى ومساندتها من قبل دول الاستعمار واليهودية العالمية قد شد من أزرها، إلى أن جاءت الفترة التى تهيأ فيها الميرزا على محمد الشيرازى ليقوم بدوره المرسوم، وهو تأسيس الطائفة التى تسمت بالفرقة البهائية. لقد مثلت البهائية أعلى مرحلة من مراحل التآمر التاريخى على الإسلام، ابتداء بالباطنية المجوسية وانتهاءًا إلى الباطنية الصهيونية وأجهزة التبشير الصليبى ومراكز الماسونية العالمية. إن الإسلام فى جهاده لماضٍ إلى يوم القيامة، وستجابه عقبات أخرى وسيجرب أهل الباطل معه أفتك الأسلحة، وسوف لا يكون نصيبهم -بإذن الله- بأحسن من نصيب من سبقهم من الأعداء العتاة المخذولين... وكَرَّةٌ أخرى سيخسر هنالك المبطلون.

(باب الديانات الاستعمارية)[1]

تلقت هذه الأمة عقيدتها صافية نقية عن كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وتكفل الله تعالى بحفظ كتابه، وهيأ لذلك رجالًا أمناء صفت بصائرهم واستنارت قلوبهم بنور الله تعالى، وتفانت نفوسهم فى خدمة الحق، وامتدحهم الله تعالى فى محكم كتابه بقوله: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدًا يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوارة ومثلهم فى الإنجيل كزرع

(١) انظر كتاب الكشاف الفريد عن معاول الهدم ونقائض التوحيد تأليف خالد محمد على الحاج، الجزء الأول ص٢٢٤ وما بعدها.

أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا).

وهكذا كان جند الحق من أبناء أمة الإسلام على علم وبصيرة، يهتدون بكتاب الله وسنة رسوله مجمعون على الحق والهدى، فكل ضلالة وبدعة وزيف وتحريف وغلو وتفريط ينكشف أمره بسهولة، وتحذره الأمة لأن الحق أبلج، فيموت الضلال فى مهده، أو تكون له جولة ثم يزهق.

وانتشر العلم وكثر العلماء وأقبل الناس على تعلم الحق، ولذلك لم يكن من السهل أن تنتشر الأباطيل والضلالات، حتى جاء عصر الضعف، حين كثر دعاة الباطل، وقل التعلم فى عامة الناس، وكثر الجهل فى سوادهم، فوجد المبطلون ميدانًا خصبًا لنشر الأباطيل فى النفوس الضعيفة والقلوب المريضة.

لقد كانت الفرقتان البهائية والقاديانية من بين هذه الأباطيل والنحل الهدامة، التى وضعها أعداء الإسلام بخبث ودهاء لتحطيم كيان الأمة الإسلامية ونسف وحدتها وتصديع كيانها. واتبعهما أناس زاغت قلوبهم وعميت بصائرهم فتفاقم شرهما، ولا يزال الخطر يزداد يومًا بعد يوم، ويزداد نفوذهما فى موطنهما الأصلى فى شبه القارة الهندية وإيران خاصة، وبلاد العرب والمسلمين عامة.

وللوقوف على أسرار هاتين الفرقتين الضالتين، وأسباب وجودهما ونجاح دعاتهما فى بعض الجهات رغم كشف سوء نياتهما، وفشل دعوتيهما على كافة الأصعدة، للوقوف على هذا كله وتنويرًا لأبناء الأمة فسوف أفرد لكل حركة من هاتين الحركتين فصلًا خاصًا، أتناول فيه الدوافع الحقيقية التى كانت وراء ظهور كل منهما، مع تسليط بعض الأضواء على تلك الأيدى الخفية التى ساندتهما، والدور الذى ستقوم به كل منهما، وبهذا يقف المسلم على حقيقة ما

يراد به من قبل أعدائه، بادئًا بالحركة البابية والبهائية.

ظهور البابية

كان أول ظهور فرقة البابية الضالة عندما طالع على محمد المسلمين فى إيران بمقالة ادعى فيها أنه الباب أو على حد قوله: أنا مدينة العلم وعلى بابها. وقال: ادخلوا البيوت من أبوابها. فلا يجوز دخول البيت إلا من الباب، فأنا ذلك الباب.

وكان أول هذا القول فى ليلة الخميس ٢٣ مارس عام ١٨٤٤م الموافق ٥ جمادى الأول عام ١٢٦٠هـ. ويعتبر هذا اليوم لدى البابية عيد البعث، وتحرم فيه الأعمال(١). ومن هذا اليوم لا يطلق عَلِىّ محمد عَلَى نفسه سوى الباب. ويقال أنه أول من ادعى أنه الباب. كان يقول أنه باب للوصول إلى الإمام المنتظر. وكان دائمًا يقول أنه المهدى المنتظر، وأن جسم المهدى اللطيف قد حل فى جسمه المادى، وأنه ظهر الآن فى هذا العالم ليمحو الظلم ويبدد الجور وينشر العدل(٢).

يقول المستشرق (جولد تسيهر): إن اسم الباب كان نتيجة لاعتقاده فى نفسه أنه أشرقت منه على العالم الرغبة المعصومة للإمام المستور، الذى يعد المصدر الأعلى لكل حقيقة وهداية(٣).

وقد ظل ميرزا على محمد محتفظًا بهذا اللقب حتى اعتقد أنه المهدى المنتظر، الذى يجب ظهوره فى نهاية الألف الأولى من السنين، بعد ظهور الإمام

---

(١) انظر خفايا البهائية: ص٣٣. وكتاب: البابيون والبهائيون.
(٢) راجع المصدر السابق: ٣٣.
(٣) راجع المصدر السابق نفس الصفحة.

الثانى عشر (٢٦٠هـ - ١٢٦٠هـ) وهو إمام الشيعة الإثنى عشرية.

كان الباب يلقب نفسه بعدة ألقاب كان أتباعه يطلقونها عليه، فكان يطلق على نفسه سيد الذكر، وحضرة الأعلى، ومظهر الرب، وباب الله، ونقطة الأولى، وطلعة الأعلى، ونقطة البيان.

وكان للباب كاتم لأسراره وهو الملا حسين البشروئى، وكان يسمى وسط البابية باب الباب. والأخير من أصل فارسى من بلدة شيراز. وتبع الباب ثمانية عشر شخصًا كانوا دعاته، وكان يطلق عليهم حروف (حى) وكان هؤلاء وظيفتهم السير فى المدن الإيرانية للتبشير بدعوة الباب.

والباب على محمد كان لثقافته أثرها فى تفكيره، فلقد هجر التجارة مع خاله، وانصرف إلى دراسة الروحانيات والتبيينات وتسخير الجان والكواكب(١).

والباب -كما يقول الداعية البهائى محمد حسين أوراه- له الخيار المطلق فى تغيير الأحكام وتبديلها لأن الباب مروج للشريعة الإسلامية ومصلح لأحكامها. وتقول قرة العين(٢) بأن للباب القائم مقام المشرع وحق التشريع. وعلى وجوب الشروع فعلًا فى إجراء بعض التغييرات كإفطار رمضان(٣)، والباب -حسب قول البابيين- مدة دعوته ونبوته حوالى ٢٠٣١ سنة. ولا يجوز قبل هذه الفترة لأحد أن يدعى النبوة. ويقال أن هذه المدة قدر سنين حروف (المستغاث). وسار الباب فى قوله بأنه أيضًا أعظم من الرسول ﷺ وأن دعوته

---

(١) راجع خفايا البهائية: ص٣٤. ورسالة البهائية للأستاذ محب الدين الخطيب.
(٢) هى امرأة غائبة عند البابيين.
(٣) المصدر السابق: ص٣٥.

تفوق الدعوة الإسلامية.

وقال عن البيان -الكتاب الذى وضعه- بأنه يفوق القرآن، وأنه يتحدى أى شخص يأتى بباب من أبواب البيان العظيم، أو ما يسميه الباب: البيان العربى. وهو كتاب البابية المقدس. كما أن للباب كتابًا ثانيًا يطلق عليه: البيان الفارسى. وهذا الكتاب حرقه البهائيون بعد ظهور الأقداس، كتابهم المقدس(١).

والكعبة ليست بيت الله الحرام ولكنها فى بلدة تبريز بإيران، حيث يتجه إليها المصلون فى صلاتهم الصباحية. وطالب الباب بهدم قبر الرسول ﷺ وهدم الكعبة الشريفة فى مكة المكرمة وهدم قبور الأولياء، ولا تدفع الزكاة والصدقة إلا لبابى، وجعل الباب عدد أيام السنة ٣٦١ يومًا.

وقد فسر الباب القرآن تفسيرًا باطنيا(٢). يقول الباب مقلدًا القرآن: قل الله ليظهرنك على الأرض وما عليها بأمره، وكان الله على ذلك مقتدرًا، قل الله يغلبنك على الأرض وما عليها وكان الله على ذلك مرتفعًا، قل لو اجتمع من فى السموات والأرض وما بينهما أن يأتوا بمثل ذلك الإنسان -يعنى الباب- لن يستطعن ولن يقدرن ولو كانوا كل بكل مستعينين -قاتلهم الله أنى يؤفكون-.

ويقول الباب مدعيًا أحقيته فى الظهور كنبى فى قوله: قل إن الله ليظهرن من يظهره الله، مثل ما قد أظهر محمدًا رسول، من قبل، وأظهر عليًا قبل محمد من بعد، كيف يشاء بأمرى إنه كان على كل شىء قديرا قل لو تريدون كل الرسل فى وجه الله فانظرون ولو تريدن كل الكتب فى كتاب الله فانظرون، ولا تريدن كل

---

(١) نفس المصدر: ص٣٦.

(٢) خفايا البهائية: ص٣٦ - ٣٧.

خير من عند الله تدركون[١].

إنها كلمات بلا معنى، وتقليد أجوف يشوه الحقيقة، فمن مطالعاتنا لكتب الباب نجد أنه مسخ آيات القرآن الحكيم كما مسخها ميرزا غلام أحمد -الأفاق القادياني اللعين- فكلاهما ينهلان من معين واحد وهدفهما واحد، وهو تشويه معالم الإسلام النيرة السامية. وقد كانت البابية أداة طيعة فى يد الاستعمار يوجهها كيف يشاءُ. وفى الصفحات التالية بسط لعلاقة البابية بالاستعمار والصهيونية وعقائدها، ونهايتها بعد إعدام الباب، ثم مجيء خليفته البهاء -الملعون- ودور البهائية فى محاربة الإسلام والمسلمين.

إعلان الدعوة البابية

ومن ذيول الباطنية طائفة فارسية تدعى البابية، وتنسب إلى الباب، وهو ميرزا على محمد الشيرازى المولود فى شيراز بإيران.

جهر الباب بدعوته فى ليلة الخامس من جمادى الأولى سنة ١٢٦٠هـ ١٨٤٤م. -كما ذكرت سابقًا- وراح دعاته وأنصاره يعلنون تأييدهم له، ويحرضون الناس على الإنضمام تحت لوائه[٢].

ولما لم تكن هذه الحركة تتناسب والمركز الدينى لعلماء إيران، وكانت تعاليم الباب مخالفة لأصول الدين الإسلامى الحنيف، فقد قامت قيامة هؤلاء العلماء فى وجه هذه الدعوة، فنشرت الرسائل وألفت الكتب، وألقيت الخطب، وفى جميعها من التفنيد للمبادئ الجديدة ما فيها، واستحث رجال الدين رجال الدولة على وجوب استئصال شأفة هذه البذور التى بدأت تهدد الأمن فى إيران.

---

(١) راجع نفس المصدر: ص٣٩.

(٢) راجع البابيون والبهائيون: ص٢١. وذيل الملل والنحل: ص٤٥.

ونتج عن هذه المقاومة أن مال إليه الجهلة من العوام، فلما رأى الباب ذلك أعلن أنه هو المهدى المنتظر -بعد أن كانت دعوته أنه واسطة أو باب للوصول إلى الإمام المنتظر[١]- وقال أن جسم المهدى اللطيف قد حل فى جسمه المادى، وأنه يظهر الآن ليملأ الأرض قسطًا وعدلًا، بعد ما ملئت ظلمًا وجورًا[٢].

ولم يكن فى العقائد البابية وفى تعاليمها السرية ما يمنع مثل هذا الادعاء، فالإمام مظهر من مظاهر الله فى أرضه، وواسطة تبليغ للناس لانكشاف الحقائق له، فإذا حصل من هو فى رتبته فى الكشف فلا مانع هناك أن ينال عين الرتبة.

وهذا ما دعا الباب أن يظهر بمظهر أرقى من الدعوة السابقة، فيدعى أنه أفضل من محمد ﷺ صاحب الدعوة الإسلامية العظمى، وأن تعاليمه التى جمعها فى بيانه أفضل من تعاليم نبى المسلمين فى قرآنه، وأن محمدًا إذا كان قد تحدى الناس بالإتيان بسور الفرقان المبين، فإن الباب يتحدى الجميع بالإتيان بباب من أبواب بيانه العظيم[٣].

وقد صادفت دعوته بعض النجاح عند عدد قليل من أبناء وطنه شيراز، ولما شكا العلماء من ذلك، استدعى حاكم شيراز دعاة الباب وحقق معهم فلم يخفوا عنه شيئًا، فاستفتى العلماء فى شأنهم فأفتوا بكفرهم ووجوب قتلهم، ولكن الوالى اكتفى بنفيهم من شيراز، وأرسل بعض جنوده إلى أبى شهر فجاؤوا بالباب، وعقد مجلسًا من العلماء والفقهاء وأحضر الباب ليناظرهم، فانقسم

---

(١) المصدر السابق: ص٢٢ بتصرف.

(٢) نفس المصدر: ص٢٢ بتصرف.

(٣) نفس المصدر: ص٢٢ بتصرف.

العلماء فى أمره، فمنهم من أفتى بقتله، ومنهم من قال باختلال عقله، أما الوالى فقد أمر به فجرده من الملبس وأوسعوه ضربًا مبرحًا[١].

وقد هم الوالى بقتله فإذا بالباب ينكر أنه وكيل القائم الموعود، أو الواسطة بينه وبين المؤمنين، فتركه الوالى مع خاله ميرزا على الشيرازى على أن يحضره يوم الجمعة إلى المسجد ليعلن توبته على رؤوس الأشهاد، فلما حل اليوم المذكور صعد الباب على المنبر وقال:

إن غضب الله على كل من يعتبرنى وكيلًا عن الإمام أو الباب إليه، وإن غضب الله على كل من ينسب إلى إنكار وحدانية الله، أو أنى أنكر نبوة محمد خاتم النبيين، أو رسالة أى رسول من رسل الله، أو وصاية على أمير المؤمنين، أو أى أحد من الأئمة الذين خلفوه[٢].اهـ.

وبذلك نجا الباب من القتل، ولكنه ما لبث أن عاود دعوته فى سنة ١٨٤٥م، فكتب إلى دعاته فى العراق بأنه لا يستطيع التوجه إليهم كما وعدهم من قبل - كما طلب إلى أعوانه فى إيران أن يرحلوا إلى أصفهان لمواصلة الدعوة، فعاد الهياج إلى شيراز والتحقيق فى الموضوع[٣].

إلا أن انتشار الهيضة فى شيراز، وفتكها بالأهلين فتكًا ذريعًا بعد وفاة كثير من الموظفين والجند، أجلت النظر فى أمر الباب الذى استطاع أن يفر إلى أصفهان سنة ١٨٤٦م، وكان دعاته قد توغلوا فى هذه الولاية مثل توغلهم فى شيراز[٤].

---

(١) المصدر السابق: ص٢٣. وذيل الملل والنحل: ص٤٦.
(٢) نفس المصدر: ص٢٣. وذيل الملل والنحل: ص٤٦.
(٣) نفس المصدر: ص٢٣. وذيل الملل والنحل: ص٤٦.
(٤) المصدر السابق: ص٢٣. وذيل الملل والنحل: ص٤٦.

وفى سنة ١٨٤٧م أمر الشاه باعتقال الباب فى قلعة (ماه كو) فى ولاية أذريبجان بالقرب من الحدود الروسية الإيرانية العثمانية، وكانت القلعة منيعة جدًا، إلا أن نقل الرجل إلى تلك القلعة بث الشجاعة والغيرة فى قلوب أتباعه، فصاروا يجاهرون بالدعوة بعد أن كانوا يبشرون بها فى الخفاء، وأخذ عدد أتباعه يزداد يومًا بعد يوم، فنقلته الحكومة إلى قلعة جهريق[١].

ثم عقد أقطاب البابية مؤتمرًا فى صحراء (بدشت) فى شهر رجب سنة ١٢٦٤هـ - ١٨٤٨م. حضره واحد وثمانون قطبًا، من بينهم باب الباب الملا حسين البشرؤئى، والحاج محمد على البافروشى الملقب بالقدوس، وقرة العين زارين تاج، التى دعيت بالطاهرة فى هذا المؤتمر، والميرزا على حسين الذى تسمى بالبهاء[٢].

وقد تناول المجتمعون البحث فى هذين الأمرين الرئيسيين:

أولًا: إنقاذ الباب من اعتقاله ونقله إلى مكان آمن.

ثانيًا: وضع حد بين مبادئ البابية والدين الإسلامى.

ففيما يتعلق بالأمر الأول تقرر إرسال المبلغين إلى النواحى، ليحثوا الأحباب على زيارة الباب فى قلعة (ماه كو) مستصحبين معهم من يتسنى استصحابه من ذوى قرباهم وودهم، وأن يجعلوا مركز اجتماعهم (ماه كو) حتى إذا تم العدد الكافى طلبوا من الشاه الإفراج عن الباب، فإن أجابهم إلى طلبهم فبها ونعمت، وإلا هجموا على القلعة وأنقذوه بالقوة[٣].

---

(١) بتصرف عن كتاب: "البابيون والبهائيون": ص٢٨-٢٩.

(٢) راجع ذيل الملل والنحل: ص٤٧.

(٣) راجع البابيون والبهائيون: ص٢٩، وذيل الملل والنحل: ص٤٧.

وأما فيما يتعلق بالأمر الثانى فقد ظهر -بعد مذاكرات طويلة- أن معظم المؤتمرين يعتقدون بوجوب النسخ والتجديد، ويرون أن من قوانين الحكمة الإلهية فى التشريع الدينى أن يكون الظهور اللاحق أعظم مرتبة وأعم دائرة من سابقة، وأن يكون كل خلف أرقى وأكمل من سلفه، فعلى هذا القياس يكون الباب أعظم مقامًا وآثارًا من جميع الأنبياء الذين خلوا من قبله، وأثبتوا له الخيار المطلق فى تغيير الأحكام وتبديلها.

وذهب قليل من الحاضرين إلى عدم جواز التصرف فى الشريعة الإسلامية، مستندين إلى أن حضرة الباب ليس إلا مروجًا لها ومصلحًا لأحكامها[١].

ثم دعى الباب لمناظرة علماء إيران، فسأله أحد العلماء[٢]: من تكون؟. وما هو ادعاؤك؟ وما هى الرسالة التى أتيت بها؟. فأجاب ثلاثًا:

إنى أنا الموعود، وأنا الذى دعوتموه منذ ألف سنة، وتقومون عند سماع اسمه، وكنتم تشتاقون للقائه عند مجيئه، وتدعون الله لتعجيل ساعة ظهوره، الحق أقول لكم: إن طاعتى واجبة على أهل الشرق والغرب[٣]. فقال أحد العلماء: إن الدعوى التى تقدمها الآن دعوى خطيرة، فيجب أن تدعى بالدليل القاطع.

فأجاب الباب: إن أقوى دليل وأقنعه على صحة دعوى رسول الله هو كلامه، كما دلل على ذلك بقوله: (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم.)[٤]. ولقد آتانى الله هذا البرهان، ففى ظرف يومين وليلتين أقرر أنى أقدر

---

(١) المرجع السابق: ص٣٠، وذيل الملل والنحل: ص٤٨.

(٢) راجع ذيل الملل والنحل: ص٤٨.

(٣) راجعل البابيون والبهائيون: ص٤٣، والمصدر السابق ص٤٨.

(٤) سورة العنكبوت: ٥١.

أن أُظهر آيات توازى فى حكمها جميع القرآن[١]. وانتهت المناظرة بغير نتيجة.

ثم ازدادت الاضطرابات فى جميع أنحاء إيران، وانتشرت الفتن وساعدت الدسائس الأجنبية على امتدادها، فقرر الشاه ناصر الدين ضرورة القضاء على هذه الفتن، فأصدر أمره بإعدام الباب، ونفذ فيه حكم الإعدام فى شهر يوليو ١٨٤٩م، وقد تبرأ منه كاتب وحيه حسن التبريزى، وانهال على الباب بالشتائم والسباب، فأطلق سراحه[٢].

وأتى الحراس بوتدين من الحديد، ودقوهما فى جدارين متقابلين، وربطوا فيهما الباب وصاحبه محمد على الزنوزى، وأطلقوا عليهما الرصاص، وربط الجند جثتيهما وألقوهما فى خندق، فبقيتا فيه حتى أكلتهما الطيور الجارحة[٣]. وكان عمر الباب يوم إعدامه إحدى وثلاثين سنة قمرية وسبعة أشهر وسبعة وعشرين يومًا، من يوم ميلاده فى شيراز.

ولما قتل الباب زادت تعاليمه اشتهارًا وعظم الاضطهاد على أتباعه، وأظهر بعض رؤسائهم دعاوى مختلفة من قبيل النبوة والوصاية والولاية والمراتبة وأمثالها، فاختلفت آراؤهم وتشتت أهواؤهم وسقط كثير منهم فى الضلالات، وانهمك بعضهم فى المنكرات والموبقات.

وقد نقل بعض أتباع الباب جثته ودفنها على جبل الكرمل حيث يرقد عبد

---

(١) راجع البابيون والبهائيون: ص٤٣.

(٢) المصدر السابق: ص٤٦ - ٤٧. وقد نقل عن بعض الكتب أن الباب المقتول أوعز إلى كاتب وحيه أن ينكره لينجو من الموت. ويقص على أصحابه ما لقيه أصحابه من عذاب مهين. نقلت هذه السطور عن كتاب البابيون والبهائيون: ص٤٧.

(٣) راجع البابيون البهائيون: ص٤٦ - ٤٧.

البهاء عباس[١].

كتب الباب

من أهمها، البيان العربى. كتبه خلال إقامته فى قلعه (ماه كو) ورتبه على تسعة عشر واحدًا، وقسم كل واحد إلى تسعة عشر بابًا، فتكون أبوابه ٣٦١ بابًا. وهذا العدد ينطبق على مجموع أعداد حروف كلمة: كل شىء. وقد خص الواحد الأول بنفسه، والثمانية عشر الباقية لكبار أصحابه، لكل منهم واحدًا. ولما كان حاصل جميع أعداد حروف (حى) إذا استخرجت بحساب الجُمل ١٨، فقد سمى أصحابه المشار إليهم، حروف حى، إلا أنه لم يكتب إلا أحد عشر واحدًا فقط، وترك إكمال البيان العربى لمن يأتى بعده. وله كتاب البيان الفارسى، وهو صورة من البيان العربى[٢]:

الواحد الأول - بسم الله الأمنع الأقدس

إننى أنا الله لا إله إلا أنا، وأن ما دونى خلقى، قل أن يا خلقى إياى فاعبدون، قد خلقتك ورزقتك، وأَمَتُّكَ وأحييتك، وبعثتك، وجعلتك مظهر نفسى لتتلون من عندى آياتى، ولتدعون كل من خلقته إلى دينى، هذا صراط عز منيع. وخلقت كل شىء لك، وجعلتك من لدنا سلطانًا على العالمين، وأذنت لمن يدخل فى دينى بتوحيدى وأقرنته بذكرك، ثم ذكر من قد جعلته حروف الحى بإذنى.

وما قد نزل فى البيان من دينى، فإن هذا ما يدخل به الرضوان عبادى

---

(١) راجع ذيل الملل والنحل: ص٤٩.

(٢) المصدر السابق نفسه وكتاب البابيون والبهائيون: ص٥٢. لمؤلفه السيد عبد الرازق الحسينى.

المخلصين، وإن الشمس آية من عندى ليشهدن فى كل ظهور مثل طلوعها كل عبادى المؤمنين. قد خلقتك بك، ثم كل شىء بقولك، أمرًا من لدنا إنا كنا قادرين. وجعلتك الأول والآخر والظاهر والباطن إنا كنا عالمين.

وما بعث على دين إلا إياك، وما نزل من كتاب إلا عليك، ذلك تقدير المهيمن المحبوب. وإنما البيان حجتنا ندخل من نشاء فى جنات قدس عظيم، ذلك ما يبدأ فى كل ظهور من الأمر، أمرًا من لدنا إنا كنا حاكمين. وما نبدأ من دين إلا لما يبدع من بعد، وعدًا علينا إنا كنا على كل قاهرين، وإنا قد جعلنا أبواب ذلك الدين عدد كل شىء مثل عدد الحول، لكل يوم بابًا ليدخلن كل شىء فى جنة الأعلى، وليكونن فى كل عدد واحد ذكر حرف من حروف الأولى لله رب السموات والأرض، رب كل شىء، رب ما يُرى وما لا يُرى، رب العالمين. وإنا فرضنا فى باب الأول ما قد شهد الله على نفسه على أنه لا إله إلا هو رب كل شىء، وإن ما دونه خلق له عابدون، وأن ذات حروف السبع باب الله لمن فى ملكوت السموات والأرض وما بينهما، كل بآيات الله من عنده يهتدون، ثم كل باب ذكر اسم حق من لدنا، وكل أحد من حروف الحى، بما رجعوا إلى الحياة الأولى، محمد رسول الله والذين هم شهداء من عند الله، ثم أبواب الهدى وخلقوا فى النشأة الأخرى بما وعد فى الفرقان إلى أن يظهر عدد الواحد فى الواحد الأول، فضلًا من لدنا إنا كنا فاضلين(١).

الحركة البهائية - "خليفة البابية"

بعد انتهاء دور البابية ظهرت البهائية، وكان مؤسسها الميرزا حسين على بن

---

(١) نفس المصدر والبابيون والبهائيون: ص٥٠ - ٥١.

الميرزا عباس النورى المازندارانى الذى تسمى بالبهاء[١].

حياة البهاء

ولد سنة ١٢٣٣هـ - ١٢ تشرين ثانى ١٨١٧م[٢]. وكان والده مأمورًا للمالية، وخلف سبعة أولاد.

وقد تربى الميرزا حسين مع إخوته فى طهران، وكان يعاشر الصوفية ويقرأ كتبهم حيث ظهرت بوادرها فى كتاباته وأفكاره فيما بعد.

وقد حضر مؤتمر بدشت مع غانية البابيين -قرة العين- وكان له تأثير عظيم عليها، وقد دفن فى عكا سنة ١٣٠٩هجرية - ١٨٩٢ ميلادية، وأوصى بعده بالأمر لولده الذى سماه بـ (عبد البهاء)[٣].

ثقافته

ثقافته خليط من البرهمية والبوذية والزرادشتية والمانوية والمزدكية والمسيحية واليهودية والإسلام والفرق الباطنية وغيرها، وهناك رافد آخر أثر فى عقله وثقافته وأسلوبه وهو المذاهب الصوفية، وخاصة ما يتصل بوحدة الوجود والحلول والفناء[٤].

علاقته بالصوفية

لقد خالط الصوفية منذ صغره، وتتلمذ على أيديهم واستوعب رموزهم ومصطلحاتهم، ولم يفارقه هذا الاتجاه حتى بعد دخول البابية ونفيه إلى العراق، فقد كان وهو فى نواحى السليمانية يحضر إلى محل هناك يسمى (خانقاه) الذى

---

(١) راجع كتاب خفايا البهائية: ص١١١.

(٢) راجع كتاب البابيون والبهائيون: ص٥٣، ٥٨، ٥٩. وكتاب البابية والبهائية فى الميزان.

(٣) المصدر السابق.

(٤) راجع البابيون والبهائيون: ص٥٨ - ٥٩.

كان مجمع العلماء والمشايخ والصوفية.

إن تأثير الكتابات الصوفية قد بلغ فى أسلوب الميرزا حسين مبلغًا عظيمًا، حتى لا تكاد تقرأ صفحات من كتاباته إلا وتحسب نفسك أمام كتاب من كتب متطرفى الصوفية فى معناه ومبناه(١). ونورد هنا طائفة من أقواله، وهى تريك أنه على نهج أقوال الصوفية تمامًا:

يا أيها الطائر فى هواء المحبة والوداد، والناظر إلى أنوار وجه ربك مالك الإيجاد، قد أماتتنى ظلمة البعد. أين نور قربك يا مقصود العارفين، وأهلكتنى سطوة الهجر. أين ضياء وصالك يا محبوب المخلصين.

وفى كتبه تتردد تعابير الصوفية منها: محبوب أفئدة العارفين، تجليات أنوار شمس الحقيقة، فيوضات.. مظهر إلاهى.. سبحات الأنام وغيرها.

ومن أساليب البهائيين -يقول الأستاذ الإمام محمد عبده: أنا لم أفهم من عباس -عبد البهاء- أفندى شيئًا، وإنما صرح لى أن قيامهم لإصلاح مذهب الشيعة وتقريبه من مذهب أهل السنة(٢).

لقد كان يحضر معه الجمعة، رغم أن والده البهاء أبطل صلاة الجماعة. لقد خطب عباس مرة فى لندن فقال: الناس قد نسوا تعاليم بنى إسرائيل وتعاليم المسيح وغيره من معلمى الأديان فجددها البهاء.

ونلاحظ أن هذا الحاقد الملعون لم يذكر اسم الرسول الأعظم عليه السلام ترضية للصليبيين، وتزلفًا للصهيونية أعداء الإسلام والدين(٣).

---

(١) راجع البابية والبهائية فى الميزان: ص٢٠.

(٢) انظر خفايا الطائفة البهائية: ص١٢٢.

(٣) لقد استطاع البهائيون أن يتغلغلوا فى إيران ويتولوا المراكز الحساسة العليا.

وكان إذا خاطب جمعًا مسيحيًا قال: المسيح هو الحقيقة الإلاهية، والكلمة الجامعة السماوية، التى لا أول لها ولا آخر، ولها ظهور وإشراق وطلوع وغروب فى كل دور من الأدوار(١).

هذه أساليبهم ودعواتهم المنحرفة، وبدعهم وخداعهم ومكرهم كالثعالب المتلونة. قاتلهم الله أنى يؤفكون.

البهائية والصهيونية

إن اليهود حاولوا بكل ما لديهم من وسائل تثبيت مركز الميرزا حسين البهاء، وبلغ الأمر بهم أن استخلصوا من دفائن العهد القديم وتنبؤات أسفاره ما ينبئ بظهور بهاء الله عباس. وزعموا أن كل آية تشيد بمجد يهودا إنما تعنى ظهور مخلص العالم فى شخص بهاء الله. كما نسبوا جزءًا كبيرًا من الإشارات والتلميحات -التى فى الأسفار- إلى جبل الكرمل، الذى تجلى فيه نور الله وأضاء الكون، وذلك فى نهاية القرن التاسع عشر، فضلًا عن أنهم لم ينسوا أن يستخرجوا مما يحتويه سفر دانيال من الرؤى ما ينبئ بقيام حركة الباب وأن يلتمسوا تأويل ما يدل على حدوثها(٢).

البهائية والانجليز

إن تاريخ الإنجليز فى إيران لم يكن بأشرف من تاريخهم فى الهند، فقد حاولوا التغلغل بين الصفوف، وإيقاد نار العداوة بين المسلمين، ومساعدة الحركات الهدامة التى قامت لتقويض دعائم الإسلام، ومن ذلك مساعدتهم الفعلية للحركة البهائية، وتشجيعهم لزعمائها والتدخل السافر لإنقاذهم من

---

(١) راجع البابية والبهائية فى الميزان. والمصدر السابق "بتصرف".

(٢) خفايا البهائية: ص١١٥ – ١١٩. والبابية والبهائية فى الميزان: ص٢٣.

القصاص العادل[١]، وتهيئة الظروف اللازمة لإنجاح دعوتهم.

لقد رأى الإنجليز أن أملهم الأخير يكمن فى مناصرتهم للميرزا حسين البهاء، وتهيئة الظروف اللازمة لإنجاح دعوته -بعد إخفاق الحركة البابية فى السيطرة على إيران- ولذلك فإنهم لجأوا إلى كل وسيلة لإنقاذه من الإعدام، متعاونين بذلك مع الروس واليهودية العالمية، لأنهم كانوا يرون فيه الشخص الذى بوسعه أن يقدم إليهم أجل الخدمات.

إن ولاء عبد البهاء عباس -زعيم البهائية- للانجليز يتأكد لكل إنسان عندما يقرأ الخطب الرنانة التى ألقاها فى نوادى لندن وكنائسها ومجامعها، ويقول مخاطبًا الإنجليز فى إحدى خطبه: إن مغناطيس حبكم هو الذى جذبنى إلى هذه المملكة. ويقول: أصبحت المدنية الغربية متقدمة عن الشرقية، وأصبحت الآراء الغربية أقرب إلى الله من آراء الشرقيين[٢].

عقائد البهائية

تقوم الديانة البهائية على أساس الاعتقاد بوجود إله واحد أزلى، نظير ما يعتقد به المسلمون، إلا أن البابيين يستمدون صفات الخالق من أساس العقيدة الباطنية، التى ترى أن لكل شىء ظاهرًا وباطنًا، وأن هذا الوجود مظهر من مظاهر الله، وأن الله هو النقطة الحقيقية، وكل ما فى الوجود مظهر له.

والوجود فى نظر المسلمين صادر عن الله وفعل مخلوق له، وأما عند البابية والباطنية فإنه صفة تدل على الحياة والتأثير، ومن هذه الناحية الاعتقادية يبنون كل مظاهر العمل والعبادة، على أنها أمور ظاهرية تعبر عن أمر باطنى.

---

(١) انظر خفايا البهائية. والبابية والبهائية فى الميزان: ص٢٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

أما عقيدتهم فى النبى والإمام فمستمدة عن العقيدة بالخالق، فالنبى أو الإمام فى حياته مظهر من مظاهر الله فى الأرض، وارتقاؤه إلى هذه المنزلة إنما هو باستمكاله صفات أخلاقية جعلته يعبر عن الأمر الواقعى ويصل إلى الحقيقة دون غيره، فمن استكمل الصفات التى استكملها النبى أو الإمام فهو أحق وأهل للتظاهر بمظهر الدعوة والتبشير، لهذا صح للباب أن يكون مظهرًا من مظاهر الله فى الأرض بعد النبى[1].

أما عبادات البهائيين ومعاملتهم فقد وردت فى كتاب البيان، الذى نسخه خليفة الباب - وهو على حسين الملقب بالبهاء- بكتابه الأقدس:

١. الصوم:

عند البهائيين هو الشهر التاسع عشر، الذى يلى أيام الضيافة. والسنة البهائية تسعة عشر شهرًا كل شهر تسعة عشر يومًا، ومجموع ذلك ٣٦١ يومًا، وبقية أيام السنة عندهم تسمى أيام الهاء، وهم يقضون هذه الأيام فى تبادل الزيارات ومواساة الفقراء والضعفاء والأيتام وأبناء السبيل، ثم يصومون بعد ذلك شهرًا كاملًا، أى تسعة عشر يومًا، يكون آخرها عيد النيروز، أى: ٢١ آذار "مارس".

وفى الصيام يمتنعون عن الطعام والشراب من الشروق إلى الغروب، ويعفى من الصيام من كان دون البلوغ، أو كان على سفر، أو الضعيف نتيجة المرض أو الهرم، ويدخل فى ذلك الحامل والمرضع والحائض والنفساء، ولا يجب على هؤلاء القضاء.

كذلك يقول عبد البهاء فى دعوته الماكرة -داعيًا للتجمع الصهيونى فى فلسطين ويدافع عنهم فى خبث ظاهر، ويذكر جملة أباطيل عند دفاعه عن

---

(١) انظر البابيون والبهائيون: ص٧٢ - ٧٣. وذيل الملل والنحل: ص٥١.

اليهودية- فيقول: وقد اعتبر المسيحيون والمسلمون أن اليهود شياطين وأنهم أعداء، ولذلك لعنوهم واضطهدوهم وقتلوا الكثيرين منهم، وأحرقوا منازلهم ونهبوا أموالهم وأسروا أطفالهم[(١)].

ولإلقاء المزيد من الأضواء على صلة البهائية الضالة مع الصهيونية الماكرة، أسوق فيما يلى طائفة من الوثائق التى تكشف تآمرها على الإسلام والمسلمين.

١ . نشرت مجلة الأخبار الأمرية التابعة للمحفل الروحانى الوطنى للبهائيين -العدد الخامس الصادر فى أيلول عام ١٩٥١ - حديثًا لرئيس القسم العالى للبهائيين، مع وزير الأديان الصهيونى يقول فيه: إن أراضى الدولة الإسرائيلية - فى نظر البهائيين واليهود والمسيحيين والمسلمين- أراض مقدسة. وقد كتب حضرة عبد البهاء قبل أكثر من خمسين عامًا، أنه فى النهاية ستكون فلسطين موطنا لليهود، وهذا كلام طبع فى حينه وانتشر[(٢)].

٢ . وجاء فى كتاب التوقيعات المباركة، بالمجلد الثانى، لمؤلفه شوقى أفندى- وهو الزعيم الثالث للفرقة البهائية - فى الصفحة ٢٩٠ ما يلى:

لقد تحقق الوعد الإلاهى لأبناء الخليل ووارث الكليم، وقد استقرت الدولة الإسرائيلية فى الأراضى المقدسة، وأصبحت العلاقات بينها وبين المركز العالمى للجامعة البهائية وطيدة، وقد أقرت واعترفت بهذه العقيدة[(٣)].

٣. نشرت مجلة الأخبار الأمرية بالعدد العاشر فى عام ١٩٦١م. ما قالته روجيه ماكسول زوجة شوقى أفندى وزعيمة البهائيين حاليًا، فى مقابلة صحفية

---

(١) خفايا البهائية: ص١١٥ - ١١٩. والبابية والبهائية فى الميزان: ص٢٣.
(٢) انظر أجنحة المكر الثلاثة: ص٢١٢ - ٢١٣، وحقيقة البابية: ص٢٠.
(٣) نفس المصدر.

لها مع (مزدهيفت) وهو: فإن كان من المقرر لنا الاختيار، فمن الجدير أن يكون هذا الدين الجديد فى أحدث دولة، وفيها يترعرع، وإن لنا مع إسرائيل روابط ووحدة مصير، وفى الواقع يجب أن أقول: إن مستقبلنا ومستقبل إسرائيل يرتبطان ببعضهما كحلقتين فى سلسلة واحدة[١].

٤ . إن مركز تشكيلات البهائيين الرئيسى -وسمى بيت العدل- يوجد حاليًا فى مدينة بفلسطين المحتلة، وتشرف عليه هيئة مكونة من تسعة أشخاص، بينهم أمريكيون وأوروبيون. والرئاسة الروحية فيه لتلك المرأة الأمريكية الأصل -روجيه ماكسول- وكل المحافل الأخرى التى تقام فى العالم تعتبر فرعًا للمركز الرئيسى فى فلسطين المحتلة[٢].

٥ . ثبت لدى مكتب المقاطعة العربية لإسرائيل أن البهائية تتعامل مع الصهيونية وتتآزر معها، لذلك أصدر فى شهر صفر عام ١٣٩٥هـ. الموافق لآذار عام ١٩٧٥م. قرارًا باعتبار البهائية من الحركات الهدامة، وبوضعها فى القائمة السوداء ومقاطعتها، وحظر أى نشاط لها فى البلاد العربية، لثبوت تعاملها مع العدو الإسرائيلى، وافتضاح اتصالاتها المشبوهة بالصهيونية وأجهزتها السرية والعلنية[٣].

إن هذه النصوص الدامغة هى الوثيقة التاريخية التى تدين البهائية فى كل زمان ومكان بعمالتهم للصهيونية العالمية، وبأنهم الأعداء الحقيقيون للبشرية، والتى زعموا أنهم ما جاؤوا إلا لإسعادها ودفع الظلم عنها، وهذا زور وبهتان.

---

(١) نفس المصدر. والبابية والبهائية فى الميزان: ص٢٤.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.

ألا ساء ما يصنعون.

٢. الصلاة:

فرضت الصلاة على كل بهائى بالغ، وهم يؤدونها على انفراد بتسع ركعات ثلاثة أوقات، حين الزوال، وفى البكور، والآصال، متوجهين شطر مدينة عكا حيث يرقد بهاء الله، على أن يسبق الصلاة وضوء وإذا انعدم الماء يذكر الإنسان عبارة: بسم الله لا طهر إلا طهرك: خمس مرات، ثم يشرع فى الصلاة.

ويعفى من الصلاة من كان فى مثل الحالات التى سبق ذكرها فى الإعفاء من الصيام. وليس عندهم صلاة جماعة إلا فى صلاة الميت ويتلون فى كل صلاة أدعية خاصة(١).

٣. الحج:

أما حجهم فإلى الدار التى ولد فيها مؤسس ديانتهم -على محمد- بشيراز، أو إلى الدار التى نزل بها بهاء الله حسين خلال إقامته بالعراق، وليس هناك وقت معين للحج(٢).

٤. الزكاة:

وقد سئل عبد البهاء عباس عن حكم الزكاة فى ديانته فأجاب: الزكاة فى البهائية كالزكاة فى الإسلام، وهناك تعاليم دينية أخرى منها:

١. تحريم التسول والاستجداء ومنع العطاء للمتسولين مطلقًا.

٢. وجوب العمل على الجميع، فلا يأكل إنسان من ثمار غيره.

---

(١) ذيل الملل والنحل: ص٥٢. وكتاب البابيون والبهائيون: ص٧٥ وخفايا الطائفة البهائية: ص١٢٨ - ١٣٠.

(٢) المصدر السابق.

٣. الإصلاح الاقتصادى بين الفلاحين فى القرى.

٤. تحريم المخدرات[١].

٥. الزواج:

الزواج بواحدة فقط، وفى كتابهم الأقدس التصريح بزوجتين إذا عدل بينهم، وفسر عبد البهاء عباس هذا النص بقوله: إن الزواج لا يكون بأكثر من واحدة، لأن الزواج باثنتين مقرون بشرط لا يمكن تحقيقة وهو العدالة.

أما الطلاق فمكروه. وهم يزوجون البهائى من غير البهائية، والبهائية من غير البهائى بشرط تحرير عقد بهائى إلى جانب العقد غير البهائى[٢].

٦. المواريث:

فى الشريعة البهائية يتساوى الولد مع البنت فى الميراث وفى كافة الحقوق، وسن الرشد لهما واحد وهو الخامسة عشرة، وغير البهائى لا يرث البهائى.

- أسماء الشهور والأيام عند البهائيين:

(١) شهر البهاء (٢) شهر الجلال (٣) شهر الجمال (٤) شهر العظمة (٥) شهر النور (٦) شهر الرحمة (٧) شهر الكلمات (٨) شهر الكمال (٩) شهر الأسماء (١٠) شهر العزة (١١) شهر المشيئة (١٢) شهر العلم (١٣) شهر القدرة (١٤) شهر الفول (١٥) شهر المسائل (١٦) شهر الشرف (١٧) شهر السلطان (١٨) شهر الملك (١٩) شهر العلاء.

- أما أسماء الأيام فهى:

يوم الجلال - يوم السبت

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

يوم الجمال - يوم الأحد
يوم الكمال - يوم الإثنين
يوم الفضال - يوم الثلاثاء
يوم العدل - يوم الأربعاء
يوم الاستحلال - يوم الخميس
يوم الاستقلال - يوم الجمعة

- أعيادهم:

١. عيد النيروز فى ٢١ آذار - مارس.

٢. عيد الرضوان: يبدأ من ٢١ نيسان - ابريل - إلى ٢ أيار - مايو- وهو عيد إعلان بهاء الدين دعوته فى حديقة نجيب باشا بالعراق التى سماها حديقة الرضوان، وكان نجيب باشا والى بغداد قد حجزه فى تلك الحديقة سنة ١٨٦٣م، فأقام فيها ١٢ يومًا أعلن خلالها دعوته.

٣. عيد ميلاد مؤسس الديانة: وهو أول المحرم من كل عام.

٤. عيد ميلاد البهاء حسين على: وهو فى اليوم الثانى من المحرم.

٥. عيد إعلان دعوة الباب على محمد: وهو فى اليوم الخامس من جمادى الأولى[1].

وبما أن الديانة البهائية لم تجد رواجًا بين المسلمين، لذلك اتجه أتباعها إلى نشرها فى أوربا وأمريكا، وقد زار عبد البهاء من البلاد الأوربية انجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا، وتجول فى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد صادفت

---

(١) انظر خفايا البهائية: ص١٢٤ - ١٣٦. والبابيون والبهائيون: ص٨٤ - ٨٩. وذيل الملل والنحل: ص٥٣ - ٥٤ بتصرف.

دعوته بعض النجاح بين سكان أمريكا الشمالية.

وبعد وفاة الميرزا حسين على -الملقب بالبهاء- انقسم البهائيون إلى فرق هى:

(١) البهائية. (٢) الأزلية: نسبة إلى صبح أزل أحد أنصار الباب. (٣) البابية الخلص، الذين لم يرضخوا لأوامر من قام بعد الباب على محمد. (٤) البابية البهائية العباسية: أتباع عبد البهاء عباس، وهو ابن حسين على الملقب بالبهاء، وقد أطلق على نفسه عبد البهاء، ولد سنة ١٨٤٤م ومات سنة ١٩٢١م. (٥) الناقضون: وهم أتباع محمد على أخى العباس، ويطلق المؤرخون اسم المارقين على أتباع الميرزا عباس واسم الناقضين على اتباع محمد على.

وكل فريق يؤيد دعواه ويكفر من عداه، فاعتزلوا المعاشرة وحرموا معاملة بعضهم لبعض، وكانت عداوة كل منهم للآخر أشد من عداوتهم جميعًا لمن طعن فى معتقداتهم وقال ببطلان دعواهم[١].

وعلى الجملة فبدعة البهائية المشركة، وضلالة البابية الخبيثة التى سبقتها - وهى حجر الأساس لوجودها- -هاتان الديانتان الاستعماريتان اللتان ارتبطتا عضويًا مع الاستعمار والصهيونية العالمية وذلك للكيد للإسلام وطعنه فى صميمه وتقويض أركانه[٢].

تكفير البهائية

ونظرًا لأخطار البهائية ونتائجها المدمرة على الدين الإسلامى وأتباعه،

---

(١) انظر ذيل الملل والنحل ص٥٥ - ٥٦ .وخفايا الطائفة البهائية: ص١١١ - ١١٢.

(٢) يقول محمد الحجازى، صاحب جريدة اليقظة الإيرانية، بأن البهائية مشركون وليسوا بمسلمين، وقد حكمنا فى إيران بنجاستهم ... ومقابر البهائيين مع مقابر اليهود فى مكان واحد. خفايا البهائية: ص١١٨٦.

ولئلا ينجرف الناس فى تيارها المعادى، وكشفًا لضلالها وفساد دعاتها وكفرهم، فقد صدرت عدة فتاوى وأحكام قضائية بتكفير هذه الطائفة ومبتدعيها.

فقد أفتى شيخ الأزهر فضيلة الشيخ سليم البشرى رَحِمَهُ اللَّهُ علامة زمانه، عندما سئل عن رأيه فى زعيمهم -الميرزا عباس- فأجاب بقوله: إنه كافر[١]..وقد صدرت هذه الفتوى فى جريدة مصر الفتاة فى ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣٢٨هـ. عدد ٦٩٢.

كما صدرت فتوى ثانية فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٤٩م، وكانت لجنة الفتوى برئاسة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم رَحِمَهُ اللَّهُ وإلى القارئ نص الفتوى: إن البهائية ليست من فرق المسلمين، إذ أن مذهبهم يناقض أصول الدين وعقائده، التى لا يكون المرء مسلمًا إلا بالإيمان بها جميعًا، بل هو مذهب مخالف سائر الملل السماوية، ولا يجوز للمسلمة أن تتزوج بواحد من هذه الفرقة، وزواج المسلمة به باطل، بل إن من اعتنق مذهبهم من بعد ما كان مسلمًا صار مرتدًا عن دين الإسلام، ولا يجوز زواجه مطلقًا، ولو ببهائية مثله[٢].أهـ.

فعلى المسلمين أن يحذروا أعداءهم وأتباع هذه النحلة المسخ وأوهامها وخرافاتها، كما يجب على حكام المسلمين وعلمائهم كشف أعداء الأمة وكافة الدسائس وإحباطها، والتحذير من الوقوع فى شراك الأعداء ومكائدهم المستمرة.

---

(١) انظر كتابنا مصرع الشرك والخرافة: ص٣١٣. وكتاب البابية والبهائية فى الميزان: ص٢٦.

(٢) البهائية فى نظر الشريعة والقانون: ص١٩، للمستشار على على منصور. وخفايا الطائفة البهائية: ص١٨٦.

وبعد: فهذه صورة جامعة وجيزة للبابية وخليفتها البهائية، وما تقدمهما من مساعى الكيد للدين الإسلامى ابتغاء تغييره وتحويل أهله عنه، ومقتطفات من نصوص القوم مأخوذة من كتبهم وغيرها من المراجع الموثوقة، وأظن أن فيما أوردته ما يكفى للحكم على هاتين الطائفتين الضالتين بما تستحقانه والذين سعوا لهما. والله حسيبهم فى الدنيا والآخرة. وأخيرًا خير ما يقال قوله تعالى: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم).

الحركة القاديانية

تنتسب الطائفة القاديانية إلى مدينة قاديان بالهند، وأحيانًا يطلق عليهم اسم الأحمدية، لانتسابهم فى مذهبهم إلى رجل اسمه غلام أحمد المولود بمدينة قاديان بالهند سنة ١٨٣٥م. والذى انكب منذ صغره على دراسة القرآن والحديث والتعبد والتفكير فى أمور الدين.

وقد ادعى غلام أحمد أنه المسيح المعهود والمهدى الموعود فى وقت واحد، ويستند أتباعه فى الإيمان به إلى حديث: (أن المهدى يظهر..... وأن المسيح يُصلى خلفه.)[١] مع قول النبى ﷺ (كيف بكم وبابن مريم فيكم؟!.)[٢].

ويقولون أن غلام أحمد وإن كان هنديًا إلا أنه إيرانى الأصل، هاجر آباؤه

(١) أخرجه أبو نعيم فى "أخبار المهدى" والحارث ابن أبى أسامة فى "مسنده" كما فى "العرف الوردى" للسيوطى (٢/ ١٣٤ الحادى)، وقال ابن القيم: هذا إسناد جيد (المنار المنيف ص ١٤٧، ١٤٨).

(٢) أخرجه البخارى (٣٤٤٩) فى أحاديث الأنبياء: باب نزول عيسى بن مريم. ومسلم فى الإيمان: باب نزول عيسى بن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ (١٥٥) (٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦).

إلى الهند منذ مئات السنين[١]. وإيران هى الموطن الصحيح لسلمان الفارسى وقد جاء فيما يروى: (سلمان منا أهل البيت)[٢].

وفى سنة ١٨٩٦م وجه غلام أحمد رسالة إلى علماء الهند وغيرها من البلاد الإسلامية جاء فيها[٣]:

إن الله قد بعثنى مجددًا على رأس هذه المائة، واختصنى عبدًا لمصالح العامة، وأعطانى علومًا ومعارف تجب لإصلاح هذه الأمة. ووهب لى من لدنه علمًا حيًا لإتمام الحجة على الكفرة الفجرة، وجعلنى من المكلمين الملهمين، وأكمل على نعمه، وأتم تفضله، وسمانى المسيح ابن مريم بالفضل والرحمة، وقدر بينى وبينه تشابه الفطرة كالجوهرين من المادة الواحدة، ووهب لى علومًا مقدسة نقية، ومعارف صافية جلية، وعلمنى ما لم يعلم غيرى من المعاصرين، وصب فى قلبى ما لم يحيطوا به علمًا، ونورًا لم يمسه أحد منهم، وجعلنى من المنعمين.

ومن أجل آلائه أنه استودعنى سره الذى يكشف للأولياء، والروح الذى لا ينفخ إلا فى أهل الإصطفاء، وأعطانى كل ما يعطى لأهل الموالاة والولاء، وصافانى وولانى وشرح صدرى، وأتم بدرى وأخبرنى بأكثر ما هو مزمع عليه فى سابق علمه، وصبغنى حبه، وهدانى طرق إسلامه وسلمه، وأخرجنى من المحجوبين.

ومن آلائه أنه خاطبنى وقال: أنت وجيه فى حضرتى واخترتك لنفسى وقال:

---

(١) انظر القاديانى والقاديانية: ص٦. وذيل الملل والنحل ص٦١.

(٢) أخرجه الحاكم (ح ٦٥٣٩، ٦٥٤١)، وسكت عليه الحاكم وحذفه الذهبى لشدة ضعفه وانظر السير (٣/ ٣٤١)، وقال الألبانى: ضعيف جدًا (ضعيف الجامع ٣٢٧٢).

(٣) مكتوب أحمد، طبع لجنة التحرير الجديد سنة ١٩٥٩م.

أنت منى بمنزلة لا يعلمها الخلق. وقال: أنت منى بمنزلة توحيدى وتفريدى. وقال: يا أحمد أنت مرادى ومعى، يحمدك الله من عرشه. وقال: أنت عيسى الذى لا يضاع وقته، كمثلك در لا يضاع جرى الله فى حلل الأنبياء. وقال: قل إنى أُمرت وأنا أول المؤمنين. وقال: اصنع الفلك بأعيننا ووحينا. إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم. وقال: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

أيها الكرام: إن الفتن اشتدت، والأرض فسدت، والمفاسد كثرت، وعلا فى الأرض حزب المتنصرين، وقيل لهم مرارًا لا تجعلوا ميتًا إلاهًا غفارًا، واتقوا الله محاسبًا قهارًا، فما خافوا الله، وأصروا على كفرهم متشددين، هناك اقتضت أحديته وقضت غيرته أن يكسر صليبهم ويبطل أكاذيبهم، ويوهن كيد الخائنين.

فكلمنى ونادانى وقال: إنى مرسلك إلى قوم مفسدين، إنى جاعلك للناس إمامًا، وإنى مستخلفك إكرامًا، كما جرت سنتى فى الأولين وخاطبنى وقال: إنك أنت المسيح ابن مريم، وأرسلت ليتم ما وعد من ربك الأكرم، إن وعده كان مفعولًا وهو أصدق الصادقين.

وأخبرنى أن عيسى نبى الله قد مات، ورفع من هذه الدنيا ولقى الأموات، وما كان من الراجعين، بل قضى عليه الموت وأمسكه، ووافاه الأجل وأدركه، فما كان له أن ينزل إلا بروزًا كالسابقين. وقال سبحانه: إنك أنت هو فى حلل البروز، وهذا هو الوعد الحق الذى كان كالسر المرموز، فاصدع بما تؤمر، ولا تخف ألسنة الجاهلين، وكذلك جرت سنة الله فى المنقذين.

فلما أخبرت عن هذا قومى قامت علماؤهم للعنى ولومى، وكفرونى قبل أن يحيطوا بقولى ويزنوا حولى وقالوا: دجال ومن المرتدين.. وقال كبيرهم الذى

أفتى وأغرى: إن هؤلاء كفرة فجرة، فلا يسلم عليهم أحد، ولا يتبع جنازتهم، ولا يدفنون فى مقابر المسلمين.اهـ.

ثم عرض غلام أحمد بالعلماء فقال: وهم يقرؤون كتاب الله ثم ينسون ما قرؤوا، ولا يتدبرون كلمات الله بل ينبذونها وراء ظهورهم، وما كانوا ممعنين، والعجب كل العجب أنهم يقولون إنا آمنا بآيات الله ثم لا يؤمنون. ويقولون إننا نتبع صحف الله ثم لا يتبعون، ألا يقرؤون فى الكتاب الأعلى ما قاله الله فى عيسى؟. إذ قال: (يا عيسى إنى متوفيك). وقال: (فلما توفيتنى.). وما قال إنى محييك، فمن أين علم حياة المسيح بعد موته الصحيح؟!. ويؤمنون بأنه لقى الأموات ثم يقولون ما مات. تلك كلم متهافتة متناقضة، لا ينطق بها إلا الذى ضلت حواسه وغرب عقله وقياسه.

أليس الله بقادر على أن يجتبى مثلى بعنايته؟ ويعطى دراية من درايته؟ ولله أسرار فى أنبائه وحكم تحت قضائه.

يا عباد الله. اسمعوا ثم فكروا، ثم أقبلوا إن كنتم طالبين، قد مات نبى الله عيسى وأخبرنا عن موته خير الخلق وسيد الورى، وما جاء لفظ رجوع المسيح فى نبإ خير البرية، بل لفظًا النزول إلى هذه الأمة، وشتان بين الرجوع والنزول عند أهل المعرفة.

واعلموا أن قرب الله ليس إرثًا مقبوضًا لأحد، بل تداول هذه الأيام من أمر رب صمد يلقى الروح على من يشاءُ، وهكذا تقتضى لعظمة الكبرياء.

ثم يستطرد فى رسالته إلى أن يقول: وتعلمون أن فتن النصارى وغلوهم فى الخزعبلات كانت تقتضى حكمًا من رب السموات، فالله الذى نجى المسيح من صليب اليهود ورفعه إلى المقام الأعلى، أراد أن ينجيه من صليب النصارى

مرة أخرى، فأرسلنى حكمًا عدلًا لهذه الخطة، وسمانى باسمه، لأكسر الصليب وأتم ما بقى منه من فرائض النصيحة. ومن آيات الله أنه أخفى فى عدد إسمى عدد زمانى، وإن شئت ففكر فى غلام أحمد قاديانى، فذلك خاتم رب العالمين. وفيه إشارة إلى أنه جعلنى لهذه الملة مجدد الدين.

ويختتم رسالته المشؤومة بقوله: اعلموا أن فضل الله معى، وأن روح الله ينطق فى نفسى فلا يعلم سرى ودخيلة أمرى إلا ربى، هو الذى نزل على وجعلنى من المنورين[1].اهـ.

لقد ادعى غلام أحمد بأنه المسيح الموعود، بمعنى أنه جاء بقوة وروح عيسى علي السلام. وادعى أيضًا أنه هو النبى الذى تنبأت بظهوره فى آخر الزمان أغلب الديانات العظيمة. وأكد أن القرآن هو آخر كتاب تشريعى موحى به من الله تعالى، وأن محمدًا ﷺ آخر الأنبياء المشرعين، وأنه خاتم النبيين، أى أنه لا يمكن لأى نبى غير مشرع ان يظهر بعده إلا باتباعه اتباعًا كاملًا، والتشبه به تشبهًا تامًا. وقد ادعى أنه نبى، وأن مهمته هى إقامة العلاقة بين الإنسان وخالقه، كما أنه جاء أيضًا ليفسر القرآن وتعاليم الإسلام، فى ضوء الوحى الإلهى، بما يطابق العصر الحاضر، وليكون هو نفسه مثالًا يبين الحياة الإسلامية الكاملة.

وللقاديانية رئيس دينى يلقبونه أمير المؤمنين، وخليفة المسيح الموعود، والمهدى المعضود. وهكذا انقلبت الحقائق على أيدى دعاة الباطل -من أمثال غلام أحمد وخلفائه الأباليس- فهم بحق أمراء الإلحاد ودعاة الكفر والفساد.

---

(١) هذه نصوص رسالة غلام أحمد التى بعث بها إلى علماء الهند وغيرها من بلاد الإسلام. وهو مؤسس نحلة القاديانية المارقة. وفيها يظهر كفره وردته وضلاله، وقد سجلت معظم نصوصها، ولمن أراد التوسع فعليه بكتبهم الواهية الملحدة. وبذيل الملل والنحل. والقاديانى والقاديانية: ص١٠٠.

بعض تحريفات القاديانيين وتأويلاتهم

أمثلة من التفسير المحرف: إن محمد على اللاهورى هو الذى لقب الميرزا غلام أحمد بالمصلح الأكبر، كما يعتقد أنه المسيح الموعود، وقد جاء فى تفسيره ما يصرح بذلك:

١. يقول فى تفسير قوله تعالى: (ورسولًا إلى بنى إسرائيل): إن ابن مريم الذى أخبر الرسول بقدومه ليس معناه إلا أن يأتى أحد أفراد هذه الأمة فى لون ابن مريم، كما تحققت نبوءة وعد إلياس بقدوم يحيى فى لونه(١).

٢. إنه يفسر قوله تعالى -فى قضية طائفة من بنى إسرائيل عبدت العجل، وعاقبها الله بأن يقتل بعضها بعضًا: (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم). إن المراد بالقتل هنا إماتة الشهوات، وهذا الذى أُرجحه بناءً على السياق والسباق(٢).

٣. ويقول فى تفسير قوله تعالى: (فقُلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثتنا عشرة عينًا قد علم كُل أُناس مشربهم) من معانى الضرب: السير فى الأرض، يقال ضرب فى الأرض يعنى سار(٣). ومن معانى العصا: الجماعة، وعصوت يعنى جمعت. ويقال عن الخوارج: شقوا عصا المسلمين. ويقال: إياك وقتيل العصا. والمراد أن الله أمر موسى بالمسير إلى جبل خاص والانتقال بجماعته إليه، حيث وجد اثنتى عشرة عينًا، ضرب عليها فصائل بنى إسرائيل خيامها وأخبيتها(٤).

---

(١) بيان القرآن.

(٢) بيان القرآن: ج١ ص٦٥.

(٣) بيان القرآن: ج١ ص٦٩.

(٤) المرجع السابق: ص٦٩ نقلًا عن القاديانى والقاديانية: ص١٢.

٤. ويقول فى تفسير قوله تعالى: (ورفعنا فوقكم الطور). ليس أن الله رفع هذا الجبل على رؤوسهم مثل الظلة لا يستقر على الأرض، بل المعنى أنكم كنتم فى المنخفض من الأرض، وكان الجبل يطل عليكم -كما جاء فى البخارى- فرفعت لنا الصخرة، يعنى ظهرت لأبصارنا[1].

٥. وفسر منطق الطير فى قوله تعالى: (عُلمنا منطق الطير). حمل الطيور للرسائل من مكان إلى مكان كالحمام الزاجل.

٦. وفسر وادى النمل بأنه موضع فى نواحى اليمن، والنملة بطن من بطون العرب، أو أمة كانت تسكن فى وادى النملة.

ولعل القارئ الكريم قد وقف على تخرصات وأباطيل القاديانية وتفسيراتها المتطرفة، والتى هى نسخة صادقة لتفسيرات الباطنية والإسماعيلية فى العهد السابق. ألا قاتل الله ملة الكفر وأصحابها.

القاديانية والاستعمار

بعد أن زحفت الدول الاستعمارية على الأقطار العربية والإسلامية، وفى مقدمتها بريطانيا التى استولت على الهند ومصر، وناصبت الدولة العثمانية العداء، وتآمرت عليها وقعدت لها بالمرصاد، تساعد منافساتها من الدول وتحرض عليها، بدأت تتسرب إلى الجزيرة العربية وتبذر فيها بذور الفساد.

وقد أصبحت حكومة بريطانيا مسيطرة على الهند الإسلامية، وأصبحت الحكومة المغولية التيمورية -وهى الدولة المسلمة الأخيرة- أسيرة أو رهينة فى يدها، تتصرف فى ممتلكاتها تصرف السلطان الحر، وقاومها الملك الشهم الأبى السلطان تيبو رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسقط فى المعركة شهيدًا عام ١٧٩٩م، وانبث القساوسة

(١) بيان القرآن: ج١ ص٧٠ - ٧٤.

والرهبان فى الهند يدعون المسلمين -بصفة خاصة- إلى المسيحية ويسخرون من الدين الإسلامى ومبادئه وتعاليمه(١).

وانتشر الفساد والخلاعة، وغزت حضارة أوربا بيوت المسلمين ومجتمعاتهم، وبدأ الإلحاد وثار المسلمون على الإنجليز عام ١٨٥٧م، وانضم إلى هذا المعسكر كل من فى قلبه ذرة من إيمان أو غيرة على الدين وقد كان الانتصار حليفًا للإنجليز -لدهائهم وحسن نظامهم- فانتقموا من أهل البلاد- ومن المسلمين خاصة- انتقامًا شديدًا، وكان ذلك مصداق قوله تعالى: (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون).

ولم يكن الإنجليز طغاة ظالمين وملوكًا مستبدين فحسب، بل كانوا رسل الفساد والإلحاد والخلاعة والإباحة، وكانوا حملة لواء الاستعمار والاستهتار، والثورة على القيم الروحية والخلقية، التى جاء بها الأنبياء ونزلت بها الصحف، وكانوا مغيرين على العالم الإسلامى وزعماء الاستعمار الأوربى السياسى والثقافى والخلقى.

إن المعركة مستمرة بين الحق والباطل، وقد عرفنا من سيرة أنبياء الله ورسله وخلفائهم أنهم كانوا دائمًا حربًا على الظالمين والمجرمين، بعيدين عن مساندتهم وتأييدهم. وقد قال موسى عليه السلام: (رب بما أنعمت علىَّ فلن أكون ظهيرًا للمجرمين).

وقال تعالى مخاطبًا للمؤمنين: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون). وقال رسول الله ﷺ: (أفضل

---

(١) القاديانى والقاديانية: ص٢١.

الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)[١].

هذا وأسوة النبى ﷺ وأصحابه وخلفائه من العلماء والدعاة المخلصين مسجلة فى بطون التاريخ.

خدمات غلام أحمد لبريطانيا

وإلى القارئ بعض الأمثلة المؤيدة لحكومة بريطانيا، فى إلغاء الجهاد وتعطليه، والذى كان المسلمون فى حاجة ملحة إلى إحيائه والدعوة إليه، ليتحرروا من حكم الأجنبى ويتخلصوا من السرطان الإنجليزى، الذى امتد فى جسم العالم الإسلامى.

يقول الميرزا غلام أحمد فى كتابه -ترياق القلوب- ص١٥[٢]: لقد قضيت معظم عمرى فى تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها، وقد ألفت فى منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر -الإنجليز- من الكتب والإعلانات والنشرات، ما لو جمع بعضها إلى بعض لملأ خمسين خزانة. وقد نشرت جميع هذه الكتب فى البلاد العربية ومصر وتركيا، وكان هدفى دائمًا أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة، وتمحى من قلوبهم قصص المهدى السفاك والمسيح السفاح، والأحكام التى تبعث فيهم عاطفة الجهاد وتفسد قلوب الحمقى أهـ.

وقال فى آخر كتابه (شهادة القرآن): إن عقيدتى التى أكررها أن للإسلام جزئين: الجزء الأول إطاعة الله. والجزء الثانى. إطاعة الحكومة، التى بسطت

(١) رواه أبو داود (٤٣٤٤) والترمذى (٢١٧٤) وابن ماجة (٤٠١١)، قال الترمذى: حديث حسن غريب، وصححه الألبانى (الصحيحة ح٤٩١). وله شاهد من حديث طارق بن شهاب، رواه النسائى (٧/ ١٦١)، وصححه المنذرى فى الترغيب (ح٣٤٠٢).

(٢) القاديانى والقاديانية: ص٩٦ وما بعدها.

الأمن وآوتنا فى ظلها من الظالمين، وهى الحكومة البريطانية. أ. هـ.[١]. ويقول فى رسالة قدمها إلى نائب حاكم المقاطعة عام ١٨٩٨م: لقد ظللت منذ حداثة سنى -وقد ناهزت اليوم الستين- أجاهد بلسانى وقلمى لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة والنصح لها والعطف عليها، وألغى فكرة الجهاد التى يدين بها جهالهم، والتى تمنعهم من الإخلاص لهذه لحكومة، وأرى أن كتاباتى قد أثرت فى قلوب المسلمين، وأحدثت تحولًا فى مئات الآلاف منهم[٢].أهـ.

وقال فى مكان آخر: لقد ألفت عشرات من الكتب العربية والفارسية والأوردية أثبت فيها أنه لا يحل الجهاد أصلا ضد الحكومة الإنجليزية التى أحسنت إلينا، بل بالعكس من ذلك، يجب على كل مسلم أن يطيع هذه الحكومة بإخلاص. وقد أنفقت على طبع هذه الكتب أموالًا كبيرة وأرسلتها إلى البلاد الإسلامية، وأنا عارف أن هذه الكتب قد أثرت تأثيرًا عظيمًا فى أهل هذه البلاد - الهند.

وقد كون أتباعى جماعة تفيض قلوبهم إخلاصًا لهذه الحكومة والنصح لها -إنهم على جانب عظيم من الإخلاص- وأنا أعتقد أنهم بركة لهذه البلاد، ومخلصون لهذه الحكومة ومتفانون فى خدمتها[٣].

ويقول فى مكان آخر: لقد نشرت خمسين ألف كتاب ورسالة وإعلان فى هذه البلاد وفى البلاد الإسلامية، تفيد بأن الحكومة الإنجليزية صاحبة الفضل

---

(١) ملحق شهادة الإيمان.

(٢) تبليغ رسالات: المجلد السابع ص١٠ تأليف قاسم على القاديانى.

(٣) من رسالة مقدمة إلى الحكومة الإنجليزية بقلم الميرزا غلام أحمد.

والمنة على المسلمين، فيجب على كل مسلم أن يطيع هذه الحكومة إطاعة صادقة. وقد ألفت هذه الكتب باللغات الأوردية والعربية والفارسية، وأذعتها فى أقطار العالم الإسلامى حتى وصلت وذاعت فى البلدين المقدسين مكة والمدينة، وفى الآستانة وبلاد الشام ومصر وأفغانستان، وكانت نتيجة ذلك أن أقلع ألوف من الناس عن فكرة الجهاد، التى كانت من وحى العلماء الجامدين. وهذه مأثرة أتباهى بها، يعجز المسلمون فى الهند أن ينافسونى فيها[1].

(باب ذكر القرآنيين)

التمسك بالقرآن الكريم يكون بالإيمان بكل ما ورد فيه من أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته، فلا ينسبون فعله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا هو تعالى، إلى غيره.

ولا يصرفون شيئًا من عبادتهم إلى سواه ﷻ، ولا يلحدون في أسمائه فلا يصفونه إلا بما وصف به نفسه تعالى أو وصفه به رسول الله ﷺ ويعتقدون أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ويعتقدون أنه تعالى هو الإله الأحد، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

ويكون التمسك بالقرآن الكريم بالإيمان بمحمد رسول الله ﷺ، نبيًا لا يعبد ورسولًا لا يكذب بل يطاع ويتبع.

وكذا الإيمان بكل ما أخبر به من أنه رسول رب العالمين، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا، والإيمان بملائكة الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وكتبه ورسله عليهم الصلاة والسلام واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

ويكون التمسك بالقرآن الكريم بالاستسلام لله تعالى بالتوحيد والانقياد له

(١) سنارة قيصرة. تأليف الميرزا غلام أحمد، مقتبسًا عن كتاب القاديانى والقاديانية.

بالطاعة والخلوص له من الشرك.

قال تعالى: { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } (النساء: ٦٥).

من التمسك بالقرآن الكريم - التمسكُ بسنة نبيه ﷺ. والأخذ بكل ما جاءت به من أحكام وأخلاق وآداب، سواء أكانت مبينة للقرآن الكريم، أم مؤسسة لذلك، وذلك هو العلم الحقيقي أن يتعلم المسلمون الكتاب العزيز وسنة رسوله ﷺ.

قال تعالى عن رسوله ﷺ: { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى } { إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } (النجم: ٣-٤).

وقال ﷻ: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } (الحشر: ٧).

وقد قال النبي ﷺ: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ».

فلا يتأتى التمسك بالقرآن الكريم إلا بالتمسك بسنة النبي ﷺ، سواء أكانت قولًا، أم فعلًا، أم تقريرًا، أم صفة لها علاقة بالتبليغ عن الله تعالى ربنا.

وهذا التنويه عن التمسك بالسنة وبكونه واجبًا كان يمكن الاستغناء عنه لأنه أمر مركوز في طبيعة المسلم السليمة لولا أنه نبتت في جسم الأمة الإسلامية نابتة سوء يدعون أنفسهم القرآنيين يرون أنهم ليسوا ملزمين إلا بما في القرآن الكريم، أما ما في السنة فليسوا مطالبين به، وقد كذبوا في زعمهم الأول، والثاني.

أما الأول:- وهو نسبتهم أنفسهم إلى القرآن الكريم فكيف تصح نسبتهم إليه وهم لا يعملون به في مدلول قوله تعالى { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ } (الحشر: ٧). وفي قوله تعالى: { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى } إن هو إلا وحى يوحى

(النجم: ٣-٤).

أما الثاني:- فقد كذبوا في زعمهم أنهم ليسوا مطالبين بمدلول السنة، وقد قال الله تعالى: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } (الحشر:٧).

ثم كيف قد عرف هؤلاء أوقات الصلاة، وعدد ركعات الفرائض وكيفية الحج ومقادير الزكاة إن كانوا يصلون أو يزكون أو يحجون فأين توضيح ذلك وكثير غيره، إلا بسنة رسول الله ﷺ.

ولعل هؤلاء ممن عَنَى رسول الله ﷺ في خوفه من أن يردَ بعض الناس بعض الأحكام الثابتة في الشرع بالسنة المطهرة بتلك الحجة الواهية حيث قال ﷺ: (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعان على أريكته، يقول: عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام، فحرموه ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كلُّ ذي ناب من السباع، ألا ولا لقطة من مال معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم، فعليهم أن يُقروهم، فإن لم يقروهم فعليهم أن يُعقبوهم بمثل قراهم)[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، وأبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجة (١٢)، وابن زنجويه في الأموال (٦٢٠)، والطحاوي في المشكل (٤/ ٢٠٩)، والآجري في الشريعة (ص ٥١)، وابن حبان (١٢)، والدارقطني (٤/ ٢٨٧)، والسمعاني في أدب الإملاء (ص ٣)، والهروي في ذم الكلام (ص ٧٢)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ١٥٠)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٨٩) وغيرهم، والحديث صححه ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى، وكذا صححه الفيروزآبادي في سفر السعادة (ص ٣٥٥)، وقال الذهبي في المهذب: إسناده قوي، وقال ابن حجر في موافقة الخبر الخبر: حسن صحيح، وصححه الشيخ ناصر في المشكاة (١٦٣)، وفي صحيح أبي داود، وقال العلامة الوادعي في رسالة ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر (ص ٣٤): حسن لغيره، =

وقد سئل العلامة الألباني كما في كيف يجب علينا أن نفسر القرآن (ص٧ - ١٠): فضيلة الشيخ: يقول القرآنيون: قال تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا} (الإسراء١٢)... وقال تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} (الأنعام٣٨)... ويقول الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن هذا القران طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بهده أبدًا». نرجو من فضيلتكم التعليق على ذلك؟

(فأجاب): أما قوله تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} (الأنعام ٣٨)، فهذه الآية إنما تعني الكتاب هُنا: اللوح المحفوظ، ولا تعني: القران الكريم.

أما قوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا} (الإسراء١٢)، فإذا ضممتم إلى القران الكريم ما تقدم بيانه آنفا، فحينئذٍ يتم أن الله ﷻ قد فصل كل شيء تفضيلًا، لكن بضميمة أخرى، فإنكم تعلمون أن التفصيل قد يكون تارة بالإجمال، بوضع قواعد عامة يدخل تحتها جزئيات لا يمكن حصرها لكثرتها، فبوضع الشارع الحكيم لتلك الجزئيات الكثيرة قواعد معروفة ظهر معنى الآية الكريمة، وتارة التفصيل وهو المتبادر من هذه الآية، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ما تركتُ شيئًا مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به، ولا تركتُ شيئًا مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه».

فالتفصيل إذًا تارة يكون بالقواعد التي لا تدخل تحتها جزئيات كثيرة، وتارة

=

وصححه الحويني في تحقيق تفسير ابن كثير (١/ ١١١)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن أبي عروف الجرشي فمن رجال أبي داود والنسائي وهو ثقة، وقال الشيخ مشهور في تعليقه على إعلام الموقعين (٤/ ٨٣): إسناده صحيح.

يكون بالتفصيل لمفردات عبادات وأحكام تفصيلًا لا يحتاج إلى الرجوع إلى قاعدة من تلك القواعد.

ومن القواعد التي لا يدخل تحتها فرعيات كثيرة -وتظهر بها عظمة الإسلام وسعة دائرة الإسلام في التشريع -قوله -صلى الله عليه وآله وسلم- على سبيل المثال:

«لا ضرر ولا ضرار»(١)... وقوله عليه السلام: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام»... وقوله عليه السلام: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار». هذه قواعد وكليات لا يفوتها شيء مما يتعلق بالضرر بالنفس أو الضرر بالمال في الحديث الأول، وما يتعلق بما يُسكر كما في الحديث الثاني، سواء كان المسكر مستنبطًا من العنب -كما هو المشهور- أو من الذرة، أو من أي مادة من المواد الأخرى، فما دام أنه مُسكر فهو حرام.

كذلك في الحديث الثالث: لا يمكن حصر البدع لكثرتها، ولا يمكن تعدادها ومع ذلك فهذا الحديث - مع إيجازه- يقول بصراحة: «وكل بدعة ضلالة، وكل

(١) روي عن عبادة بن الصامت، وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وجابر، وعائشة، وعمرو بن عوف، وثعلبة بن أبي مالك القرظي، وأبي لبابة، والحديث ضعفه بعض أهل الحديث، وقواه بعضهم لشواهده الكثيرة، لذا قال عنه النووي في أربعينه: طرقه يقوي بعضها بعضا، وحسنه في الأذكار (٥٠٢)، وقال ابن الصلاح: مجموعها يقوي الحديث ويحسنه، وقد تقبله جماهير أهل العلم واحتجوا به، وعد أبو داود السجستاني هذا الحديث من الأحاديث التي يدور عليها الفقه، وهذا مشعر بأنه يراه حجة، والله أعلم، وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٠٧): بعض طرقه تقوى ببعض، وصححه العلامة الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة (٢٥٠)، وصححه لشواهده الكثيرة الشيخ مشهور في تحقيقه للموافقات (٣/ ٢٠٤)، وحسنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند.

ضلالة في النار».

هذه تفصيل لكن بقواعد.

وأما الأحكام التي تعرفونها، فهي مفصَّلة بمفردات جاء ذكرها في السنة على الغالب، وأحيانًا كأحكام الإرث مثلًا فهي مذكورة في القران الكريم.

أما الحديث الذي جاء ذكره، فهو حديث صحيح، فالعمل به هو الذي بإمكاننا أن نتمسك به، وكما جاء في الحديث «تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة رسوله».

فالتمسك بحبل الله - الذي هو بأيدينا- إنما هو العمل بالسنة المُفصلة للقران الكريم.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في موسوعته العقدية (١/ ٢٩٤): في حقيقة الأمر: إن ادعاء أن القرآن هو فقط المرجع الوحيد وليس للسنة دخل في بيان القرآن فهو كفر بالقرآن، الذي يقول بأني لا أؤمن إلا بالقرآن هو يكفر بالقرآن؛ ذلك لأن القرآن مما قال فيه رب الأنام: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} (النحل:٤٤) {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ} (النحل:٤٤) ها نحن ذكرنا آنفًا الصلوات الخمس وكيف أنها تنقسم إلى أقسام، من أين أخذت هذه الأقسام؟ لا شيء منها بهذا التوضيح في القرآن الكريم، لكن هو بيان الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي أشار الله إليه في الآية السابقة {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} (النحل:٤٤). أي إن هذه الآية تعني أن بيان الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ ينقسم إلى قسمين: بيان لفظي وهو تبليغ القرآن إلى الأمة.. تبليغ القرآن للأمة، والبيان الآخر هو بيان بمعنى التفصيل.. ولذلك جاء حديث الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ في الصحيح، وأنا بهذه المناسبة أقول: ينبغي انتقاء هذه الأحاديث، وتقديمها لطلابكم هناك حتى

تستقيم العقيدة الصحيحة ويعرفون قدر السنة، وأهمية الرجوع إليها مع القرآن الكريم، ذكرت حديثًا وهو قوله عليه السلام: «لا يقعدن أحدكم متكئًا على أريكته يقول هذا كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالًا حللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرمناه، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه.. ألا إنما حرم رسول الله مثلما حرم الله»؛ ذلك لأن الله يقول في القرآن الكريم: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (النجم:١ - ٤).

إذًا السنة علم من العلوم يجب أن يؤخذ من أهل الاختصاص فيه، وكل من قال هذا صحيح وهذا ضعيف نقول له: هل أنت عالم بعلم الحديث؟ إن ادعى ذلك نقول: هات نشوف أثبت صحة هذا الحديث، بطريقة علماء الحديث، الأصل هو السند كما تعلمون.. الأصل في معرفة الأحاديث الصحيحة من الضعيفة إنما هو السند.

المنزلة الثانية أو المرتبة الثانية في النقد ونقد المتن الذي يسمى في الاصطلاح العصري اليوم بالنقد الداخلي، يسمون نقد الأسانيد بالنقد الخارجي، ونقد المتون في الاصطلاح الحديثي بالنقد الداخلي.. هذا النقد الداخلي إذا ما سلط عليه عقول البشر أصبح القرآن الكريم محل انتقاد؛ لأن القرآن الكريم لا يؤمن به الكفار مثلًا فلو قيل للكافر قصة ضرب موسى للحجر وانبثق منه اثنتا عشرة عينًا، وضرب البحر فكان كل فرق كالطود العظيم.. هذه الأشياء لا يؤمن بها الكفار وسيكون هذا غير صحيح مع أنه ثابت بالقرآن الكريم وبطريقة التواتر، القرآن الكريم لا يخضع لنقد مطلقًا، وإنما ينبغي على المسلمين أن يفهموه، وهذه مناسبة نتعرض لذكرها أيضًا بطريقتين اثنتين سبقت الإشارة إليهما وهي: الرجوع إلى بيان الرسول عليه السلام {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ

لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} (النحل:٤٤) أنتم تعلمون مثلًا (أنه) مُسَطَّر في كتب الفقه بعض الأحكام لا نجدها في القرآن الكريم مثلًا تحريم البنت من الرضاعة.. تحريم البنت من الرضاعة، هذا ليس مذكورًا في القرآن الكريم لكنه مذكور في الحديث، بل الأحاديث الصحيحة، ومن أصحها قوله عليه السلام: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، فهذا الحديث هو من بيان الرسول عليه السلام الذي ذكر في القرآن {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ} (النساء:٢٣) ثم ضم الرسول عليه السلام

إلى هذا التحريم المذكور في القرآن الكريم هذا التحريم المذكور في حديثه: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، هنا يظهر أهمية: إن ما حرم رسول الله مثلما حرم الله.

إذا رجعنا الآن وفهمنا أن الذين يدعون بأنهم لا يؤمنون بشيء من السنة إنما القرآن فهم كفروا بالقرآن؛ لأن القرآن يأمرنا بالرجوع إلى الرسول عليه السلام في عديد من الآيات الكريمة ذكرنا بعضها آنفًا، ومن ذلك: (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (النساء:٦٥).

فإذًا كل من يزعم بأنه مسلم ولكنه لا يؤمن إلا بالقرآن فليس مسلمًا؛ لأنه كفر بكثير من نصوص القرآن وعلماء المسلمين كما تعلمون جميعًا يقولون: من أنكر حرفًا من القرآن فليس بمسلم، فكيف إذا أنكر كثيرًا من الآيات التي تتضمن الرجوع إلى سنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقال رحمه الله في منزلة السنة في الإسلام (ص٧ - ١٢): قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا} (المائدة: ٣٨) مثال صالح [لبيان وظيفة السنة بجانب القرآن] فإن السارق فيه مطلق كاليد، فبينت السنة القولية الأول منهما

وقيدته بالسارق الذي يسرق ربع دينار بقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «لا قطع إلا في ربع دينار فصاعدا» (أخرجه الشيخان)، كما بينت الآخر بفعله -صلى الله عليه وآله وسلم- أو فعل أصحابه وإقراره فإنهم كانوا يقطعون يد السارق من عند المفصل كما هو معروف في كتب لحديث وبينت السنة القولية اليد المذكورة في آية التيمم: {فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ} (النساء:٤٣، المائدة: ٦) بأنها الكف أيضا بقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «التيمم ضربة للوجه والكفين» (أخرجه أحمد والشيخان وغيرهم من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما).

وإليكم بعض الآيات الأخرى التي لم يمكن فهمها فهمًا صحيحًا على مراد الله تعالى إلا من طريق السنة:

١ - قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُون} (الأنعام: ٨٢) فقد فهم أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قوله: (بظلم) على عمومه الذي يشمل كل ظلم ولو كان صغيرا ولذلك استشكلوا الآية فقالوا: يا رسول الله أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «ليس بذلك إنما هو الشرك ألا تسمعوا إلى قول لقمان: {إن الشرك لظلم عظيم} (لقمان: ١٣)؟» (أخرجه الشيخان وغيرهما).

٢ - قوله تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ} (النساء: ١٠١) فظاهر هذه الآية يقتضي أن قصر الصلاة في السفر مشروط له الخوف ولذلك سأل بعض الصحابة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فقالوا: ما بالنا نقصر وقد أمنا؟ قال: "صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته" (رواه مسلم).

٣ - قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ} (المائدة: ٣) فبينت السنة القولية أن ميتة الجراد والسمك والكبد والطحال من الدم حلال فقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الجراد والحوت (أي السمك بجميع أنواعه) والكبد والطحال» (أخرجه البيهقي وغيره مرفوعا وموقوفا وإسناد الموقوف صحيح وهو في حكم المرفوع لأنه لا يقال من قبل الرأي).

٤ - قوله تعالى: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ} (الأنعام: ١٤٥). ثم جاءت السنة فحرمت أشياء لم تذكر في هذه الآية كقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير حرام». وفي الباب أحاديث أخرى في النهي عن ذلك. كقوله -صلى الله عليه وآله وسلم- يوم خيبر: «إن الله ورسوله ينهيانكم عن الحمر الإنسية فإنها رجس» (أخرجه الشيخان).

٥ - قوله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} (الأعراف: ٣٢) فبينت السنة أيضًا أن من الزينة ما هو محرم فقد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه خرج يوما على أصحابه وفي إحدى يديه حرير وفي الأخرى ذهب فقال: «هذان حرام على ذكور أمتي حل لإناثهم» (أخرجه الحاكم وصححه).

والأحاديث في معناه كثيرة معروفة في " الصحيحين " وغيرهما. إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة المعروفة لدى أهل العلم بالحديث والفقه. ومما تقدم يتبين لنا أيها الإخوة أهمية السنة في التشريع الإسلامي فإننا إذا أعدنا النظر في الأمثلة المذكورة فضلا عن غيرها مما لم نذكر نتيقن أنه لا سبيل إلى فهم القرآن

الكريم فهما إلا مقرونا بالسنة.

ففي المثال الأول فهم الصحابة «الظلم» المذكور في الآية على ظاهره ومع أنهم كانوا رضي الله عنهم كما قال ابن مسعود: "أفضل هذه الأمة أبرها قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا " فإنهم مع ذلك قد أخطؤوا في ذلك الفهم فلولا أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ردهم عن خطئهم وأرشدهم إلى أن الصواب في "الظلم" المذكور إنما هو الشرك لاتبعناهم على خطئهم ولكن الله تبارك وتعالى صاننا عن ذلك. بفضل إرشاده -صلى الله عليه وآله وسلم- وسنته.

وفي المثال الثاني: لولا الحديث المذكور لبقينا شاكين على الأقل في قصر الصلاة في السفر في حالة الأمن إن لم نذهب إلى اشتراط الخوف فيه كما هو ظاهر الآية وكما تبادر ذلك لبعض الصحابة لولا أنهم رأوا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- يقصر ويقصرون معه وقد أمنوا.

وفي المثال الثالث: لولا الحديث أيضا لحرمنا طيبات أحلت لنا: الجراد والسمك والكبد والطحال.

وفي المثال الرابع: لولا الأحاديث التي ذكرنا بعضها لاستحللنا ما حرم الله علينا على لسان نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- من السباع وذوي المخلب من الطير.

وكذلك المثال الخامس: لولا الأحاديث التي فيه لاستحللنا ما حرم الله على لسان نبيه من الذهب والحرير ومن هنا قال بعض السلف: السنة تقضي على الكتاب.

ومن المؤسف أنه قد وجد في بعض المفسرين والكُتَّاب المعاصرين من ذهب إلى جواز ما ذُكر في المثالين الأخيرين من إباحة أكل السباع ولبس الذهب

والحرير اعتمادًا على القرآن فقط بل وجد في الوقت الحاضر طائفة يتسمون بـ "القرآنيين" يفسرون القرآن بأهوائهم وعقولهم دون الاستعانة على ذلك بالسنة الصحيحة، بل السنة عندهم تبع لأهوائهم فما وافقهم منها تشبثوا به وما لم يوافقهم منها نبذوه وراءهم ظهريًّا.

وكأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد أشار إلى هؤلاء بقوله في الحديث الصحيح: «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه» (رواه الترمذي). وفي رواية لغيره: «ما وجدنا فيه حرامًا حرمناه ألا وإني أتيت القرآن ومثله معه». وفي أخرى: «ألا إن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله».

بل إن من المؤسف أن بعض الكُتاب الأفاضل ألف كتابًا في شريعة الإسلام وعقيدته وذكر في مقدمته أنه ألفه وليس لديه من المراجع إلا القرآن. فهذا الحديث الصحيح يدل دلالة قاطعة على أن الشريعة الإسلامية ليست قرآنًا فقط وإنما قرآن وسنة فمن تمسك بأحدهما دون الآخر لم يتمسك بأحدهما لأن كل واحد منهما يأمر بالتمسك بالآخر كما قال تعالى: {مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ} (النساء: ٨٠) وقال: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} (النساء: ٦٥) وقال: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلًا مُّبِينًا} (الأحزاب: ٣٦) وقال: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} (الحشر: ٧).

وبمناسبة هذه الآية يعجبني ما ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه وهو أن امرأة جاءت إليه فقالت له: أنت الذي تقول: لعن الله النامصات والمتنمصات

والواشمات.. الحديث؟ قال: نعم قالت: فإني قرأت كتاب الله من أوله إلى آخره فلم أجد فيه ما تقول فقال لها: إن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» قالت: بلى قال: فقد سمعت رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: «لعن الله النامصات.... » الحديث (متفق عليه).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفس المصدر (ص١٧ – ١٨): أود أن]أُلفت الانتباه إلى حديث مشهور قلَّما يخلو منه كتاب من كتب أصول الفقه لضعفه من حيث إسناده ولتعارضه مع ما انتهينا إليه.. من عدم جواز التفريق في التشريع بين الكتاب والسنة ووجوب الأخذ بهما معا ألا وهو حديث معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال له حين أرسله إلى اليمن: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله قال: "فإن لم تجد؟ " قال: بسنة رسول الله قال: "فإن لم تجد؟ " قال: أجتهد رأيي ولا آلو. قال: "الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحب رسول الله " أما ضعف إسناده فلا مجال لبيانه الآن وقد بينت ذلك بيانًا شافيًا ربما لم أسبق إليه في السلسلة السابقة الذكر، وحسبي الآن أن أذكِّر أن أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري رحمه الله تعالى قال فيه: "حديث منكر ".

وبعد هذا يجوز لي أن أشرع في بيان التعارض الذي أشرت إليه فأقول:

إن حديث معاذ هذا يضع للحاكم منهجًا في الحكم على ثلاث مراحل لا يجوز أن يبحث عن الحكم في الرأي إلا بعد أن لا يجده في السنة، ولا في السنة إلا بعد أن لا يجده في القرآن، وهو بالنسبة للرأي منهج صحيح لدى كافة العلماء وكذلك قالوا: «إذا ورد الأثر بطل النظر». ولكنه بالنسبة للسنة ليس صحيحًا؛ لأن السنة حاكمة على كتاب الله ومبينة له فيجب أن يبحث عن الحكم

في السنة ولو ظن وجوده في الكتاب لما ذكرنا فليست السنة مع القرآن كالرأي مع السنة كلا ثم كلا، بل يجب اعتبار الكتاب والسنة مصدرًا واحدًا لا فصل بينهما أبدًا كما أشار إلى ذلك قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «ألا إني أُتيت القرآن ومثله معه» يعني السنة وقوله: «لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض».

فالتصنيف المذكور بينهما غير صحيح؛ لأنه يقتضي التفريق بينهما وهذا باطل لما سبق بيانه

فهذا هو الذي أردت أن أنبه إليه فإن أصبت فمن الله. وإن أخطأت فمن نفسي والله تعالى أسأل أن يعصمنا وإياكم من الزلل ومن كل ما لا يرضيه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في تحقيق كتاب التوحيد أو العقائد الإسلامية (ص١٢ - ١٣): [قال محمد العدوي في كتابه "التوحيد أو العقائد الإسلامية": كتاب الله... هو عصمة للمعقول لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا يزال قائمًا.

فوجب أن نأخذ منه العقائد ونعول عليه في أصول الدين.

فعلق العلامة الألباني على ذلك قائلا: هذا يوهم حصر أخذ العقائد من القرآن الكريم، وليس ذلك بصواب لأنه مخالف لسبيل المؤمنين، فإننا نعلم بالضرورة أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كانوا لا يفرقون في العقيدة - شأنهم في الأحكام والمعاملات - بين القرآن والحديث. وجرى على ذلك التابعون فمن بعدهم، وتبعوا سبيلهم، لا يفرقون في ذلك بين أصول الدين وفروعه، بل إن التفريق بينهما تفريق مبتدع لا أصل له في الشرع، بل هو مخالف لنصوص كثيرة منه في القرآن والسنة. ولقد كان في الآثار السيئة لهذا التفريق أن استحل كثير من المتأخرين إنكار كثير من الأحاديث الصحيحة بدعوى أنها آحاد وبمثلها لا

تثبت العقيدة زعموا، ورتبوا على ذلك أن المسلم مهما أنكر ما هو ثابت في الشرع، فإنه لا يكفر إلا إذا كان الذي أنكره أصلًا من أصول الدين، ولم يقيدوا ذلك بما إذا عُلِم ثبوت ذلك عنده. والحق الذي لا ريب فيه أن من أنكر شيئًا ثابتًا في الدين سواء كان في الأصول أو الفروع فهو كافر إذا عُلم كونه من الدين، ومع ذلك أنكر. فبهذا الشرط يكفر، لأن معنى ذلك أنه لا يصدق الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- في كل ما جاء به، وما جاء به كله صواب، فجحد أي شيء منه يعتبر طعنًا فيه -صلى الله عليه وآله وسلم-. وذلك كفر بين.

وعلى ذلك إذا أنكر شيئًا وهو لا يعلم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- جاء به، فلا سبيل إلى تكفيره إلا بعد تبليغه وإقامة الحجة عليه لقوله تعالى: {لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}، ولا مجال بعد ذلك للتردد في تكفيره، ولو زعم أنه لم يقتنع بذلك أو لم تطمئن نفسه به فإنه ينافي الإيمان به -صلى الله عليه وآله وسلم- كما قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}.

(باب بيان خطأ مصطلح جاهلية القرن العشرين)

لقد أرسل الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق، فأنار الله تعالى به الكون، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، فبدد الله به ظلمات الجهل والكفر، وانتهى ببعثته ﷺ عهد الجاهلية، ولكن هل رفعت الجاهلية عن الأمكنة كلها، وفي جميع الأزمنة؟! بالطبع لا، ولذا فإنه لا يجوز وصف جميع المجتمعات بالجاهلية بعد بعثته ﷺ، ولا نزعها عن جميع المجتمعات ـ أيضا ـ، فما تزال بعض المجتمعات تعيش في مستنقعات الجاهلية، فلا يرفع عنها هذا الوصف، وأما من استنار بنور الإسلام من المجتمعات فلا يجوز وصفها بهذا اللفظ، ولو

حصل تقصير في بعض جوانب الإسلام منها فهذا لا يبيح وصفها بالجاهلية، وعلى هذا التفصيل اتفقت كلمة العلماء المحققين.

١ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٧٨، ٧٩): فالناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل.

وكذلك كل ما يخالف ما جاءت به المرسلون من يهودية، ونصرانية: فهي جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة، فأما بعد مبعث الرسول ﷺ قد تكون في مصر دون مصر - كما هي في دار الكفار -، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يسلم فإنه في جاهلية وإن كان في دار الإسلام.

فأما في زمان مطلق: فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ؛ فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة.

والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من الأشخاص المسلمين كما قال ﷺ: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية) وقال لأبي ذر: (إنك امرؤ فيك جاهلية)، ونحو ذلك، فقوله في هذا الحديث: (ومبتغ في الإسلام سنة جاهلية): يندرج فيه كل جاهلية مطلقة، أو مقيدة، يهودية، أو نصرانية، أو مجوسية، أو صابئة، أو وثنية، أو مركبة من ذلك، أو بعضه، أو منتزعة من بعض هذه الملل الجاهلية فإنها جميعها مبتدعها ومنسوخها صارت جاهلية بمبعث محمد ﷺ، وإن كان لفظ الجاهلية لا يقال غالبا إلا على حال العرب التي كانوا عليها فإن المعنى واحد.

٢ - وفي بيان خطأ مصطلح " جاهلية القرن العشرين " قال الدكتور بكر أبو

زيد في معجم المناهي اللفظية (ص ٢١٢ - ٢١٥): بين العلامة الألباني ما في هذا التعبير من تسمح، وغض من ظهور الإسلام على الدين كله، فجاء في كتاب: "حياة الألباني" ما نصه: مصطلح " جاهلية القرن العشرين " في نظر الألباني: السؤال: تناول الداعية " سيد قطب " رحمه الله مصطلحا متداولا بكثرة في إحدى المدارس الإسلامية التي يمثلها، ألا وهو مصطلح " جاهلية القرن العشرين " فما مدى الدقة والصواب في هذه العبارة؟ وما مدى التقائها مع الجاهلية القديمة وفقا لتصوركم؟.

فأجاب العلامة الألباني: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد: الذي أراه أن هذه الكلمة " جاهلية القرن العشرين " لا تخلو من مبالغة في وصف القرن الحالي - القرن العشرين - فوجود الدين الإسلامي في هذا القرن وإن كان قد دخل فيه ما ليس منه: يمنعنا من القول بأن هذا القرن يمثل جاهلية كالجاهلية الأولى، فنحن نعلم أن الجاهلية الأولى إن كان المعني بها العرب فقط: فهم كانوا وثنيين، وكانوا في ضلال مبين، وإن كان المعني بها ما كان حول العرب من أديان كاليهودية والنصرانية: فهي أديان محرفة، فلم يبق في ذلك الزمان دين خالص منزه عن التغيير والتبديل، فلا شك في أن وصف الجاهلية على ذلك العهد وصف صحيح، وليس الأمر كذلك في قرننا هذا، ما دام أن الله تبارك وتعالى قد من على العرب أولا، ثم على سائر الناس ثانيا، بأن أرسل إليهم محمدا ﷺ خاتم النبيين، وأنزل عليه دين الإسلام، وهو خاتم الأديان، وتعهد الله ﷻ بحفظ شريعته هذه بقوله ﷻ: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ونبيه ﷺ قد أخبر أن الأمة الإسلامية وإن كان سيصيبها شيء من الانحراف الذي أصاب الأمم من قبلهم في مثل قوله ﷺ: (لتتبعن سنن

من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا: من هم يا رسول الله؟ اليهود والنصارى؟ فقال عليه الصلاة والسلام فمن الناس؟!) أقول: وإن كان الرسول ﷺ قد أخبر بهذا الخبر المفيد أن المسلمين سينحرفون إلى حد كبير ويقلدون اليهود والنصارى في ذلك الانحراف، لكن عليه الصلاة والسلام في الوقت نفسه قد بشر أتباعه بأنهم سيبقون على خطه الذي رسمه لهم، فقال عليه الصلاة والسلام في حديث التفرقة: (وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة)، قال عليه الصلاة والسلام: (كلها في النار إلا واحدة)، قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: (هي الجماعة)

وفي رواية قال: (هي التي تكون على ما أنا عليه وأصحابي). وأكد ذلك عليه الصلاة والسلام في قوله في الحديث المتفق عليه بين الشيخين: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله).

فإذن لا تزال في هذه الأمة جماعة مباركة طيبة قائمة على هدي الكتاب والسنة، فهي أبعد ما تكون عن الجاهلية القديمة أو الحديثة؛ ولذلك فإن الذي أراه: أن إطلاق " الجاهلية " على القرن العشرين فيه تسامح، قد يوهم الناس بأن الإسلام كله قد انحرف عن التوحيد وعن الإخلاص في عبادة الله ﷻ انحرافا كليا، فصار هذا القرن - القرن العشرون - كقرن الجاهلية الذي بعث رسول الله ﷺ إلى إخراجه من الظلمات إلى النور، حينئذ: هذا الاستعمال، أو هذا الإطلاق يحسن تقييده في الكفار أولا، الذين كما قال تعالى في شأنهم: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون).

وصف القرن العشرين بـ " الجاهلية " إنما ينطبق على غير المسلمين الذين لم يتبعوا الكتاب والسنة، ففي هذا الإطلاق إيهام بأنه لم يبق في المسلمين خير، وهذا خلاف ما سبق بيانه من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام المبشرة ببقاء طائفة من الأمة على الحق، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبي للغرباء...) قالوا: من هم يا رسول الله؟ جاء الحديث على روايات عدة في بعضها يقول الرسول ﷺ - واصفا الغرباء -: (هم الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي من بعدي)، وفي رواية أخرى قال عليه الصلاة والسلام: (هم أناس قليلون صالحون بين أناس كثيرين من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم) فلذلك لا يجوز هذا الإطلاق في العصر الحاضر على القرن كله؛ لأن فيه - والحمد لله - بقية طيبة لا تزال على هدي النبي ﷺ، وعلى سنته، وستظل كذلك حتى تقوم الساعة، ثم إن في كلام سيد قطب رحمه الله وفي بعض تصانيفه ما يشعر الباحث أنه كان قد أصابه شيء من التحمس الزائد للإسلام في سبيل توضيحه للناس، ولعل عذره في ذلك أنه كان يكتب بلغة أدبية؛ ففي بعض المسائل الفقهية كحديثه عن حق العمال في كتابه: "العدالة الاجتماعية " أخذ يكتب بالتوحيد، وبعبارات كلها قوية تحيي في نفوس المؤمنين الثقة بدينهم وإيمانهم، فهو من هذه الخلفية في الواقع قد جدد دعوة الإسلام في قلوب الشباب، وإن كنا نلمس أحيانا أن له بعض الكلمات تدل على أنه لم يساعده وقته على أن يحرر فكره من بعض المسائل التي كان يكتب حولها أو يتحدث فيها، فخلاصة القول أن إطلاق هذه الكلمة في العصر الحاضر لا يخلو من شيء من المبالغة التي تدعو إلى هضم حق الطائفة المنصورة، وهذا ما عن في البال فذكرته. انتهى.

٣ – وسئل الشيخ صالح بن فوزان الفوزان – حفظه الله –: هل يجوز إطلاق لفظ " الجاهلية " على المجتمعات الإسلامية المعاصرة؟.

فأجاب: الجاهلية العامة قد زالت ببعثة الرسول ﷺ؛ فلا يجوز إطلاقها على المجتمعات الإسلامية بصفة العموم، وأما إطلاق شيء من أمورها على بعض الأفراد، أو بعض الفرق، أو بعض المجتمعات: فهذا ممكن، وجائز، وقد قال النبي ﷺ لبعض أصحابه: (إنك امرؤ فيك جاهلية)، وقال ﷺ: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة).

الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة (٨٦، رقم السؤال: ٣١).

واعلم أنه لا يجوز للمسلم أن ينظر للمجتمعات الإسلامية بعين الكبر في نفسه، والاحتقار لهم، ومن ذلك: تعميم الحكم بالجهل والانحراف والهلاك. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم) رواه مسلم (٢٦٢٣).

قال الأمام ابن عبد البر في التمهيد (٢١/ ٢٤٢): معناه عند أهل العلم: أن يقولها الرجل احتقارا للناس، وإزراء عليهم، وإعجابا بنفسه، وأما إذا قال ذلك تأسفا، وتحزنا، وخوفا عليهم لقبح ما يرى من أعمالهم: فليس ممن عني بهذا الحديث، والفرق بين الأمرين أن يكون في الوجه الأول راضيا عن نفسه، معجبا بها، حاسدا لمن فوقه، محتقرا لمن دونه، ويكون في الوجه الثاني ماقتا لنفسه، موبخا لها، غير راض عنها

***

الفهرس

* * *

جامع المسائل العقدية

تأليف
محمد بن نصر أبي جبل

دار اللؤلؤة

الجزء الثاني عشر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(باب لا جديد في الأحكام الشرعية)

اعلم رحمني الله وإياك أن الله سبحانه وتعالى أنزل شريعته التي جاءت في كتابه القويم القرآن الكريم وسنة رسوله الأمين ﷺ لتكون هادية للناس الصراط المستقيم، ولتكون حاكمة على أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم إلى يوم الدين.

وقد ختم الله تعالى كتبه بالقرآن المجيد، وختم رسله بمحمد ﷺ الرسول الأمين.

ومن ضرورة ذلك أن تكون الأحكام الشرعية التي تضمنتها تلك الشريعة الخاتمة شاملة وثابتة لا يشوبها نقص أو قصور، ولا يعتريها تبديل أو تغيير.

وهذه قضية بدهية عليها أدلة كثيرة من النصوص الشرعية.

وقبل المضي قدما في الموضوع يحسن التعريف بالحكم الشرعي وبالفتوى.

فالحكم الشرعي: «عبارة عن حكم الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين»، والفتوى والفتيا: «ذكر الحكم المسؤول عنه للسائل»؛ أي «جواب المفتي»، و «الإفتاء: بيان حكم الواقع المسؤول عنه»، فالإفتاء هو عمل المفتي، والفتوى هو ما يصدر عن المفتي.

والغالب أن الحكم الشرعي هو الحكم المتعلق بأفعال العباد على وجه العموم من غير التفات إلى واقع معين يرتبط به الحكم، كالقول بوجوب الصلاة وحرمة شرب الخمر وهكذا.

والغالب أن الفتوى هي ما كانت مرتبطة بواقع ما، فالفتوى على ذلك هي تطبيق الحكم الشرعي على الواقع، وإن كان في بعض الأحيان يأتي أحدهما بمعنى الآخر فهما مرتبطان، ولا تكون الفتوى صحيحة إلا إذا كان الحكم

الشرعي منطبقا على الواقع انطباقا صحيحا، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعلام الموقعين (١/ ٨٧) في بيان علاقة الفتوى بالحكم الشرعي: «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم.

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر».اهـ.

وعندما استفتي شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥١١) في قتال التتار بين ذلك الارتباط وأفتى بقوله: «نعم يجب قتال هؤلاء، بكتاب الله وسنة رسوله واتفاق أئمة المسلمين، وهذا مبني على أصلين: أحدهما المعرفة بحالهم، والثاني: معرفة حكم الله في مثلهم».اهـ.

ومن البين هنا أن الفتوى قد تدخل فيها أو ترتبط بها عدة عوامل، وبالتالي فإن الفتوى تكون مرتبة عليها، وقد يحدث أن يستفتى المفتي في واقعة قد اجتمعت لها كل عواملها، فيفتي بالحكم الشرعي الذي ينطبق عليها، ثم تأتي واقعة أخرى مشابهة لها في الظاهر، لكن بينهما فرق مؤثر في الحقيقة نتيجة غياب بعض تلك العوامل أو وجود عوامل أخرى؛ فيفتي المفتي بحكم شرعي مناسب للحالة الجديدة، وهو بطبيعة الحال مغاير للفتوى الأولى، ومن هذا الوجه ونحوه على ما يأتي تفصيله -إن شاء الله- قال من قال من أهل العلم بـ «تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد»، فأخذت هذه الكلمة وأضرابها طائفة من المعاصرين وطاروا بها في كل حدب وصوب، وصاحوا بها في كل واد وناد، يرومون تغيير الشريعة وأحكامها إرضاء

وتجاوبا مع الأهواء مما لا يحبه الله ورسوله، بل صارت عمدة من عمد الذين يريدون تحريف الدين تحت ما يزعمونه من ضرورة «تجديد الخطاب الديني».

مع إغفال ثبات الأحكام الشرعية.

أدلة ثبات الأحكام الشرعية

والمراد بالثبات هنا بقاء الحكم الشرعي على ما هو عليه ودوامه وعدم تغيره لا بزمان ولا بمكان ولا بغير ذلك، والأدلة على ذلك كثيرة كما قدمنا، فمنها:

١- قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} (المائدة: ٣)، فالدين قد كمل، والنعمة تمت، والتغيير فيما قد كمل نقص، وما لم يكن يومئذ دينا فلن يكون بعد دينا، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي يلزم عنه عدم التصديق بأن الله أكمل الدين، وهو في الوقت نفسه رفض لنعمة الله التي أتمها علينا.

٢- قوله تعالى: {وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا} (الأنعام: ١١٥)، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي صدقا في الأخبار، وعدلا في الأوامر والنواهي»، والحكم الشرعي هو في باب الأمر والنهي، وحيث تغير العدل كان الظلم.

٣- قوله تعالى: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك} (المائدة: ٤٩).

ففي هذه الآية ثلاثة أمور:

١- الأمر بالحكم بما أنزل الله (الشريعة).

٢- بيان أن ترك الحكم بها إنما هو اتباع للأهواء.

٣- بيان أن من الفتنة ترك بعض الشريعة.

وهذا الأمر للنبي ﷺ، وأمته من بعده، فكلهم مخاطب به، ولا شك أن القول بجواز تغيير الحكم الشرعي مؤد للحكم بغير ما أنزل الله، ومؤد لترك بعض الشريعة، وهذا اتباع للهوى ووقوع في الفتنة، ولا يسلم المرء من ذلك إلا بالقول بثبات الحكم الشرعي وعدم تغييره.

٤- قوله تعالى: {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا} (الإسراء: ٧٣)، وهو يبين أن تغيير الحكم الشرعي إنما هو من الافتراء على الله ﷻ، والافتراء على الله لا يجوز عند أحد من المسلمين، فظهر من ذلك أن تغيير الحكم الشرعي أو القول بجواز ذلك محرم لا يجوز القول به ولا الإقدام عليه، وهذه الآية تدل على مدى حرص الكفار ورغبتهم في تغيير الحكم الشرعي، حتى إنهم ليتخذون من يفعل ذلك أو يقوم به «خليلا»، والخلة أعلى درجات المحبة، قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن نبيه ﷺ أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله».

٥- قال الله تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} (المائدة: ٤٤). وقال: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون} (المائدة: ٤٥). وقال: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} (المائدة: ٤٧). فبين الله تعالى أن من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق، ومن قال بجواز تغيير الحكم الشرعي، فهو إما حاكم بغير ما أنزل الله وإما مجوز لذلك.

٦- قال الله تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} (الأنعام: ١٥٣). فمن لم يتبع صراط الله المستقيم

(الكتاب والسنة) اتبع سبل الشيطان، ولا يمكن للمرء أن يتبع الكتاب والسنة مع القول بعدم ثبات الحكم الشرعي وجواز تغييره.

٧- قال الله تعالى: {اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون} (الأعراف: ٣)، فأمر الله الناس أن تتبع ما أنزل إليها من ربها خالقها ورازقها، وبين أن من اتبع غير ذلك فقد اتبع أولياء من دونه، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي مؤد لاتباع الأولياء من دون الله. ثم تهدد الله وتوعد من يتبع الأولياء من دونه، فقال عقيب الآية المتقدمة: {وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون} (الأعراف: ٤).

٨- قال الله تعالى: {ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون} (الجاثية: ١٨)، فأمر رسوله ﷺ باتباع الشريعة التي أوحاها إليه، وبين أن ترك شيء من هذه الشريعة إنما هو اتباع لأهواء الذين لا يعلمون، ولا يمكن اتباع الشريعة كاملة مع القول بعدم ثبات الأحكام الشرعية أو بعضها وجواز تغييرها، ثم بين الله تعالى أن هؤلاء الداعين إلى ترك اتباع الشريعة بتغيير الحكم الشرعي ظالمون، وأنهم لن يغنوا عن أحد شيئا أو يدفعوا عنه شيئا من عذاب الله، فقال تعالى عقيب الآية المتقدمة: {إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين} (الجاثية: ١٩).

٩- قال تعالى: {سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب} (البقرة: ٢١١)، فقد توعد الله سبحانه وتعالى بالعقاب الشديد من يبدل نعمته التي أنعمها على العباد، والأحكام الشرعية التي باتباعها استقامة العباد وصلاح الدنيا، والنجاة من النار والفوز بالجنة من أجل النعم التي أنعم الله بها، والقول بعدم ثبات الحكم الشرعي

وجواز تغييره هو من تبديل نعمة الله.

١٠- قال الله تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم} (يونس: ١٥).

وفي هذا من الدلالة على رغبة الكفار في أن يقع المسلمون في تغيير الأحكام الشرعية أو تبديل الوحي المنزل، وقد بينت الآيات أنه ليس لأحد ولو كان رسول الله ﷺ أن يغير الحكم الشرعي من تلقاء نفسه، بل عليه أن يتبع الأحكام الشرعية التي يوحيها الله إليه؛ لأن من فعل ذلك فقد عرض نفسه للعذاب العظيم، قال القرطبي رحمه الله في تفسيره (٨/ ٣١٩): «إني أخشى من الله إن خالفت أمره وغيرت أحكام كتابه وبدلت وحيه فعصيته بذلك عذاب يوم عظيم هوله».

والآيات في ذلك أكثر من أن تحصر، ولو ذهبنا نتتبعها لطال بنا المقام.

وقد دلت السنة على ما دل عليه القرآن في ذلك، فمن السنة

١- قوله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، أي مردود عليه، والقول بتغيير الحكم الشرعي إحداث في الدين لم يأت به كتاب ولا سنة، ولا أثر عن أصحاب رسول الله ﷺ، فهو مردود على صاحبه.

٢- قوله ﷺ: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة).

فبين الرسول ﷺ أن النجاة في اتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين الذين اتبعوه وساروا على سنته، وأمر أن يعض على ذلك بالنواجذ تمسكا بها، وعدم الحيد عنها قيد أنملة، وحذر من محدثات الأمور، وبين أن المحدثات في الدين ضلالة، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي يخالف كل ذلك، فهو

يخالف التمسك بالسنة ويوقع في المحدثات.

٣- قوله ﷺ: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي» فمن تمسك بالكتاب والسنة لم يضل أبدا، والمفهوم من ذلك أن من لم يتمسك يضل، والقول بجواز تغيير الحكم الشرعي مؤد لعدم التمسك بالكتاب والسنة أو ببعضها الذي تغير، والأدلة على ذلك من السنة كثيرة أيضا.

وبالنظر إلى أصول الفقه نجد أن علماء أصول الفقه يعرفون الحكم الشرعي بأنه «خطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد أمرا أو نهيا أو تخييرا أو وضعا» وخطاب الشارع هو الكتاب والسنة، والقول بأنه يمكن تغيير الحكم الشرعي مكافئ للقول بإمكانية تغيير خطاب الشارع، وخطاب الشارع لا يملك أحد من البشر أن يغيره، وبالتالي فمن غير المستطاع القول بجواز تغيير الحكم الشرعي، ومن وجهة نظر ثانية فإن القول بتغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان هو نسخ للحكم الشرعي، هذا هو معنى النسخ عند الأصوليين، فالنسخ يراد به عندهم «رفع الحكم الشرعي بخطاب» أو «رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر» ونحو ذلك، فمضمون النسخ على ذلك هو تغيير الحكم الشرعي الثابت وإلغاء الحكم الشرعي القائم واستحداث حكم جديد، لكن النسخ لا يكون إلا من الله تعالى أو من رسوله ﷺ، وهو ما يعني أن النسخ قد انقطع بموت رسول الله ﷺ، فعلى ذلك الأحكام الشرعية ثبتت على ما مات عليه رسول الله ﷺ، وقد بين الرسول ﷺ أنه يدعو يوم القيامة على من بدل شيئا من الدين بعده فقال ﷺ: (ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم ألا هلم! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: سحقا سحقا)، وفي رواية: «سحقا حقا لمن بدل بعدي»، والقائل بجواز تغيير الحكم الشرعي لا شك أنه داخل في هذا الحديث،

نسأل الله السلامة.

وقد بين شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٣٣/ ٩٤) أن من يجوز النسخ بعد موت رسول الله ﷺ فهو «يجوز تبديل المسلمين دينهم بعد نبيهم، كما تقول النصارى أن المسيح سوغ لعلمائهم أن يحرموا ما رأوا تحريمه مصلحة، ويحلوا ما رأوا تحليله مصلحة، وليس هذا دين المسلمين.اهـ.

وبالجملة فإن الأدلة على بطلان القول بتغيير الأحكام بتغير الزمان كثيرة جدا، وفيما تقدم من الأدلة كفاية إن شاء الله.

قال الشاطبي في الموافقات (١/ ٧٨، ٧٩) في بيان ثبات الأحكام الشرعية وعدم تغييرها: «فلذلك لا تجد فيها بعد كمالها نسخا، ولا تخصيصا لعمومها، ولا تقييدا لإطلاقها، ولا رفعا لحكم من أحكامها، لا بحسب عموم المكلفين، ولا بحسب خصوص بعضهم، ولا بحسب زمان دون زمان ولا حال دون حال، بل ما أثبت سببا فهو سبب أبدا لا يرتفع، وما كان شرطا فهو أبدا شرط، وما كان واجبا فهو واجب أبدا أو مندوبا فمندوب، وهكذا جميع الأحكام فلا زوال لها ولا تبدل، ولو فرض بقاء التكليف إلى غير نهاية لكانت أحكامها كذلك».اهـ.

إن القول بثبات الحكم الشرعي وعدم إمكانية تغييره من قبل أحد كائنا من كان إضافة إلى أنه الحكم الذي دلت عليه الأدلة كما تقدم؛ يمثل ضمانة من أهم ضمانات استقرار أحوال الأمة، واستتباب الأمن فيها، ومنع الاستبداد، ولقد أدرك أصحاب القوانين الوضعية أهمية الثبات وأثره في أمن المجتمع واستقراره فقالوا بثبات الدساتير، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا لأنها من صنع البشر.

وإذ تقدم هذا فإنه من غير المقبول أن نجد من بين المعاصرين من يقسم الأحكام الشرعية إلى قسمين: أحدهما ثابت، والآخر متغير، ويعرف المتغير

بأنه «موارد الاجتهاد وكل ما لم يقم عليه دليل قاطع من نص صحيح أو إجماع صريح»، فهذا قول غير صحيح لأنه مخالف للدليل، ولم ينقله قائله عن أحد من أهل العلم المعروفين السابقين على امتداد أجيال الأمة التي بلغت أربعة عشر قرنا وربعا من الزمان وعلى اتساع مذاهبها الفقهية وتنوعها.

قال الدكتور بكر أبو زيد في المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد (١/ ٨٤): (حصل من بعض المعاصرين خَطأ في قوله: تغير الأحكام فالحكم ثابت لا يتغير وإنما الفتوى به حسب المقتضى الشرعي، كما في سهم المؤلفة قلوبهم. والله أعلم).

* مفاسد القول بتغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان:

ويترتب على القول بجواز تغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان مفاسد كثيرة من أبرزها:

١- اتخاذ الأولياء من دون الله، وهم المشرعون الذين يشرعون الحكم الجديد.

٢- القول بقصور الشريعة وعدم صلاحية أحكامها لعموم الزمان والمكان.

٣- تغيير وتبديل الدين بمرور الزمن.

٤- عدم استقرار أحوال الأمة، وزوال الأمن، وشيوع الظلم والاستبداد.

الشبهة في القول بتغيير الحكم الشرعي بتغير الزمان

القائلون بتغيير الأحكام الشرعية بتغير الزمان لا يتعلقون في ذلك بنص سواء كان من القرآن أو من السنة، فليس عندهم أدلة على ذلك، فكل ما عندهم في ذلك كلمات لبعض أهل العلم من مثل «تغير الفتوى بتغير الزمان» ونحوها، وهم طوائف: طائفة اشتبه عليها ذلك ولم تدرس الأمر دراسة واعية وظنت هذا

أمرا مشروعا. وطائفة مناوئة للدين وجدت في هذه الشبهة بغيتها في نفث سمومها والسعي في إطفاء نور الله الذي لا يطفأ، فأخذت تنشر هذا وتضخمه وتؤكد عليه، وأصبح مثل هذا الكلام أداة كبيرة في أيدي الدعاة إلى تحريف الدين باسم تجديد الخطاب الديني. وطائفة مهزومة أمام الفكر الغربي المعاصر، وجدت في ذلك القول مخرجا ووسيلة للتوفيق بين ذلك الفكر وبين أحكام الشريعة.

والحق يتبين في ذلك من خلال الحديث عن ضوابط تغير الفتوى وهي

١- اختلاف العوائد والأعراف: من الأمور التي تتغير بسببها الفتوى تغير العوائد والأعراف التي تبنى عليها الفتوى، سئل الإمام القرافي كما في الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، (ص١١١، ١١٢) عن الأحكام المدونة في الكتب المرتبة على العوائد والأعراف التي كانت موجودة زمن جزم العلماء بهذه الأحكام، هل إذا تغيرت العوائد وصارت لا تدل على ما كانت تدل عليه أولا، هل يفتي بما تدل عليه العوائد والأعراف الجديدة، أو يفتي بما هو مدون في الكتب؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «إن إجراء الأحكام التي مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد، خلاف الإجماع وجهالة في الدين، بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة»، ثم شرع يفصل فقال: «ألا ترى أنهم لما جعلوا أن المعاملات إذا أطلق فيها الثمن يحمل على غالب النقود، فإذا كانت العادة نقدا معينا حملنا الإطلاق عليه، فإذا انتقلت العادة إلى غيره عينا ما انتقلت العادة إليه، وألغينا الأول لانتقال العادة عنه»، إلى أن يقول: «بل ولا يشترط تغيير العادة، بل لو خرجنا نحن من تلك البلد إلى بلد

آخر عوائدهم على خلاف عادة البلد الذي كنا فيه، وكذلك إذا قدم علينا أحد من بلد عادته مضادة للبلد الذي نحن فيه؛ لم نفته إلا بعادته دون عادة بلدنا، ومن هذا الباب ما روي عن مالك: إذا تنازع الزوجان في قبض الصداق بعد الدخول؛ أن القول قول الزوج مع أن الأصل عدم القبض، قال القاضي إسماعيل: هذه كانت عادتهم بالمدينة أن الرجل لا يدخل بامرأته حتى تقبض جميع صداقها، واليوم عاداتهم على خلاف ذلك، فالقول قول المرأة مع يمينها لأجل اختلاف العوائد، وينبغي أن يعلم أن معنى العادة في اللفظ أن ينقل إطلاق لفظ واستعماله في معنى حتى يصير هو المتبادر من ذلك اللفظ عند الإطلاق مع أن اللغة لا تقتضيه، فهذا هو معنى العادة في اللفظ، وهو الحقيقة العرفية، وهو المجاز الراجح في الأغلب، وهو معنى قول الفقهاء إن العرف يقدم على اللغة عند التعارض، وكل ما يأتي من هذه العبارات».

وقد نقل علاء الدين الطرابلسي الحنفي كلام القرافي وأقره كما في معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام (ص ١٢٩)

ومن بعد القرافي قال ابن القيم إعلام الموقعين (٣/ ١٤): «فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد».اهـ.

وهنا يظهر أمران:

الأول: أن الفتوى هي التي تتغير وليس الحكم الشرعي.

الثاني: أن الفتوى التي تتغير يكون حكمها الشرعي مرتبا على العوائد والأعراف.

ومن الأمثلة التي يذكرها الفقهاء على ذلك: ما يخرج في صدقة الفطر، فإن

الحديث جاء بإخراج صاع من تمر أو شعير أو زبيب أو أقط، فرأى العلماء أن هذه الأقوات كانت هي غالب القوت عندما قال رسول الله ﷺ ذلك الحديث في ذلك الزمان، فكأنه قال: أخرجوا صاعا من غالب قوت البلد التي أنتم فيها، وعلى ذلك أفتى العلماء بجواز إخراج صاع من الأرز والذرة ونحوه إذا كان هذا هو غالب قوت البلد في زمنهم، فبالنظر المجرد إلى الفتوى بجواز إخراج الأرز والذرة يقول القائل: قد حدث تغير في الحكم، وبالنظر إلى حقيقة الأمر وأن المطلوب هو إخراج الصاع من غالب قوت البلد، فليس هناك تغير في الحكم الشرعي، كل ما هنالك أن الذي تغير هو غالب قوت البلد، والحكم باق على ما هو عليه، وهذا المثال ونحوه قد ينظر إليه على أنه تغير للفتوى بتغير الزمان، والحقيقة أن الزمن بمجرده ليس مسوغا لتغيير الفتوى لأن هذا هو النسخ الذي لا يملكه أحد إلا الشارع وإنما نسب التغيير لتغير الزمان في كلام بعض أهل العلم؛ لأن الزمان هو الوعاء الذي تجري فيه الأحداث والأفعال والأحوال، وهو الذي تتغير فيه العوائد والأعراف، فنسبة تغير الفتوى لتغير الزمان من هذا الباب، وإلا لو ظل العرف كما هو عدة قرون لم يكن أحد مستطيعا أن يغير الفتوى.

ومن الأمثلة: (ما كان عند الفقهاء المتقدمين أنه إذا اشترى أحد دارا اكتفى برؤية بعض بيوتها [غرفها] ، وعند المتأخرين لا بد من رؤية كل بيت منها على حدته ، وهذا الاختلاف ليس مستندا إلى دليل ، بل هو ناشئ عن اختلاف العرف والعادة – في أمر الإنشاء والبناء ، وذلك أن العادة قديما في إنشاء الدور وبنائها أن تكون جميع بيوتها متساوية وعلى طراز واحد ، فكانت على هذا رؤية بعض البيوت تغني عن رؤية سائرها ، وأما في هذا العصر فإذ جرت العادة بأن

الدار الواحدة تكون بيوتها مختلفة في الشكل والحجم لزم عند البيع رؤية كل منها على الانفراد).

ومن الأمثلة: (لفظ: الحرام، والخلية، والبرية، وحبلك على غاربك، ووهبتك لأهلك، ألفاظ كانت تستعمل في أعراف وعادات القدماء - كمالك رَحِمَهُ اللَّهُ - للدّلالة على الطّلاق الثّلاث بدون نيّة، ولكن الآن قلّ مَن يستعمل هذه الألفاظ للتّطليق، ولذلك لا بدّ من النّيّة وأن يُسأل المتكلّم بأحدها ماذا أراد بها؟)

٢- وجود السبب وتحقق الشرط وانتفاء المانع أو عدم بعض ذلك: من المعلوم أن الأحكام مرتبة على وجود سببها، فإذا وجد سبب الحكم وتحقق شرطه وانتفى المانع، انطبق الحكم على الواقع، فإذا تخلف أحد الشروط أو وجد أحد الموانع انطبق حكم آخر على الواقع، والناظر من بعيد يرى أن الواقعتين متشابهتان، ولهما حكمان متغايران، فيظن أن الحكم قد تغير، والحقيقة أن الواقعتين وإن كانتا متشابهتين لكنهما غير متماثلتين، فهما واقعتان مختلفتان لكل منهما حكم يخصها، ونضرب مثلا لذلك، لو أن رجلا ملك نصاب الزكاة، ثم استفتى أهل العلم عن وجوب إخراج الزكاة؛ فإن المفتي يسأله: هل حال على النصاب الحول؟ فلو قال: نعم. وسأله: هل عليك دين؟ فقال: لا، هنا يجيبه المفتي بقوله: نعم تجب عليك الزكاة. ويحدد له المقدار الواجب إخراجه حسب نوع المال الذي يملكه، فلو بعد فترة من الزمان جاءه الرجل نفسه وسأله: هل علي زكاة؟ فإذا سأله المفتي: هل عليك دين؟ وقال: نعم، علي دين يستوعب أكثر مالي حتى لا يبقى منه قدر النصاب. هنا يقول المفتي: ليس عليك زكاة.

والرائي غير المتبصر يرى أن الحكم تغير، والأمر ليس كذلك، فالحالة

الأولى وجد السبب وتحقق الشرط وانتفى المانع، وأما الحالة الثانية فقد وجد المانع وهو الدين، فهنا حالتان مختلفتان، لكل حالة حكم في الشرع، وليس في هذا اختلاف، وفي مثل هذا يقول الدكتور عابد السفياني كما في الثبات والشمول في الشريعة الإسلامية، (ص ٤٤٩، ٤٥٠): «إن تلك الواقعة التي تغير حكمها؛ إما أن تكون هي هي عند تغير الحكم بجميع خصائصها والحيثيات التي تكتنفها، وإما أن تختلف في بعض خصائصها وحيثياتها، فإن كانت الأولى فنحن ننازع أشد المنازعة في تغير حكمها؛ لأن ذلك هو النسخ والتبديل المنهي عنه كما سيأتي بيانه، وإن كانت الثانية فليست في موضع النزاع؛ لأنها حينئذ حادثتان، وحادثتان متميزتان من حيث خصائصهما والاعتبارات التي تحفهما لهما حكمان ليس غريبا ولا عجيبا، ولا يقال له تغير ولا تبدل».اهـ.

وبالمثل لو أن شخصا سرق ثم تبين أن شروط إقامة الحد غير مستوفاة، فلم يحكم عليه القاضي بالقطع، فإنه لا يقال هنا قد تغير الحكم ولكن شروط إقامة الحد هي التي لم تكتمل، وهذا هو الذي حدث في عهد عمر ﵁ عام المجاعة عندما قحط الناس، وتعرضوا للهلاك بسبب الجدب، أصبح كثير ممن يسرق إنما يسرق لاضطراره إلى ذلك ليدفع عن نفسه الهلاك، وهذه حالة تدرأ عن صاحبها الحد، ونظرا لأن الأمر كان منتشرا واختلط من يسرق للضرورة ومن يسرق لغير ذلك ولم يمكن تمييزهما من بعض، فصار ذلك شبهة درأ بها عمر ﵁ الحد في عام المجاعة، فلله دره! ما أفقهه وما أعلمه، ولما زالت المجاعة زالت الشبهة فكان من يسرق يقام عليه الحد، فليس في هذا أيضا تغيير للحكم الشرعي؛ لأن ما فعله عمر ﵁ في عام المجاعة كان هو الواجب في مثل تلك الحالة.

٣- الضرورة الملجئة: هناك أحوال اضطرار يقع فيها العبد المسلم مما

يكون معه مضطرا لفعل ما حرم الله، ومن رحمة الله بالعباد أنه في هذه الأحوال لم يجعل عليهم إثما فيما فعلوه، والناظر غير المتبصر يظن أن الحكم اختلف، وهما في الحقيقة حالان مختلفان، لكل حال حكم، فحال الاختيار له حكم، وحال الاضطرار له حكم، وحالان مختلفان لهما حكمان متغايران لا يقال له تبدل ولا تغير، ولنضرب المثل لذلك، من المعلوم أن الله حرم أكل الميتة، فيحرم على العباد أكل لحوم الميتات (إلا ميتة البحر)، فمن أكل منها يقال له: هذا حرام، وقد فعلت ما يستوجب عقاب الله، فلو تغير حال أحد الناس وصار في حالة اضطرار بحيث إذا لم يأكل من الميتة هلك؛ هنا يصدق عليه وصف المضطر، وهنا يباح له الأكل من الميتة، والحكم تغير هنا في الظاهر، ولكن في الحقيقة الحكم لم يتغير، وإنما الذي تغير هو الحال التي ترتب عليه الحكم، ومن أمثلة ذلك ما حصل من غلمان حاطب الذين سرقوا ناقة، ولم يقطعهم عمر، فإنه أحضر عبد الرحمن بن حاطب وقال له: «والله! لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له؛ لقطعت أيديهم»، فهذا يبين أن عمر رأى أن هؤلاء في حالة اضطرار تدرأ عنهم الحد، وأن عقوبتهم القطع لو كانوا غير مضطرين، وقد عاقب عمر حاطبا على ذلك وأضعف عليه الغرم.

٤- تغير الوصف أو الاسم: هناك أحكام رتبت على أوصاف أو أسماء، فإذا تغيرت تلك الأوصاف أو الأسماء تغير الحكم تبعا لذلك. مثال: رجل تزوج امرأة، حل له منها ما يحل للرجل من امرأته، فلو طلقها حرم عليه منها ما كان حلالا له، هنا تغيرت صورة الحكم لأن ما كان حلالا جائزا للرجل تغير وصار حراما، وفي الحقيقة فإن المتغير هو الصفة أو الاسم وليس الحكم الشرعي؛ إذ

الحكم باق على ما هو عليه، وهو أن الرجل تحل له زوجته، وأن الرجل تحرم عليه غير زوجته.

ومن أمثلة تغير الاسم أو الوصف الدال على تغير الحقيقة، تغير الخمر بحيث تصير خلا، فالخمر من أحكامها النجاسة، فإذا تغيرت حقيقة السائل المسكر وصار خلا، فقد تغير وصف السائل وتغير اسمه وصار خلا، والخل ليس بنجس (سواء قلنا بجواز تخليل الخمر أم لا)، وحكم الخمر لم يتغير، وإنما الخمر نفسها هي التي تغيرت.

وكمثال على ذلك أيضا أمر الله تعالى بصرف الزكاة إلى مستحقيها بقوله: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم} (التوبة: ٦٠). فالله بعلمه وحكمته وزع الزكاة على هذه الأصناف الثمانية، فإذا كان عام ولم نجد فقيرا يستحق الزكاة فمنعنا سهم الفقراء لعدم وجودهم، فهذا لا يعد تغييرا، وإنما فقدنا المستحق، وكذلك إذا كان فلان من الناس يعطى من الزكاة لأنه فقير، ثم وسع الله عليه وصار غنيا ومنعنا عنه الزكاة فلا يقال إن الحكم تغير، بل صفة هذا الشخص التي يستحق عليها الزكاة هي التي تغيرت، وهكذا فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سهم المؤلفة قلوبهم، فالمؤلفة قلوبهم هم من يعطون من الصدقات لأجل تألف قلوبهم على الإسلام، أو لأجل ضعف المسلمين حتى يأمن المسلمون شرهم، فهو حكم معلق على وصف وليس على أشخاص بأعيانهم، فإذا تحقق هذا الوصف في شخص أو عدة أشخاص فأعطيناهم سهم المؤلفة قلوبهم، ثم جاء العام الذي يليه وقد فقدوا وصف المؤلفة (كأن حسن إسلامهم، أو قوي المسلمون فلم يعد بهم ضعف) فمنعنا عنهم سهم المؤلفة

قلوبهم؛ فليس في هذا تغير للحكم، وإنما الذي حدث أن هؤلاء الأشخاص استحقوا السهم في المرة الأولى لانطباق الوصف عليهم وليس لأشخاصهم، ثم فقدوا الوصف في العام الذي يليه، ففقدوا ما كان مترتبا على الوصف، وهذا إعمال للحكم الشرعي وليس تغييرا له.

٥- تدافع المأمورات أو المنهيات: قد يكون هناك أمران مطلوب تحصيلهما ولكن لا يمكن تحصيل أحدهما إلا بتفويت الآخر، فهما على ذلك متدافعان، كما أنه قد يكون هناك أمران مطلوب اجتنابهما ولا يمكن اجتناب أحدهما إلا بفعل الآخر، فهنا تحصل أعظم المصلحتين، وتدفع أقبح المفسدتين، فمثلا: الشهادة يطلب فيها العدول، فإذا لم نجد العدول صرنا بين أمرين: إما ضياع الحقوق، وإما قبول شهادة غير العدول، أمران أحلاهما مر، وقد أفتى أهل العلم في مثل ذلك أن لكل قوم عدولهم، وعلى القاضي أن يتوسم فيهم ويقبل أكثرهم صلاحا وأقلهم فجورا، فقد ينظر هنا إلى أن هذا من قبيل تغيير الحكم، وذلك بقبول شهادة من لا يعرف بعدالة، والحقيقة أن هذا من باب التعارض وأنه لا يمكن تحصيل أحدهما إلا بتفويت الآخر، وهي فتوى وليست حكما، وهي فتوى خاصة بمثل هذه الحالة؛ بمعنى أنه إذا وجد العدول في هذا المكان لم تقبل شهادة غيرهم.

قال علاء الدين الطرابلسي الحنفي في معين الحكام (ص ١١٧): «قال القرافي في باب السياسة: نص بعض العلماء على أنه إذا لم نجد في جهة إلا غير العدول؛ أقمنا أصلحهم وأقلهم فجورا للشهادة عليهم، ويلزم ذلك في القضاة وغيرهم لئلا تضيع المصالح، قال: وما أظن أحدا يخالف في هذا، فإن التكليف شرط في الإمكان، وهذا كله للضرورة لئلا تهدر الأموال وتضيع الحقوق، قال

بعضهم: وإذا كان الناس فساقا إلا القليل النادر قبلت شهادة بعضهم على بعض، ويحكم بشهادة الأمثل فالأمثل من الفساق، هذا هو الصواب الذي عليه العمل، وإن أنكره كثير من الفقهاء بألسنتهم».

٦- وجود العارض وزواله: قد يكون هناك شيء محبوب شرعا لكن يخشى من فعله أن يترتب عليه تكليف قد لا يقوم به الناس، فيترك هذا الشيء لذلك العارض، فإذا زال العارض رجع الأمر إلى حاله الأولى، وقد يظن أن هذا تغيرا للحكم وإنما هو من باب زوال العارض، مثال ذلك امتناع الرسول ﷺ عن قيام الليل في رمضان في المسجد بعدما فعل ذلك عدة ليال، وذلك خوفا من أن يفرض قيام الليل على المسلمين رحمة منه ﷺ بالمسلمين، فلما زال هذا الأمر بوفاة الرسول ﷺ وأمن عدم فرض قيام الليل؛ جاز الاجتماع في المسجد في رمضان لقيام الليل، وليس في هذا تغيير للحكم الشرعي.

٧- تغير الآلات والوسائل: هناك من الأحكام الشرعية ما يكون تنفيذها عن طريق آلة أو وسيلة، والشريعة لم تحدد في كثير من الأمور الآلات والوسائل التي يتحقق بها الحكم الشرعي، بل تركتها ليختار المسلمون في كل زمان ومكان ما هو أنفع لهم وأصلح وأفضل في تنفيذ الحكم الشرعي؛ إذ ربما لو ألزم المسلمون بآلة أو وسيلة معينة لتعسر عليهم ذلك، ووجدوا في ذلك من المشقة والحرج الشيء الكثير لا سيما أن الوسائل والآلات تتعدد وتتباين، وقد يكون بعضها ميسرا وبعضها غير ذلك، وقد يختلف العسر واليسر بالنسبة للآلة أو الوسيلة نفسها باختلاف الزمان والمكان، والله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، فله الحمد والمنة، مثال ذلك: أمر الله تعالى المسلمين بالجهاد في سبيله وقال: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} (الأنفال: ٦٠)، وقد كانت القوة

المستطاعة في ذلك الزمان هي السيف والرمح والترس ونحو ذلك، فإن المفتي والعالم في ذلك الزمان: يقول يجب على المسلمين إعداد السيوف والرماح والحراب وما أشبه ذلك، ثم بعد الزمن المتطاول الذي أوصل إلى عصرنا يقول المفتي والعالم الآن يجب على المسلمين إعداد المدفع والدبابة والصاروخ والطائرة، ولا يجب إعداد السيف ولا الرمح ولا الحربة، فقد وجب اليوم ما لم يكن قبل واجبا، وسقط وجوب ما كان قبل واجبا، وهذا قد ينظر إليه على أنه تغير في الحكم الشرعي، والحقيقة أن الحكم لم يتغير؛ لأن الحكم الشرعي هو وجوب إعداد القوة المستطاعة، وكانت القوة المستطاعة في الزمن الأول: السيف والرمح ونحوه، وصارت اليوم المدفع والصاروخ، ونحوه، وقد تكون بعد فترة من الزمن شيئا آخر فالحكم الشرعي لم يتغير، وإنما الذي تغير هو الآلة أو الوسيلة التي يتحقق بها الحكم الشرعي في الواقع، وهذه الآلات والوسائل والأساليب المستجدة، لا يكفي فيها أن تكون محققة للحكم الشرعي بل هي محكومة بشروط هي:

١ – ألا تعارض قاعدة كلية من قواعد الشريعة.

٢ – ألا تخالف دليلا من أدلة الشرع التفصيلية.

٣ – ألا يترتب عليها مفسدة تربو على المصلحة المتحصلة منها.

من كل ما تقدم يتبين أن مسألة تغير الفتوى ليست مسألة متعلقة بالزمان المجرد، أو المكان المجرد، وكأن الزمان والمكان هما سبب تغيير الفتوى، ولكن لما كان الزمان والمكان أوعية للأحداث والأفعال والتغيرات والعوائد والأعراف نسب التغير للزمان والمكان، وهذا يطلق عليه في عرف البلاغيين مجاز مرسل علاقته الظرفية، وقد تبين بما تقدم أيضا أن الموضوع منضبط وله

قواعد تحكمه، وليس هو مجرد استجابة أو إذعانا لضغط الواقع، وهذه الأمثلة المتقدمة يمكن أن تندرج تحت قسمين كبيرين:

الأول: فتاوى مؤسسة من أول أمرها على العرف أو المصلحة المرسلة، ثم يتغير العرف أو المصلحة بتغير الزمان والمكان، فتتغير الفتوى تبعا لذلك.

الثاني: فتاوى مؤسسة على نصوص، لكن هذه النصوص كانت معللة بعلة أو راعت عرفا قائما، أو كانت مرتبة على صفة أو مقيدة بحالة ونحو ذلك، فإذا زالت العلة أو تغير العرف أو الصفة أو الحالة؛ فإن الفتوى تتغير أيضا لذلك.

ويمكننا أن نلاحظ مما تقدم عدة أشياء

١ - أن عملية تغير الفتوى بتغير ما هي مرتبة عليه؛ إنما هي عملية تهدف إلى إبقاء الأمور تحت حكم الشريعة، وإن تغيرت صورتها الظاهرة، وهي ليست خروجا على الشريعة واستحدثا لأحكام جديدة.

٢ - أن التغير في الفتوى هو تغير خاص من حيث الزمان والمكان والشخص، حيث تتغير فقط بالنسبة للزمان أو المكان أو الشخص الذي تغيرت في حقه مسوغات الفتوى، وهذا معناه أن الأمور تكون باقية على ما هي عليه في بقية الأماكن والأزمان والأشخاص.

٣ - أن أهل العلم عندما قالوا بمراعاة الأحوال والعوائد ونحوها؛ إنما قالوا ذلك حتى لا يقعوا في الظلم: إما ظلم العباد بإلزامهم بما لم يلزمهم به الشرع، وإما ظلم أنفسهم بالخطأ على الدين.

٤ - أن الذي يقول في حق هذه العوائد والأعراف إنها تغيرت وبالتالي تتغير الفتوى المرتبة عليها؛ إنما هم أهل العلم والمعرفة بالشرع، وليس أهل الهوى والجهل.

٥- أن العرف الذي تتغير به الفتوى ليس هو العرف الحاصل من وقوع الناس في مخالفة الشرع، فإذا صار من عرف الناس اليوم في بعض البلدان خروج المرأة كاشفة صدرها ونحرها، وكذلك إذا صار من عرف الناس التعامل بالربا في البنوك الربوية؛ فإن هذا العرف لا تتغير به الفتوى؛ لأنه عرف قائم على مخالفة الشرع فلا يعتد به؛ إذ العرف الذي يعتد به هو ما لم يكن مخالفا للشرع.

ونختم ببعض النقول عن أهل العلم في هذه المسألة

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٩٦): «ليس لأحد أن يغير شريعته التي بعث بها رسوله، ولا يبتدع في دين الله ما لم يأذن به».

وقال شيخ الإسلام أيضا في مجموع الفتاوى (٣٣/ ٩٤): وكنا نتأول كلام هؤلاء على أن مرادهم أن " الإجماع " يدل على نص ناسخ، فوجدنا من ذكر عنهم: أنهم يجعلون الإجماع نفسه ناسخا! فإن كانوا أرادوا ذلك: فهذا قول يجوز تبديل المسلمين دينهم بعد نبيهم، كما تقول النصارى من: أن المسيح سوغ لعلمائهم أن يحرموا ما رأوا تحريمه مصلحة، ويحلوا ما رأوا تحليله مصلحة، وليس هذا دين المسلمين، ولا كان الصحابة يسوغون ذلك لأنفسهم، ومن اعتقد في الصحابة أنهم كانوا يستحلون ذلك: فإنه يستتاب، كما يستتاب أمثاله، ولكن يجوز أن يجتهد الحاكم، والمفتي، فيصيب، فيكون له أجران، ويخطئ، فيكون له أجر واحد.

قال القرافي في الفروق (١/ ٣٢١): فمهما تجدد في العرف: اعتبره، ومهما سقط أسقطه، ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك لا تجره على عرف بلدك، واسأله عن عرف بلده، وأجره عليه، وأفته به دون عرف بلدك، ودون المقرر في كتبك، فهذا هو

الحق الواضح، والجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين، والسلف الماضين، وعلى هذه القاعدة تتخرج أيمان الطلاق، والعتاق، وجميع الصرائح والكنايات، فقد يصير الصريح كناية فيفتقر إلى النية، وقد تصير الكناية صريحا فتستغني عن النية.

وقد أثنى ابن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعلام الموقعين (٣/ ٧٨) على هذا الفقه الدقيق فقال - بعد أن نقل ما سبق -: وهذا محض الفقه، ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم، وعوائدهم، وأزمنتهم، وأحوالهم، وقرائن أحوالهم فقد ضل، وأضل، وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبب الناس كلهم على اختلاف بلادهم، وعوائدهم، وأزمنتهم، وطبائعهم، بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم، بل هذا الطبيب الجاهل، وهذا المفتي الجاهل: أضر ما يكونان على أديان الناس، وأبدانهم، والله المستعان.

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم كما في مجموع فتاواه (١٢/ ٢٨٨، ٢٨٩): وحكم الله ورسوله لا يختلف في ذاته باختلاف الأزمان، وتطور الأحوال، وتجدد الحوادث؛ فإنه ما من قضية، كائنة ما كانت، إلا وحكمها في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، نصا أو ظاهرا أو استنباطا أو غير ذلك، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله، وليس معنى ما ذكره العلماء من "تغير الفتوى بتغير الأحوال" ما ظنه من قل نصيبهم - أو عدم - من معرفة مدارك الأحكام وعللها، حيث ظنوا أن معنى ذلك بحسب ما يلائم إراداتهم الشهوانية البهيمية، وأغراضهم الدنيوية، وتصوراتهم الخاطئة الوبية، ولهذا تجدهم يحامون عليها، ويجعلون النصوص تابعة لها، منقادة إليها، مهما أمكنهم، فيحرفون لذلك الكلم

عن مواضعه، وحينئذ معنى "تغير الفتوى بتغير الأحوال والأزمان" مراد العلماء منه ما كان مستصحبة فيه الأصول الشرعية، والعلل المرعية، والمصالح التي جنسها مراد لله تعالى، ورسوله ﷺ .

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٢٦/ ٣٩١): كثيرا ما يشاع بأن الفتوى تتغير بتغير الزمان أو المكان، مثل: المذياع في أول ظهوره حرمه البعض، فنرجو من سماحتكم بيان الحق في هذه المسألة.

فأجاب: الفتوى في الحقيقة لا تتغير بتغير الزمان، ولا بتغير المكان، ولا بتغير الأشخاص.

ولكن الحكم الشرعي إذا علق بعلة فإنه إذا وجدت فيه العلة ثبت الحكم الشرعي، وإذا لم توجد لم يثبت الحكم الشرعي، وقد يرى المفتي أن يمنع الناس من شيء أحله الله لهم لما يترتب على فعل الناس له من المحرم كما فعل عمر رضي الله عنه في الطلاق الثلاث حين رأى الناس تتايعوا فيها فألزمهم بها، وكان الطلاق الثلاث في عهد النبي ﷺ، وعهد أبي بكر وسنتين من خلافة عمر، طلاق الثلاث واحدة، فلما رأى عمر الناس تتايعوا في هذا ألزمهم بالثلاث ومنعهم من الرجوع إلى زوجاتهم، وكذلك ما حصل في عقوبة شارب الخمر كانت العقوبة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام وعهد أبي بكر رضي الله عنه لا تزيد على أربعين جلدة، ثم إن الناس كثر شربهم الخمر فاستشار عمر الصحابة رضي الله عنهم فأشاروا بأن يجعل العقوبة ثمانين جلدة. فالأحكام الشرعية لا يمكن أن يتلاعب بها الناس، كلما شاءوا حرموا، وكلما شاءوا أوجبوا، وإنما يرجع إلى العلل الشرعية التي تقتضي الوجوب أو عدمه، وأما بالنسبة للمذياع: فلم يقل أحد بتحريمه من علماء التحقيق، وإنما قال بتحريمه أناس جهلوا حقيقة الأمر، وإلا فإن العلماء

المحققين، وأخص منهم شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لم يروا أن هذا من المحرمات، بل رأوا أن هذا من الأشياء التي علمها الله عَزَّوَجَلَّ الخلق، وقد تكون نافعة، وقد تكون ضارة بحسب ما فيها، وكذلك مكبر الصوت -المكرفون- أيضا أنكره بعض الناس أول ما ظهر، لكن بدون تحقيق، وأما المحققون فلم ينكروه، بل رأوا أنه من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ أن يسر لهم ما يوصلوا خطبهم ومواعظهم إلى الأبعدين.

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه أيضا (٢٦/ ٤٢٣): يعلم فضيلتكم أن للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقها في العراق، فلما انتقل إلى مصر كان له فقه آخر اختلفت فيه بعض الأحكام الشرعية، ونحن بطبيعة الحال نجزم بأن العقائد من الثوابت التي لا تتغير بتغير الزمان ولا المكان. السؤال المطروح هو: إذا اختلف فقه الإمام الشافعي في بعض المسائل حين انتقل من بلد إسلامي إلى بلد إسلامي آخر تحتضنهما دولة واحدة، فكيف تكون مسائل الفقه لمن انتقل إلي بلاد يعتبر الإسلام فيها غريبا؟ ألا ترون أنه من الضروري معالجة كثير من الأمور التي تواجه المسلمين ولا تزال الآراء مختلفة بل متضاربة حولها؟

فأجاب: إن دين الله تعالى لا يتغير لكن الذي يتغير هو علم الإنسان أو فقهه؛ فأما علمه فربما يحصل على علم أكثر مما كان عليه من قبل فيزداد بذلك علما، وأما فقهه فربما يظهر له من معاني الكتاب والسنة ما لم يكن قد ظهر له من قبل، وهذا أمر مشاهد حتى في البلد الواحد، فإن الإنسان يظهر له بعض الأحيان أكثر مما سبق وذلك بالمناقشة وإبداء الآراء يتغير الإنسان عن رأيه الأول. وكذلك أيضا من العلم فكلما ازداد علما ازداد معرفة بالأحكام الشرعية.

وقال الدكتور بكر أبو زيد في المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد (١/

٨٤): لقد أخطا خَطًا فاحشًا من قال بشمول: تغيُّر الفتوى بتغيُّر الزمان في القالبين المذكورين، فإنَّها بالنسبة للأَول ثابتة لا تتغير ولا تتبدَّل. وما علمت في المتقدمين من قال عن هذه القاعدة بشمولها، بل كلامهم عنها يفيد أَنَّها قاعدة فرعية صورية وليست حقيقية، إِذْ يضربون لها المثال بتغير الأَعراف، وهذا محكوم بقواعد العرف والعادة، ومن هنا فهي صورية لا حقيقية، وابن القيم رحمه الله تعالى مع جلالة قدره قد توسع بضرب المثال لها بما لا يسلم له رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وليعلم هنا أن هذه القاعدة مع مسألة البحث هذه " فتح باب الاجتهاد " يستغلهما فقهاء المدرسة العصرانية الذين اعتلّت أَذواقهم، وساورتهم الأَهواء، ومجاراة الأَغراض، فهذا يشيد حججًا لإِباحة الربا، وذلك لوقف تنفيذ الحدود ... وهكذا وكلها شبه على ًاساس هار مُتَدَاع للسقوط وبأَول معول. فيجب على من ولاَّه الله أَمرَ المسلمين: معالجةُ هذه الأَذواق الفاسدة بتحجيمها، والقضاء عليها، لتسلم الأمَّة من أَمراضها واعتلالها، ورضي الله عن ابن مسعود إِذْ يقول: "اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم وعليكم بالأَمر العتيق".

(باب التحذير من الفتن)

أن الفتن واقعة في أمة محمد ﷺ قدرا وكونا، لابد من ذلك رضي الناس أم لم يرضوا، فقد أخبر بذلك رسول الله ﷺ وإخباره لابد واقع كما أخبر.

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي. من تشّرف لها تستشرفه، فمن وجد ملجأ أو معاذ فليعذ به). فأخبر ﷺ بكون الفتن في الأمة ولابد من ذلك.

وفي الصحيحين أيضا من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند عمر بن

الخطاب رضي الله عنه فقال: أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة؟ قال حذيفة: قلت: أنا. قال: إنك لجريء كيف قال؟ قال: قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فقال عمر: ليس هذا أريد إنما أريد التي تموج كموج البحر. قال: فقلت: مالك ولها يا أمير المؤمنين، أن بينك وبينها بابا مغلقا. قال: أفيكسر الباب أم يفتح؟ قال: قلت: لا بل يكسر. قال: ذلك حري أن لا يغلق أبدا. قال: فقلنا لحذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم كما يعلم أن دون غد الليلة، إني أحدثه حديثا ليس بالأغاليط. قال شقيق: فهبنا أن نسأل حذيفة من الباب؟ فقلنا: لمسروق سله، فسأله؛ فقال: عمر.

ففهمنا من هذا الحديث أن باب الفتن إذا فتح لا يغلق، فتكثر الفتن وتختلف الأمور ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

والأحاديث الدالة على لزوم وقوع الفتن في هذه الأمة كثيرة جدا ولعله يمر علينا في أثناء الرسالة طرفا منها.

فإذا علمنا هذا وتيقناه ـ وهو أن الفتن واقعة لا محالة: فلا بد من الاستعداد لها بالعلم والعمل جميعا:

أما العلم: فلأنه سيقل ويرفع كما في الصحيحين من حديث ابن مسعود وأبي موسى رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: (إن بين يدي الساعة لأياما: ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج؛ والهرج القتل).

وسبب قلة العلم في آخر الزمان أمور

أولها: موت العلماء الذين هم حملته وأهله كما في الصحيحين من حديث

عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس؛ ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا).

الثاني: زهد الناس في العلم النافع وانصرافهم عنه وان كان موجودا. كما هو مشاهد في زماننا هذا من عزوف كثير من الناس عن العلم الشرعي، ورغبتهم عنه وعن معاهده وكلياته.

الثالث: ترك العمل به. والتحاكم إلى غيره، عن زياد بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذكر النبي ﷺ شيئا فقال: (ذاك أوان ذهاب العلم) قلت: يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: (ثكلتك أمك يا زياد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيء مما فيهما)[1].

فإذا كان الأمر كذلك وجب على اللبيب العاقل التزود منه قبل ذهابه .... والله المستعان

وأما العمل: فلأمره ﷺ بالمبادرة به قبل الفتن: ففي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (بادروا بالأعمال فتنا كقطع

(١) أخرجه أحمد (٢٩/ ٤٤٢- الرسالة)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٣٦- ٥٣٧)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠٤٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٩٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٠٥)، والطبراني في الكبير (٥٢٩١) والحديث صححه الشيخ ناصر في صحيح ابن ماجة، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٩/ ١٧): حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه فلم يرو له سوى ابن ماجه. وسالم بن أبي الجعد قال فيه البخاري في "التاريخ الكبير" ٣/ ٣٤٤: لا أراه سمع من زياد، وجزم الحافظ ابن حجر في الإصابة (٢/ ٥٨٧) بأنه لم يلقه.

الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمن ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا).

وفيه أيضا عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (بادروا بالأعمال ستا: الدجال والدخان ودابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها وأمر العامة وخويصة أحدكم).

وإنما أمرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمبادرة إلى الأعمال قبل الفتن -والله أعلم- لأمور:

أولها: أن الإنسان وقت الفتن يشغل بنفسه وأهله فلا يحصل له من الوقت ما كان يحصل له فبل الفتن.

الثاني: أنه قد لا يمكن من العمل وقت الفتن، بل قد يمنع منه إما بقتل أو سجن أو تعذيب أو تشريد أو نحو ذلك .... فالمبادرة قبل المصادرة.

الثالث: انشغال القلب هما وتفكيرا، فيقل الخشوع والعمل. (والفرق بين هذا الوجه والوجه الأول: أن الأول انشغال عمل بطلب رزق وحفظ نفس ومال ونحو ذلك، وهذا انشغال عقل وتفكير).

الرابع: لالتباس الحق بالباطل واختلاط الأمور في الفتن، فلا يدري الإنسان أين الحق فيتبعه، وأين الباطل فيجتنبه.

فالموفق من وفقه الله للعلم النافع والعمل الصالح ..... جعلنا الله من أولئك.

وقد أَوْلَى الشرع الشريف الفتن[1] قدرًا عظيمًا من الاهتمام، وحفلت

---

(١) أصل معنى الفتنة في اللغة يدل على الابتلاء والاختبار كما في "مقاييس اللغة" لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، وقد قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: "وأما الفتنة التي =

دواوين السنة بالنصوص التي تحذر منها، وقلَّ أن يخلو ديوان منها من كتابِ أو بابِ الفتن.

قال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه: "كتاب الفتن، باب ما جاء في قول الله تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} وما كان النبي ﷺ يُحَذِّرُ من الفتن"(١).اهـ.

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: أشرف النبي ﷺ على أُطُمٍ من آطام المدينة، ثم قال: "هل ترون ما أري؟ إني أري مواقع الفتن خلالَ بيوتكم كمواقع القَطْر"(٢).

قال النووي رحمه الله تعالى: "والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم،

=

يضيفها الله سبحانه إلى نفسه، أو يضيفها رسولُه إليه؛ كقوله: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} [الأنعام: ٥٣]، وقول موسى عليه السلام: {إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ} [الأعراف: ١٥٥] فتلك بمعنى آخر، وهي بمعنى الامتحان، والاختبار، والابتلاء من الله لعباده بالخير والشر، بالنعم والمصائب، فهذه لون، وفتنة المشركين لون، وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون آخر، والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام؛ كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب علي ومعاوية وبين أهل الجمل، وبين المسلمين، حتى يتقاتلوا ويتهاجروا لون آخر، وهي الفتنة التي قال فيها النبي ﷺ: "ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي"، وأحاديثُ الفتنة التي أمر رسول الله ﷺ فيها باعتزال الطائفتين، هي هذه الفتنة".اهـ. من "زاد المعاد" (١٦٩، ١٧٠)، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: "وُيعرف المراد حيثما وَرَدَ بالسياق والقرائن".اهـ. من "فتح الباري" (١١/ ١٧٦).

(١) "فتح الباري" (١٣/ ٣- فتح).

(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ١٤- فتح)، ومسلم (٤/ ٢٢١١) رقم (٢٨٨٥)، والأُطُم: بناء مرتفع كالحِصن.

أي أنها كثيرة، وتعم الناس، لا تختص بها طائفة، وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم؟ كوقعة الجمل، وصفين، والحَرَّة، ومقتل عثمان، ومقتل الحسن رضي الله عنهما، وغير ذلك، وفيه معجزة ظاهرة له صلى الله عليه وسلم [١].

وكما تقدم الفتن واقعة في أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم كونًا وقدرًا، ولا بد من أن يقع ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخبر، ومِن ثَمَّ فلا بد من التبصر بها، والاستعداد لها، والحذر منها، بل يجب مضاعفة الحذر منها في عصرنا؛ لأننا صِرنا أقربَ إلى أشراط الساعة مما كان عليه المسلمون منذ أربعة عشر قرنًا.

عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن السعيد لَمَن جُنِّبَ الفتن، ولَمَن ابتُلي فصبر"[٢].

وعن أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لم يبقَ من الدنيا إلا بلاءٌ وفتنة"[٣].

---

(١) "شرح النووي" (١٨/ ٧، ٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٦٣)، والبزار (٢١١٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/ رقم ٥٩٨)، وابن عساكر في تاريخه (٦٠/ ١٧٩) والحديث قال عنه البزار: إسناده حسن، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة" رقم (٩٧٥)، وفي صحيح الترغيب (٢٧٤٣)، وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١١٥٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٦/ ٣٢٠): إسناده صحيح.

(٣) أخرجه مطولا ومختصرا ابن المبارك في الزهد (٥٩٦)، وأحمد (٤/ ٩٤)، وعبد بن حميد (٤١٤)، وابن ماجه (٤٠٣٥،٤١٩٩)، وابن أبي عاصم في الزهد (١٤٦)، وأبو يعلى (٧٣٦٢)، وابن عدي (٧/ ٢٧٢٢)، والرامهرمزى في الأمثال (رقم ٥٩)، والدولابي في الكنى (٢/ ٧٠)، وابن حبان (٣٣٩، ٣٩٢، ٦٩٠، ٢٨٩٩)، والطبراني في الكبير (١٩/ رقم ٨٦٦)، وفي مسند الشاميين (٦٠٧، ٦٠٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (١١٥٧)، والداني في الفتن (رقم ٣، ٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٦٢) والحديث قال عنه أبو نعيم: لم يروه عن معاوية إلا أبو عبد رب، وقال الذهبي في =

وعن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، قال: انتهيت إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو جالس في ظلِّ الكعبة، والناس مجتمعون عليه، فسمعته يقول: بينا نحن مع رسول الله ﷺ في سفر إذ نزل منزلًا، فمنا من يضرب خباءه، ومنا من ينتضل[1]، ومنا من هو في جَشَرِه[2]، إذ نادى مناديه: "الصلاة جامعةً"، فاجتمعنا، فقام رسول الله ﷺ فخطبنا، فقال: "إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على ما يعلمه خيرًا لهم، وينذرهم ما يعلمه شرًّا لهم، وإن أمتكم هذه، جُعِلَتْ عافيتُها في أولها، وإن آخِرهم يصيبهم بلاء، وأمورٌ تنكرونها، ثم تجيء فتن يُرَقِّقُ بعضُها بعضًا، فيقول المؤمن: هذه مُهلِكَتي، ثم تنكشف، ثم تجيء فتنة، فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، فمن سَرَّه أن يُزَحْزَحَ عن النار ويُدْخَلَ الجنة، فَلْتُدْرِكهُ موتتُه وهو يؤمن باللهِ واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يأتوا إليه، ومن بايع إمامًا فأعطاه صَفْقَةَ يمينه، وثمرةَ قلبه، فليُطعْه ما استطاع، فإن جاء آخرُ ينازعه، فاضربوا عنق الآخر"، قال: فأدخلت رأسي من بين الناس، فقلت: أنشدك الله! أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال: فأشار

=

الميزان (٤/ ٤٤٣): حديث صالح الإسناد، وقال العراقي في المغني (٣/ ٢٦٧): رجاله ثقات، وصححه الهيتمي في الزواجر (١/ ٥١)، وكذا صححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٧٣٤)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٨/ ٦٦): إسناده حسن، أبو عبد ربه- ويقال: أبو عبد رب، الدمشقي الزاهد، ويقال: أبو عبد رب العزة، واسمه عبد الرحمن، وقيل: عبد الجبار، وقيل: قسطنطين- روى عنه جمع، وذكره ابن حبان في "الثقات"، وترجم له البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٣٧٢) ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا، وباقي رجاله ثقات.

(١) أي: يرتمون بالسهام.

(٢) الجَشَر: قوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى، ويبيتون مكانَهم، ولا يأوون إلى البيوت، كما في "النهاية" (١/ ٢٧٣).

بيده إلى أذنيه، فقال: سمعتْه أذناي، ووعاه قلبي[١].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: "أمتي أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة[٢]، عذابها في الدنيا[٣]: الفتن، والزلازل، والقتل"[٤].

وفي بعض طرقه: أن أبا بردة قال: بينما أنا واقف في إمارة زياد، إذ ضربت بإحدى يدي على الأخرى تعجبًا، فقال رجل من الأنصار- قد كانت لوالده صحبة مع رسول الله ﷺ -: مما تعجب يا أبا بردة؟ قلت: أعجب من قوم دينهم واحد، ونبيهم واحد، ودعوتهم واحدة، وحجهم واحد، وغزوهم واحد، يستحل بعضُهم قتل بعض، قال: فلا تعجب، فإني سمعت والدي أخبرني أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "أمتي أمة مرحومة" فذكر الحديث[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤) بنحوه.

(٢) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: "وهو محمول على معظم الأمة المحمدية؛ لثبوت أحاديث الشفاعة: أن قومًا يُعذبون ثم يخرجون من النار، ويدخلون الجنة".اهـ. من "بذل الماعون في فضل الطاعون" ص (١٢٧).

(٣) وفي "التاريخ الكبير" للبخاري (١/ ٣٨): "إن أمتي أمة مرحومة، جُعل عذابها بأيديها في الدنيا".

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٨)، وعبد بن حميد (٥٣٦)، والبزار (٣٠٩٩)، والروياني (٥٠٥)، والقضاعي (٩٦٩)، والحاكم (٤/ ٤٤٤)، والبيهقي في الآداب (٨٩٧) وغيرهم، والحديث حسنه الحافظ في بذل الماعون (ص ١٢٧)، وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٦/ ٣٣٤): إسناده ضعيف. المسعودي -وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة- اختلط، ثم إن فيه اضطرابا ... وقد أعل هذا الحديث شيخ الصنعة الإمام أبو عبد الله البخاري، فقال في تاريخه الكبير (١/ ٣٩) بعد أن أورد طرق هذا الحديث، وبين ما فيها من اضطراب: والخبر عن النبي ﷺ في الشفاعة، وأن قوما يعذبون ثم يخرجون أكثر وأبين وأشهر.

(٥) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٥٣، ٣٥٤)، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، قال =

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: وأخرج أبو يعلى -أيضًا- بسند صحيح من رواية أبي مالك الأشجعي، عن أبي حازم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: "إن هذه الأمة أمة مرحومة، لا عذاب عليها إلا ما عذبت به أنفسها، قلت: وكيف تعذب أنفسها؟ قال: أما كان يوم النهر عذاب؟! أما كان يوم الجمل عذاب؟! أما كان يوم صفين عذاب؟! "[1].

الحذر من الشر باب من أبواب الخير

إن التحذير من الشر باب من أبواب الخير، قال حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "كان الناس يسألون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني" الحديث[2].

فالدفع أسهل من الرفع، والتخلية مقدمة على التحلية، والوقاية خير من العلاج، وأحيانًا تكون العلاجَ الوحيد، والخبرة بالظلام تميزه عن النور، وتعصم من التورط فيه، فالضِّدُّ يُظِهر حُسْنَه الضدُّ، وبضدها تتميز الأشياء، قال أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "يوشك أن يَهْدِمَ الإِسلامَ حَجَرًا حَجَرًا مَن جهل عاداتِ الجاهلية".

عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ ... لكنْ لتوقِّيه
ومن لا يعرف الشرَّ ... من الخير يقعْ فيه

قال الأستاذ محمَّد أحمد الراشد -حفظه الله تعالى-: "كان حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا

=

الألباني: "هو كما قالا، لولا الرجل الأنصاري الذي لم يُسَمَّ" "الصحيحة" رقم (٩٥٩).

(١) بذل الماعون في فضل الطاعون (ص ١٢٧).

(٢) أخرجه البخاريّ (٩/ ٦٥).

يقنع أن يشارك إخوته من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سؤالَهم رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مكملات الخير الذي هم فيه، وما أن يشاركهم فرحهم بالخير حتى تلذع ابتسامةَ قلبِه تخوفاتٌ من احتمالات شَرٍّ مبهم يراه مُقبِلًا، يجهل صفته وعلامته، فيظل قلقًا وجلًا، حتى ينعته له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويذكر له بوادره ومقدماته التي ستنبهه يومًا ما إلى الاحتياط ورفع صوته بأذان التحذير.

كان يريد علمًا يكمِّل علم الخير، فصار يحرص على أن يخلو برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأله.

يقول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "كان الناس يسألون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني".

فأتقن علم الشر بهذا الحرص، وأحاط خُبرًا بما سيكون من فتن وسوء ونفاق، حتى احتاج إلى علمه كبارُ الصحابة، وطفِق مثلُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسأله، ويستشيره.

والمغزى الأكبر هنا يكمن في استجابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحذيفة، وجوابه له، وقبولِهِ تعليمه علمَ الشر.

لم يقل له: "إننا في خير، ونسير من نصر إلى نصر، فاصرف عنك الهواجس"؛ بل أجابه، وأعلمه.

وإنما نستمد نحن مُسَوِّغاتِ تطرقِ بحوثِ فقهِ الدعوة لعلم الفتن والقواصم، وما ينجي منها من النور والعواصم، من مواطأة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحذيفة، وتزويده له بما أراد. نتعلم علم الشر كي نراه ونميزه قبل أن يغزونا"[1].

من طبائع الفتن

(١) "العوائق" (ص ١٧٣ - ١٧٥).

هذا، وإن للفتن طبائعَ وخصائصَ يُعين الاستبصار بها على تَوَقِّيها والنجاةِ منها، وما أكثر الفتن التي وقعت بسبب غياب البصيرة بهذه الطبائع.

* فمن طبائع الفتن: أنها تتزين للناس في مباديها، حتى تُغْرِيهم بملابستها والتورط فيها.

قال ابن عيينة عن خَلَف بن حوشب:

كانوا يستحبون أن يتمثلوا بهذه الأبيات عند الفتن: قال امرؤ القيس:

الحرب أول ما تكونُ فَتيّةً ... تَسْعى بزينتها لكلِّ جهُولِ

حتى إذا اشتعلت وشَبَّ ضِرامُها ... ولَّتْ عجوزًا غيرَ ذاتِ حَليلِ

شمطاءَ يُنكَرُ لونُها وتغيَّرت ... مكروهةً للشمِّ والتقبيلِ

وكان خلف يقول: "ينبغي للناس أن يتعلموا هذه الأبيات في الفتنة"(١).

وقال الإمام ابن حزم(٢) رحمه الله تعالى: "**نُوَّارُ الفتنةِ لا يَعْقِدُ**"(٣).

والنُّوَّار: الزهر؛ ويقال: عَقَد الزهرُ: إذا تضامَّتْ أجزاؤه فصار ثمرًا.

ومعنى كلام ابن حزم أن للفتنة مظهرًا خادعًا في مبدئه، حتى يستحسن الناسُ صورتَها، ويعقدوا الآمال عليها، ولكن سُرعان ما تموت وتتلاشى، مثل الزهرة التي تموت قبل أن تتفتح، وتُعطيَ ثمرتها.

* والفتن، تذهب بعقول الرجال، وتستخفهم ببُداءاتها:

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "أخاف عليكم فتنًا كأنها الدخان، يموت

---

(١) "السنن المأثورة للشافعي" ص (٣٤٤) رقم (٤٢٣)، "صحيح البخاري" (٩/ ٦٨) ط. دار الشعب.

(٢) "الأخلاق والسير" ص (٨٤).

(٣) وهذه الحكمة الرائعة من نتاج فكر ابن حزم الذي عاصر فتنة البربر في الأندلس، ورأى كيف كانت الآمال المعقودة على كل ثائر تنتهي بمآسٍ وأحزان وضحايا ودمار.

فيها قلبُ الرجل، كما يموت بدنه"[١].

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "تكون فتنة تعرجُ فيها عقولُ الرجال، حتى ما تكاد ترى رجلًا عاقلًا"[٢].

وعنه رضي الله عنه قال: "ما الخمر صِرفًا بأذهب بعقول الرجال من الفتنة"[٣].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إن بين يدي الساعة الهَرْجَ" قالوا: وما الهرجُ؟ قال: "القتل، إنه ليس بقتلكم المشركين، ولكن قتلُ بعضِكم بعضًا، حتى يقتل الرجل جاره، ويقتل أخاه، ويقتلَ عمَّه، ويقتلَ ابنَ عمه" قالوا: ومعنا عقولُنا يومئذٍ؟ قال: "إنه لَتُنزَع عقولُ أهلِ ذلك الزمان، ويَخْلُفُ له هباءٌ[٤] من الناس، يحسب كثرهم أنهم على شيء، وليسوا على شيء"، قال أبو موسى: "والذي نفسي بيده ما أجد لي ولكم منها مخرجًا إن أدركتني وإياكم - إلا أن نخرج منها كما دخلنا فيها، ولم نصب منها دمًا ولا مالًا"[٥].

---

(١) رواه نعيم بن حماد في "الفتن" (١/ ٦٥)، رقم (١١٧).
(٢) رواه نعيم في "الفتن" (١/ ٦٢) رقم (١٠٧)، وصححه الهندي في "كنز العمال" (١١/ ١٧٩) رقم (٣١١٢٦).
(٣) رواه أبو نعيم في "الحلية" (١/ ٢٧٤)، والصِّرف: غير الممزوج بغيره.
(٤) هباء: أي قليلو العقل، أراذل، وهو في الأصل: الغبار المُنبثُّ.
(٥) أخرجه أحمد (٤ / ٣٩١- ٣٩٢ و ٤١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٨)، وأبو يعلى (٧٢٣٤) وغيرهم والحديث صححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٦٨٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٢/ ٢٤١): مرفوعه صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد- وهو ابن جدعان- وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، غير حماد بن سلمة، وحطان بن عبد الله الرقاشي، فمن رجال مسلم، وروى البخاري لحماد بن سلمة تعليقا، وهما ثقتان.

وقد حدد حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِحَكًّا يقيس به الإنسان مدى تأثره بالفتنة، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إن الفتنة تُعرضُ على القلوب، فأيُّ قلبٍ أُشرِبها: نُكِتت فيه نكتة سوداءُ، فإن أنكرها: نكِتت فيه نكتة بيضاءُ؛ فمن أحب منكم أن يعلم: أصابته الفتنةُ أم لا؟ فلينظر: فإن كان يرى حرامًا ما كان يراه حلالًا، أو يرى حلالًا ما كان يراه حرامًا، فقد أصابته الفتنة"[١].

* والفتنة- إذا جُففت منابعُها، وسُدت ذرائعها، وحُسِمت مادةُ أوائلها، وأُخِذَ علي أيدي سفهائها، ولم يُلتفت لقولهم: "ما أردنا إلا الخير" - سَلِمت الأمةُ من غوائلها، وكُفي الناسُ شرَّها.

عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "مثل القائم. على حدود الله والواقع (وفي رواية: والراتع) فيها، والمدهِن فيها؛ كمثل قومٍ استهموا على سفينةٍ في البحر، فأصاب بعضُهم أعلاها، و [أصاب] بعضُهم أسفلَها [وأوعرَها]، فكان الذي (وفي رواية: الذين) في أسفلها إذا استقوا من الماء فمروا على من فوقهم، [فتأذوا به] (وفي رواية: فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء، فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتوذوننا). فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا [فاستقينا منه] ولم نؤذِ مَن فوقنا (وفي رواية: ولم نمرَّ على أصحابنا فنؤذيهم)، فأخذ[٢] فأسًا، فجعل يَنْقُرُ أسفلَ السفينة، فأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي، ولا بُدَّ لي من الماء]، فإن تركوهم وما أرادوا؛ هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم؛ نجوا، وأنجوا

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٧٢،٢٧٣).
(٢) أي: أحدُهم.

جميعًا"[١].

وكان النعمان بن بشير رضي الله عنهما إذا سرد هذه الحديث يقول قبله: "يا أيها الناس، خذوا على أيدي سفهائكم"، فإذا سرده عاد فقال: "خذوا على أيدي سفهائكم قبل أن تهلكوا"[٢].

"ولقد صدق الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم وصدق النعمان رضي الله عنه فكم من مخلصٍ جاهل يسلك سبيل صاحب الفأس هذا في سفينة الدعوة؟

ذاك حمل فأسًا، وصاحبنا يحمل اللسان.

إنه يهدم، ويشكك، ويثبط، ويفرِّق، ويعصى، كل ذلك بدعاوى حسن النية، والنقد الذاتي، إنه يجهل أن القانون على السفينة إنما هو قانون العاقبة دون غيرها، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه، بل على الشروع فيه، بل على توجيه النية إليه، فلا حرية هنا في عملٍ يُفسد السفينة ما دامت ملجَّجة في بحرها، سائرة إلى غايتها.

إن كلمة (الخرق) لا تحمل في السفينة معناها الأرضي، بل معناها البحري، فهناك لفظة (أصغر خرق) ليس لها إلا معنى (أوسع قبر) .. في قاع المحيط المظلم، لو تُرك هذا الخرق الصغير وشأنه.

وكذا حسن النية، إنه لا يحمل عندنا في علاقاتنا معناه الأخروي الذي يحاسب الله بموجبه عباده، فالإفساد واحد حتى وإن كان بنية حسنة.

أفما رأيت حالة هذه الطائفة التي في (الأسفل) تعمل لرحمة من هم في

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٣٢ - فتح)، والترمذي (رقم: ٢١٧٣)، والأمام أحمد (٤/ ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠)، واللفظ من "السلسلة الصحيحة" رقم (٦٩).

(٢) "الزهد" لابن المبارك ص (٤٧٥).

(الأعلى)؟

إنها قصة القواعد الساذَجة مع القيادات العاملة:

عواطـــــــف ملتهبـــــــــة لكنهــــــــا بــــــــادر

ومـــــــشاعر صـــــــادقة لكنهــــــــا كاذبــــــــة

ورحمة خالصة .. لكنها مهلكة، إنهم المصلحون إصلاحًا مخروقًا"[(١)].

* ومن طبائع الفتن: أنها متى ما وقعت فإنها سَرعان ما تتطور، وتخرج عن حدود السيطرة، حتى إنها لتستعصي على من أشعلوها إن حاولوا إطفاءها.

قال بعض أشياخ الشام: "مَن أعطى مِن نفسه أسبابَ الفتنةِ أولًا، لم ينجُ آخِرًا، ولو كان جاهدًا".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "والفتنة إذا وقعت عجز العقلاءُ فيها عن دفع السفهاء ... وهذا شأن الفتن كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال: ٢٥]، وإذا وقعت الفتنة لم يسلم من التلوث بها إلا من عصمه الله"[(٢)].

نور الفطنة يبدد ظلمات الفتنة

ويتفاوت الناس في مدى استبصارهم بحقيقة الفتنة، واستجلاء عواقبها، تَبَعًا لما أوتوه من التقوى، والفقه.

"فالقلب كالعين في إبصارها، فتجد عينًا لا تبصر البعيد، وأخرى لا تبصر بمجرد وجود ضباب طفيف، أو غبار خفيف، فضلًا عن أن تكون في ظلام،

---

(١) انظر: "العوائق" ص (٢١٠- ٢١٢)، "وحى القلم" (٧١٣).

(٢) "منهاج السُّنَّة النبوية" (٤/ ٣٤٣).

فإبصار القلب تابع لقوة الفقه، ونور الإيمان، ومقدارهما"[١].

وقد شَبَّه النبي ﷺ الفتنة بقطع الليل المظلم، أي: الذي لا قمر فيه ولا ضياء، فالساري فيه على شفا هلكة إن لم يكن معه نور يبصر به مواقع قدمه، وهو في حال الفتن نور العلم الذي يكشف أهلَها، ويبين حالها.

قال حذيفة رضي الله عنه: "لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك، إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل".

وقد سمَّى الله تعالى كتابه العزيز نورًا؛ فقال -عز من قائل-: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤)} [النساء: ١٧٤]، وقال سبحانه: {فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨)} [التغابن: ٨]، وقال تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ١٥٧].

وسماه "بصائر" فقال ﷻ: {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤)} [الأنعام: ١٠٤]، وقال سبحانه: {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)} [الجاثية: ٢٠].

وقد صحَّ عن عبد الرحمن بن أبزى قال: قلتُ لأُبي بن كعب لما وقع الناس في أمر عثمان: أبا المنذر ما المخرج؟ قال: "كتابُ الله، ما استبان لك فاعمل به، وما اشتبه عليك فكِلْه إلى عالمه"[٢].

وقال أبو مسعود لحذيفة رضي الله عنه: "إن الفتنة وقعت، فحدثني ما سمعته" قال:

---

(١) "العوائق" ص (٢٩).

(٢) "التاريخ الأوسط" للبخاري (١/ ٦٤).

"أَوَلم يأتكم اليقين؟ كتابُ الله عَزَّوَجَلَّ"[١].

* وإذا علمنا أن الفتن لابد واقعة في أمة محمد صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فينبغي أن يعلم أنها كثيرة جدا لا يمكن حصرها .. فعن أسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: أشرف النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على أطم من آطام المدينة فقال: (هل ترون ما أرى؟) قالوا: لا. قال: (فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر) متفق عليه واللفظ للبخاري.

وفي البخاري عن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: استيقظ رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليلة فزعا يقول: (سبحان الله ماذا أنزل الله من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات - يريد أزواجه - لكي يصلين، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة).

فدل ما تقدم على كثرة الفتن حتى شبهت بالقطر من السماء، ومعلوم أن القطر لايحصيه إلاّ الذي أنزله.

فإذا كان الأمر كذلك وأن الفتن كثيرة جدا فليعلم العبد أنه إن أخطأته فتنة .. لم يكد يسلم من الأخرى، فلينج بنفسه وليحذر. وقد تقدم في الحديث: (من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به).

فالعاقل يوطن نفسه على الهرب منها واجتنابها .. والأحمق الأخرق هو الذي يرفع لها رأسه فيوشك أن تقطعه.

وعلى ما تقدم: فلا يزال العبد في مجاهدة وصبر لكثرة الفتن واستمرارها .. والله المستعان.

* أن الفتن متفاوتة منها الصغير ومنها الكبير، ومنها الخاص ومنها العام:

دليل ذلك ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي إدريس الخولاني

---

(١) "حلية الأولياء" (١/ ٢٧٤).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يقول: قال حذيفة بن اليمان: والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة، وما بي أن يكون رسول الله ﷺ أسر إلي في ذلك شيئا لم يحدثه غيري، ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يحدث مجلسا أنا فيه عن الفتن، فقال رسول الله ﷺ وهو يعد الفتن: (منهن ثلاث لا يكدن يذرن شيئا، ومنهن فتن كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار) قال حذيفة: فذهب أولئك الرهط كلهم غيري.

وقد قدمنا في المسألة (الأولى) حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما سأله عمر عن الفتن فبين له أولا الفتن الخاصة بالإنسان في أهله وماله وولده وجاره، ثم سأله عن الفتنة العامة التي تموج كما يموج البحر فأخبره بها.

وفي مصنف ابن أبي شيبة (٨/ ٦٧٢) والسنن الواردة في الفتن لأبي عمرو الداني (١/ ٢٨٤) عن طاووس بن كيسان عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال لما قتل عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (إنما هذه حيصة من حيصات الفتن وبقيت الرداح المطبقة التي من ماج بها ماجت به ومن أشرف لها استشرفت له) والرداح المطبقة هي الثقيلة العظيمة العامة.

* أن من الفتن ما يخرج من الملة ومنها مالا يخرج منها، فهي متفاوتة:

دليل ذلك قوله ﷺ: (بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا؛ يبيع دينه بعرض من الدنيا).

- والكفر في هذا الحديث كما قال العلماء قد يراد به الكفر الأصغر ككفر النعمة، وقد يراد به الكفر الأكبر كاستحلال المحرم كما نقل الترمذي في سننه عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يقول في هذا الحديث المتقدم: يصبح الرجل

محرما لدم أخيه وعرضه وماله ويمسي مستحلا له، ويمسي محرما لدم أخيه وعرضه وماله، ويصبح مستحلا له).

- ومن الفتن المكفرة التي ابتليت بها الأمة في فترة من فتراتها؛ فتنة القول بخلق القرآن، لولا أن قيض الله لها من أنصار دينه وحماة شرعه من جعلهم سدا في وجه تلك الفتنة وعلى رأسهم إمام أهل السنة: أحمد بن حنبل .. فلله الحمد والمنة.

لكن ينبغي التنبيه على ثلاثة أمور مهمة جدا

أولها: أن الحكم على الفتنة بأنها مكفرة أم لا؛ إنما هو للعلماء الربانيين الذين يصدرون عن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .. وليس الحكم فيها للأهواء والرغبات.

وفي هذا سد لباب عظيم من الشر قد ينتج عنه من الفتن إضعاف ما ينتج عن الفتنة المنظور إليها.

الثاني: تنزيل الحكم على الأشخاص إنما هو لأهل العلم الراسخين فيه؛ إذ إن إطلاق الحكم على المعين لابد فيه من معرفة الشروط والموانع ... وهذا إنما يكون لأهل العلم، ولا سبيل لأحد أن يتقدم عليهم فيه لما في ذلك من الخطر العظيم والبلاء الجسيم.

الثالث: أن المشاركين في الفتن ليسوا على وزان واحد: جرما وإثما وحكما؛ فرؤوس أهل الفتن ليسوا كالأتباع، والقعدة فيها ليسوا كالمشاة، والمشاة فيها ليسوا كالسعاة ... وهكذا.

وقد تقدم معنا حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من

الساعي، من تشرف لها تستشرفه؛ فمن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به) متفق عليه.

وفي صحيح مسلم عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنها ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشي فيها، والماشي فيها خير من الساعي إليها، فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه). قال: فقال رجل: يا رسول الله! أرأيت من لم تكن له أبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: (يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاء، اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ قال: فقال رجل: يا رسول الله! أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين أو إحدى الفئتين فضربني رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: (يبؤ بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار).

- وإنما كان الأمر كذلك: لأن جهد أهل الفتن مختلف، ووقعهم فيها متفاوت؛ فالقاعد غالبا ـ ما لم يكن من رؤوس أهلها ـ أضعف عملا من الماشي، والماشي أضعف من الساعي وهكذا. (هذا أولًا).

وثانيا: لأنه قد يشارك فيها من ليس من أهلها كالمكره ونحوه

- وعليه: فتعميم الحكم على جميع من شارك في فتنة من الفتن؛ خطأ كبير لا يكون من عالم عارف بأحوال الناس.

ولا يعكر على هذا ما ورد في بعض النصوص من إهلاك بعض أهل الفتن مهلكا واحدا، رغم أن فيهم من ليس منهم ـ كالجيش الذي يؤم البيت ـ كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الصحيح وغيره، فإن النبي ﷺ قد بيّن في نفس الحديث أنه وإن شاركهم في عقوبة الله إلاّ أنه يخالفهم يوم القيامة فقال لمّا سئل عن المكره: (يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيّته).

– فإذا علمنا ذلك كله وتيقناه: تيقنا خطر المخاطرة في الفتن .. وعلمنا أنها مزلة أقدام ومضلة أفهام ... والله المستعان.

* لا تزال طائفة من أمة محمد ﷺ على الحق ظاهرة منصورة .. لا يضرها من خذلها ولا من خالفها حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، كما ثبت ذلك في أحاديث كثيرة منها:

ما في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حيى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون).

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك).

– ففهمنا من هذه الأحاديث أمورا:

أولها: أنها طائفة وليست الأمة كلها.

الثاني: أنها على الحق وليست على الباطل.

الثالث: أنها ظاهرة: أي عالية رفيعة معلومة غير مختفية.

الرابع: أنها منصورة على أعدائها مهما اشتد بلاؤهم.

الخامس: أنها محفوظة بحفظ الله تعالى لا يضرها من خذلها ولا من خالفها، والخذلان يكون ممن يتوقع منه النصرة، والمخالفة: تكون من الأعداء، ورغم اجتماع البلاءين عليها إلا إنها ظاهرة منصورة محفوظة (فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين).

وهذه الطائفة كما قال العلماء: يجوز أن تكون متعددة من أنواع الأمة: ما

بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه ومفسر ومحدث وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم اجتماعهم ببلد واحد.

فإذا زالت هذه الطائفة زال معها الحق، وعندها تقوم الساعة، ولا تقوم إلا على شرار الخلق.

- وعليه: فتنزيل أحاديث الطائفة المنصورة على فئة معينة من الأمة دون غيرها خطأ؛ لما يترتب على ذلك من تجهيل الآخرين والتقليل من شأنهم رغم أنهم قد يكونون من هذه الطائفة المعنية في الأحاديث.

- **فإن قال قائل**: فما تقولون فيما ورد عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال عن هذه الطائفة: (إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم)، فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ قد حصر هذه الطائفة في أهل الحديث دون غيرهم.

فالجواب: هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حين بين المراد بأهل الحديث فقال كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٩٥): (ونحن لا نعني بأهل الحديث المقتصرين على سماعه أو كتابته أو روايته بل نعني بهم: كل من كان أحق بحفظه ومعرفته وفهمه ظاهرا وباطنا، واتباعه باطنا وظاهرا وكذلك أهل القرآن، وأدنى خصلة في هؤلاء: محبة القرآن والحديث والبحث عنهما وعن معانيهما والعمل بما علموه من موجبهما، ففقهاء الحديث أخبر بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فقهاء غيرهم، وصوفيتهم أتبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صوفية غيرهم، وأمراؤهم أحق بالسياسة النبوية من غيرهم، وعامتهم أحق بموالاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غيرهم).اهـ.

فبان من كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ أن أهل الحديث طائفة تحوي أنواعا من الأمة، فمنهم العالم والمجاهد والعابد والحاكم بل والعامي أيضا، وهذا موافق لما نقلناه عن

غيره من أهل العلم كما في أول المسألة. والله تعالى أعلى وأعلم.

* أن الفتن مرتع خصب لأهل الأهواء والبدع لنشر أهوائهم وبدعهم وتلبيسها على الناس وذلك لأمور:

الأول: اختلاط الأمور وقت الفتن وعدم تميزها.

الثاني: لقلة العلم في الفتن وغلبة الجهل.

الثالث: للتسرع الذي يحصل عند الناس في وقت الفتن.

وعليه: فينبغي على العبد الموفق ألا ينجرف وراء كل دعوى .. ولا يتبع كل صارخ .. فإن فعل فهو الهلكة والخسران.

- ولذا كان من وصاياه عليه الصلاة والسلام: (خذ ما تعرف ودع ما تنكر) .. وبه يتبين فضل العلم وخصوصا وقت الفتن، وأنه من أعظم الأسباب المنجية منها كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

* أن بعض البلاد أكثر فتنا من غيرها وأشد: دليل ذلك ما في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: (ألا إن الفتنة ها هنا من حيث يطلع قرنا الشيطان).

وفي البخاري عنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا) قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا؟ قال: (اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا) قالوا يا رسول الله: وفي نجدنا؟ قال: (هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان).

فبان بذلك أن المشرق أكثر فتنا من غيره وأشد.

- وأيضا: فإن بعض البلاد محفوظة من بعض الفتن الكبار - كمكة والمدينة - فإنهما محفوظتان من الدجال والطاعون:

أما الدجال: فالأحاديث في تحريم مكة والمدينة عليه كثيرة منها

١- ما في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس من بلد إلاّ سيطؤه الدجال، إلاّ مكة والمدينة وليس نقب من أنقابها إلاّ عليه الملائكة صافين تحرسها فينزل السبخة فترجف الدينة ثلاث رجفات يخرج إليه منها كل كافر ومنافق).

٢- وفي صحيح مسلم في حديث الجساسة الطويل الذي رواه تميم الداري رضي الله عنه وفيه أن الدجال قال: (وإني مخبركم عني إني أنا المسيح
الدجال، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان عليّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحدا منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتا يصدني عنها وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها ..) الحديث.

وأما الطاعون: فلما أخرجه البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال).

وفيه أيضا عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله).

- وظاهر هذه الأحاديث أن الحفظ من الطاعون خاص بالمدينة دون مكة؛ لكن ورد عند عمر بن شبة في كتاب (مكة) كما نقل ذلك عنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ١٩١ك الطب) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: (المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة على كل نقب منهما ملك، لا يدخلهما الدجال ولا الطاعون) قال الحافظ: رجاله رجال الصحيح.

- وهذه البلاد المحفوظة من بعض الفتن أو القليلة فيها الفتن ـ سبب

حفظها إما:

• لظهور الدين فيها وانتشار العلم بين أهلها، كما في حديث عبد الله بن عمرو

بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي فنظرت فإذا هو نور ساطع عمد به إلى الشام ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام) أخرجه الحاكم وصححه الألباني في فضائل الشام (١٥).

• وإما لتقييض الله تعالى لها من يحفظها من غير أهلها: كالملائكة لمكة والمدينة عند خروج الدجال، كما تقدم في الأحاديث.

إذا علم ذلك: علم تفاضل البلدان في هذا الجانب، وكلما كان البلد أقل فتنا؛ كان أكثر خيرا في العموم لأمور:

أولها: لظهور الدين فيه ... وتمسك أهله به في الغالب.

الثاني: لاجتماع الناس فيه لقلة الفتن.

الثالث: لأمن الناس فيه على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

وينبني على ما تقدم أيضا: أن سكنى البلاد التي تقل فيها الفتن أفضل من سكنى غيرها: دليل ذلك ما في الصحيحين من حديث سفيان بن أبي زهير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تفتح اليمن فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. وتفتح الشام فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. وتفتح العراق فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون).

وعن عبد الله بن عمر بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم، ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم وتقذرهم نفس الرحمن وتحشرهم النار مع القردة والخنازير) أخرجه أبو داود وحسنه العلامة الألباني بشواهده في فضائل الشام (٨٢).

- لكن ينبغي التذكير هنا بقول سلمان الفارسي رضي الله عنه لأبي الدرداء رضي الله عنه: (إن الأرض المقدسة لا تقدس أحدا، وإنما يقدس الإنسان عمله) رواه مالك في الموطأ ك القضاء.

وعليه أيضا: فإنه يلزم في البلاد التي تكثر فيها الفتن من الاستعداد لها علما وعملا أكثر مما يلزم في غيرها ـ ولئن كان ذلك لازم في جميع البلدان إلا إنه في تلك الأقطار ألزم .... والله أعلم.

*أن بعض الأزمنة أكثر فتنا من بعضها الآخر ..... فقرن الصحابة رضي الله عنهم أقل فتنا من غيره، لاسيما عصر الخليفتين الراشدين - أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما، حيث كان عمر أحد الأبواب الموصدة في وجه الفتن حتى كسر رضي الله عنه بقتله فزادت الفتن وانتشرت.

وعليه: فان الفتن في آخر الزمان أكثر وأشد من أوله .. دليل ذلك ما في البخاري عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك رضي الله عنه فشكونا إليه ما نلقى من الحَجّاج فقال: (اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلاّ والذي بعده أشد منه، حتى تلقوا ربكم سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم).

وعند الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنهم بسند صحيح كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٣) أنه قال: (أمس خير من اليوم، واليوم خير من غد، وكذلك حتى تقوم الساعة)

وروى الخلاّل في (السنة/ ٩٣) بسنده عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إنكم لن تروا من الدنيا إلاّ بلاء وفتنة، ولن يزداد الأمر إلاّ بلاء وشدة، ولن تروا من الأئمة إلاّ غلظة، ولن تروا أمرا يهولكم ويشتد عليكم إلاّ حضره بعده ما هو أشد منه، أكثر أمير وشر تأمير) قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: اللهم رضينا.

- وإنما كان الأمر كذلك والله أعلم لأمور:

أولها: قلة العلم كما مر معنا في أول الرسالة.

الثاني: انتشار الجهل كما مر أيضًا.

الثالث: قبض العلماء والصالحين كما في الصحيح عن مرداس الأسلمي قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يذهب الصالحون الأول فالأول حتى يبقى مثل حثالة التمر والشعير لا يبالي الله بهم" أخرجه البخاري ك الرقاق

الرابع: تغير الناس وفسادهم: حيث ترفع الأمانة والخشوع وتظهر الخيانة والكذب كما في حديث عمران بن حصين أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إن خيركم قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم " قال عمران فلا أدري أقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن "

الخامس: لقرب قيام الساعة، ولا تقوم إلا على شرار الخلق. ... والله أعلم.

النجاة في اتباع العلماء الرانيين

قال الله تعالى: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [الأنبياء: ٧] وقال عَزَّ وَجَلَّ: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء: ٨٣].

قال العلّامة السعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل

بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يُولَّى مَن هو أهلٌ لذلك، ويُجعلَ إلى أهله، ولا يُتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ"(١).

إن ذهاب العلم مقترن برواج الفتن، وإن الالتحام بالعلماء عصمة للأمة من الضلال، والعلماء سفينة نوح، من تخلَّف عنها -لا سيما في زمان الفتن- كان من المغرقين.

عن ابن مسعود وأبي موسى رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: "إن بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل، ويُرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهَرْجُ؛ والهرج القتل"(٢).

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "من أشراط الساعة أن يقل العلمُ، ويظهرَ الجهل"(٣).

وسبب قلة العلم موت حَمَلَتِهِ، كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: "إن الله لا يقبض العلمَ انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جُهَّالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضَلُّوا، وأضَلُّوا"(٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "أتدرون ما ذَهاب العلم؟ " قلنا: لا، قال: "ذهاب العلماء"(٥).

وعنه رضي الله عنه قال: "لا يزال عالم يموت، وأثر للحق يَدْرُس، حتى يكثر أهل

(١) "تفسير السعدي" ص (١٩٠).
(٢) رواه البخاريّ (١٣/ ١٣- فتح).
(٣) رواه البخاريّ (١/ ١٧٨- فتح).
(٤) رواه البخاريّ رقم (١٠٠) (١/ ١٧٤، ١٧٥)، ومسلم رقم (٢٦٧٣).
(٥) رواه الدارمي (١/ ٧٨).

الجهل، وقد ذهب أهلُ العلم، فيعملون بالجهل، ويدينون بغير الحق، ويضلون عن سواء السبيل"[١].

وعن هلال بن خباب قال: سالت سعيد بن جبير، قلت: يا أبا عبد الله! ما علامة هلاك الناس؟ قال: "إذا هلك علماؤهم"[٢].

وعن زياد بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا، فقال: "ذاك أوانُ ذَهاب العلم"، قلت: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم، ونحن نقرأ القرآن، ونُقرئه أبناءنا، ويُقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: "ثكلتك أمك يا زياد إن كنتُ لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أَوَليس اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيء مما فيهما؟ "[٣].

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: "خذوا العلم قبل أن يذهب"، قالوا: وكيف يذهب العلم يا نبي الله، وفينا كتاب الله؟ قال: فغضب -لا يُغضبه الله-. ثم قال: "ثكلتكم أمهاتكم، أَوَلم تكن التوراة والإنجيل في بني إسرائيل فلم يغنيا عنهم شيئًا؟! إن ذَهاب العلم: أنْ يذهب حَمَلَتُه"[٤].

---

(١) "جامع بيان العلم" (١/ ٦٠٣) رقم (١٠٣٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٥/ ٤٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢٩/ ٤٤٢- الرسالة)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٥٣٦- ٥٣٧)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠٤٨)، أبو خيثمة زهير بن حرب في العلم (٥٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٩٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٠٥)، والطبراني في الكبير (٥٢٩١) والحديث قال عنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٩/ ١٧): حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه فلم يرو له سوى ابن ماجه. وسالم بن أبي الجعد قال فيه البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣٤٤): لا أراه سمع من زياد، وجزم الحافظ ابن حجر في الإصابة (٢/ ٥٨٧) بأنه لم يلقه.

(٤) رواه الدارمي (١/ ٧٧، ٧٨)، والطبراني في "الكبير" (٨/ ٢٧٦) رقم (٧٩٠٦).

* قال الإمام أبو بكر الآجري رحمه الله تعالى: "فما ظنكم -رحمكم الله- بطريق فيه آفات كثيرة، ويحتاج الناس إلى سلوكه في ليلة ظلماء، فإن لم يكن فيها ضياء وإلا تحيَّروا، فقيَّض الله لهم فيه مصابيح تضيء لهم، فسلكوه على السلامة والعافية، ثم جاءت طبقات من الناس، لا بد لهم من السلوك فيه فسلكوا، فبينما هم كذلك إذ طفئت المصابيح، فبقوا في الظلمة، فما ظنكم بهم؟

هكذا العلماء في الناس، لا يعلم كثير من الناس كيف أداءُ الفرائض، ولا كيف اجتنابُ المحارم، ولا كيف يُعْبد الله في جميع ما يَعبده به خلقُه إلا ببقاء العلماء، فإذا مات العلماء تحيَّر الناس، ودَرَس العلم بموتهم، وظهر الجهل" .

إن مهمة المبصرين هي التبصير، ولا سيما في أوقات الفتن؛ حيث يكون العلماء الفاقهون وحدهم هم المستشرفين لنتائجها في لحظات إقبالها على حَدّ قول الحماسي:

تبين أعقابُ الأمور إذا مضت وتُقبل أشباهًا عليك صدورُها

وقول الآخر:

لو أن صدور الأمر يبدون للفتى كأعقابه لم تلفه يتندَّم

وقول الآخر يمدح ذا البصيرة النافذة:

بصيرٌ بأعقاب الأمور برأيه كأنَّ له في اليوم عينًا على غدِ

ولهذا قال الحسن البصريّ رحمه الله تعالى:

"الفتنة إذا أقبلت عرفها[1] كل عالم[2]، وإذا أدبرت عرفها[3] كل جاهل".

---

(١) بأن يشاهدها بنور بصيرته.

(٢) فإن كان علمه كاملًا أبصرها قبل مجيئها ورأى نتائجها، وكأنه يهتك حُجُبَ الغيب، ويتأخر وقت إدراكه لضررها كلما كان علمه أقل.

(٣) إذا انتهت، فلا فضل للجاهل في رؤية تشتت دعاتها وإفلاسهم، فإنها تكون مشاهدةَ عينٍ

قال الله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف: ١٠٨].

فأهل العلم هم أهل البصيرة الذين نوَّر الله قلوبهم فميزوا الحق من الباطل:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ حديثًا طويلًا عن الدجال، فكان فيما يحدثنا أنه قال:

يأتي الدجال -وهو محرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة- فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذٍ رجل هو خير الناس، أو من خيار الناس، فيقول: "أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه"، فيقول الدجال: "أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، هل تشكون في الأمر؟ "، فيقولون: لا، فيقتله، ثم يحييه، فيقول: "والله ما كنت فيك أشدَّ بصيرةً مني اليوم"، فيريد الدجال أن يقتله، فلا يُسلَّط عليه[1].

إن الالتحام بالعلماء والصدور عن توجيههم من أهم سبل الوقاية من الفتن، والعصمة من الزيغ والضلال.

فقد أعزَّ الله دينه بالصِّدِّيق الأكب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة.

وبابن تيمية يوم الغزو التتاري الوحشي حين حرَّض الأمراءَ والعامةَ على التصدي للتتار، وارتاب الناس في حكم قتالهم، حتى قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: "لو رأيتموني في صف التتر مواليًا لهم، وعلى رأسي مصحف،

=

وبصرٍ، لا إدراك عقل وبصيرة؛ ولذلك يتمكن منها من لا عقل له أيضًا.

(١) رواه البخاريّ (١٣/ ١٠١)، واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٢٥٦) رقم (٢٩٣٨)، وانظره أيضًا: (٤/ ٢٢٥٦) رقم (٢٩٣٨).

فاقتلوني"، فتشجع الناس في قتال التتر، وقويت قلوبهم.

وتأمل: كيف كشف السَّنوسي زيف دعوى المهدي السوداني؟![١].

وكيف كشف الألباني وابن باز ببصيرة نافذة زيف دعوى المهدي القحطاني؟[٢]

وكيف وفَّرت البيئة الجاهلة المناخ المناسب لاحتضان ونُصرة مهدي المغاربة ابن تومرت[٣]، وغيرهم.

ومما يجسد عداوة الجاهلين المبتدعين لأهل العلم والبصيرة

- موقف فرقة "الحشاشين" وهي الفرقة الإسماعيلية الباطنية النزارية، فقد كانوا فرقة إرهابية تعمل على اغتيال خصوم دعوتهم الإسماعيلية الباطنية من حُكَّام الأقاليم الإسلامية ووزرائهم، وتغتال العلماء والفقهاء المناوئين لهم[٤].

- موقف الجونبوري مدعي المهدية في "الهند" من العلم والعلماء: فقد كان يحظر على أتباعه طلب العلم بدعوى أن طلب العلم يضرهم، وكان يلزمهم بالاقتصار على صحبة مشائخ "المهدوية" مدعيًا أنهم المقصودون بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)} [التوبة: ١١٩].

وبعد وفاة المهدي الجونبوري أخذ دعاته وأتباعه ينشرون مبادئ فرقتهم في أرجاء الهند، وقد وجدت هذه الحركة آذانًا صاغية في مناطق كثيرة من الهند، وفي إقليم "كجرات" أقبل كثير من العوام والجهلة والجنود وبعض العلماء على

---

(١) "المهدي" ص (٥١٤- ٥١٦).

(٢) "نفس المصدر" ص (٥٥٧).

(٣) "نفسه" ص (٤١٨،٤١٩).

(٤) مقدمة "زهر العريش في تحريم الحشيش للزركشي" تحقيق: د/ السيد أحمد فرج ص (٤٥).

هذه الفرقة، وتكونت منهم قوة كبيرة، ووصل الأمر إلى أنه من ينكر الدعوة "المهدوية" يكفَّر، وإذا كان المُنكِر من أصحاب العلم والمعرفة، ومن وجهاء البلد؛ يُقتل[١].

وهذا الشيخ "علي المتقي الهندي" من كبار علماء الحديث في القرن العاشر الهجري يتحير في شأن "الجونبوري"، ويميل إليه، بل قيل: إنه اعتنق المهدوية، ولما وصل إلى مكة المكرمة بحث مع علمائها مسألة "خروج المهدي"، فتبين له الحق، فنذر نفسه للرد على هذه الفرقة.

وهو رحمه الله تعالى القائل في كتابه "البرهان في علامات مهدي آخر الزمان": "وكفى دليلًا على بطلان اعتقاد هذه الطائفة قتلهم العلماء، فإن خصلتهم هذه تدل على عدم الدليل على اعتقادهم، وعجزهم عن إثبات معتقدهم، فهذه الخصلة وحدها تكفي على البطلان"[٢].

ولما وزع داعية المهدوي الجونبوري "سيد عيسى" في عام (١٢٨٢ هـ) ثلاثة كتب في الانتصار لعقيدة المهدوية في أرجاء الهند، وبعد سَنَةٍ رَفَعَ التماسًا في محكمة "حيدر أباد" قال فيه: "إن هذه الكتب وزعت على علماء البلاد، وانتظرتُ سنة كاملة فلم يرد عليها أحد، والآن أرفعها إلى حضرتكم للنظر فيها، فإذا كان فيها ما يخالف العقيدة الإسلامية فنحن نتوب عنها ونرجع إلى الحق، وإذا كان ما فيها صحيحًا فالرجاء منكم الاعتراف بهذا المذهب، والتصديق به، والمساعدة على نشرها، فبعث القاضي هذه الكتب إلى الشيخ "محمَّد زمان خان الشاهجهان بوري"، فحملته الغيرة الدينية على الردِّ على هذه الكتب،

---

(١) "فرق الهند المنتسبة إلى الإسلام" ص (٢٤١).

(٢) المهدي ص (٢٩١).

وألف كتابه المشهور "هدية مهدوية"، وبعد نشر هذا الكتاب أعلن داعية المهدوي "سيد عيسى" في أتباعه أن من يقتل الشيخ "محمَّد زمان خان" فله قصران في الجنة، وأربع نخلات، فاندفع شاب مهدوي لتنفيذ اغتياله، وأخذ يتحين الفرص، وفي يوم من الأيام وجد الشيخ وحيدًا في المسجد بين المغرب والعشاء يقرأ القرآن الكريم، فجاء من خلفه، وضربه بالسيف، وهرب، وفاضت روح الشيخ فورًا، رَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة، وتقبله في الشهداء البررة[١].

وفي العصر المتأخر اغتالت يدُ الغدر والجهل العالِمَ السلفيَّ المجاهدَ "إحسان إلهي ظهير" الذي وقف حياته على الذبِّ عن الإِسلام والسُّنَّة، وكان سيفًا سَليطًا على أعدائهما، وببركة جهاده بلسانه وقلمه انحسرت كثير من الفرق الضَّالة، وخمد نشاطها، وقد سجن مرات عديدة بسبب نشاطه في قمع البدع، وما زال يذب عن حوزة الإِسلام، وينصر السّنَّة حتى اغتاله المبتدعون المارقون أثناء إلقائه محاضرة في (٢٣ رجب ١٤٠٧ هـ) في جمعية أهل الحديث بلاهور بباكستان بحضور ألفي شخص، حيث زرعت قنبلة بجوار المنصة التي كان يحاضر عليها، وقتل عشرة من العلماء وعدد من الحضور، ونقل إلى الرياض لعلاجه، ولكن وافته المنية بعد أيام، وصلى عليه الإِمام المجدد عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى ودفن في مقبرة البقيع مع خير أولياء الله بعد الأنبياء ممن كان يدافع عنهم، ويذب عن أعراضهم من صحابة رسول الله ﷺ، وآل بيته الطاهرين، وأمهات المؤمنين - رضي الله عنهم أجمعين -، فنعم الجوار، ونعم الجار[٢].

---

(١) المصدر السابق ص (٢٩٣، ٢٩٤).

(٢) انظر: "إحسان إلهي ظهير: الجهاد والعلم من الحياة إلى الممات ١٣٦٠ - ١٤٠٧هـ"، =

نسأل الله تعالى أن يكرم نزله، وأن يتقبل عمله، وأن يرزقه الفردوس الأعلى من الجنة في روح وريحان، وجنة نعيم.

ولولا خشية الإطالة لذكرنا صورًا كثيرة لحقد المبتدعة الجهال وإراقتهم دماء العلماء(١).

الصبر زمن الفتن

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)} [البقرة: ١٥٣].

وقال ﷻ: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)} [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

فالله سبحانه وتعالى يجزي المؤمن على صبره، كما قال تعالى: {إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)} [المؤمنون: ١٠٩ - ١١١]، فأخبر سبحانه أنه جزاهم على صبرهم، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ} [الفرقان: ٢٠].

أي: أتصبرون على البلاء، فقد عرفتم ما وجد الصابرون، فقرن الله -

=

تصنيف الشيخ محمّد بن إبراهيم الشيباني -مكتبة ابن تيمية- الكويت (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م).

(١) انظر: "الحقد الدفين على العلماء والصالحين" لجامعه من "سير أعلام النبلاء" عبيد بن أبي نفيع الشعبي- ط. دار الوطن -الرياض-١٤١٣ هـ

سبحانه- الفتنة بالصبر ها هنا، وفي قوله: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)} [النحل: ١١٠].

عن أُسيد بن حُضَير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلًا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله! استعملتَ فلانًا ولم تستعملني، فقال النبي ﷺ: "إنكم سترون بعدي أُثْرة -وفي لفظ: ستلقون بعدي أثرة- فاصبروا حتى تلقوني على الحوض"[١].

وعن أمير المؤمنين معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: "لم يبقَ من الدنيا إلا بلاء وفتنة"[٢].

وقد جعل النبي ﷺ الصبر أوسع العطاء، فقال كما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "وما أُعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر"[٣]، وذلك أن الصبر لا يعقبه إلا السعة واليسر، قال تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥، ٦]؛ ولذا قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "أدركنا خير عيشنا بالصبر".

أَمَا والذي لا خُلْدَ إلا لوجهه ... ومن ليس في العز النيع له كفو
لئن كان بدء ابصبر مُرًّا مذاقُهُ ... لقد يُجتني من غِبِّه الثمرُ الحلو

وعن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ايْمُ الله، لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن السعيد لَمَنْ جُنِّبَ الفتن، إن السعيد لَمَنْ جُنِّبَ الفتن، إن السعيد لَمَنْ

---

(١) رواه البخاريّ (٧/ ٦٤٤- فتح) رقم (٤٣٣٠)، والأُثْرة: الانفراد بالشيء المشترك دون من يشركه فيه، وقيل: الشدة.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) رواه البخاريّ (٢/ ١٥٢)، ومسلم باب (٤٢) رقم (١٢٤).

جُنِّبَ الفتن، ولَمَنْ ابتُلِيَ فَصبر، فَوَاهًا"[١].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ: "يا أبا ذر" قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك -فذكر الحديث- قال فيه: "كيف أنت إذا أصاب الناسَ موتٌ يكون البيتُ فيه بالوصيف؟ " - يعني: القبر- قلت: الله ورسوله أعلمُ، أو قال: ما خار الله لي ورسوله[٢]، قال: "عليك بالصبر" أو قال: "تصبر ... " الحديث[٣].

وفي رواية أن أبا ذر قال: ركب رسول الله ﷺ حمارًا، وأردفني خلفه وقال: "يا أبا ذر: أرأيت إن أصاب الناسَ جوعٌ شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟ " قال: الله ورسوله أعلم، قال: "تعفف" قال: "يا أبا ذر: أرأيت إن أصاب الناس موت شديد يكون البيت فيه بالعبد -يعني:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٦٣)، والبزار (٢١١٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/ رقم ٥٩٨)، وابن عساكر في تاريخه (٦٠/ ١٧٩) والحديث قال عنه البزار: إسناده حسن، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب (٢٧٤٣)، وحسنه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١١٥٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٦/ ٣٢٠): إسناده صحيح.

(٢) أي: ما اختار الله لي ورسوله. "عون المعبود": (١١/ ٣٤٢)، "بذل المجهود": (١٧/ ١٦٦).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٧٢٩)، وابن أبى شيبة (٧/ ٤٤٨)، والطيالسى (٤٥٩)، وأحمد (٥/ ١٤٩)، وأبو داود (٤٢٦١)، وابن ماجه (٣٩٥٨ ٢)، والبزار (٣٩٥٩)، وابن حبان (٦٦٨٥)، والحاكم (٢/ ١٦٩)، والبغوي (٤٢٢٠)، والبيهقى (٨/ ١٩١) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٧٥٠٠) رواته ثقات، وصححه العلامة الألباني في الإرواء (٨/ ١٠٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٥/ ٢٥٢): إسناده صحيح على شرط مسلم.

القبر- كيف تصنع؟ " قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "اصبر ... " الحديث[١].

والمراد بالبيت المذكور في الروايتين: القبر، كما هو مصرَّح به في الحديث، وكما ذكره جمع من أهل العلم؛ كالخطابي[٢]، وابن الأثير[٣] وغيرهما.

وأما الوصيف: فهو العبد أو الخادم، والوصيفة: الأمة، يُريد أن الناس يُشغلون عن دفن موتاهم، وهذا يدل على أن الفتن تكثر، فتكثر القتلى، حتى إنه ليشتري موضع قبر يدفن فيه الميت بعبدٍ، من ضيق المكان عليهم، مبالغةً في كثرة وقوع الفتن، أو لاشتغال بعضهم ببعض، وبما حدث من الفتن لا يوجد من يحفر قبر ميت ويدفنه، إلا أن يعطى وصيفًا أو قيمته[٤].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يأتي على الناس زمان، الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر"[٥].

قال الطيبي: "المعنى: كما لا يقدر القابض على الجمر أن يصبر لإحراق يده، كذلك المتدين يومئذٍ لا يقدر على ثباته على دينه لغلبة العصاة والمعاصي وانتشار الفسق وضعف الإيمان"[٦].

وقال القاري: "الظاهر أن معنى الحديث: كما لا يمكن القبض على الجمرة إلا بصبر شديد وتحمُّل غلبة المشقة كذلك في ذلك الزمان، لا يتصور حفظ دينه

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ١٤٩) بهذا اللفظ، وهو بنحو لفظ أبي داود وابن ماجه المذكور قبله، وصححه الألباني في "صحيح الجامع": (٢/ ١٢٩٠)، رقم (٧٨١٩).

(٢) "معالم السنن" (٤/ ٤٥٨).

(٣) "جامع الأصول" (١٠/ ٨).

(٤) المصدر السابق.

(٥) ورد هذا المعنى عن عدة من الصحابة وهو صحيح بمجموع طرقه وشواهده كما في الصحيحة (٩٥٧).

(٦) "تحفة الأحوذي" (٦/ ٥٣٩).

ونور إيمانه إلاَّ بصبر عظيم". انتهى[١].

مقارنة الحِلْم والرفق، ومفارقة العجلة والطيش

عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: "إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ"[٢].

وعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِن الْيَهُودِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: بَلْ عَلَيْكُم السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ: "يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحب الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كلِّهِ"، قُلْتُ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: "قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ"[٣].

وعن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيرَ كُلَّهُ"[٤].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ "إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ[٥] وَالْأَنَاةُ"[٦].

وعن خباب بن الأرتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فقلنا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو لنا؟ فَقَالَ: "قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا

---

(١) المصدر السابق (٦/ ٥٣٩).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٤)، (١٦/ ١٤٦- نووي).

(٣) رواه البخاريّ (٦٩٢٧)، واللفظ له، ومسلم (٢١٦٥).

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٢)، (١٦/ ١٤٥- نووي).

(٥) الحِلم: ترك العجلة، وهو خلاف الطيش ونقيض السفه، وقال الراغب: "هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب"، "المفردات" ص (١٢٩).

(٦) رواه مسلم (١٧) (٢٥).

يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"(١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيطَانِ، وَمَا أَحَدٌ أَكْثَر مَعَاذِيرَ مِنَ اللهِ، وَمَا مِنْ شَيءٍ أَحَبُّ إِلى اللهِ مِنَ الحِلْمِ"(٢).

والعَجَلة: فعل الشيء قبل وقته اللائق به، وكانت العرب تَكْني العجلة أمَّ الندامات(٣).

وقال عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى: "ما أوى شيءٌ إلى شيءٍ أزين من حِلمٍ إلى علمٍ"(٤).

وقال وهب بن منبه رحمه الله تعالى: "الرفق ثِنْيُ الحِلم"(٥).

وقال حكيمُ العرب "أكثم بن صيفي": "دِعامة العقل الحِلم، وجِمَاع الأمر الصبر"(٦).

وقال أمير المؤمنين عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "إن أولَ ما عَوَّضَ الحليمَ مِن حِلمه أن الناسَ كلَّهم أعوانُه على الجاهل"(٧).

---

(١) رواه البخاريّ (١٢/ ٣١٥، ٣١٦- فتح).

(٢) عزاه الهيثمي إلى أبي يعلى؛ وقال: "رجاله رجال الصحيح".اهـ. من "مجمع الزوائد" (٨/ ١٩)، وله شاهد من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رواه الترمذي (٢٠١٢).

(٣) "روضة العقلاء"، ص (٢٨٨).

(٤) رواه الدارمي (٥٧٦)، وأبو خيثمة العلم (١٢٨، رقم ٨١) وابن عبد البر جامع بيان فضل العلم (١/ ١٥٢) والبيهقي المدخل (٣٢٣، رقم ٥٠٧) ورجاله ثقات.

(٥) "الإحياء" (٣/ ١٨٦)، الثِّنْيُ: الولد الثاني.

(٦) "الإصابة" (١/ ٢٠٩)، و"الأعلام" للزركلي (٢/ ٦).

(٧) "السابق" (٣/ ١٧٨).

وقال أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "لا يبلغُ العبدُ مبلغَ الرأي حتى يغلبَ حِلْمُه جهلَه، وصبرُه شهوتَه، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم"(١).

وسأل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عمرَو بنَ الأهتم: أيُّ الرجال أشجع؟ قال: "من رَدَّ جهلَه بحِلْمِه"، قال: فأي الرجال أسخى؟ قال: "من بذل دنياه لصالح دينه"(٢).

وقال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرجلٍ شَهِدَ عنده بشهادةٍ: "كذبتَ"، فقال الأعرابي: "إن الكاذب لَلْمُتَزَمّلُ في ثيابك"، فقال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "هذا جزاء من يَعْجَل"(٣).

وقال الأوزاعي: "كان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلًا حبسه ثلاثًا، ثم عاقبه؛ كراهيةَ أن يعجل في أول غضبه"(٤).

وقال مُطَرِّف: "أتى على الناسِ زمانٌ خيرُهم في دينهم المتسارع، وسيأتي على الناس زمان خيرهم في دينهم المتأنِّي".

قال علي بن عَثَّام في تفسيره: "كانوا مع رسول الله ﷺ وأصحابه إذا أُمروا بالشيء تسارعوا إليه، وأمَّا اليومَ فينبغي للمؤمن أن يتبين، فلا يُقدم إلا على ما يعرف"(٥).

وقال محمَّد بن بشير:

قدِّر لرِجالك قبل الخطوِ موضعَها ... فمن علا زَلَقًا عن غِرَّةٍ زَلجَا(٦)

أي: لا تأتِ أمرًا حتى تفكر في مغبته وعاقبته: فإن كان لك أقبلت عليه، وإن كان عليك كففتَ عنه.

---

(١) "السابق" (٣/ ١٧٨).
(٢) "السابق" (٣/ ١٧٨).
(٣) "روضة العقلاء"، ص (٢٩٠).
(٤) "سير أعلام النبلاء" (٥/ ١٣٣).
(٥) "حلية الأولياء" (٢/ ٢٠٩)، و"شعب الإيمان" (٢/ ٣٠٥)، واللفظ له.
(٦) الغِرَّة: الجهالة والغفلة. زَلَجَ: زلق. أي: من لم يأت أمره عن علم لم يُصِب بغيته.

وعن حفص بن غياث، قال: قلت لسفيانَ الثوريِّ: "يا أبا عبد الله، إن الناسَ قد أكثروا في المهدي، فما تقول فيه؟ قال: إن مَرَّ على بابك؛ فلا تكن منه في شيء، حتى يجتمع الناس عليه"(١).

وقال عبد الله: "إنها ستكون هَنَاتٌ، وأمورٌ مشبهات، فعليك بالتؤدة، فتكون تابعًا في الخيرِ خيرٌ من أن تكون رأسًا في الشر"(٢).

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "إياكم والفتنَ لا يشخص إليها أحد؛ فوالله، ما شخص فيها أحد، إلا نسفته، كما ينسف السيلُ الدِّمَن؛ إنها مُشَبَّهَةٌ مقبلةً، حتى يقولَ الجاهلُ: هذه تُشَبَّه؛ وتبيَّنُ مدبرةً؛ فإذا رأيتموها: فاجثموا في بيوتكم، وكسِّروا سيوفكم، وقطعوا أوتاركم"(٣).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ذكر فتنة، فقال: "تُشَبَّهُ مُقْبِلَةً، وتُبَيَّنُ مُدْبِرةً"(٤).

قال شمر: "معناه: أن الفتنة إذا أقبلت شَبَّهَت على القوم، وأرتهم أنهم على الحق؛ حتى يدخلوا فيها، ويركبوا منها ما لا يحل؛ فإذا أدبرت وانقضت بَانَ أمرها، فَعَلِمَ من دخل فيها أنه كان على الخطأ"(٥).

فلا تُخْدَعْ بأولِ ما تراه فأولُ طالعٍ فجرٌ كذوبُ

وفي مثل هذا المعنى قال شبيب بن البرصاء:

---

(١) "حلية الأولياء" (٧/ ٣١).

(٢) "المصنف" لابن أبي شيبة (١٥/ ٣٤)، والهَنَاتُ: جمع هَنَة، تأنيث هَنٍ، وهو كناية عن كل اسم جنس، والمراد: شرورٌ، وفساد، وشدائد، وأمور عظام، وانظر: "النهاية" (٥/ ٢٧٩).

(٣) "حلية الأولياء" (١/ ٢٧٣).

(٤) "المصنف" لابن أبي شيبة (١٥/ ٢٠).

(٥) "لسان العرب" (١٣/ ٥٠٣، ٥٠٤).

تَبَـينُّ أعجـازُ[(١)] الأمـورِ مَواضـيًا وتُقْبِـلُ أَشْـباهًا عليـكَ صُـدُورُها[(٢)]

ومثله قول الشاعر:

تـشابَهُ أعنـاقُ[(٣)] الأمـورِ بواديًـا وتظهـرُ في أعقابهـا حـين تُـدْبِرُ

ومثله قول قتيبة بن عمروٍ الأسدي:

يـشكُّ عليـك الأمـرُ مـا دام مقـبلا وتعـرفُ مـا فيـه إذا هـو أَدْبَـرا

وقال الشاعر يذم قومًا:

ولا يتقـونَ الـشرَّ حتـى يـصيبَهم ولا يعرفـونَ الأمـرَ إلا تـدبرا

قال أبو حاتم محمَّد بن حبان البستي رحمه الله تعالى: "إن العاجل لا يَكاد يلحق؛ كما أن الرافق لا يكاد يُسْبَق، والساكت لا يكاد يندم، ومن نطق لا يكاد يسلم، وإن العَجِل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يُجَرِّبَ، ويذم بعد ما يحمد، ويعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم، والعَجِلُ تصحبهُ الندامة، وتعتزله السلامة، وكانت العرب تَكْني العجلَةَ أَمَّ الندامات"[(٤)].

لا تَعْجَلَـنَّ فَرُبَّمَـا عَجِـلَ الْفَتَـى فِيمَـا يَـضُرُّهْ

وَلَرُبَّمَـا كَـرِهَ الْفَتَـى أَمْـرًا عَوَاقِبُـهُ تَـسُرُّهْ[(٥)]

وفي المثل: "إذا لم تستعجل؛ تَصِلْ".

وقال القُطامي:

---

(١) أعجاز الأمور: أواخرها.

(٢) صدورها: أوائلها.

(٣) أعناق الأمور: أوائلها.

(٤) "روضة العقلاء"، ص (٢١٦).

(٥) "بصائر ذوي التمييز" (٤/ ٢٤).

قَـدْ يُـدْرِكُ المتَـأَنِّي بَعْـضَ حَاجَتِـهِ ... وَقَـدْ يَكُـونُ مَـعَ الْمـستَعْجِلِ الزَّلَـلُ

وربمـا فـات بعـض القـومِ أمـرهمُ ... مع التأني وكـان الـرأيُ لـو عَجِلُـوا[١]

وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله رضي الله عنهما: "الخَرَقُ معاداةُ إمامِك، ومناوأةُ مَن يَقْدِرُ على ضررك"[٢].

وقال الحسن البصريّ رحمه الله تعالى: "إنما يُكَلَّمُ مؤمنٌ يُرجَى، أو جاهلٌ يُعَلَّم، فأما من وضع سيفه أو سوطه؛ وقال لك: اتقني اتقني! فما لك وله؟! "[٣].

وعن الشعبي قال: أغلظ رجلٌ لمعاوية، فقال: "أنهاك عن السلطان، فإن غَضبَه غضبُ الصبي، وأخذَهُ أخذُ الأسد"[٤].

فَائِدَةٌ

مَعْنَى قَوْلِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه في الرُّومِ: "إِنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ":

قال المستوردُ القرشي عند عمرو بن العاص رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكثَرُ النَّاسِ" فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: "لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ؛ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا-: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الملُوكِ"[٥].

---

(١) "العقد الفريد" (٣/ ٥٢).

(٢) "الإحياء" (٣/ ١٨٨).

(٣) "حلية الأولياء" (٢/ ٢٠٩)، و"التمهيد" لابن عبد البر (٢٣/ ٢٨٢)، و"جامع العلوم والحكم" ص (٣٢٣).

(٤) "سير أعلام النبلاء" (٣/ ١٥٣).

(٥) رواه مسلم في "الفتن" (١٨/ ٢٢- نووي)، وحكى الأُبِّيُّ في "إكمال إكمال المُعْلِم" عن القرطبي قوله: "هذه الخلال الأربع الحميدة لعلها كانت في الروم التي أدرك، وأما =

والشاهد قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ"؛ "يعني: إذا ظهر تغير الحال، وظهرت الفتن؛ فإنهم يحلُمون، ولا يعجلون، ولا يغضبون؛ لِيقُوا أصحابهم النصارى القتلَ، ويقوهم الفتنَ؛ لأنهم يعلمون- أن الفتنة إذا ظهرت؛ فإنها ستأتي عليهم؛ فلأجل تلك الخصلة فيهم، بقوا أكثر الناس إلى قيام الساعة؛ ولهذا فإننا نعجب أن لا نأخذ بهذه الخصلة التي حمد بها عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الروم، وكانت فيهم تلك الخصلة الحميدة، ونحن أولى بكلِّ خَيْرٍ عند مَن هم سوانا"(١).

* الإمام ابن القيم يحذِّر من استفزاز البُداءات: فقد ندد رحمه الله تعالى بمن تستخفه البُداءات وعوارضُ الشبهات، فقال فيمن هذا شأنه:"... هذا دليلُ ضعفِ عقله ومعرفتِه؛ إذ تؤثر فيه البُداءات، ويُستفز بأوائل الأمور، بخلاف الثابت التام العاقل، فإنه لا تستفزه البُداءات، ولا تزعجه وتقلقه، فإن الباطل له دهشةٌ وروعة في أوله، فإذا ثبت له القلبُ؛ رُدَّ على عقبيه، والله يحب مَن عنده العلم والأناة، فلا يعجل، بل يثبت حتى يعلم، ويستيقنَ ما ورد عليه، ولا يعجل بأمرٍ مِن قبلِ استحكامه، فالعجلة والطيش من الشيطان، فمن ثبت عند صدمة البُداءات؛ استقبل أمره بعلم وحَزْم، ومن لم يثبت لها؛ استقبله بعجلةٍ وطيش، وعاقِبتُه الندامةُ، وعاقبةُ الأولِ حَمْدُ أمرِه، ولكن للأول آفة متى قُرِنت بالحزم

=

اليوم فهم أنحس الخليقة، وعلى الضد من تلك الأوصاف"، وقال الأُبِّيُّ: "هو مدح لتلك الأوصاف، لا أنها مدحٌ لهم؛ من حيث اتصافهم بها، ويحتمل أنه إنما ذكرها من حيث إنها سبب كثرتهم، وإلا فهم على الضد كما ذكر، ولا سيما فيما ذكر من كَرِّهِم بعد فرِّهم؛ فإنهم الآن ليسوا كذلك". اهـ (٧/ ٢٤٦).

(١) "الضوابط الشرعية لموقف المسلم من الفتن"، للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله تعالى-، ص (١٨، ١٩).

والعزم نجا منها؛ وهي: الفَوْتُ، فإنه لا يُخاف من التثبت إلا الفَوْتُ، فإذا اقترن به العزم والحزم؛ تم أمره، ولهذا في الدعاء الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن النبي ﷺ: "اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، والعَزِيْمَةَ عَلَى الرُّشْدِ"(١).

وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح، وما أُتي العبدُ إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما، فما أُتي أحد إلا من باب العجلة والطيش، واستفزاز البداءات له، أو من باب التهاون والتماوت، وتضييع الفرصة بعد مُواتَاتها(٢)، فإذا حصل الثبات أولًا، والعزيمة ثانيًا أفلح كل الفلاح، والله ولي التوفيق"(٣).اهـ.

والواقعة التالية تجسِّد لك سلوكَ الذي تستخفه بُداءاتُ الأمور، وتستفزه أوائلها، وسلوكَ الحليم الواثق الذي يصدر عن علم وبصيرة، وحزم وعزم:

فقد قال يُسَيْرُ بن جابر: "هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هِجِّيرَى(٤) إلا: يا عبد الله بن مسعود جاءت الساعة، قال: فقعد، وكان متكئًا، فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقْسَمَ ميراثٌ، ولا يُفْرَحَ بغنيمة، ثم قال بيده هكذا (ونحاها نحو الشام) فقال: عدوٌ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهلُ الإسلام" الحديث(٥).

---

(١) أخرجه من حديث شداد بن أوس- رضي الله عنه- الطبراني في "الكبير" (٧/ ٣٣٥، ٣٣٦)، وأبو نعيم في "الحلية" (١/ ٢٦٦)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١٦/ ١٢٧)، وقال الألباني: "إسناده جيد، رجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف لا يضر".اهـ. من "الصحيحة" رقم (٣٢٢٨)، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط بطرقه كما في "الإحسان" (٥/ ٣١١، ٣١٢).

(٢) وفي هذا يقول الأعشى:

وربما فات قومًا جُلُّ أمرهمُ ... من التأني، وكان الحزمُ لو عجلوا.

(٣) "مفتاح دار السعادة"، ص (١٦٩، ١٧٠)، ط. دار الحديث، القاهرة ١٤١٤ هـ.

(٤) له "هِجِّيرَى": أي شأنه ودأبه ذلك.

(٥) رواه مسلم، رقم (٢٨٩٩).

من مواقف التثبت في الفتن

عن عمر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه جاءه ابنه عامر، فقال: أي بُنَيَّ! أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسًا؟ لا والله، حتى أُعْطى سيفًا، إنْ ضربتُ به مسلمًا، نبا عنه، وإن ضربت كافرًا، قتله، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "إن الله يحب الغني الخفي المتقي"(١).

- وعن محمَّد قال: نُبِّئْتُ أن سعدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "ما أزعم أني بقميصي هذا أحقُّ مني بالخلافة، جاهدتُ وأنا أَعْرَفُ بالجهاد، ولا أبخَعُ نفسي إن كان رجلًا خيرًا مني، لا أقاتل حتى يأتوني بسيفٍ له عينان ولسانٌ، فيقول: هذا مؤمن، وهذا كافر"(٢).

- وعن عامرِ الشعبيِّ قال: لما قاتلَ مروانُ الضحاكَ بنَ قيس أرسلَ إلى أيمن بن خُريم الأسدي، فقال: "إنَّا نحبُ أن تقاتلَ معنا" فقال: "إن أبي وعَمِّي شَهِدا بدرًا، فعهِدا إليَّ أنْ لا أقاتلَ أحدًا يشهدُ أنْ لا إله إلا الله، فإن جئتني ببراءةٍ من النَّار قاتلتُ مَعَكَ! " فقال: "اذهب"، ووَقَعَ فيه، وسَبَّهُ، فأنشأ أيمن يقول:

ولستُ مقاتلًا رجلًا يصلي … عَلَى سلطانِ آخرَ مِنْ قريشِ

له سلطانه وعليَّ إثمي … معاذ الله مِن جهل وطيشِ

أأقاتل مسلمًا في غير شيء؟ … فليس بنافعي ما عشتُ عيشي(٣)

---

(١) رواه الإمام أحمد في "المسند" (١/ ١٧٧)، ومسلم (٢٩٦٥)، وأبو نعيم في "الحلية" (١/ ٩٤).

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ١/ ١٠١)، وأبو نعيم في "الحلية" (١/ ٩٤)، والطبراني في "الكبير" (٣٢٢)، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح".اهـ. من "مجمع الزوائد" (٧/ ٢٩٩)، وبخع نفسَه: قتلها غيظًا أو غمًّا.

(٣) أخرجه أبو يعلى في "مسنده" (٢/ ٢٤٥)، والطبراني في "الكبير" (١/ ٢٩٠) رقم (٨٥١)، والبيهقي في "السنن" (٨/ ١٩٣).

- قال حميدُ بن هلال: أتى مُطَرِّفَ بنَ عبدِ الله زمانَ ابنِ الأشعثِ ناسٌ يدعونه إلى قتال الحجاج، فلمَّا أكثروا عليه، قال: "أرأيتم هذا الذي تدعونني إليه: هل يزيد على أن يكون جهادًا في سبيل الله؟ " قالوا: لا، قال: "فإني لا أخاطر بين هلكةٍ أقع فيها، وبين فضلٍ أصيبه"(١).

- وقال حميد بن هلال -أيضًا-: أتى مُطَرفَ بنَ عبدِ الله الحرוריةُ يدعونه إلى رأيهم، فقال: "يا هؤلاء، إنه لو كان لي نفسان بايعتكم بإحداهما، وأمسكت الأخرى، فإن كان الذي تقولون هدًى أتبعتُها الأخرى، وأن كان ضلالةً هلكت نفسٌ، وبقيتْ لي نفسٌ، ولكن هي نفسٌ واحدةٌ، فلا أغرر بها"(٢).

- وقال مُطَرِّف بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أيضًا: "لأن آخذ بالثقة في القعود أحبُّ إليَّ من أن ألتمس -أو قال: أطلب- فضل الجهاد بالتغرير"(٣).

وقال أيضًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "إن الفتنة ليست تأتي تهدي الناس، ولكن إنما تأتي تقارع المؤمنَ عن دينه؛ ولأن يقول الله: "لم لا قتلتَ فلانًا؟ " أحبُّ إليَّ من أن يقول: "لم قتلتَ فلانًا؟ "(٤).

وعن عُقبةَ بن إسحاق قال: كان منصور بن المعتمر يأتي زُبيد بن الحارث، فكان يذكُر له أهل البيت، ويَعْصِرُ عينيه، يريده على الخروج أيام زيد بن علي،

---

(١) "الطبقات الكبرى" (٧/ ١٤٣)، "تاريخ مدينة دمشق" (٥٨/ ٣١٥).

(٢) "مصنف ابن أبي شيبة" (٧/ ١٧٨)، "حلية الأولياء" (٢/ ١٩٩)، "تاريخ مدينة دمشق" (٥٨/ ٣١٥)، وفي "لسان العرب" (٥/ ١٤): "وفي حديث مُطَرِّف: إن لي نفسًا واحدة وإني أكره أن أغرر بها؛ أي: أحملها على غير ثقة"، وانظر: "النهاية في غريب الأثر" (٣/ ٣٥٦).

(٣) "مصنف ابن أبي شيبة" (٧/ ١٧٨).

(٤) "حلية الأولياء" (٢/ ٢٠٤).

فقال زبيدٌ: "ما أنا بخارج إلا مع نبيٍّ، وما أنا بواجده"(١).

العَجلَة أمُّ الندامات

قال قتادة بن دعامة رحمه الله تعالى: "قد رأينا والله أقوامًا يُسرعون إلى الفتن، وينزعون فيها، وأمسك أقوام عن ذلك هيبةً لله، ومخافة منه، فلما انكشفت، إذا الذين أمسكوا أطيب نفسًا، وأثلج صدورًا، وأخف ظهورًا من الذين أسرعوا إليها، وينزعون فيها، وصارت أعمال أولئك حزازاتٍ على قلوبهم كلما ذكروها، وَايمُ اللهِ! لو أن الناس يعرفون من الفتنة إذا أقبلت كما يعرفون منها إذا أدبرت، لعقل فيها جيل من الناس كثير(٢).

وقال محمَّد بن طلحة: رآني زُبيد مع العلاء بن عبد الكريم، ونحن نضحك، فقال: "لو شهدتَ الجماجم(٣) ما ضحِكتَ، ولوددتُ أنَّ يدي -أو قال: يميني- قُطِعت من العضُد وأني لم أكن شهدتُ"(٤).

وعن إسماعيل بن أبي خالد قال مرة: "شهدت فتح القادسية، في ثلاثة آلاف من قومي؛ فما منهم من أحد: إلا خف في الفتنة غيري، وما منهم أحد: إلا غبطني"(٥).

وقال الشعبي- لما أُدخل على الحجاج، وكان قد شارك في الفتنة-:

---

(١) "سير أعلام النبلاء" (٥/ ٢٩٧).

(٢) "حلية الأولياء" (٢/ ٣٣٧).

(٣) انظر خبر فتنة ابن الأشعث، ووقعة "دير الجماجم" في "البداية والنهاية" (٩/ ٣٥- ٣٧)، (٩/ ٤٠- ٤٣)، (١٢/ ٣٤٧- ٣٥٥)، و"سير أعلام النبلاء" (٢/ ٤٣).

(٤) انظر: "سؤالات أبي عبيد الآجري" رقم (٩٦)، و"المعرفة والتاريخ" (٣/ ١٠٩)، و"تاريخ مدينة دمشق" (١٩/ ٤٧٣).

(٥) "حلية الأولياء" (٤/ ١٦٣).

"قد اكتحلنا بعدك السهرَ، وتَحَلَّسْنا الخوفَ، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء"[(١)].

ولما أُتي بفيروز بن الحصين إلى الحجاج، قال له: "أبا عثمان! ما أخرجك مع هؤلاء؟ فقال: أيها الأمير! فتنة عَمَّت، فأمر به الحجاج، فضُرِبت عنقه"[(٢)].

وقال حماد بن زيد: ذكر أيوبُ السختياني القراء الذين خرجوا مع ابن الأشعث، فقال: "لا أعلم أحدًا منهم قُتِل إلا قد رُغِب عن مصرعه، ولا نجا أحد منهم إلا حَمِد الله الذي سلَّمه، وندِم على ما كان منه"[(٣)].

وقال مالكُ بنُ دينار: لقيتُ معبدًا الجهني بمكة بعد ابن الأشعث وهو جريح، وقد قاتل الحجاج في المواطن كلها، فقال: "لقيتُ الفقهاءَ والناسَ، لم أرَ مثل الحسن، يا ليتنا أطعناه"، كأنه نادم على قتال الحجاج[(٤)].

وعن أبي قِلابة قال: لما انجلت فتنة ابن الأشعث، كنا في مجلس، ومعنا مسلم بن يسار، فقال مسلم: "الحمد لله الذي أنجاني من هذه الفتنة، فوالله ما رميتُ فيها بسهم، ولا طعنتُ فيها برمحٍ، ولا ضربتُ فيها بسيف"[(٥)]، قال

---

(١) "سير أعلام البلاء" (٤/ ٣٠٦).

(٢) "وفيات الأعيان" (٢/ ٣٨).

(٣) "الطبقات الكبرى" (٧/ ١٨٧)، و"المعرفة والتاريخ" للفسوي (٢/ ٥٢).

(٤) "تاريخ مدينة دمشق" (٥٩/ ٣٢٥).

(٥) مع أنه وُجِدَ بين الصفين، قال أيوب السختياني: قيل لابن الأشعث: "إن أردتَ أن يُقتلوا حولك كما قُتِلوا يوم الجمل حول جمل عائشة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فأخرج معك مسلمَ بنَ يسار، فأخرجه مُكرهًا". اهـ. من "المعرفة والتاريخ" (٢/ ٨٦)، ولذلك رَدَّ عليه أبو قلابة في رواية ابن عساكر (١٦/ ٢٤٨): "فكيف بمن رآك بين الصفين، فقال: هذا مسلم بن يسار لن يقاتل إلا على حق، فقاتل حتى قُتل؟". اهـ.
وفي "التاريخ الكبير" فقال أبو قلابة: "أبا عبد الله! لعل فئامًا من الناس رأوك واقفًا،
=

أبو قلابة: فقلت له: "فما ظنك يا مسلم بجاهلٍ نظر إليك، فقال: والله ما قام مسلم بن يسار سيدُ القراء هذا المقامَ إلا وهو يراه عليه حقًّا، فقاتل حتى قُتِل؟ "، قال: "فبكى والذي نفسي بيده، حتى تمنيت أني لم أكن قلتُ شيئًا""(١).

وعن عبد الله بن عون قال: "كان مسلم بن يسار لا يُفَضَّلُ عليه أحدٌ في ذلك الزمان حتى فعل تلك الفَعْلَة، فلقيه أبو قِلابة فقال: والله لا أعود أبدًا، فقال أبو قلابة: إن شاء الله، فتلا أبو قلابة {إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ} [الأعراف: ١٥٥]، فأرسلَ مسلم عينيه""(٢).

ومن أسباب النجاة من الفتن: التثبت من الأخبار

إن التثبت من الأخبار قبل تصديقها، فضلًا عن إذاعتها، منهج قرآني أصيل، يُستراحُ به من القال والقيل، ويوفر من طاقة الأمة المهدرة في الفتن ما يفيد في البناء.

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)} [الحجرات: ٦]، وقال ﷻ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)} [النساء: ٩٤]

=

فقالوا: هذا مسلم بن يسار، فقتلوا في سببك؟ " (٢/ ٣٠٢) رقم (٢٥٤٤).

(١) أخرجه البخاريّ في "التاريخ الكبير" (٢/ ٣٠٢)، رقم (٢٥٤٤)، ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٥٨/ ١٤٦).

(٢) "المعرفة والتاريخ" (٢/ ٥١).

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلًا من بني سليم مرَّ على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ ومعه غنم له، فسلَّم عليهم، فقالوا: "ما سلَّم عليكم إلاَّ ليتعوذ منكم"، فقاموا إليه، وقتلوه، وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية[١].

"والفتن إنما تظهر بالإشاعات والبواطيل، وتنتشر بالقال والقيل، مع خفة عقلٍ في نَقَلَتِها، ورِقَّةِ دين، تمنعهم من امتثال أمر الله تعالى بالتثبت وترك الاستعجال.

ولتجدنَّ أشدَّ الناس حِدَّة في الطبع، وإعجابًا بالنفس، وتعصبًا للرأي؛ هم أولئك الذين لا يتثبتون ولا يتبيَّنون، فيغلب عليهم الصَّلَف والكِبْر، وعدمُ مراعاة الناس، والجميع عندهم جَهلة لا يعلمون، وهم العارفون العالمون.

إن حملَ المسلمين على العدالة هو الأصل الذي لا ينبغي العدول عنه إلاَّ بمثله من اليقين، أما بمجرد قُوْلٍ قيل لا يُدرى من أي رأس خرج ولا على أي أرض درج؛ فجريمة يُسأل صاحبها عنها، مفضية إلى الندامة في الدنيا قبل الآخرة.

وعليه؛ فإن من أعظم ما تُدفع به الفتن: التثبت والتبيُّن في الأخبار، لا سيما إذا كان الخبر متعلقًا بعموم الأمة، أوبرأس من رءوسها، وليعلم أن مجرد الثقة في الناقل لا تكفي بمفردها؛ وذلك لما يعتري النفوسَ من الهوى والشهوة ونفث الشيطان.

ثم لو فرض صحة الخبر يقينًا، فإنه يبقى بعد ذلك النظر في مصلحة نشره من

(١) رواه البخاريّ مختصرًا (٤٥٩١)، والترمذي (٣٠٣٠)، وحسَّنه، والحاكم (٢/ ٢٣٥)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

عدمها، فإنه ليس كل ما يعلم يقال، وإن من الأخبار ما لا يُلقى إلاَّ إلى الخاصة الذين يُصلحون في الأرض ولا يفسدون.

وليعلم -أيضًا- أن هتكَ الأستار، ليس من الإصلاح في شيء؛ إذ إن الله تعالى أمر بالستر والنصح، وأَمْرُه سبحانه هو الصلاح والإصلاح بعينه، فما خالفه فليس من الإصلاح في شيء كما قلنا.

إن المنهج الحق: هو التناصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع شفقة على المنصوح وحزن عليه يقتضي تمام السعي في إصلاحه وإن كان جبارًا عنيدًا، وقد جعل النبي ﷺ المقتول بسبب كلمة الحق من أعظم الشهداء عند الله، لكنه لم يجعل لهاتك الأستار إلاَّ الفضيحة في الدنيا؛ إذ يوشك الله تعالى أن يفضحه ولو في جوف داره[١]، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين من سوء الحال والمآل". اهـ[٢].

رُوِي عن عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجلٍ شيئًا، فقال له عمر: "إن شئت نظرنا في أمرك: فإن كنتَ كاذبًا، فأنت من أهل هذه الآية: {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ} [الحجرات: ٦]، وإن كنت صادقًا، فأنت من أهل هذه الآية: {هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١)} [القلم: ١١]، وإن شئت عفونا عنك؟ "،

---

(١) يشير إلى ما رواه أبو برزة الأسلمي والبراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا: قال رسول الله ﷺ: "يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمانُ قلبه! لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم، تتبع الله عورته، ومَنْ تتبع الله عورته، يفضحْهُ ولو في جوف بيته". وقال الهيثمي في "المجمع": "رجاله ثقات" (٨/ ٩٣)، وحسَّنه المنذري في "الترغيب" (٣/ ٢٤٠).

(٢) "مسائل في الفتن" للصبحان ص (٦٧- ٦٨).

فقال: "العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدًا"(١).

إن اتقاء الغَواية في الرواية، والتحريَ والتثبت من الأخبار التي تتداولها الألسن وقت الفتن والحروب أَوْكَد من غيره من الأوقات؛ لأنها سلاح فتَّاك قد يضر أكثر مما تضر الأسلحة.

وقد قال الله تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ} [النساء: ٨٣]. قال الحافظ ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في تفسيرها: "وقوله: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ} [النساء: ٨٣] إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها، وقد لا يكون لها صحة. وقد قال مسلم في مقدمة "صحيحه" ... عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ، قال: "كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكل ما سمع"(٢).

---

(١) "الإحياء" (٣/ ١٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ٨)، والحاكم (١/ ١١٢)، وعبد الله بن أحمد في الزهد (١/ ٤٤، رقم ٧٤)، والقضاعي (ق ١١٤/ ١)، وابن حبان (١/ ٢١٣، رقم ٣٠)، والحاكم في المدخل إلى الصحيح (١/ ١٠٧)، وغيرهم والحديث اختلف في وصله وإرساله، وقد صححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٠٢٥)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٧/ ٣٤٤): إسناده صحيح متصل من جهة محمد بن الحسين، ومن جهة حفص بن عمر مرسل ولا يضر، فإن الحديث محفوظ عن أبي هريرة.اهـ. وأما أبو داود فقال: ولم يسنده إلا هذا الشيخ، يعني علي بن حفص المدائني، وقال العطار في غرر الفوائد (ص ٢٩٥): وهذا مرسل وكذلك رواه غندر وحفص بن عمر عن شعبة إلا أن مسلما رَحِمَهُ اللهُ أردفه بطريق آخر متصل من حديث علي بن حفص المدائني عن شعبة عن خبيب عن حفص عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فاتصل ذلك المرسل من هذا الوجه الثاني لكن رواية ابن مهدي ومن تابعه على إرساله أرجح لأنهم أحفظ وأثبت من المدائني الذي وصله وإن كان قد وثقه يحيى بن معين والزيادة من الثقة مقبولة عند أهل العلم ولهذا =

=
أورده مسلم من الطريقين ليبين الاختلاف الواقع في اتصاله وقدم رواية من أرسله لأنهم أحفظ وأثبت كما بيناه وقد سئل أبو حاتم الرازي عن علي بن حفص هذا فقال يكتب حديثه ولا يحتج به ولهذا قال أبو الحسن الدارقطني الصواب في هذا الحديث المرسل والله ﷻ أعلم.اهـ.

وقال الشيخ عمرو عبد اللطيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال في كتابه أحاديث ومرويات في الميزان: - أخطأ علي بن حفص في رفعه الحديث- فقد خالفه المشاهير وغير المشاهير من أصحاب شعبة ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ فممن وقفت عليه منهم:

١ ـ محمد بن جعفر الهذلي البصري غُنْدَرْ.

٢ ـ عبدالرحمن بن مهدي العنبري البصري.

٣ ـ معاذ بن معاذ التميمي العنبري البصري.

٤ ـ سليمان بن حرب الواشحي البصري.

٥ ـ حفص بن عمر النَّمَري الحوضي البصري.

٦ ـ وهب بن جرير بن حازم الأزدي الجهضمي البصري.

٧ ـ أبو أسامة حماد بن أسامة بن زيد القرشي الكوفي.

٨ ـ النَّضر بن شميل المازني البصري النحوي نزيل مرو.

ففي (مسند أبي هريرة) من «علل الدارقطني» (س ٢٠٠٨) قال البرقاني ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: «وسُئِل ـ يعني: أبا الحسن الدارقطني ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ عن حديث حفص بن عاصم عن أبي هريرة قال رسول الله ـ ؟ ـ: «كفى بالمرء إثمًا أن يحدث بكل ما سمع» فقال: يرويه شعبة واختلف عنه؛ فرواه علي بن حفص المدائني عن شعبة عن خبيب عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وخالفه أصحاب شعبة، رووه عن شعبة عن خبيب عن حفص بن عاصم مرسلًا عن النبي ﷺ وكذلك قال غندر، والنضر بن شميل، وسليمان بن حرب، وغيرهم. والقول قولهم، وأخرج مسلم حديث علي بن حفص عن أبي بكر بن أبي شيبة المتصل، ثم رواه بإسناده إلى علي بن حفص المدائني به موصولًا، وقال: (تفرد به علي بن حفص عن شعبة متصلًا)». وفي (مسند أبي هريرة أيضًا من التتبع للداراقطني الحديث الثامن ص ١٣٠ ـ ١٣١): «وأخرج مسلم عن أبي بكر عن علي بن حفص عن شعبة عن خبيب عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: (كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع) والصواب مرسل، قاله معاذ وغندر
=

وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة: أن رسولَ الله ﷺ "نهى عن قيل وقال ... "[١]. أي: الذي يُكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولا تبين، وفي الصحيح: "مَنْ حدَّث عني بحديثٍ يُرى أنه كذب؛ فهو أحد الكاذِبين"[٢].

ولنذكر ها هنا حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلَّق نساءه، فجاء من منزله حتى دخل المسجد، فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على النبيِّ ﷺ، فاستفهمه: أطلَّقتَ نساءك؟ فقال: "لا"، فقلت: الله أكبر ... وذكر الحديث بطوله.

وعند مسلم: فقلت: أطلقتهنَّ؟ فقال: "لا"، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يُطَلِّق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء: ٨٣]، فكنت أنا استنبط ذلك الأمر[٣]. ومعنى يستنبطونه؛ أي: يستخرجونه من معادنه؛ يُقال استنبط الرجلُ

=

وعبدالرحمن بن مهدي وغيرهم». قلت الإعلال صحيح لا ريب فيه، ولكن لا يصح تعقُّبُ هذا الحديث على الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ، فإن أحاديث «المقدمة» ليست على شرطه في أصل «الصحيح». ثم إنه أشار إلى العلة بتقديمه المرسل من وجهين بلغا الغاية في الصحة إلى شعبة رحمه الله. ورجح العلامة الوادعي الإرسال عند تعليقه على هذا الحديث في التتبع (ص ١٧٦) وقال: «والعذر لمسلم واضح، وهو أنه قدم المرسل ثم ذكر الحديث المسند، وأيضًا ذكره في المقدمة ولم يذكره في أصل الكتاب كما قاله الحاكم (١/ ١١٢) والله أعلم».

(١) رواه مسلم (٣/ ١٣٤١).

(٢) رواه مسلم في "المقدمة" (١/ ٩) عن سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (٢/ ١١٠٥-١١٠٨) رقم (١٤٧٩).

العينَ، إذا حفرها واستخرجها من قعورها ... "[١] اهـ.

ثم قال تعالى في عَجُزِ الآية: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} أيها المؤمنون {لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ} في قَبول تلك الإشاعات المغرضة والإذاعات المُثَبِّطَة {إِلَّا قَلِيلًا} منكم من ذوي الآراء الصائبة والحصافة العقلية؛ إذ مثلهم لا تُثيرهم الدعاوى، ولا تغيرهم الأراجيف، ككبار الصحابة من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين[٢].

قال صاحب "الظلال" - عفا الله عنه -: "والصورة التي يرسمها هذا النص، هي صورة جماعة في المعسكر الإسلامي، لم تألف نفوسهم النظام، ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر، وفي النتائج التي تترتب عليها، وقد تكون قاصمة؛ لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث؛ ولم يدركوا جدية الموقف، وأن كلمة عابرة وفلتة لسان، قد تجرُّ من العواقب على الشخص ذاته، وعلى جماعته كلها ما لا يخطِرُ له ببال، وما لا يُتدارك بعد وقوعه بحال! أو -ربما- لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر، وهكذا لا يعنيهم ما يقع له من جرَّاء أخذ كل شائعة والجري بها هنا وهناك، وإذاعتها حين يتلقاها لسان عن لسان، سواء كانت إشاعة أمن أو إشاعة خوف ... فكلتاهما قد يكون لإشاعتها خطورة مدمِّرة! فإن إشاعة أمر الأمن مثلًا في معسكر متأهب مستيقظ متوقع لحركة من العدو .. إشاعة أمر الأمن في مثل هذا المعسكر تُحدِثُ نوعًا من التراخي، مهما تكن الأوامر باليقَظة؛ لأن اليقَظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقَظة النابعة من مجرد الأوامر، وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية!

---

(١) "تفسير القرآن العظيم" (١/ ٥٢٩، ٥٣٠).
(٢) "أيسر التفاسير" (١/ ٤٣٣).

كذلك إشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته، ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة، وقد تُحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكًا، وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف .. وقد تكون كذلك القاضية!

وعلى آية حال؛ فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه، أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته، أو هما معًا ... ويبدو أن هذه السمة وتلك كانتا واقعتين في المجتمع المسلم حينذاك باحتوائه على طوائف مختلفة المستويات في الإيمان، ومختلفة المستويات في الإدراك، ومختلفة المستويات في الولاء ... وهذه الخلخلة هي التي كان يعالجها القرآن بمنهجه الرَّباني.

والقرآن يدل الجماعة المسلمة على الطريق الصحيح: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء: ٨٣]، أي: لو أنهم ردُّوا ما يبلغهم من أنباء الأمن أو الخوف إلى الرسول ﷺ إن كان معهم، أو إلى أمرائهم المؤمنين، لَعَلِمَ حقيقته القادرون على استنباط هذه الحقيقة واستخراجها من ثنايا الأنباء المتناقضة، والملابسات المتراكمة.

فمهمة الجندي الطيب في الجيش المسلم، الذي يقوده أمير مؤمن -بشرط الإيمان ذاك وحده- حين يبلغ إلى أذنيه خبر، أن يسارع فيُخبر به نبيه أو أميره، لا أن ينقله أو يذيعه بين زملائه؛ أو بين من لا شأن له به؛ لأن قيادته المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة، كما تملك تقدير المصلحة في إذاعة الخبر -حتى بعد ثبوته- أو عدم إذاعته ...".

ليس كل ما يُعلم يُقال: قال أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه: "حَدِّثوا الناسَ بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولهُ؟! "(١).

(١) أخرجه البخاريّ (١/ ٢٢٥- فتح) رقم (١٢٧).

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: "ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغُه عقولُهم، إلَّا كان لبعضهم فتنة"[(١)].

وقد ترجم البخاريّ رحمه الله تعالى في كتاب العلم: "باب: من خصَّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا"[(٢)]، "باب: من ترك بعض الاختيار مخافة أن يَقْصُر فهمُ بعض الناس عنه، فيقعوا في أشدَّ منه"[(٣)].

قال حماد بنُ زيد: سئل أيوبُ السَّخْتِياني عن مسألةٍ، فسكت، فقالَ الرجلُ: يا أبا بكر لم تفهم، أعيدُ عليكَ؟ قال: فقال أيوب: "قد فهمتُ، ولكني أفكرُ كيف أجيبك"[(٤)].

ورَوَى الحَاكِمُ في تَارِيخِهِ بإِسْنَادِهِ عَنْ أَبي قُدَامَةَ عَن النَّضْرِ بْنِ شُمَيْلٍ قَالَ: سُئِلَ الخَلِيلُ عَنْ مَسأَلَةٍ فَأَبْطَأَ بالْجَوَابِ فِيهَا، قَالَ: فَقُلْتُ: مَا في هَذِه الْمَسْأَلَةِ كُلُّ هَذَا النَّظَر، قَالَ: "فَرَغْتُ مِن الْمَسْأَلَةِ وَجَوَابِهَا، وَلَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجِيبَك جَوَابًا يَكُونُ أَسْرَعَ إلَى فَهْمِكَ"، قَالَ أَبُو قُدَامَةَ: فَحَدَّثْتُ بِهِ أَبَا عُبَيْدٍ فَسُرَّ به[(٥)].

ومن هذا الباب قولُ أبي هريرة ﵁: "حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: فأمَّا أحدهما فبثثتُهُ، وأما الآخر فلو بثثتُه قُطع هذا البُلْعُوم"[(٦)].

والبُلْعُوم:- بضم الموحدة- مجرى الطعام، وقد كنَّى بذلك عن القتل.

وفي رواية: "لَقُطِعَ هذا" يعني: رأسه. وحمل العلماء الوعاء الذي لم يبثَّه

---

(١) أخرجه مسلم في "المقدمة" (١/ ٧٦- نووي).

(٢) "فتح الباري" (١/ ٢٢٥).

(٣) "فتح الباري" (١/ ٢٢٤).

(٤) "المعرفة والتاريخ" (٢/ ١٣٨).

(٥) "الآداب الشرعية" (٣/ ١٥٦).

(٦) رواه البخاريّ رقم (١٢٠) (١/ ٢٦١- فتح).

على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم، وقد كان أبو هريرة يَكْنِي عن بعضه، ولا يُصرِّح به خوفًا على نفسه منهم؛ كقوله: "أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان"، يُشير إلى خلافة يزيد بن معاوية؛ لأنها كانت سنة ستين من الهجرة، وكان يقول رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: "اللهمَّ لا تدركني سنة ستين، ولا إمارة الصبيان"[١]، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة[٢].

فأبو هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ كتم الأحاديث التي فيها الفتن، والأحاديث التي في بني أمية، ونحو ذلك من الأحاديث، ككتمه لأسماء الأُغَيْلمة السُّفهاء الذين يكون هلاك الأمة على أيديهم؛ فقد قال رَضِوَاللَّهُعَنْهُ سمحت الصادق المصدوق يقول: "هلكةُ أُمتي على يدَي غِلْمَةٍ من قريش" ... ثم قال أبو هريرة: "لو شئت أن أقول بني فلان، بني فلان لفعلت"[٣]. وفي رواية: "إن شئْت أن أُسَمِّيَهُمْ، وبني فلان، وبني فلان"[٤].

"فأبو هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ كتم الوعاء الآخر الذي حفظه من رسول الله ﷺ، ولم يبثه، بل حفظ لسانه وكفه من إشاعته؛ درءًا للمفسدة وخشية الفتنة، علمًا بأنه قال هذا الكلام في زمن معاوية رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، ومعاوية قد اجتمع الناس عليه بعد فرقة وقتال، معلوم في التاريخ ما حصل فيه، فأبو هريرة كتم الوعاء الآخر، ولم يبثه في ذلك الزمن، وكتم - أيضًا- بعض الأحاديث الأخرى التي ليست من الأحكام الشرعية؛ كل ذلك لأجل ألَّا تكون فتنة بين الناس، فهو رَضِوَاللَّهُعَنْهُ لم يقل: إن رواية

---

(١) لأن يزيد كان غالبًا ينتزع الشيوخ من إمارة البلدان الكبار، ويُوَلِّيها الأصاغر في أقاربه. انظر: "الفتح" (١٣/ ١٢، ١٣).

(٢) "فتح الباري" (١/ ٢٦١).

(٣) رواه البخاريّ (١٣/ ١١) رقم (٧٠٥٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٣٦) رقم (٢٩١٧).

(٤) رواه البخاري (٦/ ٧٠٨) رقم (٣٦٠٥).

الحديث وقوله حق، ولا يجوز كتمان العلم، لم يقل ذلك؛ لأن كتم العلم في مثل ذلك الوقت -وقت الفتن- الذي تكلم فيه أبو هريرة لا بُدَّ منه؛ جلبًا للمصلحة ودرءًا للمفسدة، لكيلا يتفرق الناس شذَر مذَر بعد أن اجتمعوا في عام الجماعة على معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وصنيع أبي هريرة هذا يدل على حكمته وحصافته وفطنته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث حفظ لسانه زمن الفتنة بُغية اجتماع الأمة وعدم افتراقها"[(١)].

وجوب حفظ اللسان

يجب على كل مُكلَّف أن يكفَّ لسانه ويحفظه عن كل باطل، وفي جميع الأوقات والأحوال، بيد أنه يتأكد ذلك الحفظ إبَّان الفتنة، وحلول المحنة؛ ففيها تكثر الأقاويل، وتزداد شهوة الإشاعات والمبالغات والأباطيل، وعندها تكون الآذان مستعدة لاستقبال كل ما يُقال، وفي هذا تكمن الخطورة، فربَّ كلمة أشدُّ من وقع السيف أيام الفتنة.

فلذا؛ يجب على المسلمين قاطبة أن يكفُّوا ألسنتهم عن كل كلمة تزيد من وَهَج الفتنة. وليُعلم أن اللسان من أخطر ما خلق الله في جسم الإنسان، لذا يقول تعالى منبهًا المؤمنين: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣)} [الإسراء: ٥٣]، وقال تعالى: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)} [ق: ١٨]، وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)} [الفجر: ١٤]، وقال سبحانه: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)} [الانفطار: ١٠ - ١٢]، وقوله: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)}

---

(١) "موقف المسلم من الفتن" للحازمي ص (٤٢٨، ٤٢٩).

[الزخرف: ٨٠].

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: "ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام، والظلم، والزنى، والسرقة، وشُرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى تَرى الرجل يُشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورِّع عن الفواحش والظلم ولسانه يفري[١] في أعراض الأحياء والأموات، ولا يُبالي ما يقول! "[٢] اهـ.

وقد كان السلف الصالح -رحمهم الله- يحاسب أحدهم نفسه في قوله: يوم حار، ويوم بارد. ولقد رُؤيَ بعض الأكابر من أهل العلم في النوم فسُئل عن حاله؟ فقال: أنا موقوف على كلمةٍ قلتُها؛ قلتُ: ما أحوجَ الناسَ إلى غيث!، فقيل لي: وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادي[٣].

وليُعلم أن أيسر حركات الجوارح حركة اللسان، وهي أضرها على العبد. وما أكثر الأحاديث والآثار الواردة في التحذير من آفات هذه الآلة الخطيرة، في كل الأوقات عمومًا، وفي زمن الفتن والمحن خصوصًا.

فمما ورد في التحذير من آفات اللسان عمومًا: سؤال معاذٍ النبيَّ ﷺ عن العملِ الذي يدخله الجنة ويباعده من النار، فأخبره برأسه وعموده وذروة سنامه، ثم قال: "ألا أخبرك بمِلاك[٤] ذلك كله؟ " قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ

(١) يقال: فَرَى الجلدَ: مزَّقه.

(٢) "الداء والدواء" ص (١٨٧، ١٨٨).

(٣) "المصدر نفسه"، ص (٢٨٠).

(٤) مِلاك الشيء: قِوامه، ونظامه، وما يُعتمد عليه فيه.

بلسان نفسه، ثم قال: "كُفَّ عليك هذا"، فقال: وإنَّا لمُؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: "ثكلتك أُمك يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناسَ على وجوههم -أو مناخيرهم- إلَّا حصائدُ ألسنتهم"(١).

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى معلقًا على قول النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ "، قلت: بلى. فأخذ بلسانه، فقال: "تكف عليك هذا" ... الحديث: "هذا يدل على أن كفَّ اللسان وضبطه وحبسه هو أصل الخير كله، وأن مَنَ مَلَك لسانه، فقد ملك أمره، وأحكمه وضبطه"(٢) اهـ.

وقد سُئل النبي ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناسَ النارَ؟ فقال: "الأجوفان: الفم، والفرج"(٣).

---

(١) جزء من حديث أخرجه الطيالسى (٥٦٠)، وأحمد (٥/ ٢٣١)، وعبد الرزاق (٢٠٣٠٣)، وعبد بن حميد (١١٢)، والترمذى (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والحاكم (٢/ ٤٤٧)، والطبرانى (٢٠/ ١٤٣)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١٩٦)، والبيهقى فى الشعب (٤/ ١٣)، والبغوي في شرح السنة (١١)، والحديث قال عنه الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص ٢٥٥): له طرق عن معاذ كلها ضعيفة، قلت الحديث بمجموع طرقه ورواياته يرتقي إلى درجة الصحة لذا قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه عبد الحق في أحكامه الكبرى (٣/ ١٥٦)، وقال ابن القيم في أعلام الموقعين (٤/ ٣١٠): حديث صحيح، وقال المصنف في الفتح الرباني (٣/ ١٣٥٤): ثابت، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١١٢٢) وقال في صحيح الترغيب (٢٨٦٦): صحيح لغيره، وقال الحويني في تحقيق كتاب الصمت (٤٦/، ح ٦): حديث صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: صحيح بطرقه وشواهده.

(٢) "جامع العلوم والحكم" (٢/ ١٤٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٢)، والطيالسي (٢٤٧٤)، والبخارى فى الأدب المفرد (٢٩٤)، والترمذى (٢٠٠٤)، والحاكم (٤/ ٣٦٠)، وابن حبان (٤٧٦)، وابن ماجه (٤٢٤٦).
=

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ... " الحديث[(١)].

وعن علقمة بن وقاص؛ قال: مَرَّ به رجل له شرف، فقال له علقمة: إن لك رحمًا، وإن لك حقًّا، وإني رأيتك تدخل على هؤلاء الأمراء، وتتكلم عندهم بما شاء الله أن تتكلم به، وإني سمعت بلال بن الحارث المزنيِّ، صاحبَ رسول الله ﷺ، يقول: قال رسول الله ﷺ: "إن أحدكم ليتكلَّمُ بالكلمة من رضوان الله، ما يظُنُّ أن تبلُغَ ما بلغت، فيكتبُ الله عز وجل لهُ بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يَظُنُّ أن تبلُغَ ما بَلَغَتْ، فيكتب الله عز وجل عليه بها سُخْطَةُ إلى يوم يلقاهُ".

قال علقمة: فانظر، ويحك! ماذا تقول، وماذا تكلَّمُ به، فَرُبَّ كلامٍ، قد منعني أن أتكلم به، ما سمعت من بلال بن الحارث[(٢)].

=

والخرائطى فى مكارم الأخلاق (٥٩)، والقضاعى في مسند الشهاب (١٠٥٠)، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (١٧٠)، وفي الصمت (٤)، والبغوي (٣٤٩٧)، والبيهقى فى الشعب (٥/ ٥٥) والحديث صححه الترمذي، والحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه البغوي في شرح السنة (٦/ ٤٧٦)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند، وحسنه العلامة الألباني في الصحيحة (٩٧٧)، وصححه الحويني في تحقيق كتاب الصمت (ص ٤٤)، وحسنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٣/ ٢٨٧).

(١) رواه البخاريّ (١/ ٥٣) رقم (١٠)، ومسلم رقم (٤٠)، وأبو داود رقم (٣٤٨١)، والنَّسائيّ (٨/ ١٠٥).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٨٥)، وأحمد (٣/ ٤٦٩)، وعبد بن حميد (٣٥٨)، والترمذى (٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، وابن حبان (٢٨٧)، وابن قانع (١/ ٧٧)، والطبراني (١/ ٣٦٧)، والحاكم (١/ ١٠٦)، وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ١٨٧)، والبيهقى في الكبرى (٨/ ١٦٥) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه

=

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:"... وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في نار جهنم"(١). وفي لفظ: "إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب"(٢).

وعن شَكَل بن حميد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: يا رسول الله؛ عَلِّمْني تعوذًا أتعوذ به، قال: فأخذ بكفِّي، فقال: قل: "اللهمَّ إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر منيي"(٣).

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله! ما أخوفُ ما تخافُ عليَّ؟ فأخذ بلسَانِ نفسه، ثم قال: "هذا"(٤).

ورُوِيَ أُم حبيبة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: "كلُّ كلامِ ابنِ آدمَ عليه لا لَهُ، إلاَّ أمرٌ بمعروف، أو نهيٌ عن منكر، أو ذِكرٌ لله عَزَّ وَجَلَّ"(٥).

=

العلامة الألباني في صحيح الجامع (١٦١٩) وفي الصحيحة (٨٨٨)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: صحيح لغيره.

(١) رواه البخاريّ رقم (٦١١٣)، والإمام أحمد (٢/ ٣٣٤).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٩٨٨)، والإمام أحمد (٢/ ٣٧٩).

(٣) رواه الترمذي رقم (٢٧٧٥- صحيح الترمذي)، و"صحيح أبي داود" رقم (١٣٨٧).

(٤) رواه مسلم رقم (٣٨)، وابن ماجه رقم (٢٩٧٢)، والإمام أحمد (٣/ ٤١٣).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٤١٢ ٤)، وابن ماجه (٣٩٧٤)، والبخارى فى التاريخ (١/ ٢٦١)، وعبد بن حميد (ص ٤٤٨، رقم ١٥٥٤)، وأبو يعلى (١٣/ ٥٦، رقم ٧١٣٢)، وبحشل في تاريخ واسط (٢٤٥- ٢٤٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (٣٠٥)، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (٢٢- ٢٣)، النسائي في مجلسان من الأمالي (١٥)، وابن أبي الدنيا في الصمت (١/ ق٢/ ٢)، وابن السني في اليوم والليل (رقم ٥)، والطبراني في الكبير (٢٣/ رقم ٤٨٤)، والحاكم (٢/ ٥٥٧، رقم ٣٨٩٢)، والبيهقى فى الشعب (٤/ ٢٤٥، رقم ٤٩٥٤)، والخطيب في التاريخ (١٢/ ٣٢١، ٤٣٣- ٤٣٤) والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث غريب، وهذا الحكم نقله المزي في تحفة الأشراف (١١/

=

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيَّ ﷺ قال: "إذا أصبحَ ابنُ آدمَ فإنَّ الأعضاء كلَّها تُكَفِّرُ اللسانَ[1] فتقول: اتقِ الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا"[2].

هذا وقد اطَّلع عمر بن الخطاب على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يمُدُّ لسانه، فقال: ما تصنعُ يا خليفة رسول الله؟ فقال: إن هذا أوردني الموارِدَ، إنَّ رسول الله ﷺ قال: "ليسَ شيءٌ من الجسدِ إلَّا وهو يشكُو ذَرَبَ[3] اللسانِ"[4].

وعن شقيق قال؛ لبَّى عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الصفا، ثم قال: "يا لسان! قُلْ خيرًا تغنم، اسكت تسلم، من قبل أن تندم"، قالوا: "يا أبا عبد الرحمن، هذا شيء أنت تقوله أم سمعته؟ " قال: "لا، بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أكثرُ خطايا ابنِ آدمَ في لسانه"[5].

=

٣٢٠)، وكذلك نقله العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٧٠)، ووقع في طبعة عطوة: (حسن غريبٌ) وهي نسخة سقيمة كثيرة التصحيف، واللائق هو حكم الترمذي عليه بالغرابة؛ لأن محمد بن يزيد بن خنيس في حفظه ضعفٌ وأم صالح مجهولة لم يرو عنها إلا سعيد بن حسان، وسكت عنه الحاكم والذهبي، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (١٣٦٦)، وضعفه الحويني في النافلة رقم (١٥).

(١) أي: تَذِلُّ له وتخضع، كما في "فيض القدير" (١/ ٢٨٦).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٦٠٥، ٦٠٦) رقم (٢٤٠٧)، والإمام أحمد (٣/ ٩٦)، وحسَّنه الألباني في "صحيح الجامع" (١/ ١٢٤) رقم (٣٥١).

(٣) ذَرَبُ اللسان: سلاطته، وفساد مَنْطِقِه، من قولهم: "ذَرِبَ لسانُه" إذا كان حادَّ اللسان، لا يُبالي ما قال.

(٤) أخرجه أبو يعلى في "مسنده" (١/ ١٧) رقم (٥)، وقال الهيثمي في "المجمع": "ورجاله رجال الصحيح" (١٠/ ٣٠٢) وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٥٣٥)، وقال الحويني في النافلة (١/ ٣٩، رقم ١٦): ضعيف مرفوع .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢١)، والطبراني (١٠/ ١٩٧)، والشاشي (٦٠٢)،
=

حفظ اللسان في الفتن

قال الله تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ} [الحج: ٧٨]، وقال ﷻ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً} [التوبة: ١٢٣]، فمن سُنَّة الجهاد البُداءَة بالعدو الأقرب فالأقرب، والنفس الأمَّارة بالسوء بين جنبي الإنسان هي أقرب أعدائه إليه، فليبدأ بمجاهدتها وقمعها، خصوصًا وأنها التي تأمر اللسان بالغِيبة، والنميمة، والجدل، والمراء، والكذب، والخوض في الفتن.

عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: "المجاهد من جاهد نفسه في الله ﷻ"(١).

=

وأبو نعيم فى الحلية (٤/ ١٠٧)، والبيهقى فى الشعب (٤/ ٢٤٠)، والخطيب في الموضح (١/ ٤٣٦) والحديث قال عنه أبو حاتم كما في العلل لابنه (٢/ ١٠١، رقم ١٧٩٦): هذا حديث باطل، وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٨): رواه الطبراني ورواته رواة الصحيح وأبو الشيخ في الثواب والبيهقي بإسناد حسن، وقال العراقى في المغني (٣/ ٦٣): إسناده حسن، وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٥٣٤): إسناده جيد وهو على شرط مسلم، وقال الحويني في تحقيق الصمت (ص ٥٣): حديث حسن.

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠)، والبزار (٣٧٥٣)، وابن المبارك فى الجهاد (١٧٤)، وسعيد بن منصور في سننه (٢٤١٤)، وأبو داود (٢٥٠٠)، والترمذى (١٦٢١)، وأبو عوانة (٧٤٦٣)، والطحاوي في شرح المشكل (٢٣١٦)، وابن حبان (٤٦٢٤)، والطبرانى (١٨/ ٣١١)، والحاكم (٢/ ٨٨)، والبيهقى فى الشعب (٤/ ٤٠)، وابن عساكر في الأربعون في الحث على الجهاد (ص ٨٥- ٨٦) والحديث قال عنه الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٣٥): ثابت، وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود الأم (٧/ ٢٦١)، وفي الصحيحة (٥٤٩)، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٠٦٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٩/

=

وعن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: "أفضل الجهاد: أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله عَزَّوَجَلَّ"(١).

وقال أبو حازم رَحِمَهُٱللَّهُ: "قاتِل هواك أشدَ مما تقاتل عدوك"(٢).

ويتأكد وجوب حفظ اللسان وقت الفتن لما لِلِّسان من أثر في إشعالها، وقد يحسب المغرور أنه إذا كفَّ يده فقد اعتزل الفتن، ولا يدري أنه لا ينجو منها حتى يكف لسانه أيضًا، وكم من خائضٍ في الفتن متلوثٍ بها بلسانه، وهو يظن أنه ناجٍ منها، وهو من أنشط الساعين فيها، المُضْرِمين نارَها، ومِن ثَمَّ قال وهيب بن الورد رَحِمَهُٱللَّهُ: "وجدتُ العزلة في اللسان"(٣).

وعن عبد الله بن المبارك قال: قال بعضهم في تفسير العزلة: "هو أن يكون مع القوم، فإن خاضوا في ذكر الله فخُض معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فأسكت"(٤).

وعن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: "إن الفتنة، وُكِّلَتْ بثلاث: بالحادِّ النِّحْرِيرِ؛ الذي لا يرتفع له شيء،إلَّا قمعه بالسيف(٥)، وبالخطيب الذي يدعو إليها(٦)،

=

٣٧٤): إسناده صحيح.

(١) رواه أبو نعيم في "الحلية" (٢/ ٢٤٩). وانظر: "السلسلة الصحيحة" رقم (١٤٩٦).

(٢) "الحلية" (٣/ ٢٣١).

(٣) "الصمت" لابن أبي الدنيا رقم (٣٨).

(٤) "المصدر نفسه" رقم (٣٧).

(٥) الحادُّ: النشيط القوي القلب، أو الطائش، والنِّحْرير: العالم الحاذق في علمه. ومراده: أن مثل هذا المتهور لا رجاء له في النجاة؛ لأنه يفكر بسيفه.

(٦) وهذا كسابقه صاحب سيف، لكن سيفه لسانه.

وبالسيد[1]، فأما هذان فتبطحهما لوجوههما، وأما السيد فتبحثه، حتى تبلو ما عنده"[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال لما ذُكِرت عنده الفتن، وسُئل: أي أهل ذلك الزمان شر؟ قال: "كل خطيب مِسْقَعٍ[3]، وكل راكب مُوضِعٍ"[4].

والنصوص التالية تجسِّد لنا خطورة وَقْعِ اللسان في الفتن

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تكون فتنة تَسْتَنْظِفُ[5] العرب، قتلاها في النار[6]، اللسانُ فيها أشدُّ[7] من وقع

---

(١) لأن الفتنة امتحانٌ له.

(٢) "حلية الأولياء" (١/ ٢٧٤).

(٣) الخطيب المِسْقَعِ والمِصْقَع: البليغ، أو: من لا يُرْتَجُ عليه في كلامه، ولا يتتعتع. وإنما قال ابن مسعود- رضي الله عنه- ذلك؛ لأن الأول محرِّضٌ على الفتنة بلسانه، والآخر بسنانه، فاجتمع الشران: شر القول، وشر العمل.

(٤) "شرح السّنَّة" (١٥/ ١٦) ن والراكب المُوضِع في الفتنة: المُسْرِعُ فيها.

(٥) تستنظف العرب؛ أي: تستوعبهم هلاكًا؛ يقال: اسْتَنْظَفتَ الشيء، إذا أخذته كلَّه، ومنه قولهم: استنظفت الخراج، ولا يقال: نظَّفْتُه. كما في "النهاية" (٥/ ٧٩) وقال القاري: "أي: تطهرهم من الأرذال وأهل الفتن" نقله في "تحفة الأحوذي" (٦/ ٤٠٢).

(٦) في النار؛ أي: سيكونون في النار أو هم حينئذٍ في النار؛ لأنهم يباشرون ما يوجب دخولهم في النار؛ كقوله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣)} [الانفطار: ١٣] قال القاضي رحمه الله تعالى: المراد "بقتلاها" مَنْ قُتِل في تلك الفتنة، وإنما هم من أهل النار؛ لأنهم ما قصدوا بتلك المقاتلة والخروج إليها إعلاء دين أو دفع ظالم أو إعانة محق، وإنما كان قصدهم التباغي والتشاجر طمعًا في المال والملك.

(٧) اللسان فيها أشد؛ أي: وقعه وطعنه على تقدير مضاف، ويدل عليه رواية: "إشراف اللسان" أي: إطلاقه وإطالته أشد من وقع السيف؛ لأن السيف إذا ضُرِب به أثَّر في واحد، واللسان تضرب به في تلك الحالة ألف نسَمَة، كما في "تحفة الأحوذي" (٦/ ٤٠٣).

=

السيف"[١].

ورُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: "ستكون فتنة صَمَّاءُ بَكْمَاءُ عَمْيَاءُ[٢] من أشرف لها اسْتَشْرَفَتْ له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف"[٣].

=

قال القرطبي رحمه الله تعالى: "قوله: "اللسان فيها أشد من وقع السيف" أي: بالكذب عند أئمة الجور، ونقل الأخبار إليهم، فربما ينشأ عن ذلك من النهب والقتل والجلد والمفاسد العظيمة أكثر مما ينشأ من وقوع الفتنة نفسها" اهـ. من "التذكرة" (٢/ ٢٤٩).
ونقل المناوي عن القاضي ابن العربي قوله: "وجه كونه أشد: أن السيف إذا ضرب ضربةً واحدةً مضت، واللسان يضرب به في تلك الحالة الواحدة ألف نَسمة، ثم هذا يحتمل أنه إخبار عَمَّا وقع من الحروب بين الصدر الأول، ويحتمل أنه سيكون، وكيفما كان فإنه من معجزاته؛ لأنه إخبار عن غيب" اهـ. من "فيض القدير" (٤/ ١٠١).

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١١، رقم ٦٩٨٠)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١١)، وأبو داود (٤/ ١٠٢، رقم ٤٢٦٥)، والترمذى (٤/ ٤٧٣، رقم ٢١٧٨)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٢، رقم ٣٩٦٧) والحديث ضعفه الترمذي بقوله: هذا حديث غريب، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: لا يعرف لزياد بن سيمين كوش غير هذا الحديث، ثم نقل الترمذي كلام البخاري في أن حماد بن زيد وقفه، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٣٢٢٩)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ٥٦٢): إسناده ضعيف، لضعف ليث -وهو ابن أبي سليم-، وجهالة حال زياد بن سيماكوش.
(تنبيه) قول الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١١/ ١٧٠): إسناده صحيح، متعقب بما تقدم.

(٢) وصف الفتنة بأوصاف أصحابها، أي: يعمي الناس فيها، فلا يرون منها مخرجًا، ويصمون عن استماع الحق.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٦٤)، والطبراني فى الأوسط (٨٧١٧) والحديث قال عنه المنذري في مختصر السنن: في إسناده عبد الرحمن بن البيلماني، ولا يُحتج بحديثه، وقال الحافظ في تخريج أحاديث المصابيح (٥/ ٩٧): فيه عبدالرحمن بن البيلماني،
=

ورُوي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله ﷺ: "إياكم والفتن، فإن اللسان فيها مثل وقع السيف"(١).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذكروا الفتنة، أو ذُكِرتْ عنده، قال: "إذا رأيتم الناسَ قد مَرِجَتْ عهودُهم، وخَفَّت أماناتُهم، وكانوا هكذا" -وشَبَّك بين أصابعه- قال: فقمتُ إليه، فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال: "الزم بيتك، واملكْ عليك لسانك، وخُذْ بما تَعْرِفُ، ودَعْ ما تُنكِر، وعليك بأمر خاصةِ نفسك، ودَع عنك أمرَ العامة"(٢).

=

وضعفه العلامة الألباني في ضعيف الجامع (٣٢٥٧)، وقال الأرنؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان (١٥/ ٩٨): فيه عبد الرحمن بن البيلماني ضعيف.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢ ٣٩٦٨)، ونعيم بن حماد في الفتن (١/ ١٤٢، رقم ٣٥١)، وابن عدي في الكامل (٦/ ١٧٧)، والديلمى (١/ ٣٨٦، رقم ١٥٥٣) والحديث ضعفه ابن عدي، وقال ابن القيسراني في الذخيرة (٢/ ١٠٥٣) فيه: محمد بن الحارث متروك الحديث، وضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٧٦)، وقال المناوى في الفيض (٣/ ١٢٥): فيه محمد بن الحارث الحارثى ضعفوه، وقال العلامة الألباني في الضعيفة (٢٤٧٩): ضعيف جدا.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٢)، وأبو داود (٤٣٤٣)، وابن أبى شيبة (٧/ ٤٤٧، رقم ٣٧١١٥)، والنسائى فى الكبرى (٦/ ٥٩، رقم ١٠٠٣٣)، والطبرانى (١٣/ ٩، رقم ٤)، والحاكم (٤/ ٣١٥، رقم ٧٧٥٨) والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبى، وقال المنذرى: في الترغيب (٣/ ٢٩٨): رواه أبو داود والنسائى بإسناد حسن، وقال العراقي في المغني (٢/ ٢٩١): إسناده حسن،، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وصححه الأرنؤوط ومن معه، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٠٥) وقال: و مما يلاحظ أن هذه الطرق الثلاث، ليس فيها الزيادة التي فى الطريق التي قبل هذه " الزم بيتك واملك عليك لسانك". فالقلب يميل إلى أنها زيادة شاذة لأن الذي تفرد بها و هو هلال بن خباب فيه كلام كما سبق، فلا يحتج به إذا خالف الثقات. نعم قد جاءت هذه الزيادة فى حديث أبي ثعلبة الخشني نحو هذا، لكن لا يصح إسناده

=

ولما كان "الدفع أسهل من الرفع" و"الوقاية خيرًا من العلاج"، أثنى النبي ﷺ على من يلزم بيته اتقاءً لآفات اللسان واحترازًا من الغيبة، والنميمة، والجدل، والسعاية وغير ذلك مما يكون وقودًا لإضرام نار الفتن.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ :"... ومن جلس في بيته لم يغتب إنسانا كان ضامنًا على الله"(١).

وهذا يدل على فضيلة من اعتزل مجالس الناس، ولزم بيته بنية كف شر لسانه عن إخوانه المؤمنين، كما قال ﷺ في أفضل الأعمال بعد الجهاد: "مؤمن في شِعْبٍ من الشِّعاب يعبد الله، ويَدَعُ الناسَ مِنْ شَرِّه"(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله – صلى الله عليه وسم– خرج عليهم

=

كما بينته فى المائة التي بعد الألف من " الأحاديث الضعيفة". وإن مما يؤيد شذوذها أنني وجدت لحديث ابن عمرو هذا شاهدا من حديث أبي هريرة مثله ليس فيه الزيادة، و لفظه: "كيف بك يا عبد الله بن عمرو إذا بقيت في حثالة من الناس مرجت عهودهم و أماناتهم، واختلفوا فصاروا هكذا: و شبك بين أصابعه قال: قلت: يا رسول الله ما تأمرني؟ قال: عليك بخاصتك، و دع عنك عوامهم".

(١) عَجُز الحديث رواه ابن حبَّان في "صحيحه" رقم (٣٧٢)، والطبراني في "الكبير" (٢٠/ ٥٤)، والحاكم (٢/ ٩٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في "السنن" (٩/ ١٦٦، ١٦٧). وانظر: "المسند" (٥/ ٢٤١)، والبزار (١٦٤٩)، و"مجمع الزوائد" (٥/ ٢٧٧)، (١٠/ ٣٠٤).

ومعنى "ضامن على الله" أي: مضمون، على حَدِّ: "عيشة راضية" أي: مرضية، أو: ذو ضمان. قال النووي في "الأذكار": "معنى (ضامن) صاحب الضمان، والضمان: الرعاية للشيء، كما يقال: (تامر، ولابن) أي: صاحب تمر ولبن"، وانظر: "فيض القدير" للمناوي (٣/ ٣١٩)، و"النهاية" لابن الأثير (٣/ ١٠٢).

(٢) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري– رضي الله عنه– مسلمٌ (١٨٨٨)، وابن ماجه (٣٩٧٨)، وابن حبَّان (٦٠٦)، وغيرهم.

وهم جُلُوس في مجلسٍ، فقال: "ألا أخبركم بخير الناس منزلًا؟ "، فقلنا: بلى يا رسول الله، قال: "رجل آخِذٌ برأس فرسه في سبيل الله حتى عُقرت أو يُقتل، فأخبركم بالذي يليه؟ "، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: "امرؤ معتزل في شِعْب يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعتزل شرور الناس"(١). الحديث.

وقال شقيق البلخي: "اصحب الناس كما تصحب النار، خذ منفعتها، واحذر أن تُحرِقَك"(٢).

وقال عبد الله بن داود: "من أمكن الناسَ من كل ما يريدون، أضروا بدينه ودنياه"(٣).

وعن زياد بن حدير، قال: "لوددتُ أني في حَيِّزٍ من حديد، ومعي ما يُصلحني، لا أُكَلِّم الناسَ، ولا يكلموني حتى ألقى الله تبارك تعالى"(٤).

تورع السلف عن آفات اللسان في الفتن

قال إياس بن معاوية بن قُرَّة رحمه الله تعالى: "كان أفضلهم عندهم -أي عند الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- أسلمهم صدورًا، وأقلهم غِيبة"(٥).

وعن طارق بن شهاب، قال: كان بين خالدٍ وسعدٍ كلام، فذهب رجل يقع في خالدٍ عند سعد، فقال: "مه! إن ما بيننا لم يبلغ ديننا"(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٧)، والنسائي (٥/ ٨٣)، والدارمي (٢/ ٢٠١، ٢٠٢)، وابن حبَّان (٦٠٤)، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: "وإسناده حسن".
(٢) "صفة الصفوة" (٤/ ١٦٠).
(٣) "سير أعلام النبلاء" (٩/ ٣٤٩).
(٤) "حلية الأولياء" (٤/ ١٩٧)، و"الزهد" لابن أبي عاصم رقم (٦٧) ص (٤٢).
(٥) "حلية الأولياء" (٣/ ١٢٥)، بلفظ: "عندي -يعني الماضين"، ولعل ما أثبتناه أقرب.
(٦) "المرجع نفسه" (١/ ٩٤).

وسمع عمار بن ياسر ﵁ رجلًا ينال من أم المؤمنين عائشة ﵂، فقال له: "اسكُتْ مقبوحًا منبوحًا، فأشهد أنها زوجة رسول الله ﷺ في الجنة"، وفي رواية: "اغرب مقبوحًا أتؤذي محبوبة رسول الله ﷺ ؟! "[١].

وقال ثابتٌ البُنانِيُّ: "إن مُطَرِّفَ بن عبد الله قال: لبثتُ في فتنة ابن الزبير تسعًا أوسبعًا ما أُخْبِرتُ فيها بخبر، ولا استخبرت فيها عن خبر".

وعن شقيق، قال: قال لي شريح: "ما أخبرت ولا استخبرت منذ كانت الفتنة"، قلت: "لو كنتُ مثلك، لسرني أن أكون قد مت"، قال: "فكيف بما في صدري، تلتقي الفئتان: إحداهما أحبُّ إليَّ من الأخرى؟ ""فكيف بما في صدري، تلتقي الفئتان: إحداهما أحبُّ إليَّ من الأخرى؟ " (١).

وقال الإمام الزهري رحمه الله تعالى: (حدَّثني عروةُ أن المِسورَ بن مَخْرَمة أخبره أنه وفد على معاويةَ، فقضى حاجتَه، ثم خلا به، فقال: "يا مسورُ، ما فعل طعنُك على الأئمة؟ "، قال: "دعنا من هذا وأحسِن"، قال: "لا والله! لتكلِّمنِّي بذاتِ نفسِك بالذي تعيبُ عليَّ" قال مسور: "فلم أترك شيئًا أعيبه عليه إلَّا بيَّنتُ له" قال: "لا أبرأ من الذنب، فهل تعُدُّ لنا يا مسورُ ما نلي من الإصلاح في أمر العامَّة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعدُّ الذنوبَ وتتركُ المحاسنَ؟ " قال: "ما تُذكَر إلَّا الذنوب"، قال معاوية: "فإنَّا نعترف لله بكل ذنبٍ أذنبناه، فهل لك يامسورُ ذنوبٌ في خاصتك تخشى بأن تهلك إن لم تُغفر؟ "، قال: "نعم"، قال: "فما يجعلك اللهُ برجاء المغفرةِ أحقَّ مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مِما تلي، ولكن واللهِ لا أُخيَّر بين أمرين، بين الله وبين غيره، إلَّا اخترتُ اللهَ على ما سواه، وإنِّي على دينٍ يُقبل فيه العمل، ويُجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه

(١) أخرجه ابن عساكر كما في "الكنز" (٣/ ١١٦)، وابن سعد (٨/ ٦٥).

بالذنوب إلَّا أن يعفوَ الله عنها"، قال: "فَخَصَمَني" قال عروة: "فلم أسمع المسورَ ذكر معاويةَ إلَّا صلَّى عليه")(١).

عن أبي راشد، قال: (جاء رجل من أهل البصرة إلى عبيد الله بن عمر، فقال: إني رسولُ إخوانك من أهل البصرة إليك، فإنهم يُقرءونك.

وقال الإمام الزهري رحمه الله تعالى: (حدَّثني عروةُ أن المِسورَ بن مَخْرَمة أخبره أنه وفد على معاويةَ، فقضى حاجتَه، ثم خلا به، فقال: "يا مسورُ، ما فعل طعنُك على الأئمة؟ "، قال: "دعنا من هذا وأحسِن"، قال: "لا والله! لتكلِّمنِّي بذاتِ نفسِك بالذي تعيبُ عليَّ" قال مسور: "فلم أترك شيئًا أعيبه عليه إلَّا بيَّنتُ له" قال: "لا أبرأ من الذنب، فهل تعُدُّ لنا يا مسورُ ما نلي من الإصلاح في أمر العامَّة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعدُّ الذنوبَ وتتركُ المحاسنَ؟ " قال: "ما تُذكَر إلَّا الذنوب"، قال معاوية: "فإنَّا نعترف لله بكل ذنبٍ أذنبناه، فهل لك يامسورُ ذنوبٌ في خاصتك تخشى بأن تهلك إن لم تُغفر؟ "، قال: "نعم"، قال: "فما يجعلك اللهُ برجاء المغفرةِ أحقَّ مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مِما تلي، ولكن واللهِ لا أُخيَّر بين أمرين، بين الله وبين غيره، إلَّا اخترتُ اللهَ على ما سواه، وإنِّي على دينٍ يُقبل فيه العمل، ويُجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلَّا أن يعفوَ الله عنها"، قال: "فَخَصَمَني" قال عروة: "فلم أسمع المسورَ ذكر معاويةَ إلَّا صلَّى عليه")(٢).

عن أبي راشد، قال: (جاء رجل من أهل البصرة إلى عبيد الله بن عمر، فقال: إني رسولُ إخوانك من أهل البصرة إليك، فإنهم يُقرءونك السلام، ويسألونك

---

(١) "حلية الأولياء" (٤/ ١٣٣).

(٢) "سير أعلام النبلاء" (٣/ ١٥٠، ١٥١) (٣٩١، ٣٩٢).

عن أمر هذين الرجلين: علي وعثمان، وما قولك فيهما؟ فقال: "هل غير؟ " قال: "لا"، قال: "جَهّزوا الرجل"، فلما فُرغ من جَهازه قال: "اقرأ عليهم السلام، وأخبرهم أن قولي فيهم: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)} [البقرة: ١٣٤](١).

وعن شريك قال: سألت إبراهيم بن أدهم عما كان بين علي ومعاوية، فبكى، فندمت على سؤالي إياه، فرفع رأسه، فقال: "إنه من عرف نفسه اشتغل بنفسه، ومن عرف ربه اشتغل بربه عن غيره"(٢).

وقال الشافعي: قيل لعمر بن عبد العزيز: "ما تقول في أهل صِفِّين؟ " قال: "تلك دماء طَهَّر الله يدي منها، فلا أحب أن أخضب لساني بها"(٣).

وقال الرياشي رحمه الله تعالى:

لَعمرُكَ إن في ذنبي لَشُغُلًا ... نفسي عن ذنوب بني أمَيَّهْ

على ربي حسابُهمُ إليه ... تناهى عِلمُ ذلك لا إليَّهْ

وليس بضائري ما قد أتَوْه ... إذا ما الله أصلحَ ما لديَّهْ(٤)

وعن الهيثم بن عبيد الصيدلاني، قال: سمع ابن سيرين رجلًا يَسُبُّ الحجاج، فقال: "مه أيها الرجل! إنك لو وافيت الآخرة كان أصغر ذنب عمِلتَه قَطُّ أعظمَ عليك من أعظم ذنبٍ عمله الحجاجُ، واعلم أن الله ﷻ حَكَمٌ عدلٌ، إن أخذ من الحجاج لمن ظلمه شيئًا فشيئًا، أخذ للحجاج مِمَّن ظلمه، فلا تشغلنَّ

(١) "العزلة" للخطابي ص (٤١).
(٢) "حلية الأولياء" (٨/ ١٥).
(٣) "العزلة" للخطابي ص (٤١).
(٤) "الأذكار النووية" ص (٢٨٨)

نفسَك بسبِّ أحدٍ"(١).

وكان عبد الله بن الخيار يقول في مجلسه: "اللهمَّ سلّمنا، وسلّم المؤمنين مِنّا"(٢).

رُبَّ قولٍ يسِيل منه دَمٌ

لا ينحصر شؤم إطلاق اللسان في الفتن في ولائم السوء التي يسودها الجدل والمراء والغيبة والنميمة، لكنه يتعداها إلى آثار خطيرة في واقع الأمة، فالشر مبدؤه شرارة، "ومعظم النار مِن مُستصغَر الشرر".

- وكثير من الفتن تُبْذَر بذرتها في مجالس الغيبة والوقيعة، ولا يتوقع أصحابها أن تبلغ ما بلغت، ثم تُلَقَّحُ بالنجوى، وتُنْتَجُ بالشكوى، وإذا بها تشتعل وتضطرم رويدًا رويدًا حتى يستعصي إطفاؤها حتى على الذين أوقدوا شرارتها، فهؤلاء الغيابون أكلة لحوم البشر هم من الذين وصفهم رسول الله ﷺ، فقال: "إن من الناس مفاتيحَ للخير مغاليقَ للشر، وإن من الناس مفاتيحَ للشر، مغاليقَ للخير، فطوبى لمن جعل اللهُ مفاتيحَ الخيرِ على يديه، وويل لمن جعل اللهُ مفاتيحَ الشر على يديه"(٣).

---

(١) "شعب الإيمان" (٥/ ٢٨٧) رقم (٦٦٨١).

(٢) "تذكرة الحُفَّاظ" (١/ ١٣٩).

(٣) أخرجه الطيالسى (٢٠٨٢)، وابن ماجه (٢٣٧)، وابن أبى عاصم فى السنة (٢٩٧)، والحكيم (١/ ٤٢٠)، والبيهقى فى شعب الإيمان (١/ ٤٥٥، رقم ٦٩٨) والحديث قال عنه البوصيرى في مصباح الزجاجة (١/ ٣٤): هذا إسناد ضعيف من أجل محمد بن أبى حميد فإنه متروك، وقال السخاوي في المقاصد (ص٢١٤): رواه ابن ماجه في السنة من سننه والطيالسي في مسنده كلاهما من حديث محمد بن أبي حميد عن حفص بن عبد الله بن أنس بن مالك عن جده أنس، رفعه به وقيل عن ابن أبي حميد عن موسى بن وردان عن حفص ولكن ابن أبي حميد منكر الحديث وله شاهد عن سهل بن سعد =

خَـــلِّ جنبيـــك لـــرامِ امـــض عنـــه بـــسلامِ
مُـــتْ بـــداءِ الـــصمتِ يـــرٌ لـــك مـــن داء الكـــلامِ
رُبَّمـــا اســـتُفْتِحَ بـــالقو ِ مغـــاليقُ الحِمـــامِ
رُبَّ قـــولٍ ســـاقَ جـــالَ فِئـــامٍ وفئـــامِ
إنمـــا الـــسالمُ مَـــنْ لجَـــمَ فـــاهُ بِلِجـــامِ

- وهاك هذه الشواهدَ التاريخيةَ التي تدل على أنه "رُبَّ قولٍ يسيلُ منه دمٌ"[(١)].

قال أبو معبد عبد الله بن عَكيم الجهني -تابعي جليل- في خطبة له: "لا أُعين على دم خليفة أبدًا بعد عثمان"، فقال رجل متعجبًا: "يا أبا معبد، أَوَأَعنتَ على دمه؟ "، فقال أبو معبد: "إني لأرى ذكر مساوئ الرجل عونًا على دمه[(٢)]"[(٣)].

ولقد قال رسول الله ﷺ: "إن العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم"[(٤)].

فهؤلاء الساعون بالوشاية والنميمة، أَحْصَوا اجتهادات أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وصوَّروها بحسب ما تتخيل عقولهم الضعيفة، وقلوبهم

=

أخرجه ابن ماجه وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف أيضا، أما العلامة الألباني فقال في الصحيحة (١٣٣٢): بعد أن ضعف طرق الحديث و بالجملة فالحديث بمجموع طرقه حسن إن شاء الله تعالى.

(١) انظر: "المنهج المسلوك في سياسة الملوك" ص (٤٤٧).

(٢) أو عونًا على سجنه وتشريده، وشلله عن دعوته.

(٣) "الطبقات" لابن سعد (٣/ ٨٠).

(٤) رواه من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- البخاريّ رقم (٦٤٧٨)، ومسلمٌ رقم (٢٩٨٨).

المريضة، فاتخذوا ذلك سُلَّمًا إلى الفتنة[١].

حين علم حذيفة رضي الله عنه بمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: "اللهمَّ العن قَتَلَتهُ وشُتَّامَه، اللهمَّ إنَّا كنا نعاتبه ويعاتبنا، فاتخذوا ذلك سُلَّمًا إلى الفتنة، اللهمَّ لا تُمِتْهم إلَّا بالسيوف"[٢].

قال عبد الواحد بن زيد للحسن البصريّ- وكلاهما من التابعين-:

"يا أبا سعيد، أخبرني عن رجل لم يشهد فتنة ابن المهلب بن أبي صفرة[٣] إلَّا أنه عاون بلسانه، ورضي بقلبه"، فقال الحسن: "يابن أخي كم يد عقرت الناقة؟"، قلت: "يد واحدة" قال: "أليس قد هلك القوم جميعًا برضاهم وتماليهم؟"[٤].

ولعل النزعة الخارجية التي تُطل برأسها من وقت إلى آخر لتبعث الحياة في فِكْر الخوارج الأولين وسلوكهم هي المسئولة عن كثير من التعديات على الحرمات، فقد قال ﷺ في شأن الخوارج: "يقتلون أهل الإسلام، ويَدَعون أهل الأوثان"[٥]، وهذه العلامة هي التي جعلت أحد العلماء، وقد وقع مرة في يد بعض الخوارج، فسألوه عن هُويته، فقال: "مشرك مستجير، يريد أن يسمع كلام الله"، وهنا قالوا له: "حقٌّ علينا أن نجيرك، ونُبْلِغَكَ مأمنك"، وتلوا قول الله

---

(١) وقد جمعها الإمام ابن العربي، وفنَّدها في كتابه المبارك "العواصم من القواصم"، فانظره ص (٧٦- ١٥٠) ط. دار الكتب السلفية، ١٤٠٥ هـ.

(٢) "الكامل" لابن الأثير (٣/ ٥١).

(٣) وكان قد إنشقَّ عن الدولة الإسلامية معتمدًا على وجاهة أبيه، وكان أبوه رحمه الله تعالى مبيدًا للخوارج.

(٤) "الزهد" للإمام أحمد ص (٢٨٩).

(٥) رواه الإمام أحمد (٣/ ٦٨)، والبخاري رقم (٧٤٣٢) (١٣/ ٤١٥)، ومسلم، وأبو داود، والنسائي.

تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، بهذه الكلمات نجا "مشرك مستجير"، ولو قال لهم: "مسلم" لقطعوا رأسه[١].

وتكفير المسلم مفتاح استباحة دمه

- فقد اتُّهِمَ القاضي عياض رحمه الله تعالى بأنه "يهودي"؛ لأنه كان يلزم بيته للتأليف نهار السبت.

- وهذا الشيخ علاء الدين العطار تلميذ الإمام النووي -رحمهما الله- مع أنه كان شيخ زمانه- كان يمشي متأبطًا وثيقة من أحد القضاة بصحة إيمانه، وبراءته من كل ما يكفره، مخافةَ أن يصادفه أفَّاك في مجلس.

- وفي القصة التالية معتبر ومزدجر وتذكرة بأن "من الغيبة ما قتل":

عن رشيد الخبَّاز قال: خرجت مع مولاي إلى مكة، فجاورنا، فلما كان ذات يوم، جاء إنسان فقال لسفيان: "يا أبا عبد الله، قَدِم اليوم حسنٌ وعليٌ ابنا صالح"، قال: "وأين هما؟ " قال: "في الطواف"، قال: "إذا مَرَّا، فأرنيهما"، فمرَّ أحدهما، فقلت: "هذا عليٌّ"، ومرَّ الآخر، فقلت: "هذا حَسَنٌ"، فقال: "أما الأول فصاحِب آخِرة، وأما الآخَرُ فصاحب سيف، لا يملأ جوفَه شيء"، قال: فيقوم إليه رجل ممن كان معنا، فأخبر عليًّا، ثم مضى مولاي إلى علي يسلم عليه، وجاء سفيان يُسلم عليه، فقال له علي: "يا أبا عبد الله، ما حملك على أن ذكرتَ أخي أمسِ بما ذكرته؟ ما يُؤمنك أن تبلغ هذه الكلمة ابن أبي جعفر، فيبعث إليه، فيقتله؟ " قال: فنظرت إلى سفيان، وهو يقول: "أستغفر الله"

---

(١) وانظر صورًا مماثلة من تهور الخوارج وانتهاكهم حرمات المسلمين مع تورعهم مع الكافرين في "تلبيس إبليس" لابن الجوزي ص (١٢٨، ١٢٩).

وجادتا عيناه[١].

- وعن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال: كنا مع رجاء بن حَيْوَة فتذاكرنا شكر النعم، فقال: "ما أحدٌ يقوم بشكر نِعمة"؛ وخَلْفَنا رجلٌ على رأسه كِساء، فقال: "ولا أميرُ المؤمنين؟ "، فقلنا: "وما ذِكْرُ أمير المؤمنين هنا؟! وانما هو رجلٌ مِن الناس"، قال: فغفلنا عنه، فالتفتَ رجاءٌ فلم يره، فقال: "أُتيتم من صاحب الكساء، فإن دُعيتم، فاستُحْلِفتم، فاحلفوا"؛ قال: فما علمنا إلَّا بحَرَسِي قد أقبل عليه[٢]، قال: "هِيه يا رجاء، يُذكَر أمير المؤمنين، فلا تحتج له؟! "، قال: فقلت: "وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ "، قال: "ذكرتم شكر النعم، فقلتم: ما أحد يقوم بشكر نعمة، قيل لكم: ولا أمير المؤمنين؟، فقلتَ: أمير المؤمنين رجل من الناس! "، فقلت: "لم يكن ذلك"؛ قال: "آلله؟ "، قلت: "آلله"، قال: فأمر بذلك الرجل الساعي، فضُرب سبعين سوطًا، فخرجت وهو متلوِّث بدمه، فقال: "هذا وأنت رجاءُ بنُ حَيْوة؟ "، قلت: "سبعين سوطًا في ظهرك خير من دم مؤمن"، قال ابن جابر: فكان رجاء بن حيوة بعد ذلك إذا جلس في مجلس يقول، ويتلفَّت: "احذروا صاحب الكساء"[٣].

قال الشاعر:

يموت الفتى من عثرةٍ بلسانه ... ليس يموت المرء من عثرة الرِّجلِ
فعثرته بلسانه تُذْهب رأسه ... عثرته برجله تبرا على مهل

آخر:

---

(١) "سير أعلام النبلاء" (٧/ ٣٦٦).
(٢) يبدو أن في هذا الموضع سقطًا، ولعله: "فاصطحبه، وأدخله على أمير المؤمنين".
(٣) "سير أعلام النبلاء" (٤/ ٥٦١).

وجُرح السيف تُدْمِلُه فيبرا ... جرحُ الدهر ما جَرَحَ اللسانُ
جراحاتُ الطِّعان لها التئامٌ ... لا يلتامُ ما جَرَح اللسانُ[١]

وآخر:
السيف يأسوه المُداوي ... جرحُ القولِ طولَ الدهرِ دامي[٢]

من أسباب النجاة من الفتن: اعتزالها والفِرار منها

فقد حثَّ الشرع الشريف على اجتناب المشاركة في الفتن، وكفِّ اليد عنها، والفِرار منها.

عن بلال بن سعد في قوله تعالى: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ} [العنكبوت: ٥٦]، قال: عند وقوع الفتنة: أرضي واسعة، ففروا إليها[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: "ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقتربَ، أفلحَ مَنْ كَفَّ يَدَه"[٤].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كيف بكم وبزمانٍ يوشك أن يأتي، يُغَربَلُ الناسُ فيه غربلةً، وتبقى حُثالةٌ من الناس قد مرِجَت

---

(١) "المحاسن والمساوئ" للبيهقي ص (٣٨١).
(٢) "المصدر نفسه" ص (٣٨١).
(٣) "حلية الأولياء" (٥/ ٢٢٧).
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤١، رقم ٩٦٨٩)، وابن أبى شيبة (٧/ ٤٦٣، رقم ٣٧٢٥٢)، ونعيم بن حماد في الفتن (١/ ١٤٠، رقم ٣٤٤)، وأبو داود (٤/ ٩٧، رقم ٤٢٤٩)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٢٩٩)، والحاكم (١/ ١٩٠، رقم ٣٦٧)، وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ٢٦٥)، والبيهقى فى الشعب (٤/ ٣٤٢، رقم ٥٣٣٠)، والديلمى (٤/ ٣٩٥، رقم ٧١٤٢) والحديث صححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٧١٣٥)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٥/ ٤٣٢): إسناده صحيح على شرط الشيخين.

عهودُهم وأماناتُهم، فاختلفوا، وكانوا هكذا؟ " -وشبَّك بين أصابعه- قالوا: كيف بنا يا رسولَ الله! إذا كان ذلك؟ قال: "تأخذون بما تعرفون، وتَدَعون ما تُنكرون، وتُقْبِلون على خاصَّتكم، وتذرون أمرَ عوامِّكم"(١).

وعن خالد بيت الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كتب إليَّ أمير المؤمنين حين ألقى الشامُ بَوانِيَهُ(٢) بَثْنِيَّةً(٣) وعَسَلًا، فأمرني أن أسير إلى الهند، والهند في أنفسنا يومئذٍ البصرة، قال: وأنا لذلك كاره، قال: فقام رجل فقال لي: يا أبا سليمان، اتق الله، فإن الفتن قد ظهرت، قال: فقال: "وابن الخطاب حي؟! إنما تكون بعده، والناس بذي بِلِيَّان(٤)، أو بذي بليان بمكان كذا وكذا، فينظر الرجل فيتفكر: هل يجد مكانًا لم ينزل به مثلُ ما نزل بمكانه الذي هو فيه من الفتنة والشر؟ فلا يجده"، قال: "وتلك الأيام التي ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بين يدي الساعة الهَرْج"، فنعوذ بالله أن تدركنا وإياكم تلك الأيام"(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢١)، وسعيد بن منصور (ل ١٩٦/ ب)، وأبو داود (٤٣٤٢)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩)، والحاكم (٢/ ١٥٩، ٤/ ٤٣٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٣١٨) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة تحت الحديث (٢٠٥)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١٢/ ٢٠): إسناده صحيح، وكذا قال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١١/ ٦٣٥).

(٢) بوانيه: خيره وما فيه من السَّعة والنعمة.

(٣) البثنية: قيل: الزبدة. أي: صارت كأنها زبدة وعسل؛ لأنها صارت تُجبى أموالُها من غير تعب.

(٤) المراد: إذا كانوا طوائف وفِرقًا من غير إمام، وكل من بعد عنك حتى لا تعرف موضعه فهو بذي بِلِيٍّ، وهو من: بَلَّى في الأرض إذا ذهب، وأراد ضياع أمور الناس بعده.

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٩٠)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٢٨٩)، والطبراني في الكبير (٣٨٤١)، وفي الأوسط (٨٤٧٤) والحديث قال عنه الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٠٧): =

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن"[١].

وقال عثمان الشحام: انطلقت أنا وفرقد السبخي إلى مسلم بن أبي بكرة وهو في أرضه فدخلنا عليه فقلنا: هل سمعت أباك يحدث في الفتن حديثا؟ قال: نعم، سمعت أبا بكرة يحدث، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي فيها، والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه" قال: فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: "يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ثم لينج إن استطاع النجاء اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت" قال: فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق

=

ورجاله ثقات، وفي بعضهم ضعف، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٨/ ٥٩): سنده فيه عزرة بن قيس وهو ضعيف، وقال العلامة الألباني في الصحيحة تحت الحديث (١٨٦٢) سنده حسن في المتابعات والشواهد، عزرة بن قيس لم يوثقه غير ابن حبان، و سائر رواته ثقات، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢٨/ ٢٣): إسناده ضعيف لجهالة عزرة بن قيس البجلي، فقد ترجم له الحسيني في "الإكمال" ٢٩٤، والذهبي في "الميزان"، والحافظ ابن حجر في "اللسان" وفاته أن يذكره في "التعجيل" مع أنه على شرطه، ولم يذكروا في الرواة عنه سوى أبي وائل: وهو شقيق بن سلمة، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان، وذكر علي بن المديني أن أبا وائل تفرد عن جماعة مجهولين منهم عزرة بن قيس، وقال ابن أبي خيثمة بعد ذكر عزرة بن قيس البجلي وعزرة بن قيس آخر يروي عنه أهل البصرة: قال يحيى بن معين: لا شيء.

(١) رواه البخاريّ في "صحيحه" رقم (٦٦٧٧) باب: مِن الدِّين الفِرار من الفتن.

بي إلى أحد الصفين أو إحدى الفئتين فضربني رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: "يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار"(١).

وعن الحسن، عن الأحنف بن قيس، قال: خرجت وأنا أريد هذا الرجل فلقيني أبو بكرة، فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: قلت: أريد نصر ابن عم رسول الله ﷺ -يعني عليا- قال: فقال لي: يا أحنف، ارجع! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار" قال: فقلت -أو قيل-: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: "إنه قد أراد قتل صاحبه"(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه(٣)، فمن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به"(٤).

وقال حذيفة رضي الله عنه "إياكم والفتن، لا يشخص إليها أحد، فوالله ما شخص فيها أحد إلا نسفته، كما ينسف السيل الدمن"(٥).

---

(١) رواه مسلم في "صحيحه" رقم (٢٨٨٧).

(٢) رواه البخاري رقم (٦٦٧٢)، ومسلم رقم (٢٨٨٨).

(٣) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: "قوله: (من تشرف لها) -بفتح المثناة والمعجمة وتشديد الراء -أي: تطلع لها؛ بأن يتصدى ويتعرض لها ولا يعرض عنها ... قوله: (تستشرفه) أي: تهلكه بأن يشرف منها على الهلاك، يريد من انتصب لها انتصبت له، ومن أعرض عنها أعرضت عنه .. وفيه: التحذير من الفتنة، والحث علي اجتناب الدخول فيها، وأن شرها يكون بحسب التعلق بها" اهـ. من "فتح الباري" (١٣/ ٣١).

(٤) رواه البخاري رقم (٣٤٠٦)، ومسلم رقم (٢٨٨٦).

(٥) الدمن: جمع دمنة، وهي ما تدمنه الإبل والغنم بابوالها وأبعارها: أي تلبده في مرابضها، فربما نبت فيها النبات الحسن النضير، وفي الحديث: "فينبتون نبات الدمن في السيل"، =

وعن أبي بردة، قال: دخلت على محمد بن سلمة فقال: إن رسول الله ﷺ قال: "إنها ستكون فتنة وفرقة واختلاف، فإذا كان كذلك؛ فأت بسيفك أحدا فاضربه حتى ينقطع، ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية". فقد وقعت وفعلت ما قال رسول الله ﷺ (١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "كيف أنت يا أبا ذر! وموتا يصيب الناس حتى يقوم البيت بالوصيف؟ " (يعني القبر) قنت: ما خار الله لي ورسوله (أو قال: الله ورسوله أعلم) قال: "تصبر"، قال: "كيف أنت وجوعا يصيب الناس حتى تأتي مسجدك فلا تستطيع أن ترجع إلى فراشك، ولا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك؟ " قال، قلت: الله ورسوله أعلم (أو: ما خار الله لي ورسوله" قال: "عليك بالعفة"، ثم قال: "كيف أنت وقتلا يصيب الناس حتى تغرق حجارة الزيت بالدم؟ " قلت: ما خار الله لي ورسوله. قال: "الحق بمن أنت منه" قال: قلت: يا رسول الله، أفلا آخذ بسيفي فأضرب به من فعل ذلك؟ قال: "شاركت القوم إذن، ولكن ادخل بيتك" قلت: يا رسول الله، فإن دخل بيتي؟ قال: "إن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك، فيبوء بإثمه وإثمك، فيكون من أصحاب النار"(٢).

=

يريد البعر لسرعة ما ينبت فيه، انظر: "النهايه" (٢/ ١٣٤).

(١) رواه ابن ماجه رقم (٣٩٦٢)، وانظر: "الصحيحة" للألباني رقم (١٣٨٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٧٢٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٤٨، رقم ٣٧١٢٣)، والطيالسي (ص ٦٢، رقم ٤٥٩)، وأحمد (٥/ ١٤٩، رقم ٢١٣٦٣)، وأبو داود (٤/ ١٠١، رقم ٤٢٦١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٨، رقم ٣٩٥٨)، والبزار في مسنده (٣٩٥٩)، وابن حبان (١٥/ ٧٨، رقم ٦٦٨٥)، والحاكم (٢/ ١٦٩، رقم ٢٦٦٦)، والبغوي (٤٢٢٠)، والبيهقي (٨/ ١٩١، رقم ١٦٥٧٥)، والمزي في ترجمة المشعث من التهذيب (٢٨/
=

وروي أن رجلا قال لحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذ اقتتل المسلمون فما تأمرني؟ قال: "انظر أقصى بيت في دارك فلج فيه، فإن دخل عليك، فقل: ها بو بذنبي وذنبك"(١).

وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مومن، فيتبعه، مما يبعث به من الشبهات، أو: لما يبعث به من الشبهات"(٢).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "إذا وقع الناس في الفتنة، فقالوا: اخرج، لك بالناس أسوة، فقل: لا أسوة لي بالشر"(٣).

ومن مظاهر التطبيق العملي لمبدأ كف اليد عن المشاركة في الفتن واعتزالها:

=

٩- ١٠) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٧٥٠٠) رواته ثقات، وصححه العلامة الألباني في الإرواء (٨/ ١٠٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٥/ ٢٥٢): إسناده صحيح على شرط مسلم.

(١) رواه الداني في "السنن الواردة في الفتن" (١/ ٣٤٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٢٩)، وأبو داود (٤٣١٩)، والبزار (٣٥٩٠)، والدولابي في الكنى (١/ ١٧٠)، والحاكم (٤/ ٥٧٦، رقم ٨٦١٦)، والطبرانى (١٨/ ٢٢١، رقم ٥٥٢) والحديث احتج به ابن حزم في المحلى (١/ ٥٠)، وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٢٢٠): إسناده جيد، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٦٣٠١)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٠٢٤)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٣/ ١٠٧): إسناده صحيح على شرط مسلم. انظر كتاب بصائر في الفتن.

(٣) قال الهيثمي في "مجمع الزوائد": "رواه الطبراني، وفيه خديج بن معاوية: وثقة أحمد وغيره، وضعفه جماعة" اهـ. (٧/ ٢٩٨).

أن مروان بن الحكم لما دعا أيمن بن خريم إلى الخروج في قتال فتنة أجابه: إن أبي وعمي شهدا بدرا، وإنهما عهدا إلي ألا أقاتل أحدا يقول: "لا إله إلا الله"، فإن أنت جئتني ببراءة من النار؛ قاتلت معك! ثم يقول:

ولست بقاتل رجلا يصلي على سلطان آخر من قريش

له سلطانه وعلي إثمي معاذ الله من جهل وطيش

أأقتل مسلما في غير جرم فليس بنافعي ما عشت عيشي[1]

وعن عديسة بنت أهبان، قالت: جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى أبي، فدعاه إلى الخروج معه، فقال له أبي: "إن خليلي وابن عمك عهد إلي إذا اختلف الناس أن أتخذ سيفا من خشب، فقد اتخذته! فإن شئت خرجت به معك" قالت: فتركه[2].

وعن أيوب السختياني، قال: اجتمع سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وابن عمر، وعمار بن ياسر رضي الله عنهم فذكروا الفتنة، فقال سعد: "أما أنا، فأجلس في بيتي، ولا أدخل فيها"[3].

وعن عامر بن سعد أن أباه سعدا رضي الله عنه كان في غنم له، فجاء ابنه عمر، فلما رآه قال: "أعوذ بالله من شر هذا الراكب"، فلما انتهى إليه، قال: يا أبة! أرضيت أن تكون أعرابيا في غنمك، والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟ فضرب صدر عمر، وقال: اسكت، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله عز وجل يحب العبد

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٢٠٣) (٤/ ٤٩٠)، وقال: "حسن غريب"، وصححه الألباني في "صحيح الترمذي" (٢/ ٢٤١)، والمراد باتخاذ السيف من الخشب: الامتناع عن القتال، كما في "تحفة الأحوذي" (٦/ ٤٤٦).

(٣) "حلية الأولياء" (١/ ٩٤).

التقي الغني الخفي"[١].

وعن ابن سيرين، قال: قيل لسعد بن أبي وقاص: "ألا تقاتل، فإنك من أهل الشورى، وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك؟ " فقال: "لا أقاتل حتى تأتوني بسيف له عينان ولسان وشفتان، يعرف المؤمن من الكافر، إن ضربت به مسلما نبا عنه[٢]، وإن ضربت به كافرا قتله، فقد جاهدت وأنا أعرف الجهاد"، وضرب لهم مثلا، فقال: "مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على محجة بيضاء، فبينا هم كذلك يسيرون هاجت ريح عجاجة[٣] فضلوا الطريق، والتبس عليهم، فقال بعضهم: (الطريق ذات اليمين)، فأخذوا فيها، فتاهوا، وضلوا، وقال آخرون: (الطريق ذات الشمال)، فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا، وقال آخرون: كنا في الطريق حيث هاجت الريح فننيخ فأناخوا[٤]، فأصبحوا، فذهب الريح، وتبين الطريق، فهؤلاء هم الجماعة، قالوا: "نلزم ما فارقنا عليه رسول الله ﷺ حتى نلقاه، ولا ندخل في شيء من الفتن"[٥].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ١٦٨)، ومسلم رقم (٢٩٦٥).

(٢) نبا عنه: أعرض عنه، ونفر، ولم يصبه.

(٣) عجت الريح: اشتد هبوبها، وأثارت العجاج؛ أي: الغبار.

(٤) أناخ بالمكان: أقام به، وأناخ الجمل: أبركه، والمقصود أنهم ثبتوا في أماكنهم، ولم يبرحوا.

(٥) رواه نعيم في "الفتن" ص (١٦٧)، وابن سعد في "الطبقات" (٣/ ١٤٣)، والطبراني في "الكبير" (١/ ١٤٤)، رقم (٣٢٢)، والخطابي في "العزلة" ص (٧٢)، والحاكم (٤/ ٤٤٤)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في "الحلية" (١/ ٩٤)، وقال الهيثمي: "رواه الطبراني (١/ ١٤٤- رقم ٣٢٢)، ورجاله رجال الصحيح" اهـ. من "مجمع الزوائد" (٧/ ٢٩٩)، وانظر -أيضا-: "حلية الأولياء" (١/ ٣٠٩،٣١٠).

وعن الحسن قال: لما كان من أمر الناس ما كان من أمر الفتنة، أتوا عبد الله بن عمر، فقالوا: أنت سيد الناس، وابن سيدهم، والناس بك راضون: اخرج نبايعك، فقال: لا والله، لا يهراق في محجمة من دم، ولا في سببي، ما كان في الروح، قال: ثم أتي، فخوف، فقيل له: لتخرجن أو لتقتلن على فراشك، فقال مثل قوله الأول؛ قال الحسن: فوالله، ما استقلوا منه شيئا، حتى لحق بالله تعالى[١].

- وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أتاه رجلان[٢] في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد ضيعوا، وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟! فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، فقالا: ألم يقل الله: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة} [البقرة: ١٩٣]؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله[٣].

وعن نافع أيضا أن رجلا أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن، ما حملك على أن تحج عاما وتعتمر عاما وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وقد علمت ما رغب الله فيه؟ قال: يابن أخي، بني الإسلام على خمس: إيمان بالله ورسوله، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت، قال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله} [الحجرات: ٩] {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة} [البقرة: ١٩٣]

(١) "حلية الأولياء" (١/ ٢٩٣).

(٢) أحدهما نافع بن الأزرق، ويحتمل أن يكون الثاني العلاء بن عرار، "هدي الساري" ص (٣١٠).

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" رقم (٤٥١٣) (٨/ ١٨٣- فتح).

قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ وكان الإسلام قليلا، فكان الرجل يفتن- في دينه إما قتلوه وأما يعذبونه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن يعفو عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ، وختنه، وأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون[١].

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه لابنه عبد الله رضي الله عنه، وهو ممن اعتزل الفتنة يوم صفين-: "يا بني! انظر أين ترى عليا؟ قال: أراه في تلك الكتيبة القتماء ذات الرماح، عليه عمامة بيضاء، قال: لله در ابن عمر وابن مالك[٢]! لئن كان تخلفهم عن هذا الأمر خيرا؛ كان خيرا مبرورا، ولئن كان ذنبا؛ كان ذنبا مغفورا"[٣].

وكذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يقول: "لله در مقام قامه سعد بن مالك وعبد الله بن عمر: إن كان برا إن أجره لعظيم، وإن كان إثما إن خطأه ليسير"[٤].

وعن أبي العالية، قال: لما كان قتال علي ومعاوية كنت رجلا شابا، فتهيأت، ولبست سلاحي، ثم أتيت القوم، فإذا صفان لا يرى طرفاهما، قال: فتلوت هذه الآية: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها} [النساء: ٩٣]. قال: فرجعت وتركتهم[٥].

وعن ثابت البناني، عن مطرف، قال: "لأن يسألني ربي عز وجل يوم القيامة،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥١٤، ٤٥١٥) (٨/ ١٨٤- فتح).

(٢) هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، كان وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة الأنصاري في عدة من الصحابة تخلفوا عن الفريقين، وقعدوا عن تلك الفتنة حتى انجلت.

(٣) "العزلة" ص (٧٤، ٧٥).

(٤) "مجموع الفتاوى" (٤/ ٤٤٠).

(٥) "حلية الأولياء" (٢/ ٢١٩).

فيقول: يا مطرف ألا فعلت! أحب إلي من أن يقول لم فعلت؟ "[١].

قال مطرف: "إن الفتنة لا تجيء حين تجيء لتهدي الناس، ولكن لتقارع المؤمن عن دينه، ولأن يقول الله: لم لا قتلت فلانا؟ أحب إلي من أن يقول: لم قتلت فلانا؟ "[٢].

وقال مطرف -أيضا-: "لأن أعافى فأشكر، أحب إلي من أن أبتلى فأصبر، نظرت في العافية فوجدت فيها خير الدنيا والآخرة"[٣].

وقال أيضا رَحِمَهُ اللَّهُ: "لأن آخذ بالثقة في القعود أحب إلي من أن ألتمس -أو قال؛ أطلب- فضل الجهاد بالتغرير"[٤].

فصل: قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، قال: حدثنا أيوب عن محمد بن سيرين، قال: "هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف فما خف فيها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين"[٥].

لما حدث الخلاف بين الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين- وجر إلى القتال، دخل كعب بن سور رَحِمَهُ اللَّهُ في بيت، وطين عليه، وجعل فيه كوة يناول منها

---

(١) "كتاب الزهد" للبيهقي رقم (٨٤٧) (٢/ ٣١٦)، "سير أعلام النبلاء" (٤/ ١٩٠).
(٢) "حلية الأولياء" (٢/ ٢٠٤).
(٣) المرجع نفسه (٢/ ٢١٢).
(٤) عاصر مطرف بن عبد الله بن الشخير فتنا عظيمة، وفق للنجاة منها، قال العجلي: "تابعي ثقة، من خيار التابعين، رجل صالح، وكان أبوه من أصحاب النبي ﷺ، ولم ينج من فتنة ابن الأشعث بالبصرة إلا رجلان: مطرف بن عبد الله، ومحمد بن سيرين، ولم ينج منها بالكوفة إلا رجلان: خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي، وإبراهيم النخعي"، وانظر: "معرفة الثقات" (٢/ ٢٨٢).
(٥) "العلل ومعرفة الرجال" (٣/ ١٨٢)، و"السنة" للخلال (٢/ ٤٦٦)، وانظر: "منهاج السنة" (٦/ ٢٣٦).

طعامه، وشرابه، اعتزالا للفتنة[١].

عن ابن طاووس عن أبيه، قال: لما وقعت فتنة عثمان، قال رجل[٢] لأهله: "أوثقوني بالحديد، فإني مجنون"، فلما قتل عثمان، قال: "خلوا عني، الحمد لله الذي شفاني من الجنون، وعافاني من قتل عثمان"[٣].

وعن مرحوم بن عبد العزيز، قال: سمعت أبي يقول: لما كانت فتنة يزيد بن المهلب، انطلقت أنا ورجل إلى ابن سيرين، فقلنا: ما ترى؟ فقال: "انظروا إلى أسعد الناس حين قتل عثمان، فاقتدوا به"، قلنا: هذا ابن عمر كف يده[٤].

وقال بشير بن عقبة: قلت ليزيد بن عبد الله بن الشخير: ما كان مطرف يصنع إذا هاج في الناس هيج؟ قال: "يلزم قعر بيته، ولا يقرب لهم جمعة ولا جماعة حتى تنجلي لهم عما انجلت"[٥].

وقال قتادة: كان مطرف إذا كانت الفتنة نهى عنها وهرب، وكان الحسن البصري ينهى عنها، ولا يبرح، فقال مطرف: "ما أشبه الحسن إلا برجل يحذر الناس السيل ويقوم بسننه"[٦].

وعن مالك بن دينار، قال: لما وقعت الفتنة، أتيت الحسن أسأله: يا أبا سعيد، ما تأمرني؟ فلا يجيبني، فقلت: "يا أبا سعيد، أتيتك ثلاثة أيام أسألك،

---

(١) رواه ابن سعد في "الطبقات" (٧/ ٩٢)، وربما فعل كعب ذلك ليراه المتورط المستدرج، فيراجع، ويستدرك.
(٢) وسماه بعض الرواة: عامر بن ربيعة.
(٣) "حلية الأولياء" (١/ ١٧٨، ١٧٩).
(٤) "المصدر السابق" (٢/ ٢٧٦).
(٥) "الطبقات الكبرى" (٧/ ١٤٢).
(٦) "المصدر نفسه" (٧/ ١٤٢)، "حلية الأولياء" (٢/ ٢٠٤).

وأنت معلمي فلا تجيبني، والله، لقد هممت أن آخذ الأرض بقدمي، وأشرب من أفواه الأنهار، وآكل من بقل البرية، حتى يحكم الله بين عباده"، قال: فأرسل الحسن عينيه باكيا، ثم قال: "يا مالك، ومن يطيق ما تطيق؟ لكنا والله ما نطيق هذا"(١).

وعن أبي الحارث الصائغ، قال: سألت أبا عبد الله -يعني الإمام أحمد- في أمر كان حدث في بغداد، وهم قوم بالخروج، فقلت: "يا أبا عبد الله! ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم؟" فأنكر ذلك عليهم، وجعل يقول: "سبحان الله! الدماء، الدماء، لا أرى ذلك، ولا آمر به، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة يسفك فيها الدماء، ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أما علمت ما كان الناس فيه -يعني أيام الفتنة-؟" قلت: والناس اليوم أليس هم في فتنة يا أبا عبد الله؟ قال: "وإن كان، فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف عمت الفتنة، وانقطعت السبل، الصبر على هذا ويسلم لك دينك خير لك"، ورأيته ينكر الخروج على الأئمة، وقال: "الدماء، لا أرى ذلك، ولا آمر به"(٢).

وعن أبي المنهال، قال: لما كان زمن أخرج ابن زياد: وثب مروان بالشام، وابن الزبير بمكة، ووثب الذين كانوا يدعون القراء بالبصرة؛ غم أبي غما شديدا، وكان يثني على أبيه خيرا- قال: قال لي: انطلق إلى هذا الرجل الذي من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى أبي برزة الأسلمي، فانطلقت معه، حتى دخلنا عليه في داره، وإذا هو في ظل علو له من قصب، في يوم شديد الحر، فجلست إليه، قال: فأنشأ أبي يستطعمه الحديث، وقال: يا أبا برزة ألا ترى؟ قال: فكان أول

---

(١) "حلية الأولياء" (٢/ ٣٦٧، ٣٦٨).

(٢) "السنة" للخلال (١/ ١٣٢).

شيء تكلم به، أن قال: إني أحتسب عند الله ﷻ أني أصبحت ساخطا على أحياء قريش، وأنكم -معشر العرب- كنتم على الحال الذي قد علمتم من جهالتكم، والقلة، والذلة، والضلالة، وأن الله ﷻ نعشكم بالإسلام، وبمحمد ﷺ خير الأنام، حتى بلغ بكم ما ترون، وإن هذه الدنيا هي التي أفسدت بينكم، وإن ذاك الذي بالشام والله! إن يقاتل إلا على الدنيا، وإن الذي حولكم الذين تدعونهم قراءكم: والله! لن يقاتلوا إلا على الدنيا"؛ قال: فلما لم يدع أحدا، قال له أبي: بم تأمر إذن؟ قال: "لا أرى خير الناس اليوم: إلا عصابة ملبدة؛ خماص البطون من أموال الناس، خفاف الظهور من دمائهم"(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وقل من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير"(٢).

وقال -أيضا-:"... ولهذا استقر أمر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة؛ للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم"(٣) اهـ.

فصل: وكثر ما تتأكد العزلة في الفتن لأحد صنفين

أحدهما: من خشي على دينه أن يفتن فيه، ويحول عنه.

الثاني: من كان ذا بأس وشدة، يخشى على الناس منه ومن بأسه، ومثله صاحب الرأي والمشورة والدهاء، الذي يخشى على الناس من رأيه، ولذا ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال- لما ذكرت عنده الفتن، وسئل: أي أهل ذلك

---

(١) "حلية الأولياء" (٢/ ٣٢، ٣٣).
(٢) "منهاج السنة النبوية" (٤/ ٥٢٧).
(٣) "منهاج السنة النبوية" (٤/ ٥٢٧).

الزمان شر؟ - قال: "كل خطيب مسقع، وكل راكب موضع"؛ وذلك لأن الأول محرض على الفتنة بلسانه، والآخر بسنانه، فاجتمع الشران: شر القول، وشر العمل.

فائدة العزلة وقت الفتن

- صيانة الدين عن المساس، والنفس عن التلف، والعرض عن الضيم والانتهاك، والمال عن الضياع، وقل من شارك في فتنة، وسلمت له هذه كلها.

- سلامة الصدر على المسلمين، ولذلك أمر سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أهله ألا يخبروه بشيء من أخبار الناس لما وقعت الفتنة حتى يجتمعوا على إمام.

- إطفاء الفتنة وإخماد نارها؛ لأن الناس كلما اعتزلوا الفتن؛ قل أهلها، فقل شرها، وكلما تشرفوا لها وقاموا وقعدوا فيها، كثروا سواد أهلها، فزاد شرها، وعظم خطبها. ولذلك بوب البخاري في "صحيحه" في كتاب الفتن، فقال: باب من كره أن يكثر سواد أهل الفتن والظلم، وذكر فيه حديث أبي الأسود، قال: قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة فأخبرته، فنهاني أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيأتي السهم يصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب به فيقتله، فأنزل الله تعالى: {إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم} [النساء: ٩٧].

تنبيهات

الأول: اعلم -رحمك الله تعالى- أن العزلة لا تشرع مطلقا، لكن لها حالات استثنائية تشرع فيها، وما ورد من النصوص في مدح العزلة مطلقا يحمل على أنه خاص بأفراد معينين تضر المخالطة بدينهم ودنياهم، أو أنه خاص

بزمان الفتن التي أمر النبي ﷺ باعتزالها.

الثاني: اعلم أن العزلة في إلفتن على وجهين بحسب الحاجة والمصلحة، وبحسب القدرة والاستطاعة:

أحدهما: العزلة التامة في مكان بعيد عن الناس.

والآخر: العزلة النسبية أو الجزئية؛ بحيث يعتزل الفتن وأهلها، ولا يشارك فيها، وإن كان مقيما بين ظهراني الناس.

الثالث: إذا خرج بغاة على الإمام الشرعي، فالصواب مناصرته عليهم وعدم خذلانه بزعم مشروعية العزلة في مثل ذلك، قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى: "والصواب أن يقال: إن الفتنة أصلها الابتلاء، وإنكار المنكر واجب على كل من قدر عليه، فمن أعان المحق أصاب، ومن أعان المخطئ أخطأ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها"(١) اهـ.

الرابع: أما ما وقع بين الصحابة رضي الله عنهم من الاقتتال: "فلا يجوز أن ينسب إلى أحد منهم خطأ مقطوع به؛ إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه، وأرادوا الله عز وجل وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر؛ لحرمة الصحبة، ولنهي النبي ﷺ عن سبهم، وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم"(٢).

ومما ينجي من الفتنة لزوم الجماعة

من لطف الله تعالى بهذه الأمة المرحومة أنه عز وجل لا يجمعها على ضلالة أبدا،

---

(١) نقله عنه الحافظ في "الفتح" (١٣/ ٣٥).

(٢) انظر: "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٦/ ٣٢١، ٣٢٢)، و"شرح النووي لصحيح مسلم" (١٨/ ١١).

بل الحق فيها دائم ما دامت الأمة، فقد ضمن -تبارك وتعالى- بقاء طائفة من الأمة ثابتة على الحق مستمسكة به حتى يأتيها أمر الله، وهي على ذلك.

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: "اتقوا الله واصبروا حتى يستريح بر، أو يستراح من فاجر، وعليكم بالجماعة، فإن الله لا يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة"(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: "إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار"(٢).

وفي حديث عمر رضي الله عنه مرفوعا: "... فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، ومن الاثنين أبعد، فمن سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن"(٣).

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٨/ ٦٠٤)، وصححه الحافظ في "التلخيص" (٣/ ٢٩٦).

(٢) روي عن عدة من الصحابة، وهو صحيح دون قوله (ومن شذ شذ في النار).

(٣) جزء من حديث أخرجه الطيالسى (٣١)، وأبو عبيد في الخطب والمواعظ (١٣٣)، وأحمد (١/ ١٨)، وعبد بن حميد (ص ٣٧، رقم ٢٣)، والترمذى (٢١٦٥)، وأبو يعلى (١٤١)، والبزار (١٦٦)، وابن حبان (٧٢٥٤)، والحاكم (١/ ١٩٧) وغيرهم والحديث قال عنه أبو زرعة الرازي، وأبو حاتم الرازي: هذا خطأ، رواه ابن الهاد، عن عبد الله بن دينار، عن الزهري، عن السائب بن يزيد، أن عمر أخذ من الخيل الزكاة، كما في علل ابن أبي حاتم (٣/ ١٦٣)، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال ابن العربي في العارضة (٥/ ٢٦): حسن صحيح، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال ابن كثير في إرشاد الفقيه (٢/ ٤٠١): له طرق أخر وهو حديث مشهور جدا، وقال ابن حجر في تخريج المشكاة (٥/ ٣٨٨): إسناده صحيح، وصححه الشيخ ناصر في الصحيحة (٤٣٠)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١/ ٢٦٩): إسناده صحيح، وصححه بمجموع طرقه العلامة الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (ص ٣٢٤- ٣٢٥) بقوله: الظاهر أن =

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "يا أيها الناس، عليكم بالطاعة والجماعة، فإنها حبل الله الذي أمر به، وما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة"(١).

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "تلزم جماعة المسلمين وإمامهم"، قال: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: "فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك"(٢).

وقال مطرف: قلت لعمران بن حصين: "أنا أفقر إلى الجماعة من عجوز أرملة؛ لأنها إذا كانت جماعة عرفت قبلتي ووجهي، وإذا كانت الفرقة التبس علي أمري" قال له: "إن الله عز وجل سيكفيك من ذلك ما تحاذر"(٣).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الجماعة رحمة، والفرقة عذاب"(٤).

ولما أتم ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه الصلاة بمنى أربع ركعات - خلافا لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، عجب الصحابة من صنيعه ذلك، حتى إن ابن مسعود رضي الله عنه استرجع، وقال: "صليت مع رسول الله

=

الحديث بمجموع طرقه صحيح والله أعلم، وتعليل الحديث من طريق أو الطريقين لا يعني أنه معل من جميع طرقه، إلا إذا جزم حافظ من الحفاظ أنه لا يصح بوجه من الوجوه، وكذا صححه شيخنا في شفاء العي (٢/ ٤٠٧).

(١) رواه الآجري في "الشريعة" (١/ ١٢٣، ١٢٤)، رقم (١٧)، واللالكائي في "الأصول" رقم (١٥٩).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٦١٥- فتح)، (١٣/ ٣٥)، ومسلم رقم (١٤٧٥)، وغيرهما.

(٣) "حلية الأولياء" (٢/ ٢٠٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٧٨، ٣٧٥)، وابن أبي عاصم في "السنة" رقم (٨٩٥)، وحسنه الألباني في "الصحيحة" رقم (٦٦٧).

ﷺ بمنى ركعتين، وصليت مع أبي بكر رَضِوَاللَّهُ عَنْهُ بمنى ركعتين، وصليت مع عمر بن الخطاب رَضِوَاللَّهُ عَنْهُ بمنى ركعتين، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان"[١]، وفي رواية أنه: "صلى أربعا، فقيل له: عبت على عثمان ثم صليت أربعا، قال: الخلاف شر"[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "سبب الاجتماع والألفة جمع الدين، والعمل به كله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطنا وظاهرا.

وسبب الفرقة: ترك حظ مما أمر العبد به، والبغي بينهم

ونتيجة الجماعة: رحمة الله ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه.

ونتيجة الفرقة: عذاب الله ولعنته، وسواد الوجوه، وبراءة الرسول منهم"[٣]اهـ.

ومن أهم المظاهر التي تشد المسلمين شدا إلى حبل الله وصراطه المستقيم المواظبة على حضور صلاة الجماعة حتى في أحلك أوقات الفتن، باعتبار ذلك من مظاهر التعاون على البر والتقوى، وهي -إن لم تستأصل الفتنة- فإنها تحجم أضرارها، وتذكر المسلمين بأخوة الإيمان، ووحدة العقيدة، واستصحاب أصل الائتلاف والتلاحم.

عن عبيد الله بن عدي بن خيار أنه دخل على عثمان بن عفان رَضِوَاللَّهُ عَنْهُ وهو

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢/ ٦٥٦- فتح).
(٢) أخرجه أبو داود (١٩٦٠) عن الأعمش قال فحدثني معاوية بن قرة، عن أشياخه، وفي الإسناد جمع مبهم.
(٣) "مجموع الفتاوى" (١/ ١٧).

محصور، فقال: "إنك إمام عامة، ونزل بك ما نرى، ويصلي لنا إمام فتنة ونتحرج، فقال: "الصلاة أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسن الناس فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم"[١].

قال أبو محمد بن حزم: "وكان ابن عمر يصلي خلف الحجاج ونجدة، أحدهما: خارجي[٢]، والثاني: أفسق البرية[٣]، وكان ابن عمر يقول: "الصلاة حسنة ما أبالي من شركني فيها".

وعن القاسم بن عبد الرحمن: أنهم قالوا لابن عمر في الفتنة الأولى: ألا تخرج فتقاتل؟ فقال: "قد قاتلت والأنصاب بين الركن والباب، حتى نفاها الله ﷻ من أرض العرب؛ فأنا أكره أن أقاتل من يقول: لا إله إلا الله"، قالوا: "والله ما رأيك ذلك، ولكنك أردت أن يفني أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم بعضا حتى إذا لم يبق غيرك، قيل: بايعوا لعبد الله بن عمر بإمارة المؤمنين"، قال: "والله ما ذلك في، ولكن إذا قلتم: حي على الصلاة، أجبتكم، حي على الفلاح، أجبتكم، وإذا افترقتم لم أجامعكم، وإذا اجتمعتم لم أفارقكم"[٤].

وعن نافع، قال: قيل: لابن عمر - رضي الله تعالى عنهما - زمن ابن الزبير، والخوارج، والخشبية: أتصلي مع هؤلاء، ومع هؤلاء، وبعضهم يقتل بعضا؟

---

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" رقم (٦٩٥) (٢/ ١٨٨ - فتح).

(٢) أي: نجدة بن عامر الحنفي الحروري الخارجي من رءوس الخوارج. انظر: "لسان الميزان" (٦/ ١٤٨).

(٣) الأولى أن يقول: "من أفسق البرية"، أما إطلاقها هكذا فلا ينبغي؛ لأنه لا يعلمه إلا الله سبحانه، وقد روي عن قتادة، قال: قلت لسعيد بن المسيب: "أنصلي خلف الحجاج؟ " قال: "إنا لنصلي خلف من هو شر منه".

(٤) "حلية الأولياء" (١/ ٢٩٤).

قال: "من قال: حي على الصلاة، أجبته، ومن قال: حي على الفلاح، أجبته، ومن قال: حي على قتل أخيك المسلم، وأخذ ماله، قلت: لا"[١].

وقال مسلم: كنا مع عبد الله بن الزبير والحجاج محاصره، وكان ابن عمر يصلي مع ابن الزبير، فإذا فاتته الصلاة معه وسمع مؤذن الحجاج، انطلق فصلى معه، فقيل: لم تصلي مع ابن الزبير ومع الحجاج؟ فقال: "إذا دعونا إلى الله أجبناهم، وإذا دعونا إلى الشيطان تركناهم"، وكان ينهى ابن الزبير عن طلب الخلافة والتعرض لها[٢].

وعن ابن جريج: قلت لعطاء: أرأيت إماما يؤخر الصلاة حتى يصليها مفرطا فيها، قال: "أصلي مع الجماعة أحب إلي".

وعن أبي الأشعث قال: ظهرت الخوارج علينا، فسألت يحيي بن أبي كثير، فقلت: يا أبا نصر، كيف ترى في الصلاة خلف هؤلاء؟ قال: "القرآن إمامك، صل معهم ما صلوها".

وعن الحسن قال: "لا تضر المؤمن صلاته خلف المنافق، ولا تنفع المنافق صلاته خلف المؤمن".

قال علي[٣]: ما نعلم أحدا من الصحابة رضي الله عنهم امتنع من الصلاة خلف المختار، وعبيد الله بن زياد، والحجاج، ولا فاسق أفسق من هؤلاء، وقد قال الله عز وجل: {وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} [المائدة: ٢][٤].

---

(١) "المرجع السابق" (٨/ ٣٠٩).
(٢) "العزلة" ص (١٥).
(٣) أي: الإمام أبو محمد علي بن حزم رحمه الله تعالى.
(٤) "المحلى" (٤/ ٢١٣)، وانظر: "قاعدة أهل السنة والجماعة في رحمة أهل البدع =

مواجهة الفتنة بالعمل الصالح

في مواطن الفتن والنوازل ينشغل كثير من الناس بتتبع الأخبار، ويولعون بذلك، ومن ثم يغلب على أحاديث المجالس: "سمعت، ورأيت، وأتوقع، ولو كان كذا كان أولى، ولو قدم هذا أو أخر ذاك لكان أحرى"، مما يصرف هممهم عن النوافل المستحبة، وربما فرطوا في الواجبات، أو أخرجوا الصلاة عن وقتها بسبب السهر في السمر والجدل مثلا، بجانب الإخلال بواجبات المعاش، وحقوق الأهل والأولاد.

كل ذلك بسبب السهر في قيل وقال، والإغراق في تصفح الجرائد والمجلات، ومتابعة القنوات، بل الشغف بذلك إلى حد إدمانها والوقوع في أسرها[1].

وهذا كله انحراف عن الهدي النبوي في التعامل مع الفتنة، وقد قال ﷺ: "خير الهدي هدي محمد ﷺ "[2]، فكيف كان هديه ﷺ في ذلك؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه "قال رسول الله ﷺ: "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مومنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا""[3].

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى يقول في هذا الحديث: "يصبح

=

والمعاصي، ومشاركتهم في صلاة الجماعة"، شيخ الإسلام ابن تيمية.

(١) "معالم في أوقات الفتن والنوازل" للشيخ عبد العزيز السدحان -حفظه الله تعالى- ص (٤٣، ٤٤).

(٢) انظر: "خطبة الحاجة" للألباني رحمه الله تعالى.

(٣) رواه مسلم في "صحيحه" رقم (١١٨)، والترمذي (٢١٩٦)، والإمام أحمد (٢/ ٣٠٤).

الرجل محرما لدم أخيه وعرضه وماله، ويمسي مستحلا له، ويمسي محرما لدم أخيه وعرضه وماله، ويصبح مستحلا له"(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بادروا بالأعمال ستا: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم"(٢).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فزعا يقول: "سبحان الله! ماذا أنزل الله من الخزائن؟ وماذا أنزل(٣) من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحجرات -يريد أزواجه- لكي يصلين(٤)؟ رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة"(٥).

فالعمل الصالح وسيلة للثبات على الحق، قال تعالى: {ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا} [النساء: ٦٦].

وإن النفس وقت الفتن إن لم يبادر المؤمن بإشغالها بالحق، شغلته بالباطل ولا بد.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: "نفسك إن لم تشغلها بالحق؛ شغلتك بالباطل".

---

(١) نقله عنه الترمذي في "سننه" رقم (٢١٩٨) (٤/ ٤٨٨).

(٢) رواه مسلم، رقم (١١٨).

(٣) أي: أنه أوحي إليه صلى الله عليه وسلم في نومه ذاك بما سيقع بعده من الفتن، فعبر عنه بالإنزال، كما في "فتح الباري" (١/ ٢٥٤).

(٤) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: "فيه الندب إلى الدعاء والتضرع عند نزول الفتنة، ولا سيما في الليل لرجاء وقت الإجابة، لتكشف أو يسلم الداعي ومن دعا له".اهـ. "الفتح" (١/ ٢٥٥).

(٥) أخرجه البخاري (١/ ٢٥٣) رقم (١١٥)، وأحمد (٦/ ٢٩٧).

وصاحب الأعمال الصالحة لا يخزيه الله أبدا

ففي حديث بدء الوحي قالت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا للنبي - صلى الله عليه سلم -: "كلا والله! لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق"(١).

وروي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء"(٢).

ويروى أن الفتنة لما وقعت، قال طلق بن حبيب: "اتقوها بالتقوى".

وعن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "العبادة في الهرج كهجرة إلي"(٣).

قال الأبي المالكي رحمه الله تعالى: "الهرج: الفتنة والاختلاط، ووجه التشبيه: أن المهاجر فر بدينه ممن يصده عنه إلى الاعتصام برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذلك هذا المنقطع للعبادة في الفتنة فر عن الناس بدينه إلى الاعتصام بعبادة ربه عَزَّ وَجَلَّ، فهو مهاجر إلى الله سبحانه وتعالى"(٤).

وقد قال الله تعالى: {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد: ١٠] لأن الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا فعلوا

---

(١) رواه البخاري رقم (٣)، ومسلم (٢٤٥) من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

(٢) روي من حديث عبد الله بن جعفر و أبي سعيد الخدري و عبد الله بن عباس و عمر بن الخطاب و عبد الله بن مسعود و أم سلمة و أبي أمامة و معاوية بن حيدة و أنس بن مالك، والحديث قال عنه الشيخ ناصر في الصحيحة (١٩٠٨): وجملة القول أن الحديث بمجموع طرقه وشواهده صحيح بلا ريب بل يلحق بالمتواتر عند بعض المحدثين المتأخرين.

(٣) رواه مسلم رقم (٥٣٧٦).

(٤) "إكمال إكمال المعلم" (٧/ ٢٨٣).

ذلك في وقت خوف وقلة، بخلاف من فعل ذلك بعد الفتح، فإنهم- وإن كانوا موعودين بالحسنى- إلا أنهم أنفقوا وقاتلوا بعد عزة الإسلام وقوة أهله(١).

وقال تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة: ٤٥].

وذلك لأن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر.

وقال- جل وعلا- مخاطبا خليله محمدا ﷺ: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)} [الحجر: ٩٧ - ٩٩]. فأمره ﷺ بأن يفزع إلى الصلاة والذكر إذا ضاق صدره بما يقوله أعداء الدين، فإن في ذلك شرحا للصدر، وتفريجا للكربة، وهكذا كان هديه ﷺ؛ فقد كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، قال حذيفة رضي الله عنه: "رجعت إلى النبي ﷺ ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى"(٢).

وعن أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه قال: "لقد رأيتنا ليلة بدر، وما فينا إنسان إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه كان يصلي إلى شجرة، ويدعو حتى أصبح"(٣).

ويُروى أن ثابتًا قال: (كان النبي ﷺ إذا أصابته خصاصة نادى بأهله: "صلوا، صلوا". قال ثابت: "وكان الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى

(١) انظر: "مسائل في الفتن" للصبحان ص (٤١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٨٨)، وابن جرير (١/ ٢٠٥)، وأبو داود (١٣١٩)، وحسَّنه العلامة الألباني.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٢٥)، وأبو يعلى (٢٨٠)، وابن خزيمة (٨٩٩)، وابن حبان (٢٢٥٧)، والطيالسي (١١٦)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٨- ٣٩) والحديث صححه العلامة الألباني في صحيح الترغيب، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٢/ ٢٩٩): إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير حارثة بن مضرب فمن رجال أصحاب السنن.

الصلاة")[١].

ورُوي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: "كان النبي، صلى الله عليه وسلم - إذا كان ليلة ريح شديدة، كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح، وإذا حدث في السماء حدث من خسوف شمس أوقمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى ينجلي"[٢].

وهكذا كان شأن الصحابة الأبرار رضي الله عنهم، فقد رُوِيَ عن النضر أنه قال: (كانت ظلمة على عهد أنس، فأتيته، فقلت: "يا أبا حمزة، هل كان هذا يصيبكم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ " فقال: "معاذ الله! إن كانت الريح لتشتد فنبادر إلى المسجد مخافة أن تكون القيامة)[٣].

هكذا كان شأن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان في كل جيل مع الصلاة شأن الجندي مع سيفه، وشأن الغني مع ثروته، وشأن الطفل الصغير مع بكائه وصراخه، واستعطافه للأم الحنون، بل كانوا أكثر إدلالًا وثقة بصلاتهم،

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص١٠) وابن أبي حاتم في تفسيره، والبيهقي في الشعب، كما في الدر المنثور (٤/ ٣١٣)، وضعفه العلامة الألباني في الضعيفة (٢٧٦٠) بقوله: وهذا إسناد رجاله ثقات؛ كلهم من رجال " التهذيب". إلا أنه مرسل، لأن ثابتا- هو البناني- تابعي معروف مكثر عن أنس، ومع هذا صححه الشيخ الرفاعي في " مختصره"، وتبعه بلديه الصابوني، وغالب الظن أنهما لم يعرفا من هو ثابت؟ ثم رأيت الحديث في " شعب الإيمان " للبيهقي (٣/ ١٥٥/ ٣١٨٥) من طريق أخرى عن سيار بن حاتم به معضلا.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المطر، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٢٣، رقم ٥٦٨) والحديث قال عنه ابن رجب في فتح الباري (٦/ ٣٢٧): هو منقطع وفي إسناده: نعيم بن حماد وله مناكير، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢١١): رواه الطبراني في «الكبير» من رواية زياد بن صخر، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات.

(٣) أخرجه أبو داود (١١٩٦) والحديث صححه الحاكم، وقال النووي في الخلاصة (٢/ ٨٦٥): إسناده حسن، قال عنه المنذري في تهذيب السنن (٢/ ٤٦): حكى البخاري في التاريخ -أن- فيه اضطرابًا، وضعفه العلامة الألباني في ضعيف أبي داود الأم (٢/ ٢٩).

وأقوى اعتمادًا عليها من كل ذلك، وأصبح ذلك طبيعة لهم لا تفارقهم، فإذا أفزعوا أو أثيروا، وإذا دهمهم عدو، أو تأخر عليهم فتح، أو التبس عليهم أمر، التجئوا إلى الصلاة، وفزعوا إليها.

وفي أعقاب معركة اليرموك، وقف ملك الروم يسائل فلول جيشه المهزوم: "ويلكم، أخبروني عن هؤلاء الذين يقاتلونكم، أليسوا بشرًا مثلكم؟! " قالوا: "بلى أيها الملك"، قال: "فأنتم أكثر أم هم؟! " قالوا: "بل نحن أكثر منهم في كل موطن"، قال: "فما بالكم إذن تنهزمون؟! " فأجابه شيخ من عظمائهم: "إنهم يهزموننا؛ لأنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويتناصفون بينهم"(١).

فللصلاة خصوصية في دفع الفتن ورفعها

عن عبيد الله بن عدي بن خيارأنه دخل على عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو محصور، فقال: لا إنك إمام عامة(٢)، ونزل بك ما نرى(٣)،ويصلي لنا(٤) إمام فتنة(٥)، ونتحرج"، فقال: "الصلاة أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسن الناس فأحسن معهم(٦)، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم"(٧).

قال الحافظ ابن حجر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "وفي هذا الأثر الحض على شهود الجماعة،

---

(١) "البداية والنهاية" (٧/ ١٥).

(٢) أي: إمام جماعة، أو الإمام الأعظم.

(٣) من الحصار.

(٤) يؤمنا.

(٥) رئيس الفتنة الذي خرج على إمام المسلمين.

(٦) ظاهره أنه رخَّص له في الصلاة معهم، كانه يقول: "لا يضرك كونه مفتونًا، بل إذا أحسن فوافقه على إحسانه، واترك ما افتتن به". كذا في "الفتح" (٢/ ٢٢٢).

(٧) تقدم تخريجه.

ولا سيما في زمن الفتنة؛ لئلا يزداد تفرق الكلمة، وفيه أن الصلاة خلف من تُكره الصلاةُ خلفَه أولى من تعطيل الجماعة"(١).

الدعاء والتضرع في الفتن

الضراعة إلى الله تعالى من أسباب كشف الغمة وتفريج الكربة؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣)} [الأنعام: ٤٢، ٤٣]، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤)} [الأعراف: ٩٤].

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ مر بقوم مبتلَيْنَ، فقال: "أما كان هؤلاء يسألون العافية؟! "(٢).

وكان الحسن البصريّ يقول: "إن الحجاج عذابُ الله، فلا تدفعوا عذاب الله بأيديكم، ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع، فإن الله تعالى يقول: {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)} [المؤمنون: ٧٦].

وعند الفتن تطيش العقول، وتحتار النفوس فلا تدري ماذا تعمل؟ وفي هذا الموقف يغفل كثير من الناس عن سلاح عظيم كان عُدَّةً للأنبياء والصالحين على مر الزمان، ألا وهو الدعاء، قال تعالى عن نبيه نوح: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١)} [القمر: ١٠، ١١] وقال عن نبيه ذي النون: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي

---

(١) "فتح الباري" (٢/ ١٩٠).

(٢) أخرجه البزار (٣١٣٤- كشف) والحديث صححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢١٩٧).

الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)} [الأنبياء: ٨٧].

وقال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)} [غافر: ٦٠]، وقال ﷺ: "الدعاء هو العبادة"(١).

وقال ﷺ: "أعجز الناس من عجز عن الدعاء"(٢).

ومن شأن الفتن أن تشتبه فيها الأمور، ويغمض وجه الحق ويلتبس على الجمهور، إلا من عصم الله ورحم، فمن أعظم أسباب النجاة منها الاعتصام بالله تعالى والاستغاثة به، ودعاؤه، فإنه ﷻ القائل في الحديث القدسي: "يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم" الحديث(٣).

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧١)، وابن أبى شيبة (٦/ ٢١)، والبخارى فى الأدب المفرد (٧١٤)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذى (٢٩٦٩)، والنسائى فى الكبرى (١١٤٦٤)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وابن حبان (٨٩٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٩)، والطبراني في الدعاء (٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ١٢٠)، وأبو عمرو بن منده في الفوائد (٣٥)، والحاكم (١/ ٦٦٧) وغيرهم، والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم وأقره الذهبي، وحسنه البغوي في شرح السنة (٣/ ١٥٨)، وقال النووي: أسانيده صحيحة كما في الفيض، وقال الحافظ في الفتح (١/ ٤٩): إسناده جيد، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٠/ ٢٩٨): إسناده صحيح، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١١٧٧).

(٢) رواه عبد الغني المقدسي في "الدعاء" رقم (٢٠) ص (٥٣- ٥٥)، وصححه الألباني في "الصحيحة" رقم (٦٠١).

(٣) رواه مسلم في "صحيحه" رقم (٢٥٧٧)، والترمذي رقم (٢٤٩٧).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: "كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم"(١).

فالهداية إلى الحق والاستبصار به وقت الفتن منحة ربانية، وهبة إلهية، قال تعالى: {فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: ٢١٣].

وكان إبراهيم التيمي رحمه الله تعالى يقول: "اللهم اعصمني بدينك وسنة نبيك من الاختلاف في الحق، ومن اتباع الهوى، ومن سبل الضلال، ومن شبهات الأمور، ومن الزيغ والخصومات".

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "تكون فتنة لا ينجي منها إلا دعاءٌ كدعاء الغريق"(٢).

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "ليأتين على الناس زمان، لا ينجو فيه إلا من دعا كدعاء الغريق"(٣).

وعن يحيى بن سعيد قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يصلي من الليل حين نشب الناس في الفتنة، ثم نام، فأُرِيَ في المنام، فقيل له: "قم فسل الله أن يعيذك من الفتنة التي أعاذ منها صالحَ عبادِه"، فقام يصلي، ثم اشتكى، فما خرج

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه"، كتاب صلاة المسافرين وقصرها (رقم ٧٧٠).
(٢) "مصنف ابن أبي شيبة" (٦/ ٢٢، ٧/ ٤٥١، ٥٣١)، و"شعب الإيمان، (٢/ ٤٠).
(٣) "حلية الأولياء" (١/ ٢٧٤).

إلا جنازة(١).

وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: لما نشب الناس في الطعن علي عثمان رضي الله تعالى عنه، قام أبي يصلي من الليل، وقال: "اللهم، قني من الفتنة، بما وقيت به الصالحين من عبادك"؛ قال: فما خرج إلا جنازة(٢).

وعن عون بن عبد الله بن عتبة قال: بينا رجل بمصر في بستان -زمن فتنة آل الزبير- جالسًا، كئيبًا، حزينًا، يبكي، ينكث(٣) الأرض بشيء معه؛ فرفع رأسه، فإذا صاحب مسحاة(٤)، قد مُثِّل له، فقال: "ما لي أراك مهمومًا حزينًا؟ " فكأنه ازدراه، فقال: لا شيء؛ فقال: "أبالدنيا؟ فإن الدنيا عَرَضٌ(٥) حاضر، يأكل منها البر والفاجر، أم بالآخرة؟ فإن الآخرة أجل صادق، يُفصَل فيه بين الحق والباطل؛ قال: حتى ذكر أن لها مفاصلَ كمفاصل اللحم، من أخطأ منها شيئًا أخطأ الحق" قال: فكأنه أعجبه بذلك من كلامه؛ قال: اهتمامي بما فيه المسلمون؛ فقال: "إن الله سينجيك بشفقتك على المسلمين، وسل، مَن ذا الذي سأل اللهَ فلم يعطه، أو دعا الله فلم يجبه، أو توكل عليه فلم يكفه، أو وثق به فلم ينجه؟ " قال: فعلقت الدعاء، فقلت: "اللهم سلمني، وسلم مني"؛ قال: فتجلت الفتنة ولم تصب منه شيئًا(٦).

---

(١) "نفس المرجع السابق" (١/ ١٧٨).
(٢) المرجع السابق.
(٣) كذا بالأصل! ولعلها (ينكت) بالتاء، يقال: نكت الأرَض: أثر فيها بعود أو نحوه، ويقال: أتيته وهو ينكُت: يفكر كأنما يحدث نفسَه.
(٤) المِسْحاة: أداة القَشر والحرف.
(٥) العَرَض: متاع الدنيا وحُطامها.
(٦) "حلية الأولياء" (٤/ ٢٤٤).

التعوذ بالله تعالى من الفتن

أمر النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم بالتعوذ بالله من الفتن، فقال ﷺ: "تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها ومن بطن"(١).

وصح عنه ﷺ التعوذُ بالله من كثير من الفتن:

- مثل قوله ﷺ: "وأعوذ بك من فتنة الدنيا"(٢).

- وقوله ﷺ: "وأعوذ بك من فتنة الغنى"(٣).

- وقوله ﷺ: "وأعوذ بك من شر فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال"(٤).

- وقوله ﷺ: "وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات"(٥).

وقال الإمام البخاريّ رحمه الله تعالى: "بَاب التَّعَوُّذِ مِنَ الفِتَنِ"، ثم روى حديث أنس رضي الله عنه قَالَ: سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالمَسْأَلَةِ، وفيه: "أَنْشَأَ عُمَرُ فَقَالَ: رَضِينَا باللهِ رَبًّا، وبالإِسْلام دِينًا، وَبمُحَمَّدٍ رَسُولًا، نَعُوذُ باللهِ مِنْ سُوءِ الفِتَنِ ... " وقال أنس- لمَّا حَدَّثَ بالحديث- "عَائِذًا بالله مِنْ شَرِّ الفِتَنِ"(٦).

وقال البخاريّ في "صحيحه": وقال ابنُ أبي مُليكة: "اللهمَّ، إنا نعوذ بك أن نرجعَ على أعقابنا، أو نُفْتَنَ"(٧).

---

(١) قطعة من حديث رواه مسلم (٤/ ٢٢٠٠) رقم (٢٨٦٧).
(٢) رواه البخاريّ (١١/ ١٧٨).
(٣) رواه البخاريّ (١١/ ١٨١).
(٤) رواه البخاريّ (١١/ ١٧٦).
(٥) رواه البخاريّ (١١/ ١٧٦).
(٦) أخرجه البخاريّ في "صحيحه" رقم (٦٦٧٨)، ومسلم رقم (٢٣٥٩).
(٧) "فتح الباري" (١٣/ ٣).

ولما رأى النبي ﷺ عمار بن ياسر رضي الله عنه وهو يحمل لَبِنتين لبنتين أثناء بناء المسجد؛ أخذ ينفض التراب عنه، ويقول؛ "ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار" قال عمار رضي الله عنه: "أعوذ بالله من الفتن"[١].

قال الحافظ ابن حجر رضي الله عنه: "فيهِ دليلٌ عَلَى استحبابِ الاستعاذة من الفتن، ولو علم المرءُ أنه متمسكٌ فيها بالحق؛ لأنها قد تفضي إلى وقوع ما لا يرى وقوعه، قال ابنُ بطال: وفيه ردٌّ للحديث الشائع: "لا تستعيذوا بالله من الفتن؛ فإن فيها حصادَ المنافقين". قلتُ: وقد سُئل ابن وهب قديمًا عنه فقال: إنه باطلٌ"[٢].

إذا اعتصم المخلوقُ مِن فتنِ الهوى خالِقِـــهِ نجَّـــاه مـــنهن خالِقُـــهُ[٣].

وقال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في سمات المؤمنين في الفتن وتقلب الأحوال: تمهيد: هذا التمهيد يقوم على ثلاثة محاور:

(١) الرجوع إلى أهل العلم الراسخين فيه: احرص على النظر الصائب الذي يوافق نظر السلف عند الاشتباه، وعند تغير الأحوال.

وصف عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - الصحابة وسادات التابعين بما وصفهم به، ومنها قوله: "إنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا".

قال: "على علم وقفوا "

فإنه يجب على المرء وبخاصة أهل العلم والتوجيه أن يقفوا على العلم.

---

(١) رواه البخاريّ رقم (٤٣٦).

(٢) المرجع السابق (١/ ٥٤٣).

(٣) انظر كتاب بصائر في الفتن.

والعلم قسمان

(١) علم لا يدركه المرء، ويتعلمه قبل حلول الحدث، فيحيط به بما أعطاه الله -جل وعلا- وقد لا يحيط به.

(٢) علم لم يبحثه إلا وقت الحدث.

وهذا في الأغلب أنه لا يحيط بكلام أهل العلم فيه؛ لأنه لم يتعلمه من قبل.

فمن علم من نفسه حينئذ أنه إنما اطلع على بحوث المسائل حين حلول الأحداث فيجب عليه أن لا يثق بجودة نظره. . عليه أن يطلب براءة الذمة بالرجوع إلى أهل العلم الراسخين فيه.

(٢) المسجد في الإسلام للعبادة والعلم: ومهمة المسجد في الإسلام ما يلي:

(١) أنه مكان عبادة الله -جل وعلا-.

(٢) أنه أعظم ما يجب أن يحقق فيه دين الله -جل وعلا- بكماله.

(٣) تقام فيه الصلوات المفروضة.

(٤) يكون فيه نشر الخير، وتعليم الجاهل.

(٥) يكون فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. على وفق ما تقتضيه الشريعة.

(٦) تقام فيه الخطب النافعة.

والخطيب قائم فيها مقام النبي ﷺ .

ولهذا تعظم التبعة بعظم المنصب والمسئولية.

ومن أشد من يعذب يوم القيامة - كما جاء في حديث البخاري - فيمن رآهم ﷺ ليلة عرج به، الخطباء الذين لم يوافقوا أمر الله سبحانه وتعالى، وأمر رسوله، فرآهم يعذبون بأنواع من العذاب.

(٧) الإمام يقوم فيه مقام النبي ﷺ في أداء هذه المهمة؛ لأن أصل الإمامة للنبي ﷺ ولمن أنابه -عليه الصلاة والسلام- أو كلفه، والإمامة لولاة الأمور في ذلك عند كثرة المساجد.

فإذا الواجب على الأئمة والخطباء أن يحققوا منهج السلف، وأن لا يعرضوا أنفسهم والمسلمين إلى ما فيه العقوبة.

(٣) الحذر من البغي والتأويل: أحذركم وأحذر جميع المسلمين من البغي والتأويل؛ لأنهما الأساس في الفرقة والفتنة والبغضاء بين أفراد الأمة الإسلامية.

ويجب السمع والطاعة لولي الأمر؛ لما في ذلك من سد للذرائع.

وبعد فيا أيها الإخوان: فإن للمؤمنين سمات عليهم أن يتخلقوا بها، وهي:

السمة الأولى الابتعاد عن الغضب والاستعجال

إن المرء إذا غضب في حال الأمن فإنه قد لا يدرك الصواب، ولهذا قال النبي ﷺ: «لا يقضي القاضي حين يقضي وهو غضبان».

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كلامه على هذا الحديث: إن هذا الحديث يشمل القضاء في المسائل العلمية، وفي المسائل العملية، فالغضب - ومثله الحال التي تقلق الذهن وينفعل معها المرء - لا ينبغي له بل هو منهي أن يقضي في المسائل العلمية وهو على هذا النحو من الغضب، فإذا كان القاضي كذلك في مسألة بين متخاصمين فإن الكلام في المسائل العملية أبلغ، وإن الكلام في المسائل التي تهم الأمة حينئذ أبلغ.

ولهذا كان من سمة منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من أئمة الإسلام أنهم لم يستعجلوا حين استعجل الناس فيما ليس لهم.

قال عمر بن عبد العزيز -رحمه تعالى- في وصف الصحابة والتابعين: "

عليكم بآثارهم فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا".

السمة الثانية التأني في الفتيا ودفعها إلى أهلها

إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تدافعوا الفتيا، لأنهم على علم وقفوا، وتدافعوا الفتيا في مسائل يسيرة، فكيف إذا جاءت المسائل الكبيرة العظيمة؟ فهل يكون من منهجهم الإسراع في الفتيا، والإسراع في الكلام؟

الجواب: ليس هذا من شأنهم؛ لأنهم على علم وقفوا وببصر نافذ كفوا.

البصر مراد به البصيرة التي قال -جل وعلا- فيها آمرا نبيه: {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين} [يوسف: ١٠٨]

والبصيرة للقلب كالبصر للعين، ويعاوض بينهما في الاستعمال.

قال: "وببصر نافذ كفوا".

فحين كفوا في زمن الفتن، في زمن قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفي زمن الخلاف بين علي ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحين كفوا في الفتن لما حصل ما حصل؛ إنهم ببصر نافذ كفوا. هناك نفاذ حين كفوا، وليس الكف عجزا أو هربا، وإنما هو طلب للسلامة حين يلقى الناس ربهم -جل وعلا-.

وقال الله تعالى: {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون} [النحل: ١١٦]

هذه الآية تبين شدة خطر القول بأن هذا حلال وهذا حرام؛ لأن المرء لا يجزم بموافقة حكم الله -جل وعلا- في المسائل الاختلافية، أو في المسائل المجتهد فيها.

وقد كان منهج السلف في هذه المسائل هو الورع والاحتياط للدين، فلا يقولون: هذا حلال، إلا لما اتضح دليله من أدلة الشرع، ولا يقولون: هذا حرام، إلا إذا اتضح دليله. . . .

وقال تعالى: {آلله أذن لكم أم على الله تفترون - وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة} [يونس: ٥٩ - ٦٠]

قال العلماء في تفسير هذه الآية: كفى بهذه الآية زاجرة زجرا بليغا عن التجوز فيما يسأل من الأحكام، وكفى بها باعثة على وجوب الاحتياط في الأحكام، وأن لا يقول أحذ في شيء: هذا جائز، وهذا غير جائز إلا بعد إتقان وإيقان.

ومن لم يوقن فليتق وليصمت، وإلا فهو مفتر على الله ﷻ، وقوله تعالى: {قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون} [يونس: ٥٩] وقوله من شديد الوعيد وهذا يوجب الخوف من الدخول في الفتيا في كل ما يسأل عنه الناس.

وقال النبي ﷺ: «من أفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه».

وينبغي على المرء أن يربأ بنفسه أن يعرض دينه للخطر، وأن يعرض حسناته للذهاب بذنب يحدثه في الأمة.

السمة الثالثة الرفق والأناة والحلم

إن من سمات الصحابة - رضوان الله عليهم - الأخذ بما يحب الله -جل وعلا- ويرضاه، ومن ذلك الرفق والأناة والحلم.

قال النبي ﷺ فيما جاء في الصحيحين: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله».

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «إن الله يرضى لكم ثلاثا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه

الله أمركم».

قال نبينا ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

وقال -صلوات الله وسلامه عليه-: «من يحرم الرفق يحرم الخير».

وكما قال رسول ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة».

السمة الرابعة اجتماع الكلمة عند الفتن

من سمة السلف لمن درس منهجهم في القرن الأول حين كثر الخلاف، وكثرت الفتن أنهم يأمرون بالاجتماع، وينهون عن الافتراق.

وقد قرر أهل العلم أن الاجتماع نوعان:

(١) الاجتماع في الدين.

(٢) والاجتماع على ولي الأمر.

والافتراق نوعان:

(١) افتراق في الدين.

(٢) وافتراق في الجماعة.

والله -جل وعلا- قال: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا} [آل عمران: ١٠٣]

والنبي ﷺ حض على الاجتماع والجماعة بقوله: «ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: هي الجماعة» .

قال أهل العلم: معنى الجماعة هنا ما يشمل الاجتماع في الدين، والاجتماع

على من ولاه الله الأمر من المسلمين.

وقال ﷺ: «الجماعة رحمة، والفرقة عذاب».

وهذا ظاهر بين في أن منهج الأئمة الحرص على الجماعة.

حتى أنه لما ظهر القول بخلق القرآن، وحصل من الناس ما حصل من التسارع إلى نشر هذا القول، ودعا إليه ولي الأمر في ذلك الزمان، قال أحد طلاب الإمام أحمد – وهو إمام أهل السنة والجماعة – له: ألا ترى ما الناس فيه؟ ألا تقول قولا يغير الله به ما فعل. .؟ كأنه يشير إلى ما فعل ولاة الأمر، أو ما هو مشهور.

فجعل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ ينهى عن ذلك، وينفض يديه شديدا، ويقول: "إياكم والدماء، إياكم والدماء".

لأنه يعلم أن شدة الافتراق تسبب في النهاية الافتراق في الأبدان، ثم وقوع ما يخشى منه من سفك الدماء، أو منازعة في الأمر.

ويتحتم على الأمة الإسلامية أن تعي تماما ما بينه الكتاب وكذلك السنة أن أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا، وضرب بعضهم بعضا، لا لنقص العلم عندهم، بل من البغي والتأويل.

قال الله –جل وعلا–: {وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم} [الشورى: ١٤]

ولذلك قال العلماء في كتب العقائد: إن أعظم ما حصل به الافتراق والفتن والبغضاء في هذه الأمة من شيئين: البغي، والتأويل.

فإذا حصل البغي: بأن زاد الناس على ما أذن به، أو حصل التأويل بغير مستند شرعي صحيح وقعت الفتنة. والعياذ بالله تعالى.

السمة الخامسة السمع والطاعة لولاة الأمر

مما دلت عليه النصوص وتظاهرت لزوم السمع والطاعة لولي الأمر المسلم، لأن السمع والطاعة أمر عظيم، خالف به رسول الله ﷺ أهل الجاهلية.

وقد ذكره إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في " مسائل الجاهلية " في أوائل المسائل مع التوحيد.

وذكر التوحيد، والنهي عن الشرك فيما خالف به رسول الله ﷺ أهل الجاهلية. .

وذكر الاجتماع، وعدم الافتراق وذكر الطاعة

وهذا أصل عظيم، نقل به النبي ﷺ الأمة عما كان عليه أهل الجاهلية، ولهذا قال: «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض».

وإذا كانت النهاية في أمر ما هو هذا فإن سد الذرائع الموصلة له واجب شرعا، بل من أعظم الواجبات.

وينبغي على الأمة التسليم لولي الأمر في الوفاء بالعهد والميثاق فإذا أخذ ولي الأمر بالعهد والميثاق بينه وبين غير المؤمنين من الكفار، أو المشركين؛ فإنه يتحتم إمضاؤها؛ لأن الله -جل وعلا- قال: {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا} [الإسراء: ٣٤]

وقال -جل وعلا-: {والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق} [الأنفال: ٧٢]

وهذا الاستثناء لا يخالف الولاء والبراء؛ لأن القرآن حق كله.

قال ابن كثير -رحمه لله تعالى- في تفسير هذه الآية: "إن استنصركم هؤلاء

الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق - أي: مهادنة إلى مدة - فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم".

قال ابن كثير: "وهذا مروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ".

وهذا ما فعله النبي ﷺ في صلح الحديبية.

كان في الصلح أن من أتى النبي ﷺ من مكة من المسلمين فإنه يرجعه إليهم، ومن ذهب من المسلمين من المدينة إلى مكة فإن المشركين لا يردونه إلى المسلمين.

وأمضى النبي ﷺ هذا العهد والميثاق.

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ: «يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال:

بلى قال: فعلام نقبل الدنية في ديننا؟ قال النبي ﷺ: إني رسول، وأنا واثق بوعد الله» -عليه الصلاة والسلام-.

ومسائل الولاء والبراء عظيمة ومهمة، فإذا تكلم فيها أحد من العلماء فإنه يقصد بها ما يشمل عموم أحكامها؛ لأننا نستدل بالقرآن والسنة.

وإن مسائل الولاء والبراء، والخوض في العهود والمكاتبات، وما يحصل من قضايا كبيرة هي لأهلها، وليس لعامة الناس.

وليس من منهج الخطباء وأئمة الدعوة أن يتحدثوا في ذلك مع العامة.

قال الإمام الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب: "وخضتم في مسائل من هذا الباب، كالكلام في الموالاة، والمعاداة،

والمصالحة، والمكاتبات، وبذل الأموال والهدايا، ونحو ذلك، والحكم بغير ما أنزل الله، عند البوادي ونحوهم من الجفاة. لا يتكلم فيها إلا العلماء من ذوي الألباب، ومن رزق الفهم عن الله، وأوتي الحكمة وفصل الخطاب " اهـ

كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضا بعدها: "والكلام في هذا يتوقف على معرفة ما قدمناه، ومعرفة أصول عامة كلية، لا يجوز الكلام في هذا الباب وفي غيره لمن جهلها وأعرض عنها وعن تفاصيلها.

فإن الإجمال والإطلاق وعدم العلم بمعرفة مواقع الخطاب وتفاصيله يحصل به من اللبس والخطأ وعدم الفقه عن الله ما يفسد الأديان، ويشتت الأذهان، ويحول بينها وبين فهم القرآن.

قال ابن القيم في كافيته:

فعليك بالتفصيل والتبيين فال ... طلاق والإجمال دون بيان

قد أفسدا هذا الوجود وخبطا ال ... ذهان والآراء كل زمان

انتهى كلامه -رحمه تعالى-.

إن فهم منهج أئمة الدعوة متكامل، والأخذ به أخذ بما قامت به هذه الدعوة وقامت به الدولة منذ الدولة السعودية الأولى من تحقيق للإسلام بفهم شامل للنصوص.

وهذا يترك لأهل الشأن من ولاة الأمر، وأهل العلم؛ لأن هذا هو الحق في هذه المسائل.

والعامة لا يمكنهم فهم التفصيل والتبيين في مسائل أقل من ذلك فكيف في هذه المسائل العظيمة؟ !، ولهذا لم يكن أئمة الدعوة في خطبهم الموجودة يفصلون الكلام في هذه المسائل، لأن ذلك - كما قال الشيخ عبد اللطيف -:

إنما هو لأهل العلم الذين يفتون بموجب ما يعلمون لولي الأمر وللناس.

السمة السادسة توقير العلماء ومعرفة مكانتهم في الدين

إن لأهل العلم في الكتاب والسنة منزلة عظيمة لا بد أن ترعى قال الله -جل وعلا-: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات} [المجادلة: ١١]

فخص أهل العلم عن سائر المؤمنين فقال: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر: ٢٨]

لأنهم حين يتكلمون أو يعلمون فإنهم ينطلقون من الخشية.

ونحن مأمورون بأن نقتدي بأهل العلم، وأن نرجع إليهم، والذمة تبرأ إذا استفتيت أهل الذكر فأفتوك في ذلك بما يحقق مقاصد الشريعة.

فليس من الدين الطعن في أهل العلم، وليس من الدين الانتقاص من أقدارهم، بل ذلك من عمل الجاهلية.

وقد قال أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية، وشارح الطحاوية، وجماعة: لم يكن الصحابة يريدون القتال، وإنما وجدوا أنفسهم يتقاتلون بسعي الخوارج فيما بين الأطراف.

وعلى الأئمة والخطباء وكل طلاب العلم أن يأخذوا العبرة من قصص السابقين، وأن يقرءوا التاريخ بعناية تامة.

قال الله -جل وعلا- في الحث على الاعتبار: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} [يوسف: ١١١]

يعني: في قصص الأنبياء السالفين. وتاريخ الأمم الخالية فيه عبرة.

ومن أعظم العبر أن ينظر في كيفية حصول القتال بين الصحابة - رضوان الله

عليهم -.

كيف حدثت الفتنة وما مبعثها؟

- قتل عثمان رضي عنه كان بسبب النقمة عليه في أمور المال، والولاية التي ولاها. وقد ثار بسببها الخوارج فحصل ما حصل. وإنما فعلوا ذلك بالتأويل، ولم يكونوا يكرهون الدين، ولكنهم تأولوا، على خلاف منهج الصحابة.

- والذي حصل بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من القتال لم يكن يريدانه.

- ودخلت عائشة رضي الله عنها في ذلك، ولم ترد إلا الصلح.

السمة السابعة الاعتبار والعظة بتاريخ الأمم السابقة.

من قرأ كتب التاريخ وجد أن الفتن إذا ظهرت فأول ما يلجأ إليه الناس الذين اشتبهت عليهم الأمور هو أن يطعنوا في أهل العلم، وسارعوا في ذلك، وهذا ما لا يحمد.

وهذا ما حصل من الخوارج مع علماء الصحابة.

وهذا ما حصل من أهل البغي لما استبيحت المدينة المنورة، وضربت مكة المكرمة بالمنجنيق.. إلى غير ذلك مما حصل في أزمنة كثيرة.

وقد طفحت كتب الجرح والتعديل في من يرى السيف في الأمة. وهذا ظاهر بين، وأن الذي يرى السيف في الأمة يكون من وسيلته أن يطعن في من يرجع إليه المسلمون كيلا يرجعوا إليه.

ولا يلزم أن كل من طعن فإنه يرى السيف، ولكن يحذر ممن رأى السيف طعن، ولا يلزم أنه من طعن فإنه يرى السيف، لأنه قد يطعن لتأويل، وقد يطعن لنقص في العلم، ونحو ذلك.

السمة الثامنة عدم الركون إلى الإعلام المغرض

أما الأمر الذي يتعلق بالأحداث المعاصرة فإن الجميع يتابعها، والذي نخشاه أن نأنس بما نسمع، ويكون مصدر هذا الإعلام أصحاب اللوبي العالمي الصهيوني.

ومعلوم أن هذا لا يخدم قضايا الأمة، بل يخدم قضايا أعداء الأمة.

فالتأثر بذلك والركون إلى الإعلام، والإقبال عليه، وكأنه منقول بالتواتر، أو بنقل العدل الثقة المصدق عن مثله.

وهذا ليس من منهج العقلاء ولا من طريق الفضلاء.

ومعلوم أن منهج هذه البلاد هو منهج أهل السنة والجماعة وهذا ما درجت عليه الدعوة التجديدية دعوة الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب - رَحِمَهُ اللَّهُ ورحم من آواه ومن نصره وأيده -، وهذه الدعوة لم تقم من فراغ، وإنما أسست على الفقه في الكتاب والسنة.

فالفقه في هذه الدعوة أن يؤخذ بكلام علمائها ومنهجهم، وهم متواصلون - ولله الحمد - من وقت الإمام المجدد إلى هذا الوقت، نقله الحاضر من الماضي بفقه وبصيرة.

السمة التاسعة الالتزام بأمر الإمام في الدعوة إلى الجهاد

إن الجهاد في سبيل الله -جل وعلا- لتكون كلمة الله هي العليا أمر نافذ شرعي.

دلت عليه النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة وأجمع عليه سلف الأمة، ودون في كتب العقائد.

لكن الجهاد كغيره من مسائل هذا الدين، له شروط، وأركان، وواجبات، وله أحكام تفصيلية فصلت في كتب الجهاد وأبوابه، من كتب الفقه، أو الكتب المستقلة.

فالأمر بالصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر أحكام الشريعة لا يعني أنه ليس لها شروط.

وإذا كان الأمر كذلك فإن أول أحكام الجهاد وأول شروطه: أن الذي يدعو إلى الجهاد هو ولي الأمر.

وليس لأحد من الناس أن يفتئتوا على ولي الأمر بالدعوة إلى الجهاد.

وهذا ظاهر بدليله من القرآن والسنة، ومن إجماع أهل السنة والجماعة، ومن كلام أئمة الدعوة - رحمهم الله تعالى -.

وإجماع أهل السنة والجماعة على أن الجهاد ماض مع كل إمام بر أو فاجر.

وقولهم: "مع كل إمام"

يعني أنه لا بد للجهاد من راية تحت إمام يسمع له ويطاع، ويكون له الأمر.

ومما يدل على ذلك قول جمع من مشايخ الدعوة في نصيحة عامة وجهوها إلى الناس في وقت يشابه هذا الوقت.

منهم الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن، والشيخ سعد بن حمد بن عتيق، والشيخ عبد العنقري، والشيخ عمر بن سليم، والشيخ محمد بن إبراهيم.

ذكروا في نصيحتهم بعد سياق النصوص الدالة على وجوب السمع والطاعة لولي الأمر، قالوا ما نصه:

" وإذا فهم ما تقدم من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وكلام العلماء المحققين في وجوب السمع والطاعة لولي الأمر، وتحريم منازعته، والخروج عليه، أن المصالح الدينية والدنيوية لا انتظام لها إلا بالإمامة والجماعة، تبين أن الخروج عن طاعة ولي الأمر والافتئات عليه بغزو، أو بغيره معصية ومشاقة لله

ورسوله، ومخالفة لما عليه أهل السنة والجماعة " (١)

وهذا منهج متكامل يجب علينا أن نرعاه؛ لأن أهل العلم وولاة الأمر أدرى بما يكون بعد الإذن بالجهاد.

ليس الأمر أن تقول: نعم، ولكن ما الذي يكون بعده؟ .

وليس الأمر أن تقول: لا، ولكن ما الذي يكون بعده؟ .

وهذا إنما يراعى فيه درء المفاسد، وتحصيل المصالح. كما جاء في الشريعة.

السمة العاشرة سلامة ألسنتنا من الطعن في الصحابة رضي الله عنهم

إن من عقيدتنا سلامة ألسنتنا من النيل في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأن لا يكون في قلوبنا غل للذين آمنوا.

قال الله عز وجل: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم} [الحشر: ١٠]

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

قال أبو محمد البربهاري رحمه الله: " إذا رأيت الرجل يطعن على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه صاحب هوى، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا» وقال صلى الله عليه وسلم: «ذروا أصحابي، ولا تقولوا فيهم إلا خيرا» ولا تحدث بشيء من زللهم ولا خبرهم وما غاب عنك علمه، ولا تسمعه من أحد يحدث به، فإنه لا يسلم قلبك إن سمعته. . .".

ثم قال رحمه الله: "ولا تذكر أحدا من أمهات المسلمين إلا بخير

ولا بد أن نقرأ التاريخ بروية وأن ننظر في مبادئ الأمور، وكيف صارت إلى ما انتهت إليه.

الخاتمة: إن الاتفاق على اجتماع الكلمة يحصل به من الاجتماع وتحصيل الدين، ورد الشر ما لا يحصل بالافتراق.

وإن ترك ما يريب الإنسان إلى ما لا يريبه أصل أصيل كما في واحد من الأحاديث التي عليها مدار الدين وهو: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

وعلينا أن نلتزم بتقوى الله -جل وعلا- في كل حال، وأن نحرص على التوازن والحكمة وموافقة الشرع.

وأن نبرئ ذمتنا في موافقة منهج السلف الصالح.

ولا تتأثر فيما إذا لم يوافقك الكثيرون ممن يريدون الحماس ولكن لا بد أن تقول ما عليه منهج الأئمة والسلف الصالح؛ لأن في الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح نجاة عند حلول الفتن.

والله -جل وعلا- أسأل أن يوفق الجميع إلى ما فيه رضاه، وأن يخلص قلوبنا من الغش والغل، وأن يجعلنا ممن يحقق الموالاة للمؤمنين، والمعاداة للكافرين، وأن يجعلنا ممن رضي عنه، وأرضى عنه.

وأن لا يحرمنا - جل جلاله - توفيقه وتسديده بسوء أعمالنا، ولا بذنوبنا، ولا بتقصيرنا.

وأسأل الله - سبحانه - أن يوفق ولاة أمورنا إلى ما فيه الخير، وأن يجعلهم هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين.

وأن يبرم لهذه الأمة أمر رشد، يعز فيه أهل الطاعة، ويعافى فيه أهل المعصية.

وأن يوفق علماءنا إلى ما فيه الهدى والسداد، وأن يجمع كلمة الجميع على

البر والتقوى، وأن ينيلنا رضاه يوم نلقاه.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(باب ذكر بعض فتاوى علماء العصر في العقيدة)

مسألة: قال العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (١/ ٢٥٤): قد تكرر السؤال عما يدعيه بعض رواد الفضاء من الوصول إلى سطح القمر، وعما يحاولونه من الوصول إلى غيره من الكواكب، ولكثرة التساؤل والخوض في ذلك، رأيت أن أكتب كلمة في الموضوع تنير السبيل، وترشد إلى الحق في هذا الباب - إن شاء الله - فأقول: إن الله سبحانه وتعالى حرم على عباده القول بغير علم، وحذرهم من ذلك في كتابه المبين، فقال ﷻ: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} وقال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}

وأخبر سبحانه: أن الشيطان يأمر بالقول عليه بغير علم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}

وأمر سبحانه عباده المؤمنين بالتثبت في أخبار الفاسقين، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}

فالواجب على المسلمين عموما، وعلى طلبة العلم خصوصا: الحذر من القول على الله بغير علم، فلا يجوز لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول: هذا

حلال، وهذا حرام، أو هذا جائز، وهذا ممتنع، إلا بحجة يحسن الاعتماد عليها، وإلا فليسعه ما وسع أهل العلم قبله، وهو الإمساك عن الخوض فيما لا يعلم وأن يقول: الله أعلم أو لا أدري، وما أحسن قول الملائكة عليهم السلام لربهم ﷻ: {سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}

وكان أصحاب رسول الله ﷺ و رضي الله عنهم إذا سألهم الرسول ﷺ عن شيء لا يعلمونه قالوا: (الله ورسوله أعلم) . وما ذاك إلا لكمال علمهم وإيمانهم، وتعظيمهم لله ﷻ، وبعدهم عن التكلف، ومن هذا الباب وجوب التثبت فيما يقوله الكفار، والفساق وغيرهم، عن الكواكب وخواصها، وإمكان الوصول إليها، وما يلتحق بذلك، فالواجب على المسلمين في هذا الباب كغيره من الأبواب التثبت، وعدم المبادرة بالتصديق أو التكذيب، إلا بعد حصول المعلومات الكافية، التي يستطيع المسلم أن يعتمد عليها ويطمئن إليها، في التصديق أو التكذيب، وهذا هو معنى قوله سبحانه في الآية السابقة من سورة الحجرات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} الآية، والتبين هو التثبت، حتى توجد معلومات أو قرائن تشهد لخبر الفاسق ونحوه، بما يصدقه أو يكذبه، ولم يقل سبحانه: إن جاءكم فاسق بنبأ فردوا خبره. بل قال فتبينوا؛ لأن الفاسق سواء كان كافرا، أو مسلما عاصيا، قد يصدق في خبره، فوجب التثبت في أمره. وقد أنكر الله سبحانه على الكفار تكذيبهم بالقرآن بغير علم، فقال جل وعلا: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} وما أحسن ما قاله العلامة: ابن القيم رحمه الله في قصيدته الكافية الشافية:

إن البدار برد شيء لم تحط — علما به سبب إلى الحرمان

وأعظم من ذلك وأخطر، الإقدام على التكفير أو التفسيق بغير حجة يعتمد عليها، من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، ولا شك أن هذا من الجرأة على الله وعلى دينه، ومن القول عليه بغير علم، وهو خلاف طريقة أهل العلم والإيمان من السلف الصالح رضي الله عنهم وجعلنا من أتباعهم بإحسان، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما» وقال ﷺ: «من دعا رجلا بالكفر، أو قال: يا عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه» أي: رجع عليه ما قال، وهذا وعيد شديد يوجب الحذر من التكفير والتفسيق، إلا عن علم وبصيرة، كما أن ذلك وما ورد في معناه يوجب الحذر من ورطات اللسان، والحرص على حفظه إلا من الخير - إذا علم هذا -.

فلنرجع إلى موضوع البحث المقصود، وقد تأملنا ما ورد في الكتاب العزيز من الآيات المشتملة على ذكر الشمس والقمر والكواكب، فلم نجد فيها ما يدل دلالة صريحة على عدم إمكان الوصول إلى القمر أو غيره من الكواكب. وهكذا السنة المطهرة لم نجد فيها ما يدل على عدم إمكان ذلك. وقصارى ما يتعلق به من أنكر ذلك أو كفر من قاله، ما ذكره الله في كتابه الكريم في سورة الحجر، حيث قال سبحانه: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ} {وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} {إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} وقال تعالى في سورة الفرقان: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا} وقال في سورة الصافات: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} {وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ} {لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ} {دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} وقال سبحانه في سورة الملك: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ

الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} وقال في سورة نوح: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} وظنوا أن ما ذكره الله في هذه الآيات الكريمات وما جاء في معناها يدل على أن الكواكب في داخل السماء، أو ملصقة بها، فكيف يمكن الوصول إلى سطحها، وتعلقوا أيضا بما قاله بعض علماء الفلك: من أن القمر في السماء الدنيا، وعطارد في الثانية، والزهرة في الثالثة، والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشتري في السادسة، وزحل في السابعة.

وقد نقل ذلك كثير من المفسرين وسكتوا، والجواب أن يقال: ليس في الآيات المذكورات ما يدل على أن الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب في داخل السماء ولا أنها ملصقة بها، وإنما تدل الآيات على أن هذه الكواكب في السماء وأنها زينة لها، ولفظ السماء يطلق في اللغة العربية على كل ما علا وارتفع، كما في قوله سبحانه: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} {أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ}

قال جماعة من المفسرين في هاتين الآيتين: إن (في) للظرفية، وأن السماء المراد بها: العلو، واحتجوا بذلك على أن الله سبحانه في جهة العلو فوق العرش، وما ذاك إلا لأن إطلاق السماء على العلو أمر معروف في اللغة العربية. وقال آخرون من أهل التفسير: إن (في) هنا بمعنى على، وأن المراد بالسماء هنا: السماء المبنية، كما قال سبحانه: {فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ} أي على الأرض، وعلى هذا يكون المعنى: أن الله سبحانه فوق السماء، فيوافق ذلك بقية الآيات الدالة على أنه سبحانه فوق العرش، وأنه استوى عليه استواء يليق بجلاله ﷻ،

ولا يشابهه فيه استواء خلقه، كما قال ﷻ: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} وقال سبحانه: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}

وقال تعالى: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} ومن أنكر هذا المعنى ووصف الله سبحانه وتعالى بخلافه، فقد خالف الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، الدالة على علو الله سبحانه، واستوائه على عرشه استواء يليق بجلاله من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل، كما خالف إجماع سلف الأمة، ومن هذا الباب قوله سبحانه في سورة البقرة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}

ذكر جماعة من المفسرين أن المراد بقوله سبحانه في هذه الآية: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} أن المراد بالسماء هنا: هو السحاب، سمي بذلك لعلوه وارتفاعه فوق الناس، ومن هذا الباب أيضا قوله ﷻ في سورة الحج: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ} الآية. قال المفسرون: معناه فليمدد بسبب إلى ما فوقه من سقف ونحوه، فسماه سماء لعلوه بالنسبة إلى من تحته، ومن هذا الباب قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} الآية. فقوله هنا: في السماء أي في العلو، وقال صاحب القاموس: سما سموا ارتفع، وبه أعلاه كأسماه، إلى أن قال: والسماء معروفة تؤنث وتذكر وسقف كل شيء انتهى

والأدلة في هذا الباب من كلام الله سبحانه وكلام رسوله محمد ﷺ وكلام المفسرين، وأئمة اللغة، على إطلاق لفظ السماء على الشيء المرتفع كثيرة، إذا

عرف هذا فيحتمل أن يكون معنى الآيات أن الله سبحانه جعل هذه الكواكب في مدار بين السماء والأرض، وسماه سماء لعلوه، وليس فيما علمنا من الأدلة ما يمنع ذلك، وقد ذكر الله سبحانه أن الشمس والقمر يجريان في فلك في آيتين من كتابه الكريم وهما قوله ﷻ في سورة الأنبياء {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} وقوله سبحانه في سورة يس: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ولو كانا ملصقين بالسماء لم يوصفا بالسبح لأن السبح هو الجري في الماء ونحوه

وقد ذكر ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره المشهور أن الفلك في لغة العرب هو الشيء الدائر، وذكر في معناه عن السلف عدة أقوال، ثم قال ما نصه: (والصواب من القول في ذلك: أن يقال كما قال الله ﷻ: {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} وجائز أن يكون ذلك الفلك كما قال مجاهد: كحديدة الرحا، وكما ذكر عن الحسن كطاحونة الرحا، وجائز أن يكون موجا مكفوفا، وأن يكون قطب السماء، وذلك أن الفلك في كلام العرب: هو كل شيء دائر، فجمعه أفلاك) . ونقل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال ما نصه: (الفلك الذي بين السماء والأرض من مجاري النجوم، والشمس والقمر، وقرأ: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا} وقال: تلك البروج بين السماء والأرض وليست في الأرض) انتهى.

وقد نقل الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير كلام ابن زيد هذا، وأنكره ولا وجه لإنكاره عند التأمل، لعدم الدليل على نكارته،

وقال النسفي في تفسيره ما نصه: (والجمهور على أن الفلك موج مكفوف

تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم) انتهى.

وقال الألوسي في تفسيره: (روح المعاني) ما نصه: (وقال أكثر المفسرين هو موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر) انتهى

وعلى هذا القول في تفسير الفلك والآيات المتقدمة آنفا، لا يبقى إشكال في أن الوصول إلى سطح القمر أو غيره من الكواكب لا يخالف الأدلة السمعية، ولا يلزم منه قدح فيما دل عليه القرآن من كون الشمس والقمر في السماء، ومن زعم أن المراد بالأفلاك السماوات المبنية فليس لقوله حجة يعتمد عليها فيما نعلم، بل ظاهر الأدلة النقلية وغيرها يدل على أن السماوات السبع غير الأفلاك، ويحتمل أنه أراد بالسماء في الآيات المتقدمة: السماء الدنيا، كما هو ظاهر في آية الحجر وهي قوله سبحانه: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ} وصريح في آية الملك وهي قوله سبحانه: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} ولم يرد سبحانه أن البروج في داخلها، وإنما أراد سبحانه أنها بقربها وتنسب إليها كما يقال في لغة العرب فلان مقيم في المدينة، أو في مكة وإنما هو في ضواحيها وما حولها، وأما وصفه سبحانه للكواكب بأنها زينة للسماء فلا يلزم منه أن تكون ملصقة بها، ولا دليل على ذلك، بل يصح أن تسمى زينة لها، وإن كانت منفصلة عنها، وبينها وبينها فضاء كما يزين الإنسان سقفه بالقماش والثريات الكهربائية ونحو ذلك من غير ضرورة إلى إلصاق ذلك به، ومع هذا يقال في اللغة العربية: فلان زين سقف بيته، وإن كان بين الزينة والسقف فضاء،

وأما قوله سبحانه في سورة نوح: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} فليس في الأدلة ما يدل

على أن معناه أن الشمس والقمر في داخل السماوات، وإنما معناه عند الأكثر: أن نورهما في السماوات لا أجرامهما. فأجرامهما خارج السماوات ونورهما في السماوات والأرض،

وقد روى ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ما يدل على هذا المعنى حيث قال في تفسيره: حدثنا عبد الأعلى، قال حدثنا ابن ثور، عن معمر عن قتادة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: (إن الشمس والقمر وجوههما قبل السماوات، وأقفيتهما قبل الأرض) انتهى. وفي سنده انقطاع. لأن قتادة لم يدرك عبد الله بن عمرو، ولعل هذا إن صح عنه مما تلقاه عن بني إسرائيل، وظاهر الآية يدل على أن نورهما في السماوات لا أجرامهما، وأما كون وجوههما إلى السماوات وأقفيتهما إلى الأرض فموضع نظر، والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك. وأما قول من قال من أهل التفسير: أن ذلك من باب إطلاق الكل على البعض لأن القمر في السماء الدنيا، والشمس في الرابعة، كما يقال: رأيت بني تميم وإنما رأى بعضهم فليس بجيد، ولا دليل عليه، وليس هناك حجة يعتمد عليها فيما نعلم، تدل على أن القمر في السماء الدنيا والشمس في الرابعة، وأما قول من قال تلك من علماء الفلك، فليس بحجة عليها لأن أقوالهم غالبا مبنية على التخمين والظن، لا على قواعد شرعية، وأسس قطعية، فيجب التنبه لذلك،

ويدل على هذا المعنى: ما قاله الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره عند قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ الآية حيث قال ما نصه: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي واحدة فوق واحدة وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط. أو هو من الأمور المدركة بالحس

مما علم من التسيير والكسوفات، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضا، فأدناها القمر في السماء الدنيا، وهو يكسف ما فوقه، وعطارد في الثانية، والزهرة في الثالثة، والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشتري في السادسة، وزحل في السابعة، وأما بقية الكواكب وهي الثوابت، ففي فلك ثامن يسمونه: (فلك الثوابت)، والمتشرعون منهم يقولون: هو الكرسي، والفلك التاسع: وهو الأطلس، والأثير عندهم: الذي حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك وذلك أن حركته مبدأ الحركات، وهي من المغرب إلى المشرق وسائر الأفلاك عكسه من المشرق إلى المغرب، ومعها يدور سائر الكواكب تبعا، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها، فإنها تسير من المغرب إلى المشرق، وكل يقطع فلكه بحسبه، فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرة، والشمس في كل سنة مرة، وزحل في كل ثلاثين سنة مرة، وذلك بحسب اتساع أفلاكها، وإن كانت حركة الجميع في السرعة متناسبة، هذا ملخص ما يقولونه في هذا المقام على اختلاف بينهم، في مواضع كثيرة لسنا بصدد بيانها) انتهى

فقول الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: على اختلاف بينهم ... إلخ يدل: على أن علماء الفلك غير متفقين على ما نقله عنهم آنفا، من كون القمر في السماء الدنيا، وعطارد في الثانية، والزهرة في الثالثة والشمس في الرابعة.. إلخ وغير ذلك مما نقله عنهم، ولو كانت لديهم أدلة قطعية على ما ذكروا، لم يختلفوا، ولو فرضنا أنهم اتفقوا على ما ذكر فاتفاقهم ليس بحجة؛ لأنه غير معصوم، وإنما الإجماع المعصوم هو إجماع علماء الإسلام الذين قد توافرت فيهم شروط الاجتهاد لقول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة » الحديث. فإذا اجتمع علماء الإسلام على حكم، اجتماعا قطعيا لا سكوتيا، فإنهم بلا شك على

حق؛ لأن الطائفة المنصورة منهم، وقد أخبر النبي ﷺ أنها لا تزال على الحق، حتى يأتي أمر الله

وظاهر الأدلة السابقة، وكلام الكثير من أهل العلم أو الأكثر كما حكاه النسفي، والألوسي: أن جميع الكواكب ومنها الشمس والقمر تحت السماوات، وليست في داخل شيء منها، وبذلك يعلم أنه لا مانع من أن يكون هناك فضاء بين الكواكب والسماء الدنيا، يمكن أن تسير فيه المركبات الفضائية، يمكن أن تنزل على سطح القمر أو غيره من الكواكب ولا يجوز أن يقال بامتناع ذلك إلا بدليل شرعي صريح يجب المصير إليه، كما أنه لا يجوز أن يصدق من قال إنه وصل إلى سطح القمر أو غيره من الكواكب، إلا بأدلة علمية تدل على صدقه، ولا شك أن الناس بالنسبة إلى معلوماتهم عن الفضاء، ورواد الفضاء يتفاوتون، فمن كان لديه معلومات قد اقتنع بها بواسطة المراصد أو غيرها، دلته على صحة ما ادعاه رواد الفضاء الأمريكيون أو غيرهم، من وصولهم إلى سطح القمر فهو معذور في تصديقه، ومن لم تتوافر لديه المعلومات الدالة على ذلك فالواجب عليه: التوقف، والتثبت حتى يثبت لديه ما يقتضي التصديق أو التكذيب، عملا بالأدلة السالف ذكرها،

ومما يدل على إمكان الصعود إلى الكواكب: قول الله سبحانه في سورة الجن فيما أخبر به عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ فإذا كان الجن قد أمكنهم الصعود إلى السماء حتى لمسوها، وقعدوا منها مقاعد فكيف يستحيل ذلك على الإنس في هذا العصر الذي تطور فيه العلم، والاختراع حتى وصل إلى حد لا يخطر ببال أحد من الناس، حتى

مخترعيه قبل أن يخترعوه، أما السماوات المبنية فهي محفوظة بأبوابها وحراسها، فلن يدخلها شياطين الإنس والجن، كما قال الله تعالى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ} وقال تعالى: {وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} وثبت في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ لما عرج به إلى السماء مع جبريل، لم يدخل السماء الدنيا وما بعدها إلا بإذن، فغيره من الخلق من باب أولى. وأما قوله سبحانه في سورة الرحمن: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} فليست واضحة الدلالة على إمكان الصعود إلى الكواكب لأن ظاهرها وما قبلها وما بعدها يدل على أن الله سبحانه أراد بذلك بيان عجز الثقلين، عن النفوذ من أقطار السماوات والأرض

وقد ذكر الإمام ابن جرير رحمه الله وغيره من علماء التفسير في تفسير هذه الآية الكريمة أقوالا أحسنها قولان. أحدهما: أن المراد بذلك يوم القيامة، وأن الله سبحانه أخبر فيها عن عجز الثقلين يوم القيامة عن الفرار من أهوالها، وقد قدم ابن جرير هذا القول، وذكر أن في الآية التي بعدها ما يدل على اختياره له والقول الثاني: أن المراد بذلك: بيان عجز الثقلين عن الهروب من الموت لأنه لا سلطان لهم يمكنهم من الهروب من الموت، كما أنه لا سلطان لهم على الهروب من أهوال يوم القيامة، وعلى هذين القولين يكون المراد بالسلطان: القوة، ومما ذكرناه يتضح أنه لا حجة في الآية، لمن قال إنها تدل على إمكان الصعود إلى الكواكب، وأن المراد بالسلطان: العلم، ويتضح أيضا أن أقرب الأقوال فيها قول من قال: إن المراد بذلك يوم القيامة، أخبر الله سبحانه فيها أنه يقول ذلك للجن والإنس في ذلك اليوم، تعجيزا لهم وإخبارا أنهم في قبضة الله

سبحانه، وليس لهم مفر مما أراد بهم، ولهذا قال بعدها: {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ} فالمعنى - والله أعلم -: أنكما لو حاولتما الفرار في ذلك اليوم، لأرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران منهما، أما في الدنيا فلا يمكن لأحد النفوذ من أقطار السماوات المبنية. لأنها محفوظة بحرسها وأبوابها كما تقدم ذكر ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم..

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٢٧٢): الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه. أما بعد:

فمن المعلوم لدى كل من له أدنى بصيرة أن اختطاف الطائرات، وبني الإنسان من السفارات وغيرها، من الجرائم العظيمة العالمية، التي يترتب عليها من المفاسد الكبيرة، والأضرار العظيمة، وإضاقة الأبرياء وإيذائهم ما لا يحصيه إلا الله.

كما أن من المعلوم أن هذه الجرائم لا يخص ضررها وشرها دولة دون دولة، ولا طائفة دون طائفة، بل يعم العالم كله.

ولا ريب أن ما كان من الجرائم بهذه المثابة، فإن الواجب على الحكومات والمسئولين من العلماء وغيرهم: أن يعنوا به غاية العناية، وأن يبذلوا الجهود الممكنة لحسم شره، والقضاء عليه، وقد أنزل الله كتابه الكريم تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، وبعث نبيه محمدا ﷺ رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين، وأوجب على جميع الثقلين: الحكم بشريعته والتحاكم إليها، ورد ما تنازع فيه الناس إلى كتابه وسنة رسوله محمد ﷺ كما قال ﷻ: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي

أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} وقال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} وقال ﷻ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} وقد أجمع العلماء رحمهم الله على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه الكريم، وأن الرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته، وإلى سنته الصحيحة بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

وقال سبحانه: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ}

فهذه الآيات الكريمات وما جاء في معناها: كلها تدل على وجوب رد ما تنازع فيه الناس إلى الله سبحانه، وإلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك هو الرد إلى حكم الله ﷻ، والحذر مما خالفه في جميع الأمور، ومن أهم ذلك الأمور التي يعم ضررها وشرها كالاختطاف.

فإن الواجب على الدولة التي يقع في يدها الخاطفون: أن تحكم فيهم شرع الله، لما يترتب على جريمتهم الشنيعة من الحقوق لله، والحقوق لعباده، والأضرار الكثيرة، والمفاسد العظيمة، وليس لذلك حل يقطع دابرها، ويحسم شرها إلا الحل الذي وضعه أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، في كتابه الكريم، وبعث به أنصح الخلق وأفضلهم، وأرحمهم سيد الأولين والآخرين، محمدا عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، وهو الحل الذي يجب أن يفهمه الخاطفون والمخطوفون، ومن له صلة بهم وغيرهم، وأن تنشرح له صدورهم إن كانوا مؤمنين، فإن لم يكونوا مؤمنين فقد أمر الله نبيه ﷺ بتحكيم الشرع فيهم، كما في قوله سبحانه: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ}

وقوله ﷻ: {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ} وبناء على ما ذكرنا فإن الواجب على كل دولة يلجأ إليها الخاطفون: تكوين لجنة من علماء الشرع الإسلامي للنظر في القضية ودراستها من جوانبها والحكم فيها بشرع الله.

وعلى هؤلاء العلماء أن يحكموا في القضية على ضوء الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن يستضيئوا في ذلك بما ذكره علماء الشرع عند آية المحاربة من سورة المائدة، وما ذكره العلماء في كل مذهب في: باب حكم قطاع الطريق. ثم يصدروا حكمهم معززا بالأدلة الشرعية. وعلى الحكومة التي لجأ إليها الخاطفون تنفيذ الحكم الشرعي، طاعة لله، وتعظيما لأمره، وتنفيذا لشرعه، وحسما لمادة هذه الجرائم العظيمة، ورغبة في تحقيق الأمن، ورحمة المخطوفين وإنصافهم.

أما القوانين التي وضعها الناس لذلك من غير استناد إلى كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، فكلها من وضع البشر، ولا يجوز لأهل الإسلام التحاكم إليها، وليس بعضها أولى بالتحاكم إليه من بعض؛ لأنها كلها من حكم الجاهلية، ومن حكم الطاغوت الذي حذر الله منه، ونسب إلى المنافقين الرغبة في التحاكم إليه، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا}

فلا يجوز لأهل الإسلام أن يتشبهوا بأعداء الله المنافقين بالتحاكم إلى غير الله، والصدود عن حكم الله ورسوله.

ولا يجوز أن يحتج بما وقع فيه أغلب المسلمين اليوم من التحاكم إلى

القوانين الوضعية، فإن ذلك لا يبرره ولا يجعله جائزا، بل هو من أنكر المنكرات، وإن وقع فيه الأكثرون، وليس وقوع الأكثر في أمر من الأمور دليلا على جوازه، كما قال سبحانه: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} وكل حكم يخالف شرع الله فهو من حكم الجاهلية، قال سبحانه: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}

وأخبر سبحانه أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر وظلم وفسق، فقال سبحانه في سورة المائدة: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}

وهذه الآيات وما جاء في معناها، توجب على المسلمين: الحذر من الحكم بغير ما أنزل الله والبراءة منه، والمبادرة إلى حكم الله ورسوله، وانشراح الصدر به، والتسليم له وإذا كانت الحادثة يعم ضررها كالخطف، كان وجوب رد الحكم فيها إلى الله ورسوله آكد من غيرها، وأعظم في الوجوب؛ لأن الله سبحانه هو الحكيم الخبير، وهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وهو العالم بما يصلح عباده، ويدفع عنهم الضرر، ويحسم عنهم الفساد في حاضرهم ومستقبلهم فوجب أن يردوا الحكم فيما تنازعوا فيه إلى كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ؛ لأن فيهما الكفاية، والمقنع، والحل لكل مشكل، والقضاء على كل شر لمن تمسك بهما واستقام عليهما، وحكم بهما وتحاكم إليهما كما سبق بيان ذلك في الآيات المحكمات.

ولعظم هذه الجريمة وخطورتها، رأيت أن من الواجب تحرير هذه الكلمة

نصحا للأمة، وبراءة للذمة، وتذكيرا للعموم بهذا الواجب العظيم، وتعاونا مع المسئولين على البر والتقوى.

والله المسئول أن يصلح أحوال المسلمين ويهديهم صراطه المستقيم، ويوفق حكوماتهم للحكم بالشريعة الإسلامية، والتحاكم إليها، والتمسك بها في جميع الأمور إنه جواد كريم.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٨/ ٢٠٢): الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه، ومن اتبع هداه، أما بعد: فهذه أسئلة مهمة وأجوبتها رأيت تقديمها لإخواني المسلمين للاستفادة منها، وأسأل الله أن ينفع بها عباده، وأن يتقبل منا جهدنا، وأن يضاعف لنا الأجر، وأن ينصر دينه ويعلي كلمته ويصلح أحوال المسلمين، وأن يولي عليهم خيارهم، وأن يصلح قادتهم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

س١: سماحة الشيخ: هناك من يرى أن اقتراف بعض الحكام للمعاصي والكبائر موجب للخروج عليهم ومحاولة التغيير وإن ترتب عليه ضرر للمسلمين في البلد، والأحداث التي يعاني منها عالمنا الإسلامي كثيرة، فما رأي سماحتكم؟

ج١: بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداه، أما بعد: فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} (النساء:٥٩)

فهذه الآية نص في وجوب طاعة أولي الأمر، وهم: الأمراء والعلماء، وقد

جاءت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ تبين أن هذه الطاعة لازمة، وهي فريضة في المعروف.

والنصوص من السنة تبين المعنى، وتقيد إطلاق الآية بأن المراد: طاعتهم في المعروف، ويجب على المسلمين طاعة ولاة الأمور في المعروف لا في المعاصي، فإذا أمروا بالمعصية فلا يطاعون في المعصية، لكن لا يجوز الخروج عليهم بأسبابها؛ لقوله ﷺ: (ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعة) ولقوله ﷺ: (من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية) وقال ﷺ: (على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) وسأله الصحابة رضي الله عنهم لما ذكر أنه يكون أمراء تعرفون منهم وتنكرون - (قالوا: فما تأمرنا؟ قال: أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم) قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله وقال إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان) فهذا يدل على أنه لا يجوز لهم منازعة ولاة الأمور، ولا الخروج عليهم إلا أن يروا كفرا بواحا عندهم من الله فيه برهان؛ وما ذاك إلا لأن الخروج على ولاة الأمور يسبب فسادا كبيرا وشرا عظيما، فيختل به الأمن، وتضيع الحقوق، ولا يتيسر ردع الظالم، ولا نصر المظلوم، وتختل السبل ولا تأمن، فيترتب على الخروج على ولاة الأمور فساد عظيم وشر كثير، إلا إذا رأى المسلمون كفرا بواحا عندهم من الله فيه برهان، فلا بأس أن يخرجوا على هذا السلطان لإزالته إذا كان عندهم قدرة، أما إذا لم يكن عندهم قدرة فلا يخرجوا، أو كان الخروج يسبب شرا أكثر فليس لهم الخروج؛ رعاية للمصالح

العامة..والقاعدة الشرعية المجمع عليها: (أنه لا يجوز إزالة الشر بما هو أشر منه، بل يجب درء الشر بما يزيله أو يخففه). أما درء الشر بشر أكثر فلا يجوز بإجماع المسلمين، فإذا كانت هذه الطائفة التي تريد إزالة هذا السلطان الذي فعل كفرا بواحا عندها قدرة تزيله بها، وتضع إماما صالحا طيبا من دون أن يترتب على هذا فساد كبير على المسلمين، وشر أعظم من شر هذا السلطان فلا بأس، أما إذا كان الخروج يترتب عليه فساد كبير، واختلال الأمن، وظلم الناس، واغتيال من لا يستحق الاغتيال. .. إلى غير هذا من الفساد العظيم، فهذا لا يجوز، بل يجب الصبر، والسمع والطاعة في المعروف، ومناصحة ولاة الأمور، والدعوة لهم بالخير، والاجتهاد في تخفيف الشر وتقليله وتكثير الخير. هذا هو الطريق السوي الذي يجب أن يسلك؛ لأن في ذلك مصالح للمسلمين عامة، ولأن في ذلك تقليل الشر وتكثير الخير، ولأن في ذلك حفظ الأمن وسلامة المسلمين من شر أكثر. نسأل الله للجميع التوفيق والهداية.

س٢: سماحة الوالد: نعلم أن هذا الكلام أصل من أصول أهل السنة والجماعة، ولكن هناك - للأسف - من أبناء أهل السنة والجماعة من يرى هذا فكرا انهزاميا، وفيه شيء من التخاذل، وقد قيل هذا الكلام؛ لذلك يدعون الشباب إلى تبني العنف في التغيير.

ج٢: هذا غلط من قائله، وقلة فهم؛ لأنهم ما فهموا السنة ولا عرفوها كما ينبغي، وإنما تحملهم الحماسة والغيرة لإزالة المنكر على أن يقعوا فيما يخالف الشرع كما وقعت الخوارج والمعتزلة، حملهم حب نصر الحق أو الغيرة للحق، حملهم ذلك على أن وقعوا في الباطل حتى كفروا المسلمين بالمعاصي كما فعلت الخوارج، أو خلدوهم في النار بالمعاصي كما تفعل المعتزلة. فالخوارج

كفروا بالمعاصي، وخلدوا العصاة في النار، والمعتزلة وافقوهم في العاقبة، وأنهم في النار مخلدون فيها. ولكن قالوا: إنهم في الدنيا بمنزلة بين المنزلتين، وكله ضلال.

والذي عليه أهل السنة - وهو الحق - أن العاصي لا يكفر بمعصيته ما لم يستحلها، فإذا زنى لا يكفر، وإذا سرق لا يكفر، وإذا شرب الخمر لا يكفر، ولكن يكون عاصيا ضعيف الإيمان فاسقا تقام عليه الحدود، ولا يكفر بذلك إلا إذا استحل المعصية وقال: إنها حلال، وما قاله الخوارج في هذا باطل، وتكفيرهم للناس باطل؛ ولهذا قال فيهم النبي ﷺ: إنهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ثم لا يعودون إليه، يقاتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان. هذه حال الخوارج بسبب غلوهم وجهلهم وضلالهم، فلا يليق بالشباب ولا غير الشباب أن يقلدوا الخوارج والمعتزلة، بل يجب أن يسيروا على مذهب أهل السنة والجماعة على مقتضى الأدلة الشرعية، فيقفوا مع النصوص كما جاءت، وليس لهم الخروج على السلطان من أجل معصية أو معاص وقعت منه، بل عليهم المناصحة بالمكاتبة والمشافهة، بالطرق الطيبة الحكيمة، وبالجدال بالتي هي أحسن، حتى ينجحوا، وحتى يقل الشر أو يزول ويكثر الخير. هكذا جاءت النصوص عن رسول الله ﷺ، والله عز وجل يقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (ال عمران:١٥٩) فالواجب على الغيورين لله وعلى دعاة الهدى أن يلتزموا حدود الشرع، وأن يناصحوا من ولاهم الله الأمور، بالكلام الطيب، والحكمة، والأسلوب الحسن، حتى يكثر الخير ويقل الشر، وحتى يكثر الدعاة إلى الله، وحتى ينشطوا في دعوتهم بالتي هي أحسن، لا بالعنف والشدة، ويناصحوا من

ولاهم الله الأمر بشتى الطرق الطيبة السليمة، مع الدعاء لهم بظهر الغيب: أن الله يهديهم، ويوفقهم، ويعينهم على الخير، وأن الله يعينهم على ترك المعاصي التي يفعلونها وعلى إقامة الحق.

هكذا يدعو المؤمن الله ويضرع إليه: أن يهدي الله ولاة الأمور، وأن يعينهم على ترك الباطل، وعلى إقامة الحق بالأسلوب الحسن وبالتي هي أحسن، وهكذا مع إخوانه الغيورين ينصحهم ويعظهم ويذكرهم حتى ينشطوا في الدعوة بالتي هي أحسن، لا بالعنف والشدة، وبهذا يكثر الخير، ويقل الشر، ويهدي الله ولاة الأمور للخير والاستقامة عليه، وتكون العاقبة حميدة للجميع.

س٣: لو افترضنا أن هناك خروجا شرعيا لدى جماعة من الجماعات، هل هذا يبرر قتل أعوان هذا الحاكم وكل من يعمل في حكومته مثل الشرطة والأمن وغيرهم؟

ج٣: سبق أن أخبرتك: أنه لا يجوز الخروج على السلطان إلا بشرطين: أحدهما: وجود كفر بواح عندهم من الله فيه برهان. والشرط الثاني: القدرة على إزالة الحاكم إزالة لا يترتب عليها شر أكبر منه، وبدون ذلك لا يجوز.

س٤: يظن بعض الشباب أن مجافاة الكفار - ممن هم مستوطنون في البلاد الإسلامية أو من الوافدين إليها - من الشرع، ولذلك البعض يستحل قتلهم وسلبهم إذا رأوا منهم ما ينكرون.

ج٤: لا يجوز قتل الكافر المستوطن أو الوافد المستأمن الذي أدخلته الدولة آمنا، ولا قتل العصاة ولا التعدي عليهم، بل يحالون فيما يحدث منهم من المنكرات للحكم الشرعي، وفيما تراه المحاكم الشرعية الكفاية.

س٥: وإذا لم توجد محاكم شرعية؟

ج٥: إذا لم توجد محاكم شرعية، فالنصيحة فقط، النصيحة لولاة الأمور، وتوجيههم للخير، والتعاون معهم حتى يحكموا شرع الله، أما أن الآمر والناهي يمد يده فيقتل أو يضرب فلا يجوز، لكن يتعاون مع ولاة الأمور بالتي هي أحسن حتى يحكموا شرع الله في عباد الله، وإلا فواجبه النصح، وواجبه التوجيه إلى الخير، وواجبه إنكار المنكر بالتي هي أحسن، هذا هو واجبه، قال الله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} (التغابن:١٦) لأن إنكاره باليد بالقتل أو الضرب يترتب عليه شر أكثر وفساد أعظم بلا شك ولا ريب لكل من سبر هذه الأمور وعرفها.

س٦: هل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالذات التغيير باليد حق للجميع، أم أنه حق مشروط لولي الأمر ومن يعينه ولي الأمر؟

ج٦: التغيير للجميع حسب استطاعته؛ لأن الرسول ﷺ يقول: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) لكن التغيير باليد لابد أن يكون عن قدرة لا يترتب عليه فساد أكبر وشر أكثر، فليغير باليد في بيته: على أولاده، وعلى زوجته، وعلى خدمه، وهكذا الموظف في الهيئة المختصة المعطى له صلاحيات، يغير بيده حسب التعليمات التي لديه، وإلا فلا يغير شيئا بيده ليس له فيه صلاحية؛ لأنه إذا غير بيده فيما لا يدخل تحت صلاحيته يترتب عليه ما هو أكثر شرا، ويترتب بلاء كثير وشر عظيم بينه وبين الناس، وبينه وبين الدولة. ولكن عليه أن يغير باللسان كأن يقول: (اتق الله يا فلان، هذا لا يجوز)، (هذا حرام عليك)، (هذا واجب عليك)، يبين له بالأدلة الشرعية باللسان، أما باليد فيكون في محل الاستطاعة، في بيته، أو فيمن تحت يده، أو فيمن أذن له فيه من جهة السلطان أن يأمر

بالمعروف، كالهيئات التي يأمرها السلطان ويعطيها الصلاحيات، يغيرون بقدر الصلاحيات التي أعطوها على الوجه الشرعي الذي شرعه الله لا يزيدون عليه، وهكذا أمير البلد يغير بيده حسب التعليمات التي لديه.

س٧: هناك من يرى - حفظك الله - أن له الحق في الخروج على الأنظمة العامة التي يضعها ولي الأمر كالمرور والجمارك والجوازات. . إلخ، باعتبار أنها ليست على أساس شرعي، فما قولكم حفظكم الله؟

ج ٧: هذا باطل ومنكر، وقد تقدم: أنه لا يجوز الخروج ولا التغيير باليد، بل يجب السمع والطاعة في هذه الأمور التي ليس فيها منكر، بل نظمها ولي الأمر لمصالح المسلمين، فيجب الخضوع لذلك، والسمع والطاعة في ذلك؛ لأن هذا من المعروف الذي ينفع المسلمين، وأما الشيء الذي هو منكر، كالضريبة التي يرى ولي الأمر أنها جائزة فهذه يراجع فيها ولي الأمر؛ للنصيحة والدعوة إلى الله، وبالتوجيه إلى الخير، لا بيده يضرب هذا أو يسفك دم هذا أو يعاقب هذا بدون حجة ولا برهان، بل لابد أن يكون عنده سلطان من ولي الأمر يتصرف به حسب الأوامر التي لديه وإلا فحسبه النصيحة والتوجيه، إلا فيمن هو تحت يده من أولاد وزوجات ونحو ذلك ممن له السلطة عليهم.

س٨: هل من مقتضى البيعة - حفظك الله - الدعاء لولي الأمر؟

ج٨: من مقتضى البيعة النصح لولي الأمر، ومن النصح: الدعاء له بالتوفيق والهداية وصلاح النية والعمل وصلاح البطانة؛ لأن من أسباب صلاح الوالي ومن أسباب توفيق الله له: أن يكون له وزير صدق يعينه على الخير، ويذكره إذا نسي، ويعينه إذا ذكر، هذه من أسباب توفيق الله له.

فالواجب على الرعية وعلى أعيان الرعية التعاون مع ولي الأمر في الإصلاح

وإماتة الشر والقضاء عليه، وإقامة الخير بالكلام الطيب والأسلوب الحسن والتوجيهات السديدة التي يرجى من ورائها الخير دون الشر، وكل عمل يترتب عليه شر أكثر من المصلحة لا يجوز؛ لأن المقصود من الولايات كلها: تحقيق المصالح الشرعية، ودرء المفاسد، فأي عمل يعمله الإنسان يريد به الخير ويترتب عليه ما هو أشر مما أراد إزالته وما هو منكر لا يجوز له.

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ هذا المعنى إيضاحا كاملا في كتاب " الحسبة " فليراجع؛ لعظم الفائدة.

س٩: ومن يمتنع عن الدعاء لولي الأمر - حفظك الله -؟

ج٩: هذا من جهله، وعدم بصيرته؛ لأن الدعاء لولي الأمر من أعظم القربات، ومن أفضل الطاعات، ومن النصيحة لله ولعباده، والنبي ﷺ لما قيل له: (إن دوسا عصت وهم كفار قال: اللهم اهد دوسا وائت بهم فهداهم الله وأتوه مسلمين).

فالمؤمن يدعو للناس بالخير، والسلطان أولى من يدعى له؛ لأن صلاحه صلاح للأمة، فالدعاء له من أهم الدعاء، ومن أهم النصح: أن يوفق للحق وأن يعان عليه، وأن يصلح الله له البطانة، وأن يكفيه الله شر نفسه وشر جلساء السوء، فالدعاء له بالتوفيق والهداية وبصلاح القلب والعمل وصلاح البطانة من أهم المهمات، ومن أفضل القربات، وقد روي عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: (لو أعلم أن لي دعوة مستجابة لصرفتها للسلطان)، ويروى ذلك عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ.

س١٠: هل من منهج السلف نقد الولاة من فوق المنابر؟ وما منهج السلف في نصح الولاة؟

ج١٠: ليس من منهج السلف التشهير بعيوب الولاة، وذكر ذلك على المنابر؛ لأن ذلك يفضي إلى الفوضى وعدم السمع والطاعة في المعروف، ويفضي إلى الخوض الذي يضر ولا ينفع، ولكن الطريقة المتبعة عند السلف: النصيحة فيما بينهم وبين السلطان، والكتابة إليه، أو الاتصال بالعلماء الذين يتصلون به حتى يوجه إلى الخير.

أما إنكار المنكر بدون ذكر الفاعل: فينكر الزنا، وينكر الخمر، وينكر الربا من دون ذكر من فعله، فذلك واجب؛ لعموم الأدلة.

ويكفي إنكار المعاصي والتحذير منها من غير أن يذكر من فعلها لا حاكما ولا غير حاكم.

ولما وقعت الفتنة في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال بعض الناس لأسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم ترون أني لا أكلمه، إلا أسمعكم؟ إني أكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمرا لا أحب أن أكون أول من افتتحه).

ولما فتح الخوارج الجهال باب الشر في زمان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنكروا على عثمان علنا عظمت الفتنة والقتال والفساد الذي لا يزال الناس في آثاره إلى اليوم، حتى حصلت الفتنة بين علي ومعاوية، وقتل عثمان وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بأسباب ذلك، وقتل جمع كثير من الصحابة وغيرهم بأسباب الإنكار العلني، وذكر العيوب علنا، حتى أبغض الكثيرون من الناس ولي أمرهم وقتلوه، وقد روى عياض ابن غنم الأشعري، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يبده علانية ولكن يأخذ بيده فيخلو به فإن قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى الذي عليه)

نسأل الله العافية والسلامة لنا ولإخواننا المسلمين من كل شر، إنه سميع

مجيب.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وآله وصحبه.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٢٧٧): كيف السبيل وما هو المصير في القضية الفلسطينية التي تزداد مع الأيام تعقيدا وضراوة؟.

فأجاب: إن المسلم ليألم كثيرا، ويأسف جدا من تدهور القضية الفلسطينية من وضع سيئ إلى وضع أسوأ منه، وتزداد تعقيدا مع الأيام، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في الآونة الأخيرة، بسبب اختلاف الدول المجاورة، وعدم صمودها صفا واحدا ضد عدوها، وعدم التزامها بحكم الإسلام الذي علق الله عليه النصر، ووعد أهله بالاستخلاف والتمكين في الأرض، وذلك ينذر بالخطر العظيم، والعاقبة الوخيمة، إذا لم تسارع الدول المجاورة إلى توحيد صفوفها من جديد، والتزام حكم الإسلام تجاه هذه القضية، التي تهمهم وتهم العالم الإسلامي كله، ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن القضية الفلسطينية قضية إسلامية أولا وأخيرا، ولكن أعداء الإسلام بذلوا جهودا جبارة لإبعادها عن الخط الإسلامي، وإفهام المسلمين من غير العرب، أنها قضية عربية، لا شأن لغير العرب بها، ويبدو أنهم نجحوا إلى حد ما في ذلك، ولذا فإنني أرى أنه لا يمكن الوصول إلى حل لتلك القضية، إلا باعتبار القضية إسلامية، وبالتكاتف بين المسلمين لإنقاذها، وجهاد اليهود جهادا إسلاميا، حتى تعود الأرض إلى أهلها، وحتى يعود شذاذ اليهود إلى بلادهم التي جاءوا منها، ويبقى اليهود الأصليون في بلادهم، تحت حكم الإسلام لا حكم الشيوعية ولا العلمانية، وبذلك ينتصر الحق، ويخذل الباطل، ويعود أهل الأرض إلى أرضهم على حكم الإسلام، لا على حكم غيره، والله الموفق.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٢٨٠): الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فلا يشك مسلم له أدنى بصيرة بالتاريخ الإسلامي في فضل العرب المسلمين، وما قاموا به من حمل رسالة الإسلام في القرون المفضلة، وتبليغه لكافة الشعوب، والصدق في الدعوة إليه، والجهاد لنشره والدفاع عنه، وتحمل المشاق العظيمة في ذلك، حتى أظهرها الله على أيديهم وخفقت رايته في غالب المعمورة، وشاهد العالم على أيدي دعاة الإسلام في صدر الإسلام أكمل نظام وأعدل حاكم، ورأوا في الإسلام كل ما يريدون وينشدون من خير الدنيا والآخرة، ووجدوا في الإسلام تنظيم حياة سعيدة تكفل لهم العزة والكرامة والحرية من عبادة العبيد، وظلم المستبدين، والولاة الغاشمين.

ووجدوا في الإسلام تنظيم علاقتهم بالله سبحانه: بعبادة عظيمة تصلهم بالله، وتطهر قلوبهم من الشرك والحقد والكبر، وتغرس فيها غاية الحب لله وكمال الذل له والتلذذ بمناجاته، وتعرفهم بربهم وبأنفسهم، وتذكرهم بالله وعظيم حقه كلما غفلوا أو كادوا أن يغفلوا. وجدوا في الإسلام تنظيم علاقتهم بالرسول ﷺ وماذا يجب عليهم من حقه والسير في سبيله، ووجدوا في الإسلام أيضا تنظيم العلاقات التي بين الراعي والرعية، وبين الرجل وأهله، وبين الرجل وأقاربه، وبين الرجل وإخوانه المسلمين، وبين المسلمين والكفار، بعبارات واضحة وأساليب جلية. ووجدوا من الرسول ﷺ ومن الصحابة وأتباعهم بإحسان تفسير ذلك بأخلاقهم الحميدة وأعمالهم المجيدة، فأحب الناس الإسلام وعظموه ودخلوا فيه أفواجا، وأدركوا فيه كل خير وطمأنينة وصلاح وإصلاح.

والكلام في مزايا الإسلام وما اشتمل عليه من أحكام سامية وأخلاق كريمة،

تصلح القلوب، وتؤلف بينها وتربطها برباط وثيق من المودة في الله سبحانه، والتفاني في نصر دينه، والتمسك بتعاليمه، والتواصي بالحق والصبر عليه، لا ريب أن الكلام في هذا الباب يطول. والقصد في هذه الكلمة الإشارة إلى ما حصل على أيدي المسلمين من العرب في صدر الإسلام من الجهاد والصبر، وما أكرمهم الله به من حمل مشعل الإسلام إلى غالب المعمورة، وما حصل للعالم من الرغبة في الإسلام، والمسارعة إلى الدخول فيه، لما اشتمل عليه من الأحكام الرشيدة والتعاليم السمحة، والتعريف بالله سبحانه وبأسمائه وصفاته وعظيم حقه على عباده، ولما اتصف به حملته والدعاة إليه من تمثيل أحكام الإسلام في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم، حتى صاروا بذلك خير أمة أخرجت للناس، وحققوا بذلك معنى قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ} ومعنى الآية كما قال أبو هريرة رضي الله عنه كنتم خير الناس للناس.

لا يشك مسلم قد عرف ما كان عليه المسلمون في صدر الإسلام فيما ذكرناه، فهو من الحقائق المعلومة بين المسلمين، ولا يشك مسلم في ما للمسلمين غير العرب من الفضل والجهاد المشكور في مساعدة إخوانهم من العرب المسلمين في نشر هذا الدين والجهاد في إعلاء كلمته، وتبليغه سكان المعمورة، شكر الله للجميع مساعيهم الجليلة، وجعلنا من أتباعهم بإحسان، إنه على كل شيء قدير.

وإنما الذي ينكر اليوم ويستغرب صدوره عن كثير من أبناء الإسلام من العرب، انصرافهم عن الدعوة إلى هذا الدين العظيم، الذي رفعهم الله به، وأعزهم بحمل رسالته، وجعلهم ملوك الدنيا وسادة العالم، لما حملوا لواءه

وجاهدوا في سبيله بصدق وإخلاص، حتى فتحوا الدنيا، وكسروا كسرى، وقصروا قيصر، واستولوا على خزائن مملكتيهما، وأنفقوها في سبيل الله سبحانه، وكانوا حينذاك في غاية من الصدق والإخلاص والوفاء والأمانة والتحاب في الله سبحانه والمؤاخاة فيه، لا فرق عندهم بين عربي وعجمي، ولا بين أحمر وأسود، ولا بين غني وفقير، ولا بين شرقي وغربي، بل هم في ذلك إخوان متحابون في الله، متعاونون على البر والتقوى، مجاهدون في سبيل الله، صابرون على دين الإسلام لا تأخذهم في الله لومة لائم، يوالون في الإسلام، ويعادون فيه، ويحبون عليه، ويبغضون عليه، ولذلك كفاهم الله مكائد أعدائهم، وكتب لهم النصر في جميع ميادين جهادهم، كما وعدهم الله سبحانه بذلك في كتابه المبين حيث يقول سبحانه: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}

ثم بعد هذا الشرف العظيم والنصر المؤزر من المولى سبحانه لعباده المؤمنين من العرب وغيرهم، نرى نفرا من أبنائنا يخدعون بالمبادئ المنحرفة، ويدعون إلى غير الإسلام، كأنهم لم يعرفوا فضل الإسلام وما حصل لأسلافهم بالإسلام من العزة والكرامة، والمجد الشامخ والمجتمع القوي الذي كتبه الله لأهل الإسلام الصادقين، حتى إن عدوهم ليخافهم وهو عنهم مسيرة شهر، نسي هؤلاء أو تناسوا هذا المجد المؤثل والعز العظيم والملك الكبير، الذي ناله المسلمون بالإسلام، فصار هؤلاء الأبناء يدعون إلى التكتل والتجمع حول القومية العربية، ويعرفونها بأنها اجتماع وتكاتف لتطهير البلاد من العدو المستعمر، ولتحصيل المصالح المشتركة، واستعادة المجد السليب.

وقد اختلف الدعاة إليها في عناصرها، فمن قائل: أنها الوطن والنسب واللغة

العربية. ومن قائل: أنها اللغة فقط. ومن قائل: أنها اللغة مع المشاركة في الآلام والآمال. ومن قائل غير ذلك. أما الدين فليس من عناصرها عند أساطينهم والصرحاء منهم، وقد صرح كثير بأن الدين لا دخل له في القومية، وصرح بعضهم أنها تحترم الأديان كلها من الإسلام وغيره. وهدفها كما يعلم من كلامهم هو التكتل والتجمع والتكاتف ضد الأعداء ولتحصيل المصالح المشتركة كما سلف، ولا ريب بأن هذا غرض نبيل وقصد جميل.

فإذا كان هذا هو الهدف، ففي الإسلام من الحث على ذلك والدعوة إليه، وإيجاب التكاتف والتعاون لنصر الإسلام، وحمايته من كيد الأعداء ولتحصيل المصالح المشتركة، ما هو أكمل وأعظم مما يرتجى من وراء القومية. ومعلوم عند كل ذي لب سليم أن التكاتف والتعاون الذي مصدره القلوب، والإيمان بصحة الهدف، وسلامة العاقبة في الحياة وبعد الممات - كما في الإسلام الصحيح - أعظم من التعاون والتكاتف على أمر اخترعه البشر ولم ينزل به وحي السماء، ولا تؤمن عاقبته لا في الدنيا ولا في الآخرة. وأيضا فالتكاتف والتعاون الصادر عن إيمان بالله، وصدق في معاملته ومعاملة عباده، مضمون له النصر وحسن العاقبة - كما في الآيات الكريمات التي أسلفنا ذكرها - بخلاف التكاتف والتعاون المبني على فكرة جاهلية تقليدية، لم يأت بها شرع ولم يضمن لها النصر.

وهذا كله على سبيل التنزل لدعاة القومية، والرغبة في إيضاح الحقائق لطالب الحق. وإلا فمن خبر أحوال القوميين، وتدبر مقالاتهم وأخلاقهم وأعمالهم، عرف أن غرض الكثيرين منهم من الدعوة إلى القومية، أمور أخرى يعرفها من له أدنى بصيرة بالواقع وأحوال المجتمع، ومن تلك الأمور، فصل

الدين عن الدولة، وإقصاء أحكام الإسلام عن المجتمع، والاعتياض عنها بقوانين وضعية ملفقة من قوانين شتى، وإطلاق الحرية للنزعات الجنسية والمذاهب الهدامة - لا بلغهم الله مناهم - ولا ريب أن دعوة تفضي إلى هذه الغايات، يرقص لها الاستعمار طربا، ويساعد على وجودها ورفع مستواها - وإن تظاهر بخلاف ذلك - تغريرا للعرب عن دينهم، وتشجيعا لهم على الاشتغال بقوميتهم، والدعوة إليها والإعراض عن دينهم.

ومن زعم من دعاة القومية أن الدين من عناصرها، فقد فرض أخطاء على القوميين، وقال عليهم ما لم يقولوا؛ لأن الدين يخالف أسسهم التي بنوا القومية عليها، ويخالف صريح كلامهم ويباين ما يقصدونه من تكتيل العرب، على اختلاف أديانهم تحت راية القومية.

ولهذا تجد من يجعل الدين من عناصر القومية يتناقض في كلامه، فيثبته تارة وينفيه أخرى، وما ذلك إلا أنه لم يقله عن عقيدة وإيمان، وإنما قاله مجاملة لأهل الإسلام، أو عن جهل بحقيقة القومية وهدفها، وهكذا قول من قال: إنها تخدم الإسلام أو تسانده، وكل ذلك بعيد عن الحقيقة والواقع، وإنما الحقيقة أنها تنافس الإسلام وتحاربه في عقر داره، وتطلي ببعض خصائصه ترويجا لها وتلبيسا أو جهلا وتقليدا.

ولو كانت الدعوة إلى القومية يراد منها نصر الإسلام وحماية شعائره، لكرس القوميون جهدهم في الدعوة إليه ومناصرته، وتحكيم دستوره النازل من فوق سبع سماوات، ولبادروا إلى التخلق بأخلاقه، والعمل بما يدعو إليه، وابتعدوا عن كل ما يخالفه؛ لأنه الأصل الأصيل والهدف الأعظم، ولأنه السبيل الذي من سار عليه، واستقام عليه، وصل إلى شاطئ السلامة، وفاز بالجنة

والكرامة، ومن حاد عن سبيله باء بالخيبة والندامة، وخسر الدنيا والآخرة، فلو كان دعاة القومية يقصدون بدعوتهم إليها تعظيم الإسلام وخدمته، ورفع شأنه، لما اقتصروا على الدعوة للخادم دون المخدوم، وكرسوا لهذا الخادم جهودهم، وغضبوا من صوت دعاة الإسلام إذا دعوا إليه، وحذروا مما يخالفه أو يقف حجرا في طريقه.

لو كان دعاة القومية يريدون بدعوتهم إعلاء كلمة الإسلام، واجتماع العرب عليه، لنصحوا العرب ودعوهم إلى التمسك بتعاليم الإسلام، وتنفيذ أحكامه، ولشجعوهم على نصره ودعوة الناس إليه، فإن العرب أولى الناس بأن ينصروا الإسلام، ويحموه من مكائد الأعداء، ويحكموه فيما شجر بينهم، كما فعل أسلافهم؛ لأنه عزهم وذكرهم ومجدهم، كما قال الله تعالى: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} وقال {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} وإذا عرفت أيها القارئ ما تقدم، فاعلم أن هذه الدعوة: أعني الدعوة إلى القومية العربية، أحدثها الغربيون من النصارى، لمحاربة الإسلام والقضاء عليه في داره، بزخرف من القول، وأنواع من الخيال، وأساليب من الخداع، فاعتنقها كثير من العرب من أعداء الإسلام، واغتر بها كثير من الأغمار ومن قلدهم من الجهال، وفرح بذلك أرباب الإلحاد وخصوم الإسلام في كل مكان. ومن المعلوم من دين الإسلام بالضرورة أن الدعوة إلى القومية العربية أو غيرها من القوميات، دعوة باطلة وخطأ عظيم، ومنكر ظاهر، وجاهلية وكيد سافر للإسلام وأهله، وذلك لوجوه:

الأول: أن الدعوة إلى القومية العربية تفرق بين المسلمين، وتفصل المسلم العجمي عن أخيه العربي، وتفرق بين العرب أنفسهم؛ لأنهم كلهم ليسوا

يرتضونها، وإنما يرضاها منهم قوم دون قوم، وكل فكرة تقسم المسلمين وتجعلهم أحزابا فكرة باطلة، تخالف مقاصد الإسلام وما يرمي إليه؛ وذلك لأنه يدعو إلى الاجتماع والوئام، والتواصي بالحق والتعاون على البر والتقوى، كما يدل على ذلك قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} وقال تعالى: {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}

فانظر أيها المؤمن الراغب في الحق كيف يحارب الإسلام التفرق والاختلاف، ويدعو إلى الاجتماع والوئام، والتمسك بحبل الحق والوفاة عليه، تعلم بذلك أن هدف القومية غير هدف الإسلام، وأن مقاصدها تخالف مقاصد الإسلام، ويدل على ذلك أيضا أن هذه الفكرة، أعني الدعوة إلى القومية العربية وردت إلينا من أعدائنا الغربيين، وكادوا بها المسلمين، ويقصدون من ورائها فصل بعضهم عن بعض، وتحطيم كيانهم، وتفريق شملهم، على قاعدتهم المشئومة (فرق تسد) وكم نالوا من الإسلام وأهله بهذه القاعدة النحيسة، مما يحزن القلوب ويدمي العيون.

وذكر كثير من مؤرخي الدعوة إلى القومية العربية، ومنهم مؤلف الموسوعة العربية: أن أول من دعا إلى القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر

الميلادي، هم الغربيون على أيدي بعثات التبشير في سوريا، ليفصلوا الترك عن العرب، ويفرقوا بين المسلمين، ولم تزل الدعوة إليها في الشام والعراق ولبنان تزداد وتنمو، حتى عقد لها أول مؤتمر في باريس من نحو ستين سنة، وذلك عام ١٩١٠ م، وكثرت بسبب ذلك الجمعيات العربية، وتعددت الاتجاهات، فحاول الأتراك إخمادها، بأحكام الإعدام التي نفذها جمال باشا في سورية في ذلك الوقت، إلى آخر ما ذكروا، فهل تظن أيها القارئ أن خصومنا وأعداءنا يسعون في مصالحنا، بابتداعهم الدعوة إلى القومية العربية، وعقد المؤتمرات لها، وابتعاث المبشرين بها، لا والله، إنهم لا يريدون بنا خيرا ولا يعملون لمصالحنا، إنما يعملون ويسعون لتحطيمنا وتمزيق شملنا، والقضاء على ما بقي من ديننا، وكفى بذلك دليلا لكل ذي لب، على ما يراد من وراء الدعوة إلى القومية العربية، وأنها معول غربي استعماري، يراد به تفريقنا وإبعادنا عن ديننا كما سلف.

ومن العجب الذي لا ينقضي، أن كثيرا من شبابنا وكتابنا - ألهمهم الله رشدهم - خفيت عليهم هذه الحقيقة، حتى ظنوا أن التكتل والتجمع حول القومية العربية، والمناصرة لها، أنفع للعرب وأضر للعدو، من التجمع والتكتل حول الإسلام ومناصرته، وهذا بلا شك ظن خاطئ، واعتقاد غير مطابق للحقيقة.

نعم لا شك أنه يحزن المستعمر ويقلق راحته كل تجمع وتكتل ضد مصلحته، ولكن خوفه من التجمع والتكتل حول الإسلام أعظم وأكبر، ولذلك رضي بالدعوة إلى القومية العربية، وحفز العرب إليها، ليشغلهم بها عن الإسلام، وليقطع بها صلتهم بالله سبحانه؛ لأنهم إذا فقدوا الإسلام حرموا ما

ضمنه الله لهم من النصر، الذي وعدهم به في الآيتين السابقتين، وفي قوله تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} ومعلوم عند جميع العقلاء أنه إذا كان لا بد من أحد ضررين، فارتكاب الأدنى منهما أولى، حذرا من الضرر الأكبر، وقد دل الشرع والقدر على هذه القاعدة، وقد عرفها المستعمر وسلكها في هذا الباب وغيره. فتنبه يا أخي واحذر مكائد الشيطان والاستعمار وأوليائهما، تنج من ضرر عظيم، وخطر كبير، وعواقب سيئة عافاني الله وإياك والمسلمين من ذلك.

ومما تقدم يعلم القارئ اليقظ أن الدعوة إلى القومية العربية – كما أنها إساءة إلى الإسلام ومحاربة له في بلاده – فهي أيضا إساءة إلى العرب أنفسهم، وجناية عليهم عظيمة؛ لكونها تفصلهم عن الإسلام الذي هو مجدهم الأكبر، وشرفهم الأعظم ومصدر عزهم وسيادتهم على العالم، فكيف يرضى عربي عاقل بدعوة هذا شأنها وهذه غايتها:؟! ولقد أحسن الكاتب الإسلامي الشهير: أبو الحسن الندوي في رسالته المشهورة: (اسمعوها مني صريحة: أيها العرب) حيث يقول في صفحة ٢٧ و ٢٨ ما نصه:

(فمن المؤسف المحزن المخجل أن يقوم في هذا الوقت في العالم العربي، رجال يدعون إلى القومية العربية المجردة من العقيدة والرسالة، وإلى قطع الصلة عن أعظم نبي عرفه تاريخ الإيمان، وعن أقوى شخصية ظهرت في العالم، وعن أمتن رابطة روحية تجمع بين الأمم والأفراد والأشتات، إنها جريمة قومية تبز جميع الجرائم القومية، التي سجلها تاريخ هذه الأمة، وإنها حركة هدم وتخريب، تفوق جميع الحركات الهدامة المعروفة في التاريخ، وإنها خطوة

حاسمة مشئومة، في سبيل الدمار القومي والانتحار الاجتماعي) انتهى.

فتأمل: أيها القارئ كلمة هذا العالم العربي الحسني الكبير الذي قد سبر أحوال العالم وعرف نتائج الدعوة إلى القوميات وسوء مصيرها، تدرك بعقلك السليم ما وقع فيه العرب والمسلمون اليوم، من فتنة كبرى ومصيبة عظمى، بهذه الدعوة المشئومة، وقى الله المسلمين شرها، ووفق العرب وجميع المسلمين للرجوع إلى ما كان عليه أسلافهم المهديون، إنه سميع مجيب.

ثم لا يخفاك: أيها القارئ الكريم غربة الإسلام اليوم، وقلة أنصاره والمتحمسين لدعوته، وكثرة المحاربين له والمتنكرين لأحكامه وتعاليمه، فالواجب على أبناء الإسلام بدلا من التحمس للقومية والمناصرة لدعاتها: أن يكرسوا جهودهم للدعوة إلى الإسلام وتعظيمه في قلوب الناس، وأن يجتهدوا في نشر محاسنه وإعلان أحكامه العادلة، وتعاليمه السمحة الصافية، نقية من شوائب الشرك والخرافات والبدع والأهواء، حتى يعيدوا بذلك ما درس من مجد أسلافهم، وحماستهم للإسلام، وتكريس قواهم لنصرته وحمايته، والرد على خصومه بشتى الأساليب الناجعة، وأنواع الحجج والبراهين الساطعة، ولا شك أن هذا واجب متحتم، وفرض لازم على جميع أبناء الإسلام، كل منهم بحسب ما أعطاه الله من المقدرة والإمكانات، التي يستطيع بها القيام بما أوجب الله عليه من النصر لدينه والدعوة إليه، فنسأل الله أن يمن على الجميع بذلك، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا، وأن يقر أعين المسلمين جميعا بنصر الإسلام الصافي من الشوائب، وظهوره على جميع خصومه في القريب العاجل، إنه سبحانه خير مسئول وأقرب مجيب.

الوجه الثاني: أن الإسلام نهى عن دعوى الجاهلية وحذر منها، وأبدى في

ذلك وأعاد في نصوص كثيرة، بل قد جاءت النصوص تنهى عن جميع أخلاق الجاهلية، وأعمالهم إلا ما أقره الإسلام من ذلك، ولا ريب أن الدعوة إلى القومية العربية من أمر الجاهلية، لأنها دعوة إلى غير الإسلام، ومناصرة لغير الحق، وكم جرت الجاهلية على أهلها من ويلات وحروب طاحنة، وقودها النفوس والأموال والأعراض، وعاقبتها تمزيق الشمل وغرس العداوة والشحناء في القلوب، والتفريق بين القبائل والشعوب. قال شيخ الإسلام: ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة، فهو من عزاء الجاهلية، بل «لما اختصم مهاجري وأنصاري، فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار، قال النبي ﷺ: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم!، وغضب لذلك غضبا شديدا » انتهى.

ومما ورد في ذلك من النصوص قوله تعالى: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ} وقال تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ}

وفي سنن أبي داود، عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية » وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد » ولا ريب أن دعاة القومية يدعون إلى عصبية ويغضبون لعصبية ويقاتلون على عصبية، ولا ريب أيضا أن الدعوة إلى القومية تدعو إلى البغي والفخر؛ لأن القومية ليست دينا سماويا يمنع أهله من البغي والفخر، وإنما هي فكرة جاهلية تحمل أهلها على الفخر بها والتعصب لها

على من نالها بشيء، وإن كانت هي الظالمة وغيرها المظلوم، فتأمل أيها القارئ ذلك يظهر لك وجه الحق.

ومن النصوص الواردة في ذلك ما رواه الترمذي وغيره، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» وهذا الحديث يوافق قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ} أوضح سبحانه بهذه الآية الكريمة أنه جعل الناس شعوبا وقبائل للتعارف لا للتفاخر والتعاظم، وجعل أكرمهم عنده هو أتقاهم، وهكذا يدل الحديث المذكور على هذا المعنى ويرشد إلى سنة الجاهلية التكبر والتفاخر بالأسلاف والأحساب، والإسلام بخلاف ذلك، يدعو إلى التواضع والتقوى والتحاب في الله، وأن يكون المسلمون الصادقون من سائر أجناس بني آدم، جسدا واحدا، وبناء واحدا يشد بعضهم بعضا، ويألم بعضهم لبعض، كما في الحديث الصحيح، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه» وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» فأنشدك بالله أيها القومي: هل قوميتك تدعو إلى هذه الأخلاق الفاضلة، من الرحمة للمسلمين من العرب والعجم، والعطف عليهم والتألم لآلامهم؟ لا والله، وإنما تدعو إلى موالاة من انخرط في سلكها، ونصب العداوة لمن تنكر لها، فتنبه أيها المسلم الراغب في النجاة، وانظر إلى حقائق الأمور بمرآة العدالة والتجرد من التعصب والهوى، حتى ترى الحقائق على ما

هي عليه، أرشدني الله وإياك إلى أسباب النجاة.

ومن ذلك ما ثبت في الصحيح «أن غلاما من المهاجرين وغلاما من الأنصار تنازعا، فقال المهاجري: يا للمهاجرين وقال الأنصاري: يا للأنصار فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم » فإذا كان من انتسب إلى المهاجرين واستنصر بهم على إخوانهم في الدين، أو إلى الأنصار واستنصر بهم على إخوانهم في الدين يكون قد دعا بدعوى الجاهلية، مع كونهما اسمين محبوبين لله سبحانه، وقد أثنى الله على أهلهما ثناء عظيما في قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} الآية، فكيف تكون حال من انتسب إلى القومية واستنصر بها وغضب لها؟ أفلا يكون أولى ثم أولى بأن يكون قد دعا بدعوى الجاهلية؟ لا شك أن هذا من أوضح الواضحات.

ومن ذلك ما ثبت في الحديث الصحيح عن الحارث الأشعري، أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس أن يعمل بهن ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فذكرها، ثم قال النبي ﷺ: وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثي جهنم. قيل: يا رسول الله، وإن صلى وصام؟ قال: وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله » وهذا الحديث الصحيح من أوضح الأحاديث وأبينها في إبطال الدعوة إلى القومية، واعتبارها دعوة جاهلية، يستحق دعاتها أن يكونوا من جثي جهنم، وإن صاموا وصلوا، وزعموا أنهم مسلمون فيا له من وعيد شديد، وتحذير ينذر كل مسلم

من الدعوات الجاهلية، والركون إلى معتنقيها، وإن زخرفوها بالمقالات السحرية، والخطب الرنانة الواسعة، التي لا أساس لها من الحقيقة، ولا شاهد لها من الواقع، وإنما هو التلبيس والخداع والتقليد الأعمى، الذي ينتهي بأهله إلى أسوأ العواقب، نسأل الله السلامة من ذلك.

وهنا شبهة يذكرها بعض دعاة القومية أحب أن أكشفها للقارئ، وهي أن بعض دعاة القومية زعم أن النهي عن الدعوة إلى القومية العربية والتحذير منها يتضمن تنقص العرب وإنكار فضلهم.

والجواب أن يقال: لا شك أن هذا زعم خاطئ واعتقاد غير صحيح، فإن الاعتراف بفضل العرب، وما سبق لهم في صدر الإسلام من أعمال مجيدة لا يشك فيه مسلم عرف التاريخ كما أسلفنا، وقد ذكر غير واحد من أهل العلم، ومنهم أبو العباس ابن تيمية في كتابه: (اقتضاء الصراط المستقيم) أن مذهب أهل السنة تفضيل جنس العرب على غيرهم، وأورد في ذلك أحاديث تدل على ذلك، ولكن لا يلزم من الاعتراف بفضلهم أن يجعلوا عمادا يتكتل حوله، ويوالى عليه ويعادى عليه، وإنما ذلك من حق الإسلام الذي أعزهم الله به، وأحيا فكرهم ورفع شأنهم، فهذا لون وهذا لون، ثم هذا الفضل الذي امتازوا به على غيرهم، وما من الله به عليهم من فصاحة اللسان، ونزول القرآن الكريم بلغتهم، وإرسال الرسول العام بلسانهم، ليس مما يقدمهم عند الله في الآخرة، ولا يوجب لهم النجاة إذا لم يؤمنوا ويتقوا، وليس ذلك أيضا يوجب تفضيلهم على غيرهم من جهة الدين، بل أكرم الناس عند الله أتقاهم، كما تقدم في الآية الكريمة والحديث الشريف، بل هذا الفضل عند أهل التحقيق يوجب عليهم أن يشكروا الله سبحانه أكثر من غيرهم، وأن يضاعفوا الجهود في نصر دينه الذي

رفعهم الله به، وأن يوالوا عليه ويعادوا عليه، ودون أن يلتفتوا إلى قومية أو غيرها من الأفكار المسمومة، والدعوات المشئومة، ولو كانت أنسابهم وحدها تنفعهم شيئا لم يكن أبو لهب وأضرابه من أصحاب النار، ولو كانت تنفعهم بدون الإيمان لم يقل لهم النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا» .

وبذلك يعلم القارئ المسلم من الهوى أن الشبهة المذكورة شبهة واهية لا أساس لها من الشرع المطهر، ولا من المنطق السليم البعيد من الهوى.

وهنا شبهة أخرى وهي قول بعضهم: أنه قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا ذل العرب ذل الإسلام» ورواه بعضهم بلفظ: «إذا عز العرب عز الإسلام» قالوا: وهذا يدل علي أن انتصار القومية العربية والدعوة إليها انتصار للإسلام ودعوة إليه، والجواب أن يقال: يعلم كل ذي لب سليم وبصيرة بالإسلام، أن هذه سفسطة في السمعيات، ومغالطة في الحقائق، وتأويل للحديث على غير تأويله، سواء صح أم لم يصح، فإن الواقع يشهد بخلاف ما ذكره القائل، فقد ذل العرب يوم بدر ويوم الأحزاب، وصار في ذلهم عز الإسلام وظهوره، وانتصر العرب يوم أحد وصار في انتصارهم ذل المسلمين والمضرة عليهم، ولكن الله سبحانه لطف بأوليائه وأحسن لهم العاقبة، فهل يستطيع هذا القائل أن يدعي خلاف هذا الواقع؟ وهل يمكن أن يقول: إن انتصار العرب الكافرين بالله، المحاربين لدينه، انتصار للإسلام، من قال هذا فقد قال خلاف الحق، وهو إما جاهل أو متجاهل، يريد أن يلبس الحق بالباطل ويخدع ضعفاء البصائر، سبحان الله ما أعظم شأنه.

ثم أعود فأوضح للقارئ أن الحديث المذكور ضعيف الإسناد، ولا يصح عن النبي ﷺ قال الحافظ أبو الحسن الهيثمي في: (مجمع الزوائد) لما ذكر هذا

الحديث بلفظ: «إذا ذلت العرب ذل الإسلام» رواه أبو يعلى، وفي إسناده محمد بن الخطاب ضعفه الأزدي وغيره، ووثقه ابن حبان انتهى.

وقال الحافظ الذهبي في (الميزان) في ترجمة محمد المذكور: (قال أبو حاتم: لا أعرفه وقال الأزدي: منكر الحديث) انتهى. قلت: وفي إسناده أيضا علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف عند جمهور من المحدثين لا يحتج بحديثه، لو سلم الإسناد من غيره، فكيف وفي الإسناد من هو أضعف منه، وهو محمد بن الخطاب المذكور. وأما توثيق ابن حبان له، فلا يعتمد عليه؛ لأنه معروف بالتساهل وقد خالفه غيره. ولو صح الحديث لكان معناه: إذا ذل العرب الحاملون راية الإسلام والدعوة إليه، لا العرب المتنكرون له الداعون إلى غيره. ولا يجوز أن يرد في سنة رسول الله كل ما يخالف القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة أبدا، فإن كلام الله لا يتناقض، وكلام رسول الله ﷺ كذلك، والسنة لا تخالف القرآن بل تصدقه وتوافقه، وتدل على معناه وتوضح ما أجمل فيه.

وقد علق الله سبحانه في القرآن النصر على الإيمان بالله والنصر لدينه، فلا يجوز أن يرد في السنة ما يناقض ذلك، فتنبه أيها المؤمن، واحذر من الشبهات المضللة، والأحاديث المكذوبة، والآراء الفاسدة والأفكار المسمومة، فإن الخطر عظيم، والمعصوم من عصمه الله سبحانه، فاعتصم به وتوكل عليه وتفقه في دينه، واستقم عليه تفز بالنجاة والعاقبة الحميدة.

وهذه الشبه وأمثالها تفسر لنا ما صح به الحديث عن النبي ﷺ من حديث حذيفة: أنه قال: «كان الناس يسألون الرسول ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله

بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: فهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن، قلت: ما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي ويهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني يا رسول الله إن أدركني ذلك؟ قال: لتلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » . رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري، فهذا الحديث العظيم الجليل يرشدك أيها المسلم إلى أن هؤلاء الدعاة اليوم، الذين يدعون إلى أنواع من الباطل كالقومية العربية، والاشتراكية والرأسمالية الغاشمة، وإلى الخلاعة والحرية المطلقة وأنواع الفساد كلهم دعاة على أبواب جهنم، سواء علموا أم لم يعلموا، من أجابهم إلى باطلهم قذفوه في جهنم، ولا شك أن هذا الحديث الجليل من أعلام النبوة، ودلائل صحة رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بالواقع قبل وقوعه فوقع كما أخبر.

فنسأل الله لنا ولسائر المسلمين العافية من مضلات الفتن، ونسأله سبحانه أن يصلح ولاة أمر المسلمين وزعماءهم حتى ينصروا دينه، ويحاربوا ما خالفه. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الوجه الثالث من الوجوه الدالة على بطلان الدعوة إلى القومية العربية: هو أنها سلم إلى موالاة كفار العرب وملاحدتهم من غير المسلمين، واتخاذهم بطانة، والاستنصار بهم على أعداء القوميين من المسلمين وغيرهم. ومعلوم ما في هذا من الفساد الكبير، والمخالفة لنصوص القرآن والسنة، الدالة على

وجوب بغض الكافرين من العرب وغيرهم، ومعاداتهم وتحريم موالاتهم واتخاذهم بطانة. والنصوص في هذا المعنى كثيرة منها قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ} الآية. سبحان الله ما أصدق قوله وأوضح بيانه، هؤلاء القوميون يدعون إلى التكتل حول القومية العربية مسلمها وكافرها، يقولون: نخشى أن تصيبنا دائرة، نخشى أن يعود الاستعمار إلى بلادنا، نخشى أن تسلب ثرواتنا بأيدي أعدائنا، فيوالون لأجل ذلك كل عربي من يهود ونصارى، ومجوس ووثنيين وملاحدة وغيرهم، تحت لواء القومية العربية، ويقولون: إن نظامها لا يفرق بين عربي وعربي، وإن تفرقت أديانهم، فهل هذا إلا مصادمة لكتاب الله، ومخالفة لشرع الله، وتعد لحدود الله، وموالاة ومعاداة، وحب وبغض على غير دين الله؟ فما أعظم ذلك من باطل، وما أسوأه من منهج. والقرآن يدعو إلى موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين أينما كانوا وكيفما كانوا، وشرع القومية العربية يأبى ذلك ويخالفه: {قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ} ويقول الله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ} إلى قوله تعالى {وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}

ونظام القومية يقول: كلهم أولياء مسلمهم وكافرهم والله يقول: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} ويقول سبحانه {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ

وَحْدَهُ} وقال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} وشرع القومية أو بعبارة أخرى شرع دعاتها يقول: اقصوا الدين عن القومية، وافصلوا الدين عن الدولة، وتكتلوا حول أنفسكم وقوميتكم، حتى تدركوا مصالحكم وتستردوا أمجادكم، وكأن الإسلام وقف في طريقهم، وحال بينهم وبين أمجادهم، هذا والله هو الجهل والتلبيس وعكس القضية، سبحانك هذا بهتان عظيم.

والآيات الدالة على وجوب موالاة المؤمنين، ومعاداة الكافرين، والتحذير من توليهم كثيرة لا تخفى على أهل القرآن، فلا ينبغي أن نطيل بذكرها. وكيف يجوز في عقل عاقل أن يكون أبو جهل، وأبو لهب، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث وأضرابهم من صناديد الكفار في عهد النبي ﷺ وبعده إلى يومنا هذا، إخوانا وأولياء لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة، ومن سلك سبيله من العرب إلى يومنا هذا. هذا والله من أبطل الباطل وأعظم الجهل. وشرع القومية ونظامها يوجب هذا ويقتضيه، وإن أنكره بعض دعاتها جهلا أو تجاهلا وتلبيسا، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد أوجب الله على المسلمين: أن يتكاتفوا ويتكتلوا تحت راية الإسلام، وأن يكونوا جسدا واحدا، وبناء متماسكا ضد عدوهم، ووعدهم على ذلك النصر والعز والعاقبة الحميدة، كما تقدم ذلك في كثير من الآيات، وكما في قوله تعالى: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} الآية. وقال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ

{الْغَالِبُونَ} فوعد الله سبحانه عباده المرسلين، وجنده المؤمنين بالنصر والغلبة، واستخلافهم في الأرض والتمكين لدينهم، وهو الصادق في وعده، {وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ} وإنما يتخلف هذا الوعد في بعض الأحيان بسبب تقصير المسلمين، وعدم قيامهم بما أوجب الله عليهم من الإيمان بالله، والنصر لدينه، كما هو الواقع، فالذنب ذنبنا لا ذنب الإسلام، والمصيبة حصلت بما كسبت أيدينا من الخطايا، كما قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}

فالواجب على العرب وغيرهم: التوبة إلى الله سبحانه، والتمسك بدينه، والتواصي بحقه، وتحكيم شريعته، والجهاد في سبيله، والاستقامة على ذلك من الرؤساء وغيرهم، فبذلك يحصل لهم النصر ويهزم العدو، ويحصل التمكين في الأرض، وإن قل عددنا وعدتنا، ولا ريب أن من أهم الواجبات الإيمانية: أخذ الحذر من عدونا، وأن نعد له ما نستطيع من القوة، وذلك من تمام الإيمان، ومن الأخذ بالأسباب التي يتعين الأخذ بها، ولا يجوز إهمالها، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ} وقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}

وليس للمسلمين أن يوالوا الكافرين أو يستعينوا بهم على أعدائهم، فإنهم من الأعداء ولا تؤمن غائلتهم. وقد حرم الله موالاتهم، ونهى عن اتخاذهم بطانة، وحكم على من تولاهم بأنه منهم، وأخبر أن الجميع من الظالمين، كما سبق ذلك في الآيات المحكمات، وثبت في: (صحيح مسلم)، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرج رسول الله ﷺ قبل بدر، فلما كان بـ (حرة الوبرة) أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك. قال له رسول الله ﷺ " تؤمن بالله

ورسوله؟ " قال: لا، قال " فارجع فلن استعين بمشرك " قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة، فقال: لا، قال " فارجع فلن استعين بمشرك " قالت: ثم رجع فأدركه في البيراء، فقال له كما قال أول مرة: "تؤمن بالله ورسوله؟ " قال: نعم، فقال له رسول الله ﷺ: "فانطلق » فهذا الحديث الجليل، يرشدك إلى ترك الاستعانة بالمشركين، ويدل على أنه لا ينبغي للمسلمين أن يدخلوا في جيشهم غيرهم، لا من العرب ولا من غير العرب؛ لأن الكافر عدو لا يؤمن. وليعلم أعداء الله أن المسلمين ليسوا في حاجة إليهم، إذا اعتصموا بالله، وصدقوا في معاملته؛ لأن النصر بيده لا بيد غيره، وقد وعد به المؤمنين، وإن قل عددهم وعدتهم كما سبق في الآيات وكما جرى لأهل الإسلام في صدر الإسلام،

ويدل على تلك أيضا قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} فانظر أيها المؤمن إلى كتاب ربك وسنة نبيك عليه الصلاة والسلام كيف يحاربان موالاة الكفار، والاستعانة بهم واتخاذهم بطانة، والله سبحانه أعلم بمصالح عباده، وأرحم بهم من أنفسهم، فلو كان في اتخاذهم الكفار أولياء من العرب أو غيرهم والاستعانة بهم مصلحة راجحة، لأذن الله فيه وأباحه لعباده، ولكن لما علم الله ما في ذلك من المفسدة الكبرى، والعواقب الوخيمة، نهى عنه وذم من يفعله، وأخبر في آيات أخرى أن طاعة الكفار، وخروجهم في جيش المسلمين يضرهم، ولا يزيدهم ذلك إلا خبالا، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} {بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ

النَّاصِرِينَ} وقال تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}

فكفى بهذه الآيات تحذيرا من طاعة الكفار، والاستعانة بهم، وتنفيرا منهم، وإيضاحا لما يترتب على ذلك من العواقب الوخيمة، عافى الله المسلمين من ذلك، وقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} أوضح سبحانه أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والكفار بعضهم أولياء بعض، فإذا لم يفعل المسلمون ذلك، واختلط الكفار بالمسلمين، وصار بعضهم أولياء بعض، حصلت الفتنة والفساد الكبير، وذلك بما يحصل في القلوب من الشكوك، والركون إلى أهل الباطل والميل إليهم، واشتباه الحق على المسلمين نتيجة امتزاجهم بأعدائهم وموالاة بعضهم لبعض، كما هو الواقع اليوم من أكثر المدعين للإسلام حيث والوا الكافرين، واتخذوهم بطانة، فالتبست عليهم الأمور بسبب ذلك، حتى صاروا لا يميزون بين الحق والباطل ولا بين الهدى والضلال، ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فحصل بذلك من الفساد والأضرار ما لا يحصيه إلا الله سبحانه.

وقد احتج بعض دعاة القومية على جواز موالاة النصارى والاستعانة بهم بقوله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى} وزعموا أنها ترشد إلى جواز موالاة النصارى؛ لكونهم أقرب مودة للذين آمنوا من غيرهم، وهذا خطأ ظاهر وتأويل للقرآن بالرأي المجرد، المصادم للآيات المحكمات المتقدم ذكرها وغيرها، ولما ثبت في السنة المطهرة من التحذير من موالاة الكفار، من

أهل الكتاب وغيرهم وترك الاستعانة بهم، وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » والواجب: أن تفسر الآيات بعضها ببعض، ولا يجوز أن يفسر شيء منها بما يخالف بقيتها، وليس في هذه الآية بحمد الله ما يخالف الآيات الدالة على تحريم موالاة الكفار من النصارى وغيرهم، وإنما أتي هذا الداعية من سوء فهمه وتقصيره في تدبر الآيات، والنظر في معناها، والاستعانة على ذلك بكلام أهل التفسير المعروفين بالعلم والأمانة والإمامة، ومعنى هذه الآية على ما قال أهل التفسير، وعلى ما يظهر من صريح لفظها: أن النصارى أقرب مودة للمؤمنين من اليهود والمشركين، وليس معناها: أنهم يوادن المؤمنين، ولا أن المؤمنين يوادونهم، ولو فرض أن النصارى أحبوا المؤمنين وأظهروا مودتهم لهم لم يجز لأهل الإيمان أن يوادوهم ويوالوهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد نهاهم عن ذلك في الآيات السالفات ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ ولا ريب أن النصارى من المحادين لله ولرسوله، النابذين لشريعته، المكذبين له ولرسوله عليه أفضل الصلاة والسلام فكيف يجوز لمن يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يوادهم أو يتخذهم بطانة؟ نعوذ بالله من الخذلان وطاعة الهوى والشيطان.

وزعم آخر من دعاة القومية أن الله سبحانه قد سهل في موالاة الكفار الذين لم يخرجونا من ديارنا، واحتج على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

وهذا كالذي قبله احتجاج باطل، وقول في القرآن بالرأي المجرد، وتأويل للآية على غير تأويلها. والله سبحانه حرم موالاة الكفار ونهى عن اتخاذهم بطانة في الآيات المحكمات، ولم يفصل بين أجناسهم، ولا بين من قاتلنا ومن لم يقاتلنا، فكيف يجوز لمسلم أن يقول على الله ما لم يقل، وأن يأتي بتفصيل من رأيه لم يدل عليه كتاب ولا سنة؟ سبحان الله ما أحلمه، وإنما معنى الآية المذكورة عند أهل العلم: الرخصة في الإحسان إلى الكفار، والصدقة عليهم إذا كانوا مسالمين لنا، بموجب عهد أو أمان أو ذمة، وقد صح في السنة ما يدل على ذلك، كما ثبت في الصحيح أن أم أسماء بنت أبي بكر قدمت عليها في المدينة في عهد النبي ﷺ وهي مشركة تريد الدنيا، فأمر النبي ﷺ أسماء أن تصل أمها، وذلك في مدة الهدنة التي وقعت بين النبي ﷺ وبين أهل مكة، وصح عن النبي ﷺ أنه أعطى عمر جبة من حرير، فأهداها إلى أخ له بمكة مشرك، فهذا وأشباهه من الإحسان الذي قد يكون سببا في الدخول في الإسلام، والرغبة فيه، وإيثاره على ما سواه، وفي ذلك صلة للرحم، وجود على المحتاجين، وذلك ينفع المسلمين ولا يضرهم، وليس من موالاة الكفار في شيء كما لا يخفى على ذوي الألباب والأبصار.

وللقوميين هنا شبهة، وهي أنهم يقولون: إن التكتل حول القومية العربية بدون تفرقة بين المسلم والكافر يجعل العرب وحدة قوية، وبناء شامخا، يهابهم عدوهم ويحترم حقوقهم، وإذا انفصل المسلمون عن غيرهم من العرب، ضعفوا وطمع فيهم العدو، وشبهة أخرى وهي أنهم يقولون: إن العرب إذا اعتصموا بالإسلام، وتجمعوا حول رايته، حقد عليهم أعداء الإسلام، ولم يعطوهم حقوقهم، وتربصوا بهم الدوائر، خوفا من أن يثيروها حروبا إسلامية،

ليستعيدوا بها مجدهم السالف، وهذا يضرنا ويؤخر حقوقنا ومصالحنا المتعلقة بأعدائنا، ويثير غضبهم علينا.

والجواب: أن يقال: إن اجتماع المسلمين حول الإسلام، واعتصامهم بحبل الله، وتحكيمهم لشريعته، وانفصالهم من أعدائهم والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء، هو سبب نصر الله لهم وحمايتهم من كيد أعدائهم، وهو وسيلة إنزال الله الرعب في قلوب الأعداء من الكافرين، حتى يهابوهم ويعطوهم حقوقهم كاملة غير منقوصة، كما حصل لأسلافهم المؤمنين. فقد كان بين أظهرهم من اليهود والنصارى الجمع الغفير، فلم يوالوهم ولم يستعينوا بهم، بل والوا الله وحده، واستعانوا به وحده، فحماهم وأيدهم ونصرهم على عدوهم والقرآن والسنة شاهدان بذلك، والتاريخ الإسلامي ناطق بذلك، قد علمه المسلم والكافر. وقد خرج النبي ﷺ يوم بدر إلى المشركين، وفي المدينة اليهود، فلم يستعن بهم، والمسلمون في ذلك الوقت ليسوا بالكثرة، وحاجتهم إلى الأنصار والأعوان شديدة، ومع ذلك فلم يستعن نبي الله والمسلمون باليهود، لا يوم بدر ولا يوم أحد، مع شدة الحاجة إلى المعين في ذلك الوقت، ولا سيما يوم أحد، وفي ذلك أوضح دلالة على أنه لا ينبغي للمسلمين أن يستعينوا بأعدائهم، ولا يجوز أن يوالوهم أو يدخلوهم في جيشهم، لكونهم لا تؤمن غائلتهم، ولما في مخالطتهم من الفساد الكبير، وتغيير أخلاق المسلمين، وإلقاء الشبهة، وأسباب الشحناء والعداوة بينهم، ومن لم تسعه طريقة الرسول ﷺ وطريقة المؤمنين السابقين فلا وسع الله عليه.

وأما حقد غير المسلمين على المسلمين إذا تجمعوا حول الإسلام، فذلك مما يرضي الله عن المؤمنين ويوجب لهم نصره، حيث أغضبوا أعداؤه من أجل

رضاه، ونصر دينه والحماية لشرعه. ولن يزول حقد الكفار على المسلمين، إلا إذا تركوا دينهم واتبعوا ملة أعدائهم، وصاروا في حزبهم، وذلك هو الضلال البعيد والكفر الصريح، وسبب العذاب والشقاء في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}

وقال تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} وقال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} {إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} فأبان الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات البينات: أن الكفار لن يرضوا عنا حتى نتبع ملتهم، وندع شريعتنا، وإنهم لا يزالون يقاتلوننا حتى يردونا عن ديننا إن استطاعوا.

وأخبر أنه متى أطعناهم واتبعنا أهواءهم، كنا من المخلدين في النار، إذا متنا على ذلك، نسأل الله العافية من ذلك، ونعوذ بالله من موجبات غضبه وأسباب انتقامه.

الوجه الرابع: من الوجوه الدالة على بطلان الدعوة إلى القومية العربية أن يقال: إن الدعوة إليها والتكتل حول رايتها يفضي بالمجتمع ولا بد إلى رفض حكم القرآن؛ لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا تحكيم القرآن، فيوجب ذلك لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاما وضعية تخالف حكم القرآن، حتى

يستوي مجتمع القومية في تلك الأحكام، وقد صرح الكثير منهم بذلك كما سلف، وهذا هو الفساد العظيم، والكفر المستبين والردة السافرة، كما قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}

وقال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} وقال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} وقال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} وقال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} وكل دولة لا تحكم بشرع الله، ولا تنصاع لحكم الله، ولا ترضاه فهي دولة جاهلية كافرة، ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات، يجب على أهل الإسلام بغضها ومعاداتها في الله، وتحرم عليهم مودتها وموالاتها حتى تؤمن بالله وحده، وتحكم شريعته، وترضى بذلك لها وعليها، كما قال ﷻ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ} .

فالواجب على زعماء القومية ودعاتها، أن يحاسبوا أنفسهم ويتهموا رأيهم، وأن يفكروا في نتائج دعوتهم المشئومة، وغاياتها الوخيمة، وأن يكرسوا جهودهم للدعوة إلى الإسلام ونشر محاسنه والتمسك بتعاليمه والدعوة إلى تحكيمه بدلا من الدعوة إلى قومية أو وطنية، وليعلموا يقينا أنهم إن لم يرجعوا إلى دينهم ويستقيموا عليه ويحكموه فيما شجر بينهم، فسوف ينتقم الله منهم، ويفرق جمعهم، ويسلبهم نعمته، ويستبدل قوما غيرهم، يتمسكون بدينه ويحاربون ما خالفه كما قال تعالى: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا

يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} وقال تعالى: فلما نسوا {مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " ثم قرأ قوله تعالى » فيا معشر القوميين: راقبوا الله سبحانه، وتوبوا إليه، وخافوا عذابه واشكروه على إنعامه، وذلك بتعظيم كتابه وسنة نبيه ﷺ والعمل بهما ودعوة الناس إلى ذلك، وتحذيرهم مما يخالفه، ففي ذلك عز الدنيا والآخرة، وصلاح أمر المجتمع، وراحة الضمير وطمأنينة القلب، والسعادة العاجلة والآجلة، والأمن من عذاب الله في الدنيا والآخرة. وكل ما خالف ذلك من الدعوات، فهو دعوة إلى جهنم، وسبيل إلى قلق الضمائر، واضطراب المجتمع، وتسليط الأعداء، وحرمان السعادة والأمن في الدنيا والآخرة، كما قال ذو العزة والجلال في كتابه المبين: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} {وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} فأبان سبحانه في هذه الآيات أن من اتبع هداه لم يضل ولم يشق، بل له الهدى والسعادة في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عن ذكره فله المعيشة الضنك في الدنيا، والعمى والعذاب في الآخرة، ومن ضنك المعيشة في الدنيا ما يبتلى به أعداء الإسلام من ظلمة القلوب وحيرتها، وما ينزل بها من الغموم والهموم والشكوك والقلق، وأنواع المشاق في طلب الدنيا وجمعها والخوف من نقصها وسلبها، وغير ذلك من أنواع العقوبات المعجلة في الدنيا، كما قال الله سبحانه:

{فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} وقال تعالى: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} والآيات في هذا المعنى كثيرة، نسأل الله أن يصلح قلوبنا، وأن يعرفنا بذنوبنا، ويمن علينا بالتوبة منها، وأن يهدينا وسائر إخواننا سواء السبيل، إنه على كل شيء قدير.

ولنختم الكلام في هذا المقام بنبذة من كلام الكاتب المصري الشهير الشيخ: محمد الغزالي تتعلق بالقومية قد أجاد فيها وأفاد، حيث قال في كتابه: (مع الله) صفحة ٢٥٤ ما نصه: لا مكان للإلحاد بيننا

ما هؤلاء الناس؟ إنهم ليسوا عربا ولا عجما ولا روس ولا أمريكان!! إنهم مسخ غريب الأطوار صفيق الصياح، بليت به هذه البلاد إثر ما وضعه الاستعمار بها وترك بذوره في مشاعرها وأفكارها، فهم - كما جاء في الحديث - «من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا »، بيد أنهم عدو لتاريخنا وحضارتنا وعبء على كفاحنا ونهضتنا، وعون للحاقدين على ديننا والضانين بحق الحياة له ولمن اعتنقه.

إن هؤلاء الناس الذين برزوا فجأة، وملأت ضجتهم الأودية كما تملأ الضفادع بنقيقها أكناف الليل، يجب أن يمزق النقاب عن سريرتهم، وأن تعرفهم هذه الأمة على حقيقتهم، حتى لا يروج لهم خداع، ولا ينطلي لهم زور، إن صفوف الذين يلبسون مسوح العروبة، ويندسون خلال صفوف المجاهدين، ويزعمون أنهم مبشرون بالقومية العربية ورافعون لألويتها، وفي الوقت نفسه ينسحبون من تقاليد العروبة، ويهاجمون أجل ما عرفت به، ويبعثرون العوائق في طريق الإيمان ورسالته إن هؤلاء الناس ينبغي أن يماط اللثام عن وجوههم

الكالحة، وأن تلقى الأضواء على وظيفتهم التي يسرها الاستعمار لهم، ووقف بعيدا يرقب نتائجها المرة، وما نتائجها إلا الدمار المنشود لرسالة القرآن، وصاحبها العظيم محمد بن عبد الله ﷺ لقد قرأنا ما يكتبون، وسمعنا ما يقولون، ولم يعوزنا الذكاء لاستبانة غاياتهم، فهم ملحدون مجاهرون بالكفر، يقولون في صراحة: إن الإسلام ليس إلا نهضة عربية، فاز بها هذا الجنس العظيم في القرون الوسطى، واستطاع في فورته العارمة أن يجتاح العالم بقيادة رجل عبقري، هو الزعيم الكبير: محمد ﷺ أي أن هذا الدين الجليل، نبت من الأرض، ولم ينزل من السماء، وأنه انطلاقة شعب طامح فاتح، وليس هداية مثالية فدائية، جاءت من عند الله لتنقذ العرب من جاهلية طامسة، كانوا بها في مؤخرة البشر، إلى حنيفية سمحة رفعت خسيستهم، ثم انتشر شعاعها بعد في أنحاء الأرض، كما تنتشر الأضواء في عرض الأفق لدى الشروق. والفضل في ذلك كله لله وحده، الذي اصطفى محمدا، وامتن عليه بالهدى والحق، بعد أن قال له: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ}

وقال: {وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ} كما يقول في العرب الذين أرسل فيهم: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} فأي زحف عربي هنالك؟ وأي عبقرية أنشأت من عندها هذا الغيث الممرع لأهل الأرض؟ إن الزعم: بأن الإسلام (فورة عربية) أكذوبة كبرى وأضلولة شائنة، وإن هذا القول ليس تكذيبا للإسلام فقط، بل دعوة خطيرة إلى تكذيب الديانات كلها، وإلى إشاعة الكفر والفسوق والعصيان في أنحاء الأرض، والغريب أن هؤلاء الناس يخاصمون الإسلام

بعنف، ويحاربون أمته بجبروت، ويهادنون الأديان الأخرى من سماوية وأرضية، كأن الإسلام هو العدو الذي كلفوا باستئصاله وحده، لا بل هو العقبة الفذة التي وضعت المعاول في أيديهم لإهالتها ترابا، أجل، وهل للاستعمار عدو في هذه البلاد إلا الإسلام؟ إنه مصدر المقاومة العنيدة، وروح الكفاح الباسل الذي أعيى المهاجمين وأحبط مؤامراتهم، ومن ثم فعلى الاستعمار أن ينسج خيوطه حوله ليقتله، ويحول بينه وبين الحياة الكريمة، ولقد ابتدع القوميات الضيقة واستجباها بشتى الأساليب، لينال من كيان هذا الدين، فلما سقطت أمام الإسلام في المعركة، دس أتباعه تحت لواء القومية العربية، وزودهم بضروب من الادعاء، ليزحموا العرب المخلصين في هذا الميدان، ولينالوا من الإسلام بطريقة أخرى.

وتفسير القومية العربية هذا التفسير الكفور الكنود، هو حرب أخرى ضد الإسلام، إنه لجدير أن يتسمى هؤلاء بأتباع القومية العبرية لا العربية. أليسوا يعملون لمصلحة الاستعمار وإسرائيل، ولقد مرت أربعة عشر قرنا على اشتباك العروبة بالإسلام، أو بتعبيرنا نحن أهل الإيمان: على تشريف الله العرب بحمل هذه الأمانة وإبلاغها للناس، ونظرة إلى البعيد تعرفنا بسهولة أن العرب مرت عليهم أدهار قبل الإسلام، لم يكونوا فيها شيئا مذكورا، ثم جاء هذا الدين فدخلوا التاريخ به، وطار صيتهم تحت رايته، وصدق الله إذ يقول {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} ثم أخطأ العرب، فظنوا أن هذا الدين العالمي الذي نزلت فيهم آياته، يمنحهم امتيازا خاصا، ويجعلهم عنصرا أرقى من سائر الأجناس، ونشأ عن هذا الخطأ رد الفعل الذي لا بد منه، فقامت الشعوب الأخرى تدافع عن قيمة دمائها وكرامة عنصرها، وهذه الأغلاط المتبادلة علتها

حنين البشر إلى الجاهلية، واستثقالهم مؤنة السعي لتحصيل الكمال الإنساني، فإذا عز على شخص تافه أن يكون تقيا ينسبه عمله إلى المجد والعلا، ذهب ينتحل نسبا آخر إلى أسرة أو وطن أو جنس، ليرتفع به دون جهد، وتلك كلها عصبيات باطلة ونزعات نازلة، ولا محل لها في دين، ولا وزن لها عند رب العالمين، ولكن المهم أن العرب الأولين لما أرادوا المفاخرة والتميز كان الإسلام متكأهم ومعقد فخارهم، فبأي شيء يملئون أفواههم إذا لم يذكروا الإسلام؟ إن وطابهم خال وتاريخهم صفر، حتى جاء الأفاكون في هذا الزمان بالبدعة التي لم يسمع بها إنسان، فإذا العروبة في نظرهم يجب أن تتجرد من الإيمان، وزعموا - قبحهم الله - أنها بالانسلاخ عن الدين تسمو وتسير، بل إن أحد الكتاب من هذه العصابة وجد الوجه الذي يطالع به الناس ليقول: إن الإسلام جنى على العروبة، وإن اللغة العربية قد انتشرت أبعد مما انتشر الإسلام، وإن الإسلام - لأنه عالمي - ضار بالقومية العربية. وظاهر أن هذا الكلام بقطع النظر عن بطلانه، إنما يروج لحساب الاستعمار الغربي منه والشرقي على السواء، وأن قائله يخدم أهداف الغزاة الذين عسكرت جيوشهم في بعض أقطار العروبة وأنزلت بها الهون، ووقفت على حدود البعض الآخر تتربص به الدوائر.

وكاتب آخر من هذه العصابة يطلب منا بإلحاح: أن ننسى التاريخ؛ لأنه لا يضم إلا رفات الموتى، وأن نتطلع إلى المستقبل فحسب، ونسي هذا الغر أن اليهود في كبد الشرق الأوسط، أقاموا دولتهم بإمداد من التاريخ الموحى، وأنهم جعلوا اسم إسرائيل علما عليها، إنه حلال للناس جميعا أن يستصحبوا تاريخهم في كفاحهم، أما نحن المسلمين فحرام علينا أن نذكر فصلا من هذا التاريخ، وأن

نستوحي منه عونا في جهاد وأملا في امتداد، إنها قومية عبرية لا عربية، تلك التي يبشر بها الملحدون وكارهو الإسلام، ولقد عرف الأولون والآخرون أننا نحن المسلمين أحنى الناس على العروبة وأوصلهم لمجدها، وأخلصهم لقضاياها، وأن هؤلاء القوميين لا خير فيهم، بل إنهم مصدر شر طويل وأذى ثقيل) .

انتهى ما أردنا نقله للقراء من كلام الشيخ: محمد الغزالي هاهنا،

وقال أيضا في كتابه المذكور صفحة ٣٤٧ ما نصه: الهدم الروحي

يجتهد الاستعمار في صرف المسلمين عن دينهم بكل ما يتاح له من وسائل، وفي جعل حركات التحرر الناشطة في بلادهم مبتوتة العلاقة بالدين، حتى تولد ميتة، أو تحيا عقيمة لا ثمر لها ولا زهر، وما من نهضة في الأولين والآخرين إلا ولها دعامة معنوية تقوم عليها، وسناد روحي تتحرك به، ولما كان عمل الدين في هذه الحالة ملأ القلوب بالضمائر الحية، وبنى الأخلاق على الفضيلة، وصبغ الحياة بتقاليد جامعة ومعلومة وواضحة، ورص الصفوف على إحساس مشترك، ودفعها إلى مصير واحد، فإن الاستعمار استهدف إقصاء الدين عن آفاق البلاد كلها، وتكوين أجيال غريبة عنه، إن لم تكن كارهة له.

بل إن ذكر الإسلام أصبح محظورا في المناسبات الجادة، والشئون الهامة، وقد يحوم البعض حوله، ولكنه يوجل من التصريح به، كأن الإسلام مجرم ارتكب ذنبا ثم فر من القضاء الذي حكم بعقوبته، فهو لا يستطيع الظهور في المجتمعات، وربما تلوح له فرصة الظهور متنكرا، تحت اسم مستعار، فيتحرك قليلا هنا وهناك، حتى إذا أحس انكشاف أمره استخفى من الأنظار، يا عجبا، لماذا يلقى الإسلام هذا الهوان كله؟

والجواب: عند الاستعمار الذي يجر خلفه ضغائن القرون الأولى ويضع

نصب عينه ألا تقوم للإسلام قائمة في بلاده، فهو حريص على خنقه في ميدان التربية والمعاملات والتشريع، وسائر ألوان الحياة، إنه يطمئن إلى مجتمع واحد، المجتمع الذي مات ضميره، والذي تفسخت أخلاقه، في هذا المجتمع الذي غاصت منه معاني الفضل، واستغلظت فيه غرائز الشره، وزحفت فيه ثعابين الأثرة.

يستطيع الاستعمار أن يطمئن إلى يومه وغده، فإذا جاء الإسلام ليمسح هذه الأقذار طلب منه على عجل أن يعود إلى وكره ليخفى عن الأعين. إنه اسم لا ينبغي أن يذكر وحقيقة لا يجوز أن تعيش.

هكذا حكم الاستعمار، حتى قيض الله لنا فكرة العروبة عنوانا، نستطيع تحته أن ندفع غوائل الموت، وقد هششنا للفكرة، ورجونا من ورائها الخير، وللعروبة المجردة مثل تعكر على الاستعمار مآربه، إن التعليم في ظل الاحتلال الأجنبي أوجد أناسا تحركهم الشهوات وحدها، أناسا فرغت عواطف اليقين من أفئدتهم فهي هواء، فإذا جاءت إليهم العروبة، فهل يعرفون أن العفة من خلائقها، وأن تقديس العرض من شمائلها، وأن المحافظة على الحريم من صفاتها الباطنة والظاهرة. إن أمثال العرب في الجاهلية تشهد بما لهم من غيرة على نسائهم، فالمثل القائل: (كل ذات صدار خالة) يعني: أن العرب يجعلون في حكم الخالة كل من تلبس ثياب المرأة، فما ينظرون إليها إلا نظرة الاحترام والعفة، وذلك أن الخالة بمنزلة الأم، ويقول الشاعر:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي … حتى يواري جارتي مثواها

ويقول الآخر:

ولا ألقي لذي الودعات سوطي … أداعبه، وريبته أريد ... !

يعني: أنه يداعب طفلا مع أمه ابتغاء إثم بالأم نفسها، فهل هذه الشوارع الغاصة بمتتبعي العورات وبغاة الدنية شوارع عربية؟

وهل عرب أولئك الذين ترى الواحد منهم يتأبط ذراع فتاة متبرجة لعوب تسير في وضع يقول لكل ناظر (هيت لك) ؟ والعرب الأقدمون كانوا أصحاب كرم غريب، وإيثار لامع، ونهوض بالحق على عض الزمن وشدة الحاجة، واسمع قول عروة بن الورد:

وإني امرؤ عافى إنائي شركة ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... بوجهي شحوب الحق والحق جاهد

أفرق جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

أرأيت صورة الإنسان النبيل، يؤثر غيره بالطعام، ويستعيض برشحات من الماء البارد يصفر بها وجهه، وهو يأبى تضييع من نزلوا به، وحسبه أنه فرق جسمه في جسوم كثيرة.

احتفظ بهذه الصورة، ثم سل نفسك: أمدن عربية هذه التي تراها مزدحمة بأصحاب الفضول من المال النامي. ومع ذلك فقلما تؤوي يتيما، أو تغذو محروما، وما لنا نبحث عن الشمائل العربية المفقودة في بيئات مسخها الاستعمار، وترك عليها طابع الحيوانية والتقطع، إنك ترى الواحد من أولئك يقول: إنه عربي ولغة العرب لا تستقيم على فمه، ومن أعاجيب الليالي أن أسمع المذيع مثلا يقول: يا أخي المواطن، أحنا بنعمل إيه في هذه الأيام، وكان يستطيع أن يقول ما نعمل في هذه الأيام، ولكنه حريص على تخليد لغة الرعاع، والتنكر للغة الفصحى، وهي اللغة التي ترسل بها الإذاعات من جميع محطات العالم لمستمعيها على اختلاف ألسنتهم، إذ أن يخاطب المذيع قومه، في أي عاصمة

بلغة غير الفصحى، فهل من مظاهر الوفاء لعروبتنا أن نذيع نحن بلغة الرعاع؟

الواقع: أن الإسلام وحده هو الذي يخلد العروبة لغة وأدبا وخلقا، وأن التنكر لهذا الدين معناه القضاء الحقيقي على العروبة في لغتها وأدبها وخلقها، ولذلك يجب على الدعاة أن يستميتوا في إبراز هذا الاسم بقدر ما يستميت الاستعمار في إخفائه، وأن يذهبوا عنه الوحشة التي صنعها أعداؤه حوله، حتى يصبح مألوفا في الآذان، محببا إلى القلوب، وإظهار هذا الاسم لا يكفي، فما قيمة شكل لا جوهر له. يجب على الدعاة أن يجمعوا الجماهير على تعاليمه وأن ينعشوا أنفسهم بروحه.

الضمير الديني الخاشي لله، الرحيم بخلقه، المحتفي بالواجبات، النفور من الرذائل، الشجاع في نصرة الحق، المستعد للقاء بالله، المتأسي بصاحب الرسالة، هذا الضمير، يجب أن ندعمه بل أن نوجده في كل طائفة، وأن يربط به إنجاز كل عمل، ونجاح كل مشروع، ومنع كل تفريط، وصيانة كل حق، فالإسلام قبل كل شيء قلب كبير، قلب موصول بالله، يبادر لمرضاته ويتقيه حيث كان، وهذا القلب لا يتكون من تلقاء نفسه، ويستحيل أن يتكون بداهة وسط تيارات الشكوك والتجهيل التي تسلط عليه عمدا ليتوقف ويزيغ، إنه يتكون بأغذية روحية منظمة، تقدم له في برامج التعليم، وفي عظات المساجد، وفي صبغ البيئة بمعان معينة، تساعد على احترام الفضيلة وإشاعتها، ونحن أحوج ما نكون لإنشاء هذه الضمائر في الذراري المحدثة التي عريت عنها، والطبقات الكثيفة التي مردت على العبث والاستخفاف بجميع القيم، إنني أستغرب كيف نشتري آلة ما بأغلى الأسعار، ثم نوقف أمامها عاملا لا يتقي الله، فهي تخرب بين يديه على عجل، أو يقل إنتاجها لو قدر لها البقاء سليمة، إننا لو بذلنا شيئا زهيدا

لغرس التدين الحق في قلب هذا العامل لربحنا الكثير، أفلا يبذل المسئولون هذا الشيء بالزهيد، ولو على اعتباره نفقات صيانة للآلة التي اشتريت؟

إن من حق الله علينا ومن حق بلادنا علينا أن نربي الصغار والكبار باسم الإيمان لابتداء عمل ما، فسوف يتم على خير الوجوه، إن للضمير الديني علاقة راشدة بالسماء، ونواة مباركة في الأرض، وما أصدق قول الأستاذ: أحمد الزين في وصفه:

هو صوت السماء في عالم ال　　أرض وروح من اللطيف الخبير

وشعاع تذوب تحت سناه　　خدع العيش من رياء وزور

هو سر يحار في كنهه اللب　　وتعيا به قوى التفكير

مبلغ العلم أنه روح خير　　باطن الشخص ظاهر التأثير

كل حي عليه منه رقيب　　حل من قلبه مكان الشعور

حل حيث الأهواء تنزو إلى الإث　　م وتهفو إلى مهاوي الشرور

جامحات أعيت على الناس كبحا　　رغم إنذارها بسوء المصير

ثم صاح الضمير فيها نذيرا　　فأصاخت إلى صياح النذير

هو روح من الملائك يسمو　　بسليل الثرى لعالم نور

قد تولت بالأنبياء عصور　　وهو باق على توالى العصور

حافظا في الزمان ما خلفوه　　قائما في الصدور بالتذكير

حاملا من شرائع الخير كتبا　　قدست من صحائف وسطور

ليس يعفو عن الهنات وإن أن　　ت ملح في اللوم والتعذير

ونحن ننشد هذا الشعر هنا تكريما للأدب العالي، وإلا فلا مجال لقول بعد

أن نتدبر قول رسول الله ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب »

انتهى المقصود من كلام الغزالي في كتابه: (مع الله) جزاه الله خيرا، ولعظيم فائدته نقلته هاهنا. وأسأل الله ﷻ أن يصلح قلوب المسلمين ويعمرها بتقواه، وأن يمن علينا وعلى جميع شبابنا وسائر إخواننا بالفقه في الدين، والاستقامة على صراط الله المستقيم، فإن ذلك هو سبيل النجاة والفوز بالعزة والكرامة في الدنيا والآخرة، كما قال الله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} {نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ}

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين »، والله أعلم.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

تكميل: في المحرم من العام الماضي، أعني: عام ١٣٨٠ هـ سألني مندوب صحيفة البلاد عن مسائل، بعضها يتعلق بالقومية، فأجبته بما نشر في صحيفة البلاد.

ولتكميل الفائدة للقراء رأيت أن أذكر الأسئلة والأجوبة هاهنا، وهذا نصها

السؤال الأول: ما رأي فضيلتكم في الدعوة التي تقوم بها بعض الأوساط

الخارجية إلى أن القومية العربية وحدها هي الرابطة الأولى بين العرب؟

السؤال الثاني: ما رأي فضيلتكم في الاتجاه الذي يبدو واضحا في هذه الأيام للمقارنة بين القومية والإسلام، والذي يظهر في بعض الجرائد والمجلات بالمملكة؟

السؤال الثالث: بعض المخلصين من الوعاظ يعالجون في وعظهم الأمور البسيطة الفرعية في الدين كطريقة حلاقة الرأس، أو شكل الملابس، في حين أن هناك أمورا هامة تتصل بالعقيدة، تحتاج من هؤلاء المخلصين من الدعاة إلى عناية خاصة لأنها أمور هامة أساسية، فما رأي فضيلتكم في هذا؟

السؤال الرابع: تود جريدة البلاد أن تحمل من فضيلتكم نصيحة إلى قرائها من مختلف الطبقات فما هي؟.

الجواب عن السؤال الأول: أن يقال: لا ريب أن الدعوة إلى أن تكون القومية العربية هي الرابطة الأولى بين العرب، دعوة باطلة لا أساس يؤيدها، لا من العقل ولا النقل، بل هي دعوة جاهلية إلحادية يهدف دعاتها إلى محاربة الإسلام، والتملص من أحكامه وتعاليمه. وقد يدعو إليها من لا يقصد هذا المعنى، وإنما دعا إليها تقليدا لغيره وإحسانا للظن به، ولو عرف حقيقة المقصود منها لحاربها وابتعد عنها، وكل من له أدنى معرفة بتاريخ العرب قبل الإسلام وبعد يعلم إنه لم يكن للعرب كبير قيمة تذكر ولا راية ترهب إلا بالإسلام، وبه فتحوا البلاد وسادوا العباد، وبه كانوا أمة مرهوبة الجانب، محترمة الحقوق مرفوعة الرأس، حتى غيروا فغير عليهم، كما قال الله سبحانه: {إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} الآية. ولا أحب أن أطيل في هذا الميدان؛ لأن الصحيفة لا تتحمل ذلك، والحق في ذلك أوضح من الشمس،

لا يرتاب فيه من له أدنى إلمام بحال العرب والإسلام، وما أحسن قول الله تعالى لنبيه ﷺ: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} وقوله تعالى: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} وإذا كان الهدف من الدعوة إلى القومية العربية أن يجتمع العرب، وأن يشتركوا في مصالحهم، وأن ينتصفوا من عدوهم ويطردوه عن بلادهم، فليس هذا هو السبيل إلى هذا الغرض النبيل، وإنما السبيل الوحيد هو الرجوع إلى دينهم الحق، الذي به شرفوا وعرفوا وبرزوا في الميدان، وسادوا الأمم، والتمسك بتعاليمه السمحة وأحكامه الرشيدة، وتحكيمه في كل شيء، والموالاة في ذلك والمعاداة فيه، وبذلك يحصل الاجتماع، وتدرك المصالح وينتصف من الأعداء، ويكون النصر عليهم مضمونا والعاقبة حميدة في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى في محكم التنزيل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} وقال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} وقال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} الآية. والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة. وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمة الله عليه في هذا المعنى: (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها) لقد صدق هذا الإمام في هذه الكلمة القصيرة العظيمة.

اللهم أصلحنا وولاة أمرنا جميعا وسائر المسلمين إنك سميع قريب.

وأما السؤال الثاني فالجواب عنه: أن يقال: إن من أعظم الظلم وأسفه السفه،

أن يقارن بين الإسلام وبين القومية العربية، وهل للقومية المجردة من الإسلام من المزايا ما تستحق به أن تجعل في صف الإسلام، وأن يقارن بينها وبينه؟ لا شك أن هذا من أعظم الهضم للإسلام والتنكر لمبادئه وتعاليمه الرشيدة، وكيف يليق في عقل عاقل أن يقارن بين قومية لو كان أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وأضرابهم من أعداء الإسلام أحياء لكانوا هم صناديدها وأعظم دعاتها، وبين دين كريم صالح لكل زمان ومكان، دعاته وأنصاره هم: محمد رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق، وعمر ابن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم من الصحابة صناديد الإسلام وحماته الأبطال، ومن سلك سبيلهم من الأخيار؟ لا يستسيغ المقارنة بين قومية هذا شأنها، وهؤلاء رجالها وبين دين هذا شأنه وهؤلاء أنصاره ودعاته، إلا مصاب في عقله، أو مقلد أعمى، أو عدو لدود للإسلام ومن جاء به. وما مثل هؤلاء في هذه المقارنة إلا مثل من قارن بين البعر والدر، أو بين الرسل والشياطين، ومن تأمل هذا المقام من ذوي البصائر، وسبر الحقائق والنتائج، ظهر له أن المقارنة بين القومية والإسلام، أخطر على الإسلام من المقارنة بين ما ذكر آنفا. ثم كيف تصح المقارنة بين قومية غاية من مات عليها النار، وبين دين غاية من مات عليه الفوز بجوار الرب الكريم، في دار الكرامة والمقام الأمين؟

اللهم اهدنا وقومنا سواء السبيل، إنك على كل شيء قدير.

الجواب على السؤال الثالث: لا ريب أن المرشدين هم أطباء المجتمع، ومن شأن الطبيب أن يهتم بمعرفة الأدواء ثم يعمل على علاجها بادئا بالأهم فالأهم، وهذه طريقة أنصح الأطباء وأعلمهم بالله وأقومهم بحقه وحق عباده، سيد ولد آدم عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم فإنه ﷺ لما بعثه الله بدأ بالنهي

عن أعظم أدواء المجتمع وهو الشرك بالله سبحانه، فلم يزل ﷺ من حين بعثه الله يحذر الأمة من الشرك ويدعوهم إلى التوحيد إلى أن مضى عليه عشر سنين، ثم أمر بالصلاة، ثم ببقية الشرائع، وهكذا الدعاة بعده: عليهم أن يسلكوا سبيله وأن يقتفوا أثره، بادئين بالأهم فالأهم ولكن إذا كان المجتمع مسلما ساغ للداعي أن يدعو إلى الأهم وغيره، بل يجب عليه ذلك حسب طاقته؛ لأن المطلوب إصلاح المجتمع المسلم وبذل الوسع في تطهير عقيدته من شوائب الشرك ووسائله، وتطهير أخلاقه مما يضر المجتمع ويضعف إيمانه. ولا مانع من بداءته بعض الأوقات بغير الأهم، إذا لم يتيسر الكلام في الأهم، ولا مانع أيضا من اشتغاله بالأهم وإعراضه عن غير الأهم، إذا رأى المصلحة في ذلك وخاف إن هو اشتغل بهما جميعا أن يخفق فيهما جميعا، وهكذا شأن المصلحين والأطباء المبرزين، يهتمون بطرق الإصلاح ويسلكون أنجعها وأقربها إلى النتيجة المرضية، وإذا لم يستطيعوا تحصيل المصلحتين أو المصالح، أو تعطيل المفسدتين، اهتموا بالأهم من ذلك واشتغلوا به دون غيره، ومن تأمل قواعد الشرع وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وسيرة خلفائه الراشدين والأئمة الصالحين، علم ما ذكرته، وعرف كيف يقوم بإرشاد الناس، وكيف ينتشلهم من أدوائهم إلى شاطئ السلامة، ومن صحت نيته وبذل وسعه في معرفة الحق، وطلب من مولاه الهداية إلى خير الطرق، وأنجعها في الدعوة، واستشار أهل العلم والتجارب فيما أشكل عليه، فاز بالنجاح وهدي إلى الصواب، كم قال سبحانه: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}

الجواب الرابع: نصيحتي لجميع القراء هي: أن يأخذوا بوصية الله سبحانه

التي أوصى بها في كتابه الكريم حيث يقول: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ} والتقوى كما يعلم القارئ الكريم كلمة جامعة، حقيقتها: أن يتقي العبد غضب الرب وعذابه، بفعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، عن علم وإيمان وإخلاص ومحبة ورغبة ورهبة، وبذلك يفوز بالسعادة وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، ومما أنصح به القراء وهو من جملة التقوى، التثبت في الأمور، والتريث في الحكم عليها، إلا بعد دراستها من جميع نواحيها، وبعد التحقق من معناها ومعرفته معرفة تامة بعرض ذلك المعنى على الميزان الشرعي وهو كتاب الله، وما صح من السنة، فما وافق ذلك الميزان قبل، وما خالفه ترك، ويجب أن يكون القارئ في دراسته للأشياء، وعرضه لها على الميزان المذكور، بعيدا كل البعد عن الإفراط والتفريط، متجردا عن ثوبي التعصب والهوى، ومتى سلم من هذه الأمور، ودرس الأمور حق دراستها بإخلاص، وقصد حسن، وفق للحقيقة وفاز بالصواب، وحمد العاقبة، وكم جرت العجلة على أصحابها وغيرهم من ويلات ومشاكل، تذهب الأيام والليالي وآثارها وتبعتها باقية؟ وكم حصل بسبب التعصب والهوى من فساد ودمار وعواقب لا تحمد؟ نسأل الله السلامة من ذلك. ومما أنصح به القراء أيضا وهو من أهم التقوى دعوة العباد إلى الله سبحانه والتواصي بالحق والصبر عليه، والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة والتغيير حسب الطاقة، كما في الحديث الصحيح: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وأسأل الله للجميع الثبات على الحق والعافية من

مضلات الفتن، إنه خير مسئول، وأكرم مجيب، والله أعلم، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣٧٤): ما هي الوهابية وهل هي مذهب خامس أم تتبع بعض المذاهب الأربعة.

فأجاب: هذه الكلمة يطلقها الكثير من الناس على دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويسمونه وأتباعه الوهابيين، وقد علم كل من له أدنى بصيرة بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ودعوته أنه قام بنشر دعوة التوحيد الخالص، والتحذير من الشرك بسائر أنواعه كالتعلق بالأموات وغيرهم كالأشجار والأحجار ونحو ذلك، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العقيدة على مذهب السلف الصالح، وفي الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما تدل على ذلك كتبه وفتاواه وكتب أتباعه من أبنائه وأحفاده وغيرهم، وقد طبعت كلها وانتشرت بين الناس، وقد قام الإمام محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وقت استحكمت فيه غربة الإسلام، وخيم على الجزيرة العربية وغيرها إلا ما شاء الله سحب الجهالة، وانتشرت بها عبادة الأنداد والأوثان فما كان من أمر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلا أن شمر عن ساعد الجد، وناضل وكافح، وكرس جهوده في القضاء على طرق الغواية مستعملا في ذلك شتى الوسائل الموصلة إلى نشر التوحيد النقي من الخرافات بين الناس، وكان من نعم الله سبحانه أن وفق الله الإمام محمد بن سعود أمير الدرعية في ذلك الوقت لقبول هذه الدعوة فقام معه في هذا السبيل هو وأولاده ومن تحت إمرته ومن تابعه في هذا الخير جزاهم الله كل خير وغفر لهم ووفق ذريتهم جميعا لكل ما فيه رضاه وصلاح عباده، وما زالت أصقاع الجزيرة العربية تعيش في ظل هذه الدعوة الخيرة إلى يومنا هذا،

وكانت دعوته رَحِمَهُ ٱللَّهُ وفق كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وليست الوهابية مذهبا خامسا كما يزعمه الجاهلون والمغرضون، وإنما هي دعوة إلى العقيدة السلفية وتجديد لما درس من معالم الإسلام والتوحيد في الجزيرة العربية كما سلف.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣٧٦): هل الوهابيون ينكرون شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام؟.

فأجاب: لا يخفى على كل عاقل درس سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه أنهم براء من هذا القول؛ لأن الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أثبت في مؤلفاته لا سيما في كتاب التوحيد وكشف الشبهات شفاعة الرسول ﷺ لأمته يوم القيامة، ومن هنا يعلم أن الشيخ رحمة الله عليه وأتباعه لا ينكرون شفاعته عليه الصلاة والسلام وشفاعة غيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنين والأفراط بل يثبتونها كما أثبتها الله ورسوله، ودرج على ذلك سلفنا الصالح عملا بالأدلة من الكتاب والسنة.

وبهذا يتضح لكم أن ما نقل عن الشيخ وأتباعه من إنكار شفاعة النبي ﷺ من أبطل الباطل، ومن الصد عن سبيل الله والكذب على الدعاة إليه، وإنما أنكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأتباعه طلبها من الأموات ونحوهم ولكنها لا تكون إلا بعد إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع فيه كما قال عَزَّ وَجَلَّ: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} وقال سبحانه: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} وقال سبحانه في شأن الملائكة: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد، أما المشركون فلا نصيب لهم في الشفاعة كما قال سبحانه: {فَمَا

تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} وقال ﷻ: {مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ} فنسأل الله لنا ولكم التوفيق لما يرضيه، والعافية والسلامة من كل ما يغضبه.. والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣٧٧): هل ما أشيع أن اتباع الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما استولوا على الجزيرة العربية ووصلوا إلى المدينة المنورة ربطوا خيولهم في الروضة الشريفة الواقعة في مسجد الرسول ﷺ؟.

فأجاب: ليس لهذا المقال أصل من الصحة بل هو من الكذب والصد عن الحق، وإنما المعروف عنهم لما استولوا على المدينة المنورة: نشر الدعوة السلفية، وبيان حقيقة التوحيد الذي بعث الله به نبيه محمدا ﷺ وسائر المرسلين، وإنكار ما كان عليه الكثير من الناس من الشرك الأكبر كالاستغاثة بالرسول عليه الصلاة والسلام وطلبه المدد، والاستغاثة بمن في البقيع من الصحابة وأهل البيت وغيرهم من الصالحين، وكالاستغاثة بعم النبي ﷺ حمزة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيره من الشهداء بأحد، هذا هو المعروف عنهم مع تعليم الناس حقيقة الإسلام وإنكار البدع والخرافات التي سادت في الحجاز وغيره في ذلك الوقت، ومن زعم عنهم خلاف ذلك من الاستهانة بالقبر الشريف أو بالروضة أو قال عنهم أنهم يتنقصون النبي ﷺ أو أحدا من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أو غيرهم من الصالحين فقد كذب وافترى وقال خلاف الواقع وخلاف الحق.

وكتب التاريخ موجودة تشهد لهم بما ذكرنا وتبين كذب المفترين، رزقني الله وإياكم الفقه في دينه والثبات عليه حتى نلقاه سبحانه، وجنبنا وإياكم طرق الزلل إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ونسأل الله ﷻ أن يغفر لهم ولسائر علماء المسلمين ودعاة الهدى، وأن يجعلنا وإياكم من أتباعهم بإحسان، وأن يرينا جميعا الحق حقا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.. والله الموفق.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٢٥٦):

فأجاب:

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٣٩١): الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وبعد: اطلعت على ما نشرته صحيفة الندوة في عددها الصادر في ٢٤\٦\١٣٨٠ هـ بعنوان " آثار المدينة المنورة " بقلم الأخ مصطفى أمين فلما تأملت المقال المشار إليه وجدته قد اشتمل على أخطاء كثيرة يجب التنبيه عليها؛ لئلا يغتر بها بعض القراء. والمقتضي لذلك قول النبي ﷺ: «الدين النصيحة » الحديث. وقوله ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

وإليك أيها القارئ الأخطاء والحجة على إنكارها:

أولا: قوله في المدينة: هذه المدينة المقدسة بها آثار كثيرة تستحق الذكرى، ونحن العرب لم نهتم بهذه الآثار بينما نشاهد معالم باريس، ولندن بها من الآثار ما يجعل شعوبها تخلد هذه الذكرى فما بالنا نحن المسلمين العرب لا نهتم بآثار العصور الماضية، إلى قوله وإنما يدعو الإسلام.. إلخ. يدعونا الكاتب في هذه الكلمة إلى التشبه بباريس ولندن في تعظيم الآثار، وتخليد ذكراها بالأبنية وأشباهها، وهذا غريب، وعجيب أن يدعو مسلم إلى التشبه بأعداء الله، والرسول ﷺ يقول: «من تشبه بقوم فهو منهم » أيها القارئ إن تعظيم الآثار لا يكون بالأبنية، والكتابات والتأسي بالكفرة، وإنما تعظيم الآثار يكون باتباع

أهلها في أعمالهم المجيدة، وأخلاقهم الحميدة، وجهادهم الصالح قولا وعملا، ودعوة وصبرا، هكذا كان السلف الصالح يعظمون آثار سلفهم الصالحين، وأما تعظيم الآثار بالأبنية والزخارف والكتابة ونحو ذلك فهو خلاف هدي السلف الصالح، وإنما ذلك سنة اليهود والنصارى ومن تشبه بهم، وهو من أعظم وسائل الشرك، وعبادة الأنبياء والأولياء كما يشهد به الواقع، وتدل عليه الأحاديث والآثار المعلومة في كتب السنة فتنبه واحذر. نعم، ينبغي للمسلمين أن يستعدوا لأعدائهم في إيجاد المصانع النافعة للمجتمع، واختراع الأسلحة المناسبة للعصر، لا تأسيا بالكفرة، ولكن طاعة لله ولرسوله، وتأسيا بالسلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم، ومن سلك سبيلهم، والأصل في ذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ} وقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} وقول النبي: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن» الحديث. والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وكلها تدل على أنه يجب على المسلمين أن يوجدوا بينهم من المصانع والأسلحة وأسباب العيش والحياة الكريمة ما يقوم بكفايتهم ويغنيهم عن الحاجة إلى غيرهم، ويعينهم على جهاد أعدائهم وحماية مصالحهم، والنصر لدينهم، واسترجاع أمجادهم السالفة، ومن عدوان من أرادهم أو أراد دينهم بسوء، هذا يا مصطفى أمين هو تعظيم الآثار لا ما أشرت إليه من الأبنية ونحوها والله المستعان.

ثانيا: يقول الكاتب مصطفى: والمعرفة لا تجعل التقوى في الضعف ولا في الخوف بل في العلم بسنة الكون والوقوف على أسراره، والاتصال بما دق وجل منه. إلخ، نعم لا ينبغي أن تجعل التقوى في الضعف والخوف والتأخر عن

ميادين الإصلاح والنفع الخاص والعام، والنظر في سنن الكون والتبصر في حكمة الرب سبحانه فيما خلق وشرع بل يجب أن يكون أهل التقوى هم أشجع الناس على كل خير، وأكملهم عناية بكل إصلاح؛ لأن تقواهم لله سبحانه تقتضي منهم ذلك، ولكن كلام الكاتب يوهم أن التقوى تنحصر في العلم بسنة الكون، والوقوف على أسراره، والتأسي بمن بلغ في هذا الباب أقصى ما يمكنه من العناية، وليس الأمر كذلك، وإنما العلم بسنة الكون، والعناية بأسراره من التقوى، لا أنه كل التقوى؛ لأن التقوى عند علماء الشرع: فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، عن إيمان وصدق وإخلاص ومحبة ورغبة ورهبة، ومن ذلك العناية بالمصالح العامة وإيجاد المصانع النافعة، والتأسي بمن سبقنا في هذا الميدان من السلف الصالحين، والأئمة المتقين، ولا حرج علينا في أن نأخذ مما وقف عليه غيرنا من أسرار الكون واكتشف من العلوم النافعة الدنيوية التي لا تخالف الشرع المطهر، وإنما تعين على حمايته من كيد أعدائه وتغني أهله عن الحاجة إلى الغير بل يجب ذلك ويتعين على أهل الإسلام لا تأسيا بالكفار بل لأن دينهم الكامل يأمرهم بالحرص على ما ينفعهم، والحذر عن كل ما يضرهم كما تقدمت الأدلة على ذلك، وهؤلاء الكفار الذين بلغوا في الاختراع الغاية لم يزدهم ما وصلوا إليه من العلم إلا كفرا وإلحادا وهبوطا من الأخلاق الفاضلة، وابتعادا عن الأخلاق الكريمة، فلا ينبغي أن يغتر بعلمهم، ولا أن يقلدوا في أخلاقهم وأزيائهم المخالفة لشرع الله وإنما يؤخذ من علومهم ما ينفع وتدعو الحاجة إليه مع التقيد بتعاليم الشريعة والاستقامة على صراط الله المستقيم، والحذر من كل ما خالف ذلك، فتنبه أيها القارئ الكريم لهذا المقام العظيم تنج من ضلالات كثيرة وشبهات متنوعة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

ثالثا: يقول الكاتب مصطفى: فمن الواجب على الذين يزورون قبر سيد الشهداء أن يلتمسوا فيه هذه الأسوة، وأن يعلموا أن الله يجزيهم بجهادهم لبلوغ الغاية منها ولا يجزيهم لمجرد الزيارة، والتبرك، والدعاء. إلى أن قال: وأسوة حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هي الجهاد في سبيل الله له المثل الأعلى.. إلخ.

أقول: إن هذا الكلام فيه حق وباطل، فأما الحق فهو تشجيع زوار قبر حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره من المؤمنين على تذكر أعمالهم المجيدة التي قاموا بها حين كانوا في قيد الحياة من الجهاد في سبيل الله، والدعوة إليه، والعناية بالمصالح العامة، والتأسي بهم في ذلك، وهذا حق ينبغي لكل مسلم أن يتذكره كثيرا، وأن يتأسى بأهله في سائر أطوار حياته حتى يعمل كأعمالهم، ويسير كسيرتهم حسب الطاقة . وقوله: إن الله لا يجزي الزائر لمجرد الزيارة والتبرك والدعاء. وهذا بلا شك خطأ ظاهر ومخالف للأحاديث الصحيحة التي يقول فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة » وفي بعضها «وتزهد في الدنيا » .

فالنصوص الواردة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الباب تدل على أن مقصود الزيارة تذكر الآخرة، والزهد في الدنيا، والدعاء لأهل القبور من المسلمين بالعافية والمغفرة. والكاتب المذكور قد أعرض عن هذا ولم يرفع به رأسا. وشجع على أمر آخر يؤخذ من نصوص أخرى، ولو جمع بين الأمرين لما فاته الصواب، وأما قصد الزائر للقبور التبرك بها، فليس ذلك من دين الإسلام بل هو من أعمال أهل الجاهلية، ومن أخلاق عباد الأوثان، فيجب الحذر منه، ونهي الزوار عنه. وقد ثبت في صحيح مسلم عن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين

والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية » وفي جامع الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مر النبي ﷺ بقبور المدينة فقال السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم أنتم سلفنا ونحن بالأثر » فهذه سنة الرسول ﷺ في زيارة القبور وبيان المقصد منها، وأما التبرك بها والبناء عليها والكتابة عليها وقصدها للدعاء عندها فليس ذلك من سنته بل هو من سنة اليهود والنصارى وأهل الجاهلية، نسأل الله لنا وللمسلمين جميعا العافية من ذلك.

رابعا: يقول الكاتب مصطفى في أثناء كلامه: واتخذت بعض الأمم الإسلامية ملوكها أربابا، وجعلت من بعض الصالحين فيها أولياء اتخذتهم إلى الله زلفى، ولهؤلاء وأولئك بنت القباب، وأقامت عليها المساجد لا تقصد تخليد ذكراهم ليكون للذكرى في الأجيال أسوة ومثلا، بل تقصد أن تكون القباب والمساجد محاريب لعبادتهم، والتوسل إلى الله، ولو أنهم أقاموا القبة أو المسجد للأسوة، وللذكرى لكان ذلك خيرا.. إلخ. أقول في هذا الكلام حق وباطل. أما الحق فهو إقرار الكاتب بوجود هذه البدع والمنكرات في بعض الأمم الإسلامية، وانتقاده اتخاذ تلك القبب والمساجد محاريب لعبادة الأموات والتوسل بهم. وهذا لا شك واقع، ومن زار البلدان المجاورة رأى ذلك عيانا فإنا لله وإنا إليه راجعون، ونسأل الله أن يعافي المسلمين من ذلك، وأن يمنحهم الفقه في الدين الذي بعث الله به نبينا محمدا ﷺ حتى يعرفوا أن هذه المحدثات حول القبور تخالف شرعه وتوقع في عبادة غير الله سبحانه كما هو الواقع. وأما الباطل الذي اشتمل عليه كلام الكاتب فهو تفصيله بين اتخاذ القباب والمساجد للعبادة والتوسل، وبين اتخاذها لتخليد الذكرى ففرق بين الأول والثاني، وهذا " التفصيل " ليس عليه دليل بل النصوص من الكتاب والسنة تخالفه، وتدل على

أنه لا يجوز اتخاذ القباب والمساجد على القبور مطلقا. لأن اتخاذها لعبادة الأموات والتوسل بهم بالدعاء والاستغاثة ونحو ذلك شرك أكبر من جنس عمل الجاهلية الأولى حول اللات والعزى ومناة وأشباهها، واتخاذها للذكرى وسيلة قريبة وذريعة إلى الشرك بأهل القبور وعبادتهم مع الله سبحانه، ولهذا المعنى جاءت النصوص من الكتاب والسنة تنكر ذلك وتحذر منه، وتحسم وسائل الشرك. ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يحذر ما صنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا »، وفي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » وفي صحيح مسلم أيضا عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ: «نهى أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه » فهذه الأحاديث وما جاء في معناها تدل على تحريم اتخاذ المساجد والقباب على القبور، وأن الرسول ﷺ حذر أمته من ذلك. لئلا يفعلوا فعل اليهود والنصارى من الغلو في تعظيم الأموات، واتخاذ قبورهم مساجد، والصلاة عندها والدعاء ونحو ذلك فيقعوا في الشرك وعبادة الأنبياء والصالحين من دون الله كما وقع غيرهم، وهذا الذي خافه ﷺ قد وقع في أمته فعظموا الأموات من الأنبياء والصالحين التعظيم الذي لم يشرعه الله، وبنوا على قبورهم المساجد والقباب وصرفوا لهم الدعوات والرغبات حتى وقع الشرك المحذور، وحصل التأسي بعباد القبور فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث أم سلمة، وأم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهما رأتا في أرض الحبشة

كنيسة يقال لها مارية وما فيها من الصور، فذكرتا ذلك للنبي ﷺ فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله » فبين ﷺ أن بناة المساجد والقباب على القبور والمصورين فيها الصور هم شرار الخلق عند الله، ولعنهم في حديث عائشة ولم يفصل بين من بناها للعبادة أو لتخليد الذكرى، فعلم بذلك أن بناءها لا يجوز مطلقا وما ذلك إلا لكونها من أعظم وسائل الشرك، ومن أظهر أعلامه وشعائره، وهي سنة اليهود والنصارى التي نهينا عن اتباعها، وحذرنا من سلوكها كما في قوله ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن؟ » متفق عليه، فهذا الخبر الصحيح يدل على أن هذه الأمة تسلك مسالك اليهود والنصارى في الشرك والبدع إلا من عصم الله من ذلك، وهم الطائفة المنصورة كما في الأحاديث الأخر، ويدل هذا الخبر أيضا على تحذير الأمة من اتباع سنن اليهود والنصارى؛ لأن اتباعهم يفضي بأهله إلى مخالفة الرسول ﷺ وقد أمر الله سبحانه في كتابه الكريم بطاعة الرسول ﷺ والحذر عما نهى عنه كما قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}

وقال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ولا ريب أنه دعا إلى كل خير وحذر أمته من كل شر فلا يجوز لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف سبيله أو يدعو إلى غير طريقه، ولا شك أن البناء على القبور واتخاذ المساجد والقباب عليها من سبيل اليهود والنصارى، ومن وسائل الشرك والضلال مطلقا فوجب تركها والحذر منها والله ولي

التوفيق.

خامسا: يقول الكاتب مصطفى: وكذلك البقيع هذا الجزء الذي دفنوا فيه أزواج وعمات رسول الله ﷺ، وقبر إبراهيم وقبور الصحابة كان في الماضي بالقباب حتى جاءت الدولة الرشيدة وأزالت تلك القباب، ولكن تركت القبور كما هي لم تعلم، ويحضر إلى هذا البقيع مئات الألوف من زوار المسجد النبوي لزيارة أهل البقيع فلا يعرفون من فضلهم الله على العباد أمثال زوجات رسول الله وابنه إبراهيم وعشرات الصحابة فلو عملت إدارة الأوقاف على هذه القبور لوحات يكتب عليها اسم صاحب القبر ويحاط أيضا القبر بشبك من حديد للتعرف عليه والسلام عليه ليس إلا ... إلخ.

يدعو الكاتب في هذه الكلمات إدارة الأوقاف بالمدينة إلى عمل لوحات يكتب فيها أسماء المشهورين من المدفونين في البقيع وإلى إقامة شبك حديد على قبورهم للتعريف بهم. أقول قد يكون هذا الاقتراح من الكاتب عن حسن نية ومقصد صالح، ولكن الآراء والاستحسانات لا ينبغي للمؤمن الاعتماد عليها حتى يعرضها على الميزان العادل الذي يميز طيبها من خبيثها ألا وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولعل الكاتب حين كتب هذه الكلمة من أولها إلى آخرها لم يكن عنده علم بما جاءت به السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ حول القبور فلذلك وقعت منه الأخطاء السالفة، ووقع منه هذا الخطأ الأخير وهو: اقتراحه على إدارة الأوقاف ما تقدم ذكره، وقد سبق في الحديث الصحيح نهي الرسول ﷺ عن البناء على القبور، ولا شك أن اتخاذ الشبابيك عليها نوع من البناء ووسيلة إلى الغلو فيها، والفتنة بها وهكذا الكتابة عليها هي من وسائل الغلو فيها واتخاذها أوثانا فإن بعض الجهال إذا قرأوا أسماء المدفونين وعرفوا

أنهم من المعظمين لعلم أو عبادة أو رئاسة، أو لكونهم من أهل بيت النبي ﷺ أكبوا عليهم للتمسح بهم والتبرك بتربتهم كما يفعل الجهال في البلدان المجاورة بكثير من الموتى، وقد صح عن رسول الله ﷺ النهي عن الكتابة على القبور، كما صح عنه النهي عن البناء عليها، وأن يزاد عليها من غير ترابها، وأن تتخذ عليها المساجد والسرج كما سلفت الأحاديث بذلك، وما ذلك منه ﷺ إلا حماية لجناب التوحيد، وسدا لطرق الشرك وخوفا على الأمة من الوقوع فيما وقع فيه من قبلهم من ضلال اليهود والنصارى، وعباد الأوثان من شتى قبائل العرب فلقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة أبلغ نصيحة عليه من ربه أفضل الصلاة وأكمل التسليم، والمقصود من الزيارة لأهل البقيع هو الدعاء لهم بالعافية والمغفرة، والتذكر للآخرة بزيارتهم كما سلف في أول هذه الكلمة وذلك متيسر بحمد الله وإن لم يعلم الزائر أسماءهم، وليس هناك حاجة إلى ما اقترحه هذا الكاتب من الكتابة وإقامة الشبك، ولو كان في ذلك خير للمسلمين لكان السلف الصالح من الصحابة وأتباعهم بإحسان أسبق إلى ذلك وأولى بفعله من المتأخرين؛ لأنهم بالشريعة أعلم، وفي العمل بها أرغب ولزوجات النبي ﷺ وغيرهم من أهل البيت أحب وأغير فلما تركوا ذلك واكتفوا بما كان عليه الحال في زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين علم أن ما أحدثه الناس بعدهم في القبور من البناء والكتابة هو الباطل والغلو المحرم والحدث المنكر، فتنبه أيها القارئ لذلك، واحذر من شبه المشبهين وبدع المبتدعين والله الهادي إلى الصراط المستقيم. وقد جاء بعد الرسول ﷺ دعاة الشرك من اليهود والنصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة يدعون الناس إلى خلاف ما دعاهم إليه الرسول ﷺ، وينشرون بينهم الأفكار الهدامة والدعايات المضللة عن قصد

وعن غير قصد، فراج الباطل بسبب ذلك وخفي الحق على أكثر الخلق، وقل دعاة الهدى وأنصار الشريعة، وكثر بين الناس أدعياء العلم وأنصار الشرك ودعاة الرذيلة، فحسبنا الله ونعم الوكيل، ومن هنا يعلم القراء الصالحون، والعلماء المهتدون أن الواجب عليهم التشمير عن ساعد الجد في الدعوة إلى الإسلام الصافي من شوائب الشرك والبدع، ونشر محاسنه وأحكامه العادلة وأهدافه السامية وتعاليمه السمحة بين طبقات الأمة في المجتمعات والمحافل والصحف والنشرات، ومن طريق الخطابة والإذاعة ليتعلم الجاهل وينتبه الغافل ويتذكر الناسي ويقف المضلل عند حده فلا يكيد للإسلام وأحكام الشريعة بمرأى من أهل العلم ومسمع، ومتى شمر دعاة الإسلام لنصره في الدعوة إليه، ذل دعاة الشرك والإلحاد والبدع والأهواء، وخمدت نارهم وقبعوا في زوايا الخمول وابتعدوا عن منصات الخطابة ومنابر الصحافة، أو دخلوا في الحق وناصروا أهله لما سطع لهم نوره، وظهر لهم رشده، وانزاح عن قلوبهم حجب الشبهات والجهالة، فما أوجب النصيحة لدين الإسلام على أهل الإسلام وما أعظم حقه عليهم، ولقد قام بهذا الواجب جم غفير من علماء الإسلام ودعاة الإصلاح في هذا العصر، وإني لأرجو لهم التوفيق والثبات ومزيد القوة والنشاط في الحق وهدم حصون الضلال وقلع أسس الباطل، وإني لأرى لزاما على الذين لم يساهموا في هذا الميدان من القراء النابهين والعلماء المبرزين أن ينفضوا عنهم غبار الكسل وشبهة التواكل، وأن يقتحموا الميدان بصدق وشجاعة وعلم وحلم حتى ينصروا دينهم ويحموا شريعتهم ويهدوا الناس إليها ويرشدوهم إلى الصراط المستقيم، ولهم بذلك مثل أجور أتباعهم إلى يوم القيامة كما قال الصادق الأمين ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من

الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا » . والله المسئول أن يهدينا وجميع إخواننا صراطه المستقيم، وأن يعيذنا جميعا من طريق المغضوب عليهم والضالين إنه على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٤٠١): الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد: فقد اطلعت على ما نشرته صحيفة (الندوة) في عددها الصادر في ٢٤ \ ٥ \ ١٣٨٧ هـ بقلم الأخ صالح محمد جمال تحت عنوان: (الآثار الإسلامية) فألفيت الكاتب المذكور يدعو في مقاله المنوه عنه إلى تعظيم الآثار الإسلامية، والعناية بها، يخشى أن تندثر ويجهلها الناس، ويمضي الكاتب فيقول: (والذين يزورون الآن بيت شكسبير في بريطانيا، ومسكن بتهوفن في ألمانيا لا يزورونها بدافع التعبد والتأليه، ولكن بروح التقدير والإعجاب لما قدمه الشاعر الإنجليزي والموسيقي الألماني لبلادهما وقومهما مما يستحق التقدير فأين هذه البيوت التافهة من بيت محمد ودار الأرقم بن أبي الأرقم وغار ثور وغار حراء وموقع بيعة الرضوان وصلح الحديبية، إلى أن قال: ومنذ سنوات قليلة عمدت مصر إلى تسجيل تاريخ (أبو الهول) ومجد الفراعنة، وراحت ترسلها أصواتا تحدث وتصور مفاخر الآباء والأجداد، وجاء السواح من كل مكان يستمعون إلى ذلك الكلام الفارغ إذا ما قيست بمجد الإسلام، وتاريخ الإسلام ورجال الإسلام في مختلف المجالات ويريد الكاتب من هذا الكلام أن المسلمين أولى بتعظيم الآثار الإسلامية كغار حراء وغار ثور، وما ذكره الكاتب معهما آنفا من تعظيم الإنجليز والألمان للفنانين المذكورين، ومن

تعظيم المصريين لآثار الفراعنة. ثم يقترح الكاتب أن تقوم وزارة الحج والأوقاف بالتعاون مع وزارة المعارف على صيانة هذه الآثار والاستفادة منها بالوسائل التالية:

١- كتابة تاريخ هذه الآثار بأسلوب عصري معبر عما تحمله هذه الآثار من ذكريات الإسلام ومجده عبر القرون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٢- رسم خريطة أو خرائط لمواقع الآثار في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة.

٣- إعادة بناء ما تهدم من هذه الآثار على شكل يغاير الأشكال القديمة، وتحلية البناء بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية على لوحة كبرى يسجل بها تاريخ موجز للأثر وذكرياته بمختلف اللغات.

٤- إصلاح الطرق إلى هذه الآثار، وخاصة منها الجبلية كغار ثور وغار حراء، وتسهيل الصعود إليها بمصاعد كهربائية كالتي يصعد بها إلى جبال الأرز في لبنان مثلا مقابل أجر معقول.

٥- تعيين قيم أو مرشد لكل أثر من طلبة العلم يتولى شرح تاريخ الأثر للزائرين، والمعاني السامية التي يمكن استلهامها منه بعيدا عن الخرافات والبدع، أو الاستعانة بتسجيل ذلك على شريط يدار كلما لزمت الحاجة إليه.

٦- إدراج تاريخ هذه الآثار ضمن المقررات المدرسية على مختلف المراحل) انتهى نقل المقصود من كلامه.

ولما كان تعظيم الآثار الإسلامية بالوسائل التي ذكرها الكاتب يخالف الأدلة الشرعية وما درج عليه سلف الأمة وأئمتها من عهد الصحابة رضي الله عنهم إلى أن مضت القرون المفضلة، ويترتب عليه مشابهة الكفار في تعظيم آثار عظمائهم،

وغلو الجهال في هذه الآثار، وإنفاق الأموال في غير وجهها ظنا من المنفق أن زيارة هذه الآثار من الأمور الشرعية، وهي في الحقيقة من البدع المحدثة، ومن وسائل الشرك، ومن مشابهة اليهود والنصارى في تعظيم آثار أنبيائهم وصالحيهم واتخاذها معابد، ومزارات.

رأيت أن أعلق على هذا المقال بما يوضح الحق ويكشف اللبس بالأدلة الشرعية والآثار السلفية، وأن أفصل القول فيما يحتاج إلى تفصيل، لأن التفصيل في مقام الاشتباه من أهم المهمات، ومن خير الوسائل لإيضاح الحق، عملا بقول الرسول ﷺ: «الدين النصيحة قيل لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» فأقول والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا به:

قد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» أخرجه الشيخان وفي لفظ لمسلم: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال «كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته يوم الجمعة أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. وهذه الآثار التي ذكرها الكاتب كغار حراء وغار ثور وبيت النبي ﷺ ودار الأرقم بن أبي الأرقم ومحل بيعة الرضوان وأشباهها إذا عظمت وعبدت طرقها وعملت لها المصاعد واللوحات لا تزار كما تزار آثار الفراعنة، وآثار عظماء الكفرة، وإنما تزار للتعبد والتقرب إلى الله بذلك. وبذلك نكون بهذه الإجراءات قد أحدثنا في الدين ما ليس منه، وشرعنا للناس ما لم يأذن به الله وهذا هو نفس المنكر الذي حذر الله عز وجل منه في قوله

سبحانه: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} وحذر منه النبي ﷺ بقوله: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وبقوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن» متفق على صحته، ولو كان تعظيم الآثار بالوسائل التي ذكرها الكاتب وأشباهها مما يحبه الله ورسوله لأمر به ﷺ أو فعله، أو فعله أصحابه الكرام رضي الله عنهم، فلما لم يقع شيء من ذلك علم أنه ليس من الدين بل هو من المحدثات التي حذر منها النبي ﷺ وحذر منها أصحابه رضي الله عنهم. وقد ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أنكر تتبع آثار الأنبياء، وأمر بقطع الشجرة التي بويع النبي ﷺ تحتها في الحديبية لما قيل له إن بعض الناس يقصدها، حماية لجناب التوحيد وحسما لوسائل الشرك والبدع والخرافات الجاهلية، وأنا أنقل لك أيها القارئ ما ذكره بعض أهل العلم في هذا الباب لتكون على بينة من الأمر: قال الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي في كتابه (الحوادث والبدع) صفحة (١٣٥): (فصل في جوامع البدع) ثم قال: وقال المعرور بن سويد خرجنا حجاجا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلقينا مسجدا فجعل الناس يصلون فيه قال عمر أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم باتباع مثل هذا حتى اتخذوها بيعا فمن عرضت له فيها صلاة فليصل ومن لم تعرض له صلاة فليمض ثم نقل في صفحة (١٤١) عن محمد بن وضاح أن عمر بن الخطاب أمر بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ، لأن الناس كانوا يذهبون تحتها فخاف عمر الفتنة عليهم. ثم قال ابن وضاح: (وكان مالك وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار التي بالمدينة ما عدا قباء وأحد، ودخل سفيان بيت المقدس وصلى

فيه ولم يتبع تلك الآثار ولا الصلاة فيها، وكذلك فعل غيره أيضا ممن يقتدى به، ثم قال ابن وضاح: فكم من أمر هو اليوم معروف عند كثير من الناس كان منكرا عند من مضى، وكم من متحبب إلى الله بما يبغضه الله عليه ومتقرب إلى الله بما يبعده منه) . انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في صفحة (١٣٣) من جزء (٢٦) من مجموع الفتاوى ما نصه: (وأما صعود الجبل الذي بعرفة ويسمى جبل الرحمة فليس سنة، وكذلك القبة التي فوقه التي يقال لها قبة آدم لا يستحب دخولها ولا الصلاة فيها، والطواف بها من الكبائر وكذلك المساجد التي عند الجمرات لا يستحب دخول شيء منها ولا الصلاة فيها، وأما الطواف بها أو بالصخرة أو بحجرة النبي ﷺ وما كان غير البيت العتيق فهو من أعظم البدع المحرمة) . وقال في صفحة (١٤٤) من الجزء المذكور: (وأما زيارة المساجد التي بنيت بمكة غير المسجد الحرام كالمسجد الذي تحت الصفا وما في سفح أبي قبيس ونحو ذلك من المساجد التي بنيت على آثار النبي ﷺ وأصحابه كمسجد المولد وغيره فليس قصد شيء من ذلك من السنة، ولا استحبه أحد من الأئمة، وإنما المشروع إتيان المسجد الحرام خاصة، والمشاعر عرفة ومزدلفة ومنى والصفا والمروة، وكذلك قصد الجبال والبقاع التي حول مكة غير المشاعر عرفة ومزدلفة ومنى، مثل جبل حراء والجبل الذي عند منى الذي يقال إنه كان فيه قبة الفداء ونحو ذلك فإنه ليس من سنة رسول الله ﷺ زيارة شيء من ذلك بل هو بدعة. وكذلك ما يوجد في الطرقات من المساجد المبنية على الآثار والبقاع التي يقال إنها من الآثار لم يشرع النبي ﷺ زيارة شيء من ذلك)، وقال في صفحة (١٣٤) من الجزء (٢٧) من المجموع المذكور: (فصل: وأما قول السائل هل يجوز تعظيم مكان فيه خلوق وزعفران لكون النبي

ﷺ رؤي عنده؟ فيقال بل تعظيم مثل هذه الأمكنة واتخاذها مساجد ومزارات لأجل ذلك هو من أعمال أهل الكتاب الذين نهينا عن التشبه بهم فيها، وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان في السفر فرأى قوما يبتدرون مكانا فقال: ما هذا؟ فقالوا: مكان صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال: ومكان صلى فيه رسول الله ﷺ أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟ من أدركته فيه الصلاة فليصل وإلا فليمض، وهذا قاله عمر بحضرة من الصحابة رضي الله عنهم، ومن المعلوم أن النبي ﷺ كان يصلي في أسفاره في مواضع، وكان المؤمنون يرونه في المنام في مواضع، وما اتخذ السلف شيئا من ذلك مسجدا ولا مزارا، ولو فتح هذا الباب لصار كثير من ديار المسلمين أو أكثرها مساجد ومزارات فإنهم لا يزالون يرون النبي ﷺ في المنام وقد جاء إلى بيوتهم، ومنهم من يراه مرارا كثيرة، وتخليق هذه الأمكنة بدعة مكروهة إلى أن قال: ولم يأمر الله أن يتخذ مقام نبي من الأنبياء مصلى إلا مقام إبراهيم بقوله: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} كما أنه لم يأمر بالاستلام والتقبيل لحجر من الحجارة إلا الحجر الأسود، ولا بالصلاة إلى بيت إلا البيت الحرام، ولا يجوز أن يقاس غير ذلك عليه باتفاق المسلمين بل ذلك بمنزلة من جعل للناس حجا إلى غير البيت العتيق، أو صيام شهر مفروض غير صيام رمضان، وأمثال ذلك. ثم قال: وقد تبين الجواب في سائر المسائل المذكورة بأن قصد الصلاة والدعاء عندما يقال أنه قدم نبي أو أثر نبي أو قبر بعض الصحابة أو بعض الشيوخ أو بعض أهل البيت أو الأبراج أو الغيران من البدع المحدثة المنكرة في الإسلام لم يشرع ذلك رسول الله ﷺ ولا كان السابقون الأولون والتابعون لهم بإحسان يفعلونه، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين بل هو من أسباب الشرك وذرائعه) والكلام على هذا مبسوط في غير

هذا الجواب، ثم قال في صفحة (٥٠٠) من الجزء المذكور: (ولم يكن أحد من الصحابة بعد الإسلام يذهب إلى غار ولا يتحرى مثل ذلك فإنه لا يشرع لنا بعد الإسلام أن نقصد غيران الجبال ولا نتخلى فيها.. إلى أن قال: وأما قصد التخلي في كهوف الجبال وغيرانها، والسفر إلى الجبل للبركة مثل جبل الطور وجبل حراء وجبل ثور أو نحو ذلك فهذا ليس بمشروع لنا بل قد قال ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» انتهى كلامه رحمه الله.

وقال ابن القيم رحمه الله في (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان) صفحة (٢٠٤) بعد كلام له سبق في التحذير من قصد القبور للتبرك بها، والدعاء عندها: (وقد أنكر الصحابة ما هو دون هذا بكثير فروى غير واحد عن المعرور بن سويد قال صليت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في طريق مكة صلاة الصبح ثم رأى الناس يذهبون مذاهب فقال أين يذهب هؤلاء؟ فقيل يا أمير المؤمنين مسجد صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه فقال إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعا فمن أدركته الصلاة منكم في هذه المساجد فليصل ومن لا فليمش ولا يتعمدها، وكذلك أرسل عمر رضي الله عنه أيضا فقطع الشجرة التي بايع تحتها أصحاب رسول الله ﷺ) انتهى كلامه رحمه الله.

وكلام أهل العلم في هذا الباب كثير لا نحب أن نطيل على القارئ بنقله، ولعل فيما نقلناه كفاية ومقنعا لطالب الحق.. إذا عرفت ما تقدم من الأدلة الشرعية وكلام أهل العلم في هذا الباب علمت أن ما دعا إليه الكاتب المذكور من تعظيم الآثار الإسلامية كغار ثور ومحل بيعة الرضوان وأشباهها وتعمير ما تهدم منها والدعوة إلى تعبيد الطرق إليها، واتخاذ المصاعد لما كان مرتفعا منها كالغارين المذكورين واتخاذ الجميع مزارات ووضع لوحات عليها، وتعيين

مرشدين للزائرين- كل ذلك مخالف للشريعة الإسلامية التي جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وسد ذرائع الشرك والبدع وحسم الوسائل المفضية إليها. وعرفت أيضا أن البدع وذرائع الشرك يجب النهي عنها ولو حسن قصد فاعلها أو الداعي إليها لما تفضي إليه من الفساد العظيم وتغيير معالم الدين وإحداث معابد ومزارات وعبادات لم يشرعها الله ولا رسوله ﷺ وقد قال الله ﷻ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} فكل شيء لم يكن مشروعا في عهده ﷺ وعهد أصحابه رضي الله عنهم لا يمكن أن يكون مشروعا بعد ذلك، ولو فتح هذا الباب لفسد أمر الدين ودخل فيه ما ليس منه، وأشبه المسلمون في ذلك ما كان عليه اليهود والنصارى من التلاعب بالأديان وتغييرها على حسب أهوائهم واستحساناتهم وأغراضهم المتنوعة، ولهذا قال الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة في زمانه رحمه الله كلمة عظيمة وافقه عليها أهل العلم قاطبة، وهي قوله: (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها)، ومراده بذلك أن الذي أصلح أولها هو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والسير على تعاليمهما، والحذر مما خالفهما، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا هذا الأمر الذي صلح به أولها، ولقد صدق في ذلك رحمه الله فإن الناس لما غيروا وبدلوا واعتنقوا البدع وأحدثوا الطرق المختلفة تفرقوا في دينهم، والتبس عليهم أمرهم وصار كل حزب بما لديهم فرحون وطمع فيهم الأعداء، واستغلوا فرصة الاختلاف وضعف الدين، واختلاف المقاصد، وتعصب كل طائفة لما أحدثته من الطرق المضلة، والبدع المنكرة حتى آلت حال المسلمين إلى ما هو معلوم الآن من الضعف والاختلاف وتداعي الأمم عليهم، فالواجب على أهل الإسلام جميعا هو

الرجوع إلى دينهم والتمسك بتعاليمه السمحة وأحكامه العادلة، وأخذها من منبعها الصافي: الكتاب العزيز والسنة الصحيحة المطهرة، والتواصي بذلك، والتكاتف على تحقيقه في جميع المجالات التشريعية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغير ذلك، والحذر كل الحذر من كل ما يخالف ذلك أو يفضي إلى التباسه أو التشكيك فيه، وبذلك ترجع إلى المسلمين عزتهم المسلوبة، ويرجع إليهم مجدهم الأثيل وينصرهم الله على أعدائهم ويمكن لهم في الأرض كما قال ﷻ: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا} وقال سبحانه: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}

وأما اقتراح الكاتب إدراج تاريخ هذه الآثار ضمن المقررات المدرسية على مختلف المراحل فهذا حق ولا مانع منه إذا كان ذلك على سبيل الدعوة إلى التأسي برسول الله ﷺ فيما أصابه من المشاق والأذى الشديد في سبيل الدعوة إلى الحق، والتذكير بأحواله ﷺ في بيته، وفي دار الأرقم، وفي غار ثور وحراء، والاستفادة من الآيات والمعجزات التي حصلت في غار ثور، في مكة المكرمة، وفي طريق الهجرة، وفي المدينة المنورة، وكون الله سبحانه حماه من مكائد أعدائه في جميع مراحل الدعوة. لا شك أن التحدث عن هذه الأمور وما فيها من العبر والمعجزات، والدلالة على صدق رسول الله ﷺ فيما دعا إليه، والشهادة له بأنه رسول الله حقا، وما أيده الله به من الآيات والمعجزات كل ذلك مما

يقوي الإيمان في القلوب، ويشرح صدور المسلمين، ويحفزهم إلى التأسي برسول الله ﷺ والسير على منهاجه، والصبر على دعوته، وتحمل ما قد يعرض للمسلم ولا سيما الداعية إلى الحق من أنواع المشاق والمتاعب، ولقد أدرك علماء المسلمين هذه المعاني الجليلة، وصنفوا فيها الكتب، والرسائل وذكروها في المقررات المدرسية على اختلاف أنواعها ومراحلها، ولا ريب أنه ينبغي للمسئولين عن التعليم في جميع البلاد الإسلامية أن يعنوا بهذا الأمر، وأن يعطوه ما يستحقه من إيضاح وتفصيل حتى تكون ناشئة المسلمين على غاية من البصيرة بما كان عليه نبيهم وإمامهم سيدنا رسول الله ﷺ من الأخلاق الكريمة، والأعمال الصالحة والجهاد الطويل والصبر العظيم حتى لحق بربه وصار إلى الرفيق الأعلى عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام. والله المسئول أن يصلح أحوال المسلمين جميعا، وأن يوفقهم وقادتهم للتمسك بدين الله والاستقامة عليه وتحكيمه، والتحاكم إليه، والسير على منهاجه القويم الذي ارتضاه لعباده وتركهم عليه نبيه محمد ﷺ، وسار عليه صحابته الكرام، وأتباعهم بإحسان، إنه على كل شيء قدير. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله وآله وصحبه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٤١١): الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه أما بعد:

فقد جرت عادة الكثير من الدول الإسلامية في هذا العصر بالأمر بالإحداد على من يموت من الملوك والزعماء لمدة ثلاثة أيام أو أقل أو أكثر مع تعطيل الدوائر الحكومية وتنكيس الأعلام، ولا شك أن هذا العمل مخالف للشريعة المحمدية، وفيه تشبه بأعداء الإسلام، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ تنهى عن الإحداد وتحذر منه إلا في حق الزوجة فإنها تحد على

زوجها أربعة أشهر وعشرا، كما جاءت الرخصة عنه ﷺ للمرأة خاصة أن تحد على قريبها ثلاثة أيام فأقل، أما ما سوى ذلك من الإحداد فهو ممنوع شرعا وليس في الشريعة الكاملة ما يجيزه على ملك أو زعيم أو غيرهما، وقد مات في حياة النبي ﷺ ابنه إبراهيم وبناته الثلاث وأعيان آخرون فلم يحد عليهم عليه الصلاة والسلام، وقتل في زمانه أمراء جيش مؤتة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم فلم يحد عليهم، ثم توفي النبي ﷺ وهو أشرف الخلق وأفضل الأنبياء وسيد ولد آدم، والمصيبة بموته أعظم المصايب ولم يحد عليه الصحابة رضي الله عنهم، ثم مات أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو أفضل الصحابة، وأشرف الخلق بعد الأنبياء فلم يحدوا عليه، ثم قتل عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وهم أفضل الخلق بعد الأنبياء وبعد أبي بكر الصديق فلم يحدوا عليهم، وهكذا مات الصحابة جميعا فلم يحد عليهم التابعون، وهكذا مات أئمة الإسلام وأئمة الهدى من علماء التابعين ومن بعدهم؛ كسعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين زين العابدين، وابنه محمد بن علي، وعمر بن عبد العزيز، والزهري، والإمام أبي حنيفة، وصاحبيه، والإمام مالك بن أنس، والأوزاعي والثوري، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة العلم والهدى فلم يحد عليهم المسلمون، ولو كان خيرا لكان السلف الصالح إليه أسبق، والخير كله في اتباعهم والشر كله في مخالفتهم وقد دلت سنة رسول الله ﷺ التي أسلفنا ذكرها على أن ما فعله سلفنا الصالح من ترك الإحداد على غير الأزواج هو الحق والصواب، وأن ما يفعله الناس اليوم من الإحداد على الملوك والزعماء أمر مخالف للشريعة المطهرة مع ما يترتب عليه من الأضرار الكثيرة وتعطيل المصالح والتشبه بأعداء الإسلام، وبذلك يعلم أن الواجب

على قادة المسلمين وأعيانهم: ترك هذا الإحداد، والسير على نهج سلفنا الصالح من الصحابة ومن سلك سبيلهم، والواجب على أهل العلم: تنبيه الناس على ذلك وإعلامهم به أداء لواجب النصيحة، وتعاونا على البر والتقوى. ولما أوجب الله سبحانه من النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم رأيت تحرير هذه الكلمة الموجزة. وأسأل الله ﷻ أن يوفق قادة المسلمين وعامتهم لكل ما فيه رضاه والتمسك بشريعته والحذر مما خالفها، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا جميعا إنه سميع الدعاء قريب الإجابة. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٤١٣): الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد: فقد اطلعت على ما نشرته مجلة المجتمع الكويتية في عددها ١٦٢ الصادر بتاريخ ٩ \ ٧ \ ١٣٩٣ هـ تحت عنوان (فيلم محمد رسول الله) وقد تضمن الخبر المذكور أنه خلال الأيام الماضية تم التوقيع على عقد تأسيس الشركة العربية للإنتاج السينمائي العالمي، وتولى التوقيع ممثلو حكومات ليبيا والكويت والمغرب والبحرين، وأن الشركة المذكورة تعاقدت مع المخرج مصطفى عقاد لإنتاج فيلم عن النبي ﷺ حياته وتعاليمه (بالسينما سكوب) والألوان، يستمر عرضه ثلاث ساعات ويخرج بعشرين لغة عالمية بما فيها العربية.

وذلك بالاستناد إلى قصة أقرها الأزهر والمجلس الشيعي الأعلى واشترك في صياغتها توفيق الحكيم وعبد الحميد جودة السحار وعبد الرحمن

الشرقاوي، انتهى الخبر المذكور، ولكون ذلك فيما نعتقد أمرا منكرا، وحدثا خطيرا يترتب عليه مفاسد كبرى، وأضرار عظيمة واستهانة بالمصطفى ﷺ وتعريض لذاته الشريفة إلى التلاعب بها والاستهزاء والتنقص- رأيت المساهمة في إنكار هذا المنكر، والإهابة بالدول الأربع الموافقة على إخراجه بالرجوع عن ذلك تعظيما للنبي ﷺ، واحتراما له، واحترازا عن تعريض ذاته الشريفة للتنقص والاستهانة والسخرية.

ومعلوم أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل وقد عرض هذا الموضوع على المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة فقرر: تحريم إخراج فيلم عن النبي ﷺ، وتحريم تمثيل الصحابة رضي الله عنهم، وذلك في المادة السادسة من قراره المتخذ في دورته الثالثة عشرة المنعقدة خلال المدة من ١ شعبان ١٣٩١ إلى ١٣ شعبان ١٣٩١ هـ، وهذا نص المادة المذكورة: (١- يقرر المجلس التأسيسي بالإجماع تحريم إخراج فيلم محمد رسول الله ﷺ لما فيه من تمثيله ﷺ بآلة التصوير الكاميرا مشيرة إليه وإلى موضعه وحركاته وسائر شئونه بالتحديد، وتمثيل بعض الصحابة رضي الله عنهم في مواقف عديدة ومشاهد مختلفة وهو محرم بالإجماع.

٢- يوصي المجلس الأمانة العامة للرابطة بإبلاغ هذا القرار لجميع الدول الإسلامية، والمنظمات الإسلامية، والجمعيات الدينية في البلاد العربية والإسلامية ووزارات الإعلام، ومشيخة الأزهر، ومجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، والصحف، والإذاعات في البلاد الإسلامية كافة.

٣- يوصي المجلس الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي، بإخطار مخرج

هذا الفيلم بهذا القرار جوابا على طلبه الأخير بإخراج الفيلم وإنذاره بأن الأمانة العامة للرابطة ستتخذ الإجراءات القانونية ضد كل من يحاول الاعتداء على قدسية وحرمة صاحب الرسالة العظمى ﷺ، وحرمة أصحابه الأكرمين في أية جهة من العالم.

٤- يوصي المجلس الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بوضع رسالة في حرمة إخراج فيلم عن النبي ﷺ وعن أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين تضم ما أجرته الأمانة العامة للرابطة بشأنه في جميع مراحله، وما صدر فيه من قرارات في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي والمنظمات الإسلامية الأخرى، وما صدر بشأنه من القرارات والفتاوى في البلاد الإسلامية عامة، ونشر ذلك في البلاد الإسلامية تبصرة وتنويرا وإرشادا وتحذيرا.

٥- يشكر المجلس الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي على ما قامت به من جهود موفقة في هذا الموضوع الخطير) . انتهى،

كما قررت هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية منع تمثيل الصحابة رضي الله عنهم: والنبي ﷺ من باب أولى وذلك بقرارها رقم ١٣ وتاريخ ١٦ \ ٤ \ ١٣٩٣ هـ الآتي نصه:

(الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن هيئة كبار العلماء في دورتها الثالثة المنعقدة فيما بين ١ \ ٤ \ ١٣٩٣ و ١٧ \ ٤ \ ١٣٩٣ هـ قد اطلعت على خطاب المقام السامي رقم ٤٤ \ ٩٣ وتاريخ ١ \ ١ \ ١٣٩٣ هـ الموجه إلى الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد والذي جاء فيه ما نصه:

نبعث إليكم مع الرسالة الواردة إلينا من طلال بن الشيخ محمود البني المكي مدير عام شركة لونا فيلم من بيروت بشأن اعتزام الشركة عمل فيلم سينمائي يصور حياة (بلال) مؤذن رسول الله ﷺ نرغب إليكم بعد الاطلاع عليها عرض الموضوع على كبار العلماء لإبداء رأيهم فيه وإخبارنا بالنتيجة، وبعد اطلاع الهيئة على خطاب المقام السامي، وما أعدته اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على ذلك وتداول الرأي قررت ما يلي:

١ - إن الله سبحانه أثنى على الصحابة، وبين منزلتهم العالية ومكانتهم الرفيعة، وفي إخراج حياة أي واحد منهم على شكل مسرحية أو فيلم سينمائي منافاة لهذا الثناء الذي أثنى الله عليهم به، وتنزيل لهم من المكانة العالية التي جعلها الله لهم وأكرمهم بها.

٢ - إن تمثيل أي واحد منهم سيكون موضعا للسخرية والاستهزاء، ويتولاه أناس غالبا ليس للصلاح والتقوى مكان في حياتهم العامة والأخلاق الإسلامية مع ما يقصده أرباب المسارح من جعل ذلك وسيلة إلى الكسب المادي، وأنه مهما حصل من التحفظ فسيشتمل على الكذب والغيبة كما يضع تمثيل الصحابة رضوان الله عليهم في أنفس الناس وضعا مزريا فتتزعزع الثقة بأصحاب الرسول ﷺ، وتخف الهيبة التي في نفوس المسلمين من المشاهدين، وينفتح باب التشكيك على المسلمين في دينهم والجدل والمناقشة في أصحاب محمد ﷺ، ويتضمن ضرورة أن يقف أحد الممثلين موقف أبي جهل وأمثاله ويجري على لسانه سب بلال وسب الرسول ﷺ وما جاء به الإسلام ولا شك أن هذا منكر، كما يتخذ هدفا لبلبلة أفكار المسلمين نحو عقيدتهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم محمد ﷺ .

٣- ما يقال من وجود مصلحة وهي إظهار مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب مع التحري للحقيقة وضبط السيرة وعدم الإخلال بشيء من ذلك بوجه من الوجوه رغبة في العبرة والاتعاظ فهذا مجرد فرض وتقدير، فإن من عرف حال الممثلين وما يهدفون إليه عرف أن هذا النوع من التمثيل يأباه واقع الممثلين ورواد التمثيل وما هو شأنهم في حياتهم وأعمالهم.

٤- من القواعد المقررة في الشريعة أن ما كان مفسدة محضة أو راجحة فإنه محرم، وتمثيل الصحابة على تقدير وجود مصلحة فيه فمفسدته راجحة، فرعاية للمصلحة وسدا للذريعة وحفاظا على كرامة أصحاب محمد ﷺ منع ذلك وقد لفت نظر الهيئة ما قاله طلال من أن محمدا ﷺ وخلفاءه الراشدين هم أرفع من أن يظهروا صورة أو صوتا في هذا الفيلم، لفت نظرهم إلى أن جرأة أرباب المسارح على تصوير بلال وأمثاله من الصحابة إنما كان لضعف مكانتهم ونزول درجتهم في الأفضلية عن الخلفاء الأربعة، فليس لهم من الحصانة والوجاهة ما يمنع من تمثيلهم وتعريضهم للسخرية والاستهزاء في نظرهم فهذا غير صحيح. لأن لكل صحابي فضلا يخصه وهم مشتركون جميعا في فضل الصحبة وإن كانوا متفاوتين في منازلهم عند الله جل وعلا، هذا القدر المشترك بينهم وهو فضل الصحبة يمنع من الاستهانة بهم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه) . انتهى.

ولكل ما تقدم وما سوف يفضي إليه الإقدام على هذا الأمر من الاستهانة بالنبي ﷺ وبأصحابه رضي الله عنهم وتعريض سيرته وأعماله وسيرة أصحابه وأعمالهم للتلاعب والامتهان من قبل الممثلين وتجار السينما يتصرفون فيها كيف شاءوا، ويبرزونها على الصفة التي تلائمهم بغية التكسب والاتجار من وراء ذلك، ولما

في هذا العمل الخطير من تعريض النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم للاستهانة والسخرية، وجرح مشاعر المسلمين، فإني أكرر استنكاري بشدة لإخراج الفيلم المذكور.

وأطلب من جميع المسلمين في كافة الأقطار استنكارهم لذلك، كما أرجو من جميع الحكومات والمسئولين بذل جهودهم لوقف إخراجه. وفي إبراز سيرته ﷺ وسيرة أصحابه رضي الله عنهم بالطرق التي درج عليها المسلمون من عهده ﷺ إلى يومنا هذا ما يكفي ويشفي ويغني عن إخراج هذا الفيلم.

وأسأل الله عز وجل أن يوفق المسلمين جميعا وحكوماتهم لكل ما فيه صلاح المسلمين في العاجل والآجل، ولكل ما فيه تعظيم نبيهم ﷺ التعظيم الشرعي اللائق به وبأصحابه الكرام، والحذر من كل ما يفضي إلى التنقص لهم أو السخرية منهم أو يعرضهم لذلك، إنه جواد كريم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٢/ ٩٨): الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد.

فقد اطلعت على ما نشر في صحيفة الشرق الأوسط في عددها **٣٣٨٣** الصادر في ٣\٤\١٤٠٨ هـ بقلم الدكتور محيي الدين الصافي بعنوان (من أجل أن نكون أقوى أمة) . وقد لفت نظري ما ذكره عن اختلاف السلف والخلف في بعض صفات الله وهذا نص كلامه:

(إلا أنه وردت في القرآن الكريم آيات تصف الله تعالى ببعض صفات المخلوقين، من مثل قوله تعالى {يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}، {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}، {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} وللعلماء في فهم هذه الآيات طريقتان:

الأولى طريقة السلف، وهي: أن نثبت لله تعالى ما أثبت لنفسه، ولكن من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل واضعين نصب أعينهم عدم تعطيل الذات الإلهية عن الصفات، مع جزمهم بأن ظاهر هذه الآيات غير مراد، وأن الأصل تنزيه الله تعالى عن كل ما يماثل المخلوقين لقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}

أما طريقة الخلف، فهي: تأويل هذه الكلمات وصرفها عن ظاهرها إلى المعنى، فتكون اليد بمعنى القدرة، والوجه بمعنى الذات، والاستواء بمعنى الاستيلاء والسيطرة ونفوذ الأمر؛ لأنه قام الدليل اليقيني على أن الله ليس بجسم ولقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} وكل من الطريقتين صحيحة، مذكورة في الكتب المعتمدة للعلماء الأعلام. إلخ.

وقد أخطأ - عفا الله عنا وعنه - في نسبته للسلف (جزمهم بأن ظاهر هذه الآيات غير مراد) فالسلف رحمهم الله، ومن سار على نهجهم إلى يومنا هذا، يثبتون لله ما أثبته لنفسه من صفات الكمال، أو أثبته له رسوله ﷺ ويعتقدون حقيقتها اللائقة بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ولا تأويل لها عن ظاهرها ولا تفويض.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة الفتوى الحموية. ما نصه: (روى أبو بكر البيهقي في الأسماء والصفات بإسناد صحيح عن الأوزاعي قال: كنا - والتابعون متوافرون - نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من الصفات، فقد حكى الأوزاعي وهو أحد الأئمة الأربعة في عصر تابعي التابعين الذين هم: مالك إمام أهل الحجاز، والأوزاعي إمام أهل الشام، والليث إمام أهل مصر، والثوري إمام أهل العراق، حكى شهرة القول في زمن

التابعين بالإيمان بأن الله تعالى فوق العرش، وبصفاته السمعية، وإنما قال الأوزاعي هذا بعد ظهور مذهب جهم المنكر لكون الله فوق عرشه، والنافي لصفاته ليعرف الناس أن مذهب السلف كان يخالف هذا.

وروى أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن الأوزاعي قال: سئل مكحول والزهري عن تفسير الأحاديث فقالا: أمروها كما جاءت. وروي أيضا عن الوليد بن مسلم قال: سألت مالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد والأوزاعي عن الأخبار التي جاءت في الصفات فقالوا: أمروها كما جاءت، وفي رواية قالوا: أمروها كما جاءت بلا تكييف، وقولهم رضي الله عنهم: أمروها كما جاءت رد على المعطلة، وقولهم: بلا كيف رد على الممثلة.

والزهري ومكحول هما أعلم التابعين في زمانهما، والأربعة الباقون أئمة الدنيا في عصر تابعي التابعين ومن طبقاتهم حماد بن زيد، وحماد بن سلمة وأمثالهما) إلى أن قال رحمه الله (وروى الخلال بإسناد كلهم أئمة ثقات عن سفيان بن عيينة، قال: سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} كيف استوى قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ المبين، وعلينا التصديق. وهذا الكلام مروي عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة بن أبي عبد الرحمن من غير وجه (ومنها) ما رواه الشيخ الأصبهاني وأبو بكر البيهقي عن يحيى ابن يحيى قال: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال يا أبا عبد الله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وما أراك إلا مبتدعا فأمر به أن يخرج.

فقول ربيعة ومالك: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، موافق لقول الباقين: أمروها كما جاءت بلا كيف، فإنما نفوا علم الكيفية ولم ينفوا حقيقة الصفة، ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول.

ولما قالوا: أمروها كما جاءت بلا كيف فإن الاستواء حينئذ لا يكون معلوما بل يكون مجهولا بمنزلة حروف المعجم، وأيضا فإنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذ لم يفهم عن اللفظ معنى، وإنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبتت الصفات.

وأيضا فإن من ينفي الصفات الخبرية أو الصفات مطلقا لا يحتاج إلى أن يقول بلا كيف، فمن قال أن الله ليس على العرش لا يحتاج أن يقول بلا كيف، فلو كان مذهب السلف نفي الصفات في نفس الأمر لما قالوا بلا كيف، وأيضا فقولهم: أمروها كما جاءت يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه فإنها جاءت ألفاظ دالة على معاني، فلو كانت دلالتها منفية لكان الواجب أن يقال أمروا لفظها مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة وحيئئذ تكون قد أمرت كما جاءت ولا يقال حينئذ بلا كيف أو نفي الكيف عما ليس بثابت لغو من القول) اهـ.

فهذا هو مذهب السلف هذه المسألة وهو واضح في أنهم يثبتون لله سبحانه ما أثبته لنفسه في كتابه من صفات الكمال، أو وصفه به رسوله ﷺ فيما صح عنه، وأن ما تدل عليه الآيات والأحاديث الصحيحة مراد ومفهوم، ولكنهم لا يؤولونها ولا يكيفونها بل يكلون علم الكيفية لله سبحانه، ويعتقدون تنزيه الله

سبحانه عن مماثلة المخلوقين. كما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} وكما قال ﷻ: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}

أما قوله: (أما طريقة الخلف فهي تأويل هذه الكلمات وصرفها عن ظاهرها) إلى قوله: (وكل من الطريقتين صحيحة مذكورة في الكتب المعتمدة للعلماء الأعلام) اهـ.

أقول: هذا خطأ عظيم فليست كلتا الطريقتين صحيحة، بل الصواب أن طريقة السلف هي الصحيحة وهي الواجبة الاتباع؛ لأنها عمل بالكتاب والسنة، وتمسك بما درج عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان من التابعين ومن تبعهم من الأئمة الأعلام، وفيها تنزيه الله سبحانه وتعالى عن صفات النقص بإثبات صفات الكمال وتنزيه الله سبحانه عن صفات الجمادات والناقصات والمعدومات، وهذا هو الحق، أما تأويلها على ما يقول علماء الخلف من أصحاب الكلام فهو خلاف الحق، وهو تحكيم للعقل الناقص، وقول على الله بلا علم، وفيه تعطيل الله جل وعلا من صفات الكمال، فهم فروا من التشبيه المتوهم في أذهانهم ووقعوا في التعطيل الذي هو في الحقيقة تشبيه لله سبحانه بالجمادات والمعدومات والناقصات كما تقدم، وتجريد له سبحانه من صفات الكمال التي وصف بها نفسه، أو وصفه بها رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام، ونص عليها سبحانه في كتابه الكريم، وتمدح بها إلى عباده، وأرسل بها أفضل رسله وخاتم أنبيائه وفطر عليها الخلق.

ولو أن هؤلاء المتكلمين المتأولين ساروا على مذهب السلف الصالح، وأثبتوا لله صفات الكمال على الوجه اللائق بالله سبحانه، واكتفوا بنفي التكييف

والتمثيل لأصابوا الحق، وفازوا بالسلامة من مخالفة الرسل، وتحكيم العقول التي لم تحط به علما.

والخلاصة: أن مذهب السلف هو الحق الذي يجب اتباعه والقول به، وأما ما ذهب إليه بعض علماء الخلف من تأويل نصوص صفات الله جل وعلا فهو باطل مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما عليه سلف الأمة.

فالواجب العدول عنه، والوقوف عند نصوص الكتاب والسنة وإثبات ما أثبتته ونفي ما نفته، مع الإيمان بأن ما دلت عليه من المعاني حق ثابت لله سبحانه، لا يشابهه فيه أحد من خلقه كما تقدم.

وقوله: (قام الدليل اليقيني على أن الله ليس بجسم) هذا الكلام لا دليل عليه؛ لأنه لم يرد في الكتاب ولا في السنة وصف الله سبحانه بذلك أو نفيه عنه، فالواجب السكوت عن مثل هذا؛ لأن مأخذ صفات الله جل وعلا توقيفي لا دخل للعقل فيه، فيوقف عند حد ما ورد في النصوص من الكتاب والسنة وبهذا يتضح خطأ قول الدكتور محيي الدين الصافي ما نصه: (لذا فإن علينا أن نتفق أن من ذهب من علماء المسلمين في العالم الإسلامي الآن إلى الأخذ بإحدى الطريقتين فهو على صواب) إلى آخر ما قال؛ لأن الحق كما ذكرنا هو ما ذهب إليه السلف رحمهم الله، وما خالفه يعتبر باطلا يجب تركه وبيان بطلانه وإظهار الحق للناس، وهو من التعاون على البر والتقوى، ومن إنكار المنكر، ومن الدعوة إلى الحق.

والله المسئول أن يوفقنا وجميع المسلمين للفقه في دينه والثبات عليه، والسير على ما دل عليه كتاب الله العزيز وسنة رسوله الناصح الأمين عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، وعلى ما درج عليه سلف الأمة في باب أسماء الله

وصفاته وفي جميع أبواب الدين، وأن يوفق أخانا الدكتور محيي الدين الصافي للرجوع إلى الحق والتمسك به وترك ما خالفه، إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٢٣): الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد اطلعت على مقال نشر في بعض الصحف يتضمن تمجيد بعض أعمال الجاهلية والفخر بها والدعوة إليها، مثل التعلق بالنجوم والأبراج والحظ والطالع، فرأيت أن من الواجب التنبيه على ما تضمنه المقال من الباطل، فأقول: إن ما يسمى بعلم النجوم والحظ والطالع من أعمال الجاهلية التي جاء الإسلام بإبطالها وبيان أنها من الشرك لما فيها من التعلق بغير الله تعالى واعتقاد النصر والنفع في غيره، وتصديق العرافين والكهنة الذين يدعون علم الغيب زورا وبهتانا، ويعبثون بعقول السذج والأغرار من الناس ليبتزوا أموالهم ويغيروا عقائدهم، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه عنه عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» رواه أبو داود وإسناده صحيح، وللنسائي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئا وكل إليه» وهذا يدل على أن السحر شرك بالله تعالى وأن من تعلق بشيء من أقوال الكهان أو العرافين وكل إليهم وحرم من عون الله ومدده.

وقد ذكر مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوما» وعن أبي هريرة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» أخرجه أهل السنن الأربع، وعن عمران بن حصين مرفوعا: «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفا وعرافا.

والمقصود من هذا: معرفة أن من يدعي معرفة علم شيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن وإما مشارك له في المعنى فيلحق به، وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف ومنه ما هو من الشياطين. ويكون بالفال والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ونحو هذا من علوم الجاهلية.

ونعني بالجاهلية كل ما ليس من أتباع الرسل عليهم السلام كالفلاسفة والكهان والمنجمين ودهرية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ، فإن هذه علوم لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل صلى الله عليهم وسلم، وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهنا وعرافا وما في معناهما فمن أتاهم أو صدقهم بما يقولون لحقه الوعيد.

وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام، فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وادعوا أنهم أولياء لله وأن ذلك كرامة) انتهى المقصود نقله من كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد ظهر من أقواله ﷺ ومن تقريرات الأئمة من العلماء وفقهاء هذه الأمة، أن علم النجوم وما يسمى بالطالع وقراءة الكف وقراءة الفنجان ومعرفة الحظ كلها من علوم الجاهلية، ومن المنكرات التي حرمها الله ورسوله، وأنها من

أعمال الجاهلية وعلومهم الباطلة التي جاء الإسلام بإبطالها والتحذير من فعلها، أو إتيان من يتعاطاها وسؤاله عن شيء منها، أو تصديقه فيما يخبر به من ذلك لأنه من علم الغيب الذي استأثر الله به، قال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ} ونصيحتي لكل من يتعلق بهذه الأمور أن يتوب إلى الله ويستغفره، وأن يعتمد على الله وحده ويتوكل عليه في كل الأمور، مع أخذه بالأسباب الشرعية والحسية المباحة وأن يدع هذه الأمور الجاهلية ويبتعد عنها، ويحذر سؤال أهلها أو تصديقهم طاعة لله ولرسوله ﷺ وحفاظا على دينه وعقيدته، والله المسئول أن يرزقنا والمسلمين الفقه في دينه والعمل بشريعته، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه وخاتم رسله محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين.

وقال رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٣٦): الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه

أما بعد:

فقد اطلعت على نشرة يوزعها الكثير من الناس عن جهل أو قصد سيئ قد بدأها صاحبها بقول الله تعالى: {بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} وذكر بعدها آيات، ثم قال ما نصه: اهتم بإرسال هذه الآيات لتكون مجلبة خير ويمن ومال وفلاح، ثم ذكر بعد ذلك أنه تم توزيعها حول العالم، وأن من اعتنى بها ربح ربحا كثيرا، ومن أغفلها أصيب بأنواع من الحوادث، وذكر أنها تمنع المضرات وتجلب العلاج والخير بعد أربعة أيام. ونظرا إلى أن هذه النشرة لا أساس لها من الصحة، بل هي كذب وافتراء وقول بغير علم واعتقاد أنها تجلب الخيرات وتدفع المضرات، وأن من اعتنى بها ربح ومن أهملها أصيب بالحوادث اعتقاد

باطل، يقدح في العقيدة، ويدعو إلى تعلق القلوب بهذه النشرة وانصرافها عن الله عَزَّوَجَلَّ.

فلهذا رأيت تحذير المسلمين منها، ووصيتهم بإتلافها أينما وجدت، وتنبيه إخوانهم على بطلانها، وأن اعتقاد ما فيها يخالف شريعة الله ويقدح في العقيدة، لأنه اعتقاد فاسد ليس له أساس من الصحة بل هو من الكذب على الله ودعوى باطلة، وهي من جنس الوصية المنسوبة إلى خادم حجرة النبي ﷺ، وقد سبق أن نبهنا على بطلانها وأنها كذب لا أساس لها من الصحة ولا لما ادعاه صاحبها فهاتان النشرتان كلتاهما من أبطل الباطل، فالواجب على كل مسلم أن يحذرهما وأن يحذر منهما غيره عملا بقول الله سبحانه: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} وقوله سبحانه: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} الآية.

ولا شك أن هاتين النشرتين من المنكر الذي يجب النهي عنه، ويجب على ولاة الأمور البحث عن مروجهما وعقابه بما يردعه وأمثاله. .

ونسأل الله أن يوفقنا والمسلمين للفقه في الدين والثبات عليه وإنكار ما خالفه، وأن يعيذنا جميعا من مضلات الفتن ونزغات الشيطان، كما نسأله سبحانه أن يكبت أعداء الإسلام أينما كانوا، ويبطل كيدهم إنه سميع قريب. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٣٢٥): من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى حضرة الأخ المكرم فضيلة الشيخ أحمد بن ناصر بن غنيم زاده الله من العلم والإيمان وجعله مباركا أينما كان آمين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد: فقد وصلني كتابكم الكريم المؤرخ ٣ \ ٥ \ ١٣٩٧ هـ وصلكم الله بهداه ولم يقدر الله اطلاعي عليه إلا منذ خمسة أيام أو ستة، وقد فهمت ما تضمنه من السؤال عن حكم من درس القوانين الوضعية أو تولى تدريسها هل يكفر بذلك أو يفسق؟ وهل تصح الصلاة خلفه؟

والجواب: لا ريب أن الله سبحانه أوجب على عباده الحكم بشريعته والتحاكم إليها، وحذر من التحاكم إلى غيرها، وأخبر أنه من صفة المنافقين، كما أخبر أن كل حكم سوى حكمه سبحانه فهو من حكم الجاهلية، وبين ﷻ أنه لا أحسن من حكمه، وأقسم ﷻ أن العباد لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله ﷺ فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا من حكمه بل يسلموا له تسليما، كما أخبر سبحانه في سورة المائدة أن الحكم بغير ما أنزل كفر وظلم وفسق، كل هذه الأمور التي ذكرنا قد أوضح الله أدلتها في كتابه الكريم، أما الدارسون للقوانين والقائمون بتدريسها فهم أقسام:

(القسم الأول) من درسها أو تولى تدريسها ليعرف حقيقتها أو ليعرف فضل أحكام الشريعة عليها أو ليستفيد منها فيما لا يخالف الشرع المطهر أو ليفيد غيره في ذلك، فهذا لا حرج عليه فيما يظهر لي من الشرع، بل قد يكون مأجورا ومشكورا إذا أراد بيان عيوبها وإظهار فضل أحكام الشريعة عليها، والصلاة خلف هذا القسم لا شك في صحتها، وأصحاب هذا القسم حكمهم حكم من درس أحكام الربا وأنواع الخمر وأنواع القمار ونحوها كالعقائد الفاسدة، أو تولى تدريسها ليعرفها ويعرف حكم الله فيها ويفيد غيره، مع إيمانه بتحريمها كإيمان القسم السابق بتحريم الحكم بالقوانين الوضعية المخالفة لشرع الله ﷻ وليس حكمه حكم من تعلم السحر أو علمه غيره؛ لأن السحر محرم لذاته لما

فيه من الشرك وعبادة الجن من دون الله، فالذي يتعلمه أو يعلمه غيره لا يتوصل إليه إلا بذلك أي بالشرك بخلاف من يتعلم القوانين ويعلمها غيره لا للحكم بها ولا باعتقاد حلها ولكن لغرض مباح أو شرعي كما تقدم.

(القسم الثاني) من يدرس القوانين أو يتولى تدريسها ليحكم بها أو ليعين غيره على ذلك مع إيمانه بتحريم الحكم بغير ما أنزل الله، ولكن حمله الهوى أو حب المال على ذلك. فأصحاب هذا القسم لا شك فساق وفيهم كفر وظلم وفسق لكنه كفر أصغر وظلم أصغر وفسق أصغر لا يخرجون به من دائرة الإسلام، وهذا القول هو المعروف بين أهل العلم وهو قول ابن عباس وطاووس وعطاء ومجاهد وجمع من السلف والخلف كما ذكر الحافظ ابن كثير والبغوي والقرطبي وغيرهم، وذكر معناه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب (الصلاة) وللشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة جيدة في هذه المسألة مطبوعة في المجلد الثالث من مجموعة (الرسائل الأولى) .

ولا شك أن أصحاب هذا القسم على خطر عظيم ويخشى عليهم من الوقوع في الردة، أما صحة الصلاة خلفهم وأمثالهم من الفساق ففيها خلاف مشهور، والأظهر من الأدلة الشرعية صحتها خلف جميع الفساق الذين لم يصل فسقهم إلى حد الكفر الأكبر، وهو قول جم غفير من أهل العلم واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وله في هذا كلام نفيس ننقله بنصه هنا لعظم فائدته، قال في ج ٢٣ ص ٣٥١ من مجموع الفتاوى: (يجوز للرجل أن يصلي الصلوات الخمس والجمعة وغير ذلك خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ولا أن يمتحنه فيقول ماذا تعتقد؟ بل يصلي خلف مستور الحال،

ولو صلى خلف من يعلم أنه فاسق أو مبتدع ففي صحة صلاته قولان مشهوران في مذهب أحمد ومالك، ومذهب الشافعي وأبي حنيفة الصحة.

وقول القائل لا أسلم مالي إلا لمن أعرف، ومراده لا أصلي خلف من لا أعرفه كما لا أسلم مالي إلا لمن أعرفه. كلام جاهل لم يقله أحد من أئمة الإسلام، فإن المال إذا أودعه الرجل المجهول فقد يخونه فيه وقد يضيعه، وأما الإمام فلو أخطأ أو نسي لم يؤاخذ بذلك المأموم كما في البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: «أئمتكم يصلون لكم ولهم فإن أصابوا فلكم ولهم وإن أخطأوا فلكم وعليهم» فجعل خطأ الإمام على نفسه دونهم، وقد صلى عمر - وغيره من الصحابة رضي الله عنهم - وهو جنب ناسيا للجنابة فأعاد ولم يأمر المأمومين بالإعادة وهذا مذهب جمهور العلماء كمالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه.

وكذلك لو فعل الإمام ما يسوغ عنده وهو عند المأموم يبطل الصلاة مثل أن يفتصد ويصلي ولا يتوضأ أو يمس ذكره أو يترك البسملة وهو يعتقد أن صلاته تصح مع ذلك والمأموم يعتقد أنها لا تصح مع ذلك فجمهور العلماء على صحة صلاة المأموم، كما هو مذهب مالك وأحمد في أظهر الروايتين بل في أنصهما عنه. وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي، اختاره القفال وغيره.

ولو قدر أن الإمام صلى بلا وضوء متعمدا، والمأموم لم يعلم حتى مات المأموم، لم يطالب الله المأموم بذلك، ولم يكن عليه إثم باتفاق المسلمين بخلاف ما إذا علم أنه يصلي بلا وضوء فليس له أن يصلي خلفه فإن هذا ليس بمصل بل لاعب، ولو علم بعد الصلاة أنه صلى بلا وضوء ففي الإعادة نزاع، ولو علم المأموم أن الإمام مبتدع يدعو إلى بدعته أو فاسق ظاهر الفسق وهو الإمام الراتب الذي لا تمكن الصلاة إلا خلفه، كإمام الجمعة والعيدين والإمام

في صلاة الحج بعرفة ونحو ذلك فإن المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف وهو مذهب أحمد والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم، ولهذا قالوا في العقائد إنه يصلي الجمعة والعيد خلف كل إمام برا كان أو فاجرا، وكذلك إذا لم يكن في القرية إلا إمام واحد فإنها تصلى خلفه الجماعات، فإن الصلاة في جماعة خير من صلاة الرجل وحده، وإن كان الإمام فاسقا هذا مذهب جماهير العلماء: أحمد بن حنبل والشافعي وغيرهما، بل الجماعة واجبة على الأعيان في ظاهر مذهب أحمد، ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة كما ذكره في رسالة عبدوس وابن مالك والعطار.

والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها، فإن الصحابة كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون كما كان ابن عمر يصلي خلف الحجاج، وابن مسعود وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة وكان يشرب الخمر حتى أنه صلى بهم مرة الصبح أربعا ثم قال أزيدكم؟ فقال ابن مسعود: ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة ولهذا رفعوه إلى عثمان.

وفي صحيح البخاري أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما حصر صلى بالناس شخص، فسأل سائل عثمان، فقال إنك إمام عامة، وهذا الذي يصلي بالناس إمام فتنة. فقال: يا ابن أخي إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن معهم وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم ومثل هذا كثير.

والفاسق والمبتدع صلاته في نفسه صحيحة، فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته، لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، ومن ذلك أن من أظهر بدعة أو فجورا لا يرتب إماما

للمسلمين، فإنه يستحق التعزير حتى يتوب، فإذا أمكن هجره حتى يتوب كان حسنا، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك حتى يتوب أو يعزل أو ينتهي الناس عن مثل ذنبه، فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان فيه مصلحة ولم يفت المأموم جمعة ولا جماعة، وأما إذا كان ترك الصلاة يفوت المأموم الجمعة والجماعة، فهنا لا يترك الصلاة خلفهم إلا مبتدع مخالف للصحابة رضي الله عنهم، وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاة الأمور ولم يكن في ترك الصلاة خلفه مصلحة فهنا ليس عليه ترك الصلاة خلفه بل الصلاة خلف الإمام الأفضل أفضل، وهذا كله يكون فيمن ظهر منه فسق أو بدعة تظهر مخالفتها للكتاب والسنة كبدعة الرافضة والجهمية ونحوهم " انتهى كلامه رحمه الله.

وبهذا يتضح أنه ليس مع من قال بعدم صحة الصلاة خلف الفاسق حجة يحسن الاعتماد عليها فيما أعلم، والمعلمون للنظم الوضعية والمتعلمون لها يشبهون من يتعلمون أنواع الربا وأنواع الخمر والقمار أو يعلمونها غيرهم لشهوة في أنفسهم أو لطمع في المال مع أنهم لا يستحلون ذلك، بل يعلمون أن المعاملات الربوية كلها حرام، كما يعلمون أن شرب المسكر حرام والمقامرة حرام، ولكن لضعف إيمانهم وغلبة الهوى أو الطمع في المال لم يمنعهم اعتقادهم التحريم من مباشرة هذه المنكرات وهم عند أهل السنة لا يكفرون بتعاطيهم ما ذكر ما داموا لا يستحلون ذلك كما سبق بيان ذلك.

(القسم الثالث) من يدرس القوانين أو يتولى تدريسها مستحلا للحكم بها سواء اعتقد أن الشريعة أفضل أم لم يعتقد ذلك فهذا القسم كافر بإجماع المسلمين كفرا أكبر؛ لأنه باستحلاله الحكم بالقوانين الوضعية المخالفة

لشريعة الله يكون مستحلا لما علم من الدين بل لضرورة أنه محرم فيكون في حكم من استحل الزنا والخمر ونحوهما، ولأنه بهذا الاستحلال يكون قد كذب الله ورسوله وعاند الكتاب والسنة، وقد أجمع علماء الإسلام على كفر من استحل ما حرمه الله أو حرم ما أحله الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة، ومن تأمل كلام العلماء في جميع المذاهب الأربعة في باب حكم المرتد اتضح له ما ذكرنا.

ولا شك أن الطلبة الذين يدرسون بعض القوانين الوضعية، أو المدخل إليها في معهد القضاء أو في معهد الإدارة لا يقصدون بذلك أن يحكموا بما خالف شرع الله منها، وإنما أرادوا أو أريد منهم أن يعرفوها ويقارنوا بينها وبين أحكام الشريعة الإسلامية ليعرفوا بذلك فضل أحكام الشريعة على أحكام القوانين الوضعية، وقد يستفيدون من هذه الدراسة فوائد أخرى تعينهم على المزيد من التفقه في الشريعة والاطمئنان إلى عدالتها.

ولو فرضنا أنه قد يوجد من بينهم من يقصد بتعلمها الحكم بها بدلا من الشريعة الإسلامية ويستبيح ذلك، لم يجز أن يحكم على الباقين بحكمه؛ لأن الله سبحانه يقول: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} ويقول النبي ﷺ: «لا يجني جان إلا على نفسه» .

وبما ذكرنا يتضح لفضيلتكم أن القدح في إمامة الطلبة المذكورين والحكم بعدم صحة الصلاة خلفهم أمر لا تقره الشريعة، ولا يقره أهل العلم، وليس له أصل يرجع إليه، وأرجو أن يكون ما ذكرته مزيلا لما وقع في نفس فضيلتكم من الشك في أمر الطلبة المذكورين في القسم الأول، أو تفسيقهم أو تكفيرهم، أما القسم الثاني فإنه لا شك في فسقهم، وأما القسم الثالث فإنه لا شك في كفر أهله

وعدم صحة الصلاة خلفهم.

وأسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يمنحني وإياكم وسائر إخواننا الفقه في دينه والثبات عليه، وأن يعيذنا جميعا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ومن مضلات الفتن إنه سميع قريب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٣٨٠): الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه أما بعد:

فقد كتبت منذ أيام مقالا يتضمن جواب سؤال عن حكم الاحتفال بالمولد، وأوضحت فيه أن الاحتفال به من البدع المحدثة في الدين. وقد نشر المقال في الصحف المحلية السعودية وأذيع من الإذاعة، ثم علمت بعد ذلك أن إذاعة لندن نقلت عني في إذاعتها الصباحية أني أقول بأن الاحتفال بالموالد كفر. فتعين علي إيضاح الحقيقة للقراء، فأقول: إن ما ذكرته هيئة الإذاعة البريطانية في إذاعتها الصباحية في لندن منذ أيام عني أني أقول بأن الاحتفال بالموالد كفر. كذب لا أساس له من الصحة، وكل من يطلع على مقالي يعرف ذلك. وإني لآسف كثيرا لإذاعة عالمية يحترمها الكثير من الناس ثم تقدم هي أو مراسلوها على الكذب الصريح، وهذا بلا شك يوجب على القراء التثبت في كل ما تنقله هذه الإذاعة خشية أن يكون كذبا كما جرى في هذا الموضوع.

وأسأل الله أن يحفظنا وجميع المسلمين من الكذب ومن كل ما يغضبه سبحانه إنه جواد كريم. وللحقيقة جرى نشره، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٥٦):

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ١٥٦): الحمد لله، والصلاة

والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد، فقد نشرت مجلة المصور في عددها رقم ٢١٦٦ الصادر في ٢٤ \ الجمعة ١٣٨٥ الموافق ١٥ أبريل ١٩٦٦م في الصفحة ١٥ من العدد المذكور ما نصه:

المبادئ المستوردة بقلم: أحمد بهاء الدين

يقول نبأ من السعودية أن نائب رئيس الجامعة الإسلامية هناك نشر مقالا منذ شهرين في جميع الصحف أهدر فيه دم كل من يقول إن الأرض كروية وإن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس، وإذا كان يبدو غريبا أن يذاع هذا الرأي في ١٩٦٦م وفي عصر الفضاء، فصاحب هذا الرأي له فضيلة واضحة وهي أنه منطقي مع ما ترده المملكة العربية السعودية هذه الأيام من أفكار وآراء، فحكام المملكة العربية السعودية لا يتحدثون الآن إلا عن الأفكار والنظريات المستوردة ولا يدعون إلى الحلف الإسلامي إلا بدعوى درء خطر الأفكار المستوردة عن المسلمين، وهم يقصدون الاشتراكية بالطبع ولكنهم لا يناقشون الاشتراكية ولا فكرة العدالة الاجتماعية، وإنما يكتفون برفضها بناء على أنها مستوردة، إلخ. . انتهى المقصود.

وجوابي عن ذلك أن أقول: (سبحانك هذا بهتان عظيم) لقد نشر المقال الذي أشار إليه الكاتب في جميع الصحف المحلية في رمضان ١٣٨٥ واطلع عليه القراء في الداخل والخارج وليس فيه ذكر كروية الأرض بنفي ولا إثبات فضلا عن إهدار دم من قال بها، وقد وقع فيما نقلته في المقال من كلام العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ما يدل على إثبات كروية الأرض فكيف جاز لأحمد بهاء الدين أو من نقل إليه هذا النبأ أن يقدم على هذا البهتان الصريح وينسبه إلى مقال قد

نشر في العالم وقرأه الناس، سبحان الله ما أعظم جرأة هذا المفتري، ولكن ليس بغريب أن يصدر مثل هذا الافتراء عن أنصار الإلحاد والمذاهب الهدامة فقد قال الله ﷻ: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ} وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان» وإنما أهدرت في المقال دم من قال إن الشمس ثابتة لا جارية بعد استتابته، وما ذلك إلا لأن إنكار جري الشمس تكذيب لله سبحانه وتكذيب لكتابه العظيم وتكذيب لرسوله الكريم، وقد علم بالضرورة من دين الإسلام وبالأدلة القطعية وبإجماع أهل العلم أن من كذب الله أو رسوله أو كتابه فهو كافر حلال الدم والمال ويستتاب فإن تاب وإلا قتل، وليس في هذا بحمد الله نزاع بين أهل العلم.

وأما قول الكاتب: إذا كان يبدو غريبا أن يذاع هذا الرأي في سنة ١٩٦٦م وفي عصر الفضاء. إلخ. . فالجواب عنه أن يقال لا ريب أن إظهار الحق ونشره في هذا العصر ودعوة الناس إليه يعتبر من الأمور الغريبة وذلك لاستحكام غربة الإسلام وقلة دعاة الحق وكثرة دعاة الباطل، وهذا مصداق ما أخبر به نبينا ورسولنا محمد ﷺ حيث قال في الحديث الصحيح: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء» وفي رواية «قيل يا رسول الله: من الغرباء؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس» وفي لفظ آخر قال: «هم الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي» فيتضح من هذا الحديث الشريف لذوي الألباب أن الدعوة إلى الحق وإنكار ما أحدثه الناس من الباطل عند غربة الإسلام يعتبر من الإصلاح الذي حث عليه النبي ﷺ وأثنى على أهله، ويتضح للقراء أيضا من هذا الحديث العظيم أنه ينبغي لأهل الحق عند غربة الإسلام أن

يزدادوا نشاطا في بيان أحكام الإسلام والدعوة إليه ونشر الفضائل ومحاربة الرذائل، وأن يستقيموا في أنفسهم على ذلك حتى يكونوا من الصالحين عند فساد الناس ومن المصلحين لما أفسد الناس، والله الموفق سبحانه.

وأما ما أشار إليه الكاتب في آخر كلامه من انتقاد من يحارب الأفكار والنظريات المستوردة وحمله على حكام المملكة العربية السعودية وتهمته إياهم بمحاربة الأفكار والنظريات المستوردة كالاشتراكية، وأنهم لا يدعون إلى الحلف الإسلامي إلا بدعوى درء خطر الأفكار عن المسلمين إلخ. . فجوابه أن يقال: إن الأفكار والنظريات المستوردة فيها الحق والباطل فلا يجوز للمسلمين أن يقبلوها مطلقا ولا أن يردوها مطلقا بل الواجب هو التفصيل في ذلك، فما كان منها حقا أو نافعا للمسلمين مع عدم مخالفته لشرع الله سبحانه فلا مانع من قبوله والانتفاع به لأن الإسلام هو دين الله الكامل الذي دعا إلى كل خير وإلى كل إصلاح ونهى عن كل ما يضر المسلمين ويفسد مجتمعهم، وأمر أهله أن يحرصوا على ما ينفعهم ويستعينوا بالله على ذلك وأن يعدوا كلما استطاعوا من قوة لعدوهم، وأن يأخذوا حذرهم منه وأن يتكاتفوا ويتعاونوا على البر والتقوى وأن يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا، وحذرهم سبحانه من اتباع أهواء أعدائهم وأخبر ﷻ أن أعداءهم لن يغنوا عنهم من الله شيئا. فالأفكار النافعة والنظريات الصحيحة قد جاء بها الإسلام ودعا إليها فليست مستوردة عليهم بل هو السابق إليها وإن خفيت على بعض أتباعه وظنوا أنها مستوردة من أعدائه، وإنما قصارى ما يأتي به الأعداء من الأفكار الصحيحة والنظريات الموافقة للشرع أن يذيعوها بين الناس ويلبسوها لباسا يوهم أنها من عندهم وأنهم مبتكروها والدعاة إليها وليس الأمر كذلك، وإنما الفضل في ذلك للإسلام

عليهم حيث نبههم عليها وأرشدهم إلى أصولها وثمراتها، فنسبوا ذلك إلى أنفسهم وجحدوا نسبة الحق إلى أهله إما جهلا وإما حسدا، والحكومة العربية السعودية حين تحارب الاشتراكية وغيرها من المذاهب الهدامة لم تحاربها لكونها مستوردة وإنما حاربتها لأنها نظام إلحادي مخالف للشريعة ينكر الأديان والشرائع ويحارب الله سبحانه وينكر وجوده ويحل ما حرم ويحرم ما أحل، وإن استخفى معتنقوه في بعض الأمكنة وفي بعض الأزمنة بشيء من هذا ولم يظهروه لأسباب قد تدعوهم إلى ذلك فالأمر واضح وكتبهم تنادي بذلك وتدعو إليه وإمامهم (ماركس) اليهودي الملحد قد صرح بذلك ودعا إليه ولكن الواقع هو كما قال الله ﷻ: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} والحكومة السعودية قد استوردت أشياء كثيرة نافعة ولم تحاربها لما ظهر لها نفعها، وأما قول الكاتب أن حكام السعودية حين دعوا إلى الحلف الإسلامي إنما دعوا إليه بدعوى درء خطر الأفكار المستوردة، فالجواب عنه أن يقال: إنهم لم يدعوا إلى حلف إسلامي، وإنما دعوا إلى التضامن الإسلامي والتقارب والتكاتف الذي أمر الله به ورسوله، فالله سبحانه قد أمر المسلمين أن يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا وأن يتعاونوا على البر والتقوى وأن يكون بعضهم لبعض كالبنيان المرصوص ضد أعدائهم ومناوئيهم وفي كل ما يتعلق بمصالحهم وأن يحاربوا الأفكار والمذاهب التي تخالف دينهم. وليس هذا حلفا بل هو أعلى من الحلف فهو واجب مقدس وفرض محتم على ملوك المسلمين وزعمائهم وعلمائهم بل وعلى كافتهم وأن يستقيموا على دين الله ويحافظوا عليه ويدعوا إليه، وأن يقفوا صفا واحدا متراصا ضد أعدائهم وضد ما يحاك لهم من المكائد ويبيت لهم من الأخطار عملا بقول الله ﷻ: {كُنْتُمْ خَيْرَ

أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ} وقوله سبحانه: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} وقوله جل وعلا: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} وقول النبي ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم» أخرجه الإمام مالك في الموطأ والإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه بدون قوله «وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم».

وقوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه» متفق عليه، وقوله ﷺ: «مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، متفق عليه، والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وجلالة الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية - وفقه الله - حين قام بالدعوة إلى التضامن الإسلامي وجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفهم وأن يقفوا كتلة واحدة أمام الأخطار المحيطة بهم، قد أدى بذلك واجبا عظيما وعملا جليلا يشكر عليه، ويجب على سائر ملوك المسلمين وزعمائهم وعلمائهم وأعيانهم أن يساعدوه في ذلك وأن يضموا أصواتهم لصوته وجهودهم لجهوده، وأن يكونوا جميعا متكاتفين متساعدين على إعلاء كلمة الله ونصر دينه وتحكيم شريعته وتطهير عقيدة شعوبهم من المذاهب الهدامة والأفكار المنحرفة والعقائد الزائفة، وأن يجمعوا جهودهم لإعداد ما استطاعوا من قوة لصد الأخطار المحدقة بهم، وأن يكونوا معسكرا متكاملا له عدته وله كيانه وله وزنه

في المحيط الدولي والسياسي والاقتصادي والصناعي وسائر مقومات المجتمع ووسائل نهضته وصموده أمام كل خطر كما أمرهم بذلك دينهم وأرشدهم إليه كتاب ربهم حيث يقول الله ﷻ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ} ويقول سبحانه: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} ويقول النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي» ويقول عليه الصلاة والسلام: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن» . . . الحديث، أخرجه مسلم في صحيحه.

وأسأل الله ﷻ أن يوفق قادة المسلمين من الملوك والرؤساء والزعماء والعلماء وغيرهم لما فيه صلاح الأمة ونجاتها وسعادتها في الدنيا والآخرة وأن يجمع كلمتهم على الهدى وأن يمنحهم الفقه في دينه والبصيرة بحقه، وأن يعيذ الجميع من شرور النفس وسيئات العمل وكيد الأعداء، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٣/ ١٧١): الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وخيرته من خلقه، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهداه إلى يوم الدين، ونسأله ﷻ التوفيق لإصابة الحق إنه على كل شيء قدير.

أما بعد: فلما كان الكثير من كتاب العصر قد التبس عليهم الأمر في أمر الجهاد، وخاض كثير منهم في ذلك بغير علم، وظنوا أن الجهاد إنما شرع للدفاع عن الإسلام، وعن أهل الإسلام، ولم يشرع ليغزو المسلمون أعداءهم في بلادهم، ويطالبوهم بالإسلام ويدعوهم إليه، فإن استجابوا وإلا قاتلوهم على ذلك، حتى تكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر.

لما كان هذا واقعا من بعض الناس، وصدر فيه رسائل وكتابات كثيرة، رأيت أن من المستحسن بل مما ينبغي أن تكون محاضرتي في هذه الليلة، في هذا الشأن بعنوان: ليس الجهاد للدفاع فقط، فأقول والله سبحانه وتعالى هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل: إن الله ﷻ وله الحمد والمنة بعث الرسل وأنزل الكتب لهداية الثقلين من الجن والإنس، ولإخراجهم من الظلمات إلى النور فضلا منه وإحسانا. وكان الله ﷻ قد فطر العباد على معرفته، وتوحيده وخلقهم لهذا الأمر. خلقهم ليعبدوه ويطيعوه. ولكنه سبحانه لعلمه بأحوالهم وأن عقولهم لا يمكن أن تستقل بمعرفة تفاصيل عبادته التي ترضيه ﷻ، ولا يمكن أن تستقل بمعرفة الأحكام العادلة التي ينبغي أن يسيروا عليها، ولا يمكن أن تستقل بمعرفة الأخلاق والصفات التي ينبغي أن يتخلقوا بها، أرسل سبحانه وتعالى رسلا مبشرين ومنذرين، ليوجهوا أهل الأرض من المكلفين، إلى توحيده سبحانه والإخلاص له، وبيان الأخلاق والأعمال التي ترضيه سبحانه، وليحذروهم من الأعمال والأخلاق التي تغضبه ﷻ، وليرسموا لهم النظم والخطط التي ينبغي أن يسيروا عليها، وأنزل الكتب لإيضاح هذا الأمر وبيانه؛ لأنه سبحانه هو العالم بأحوال عباده، العالم بما يصلحهم، العالم بما فيه سعادتهم العاجلة والآجلة، فهو عالم بأحوالهم الحاضرة، وبأحوالهم الماضية، وبأحوالهم المستقبلة، فلهذا أرسل الرسل، وأنزل الكتب لبيان حقه والإرشاد إليه، وتوجيه الناس إلى أسباب النجاة وإلى طرق السعادة في المعاش والمعاد، وأنزل الكتب لبيان هذا الأمر العظيم، قال جل وعلا في كتابه المبين: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} وقال ﷻ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ

ذِكْرًا كَثِيرًا} {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} وقال ﷻ: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} وقال سبحانه وتعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} وبين الله سبحانه وتعالى أنه هو الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبين أن رسله أرسلوا بالبينات، وأنزل معهم سبحانه الكتاب والميزان بالقسط.

والمراد بالكتاب: الكتب السماوية وهي كلامه جل وعلا، وهو الذي لا أصدق منه: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا}

والميزان وهو العدل يعني الشرائع المستقيمة، والأحكام العادلة التي تشتمل على أسباب السعادة في الدنيا والآخرة.

هكذا أرسل الرسل، وهكذا أنزل الكتب، أنزل الكتب السماوية التي أشرفها وأعظمها كتاب الله العظيم القرآن، وأنزل قبل ذلك التوراة والإنجيل وكتبا أخرى على أنبيائه ورسله، عليهم الصلاة والسلام، فيها الشرائع والأحكام والتوجيه إلى الخير والتحذير من الشر، وكان فيما مضى يرسل سبحانه وتعالى إلى كل قوم رسولا منهم، يوجههم إلى الخير، ويأمرهم بتوحيد الله وينذرهم من الشرك بالله، ويشرع سبحانه لهم الشرائع وهو الحكيم العليم الرحيم جل وعلا، وكل رسول أرسله الله إلى أمة، أرسله بالتوحيد الذي هو زبدة دعوة الرسل كلهم، وأمرهم بحب الله جل وعلا، والإخلاص له، وتوجيه القلوب إليه

سبحانه، وشرع لهم من الشرائع على لسان رسولهم ما يليق بهم، وبمجتمعهم وزمانهم وظروفهم على ما تقتضيه حكمة الرب ﷻ، ورحمته ولطفه جل وعلا، وعلمه بأحوالهم سبحانه وتعالى.

ولما كانت رسالة محمد ﷺ رسالة عامة إلى جميع أهل الأرض من جن وإنس، أرسله الله ﷻ بشريعة صالحة لجميع أهل الأرض في زمانه، وبعد زمانه إلى يوم القيامة، عليه الصلاة والسلام.

هكذا اقتضت حكمة الله ﷻ، واجتمعت الرسل على الأصول والأسس عليهم الصلاة والسلام، وتنوعت الشرائع على حسب ظروف الأمم وأحوالهم وبيئاتهم، على ما تقتضيه حكمة الخالق العليم، ورحمته ﷻ، وإحسانه إليهم ولطفه بهم جل وعلا.

أما جنس التوحيد الذي هو أصل الأصول، فقد اجتمعت الرسل عليه، وهكذا بقية الأصول كوجوب الصدق والعدل وتحريم الكذب والظلم والأمر بمكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، والنهي عن ضدها فهذه الأصول اجتمعت عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال ﷻ: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} وقال ﷻ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} وقال ﷻ: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}

ومن الأصول الأساسية: الإيمان بالله ورسوله وتوحيده، والإخلاص له، والإيمان باليوم الآخر، وبالجنة والنار، والإيمان بجميع الرسل، وعدم التفريق بينهم، وما أشبه هذه الأصول هذا كله مما اجتمعت عليه الرسل جميعا، وقد جاءت الكتب الإلهية كلها يصدق بعضها بعضا، ويؤيد بعضها بعضا.

أما جنس الفروع فقد تنوعت بها الشرائع، فقد يباح في شريعة من المسائل الفرعية ما يحرم في الشريعة الأخرى، وقد يحرم في شريعة سابقة ما يباح في شريعة لاحقة، ومن هذا أن الله جل وعلا بعث عيسى عليه الصلاة والسلام بشريعة التوراة مع التخفيف والتيسير لبعض ما فيها، وإخبارهم ببعض ما اختلفوا فيه، وإحلال بعض ما حرم عليهم في التوراة، كل هذا من لطفه وتيسيره جل وعلا، كما قال سبحانه وتعالى لما ذكر التوراة والإنجيل والقرآن قال بعد هذا كله: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} وهو سبحانه حكيم في شرعه عليم بما يصلح عباده وما يستطيعون، كما أنه حكيم في أقداره سبحانه وتعالى، قال جل وعلا: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} هذا كله في شريعة التوراة، وقد أقره الله لهذه الأمة وبينه لهم مقرا له ومشرعا في هذه الأمة، وجاءت السنة تؤيد ذلك وتبين أن هذا شرع الله لهذه الأمة في النفس والعين والأنف والأذن والسن، كما هو في شريعة الله المعلومة من كتابه سبحانه، ومن سنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، ثم قال بعد ذلك: {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} فدل ذلك على أن هذا الكتاب العظيم وهو الإنجيل، فيه هدى ونور وفيه مواعظ وتوجيهات، ثم

قال بعد ذلك: {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ} فدل على أن فيه أحكاما يحكم بها أهل الإنجيل من علماء بني إسرائيل ومعلوم أن عيسى عليه الصلاة والسلام أرسل بشريعة التوراة، ومع ذلك أرسل بأشياء غير ما في التوراة. . وفي شريعته أيضا تخفيف وتيسير لبعض ما في التوراة، ثم قال بعد هذا: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} ثم قال ﷻ: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} هكذا قال لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام، وأنزل كتابه القرآن بالحق لأن الله أنزله بالحق وللحق، فهو جاء مشتملا على الحق ومؤيدا للحق، وشارعا للحق ومصدقا لما بين يديه من الكتب الماضية، والرسل الماضين فيما جاءوا به. فكتاب الله العظيم القرآن مصدق للرسل الماضين، ومصدق للكتب الماضية، وشاهد أنها من عند الله ﷻ: التوراة والإنجيل والزبور وصحف موسى وإبراهيم وغيرها من الكتب التي أنزلها الله على الرسل عليهم الصلاة والسلام، ثم بين الله جل وعلا أن لكل منهم شرعة ومنهاجا، فدل ذلك على أن الشرائع التي جاء بها الأنبياء والرسل متنوعة الأسس من الإيمان بالله ورسله والملائكة والكتب والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالجنة والنار، وغير هذا من الأحكام العامة التي توجب العدل والصدق، وتحريم الظلم والكذب ونحو ذلك.

فهذه أصول عامة متبعة، وكان من حكمته ﷻ أن أرسل كل رسول بلسان قومه، حتى يفقههم ويفهمهم، ما بعث به إليهم بصورة واضحة، وبيان واضح، ولهذا قال ﷻ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} الآية.

ولما كان محمد ﷺ من العرب، وكان العرب هم أول الناس يستمعون

دعوته، ويواجههم بدعوته، أرسله الله بلسانهم، وإن كان رسولا للجميع عليه الصلاة والسلام، ولكن الله أرسله بلسان قومه، وجعل قومه مبلغين ودعاة إلى من وراءهم من الأمم، وأمر الناس جميعا باتباع هذا النبي عليه الصلاة والسلام والسير على منهاجه، فوجب عليهم أن يتبعوه، وأن يعرفوا لغته ولغة كتاب الله العظيم، وهذا النبي العظيم هو محمد عليه الصلاة والسلام بعثه الله رحمة للعالمين جميعا، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} فكما أرسل الرسل قبله رحمة لمن أرسلوا إليه ليواجهوهم وليزيلوا عنهم الظلم، والفساد وأحكام الطواغيت، وليحلوا مكان ذلك النظم الصالحة والأحكام العادلة، وهكذا أرسل الله محمدا ﷺ أيضا، ليقضي على النظم الفاسدة في المجتمع الإنساني، والأخلاق المنحرفة، والظلم والجور، وليحل محلها نظما صالحة، وأحكاما عادلة، فبعثه صلى الله وسلم ربه ليزيل ما في الأرض من الظلم والطغيان، وليقضي على الفساد، وليزيح النظم الفاسدة والطواغيت المستبدة، الذين يتحكمون في الناس بالباطل، ويظلمونهم ويتعدون على حقوقهم، ويستعبدونهم.

فبعث الله هذا النبي عليه الصلاة والسلام، ليزيل هذه النظم الفاسدة، والأخلاق الظالمة، وليقضي على الطغاة المتجبرين، والقادة المفسدين، وليحل محل ذلك قادة مصلحين، ونظما عادلة مستقيمة، وشرائع حكيمة عادلة، توقف الناس عند حدهم، ولا تفرق بين أبيض وأسود، ولا بين أحمر وغيره، ولا بين غني وفقير، ولا بين شريف عند الناس، ووضيع عندهم، بل جعل شريعته لا تفرق بين الناس، بل توجههم جميعا وتأمرهم وتنهاهم جميعا، وبين الله سبحانه وتعالى أن أكرم الناس عند الله هو أتقاهم، كما قال جل وعلا: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} ولم يقل لتتفاخروا، أو ليترفع بعضكم على بعض، أو يستعبد بعضكم بعضا، أو يفخر بعضكم على بعض، ولكن قال: "لتعارفوا " ثم قال سبحانه: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} وقال النبي ﷺ: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » خرجه مسلم في صحيحه.

وقال الله جل وعلا في القرآن الكريم: {إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} فهذا النبي العظيم عليه الصلاة والسلام أرسله الله برسالة عامة ونظام شامل عام في جميع الشئون العبادية والسياسية، والاقتصادية والاجتماعية، والحربية وغير ذلك من شئون الناس، فما ترك شيئا إلا وأرشد إلى حكم الله فيه، وقال فيه ﷻ: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} وقال ﷻ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} {وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} فبين الله سبحانه وتعالى أن هذا الرسول سراج منير للناس ينير لهم الطريق ويهديهم السبيل إلى ربهم سبحانه، عليه الصلاة والسلام الذي من استقام على دينه نجا وفاز بالخير والعاقبة الحميدة ومن حاد عنه باء بالخيبة والخسارة والذل والهوان، وقال ﷻ: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} {يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} هكذا قال جل وعلا في هذا النبي العظيم وكتابه المبين.

إن هذا الكتاب وهذا الرسول يخرج الله بهما الناس من الظلمات إلى النور من ظلمات الكفر والجهل والظلم والاستبداد والاستعباد إلى نور التوحيد والإيمان، إلى نور الهدى والعدل، إلى سعة الإسلام بدلا من جور الملوك والطغاة، وبدلا من أحكامهم الظالمة الجائرة، فشريعة الله التي بعث بها نبيه

محمدا ﷺ شريعة كاملة، شريعة فيها الهدى والنور، وفيها العدل والحكمة، وفيها إنصاف المظلوم من الظالم، وتوجيه الناس إلى أسباب السعادة، وإلزامهم بالحق والعدل، ومنعهم من الظلم والجور، وربطهم بالأخوة الإيمانية، وأمرهم بالتعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والصبر عليه والتآخي، والنصح من بعضهم لبعض، وفيها تخليصهم من الظلم والجور والبغي والكذب وسائر أنواع الفساد حتى يكونوا جميعا إخوة متحابين في الله متعاونين على البر والتقوى، ينصح كل واحد الآخر، ويؤدي الأمانة ولا يغش أخاه ولا يخونه، ولا يكذبه، ولا يحقره، ولا يغتابه ولا ينم عليه، بل يحب له كل خير ويكره له كل شر، كما قال جل وعلا: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم» . وقال أيضا عليه الصلاة والسلام: «الدين النصيحة، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» خرجه مسلم في صحيحه. وقال سبحانه في كتابه العزيز في عموم الرسالة: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}

وأخبر سبحانه وتعالى أن هذا الرسول يزكيهم من أخلاقهم الذميمة وأعمالهم المنكرة إلى أخلاق صالحة، وإلى أعمال مستقيمة قال جل وعلا: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} وقال

جل وعلا: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} إلى غير ذلك من الآيات الدالات على نصحه عليه الصلاة والسلام، وأن الله بعثه ليعلم الناس ويرشد الناس ويزكي الناس ويخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ من ظلمات جهلهم وكفرهم وأخلاقهم الذميمة، إلى نور الإيمان والتوحيد وإلى سعادة الأخلاق الكريمة، والعدل والصلاح والإصلاح، ولما كانت الأرض قبل بعثته عليه الصلاة والسلام مملوءة من الظلم والجهل والكفر، وكان الشرك قد عم الناس وعم البلاد وانتشر فيها الفساد إلا ما شاء الله من بقايا يسيرة من أهل الكتاب ماتوا أو معظمهم قبل بعثته عليه الصلاة والسلام، لما كان الأمر هكذا رحم الله أهل الأرض ولطف بهم سبحانه وبعث فيهم هذا الرسول العظيم محمدا عليه الصلاة والسلام وهم في أشد الحاجة بل الضرورة إلى بعثته وإرساله، فبعثه الله بأشرف كتاب وأشرف رسالة وأعمها فأنقذ الله به الأمة. وأخرج الله به أهل الأرض من الظلمات إلى النور، أخرجهم الله به من الضلالة إلى الهدى، أخرجهم الله به من الجور والظلم والعسف إلى العدل والإنصاف والحرية الكاملة المقيدة بقيود الشريعة، وأمره سبحانه وتعالى حينما بعثه بالدعوة إلى الله ﷻ والإرشاد إليه، وإقامة الحجج على ما بعثه الله به من الدين الحق والصراط المستقيم، فلم يزل هكذا يدعو إلى الله ويرشد في مكة عليه الصلاة والسلام، وهكذا من أسلم معه من أهل مكة يقوم بدوره في الدعوة على حسب حاله تارة في السر وتارة في العلن كما هو معلوم، فمكث في مكة عليه الصلاة والسلام ثلاثة عشر عاما يدعو إلى الله ﷻ وينذر قومه ويوجههم إلى الخير ويتلو عليهم كتاب الله، ويدعوهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولم يأمره الله بقتالهم، وإنما هي دعوة فقط ليس

فيها قتال بل توجيه وإرشاد وإيضاح للحق والخلق الكريم، وتحذير من خلافه بالكلام الطيب واللطف والجدال بالتي هي أحسن كما قال جل وعلا: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} وقال جل وعلا: {فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} وقال سبحانه: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} وقال سبحانه: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} إلى أمثال هذه الآيات التي فيها الأمر بالصفح والإعراض عنهم والجدال بالتي هي أحسن إلى غير ذلك، وليس فيها الأمر بقتالهم؛ لأن المقام لا يتحمل ذلك لأن المسلمين قليلون وأعداؤهم كثيرون وبأيديهم السلطان والقوة فكان من حكمة الله أن منع رسوله والمسلمين من الجهاد باليد وأمرهم بالاكتفاء بالجهاد باللسان والدعوة وأمرهم أن يكفوا أيديهم عن القتال، فهدى الله بذلك من هدى من المسلمين كالصديق رضي الله عنه وعمر الفاروق رضي الله عنه وعثمان رضي الله عنه وعلي رضي الله عنه والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وجم غفير من الصحابة، رضي الله عن الجميع وأرضاهم.

ولما صدع النبي بالدعوة وبين بطلان آلهتهم التي يعبدونها من دون الله وأرشدهم إلى توحيد الله والإخلاص له، عظم على أهل مكة ذلك واشتد عليهم الأمر لأنهم يعظمون تلك الآلهة ولأن كثيرا منهم يرى في عبادتها والتعلق بها حفظا لرئاسته ومنزلته وسيطرته على الضعفاء، وصاروا يحاولون الذود عنها ويكذبون على الرسول صلى الله عليه وسلم أكاذيب كثيرة وينفرون الناس عنه ويقولون عنه إنه شاعر وتارة مجنون وتارة ساحر وتارة كذاب إلى غير ذلك، وهي أقاويل كلها باطلة وهم يعلمون أنها باطلة، أعني أعيانهم ورؤساءهم وأهل الحل والعقد

منهم كما قال سبحانه: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ} ولكن ليس لهم حيلة إلا أن يقولوا هكذا من الكذب والفرية والتزييف على الضعفاء من أهل مكة ومن غيرهم فأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق ويدفع الباطل ولو كره الكافرون، فلم يزل يدعوهم عليه الصلاة والسلام ولم يزل يناظر الناس ويتلو عليهم كتاب الله ويرشدهم إلى ما بعثه الله به ويصدع بأمر ربه ﷻ، حتى ظهرت الدعوة في مكة وانتشرت وسمع بها الناس، العرب وغيرهم في البوادي والمدن، فصارت الوفود تأتي إلى النبي ﷺ ويتصلون به سرا ويسمعون منه عليه الصلاة والسلام حتى فشى الإسلام وظهر وبان لأهل مكة، فعند ذلك شمروا عن ساعد العداوة وآذوا الرسول وآذوا أصحابه إيذاءا شديدا، وأمرهم معروف في السير والتاريخ فمنهم من عذب بالرمضاء ومنهم من عذب بغير ذلك. فلما اشتد الأمر بأصحاب الرسول ﷺ واشتد بهم الأذى أذن لهم ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، فهاجر من هاجر إلى الحبشة ومكثوا هناك ما شاء الله ثم بلغهم أن هناك تساهلا من المشركين، وروي أنه بلغهم أنهم أسلموا لما سجدوا مع النبي ﷺ في سورة النجم فرجع من رجع منهم فاشتد عليهم الأذى، فهاجروا الهجرة الثانية إلى الحبشة وبقوا هناك إلى أن قدموا على النبي ﷺ عام خيبر من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعنهم، ثم استمرت الحال والشدة على الرسول ﷺ في مكة. . وجرى ما جرى في حصاره في شعب أبي طالب وغير هذا من الأذى، ثم إن الله جل وعلا بعد ذلك أذن له بالهجرة إلى المدينة بعدما يسر الله له من الأنصار من يساعده ويحميه ويؤويه، فإن الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، من الأوس والخزرج لما بلغتهم الدعوة اتصلوا بالنبي ﷺ واجتمعوا به عند العقبة في منى

مرات ثم في المرة الأخيرة بايعوه، بايعه منهم جماعة فوق السبعين فبايعوه على الإسلام وعلى أن ينصروه ويحموه مما يحموا منه نساءهم وذرياتهم، وطلبوا منه أن يهاجر إليهم فوافق على ذلك عليه الصلاة والسلام. وأذن لأصحابه بالهجرة ثم انتظر أمر ربه فأذن الله له بعد ذلك فهاجر إلى المدينة فلله الحمد والمنة. وكان ﷺ في مكة - كما هو معلوم - لم يكن يجاهدهم باليد ولا بالسيف ولكنه كان يجاهد بالدعوة والتوجيه والإرشاد والتبصير والعظة والتذكير وتلاوة القرآن، كما قال الله تعالى: {وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} وهكذا كان أصحابه ﷺ الذين بقوا في مكة كانوا هكذا إذا تمكنوا من الدعوة بذلوها لمن يتصل بهم في التوجيه والإرشاد والنصيحة ولكن مع هذا كله فالمسلمون قليلون والكفار أكثر ولهم السلطة، ولهم اليد في مكة، ولهذا قال الشاعر ويروى ذلك لحسان رضي الله عنه:

دعا المصطفى دهرا بمكة لم يجب ... وقد لان منه جانب وخطاب

فلما دعا والسيف صلت بكفه ... له أسلموا واستسلموا وأنابوا

هكذا كانت الحال بمكة، إنما أجاب القليل وامتنع الأكثرون بسبب المآكل والرئاسة والكبر والحسد والبغي لا عن جهل بالحق ولا عن رغبة في الباطل؛ لأنهم يعرفون أنه رسول الله وأنه صادق، وكانوا يسمونه الأمين عليه الصلاة والسلام، ولكن الحسد والبغي وحب الرئاسة والتسلط على الأمة يمنع الكثير من الناس عن قبول الحق وهكذا فعل الروم وفارس ورؤساؤهم وأعيانهم ليس يخفى عليهم الحق وأدلته وبراهينه، ولكن السلطان والرئاسة واستعباد الناس وما يلتحق بهذا يمنعهم من الخضوع إلى الحق، ولما سأل هرقل أبا سفيان عن صفات النبي ﷺ وأخبره أبو سفيان بذلك عرف أنه رسول الله واتضح له أنه نبي

الله ودعا أمته لذلك، فلما رأى منهم النفرة وعدم الاستجابة نكس على عقبيه ورجع عما أظهر وقال: إنما فعلت هذا وقلت ما قلت لأمتحنكم وأعرف صلابتكم في دينكم، ثم استمر على دين قومه وطغيانه وكفره، نسأل الله العافية، فآثر الدنيا على الآخرة. وهكذا أشباهه ونظراؤه يحملهم البغي والحسد وحب الرئاسة على خلاف الحق وعلى التنكر له ولأهله كما سبق في قوله جل وعلا: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ} هكذا يقول ربنا ﷻ عن فرعون وقومه: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} وقال الله ﷻ عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه قال لفرعون: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ} فهؤلاء الكفرة من الكبراء والأعيان يعرفون الحق وأن ما جاءت به الرسل هو الحق، ولكن تمنعهم الرئاسات والتسلط على العباد وظلم العباد والاستبداد بالخيرات يمنعهم ذلك من قبول الحق؛ لأنهم يعرفون أنهم إذا قبلوا صاروا أتباعا وهم لا يرضون بذلك إنما يريدون أن يكونوا متبوعين ورؤساء ومتحكمين ومتسلطين، فالإسلام جاء ليحارب هؤلاء ويقضي عليهم ليقيم دولة صالحة بقيادة صالحة يؤثرون حق الله وإنصاف الناس ويرضون بما يرضى به إخوانهم، ولا يتجبرون ولا يتكبرون بل ينصفون إخوانهم ويسعون في صلاحهم وفلاحهم ويحكمون بينهم بالعدل، ويشتركون معهم في الخيرات ولا يستبدون بها عنهم. هكذا بعث الله نبيه محمدا ﷺ بدين شامل ونظام عادل وشرائع مستقيمة تكسح نظم الفساد وتزيل أحكام الطغاة وتقضي على طرق الفساد وأخلاق المفسدين، وتوجب على المسلمين اتباع هذا النظام المنزل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما توجب عليهم هذه الشريعة أن يتخلقوا

بالعدل والإنصاف وأن يستقيموا على ما شرعه الله لهم وأن يحافظوا على ذلك، وأن ينصف بعضهم بعضا وأن يؤدي الأمانة بعضهم لبعض، وأن يحكموا فيما بينهم بشرع الله وأن يحاربوا الفساد والضلال وطرق الغي والغواية،

فلما هاجر عليه الصلاة والسلام واستقر به القرار في المدينة المنورة أمره الله بالتقوى وتطهيرها من الفساد وأهل الفساد وعمارتها بالمصلحين والصالحين، فلما استقر به القرار في هذه البلاد المقدسة وحوله الأنصار والمهاجرون، استمر في الدعوة عليه الصلاة والسلام ونشر ما بعثه الله به من الهدى، وأذن الله له ولأصحابه في القتال والجهاد، وأنزل في ذلك قوله سبحانه: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} ففي هذه الآية أذن لهم في الجهاد لأنهم مظلومون، والمقصود أن الله جل وعلا أذن لهم بالقتال والجهاد ثم فرض الله ذلك سبحانه وتعالى وأوجبه بقوله جل وعلا: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} الآية، وأوجب عليهم سبحانه وتعالى الجهاد والقتال وأنزل فيه الآيات الكثيرات وحرض عليه سبحانه وتعالى وأمر به في كتابه العظيم وعلى لسان نبيه ﷺ فكان أولا مباحا مأذونا فيه ثم فريضة على الكفاية كما قاله أهل العلم.

وقد يجب على الأعيان إذا اقتضت الأسباب ذلك كما لو حضر الصف، أو حصر بلده أو استنفره الإمام، ففي هذه المسائل الثلاث يتعين القتال، إذا حضر الصفين ليس له أن ينصرف ولا أن يفر، وكذلك إذا حاصر بلده العدو وجب عليه وعلى أهل البلد أن يقاتلوا ويدافعوا بكل ما يستطيعون من قوة، وكذلك إذا استنفره الإمام وجب النفير كما هو معروف في محله، فالمقصود أن الله فرض الجهاد وجعله فرضا على المسلمين وهو فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين، وصار في حقهم سنة مؤكدة. وقد يجب على الأعيان للأسباب التي

تقتضي ذلك كما سبق، فكان عليه الصلاة والسلام أولا يقاتل إذا رأى المصلحة في ذلك ويكف إذا رأى المصلحة في الترك، ثم أمره الله سبحانه بقتال من قاتله وبالكف عمن كف عنه، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قال بعض السلف في هذه الآية: إنه أمر في هذه الآية بقتال من قاتله والكف عمن كف عنه، وقال آخرون في هذه الآية: إن هذه الآية ليس فيها ما يدل على هذا المعنى وإنما فيها أنه أمر بالقتال للذين يقاتلون أي من شأنهم أن يقاتلوا. إلخ. ويصدوا عن سبيل الله وهم الرجال المكلفون القادرون على القتال بخلاف الذين ليس من شأنهم القتال كالنساء والصبيان والرهبان والعميان والزمناء وأشباههم فهؤلاء لا يقاتلون لأنهم ليسوا من أهل القتال.

وهذا التفسير كما سيأتي إن شاء الله تعالى أظهر وأوضح في معنى الآية، ولهذا قال بعدها بقليل: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ فعلم بذلك أنه أراد قتال الكفار لا من قاتل فقط بل أراد قتال الكفار جميعا حتى يكون الدين كله لله وحتى لا تكون فتنة والفتنة الشرك، وأن يفتن الناس بعضهم بعضا عن دينهم فتطلق الفتنة على الشرك كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ يعني الشرك، وتطلق أيضا على ما يقوم به بعض الكفار من قتل بعض الناس والتعدي عليهم وإلجائهم إلى أن يكفروا بالله ﷻ، فالله أمر بقتالهم حتى لا تكون فتنة، يعني حتى لا يقع شرك في الأمة وحتى لا يقع ظلم من الكفار للمسلمين بصدهم وقتالهم حتى يرجعوا عن الحق، وقال ﷻ في سورة النساء: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا

تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾

قالوا: فهذه الآيات فيها الدلالة على أن الله جل وعلا أمر نبيه ﷺ والمسلمين أن يقاتلوا من قاتلهم وأن يكفوا عمن اعتزل القتال وكف عنهم، ثم أنزل الله بعد ذلك آية السيف في سورة براءة وهي قوله جل وعلا: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال العلماء - رحمة الله عليهم -: إن هذه الآية ناسخة لجميع الآيات التي فيها الصفح والكف عن المشركين والتي فيها الكف عن قتال من لم يقاتل قالوا: فهذه آية السيف هي آية القتال آية الجهاد آية التشمير عن ساعد الجد وعن المال والنفس لقتال أعداء الله حتى يدخلوا في دين الله وحتى يتوبوا من شركهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام.

هذا هو المعروف في كلام أهل العلم من المفسرين وغير المفسرين، كلهم قالوا فيما علمنا واطلعنا عليه من كلامهم إن هذه الآية وما جاء في معناها ناسخة لما مضى قبلها من الآيات التي فيها الأمر بالعفو والصفح وقتال من قاتل والكف عمن كف، ومثلها قوله جل وعلا في سورة الأنفال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا

تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} ومثلها قوله جل وعلا في سورة براءة بعد ذلك: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} ومثلها قوله جل وعلا: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} فأمر الله سبحانه وتعالى بقتال أهل الكتاب ولم يأمر بالكف عنهم إلا إذا أدوا الجزية عن صغار ولم يقل: حتى يعطوا الجزية أو يكفوا عنا، بل قال: حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، واكتفى بذلك وقال في الآية السابقة آية السيف: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} وقال في آية أخرى: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}

فدل ذلك على أنه لا يكف عن الكفار إلا إذا تابوا من كفرهم ورجعوا إلى دين الله واستمسكوا بما شرع الله، فهؤلاء هم الذين يكف عنهم ويكون لهم ما لنا وعليهم ما علينا، لكن أهل الكتاب إذا بذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون كففنا عنهم وإن لم يسلموا، أما من سواهم فلا بد من الإسلام أو السيف ويلحق بأهل الكتاب المجوس لما رواه البخاري في صحيحه رَحِمَهُ اللَّهُ عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر»، فصار المجوس ملحقين بأهل الكتاب في أخذ الجزية فقط لا في حل طعامهم ونسائهم، فهذه الطوائف الثلاث تؤخذ منهم الجزية، هذا محل وفاق بين أهل العلم فإما أن يسلموا وإما أن يؤدوا الجزية، وإما القتال، وفي آخر الزمان إذا نزل عيسى -عليه الصلاة والسلام- زال هذا الأمر، فأخذ الجزية مؤجل ومؤقت إلى نزول عيسى، فإذا نزل عيسى -عليه الصلاة والسلام- انتهى هذا الشرع ووجب بعد ذلك إما

الإسلام وإما السيف، هكذا يحكم عيسى عليه السلام بهذه الشريعة المحمدية، والأحاديث الواردة في ذلك تدل على أن أخذ الجزية مؤقت إلى نزوله عليه الصلاة والسلام، وقد أوضح عليه الصلاة والسلام أن أخذ الجزية مؤقت إلى نزول عيسى، فإذا نزل عيسى حكم فيهم بالسيف أو الإسلام وترك الجزية، وذلك بتقرير النبي ﷺ وشرعه لأن رسول الله ﷺ أخبر بذلك وأقره فدل ذلك على أن هذا هو شرعه في آخر الزمان.

واختلف أهل العلم فيما عدا هذه الطوائف الثلاث من العجم وعباد الأوثان، فقال بعض أهل العلم: تؤخذ الجزية من جميع المشركين عربهم وعجمهم ولا يستثنى أحد، وهذا هو المنقول عن مالك ونسبه إليه القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره والحافظ ابن كثير في تفسيره وهو: أن الجزية تؤخذ من الجميع من العرب والعجم. وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تؤخذ من العجم جميعا كاليهود والنصارى والمجوس ولا تؤخذ من العرب. وقال أحمد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ والشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وجماعة من العلماء: إنما تؤخذ من أهل الكتاب والمجوس فقط؛ لأن الأصل قتال الكفار وعدم رفع السيف عنهم حتى يسلموا ولم يأت رفع السيف بعد بذل الجزية إلا في هذه الطوائف الثلاث اليهود والنصارى والمجوس. جاء الكتاب في اليهود والنصارى، وجاءت السنة الصريحة في المجوس ومن سواهم لا يرفع عنهم السيف بل لا بد من الإسلام أو السيف فقط؛ لأن الله جل وعلا قال: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} ولم يقل: أو كفوا عنكم وقال: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} فعمم بقتالهم جميعا، وتعليق الحكم بالوصف المشتق يدل على أنه هو العلة فلما علق الحكم بالمشركين والكفار ولمن ترك الدين ولم يدن بالحق

عرف أن هذا هو العلة وأنه هو المقتضي لقتالهم، فالعلة الكفر بالله مع شرط كونه من أهل القتال لا من غيرهم، فإذا كانوا من أهل القتال قاتلناهم حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية إن كانوا من اليهود والنصارى والمجوس، أو حتى يسلموا فقط إذا كانوا من غير هؤلاء الطوائف الثلاث وإلا فالسيف، لكن من ليس من أهل القتال كالنساء والصبيان والعميان والمجانين والرهبان وأرباب الصوامع والزمناء ومن ليس من شأنهم القتال لكونهم لا يستطيعون كمن تقدم ذكرهم، وهكذا الشيوخ الفانون فهؤلاء لا يقاتلون عند جمهور العلماء لأنهم ليسوا من أهل القتال فمن محاسن الإسلام تركهم وعدم قتالهم، وفيه أيضا دعوة لهم ولأهاليهم وقومهم إلى الإسلام إذا عرفوا أن الإسلام يرحم هؤلاء ويعطف عليهم ولا يقتلهم، فهذا من أسباب دخولهم في الإسلام أو عدم تفانيهم في العداء له.

وبعض أهل العلم حكى الإجماع على عدم قتل النساء والصبيان وقد ثبت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام النهي عن قتل النساء والصبيان في الأحاديث الصحيحة، وقد جاء في أحاديث السنن النهي عن قتل الرهبان والشيوخ الفانين وأشباههم، وذكر بعض أهل العلم أن آية السيف وهي قوله جل وعلا: {فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} الآية، ليست ناسخة ولكن الأحوال تختلف، وهكذا قوله جل وعلا: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} الآية، وقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} وهكذا قوله سبحانه: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} وهكذا قوله سبحانه: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} فهذه الآيات وما في معناها قال بعض أهل العلم ليست ناسخة لآيات الكف عمن كف عنا وقتال من قاتلنا وليست ناسخة لقوله: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} ولكن الأحوال تختلف فإذا قوي المسلمون وصارت لهم السلطة والقوة والهيبة استعملوا آية السيف وما جاء في معناها وعملوا بها وقاتلوا جميع الكفار حتى يدخلوا في دين الله أو يؤدوا الجزية إما مطلقا كما هو قول مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة، وإما من اليهود والنصارى والمجوس على القول الآخر، وإذا ضعف المسلمون ولم يقووا على قتال الجميع فلا بأس أن يقاتلوا بحسب قدرتهم ويكفوا عمن كف عنهم إذا لم يستطيعوا ذلك فيكون الأمر إلى ولي الأمر إن شاء قاتل وإن شاء كف، وإن شاء قاتل قوما دون قوم على حسب القوة والقدرة والمصلحة للمسلمين لا على حسب هواه وشهوته ولكن ينظر للمسلمين وينظر لحالهم وقوتهم، فإن ضعف المسلمون استعمل الآيات المكية، لما في الآيات المكية من الدعوة والبيان والإرشاد والكف عن القتال عند الضعف، وإذا قوي المسلمون قاتلوا حسب القدرة فيقاتلون من بدأهم بالقتال وقصدهم في بلادهم ويكفون عمن كف عنهم فينظرون في المصلحة التي تقتضيها قواعد الإسلام وتقتضيها الرحمة للمسلمين والنظر في العواقب كما فعل النبي ﷺ في مكة وفي المدينة أول ما هاجر، وإذا صار عندهم من القوة والسلطان والقدرة والسلاح ما يستطيعون به قتال جميع الكفار أعلنوها حربا شعواء للجميع، وأعلنوا الجهاد للجميع كما أعلن الصحابة ذلك في زمن الصديق وعمر وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وكما أعلن ذلك الرسول ﷺ في حياته بعد نزول آية السيف، وتوجه إلى تبوك لقتال الروم وأرسل قبل ذلك جيش مؤتة لقتال الروم عام ٨ من الهجرة وجهز جيش أسامة في آخر حياته ﷺ .

وهذا القول ذكره أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ واختاره وقال: إنه ليس هناك نسخ ولكنه اختلاف في الأحوال لأن أمر المسلمين في أول الأمر ليس بالقوي وليس عندهم قدرة كاملة فأذن لهم بالقتال فقط، ولما كان عندهم من القدرة بعد الهجرة ما يستطيعون به الدفاع أمروا بقتال من قاتلهم وبالكف عمن كف عنهم، فلما قوي الإسلام وقوي أهله وانتشر المسلمون ودخل الناس في دين الله أفواجا أمروا بقتال جميع الكفار ونبذ العهود وألا يكفوا إلا عن أهل الجزية من اليهود والنصارى والمجوس إذا بذلوها عن يدهم صاغرون. وهذا القول اختاره جمع من أهل العلم واختاره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله جل وعلا في كتابه العظيم: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}

وهذا القول أظهر وأبين في الدليل لأن القاعدة الأصولية أنه لا يصار إلى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الأدلة، والجمع هنا غير متعذر، كما تقدم بيانه، والله ولي التوفيق.

أما ما يتعلق بالجزية فقول من قال إنها تؤخذ من الجميع أظهر إلا من العرب خاصة.

ووجه ذلك ما ثبت في الصحيح عن بريدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «أن النبي كان إذا بعث أميرا على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: امض باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله » فعلق الحكم بالكفر، فدل ذلك على أنهم يقاتلون لكفرهم، إذا كانوا من أهل القتال، كما تدل عليه آيات أخرى.

ثم قال ﷺ: «اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » ثم قال بعد هذا: «وإذا لقيت عدوك من

المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال: أو خلال فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام » ثم قال بعد ذلك: «فإن أبوا فاسألهم الجزية » ثم قال بعد ذلك: «فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » فأمر ﷺ أميره على الجيش والسرية أن يدعو الأعداء أولا للإسلام، فإن أجابوا كف عنهم فإن أبوا دعاهم إلى الجزية، فإن أجابوا كف عنهم، وإلا فاستعان بالله وقاتلهم، ولم يفرق بين اليهود والنصارى وغيرهم، بل قال: «عدوك من المشركين » . وهذا يظهر منه العموم، ولكن ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن عامة العلماء لم يروا أخذها من العرب. قالوا: لأن رسول الله ﷺ وهو الذي تنزل عليه الآيات، وهو أعلم بمعناها لم يأخذها من العرب، بل قاتلهم حتى دخلوا في الإسلام. وهكذا الصحابة بعده لم يقبلوها من عربي، بل قاتلوا العرب في الجزيرة حتى دخلوا كلهم في دين الله. والله جل وعلا قال في حقهم وغيرهم: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} وقال في الآية الأخرى: {فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ} ولم يذكر الجزية في هذا المكان.

فالقول بأنها لا تؤخذ من العرب هو الأقوى والأظهر والأقرب، وأما من سواهم فقول من قال: بعموم النص: أعني حديث بريدة: أظهر أخذا بالأدلة من القرآن والسنة جميعا، ولأن المقصود من الجهاد هو إخضاعهم للحق، ودعوتهم إليه، وأن يكفوا عنا أذاهم وظلمهم، فإذا فعلوا ذلك ودخلوا في دين الله، فالحمد لله، وإن أبوا طالبناهم بالجزية، فإن بذلوها والتزموا الصغار والشروط التي تملى عليهم قبلناها منهم وكففنا عنهم.

فإن أبوا أن يدخلوا في الإسلام، وأن يبذلوا الجزية قاتلناهم، لما في ذلك من المصلحة لهم وللمسلمين، ولأن ذلك هو الموافق لحديث بريدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع

الآيات في اليهود والنصارى، ومع حديث عبد الرحمن في المجوس.

أما العرب فإن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لم يأخذوها منهم، وهكذا من بعدهم الأئمة، ويتضح من سيرتهم وعملهم أنه لا يجوز أن يبقى العرب على الشرك بالله أبدا، بل إما أن يحملوا هذه الرسالة، ويبلغوها الناس، وإما أن يقضى عليهم، فلا يبقوا في الأرض.

أما بقاؤهم بالجزية فغير لائق. . ولهذا جرى النبي ﷺ وأصحابه وخلفاؤه، على عدم قبولها من العرب، وإنما قبلوها من الأعاجم كالمجوس وأشباههم، كما قبلوها من اليهود والنصارى.

أما قول من قال بأن القتال للدفاع فقط، فهذا القول ما علمته لأحد من العلماء القدامى، أن الجهاد شرع في الإسلام بعد آية السيف للدفاع فقط، وأن الكفار لا يبدءون بالقتال وإنما يشرع للدفاع فقط.

وقد كتب بعض إخواننا رسالة في الرد على هذا القول، وفي الرد على رسالة افتراها بعض الناس على شيخ الإسلام ابن تيمية، زعم فيها أنه يرى أن الجهاد للدفاع فقط. وهذا الكاتب هو فضيلة العلامة: الشيخ سليمان بن حمدان رسالة ذكر فيها أن هذا القول منقول عن بعض أهل الكوفة، وإنما اشتهر بين الكتاب مؤخرا. . وأما العلماء فلم يشتهر بينهم، وإنما المعروف بين العلماء أن الرسول ﷺ بعدما هاجر أذن له في القتال مطلقا، ثم فرض عليه الجهاد وأمر بأن يقاتل من قاتل، ويكف عمن كف، ثم بعد ذلك أنزل الله عليه الآيات الآمرة بالجهاد مطلقا، وعدم الكف عن أحد حتى يدخل في دين الله، أو يؤدي الجزية إن كان من أهلها كما تقدم.

وهذا هو المعروف في كلام أهل العلم، وقد تقدم ذكر قول شيخ الإسلام

ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الجمع بين النصوص وأنه هو الأقرب ولا نسخ، وإنما تختلف الأحوال بقوة المسلمين وضعفهم: فإذا ضعف المسلمون جاهدوا بحسن حالهم، وإذا عجزوا عن ذلك اكتفوا بالدعوة، وإذا قووا بعض القوة قاتلوا من بدأهم ومن قرب منهم، وكفوا عمن كف عنهم، وإذا قووا وصار لهم السلطان والغلبة، قاتلوا الجميع وجاهدوا الجميع حتى يسلموا، أو يؤدوا الجزية، إلا من لا تؤخذ منهم كالعرب. عند جمع من أهل العلم.

وقد تعلق بعض الكتاب الذين قالوا: إن الجهاد للدفاع فقط، بآيات لا حجة لهم فيها، وقد سبق الجواب عنها، ويأتي مزيد لذلك إن شاء الله.

ومعلوم أن الدفاع قد أوجبه الله على المسلمين ضد من اعتدى عليهم، كما قال تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} وكما في الآيات السابقة.

والإسلام جاء بدعوة الكفار أولا إلى الدخول فيه، فإن أبوا فالجزية، فإن أبوا وجب قتالهم مع القدرة كما تقدم في حديث بريدة، وإن رأى ولي الأمر المصالحة، وعدم القتال لأسباب تتعلق بمصلحة المسلمين، جاز ذلك لقوله سبحانه: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا} الآية، ولفعله ﷺ مع أهل مكة يوم الحديبية.

وبذلك يعلم أنه لا حاجة للقتال إذا نجحت الدعوة، وأجاب الكفار إلى الدخول في الإسلام.

فإن احتيج للقتال قوتل الكفار حينئذ بعد الدعوة والبيان والإرشاد فإن أبوا فالجزية إن كانوا من أهلها، فإن أبوا وجب القتال أو المصالحة حسبما يراه ولي الأمر للمسلمين، إذا لم يكن لدى المسلمين قدرة على القتال، كما تقدم. وقد

تعلق القائلون بأن الجهاد للدفاع فقط بآيات ثلاث:

الأولى قوله جل وعلا: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا} والجواب عن ذلك كما تقدم أن هذه الآية ليس معناها القتال للدفاع، وإنما معناها القتال لمن كان شأنه القتال: كالرجل المكلف القوي، وترك من ليس شأنه القتال: كالمرأة والصبي ونحو ذلك، ولهذا قال بعدها: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ}

فاتضح بطلان هذا القول، ثم لو صح ما قالوا، فقد نسخت بآية السيف وانتهى الأمر بحمد الله.

والآية الثانية التي احتج بها من قال بأن الجهاد للدفاع هي قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} وهذه لا حجة فيها لأنها على الأصح مخصوصة بأهل الكتاب والمجوس وأشباههم، فإنهم لا يكرهون على الدخول في الإسلام إذا بذلوا الجزية، هذا هو أحد القولين في معناها.

والقول الثاني أنها منسوخة بآية السيف ولا حاجة للنسخ بل هي مخصوصة بأهل الكتاب كما جاء في التفسير عن عدة من الصحابة والسلف، فهي مخصوصة بأهل الكتاب ونحوهم فلا يكرهون إذا أدوا الجزية وهكذا من ألحق بهم من المجوس وغيرهم إذا أدوا الجزية فلا إكراه، ولأن الراجح لدى أئمة الحديث والأصول أنه لا يصار إلى النسخ مع إمكان الجمع، وقد عرفت أن الجمع ممكن بما ذكرنا. فإن أبوا الإسلام والجزية قوتلوا كما دلت عليه الآيات الكريمات الأخرى، والآية الثالثة التي تعلق بها من قال أن الجهاد للدفاع فقط قوله تعالى في سورة النساء: {فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا} قالوا: من اعتزلنا وكف عنا لم نقاتله. وقد

عرفت أن هذا كان في حال ضعف المسلمين أول ما هاجروا إلى المدينة ثم نسخت بآية السيف وانتهى أمرها، أو أنها محمولة على أن هذا كان في حالة ضعف المسلمين فإذا قووا أمروا بالقتال كما هو القول الآخر كما عرفت وهو عدم النسخ. وبهذا يعلم بطلان هذا القول وأنه لا أساس له ولا وجه له من الصحة، وقد ألف بعض الناس رسالة افتراها على شيخ الإسلام ابن تيمية وزعم أنه لا يرى القتال إلا لمن قاتل فقط، وهذه الرسالة لا شك أنها مفتراة وأنها كذب بلا ريب، وقد انتدب لها الشيخ العلامة سليمان بن سحمان - رحمة الله عليه - ورد عليها منذ أكثر من خمسين سنة وقد أخبرني بذلك بعض مشايخنا، ورد عليه أيضا أخونا العلامة الشيخ سليمان بن حمدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ القاضي سابقا في المدينة المنورة كما ذكرنا آنفا ورده موجود بحمد الله وهو رد حسن واف بالمقصود. فجزاه الله خيرا.

وممن كتب في هذا أيضا أخونا الشيخ صالح بن أحمد المصوعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد كتب فيها رسالة صغيرة، فند فيها هذه المزاعم وأبطل ما قاله هؤلاء الكتبة بأن الجهاد في الإسلام للدفاع فقط. وصنف أيضا أخونا العلامة أبو الأعلى المودودي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة في الجهاد وبين فيها بطلان هذا القول وأنه قول لا أساس له من الصحة. ومن تأمل أدلة الكتاب والسنة ونظر في ذلك بعين البصيرة وتجرد عن الهوى والتقليد عرف قطعا بطلان هذا القول وأنه لا أساس له، ومما جاء في السنة في هذا الباب مؤيدا للكتاب العزيز ما رواه الشيخان عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » . . . وما رواه

الشيخان أيضا من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وصلوا صلاتنا وأكلوا ذبيحتنا واستقبلوا قبلتنا فلهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

ومن ذلك ما رواه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » . . . ومن هذا ما رواه مسلم في الصحيح أيضا عن طارق بن أشيم الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: من قال لا إله إلا الله وفي لفظ «من وحد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله » . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة وكلها تدل على أن القتال شرع لإزالة الكفر والضلال ودعوة الكفار للدخول في دين الله - لا لأنهم اعتدوا علينا فقط ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » ولم يقل فإذا كفوا عنا أو اعتزلونا، بل قال: «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك » . . الحديث "، فدل ذلك على أن المطلوب دخولهم في الإسلام وإلا فالسيف، إلا أهل الجزية كما تقدم، وإنما اقتصر عليه الصلاة والسلام على الشهادتين والصلاة والزكاة لأنها الأسس العظيمة والأركان الكبرى فمن أخذ بها ودان بها وتمسك بها فإنه يؤدي ما وراءها عن إيمان وعن اطمئنان وإذعان من باب أولى. وهذا ما أردت التنبيه عليه باختصار وإيجاز، وأرجو أن يكون وافيا بالمطلوب من بيان الحق وإزهاق الباطل، وأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يوفقنا جميعا للفقه في دينه والاستقامة عليه وأن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يعلمنا ما ينفعنا ويهدينا لما فيه السعادة

والنجاة وأن يوفق المسلمين جميعا للاستقامة على دينه والجهاد في سبيله، والحذر من مكائد الأعداء إنه على كل شيء قدير. وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا وإمامنا وسيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٥/ ١٤٢): من عبد العزيز بن باز إلى من يطلع عليه من المسلمين، وفقني الله وإياهم لمعرفة الحق واتباعه آمين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد.

فالداعي لهذا هو الإجابة عن أمور سأل عنها بعض الإخوة الناصحين في المملكة حيث ذكر أنه يوجد في قبيلته، وفي قبائل أخرى عادات قبلية سيئة ما أنزل الله بها من سلطان منها:

ترك التحاكم إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، إلى عادات قبلية وأعراف جاهلية.

ومنها كتمان الشهادة، وعدم أدائها حمية وتعصبا، أو الشهادة زورا وبهتانا حمية وعصبية أيضا. إلى غير ذلك من الأسباب التي قد تدعو بعض الناس إلى مخالفة الشرع المطهر.

ولوجوب النصيحة لله ولعباده أقول وبالله التوفيق: يجب على المسلمين أن يتحاكموا إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ في كل شيء لا إلى القوانين الوضعية والأعراف والعادات القبلية. قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} وقال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} فيجب على

كل مسلم أن لا يقدم حكم غير الله على حكم الله ورسوله كائنا من كان، فكما أن العبادة لله وحده، فكذلك الحكم له وحده، كما قال سبحانه: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} فالتحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أعظم المنكرات وأقبح السيئات، وفي كفر صاحبه تفصيل، قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}

فلا إيمان لمن لم يحكم الله ورسوله ﷺ في أصول الدين وفروعه، وفي كل الحقوق، فمن تحاكم إلى غير الله ورسوله، فقد تحاكم إلى الطاغوت.

وعلى هذا يجب على مشايخ القبائل، ألا يحكموا بين الناس بالأعراف التي لا أساس لها في الدين، وما أنزل الله بها من سلطان. بل يجب عليهم أن يردوا ما تنازع فيه قبائلهم إلى المحاكم الشرعية، ولا مانع من الإصلاح بين المتنازعين بما لا يخالف الشرع المطهر بشرط الرضا وعدم الإجبار. لقوله ﷺ: «الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما» . كما يجب على القبائل جميعا ألا يرضوا إلا بحكم الله ورسوله.

أما الشهادة فيحرم على من علمها أن يكتمها لقوله تعالى: {وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا} وقوله تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ}

فأداء الشهادة على وجهها إذا احتيج إلى ذلك واجب؛ لأنها وسيلة لإقامة العدل وإحقاق الحق، وكتمها ذنب عظيم، وإثم كبير لما فيه من ضياع الحقوق وإلحاق الضرر بالآخرين، ولما في ذلك من التعاون على الإثم والعدوان.

وكما أن كتمان الشهادة حرام، فكذلك الإتيان بها على غير وجهها الصحيح

أو التزوير فيها لأي سبب من الأسباب فهو حرام أيضا، بل ومن الكبائر للذنوب، قال تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} وقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور» متفق على صحته.

وبهذا يعلم أن كتمان الشهادة حرام، وشهادة الزور حرام أيضا، بل ومن الكبائر، كما دلت على ذلك الآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

فليتق الله أولئك الذين تجري بينهم تلك العادات السيئة، ويعتبرونها من العادات الحسنة، وعليهم أن يلتزموا بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وأن يحذروا ما خالف ذلك، وأن يتوبوا إلى الله سبحانه وتعالى، مما سلف منهم من المخالفة لشرع الله، وأن يرفعوا ما تنازعوا فيه إلى المحاكم الشرعية والقضاة في بلدهم، ليحكموا فيهم بحكم الله، ويلزموهم بما تقتضيه شريعة الإسلام، ولا يعدلوا عنه إلى غيره.

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه، وأعاذنا جميعا من مضلات الفتن ونزغات الشيطان، إنه سميع قريب. وصلى الله وسلم على نبينا وإمامنا محمد وعلى آله وصحبه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وقال رحمه الله كما في المصدر السابق (٦/ ٢٥٣): لقد اطلعت على ما نشرته صحيفة صوت الإسلام بالقاهرة نقلا عن صحيفة المساء المصرية الصادرة في ٢٩ يناير الماضي من الجرأة على الجناب الرفيع والمقام العظيم مقام سيدنا وإمامنا: محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا

بتمثيله بحيوان من أدنى الحيوانات، وهو الديك، لا يشك مسلم أن هذا التمثيل كفر بواح، وإلحاد سافر واستهزاء صريح بمقام سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين وقائد الغر المحجلين، إنها لجرأة تحزن كل مسلم، وتدمي قلب كل مؤمن، وتوجب اللعنة والعار والخلود في النار، وغضب العزيز الجبار، والخروج من دائرة الإسلام والإيمان إلى حيز الشرك والنفاق والكفران لمن قالها أو رضي بها، ولقد نطق كتاب الله الكريم بكفر من استهزأ بالرسول العظيم، أو بشيء من كتاب الله المبين، وشرعه الحكيم، قال الله ﷻ: {أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} {لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} الآية، فهذه الآية الكريمة نص ظاهر وبرهان قاطع على كفر من استهزأ بالله العظيم أو رسوله الكريم أو كتابه المبين.

وقد أجمع علماء الإسلام في جميع الأعصار والأمصار على كفر من استهزأ بالله أو رسوله أو كتابه أو شيء من الدين، وأجمعوا على أن من استهزأ بشيء من ذلك وهو مسلم أنه يكون بذلك كافرا مرتدا عن الإسلام يجب قتله. لقول الرسول: «من بدل دينه فاقتلوه» .

ومن الأدلة القاطعة على كفر من استهزأ بالله أو رسوله أو كتابه- أن الاستهزاء تنقص واحتقار للمستهزأ به والله سبحانه له صفة الكمال، وكتابه من كلامه، وكلامه من صفات كماله ﷻ، ورسوله محمد ﷺ هو أكمل الخلق وسيدهم وخاتم المرسلين وخليل رب العالمين، فمن استهزأ بالله أو رسوله أو كتابه أو شيء من دينه فقد تنقصه واحتقره، واحتقار شيء من ذلك وتنقصه كفر ظاهر ونفاق سافر وعداء لرب العالمين وكفر برسوله الأمين.

وقد نقل غير واحد من أهل العلم إجماع العلماء على كفر من سب الرسول

الكريم أو تنقصه، وعلى وجوب قتله.

قال الإمام أبو بكر بن المنذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أجمع عوام أهل العلم على أن حد من سب النبي ﷺ القتل، وممن قاله مالك والليث وأحمد وإسحاق، وهو مذهب الشافعي. انتهى.

وقوله: (عوام): جمع عامة، والعامة هنا بمعنى الجماعة، فمراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن جماعات العلماء أجمعوا على وجوب قتل من سب النبي ﷺ .

ولا شك أن السب يتنوع أنواعا كثيرة، ولا ريب أن الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام وتنقصه وتمثيله بحيوان حقير من أقبح السب وأعظم التنقص، فيكون فاعل ذلك كافرا حلال الدم والمال.

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أجمعت الأمة على قتل متنقصه من المسلمين وسابه. انتهى.

وقال محمد بن سحنون من أئمة المالكية: أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ والمتنقص له كافر، والوعيد جاء عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر. انتهى.

قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعدما نقل أقوال العلماء في شاتم الرسول ومتنقصه في كتابه: (الصارم المسلول على شاتم الرسول) ما نصه: وتحرير القول فيه: أن الساب إن كان مسلما أنه يكفر ويقتل بغير خلاف، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم، وقال حنبل: سمعت أبا عبد الله يقول: من شتم الرسول أو انتقصه مسلما كان أو كافرا فعليه القتل، وأرى أن يقتل ولا يستتاب. انتهى.

وكلام العلماء في هذا الباب كثير، وفيما نقلنا عنهم كفاية لطالب الحق. .

ولقد وفقت صحيفة صوت الإسلام القاهرية في ردها على جريدة المساء المصرية ما اقترفته من المحاربة للإسلام ومن الجرم الفظيع والمنكر الشنيع في حق المصطفى وشريعته بقلم رئيس التحرير الشيخ محمد عطية خميس، ولقد أحسن فضيلته إحسانا عظيما حيث أنكر ما فعلته هذه الصحيفة من الكفر الصريح والاستهزاء السافر بسيد عباد الله وأفضل رسول، واحتج على حكام مصر وطالبهم بوضع حد لهذه الفتنة.

وإلى القراء بعض كلمته، قال وفقه الله بعد كلام سبق في رد مقالات شنيعة كتبتها بعض الصحف المأجورة ما نصه:

فلا عجب بعد كل هذا أن يجترئ صحفي من صحفيي جريدة المساء ليعرض برسول الله ﷺ في صورة كاريكاتورية في عددها الصادر في ٢٩ يناير الماضي فيرسم شخصا له جسم الديك ويقول تحت هذه الصورة " (أهوه ده يا سيدي محمد أفندي اللي متجوز تسع) " بمثل هذا الخبيث تنشر مثل هذه الصورة التي تعرض برسول الله وبشريعة الإسلام.

من الذي تزوج تسعا غير رسول الله؟ أيصل الأمر إلى أن ينشر مثل هذا الرسم في جريدة يومية يشرف عليها الاتحاد القومي، وتصل السخرية والتريقة على شخص رسول الله وأن يقال عنه: (محمد أفندي) ويرمز إليه بمثل هذا الرمز، لماذا اختار المحرر أو الرسام محمد أفندي بالذات ولم يختر علي أفندي أو سعيد أفندي أو أي اسم آخر؟ ولماذا حدد العدد بتسع بالذات؟ ولم يحدد بسبع أو عشر أو اثني عشر؟ إن خبث الرسام ظاهر واضح ولا يحتاح إلى تأويل والتماس عذر له.

إن مثل هذا الرسم لو نشر في أية صحيفة إنجليزية أو أمريكية أو فرنسية أو

حتى إسرائيلية لقامت الدنيا وقعدت، ولاتخذت سلاحا بتارا للدعاية والتشهير، أما أن ينشر في جريدة من جرائد هذه الأمة فتغمض عنها الأعين وتمر بها مرورا عابرا، ومن المؤسف المؤلم أن يحدث هذا في صحافتنا في الوقت الذي يعمل فيه الأعداء أكثر من حساب لمشاعرنا نحن المسلمين، فأمريكا وإيطاليا يريدان إنتاج فيلم عن رسول الله ﷺ فإذا بهم يلجئون إلى مشيخة الأزهر والجامعة العربية ليأخذوا رأيها وموافقتها في كل ما يتعلق بهذا الفيلم من حوار وسيناريو وخلافه، وكان باستطاعة هاتين الدولتين أن تخرجا الفيلم كما تشاءان وعلى النحو الذي يتفق مع روحهما العدائية لنا، هذا ما يحدث من أعدائنا، وهذا ما يحدث من أبناء أمتنا.

إلى متى يسكت المسئولون عن هذه الصحافة؟ وإلى متى نسكت نحن أبناء هذه الأمة؟ هل ننتظر إلى أن يلجأ هؤلاء الخونة والمفسدون إلى التصريح بدلا من التلميح؟ أننتظر إلى أن يسخر من إسلامنا في الشوارع والطرقات؟ والله إنها لفتنة سوداء يوقدها هؤلاء الجهلاء المأجورون تنذر بالخطر الفادح إن لم يوضع لها حد، فإننا لن نستطيع أن نسكت بعد هذا على هذا التمادي في محاربة الإسلام والأخلاق وفي التعريض برسول الله وشريعته، فالأمة لا تزال معتزة بدينها غيورة على رسولها، فإن أرادت هذه الصحافة الماجنة أن تعلنها حربا فلتعلنها كما تريد، ولكن لن نقف مكتوفي الأيدي. وكفى! .

فإسلامنا هو وطننا ولا وطن لنا غيره، وإسلامنا هو روحنا ولا حياة لنا بسواه، وإسلامنا هو رزقنا ولا قيمة للطعام والشراب عندنا بدونه، وإسلامنا هو كل شيء في الوجود بالنسبة لنا، وأقول هذا باسم أكثر من عشرين مليون مسلم من أبناء هذا الشعب العزيز، ونحن في انتظار بيان رسمي من الاتحاد القومي وما

صنعه مع جريدة المساء ورسامها والمسئولين عنها، ومع صحافتنا على العموم حتى نطمئن إلى مستقبل ديننا، والله أكبر والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

انتهى كلام الشيخ محمد عطية خميس. ولقد أجاد وأفاد، وصدع بالحق، فجزاه الله عن ذلك خيرا وزاده من الهدى والتوفيق وكثر في المسلمين من أمثاله من الصادعين بالحق بين الظلمة اللئام، والحمد لله الذي أوجد في مصر من ينطق بالحق ويصدع بالرد على من حاد عنه، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن بالزوايا خبايا، وأن في الرجال بقايا، ولا شك أن ذلك من حفظ الله لدينه وحمايته لخاتم أنبيائه وسيد أصفيائه محمد، ولقد أخبر الله سبحانه في كتابه المجيد عن أعدائه من الكفار والمنافقين أنهم يسخرون بالمرسلين والمؤمنين، ويضحكون منهم، فلا غرابة أن سلك القائمون على صحيفة المساء مسلك أئمتهم من المشركين والمنافقين وساروا على منهاجهم الوخيم وطريقهم الذميم، {أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} قال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ} {وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ} الآيات، وقال سبحانه وتعالى: {إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} {فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ} {إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} وقال جل وعلا عن رسوله نوح وقومه: {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} وقال تعالى: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

ففي هذه الآيات المحكمات والبراهين البينات دلالة ظاهرة وحجج قاهرة على أن الاستهزاء بالمرسلين والمؤمنين من صفات الكفار والمنافقين والمشركين، ومن عدائهم السافر وكفرهم الظاهر.

ولقد تخلق بعض القائمين على صحف القاهرة في هذا العصر بأخلاقهم وساروا سيرتهم ونهجوا نهجهم فلهم حكمهم في الدنيا والآخرة، وقد ثبت عن المصطفى ﷺ أنه قال: «من تشبه بقوم فهو منهم» فليس من شك عند كل من له أدنى مسكة من علم وهدى أن من شبه الرسول ﷺ بشيء من الحيوانات الحقيرة فقد تنقصه واحتقره، ومن فعل ذلك أو رضيه من حاكم أو صحفي أو غيرهما فهو كافر ملحد حلال الدم والمال.

وهنا أمر عظيم ينبغي التنبيه له، وهو أن يقال: ما السر في تشبيه صحيفة المساء القاهرية للرسول ﷺ بالديك دون بقية الحيوانات، إنه ظاهر لمن تأمله، إلا أنه الجحود لنبوته والإنكار لرسالته ورميه بأنه ثائر شهواني ليس له هم إلا إشباع نهمته من النساء، وهذا إمعان في الكفر، وإيغال في الاستهزاء والاحتقار للجناب العظيم والمقام الرفيع، لعن الله من تنقصه أو رماه بما هو براء منه، وقاتل الله صحيفة المساء القاهرية والقائمين عليها الراضين بهذا الاستهزاء، فما أعظم ما اجترؤا عليه من الباطل، وما أقبح ما وقعوا فيه من الإسفاف والاستهزاء، ولقد صان الله رسوله ﷺ وحماه مما قاله المبطلون ورماه به المفترون، فقد كان أعف الناس وأنصحهم لله ولعباده وأرفعهم قدرا وأشرفهم نفسا وأشدهم صبرا وأقومهم بحق الله وتبليغ رسالته، وأخشاهم لله وأتقاهم له، وأزهدهم في كل ما يلوث مقامه العظيم، أو يعوقه عن مهمته في الجهاد والنصح والتبليغ، وإنما تزوج النساء كسنة من قبله من المرسلين، كما قال الله سبحانه:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً}

وفي تزوجه ﷺ بتسع من النساء حكم كثيرة وأسرار بديعة ومصالح عظيمة، منها: إعفافهن والإحسان إليهن، ومنها: أن يتعلمن منه ﷺ أصول الشريعة وأحكامها ويعلمنها الناس بعده كما قد وقع، فقد كان بيت كل واحدة منهن مدرسة للمسلمين والمسلمات، يردونها للتعلم ويشربون من معينها الصافي عللا بعد نهل، ويسألون أمهات المؤمنين عن حياته ﷺ وشمائله وأخلاقه وأعماله داخل بيوته وخارجها، ومن ذلك ما في تعددهن من مصلحة التأليف والتعاون على البر والتقوى، وتبليغ القرآن والسنة بواسطة أصهاره ومن يتصل بهم لأن أزواجه كن من قبائل شتى، وذلك أبلغ في مقام الدعوة والتأليف وأنفع للأمة وأكمل من جهة التبليغ والتعليم، ومن ذلك ما في تعددهن من راحته ﷺ وأنسه، فإن الله سبحانه قد حبب إليه النساء والطيب، وجعل قرة عينه في الصلاة، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة» وقد جبل الله الرجال على حب النساء والميل إليهن، وجعلهن سكنا للرجال، كما قال ﷻ:

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} وأعطى نبيه ﷺ في ذلك من كمال الرجولة والقوة على القيام بأمر الزوجات وحقوقهن ما لم يعطه الكثير ممن قبله، وليس هذا بمستنكر في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم أكمل الرجال رجولة، وأعفهم فرجا، وأقومهم بحق الله وحق عباده.

وقد كان لنبي الله داود زوجات كثيرة، ولابنه نبي الله سليمان بن داود كذلك، وقد قواهما الله على الطواف عليهن والقيام بحقهن، فكيف يستغرب

على من هو أفضل منهما وأرفع عند الله منزلة، وهو محمد ﷺ، أن يبيح الله له تسعا من النساء مع ما في ذلك من المصالح الكثيرة التي تقدم بعضها، وكلها تعود على الأمة بالخير والإحسان والنفع العام، وقد خص الله نبيه ﷺ بخصائص عظيمة وحباه بصفات كريمة، فبعثه إلى الناس عامة، وجعله رحمة للعالمين، واتخذه خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ورفع منزلته في أعلى الجنة وهي الوسيلة، وجعله سيد أولاد آدم كلهم، وأعطاه المقام المحمود والشفاعة العظمى يوم القيامة، ونصره بالرعب مسيرة شهر، وشرح له صدره وغفر له ذنبه ووضع عنه وزره ورفع له ذكره، فلا يذكر سبحانه إلا ذكر معه، كما في الخطب والتشهد والإقامة والتأذين.

وخصائصه وشمائله ﷺ كثيرة جدا، فكيف بعد هذا كله تجرأ صحيفة المساء المصرية والقائمون عليها على الاستهزاء به والحط من قدره وتمثيله بحيوان من أحقر الحيوانات وأدناها، إمعانا في الاحتقار ومبالغة في الاستهزاء، سبحان الله ما أعظم شأنه، والله أكبر ما أوسع حلمه: {كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} وليس هذا الكفر الظاهر والنفاق السافر والاستهزاء الصريح بأشرف عباد الله ومن أخرج الله به العباد من الظلمات إلى النور - بغريب من صحف الخلاعة والمجون وأبواق الكفر والإلحاد ومنابر الظلم والعدوان ومحاربة الفضائل والدعوة إلى الرذائل، ليس ذلك بغريب على بعض القائمين على صحف القاهرة، الذين باعوا أنفسهم للشيطان، وأعرضوا عما جاءت به الرسل ونزل به القرآن، واهتموا بالفراعنة والملاحدة وعباد الصلبان، وجندوا بعض صحفهم لمحاربة الإسلام وطمس شعائره العظام والتضليل والتلبيس على خفافيش الأبصار وسفهاء الأحلام.

ثم أقول: ليس هذا وحده جرم صحف القاهرة، فكم لهم من جرائم وكم لهم من مخاز، وكم لهم من مكفرات ونواقض للإسلام، أليسوا هم الذين أعلنوا في كثير من صحفهم الدعوة إلى الاشتراكية الكافرة والشيوعية الحمراء المشتملة على الظلم للعباد، وزعموا تلبيسا وتضليلا أنها من الإسلام، والإسلام براء من ذلك، الإسلام حرم على الناس دماءهم وأموالهم وأعراضهم، الإسلام يحترم مال الفرد والجماعة ويحرسه ويحميه بقطع يد السارق، وقتل المحارب إذا قتل، وقطع يده ورجله من خلاف إذا أخذ المال فقط، ويقول الرسول العظيم ﷺ في حجة الوداع يوم النحر: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا» متفق على صحته، ويقول ﷺ: «من ظلم شبرا من الأرض طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين» متفق على صحته، ويقول عليه الصلاة والسلام: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة، قالوا وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال: وإن كان قضيبا من أراك» خرجه الإمام مسلم في صحيحه، ويقول الله في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ} الآية، وقال تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} وقال سيد الخلق ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا» وقال عليه الصلاة والسلام أيضا: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيبة من نفسه» والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وقد أجمعت الرسل عليهم الصلاة والسلام في شرائعهم المتنوعة على عصمة مال المسلم وتحريم دمه وماله وعرضه إلا بحق، وأجمع علماء

المسلمين على ذلك، ومع هذا كله فدعاة الاشتراكية والشيوعية وأعوانهم على الظلم والعدوان استباحوا أموال الناس ودماءهم بغير حق، ونبذوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وراءهم ظهريا، ولو أنهم قالوا: قد عرفنا أنه ظلم وعدوان وأقدمنا عليه، لكان أسهل عند الله وعند المؤمنين، ولكن بعضهم مع الظلم السافر والكفر الظاهر يزعمون أن أعمالهم الماركسية وتصرفاتهم الشيوعية وسيرتهم الكفرية والإلحادية من الإسلام، ويزعم لهم أذنابهم وعبيدهم تلبيسا وتضليلا أن الإسلام جاء بذلك، والله سبحانه ورسوله ودينه براء من ذلك كله {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}، {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} ولقد صدق الله سبحانه حيث يقول وهو أصدق القائلين: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} ومن زعم أن ما يفعله دعاة الاشتراكية والشيوعية من الظلم والاستبداد والتعدي على حرمات المسلمين من الإسلام فهو كافر ضال كاذب على الله ورسوله وعلى شرعه، كما أن من أنكر الحدود كحد السرقة أو غيره وزعم أنها ليست من شرع الله، كما ينعق بذلك دعاة الإلحاد من الشيوعيين وغيرهم فهو كافر مكابر مكذب لقول الله سبحانه: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ومن زعم أن الاشتراكية الماركسية مباحة، وأنها من الإسلام، أو أنها خير من الإسلام وأرحم من الإسلام، فهو من أكفر عباد الله وأضلهم عن سواء السبيل؛ لأنه لا شيء أحسن من الإسلام ولا حكم أعدل من حكمه، ومن جعل الظلم منه ونسبه إليه فقد تنقصه وكذب عليه، قال الله ﷻ: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ} وقال تعالى: {وَلَا

تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} {مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} والله سبحانه قسم بين الناس معيشتهم، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، لتنتظم أمورهم ويستعين بعضهم ببعض، فتكمل مصالحهم، وتظهر مواهبهم، ويتميز غنيهم من فقيرهم، وشاكرهم من كافرهم، وناصحهم من خائنهم، وطيبهم من خبيثهم، إلى غير ذلك من الحكم والأسرار الكامنة في حكمة التفاوت بينهم في المعيشة والأسباب والأخلاق والعقول، كما قال تعالى منكرا على المشركين الأولين: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} وقال تعالى: {وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ} الآية، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} الآية، فلو سوى بينهم سبحانه في المعيشة والأخلاق والعقول والأسباب لتعطلت مصالحهم ولم تظهر هذه الحكم والأسرار التي رتب عليها الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، ولم يعرف العباد معاني أسمائه الحسنى وصفاته العلى، ولم يخضع أحد لأحد ولم يعرف أحد قدر نعمة الله عليه، ولم يؤد ما يجب عليه من الشكر إلى غير ذلك من الأسرار والمعاني الشريفة والحكم الرفيعة التي لا يدركها ولايوفق لها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر وأرباب العلم النافع والبصائر.

والاشتراكية استوردها أربابها ليغنوا بها الفقراء بزعمهم، وإنما جلبوها في الحقيقة ليفقروا بها الأغنياء، ويسلبوا بها أموال الناس بالباطل باسم رحمة

الفقراء ويصرفوها في مطامعهم الأشعبية، وأغراضهم الدنيئة، وشهواتهم البهيمية، ويخمدوا بها جذوة الحركة والعمل، ويصدوا بها الناس عن التفكير في: حق رب العالمين، والتنافس في مصالح الحياة، والثورة على الكفرة والطغاة الملحدين. هذه حال الاشتراكية وأهلها، حسدوا الناس على ما آتاهم الله من فضله، وتجرءوا على شرعه وظلموا العباد واستبدوا بالأموال والعتاد وحاربوا الله في أرضه واستكبروا عن طاعته وحقه، تبا لهم ما أخسر صفقتهم، وأخس مروءتهم، وأسوأ عاقبتهم، فالحذر الحذر أيها المسلمون من أرباب هذه الفتنة العمياء، والبدعة النكراء، والكفر الصريح، والمعادات لله ولرسوله وشرعه لعلكم تفلحون، وقد شرع الله في الإسلام ما يغني عن هذا المذهب الهدام، ويبطل كيد مخترعيه الكفرة اللئام، فأوجب سبحانه في أموال الأغنياء من الزكاة وصنوف النفقات، وشرع لعباده ﷻ من أن الكفارات والصدقات وسبل الإحسان ما تشد به حاجات الفقراء ويستغنى به عن ظلم العباد والتحايل على سلب أموالهم، بل جعل سبحانه وتعالى أداء الزكاة أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام، وتوعد من بخل بها بأنواع العذاب والآلام، ووعد من بذلها كما شرع الله بالطهرة والزكاة لهم ولأموالهم ومضاعفة الأجور وعظيم الخلف، كما قال ﷻ: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} وقال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} وقال ﷻ: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} وقال وهو أصدق القائلين: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} وقال سبحانه وتعالى: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}

والآيات في هذا المعنى كثيرة، فالواجب على المسلمين جميعا أن يؤدوا ما أوجب الله عليهم لإخوانهم الفقراء وأن يطيبوا نفسا بذلك، وأن يرحموهم ويعطفوا عليهم، أداء لما أوجب الله ورجاء الرحمة من الله، وحذرا من غضب الله، وسدا لأبواب الفتن والفساد، وإغلاقا لسبل الكفر والإلحاد، وشكرا لله على إنعامه، وطمعا في المزيد من فضله وكرمه، وإرغاما لأنوف الكفار والملحدين الذين قد ساءت ظنونهم بالإسلام واعتقدوا أنه قد أهمل جانب الفقراء، ولم يعطهم حقهم، ولقد أخطأ ظنهم وخسرت صفقتهم وكذبوا على الله وحادوا عن الحق الواضح.

فاتقوا الله أيها المسلمون، ومثلوا الإسلام في أعمالكم وأقوالكم وارحموا فقراءكم، وأدوا ما أوجب الله عليكم من الزكاة وغيرها؛ لتفوزوا بالسعادة والنجاة، وتسلموا من غضب الله وأليم عقابه في الدنيا والآخرة، والله المسئول أن يصلح أحوال المسلمين جميعا، وأن يمنحهم الفقه في دينه، وأن يهدي زعماءهم وقادتهم لصراطه المستقيم، وأن يقيم علم الجهاد ويكبت أهل الشرك والكفر والإلحاد، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٧/ ٤٠٣): الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه.

أما بعد: فهذه كلمات مختصرة في التعريف بالبابية والبهائية.

الباب يشار به عندهم إلى شخص جاهل إيراني ينتسب إلى التصوف يدعى: علي بن محمد الشيرازي ويزعم أنه الباب إلى بهاء الله مرزا حسين علي، وأنه الرسول الذي أتاه الوحي من قبل بهاء.

والبابية تنسب إليه، وهو عندما يضيق عليه ويستتاب يتوب من البابية ويعلن أنه جعفري من الطائفة الاثني عشرية الإمامية.

وقد عقد البابيون مؤتمرا عاما في صحراء بدشت لإظهار مذهبهم وبيان البشائر عن الإمام المنتظر الذي يزعمون خروجه.

والبابيون في عقائدهم وآرائهم في الباب لم يكونوا على عقيدة واحدة ولا على رأي واحد في ذلك كما في صفحة ٩٧ من كتاب: (البهائية تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية) لرئيس جماعة أنصار السنة المحمدية. في مصر الشيخ عبد الرحمن الوكيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكان البابيون في مؤتمرهم فريقين أحدهما: تابع لرئاسة البشروئي والقدوس، والثاني: تابع لرئاسة البهاء وقرة العين كما في صفحة ٩٨ من هذا الكتاب، كما كانت منتدياتهم نوعين: نوع خاص بأئمة البابية، والثاني: للعموم، وكان موضع البحث في هذه المنتديات الخاصة هو مسألة نسخ البابية للشريعة الإسلامية، وقد انتهى رأيهم إلى أن الباب أعظم وأجل مقاما من جميع الرسل، وأن ما أوحي إليه من دين هو أتم وأكمل من كل وحي ودين سابق.

وقد خطبت قرة العين في المؤتمر كما في صفحة ٩٩ وصفحة ١٠٠ من الكتاب المذكور خطبة شنيعة عند احتجاب البشروئي والقدوس، وتغيب البهاء بعذر المرض خوفا من معرة خطبتها وانتظارا لما سينجم عنها من قبول المؤتمرين لها ومقاومتهم لها. فصرحت في الخطبة المذكورة بأن دين محمد منسوخ كله بالدين الجديد: (دين البهائية) الواصل إلى الأمة من طريق الباب وإن لم يصل منه الآن إلا نزر يسير، وأنهم الآن في وقت فترة، والاشتغال بأحكام الإسلام أمر لا وجه له، وأباحت للناس بل شرعت لهم الاشتراك في أموالهم

ونسائهم.

وذكر الوكيل أن هذا هو ما صرح به مؤرخ البهائية في كتابه الكواكب الدرية صفحة ١٨٠، ٢١٩ وقد صرحت في خطبتها بإنكار البعث.

وقرة العين المذكورة يشار بها إلى امرأة تدعى أم سلمان بنت ملا صالح القزويني، حملت راية مذهبهم والدعوة إليه، وهي القائمة بالفتوى قبل اتصالها بالبهاء فلما اتصلت بالبهاء خضعت له وأسندت الفتوى إليه.

وقد قام البابيون بحركة رهيبة مسلحة سفكوا بها الدماء وقتلوا فيها مئات من الناس، وقامت الدولة الإيرانية ضدهم، وجندت لهم قوة حتى قضت عليهم وفرقت شملهم وقتلت باب الباب البشروئي وصاحبه القدوس وذلك في عام ١٢٦٥ كما في الكتاب المذكور أعني- كتاب الوكيل - ثم أفتى العلماء بكفر الباب وردته واستحقاقه القتل- أعني علماء الشيعة - فأمرت الحكومة بقتله فقتل على مشهد من الناس، وكان قبل ذلك في القلعة مسجونا.

وقد نوظر أمام العلماء- أعني علماء الشيعة - عدة مرات فافتضح وظهر جهله وغباؤه وكان من أحكم الأسئلة التي وجهت إليه أن سئل عن النقص الذي في الشريعة الإسلامية وعن الكمال الذي أتى به فلم يستطع أن يجد جوابا بل ارتج عليه وانقطعت حجته، فطلب أن يخطب فخطب خطبة باردة لا قيمة لها ولا تستحق أن يصغى لها، ولذلك أفتى العلماء بكفره وإعدامه فأعدم.

(تنبيه): تقدم أن الباب يعتقد فيه البهائيون أنه المبشر بالبهاء ومحل الوحي والتبليغ فهو بمثابة الرسول عن البهاء - يعتقد البابيون في الباب، وهو علي بن محمد الشيرازي الجاهل المركب الصوفي المخدوع أنه أتم وأكمل هيكل بشري ظهرت فيه حقيقة الإلهية، وأنه هو الذي خلق كل شيء بكلمته انظر

صفحة ١١٧، رووا عنه أنه قال: كنت في يوم نوح نوحا، وفي يوم إبراهيم إبراهيم، وفي يوم موسى موسى، وفي يوم عيسى عيسى، وفي يوم محمد محمدا، وفي يوم علي عليا إلى أن قال: وسأكون في يوم من يظهره الله من يظهره الله آخر الذي لا آخر له قبل أول الذي لا أول له، كنت في ظهور حجة الله على العالمين.

فاعجب لهذا الهذيان الذي لا يقوله عاقل (شرعة الباب) صفحة ١١٩. ألغى الباب الصلوات الخمس والجمعة والجماعة إلا في الجنازة، وقرر أن التطهير في الجنابة غير واجب، القبلة هي البيت الذي ولد فيه بشيراز، أو محل سجنه، أو البيوت التي عاش فيها هو وأتباعه وهي الأماكن التي فرض على أتباعه الحج إليها.

أما الصوم فمن شروق الشمس إلى غروبها، وعدته شهر بابي وهو تسعة عشر يوما، أما الزكاة فخمس العقار يؤخذ في آخر العام ويسلم للمجلس البابي، وهناك شرائع أخرى مضحكة انظرها صفحة ١٢٠ من كتاب الوكيل.

البهائية

أما البهاء ويقال له بهاء الدين فهو: مرزا حسين بن علي بن الميرزا عباس بزرك المازندراني النوري الإيراني ولد بطهران سنة ١٢٣٣ هـ واشتغل في أثناء عمره بعلم التصوف، وأخذ عن شيوخه خرافاته وإشاراته، ثم بعد انتقاله إلى بغداد من طهران زائرا أو طريدا، ثم بعد انتقالات كثيرة من بغداد إلى غيرها، ثم إلى عكا لأمور سياسية ومآرب خاصة ونزاع كثير بين أتباعه من البابية وأتباع أخيه: يحيى بن علي بن ميرزا، بعد هذا كله وبعد تطورات كثيرة ادعى البهاء ما يلي انظر صفحة ١٤٣ من كتاب الشيخ: الوكيل. ادعى البهاء أول أمره أنه خليفة الباب أو بمعنى آخر خليفة القائم، ثم زعم أنه هو القائم نفسه، ثم خلع على

نفسه صفة النبوة فالألوهية والربوبية زاعما أن الحقيقة الإلهية لم تنل كمالها الأعظم إلا بتجسدها فيه.

هلاك البهاء

في عنفوان قوته وسلطان دعوته سلط الله عليه الحمى فهلك بها وهو على عقيدته القذرة ودعاويه الباطلة وخرافاته المضحكة المحزنة، وكان هلاكه في ذي القعدة من عام ١٣٠٩ هـ انظر صفحة ١٤٤ من رسالة أبي الفضائل وحاشيتها، أبو الفضائل أحد دعاة البهاء ومروجي نحلته الباطلة.

أسلوب البهاء في الدعوة

صوفي فج يعتمد على التقليد في المغموض والتلويحات والرموز وكثرة المصطلحات انظر صفحة ١٤٧ من كتاب الوكيل.

كتبه

أشهرها الإيقان والأقدس. صنف الأول في بغداد وموضوعه إثبات مهدوية الباب وقائميته، وفيه إشارة إلى ما ادعاه البهاء وقد ألف هذا الكتاب تلبية لسؤال من سأله عن شأن الباب، وقد اعترف البهاء في هذا الكتاب بأنه مذنب وعاص في تأليفه هذا الكتاب واشتغاله بمقالاته، فاعجب أيها القارئ بصنع هذا المجرم وسوء التصرف - فسبحان الله ما أعظم شأنه - لقد أبى سبحانه إلا أن يفضح المجرمين والكذابين بما يقولونه بألسنتهم ويعملونه بجوارحهم فلله الحمد سبحانه على إيضاح الحق وفضح الباطل. انظر نص الوكيل صفحة ١٥٠.

حقد البهاء على المسلمين

ما حقد الميرزا على أمة حقده على أمة خاتم المرسلين، وحسبك أن يبهت السلفي والخلف جميعا بأنهم لم يفقهوا شيئا من القرآن فيقول: انقضى ألف سنة

ومائتان وثمان من السنين من ظهور نقطة الفرقان، وجميع هؤلاء الهمج الرعاع يتلون الفرقان في كل صباح وما فازوا للآن بحرف من المقصود - ثم يقول البهاء: إن الذي ما شرب من رحيقنا المختوم الذي فككنا ختمه باسمنا القيوم إنه ما فاز بأنوار التوحيد، وما عرف المقصود من كتب الله، وكان من المشركين.

تنبيه

ما رأيت في هذه الخلاصة عن البابية، والبهائية من كلمات لم تجدها في كتاب الوكيل فاعلم أن بعضها من كتاب الدكتور محمد مهدي خان الإيراني التبريزي نزيل مصر المسمى: (مفتاح باب الأبواب)، وبعضها أخذ من مقالات كتبها محب الدين الخطيب في شأن البابية والبهائية، وبشيء يسير من كلامي والله الموفق وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في فتاوى نور على الدرب (٣/ ١٣١): إذا تعددت الفرق المدعية بأنها هي من أهل السنة والجماعة؟ .

فأجاب: ينظر في عقيدتها، إن وافقت السنة فهم أهل السنة والجماعة، ولو سموا أنفسهم بصفات كثيرة، وإن خالفوا العقيدة فهم أهل بدع، العبرة في الحقيقة الواقعة، لا بالدعوى، لو يعطى الناس بدعواهم لادعى أناس دماء رجال وأموالهم، لكن البينة على المدعي، من ادعى أنه من أهل السنة يسأل عن عقيدته، ما هي عقيدته؟ فإذا كان يوحد الله يعبده وحده، وليس من عباد القبور ولا عباد الأصنام، ويؤمن بأسماء الله وصفاته، ويمرها كما جاءت، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، فهو من أهل السنة والجماعة.

س: هل بين هذا للناس في وقتنا الحاضر سماحة الشيخ؟

ج: نعم، كثيرا ما تكون محاضرات في هذا الباب، في المساجد وأنا أنصح

الطلبة والشباب بحفظ القرآن الكريم، لأنه فيه بيان هذه العقيدة العظيمة، أنصح كل مسلم يستطيع وكل مسلمة أن يحفظ القرآن، فالقرآن فيه البيان الشافي، بيان العقيدة الكاملة، عقيدة أهل السنة والجماعة، وذلك بالإلمام بتوحيد الله وأسمائه وصفاته وأخبار الجنة والنار، وأخبار يوم القيامة، إلى غير ذلك، وكذلك العقائد المؤلفة في هذا الباب من أهل السنة، ومن أخصرها وأطيبها العقيدة الواسطية، مختصرة طيبة فأوصي الرجال والنساء بحفظها فهي كافية شافية.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٣٣): من هي الفرقة الناجية، وما خصائصها؟ .

فأجاب: الفرقة الناجية هي المتمسكة بما جاء به النبي ﷺ، هم أهل السنة والجماعة، الفرقة الناجية: هم الذين آمنوا بالله ورسوله، واستقاموا على دين الله، وآمنوا بكل ما أخبر الله به ورسوله، وساروا على نهج رسول الله ﷺ بأداء فرائض الله، وترك محارم الله، والإيمان بأن الله سبحانه فوق العرش، قد استوى عليه استواء يليق بجلاله وعظمته، وأنه سبحانه مسمى بالأسماء الحسنى موصوف بالصفات العلى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} هم أهل السنة والجماعة، وهم الفرقة الناجية، الأمة افترقت على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهذه الواحدة هي الفرقة الناجية، هي التي آمنت بالله ورسوله، وآمنت بأسماء الله وصفاته، وآمنت بأنه سبحانه هو المستحق العبادة، وأنه الإله الحق، وأنه فوق العرش قد استوى عليه استواء يليق بجلاله، وأنه مسمى بالأسماء الحسنى، موصوف بالصفات العلا الواردة في الكتاب العزيز وفي السنة الصحيحة، المطهرة هم أهل السنة والجماعة، وهم الفرقة الناجية،

وهم الطائفة المنصورة، إلى قيام الساعة، وإن قلوا، في أي مكان، أما الثنتان والسبعون فرقة فمتوعدون بالنار، فيهم الكافر، وفيهم المبتدع الذي ليس بكافر، هم الذين حادوا عن طريق السلف، لكن تارة يكون الذي حاد عنها كافرا، وتارة يكون دون ذلك، اثنتان وسبعون فرقة كلها متوعدة بالنار، فيهم الكافر والمبتدع، وفيهم من بدعته تلحقه بالكفرة، ومنهم من بدعته ما دون ذلك.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٣٧): حصل عند بعض الشباب إنكار للتسمي بالأثري والانتساب إلى الأثر، ويقولون: إن هذه النسبة تفرق المسلمين، فهل هذا صحيح؟ أم إنها مجرد نسبة إلى حديث النبي ﷺ وإلى الحق، وخاصة أن بعض العلماء الأعلام كالحافظ العراقي تسمى بذلك، هل صحيح أنكم تراجعتم عن التسمي بذلك؟ جزاكم الله خيرا؟ .

فأجاب: لا أعلم حرجا في ذلك، إذا قيل فلان إنه أثري، إذا كان صحيحا، إذا كان يعتمد الأحاديث النبوية، والسنة المطهرة، ويسير على منهج السلف الصالح، فيقال أثري، أو يقال من أهل السنة والجماعة، كل هذا لا حرج فيه، ومما درج عليه أهل السنة، إذا كان صادقا في ذلك.

س: معنى هذا أن سماحتكم لم يتراجع عن التلفظ بهذا اللفظ؟

ج: أنا لم أتسم به، ولكن سماني بعض الناس، أي ما قلت لنفسي إنني أثري، وإنما بعض الناس قال عني ذلك، أما أنا فنعم، أنا إن شاء الله من أهل السنة والجماعة، وأنا إن شاء الله أثري أقوله الآن.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٥٥): في هذا الزمان كثرت الفرق، وكل يقول: إنه على الحق، ونريد منكم أن تتفضلوا وتعطونا ميزانا من كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ، يأخذ به كل إنسان ناصحا لنفسه، جزاكم الله

خيرا؟ .

فأجاب: الميزان هو أن يسير على ما دل عليه القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وما درج عليه سلف الأمة والصحابة، ومن سلك سبيلهم، ينظر في كلام أهل العلم إذا كان عنده علم، ويسلك مسلك الصحابة وأتباعهم بإحسان ويحكم شرع الله باتباع كتاب الله والسنة، هذا هو الطريق هذا هو طريق النجاة، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة: السير على ما سار عليه النبي ﷺ، وسار عليه أصحابه رضي الله عنهم، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والاستقامة على ذلك قولا وعملا وعقيدة، وإذا كان عنده جهل يسأل أهل العلم، ويتحرى أهل العلم والبصيرة، وأهل السنة والجماعة المعروفين بالخير، يسألهم عما أشكل عليه هذا هو طريق النجاة، أن يستقيم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قولا وعملا، قال جل وعلا: {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ}، وقال تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}، وقال تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ}، وقال جل وعلا: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ}، هذا هو الطريق الواضح، الصراط المستقيم هو توحيد الله والإخلاص له، والسير على النهج الذي سار عليه أصحاب النبي ﷺ، واستقاموا عليه مع نبيهم ﷺ وبعد نبيهم، وتابعهم عليه أهل السنة والجماعة قولا وعملا وعقيدة.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٣/ ١٥٦): هل الأشاعرة من أهل السنة أرجو التوضيح؟ .

فأجاب: الأشاعرة عندهم أشياء خالفوا فيها أهل السنة من تأويل بعض الصفات، فهم في بعض التأويل ليسوا من أهل السنة؛ لأن أهل السنة لا يؤولون، وهذا غلط من الأشاعرة ومنكر، وعندهم مخالفات غير ذلك، والواجب على

المؤمن هو طريق أهل السنة والجماعة، وهو الإيمان بأسماء الله كلها، وصفاته الواردة في القرآن الكريم، وهكذا الثابتة في السنة، يجب الإيمان بها، وإمرارها كما جاءت، بلا تحريف ولا تعطيل ولا تكييف، ولا تمثيل ولا تأويل، بل يجب أن تمر كما جاءت، مع الإيمان بها على الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالى، ليس فيها تشبيه لأحد، يقول سبحانه: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} {اللهُ الصَّمَدُ} {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} . ويقول سبحانه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، فيجب أن تمر أسماؤه وصفاته كما جاءت، من غير تحريف ولا تأويل ولا تعطيل، ولا تكييف فهو سبحانه: الرحيم، والعزيز، والقدير، وهكذا سائر الأسماء والصفات، وهكذا قوله: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}، وقوله سبحانه: {يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ}، وقوله: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا} {وَأَكِيدُ كَيْدًا}، كل هذه الصفات تليق بالله، على وجه يليق بالله سبحانه وتعالى، ولا تشابه كيد المخلوقين ولا مكرهم، ولا خداعهم بل على وجه يليق بالله سبحانه وتعالى، لا يشابه الخلق في ذلك، وهكذا قوله في الحديث الصحيح: «من تقرب إلي شبرا تقربت منه ذراعا، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »، كل هذه الصفات تليق بالله، يجب الإيمان بها وإثباتها لله، على الوجه اللائق بالله تقربا يليق بالله، وهرولة تليق بالله، ليس فيها مشابهة لخلقه، تقربه وهرولته، وإنما هو شيء يليق به سبحانه، لا يشابه صفة المخلوقين سبحانه وتعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، وهكذا قوله في الحث على الأعمال الصالحة: «فإن الله جل وعلا لا يمل حتى تملوا »، ملل يليق بالله لا يشابه صفات المخلوقين في مللهم، فالمخلوقون لديهم نقص وضعف، وأما صفات الله فهي كاملة تليق به سبحانه

لا يشابه خلقه، وليس فيها نقص ولا عيب، بل هي صفات تليق بالله سبحانه وتعالى، لا يشابه فيها خلقه جل وعلا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٥٩): لعلها مناسبة أن تتكرموا بالحديث عن كل ما ورد بشأن الوعيد سواء في القرآن الكريم أو في الأحاديث النبوية؟ .

فأجاب: ما ورد في الوعيد عند أهل السنة والجماعة يكون فيه حث للمؤمن والمؤمنة على الحذر، مما جاء فيه الوعيد من ترك واجب أو فعل محرم، كالوعيد في ترك الصلاة، ترك الصيام، ترك الزكاة، ترك الحج مع القدرة، ترك بر الوالدين، ترك صلة الرحم، ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأشباه ذلك من باب الوعيد للحث على فعل الواجب، وهكذا ما جاء في وعيد الزنى وشرب الخمر واللواط، والعقوق وقطيعة الرحم والربا، كل هذه أنواع من الوعيد، والمقصود منها التنفير والتحذير من معاصي الله جل وعلا، فإذا فعل المسلم واحدا منها صار نقصا في إيمانه وضعفا في إيمانه وهو على خطر من دخول النار، لكن لا يكفر إذا كان ما أتى به ليس كفرا، لا يكفر بهذا بل يكون تحت مشيئة الله، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه يوم القيامة إذا كان ما تاب؛ لأن الله سبحانه يقول: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}، فما كان دون الشرك فالله يغفره سبحانه وتعالى لمن يشاء، وأما إذا مات على الكفر بالله والشرك بالله فإذن هذا لا يغفر، بل صاحبه مخلد في النار، نعوذ بالله، قال تعالى: {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، قال سبحانه: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} .

فالحاصل أن المعاصي التي يفعلها الإنسان من ترك واجب، أو فعل محرم

إذا كانت ليست من قسم الكفر بالله، والشرك الأكبر، فإنها تكون نقصا في الإيمان، وضعفا في الإيمان ولا يكفر بها الإنسان كما تقول الخوارج، الخوارج تقول: يكفر من أتى المعصية، من زنى كفر عندهم، من شرب الخمر كفر، من عق والديه كفر، هذا غلط قول الخوارج باطل، أهل السنة والجماعة يقولون: المعصية تنقص الإيمان وتضعف الإيمان، ولا يكفرون بالذنب، ولكن يقولون: إنه تحت المشيئة إذا مات على المعصية، مات وهو على الزنى، مات وهو عاق، مات وهو يشرب الخمر، هذا تحت مشيئة الله، لا يكون كافرا، إذا كان يعتقد أنها حرام، ما استحلها، يعتقد أنها حرام وأنها معصية، لكن غلبه الشيطان، غلبه الهوى، فهذا يكون تحت مشيئة الله، ويكون ناقص الإيمان، وضعيف الإيمان، لكنه لا يكفر بذلك، ولا يخلد في النار، بل متى دخل النار، فإنه يعذب فيها ما شاء الله ثم يخرجه الله من النار لتوحيده وإسلامه الذي مات عليه، هكذا أجمع أهل السنة والجماعة رحمة الله عليهم، فالمعاصي تنقص الإيمان وتضعف الإيمان، والطاعة تزيد الإيمان، والإيمان عند أهل السنة والجماعة يزيد وينقص، يزيد بالطاعة والذكر، وينقص بالغفلة والمعصية، وإذا مات الإنسان على معصية فهو تحت مشيئة الله إن شاء الله غفر له وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه على قدر معصيته من الزنى أو السرقة أو شرب الخمر، أو العقوق أو غير هذا إذا مات ولم يتب فإنه تحت مشيئة الله، إن شاء الله غفر له وعفا عنه بتوحيده وإيمانه وبالحسنات التي عنده، وإن شاء ربنا ﷻ عذبه على قدر المعاصي التي مات عليها، ثم بعد أن يطهر ويمحص في النار المدة التي يكتبها الله عليه بعد هذا يخرج من النار إلى الجنة بسبب التوحيد الذي مات عليه، والإسلام الذي مات عليه هذا قول أهل الحق، قول أهل السنة والجماعة، خلافا للخوارج والمعتزلة

ومن سار على نهجهم فإنهم قد خالفوا الحق، والصواب قول أهل السنة والجماعة أن المعصية لا تخرج من الإسلام، ولا توجب الخلود في النار إذا كان صاحبها مسلما موحدا، ولكن أتى بعض المعاصي كالزنى أو شرب الخمر، أو العقوق أو الربا، ولم يستحل ذلك، يرى أنه عاص، ما استحله يرى أنه عاص وظالم لنفسه لكنه غلبه الهوى والشيطان، فهذا تحت مشيئة الله، قد يعفي عنه إذا مات على توحيد الله، قد يكون له حسنات عظيمة صدقات، أشياء من الخير، فيغفر الله له بذلك، وقد يعذب على قدر معاصيه التي مات عليها وهو مسلم ثم يخرجه الله بعد التعذيب والتمحيص إلى الجنة وقد ثبتت الأحاديث المتواترة عن رسول الله في ذلك، الرسول ﷺ أخبر في الأحاديث المتواترة «أنه يشفع للعصاة من أمته، ويعطيه الله منهم جمعا غفيرا، يشفع عدة شفاعات في العصاة من أمة محمد عليه الصلاة والسلام والله يحد له حدا فيخرجهم من النار ويلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل »، فإذا تم خلقهم أدخلوا الجنة، فله ﷺ عدة شفاعات، كلما شفع أعطاه الله جملة من الناس وحد له حدا، وهكذا يشفع المؤمنون، تشفع الملائكة، يشفع الأفراط، تشفع الأنبياء المقصود أن هذا هو الحق.

فينبغي أن يعلم هذا، وأما ما قالته الخوارج من كفر العاصي، الزاني ونحوه أنه يخلد في النار وهكذا تبعتهم المعتزلة على خلوده في النار والإباضية قالوا مثل قولهم في خلوده في النار، هذا منكر، هذا باطل يجب على من قال هذا القول أن يتوب إلى الله وأن يأخذ بقول أهل السنة والجماعة، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٦٣): من هم الصوفيون وما

موقف الإسلام منهم، جزاكم الله خيرا؟ .

فأجاب: الصوفيون: جماعات اشتهروا بإحداث طرق في العبادة والتنسك ما شرعها الله في صلواتهم وفي أذكارهم وفي خلواتهم يقال لهم: الصوفية، قال بعضهم: معناه من التصوف يعني يلبسون الصوف، وقال بعضهم: إنها من الصفاء وإن النسبة غير لغوية، يعني غير مستقيمة على الطريق السوي في النسبة، وأنها من الصفاء، وأنهم يعتنون بصفاء القلوب من كدر الذنوب وكدر كسب الحرام ونحو ذلك، فالتصوف هو التعبد على طريقة خاصة، لم تأت بها الشريعة، ولهذا غلب على المتصوفة البدع، ويسمى الزاهد الذي يحرص على التفرغ للعبادة والزهد في الدنيا وطلبها يسمى أيضا صوفيا، لكن إذا ما أحدث بدعة، وإنما صفته الزهد، والرغبة في الآخرة والتقلل من الدنيا، والحرص على أعمال الآخرة، هذا لا يسمى صوفيا، في الحقيقة يسمى زاهدا فإذا كان زهده لا يوقعه فيما حرم الله ولا يزيد في أعماله عما أوجب الله، ولا يبتدع بل يتحرى الشريعة، في أعماله وأقواله، فهذا مشكور ويثنى عليه كالجنيد بن محمد، وكسليمان الداراني، وبشر الحافي وجماعة، زادوا في العبادة والزهد في الدنيا، فهؤلاء يثنى عليهم كثير، من أجل زهدهم ورغبتهم في الآخرة وعدم ابتداعهم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٦٤): هنالك طرق كثيرة جدا، مثل الطريقة البرهانية، والطريقة الشاذلية والطريقة الدسوقية، والطريقة التيجانية إلى آخر هذه الطرق. ومن بينها جماعة أنصار السنة المحمدية، وهي جماعة التوحيد التي تقتدي بسنة المصطفى ﷺ، أرجو من سماحة الشيخ أن يتفضل بنصيحة مطولة إلى مشايخ وعوام هذه الطرق، لكي يسيروا في درب المصطفى ﷺ، كما جاء في حديث الرسول ﷺ: «ستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة

كلها في النار إلا واحدة »؟.

فأجاب: الطرق الصوفية كثيرة لا تحصى، وهي تزيد على طول الزمان، وأكثرها فيه من الشر والفساد والبدع ما لا يحصيه إلا الله ﷻ، وكل طريقة فيها قسط من الباطل، وقسط من البدع، لكنها متفاوتة، بعضها شر من بعض، وبعضها أخبث من بعض، والواجب على جميع المتصوفة أن يرجعوا إلى الله، وأن يتبعوا طريق محمد عليه الصلاة والسلام، وأن يأخذوا بما جاء في الكتاب والسنة، ويسيروا على نهج سلف الأمة من أصحاب النبي ﷺ وأتباعهم بإحسان، بطاعة الأوامر وترك النواهي والوقوف عند حدود الله، وعدم إحداث أشياء ما شرعها الله، ليس لهم أن يوجدوا طرقا يتعبدون بها لم يفعلها الرسول ﷺ ولا أصحابه، بل يجب أن يحاسبوا أنفسهم، وأن يدعوا كل ما خالف الشرع المطهر، من طقوسهم وأذكارهم الاجتماعية وغير هذا مما أحدثوه في الدين سواء كانوا من القدامى في القرن الثالث والرابع أو من المحدثين، الواجب على جميع المسلمين أن يلتزموا الطريق الذي بعث الله به نبيه عليه الصلاة والسلام، وهو توحيد الله والإخلاص له، وطاعة الأوامر وترك النواهي ظاهرا وباطنا، وأن يلتزموا بذلك، وأن يحذروا البدع والخرافات التي أحدثها الناس، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد »، وقال في خطبة الجمعة: «إن خير الحديث كتاب الله، وإن خير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة »، سواء كانت الطرق التي أحدثها الناس قديمة أو جديدة الواجب تركها، واعتماد الطريق الذي سلكه المسلمون في عهده ﷺ، إلى يومنا هذا، وهو اتباع كتاب الله والسنة والاستقامة على دين الله، كما جاء عن الله وعن رسوله، من غير زيادة ولا نقصان.

وأما إحداث طقوس أو طوائف جديدة، لم يفعلها الرسول ﷺ، ولا أصحابه فهذا لا يجوز وهذا هو الذي يسمى البدعة، وأنصار السنة المحمدية من خيرة الناس في مصر وفي السودان، أنصار السنة هم الذين يدعون إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وليسوا من الفرق الضالة، بل هم من فرقة أتباع الكتاب والسنة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الفرق: «وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قيل من هي يا رسول الله؟ قال: الجماعة» الذين اجتمعوا على الحق وساروا على نهج النبي ﷺ، وهم الصحابة ومن سلك سبيلهم، وفي رواية أخرى: «هم من كان على ما أنا عليه وأصحابي»، يعني الذين تمسكوا بطريق النبي ﷺ وطريق أصحابه، وساروا عليه.

فالواجب على المسلمين أن يلزموا هذا الطريق، وهو طريق النبي ﷺ، باتباع الأوامر وترك النواهي، وعدم إحداث أي شيء من الحوادث، لا في الأذكار ولا في الصلوات، ولا في الصوم ولا في غير ذلك، بل يجب السير على ما سار عليه الصحابة رضي الله عنهم، وأتباعهم بإحسان، هذا هو الحق، ولما تفرق الناس كثرت بينهم البدع والأهواء، وكل اخترع لنفسه طريقة من كيسه، لم يشرعها الله له، ولهذا تعددت الطرق حتى وصلت إلى ثنتين وسبعين فرقة غير الفرقة الناجية، ومنهم الجهمية والمعتزلة والروافض، وجماعات أخرى كثيرة كلها داخلة في هذه الفرق الضالة.

فيجب على المؤمن أن يحذر كل بدعة أحدثها الناس، وأن يلزم طريق النبي ﷺ، وطريق أصحابه وما سار عليه صحابته رضي الله عنهم وأرضاهم وأتباعهم بإحسان، في طاعة الأوامر وترك النواهي والوقوف عند حدود الله، وعدم إحداث شيء

ليس له أصل في الشرع، والله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٧٥): حكم المبايعة على الطرق الصوفية.

فأجاب: لا نعلم أصلا لهذه البيعة، إلا ما يحصل لولاة الأمور فإن الله شرع سبحانه أن يبايع ولي الأمر، على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والعسر واليسر وفي الأثرة على المبايع، كما بايع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم نبينا عليه الصلاة والسلام، فالبيعة تكون لولاة الأمور، على مقتضى كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وأن يقولوا بالحق أينما كانوا، وألا ينازعوا الأمر أهله، إلا أن يروا كفرا بواحا، عندهم من الله فيه برهان، أما بيعة الصوفية بعضهم لبعض، فلا أعلم لها أصلا، وهذا قد يسبب مشكلات، فإن البيعة قد يظن المبايع، أنه يلزم المبايع طاعته في كل شيء، حتى ولو قال بالخروج على ولاة الأمور، وهذا شيء منكر لا يجوز.

فالواجب على الداعي إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والمبلغ عن الله أن يبين للناس الحق ويحثهم على التزامه، ويحذرهم من مخالفة أمر الله ورسوله، من غير حاجة أن يبايعوه على ذلك، فإن البيعة على هذا الأمر قد يظن بها، ويعتقد فيها أنها لازمة لهذا الشخص، بالنسبة للشخص المبايع، وأنه لا يخالفه فيما يقول له، وأنه يسمع له ويطيع، كما يكون لولاة الأمور، وهذا يسبب الفرقة والاختلاف بين المسلمين، والنزاع والفساد، ولكن يأمره بطاعة الله ويوصيه بطاعة الله، ويحثه على الالتزام بأمر الله، ويحذره من محارم الله هكذا الداعية إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا هو الذي أعلم من الشرع المطهر، ولا أعلم من الشرع المطهر بيعة لغير ولاة الأمور، على السمع والطاعة وعلى اتباع الكتاب والسنة، وفي إمكان الداعية إلى

الله جل وعلا، أينما كان أنه يبصر الناس ويرشدهم، إلى توحيد الله وطاعته ويحذرهم من البدع، ويتلو عليهم النصوص من الآيات الكريمات، والأحاديث النبوية التي فيها بيان الحق، والدعوة إليه وفيها التنبيه على أنواع الباطل، والتحذير منه وهذا هو الذي أراه لازما ومتعينا في حق الدعاة، إلى الله ﷻ حتى لا يتأسوا بالصوفية، فيما يفعلون وحتى لا يفتحوا على الناس باب شر لكل من أراد أن يبايع أحدا، قال: بايعني كما بايع فلان وكما بايع فلان، والله المستعان.

والذي أوصي به إخواني جميعا، ترك هذه الطريقة وهي المبايعة، وأن يكتفي الداعية إلى الله جل وعلا، بالدعوة إلى الله وإرشاد الناس إلى الخير، والنصيحة والحث على اتباع الحق ولزومه، وترك ما خالفه أينما كان، وليس المقصود بيعة فلان أو فلان، المقصود اتباع الرسول بما جاء به، والالتزام بذلك، الله ألزم الناس بطاعة الله ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، ولم يكن هناك بيعة، فإن المؤمن يلزمه طاعة الله ورسوله، في كل شيء وترك ما نهى الله عنه ورسوله في كل شيء، سواء كان من الصحابة أو من غير الصحابة، لكن البيعة من باب التأكيد على التزام الحق الذي بعث الله به نبيه محمدا ﷺ، وهكذا ولاة الأمر بعده، الصديق وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، يلزم الرعية أن يطيعوهم في المعروف وإن لم يكن بيعة، لكن البيعة من باب التأكيد ومن باب الإلزام بالحق لهذا الذي ولاه الله أمر المسلمين، حتى يكون ذلك حافزا للمبايع على السمع والطاعة بالمعروف، وعلى التزام الحق، أما غير خليفة المسلمين، وغير ولي أمر المسلمين، فليس هناك حاجة لهذه البيعة، المقصود إنما هو تنبيهه إلى الخير، ودعوته إليه وتحذيره من الشر فقط، وليس المقصود أن يبايع على هذا الشيء، ويلتزم برأي فلان أو قول فلان، إنما اللازم أن يلتزم الحق، ويستقيم

على الحق الذي دعاه إليه فلان، أو بلغه من كتاب الله سبحانه وتعالى، أو من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، هذا هو الواجب، والمعول على الكتاب والسنة لا على رأي فلان وفلان، إنما العلماء يبينون ويرشدون، وينقلون للناس الآيات والأحاديث، ويبصرونهم بمعناها، وليس المقصود تحكيم رأي فلان أو فلان.

والذي أعلمه من الشرع، أنه لا بيعة إلا لولاة الأمور، أو نوابهم لأخذ البيعة لهم، كأميرهم في الأقطار، نائب عنهم في أخذ البيعة، سواء كان عالما أو أميرا أو قاضيا، المقصود إذا استنابه ولي الأمر، أن يأخذ البيعة من البلد الفلاني أو القرية الفلانية، أخذ البيعة لولي الأمر بالنيابة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٢٢٦): يوجد لدينا في كل ليلة من يوم الخميس ويوم الاثنين يذكر الله أهل الطرق الصوفية بالطبول إلى ساعات متأخرة من الليل، هل الذكر بالطبل جائز، وهل الطرق الصوفية هذه جائزة أم لا، جزاكم الله خيرا؟ .

فأجاب: هذه الطرق الصوفية بدعة منكرة، فإن كان الذكر على الطبول أو الدفوف، أو العود أو الموسيقى، أو التصفيق بالأيدي، أو الضرب بالأرجل، أو الرقص والتقرب بهذا الأمر، هذا من البدع سواء في ليلة الخميس أو ليلة الاثنين أو غيرهما في أي وقت، والواجب على أهل الإسلام التقرب بالقرب التي شرعها الله كالتسبيح والتهليل، والتحميد والذكر والاستغفار وغيرها بغير الطبول، وبغير ضرب الأرجل، وبغير الصياح والصفير، وبغير الموسيقى والعود، وقد بسط العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هذا البحث في كتابه (إغاثة اللهفان) بسطا جيدا حيث بسط فيه الكلام على طرق الصوفية والتحذير منها، وهذا منها،

والسنة للمؤمن أن يفعل ما فعله النبي ﷺ إذا فرغ من الصلاة أن يذكر الله كما فعل النبي ﷺ، ويستغفر الله ثلاثا، ثم يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام »، ثم ينصرف للناس إن كان إماما، ويقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد »، كل هذا ثبت عنه عليه الصلاة والسلام، كما روى هذا ابن الزبير في صحيح مسلم وروى بعضه ثوبان كما جاء في الصحيحين بعد كل صلاة يستغفر ثلاثا مع قول: «اللهم أنت السلام »، وروى بعضه مسلم عن عائشة فيه: «اللهم أنت السلام، ثم انصرف إلى الناس هذه سنة، ثم بعد ذلك يقول سبحان الله والحمد لله والله أكبر ثلاثا وثلاثين، ويختم المائة بقوله: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير »، فهذا ثابت عن النبي ﷺ، قال: «من فعل هذا غفرت له خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر »، هذا فضل عظيم، فيستحب للمؤمن بعد الصلوات الخمس أن يأتي بهذا بعد الأذكار السابقة: سبحان الله والحمد لله والله أكبر ثلاثا وثلاثين، ثم يأتي بتمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وإن شاء زاد، وقال: يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كله جاء، ثم يقرأ آية الكرسي: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} إلى آخرها، إلى قوله: {وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} .

هذه الآية أعظم آية يستحب أن تقرأ بعد كل صلاة فريضة ثم يقرأ: قل هو الله

أحد والمعوذتين بعد كل فريضة بعد الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر أفضل لكن يكررها ثلاثا عليه الصلاة والسلام يقرأها ثلاث مرات بعد المغرب وبعد الفجر وعند النوم جاءت السنة بهذا عن النبي ﷺ.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٨٣): هناك أناس لهم منزل، كانوا في خير، ثم تعاقبت عليهم الحوادث في هذا المنزل حتى تشاءموا منه وقاموا ببيعه. ومن ضمن تلك الحوادث فتن حصلت لهم وانتحار بعض أفراد الأسرة، هل هذا من التشاؤم؟ وجهوا الناس جزاكم الله خيرا.

فأجاب: ليس هذا من التشاؤم، فقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «الشؤم في ثلاث: في البيت والدابة والمرأة»، قد يكون الشؤم في هذه الثلاث، وفي لفظ آخر: «إن كان الشؤم في شيء، ففي ثلاث ثم ذكرها» هذا يدل على أنه يقع، قد تكون بعض النساء مشؤومة على زوجها، فإذا ظهر منها ما يدل على شؤمها في سوء أخلاقها معه، وسوء سيرتها معه أو ترادف الحوادث عليه لما تزوجها، من خسارة وكساد في تجارته، أو فساد في مزرعته، وتلف في مزرعته تتابع عليه أو ما أشبه ذلك، فلا مانع من طلاقها، وهكذا الدار إذا توالت عليه الحوادث فيها، وسوء الأحوال فيها والأمراض عليه وعلى أولاده، فلا بأس بالانتقال عنها والاستئجار لغيرها أو بيعها؛ لهذا الحديث الصحيح. وهكذا الدابة من ناقة أو فرس ونحو ذلك، إذا لم ير فيها فائدة، ورأى منها شرا كمن توالت عليه حوادث بأسبابها، فلا بأس أن يبيعها ويستبدلها حسب نص الحديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٨٤): هنالك عدة تناقضات وتشاؤم في يوم الجمعة، عندما تقع يوم عيد، ما هو السبب في هذه التشاؤمات

والتردد، مع أن كل الأيام هي أيام الله أرجو إفادتي؟ .

فأجاب: هذه الأشياء التي أشرت إليها إنما تكون عن جهل، وقلة بصيرة ولا أعلم فيما بلغني عن البلدان، التي بلغنا عنها سيرة أهلها، أنهم يتشاءمون بالجمعة، الجمعة يوم فاضل، يوم محبوب عند المسلمين، فيه اجتماعهم، وإذا صادف مع يوم العيد صار عيدا مع عيد، فكيف يكون التشاؤم، هذا شيء غريب، فإذا كان وقع عند السائل في بلاده، فهذا يدل على جهل من الذين وقع منهم، وقلة بصيرة، فيوم الجمعة يوم عيد، فإذا صادف يوم عيد الفطر، أو يوم عيد الأضحى، فقد اجتمع عيدان فالمطلوب: الفرح بهما، والسرور بهما، وعمل ما شرع الله فيهما، أما التشاؤم في ذلك، فهذا شيء منكر ولا وجه له ولا سبب له، فهما يومان عظيمان فاضلان، اجتمع فيهما خير عظيم، وفيهما اجتماع على طاعة الله وعبادته، وسماع الخطبة فأي وجه لهذا التشاؤم؟ لا وجه لذلك بل هو أمر باطل وأمر منكر لا وجه له.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٨٧): ورد في الحديث الصحيح قول الرسول ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل » ماذا يقصد الرسول ﷺ في قوله: "لا عدوى " أهي عدوى المرض نرجو التوضيح؟ .

فأجاب: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، ويعجبني الفأل "، قيل يا رسول الله: وما الفأل؟ قال: "الكلمة الطيبة » فقد كانت العرب تعتقد العدوى، ويقولون: إنه إذا خالط المريض الأصحاء، أصيبوا بمثل مرضه، وقالوا للنبي: «يا رسول الله، الإبل تكون كذا وكذا فيخالطها البعير الأجرب فتجرب، فقال عليه الصلاة والسلام: "فمن أعدى الأول: لا عدوى ولا طيرة »، والمعنى نفي العدوى التي يعتقدها الجهال من

المشركين، وأن المرض كالجرب ونحوه يعدي بطبعه، هذا باطل، أما كون الخلطة تؤثر، فهذا ما نفاه النبي ﷺ، الخلطة قد تؤثر، قد ينتقل المرض من المريض إلى الصحيح، بسبب الخلطة بإذن الله جل وعلا؛ لقوله ﷺ: «لا يورد ممرض على مصح » يعني لا يورد صاحب الإبل المراض على صاحب إبل صحاح، من باب تجنب أسباب الشر، وقال: «فر من المجذوم فرارك من الأسد »، هذا من أسباب اجتناب الشر، فالعدوى التي يعتقدها الكفار باطلة، وهو كون المرض ينتقل بنفسه، ويعدي بطبعه من دون قدر الله، ولا مشيئته هذا باطل، أما كون المرض ينتقل من المريض إلى الصحيح بإذن الله، فهذا قد يقع، ولهذا قال ﷺ: «فر من المجذوم فرارك من الأسد» يعني لا تجالسه، قد ينتقل مرضه إليك، وقال: «لا يورد ممرض على مصح»، يعني إذا ورد الجميع الماء.

فالممرض صاحب الإبل المراض، لا يوردها مع صاحب الإبل الصحاح، بل يكون هذا له وقت، وهذا له وقت، بعدا عن العدوى، وبعدا عن انتقال المرض من المريضة إلى الصحيحة.

والخلاصة: أن الشريعة جاءت باجتناب أسباب الشر، مع الإيمان بأن الأمور بيد الله، وأنه لا يقع شيء إلا بقضائه وقدره سبحانه، فاعتقاد المشركين أن العدوى تنتقل حتما بنشرها وطبعها هذا باطل، أما كونه ينتقل بإذن الله، إذا شاء فهذا واقع، ولهذا أمر النبي ﷺ بأسباب الوقاية، وقال: «لا يورد ممرض على مصح »، «وفر من المجذوم فرارك من الأسد » مع أنه ﷺ أخذ بيد المجذوم، وأكل معه وقال: «كل بسم الله، ثقة بالله »؛ ليبين أن الأمور بيد الله سبحانه وتعالى وأن الله هو الذي يقدر الأمور، فإذا اجتنب مخالطة المجذومين، هذا هو المشروع بعدا عن الشر، ولو فعل ذلك وأكل معهم، لبيان أن الأمور بيد

الله، وليتضح للناس أن المرض لا يعدي بطبعه، وإنما ينتقل بقدر الله، إذا فعل هذا بعض الأحيان، لإبطال العدوى التي يعتقدها الجاهليون، هذا حسن كما فعله النبي ﷺ، كما أن الواجب الأخذ بالأسباب فالإنسان يبتعد عن أسباب الشر، ويحذر أسباب المرض، ولا يعرض نفسه للخطر، ومع هذا يعتمد على الله ويتوكل عليه، ويعلم أن الأمور بيده سبحانه وتعالى، قال تعالى: {وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} ولكن مع اجتناب أسباب الشر، فلا يخالط المرضى الذين قد جرت العادة بإذن الله، أن مرضهم ينتقل ولا يخالط أهل الشر؛ لأنه قد يصيبه ما أصابهم من الشر فيفعل أفعالهم، ويحرص على صحبة الأخيار؛ لأن ذلك من أسباب أن يتخلق بأخلاقهم، ولا يأكل الأشياء التي يعلم أنها قد تضر، وما أشبه ذلك.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ١١): أحيانا يقول العلماء: سيحدث كسوف أو خسوف يوم كذا أو كذا، شهر كذا في منطقة كذا، الساعة كذا. ويتحقق ما يقولون، هل هذا من العلم بالغيب، أم لا؟ وفقكم الله. .

فأجاب: ليس التحدث عن وقت الكسوف والخسوف من علم الغيب، إنما هذا من علم الحساب، كثير من أصحاب الفلك يعرفون هذا الشيء، بمراقبة سير الشمس والقمر في منازلهما، فإذا صار في الشمس ميزة معينة، أو القمر قد عرفوا بالحساب أنها تكسف بإذن الله في ذلك الوقت، هذا من علم الحساب، وليس من علم الغيب، بل هذا حساب دقيق، يعرفه أصحاب الفلك بالنظر في سير الشمس والقمر، وقد يكون ذلك، وقد يغلطون، فقد يغلطون في بعض الأحيان، وقد يصيبون، قال أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن أخبارهم من جنس أخبار بني إسرائيل، لا تصدق، ولا تكذب، فقد يقولون: تكسف الشمس في

كذا، ثم لا يقع، وقد يقع ذلك ويكون قد ضبطوا الحساب. فالحاصل أن أخبارهم قد يعتريها الخطأ والغلط، فلا يصدقون، ولا يكذبون، ولكن ينظر فيما أخبروا عنه، فإن وقع الكسوف شرع للناس ذكر الله عند الكسوف، واستغفاره والصلاة والصدقة وإعتاق الرقاب، وذكر الله وتكبيره سبحانه وتعالى، لأن الرسول أمر بذلك، قال: «إذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله، ودعائه واستغفاره » وقال: «إذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا »، وأمر بالتكبير، وأمر بإعتاق الرقاب، هذا كله سنة ومشروع، وثابت عن النبي عليه الصلاة والسلام، أما أخبار الحسابين فإنها ليست من علم الغيب، لكنها تخطئ وتصيب، قد يغلطون، وقد يصيبون.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٥): أمن الممكن ألا يأخذ المؤمن بالأسباب إذا وصل إلى درجة معينة من الإيمان، لقوة يقينه؟ .

فأجاب: ليس كذلك، لا بد من الأخذ بالأسباب، مهما كان المؤمن، حتى الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهم أفضل الخلق وأرفع الناس درجة في الإيمان، كانوا يأخذون بالأسباب، وهم أكمل الناس إيمانا، وأرجحهم ميزانا، وأكملهم عقولا، ومع هذا يأخذون بالأسباب، والنبي ﷺ يوم أحد أخذ بالأسباب، حمل السلاح، وجعل على رأسه البيضة تقيه السلاح، وظاهر بين درعين عليه الصلاة والسلام، وهو سيد ولد آدم وأفضل الخلق، وأكملهم إيمانا، وأكملهم توكلا عليه الصلاة والسلام، وكان يأكل ويشرب ويجامع النساء، يأخذ بالأسباب، فلا يجوز تعطيل الأسباب لأي أحد من الناس، مع القدرة، فعلى كل أحد، وإن بلغ في الإيمان القمة، فإنه يأخذ بالأسباب، كما أن الرسل وهم أفضل الناس، وأكمل الناس إيمانا، وهم القمة في كل شيء يأخذون

بالأسباب، عليهم الصلاة والسلام.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٤/ ١١٨): سمعت مؤخرا أن من لم يكفر الكافر أو يشك في كفره فهو كافر، كما أن من يشك في كفر تارك الصلاة أو المستهزئ بحد من حدود الله فهو كافر، فهل هذا صحيح؟.

فأجاب: لقد دلت الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على وجوب البراءة من المشركين واعتقاد كفرهم، متى علم المؤمن ذلك واتضح له كفرهم وضلالهم، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه العظيم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ} {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} لعلهم يرجعون إليها في تكفير المشركين والبراءة منهم، والإيمان بأن الله هو المعبود بالحق سبحانه وتعالى، وقال عَزَّ وَجَلَّ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ} فهذا هو دين إبراهيم وملة إبراهيم والأنبياء جميعا، البراءة من عابدي غير الله واعتقاد كفرهم وضلالهم، حتى يؤمنوا بالله وحده سبحانه وتعالى.

فالواجب على المسلم أن يتبرأ من عابدي غير الله، وأن يعتقد كفرهم وضلالهم حتى يؤمنوا بالله وحده سبحانه وتعالى، كما حكى الله عن إبراهيم والأنبياء جميعا، وهكذا قوله سبحانه وتعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}، والكفر بالطاغوت معناه البراءة من عبادة غير الله، واعتقاد بطلانها، وهذا الواجب على كل مكلف أن يعبد الله وحده، وأن يؤمن به ويعتقد أنه سبحانه هو المستحق للعبادة، وأن ما عبده الناس من دون الله، من أصنام أو أشجار أو أحجار، أو

أموات أو جن أو ملائكة أو كواكب أو غير ذلك، أنه معبود بالباطل، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} الآية من سورة الحج. فالمؤمن إذا علم أن فلانا يعبد غير الله وجب عليه البراءة منه، واعتقاد بطلان ما هو عليه وتكفيره بذلك، إذا كان ممن بلغته الحجة، ممن كان بين المسلمين أو علم أنه بلغته الحجة، كما قال الله سبحانه وتعالى: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}، وقال تعالى: {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ} فالله أوحى القرآن إلى نبيه ﷺ وجعله بلاغا للناس، فمن بلغه القرآن أو السنة، ولم يرجع عن كفره وضلاله وجب اعتقاد بطلان ما هو عليه وكفره، ومنه هذا الحديث الصحيح، يقول عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار". فبين عليه الصلاة والسلام أنه متى بلغه ما بعث به النبي ﷺ، ثم مات ولم يؤمن بذلك صار من أهل النار، يعني صار كافرا من أهل النار، لكونه لم يستجب لما بلغه عن الله وعن رسوله، وهذا هو معنى قوله سبحانه: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}، وقوله سبحانه: {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ} وفي الصحيح، صحيح مسلم، عن طارق بن أشيم رضي الله عنه، عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه » وفي لفظ آخر: «من وحد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه » فجعل تحريم الدم والمال مربوطا بقوله: لا إله إلا الله، وبتوحيده الله وكفره بالطاغوت، فلا يحرم ماله ودمه حتى يوحد الله وحتى يكفر بالطاغوت، يعني حتى يكفر بعبادة غير الله، الطاغوت كل ما عبد من دون الله، يعني حتى يكفر بعبادة غير الله، ويتبرأ منها ويعتقد بطلانها، وهو معنى الآية

الكريمة السابقة: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} والذي يعلم الكافر وما هو عليه من الباطل، ثم لا يكفره أو يشك في كفره، معناه أنه مكذب لله ولرسوله غير مؤمن بما حكم الله عليه به من الكفر، فاليهود والنصارى كفار بنص القرآن ونص السنة.

فالواجب على المكلفين من المسلمين اعتقاد كفرهم وضلالهم، ومن لم يكفرهم أو شك في كفرهم يكون مثلهم، لأنه مكذب لله ولرسوله، شاك فيما أخبر الله به ورسوله، وهكذا من شك في الآخرة، بأن شك هل هناك جنة ولا ما هناك جنة؟ هل هناك نار ولا ما هناك نار؟ هل هناك بعث ولا ما هناك بعث؟ يعني عنده شك، هل هناك بعث ونشور؟ هل يبعث الله الموتى؟ هل هناك جنة؟ هل هناك نار؟ ما عنده إيمان ويقين، بل عنده شك، هذا يكون كافرا، حتى يؤمن بالبعث والنشور وبالجنة والنار، وأن الله أعد الجنة للمتقين المؤمنين، وأعد النار للكافرين، لا بد من إيمانه بهذا بإجماع المسلمين. وهكذا من شك في أن الله يستحق العبادة يكون كافرا بالله ﷻ، لأن الله سبحانه، يقول: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} ويقول سبحانه: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، وقال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وقال: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}، والآيات في هذا كثيرة، وهكذا من شك في الرسول ﷺ، وقال: لا أعلم أن محمدا رسول الله، أو ما هو برسول الله، عندي شك. يكون حكمه حكم من أنكر رسالته أو كذب به، يكون كافرا حتى يؤمن يقينا أن محمدا رسول الله، وهكذا المرسلون الذين بينهم الله، كنوح وهود وصالح وموسى وعيسى وإبراهيم ونحوهم، من شك في رسالتهم أو كذبهم

يكون كافرا، نسأل الله العافية، وهكذا من استهزأ بالدين، ومن سب الدين أو استهزأ بالحدود يكون كافرا، كما قال تعالى: {قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}، والذي يسب الدين ويسب الرسول مثل المستهزئ، أو أقبح وأكفر. أما من ترك الصلاة ولم يجحد وجوبها فهذا فيه خلاف بين العلماء، منهم من يرى تكفيره وهو الصواب، لقول النبي ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»، وقوله ﷺ: «بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة»، وقال آخرون من أهل العلم: إنه لا يكفر بذلك إذا كان لا يجحد وجوبها، بل يكون عاصيا، ويكون كافرا كفرا دون كفر وشركا دون شرك، لكن لا يكون كافرا كفرا أكبر. هذا قاله جمع من أهل العلم، ومن شك في كفر هذا لا يكون كافرا لأجل الخلاف الذي فيه، من شك في كفر تارك الصلاة ولم يجحد وجوبها لا يكون كافرا، بل هذا محل اجتهاد بين أهل العلم، فمن عرف بالأدلة الشرعية أنه كافر وجب عليه تكفيره، ومن شك في ذلك ولم تظهر له الأدلة، ورأى أنه لا يكفر كفرا أكبر بل كفرا أصغر، هذا معذور في اجتهاده ولا يكون كافرا بذلك، أما من جحد وجوبها، وقال: الصلاة غير واجبة! هذا كافر عند الجميع، ومن شك في كفره فهو كافر نعوذ بالله، وهكذا من قال: إن الزكاة لا تجب، وجحد وجوبها، أو صيام رمضان جحد وجوبه، أو قال: إن الحج مع الاستطاعة لا يجب، هذا يكفر بذلك، لأنه مكذب لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام، ومكذب لإجماع المسلمين فيكون كافرا، ومن شك في كفره فهو كافر بعد ما يبين له الدليل، ويوضح له الأمر يكون كافرا بذلك، لكونه كذب الله ورسوله، وكذب إجماع المسلمين، وهذه أمور عظيمة يجب على طالب العلم التثبت فيها وعدم العجلة فيها، حتى يكون على بينة وعلى بصيرة، وهكذا

العامة يجب عليهم أن يتثبتوا وأن لا يقدموا على شيء حتى يسألوا أهل العلم، وحتى يتبصروا؛ لأن هذه المسائل عظيمة، مسائل تكفير ليست مسائل خفيفة، بل مسائل عظيمة. فالواجب على أهل العلم وعلى طلبة العلم أن يوضحوها للناس بالأدلة الشرعية، والواجب على من أشكل عليه شيء ألا يعجل، وأن ينظر في الأدلة، وأن يسأل أهل العلم حتى يكون على بصيرة، وعلى بينة في ذلك، رزق الله الجميع التوفيق والهداية والعلم النافع والعمل الصالح.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ١٤٦): إذا غضب شخص واشتد به الغضب، وحصل منه سب للدين، ما حكمه؟ وإن كان متزوجا فهل يلحق زوجته شيء، كأن تفارقه مثلا، إذا كان الحكم بخروجه عن الإسلام؟ .

فأجاب: هذه المسألة عظيمة، ولها شأن خطير، سب الدين من أعظم الكبائر، والنواقض للإسلام، فإن سب الدين ردة عند جميع أهل العلم، وهو شر من الاستهزاء، قال تعالى: {قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} {لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}، وكانت جارية في عهد النبي ﷺ تسب الدين، فقتلها سيدها لما لم تتب، فقال ﷺ: «ألا اشهدوا أن دمها هدر». فسب الدين يوجب الردة عن الإسلام، وسب الرسول كذلك يوجب الردة عن الإسلام، ويكون صاحبه مهدر الدم وماله لبيت المال، لكونه مرتدا أتى بناقض من نواقض الإسلام، لكن إذا كان عن شدة غضب واختلال عقل فلها حكم آخر، فالغضب عند أهل العلم له ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: أن يشتد غضبه حتى يفقد عقله، وحتى لا يبقى معه تمييز من شدة الغضب، فهذا حكمه حكم المجانين والمعاتيه، لا يترتب على كلامه حكم: لا طلاقه ولا سبه ولا غير ذلك، يكون كالمجنون لا يترتب عليه حكم.

القسم الثاني: دون ذلك، اشتد معه الغضب، وغلب عليه الغضب جدا حتى غير فكره وحتى لم يضبط نفسه، واستولى عليه استيلاء كاملا حتى صار كالمكره والمدفوع الذي لا يستطيع التخلص مما في نفسه، لكنه دون الأول لم يفقد شعوره بالكلية، ولم يفقد عقله بالكلية، لكن مع شدة غضب بأسباب المسابة والمخاصمة والنزاع الذي بينه وبين بعض الناس، أو بينه وبين أهله، أو زوجته أو أبيه أو أميره أو غير ذلك، فهذا اختلف فيه العلماء، فمنهم من قال: حكمه حكم الصاحي العاقل تنفذ فيه الأحكام، ويقع طلاقه ويرتد بسبه الدين، ويحكم بقتله وردته، ويفرق بينه وبين زوجته، ومنهم من قال: يلحق بالأول، الذي فقد عقله؛ لأنه أقرب إليه، ولأن مثله مدفوع مكره إلى النطق، لا يستطيع التخلص من ذلك لشدة الغضب، وهذا القول أظهر وأقرب، وأن حكمه حكم من فقد عقله في هذا المعنى، في عدم وقوع طلاقه وفي عدم ردته، لأنه يشبه بفاقد الشعور، بسبب شدة غضبه، واستيلاء سلطان الغضب عليه، حتى لم يتمكن من التخلص من ذلك، واحتجوا على هذا بقصة موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه لما وجد قومه على عبادة العجل اشتد غضبه عليهم، وجاء وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، من شدة الغضب، فلم يؤاخذه الله لا بإلقاء الألواح، ولا بجر أخيه وهو نبي مثله، من أجل شدة الغضب، ولو ألقاها تهاونا بها، وهو يعقل لكان هذا عظيما، ولو جر النبي بلحيته أو برأسه فآذاه صار كفرا، هذا إذا جره إنسان، لكن لما كان موسى في شدة الغضب العظيم، غضبا لله ﷻ مما جرى من قومه سامحه الله، ولم يؤاخذه بإلقائه الألواح، ولا بجر أخيه، هذه الحجة للذين قالوا: إن طلاق الذي اشتد به الغضب لا يقع، وهكذا سبه لا تقع به ردة، وهو قول قوي ظاهر، وله حجج أخرى كثيرة، بسطها شيخ الإسلام ابن

تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ والعلامة ابن القيم، واختارا هذا القول، وهذا القول أرجح عندي وهو الذي أفتي به؛ لأن من اشتد غضبه ينغلق عليه قصده، ويشبه المجنون في تصرفاته وكلامه القبيح، فهو أقرب إلى المجنون والمعتوه منه إلى العاقل السليم، هذا القول أظهر وأقوى، لكن لا مانع من كونه يؤدب إذا فعل شيئا من وجوه الردة من باب الحيطة، ومن باب الحذر من التساهل بهذا الأمر، ووقوعه مرة أخرى، إذا أدب من باب الضرب أو السجن أو نحو ذلك، هذا قد يكون فيه مصلحة كبيرة، لكن لا يحكم عليه بحكم المرتدين، من أجل ما أصابه من شدة الغضب التي تشبه حال الجنون، والله المستعان.

أما المرتبة الثالثة، القسم الثالث: فهو الغضب العادي الذي لا يزول معه العقل، ولا يكون معه شدة تضيق عليه الخناق، وتفقده ضبط نفسه، بل هو دون ذلك غضب عادي يتكدر ويغضب، لكنه سليم العقل سليم التصرف، فهذا عند جميع أهل العلم تقع تصرفاته، بيعه وشراؤه وطلاقه وغير ذلك؛ لأن غضبه لا يغير عليه قصده ولا قلبه، والله أعلم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ١٩٣): ما حكم قول الإنسان حصل هذا الشيء صدفة؟ .

فأجاب: ليس فيه شيء، لأن المراد حصل من دون ميعاد له مثلما لو وافق فلانا في الطريق وسلم عليه وهو ما واعده وافقه عند إنسان زاره ففرح به ليس عن موعد، الصدفة عن غير ميعاد يعني أنه حصل الشيء عن غير ميعاد بينه وبين زيد أو عمر أو فلان أو فلان هذا معنى الصدفة عني من غير ميعاد.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٣١): أرجو أن تتفضلوا بإجابتي عن السؤال التالي: هل الإنسان في هذه الحياة مسير أو مخير؟ مع اصطحاب

جميع الأدلة؟ وجزاكم الله خيرا .

فأجاب: الإنسان مسير ومخير جميعا، له الوصفان فهو مخير؛ لأن الله أعطاه عقلا وأعطاه مشيئة، وأعطاه إرادة يتصرف بها، فيختار النافع ويدعو الله، يختار الخير ويدع الشر، يختار ما ينفعه، ويدع ما يضره، كما قال تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، وقال ﷻ: {تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} . فالناس لهم إرادة ولهم مشيئة، ولهم أعمال، قال تعالى: {إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، {إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} فلهم أعمال ولهم إرادات، ولهم مشيئة هم مخيرون فإذا فعلوا الخير، استحقوا الجزاء من الله فضلا منه سبحانه وتعالى، وإذا فعلوا الشر استحقوا العقاب، فهم إذا فعلوا الطاعات فعلوها باختيارهم، ولهم أجر عليها وإذا فعلوا المعاصي، فعلوها باختيارهم وعليهم وزرها وإثمها، والقدر ماض فيهم، هم أيضا مسيرون بقدر سابق، قال جل وعلا: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}، وقال النبي ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس »، وقال سبحانه: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}، وقال جل وعلا: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}، ولما سأل جبرائيل النبي ﷺ عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء".

فالله قدر الأشياء سابقا، وعلم أهل الجنة وأهل النار، وقدر الخير والشر والطاعات، والمعاصي كل إنسان يسير فيما قدر الله له، وكل مسير لما خلق له،

جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه ذات يوم: «ما منكم من أحد إلا ويرى مقعده من الجنة ومقعده من النار. قالوا: يا رسول الله، ففيم العمل؟ يعني ما دامت مقاعدنا معروفة من الجنة والنار، ففيم العمل، قال عليه الصلاة والسلام: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسروا لعمل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسروا لعمل الشقاوة، ثم تلا قوله سبحانه: »، فأنت يا عبد الله عليك أن تعمل، ولن تخرج عن قدر الله سبحانه وتعالى، عليك أن تعمل وتجتهد بطاعة الله، وتسأل ربك التوفيق، وعليك أن تحذر ما يضرك، وأسأل ربك الإعانة على ذلك، وأنت ميسر لما خلقت له، كل ميسر لما خلق له، نسأل الله للجميع الهداية والتوفيق.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٤٩): ما رأي سماحتكم في سب الإنسان حظه أو بخته؛ لأن هذا كثيرا ما يتردد على ألسنة البعض هل في ذلك إثم؟ .

فأجاب: نعم، لا يجوز سب الحظ، وكذا البخت لا يجوز سبه، فهذا قدر الله وما شاء فعل، يسأل ربه التوفيق والإعانة، وأن يسهل أموره، ويقضي حاجاته، ولا يسب حظه ولا بخته.

السب ممنوع، لا يسب الإنسان زمانه، ولا حظه وبخته ولا مكانه، ولكن يستغفر الله، ويسأل ربه التوفيق، ويتوب إلى الله من معاصيه وما أصابه فقد يكون بذنب، يجب عليه التوبة إلى الله منه مثل ما قال الله جل وعلا: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}، وقال سبحانه: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} المقصود أن المؤمن والمؤمنة، عليهما أن يتوبا إلى الله دائما وأن يحاسبا أنفسهما، وأن يحذرا

المعصية من سب أو غيره.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٥٣): عبارات كثيرة تتردد على ألسنة بعض الناس من هذه الأقوال: شاء الحظ التعيس .

فأجاب: لا يجوز أن يقول: شاء الحظ، ولا شاءت قدرة الله، ولا شاءت إرادة الله، يقول: شاء الله سبحانه، شاء الله كذا، شاء ربي كذا، شاء الرحمن كذا، ولا يقول: شاء الحظ، أو شاءت إرادة الله، أو شاءت الظروف، كل هذا لا يجوز.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٥٣): هل الدعاء يغير المكتوب عند الله تعالى؟ .

فأجاب: الدعاء من القدر، والمكتوب لا يتغير، فالقدر قدران قدر محتوم لا حيلة فيه، وقدر معلق، فيكون بعض القدر معلقا بالدعاء فإن دعا زال المعلق، قد يكون معلقا: أن الله جل وعلا يتوب عليه إذا صلى، إذا صام، إذا فعل كذا، هذا قدر معلق الله جل وعلا يرفعه عنه بما فعل من الطاعات، والأعمال الصالحات والتوبة، فالأقدار تعالج بالأقدار، مثل ما قال عمر لما أشار عليه الصحابة في غزوته للشام ووقوع الطاعون أشاروا عليه بالرجوع وأشار بعضهم بعدم الرجوع، ثم استقر أمره على الرجوع إلى المدينة وعدم القدوم على الطاعون فقالوا: تفر من قدر الله، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نفر من قدر الله إلى قدر الله، الله أمرنا بألا نقدم على هذا المرض فإذا تركنا القدوم عليه فقد فررنا من قدر الله إلى قدر الله، ثم جاء عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأخبر عمر: أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بألا يقدم عليه، ففرح عمر بذلك بأن الله وفقه لما جاء به النص بعد ما استشار الصحابة، وهكذا الإنسان تصيبه الحمى فيتعاطى الأسباب يفر من قدر الله إلى قدر الله، يجوع يأكل حتى يزول الجوع يفر من قدر الله إلى قدر الله، يصيبه الحر

فيشرب الماء البارد، أو يستحم يفر من قدر الله إلى قدر الله، يصيبه مرض في عينيه فيعالجها، بأنواع العلاج يفر من قدر الله إلى قدر الله، وهكذا أنواع كله يفر من قدر الله إلى قدر الله.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٥٥): في الحديث يا سماحة الشيخ يقول: هل الدعاء يرد القدر؟ وكيف ذلك؟ .

فأجاب: نعم، الدعاء من أسباب رد القدر المعلق، والقدر يكون معلقا ويكون مبتوتا، فإذا كان قدرا معلقا، قد قدر الله جل وعلا، أن يهبه ولدا، إذا دعا ربه، فدعا ربه واستجاب دعوته، هذا معلق بالدعاء، أو قدر الله له مالا، إذا دعا ربه في طلب ذلك المال، فإذا دعا ربه يسر الله له المال المعلق، على هذا الدعاء، أو طلب زوجة، طلب أن يزوجه فلانة، والله قد قدر له ذلك بهذا الطلب، قد علق القدر بهذا الطلب، أن فلانا قدر الله في سابق علمه، أنه يسأل ربه أن الله يزوجه فلانة بنت فلان، فإذا ألهمه الله الدعاء ووفقه للدعاء، حصل المقدور المعلق، أما الأقدار المبتوتة التي ليست معلقة، هذه ما تتعلق بالدعاء، الموت المحدود في يوم معلوم، دون دعاء، إذا جاء يوم موته، المحدود مات، دعا أو لم يدع.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٦٠): كثيرا ما نسمع هذه الأيام عبارة شاءت الأقدار، لو شاءت الظروف، فهل في هذه العبارات شرك بالله عَزَّوَجَلَّ؟ .

فأجاب: لا يجوز هذا الكلام شاءت الظروف أو شاءت الأقدار، كل هذا لا يصح، بل يقال: شاء الله سبحانه، شاء ربنا، شاء الرحمن، شاء الملك العظيم، قال جل وعلا: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ولو قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، المقصود أن المشيئة تنسب إليه سبحانه لا إلى الظروف ولا إلى الأوقات، ولا إلى الأقدار ولا إلى غير هذا من الشؤون لكن تنسب إلى الله

وحده سبحانه وتعالى.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في مسائل الإمام ابن باز (ص٣١):

١- سئل شيخنا عمن قال: لا يوجد الآن نفاق اعتقادي. الجواب: فتبسم، وقال: ما يقول هذا إلا من يأكل ويشرب، ما يعرف شيئًا.

٢- سألته: البيعة على فراق المشرك [انظر النسائي (٧: ١٤٨)]، هل تشمل الأبوين المشركين؟ الجواب: لا، بل صاحبهما معروفًا، المراد: فراق أهل الشرك وديارهم.

٣- سألته عن حكم مصافحة الكافر؟

الجواب: لا بأس؛ إن دعت الحاجة، أو قدّم يده.

٤- سؤال: هل يصافَح النصراني؟ الجواب: إذا مد يده مدّ يدك، هذا هو الأقرب، مثل التحية، لا تبدأه.

٥- سؤال: المجوس وغير أهل الكتاب، هل يعامَلون معاملة أهل الكتاب في رد السلام؟ الجواب: نعم، يرد عليهم، ولا يُبدؤون؛ كاليهود والنصارى.

٦- سؤال: مَن تحته زوجة كتابية ويحبها، هل هذا من موالاة الكفار؟ الجواب: لا، فهي تُحبُّ لأجل أنها زوجةٌ، لا يحب دينها.

٧- سؤال: إجابة دعوة اليهودي؟ الجواب: نعم. إن كان لمصلحة. قال شيخنا: أسلم على يديَّ خلق كثير من النصارى في الجامعة الإسلامية وفي الرياض؟

٨- سؤال: الكؤوس المكتوب في قاعدتها (العبد الكريم) ونحوه؟ الجواب: ما يجوز؛ هذا امتهان لاسم الله، أصلها آل عبد الكريم، آل عبد الرحمن، يجب حَكُّها.

٩- سئل عن قول شيخ الإسلام: اتفق الصحابة على عدم كفر الخوارج؟
الجواب: ما هو بظاهر.

١٠- سؤال: مَن التزم من الأئمة الختم بـ {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} ؟ الجواب: لا بأس؛ معه حجة؛ مأجور غير مأزور.

١١- سؤال: هل من الجن رسل؟ الجواب: الله أعلم، لا مانع.

١٢- سؤال: قولهم في عليّ ﷺ: (كرم الله وجهه)؟ الجواب: هذا من دسائس الشيعة.

١٣- سؤال: مَن ترك الجمعة عمدًا هل يكفر؟ الجواب: نعم، ولا يصلي الظهر، بل يتوب إلى الله.

١٤- وسألته عن حديث ربيعة بن كعب الأسلمي، وفيه: «أسألك مرافقتَك في الجنّة» أليس هذا إلى الله، لا إلى رسوله؟ الجواب: هو يسأله عن أسباب المرافقة، وأن يشفع له.

١٥- سألت شيخنا عن بعض من ألف في الخصائص النبوية، قال: إن بوله طاهر عليه الصلاة والسلام؟ الجواب: قال الشيخ: لم يصحَّ في هذا شيء؛ الخصائص لا تثبت إلا بنص.

١٦- فقلت: لأجل لأنه بشر؟ الجواب: نعم؛ هو كان يستنجي، ويغسل البول ﷺ.

١٧- سؤال: انقطاع سلام الملائكة على عمران لما اكتوى [انظر مسلم برقم: ١٢٢٦]؟ الجواب: لعله لكراهة الكي؛ لأنه نوع تعذيب.

١٨- سؤال: أهل الفترة هل يسألون في القبور؟ الجواب: أمرهم إلى الله يوم القيامة.

١٩- سألته: مَن لم تبلغه الدعوة في الدنيا، لكنه أشرك؟

الجواب: أمره إلى الله، وأحكامه: في الدنيا مشرك، وفي الآخرة يختبر كأهل الفترة.

٢٠- سؤال: قوله ﷺ: (إن أبي وأباك في النار) مع أنه زمن فترة {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ} [المائدة:١٩]؟

الجواب: لعله قامت عليه الحجة من دين إبراهيم. قال شيخنا: أحاديث إحياء أبوي النبي ﷺ وإسلامهما كلها لا تصح، بل ماتا على الشرك.

٢١- سؤال: قال الشيخ: الصواب: إن أهل الفترة يمتحنون يوم القيامة، فقيل للشيخ: حديث: (إن أبي وأباك في النار)؟ الجواب: محمول على أن أباه بلغته الدعوة.

٢٢- سؤال: كراهة بعض العلماء الخوض في أبوي النبي ﷺ ؟

الجواب: قال الشيخ: هذا جهل منهم: فالنبي ﷺ يقول: (إن أبي وأباك في النار).

٢٣- سؤال: قرر الشيخ: أن أبوي النبي ﷺ بلغتهم الدعوة، فقال له سائل: إنما قال: (إن أبي وأباك في النار) تطييبًا لقلب الأعرابي؟ الجواب: فقال شيخنا - وهو مغضَب-: أيطيِّب قلبَه بعذاب أبيه؟!

٢٤- قال شيخنا - عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عنه مسلم [٩٧٦]: أن رسولَ الله ﷺ قال: (استأذنت ربي أنْ أستغفرَ لأُمي فلم يأذن لي، واستأذنته أنْ أزورَ قبرَها فإذن لي)؛ لأنها ماتت على دين قومها من عبادة الأوثان.

فقلت له: أليسوا أهل فترةٍ؟الجواب: لا.

٢٥- فقلت: قوله تعالى: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى

فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة:١٩]؟ الجواب: فسكت .. ثم قال: العرب جاءهم إبراهيم وإسماعيل.

٢٦- سألت شيخنا عن مجنون بين مُسلمين وبلغ، هل يختبر أم هو في الجنة؟ الجواب: الأقرب - والله أعلم - أنه ما دام جُنّ قبل البلوغ فهو فَرَط.

٢٧- سؤال: مَن بلغته الدعوة الإسلامية مشوَّهةً؟ الجواب: حكمه حكم أهل الفترة.

٢٨- سؤال: هل يجزم بأن فلانًا من أطفال المسلمين في الجنة؟

الجواب: لا، فلا يقال: محمد بن فلان في الجنة، لكن يقال: أطفال المسلمين في الجنّة.

٢٩- سألت شيخنا عن الفرد، هل هو من أسماء الله؟ الجواب: هو بمعنى الأحد.

٣٠- سألت شيخنا: بعض الناس يتفقون على صيام الاثنين والخميس. الجواب: لا بأس، إذا كان شيئًا عارضًا.

٣١- سؤال: هل كل معجزة للأنبياء حصلت لنبينا؟ الجواب: لا؛ فمعجزة صالح الناقة، ولم تكن له، عليهما الصلاة والسلام.

٣٢- سئل عن أسبوع الشجرة؟ الجواب: لا حرج؛ هذه ليست عبادات.

٣٣- سألت شيخنا عن حديث: (من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة) إن مات على التوحيد؟ الجواب: قد يدخل الجنة، ولا يشربها، وبكل حال هذا من أحاديث الوعيد، فيفيد الزجر، وقد يعفو الله عنه فيشربها.

٣٤- سؤال: مَن أطاع هواه في المعاصي، هل اتخذ مع الله ندًّا؟ الجواب:

لا؛ هذا من باب المعاصي.

٣٥- سؤال: ما حكم من يقول: إن الذهاب إلى مكة في رمضان لأجل الصيام والقيام بدعة؟ الجواب: هذا القول جهل صرف، بل الذهاب قربة وطاعة، ما لم يؤثر على ما هو خير منه.

٣٦- سألت شيخنا عن حديث إثبات الأصابع لله، هل هو للحصر، وأن الأصابع خمس؟ الجواب: نعم؛ لأن الأصابع استوعبت الخلائق؛ (وسائر الخلق على إصبع).

٣٧- سألت شيخنا عن الفرق بين الإذن والمشيئة؟ الجواب: المشيئة في الغالب كونية، والإذن قدري وشرعي وكذا الإرادة.

٣٨- سألت شيخنا عن طلوع الشمس من مغربها أبعدها حياة؟ الجواب: نعم.

٣٩- قلت: وتعود إلى حالها؟ الجواب: نعم.

٤٠- سؤال: هل يُدعى لورقة بن نوفل، ويُترحَّم عليه؟ الجواب: نعم، رضي الله عنه ورحمه.

٤١- سؤال: قولهم: «الحرم الجامعي»؟ الجواب: هذا اصطلاح لهم، لا قيمة له، مثل قولهم: حرم البئر، بمعنى: التابع له.

٤٢- سألت الشيخ عن قول العام: «في وجه الله»؟ الجواب: يريدون الاستعاذة؟ لا بأس بذلك.

٤٣- سؤال: هل يقاس على الدابة السيارة في حصول الشؤم؟ الجواب: لا يقاس على ذلك؛ لظاهر النص.

٤٤- سؤال: حديث: السبعين ألف شيء خاص في الأفضليّة في ترك الاسترقاء، وان احتيج إليه لا بأس؛ ولهذا أمر عائشة بالاسترقاء. فقال شيخنا عبدا لرحمن البراك: أأمرها بالاسترقاء أم بالرقية؟ الجواب: أمرها بالاسترقاء .

٤٥- سئل عن استخدام بعض القراء للذئب؟ الجواب: ما له أصل.

٤٦- فقيل للشيخ: القراء يقولون: مجرب ونافع. الجواب: لا أصل له، وكذا استخدام جلد الذئب؛ هذا قد يكون من جنس التمائم الممنوعة.

٤٧- سؤال: استخدام مكبر الصوت عند القراءة؟ الجواب: ما له أصل، يقرأ على الشخص؛ حتى يصيبه الهواء والنفث.

٤٨- سؤال: بعض القراء يأمر المعيون عند القراءة بتغميض عينيه؛ لأجل رؤية العائن؟ الجواب: لا؛ هذا من ألاعيب الشيطان، يلعب بهم الشيطان.

٤٩- سؤال: القراءة على الآدميين هي الواردة، أما الحيوانات فلا أعلم دليلًا، فقيل: هل يشرع؟ الجواب: لا أعلم له أصلًا، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

٥٠- سألت شيخنا عن وضع الراقي يده على المرأة؟ الجواب: فقال (بعد كلام): السنة جاءت بوضع اليد على موضع الألم مع القراءة؛ لأجل الحاجة، لكن مع عدم الخلوة بوجود محرم أو غيره.

٥١- سؤال: قول الناظم: (اطلب العزة ولو كانت في لظى وذر الذل ولو في جنات الخلود) ما حكم هذا؟ الجواب: هذا منكر وليس ببعيد من الكفر؛ لأن معناه ترك دين الإسلام لو كان فيه ذلٌ، لكن يُعلّم؛ قد يكون جاهلًا.

٥٢- سألت الشيخ عن دليل نقص الإيمان؟ الجواب: فسكت برهةً.

٥٣- فقلت له: حديث: (ناقصات عقل ودين)؟ فسكت، ثم قل: هذا ليس من كسبهن؛ فذُكر له: (نكت في قلبه نكتة سوداء)؛ فقال: نعم.

٥٤- سألت شيخنا عن الشرك الأصغر: أيغفر أم لا؟ الجواب: هو ملحق بالأكبر في تحتم العقوبة، وبالمعاصي في عدم الخلود في النار إلّا من تاب.

٥٥- سئل عن الشرك الأصغر؟ الجواب: الأقرب أنه لا يغفر، وقال بعضهم: يزول برجحان الحسنات، والأقرب دخوله في الشرك؛ سماه النبي ﷺ شركًا؛ فالواجب الحذر.

٥٦- سألت شيخنا عن استتابة مَن ارتدَّ، أواجبة هي؟ الجواب: نعم.

٥٧- سألته: مَن منع الزكاة، وقاتل على ذلك، هل يعامل معاملة المرتد؟ الجواب: نعم؛ لأن هذا جحد، وأما مجرد الامتناع والبخل معصية.

٥٨- سؤال: مسجد ابن عباس بالطائف، ووجود القبر بقربه، بينه وبين المسجد حائل؟ الجواب: هذا درسه العلماء، وبيّنوا ما فيه، وانتهى أمره.

٥٩- سألت شيخنا عن قول: أنا متوكل على الله، ثم عليك؟ الجواب: لا بأس؟ إذا جاءت (ثُمَّ) زال المحذور.

٦٠- سألت الشيخ عمن قال: إنّ حملة العرش الآن أربعة، ويوم القيامة ثمانية؟

الجواب: جاء في حديث أميّة بن أبي الصلت وتصديق النبي ﷺ لشعره؛ ولقوله: {فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة:١٧]، وظاهر حديث الأوعال: أنهم الآن ثمانية .

٦١- سؤال: ما معنى: (فليأتيهم الله في الصورة التي يعرفون)؟ . الجواب: التي عرفوها من النصوص.

٦٢- سئل شيخنا عن كاميرا الفيديو مرارًا؟ فلم يمنع منها؛ وعلّل ذلك بأنها ليست ثابتة في ورق أو جدار.

٦٣- سؤال: الصور في ملابس الأطفال؟ الجواب: لا، بل نمنع.

قال شيخنا: الصور في التلفزيون مثل الصور في المرآة؛ لا بأس.

٦٤- سؤال: مَن لم يكن الله ورسولُه أحبَّ إليه؟ الجواب: مَن آثر الزنا والسرقة، ولم يكن اللهُ ورسولهُ أحبَّ إليه لا يكفر، لكن لو أحبَّ غيرَهما حبُّ عبادة كفر بذلك، وأشرك؛ لأن الحب هنا أوقعهم في الشرك، كحال عُبّاد القبور.

٦٥- سألت شيخنا عن حديث: مَن أسلم على ألا يصلي إلا صلاتين فقبل منه النبي ﷺ؟ الجواب: إذا أسلم لزمته الصلوات كلها، وبطل الشرط.

٦٦- سؤال: رؤية الله في المنام ما حقيقتها؟ الجواب: على وجه لا يشابه المخلوقين، يسمع كلامًا أو يرى نورًا.

٦٧- سؤال: ما تكون خاصة بالرسول ﷺ؟ الجواب: لا.

٦٨- سألت شيخنا عن إنكار رؤية الله في الآخرة؟ الجواب: الأصل أنه كفر.

٦٩- سؤال: الأعمال هل هي شرط صحة في الإيمان أو شرط كمال؟

الجواب: الأعمال قسمان: منها ما هو شرط صحة: كالصلاة والخوف والرجاء، ومنها ما هو شرط لكماله.

٧٠- سألته عن حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [النسائي ٧: ١٦٠]، وفيه: (ستكون بعدي أمراء مَن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني، ولست منه، وليس بواردٍ عليّ الحوض) الحديث أن بعض العصاة لا يرد الحوض؟

الجواب: هذا من باب الوعيد، والأدلة دلت على أن المؤمنين يردون الحوض.

قال شيخنا: التمسح والتبرك بشبابيك المسجد الحرام إن أراد أنها عبادة فهو

بدعة، وإن كان يطلب منها البركة والنفع فهو من الشرك الأكبر.

٧١- سؤال: قول الله -جل وعلا-: {إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} [النِّساء:١٤٠]، فهل إذا كان المجلس مجلس كفر أيكفر الجالس؟ الجواب: هذا نص وعيدٍ.

٧٢- سؤال: هل يسلم على الشيعة؟ الجواب: لا؛ إذا أظهروا بدعتهم لا تسلم عليهم، وإذا صلوا معنا ولم يظهروا شيئًا يسلم عليهم.

قال شيخنا: الرافضة الغلاة في عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومَن يسبون الصحابة كفار؛ كرافضة إيران والقطيف.

٧٣- سؤال: ما حكم من سب أبا بكر وعمر؟ الجواب: الأقرب عندي كفره؛ لأن الله ترضّى عنهما، وكذا الخلفاء الراشدون.

٧٤- سؤال: هل يطلق على الله أنه شيء؟ الجواب: نعم، الله شيء، لا كل الأشياء، {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [الأنعام:١٩].

٧٥- سؤال: مَن قال: إن كل عبادة فُعلت في عهد النبي ﷺ ولم يطلع عليها فقد أقرّها الله؟ الجواب: لا أصلَ لها، لا أعرفها؛ لا بدّ من إقراره لها ﷺ بعد بلوغها إياه.

٧٦- سؤال: ما المقصود: (.. يظلهم الله في ظله)؟ الجواب: جاء العرشء وجاء مطلقًا.

٧٧- قال شيخنا: مجرد النذر لغير الله كفر، ولو لم يعتقد التقرب إلى المنذور؛ فقيل الشيخ: الحلف بغير الله؟ الجواب: إن حلف معظمًا كتعظيم الله كفر، وإنْ لم يكن فهو أصغر؛ وهذا لأنه أراد تأكيد المحلوف عليه؛ وفي صورة النذر عبادة محضة.

٧٨- سئل الشيخ عن البدال، هل يعرفون بأعيانهم؟ الجواب: هم مثل

الأولياء.

٧٩- وسئل عن ابن تيميّة وابن القيم، أمن الأبدال هم؟ الجواب: هم من خيرة الأبدال.

٨٠- سؤال: هل يقال ليد الله الأخرى: شمال؟ الجواب: ثبت في الحديث الصحيح: (لكن يمين مباركة)؛ ولهذا قال: (وكلتا يديه يمين).

٨١- سألت الشيخ عن حديث: (مَن سنَّ في الإسلام. ..)، يقتضي كتابة السيئة كلها، وحديث: (ما من نفسٍ تُقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ منها) يقتضي التبعيض؟ الجواب: لا تكتب السيئة كلها، بل بعضها.

٨٢- سأل شيخُنا (عبد الرحمن البراك) شيخَنا ابن باز عن الذبح لقدوم معظم؟

الجواب: هذا من الشرك الأكبر، والعياذ بالله.

مسألة: سئل العلامة الألباني كما في موسوعته العقدية (١/ ١٩٠): في حديث المعراج عندما فرضت الصلاة على الرسول ﷺ وراجعه سيدنا موسى .. كيف كانت المسألة هذه؟

الشيخ: لا كيف بارك الله فيك! الأمور غيبية خذوها قاعدة واستريحوا .. لا كيف في المغيبات، وحسبك أن تقصر فتقول كيف، غيرك يلف ويدور ويحكي كلامًا طويلًا لكن ينتهي إلى هذه الكلمة التي أنت قلت عنها: كيف؟ لا كيف في المغيبات، الإيمان المطلق وفقط بدون تكييف؛ لأنه عالم ما وراء المادة كما يقولون اليوم .. ما وراء العقل ما يقاس عليه حياتنا هذه المادية والعكس بالعكس أيضًا.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٢٠٠): شيخنا: ما أُثِرَ عن بعض

السلف في اختلافهم في بعض المسائل للتوحيد والعقيدة كإثبات الصورة على صورة آدم، ورؤية الرسول ﷺ لربه ليلة المعراج، ومثلًا التوسل وغيره من المسائل يا شيخ، يعني كيف نوجهها مع أن المشهور أن السلف الصالح رضي الله عنهم لم يختلفوا في العقائد؟

الشيخ:

أولًا: ذكرتَ في جملة ما اختلفوا فيه التوسل فإلى ماذا تشير بهذا السؤال لأن علمي أنه لا خلاف بينهم في التوسل؟ هذا أولًا.

وثانيًا: التوسل ليس من العقائد وإنما هو من الأحكام، أي هل يجوز أن يدعوَ الإنسان بدعاء فيه توسل بمخلوق؟ أو لا يجوز؟ فليس للتوسل علاقة بالعقيدة، اللهم إلا إذا اقترن مع التوسل عقيدة في لفظ المتوسل يعنيها به، فحينذاك تأخذ طورًا آخر، أما مجرد التوسل بمخلوق فذلك لا يدخل المسألة في جملة العقائد.

ثالثًا: ماذا تعني بأنهم اختلفوا في الصورة؟ ومن هم الذين اختلفوا؟ لقد اتفقوا على إثبات الصورة لله عز وجل في الجملة وليس في التفصيل وإنما اختلفوا في مرجع ضمير قوله عليه الصلاة والسلام: «خلق الله آدم على صورته» فأيضًا حصر هذا الاختلاف في مرجع هذا الضمير ليس له علاقة أيضًا في اعتقادي بالعقيدة لأن الصورة كعقيدة متفق عليها بين علماء الحديث والسنة دون تكييف ودون تأويل، أما مرجع ضمير «خلق آدم على صورته» هذا خلاف فرعي ليس له علاقة بالعقيدة، ثم لا أذكر إذا كان جاء في سؤالك شيء آخر غير الصورة وغير التوسل وإيش؟

السائل: المعراج، رؤية النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-

الشيخ: آه، اختلفوا صحيح في هل رأى محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- ربه، وهذا الاختلاف لا يمكن إنكاره، ولكن لعل ذلك أيضًا مرجعه إلى تفسير قوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى} (النجم:١٣، ١٤) وجمهور العلماء من المحدثين وغيرهم على نفي رؤيته -صلى الله عليه وآله وسلم- لربه بعينيه، والخلاف الذي يشار إليه بهذه المناسبة هنا، إنما هو ما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- رأى ربه بعينيه» لكن هذا الأثر، هذا الحديث يمكن أن يقال فيه إنه أثر وإنه حديث، فهو أثر باعتبار أن لفظه من ابن عباس، ويمكن أن يقال فيه إنه حديث باعتبار أنه يتحدث فيه عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ، هذا الأثر أو الحديث المروي عن ابن عباس لم يستقر على هذا اللفظ الذي فيه أنه رأى ربه بعينيه، فقد جاء عنه روايتان أخريان، الأخرى:

إطلاق الرؤيا «رأى ربه» دون ذكر العينين. والأخرى وهي الثالثة: «رآه بقلبه» وعلى هذا: فهذا الأثر أو هذا الحديث مضطرب عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما بين رآه مطلقًا، ورآه بعينيه، ورآه بقلبه، والحديث المضطرب من أقسام الحديث الضعيف، وحينئذ فلا نستطيع أن نجزم بأن ابن عباس كان من عقيدته أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- رأى ربه ولكن مع هذا لا يمكن لكل باحث منصف أن يدعي أنه لم يكن هناك من يقول بقول ابن عباس لكن هذا القائل لا يعرف عينه ولا شخصه، أما أنه كان هناك من يقول بقول ابن عباس فذلك يمكن أن يؤخذ من نفس حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا المروي في الصحيحين من طريق مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ حيث سألها قائلا لها: «يا أم المؤمنين هل رأى محمد ربه؟» الحديث.

ولا بأس بإتمامه ولكن لابد من ذكر موضع الشاهد منه فسؤال مسروق لأم المؤمنين هل رأى محمد ربه؟ يشعر الباحث بأنه كان هناك من يقول بأن محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- رأى ربه، من هو؟ الله أعلم، يمكن أن يكون هو ابن عباس نفسه ولكن ابن عباس لم يستقر رأيه على شيء من أقواله الثلاثة التي ذكرتها آنفًا، نعود إلى حديث عائشة رضي الله عنها فلما سألها وقال لها: هل رأى محمد ربه؟ قالت: لقد قف شعري مما قلت، قال: «يا أم المؤمنين ألم يقل رب العالمين {ولقد رآه نزلة أخرى ...} الآية، قالت: أنا أعلم الناس بذلك سألت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: رأيت جبريل في صورته التي خلق فيها مرتين وله جناحان قد سد الأفق».

فإذًا: مرجع هذا الضمير في تفسير الرسول عليه السلام نفسه لهذه الآية إنما يعود إلى جبريل وليس إلى رب العالمين تبارك وتعالى، ثم تابعت بيانها رضي الله عنها فقالت: "ثلاث من حدثكموهن فقد أعظم على الله الفرية:

من حدثكم أن محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، ثم تلت قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ} (الشورى: ٥١)."

فلا سبيل إلى رؤية الله تبارك وتعالى من أحد في هذه الحياة الدنيا، قالت: "ومن حدثكم أن محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- كتم شيئًا أُمِرَ بتبليغه فقد أعظم على الله الفرية ثم تلت قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} (المائدة:٦٧)".

قالت: "ومن حدثكم أن محمدا -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يعلم الغيب فقد افترى وكذب على الله تبارك وتعالى ثم تلت قوله عز وجل: {قُل لاَّ يَعْلَمُ

مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ} (النمل:٦٥)".

فحديث عائشة هذا إذن فيه إشارة أنه كان هناك من يقول بأن محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- رأى ربه ولكنها نفت ذلك نفيًا باتًّا وتلت ما سبق من الآية.

وحينئذ فلا أرى في نهاية المطاف في هذا المجال لا أرى أن يقال إنه كان هناك خلاف بين السلف في مسألة عقائدية كمسألة رؤية الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لربه، ثم نقول جدلًا: إن فرضنا أنه كان هناك حقيقة خلاف في مسألة ما بين السلف فذلك لا يعني أن هذا الخلاف يضر مادامت الأدلة قائمة بتأييد الوجهة الصحيحة أو القول الصحيح مما اختلفوا فيه، فالقول بأن السلف لم يختلفوا في شيء من الأمور الاعتقادية هذا يقوله بعضهم، وبحسب ما أحاط به علمه فإن استطاع أن يثبت ذلك فلا ضير لأن المرجع إلى الدليل وأنتم تعلمون أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حينما كان يدعو ربه تبارك وتعالى في دعاء الاستفتاح في قيام الليل كان يقول فيه: «اللهم اهدني لما اختلف في من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» ، وهذا كان تعليما منه -صلى الله عليه وآله وسلم- لأمته، فعلينا نحن إذا وجدنا اختلافًا حقيقيًّا فضلًا عن اختلاف موهوم أن نطلب من الله تبارك وتعالى أن يهدينا لمعرفة الحق واتباعه. هذا الجواب على ما جاء من السؤال آنفا.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ٢٠٤): السائل: في الحقيقة في شبهة لكن تحتاج إلى ذكر؛ لأنها يعني يعاني منها أيضًا السلفيون، ليس عندهم شائبة عنف، أو من هذا النوع يعني، لكن هم يتصورون العقيدة تصورًا يعني مرتبطًا بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية كالتدمرية وغيرها، والردود على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة؛ يتصورون أن دراسة العقيدة هي دراسة هذه الكتب فقط؟

الشيخ: لا مو ضروري ... هو على كل حال يعني نحن نريد من إخواننا إنه ما يتصوروا إنه كل فرد منهم يمكن أن يصير عالمًا، فهو عليه إذا شعر بأنه يجد في نفسه استعدادًا للمضي قدمًا في طلب العلم، فنحن ننصحه حقيقة بأن يقرأ كتب العلماء الذين عُرِفُوا بسلامة منهجهم عن الانحراف يمينًا ويسارًا والتأثر بعلم الكلام، وإذا كانوا لا يشعرون بأنفسهم شيء من ذلك فعليهم أن يأخذوا العلم سواء كان عقيدةً أو كان عبادةً من أقرب طريق سواء من علم العلماء الأحياء إذا كان لهم وصول إليهم، أو من الكتب التي ألفت بطريقة موجزة لا تدخل معهم في المجادلات الطويلة مع الفرق المخالفة؛ لأنه الخوض في هذه المسائل قد تضر بمن لا استعداد عنده؛ لأنه مناقشة المخالفين كثيرًا ما تؤدي بالمناقِشِ نفسه أحيانًا أن ينحرف بعض الشيء، ولو في مسألة واحدة عن الخط الذي ينبغي أن يسلكه مستقيمًا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٢٠٦): ما حكم من يفرق بين الشريعة والعقيدة، الشريعة كنظام والعقيدة كإيمان بالله خالقًا رازقًا؟

الشيخ: عفوًا أريد أن أفهم ماذا يريد من التفريق هذا؟

مداخلة: يقول أن التشريع موكول لبني آدم بحيث ينظموه بحسب ظروفهم وبحسب معاشهم، ولكن العقيدة لا تتغير فنحن نؤمن بالله خالقًا رازقًا ولكن الشريعة يعني: من باب الفقه ومن باب التشريع.

الشيخ: يعني: الشريعة تتغير؟

مداخلة: نعم. يقصد هكذا.

الشيخ: طبعًا هذا لا يجوز هذا كفر؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ حينما قال: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} (المائدة:٤٤)، قال: من لم يحكم، ما قال:

من لم يعتقد.

وعلى كل حال مثل هذا التقسيم نقول: هذا اصطلاح عقيدة وشريعة كما لو قلنا معاملات وأخلاق، ما فيه مانع من هذا التقسيم لكن بشرط أن نجعل ذلك كله هو دين الإسلام، فما جاء في دين الإسلام وجب تبنيه سواء كان عقيدةً أو كان شريعةً وحكمًا أو كان سلوكًا أو معاملة، كل هذا إسلام، فربنا عَزَّ وَجَلَّ يقول: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (آل عمران:٨٥)، فإذا كان المقصود من هذا التفريق هو تحقيق الكلمة النصرانية الدين لله والوطن للجميع فيفيء أن هذا هو الضلال المبين.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (١/ ٢٠٧): سؤال: في الامتحان إذا أعطوني سؤالًا يخالف عقيدة أهل السنة ففي هذه الحالة الواحد بإيش يجاوب؟

الشيخ: يجب أن يجيب عن عقيدته ما تعرف قصة بلال الحبشي أَحَدٌ أَحَد.

مداخلة: آه.

الشيخ: فإذًا هو أسوتك.

مداخلة: طب والعمل؟

الشيخ: العمل من الله مش من عباد الله ... والغاية لا تبرر الوسيلة .. وأبشرك بقول الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} (الطلاق:٢، ٣).

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٨٣٩): سؤال: ما معنى علم الغيب الذي اختص الله عَزَّ وَجَلَّ به، ثم لو أن رجلًا علم أمرًا مغيب بواسطة فنجان أو نحو ذلك من هذه الطرق الذي يستعملونها، فما المحظور أن يقال علم الغيب أو علم المغيب؟

الشيخ: الغيب كما لا يخفى على جميع الحاضرين إذا أُطلق فالمقصود به الغيب الذاتي، أي الذي يعرفه الإنسان بذاته، يعني بعلمه الذاتي دون أن يتخذ وسيلة من الوسائل التي خلقها الله ﷻ ليصل بها إلى معرفة ما غاب عن بعض الناس، هذا الغيب هو الذي اختص الله ﷻ به دون الناس، نحن مثلًا نعلم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أخبرنا بكثير من المغيبات، ولكن هذا العلم الذي حدثنا به الرسول عليه السلام لم يكن علمًا ذاتيًا به، وإنما أخبره الله ﷻ بواسطة الوحي، كما قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} (الجن:٢٧)، فالله ﷻ إذا ارتضى رسولًا فينبئه ببعض المغيبات، هذا الرسول المنبأ لا يوصف بأنه عالم بالغيب، وإنما هو مُنبأ بالغيب كما جاء في صحيح البخاري: «أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مر ذات يوم بجارية من الأنصار، وهي تغني تضرب على دف وتقول: وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال عليه السلام: لا يعلم الغيب إلا الله، دعي هذا وقولي ما كنت تقولين».

دعي قولك: وفينا نبي يعلم ما في غد؛ لأنه هو لا يعلم الغيب بواسطة ذاته، وإنما بواسطة إعلام ربه إياه على بعض المغيبات، إذا عرفنا هذه الحقيقة وخلاصة ذلك أن العلم بالغيب إما أن يكون ذاتيًا، وإما أن يكون بالواسطة، فالذي اختص الله به هو القسم الأول، أما القسم الآخر فقد يتحقق به بعض الناس، وهؤلاء الناس قسمان: قسم وهم الأقلون بالنسبة لعموم الناس، هم الرسل الذين يصطفيهم الله برسالاته وبكلماته، ويوحي إليهم ما يشاء من وحيه.

والقسم الآخر من الناس الذين يتخذون المعرفة والعلم الكسبي وسيلة لاكتشاف بعض الأمور التي تغيب عادة عن عامة الناس، فهذا لا يقال علم

بالغيب، هذا كأي علم، أنا مثلًا أقول لكم: قال رسول الله، وأنت ما سمعت بهذا الحديث إطلاقًا، فهذا بالنسبة لك غيب، لكن أنا ما قلت هذا في غيب من الله؛ لأنه لا واحد بعد رسول الله، لكن أنا بحثت ودرست وفتشت، فوجدت هذا الحديث فأعلمتك به، فهذا علمي بالنسبة إليك كان غيبًا، لكن لما أنبأتك به صار شهودًا، وخرج عن كونه غيبًا.

على هذا المثال البسيط تمامًا قس كل الوسائل العلمية الحديثة، والقديمة منها، الفطرية والتي أخذت جهدًا جهيدًا من العلماء حتى وصلوا إلى اكتشاف أمور دقيقة جدًا بعض عامة الناس، أنا كسائر الناس كنت لا أعلم أن الفلاح في مزرعته يعلم ما لا يعلمه الطبيب المطلع الآن بواسطة الجهاز التلفزيوني هذا على الجنين في بطن الأم، هذا الطبيب الذي وصل بهذا الاكتشاف أن يعرف هوية الجنين هو ذكر أم أنثى، لا يعرف ما يعرفه الفلاح في حقله ومزرعته، مثلًا هو يستطيع أنه إذا قطع الشجر أن يقول لك كم عمرها، لكن اسأل الطبيب الخريت في مهنته لا يعرف، فهذه هي المسألة بسيطة، بالتجربة قرأتها قديمًا من أربعين سنة أو أكثر، أن هناك دوائر في جذع الشجرة كل دائرة تدل على سنة، هذا ليس علم بالغيب، هذا علم تجربي، لكن هو بالنسبة لعامة الناس غيب، لكن ليس هو الغيب الذي اختص الله به.

من هذا القبيل أيضًا مما كنت قرأته وهذا أدق، ويمكن الآن تحاولوا تجربوا أنتم بأنفسكم، لكن ما أظن ستنجحوا بهذه اللحظة السريعة، قال ممكن معرفة عمر الإنسان من عدد الخطوط الموجودة في أظافره، هناك خطوط لا بد رأيتموها، كل خط يعطي سنة، الآن ترقى هذا العلم، قبل هذا الرقي الذي ربما يلمح السائل إليه، نعرف من قديم الزمان أن علماء الفلك يحكمون قبل سنين،

ويضعون لك مخططًا ومنهجًا وروزنامة أنه في السنة الفلانية في شهر كذا، في يوم كذا، في ساعة كذا سيكسف الشمس أو القمر، ويعطيك تفاصيل دقيقة كسوف أو خسوف كلي أو نصفي أو جزئي .. إلى آخره، هذا غيب بالنسبة لعامة الناس، لكن هذا ليس غيبًا إنما هو علم إذا درسه أي إنسان ممكن أن يصبح مثل هؤلاء الفلكيين، أخيرًا الآن وصلوا إلى اكتشاف كما قد يظن أن هذا من خصوصيات الله ﷻ، أن ربنا يعلم ما في الأرحام، صاروا الآن بعض الأطباء أو كلهم؛ لأنها وسيلة صارت مبذولة، حتى النساء أصبحوا يعرفون إن كان ذكرًا أو أنثى، هذا بواسطة العلم الذي يسره الله ﷻ للناس، وعلى مدى هذا الزمان الطويل.

إذًا: هو كعلم الفلك، كمعرفة الخسوف والكسوف، فهذا من هذا القبيل تمامًا، فهذا ليس علمًا بالغيب، الغيب هو العلم الذاتي، وهذا من صفة الله ﷻ، ولا يشاركه أحد من عباده.

من هنا نستطيع أن نتوصل إلى أن العقيدة الإسلامية وسط بين غلاة الصوفية الذين يزعمون بأن بعض مشائخهم يطلعون على ما في الصدور، وهذا مع الأسف نعرفه من كثير من المريدين المزعومين، وبين بعض المشائخ الجامدين والعلماء المتفقهين الذين ينكرون حقائق علمية لا مجال لإنكارها بسبب توهمهم أن هذا ينافي اعتقادنا أن العلم بالغيب هو مما اختص الله به ﷻ، فنحن نقول نعم، العلم بالغيب بدون وسيلة خلقها الله، هذا من خصوصيات الله ﷻ لا يشاركه فيه أحد، أما العلم ببعض المغيبات الخافية على عامة الناس باستعمال الوسائل التي ذكرها الله وذللها الله، فهذا ممكن، وهذا لا ينافي استقلال الله وانفراد الله ﷻ بعلمه بالغيب.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٨٧٨): يقول السائل: توجد طريقة علمية لاكتشاف الولد من البنت وهو في بطن أمه أثناء الحمل، فهل هذا صحيح؟

الشيخ: أما هل هذا صحيح أو ليس بصحيح فهذا ليس من اختصاصي؛ لأن هذا له علاقة بعلم الطب، ولكن في حدود ما قرأنا أن القضية لا تزال في حدود البحث والتحقق، وأشعر بأن الدافع على مثل هذا السؤال أن السائل أو غيره يخشى من أن يُصبح ذلك حقيقةً علميةً، فيختلف ذلك أو يتضاد مع النصوص الشرعية التي تُصرِّح بأنه لا يعلم ما في الأرحام إلا الله تبارك وتعالى، هذا التوهم هو الذي يجعل بعض المسلمين يخشون أن يكون هذا النبأ صحيحًا ... حين ذلك العلم التجريبي مع العلم الديني، والواقع أنه لا خوف على العقيدة الإسلامية بهذه القضية كما هو الشأن في كل قضايا الإسلام فيما لو ثبت علميًا إمكان معرفة كون الجنين ذكرًا أو أنثى بواسطة من الوسائط أو بوسيلة من الوسائل العلمية التي يسخرها الله تبارك وتعالى لمن يشاء من عباده، لا خوف من ذلك؛ لأن المقصود من تفرد الله عَزَّ وَجَلَّ بعلمه بما في الأرحام أمران اثنان:

الأمر الأول: أنه يعلم ذلك علمًا ذاتيًا، أما هذا العلم التجريبي فهو يُعلم بوسيلة من هذه الوسائل التي يخلقها الله تبارك وتعالى لمن يشاء من عباده كما ذكرنا، ففرق بين العلم الإلهي حيث أنه علم ذاتي: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} (الملك:١٤) فهو ليس بحاجة إلى وسيلة، بينما العباد هم بحاجة إلى أن يتعاطوا كل وسيلة من الوسائل التي يسخرها الله لهم فيطلعون بها على ما يكون عادةً خافيًا على سائر الناس الذين لا يتعاطون هذه الوسائل، فالتفريق بين العلم الذاتي بالغيب أمر ضروري جدًا ينبغي أن نستحضره دائمًا في مثل هذه المسائل

التي تشكل على بعض الناس.

فإنكم تعلمون حقيقة علمية لا ريب فيها ولا شك وهي أن كثيرًا من الفلكيين يتنبئون على الكسوف والخسوف قبل أن يقع ليس بشهور ولا بسنة ولا بسنين وإنما هي عمليات حسابية دقيقة جدًا لما سخر الله كما ذكرنا للناس بها يتمكنون من أن يتنبئوا وأن يخبروا الناس بالكسوف والخسوف إلى ما بعد سنين طويلة، ثم إن نبئهم يحتوي عادةً على تفاصيل دقيقة بحيث يقولون: أن الخسوف في المنطقة الفلانية يكون خسوفًا كليًا .. في منطقة ثانية يكون نصفيًا .. في منطقة ثالثة يكون جزئيًا، وهكذا يُرى الخسوف في مكان كذا ولا يرى في مكان كذا إلى آخره، هل هذا الذي أصبح أمرًا ملموسًا لا شك فيه ولا ريب وليس هو كالمسألة التي وُجِّه السؤالُ حولها، الكسوف والخسوف هذا دائمًا نقرؤه في الجرائد ويقع ذلك، فهل هذا من العلم الغيب الذي تفرد الله تبارك وتعالى به كما في آيات كثيرة منها: {قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ} (النمل: ٦٥)؟ الجواب: لا؛

لأن المقصود بالغيب هنا هو ما يتخيله كثيرًا ممن ينتمون إلى التصوف أو إلى الطرق حيث يذكرون في كتب هؤلاء بأن الولي الفلاني كان ينظر هكذا فيطلع على اللوح المحفوظ ويقول: فلان يموت وفلان يسعد وفلان يشقى إلى آخره، هذا العلم الذاتي ليس إلا لله وحده لا شريك له في كل شيء، ومن ذلك لا شريك له في علم الغيب.

كنت ذكرت لكم في جلسة مضت قول الله تبارك وتعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} (الجن: ٢٦ - ٢٧) انظروا كيف يقول ويُفرِّق بين علمه تبارك وتعالى بالغيب فيذكر أنه يعلم الغيب بذاته،

أما الرسل المصطفين الأخيار الذين يأتوننا أحيانًا ببعض المغيبات فعلمهم بها ليس من باب العلم بالغيب ذاتية منهم وإنما بإطلاع الله لهم عليه، {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ} (الجن:٢٦) فلا يطلع .. فلا يُعلِم أحدًا على ذلك الغيب {إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} (الجن: ٢٧) فإذًا: هذه الأحاديث الكثيرة والكثيرة جدًا التي جاءت في كتب الحديث والتي تدخل بصورة خاصة في علامات الساعة سواء ما كان منها من العلامات الكبرى أو الصغرى، هذا ليس من علم الرسول بالغيب؛ لأن هذا كما ذكرنا تفرد الله به سبحانه وتعالى، وإنما هذا من إطلاع الله ﷻ لنبيه على ما شاء من الغيب، إذا عرفنا هذه الحقيقة سَهُلَ علينا أن نفهم أن تنبؤ الفلكيين بخسوف الشمس والقمر هذا ليس من باب الاطلاع على الغيب وليس من باب العلم بالغيب وإنما هو استعمال منهم للوسائل التي سخرها الله لهم فيصلِون بها إلى معرفة ما غاب عن سائر الناس، وهؤلاء الناس هم في الحقيقة لو سلكوا نفس السبيل من التعلم للوسائل التي هم تعلموها فتمكنوا بها معرفة متى يقع الخسوف على التفصيل السابق ذكره لكانوا أيضًا عارفين معرفتهم بالكسوف والخسوف.

فإذًا: العلم بشيء غاب عن الناس بوسيلة من الوسائل التي خلقها الله هذا ليس من باب معرفة الغيب فلا إشكال، هناك مثلًا أمر كنت قرأته قديمًا في بعض الكتب يمكن أن يكون صحيحًا وهو الغالب: أن الفلاح يمكنه أن يعرف عمر الشجرة بعد قطع جذعها من الدوائر التي يراها في نفس الجذع، فيقولون: بأن كل دائرة تعني سنة، فإذا كان هناك في هذا الجذع دائرتان فهو يقول: عمر هذه الشجرة سنتان، ثلاثة ثلاثة وهكذا، بل كنت قرأت ما هو أدق وأغرب من ذلك: بأنه يمكن معرفة عمر الإنسان بالنظر إلى الخطوط التي تُرى بشيء من الدقة في

أظافر الإنسان فكل خط أيضًا يعني سنة، فهذا ما يهمني هل صح أم لم يصح، كمسألة الجنين والاكتشاف أنه ذكر أو أنثى، لكن إن صح ذلك فلا إشكال وليس هو من باب مشاركة الله ﷻ في علم الغيب وإنما هو من طريق استغلال هذه الوسائل التي خلقها الله وتعرَّف بها على ما يَخفى على الناس.

إذا عرفنا هذا فلا يهمنا أبدًا صح طبيًا اكتشاف هوية الجنين أذكر هو أم أنثى أو لم يصح؛ لأنه إن صح فليس ذلك من باب العلم بالغيب وإنما هو من باب استغلال الوسائل التي سخرها الله للإنسان لاستكشاف ما ورائها من الأمور التي تغيب عادةً على سائر الناس.

قلت: أن هذا لا يعني مشاركة الله في الغيب من ناحيتين هذه إحداهما، والأخرى: أن الله تبارك وتعالى حينما قال: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ} (لقمان: ٣٤) أي: هو وحده فقط يعلم تفصيليًا، فإن استطاع العلم مثلًا أن يكتشف هوية الجنين هل هو ذكر أو أنثى ولكن هو لا يستطيع أن يحيط علمًا بهذا الجنين مثلًا هل هو سيكون كاملًا أم يكون ناقصًا؟ يعني: خلقه يكون تامًا أم ناقصًا، ثم يعلم ما في الأرحام قبل أن تعلق العلقة هناك أو البويضة كما يقولون بمني الرجل، فمجرد أن يقذف الرجل بمائه في رحم المرأة فالله ﷻ يعرف أن هذا الماء سينعقد أو لا، وإذا انعقد سيكون ذكرًا أو أنثى، وإذا كان ذكرًا أو أنثى هل سيكون خلقه تامًا أم لا، هل سيكون سعيدًا أم شقيًا أم أم إلى آخره، هذه التفاصيل مستحيل على العلم مهما علا وسما أن يحيط بها علمًا، كذلك هو مما تفرد الله به ﷻ وهو المعنى بقوله: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ} (لقمان: ٣٤).

مداخلة: تقريبًا بالسؤال، أحد الإخوة يقول: فلماذا حُرِّم إتيان الكهان وهم أيضًا يستعملون بعض الوسائل لمعرفة بعض الغيب عن سائر الناس؟.

الشيخ: ثمة فرق كبير بين المسألتين، الكهان يتصلون بالجان، وكما ثبت في الأحاديث الصحيحة ولعلكم تذكرون ذلك جميعًا أن الجن يسترقون السمع، ثم ينزل أحدهم إلى قرينه من الإنس فيلقي في أذنه ما يكون قد سمعه من السماء مما تتحدث به الملائكة، ثم يضيفون إلى ذلك أكاذيب كثيرة وكثيرة جدًا، فيختلط الحق الذي سمعه الجني من حديث الملائكة بالباطل الذي أضافوه إليه، وألقوا ذلك جميعًا في أذن قرينهم من الإنس، ولذلك فكانوا يستغلون ولا يزالون يستغلون هذا إلى اليوم ليوهموا الناس أنهم يعرفون ما يجهله الناس من العلم بالغيب، ولذلك ولأنهم أضلوا بذلك وضلوا نهى الرسول عليه السلام عن إتيان الكهان وقال: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد».

أما هؤلاء الأطباء فهم مع أنهم في ضلال مبين بسبب أنهم كفروا برب العالمين ولم يؤمنوا بشريعته التي أنزلها على قلب نبينا عليه السلام فهم مع هذا الضلال لا يدعون أنهم يعرفون الغيب، بل هم يصرحون بأنهم كلما ازدادوا علمًا ازدادوا معرفة بجهلهم فشتان بين هؤلاء الذين يتعاطون الوسائل العلمية لمنفعة الناس والكشف عما يضرهم وعما ينفعهم ولا يدَّعون شيئًا من الصلة بعالم السماء شتان بين هؤلاء وبين العرَّافين والكهان الذين حذرنا نبينا عليه الصلاة والسلام من الإتيان إليهم وتصديقهم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١١٥٣): سؤال: قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «من استرقى أو اكتوى فقد برئ من التوكل»، قال بعض العلماء: أنه المقصود به الكي للصحيح قبل المرض، هل يدخل في هذا التطعيم الآن يا شيخ الذي يحدث من أجل الوقاية من الأمراض، التطعيم؟

الشيخ: أولًا: (فقد برئ من التوكل) التوكل نوعان: واجب ومستحب، فإذا عرفت أن التوكل المذكور هنا من نوع المستحب هان الأمر واضح؟

مداخلة: أي نعم.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٦٣): أقول: حينما يكون الجمع جمعًا كثيرًا مباركًا ويكونون متفرقين ومبتعدين عن مجلس الشيخ المزعوم أنه شيخ قد يكون حقًا وقد يكون كذبًا، فأنا أقول بهذه المناسبة أن هذا التفرق وهذا التوسيع لدائرة الحلقة خلاف السنة، أما من حيث التفرق فقد جاء في صحيح مسلم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- دخل المسجد يومًا فرآهم متفرقين فقال لهم: «مالي أراكم عزين» بالعين والزاي أي متفرقين، وقد وصل اهتمام الرسول عليه السلام بالنهي عن التفرق في المكان وعن ابتعاد الناس بعضهم عن بعض إلى درجة أنه نهاهم عن ذلك حتى في الصحراء، حتى في السفر فقد روى الإمام أحمد في مسنده بإسناد قوي عن أبي ثعلبة الخشني قال: كنا إذا سافرنا مع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- نزلنا في الوديان والشعاب فقال لنا يومًا: «إنما تفرقكم هذا في الوديان والشعاب من عمل الشيطان» قال أبو ثعلبة: «فكنا بعد ذلك إذا نزلنا في مكان اجتمعنا، أي انضم بعضنا إلى بعض حتى لو جلسنا على بساط لوسعنا»، ولذلك التقارب في الجلوس وعدم ابتعاد الناس بعضهم عن بعض هو اقتراب من الجنة بسبب تعاطي الأسباب التي تؤدي إلى الجنة، أنا أقتبس هذا من مثل قوله عليه السلام: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة» ومن قوله عليه السلام وهو حديث عجيب قال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن ربك ليعجب من أقوام يُجرون إلى الجنة في السلاسل» .

يقول أهل العلم: يعني رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بهذا الحديث الأسرى الذين يقعون في أيدي المسلمين فيجرونهم مغللين في السلاسل إلى بلاد الإسلام، وهناك يوزعون حسب التقسيم الشرعي للمكاسب والغنائم على الغارمين، فيدخلون بيوت المسلمين وهم بعد أن كانوا مغللين يصبحون شبه أحرار، أقول: شبه؛ لأنهم في الواقع من حيث حرية العمل حتى بقاء أحدهم على دينه الباطل كانوا أحرارًا لكنهم لا يزالون أرقاء، إلا أن الله ﷻ بما أوحى إلى نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- من الأحكام التي وجهها إلى أتباعه عليه السلام من العناية والوصاية الطيبة بالأسرى وبالعبيد صار هؤلاء العبيد كأنهم أحرار، وحسبكم في هذا الصدد دلالة قوله عليه السلام: «أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون» إلى آخر الحديث الذي لا أذكره الآن بتمامه ، الشاهد أن هؤلاء الأسرى دخلوا حياة جديدة غير الحياة التي كانوا يحيونها وهم أحرار دخلوا حياة جديدة وهم عبيد، ولكنهم في حياتهم خير مما كانوا عليه وهم كانوا أحرارًا، ذلك لأنهم تداخلوا مع المسلمين في بيوتهم، في أسواقهم، في مساجدهم .. فعرفوهم وعرفوا أخلاقهم، وعرفوا تأثير دينهم في تربيتهم عن كثب وعن قرب، فتجلى لهم عمليًا ما هو الدين الحق فآمنوا غير مكرهين، وآمنوا بقلوبهم بوازع من شخصهم، وليس كأولئك الذين يؤمنون رغم أنوفهم إما خلاصًا من القتل إذا ما وقفوا أمام الدعوة الإسلامية، أو خلاصًا من دفع الجزية عن يد وهم صاغرون .. ، أما هؤلاء قد أسلموا طواعية وبإخلاص من قلوبهم ودخلوا في الإسلام، ولا شك أن من دخل في الإسلام دخل الجنة بسلام إلى هذه الحقيقة التي لو أراد الإنسان أن يشرحها شرحًا مبسطًا موسعًا لكان من ذلك كتاب إلى هذه الحقيقة أشار عليه السلام في الحديث السابق: {إن ربك ليعجب من أقوام

يُجرون إلى الجنة في السلاسل} فإذًا الأسباب التي تكون مشروعة فهي تؤدي إلى الجنة، ومن هذه الأسباب طلب العلم ومن وسائل طلب العلم هو طلبه مع الجماعة، وهذه الجماعة ينبغي عليهم حسب ما عرفتم أن يكونوا متقاربين في أبدانهم كما يجب عليهم أن يكونوا متقاربين متوادين متحابين في قلوبهم ..

فكثير من الناس لا ينتبه وقد لا يعلم مطلقًا تأثير الظاهر على الباطن، قد لا يعلم أن الأمور الظاهرة لها أكبر تأثير في القلوب الباطنة المكنونة في الصدور سواء كانت هذه الأمور الظاهرة حسنة خيرة أو كانت باطلة سيئة، فكل من النوعين يؤثر في القلب إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وهذه حقيقة شرعية قبل أن تُصبح حقيقة علمية نفسية؛ ذلك لأن الإسلام سبق كل العلوم التي قد تصل مع الزمن القصير أو المديد إلى حقائق كان الناس عنها غافلين، سابقهم الإسلام إلى هذه الحقائق قبلهم بسنين وبكثير من الأيام، قلت: إن تأثير الظاهر على الباطن هذه حقيقة علمية شرعية قبل أن تصبح حقيقة علمية تجربية، وقد حرص النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أشد الحرص على غرس هذه الحقيقة في قلوب أتباعه بمناسبات شتى فقد كان عليه السلام يقول كما قد تسمعون أحيانًا قليلًا هذا التوجيه النبوي الكريم من بعض أئمة المساجد المهتمين باتباع سنة سيد المرسلين، تسمعون من هذا البعض حينما يقوم إلى الصلاة لا يباشر الصلاة فورًا بعد انتهاء المقيم من الإقامة لا يقول: الله أكبر كما يفعل الجهلة، وكما يفعل أولئك الأئمة الذين لا يهتمون بإحياء السنة ونشرها بين الأمة إنما يفعل هذا الذي ألمحنا إليه آنفًا بعض الحريصين على اتباع السنة حينما يقف في المقام الذي يصلي فيه ولا أقول في المحراب لأنني لو قلت إذا أقام في المحراب أقررت المحراب وهو بدعة في المساجد لم تكن في مسجد الرسول عليه السلام

ولا في المساجد التي كانت في زمنه -صلى الله عليه وآله وسلم-، فإذا قام الإمام في مقام الإمام لا يباشر الصلاة وتكبيرة الإحرام وإنما يلتفت يمنةً ويسرةً ويأمرهم بتسوية الصفوف ويقول لهم ما كان الرسول عليه السلام يقول لأصحابه «سووا صفوفكم، أو .. » وهنا الشاهد «ليخالفن الله بين وجوهكم» وفي رواية «بين قلوبكم» الشاهد هنا أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد ربط تسوية الصف وهي التسوية عمل ظاهري بدني، لكنه قد رتب على ذلك إما اتفاق القلوب إذا ما تحققت التسوية أو اختلاف القلوب إذا ما اختلفت الصفوف ولم تحقق التسوية فقال عليه السلام: «لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم» ، فهنا إذًا ربط بين الظاهر والباطن الذي هو القلوب، وكان الربط في الحالتين حالتا تسوية الصفوف أو الإخلال بهذه التسوية، فهدد عليه الصلاة والسلام الذين لا يسوون الصفوف ويجعلونها مضطربةً متقدمةً ومتأخرةً بأن ذلك وسيلة شرعية للاضطراب في القلوب والاختلاف فيها، وقد أشار إلى هذه الحقيقة بجملة نبوية هامة حين قال في الحديث المشهور وهو في الصحيحين البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الابن والأب صحابيان ..

النعمان صحابي وأبوه بشير صحابي قال النعمان بن بشير: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «إن الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله ما حرمه، ألا ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه» قال عليه السلام في تمام هذا الحديث وهو الشاهد: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد كله

ألا وهي القلب» أنتم ترون معي أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ربط صلاح القلب بصلاح البدن ويجب أن نعلم أن هذا الصلاح المذكور في الحديث هنا ليس صلاحًا ماديًا طبيًا وإن كان الأمر كذلك طبيًا لكنه عليه السلام هنا أراد الصلاح إذا صح تعبيرنا بالصلاح الروحي المعنوي الإيماني «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله» أي صلحت أعمال الجسد الصادرة منه كلها، «وإذا فسدت» هذه المضغة فسدت أعمال الجسد كله؛ ما هي؟ قال عليه السلام: «ألا وهي القلب» إذًا هذا يؤكد بأن الظواهر مرتبطة بالبواطن، فمهما كان القلب صالحًا كان ما يخرج من جسد هذا القلب الصالح صالحًا والعكس بالعكس تمامًا «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد القلب كله ألا وهي القلب».

لذلك - والبحث في هذا طويل وطويل جدًا - على المسلمين أن لا يغتروا بقول بعض القائلين أن العبرة بما في القلب تمويهًا على الناس نحن نقول معهم العبرة بما في القلب ولكننا نزيد عليهم فنقول: لا يمكن أن يكون ما في القلب صلاح ثم يظهر من الجسد طلاح، والعكس بالعكس .. لا يمكن أن يكون ما في القلب طلاح ويظهر من الجسد صلاح هذا أمر غير سليم وغير صحيح إطلاقًا شأن ذلك شأن القلب مع الجسد من الناحية الطبية إذا كان القلب سليمًا لا يمكن أن يكون القلب مريضًا، والعكس أيضًا بالعكس إذا كان القلب مريضًا من الناحية الطبية لا يمكن أن يكون الجسد سليمًا، أمر مضطرد سلبًا وإيجابًا، طبًا بدنيًا وطبًا نبويًا فالذين يقولون حينما يؤمرون مثلًا بأداء الصلوات أو بالمحافظة عليها يقول لك يا أخي الأمر ليس بما في الصلاة الأمر بما في القلب! نقول صدقت الأمر بما في القلب لكن لو كان ما في القلب إيمان صحيح وسليم لنضح

هذا القلب بالصلاح والطاعة والعبادة وإلا فالأمر على العكس تمامًا، والأمر كما قيل: فحسبكموا هذا التفاوت بيننا وكل إناء بما فيه ينضح

فإذا كان هذا الوعاء الذي وضعه الله ﷻ في الصدر بعناية وحكمة بالغة إذا كان صحيحًا وسليمًا لا شك أنه سينضح صحيحًا وسليمًا والعكس بالعكس، قلت إن هذا البحث طويل الذيل وأكتفي بهذا القدر لتوجيه النظر إلى أن التضامّ في حلقات الذكر والعلم هو أمر مرغوب مشروع والابتعاد فيه بعض الجالسين عن بعض إنما هو كما سمعتم من عمل الشيطان اقتربوا ما استطعتم.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ١٤٩): وقد بدا لي من مطالعتي للكتاب المذكور [أي كتاب "ظاهرة الإرجاء"لسفر الحوالي] أنه ذو فائدة كبيرة جدًا في الرد على علماء الكلام الذين يخالفون أهل الحديث في قولهم: (الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال الصالحة من الإيمان)، مع غلو ظاهر في بعض عباراته؛ حتى ليخال إليَّ أنه يميل إلى مذهب الخوارج، مع أنه يرد عليهم، وغمزني بالإرجاء أكثر من مرة؛ تارة تصريحًا وأخرى تلويحًا، مع إظهاره الاحترام والتبجيل - خلافًا لبعض الغلاة ولا أقول: الأتباع -، وهو يعلم أنني أنصر مذهب أهل الحديث، متذرعًا بأنني لا أكفر تارك الصلاة كسلًا؛ ما لم يدل على أن تركه عن عقيدة وجحود، كالذي يقاله: (إن لم تصل، وإلا؛ قتلناك)، فيأبى فيقتل؛ فهذا كافر مرتد - كما كنت نقلته في رسالتي " حكم تارك الصلاة " عن ابن القيم وشيخه ابن تيمية - وعلى مثله حمل ابن تيمية الآثار التي استفاضت عن الصحابة في كفر تارك الصلاة، وقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصلاة». انظر كلامهما في الرسالة المذكورة (ص ٣٨ - ٤٦). ومع هذا رماني المؤلف المذكور بالإرجاء .. سامحه

الله، وهدانا الله وإياه لما اختلف فيه من الحق؛ إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومجال مناقشته واسع جدًا فيما نبا قلمه عن الصواب، وما فيه من الأخطاء والتناقضات، وبخاصة في تأويله للأحاديث والنصوص، وليّه إياها إلى ما يتفق مع ما ذهب إليه، مع محاولته التشكيك في صحة الحديث المتفق على صحته؛ إذ شعر أن تأويله إياه غير مقنع - كما فعل بحديث الجهنميين الذين يخرجهم الله من النار بغير عمل عملوه -، بل وإعراضه أحيانًا عن ذكر ما هو عليه منها.

أقول: هذا باب واسع جدًا يتطلب التفرغ له وقتًا مديدًا، مما لا أجده الآن.

والله المستعان.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢١٤): سؤال: يا شيخنا طبعًا ذكرتم أن المنهج الصحيح موجود في القرآن والسنة، وقواعد المنهج معلومة لدينا فهما الكتاب والسنة على فهم الصحابة وما إلى ذلك، فيعني وكلنا يعلم أنكم قد بذلتم جهدكم في يعني سبيل إقامة قواعد هذا المنهج، ولست أنا أشهد أو غيري، ولكن السلسلة الصحيحة تشهد والسلسلة الضعيفة وإرواء الغليل .. وما إلى ذلك من الكتب التي كان هدفها تصفية الدين مما علق به من الشوائب من بدع ومنكرات وأحاديث ضعيفة ومنكرة، فالسؤال يا شيخنا يعني طبعًا على سبيل ضرب المثل الإمام ابن حجر في كتابه «فتح الباري في شرح أحاديث صحيح البخاري» كانت له بعض الزلات في مجال العقيدة، ونبه عليها شيخنا عبد العزيز بن باز في تعليقاته، فالسؤال: طبعًا هو في زلاته هذه يعني

خفق في فهم الصحابة، فكانت له زلات في مجال العقيدة، فسؤالي: هل يخرج

من المنهج أو زلاته في الاعتقاد تنفي عنه كونه على المنهج الصحيح. هذا السؤال يا شيخ؟.

الشيخ: إذا كنا متذكرين جميعًا أن كل بني آدم خطاء، وأن خير الخطائين التوابون، وأن العصمة ليست لأحد بعد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، فلا غرابة في أن يخطئ من كان إمامًا في دعوة الحق، فإذا أخطأ في مسألة أو أخرى في مسألتين أو ثلاث أو أكثر، فذلك لا يخرجه عن دعوة الحق إذا تبناها، فالحافظ ابن حجر كالإمام النووي وغيره ممن أخطؤوا في بعض المسائل العقدية، كما يقولون اليوم، فذلك لا يخرجهم عن كونهم من أهل السنة والجماعة؛ لأن العبرة بما يغلب على الإنسان من فكر صحيح أو عمل صالح، متى يكون المسلم صالحًا؟ هل يشترط في أن يكون صالحًا: ألا يقع منه أي ذنب أو معصية؟

لا، بل من طبيعة الإنسان أن يقع منه الذنب والمعصية مرارًا وتكرارًا، فمتى يكون العبد صالحًا؟

إذا غلب خيره شره، وصلاحه على ضلاله .. وهكذا، كذلك تمامًا يقال في المسائل العلمية سواء كانت هذه المسائل العلمية مسائل عقدية أو فقهية، فإذا كان هذا العالم يغلب عليه العلم الصحيح فهو الناجي، أما أن له زلة أو زلات في الفقه أو في العقيدة فهذا لا يخرجه عن ما غلب عليه من العقيدة الصحيحة، فابن حجر ما ذكرت من له تلك الزلات فلا يعني ذلك أنه لا ينبغي أن نستفيد من كتابه، وألا نترحم عليه، وألا نحشره في زمرة علماء المسلمين المتمسكين بالكتاب والسنة.

كل إنسان يخطئ، ولا مجال من الخطأ؛ لأن الله ﷿ حينما خلق ملائكة

وخلق بشرًا فقد قدر على هؤلاء البشر أن يخطئوا رغم أنوفهم، كما قال عليه الصلاة والسلام، حديثان مهمان جدًا، ولكن حذاري أن يفهم فهمًا خاطئًا:

الحديث الأول: قال عليه الصلاة والسلام: «كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدركه لا محالة، فالعين تزني وزناها النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه»، الشاهد من هذا الحديث: «فهو مدركه لا محالة»، أي: لا يمكن أن يتخلص، لماذا؟ لأنه إنسان ليس مَلَكًا.

الحديث الآخر وهو الأهم، قال عليه الصلاة والسلام: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يحلون محلكم ويذنبون بخلافكم، فهل أنتم لا تذنبون؟ فهذا قضاء الله قدره، لا بد لجنس البشر من أن يقع في الخطأ الذي لا يحبه الله، لكن هذا الخطأ قد يكون من الصغائر من اللمم وقد يكون من الكبائر، فسواء كان هذا أو هذا، هذا أمر لا بد منه، ولكن هل معنى الحديث: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»، هل معنى الحديث ومغزى الحديث: الحض على الذنوب وارتكاب المعاصي؟

الجواب: لا، المقصود من الحديث تمامًا عاقبته، يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم، ومعنى هذا حينئذ: يا معشر البشر .. كما قال تعالى في الحديث القدسي: «كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ... » إلى آخر الحديث، الشاهد: أن حديث: «لو لم تذنبوا»، الهدف منه: أيها البشر ما دام أنكم فطرتم على المعصية فلا تتكلوا عليها، وإنما أتبعوها بالمغفرة بالاستغفار؛ حتى تعقبها المغفرة؛ لأن الله ﷻ يقول: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى

لِلذَّاكِرِينَ} (هود:١١٤)، إذا كان إذًا هذه طبيعة البشر أن يخطئوا في مخالفة النص قصدًا وهي الذنوب، وأن يخطئوا في مخالفة النص لا قصدًا وإنما لسوء فهم فلا مؤاخذة في ذلك، المؤاخذة متى تكون؟ إذا أقيمت الحجة على إنسان، سواء كانت الحجة في مسألة عقدية فكرية أو كانت الحجة في مسألة فقهية، ثم عاند وأصر على خطئه فهنا تكون المؤاخذة، والعكس لا، أي: إذا إنسان وقع في خطأ عقدي لكنه هو كان حريصًا على معرفة الصواب في تلك العقيدة لكنه لم يوفق إلى ذلك، ولو أقيمت الحجة عليه لرجع إلى الصواب فلا مؤاخذة عليه.

لذلك هذا الكلام في الحقيقة يجرنا إلى مسألة من تلك المسائل المنهجية التي يجب أن نعرفها، فإن بعض العلماء، وبخاصة الكتاب اليوم، يخطئون في هذه المسألة، كثيرًا ما تقرءون أو تسمعون: أن الخطأ في الفهم يغتفر في الفروع وليس في الأصول، هذا خطأ، الخطأ يغتفر مطلقًا، سواء كان في الفروع أو كان في الأصول؛ لأنه عدم المؤاخذة من الله ﷻ لعباده هو لعدم وجود قصد المخالفة من هذا العبد لربه، فإذا وجدت المخالفة، سواء كانت المخالفة في العقيدة أو في الحكم في الفقه ولم يكن القصد هو العناد والمكابرة والجحد فلا مؤاخذة في ذلك، فالتفريق بين الأصول والفروع، بين العقيدة والفقه في مسألة عدم المؤاخذة بالخطأ في الفروع والمؤاخذة في الأصول، هذا التفريق لا أصل له، فهذا التفريق يشبه تمامًا التفريق البدعي الآخر وهو: أنه يجب الأخذ بحديث الآحاد في الفروع ولا يؤخذ بحديث الآحاد في الأصول، هذا خطأ وهذا خطأ.

أروي لكم الآن حديثًا من الأحاديث الصحيحة التي أخرجها الشيخان في صحيحهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ومن حديث حذيفة بن اليمان أيضًا رضي الله تعالى عنه: أن النبي -صلى الله عليه وآله

وسلم- قال: «كان في من قبلكم رجل لم يعمل خيرًا قط، فلما حضره الموت جمع بنيه حوله فقال لهم: أي أب لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإني مذنب مع ربي، ولئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا شديدًا» هل ترونه مؤمنًا وهو يقول: (إن قدر الله علي)؟ هذا شك في قدرة الله ﷻ، إذًا نستطيع أن نقول: هل أخطأ في الفرع أم أخطأ في أصل الأصول في الله ﷻ الذي ذكر في خاتمة سورة يس: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} (يس:٧٨)؟ هذا الإنسان هو هذا الذي عناه الله ﷻ في هذا المثال، قال هذا الرجل: «ولئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا شديدًا» يعترف بأنه كان مخطئًا مع ربه، وأن الله ﷻ إذا عذبه يكون عادلًا؛ لأنه كان مخطئًا معه، فللخلاص من عذابه دار في ذهنه مخرج مخلص، فأوصى بوصية في علمه وفي اعتقاده لم يقع مثلها في الدنيا من غير هذا الإنسان، «قال: فإذا أنا مت فحرقوني بالنار، ثم خذوا رمادي فذروا نصفه في البحر ونصفه في الريح» أحرقوه بالنار وأخذوا رماده والريح يهوج فذروه في الريح، والنصف الثاني في البحر، لماذا فعل هذا الرجل هذه الفعلة؟ ظن أنه يضل عن ربه، وأن الله ﷻ ليس بقادر على أن يقول له: كن بشرًا سويًا، لكن الله ﷻ فعل ذلك به، فلما مات وذروا رماده في الريح وفي البحر قال الله له: كن فلانًا، فكان بشرًا سويًا، قال له .. هنا الشاهد: «قال له: أي عبدي ما حملك على ما فعلت؟ قال: يا رب خشيتك -أنا خفت منك- قال: اذهب فقد غفرت لك».

هذا الحديث وقد عرفتم أنه من صحاح الأحاديث في البخاري ومسلم وعن صحابيين جليلين: أبي سعيد الخدري وحذيفة بن اليمان، هذا الحديث من مخصصات عموم قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ

لِمَنْ يَشَاءُ} (النساء:٤٨)، في هذا الحديث قد غفر الله لهذا الجاني على نفسه بوصيته الجائرة.

لكن هنا لا بد لي من وقفة، وهذا من العلم الذي نحن بحاجة إليه باعتبارنا أننا ندعو الناس إلى الكتاب والسنة: هذا الذي أوصى بهذه الوصية الجائرة هل هو كافر أم مشرك؟ الآن أنا أوجه هذا السؤال وما أريد أن أسمع صوتًا، لكن أرى يدًا رفعت، من كان عنده الجواب عن هذا السؤال يرفع يده، هذا الذي أوصى بهذه الوصية الجائرة هل هو كافر أم مشرك؟ تفضل.

مداخلة: كافر.

الشيخ: كافر، تفضل.

مداخلة: لا كافر ولا مشرك.

الشيخ: تفضل.

مداخلة: ليس بكافر ولا مشرك؛ لأن الله ﷻ لا يغفر الشرك، والله ﷻ غفر له.

الشيخ: هاه، مع الأسف ما سمعنا جوابًا صحيحًا، الذي أنكر قدرة الله ﷻ على إعادته بشرًا كما كان هذا كافر بلا شك؛ لأن هذا هو الذي ذكرناكم بخاتمة سورة يس: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} (يس:٧٨)، هو جعل نفسه رميمًا سلفًا، يعني: ما صبر حتى يدفن ويصير جسمه رميمًا ترابًا، وإنما عجل على نفسه بتلك الوصية الجائرة فجعل نفسه رمادًا، لا شك أن هذا كفر.

لكن كنت أتمنى أن أسمع الجواب الصحيح، ومن أجل هذا أنا وقفت هذه الوقفة معكم من باب التذكير أو التعليم: هذا الرجل كفر وهذا الرجل أشرك،

ولولا أنه أشرك ما جاز لي أن أقول: إن آية: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} (النساء:٤٨)، قلنا: إن هذه الآية مخصصة بمثل هذه الحادثة، أي: أن بعض الشرك يغفر، هذا معنى الآية: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} (النساء:٤٨) ليست الآية على عمومها وشمولها، فبعض الشرك يغفر، وأنا الآن ذكرت لكم نوعًا، أذكر لكم نوعًا آخر، وهذا ستعرفونه، لأنكم تسمعون بأن أهل الفترة غير معذبين، أليس كذلك؟ طيب، هل تقولون: أنهم كانوا غير مشركين؟ كانوا مشركين، لكنهم لا يعذبون، لماذا؟ لأن حجة الله لم تقم عليهم، أي: لم تبلغهم دعوة الرسول، وأنا أتكلم بصورة عامة عن أهل الفترة لا أعني الذين بعث إليهم الرسول لكن بقاعدة عامة: أهل الفترة الذين لم تبلغهم دعوة الرسول ولو كانوا مشركين فهم لا يعذبون على شركهم، لماذا؟ لأن الحجة لم تصلهم.

فهنا في هذه القصة هذا الرجل بالنسبة للفكرة القائمة: أن الشرك أخص من الكفر، والكفر أعم من الشرك، بمعنى: كل من أشرك فقد كفر، وليس كل من كفر أشرك، هذا هو الفقه القائم في أذهان الناس إلا قليلًا منهم.

أوضح ذلك بمثال: رجل يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويصلي ويصوم .. إلى آخره، لكنه أنكر آية من القرآن، هذا كفر أم لم يكفر؟

مداخلة: كفر.

الشيخ: كفر، هل أشرك؟

مداخلة: ما أشرك.

الشيخ: ما أشرك، لا الصواب أشرك، كل كافر مشرك وكل مشرك كافر، لا فرق بين اللفظين إطلاقًا، هذه الحقيقة التي جرني إلى بيانها حديث ذلك الجائر في وصيته، إنه أشرك، كل من كفر فقد أشرك، ومن أشرك فقد كفر، لا إشكال في

ذلك، والدليل على ذلك: لو تذكرنا محاورة المؤمن والكافر في سورة الكهف: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا، كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا، وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا، وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} (الكهف:٣٢ - ٣٥) انتبهوا الآن: {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} (الكهف:٣٥، ٣٦) بمفهومكم السابق هذا كفر أم أشرك؟

مداخلة: أشرك.

الشيخ: كفر.

مداخلة: أشرك.

مداخلة: كفر.

الشيخ: مفهومكم السابق مفهومكم الخطأ هذا كفر وما أشرك، أنكر البعث والنشور، {مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا} (الكهف:٣٥) {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} (الكهف:٣٦) {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ} (الكهف:٣٧)، {إِنْ تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا} (الكهف:٣٩) {فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا، وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا} (الكهف:٤٠ - ٤٢]، إذًا: هو لما أنكر البعث والنشور أشرك مع الله، فكل من كفر بشيء جاء في الكتاب أو في السنة فهو في حالة كفره مشرك، هذا هو من ناحية النص القرآني، فما هو الوجه الفكري والعقلي؟.

الجواب: قال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} (الجاثية:٢٣)، فإذًا كل من كفر بكفرية ما يكون مشركًا مع الله؛ لأنه جعل عقل نفسه شريكًا مع ربه تبارك وتعالى؛ ولذلك لا تفرقوا بين الكفر والشرك، إذا عرفتم هذه الحقيقة فيزول إشكال قد يعرج أحيانًا في البال لبعض من يسمع حديث الرسول عليه السلام بروايته: «من ترك الصلاة فقد كفر»، «من ترك الصلاة فقد أشرك»، كيف هذا؟

الذي يفرق بين الكفر والشرك يشكل عليه لفظة: (أشرك)، لا، الصواب أن يقال: كفر، كذلك الحديث الآخر: «من حلف بغير الله فقد كفر»، «من حلف بغير الله فقد أشرك»، كفر أشرك، أشرك كفر، لا فرق بين اللفظين من حيث الاصطلاح الشرعي، من حيث الاصطلاح اللغوي في فرق بلا شك، لكن الشرع فتح بصائرنا وأفكارنا وأفهمنا لماذا كل من كفر بالله ﷻ أي نوع من الكفر يكون مشركًا؛ لأنه شرَّك عقله مع ربه ﷻ فجعله شريك فيما يصدر منه من قرار ومن حكم.

إذا عرفنا هذا نعود إلى وصية ذلك الرجل: «غفر الله له»، لماذا؟

هنا كان بيت القصيد من الاستدلال بالحديث؛ لأن الكفر لم يعقد في قلبه، إنما عرض له لشبهة طرأت له من هول تصوره لعذاب ربه له فيما إذا تمكن منه، فليتخلص من هذا العذاب الذي هو يستحقه أوصى بتلك الوصية الجائرة، فإذا أصابت مسلمًا يشهد أن لا إله إلا الله محمدًا رسول الله يؤمن بكتاب الله وبحديث رسول الله فتأول نصًا من كتاب الله، إن كان تأوله وهو يعلم أنه مبطل فهو كافر، أما إن كان شُبِّه له فلا مؤاخذة عليه.

وهذا هو نهاية الجواب عن ذلك السؤال.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٢٣): السائل: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} (البقرة:٢١٣) الناس كانوا على الإيمان أم على الكفر؟

الشيخ: على الإيمان بلا شك.

مداخلة: طيب. {فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ} (البقرة:٢١٣) يعني الآية يعني تلمح على أنهم كانوا على غير الإيمان وإلا لمَ بَعَثَ الله النبيين بعد؟

الشيخ: الأمر سهل، كانوا على الإيمان والتوحيد وعلى الشرائع التي أنزلها الله عَزَّ وَجَلَّ على آدم ومن بعده، ثم اختلفوا فبعث الله النبيين وانتهى الأمر، فالبعث لا يعني أنه لم يكن هناك توحيد ولم يكن هناك تشريع وإنما يعني أنه وجد مخالفات ومقتضيات تقتضي بالحكمة الإلهية إرسال هؤلاء الرسل.

مداخلة: يعني كما يقولون إيجاز، حذف في الآية؟

الشيخ: إيه في طي، يقولون في طي في الآية. نعم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٣٧): سؤال: قال رجلٌ للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أرئيت الرجل يحسن في الإسلام، أيؤاخذ بما عمل في الجاهلية، قال فقال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «من أحسن في الإسلام، لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام، أخذ بالأول والآخر»، فماذا يقصد، «من أحسن في الإسلام، لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية»، هل يقصد بذالك انه لم يرتد على الإسلام؟

الشيخ: واحد كان يسرق في الجاهلية، ويسرق، وظل يسرق في الإسلام، فيؤاخذ بهذا وذاك، رجل كان كافرًا مشركًا، وعلى شركه كان سيء التصرف، كان يسرق، كان يضرب، كان يشرب الخمر، كان إلى أخره، ثم أسلم، الإسلام

يَجُبُّ ما قبله، لكن هذا الحديث، يدخل لهذه الجملة، لهذه القاعدة تخصيصًا، الإسلام يجب ما قبله، فالذي أسلم وكان مثلًا سارقًا، فبإسلامه كما انتهى عن الكفر، انتهى عن السرقة، هذا سيحسن إليه في كل ما يفعل، من حسنات في إسلامه، ولا يؤاخذ على سيئته في الجاهلية، على العكس من ذلك، فرجل آخر أسلم وكان يسرق، ومع إسلامه، ظل يسرق، فهو بناءً على القاعدة العامة الإسلام يجب ما قبله، بيتصور الإنسان، أن هذا لا يؤاخذ بما فعل في الجاهلية، من السرقة، لكن هذا الحديث يقيد هذه القاعدة، ويقول بأن هذا الذي أسلم وأساء في الإسلام، فسيؤاخذ على إساءته هذه في إسلامه [مثل] إساءته في الجاهلية.

السائل: هذا إذا دخل الإسلام، واستغفر الله ﷻ، عما فعل في الجاهلية، وعاد إلى ذنبه، فأين نذهب بحديث النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، الذي من خلاله يقول حديث المطول، « ... إذا أذنب عبدي، ذنبًا، فعرف أن له ربًا يغفر الذنب، [إلى أن قال] قد غفرت لعبدي»، فهذا الإنسان أسلم، ثم بعد ذلك استغفر، قد رجع إلى السرقة، أو إلى الخمر أو كذا، فالله قد غفر له، ثم استغفر، هل يقصد بذلك: «ومن أساء في الإسلام» ... أنه مات على الإساءة؟

الشيخ: ليس شرطًا، إذا كان أساء في الجاهلية، وما رجع عن إساءته في الجاهلية، سؤالك الأخير أخي ما يخرج عن التوفيق بين قاعدة الإسلام يجب ما قبله، فهي قاعدة عامة، لكن هذا الحديث يخصص هذه القاعدة فيقول بأنه إذا أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما فعل في الجاهلية، أما بعد إسلامه إذا أساء في الإسلام كما أساء في الجاهلية فهو يؤاخذ بالإساءتين، سواء في الإسلام أو في الجاهلية، والحديث الذي ذكرته العبد إذا تاب، فهذا أيضًا من النصوص العامة،

أي: التي يتبادر إلى الذهن أنه يشمل من كان مشركًا فأسلم، ويشمل من كان مسلمًا أب عن جد.

هنا هذا الحديث الآن يأخذ جزئية من جزئيات حديث العبد الذي ذكرته أخيرًا، ويعطينا أنه إذا كان مشركًا فأسلم، فأساء في إسلامه كما أساء في جاهليته، أخذ بالإساءتين معًا، تخصيص وتعميم فقط.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٤٩): السؤال: هل وضع العلماء شروطًا أن من عمل كذا يكفر، يعني عشرة شروط نواقض الإسلام؟

الجواب: نعم، وضعوا، لكن في الحقيقة هم قد أفرطوا كثيرًا وبخاصة بعض علماء الحنفية، حيث خلطوا ولا مؤاخذة بين الكفر العملي والكفر الاعتقادي، وهذا أمر ضروري جدًا التفريق بينهما، الكفر الاعتقادي هو الذي يخرج به المسلم من الملة، أما الكفر العملي أن يعمل عمل الكفار مثلًا، جعلوا هذا النوع من الكفر ردة، مثلًا ذكروا في [أنواع] الردة: ومن شد الزنار فقد كفر، أي: زنار النصارى، أو الرهبان والقسيسين، هذا بلا شك لا يجوز، لكن مجرد العمل كمجرد التشبه بالكفار لا يستحق المتشبه أن يحكم عليه بالردة، والخروج عن الملة، وإنما هو عمل الكفار، والتشبه بالكفار، وهذا يؤدي به إلى التنبيه على مسألة طالما تثار في العصر الحاضر لكثرة ابتلاء المسلمين بها ألا وهي: ترك الصلاة، كثير من الشباب المسلم بل نستطيع أن نقول مع الأسف أكثرهم لا يصلون، فهؤلاء الذين لا يصلون هل يحكم بكفرهم أم لا؟

الآن نسمع فتاوى كثيرة وكثيرة جدًا بأن تارك الصلاة كافر، أي: مرتد عن الدين والملة، والواقع أن هذه المسألة كتلك، يجب التفريق بين من ترك الصلاة كسلًا وعملًا وانشغالًا بدنياه، ليس إنكارًا منه لفرضيتها فهذا فاسق وليس بكافر،

أما من أنكر شرعية الصلاة كما نسمع من بعض الشباب للأسف يقولون: يا أخي الصلاة [شُرعت] في وقت العرب حينما كانوا يعيشون حياة البداوة، القذارة والوساخة ورعي الإبل ونحو ذلك، أما الآن فالناس متمدنون متحضرون زعموا، ولذلك فهذه الصلاة إن فعلها فبها وإلا إن تركها فلا شيء عليه، هذا هو الكفر الذي يخرجه صاحبه من الملة، أما المسلم إذا قيل له: يا أخي صل، يقول: الله يتوب علينا، يعترف بفرضية الصلاة، ويعترف بأنه مذنب مع الله ﷻ، لكن يتعذر بأن الشيطان متسلط عليه، حب الدنيا محيطة بها فيقول: الله يتوب علينا، هذا لا يجوز تكفيره، والحديث الذي يستدل به في هذه المناسبة وهو قوله عليه السلام: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة، فمن ترك الصلاة فقد كفر» يفسر هنا فقد كفر على كفرين: كفر عملي، وكفر اعتقادي، من ترك الصلاة مؤمنًا بشرعيتها فكفره كفر عملي، ومن تركها جاحدًا لشرعيتها فهو يعمل عمل الكفار ويعتقد عقيدة الكفار، وهذا مرتد عن الملة وإلى جهنم وبئس المصير.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٥٢): سؤال: الحكم على المعين بالتكفير لمن يكون؟ أهو للعلماء أم لغيرهم؟ وما هي شروطه؟ وما هي موانعه؟

الشيخ: أولًا بلا شك، هذا الحكم يكون لأهل العلم وليس لأهل الجهل، وثانيًا: بعد تلك الكلمة التي كان فيها شيء من الطول وفرقنا بين الكفر الاعتقادي والكفر العملي، فالعالم الذي ليس لأحد سواه أن يتولى إصدار الحكم بتكفير مسلم لا شك أنه سيكون مستحضرًا لقسمي الكفر: الكفر الاعتقادي، والكفر العملي. فقبل أن يصدر حكمه بالكفر الاعتقادي يجب أن يدرس المسألة المتعلقة بالذي يراد تكفيره على ضوء: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى

نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥)، هذه الآية مهمة جدًا، ذلك لأن المسلم حقًا قد يخفى عليه حكم ما فيقع في الكفر المخرج عن الملة، لكن هو لا يدري ولا يشعر، ولذلك فلا يجوز أن نحكم على مسلم بعينه أنه كفر ولو كان وقع في الكفر كفر ردة إلا بعد إقامة الحجة عليه؛ لأنه {لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} (الأنعام:١٤٩)، {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥).

وهنا يحسن بي أن أذكر بحديث رغم كونه مرويًا في أصح الكتب بعد كتاب الله وهو صحيح البخاري مع ذلك فقلما تسمع هذا الحديث من عالم أو واعظ أو مرشد، مع أن له صلة قوية جدًا جدًا بمثل هذا السؤال، أعني بهذا الحديث قوله -عليه السلام-: «كان فيمن قبلكم رجل حضرته الوفاة فجمع أولاده حوله، فقال لهم: أي أب كنت لكم، قالوا: خير أبٍ، قال: فإني مذنب مع ربي، ولئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا شديدًا» كفر هذا ولَّا ليس بكفر؟ كفر؛ لأنه شك في قدرة الله ﷻ يصدق عليه قوله تعالى في آخر سورة يس: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} (يس:٧٨) إلى آخر الآيات، هذا الرجل قال: «ولئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا شديدًا؛ فإذا أنا مت فخذوني وحرقوني في النار، ثم اجعلوني قسمين، قسم ذروني في الريح، وقسم في البحر» لماذا؟ واضح، هه حتى يضل على ربه زعم، «فحرقوه بالنار، ونصفه من رماده ذروه في الريح، والآخر في البحر. فقال الله ﷻ لذراته: كوني فلانًا فكانت بشرًا سويًا، قال الله ﷻ: أي عبدي ما حملك على ما فعلت؟ قال: يا ربي خشيتك، قال: اذهب فقد غفرت لك» فنحن يجب أن نلاحظ هذا الذي نريد أن نصدر الحكم بالكفر عليه لعله معذور، لعله معذور، فنحاول إذًا قبل إصدار هذا الحكم أن نلتمس لكفره عذرًا، لا لنقره على كفره، وإنما لننقذ أنفسنا من

تكفيره، أظن في فرق كبير بين الأمرين.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٢٥٣): الشيخ: نسأل الله أن يمدنا بفضله وعلمه، الحقيقة محمد بن عبد الوهاب فضله كبير على الأمة الإسلامية، لكن فيه شيء من الغلو والشدة، وظهرت هذه الشدة ظهرت في الإخوان.

السائل: الذين حاربوا المذهب.

مداخلة: هناك من سماهم إخوان من عاهد الله.

الشيخ: كان فيه عندهم شدة، ويظهر أن هذه سنة الله في خلقه إلا من عصم الله وقليل ما هم، كما قال عليه السلام: «إن لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى بدعة فقد ضل» الجماعة كان عندهم شيء من الشدة أخذوها طبعًا من بعض نصوص محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، واستمر الأتباع إلى هذا العهد موصومون بهذه الشدة، وكنا نسمع نحن قديمًا أن هؤلاء النجديين يكفرون عامة المسلمين، أو يقولون عنهم خوارج .. إلخ، أنا لما بدأت أسافر إلى تلك البلاد تجلى لي في أتباعهم شيء من هذه الشدة، يكفي في ذلك أنه مجرد ما واحد يتوسل بالتوسل المبتدع عندنا جميعًا؛ أن هذا كفر وأشرك، ما ينبغي أن نقول رأسًا أنه كفر أو أشرك، يجب أن نستفصل القول أن هذا الذي يتوسل ماذا يعني، ماذا يريد، وإلا كفرنا وشركنا إمام من أئمة المسلمين، ألا وهو محمد بن علي الشوكاني، لأنه يقول بجواز التوسل، تعرف هذا أظن.

السائل: بالجاه؟

الشيخ: بالرسول، بعد موته.

السائل: بجاهه يا شيخ أم بذاته.

الشيخ: بذاته، أنا الآن ما أستحضر.

السائل: الظاهر بجاهه، وكذلك أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ جواز التوسل بجاه النبي.

الشيخ: لكن أما تشعر معي أن الوقوف عند هذه الألفاظ جمود؛ إذا توسل بالجاه يختلف عن التوسل بالذات، فالذي يتوسل بالجاه لا ينكر عليه، والذي يتوسل بالذات ينكر عليه؟

السائل: لا، ينكر على الاثنين.

الشيخ: طيب، فما حصيلة التفريق؟

السائل: التفريق أن هذا يكفر والثاني لا يكفر.

الشيخ: لماذا يكفر أحدهما دون الآخر؟

السائل: لأن الذات بذاته نهينا عن التوسل بالذات،

الشيخ: لا تطل علي الجواب، ستتعبني الآن، ما الفرق بين هذا التوسل فهو شرك، تقول: فيه عندهم دليل.

السائل: لا يا شيخ، لأن النص في النهي عن التوسل بالذات أجدى منه بالنص بالنهي عن التوسل بالجاه.

الشيخ: أين النهي، أين هذا النهي؟

السائل: أنه لا يستغاث به وإنما يستغاث بالله.

الشيخ: بحثنا في التوسل وليس بالاستغاثة.

ليس هناك نهي يا أستاذ، نهي صريح ليس هناك، لكن المسلم العالم حينما يتتبع السنة ونصوصها بالأمر بالتوسل باسم من أسماء الله، بصفة من صفات الله، بالعمل الصالح، يجد أن هذا التوسل مخالف لهذا التوسل المشروع، هذه

واحدة، والأخرى أن هذا التوسل بالمخلوق قد يؤدِّي إلى تعظيمه إن لم يؤدِّي إلى تأليهه، فإذا لم يؤدي إلى تعظيمه وتأليهه يكون هو مخالفًا للسنة.

السائل: قول الله سبحانه وتعالى: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} (الزمر:٣)، كانوا يقولون: {هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ} (يونس:١٨) أي: نتوسل بهم إلى الله ونستشفع بهم عند الله سبحانه وتعالى، هذا ليس نصًا في النهي؟

الشيخ: سبحان الله وأنت هاهنا بعد، ما علاقة هذه الآيات بالتوسل، التوسل أن يقول: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة أن تغفر لي، كيف {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} (الزمر:٣) هذا ما يعبد، هذا يعبد الله ويدعو الله، لا يدعو غير الله، لكنه يجعل واسطة بينه وبين الله ﷻ أن يتقبل دعاءه.

السائل: وهذه الواسطة البدعية يا شيخ عاب الله سبحانه وتعالى عليهم ...

الشيخ: وأنا قلت ماذا.

السائل: معك أنها بدعية أنا معك.

الشيخ: لكن سألتني كيف تكون معي على شيء وتسألني؟

السائل: تريد مني دليلًا على عدم مشروعية التوسل.

الشيخ: الله أكبر.

السائل: أقصد على النهي.

الشيخ: أي نعم، على النهي الذي يؤكد أنه مخالف للسنة، والآن تورط حالك الآن، اثبت لي أنه شرك؟

السائل: أيش يا شيخ.

الشيخ: أنه الذي يقول في دعاؤه: اللهم إني أسألك بنبيك محمد -صلى الله

عليه وآله وسلم- أن تغفر لي، تقول: هذا مشرك، يعني: كتارك الصلاة؟

السائل: الذي يتوسل بالنبي عليه الصلاة والسلام.

الشيخ: الله أكبر، أنا أحكي أقول: يقول في دعائه كذا، أسألك بنيك ... هذا مشرك كتارك الصلاة؟

مداخلة: ياشيخ هذا التفريق بين الذات والجاه تذكر شيئًا عن أحد قال به قط.

الشيخ: سنصل، لكن هو قفز قفزة الغزلان يا أستاذ علي، نقلنا من موضوع مشروع أو غير مشروع إلى أنه كفر، وهذا من الغلو يا جماعة، هذا الذي نشكو منه.

{مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} (الزمر:٣) هذا قول المشركين، أظن أول الآية: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} (الزمر:٣) الآن نتساءل: كيف كانت عبادة المشركين لآلهتهم ولأوليائهم كما في هذه الآية، ماذا كانوا يفعلون؟

السائل: من الذبح والطواف ..

الشيخ: جميل، فواحد مثل الشوكاني فعل شيئًا من ذلك؟

السائل: لا.

الشيخ: قل لا، فإذا قال واحد مثل الشوكاني أنا أقول مثل حتى ما تدندن حول الشوكاني، إذا قال واحد مثل الشوكاني: اللهم إني أسألك بمحمد أن تغفر لي. هل ذبح له .. إلخ.

السائل: لا لم يذبح.

الشيخ: هل هذا مشركًا.

السائل: لا، ليس مشرك.

الشيخ: هل يجوز الاستدلال عليه بالآية السابقة؟

السائل: لا.

الشيخ: هذا الذي تفعلونه، وهنا يكمن الخطأ، فيجب لما تبحثون هذه البحوث الخطرة الدقيقة [أن] تفرقوا بين من عمله كله شرك فيقال: هذا توسل منه من هذا النوع، لأنه الإنسان يندفع حسب العقيدة والأفكار التي هو متشبع بها، فإذا كان إنسان زيد من الناس متشبع بأنه لا يذبح إلا لله، ولا ينذر إلا لله، ولا يطاف إلا ببيت الله، ولا يدعى عند الشدائد إلا الله، قل ما شئت من السلبيات، لا لا لا لا .. إلخ ما هنالك، لكن نقول: أنا أعتقد أنه يجوز أن نقول: يا الله اغفر لي بجاه محمد، أسألك بمحمد أن تغفر لي، ما وجه الاستدلال على هذا أنه مشرك لأن الله يقول على لسان المشركين: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} (الزمر:٣) وهو لا يعبدهم؟

السائل: الآية الثانية طيب.

الشيخ: هاتها.

السائل: {هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ} (يونس:١٨).

الشيخ: هو لا يقول هؤلاء شفعاؤنا عند الله، هو يسأل ويتوسل، فإما أن الله يستجيب وإما أن لا يستجيب، فهذا ليس كقول المشركين الجازمين بأن هؤلاء الآلهة التي لا حقيقة لها أنهم شفعاؤهم عند الله تبارك وتعالى.

مداخلة: دقيقة جدًا هذه ......

السائل: وإذا اعتقد أن هذا الولي ..

الشيخ: إذا اعتقد رجعنا للكفر الاعتقادي والكفر العملي، وهذا الذي نريده

نحن منكم أنكم تفرقون بينهما، ... الشوكاني أعتقد نريد نحكي عن شخصه، أعتقد أنك لا تخالفنا حينما نقول: أنه له فضل كبير في نشر التوحيد في اليمن، وإن كان الفضل الأول يعود إلى صاحب الفضل الأول محمد بن عبد الوهاب، وكل ذلك يعود إلى محمد بن عبد الله، فما نعتقد أن الشوكاني كان في نفسه شيء من الكفر الاعتقادي، لا، أنا ما أريد، ولكن اجتهد وظن أن حديث الأعمى ساري المفعول بعد وفاة الرسول عليه السلام، فقال بجواز التوسل على النحو الذي قيل عن الإمام أحمد، ولو أن الإمام أحمد ذكر لفظة الجاه، والآن نريد نرى ما الفرق عندكم بين التوسل بالجاه أو بالذات، ما الفرق؟ التوسل بالذات التوسل بمخلوق، أليس كذلك؟

السائل: نعم.

الشيخ: والتوسل بجاه المخلوق توسل بخالق أم بمخلوق؟

السائل: توسل بمخلوق.

الشيخ: ما الفرق؟

السائل: الفرق أن هذه الذات كالأحجار يعني: أشياء حسية. أن الذات توسل بذاته بشيء حسي مشاهد ومحسوس.

الشيخ: من الذي يتوسل.

السائل: المتوسل بالذات متوسل بشيء محسوس، والمتوسل بالجاه متوسل بشيء معنى.

الشيخ: ليس صحيحًا أبدًا.

السائل: الجاه معنوي يا شيخ أم محسوس؟

الشيخ: لكن معنى قائم في ذات في جماد أم لا؟

السائل: معناه قائم بذاته.

الشيخ: منفصل عن الذات؟

السائل: لا لا ينفصل.

الشيخ: فإذًا: لماذا أنت تفصل ذهنيًا والواقع عمليًا ليس كذلك.

مداخلة: والدلالة على الذات.

الشيخ: صفات الله ليست عين ذاته، ولا سواه لا انفصال، تعرف هذه الفلسفة؟

مداخلة: من هذا قائلها.

الشيخ: صاحب قصيدة «بدء الأمالي».

مداخلة: «بدء الأمالي» مالكي هذا.

الشيخ: لا، أظنه حنفيًا، صفات الله ليست عين ذات ولا غير سواه لا انفصال، المهم الجاه هذا مفصول عن الإنسان؟

السائل: لا.

الشيخ: فإذًا: مثلما نقول عندنا في الشام: كل الدروب على الطاحون، مشيت هكذا أو هكذا أين توصله، يلتقوا في الطاحون، فإن قلت الذات أو قلت الجاه كلهم يدلون على توسل غير مشروع، لكن هنا يظهر ... العصبية للأشخاص، ما دام الإمام أحمد قال بجواز التوسل بالذات، والإمام أحمد إمام السنة.

السائل: بالجاه.

الشيخ: عفوًا بالجاه، والإمام أحمد إمام السنة، إذًا: لازم نفرق بين ما نقول من الكفر بالتوسل بالذات وبين من يقول بالتوسل بالجاه؛ لأن إمام السنة قال: بجواز التوسل بالجاه دون التوسل بالذات. يا أخي ما فيه فرق بين هذا وهذا،

قولها صراحة الإمام أحمد قالها اجتهادًا، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد.

السائل: نحن نعتقد أنه أخطأ، هم يعتقدون هذا يا شيخ.

الشيخ: لكن يفرقون، يقولون: إنه فيه فرق بين توسل بالذات وتوسل بالجاه، أنا أقول: ما فيه فرق النتيجة واحدة، لكن فرق بين أن يقول هذا أو ذاك ما يقوله تعصبًا وتمسكًا بما وجد عليه الآباء والأجداد أو يكون عن قناعة نفسية، كما قال الشوكاني، ما تذكرون ماذا قال الشوكاني، هل قال بالتوسل بالذات أم بالجاه.

مداخلة: أظن شيخنا ... بالجاه يا شيخ.

الشيخ: ما أعتقد، انظر هذا الكتاب.

السائل: هم يقولون ..

الشيخ: فيه هنا كتاب الظاهر في هذا الصف.

السائل: وحق السائلين يا شيخ، هم يقولون يا شيخ أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنده شبهه في حاله الحديث، لكن الذين يتوسلون بالذات ما عندهم شبهة.

الشيخ: لا، بالعكس القضية.

السائل: يقولون عنده شبهة.

الشيخ: بالعكس العكس، الذي يقول بالذات شبهته الحديث، أما الجاه ما فيه حديث حوله.

السائل: الظاهر: اللهم إني أسألك بحق ممشاي هذا وحق السائلين عليك. وفي رواية أخرى: وبحق نبيك .... فيقولون: إن الإمام أحمد بن حنبل صححها وهي ضعيفة، فهو مخطئ، ولكنه لأنه ظن أن هذا الحديث صحيح.

الشيخ: أين الإمام صحح الحديث.

السائل: يعني: عمله به يا شيخ.

الشيخ: هذا خلاف أصول الحديث.

السائل: العمل يعني به؟ ...

الشيخ: عرفت هذا؟

السائل: نعم.

الشيخ: الحمد لله. ماذا يقول؟

مداخلة: يقول تحت عنوان: وجه التوسل بالأنبياء وبالصالحين، قوله: ويتوسل إلى الله سبحانه بأنبيائه والصالحين أعني ابن الجزري.

الشيخ: هذا من يقول هذا.

مداخلة: ابن الجزري.

الشيخ: نكفره ..

مداخلة: أقول: ومن التوسل بالأنبياء ما أخرجه الترمذي

الشيخ: ...

مداخلة: أي نعم، وأما التوسل بالصالحين فمنه ما ثبت في الصحيح أن الصحابة استسقوا بالعباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عم رسول الله عليه الصلاة والسلام، لكن شيخنا يبدو والله أعلم أن فيه العبارة أصرح في «الدر النضيد»، هذا قائم في ذهني، له «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» له عبارة أصرح، مع أنه يشدد النكير فيها على الاستغاثة لكن تكلم فيها بمثل هذا الكلام أوسع قليل.

الشيخ: ... كان ينكر.

مداخلة: لا لا ينكر، قصدي التفريق بين الذات والجاه.

الشيخ: لا، خلينا احنا مع عبد الله يا عبد الله، خلينا مع عبد الله، لأنه هو يقول بالتفريق، هنا يحكي عن التوسل بالذات، فالتوسل بالذات هو الذي يقول بجوازه الشوكاني، الشوكاني هنا تبعًا لابن الجزري يقول بالتوسل بالذات، هم يفرقون كما سمعت من صاحبك آنفًا بين التوسل بالذات وبين التوسل بالجاه، وحديث الأعمى هو أقرب إلى دلالته على التوسل بالذات من التوسل بالجاه، لأنه هو التوسل بالجاه ليس مذكور إطلاقًا في الحديث لا في السياق ولا في السباق، لذلك قال بالتوسل هو وابن الجزري وغيره، فالآن يستدل هو بحديث الأعمى، وكأنه استدرك على نفسه أنه ليس الاستدلال بحديث الأعمى وإنما بحديث دعاء الخروج إلى المسجد، الذي يستدل به الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وبهذه المناسبة قامت زوبعة ضدنا ... حول كلمتنا حول محمد بن عبد الوهاب لا تزال قائمة.

السائل: بردت قليلًا.

الشيخ: سبحان الله! فحديث: اللهم إني أسألك بحق السائلين. أيضًا هذا ليس فيه لا الذات ولا الجاه، ولذلك أمكن تأويل هذا الحديث لو صح إلى ما لا يتنافى مع التوسل المشروع، لأنه كما قيل بأنه حق المتوسلين أو السائلين هو استجابة من الله، فرجع الأمر إلى صفة من صفات الله، لكن الجاه له علاقة بالإنسان كما قلنا، فلا يصح الاستدلال بهذا الحديث على جواز التوسل بجاه الإنسان المخلوق، لو صح لكنا نحن أول القائلين به، ومع شرط الفهم على الوجه الصحيح، والرد به على المستدلين به على التوسل بالمبتدع، لأن هذا ليس فيه توسلاً مبتدعًا، إنما هو توسل بحق السائلين وحق ممشاي، هذا هو الأجر والثواب عند الله تبارك وتعالى.

إذًا: يا شيخ عبد الله التفريق بين هذا وهذا لا محل له من الإعراب.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٣٢٧): السائل: بالنسبة لقول الله تبارك وتعالى: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} (البقرة: ٢٥٦)، وقول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله»، فكيف نجمع بين الآية والحديث؟

الشيخ: ألا تعلم أن هناك ثلاثة أحكام في الشرع، إما الإسلام، وإما الجزية عن يد وهم صاغرون، وإما القتال، تعرف هذا؟

السائل: نعم، أعرف.

الشيخ: فإذًا لا تقف عند حديث واحد، خذ الأحكام مجموعة من الأحاديث، فإذا كنت تعلم أن هناك جزية ومعنى ذلك أن الكافر يبقى على دينه، فلا يتعارض حينئذ مع قوله تعالى: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} (البقرة: ٢٥٦)، إنما يكره على دفع الجزية إذا اختار البقاء على دينه، واضح؟

السائل: نعم

الشيخ: فإذًا، لا تعارض.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٥/ ٥٥٩): ما تقول فيما ورد في أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بإسناد صحيح يروي عن أبيه أن أبا حنيفة استتيب من الكفر مرتين، وأشياء كثيرة من هذا القبيل؟

الشيخ: هذه كلمة مبهمة .. مطلقة، لم يذكر فيها نوع الكفر الذي استتيب منه، فقد يكون كفرًا بإجماع الأمة وهذا مستحيل بالنسبة لأبي حنيفة، وقد يكون كفرًا بالنسبة للبعض دون البعض، ولذلك فنسبة هذا النص المطلق لا يجوِّز اتهام أبي حنيفة بالكفر الذي هو يساوي الردة، نحن نعلم مثلًا أنه قد روي عنه

في بعض الروايات أنه كان يقول بخلق القرآن، فخلق القرآن صحيح أنه ضلالة وأنه مذهب المعتزلة ومذهب الخوارج، ولكن ذلك لا يعني أنه يكفر ويخرج من الملة، فإذا صح السند عن إمام بما يثلب أحد العلماء المشهورين ويطعن فيه فنحن لا نطعن بالإمام أحمد ... كما يقول متعصبة الحنفية، أن هذا من باب الطعن بمعاصرة المعاصر له، وإنما نقول أن هذا الكفر لم نعرف ما نوعيته كما ذكرت آنفًا، ثم أن أبا حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ في ... الجرح لا مجال لأحد أن يتجرد عن العصبية المذهبية أن يرد كل أقوال الطاعنين فيه بحجة أن أبا حنيفة إمام من أئمة المسلمين، ومن الأئمة الأربعة المتبعين، لا شك أنه كذلك هو من أئمة ولكن ليس من الضروري أن يتوفر في كل إمام كل الخصال المميزة له على غيره، فأبو حنيفة متميز تميزًا لا نناقش فيه أحد وفقهه وفهمه واستنباطه للأحكام الفقهية، وإن كان له في بعض ذلك شيء من الاعتماد والرأي، وهذا من المآخذ عليه أيضًا، لكن ذلك لا يعني أن نحكم بكفره.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٥/ ٥٥٨): لا شك أن الإباضية وكل من دان برأيهم وبعقيدتهم في أن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ مخلوق، ومن ذلك هذا القرآن المعجز مخلوق، وكذلك من نفى إنكار رؤية المؤمنين لرب العالمين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، لا شك أن هؤلاء المنكرين لكون القرآن كلام الله حقيقة وليس مخلوقًا، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ يمتن على عباده المؤمنين فيتجلى لهم يوم القيامة، ويوم يدخل المسلمون الجنة، هذا الإنكار فيه ضلال واضح جدًا، وأما أن هذا الضلال كفر ردة عن الدين أو لا، نقول: من تبينت له الحجة ثم أنكرها فهو كافر مرتد عن دينه، لكن من أنكر ذلك فهو في ضلال، ونحن لا يهمنا أن نقول فلان من الناس أو الطائفة الفلانية من الناس هم كفار، حسبنا أن

نقول هم ضلّال؛ لأن المقصود هدايتهم وأن يعرفوا أنهم على خطأ وعلى ضلال حتى يعودوا إلى الصواب .

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٥/ ٥٦٠): السؤال: الصوفية حديثة عهد في بلدنا، بماذا تنصحنا؟

الشيخ: الصوفية فيها خلاف قديم جدًا بين المسلمين، المسلمين بالمعنى العام كما شرحناه آنفًا، والحقيقة أن لهذا الاسم التصوف والذين ينتمون إليه الصوفية أو المتصوفة معاني كثيرة ومختلفة، نحن نعلم لمخالطتنا لكثير من هؤلاء، أنهم حينما تقام عليهم الحجة فهم يقولون: التصوف ليس إلا التمسك بالأخلاق التي كان عليها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، ومنها مثلًا: الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، هكذا يقولون حينما تقوم عليهم الحجة، وحينئذ نحن نقول إن كان التصوف هو هذا بزعمكم، فيبقى الخلاف بيننا وبينكم لفظيًا، ارفعوا كلمة التصوف؛ لأنها أصبحت كلمة لها معاني كثيرة وكثيرة جدًا، بعضها ومنها ما ذكرنا عنهم آنفًا التمسك بالأخلاق الكريمة والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، ليس هناك ضرورة أن نطلق هذا الاسم المشكوك في المراد منه على هذا الأمر المتفق عليه من التمسك بأخلاق الرسول عليه السلام والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، لكن الحقيقة أن لمفهوم التصوف معاني أبعد بكثير عن هذا المعنى الصحيح، ثم هذا البعد تارة يخرج صاحبه من دائرة الإسلام، وتارة يلحقه بفرقة من الفرق الضالة، أما الحالة الأولى فأولئك هم الذين يؤمنون بما يعرف عند أهل العلم بعقيدة الوحدة، أو وحدة الوجود بالتعبير الأوضح، وحدة الوجود تعني -هنا إلحاد بعينه- تعني الطبيعة بتعبير علماء الطبيعة، أي: لا شيء إلا المادة، حيث يقول قائلهم: كل ما تراه بعينك

فهو الله.

إذًا: فهي المادة، كل ما تراه بعينك فهو الله! ويقول آخر:

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما الله إلا راهب في كنيسة

ويقول ثالث: العبد رب والرب عبد فليت شعري من المكلف؟

إن قلت عبد فذاك نفي أو قلت رب أنى يكلف؟

والرابع يقول:

لما عبد المجوس النار ما عبدوا إلا الواحد القهار

هذه كلها عبارات مسطرة في كتبهم التي يتبركون بها، فمثل هذه العقيدة تخرج صاحبها من دائرة الإسلام؛ لأنها عقيدة أكفر من عقيدة اليهود والنصارى، وهذا يذكرني بقول أحد غلاتهم، حيث قال: إنما كفر اليهود والنصارى؛ لأن اليهود حصروا الله في العزير، أما النصارى فحصروا الله في الآب والابن والروح القدس، أما نحن أي: هم، قال: فقد عممناه في كل شي، ولذلك فمن ذكرهم ليس ذكرهم ذكر المسلمين كما قال عليه السلام: «أفضل الذكر لا إله إلا الله» ذكرهم: هو هو. ويقولوا في بعض العبارات التي مع الأسف تلقفها بعض العامة عندنا في سوريا، تجد الواحد جالسًا يريد أن يذكر الله فيقول: ما في غيره. ماذا يعني بما في غيره؟ في خالق وهناك مخلوق.

فهذه عقيدة وحدة الوجود تلت في ألفاظ بعض الناس، لكنهم لا ينتبهون إلى ضلالها، ومثلها تمامًا قول كثير من الخاصة والعامة: الله موجود في كل الوجود، الله موجود في كل مكان، .. عقيدة وحدة الوجود، لكنها مع ذلك عقيدة الأشاعرة والماتريدية في آخر الزمان، الله موجود في كل مكان، هذا مكان، الله موجود هنا، ما هو الموجود؟ زيد وبكر وعمرو ومادة وحيطان وهواء .. إلى

آخره، الله هنا؟!

{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه:٥)، هذه عقيدة السلف الصالح.

فهذا النوع من التصوف هو أكفر الكفر الذي وجد على وجه الأرض.

هناك نوع دونه وهو الذي انحرف في سلوكه عما كان عليه الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- من تحميل النفس ما لا تطيق، باسم تربيتها، وهنا نحن نقول: لسنا نحن بصفتنا مسلمين، لسنا بحاجة أبدًا إلى وسيلة نتلقاها من طريق غير طريق نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم-، لنربي بها أنفسنا، كيف وفي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في المسند، وغيره في غيره من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله تعالى عنه، «أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- رأى ذات يوم في يد عمر بن الخطاب صحيفة يقرأ فيها، قال: ما هذا يا عمر؟ قال: هذه صحيفة كتبها لي رجل من اليهود، فقال عليه الصلاة والسلام: يا ابن الخطاب! أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟! والذي نفس محمد بيده! لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي».

إذًا: إذا كان موسى كليم الله والذي أنزل الله عليه التوراة مباشرة لو كان أدرك النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يسعه أن يتبع توراته، بل لا يسعه إلا أن يتبع نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم-.

إذًا: كيف بنا نحن اليوم باسم الإسلام الصوفي نربي أنفسنا على طريقة من الحمل عليها بزعم تهذيب النفس الأمارة بالسوء بالتشديد عليها، لهم قصص عجيبة وغريبة جدًا، كان أحدهم، وهذا في بعض القرون الأولى المشهود لها بالخيرية، أما فيما بعد في عهد الشعراني، وما أدراك ما الشعراني فحدث ولا حرج، لكن في العهود الأولى حيث بدأ التصوف يذر قرنه، كان فيهم من يلبس

أغلظ الثياب، ثم ينغمس في نهر دجلة أو طلاء الفرات في اليوم البارد الشديد البرودة، ثم يصعد فيقف على سطح الدار، تلفحه الرياح الباردة، ما هذا؟ قال: تهذيبًا للنفس.

هذا ليس تهذيبًا، هذا تعذيب، والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي قال بحق، ونحن بحاجة لنعرف أثر هذه الكلمة في حياتنا العلمية الإسلامية اليوم: «ما تركت شيئًا يقربكم إلى الله إلا وأمرتكم به، وما تركت شيئًا يبعدكم عن الله ويقربكم إلى النار إلا ونهيتكم عنه» ومن ذلك حديثان في صحيحي البخاري ومسلم أحدهما من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: جاء رهط إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فلم يجدوه، وسألوا أهله عن عبادته، عن قيامه في الليل وقيامه في النهار، وقربانه للنساء، فتحدثن بما يعلمن وقلن: إنه عليه السلام يصوم ويفطر، ويقوم الليل وينام، ويتزوج النساء. قال أنس: فلما سمعوا ذلك تقالوها، أي: وجدوا عبادة الرسول عليه السلام قليلة؛ لأنهم كانوا يتصورون رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ينام الليل؟! لازم أن يقوم الليل كله. كذلك يفطر؟! لا بد أن يفطر الدهر كله، كذلك يتزوج النساء؟! وبعض الناس يقولون: ضاع العلم بين أفخاذ النساء. كيف الرسول يتزوج أربع، يتزوج تسعة وزيادة، فوجدوا عبادته عن الكلام قليلة، لكن رجعوا إلى أنفسهم قالوا: هذا رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

الحقيقة هذا الكلام يخرج من أناس أفهم من بعيد أنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام، لأنه ليس من الممكن من إنسان فهم نبيه عليه السلام في كماله السامي الذي لا مثل له، يقول: لماذا يتزوج الرسول، ولماذا ينام؟ ولماذا يفطر؟ الله غفر له، ماذا يريد أكثر من هكذا. لا ينبغي أن يقال هذا الكلام، لكن هكذا

وقع.

المهم، فرجعوا إلى أنفسهم، قالوا: هذا رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

إذًا: نحن لا بد أن نكد ونتعب ونتعبد لله حتى يغفر لنا الله.

ما هو السبيل في زعمهم؟

قال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر لا أفطر أبدًا.

قال الآخر: أما أنا فأقوم الليل ولا أنام.

وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء.

وانصرفوا، بعد قليل جاء الرسول عليه السلام فأخبر الخبر، خطب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- خطبة وجيزة فقال: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا وكذا، أما إني أتقاكم لله وأخشاكم لله، أما أني أصوم وأفطر، وأقوم الليل وأنام، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» .

هنا الشاهد: «فمن رغب عن سنتي فليس مني» فهؤلاء الصوفية الصالحين قديمًا لا أعني عن جماعة الشعراني وأمثاله ووحدة الوجود، لا، هؤلاء حادوا عن هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فجاءوا بأساليب بوذية هندية قديمة، توارثوها، ولعلهم كانوا من الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام ولما يفقهوا الإسلام بعد، فجاءوا بطريقة تعذيب النفس بزعم تصفيتها، وهذا هو نبيكم -صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: «فمن رغب عن سنتي فليس مني».

ثم إنه عليه السلام طبق هذا النهج في بعض أصحابه حينما بلغه عن عبد الله بن عمر بن العاص صحابي ابن صحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بلغه أن أباه زوجه بفتاة من قريش، فدخل عليها يومًا فسألها عن زوجها، فقالت له: ما به من بأس إلا أنه لم

يطأ لنا بعد فراشًا، إنه قائم الليل صائم النهار، أي: تزوج وما تزوج. فصعب الأمر على عمر وشكا ابنه إلى نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال له عليه الصلاة والسلام: يا عبد الله! بلغني عنك أنك تقوم الليل وتصوم النهار ولا تقرب النساء، قال: قد كان ذلك يا رسول الله! وهنا الحديث فيه طول وأختصره فأقول: إن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وضع له منهجًا ليتعبد الله فيه ويجمع كما يقولون اليوم بين حق الجسم وحق النفس من جهة، وحق الروح من جهة أخرى، أي: العبادة، فقال وقد كان يقوم الليل كله

يختم القرآن، ويصوم الدهر، قال بالنسبة لقراءة القرآن هذا في نهاية المطاف، والقصة طويلة، قال: اقرأ القرآن في ثلاث ليال، فمن قرأ القرآن في أق ل من ثلاث لم يفقه.

وفيما يتعلق بالصيام قال له في أول الأمر: صم من كل شهر ثلاث أيام، والحسنة بعشرة أمثالها، فكأنهما صمت الشهر كله، فكان يقول: يا رسول الله! إني شاب إن بي قوة، إنني أستطيع أكثر من ذلك، وتلاحظون هنا الفرق بين ذاك الجيل وجيلنا اليوم، شاب في مقتبل العمر زوجه أبوه بفتاة من قريش يعرض عنها ويقوم الليل ويصوم النهار و .. إلى آخره، وعندما يقول له الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- هون على نفسك يقول له: يا رسول الله! أنا شاب، أنا قوي، أنا أستطيع أكثر من ذلك، اليوم على العكس من ذلك ينشأ شاب في طاعة الله تجد الصادين من حوله القريب والبعيد، أولًا الأب وثانيًا الأم يقولون له: ما زلت شابًا تعبد فيما بعد، انظر الفرق بين ذاك الزمان وهذا الزمان.

الشاهد قال له في نهاية المطاف: صم يومًا وأفطر يومًا، فإنه صوم داود عليه السلام، وكان لا يفر إذا لاقى، قال: يا رسول الله! إني أريد أفضل من ذلك، قال:

لا أفضل من ذلك.

فأين هذه الصوفية الزاهدة الزاعمة، مخالفة للكتاب والسنة.

فإذًا: ما كان من التصوف مفسرًا بما يوافق الكتاب والسنة حقيقة فحينئذ ارفعوا هذا الاسم ونبقى على الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، وما خالفهما فنحن نضرب بذلك عرض الحائط.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٥/ ٥٦٦): يقول السائل: ذكرتم .. أن المعتزلة لا يكفرون، فكيف ذلك وهم يقولون بخلق القرآن وغيره من الأمور العقدية المخالفة، فما هو الضابط في قضية الكفر؟

الجواب: نعم، هذا سؤال مهم.

الحقيقة أن هناك شيئًا وسطًا: لا يلزم من وقوع الإنسان في الكفر أن يقع الكفر عليه، ليس كل من وقع في الكفر وقع الكفر عليه، لكن إذا أردنا أن نقول: إنه كفر وارتد عن الدين فلا بد من إقامة الحجة عليه حتى تتجلى له الحقيقة وتزول عنه الشبهة التي كانت هي السبب في انحرافه عن الحق الذي جاء به الشرع وخالفه فوقع في الضلال المبين.

هذا الجواب يشمل كل الفرق الإسلامية التي لا تزال مسلمة معنا، لا تنكر شيئًا من الأحكام المتعلقة بالإسلام، يعني الأحكام العملية.

فما دام مسلمًا لا ينكر ما هو ثابت من الدين بالضرورة - كما يقول الفقهاء - فهو مسلم ولو ضل سواء السبيل في بعض الأفكار أو في بعض العقائد، فمن أنكر - كما قلنا عن المعتزلة وغيرهم من الجبرية وأمثالهم من المبتدعة قديمًا وحديثًا، حديثًا اليوم جبرية ما شئت من المسلمين جبرية، يقول لك: ما في فائدة، الإنسان مجبور، وكلمة سائرة على الألسنة يمكن كلكم يشترك في

معرفتها، الإنسان مسير وإلا مخير؟ ويش يقولون؟ مسير، أيش هو معنى مسير؟

مداخلة: مجبور.

الشيخ: يعني مجبور. فإذًا أمة يغلب عليها هذه العقيدة أن الإنسان مسير ما هو مخير مش ممكن أنها تنهض، بدها علاج بدها تصحيح المفهوم. هل نكفر هؤلاء؟ نقول: لا. لماذا؟ لأنهم يعيشون في جو جاهلي الحقيقة.

نرجع للمعتزلة الموجودين اليوم، كثير منهم بيقول لك: أن الإنسان مش معقول أن الله يكتب عليه أنه شقي وبعدين أيش يعذبه، فأنكروا الكتاب الإلهي السابق، قال تعالى: {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ} (القمر:٥٣) يعني: مسجل.

{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} (الأنعام:٣٨) الكتاب هنا ليس كما تسمعون أحيانًا من بعض الكتاب المعاصرين يعني القرآن، ويريدون [أن] يتفاخروا على سائر الأديان بباطل، والمسلمون ليسوا بحاجة إلى مثل هذا الافتخار بالباطل حين يقولون: أن القرآن كل شيء مذكور فيه.

{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} (الأنعام:٣٨) الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ، الكتاب في هذه الآية هو اللوح المحفوظ وليس القرآن الكريم.

القرآن الكريم بشهادة أهل السنة والجماعة ليس فيه كل شيء مما يتعلق بإصلاح عبادة الإنسان وسلوكه، وإنما تمام ذلك في سنة نبيه، كما قال عليه السلام في الحديث الصحيح: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض».

فإذا كانت السنة متممة للقرآن فكيف يقال: إن القرآن فيه كل شيء من الاختراعات والابتكارات وعلم الفلك والجغرافيا وو، هذه مبالغة ليس الإسلام بحاجة إليها أبدًا.

{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} (الأنعام:٣٨) أي: اللوح المحفوظ، فالناس اليوم ينكرون هذه الكتابة ويتوهمون شيئًا آخر وهو الذي وقع فيه المعتزلة: أن القدر الإلهي هو العلم الإلهي، بينما القدر ليس هو العلم الإلهي كالكتابة، القدر مشتق من التقدير من تفصيل كل شيء ووضعه في مكان لائق به، فالقدر الإلهي هو فعل الإله ﷻ، لكن حسب العلم الإلهي الأزلي.

كذلك الكتابة، كتب كل شيء في اللوح المحفوظ كما جاء في الحديث الصحيح: «لما خلق الله القلم، أو أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة» هذه عقيدة المسلمين كافة، إلا المعتزلة يقولون: لا قدر، لا كتابة. إذًا: ليس فقط إلا العلم الإلهي.

الحقيقة أنهم حينما يؤمنون بالعلم الإلهي من جهة يجعلهم في دائرة الإسلام، لكن من جهة يخرجون عن الإيمان - كما قلنا آنفًا - بعض الخروج بإنكارهم التقدير الإلهي والتسطير الإلهي والكتابة الإلهية.

لكن من عجائب عقولهم: أنهم ما استفادوا شيئًا من تعطيل هذه النصوص التي قصدوا بهذا التعطيل تخليص جماهير الجبريين من الجبر، ما استفادوا شيئًا، لماذا؟ لأن الذي قدره الله وفق علمه ولأن الذي كتبه الله هو وفق علمه، فإذًا بزعمهم الجبر لا يزال ملازمًا لهذا الإنسان المخلوق.

إذا رفعنا الآن من أذهاننا كما يريد المعتزلة لا كتابة ولا قدر، طيب. ألم يسبق في علم الله أن فلانًا من أهل النار؟ مثلًا: أن إبليس هو في أسفل الدرك من النار؟ نعم، سبق في علم الله.

طيب. هل يستطيع ألا يفعل ذلك؟ نفس الشبهة هم يوردونها على أهل السنة حينما يقولون بالقدر ويقولون بالكتابة، الشبهة واردة عليهم أيضًا، لأن

الكتابة لا تزيد على أكثر مما في العلم الإلهي.

بلا تشبيه، إنسان منا عنده فكرة أجى كتبها، الكتابة هذه ما زادت على ما في فكره وفي عقله فهي تبقى هذا الفكر، فما أدت بشيء جديد إلا لماذا يكتب أحدنا الآن؟ ليبين للناس الحقيقة التي في مخه.

بلا تشبيه، ربنا ﷻ أراد أن يبين ما سبق في علمه فقدر كل شيء وكتب كل شيء، وذلك لتأكيد أن الله ﷻ على كل شيء قدير.

إذًا: الجواب لإبطال شبهة الجبر ليس هو بإنكار الكتابة والقدر وإنما بأن نلاحظ شيئًا واحدًا وهو: أن ندرس طبيعة هذا الإنسان الذي خلقه ربنا ﷻ في أحسن تقويم، هل هو فعل المجبور؟ أو بالتعبير العامي: هل هو ميسر ما هو مخير؟

الجواب: لا يصح أن نقول كما يقولون، الإنسان مسير ما هو مخير، ولا يصح العكس أيضًا أن نقول: الإنسان مخير ما هو مسير، وإنما نقول: إنه تارة يكون مسيرًا أي: مجبورًا، وتارة يكون مخيرًا مختارًا، فلا نطلق لا سلبًا ولا إيجابًا، لا نقول كما تقول العامة: مسير ما هو مخير، ولا العكس نكاية في العامة نقول: لا، هو مخير ما هو مسير، لأن الواقع يشهد أن الإنسان تارة مسير وتارة مخير.

بدليل حينما يكون الإنسان في أي شيء ما صدر منه، لوحظ في ذلك أنه كان مجبورًا، كان مسيرًا من الغير وهو رب العالمين ولم يكن مخيرًا هل عليه مسئولية عند الله تبارك وتعالى؟ لا مسئولية. لماذا؟ لأنه ثابت كتابًا وسنة وعقلًا: أن المسئولية والجبر لا يجتمعان، كما قال الجبري المقيت واصفًا ربه ﷻ بما لا يصح أن نصف به جبارًا ظالمًا مبيرًا، قال في الله واصفًا علاقة العبد مع ربه:

ألقاه في اليم مكتوفًا ثم قال له إياك إياك أن تبتل بالماء

هكذا الإنسان مع رب الأنام؟ حاشا لله ﷻ.

قال بصريح القرآن: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} (الكهف:٢٩).

قال الرسول: «من أراد الحج فليتعجل، ومن أراد أن يضحي ودخل عليه عشر ذي الحجة فلا يأخذن من شعره وظفره» إلى غير ذلك من النصوص.

إذًا: الإنسان له إرادة، له اختيار، فإذا سلبت منه هذه الإرادة رفع عنه التكليف، وإذا ثبتت هذه الإرادة وهذا الاختيار ترتب من ورائه التكليف.

فإذًا: الإنسان تارة يكون مسيرًا وتارة يكون مخيرًا، الذي يقتل إنسانًا خطًا هذا مسير، رمى عصفور، رمى غزال، رمى أرنب راحت الرصاصة وصابت أيش؟ وراء الأكمة مزارع يعمل في الأرض هذا قتل خطأ، لا يقول لهذا الإنسان رب العالمين: لماذا قتلت فلانًا؟ لأنه غير مختار.

وعلى العكس من ذلك الذي يُبَيِّتُ قتل زيد من الناس ويتخذ الأسباب ويعزم على قتله ويقتله كما يقولون اليوم في لغة المحامين: عن سابق إصرار وترصد. نعم.

هذا يستوي مع ذاك؟ لا يستويان مثلًا، هذا سيقول رب العالمين: لم قتلت فلانًا؟ ولم عزمت على قتله؟ وسيحاسبه حسابًا عسيرًا جدًا.

فكل نصوص الشريعة فضلًا عن العقل الفطري السليم يحكمان معًا على أن الإنسان تارة يكون مختارًا وتارة مجبورًا، فلما يقول لك الجبري: لا قدر، كيف لا قدر يا أخي؟ هذا أرغم وقتل إنسان خطًا هذا هو القدر، لكن أين الذي قتل الإنسان بإرادته وبسابق ترصد؟ هذا أيضًا بقدر، لكن الذي أردت بهذه الأمثلة أن أقول: كتب الله على فلان هكذا في اللوح المحفوظ بوفق العلم

الإلهي، كتب الله على إبليس أنه سيكون في أسفل سافلين، في الدرك الأسفل من النار، لماذا؟ لأنه يؤمر بالسجود وهو مستطيع فيستكبر على أمر ربه ويقول ناسبًا إلى الله الظلم: {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا} (الإسراء:٦١).

إذًا هو لا يسجد وباستطاعته أن يسجد، فإذًا كُتب من أهل النار بل أشقى أهل النار، لكن على العكس، نرجع الآن لموضوع المعتزلة؛

الذي مات في القطب الشمالي أو القطب الجنوبي ولم يطرق سمعه شيء اسمه دين الإسلام، أو إنسان اسمه محمد بن عبد الله نبي الإسلام ما طرق سمعه فعاش يعبد الأصنام التي كان يعبدها أهل الجاهلية الأولى هل هذا يقال له يوم القيامة: لم كفرت؟ لا. قال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥).

وهذا باب واسع جدًا، ولذلك فلا أريد أن أذهب بعيدًا عن السؤال. فالمعتزلة وكل الفرق الضالة إذا ضلوا سواء السبيل وظلوا مع المسلمين يقومون بالواجبات الدينية فهم ضالون ولا شك، ولكن لا نخرجهم من دائرة الإسلام إلا بعد إقامة الحجة عليهم، فإذا أقيمت الحجة عليهم فهناك أمران اثنان:

أمر يتعلق برب العالمين، ونحن ما ندري ما سيكون عاقبة أمره عند الله.

وأمر يتعلق بحاكم المسلمين، حاكم المسلمين هنا يظهر أهمية الحكم الإسلامي، يؤتى بهذا الإنسان إليه ويؤتى ببعض علماء المسلمين ويقيمون الحجة عليه، فإذا أصر على ضلاله بعد أن تبينت له حجة الله عليه قتلوه ردةً، لأنه كفر فعلًا وأقيمت الحجة عليه.

أما إنسان لم يتاح له مثل هذه الفرصة أن تقام عليه الحجة فنحن نكتفي

وبخاصة بالنسبة للماضين معتزلة وخوارج ومرجئة وجبرية وو إلى آخره، نقول: أمرهم إلى الله، فمن يعلم الله ﷻ بأنه كابر وجحد فحسبه جهنم، ومن يعلم الله ﷻ بأنه ما جحد شيئًا وهو يؤمن بحقيقة الأمر فهذا لا يحاسب حساب الكفار، يجوز أن يحاسب لأنه مقصر، ما سلك الطريق الذي يوصله لمعرفة الحق فحينئذ ربنا ﷻ هو حسيبه.

أما نحن فلا نخرج مسلمًا من دائرة الإسلام مهما كان ضالًا إلا بعد إقامة الحجة. هذا آخر الجواب.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٥/ ٥٧٢): معلوم أن كثيرًا من السلف كفروا الجهمية، وكفروا من قال بخلق القرآن وغيره من المكفرات ... فهل نحرم على من يكفر هؤلاء على طريقة السلف، ثم إن حمل الناس على أحد القولين وهو عدم التكفير يجرئ دعاة البدعة، و [يجعل] الجهال يتبعونهم على البدع المكفرات، فلو أضاف الداعية إلى جانب القول بعدم التكفير حكاية ... السلف حتى يكون رادعًا لكثير من الدعاة السيئين وأرباب البدعة من التمادي واتخاذ الشركيات ... ؟

الشيخ: نعم، تكفير السلف للجهمية أو الجهميين في اعتقادي أن علماء السلف أقاموا الحجة على أولئك وأصروا على ضلالهم وزيغهم، ونحن لا نشك في أن مثل هذا التكفير هو على الجادة، لكن لا يقاس الضلالات الأخرى على ضلالة الجهمية، لعدم وجود في اعتقادي من يقيم الحجة كما ذكرنا اليوم في بعض المجالس على هؤلاء الذين انحرفوا عن العقيدة الإسلامية الصحيحة، ولذلك فنفرق فنقول: هذا كفر وهذا شرك لكن لا نبادر إلى التكفير وإخراج هذا الذي وقع في الكفر من الملة إلا بعد إقامة الحجة، فما جاء في السؤال من أن

السلف كفروا الجهمية فالجواب: في اعتقادي أنهم اعتقدوا أن الحجة قامت عليهم من أطراف كثيرة وكثيرة، لا سيما وكانت الظروف مواتية لأهل السنة أن يقيموا الحجج الدامغة لضلال هؤلاء الجهمية مع ذلك فهم أصروا على ضلالهم فالمقابل أصر علماء السلف على تكفيرهم.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٥/ ٥٧٩): هل يصح تكفير الشيعة عامتهم أم فرق خاصة منهم؟ أم فرق خاصة منهم؟

الشيخ: نحن نقول دائمًا وأبدًا: لا يجوز في شرع الله -تبارك وتعالى- تكفير طائفة أو جماعة من المسلمين بالجملة، لا يجوز هذا؛ ذلك لأن أي طائفة قد يكون فيهم من لم يستحق أن يوجه إليه التكفير لعذر أو لآخر، كما أنه قد يوجد فيهم من يستحق التكفير، ولذلك فلا يجوز بوجه من الوجوه أن يقال: الشيعة مثلًا كلهم كفار، أو الزيدية مثلًا، أو الخوارج، أو الإباضية، أو غير هذه الفرق التي كانت قديمًا، ولا يزال شيء من آثارها موجودة حتى يومنا هذا، هذا أولًا، وخلاصة ذلك: لا يجوز التكفير بالجملة، وإنما لا بد من التفصيل، ونحن نعلم بالتجربة بأن كثيرًا من عامة المسلمين بغض النظر عن انتمائهم إلى السنة أو إلى الشيعة أو إلى غيرهم نجد فيهم من لا يزال على الفطرة ولم يتأثر بما يسمى عند العلماء بعلم الكلام، كما تأثر به كثير من المشتغلين بالعلم، ولذلك فهؤلاء العامة يبقون على سلامتهم، وعلى فطرتهم، بينما يكون بعض خاصتهم قد انحرفوا عن الخط المستقيم بسبب أنهم تثقفوا بثقافة غير إسلامية، وإن كان يطلق عليها أنها من الإسلام، فإذا تركنا هؤلاء العامة، وتوجهنا إلى الخاصة منهم من أي أعود لأقول: من أي جماعة كانت، حتى من أهل السنة الذين يقولون إنهم من أهل السنة والجماعة، فنحن مع الأسف نعلم بأن في أهل السنة

والجماعة كثيرًا من الطرق الصوفية التي يتبنى بعضها على الأقل مذهبًا أو عقيدة يعتبر أنها تضل من عقيدة اليهود والنصارى، ألا وهي: عقيدة وحدة الوجود، فيوجد في الصوفية كثير من أمثال هؤلاء الذين يؤمنون بالوحدة هذه، ولا شك أن من كان يؤمن بها يكون كافرًا مرتدًا عن الدين؛ لأن عقيدة وحدة الوجود تعني الطبيعة، كما يقول الكفار والملاحدة الشيوعيون وأمثالهم إنه ليس هناك إلا المادة، الكفر اليوم يعلن به صراحة، فالشيوعيون يعلنونها: ليس هناك شيء سوى المادة.

المؤمنون بوحدة الوجود يغمغمون للقضية ويلبسونها ثوبًا من الإسلام والدين، كي يضللوا عامة المسلمين، فهم مثلًا حينما يفسرون كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، ينتهون بها إلى أن يقول: لا هو إلا هو، ثم يختصرون هذه الجملة التي تتضمن مستثنىً ومستثنىً منه، فيقولون: هو هو، لا هو إلا هو يلخصونها فيقولون: هو هو، لا شيء سواه، ويعبرون عن ذلك بكثير من العبادات الشركية المكشوفة القناع، كقول بعضهم مثلًا: كل ما تراه بعينك فهو الله، إذًا هذه هي المادة التي يؤمن بها الملاحدة، وبعض آخر فيقول: لما عبد المجوس النار ما عبدوا إلا الواحد القهار، والشاهد هؤلاء ليسوا في الشيعة، ولا في الخوارج، هؤلاء من أهل السنة والجماعة، فهل يجوز تكفير الصوفية عامة؟ الجواب: لا؛ لأن كثيرًا منهم إنما يتبعون التصوف جملة بظنهم أنه هو السلوك الذي يوصلهم إلى رب العالمين، لكن أكثرهم لا يعلمون هذه العقيدة التي هي من أبطل الباطل، أما خاصتهم فهم يؤمنون بها، فإذًا لنبدأ بأصحابنا وأهل سنتنا ومذهبنا وهم أهل السنة والجماعة، وفيهم من ذكرنا ممن يؤمن بوحدة الوجود، وهؤلاء إنما يوجدون على الغالب عند الصوفية، ولكن مع ذلك يوجد هؤلاء حتى عند

غير الصوفية، حتى عند بعض الذين يحاربون التصوف جملة وتفصيلًا كالمعتزلة مثلًا، المعتزلة الذين يسمون أنفسهم بأهل التوحيد، وأنهم يفخرون على الطوائف الأخرى منها أهل الحديث ومنها الأشاعرة والماتريدية وغيرهم، هؤلاء ليسوا من أهل التوحيد وأهل العدل؛ لأنهم في ظن المعتزلة يؤمنون بالجبر، يعني أهل السنة عند المعتزلة يؤمنون بالجبر حينما يعتقدون، واعتقادهم حق بلا شك أن ما من شيء يقع في هذا الكون من خير أو شر إلا بمشيئة الله -تبارك وتعالى- وإرادته، أما المعتزلة فيقولون لا: ليس كل شيء يقع في هذا الكون بإرادة الله ومشيئته، بل الإنسان هو الفعال لما يريد، وهو الذي يخلق، خاصة هم يدندنون حول الشر، فهو يخلق الشر وليس لله في ذلك إرادة، وهذا بحث طويل ولا نريد أن ننسى أصل السؤال، المهم أن هؤلاء المعتزلة يشتركون مع القائلين بوحدة الوجود حينما ينكرون نصوصًا قاطعة في الكتاب والسنة تثبت أن لله ﷻ صفة العلو، {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى} (الأعلى:١)، نقول في السجود: سبحان ربي الأعلى، والنصوص التي أشرنا إليها -إن شاء الله- معروفة عندكم، هم ينكرون هذه النصوص، لا ينكرونها لفظًا، وإنما ينكرونها معنىً؛ لأنهم إن صرحوا بإنكارها لفظًا خرجوا عن الإسلام، فينكرونها بطريق التأويل، فهم لا يؤمنون بأن الله ﷻ على العرش استوى -كما قال الله ﷻ؛ لأنهم يؤولون الاستواء بمعنى الاستيلاء وهذا باطل -أيضًا-، وله مجال آخر لتفصيل القول في ذلك، فإذًا لو سئلوا السؤال الذي ورثنا إياه نبينا -صلوات الله وسلامه عليه- ألا وهو: «أين الله؟» فجوابهم: الله في كل مكان، إذًا الله في كل مكان، المكان خَلْقٌ من خلق الله، التقى قولهم هذا مع قول أهل الوحدة أي: لا شيء إلا هذا الكون المخلوق، وبخاصة حينما يؤكدون في نفي الوجود الإلهي بأن الله

ﷻ، هكذا يقولون كما ستسمعون: الله لا يوصف بأنه فوق ولا تحت، ولا يمين ولا يسار، ولا أمام ولا

خلف، لا داخل العالم ولا خارجه؛ إذًا لم يبق إلا المادة؛ إلا هذا الكون المشاهد، فالتقت -أيضًا- المعتزلة مع الجماعة القائلين بوحدة الوجود في أن لا شيء هناك إلا الطبيعة، هل يشترك مع المعتزلة ومع الصوفية الغلاة في هذه النقطة بالذات كثير ممن ينتمي إلى السنة والجماعة ممن ينتمي إلى الماتريدية أو الأشعرية؟ نقول: نعم، وهذا نلمسه ونسمعه دائمًا أبدًا في كل مجتمع سني ليس شيعيًا ولا معتزليًا يقولون: الله موجود في كل مكان، الله موجود في كل وجود، أهل السنة هاللي عايشين معنا وعايشين معهم هكذا يقولون، إذا كان الأمر هكذا، فهل نكفر هؤلاء الذين ينكرون أن من صفة الله -تبارك وتعالى- أنه {عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه:٥)، و {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} (فاطر:١٠)، إلى غير ما هنالك من كثيرة أجمعت على أن الله ﷻ فوق المخلوقات كلها، هل نكفر هؤلاء بالجملة بالكوم؟ نقول: لا، نبدأ بأهل العلم منهم: هل نكفرهم؟ أيضًا لا إلا بشرط واحد، بعد إقامة الحجة؛ لأنه يمنعنا من المبادرة إلى تكفير أي مسلم ما دام أنه يلتقي معنا في الأصل الأول من أصول الإسلام الخمسة، وهي شهادة أن لا إله إلا الله، فكل مسلم يشهد هذه الشهادة فابتداءً لا يجوز الحكم بتكفيره؛ لأنه رفع راية الإسلام بشهادته بشهادة الإسلام، وأنتم فيما أعتقد جميعًا تعلمون قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا قالوها: فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم عند الله-تبارك وتعالى-»، إذًا هذا المسلم الذي يشهد هذه الشهادة نحن لا يغيب عنا ولا يفوتنا

أنه قد يقولها وهو كافر بما تدل عليه من الحق ومن العقيدة الصحيحة؛ لأن هذا من طبيعة المنافقين الذين كانوا موجودين حتى في العصر الأول الأنور الأطهر، وهو العصر الذي قال عنه الرسول -عليه السلام-: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قد كان فيهم خاصة في المدينة من أهل المدينة مردوا على النفاق، الله كان يعلمهم، وقال للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: {لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} (التوبة:١٠١)، فكيف عاملهم الرسول -عليه السلام- هل عاملهم معاملة اليهود والنصارى؟ فرض عليهم الجزية يعطونها ويدفعون عن يد وهم صاغرون؟ أم مشى عليهم أحكام الإسلام؟ مشى عليهم أحكام الإسلام؛ لأنهم شهدوا بألسنتهم، أما قلوبهم فكما قال في الحديث السابق: حسابه عند الله -تبارك وتعالى-، يؤكد لكم هذا المعنى الذي خلاصته أن الإسلام يبني أحكامه على ما يظهر للناس، ولذلك كان من قواعد علماء الفقه والأصول: نحن نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر.

وهذا مأخوذ من بضعة أحاديث ثابتة في السنة الصحيحة، منها تلك القصة الواردة في كتب السيرة وفي الصحيح -أيضًا- أن رجلًا كان يبارز مشركًا فلما شعر المشرك بأنه صار تحت ضربة السيف وأنه مقتول لا محالة قال: لا إله إلا الله، فالمسلم ما بالاه، قتله، ولما بلغ الخبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أرسل خلفه وقال له: «كيف أنت ولا إله إلا الله»، قال: يا رسول الله ما قالها إلا خوفًا من القتل، وحقيقة الأمر: كل واحد منا فضلًا عن ذاك الصحابي الذي باشر الأمر يشعر تمامًا أنه هذا المشرك ما قال هذه الكلمة إلا فرارًا من القتل، ولذلك ما اقتنع هذا الصحابي بهذه الشهادة فقتله، مع ذلك فالرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- قال له: «هلا شققت عن قلبه؟!»، «هلا شققت عن قلبه؟!»؛

إذًا كأنه يقول: ليس لك إلا الظاهر، أما القلوب فلا يعلم ما فيها إلا علام الغيوب -سبحانه وتعالى-.

وحقيقة الأمر أننا في الوقت الذي نتصور ما سبق بيانه أنه من الممكن أن هذا المشرك ما قالها إلا تقية، وإلا خوفًا من القتل، يمكن -أيضًا- أن نلاحظ احتمالًا آخر، وهو أن يكون هذا المشرك معتدًا بقوته وشجاعته وبطولته، فلما رأى نفسه مغلوبًا، بل ومقتولًا تحت ضربة سيف ذلك الصحابي كأنه تجلى له أن هناك قوة قاهرة مُدّ بها هذا الصحابي حتى تمكن من أن يجعل ذلك المشرك الذي كان يتوهم في نفسه أنه البطل الصنديد، فحينئذٍ خضع لهذه القوة وليس لأنه خاف كما قلنا في الاحتمال الأول من القتل فقال: لا إله إلا الله، وهذا يقربه إلينا -هذا الاحتمال الثاني- يقربه إلينا حادثة مصارعة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لركانة، الذي كان يعد في زمن الجاهلية المصارع الذي لا غالب له، فجاء إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وطلب منه المصارعة، فما كان منه -عليه السلام- بقوة من الله -تبارك وتعالى- ولا شك إلا مجرد أن أخذه ورماه على ظهره، قوة خارقة، طلب منه المرة الثانية والثالثة، فكان عاقبة أمره أن قال: أشهد أنك رسول الله، فآمن، لماذا؟ لأنه رأى قوة لا يعتقد إنها من قوة البشر.

إذًا الشارع الحكيم يبني أحكامه على ما يظهر للناس، فكل مسلم إذًا يرفع هذه الراية الإسلامية، فيشهد أن لا إله إلا الله؛ لا يجوز لنا أن نبادر إلى تكفيره إلا في حالة واحدة، حينما يعلن مع تلك الشهادة ما يعارضها وما يعطلها وينكرها، حينئذٍ ندينه ونلزمه بما يلزم منه، حينذاك باستطاعتنا أن نكفره، ومع ذلك رويدك، ولا يجوز -أيضًا- المسارعة إلى تكفيره إلا بعد إقامة الحجة عليه.

إذًا عندنا الآن شرطان؛ ليجوز للعالم المسلم أن يكفر مسلمًا: الشرط الأول: أن يسمع من هذا المسلم ما يكفر به. الشرط الثاني: أن تقام الحجة عليه؛ لأن الله -تبارك وتعالى- ما أنزل الكتب وأرسل الرسل إلا لتكون حجة الله -تبارك وتعالى- قائمة على الناس، ولا يكون لإنسان ما ارتد أو كفر بالله ورسوله عذرٌ يوم القيامة، من هنا اتفق علماء المسلمين على أنه إذا وجد هناك قومٌ لم تبلغهم دعوة الإسلام فهؤلاء لا يحكم لهم بالنار التي وُعد بها الكفار؛ لأن الكفار هم الذين بلغتهم الدعوة ثم جحدوها وأنكروها، كما قال الله ﷻ في كثير من هؤلاء: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ} (النمل:١٤) وأصل الكفر -كما تعلمون- من الكَفْر وهو التغطية؛ لذلك فالزراع يسمون بالكفار {أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} (الحديد:٢٠) أي الزراع، فلما كان الزارع يستر الحب بالحرث وبالتراب، كذلك الكافر يستر الحق بباطله، فمن كان بهذه المثابة فهو الذي يكفر، ويكون مخلدًا في النار، أما من لم تأته الدعوة ولم تظهر له الحجة ثم ظل على كفره وعلى ضلاله، فهذا يعتبر عند علماء المسلمين من أهل الفترة، ولذلك فأهل الفترة لا يحكم لهم لا بإسلام ولا بكفر، لهم معاملة خاصة عند الله -تبارك وتعالى-، ونكتفي بهذه الإشارة إلى هؤلاء، والمهم: فلله الحجة البالغة على الناس، فلا يجوز المبادرة إلى تكفير أي إنسان ظهر منه ما يحملنا على أن نقتنع بأنه كفر بـ لا إله إلا الله، فلا بد من إقامة الحجة عليه، فإن جحدها ألحق بالكفار، وإن خضع لها فهو لا يزال في إسلامه، على هذا نحن نسوق هذه القاعدة بالنسبة لعامة المسلمين، سواء كانوا ينتمون إلى السنة أو إلى الشيعة أو إلى أي طائفة أخرى، لا بد قبل كل شيء من أن يعلن إنكاره لما هو ثابت في الشرع على طريق اليقين، وهنا يعبر العلماء بكلمة: أنكر ما هو معلوم من الدين

بالضرورة، أنا أضرب لكم مثلًا: الذي ينكر حرمة الخمر، فهذا يعتبر كافرًا مرتد عن الدين؛ لأن هذا معلوم من الدين بالضرورة، وليس كذلك من ينكر حرمة الحشيش المخدر أو الأفيون أو هذا الدخان الذي ابتلي به عامة الناس، هؤلاء لا يكفرون؛ لأنهم لا ينكرون ما هو معلوم من الدين بالضرورة، ثم إنهم يجدون كثيرًا ممن يظنون أنهم من أهل العلم يفتونهم بأنه هذا مكروه، معليش تركه أولى، من هذا الكلام، ولذلك فمن أنكر ما كان معلومًا من الدين بالضرورة ثم أقيمت عليه الحجة الشرعية من كتاب الله ومن سنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فكفر وجحد فهذا هو الكافر، ما يهمنا كان سنيًا منتسبًا إلى السنة أو إلى الشيعة أو إلى غيرهم، هذا نهاية الجواب عن السؤال.

ولكن عندي شيء أريد أن ألفت نظر الشباب المسلم اليوم؛ هذا الكلام لا يفيد المسلمين اليوم، ذلك لأن قضية التكفير هذا يعود إلى رأي الحاكم المسلم؛ لأن هذا الحاكم المسلم هو الذي له صلاحية إقامة الحدود الشرعية، فإذا قال فرد من أفراد العلماء أو من طلاب العلم مثلي: فلان كافر، ماذا ترتب على ذلك؟ ترتب عليه فقط إني أنا ما أزاوجه ما كذا .. أعامله إلى آخره، لكن لما بيكون هناك يوجد حاكم مسلم يدعوه أن يؤمن بالإسلام وإلا قطع رأسه، ولذلك فليس من المفيد اليوم بين المسلمين إثارة هذه القضايا؛ لأنها أحكام تتعلق بالحكام الذين يحكمون بما أنزل الله وأين هؤلاء في هذا الزمان، زمن الغربة بين أفراد المسلمين أنفسهم، فضلًا عن حكامهم، وصدق من قال: دود الخل منه فيه، ولذلك فما يفيد كثيرًا أن نتكلم: هل يجوز تكفير الشيعة؟ أو تكفير الخوارج، أو ... الخ؟! ما الذي يترتب من هذا؟! وإنما يجب أن نبلغ الناس شريعة الله، وهذا يتطلب منا نحن الذين نفكر ونتساءل: هل يجوز تكفير

هؤلاء وهؤلاء؟ يجب علينا أن نتفقه في دين الله، وعلى كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، ثم بعد ذلك نرجوا أن نكون قد وضعنا نواة لتحقيق المجتمع الإسلامي المنشود أولًا، والذي بدونه لا يمكن إقامة الحكم الإسلامي على وجه الأرض، بهذا أنصح بعد أن قدمت الجواب عن ذاك السؤال.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٥/ ٦٠٥): سؤال: هناك أناس يشتمون الذات الأهلية ورسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- والدين فهل يخرج هؤلاء من ملة الإسلام، وما التصرف الذي ينبغي أن يكون؟

الشيخ: أما هل يخرج من ملة الإسلام من يسب الذات الإلهية هذا بلا شك ما يحتاج إلى سؤال فضلًا عن جواب؛ لأنه هو الكفر الذي ذر قرنه، ولكن الذي يمكن أن يقال في مثل هذه المناسبة: أن من صدرت منه كلمة الكفر له حالة من حالتين:

إما أن يعني ما يقول، وإما أنه لا يدري ما يقول ففي الحالة الأولى الجواب السابق أنه كافر مرتد عن دينه، ولو كان هناك حاكم مسلم يحكم بما أنزل الله فهذا يصدق عليه قوله عليه السلام: «من بدل دينه فاقتلوه» لو أن مسلمًا يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، لكن مثل القاديانية أنكر أن يكون محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- خاتم الأنبياء هذا يقتل؛ لأنه أنكر شيئًا معلومًا من الدين بالضرورة، ما بالك من سب الذات الإلهية؟! ما بالك من سب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-؟! إلى آخره، فلا شك أن هذا يعتبر مرتدًا وأنه يقتل ردةً، هذا في الحالة الأولى إذا كان يعني ما يقول.

أما إن كان لا يعني ما يقول فهنا لا بد من شيء من التفصيل، إما أن يكون

أعجميًا يقول كلمة عربية لا يفقه معناها وهي الكفر أو أن يكون عربيًا مستعجمًا .. نسي اللغة العربية وما عاد يفقه فتكلم بكلمة الكفر وهو لا يفهم أنها كلمة كفر، وهذا المثال في بعض الكلمات السابقة سمعتم قول الرسول عليه السلام: «من حلف بغير الله فقد كفر» فما أكثر ما نسمع من المسلمين الحلف بغير الله كيف؟ لأنهم يجهلون أن الحلف بغير الله كفر، فهل هذا يحكم بكفره؟ هذا يدخل على التفصيل السابق: إن كان يعني فهو كافر، وإن كان لا يعني فهنا يأتي البيان.

لا بد أن يذكر هذا الإنسان بأن هذا الكلام الذي يقوله هو كفر فعليه أن يرجع عنه وإلا قطع رأسه، جاء في مسند الإمام أحمد بالسند الصحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه: «أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- خطب يومًا في أصحابه فقام رجل وقال له: ما شاء الله وشئت يا رسول الله! فقال عليه السلام: أجعلتني لله ندًا قل: ما شاء الله وحده» أجعلتني لله ندًا، أي: شريكًا، ترى! هذا الصحابي الذي جلس في مجلس نبيه وقد آمن به وأنقذه الله به من الشرك إلى التوحيد لما قال له الرسول عليه السلام: «أجعلتني لله ندًا» شريكًا، ترى! هل قصد أن يجعل رسول الله شريكًا مع الله؟ الجواب: لا؛ لذلك اكتفى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بتذكير هذا الرجل أن هذه الكلمة التي قلتها هي كلمة كفر لكن أنا أدري أنك لا تعني ما تقصد؛ ولذلك اكتفى بتذكيره ولم يطبق عليه حكم المرتد عن دينه؛ لأنه ما كان قاصدًا لما يقول.

فمن نطق إذًا بكلمة الكفر وهو يدري ما يقول فهو المرتد وحكمه القتل، ومن كان لا يدري لسبب أنه لم يعرف الدقة في المعنى الذي تضمنه كلامه كما في حديث ابن عباس أو قال كلمة الكفر وهو يدري ما يقول لكنه قالها مضطرًا،

هذه صورة أخرى: فهو لا يكفر وفي ذلك نزل قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ} (النحل:١٠٦).

كما جاء في كتب التفسير ولو أنه في السند شيء من الضعف لكن الآية معناها واضح جدًا، وهذه الرواية توضح هذا المعنى أو تزيده بيانًا وتوضيحًا أن المشركين لما أخذوا بلالًا وعدي بن حاتم الطائي وعذبوهما عذابًا شديدًا، أما بلال فذلك الرجل الصبور الذي كان تحت العذاب الشديد يطلبون منه الإشراك بالله فما يكون منه إلا أن يقول: أحد أحد، وهم يعذبونه أشد العذاب عمار بن ياسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يصبر فعرضوا عليه لما جسوا نبضه وأن صبره نفد عرضوا عليه أنه يسب الرسول ويشتمه كما هم يشتمونه حتى يتركوا سبيله، فوافقهم فقال عن الرسول بأنه ساحر شاعر كذاب، فأطلقوا سبيله، لكن سرعان ما انتبه لخطئه فجاء إلى الرسول عليه السلام فذكر له ما فعل، وهذا من قوة إيمانه، فقال له عليه السلام: «كيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئنًا بالإيمان، فقال عليه السلام: فإن عادوا فعد» فإن عادوا إلى تعذيبك ولم تجد مخلصًا من العذاب إلا بأن تشتمني وقلبك عامر بالإيمان .. مطمئن بالإيمان فاتخذ هذه الوسيلة ما دام أنك لا تزال في إيمانك، إذًا: كلمة الكفر لا يدان بها القائل إلا بهذا التفصيل الذي لا بد منه، نعم.

مداخلة: من قالها في الغضب؟

الشيخ: كذلك يا أخي! لا يؤاخذ .. ربنا عَزَّ وَجَلَّ ذكر في القرآن الكريم قصة موسى مع قومه حينما ذهب لمناجاة ربه، ولما رجع وفي يده الألواح من التوراة وأخبر الخبر من أخيه موسى بأن قومه عبدوا العجل من بعده أخذ الألواح وضربها أرضًا، لو فعل هذا مسلم بالقرآن الكريم عامدًا متعمدًا يكفر فكليم الله

.. كلام الله الذي هو التوراة ما يفعل هذا عامدًا، إذًا: الغضب أيضًا عذر لذلك كان من رأي بعض العلماء وهو الصواب أن حكم القاضي غضبان لا ينفذ، مطلق زوجته وهو غضبان لا ينفذ طلاقه، قال عليه السلام: «لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان» لماذا؟ لأن الغضب يحول بين صاحبه وبين التفكير السليم، كذلك قال عليه السلام: «لا طلاق في إغلاق» الإغلاق فسر بمعنيين:

المعنى الأول: الإكراه فإذا واحد أكره رجلًا لغاية في نفسه أن يطلق زوجته وهذا يقع كثيرًا فذهب يطلقها، لا يقع هذا الطلاق؛ لأنه مكره.

فسر بالمعنى الثاني وهو الإغلاق، أي: الغضب، فإذا غضب الإنسان من زوجته في ظرف ما .. في حالة ما وذهب يطلقها هذا الطلاق لغو لا قيمة له، وقصة موسى عليه السلام مع الألواح أكبر دليل على أن صاحب الغضب لا يؤاخذ ولكن هذا الغضوب ينصح بأن يملك أعصابه، ونحن ننصح هؤلاء الذين يسارعون إلى تطليق زوجاتهم بحالة غضبية ننصحهم: يا جماعة اتقوا الله، وتذكروا قول الرسول عليه السلام: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب» فنقول لهم: قد تسأل بعض الناس عن طلاقك لزوجتك في حالة الغضب فيطلقها منك وأنت تثق بعلمه لكن فيما بعد تندم ولات حين مندم؛ لذلك لا تغضب.

ويعجبني في هذه المناسبة حديث في صحيح البخاري: «أن رجلًا جاء إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال له: أوصني يا رسول الله، قال: لا تغضب» كأنه وجدها كلمة ليس لها قيمة ... «قال: يا رسول الله أوصني، قال: لا تغضب، قال: يا رسول الله أوصني، قال له: لا تغضب» ثلاث مرات، كأن الرجل في الأخير فاء لنفسه وطبقها في حياته، قال: فوجدت الخير كله في ترك

الغضب؛ لذلك الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٥/ ٦١٩): سؤال: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صاحب الفضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني سلمه الله في لقاء سابق معكم قبل ثلاث سنوات سألتم عن بعض السفهاء الذين يستهزئون بالدين وربما سبوا الدين فكان جواب سماحتكم أن مثل هؤلاء يؤدبون ويضربون بالأسواط ثم بعد ذلك ينتهى يعني يتركون ولا يحكم عليهم بشيء، فهذه مسألة حقيقة يعني فهمت من بعض الناس فهمًا لا يريده الشيخ ناصر سلمه الله بحيث أنهم ظنوا أن الشيخ يطلق أن الاستهزاء مثلًا بالدين أو سب الدين أو سب النبي ليس كفرًا فأريد من الشيخ سلمه الله توضيح هذا، وإن أذن لي الشيخ قبل الجواب أن أقرأ شيئًا يسيرا من فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم العلامة

مفتي الديار السعودية رَحِمَهُ اللَّهُ حول يعني سؤال سئل الشيخ حول هذه المسألة فأجاب؟

الشيخ: إذا شئت تفضل؟

مداخلة: قال بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن إبراهيم إلى فضيلة مساعد قاضي محكمة سابطة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فقد جرى اطلاعنا على خطابكم برقم وتاريخ كذا وكذا بخصوص مسألة معوض بن فلان، وما صدر منه من لعنه دين محمد بن المهدي، وما قررتموه في حقه من جلده عشرة أسواط تعزيرًا واستتابته، ثم توبته واستغفاره وطلبكم منا الإحاطة بذلك؛ ونفيدكم أن سبه دين محمد بن مهدي- والحال أن محمد المهدي

مسلم- هو سب للدين الإسلامي وسب الدين كما لا يخفى عليكم ارتداد والعياذ بالله، وعليه فليزمكم علاوة على ما أجريتم إحضار المذكور وأمره بالاغتسال ثم النطق بالشهادتين وتجديد التوبة بعد إخباره بشروطها الثلاثة من الإقلاع عن موجب الإثم والندم على صدوره منه والعزم على عدم العودة إليه، ونظرًا لما ذكرته عنه بأنه جاهل بمدلول ما صدر منه فيكتفى بما قررتموه عليه تعزيرًا، وفقكم الله والسلام عليكم،، مفتي الديار السعوية، إن أذنت لي أيضًا بفتوى أخرى؟

الشيخ: تفضل.

مداخلة: أيضًا هنا حكم من سمى علم التوحيد علم التوحيش وعلم الفقه علم حزاوي العجائز، من محمد بن إبراهيم

الشيخ: سماه ماذا؟

مداخلة: حزاوي العجائز.

الشيخ: شو يعني العجائز، حزاوي أيش يعني.

مداخلة: يعني أحاديث، أحاديث العجائز.

الشيخ: هي لغة نجدية يعني؟

مداخلة: لا أعلم يا شيخ.

الشيخ: طيب.

من محمد بن إبراهيم إلى فضيلة قاضي ... سلمه الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: فقد وصل إلينا كتابك رقم كذا وكذا وتاريخ كذا وكذا، الذي ذكرت فيه حالة بعض الشباب من تلاميذ المدارس وأنهم يسمون علم التوحيد علم التوحيش ويسمون علم الفقه علم حزاوي العجائز تسأل عن

حكم هؤلاء والجواب: لا شك أن مثل هؤلاء متجنون على الشريعة الإسلامية وعلومها، وهذا يدل على استخفافهم بالدين وجرأتهم على رب العالمين، ومن أطلق هذه المقالة على علم التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب وهو يعلم معناها فلا شك أنه مرتد، ولكن ينبغي معرفة الفرق بين الحكم على شخص بعينه وبين من قال من فعل كذا وكذا أو قال كذا وكذا فهو كافر، لأن الشخص المعين لا بد من إثبات صدورها منه باختياره وكونه مكلفًا بالغًا عاقلًا، ومن أطلق هذه المقالة على علم الفقه فهو مخطئ ومتجن على علوم الشريعة لكن لا يبلغ به إلى الحكم عليه بالردة، وعلى كل فيتعين تعزير كل من يصدر منه مثل هذه الألفاظ، فإن كانوا أطفالًا وسفهاء فهذا أخف، وإن كانوا كبارًا عقلاء فهذا أغلظ والعياذ بالله، والحقيقة أن هذا مما يستغرب وقوعه ولا سيما من طلاب المدارس الذين يتلقون هذه العلوم في مدارسهم وهي من أهم مقرراتهم. انتهى إلى هنا المقصود من كلامه عليه رحمة الله، تفضل سلمك الله.

الشيخ: الذي أراه وأدين الله به وأقول بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله: أن الأمر لا يتعدى في عقيدتي ما أسمعتني إياه من كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فتاواه، لكني أريد أن أوضح شيئًا تضمنه جواب الشيخ لكن يحتاج إلى شيء من البيان؛ فأنا أقول من المعلوم عند كافة العلماء أن الأقوال بمقاصد قائليها فإذا تكلم المتكلم بكلمة تحتمل أمرًا مخالفًا للشرع، والمخالفة قد تزدوج فقد تكون كفرًا وردة، وقد تكون معصية، وأوضح مثال في ذلك هو الحلف بغير الله تبارك وتعالى فنعلم جميعًا قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «من حلف بغير الله فقد أشرك»، وفي اللفظ الآخر: «فقد كفر»، فلا نستطيع [نقول أن] كل من حلف بغير الله أنه كفر كفر ردة، ولكن قد يكون هذا الحالف بغير الله كفر كفر

ردة، قد يكون، وقد لا يكون.

ولذلك فلتأكيد أحد الاحتمالين ورفع الاحتمال الآخر فلا بد من معرفتنا بطريقة أو بأخرى ما الذي قصده هذا الحالف؛ فإن كان قصد فعلًا تعظيم المحلوف وهو غير رب العالمين ﷻ تعظيمًا له كتعظيمه لله ﷻ -وهذا ما لا يفعله فيما أعتقد أي مسلم- فيكون في هذه الحالة كفر ردة، ولكن كما قلت آنفًا هذا ما لا أعتقده؛ أن فردًا من أفراد المسلمين وما أكثر هؤلاء الذين يحلفون بغير الله ﷻ في بلاد الإسلام، ما أعتقد أن أحدهم يعني تعظيم المحلوف بغير الله ﷻ كحلفه بالله أو أن يجعله أعظم منه، لا أعتقد هذا ولذلك نرى كثيرًا من هؤلاء المسلمين الذين غلبت عليهم هذه العادة -عادة الحلف بالآباء والأنبياء والرسل بل وبرأس الرجل وبلحيته وشاربه ونحو ذلك من الأيمان القبيحة- إذا ما ذكر وقيل له رسول الله يقول كذا وكذا فهذا لا يجوز؛ يقول: جزاك الله خيرًا، وأنا ما كنت أعرف هذا، ويستغفر الله.

هذا مثال أريد أن أصل به إلى موضوع من يسب الله ﷻ، أو يسب نبيه عليه السلام، أو يسب الدين؛ الأمر يعود إلى القصد؛ لأن الإنسان قد يتكلم وقد يفعل فعلًا في حالة غضب شديد يعميه عن الكلام المستقيم الذي ينبغي أن يتكلم به، فإذا ما سمعنا شخص من هؤلاء كما قال الشيخ في بعضهم السفهاء يسبوا الشرع أو الدين أو رب العزة أو نبيه عليه السلام إلخ، فإذا ما ذكروا -هذا يقع كثيرًا منهم ومن الناصحين والمذكرين لهم- بيقول: لعنة الله على الشيطان .. أستغفر الله، فهذا يدل على شيء مهم جدًا يضطرنا نحن ألا نتسارع إلى إصدار حكم التكفير بحقه؛ لأنه لم يتقصد الكفر، كيف وهو يستغفر الله ويعترف بخطئه فيما بدر منه، لكن هذا لا يجعلنا .. نبارك له قولته، بل ننكر عليه ذلك أشد النكير،

ولو كان هناك حكم أو حاكم يحكم بالشرع لاقترحنا بأن يعزر بأن يجلد عشر أسواط، كما جاء في حديث الرسول عليه السلام المعروف، لكن مع الأسف الشديد مثل هذا الحكم لا يوجد في أكثر بلاد الإسلام اليوم آسفين.

ولعل هذا يسوغ لي أن أقول لفقدان مثل هذه الأحكام الشرعية التي نص الشارع الحكيم على فائدتها في مثل قوله تبارك وتعالى في القرآن الكريم {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ} (البقرة:١٧٩) عدم قيام الحكام بتنفيذ الأحكام الشرعية هو من أسباب انطلاق ألسنة هؤلاء السفهاء بما لا ينبغي ولا يجوز شرعًا أن يتفوهوا به.

فخلاصة الكلام: أن التكفير أمر صعب جدًا كما هو معروف عند أهل العلم والأحاديث صحيحة في البخاري وغيره معروفة في هذا المعنى.

لكني أريد أن أذكر فرعًا بهذه المناسبة أريد أن أذكر فرعًا فقهيًا جاء في بعض كتب المذاهب، وهذا في الواقع متجاوب تمامًا مع رهبة تلك الأحاديث التي تحذر المسلم أن يبادر إلى تكفير أخيه المسلم خشية ألَّا يكون كافرًا فيعود الكفر على المكفر، لقد ذكروا أنه إذا صدر من مجموعة من العلماء بلغ عددهم تسعة وتسعين شخصًا بتكفير مسلم، لكن عالم واحد قال لا ليس بكافر، فينبغي ألَّا يصدر حكم التكفير بالنسبة لهذا الإنسان ما دام أن هناك عالمًا يقول هذا ليس بكفر، أفهم من هذا أن هؤلاء الذين فرعوا هذا الفرع لخطورة إصدار الكفر بحق الرجل المسلم، لا سيما إن كان معلومًا بمحافظته على الأركان الإسلامية، ليس فقط الشهادة، بل على الصلاة والصيام، وكثيرًا ما نسمع خلافًا ينشب بين زوجين، فتأتي المرأة وتسأل أن زوجي سب كذا، نسأل يصلي؟ تقول: بيصلي، بيصوم؟ بيصوم إلخ، إذا كيف هذا، وقد خاصمته ونصحته إلخ، إذًا فهذه السبة

إذا صدرت في إنسان من حالة غضب يستتاب ويعزر ويجلد إلخ، لكن إذا ما أردنا أن نصدر في حقه التكفير الذي يلازمه الردة، لابد أن نفهم اعترافه بما فعل، فإن اعترف فهو ردة ويقتل وكما هو معروف من الإسلام لقوله عليه السلام: «من بدل دينه فاقتلوه» أما إذا أتبع كلامه بالاستغفار والتوبة إلى الله ﷻ فهذا دليل أنها ثورة غضبية لا نستطيع أن نرتب عليها ما نرتب على الكلام الصادر بقصدٍ وإرادة، وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «إنما الأعمال بالنيات» وهذا لم تكن النية أن يقصد ما سبه مما ذكر آنفًا، فلا يجوز أن ندينه بكلمته ما دام أن قلبه يخالف كلمته، هذا رأيي في هذا الموضوع.

مداخلة: سلمك الله هل يمكن أن نجمل هذا ونقول مثلًا إن شروط التكفير ثلاثة وموانعها ثلاثة؛ شروطها أولًا: العلم ويقابلها الجهل مانعه الجهل، الاختيار: مانعه الإكراه والجبر، التأويل ومانعه عدم التأويل، يعني لو لم نفتح باب التأويل في مسألة نرى أن التأويل قد يدخل فيها لكفرنا الجهمية ولكفرنا المعتزلة الذي يقول لا أدري الله فوق العرش أو تحت العرش، والسلف لم يفعلوا ذلك.

هنا سلمك الله عبارة أريد أن أقرأها عليك لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب الشيخ الفاضل صالح العبود يقول الشيخ: والشيخ يُكَفِّرُ من كفر بإجماع المسلمين، وهو الذي قامت عليه الحجة، ولا يكفر من لم تقم عليه الحجة حتى أن الشيخ قال- عليه رحمة الله-: إن أول الأركان الخمسة للإسلام الشهادتان، وقد أجمع العلماء على كفر تاركها، ووجوب قتاله، أما الأربعة الباقية فإذا أقر الإنسان بها وتركها تهاونًا، فالشيخ يقول: ونحن وإن قاتلناه على فعلها فلا نكفره بتركها؛ لأن العلماء اختلفوا في كفر التارك لها كسلًا

من غير جحود.

أيضًا هنا عبارة أخرى ... ينقل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: لما استحل طائفة من الصحابة والتابعين الخمر كقدامة وأصحابه ظنوا أنها تباح لمن عمل عملًا صالحًا على ما فهموا من آية المائدة؛ اتفق علماء الصحابة كعمر وعلي وغيرهما على أنهم يستتابوا فإن أصروا على الاستحلال كفروا، وإن أقروا بالتحريم جلدوا، فلم يكفروهم بالاستحلال ابتداءً؛ لأجل الشبهة حتى يبين لهم الحق فإن أصروا كفروا، ولهذا كنت أقول الجهمية الذين نفوا أن يكون الله فوق العرش، أنا لو وافقتكم كنت كافرًا، وأنتم عندي لا تكفرون.

الشيخ: تمام.

مداخلة: لأنكم جهال ونحن نعلم بالضرورة -هذا كلام لعله كلام الشيخ ابن عبد الوهاب الباقي الآن- أن الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يشرع لأمته- أو لعل هذا كلام شيخ الإسلام- أن يدعوا أحدًا من الأحياء ولا الأموات ولا الأنبياء ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة، ولا بلفظ الاستعاذة، ولا غيرها، كما أنه لم يشرع لهم السجود لميت ولا إلى غير ميت ونحو ذلك، بل نعلم وأنه نهى عن ذلك كله، وأنه من الشرك الذي حرمه الله ورسوله لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين، لم يكن تكفيرهم بذلك حتى يبين لهم ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-، ولهذا ما بينت هذه المسألة قط - الآن هذا كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - لمن يعرف أصل دين الإسلام إلا تفطن له، وقال: هذا أصل دين الإسلام، وكان بعض أكابر شيوخ العارفين من أصحابنا [يقول]: وهذا أعظم ما بينته لنا.

الشيخ: الله يجزيه خير هذا كلام شيخ الإسلام أكيد؟

مداخلة: كلام شيخ الإسلام نعم، عاد هنا كلام لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لو أذنت لي يا شيخ.

الشيخ: تفضل.

مداخلة: حينما اتهم بأنه يكفر المسلمين قال: وأما الكذب والبهتان فمثل قولهم إنا نكفر بعموم.

الشيخ: جميل.

ونوجب الهجرة إلينا على من قدر على إظهار دينه، وأنا نكفر من لم يكفر ومن لم يقاتل، ومثل هذا وأضعاف أضعافه- يعني زعمهم أنه يكفر من لم يقم عليه الحجة ونحو ذلك- يقول الشيخ: وكل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على عبد القادر- لعله قصده ما يوضع على القبور- وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على عبد القادر، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي وأمثالهما؛ لأجل جهلهم وعدم من ينبههم، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا ولم يكفر ويقاتل؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

الشيخ: سبحان الله، هذا كلام عظيم جدًا، وأنا أقول:

هذا هو الحق ما به خفاء فدعني عن بنيات الطريق لقد قلنا في كثير من المجالس وإخواننا الحاضرين يعرفون هذا وخاصة هؤلاء النابتة الجديدة التي ديدنها هو تكفير الحكام المسلمين وبالتالي المحكومين، يقولون بأنا نكفر الجماهير ولا نكفر الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، فحكمنا بالنسبة للحكم بغير ما أنزل الله معروف، ولا حاجة للخوض فيه، ولكن أنا قصدي أن

أقول أنا لا أكفر هؤلاء العامة الذين يطوفون حول القبور لغلبة الجهل، بل وقلت- ولعل الأخ أبو الحسن يذكر هذا: أنني أتعجب من بعض العلماء الذين يقولون بأنه لا يوجد اليوم أهل فترة، فأنا أقول أهل الفترة موجودون خاصة في بلاد الكفر أوروبا وأمريكا ووإلى آخره، بل أنا أقول قولة ما أظن أحد يقولها اليوم، أنا أقول: أهل الفترة موجودون بين ظهرانينا، وأعني هؤلاء الجهلة الذين يجدون من يؤيد ضلالهم: استغاثتهم بغير الله، والنذر لغير الله والذبح لغير الله، ويسمون هذه الشركيات كلها بالتوسل، والتوسل كما تعلمون نوعان، فهؤلاء من أين لنا أن نكفرهم وهم لم تبلغهم دعوة الكتاب والسنة، أعني هؤلاء العامة والمضللين من بعض الخاصة، والبعض الآخر قد يوجدون في بلد، ولا يوجدون في بلد آخر، هذا الكلام الذي تلوته علي آنفًا أنا متأثر به جدًا جدًا، حتى قلت أن أهل الفترة اليوم يعيشون بين ظهرانينا يصلون معنا، ويصومون، ويحجون، لكن هم ما يفقهون ماذا يقولون حينما يقولون أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله وهو كما أشرتم في كلامكم، فيما قرأتم؛ لا بد قبل كل شيء من تحققنا من حال هذا المتكلم بأنه عالم بما يقول ويعني ما يقول، فإذا انتفى أحد الأمرين لم يجز لنا بحقه إلا التعزير.

ومنذ أيام قريبة جرى بحث بيني وبين بعض الإخوان ردًا على هؤلاء الذين يبادرون إلى تكفير الحكام، وكما يقولون عندنا في سوريا بالكوم بالجملة يعني، المقصود بينت له خطورة التكفير لهذا الذي كنت أتناقش معه وأشرت إلى هؤلاء الذين يفترون علينا الكذب، كما افتروا على الشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيره، ولنا أسوة بالأنبياء والرسل كما هو معلوم بالقرآن، قلت إذا رأينا مسلمًا، نعرف أنه مسلم، رأينا مسلمًا داس المصحف، لا شك هذا أمر منكر،

لكن لا يجوز إلى إصدار الحكم بتكفيره حتى نتثبت أنه أولًا فعل هذا الفعل وهو يريد إهانة المصحف، وهو عارف أن هذا الكتاب الذي يدوسه بقدمه هو القرآن الكريم، فإذا كان عارفًا بإنه القرآن الكريم وقاصدًا إهانته، فهذ كفره كفر ردة، لكن ما دام أنه يحتمل أن ألَّا يكون هذا القرآن هو كلام الله، أو هذا الكتاب الذي داسه بقدمه يحتمل أنه ليس كتاب الله، ثم مع الاحتمال الآخر يحتمل أنه كتاب الله وهو أراد أن يستهزأ به وأن يهينه أما إن فعل ذلك في حال ثورة غضبية فهو لا يدان وإنما

أيضًا يعزر.

وأنا أذكر في مثل هذه المناسبة أنني لا أفرق في النتيجة وفي العاقبة بين أن يأخذ الرجل المصحف ويدوسه، أو أن يضرب به الأرض، كل من الصورتين لابد من التفريق، كل من الاحتمالين الأول أنه يدري أنه هذا كلام الله، وثانيًا: أنه يقصد الإهانة والاستهزاء بكلام الله، وإلا فنحن نقرأ في القرآن الكريم بأن كليم الله موسى ضرب الألواح بالأرض فهل هذا يعتبر كفرًا وكفر ردة؟! حاشا، لكن هو لغيرته على التوحيد ولما رأى قومه قد عبدوا العجل ثارت ثورته، غيرة على التوحيد، ووقع، منه ما وقع لكن هذا الذي وقع ليس بقصد منه، فالقصد هو الأساس في المحاسبة والمعاقبة، فإذا لم يوجد هذا القصد مقترنًا مع اللفظ لم يجز المبادرة إلى التكفير وإنما إلى التعزير.

مداخلة: لعل هناك صورة تبين بوضوح ما أردتم الإشارة إليه؟

الشيخ: تبين؟

مداخلة: بوضوح ما أشرتم إليه: قد نرى رجلين كلاهما يمزق المصحف فنعطي هذا حكمًا وهذا حكمًا، فهذا أراد تمزيقه إكرامًا له وحتى لا يهان، فله

حكمه، وذاك أراد تمزيقه مما علمنا من نيته إهانة له و ...

الشيخ: جميل جدًا إذًا إنما الأعمال بالنيات هو هذا أحسنت، لا حول ولا قوة إلا بالله.

مداخلة: كلمة ابن القيم وجدناها فأقول لعل أخونا أبو أحمد يضيفها في الشريط بطريقته الخاصة.

الشيخ: جميل.

مداخلة: وأيضًا هذا كلام ابن القيم يدل على ما تقدم من كلام الشيخ فضيلة الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم، يقول ابن القيم: «وسأله -صلى الله عليه وآله وسلم- الحجاج بن علاط فقال إن لي بمكة مالًا، وإن لي بها أهلًا، وإني أريد أن آتيهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئًا، فأذن له رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يقول ما شاء» ... وفيه دليل على أن الكلام إذا لم يرد به قائله معناه إما لعدم قصده له، أو لعدم علمه به، أو أنه أراد به غير معناه لم يلزمه ما لم يرده بكلامه.

الشيخ: الله أكبر.

مداخلة: وهذا هو دين الله الذي أرسل به رسوله، ولهذا لم يَلْزَمْ المكرهَ على التكلم بالكفر الكفرُ، ولم يلزم زائل العقل بجنون أو نوم أو سكر ما تكلم به، ولم يلزم الحجاج بن علاط حكم ما تكلم به؛ لأنه أراد به غير معناه، ولم يعقد قلبه عليه، وقد قال تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ} (المائدة:٨٩) وفي الآية الأخرى: {وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} (البقرة:٢٢٥) فالأحكام في الدنيا والآخرة مرتبة على ما كسبه القلب وعقد عليه وأراده من معنى كلامه.

الشيخ: هذا هو الحق ما شاء الله.

علي حسن: كالمسمار في التاج.

الشيخ: كلام العلماء يا سيدي، فينطبق عليه خير الكلام ما دخل الأُذُن بغير إِذْن.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٥/ ٨٠٧): سؤال: شيخ من أهل الفترة؟ وما حكمهم في الآخرة؟ وهل أهل الجاهلية يعتبرون من أهل الفترة؟

الشيخ: نعم.

المراد بأهل الفترة كل من لم تبلغه الدعوة على الوجه الصحيح الذي جاء في الشرع، ولكن ليس من المستطاع تحديد كل فرد من أفراد أهل الفترة؛ لأن هذا أولًا ليس بالمستطاع بالنسبة للبشر، وثانيًا لم يرد مثل هذا التحديد عن الله ورسوله.

ثم هذه التسمية أهل الفترة وإطلاقها على من لم تبلغهم الدعوة هو اصطلاح علمي لا مانع منه؛ لأن لكل قوم أن يصطلحوا على ما شاؤوا بشرط أن لا يكون في اصطلاحهم شيء من المخالفة لنص من نصوص الكتاب أو السنة، نحن

نجد في القرآن مثل قوله عليه الصلاة والسلام، مثل قول رب الأنام: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥)، ولله الحجة البالغة ولو شاء الله لهدى الناس جميعًا.

أما أن نقول: إن العصر الفلاني أو الزمن الفلاني هم كلهم أفرادًا وجماعات هم من أهل الفترة هذا أمر مستحيل، لكننا نقول: من كان من أهل الفترة بالمعنى الذي أشارت إليه الآية أي لم تبلغه الدعوة ولن تبلغه دعوة نبي أو رسول فهو

الذي نستطيع أن نقول: إنه لا يعذب يوم القيامة من لم تبلغه الدعوة، أما من هم وفي أي زمن هم؟ هذا لا سبيل إلى تحديده، بل قد يمكن أن يوجد أهل فترة في كل زمان سواء كان هذا الزمان قبل الإسلام أو بعد الإسلام.

أما الذين كانوا قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام من العرب في الجاهلية فهو مما يدخل في كلامي السابق لا يمكن أن نقول: إنهم جميعًا ليسوا من أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة أو إنهم من أهل الفترة كلهم لم تبلغهم الدعوة، لا يمكن أن يقال: لا هذا ولا هذا بهذا الإطلاق والعموم والشمول، ولكننا نعتقد أن كلًا من النوعين كان موجودًا، أي كان في العرب من بلغتهم الدعوة وكان فيهم من لم تبلغهم الدعوة، فإذا جاء النص عن الله ورسوله يحدد أن فلانًا لم تبلغه الدعوة قلنا في عينه بأنه لم تبلغه الدعوة، والعكس بالعكس تمامًا، إذا جاء النص عن شخص معين إما أنه لم تبلغه الدعوة أو جاءنا لازم ذلك أي: إنه من أهل النار فذلك يستلزم أن يكون قد بلغته الدعوة؛ لأن الله يقول كما ذكرنا آنفًا: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥)، فقبل بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كانت هناك رسالة إبراهيم وإسماعيل وكانت آثارها في العرب لا تزال قائمة وبخاصة في مكة المشرفة والمقدسة من الله تبارك وتعالى ببناء إبراهيم الكعبة فيها وعبادته لله ﷻ فيها هو وابنه إسماعيل ومن استجاب لدعوتهما، فإسماعيل عليه السلام كان قد أرسل إلى العرب ودعوته استمرت ظاهرة جلية في البلاد العربية وبخاصة في عاصمتها مكة، واستمرت هذه الدعوة في العرب ما شاء الله وكان فيهم إلى قدوم بعثة الرسول عليه السلام من يعبد الله وحده لا شريك له وإن كان غالبية العرب قد وقعوا في الشرك وهذا أمر أعني وقوعهم في الشرك وعبادتهم لغير الله ﷻ هذا أمر لا يحتاج إلى كثير من البحث،

وإنما البحث الذي ينبغي أن نوجه الكلام فيه هو: هل كل من كان قبل الرسول عليه السلام لم تبلغه الدعوة من هؤلاء العرب فهم غير مؤاخذين وغير مخلدين في النار؟ الجواب: هذه الكلية باطلة لا يجوز إطلاقها، أن يقول قائل: كل من كان قبل بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فهو من أهل الفترة، ذلك لأن لدينا أحاديثًا كثيرة وكثيرة جدًا تصرح بأن بعض من كانوا في الجاهلية قبل بعثة الرسول عليه -صلى الله عليه وآله وسلم- هم من أهل النار، وأظن أن مثل هذه الأحاديث لا تخفى على أحد من الحاضرين، بل ولا على أحد من طلاب العلم من غيرهم.

إلا أن بعض هؤلاء المشار إليهم من غير الحاضرين إن شاء الله عندهم بعض الشبه والإشكالات حول هذه النصوص التي أشرت إليها بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قد أخبر عن بعض من كان قبل بعثته من العرب وقد يكونون أو يكون بعضهم من أقاربه عليه الصلاة والسلام بل من أقرب الناس إليه وقد شهد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بأنه في النار، فيأتي هنا الإشكال ويحاول بعض الناس بالإطاحة بالإشكال من أصله بالحكم على الأحاديث التي وردت بعدم صحة ذلك بزعمهم لأنها تتنافى مع كون العرب الذين كانوا قبل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هم من أهل الفترة.

فلذلك فأنا أريد أن ألفت النظر إلى شيئين قد سبق أن ذكرت آنفًا أحدهما وهو أنه لا يمكن أن يقال قولًا مطلقًا بأن كل من كانوا قبل بعثة الرسول عليه السلام من العرب كانوا من أهل الفترة أي من الذين لم تبلغهم الدعوة، وحين ذاك لا يصح الاستنزال لرد هذه الأحاديث التي أشرت إليها وسيأتي التنصيص على بعضها لا يجوز ردها بمثل الآية السابقة {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ

رَسُولًا﴾ (الإسراء:١٥)؛ لأننا سنقول: هذه الآية محكمة، ولكن تطبيقها على كل فرد من الأفراد الذين كانوا في أمة قد أرسل إليهم رسول لا يمكن إلا أن نقول: إن كل فرد لم تبلغه الدعوة أو على العكس من ذلك والعكس ليس موضع إشكال وهو أن كل فرد قد بلغتهم الدعوة، لا نقول بلغتهم الدعوة فردًا فردًا كما أننا لا نقول: لم تبلغهم الدعوة فردًا فردًا، من لم تبلغه الدعوة فهو من أهل الفترة الذين لا يعذَّبون بكفرهم وضلالهم فحينئذ إنما نقف أمام أحاديث صحيحة يصرح فيها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بأن فلانًا وفلانًا من أهل النار فلا يجوز أن يقال في هذه الحالة: بأن هذا ليس صحيحًا لأنه كان من أهل الفترة؛ لأننا سنقول: ما يدريك أنه من أهل الفترة وقد قال عليه الصلاة والسلام فيهم: أنهم من أهل النار.

كما جاء في الصحيحين مثلًا: «أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مر ذات يوم راكبًا على دابته فشمست به وكادت أن ترميه فنظر فوجد قبرين فسأل من كان معه من الصحابة: متى مات هؤلاء؟ قالوا: في الجاهلية، فقال عليه الصلاة والسلام: لولا أن تدافنوا لأسمعتكم عذاب القبر» .

والشاهد من هذا الحديث أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- شهد بأن هذين المقبورين ماتا في الجاهلية ومع ذلك فإنهما يعذبان ولو قال عليه السلام: «لولا أن تدافنوا لأسمعتكم عذاب القبر» هذا العذاب الذي شمست به دابته خوفًا من هذا العذاب الذي سمعته الدابة وهذا العذاب كان منصبًا على رجلين ماتا في الجاهلية.

فحينئذ لازم هذا الحديث وأمثاله أنهما ماتا على الشرك وعلى الضلال من جهة وأنهما ليسوا ممن لم تبلغهم الدعوة؛ لأنهم لو كانوا كذلك لم يستحقوا

العذاب بصريح الآية السابقة {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥).

كذلك قد جاء في غير ما حديث: «أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- سئل عن بعض الأجواد الكرماء الذين كان يضرب بهم المثل بجودهم وكرمهم ممن ماتوا في الجاهلية، هل نفعهم شيء من ذلك؟ قال: لا إنه لم يقل يومًا ما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» .

وأخيرًا: نأتي إلى مشكلة المشاكل بالنسبة لبعض الكتاب المعاصرين الذين يتكؤون على قاعدة أن أهل الفترة غير معذبين فيردون هذا الحديث الأخير، مع ما سبق ذكره من أحاديث فلا يهمهم أن يتعرضوا لذكرها سلبًا أو إيجابًا؛ لأنها لا علاقة لها بعواطفهم بخلاف الحديث الذي سأذكره آتيًا ألا وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «إني أستأذنت ربي في أن أزور قبر أمي فأذن لي واستأذنته في أن أستغفر لها فلم يأذن لي» فهذا الحديث باعتباره يتعلق بوالدة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- الذي هو سيد البشر فكثير من الناس الذين يستسلمون لعواطفهم دون أن يحكموا فيها شريعة ربهم وأن يسلموا لها تسليما يكبر عليهم جدًا أن يتقبلوه كما هو واجب كل مسلم في أن يكون موقفه تجاه حكم من أحكام الله ﷿ كما قال تبارك وتعالى: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (النساء:٦٥)، فهم لا يسلمون لهذا الحديث تسليمًا كما أمرهم الله ﷿ في الآية المذكورة؛ لأنهم لا تتسع عقولهم لأن يعتقدوا بأن أم سيد البشر هي من أهل النار، مع علمهم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان يقول في حديث معروف في صحيح مسلم من: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» والله ﷿

يقول: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ} (المؤمنون:١٠١)، فالأنساب يوم القيامة بالنسبة لمن مات على الشرك فلا فائدة منه إطلاقًا، وهذا الحديث بخصوصه يدخل في هذا العموم أن النسب لا يفيد صاحبه إذا لم يكن مؤمنًا بالله ورسوله.

فقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «واستأذنت ربي في أن أستغفر لها» فلم يأذن لي دليل واضح جدًا أن والدة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- هي من أهل النار مع أنها ماتت قبل أن يشب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فضلًا عن أنها ماتت قبل بعثته -صلى الله عليه وآله وسلم- فهي إذًا ماتت في الجاهلية فهل هي من أهل الفترة أي: الذين لم تبلغهم الدعوة؟ الجواب: لو كانت كذلك لمَا أبى الله تبارك وتعالى أن يأذن للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بأن يستغفر لها، فإذًا هي ماتت على الشرك ومن مات على الشرك فلا تنفعه شفاعة الشافعين.

كذلك الحديث الآخر ولعله عند بعض الناس أشهر وهو أيضًا في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: «أن رجلًا جاء إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال: يا رسول الله! أين أبي؟ قال: في النار، ثم انصرف الرجل».

قال عليه الصلاة والسلام: «هاتوا الرجل، فلما رجع قال له -صلى الله عليه وآله وسلم-: إن أبي وأباك في النار»، فحكمه أيضًا عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث على والده الذي كان سبب وجوده أنه من أهل النار لدليل واضح أنه ليس من أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن أيضًا من أهل النار.

لهذه الأحاديث لا يجوز لنا أن نقول: إن كل من كان قبل بعثة الرسول عليه السلام من المشركين هو من أهل الفترة؛ لأننا بذلك نضرب أحاديث الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- دونما حجة من عند أنفسنا إلا التمسك بعمومات لا تفيد بالنسبة للنصوص الخاصة، وحينئذ وجب الجمع بين ما دلت عليه الآية وما في معناها، أن الله ﷻ لا يعذب أحدًا من عباده إلا بعد إرسال الرسول إليه.

ولعل من المفيد أن نذكر هنا شبهة أخرى تعترض سبيل أولئك الشاكِّين في بعض هذه الأحاديث المقطوع بصحتها عند أهل العلم حينما يقولون: إن هؤلاء الأفراد الذين جاءت الأحاديث لتصرح بأنهم من أهل النار لم تبلغهم الدعوة، فنقول حين ذاك: ما هو الدليل عندكم أن هذا الجنس من الناس المعذبين ممن ماتوا في الجاهلية، ما هو الدليل عندكم في النفي الذي تذكرونه أي: قولهم: لم تبلغهم الدعوة؛ لا يجدون جوابًا إلا أن يقولوا: نحن نعلم يقينًا إن أبوي الرسول مثلًا وبعض أولئك الكرام الذين ماتوا في الجاهلية نعلم يقينًا أنه ما أرسل إليهم رسولًا، هنا لا بد من أن نقف قليلًا: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥) هل المقصود ببعثة الرسول التي تقوم الحجة بها على الناس الذين جحدوها وكفروا بها أن يأتيهم الرسول بشخصه ومعه الدعوة من ربه إليهم، أم يكفي أن تصل دعوة الرسول إلى أولئك الناس ولو بواسطة بعض أصحاب ذلك الرسول أو الذين جاءوا من بعدهم، هنا دقة في الموضوع، وأظن أنه لا يستطيع أحد أن يفسر الآية: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥) أن المقصود بعثة الرسول بشخصه فقط، أي: بمعنى أنه إذا مات الرسول ماتت الدعوة، وأن هذه الدعوة لو بلغت ناسًا بواسطة أتباع الرسول الأولين أو أتباع أتباعهم وهكذا فلا تقوم حجة الله على الناس إلا في حالة بعثة

الرسول بشخصه فقط.

لا أعتقد أن أحدًا يضيق معنى هذه الآية فيقول: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥) بشخصه، أي: كل قوم لا بد أن يأتيهم الرسول بشخصه وبدعوته، ذلك؛ لأن من المعلوم أولًا بالنص قوله عليه الصلاة والسلام: «فضلت على الأنبياء قبلي بخمس خصال -وذكر فيها عليه الصلاة والسلام قوله: وأنه كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة»، قوله عليه السلام: «وبعثت إلى الناس كافة» مع قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} (سبأ:٢٨)، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} (الأنبياء:١٠٧)، كل هذا وذاك يدل على أن بعثة الرسول عليه السلام ليست فقط بشخصه بل وببلوغ الدعوة إلى من بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

كذلك نقول حينما قال عليه السلام: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة» لا يعني: يبعث بشخصه فقط بل وبدعوته بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

هذه حقائق باعتقادي لا يمكن لأحد أن يماري أو يجادل فيها؛ لأنه سيلزمه محظوران اثنان:

المحظور الأول: أن يعتقد أن بعثة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى الناس كافة محصورة بالعرب الذين دعاهم الرسول عليه الصلاة والسلام مباشرًة إلى الإسلام، أما بعد وفاته فقد انتهت دعوته عليه السلام وبعثته ورسالته، وهذا بلا شك باطل.

والشيء الآخر مثله وهو: أن يعتقد أولئك الشاكين المرتابين في صحة تلك الأحاديث وهي صحيحة دون خلاف بين العلماء أن يعتقدوا أننا نحن اليوم معشر المسلمين وعددهم يبلغ عشرات الملايين، لم تبلغنا الدعوة، لماذا؟ لأنه

ما جاءنا رسول مباشرةً، فهل من عاقل يقول بمثل هذا القول الذي يلزمهم أن يقولوا به إذا ما قالوه في العرب الذين كانوا قبيل بعثة الرسول عليه السلام؛ لأنهم يقولون: هؤلاء ما جاءهم رسول لكنهم يعلمون أنهم جاءتهم دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وهي دعوة التوحيد فكفر من كفر بها وآمن من آمن بها، فإذًا: لا فرق بين دعوة إبراهيم وإسماعيل من حيث شمولها لكل من بلغته الدعوة ولو بعد وفاة الرسول المرسل إليهم مباشرةً؛ لأنه ليس المقصود من بعثة الرسول هو الشخص، وإنما المقصود دعوته ورسالته.

ذلك لأننا لو فرضنا إنسانًا في زمن الرسول المبعوث مباشرةً إلى قومٍ ما كان أصم أبكم، التقى مع الرسول المبعوث ولكنه هو لا يفقه شيئًا مما يقول لما به من صمم وبكم، فهذا لم تبلغه الدعوة وإن كان قد بلغه الرسول بشخصه، والعكس كذلك حينما نتصور قومًا جاءتهم دعوة الرسول عليه السلام دون أن يروا الرسول وبعينه وشخصه فقد قامت الحجة عليهم.

إذا كان الأمر كذلك وهو كذلك دون خلاف بين مسلمين فحينئذٍ لا محظور بالنسبة لتلك الأحاديث الصحيحة التي تشهد بأن أولئك الأشخاص هم من أهل النار، فلازم ذلك أنهم قد بلغتهم الدعوة، وأقيمت عليهم الحجة، فلا جرم أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حكم عليهم بأنهم من أهل النار، فقول من يقول بدفع هذه الأحاديث أن إسماعيل أو إبراهيم أو غيرهما من الأنبياء الذين أرسلوا إلى العرب ما جاءهم رسول مباشرةً، هذا كما لو قال قائل اليوم: أن التابعين وأتباع التابعين إلى هذا الزمان وإلى آخر الزمان الذي لا يبقى على وجه الأرض من يشهد ألا إله إلا الله إلا جاءت ريح طيبة وقبضت أرواحهم، كل هؤلاء من المسلمين أتباع الصحابة ومن بعدهم نقول: لم تبلغهم الدعوة؛ لأنهم

ما جاءهم الرسول، فهل من عاقل يقول بمثل هذه الكلمة؟

ظني أن لا أحد يقول، إذًا: نحن نلزمهم بأن يقولوا نفس الكلمة معنا: بأنه ليس المقصود من إرسال الرسل فيما قبل الرسول عليه السلام هو أشخاصهم فقط، بل المقصود: دعوتهم أيضًا، فسواء لا فرق بين قوم جاءهم الرسول مباشرةً بدعوته، وبين قوم أو أقوام آخرين جاءتهم دعوة الرسول بوساطة أتباع الرسول، فكل من هؤلاء وهؤلاء قد قامت حجة الله عَزَّ وَجَلَّ على الناس جميعًا بطريق من هاتين الطريقتين: إما وصول دعوة الرسول بواسطته هو مباشرةً، أو وصول دعوة الرسول بواسطة غيره من أتباعه الذين آمنوا به، فحينئذٍ نعرف من هم أهل الفترة.

وخلاصة ذلك: أن أهل الفترة هم الذين لم تبلغهم دعوة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- مباشرةً منه إليهم، أو بواسطة أحد أتباع هذا الرسول.

إلى هنا فيما يبدو لي ينتهي الجواب عن السؤال السابق، ولكن لا بد لي من كلمة قصيرة حول الدعوة التي يجب أن تبلغ ناسًا لتكون حجة الله قائمةً عليه؛ لأنهم قد تكون جاءتهم الدعوة بطريق غير طريق الرسول، فلا تكون الحجة قائمةً في هذه الحالة، لتقصير وقع من هؤلاء المبلغين، فقد ذكرت آنفًا أن الرسالة قد تبلغ بطريق من طريقتين:

الطريقة الأولى: بشخص الرسول، وهذه بلا شك ولا ريب أقوى من الطريقة الأخرى.

وهي: أن تصل الدعوة إلى قوم ما بواسطة أتباع الرسول، سواء كان هؤلاء الأتباع من أتباع الرسول مباشرةً، أو على التسلسل كما نقول في فهم حديث الرسول: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» فخير الناس

أصحابه عليه السلام؛ لأنهم هم الذين أرسل إليهم الرسول مباشرةً، ثم التابعون لهؤلاء الأصحاب، ثم أتباعه.

فالطريقة الأخرى أن تصل الدعوة إلى ناس ما بطريق أتباع الرسول، سواء التابعين للصحابة أو أتباعهم، أو من جاءوا من بعدهم كما هو واقعنا اليوم.

الذي أريد الآن أن أذكر به إتمامًا للفائدة: أن الدعوة التي تصل إلى قوم ما بالطريقة الأخرى، ليس بطريقة الرسول مباشرةً يجب أن تكون هذه الدعوة قد بلغتهم صافيةً نقية، لا تغيير فيها ولا تبديل ولا تحوير، لأنها في هذه الحالة إذا بلغتهم كذلك تكون بلوغ الدعوة إليهم بواسطة الأتباع كما لو كانت وصلت إليهم بواسطة الرسول مباشرةً، أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك، أي: إن قومًا ما أو ناسًا ما بلغتهم دعوة الإسلام محرفةً .. مغيرةً .. مبدلةً، وبخاصة ما كان منها متعلقًا في أصولها وفي عقيدتها، فهؤلاء الناس أنا أول من يقول إنهم لم تبلغهم الدعوة؛ لأن المقصود ببلوغ الدعوة على صفائها وبياضها ونقائها، أما والفرض الآن أنها بلغتهم مغيرةً مبدلة، فهؤلاء لم تبلغهم الدعوة وبالتالي لم تقم حجة الله تبارك وتعالى عليهم.

هذا الذي أردت أن أضيفه إلى ما سبق من البيان لتتم الفائدة إن شاء الله.

مداخلة: ... هو لا شك بأن الدعوة وصلت إلى كثير من الناس ... ولكن هؤلاء الناس يختلفوا، إذا عرب درسوا إلى جانب هذه الدعوة المحرفة .. درسوا القرآن واللغة العربية بعلومها من بلاغة وبيان وإلى آخر والنحو والصرف، فهموا اللغة فهمًا واضحًا يعني: فهموا أيضًا القرآن .. اطلعوا على شيء من تفاسير السلف، هناك دعوة قائمة أيضًا تؤكد المبادئ وقواعد التوحيد التي جاء بها القرآن الكريم، كل هذا تتوفر لكثير من الناس خصوصًا العرب

منهم، فهل نقول في هؤلاء: إنهم ما قامت عليهم الحجة وما بلغتهم الدعوة؟

الشيخ: من يقول بهذا؟

مداخلة: أخشى أن يتبادر فهم ..

الشيخ: لكن اعكس تصل الطرف الثاني بلغتهم الدعوة؟

مداخلة: أي طرف ثاني؟

الشيخ: الذي يقابل هذا الطرف الذي وصفته.

مداخلة: لا لا.

الشيخ: هذا هو المهم بارك الله فيك.

مداخلة: لا أقول بهذا، مثلًا الآن: مدرسة الأزهر تدرس العلوم الإسلامية بلغاتها وعقائدها وتراثها وكذا وكذا .. مثلهم بعض المدارس ... أيضًا يدرسون هذه العلوم، يدرسون القرآن وعلومه ولغته بأصنافها، فهل نقول في هؤلاء فعلًا وصلتهم الدعوة المحرفة أو بطريق الأشعرية أو غيرهم، لكن بقي هناك ما تقوم به عليهم الحجة من فهمهم اللغة العربية وبفهمهم لعلوم القرآن وعلوم الحديث وتراث السلف الصالح، هل نقول في هؤلاء: بلغتهم الحجة فعلًا وقامت عليهم أو نقول: إن هناك احتمال أنه ما بلغتهم الحجة أو بعضهم ما بلغته الحجة.

الشيخ: أنا أعتقد بارك الله فيك أننا في كل المسائل يجب أن نأخذ أوضح الأمثلة وليس أغمضها، فالآن لنقل عن المسلمين الأعاجم، لا نتحدث عن علمائه، بل لنقل عن العرب أمة العرب الذين ليسو من العلماء، هل بلغتهم الدعوة؛ لأن المهم أن نتكلم في الأمة التي نقول عنها إنها أمة مسلمة سواء كانوا عربًا أو كانوا عجمًا، لا نريد أن نتكلم عن نخبة منها .. عن خاصة هذه الأمة العربية أو الأعجمية، وإنما نتكلم عن عامة هذه الأمة، هل بلغتهم الدعوة في هذا

العصر؟ أنت ذكرت الأزهريين بخاصة، ترى! المصريين هل المصريون كشعب هل بلغتهم الدعوة كما جاء بها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- إلى الصحابة، وكما نقلها الصحابة إلى التابعين وهكذا؟

أنا أقطع بأن هذا الشعب كشعب لم تبلغهم الدعوة كما جاءت وكما أنزلت، لكن بلا شك بعض الخاصة من أولئك كما شرحتم آنفًا قد بلغتهم الدعوة وأقيمت عليهم الحجة، ونحن غرضنا من هذا البيان هو أن نخلص عامة المسلمين وبخاصة منهم الأعاجم من أن نبادر إلى تسليط سيف التكفير عليهم، ونحن نعرف أنهم يعيشون بين علماء كثير منهم من لم يفهم الدعوة كما يجب، وقسم منهم كما أشرت فهمها كما جاءت ولكنه اتبع هواه كما وقع مع العرب الأولين تمامًا الذين بعث إليهم الرسول مباشرًة، ولذلك أنا فرقت بين الدعوة بالطريقة الأولى حيث يأتي الرسول فيبلغ قومه مباشرًة، هنا ليس هناك مجال أن يكون التبليغ فيه سوء تبليغ .. فيه تقصير، بينما نقل الدعوة بالطريقة الأخرى يمكن أن يرد عليها شيء من هذا التقصير، أو من ذاك السوء سوء التبليغ.

فهناك فرق بين الطريقة الأولى والطريقة الأخرى تمامًا، وما دمنا نحن نعيش اليوم وقد بلغنا الدعوة بالوسائط، وبخاصة وبيننا وبين الرسول الذي أرسل مباشرةً إلى الصحابة أربعة عشر قرنًا فيجب أن نتصور أن الدعوة إلى جمهور الأمة الإسلامية اليوم حتى العرب لم تبلغهم الدعوة كما جاءت أو كما أنزلت من العلماء؛ لأنهم من علماء السوء ومن الذين وصفهم الرسول عليه السلام في الحديث الصحيح حين قال: «إن الله لا ينتزع العلم انتزاعًا من صدور العلماء، ولكنه يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» .

غرضي من هذا ليس أن نقدم عذرًا لمن لا عذر له وهم الأقلية، وإنما أن نقدم عذرًا لمن لهم عذر في أن الدعوة لم تبلغهم كما جاءت، اليوم المصريون مثلًا وكثير من أمثالنا من السوريين العرب زعموا، هل بلغتهم دعوة التوحيد كما بلغت العرب الأولين؟ أنا أقول: لا، العامة عامة المسلمين العرب فضلًا عن الأعاجم لم تبلغهم الدعوة؛ لأن هؤلاء الذين يفترض أن يكونوا أداة هداية وإرشاد من هؤلاء المنتمين إلى العلم أن يكونوا أداة هداية وإرشاد للعامة وأداة إضلال وإفساد للعامة بسبب أن علمهم هو الجهل بعينه؛ لأنهم يتأولون لهم النصوص الصريحة من الكتاب والسنة التي تصرح بأن ما يسمونه بالتوسل مثلًا هو الشرك بعينه.

فالعامة من أين لهم أن يفهموا هذا الفهم الصحيح الذي تفردت لا أقول: كل أفراد هذه البلاد إنما أقول: كثير من أفراد هذه البلاد تفردت بفهم التوحيد فهمًا صحيحًا بسبب دعوة الدعاة المخلصين منهم، أما تلك البلاد فقل ما يوجد فيهم عالم بمعنى الكلمة وبلغهم الدعوة الصحيحة ثم هم نكلوا عنها، هذا واقع العالم الإسلامي فضلًا عن العالم الغربي.

لننتقل الآن إلى الغرب: أوروبا وأمريكا، هل هؤلاء الأقوام من الكفار بلغتهم دعوة الإسلام كما أنزلها الله ﷻ على قلب محمد عليه الصلاة والسلام؟ مع الأسف الشديد ما بلغتهم، وأنا أضرب لكم مثلًا قريبًا جدًا: الذي نعرفه ولو من سنين طويلة، ولا أدري الوضع هو الآن، إن الطائفة القديانية التي خرجت من الإسلام بما تحمل من عقائد باطلة، هي من أنشط الفرق التي تتبنى الإسلام دينًا في دعوة الأوروبيين إلى الإسلام، وقد استجاب لهم المئات بل الألوف من الأوروبيين، سواء من الألمان أو البريطان أو الأمريكان .. استجابوا لدعوة

القديانيين فصاروا مسلمين قاديانيين.

ومن عقيدة هؤلاء أن النبوة لم تختم، وأن قوله تبارك وتعالى: {وَلَكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} (الأحزاب:٤٠) ليس معناه كما نفهم نحن، أي: آخر النبيين وأنه لا نبي بعده، وإنما تأولوا لهؤلاء الأعاجم من الأوربيين والأمريكان خاتم النبيين، يعني: زينة النبيين! أي: ليس معنى الآية بأنه آخر الأنبياء، فأسلم الأوروبيون على دين القديانيين، هل هؤلاء بلغتهم الدعوة كما أنزلها الله ﷻ؟ الجواب: لا، أما من انحرف منهم من العلماء فهذا أمر واضح لا إشكال فيه.

مداخلة: طيب لو قال قائل يا شيخ: بالنسبة لموضوع الفترة .. لو قال قائل: ... نفس المقالة هذه التي نحن نقولها: أن مشركي العرب ما بلغتهم الدعوة كما جاءت عن الرسول السابق، أليس له الحق في ذلك؟

الشيخ: لا ليس له الحق في ذلك، أولًا: هذا القول ليس هي المشكلة، المشكلة هي في العرب الأولين ليس في العرب الآخرين، مشكلة أولئك الذين سميتهم بالخصوم هو ردهم للأحاديث الصريحة التي ذكرنا آنفًا بعضها ..

مداخلة: والد النبي ووالدته ... يقولون أنهم ما يمكن أن يكونوا في النار، لماذا لا نقول: نحن أمة كلفنا بأن نؤمن بالغيب؟ والله امتدحنا بالإيمان بالغيب، فنحن نقول: أن الله سبحانه وتعالى هو أعلم بعباده، ويعلم بأن والد النبي ووالدة النبي وكل من كان من أهل الفترة، وأخبر الله نبيه أنه من أهل النار أنه يستحق ذلك حتى ولو بعث إليه نبي ما يمكن أن يؤمن به، ونرتاح من هذه الإشكالات حتى لا يرد علينا أي شيء ...

الشيخ: ما فهمت عليك كثيرًا مما تقول!

مداخلة: أنا أقول: الذين يقولون: أن أهل الفترة هؤلاء .. أن بعض أهل

الفترة ممن أخبر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عنهم بأنهم في النار، هؤلاء ما بلغتهم الدعوة.

الشيخ: نحن انتهينا من هذا، قلنا: من لم تبلغهم الدعوة فهم غير معذبين، ولكن هل كل أهل الفترة لم تبلغهم الدعوة؟

مداخلة: لا أنا ما أقول .. أقول عن هؤلاء بخصوصهم ..

الشيخ: بارك الله فيك أنا ما أسألك أنت، أسأل عن أولئك الناس هل يعتقدون أن كل أهل الفترة ما بلغتهم الدعوة، أم بعضهم بلغتهم وبعضهم لم تبلغهم، أنا أسألك أنت عنهم، ليس ما تقول أنت.

مداخلة: هم يقولون البعض والبعض .. يقولون يخصصون والد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ومن جاءوا قبل بعثة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولُبِّسَ عليهم، كما حصل من عمرو بن لحي الخزاعي الذي جاء بالأصنام إلى مكة وفعل وفعل، وغطى عليهم دعوة الأنبياء، يقولوا: أن هؤلاء ما بلغتهم الدعوة، ومن ذلك والد النبي ووالدته.

نقول لهم: والد النبي ووالدته ورد في النصوص الصحيحة التي تبين، ونحن أمة آمنا برسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وإذا أخبر الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- بأمر لا يمكن أن نقول عن الأمر الذي بلغنا به النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أن هذا فيه كذا أو فيه ما يوحي أن هؤلاء بلغتهم أو ما بلغتهم، علينا أن نسلم بأننا مسلمين ...

الشيخ: أنت تتكلم عن من يا شيخ؟ أنت تتكلم عن الذين يؤمنون بصحة هذه الأحاديث أم الذين ينكرونها؟

مداخلة: لا يؤمنون بها ولكن ينكرونها، يقولون: أن الأحاديث هذه واردة

صحيحة لكن

الشيخ: أرجوك أن تجيبني: هل تتكلم عن الذين يؤمنون بهذه الأحاديث ويصدقون بها فيقولون كما قال عليه السلام: أبي في النار، أم أنت تتحدث عن غير هؤلاء الذين ينكرون هذه الأحاديث؟

مداخلة: أنا أتكلم عمن يقول بها ثم يحرف فيقول: الأب المراد به العم؛ لأنهم يؤولون يقولون: والعم أصلًا هو الأب، هم يقولون: نحن نقول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال بأن والده في النار ...

الشيخ: الآن انحرفت عن السؤال .. الآن بارك الله فيك خرجت عن الصدد، الآن دخلت في موضوع تأويل الأحاديث.

مداخلة: نعم.

الشيخ: طيب! نحن أتينا بأحاديث أخرى صريحة الدلالة بأن بعض من مات في الجاهلية يعذبون في القبر.

مداخلة: نعم.

الشيخ: طيب! فهؤلاء كيف يؤولون هذه الأحاديث إلا بالتسليم بأن هناك في العرب من بلغتهم الدعوة ولذلك عذبوا، فنحن الآن ما نريد أن ندخل في متاهات تخرجنا عما كنا في صدده، والرد عندنا واضح، لكن ما بين أيدينا الآن شخص يقول: أنا أؤمن بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «إن أبي وأباك في النار» لكن أنا أتأول: الأب هنا بمعنى العم فحينئذٍ نبدأ ونرد عليه، لسنا في هذا الصدد، سنقول: وكيف تفسر حديث الأم: «واستأذنت ربي في أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي» لعله يقول ..

مداخلة: يأتي بأحاديث يقول أنه ما مات وأحاديث موضوعة ومكذوبة ما

مات النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- حتى أحيا الله له الاثنين ....

الشيخ: هذا موقف المسلم؟

مداخلة: ليس موقف مسلم، لكن أنا أقول مثل هذا ... كيف نرد عليه؟ ...

الشيخ: سبق كيف نرد عليهم، الآن أتينا بأحاديث صريحة بأن بعض من مات في الجاهلية معذب.

مداخلة: نعم، نرد بالإيمان بالغيب ونستريح.

الشيخ: هل يؤمنون بها؟

مداخلة: لذا يجب عليهم أن يؤمنوا بالغيب ...

الشيخ: يا أخي بارك الله فيك! أنت تقول: يجب عليهم، نحن ليس هذا موضع الخلاف، نسأل عن واقعهم: هل هم يؤمنون بها، أم تدفعهم عاطفتهم الجامحة التي لا تقف ..

مداخلة: تدفعهم العاطفة.

الشيخ: طيب! فإذًا: هم لا يؤمنون بها وإلا هو ..

مداخلة: الذين يؤمنون بالغيب لا يستحق المناقشة.

مداخل آخر: لو سمحت يا شيخ! لا شك أن الدعوة السلفية لها نشاط في العالم العربي والإسلامي عمومًا في بلاد العجم وغيرها، ومن آثار هذه الدعوة تجد مثلًا المسلمين في الهند يبلغون ملايين السلفيين اثنا عشر مليون مثلًا بنجلاديش .. اثنا عشر مليون في باكستان .. اثنا عشر مليون في الهند، أكثرهم عوام، يعني: ...

الشيخ: الحمد لله ذلك ما نبغي.

مداخلة: هذا شيء.

الشيخ: طيب.

مداخلة: هؤلاء السلفيون حركتهم تتمثل في الخطابة .. تتمثل في نشر الكتب مترجمة التي تبلغ العوام وغير العوام، هذا على مستوى واحد، العامي والعامي يأتي إلى هذا الكتاب يدعو إلى التوحيد ويحارب الشرك أنا اقتنعت، أخي بنفس المستوى ... يقرأ هذا ولا يعمل، يكتب: هل يعذر هذا ...

الشيخ: لا يعذر إذا قدمت إليه العقيدة صحيحة كما جاءت.

مداخلة: قدمت له صحيحة ...

الشيخ: لا يعذر.

مداخلة: طيب! في مصر مثلًا هناك نشاط سلفي قوي جدًا .. في السودان نشاط سلفي قوي .. في سوريا نشاط سلفي جيد .. في الأردن على مستوى الكتب والدعوة في المساجد والخطابة، تجلس أمام أناس درجاتهم يعني: متحدة في الفهم وكذا وكذا، واحد يسمع هذه الخطبة تقول كلمة الحق تبين التوحيد الشرك البدعة، قال: والله هذا كلام حق وسلم، هذا أخوه في نفس المستوى، مثله سمع هذا الكلام الحق الذي يشرح لا إله إلا الله وبين التوحيد من الشرك، يرفض يقول: هذا وهابي! ما يقبل، هذا قامت عليه الحجة أو ما قامت؟

الشيخ: بارك الله فيك! هذه حياة عشناها نحن في سوريا، لكن لماذا تدع الجانب الآخر السلبي الذي لا شك فيه؟ ضربنا لكم مثلًا بالقاديانيين ودعوتهم، هل هؤلاء الأوربيون الذين جاءتهم الدعوة الإسلامية بطريق القاديانيين قامت عليهم الحجة؟

مداخلة: لا.

الشيخ: هذا هو.

مداخلة: أنا ما أعرض هذا، أعرض فيمن بلغتهم الدعوة على الوجه الصحيح.

الشيخ: وأنا معك في هذا بارك الله فيك، لكن المشكلة ليس في هذا النوع، المشكلة في النوع الثاني.

مداخلة: انتهينا من الثاني هذا نعرفه، [نتكلم] عن كثير من العوام إن عوام أمامي في هذا المسجد .. في هذه المدرسة .. في هذا المجال يخطب واحد، يقدم لهم كتب يعني: كلهم في مستوى واحد، هذا يقبل الحق وهذا يرفضه ويعارضه بتهمة أن هذا وهابي وهذا الكلام الذي يقوله ضلال وتحريف لكلام الله، بينما الآخر يقول: والله هذا كلام سليم وهذا كلام حق يقوم على قال الله قال رسول الله، تَقَبَّل هذا ورفض هذا، هل نفهم إخواننا أن هؤلاء والذي سميناهم عوام عندهم عقول .. وإن سميناهم عوام إنهم قد قامت عليهم الحجة ولم تكن عاميتهم هذه عذرًا لهم ما دامت قد بلغتهم الدعوة على المنهج الصحيح عن طريق الكتب أو عن طريق ...

الشيخ: حولها ندندن! بلغتهم الدعوة .. بلغتهم الدعوة انتهى الأمر .. بلغتهم الدعوة سليمة انتهى الأمر .. بلغتهم الدعوة غير سليمة انتهى الأمر .. ما بلغتهم الدعوة مطلقًا انتهى الأمر، المسألة واضحة جدًا.

وقال رَحِمَهُ الله كما في المصدر السابق (٥/ ٨٣٤): اليوم يوجد أهل فترة، تسمع بسكان القطب الشمالي والقطب الجنوبي؟.

مداخلة: نعم.

الشيخ: هؤلاء وكثير من الأمريكان وغيرهم ما بلغتهم الدعوة، فإن الحقيقة

-وهذه المسألة أثيرت منذ سنين وأنا في الجامعة الإسلامية-، ليس المقصود ببلوغ الدعوة بلوغ اسمها دون حقيقتها، وإنما المقصود أن تبلغ قومًا ما الدعوة التي بعث بها الرسول سواء خاتم الأنبياء والرسل أو من بعثوا قبل النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «ما من رجل من هذه الأمة من يهودي أو نصراني سمع بي، ثم لم يؤمن بي إلا دخل النار» فقوله عليه الصلاة والسلام: يسمع بي، يعني: على حقيقة دعوته أم على ما انحرفت هذه الدعوة بالنسبة لبعض المسلمين الذين ضلوا في فهمها ضلالًا بعيدًا أو قريبًا فضلًا عن ضلال الكفار متشتتين والرهبان الذين يتعمدون نقل الدعوة الإسلامية إلى أقوامهم على خلاف عقيدتها وواقع أمرها.

لعلكم جميعًا تعلمون أن النصارى ما يعرفون جلهم عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- إلا أنه كان يحب النساء؛ لأنه تزوج فوق التسع منهن، هكذا يصور قسيسوهم ورهبانهم نبينا -صلى الله عليه وآله وسلم- لأولئك الأقوام الكفار، فهل هؤلاء بلغتهم دعوة الرسول حينما لا يعرفون عنها إلا أن نبي الإسلام هو رجل يحب النساء وفقط، لا شك أن هؤلاء لا تبلغهم الدعوة، وأنا أفترض هذا وهذه فرضية واسعة، لكن من عرف الإسلام على عقيدته الصافية، منها: لا إله إلا الله بمعناها الصحيح، وأن محمد رسول الله كذلك، فهذا بلغته الدعوة فإن لم يؤمن فهو بلا شك كافر كما قال عليه السلام: فهو في النار.

فالآن: الدعوة الإسلامية اسمها بلغ آذان كثيرين من الأعاجم، أما حقيقتها فلم تصل بعد إليهم، لذلك سمى أهل الفترة ... أنهم الذين لم تبلغهم الدعوة، وعلى حقيقتها؛ لأن النبي قال: «ثم لم يؤمن بي» وهذا كقوله عليه السلام: «من

رآني في المنام فقد رآني حقًا فإن الشيطان لا يتمثل بي» فمن رأى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- على غير أوصافه، وشمائله التي كان عليها في حياته ما رآه؛ لأنه يقول: «من رآني» فمن رآه مثلًا شيخًا كبيرًا كما وقع كثيرًا مع بعض الناس حينما يستفتون علينا يقول: أنا البارح رأيت الرسول في المنام، ويقص قصة طويلة، كيف رأيته يا أخي؟ يقول: رأيته ما شاء الله شيخ كبير وجهه مصباح نور، لحيته بيضاء إلى آخره، نقول: ما رأيت الرسول؛ لأن أصحابه يقولون: ما شانه تبارك وتعالى ببيضاء، أو رآه يمشي على عكاز بينما هو كان يمشي وكأنه ينصب من صبب إذًا: حديثان يفضيان إلى حقيقة واحدة: من رآه في المنام كما كان هو في حياته، من سمع به كما كان هو في دعوته فهذا وذاك قد انطبق عليهم حديث الذي رآه بصفته فقد رآه حقًا، والذي بلغته الدعوة على حقيقتها فقد بلغته، فإذا لم يؤمن فقد كفر ومأواه النار كما جاء في الحديث.

مداخلة: الرافضة عوامهم وجهالهم ينطبق عليهم هذا؟

الشيخ: إذا أنتم قصرتم معهم فهم كذلك، إذا قصرتم معهم وهم عرب أمثالكم ليسوا مسلمين مثل الإيرانيين الأعاجم لا يفقهون اللغة العربية، فإذا لم تبلغوا الدعوة للروافض الذين ابتيتم بهم في عقر داركم فأنتم مسؤولون عنهم، ليس هم المسؤولون.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٥/ ٨٤٧): سؤال: بالنسبة للأمور الشركية، طبعًا في الشيشان صوفيين، وسألت في الداغستان بعض أهل العلم عن الدين الذين وصلهم؟

الشيخ: عن؟

مداخلة: عن الدين الإسلامي كيف وصلهم يعني، صوفي أم .. دعوة

التوحيد، قالوا: الذي وصلهم منذ ثلاثمائة سنة الذي هو صوفية فقط هذا ما عرفوه، طبعًا نتكلم مع كبار السن، يعني: هم يقولون: لا إله إلا الله، ولكن اعتقادهم الجازم إذا ما في له أستاذ لا يدخل الجنة، والأستاذ طبعًا رجل ميت، طبعًا يسألون الأستاذ يعني التقرب إلى الله كقريش، يعني: يقولون: يا أستاذ يا وقحجي ينادون الأولياء، هذا الذي وصلهم لا يعرفون غير هذا، كبار السن معظمهم يرفضون ما نقوله بالنسبة للا إله إلا الله، ولكن الصغار يتقبلون الحمد لله، يعني هؤلاء الحكم يا شيخ، هل هم .. في بعضهم يقولون أنهم مشركون؟

الشيخ: نحن ذكرنا أكثر من مرة أن الإسلام يبني أحكامه على الظواهر، ويدع البواطن لله ﷻ، والإسلام كما تعلمون جميعًا له شروط وأركان، فكل من اعترف بها حسب مسلمًا، وقد يكون اعترافه نفاقًا، فنفاقه بينه وبين ربه الله يحاسبه، ونحن ليس لنا إلا الظاهر، فهؤلاء الذين ذكرتهم أتصور من بعيد وما رأيتهم، لكني رأيت أمثالهم في بعض البلاد الأخرى، لا شك أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويصلون ويصومون ويحجون، إذًا: هم جاءوا بأركان الإسلام الخمسة، ثم هم يؤمنون بالله وملائكته و .. وكتبه الأركان المعروفة الإيمانية، لكن بلا شك يسيئون فهم كثير من هذه الشروط أو الأركان.

أول ذلك: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن معنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق في الوجود إلا الله، ومعنى: وأن محمدًا رسول الله، أننا لا نعبد الله إلا بما جاء به رسول الله، فمن حقق هذا المعنى في الشهادة الأولى، وهذا المعنى في الشهادة الأخرى يكون مسلمًا ويصدق عليه ما قاله عليه السلام: «فإذا قالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله فلهم ما لنا وعليهم ما علينا».

إذًا: هؤلاء نحن نسوقهم مساق المسلمين، أما الله ﷻ فهو المحاسب لهم

هو أعلم بهم، نحن نفرق هنا بين هؤلاء المساكين الذين لم تبلغهم دعوة الحق التي نسميها نحن بالدعوة السلفية، وبين كثير من هؤلاء العرب الذين يعيشون في البلاد العربية وقد سمعوا دعوة الحق ثم جحدوها وأنكروها، فأعتقد أنهما أي الفريقين ليسوا سواء عند رب العالمين؛ ذلك لأن الفريق الأول يعتبر جله عذرًا لهم أي: لم تبلغهم الدعوة، وربنا ﷻ يقول: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥).

وبهذه المناسبة أقول: {حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥)، إما رسولًا بشخصه ودعوته أو بدعوته دون شخصه كما هو شأننا اليوم، نحن ما جاءنا رسول، لكن جاءتنا دعوة الرسول، فالحجة قائمة علينا، لكن ليس كل فرد في العالم -كل العالم الإسلامي وغير الإسلامي- قد قامت الحجة عليه كأمثال هؤلاء الذين ما عرفوا الإسلام إلا من الزاوية الصوفية.

لذلك نحن موقفنا بالنسبة لهؤلاء حقيقة موقف الطبيب بالنسبة للمريض، فهو شفيق على مريضه وحريص على شفائه؛ وذلك بما يقدم إليه من أدويته، هؤلاء يجب العناية بهم أن يفهموا القرآن ولو بِلُغَتِهِم، وأظن مهما بلغ بهم الجهل والتشبث بالتصوف فلابد أنهم سمعوا بشيئين أحدهما القرآن والآخر السنة، فحينئذ يدندن حولهم دائمًا أن الإسلام هو القرآن والسنة .. القرآن والسنة .. القرآن والسنة .. ولو بقي الداعية بينهم سنين حتى يغرس في أذهانهم أن الإسلام قال الله قال رسول الله، فإذا ما غرست هذه النواة في قلوبهم يبدأ الداعية يفهمهم بعض الأمور المتعلقة بالكتاب والسنة وبخاصة ما ذكرته آنفًا من التوحيد، ما معنى لا إله إلا الله، وهذه العقيدة والحمد لله بينة جدًا في القرآن الكريم: {إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ} (الصافات:٣٥)، المشركون

هكذا إذا دعوا أن يقولوا: لا إله إلا الله يستكبرون، فيبين لهم ما معنى هذه الآيات، ويلفت نظرهم الفرق بين ما يعنيه القرآن والسنة أيضًا عن الرسول عليه السلام وبين ما هم عليه مما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم.

المهم شيئان اثنان، أحدهما: يتعلق بالداعية، والآخر يتعلق بهؤلاء المدعوين، هؤلاء لا يحكم عليهم بأنهم كفار وبأنهم خارجون عن الإسلام، حسبنا وفي نفوسنا أن نعتقد بلا شك ضالون عن الإسلام، هذا فيما يتعلق بهم، فيما يتعلق بنا نحن كدعاة يجب علينا كما مثلت آنفًا بالطبيب والمريض أن نترفق بهم وأن نهديهم سواء السبيل. والحمد لله رب العالمين.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٥/ ٨٩٠): السؤال: حول قضية تفضلت فيها أن الذين لم تبلغهم الرسالة وأن أطفال المشركين وأهل الفترة يمتحنون في عرصات يوم القيامة، الحديث الذي تفضلت به، وهذا يعارضه حديثان، أريد أن نعلم [كيف الجمع] وهما الحديث الذي رواه مسلم رَحِمَهُ اللهُ: «أبي وأبوك في النار» ثم الحديث الآخر أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال في الحديث الصحيح: «إن الله وعدني أن لا يعذب اللاهين من أمة البشر» واللاهين معلوم أنهم الأطفال، وهذا عموم الأطفال المشركين وغيرهم.

الجواب: العموم أمره سهل، تعرف أن العام يدخله التخصيص أليس كذلك؟

مداخلة: نعم.

الشيخ: إذًا تخصيص حسب ما سمعت من التفصيل. واضح؟

مداخلة: نعم.

الشيخ: يبقى الجواب عن الحديث الأول، الحديث الأول ليس فيه معارضة

والحمد لله شأن كل الأحاديث الصحيحة، إنما يأتي ادعاء المعارضة هو من فكرة قائمة في أذهان كثير من الناس اليوم وهي فكرة خاطئة، وهي أن الذين كانوا قبل الرسول عليه السلام هم من أهل الفترة، وهذا خطأ فاحش جدًا، العرب في الجاهلية لم يكونوا من أهل الفترة، أي: لم تبلغهم دعوة نبي. كيف وإبراهيم وإسماعيل يقول الله رب العالمين في القرآن الكريم: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ} (البقرة:١٢٧) .. إلى آخر الآية.

وبعدين هم كانوا يحجون ويعتمرون وكانوا يطوفون، وكانوا يأتون بكثير من المناسك التي ورثوها عن إبراهيم وإسماعيل، فمن الخطأ الفاحش أن يقال: إن العرب كل العرب كانوا من أهل الفترة، ولذلك فالعرب بلغتهم دعوة إبراهيم وإسماعيل والآثار إلى الآن، آثار هذه الدعوة لا تزال موجودة في المسجد الحرام، لكن معلوم أيضًا بالإضافة إلى هذا أن العرب دخل في ديانتهم أشياء كثيرة من الشرك والوثنية، وكان ذلك ظاهرًا حتى في الكعبة التي كانت نصبت فيها الأصنام، والرسول لما دخلها كان يحطمها بعصاه، وكلما حطم صنمًا يقول: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} (الإسراء:٨١)، لكن هذا لا يعني أنهم ما جاءتهم الدعوة، إنما نستطيع أن نقول: منهم من جاءتهم الدعوة والمقصود هنا بالدعوة ليس تفصيليًا؛ لأن الحقيقة المسلمين اليوم الدعوة التفصيلية ما جاءتهم على وجه الصحيح إلا أفراد قليلين جدًا، لكن يهمنا العقيدة التوحيد الذي هي سبب النجاة من الخلود في النار يوم القيامة واضح أو لا؟

فأنا أقول أن العرب كأي أمة أخرى بلغتهم دعوة نبي أو رسول فمنهم من جاءته كما جاءت إلى الرسول وكما بلغها الرسول، ومنهم من انحرفت جاءته

منحرفة، والله ﷻ هو الذي يعلم من هو الذي بلغته الدعوة قبل أن تنحرف عن الجادة والعكس بالعكس، لكن الغرض أن لا نطلق الكلام ونقول أن العرب في الجاهلية كانوا أهل فترة لهذا السبب أولًا، ولأحاديث متكاثرة جدًا تدل على أن أفرادًا من الجاهلية يعذبون، كهذا الحديث مثلًا: «إن أبي وأباك في النار» فهذا دليل أنه بلغته الدعوة وإلا كيف يعذب في النار ولم تبلغه الدعوة، وكحديث أن الرسول عليه السلام كان مع بعض أصحابه على دابته لما مر بقبرين فشمست الدابة، نفرت، فنظر الرسول عليه السلام فرأى هناك قبرين، فسأل أصحابه وقال: «متى مات هؤلاء أو هذان؟ قالوا: ماتا في الجاهلية. فقال عليه السلام: لولا أن تدافنوا لأسمعتكم عذاب القبر» فالدابة سمعت عذاب القبر فشمست، والرسول يقول: «لولا أن تدافنوا» أي: لولا أن تموتوا فيدفن بعضكم بعضًا من رهبة سماع العذاب في القبر لأسمعتكم العذاب هذا.

كذلك الحديث الذي يقول السائل أو السائلة أن فلان في الجاهلية، حاتم الطائي أو غيره، ابن جدعان يمكن أنه كان كريمًا وكان مضيافًا وكان كثير الخيرات واليتامى والمساكين .. وإلى آخره هل ينفعه شيء من ذلك يا رسول الله؟! قال: «لا، إنه لم يقل يومًا من دهره: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»، لذلك فباختصار أهل الجاهلية ليسوا أهل فترة، بلغتهم دعوة إبراهيم وإسماعيل وكان بعض أفرادهم على التوحيد. نعم.

مداخلة: هل صح بأنه كان أفراد ... لا يتجاوزون الستة نفر هم الذين يعلمون كورقة بن نوفل مثلًا عن الحنيفية السمحة وكان كثير النظر للسماء والهمهمة ولا يعلم كيف يعبد الله تبارك وتعالى، يقول: لو أعلم كيف تبعد لعبدتك، وأخبر الله تبارك وتعالى عن المشركين بأنهم كانوا يتقربون للأصنام

لتقربهم إلى الله زلفى، يعبدونها ليتقربوا من الله تبارك وتعالى، فهم لا يعلمون الوسيلة والصحيحة والعقيدة السليمة التي يعبد الله تبارك وتعالى بها، إذ كانوا يعبدوا الأصنام لكي تقربهم إلى خالقهم.

فمن هذا ألا تكون الديانة الحنيفية اندثرت وزالت وما بقي لها أي معان؟

الشيخ: أنا أعتقد أنه سبق الجواب عن مثل هذا السؤال أيضًا؛ لأني جعلت العرب في الجاهلية كالمسلمين اليوم، فمنهم من بلغته الدعوة فهو مسؤول مؤاخذ إذا كفر بها، ومنهم من لم تبلغه الدعوة فهو غير مؤاخذ وله حساب كما عرفتم في عرصات يوم القيامة، وقلت أيضًا: بأن من العرب من بلغته الدعوة وضربت مثلًا بجماعة التوحيد هؤلاء معروفين يعني، لكن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك أفراد آخرون كانوا موحدين، وما ذكرته بالنسبة لورقة أو غيره أنه كان يقول: لا أعرف كيف أعبد الله. هذا أنا شيء لا أعرفه، ولا أعتقد صحته، لكن هب أن الأمر كذلك، لكن هذا هل معناه أنه كان مشركًا؟ لا. كان موحدًا، فالتوحيد هو سبب الخروج أو عدم الخلود في النار على الأقل.

الخلاصة عرفتموها وهو: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء:١٥).

فكل شخص بعينه جاءنا حديث صحيح في الجاهلية أنه معذب لا يجوز أن نتصور أنه من أهل الفترة، هذا هو المهم في الموضوع، فقد بلغته الدعوة وبذلك ترتب العذاب به. والحمد لله.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق (٥/ ٩٢١): السؤال: إقامة الحجة على الحكام، يعني: تعريف الحجة، وكيفية إقامة الحجة، ومن يقيمها؟

الشيخ: يقيمها أولًا أهل العلم، وثانيًا: يقيمها بكتاب الله وحديث رسول الله

-صلى الله عليه وآله وسلم-، وعمل السلف الصالح، وما أدري أنت قلت ثالثًا ما هو الثالث؟

السائل: تعريف الحجة.

الشيخ: تعريف الحجة، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

العلم قال الله قال رسوله قال الصحاب ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين رأي فقيه

فالحجة هو قال الله وقال رسول الله.

السائل: بالنسبة للكيفية، تكون بطريقة مباشرة أم غير مباشرة، أم عن طريق الرسائل.

الشيخ: لا، المباشرة ليست ضرورية لأن الرسول عليه السلام لما دعا ملوك الكفر إلى الإسلام ما دعاهم مباشرة، أرسل إليهم خطابًا وأحيانًا أرسل إليهم رسولًا من طرفه عليه السلام، فليس من الضروري أن تكون الحجة قائمة مباشرة، وإنما بواسطة، وبخاصة أن الآن نحن لو اتصلنا مع الذي نريد أن نقيم الحجة عليه، حتى لو اتصلنا عليه مباشرة فالحجة منا إليه نقدم ما قال الله وقال رسول الله، وبين الرسول عليه السلام الذي بلغنا شريعة الله منذ أربعة عشرة قرنًا، فإذًا: في وسائط هنا لتبليغ الحجة حتى لو اتصلنا مباشرة بالذي نريد أن نقيم عليه الحجة، فالمهم تبليغ الحجة إليه إما بواسطة شخص يذهب إليه كما جاء في الحديث الصحيح: «أفضل الجهاد كلمة حق تقال أمام سلطان جائر»، لكن هذا لو أرسل إليه خطابًا وبينت له المسألة بأدلتها من الكتاب والسنة فقد أقيمت عليه الحجة

وسئل العلامة الألباني أيضا كما في جامع تراثه في المنهج والأحداث الكبرى

(٣/ ٣٢٩): ما حكم هذه المظاهرات، مثلًا يتجمع كثير من الشباب أو الشابات.

الشيخ: والشابات أيضًا؟

مداخلة: نعم، قد حدث هذا.

الشيخ: ما شاء الله!

مداخلة: يخرجون إلى الشوارع مستنكرين لبعض الأفعال التي يفعلها الطواغيت، أو بعض ما يأمر به هؤلاء الطواغيت أو ما يطالب به غيرهم من الأحزاب الأخرى السياسية المعارضة، فما حكم هذا العمل في شرع الله؟

الشيخ: أقول وبالله التوفيق: الجواب عن هذا السؤال يدخل في قاعدة ألا وهي قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي أخرجه أبو داود في سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أو من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - الشك مني الآن - قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

الشاهد من هذا الحديث: قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «ومن تشبه بقوم فهو منهم» فتشبه المسلم بالكافر لا يجوز في الإسلام وهذا التشبه له مراتب من حيث الحكم ابتداءً من التحريم وأنت نازل إلى الكراهة، وقد فصل القول في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في كتابه العظيم المسمى بـ: «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، تفصيلًا لا نجده عند غيره رَحِمَهُ اللهُ.

وأريد أن أنبه إلى شيء آخر ينبغي على طلاب العلم أن ينتبهوا له وألا يظنوا

أن التشبيه هو فقط النهي عنه في الشرع، فهناك شيء آخر أدق منه ألا وهو: مخالفة الكفار، التشبه بالكفار أن تفعل فعلهم، أما مخالفة الكفار فأن تتقصد مخالفتهم فيما يفعلونه حتى لو كان هذا الفعل الصادر منهم فعلًا لا يملكون التصرف فيه بخلاف ما فرض عليهم فرضًا كونيًا، كمثل الشيب الذي هو سنة كونية لا يختلف فيه المسلم عن الكافر؛ لأنه ليس في طوعهم ولا في إرادتهم وإنما هي سنة الله تبارك وتعالى في البشر ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ومع ذلك فقد صح عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون شعورهم فخالفوهم» فقد يشترك المسلم مع الكافر في شيبه وهو مفروض عليهما لا فرق، فلا تجد مسلمًا لا يشيب إلا ما ندر جدًا، كما أنك لا تجد كذلك كافرًا من باب أولى، فيصبح هنا اشتراك في المظهر بين المسلم وبين الكافر في أمر لا يملكانه كما قلنا آنفًا، فأمرنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن نتقصد مخالفة المشركين في أن نصبغ شعورنا سواء كان هذا الشعر لحيَّة أو شعر رأس، لماذا؟ ليظهر الفرق بين المسلم وبين الكافر، فما بالكم إذا كان الكافر يتكلف عمل شيء ثم يأتي بعض المسلمين فيفعلون فعلهم ويتأثرون بأعمالهم.

هذا أشد وأنكى من المخالفة؛ لذلك أردت التنبيه قبل أن أمضي فيما أنا في صدده من بيان الجواب الذي وجه السؤال عنه، فإذا عرفتم الفرق بين التشبه وبين المخالفة حينئذٍ فالمسلم الصادق في إسلامه يحاول دائمًا وأبدًا ليس أن يتشبه بالكافر وإنما يتقصد مخالفة الكافر، ومن هنا نحن سننا وضع الساعة في اليد؛ لأن العادة الكافرة وهم الذي اخترعوا هذه الساعة فإنما يضعونها في يسراهم، فهذا مما استنبطناه من قوله عليه السلام: «فخالفوهم».

عرفتم هذا الحديث: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون شعورهم فخالفوهم» فكما يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذاك الكتاب، فقوله عليه الصلاة والسلام: «فخالفوهم» جملة تعليلية تشير إلى أن مخالفة الكفار مقصود للشارع الحكيم حيثما تحققت هذه المخالفة، ولذلك نجد لها تطبيقًا في بعض الأحكام الأخرى ولو أنها ليست في حكم الوجوب كمثل قوله عليه الصلاة والسلام: «صلوا في نعالكم وخالفوا اليهود» علمًا بأن الصلاة في النعال ليست فرضًا بخلاف إعفاء اللحية فهو فرض يأثم حالقها، أما الصلاة منتعلًا فهو أمر مستحب إذا ثابر المسلم واظب على إقامة الصلاة دائمًا وأبدًا حافيًا غير منتعل فقد خالف السنة ولم يخالف اليهود المتنطعين في دينهم.

وقد جاء في بعض المعاجم من كتب السنة أن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان في جمع فأقيمت الصلاة، وكان فيهم صاحبه أبو موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقدمه ليصلي بالناس إمامًا لعلم ابن مسعود أولًا بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان معجبًا بقراءة أبي موسى هذا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، حيث قال له ذات يوم: «لقد مررت بك البارحة يا أبا موسى فاستمعت لقراءتك، فقال عليه الصلاة والسلام: لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير داود عليه السلام» لما سمع هذا الثناء أبو موسى من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «لو علمت ذلك لحبرته لك تحبيرًا» بما يعلم ابن مسعود من رضى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عن قراءة أبي موسى قدمه إمامًا، مع أن ابن مسعود ليس دون أبي موسى فضلًا في القراءة بل لعله وأسمى له في ذلك، وقد قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيه: «من أحب أن يقرأ القرآن غضًا طريًا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد».

مع ذلك وهذا في الواقع يعطينا درسًا عمليًا نحن المسلمين في آخر الزمان

حيث قد نجد صحوة علمية، ولكننا مع الأسف لا نجد معها صحوة سلوكية أخلاقية، فلا تؤاخذوني إذا قلت لكم: إنني أشعر أنكم حينما تدخلون في هذا المكان تتزاحمون وتتنافرون، وهذا ليس من الأخلاق الإسلامية، ويجب أن نمثل الصحوة في جانبيها في العلم وفي السلوك والأخلاق.

الشاهد: أن ابن مسعود فيما نرى نحن هو أقرأ من أبي موسى ومع ذلك تواضع مع صاحبه وآثره فقدمه ليصلي به وبالناس الحاضرين إمامًا، فتقدم أبو موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، الشاهد: وكان منتعلًا فخلع نعليه، فقال ابن مسعود له مستنكرًا أشد الاستنكار: ما هذه اليهودية أفي الوادي المقدس أنت؟ يشير إلى قوله عليه السلام: «صلوا في نعالكم وخالفوا اليهود» إذا عرفتم هاتين الحقيقتين: النهي عن التشبه من جهة، والحظ على مخالفة المشركين من جهة أخرى حينذاك وجب علينا أن نجتنب كل مظاهر الشرك والكفر مهما كان نوعها ما دام أنا تمثل تقليدًا ولكي نتحاشى أن يصدق علينا نحن معشر المنتمين إلى العمل بالكتاب والسنة قوله عليه الصلاة والسلام: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» هذا خبر من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- يتضمن تحذيرًا وذلك بأن هذه الأمة كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح بل الحديث المتواتر: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة» وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله».

إذًا: قد بشرنا الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- في هذا الحديث الصحيح بأن الأمة لا تزال في خير، فحينما يأتي ذلك الإخبار الخطير: «لتتعبن سنن من قبلكم» فلا يعني أن كل في فرد من أفراد الأمة ستتبع سنن الكفار وإنما

سيكون ذلك في هذه الأمة فحينما يقول: لتتبعن، فهو بمعنى التحذير، أي: إياكم أن تتبعوا سنن من قبلكم فإنه سيكون فيكم من يفعل ذلك، وقد جاء في رواية أخرى خارج الصحيحين، وهي ثابتة عندي يمثل الرسول فيها تقليدًا للكفار إلى درجة خطيرة لا يكاد الإنسان يصدق بها إلا إذا كان مؤمنًا خالصًا، ثم الواقع يؤكد ذلك، قال عليه السلام في تلك الرواية: «حتى لو كان فيهم من يأتي أمه على قارعة الطريق لكان فيكم من يفعل ذلك» حتى لو كان فيهم من يأتي أمه .. يزني بأمه وليس ساترًا على نفسه وعلى أمه بل على مرأى من الناس وعلى قارعة الطريق لكان فيكم من يفعل ذلك.

التاريخ العصري اليوم يؤكد أن ما نبأنا النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من اتباع بعض هذه الأمة سنن من قبلنا قد تحقق إلى مدى بعيد وبعيد جدًا وإن كنت أعتقد أن لهذا التتبع بقية، فقد جاء في بعض الأحاديث الثابتة أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «لا تقوم الساعة حتى يتسافد الناس على الطرقات تسافد الحمير» وهو الفاحشة، على الطرقات كما تتسافد الحمير، هذا هو منتهى التشبه بالكفار.

إذا علمتم النهي عن التشبه والأمر بالمخالفة نعود الآن: هذه التظاهرات التي كنا نراها بأعيننا في زمن فرنسا وهي محتلة لسوريا، ونسمع عنها في بلاد أخرى وهذا ما سمعناه الآن في الجزائر، لكن الجزائر فاقت البلاد الأخرى .. فاقت البلاد الأخرى في هذه الضلالة وفي هذا التشبه؛ لأننا ما كنا نرى الشابات أيضًا يشتركن في التظاهرات، فهذا تمام التشبه بالكفار والكافر؛ لأننا نرى في الصور أحيانًا وفي الأخبار التي تذاع في التلفاز والراديو ونحو ذلك خروج الألوف المؤلفة من الكفار سواء كانوا أوربيين أو صينيين أو نحو ذلك يقولوا في

التعبير الشامي، وسيعلمكم هذا التعبير: يخرجون نساءً ورجالًا خليط مليط! هكذا يقولون عندنا، خليط مليط يتزاحمون الكتف بالكتف وربما العجيزة بالقبل ونحو ذلك، هذا هو تمام التشبه بالكفار أن تخرج الفتيات مع الفتيان يتظاهرون.

أنا أقول شيئًا آخر: بإضافة إلى أن هذا التظاهر ظاهرة فيها تقليد للكفار في أساليب استنكارهم لبعض القوانين التي تفرض عليهم من حكامهم أو إظهارًا منهم لرضى بعض تلك الأحكام أو القرارات، أضيف إلى ذلك شيئًا آخر ألا وهو: هذه التظاهرات الأوربية ثم التقليدية من المسلمين ليست وسيلة شرعية لإصلاح الحكم وبالتالي لإصلاح المجتمع.

ومن هنا يخطئ كل الجماعات وكل الأحزاب الإسلامية الذين لا يسلكون مسلك النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في تغيير المجتمع، لا يكون تغيير المتجمع بالنظام الإسلامي بالهتافات وبالصيحات وبالتظاهرات وإنما يكون ذلك على الصمت وعلى بث العلم بين المسلمين وتربيتهم على هذا الإسلام حتى تؤتي هذه التربية أكلها ولو بعد زمن بعيد، فالوسائل التربوية في الشريعة الإسلامية تختلف كل الاختلاف عن الوسائل التربوية في الدول الكافرة.

لهذا أقول باختصار: إن التظاهرات التي تقع في بعض البلاد الإسلامية أصلًا هذا خروج عن طريق المسلمين وتشبه بالكافرين، وقد قال رب العالمين: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء: ١١٥] في كل شيء .. {نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ١١٥].

مداخلة: هؤلاء أصحاب التظاهرات والمظاهرات يستشهدون بما جاء في

السيرة أنه لما أسلم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج المسلمون في مكة، عمر في صف وحمزة في صف آخر، ويقولون هذه مظاهرة استظهارًا واستنكارًا لما يفعله طواغيت قريش وكفارهم، فما جوابكم عن هذا الاستشهاد.

الشيخ: جواب عن هذا: كم مرة وقعت مثل هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي؟

مداخلة: مرة واحدة.

الشيخ: طيب! مرة تصبح سنة متبعة؟ إن علماء الفقه يقولون: لو ثبت عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- عبادة مشروعة يثاب فاعلها، فلا ينبغي المواظبة عليها دائمًا أبدًا خشية أن تصبح تقليدًا متبعًا بحيث مع الزمن يصبح ذلك الأمر الذي أصله مستحبًا .. يصبح أمرًا مفروضًا في أفكار الناس وعاداتهم بحيث أن أحدًا من المسلمين لو ترك هذا المستحب لقام النكير الشديد عليه، قالوا هذا وهذا من فقههم، فما بالكم إذا جاشت العاطفة بمناسبة ما فخرجت مثل هذه الجماعة التي جاء ذكرها في السيرة فتتخذ سنة متبعة، بل تتخذ حجة لما يفعله الكفار دائمًا وأبدًا على المسلمين الذين لم يفعلوا ذلك بعد هذه الحادثة مطلقًا مع شدة وقوع ما يستلزم ذلك، فنحن نعلم مع الأسف الشديد أن كثيرًا من الحكام السابقين كانت تصدر منهم أحكام مخالفة للإسلام وكان كثير من الناس يسجنون ظلمًا وبغيًا وربما يقتلون، فماذا يكون موقف المسلمين؟ أمر الرسول عليه السلام في بعض الأحاديث الصحيحة بوجوب إطاعة الحاكم ولو أخذ مالك وجلد ظهرك، أعني من هذا: أنه وقع في قرون مضت أشياء مما ينبغي استنكارها جماهيريًا ولكن شيء من ذلك لم يقع، ومن هنا نحن نخشى من هذه التي تسمى بالصحوة .. نخشى منها حقيقةً كما نرضى بها .. نخشى لأنها صحوة

عاطفية وليست صحوة علمية بالمقدار التي تحصن هذه الصحوة من أن تميل يمينًا ويسارًا، فلا شك أن في الجزائر وفي كل بلاد الإسلام مثل هذه الصحوة التي تتجلى في انطلاق الشباب المسلم بعد أن كانوا نيامًا غير أيقاظ، ولكن تراهم قد ساروا مسيرة تدل على أنهم لم يتفقهوا في دين الله ﷻ، والأمثلة في ذلك كثيرة جدًا فلا نخرج عما نحن بصدده.

فحسبنا الآن هذا الاستدلال يدل على الجهل بالفقه الإسلامي ذلك لما أشرت إليه آنفًا: وقعت هذه الحادثة وأقول مستدركًا على نفسي: إني أذكر هذه الحادثة قد وردت في السيرة ولكني لا أستحضر الآن إن كانت صحيحة الإسناد، فإن كان أحدكم يعلم أن ذلك ورد في كتاب معتمد من كتب السنة فيذكرني وإلا فالأمر بالنسبة إلي يحتاج إلى مراجعة، فعلى افتراض ثبوت هذه التظاهرة حينما أسلم عمر رضي الله عنه، هذه وقعت مرة فإذا وقع مرة لا يصبح ذلك سنة بحيث نؤيد ما يفعله الكفار ثم نجعل المسلمين تحت المخالفة بهذه السنة لأنها لم تتكرر، وإن تكررت فعلى مدى العصور كلها هذه والسنوات الطويلة فهي نقطة في بحر، ما يصح أن تتخذ دليلًا لمثل هذا الواقع الذي يفعله الكفار ثم نحن نتبعهم في ذلك.

هذا الاستدلال معناه: تسليك وتبرير وتسويغ هذا الواقع مهما كان شأنه، أذكر جيدًا أن علماء الحنفية قد نصوا في مسألة فقهية مع اعترافهم بأنها سنة محمدية أنه ينبغي تركها أحيانًا، ألا وهي سنة قراءة سورة السجدة يوم الجمعة، فهذا ثابت في الصحيحين، مع ذلك نص علماء الحنفية على أن إمام المسجد ينبغي عليه أن يدع هذه السنة أحيانًا خشية أن يترتب من وراء مواظبة الأئمة على هذه السنة قيام عقيدة في أذهان العامة تنافي هذه السنة وترفع حكمها فوق مستواها، وأنا عندي شواهد على هذا مما يؤكد لنا هذه الدقة في الفقه والفهم

للسنة.

أذكر جيدًا أن إمام المسجد الكبير في دمشق الشام، مسجد بني أمية: صلى الإمام فيه صلاة الفجر يوم الجمعة ولم يقرأ سورة السجدة، فما كاد الإمام يسلم إلا قام قامت ضجة عظيمة جدًا من المصلين، ثاروا على الإمام لماذا أنت لم تقرأ سورة السجدة فأخذ الإمام يحاول إقناعهم بأنه يا أخواننا أنا أعلم أن هذه سنة وأنا أقرأ بها دائمًا في فجر كل جمعة، ولكن ينبغي ترك هذه السنة أحيانًا، ولكن كما قال الشاعر:

ولو ناديت أسمعت حيًا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو نارًا نفخت فيها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رماد

إلى زمن بعيد جدًا سبب أن هذا الإمام ترك قراءة سورة السجدة في ذلك الصباح، وأغرب من ذلك ما وقع لي شخصيًا: كنت ... في قرية تبعد عن دمشق تقريبًا نحو ستين كيلو متر اسمها: مضايا وهي في جبل، فنزلت صباح الجمعة إلى المسجد لأصلي مع جماعة المسلمين هناك فاتفق أن الإمام لم يأت، فنظروا فلم يجدوا هناك سواي وأنا يومئذٍ شاب لكن لحيتي بدأت تنبت، فظنوا بي خيرًا فقدموني، أنا في الحق لا أحفظ سورة السجدة جيدًا، فما أحببت أن أخاطر فافتتحت سورة مريم وقرأت منها الصفحتين الأوليين في الركعة الأولى، فلما أردت الركوع وكبرت راكعًا وإذا بي أشعر بأن الناس كلهم هووا ساجدين .. أنا راكع وهم سجدوا، هذا يدلكم على ماذا؟ على العادة.

ومع الأسف كما يوجد في بعض المساجد القديمة وحتى بعض الحديثة منبر طويل يقطع الصف، وليس الصف الأول فبعض هذه المنابر تقطع صفين على الأقل، كان هذا المنبر مع صغر المسجد هناك في القرية قطع الصف الأول

والثاني، فالذين كانوا خلفي مباشرةً أحسوا بخطئهم فتداركوه وشاركوني في الركوع، أما الذين كانوا خلف المنبر فظلوا ساجدين حتى سمعوا قولي: سمع الله لمن حمده، وإذا بهم يصيحون، يعني: أبطلوا صلاتهم، ضوضاء وغوغاء، وتابعت أنا بطبيعة الحال حتى قضيت الصلاة بتمامها ثم التفت إليهم، قلت لهم: يا جماعة ألا تستحون! أنتم عرب أو عجم ما تفرقون بين قول القارئ في أول ركعة: ألم، وبين كهيعص، ما تفرقون بين هذا وهذا! لو هذا وقع في بلاد الأعاجم لكان عارًا عليهم فما بالكم أنتم وأنتم عرب، لكن يبدوا أن عقولكم مشغولة بالزرع والضرع ونحو ذلك من الأمور.

ففي هذه الحادثة تأكدت من صحة قول العلماء الذين أشرت إليهم آنفًا، بأن على الإمام أن يراعي وضع المجتمع الذي يعيش فيه حتى لا يغالوا في بعض الأحكام، فهذه القصة والتي قبلها تبين لكم أن المسائل في الشرع يجب أن تؤخذ بدون مبالغة .. بدون أن نرفع ما كان سنةً إلى حد الوجوب، وما كان فرضًا ننزل به إلى حد السنة، هذا كله إفراط أو تفريط لا يجوز، فهذا جواب عن هذا الاستدلال الذي يدل على جهل المستدلين به.

مداخلة: لعل القصة هذه وردت في ... إسلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في سير أعلام النبلاء.

الشيخ: لا بأس! لكن هذا لا يفيدنا الصحة.

مداخلة: لا، الإسناد ضعيف .. قصة إسلام عمر بن الخطاب ضعيفة.

الشيخ: أنا معك قصة إسلام عمر بن الخطاب، والتي يقول فيها أنه دخل على أخته إلى آخره، هذه القصة ضعيفة فعلًا وهي يستدل بها القائلون بأنه لا يجوز للمسلم أن يمس القرآن إلى على طهارة، فإن كانت هذه القصة لم ترد إلا

بهذا الطريق فهي قصة ضعيفة، أما أنا قلت آنفًا متحفظًا خشية أن تكون هذه القصة لوحدها وردت في شيء من كتب السنة بإسناد آخر فيكون هذا الإسناد إما حسنًا لذاته أو حسنًا لغيره.

أما القصة المعروفة وقد أخرجها الإمام الدارقطني في سننه، فأنا ... الآن بالعزو، فأقول: أن القصة رواها الإمام الدارقطني في سننه وبإسناد ضعيف، فإن كانت هذه القصة التي فيها تلك المظاهرة وردت أي: إسناد آخر ممكن الاستشهاد به أو الاستدلال فبها، وإلا فهذه القصة التي أشار إليها الأخ هي ضعيفة لا يجوز الاحتجاج بها.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٤٠): السؤال: هل يجوز القيام بمظاهرات ومسيرات سلمية للتعبير عن طلبات الشعب الإسلامية، فإن كان الجواب بلا، فنرجو ذكر الدليل؛ لأن القيام بهذه المسيرات هي من قبيل المصالح المرسلة، فمن جهة أنه لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كالأصل في الوسائل أنها بحال الإباحة حتى يأتي النص بتحريمها، وكذلك إن القيام بهذه المظاهرات أو المسيرات هي موافقة للضوابط التي ذكرها الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في رسالته المسلمون والعمل السياسي.

الجواب: صحيح أن الوسائل إذا لم تكن مخالفة للشريعة فهي الأصل فيها الإباحة هذا لا إشكال، لكن الوسائل إذا كانت عبارة عن تقليد لمناهج غير إسلامية فمن هنا تصبح هذه الوسائل غير شرعية، فالخروج بتظاهرات أو المظاهرات وإعلان عدم الرضا أو الرضا وإعلان التأييد أو الرفض لبعض القرارات أو بعض القوانين، هذا نظام يلتقي مع الحكم الذي يقول: الحكم للشعب من الشعب وإلى الشعب.

أما حينما يكون المجتمع إسلاميًا فلا يحتاج الأمر إلى مظاهرات وإنما يحتاج إلى إقامة الحجة على الحاكم الذي يخالف شريعة الله كما يروى وأنا أقول هذا كما يروى إشارة إلى ضعف ما يروى ولكنها على كل حال تبين حقيقة معروفة من ناحية تاريخية أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قام خطيبًا يحض الناس على ترك المغالاة في المهور وإلى هنا الحكم صحيح .. الرواية صحيحة.

وإنما الشاهد في الرواية الأخرى التي في سندها ضعف وهي أن امرأة قالت يا عمر الأمر ليس بيدك، إن الله عَزَّ وَجَلَّ ذكر في القرآن الكريم فإن أتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا، فكيف أنت تقول: لا يجوز إلا أربعمائة درهم مهرًا لبناتكم.

فكان جواب عمر إن صحت الرواية: أخطأ عمر وأصابت المرأة، فيكون المجتمع الإسلامي ليس بحاجة لمثل هذه النظم وما يترتب من ورائها من وسائل، عندما يتحقق المجتمع الإسلامي يستطيع الإنسان أن يدخل ويبلغ رأيه وحجته إلى الذي بيده الأمر أو على الأقل إلى ممثله.

فهو ليس بحاجة إلى ظهور لمثل هذه التظاهرات التي تلقيناها من جملة ما تلقيناها من عادات الغربيين ومن نظمهم، وكما هو الشأن الآن نحن نقلد الغربيين في كثير من عاداتهم وتقاليدهم سوف لابد من التفصيل بين ما يجوز ولا نأخذه عنهم وما لا يجوز، فانظر مثلًا نحن نأخذ عنهم بعض الوسائل، هذه الوسائل إذا كانت تؤدي إلى غرض مشروع أو على الأقل جائز وليس فيه إحياء لمعنى التشبه بالكفار فهذا هو أمر جائز، والمثال في ذلك ممكن أن نستحضر مثلين اثنين أحدهما ثابت من حيث الرواية والآخر فيه ضعف أما الثابت فهو ما جاء في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة خروجه عليه

الصلاة والسلام مسافرًا ونزوله في مكان، فلما أصبح به الصباح خرج لقضاء الحاجة فأراد المغيرة بن شعبة أن يصب الوضوء على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فصب عليه حتى جاء الرسول عليه الصلاة والسلام إلى تشبيك كميه، الشاهد قال المغيرة: وعليه جبة رومية ضيقة الكمين فلم يستطع من ضيقها أن يشمر عن ذراعيه فأخرجها وألقى الجبة على كتفيه حتى توضأ عليه الصلاة والسلام وغسل ذراعيه، الشاهد أنه عليه الصلاة والسلام لبس جبة ورومية، فهذا يعني أنه إذا كان هناك لباس من ألبسة الكفار تنسب إليهم ولم يكن فيه ظاهر التشبه التقليد لهم فيجوز لما يترتب من وراء ذلك من مصلحة الدفء ونحو ذلك.

وكذلك المثال الثاني أذكره لشهرته في السيرة وإن كان غير ثابت على الطريقة الحديثية وهي: أن الرسول عليه الصلاة والسلام أمرهم أن ينزلوا في مكان في غزوة الخندق لما قال المنذر بن حباب أن هذا وحي ..

مداخلة: ...

الشيخ: نعم، حباب المنذري أم هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: له غير ذلك، قال: فإذًا ننزل في مكان آخر، الآن أستدرك على نفسي فأقول لكن فيه فائدة هذا مروي في السيرة وغير صحيح لكن ليس له صلة بمثالنا إنما المثال هو حفر الخندق حيث قال سلمان كما روي عنه أنهم كانوا إذا حوصروا في بلد ما أحاطوا البلدة بخندق، ورسولنا عليه الصلاة والسلام وافق على ذلك لما فيه من مصلحة جلية مجردة عن أي مفسدة، فبهذا الميزان يجب نحن أن نتلقى عادات الغربيين.

الآن نأتي بمثال آخر: هناك أناس يلبسوا جواكيت مختلفة لا يوجد مانع،

لكن ما معنى لبس البنطلون ما معنى لبس الجرافيتة، لا فائدة من ذلك سوى تمثل عادات الغربيين والتأثر بتقاليدهم، فإذًا يجب أن نفرق بين ما ينسجم مع الإسلام ومبادئه وقواعده وبين ما ينبو وَيَنْفِر عنه، فإذًا هذه المظاهرات ليست وسيلة إسلامية تنبئ عن الرضا أو عدم الرضا من الشعوب المسلمة لأن لهم وسائل أخرى باستطاعتهم أن يسلكوها، والذي يخطر في بالي أننا في الواقع عندما نقر مثل هذه المظاهرات كأننا نتصور أن المجتمع الإسلامي بعد أن يصبح فعلًا مجتمعًا إسلاميًا سيظل في نظمه وفي عاداته على عادة الغربيين، سيتغير كل شيء سوف يكون الوطن الاجتماعي في المجتمع الإسلامي في غنية عن مثل هذه المظاهرات.

وأخيرًا أصحيح أن هذه مظاهرات تغير من نظام الحكم إذا كان القائمون مصرين على ذلك، وكم وكم من مظاهرات قامت ووقعت وقتل فيها قتلى كثيرين جدًا ثم بقي الأمر على ما كان عليه قبل المظاهرات.

فلا نرى أن هذه وسيلة تدخل في قاعدة أن الأصل في الأشياء الإباحة لأنها من تقاليد الغربيين.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٤٥): مداخلة: بارك الله فيك! هل يجوز للعامة أو بعض العامة أن يصوموا أمام قصور الحكام أو أمام الحكام كي يلبوا لهم بعض الطلبات ..

الشيخ: أن يصوموا عن الطعام؟

مداخلة: يصوموا عن الطعام ويستنكروا يعني: يقفوا أمام القصور وأمام .. حتى يطلبوا.

الشيخ: لا، هذه عادة أجنبية كافرة لا يجوز للمسلمين أن يتخذوها وسيلة

لإظهار عدم رضاهم بشيء ما يصدر من قبل الدولة، ويجب أن نستحضر بهذه المناسبة قوله عليه السلام في حديث معروف: «ومن تشبه بقوم فهو منهم» وأحاديث كثيرة وكثيرة جدًا جاءت كالتفصيل لهذا الحديث المجمل: «ومن تشبه بقوم فهو منهم».

من تلك الأحاديث التي يمكن أن تعتبر تفصيلًا لهذا الحديث: «ومن تشبه بقوم فهو منهم» قوله عليه الصلاة والسلام: «صلوا في نعالكم وخفافكم وخالفوا اليهود» وأغرب من هذا أن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- كان راجعًا من غزوة فمروا بأشجار من السدر كان المشركون يعلقون عليها أسلحتهم فقال بعض الصحابة: «يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» كلمة قالوها .. اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال عليه الصلاة والسلام مستنكرًا: «الله أكبر! إنها السنن لقد قلتم كما قال قوم موسى لموسى: {اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [الأعراف: ١٣٨]» انظروا الفرق بين المقولتين! أولئك يقولون: اجعل إلهًا نعبده من دون الله، أما أصحاب الرسول: اجعل لنا شجرة ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، شتان بين المقولتين تلك لها علاقة بالعقيدة بل بالعبادة .. بالتوحيد وما ينافي التوحيد من الشرك الأكبر {اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [الأعراف: ١٣٨] وقول بعض الصحابة: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ليس لها علاقة بالعقيدة ولا بالفقه وإنما لها علاقة يمكن نسميه ببعض النواحي الاجتماعية فما رضي الرسول عليه السلام هذا التشبيه، وإن الموضوع منفك أحدهما عن الآخر كل الانفكاك، فأنكر عليهم أنهم قالوا: كما لهم ذات أنواط.

فهذا الحديث يؤكد أن المسلمين يجب أن يكونوا لهم شخصية مستقلة

تمامًا عن الكافرين ليس فقط باطنًا بل وظاهرًا أيضًا فلهم شخصيتهم الخاصة المتميزة عن الشخصيات الأمم أو الشعوب الكافرة.

فتجويع المسلم لنفسه هو يشبه تمامًا حلق الرأس .. في بعض الطرق الصوفية كان المسلم إذا انتمى إلى شيخ له طريق فليظهر له خضوعه التام المتمثل في قولهم - أعني الصوفية -: المريد بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل، تحقيقًا لهذا الاستسلام الأعمى المخالف لقوله تعالى: {قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف: ١٠٨] يعلنون عن ذاك المبدأ المخالف للبصيرة بأن يأمروا المنتمي إلى الطريق بأن يحلق رأسه.

فنحن نعلم أن حلق الرأس هو عبادة وطاعة لله ﷻ في بعض الأماكن وهو أمر جائز في غير تلك الأماكن كما قال عليه السلام: «احلقوه كله أو دعوه كله» أما في الحج: {مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ} [الفتح: ٢٧] والرسول عليه السلام كما جاء في الصحيحين قال: «اللهم اغفر للمحلقين، اللهم اغفر للمحلقين، اللهم غفر للمحلقين، قالوا: يا رسول الله! وللمقصرين؟ قال: وللمقصرين» فإذًا: لما كان الحلق عبادة ومنسك من مناسك الحج لا يجوز شرعًا نقله إلى مناسبة أخرى كما اتخذ ذلك الصوفية أو بعض مشايخ الصوفية طريقة ومنهجًا لهم على ما شرحت آنفًا.

كذلك الصيام .. الصيام طاعة لله ﷻ له نظامه وله شروطه وأركانه، لو أن المسلم أراد أن يواصل الليل بالنهار لكان عاصيًا؛ لأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «لا تواصلوا فإن كان ولا بد فمن السحور إلى السحور» فمواصلة الصيام الذي هو طاعة وعبادة لله لا يجوز فكيف يجوز في شريعة الله أن يضرب عن الطعام ويواصل الليل والنهار اتباعًا لطريقة الكفار، فهنا

مخالفتان:

المخالفة الأولى: ما كنا ندندن حولها وهو التشبه بالكفار، والمخالفة الأخرى: أننا سننا لأنفسنا مواصلة الإمساك عن الطعام حيث لا يجوز في العبادة فضلًا أن لا يجوز في غير العبادة، نعم.

مداخلة: شيخنا بمناسبة هذا السؤال يذكرني بشيء قرأته في جريدة أمس أو قبله تدعو بعض الجماعات الإسلامية بعض سكان إحدى المدن في هذا البلد أن يصوموا في يوم كذا ويحملوا المشاعل ويصعدوا السطوح بنية استلهام النصر أو شيء من هذا نعم ..

الشيخ: عجيب!

مداخلة: نعم، يحملوا المشاعل إلى ..

الشيخ: أنا سمعت بالصيام هذا المزعوم لكن مشاعل ماذا؟

مداخلة: جريدة أمس شيخنًا قال: يحملون المشاعل ويقفون على الأسطحة يدعون الله بالنصر وكذا.

مداخلة: عفوًا! الداعي لهذا جماعة إسلامية؟

مداخلة: نعم طبعًا جماعة إسلامية.

مداخلة: هذا تقليد للنصارى.

الشيخ: نعم هو هذا.

مداخلة: يحملون المشاعل ...

الشيخ: والله غريبة هذه، أنا سمعت صيام ورأيناه في بعض المساجد لكن بهذا الوصف أيضًا الله أكبر! هذا يا إخواننا هو دليل لما قلنا ونقوله دائمًا: أن المسلمين اليوم ينطلقون بجهل، لا ينطلقون مع أحكام الدين؛ لأنهم يجهلون

أحكام الدين وفاقد الشيء لا يعطيه؛ ولهذا نقول: لا بد من التصفية والتربية .. لا بد من التعلم للعلم الصحيح والتربية على هذا العلم الصحيح وإلا لن تقوم للمسلمين قائمة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٣٥٠): ظهرت في بعض الدول العربية جماعةٌ يَدَّعون أنهم أتباع سيد قطب، وأنهم هم السلفيون حقا، فما رأيكم؟

الشيخ: رأيي أن المشكلة هي هي، وجوابي عليها

والدعاوي ما لم تقيموا عليها بيناتٍ أبناءها أدعياء

نحن نعتقد أن السيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ لم يكن سلفي المنهج في عامة حياته، ولكن ظهر له اتجاهٌ قويٌ إلى المنهج السلفي في آخر حياته وهو يعيش في سجنه، فالسلفية ليست مجرد دعوة، السلفية تتطلب معرفة في الكتاب والسنة الصحيحة والآثار السلفية.

نحن نعلم من هؤلاء وأمثالهم الذين يَدَّعون أن دعوتهم قائمة على الكتاب والسنة، هم لا يعرفون أصول فهم الكتاب أولًا، وهذه الأصول معروفة من كلام ابن تيمية في رسالته في أصول التفسير، وكلمات أئمة التفسير كابن جرير وابن كثير وغيرهم، أن القرآن يفسر بالقرآن وإلا فبالحديث، وإلا فبأقوال الصحابة ومن دونهم من السلف الصالح.

فالذين يدعون السلفية لا يسلكون سبيل تفسير القرآن، هذا السبيل العلمي المتفق عليه بين علماء المسلمين.

مداخلة: هذا موجود عند القطبيين.

الشيخ: طبعًا موجود، ولذلك تجد في تفسير السيد قطب بعض التفاسير التي

تنحوا منحى الخلفيين الذين يخالفون السلف الصالح، ثم أريد أن أقول: إن هؤلاء لا يعنون بتمييز السنة الصحيحة من الضعيفة، فضلًا عن أنهم لا يعنون بتتبع الآثار عن الصحابة والسلف الصالح؛ لأن هذه الآثار هي التي تعين العالم على فهم الكتاب والسنة كما أشرنا آنفًا إليه.

من أين تأتيهم السلفية إذا كانوا هم بعيدين عن فهم الأصل الأول للإسلام وهو القرآن وعلى الأصول العلمية الصحيحة، وبعيدين عن تمييز الصحيح من الضعيف بالنسبة للحديث، وأبعد من ذلك عن أن يتتبعوا آثار السلف الصالح حتى يهتدوا بهديها ويستنيروا بنورها.

إذًا: القضية ليست مجرد ادعاء، ولماذا هؤلاء يدعون أنهم سلفيون، الأمر الذي ذكرته في بعض أجوبتي السابقة: أن الدعوة السلفية الآن والفضل لله ﷻ غطت الساحة الإسلامية تقريبًا، وظهر لأكثر من كان يعاديها ولو في الجملة، أن هذه الدعوة هي دعوة الحق، ولذلك فهم ينتمون إليها، ولو كانوا في عملهم بعيدين كل البعد عنها.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٤/ ٦): إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد كتب الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق حفظه الله خطابًا وجهه إلي بتاريخ ١٢/ جمادي الأولى/ سنة/ ١٤١٠/ هـ يذكر فيه أن هناك شريطًا مسجلًا جاء فيه على لساني أنني قلت في الأخ عبد الرحمن ميعته السياسة وأفسدته الحزبية

فيرجو الشيخ عبد الرحمن في خطابه المشار إليه أن أرد على هذه الكلمة التي نسبت إلي.

وبناءً على رغبته أمليت ما يأتي: بسم الله الرحمن الرحيم لقد استمعت إلى شريط مسجل من صوت أخينا الفاضل الشيخ مقبل بن هادي اليماني جزاه الله خيرًا، ثم إلى كلمات بعض تلامذته المؤيدين لكلامه، وأنا المدعو محمد ناصر الدين الألباني أضم صوتي إلى أصواتهم جميعًا، ولا أجد في كلماتهم ما يستدعي الوقوف عندها أو النظر فيها إلا ما جاء منسوبًا إلي أنني قلت في أخينا الفاضل عبد الرحمن عبد الخالق وهو متأثر بفكر الإخوان المسلمين، ثم تَمَيَّع وميَّع شبابه نسأل الله أن يهديه.

فهذا الكلام لا أذكر الآن أنني تلفظت به هكذا بهذا الحرف إلا إذا سمعت صوتي مسجلًا به في شريط، ولا أقول هذا تحفظًا، أو تهربًا من المسؤولية، فإنني في الواقع أرى أن التكتل والحماسة في تكتيل الجماعة السلفيين في الكويت خاصة أنهم يسيرون على خطى الإخوان المسلمين قديمًا وحديثًا، وهي: تكتيل الشباب المسلم وتجميعهم دون العناية بتثقيفهم الثقافة الإسلامية الصحيحة القائمة على الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح كما هي دعوة كل المسلمين المنتمين إلى هذا المنهج الإسلامي الصحيح، ولذلك فإني أخشى ما أخشى أن ترجع الدعوة السلفية في الكويت وفي بلاد أخرى قد تتأثر بهذا التكتل أو التحزب الجديد، وترجع القهقرى، ويتمثلون في دعوتهم خطى جماعة الإخوان المسلمين ذاتها التي أشرت إليها آنفًا وهي القائمة على قول بعضهم: كتل ثم كتل، ثم لا شيء بعد ذلك إلا التكتل والتحزب، وأكبر دليل على ذلك: أنه قد مضى على جماعة الإخوان المسلمين ستون عامًا ولم يشاهد من أثر

دعوتهم فيهم أنها أنتجت عالمًا واحدًا بين صفوفهم يرجع الناس إليه لمعرفة أمور دينهم، وعلى النهج المذكور آنفًا ولذلك فنحن نريد أن يولى إخواننا السلفيون في الكويت وفي كل بلاد الإسلام يُوْلون بالتثقيف وليس بالتكتيل؛ لأن هذه هي دعوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، بل والأنبياء كلهم ثم ينشأ بعد ذلك الجمع المنشود والتكتل المرغوب، لذلك فنحن نقول خلاف ما قيل آنفًا نقول: ثقف ثم كتل، والتثقيف لا يمكن أن يتحقق فعلًا بوجود عالم أو اثنين أو ثلاثة في الألوف المؤلفة ممن يستجيبون استجابة عامة للدعوة السلفية ويكتلون تكتيلًا حزبيًا، فإذا لم يكن في هذه الجماعة عشرات العلماء المتمكنين في العقيدة الصحيحة، والعلم الصحيح فسوف تنقلب الجماعة فيما بعد إلى جماعة لا علم، ولا تربية على العلم الصحيح خلافًا لدعوتنا المباركة القائمة على التصفية والتربية.

لهذا فأخشى ما أخشاه أن ينقلب وضع الجماعة السلفية حينما يعنون بالتكتل دون التثقيف إلى جماعة أخرى لا صلة لها بالدعوة الصحيحة، وكأني ألمس أثرًا لهذا الانشغال من كلام أخينا عبد الرحمن عبد الخالق نفسه في بعض رسائله كقوله في رسالته: «المسلمون والعمل السياسي» حيث قال (ص ٢١) ولاشك أيضًا: أن من أخطاء المنهج الأول: أنه يفرض أقوالًا في الدين لا دليل عليها، كتحريم الجماعة والحزب إلى آخره؛ لأنه من الواضح أنه لا يعني تكتل المسلمين على جماعة واحدة، وحزب واحد؛ لأن مثل هذا من الأمور التي يشترك في الدعوة إليه كل الإسلاميين، بل المقصود من العبارة السابقة، ولو جاءت بلفظ الإفراد: الجماعة والحزب، الجماعات والأحزاب، وحينئذ يقع المحظور المشاهد اليوم بين الجماعات والأحزاب كلها، كما أشار أولئك

الإخوان في شريط مشار إليه آنفًا، وهنا يصدق عليهم جميعًا قوله تبارك وتعالى: {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [المؤمنون: ٥٣].

ونحن نريدها حزبًا واحدًا كما قال الله تبارك وتعالى: {فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: ٥٦].

ومن ذلك قول الأخ عبد الرحمن هدانا الله وإياه في نفس الرسالة في الصفحة الخامسة والستين وبعد كلام ينقض بعضه بعضًا في نظري قال جازمًا: فلا يستطيع المسلمون أن يمارسوا تجارة ولا زراعة ولا صناعة، ولا عملًا إلا بأن يرتكب بعض الحرام مما فرضه الواقع المخالف للدين، وحينئذ أليس في هذا القول لواقع المسلمين اليوم الذين يتعاملون بكثير من المعاملات الربوبة المنافي لقول الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: ٢ - ٣].

ثم أليس في هذا القول القضاء المبرم على رسالة الأخ عبد الرحمن التي سررت بها كثيرًا حينما قرأتها وأمعنت النظر فيها ألا وهي: «القول الفصل في بيع الأجل» فإن أكثر التجار اليوم يتعاملون بهذا البيع، لقد وجدت تناقضًا بينًا بين هذين القولين، وما إخال ذلك إلا أنه من آثار هذا التكتل الحزبي، والعمل السياسي الذي يفرض عليهم أن يقعوا في بعض المخالفات الشرعية.

من ذلك: قيل بأنه لا يستطيع مسلم العمل إلا أن يرتكب بعض الحرام.

هذا ما أمليته، ثم أسمعني بعض الإخوان شريطًا سجلته فيه أسئلة من أحد الإخوة السودانيين حول الرسالة المذكورة: «المسلمون والعمل السياسي» فيه قولي عن الأخ عبد الرحمن: «أظن أنه أحرقته السياسة» فهذا القول أعترف به؛ لأنني سمعته من صوتي، وفي الشريط المذكور ما يبين ذلك، وفيما تقدم آنفًا ما

يلتقي معه، وهذا لا ينفي عندي أن الأخ عبد الرحمن حفظه الله لا يزال معنا في الدعوة السلفية، وإن كان منشغلًا بالعمل السياسي، وكل ما هناك إنما هو الخشية من الانحراف عنها، ولا سيما وقد ظهر في الجو بعض النذر كما تقدم، كما أنني لا أسمي الذين ينتقدونه في بعض تصرفاته وليست في عقيدته أنهم من الحاقدين والحاسدين للدعوة السلفية، ويحاولون قطع الصلة التي بيننا وبين الأخ عبد الرحمن كيف ونحن جميعًا سلفيون! ومن كمال دعوتنا والحمد لله: التناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو اشتد الناصح في أسلوبه أحيانًا، فأرجو الله تبارك وتعالى لنا ولكل الدعاة الإسلاميين السداد والتوفيق لأقوم طريق.

وإن مما يحسن التنبيه عليه إلحاقًا بما سبق الكلام فيه حول التكتل الحزبي، والعمل السياسي: أن الذين يقرون التكتلات والتحزبات القائمة اليوم في المجتمع الإسلامي أنهم جميعًا لا يدندنون لا من قريب، ولا من بعيد حول الحديث الصحيح باتفاق العلماء ألا وهو: حديث حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه الذي جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم من قوله: «كان الناس يسألون رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم. وفيه دخن قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم. دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة

المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام. قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك».

أقول: فإن في هذا الحديث تصريحًا واضحًا جدًا يتعلق بواقع المسلمين اليوم حيث أنه ليس لهم جماعة قائمة ولهم إمام مبايع، وإنما هناك كما ذكرت آنفًا أحزاب مختلفة اختلافًا فكريًا، ومنهجيًا أيضًا، ففي هذا الحديث أن المسلم إذا أدرك مثل هذا الوضع فعليه حين ذاك ألا يتحزب وألا يتكتل مع أي جماعة أو مع أي فرقة ما دام أنه لن توجد الجماعة التي عليها إمام مبايع للمسلمين.

ولذلك فقد نص بعض المحدثين والحفاظ المتقدمين على ما يؤكد هذا الذي يدل عليه هذا الحديث، وعلى ما بينته سابقًا كما نقل الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه لهذا الحديث عن الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: وفي الحديث أنه متى لم يكن للناس إمام فافترق الناس أحزابًا فلا يتبع أحدًا في الفرقة ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك، خشية من الوقوع في الشر.

فحينئذ يجب على السلفيين عامة أن يظلوا على دعوتهم في تفهم الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح يدعون كل الجماعات، وكل الأحزاب إلى دعوتهم الحق هذه، ولا يتحزبون هم كحزب، ولا يقررون الأحزاب الأخرى كما قد قرأنا من بعض السلفيين أنهم يقررون هذه التكتلات وهذه التحزبات خلافًا لحديث حذيفة هذا المذكور آنفًا.

ونحن حينما نقرر هذه الحقيقة نعتقد جازمين أن الدين كما هو آنفًا، وأننا لا نضلل ولا نكفر أي حزب أو أي جماعة يخالفوننا في بعض المسائل الفكرية أو في منهجنا في الدعوة، فذلك لأننا نريد أن ينضم كل المسلمين إلى هذه الدعوة الحق؛ لأنه هو الحق الذي جاء به رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وصار

عليه المسلمون طيلة هذه القرون التي مضت، ولذلك فنحن نقول: وكل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف.

لا نريد من إخواننا السلفيين أن ينسوا خطهم المستقيم الذي كانوا يمشون عليه من قديم الزمان متأثرين بالحزبيات الأخرى، فنحن فوق الحزبيات، والله ﷻ معنا ما دمنا مع كتابه وحديث نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٧/ ٤٨): السائل: ما رأيك بأمة الدعوة؟

الشيخ: هذا أسم جديد عليَّ وأظن أنه تعني اسم قديم جماعة التبليغ تعني جماعة التبليغ أنا إلى الآن ما اقتنعت إن جماعة التبليغ حزب والحمد لله تمام لكني ما اقتنعت أنها هي الطائفة المنصورة لماذا لأنها لا تعمل بالسنة، الأرض مسكونة هنا؟

السائل: ... بدايته يقولوا إن نجاحنا وفلاحنا في الدنيا والآخرة بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه.

الشيخ: بارك الله فيك أنا أريد أن أرجع للشيخ لأنه هو الذي سمعنا الكلمة هذه وأريد أن أُذَكِّره أن نحن ما في بيننا وبين أي طائفة أو أي حزب عداء أبدًا والسبب أن دعوتنا تشمل من كل دعوة على وجه الأرض هؤلاء إخوان هؤلاء تحرير هؤلاء تبليغ إلخ نحن نقول قال الله قال رسول الله فمن من المسلمين فمن من المسلمين يستطيع التبرؤ من دعوتنا لا أحد ولكن يتبرأ الكثيرون من دعوتنا اسمعوا هذه الكلمات المتناقضات ثم وفقوا بينها أنا أقول لا أحد يستطيع أن يخالفنا في دعوتنا لكن الأكثرون يخالفوننا أي لا يخالفوننا دعوة وصراحة ولكنهم يخالفوننا فعلًا ومنهجًا وتطبيقًا ونبدأ الآن بسؤالك وبخاصة

الشيخ هنا بجانبي فنحن نأخذ على جماعة التبليغ تلك الكليشة المدموغة هذه يكرروها دائمًا وأبدًا بين يدي كل كلمة سيلقيها الملقي منهم ما سمعت أحدهم حياتي هذه وقد بلغت كما ترون من الكبر عتيًا افتتح درسه بخطبة الحاجة.

السائل: بارك الله فيك يا شيخنا.

الشيخ: أليس هذا من السنة نعم السنة لكن لا يعتنون بالسنة نحن عندنا أخبار معلومات ولكني في اعتقادي أنهم مع الزمن بدأ يتعلموا لكن ليس من عند أنفسهم يتعلمون من جماعة دعوة الحق وهي دعوة الكتاب والسنة كما أنه إخواننا المسلمين بدأوا يتعلموا لكن ليس منهم وفيهم وإنما من جماعة دعوة الكتاب والسنة إلخ كانوا جماعة التبليغ لما يجتمعوا يريدون أن يأكلوا أعطني الملح يا أخي، لماذا نريد أن نبدأ الطعام بالملح؟ لأن الرسول قال من بدأ طعامه بالملح كان شفاء من سبعين داء، وهذا حديث ما أنزل الله به من سلطان، لماذا، لأنهم ما عندهم علم، يعني أنا الحقيقة سئلت في المدينة المنورة وفي دولة من البلاد ما رأيك بجماعة التبليغ؟ أنا أقول لكم أنتم جماعة التبليغ سأقول لكم بكل صراحة جماعة تبليغ صوفية عصرية، صوفية عصرية، ما معنى صوفية يعني طريقة شيخ من المشائخ وجد هناك في الهند يعطي طريقة قادرية ونقشبندية وإلخ ولا ما تعلمونها كيف هذا يدعو إلى الكتاب والسنة يقول نجاحنا وفلاحنا بالكتاب والسنة أين السنة، وربك يقول {وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ - مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} [الروم: ٣٢] نحن كان يكفينا أربع مذاهب لا جاءنا أربع طرق أربعين طريق وكل هذه الطرق كمان ما اكتفينا جاء ضغثًا على إبالة أحزاب سياسية اجتماعية اقتصادية إلخ فكيف يعني فلاحنا ونجاحنا ورئيس الدعوة هذه يعطي طريقة فلانية وطريقة فلانية طريقة نقشبندية تقول إن المريض

لا يجوز أن يستحضر في ذهنه لما يذكر ربه عظمة الله، وإنما لازم يستحضر شيخه لأن الشيخ هو الذي يوصله لربه، ونحن عندنا في الشام طريقة نقشبندية ويضعون صورة الشيخ أمامهم في القبلة ويضيؤونها بأنوار حتى تتجسد الصورة في ذهن هذا المريد ماذا يفعل يذكر الله من يراقب الشيخ، ما الذي يوصلك أنت إلى الله الله لا يمكنك أن تصل إليه إلا بطريقة الشيخ،

فإذًا نجاحنا وفلاحنا يا جماعة هو بدراسة السنة والعمل بها فإذا كلمة ما نقولها بين يدي الدرس والرسول كان دائمًا يقول هذه الكلمة بين يدي دروسه كلها فكيف نقول أننا نجاحنا وفلاحنا في حياتنا كلها.

وبعدين جماعة التبليغ لا يهتمون بتصحيح العقائد نحن لماذا ندندن في هذه الجلسة وتلك الجلسة وكل هذه السنين الطويلة لا بد من التصفية والتربية، تصفية الدين مما دخل فيه، شيخ جماعة التبليغ لا يقوم بهذا الواجب أبدًا بل هو ترك جماعته من مثل ما يقولوا عندنا في الشام كل مين على دينه الله يعينه، تفهمون هذه الكلمة هذا ما يجوز في الإسلام، أين الدين النصيحة، أين لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أين أين الجماعة التبليغ ينظروا واحد يصلي على مذهب ما يقول له السنة يا أخي هكذا لا نحن ما نريد أن نفرق بين المسلمين، يشوف المسلم أخاه المسلم يطوف حول القبر قد يشاركه في الطواف فضلًا أن تنكر عليه لماذا سياسة من أجل أن نقربه إلى المنهج إلى الجماعة إلى آخره، هكذا دعوة الرسول عليه السلام قال تعالى في القران {لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} [الإسراء: ٧٤] لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلًا إذًا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات، هذا رسول الله حذره أن يميل إلى المشركين ولو ميلًا بسيطًا، فالآن إذا رأينا مسلم يطوف حول القبر هذا أليس

إشراكًا بالله ﷻ، كيف نُقر هذا، هذه سياسة تلتقي مع الكفار ومنهجهم ومن سياستهم: «الغاية تبرر الوسيلة»، فأنا إذا سايرت الناس الضالين في سبيل تقريبهم إلى الدين أنا مثلي كمثل من يقدم رجل ويأخر أخرى، صحيح سأقدمه للدين سيصلي لكن صلاته وقلبه معلق بالشرك بالله ﷻ، فلماذا لا أعلمهم العقيدة ونحن نعلم جميعًا لا فرق أبدًا بين طائفة وأخرى لأن القرآن والحمد لله محفوظ أن دعوة الرسل كانت تبدأ أن يعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، هل جماعة التبليغ يبدؤون بالدعوة أن اعبدوا الله واجتنبوا

الطاغوت، هل جماعة الإخوان المسلمين يبدؤون بهذه النقطة، هل جماعة حزب التحرير أبدًا أبدًا أبدًا، ولذلك ما في فائدة من كل هذه الحزبيات، وإنما فرد واحد في الدنيا ربنا ﷻ يهدي به الألوف إن لم نقل الملايين لأنه ماشي على خط وعلى صراط مستقيم، لذلك نحن ننصح ألا حزبيات في الإسلام وأن المسلمين أمة واحدة كما قال ﷻ {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة: ١٤٣] فالأمة الوسط هذه لا يمكن أن تكون إلا بالرجوع إلى ما كان عليه الرسول عليه السلام وأصحابه الكرام فهم القوم لا يشقى جليسهم ولا أعتقد ....

أنا أعتقد أن كل هذه الجماعات الذين لا نقر تحزبهم وتكتلهم أكثرهم مخلصون، لكن رؤوسهم المخلصون فيهم قلة، ما أقول أيضًا كلهم غير مخلصين، المخلصون فيهم قلة، أنا أعرف أن حزب التحرير ينكر طريقة الحكم بالبرلمانات والإخوان المسلمون كذلك، فما بال حزب التحرير يومًا ما دخل بعض أفراده إلى البرلمان، ثم ما بال حزب الإخوان دخل أيضًا جماعات منهم في هذه الزمان، ثم ما بال الإخوان المسلمين يختلفون ناس يؤيدوا دخول

البرلمان وناس ينكروه، تعرفون هذا والا ما تعرفون، ما معنى هذا الحزب إذا كان الحزب الواحد مختلف مع بعضهم البعض، وهذه نحن نعرفها من بلاد الشام قبل أن أسكن هذا البلد أعرف هل سألني الأخ هنا عما ننصح من كتب الفقه هذا كان في جملة ما ذكرت فقه السنة فقه السنة هذا مؤلفه السيد سابق وهذا من كبار رؤوس الإخوان المسلمين في مصر بل كما يقال من حواري حسن البنا رَحِمَهُ الله، ما رأيكم الإخوان المسلمون منقسمون على هذا الكتاب وعلى هذا المؤلف، جماعة عندنا في دمشق في الشام في سراياهم التنظيمية المعروفة من أجل أن يتفقهوا في الدين يدرسون هذا الكتاب وهذا نصيحتنا لهم إذهب إلى إخوان المسلمون في شمال سوريا في حلب وبتعبير حلب في فسط حلب ودير الزور يقولوا هذا الكتاب ما يجوز تدريسه هذا مؤلفه وهابي، وهؤلاء إخوان المسلمين، ما في عندهم منهج فكري حزب التحرير يختلف عن هؤلاء في عندهم منهج فكري، لكن في مسائل محدودة، أما الإسلام ككل ما عندهم دراسة، وأنا أقول إلى الآن الإخوان المسلمون مضى عليهم ستين سبعين سنة ما أدري بالضبط ما أخرج الجماعة عالم فيهم حتى يتوجهوا لما يلزمهم من تفسير آية من معرفة حديث صحيح من ضعيف من معرفة اختلاف العلماء ما هو صواب كما سأل آنفًا أي نعم واحد لسه ما نبع منهم، إذا ما فائدة هذه الدعوات هذه والحزبيات وعلى ذلك، فقس جماعة التبليغ الآن أين العلماء نحن نقول يا جماعة بدل ما تخرجوا مثل اليعسوب واليعاسيب من

وراء هكذا اجلسوا في المسجد تدارسوا القران كما قال عليه السلام، و «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا غشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» لا لماذا لأن هذا الجلوس

فيه جهاد للنفس فيه حصر ولذلك يقولوا بعض الناس العلم بده جلد أما أخرج من مكان إلى مكان خاصة إذا كانت الأمكنة خضراء وجميلة مثل أوروبا وأمريكا والبلاد هذه فيأخذون بهذا المناظر ويشغلون عن دراسة السنة، فهات أين دراسة العلم أين الدعوة إلى العقيدة الصحيح، أين تمييز الصحيح من الضعيف من الحديث، أعطيني إخوان مسلمين يعرفون يصلون صلاة الرسول عليه السلام أعطيني حزب تحرير يحسنون يصلون صلاة الرسول؟ ،من جماعة التبليغ؟ أبدًا كل من على مذهب الله يعنيه إذًا ما هو الإصلاح هذا وما هي هذه الدعوة جماعة التبليغ اسم على غير مسمى يا جماعة الذي يريد يبلغ يجب أن يكون رجل عالم، ونحن لنا بحوث متعدده مع إخواننا جماعة التبليغ هناك في عمان وفي غير عمان.

مداخلة: في عنده أشرطة.

الشيخ: نحن نقول السنة هل سمعتم يا جماعة التبليغ هل سمعتم بأن الرسول عليه السلام يومًا ما في حياته المباركة أرسل عالمًا من علماء الصحابة ومعه عشرة أو عشرين أو ثلاثين ممن لا يعلمون، ما أظنكم سمعتم بمثل هذا الأخبار، لكن لا شك سمعتم كما سمعنا وعلمنا أنه أرسل معاذ داعية إلى اليمن وأرسل أبا موسى معه وقال لهم ناصحًا لهم تطاوعا وتياسرا ولا تعاسرا، أو كما قال عليه السلام، أرسل علي أيضًا إلى اليمن أرسل يحي الكلبي إلى هرقل إلخ نعم.

مداخلة: مصعب بن عمير.

الشيخ: مصعب ابن عمير ما شاء الله، ذهبوا جماعة القراء السبعين قارئ قراء نخبة الصحابة الذين قتلهم كان سبب لشرعية قنوت النوازل سبعين قارئ

وليس سبعين من الصحابة، ما شاء جماعة التبليغ يدفعوا عشرة عشرين ثلاثين أحسن من فيهم لا يعرف يصلي صلاة الرسول عليه السلام لماذا، لأنه ليس عالمًا، وإن كان يعرف يصلي أقول آسفًا ما عرف هذه الصلاة من علمه وإنما اكتسبه من غيره، لا، يجب أن ينبع العلم منهم حتى يفيض هذا العلم على أتفه حاجة هذا نصيحة وذكرى والذكرى تنفع المؤمنين وما شاء الله نحن معكم الساعة اثنا عشر.

مداخلة: العلماء ... ويعلموا.

الشيخ: لأن هذا الخروج الذي صنفتموه أنتم ليس له أصل في السنة أم العلماء هم يخرجون ما الذي جاء بنا إليكم لكن ... أنا لما كنت في دمشق في الشام كنت أخرج بسيارتي العجوز لوحدي وقد يكون معي بعض إخواننا كما ترون أذهب إلى حمص حما حلب ... إلخ كلها في سبيل الله.

مداخلة: الله يجزيك الخير.

الشيخ: لكن نحن نريد جماعة علماء ... هذا الذي نريده منهم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٧/ ٩٩): إذا كنت أنا مقبلًا على الدين وليس لدي علم ودعوني جماعة بأن أخرج معهم إلى الدعوة فحذرني بعض الإخوة الذين يقيمون في المساجد أن هؤلاء الجماعة اسمهم جماعة التبليغ ولا يحق لي الخروج معهم؛ لأنهم عندهم معتقدات فاسدة فما أفعل؟

الشيخ: اطلب العلم، ما المشكلة اطلب العلم.

مداخلة: يعني: هل يجوز لي الخروج الآن؟

الشيخ: خروجهم ليس من السنة، جلوسهم في المساجد يطلبون العلم ويتدارسون كتاب الله كما جاء في الحديث الصحيح هذا هو الشرع، أما

خروجهم هكذا جماعات وأكثرهم لا يعلمون من الإسلام إلا الشيء القليل هذا مما خالفوا المسلمين من عهد الرسول إلى هذا العهد، قبل هذا الزمن بنحو ثلاثين سنة أو أربعين سنة لم يكن هناك جماعة يخرجون هكذا بالعشرات وبالمئات ولا يوجد فيهم ربما ولا عالم واحد، وأهل العلم منتشرون في الأردن وفي سوريا ونحن ننصحهم بأن يجلسوا مجالس العلم وأن يتعلموا، كذلك نحن ننصحك .. نحن نقول لك: احضر حلقات العلم ومجالس العلم وتعلم أما هذا الخروج فليس له أصل في السنة.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في التعليق على متن الطحاوية (ص٦٦ - ٦٩): معلقا على قول صاحب الطحاوية:"والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان":

هذا مذهب الحنفية والماتريدية خلافًا للسلف وجماهير الأئمة كمالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وغيرهم فإن هؤلاء زادوا على الإقرار والتصديق: العمل بالأركان. وليس الخلاف بين المذهبين اختلافًا صوريًا كما ذهب إليه الشارح رحمه الله تعالى بحجة أنهم جميعا اتفقوا على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الإيمان وأنه في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. فإن هذا الاتفاق وإن كان صحيحًا فإن الحنفية لو كانوا غير مخالفين للجماهير مخالفةً حقيقيةً في إنكارهم أن العمل من الإيمان لاتفقوا معهم على أن الإيمان يزيد وينقص وأن زيادته بالطاعة ونقصه بالمعصية مع تضافر أدلة الكتاب والسنة والآثار السلفية على ذلك وقد ذكر الشارح طائفة طيبة منها (ص ٣٨٤ - ٣٨٧) ولكن الحنفية أصروا على القول بخلاف تلك الأدلة الصريحة في الزيادة والنقصان وتكلفوا في تأويلها تكلفًا ظاهرًا بل باطلًا ذكر الشارح (ص ٣٨٥) [٣٤٢] نموذجًا منها بل حكى عن أبي المعين النسفي أنه طعن في صحة

الحديث " الإيمان بضع وسبعون شعبة ... " مع احتجاج كل أئمة الحديث به ومنهم البخاري ومسلم في " صحيحيهما " وهو مخرج في " الصحيحة " (١٧٦٩) وما ذلك إلا لأنه صريح في مخالفة مذهبهم.

ثم كيف يصح أن يكون الخلاف المذكور صوريًّا؛ وهم يجيزون لأفجر واحد منهم أن يقول: إيماني كإيمان أبي بكر الصديق بل كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبريل وميكائيل عليهم الصلاة والسلام، كيف وهم بناءً، على مذهبهم هذا لا يجيزون لأحدهم - مهما كان فاسقًا فاجرًا - أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، بل يقول: أنا مؤمن حقًا، والله ﷻ يقول: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا} (الأنفال:٢ - ٤) {ومن أصدق من الله قيلًا} (النساء:٢٢).

وبناء على ذلك كله اشتطوا في تعصبهم فذكروا أن من استثنى في إيمانه فقد كفر وفرعوا عليه أنه لا يجوز للحنفي أن يتزوج بالمرأة الشافعية وتسامح بعضهم - زعموا - فأجاز ذلك دون العكس وعلل ذلك بقوله: تنزيلا لها منزلة أهل الكتاب.

وأعرف شخصًا من شيوخ الحنفية خطب ابنته رجل من شيوخ الشافعية فأبى قائلا: ... لولا أنك شافعي! فهل بعد هذا مجال للشك في أن الخلاف حقيقي؟ ومن شاء التوسع في هذه المسألة فليرجع إلى كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية: "الإيمان " فإنه خير ما ألف في هذا الموضوع.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في الصحيحة (٧/ ١/ ١٠٥ - ١١٦): قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كانَ رجلٌ ممَّن كان قبلكم لم يعمل خيرًا قطُّ؛ إلا التوحيد،

فلما احتُضر قال لأهله: انظروا: إذا أنا متُّ أن يحرِّقوه حتى يدعوه حممًا، ثم اطحنوه، ثم اذروه في يوم ريح، [ثم اذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، فوالله؛ لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين]، فلما مات فعلوا ذلك به، [فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه]، فإذا هو [قائم] في قبضة الله، فقال الله ﷻ: يا ابن آدم! ما حملك على ما فعلت؟ قال: أي ربِّ! من مخافتك (وفي طريق آخر: من خشيتك وأنت أعلم)، قال: فغفر له بها، ولم يعمل خيرًا قطُّ إلا التوحيد».

واعلم أن قوله في حديث الترجمة: "إلا التوحيد" مع كونها صحيحة الإسناد، فقد شكك فيها الحافظ ابن عبد البر من حيث الرواية، وإن كان قد جزم بصحتها من حيث الدراية، فكأنه لم يقف على إسنادها، لأنه علقها على أبي رافع عن أبي هريرة، فقال رحمه الله (١٨/ ٤٠):

"وهذه اللفظة- إن صحت- رفعت الإشكال في إيمان هذا الرجل، وإن لم تصح من جهة النقل؛ فهي صحيحة من جهة المعنى، والأصول كلها تعضدها، والنظر يوجبها، لأنه محال غير جائز أن يغفر للذين يموتون وهم كفار؛ لأن الله ﷻ قد أخبر أنه {لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ} لمن مات كافرًا، وهذا ما لا مدفع له، ولا خلاف فيه بين أهل القبلة.

والدليل على أن الرجل كان مؤمنًا قوله حين قيل له " لم فعلت هذا؟ " فقال:" من خشيتك يا رب!". والخشية لا تكون إلا لمؤمن مصدق؛ بل ما تكاد تكون إلا لمؤمن عالم؛ كما قال الله ﷻ: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء} (فاطر:٢٨)، قالوا: كل من خاف الله فقد آمن به وعرفه، ومستحيل أن يخافه من لا يؤمن به. وهذا واضح لمن فهم وألهم رشده.

وأما قوله: "لئن قدر الله علي "؛ فقد اختلف العلماء في معناه؛ فقال منهم قائلون: هذا رجل جهل بعض صفات الله ﷻ، وهي القدرة، فلم يعلم أن الله على كل ما يشاء قدير، قالوا: ومن جهل صفة من صفات الله عزوجل، وآمن بسائر صفاته وعرفها؛ لم يكن بجهله بعض صفات الله كافرًا. قالوا: وإنما الكافر من عاند الحق لا من جهله.

وهذا قول المتقدمين من العلماء ومن سلك سبيلهم من المتأخرين.

وقال آخرون: أراد بقوله: "لئن قدر الله علي " من القدر الذي هو القضاء، وليس من باب القدرة والاستطاعة في شيء. قالوا: وهو مثل قول الله ﷻ في ذي النون: {إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ} (الأنبياء:٨٧).

وللعلماء في تأويل هذه اللفظة قولان:

أحدهما: أنها من التقدير والقضاء.

والآخر: أنها من التقتير والتضييق.

وكل ما قاله العلماء في تأويل هذه الآية فهو جائز في تأويل هذا الحديث في قوله: "لئن قدر الله علي "، فأحد الوجهين تقديره: كأن الرجل قال: لئن كان سبق في قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذي جرم على جرمه؛ ليعذبني الله على إجرامي وذنوبي عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين غيري.

والوجه الآخر: تقديره: والله! لئن ضيق الله علي وبالغ في محاسبتي وجزائي على ذنوبي ليكونن ذلك. ثم أمر بأن يحرق بعد موته من إفراط خوفه.

وأما جهل هذا الرجل بصفة من صفات الله في علمه وقدره؛ فليس ذلك بمخرجه من الإيمان، ألا ترى أن عمر بن الخطاب وعمران بن حصين وجماعة من الصحابة سألوا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عن القدر. ومعلوم

أنهم إنما سألوه عن ذلك وهم جاهلون به، وغير جائز عند أحد من المسلمين أن يكونوا بسؤالهم عن ذلك كافرين، أو يكونوا حين سؤالهم عنه غير مؤمنين.

وروى الليث عن أبي قبيل عن شُفَيٍّ الأصبحي عن عبد الله بن عمرو بن العاص- فذكر حديثًا في القدر، وفيه: فقال أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: فأي شيء نعمل إن كان الأمر قد فرغ منه؟، فهؤلاء أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- وهم العلماء الفضلاء- سألوا عن القدر سؤال متعلم جاهل؛ لا سؤال متعنت معاند، فعلمهم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ما جهلوا من ذلك، ولم يضرهم جهلهم به قبل أن يعلموه، ولو كان لا يسعهم جهله وقتًا من الأوقات؟ لعلمهم ذلك مع الشهادة بالإيمان، وأخذ ذلك عليهم في حين إسلامهم، ولجعله عمودًا سادسًا للإسلام، فتدبر واستعن بالله.

فهذا الذي حضرني على ما فهمته من الأصول ووعيته، وقد أديت اجتهادي في تأويل حديث هذا الباب كله ولم آلُ، وما أبرئ نفسي، وفوق كل ذي علم عليم. وبالله التوفيق".

هذا كله كلام الحافظ ابن عبد البر، وهو كلام قوي متين يدل على أنه كان إمامًا في العلم والمعرفة بأصول الشريعة وفروعها، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

وخلاصته؛ أن الرجل النباش كان مؤمنًا موحدًا، وأن أمره أولاده بحرقه ... إنما كان إما لجهله بقدرة الله تعالى على إعادته- وهذا ما أستبعده أنا- أو لفرط خوفه من عذاب ربه، فغطى الخوف على فهمه؛ كما قال ابن الملقن فيما ذكره الحافظ (١١/ ٣١٤)، وهو الذي يترجح عندي من مجموع روايات قصته،

والله سبحانه وتعالى أعلم.

وسواء كان هذا أو ذاك؛ فمن المقطوع به أن الرجل لم يصدر منه ما ينافي توحيده، ويخرج به من الإيمان إلى الكفر؛ لأنه لو كان شيء من ذلك لما غفر الله له؛ كما تقدم تحقيقه من ابن عبد البر.

ومن ذلك يتبين بوضوح أنه ليس كل من وقع في الكفر من المؤمنين وقع الكفر عليه وأحاط به. ومن الأمثلة على ذلك: الرجل الذي كان قد ضلت راحلته، وعليها طعامه وشرابه، فلما وجدها قال من شدة فرحه:

"اللهم! أنت عبدي وأنا ربك"! .

وفي ذلك كله رد قوي جدًا على فئتين من الشباب المغرورين بما عندهم من علم ضحل: الفئة الأولى: الذين يطلقون القول بأن الجهل ليس بعذر مطلقًا؛ حتى ألف بعض المعاصرين منهم رسالة في ذلك!

والصواب الذي تقتضيه الأصول والنصوص التفصيل؛ فمن كان من المسلمين يعيش في جو إسلامي علمي مصفى، وجهل من الأحكام ما كان منها معلومًا من الدين بالضرورة- كما يقول الفقهاء- فهذا لا يكون معذورًا؛ لأنه بلغته الدعوة وأقيمت الحجة.

وأما من كان في مجتمع كافر لم تبلغه الدعوة، أو بلغته وأسلم؛ ولكن خفي عليه بعض تلك الأحكام لحداثة عهده بالإسلام، أو لعدم وجود من يبلغه ذلك من أهل العلم بالكتاب والسنة؛ فمثل هذا يكون معذورًا.

ومثله- عندي- أولئك الذين يعيشون في بعض البلاد الإسلامية التي انتشر فيها الشرك والبدعة والخرافة، وغلب عليها الجهل، ولم يوجد فيهم عالم يبين لهم ما هم فيه من الضلال، أو وجد ولكن بعضهم لم يسمع بدعوته وإنذاره؛

فهؤلاء أيضًا معذورون بجامع اشتراكهم مع الأولين في عدم بلوغ دعوة الحق إليهم؛ لقوله تعالى: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} (الأنعام:١٩) وقوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا} (الإسراء:١٥)، ونحو ذلك من الأدلة التي تفرع منها تبني العلماء عدم مؤاخذة أهل الفترة؛ سواء كانوا أفرادًا أو قبائل أو شعوبًا؛ لاشتراكهم في العلة؛ كما هو ظاهر لا يخفى على أهل العلم والنُّهى.

ومن هنا يتجلى لكل مسلم غيور على الإسلام والمسلمين عظم المسؤولية الملقاة على أكتاف الأحزاب والجماعات الإسلامية الذين نصبوا أنفسهم للدعوة للإسلام، ثم هم مع ذلك يدعون المسلمين على جهلهم وغفلتهم عن الفهم الصحيح للإسلام، ولسان حالهم يقول- كما قال لي بعض الجهلة بهذه المناسبة

-: "دعوا الناس في غفلاتهم"! بل وزعم أنه حديث شريف!! أو يقولون- كما تقول العوام في بعض البلاد-: "كل مين على دينه، الله يعينه "! وهذا خطأ جسيم لو كانوا يعلمون، ولكن صدق من قال: "فاقد الشيء لا يعطيه "!.

والفئة الثانية: نابتة نبتت في هذا العصر؛ لم يؤتوا من العلم الشرعي إلا نزرًا يسيرًا، وبخاصة ما كان منه متعلقًا بالأصول الفقهية، والقواعد العلمية المستقاة من الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح، ومع ذلك؛ اغتروا بعلمهم فانطلقوا يبدِّعون كبار العلماء والفقهاء، وربما كفروهم لسوء فهم أو زلة وقعت منهم، لا يرقبون فيهم (إلًا ولا ذمة)، فلم يشفع عندهم ما عرفوا به عند كافة العلماء من الإيمان والصلاح والعلم، وما ذلك إلا لجهلهم بحقيقة الكفر الذي يخرج به صاحبه من الإيمان؛ ألا وهو الجحد والإنكار لما بلغه من الحجة والعلم؛ كما قال تعالى في قوم فرعون: {فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا

سِحْرٌ مُّبِين، وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ} (النمل:١٣، ١٤). وقال في الذين كفروا بالقرآن: {ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُون} (فصلت:٢٨) ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض فتاويه (١٦/ ٤٣٤ – مجموع الفتاوى): "لا يجوز تكفير كل من خالف السنة؛ فليس كل مخطئ كافرًا، لا سيما في المسائل التي كثر فيها نزاع الأمة".

يشير إلى مثل مسألة كلام الله وأنه غير مخلوق، ورؤية الله في الآخرة، واستواء الله على عرشه، وعلوه على خلقه؛ فإن الإيمان بذلك واجب، وجحدها كفر، ولكن لا يجوز تكفير من تأولها من المعتزلة والخوارج والأشاعرة بشبهة وقعت لهم؛ إلا من أقيمت عليه الحجة وعاند.

وهذا هو المثال بين أيدينا: الرجل النباش؟ فإنه مع شكه في قدرة الله على بعثه غفر الله له؛ لأنه لم يكن جاحدًا معاندًا؛ بل كان مؤمنًا بالله وبالبعث على الجملة دون تفصيل لجهله. قال شيخ الإسلام بعد أن ساق الحديث برواية " الصحيح " وذكر أنه حديث متواتر (١٢/ ٤٩١): "وهنا أصلان عظيمان:

أحدهما: متعلق بالله تعالى؛ وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير.

والثاني: متعلق باليوم الآخر؛ وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت، ويجزيه على أعماله. ومع هذا فلما كان مؤمنًا بالله في الجملة، ومؤمنًا باليوم الآخر في الجملة، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل عملًا صالحًا- وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه-؛ غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح".

ولهذا؛ فإني أنصح أولئك الشباب أن يتورعوا عن تبديع العلماء وتكفيرهم، وأن يستمروا في طلب العلم حتى ينبغوا فيه، وأن لا يغتروا بأنفسهم، ويعرفوا

حق العلماء وأسبقيتهم فيه، وبخاصة من كان منهم على منهج السلف الصالح كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وأَلْفِتُ نظرهم إلى "مجموع الفتاوى" فإنه "كُنَيْف مُلِيءَ علمًا"، وبخاصة إلى فصول خاصة في هذه المسالة الهامة "التكفير"، حيث فَرَّقَ بين التكفير المطلق وتكفير المعين، وقال في أمثال أولئك الشباب: "ولم يتدبروا أن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وأن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين؛ إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه".

يعني الذين كانوا يقولون: القرآن مخلوق. ومن قال: إن الله لا يرى في الآخرة؛ وأمثالهم.

فأقول: وملاحظة هذا الفرق هو الفيصل في هذا الموضوع الهام، ولذلك فإني أحث الشباب على قراءته وتفهمه من "المجموع" (١٢/ ٤٦٤ - ٥٠١) الذي ختمه بقوله:"وإذا عُرف هذا؛ فتكفير (المعين) من هؤلاء الجهال وأمثالهم- بحيث يحكم عليه أنه من الكفار- لا يجوز الإقدام عليه؛ إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسل، وإن كانت مقالتهم لا ريب أنها كفر، (يعني: الدعاة إلى البدعة). وهكذا الكلام في تكفير جميع (المعينين)؛ مع أن بعض هذه البدع أشد من بعض، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض، فليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين- وإن أخطأ وغلط- حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة".

هذا؛ وفي الحديث دلالة قوية على أن الموحد لا يخلد في النار؛ مهما كان فعله مخالفًا لما يستلزمه الإيمان ويوجبه من الأعمال؛ كالصلاة ونحوها من الأركان العملية، وإن مما يؤكد ذلك ما تواتر في أحاديث الشفاعة؛ أن الله يأمر الشافعين بأن يخرجوا من النار من كان في قلبه ذرة من الإيمان. ويؤكد ذلك حديث أبي سعيد الخدري أن الله تبارك وتعالى يخرج من النار ناسًا لم يعملوا خيرًا قط، ويأتي تخريجه وبيان دلالته على ذلك، وأنه من الأدلة الصريحة الصحيحة على أن تارك الصلاة المؤمن بوجوبها يخرج من النار أيضًا ولا يخلد فيها، فانظره بالرقم (٣٠٥٤).

مسألة: وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٥٥): عن معنى قول النبي، ﷺ،: «إنَّ الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها» ؟.

فأجاب: هذا الحديث يقول فيه الرسول، ﷺ: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها» . و" يأرز " بكسر الراء ويجوز فيها الفتح والضم، ومعنى " يأرز " يرجع ويثبت في المدينة كما أن الحية إذا خرجت من جحرها رجعت إليه، وهذا إشارة من النبي، ﷺ، إلى أن هذا الدين سوف يرجع إلى المدينة بعد أن تفسد البلدان الأخرى كما أن الحية تخرج وتنتشر في الأرض ثم بعد ذلك ترجع إلى جحرها.

وفيه أيضا إشارة إلى أن الإسلام كما انطلق من المدينة فإنه يرجع إليها أيضا، فإن الإسلام بقوته وسلطته لم ينتشر إلا من المدينة وإن كان أصله نابعا في مكة، ومكة هي المهبط الأول للوحي، لكن لم يكن للمسلمين دولة وسلطان وجهاد إلا بعد أن هاجروا إلى المدينة، فلهذا كان الإسلام بسلطته ونفوذه وقوته منتشرا من المدينة وسيرجع إليها في آخر الزمان.

وقال بعض أهل العلم: إن هذا إشارة إلى أمر سبق، وأن المعنى أن الناس يفدون إلى المدينة ويرجعون إليها ليتلقوا من رسول الله، ﷺ، الشريعة والتعاليم الإسلامية.

ولكن المعنى الأول هو ظاهر الحديث وهو الأصح.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٥٦): عن هذا التقسيم للإيمان هل هو صحيح أو لا؟ " الإيمان خمسة: إيمان مطبوع وهو إيمان الملائكة، وإيمان معصوم وهو إيمان الأنبياء، وإيمان مقبول وهو إيمان المؤمنين، وإيمان مردود وهو إيمان المنافقين، وإيمان موقوف وهو إيمان المبتدعة "؟.

فأجاب: أقول في هذا التقسيم: إنه ليس بصحيح، لا من أجل التقسيم لأن التقسيم قد يكون صحيحا في أصله ولا مشاحة في الاصطلاح والتقسيم، لكنه ليس بصحيح في حد ذاته فإن المنافقين قد نفى الله الإيمان عنهم في القرآن فقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} . وإيمان البشر مطبوعون عليه لولا وجود المانع المقاوم. قال النبي، عليه الصلاة والسلام: "«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه» . صحيح أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، وصحيح أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لا يمكن أن يرتدوا بعد إيمانهم، ولكن التقسيم الثاني غير صحيح وهو أنه جعل الملائكة مطبوعين على الإيمان دون البشر، والبشر كما تقدم قد طبعوا على الإيمان بالله وتوحيده، وخير من ذلك أن نرجع إلى تقسيم السلف الصالح لأنه هو التقسيم الذي يكون مطابقا للكتاب والسنة للإجماع عليه. وهو أن الإيمان قول باللسان، وعمل بالأركان، واعتقاد بالجنان.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (١/ ٥٧): عن رجل يوسوس له

الشيطان بوساوس عظيمة فيما يتعلق بالله ﷻ وهو خائف من ذلك جدا؟.

فأجاب: ما ذكر من جهة مشكلة السائل التي يخاف من نتائجها، أقول له: أبشر بأنه لن يكون لها نتائج إلا النتائج الطيبة؛ لأن هذه وساوس يصول بها الشيطان على المؤمنين، ليزعزع العقيدة السليمة في قلوبهم، ويوقعهم في القلق النفسي والفكري ليكدر عليهم صفو الإيمان، بل صفو الحياة إن كانوا مؤمنين.

وليست حاله بأول حال تعرض لأهل الإيمان، ولا هي آخر حال، بل ستبقى مادام في الدنيا مؤمن. ولقد كانت هذه الحال تعرض للصحابة رضي الله عنهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء أناس من أصحاب رسول الله، ﷺ، إلى النبي، ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، فقال: "أو قد وجدتموه؟". قالوا: نعم، قال: "ذاك صريح الإيمان"» . رواه مسلم، وفي الصحيحين عنه أيضا أن النبي، ﷺ، قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟! فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته» .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما «أن النبي، ﷺ، جاءه رجل فقال: إني أحدث نفسي بالشيء لأن أكون حممة أحب إلي من أن أتكلم به، فقال النبي، ﷺ: "الحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة"» . رواه أبو داود.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب الإيمان: والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان بوساوس الكفر التي يضيق بها صدره. كما «قالت الصحابة: يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به. فقال: "ذاك صريح الإيمان".» وفي رواية «ما يتعاظم أن يتكلم به. قال: "الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة"» أي حصول هذا

الوسواس مع هذه الكراهة العظيمة له، ودفعه عن القلب هو من صريح الإيمان، كالمجاهد الذي جاءه العدو فدافعه حتى غلبه، فهذا عظيم الجهاد، إلى أن قال: "ولهذا يوجد عند طلاب العلم والعبادة من الوساوس والشبهات ما ليس عند غيرهم، لأنه (أي الغير) لم يسلك شرع الله ومنهاجه، بل هو مقبل على هواه في غفلة عن ذكر ربه، وهذا مطلوب الشيطان بخلاف المتوجهين إلى ربهم بالعلم والعبادة، فإنه عدوهم يطلب صدهم عن الله تعالى".اهـ.. المقصود منه ذكره في ص ١٤٧ من الطبعة الهندية.

فأقول لهذا السائل: إذا تبين لك أن هذه الوساوس من الشيطان فجاهدها وكابدها، واعلم أنها لن تضرك أبدا مع قيامك بواجب المجاهدة والإعراض عنها، والانتهاء عن الانسياب وراءها، كما قال النبي، ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل به أو تتكلم» . متفق عليه.

وأنت لو قيل لك: هل تعتقد ما توسوس به؟ وهل تراه حقًّا؟ وهل يمكن أن تصف الله – سبحانه – به؟ لقلت: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم، ولأنكرت ذلك بقلبك ولسانك، وكنت أبعد الناس نفورا عنه، إذا فهو مجرد وساوس وخطرات تعرض لقلبك، وشباك شرك من الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، ليرديك ويلبس عليك دينك.

ولذلك تجد الأشياء التافهة لا يلقي الشيطان في قلبك الشك فيها أو الطعن، فأنت تسمع مثلا بوجود مدن مهمة كبيرة مملوءة بالسكان والعمران في المشرق والمغرب ولم يخطر ببالك يوما من الأيام الشك في وجودها أو عيبها بأنها خراب ودمار لا تصلح للسكنى، وليس فيها ساكن ونحو ذلك، إذ لا غرض للشيطان في تشكك الإنسان فيها، ولكن الشيطان له غرض كبير في إفساد إيمان

المؤمن، فهو يسعى بخيله ورجله ليطفئ نور العلم والهداية في قلبه، ويوقعه في ظلمة الشك والحيرة، والنبي، ﷺ، بين لنا الدواء الناجع الذي فيه الشفاء، وهو قوله: «فليستعذ بالله ولينته» . فإذا انتهى الإنسان عن ذلك واستمر في عبادة الله طلبا ورغبة فيما عند الله زال ذلك عنه، بحول الله، فأعرض عن جميع التقديرات التي ترد على قلبك في هذا الباب وها أنت تعبد الله وتدعوه وتعظمه، ولو سمعت أحدا يصفه بما توسوس به لقتلته إن أمكنك، إذن فما توسوس به ليس حقيقة واقعة بل هو خواطر ووساوس لا أصل لها، كما لو انفتح على شخص طاهر الثوب قد غسل ثوبه لحينه ثم أخذ الوهم يساوره لعله تنجس لعله لا تجوز الصلاة به، فإنه لا يلتفت إلى هذا.

ونصيحتي تتلخص فيما يأتي:

١ - الاستعاذة بالله، والانتهاء بالكلية عن هذه التقديرات كما أمر بذلك النبي، ﷺ .

٢- ذكر الله تعالى وضبط النفس عن الاستمرار في الوساوس.

٣- الانهماك الجدي في العبادة والعمل امتثالا لأمر الله، وابتغاء لمرضاته، فمتى التفت إلى العبادة التفاتا كليا بجد وواقعية نسيت الاشتغال بهذه الوساوس - إن شاء الله -.

٤- كثرة اللجوء إلى الله والدعاء بمعافاتك من هذا الأمر.

وأسأل الله تعالى لك العافية والسلامة من كل سوء ومكروه.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٧٧): عمن لا يحب دراسة العقيدة خصوصا مسألة القدر خوفا من الزلل؟ .

فأجاب: هذه المسألة كغيرها من المسائل المهمة، التي لا بد للإنسان منها

في دينه ودنياه، لا بد أن يخوض غمارها، وأن يستعين بالله - تبارك وتعالى - على تحقيقها ومعرفتها، حتى يتبين له الأمر؛ لأنه لا ينبغي أن يكون على شك في هذه الأمور المهمة، أما المسائل التي لا تخل بدينه لو أجلها، ويخشى أن تكون سببا لانحرافه، فإنه لا بأس أن يؤجلها ما دام غيرها أهم منها، ومسائل القدر من الأمور المهمة التي يجب على العبد أن يحققها تماما، حتى يصل فيها إلى اليقين، وهي في الحقيقة ليس فيها إشكال -ولله الحمد-.

والذي يثقل دروس العقيدة على بعض الناس: هو أنهم مع الأسف الشديد يرجحون جانب " كيف " على جانب " لم "، والإنسان مسئول عن عمله بأداتين من أدوات الاستفهام " لم " و" كيف " فلم عملت كذا؟ هذا الإخلاص. كيف عملت كذا؟ هذه المتابعة للرسول ﷺ وأكثر الناس الآن مشغولون بتحقيق جواب " كيف "، غافلون عن تحقيق جواب " لم "؛ ولذلك تجدهم في جانب الإخلاص لا يتحرون كثيرا، وفي جانب المتابعة يحرصون على أدق الأمور، فالناس الآن مهتمون كثيرا بهذا الجانب، غافلون عن الجانب الأهم، وهو جانب العقيدة، وجانب الإخلاص، وجانب التوحيد؛ لهذا تجد بعض الناس في مسائل الدنيا يسأل عن مسألة يسيرة جدا جدا، وقلبه منكب على الدنيا، غافل عن الله مطلقا في بيعه وشرائه، ومركوبه، ومسكنه، وملبسه، فقد يكون بعض الناس الآن عابدا للدنيا وهو لا يشعر، وقد يكون مشركا بالله في الدنيا وهو لا يشعر؛ لأنه مع الأسف أن جانب التوحيد، وجانب العقيدة لا يهتم بهما، ليس من العامة فقط، ولكن حتى من بعض طلاب العلم، وهذا أمر له خطورته.

كما أن التركيز على العقيدة فقط بدون العمل الذي جعله الشارع كالحامي

والسور لها خطأ أيضا؛ لأننا نسمع في الإذاعات، ونقرأ في الصحف التركيز على أن الدين هو العقيدة السمحاء، وما أشبه ذلك من هذه العبارات، وفي الحقيقة أن هذا يخشى أن يكون بابا يلج منه من يلج في استحلال بعض المحرمات، بحجة أن العقيدة سليمة، ولكن لا بد من ملاحظة الأمرين جميعا؛ ليستقيم الجواب على " لم "، وعلى " كيف".

وخلاصة الجواب: أنه يجب على المرء دراسة علم التوحيد والعقيدة؛ ليكون على بصيرة في إلهه ومعبوده -جل وعلا- على بصيرة في أسماء الله وصفاته، وأفعاله، على بصيرة في أحكامه الكونية، والشرعية، على بصيرة في حكمته، وأسرار شرعه وخلقه، حتى لا يضل بنفسه، أو يضل غيره.

وعلم التوحيد هو أشرف العلوم؛ لشرف متعلقه، ولهذا سماه أهل العلم (الفقه الأكبر)، وقال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»، وأول ما يدخل في ذلك وأولاه علم التوحيد والعقيدة، لكن يجب على المرء أيضا أن يتحرى كيف يأخذ هذا العلم، ومن أي مصدر يتلقاه.

فليأخذ من هذا العلم أولا: ما صفا منه، وسلم من الشبهات، ثم ينتقل ثانيا: إلى النظر فيما أورد عليه من البدع والشبهات؛ ليقوم بردها، وبيانها مما أخذه من قبل من العقيدة الصافية، وليكن المصدر الذي يتلقاه منه كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ ثم كلام الصحابة رضي الله عنهم ثم ما قاله الأئمة بعدهم من التابعين وأتباعهم، ثم ما قاله العلماء الموثوق بعلمهم وأمانتهم؛ خصوصا شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم عليهما، وعلى سائر المسلمين وأئمتهم سابغ الرحمة والرضوان.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٢/ ٧٩): ما الفرق بين القضاء والقدر؟

فأجاب: اختلف العلماء في الفرق بينهما، فمنهم من قال: إن القدر: "تقدير الله في الأزل"، والقضاء: "حكم الله بالشيء عند وقوعه"، فإذا قدر الله تعالى أن يكون الشيء المعين في وقته فهذا قدر، فإذا جاء الوقت الذي يكون فيه هذا الشيء فإنه يكون قضاء، وهذا كثير في القرآن الكريم مثل قولهتعالى: {قُضِيَ الْأَمْرُ}، وقوله: {وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ}، وما أشبه ذلك. فالقدر تقدير الله تعالى الشيء في الأزل، والقضاء قضاؤه به عند وقوعه.

ومنهم من قال: إنهما بمعنى واحد.

والراجح: أنهما إن قرنا جميعا فبينهما فرق كما سبق، وإن أفرد أحدهما عن الآخر فهما بمعنى واحد، والله أعلم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٨٦): عن مسألة القدر؟ وهل أصل الفعل مقدر، والكيفية يخير فيها الإنسان؟ مثال ذلك: إذا قدر الله تعالى للعبد أن يبني مسجدا فإنه سيبني لا محالة، لكنه ترك لعقله الخيار في كيفية البناء، وكذلك المعصية إذا قدرها الله فإن، الإنسان سيفعلها لا محالة، لكن ترك لعقله كيفية تنفيذها، وخلاصة هذا الرأي: أن الإنسان مخير في الكيفية التي ينفذ بها ما قدر عليه فهل هذا صحيح؟ .

فأجاب: هذه المسألة - أي مسألة القدر- محل جدل بين البشر من قديم الزمان، ولذلك انقسم الناس فيها إلى ثلاثة أقسام: طرفين، ووسط. أما الطرفان:

فأحدهما: نظر إلى عموم قدر الله فعمي عن اختيار العبد. وقال: إنه مجبر على أفعاله، وليس له فيها أي اختيار، فسقوط الإنسان من السقف بالريح ونحوها كنزوله منه مختارا من الدرج.

وأما الطرف الثاني: فنظر إلى أن العبد فاعل، تارك باختياره، فعمي عن قدر

الله، وقال: إن العبد مستقل بأفعاله، ولا تعلق لقدر الله تعالى فيها.

وأما الوسط: فأبصروا السببين، فنظروا إلى عموم قدر اللهتعالى وإلى اختيار العبد، فقالوا: إن فعل العبد كائن بقدر الله تعالى وباختيار العبد، وإنه يعلم بالضرورة الفرق بين سقوط الإنسان من السقف بالريح ونحوها، ونزوله منه مختارا من الدرج، فالأول: من فعله بغير اختياره، والثاني: باختياره، والكل منهما واقع بقضاء الله وقدره، لا يقع في ملكه ما لا يريد، لكن ما وقع باختيار العبد فهو مناط التكليف، ولا حجة له بالقدر في مخالفة ما كلف به من أوامر أو نواه، وذلك؛ لأنه يقدم على المخالفة حين يقدم عليها وهو لا يعلم ما قدر الله عليه، فيكون إقدامه الاختياري على المخالفة هو سبب العقوبة، سواء كانت في الدنيا أم في الآخرة، ولذلك لو أجبره مجبر على المخالفة، لم يثبت عليه حكم المخالفة، ولا يعاقب عليها؛ لثبوت عذره حينئذ.

وإذا كان الإنسان يدرك أن هروبه من النار إلى موضع يأمن فيه منها يكون باختياره، وأن تقدمه إلى بيت جميل واسع طيب المسكن ليسكنه يكون باختياره أيضا، مع إيمانه أن هروبه وتقدمه المذكورين واقعان بقضاء الله وقدره، وأن بقاءه لتدركه النار، وتأخره عن سكنى البيت يعد تفريطا منه، وإضاعة للفرصة يستحق اللوم عليه؛ فلماذا لا يدرك هذا بالنسبة لتفريطه بترك الأسباب المنجية له من نار الآخرة، الموجبة لدخوله الجنة؟ !

وأما التمثيل بأن الله إذا قدر للعبد أن يبني مسجدا فإنه سيبني هذا المسجد لا محالة، لكنه ترك لعقله الخيار في كيفية البناء، فهذا تمثيل غير صحيح؛ لأنه يوحي بأن كيفية البناء يستقل بها العقل ولا تدخل في قدر الله تعالى، وأن أصل فكرة البناء يستقل بها القدر، ولا مدخل للاختيار فيها.

والحقيقة: أن أصل فكرة البناء تدخل في اختيار العبد؛ لأنه لم يجبر عليها، كما لا يجبر على فكرة إعادة بناء بيته الخاص، أو ترميمه مثلا، ولكن هذه الفكرة قد قدرها اللهتعالى للعبد من حيث لا يشعر؛ لأنه لا يعلم بأن الله قدر شيئا ما، حتى يقع ذلك الشيء، إذ القدر سر مكتوم، لا يعلم إلا بإطلاع اللهتعالى عليه بالوحي، أو بالوقوع الحسي.

وكذلك كيفية البناء هي بقدر الله تعالى، فإن الله تعالى قد قدر الأشياء كلها جملة وتفصيلا، ولا يمكن أن يختار العبد ما لم يُرِدْه أو يقدره، بل إذا اختار العبد شيئا وفعله، علم يقينا أن الله تعالى قد قضاه وقدره. فالعبد مختار بحسب الأسباب الحسية الظاهرة التي قدرها الله تعالى، أسبابا لوقوع فعله، ولا يشعر العبد حين يفعل الفعل بأن أحدا أجبره عليه، لكنه إذا فعل ذلك بحسب الأسباب التي جعلها الله تعالى أسبابا علمنا يقينا بأن الله تعالى، قد قدرها جملة وتفصيلا.

وهكذا نقول في التمثيل بفعل الإنسان المعصية، حيث قلتم: إن الله قدر عليه فعل المعصية فهو سيفعلها لا محالة، ولكن ترك لعقله كيفية تنفيذها والسعي إليها.

فنقول فيه ما قلناه في بناء المسجد: إن تقدير الله تعالى عليه فعل المعصية لا ينافي اختياره لها؛ لأنه حين اختياره لها لا يعلم بما قدر الله تعالى عليه، فهو يقدم عليها مختارا لا يشعر بأن أحدا يجبره، لكنه إذا أقدم وفعل علمنا أن الله قد قدر فعله لها، وكذلك كيفية تنفيذ المعصية والسعي إليها الواقعة باختيار العبد، لا تنافي قدر الله تعالى، فالله تعالى قد قدر الأشياء كلها جملة وتفصيلا وقدر أسبابها الموصلة إليها، ولا يشذ عن ذلك شيء من أفعاله، ولا من أفعال العباد

الاختيارية منها والاضطرارية، كما قال الله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} . وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}، وقال: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} . وقال: {وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا}

وبعد فإن الجدير بالمرء ألا يبحث في نفسه، ولا مع غيره في مثل هذه الأمور التي توجب له التشوش، وتوهم معارضة الشرع بالقدر، فإن ذلك ليس من دأب الصحابة ﵃ وهم أحرص الناس على معرفة الحقائق، وأقربهم من معين إرواء الغلة، وكشف الغمة، وفي صحيح البخاري، عن علي بن أبي طالب ﵁ «أن النبي ﷺ قال: "ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار". فقلنا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟» وفي رواية: «أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: "لا اعملوا فكل ميسر» .

وفي رواية: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة. وأما من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة» . ثم قرأ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} .

فنهى النبي ﷺ عن الاتكال على الكتاب وترك العمل؛ لأنه لا سبيل إلى العلم به، وأمر بما يستطيعه العبد ويمكنه، وهو العمل، واستدل بالآية التي تدل

على أن من عمل صالحا، وآمن فسييسر لليسرى، وهذا هو الدواء الناجع المثمر، الذي يجد فيه العبد بلوغ عافيته وسعادته، حيث يشمر للعمل الصالح المبني على الإيمان، ويستبشر بذلك حين يقارنه التوفيق لليسرى في الدنيا والآخرة. أسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعا للعمل الصالح، وأن ييسرنا لليسرى، ويجنبنا العسرى، ويغفر لنا في الآخرة والأولى، إنه جواد كريم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٩٠): هل الإنسان مخير أو مسير؟ .

فأجاب: على السائل أن يسأل نفسه: هل أجبره أحد على أن يسأل هذا السؤال، وهل هو يختار نوع السيارة التي يقتنيها؟ إلى أمثال ذلك من الأسئلة، وسيتبين له الجواب هل هو مسير أو مخير.

ثم يسأل نفسه هل يصيبه الحادث باختياره؟

هل يصيبه المرض باختياره؟

هل يموت باختياره؟

إلى أمثال ذلك من الأسئلة، وسيتبين له الجواب هل هو مسير أو مخير.

والجواب: أن الأمور التي يفعلها الإنسان العاقل يفعلها باختياره بلا ريب، واسمع إلى قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾، وإلى قوله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾، وإلى قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾، إلى قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، حيث خير الفادي فيما يفدي به.

ولكن العبد إذا أراد شيئا وفعله علمنا أن الله تعالى قد أراده لقوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فلكمال ربوبيته لا يقع شيء في السماوات والأرض إلا بمشيئته تعالى.

وأما الأمور التي تقع على العبد، أو منه بغير اختياره، كالمرض، والموت، والحوادث فهي بمحض القدر، وليس للعبد اختيار فيها ولا إرادة. والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٩٢): عن حكم الرضا بالقدر؟ وهل الدعاء يرد القضاء؟ .

فأجاب: أما الرضا بالقدر فهو واجب؛ لأنه من تمام الرضا بربوبية الله، فيجب على كل مؤمن أن يرضى بقضاء الله، ولكن المقضي هو الذي فيه التفصيل فالمقضي غير القضاء؛ لأن القضاء فعل الله، والمقضي مفعول الله، فالقضاء الذي هو فعل الله يجب أن نرضى به، ولا يجوز أبدا أن نسخطه بأي حال من الأحوال.

وأما المقضي فعلى أقسام:

القسم الأول: ما يجب الرضا به.

القسم الثاني: ما يحرم الرضا به.

القسم الثالث: ما يستحب الرضا به.

فمثلا المعاصي من مقضيات الله، ويحرم الرضا بالمعاصي، وإن كانت واقعة بقضاء الله، فمن نظر إلى المعاصي من حيث القضاء الذي هو فعل الله يجب أن يرضى، وأن يقول: إن الله تعالى حكيم، ولولا أن حكمته اقتضت هذا ما وقع، وأما من حيث المقضي وهو معصية الله فيجب ألا ترضى به، والواجب أن تسعى لإزالة هذه المعصية منك أو من غيرك.

وقسم من المقضي يجب الرضا به مثل الواجب شرعا؛ لأن الله حكم به كونا، وحكم به شرعا، فيجب الرضا به من حيث القضاء ومن حيث المقضي.

وقسم ثالث: يستحب الرضا به، ويجب الصبر عليه، وهو ما يقع من المصائب، فما يقع من المصائب يستحب الرضا به عند أكثر أهل العلم ولا

يجب، لكن يجب الصبر عليه، والفرق بين الصبر والرضا: أن الصبر يكون الإنسان فيه كارها للواقع، لكنه لا يأتي بما يخالف الشرع وينافي الصبر.

والرضا: لا يكون كارها للواقع فيكون ما وقع، وما لم يقع عنده سواء، فهذا هو الفرق بين الرضا والصبر؛ ولهذا قال الجمهور: إن الصبر واجب، والرضا مستحب.

أما قول السائل: هل الدعاء يرد القضاء؟

فجوابه: أن الدعاء من الأسباب التي يحصل بها المدعو، وهو في الواقع يرد القضاء ولا يرد القضاء؛ يعني له جهتان، فمثلا هذا المريض قد يدعو اللهتعالى بالشفاء فيشفى، فهنا لولا هذا الدعاء لبقي مريضا، لكن بالدعاء شفي، إلا أننا نقول: إن الله -سبحانه وتعالى - قد قضى بأن هذا المرض يشفى منه المريض بواسطة الدعاء، فهذا هو المكتوب، فصار الدعاء يرد القدر ظاهريا، حيث إن الإنسان يظن أنه لولا الدعاء لبقي المرض، ولكنه في الحقيقة لا يرد القضاء؛ لأن الأصل أن الدعاء مكتوب، وأن الشفاء سيكون بهذا الدعاء، هذا هو القدر الأصلي الذي كتب في الأزل، وهكذا كل شيء مقرون بسبب فإن هذا السبب جعله الله تعالى سببا يحصل به الشيء، وقد كتب ذلك في الأزل من قبل أن يحدث.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٩٣): هل للدعاء تأثير في تغيير ما كتب للإنسان قبل خلقه؟.

فأجاب: لا شك أن للدعاء تأثيرا في تغيير ما كتب، لكن هذا التغيير قد كتب أيضا بسبب الدعاء، فلا تظن أنك إذا دعوت الله فإنك تدعو بشيء غير مكتوب، بل الدعاء مكتوب، وما يحصل به مكتوب، ولهذا نجد القارئ يقرأ على المريض فيشفى، وقصة السرية التي بعثها النبي ﷺ فنزلوا ضيوفا على قوم،

ولكنهم لم يضيفوهم، وقدر أن لدغت حية سيدهم، فطلبوا من يقرأ عليه، فاشترط الصحابة أجرة على ذلك، فأعطوهم قطيعا من الغنم، فذهب أحدهم فقرأ عليه الفاتحة، فقام اللديغ، كأنما نشط من عقال، أي كأنه بعير فك عقاله، فقد أثرت القراءة في شفاء المريض.

فللدعاء تأثير، لكنه ليس تغييرا للقدر، بل هو مكتوب بسببه المكتوب، وكل شيء عند الله بقدر، وكذلك جميع الأسباب لها تأثير في مسبباتها بإذن الله، فالأسباب مكتوبة، والمسببات مكتوبة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٩٤): هناك مشكلة ترد على بعض الناس وهي: "كيف يعاقب الله على المعاصي، وقد قدرها على الإنسان "؟.

فأجاب: قائلا: هذه في الحقيقة ليست مشكلة، وهي إقدام الإنسان على العمل السيئ، ثم يعاقب عليه هذه ليست مشكلة؛ لأن إقدام الإنسان على العمل السيئ إقدام باختياره، فلم يكن أحد شهر سيفه أمام وجهه، وقال: اعمل هذا المنكر، بل هو عمله باختياره، والله تعالى يقول: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}، فالشاكر والكفور كلهم قد هداه الله السبيل، وبينه له ووضحه له، ولكن من الناس من يختار هذا الطريق، ومن الناس من لا يختاره، وتوضيح ذلك أولا بالإلزام، وثانيا بالبيان: (أما الإلزام فإننا نقول للشخص: أعمالك الدنيوية وأعمالك الأخروية كلاهما سواء، ويلزمك أن تجعلهما سواء، ومن المعلوم أنه لو عرض عليك من أعمال الدنيا مشروعان أحدهما ترى لنفسك الخير فيه، والثاني ترى لنفسك الشر فيه، من المعلوم أنك تختار المشروع الأول الذي هو مشروع الخير ولا يمكن أبدًا بأي حال من الأحوال أن تختار المشروع الثاني وهو مشروع الشر، ثم تقول:

إن القدر ألزمني به، إذًا يلزمك في طريق الآخرة ما التزمته في طريق الدنيا، ونقول: جعل الله أمامك من أعمال الآخرة مشروعين؛ مشروعًا للشر وهي الأعمال المخالفة للشرع، ومشروعًا للخير وهي الأعمال المطابقة للشرع.

فإذا كنت في أعمال الدنيا تختار المشروع الخيري فلماذا لا تختار المشروع الخيري في أعمال الآخرة؟

إنه يلزمك في عمل الآخرة أن تختار المشروع الخيري كما أنت التزمت في عمل الدنيا أن تسلك المشروع الخيري هذا طريق الإلزام.

أما طريق البيان فإننا نقول: كلنا يجهل ماذا قدر الله له، قال الله -تعالى -: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا} فالإنسان حينما يقدم على العمل يقدم عليه باختيار منه ليس عن علم بأن الله قدره عليه وأرغمه عليه ولهذا قال بعض العلماء: "إن القدر سر مكتوم" ونحن جميعًا لا نعلم أن الله قدر كذا حتى يقع ذلك العمل، فنحن إذًا حينما نقدم على العمل لا نقدم عليه على أساس أنه كتب لنا أو علينا، وإنما نقدم عليه باختيار، وحينما يقع نعلم أن الله قدره علينا، ولذلك لا يقع احتجاج الإنسان بالقدر إلا بعد وقوع العمل، ولكنه لا حجة له بذلك ويذكر عن أمير المؤمنين عمر قصة - قد تصح عنه وقد لا تصح - رفع إليه سارق تمت شروط القطع في سرقته فلما أمر أمير المؤمنين بقطع يده قال: مهلًا يا أمير المؤمنين والله ما سرقت ذلك إلا بقدر الله.

قال له: ونحن لا نقطع يدك إلا بقدر الله.

فاحتج عليه أمير المؤمنين بما احتج به هو على سرقته من أموال المسلمين، مع أن عمر يمكنه أن يحتج عليه بالقدر والشرع، لأنه مأمور بقطع يده، أما ذاك فلا يمكن أن يحتج إلا بالقدر إن صح أن يحتج به.

وعلى هذا فإنه لا يمكن لأي أحد أن يحتج بالقدر على معصية الله، وإنه في الواقع لا حجة فيه يقول الله ﷻ -: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}

مع أن ما يعمله الناس بعد الرسل هو بقدر الله، ولو كان القدر حجة ما زالت بإرسال الرسل أبدًا. بهذا يتبين لنا أثرًا ونظرًا أنه لا حجة للعاصي بقضاء الله وقدره، لأنه لم يجبر على ذلك. والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٠٠): عن قول النبي، ﷺ: "«إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» أو كما قال، ﷺ، وهل يعارض هذا الحديث قول الله تعالى -: {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} ؟.

فأجاب: هذا الحديث حديث عبد الله بن مسعود -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -يخبر فيه النبي، ﷺ، أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع؛ لقرب أجله وموته ثم يسبق عليه الكتاب الأول الذي كتب أنه من أهل النار، فيعمل بعمل أهل النار - والعياذ بالله - فيدخلها، وهذا فيما يبدو للناس ويظهر كما جاء في الحديث الصحيح: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار» . - نسأل الله العافية - وكذلك الأمر بالنسبة للثاني يعمل الإنسان بعمل أهل النار، فيمُنُّ الله تعالى عليه بالتوبة والرجوع إلى الله عند قرب أجله، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها.

والآية التي ذكرها السائل لا تعارض الحديث لأن الله -تعالى - قال: {أَجْرَ

مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} ومن أحسن العمل في قلبه وظاهره فإن الله تعاليلا يضيع أجره، لكن الأول الذي عمل بعمل أهل الجنة فسبق عليه الكتاب، كان يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس فيسبق عليه الكتاب، وعلى هذا يكون عمله ليس حسنًا وحينئذ لا يعارض الآية الكريمة. والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٠١): عن الجمع بين قول الله تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} وقوله: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} .

فأجاب: الجمع بينهما أن الله تعالى يخبر في بعض الآيات بأن الأمر بيده ويخبر في بعض الآيات أن الأمر راجع إلى المكلف، والجمع بين هذه النصوص أن يقال: إن للمكلف إرادة واختيارًا وقدرة، وإن خالق هذه الإرادة والاختيار والقدرة هو الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يكون للمخلوق إرادة إلا بمشيئة الله عَزَّ وَجَلَّ وقد قال الله تعالى مبينًا الجمع بين هذه النصوص: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ولكن متى يشاء الله تعالى أن يهدي الإنسان أو أن يضله؟

هذا هو ما جاء في قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فسنيسره للعسرى} واقرأ قوله: تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} تجد أن سبب ضلال العبد من نفسه فهو السبب، والله -تعالى- يخلق عند ذلك فيه إرادة للسوء لأنه هو يريد السوء، وأما من أراد الخير وسعى في الخير وحرص عليه فإن الله تعالىييسره لليسرى، ولما «حدث النبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

أصحابه: بأنه ما من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعدة من النار قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل؟

قال: "لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له" ثم قرأ هذه الآية {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى} إلخ» .

واعلم يا أخي أنه لا يمكن أن يوجد في كلام الله أو فيما صح عن رسول الله ﷺ، تناقض أبدًا، فإذا قرأت نصين ظاهرهما التناقض فأعد النظر مرة أخرى، فسيتبين لك الأمر، فإن لم تعلم فالواجب عليك التوقف وأن تكل الأمر إلى عالمه والله بكل شيء عليم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٠٣): عن قول الله تعالى: {وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} ؟.

فأجاب: هذا مما قاله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، لقومه {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} أي ما تعملون من هذه الأصنام ليقيم عليهم الحجة بأنها لا تصلح آلهة، لأنها إذا كانت مخلوقة لله تعالى فمن الذي يستحق العبادة المخلوق أم الخالق؟

الجواب الخالق. وهل يستحق المخلوق أن يكون شريكًا في هذه العبادة؟

لا. فإبراهيم، عليه الصلاة والسلام، أراد أن يقيم الحجة على قومه بأن ما عملوه من هذه الأصنام التي نحتوها مخلوق الله -عَزَّ وَجَلَّ- فكيف يليق بهم أن يشركوا مع الله -تعالى - هذا المخلوق.

وعلى هذا فقوله: {وَمَا تَعْمَلُونَ} (ما) اسم موصول عائد على قوله {مَا تَنْحِتُونَ} هذا وجه هذه الآية.

وليس فيها أنه يبرر شركهم بالله ويقول: إن عملكم مخلوق لله فأنتم بريئون

من اللوم عليه، كلا لأننا لو قلنا ذلك لكان يحتج لهم ولا يحتج عليهم، ولكن هو يحتج عليهم وليس يحتج لهم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٠٣): عن شخص عاص عندما دعي للحق قال: "إن الله لم يكتب لي الهداية" فكيف يتعامل معه؟.

فأجاب: نقول بكل بساطة: أطَّلعت الغيب أم اتخذت عند الله عهدًا؟

إن قال: نعم، كفر لأنه ادعى علم الغيب وإن قال: لا، خُصم وغلب، إذا كنت لم تطلع أن الله لم يكتب لك الهداية فاهتد، فالله ما منعك الهداية بل دعاك إلى الهداية، ورغبك فيها، وحذرك من الضلالة، ونهاك عنها ولم يشأ الله عَزَّ وَجَلَّ أن يدع عباده على ضلالة أبدًا قال تعالى: {يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا} . {يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ} . فتب إلى الله، والله عَزَّ وَجَلَّ أشد فرحًا بتوبتك من رجل أضل راحلته وعليها طعامه وشرابه، وأيس منها، ونام تحت شجرة ينتظر الموت، فاستيقظ فإذا بخطام ناقته متعلق بالشجرة فأخذ بخطام الناقة فرحًا وقال: "اللهم أنت عبدي وأنا ربك". أخطأ من شدة الفرح فنقول: تب إلى الله، والله أمرك بالاهتداء وبين لك طريق الحق. والله ولي التوفيق.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١٠٨): كيف يقضي الله كونًا مالا يحب؟.

فأجاب: المحبوب قسمان:

الأول: محبوب لذاته.

الثاني: محبوب لغيره.

فالمحبوب لغيره قد يكون مكروهًا لذاته، ولكن يحب لما فيه من الحكمة

والمصلحة، فيكون حينئذ محبوبًا من وجه، مكروهًا من وجه آخر، مثال ذلك قوله -تعالى-: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} . فالفساد في الأرض في حد ذاته مكروه إلى الله -تعالى-؛ لأن الله تعالى لا يحب الفساد ولا المفسدين، ولكن للحكم التي يتضمنها يكون محبوبًا إلى الله ﷻ من وجه آخر، وكذلك العلو في الأرض،ومن ذلك القحط، والجدب، والمرض،والفقر يقدره الله تعالى على عباده مع أنه ليس محبوبًا إليه في حد ذاته؛ لأن الله لا يحب أن يؤذي عباده بشيء من ذلك،بل يريد بعباده اليسر، لكن يقدره للحكم المترتبة عليه، فيكون محبوبًا إلى الله من وجه، مكروهًا من وجه آخر قال الله -تعالى-: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} . فإن قيل: كيف يتصور أن يكون الشيء محبوبًا من وجه ومكروهًا من وجه آخر؟

أجيب: بأن هذا أمر واقع لا ينكره العقل، ولا يرفضه الحس فها هو الإنسان المريض يعطى جرعة من الدواء مرة كريهة الرائحة، واللون، فيشربها وهو يكرهها لما فيها من المرارة، وكراهة اللون، والرائحة، ويحبها لما يحصل فيها من الشفاء، وكذا الطبيب يكوي المريض بالحديدة المحماة على النار، ويتألم منها فهذا الألم مكروه له من وجه، محبوب له من وجه آخر.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ١١٣): عن قول النبي، ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة ولا هامة، ولا صفر» " متفق عليه، وما نوع النفي في الحديث؟ وكيف نجمع بينه وبين حديث: «فر من المجذوم فرارك من الأسد» ؟.

فأجاب: "العدوى" انتقال المرض من المريض إلى الصحيح، وكما يكون في الأمراض الحسية يكون في الأمراض المعنوية الخلقية، ولهذا أخبر النبي،

عليه الصلاة والسلام، أن جليس السوء كنافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة فقوله، ﷺ: "عدوى" يشمل العدوى الحسية والمعنوية.

و"الطيرة" هي التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو معلوم.

و"الهامة" فسرت بتفسيرين:

الأول: داء يصيب المريض وينتقل إلى غيره، وعلى هذا التفسير يكون عطفها على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثاني: طير معروف تزعم العرب أنه إذا قتل القتيل، فإن هذه الهامة تأتي إلى أهله وتنعق على رؤوسهم حتى يأخذوا بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه تكون بصورة الهامة، وهي نوع من الطيور تشبه البومة أو هي البومة، تؤذي أهل القتيل بالصراخ حتى يأخذوا بثأره، وهم يتشاءمون بها فإذا وقعت على بيت أحدهم ونعقت قالوا: إنها تنعق به ليموت، ويعتقدون قرب أجله وهذا باطل.

و"صفر" فسر بتفاسير: الأول: أنه شهر صفر المعروف، والعرب يتشاءمون به.

الثاني: أنه داء في البطن يصيب البعير، وينتقل من بعير إلى آخر، فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثالث: صفر شهر صفر، والمراد به النسيء الذي يضل به الذين كفروا، فيؤخرون تحريم شهر المحرم إلى صفر يحلونه عامًا، ويحرمونه عامًا.

وأرجحها أن المراد شهر صفر حيث كانوا يتشاءمون به في الجاهلية والأزمنة لا دخل لها في التأثير وفي تقدير الله عز وجل فهو كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر.

وبعض الناس إذا انتهى من عمل معين في اليوم الخامس والعشرين مثلًا من شهر صفر أرخ ذلك وقال: انتهى في الخامس والعشرين من شهر صفر الخير.

فهذا من باب مداواة البدعة بالبدعة، والجهل بالجهل. فهو ليس شهر خير، ولا شر.

ولهذا أنكر بعض السلف على من إذا سمع البومة تنعق قال: "خيرًا إن شاء الله" فلا يقال خير ولا شر بل هي تنعق كبقية الطيور.

فهذه الأربعة التي نفاها الرسول، ﷺ تدل على وجوب التوكل على الله، وصدق العزيمة، وألا يضعف المسلم أمام هذه الأمور.

وإذا ألقى المسلم باله لهذه الأمور فلا يخلو من حالين:

الأولى: إما أن يستجيب لها بأن يقدم أو يحجم، فيكون حينئذ قد علق أفعاله بما لا حقيقة له.

الثانية: أن لا يستجيب لها بأن يقدم ولا يبالي، لكن يبقى في نفسه نوع من الهم أو الغم، وهذا وإن كان أهون من الأول لكن يجب أن لا يستجيب لداعي هذه الأمور مطلقًا، وأن يكون معتمدًا على الله ﷻ. وبعض الناس قد يفتح المصحف لطلب التفاؤل فإذا نظر ذكر النار قال: هذا فأل غير جميل، وإذا نظر ذكر الجنة قال: هذا فأل طيب، وهذا في الحقيقة مثل عمل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام.

والنفي في هذه الأمور الأربعة ليس نفيًا للوجود، لأنها موجودة ولكنه نفي للتأثير، فالمؤثر هو الله، فما كان منها سببًا معلومًا فهو سبب صحيح وما كان منها سببًا موهومًا فهو سبب باطل، ويكون نفيًا لتأثيره بنفسه ولسببيته، فالعدوى موجودة، ويدل لوجودها قوله، ﷺ :

«لا يورد ممرض على مصح» أي لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة، لئلا تنتقل العدوى.

وقوله، ﷺ: «فر من المجذوم فرارك من الأسد» .

"الجذام": مرض خبيث معد بسرعة ويتلف صاحبه، حتى قيل: إنه الطاعون، فالأمر بالفرار لكي لا تقع العدوى، وفيه إثبات العدوى لتأثيرها، لكن تأثيرها ليس أمرًا حتميًا بحيث تكون علة فاعلة، ولكن أمر النبي، ﷺ، بالفرار من المجذوم، وأن لا يورد ممرض على مصح، من باب تجنب الأسباب، لا من باب تأثير الأسباب بنفسها قال الله تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} .

ولا يقال: إن الرسول، ﷺ، ينكر تأثير العدوى؛ لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى.

فإن قيل: «إن الرسول ﷺ، لما قال: "لا عدوى" قال رجل: يا رسول الله أرأيت الإبل تكون في الرمال مثل الظباء فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟! فقال النبي ﷺ: فمن " أعدي الأول» ؟

فالجواب: أن النبي، ﷺ، أشار بقوله: «فمن أعدى الأول» إلى أن المرض انتقل من المريضة إلى هذه الصحيحات بتدبير الله ﷻ فالمرض نزل على الأول بدون عدوى بل نزل من عند الله -ﷻ- والشيء قد يكون له سبب معلوم، وقد لا يكون له سبب معلوم، وجرب الأول ليس معلومًا إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجرب الذي بعده له سبب معلوم ولو شاء الله تعالى ما جرب، ولهذا أحيانًا تصاب الإبل بالجرب ثم يرتفع ولا تموت، وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية قد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون، ويسلم آخرون ولا يصابون، فالإنسان يعتمد على الله ويتوكل عليه وقد «جاء أن النبي ﷺ، قدم عليه رجل

مجذوم فأخذه بيده وقال له: "كل» أي من الطعام الذي كان يأكل منه الرسول، ﷺ، لقوة توكله، ﷺ فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدي.

وهذا الجمع الذي ذكرنا أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث وادعى بعضهم النسخ، وهذه الدعوى غير صحيحة؛ لأن من شرط النسخ تعذر الجمع، وإذا أمكن الجمع وجب لأن فيه إعمال الدليلين، وفي النسخ إبطال أحدهما؛ وإعمالهما أولى من إبطال أحدهما لأننا اعتبرناهما وجعلناهما حجة. والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٣٢): كيف نجيب عباد القبور الذين يحتجون بدفن النبي ﷺ في المسجد النبوي؟.

فأجاب: الجواب عن ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن المسجد لم يبن على القبر بل بني في حياة النبي ﷺ.

الوجه الثاني: أن النبي ﷺ لم يدفن في المسجد حتى يقال: إن هذا من دفن الصالحين في المسجد؛ بل دفن ﷺ في بيته.

الوجه الثالث: أن إدخال بيوت الرسول ﷺ، ومنها بيت عائشة مع المسجد ليس باتفاق الصحابة، بل بعد أن انقرض أكثرهم، وذلك في عام أربعة وتسعين هجرية تقريبًا، فليس مما أجازه الصحابة؛ بل إن بعضهم خالف في ذلك، وممن خالف أيضًا سعيد بن المسيب.

الوجه الرابع: أن القبر ليس في المسجد حتى بعد إدخاله؛ لأنه في حجرة مستقلة عن المسجد فليس المسجد مبنيًّا عليه، ولهذا جعل هذا المكان محفوظًا ومحوطًا بثلاثة جدران، وجعل الجدار في زاوية منحرفة عن القبلة أي أنه مثلث، والركن في الزاوية الشمالية حيث لا يستقبله الإنسان إذا صلى؛ لأنه

منحرف، وبهذا يبطل احتجاج أهل القبور بهذه الشبهة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٣٣): عن رجل بنى مسجدًا وأوصى أن يدفن فيه فدفن فما العمل الآن؟.

فأجاب: هذه الوصية أعني الوصية أن يدفن في المسجد غير صحيحة؛ لأن المساجد ليست مقابر، ولا يجوز الدفن في المسجد، وتنفيذ هذه الوصية محرم، والواجب الآن نبش هذا القبر وإخراجه إلى مقابر المسلمين.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٣٧): عن حكم السفر لزيارة قبر النبي ﷺ؟.

فأجاب: شد الرحال إلى زيارة القبور أيًا كانت هذه القبور لا يجوز؛ لأن النبي ﷺ يقول: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» والمقصود بهذا أنه لا تشد الرحال إلى أي مكان في الأرض لقصد العبادة بهذا الشد؛ لأن الأمكنة التي تخصص بشد الرحال هي المساجد الثلاثة فقط وما عداها من الأمكنة لا تشد إليها الرحال فقبر النبي ﷺ، لا تشد الرحال إليه، وإنما تشد الرحال إلى مسجده فإذا وصل المسجد فإن الرجال يسن لهم زيارة قبر النبي ﷺ، وأما النساء فلا يسن لهن زيارة قبر النبي ﷺ، والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٣٨): هناك مسجد في اليمن يقال: إنه مسجد معاذ بن جبل المشهور بمسجد الجند، ويأتي الناس لزيارته في الجمعة من شهر رجب من كل سنة رجالًا ونساء، فما حكم هذا العمل وما نصيحتكم لهؤلاء؟.

فأجاب: هذا غير مسنون لأمور:

أولًا: لأنه لم يثبت أن معاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن اختط مسجدًا له هناك، وإذا لم يثبت ذلك، فإن دعوى أن هذا المسجد له دعوى بغير بينة، وكل دعوى بغير بينة فإنها غير مقبولة.

ثانيًا: لو ثبت أن معاذ بن جبل اختط مسجدًا هناك فإنه لا يشرع إتيانه وشد الرحل إليه، بل شد الرحل إلى مساجد غير المساجد الثلاثة منهي عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» .

ثالثًا: أن تخصيص هذا العمل بشهر رجب بدعة أيضًا فإن شهر رجب لم يخص بشيء من العبادات لا بصوم ولا بصلاة وإنما حكمه حكم الأشهر الحرم الأخرى، والأشهر الحرم هي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم. هذه الأشهر التي قال الله تعالى عنها في كتابه: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} ولم يثبت أن شهر رجب خص من بينها في شيء لا بصيام ولا بقيام، فإذا خص الإنسان هذا الشهر بشيء من العبادات من غير أن يثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، كان مبتدعًا لقوله صلى الله عليه وسلم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» . فنصيحتي لإخوتي هؤلاء الذين يقومون بهذا العمل في الحضور إلى المسجد الذي يزعم أنه مسجد معاذ في اليمن أن لا يتعبوا أنفسهم ويتلفوا أموالهم ويضيعوها في هذا الأمر الذي لا يزيدهم من الله إلا بعدًا، ونصيحتي لهم أن يصرفوا هممهم إلى ما ثبتت مشروعيته في كتاب الله وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، وهذا كافٍ للمؤمن، والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٣٩): عن رجل توفي وبعد مدة رآه رجل في المنام وطلب منه أن يخرجه من القبر ويبني له مقامًا ففعل فما حكم هذا العمل؟.

فأجاب: الحكم في هذا أنه فعل محرم، وأن المرائي التي ترى في المنام إذا كانت مخالفة للشرع فإنها باطلة، وهي من ضرب الأمثلة التي يضربها الشيطان ومن وحي الشيطان، فلا يجوز تنفيذها أبدًا؛ لأن الأحكام الشرعية لا تتغير بالمنامات، والواجب عليهم الآن أن يهدموا هذا المقام الذي بنوه له، وأن يردوه إلى مقابر المسلمين.

ونصيحتي لهؤلاء وأمثالهم أن يعرضوا كل ما رأوه في المنام على الكتاب والسنة، فما خالف الكتاب والسنة، فمطروح مردود ولا عبرة به، ولا يجوز للإنسان أن يعتمد في أمور دينه على هذه المرائي الكاذبة؛ لأن الشيطان أقسم بعزة الله عَزَّ وَجَلَّ أن يغوي بني آدم إلا عباد الله المخلصين، فمن كان مخلِّصًا لله ومخلَّصًا له، متبعًا لدينه، مبتغيًا لدينه، فإنه يسلم من إغواء الشيطان وشره، وأما من كان على خلاف ذلك فإن الشيطان يتلاعب به في عبادته، وفي اعتقاداته، وفي أفكاره، وفي أعماله، فليحذره، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} .

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٢/ ٢٤١): هل يشرع للإنسان أن يقول: "اللهم اجعلني لقبر نبيك محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الزائرين" أو يقول: "لمسجد نبيك محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الزائرين؟".

فأجاب: المشروع أن يقول لمسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الزائرين؛ لأن مسجده هو الذي تشد إليه الرحال وليس قبره، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة

مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» .

وهاهنا نقطة أحب أن أنبه عليها وهي: أن كثيرًا من الناس يتشوقون إلى زيارة قبر النبي ﷺ أكثر مما يتشوقون إلى زيارة مسجده، بل أكثر مما يتشوقون إلى زيارة الكعبة -بيت الله عز وجل- وهذا من الضلال البين، فإن حق النبي عليه الصلاة والسلام، لا يشك أحد أنه دون حق الله تعالى، فالرسول عليه الصلاة والسلام، بشر مرسل من عند الله، ولولا أن الله اجتباه برسالته لم يكن له من الحق هذا الحق الذي يفوق حق كل بشر، أما أن يكون مساويًا لحق الله عز وجل أو يكون في قلب الإنسان محبة لرسول الله ﷺ تزيد على محبة الله، فإن هذا خطأ عظيم، فمحبة الرسول ﷺ تابعة لمحبة الله، وتعظيمنا له ﷺ، تابع لتعظيم الله عز وجل، وهو دون تعظيم الله تعالى، ولهذا نهى النبي ﷺ، أن نغلو فيه وأن نجعل له حقًّا مساويًا لحق الله عز وجل، فقد «قال له رجل مرة: ما شاء الله وشئت. فقال النبي ﷺ: "أجعلتني لله ندًّا بل ما شاء الله وحده".»

والخلاصة: أنه يجب على الإنسان أن يكون تعظيم الله تعالى ومحبته في قلبه أعظم من محبة وتعظيم كل أحد، وأن تكون محبة النبي ﷺ، وتعظيمه في قلبه أعظم من محبة وتعظيم كل مخلوق، وأما أن يساوي بين حق الرسول ﷺ، وحق الله تعالى فيما يختص الله به فهذا خطأ عظيم.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٣/ ٦٧): عن صحة هذه العبارة "اجعل بينك وبين الله صلة، واجعل بينك وبين الرسول ﷺ صلة "؟.

فأجاب: فأجاب قائلا: الذي يقول: اجعل بينك وبين الله صلة، أي بالتعبد له، واجعل بينك وبين الرسول ﷺ صلة، أي باتباعه، فهذا حق.

أما إذا أراد بقوله: اجعل بينك وبين الرسول ﷺ صلة، أي اجعله، هو

ملجأك عند الشدائد، ومستغاثك عند الكربات، فإن هذا محرم؛ بل هو شرك أكبر، مخرج عن الملة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٦٨): عن هذا القول: "أحبائي في رسول الله "؟.

فأجاب: هذا القول وإن كان صاحبه فيما يظهر يريد معنى صحيحا، يعني: أجتمع أنا وإياكم في محبة رسول الله ﷺ ولكن هذا التعبير خلاف ما جاءت به السنة، فإن الحديث: «من أحب في الله، وأبغض في الله»، فالذي ينبغي أن يقول: أحبائي في الله عَزَّ وَجَلَّ ولأن هذا القول الذي يقوله فيه عدول عما كان يقوله السلف، ولأنه ربما يوجب الغلو في رسول الله ﷺ والغفلة عن الله، والمعروف عن علمائنا، وعن أهل الخير، هو أن يقول: أحبك في الله.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٧٠): عمن يسأل بوجه الله فيقول: أسألك بوجه الله كذا وكذا، فما الحكم في هذا القول؟.

فأجاب: وجه الله أعظم من أن يسأل به الإنسان شيئا من الدنيا، ويجعل سؤاله بوجه الله عَزَّ وَجَلَّ كالوسيلة التي يتوسل بها إلى حصول مقصوده من هذا الرجل الذي توسل إليه بذلك، فلا يقدمن أحد على مثل هذا السؤال، أي لا يقل: وجه الله عليك، أو أسألك بوجه الله، أو ما أشبه ذلك.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٧١): ما رأيكم فيمن يقول: "آمنت بالله، وتوكلت على الله، واعتصمت بالله، واستجرت برسول الله ﷺ "؟.

فأجاب: أما قول القائل: "آمنت بالله، وتوكلت على الله، واعتصمت بالله" فهذا ليس فيه بأس، وهذه حال كل مؤمن أن يكون متوكلا على الله، مؤمنا به، معتصما به.

وأما قوله: "واستجرت برسول الله ﷺ"؛ فإنها كلمة منكرة، والاستجارة بالنبي ﷺ بعد موته لا تجوز، أما الاستجارة به في حياته في أمر يقدر عليه فهي جائزة، قال الله تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ} ؛ فالاستجارة بالرسول ﷺ بعد موته شرك أكبر، وعلى من سمع أحدا يقول مثل هذا الكلام أن ينصحه؛ لأنه قد يكون سمعه من بعض الناس، وهو لا يدري ما معناها وأنت "يا أخي" إذا أخبرته وبينت له أن هذا شرك، فلعل الله أن ينفعه على يدك، والله الموفق.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٧٢): عن قول أحد الخطباء في كلامه حول غزوة بدر: "التقى إله وشيطان"، فقد قال بعض العلماء: إن هذه العبارة كفر صريح؛ لأن ظاهر العبارة إثبات الحركة لله عَزَّ وَجَلَّ نرجو من فضيلتكم توضيح ذلك؟.

فأجاب: لا شك أن هذه العبارة لا تنبغي، وإن كان قائلها قد أراد التجوز، فإن التجوز إنما يسوغ إذا لم يوهم معنى فاسدا لا يليق به. والمعنى الذي لا يليق هنا أن يجعل الشيطان قبيلا لله تعالى، وندا له، وقرنا يواجهه، كما يواجه المرء قرنه، وهذا حرام، ولا يجوز.

ولو أراد الناطق به تنقص الله تعالى وتنزيله إلى هذا الحد لكان كافرا، ولكنه حيث لم يرد ذلك نقول له: هذا التعبير حرام، ثم إن تعبيره به ظانا أنه جائز بالتأويل الذي قصده، فإنه لا يأثم بذلك لجهله، ولكن عليه ألا يعود لمثل ذلك.

وأما قوله بعض العلماء الذي نقلت: "إن هذه العبارة كفر صريح" فليس بجيد على إطلاقه، وقد علمت التفصيل فيه.

وأما تعليل القائل لحكمه بكفر هذا الخطيب أن ظاهر عبارته إثبات الحركة

لله ﷻ فهذا التعليل يقتضي امتناع الحركة لله، وأن إثباتها كفر، وفيه نظر ظاهر، فقد أثبت الله تعالى لنفسه في كتابه أنه يفعل، وأنه يجيء يوم القيامة، وأنه استوى على العرش، أي علا عليه علوا يليق بجلاله، وأثبت نبيه ﷺ أنه ينزل إلى السماء الدنيا في كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ واتفق أهل السنة على القول بمقتضى ما دل عليه الكتاب والسنة من ذلك غير خائضين فيه، ولا محرفين للكلم عن مواضعه، ولا معطلين له عن دلائله، وهذه النصوص في إثبات الفعل، والمجيء، والاستواء، والنزول إلى السماء الدنيا إن كانت تستلزم الحركة لله، فالحركة له حق ثابت بمقتضى هذه النصوص ولازمها، وإن كنا لا نعقل كيفية هذه الحركة، ولهذا أجاب الإمام مالك من سأله عن قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} . كيف استوى؟ فقال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

وإن كانت هذه النصوص لا تستلزم الحركة لله تعالى لم يكن لنا إثبات الحركة له بهذه النصوص، وليس لنا أيضا أن ننفيها عنه بمقتضى استبعاد عقولنا لها، أو توهمنا أنها تستلزم إثبات النقص، وذلك أن صفات الله تعالى توقيفية، يتوقف إثباتها ونفيها على ما جاء به الكتاب والسنة؛ لامتناع القياس في حقه تعالى، فإنه لا مثل له ولا ند، وليس في الكتاب والسنة إثبات لفظ الحركة أو نفيه، فالقول بإثبات لفظه أو نفيه قول على الله بلا علم، وقد قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} . وقال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ

عَنْهُ مَسْئُولًا} ، فإذا كان مقتضى النصوص السكوت عن إثبات الحركة لله تعالى أو نفيها عنه، فكيف نكفر من تكلم بكلام يثبت ظاهره -حسب زعم هذا العالم- التحرك لله تعالى؟ ! وتكفير المسلم ليس بالأمر الهين، فإن من دعا رجلا بالكفر فقد باء بها أحدهما، فإن كان المدعو كافرا باء بها، وإلا باء بها الداعي.

وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في كثير من رسائله في الصفات على مسألة الحركة، وبين أقوال الناس فيها، وما هو الحق من ذلك، وأن من الناس من جزم بإثباتها، ومنهم من توقف، ومنهم من جزم بنفيها.

والصواب في ذلك: أن ما دل عليه الكتاب والسنة من أفعال الله تعالى، ولوازمها فهو حق ثابت يجب الإيمان به، وليس فيه نقص ولا مشابهة للخلق، فعليك بهذا الأصل فإنه يفيدك، وأعرض عما كان عليه أهل الكلام من الأقيسة الفاسدة التي يحاولون صرف نصوص الكتاب والسنة إليها ليحرفوا بها الكلم عن مواضعه، سواء عن نية صالحة أو سيئة.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٧٥): عن هذه الكلمة " الله غير مادي "؟.

فأجاب: القول بأن الله غير مادي قول منكر؛ لأن الخوض في مثل هذا بدعة منكرة، فالله تعالى ليس كمثله شيء، وهو الأول الخالق لكل شيء، وهذا شبيه بسؤال المشركين للنبي عليه الصلاة والسلام، هل الله من ذهب، أو من فضة، أو من كذا وكذا؟ وكل هذا حرام لا يجوز السؤال عنه، وجوابه في كتاب الله: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} . فكف عن هذا، مالك، ولهذا السؤال.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٧٥): كثيرا ما نرى على الجدران كتابة لفظ الجلالة "الله" وبجانبها لفظة محمد ﷺ أو نجد ذلك على الرقاع، أو على الكتب، أو على بعض المصاحف، فهل موضعها هذا صحيح؟.

فأجاب: موضعها ليس بصحيح؛ لأن هذا يجعل النبي ﷺ ندا لله مساويا له، ولو أن أحدا رأى هذه الكتابة، وهو لا يدري من المسمى بهما، لأيقن يقينا أنهما متساويان متماثلان، فيجب إزالة اسم رسول الله ﷺ ويبقى النظر في كتابة: "الله" وحدها، فإنها كلمة يقولها الصوفية، ويجعلونها بدلا عن الذكر، يقولون: "الله الله الله"، وعلى هذا فتلغى أيضا، فلا يكتب "الله"، ولا " محمد " على الجدران، ولا في الرقاع ولا في غيره.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٧٨): هل يجوز للإنسان أن يقسم على الله؟.

فأجاب: الإقسام على الله أن يقول الإنسان: والله، لا يكون كذا وكذا، أو والله لا يفعل الله كذا وكذا، والإقسام على الله نوعان:

أحدهما: أن يكون الحامل عليه قوة ثقة المقسم بالله عَزَّ وَجَلَّ وقوة إيمانه به مع اعترافه بضعفه وعدم إلزامه الله بشيء، فهذا جائز، ودليله قوله ﷺ: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»، ودليل آخر واقعي، وهو حديث أنس بن النضر «حينما كسرت أخته الربيع سنا لجارية من الأنصار، فطالب أهلها بالقصاص فطلبوا إليهم العفو فأبوا، فعرضوا الأرش فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فأبوا إلا القصاص، فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: أتكسر ثنية الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها، فقال رسول الله ﷺ: "يا أنس، كتاب الله القصاص" فرضي القوم فعفوا فقال رسول الله ﷺ: "إن من

عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»، وهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يقسم اعتراضا على الحكم، وإباء لتنفيذه فجعل الله الرحمة في قلوب أولياء المرأة التي كسرت سنها، فعفوا عفوا مطلقا، عند ذلك قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» فهذا النوع من الإقسام لا بأس به.

النوع الثاني: من الإقسام على الله: ما كان الحامل عليه الغرور والإعجاب بالنفس، وأنه يستحق على الله كذا وكذا، فهذا والعياذ بالله محرم، وقد يكون محبطا للعمل، ودليل ذلك أن رجلا كان عابدا، وكان يمر بشخص عاص لله، وكلما مر به نهاه فلم ينته، فقال ذات يوم: والله لا يغفر الله لفلان -نسأل الله العافية- فهذا تحجر رحمة الله؛ لأنه مغرور بنفسه فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: «من ذا الذي يتألى علي، ألا أغفر لفلان قد غفرت له، وأحبطت عملك" قال أبو هريرة: "تكلم بكلمة، أوبقت دنياه وآخرته» .

ومن هذا نأخذ أن من أضر ما يكون على الإنسان اللسان كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله"، قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلسانه فقال: كف عليك هذا، فقال: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: "ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم -أو قال- على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» . والله الموفق، والهادي إلى سواء الصراط.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ٨١): عن قول الإنسان: "أنا حر"؟.

فأجاب: إذا قال ذلك رجل حر، وأراد أنه حر من رق الخلق، فنعم هو حر من رق الخلق، وأما إن أراد أنه حر من رق العبودية لله عَزَّ وَجَلَّ فقد أساء في فهم

العبودية، ولم يعرف معنى الحرية؛ لأن العبودية لغير الله هي الرق، أما عبودية المرء لربه ﷯ فهي الحرية، فإنه إن لم يذل لله ذل لغير الله، فيكون هنا خادعا نفسه إذا قال: إنه حر يعني إنه متجرد من طاعة الله، ولن يقوم بها.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٣/ ٨٩): هل هذه العبارة صحيحة "بفضل فلان تغير هذا الأمر، أو بجهدي صار كذا"؟.

فأجاب: هذه العبارة صحيحة، إذا كان للمذكور أثر في حصوله، فإن الإنسان له فضل على أخيه إذا أحسن إليه، فإذا كان للإنسان في هذا الأمر أثر حقيقي، فلا بأس أن يقال: هذا بفضل فلان، أو بجهود فلان، أو ما أشبه ذلك؛ لأن إضافة الشيء إلى سببه المعلوم جائزة شرعا وحسا، ففي صحيح مسلم «أن رسول الله ﷺ قال في عمه أبي طالب: "لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» . وكان أبو طالب يعذب في نار جهنم في ضحضاح من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه، وهو أهون أهل النار عذابا -والعياذ بالله- فقال النبي ﷺ: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» .

أما إذا أضاف الشيء إلى سبب وليس بصحيح، فإن هذا لا يجوز، وقد يكون شركا، كما لو أضاف حدوث أمر لا يحدثه إلا الله إلى أحد من المخلوقين، أو أضاف شيئا إلى أحد من الأموات أنه هو الذي جلبه له، فإن هذا من الشرك في الربوبية.

وسئل رحمه الله كما في المصدر السابق (٣/ ٩٣): عن حكم قولهم: تدخل القدر؟ وتدخلت عناية الله؟.

فأجاب: قولهم: "تدخل القدر" لا يصلح؛ لأنها تعني أن القدر اعتدى بالتدخل، وأنه كالمتطفل على الأمر، مع أنه -أي القدر- هو الأصل، فكيف

يقال: تدخل؟ والأصح أن يقال: ولكن نزل القضاء والقدر أو غلب القدر ونحو ذلك، ومثل ذلك "تدخلت عناية الله" الأولى إبدالها بكلمة حصلت عناية الله، أو اقتضت عناية الله.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١١٣): عن قول: "شاءت الظروف أن يحصل كذا وكذا "، " وشاءت الأقدار كذا وكذا "؟ .

فأجاب: قول: "شاءت الأقدار "، و" شاءت الظروف " ألفاظ منكرة؛ لأن الظروف جمع ظرف وهو الزمن، والزمن لا مشيئة له، وكذلك الأقدار جمع قدر، والقدر لا مشيئة له، وإنما الذي يشاء هو الله عَزَّ وَجَلَّ نعم لو قال الإنسان: "اقتضى قدر الله كذا وكذا". فلا بأس به. أما المشيئة فلا يجوز أن تضاف للأقدار لأن المشيئة هي الإرادة، ولا إرادة للوصف، إنما الإرادة للموصوف.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١١٤): عن حكم قول: "وشاءت قدرة الله " و" شاء القدر "؟.

فأجاب: لا يصح أن نقول: "شاءت قدرة الله " لأن المشيئة إرادة، والقدرة معنى، والمعنى لا إرادة له، وإنما الإرادة للمريد، والمشيئة لمن يشاء، ولكننا نقول: اقتضت حكمة الله كذا وكذا، أو نقول عن الشيء إذا وقع: هذه قدرة الله أي مقدوره كما تقول: هذا خلق الله أي مخلوقه. وأما أن نضيف أمرًا يقتضي الفعل الاختياري إلى القدرة فإن هذا لا يجوز.

ومثل ذلك قولهم: "شاء القدر كذا وكذا " وهذا لا يجوز لأن القدر والقدرة أمران معنويان ولا مشيئة لهما، وإنما المشيئة لمن هو قادر ولمن هو مقدّر. والله أعلم.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١١٧): ما رأي فضيلتكم في

استعمال كلمة " صدفة "؟ .

فأجاب: رأينا في هذا القول أنه لا بأس به وهذا أمر متعارف وأظن أن فيه أحاديث بهذا التعبير صادفْنا رسول الله صادفَنا رسول الله " لكن لا يحضرني الآن حديث معين في هذا الخصوص".

والمصادفة والصدفة بالنسبة لفعل الإنسان أمر واقع؛ لأن الإنسان لا يعلم الغيب فقد يصادفه الشيء من غير شعور به ومن غير مقدمات له ولا توقع له، ولكن بالنسبة لفعل الله لا يقع هذا، فإن كل شيء عند الله معلوم وكل شيء عنده بمقدار وهو - سبحانه وتعالى - لا تقع الأشياء بالنسبة إليه صدفة أبدًا، لكن بالنسبة لي أنا وأنت نتقابل بدون ميعاد وبدون شعور وبدون مقدمات فهذا يقال له: صدفة، ولا حرج فيه، وأما بالنسبة لفعل الله فهذا أمر ممتنع ولا يجوز.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١١٩): عن هذه العبارة: "العصمة لله وحده "، مع أن العصمة لا بد فيها من عاصم؟ .

فأجاب: هذه العبارة قد يقولها من يقولها يريد بذلك أن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ وحكمه كله صواب، وليس فيه خطأ وهي بهذا المعنى صحيحة، لكن لفظها مستنكر ومستكره؛ لأنه كما قال السائل قد يوحي بأن هناك عاصمًا عصم الله عَزَّ وَجَلَّ والله سبحانه وتعالى هو الخالق، وما سواه مخلوق، فالأولى أن لا يعبر الإنسان بمثل هذا التعبير، بل يقول: الصواب في كلام الله، وكلام رسوله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٢٠): عن مصطلح " فكر إسلامي " و" مفكر إسلامي "؟.

فأجاب: كلمة " فكر إسلامي " من الألفاظ التي يحذر عنها، إذ مقتضاها أننا جعلنا الإسلام عبارة عن أفكار قابلة للأخذ والرد، وهذا خطر عظيم أدخله علينا

أعداء الإسلام من حيث لا نشعر.

أما " مفكر إسلامي " فلا أعلم فيه بأسًا لأنه وصف للرجل المسلم والرجل المسلم يكون مفكرًا.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٣٠): عن قولهم: "المادة لا تفنى ولا تزول ولم تخلق من عدم".

فأجاب: القول بأن المادة لا تفنى وأنها لم تخلق من عدم كفر لا يمكن أن يقوله مؤمن، فكل شيء في السماوات والأرض سوى الله فهو مخلوق من عدم كما قال الله تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} وليس هناك شيء أزلي أبدي سوى الله.

وأما كونها لا تفنى فإن عنى بذلك أن كل شيء لا يفنى لذاته فهذا أيضًا خطأ وليس بصواب؛ لأن كل شيء موجود فهو قابل للفناء، وإن أراد به أن من مخلوقات الله ما لا يفنى بإرادة الله فهذا حق، فالجنة لا تفنى وما فيها من نعيم لا يفنى، وأهل الجنة لا يفنون، وأهل النار لا يفنون. لكن هذه الكلمة المطلقة " المادة ليس لها أصل في الوجود وليس لها أصل في البقاء " هذه على إطلاقها كلمة إلحادية فتقول: المادة مخلوقة من عدم، فكل شيء سوى الله فالأصل فيه العدم.

أما مسألة الفناء فقد تقدم التفصيل فيها

والله الموفق

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٣٢): عن إطلاق المسيحية على النصرانية، والمسيحي على النصراني.

فأجاب: لا شك أن انتساب النصارى إلى المسيح بعد بعثة النبي، ﷺ،

انتساب غير صحيح لأنه لو كان صحيحًا لآمنوا بمحمد، ﷺ، فإن إيمانهم بمحمد، ﷺ، إيمان بالمسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله تعالى قال: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} ولم يبشرهم المسيح عيسى ابن مريم بمحمد، ﷺ، إلا من أجل أن يقبلوا ما جاء به لأن البشارة بما لا ينفع لغو من القول لا يمكن أن تأتي من أدنى الناس عقلًا، فضلًا عن أن تكون صدرت من عند أحد الرسل الكرام أولي العزم عيسى ابن مريم، عليه الصلاة والسلام، وهذا الذي بشر به عيسى ابن مريم بني إسرائيل هو محمد، ﷺ، وقوله: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} . وهذا يدل على أن الرسول الذي بشر به قد جاء ولكنهم كفروا به وقالوا: هذا سحر مبين، فإذا كفروا بمحمد، ﷺ، فإن هذا كفر بعيسى ابن مريم الذي بشرهم بمحمد، ﷺ، وحينئذ لا يصح أن ينتسبوا إليه فيقولوا: إنهم مسيحيون، إذ لو كانوا حقيقة لآمنوا بما بشر به المسيح ابن مريم لأن عيسى ابن مريم وغيره من الرسل قد أخذ الله عليهم العهد والميثاق أن يؤمنوا بمحمد، ﷺ، كما قال الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ} . قال: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين} والذي جاء مصدقا لما معهم هو محمد، ﷺ، لقوله ـ تعالى ـ: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم} .

وخلاصة القول أن نسبة النصارى إلى المسيح عيسى ابن مريم نسبة يكذبها

الواقع، لأنهم كفروا ببشارة المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام وهو محمد، ﷺ، وكفرهم به كفر بعيسى ابن مريم، عليه الصلاة والسلام.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٣٩): ما رأيكم في هذه العبارة " لا سمح الله".

فأجاب: أكره أن يقول القائل: "لا سمح الله " لأن قوله: "لا سمح الله " ربما توهم أن أحدًا يجبر الله على شيء فيقول: "لا سمح الله " والله عَزَّ وَجَلَّ كما قال الرسول، ﷺ، " لا مكره له". قال الرسول، ﷺ: «لا يقول أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ولكن ليعزم المسألة، وليعظم الرغبة فإن الله لا مكره له، ولا يتعاظمه شيء أعطاه» والأولى أن يقول: "لا قدر الله " بدلًا من قوله: "لا سمح الله " لأنه أبعد عن توهم ما لا يجوز في حق الله تعالى.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٤٠): ما حكم قول: "لا قدر الله"؟.

فأجاب: "لا قدر الله " معناه الدعاء بأن الله لا يقدر ذلك، والدعاء بأن الله لا يقدر هذا جائز، وقول: "لا قدر الله " ليس معناه نفي أن يقدر الله ذلك، إذ إن الحكم لله يقدر ما يشاء، لكنه نفي بمعنى الطلب فهو خبر بمعنى الطلب بلا شك، فكأنه حين يقول: "لا قدر الله " أي أسأل الله أن لا يقدره، واستعمال النفي بمعنى الطلب شائع كثير في اللغة العربية وعلى هذا فلا بأس بهذه العبارة.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق (٣/ ١٤٠): ما رأيكم في قول بعض الناس: "يا هادي، يا دليل "؟.

فأجاب: "يا هادي، يا دليل " لا أعلمها من أسماء الله، فإن قصد به الإنسان الصفة فلا بأس كما يقول: اللهم يا مجري السحاب، يا منزل الكتاب وما أشبه

ذلك، فإن الله يهدي من يشاء و" الدليل " هنا بمعنى الهادي.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ كما في المصدر السابق (٥/ ٣١٩): بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، ونصلي ونسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فقد تواترت الأخبار بإنزال مركبة فضائية على سطح القمر بعد المحاولات العديدة التي استنفدت فيها الطاقات الفكرية والمادية والصناعية عدة سنوات وقد أثار هذا النبأ تساؤلات وأخذا وردا بين الناس.

فمن قائل: إن هذا باطل مخالف للقرآن، ومن قائل: إن هذا ثابت والقرآن يؤيده، فالذين ظنوا أنه مخالف للقرآن قالوا: إن الله أخبر أن القمر في السماء فقال: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا} . وقال: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا} . وإذا كان القمر في السماء فإنه لا يمكن الوصول إليه، لأن الله جعل السماء سقفا محفوظا، والنبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرف الخلق ومعه جبريل أشرف الملائكة وكان يستإذا ويستفتح عند كل سماء ليلة المعراج ولا يحصل لهما دخول السماء إلا بعد أن يفتح لهما فكيف يمكن لمصنوعات البشر أن تنزل على سطح القمر وهو في السماء المحفوظة.

والذين ظنوا أن القرآن يؤيده قالوا: إن الله قال في سورة الرحمن: {يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} . والسلطان العلم وهؤلاء استطاعوا أن ينفذوا من أقطار الأرض بالعلم فكان عملهم هذا مطابقا للقرآن وتفسيرا له.

وإذا صح ما تواترت به الأخبار من إنزال مركبة فضائية على سطح القمر فإن الذي يظهر لي أن القرآن لا يكذبه ولا يصدقه فليس في صريح القرآن ما يخالفه،

كما أنه ليس في القرآن ما يدل عليه ويؤيده.

١ - أما كون القرآن لا يخالفه فلأن القرآن كلام الله تعالى المحيط بكل شيء علما فهو سبحانه يعلم ما كان وما يكون من الأمور الماضية والحاضرة، والمستقبلة، سواء منها ما كان من فعله، أو من خلقه فكل ما حدث أو يحدث في السماوات أو في الأرض من أمور صغيرة، أو كبيرة ظاهرة، أو خفية فإن الله تعالى عالم به ولم يحدث إلا بمشيئته وتدبيره لا جدال في ذلك.

فإذا كان كذلك فالقرآن كلامه وهو سبحانه أصدق القائلين ومن أصدق من الله قيلا، وكلامه أحسن الكلام وأبلغه في البيان، ومن أحسن من الله حديثا فلا يمكن أن يقع في كلامه الصادر عن علمه، والبالغ في الصدق والبيان غايته لا يمكن أن يقع في كلام هذا شأنه ما يخالف الواقع المحسوس أبدا، ولا أن يقع في المحسوس ما يخالف صريحه أبدا.

ومن فهم أن في القرآن ما يخالف الواقع، أو أن من المحسوس ما يقع مخالفا للقرآن ففهمه خطأ بلا ريب.

والآيات التي يظنها بعض الناس دالة على أن القمر في السماء نفسها ليس فيها التصريح بأنه مرصع في السماء نفسها التي هي السقف المحفوظ نعم ظاهر اللفظ أن القمر في السماء نفسها، ولكن إن ثبت وصول السفن الفضائية إليه ونزولها على سطحه فإن ذلك دليل على أن القمر ليس في السماء الدنيا التي هي السقف المحفوظ وإنما هو في فلك بين السماء والأرض كما قال -تعالى-: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} . وقال تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} . قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "يدورون كما يدور المغزل في الفلكة،

وذكر الثعلبي والماوردي عن الحسن البصري أنه قال: "الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض غير ملصقة به ولو كانت ملصقة به ما جرت" ذكره عنهما القرطبي في تفسير سورة يس.

والقول بأن الشمس والقمر في فلك بين السماء والأرض لا ينافي ما ذكر الله من كونهما في السماء، فإن السماء يطلق تارة على كل ما علا قال ابن قتيبة: "كل ما علاك فهو سماء" فيكون معنى كونهما في السماء أي في العلو أو على تقدير مضاف أي في جهة السماء.

وقد جاءت كلمة السماء في القرآن مرادا بها العلو كما في قوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا} . يعني المطر، والمطر ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض.

وإذا ثبت ما ذكروا عن سطحية القمر فإن ذلك يزيدنا معرفة في آيات الله العظيمة حيث كان هذا الجرم العظيم وما هو أكبر منه وأعظم يجري بين السماء والأرض إلى الأجل الذي عينه الله تعالى لا يتغير ولا يتقدم ولا يتأخر عن السير الذي قدره له العزيز العليم، ومع ذلك فتارة يضيء كله فيكون بدرا، وتارة يضيء بعضه فيكون قمرا أو هلالا ذلك تقدير العزيز العليم.

وأما ما اشتهر من كون القمر في السماء الدنيا، وعطارد في الثانية والزهرة في الثالثة، والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشتري في السادسة، وزحل في السابعة فإن هذا مما تلقي عن علماء الفلك والهيئة وليس فيه حديث صحيح عن النبي، ﷺ، ويدل على ذلك أن ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع سعة اطلاعه لما تكلم على أن الشمس في الفلك الرابع قال: "وليس في الشرع ما ينفيه بل في الحس وهو الكسوفات ما يدل عليه ويقتضيه"..اهـ. فقوله: "وليس في الشرع ما

ينفيه". واستدلاله على ثبوته بالحس دليل على أنه ليس في الشرع ما يثبته أي ما يثبت أن الشمس في الفلك الرابع والله أعلم.

٢- وأما كون القرآن لا يدل على وصول السفن الفضائية إلى القمر فلأن الذين ظنوا ذلك استدلوا بقوله تعالى: {يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} . وفسروا السلطان بالعلم.

وهذا الاستدلال مردود من وجوه

الأول: أن سياق الآية يدل على أن هذا التحدي يكون يوم القيامة ويظهر ذلك جليا لمن قرأ هذه السورة من أولها فإن الله ذكر فيها ابتداء خلق الإنسان والجان، وما سخر للعباد في آفاق السماوات والأرض، ثم ذكر فناء من عليها ثم قال: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ} . وهذا الحساب ثم تحدى الجن بأنه لا مفر لهم ولا مهرب من أقطار السماوات والأرض فيستطيعون الهروب ولا قدرة لهم على التناصر فينصروا وينجوا من المرهوب، ثم أعقب ذلك بذكر الجزاء لأهل الشر بما يستحقون، ولأهل الخير بما يؤملون ويرجون.

ولا شك أن السياق يبين المعنى ويعينه فرب كلمة أو جملة صالحة لمعنى في موضع ولا تصلح له في موضع آخر، وأنت ترى أحيانا كلمة واحدة لها معنيان متضادان يتعين المراد منهما بواسطة السياق كما هو معروف في كلمات الأضداد في اللغة.

فلو قدر أن الآية الكريمة تصلح أن تكون في سياق ما خبرا لما سيكون في الدنيا فإنها في هذا الموضع لا تصلح له بل تتعين أن تكون للتهديد والتعجيز يوم القيامة وذلك لما سبقها ولحقها من السياق.

الثاني: أن جميع المفسرين ذكروا أنها للتهديد والتعجيز وجمهورهم على أن ذلك يوم القيامة وقد تكلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي على هذه الآية في سورة الحجر عند قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} . ووصف من زعم أنها تشير إلى الوصول إلى السماء وصفه بأنه لا علم عنده بكتاب الله.

الثالث: أنه لو كان معناها الخبر عما سيحدث لكان معناها يا معشر الجن والإنس إنكم لن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض إلا بعلم وهذا تحصيل حاصل فإن كل شيء لا يمكن إدراكه إلا بعلم أسباب إدراكه والقدرة على ذلك، ثم إن هذا المعنى يسلب الآية روعتها في معناها وفي مكانها فإن الآية سبقها الإنذار البليغ بقوله تعالى: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ} . وتلاها الوعيد الشديد في قوله: {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ} .

الرابع: أن دلالة الآية على التحدي ظاهرة جدا.

أولا: لما سبقها ويتلوها من الآيات.

ثانيا: أن ذكر معشر الجن والإنس مجتمعين معشرا واحدا فهو قريب من مثل قوله تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} .

ثالثا: أن قوله: {إِنِ اسْتَطَعْتُمْ} ظاهر في التحدي خصوصا وقد أتى بـ "إن" دون "إذا" تدل على وقوع الشرط بخلاف "إن".

الخامس: إنه لو كان معناها الخبر لكانت تتضمن التنويه بهؤلاء والمدح لهم حيث عملوا وبحثوا فيما سخر الله لهم حتى وصلوا إلى النفوذ وفاتت النبي، ﷺ، وأصحابه الذين هم أسرع الناس امتثالا لما دعا إليه القرآن.

السادس: أن الآية الكريمة علقت الحكم بالجن والإنس ومن المعلوم أن الجن حين نزول القرآن كانوا يستطيعون النفوذ من أقطار الأرض إلى أقطار السماء كما حكى الله عنهم {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} . فكيف يعجزهم الله بشيء كانوا يستطيعونه، فإن قيل: إنهم كانوا لا يستطيعونه بعد بعثة النبي، ﷺ، قلنا: هذا أدل على أن المراد بالآية التعجيز لا الخبر.

السابع: أن الآية علقت الحكم بالنفوذ من أقطار السماوات والأرض ومن المعلوم أنهم ما استطاعوا ولن يستطيعوا أن ينفذوا من أقطار السماوات مهما كانت قوتهم.

الثامن: أن الآية الكريمة أعقبت بقوله تعالى: {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ} . ومعناها والله أعلم انكم يا معشر الجن والإنس لو حاولتما النفوذ من ذلك لكان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس والمعروفأإن هذه الصواريخ لم يرسل عليها شواظ من نار ولا نحاس فكيف تكون هي المقصود بالآية.

التاسع: أن تفسيرهم السلطان هنا بالعلم فيه نظر فإن السلطان ما فيه سلطة للواحد على ما يريد السيطرة عليه والغلبة ويختلف باختلاف المقام فإذا كان في مقام العمل ونحوه فالمراد به القوة والقدرة ومنه قوله تعالى عن إبليس: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} . فالسلطان في هذه الآية بمعنى القدرة ولا يصح أن يكون بمعنى العلم، ومنه السلطان المذكور في الآية التي نحن بصددها فإن النفوذ عمل يحتاج إلى قوة وقدرة والعلم وحده لا يكفي وهؤلاء لم

يتوصلوا إلى ما ذكر عنهم بمجرد العلم ولكن بالعلم والقدرة والأسباب التي سخرها الله لهم، وإذا كان السلطان في مقام المحاجة والمجادلة كان المراد به البرهان والحجة التي يخصم بها خصمه ومنه قوله تعالى: {إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا} أي من حجة وبرهان ولم يأت السلطان في القرآن مرادا به مجرد العلم والاشتقاق يدل على أن المراد بالسلطان ما به سلطة للعبد وقدرة وغلبة.

فتبين بهذا أن الآية الكريمة لا يراد بها الإشارة إلى ما ذكر من السفن الفضائية وإنزالها إلى القمر وهذه الوجوه التي ذكرناها منها ما هو ظاهر ومنها ما يحتاج إلى تأمل وإنما نبهنا على ذلك خوفا من تفسير كلام الله بما لا يراد به لأن ذلك يتضمن محذورين:

أحدهما: تحريف الكلم عن مواضعه حيث أخرج عن معناه المراد به.

الثاني: التقول على الله بلا علم حيث زعم أن الله أراد هذا المعنى مع مخالفته للسياق وقد حرم الله على عباده أن يقولوا عليه ما لا يعلمون. بقي أن يقال: إذا صح ما ذكر من إنزال المركبة الفضائية على سطح القمر فهل بالإمكان إنزال إنسان على سطحه؟ .

فالجواب: أن ظاهر القرآن عدم إمكان ذلك وأن بني آدم لا يحيون إلاّ في الأرض يقول الله تعالى: {فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} . فحصر الحياة في الأرض والموت فيها والإخراج منها، وطريق الحصر فيها تقديم ما حقه التأخير، ونحو هذه الآية قوله تعالى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} . حيث حصر ابتداء الخلق من الأرض، وأنها هي التي نعاد فيها بعد الموت ونخرج منها يوم القيامة، كما أن هناك آيات تدل على أن الأرض محل عيشة الإنسان {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا

مَعَايِشَ﴾ . فظاهر القرآن بلا شك يدل على أن لا حياة للإنسان إلا في هذه الأرض التي منها خلق، وإليها يعاد، ومنها يخرج، فالواجب أن نأخذ بهذا الظاهر وأن لا تبعد أوهامنا في تعظيم صناعة المخلوق إلى حد نخالف به ظاهر القرآن رجما بالغيب، ولو فرض أن أحدا من بني آدم تمكن من النزول على سطح القمر وثبت ذلك ثبوتا قطعيا أمكن حمل الآية على أن المراد بالحياة المذكورة الحياة المستقرة الجماعية كحياة الناس على الأرض، وهذا مستحيل والله أعلم.

وبعد فإن البحث في هذا الموضوع قد يكون من فضول العلم لولا ما دار حوله من البحث والمناقشات حتى بالغ الناس في رده وإنكاره، وغلا بعضهم في قبوله وإثباته، فالأولون جعلوه مخالفا للقرآن، والآخرون جعلوه مؤيدا بالقرآن فأحببت أن أكتب ما حررته هنا على حسب ما فهمته بفهمي القاصر وعلمي المحدود. وأسأل الله أن يجعل ذلك خالصا لوجهه نافعا لعباده والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه أجمعين.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في فتاوى نور على الدرب: التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة هل هي منسوخة بالقرآن؟ وما هو الدليل من القرآن إن وجد؟ والسنة المطهرة؟ وما حكم قراءتها بالنسبة للعالم للاطلاع؟.

فأجاب: الكتب السابقة منسوخة بالقرآن الكريم؛ لقول الله تعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) . فكلمة: (وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) تقتضي أن القرآن الكريم حاكم على جميع الكتب السابقة، وأن السلطة له، فهو ناسخ لجميع ما سبقه من الكتب. وأما قراءة الكتب السابقة: فإن كان للاهتداء بها والاسترشاد فهو حرام ولا يجوز؛ لأن ذلك طعن في القرآن

والسنة، حيث يعتقد هذا المسترشد أنها- أي: الكتب السابقة- أكمل مما في القرآن والسنة، وإن كان للاطلاع عليها ليعرف ما فيها من حق فيرد به على من خالفوا الإسلام فهذا لا بأس به، وقد يكون واجبًا؛ لأن معرفة الداء هي التي يمكن بها تشخيص المرض ومحاولة شفائه، أما من ليس عالمًا ولا يريد أن يطلع ليرد فهذا لا يطالعها. إذًا فأقسام الناس فيها ثلاثة: من طالعها للاسترشاد بها فهذا حرام ولا يجوز؛ لأنه طعن في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ومن طالعها ليعرف ما فيها من حق فيرد به على من تمسكوا بها وتركوا الإسلام فهذا جائز، بل قد يكون واجبًا، ومن طالعها لمجرد المطالعة فقط، لا ليهتدي بها ولا ليرد بها، فهذا جائز، لكن الأولى التباعد عن ذلك؛ لئلا يخادعه الشيطان بها.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: ماحكم قراءة الكتب السماوية مع علمنا بتحريفها؟.

فأجاب: أولًا يجب أن نعلم أنه ليس هناك كتابٌ سماوي يتعبد لله بقراءته، وليس هناك كتابٌ سماوي يتعبد الإنسان لله تعالى بما شرع فيه، إلا كتابًا واحدًا وهو القرآن، ولا يحل لأحد أن يطالع في كتب الإنجيل ولا في كتب التوراة، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رأى مع عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صحيفة من التوراة، فغضب وقال: (أفي شكٍ أنت يا ابن الخطاب) ؟ والحديث وإن كان في صحته نظر لكن صحيح أنه لا اهتداء إلا بالقرآن. ثم هذه الكتب التي بأيدي النصارى الآن أو بأيدي اليهود هل هي المنزلة من السماء؟ إنهم قد حرفوا وبدلوا وغيروا، فلا يوثق أن ما في أيديهم هي الكتب التي نزلها الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم إن جميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن، فلا حاجة لها إطلاقًا. نعم لو فرض أن هناك طالب علم ذا غيرةٍ في دينه وبصيرةٍ في علمه طالع كتب اليهود

والنصارى من أجل أن يرد عليهم منها فهذا لا بأس أن يطالعها لهذه المصلحة، وأما عامة الناس فلا، وأرى من الواجب على كل من رأى من هذه الكتب شيئًا أن يحرقه، النصارى عليهم لعنة الله إلى يوم القيامة صاروا يبثون في الناس الآن ما يدعونه إنجيلًا على شكل المصحف تمامًا، مشكل على وجهٍ صحيح، وفيه فواصل كفواصل السور، والذي لا يعرف المصحف- كرجلٍ مسلم ولكنه لا يقرأ- إذا رأى هذا ظن أنه القرآن، كل هذا من خبثهم ودسهم على الإسلام، فإذا رأيت أخي المسلم مثل هذا فبادر بإحراقه يكن لك أجر؛ لأن هذا من باب الدفاع عن الإسلام.

وسئل رَحِمَهُ اللهُ كما في المصدر السابق: نحن نعلم بأن القرآن الكريم نزل مفرقًا، وورد بالقرآن أنه نزل في ليلة القدر، هل معنى ذلك بأنه نزل في كل سنة من ليلة القدر؟ نرجو بهذا إفادة يا فضيلة الشيخ؟.

فأجاب: إنه لا يخفى علينا جميعًا أن القرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لقوله تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) أي: حتى يسمع القرآن. وليس المعنى أن هذا المستجير يسمع كلام الله نفسه من الله، بل إنما يسمع القرآن الذي هو كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن هذا القرآن نزل من عند الله تعالى، كما قال الله تعالى: (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) . وكما قال تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) فالقرآن نزل من عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ونزوله كان مفرقًا، كما قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) . وقال تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) . ولنزوله مفرقًا فوائد كثيرة، ذكرها أهل العلم في التفسير في أصول التفسير. فأما

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ . فقد اختلف المفسرون فيها، فقال بعضهم: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، فيكون القرآن أول ما نزل في ليلة القدر، ثم نزل متتابعًا حسب ما تقتضيه حكمة الله ﷻ. وقال بعض العلماء: إنه نزل إلى بيت العزة جميعًا في ليلة القدر، ثم نزل إلى النبي ﷺ مفرقًا بعد ذلك. لكن الأول أقرب إلى الصواب؛ لأن قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ يقتضي إنزاله إلى منتهى إنزاله، وهو قلب النبي ﷺ، ومعلوم أنه لم ينزل على قلب النبي ﷺ جميعًا في ليلة واحدة، بل نزل مفرقًا، فيكون المعنى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، ثم صار ينزل مفرقًا حسب ما تقتضيه حكمة الله تبارك وتعالى.

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في المصدر السابق: هل نزول القرآن باللغة العربية يجعل الأعجميين لديهم عذر أو حجة لأن القرآن ليس بلغتهم؟.

فأجاب: ليس للأعجميين حجة أو عذر لكون القرآن ليس بلغتهم، بل عليهم أن يتعلموا لغة القرآن؛ لأنه إذا توقف فهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على تعلم العربية كان تعلم العربية واجبًا، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولهذا كان من أئمة اللغة العربية قوم من العجم من فارس وغيرها، وصاروا أئمة في العربية لأنهم عرفوا قدر تعلم اللغة العربية، فتعلموها فصاروا أئمة فيها. وأما تعصب بعض الناس للغتهم، وعدم تحولهم إلى اللغة العربية مع قدرتهم على ذلك، فهذا من حمية الجاهلية، والقرآن ولله الحمد الآن انتشر بين العالم، وترجم معناه إلى لغات متعددة، لغات عالمية حية، ولغات في مناطق معينة، فلا حجة لأحد اليوم في قوله: إن لساني ليس عربيًّا فلا أفهم القرآن.

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ كما في الكنز الثمين في سؤالات ابن سنيد لابن عثيمين (ص١٢):

السؤال (٣٠): ما حكم قولهم: «وامعتصماه!»؟

الجواب: لا تجوز الاستغاثة بميت ولا غائب.

السؤال (٣١) يقال إن أسماء الله الـ[٩٩] موجودة في الكفين حيث إن أحد الكفين موجود فيه[٨١] والآخر [١٨] فهل هذا صحيح؟

الجواب: ليس بصحيح، فأنا مثلا ليس في يدي خطوط ولا يمكن التقول على الله بغير علم؟

السؤال (٣٢): ما حكم عبارة يقولها ابن القيم: «سقط من عين الله»؟

الجواب: يكثر ابن القيم منها وهي لا تنبغي.

السؤال (٣٣): ما حكم قولنا لشخص: إنه «أهل الثناء»؟

الجواب: لا باس بذلك.

السؤال (٣٤): عبارة يقولها بعض الناس، وهي قولهم «ما له رب»؟

الجواب: لا تجوز هذه العبارة.

السؤال (٣٥): يقول ابن القيم في «إعلام الموقعين» في حق الصحابة الذين صلوا العصر في بني قريظة: إنهم سلف أهل الظاهر. فهل في هذه العبارة شيء؟

الجواب: لا ليس فيها شيء؛ لأنهم أخذوا بالظاهر.

السؤال (٣٦): ما حكم قول بعضهم: «يا إلهي أنت جاهي...»؟

الجواب: لا يجوز هذا القول؛ لأن معناه: أنت شفيعي. شفيعك عند من؟!.

السؤال (٣٧): إذا سئل إنسان عما يحفظ من المتون، فهل له أن يقول: «أحفظ القرآن»؟

الجواب: لا ينبغي ذلك.

السؤال (٣٨): ما حكم قول العامة: عزيز، دحيم؟

الجواب: لا بأس بذلك؛ لأن التصغير واقع على الاسم.

السؤال (٣٩): ما حكم التسمية ب (جار الله، رفيق الله)؟

الجواب: أما جار الله فلا بأس به؛ لأن المعنى في جوار الله أي: دار كرامته أو المعنى: أجاره الله، وأما رفيق الله ففيه نظر.

السؤال (٤٠): هل التوراة كلام الله؟

الجواب: المعروف عند العلماء أنها كلام الله ولكني لم أجد التصريح بذلك في شيء من النصوص. فقلت له: أليس إذا كتب طلاق امرأته، فإنها تطلق بذلك فقال: نعم، لكن لا يسمى متكلمًا، وإنما نقول: الكتابة تقوم مقام الكلام وليس كلامًا.

السؤال (٤١): قول مالك: إن الإيمان يزيد ولا ينقص، هل هو تأدبا مع النصوص أو عقيدة يعتقدها رَحِمَهُ اللَّهُ؟

الجواب: لا أدري لكن لا شك أنه من لازم الزيادة النقص.

السؤال (٤٢): مقالة شيخ الإسلام في المأمون: «لا أظن الله يغفل المأمون» هل هي من التألي؟ وأين قال الشيخ هذه المقالة؟

الجواب: ليست من التألي؛ لأنه ما جزم، ولا يخفى ما أدخل المأمون على الأمة. ونقل هذه المقالة عن الشيخ السفاريني في شرحه، ولا أذكر أنها مرت علي في كتب الشيخ.

السؤال (٤٣): وسألته مرة أخرى عن مقالة شيخ الإسلام؟

الجواب: قال: ليس فيها شيء وليست من التألي، ثم إن الشيخ لم يجزم، بل

قال: ما أظن. فقلت له: قال السفاريني في لوامع الأنوار (١/ ٩): قال الصلاح الصفدي: حدثني من أثق به أن شيخ الإسلام كان يقول، فذكره. فقال: هذا على قاعدة المحدثين ضعيف. فقلت: إذن نرده ونرتاح فقال: أبدًا ما فيه شيء وإن صحت عن شيخ الإسلام. اهـ هذا معنى كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

السؤال (٤٤): حكم قول بعضهم لم يكن التاريخ حاكمًا عادلًا؟

الجواب: هذا حرام؛ لأنه من سبِّ الدهر.

السؤال (٤٥): وسألت الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عن قول بعضهم في مالك: «فمن قاسه بالشمس يبخسه حقه»؟

الجواب: فقال: هذا مما يتساهل فيه وقد جرت العادة على قول مثل ذلك.

السؤال (٤٦): يقول الناس: هلك فلان أو فلان الهالك على جهة الذم فهل هذا صحيح؟

الجواب: لا ليس بصحيح.

السؤال (٤٧): وسألته عن قول السفاريني في كتابه لوامع الأنوار البهية (١/ ١): «تنزهت عن سمات الحدوث صفاته»؟

الجواب: فقال: فيها نظر؛ لأن صفات الله الفعلية تحدث، وأما صفاته الذاتية فنعم ليست حادثة.

السؤال (٤٨): ما حكم السؤال بجاه الله؟

الجواب: منكر إلا إن أراد به الوجه، ولكن هذا بعيد فعندي أن هذا منكر.

السؤال (٤٩): ما حكم قول بعضهم: السيدة عائشة؟

الجواب: تركه أولى، ويقال ما كان الصحابة يقولون «أم المؤمنين». وهذه أتتنا من الغرب لأنهم يجعلون للمرأة سيادة.

السؤال (٥٠): ما حكم قول العامة: «عز الله»؟

الجواب: مرادهم التأكيد. فقلت له: إن أراد بها الحلف بالعز فقال: على حسب نيته والكفارة مبينة على ذلك .

السؤال (٥١): ما حكم عبارة «الله غني عن التعريف» و «طالما إن الله موجود...»

الجواب: أما العبارة الأولى فأرى أنها صحيحة؛ لأن الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن العالمين عرفوه أو لم يعرفوه، وأما العبارة الثانية فتركها أحسن؛ لأنها توهم العدم، مع أن قائلها لا يريد ذلك، بل يريد أن الله دائم الوجود حي ونحو ذلك.

السؤال (٥٢): وسألته رَحِمَهُ اللَّهُ عن قول السفاريني في كتابه «غذاء الألباب» (١/ ٤٢٦): يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي ... إني أتيت بلا علم ولا عمل؟

الجواب: استنكر رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك جدًا استغرب صدوره من السفاريني وقال لعله نقله عن غيره فقلت: بل صدرت منه فقال: هذا شرك في الربوبية والألوهية.

السؤال (٥٣): ما حكم قول العامة لمن قدم له قريب: «قرت عينك» ورده عليهم: «برؤية نبيك»؟

الجواب: ما فيه شيء.

السؤال (٥٤): وقع في كتيب صغير باسم «أقسام التوحيد»] وهو عبارة عن سؤال موجه للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في نور على الدرب [: الشرك الصغير والكبير، فهل هذا من تعبيركم؟

الجواب: فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: لا، ما سبق أن عبَّرت بهذا التعبير.

السؤال (٥٥): سُئلتم عما يقرأ الإمام على جماعته من الكتب فذكرتم أنه يجمع بين كتب الأحكام وكتب الوعظ؛ لأن كتب الأحكام جافة، أليس في كلمة

جافة شيء؟

الجواب: فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا، المعنى: أنها خالية من الوعظ. فقلت له رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذًا لماذا لا نقول: خالية؟ فقال: ما فيها شيء.

السؤال (٥٦): ما حكم فك السحر بالسحر؟

الجواب: المذهب يجيزون ذلك عند الضرورة، أما أنا فلا أفتي بجوازه؛ لأنه يفتح الباب ويتوسع الناس في ذلك، أما في حالات خاصة فهذا شيء آخر أستخير الله في ذلك.

السؤال (٥٧): وقع في شرحكم لكتاب التوحيد المطبوع (١/ ٩٤) عند ذكر العين قولكم: يقولون لإبطال العين أن يُصلي على العائن صلاة الجنازة؛ فما صحة ذلك؟

الجواب: هذا لا أصل له وخرافة ونحن تعقبنا ذلك. فقلت له رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس في الكتاب تعقب فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الكتاب بحاجة إلى مراجعة .

السؤال (٥٨): ما الفرق بين دعاء صفة من صفات الله وبين الحلف بالصفة، والحديث الذي فيه: «برحمتك أستغيث»؟

الجواب: شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقل الإجماع على عدم جواز دعاء الصفة لأنه شرك، وأما الحديث: «برحمتك أستغيث»: أي أتوسل بك لأنك ذو رحمة، وأما قوله: يا قوة الله أو يا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهذا ظاهر في إفراد الصفة عن الموصوف وهو الذات.

السؤال (٥٩): هل نقول: إن بعض أسماء الله وصفاته أكمل من بقية الأسماء أم لا؟

الجواب: أما باعتبار دلالتها على الذات فلا نقول ذلك، وأما من حيث المعنى فإن الحي القيوم يجمعان جميع الصفات، ولا نقول أيضًا: إن الصفات

المتعدية أكمل من الصفات اللازمة؛ لأن اسم العلي لازم وهو أكمل من المتعدية.

السؤال (٦٠): يقول شيخ الإسلام في الحموية وهو يتكلم عن صفات الله: بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله بما وصفه السابقون الأولون، فهل السابقون الأولون يستقلون بوصف الله بصفة من الصفات؟

الجواب: مراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنهم لا يصفون إلا بتوقيت، وعبارة الشيخ موهمة لكن هذا مراد الشيخ.

السؤال (٦١): نقل لي بعضهم أنك تنكر قول من يقول إذا قيل له: تفضل مثلًا: لا جزاك الله خيرًا، فهل هذا صحيح؟

الجواب: ليس بصحيح ولم أقل هذا وهو جائز، لكن من جهة البلاغة الأحسن أن يقول «لا، وجزاك الله خيرًا» فيأتي بالواو.

السؤال (٦٢): إذا قال قائل: وكان الفضل الأول لفلان، يعني: بعض مشايخه، فهل هذا جائز؟

الجواب: هذا فيه تفصيل فإن عدّد مشايخه فقال: وكان لشيخي فلان فضل علي وذكر آخرين، ثم قال الأول لفلان، أي: بالنسبة لهؤلاء المشايخ الذين ذكرهم فهذا لا بأس به، وأما إذا قال: وكان الفضل الأول في تعليمي لفلان، ويطلق فهذا لا يجوز.

السؤال (٦٣): إذا كتبت مثلًا فلان العزيز أو الكريم ثم أردت إتلاف هذه الورقة، فهل يلزمني محو (العزيز والكريم): لأنهما من أسماء الله؟

الجواب: لا؛ لأن هذه صارت صفات لمخلوق فلا يلزمك.

السؤال (٦٤): سمعتكم في بعض الدروس تقولون: إن الرسول طب

القلوب والأبدان أليس في العبارة محذور؟

الجواب: لا ما فيها شيء أبدًا.

السؤال (٦٥): من العلماء من يقول: إن أبوي النبي ﷺ وابن جدعان بلغتهم دعوة أبينا إبراهيم عليه السلام فما صحة ذلك؟

الجواب: من قال هذا، والأصل أن الدعوة لم تبلغهم لعموم الآيات مثل قوله تعالى {مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ}، ومن نص عليه أنه في النار فهذا خاص قد أعلم الله نبيه بذلك، ومَن عداهم داخل في قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

السؤال (٦٦): ما حكم قوله «شاءت أقدار الله» و«شاءت حكمة الله» والأخير وقع في كلام ابن القيم في احد كتبه؟

الجواب: كلاهما لا يجوز؛ لأن المشيئة تكون من ذي إرادة. فقلت: هل يجوز الثاني؛ لأنه أسند إلى صفة مثل: أعوذ بعزة الله، وأعوذ بكلمات الله فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا؛ لأن أعوذ بعزة الله توسل بالله في صفة من صفاته فلم يتوسل بشيء بائن عن الله بخلاف قولك: «شاءت حكمة الله» وهل ابن القيم قال: إن هذا جائز لهذه العلة أو إنه عبر بها فقط. فقلت له: بل عبر بها فقط فقال: إذًا هو سّبْق قلم.

السؤال (٦٧): ما حم قول العامة: بصلاة أمك وأبوك؟

الجواب: ما فيها شيء؛ لأنهم أرادوا التأكيد.

السؤال (٦٨): ما حكم ما يفعله بعض الناس من ذبح ديك ومسح عتبة الباب بدمه، وكذا وضع ملح بدعوى منع الجن؟

الجواب: هذا من الشرك الأصغر؛ لأنه إثبات سبب لم يجعله الله سببًا.

السؤال (٦٩): هل تثبت صفة الشم لله؟

الجواب: فقال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ باللهجة العامية: «وش عليك منه» هذا من التنطع والصحابة لم يسألوا الرسول ﷺ عن هذا لما قال لهم «الخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» .

السؤال (٧٠): ما حكم قولهم: «سبحان اللي (الذي) يغير ولا يتغير»؟

الجواب: ما فيها شيء وليس مرادهم انتفاء الحوادث وإنما يقولونها عند المرض ونحوه.

السؤال (٧١): ما حكم قولنا في الرسول ﷺ: «طب القلوب والأبدان»؟

الجواب: فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جائز أليس قد قال: «الحبة السوداء شفاءٌ من كل داء»، وقال: «الكمأة من المن وهي شفاء للعين» .

السؤال (٧٢): ما حكم قول القائل " لكم خالص حبي " أو خالص شكري"؟

الجواب: فقال: لا مانع منه ومراده بذلك ما يستحق المخلوق وليس هو من الشرك الأصغر.

السؤال (٧٣): سألته هل يمكن للكافر أن يخلص في عبادته؟

الجواب: فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نعم ممكن ذلك لأن العلماء قالوا: إن شرط قبول العبادة الإخلاص والمتابعة فيمكن أن يفقد أحدهما فالنصارى مثلًا يخلصون في عبادتهم.

السؤال (٧٤): سألت شيخنا ابن عثيمين عن حكم قول: "ظلم ربَّه"؟

الجواب: فقال: لا يجوز لأن الله عَزَّوَجَلَّ نفى ذلك فقال: وما ظلمونا .. " ولكن يقول: ظلم في حق الله

* * *

الفهرس

* * *